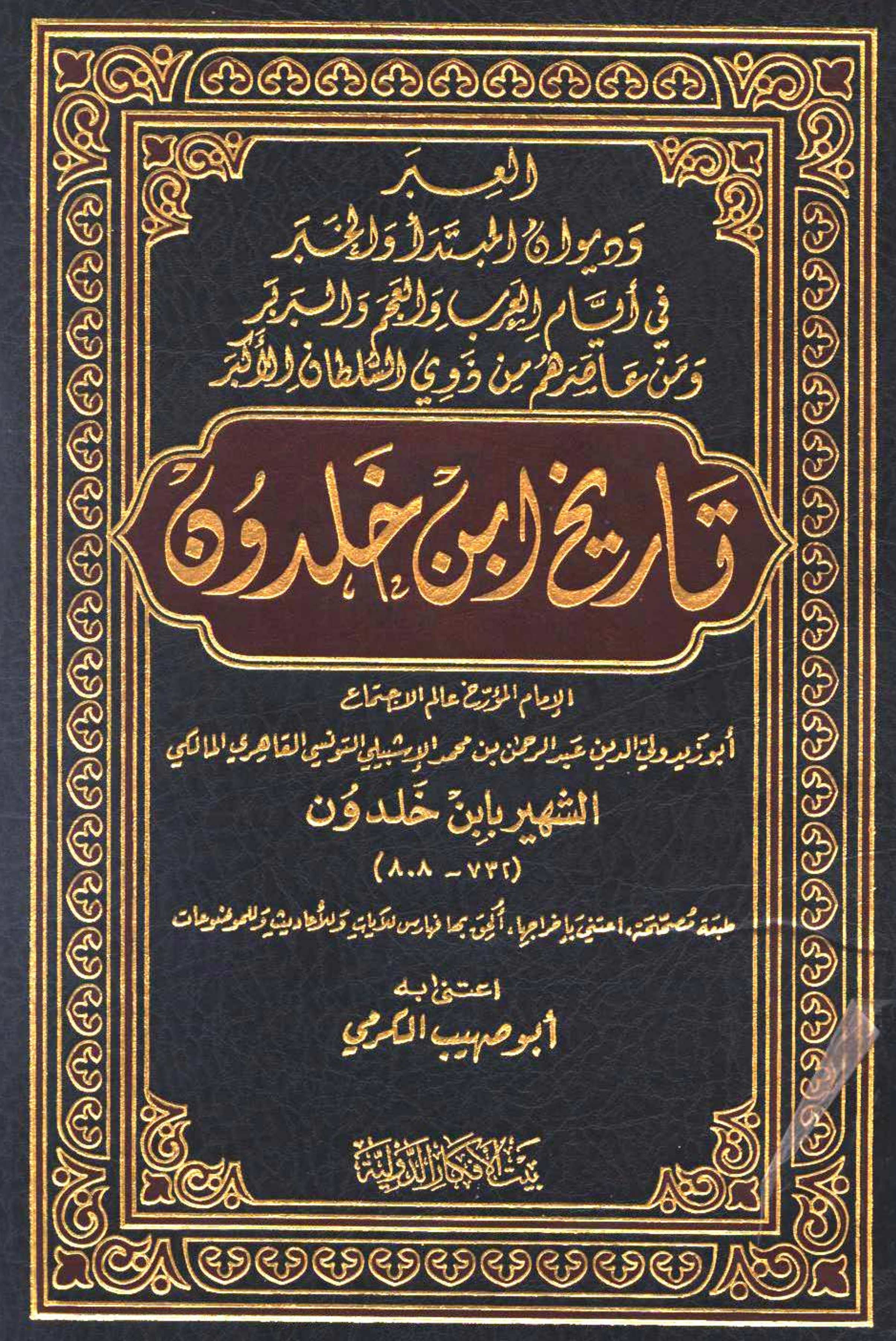
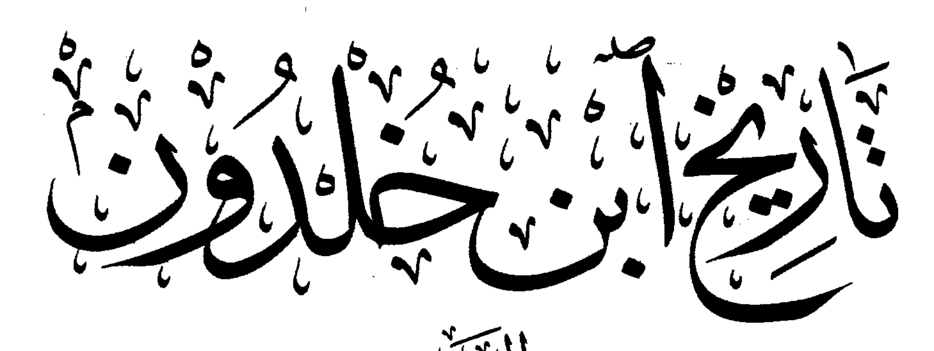

العبر
وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر
تاريخ ابن خلدون
الإمام المؤرخ عالم الاجتماع
أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي التونسي القاهري المالكي
الشهير بابن خلدون
(٧٣٢ - ٨٠٨)
طبعة مصححة، اعتني بإخراجها، ألحق بها فهارس للآيات وللأحاديث وللموضوعات
اعتنى به
أبو صهيب الكرمي
بيت الأفكار الدولية



العبر
وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

الإمام المؤرخ عالم الاجتماع أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي التونسي القاهري المالكي
الشهير بابن خلدون

(732 - 808) هـ

طبعة مصححة، اعتني بإخراجها، ألحق بها فهارس للآيات وللأحاديث وللموضوعات.

اعتنى به

أبو صهيب الكرمي

بيت الأفكار الدولية



الأردن

هاتف 0201 566 6 962+
فاكس 0209 566 6 962+
ص.ب 927435 عمان 11190 الأردن

السعودية

هاتف 2555 404 1 966+
فاكس 4238 403 1 966+
ص.ب 220705 الرياض 11311 السعودية

المؤتمن للتوزيع

هاتف 2555 404 1 966+ / 6688 464 1 966+
فاكس 4238 403 1 966+ / 2919 464 1 966+
ص.ب 69786 الرياض 11557 السعودية

نداء	19416414
مستودع	2435421 / 2435423
مكة المكرمة	02 5742532
المدينة المنورة	04 8344355
القصيم	06 3260350
جدة	02 6873547
الدمام	03 8264282
أبها	07 2296615

www.afkar.ws
e-mail:ideashome@afkar.ws

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة

إن الحمد لله نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، مَنْ يهدهِ اللّه فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضلِلْ فلا هاديَ له.

وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللّه وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهَدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّه حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّه الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّه كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُوا اللّه وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾.

أمَّا بعدُ:

فهذا كتابٌ قد ينقسمُ إلى ثلاثة أقسامٍ، يُعَدُّ كُلٌّ منها كتاباً منفرداً لوفُصِلَت، هي: المقدمةُ، وكتابُ التاريخ، وترجمةُ المؤلفِ.

أمَّا المقدمةُ فلم يقدم أحدٌ على مثالِها ومنوالها، وكانَ السابقَ إلى فكرتها وموضوعاتِها، حتى عُدَّ كتاباً أساساً في بابِهِ، بل كُلُّ مَنْ جاءَ بعدَه عالةٌ عليه فيه.

قال المقريزي في وصفِ تاريخ ابن خلدون: مقدمته لم يُعمل مثالُها، وإنَّه لعزيزٌ أن ينالَ مجتهدٌ منالها، إذْ هي زبدةُ المعارف والعلوم، ونتيجةُ العقول السليمةِ والفهومِ، تُوَقِّفُ على كُنْهِ الأشياء، وتُعَرِّفُ حقيقةَ الحوادثِ والأنباءِ، وتُعَبِّرُ عن حالِ الوجود، وتنبئ عن أصل كُلِّ موجودٍ بلفظٍ أبهى من الدرِّ العظيمِ، وألطف من الماء مرَّ به النسيمُ.

وقالَ غيره: حَوَت مقدمتُه جميعَ العلومِ، وجَلَّت عن مَحَجَّتِها ألسنةُ الفُصحاء، فلا تروحُ ولا تحومُ، ولعمري إنْ هو إلاَّ من المصنَّفات التي سارت ألقابُها بخلافِ مضمونها كالأغاني للأصبهاني، سمّاه الأغاني، وفيه من كُلِّ شيءٍ، والتاريخ للخطيب سمّاه تاريخ بغداد، وهو تاريخ العالم، وحلية الأولياء لأبي نُعيم، سمّاه حلية الأولياء وفيه أشياءُ جَمَّةٌ كثيرةٌ.

وقد ظهرت دراساتٌ كثيرةٌ في إظهار عبقرية العلامة ابن خلدون في مقدمته، ذاك أنه أنشأ علم الاجتماع والعمران، ونَظَّرَ فيه، وأبانَ عن إحاطتِه في علومٍ كثيرةٍ، ويظهرُ عن عَرْضِه وأسلوبِه والأجزاء التي اختصَّها بالذكر مَدَى ما وَصَلَ إليه المؤلف من المعارف. ومهما قيلَ في مثل هذه المقدمة فالقلمُ يعجزُ عن الوصفِ، لا سيَّما أنَّه المبتدئ ولم يكن مقلداً لغيره فيما كتب إلاّ في أجزاء يسيرة لا تُذكر من المقدمة. لذا يُعَدُّ كتابُه في بابِه كالكتاب لسيبويه، والقانون لابن سينا.

وأمَّا كتابُه في التاريخ فيستفادُ منه جداً في تاريخ المغرب والبربر، لا سيَّما الفترة المتأخرة منها التي تعتمدُ عليه في النظر والتحليل والمشاهدةِ، وبقيةُ كتابه فيما يتعلق بالحديث عن أهلِ المشرقِ فليسَ فيه ذاك العُمْقُ، ولا ذاك التحليل التاريخي، بل هو كغيره ناقلٌ لتلك المعلومات، وقد خلا كتابُه من العزو إلى المصادر التي نقل منها أثناء حديثه عنهم إلاّ قليلاً، وكانَ حديثُه أقربَ إلى السردِ، ولم يَبِنْ فيه عمقٌ في النقد أو النقضِ.

وقد ذكر ابنُ حجر في كتابه «الإنباء» ٥/ ٣٣٢ كتابه هذا التاريخ فقال: وصَنّفَ التاريخ الكبير في سبعِ مجلدات ضخمةٍ ظهرت فيه فضائلُه وأبان فيه عن براعتِه، ولم يكن مطلعاً على الأخبار على جليتِها لا سيّما أخبار المشرق، وهو بيِّنٌ لمن نَظَرَ في كلامِه.

واعتمدَ في تاريخه على ما هو مكتوبٌ عند مَنْ قبلَه، ولم يظهر فيه إشاراتُه عن التاريخ وتدوينه الذي ذكره في مقدمته لتاريخِه، إذ التنظيرُ للتاريخ عنده كانَ أقوى بكثير من كتابةِ التاريخ نفسِه.

ولم نجد أحداً إلى الآن في السابقين واللاحقين مَنْ قامَ على خدمةِ التاريخ بأكثر من النقلِ المجرَّد والانتقاء وبعض الملاحظات التي قد يوردُها المؤرِّخ بين الحين والآخر إذا صَنَّفَ لغير ما شاهد ولغيرِ عصره، وأمرُ التحقيق للتاريخ يَطُولُ ويحتاجُ وقتاً وهمَّةً نسألُ الله تعالى أن نقومَ به، أو ينتقل التفكير به إلى العملِ.

وتاريخ القرون الثلاثة الأولى منقولٌ من تاريخ الطبري غالباً، وعليه العمدةُ عند ابن خلدون وابن الأثير وآخرين من الذين كتبوا في التاريخ. وقد سبق أن أشرنا في تاريخ الطبري (طبعتنا) ما فيه من أشياء لا تستقيم، فيستحسنُ أن تُنظر هناك.

وأمَّا التعريف بابن خلدون، وهي الترجمةُ الذاتية، فهي مُلحقة بهذا التاريخ، وطُبعت مفردةً أيضاً، وهو من القلائل القدماء الذين ترجموا لأنفسِهم، ولم تكن تراجمُ غيره كترجمتِه. وقد قَدَّمَ ابن خلدون في ترجمته كثيراً من الوثائق التاريخية في عصرِه وبعضاً من رسائل أصدقائه وخطبه ورسائله وأشعاره، ووصفاً للحالة الاجتماعية السائدة في عصره وبعضاً من تراجم أهلِ عصرِه... إلى غير ذلك مما يُكسبُه أهميَّةً كبيرةً وسبقاً في صورةِ هذه الترجمةِ الذاتية بهذا الأسلوب.

وأمَّا تاريخ تأليف هذا الكتاب بأقسامه التي عرضناها في صورتها الأوليةِ فقد كان في سنة (٧٧٦) لَمَّا قَصَدَ تلمسان حيثُ كانَ أخوه يحيى في خدمة أميرها أبي حَمُّو، ثم طَلَبَ الأمير أبو حمُّو من ابن خلدون أن يُسافر لدعوةِ بعض القبائل، فلم يملك الرفضَ، وكان ميَّالاً أن يعتزلَ السياسةَ، ويَخلوَ للكتابةِ والتأليفِ، إلاَّ أنَّه تظاهرَ بقبول السفارة للأمير أبي حمُّو، فخرجَ من تلمسان إلى البطحاءِ إلى منداس، فأحسنوا إكرامَه وأقامَ عندهم، وبعثوا اعتذاراً للأمير لعدم قيام ابن خلدون بالسفارة. فبقي ابن خلدون نحو أربعة أعوامٍ، نَعِمَ فيها بكتابةِ كتابه «العبر» في صورته الأولى، وأخذت المقدمةُ منه وقتاً نحو خمسة أشهر في كتابتها قبلَ التنقيح والزيادة.. وكانَ ذلك كله في قلعةِ ابن سلامة. وعملَ التاريخ، فاستغرق ذلك ما بين سنتي (٧٧٦- ٧٨٠).

ولم يكن ابن خلدون يعزم أن يؤرِّخ تاريخاً عامّاً، بل تخصَّص بتاريخ المغرب ابتداءً، وقد صَرَّح بذلك في مقدمته لتاريخه فقال: «وأنا ذاكرٌ في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إمّا تصريحاً وإمَّا مندرجاً في أخباره وتلويحاً، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالِكه ودُوله دونَ ما سواه من الأخبار، لعدم اطلاعي على أحوال الشرقِ وأممه، وأنَّ الأخبار المتناقلة لا تُوفي كُنْهَ ما أُريدُه منه.

إلاّ أنه لم يلتزم ذلك، فأورَدَ كثيراً من أخبار المشرقِ، ولم تَعْدُ النقلَ، ولم يكن على اطلاعٍ بها، وهذا

مما انتُقد عليه في تاريخه، وأُثنيَ على سائرِ ما كتبَ في المقدمة وتاريخ المغرب، بل كانَ مصدراً مُهماً في ذلك.

ثم ارتحلَ ابن خلدون إلى تونس، فعادَ إلى كتابه مراجعاً ومنقحاً ومهذباً بوجود الكتب الضرورية في إتمام كتابه وتوثيق بعض المعلومات التي كتب من الذاكرةِ على الظنِّ. وقد استغرق هذا أيضاً منه سنين أربعة وذلك ما بين (٧٨٠- ٧٨٤) .

هذا الكتاب الحافلُ نتركه بين يدي القارئ ماتعاً به، مخدوماً مراجعاً مقدماً له مفهرساً، من باب تقريب المكتبة التاريخية، منتظرين أن نَضمَّ إليه أمهات كتب التاريخ الأخرى، وا لله نسألُ أن نكونَ وُفقنا في اختيارنا هذا، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

أبو صُهَيب الكرمي

ترجمة المصنف

١- هو العلاَّمةُ أبو زيد وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم الحضرمي، من ولد وائل بن حجر، الإشبيلي الأصل، التونسيُّ، القاهري المالكيُّ، المعروف بابن خلدون.

٢- وُلد في أول رمضان سنةَ اثنتين وثلاثين وسبع مئة بتونس.

٣- حفظ القرآنَ، والشاطبيتين، ومختصر ابن الحاجب الفرعي، والتسهيل في النحو، والمعلَّقاتِ، وحماسة الأعلم، وشعر حبيب بن أوس، وقطعة من شعر المتنبي، وسقط الزند للمعري، وغيرها. وقرأ الكتب الكثيرةَ على مشايخ عصرِه، وقرأ القراءات السبع، وسمعَ الحديثَ وتفقَّهَ، واعتنى بالأدب وأمور الكتابةِ والخطِّ، وأخذَ ذلك عن أبيه وغيره كأبي سعيد البراذعي، والواديآشي، وأبي البركات البُلقيني، والحصائري، وابن بحر، وابن الشواس الزواوي، وابن القصَّار، والعلاء الإشبيلي، وعبد المهيمن الحضرمي، ومحمد بن إبراهيم الآبلي...

٤- تعلَّقَ ابنُ خلدون بالخدم السلطانية، وولي كتابةَ العلامة عن صاحب تونس. ثم توجهَ في سنة (٧٥٣) إلى فاس، فوقعَ بين يدي سلطانها أبي عنان، ثم امتحن واعتُقل نحو عامين، ثم ولي كتابةَ السرِّ لأبي سالم أخي أبي عنان، وكذا النظر في المظالم، ثم دَخَلَ الأندلسَ، فقدم غرناطة في أوئل ربيع الأول سنة (٧٦٤)، وتلقاه سلطانُها ابنُ الأحمرِ عند قدومِه، ونَظَّمه في أهلِ مجلسِه، وكانَ رسولَهُ إلى عظيم الفرنج بإشبيلية، فعظمه وأكرمه وحمله وقام بالأمرِ الذي ندب إليه، ثم نَزَحَ إلى تلمسان باستدعاء صاحبها، وأقامَ بوادي العرب مدةً، ثم توجَّهَ من بسكرة إلى فاس، فنهب في الطريق، وماتَ صاحبُها قبلَ قدومِه، ومع ذلك فأقامَ بها قدر سنتين، ثم توجَّهَ إلى الأندلس، ثم رجع إلى تلمسان فأقامَ بها أربعةَ أعوام. ثم ارتحلَ في رجب سنة (٧٨٠) إلى تونس، فأقامَ بها من شعبانها إلى أن استأذنَ في الحجِّ، فأذن له، فاجتاز البحرَ إلى الإسكندريةِ، ثم قَدِمَ الديار المصريةَ في ذي القعدة سنةَ (٧٨٤)، فحجَّ، ثم عادَ إليها وتلقاه أهلُها وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردُّدَ إليه، بل تصدَّرَ للإقراءِ بجامعِ الأزهرِ مدةً ولازمَ هو الطنبغا الجوبابي، فاعتنى به إلى أن قرَّره الظاهر برقوق في تدريس القمحية بمصر، ثم قضاء المالكية بالديار المصرية في جُمادى الآخرة سنة (٧٨٦) فتنكر للناس بحيث لم يقم لأحدٍ من القضاةِ لما دخلوا للسلام عليه، مَعَ اعتذارِه لمن عتبه عليه في الجملةِ، وفتكَ في كثيرٍ من أعيان الموقعين والشهود وصارَ يُعَزِّرُ بالصفعِ ويسميه الزجّ، فإذا غضبَ على إنسانٍ قال: زجُّوه، فيُصفعُ حتى تحمرَّ رقبتُه. ويُقالُ: إنَّ أهلَ المغرب لَمَّا بلغهم ولايتُه القضاءَ تعجَّبوا ونسبوا المصريين إلى قلةِ المعرفة، بحيثُ قال ابنُ عَرَفَةَ: كُنَّا نَعُدُّ خطةَ القضاء أعظمَ المناصب فلَمَّا وليها هذا عددناها بالضدِّ من ذلك، وَعُزِلَ ثم أُعيدَ وتكرَّرَ له ذلك حتى ماتَ قاضياً فجاةً في يوم الأربعاء، لأربعٍ بقين من رمضان سنة (٨٠٨) عن ست وسبعين سنة، ودُفِنَ بمقابر الصوفية خارج باب النصر.

٥- لازمَه كثيرون في بعض عزلاتِه فحسَّنَ خُلُقَه معهم وباسطهم ومازحَهم، وتردَّد هو للأكابر، وتواضعَ معَهم، ومعَ ذلك لم يُغَيِّرْ زِيَّهُ المغربيَّ، ولم يلبس زيَّ قضاة هذه البلاد، قيل: لمحبته المخالفةَ في كُلِّ شيءٍ.

٦- واستكثَرَ في بعض مرَّاته من النواب والعقاد والشهودِ عكس ماكانَ منه في أول ولاياته، وكانَ ذلك أحدَ ما شنعَ عليه به.

٧- وطُلِبَ بعد انفصالِه في الحرم سنةَ (٨٠٣) إلى الحاجب الكبير، فأقامه للخصومِ وأساءَ عليه القول، وادعوا عليه بأمورٍ كثيرةٍ، أكثرها لا حقيقةَ له، وحَصَلَ عليه من الإهانةِ مالا مزيدَ عليه.

٨- ويُذكر أنَّه في بعض ولاياته تبسَّطَ بالسكنِ على البحرِ، وأكثر من سماعِ المطرباتِ ومعاشرةِ الأحداثِ، وتزوَّجَ امرأةً لها أخٌ أمرَدُ يُنْسَبُ للتخليطِ، فكثرت الشناعةُ عليه. قال: وكان مع ذلك أكثَرَ من الازدراءِ بالناس.

٩- قال البشبيشي: كانَ فصيحاً مفوَّهاً، جميلَ الصورةِ حسن العشرةِ إذا كان معزولاً فأمَّا إذا وَلِيَ فلا يُعاشَرُ، بل ينبغي أن لا يُرى.

١٠- وقال ابنُ الخطيب: رجلٌ فاضلٌ جمُّ الفضائلِ، رفيعُ القدر، أصيلُ المجدِ، وقورُ المجلس، عالي الهمةِ، قويُّ الجأش، متقدم في فنون عقلية ونقلية متعدد المزايا، شديد البحث، كثير الحفظ، صحيحُ التصور، بارع الخط، حسن المعاشرةِ، مفخرٌ من مفاخر العربِ.

١١- وسُئِلَ عنه الركراكي فقال: عَرِيَ عن العلوم الشرعية، له معرفة بالعلوم العقلية من غير تقدم فيها، ولكن محاضرتُه إليها المنتهى، وهي أمتعُ من محاضرةِ الشمس الغماري.

١٢- وتكلَّم فيه آخرون وغضوا منه، كابن حجر، وأبي الحسن الهيثمي، ومدحَه وأطرى عليه كثيراً المقريزي وغيرُه.

١٣- وله من المؤلفات غير الإنشاءات النثرية والشعرية التي هي كالسحر: التاريخُ العظيمُ المترجَمُ بالعبر في تاريخ الملوك والأمم والبربر. حوت مقدمتُه جميعَ العلوم، وجلت عن مَحَجَّتِها ألسنةُ الفُصحاء، فلا تروحُ ولا تحومُ.

١٤- انظر ترجمته في:

التعريف (ترجمة المؤلف لنفسه)، الضوء اللامع للسخاوي ٤/ ١٤٥-١٤٩، وجيزُ الكلام للسخاوي ١/ ٣٨٥، إنباء الغمر ٥/ ٣٢٧- ٣٣٢، البدر الطالع للشوكاني ١/ ٣٣٧- ٣٣٩.



فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها

اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم. والأنبياء في سيرهم. والملوك في دولهم وسياستهم. حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق.

وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد.

وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون.

ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة.

ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد، فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر. والحاضر يشهد لذلك، فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء.

ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس. يقال: إنه كان مرزبان المغرب من تخومها. وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والأبواب أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير. ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه. وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرين ألفاً كلهم متبوع على ما نقله سيف، قال: وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف.

وعن عائشة والزهري: أن جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفاً كلهم متبوع.

وأيضاً فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لاتّسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم، فإن العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك من الكتاب الأول. والقوم لم تتسع ممالكهم إلى غير الأردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف.

وأيضاً فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو في أربعة آباء على ما ذكره المحققون فإنه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهت - بفتح الهاء وكسرها - ابن لاوي - بكسر الواو وفتحها - ابن يعقوب وهو إسرائيل اللّه هكذا نسبه في التوراة.

والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال: دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة. ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد. وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضاً إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً.

فإنه سليمان بن داود بن إيشا بن عوفيذ (ويقال ابن عوفذ) بن باعز (ويقال بوعز) بن سلمون بن نحشون بن عمّينوذَب (ويقال حميناذاب) بن رم بن حصرون (ويقال حسرون) بن بارس (ويقال بيرس) بن يهوذا بن يعقوب.

ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه اللّهم إلى المئين والآلاف فربما يكون، وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد. واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم

كاذباً.

والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة وأن مقرباته كانت ألفاً وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه. هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يُلتفت إلى خرافات العامة منهم. وفي أيام سليمان عليه السلام وملكه كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم.

هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الإغراب.

فإذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونه. وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطإ ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش، فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزواً ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة خاسرة.

ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب، وأن أفريقش بن قيس بن صيفي من أعاظم ملوكهم الأول وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل. غزا إفريقية وأثخن في البربر وأنه الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال: ما هذه البربرة، فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ، وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حِمْيَر فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ومن هذا ذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبيلي إلى أن صنهاجة وكُتامة من حمير وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح.

وذكر المسعودي أيضاً أن ذا الإذعار من ملوكهم قبل إفريقش وكان على عهد سليمان عليه السلام غزا المغرب ودوّخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده، وإنه بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكاً لكثرة الرمل فرجع. وكذلك يقولون في تُبَّعَ الآخر وهو أسعد أبو كرب وكان على عهد يَسْتاسِفَ من ملوك الفرس الكيانية أنه ملك الموصل وأذربيجان ولقي الترك فهزمهم وأثخن، ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك، وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس وإلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر وإلى بلاد الروم، فملك الأول البلاد إلى سمرقند وقطع المفازة إلى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها فأثخنا في بلاد الصين ورجعا جميعاً بالغنائم وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها إلى هذا العهد وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها ودوّخ بلاد الروم ورجع.

وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة. وذلك أن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن. وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها: فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من المشرق وبحر السويس الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصوَّر الجغرافيا. فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقاً من غير السويس. والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما. ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله؛ هذا ممتنع في العادة. وقد كان بتلك الأعمال العمالقة وكنعان بالشام والقبط بمصر ثم ملك العمالقة مصر، وملك بنو إسرائيل الشام، ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال.

وأيضاً فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة، فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه ولا يكفي ذلك للأزودة وللعلوفة عادة، وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله فلا بد وأن يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوّخوها لتكون الميرة منها. وإن قلنا إن تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالْمُسالَمَة فذلك أبعد وأشد امتناعاً فدل على أن هذه الأخبار واهية أو موضوعة.

وأما وادي الرمل الذي يعجز السالك فلم يسمع قط في ذكره في المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طرقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة وهو على ما ذكروه من الغرابة تتوفر الدواعي على نقله.

وأما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك وإن كان طريقه

أوسع من مسالك السُّويس إلا أن الشقة هنا أبعد وأمم فارس والروم معترضون فيها دون الترك. ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وإنما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الأعمال وقد وقع ذلك بين ذي الإذعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية وبين تُبَّع الأصغر أبي كرب ويستاسف منهم أيضاً ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم بمجاوزة أرض فارس بالغزو إلى بلاد الترك والتُّبَّت وهو ممتنع عادة من أجل الأمم المعترضة منهم والحاجة إلى الأزودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر. فالأخبار بذلك واهية مدخولة. وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحاً فيها فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح. وقول ابن إسحاق في خبر يثرب والأوس والخزرج: إن تُبَّعاً الآخر- سار إلى المشرق محمولاً على العراق وبلاد فارس. وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم إليها بوجه لما تقرر. فلا تثقن بما يلقى إليك من ذلك وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه. والله الهادي إلى الصواب.

وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة ﴿وَالْفَجْرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ فيجعلون لفظة إرم اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين. وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنينَّ مثلها فبنى مدينة إرَم في صحارى عدن في مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والأنهار المطَّردة. ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم.

ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال هي: ﴿إرم ذات العماد﴾ وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل.

وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض.

وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن ومازال عمرانها متعاقباً والأدلاء تقص طرقها من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الإخباريين ولا من الأمم. ولو قالوا: إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه. إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة. وبعضهم يقول: إنها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها. وقد ينتهي الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر. مزاعم كلها أشبه بالخرافات.

والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة «ذات العماد» أنها صفة إرم وحملوا «العماد» على الأساطين فتعين أن يكون بناء. ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير (عادُ إرمَ) على الإضافة من غير تنوين. ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة والتي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات. وإلا فـ«العماد» هي عماد الأخبية بل الخيام. وإن أريد بها الأساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها. وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى إضافة الفصيلة إلى القبيلة كما تقول قريشَ كنانة، وإلياسَ مضر وربيعةَ نزار. وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة.

ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وأنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعهما في مجلسه وأن العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها زعموا في حالة سكر فحملت ووشي بذلك للرشيد فاستغضب.

وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده. والعباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي ﷺ، ابنة خليفة أخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملة، ونور الوحي ومهبط الملائكة من

سائر جهاتها، قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش. فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها؟! أو أين توجد الطهارة والزكاء إذا فُقِد من بيتها! أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش! وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف! وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه؟! ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولجَّ في تكذيبه وأين قدر العباسة والرشيد من الناس.

وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجافهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه. فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم.

ويقال: إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبت. فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وسيرت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم، وفكوا العاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغصُّوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أواصر القرابة. وقارن ذلك عند مخدومهم نواشي الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة وكامن الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة.

وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور. ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره وإلى نظره. فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرماً لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه. وسأله الرشيد عنه لما وشي به إليه ففطن وقال: أطلقته فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها في نفسه. فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم. ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب.

وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عم جده داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء من كتاب «العقد» في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تتفهم أنه إنما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه. وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدَّت مرةً واحدةً ... إنما العاجز من لا يستبد

وإن الرشيد لما سمعها قال: (أي واللّه إني عاجز) حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ باللّه من غَلَبة الرجال وسوء الحال.

وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشَ للّه ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾.

وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السَّمَّاك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها.

حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً. ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ ﴿وَمَا لِي لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وقال: واللّه ما ادري لم؟ فما تمالك الرشيد أن ضحك ثم التفت إليه مغضباً وقال: يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً؟! إياك إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وأيضاً فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن إنما خلفه غلاماً. وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها. وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف «الموطإ»: (يا أبا عبد اللّه إنه لم يبقَ على وجه الأرض أعلم مني ومنك وإني قد شغلتني الخلافة، فضع أنت للناس كتاباً ينتفعون به، تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة) قال مالك: (فواللّه لقد علمني التصنيف يومئذ). ولقد أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال. ودخل عليه يوماً وهو بمجلسه يباشر الخياطين في إرقاع الخلقان من ثياب عياله فاستنكف المهدي من ذلك وقال: يا أمير المؤمنين عليَّ كسوة العيال عامنا هذا من عطائي فقال له: لك ذلك ولم يصده عنه ولا سمح بالإنفاق من أموال المسلمين. فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوّته وما رُبي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته والتخلق بها أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها. وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكَرْمُ شجرتَهم وكان شربها مذمة عند الكثير منهم، والرشيد وآباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب.

وانظر ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين أحضر له السمك في مائدته فحماه عنه ثم أمر صاحب المائدة بحمله إلى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتى عاينه يتناوله، فأعد ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح: خلط إحداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى، وصب على الثانية ماءً مثلجاً وعلى الثالثة خمراً صرفاً. وقال في الأول والثاني: هذا طعام أمير المؤمنين إن خلط السمك بغيره أو لم يخلطه، وقال في الثالث: هذا طعام ابن بختيشوع ودفعها إلى صاحب المائدة حتى إذا انتبه الرشيد وأحضره للتوبيخ، أحضر الثلاثة الأقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط وأمّاع وتفتت ووجد الآخرَيْن قد فسدا وتغيرت رائحتهما. فكانت له في ذلك معذرة.

وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته، ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع.

وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق. وفتاويهم فيها معروفة وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ولا تقليد الأخبار الواهية فيها. فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل الملة. ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد. فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن الحِلِّيَة إلى الحرمة!!

ولقد اتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا يركبون بالحِلْية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج وأن أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد. وهكذا كان حالهم أيضاً في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم؟ ويتبين ذلك بأتم من هذا إذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة كما نشرح في مسائل الكتاب الأول إن شاء اللّه. واللّه الهادي إلى الصواب.

ويناسب هذا أو قريب منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه وأنه كان يعاقر الخمر وأنه سكر ليلة مع شربه فدفن في الريحان حتى أفاق وينشدون على لسانه:

يا سيدي وأمير الناس كلهم قد جار في حكمه من كان يسقيني
إني غفلت عن الساقي فصيرني كما تراني سليب العقل والدين

وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد. وشرابهم إنما كان النبيذ ولم يكن محظوراً عندهم. وأما السكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون إنما كانت خلة في الدين. ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت. ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته أنه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويتلمس الإناء مخافة أن يوقظ يحيى بن أكثم. وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جماعة. فأين هذا من المعاقرة؟!

وأيضاً فإن يحيى بن أكثم كان من علية أهل الحديث. وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل وإسماعيل القاضي وخرج عنه الترمذي كتابه «الجامع» وذكر المزني الحافظ أن البخاري روى عنه

في غير «الجامع» فالقدح فيه قدح في جميعهم.فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين

وكذلك ما ينبجه المجان بالميل إلى الغلمان بهتاناً على اللّه وفرية على العلماء ويستندون في ذلك إلى أخبار القصاص الواهية التي لعلها من افتراء أعدائه فإنه كان محسوداً في كماله وخلته للسلطان وكان مقامه من العلم والدين منزهاً عن مثل ذلك. ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال: سبحان اللّه! سبحان اللّه! ومن يقول هذا؟! وأنكر ذلك إنكاراً شديداً. وأثنى عليه إسماعيل القاضي فقيل له: ما كان يقال فيه فقال: معاذ اللّه أن تزول عدالة مثله بتكذب باغ وحاسد. وقال أيضاً: يحيى بن أكثم أبرأ إلى اللّه من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان، ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من اللّه لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق فرمي به. وذكره ابن ابن حبان في الثقات وقال: لا يشتغل بما يحكى عنه لأن أكثرها لا يصح عنه.

ومن أمثال هذه الحكايات ما نقله ابن عبد ربه صاحب «العقد» من حديث الزنبيل في سبب إصهار المأمون إلى الحسن بن سهل في بنته بوران، وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنبيل مدلى من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة الفتل من الحرير فاقتعده وتناول المعالق فاهتزت وذهب صعداً إلى مجلس شأنه كذا. ووصف من زينة فرشه وتنضيد أبنيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس، وأن امرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائقة الجمال فتانة المحاسن فحيته ودعته إلى المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح ورجع إلى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حباً بعثه على الإصهار إلى أبيها. وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه! وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان الملة ومناظرته للعلماء وحفظه لحدود اللّه تعالى في صلواته وأحكامه! فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق الأعراب! وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف.

وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة، وإنما يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المخدَّرات ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم، فلذلك تراهم كثيراً ما يلهجون بأشباه هذه الأخبار وينقرون عنها عند تصفحهم لأوراق الدواوين. ولو ائتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خيراً لهم لو كانوا يعلمون.

ولقد عذلت يوماً بعض الأمراء من أبناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالأوتار وقلت له: ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك! فقال لي: أفلا ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه؟ فقلت له: يا سبحان اللّه! وهلا تأسيت بأبيه أو بأخيه؟ أو ما رأيت كيف قعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم؟! فصمٌ عن عذلي وأعرض واللّه يهدي من يشاء.

ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات اللّه عليهم والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق. يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً إليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفنناً في الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم. فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد اللّه المحتسب لما دعا بكُتامةَ للرضى من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد اللّه المهدي وابنه أبي القاسم خشيا على أنفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الإسكندرية في زي التجار ونُمي خبرهما إلى عيسى النوشري عامل مصر والإسكندرية فسرح في طلبهما الخيالة حتى إذا أدركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزي فأفلتوا إلى المغرب. وإن المعتضد أوعز إلى الأغالبة أمراء إفريقية بالقيروان وبني مدرار أمراء سجلماسة بأخذ الآفاق عليهما وإذكاء العيون في طلبهما، فعثر إليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة.

هذا قبل أن تظهر الشيعة على الأغالبة بالقيروان. ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وإفريقية ثم باليمن ثم بالإسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز. وقاسموا بني العباس في ممالك الإسلام شق الإبلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم. ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير البساسيري من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم وخطب لهم على منابرها حولاً كاملاً. ومازال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بني أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم. وكيف يقع هذا كله لدعيٍّ في النسب يكذب في انتحال الأمر. واعتبر حال

القرمطي إذ كان دعياً في انتسابه كيف تلاشت دعوته وتفرقت أتباعه وظهر سريعاً على خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم. ولو كان أمر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وستين سنة وملكوا مقام إبراهيم عليه السلام ومصلاه وموطن الرسول ﷺ ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة ثم انقرض أمرهم وشيعتهم في ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق. ولقد خرجوا مراراً بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها داعين إلى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون إلى تعيينهم بالوصية ممن سلف قبلهم من الأئمة، ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار في الإنتصار لهم، فصاحب البدعة لا يلبس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله.

والعجب من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ النظار من المتكلمين يجنح إلى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الرأي الضعيف. فإن كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين والتعمق في الرافضية، فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم وليس إثبات منتسبهم بالذي يغني عنهم من الله شيئاً في كفرهم، فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وقال ﷺ لفاطمة يعظها: «يا فاطمة، اعملي فلن أغني عنك من الله شيئاً».

ومتى عرف امرؤ قضيةً أو استيقن أمراً وجب عليه أن يصدع به والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل:

فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت وأين مكاني ما عرفن مكانيا

حتى لقد سمي محمد بن إسماعيل جد الإمام عُبيد الله المهدي بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من إخفائه حذراً من المتغلبين عليهم. فتوسل شيعة بني العباس بذلك عند ظهورهم إلى الطعن في نسبهم. وازدلفوا بهذا الرأي الفائل للمستضعفين من خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الأعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة العبيديين وأهل دعوتهم حتى لقد أسجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا النسب وشهد بذلك عندهم من أعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن البطحاوي ومن العلماء أبو حامد الأسفراييني والقدوري والصيمري وابن الأكفاني والأبيوردي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من أعلام الأمة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربعمائة في أيام القادر، وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب فنقله الإخباريون كما سمعوه ورووه حسبما وعوه والحق من ورائه.

وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم. فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت من كل أحد. والدولة والسلطان سوق للعالم تجلب إليه بضائع العلوم والصنائع تلتمس فيه ضوال الحكم وتُحدى إليه ركائب الروايات والأخبار وما نفق فيها نفقَ عند الكافة. فإن تنزهت الدولة عن التعسف والميل والأفن والسفسفة وسلكت النهج الأَمَمَ ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الإبريز الخالص واللجين المصفى وأن ذهبت مع الأغراض والحقود وماجت بسماسرة البغي والباطل نفق البهرج والزائف. والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحثه وملتمسه.

ومثل هذا وأبعد منه كثيراً ما يتناجى به الطاعنون في نسب إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى، ويُعرِّضون تعريض الحسد بالتظنن في الحمل المخلف عن إدريس الأكبر أنه لراشد مولاهم قبحهم الله وأبعدهم ما أجهلهم! أما يعلمون أن إدريس الأكبر كان أصهاره في البربر وأنه منذ دخل المغرب إلى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو وأن حال البادية في مثل ذلك غير خافية إذ لا مكامن لهم يتأتى فيها الريب وأحوال حرمهم أجمعين بمرأى من جاراتهن ومسمع من جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البنيان وعدم الفواصل بين المساكن! وقد كان راشد يتولى خدمة الحرم أجمع من بعد مولاه بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم.

وقد اتفق برابرة المغرب الأقصى عامة على بيعة إدريس الأصغر من بعد أبيه وآتوه طاعتهم عن رضاً وإصفاق وبايعوه على الموت الأحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته. ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة أو قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشح أو منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم. كلا

والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتالهم ومن بني الأغلب عمالهم كانوا بإفريقية وولاتهم. وذلك أنه لما فر إدريس الأكبر إلى المغرب من وقعة بلخ أوعز الهادي إلى الأغالبة أن يقعدوا له بالمراصد ويذكوا عليه العيون، فلم يظفروا به وخلص إلى المغرب فتم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الإسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية وإدهانه في نجاة إدريس إلى المغرب، فقتله ودس الشماخ من موالي المهدي أبيه للتحيل على قتل إدريس فأظهر اللحاق به والبراءة من بني العباس مواليه. فاشتمل عليه إدريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ في بعض خلواته سماً استهلكه به. ووقع خبر مهلكه من بني العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها. ولما تأدى إليهم خبر الحمل المخلّف لإدريس فلم يكن لهم إلا كلا ولا. وإذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بإدريس بن إدريس قد تجددت، فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام، وكان الفشل والهرم قد نزلا بدولة العرب عن أن يسموا إلى القاصية. فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على إدريس الأكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه إلا التحيل في إهلاكه بالسموم. فعند ذلك فزعوا إلى أوليائهم من الأغالبة بإفريقية في سد تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن تشبح منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم. فكان الأغالبة عن برابرة المغرب الأقصى أعجز ولمثلها من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انتزاء مماليك العجم على سدتها وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها، وأهل خططها وسائر نقضها وإبرامها كما قال شاعرهم:

خليفة في قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له ... كما تقول الببغا

فخشي هؤلاء الأمراء الأغالبة بوادر السعايات وتلوا بالمعاذير فطوراً باحتقار المغرب وأهله وطوراً بالإرهاب بشأن إدريس الخارج به ومن قام مقامه من أعقابه يخاطبونه بتجاوزه حدود التخوم من عمله وينفذون سكته في تحفهم وهداياهم ومرتفع جباياتهم تعريضاً باستفحاله وتهويلا باشتداد شوكته وتعظيماً لما دفعوا إليه من مطالبته ومراسه وتهديداً بقلب الدعوة إن ألجئوا إليه وطوراً يطعنون في نسب إدريس بمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضاً لشأنه لا يبالون بصدقه من كذبه؛ لبعد المسافة وأفن عقول من خلف من صبية بني العباس ومماليكهم العجم في القبول من كل قائل والسمع لكل ناعق. ولم يزل هذا دأبهم حتى انقضى أمر الأغالبة فقرعت هذه الكلمة الشنعاء أسماع الغوغاء وصر عليها بعض الطاعنين أذنه واعتدها ذريعة إلى النيل من خلفهم عند المنافسة. وما لهم قبحهم اللّه والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون وإدريس ولد على فراش أبيه والولد للفراش. على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الإيمان، فاللّه سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. ففراش إدريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن. ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بإثمه وولج الكفر من بابه. وإنما أطنبت في هذا الرد سداً لأبواب الريب ودفعاً في صدر الحاسد لما سمعته أذناي من قائله المعتدي عليهم، القادح في نسبهم بفريته وينقله بزعمه عن بعض مؤرخي المغرب ممن انحرف عن أهل البيت وارتاب في الإيمان بسلفهم. وإلا فالمحل منزه عن ذلك معصوم منه ونفي العيب حيث يستحيل العيب عيب. لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا وأرجو أن يجادلوا عني يوم القيامة. ولتعلم أن أكثر الطاعنين في نسبهم إنما هم الحسدة لأعقاب إدريس هذا من منتم إلى أهل البيت أو دخيل فيهم، فإن ادعاء هذا النسب الكريم دعوى شرف عريض على الأمم والأجيال من أهل الآفاق فتعرض التهمة فيه.

ولما كان نسب بني إدريس هؤلاء بمواطنهم من فارس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه إذ هو نقل الأمة والجيل من الخلف عن الأمة والجيل من السلف، وبيت جدهم إدريس مختط فاس ومؤسسها بين بيوتهم ومسجده لصق محلتهم ودروبهم، وسيفه منتضى برأس المئذنة العظمى من قرار بلدهم، وغير ذلك من آثاره التي جاوزت أخبارها حدود التواتر مرات وكادت تلحق بالعيان، فإذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب إلى ما أتاهم اللّه من أمثالها وما عضد شرفهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب واستيقن أنه بمعزل عن ذلك، وأنه لا يبلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه، وأن غاية أمر المنتمين إلى البيت الكريم ممن لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يسلم لهم حالهم؛ لأن الناس مصدقون في أنسابهم وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم، فإذا علم ذلك من نفسه غص بريقه وود كثير منهم لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء حسداً من عند أنفسهم، فيرجعون إلى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن الفائل والقول المكذوب تعللاً بالمساواة في الظنة والمشابهة في تطرق الاحتمال وهيهات لهم

ذلك. فليس في المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب إدريس هذا من آل الحسن. وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي بن محمدٍ يحيى العوام بن القاسم بن إدريس بن إدريس وهم نقباء أهل البيت هناك والساكنون ببيت جدهم إدريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الأدارسة إن شاء اللّه تعالى.

ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يتناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته إلى الشعوذة والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله، وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحّدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت. وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه. فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي مسموع القول موطؤ العقب نفسوا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته. وأيضاً فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة أعدائه تجلّةً وكرامةً لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة. فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه. فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحرباً لعدوهم ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتثريب عليهم والمناصبة لهم، تشيعاً للمتونة وتعصُّباً لدولتهم. ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم. وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاؤهم فنادى في قومه ودعا إلى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوةً وأشد شوكة وأعزّ أنصاراً وحاميةً، وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها، وقد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم من الهلكة وتقرّبوا إلى اللّه تعالى بإتلاف مهجهم في إظهار تلك الدعوة والتعصُّب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحالة من التقشُّف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه اللّه، وليس على شيء من الحظّ والمتاع في دنياه، حتى الولد الذي ربما تجنح إليه النفوس وتخادع عن تمنّيه. فليت شعري ما الذي قصد بذلك إن لم يكن وجه اللّه وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله. ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تَمّ أمره وانفسحت دعوته. سنة اللّه التي قد خلت في عباده.

وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجّة لهم مع أنه إن ثبت أنه ادّعاه وانتسب إليه فلا دليل يقوم على بطلانه؛ لأنّ الناس مصدَّقون في أنسابهم. وإن قالوا: إنّ الرئاسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما يأتي في الفصل الأول من هذا الكتاب، والرجل قد رأس سائر المصامدة ودانوا باتّباعه والانقياد إليه وإلى عصابته من هَرْغَةَ حتى تَـمّ أمر اللّه في دعوته، فاعلم أنّ هذا النسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقّف عليه ولا اتّبعه الناس بسببه وإنّما كان اتّباعهم له بعصبية الهرغيّة والمصموديّة ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها. وكان ذلك النسب الفاطمي خفياً قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم. فيكون النسب الأول كأنّه انسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها، فلا يضرُّه الانتساب الأول في عصبيّته إذ هو مجهول عند أهل العصابة. ومثل هذا واقع كثيراً إذ كان النسب الأول خفياً.

وانظر قصة عرفجة وجرير في رئاسة بجيلة وكيف كان عرفجة من الأزد ولبس جلدة بجيلة، حتى تنازع مع جرير رئاستهم عند عمر رضي اللّه عنه كما هو مذكور تتفهّم منه وجه الحق. واللّه الهادي للصواب.

وقد كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالإطناب في هذه المغالط، فقد زلّت أقدام كثير من الأثبات والمؤرّخين الحفّاظ في مثل هذه الأحاديث والآراء وعلقت بأفكارهم ونقلها عنهم الكافّة من ضعفة النّظر والغفلة عن القياس وتلقّوها هم أيضاً كذلك من غير بحث ولا رويّة واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهياً مختلطاً، وناظره مرتبكاً وعدَّ من مناحي العامة.

فإذاً يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السِّير والأخلاق والعوائد والنِّحَل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتّفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث، واقفاً على أصول كل خبر. وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيَّفَه واستغنى عنه.

وما استكبر القدماء علم التاريخ إلا لذلك، حتى انتحله الطبري والبخاري وابن إسحاق من قبلهما وأمثالهم من علماء الأمّة، وقد ذهل الكثير عن هذا السِّر فيه حتى صار انتحاله بجهلة،

واستخفّ العوامُّ ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفّل عليه، فاختلط المرعيُّ بالهمل، واللُّباب بالقشر، والصادق بالكاذب. وإلى الله عاقبة الأمور.

ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدُّل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدُّل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطّن له إلا الآحاد من أهل الخليقة. وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحَلَهُم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنّما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

وقد كانت في العالم أمم الفرس الأولى والسُّريانيون والنَّبط والتبابعة وبنو إسرائيل والقبط وكانوا على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم وأحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم.

ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب فتبدّلت تلك الأحوال وانقلبت بها العوائد إلى ما يجانسها أو يشابهها وإلى ما يباينها أو يباعدها.

ثم جاء الإسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الأحوال وأجمع انقلابة أخرى وصارت إلى ما أكثره فتعارف لهذا العهد يأخذه الخلف عن السلف.

ثم درست دولة العرب وأيامهم وذهبت الأسلاف الذين شيّدوا عزّهم ومهّدوا ملكهم وصار الأمر في أيدي سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال، فذهبت بذهابهم أمم وانقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها وأغفل أمرها.

والسبب الشائع في تبدُّل الأحوال والعوائد أنّ عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الأمثال الحكميّة: الناس على دين الملك. وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلا بدّ وأن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم ويأخذون الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك. فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول. فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضاً بعض الشيء وكانت للأولى أشدّ مخالفة. ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة. فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة.

والقياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده وتعوج به عن مرامه فربّما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتفطّن لما وقع من تغيُّر الأحوال وانقلابها فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مهواة من الغلط.

فمن هذا الباب ما ينقله المؤرّخون من أحوال الحجّاج وأن أباه كان من المعلّمين مع أنّ التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبيّة، والمعلّم مستضعف مسكين منقطع الجذم. فيتشوّف الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشيّة إلى نيل الرُّتب التي ليسوا لها بأهل ويعدُّونها من الممكنات لهم، فتذهب بهم وساوس المطامع وربّما انقطع حبلها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها في حقّهم، وأنّهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأنّ التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة، إنّما كان نقلاً لما سمع من الشارع وتعليماً لما جهل من الدّين على جهة البلاغ، فكان أهل الأنساب والعصبيّة الذين قاموا بالملة هم الذين يعلّمون كتاب الله وسنة نبيه ﷺ على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي، إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والإسلام دينهم، قاتلوا عليه وقتلوا واختصُّوا به من بين الأمم وشرُفوا، فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للأمّة لا تصدُّهم عنه لائمة الكبر ولا يزعهم عاذل الأنفة. ويشهد لذلك بعث النبي ﷺ كبار أصحابه مع وفود العرب يعلّمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين. بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم. فلمّا استقرّ الإسلام ووشجت عروق الملّة حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الأيام أحوالها وكثر استنباط الأحكام الشرعيّة من النصوص، لتعدُّد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطإ وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلُّم فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم.

واشتغل أهل العصبيّة بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدّي للتعليم واختصّ انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقراً عند أهل العصبيّة والملك.

والحجّاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ومكانهم من عصبيّة العرب ومناهضة قريش في الشرف ما

علمت. ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد، من أنّه حرفة للمعاش، وإنّما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام.

ومن هذا الباب أيضاً ما يتوهّمه المتصفّحون لكتب التاريخ إذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وقود العساكر، فتترامى بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك الرتب يحسبون أن الشأن في خطّة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل، ويظنّون بابن أبي عامر صاحب هشام المستبدّ عليه وابن عبّاد من ملوك الطوائف بإشبيليّة إذا سمعوا أنّ آباءهم كانوا قضاة أنّهم مثل القضاة لهذا العهد، ولا يتفطّنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبيّنه في فصل القضاء من الكتاب الأول.

وابن أبي عامر وابن عبّاد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الأمويّة بالأندلس وأهل عصبيّتها، وكان مكانهم فيها معلوماً، ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطّة القضاء كما هي لهذا العهد، بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبيّة من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب.

وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم عظائم الأمور التي لا تقلّد إلا لمن له الغنى فيها بالعصبيّة فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي. وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد لفقدان العصبيّة في مواطنهم منذ أعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبيّات من البربر، فبقيت أنسابهم العربية محفوظة والذريعة إلى العز من العصبيّة والتناصر مفقودة، بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبّدهم القهر ورئموا للمذلّة يحسبون أنّ أنسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكّم، فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصدّين لذلك ساعين في نيله. فأمّا من باشر أحوال القبائل والعصبيّة ودولهم بالعدوة الغربيّة وكيف يكون التغلّب بين الأمم والعشائر، فقلّما يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره.

ومن هذا الباب أيضاً ما يسلكه المؤرّخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها، فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمّه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره، كلّ ذلك تقليد لمؤرّخي الدولتين من غير تفطّن لمقاصدهم.

والمؤرّخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة، وأبناؤها متشوّفون إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم، حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لأبناء صنائعهم وذويهم. والقضاة أيضاً كانوا من أهل عصبيّة الدولة وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون إلى ذكر ذلك كلّه.

وأمّا حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول بعضها من بعض في قوّتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الأمم أو يقصّر عنها، فما الفائدة للمصنّف في هذا العهد في ذكر الأبناء والنساء ونقش الخاتم واللّقب والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم؟ إنّما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلّفين الأقدمين، والذهول عن تحري الأغراض من التاريخ، اللّهم إلا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم كالحجّاج وبني المهلّب والبرامكة وبني سهل بن نوبخت وكافور الأخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم، فغير نكير الإلماع بآبائهم والإشارة إلى أحوالهم لانتظامهم في عداد الملوك.

ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها، وهي أن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصّة بعصر أو جيل. فأمّا ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أسٌّ للمؤرّخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبيّن به أخباره. وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب «مروج الذهب» شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً، وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم، فصار إماماً للمؤرّخين يرجعون إليه وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه.

ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في «المسالك والممالك» خاصة دون غيرها من الأحوال؛ لأن الأمم والأجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير. وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدّلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بما طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم، هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلّص من ظلالها، وفلّ من حدّها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها،

وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدّل الساكن. وكأنّي بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه. وكأنّما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة. واللّه وارث الأرض ومن عليها. وإذا تبدّلت الأحوال جملة فكأنّما تبدّل الخلق من أصله وتحوّل العالم بأسره، وكأنّه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث. فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنّحل التي تبدّلت لأهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلاً يقتدي به من يأتي من المؤرّخين من بعده.

وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إمّا صريحاً أو مندرجاً في أخباره وتلويحاً لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب، وأحوال أجياله وأممه، وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطّلاعي على أحوال المشرق وأممه، وأنّ الأخبار المتناقلة لا توفّي كنه ما أريده منه. والمسعودي إنّما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلّبه في البلاد كما ذكر في كتابه، مع أنّه لمّا ذكر المغرب قصّر في استيفاء أحواله وفوق كل ذي علم عليم، ومردُّ العلم كلّه إلى اللّه، والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعيّن واجب، ومن كان اللّه في عونه تيسّرت عليه المذاهب وأُنجحت له المساعي والمطالب. ونحن آخذون بعون اللّه فيما رمناه من أغراض التأليف واللّه المسدِّد والمعين وعليه التُّكلان.

وقد بقي علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات العرب إذا عرضت في كتابنا هذا.

اعلم أنّ الحروف في النُّطق كما يأتي شرحه بعدُ: هي كيفيّات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللّهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس، أو بقرع الشّفتين أيضاً فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركّب منها الكلمات الدّالّة على ما في الضّمائر.

وليست الأمم كلُّها متساوية في النطق بتلك الحروف، فقد يكون لأمّةٍ من الحروف ما ليس لأمة أخرى. والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت.

ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا، وفي لغتنا أيضاً حروف ليست في لغتهم، وكذلك الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم. ثم إنّ أهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدّلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميِّزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء إلى آخر الثمانية والعشرين، وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملاً عن الدلالة الكتابيّة مغفلاً عن البيان، وربّما يرسمه بعض الكتّاب بشكل الحرف الذي يكتنفه من لغتنا قبله أو بعده. وليس ذلك بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله.

ولما كان كتابنا مشتملاً على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا، اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه؛ لأنّه عندنا غير واف بالدّلالة عليه. فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدلُّ على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسّط القارىء بالنُّطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته، وإنّما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الإشمام كـ «الصِّراط» في قراءة خلف، فإنّ النطق بصاده فيها معجم متوسّط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودلَّ ذلك عندهم على التوسُّط بين الحرفين. فكذلك رسمت أنا كلَّ حرف يتوسَّط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسّطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف، مثل اسم بُلُكّين فأضعها كافاً وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو اثنتين، فيدلُّ ذلك على أنّه متوسّط بين الكاف والجيم أو القاف. وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر. وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسّط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معاً ليعلم القارىء أنّه متوسّط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه. ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيّرنا لغة القوم. فاعلم ذلك، واللّه الموفّق للصّواب بمنّه وفضله.

الكتاب الأول

في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلّب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب

اعلم أنّه لما كانت حقيقة التاريخ أنّه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحُّش والتأنُّس والعصبيّات وأصناف التغلُّبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال. ولَمّا كان الكذب متطرّقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه. فمنها التشيُّعات للآراء والمذاهب، فإنّ النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقّه من التّمحيص والنّظر حتى تتبيّن صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيُّع لرأي أو نِحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة. وكان ذلك الميل والتشيُّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتّمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله.

ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثّقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع إلى التّعديل والتّجريح.

ومنها الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنّه وتخمينه فيقع في الكذب.

ومنها توهُّم الصدق وهو كثير، وإنّما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين.

ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنُّع، فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنُّع على غير الحقّ في نفسه.

ومنها تقرُّب الناس في الأكثر لأصحاب التّجلّة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة، فالنفوس مولعة بحبّ الثناء والناس متطلّعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها.

ومن الأسباب المقتضية له أيضاً وهي سابقة على جميع ما تقدّم: الجهل بطبائع الأحوال في العمران، فإن كلّ حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصُّه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض.

وكثيراً ما يعرض للسّامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم. كما نقله المسعودي عن الإسكندر لَمّا صدّته دوابُّ البحر عن بناء الإسكندرية، وكيف اتّخذ تابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدوابّ الشيطانيّة التي رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان، ففرّت تلك الدوابُّ حين خرجت وعاينتها وتَمَّ له بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتّخاذه التابوت الزجاجي ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه، ومن قِبَل أنّ الملوك لا تحمل أنفسها على مثل هذا الغرر، ومن اعتمده منهم فقد عرّض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس إلى غيره وفي ذلك إتلافه ولا ينتظرون به رجوعه عن غروره ذلك طرفة عين، ومن قبل أنّ الجنّ لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختصُّ بها إنّما هي قادرة على التشكُّل وما يذكره من كثرة الرؤوس لها، فإنّما المراد به البشاعة والتّهويل لا إنّه حقيقة.

وهذه كلُّها قادحة في تلك الحكاية. والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله. وهو أن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتّنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلّته فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدّل لمزاج الرئة والروح القلبي ويهلك مكانه. وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمّامات إذا أطبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلّين في الآبار والمطامير العميقة المهوى إذا سخن هواؤها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها، فإنّ المتدلّي فيها يهلك لحينه. وبهذا السبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر، فإن الهواء لا يكفيه في تعديل رئته إذ هو حار بإفراط والماء الذي يعدّله بارد والهواء الذي في خرج إليه حار، فيستولي الحار على روحه الحيواني ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك.

ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي أيضاً في تمثال الزرزور الذي برومة تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم من السنة

حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم. وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت.

ومنها ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب. والمدن إنما اتخذت للتحصُّن والاعتصام كما يأتي، وهذه خرجت عن أن يحاط بها، فلا يكون فيها حصن ولا معتصم!.

وكما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس، وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب، وأنها مغلقة الأبواب، وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفَّق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيلٍ عادةً من خرافات القُصَّاص. وصحراء سجلماسة قد نفضها الركّاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر. ثم إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادةً مناف للأمور الطبيعيَّة في بناء المدن واختطاطها، وأنَّ المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخرثي، وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد.

وأمثال ذلك كثيرة وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة، ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع. وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح. ولقد عدَّ أهل النَّظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل. وإنّما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية؛ لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط.

وأما الإخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة؛ فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدَّماً عليه، إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة. وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه. وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه. وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرّى به المؤرِّخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه. وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تآليفنا.

وكأنَّ هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً.

واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصَّنعة غريب النَّزعة عزيز الفائدة أعثر عليه البحث وأدَّى إليه الغوص. وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية، فإن موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدُّهم عنه. ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية، إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه. فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنَّين اللَّذين ربما يشبهانه.

وكأنه علم مستنبط النشأة. ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة. ما أدري ألغفلتهم عن ذلك؟ وليس الظن بهم، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الإنساني متعدِّدون وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل. فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح؟ وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها؟ وأين علوم القبط ومن قبلهم؟ وإنما وصل إلينا علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المأمون بإخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الأموال فيها، ولم نقف على شيء من علوم غيرهم.

وإذا كانت كل حقيقة متعقَّلة طبيعة يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقةٍ علمٌ من العلوم يخصُّه. لكن الحكماء لعلهم إنما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات، وهذا إنما ثمرته في الأخبار فقط كما رأيت، وإن كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة، لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة فلهذا هجروه والله أعلم ﴿وَمَا أُوتِيتُم من الْعِلْمِ إلا قَلِيلا﴾.

وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله

بالموضوع والطلب:

مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في إثبات النبوّة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوازع.

ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب إثبات اللغات أن الناس محتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات أخف.

ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للأنساب مفسد للنّوع، وأن القتل أيضاً مفسد للنّوع، وأنّ الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الأحكام، فإنها كلّها مبنية على المحافظة على العمران، فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثّلة.

وكذلك أيضاً يقع إلينا القليل من مسائله في كلمات متفرّقة لحكماء الخليقة لكنّهم لم يستوفوه.

فمن كلام الموبذان بهرام بن بهرام في حكاية البوم التي نقلها المسعودي: أيها الْمَلِك! إن الْمُلك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عزّ للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرب وجعل له قيماً وهو الملك.

ومن كلام أنوشروان في هذا المعنى بعينه: الملْكُ بالجُند، والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل، والعدل بإصلاح العمّال، وإصلاح العمّال باستقامة الوزراء، ورأس الكل بافتقاد الْمَلِك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه.

وفي الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه، إلا أنه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره، وقد أشار في ذلك الكتاب إلى هذه الكلمات التي نقلناها عن الموبذان وأنوشروان وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها هو قوله: العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تحيا به السنّة، السنّة سياسة يسوسها الْمَلِك. الْمُلْك نظام يعضده الجند، الجند أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمعه الرعية، الرعية عبيد يكنفهم العدل، العدل مألوف وبه قوام العالم، العالم بستان. ثم ترجع إلى أول الكلام. فهذه ثمان كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدّت أعجازها على صدورها واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها فخر بعثوره عليها وعظم من فوائدها.

وأنت إذا تأملت كلامنا في فصل الدول والْمُلْك وأعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت في أثنائه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل إجمالها مستوفى بيّناً بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان، أطلعنا اللّه عليه من غير تعليم أرسطو ولا إفادة موبذان.

وكذلك تجد في كلام ابن المقفّع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه، إنما يجلّيها في الذكرعلى منحى الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام.

وكذلك حوّم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب «سراج الملوك» وبوّبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله، لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الأدلة، إنما يبوّب الباب للمسألة ثم يستكثر من الأحادث والآثار وينقل كلمات متفرّقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليقة، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاباً، إنما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ وكأنه حوّم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله.

ونحن ألهمنا اللّه إلى ذلك إلهاماً وأعثرنا على علم جعلنا سنّ بِكْره وجهينة خبره. فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من اللّه وهداية. وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره مسائله، فللناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل؛ لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق. واللّه يهدي بنوره من يشاء.

ونحن الآن نبيّن في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية، يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة، وتدفع بها الأوهام وترفع الشكوك ونقول:

لما كان الإنسان متميزاً عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها. فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميّز به عن الحيوانات وشرّف بوصفه على المخلوقات.

ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر، إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلّها إلا ما يقال عن النحل والجراد وهذه - وإن كان لها مثل ذلك - فبطريق إلهامي لا

بفكر وروية. ومنها السعي في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه لما جعل اللّه فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه وهداه إلى التماسه وطلبه فإن تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

ومنهما العمران وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما سنبيِّنه.

ومن هذا العمران ما يكون بدوياً وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المتجعة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضرياً وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها. وله في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضاً ذاتياً له فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول:

الأول- في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض.

والثاني- في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية.

والثالث- في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.

والرابع- في العمران الحضري والبلدان والأمصار.

والخامس- في الصَّنائع والمعاش والكسب ووجوهه.

والسادس- في العلوم واكتسابها وتعلمها.

وقد قدَّمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبيِّن لك بعد، وكذا تقديم الملك على البلدان والأمصار، وأما تقديم المعاش فلأن المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كماليّ أو حاجي والطبيعي أقدم من الكمالي، وجعلت الصنائع مع الكسب؛ لأنها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما نبين لك بعد. واللّه الموفق للصواب والمعين عليه.

الباب الأول

وفيه مقدمات

المقدمة الأولى

في أن الاجتماع الإنساني ضروري

ويعبِّر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران. وبيانه أن اللّه سبحانه خلق الإنسان وركَّبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركَّب فيه من القدرة على تحصيله.

إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه.

ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ. وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري. هبْ أنه يأكله حباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدِّراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل. ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير. ويستحيل أن توفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد. فلا بد من اجتماع القُدرَ الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بإضعاف. وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه؛ لأن اللّه سبحانه لما ركَّب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان، فقدرة الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان، وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته.

ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره. وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد. فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر، والصنائع تحصِّل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع، مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة، والتراس النائبة عن البشرات الجاسية إلى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب «منافع الأعضاء».

فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدَّة لها، فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه. وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاءاً ولا تتم حياته لما ركَّبه اللّه تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح، فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر. وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة اللّه في بقائه وحفظ نوعه. فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده اللّه من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم.

وفي هذا الكلام نوع إثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له. وهذا وإن لم يكن واجباً على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم إثبات الموضوع في ذلك العلم، فليس أيضاً من الممنوعات عندهم فيكون إثباته من التبرعات، واللّه الموفق بفضله.

ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم. وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم، فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض، ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك. وقد تبيَّن لك بهذا أنه خاصة للإنسان خاصة طبيعية ولا بد لهم منها. وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرىء فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجثمانه، إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي! وأنها خاصة طبيعية للإنسان فيقررون هذا

البرهان إلى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك. وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر، وأنه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه، حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزييف. وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادّته. فأهل الكتاب والمتّبعون للأنبياء قليلون بالنسبة إلى المجوس الذين ليس لهم كتاب، فإنهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة، وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب. بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتّة فإنه يمتنع. وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلي، وإنما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الأمة. والله ولي التوفيق والهداية.

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم

اعلم أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كروي وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه، فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها. وقد يُتوهّم من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح، وإنما التحت الطبيعي قلب الأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها. وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض، وإن قيل في شيء منها إنه تحت الأرض فبالإضافة إلى جهة أخرى منه. وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحراً يسمى البحر المحيط ويسمى أيضاً لبلايه بتفخيم اللام الثانية، ويسمى أوقيانوس أسماء أعجمية ويقال له البحر الأخضر والأسود.

ثم إن هذا المنكشف من الأرض للعمران فيه القفار والخلاء أكثر من عمرانه والخالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال، وإنما المعمور منه قطعة أميل إلى الجانب الشمالي على شكل مسطّح كروي ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء، ومن جهة الشمال إلى خط كروي، ووراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري الذي بينهما سد يأجوج ومأجوج. وهذه الجبال مائلة إلى جهة المشرق، وينتهي من المشرق والمغرب إلى عنصر الماء أيضاً بقطعتين من الدائرة المحيطة.

وهذا المنكشف من الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالأقاليم السبعة. وخط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب إلى المشرق وهو طول الأرض وأكبر خط في كرتها، كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك. ومنطقة البروج منقسمة بثلاثمائة وستين درجة، والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال، لأن الميل أربعة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهراً لبطن، وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتُسامت خط الاستواء من الأرض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة. لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما نبين ذلك كله إن شاء الله تعالى.

ثم إن المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وعما فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والأنهار والقفار والرمال مثل: بطليموس في كتاب «الجغرافيا» وصاحب كتاب «روجار» من بعده قسموا هذا المعمور بسبعة أقسام يسمونها الأقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول، فالإقليم الأول أطول مما بعده وكذا الثاني إلى آخرها فيكون السابع أقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة من انحسار الماء عن كرة الأرض. وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي. وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه.

البحار

وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف. ويبدأ في خليج متضايق في عرض اثني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق، ثم يذهب مشرّقاً وينفسح إلى عرض ستمائة ميل. ونهايته

في آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه وعليه هنالك سواحل الشام، وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم إفريقية ثم برقة إلى الإسكندرية، ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الإفرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الزُقاق قبالة طنجة. ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية.

قالوا: ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين. أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقاً في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح في عرض أربعة أميال، ويمر في جريه ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية، ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق، فيمر بأرض هريقلية، وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس. والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال، فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى بلاد إنكلاية على ألف ومائة ميل من مبدئه. وعلى حافتيه من البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى خليج البنادقة.

قالوا: وينساح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر إلى الجنوب قليلاً حتى ينتهي إلى الإقليم الأول ثم يمر فيه مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج، وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي. وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره، وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب، ثم بلد مقدشو ثم بلد سُفالة وأرض الواق واق وأمم أخر ليس بعدهم إلا القفار والخلاء، وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الأحقاف وزبيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة.

قالوا: ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران، أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب، فيبدأ متضايقاً ثم يمر مستبحراً إلى ناحية الشمال ومغرّباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى القُلزم في الجزء الخامس من الإقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبدئه، ويسمى بحر القلزم وبحر السويس، وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل، وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة، ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته، ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع، ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل. ومازال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك.

والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الأخضر يخرج ما بين بلاد السند والأحقاف من اليمن ويمر إلى ناحية الشمال مغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى الأبُلّة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الإقليم الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخاً من مبدئه ويسمى بحر فارس. وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والأبُلّة وعند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشُحْر والأحقاف عند مبدئه. وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كأنّها داخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتُفضي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما. وهنالك الكوفة والقادسية وبغداد وإيوان كسرى والحيرة. ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم. وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحله على البحر الحبشي.

قالوا: وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الدّيلم يسمى بحر جرجان وطبرستان، طوله ألف ميل في عرض ستمائة ميل، في غربيه أذربيجان والدّيلم، وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم، وفي جنوبيه طبرستان، وفي شماليه أرض الخزر واللان.

هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا.

الأنهار

قالوا: وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون.

فأما النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الإقليم الأول ويسمى

جبل القمر، ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة، فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل. ويخرج من هذه البحيرة نهران. يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر، فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجاً وتصب كلها في البحر الرومي عند الإسكندرية، ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه. ويذهب الآخر منعطفاً إلى المغرب ثم يمر على سمته إلى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأممهم كلهم على ضفتيه.

وأما الفرات فمبدؤه من بلاد أرمينيَّة في الجزء السادس من الإقليم الخامس، ويمر جنوباً في أرض الروم وملطية إلى منبج ثم يمر بصفِّين ثم بالرَّقَّة ثم بالكوفة إلى أن ينتهي إلى البطحاء التي بين البصرة وواسط، ومن هناك يصب في البحر الحبشي، وتنجلب إليه في طريقه أنهار كثيرة ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة.

وأما دجلة فمبدؤه عين ببلاد خلاط من أرمينيَّة أيضاً، وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد إلى واسط، فتتفرق إلى خلجان كلها تصب في بحيرة البصرة وتفضي إلى بحر فارس وهو في الشرق على يمين الفرات. وينجلب إليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب. وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتي الفرات وقبالة أذربيجان من عدوة دجلة.

وأما نهر جيحون فمبدؤه من بلخ في الجزء الثامن من الإقليم الثالث من عيون هناك كثيرة، وتنجلب إليه أنهار عظام، ويذهب من الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان، ثم يخرج منها إلى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الإقليم الخامس، فيصب في بحيرة الجرجانية التي بأسفل مدينتها وهي مسيرة شهر في مثله وإليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك. وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم، وعلى شرقيه بلاد بخارى وترمذ وسمرقند ومن هنالك إلى ما وراءه بلاد الترك وفرغانة والخرزجية وأمم الأعاجم.

وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه، والشريف في كتاب «روجار» وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية واستوفوا من ذلك ملا حاجة لنا به لطوله، ولأن عنايتنا في الأكثر إنما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالأوطان التي للعرب من المشرق والله الموفق.

تكملة لهذه المقدمة الثانية: في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك:

ونحن نرى بالمشاهدة والأخبار المتواترة أن الأول والثاني من الأقاليم المعمورة أقل عمراناً مما بعدهما وما وجد من عمرانه، فيتخلَّله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما. وأمم هذين الإقليمين وأناسيُّهما ليست لهم الكثرة البالغة وأمصاره ومدنه كذلك. والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك. فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك أو معدومة، وأممها وأناسيُّها تجوز الحد من الكثرة، وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً، والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس، والجنوب خلاء كله. وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لإفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤوس. فلنوضح ذلك ببرهانه ليتبين منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال إلى الخامس والسابع فنقول:

إن قطبي الفلك الجنوبي والشمالي إذا كانا على الأفق فهنالك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من المشرق إلى المغرب وتسمى دائرة معدَّل النهار. وقد تبيَّن في موضعه من الهيئة أن الفلك الأعلى متحرك من المشرق إلى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الأفلاك التي في جوفه قهراً وهذه الحركة محسوسة. وكذلك تبيَّن أن للكواكب في أفلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب إلى المشرق، وتختلف آمادها باختلاف حركة الكواكب في السرعة والبطء. وممرات هذه الكواكب في أفلاكها توازيها كلها دائرة عظيمة من الفلك الأعلى تقسمه بنصفين وهي دائرة فلك البروج منقسمة باثني عشر برجاً، وهي على ما تبيَّن في موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج، هما أول الحمل وأول الميزان، فتقسمهما دائرة معدل النهار بنصفين: نصف مائل عن معدَّل النهار إلى الشمال وهو من أول الحمل إلى آخر السنبلة، ونصف مائل عنه إلى الجنوب وهو من أول الميزان إلى آخر الحوت. وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع نواحي الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب إلى المشرق ويسمى خط الاستواء. ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا في مبدأ الإقليم الأول من الأقاليم السبعة، والعمران كله في الجهة الشمالية عنه.

والقطب الشمالي يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج إلى أن ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة وهنالك ينقطع العمران

وهو آخر الإقليم السابع، وإذا ارتفع على الأفق تسعين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرؤوس وصارت دائرة معدل النهار على الأفق وبقيت ستة من البروج فوق الأفق، وهي الشمالية وستة تحت الأفق وهي الجنوبية، والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين ممتنعة؛ لأن الحر والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل التكوين.

فإذاً الشمس تسامت الرؤوس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان، ثم تميل عن المسامتة إلى رأس السرطان ورأس الجدي، ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعاً وعشرين درجة. ثم إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأفق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد. وإذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس علت عليها البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوها إلى رأس السرطان، وانخفضت البروج الجنوبية من الأفق كذلك إلى رأس الجدي لانحرافها إلى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه. فلا يزال الأفق الشمالي يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت الرؤوس، وذلك حيث يكون عرض البلد أربعاً وعشرين في الحجاز وما يليه. وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتاً. فإذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامتة ولا تزال في انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستين، ويكون انخفاض الشمس عن المسامتة كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الأفق مثلها، فينقطع التكوين لإفراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر.

ثم إن الشمس عند المسامتة وما يقاربها تبعث الأشعة على الأرض على زوايا قائمة وفيما دون المسامتة على زوايا منفرجة وحادة. وإذا كانت زوايا الأشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة. فلهذا يكون الحر عند المسامتة وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد؛ لأن الضوء سبب الحر والتسخين.

ثم أن المسامتة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل والميزان، وإذا مالت فغير بعيد. ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدي إلا إن صعدت إلى المسامتة فتبقى الأشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الأفق ويطول مكثها أو يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط في شدتها. وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء إلى عرض أربع وعشرين، فإن الأشعة ملحة على الأفق في ذلك بقريب من إلحاحها في خط الاستواء وإفراط الحر يفعل في الهواء تجفيفاً ويبساً يمنع من التكوين؛ لأنه إذا أفرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات، إذ التكوين لا يكون إلا بالرطوبة. ثم إذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤوس في عرض خمس وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحر إلى الاعتدال أو يميل عنه ميلاً قليلاً، فيكون التكوين ويتزايد على التدريج إلى أن يفرط البرد في شدته لقلة الضوء، وكون الأشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد. إلا أن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد؛ لأن الحر أسرع تأثيراً في التجفيف من تأثير البرد في الجمد. فلذلك كان العمران في الإقليم الأول والثاني قليلاً، وفي الثالث والرابع والخامس متوسطاً لاعتدال الحر بنقصان الضوء، وفي السادس والسابع كثيراً لنقصان الحر، وأن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر، إذ لا تجفيف فيها إلا عند الإفراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع. فلهذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم.

ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه. وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة والأخبار المتواترة، فكيف يتم البرهان على ذلك؟ والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلِّيَّة، إنما أدَّاهم البرهان إلى أن فساد التكوين فيه قوي بإفراط الحر، والعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقلي، وهو كذلك، فإن خط الاستواء والذي وراءه وإن كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جداً.

وقد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال، فيعمر منه ما عمر من هذا. والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين، وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين، ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه؛ لأن العمران متدرج ويأخذ في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع. وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيردُّه النقل المتواتر، والله أعلم.

ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب «روجار» ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها.. إلخ.

تفصيل الكلام على بدء الجغرافيا:

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب، يسمون كل قسم منها إقليماً. فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله. فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة إن صحت فهي كلا عمارة. ويليه من جهة شماليه الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال. وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب. إلا أن الخلاء في جهة الشمالي أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب. ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها. فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك. وينتهي طول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول، وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل وبرأس السرطان للنهار، كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة. وكذلك في آخر الإقليم الثاني مما يلي الشمال، فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة. ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدي. ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهي دورة الفلك الكاملة.

وكذلك في آخر الإقليم الثالث مما يلي الشمال أيضاً ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة، وفي آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس إلى خمس عشرة ساعة، وفي آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ونصف، وفي آخر السابع إلى ست عشرة ساعة، وهنالك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم، يتزايد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد.

وأما عرض البلدان في هذه الأقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء، وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد. ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل.

والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة في طوله من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية، ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والأمصار والجبال والأنهار والمسافات بينها في المسالك، ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كل جزء منها، ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب «نزهة المشتاق» الذي ألفه العلوي الإدريسي الحمودي لملك صقلية من الإفرنج وهو روجار بن روجار عندما كان نازلاً عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة. وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة. وجمع له كتباً جمة للمسعودي وابن خرداذبه والحوقلي والقدري وابن إسحاق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالإقليم الأول إلى آخرها، واللّه سبحانه وتعالى يعصمنا بمنّه وفضله.

الإقليم الأول:

وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس يأخذ أطوال البلاد. وليست في بسيط الإقليم وإنما هي في البحر المحيط في جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاثة ويقال إنها معمورة. وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أساراهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان. فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون، وأن الحديد مفقود بأرضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة يرمونها إلى خلف، وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت ولا يعرفون ديناً ولم تبلغهم دعوة. ولا يوقف على مكان هذه الجزائر إلا بالعثور لا بالقصد إليها، لأن سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابُها وإلى أين يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب. وإذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر.

والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود، وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم. وهذا كله مفقود في البحر المحيط. فلذلك لا تلج فيه السفن لأنها إن غابت عن مرأى السواحل فقلَّ

أن تهتدي إلى الرجوع إليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الأبخرة الممانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها؛ فلذلك عسر الاهتداء إليها وصعب الوقوف على خبرها.

وأما الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القُمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان. ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك. وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من أمم السودان. وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثّمين ومفاوز يجولون فيها.

وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم (لملم) وهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصداغهم وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب، وكلهم عامة رقيقهم، وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا أناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف. ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة وربما يأكل بعضهم بعضاً. وليسوا في عداد البشر. وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين ووركلان. فكان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح. وقال صاحب كتاب روجار إنه صالح بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد اللّه بن حسن. وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي.

وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الإقليم بلد (كوكو) على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك. ويمر مغرّباً فيغوص في رمال الجزء الثاني. وكان ملك كوكو قائماً بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر. وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كانم من أمم السودان. وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه.

وفي شرقي بلاد ونغارة وكانم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم. وفيه يمر نيل مصر ذاهباً من مبدئه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال. ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة. واختلفوا في ضبط هذه اللفظة. فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه.

وفي كتاب «المشترك» لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبةً إلى قوم من أهل الهند، وكذا ضبطه ابن سعيد. فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال. ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال. وينقسم ماؤها بقسمين، فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط، ويخرج الشرقي منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط، ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول، وعلى هذا النيل به بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان، وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صباً هائلاً، فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحوَّل الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد، وكذا وسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل. وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة. والواحات في غربيِّها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة.

وفي وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد يأتي من وراء خط الاستواء ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط إلى مصر. وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القُمر. وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل، وإلى وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين ويغمر عامة هذا الإقليم إلى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران إلا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة، يقال تنتهي إلى ألف جزيرة أو فيما على سواحله الجنوبية، وهي آخر المعمور في الجنوب، أو فيما على سواحله من جهة الشمال وليس منها في هذا الإقليم الأول إلا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي إلى جهة الشمال وهما بحر قلزم وبحر فارس، وفيما بينهما جزيرة العرب، وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقيها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما إليهما كما نذكره في الإقليم الثاني وما بعده.

فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد زالع من أطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي وتحت بلاد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب، يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي ممتداً مع ساحل اليمن من الجنوب إلى الشمال في طول اثني عشر ميلاً، فيضيق البحر بسبب ذلك إلى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها، ويسمى باب المندب وعليه تمر مراكب اليمن إلى ساحل السويس قريباً من مصر، وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودَهْلَك، وقبالته من غربيه مجالات البُجَة من أمم السودان كما ذكرناه. ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن، ومنها على ساحله بلد علي بن يعقوب. وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قُرى بربر يتلو بعضها بعضاً. وينعطف مع جنوبيه إلى آخر الجزء السادس.

ويليها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سُفالة على ساحله الجنوبي في الجزء السابع من هذا الإقليم. وفي شرقي بلاد سُفالةَ من ساحله الجنوبي بلاد الواق واق متصلة إلى آخر الجزء العاشر من هذا الإقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط.

وأما جزائر هذا البحر فكثيرة، من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل، وبها الجبل المشهور يقال: ليس في الأرض أعلى منه وهي قبالة سُفالة. ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سُفالة وتذهب إلى الشرق منحرفة بكثير إلى الشمال إلى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويحتف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الواق واق ومن شرقيها جزائر السيلان إلى جزائر أخر في هذا البحر كثيرة العدد، وفيها أنواع الطيب والأفاوية وفيها يقال معادن الذهب والزمرد، وعامة أهلها على دين المجوسية، وفيهم ملوك متعددون. وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا.

وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الإقليم بلاد اليمن كلها، فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الإمامة الزيدية، وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي، وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شماليِّها صنعاء، وبعدهما إلى المشرق أرض الأحقاف وظَفَار، وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس. وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الإقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين، ومن مدنه الشهيرة خانكو، وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها. وهذا آخر الكلام في الإقليم الأول، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنّه وفضله.

الإقليم الثاني

وهو متصل بالأول من جهة الشمال، وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها، وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان، وفي الجانب الأسفل منهما صحراء نيستر متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة.

وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض فزّان ثم مجالات أزكار من قبائل البربر ذاهبة إلى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق، وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من أمم السودان ثم قطعة من أرض الباجويين. وفي أسافل هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودّان، وعلى سمتها شرقاً أرض سنترية وتسمى الواحات الداخلة.

وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباجويين. ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حافات النيل الذاهب من مبدئه في الإقليم الأول إلى مصبه في البحر، فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطَّم من شرقيه وعليه من أعلاه بلد أسنا وأرمنت، ويتصل كذلك حافاته إلى أسيوط وقوص ثم إلى صول. ويفترق النيل هنالك على شعبين ينتهي الأيمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والأيسر عند دِلاص وفيما بينهما أعالي ديار مصر.

وفي الشرق من جبل المقطَّم صحارى عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس إلى أن تنتهي إلى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب إلى جهة الشمال. وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يَلَمْلَم إلى بلاد يثرب، وفي وسط الحجاز مكة شرَّفها الله، وفي ساحلها مدينة جُدَّة تقابل بلد عيذاب في العدوة الغربية من هذا البحر.

وفي الجزء السادس من غربيِّه بلاد نجد أعلاها في الجنوب،

وتبالة وجرش إلى عكاظ من الشمال. وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها أرض اليمامة، وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب ثم أرض الشِّحر. وينتهي إلى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي إلى الشمال كما مر. ويذهب في هذا الجزء بانحراف إلى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من أعلاه مدينة قَلْهاتَ وهي ساحل الشِّحر ثم تحتها على ساحله بلاد عُمان، ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء.

وفي الجزء السابع في الأعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في السادس. ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله. وعليه هنالك بلاد السند إلى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوبران وهي من السند أيضاً. فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند، ويصب في البحر الهندي في الجنوب. وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي، وفي سمتها شرقاً بلاد بَلْهَرا وتحتها المُلْتانُ بلاد الصنم المعظم عندهم، ثم إلى أسفل من السند، ثم إلى أعالي بلاد سجستان.

وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من الهند، وعلى سمتها شرقاً بلاد القندهار ثم بلاد منيبار، وفي الجانب الأعلى على ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل، وبعدها شرقاً إلى البحر المحيط بلاد القَنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الإقليم.

وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون، ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط، والله ورسوله أعلم، وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم.

الإقليم الثالث

وهو متصل بالثاني من جهة الشمال.

ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل دَرَنَ معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره. ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم إلا خالقهم حسبما يأتي ذكره. وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقاً بلاد سوس ونول وعلى سَمْتِها شرقاً بلاد دَرْعَة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نَيسْتَرَ المفازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني. وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يُسامت وادي ملويَّة فتكثر ثناياه ومسالكه إلى أن ينتهي. وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة، ثم هِنْتاتَة ثم تِيْنَمْلَكُ ثم كَذْمِيوَة ثم مَشْكورَة وهم آخر المصامدة فيه، ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة. وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زَناتَة. ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كُتامَة. وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم.

ثم إن جبل دَرَنَ هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيه. ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش وأغْماتَ وتادَلا. وعلى البحر المحيط منها رباط أسفي ومدينة سلا. وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومِكْنَاسَة وتَازا وقصر كُتامَة. وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها. وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان: أصيلا والعرايش. وفي سمت هذه البلاد شرقاً بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تِلِمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هُنَيْنَ ووهران والجزائر؛ لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الإقليم الرابع ويذهب مشرِّقاً فينتهي إلى بلاد الشام، فإذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوباً وشمالا فدخل في الإقليم الثالث والخامس؛ فلهذا كان على ساحله من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلاده. ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجَايَة في ساحل البحر ثم قُسَنْطِينَة في الشرق منها. وفي آخر الجزء الأول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه البلاد ومرتفعاً إلى جنوب المغرب الأوسط بلد أشيرَ ثم بلد المَسيلَة ثم الزاب وقاعدتها بَسْكَرَة تحت جبل أوراس المتصل بدرن كما مر. وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق.

والجزء الثاني من هذا الإقليم على هيئة الجزء الأول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهباً فيه من غرب إلى شرق فيقسمه بقطعتين. ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله. فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقاً أرض وَدّان التي بقيتها في الإقليم الثاني كما مر. والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتَبِسَّة والأُوبّس. وعلى ساحل البحر بلد بونة. ثم في سمت هذه البلاد شرقاً بلاد إفريقية. فعلى ساحل

البحر مدينة تونس ثم سوسَة ثم المهديَّة. وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الْجَريدُ: توزَرُ وقَفْصَة ونَفْزاوَةُ. وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وَسْلاتَ وسُبَيْطلَة. وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقاً بلد طرابلس على البحر الرومي. وبإزائها في الجنوب جبل دُمَّر ونَفْرَة من قبائل هوارَة متصلة بجبل دَرَنْ، وفي مقابلة غُدامِسَ التي مر في نهرها في آخر القطعة الجنوبية. وآخر هذا الجزء في الشرق سُوَيْقَة ابن مَشكورَة على البحر. وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودَّان.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم يمر أيضاً فيه جبل دَرَنْ إلا أنه ينعطف عند آخره إلى الشمال ويذهب على سمته إلى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أوثان. والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه إلى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن. فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودَّان ومجالات العرب فيها ثم زَويلَةُ ابن الخطاب، ثم رمال وقفار إلى آخر الجزء في الشرق. وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سُرْتَ على البحر. ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب. ثم أجدابيَّة ثم بَرقَة عند منعطف الجبل، ثم طَلْمَسة على البحر هنالك، ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هَيْب ورُواحَة إلى آخر الجزء.

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم وفي الأعلى من غربيه صحارى برقيق وأسفل منها بلاد هيب ورواحة. ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه إلى الجنوب حتى يزاحم طرفه الأعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء فيها قفار تجول فيها العرب. وعلى سمتها شرقاً بلاد الفيُّوم وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الإقليم الثاني، ويصب في بحيرة فَيُوم وعلى سمته شرقاً أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدِلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني. ويفترق هذا الشعب افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شنطُوف وزَفْتي. وينقسم الأيمن منهما من قُرمُط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي. فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الإسكندرية، وعلى مصب الوسط بلد رشيد، وعلى مصب الشرقي بلد دِمياط. وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية أسافِلُ الديار المصرية كلها محشوة عمراناً وفلجاً.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم بلاد الشام وأكثرها على ما أصف؛ وذلك لأن بحر القُلْزُم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس؛ لأنه في ممره مبتدىء من البحر الهندي إلى الشمال ينعطف آخذاً إلى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف الغربي منه إلى السويس. وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم أيْلَة مَدْيَن ثم الحوراء في آخرها. ومن هنالك ينعطف بساحله إلى الجنوب في أرض الحجاز كما مر في الإقليم الثاني في الجزء الخامس منه.

وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيراً من غربيه عليها الفُرما والعَريش وقارب طرفها بلد القلزم فيضايق ما بينهما من هنالك ويبقي شبه الباب مفضياً إلى أرض الشام.

وفي غربي هذا الباب فحص التيه أرض جرداء لا تنبت كانت مجالاً لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم إلى الشام أربعين سنة كما قصه القرآن. وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الإقليم الرابع كما نذكره. وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان وبينهما طرف هذا البحر، ثم تنحط هذه القطعة في انعطافها من هنالك إلى الإقليم الرابع عند طرابلس وغزة. وهنالك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق. وعلى هذه القطعة أكثر سواحل الشام. ففي شرقه غزة ثم عسقلان بانحراف يسير عنها إلى الشمال بلد قيساريَّة. ثم كذلك بلد عكا ثم صور ثم صيدا، ثم ينعطف البحر إلى الشمال في الإقليم الرابع. ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر القلزم ويذهب في ناحية الشمال منحرفاً إلى الشرق إلى أن يجاوز هذا الجزء ويسمى جبل اللُّكَّام وكأنه حاجز بين أرض مصر والشام. ففي طرفه عند أيلة العقبة التي يمر عليها الحجاج من مصر إلى مكة، ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل السَّراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهباً على سمت الشرق ثم ينعطف قليلاً.

وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودَوْمَة الجندل وهي أسافل الحجاز. وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها. وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبوك. وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللُّكَّام ثم الأردن ثم طبرية. وفي شرقيها بلاد الغور إلى أَذْرِعات. وفي سمتها شرقاً دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز. وعند منعطف جبل اللُّكَّام إلى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية وجبل اللُّكَّام يعترض

بينها وبينها. وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بَعْلَبَكَّ ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللُّكَام. وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية إلى آخر الجزء.

وفي الجزء السادس من أعلاه مجالات الأعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العَرْج والصَّمّان إلى البحرين وهجر على بحر فارس. وفي أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسية ومغايض الفرات. وفيما بعدها شرقاً مدينة البصرة. وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عَبّادان والأبلَّة من أسافل الجزء من شماله. ويصب فيه عند عبّادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول أخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبّادان وتصب في بحر فارس. وهذه القطعة من البحر متسعة في أعلاه مضايقة في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاه مضايقة للحد الشمالي منه. وعلى عدوتها الغربية منه أسافل البحرين وهجر والأحساء، وفي غربها أخطب والصمّان وبقية أرض اليمامة، وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتد من هذا البحر مشرّقاً. ووراءه إلى الجنوب في هذا الجزء جبال القُفْص من كَرْمَان وتحت هُرْمُز على الساحل بلد سيراف ونَجيرَمَ على ساحل هذا البحر. وفي شرقيه إلى آخر هذا الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودار أَبْجِرْدَ ونسا واصْطَخْرَ والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها. وتحت بلاد فارس إلى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها الأهواز وتُسْتَرُ وصدى وسابور والسوس ورامُ هرمز وغيرها وأرَّجان وهي حد ما بين فارس وخوزستان. وفي شرقي بلاد خوزستان جبال الأكراد متصلة إلى نواحي أصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم وراءها في أرض فارس وتسمى الرسوم.

وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال القُفْص ويليها من الجنوب والشمال بلاد كَرْمان ومَكَران، ومن مدنها الرودان والشيرَجان وجيرَفت ويَزْدَشير والبهرج. وتحت أرض كَرْمَان إلى الشمال بقية بلاد فارس إلى حدود أصبهان، ومدينة أصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله. ثم في المشرق عن بلاد كَرْمانَ وبلاد فارس أرض سِجِسْتان وكوهِسْتان في الجنوب. وأرض كوهستان في الشمال عنها. ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان، في وسط هذا الجزء المفاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها. ومن مدن سجستان بَسْتُ والطاق. وأما كوهِسْتَان فهي من بلاد خراسان. ومن مشاهير بلادها سَرَخْسُ وكوهِسْتان آخر الجزء.

وفي الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الخَلْج من أمم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض كابُل الهند من جنوبها. وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غَزْنَة فُرضَة الهند. وفي آخر الغور من الشمال بلاد أَسْتَرَاباذَ، ثم في الشمال غرباً إلى آخر الجزء بلاد هَراة أوسط خراسان. وبها أسْفَراين وقاشان وبوشَنْجُ ومَرْوُ الرُّوذ والطالِقان والجُوزْجان. وتنتهي خراسان هنالك إلى نهر جَيْحون.

وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بَلْخَ، وفي شرقيه مدينة تِرْمِذَ، ومدينة بلخ كانت كرسي مملكة الترك. وهذا النهر نهر جيحون. مخرجه من بلاد وَجّار في حدود بَذَخشان مما يلي الهند. ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغرباً إلى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خَرناب، ثم ينعطف إلى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمته إلى أن يصب في بحيرة خوارزم في الإقليم الخامس كما نذكره. ويمده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب إلى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الخَتَّل والوَخْش من شرقيه وأنهار أخرى من جبال البُتَّم من شرقيه أيضاً وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كفاء له، ومن هذه الأنهار الخمسة الممدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التُّبَّت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغرباً بانحراف إلى الشمال إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء ويذهب مشرقاً بانحراف إلى الشمال إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبّت إلى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء. ويحول بين الترك وبين بلاد الخَتَّل وليس فيه إلا مسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سداً وبنى فيه باباً كسد يأجوج ومأجوج. فإذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد إلى أن يمر في بلاد الوخش ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ ثم يمر هابطاً إلى الترمذ في الشمال إلى بلاد الجوزجان. وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد الناسان من خراسان. وفي العدوة الشرقية هنالك من النهر بلاد الخَتَّل وأكثرها جبال وبلاد الوخش، ويحدها من جهة الشمال جبال البُتَّم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقةً إلى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل به عند باب الفضل بن يحيى. ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأنهار أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش يصب فيه

من الشرق تحت الترمذ إلى جهة الشمال ونهر بَلْخ يخرج من جبال البُتّم من مبدئه عند الجُوزَجان ويصب فيه من غربيه. وعلى هذا النهر من غربيه بلاد آمِد من خراسان. وفي شرقي النهر من هنالك أرض الصُّغْد وأسْروشَنَة من بلاد الترك، وفي شرقها أرض فَرغانَة أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً. وكل بلاد الترك يحوُزها جبال البُتّم إلى شمالها.

وفي الجزء التاسع من غربيه أرض التبّت إلى وسط الجزء وفي جنوبيها بلاد الهند وفي شرقيها بلاد الصين إلى آخر الجزء. وفي أسفل هذا الجزء شمالاً عن بلاد التبت بلاد الخَزْلَجية من بلاد الترك إلى آخر الجزء شرقاً وشمالاً. ويتصل بها من غربيها أرض فرغانة أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً، ومن شرقيها أرض التغرغر من الترك إلى آخر الجزء شرقاً وشمالاً.

وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعاً بقية الصين وأسافله. وفي الشمال بقية بلاد التغرغر. ثم شرقاً عنهم بلاد خِرْخيرَ من الترك أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً. وفي الشمال من أرض خِرخير بلاد كتمان من الترك. وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه إليها ولا مسلك والصعود إلى أعلاه من خارجه صعب في الغاية. وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال أهل تلك الناحية في استخراجه بما يلهمهم الله إليه.

وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك- أمم لا تحصى وهم ظواعن رحّالة أهل إبل وشاه وبقر وخيل للنتاج والركوب والأكل وطوائفهم كثيرة لا يحصيهم إلا خالقهم، وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر -نهر جيحون- ويغزون الكفار منهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون إلى بلاد خراسان والهند والعراق.

الإقليم الرابع

يتصل بالثالث من جهة الشمال:

والجزء الأول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوباً إلى آخره شمالاً، وعليها في الجنوب مدينة طنجة، ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط إلى البحر الرومي في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلاً ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالاً وقصر المجاز وسَبْتَة جنوباً ويذهب مشرّقاً إلى أن ينتهي إلى وسط الجزء الخامس من هذا الإقليم، وينفسح في ذهابه بتدريج إلى أن يغمر الأربعة أجزاء وأكثر الخامس ويغمر عن جانبيه طرفاً من الإقليم الثالث والخامس كما سنذكره. ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضاً. وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة، ثم مايُرْقَة ثم مِنرْقَة ثم سَرْدانية ثم صقلية وهي أعظمها، ثم بُلونُس ثم أقْريطِش ثم قبرص كما نذكرها كلها في أجزائها التي وقعت فيها.

ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من الإقليم الخامس خليج البنادقة، يذهب إلى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفيه ويمر مغرّباً إلى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس.

ويخرج منه أيضاً في آخر الجزء الرابع شرقاً من الإقليم الخامس خليج القسطنطنية يمر في الشمال متضايقاً في عرض رمية السهم إلى آخر الإقليم. ثم يفضي إلى الجزء الرابع من الإقليم السادس وينعطف إلى بحر نيطش ذاهباً إلى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الإقليم السادس كما نذكر ذلك في أماكنه.

وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طَنجة وينفسح إلى الإقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين، وبعدها مدينة سَبْتَة على البحر الرومي، ثم قطاون ثم باديس. ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقاً ويخرج إلى الثالث.

وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي كلها بلاد الأندلس الغربية، ومنها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي أولها طريف عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالَقَة ثم المنكب ثم الْمَريّة. وتحت هذه من لدن البحر المحيط غرباً وعلى مقربة منه شريش ثم لَبلَةُ وقبالتها فيه جزيرة قَادِس، وفي الشرق عن شَريشَ ولَبْلَة أشبيلية ثم أسْتَجَة وقرطبة ومَديلة، ثم غرناطة وجَيّان وأُبّدَة، ثم وادِياش وبَسْطَة وتحت هذه شَنْتَمريّة وشِلْب على البحر المحيط غرباً، وفي الشرق عنهما بطليوس ومارِدَة ويابرَة ثم غافِق وبَزْجالة ثم قلعة رباح. وتحت هذه أشبونَة على البحر المحيط غرباً وعلى نهر باجَة، وفي الشرق عنها شَنتَرين ومورِيَّة على النهر المذكور ثم قَنطَرة السيف. ويسامت أشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقاً مع آخر الجزء من شماليه فينتهي إلى مدينة سالم فيما بعد النصف منه. وتحت هذا الجبل طلبيرة في الشرق من فورنَة ثم طُليطِلَة ثم وادي الحجارة ثم مدينة

سالم. وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين أشبونة بلد قَلْمَريَّة وهذه غربي الأندلس. وأما شرقي الأندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد الْمَريَّة قرطاجنة ثم لَقَنْت ثم دانية ثم بَلَنْسية إلى طرطوشة آخر الجزء في الشرق، وتحتها شمالاً لِيورَقَة وشَقُورة تتاخمان بَسْطَة وقلعة رياح من غرب الأندلس. ثم مَرْسِية شرقاً ثم شاطِبة تحت بلنسية شمالاً، ثم شَقَر ثم طرطوشة ثم طَرَكونَة آخر الجزء. ثم تحت هذه شمالاً أرض مِنجالَة ورِيدَة متاخمان لشَقُورة وطُليطلة من الغرب. ثم أفراغة شرقاً تحت طرطوشة وشمالاً عنها. ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سَرَقُسْطَة ثم لاردة آخر الجزء شرقاً وشمالاً.

والجزء الثاني من هذا الإقليم غمر الماء جميعه إلا قطعة من غربيه في الشمال فيها بقعة جبل البَرْنات ومعناه جبل الثنايا. والسالك يخرج إليه من آخر الجزء الأول من الإقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهي، من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوباً وشرقاً، ويمر في الجنوب بإنحراف إلى الشرق فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفاً عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها إلى البر المتصل وتسمى أرض غشكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة. وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برشلونة ثم أربونة. وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها. ففي غربيه جزيرة سردانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الأقطار يقال إن دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سَرَقوسَة وبَلَرم وطَرابِغَة ومازِر ومُسِّيني، وهذه الجزيرة تقابل أرض إفريقية وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة.

والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر إلا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قَلوريَّة والوسطى من أرض أنكبَرْدَة والشرقية من بلاد البنادقة.

والجزء الرابع من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث. والمعمور منها جزيرة بَلُونُس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة أقريطش مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق منه.

والجزء الخامس من هذا الإقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال، وينتهي الضلع الجنوبي منها إلى نحو الثلثين من الجزء، ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها إلى الغرب منعطفاً مع البحر كما قلناه.

وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام، ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهباً إلى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة. ومن هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس. ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق. ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض إلى أن ينتهي إلى طرف خارج من البحر الرومي متأخر إلى آخر الجزء من الشمال. وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي إلى بلاد الأرمن، وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة. فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللُّكَّام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال، فعلى ساحل البحر بلد أنْطَرطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على ساحله من الإقليم الثالث، وفي شمال أنطرطوس جَبْلَة ثم اللاذقية ثم إسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالاً بلاد الروم.

وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحافاته فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوباً من غربيه حصن الحواني وهو للحشيشة الإسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالفِداويَّة ويسمى الحصن «مصياف» وهو قبالة أنطرطوس. وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن حمص. وفي الشمال عن مِصْياف بين الجبل والبحر بلد أنطاكية. ويقابلها في شرق الجبل الْمَعرَّة وفي شرقها الْمَراغَة وفي شمال أنطاكية الْمَصِّيصَة ثم أَذَنَة ثم طرسوس آخر الشام. ويحاذيها من غرب الجبل قِنَسْرين ثم عين زَرْبَة. وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب. ويقابل عين زربة مَنْبج آخر الشام. وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن عثمان. وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا. وأما بلاد الأرمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مَرْعَش وملطية والمعرة إلى آخر الجزء الشمالي. ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الأرمن نهر جيحان ونهر سَيْحان في شرقيه فيمر بها جَيْحان جنوباً حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصِّيصة ثم ينعطف هابطاً إلى الشمال ومغرباً حتى يصب في البحر الرومي جنوب سَلوقية. ويمر نهر سيحان موازياً لنهر جيحان فيحاذي المعرَّة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب إلى أرض الشام ثم يمر بعين زَرْبَة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف إلى الشمال مغرباً فيختلط بنهر جيحان عند المصِّيصة ومن غربها. وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللُّكَّام إلى جبل السلسلة

ففي جنوبها بلد الرافضة والرقة، ثم حَرّان ثم سَروج والرُها ثم نَصيبين ثم سُمَيْساط وآمد تحت جبل السلسلة. وآخر الجزء من شماله وهو أيضاً آخر الجزء من شرقيه ويمر في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الإقليم الخامس ويمرّان في بلاد الأرمن جنوباً إلى أن يتجاوزا جبل السلسلة، فيمر نهر الفرات من غربي سُمَيْساط وسَروج وينحرف إلى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقّة ويخرج إلى الجزء السادس. ويمر دجلة شرق آمِد وينعطف قريباً إلى الشرق فيخرج قريباً إلى الجزء السادس.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم من غربيه بلاد الجزيرة، وفي الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنتهي في الشرق إلى قرب آخر الجزء. ويعترض من آخر العراق هنالك جبل أصبهان هابطاً من جنوب الجزء منحرفاً إلى الغرب، فإذا انتهى إلى وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغرّباً إلى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمته بجبل السلسلة في الجزء الخامس، فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية، ففي الغربية من جنوبيها مخرج الفرات من الخامس، وفي شماليها مخرج دجلة منه.

أما الفرات فأول ما يخرج إلى السادس يمر بقَرْقيسيا ويخرج من هنالك جدول إلى الشمال ينساب في أرض الجَزيرة ويغوص في نواحيها ويمر من قَرْقيسيا غير بعيد ثم ينعطف إلى الجنوب فيمر بقرب الخابور إلى غرب الرحَبَة ويخرج منه جداول من هنالك، يمر جنوباً ويبقى صِفّين في غربيه. ثم ينعطف شرقاً وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هُبيرة وبالجامعين، وتخرج جميعاً في جنوب الجزء إلى الإقليم الثالث، فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية. ويخرج الفرات من الرحَبَة مشرّقاً على سمته إلى هِيتَ من شمالها يمر إلى الزاب والأنبار من جنوبهما ثم يصب في دجلة عند بغداد.

وأما نهر دجلة فإذا دخل من الجزء الخامس إلى هذا الجزء يمر مشرقاً على سمته ومحاذياً لجبل السلسلة المتصل بجبل العراق على سمته، فيمر بجزيرة ابن عمر على شمالها ثم بالموصل كذلك وتكريت، وينتهي إلى الحديثة فينعطف جنوباً وتبقى الحديثة في شرقه والزّاب الكبير والصغير كذلك، ويمر على سمته جنوباً وفي غرب القادسية إلى أن ينتهي إلى بغداد ويختلط بالفرات، ثم يمر جنوباً على غرب جَرْجَرايا إلى أن يخرج من الجزء إلى الإقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله، ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس عند عبّادان.

وفيما بين نهر دجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداد هي بلاد الجزيرة. ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقته ببغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي إلى بلاد النهروان قبالة بغداد شرقاً ثم ينعطف جنوباً، ويختلط بدجلة قبل خروجه إلى الإقليم الثالث. ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والأعاجم بلاد جَلولاء وفي شرقها عند الجبل بلد حُلوان وصَيْمَرة. وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الأعاجم مشرّقاً إلى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين. وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خَوَنْجان في الغرب والشمال عن أصبهان وتسمى هذه القطعة بلد الهُلوس، وفي وسطها بلد نهاوند، وفي شمالها بلد شهرزور غرباً عند ملتقى الجبلين والدينَوَر شرقاً عند آخر الجزء. وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية قاعدتها الْمَراغَة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن للأكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه. وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز والبندقان. وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر.

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهُلوس، وفيها همذان وقزوين وبقيتها في الإقليم الثالث، وفيها هنالك أصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالإقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس إلى الإقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك، وأنه محيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية. ويهبط هذا الجبل المحيط بأصبهان من الإقليم الثالث إلى جهة الشمال ويخرج إلى هذا الجزء السابع محيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحته هنالك قاشان، ثم قُمُّ وينعطف في قرب النصف من طريقه مغرّباً بعض الشيء ثم يرجع مستديراً فيذهب مشرّقاً ومنحرفاً إلى الشمال حتى يخرج إلى الإقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه، ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غرباً إلى آخر الجزء، ومن جنوبه من هنالك قزوين، ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الرّيِّ المتصل معه ذاهباً إلى الشرق والشمال إلى وسط الجزء ثم إلى الإقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان، ويدخل من الإقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه إلى شرقه ويعترض عند جبل الري. وعند انعطافه إلى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرّقاً وبانحراف قليل إلى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه. ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جُرْجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام. ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان وفي

آخرها عند الجبل بلد أَسْتَرَاباذ. وحافات هذا الجبل من شرقيه إلى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان. ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر الجزء. وفي شماله وشرقي جرجان بلد مَهْرجان وخازَّرون وطوس آخر الجزء شرقاً. وكل هذه تحت الجبل. وفي الشمال عنها بلاد نَسا ويحيط بها عند زاوية الجزأين الشمالي والشرقي مفاوز معطلة.

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهباً من الجنوب إلى الشمال. ففي عدوته الغربية رمّ وآمُل من بلاد خراسان والظاهرية والجُرجانية من بلاد خوارزم. ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل أَسْتَرَاباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هَراة، ويمر الجبل في الإقليم الثالث بين هَراة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك.

وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصغْد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد أسروشَنَة ومنها خَجَنْدَة آخر الجزء شرقاً. وفي الشمال عن سمرقند وأسروشنة أرض إيلاق. ثم في الشمال عن إيلاق أرض الشاش إلى آخر الجزء شرقاً ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة، ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضاً في الجزء الثامن إلى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله إلى الإقليم الخامس. ويختلط معه في أرض إيلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الإقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة. وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الإقليم الخامس وينعطف شرقاً ومنحرفاً إلى الجنوب حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطاً بأرض الشاش، ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك إلى جنوبه فيدخل في الإقليم الثالث. وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط هذا الجزء بلاد فاراب. وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة. وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خُجَنْدَة وفيها بلد إسْبيجاب وطِراز.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في غربيه بعد أرض فَرغانة والشاش أرض الخزلجية في الجنوب وأرض الخليجية في الشمال. وفي شرق الجزء كله أرض الكيماكية. ويتصل في الجزء العاشر كله إلى جبل قوقيا آخر الجزء شرقاً وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل يأجوج ومأجوج. وهذه الأمم كلها من شعوب الترك. انتهى.

الإقليم الخامس

الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء إلا قليلاً من جنوبه شرقه؛ لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الإقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالإقليم.

فأما المنكشف من جنوبه فَقِطْعة على شكل مثلث متصلة من هنالك بالأندلس وعليها بقيتها. ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث، ففيها من بقية غرب الأندلس سَعْيُور على البحر عند أول الجزء من الجنوب والغرب وسَلَمَنْكَة شرقاً عنها وفي جوفها سَمُورة وفي الشرق عن سلمنكة آبلة آخر الجنوب وأرض قَشتالة شرقاً عنها وفيها مدينة شَقُونِيَة. وفي شمالها أرض ليون وبَرْغَشْت ثم وراءها في الشمال أرض جليقيَّة إلى زاوية القطعة. وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد سَنْتِياقو ومعناه يعقوب. وفيها من شرق بلاد الأندلس مدينة شِطلية عند آخر الجزء في الجنوب وشرقاً عن قشتالة. وفي شمالها وشرقها وشْقَة ويَنْبلونَة على سمتها شرقاً وشمالاً. وفي غرب ينبلونة قشتالة ثم ناجزة فيما بينها وبين بَرْغَشْت. ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى قرب ويتصل به ويطرف البحر عند ينبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل أن يتصلْ في الجنوب بالبحر الرومي في الإقليم الرابع ويصير حجراً على بلاد الأندلس من جهة الشرق وثناياه لها أبواب تفضي إلى بلاد غشكونية من أمم الفرنج. فمنها من الإقليم الرابع برشلونة وأربونة على ساحل البحر الرومي، وخَرِيدَة وقَرْقَشونَة وراءهما في الشمال. ومنها من الإقليم الخامس طَلُوشَة شمالاً عن خريدة.

وأما المنكشف في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرْنات شرقاً. وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات بلد نَيُونة. وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرض بَنْطو من الفرنج إلى آخر الجزء. وفي الجزء الثاني من الناحية الغربية منه أرض غشكونية، وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما. وفي شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة إلى الشرق قليلاً وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلة في جون من البحر. وعلى رأس هذه القطعة شمالا بلادُ جَنَوَة وعلى سمتها في الشمال جبل نبت جون. وفي شماله وعلى سمته أرض برغونة. وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر

خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في البحر في غربيه نيس وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسي ملك الإفرنجة ومسكن البابا بطركهم الأعظم. وفيها من المباني الضخمة والهياكل الهائلة والكنائس العادية ما هو معروف الأخبار. ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق إلى المغرب مفروشاً قاعه ببلاط النحاس، وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين وهما مدفونان بها. وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد أَقْرَنْصِيصَة إلى آخر الجزء. وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلد قَلُورية من بلاد الفرنج. وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغرّباً ومحاذياً للشمال من هذا الجزء وانتهى إلى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط. وفي شماله بلاد أَنْكِلاية في الإقليم السادس.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في غربيه بلاد قَلُوريَة بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيه يوصل من برها في الإقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال إلى هذا الجزء. وفي شرقي بلاد قلورية بلاد أَنْكِبِردَة في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الإقليم الرابع وفي البحر الرومي. ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهباً إلى سمت الشمال ثم ينعطف إلى الغرب محاذياً لآخر الجزء الشمالي. ويخرج على سمته من الإقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ثم يغرّب معه في الإقليم السادس إلى أن ينتهي قبالة خليج في شماليه في بلاد إنكلاية من أمم اللِمانيّين كما نذكر. وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داما ذاهبين إلى الشمال بلاد البنادقة، فإذا ذهبا إلى المغرب فبينهما بلاد حَرَوايا ثم بلاد الألمانيين عند طرف الخليج.

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم قطعة من البحر الرومي خرجت إليه من الإقليم الرابع مُضَرَّسَةً كلها بقطع من البحر. ويخرج منها إلى الشمال وبين كل ضِرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما وفي آخر الجزء شرقاً قطع من البحر. ويخرج منها إلى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال إلى أن يدخل في الإقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مشرّقاً إلى بحر نيطش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعدة من الإقليم السادس كما نذكر.

وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال. وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الأحاديث. والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم. وفي شرقي هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها لهذا العهد مجالات للتركمان، وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها بورصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الأمم إلى أن صارت للتركمان.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم من غربيه وجنوبيه أرض باطوس، وفي الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد عمورية، وفي شرقي عمورية نهر قباقب الذي يمد الفرات يخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الثاني إلى ممره في الإقليم الرابع. وهنالك في غربيه آخر الجزء في مبدأ نهر سَيْحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبين على سمته وقد مر ذكرهما. وفي شرقه هنالك مبدأ نهر الدجلة الذاهب على سمته وفي موازاته حتى يخالطه عند بغداد. وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد مَيّافارقين. ونهر قباقب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين: إحداهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه وأسافلها إلى آخر الجزء شمالاً، ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقب أرض عمورية كما قلناه، والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ الدجلة والفرات، وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرضي عمورية من وراء جبل قباقب، وهي عريضة وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد خَرْشَنَة. وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوبه وغربه بلاد أرمينية متصلة إلى أن يتجاوز وسط الجزء إلى جانب الشرق. وفيها بلدان أردن في الجنوب والغرب، وفي شمالها تَفْلِيس ودُبَيْلُ. وفي شرق أردنَ مدينة خِلاط ثم بَردَعَة، وفي جنوبها بانحراف إلى الشرق مدينة أرمينية. ومن هنالك مخرج بلاد أرمينية إلى الإقليم الرابع. وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الأكراد المسمى بأَرْمَى وقد مر ذكره في الجزء السادس منه. ويتاخم بلاد أرمينية في هذا الجزء وفي الإقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقاً بلاد أَرْدَبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرسان. وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان. ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال

جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب إلى الجزء الخامس فتمر فيه منعطفة ومحيطة ببلد ميَّافارقين. ويخرج إلى الإقليم الرابع عند آمِد، ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ومن هنالك يتصل بجبل اللُّكَام كما مر. وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثنايا كالأبواب تفضي من الجانبين. ففي جنوبيها بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب. وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبيها ببلد أرمينية. وبينهما في الشرق وبين بلاد أذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة إلى بحر طبرستان. وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرير في الزاوية الغربية الشمالية منها. وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضاً من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية وقد مر ذكره. ويحف بهذه القطعة من بحر نيطش بلاد السرير وعليها منها بلد أَطْرابَزُنْدَة وتتصل بلاد السرير بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء إلى أن ينتهي شرقاً إلى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر. وعند آخرها مدينة صول. ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنتهي إلى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالاً.

والجزء السابع من هذا الإقليم غربيه كله مغمور ببحر طبرستان، وخرج من جنوبه في الإقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديْلَم إلى قزوين. وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الإقليم الرابع. ويتصل بها من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقيه أيضاً.

وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر أَتْل في هذا البحر. ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغُزّ من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب إلى ما دون وسطه فينعطف إلى الشمال إلى أن يلاقي بحر طبرستان فيحتف به ذاهباً معه إلى بقيته في الإقليم السادس، ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياه ويذهب مغرّباً إلى الجزء السادس من الإقليم السادس ثم يرجع جنوباً إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس. وهذا الطرف منه هو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السرير وأرض الخزر. واتصلت بأرض الخزر في الجزء السادس والسابع حافات هذا الجبل المسمى جبل سياه كما سيأتي.

والجزء الثامن من هذا الإقليم الخامس كله مجالات لِلْغُزّ من أمم الترك وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثلاثمائة ميل ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات. وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عَرْعون دورها أربعمائة ميل وماؤها حلو. وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مِرغار. ومعناه جبل الثلج؛ لأنه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء. وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيئاً يسمى عرعون وبه سميت البحيرة. وينجلب منه ومن جبل مِرغار شمالي البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم بلاد أَرْكَس من أمم الترك في غرب بلاد الغُزّ وشرق بلاد الكيماكية. ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج يعترض هنالك من الجنوب إلى الشمال حتى ينعطف أول دخوله من الجزء العاشر، وقد كان دخل إليه من آخر الجزء العاشر من الإقليم الرابع قبله واحتف هنالك بالبحر المحيط إلى آخر الجزء في الشمال، ثم انعطف مغرّباً في الجزء العاشر من الإقليم الرابع إلى ما دون نصفه وأحاط من أوله إلى هنا ببلاد الكيماكية، ثم خرج إلى الجزء العاشر من الإقليم الخامس فذهب فيه مغرّباً إلى آخره وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة إلى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكية، ثم خرج إلى الجزء التاسع في شرقيه وفي الأعلى منه وانعطف قريباً إلى الشمال، وذهب على سمته إلى الجزء التاسع من الإقليم السادس. وفيه السد هنالك كما نذكره. وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة إلى الجنوب وهي من بلاد يأجوج ومأجوج.

وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم أرض يأجوج ومأجوج متصله فيه كله إلا قطعةً من البحر المحيط غمرت طرفاً في شرقيه من جنوبه إلى شماله وإلا القطعة التي يفصلها إلى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه وما سوى ذلك فأرض يأجوج ومأخوج، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإقليم السادس

فالجزء الأول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقاً مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية إلى الجنوب وانتهى قريباً من الناحية الجنوبية فانكشفت قطعة من هذه الأرض في هذا الجزء داخلة بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولاً وعرضاً وهي كلها أرض بريطانية. وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من

هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الأول والثاني من الإقليم الخامس.

والجزء الثاني من هذا الإقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله، فمن غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانية في الجزء الأول، واتصلت بها القطعة الأخرى في الشمال من غربه إلى شرقه وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك قطعة من جزيرة إنكلترة، وهي جزيرة عظيمة متسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الإقليم السابع. وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد أرْمَنْدِيَة وبلاد أفْلاَدَش متصلين بها ثم بلاد إفرنسية جنوباً وغرباً من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقاً عنها وكلها لأمم الإفرنجة وبلاد اللّمانيين في النصف الشرقي من الجزء. فجنوبه بلاد أنكلاية ثم بلاد برغونية شمالاً ثم أرض لهويكة وشطونية. وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض أفْريزة وكلها لأمم اللّمانيين. وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية بلاد مَراتية في الجنوب وبلاد شَطونية في الشمال. وفي الناحية الشرقية بلاد أنْكَوِيَّة في الجنوب وبلاد بَلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بَلْواط داخلاً من الجزء الرابع ويمر مغرّباً بانحراف إلى الشمال إلى أن يقف في بلاد شَطونية آخر النصف الغربي.

وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جَثولية. وتحتها في الشمال بلاد الروسية. ويفصل بينهما جبل بَلْواط من أول الجزء غرباً إلى أن يقف في النصف الشرقي. وفي شرق أرض جثولية بلاد جرمانية. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطش، فيقع قطيعة من بحر نيطش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمدها الخليج وبينهما في الزاوية بلد مسيناه.

وفي الجزء الخامس من الإقليم السادس، ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج على سمته مشرقاً فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبدئه في عرض ستمائة ميل. ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها إلى شرقها بر مستطيل في غربه هِرَقْلِيَّة على ساحل بحر نيطش متصلة بأرض البَيْلقان من الإقليم الخامس. وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سَوْتلي على بحر نيطش. وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غرباً أرض تَرْخان وشرقاً بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر. وبلاد الروسية محيطة ببلاد تَرْخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الإقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الإقليم.

وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطش وينحرف قليلاً إلى الشمال ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالاً بلاد قُمانيَة، وفي جنوبه منفسحاً إلى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانيَة التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر. وفي شرقها أرض برطاس وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بُلغار. وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلْجَر يجوزها هناك قطعة من جبل سياه كوه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده، ويذهب بعد مفارقته مغرّباً فيجوز في هذه القطعة ويدخل إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس، فيتصل هنالك بجبل الأبواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر.

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم في الناحية الجنوبية ما جازه جبل سياه بعد مفارقته بحر طبرستان. وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غرباً. وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها. ووراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس. وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض شَخْرَب وَيَخناك وهم أمم الترك.

وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجَوْلَخ من الترك في الناحية الشمالية غرباً والأرض المنتنة وشرق الأرض التي يقال: إن يأجوج ومأجوج خرباها قبل بناء السد. وفي هذه الأرض المنتنة مبدأ نهر الأثل من أعظم أنهار العالم ومره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الإقليم الخامس في الجزء السابع منه. وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل في الأرض المنتنة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد، ويمر على سمت الغرب إلى آخر السابع من هذا الإقليم فينعطف شمالاً إلى الجزء السابع من الإقليم السابع فيمر في طرفه بين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب مغرّباً غير بعيد ثم ينعطف ثانية إلى الجنوب ويرجع إلى الجزء السادس من الإقليم السادس، ويخرج منه جدول يذهب مغرّباً ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق في بلاد بلغار، فيخرج في الجزء السابع من الإقليم السادس، ثم ينعطف ثالثةً إلى الجنوب وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الخزر، ويخرج إلى الإقليم الخامس في الجزء السابع منه، فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية.

والجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلاد

خَفْشاخ من الترك وهم قَفْجاق وبلاد الشركس منهم أيضاً. وفي الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره، يبدأ من البحر المحيط في شرق الإقليم الرابع ويذهب معه إلى آخر الإقليم في الشمال ويفارقه مغرِّباً وبانحراف إلى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الإقليم الخامس فيرجع إلى سمته الأول حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الإقليم من جنوبه إلى شماله بانحراف إلى المغرب، وفي وسطه ههنا السد الذي بناه الإسكندر، ثم يخرج على سمته إلى الإقليم السابع، وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه إلى الجنوب إلى أن يلقى البحر المحيط في شماله، ثم ينعطف معه من هنالك مغرِّباً إلى الإقليم السابع إلى الجزء الخامس منه، فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيه. وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي بناه الإسكندر كما قلناه. والصحيح من خبره في القرآن وقد ذكر عبد الله بن خُرْداذِبّة في كتابه في الجغرافيا أنّ الواثق رأى في منامه كان السد انفتح فانتبه فزعاً وبعث سلاّماً التَرْجُمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا هذا.

وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم بلاد مأجوج متصلة فيه إلى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط، أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق.

الإقليم السابع

والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال إلى وسط الجزء الخامس، حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج.

فالجزء الأول والثاني مغموران بالماء إلا ما انكشف من جزيرة إنكلترة التي معظمها في الثاني. وفي الأول منها طرف انعطف بانحراف إلى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الإقليم السادس وهي مذكورة هناك. والمجاز منها إلى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلاً. ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رَسْلانْدَة مستطيلةً من الغرب إلى الشرق.

والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أكثره بالبحر إلا قطعة مستطيلة في جنوبه وتتسع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض فَلونية التي مر ذكرها في الثالث من الإقليم السادس وأنها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء. ثم في الجانب الغربي منها مستديرةً فسيحةً وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي إلى بلاد فَلونيَة، وفي شمالها جزيرة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب إلى المشرق.

والجزء الرابع من هذا الإقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب إلى المشرق وجنوبه منكشف، وفي غربه أرض قيمازك من الترك وفي شرقها بلاد طَسْتَ ثم أرض رَسْلانْدَة إلى آخر الجزء شرقاً وهي دائمة الثلوج وعمرانها قليل. ويتصل ببلاد الروسية في الإقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهي في الشمال إلى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل. وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القَمانية التي على قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الإقليم السادس وينتهي إلى بحيرة طَرْمى من هذا الجزء وهي عذبة تنجلب إليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال. وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من الترك من التركمان إلى آخره.

وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانية، وفي وسط الناحية بحيرة غَثور عذبةً تنجلب إليها الأنهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائماً لشدة البرد إلا قليلاً في زمن الصيف. وفي شرق بلاد القمانية بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الإقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بُلْغار التي كان مبدؤها في الإقليم السادس. وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغار منعطف نهر أَتُلَ القطعة الأولى إلى الجنوب كما مر. وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصلاً من غربه إلى شرقه.

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم في غربه بقية أرض يخناك من أمم الترك. وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء، ويخرج إلى الإقليم السادس من فوقه. وفي الناحية الشرقية بقية أرض سُحْرَب ثم بقية الأرض المنتنة إلى آخر الجزء شرقاً. وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلاً من غربه إلى شرقه.

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم في الجنوبية الغربية منه متصل الأرض المنتنة. وفي شرقها الأرض المحفورة وهي من

العجائب: خرق عظيم في الأرض بعيد المهوى فسيح الأقطار ممتنع الوصول إلى قعره، يُستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنيران في الليل تضيء وتخفى. وربما رُئي فيها نهر يشقها من الجنوب إلى الشمال. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد. وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلاً من الشرق إلى الغرب.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلاد خَفْشاخ وهم قَفْجَق يجوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه إلى الجنوب بانحراف إلى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الإقليم السادس ويمر معترضاً فيه. وفي وسطه هنالك سد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله.

والجزء العاشر غمر البحر جميعه.

هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾.

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير في أحوالهم

قد بينا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال. ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً. فالإقليم الرابع أعدل العمران والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال. والأول والسابع أبعد بكثير؛ فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال. وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها. ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية. وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند اللّه.

وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم، يتخذون البيوت المنجّدة بالحجارة المنمّقة بالصناعة ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون في ذلك إلى الغاية. وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير. ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين. ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم. وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين، وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة. ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها؛ لأنها وسط من جميع الجهات. وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم. فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكه بلادهم وأُدُمُها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف. ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدِّرونها للمعاملات. وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم. حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً وكذا الصقالبة. والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك.

وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً فلا يعرفون نبوّةً ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام وما بعده لهذا العهد، ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد يقال: إنهم دانوا به في المائة السابعة، ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والإفرنجة والترك من الشمال. ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً، فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والأحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما إليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني، فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات

الثلاث كما ذكرنا، فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر. وقد توهَّم بعض النسَّابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه، وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القُصّاص. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد إخوته لا غير. وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات. وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب، فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة، قريبة إحداهما من الأخرى، فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسوَدُّ جلودهم لإفراط الحر. ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس. شمل سكانهما أيضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفْرط بالشمال، إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرئي العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المُسامتة ولا ما قرب منها، فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيضُّ ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورَة. ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور. وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة: الخامس والرابع والثالث، فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر.

والرابع أبلغها في الاعتدال غاية لنهايته في التوسط كما قدمناه. فكان لأهله من الاعتدال في خَلْقِهم وخُلُقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم. وتبعه من جانبيه الثالث والخامس وإن لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا قليلاً إلى الجنوب الحار وهذا قليلا إلى الشمال البارد إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف. وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خَلْقهم وخُلُقهم، فالأول والثاني للحر والسواد، والسابع للبرد والبياض. ويسمى سكان الجنوب من الإقليمين الأول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد، وإن كان اسم الحبشة مختصاً منهم بمن تجاه مكة واليمن، والزنج بمن تجاه بحر الهند. وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود لا حام ولا غيره. وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض، فتبيضُّ ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام. وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب تسودُّ ألوان أعقابهم. وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء. قال ابن سينا في أُرجوزته في الطب:

بالزنج حر غيَّر الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا
والصَّقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

وأما أهل الشمال فلم يسمَّوا باعتبار ألوانهم؛ لأن البياض كان لوناً لأهل تلك اللغة الواضعة للأسماء. فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده. ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطُغُرْغُز والخَزَر واللان والكثير من الإفرنجة ويأجوج ومأجوج أسماءً متفرقةً وأجيالاً متعددة مسمَّين بأسماء متنوعة. وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة، أهل الاعتدال في خَلْقهم وخُلُقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والملك فكانت فيهم النبوّات والمُلك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفِراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة. وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبني إسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين.

ولما رأى النسَّابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب: فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في ألوانهم، فتكلَّفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث وأكثر الأمم المعتدلة وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والسياسة والمُلك من ولد سام. وهذا الزعم إن صادف الحق في انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد، إنما هو إخبار عن الواقع لا أن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود. وما أدّاهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط وليس كذلك: فإن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني إسرائيل والفرس، ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشِّعار والنسب كما للعرب. ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم. فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نِحْلَة أو لون أو سِمة وجدت لذلك الأب، إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات وإن هذه كلها تتبدَّل في الأعقاب ولا يجب استمرارها: ﴿سنة الله في عباده وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾؛ والله ورسوله أعلم بغيبه وأحكم، وهو المولى المنعم الرؤوف الرحيم.

المقدمة الرابعة

في أثر الهواء في أخلاق البشر

قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر. والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه. وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته. ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه، فيتفشّى الروح وتجيء طبيعة الفرح. وكذلك نجد المتنعّمين بالحمّامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور. ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً، فتكون أكثر تفشّياً، فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً، ويجيء الطيش على أثر هذه، وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة. وقد نجد يسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها؛ لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتُلول. واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها، كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب، حتى إنهم لا يدّخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامّةُ مآكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب، حتى إن الرجل منهم ليدّخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يُرزأ شيئاً من مدّخره، وتتبّع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء. والله الخلاق العليم.

وقد تعرّض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم، وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم، وهذا كلام لا محصّل له ولا برهان فيه. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم

اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه؛ لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران، وفيها الأرض الحرة الترب لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة، فسكانها في شظف من العيش: مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان، فإن هؤلاء يفقدون الحبوب والأدم جملةً، وإنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم، ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار، فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول إلا أن ذلك في الأحايين وتحت ربقة من حاميتها وعلى الإقلال لقلة وجدهم، فلا يتوصلون منه إلى سد الخَلة أو دونها فضلاً عن الرغد والخصب، وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان وتعوّضهم من الحنطة أحسن معاض. وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش: فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات. هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم. فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين الملثّمين وأهل التلول. يعرف ذلك من خبره. والسبب في ذلك والله أعلم أن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولّد في الجسم فضلات رديئةً ينشأ عنها بُعد أقطارها في غير نسبة ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه، وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الردية، فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة. واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال

والنعام والمَها والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بوناً بعيداً في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها وحدَّة مداركها. فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر، أخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت. وما ذاك إلا لأجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره، والجوع لحيوان القفر حسَّن في خلقها وأشكالها ما شاء. واعتبر ذلك في الآدميين أيضاً: فإنا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم. وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والحنطة مع المتقشِّفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة، مثل المصامدة منهم وأهل غِمارة والسوس، فتجد هؤلاء أحسن حالاً في عقولهم وجسومهم. وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الأدْم والبُرّ مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملةً، وغالب عيشهم الذرة، فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم مالا يوجد لغيرهم. وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأمصار. فإن أهل الأمصار وإن كانوا مكثرين مثلهم من الأدم ومخصبين في العيش إلا أن استعمالهم إياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرقُّ قِوامها، وعامة مآكلهم لحوم الضأن والدجاج، ولا يغبطون السمن من بين الأدم لتفاهته فتقلُّ الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويخفُّ ما تؤديه إلى أجسامهم من الفضلات الرديئة؛ فلذلك تجد جسوم أهل الأمصار ألطف من جسوم أهل البادية المخشَّنين في العيش. وكذلك تجد المعوَّدين بالجوع من أهل البادية لا فضلات في جسومهم غليظةً ولا لطيفةً.

واعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة، فنجد المتقشِّفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب. بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمُّها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللُّحمان والأدم ولُباب البُر. ويختص وجود العبّاد والزهّاد لذلك بالمتقشِّفين في غذائهم من أهل البوادي. وكذلك نجد حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفاً باختلاف حالها في الترف والخصب. وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيِّباته من أهل البادية ومن أهل الحواضر والأمصار إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم، مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا، لا مثل العرب أهل القفر والصحراء، ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر، ولا مثل أهل إفريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت، وأهل الأندلس الذين غالب عيشيم الذرة والزيت، فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر. والسبب في ذلك والله أعلم أن المنغمسين في الخصب المتعوِّدين للأدم والسمن خصوصاً تكتسب من ذلك أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية المزاجية حتى تجاوز حدها، فإذا خولف بها العادة بقلة الأقوات وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المعي اليبس والانكماش، وهو ضعيف في الغاية، فيسرع إليه المرض ويهلك صاحبه دفعةً؛ لأنه من الْمَقَاتِل. فالهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق. وأما المتعوِّدون للْعَيْمَة وترك الأدْم والسمن فلا تزال رطوبتهم الأصلية واقفةً عند حدِّها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعة، فلا يقع في مِعاهم بتبدُّل الأغذية يَبَس ولا انحراف، فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الأدم في المآكل.

وأصل هذا كله أن تعلم أن الأغذية وائتلافها أو تركها إنما هو بالعادة. فمن عوَّد نفسه غذاء ولاءمه تناوله كان له مألوفاً وصار الخروج عنه والتبدُّل به داءً، ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتُّوع وما أفرط في الانحراف. فأما ما وجد فيه التغذِّي والملاءمة فيصير غذاء مألوفاً بالعادة. فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللَّبن والبقل عوضاً عن الحنطة حتى صار له دَيْدَناً فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك. وكذا من عوَّد نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضيات، فإنا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها. والسبب في ذلك العادة، فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلَّتها وطبيعتها؛ لأنها كثيرة التلوُّن، فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادةً طبيعيةً لها. وما يتوهَّمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهَّمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة. وقطع عنها الغذاء بالكلِّيَّة، فإنه حينئذ ينحسم المعى ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك. وأما إذا كان ذلك القدر تدريجاً ورياضةً بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما يفعله المتصوِّفة فهو بمعزل عن الهلاك. وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة، فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعةً خيف عليه الهلاك، وإنما يرجع به كما بدأ

في الرياضة بالتدريج. ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصالاً وأكثر. وحضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين، وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصحّ شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا. ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار أو عند الإفطار ويكون ذلك غذاءه، واستدام على ذلك خمس عشرة سنةً وغيرهم كثير، ولا يستنكر ذلك.

واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الإقلال منها، وأن له أثراً في الأجسام والعقول في صفاتها وصلاحها كما قلناه، واعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسوم. فقد رأينا المتغذّين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشأ أجيالهم كذلك. وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة. وكذا المتغذّون بألبان الإبل ولحومها أيضاً، مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال الموجود ذلك للإبل، وتنشأ أمعاؤهم أيضاً على نسبة أمعاء الإبل في الصحة والغلظ، فلا يطرقها الوهن ولا الضعف، ولا ينالها من مضارُّ الأغذية ما ينال غيرهم فيشربون اليَتُوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة، كالحنظل قبل طبخه والدِّرياس والقَرْبيون ولا ينال أمعاءهم منها ضرر، وهي لو تناولها أهل الحضر الرقيقة أمعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الأغذية لكان الهلاك أسرع إليهم من طرفة العين لما فيها من السمِّيَّة. ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الإبل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون. وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضَّن فيجيء دجاجها في غاية العظم. وأمثال ذلك كثيرة، فإذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان فلا شك أن للجوع أيضاً آثارا في الأبدان؛ لأن الضدَّين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه، فيكون تأثير الجوع في نقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلَّة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثِّراً في وجود ذلك الجسم. والله محيط بعلمه.

المقدمة السادسة

في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة ويتقدّمه الكلام في الوحي والرؤيا

اعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضّلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل بينهم وبين عباده، يعرِّفونهم بمصالحهم ويحرِّضونهم على هدايتهم، ويأخذون بحجزاتهم عن النار، ويدلُّونهم على طريق النجاة. وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار الكائنات المغيَّبة عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم. قالﷺ: «ألا وإني لا أعلم إلا ما علَّمني الله». واعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيَّته وضرورته الصدق، لما يتبيَّن لك عند بيان حقيقة النبوّة.

وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشي أو إغماء في رأي العين وليست منهما في شيء، وإنما هي في الحقيقة استغراق في لقاء المَلِك الروحاني بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلّيّة. ثم يتنزّل إلى المدارك البشرية: إما بسماع دويٍّ من الكلام فيتفهَّمه، أو يتمثّل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله. ثم تنجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقي إليه. قال ﷺ وقد سئل عن الوحي: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثَّل لي المَلَك رجلا فيكلِّمني فأعي ما يقول». ويدركه أثناء ذلك من الشدَّة والغَطِّ ما لا يعبَّر عنه. ففي الحديث: «كان مما يعالج من التنزيل شدَّة». وقالت عائشة: كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً. وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. ولأجل هذه الحالة في تنزُّل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ويقولون: له رئي أو تابع من الجن. وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي، خُلُق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع. وهذا هو معنى العصمة. وكأنّه مفطور على التنزُّه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنها منافية لجبلَّته. وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العبَّاس لبناء الكعبة، فجعلها في إزاره فانكشف فسقط مغشياً عليه حتى استتر بإزاره، ودُعي إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب

فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم، بل نزّهه الله عن ذلك كلّه حتى إنه بجبلّته يتنزّه عن المطعومات المستكرهة. فقد كان ﷺ لا يقرب البصل والثوم، فقيل له في ذلك فقال: «إني أناجي من لا تناجون».

وانظر لما أخبر النبي ﷺ خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول ما فجأته وأرادت اختباره فقالت: اجعلني بينك وبين ثوبك؛ فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت: إنه ملك وليس بشيطان؛ ومعناه أنه لا يقرب النساء. وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها فقال: «البياض والخضرة» فقالت: إنه الْمَلَك، يعني أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة، والسواد من ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك.

ومن علاماتهم أيضاً دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف. وقد استدلّت خديجة على صدقه ﷺ بذلك، وكذلك أبو بكر، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه. وفي الصحيح أن هِرَقْل حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام أحضر من وجد ببلده من قريش، وفيهم أبو سفيان ليسألهم عن حاله، فكان فيما سأل أن قال: بما يأمركم؟ فقال أبو سفيان: بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابه فقال: إن يكن ما تقول حقاً فهو نبي وسيملك ما تحت قدميَّ هاتين. والعفاف الذي أشار إليه هرقل هو العصمة. فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلاً على صحة نبوّته، ولم يحتج إلى معجزة. فدلَّ على أن ذلك من علامات النبوّة.

ومن علاماتهم أيضاً أن يكونوا ذوي حسب في قومهم. وفي الصحيح: «ما بعث اللّه نبياً إلا في منعة من قومه» وفي رواية أخرى «في ثروة من قومه»؛ استدركه الحاكم على «الصحيحين» وفي مساءلة هرقل لأبي سفيان كما هو في «الصحيح» قال: كيف هو فيكم؟ فقال أبو سفيان: هو فينا ذو حسب؛ فقال هرقل: والرسل تبعث في أحساب قومها؛ ومعناه أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلِّغ رسالة ربِّه ويتم مراد اللّه من إكمال دينه ومِلَّته.

ومن علاماتهم أيضاً وقوع الخوارق لهم شاهدةً بصدقهم، وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسمِّيت بذلك معجزةً وليست من جنس مقدور العباد، وإنما تقع في غير محل قدرتهم، وللناس في كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الأنبياء خلاف.

فالمتكلِّمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدرة اللّه لا بفعل النبي، وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم. وليس للنبي فيها عند سائر المتكلِّمين إلا التحدِّي بها بإذن اللّه، وهو أن يستدلَّ بها النبي ﷺ قبل وقوعها على صدقه في مدَّعاه. فإذا وقعت تنزَّلت منزلة القول الصريح من اللّه بأنه صادق، وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية. فالمعجزة دالة بمجموع الخارق والتحدي، ولذلك كان التحدِّي جزءاً منها. وعبارة المتكلِّمين صفة نفسها، وهو واحد لأنه معنى الذاتي عندهم.

والتحدِّي هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر، إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق، فلا وجود للتحدِّي إلا إن وجد اتفاقاً. وإن وقع التحدِّي في الكرامة عند من يجيزها وكانت لها دلالة فإنما هي على الولاية وهي غير النبوّة. ومن هنا منع الأستاذ أبو إسحق وغيره وقوع الخوارق كرامة فراراً من الالتباس بالنبوّة عند التحدِّي بالولاية. وقد أريناك المغايرة بينهما وإنه يتحدّى بغير ما يتحدى به النبي، فلا لبس على أن النقل عن الأستاذ في ذلك ليس صريحاً وربما حُمل على إنكار أنْ تقع خوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارقه.

وأما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أنَّ الخوارق ليست من أفعال العباد، وأفعالهم معتادة فلا فرق.

وأما وقوعها على يد الكاذب تلبيساً فهو محال. أما عند الأشعرية فلأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية، فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهةً، والهداية ضلالةً، والتصديق كذباً، واستحالت الحقائق، وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكناً. وأمّا عند المعتزلة فلأنَّ وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من اللّه.

وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي، ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الذاتي ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقِّف عن الأسباب والشروط الحادثة مستندة أخيراً إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار، وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية، منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين. والنبي عندهم مجبول على التصريف في الأكوان مهما توجَّه إليها واستجمع لها بما جعل اللّه له من ذلك. والخارق عندهم يقع للنبي سواء كان للتحدِّي أم لم يكن، وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرف النبي في الأكوان الذي هو من خواصِّ النفس النبويّة لا بأنه يتنزَّل منزلة القول الصريح بالتصديق؛ فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعيةً كما هي عند المتكلِّمين، ولا يكون التحدِّي جزءاً من المعجزة، ولم يصح فارقاً لها عن السحر والكرامة. وفارقها عندهم عن السحر

أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يُلِمُّ الشر بخوارقه، والساحر على الضدّ، فأفعاله كلها شر، وفي مقاصد الشر. وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء، والنفوذ في الأجسام الكثيفة وإحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران في الهواء، وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء. ويأتي النبي بجميع خوارقه، ولا يقدر هو على مثل خوارق الأنبياء. وقد قرّر ذلك المتصوّفة فيما كتبوه في طريقتهم ولقّنوه عمن أخبرهم.

وإذا تقرّر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزّل على نبينا محمدﷺ. فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرةً للوحي الذي يتلقّاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المدّعى وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة لاتّحاد الدليل والمدلول فيه. وهذا معنى قولهﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أُوحي إلي. فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»؛ يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفسَ الوحي كان الصدق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدِّق المؤمن وهو التابع والأمّة.

تفسير حقيقة النبوّة

ولنذكر الآن: تفسير حقيقة النبوّة على ما شرحه كثير من المحقّقين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرّافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول:

اعلم أرشدنا اللّه وإياك، أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسبَّبات، واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته. وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني. وأولاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدرّج صاعداً من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض. وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً، ويستحيل بعض الأوقات. والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط، وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها. ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب؛ لأن يصير أول أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرويّة، ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الرويّة والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده. وهذا غاية شهودنا.

ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثاراً متنوعةً: ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر، وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك، تشهد كلها بأن لها مؤثّراً مبايناً للأجسام. فهو روحاني ويتصل بالمكوّنات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها، وذلك هو النفس المدركة والمحرّكة. ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضاً، ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعقُّلا محضاً وهو عالم الملائكة. فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكيّة لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات في لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد، ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها، شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه. فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل: فهي متصلة بالبدن من أسعف منها ومكتسبة به المدارك الحسّية التي تستعد بها للحصول على التعقُّل بالفعل، ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية، فإن عالم الحوادث موجود في تعقُّلاتهم من غير زمان. وهذا على ما قدّمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض.

ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن، فكأنه وجميع أجزائه مجتمعةً ومفترقةً آلات للنفس ولقواها، أما الفاعليّة فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلّيّة بالبدن متدافعاً. وأما المدركة وإن كانت قوى الإدراك مرتبة ومرتقيةً إلى القوّة العليا منها ومن المفكّرة التي يعبَّر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرها يرتقي إلى الباطن، وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك

المحسوسات مبصرةً ومسموعةً وملموسةً وغيرها في حالة واحدة، وبذلك فارقت قوّة الحس الظاهر؛ لأن المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد. ثم يؤدّيه الحس المشترك إلى الخيال، وهي قوة تمثّل الشي المحسوس في النفس كما هو مجرّد عن المواد الخارجة فقط. وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن الأول من الدماغ: مقدّمه للأولى ومؤخّرة للثانية. ثم يرتقي الخيال إلى الواهمة والحافظة. فالواهمة لإدراك المعاني المتعلّقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الأب وافتراس الذئب. والحافظة لإيداع المدركات كلها متخيَّلةً وغير متخيَّلة وهي لها كالخزانة تحفظها لوقت الحاجة إليها. وآلة هاتين القوّتين في تصريفهما البطن المؤخّر من الدّماغ: أوّله للأولى ومؤخّره للأخرى. ثم ترتقي جميعها إلى قوة الفكر. وآلته البطن الأوسط من الدماغ، وهي القوة التي يقع بها حركة الرؤية والتوجه نحو التعقل، فتحرّك النفس بها دائماً لما ركّب فيها من النزوع للتخلّص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية، وتخرج إلى الفعل في تعقّلها متشبّهةً بالملإ الأعلى الروحاني. وتصير في أول مراتب الروحانيات في إدراكها بغير الآلات الجسمانية. فهي متحركة دائماً ومتوجّهة نحو ذلك. وقد تنسلخ بالكلّيّة من البشرية وروحانيّتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب بل بما جعل اللّه فيها من الجبِلّة والفطرة الأولى في ذلك.

أصناف النفوس البشرية

والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف:

صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسّية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة، وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصوُّرية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه، إذ هو من جهة مبدئه ينتهي إلى الأوّليّات ولا يتجاوزها، وإن فسد فسد ما بعدها. وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني. وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم.

وصنف متوجّه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك، فيتّسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري في ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها لا نطاق من مبدئها ولا من منتهاها. وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللّدُنيّة والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ.

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل، ويحصل له شهود الملإ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة.

الوحي

وهؤلاء الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم جعل اللّه لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم اللّه عليها وجبِلّة صوّرهم فيها ونزّههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية بما ركّب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة، وركّز في طبائعهم رغبةً في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها. فهم يتوجّهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة. فلذا توجّهوا وانسلخوا عن بشريّتهم وتلقّوا في ذلك الملإ الأعلى ما يتلقّونه، وعاجوا به على المدارك البشرية منزّلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد. فتارةً يسمع أحدهم دويّاً كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقي إليه، فلا ينقضي الدّويُّ إلا وقد وعاه وفهمه. وتارةً يتمثّل له الْمَلَك -الذي يلقي إليه- رجلا فيكلّمه ويعي ما يقوله. والتّلقّي من الْمَلَك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقي عليه كلّه كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر؛ لأنه ليس في زمان، بل كلّها تقع جميعاً فيظهر كأنّها سريعة؛ ولذلك سمِّيت وحياً لأن الوحي في اللغة الإسراع.

واعلم أن الأولى وهي حالة الدّويّ هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حقّقوه؛ والثانية وهي حالة تمثّل الْمَلَك رجلاً يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين، ولذلك كانت أكمل من الأولى. وهذا معنى الحديث الذي فسّر فيه النبي ﷺ الوحي لما سأله الحارث بن هشام وقال: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الْمَلَك فيكلّمني فأعي ما يقول». وإنّما كانت الأولى أشدّ لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل فيعسر بعض العسر؛ ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصّت بالسمع وصعب ما سواه. وعندما يتكرّر الوحي ويكثر التلقّي يسهل ذلك الاتصال فعندما يعرج إلى المدارك البشرية

يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها وهو إدراك البصر. وفي العبارة عن الوعـي في الأولى بصيغـة المـاضي، وفي الثانيـة بصيغـة المضارع لطيفة من البلاغة، وهـي أن الكـلام جـاء مجـيء التمثيـل لحالتي الوحي، فمثل الحالة الأولى بالدَّويّ الـذي هـو في المتعـارف غير كلام، وأخبر أن الفهم والوعي يتبعـه غِـبَّ انقضائـه فناسـب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالمـاضي المطـابق للانقضاء والانقطاع ومثَّل الملك في الحالـة الثانيـة برجـل يخـاطب ويتكلَّم، والكلام يساوقه الوعي، فناسب العبارة بالمضارع المقتضي للتجدُّد.

واعلم أن في حالة الوحي كلّها صعوبةً على الجملـة وشـدّة قد أشار إليها القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْـكَ قَـوْلًا ثَقِيـلًا﴾ وقالت عائشة: كان مما يعاني من التنزيل شدة وقالت:: كان يـنزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّـد عرقاً. ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف. وسبب ذلك أن الوحي كما قرّرناه مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقّي كلام النفس، فيحدث عنه شـدّة مـن مفارقـة الذات ذاتها وانسلاخها عنهـا مـن أفقهـا إلى ذلـك الأفـق الآخـر. وهذا هو معنى الغَطّ الذي عبّر به في مبدأ الوحي في قوله: «فغطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقـارئ» وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث. وقد يفضي الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقيـاس إلى مـا قبلـه. ولذلـك كـان تنزُّل نجوم القرآن وسوره وآيه حـين كـان بمكّـة أقصـر منهـا وهـو بالمدينة. وانظر إلى ما نقل في نـزول سـورة بـراءة في غـزوة تبـوك، وأنها نُزِّلت كلُّها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كـان بمكة ينزّل عليه بعض السورة من قصـار المفصَّـل في وقـت ويـنزَّل الباقي في حين آخر. وكذلك كان آخر ما نـزل بالمدينـة آيـة الديـن وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تُـنزَّل بمكـة مثـل آيـات الرحمن والذاريات والمدَّثِّر والضحى والفلـق وأمثالهـا. واعتـبر مـن ذلك علامة تُميِّز بها بين المكي والمدني من السور والآيات. واللّـه المرشد للصواب. هذا محصَّل أمر النبوّة.

الكهانة

وأما الكهانة فهي أيضاً من خواص النفس الإنسانية. وذلك أنه وقد تقدّم لنـا في جميـع مـا مـرّ أن للنفس الإنسـانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقهـا، وأنـه يحصـل مـن ذلك لمحة للبشر في صنف الأنبياء بما فطروا عليه مـن ذلـك وتقـرّر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المـدارك ولا من التصوُّرات ولا من الأفعال البدنيـة كلامـاً أو حركـةً ولا بـأمر من الأمور، إنما هو انسـلاخ مـن البشـرية إلى المَلَكِيَّـة بـالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر.

وإذا كان كذلك، وكان ذلك الاستعداد موجوداً في الطبيعـة البشرية فيعطي التقسيم العقلي وإن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضدِّ عن ضدِّه الكامل؛ لأن عـدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه، وشـتَّان مـا بينهمـا. فإذا أعطي تقسيم الوجود إلى هنا صنفـاً آخـر مـن البشـر مفطـوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثهـا النزوع لذلك وهي ناقصة عنـه بالجبلّـة فيكـون لهـا بالجبلَّـة عندمـا يعوِّقها العجز عن ذلك تشبُّث بـأمور جزئيـة محسوسـة أو متخيَّلـة كالأجسام الشفَّافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح مـن طير أو حيوان، فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً بـه في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشيِّع له. وهذه القـوة الـتي فيهـم مبـدأ لذلـك الإدراك هـي الكهانـة، ولكـون هـذه النفـوس مفطـورةً على النقـص والقصـور عـن الكمـال كـان إدراكهـا في الجزئيات أكثر من الكليّات. ولذلك تكـون المخيِّلـة فيهـم في غايـة القوة؛ لأنّها آلة الجزئيات فتنفـذ فيهـا نفـوذاً تامـاً في نـوم أو يقظـة وتكون عندها حاضرةً عتيدةً تحضرهـا المخيِّلـة وتكـون لهـا كـالمرآة تنظـر فيهـا دائمـاً. ولا يقـوى الكـاهن علـى الكمـال في إدراك المعقولات لأن وحيـه مـن وحـي الشـيطان. وأرفـع أحـوال هـذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشـتغل بـه عن الحواسِّ ويقوى بعض الشيء علـى ذلـك الاتصـال النـاقص، فيهجس في قلبه عن تلك الحركة والذي يشيِّعها من ذلك الأجنـبي ما يقذفه على لسانه، فربما صدق ووافـق الحـقَّ وربمـا كـذب لأنـه يتمِّم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركـة ومبـاين لهـا غـير ملائـم، فيعرض له الصدق والكذب جميعـاً ولا يكـون موثوقـاً بـه. وربمـا يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بـالإدراك بزعمـه، وتمويهاً على السائلين. وأصحـاب هـذا السـجع هـم المخصَّصـون باسم الكهَّان لأنهم أرفع سائر أصنـافهم. وقـد قـال ﷺ في مثلـه: «هذا من سـجع الكهَّـان». فجعـل السـجع مختصـاً بهـم بمقتضـى الإضافة. وقد قال لابن صيَّاد حين سأله كاشفاً عن حاله بالأخبار: «كيف يأتيك هذا الأمر؟» قال: يأتيني صادقاً وكاذباً! فقال: «خلِّط عليك الأمر» يعنى أن النبوّة خاصَّتها الصدق فلا يعتريها الكـذب بحال؛ لأنها اتصال من ذات النبي بالملإ الأعلى من غير مُشـيِّع ولا استعانة بـأجنبي. والكهانـة لمـا احتـاج صاحبهـا بسـبب عجـزه إلى

الاستعانة بالتصوُّرات الأجنبية كانت داخلة في إدراكه والتبست بالإدراك الذي توجَّه إليه فصار مختلطاً بها وطرقه الكذب من هذه الجهة، فامتنع أن تكون نبوّة. وإنما قلنا: إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع؛ لأن معنى السجع أخف من سائر المُغَيَّبات من المرئيات والمسموعات. وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء.

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوّة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن، والكهّان إنما يتعرَّفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ. ولا يقوم من ذلك دليل؛ لأن علوم الكهّان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قرَّرناه. وأيضاً فالآية إنما دلَّت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلَّق بخبر البعثة ولم يُمنعوا مما سوى ذلك. وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوّة فقط، ولعلَّها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر؛ لأن هذه المدارك كلَّها تخمد في زمن النبوّة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس؛ لأن النبوّة هي النور الأعظم الذي يخفى معه كل نور ويذهب.

وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوّة ثم تنقطع، وهكذا كل نبوّة وقعت؛ لأن وجود النبوّة لا بد له من وضع فلكي يقتضيه، وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوّة التي تدل عليها ونقص - ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة -من ذلك النوع الذي يقتضيه- ناقصة، وهو معنى الكاهن على ما قرَّرناه. فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن إمَّا واحداً أو متعدداً. فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانقضت الأوضاع الدالَّة على مثل تلك الطبيعة، فلا يوجد منها شيء بعد. وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلَّم. فلعلَّ الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بهيئته الخاصة، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقضي شيئاً، لا أنه يقتضي ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه.

ثم إن هؤلاء الكهّان إذا عاصروا زمن النبوّة فإنهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته؛ لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوّة كما لكل إنسان من أمر النوم. ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم. ولا يصدُّهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبوّة لهم فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت، فإنه كان يطمع أن يتنبَّأ وكذا وقع لابن صيّاد ولمسيلمة وغيرهم. فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأماني آمنوا أحسن إيمان، كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان.

الرؤيا

وأمّا الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات. فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها. وتصير روحانية بأن تتجرَّد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية. وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم كما نذكر فتقتبس بها علم ما تتشوَّف إليه من الأمور المستقبلة وتعود به إلى مداركها. فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جليٍّ بالمحاكاة والمثال في الخيالي لتخلُّطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير، وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال. والسبب في وقوع هذه اللمحة للنَّفس أنها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه، حتى تصير ذاتها تعقُّلا محضاً ويكمل وجودها بالفعل، فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية. إلا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره. فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن: ومنه خاص كالذي للأولياء، ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا.

وأما الذي للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات. ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرِّراً في حالات الوحي، وهو عندما يُعرِّج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الإدراك يكون شبيهاً بحال النوم شبهاً بيِّناً، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير. فلأجل هذا الشبه عَبَّر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة، وفي رواية ثلاثة وأربعين، وفي رواية سبعين. وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات، وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب. وما ذهب إليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة، ومدة النبوّة كلُّها بمكة والمدينة ثلاث وعشرين سنة، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق. لأنه إنما وقع ذلك للنبي ﷺ ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء مع أن ذلك إنما يعطي نسبة

زمن الرؤيا من زمن النبوّة ولا يعطي نسبة حقيقتها من حقيقة النبوّة. وإذا تبيَّن لك هذا مما ذكرناه أولاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم صلوات اللّه عليهم، إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عاماً في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل. ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ففطر اللّه البشر على ارتفاع حجاب الحواسّ بالنوم الذي هو جبليٌّ لهم، فتتعرَّض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوّف إليه في عالم الحق فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب. ولذلك جعلها الشارع من المبشِّرات فقال: لم يبق من النبوّة إلا المبشِّرات قالوا: وما المُبشِّرات يا رسول اللّه؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له».

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك، وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني، وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما في كتب التشريح لجالينوس وغيره. وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة، وسائر الأفعال البدنية. ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدَّل من برده، وتتم أفعال القوى التي في بطونه. فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري، وهي متعلِّقة به لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية، صار محلاً لآثار الذات المباينة له في جسمانيته وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته. وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين: إدراك بالظاهر وهو الحواس الخمس، وإدراك بالباطن بالقوى الدماغية. وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة. ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرَّضةً للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال، وتغشى الروح بكثرة التصرُّف. فخلق اللّه لها طلب الاستجمام لتجرُّد الإدراك على الصورة الكاملة. وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلّها ورجوعه إلى الحس الباطن. ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن، وتذهب من ظاهره إلى باطنه، فتكون مشيِّعة مركَبها وهو الروح الحيواني إلى الباطن. ولذلك كان النوم للبشر في الغالب إنما هو بالليل. فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة، وخفَّت عن النفس شواغل الحسّ وموانعه ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة تمثّل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة؛ لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً. ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة. وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإدراكها الروحاني لأنها مفطورة عليه، وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلِّقة في ذاتها حينئذ. ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثّلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة. والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير وتصرُّفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي أضغاث أحلام. وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «الرؤيا ثلاث: رؤيا من اللّه، ورؤيا من المَلَك، ورؤيا من الشيطان». وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه: فالجلي من اللّه والمحاكاة الداعية إلى التعبير من المَلَك؛ وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلّها باطل والشيطان ينبوع الباطل. هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيِّعُها من النوم وهي خواص للنفس الإنسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم، بل كل واحد من الأناسي رأى في نومه ما صدر له في يقظته مراراً غير واحدة، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ولا بد. وإذا جاز في ذلك في عالم النوم فلا يمتنع في غيره من الأحوال؛ لأن الذات المدركة واحدة وخواصُّها عامة في كل حال. واللّه الهادي إلى الحق بمنّه وفضله.

الإخبار بالمغيبات

ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالباً إنما هو من غير قصد ولا قدرة عليه؛ وإنما تكون النفس متشوِّفة لذلك الشيء فيقع بتلك اللمحة في النوم لا أنها تقصد إلى ذلك فتراه. وقد وقع في كتاب الغاية وغير من كتب أهل الرياضيات ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكوّن عنها الرؤيا فيما يتشوَّف إليه ويسمونها الحالومية. وذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومة سمّاها «حالومة الطبّاع التام» وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه الكلمات الأعجمية وهي «تماغس بعد أن يسواد وغداس نوفنا غادس» ويذكر حاجته، فإنه يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم.

وحكي أن رجلاً فعل ذلك بعد رياضة ليال في مأكله وذكره، فتمثَّل له شخص يقول له: إن طبّاعك التام، فسأله وأخبره عما كان يتشوَّف إليه. وقد وقع لي أنا بهذه الأسماء مراء عجيبة واطّلعت بها على أمور كنت أتشوَّف عليها من أحوالي. وليس

ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدثها، وإنما هذه الحالومات تحدث استعداداً في النفس لوقوع الرؤيا، فإذا قوي الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما يستعد له وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحبَّ ولا يكون دليلاً على إيقاع المستعد له. فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء، فاعلم ذلك وتدبَّره فيما تجد من أمثاله. والله الحكيم الخبير.

فصل

[الإخبارُ بالكائناتِ قبل وقوعها]

ثم إنا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميَّز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلُّون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها، إنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها، وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفَّافة كالمرايا وطساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل الزجر في الطير والسِّباع، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى، وهذه كلُّها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها. وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها. وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب. وكذلك أهل الرياضيات من المتصوِّفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة. معروفة.

ونحن الآن نتكلم عن هذه الإدراكات كلها ونبتدئ منها بالكهانة ثم نأتي عليها واحدةً واحدةً إلى آخرها. ونقدم على ذلك مقدمة في أن النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها. وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل؛ وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله. وهذا أمر مدرك لكل أحد. وكل ما بالقوة فله مادة وصورة. وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقُّل. فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصُّور الكليَّة والجزئية. ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعوِّدها بورود مدركاتها المحسوسة عليها وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقَّل الصور مرة بعد أخرى، حتى يحصل لها الإدراك والتعقُّل بالفعل، فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة. ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما. وذلك لأن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقُّل لم تتم بعد، بل لم يتم لها انتزاع الكليات. ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك: إدراك بآلات الجسم تؤدِّيه إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها؛ لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني. وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظةً: إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم، أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطَّرْق، أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية. فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملأ لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود كما قررناه قبل. وتلك الذوات روحانية وهي إدراك محض وعقول بالفعل، وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر. فيتجلَّى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً. وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفها في القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به. هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي. ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه.

فأما الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطِساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها، وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلُّهم من قبيل الكهَّان، إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم؛ لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها وأشرفها البصر، فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه. وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك. بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثَّل فيه صور هي مداركهم، فيشيرون إليه بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفي أو إثبات، فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه. وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال، وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفساني ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو معروف. ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك. وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم

بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك، ويزعمون أنهم يرون الصور متشخّصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة. وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين. والعالَم أبو الغرائب.

وأما الزجر وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان. والفكر فيه بعد مغيبه، وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئي أو مسموع. وتكون قوته المخيِّلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعيناً بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما، كما تفعله القوة المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس إذ تتوسّط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا. وأما المجانين فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلُّق بالبدن لفساد أمزجتهم غالباً وضعف الروح الحيواني فيها، فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه، وربما زاحمها على التعلُّق به روحانية أخرى شيطانية تتشبّث به وتضعف هذه عن ممانعتها، فيكون عنه التخبُّط. فإذا أصابه ذلك التخبُّط إما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه، غاب عن حسه جملة فأدرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال. وربما نطق عن لسانه في تلك الحال من غير إرادة النطق.

وإدراك هؤلاء كلّهم مشوب فيه الحق بالباطل؛ لأنه لا يحصل لهم الاتصال وإن فقدوا الحس إلا بعد الاستعانة بالتصوُّرات الأجنبية كما قررناه. ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك. وأما العرافون فهم المتعلّقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال، فيسلّطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك، ويدّعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة.

هذا تحصيل هذه الأمور. وقد تكلّم عليها المسعودي في (مروج الذهب) فما صادف تحقيقاً ولا إصابة. ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف، فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله.

وهذه الإدراكات التي ذكرناها موجودة كلُّها في نوع البشر. فقد كان العرب يفزعون إلى الكهّان في تعرُّف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرِّفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم. وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك. واشتهر منهم في الجاهلية شقٌّ بن أنمار بن نزار وسَطيح بن مازن بن غسّان، وكان يُدْرَجُ كما يُدرج الثوب ولا عظمٌ فيه إلا الجمجمة. ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعه بن مضر وما أخبراه به من مُلك الحبشة لليمن ومُلك مُضَر من بعدهم، وظهور النبوّة المحمدية في قريش ورؤيا الموبذان التي أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوّة وخراب ملك فارس. وهذه كلها مشهورة. وكذلك العرّافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم، قال:

فقلت لعرّاف اليمامة داوني ... فإنك إن داويتني لطبيب

وقال الآخر:

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه ... وعرّاف نجد إن هما شفياني

فقالا شفاك اللّه واللّه ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

وعرّاف اليمامة هو رباح بن عِجْلة، وعراف نجد الأبلق الأسدي.

ومن هذه المدارك الغيبية ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوّف إليه بما يعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد. ولا يقع ذلك إلا في مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلّم كأنه مجبور على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه. وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤوسهم وأوساط أبدانهم كلام بمثل ذلك. ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرّفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يُستبشع. وذكر مَسْلَمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل في دنٍّ مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوماً يغذّى بالتين والجوز حتى يذهب لحمُه ولا يبقى منه إلا العروق وشؤون رأسه، فيخرج من ذلك الدهن فحين يجفُّ عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسأل عنه من عواقب الأمور الخاصة والعامة. وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الإنساني.

ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتاً صناعياً بإماتة جميع القوى البدنية، ثم محو آثارها التي تلوّنت بها النفس ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها. ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع. ومن المعلوم على القطع أنّه إذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابُه واطّلعت النفس ذاتها وعالمها. فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده وتطلّع النفس على المغيبات. ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطّلاع على المغيّبات والتصرفات في العوالم. وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفة

جنوباً وشمالاً خصوصاً بلاد الهند. ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة، والأخبار عنهم في ذلك غريبة.

وأما المتصوِّفة فرياضتهم دينية وعَرِيّة عن هذه المقاصد المذمومة، وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على اللّه بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد، ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالذكر، فبها تتم وجهتهم في هذه الرياضة؛ لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان باللّه، وإذا عرِيت عن الذكر كانت شيطانية. وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرُّف لهؤلاء المتصوِّفة إنما هو بالعَرَض ولا يكون مقصوداً من أول الأمر؛ لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير اللّه، وإنما هي لقصد التصرُّف والاطِّلاع على الغيب وأخسِرْ بها صفقة، فإنها في الحقيقة شرك.

قال بعضهم: من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني. فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا لشيء سواه. وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل فبالعَرَضِ وغير مقصود لهم. وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد اللّه لذاته لا لغيره. وحصول ذلك لهم معروف. ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفاً وما يقع لهم من التصرُّف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم. وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحق الإسفراييني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها. والمعوَّل عليه عند المتكلِّمين حصول التفرقة بالتحدِّي فهو كاف. وقد ثبت في الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن فيكم محدَّثين وإن منهم عمر».

وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي اللّه عنه: يا سارية! الجبل. وهو سارية بن زُنَيم كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورَّط مع المشركين في معترك وهمَّ بالانهزام وكان بقربه جبل يتجهَّز إليه، فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه: يا سارية! الجبل. وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة. ووقع مثله أيضاً لأبي بكر في وصيَّته عائشة ابنته رضي اللّه عنهما في شأن ما نحلها من أوْسُق التمر من حديقته، ثم نبَّهها على جُذاذه لتحوزَه عن الورثة. فقال في سياق كلامه: وإنما هما أخواك وأختاك. فقالت: إنما هي أسماء فمن الأخرى؟ فقال: إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية، فكانت جارية. وقع في «الموطَّأ» في باب ما لا يجوز من النحل. ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء. إلا أن أهل التصوُّف يقولون: إنه يقل في زمن النبوّة إذ لا يبقى للمُريد حالة بحضرة النبي، حتى إنهم يقولون: إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها. واللّه يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق.

فصل

[إخبارُ الغيب عند المتصوفة]

ومن هؤلاء المريدين من المتصوِّفة قوم بهاليلُ معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء، وهم مع ذلك قد صحَّت لهم مقامات الولاية وأحوال الصدِّيقين، وعَلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلَّفين. ويقع لهم من الإخبار عن المغيَّبات عجائب؛ لأنهم لا يتقيَّدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب. وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم، والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط، فإن فضل اللّه يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها. وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فاللّه تعالى يخصُّها بما شاء من مواهبه. وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين، وإنما فُقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهي صفة خاصة للنفس، وهي علوم ضروية للإنسان يشتدُّ بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله. وكأنه إذا ميَّز أحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر في قبول التكاليف لإصلاح معاده. وليس من فقد هذه الصفة بعاقل لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش ولا استحالة في ذلك، ولا يتوقَّف اصطفاء اللّه عباده للمعرفة على شيء من التكاليف. وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهائم. ولك في تمييزهم علامات: منها أن هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما، لا يَخلُون عنها أصلاً من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف؛ والمجانين لا تجد لهم وجهةً أصلاً. ومنها أنهم يُخلقون على البله من أول نشأتهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية، فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة. ومنها كثرة تصرُّفهم في الناس بالخير والشر؛ لأنهم لا يتوقَّفون على إذن لعدم التكليف في حقّهم، والمجانين لا تصرُّفَ لهم.

وهذا فصل انتهى بنا الكلام إليه والله المرشد للصواب.

فصل

[التنجيم وخط الرمل]

وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس: فمنهم المنجّمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك، وآثارها في العناصر، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر، ويتأدّى من ذلك المزاج إلى الهواء. وهؤلاء المنجّمون ليسوا من الغيب في شيء إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس. ونحن نبيّن بطلان ذلك في محله إن شاء الله. وهو لو ثبت فغايته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه في شيء.

ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرُّف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم. ومحصول هذه الصناعة أنهم صيّروا من النقط أشكالاً ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيهما، فكانت ستة عشر شكلاً؛ لأنها إن كانت أزواجاً كلها أو أفراداً كلها فشكلان، وإن كان الفرد فيهما في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال، وإن كان الفرد في مرتبتين فستة أشكال، وإن كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال. جاءت ستة عشر شكلا ميّزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس، شأن الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعية بزعمهم وكأنها البروج الاثنا عشر التي للفلك والأوتاد الأربعة، وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً، ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به، واستنبطوا من ذلك فناً حاذوا به فن النّجامة ونوع قضائه. إلا أن أحكام النّجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما يزعم بطليموس، وهذه إنما مستندها أوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها. ويزعمون أن أصل ذلك من النبوّات القديمة في العالم وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس صلوات الله عليهما، شأن الصنائع كلها. وربما يدّعون مشروعيتها ويحتجّون بقوله ﷺ: «كان نبي يخط، فمن وافق خطّة فذاك». وليس في الحديث دليل على مشروعية خطّ الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه؛ لأن معنى الحديث كان نبي يخطُّ فيأتيه الوحي عند ذلك الخطّ ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء، فمن وافق خطه ذلك النبي فهو ذاك، أي فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط. وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجرّداً من غير موافقة وحي فلا. وهذا معنى الحديث والله أعلم. فإذا أرادوا استخراج مغيّب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب الأربع ثم كرّروا ذلك أربع مرات فتجيء ستة عشر سطراً. ثم يطرحون النقط أزواجاً ويضعون ما بقي من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبته على الترتيب، فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولّدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذي بإزائه، وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر ثم يولّدون من كل شكلين شكلاً تحتهما باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها، ثم يولّدون من الأربعة شكلين كذلك تحتها؛ ثم من الشكلين شكلاً كذلك تحتهما، ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلاً يكون آخر الستة عشر. ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات، والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكماً غريباً. وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التآليف واشتهر فيها الأعلام من المتقدّمين والمتأخّرين وهي كما رأيت تحكّم وهوى. والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نُصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتّة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع من عالم الحس إلى عالم الروح. ولذلك يسمي المنجّمون هذا الصنف كلهم بالزهريين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل مواليدهم على إدراك الغيب. فالخط وغيره من هذه إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الأمور التي ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما، فهو من باب الطَّرق بالحصى والنظر في قلوب الحيوانات والمرايا الشفّافة كما ذكرناه. وإن لم يكن كذلك، وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيده ذلك فهذر من القول والعمل. والله يهدي من يشاء. والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبي أنهم عند توجههم إلى تعرُّف الكائنات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتمطط ومبادىء الغَيبة عن الحس، ويختلف ذلك بالقوة والضعف على

اختلاف وجودها فيهم. فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب في شيء وإنما هو ساع في تنفيق كذبه.

فصل

[حسابُ الجُمَّلِ والزايرجة]

ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبنيّ على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرّافون وإنما هي مغالط يجعلونها كالمصائد لأهل العقول المستضعفة. ولست أذكر من ذلك إلا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص. فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمُّونه حساب النّيم وهو مذكور في آخر كتاب «السياسة» المنسوب لأرسطو يعرف به الغالب من المغلوب في المتحاربين من الملوك. وهو أن تُحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحساب الجُمَّل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد إلى الألف آحاداً وعشرات ومئين وألوفاً. فإذا حسبت الاسم وتحصّل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك. ثم اطرح من كل واحد منهما تسعة تسعة، واحفظ بقية هذا وبقية هذا. ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين: فإن كان العددان مختلفين في الكمية وكانا معاً زوجين أو فردين معاً فصاحب الأقل منهما هو الغالب، وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً فصاحب الأكثر هو الغالب، وإن كانا متساويين في الكمية وهما معاً زوجان فالمطلوب هو الغالب، وإن كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب.

ويقال هنالك بيتان في هذا العمل اشتهرا بين الناس وهما:

أرى الزوج والأفراد يسمو أقلها وأكثرها عند التخالف غالب
ويغلب مطلوب إذا الزوج يستوي وعند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا لمعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم في طرح تسعة، وذلك أنهم جمعوا الحروف الدّالّة على الواحد في المراتب الأربع وهي: (ا) الدّالّة على الواحد و(ي) الدّالّة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات و(ق) الدّالّة على المائة لأنها واحد في مرتبة المئين و(ش) الدّالّة على الألف لأنها واحد في منزلة الآلاف. وليس بعد الألف عدد يدل عليه بالحروف؛ لأن الشين هي آخر حروف أبجد. ثم رتبوا هذه الأحرف الأربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي (ايقش). ثم فعلوا ذلك بالحروف الدّالّة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لأنها كانت آخر حروف أبجد، فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف: وهي (ب) الدّالّة على اثنين في الآحاد و(ك) الدالّة على اثنين في العشرات وهي عشرون و(ر) الدالّة على اثنين في المئين وهي مائتان وصيّروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي (بكر). ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالّة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة (جلس). وكذلك إلى آخر حروف أبجد. وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي: (إيقش، بكر جلس، دمت، هنث، وصخ، زغد، حفظ، طضغ) مرتبة على توالي الأعداد، ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته، فالواحد لكلمة أيقش؛ والاثنان لكلمة بكر، والثلاثة لكلمة جلس، وكذلك إلى التاسعة التي هي طضغ فتكون لها التسعة. فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات، وأخذوا عددها مكانه، ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلاً من حروف الاسم، فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها وإلا أخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدّمناه. والسر في هذا بيِّن. وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الأعداد بطرح تسعة إنما هو واحد، فكأنه يجمع عدد العقود خاصّة من كل مرتبة، فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والألفين وكلها اثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلاثمائة والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة. فوضعت الأعداد على التوالي دالة على أعداد العقود لا غير، وجعلت الحروف الدالّة على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والألوف، وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائباً عن كل حرف فيها سواء دلّ على الآحاد أو العشرات أو المئين، فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها، وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه. هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم. وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها، ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء؛ وهي هذه: أرب يسقك، جزلط، مدوص، هف، تحذن، عش، خغ، تضظ؛ تسع كلمات على توالي العدد، ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته، فيها الثلاثي والرباعي والثنائي. وليست جارية على أصل مطرد كما تراه. لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيمياء وأسرار الحروف والنّجامة وهو أبو العباس بن البنّاء ويقولون عنه: إن العمل بهذه الكلمات في طرح

حساب النيم أصح من العمل بكلمات أيقش. واللّه يعلم كيف ذلك.

وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق. والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزوٌ إلى أرسطو عند المحقّقين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان، يشهد لك بذلك تصفُّحه إن كنت من أهل الرسوخ اهـ.

ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسمّاة «بزايرجة العالم»، المعزوّة إلى أبي العبّاس سيدي أحمد السَّبتي من أعلام المتصوِّفية بالمغرب كان في آخر المائة السادسة بمراكش ولعهد أبي يعقوب المنصور من ملوك الموحِّدين. وهي غريبة العمل صناعة. وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز، فيحرِّضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضه. وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكوّنات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم. وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها: إما البروج وإما العناصر أو غيرهما. وخطوط كل قسم مارّة إلى المركز ويسمُّونها الأوتار. وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة، فمنها برشوم الزِّمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد، ومنها برشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايرجة. وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الأكوان. وعلى ظاهر الدوائر جدول متكثّر البيوت المتقاطعة طولاً وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض، ومائة وواحد وثلاثين في الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت. ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عيّنت البيوت العامرة من الخالية. وحافات الزايرجة أبيات من عروض الطويل على رويِّ اللام المنصوبة تتضمَّن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرجة. إلا أنها من قبيل الألغاز في عدم الوضوح والجلاء. وفي بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحِدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء أشبيليَّة كان في الدولة اللمْتونيَّة ونص البيت

سؤال عظيم الخلق حزت فَصُن إذن غرائب شكٍّ ضبطه الجدُّ مثّلا

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرجة وغيرها. فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسأل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطّعوه حروفاً ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا إلى الزايرجة ثم إلى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أوله ماراً إلى المركز، ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع. فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره والأعداد المرسومة بينهما ويصيِّرونها حروفاً بحساب الجمَّل. وقد ينقلون آحادها إلى العشرات وعشراتها إلى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم. ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد من أوله إلى المركز فقط لا يتجاوزونه إلى المحيط. ويفعلون بالأعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى الحروف الأخرى. ثم يقطِّعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدِّم ويضعونها ناحية، ثم يضربون عدد درج الطالع في أُسِّ البرج. وأُسُّه عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأسُّ عند أهل صناعة الحساب، فإنه عندهم البعد عن أول المراتب. ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الأس الأكبر والدَّور الأصلي. ويدخلون بما تجمَّع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة. ويستخرجون منها حروفاً ويسقطون أخرى. ويقابلون بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمُّونها الأدوار ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور، يعاودون ذلك بعدد الأدوار المعيَّنة عندهم لذلك، فيخرج آخرها حروف متقطِّعة وتؤلَّف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويُّه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدِّم حسبما نذكر ذلك كلَّه في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرجة.

وقد رأينا كثيراً من الخواص يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك الأعمال ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع. وليس ذلك بصحيح؛ لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتّة، وإنما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الإفهام والتوافق في الخطاب حتى يكون الجواب مستقيماً أو موافقاً للسؤال. ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار. والدخول في الجدول بالأعداد المجتمعة من ضرب الأعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك في الأدوار المعدودة ومقابلة ذلك كلّه بحروف البيت على التوالي غير مستنكر. وقد يقع الاطّلاع من بعض الأذكياء على تناسب بين هذه الأشياء فيقع له معرفة المجهول. فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من

المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله، ولا سيّما من أهل الرياضة، فإنها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر وقد مر تعليل ذلك غير مرة.

ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرجة في الغالب لأهل الرياضة فهي منسوبة للسَّبتي. ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد اللّه. ولعمري إنها من الأعمال الغريبة والمعاناة العجيبة. والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوماً يظهر لي إنما هو المقابلة بحروف ذلك البيت. ولهذا يكون النظم على وزنه ورويّه. ويدل عليه أنّا وجدنا أعمالاً أخرى لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوماً كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه. وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذه إلى المطلوب فينكر صحتَها ويحسب أنها من التخيُّلات والإيهامات، وأن صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين أثناء حروف السؤال والأوتار، ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون، ثم يجيء بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة. وهذا الحسبان توهُّم فاسد حمل عليه القصور من فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات والتفاوت بين المدارك والعقول. ولكن من شأن كل مدرك إنكار ما ليس في طوقه إدراكه. ويكفينا في ردِّ ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي، فإنها جاءت بعمل مطَّرد وقانون صحيح لا مرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له ذكاء وحدس. وإذا كان كثير من المعاياة في العدد الذي هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم إدراكه لبعد النسبة فيه وخفائها، فما ظنُّك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها. فلنذكر مسألةً من المعاياة يتضح لك بها شيء مما ذكرنا. مثاله: لو قيل لك: خذ عدداً من الدراهم واجعل بإزاء كل درهم ثلاثة من الفلوس، ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائراً، ثم اشتر بالدراهم كلها طيوراً بسعر ذلك الطائر؛ فكم الطيور المشتراة بالدَّراهم والفلوس؟ فجوابه أن تقول: هي تسعة، لأنك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون وأن الثلاثة ثُمْنُها وأن عدّة أثمان الواحد ثمانية، فإذا جمعت الثُمن من الدراهم إلى الثُمن الآخر، فكان كله ثَمَن طائر فهي ثمانية طيور عدة أثمان الواحد، وتزيد على الثمانية طائراً آخر وهو المشترى بالفلوس المأخوذة أولاً، وعلى سعره اشتريت بالدراهم، فتكون تسعة. فأنت ترى كيف خرج لك الجواب المضمر بسرِّ التناسب الذي بين أعداد المسألة. والوهم أول ما يلقي إليك هذه وأمثالها إنما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته. وظهر أن التناسب بين الأمور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها. وهذا إنما هو في الواقعات الحاصلة في الوجود أو العلم. وأما الكائنات المستقبلة إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته. وإذا تبيَّن لك ذلك فالأعمال الواقعة في الزايرجة كلّها إنما هي في استخراج الجواب من ألفاظ السؤال؛ لأنها كما رأيت استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر. وسِرُّ ذلك إنما هو من تناسب بينهما يطّلع عليه بعض دون بعض. فمن عرف ذلك التناسب تيسَّر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين. والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع ألفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو إثبات. وليس هذا من المقام الأول، بل إنما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج. ولا سبيل إلى معرفة ذلك من هذه الأعمال بل البشر محجوبون عنه، وقد استأثره اللّه بعلمه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

الباب الثاني

في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال

وفيه فصول وتمهيدات :

الفصل الأول:

في أن أجيال البدو والحضر طبيعية

اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة، ولا بد، إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفاءة إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصِّل بُلْغَةَ العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك.

ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر، ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها، فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها، ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون، وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو؛ لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم، فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها كما قلناه.

الفصل الثاني

في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

قد قدمنا في الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجيّ أو كمالي يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة، إنما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه، وقد يأوون إلى الغيران والكهوف، وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار، فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم، ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الأرض أصلح بهم ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاه والبقر، ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة، وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة، وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعناً وأبعد في القفر مجالاً؛ لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دفاءة هوائه وطلباً لماخِضِ النتاج في رماله، إذ الإبل أصعب الحيوان فصالاً ومخاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدفاءة، فاضطروا إلى إبعاد النجعة، وربما ذادتهم الحامية عن التلول أيضاً فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم، فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم، وهؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزَنَاتَةَ بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق، إلا أنّ العرب أبعد نُجعة وأشد بداوة؛ لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لا بد منه في العمران.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث

في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها

قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه؛ لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشيء عنه، فالبدو أصل للمدن والحضر، وسابق عليهما؛ لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلاً، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها، وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها، ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة، وأمكن نفسه إلى قياد المدينة، وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم. والحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته.

ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنّا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر، وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فتفهّمه. ثم إن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه: فرب حي أعظم من حي، وقبيلة أعظم من وقبيلة، ومصر أوسع من مصر، ومدينة أكثر عمراناً من مدينة، فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها، بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضروره المعاشية، واللّه أعلم.

الفصل الرابع

في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه، فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته بَعُدَ عن الشر وصعب عليه طريقه، وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده، وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك، حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم، فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً، وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها، فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير، فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضر وهو ظاهر، وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر والبعد عن الخير، فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر، واللّه يحب المتقين.

ولا يعترض على ذلك بما ورد في «صحيح البخاري» من قول الحجاج لسلمة بن الأكوع وقد بلغه أنه خرج إلى سكنى البادية فقال له: ارتددت على عقبيك تعرّبت؟! فقال: لا، ولكن رسول اللّه ﷺ أذن لي في البدو. فاعلم أن الهجرة افترضت أول الإسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبي ﷺ حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره ويحرسونه ولم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية؛ لأن أهل مكة يمسهم من عصبية النبي ﷺ في المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الأعراب، وقد كان المهاجرون يستعيذون باللّه من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة، وقال ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة: «اللّهم امض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم» ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدؤوا بها، وهو من باب الرجوع على العقب في السعي إلى وجه من الوجوه، وقيل: إن ذلك كان خاصاً بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلة المسلمين، وأما بعد الفتح وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل اللّه

لنبيه بالعصمة من الناس، فإن الهجرة ساقطة حينئذ لقوله ﷺ «لا هجرة بعد الفتح» وقيل: سقط إنشاؤها عمن يسلم بعد الفتح، وقيل: سقط وجوبها عمن أسلم وهاجر قبل الفتح، والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة ساقطة، لأن الصحابة افترقوا من يومئذ في الآفاق وانتشروا ولم يبق إلا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة، فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية: ارتددت على عقبيك تعربت: نعى عليه في ترك السكنى بالمدينة بالإشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدّمناه وهو قوله: «لا تردهم على أعقابهم» وقوله: تعربت؛ إشارة إلى أنه صار من الأعراب الذين لا يُهاجرون، وأجاب سلمة بإنكار ما ألزمه من الأمرين، وأن النبي ﷺ أذن له في البدو ويكون ذلك خاصاً به كشهادة خزيمة وعناق أبي بردة ويكون الحجاج إنما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة، وأجابه سلمة بأن اغتنامه لإذن النبي وأفضل، فما آثره به واختصه إلا لمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير، فليس دليلاً على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب؛ لأن مشروعية الهجرة إنما كانت كما علمت لمظاهرة النبي ﷺ وحراسته لا لمذمة البدو، فليس في النعي عليه ترك هذا الواجب دليل على مذمة التعرب، واللّه سبحانه أعلم وبه التوفيق.

الفصل الخامس

في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر

والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد، فهم غازون آمنون، قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم، حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن التجمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ويتوجسون للنبات والهيعات ويتفردون في القفر والبيداء مدلّين ببأسهم، واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع، أو استنفرهم صارخ. وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم، وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل، وسبب ذلك ما شرحناه، وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلَّة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً، واللّه يخلق ما يشاء.

الفصل السادس

في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه، إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم، فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره، ولا بد فإن كانت الملكة رفيقة وعادلة، لا يعاني منها حكم ولا منع وصد كان من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن، واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الإذلال جبلة لا يعرفون سواها.

أما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعداً رضي اللّه عنهما عن مثلها لما أخذ زهرةُ بن جوية سَلَب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً من الذهب وكان أتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه، فانتزعه منه سعد وقال له: هلاّ انتظرت في اتباعه إذني. وكتب إلى عمر يستأذنه، فكتب إليه عمر: تعمد إلى مثل زهرة وقد صليَ بما صليَ به وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه وتفسد قلبه! وأمضى له عمر سلبه.

وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية؛ لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك، وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عند الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لمرباه على المخافة والانقياد، فلا يكون مدلاً ببأسه، ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذه الأحكام، ونجد أيضاً الذين

يعانون الأحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيراً ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه، وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأئمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة؛ فيهم هذه الأحوال وذهابها بالمنعة والبأس.

ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة، ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً؛ لأن الشارع صلوات اللّه عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلا عليهم من الترغيب والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي، إنما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلاً يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق، فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم، قال عمر رضي اللّه عنه: «من لم يؤدبه الشرع لا أدبه اللّه»، حرصاً على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقيناً بأن الشارع أعلم بمصالح العباد.

ولما تناقص الدين في الناس وأخذوا بالأحكام الوازعة ثم صار الشرع علماً وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس إلى الحضارة وخلق الانقياد إلى الأحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم.

فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس؛ لأن الوازع فيها أجنبي، وأما الشرعيه فغير مفسدة؛ لأن الوازع فيها ذاتي، ولهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخَضْدِ الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهولهم؛ والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب؛ ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه «في أحكام المعلمين والمتعلمين»: أنه لا ينبغي للمؤدب أن يضرب أحداً من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواط. نقله عن شريح القاضي واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن الغطّ، وأنه كان ثلاث مرات وهو ضعيف، ولا يصلح شأن الغط أن يكون دليلاً على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف، واللّه الحكيم الخبير.

الفصل السابع

في أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية

إعلم أن اللّه سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ والشر أقرب الخلال إليه إذا أُهمل في مرعى عوائده ولم يهذبه الاقتداء بالدين. وعلى ذلك الجم الغفير إلا من وفقه اللّه، ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع كما قال:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

فأما المدن والأمصار فعدوان بعضهم على بعض، تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض، أو يعدو عليه، فإنهم مكبوحون بحكمة القهر والسلطان عن التظالم، إلا إذا كان من الحاكم بنفسه، وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار عند الغفلة أو الغرة ليلاً أو العجز عن المقاومة نهاراً، أو يدفعه ازدياد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة، وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة، وأما حللهم فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم، ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد؛ لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم، إذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهمّ، وما جعل اللّه في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاة القرآن عن إخوة يوسف عليه السلام حين قالوا لأبيه: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبة له.

وأما المتفردون في أنسابهم فقلّ أن تصيب أحداً منهم نعرة على صاحبه، فإذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشاً من التخاذل، فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلتهمهم من الأمم سواهم.

وإذا تبين ذلك في السكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية

فبمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوّة أو إقامة ملك أو دعوة، إذ بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من الاستعصاء، ولا بد في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفاً فاتخذه إماماً تقتدي به فيما نورده عليك بعد، والله الموفق للصواب.

الفصل الثامن

في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه

وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك، نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها، وإذا بعد النسب بعض الشيء فربما تنوسي بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه، فراراً من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه.

ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفسَ من اهتضام جارها أوقريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب؛ وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريباً منها، ومن هذا تفهم معنى قوله ﷺ «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم» بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه، إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له، ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام، فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه، وإذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد ضَعُف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجاناً، ومن أعمال اللّهو المنهي عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر، بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل التاسع

في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن، حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة، وهي لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها من شجره ونتاجها في رماله كما تقدم، والقفر مكان الشظف والسغب، فصار لهم إلفاً وعادة وربيت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقاً وجبلّة، فلا ينزع إليها أحد من الأمم أن يساهمهم في حالهم، ولا يأنس بهم أحد من الأجيال، بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه، فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها، ولا تزال بينهم محفوظة، واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع، وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيها شوب.

وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطيىء وقضاعة وإياد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم، ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تُعرف، وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم، وإنما هذا للعرب فقط. قال عمر رضي اللّه تعالى عنه «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد، إذا سئل أحدهم عن أصله قال: من قرية كذا. هذا إلى ما لحق هؤلاء العرب أهل الأرياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الخصيبة، فكثر الاختلاط وتداخلت الأنساب، وقد كان وقع في صدر الإسلام الانتماء إلى المواطن فيقال: جند قنسرين، جند دمشق، جند العواصم، وانتقل ذلك إلى الأندلس ولم يكن لاطّراح العرب أمر النسب، وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم، ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم، وفسدت الأنساب

بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطُّرحت، ثم تلاشت القبائل ودثرت فدثرت العصبية بدثورها، وبقي ذلك في البدو كما كان، والله وارث الأرض ومن عليها.

الفصل العاشر

في اختلاط الأنساب كيف يقع

إعلم أنه من البين أن بعضاً من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء أو لفرار من قومه بجناية أصابها، فيدعي بنسب هؤلاء ويُعدُّ منهم في ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات وسائر الأحوال، وإذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد، لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء إلا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم، ثم أنه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر، وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم. وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شيء من ذلك، ومنه شأن بجيلة في عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فسألوه الإعفاء منه، وقالوا: هو فينا لزيق، أي: دخيل ولصيق، وطلبوا أن يولي عليهم جريراً، فسأله عمر عن ذلك فقال عرفجة: صدقوا يا أمير المؤمنين، أنا رجل من الأزد أصبت دماً في قومي ولحقت بهم. وانظر منه كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم حتى ترشح للرئاسة عليهم، لولا علم بعضهم بوشائجه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنوسي بالجملة وعُدَّ منهم بكل وجه ومذهب، فافهمه واعتبر سر الله في خليقته ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود، والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه.

الفصل الحادي عشر

في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية

إعلم أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، ففيهم أيضاً عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم، مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد، أو إخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين، فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام، والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام، إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة والرئاسة فيهم، إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل، ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها، فإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب لما تمت لهم الرئاسة، فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه لما قلناه من سر الغلب، لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكوِّن، والمزاج في المتكوِّن لا يصلح إذا تكافأت العناصر، فلا بد من غلبة أحدها وإلا لم يتم التكوين؛ فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية، ومنه تعين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه.

الفصل الثاني عشر

في أن الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه، فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب، إنما هو ملصق لزيق، وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلباً عليهم البتة، وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسي عهده الأول من الالتصاق ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم، فكيف له الرِّياسة قبل هذا الالتحام أو لأحد من سلفه، والرِّياسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية، فالأولية التي كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعة ذلك الالتصاق من الرِّياسة حينئذ، فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الإلصاق؟ والرِّياسة لا بد وأن تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية، وقد يتشوف كثير من الرؤساء على

القبائل والعصائب إلى أنساب يلهجون بها، إما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق، فينزعون إلى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه، ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح في رياستهم والطعن في شرفهم، وهذا كثير في الناس لهذا العهد.

فمن ذلك ما يدعيه زَناتةُ جملةً أنهم من العرب، ومنه ادعاء أولاد ربّاب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد منهم، لحقَ جدُّهم ببني عامر نجاراً يصنع الحرجان واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازي.

ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي بن العباس بن توجين أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب رغبة في هذا النسب الشريف وغلطاً باسم العباس بن عطية أبي عبد القوي ولم يُعلم دخول أحد من العباسين إلى المغرب؛ لأنه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الأدارسة والعبيديين، فكيف يكون من سبط العباس أحد من شيعة العلويين!

وكذلك ما يدعيه أبناء زيان ملوك تلمسان من بني عبد الواحد أنهم من ولد القاسم بن إدريس ذهاباً إلى ما اشتهر في نسبهم أنهم من ولد القاسم، فيقولون بلسانهم الزناتي: أنت القاسم، أي بنو القاسم ثم يدعون أن القاسم هذا هو القاسم بن إدريس أو القاسم بن محمد بن إدريس، ولو كان ذلك صحيحاً فغاية القاسم هذا أنه فر من مكان سلطانه مستجيراً بهم، فكيف تتم له الرئاسة عليهم في باديتهم! وإنما هو غلط من قبل اسم القاسم، فإنه كثير الوجود في الأدارسة فتوهموا أن قاسمهم من ذلك النسب، وهم غير محتاجين لذلك، فإن منالهم للملك والعزة إنما كان بعصبيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شيء من الأنساب، وإنما يحمل على هذا المتقربون إلى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد، ولقد بلغني عن يغمراسن بن زيان مؤثّل سلطانهم أنه لما قيل له ذلك أنكره. وقال بلغته الزناتية ما معناه: أما الدنيا والملك فنلناهما بسيوفنا لا بهذا النسب، وأما نفعه في الآخرة فمردود إلى اللّه وأعرضَ عن التقرب إليه بذلك.

ومن هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة أنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه، وبنو سلامة شيوخ بني يَدْلَلْتَنَ من توجين أنهم من سليم؛ والزواودة شيوخ رياح أنهم من أعقاب البرامكة، وكذا بنو مَهنى أمراء طيىء بالمشرق يدعون فيما بلغنا أنهم من أعقابهم، وأمثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم مانعة من ادعاء هذه الأنساب كما ذكرناه، بل تعيّن أن يكونوا من صريح ذلك النسب وأقوى عصبياته، فاعتبره واجتنب المغالط فيه، ولا تجعل من هذا الباب إلحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية، فإن المهدي لم يكن من منبت الرياسة في هرثمة قومه، وإنما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين ودخول قبائل المصامدة في دعوته، وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسطة فيهم، واللّه عالم الغيب والشهادة.

الفصل الثالث عشر

في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال ومعنى البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرافا مذكورين تكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته، لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلالهم، والناس في نشأتهم وتناسلهم معادن قال، ﷺ: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» فمعنى الحسب راجع إلى الأنساب، وقد بينا أن ثمرة الأنساب وفائدتها إنما هي العصبية للنعرة والتناصر، فحيث تكون العصبية مرهوبة والمنبت فيها زكي محميٌّ تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى، وتعديد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها، فيكون الحسب والشرف أصليين في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب. وتفاوت البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبية؛ لأنه سرها ولا يكون للمنفردين من أهل الأمصار بيت إلا بالمجاز، وإن توهموه فزخرف من الدعاوى، وإذا اعتبرت الحسب في أهل الأمصار وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفاً في خلال الخير ومخالطة أهله مع الركون إلى العافية ما استطاع، وهذا مغاير لسر العصبية التي هي ثمرة النسب وتعديد الآباء، لكنه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز، لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه، وليس حسباً بالحقيقة وعلى الإطلاق، وإن ثبت أنه حقيقة فيهما بالوضع اللغوي فيكون من المشكك الذي هو في بعض مواضعه أولى.

وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم، ويختلطون بالغمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها في شيء؛ لذهاب

العصبية جملة، وكثير من أهل الأمصار الناشئين في بيوت العرب أو العجم لأول عهدهم موسوسون بذلك، وأكثر ما رسخ الوسواس في ذلك لبني إسرائيل، فإنه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت.

أولاً لما تعدد في سلفهم من الأنبياء والرسل من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم ثم بالعصبية ثانياً وما آتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به، ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكُتب عليهم الجلاء في الأرض، وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافاً من السنين، وما زال هذا الوسواس مصاحباً لهم فتجدهم يقولون: هذا هاروني؛ هذا من نسل يوشع؛ هذا من عقب كالب، هذا من سبط يهوذا؛ مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة، وكثير من أهل الأمصار وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العصبية يذهب إلى هذا الهذيان.

وقد غلط أبو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الأول: «والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة» ولم يتعرض لما ذكرناه، وليت شعري ما الذي ينفعه قِدَم نزلهم بالمدينة إنما لم تكن له عصابة يرهب بها جانبه وتحمل غيرهم على القبول منه؟ فكأنه أطلق الحسب على تعديد الآباء فقط مع أن الخطابة إنما هي استمالة من تؤثر استمالته وهم أهل الحل والعقد، وأما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت إليه ولا يقدر على استمالة أحدٍ ولا يستمال هو، وأهل الأمصار من الحضر بهذه المثابة إلا أن ابن رشد ربيَ في جيل وبلد ولم يمارسوا العصبية ولا أنسوا أحوالَها، فبقي في أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق، ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها في الخليقة، والله بكل شيء عليم.

الفصل الرابع عشر

في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم

وذلك أنا قدمنا أن الشرف بالأصالة، والحقيقة إنما هو لأهل العصبية، فإذا اصطنع أهل العصبية قوماً من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي والتحموا بهم كما قلناه، ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كأنها عصبتهم، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «مولى القوم منهم» وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحِلْفٍ، وليس نسب ولادته بنافع له في تلك العصبية إذ هي مباينة لذلك النسب، وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر، وفقدانه أهل عصبيتها، فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم، فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوزه إلى شرفهم، بل يكون أدون منهم على كل حال.

وهذا شأن الموالي في الدول والخدمة كلهم، فإنهم إنما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها، ألا ترى إلى موالي الأتراك في دولة بني العباس، وإلى بني برمك من قبلهم، وبني نوبخت كيف أدركوا البيت والشرف وبنوا المجد والأصالة بالرسوخ في ولاء الدولة، فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتاً وشرفاً بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه، لا بالانتساب في الفرس، وكذا موالي كل دولة وخدمها إنما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والأصالة في اصطناعها ويضمحل نسبه الأقدم من غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في أصالته ومجده، وإنما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه إذ فيه سر العصبية التي بها البيت والشرف، فكان شرفه مشتقاً من شرف مواليه وبناؤه من بنائهم، فلم ينفعه نسب ولادته، وإنما بنى مجده نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية، وقد يكون نسبه الأول في لحمة عصبيَّته ودولته، فإذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى لم تنفعه الأولى لذهاب عصبيتها وانتفع بالثانية لوجودها، وهذا حال بني برمك، إذ المنقول أنهم كانوا أهل بيت في الفرس من سدنة بيوت النار عندهم، ولما صاروا إلى ولاء بني العباس لم يكن بالأول اعتبار، وإنما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة واصطناعهم وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجامحة ولا حقيقة له، والوجود شاهد بما قلناه و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ والله ورسوله أعلم.

الفصل الخامس عشر

في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء

إعلم أن العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا

من أحواله، فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات: الإنسان وغيره، كائنة فاسدة بالمعاينة، وكذلك ما يعرض لها من الأحوال وخصوصا الإنسانية، فالعلوم تنشأ ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها، والحسب من العوارض التي تعرض للآدميين فهو كائن فاسد لا محالة، وليس يوجد لأحد من أهل الخليقة شرف متصل في آبائه من لدن آدم إليه إلا ما كان من ذلك للنبي ﷺ كرامة به وحياطةً على السر فيه، وأول كل شرف خارجية كما قيل، وهي الخروج عن الرياسة والشرف إلى الضعة والابتذال وعدم الحسب، ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل محدث.

ثم إن نهايته أربعة آباء وذلك أن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه، وابنه من بعده مباشر لأبيه قد سمع منه ذلك وأخذه عنه، إلا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاين له، ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة، فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد، ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف، وإنما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهم أنه النسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصبيّته ويرى الفضل له عليهم وثوقاً بما ربِّي فيه من استتباعهم وجهلاً بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم والأخذ بمجامع قلوبهم، فيحتقرهم بذلك فينغصون عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواه من أهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب للإذعان لعصبيتهم كما قلناه، بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو فروع هذا وتذوي فروع الأول، وينهدم بناء بيته هذا في الملوك، وهكذا في بيوت القبائل والأمراء وأهل العصبية أجمع، ثم في بيوت أهل الأمصار إذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

واشتراط الأربعة في الأحساب إنما هو في الغالب وإلا فقد يدثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم، وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس إلا أنه في انحطاط وذهاب. واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة بان ومباشر له ومقلد وهادم، وهو أقل ما يمكن، وقد اعتُبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال ﷺ «إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» إشارةً إلى أنه بلغ الغاية من المجد. وفي التوراة ما معناه: أنا اللّه ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثوالث والروابع. وهذا يدل على أن الأربعة الأعقاب غاية في الأنساب والحسب.

وفي كتاب «الأغاني في أخبار عزيف الغواني» أن كسرى قال للنعمان: هل في العرب قبيلة تتشرف على قبيلة؟ قال: نعم، قال: بأي شيء؟ قال: من كان له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، ثم اتصل ذلك بكمال الرابع، فالبيت من قبيلته، وطلب ذلك فلم يجده إلا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وهم بيت قيس، وآل ذي الجدَّين بيت شيبان، وآل الأشعث بن قيس من كندة، وآل حاجب بن زرارة، وآل قيس بن عاصم المنقري من بني تميم، فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم وأقعد لهم الحكام والعدول. فقام حذيفة بن بدر، ثم الأشعث بن قيس لقرابته من النعمان، ثم بسطام بن قيس بن شيبان، ثم حاجب بن زرارة، ثم قيس بن عاصم، وخطبوا ونثروا فقال كسرى: كلهم سيد يصلح لموضعه. وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم ومعهم بيت بني الذبيان من بني الحرث بن كعب اليمني، وهذا كله يدل على أن الأربعة الآباء نهاية في الحسب، واللّه أعلم.

الفصل السادس عشر

في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها

إعلم أنه لما كانت البداوة سبباً في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة، لا جرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر، فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم، بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار، فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر إذا زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها، كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن أديمها، وكذلك الآدمي المتوحش إذا أنس وألف، وسببه أن تكون السجايا والطبائع إنما هو عن المألوفات والعوائد، وإذا كان الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشاً كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقاربا في العدد وتكافآ في القوة والعصبية. وانظر في

ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين إلى الملك والنعيم ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه، لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون إلى خصب العيش وغضارة النعيم، كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم، وهذا حال بني طيئ وبني عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور من بعدهم، لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم، كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم ولم تخلفها مذاهب الترف حتى صاروا أغلب على الأمر منهم. وكذا كل حي من العرب يلي نعيماً وعيشاً خصباً دون الحي الآخر، فإن الحي المتبدي، يكون أغلب له وأقدر عليه إذا تكافآ في القوة والعدد، سنة اللّه في خلقه.

الفصل السابع عشر

في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك

وذلك لأنا قدمنا أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه، وقدمنا أن الآدميين بالطبيعة الإنسانيه يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون متغلباً عليهم بتلك العصبية وإلا لم تتم قدرته على ذلك، وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرئاسة؛ لأن الرئاسة إنما هي سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه، وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه؛ لأنه مطلوب للنفس، ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعاً، فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت، ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات مفترقة وعصبيات متعددة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى، وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾.

ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها، فإن كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالاً وأنظاراً، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم، وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضاً وزادت قوة في التغلب إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد، وهكذا دائماً حتى تكافىء بقوتها قوة الدولة، فإن أدركت الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها، وإن انتهت قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة، وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يَعِنُّ من مقاصدها، وذلك ملك آخر دون الملك المستبد، وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس، ولصنهاجة وزناتة مع كتامة، ولبني حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية.

فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية، وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك، إما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك، وإن عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وَقفتْ في مقامها إلى أن يقضي اللّه بأمره.

الفصل الثامن عشر

في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم، وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها، فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها، والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها، ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبابه إنما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك، فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون فيما أتاهم اللّه من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم، ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلقاً لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم بتعاقبها إلى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم

على الفناء فضلاً عن الملك، فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سَوْرَة العصبيّة التي بها التغلب، وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة والتَهَمْتُهُم الأمم سواهم، فقد تبين أن الترف من عوائق الملك، والله يؤتي ملكه من يشاء.

الفصل التاسع عشر

في أن من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها، فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة، ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام، وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك يا موسى. ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا﴾ وما ذلك إلا لما أنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذل للقبط أحقاباً حتى ذهبت العصبية منهم جملة، مع أنهم لم يؤمنوا حق الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأريحاء فريستهم بحكم من الله قدّره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلاً على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به، فعاقبهم الله بالتيه، وهو أنهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها لعمران ولا نزلوا مصراً ولا خالطوا بشراً كما قصّه القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم، لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه، ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يساهم بالمذلة، فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر، سبحان الحكيم العليم.

وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة، وأن من فقدها عجز عن جميع ذلك كله، يلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب، فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه؛ لأن في المغارم والضرائب ضيماً ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية إلا إذا استهونته عن القتل والتلف، وأن عصبيتها حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية، ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل، والمذلة عائقة كما قدمناه. ومنه قوله ﷺ في شأن الحرث لما رأى سكة الحراث في بعض دور الأنصار: «ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل» فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للمذلّة هذا إلى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر، فإذا رأيت القبيل بالمغارم في ربقة من الذل فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر.

ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم أن زناتة بالمغرب كانوا شاوية يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك، وهو غلط فاحش كما رأيت، إذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة، وانظر فيما قاله شهربراز ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه وسأل شهربراز أمانه على أن يكون له فقال: أنا اليوم منكم يدي في أيديكم وصعري معكم فمرحباً بكم، وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم، النصر لكم والقيام بما تحبون، ولا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم. فاعتبر هذا فيما قلناه فإنه كاف.

الفصل العشرون

في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لما كان الملك طبيعياً للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه، وكان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه، وأما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب، والملك والسياسة إنما كانا له من حيث هو إنسان، لأنها خاصة للإنسان لا للحيوان، فإذاً خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك، إذ الخير هو المناسب للسياسة، وقد ذكرنا أن المجد

له أصل ينبني عليه وتتحقق بـه حقيقتـه وهـو العصبيـة والعشـير، وفرع يتم وجـوده ويكمله وهـو الخـلال، وإذا كـان الملـك غايـة للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهـي الخـلال؛ لأن وجـوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الأعضـاء أو ظهـوره عريانـاً بين الناس، ولم إذا كان وجود العصبية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصاً في أهل البيوت والأحساب، فما ظنك بـأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب.

وأيضاً فالسياسة والملك هي كفالـة للخلق وخلافـة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام اللّه في خلقـه وعبـاده إنمـا هـي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع؛ وأحكام البشـر إنمـا هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة اللّـه سبحانه وقـدره، فإنـه فـاعل للخيـر والشر معـاً ومقدرهمـا، إذ لا فـاعل سـواه، فمـن حصلت له العصبية الكفيلـة بـالقدرة وأونسـت منـه خـلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام اللّـه في خلقـه فقـد تهيـأ للخلافـة في العبـاد وكفالة الخلق، ووجدت فيه الصلاحية لذلك.

وهذا البرهان أوثق مـن الأول وأصـح مبنـى فقـد تبيّـن أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمـن وجـدت لـه العصبيـة، فـإذا نظرنا في أهل العصبية ومـن حصـل لهـم الغلـب علـى كثـير مـن النواحي والأمم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلالـه مـن الكـرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر، والقِـرى للضيـوف وحمل الكَلّ وكسب المعدم والصـبر علـى المكـاره والوفـاء بـالعهد وبـذل الأمـوال في صـون الأعـراض وتعظيـم الشـريعة وإجـلال العلماء الحاملين لها والوقوف عندها بحددونه لهم من فعل أو تـرك وحسن الظن بهم، واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبـه الدعـاء منهم، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم، والانقيـاد إلى الحق مع الداعي إليه وإنصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذُّل في أحوالهم، والانقياد للحق والتواضع للمسكين، واستماع شكوى المستغيثين، والتديـن بالشـرائع والعبـادات والقيـام عليهـا وعلـى أسبابها، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثـال ذلك، علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهـم واسـتحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو علـى العمـوم وأنـه خـير ساقه اللّه تعالى إليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدىً فيهـم ولا وجـد عبثـاً منهـم، والملـك أنسب المراتـب والخـيرات لعصبيتهم؛ فعلمنا بذلك أن اللّه تأذن لهم بالملك وساقه إليهم.

وبالعكس من ذلك إذا تأذن اللّه بانقراض الملـك مـن أمـة حملَهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائـل وسـلوك طرقهـا فتفقد الفضائل السياسية منهم جملـة، ولا تـزال في انتقـاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سـواهم ليكـون نعيـاً عليهـم في سلب ما كان اللّه قد أتاهم من الملك وجعل في أيديهم مـن الخـير ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَـا فَحَـقَّ عَلَيْهَـا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ واستقرىء ذلك وتتبعه في الأمـم السـابقة تجد كثيراً مما قلناه ورسمناه، واللّه يخلق ما يشاء ويختار.

واعلم أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبـائل أولـو العصبية - وتكون شاهدة لهم بالملك - إكرام العلمـاء والصـالحين والأشـراف وأهـل الأحسـاب وأصنـاف التجـار والغربـاء وإنـزال الناس منازلهم، وذلك أن إكرام القبائل وأهل العصبيات والعشـائر لمـن ينـاهضهم في الشرف ويجـاذبهم حبـل العشـير والعصبيـة ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الأكـثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرَم أو التماس مثلها منه. وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشـك في شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد، وانتحال الكمـال في الخلال والإقبال على السياسة بالكلية؛ لأن إكرام أقتاله وأمثالـه ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائـه، وإكـرام الطـارئين مـن أهـل الفضـائل والخصوصيـات كمـال في السياســة العامـة. فالصالحون للدين والعلماء لِلَّجأ إليهم في إقامـة مراسـم الشـريعة، والتجار للترغيب حتى تعـم المنفعـة بمـا في أيديهـم، والغربـاء مـن مكارم الأخلاق، وإنزال الناس منـازلهم مـن الإنصـاف وهـو مـن العدل. فيعلم بوجود ذلك مـن أهـل عصبيتـه انتماؤهـم للسياسـة العامة وهـي الملـك، وأن اللّـه قـد تـأذن بوجودهـا فيهـم لوجـود علاماتها، ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تـأذن اللّه تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصنف من الخلـق، فإذا رأيته قد ذهـب مـن أمـة مـن الأمـم فـاعلم أن الفضـائل قـد أخذت في الذهاب عنهـم وارتقـب زوال الملـك منهـم ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾ واللّه تعالى أعلم.

الفصل الحادي والعشرون

في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع

وذلك لأنهـم أقـدر علـى التغلـب والاستبداد كمـا قلنـاه، واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربـة الأمـم سـواهم؛ ولأنهـم يتنزلون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجـم وهـؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الأكـراد والتركمـان وأهـل

اللثام من صنهاجة وأيضاً فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه، ولا بلد يجنحون إليه، فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء، فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود أفقهم، بل يطفِرون إلى الأقاليم البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية، وانظر ما يحكى في ذلك عن عمر رضي اللّه عنه لما بويع وقام يحرض الناس على العراق فقال: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك، أين القراء المهاجرون عن موعد اللّه، سيروا في الأرض التي وعدكم اللّه في الكتاب أن يورثكموها فقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ واعتبر ذلك أيضاً بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمير كيف كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة وإلى العراق والهند أخرى، ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمم، وكذا حال الملثمين من المغرب لما نزعوا إلى الملك طفروا من الإقليم الأول ومجالاتهم منه في جوار السودان إلى الإقليم الرابع والخامس في ممالك الأندلس من غير واسطة، وهذا شأن هذه الأمم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً وأبعد من مراكزها نهاية، ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وهو الواحد القهار لا شريك له.

الفصل الثاني والعشرون

في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عوده إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

والسبب في ذلك أن الملك إنما حصل لهم بعد سورة الغلب والإذعان لهم من سائر الأمم سواهم فيتعين منهم المباشرون للأمر الحاملون لسرير الملك، ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المزاحمة والغيرة التي تجدع أنوف كثير من المتطاولين للرتبة، فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا إخوانهم من ذلك الجيل، وأنفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها، وبقي الذين بعدوا عن الأمر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم، وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه، فإذا استولت على الأولين الأيام وأباد خضراءهم الهرم فطبختهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما أرهف النعيم من حدهم واشتفّت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدن الإنساني والتغلب السياسي، شعر:

كدود القز ينسج ثم يفنى ... بمركز نسجه في الانعكاس

كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة وسَوْرة غلبهم من الكاسر محفوظة وشارتهم في الغلب معلومة فتسمو آمالهم إلى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم، فيستولون على الأمر ويصير إليهم، وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضاً منتبذاً عنه من عشائر أمتهم، فلا يزال الملك ملجأً في الأمة إلى أن تنكسر سورة العصبية منها أو يفنى سائر عشائرها سنة اللّه في الحياة الدنيا ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم إخوانهم من ثمود، ومن بعدهم إخوانهم العمالقة، ومن بعدهم إخوانهم من حمير، ومن بعدهم إخوانهم التبابعة من حمير أيضاً، ومن بعدهم الأذواء كذلك، ثم جاءت الدولة لمضر، وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية مَلَك من بعدهم الساسانية حتى تأذن اللّه بانقراضهم أجمع بالإسلام، وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل إلى إخوانهم من الروم، وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكتامة الملوك الأول منهم رجع إلى صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم، ثم المصامده ثم من بقي من شعوب زناتة وهكذا سنة اللّه في عباده وخلقه.

وأصل هذا كله إنما يكون بالعصبية وهي متفاوتة في الأجيال، والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره بعد، فإذا انقرضت دولة فإنما يتناول الأمر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم والإنقياد وأونس منها الغلب، لجميع العصبيات، وذلك إنما يوجد في النسب القريب منهم؛ لأن تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه أو بعدُ، حتى إذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملة أو ذهاب عمران أو ما شاء اللّه من قدرته فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل إلى الجيل الذي يأذن اللّه بقيامه بذلك التبديل، كما وقع لمضر حين غلبوا على الأمم والدول وأخذوا الأمر من أيدي أهل العالم بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقاباً.

الفصل الثالث والعشرون

في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تُغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه، والله أعلم، من أنّ غَلَب الغالبِ لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله.

وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم، وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر؛ لأنهم الغالبون لهم حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجُدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله.

وتأمل في هذا سر قولهم: «العامة على دين الملك» فإنه من بابه، إذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلّميهم، والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق.

الفصل الرابع والعشرون

في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء

والسبب في ذلك، والله أعلم، ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا مُلك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم، فيقصر الأمل ويضعف التناسل؛ والاعتمار إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية، فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خَضَد الغَلَبُ من شوكتهم، فأصبحوا مغلَّبين لكل متغلب وطعمةً لكل آكل؛ وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أم لم يحصلوا.

وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له، والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده، وهذا موجود في أخلاق الأناسي. ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وإنها لا تسافد إلا إذا كانت في ملكة الآدميين، فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء، والبقاء لله وحده.

واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير، يقال: إن سعداً أحصى ما وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً، منهم سبعة وثلاثون ألفاً رب بيت، ولما تحصّلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً ودثروا كأن لم يكونوا، ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم، فملكة الإسلام في العدل ما علمت، وإنما هي طبيعة في الإنسان إذا غُلب على أمر وصار آلة لغيره، ولهذا إنما تذعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه؛ أو من يرجو بانتظامه في ربقة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عز كما يقع لممالك الترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والإفرنجة بالأندلس، فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم، فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الخامس والعشرون

في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم بالقفر، ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم، فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم

تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له، والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم؛ لأنهم لا يتسنمون، إليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر. وأما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة إلى أن ينقرض عمرانهم، والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره.

الفصل السادس والعشرون

في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقاً وجبلّةً وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومُنافٍ له، فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافيَّ للقِدْر، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك، والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران. هذا في حالهم على العموم.

وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه، فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران.

وأيضاً فلأنهم يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطاً من الأجر والثمن؛ والأعمال كما سنذكره هي أصل المكاسب وحقيقتها وإذا فسدت الأعمال وصارت مجاناً ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الأيدي عن العمل وابذعرَّ الساكن وفسد العمران.

وأيضاً فإنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض، إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مَغْرماً، فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد، وربما فرضوا العقوبات في الأموال حرصاً على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم، وذلك ليس بمغن في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها، بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض، فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم، والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للإنسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم إلا بها، وتقدم ذلك أول الفصل.

وأيضاً فهم متنافسون في الرئاسة وقلَّ أن يسلِّم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل وعلى كره من أجل الحياء فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام، فيفسد العمران وينتقض.

قال الأعرابي الوافد على عبد الملك - لما سأله عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران - فقال: تركته يظلم وحده. وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدِّلت الأرض فيه غير الأرض، فاليمن قرارهم خراب إلا قليلاً من الأمصار، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع، والشام لهذا العهد كذلك، وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدر، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل السابع والعشرون

في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في

الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوّة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر اللّه يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبُعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات، فإن كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم.

الفصل الثامن والعشرون

في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالا في القفر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشَّظَفِ وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش؛ ورئيسهم محتاج إليهم غالباً للعصبية التي بها المدافعة، فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم؛ لئلا يختلّ عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعاً بالقهر وإلا لم تستقم سياسته.

وأيضاً فإن من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض، فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم، وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد، فلا يكون ذلك وازعاً، وربما يكون باعثاً بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه، فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض، فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعاً شأن الفوضى كما قدمنا.

فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك، وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه، واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم.

كان رستم إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول: أكل عمرُ كبدي يعلّم الكلابَ الآدابَ.

ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم، ولما ذهب أمر الخلافة وامّحى رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم، وما كان في القديم لأحد من الأمم في الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك. ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك، ثم دولة مضر في الإسلام بني أمية وبني العباس، لكن بَعُدَ عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة، وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلبٌ على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد، فلا يكون ماله وغايته إلا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه﴿وَاللَّـهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾.

الفصل التاسع والعشرون

في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار؛ لأن الأمور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لأهل البدو. وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع، فلا توجد لديهم بالكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره، وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم، وإنما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألباناً وأوباراً وأشعاراً وإهاباً مما يحتاج إليه أهل الأمصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم، إلا أن حاجتهم إلى الأمصار في الضروري

وحاجة أهل الأمصار إليهم في الحاجي، والكمالي فهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم، فما داموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الأمصار فهم محتاجون إلى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم إلى ذلك وطالبوهم به، وأن كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وإن لم يكن في المصر ملك فلا بد فيه من رئاسة ونوع استبداد من بعض أهله على الباقين وإلا انتقض عمرانه، وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه، إما طوعاً ببذل المال لهم ثم يبذل لهم ما يحتاجون إليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم، وإما كرهاً إن تمت قدرته على ذلك ولو بالتفريق بينهم، حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقين فيضطر الباقون إلى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم، وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي إلى جهات أخرى؛ لأن كل الجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرها فلا يجد هؤلاء ملجأ إلا طاعة المصر، فهم بالضرورة مغلوبون لأهل الأمصار، واللّه قاهر فوق عباده وهو الواحد الأحد القهار.

الباب الثالث

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال

وفيه قواعد ومتممات

الفصل الأول

في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية

وذلك أنا قررنا في الفصل الأول أن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه. ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه، فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع إلا بالعصبية كما ذكرناه آنفاً، وهذا الأمر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له؛ لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها وطال أمد مرباهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل، فلا يعرفون ما فعل اللّه أول الدولة إنما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبية في تمهيد أمرهم، ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوله وما لقي أولهم من المتاعب دونه؛ وخصوصاً أهل الأندلس في نسيان هذه العصبية وأثرها لطول الأمد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنهم وخلا من العصائب، واللّه قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الثاني

في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب للغرابة، وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه، فإذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتلَ الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية، فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة، بل كأن طاعتها كتاب من اللّه لا يبدل ولا يعلم خلافه، ولأمر ما يوضع الكلام في الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية كأنه من جملة عقودها، ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة: إما بالموالي والمصطنعين الذين نشأوا في ظل العصبية وغيرها، وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها.

ومثل هذا وقع لبني العباس، فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم، ثم تغلب العجم الأولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصار الخلائق في حكمهم، ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم، ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة.

وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها واستمرت لهم الدولة مقلَّصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور إفريقية، وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها، والسلطان والملك مع ذلك مسلَّم لهم، حتى تأذن اللّه بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة فمحوا آثارهم.

وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم، وتوزعوا ممالك الدولة، وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه، وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره؛ لأن الأندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره، واستمر لهم ذلك كما قال ابن شرف.

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الأندلس من أهل العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم اقتداءً بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية

العرب، واستبد ابن أبي عامر على الدولة، فكان لهم دول عظيمة استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها، ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى جاز إليهم البحر المرابطون أهل العصبية القوية من لمتونة فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحوا آثارهم ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم.

فبهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها، وقد ظن الطرطوشي أن حامية الدول بإطلاق هم الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة ذكر ذلك في كتابه الذي سماه «سراج الملوك»؛ وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها، وإنما هو مخصوص بالدول الأخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لأهله، فالرجل إنما أدرك الدولة عند هرمها وخلق جدتها ورجوعها إلى الاستظهار بالموالي والصنائع ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة، فإنه إنما أدرك دول الطوائف وذلك عند اختلال بني أمية وانقراض عصبيّتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره، وكان في إيالة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة، ولم يكن بقي لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلاثمائة من السنين وهلاكهم، ولم ير إلا سلطاناً مستبداً بالملك عن عشائره قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية؛ فهو لذلك لا يُنازَع فيه ويستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة، فأطلق الطرطوشي القول في ذلك، ولم يتفطن لكيفية الأمر منذ أول الدولة وأنه لا يتم إلا لأهل العصبية، فتفطن أنت له وافهم سر الله فيه﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾.

الفصل الثالث

في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

وذلك أنه إذا كان لعصبية غلب كثير على الأمم والأجيال وفي نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية إذعان لهم وانقياد، فإذا نزع إليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه اشتملوا عليه وقاموا بأمره وظاهروه على شأنه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصابه وتناوله الأمر من يد أعياصه وجزاءه لهم على مظاهرته باصطفائهم لرتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية ثغر، ولا يطمعون في مشاركته في شيء من سلطانه تسليماً لعصبيته، وانقياداً لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم وعقيدة إيمانية استقرت في الإذعان لهم، فلو راموها معه أو دونه لزلزلت الأرض زلزالها.

وهذا كما وقع للأدارسة بالمغرب الأقصى والعبيديين بإفريقية ومصر لما انتبذ الطالبيون من المشرق إلى القاصية وابتعدوا عن مقر الخلافة وسَمَوْا إلى طلبها من أيدي بني العباس، بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف: لبني أمية أولاً، ثم لبني هاشم من بعدهم، فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لأنفسهم، وقام بأمرهم البرابرة مرةً بعد أخرى فأوربة ومغيلة للأدارسة وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيديين، فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم أمرهم واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم إفريقية، ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيديين يمتد إلى أن ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم في الممالك الإسلامية شِقّ الأُبلمة. وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلّمون للعبيديين أمرهم مذعنون لملكهم، وإنما كانوا يتنافسون في الرتبة عندهم خاصة تسليماً لما حصل من صبغة الملك لبني هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على سائر الأمم، فلم يزل الملك في أعقابهم إلى أن انقرضت دولة العرب بأسرها﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

الفصل الرابع

في أن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وسِرُّه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة كما نبين لك بعدُ أن شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل الخامس

في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها

والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم، وهم مستميتون عليه، وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه.

وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات، فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعةً وثلاثين ألفاً في كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفاً بالقادسية، وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربعمائة ألف، فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم.

واعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحِّدين، فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشفُّ عليهم إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه، فلم يقف لهم شيء.

واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت، كيف ينتقض الأمر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين، فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها، ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوةً.

واعتبر هذا في الموحِّدين مع زناتة، لما كانت زناتة أبدى من المصامدة وأشد توحشاً، وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها، فغلبوا على زناتة أولاً واستتبعوهم، وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم، فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم، والله غالب على أمره.

الفصل السادس

في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية، وفي الحديث الصحيح كما مر: «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه» وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم ألاَّ تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية.

وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب «خلع النعلين في التصوف» ثار بالأندلس داعياً إلى الحق وسمي أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي، فاستتب له الأمر قليلاً لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين، ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدعونه عن شأنه، فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بحصن أركش وأمكنهم من ثغره، وكان أول داعية لهم بالأندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين.

ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء، فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف رجاءً في الثواب عليه من الله، فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرّضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين؛ لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»؛ وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه.

وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب، وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء، لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة والله حكيم عليم.

فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقاً قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك، وأما إن كان من المتلبسين بذلك في طلب الرئاسة فأجدر إن تعوقه العوائق وتنقطع

به المهالك؛ لأنه أمر اللّه لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين، ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة.

وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق، ثم عهد لعلي بن موسى الرضا من آل الحسين، فكشف بنو العباس عن وجه النكير عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه، وبويع إبراهيم بن المهدي فوقع الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل، وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الأسواق واستعدى أهلها الحكام فلم يعدوهم، فتوافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم، وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابه خلق وقاتل أهل الزعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل.

ثم قام من بعده رجل آخر من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الأنصاري ويكنى أبا حاتم، وعلق مصحفاً في عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ؛ فاتبعه الناس كافةً من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم، ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخِفارة لأولئك الشطار. وقال له خالد الدريوس. أنا لا أعيب على السلطان، فقال له سهل: لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان. وذلك سنة إحدى ومائتين. وجهز له إبراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسره وانحل أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه.

ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم، والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء إما المداواة إن كانوا من أهل الجنون، وإما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاً، وإما إذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصفّاعين.

وقد ينتسب بعضهم إلى الفاطمي المنتظر إما بأنه هو أو بأنه داع له، وليس مع ذلك على علم من أمر الفاطمي ولا ما هو. وأكثر المنتحلين لمثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسةً امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية، فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة، فيسرع إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم.

وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التوبذري، عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هناك وزعم أنه الفاطمي المنتظر تلبيساً على العامة هنالك، بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك، وأن من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهافتت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش، ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدس إليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوي مَنْ قتله في فراشه.

وكذلك خرج في غماره أيضاً لأول هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الأرذلون من سفهاء تلك القبائل وأغمارهم وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة. ثم قتل لأربعين يوماً من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الأولين.

وأمثال ذلك كثير، والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها، وأما إن كان التلبيس فأحرى أن لا يتم له أمر وأن يبوء بإثمه وذلك جزاء الظالمين، واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه.

الفصل السابع

في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التي تصير إليهم، ويستولون عليها لحمايتها من العدو وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك، فإذا توزعت العصائب كلها على الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددها، وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون ثغراً للدولة وتخماً لوطنها ونطاقاً لمركز ملكها، فإن تكفلت الدولة بعد ذلك زيادةً على ما بيدها بقي دون حاميةً وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور، ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة.

وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددها في توزيع

الحصص على الثغور والنواحي، بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها إلى غايته. والعلة الطبيعية في ذلك هي قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية، وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشأنها ذلك في فعلها، والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق، وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه، شأن الأشعة والأنوار إذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه، ثم إذا أدركها الهرم والضعف فإنما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف ولا يزال المركز محفوظاً إلى أن يتأذن اللّه بانقراض الأمر جملة، فحينئذ يكون انقراض المركز. وإذا غُلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها، فإن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح، فإذا غلب على القلب وملك انهزم جميع الأطراف.

وانظر هذا في الدولة الفارسية، كان مركزها المدائن، فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس أجمع ولم ينفع يزدجرد ما بقي بيده من أطراف ممالكه.

وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام؛ لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام تحيزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم، فلم يزل ملكهم متصلاً بها إلى أن تأذن اللّه بانقراضه.

وانظر أيضاً شأن العرب أول الإسلام لما كانت عصائبهم موفورة، كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءه من السند والحبشة وإفريقية والمغرب ثم إلى الأندلس، فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفد عددهم في تلك التوزيعات أقصروا عن الفتوحات بعدُ، وانتهى أمر الإسلام ولم يتجاوز تلك الحدود، ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن اللّه بانقراضها.

وكذا كان حال الدول من بعد ذلك، كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء، سنة اللّه في خلقه.

الفصل الثامن

في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة

والسبب في ذلك أن الملك إنما يكون بالعصبية، وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها، فما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً وكان ملكها أوسع لذلك.

واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية لما ألف اللّه كلمة العرب على الإسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي ﷺ مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة، فلما توجهوا لطلب ما في أيدي الأمم من الملك لم يكن دونه حمىً ولا وزر فاستبيح حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعهدهم، والترك بالمشرق والإفرنجة والبربر بالمغرب والقوط بالأندلس، وخطوا من الحجاز إلى السوس الأقصى، ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال واستولوا على الأقاليم السبعة.

ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين قبلهم، لما كان قبيل كتامة القائمون بدولة العبيديين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت دولتهم أعظم فملكوا إفريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز، ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزناتة بنى مرين وبني عبد الواد لما كان عدد بني مرين لأول ملكهم أكثر من بني الواد كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى. يقال: إن عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف وإنّ بني عبد الواد كانوا ألفاً إلا أن الدولة بالرفه وكثرة التابع كثرت من أعدادهم.

وعلى هذه النسبة في أعداد المتغلبين لأول الملك يكون أتساع الدولة وقوتها، وأما طول أمدها أيضاً فعلى تلك النسبة؛ لأن عمر الحادث من قوة مزاجه، ومزاج الدول إنما هو بالعصبية، فإذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعاً لها وكان أمد العمر طويلاً والعصبية إنما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه، والسبب

الصحيح في ذلك أن النقص إنما يبدو في الدولة من الأطراف، فإذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدةً عن مركزها وكثيرةً، وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر أزمان النقص لكثرة الممالك، واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون أمدها أطول.

وانظر ذلك في دولة العرب الإسلامية كيف كان أمدها أطول الدول، لا بنو العباس أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالأندلس، ولم ينقص أمر جميعهم إلا بعد الأربعمائة من الهجرة، ودولة العبيديين كان أمدها قريباً من مائتين وثمانين سنة، ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد معز الدولة أمر إفريقية لبلكين بن زيري في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسمائة، ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة، وهكذا نسب الدول في أعمارها على نسبة القائمين بها سنة الله التي قد خلت في عباده.

الفصل التاسع

في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أن تستحكم فيها دولة

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء وأن وراء كل رأي منها هوىً وعصبية تمانع دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وإن كانت ذات عصبية؛ لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعةً وقوة.

وانظر ما وقع من ذلك بإفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد، فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن أبي سرح عليهم وعلى الإفرنجة شيئاً، وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرةً بعد أخرى، وعظم الإثخان من المسلمين فيهم، ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدةً.

قال ابن أبي زيد: ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده، وهذا معنى ما ينقل عن عمر أن أفريقة مفرقة لقلوب أهلها إشارةً إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد، ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام، إنما كانت حاميتها من فارس والروم؛ والكافة دهماء أهل مدن وأمصار، فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ممانع ولا مشاق، والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تُحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر، وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة، فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب، وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم واليونان والعمالقة وأكريكش، والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعاً في العصبية، فصعب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى، وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطد سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء، والله غالب على أمره.

وبعكس هذا أيضا الأوطان الخالية من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها ويكون سلطانها وازعا لقلة الهرج والانتقاض، ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير من العصبية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد، إذ هي خلو من القبائل والعصبيات كأن لم يكن الشام معدناً لهم كما قلناه، فملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج وأهل العصائب إنما هو سلطان ورعية، ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحدا بعد واحد وينتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء ببغداد.

وكذا شأن الأندلس لهذا العهد، فإن عصبية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأول دولتهم بقوية ولا كانت كرّات، إنما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منه وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت وطأتهم عليهم، فأشربت القلوب بغضاءهم وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثيراً من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم من تملُّك الحضرة مراكش، فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيء ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم، فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالأمر في الأندلس ثم سما ابن الأحمر للأمر وخالف ابن هود في دعوته، فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب إفريقية من الموحدين

وقام بالأمر وتناوله بعصابة قليلة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لأكثر منهم لقلة العصائب بالأندلس، وأنها سلطان ورعية، ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يجيز إليه البحر من أعياص زناتة، فصاروا معه عصبة على المثاغرة والرباط، ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زناتة أمل في الاستيلاء على الأندلس، فصار أولئك الأعياص عصابة ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأثل أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابه لهذا العهد، فلا تظن أنه بغير عصابة، فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصابة إلا أنها قليلة، وعلى قدر الحاجة فإن قطر الأندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب عليهم؛ والله غني عن العالمين.

الفصل العاشر

في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصبية، والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في ضمنها، وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول، وسرُّه أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون، والمزاج إنما يكون عن العناصر، وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئةً فلا يقع منها مزاج أصلاً بل لا بد من أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبيةً واحدةً شاملةً لجميع العصائب وهي موجودة في ضمنها، وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورئاسة فيهم، ولا بد أن يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم فيتعين رئيساً للعصبيات كلها لغَلَب منبته لجميعها، وإذا تعين له ذلك فمن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة، فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم، ويجيء خلق التأله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فتُجدع حينئذ أنوف العصبيات وتفلَح شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم وتقرع عصبيتهم عن ذلك وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لأحد منهم في الأمر لا ناقة ولا جملاً، فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته وقد يتم ذلك للأول من ملوك الدولة، وقد لا يتم إلا للثاني والثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها، إلا أنه أمر لا بدّ منه في الدول ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ والله تعالى أعلم.

الفصل الحادي عشر

في أن من طبيعة الملك الترف

وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته، ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية، ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره، ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه، إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها. سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني عشر

في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة، والمطالبة غايتها الغلب والملك، وإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها، قال الشاعر:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس، فيبنون القصور ويجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا، ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم، ولا يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره وهو خير الحاكمين والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث عشر

في أنه إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم

وبيانه من وجوه:

الأول: أنها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه. وما كان المجد مشتركاً بين العصابة وكان سعيهم له واحداً كانت هممهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة أسوةً في طموحها وقوة شكائمها ومرماهم إلى العز جميعاً، وهم يستطيبون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فساده، وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم وكبح من أعنتهم واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسلوا عن الغزو وفشل ريحهم ورئموا المذلة والاستعباد، ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء أجراً من السلطان لهم عن الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواه، وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت فيصير ذلك وهناً في الدولة وخضداً من الشوكة وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصبية بذهاب البأس من أهلها.

والوجه الثاني أن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم، فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب، فلا يجدون وليجةً عنها فيوقعون بهم العقوبات وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم، وأيضاً إذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم، احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم، والجباية مقدارها معلوم ولا تزيد ولا تنقص، وأن زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً، فإذا وزعت الجباية على الأعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات، ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثاً ورابعاً إلى أن يعود العسكر إلى أقل الأعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن اللّه فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته، وأيضاً فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة، فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فتكون علامة على الإدبار والانقراض بما جعل من ذلك في خليقته وتأخذ الدولة مبادئ العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها.

الوجه الثالث: أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه، وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفاً وخلقاً صار لهم ذلك طبيعةً وجبلّةً شأن العوائد كلها وإيلافها، فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة، وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعوُّد الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر، فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تُلبَس من ثياب الهرم، ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالاً على حامية أخرى أن كانت لهم، واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحاً من غير ريبة.

وربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصاراً وشيعةً من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جنداً يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف، ويكون ذلك دواءً للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن اللّه فيها بأمره، وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق فإن غالب جندها الموالي من الترك فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فرساناً وجنداً فيكونون أجرأ على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء الملوك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظله، وكذلك في دولة الموحدين بإفريقية، فإن صاحبها كثيراً ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المتعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمراً آخر سالماً من الهرم، واللّه وارث الأرض ومن عليها.

الفصل الرابع عشر

في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص

إعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنةً وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين، ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه، فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها، وأعمار هذه الملة ما بين الستينن إلى السبعين كما في الحديث، ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود. وأما أعمار الدول أيضاً، وإن كانت تختلف بحسب القرانات، إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ولهذا قلنا: إنّ عُمرَ الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني إسرائيل وأن المقصود بالأربعين فيه فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه، فدل على اعتبار الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد.

وإنما قلنا: إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال؛ لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظةً فيهم، فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون.

والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم في المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم.

وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفنقوه من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالاً على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، ويلبِّسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن اللّه بانقراضها فتذهب الدولة بما حملت، فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها.

ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب إنما هو في أربعة آباء وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعي كاف ظافر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات فتأمله، فلن تعدو وجه الحق إن كنتَ من أهل الإنصاف.

وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر، ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده إلا أن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب، فيكون الهرم حاصلاً مستولياً والطالب لم يحضرها، ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعاً ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزايد إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع؛ ولهذا يجري على ألسنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنة، وهذا معناه، فاعتبره واتخذ منه قانوناً يُصحِّح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية إذا كنت قد استربت في عددهم وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك، فعُدَّ لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء، فإن نفدت على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحح، وإن نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب وإن زادت بمثله فقد سقط واحد، وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم إذا كان محصّلاً لديك، فتأمله تجده في الغالب صحيحاً ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة

اعلم أن هذه الأطوار طبيعية للدول، فإن الغلب الذي يكون به الملك إنما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس، ولا يكون ذلك غالباً إلا مع البداوة، فطور الدولة من أولها بداوة، ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الأحوال، والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضاً، وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد، فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك.

وأهل الدول أبداً يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم. فأحوالهم يشاهدون، ومنهم في الغالب يأخذون، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة، فقد حكي أنه قدِّم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً وأمثال ذلك.

فلمّا استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثي وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الأعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية.

وانظر ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في أعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها إلى داره بفم الصلح وركب إليها في السفين وما انفق في إملاكها وما نحلها المأمون وأنفق في عرسها تقف من ذلك على العجب، فمنه أن الحسن بن سهل نثر يوم الأملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون فنثر على الطبقة الأولى منهم بنادق المسك ملتوتةً على الرقاع بالضياع والعقار مسوَّغة لمن حصلت في يده، يقع لكل واحد منهم ما أداه إليه الاتفاق والبخت، وفرق على الطبقة الثانية بِدَر الدنانير في كل بِدْرَة عشرة آلاف، وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك، بعد أن أنفق على مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك، ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة منٍّ وهو رطل وثلثان وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت، وقال المأمون حين رآه: قاتل اللّه أبا نواس، كأنه أبصر هذا حيث يقول في صفة الخمر:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها ... حصباء در على أرض من الذهب

وأعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلاً مدة عام كامل ثلاث مرات كل يوم، وفني الحطب لليلتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت، وأوعز إلى النواتية بإحضار السفن لإجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة، فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثين ألفاً أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم، وكثير من هذا وأمثاله، وكذلك عرس المأمون بن ذي النون بطليطلة؛ نقله ابن بسام في كتاب «الذخيرة» وابن حبان بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من البداوة عاجزين عن ذلك جملةً لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسذاجتهم.

ويذكر أن الحجاج أولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال: أخبرني بأعظم صنيع شهدته فقال له: نعم أيها الأمير شهدت بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة، أربعاً على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس، فإذا طعموا أُتبِعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصفائها، فقال الحجاج: يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس؛ وعلم أنه لا يستقل بهذه الأبهة، وكذلك كان.

ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم، فإنما كان أكثرها الإبل أخذاً بمذاهب العرب وبداوتهم، ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيديين من بعدهم ما علمت من أحمال المال وتخوت الثياب وإعداد الخيل بمراكبها.

وهكذا كان شأن كتامة مع الأغالبة بإفريقية وكذا بنو طغج بمصر، وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالأندلس والموحدين كذلك، وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جراً؛ تنتقل الحضارة من الدول السالفة إلى الدول الخالفة، فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية وبني العباس، وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى

ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد، وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى السلجوقية ثم إلى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين، وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة، إذ أمور الحضارة من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة، فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في العمران، واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل السادس عشر

في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها

والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والوُلد والعمومية فكثرت العصابة، واستكثروا أيضاً من الموالي والصنائع، وربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه، فازدادوا به عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد، فإذا ذهب الجيل الأول والثاني وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالي بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها؛ لأنهم ليس لهم من الأمر شيء إنما كانوا عيالاً على أهلها ومعونةً لها، فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى، ولا تبقى الدولة على حالها من القوة.

واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الإسلام، كان عدد العرب كما قلنا لعهد النبوّة والخلاقة مائة وخمسين ألفاً أو ما يقاربها من مضر وقحطان، ولما بلغ الترف مبالغه قي الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالي والصنائع بلغ ذلك العدد إلى أضعافه؛ يقال: إن المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسعمائة ألف ولا يبعد مثل هذا العدد أن يكون صحيحاً إذا اعتبرت حاميتهم في الثغور الدانية والقاصية شرقاً وغرباً إلى الجند الحاملين سرير الملك والموالي والمصطنعين.

وقال المسعودي: أحصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للإنفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفاً بين ذكران وإناث فانظر مبالغ هذا العدد لأقل من مائتي سنة، واعلم أن سببه الرفه والنعيم الذي حصل للدولة وربي فيه أجيالهم وإلا فعدد العرب لأول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريبا منه واللّه الخلاق العليم.

الفصل السابع عشر

في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار

إعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار:

الطور الأول: طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها، فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء؛ لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها.

الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنياً باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبة الضاربين في الملك بمثل سهمه، فهو يدافعهم عن الأمر ويصدهم عن موارده ويردهم على أعقابهم، أن يخلصوا إليه حتى يقر الأمر في نصابه ويفرد أهل بيته بما يبني من مجده فيعانى من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعوا الأجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم، وهذا يدافع الأقارب لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد فيركب صعباً من الأمر.

الطور الثالث: طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت، فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقصد فيها وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة، وإجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل، وبث المعروف في أهله، هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وإدرار أرزاقهم وإنصافهم في أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكتهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة ويرهب الدول المحاربة، وهذا الطور آخر أطوار

الاستبداد من أصحاب الدولة؛ لأنهم في هذه الأطوار كلها مستقلون بآرائهم بانون لعزهم موضحون الطرق لمن بعدهم.

الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة، ويكون صاحب الدولة في هذا قانعاً بما بنى أولوه سلماً لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلداً للماضين من سلفه فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ويقتفي طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء، ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده.

الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه واصطناع أخدان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الأمور التي لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون يذرون منها مستفسداً لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيعاً من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقده فيكون مخرباً لما كان سلفه يؤسسون وهادماً لما كانوا يبنون، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه برء إلى أن تنقرض كما نبينه في الأحوال التي نسردها والله خير الوارثين.

الفصل الثامن عشر

في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها

والسبب في ذلك أن الآثار إنما تحدث عن القوة التي بها كانت أولاً وعلى قدرها يكون الأثر، فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة، فإنما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها لأنها لا تتم إلا بكثرة الفعلة واجتماع الأيدي على العمل والتعاون فيه، فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا كان الفعلة كثيرين جداً وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها فتم العمل على أعظم هياكله.

ألا ترى إلى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهما.

وانظر بالمشاهدة إيوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى إنه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكاءد عنه وشرع فيه ثم أدركه العجز، وقصة استشارته ليحيى بن خالد في شأنه معروفة، فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة. تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين، وانظر إلى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة والقنطرة التي على واديها، كذلك بناء الحنايا لجلب الماء إلى قرطاجنة في القناة الراكبة عليها وآثار شرشال بالمغرب والأهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف.

واعلم أن تلك الأفعال للأقدمين إنما كانت بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها، فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ما تتوهمه العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدمين عن أجسامنا في أطرافها وأقطارها، فليس بين البشر في ذلك كبير بون كما تجد بين الهياكل والآثار، ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة في ذلك أخباراً عريقة في الكذب، من أغربها ما يحكون عن عوج بن عناق - رجل من العمالقة الذين قاتلهم بنو إسرائيل في الشام - زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه إلى الشمس ويزيدون إلى جهلهم بأحوال البشر الجهل بأحوال الكواكب لما اعتقدوا أن للشمس حرارة وأنها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر هو الضوء، وأن الضوء فيما قرب من الأرض أكثر لانعكاس الأشعة من سطح الأرض بمقابلة الأضواء، فتتضاعف الحرارة هنا لأجل ذلك، وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة فلا حر هنالك بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحاب، وأن الشمس في نفسها لا حارة ولا باردة وإنما هي جسم بسيط مضيء لا مزاج له.

وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه من العمالقة أو من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بني إسرائيل عند فتحهم الشام وأطوال بني إسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريبة من هياكلنا يشهد لذلك أبواب بيت المقدس، فإنها وإن خربت وجددت لم تزل محافظة على أشكالها ومقادير أبوابها، وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار، وإنما مثار غلطهم في هذا أنهم استعظموا آثار الأمم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرفوه إلى قوة الأجسام وشدتها بعظم هياكلها وليس الأمر كذلك.

وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعماً لا مستند له إلا التحكم، وهو أن الطبيعة التي هي جبلّة للأجسام لما برأ اللّه الخلق كانت في تمام المرة ونهاية القوة والكمال وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة، فإن طروء الموت إنما

هو بالحلال القوى الطبيعية فإذا كانت قوية كانت الأعمار أزيد فكان العالم في أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام، ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة إلى أن بلغ إلى هذه الحال التي هو عليها، ثم لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم، وهذا رأي لا وجه له إلا التحكم كما تراه وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني، ولحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر بيوتاً صغاراً وأبوابها ضيقة وقد أشار ﷺ إلى أنها ديارهم ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به وأهرقه وقال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم».

وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض شرقاً وغرباً والحق ما قررناه.

ومن آثار الدول أيضاً حالها في الأعراس والولائم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذي النون وقد مر ذلك كله.

ومن آثارها أيضاً عطايا الدول وأنها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو أشرفتْ على الهرم، فإن الهمم التي لأهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس، والهمم لا تزال مصاحبة لهم إلى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والأعبد والوصائف عشراً عشراً ومن كرش العنبر واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب، وإنما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس، وإنما حمله على ذلك همة نفسه بما كان لقومه التبابعة من الملك في الأرض والغلب على الأمم في العراقين والهند والمغرب؛ وكان الصنهاجيون بإفريقية أيضاً إذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم، فإنما يعطونهم المال أحمالاً والكساء تخوتاً مملوءةً والحملان لمجائب عديدة.

وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة، وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا إذا كسبوا معدماً فإنما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفده يوم أو بعض يوم وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية، هذا جوهر الصقلي الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل إلى فتح مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال ولا تنتهي اليوم دولة إلى مثل هذا.

موارد بيت المال ببغداد أيام المأمون، وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة: غلات السواد سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم، ومن الحلل النجرانية مائتا حلة، ومن طين الختم مائتان وأربعون رطلاً كنكر أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وستمائة ألف درهم كور دجلة عشرون ألف ألف درهم وثمانمائة درهم. (حلوان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم. (الأهواز) خمسة وعشرون ألف ألف درهم مرة ومن السكر ثلاثون ألف رطل. (فارس) سبعة وعشرون ألف ألف درهم ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة، ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل. (كرمان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم، ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب ومن التمر عشرون ألف رطل. (مكران) أربعمائة ألف درهم مرة. (السند وما يليه) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلاً. (سجستان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومن الثياب المعينة ثلاثمائة ثوب ومن الفانيد عشرون رطلاً. (خراسان) ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن نقر الفضة ألفا نقرة، ومن البراذين أربعة آلاف، ومن الرقيق ألف رأس، ومن المتاع عشرون ألف ثوب، ومن الإهليلج ثلاثون ألف رطل. (جرجان) اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن الإبريسم ألف شقة. (قومس) ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة من نقر الفضة. (طبرستان والرويان ونهاوند) ستة آلاف ألف مرتين وثلاثمائة ألف ومن الفرش الطبري ستمائة قطعة، ومن الأكسية مائتان، ومن الثياب خمسمائة ثوب، ومن المناديل ثلاثمائة، ومن الجامات ثلاثمائة. (الري) اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل عشرون ألف رطل. (همذان) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف، ومن رب الرمان ألف رطل، ومن العسل اثنا عشر ألف رطل. (ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم. (ماسبذان والدينار) أربعة آلاف ألف درهم مرتين. (شهر زور) ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم. (الموصل) وما يليها أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل. (أذربيجان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين. (الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات (أربعة) وثلاثون ألف ألف درهم مرتين، ومن الرقيق ألف رأس، ومن العسل اثنا عشر ألف زق، ومن البزاة عشرة، ومن الأكسية عشرون. (أرمينية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن القسط المحفور عشرون، ومن الرقم خمسمائة وثلاثون رطلاً، ومن المسايح

السورماهي عشرة آلاف رطل، ومن الصونج عشرة آلاف رطل، ومن البغال مائتان، ومن المهرة ثلاثون. (قنسرين) أربعمائة ألف دينار، ومن الزيت ألف حمل. (دمشق) أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار. (الأردن) سبعة وتسعون ألف دينار. (فلسطين) ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار، ومن الزيت ثلاثمائة ألف رطل (مصر) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار. (برقة) ألف ألف درهم مرتين. (أفريقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن البسط مائة وعشرون. (اليمن) ثلاثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع. (الحجاز) ثلاثمائة ألف دينار انتهى.

وأما الأندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار.

ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة.

فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات، فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالإنكار وليس ذلك من الصواب، فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة، ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيديين وناسبنا الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة إليها وجدنا بينها بوناً وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها، فالآثار كلها جارية على نسبة الأصل في القوة كما قدمناه، ولا يسعنا إنكار ذلك عنها، إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة والوضوح، بل فيها ما يلحق بالمستفيض والتواتر وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء وغيره، فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستظرفة.

وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه، واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه، وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به، وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه، وأمثال هذه الحكايات فتناجى الناس بتكذيبه ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه.

فقال لي الوزير فارس: إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشيء في السجن، وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك الحبس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم الذي كان يتغذى به فقال له أبوه: هذا لحم الغنم فقال: وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول: يا أبت تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول: أين الغنم من الفأر! وكذا في لحم الإبل والبقر إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عن قصد الإغراب كما قدمناه أول الكتاب. فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهيمناً على نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه، وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق، فإن نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حداً بين الواقعات، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء، فإنا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه ﴿وَقُل ربِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين

إعلم أن صاحب الدولة إنما يتم أمره كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهراؤه على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم من يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته وجباية أموله؛ لأنهم أعوانه على الغلب وشركاؤه في الأمر ومساهموه في سائر مهماته هذا ما دام الطور الأول للدولة كما قلناه، فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالراح صاروا في حقيقة الأمر من بعض أعدائه واحتاج في مدافعتهم عن الأمر وصدهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم، فيكونون أقرب إليه من سائرهم وأخص به قرباً واصطناعاً وأولى إيثاراً وجاهاً؛ لما أنهم يستميتون دونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم والرتبة التي ألفوها في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذٍ ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثار ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقلدهم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية وما يختص به لنفسه وتكون خالصة له دون قومه من ألقاب المملكة؛ لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه المخلصون وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التي كان بناء الغلب عليها. ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع في برئها من هذا الداء؛ لأنه ما مضى يتأكد في الأعقاب إلى أن ذهب رسمها واعتبر ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب مثل عمر بن سعد بن أبي وقاص وعبيد اللّه بن زياد بن أبي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبي صفرة وخالد بن عبد اللّه القسري وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ونصر بن سيار وأمثالهم من رجالات العرب، وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضاً برجالات العرب، فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوبخت وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل بغا ووصيف وأتامش وباكناك وابن طولون وأبنائهم وغير هؤلاء من موالي العجم فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه، سنة اللّه في عباده واللّه تعالى أعلم.

الفصل العشرون

في أحوال الموالي والمصطنعين في الدول

اعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة والمغالبة إنما يتم بالنسب؛ لأجل التناصر في ذوي الأرحام والقربى والتخاذل في الأجانب والبعداء كما قدمناه، والولاية والمخالطة بالرق أو بالحلف تتنزل منزلة ذلك؛ لأن أمر النسب، وإن كان طبيعياً، فإنما هو وهمي والمعنى الذي كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة، وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس، واعتبر مثله في الاصطناع، فإنه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تتنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة وإن لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة، فإذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها أوشج وعقائدها أصح ونسبها أصرح لوجهين:

أحدهما: أنهم قبل الملك أسوة في حالهم، فلا يتميز النسب عن الولاية إلا عند الأقل منهم فيتنزلون منهم منزلة ذوي قرابتهم وأهل أرحامهم، وإذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى. ولأهل القرابة عن أهل الولاية. والاصطناع لما تقتضيه أحوال الرئاسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها فتتميز حالتهم ويتنزلون منزلة الأجانب، ويكون الالتحام بينهم أضعف والتناصر لذلك أبعد وذلك انقص من الاصطناع قبل الملك.

الوجه الثاني: أن الاصطناع قبل الملك يبعد عهده عن أهل الدولة بطول الزمان ويخفي شأن تلك اللحمة ويظن بها في الأكثر النسب فيقوى حال العصبية، وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته الأكثر فتتبين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصبية بالنسبة إلى الولاية التي كانت قبل الدولة، واعتبر ذلك في الدول والرياسات تجده؛ فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرئاسة والملك لمصطنعه تجده أشد التحاماً به وأقرب قرابةً إليه ويتنزل منه منزلة أبنائه وإخوانه وذوي رحمه، ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون له من

القرابة واللحمة ما للأولين، وهذا مشاهد بالعيان حتى أن الدولة في آخر عمرها ترجع إلى استعمال الأجانب واصطناعهم ولا يبنى لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حينئذ بأوليتهم ومشارفة الدولة على الانقراض فيكونون منحطين في مهاوي الضعة.

وإنما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول إليهم عن أوليائها الأقدمين وصنائعها الأولين ما يعتريهم في أنفسهم من العزة على صاحب الدولة وقلة الخضوع له ونظره بما ينظره به قبيله وأهل نسبه، لتأكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربى والاتصال بآبائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء أهل بيته، فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز فينافرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم إلى استعمال سواهم، ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريباً فلا يبلغون رتب المجد ويبقون على حالهم من الخارجية، وهكذا شأن الدول في أواخرها، وأكثر ما يطلق اسم الصنائع والأولياء على الأولين، وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان، والله ولي المؤمنين وهو على كل شيء وكيل.

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القائمين بالدولة وانفردوا به ودفعوا سائر القبيل عنه وتداوله بنوهم واحداً بعد واحد بحسب الترشيح، فربما حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسببه في الأكثر ولاية صبي صغير أو مضعف من أهل المنبت يترشح للولاية بعهد أبيه أو بترشيح ذويه وخوله، ويؤنس منه العجز عن القيام بالملك، فيقوم به كافله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله ويوري عنه بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات التي يدعوه إليها ترف أحواله ويسيمه في مراعيها متى أمكنه وينسيه النظر في الأمور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد أن حظ السلطان من الملك إنما هو جلوس السرير وإعطاء الصفقة وخطاب التهويل والقعود مع النساء خلف الحجاب، وأن الحل والربط والأمر والنهي ومباشرة الأحوال الملوكية وتفقدها من النظر في الجيش والمال والثغور إنما هو للوزير ويسلم له في ذلك، إلى أن تستحكم له صبغة الرئاسة والاستبداد ويتحول الملك إليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده كما وقع لبني بويه والترك وكافور الأخشيدي وغيرهم بالمشرق وللمنصور بن أبي عامر بالأندلس.

وقد يتفطن ذلك المحجور المغلب لشأنه فيحاول على الخروج من ربقة الحجر والاستبداد ويرجع الملك إلى نصابه ويضرب على أيدي المتغلبين عليه إما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط، إلا أن ذلك في النادر الأقل؛ لأن الدولة إذا أخذت في تغلب الوزراء والأولياء استمر لها ذلك وقل أن تخرج عنه؛ لأن ذلك إنما يوجد في الأكثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين في نعيمه قد نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق الدايات والاظآر وربوا عليها، فلا ينزعون إلى رئاسة ولا يعرفون استبداداً من تغلب إنما همهم في القنوع بالأبهة والتفنن في اللذات وأنواع الترف، وهذا التغلب يكون للموالي والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضروري كما قدمناه، وهذان مرضان لا برء للدولة منهما إلا في الأقل النادر ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

الفصل الثاني والعشرون

في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك

وذلك أن الملك والسلطان حصل لأوليه منذ أول الدولة بعصبية قومه وعصبيته التي استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب، وهي لم تزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة وبقاؤها، وهذا المتغلب وإن كان صاحب عصبية من قبيل الملك أو الموالي والصنائع فعصبيته مندرجة في عصبية أهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في الملك، وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهراً، وإنما يحاول انتزاع ثمراته من الأمر والنهي والحل والعقد والإبرام والنقض، يوهم فيها أهل الدولة أنه متصرف عن سلطانه منفذ في ذلك من وراء الحجاب لأحكامه. فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك، وإن حصل له الاستبداد لأنه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان وأولوه على أنفسهم عن القبيل منذ أول الدولة ومغالط عنه بالنيابة، ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه عليه أهل العصبية وقبيل الملك وحاولوا الاستئثار به دونه؛ لأنه لم تستحكم له في ذلك صبغة تحملهم على التسليم له والانقياد فيهلك لأول

وهلة وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن منصور بن أبي عامر حين سما إلى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع به أبوه وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتتابعة، فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة فنفس ذلك عليه بنو مروان وسائر قريش وبايعوا لابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر وخرجوا عليه وكان في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفتهم واستبدل منه سواه من أعياص الدولة إلى آخرها واختلت مراسم ملكهم، والله خير الوارثين.

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك وأصنافه

الملك منصب طبيعي للإنسان؛ لأنا قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم، وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك، فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة وهي تؤدي إلى الهرج وسفك الدماء وإذهاب النفوس المفضي ذلك إلى انقطاع النوع، وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافظة واستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم، ولا بد في ذلك من العصبية لما قدمناه من أن المطالبات كلها والمدافعات لا تتم إلا بالعصبية، وهذا الملك كما تراه منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج إلى المدافعات. ولا يتم شيء من ذلك إلا بالعصبيات كما مر، والعصبيات متفاوتة، وكل عصبية فلها تحكم وتغلب على من يليها من قومها وعشيرها وليس الملك لكل عصبية، وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة، وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور، فمن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل حماية الثغور أو جباية الأموال أو بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الأغالبة بالقيروان ولملوك العجم صدر الدولة العباسية. ومن قصرت به عصبيته أيضاً عن الاستعلاء على جميع العصبيات، والضرب على سائر الأيدي وكان فوقه حكم غيره فهو أيضاً ملك ناقص لم تتم حقيقته، وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة وكثيراً ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق، أعني توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعتهم مثل صنهاجة مع العبيديين وزناتة مع الأمويين تارة والعبيديين تارةً أخرى، ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس، ومثل أمراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الإسلام، ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الإسكندر وقومه اليونانيين وكثير من هؤلاء، فاعتبره تجده والله القاهر فوق عباده.

الفصل الرابع والعشرون

في أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر

إعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحة وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقوب ذهنه، وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم، فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية وهي نسبة بين منتسبين، فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم، فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان، والصفة التي له من حيث إضافته لهم هي التي تسمى الملكة وهي كونه يملكهم، فإذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودة بمكان حصل المقصود من السلطان على أتم الوجوه، فإنها إن كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم، وإن كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضرراً عليهم وإهلاكاً لهم.

ويعود حسن الملكة إلى الرفق، فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات، وربما أجمعوا على قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السياج، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولاً وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية، وإذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الأمر من كل جانب.

وأما توابع حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم،

فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك، وأما النعمة عليهم والإحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي أصل كبير من التحبب إلى الرعية، واعلم أنه قلما تكون ملكة الرفق في من يكون يقظاً شديد الذكاء من الناس وأكثر ما يوجد الرفق في الغفل والمتغفل، وأقل ما يكون في اليقظ أنه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم واطلاعه على عواقب الأمور في مبادئها بالمعية فيهلكون، لذلك قال ﷺ «سيروا على سير أضعفكم». ومن هذا الباب اشترط الشارع في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء، ومأخذه من قصة زياد ابن أبي سفيان لما عزله عمر عن العراق وقال: لم عزلتني يا أمير المؤمنين لعجز أم لخيانة فقال؟ عمر: لم أعزلك لواحدة منهما، ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس؛ فأُخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس في طبعه، كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير المالكين.

وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة، لأنه إفراط في الفكر كما أن البلادة إفراط في الجمود، والطرفان مذمومان من كل صفة إنسانية، والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل، وكما في الشجاعة مع الهوج والجبن وغير ذلك من الصفات الإنسانية، ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال: شيطان ومتشيطن وأمثال ذلك، والله يخلق ما يشاء وهو العليم القدير.

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والإمامة

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لحمله إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته، ويختلف في ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم، فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية إلى الهرج والقتل، فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم، وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولم يتم استيلاؤها، سنة الله في الذين خلوا من قبل.

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء، والله يقول ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم: ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع.

فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبية في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية، وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً لأنه نظر بغير نور الله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾ لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك أو غيره قال ﷺ: «إنما هي أعمالكم ترد عليكم». وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهراً من حياة الدنيا، ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة، وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم.

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماماً، فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به؛ ولهذا يقال: الإمامة الكبرى.

وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال: خليفة بإطلاق، وخليفة رسول اللّه؛ واختلف في تسميته خليفة اللّه.

فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقوله ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ﴾.

ومنع الجمهور منه؛ لأن معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال: لست خليفة اللّه ولكني خليفة رسول اللّه ﷺ. ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب، وأما الحاضر فلا.

ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول اللّه ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي اللّه عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك، ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام. وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه العقل، وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه.

قالوا: وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين، ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض. فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية، وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوّات في البشر وقد نبهنا على فساده، وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من اللّه تسلّم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلّم؛ لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة، ولو لم يكن شرع كما في أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو نقول: يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل، فادعاؤهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح، بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم، فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة، فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قدمناه.

وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع، منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم، والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء أحكام الشرع، فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام اللّه تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالإجماع. والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك والنعي على أهله ومرغبة في رفضه.

واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به؛ إنما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات، ولا شك أن في هذه مفاسد محظورة وهي من توابعه كما أثنى على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك.

فإذاً إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى، ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين، وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة إليه، وإنما المراد تصريفهما على مقتضى الحق.

وقد كان لداود وسليمان صلوات اللّه وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء اللّه تعالى وأكرم الخلق عنده، ثم نقول لهم: إن هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شيئاً؛ لأنكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل إلا بالعصبية والشوكة، والعصبية مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك، وإن لم ينصب إمام وهو عين ما فررتم منه.

وإذا تقرر أن هذا النصب واجب بإجماع فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل العقد والحل، فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء، مما يؤثر في الرأي والعمل.

واختُلف في شرط خامس وهو النسب القرشي.

فأما اشتراط العلم فظاهرٌ؛ لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها، وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها، ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهداً لأن التقليد نقص والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال.

وأما العدالة؛ فلأنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها، فكان أولى باشتراطها فيه.

ولاخلاف في انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف.

وأما الكفاية فهو أن يكون جزئياً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها كفيلاً بحمل الناس عليها، عارفاً بالعصبية وأحوال الدهاء، قوياً على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح.

وأما سلامة الحواس والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يؤثر فقده من الأعضاء في العمل كفقد اليدين والرجلين والأنثيين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه، وإن كان إنما يشين في المنظر فقط، كفقد إحدى هذه الأعضاء، فشرط السلامة منه شرط كمال، ويلحق بفقدان الأعضاء المنع من التصرف، وهو ضربان:

ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالأسر وشبهه.

وضرب لا يُلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاقة، فينتقل النظر في حال هذا المستولي، فإن جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز قراره وإلا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علته حتى ينفذ فعل الخليفة.

وأما النسب القرشي فلإجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك، واحتجت قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا: منا أمير ومنكم أمير. بقوله ﷺ: «الأئمة من قريش». وبأن النبي ﷺ أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم؛ فحَجُّوا الأنصار ورجعوا عن قولهم: منا أمير ومنكم أمير. وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك. وثبت أيضاً في الصحيح: «لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش» وأمثال هذه الأدلة كثيرة.

إلا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم، فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن ولّي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة». وهذا لا تقوم به حجة في ذلك، فإنه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة في إيجاب السمع والطاعة؛ ومثل قول عمر: لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته. أو: لما دخلتني فيه الظنة. وهو أيضاً لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة، وأيضاً «فمولى القوم منهم» وعصبية الولاء حاصلة لسالم في قريش وهي الفائدة في اشتراط النسب، ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه، عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب المفيد للعصبية كما نذكر، ولم يبق إلا صراحة النسب فرآه غير محتاج إليه، إذ الفائدة في النسب إنما هي للعصبية وهي حاصلة من الولاء، فكان ذلك حرصاً من عمر رضي الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة.

ومن القائلين بنفي اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية، وإن كان موافقاً لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده، وبقي الجمهور على القول باشتراطها وصحة الإمامة للقرشي، ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين ورُدَّ عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها على أمره؛ لأنه إذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية، وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضاً إلى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الإجماع.

ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب فنقول: إن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لأجلها، ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوُصْلَةِ النبي ﷺ كما هو في المشهور، وإن كانت تلك الوُصلة موجودة والتبرك بها حاصلاً، لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت، فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها،

وينتظم حبل الألفة فيها وذلك أن قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم، فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم، ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكرّة فتتفرق الجماعة وتختلف الكلمة.

والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم، لتحصل اللحمة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش؛ لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم، فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة؛ لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها، فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة، وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع، فأذعن لهم سائر العرب، وانقادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة، ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصبية العرب، ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم.

وقد ذكر ذلك ابن إسحاق في كتاب «السير» وغيره، فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة، علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية، وهي وجود العصبية، فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها، ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية، ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية، إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة، وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم، وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة، وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا؛ لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه، ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب في شأن النساء وأنهن في كثير من الأحكام الشرعية جُعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع. وإنما دخلن عنده بالقياس، وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن، اللّهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه، فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس، ثم إن الوجود شاهد بذلك فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي، والله تعالى أعلم.

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الإمامة

اعلم أن الشيعة لغة: هم الصحب والأتباع.

ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وأن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة، وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلي وخفي، فالجلي مثل قوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه». قالوا: ولم تطرد هذه الولاية إلا في علي؛ ولهذا قال له عمر: أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة، ومنها قوله: «أقضاكم علي» ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الأمر الواجبة طاعتهم بقوله: ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾. والمراد الحكم والقضاء، ولهذا كان حكماً في قضية الإمامة يوم السقيفة دون غيره، ومنها قوله: «من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الأمر من بعدي» فلم يبايعه إلا علي.

ومن الخفي عندهم بعث النبي ﷺ علياً لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت، فإنه بعث بها أولاً أبا بكر ثم أوحي إليه ليبلغه رجل منك أو من قومك، فبعث علياً ليكون القارىء المبلغ قالوا: وهذا يدل على تقديم علي. وأيضاً فلم يعرف أنه قدم أحداً على علي. وأما أبو بكر وعمر فقدم عليهما في غزاتين أسامة بن زيد مرة وعمرو بن العاص أخرى، وهذه كلها أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره، فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم، ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على

تعيين علي وتشخيصه. وكذلك تنتقل منه إلى من بعده، وهؤلاء هم الإمامية ويتبرأون من الشيخين، حيث لم يقدموا علياً ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص ويغمصون في إمامتهما، ولا يلتفت إلى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم.

ومنهم من يقول: إن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص، والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه، وهؤلاء هم الزيدية ولا يتبرؤون من الشيخين ولا يغمصون في إمامتهما مع قولهم بأن علياً أفضل منهما؛ لكنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

ثم اختلفت نقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلافة بعد علي:

فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنص عليهم واحداً بعد واحد على ما يذكر بعد، وهؤلاء يسمون الإمامية نسبةً إلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان، وهي أصل عندهم،

ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ، ويشترط أن يكون الإمام منهم عالماً زاهداً جواداً شجاعاً داعياً إلى إمامته، وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب وهو زيد بن علي بن الحسين السبط، وقد كان يناظر أخاه محمداً الباقر على اشتراط الخروج في الإمام فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين إماماً؛ لأنه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المعتزلة وأخذه إياها عن واصل بن عطاء، ولما ناظر الإمامية زيداً في إمامة الشيخين ورأوه يقول بإمامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة، وبذلك سموا رافضة.

ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك إلى أخيهما محمد بن الحنفية ثم إلى ولده، وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاه، وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصاراً.

ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والإيمان في القول بألوهية هؤلاء الأئمة. إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية، أو أن الإله حل في ذاتهم البشرية وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى في عيسى صلوات اللّه عليه، ولقد حرق علي رضي اللّه عنه بالنار من ذهب فيه إلى ذلك منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه، فصرح بلعنته والبراءة منه، وكذلك فعل جعفر الصادق رضي اللّه تعالى عنه بمن بلغه مثل هذا عنه.

ومنهم من يقول: إن كمال الإمام لا يكون لغيره فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال، وهو قول بالتناسخ.

ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم، وهؤلاء هم الواقفية،

فبعضهم يقول: هو حي لم يمت إلا أنه غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك بقصة الخضر، قيل مثل ذلك في علي رضي اللّه عنه أنه في السحاب والرعد صوته والبرق في سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية، وإنه في جبل رضوى من أرض الحجاز.

وقال شاعرهم.

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء

وقال مثله غلاة الإمامية وخصوصاً الاثنا عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم بالحلّة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً، يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي، وهم إلى الآن يتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك، ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قوّموا مركباً فيهتمون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد.

وبعض هؤلاء الواقفية يقول: إن الإمام الذي مات يرجع إلى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف، والذي مر على قرية، وقتيل بني إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التي أمروا بذبحها، ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها، وكان من هؤلاء السيد الحميري، ومن شعره في ذلك:

إذا ما المرء شاب له قذال ... وعلله المواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشته وأودى ... فقم يا صاح نبك على الشباب
إلى يوم تؤوب الناس فيه ... إلى دنياهمو قبل الحساب
فليس بعائد ما فات منه ... إلى أحد إلى يوم الإياب
أدين بأن ذلك دين حق ... وما أنا في النشور بذي ارتياب

كذاك اللّه أخبر عن أناس حيوا من بعد درس في التراب

وقد كفانا مؤونة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة، فإنهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم عليها.

وأما الكيسانية فساقوا الإمامة من بعد محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم، وهؤلاء هم الهاشمية، ثم افترقوا، فمنهم من ساقها بعده إلى أخيه علي ثم إلى ابنه الحسن بن علي. وآخرون يزعمون أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة منصرفاً من الشام أوصى إلى محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس، وأوصى محمد إلى ابنه ابراهيم المعروف بالإمام، وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد اللّه بن الحارثية الملقب بالسفاح، وأوصى هو إلى أخيه عبد اللّه أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد إلى آخرهم، وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس، وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية، وربما يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس؛ لأنه كان حياً وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصبية العمومة.

وأما الزيدية فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص، فقالوا بإمامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين، ثم ابنه علي زين العابدين، ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب، وخرج بالكوفة داعياً إلى الإمامة فقتل وصلب بالكناسة، وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية، فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم وقتل إبراهيم وعيسى، وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته.

وذهب آخرون منهم إلى أن الامام بعد محمد بن عبد اللّه النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر، وعمر هو أخو زيد بن علي، فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه، وقال آخرون من الزيدية أن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد اللّه في قتاله مع منصور ونقلوا الإمامة في عقبه وإليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم.

وقال آخرون من الزيدية: إن الإمام بعد محمد بن عبد اللّه أخوة إدريس الذي فر إلى المغرب ومات هنالك وقام بأمر ابنه إدريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكاً بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم.

وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد، ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الأطروش منهم، وأسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر وعمر أخو زيد بن علي، فكانت لبنيه بطبرستان دولة، وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر في أخبارهم.

وأما الإمامية فساقوا الإمامة من علي الرضى إلى ابنه الحسن بالوصية، ثم إلى أخيه الحسين، ثم إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق ومن هنا افترقوا فرقتين، فرقة ساقوها إلى ولده إسماعيل ويعرفونه بينهم بالإمام وهم الاسماعيلية، وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان كما مر.

فأما الإسماعيلية فقالوا بإمامة إسماعيل الإمام بالنص من أبيه جعفر، وفائدة النص عليه عندهم وإن كان قد مات قبل أبيه إنما هو بقاء الإمامة في عقبه كقصة هارون مع موسى صلوات اللّه عليهما، قالوا: ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين؛ لأن الإمام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دعاته ظاهرين إقامة للحجة على الخلق، وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته قالوا: وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين، وبعده ابنه عبد اللّه المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد اللّه الشيعي في كتامة وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف في أخبارهم.

ويسمى هؤلاء الإسماعيلية نسبة إلى القول بإمامة إسماعيل ويسمون أيضاً بالباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام الباطن، أي المستور، ويسمون أيضاً الملحدة لما في ضمن مقالتهم من الإلحاد ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا إليها الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة الخامسة وملك حصوناً بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيها إلى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق فانقرضت. ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني.

وأما الاثنا عشرية خصوا باسم الإمامية عند المتأخرين منهم فقالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الأكبر إسماعيل الإمام في حياة أبيهما جعفر فنص على إمامة موسى هذا ثم ابنه علي الرضا الذي عهد إليه المأمون ومات قبله فلم يتم له أمر، ثم ابنه محمد التقي، ثم ابنه علي الهادي، ثم ابنه محمد الحسن العسكري، ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمناه قبل.

وفي كل واحدة من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير إلا أن هذه أشهر مذاهبهم، ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما، ففيهما بيان ذلك، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير.

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة إلى الملك

اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها باختيار، إنما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل، وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية، إذ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدمناه.

فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح: «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه» ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبية وندب إلى إطراحها وتركها فقال: «إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، أنتم بنو آدم وآدم من تراب»، وقال تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ووجدناه أيضاً قد ذم الملك وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاق والإسراف في غير القصد والتنكب عن صراط الله، وإنما حض على الألفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة، واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول، وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية، إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقاً وتتحد الوجهة كما قال ﷺ: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الإنسان، فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله، وإنما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة، فإذا كان الغضب لذلك كان مذموماً، وإذا كان الغضب في الله و لله كان ممدوحاً وهو من شمائله ﷺ.

وكذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد إبطالها بالكلية، فإن من بطلت شهوته كان نقصاً في حقه، وإنما المراد تصريفها فيما أبيح له باشتماله على المصالح ليكون الإنسان عبداً متصرفاً طوع الأوامر الإلهية، وكذا العصبية حيث ذمها الشارع وقال ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم﴾، فإنما مراده حيث تكون العصبية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية، وأن يكون لأحد فخر بها أو حق على أحد لأن ذلك مجاب من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار، فأما إذا كانت العصبية في الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرائع إذ لا يتم قوامها إلا بالعصبية كما قلناه من قبل، وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح، وإنما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات كما قلناه، فلو كان الملك مخلصاً في غلبه للناس أنه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً.

وقد قال سليمان صلوات الله عليه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾. لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوّة والملك.

ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه إلى الشام في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال: أكسروية يا معاوية! فقال: يا أمير المؤمنين إنا في ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة. فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين، فلو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقنعه الجواب في تلك الكسروية وانتحالها، بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة، وإنما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبله والغفلة عن الله، وأجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم، وإنما قصده بها وجه الله فسكت، وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذراً من التباسها بالباطل.

فلما استحضر رسول الله ﷺ استخلف أبا بكر على الصلاة إذ هي أهم أمور الدين وارتضاه الناس للخلافة وهي حمل الكافة على أحكام الشريعة ولم يجر للملك ذكر لما أنه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لأهل الكفر وأعداء الدين، فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعاً سنن صاحبه وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على

الإسلام.

ثم عهد إلى عمر فاقتفى أثره وقاتل الأمم فغلبهم وأذن للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه، وانتزعوه منهم، ثم صارت إلى عثمان بن عفان، ثم إلى علي رضي عنهما والكل متبرئون من الملك متنكّبون عن طرقه.

وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الإسلام وبداوة العرب فقد كانوا أبعد الأمم عن أحوال الدنيا وترفها لا من حيث دينهم الذي يدعوهم إلى الزهد في النعيم ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذي ألفوه.

فلم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من مضر لما كانوا بالحجاز في أرض غير ذات زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الأرياف وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتطاولون إلى خصبها، ولقد كانوا كثيراً ما يأكلون العقارب والخنافس ويفخرون بأكل العلهز وهو وبر الإبل يمهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه، وقريباً من هذا كانت حال قريش في مطاعمهم ومساكنهم.

حتى إذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد ﷺ زحفوا إلى أمم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزخرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم، فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد، وكان علي يقول: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري، وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخل مفقودةً عندهم بالجملة، وإنما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها ومكاسبهم مع هذا أتم ما كانت لأحد من أهل العالم.

قال المسعودي: في أيام عثمان أقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلاً وخيلاً كثيرةً. وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة؛ وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك، وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم؛ وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً، وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار، وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والإسكندرية، وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد دارة بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج، وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم اهـ. كلام المسعودي.

فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن ذلك منعيّاً عليهم في دينهم، إذ هي أموال حلال لأنها غنائم وفيوء ولم يكن تصرفهم فيها بإسراف، إنما كانوا على قصد في أحوالهم كما قلناه، فلم يكن ذلك بقادح فيهم وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموماً، فإنما يرجع إلى ما أشرنا إليه من الإسراف والخروج به عن القصد، وإذا كان حالهم قصداً ونفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عوناً لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة، فلما تدرجت البداوة والغضاضة إلى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية كما قلناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفه والاستكثار من الأموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق.

ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد، وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه، وإن كان المصيب عليّاً فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل، إنما قصد الحق وأخطأ، والكل كانوا في مقاصدهم على حق.

ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به، ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية، ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة، وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر: «لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة» ولو أراد أن

يعهد إليه لفعل، ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه، فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة. وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية، فالملك إذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه، ولقد انفرد سليمان وأبوه داود صلوات اللّه عليهما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم الانفراد به، وكانوا ما علمت من النبوّة والحق، وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم. فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحاً ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره، فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا اللّه لمعاوية من ذلك.

وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكاً لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد، يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم فقد احتج مالك في «الموطأ» بعمل عبد الملك.

وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدالتهم معروفة ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده ولم يهمل. ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها، فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم وولي رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان، وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح، ثم أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهرياً، فتأذن اللّه بحربهم وانتزاع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منه، واللّه لا يظلم مثقال ذرة.

ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه، وقد حكى المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال: أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي بما صنع، وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه، وأما عمر فكان أعور بين عميان، وكان رجل القوم هشام، قال: ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب اللّه لهم منه مع تسلمهم معالي الأمور ورفضهم دنياتها حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي اللّه جهلاً باستدراجه وأمناً لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم اللّه العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة، ثم استحضر عبد اللّه بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فاراً أيام السفاح قال: أقمت ملياً ثم أتاني ملكهم فقعد على الأرض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة فقلت له: ما منعك من القعود على ثيابنا؟ فقال: إني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة اللّه إذ رفعه اللّه، ثم قال: لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم، قال: فلم تطؤون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال: فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم؟ قلت: ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا؛ فأطرق ينكت بيده في الأرض ويقول: عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا، ثم رفع رأسه إلي وقال: ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم اللّه عليكم وأتيتم ما عنه نهيتم، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم اللّه العز وألبسكم الذل بذنوبكم و لله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم، وإنما الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت إليه وارتحل عن أرضي؛ فتعجب المنصور وأطرق.

فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك، وأن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة،

فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد اللّه بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين السلمين مخافة الفرقة وحفظاً للألفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه.

وهذا علي أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره، وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فراراً من الغش الذي ينافيه الإسلام وغدا عليه المغيرة

من الغداة فقال: لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظري فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت، فقال علي: لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالأمس وغششتني اليوم، ولكن منعني مما أشرت به ذائد الحق؛ وهكذا كانت أحوالهم في اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن:

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبيةً وسيفاً، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده، ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها، وصار الأمر ملكاً بحتاً وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصبية العرب، والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض، ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الأمر ملكاً بحتاً كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركاً والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم، وليس للخليفة منه شيء، وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن أيضاً مع خلفاء بني أمية بالأندلس والعبيديين بالقيروان، فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة، والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار.

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة

اعلم أن البيعة: هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلّم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره؛ وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يديه تأكيداً للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعةً، مصدر باع، وصارت البيعة مصافحةً بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي ﷺ ليلة العقبة وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ، ومنه بيعة الخلفاء، ومنه أيمان البيعة، كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها لذلك فسمي هذا الاستيعاب إيمان البيعة وكان الإكراه فيها أكثر وأغلب؛ ولهذا لما أفتى مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الإكراه أنكرها الولاة عليه ورأوها قادحةً في أيمان البيعة، ووقع ما وقع من محنة الإمام رضي الله عنه.

وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل، أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً لما كان هذا الخضوع في التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى صارت حقيقةً عرفيةً واستغني بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل لما في المصافحة لكل أحد من التنزل والابتذال المنافيين للرياسة وصون المنصب الملوكي، إلا في الأقل ممن يقصد التواضع من الملوك فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير أهل الدين من رعيته، فافهم معنى البيعة في العرف فإنه أكيد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه، ولا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك، والله القوي العزيز.

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

اعلم أنا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة، وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم، فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها، ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل، وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده إذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم.

وكذلك عهد عمر في الشورى إلى الستة بقية العشرة، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ففوض بعضهم إلى بعض حتى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف، فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى علي، فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعنُّ دون اجتهاده، فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملأ من

الصحابة حاضرون للأولى والثانية ولم ينكره أحد منهم، فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والإجماع حجة كما عرف.

ولا يُتّهم الإمام في هذا الأمر وأن عهد إلى أبيه أو ابنه؛ لأنه مأمون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتمل فيها تبعةً بعد مماته خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد، فإنه بعيد عن الظنة في ذلك كله لا سيما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه من إيثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة عند ذلك رأساً كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وإن كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب، والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع.

وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك.

وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك وعدالتهم مانعة منه، وفرار عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحاً كان أو محظوراً كما هو معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير وندور المخالف معروف، ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به، مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك، فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك، وكان الوازع دينياً فعند كل أحد وازع من نفسه فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه. وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصباني، فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعاً وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف.

سأل رجل علياً رضي الله عنه: ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر؟ فقال: لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي وأنا اليوم وال على مثلك. يشير إلى وازع الدين، أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد ورد أمرهم لمعاهده، فلا بد من اعتبار ذلك في العهد، فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخصه لطفاً من الله بعباده.

وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية، إذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من عباده ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفاً من العبث بالمناصب الدينية، والملك لله يؤتيه من يشاء، وعرض هنا أمور تدعو الضرورة إلى بيان الحق فيها.

فالأول منها: ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته، فإياك أن تظن بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد، فإنه أعدل من ذلك وأفضل، بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه وهو أقل من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة، ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ في شأنه، فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك، ومنهم من أباه لما فيه من إثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به؛ لأن شوكة يزيد يومئذ هي عصابة بني أمية وجمهور أهل الحل والعقد من قريش وتستتبع عصبية مضر أجمع، وهي أعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم فأقصروا عن يزيد بسبب ذلك وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه، وهذا كان شأن جمهور المسلمين والكل مجتهدون ولا ينكر على أحد من الفريقين، فمقاصدهم في البر وتحري الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم.

والأمر الثاني: هو شأن العهد مع النبي ﷺ وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل، والذي وقع في «الصحيح» من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية، وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح

على أنه لم يقع وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال: إن أعهد فقد عهد من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني - يعني النبي ﷺ - لم يعهد؛ وكذلك قول علي للعباس رضي الله عنهما حين دعاه للدخول إلى النبي ﷺ يسألانه عن شأنهما في العهد، فأبى علي من ذلك وقال: إنه إن منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر؛ وهذا دليل على أن علياً علم أنه لم يوص ولا عهد إلى أحد وشبهة الإمامية في ذلك، إنما هي كون الإمامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك، وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق، ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة، ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر في الصلاة، ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة.

واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا، دليل على أن الوصية لم تقع. ويدل ذلك أيضاً على أن أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مهماً كما هو اليوم، وشأن العصبية المراعاة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار؛ لأن أمر الدين والإسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه، وذلك من أجلّ الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم، وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم، فلم يحتج إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والإذعان وما يستفزهم من تتابع المعجزات الخارقة والأحوال الإلهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجموا منها ودهشوا من تتابعها.

فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه الأنواع مندرجاً في ذلك القبيل كما وقع، فلما انحصر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات ثم بفناء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان، فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد، وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهماً من المهمات الأكيدة كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل.

فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي ﷺ غير مهمة فلم يعهد فيها، ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة إليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات، فكانوا بالخيار في الفعل والترك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الأمور للألفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها.

والأمر الثالث: شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين، فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون إذا اختلفوا.

فإن قلنا: إن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطىء، فإن جهته لا تتعين بإجماع، فيبقى الكل على احتمال الإصابة ولا يتعين المخطىء منها، والتأثيم مدفوع عن الكل إجماعاً.

وإن قلنا: إن الكل على حق وإن كل مجتهد مصيب، فأحرى بنفي الخطأ والتأثيم وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين أنه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية وهذا حكمه.

والذي وقع من ذلك في الإسلام إنما هو واقعة عليّ مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة، وواقعة الحسين مع يزيد، وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك.

فأما واقعة علي فإن الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين في الأمصار فلم يشهدوا بيعة علي والذين شهدوا، فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على إمام كسعد وسعيد وابن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وأمثالهم من أكابر الصحابة والذين كانوا في الأمصار عدلوا عن بيعته أيضاً إلى الطلب بدم عثمان، وتركوا الأمر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه، وظنوا بعلي هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قاتله لا في الممالأة عليه فحاش لله من ذلك، ولقد كان معاوية إذا صرح بملامته إنما يوجهها عليه في سكوته فقط، ثم اختلفوا بعد ذلك فرأى علي أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي ﷺ وموطن الصحابة وأرجأ الأمر في المطالبة بدم عثمان إلى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك، ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق ولم يحضر إلا قليل ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد، ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم أو من القليل منهم، وإن المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون أولاً بدم عثمان ثم يجتمعون على إمام، وذهب إلى هذا معاوية وعمرو بن العاص وأم

المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة وابنه محمد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة علي بالمدينة كما ذكرنا، إلا أن أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويب رأيه فيما ذهب إليه وتعيين الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رأيه، وخصوصاً طلحة والزبير لانتقاضهما على علي بعد البيعة له فيما نقل مع دفع التأثيم عن كل من الفريقين، كالشأن في المجتهدين، وصار ذلك إجماعاً من أهل العصر الثاني على أحد قولي أهل العصر الأول كما هو معروف.

ولقد سئل علي رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين فقال: والذي نفسي بيده لا يموتن أحد من هؤلاء وقلبه نقي إلا دخل الجنة يشير إلى الفريقين؛ نقله الطبري وغيره، فلا يقعن عندك ريب في عدالة أحد منهم ولا قدح في شيء من ذلك، فهم من علمت، وأقوالهم وأفعالهم إنما هي عن المستندات، وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة إلا قولاً للمعتزلة فيمن قاتل علياً لم يلتفت إليه أحد من أهل الحق ولا عرج عليه.

وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان واختلاف الصحابة من بعد، وعلمت أنها كانت فتنةً ابتلى الله بها الأمة بينما المسلمون قد أذهب الله عدوهم وملّكهم أرضهم وديارهم ونزلوا الأمصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاةً لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ ولا هذبتهم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان، وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب، السابقين الأولين إلى الإيمان فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة والأزد من اليمن وتميم وقيس من مضر فصاروا إلى الغض من قريش والأنفة عليهم، والتمريض في طاعتهم والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداء عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السوية والعدل في القسم عن التسوية، وفشت المقالة بذلك وانتهت إلى المدينة وهم من علمت فأعظموه وأبلغوه عثمان فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر.

بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم فلم ينكروا على الأمراء شيئاً ولا رأوا عليهم طعناً، وأدوا ذلك كما علموه، فلم ينقطع الطعن من أهل الأمصار ومازالت الشناعات تنمو، ورمي الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحدّه عثمان وعزله، ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار يسألون عزل العمال وشكوا إلى عائشة وعلي والزبير وطلحة، وعزل لهم عثمان بعض العمال، فلم تنقطع بذلك ألسنتهم بل وفد سعيد بن العاصي وهو على الكوفة، فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولاً، ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه عن العزل، فأبى إلا أن يكون على جرحة، ثم نقلوا النكير إلى غير ذلك من أفعاله وهو متمسك بالاجتهاد وهم أيضاً كذلك، ثم تجمع قوم من الغوغاء وجاؤوا إلى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة ومصر، وقام معهم في ذلك علي وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم يحاولون تسكين الأمور ورجوع عثمان إلى رأيهم وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلاً، ثم رجعوا وقد لبَّسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوة في يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم، وحلف عثمان على ذلك فقالوا: مكنّا من مروان فإنه كاتبك، فحلف مروانُ فقال عثمان: ليس في الحكم أكثر من هذا فحاصروه بداره؛ ثم بيتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة.

فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين ولا يضيعون شيئاً من تعلقاته، ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على أحوالهم وعالم بهم، ونحن لا نظن بهم إلا خيراً لما شهدت به أحوالهم ومقالات الصادق فيهم.

مقتل الحسين بن علي

وأما الحسين فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره، فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لاسيّما من له القدرة على ذلك وظنها من نفسه بأهليته وشوكته، فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة، وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها؛ لأن عصبية مضر كانت في قريش وعصبية قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونه، وإنما نسي ذلك أول الإسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة المسلمين، فأغفلوا أمور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية

ومنازعها ونسيت ولم يبق إلا العصبية الطبيعية في الحماية والدفاع ينتفع بها في إقامة الدين وجهاد المشركين، والدين فيها محكم والعادة معزولة حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد، فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل.

فقد تبين لك غلط الحسين إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه، وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه؛ لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك، ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيره إلى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله.

وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد، وإن كان فاسقاً، لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فأقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أثموه؛ لأنه مجتهد وهو أسوة المجتهدين.

ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره، فإنهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه، وكان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكربلاء على فضله وحقه ويقول: سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعيد وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك؛ لعلمه أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه، وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وإن كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يحد الشافعي والمالكي والحنفي على شرب النبيذ، واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن اجتهادهم وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقولن: إن يزيد وإن كان فاسقاً ولم يجز هؤلاء الخروج عليه، فأفعاله عندهم صحيحة، واعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعاً وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل وهو مفقود في مسألتنا، فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد، والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهاد.

وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بـ «العواصم والقواصم» ما معناه أن الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل، ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء؟!

وأما ابن الزبير فإنه رأى في قيامه ما رآه الحسين وظن كما ظن، وغلطه في أمر الشوكة أعظم؛ لأن بني أسد لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا إسلام. والقول بتعين الخطأ في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل إليه؛ لأن الإجماع هنالك قضى لنا به ولم نجده هاهنا. وأما يزيد فعين خطاه فسقه. وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز، مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزبير لم تنعقد؛ لأنه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر وإن لم يتعين في جهة منهما، والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يجيء على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريه الحق.

هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الأمة، وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والنبي ﷺ يقول: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، مرتين، أو ثلاثاً ثم يفشو الكذب» فجعل الخيرة وهي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه، فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم، والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك، وما اختلفوا إلا عن بينة، وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد أو إظهار حق، واعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ليقتدي كل واحد بمن يختاره منهم ويجعله إمامه وهاديه ودليله، فافهم ذلك وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه، واعلم أنه على كل شيء قدير وإليه الملجأ والمصير والله تعالى أعلم.

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لما تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الأمرين:

أما في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها.

وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري، وقد قدمنا أن هذا العمران ضروري للبشر، وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد إن أهملت، وقدمنا أن الملك وسطوته كاف في حصول هذه المصالح، نعم إنما تكون أكمل إذا كانت بالأحكام الشرعية؛ لأنه أعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلامياً ويكون من توابعها، وقد ينفرد إذا كان في غير الملة، وله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خططاً وتتوزع على رجال الدولة وظائف، فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه، وأما المنصب الخلافي وإن كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني يختص بخطط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الإسلاميين، فلنذكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونرجع إلى الخطط الملوكية السلطانية.

فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة، فكأنها الإمام الكبير والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية وتنفيذ أحكام المشرع فيها على العموم.

فأما إمامة الصلاة فهي أرفع هذه الخطط كلها وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة. ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟ فلولا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس وإذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان:

مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة. وأخرى دونها مختصة بقوم أو محلة وليست للصلوات العامة.

فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو من وزير أو قاض فينصب لها الإمام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك إنما هو من طريق الأَوْلى والاستحسان ولئلا يفتات الرعايا عليه في شيء من النظر في المصالح العامة، وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة، فيكون نصب الإمام لها عنده واجباً.

وأما المساجد المختصة بقوم أو محلة فأمرها راجع إلى الجيران ولا تحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان، وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه ومبسوطة في كتب الأحكام السلطانية للماوردي وغيره فلا نطول بذكرها، ولقد كان الخلفاء الأولون لا يقلدونها لغيرهم من الناس. وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الأذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها. يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا يستخلفون فيها. وكذا كان رجال الدولة الأموية من بعدهم استئثاراً بها واستعظاماً لرتبتها.

يحكى عن عبد الملك أنه قال لحاجبه: قد جعلت لك حجابةَ بابي إلا عن ثلاثة: صاحب الطعام، فإنه يفسد بالتأخير، والآذن بالصلاة فإنه داع إلى الله، والبريد فإن في تأخيره فساد القاصية.

فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم استنابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الأحيان وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة إشادةً وتنويهاً فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم.

وأما الفتيا فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس ورد الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانته على ذلك ومنع من ليس أهلاً لها وزجره؛ لأنها من مصالح المسلمين في أديانهم فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيضل الناس. وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد، فإن كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها أو النظر في أئمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك، وإن كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على إذن. على أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدي لما ليس له بأهل فيدل به المستهدي ويضل به المسترشد، وفي الأثر «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على جراثيم جهنم» فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من إجازة أو رد.

وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة؛ لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة، فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها، وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم. وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء فيه بالمدينة، وولى شريحاً بالبصرة، وولى أبا موسى

الأشعري بالكوفة، وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه.

يقول: أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينةً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في نسب أو ولاء، فإن اللّه سبحانه عفا عن الأيمان ودرأ بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم، فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم اللّه به الأجر ويحسن به الذكر والسلام. انتهى كتاب عمر.

وإنما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالها من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة، ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية فاستحقوا القضاء في الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفاً على أنفسهم، وكانوا مع ذلك إنما يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك.

وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة في كتب الفقه وخصوصاً كتب الأحكام السلطانية. إلا أن القاضي إنما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط، ثم دفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء على رأي من رآه، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته.

وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي، وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه، ويكون نظره في البينات والتقرير واعتماد الأمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود وذلك أوسع من نظر القاضي.

وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهتدي من بني العباس، وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل عمر رضي اللّه عنه مع قاضيه أبي أدريس الخولاني، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثم، والمعتصم لأحمد بن أبي دواد وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف، وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم، وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس، فكانت توليه هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب.

وكان أيضاً النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس والعبيديين بمصر والمغرب راجعاً إلى صاحب الشرطة، وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً فيجعل للتهمة في الحكم مجالاً ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة.

ثم تنوسي شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي تنوسي فيها أمر الخلافة، فصار أمر المظالم راجعاً إلى السلطان، كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن، وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين: منها وظيفة التهمة على الجرائم وإقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين، ونُصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية، ويسمى تارةً باسم الوالي وتارةً باسم الشرطة، وبقي قسم التعازير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعاً، فجمع ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفة ولايته واستقر الأمر لهذا العهد على ذلك، وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة؛ لأن الأمر لما كان خلافةً دينيةً وهذه الخطة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها إلا من أهل عصبيتهم من العرب مواليهم بالحلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غنائه فيما يدفع إليه، ولما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الأمر كله ملكاً أو سلطاناً

صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء؛ لأنها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه، ثم خرج الأمر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر، فازدادت هذه الخطط الخلافية بعداً عنهم بمنحاها وعصبيتها. وذلك أن العرب كانوا يرونه أن الشريعة دينهم، وأن النبي ﷺ منهم وأحكامه وشرائعه نحلتهم بين الأمم وطريقهم، وغيرهم لا يرون ذلك إنما يولونها جانباً من التعظيم لما دانوا بالملة فقط. فصاروا يقلدونها من غير عصابتهم ممن كان تأهل لها في دول الخلفاء السالفة، وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترف الدول منذ مئتين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعتهم، وقلة الممانعة عن أنفسهم، وصارت هذه الخطط في الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصةً بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الأمصار، ونزل أهلها عن مراتب العز لفقد الأهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة، فلحقهم من الاحتقار ما لحق الحضر المنغمسين في الترف والدعة، البعداء عن عصبية الملك الذين هم عيال على الحامية، وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملة وأخذها بأحكام الشريعة، لما أنهم الحاملون للأحكام المقتدون بها. ولم يكن إيثارهم في الدولة حينئذ إكراماً لذواتهم، وإنما هو لما يُتلمَّح من التجمل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية، ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء، وإن حضروه فحضور رسمي لا حقيقة وراءه، إذ حقيقة الحل والعقد إنما هي لأهل القدرة عليه، فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه. اللّهم إلا أخذ الأحكام الشرعية عنهم، وتلقي الفتاوى منهم فنعم، واللّه الموفق.

وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك، وأن فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح وقد قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» فاعلم أن ذلك ليس كما ظنه، وحكم الملك والسلطان إنما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران وإلا كان بعيداً عن السياسة. فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقضي لهم شيئاً من ذلك، لأن الشورى والحل والعقد لا تكون إلا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك، وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ولا من حمايتها، وإنما هو عيال على غيره فأي مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعو إلى اعتباره فيها، اللّهم إلا شوراه فيما يعلمه من الأحكام الشرعية فموجودة في الاستفتاء خاصة. وأما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها، وإنما إكرامهم من تبرعات الملوك والأمراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب إليه بأي جهة انتسب.

وأما قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» فاعلم أن الفقهاء في الأغلب لهذا العهد وما احتف به إنما حملوا الشريعة أقوالاً في كيفية الأعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصُّونها على من يحتاج إلى العمل بها، هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون إلا بالأقل منها وفي بعض الأحوال. والسلف رضوان اللّه عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافاً بها وتحققاً بمذاهبها.

فمن حملها اتصافاً وتحققاً دون نقل فهو من الوارثين، مثل أهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الأمران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة، مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الأربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على أثرهم، وإذا انفرد واحد من الأئمة بأحد الأمرين فالعابد أحق بالوراثة من الفقيه الذي ليس بعابد، لأن العابد ورث بصفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئاً إنما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كيفيات العمل، وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا ﴿إلا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾.

العدالة:

وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه، وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم، تحمّلاً عند الإشهاد وأداءً عند التنازع وكتباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها، ومن جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها، فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه، ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول، وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك، وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة.

ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم، وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس، فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دَرَكه، وإذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الأمصار واشتباه الأحوال واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة،

فيعولون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف، ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب.

وصار مدلول هذه اللفظة مشتركاً بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح، وقد يتواردان ويفترقان، والله تعالى أعلم.

الحسبة والسكة

أمّا الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له، فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه، وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين، وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم.

وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء، وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاماً في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك وأفردت بالولاية.

وأما السكة فهي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عدداً أو ما يتعلق بذلك ويوصل إليه من جميع الاعتبارات، ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ونُقش فيه نقوش خاصة به، فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة، فإن السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية، وإنما ترجع غايته إلى الاجتهاد، فإذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموها إماماً وعياراً يعتبرون به نقودهم وينتقدونها بمماثلته، فإن نقص عن ذلك كان زيفاً.

والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار فتندرج تحت الخلافة، وقد كانت تندرج في عموم ولاية القاضي، ثم أفردت لهذا العهد كما وقع في الحِسبة.

هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية وبقيت منها وظائف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه وأخرى صارت سلطانيةً، فوظيفة الإمارة والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانية نتكلم عليها في أماكنها بعد وظيفة الجهاد، ووظيفة الجهاد بطلت ببطلانه إلا في قليل من الدول يمارسونه ويدرجون أحكامه غالباً في السلطانيات.

وكذا نقابة الأنساب التي يتوصل بها إلى الخلافة أو الحق في بيت المال قد بطلت لدثور الخلافة ورسومها، وبالجملة قد اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد، والله مصرف الأمور كيف يشاء.

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بأمير المؤمنين وإنه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه وكان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله ﷺ ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك، فلما بويع لعمر بعهده إليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله ﷺ. وكأنهم استثقلوا هذا اللقب بكثرته وطول إضافته وأنه يتزايد فيما بعد دائماً إلى أن ينتهي إلى الهجنة، ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات وكثرتها فلا يُعرف، فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه مما يناسبه ويدعى به مثله، وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير وهو فعيل من الإمارة، وقد كان الجاهلية يدعون النبي ﷺ أمير مكة وأمير الحجاز، وكان الصحابة أيضاً يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية وهم معظم المسلمين

يومئذ.

واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي اللّه عنه يا أمير المؤمنين، فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به، يقال: إن أول من دعاه بذلك عبد اللّه بن جحش وقيل: عمرو بن العاصي والمغيرة بن شعبة، وقيل: بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول: أين أمير المؤمنين، وسمعها أصحابه فاستحسنوه وقالوا: أصبت واللّه اسمه، إنه واللّه أمير المؤمنين حقاً، فدعوه بذلك وذهب لقباً له في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سمةً لا يشاركهم فيها أحد سواهم سائر دولة بني أمية.

ثم إن الشيعة خصوا علياً باسم الإمام نعتاً له بالإمامة التي هي أخت الخلافة وتعريضاً بمذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر لما هو مذهبهم وبدعتهم، فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده، فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخفاء حتى إذا يستولون على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين كما فعله شيعة بني العباس، فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على أمره، فلما هلك دعي أخوه السفاح بأمير المؤمنين، وكذا الرافضة بإفريقية فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم من ولد إسماعيل بالإمام حتى انتهى الأمر إلى عبيد اللّه المهدي وكانوا أيضاً يدعونه بالإمام، ولابنه أبي القاسم من بعده، فلما استوثق لهم الأمر دعوا من بعدهما بأمير المؤمنين، وكذا الأدارسة بالمغرب كانوا يلقبون إدريس بالإمام وابنه إدريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم.

وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق: المواطن التي هي ديار العرب ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح، وازداد لذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما في أمير المؤمنين من الاشتراك بينهم، فاستحدث لذلك بنو العباس حجاباً لأسمائهم الأعلام عن امتهانها في ألسنة السوقة وصوناً لها عن الابتذال، فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد إلى آخر الدولة، واقتفى أثرهم في ذلك العبيديون بإفريقية ومصر، وتجافى بنو أمية عن ذلك في المشرق قبلهم مع الغضاضة والسذاجة لأن العروبية ومنازعها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة، وأما بالأندلس فتلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس، حتى إذا جاء عبد الرحمن (الداخل) الآخر منهم (وهو الناصر بن محمد بن الأمير عبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط) لأول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالي وعيثهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل، ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وإفريقية، وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين اللّه. وأخذت من بعده عادة ومذهباً لُقّن عنه ولم يكن لآبائه وسلف قومه.

واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصبية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس، والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنهاجة على أمراء إفريقية، وزناتة على المغرب وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بني أمية، واقتسموه، وافترق أمر الإسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالألقاب بعد أن تسموا جميعاً باسم السلطان.

فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بألقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم، مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه، وكان العبيديون أيضاً يخصون بها أمراء صنهاجة، فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدباً معها وعدولاً عن سمتها المختصة بها شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل.

ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان، وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة إلى انتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط فيقولون: صلاح الدين، أسد الدين، نور الدين.

وأما ملوك الطوائف بالأندلس فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها، كما قال ابن أبي شرف ينعى عليهم:

مما يزهدني في أرض أندلس	أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها	كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وأما صنهاجة فاقصروا على الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتنويه مثل: نصير الدولة ومعز الدولة، واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين، ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان، وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئاً من هذه الألقاب إلا اسم السلطان جرياً على مذاهب البداوة والغضاضة.

ولما محي رسم الخلافة وتعطل دستها، وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين، وكان من أهل الخير والاقتداء، نزعت به همته إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلاً لمراسم دينه، فخاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان توليته إياها على المغرب وتقليده ذلك، فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته وخاطبه فيه بأمير المؤمنين تشريفاً واختصاصاً فاتخذها لقباً، ويقال: إنه كان دعي له بأمير المؤمنين من قبل أدباً مع رتبة الخلافة، لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة.

وجاء المهدي على أثرهم داعياً إلى الحق آخذاً بمذاهب الأشعرية ناعياً على أهل المغرب عدولهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول إليه ذلك من التجسيم كما هو معروف في مذهب الأشعرية، وسمي أتباعه الموحدين تعريضاً بذلك النكير، وكان يرى رأي أهل البيت في الإمام المعصوم وأنه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمّي بالإمام لما قلناه أولاً من مذهب الشيعة في ألقاب خلفائهم، وأردف بالمعصوم إشارةً إلى مذهبه في عصمة الإمام، وتنزّه عند أتباعه عن أمير المؤمنين أخذاً بمذاهب المتقدمين من الشيعة، ولما فيها من مشاركة الأغمار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالمشرق، ثم انتحل عبد المؤمن ولي عهده اللقب بأمير المؤمنين وجرى عليه من بعده خلفاء بني عبد المؤمن وآل أبي حفص من بعدهم استئثاراً به عمن سواهم، لما دعا إليه شيخهم المهدي من ذلك، وأنه صاحب الأمر وأولياؤه من بعده كذلك دون كل أحد لانتقاء عصبية قريش وتلاشيها فكان ذلك دأبهم.

ولما انتقض الأمر بالمغرب وانتزعه زناتة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة وأتباع لمتونة في انتحال اللقب بأمير المؤمنين أدباً مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولاً ولبني أبي حفص من بعدهم، ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمير المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغاً في منازع الملك وتتميماً لمذاهبه وسماته والله غالب على أمره.

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

اعلم أن الملة لا بد لها من قائم عند غيبة النبي يحملهم على أحكامها وشرائعها ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكاليف والنوع الإنساني أيضاً بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشري، لا بد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك.

والملة الإسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعاً لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الإسلام طوعاً أو كرهاً اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها إليهما معاً.

وأما ما سوى الملة الإسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا في المدافعة فقط، فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك، وإنما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولأمر غير ديني وهو ما اقتضته لهم العصبية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه؛ لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم كما في الملة الإسلامية، وإنما هم مطلوبون بإقامة دينهم في خاصتهم.

ولذلك بقي بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربعمائة سنة لا يعتنون بشيء من أمر الملك، إنما همهم إقامة دينهم فقط، وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربان، ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه؛ لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا لإقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتولون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبةً في الدين وأبعد عن شغب الأحكام، واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فحاربتهم أمم الفلسطين والكنعانيين والأرمن وأردن وعمان ومأرب ورئاستهم في ذلك راجعة إلى شيوخهم، وأقاموا على ذلك نحواً من أربعمائة سنة، ولم تكن لهم صولة الملك وضجر بنو إسرائيل من مطالبة

الأمم، فطلبوا على لسان شمويل من أنبيائهم أن يأذن اللّه لهم في تمليك رجل عليهم فولي عليهم طالوت وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلسطين، ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات اللّه عليهما، واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن، ثم إلى أطراف بلاد الروم، ثم افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات اللّه عليه بمقتضى العصبية في الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة، والأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين.

ثم غلبهم بختنصَّر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك، أولاً الأسباط العشرة، ثم ثانياً بني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنةً من خروجهم، فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط والملك للفرس، ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم، ثم فشل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم، وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمناي وقاتلوا اليونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم، ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيرودس أصهار بني حشمناي، وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة، وأفحشوا في القتل والهدم والتحريق، وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى رومة وما وراءها، وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى، فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك في ملكة الروم من بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن.

ثم جاء المسيح صلوات اللّه وسلامة عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا أثني عشر وبعث منهم رسلاً إلى الآفاق داعين إلى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفي مدة هيرودس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمناي أصهاره، فحسده اليهود وكذبوه وكاتب هيرودس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يغريه به، فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره، وافترق الحواريون شيعاً ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية، وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة، ثم كتبوا الإنجيل الذي انزل على عيسى صلوات اللّه عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم: فكتب متّى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى منهم إلى اللسان اللاتيني، وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتيني إلى بعض أكابر الروم، وكتب يوحنا بن زَبَدى منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله باللاتيني ونسبه إلى مرقاص تلميذه، واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل مع أنها ليست كلها وحيا صرفاً بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحواريين، وكلها مواعظ وقصص، والأحكام فيها قليلة جداً، واجتمع الحواريون الرسل لذلك العهد برومة، ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيَّروها بيد أقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها.

فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهي خمسة أسفار، وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا، وأسفار الملوك أربعة، وسفر بنيامين وكتب المقابيين لا بن كريون ثلاثة، وكتاب عزرا الإمام، وكتابا أوشير وقصة هامان، وكتاب أيوب الصديق ومزامير داود عليه السلام، وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوّات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر، وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان.

ومن شريعة عيسى صلوات اللّه عليه المتلقاة من الحواريين نسخ الإنجيل الأربع وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الإبريكسيس في قصص الرسل، وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب أقليمنطس وفيه الأحكام، وكتاب أبو غالمسيس وفيه رؤيا يوحنا بن زبدى.

واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها، ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغي إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها.

وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك، وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم، يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أي نائب البطرك، ويسمون الإمام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس، ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب، وأكثر خلواتهم في الصوامع، وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة، فيمن قتل من البطارق والأساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس، وكان مرقاس الإنجيلي بالإسكندرية ومصر والمغرب داعيا سبع سنين، فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها، وجعل معه اثني عشر

قساً على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحداً مكان ذلك الثاني عشر، فكان أمر البطاركة إلى القسوس، ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا بنيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين فكتبوه وسموه الإمام وصيّروه أصلاً يرجعون إليه، وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهاد الأقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس، وأبطلوا ذلك الرأي، وإنما يقدهم عن ملإ واختيار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم، فبقي الأمر كذلك، ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره، ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقي الأمر فيها على ذلك، واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطاركة.

وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة، يقال: آخرها بطركية هرقل بالإسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا، ومعناه أبو الآباء، وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه، ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي رومة؛ لأنه كرسيّ بطرس الرسول كما قدمناه، فلم يزل سمة عليه إلى الآن.

ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح، وصاروا طوائف وفرقاً واستظهروا بملوك النصرانية كلٌّ على صاحبه، فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقهم ولا يلتفتون إلى غيرها، وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية.

ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك، فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية ورومة للإفرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية، وبطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم، والحبشة يدينون بدينهم، ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في إقامة دينهم هنالك، واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد، ولا تسمي اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم، وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة، ومن مذاهب البابا عند الإفرنجة أنه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تحرجاً من افتراق الكلمة، ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم، لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الإنبرذور وحرفه الوسط بين الذال والظاء المعجمتين ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك فيسمى المتوج، ولعله معنى لفظة الإنبرذور، وهذا ملخص ما أوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن ﴿اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان وألقابها

إعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً، فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه اللّه من خلقه وعباده، وهو محتاج إلى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم، وإلى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بإمضاء الأحكام الوازعة فيهم، وكف العدوان عليهم في أموالهم بإصلاح سابلتهم وإلى حملهم على مصالحهم، وما تعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعايش والمكاييل والموازين حذراً من التطفيف وإلى النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش، وإلى سياستهم بما يريده منهم من الانقياد له والرضا بمقاصده منهم وانفراده بالمجد دونهم، فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب.

قال بعض الأشراف من الحكماء: «المعاناة نقل الجبال من أماكنها أهون علي من معاناة قلوب الرجال» ثم إن الاستعانة إذا كانت بأولي القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقه، فتتم المشاكلة في الاستعانة، قال تعالى ﴿وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾.

وهو إما أن يستعين في ذلك بسيفه أو قلمه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر في مهماتهم، أو يدفع النظر في الملك كله ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه، فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفترق في أشخاص، وقد يتفرع كل واحد منها إلى فروع كثيرة: كالقلم يتفرع إلى قلم الرسائل والمخاطبات وقلم الصكوك والإقطاعات، وإلى قلم المحاسبات وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش؛ وكالسيف يتفرع إلى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور.

ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه، فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل

واحدة منها في سائر وجوهها، لعموم تعلق الحكم الشرعية بجميع أفعال العباد، والفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبداداً على الخلافة وهو معنى السلطان أو تعويضاً منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي، وفي نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقاً أو مقيداً، وفي موجبات العزل إن عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان، وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية، لا بد للفقيه من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في الملة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان، إلا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته إنما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها من أحكام الشرع، فليس من غرض كتابنا كما علمت، فلا نحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية مع أنها مستوفاة في كتب الأحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء، فإن أردت استيفاءها فعليك بمطالعتها هنالك، وإنما تكلمنا في الوظائف الخلافية وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط، لا لتحقيق أحكامها الشرعية، فليس من غرض كتابنا، وإنما نتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الإنساني والله الموفق.

الوزارة

وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية؛ لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة، فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة، أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره وأثقاله، وهو راجع إلى المعاونة المطلقة، وقد كنا قدمنا في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة؛ لأنها إما أن تكون في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة، وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق، ولهذا العهد بالمغرب، وإما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بَعُد عنه في المكان أو في الزمان وتنفيذ الأوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب، وإما ان تكون في أمور جباية المال وإنفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة، وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق، وإما أن يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه، وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه. فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه. وكل خطة أو رتبة من رتب الملك والسلطان فإليها ترجع. إلا أن الأرفع منها ما كانت الإعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف، إذ هو يقتضي مباشر السلطان دائماً ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه، وأما ما كان خاصاً ببعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغر أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام أو النظر في السكة، فإن هذه كلها نظرٌ في أحوال خاصة فيكون صاحبها تبعاً لأهل النظر العام، وتكون رتبته مرؤوسة لأولئك.

وما زال الأمر في الدول قبل الإسلام هكذا حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافة، فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك إلى ما هو طبيعي من المعاونة بالرأي والمفاوضة فيه، فلم يمكن زواله، إذ هو أمر لا بد منه، فكان ﷺ يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره، ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام. وكذا عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر، وأما حال الجباية والإنفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة؛ لأن القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب والحساب، فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالي العجم ممن يجيده، وكان قليلاً فيهم. وأما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه؛ لأن الأمية كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة للأمية التي كانت فيهم، والأمانة العامة في كتمان القول وتأديته، ولم تخرج السياسة إلى اختياره لأن الخلافة إنما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء، وأيضاً فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد لخليفة أحسنها؛ لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات ولم يبق إلا الخط، فكان الخليفة يستنيب في كتابته متى عنَّ له من يحسنه، وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة فلم يفعلوه.

فلما انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه كان أول شيء بدئ به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب، وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له: قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمرٌ ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد.

ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم وأطلق عليه اسم الوزير وبقي أمر الحسبان في الموالي والذميين، واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطةً على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه، ولم يكن بمثابة الوزير؛ لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام، إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد، فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ؛ هذا في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عامّاً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك.

فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت، وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع إليه، فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك.

ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى، وصار الوزير إذا استبد محتاجاً إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام الشرعية وتجيء على حالها كما تقدم فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ، وهي حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه، وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبداً عليه، ثم استمر الاستبداد وصار الأمر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة، ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب؛ لأنهم خول لهم فتسموا بالإمارة والسلطان، وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحلّيه به الخليفة من ألقابه كما تراه في ألقابهم، وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة في خاصته، ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم وفسُد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس، فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك، ولأنهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير، واختُص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبداداً، واستمر الأمر على هذا.

ثم جاءت دولة الترك آخراً بمصر فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور، ونظره مع ذلك متعقَّبٌ بنظر الأمير فصارت مرؤوسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد، وبقي اسم الحاجب في مدلوله، واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية.

وأما دولة بني أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كلٌّ فيما جعل له، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره.

ثم جاءت دولة الشيعة بإفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتنقيح أسمائها حتى أدركت دولتهم الحضارة فصاروا إلى تقليد الدولتين قبلهم في وضع أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم.

ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذاك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب، وكان اسم الوزير في مدلوله، ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاؤوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد.

وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم

بالوفود بين يدي الدويدار ويضيفون إليه استتباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة، وحالهم على ذلك لهذا العهد، والله مولي الأمور لمن يشاء.

الحجابة

قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته، وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرؤوسة لها، إذ الوزير متصرف فيها بما يراه، وهكذا كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد، فهي بمصر مرؤوسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب.

وأما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم، فكانت في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجّابهم، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها، فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك، ولما بدؤوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونها شرفاً لهم، وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين يعنون به السيف والقلم، ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة، وبذي الوزارتين على جمعه لخطتي السيف والقلم.

ثم لم يكن في دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم، وربما يوجد في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل.

ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتميز الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخراً، فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير، فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية وعبد السلام الكومي، وكان له مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية، ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره، ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ.

وأما بنو أبي حفص بإفريقية فكانت الرئاسة في دولتهم أولاً والتقديم لوزير الرأي والمشورة، وكان يخص باسم شيخ الموحدين، وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب، واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى، ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط، وكان من شرطه أن يكون من الموحدين، واختص عندهم القلم أيضاً بمن يجيد الترسيل ويؤتمن على الأسرار؛ لأن الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل بلسانهم، فلم يشترط فيه النسب، واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره إلى قهرمان خاص بداره في أحواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرهما، وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية فخصوه باسم الحاجب، وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة، وربما جعلوه لغيره.

واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم، ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة، فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط، ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم، ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خطة الحجابة التي كانت سُلَّماً إليه، وباشر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد، والأمر على ذلك لهذا العهد.

وأما دولة زناتة بالمغرب: وأعظمها دولة بني مرين فلا أثر لاسم الحاجب عندهم، وأما رئاسة الحرب والعساكر في للوزير ورتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة إلى من يحسنها من أهلها، وإن اختصت ببعض البيوت المصطنعين في دولتهم، وقد تجمع عندهم وقد تفرّق، وأما باب السلطان وحجبه عن العامه فهي رتبة عندهم يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على الجنادرة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وإنزال سطواته وحفظ المعتقلين في سجونه، والعريف عليهم في ذلك، فالباب له وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع إليه، فكأنها وزارة صغرى.

وأما دولة بني عبد الواد فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها، وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره، كما كان في دولة بني أبي حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجل

كما كان فيها حملهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعتها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم.

وأما أهل الأندلس لهذا العهد فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ خاص السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل، وأما الوزير فكالوزير، إلا أنه قد يجمع له الترسيل، والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها، فليس هناك خطة العلامة كما لغيرهم من الدول.

وأما دولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة وهم الترك ينفذ الأحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون، وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على الإطلاق، وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الأحيان، ويقطع القليل من الأرزاق ويبتها وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجاب الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع إليهم وإجبار من أبى الانقياد للحكم وطورُهُم تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك هو صاحب جباية الأموال في الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية، ثم في تصريفها في الإنفاقات السلطانية أو الجرايات المقدّرة، وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم، ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور قديمة، وقد يوليها السلطان بعض الأحيان لأهل الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك، والله مدبر الأمور ومصرفها بحكمته لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين.

ديوان الأعمال والجبايات

اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومَةُ تلك الأعمال وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها.

ويقال: إن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال: ديوانه (أي مجانين) بلغة الفرس فسمي موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً، فقيل: ديوان؛ ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسبانات.

وقيل: إنه اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في الأمور ووقوفهم على الجلي والخفي منها وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال، وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم بباب السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال، وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر وإقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما قرره أولوها.

واعلم أن هذه الوظيفة إنما تحدث في الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في أعطاف الملك وفنون التمهيد.

وأول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر رضي الله عنه يقال: لسبب مال أتى به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين، فاستكثروه وتعبوا في قسمه، فسموا إلى إحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال: رأيت ملوك الشام يدونون، فقبل منه عمر.

وقيل: بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان فقيل له: ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم؟ فإن من تخلف أخل بمكانه وإنما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديواناً وسأل عمر عن اسم الديوان. فعبر له، ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش، فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله ﷺ وما بعدها الأقرب فالأقرب؛ هكذا كان ابتداء ديوان الجيش.

وروى الزهري عن سعيد بن المسيب: أن ذلك كان في المحرم سنة عشرين.

وأما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين، ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكاً وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر في

العرب ومواليه مهرة في الكتاب والحسبان، فأمر عبد الملك سليمان بن سعيد والي الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فأكمله لسنة من يوم ابتدائه، ووقف عليه سرجون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم: اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم.

وأما ديوان العراق فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولقن ذلك عن زاذان فروخ كاتب الحجاج قبله، ولما قتل زاذان في حرب عبد الرحمن بن الأشعث استخلف الحجاج صالحاً هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل، ورغم لذلك كتاب الفرس، وكان عبد الحميد بن يحيى يقول: لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب!.

ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة إلى من كان له النظر فيه، كما كان شأن بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة.

وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخرج وتمييز النواحي بالصلح والعنوة وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسبانات، فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا، وإنما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه.

وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركانه؛ لأن الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه، فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال، فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رئاسة الملك.

وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف بعدهم.

وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال، وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها.

ولما استبد بنو أبي حفص بإفريقية وكان شأن الجالية من الأندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن، فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الأشغال كما كان لهم بالأندلس ودالوا فيها بينهم وبين الموحدين، ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين، ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤوساً للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة.

وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد، وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسبانات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير، وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخراج والعطاء.

هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان.

وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة، وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة، وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال؛ لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالي السلطان وأهل عصبيته وأرباب السيوف في الدولة، يرجع نظر الوزير إلى نظره ويجتهد جهده في متابعته ويسمى عندهم أستاذ الدولة وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف، ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسبان مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص، وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة، وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار.

وإن كان الوزير من الجند فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه، ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار؛ لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص.

هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب، والله مصرف الأمور لا رب غيره.

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها

تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع، وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد، فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر، وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم، فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه، وكانت عند بني العباس رفيعةً، وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته، يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه وإلصاقه.

ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولاً أو آخراً على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها، ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه، فتصير علامة هذا الكاتب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها، فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس، كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد، صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة اتباعاً لما سلف من أمرها، فصار الحاجب يرسم للكاتب إمضاء كتابه ذلك بخط يضعه ويتخير له من صيغ الإنفاذ ما شاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة، وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه، فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته.

ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه: فإما أن تصدر كذلك، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة، ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه، وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل: إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار، وهكذا كان شأن الدول.

واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها.

وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة إلى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لأجل سذاجة العصبية، فيختص السلطان أهل عصبيته بخطط دولته وسائر رتبه، فيقلد المال والسيف والكتابة منهم، فأما رتبة السيف فتستغني عن معاناة العلم، وأما المال والكتابة فيضطر إلى ذلك للبلاغة في هذه والحسبان في الأخرى، فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت إليه الضرورة ويقلدونه، إلا أنه لا تكون يد آخر من أهل العصبية غالبة على يده ويكون نظره منصرفاً عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق، فإن الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء إلا أنه تحت يد أمير من أهل عصبية السلطان يعرف بالدويدار وتعويل السلطان ووثوقه به، واستنامته في غالب أحواله إليه وتعويله على الآخر في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الأسرار وغير ذلك من توابعها.

وأما الشروط المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة، وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب وهي:

رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب:

أما بعد: حفظكم اللّه يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن اللّه عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروؤات والعلم والرزانة، بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها، وبنصحائكم يصلح اللّه للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون، فأمتعكم اللّه بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم، وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم.

أيها الكتاب: إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق

به في مهمات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهيماً في موضع الحكم، مقداماً في موضع الإقدام، محجماً في موضع الإحجام، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف كتوماً للأسرار وفياً عند الشدائد عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضعها والطوارق في أماكنها، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته، فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدؤوا بعلم كتاب اللّه عز وجل والفرائض ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج.

وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الأمور ومحاقرها، فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة واربؤوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكبر والسخف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابوا في اللّه عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم، وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره، وإن أقعد أحداً منكم الكبرُ عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه، فإن عرضت في الشغل محمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء وهو لكم أفسد منه لهم، فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه، فاستشعروا ذلك وفقكم اللّه من أنفسكم في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمؤاساة والإحسان والسراء والضراء، فنعمت الشيمة هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة، وإذا ولي الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق اللّه وعياله أمر فليراقب اللّه عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفاً، فإن الخلق عيال اللّه وأحبهم إليه أرفقهم بعياله.

ثم ليكن بالعدل حاكماً وللأشراف مكرماً وللفيء موفراً وللبلاد عامراً وللرعية متألفاً وعن أذاهم متخلفاً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقاً.

وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة وأجمل وسيلة، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة إخلاقها: فإن كانت رموحاً لم يهجها إذا ركبها، وإن كانت شبوباً اتقاها من بين يديها، وإن خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً قمع برفق هواها في طرقها، فإن استمرت عطفها يسيراً فيسلس له قيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم، والكاتب لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يجاوره من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها، ألا فارفقوا رحمكم اللّه في النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا بإذن اللّه ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء اللّه.

ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه، فإنكم مع ما فضلكم اللّه به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير حفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم، واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فإنهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلهما ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب.

وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجةً وأصدقها حجةً وأحمدها عاقبةً، واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورويته، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه وليوجز في ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل عن إكثاره وليضرع إلى اللّه في

صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل: إن الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بحسن بظنه أو مقالته إلى أن يكله اللّه عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غير خاف، ولا يقول أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجمل في طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم اللّه جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه، ولا يكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره، وحمد اللّه واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته.

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل: (من تلزمه النصيحة يلزمه العمل: وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر اللّه عز وجل، فلذلك جعلته آخره وتممته به، تولانا اللّه وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق عليه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته. اهـ.

الشرطة:

ويسمى صاحبها لهذا العهد بإفريقية الحاكم وفي دولة أهل الأندلس صاحب المدينة وفي دولة الترك الوالي. وهي وظيفة مرؤوسة لصاحب السيف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان، وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدائها أولاً ثم الحدود بعد استيفائها، فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها، وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة في ذلك، فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة، وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدهماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم، ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب والضرب على أيدي الرعاع والفجرة.

ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء، وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه، وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال يتبوؤون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة.

وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وإن لم يجعلوها عامة، وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبراؤهم، ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية، ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين.

وأما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمشرق فولايتها في بيوت من مواليهم وأهل اصطناعهم، وفي دولة الترك بالمشرق في رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الكرد يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء في الأحكام؛ لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعه مع إقامة الحدود الشرعية والسياسة كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة، واللّه مقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار واللّه تعالى أعلم.

قيادة الأساطيل:

وهي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وإفريقية ومرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال، ويسمى صاحبها في عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولاً من لغة الإفرنجة، فإنه اسمها في اصطلاح لغتهم، وإنما اختصت هذه المرتبة بملك إفريقية والمغرب؛ لأنهما جميعاً على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة إلى الإسكندرية إلى الشام، وعلى عدوته الشمالية بلاد الأندلس والإفرنجة والصقالبة والروم إلى بلاد الشام أيضاً، ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبةً إلى أهل عدوته، والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار، فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسفّ من أسفّ منهم إلى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى المغرب أجازوا في الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة، وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث

الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والمدد، فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حفافيه معروفة في القديم والحديث.

ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن صف لي البحر، فكتب إليه: (إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود) فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه أحد من العرب إلا من افتأت على عمر في ركوبه ونال من عقابه، كما فعل بعرفجة بن هرثمة الأزدي سيد بجيلة لما أغزاه عمان فبلغه غزوه في البحر، فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو، ولم يزل الشأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده، والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته.

فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشؤوا السفن فيه والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس، وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل إفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا وفتح قوصرة أيضاً في أيامه، بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتحت على يد ابن الأغلب وقائده أسد بن الفرات، وكانت من بعد ذلك أساطيل إفريقية والأندلس في دولة العبيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادهما في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب.

وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب أو نحوها، وأسطول إفريقية كذلك مثله أو قريباً منه، وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن رماحس ومرفأها للحط والإقلاع بجاية والمرية، وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد يتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره إلى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف وأمر إرسائه في مرفئه، فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وأنجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه، ثم يسرحهم لوجههم وينتظر إيابهم بالفتح والغنيمة.

وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قِبَلٌ بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم/ فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج، وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة، وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة خمس وأربعمائة وارتجعها النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر، وصارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية، فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن في ممالكهم كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح.

حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال، مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وإقريطش ومالطة فملكوها ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام، وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لإظهار دينهم وعبادتهم، وغلبوا بني خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية، ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بن زيري وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر، وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو تجاوزت في أخبارهم فبطل رسم هذه

الوظيفة هنالك وبقيت بإفريقية والمغرب فصارت مختصة بها، وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة، فكان قائد الأسطول به لعهد لمتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعاً.

ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد، وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي، أصله من صدغيار الموطنين بجزيرة جربة من سرويكش أسره النصارى من سواحلها وربي عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك، وولي ابنه فأسخطه ببعض النزعات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن وأجاز مراكش فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة وأجزل له الصلة وقلده أمر أساطيله، فجلى في جهاد أمم النصرانية، وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين. وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه.

ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهده باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانية وتطهير بيت المقدس تتابعت أساطيلهم بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه، فأمدوهم بالعدد والأقوات ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل، فاوفد صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر، وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته، فبعث عبد الكريم منهم هذا إلى ملك المغرب طالباً مدد الأساطيل لتجول في البحر بين أساطيل الأجانب وبين مرامهم من إمداد النصرانية بثغور الشام وأصحبه كتابه إليه في ذلك من إنشاء الفاضل البيساني يقول في افتتاحه: (فتح اللّه لسيدنا أبواب المناجح والميامن) حسبما نقله العماد الأصفهاني في كتاب «الفتح القدسي» فنقم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين وأسرها في نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وردهم إلى مرسلهم ولم يجبه إلى حاجته من ذلك، وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده بشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة، ولما هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت أمم الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس وألجأوا المسلمين إلى سيف البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قويت ريحهم في بسيط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم، كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب، فإن أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم.

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية، ورجع النصارى فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأمم في لجته وعلى أعواده، وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأمصار والأعوان أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعواناً وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكاً، وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهوداً لما عساه أن تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية في البلاد البحرية، والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله، فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الجدثان أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفرنجة، وأن ذلك يكون في الأساطيل، واللّه ولي المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره، إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم؛ لأن القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة، وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه، فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة

والمدافعة عنها كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها، فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاهاً وأكثر نعمة وأسنى إقطاعاً، وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره ولم يبقَ همه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام، والقلم هو المعين له في ذلك، فتعظم الحاجة إلى تصريفه، وتكون السيوف مهملة في مضاجع أغمادها إلا إذا نابت نائبة أو دعيت إلى سد فرجة وما سوى ذلك، فلا حاجة إليها فيكون أرباب الأقلام في هذه الحاجة أوسع جاهاً وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروةً وأقرب من السلطان مجلساً وأكثر إليه تردداً وفي خلواته نجياً؛ لأنه حينئذ آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في أعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة بأحواله، ويكون الوزراء حينئذ وأهل السيوف مستغنىً عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على أنفسهم من بوادره.

وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم: (أما بعد فإنه مما حفظناه من وصايا الفرس: أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء) سنة الله في عباده والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

اعلم أن للسلطان شارات وأحوالاً تقتضيها الأبهة والبذخ فيختص بها ويتميز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته، فنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

الآلة: فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون، وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة أن السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب، فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة، ولعمري إنه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه، وهذا السبب الذي ذكره أرسطو- إن كان ذكره- فهو صحيح ببعض الاعتبارات. وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت في ذلك الوجه الذي هو فيه، وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال الإبل بالحداء والخيل بالصفير والصريخ كما علمت، ويزيد ذلك تأثيراً إذا كانت الأصوات متناسبة كما في الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى؛ ولأجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية لا طبلاً ولا بوقاً فيحدق المغنون بالسلطان في موكبه بآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة، ولقد رأينا في حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الأبطال بما فيها ويسارعون إلى مجال الحرب وينبعث كل قرن إلى قرنه، وكذلك زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله أعلم.

وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر، وربما يحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام، وأحوال النفوس وتلوناتها غريبة والله الخلاق العليم.

ثم إن الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات: فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمها، فأما الرايات فإنها شعار الحروب من عهد الخليقة، ولم تزل الأمم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات لعهد النبي ﷺ ومن بعده من الخلفاء.

وأما قرع الطبول والنفخ في الأبواق فكان المسلمون لأول الملة متجافين عنه تنزها عن غلظة الملك ورفضاً لأحواله واحتقاراً لأبهته التي ليست من الحق في شيء، حتى إذا انقلبت الخلافة ملكاً وتبجحوا بزهرة الدنيا ونعيمها ولابسهم الموالي من الفرس والروم أهل الدول السالفة وأروهم ما كان أولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف، فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها وأذنوا لعمالهم في اتخاذها تنويهاً بالملك وأهله، فكثيراً ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواءه ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره في موكب من أصحاب الرايات والآلات، فلا يميز بين موكب العامل والخليفة إلا بكثرة الألوية وقلتها أو بما اختص به الخليفة من الألوان لرايته، كالسواد في رايات بني العباس، فإن راياتهم كانت سوداً حزناً على شهدائهم من بني هاشم ونعياً على بني أمية في قتلهم ولذلك سموا المسودة.

ولما افترق أمر الهاشميين وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك، فاتخذوا الرايات بيضاً وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين

في ذلك العهد بالمشرق كالداعي بطبرستان وداعي صعدة أو من دعا إلى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة.

ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل إلى لون الخضرة، فجعل رايته خضراء.

وأما الاستكثار منها فلا ينتهي إلى حد، وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز إلى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الأبواق.

وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا على الإذن فيها لعمالهم، حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوا لها موكبا خاصاً يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول في ذلك: فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركاً بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبني الأحمر بالأندلس، ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة، وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للولاة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك.

وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون أولاً راية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر، وهي شعار السلطان عندهم، ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق وهي الراية بلسانهم. وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويبيحون لكل أمير أو قائد عسكر أن يتخذ من ذلك ما يشاء إلا الجتر فإنه خاص بالسلطان.

وأما الجلالقة لهذا العهد من أمم الإفرنجة بالأندلس فأكثر شأنهم اتخاذ الألوية القليلة ذاهبة في الجو صعداً ومعها قرع الأوتار من الطنابير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم، وهكذا يبلغنا عنهم وعمن وراءهم من ملوك العجم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾.

السرير: وأما السرير والمنبر والتخت والكرسي، فهي أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مرتفعاً عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد، ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الإسلام وفي دول العجم، وقد كانوا يجلسون على أسرة الذهب، وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهما وسلامه كرسي وسرير من عاج مغشى بالذهب، إلا أنه لا تأخذ به الدول إلا بعد الاستفحال والترف شأن الأبهة كلها كما قلناه، وأما في أول الدولة عند البداوة فلا يتشوفون إليه.

وأول من اتخذه في الإسلام معاوية واستأذن الناس فيه وقال لهم: إني قد بَدنت؛ فأذنوا له، فاتخذه وأتبعه الملوك الإسلاميون فيه وصار من منازع الأبهة.

ولقد كان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الأرض مع العرب ويأتيه المقوقس إلى قصره ومعه سرير من الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا يغيرون عليه وفاءً له بما عقد معهم من الذمة واطراحاً لأبهة الملك، ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعبيديين وسائر ملوك الإسلام شرقاً وغرباً من الأسرة والمنابر والتخوت ما عفا عن الأكاسرة والقياصرة، والله مقلب الليل والنهار.

السكة: وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرةً مستقيمةً بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عدداً، وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً.

ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها، وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة، فصار علماً عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك، إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك، ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم.

ولما جاء الإسلام أغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب، وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً، وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون

بها بينهم، إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك، وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص، وذلك سنة أربع وسبعين. وقال المدائني: سنة خمس وسبعين؛ ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها ﴿اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾

ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة؛ ثم بالغ خالد القسري في تجويدها، ثم يوسف بن عمر بعده.

وقيل: أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين: (بركة الله) وفي الآخر (اسم الله) ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر، وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم، فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل، وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها اثنا عشر ومنها عشرة، فلما احتيج إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطاً، فكان المثقال درهماً وثلاثة أسباع درهم وقيل: كان منها البغلي بثمانية دوانق، والطبري أربعة دوانق، والمغربي ثمانية دوانق، واليمني ستة دوانق، فأمر عمر أن ينظر الأغلب في التعامل، فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر دانقاً، وكان الدرهم ستة دوانق، وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً، وإذا أنقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهماً.

فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين الجاريين في معاملة المسلمين من الغش عين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صوراً، لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور، فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة كلها، وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلاً وتحميداً وصلاة على النبي وآله، وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة، وهكذا أيام العباسيين والعبيديين والأمويين.

وأما صنهاجة فلم يتخذوا سكةً إلا آخر الأمر، اتخذها منصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه.

ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكّة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويملأ من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً، ومن الجانب الآخر كتباً في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد، ولقد كان المهدي فيما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع، نعته بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله المخبرون في ملاحمهم عن دولته.

وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة، وإنما يتعاملون بالدنانير والدراهم وزناً بالصنجات المقدرة بعدة منها، ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله أهل المغرب ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

ولنختم الكلام في السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما.

مقدار الدرهم والدينار الشرعيين

وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين بالآفاق والأمصار وسائر الأعمال والشرع، قد تعرض لذكرهما وعلق كثيراً من الأحكام بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها، فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي، منهما.

فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي، هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، والأوقية منه أربعين درهماً وهو على هذا سبعة أعشار الدينار، ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير، فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة وخمسا حبة.

وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع، فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري وهو أربعة دوانق والبغلي وهو ثمانية دوانق، فجعلوا الشرعي بينهما وهو ست دوانق، فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية ومائة طبرية خمسة دراهم وسطاً.

وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك وإجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه. ذكر ذلك الخطابي في كتاب

«معالم السنن» والماوردي في «الأحكام السلطانية» وأنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه.

والحق أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق، وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج، وإنما كان متعارفاً بينهم بالحكم الشرعي على المقدّر في مقدارهما وزنتهما حتى استفحل الإسلام وعظمت الدولة ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن، كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير، وقارن ذلك أيام عبد الملك فشخص مقدارهما وعينهما في الخارج كما هو في الذهن ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه إثر الشهادتين الإيمانيتين، وطرح النقود الجاهلية رأساً حتى خلصت ونقش عليها سكةً وتلاشى وجودها، فهذا هو الحق الذي لا محيد عنه.

ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم واختلفت في كل الأقطار والآفاق ورجع الناس إلى تصور مقاديرهما الشرعية ذهناً، كما كان في الصدر الأول، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبه التي بينها وبين مقاديرها الشرعية.

وأما وزن الدينار باثنتين وسبعين حبة من الشعير الوسط، فهو الذي نقله المحققون وعليه الإجماع إلا ابن حزم خالف ذلك، وزعم أن وزنه أربع وثمانون حبة. نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق ورده المحققون وعدوه وهماً وغلطاً، وهو الصحيح والله ﴿يُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾.

وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس؛ لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأقطار، والشرعية متحدة ذهناً لا اختلاف فيها والله ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾.

الخاتم:

وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية، والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده، وقد ثبت في «الصحيحين» أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى قيصر فقيل له: «إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه: (محمد رسول الله)».

قال البخاري: جعل ثلاث كلمات في ثلاثة جعل أسطر وختم به وقال: «لا ينقش أحد مثله» قال: وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان، ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد، واغتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله.

وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه، وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التي تجعل في الإصبع، ومنه تختم: إذا لبسه؛ ويطلق على النهاية والتمام، ومنه: ختمت الأمر: إذا بلغت آخره، وختمت القرآن كذلك، ومنه: خاتم النبيين وخاتم الأمر، ويطلق على السداد الذي يسد به الأواني والدنان ويقال فيه: ختام ومنه قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام، قال: لأن آخر ما يجدونه في شرابهم ريح المسك وليس المعنى عليه، وإنما هو من الختام الذي هو السداد لأن الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها، فبولغ في وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك وهو أطيب عرفاً وذوقاً من القار والطين المعهودين في الدنيا.

فإذا صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أثرها الناشىء عنها، وذلك أن الخاتم إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس في مذاق من الطين أو مداد ووضع على صفح القرطاس بقي أكثر الكلمات في ذلك الصفح، وكذلك إذا طبع به على جسم لين كالشمع فإنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسماً فيه، وإذا كانت كلمات وارتسمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى إذا كان النقش على الاستقامة من اليمنى، وقد يقرأ من الجهة اليمنى إذا كان النقش من الجهة اليسرى؛ لأن الختم يقلب جهة الخط في الصفح كما كان في النقش من يمين أو يسار، فيحتمل أن يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد أو الطين ووضعه على الصفح فتنتقش الكلمات فيه ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه، كأن الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات وهو من دونها ملغى ليس بتمام، وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح أو باسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب كائناً من كان أو شيء من نعوته، يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه ويسمى ذلك في المتعارف علامة، ويسمّى ختماً تشبيهاً له بأثر الخاتم الآصفي في النقش، ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم أي علامته وخطه الذي ينفذ بهما أحكامه، ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أي علامته.

قال الرشيد ليحيى بن خالد لما أراد أن يستوزر جعفراً ويستبدل به من الفضل أخيه فقال لأبيهما يحيى: يا أبت إني أردت

ان أحول الخاتم من يميني إلى شمالي. فكنى له بالخاتم عن الوزارة لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعهدهم.

ويشهد لصحة هذا الإطلاق ما نقله الطبري: أن معاوية أرسل إلى الحسن عند مراودته إياه في الصلح صحيفة بيضاء ختم على أسفلها وكتب إليه: أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك. ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخطه أو غيره، ويحتمل أن يختم به في جسم لين فتنتقش فيه حروفه ويجعل على موضع الحزم من الكتاب إذا حزم وعلى المودوعات وهو من السداد كما مر، وهو في الوجهين آثار الخاتم فيطلق عليه خاتم.

وأول من أطلق الختم على الكتاب - أي العلامة - معاوية؛ لأنه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه فأنكرها معاوية وطلب بها عمر وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله، واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم. ذكره الطبري.

وقال آخرون: وحزم الكتب ولم تكن تحزم أي جعل لها السداد، وديوان الختم عبارة عن الكتّاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم، وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال.

والحزم للكتب يكون إما بدس الورق كما في عرف كتّاب المغرب وإما بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف أهل المشرق، وقد يجعل على مكان الدس أو الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه، فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك فيرتسم النقش في الشمع، وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضاً قد غمس في مذاق من الطين معد لذلك، صبغه أحمر فيرتسم ذلك النقش عليه، وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين الختم وكان يجلب من سيراف فيظهر أنه مخصوص بها.

فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل، وكان ذلك للوزير في الدولة العباسية، ثم اختلف العرف وصار لمن إليه الترسيل وديوان الكتاب في الدولة، ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للإصبع فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد ويلبسه السلطان شارة في عرفهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية، والله مصرف الأمور بحكمه.

الطراز:

من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم، تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب ألحاماً وأسداءً بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته.

وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك، ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو السجلات. وكان ذلك في الدولتين من أبهة الأمور وأفخم الأحوال، وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك، وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز، ينظر في أمور الصباغ والآلة والحاكة فيها وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة أعمالهم، وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم، وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف من بعدهم، وفي دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق، ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة.

ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة لم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي، وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها أعقابهم آخر الدولة طرفاً لم يكن بتلك النباهة، وأما لهذا العهد، فأدركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسماً جليلاً لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصرهم بالأندلس واتبع هو في ذلك ملوك الطوائف فأتى منه بلمحة شاهدة بالأثر.

وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيها من الطراز

تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم، إلا أن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم، وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صنّاعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزركش -لفظة أعجمية- ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويعده الصناع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها، والله مقدر الليل والنهار والله خير الوارثين.

الفساطيط والسياج

اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الأخبية والفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتاب والقطن، فيباهى بها في الأسفار وتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار، وإنما يكون الأمر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك، وكان العرب لعهد الخلفاء الأولين من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين إلا الأقل منهم، فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد، وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء، يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب؛ ولذلك كان عبد الملك يحتاج إلى ساقة تحشد الناس على أثره أن يقيموا إذا ظعن.

ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به روح بن زنباع وقصتها في إحراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة. ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب، فإنه لا يتولى إرادتهم على الظعن إلا من يأمن بوادر السفهاء من أحيائهم بما له من العصبية الحائلة دون ذلك؛ ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبيته وصرامته.

فلما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والأمصار وانتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور ومن ظهر الخف إلى ظهر الحافر، اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال من القوراء والمستطيلة والمربعة، ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة، ويدير الأمير القائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجاً من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهله أفراك بالكاف التي بين الكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره.

وأما في المشرق فيتخذه كل أمير وإن كان دون السلطان، ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان إلى المقام بقصورهم ومنازلهم فخف لذلك ظهرهم وتقاربت الساج بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطة زهواً أنيقاً لاختلاف ألوانه، واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها.

وكذا كانت دولة الموحدين وزناتة التي أظلتنا، كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطن، حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور وعادوا إلى سكنى الأخبية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان، إلا أن العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولخفتهم من الأهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر، والله القوي العزيز.

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وهما من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الإسلامي ولم يعرف في غير دول الإسلام.

فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجاً على المحراب فيحوزه وما يليه، فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي، والقصة معروفة. وقيل: أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة، وهي إنما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الأبهة كلها، وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها، وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف.

وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم مَلَكَ الموحدون سائر المغرب والأندلس ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم، ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة

لملوك المغرب والأندلس، وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده.

وأما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشأن أولاً عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم، فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة بالصلاة على النبي ﷺ والرضا عن أصحابه، وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعه بمصر، وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس، دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته، وهو بالبصرة عامل له عليها فقال: اللّهم انصر علياً على الحق. واتصل العمل على ذلك فيما بعد، وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب إليه عمر بن الخطاب: «أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين أوما يكفيك أن تكون قائماً والمسلمون تحت عقبك، فعزمت عليك إلا ما كسرته» فلما حدثت الأبهة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا فيهما، فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويهاً باسمه ودعاءً له بما جعل الله مصلحة العالم فيه؛ ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم: من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان، وكان الخليفة يفرد بذلك.

فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه، وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه، وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسمو إليه؛ وكثيراً ما يغفل الماهدون من أهل الدول هذا الرسم عندما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الإبهام والإجمال لمن ولي أمور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عباسية، يعنون بذلك أن الدعاء على الإجمال إنما يتناول العباسي تقليداً في ذلك لما سلف من الأمر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه.

يحكى أن يغمراسن بن زيان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكريا يحيى بن أبي حفص على تلمسان ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها، كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن: تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا، وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم وتخلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقيل له: لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه، فأذن في الدعاء له، وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته، وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة، فإذا انتبهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومعاني البذخ والأبهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاروا إلى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها والعالم بستان، والله على كل شيء رقيب.

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيه، فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان: إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع، كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل.

وسبب هذا الانتقام في الأكثر: إما غيرة ومنافسة. وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده.

فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة.

والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم؛ لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم،

والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد.

والرابع: هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها.

فهذه أربعة أصناف من الحروب: الصنفان الأولان منها حروب بغي وفتنة، والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل. وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفاً ونوع بالكر والفر، أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب. وقتال الزحف أوثق وأشد

من قتال الكر والفر؛ وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدماً، فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو؛ لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته.

وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي يشد بعضهم بعضاً بالثبات، وفي الحديث الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف، فإن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه، فمن ولى العدو ظهره فقد أخل بالمصاف وباء بإثم الهزيمة إن وقعت وصار كأنه جرها على المسلمين وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها إلى الدين بخرق سياجه فعُدّ من الكبائر؛ ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع.

وأما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف، إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجأون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد.

ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس ويسوون في كل كردوس صفوفه، وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النكراء وجهل بعضهم ببعض؛ فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع، ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب، ويسمون هذا الترتيب التعبئة وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين وصدر الإسلام، فيجعلون بين يدي الملك عسكراً منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة، ثم عسكراً آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته يسمونه الميمنة، ثم عسكراً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة، ثم عسكراً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة، ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع ويسمون موقفه القلب، فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم إما في مدًى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة، فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة.

وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالمشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعد المدى في التعبئة، فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا إليه وكما هو معروف في أخباره، وكان في الدولة الأموية بالأندلس أيضاً كثير منه وهو مجهول فيما لدينا؛ لأنا إنما أدركنا دولاً قليلة العساكر لا تنتهي في مجال الحرب إلى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معاً يجمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبئة.

ضرب المصاف وراء العسكر

ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأً للخيالة في كرهم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة؛ ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب، وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة.

فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون، فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم.

وانظر ما وقع من ذلك في القادسية، وأن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بهم على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطيمها فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن فجفا معسكر فارس لذلك وانهزموا في اليوم الرابع.

وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه، وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر والفر، وجعل ذلك الفرس أيام القادسية، وكان رستم جالساً على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه إلى الفرات وقتل.

وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك إبلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم، فيكون فئة لهم ويسمونها المجبوذة، وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة؛ وهو أمر مشاهد.

وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال والفساطيط يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والإبل، فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف.

وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً، وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر، لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران:

أحدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم.

الثاني: أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر، ولما رسخ فيهم من الإيمان والزحف إلى الاستماتة أقرب.

وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبئة كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده.

قال الطبري لما ذكر قتال الجبيري فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري ويلقب أبا الذلفاء: قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهى. فتنوسي قتال الزحف بإبطال الصف، ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء، فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الإبل والظعائن وصعب عليهم اتخاذها، فخلفوا النساء في الأسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية، وكان ذلك صفتهم في الحرب ولا يغني كل الغناء؛ لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيعات وتخرم صفوفهم.

فصل:

ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكده في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج في جندهم واختصوا بذلك؛ لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردءاً للمقاتلة أمامه، فلا بد من أن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف وإلا أجفلوا على طريقة أهل الكر والفر، فانهزم السلطان والعساكر بإجفالهم، فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الأمة المتعودة الثبات في الزحف وهم الإفرنج ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها، هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر. وإنما استخفوا ذلك للضرورة التي أريناكها من تخوف الإجفال على مصاف السلطان، والإفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لأن عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك في المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة، وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذراً من ممالأتهم على المسلمين هذا هو الواقع لهذا العهد، وقد أبدينا سببه والله بكل شيء عليم.

فصل:

وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفاً وراء صف، ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوساً، وكل صف ردء للذي أمامه أن يكبسهم العدو إلى أن يتهيأ النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى، وهي تعبئة محكمة غريبة.

فصل:

وكان من مذاهب الأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف؛ حذراً من معرة البيات والهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في الظلمة ستراً من عاره، فإذا تساووا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة، فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم ويديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا. وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك، فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلة نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن، والله خير القادرين.

وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين

وانظر وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين، تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه.

قال في كلام له: فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف عن الهام، والتووا على أطراف الرماح فإنه أصون للأسنة، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب، وأخفتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار، وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر.

وقال الأشتر يومئذ يحرص الأزد: عضوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم، وشدوا شدة قوم موتورين يثأرون بآبائهم وإخوانهم حناقاً على عدوهم وقد وطنوا على الموت أنفسهم؛ لئلا يسبقوا بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار.

وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر لمتونة وأهل الأندلس في كلمة يمدح بها تاشفين بن علي بن يوسف ويصف ثباته في حرب شهدها ويذكره بأمور الحرب في وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها:

يا أيها الملأ الذي يتقنع ... من منكم الملك الهمام الأروع
ومن الذي غدر العدو به دجى ... فانفض كلٌ وهو لا يتزعزع
تمضي الفوارس والطعان يصدها ... عنه ويدمرها الوفاء فترجع
والليل من وضح الترائك إنه ... صبح على هام الجيوش يلمع
أنى فزعتم يا بني صنهاجة ... وإليكم في الروع كان المفزع
إنسان عين لم يصبه منكم ... حضن وقلب أسلمته الأضلع
وصددتم عن تاشفين وإنه ... لعقابه لو شاء فيكم موضع
ما أنتم إلا أسود خفية ... كل لكل كريهة مستطلع
يا تاشفين أقم لجيشك عذره ... بالليل والعذر الذي لا يدفع

ومنها في سياسة الحرب:

أهديك من أدب السياسة ما به ... كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لا إنني أدري بها لكنها ... ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
والبس من الحلق المضاعفة التي ... وصى بها صنع الصنائع تبع
والمندواني الرقيق فإنه ... سيان تتبع ظافراً أو تتبع
واركب من الخيل السوابق عدة ... أمضى على حد الدلاص وأقطع
خندق عليك إذا ضربت محلة ... حصناً حصيناً ليس فيه مدفع
والواد لا تعبره وانزل عنده ... بين العدو وبين جيشك يقطع
واجعل مناجزة الجيوش عشية ... ووراءك الصدق الذي هو أمنع
وإذا تضايقت الجيوش بمعرك ... ضنك فأطراف الرماح توسع
واصدمه أول وهلة لا تكترث ... شيئاً فإظهار النكول يضعضع
واجعل من الطلاع أهل شهامة ... للصدق فيهم شيمة لا تخدع
لا تسمع الكذاب جاءك مرجفاً ... لا رأي للكذاب فيما يصنع

قوله: «واصدمه أول وهلة لا تكترث» البيت مخالف لما عليه الناس في أمر الحرب، فقد قال عمر لأبي عبيد بن مسعود الثقفي لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له: اسمع وأطع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجيبن مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب ولا يصلح لها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف، وقال له في أخرى: إنه لن يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعته في الحرب، وفي التسرع في الحرب إلا عن بيان ضياع، والله لولا ذلك لأمرته، لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث.

هذا كلام عمر وهو شاهد بأن التثاقل في الحرب أولى من الخفوف حتى يتبين حال تلك الحرب، وذلك عكس ما قاله الصيرفي إلا أن يريد أن الصدم بعد البيان، فله وجه والله تعالى أعلم.

ولا وثوق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد، وإنما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق، وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف، ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك، ومن أمور خفية وهي إما من خدع البشر وحيلهم في الإرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل، وفي التقدم إلى الأماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك، وفي الكمون في الغياض ومطمئن الأرض والتواري بالكُدى عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة، وقد تورطوا فيتلفتون إلى النجاة وأمثال ذلك، وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى في القلوب، فيستولي الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة، وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يعتمل لكل واحد من الفريقين فيها حرصاً على الغلب، فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة، ولذلك قال ﷺ: «الحرب خدعة».

ومن أمثال العرب: رب حيلة أنفع من قبيلة، فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالباً عن أسباب خفية غير ظاهرة،

ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعتبره وتفهم من وقوع الغلب عن الأمور السماوية كما شرحناه معنى قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات، فإن اللّه سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله ﷺ، فكان الرعب في قلوبهم سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها إلا أنه خفي عن العيون.

وقد ذكر الطرطوشي: أن من أسباب الغلب في الحروب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر، مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر، فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد في ذلك وأبدى، وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح.

وإنما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصبية أن يكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم، وفي الجانب الآخر عصائب متعددة؛ لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية، إذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصبته واحدة لأجل ذلك فتفهمه، واعلم أنه أصح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي، ولم يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصبية في حلته وبلده، وأنهم إنما يردّون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوحدان والجماعة الناشئة عنهم، لا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسباً وقد بينا ذلك أول الكتاب، مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته إنما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها، فكيف يجعل ذلك كفيلاً بالغلب؟ ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئاً منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الأمور السماوية من الرعب والخذلان الإلهي، فافهمه وتفهم أحوال الكون، واللّه مقدر الليل والنهار.

فصل:

ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت، فقلّ أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمتحلين للفضائل على العموم، وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه، وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها، وقد تصادف موضعها وتكون طبقاً على صاحبها، والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالأخبار، والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الأوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال لخفائها بالتلبيس والتصنع أو لجهل الناقل، ويدخلها التقرب لأصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، والنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها، وأين مطابقة الحق مع هذه كلها؟ فتختل الشهرة عن أسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة، وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبخت كما تقرر، واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

اعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة، والسبب في ذلك أن الدولة: إن كانت على سنن الدين فليست تقتضي إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع؛ لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت، وكذا زكاة الحبوب والماشية، وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية، وهي حدود لا تتعدى، وإن كانت على سنن التغلب والعصبية فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم، والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر، فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجمع الأموال من مجموعها، وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه، فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المغرم، وإذا كثر الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي هي جملتها، فإذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحداً بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب شر البداوة والسذاجة وخلقها من الإغضاء والتجافي، وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية إلى الكيس وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف، فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والأكرة والفلاحين وسائر

أهل المغارم، ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقداراً عظيماً لتكثر لهم الجباية، ويضعون المكوس على المبايعات، وفي الأبواب كما نذكر بعد، ثم تتدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة؛ لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلاً، ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها إنما تثبت على الرعايا كأنها عادة مفروضة. ثم تزيد إلى الخروج عن حدّ الاعتدال، فتذهب غبطة الرعايا في الاعتمار لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع، إذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الأيدي عن الاعتمار جملة، فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها، وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبراً لما نقص، حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به، فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن ينتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة؛ لأن فائدة الاعتمار عائدة إليها، وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن، فبذلك تنبسط النفوس إليه لثقتها بإدراك المنفعة فيه، والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها وبيده ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس أواخر الدولة

اعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا، فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده، فيكون خرجها وإنفاقها قليلاً فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائدها، وتجري على نهج الدول السابقة قبلها، فيكثر لذلك خراج أهل الدولة، ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه، ولا تفي بذلك الجباية فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء، والسلطان من النفقة، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولاً كما قلناه، ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية، ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية، فتقل الجباية وتكثر العوائد، ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البيعات ويفرض لها قدراً معلوماً على الأثمان في الأسواق، وعلى أعيان السلع في أموال المدينة. وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية، وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة، ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل.

وقد كان وقع منه بأمصار المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير، وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم، وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأعاضها بآثار الخير. وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى محا رسمه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وكذلك وقع بأمصار الجريد بإفريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم.

الفصل الأربعون

في أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية

اعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصُر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها، واحتاجت إلى مزيد المال والجباية، فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله، وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس إن كان قد استحدث من قبل، وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك عظامهم، لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية لا يظهره الحسبان، وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم، وأن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال، فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الأسواق ويحسبون ذلك من إدرار الجباية وتكثير الفوائد. وهو غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة.

فأولاً مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع، وتيسير أسباب ذلك، فإن الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون

ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيراً منهم، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد.

ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غصباً أو بأيسر ثمن، إذ لا يجد من يناقشه في شرائه فيبخس ثمنه على بائعه.

ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلها كله من زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع، فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا نفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة، فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع، ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد، فيستوعبون في ذلك ناضّ أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضاً جامدة، ويمكثون عُطَّلاً من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم. وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن. وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله، فيقعد عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر، ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح، ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الجباية، فإن معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار لا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش.

وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل، ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء أو بيع، فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسُّبها كلها حاصلاً من جهة الجباية. ثم فيه التعرض لأهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصه؛ فإن الرعايا إذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلاف أحوالهم، فافهم ذلك.

وكان الفرس لا يملّكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة، ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم، ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضر بجيرانه ولا يتاجر فيحب غلاء الأسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة.

واعلم أن السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده إلا الجباية وإدرارها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال، والنظر لهم بذلك، فبذلك تنبسط آمالهم، وتنشرح صدورهم للأخذ في تثمير الأموال وتنميتها، فتعظم منها جباية السلطان وأما غير ذلك من تجارة أو فلح فإنما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة. وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان، أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون، ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن. وهذه أشد من الأولى وأقرب إلى فساد الرعية واختلال أحوالهم. وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الأصناف، أعني التجار والفلاحين لما هي صناعته التي نشأ عليها، فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعاً، سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس، فإنها أجدر بنمو الأموال وأسرع في تثميره، ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته، فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعايتهم المضرة بجبايته وسلطانه، والله يلهمنا رشد أنفسنا وينفعنا بصالح الأعمال، والله تعالى أعلم.

الفصل الحادي والأربعون

في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

والسبب في ذلك أن الجباية في أول الدولة تتوزع على أهل القبيل والعصبية بمقدار غنائهم وعصبيتهم، ولأن الحاجة إليهم في تمهيد الدولة كما قلناه من قبل. فرئيسهم في ذلك متجافٍ لهم عما يسمون إليه من الجباية معتاضٌ عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم، فله عليهم عزة وله إليهم حاجة، فلا يطيّر في سهمانه من الجباية إلا الأقل من حاجته. فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالي مملقين في الغالب، وجاههم متقلص لأنه من جاه مخدومهم، ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من أهل عصبيته.

فإذا استفحلت طبيعة الملك، وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه، قبض أيديهم عن الجبايات إلا ما يطيِّرُ لهم بين الناس في سهمانهم، وتقل حظوظهم إذ ذاك لقلة غنائهم في

الدولة بما انكبح من أعنّتهم، وصار الموالي والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الأمر؛ فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها، ويحتوي على الأموال ويحتجنها للنفقات في مهمات الأحوال، فتكثر ثروته وتمتلئ خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه، فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم، ويقتنون الأموال ويتأثلونها.

ثم إذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصبية وفناء القبيل الماهدين للدولة احتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الأعوان والأنصار، ولكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاض، فصار خراجه لظهرائه وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصبيات، وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة، وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق، فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى المال، فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم، وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة، ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم، فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً وواحداً بعد واحد على نسبة رتبهم وتنكر الدولة لهم، ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها، ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه.

وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم، ثم في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بنى شهيد وبنى أبي عبدة وبنى حُديرة وبني بُرد وأمثالهم، وكذا في الدولة التي أدركناها لعهدنا. سنة الله التي قد خلت في عباده.

فصل:

ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون إلى الفرار عن الرتب والتخلص من ربقة السلطان، بما حصل في أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر، ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم في إنفاقه وحصول ثمرته. وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لأحوالهم ودنياهم.

واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع. فإن صاحب هذا الغرض إذا كان هو الملك نفسه، فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين، ولا أهل العصبية المزاحمون له، بل في ظهور ذلك منه هدم لملكه وإتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك؛ لأن ربقة الملك يعسر الخلاص منها، سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر، وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته، فقلّ أن يخلّى بينه وبين ذلك. أما أولاً فلما يراه الملوك أن ذويهم وحاشيتهم بل وسائر رعاياهم مماليك لهم، مطلعون على ذات صدورهم، فلا يسمحون بحل ربقته من الخدمة ضناً بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد. وغيره من خدمته لسواهم، ولقد كان بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العباس؛ فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم، وما أبيح الحج لأهل الدول من الأندلس إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوعها إلى الطوائف. وأما ثانياً فلأنهم وإن سمحوا بحل ربقته فلا يسمحون بالتجافي عن ذلك المال لما يرون أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم، إذ لم يكتسب إلا بها وفي ظل جاهها، فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة ينتفعون به. ثم إذا توهمنا أنه خلص بذلك المال إلى قطر آخر، وهو في النادر الأقل، فتمتد إليه أعين الملوك بذلك القطر وينتزعونه بالإرهاب والتخويف تعريضاً أو بالقهر ظاهراً، لما يرون أنه مال الجباية والدول، وأنه مستحق للإنفاق في المصالح وإذا كانت أعينهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المتكسبين من وجوه المعاش فأحرى بها أن تمتد إلى أموال الجباية والدول التي تجد السبيل إليه بالشرع والعادة، ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بأفريقة الخروج عن عهدة الملك واللحاق بمصر فراراً من طلب صاحب الثغور الغربية لما استجمع لغزو تونس، فاستعمل اللحياني الرحلة إلى ثغر طرابلس يورّي بتمهيده، وركب السفين من هنالك، وخلص إلى الإسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجده ببيت المال من الصامت والذخيرة، وباع كل ما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجواهر، حتى الكتب، واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاون سنة سبع عشرة من المائة الثامنة؛ فأكرم نزله ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيرته شيئاً فشيئاً بالتعريض إلى أن حصل عليها ولم يبق معاش ابن اللحياني إلا في جرايته التي فرضت له، إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين حسبما نذكره في أخباره. فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعتري

أهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب، وإنما يخلصون إن اتفق لهم الخلاص بأنفسهم، وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم. والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية أو بالجاه في انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة والدول أنساب؛ لكن:

النفس راغبة إذا رغَّبتها ... وإذا تُردُّ إلى قليل تقنع

والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق بمنه وفضله والله أعلم.

الفصل الثاني والأربعون

في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم، ومنه مادة العمران. فإذا احتَجَنَ السلطان الأموال أو الجبايات، أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية، وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد، ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ في الأسواق وتضعف الأرباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك؛ لأن الخراج والجباية إنما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب الناس للفوائد والأرباح، ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج. فإن الدولة كما قلناه هي السوق الأعظم، أم الأسواق كلها، وأصلها ومادتها في الدخل والخرج، فإن كسدت وقلت مصارفها فاجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه، وأيضاً فالمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم إليه، ومنه إليهم، فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية. سنة الله في عباده.

الفصل الثالث والأربعون

في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته، والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال وابذعرَّ الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة.

وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عـرَّض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له: إن بوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها، وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهلُ مرامٍ. فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له:

أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيِّماً وهو الملك، وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمّارها، وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال، وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع، وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك، ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وآووا إلى ما تعذّر من الضياع فسكنوها، فقلّت العمارة وخربت الضياع وقلّت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها.

فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتُزعت الضياع من أيدي الخاصة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة، وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم،

فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج، وقويت الجنود وقُطعت مواد الأعداء وشُحنت الثغور، وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه، فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض.

ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب، واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر، فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر، كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً؛ لأن النقص إنما يقع بالتدريج، فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين، وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الأخرى فترفعه بجدّتها وتجبر النقص الذي كان خفيّاً فيه، فلا يكاد يشعر به إلا أن ذلك في الأقل النادر.

والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه، ووباله عائد على الدول.

ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك، وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقّاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله.

واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريمه مهمّاً، وأدلته من القرآن والسنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر.

ولو كان كل واحد قادراً عليه لوضع بإزائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بإزاء غيره من المفسدات للنوع، التي يقدر كل أحد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر، إلا أن الظلم لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه؛ لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان فبولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه، عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

ولا تقولن: إن العقوبة قد وضعت بإزاء الحرابة في الشرع وهي من ظلم القادر؛ لأن المحارب زمن حرابته قادر، فإن في الجواب عن ذلك طريقين:

أحدهما أن تقول: العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس أو مال على ما ذهب إليه كثير، وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته، وأما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة.

الطريق الثاني أن تقول: المحارب لا يوصف بالقدرة؛ لأنا إنما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة، فهي المؤذنة بالخراب، وأما قدرة المحارب فإنما هي إخافة يجعلها ذريعة لأخذ الأموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة، فليست من القدر المؤذن بالخراب، واللّه قادر على ما يشاء.

فصل:

ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق، وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق؛ لأن الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران.

فإذا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم، بل لا مكاسب لهم سواها، فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك، فإذا كلّفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريّاً في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة، وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى إلى انتقاض العمران وتخريبه، واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الاحتكار:

وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع، وربما تفرض عليهم تلك الأثمان على التراخي والتأجيل، فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان، وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤوس أموالهم. وقد يعم ذلك أصناف التجار

المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوقة وأهل الدكاكين في المآكل والفواكه وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين، فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات وتتوالى على الساعات وتجحف برؤوس الأموال، ولا يجدون عنها وليجة إلا القعود عن الأسواق لذهاب رؤوس الأموال في جبرها بالأرباح، ويتثاقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك، فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا لأن عامته من البيع والشراء، وإذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان أو تفسد؛ لأن معظمها من أواسط الدولة وما بعدها إنما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤول ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به.

هذا ما كان بأمثال هذه الذرائع والأسباب إلى أخذ الأموال، وأما أخذها مجاناً والعدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضي إلى الخلل والفساد دفعة، وتنتقض الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتقاض.

ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء، وحظر أكل أموال الناس بالباطل سداً لأبواب المفاسد المفضية إلى انتقاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش.

واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال، فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة، فيستحدثون ألقاباً ووجوهاً يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج، ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة إلى أموال الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تنمحي دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها طالبها، والله أعلم.

الفصل الرابع والأربعون

في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم

اعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه؛ لأنه لابد لها من العصبية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلاؤها والبداوة هي شعار العصبية والدولة إن كان قيامها بالدين، فإنه بعيد عن منازع الملك، وإن كان قيامها بعز الغلب فقط فالبداوة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه، فإذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة والقرب من الناس وسهولة الإذن.

فإذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد بالمجد واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونه لما يكثر حينئذ من بحاشيته فيطلب الانفراد عن العامة ما استطاع ويتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ويتخذ حاجباً له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة.

ثم إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة إلى خلق الملك، وهي خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها، وربما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوه وصاروا إلى حالة الانتقام منة، فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يسخطهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم، فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة. والحجاب الثاني يفضي إلى مجالس الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة. والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية، وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جرياً عل مذهب الاشتقاق الصحيح.

ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الملك على ما يجب فيها، فدعا ذلك إلى الحجاب الثاني، وصار اسم الحاجب أخص به، وصار بباب الخلفاء داران للعباسية: دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم.

ثم حدث في الدولة حجاب ثالث أخص من الأولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة، وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم، فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنة بطانة أبيه وخواص أوليائه يوهمه أن في مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأدب، ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده ملابسة أخلاقه هو، حتى لا يتبدل به سواه إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه، فيكون هذا الحجاب من دواعيه، وهذا الحجاب لا يقع في

الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر، ويكون دليلاً على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم؛ لأن القائمين بالدولة يحاولون ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك، وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومباديه.

الفصل الخامس والأربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها، وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به، يأنف حينئذ عن المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه، فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم ونزعوا إلى القاصية واجتمع إليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاعترار والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضايق ورجع عن القاصية، فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد.

وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً مجتمعا، ونطاقها ممتدا في الاتساع وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبة على سائر مضر، فلم ينبض عرق من الخلاف سائر أيامه إلا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم، لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رئاسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية.

ثم لما خرج الأمر من بني أمية واستقل بنو العباس بالأمر. وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وآذنت بالتقلص عن القاصية، نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام، فاستحدث بها ملكاً واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين، ثم نزع إدريس إلى المغرب وخرج به وقام بأمره وأمّر ابنه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة، واستولى على ناحية المغربين، ثم ازدادت الدولة تقلصاً فاضطرب الأغالبة في الامتناع عليهم، ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على إفريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الأدارسة وقسموا الدولة دولتين أخريين، وصارت الدولة العربية ثلاث دول:

دولة بني العباس بمركز العرب وأصلهم ومادتهم الإسلام.

ودولة بني أمية المجددين بالأندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق.

ودولة العبيديين بإفريقية ومصر والشام والحجاز، ولم تزل هذه الدول إلى أن كان انقراضها متقاربا أو جميعاً.

وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى: وكان بالقاصية بنو سامان فيما وراء النهر وخراسان، والعلوية في الديلم وطبرستان، وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقين وعلى بغداد والخلفاء، ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم.

وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وإفريقية لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور، خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك الغرب لنفسه ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية، واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطرى، واستحدث ملكا آخر قسيماً لملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً.

وكذلك دولة الموحدين، لما تقلص ظلها ثار بإفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحيها، ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكريا يحيى ابن السلطان أبي إسحاق إبراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكاً ببجاية وقسطنطينة وما إليها، أورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولوا على كرسي الحضرة بتونس، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم.

وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاث وفي غير أعياص الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس وملوك العجم بالمشرق، وفي ملك صنهاجة بإفريقية، فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون إفريقية ثائر مستقل بأمره كما تقدم ذكره، وكذا حال الجريد والزاب من إفريقية قبيل هذا العهد كما نذكره.

وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب، فينقسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر وتتعدد فيها الدول، واللّه وارث الأرض ومن عليها.

الفصل السادس والأربعون

في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد، وبينا أنها تحدث للدولة بالطبع، وأنها كلها أمور طبيعية لها، وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني، والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي، والأمور الطبيعية لا تتبدل، وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم، ويظن أنه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم، وليس كذلك فإنها أمور طبيعية للدولة، والعوائد هي المانعة له من تلافيها، والعوائد منزلة طبيعية أخرى، فإن من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات، فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس، إذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه، ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة، وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه.

وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي، وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس، فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهام الأبهة فتتدرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر.

وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها إيماضة الخمود، كما يقع في الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء، فاعتبر ذلك ولا تغفل سر اللّه تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه و ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

الفصل السابع والأربعون

في كيفية طروق الخلل للدولة

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لابد منهما فالأول الشوكة والعصبية، وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال.

والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين، فلنذكر أولاً طروق الخلل في الشوكة والعصبية ثم نرجع إلى طروقه في المال والجباية.

واعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية، وأنه لابد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستتبعة لها، وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة، فإذا جاءت الدولةَ طبيعةُ الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصبية كان أول ما يجدع أنوف عشيرته ذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم ويأخذهم الترف أيضاً أكثر من سواهم، لمكانهم من الملك والعز والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر، ثم يصير القهر آخراً إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر، فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقلون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم، وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها، فتنحل عروتها وتضعف شكيمتها وتستبدل عنها بالبطالة من موالي النعمة وصنائع الإحسان، ويتخذ منهم عصبية إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمية لفقدان الرحم والقرابة منها، وقد كنا قدمنا أن شأن العصبية وقوتها إنما هي بالقرابة والرحم؛ لما جعل اللّه في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسراً طبيعياً. فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحداً بعد واحد ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الأول، مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا فيستولي عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبية وينسوا نعرتها وسورتها ويصيروا أجراء على الحماية ويقلون لذلك، فتقل الحماية التي تنزل بالأطراف والثغور فيتجاسر الرعايا على نقض الدعوة في الأطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الأعياص وغيرهم إلى تلك الأطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم وأمنهم من وصول الحامية إليهم، ولا يزال يتدرج ونطاق الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة، وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاث على قدر قوتها في الأصل كما قلناه، ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها لكن إذعاناً لأهل عصبيتها ولغلبهم المعهود.

واعتبر هذا في دولة العرب في الإسلام انتهت أولاً إلى الأندلس والهند والصين، وكان أمر بني أمية نافذاً في جميع العرب بعصبية بني عبد مناف، حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يرد أمره. ثم تلاشت عصبية بني أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا.

وجاء بنو العباس فغضُّوا من أعنة بني هاشم وقتلوا الطالبيين وشردوهم، فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم، فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بني الأغلب بإفريقية وأهل الأندلس وغيرهم وانقسمت الدولة، ثم خرج بنو إدريس بالمغرب وقام البربر بأمرهم إذعاناً للعصبية التي لهم وأمناً أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة.

فإذا خرج الدعاة آخراً فيتغلبون على الأطراف والقاصية وتحصل لهم هناك دعوة وملك، تنقسم به الدولة، وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصاً إلى أن ينتهي إلى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف، فتهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها.

وربما طال أمدها بعد ذلك فتستغني عن العصبية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهل إيالتها، وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل أحد من الأجيال مبدأها ولا أوليتها، فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة فيستغني بذلك عن قوة العصائب ويكفي صاحبها بما حصل لها في تمهيد أمرها الأُجراء على الحامية من جندي ومرتزق ويعضد ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم، فلا يكاد أحد يتصور عصياناً أو خروجاً إلا والجمهور منكرون عليه مخالفون له، فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده، وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم، فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة ولا يختلج في ضميرها انحراف عن الطاعة فيكون أسلم من الهرج والانتقاض الذي يحدث من العصائب والعشائر، ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي تتلاشى في ذاتها شأن الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء إلى أن تنتهي إلى وقتها المقدور ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ولكل دولة أمد ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

وأما الخلل الذي يتطرق من جهة المال، فاعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية كما مر فيكون خلق الرفق بالرعايا والقصد في النفقات والتعفف عن الأموال، فتتجافى عن الإمعان في الجباية والتحذلق والكيس في جمع الأموال وحسبان العمال ولا داعية حينئذ إلى الإسراف في النفقة فلا تحتاج الدولة إلى كثرة المال، ثم يحصل الاستيلاء ويعظم ويستفحل الملك فيدعو إلى الترف ويكثر الإنفاق بسببه، فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم، بل يتعدى ذلك إلى أهل المصر ويدعو ذلك إلى الزيادة في أعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة، ثم يعظم الترف فيكثر الإسراف في النفقات وينتشر ذلك في الرعية؛ لأن الناس على دين ملوكها وعوائدها، ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس على أثمان البياعات في الأسواق لإدرار الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه، ولما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده، ثم تزيد عوائد الترف فلا تفي بها المكوس وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا، فتمتد أيديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقد في بعض الأحوال بشبهة أو بغير شبهة، ويكون الجند في ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العصبية فتتوقع ذلك منهم وتداوي بسكينة العطايا وكثرة الإنفاق فيهم، ولا تجد عن ذلك وليجة، ويكون جباة الأموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من جاههم، فيتوجه إليهم باحتجان الأموال من الجباية وتفشو السعاية فيهم، بعضهم عن بعض للمنافسة والحقد، فتعمهم النكبات والمصادرات واحداً واحداً إلى أن تذهب ثروتهم وتتلاشى أحوالهم ويفقد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم، فإذا اصطلمت نعمتهم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن في هذا الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر، فتنصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ إلى مداراة الأمور ببذل المال ويراه أرفع من السيف لقلة غنائه، فتعظم حاجته إلى الأموال زيادة على النفقات وأرزاق الجند ولا يغني فيما يريد، ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحي، والدولة تنحل عراها في كل طور من هذه إلى أن تفضي إلى الهلاك وتتعرّض لاستيلاء الطلاب، فإن قصدها طالب انتزعها من أيدي القائمين بها وإلا بقيت وهي تتلاشى إلى أن تضمحل كالذبال في السراج إذا فني زيته وطفئ، والله مالك الأمور ومدبر الأكوان لا إله إلا هو.

الفصل الثامن والأربعين

في اتساع نطاق الدولة أولاً إلى نهايته ثم تضايقه طوراً بعد طور إلى فناء الدولة واضمحلالها

قد كان تقدم لنا في فصل الخلافة والملك، وهو الثالث من هذه المقدمة أن كل دولة لها حصة من الممالك والعمالات لا تزيد عليها. واعتبر ذلك بتوزيع عصابة الدولة على حماية أقطارها وجهاتها. فحيث نفد عددهم فالطرف الذي انتهى عنده هو الثغر، ويحيط بالدولة من سائر جهاتها كالنطاق. وقد تكون النهاية هي نطاق الدولة الأولى. وقد يكون أوسع منه إذا كان عدد العصابة أوفر من الدولة قبلها. وهذا كله عندما تكون الدولة في شعار البداوة وخشونة البأس. فإذا استفحل العز والغلب وتوفرت النعم والأرزاق بدرور الجبايات، وزخر بحر الترف والحضارة ونشأت الأجيال على اعتبار ذلك لطفت أخلاق الحامية ورقت حواشيهم، وعاد من ذلك إلى نفوسهم هيئات الجبن والكسل، بما يعانونه من خنث الحضارة المؤدي إلى الانسلاخ من شعار البأس والرجولية بمفارقة البداوة وخشونتها، وبأخذهم العز بالتطاول إلى الرياسة والتنازع عليها، فيفضي إلى قتل بعضهم ببعض، ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدي إلى قتل أكابرهم وإهلاك رؤسائهم، فتفقد الأمراء والكبراء، ويكثر التابع والمرؤوس، فيفل ذلك من حد الدولة، ويكسر من شوكتها. ويقع الخلل الأول في الدولة وهو الذي من جهة الجند والحامية كما تقدم. ويساوق ذلك السرف في النفقات بما يعتريهم من أبهة العز. وتجاوز الحدود بالبذخ. بالمناغاة في المطاعم والملابس وتشييد القصور واستجادة السلاح وارتباط الخيول، فيقصر دخل الدولة حينئذ عن خرجها ويطرق الخلل الثاني في الدولة وهو الذي من جهة المال والجباية. ويحصل العجز والانتقاص بوجود الخللين. وربما تنافس رؤساؤهم فتنازعوا وعجزوا عن مغالبة المجاورين والمنازعين ومدافعتهم. وربما اعتز أهل الثغور والأطراف بما يحسون من ضعف الدولة وراءهم، فيصيرون إلى الاستقلال والاستبداد بما في أيديهم من العمالات، ويعجز صاحب الدولة عن حملهم على الجادة فيضيق نطاق الدولة عما كانت انتهت إليه في أولها، وترجع العناية في تدبيرها بنطاق دونه، إلى أن يحدث في النطاق الثاني ما حدث في الأول بعينه من العجز والكسل في العصابة وقلة الأموال والجباية. فيذهب القائم بالدولة إلى تغيير القوانين التي كانت عليها سياسة الدولة من قبل الجند والمال والولايات، ليجري حالها على استقامة بتكافؤ الدخل والخرج والحامية والعمالات وتوزيع الجباية على الأرزاق، ومقايسة ذلك بأول الدولة في سائر الأحوال.

والمفاسد مع ذلك متوقعة من كل جهة. فيحدث في هذا الطور من بعد ما حدث في الأول من قبل. ويعتبر صاحب الدولة ما اعتبره الأول، ويقايس بالوزان الأول أحوالها الثانية، يروم دفع مفاسد الخلل الذي يتجدد في كل طور ويأخذ من كل طرف حتى يضيق نطاقها الآخر إلى نطاق دونه كذلك، ويقع فيه ما وقع في الأول. فكل واحد من هؤلاء المغيرين للقوانين قبلهم كأنهم منشئون دولة أخرى، ومجددون ملكاً. حتى تنقرض الدولة، وتتطاول الأمم حولها إلى التغلب عليها وإنشاء دولة أخرى لهم، فيقع من ذلك ما قدر الله وقوعه.

واعتبر ذلك في الدولة الإسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتغلب على الأمم، ثم تزايد الحامية وتكاثر عددهم بما تخولوه من النعم والأرزاق، إلى أن انقرض أمر بني أمية وغلب بنو العباس. ثم تزايد الترف. ونشأت الحضارة وطرق الخلل، فضاق النطاق من الأندلس والمغرب بحدوث الدولة الأموية المروانية والعلوية، واقتطعوا ذينك الثغرين عن نطاقها، إلى أن وقع الخلاف بين بني الرشيد، وظهر دعاة العلوية من كل جانب، وتمهدت لهم دول، ثم قتل المتوكل، واستبد الأمراء على الخلفاء وحجروهم، واستقل الولاة بالعمالات في الأطراف. وانقطع الخراج منها، وتزايد الترف. وجاء المعتضد فغير قوانين الدولة إلى قانون آخر من السياسة أقطع فيه ولاة الأطراف ما غلبوا عليه، مثل بني سامان وراء النهر وبني طاهر العراق وخراسان، وبني الصفار السند وفارس، وبني طولون مصر، وبني الأغلب إفريقية، إلى أن افترق أمر العرب وغلب العجم، واستبد بنو بويه والديلم بدولة الإسلام وحجروا الخلافة، وبقي بنو سامان في استبدادهم وراء النهر وتطاول الفاطميون من المغرب إلى مصر والشام فملكوه.

ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الإسلام وأبقوا الخلفاء في حجرهم، إلى أن تلاشت دولهم. واستبد الخلفاء منذ عهد الناصر في نطاق أضيق من هالة القمر وهو عراق العرب إلى أصبهان وفارس والبحرين. وأقامت الدولة كذلك بعض الشيء إلى أن انقرض أمر الخلفاء على يد هولاكو بن طولى بن دوشي خان ملك التتر والمغل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان بأيديهم من ممالك الإسلام. وهكذا يتضايق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها الأول. ولا يزال طوراً بعد طور إلى أن تنقرض

الدولة. واعتبر ذلك في كل دولة عظمت أو صغرت. فهكذا سنة الله في الدول إلى أن يأتي ما قدر الله من الفناء على خلقه. و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ﴾.

الفصل الثامن والأربعون

في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

اعلم أن نشأة الدول وبدايتها إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون على نوعين:

إما بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلص ظلها عنهم، فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه يرثه عنه أبناؤه أو مواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج، وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه وينتزع ما في يده، كما وقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلها عن القاصية واستبد بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر، وكما وقع بالدولة الأموية بالأندلس وافترق ملكها في الطوائف الذين كانوا ولاتها في الأعمال وانقسمت دولاً وملوكاً أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليهم، وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب؛ لأنهم مستقرون في رئاستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب، وإنما الدولة أدركها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية وعجزت عن الوصول إليها.

والنوع الثاني بأن يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها من الأمم والقبائل، إما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبيراً في قومه قد استفحل أمره فيسمو بهم إلى الملك وقد حدّثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم، فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة إلى أن يظفروا بها ويرثون أمرها كما يتبين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل التاسع والأربعون

في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان:

نوع من ولاية الأطراف إذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها، وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الأكثر كما قدمناه؛ لأن قصاراهم القنوع بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم.

والنوع الثاني نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لابد لهم من المطالبة؛ لأن قوتهم وافية بها، فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك وواف به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكرر وتتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة، والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع كما قدمناه بأمور نفسانية وهمية، وإن كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلاً به لكنه قاصر مع تلك الأمور الوهمية كما مر، ولذلك كان الخداع من أنفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به، وفي الحديث «الحرب خدعة».

والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة ويكسر من همم أتباعه وأهل شوكته، وإن كان الأقربون من بطانته على بصيرة في طاعته ومؤازرته، إلا أن الآخرين أكثر وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة فيحصل بعض الفتور منهم، ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة فيرجع إلى الصبر والمطاولة حتى يتضح هرم الدولة المستقرة، فتضمحل عقائد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء.

وأيضاً فالدولة المستقرة كثيرة الرزق بما استحكم لهم من الملك وتوسع من النعيم واللذات واختصوا به دون غيرهم من أموال الجباية، فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الأسلحة وتعظم فيهم الأبهة الملكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختياراً واضطرارا، فيرهبون بذلك كله عدوهم، وأهل الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق إلى قلوبهم أوهام الرعب بما يبلغهم من أحوال

الدولة المستقرة ويحجمون عن قتالهم من أجل ذلك، فيصير أمرهم إلى المطاولة حتى تأخذ المستقرة مأخذها من الهرم ويستحكم الخلل فيها في العصبية والجباية فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة، سنة اللّه في عباده.

وأيضاً فأهل الدولة المستجدة كلهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم ثم هم مفاخرون لهم ومنابذون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليها، فتتمكن المباعدة بين أهل الدولتين سراً وجهراً، ولا يصل إلى أهل الدولة المستجدة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة باطناً وظاهراً لانقطاع المداخلة بين الدولتين، فيقيمون على المطالبة وهم في إحجام، وينكلون عن المناجزة حتى يأذن اللّه بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها ووفور الخلل في جميع جهاتها، ويتضح لأهل الدولة المستجدة مع الأيام ما كان يخفى منهم من هرمها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها، فتنبعث هممهم يداً واحدة للمناجزة، ويذهب ما كان يفت في عزائمهم من التوهمات وتنتهي المطاولة إلى حدها ويقع الاستيلاء آخراً بالمعاجلة.

واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد، وحينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الأموية.

وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية، ثم لما انقضى أمر العلوية وسما الديلم إلى ملك فارس والعراقين فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا أصبهان ثم استولوا على الخليفة ببغداد.

وكذا العبيديون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد اللّه الشيعي ببني كتامة من قبائل البربر عشر سنين ويزيد، يطاول بني الأغلب بإفريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب كله وسموا إلى ملك مصر فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت ويجيء المدد لمدافعتهم براً وبحراً من بغداد والشام وملكوا الإسكندرية والفيوم والصعيد، وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بني طغج من أصولها واختط القاهرة، فجاء الخليفة بعد المعز لدين اللّه فنزلها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الإسكندرية.

وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني سامان وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحواً من ثلاثين سنة يطاولون بني سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته. ثم زحفوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر.

وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة عام سبعة عشر وستمائة فلم يتم لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة.

وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه. ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحواً من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش.

وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحواً من ثلاثين سنة واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملوكهم، ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى حتى استولوا على كرسيهم بمراكش.

حسبما نذكر ذلك كله في تواريخ هذه الدول، فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاولة، سنة اللّه في عباده ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً.

ولا يعارض ذلك بما وقع في الفتوحات الإسلامية وكيف كان استيلاؤهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبي ﷺ، واعلم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا ﷺ سرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبصاراً بالإيمان وما أوقع اللّه في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل، فكان ذلك كله خارقاً للعادة المقررة في مطاولة الدول المستجدة للمستقرة، وإذا كان ذلك خارقاً فهو من معجزات نبينا صلوات اللّه عليه المتعارف ظهورها في الملة الإسلامية والمعجزات، لا يقاس عليها الأمور العادية ولا يعترض بها، واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الخمسون

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

اعلم أنه قد تقرر لك فيما سلف أن الدولة في أول أمرها لابد لها من الرفق في ملكتها والاعتدال في إيالتها، إما من الدين إن كانت الدعوة دينية، أو من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول، وإذا كانت الملكة رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتتوفر ويكثر التناسل وإذا كان

ذلك كله بالتدريج فإنما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الأقل وفي انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي، فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء، ولا تقولن: إنه قد مر لك أن أواخر الدولة يكون فيها الإجحاف بالرعايا وسوء الملكة، فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه؛ لأن الإجحاف وإن حدث حينئذ وقلت الجبايات، فإنما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدريج في الأمور الطبيعية، ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه:

إما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة، فيقل احتكار الزرع غالباً، وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر، والزرع والثمار والضرع على نسبته إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار، فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا وكان بعض السنوات، والاحتكار مفقود فشمل الناس الجوع.

وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء، وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني ومُلابسه دائماً فيسري الفساد إلى مزاجه، فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة، وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحُمّيات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك، وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المغرم وهو ظاهر، ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح، ولهذا أيضاً فإن الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب، والله يقدر ما يشاء.

الفصل الحادي والخمسون

في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم. فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة، والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط.

وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأساً، ويسمّون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة، والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة، فإن هذه غير تلك، وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير.

ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين:

أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص، وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة. وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة؛ لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآداب وأحكام الملك مندرجة فيها.

الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً، وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم، فقوانينها إذاً مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية، وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع أولاً ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم، ومن

أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما، فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة. ونص الكتاب:

نص كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه، واحفظ رعيتك في الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه، فإن الله سبحانه قد أحسن إليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والأمن لسربهم، وإدخال الراحة عليهم، ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت، ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل، وأنه رأس أمرك وملاك شأنك، وأول ما يوفقك الله عليه، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعلك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوقعها على سننها من إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها، ورتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك، ولتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وادأب عليها، فإنها كما قال الله عز وجل ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾.

ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ﷺ والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه، وبلزوم ما أنزل الله عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله ﷺ، ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد.

وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عز وجل والعاملين به، فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل، فإنه الدليل على الخير كله والقائد إليه والآمر والناهي عن المعاصي والموبقات كلها، ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة وإجلالاً له ودركاً للدرجات العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك والأنسة بك والثقة بعدلك.

وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شيء أبين نفعاً ولا أخص أمناً ولا أجمع فضلاً منه. والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد فآثره في دنياك كلها.

ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والإعانة والاستكثار من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله في دار كرامته.

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب، وأنك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه، فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح عامتك وخاصتك، وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك.

ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره، فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم آثم إثم. فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه فيهم يعنك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم. ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمداً، فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاذة عيشك.

واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة، وتكتفي به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء وحياطة الرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤوناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة.

واخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع ومجزي بما أحسن ومؤاخذ بما أساء، فإن الله عز وجل جعل الدين حرزاً وعزاً ورفع من اتبعه وعززه.

واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى. وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما

استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك، واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروؤتك.

وإذا عاهدت عهداً فأوف به وإذا وعدت الخير فأنجزه، واقبل الحسنة وادفع بها، واغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأبغض أهل النميمة، فإن أول فساد أمورك في عاجلها وآجلها، تقريب الكذوب، والجراءة على الكذب، لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمتها، لأن النميمة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر. وأحبب أهل الصلاح والصدق، وأعز الأشراف بالحق، وأعن الضعفاء، وصل الرحم، وابتغ بذلك وجه اللّه تعالى وإعزاز أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة. واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرف عنهما رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك، وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى. واملك نفسك عند الغضب، وآثر الحلم والوقار، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله.

وإياك أن تقول: أنا مسلط أفعل ما أشاء، فإن ذلك سريع إلى نقص الرأي وقلة اليقين للّه عز وجل، وأخلص لله وحده النية فيه واليقين به.

واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء. ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا نعم اللّه وإحسانه واستطالوا بما أعطاهم اللّه عز وجل من فضله.

ودع عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم والإغاثة لملهوفهم.

واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو، وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة وترتبت بها الولاية وطاب بها الزمان واعتقد فيها العز والمنفعة. فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله. ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم، فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة لك واستوجبت المزيد من اللّه تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك، وطب نفساً بكل ما أردت. وأجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب وليعظم حقك فيه، وإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل اللّه وفي سبيل حقه، واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه، وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك، فإن التهاون يورث التفريط، والتفريط يورث البوار. وليكن عملك لله عز وجل وفيه، وارج الثواب منه، فإن اللّه سبحانه قد أسبغ فضله. واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك اللّه خيراً وإحساناً، فإن اللّه عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين.

ولا تحقرن ذنباً ولا تمالئن حاسداً ولا ترحمن فاجراً ولا تصلن كفوراً ولا تداهنن عدواً ولا تصدقن نماماً ولا تأمنن غداراً ولا توالين فاسقاً ولا تتبعن غاوياً ولا تحمدن مرائياً ولا تحقرن إنساناً ولا تردن سائلا فقيراً ولا تحسنن باطلاً ولا تلاحظن مضحكاً ولا تخلفن وعداً ولا تزهون فخراً ولا تظهرن غضباً ولا تباينن رجاءً ولا تمشين مرحاً ولا تزكين سفيهاً ولا تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفعن للنمام عيناً ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه أو محاباةً ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا.

وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة. ولا تدخلن في مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولاً، فإن ضررهم أكثر من نفعهم.

وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح. واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلاً، فإن رعيتك إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم. ووال من صافاك من أوليائك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم. واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى الإنسان به ربه وأن العاصي بمنزلة الخزي وهو قول اللّه عز وجل ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم من فيئك حظاً ونصيباً، وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد فأعدّه لنفسك خلقاً وارض به عملاً ومذهباً. وتفقد الجند في دواوينهم ومكانتهم وأدرّ عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معايشهم يذهب اللّه عز وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً. وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمة في عدله وعطيته

وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فزايل مكروه أحد البابين باستشعار فضل الباب الآخر ولزوم العمل به، تلق إن شاء اللّه تعالى به نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً.

واعلم أن القضاء من اللّه تعالى بالمكان الذي ليس فوقه شيء من الأمور؛ لأنه ميزان اللّه الذي تعدل عليه أحوال الناس في الأرض. وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتؤمن السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة، ويرزق اللّه العافية والسلامة ويقيم الدين ويجري السنن والشرائع في مجاريها. واشتد في أمر اللّه عز وجل وتورع عن النطف وامض لإقامة الحدود. وأقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك وانتبه في صحتك واسدد في منطقك وأنصف الخصم وقف عند الشبهة وأبلغ في الحجة ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم، وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن إلى سفك دم، فإن الدماء من اللّه عز وجل بمكان عظيم! فلا تبغ انتهاكاً لها بغير حقها.

وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية وجعله اللّه للإسلام عزاً ورفعةً، ولأهله توسعة ومنعة، ولعدوه كبتاً وغيظاً ولأهل الكفر من معاديهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم، ولا تدفعن شيئاً منه عن شريف لشرفه ولا عن غني لغناه ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له. ولا تكلف أمراً فيه شطط. واحمل الناس كلهم على أمر الحق فإن ذلك أجمع لألفتهم وألزم لرضاء العامة.

واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً وإنما سمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم. فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ونفذه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم. واستعمل عليهم أولي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف. ووسع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك، فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدوثة في عملك واستجررت به المحبة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب في كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتياض جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة مرضي العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة. فتنافس فيها ولا تقدم عليها شيئاً تحمد عاقبة أمرك إن شاء اللّه تعالى.

واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معايناً لأموره كلها. وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأمضه وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته، فإنه ربما نظر الرجل في أمره وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك وأعجبه، فإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره. فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون اللّه عز وجل بالقوة. وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك. وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك وأكثر مباشرته بنفسك فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت. واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى تمرض منه. وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وجمعت أمر سلطانك.

وانظر أحرار الناس وذوي الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن إليهم، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤونتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم منافراً، وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أحفى مسألة وكل بأمثاله أهل الصلاح في رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم إليك لتنظر فيما يصلح اللّه به أمرهم وتعاهد ذوي البأساء ويتماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه اللّه تعالى في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح اللّه بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة. وأجر للأضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم وقوّاماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال.

واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعاً في نيل الزيادة وفضل الرفق بهم. وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به من

مؤونة ومشقة. وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذي يستقل ما يقربه من اللّه تعالى وتلتمس به رحمته.

وأكثر الإذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن لهم حواسك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم في المسألة والنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك. وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء اللّه تعالى.

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى قبلك من أهل السلطان والرئاسة في القرون الخالية والأمم البائدة.

ثم اعتصم في أحوالك كلها باللّه سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وبإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط اللّه عز وجل.

واعرف ما يجمع عمالك من الأموال وما ينفقون منها ولا تجمع حراماً ولا تنفق إسرافاً.

وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الأخلاق ومعاليها، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في ستر وإعلامك بما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك.

وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل فيه عليك بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك، ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبر له، فما كان موافقاً للحق والحزم فأمضه واستخر اللّه عز وجل فيه وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى المسألة عنه والتثبت منه، ولا تمنن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم. ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك. وتفهم كتابي إليك وأمعن النظر فيه والعمل به واستعن باللّه على جميع أمورك واستخره، فإن اللّه عز وجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان للّه عز وجل رضاً ولدينه نظاماً ولأهله عزاً وتمكيناً وللملة والذمة عدلاً وصلاحاً وأنا أسأل اللّه - عز وجل - أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام.

وحدث الإخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعجب به الناس واتصل بالمأمون، فلما قرئ عليه قال: ما أبقى أبو الطيب - يعني طاهراً - شيئاً من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به؛ ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه، هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة، واللّه أعلم.

الفصل الثاني والخمسون

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلامية ويسمى بالمهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في «الصحيح» على أثره. وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتم بالمهدي في صلاته ويحتجون في هذا الشأن بأحاديث خرجها الأئمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الأخبار، وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى ونوع من الاستدلال وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم.

ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في إنكارهم من المستند ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم ليتبين لك الصحيح من ذلك إن شاء اللّه تعالى فنقول:

إن جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهدي منهم الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي وأسندوها إلى جماعة من الصحابة: مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأم حبيبة وأم سلمة وثوبان وقرة بن إياس وعلي الهلالي وعبد اللّه بن الحارث بن جزء بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره، إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل، فإذا وجدنا طعناً في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها ولا تقولن مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال

«الصحيحين» فإن الإجماع قد اتصل في الأمة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما، وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفع وليس غير «الصحيحين» بمثابتهما في ذلك، فقد نجد مجالاً للكلام في أسانيدها بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك.

ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي فقال: ومن أغربها إسناداً ما ذكره أبو بكر الإسكاف في «فوائد الأخبار» مسنداً إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من كذب بالمهدي فقد كفر، ومن كذب بالدجال فقد كذب». وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسب، وحسبك هذا غلواً. واللّه أعلم بصحة طريقه إلى مالك بن أنس على أن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع.

وأما الترمذي فخرج هو وأبو داود بسنديهما إلى ابن عباس. من طريق عاصم بن أبي النجود - أحد القراء السبعة - إلى زر بن حبيش، عن عبد اللّه بن مسعود، عن النبي ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول اللّه ذلك اليوم حتى يبعث اللّه فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي». هذا لفظ أبي داود وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة: «إن ما سكت عليه في كتابه فهو صالح». ولفظ الترمذي: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي» وفي لفظ آخر «حتى يلي رجل من أهل بيتي» وكلاهما حديث حسن صحيح، ورواه أيضاً من طريق موقوفاً على أبي هريرة وقال الحاكم: رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال: وطرق عاصم عن زر عن عبد اللّه كلها صحيحة على ما أصلته من الاحتجاج بأخبار عاصم إذ هو إمام من أئمة المسلمين انتهى.

إلا أن عاصماً قال فيه أحمد بن حنبل: كان رجلا صالحاً قارئاً للقرآن خيراً ثقة والأعمش أحفظ منه وكان شعبة يختار الأعمش عليه في تثبيت الحديث، وقال العجلي: كان يختلف عليه في زر وأبي وائل؛ يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما، وقال محمد بن سعد: كان ثقة إلا أنه كثير الخطأ في حديثه، وقال يعقوب بن سفيان: في حديثه اضطراب، وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قلت لأبي: إن أبا زرعة يقول: عاصم ثقة، فقال: ليس محله هذا وقد تكلم فيه ابن علية فقال: كل من اسمه عاصم سيئ الحفظ، وقال أبو حاتم: محله عندي محل الصدق صالح الحديث ولم يكن بذلك الحافظ، واختلف فيه قول النسائي، وقال ابن حراش: في حديثه نكرة، وقال أبو جعفر العقيلي: لم يكن فيه إلا سوء الحفظ، وقال الدارقطني: في حفظه شيء، وقال يحيى القطان: ما وجدت رجلاً اسمه عاصم إلا وجدته رديء الحفظ، وقال أيضاً: سمعت شعبة يقول: حدثنا عاصم بن أبي النجود وفي الناس ما فيها! وقال الذهبي: ثبت في القراءة وهو في الحديث دون التثبُّت صدوق فهم وهو حسن الحديث.

وإن احتج أحد بأن الشيخين أخرجا له فنقول: أخرجا له مقروناً بغيره لا أصلاً، واللّه أعلم.

وخرج أبو داود في الباب عن علي رضي اللّه عنه من رواية فطر بن خليفة، عن القاسم بن أبي مرة، عن أبي الطفيل، عن علي، عن النبي ﷺ قال: «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث اللّه رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»؛ وفطر بن خليفة وإن وثقه أحمد ويحيى القطان وابن معين والنسائي وغيرهم إلا أن العجلي قال: حسن الحديث وفيه تشيع قليل، وقال ابن معين مرة: ثقة شيعي. وقال أحمد بن عبد اللّه بن يونس: كنا نمر على فطر وهو مطروح لا نكتب عنه. وقال مرة: كنت أمر به وأدعه مثل الكلب. وقال الدارقطني: لا يحتج به. وقال أبو بكر بن عياش: ما تركت الرواية عنه إلا لسوء مذهبه. وقال الجرجاني: زائغ غير ثقة انتهى.

وخرج أبو داود أيضاً بسنده إلى علي رضي اللّه عنه عن هارون بن المغيرة، عن عمر بن أبي قيس، عن شعيب بن أبي خالد، عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال علي ونظر إلى ابنه الحسين: إن ابني هذا سيد كما سماه رسول اللّه ﷺ. سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق يملأ الأرض عدلاً.

وقال هارون: حدثنا عمر بن أبي قيس عن مطرف بن طريف، عن أبي الحسن، عن هلال بن عمر: سمعت علياً يقول: قال النبي ﷺ: «يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطّىء أو يمكّن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول اللّه ﷺ وجب على كل مؤمن نصره أو قال: إجابته.

سكت أبو داود عليه. وقال في موضع آخر في هارون: هو من ولد الشيعة. وقال السليماني: فيه نظر. وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس: لا بأس به في حديثه خطأ. وقال الذهبي: صدوق له أوهام. وأما أبو إسحاق السبيعي وإن خرج عنه في «الصحيحين» فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره وروايته عن علي منقطعة، وكذلك رواية أبي داود عن هارون بن المغيرة.

وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان ولم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مطرف بن طريف عنه انتهى.

وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة وكذا ابن ماجه والحاكم في «المستدرك» من طريق علي بن نفيل، عن سعيد بن المسيب، عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من ولد فاطمة» ولفظ الحاكم: سمعت رسول الله ﷺ يذكر المهدي فقال: «نعم هو حق وهو من بني فاطمة»

ولم يتكلم عليه بتصحيح ولا غيره، وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال: لا يتابع علي بن نفيل عليه ولا يعرف إلا به.

وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة من رواية صالح بن الخليل، عن صاحب له، عن أم سلمة قالت: يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة، فيخرجونه وهو كاره، فيبايعونه بين الركن والمقام، فيبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق، فيبايعونه ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب، فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم ﷺ ويلقي الإسلام بجرانه على الأرض، فيلبث سبع سنين، وقال بعضهم: تسع سنين.

ثم رواه أبو داود من رواية أبي الخليل عن عبد الله بن الحارث عن أم سلمة، فتبين بذلك المبهم في الإسناد الأول ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز وقد يقال: إنه من رواية قتادة عن أبي الخليل وقتادة مدلس وقد عنعنه، والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع. مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي؛ نعم ذكره أبو داود في أبوابه.

وخرج أبو داود أيضاً وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق عمران القطان عن قتادة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي مني أجلى الجبهة اقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يملك سبع سنين» هذا لفظ أبي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم: «المهدي منا أهل البيت أشم الأنف، أقنى أجلى، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يعيش هكذا» وبسط يساره وإصبعين من يمينه السبابة والإبهام وعقد ثلاثةً. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. اهـ.

وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به إنما أخرج له البخاري استشهاداً لا أصلاً، وكان يحيى القطان لا يحدث عنه، وقال يحيى بن معين: ليس بالقوي وقال مرة: ليس بشيء. وقال أحمد بن حنبل: أرجو أن يكون صالح الحديث، وقال يزيد بن زريع: كان حرورياً وكان يرى السيف على أهل القبلة، وقال النسائي: ضعيف، وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا داود عنه. فقال: من أصحاب الحسن وما سمعت إلا خيراً. وسمعته مرة أخرى ذكره فقال: ضعيف أفتى في إبراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء.

وخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق زيد العمي، عن أبي صديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: خشينا أن يكون بعض شيء حدث فسألنا نبي الله ﷺ فقال: «إن في أمتي المهدي يخرج ويعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً» زيد الشاك قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: سنين! قال: «فيجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني» قال: «فيحثو له في ثوبه ما استطاع أن يحمله». لفظ الترمذي قال: هذا حديث حسن وقد روي من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ.

ولفظ ابن ماجه والحاكم: «يكون في أمتي المهدي إن قصر فسبع وإلا فتسع فتنعم أمتي فيه نعمة لم ينعموا بمثلها قط تؤتي الأرض أكلها ولا يدخر منه شيء، والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول: يا مهدي أعطني! فيقول خذ!» انتهى.

وزيد العمي وإن قال فيه الدارقطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين: إنه صالح وزاد أحمد: إنه فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى إلا أنه قال فيه أبو حاتم: ضعيف يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال يحيى بن معين في رواية أخرى: لا شيء. وقال مرة: يكتب حديثه وهو ضعيف. وقال الجوزجاني: متماسك وقال أبو زرعة: ليس بقوي واهي الحديث ضعيف وقال أبو حاتم: ليس بذاك وقد حدث عنه شعبة. وقال النسائي: ضعيف وقال ابن عدي: عامة ما يرويه ومن يروي عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روى عنه ولعل شعبة لم يرو عن أضعف منه.

وقد يقال: إن حديث الترمذي وقع تفسيراً لما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمتي، خليفة يحثو المال حثواً لا يعده عداً» ومن حديث أبي سعيد قال: من خلفائكم خليفة يحثو المال حثواً» ومن طريق أخرى عنهما قال: «يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده» انتهى.

وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على

أنه المراد منها. ورواه الحاكم أيضاً من طريق عوف الأعرابي عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً».

وقال فيه الحاكم: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ورواه الحاكم أيضاً من طريق سليمان بن عبيد، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول اللّه ﷺ قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه اللّه الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحاً، وتكثر الماشية وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثماني» يعني حججاً، وقال فيه: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يرد أن أحداً تكلم فيه، ثم رواه الحاكم أيضاً من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة، عن مطر الوراق وأبي هارون العبدي، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد أن رسول اللّه ﷺ قال: «تملأ الأرض جوراً وظلماً فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعاً أو تسعاً فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً».

وقال الحاكم فيه: هذا حديث صحيح على شرط مسلم وإنما جعله على شرط المسلم لأنه أخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق. وأما شيخه الآخر وهو أبو هارون العبدي فلم يخرج له. وهو ضعيف جداً متهم بالكذب ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه.

وأما الراوي له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى ويلقب أسد السنة وإن قال البخاري: مشهور الحديث واستشهد به في «صحيحه». واحتج به أبو داود والنسائي إلا إنه قال مرة أخرى: ثقة لو لم يصنف كان خيراً له. وقال فيه محمد بن حزم: منكر الحديث.

ورواه الطبراني في «معجمه الأوسط» من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل، عن أبي الصديق الناجي، عن الحسن بن يزيد السعدي أحد بني بهدله، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «يخرج رجل من أمتي يقول بسنتي ينزل اللّه عز وجل له القطر من السماء وتخرج الأرض بركتها وتملأ الأرض منه قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل على بيت المقدس».

وقال الطبراني فيه: ورواة جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحداً إلا أبا الواصل فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد انتهى.

وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد، ورواية أبي الصديق عنه وقال الذهبي في «الميزان»: إنه مجهول. لكن ذكره ابن حبان في الثقات. وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم يخرج له أحد من الستة. وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه: يروي عن أنس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر.

وخرج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد اللّه بن مسعود من طريق يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد اللّه قال: بينما نحن عند رسول اللّه ﷺ إذ أقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم رسول اللّه ﷺ ذرفت عيناه وتغير لونه قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه! فقال: «إنا أهل البيت اختار اللّه لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملؤوها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج» انتهى.

وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث الرايات. ويزيد بن أبي زياد راويه قال فيه شعبة: كان رفاعاً - يعني يرفع الأحاديث التي لا تعرف مرفوعة. وقال محمد بن الفضيل: كان من كبار أئمة الشيعة. وقال أحمد بن حنبل: لم يكن بالحافظ وقال مرة: حديثه ليس بذلك. وقال يحيى بن معين: ضعيف. وقال العجلي: جائز الحديث، وكان بآخرة يلقن. وقال أبو زرعة: لين يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي. وقال الجوزجاني: سمعتهم يضعفون حديثه. وقال أبو داود: لا أعلم أحداً ترك حديثه وغيره أحب إلي منه. وقال ابن عدي: هو من شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه. وروى له مسلم لكن مقروناً بغيره. وبالجملة فالأكثرون على ضعفه. وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد اللّه وهو حديث الرايات. وقال وكيع بن الجراح فيه: ليس بشيء. وكذلك قال أحمد بن حنبل وقال أبو قدامة: سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات: لو حلف عندي خمسين يميناً قسامة ما صدقته، أهذا مذهب إبراهيم؟ أهذا مذهب علقمة؟ أهذا مذهب عبد اللّه؟ وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي: ليس بصحيح.

وخرج ابن ماجه عن علي رضي اللّه عنه من رواية ياسين العجلي، عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول اللّه ﷺ: «المهدي منا أهل البيت يصلح اللّه به في ليلة».

وياسين العجلي وإن قال فيه ابن معين: ليس به بأس فقد قال البخاري: فيه نظر. وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جداً. وأورد له ابن عدي في «الكامل» والذهبي في «الميزان» هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال: هو معروف به.

وخرج الطبراني في «معجمه الأوسط» عن علي رضي اللّه عنه أنه قال للنبي ﷺ: أمنا المهدي أم من غيرنا يا رسول اللّه؟ فقال: «بل منا، بنا يختم اللّه كما بنا فتح، وبنا يستنقذون من الشرك وبنا يؤلف اللّه بين قلوبهم بعد عداوة بينة، كما بنا ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك». قال علي: أمؤمنون أم كافرون؟ قال: «مفتون وكافر» انتهى.

وفيه عبد اللّه بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال. وفيه عمرو بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه. قال أحمد بن حنبل: روى عن جابر مناكير وبلغني أنه كان يكذب، وقال النسائي: ليس بثقة وقال: كان ابن لهيعة شيخاً أحمق ضعيف العقل وكان يقول: علي في السحاب، وكان يجلس معنا فيبصر سحابة فيقول: هذا علي قد مر في السحاب.

وخرج الطبراني عن علي رضي اللّه تعالى عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المعدن، فلا تسبوا أهل الشام ولكن سبوا أشرارهم، فإن فيهم الأبدال يوشك أن يرسل على أهل الشام صيب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم، فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات - المكثر يقول هم خمسة عشر ألفاً والمقلل يقول: هم اثنا عشر ألفاً وأمارتهم «أمت أمت» يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم اللّه جميعاً ويرد اللّه إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم وقاصيتهم ورايتهم». اهـ

وفيه عبد اللّه بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال. ورواه الحاكم في «المستدرك» وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه في روايته ثم يظهر الهاشمي «فيرد اللّه الناس إلى ألفتهم.... الخ» وليس في طريقه ابن لهيعة وهو إسناد صحيح كما ذكر.

وخرج الحاكم في «المستدرك» عن علي رضي اللّه عنه من رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال: كنا عند علي رضي اللّه عنه فسأله رجل عن المهدي فقال علي: هيهات ثم عقد بيده سبعاً فقال: ذلك يخرج في آخر الزمان إذا قال الرجل: اللّه اللّه قتل، ويجمع اللّه له قوماً قزعاً، كقزع السحاب يؤلف اللّه بين قلوبهم فلا يستوحشون إلى أحد ولا يفرحون بأحد دخل فيهم، عدتهم على عدة أهل بدر لم يسبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون، وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر. قال أبو الطفيل: قال ابن الحنفية: أتريده؟ قلت: نعم! قال: فإنه يخرج من بين هذين الأخشبين قلت: لا جرم واللّه ولا أدعها حتى أموت. ومات بها يعني مكة، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. انتهى.

وإنما هو على شرط مسلم فقط، فإن فيه عماراً الذهني ويونس بن أبي إسحاق ولم يخرج لهما البخاري وفيه عمرو بن محمد العنقزي ولم يخرج له البخاري احتجاجاً بل استشهاداً مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمار الذُهني وهو وإن وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم النسائي وغيرهم، فقد قال علي بن المديني عن سفيان: أن بشر بن مروان قطع عرقوبيه، قلت: في أي شيء؟ قال: في التشيع.

وخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر، عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة بن عمار، عن إسحاق بن عبد اللّه، عن أنس قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي». انتهى.

وعكرمة بن عمار وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج له متابعة. وقد ضعفه بعض ووثقه آخرون، وقال أبو حاتم الرازي: هو مدلس فلا يقبل إلى أن يصرح بالسماع وعلي بن زياد. قال الذهبي في «الميزان»: لا ندري من هو، ثم قال: الصواب فيه عبد اللّه بن زياد، وسعد بن عبد الحميد - وإن وثقه يعقوب بن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن معين: ليس به بأس - فقد تكلم فيه الثوري قالوا: لأنه رآه يفتي في مسائل ويخطىء فيها. وقال ابن حبان: كان ممن فحش غلطه فلا يحتج فيه. وقال أحمد بن حنبل: سعد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو ههنا ببغداد لم يحج فكيف سمعها؟ وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه.

وخرج الحاكم في «مستدركه» من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفاً عليه، قال مجاهد: قال لي ابن عباس: لو لم أسمع

أنك مثل أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال: فقال مجاهد: فإنه في ستر لا أذكره لمن يكره! قال فقال ابن عباس: منا أهل البيت أربعة! منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي، قال: فقال مجاهد: بين لي هؤلاء الأربعة. فقال ابن عباس: أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه، وأما المنذر أراه قال: فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاظم في نفسه ويمسك القليل من حقه، وأما المنصور فإنه يعطي النصر على عدوه الشطر مما كان يعطي رسول الله ﷺ ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر، وأما المهدي فإنه الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وتأمن البهائم السباع وتلقي الأرض أفلاذ كبدها. قال: قلت: وما أفلاذ كبدها؟ قال: أمثال الإسطوانة من الذهب والفضة.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه؛ وإسماعيل ضعيف، وإبراهيم أبوه وإن خرج له مسلم فالأكثرون على تضعيفه. اهـ

وخرج ابن ماجه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلاً لم يقتله قوم» ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قال: «فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي». اهـ

ورجاله رجال الصحيحين إلا أن فيه أبا قلابة الجرمي. وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس وفيه سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس، وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل؛ وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهوراً بالتشيع وعمي في آخر وقته فخلط. قال ابن عدي: حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد، ونسبوه إلى التشيع. انتهى.

وخرج ابن ماجه عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي من طريق ابن لهيعة، عن أبي زرعة عمرو بن جابر الحضرمي، عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي». يعني سلطانه. قال الطبراني: تفرد به ابن لهيعة وقد تقدم لنا في حديث علي الذي خرجه الطبراني في «معجمه الأوسط» أن ابن لهيعة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه.

وخرج البزار في «مسنده» والطبراني في «معجمه الأوسط» واللفظ للطبراني عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يكون في أمتي المهدي إن قصر فسبع وإلا فثمان وإلا فتسع، تنعم فيها أمتي نعمة لم ينعموا بمثلها، ترسل السماء عليهم مدراراً ولا تدخر الأرض شيئاً من النبات، والمال كدوس يقوم الرجل يقول: يا مهدي أعطني فيقول: خذ».

قال الطبراني والبزار: تفرد به محمد بن مروان العجلي زاد البزار: ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد وهو وإن وثقه أبو داود وابن حبان أيضاً بما ذكره في الثقات، قال فيه يحيى بن معين: صالح وقال مرة: ليس به بأس فقد اختلفوا فيه. قال أبو زرعة: ليس عندي بذلك، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: رأيت محمد بن مروان العجلي حدث بأحاديث وأنا شاهد لم نكتبها تركتها على عمد وكتب بعض أصحابنا عنه كأنه ضعفه.

وخرج أبو يعلى الموصلي في «مسنده» عن أبي هريرة قال: حدثني خليلي أبو القاسم ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق» قال: قلت وكم يملك؟ قال: خمساً واثنتين قال: قلت وما خمساً واثنتين؟ قال: لا أدري.

وهذا السند وإن كان فيه بشير بن نهيك قال فيه أبو حاتم: لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم يلتفتوا إلى قول أبي حاتم: لا يحتج به إلا أن فيه رجاء ابن أبي رجاء اليشكري وهو مختلف فيه؛ قال أبو زرعة: ثقة وقال يحيى بن معين: ضعيف. وقال أبو داود: ضعيف. وقال مرة: صالح. وعلق له البخاري في «صحيحه» حديثاً واحداً.

وخرج أبو بكر البراز في «مسنده» والطبراني في «معجمه الكبير» و «الأوسط» عن قرة بن إياس قال: قال رسول الله ﷺ: «لتملأن الأرض جوراً وظلماً، فإذا ملئت جوراً وظلماً بعث الله رجلاً من أمتي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، فلا تمنع السماء من قطرها شيئاً ولا تدخر الأرض شيئاً من نباتها، يلبث فيكم سبعاً أو ثمانياً أو تسعاً» يعني سنين. ا هـ.

وفيه داود بن المحبّر بن قحذم عن أبيه وهما ضعيفان جداً.

وخرج الطبراني في «معجمه الأوسط» عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ في نفر من المهاجرين والأنصار وعلي بن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه إذ تلاحى العباس ورجل من الأنصار فأغلظ الأنصاري للعباس، فأخذ النبي ﷺ بيد العباس وبيد علي وقال: «سيخرج من صلب هذا فتى حتى يملأ الأرض جوراً وظلماً وسيخرج من صلب هذا فتىً يملأ الأرض قسطاً وعدلاً،

فإذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التميمي، فإنه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي» انتهى. اهـ

وفيه عبد اللّه بن عمر العمري وعبد اللّه بن لهيعة وهما ضعيفان. اهـ

وخرج الطبراني في «معجمه الأوسط» عن طلحة بن عبد اللّه عن النبي ﷺ قال: «ستكون فتنة لا يسكن منها جانب إلا تشاجر جانب حتى ينادي مناد من السماء أن أميركم فلان». اهـ. وفيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف جداً. وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وإنما ذكروه في أبوابه وترجمته استئناساً.

فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان. وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه.

وربما تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح بن أبي عياش (م)، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «لا مهدي إلا عيسى بن مريم» وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندي: إنه ثقة. وقال البيهقي: تفرد به محمد بن خالد. وقال الحاكم فيه: إنه رجل مجهول واختلف عليه في إسناده: فمرة يروي كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن إدريس الشافعي، ومرة يروي عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. قال البيهقي: فرجع إلى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن أبان بن أبي عياش وهو متروك عن الحسن عن النبي ﷺ وهو منقطع؛ وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب.

وقد قيل في: «أن لا مهدي إلا عيسى» أي لا يتكلم في المهد إلا عيسى يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به أو الجمع بينه وبين الأحاديث وهو مدفوع بحديث جريج ومثله من الخوارق.

وأما المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا، وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والأحوال وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي اللّه تعالى عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي ﷺ والتبري من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبهم، ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم وكثرت التآليف في مذاهبهم. وجاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ، وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم، وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث في المهدي وغيرها.

ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحس، وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم.

وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والأبدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والنقباء. وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم، حتى لقد جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقة أن علياً رضي اللّه عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة. واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم. ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح. ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم اللّه وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم في التشيع وانخراطهم في سلكه.

وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر، وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم من بعض، وكأنه مبني على أصول واهية من الفريقين، وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات وهو من نوع الكلام في الملاحم ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا.

وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي، ابن العربي الحاتمي في كتاب «عنقاء مغرب» وابن قسي في كتاب «خلع النعلين» وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واطيل تلميذه في شرحه لكتاب «خلع النعلين». وأكثر كلماتهم في شأنه ألغاز وأمثال وربما يصرحون في الأقل أو يصرح مفسرو كلامهم.

وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واطيل أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وأنها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبراً وتكبراً وباطلاً.

قالوا: ولما كان في المعهود من سنة اللّه رجوع الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدها والملك بعد الخلافة: هذه ثلاث مراتب. وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد ذلك، فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث المراتب الأولى. قالوا: ولما

كان أمر الخلافة لقريش حكماً شرعياً بالإجماع الذي لا يوهنه إنكار من لم يزاول علمه وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخص من قريش بالنبي ﷺ إما ظاهراً كبني عبد المطلب وإما باطناً ممن كان من حقيقة الآل، والآل من إذا حضر لم يغب من هو آله.

وابن العربي الحاتمي سماه في كتابه «عنقاء مغرب» من تأليفه: خاتم الأولياء وكنى عنه بلبنة الفضة إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال ﷺ: «مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكمله حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لبنة فأنا تلك اللبنة» فيفسرون خاتم النبيين باللبنة حتى أكملت البنيان ومعناه النبي الذي حصلت له النبوّة الكاملة. ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أي حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية، كما كان خاتم الأنبياء حائزاً للمرتبة التي هي خاتمة النبوة. فكنى الشارع عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور.

وهما على نسبة واحدة فيها. فهي لبنة واحدة في التمثيل. ففي النبوّة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبتين كما بين الذهب والفضة. فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي ﷺ ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الأنبياء وهذا خاتم الأولياء.

وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه: وهذا الإمام المنتظر وهو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون من بعد مضي (خ ف ج) من الهجرة ورسم حروفاً ثلاثة يريد عددها بحساب الجمّل وهو الخاء المعجمة بواحدة من فوق ستمائة، والفاء أخت القاف بثمانين، والجيم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة، وذلك ستمائة وثلاث وثمانون سنة وهي في آخر القرن السابع، ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر، حَمَل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدة مولده وعبر بظهوره عن مولده وأن خروجه يكون بعد العشر السبعمائة فإنه الإمام الناجم من ناحيه المغرب.

قال: وإذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستمائة فيكون عمره عند خروجه ستاً وعشرين سنة قال: وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المحمدي وابتداء اليوم المحمدي عندهم من يوم وفاة النبي ﷺ إلى تمام ألف سنة قال ابن أبي واطيل في شرحه كتاب «خلع النعلين» الولي المنتظر القائم بأمر اللّه المشار إليه بمحمد المهدي وخاتم الأولياء وليس هو بنبي وإنما هو ولي ابتعثه روحه وحبيبه. قال ﷺ: «العالم في قومه كالنبي في أمته». وقال: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» ولم تزل البشرى تتابع به من أول اليوم المحمدي إلى قبيل الخمسمائة نصف اليوم وتأكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ بتقريب وقته وازدلاف زمانه منذ انقضت إلى هلم جراً.

قال: وذكر الكندي: أن هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر ويجدد الإسلام ويظهر العدل ويفتح جزيرة الأندلس ويصل إلى رومية فيفتحها ويسير إلى المشرق فيفتحه ويفتح القسطنطينية ويصير له ملك الأرض فيتقوى المسلمون ويعلو الإسلام ويظهر دين الحنيفية، فإن من صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقت صلاة، قال عليه الصلاة والسلام: «ما بين هذين وقت».

وقال الكندي أيضاً: الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتتح بها سور القرآن جملة عددها سبعمائة وثلاث وأربعون وسبع دجالية ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر، فيصلح الدنيا وتمشي الشاة مع الذئب ثم يبقى ملك العجم بعد إسلامهم مع عيسى مائة وستون عاماً عدد حروف المعجم وهي (ق ي ن) دولة العدل منها أربعون عاماً.

قال ابن أبي واطيل: وما ورد من قوله «لا مهدي إلا عيسى» فمعناه: لا مهدي تساوي هدايته ولايته، وقيل: لا يتكلم في المهد إلا عيسى، وهذا مدفوع بحديث جريج وغيره. وقد جاء في الصحيح أنه قال: «لا يزال هذا الأمر قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة يعني قرشياً».

وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الإسلام ومنهم من سيكون في آخره. وقال: الخلافة بعدي ثلاثون أو إحدى وثلاثون أو ست وثلاثون وانقضاؤها في خلافة الحسن وأول أمر معاوية، فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذاً بأوائل الأسماء فهو سادس الخلفاء، وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز. والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله: «إنك لذو قرنيها» يريد الأمة أي إنك لخليفة في أولها وذريتك في آخرها. وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة. فالأول هو المشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها.

وقد قال ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل اللّه» وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل اللّه والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل اللّه هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية: فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش.

كذا قال ﷺ: «ومدة حكمه بضع» والبضع من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر، وجاء ذكر أربعين وفي بعض الروايات سبعين. فأما الأربعون فإنها مدته ومدة الخلفاء الأربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام قال: «وذكر أصحاب النجوم والقرانات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاماً، فيكون الأمر على هذا جارياً على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين، ثم تختلف الأحوال فتكون ملكاً» انتهى كلام ابن أبي واطيل.

وقال في موضع آخر: نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم المحمدي حين تمضي ثلاثة أرباعه قال: وذكر الكندي يعقوب بن إسحاق في كتاب «الجفر» الذي ذكر فيه القرانات: أنه إذا وصل القران إلى الثور على رأس (ضح) بحرفين الضاد المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء اللّه تعالى. قال: وقد ورد في الحديث أن عيسى «ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ينزل بين مهرودتين يعني حلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعاً كفيه على أجنحة الملكين له لمة كأنما خرج من ديماس، إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ كثير خيلان الوجه» وفي حديث آخر: «مربوع الخلق وإلى البياض والحمرة». وفي آخر: «أنه يتزوج في الغرب». والغرب دلو البادية يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته. وذكر وفاته بعد أربعين عاماً. وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن إلى جانب عمر بن الخطاب. وجاء أن أبا بكر وعمر يحشران بين نبيين. قال ابن أبي واطيل: (والشيعة تقول إنه هو المسيح مسيح المسائح من آل محمد.

قلت: وعليه حمل بعض المتصوفة حديث لا مهدي إلا عيسى أي لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ إلى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة فينقضي الزمان ولا أثر لشيء من ذلك فيرجعون إلى تجديد رأي آخر منتحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخييلية وأحكام نجومية في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر.

وأما المتصوفة الذين عاصرناهم فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره لما قرب من عصرنا، فبعضهم يقول: من ولد فاطمة، وبعضهم يطلق القول فيه: سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافده صاحبنا أبو يحيى زكرياء عن أبيه أبي محمد عبد اللّه عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور.

هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا.

والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر اللّه فيه. وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبيين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر وهم منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون آلافاً من الكثرة، فإن صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم ويؤلف اللّه بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحمل الناس عليها، وأما على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرد نسبة في أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة.

وأما ما تدعيه العامة والأغمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يفيده فيتحينون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليداً لما اشتهر من ظهور فاطمي ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه، وأكثر ما يتحينون في ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران مثل الزاب بإفريقية والسوس من المغرب. ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطاً بماسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم أنه منهم أو قائمون بدعوته زعماً لا مستند لهم إلا غرابة تلك الأمم وبعدهم عن يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أو قلة أو ضعف أو قوة، ولبعد القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها، فتقوى عندهم الأوهام في ظهوره هناك بخروجه عن ربقة الدولة ومنال الأحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك إلا هذا. وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة يميه تمامها وسواساً وحمقاً وقتل كثير منهم.

أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي قال: خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتويزري نسبة إلى توزر مصغراً

وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم، فدس عليه السكسوي من قتله بياتاً وانحل أمره.

وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمي واتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارتحل إلى بلد المزمة، فقتل بها غيلة ولم يتم أمره. وكثير من هذا النمط.

وأخبرني شيخنا المذكور بغريبةٍ في مثل هذا وهو أنه صحب في حجه في رباط العباد وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلمسان المطل عليها رجلاً من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعاً معظماً كثير التلميذ والخادم. قال: وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان. قال وتأكدت الصحبة بيننا في ذلك الطريق فانكشف لي أمرهم وأنهم إنما جاؤوا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب. فلما عاين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل لتلمسان قال لأصحابه: ارجعوا فقد أزرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا. ويدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر في أن الأمر لا يتم إلا بالعصبية المكافئة لأهل الوقت، فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وأن عصبية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب استكان ورجع إلى الحق وأقصر عن مطامعه. وبقي عليه أن يستيقن أن عصبية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لا سيما في المغرب إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره، وإنما ينزع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه، وأكثر ما يعنون بإصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الأعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا إلا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم، لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم وإقبالهم إلى مناحي الديانة غير ذلك؛ لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة ومنها توبتهم. فتجد تابع ذلك المنتحل للدعوة القائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع إنما دينهم الإعراض عن النهب والبغي وإفساد السابلة ثم الإقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم. وشتان بين طلب هذا الأجر في صلاح الخلق وبين طلب الدنيا، فاتفاقهما ممتنع لا تستحكم لهم صبغة في الدين ولا يكمل لهم نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثرون.

ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه، فإذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم، وقد وقع ذلك بإفريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلّم، وكان يسمى سعادة وكان أشد ديناً من الأول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح؛ وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها إلا الأقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم. انتهى.

الفصل الثالث والخمسون

في حدثان الدول والأمم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوف إلى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا ومعرفة مدد الدول، أو تفاوتها والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام والأخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة، ولقد نجد في المدن صنفاً من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة، وأمثال ذلك ما بين خطٍّ في الرمل ويسمونه المنجم، وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل وهو من المنكرات الفاشية في الأمصار لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية.

وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك في آماد دولتهم؛ ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه، وكل أمة من الأمم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من

ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لأسمائهم ويسمى مثل ذلك الحدثان.

وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون إليهم في ذلك وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة كما وقع لشق وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن، أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها إليهم ثم ظهر الملك والدولة للعرب من بعد ذلك، وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبذان حيث بعث إليه كسرى بها مع عبد المسيح وأخبرهم بظهور دولة العرب. وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن ويقال: من غمرة له كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم، وفيها حدثان كثير ومعظمه فيما يكون لزناتة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجيل وهم يزعمون تارة أنه ولي وتارة أنه كاهن، وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبياً؛ لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير، واللّه أعلم.

وقد يستند الجيل في ذلك إلى خبر الأنبياء إن كان لعهدهم كما وقع لبني إسرائيل، فإن أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عندما يعنونهم في السؤال عنه.

وأما في الدولة الإسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع إلى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيما يرجع إلى الدولة وأعمارها على الخصوص، وكان المعتمد في ذلك في صدر الإسلام آثار منقولة عن الصحابة وخصوصاً مسلمة بني إسرائيل مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما، وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة.

ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من ذلك مستندهم فيه واللّه أعلم الكشف بما كانوا عليه من الولاية، وإذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الأولياء في ذويهم وأعقابهم وقد قال ﷺ: «إن فيكم محدثين» فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة. وأما بعد صدر الملة وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء إلى اللسان العربي. فأكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الأمور العامة من القرانات وفي المواليد والمسائل وسائر الأمور الخاصة من الطوالع لها وهي شكل الفلك عند حدوثها، فلنذكر الآن ما وقع لأهل الأثر في ذلك ثم نرجع إلى كلام المنجمين. أما أهل الأثر فلهم في مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي فإنه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة ونقض ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك دليلاً. وسره واللّه أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السماوات والأرض وهي سبعة ثم اليوم بألف سنة لقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: وقد ثبت في «الصحيحين»: أن رسول اللّه ﷺ قال: «أجلكم في أجل من كان قبلهم من صلاة العصر إلى غروب الشمس» وقال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع، وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة.

ويؤيده قوله ﷺ: «لن يعجز اللّه أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم» فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة.

وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعني الماضي، وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة.

قال السهيلي: وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه.

فأما قوله: «لن يعجز اللّه أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم» فلا يقتضي نفي الزيادة على النصف، وأما قوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين» فإنما فيه الإشارة إلى القرب، وأنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه.

ثم رجع السهيلي إلى تعيين أمد الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق، وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر قال: وهي أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك (ألم يسطع نص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجمّل فكان سبعمائة وثلاثة أضافه إلى المنقضي من الألف الآخر قبل بعثه، فهذه هي مدة الملة قال: ولا يبعد ذلك أن يكون من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها.

قلت: وكونه لا يبعد لا يقتضي ظهوره ولا التعويل عليه.

والذي حمل السهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في كتاب «السير» لابن إسحاق في حديث ابني أخطب من أحبار اليهود وهما أبو ياسر وأخوه حي حين سمعا من الأحرف المقطعة ﴿الم﴾ وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب فبلغت إحدى وسبعين فاستقلا المدة وجاء حي إلى النبي ﷺ يسأله: هل مع هذا غيره؟ قال ﴿المص﴾ ثم استزاد ﴿الر﴾ ثم استزاد ﴿المر﴾ فكانت إحدى

وسبعين ومائتين فاستطال المدة وقال: قد لبس علينا أمرك يا محمد! حتى لا ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً، ثم ذهبوا عنه وقال لهم أبو ياسر: ما يدريكم لعله أعطي عددها كلها تسعمائة وأربع سنين؛ قال ابن إسحاق: فنزل قولة تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. اهـ.

ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد؛ لأن دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل، نعم إنه قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس أبو ياسر وأخوة حي ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلاً ولا من علماء اليهود، لأنهم كانوا بادية بالحجاز غفلاً من الصنائع والعلوم حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم، وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة فلا ينهض للسهيلي دليل على ما ادعاه من ذلك.

ووقع في الملة في حدثان دولتها على الخصوص مسند من الأثر إجمالي في حديث خرجه أبو داود عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذُهلي، عن سعيد بن أبي مريم، عن عبد الله بن فروخ، عن أسامة بن زيد الليثي، عن أبي قبيصة بن ذؤيب، عن أبيه قال: قال حذيفة بن اليمان: والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته. وسكت عليه أبو داود، وقد تقدم أنه قال في «رسالته» ما سكت عليه في كتابه فهو صالح وهذا الحديث إذا كان صحيحاً فهو مجمل ويفتقر في بيان إجماله وتعيين مبهماته إلى آثار أخرى يجود أسانيدها. وقد وقع إسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع في «الصحيحين» من حديث حذيفة أيضاً قال: قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذاك إلى قيام الساعة إلا حدث عنه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه أصحابه هؤلاء. ا هـ

ولفظ البخاري: ما ترك شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره. وفي كتاب الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً صلاة العصر بنهار ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه. ا هـ

وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين من أحاديث الفتن والأشراط لا غير؛ لأنه المعهود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه في أمثال هذه العمومات. وهذه الزيادة التي تفرد بها أبو داود في هذا الطريق شاذة منكرة مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله فقال ابن أبي مريم في ابن فروخ: أحاديثه مناكير. وقال البخاري: يعرف منه وينكر، وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد وإن خرج له في الصحيحين وثقه ابن معين، فإنما خرج له البخاري استشهاداً وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل وقال ابو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به. وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول. فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر.

وقد يستندون في حدثان الدول على الخصوص إلى كتاب «الجفر» ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده.

واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلي -وهو رأس الزيدية- كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص، وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء، وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هارون العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب عليه؛ لأن الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق. وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات، وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول، وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف. وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علماً وديناً وآثاراً من النبوة وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة، وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب إلى أحد وفي أخبار دولة العبيديين كثير منه، وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب وما حدثاه به وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعيتهم باليمن فأمره بالخروج إلى المغرب وبث الدعوة فيه على علم لقنه أن دعوته تتم هناك، وأن عبيد الله لما بنى المهدية بعد استفحال دولتهم بإفريقية قال: بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار. وأراهم موقف صاحب الحمار بساحتها، وبلغ هذا الخبر حافده إسماعيل المنصور؛ فلما حاصره صاحب

الحمار أبو يزيد بالمهدية كان يسأل عن منتهى موقفه حتى جاءه الخبر ببلوغه إلى المكان الذي عينه جده عبيد الله، فأيقن بالظفر وبرز من البلد فهزمه واتبعه إلى ناحية الزاب فظفر به وقتله؛ ومثل هذه الأخبار عندهم كثيرة.

التنجيم:

وأما المنجمون فيستندون في حدثان الدول إلى الأحكام النجومية، أما في الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرانات وخصوصاً بين العلويَّين، وذلك أن العلويَّين زحل والمشتري يقترنان في كل عشرين سنة مرة ثم يعود القران إلى برج آخر في تلك المثلثة من التثليث الأيمن ثم بعده إلى آخر كذلك إلى أن يتكرر في المثلثة الواحدة اثنتي عشرة مرة تستوي بروجه الثلاثة في ستين سنة، ثم يعود فيستوي بها في ستين سنة ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوي في المثلثة باثنتي عشرة مرة وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة ويكون انتقاله في كل برج على التثليث الأيمن ويتقل من المثلثة إلى المثلثة التي تليها، أعني البرج الذي يلي البرج الأخير من القران الذي قبلة في المثلثة، وهذا القران الذي هو قران العلويين ينقسم إلى كبير وصغير ووسط، فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك إلى أن يعود إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط هو اقتران العلويين في كل مثلثة اثنتي عشرة مرة وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى، والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج وبعد عشرين سنة يقترنان في برج آخر على تثليثه الأيمن في مثل درجه أو دقائقه.

مثال ذلك وقع القران أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الأسد وهذه كلها نارية، وهذا كله قران صغير، ثم يعود إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران، وعود القران وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها وهذا قران وسط ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية ثم يرجع إلى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو الكبير، والقران الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم إلى قوم، والوسط على ظهور المتغلبين والطالبين للملك، والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها، ويقع أثناء هذه القرانات قران النحسين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع، وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ فتعظم دلالة هذا القران في الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرانهما على قدر تيسير الدليل فيه.

قال جراس بن أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك. ورجوع المريخ إلى العقرب له أثر عظيم في الملة الإسلامية، لأنه كان دليلها، فالمولد النبوي كان عند قران العلويين ببرج العقرب، فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم وربما انهدم بعض بيوت العبادة وقد يقال: إنه كان عند قتل علي رضي الله عنه ومروان من بني أمية والمتوكل من بني العباس، فإذا روعيت هذه الأحكام مع أحكام القرانات كانت في غاية الإحكام.

وذكر شاذان البلخي: أن الملة تنتهي إلى ثلاثمائة وعشرين. وقد ظهر كذب هذا القول. وقال أبو معشر: يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير؛ ولم يصح ذلك. وقال جراس: رأيت في كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم. وأن دليلهم الزهرة وكانت في شرفها فيبقى الملك فيهم أربعين سنة، وقال أبو معشر في كتاب القرانات: القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت، ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين، وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال الزهرة ووقوع القسمة أول الحمل وصاحب الجد المشتري.

وقال يعقوب بن إسحاق الكندي: إن مدة الملة تنتهي إلى ستمائة وثلاث وتسعين سنة. قال: لأن الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت، فالباقي إحدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثاً وتسعين سنة. قال: وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء؛ ويعضده الحروف الواقعة في أول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل.

قلت: وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه.

قال جراس: سأل هرمز إفريد الحكيم عن مدة أردشير وولده وملوك الساسانية فقال: دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطى أطول السنين وأجودها أربعمائة وسبعاً وعشرين سنة، ثم تزيد الزهرة وتكون في شرفها وهي دليل العرب فيملكون؛ لأن طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في شرفها،

فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة.

وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته ويملك المشرق والمغرب، والمشتري يغوص إلى الزهرة وينتقل القران من الهوائية إلى العقرب وهو مائي وهو دليل العرب، فهذه الأدلة تفضي للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة.

وسأل كسرى أبرويز أليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجمهر. وقال توفيل الرومي المنجم في أيام بني أمية: إن ملة الإسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة، فإذا عاد القران إلى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة فحينئذ إما أن يفتر العمل به أو يتجدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن.

قال جراس: واتفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر المكونات، وذلك عندما يقطع قلب الأسد أربعاً وعشرين درجة التي هي حد المريخ، وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة.

وذكر جراس: أن ملك زابلستان بعث إلى المأمون بحكيمه ذوبان أتحفه به في هدية وأنه تصرف للمأمون في الاختيارات بحروب أخيه وبعقد اللواء لطاهر، وأن المأمون أعظم حكمته فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه، وأن العجم يتغلبون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين، ويكون ما يريده اللّه ثم يسوء حالهم، ثم تظهر الترك من شمال المشرق فيملكونه إلى الشام والفرات وسيحون وسيملكون بلاد الروم ويكون ما يريده اللّه، فقال له المأمون: من أين لك هذا؟ فقال: من كتب الحكماء ومن أحكام صصة بن داهر الهندي الذي وضع الشطرنج.

قلت: والترك الذين أشار إلى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع.

قال جراس: وانتقال القران إلى المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليزدجرد وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين. قال: والذي في الحوت هو أول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة. قال: وتحويل السنة الأولى من القران الأول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة ولم يستوف الكلام على ذلك.

وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص فمن القران الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه؛ لأن له دلالة عندهم على حدوث الدولة وجهاتها من العمران القائمين بها من الأمم وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحلهم وأديانهم وعوائدهم وحروبهم كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرانات، وقد توجد هذه الدلالة من القران الأصغر إذا كان الأوسط دالاً عليه، فمن هذا يوجد الكلام في الدول.

وقد كان يعقوب بن إسحاق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرانات الكائنة في الملة كتاباً سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة بني العباس وأنها نهايته، وأشار إلى انقراضها والحادثة على بغداد أنها تقع في انتصاف المائة السابعة وأنه بانقراضها يكون انقراض الملة، ولم نقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلاكو ملك التتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء، وقد وقع بالمغرب جزء منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير، والظاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن لذكر الأولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثانه وكذب ما بعده.

وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحدثان، وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بديل من أصحاب صنائع الدولة، قال: بعث إلي الربيع والحسن في غزاتهما مع الرشيد أيام أبيه فجئتهما جوف الليل فإذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان، وإذا مدة المهدي فيه عشر سنين فقلت: هذا الكتاب لا يخفى على المهدي وقد مضى من دولته ما مضى فإذا وقف عليه كنتم قد نعيتم إليه نفسه. قالا: فما الحيلة؟ فاستدعيت عنبسة الوراق مولى آل بديل وقلت له: انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشر أربعين ففعل، فواللّه لولا أني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشك أنها، هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظوماً ومنثوراً ورجزاً ما شاء اللّه أن يكتبوه وبأيدي الناس متفرقة كثير منها وتسمى الملاحم. وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة إلى مشاهير من أهل الخليقة وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه.

الملاحم:

فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل

على روي الراء وهي متداولة بين الناس، وتحسب العامة أنها من الحدثان العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل، والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونه؛ لأن الرجل كان قبيل دولتهم وذكر فيها استيلاءهم على سبتة من يد موالي بني حمود وملكهم لعدوة الأندلس، ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضاً قصيدة تسمى التُّبعية أولها:

طربت وما ذاك مني طرب وقد يطرب الطائر المغتصب
وما ذاك مني للهو أراه ولكن لتذكار بعض السبب

قريباً من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال، ذكر فيها كثيراً من دولة الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمي وغيره والظاهر أنها مصنوعة.

ومن الملاحم بالمغرب أيضاً ملعبة من الشعر الزجلي منسوبة لبعض اليهود، ذكر فيها أحكام القرانات لعصره العُلْويَّين والنَّحسيْن وغيرهما وذكر ميتته قتيلاً بفاس وكان كذلك فيما زعموه وأوله:

في صبغ ذا الأزرق لشرفه خيارا فافهموا يا قوم هذي الإشارا
نجم زحل أخبر بذي العلاما وبدل الشكلا وهي سلاما
شاشية زرقا بدل العماما وشاش أزرق بدل الغرارا

يقول في آخره:

قد تم ذا التجنيس لإنسان يهودي يصلب ببلدة فاس في يوم عيد
حتى يجيه الناس من البوادي وقتله يا قوم على الفراد

وأبياته نحو الخمسمائة وهي في القرانات التي دلت على دولة الموحدين.

ومن ملاحم المغرب أيضاً قصيدة من عروض المتقارب على روي الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الأبار.

وقال لي قاضي قسنطينة الخطيب الكبير أبو علي بن باديس وكان بصيراً بما يقوله، وله قدم في التنجيم فقال لي: إن هذا ابن الأبار ليس هو الحافظ الأندلسي الكاتب مقتول المستنصر، وإنما هو رجل خياط من أهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ، وكان والدي رحمه الله تعالى ينشد هذه الأبيات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطلعها:

عذيري من زمن قلَّب يغر ببارقه الأشنب

ومنها:

ويبعث من جيشه قائداً ويبقى هناك على مرقب
فتأتي إلى الشيخ أخباره فيقبل كالجمل الأجرب
ويظهر من عدله سيرة وتلك سياسة مستجلب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم:

فاما رأيت الرسوم امحت ولم يرع حق لذي منصب
فخذ في الترحل عن تونس وودع معالمها واذهب
فسوف تكون بها فتنة تضيف البريء إلى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بني أبي حفص هؤلاء بتونس فيها بعد السلطان أبي يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها: وبعد أبي عبد الإله شقيقه، ويعرف بالوثاب في نسخة الأصل. إلا أن هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه وكان يمني بذلك نفسه إلى أن هلك

ومن الملاحم في المغرب أيضاً الملعبة المنسوبة إلى الهوشني على لغة العامة في عروض البلد التي أولها:

دعني بدمعي الهتان فترت الأمطار ولم تفتر
واستقت كلها الويدان وأنى تملى وتنغدر
البلاد كلها تروي فأولى ما ميل ما تدري
ما بين الصيف والشتوي والعام والربيع تجري
قال حين صحت الدعوى دعني نبكي ومن عذر
أنادي من ذي الأزمان ذا القرن اشتد وتمري

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الأقصى والغالب عليها الوضع؛ لأنه لم يصح منها قول إلا على تأويل تحرفه العامة أو الحارف فيه من ينتحلها من الخاصة.

ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي الحاتمي في كلام طويل شبه ألغاز لا يعلم تأويله إلا اللّه لتخلله أوفاق عددية ورموز ملغوزة وأشكال حيوانات تامه ورؤوس مقطعة وتماثيل من حيوانات غريبة، وفي آخرها قصيدة على روي اللام والغالب أنها كلها غير صحيحة لأنها لم تنشأ عن أصل علمي من نجامة ولا غيرها.

وسمعت أيضاً أن هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سيناء وابن عقب وليس في شيء منها دليل على الصحة؛ لأن ذلك إنما يؤخذ من القرانات.

ووقفت بالمشرق أيضاً على ملحمة من حدثان دولة الترك منسوبة إلى رجل من الصوفية يسمى الباجريقي وكلها ألغاز بالحروف أولها:

إن شئت تكسف سر الجفر يا سائلي من علم جفر وصي والد الحسن
فافهم وكن واعياً حرفاً وجملته والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن
أما الذي قبل عصري لست أذكره لكنني أذكر الآتي من الزمن

بشهر بيبرس يبقى بعد خمستها بحاء ميم بطيش نام في الكنن
شين له أثر من تحت سرته له القضاء قضى أي ذلك المنن
فمصر والشام مع أرض العراق له وأذربيجان في ملك إلى اليمن

ومنها:

وآل بوران لما نال طاهرهم الفاتك الباتك المعني بالسمن
لخلع سين ضعيف السن سين أتى لا لو فاق ونون ذي قرن
قوم شجاع له عقل ومشورة يبقى بحاء وأين بعد ذو سمن

ومنها:

من بعد باء من الأعوام قتلته يلي المشورة ميم الملك ذو اللسن

ومنها:

هذا هو الأعرج الكلبي فاعن به في عصره فتن ناهيك من فتن
يأتي من الشرق في جيش يقدمهم عار عن القاف قاف جد بالفتن
بقتل دال ومثل الشام أجمعها أبدت بشجو على الأهلين والوطن
إذا أتى زلزلت يا ويح مصر من الزلزال ما زال حاء غير مقتطن
طاء وظاء وعين كلهم حبسوا هلكاً وينفق أموالاً بلا ثمن
يسير القاف قافاً عند جمعهم هون به إن ذاك الحصن في سكن
وينصبون أخاه وهو صالحهم لا سلم الألف سين لذاك بني
تمت ولايتهم بالحاء لا أحد من السنين يداني الملك في الزمن

ويقال: إنه أشار إلى الملك الظاهر وقدوم أبيه عليه بمصر:

يأتي إليه أبوه بعد هجرته وطول غيبته والشطف والزرن

وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعتها كان في القديم كثير أو معروف الانتحال.

حكى المؤرخون لأخبار بغداد: أنه كان بها أيام المقتدر وراق ذكي يعرف بالدينالي يبل الأوراق ويكتب فيها بخط عتيق، يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم، ويحصل على ما يريده منهم من الدنيا، وأنه وضع في بعض دفاتره ميماً مكررة ثلاث مرات وجاء به إلى مفلح مولى المقتدر- وكان عظيماً في الدولة -. فقال له: هذا كناية عنك؛ وهو مفلح مولى المقتدر ميم في كل واحدة، وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه مما يناله من الدولة، ونصب لذلك علامات من أحواله المتعارفة موه بها عليه، فبذل له ما أغناه به، ثم وضعه للوزير الحسن بن القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان معزولا فجاءه بأوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف وبعلامات ذكرها وأنه يلي الوزارة للثامن عشر من الخلفاء وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعداء وتعمر الدنيا في أيامه، وأوقف مفلحاً هذا على الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه إلى دانيال فأعجب به مفلح. ووقف عليه المقتدر واهتدى من تلك الأمور والعلامات إلى ابن وهب، وكان ذلك سبباً لوزارته بمثل هذه الحيلة العريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الألغاز، والظاهر أن هذه الملحمة التي ينسبونها إلى الباجريقي من هذا النوع.

ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب إليه من الصوفية وهو الباجريقي وكان عارفاً بطرائقهم فقال: كان من القلندرية المبتدعة في حلق اللحية وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف، ويومي إلى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم، وربما يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه، وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو أمر ممتنع إذ الرمز إنما يهدي إلى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له، وأما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزه، فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان في النفس من أمر هذه الملحمة ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الباب الرابع

في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق

الفصل الأول

في أن الدول أقدم من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك

وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها، وأيضاً فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير، وهي موضوعة للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها اضطراراً، بل لا بد من إكراههم على ذلك وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك أو مرغبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة. فلا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك.

ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها، فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت، وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها.

ذكر الخطيب في «تاريخه» أن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام، وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران، وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الإسلامية وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد.

وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة: فإما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائماً، فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال؛ لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون، وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها، فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً إلى أن يبذعر ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه، وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قراراً وكرسياً يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرانها عمراً آخر، كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثاني

في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وذلك أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين:

أحدهما: ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وحط الأثقال واستكمال ما كان ناقصاً من أمور العمران في البدو.

والثاني: دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين؛ لأن المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذي سموا إليه من أيديهم، فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم. ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة، والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا عظيم شوكة؛ لأن الشوكة والعصابة إنما احتيج إليهما في الحرب للثبات لما يقع من بعد كرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالجدران فلا يضطرون إلى كبير عصابة ولا عدد، فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يفت في عضد الأمة التي تروم الاستيلاء

ويخضد شوكة استيلائها، فإذا كانت بين أجنابهم أمصار انتظموها في استيلائهم للأمن من مثل هذا الانخرام، وإن لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولاً وحط أثقالهم وليكون شجاً في حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم، فتعين أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار والاستيلاء عليها، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل الثالث

في أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وأنها تكون على نسبتها، وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم، فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها، وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخّال وغيره، وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب إنما كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين فيتخيل لهم أجساماً تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القُدَر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية.

وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الأجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عياناً، وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبةً إلى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قُدَرهم. وليس كذلك، فقد نجد آثاراً كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كإيوان كسرى ومباني العبيديين من الشيعة بإفريقية والصنهاجيين وأثرهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد، وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح ورباط السلطان أبي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بإزاء تلمسان، وكذلك الحنايا التي جلب إليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة أيضاً لهذا العهد، وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها قريباً وبعيداً وتيقناً أنهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم، وإنما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة. ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة إلى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها على المتعاهد، وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى أنهم ليزعمون أن عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طرياً فيشويه في الشمس، يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء، وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة وإنما هي كوكب مضيء لا مزاج له، وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها. والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد.

الفصل الرابع

في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القدر البشرية، وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه، فيحتاج إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى أن تتم.

فيبتدئ الأول منهم بالبناء، ويعقبه الثاني والثالث، وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي، حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلاً للعيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة.

وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مارب، وأن الذي بناه سبأ بن يشجب وساق إليه سبعين وادياً، وعاقه الموت عن إتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده.

ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العادية، وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها، ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع في اختطاطها وتأسيسها، فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها. ويشهد لذلك أيضاً أنا نجد آثاراً كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع أن

الهدم أيسر من البناء بكثير؛ لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم، والبناء على خلاف الأصل.

فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسسته مفرطة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة، وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما اعتزم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشيره في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلاً يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل فاتهمه في النصيحة وقال: أخذته النعرة للعجم والله لأصرعنه. وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار وصب عليه الخل حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث إلى يحيى يستشيره ثانياً في التجافي عن الهدم فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك لئلا يقال: عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم؛ فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه.

وكذلك اتفق للمأمون في هدم الأهرام التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في نقبه فانتهوا إلى جو بين الحائط والظاهر وما بعده من الحيطان، وهنالك كان منتهى هدمهم وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم الزاعمون أنه وجد ركازاً بين تلك الحيطان، والله أعلم.

وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم وتستجيد الصناع حجارة تلك الحنايا، فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عصب الريق، وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها في أيام صباي كثيراً ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الفصل الخامس

فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة

اعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك القرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها، فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعاً سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها.

ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض. فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو لمناقع متعفنة أو لمروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد. والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب. وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقية، فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمّ العفن بوجه. ولقد يقال: إن ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل، ونقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس مختوم بالرصاص. فلما فض ختانه صعد منه دخان إلى الجو وانقطع. وكان ذلك مبدأ أمراض الحميات فيه وأراد بذلك أن الإناء كان مشتملاً على بعض أعمال الطلمسات لوبائه، وأنه ذهب سره بذهابه فرجع إليها العفن والوباء.

وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة، والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرقه فنقله كما سمعه.

والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهيئها لتعفين الأجسام وأمراض الحميات ركودها. فإذا تخللتها الريح وتفشت وذهبت بها يميناً وشمالاً خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات.

والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد، ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتموج، وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه وبقي ساكناً راكداً وعظم عفنه وكثر ضرره. وبلد قابس هذه كانت عندما كانت إفريقية مستجدة العمران كثيرة الساكن تموج بأهلها موجاً، فكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض، وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض. فهذا وجهه لا غير.

وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولاً قليلة الساكن، فكانت أمراضها كثيرة فلما كثر سكانها انتقل حالها عن ذلك، وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا

العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم، فتفهمه تجد ما قلته لك.

وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور:

منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرة، فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة.

ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى، فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده.

ومما يراعى أيضاً المزارع، فإن الزروع هي الأقوات. فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ. والخشب أيضاً ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم.

وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول، وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو إليه ضرورة الساكن. وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وإفريقية فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح، ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها، ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية.

ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريخاً للمدينة متى طرقها طارق من العدو، والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها وتحيّفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها. وأن الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة. وهذه كالإسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا.

ومتى كانت القبائل والعصائب موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنعير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها، كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريخها كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها، فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية، مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وإفريقية. وإنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك -والله أعلم- كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة، والله تعالى أعلم.

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضل من الأرض بقاعاً اختصها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمي بها الأجور، وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفاً بعباده وتسهيلاً لطرق السعادة لهم.

وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت في «الصحيحين» وهي مكة والمدينة وبيت المقدس.

أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه. أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج إليه فبناه هو وابنه إسماعيل كما نصه القرآن وقام بما أمره الله فيه، وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه.

وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام. أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق عليه السلام حواليه.

والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامة عليه أمره الله تعالى بالهجرة إليها وإقامة دين الإسلام بها، فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحده الشريف في تربتها.

فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم، وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف، فلنشر إلى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها في العالم.

فأما مكة فأوليتها -فيما يقال- أن آدم صلوات اللّه عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك، وليس فيه خبر صحيح يعول عليه. وإنما اقتبسوه من مجمل الآية في قوله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ ثم بعث اللّه إبراهيم وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف، وأوحى اللّه إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما، وكيف جعل اللّه لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما حتى احتملوهما وسكنوا إليهما، كما ونزلوا معهما حوالي زمزم كما عرف في موضعه، فاتخذ إسماعيل بموضع الكعبة بيتاً يأوي إليه وأدار عليه سياجاً من الردم وجعله زرباً لغنمه، وجاء إبراهيم صلوات اللّه عليه مراراً لزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه إسماعيل ودعا الناس إلى حجه، وبقي إسماعيل ساكناً به، ولما قبضت أمه هاجر وقام بنوه من بعده بأمر البيت مع أخوالهم من جرهم ثم العماليق من بعدهم، واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون إليها من كل أفق من جميع أهل الخليقة لا من بني إسماعيل ولا من غيرهم ممن دنا أو نأى، فقد نقل أن التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه وأن تبعاً كساها الملاء والوصائل وأمر بتطهيرها وجعل لها مفتاحاً.

ونقل أيضاً أن الفرس كانت تحجه وتقرب إليه وأن غزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم كانا من قرابينهم. ولم يزل لجرهم الولاية عليه من بعد ولد إسماعيل من قبل خؤولتهم حتى إذا خرجت خزاعة وأقاموا بها بعدهم ما شاء اللّه. ثم كثر ولد إسماعيل وانتشروا وتشعبوا إلى كنانة ثم كنانة إلى قريش وغيرهم وساءت ولاية خزاعة، فغلبتهم قريش على أمره وأخرجوهم من البيت وملكوا عليهم يومئذ قصي بن كلاب فبنى البيت وسقفه بخشب الدوم وجريد النخل وقال الأعشى:

خلفت بثوبي راهب الدور والتي بناها قصي والمضاض بن جرهم

ثم أصاب البيت سيل ويقال حريق وتهدم وأعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من أموالهم، وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشتروا خشبها للسقف، وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعاً، وكان الباب لاصقاً بالأرض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن إتمامه فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستة أذرع وشبراً أداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر، وبقي البيت على هذا البناء إلى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكوني. ورمي البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق، يقال من النفط الذي رموا به على ابن الزبير فتصدعت حيطانه فهدمه ابن الزبير وأعاد بناءه أحسن ما كان بعد أن اختلفت عليه الصحابة في بنائه. واحتج عليهم بقول رسول اللّه ﷺ لعائشة رضي اللّه عنها: «لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم ولجعلت له بابين شرقياً وغربياً» فهدمه وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والأكابر حتى عاينوه، وأشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس، فأدار على الأساس الخشب ونصب من فوقها الأستار حفظاً للقبلة، وبعث إلى صنعاء في الفضة والكلس فحملها. وسأل عن قطع الحجارة الأول فجمع منها ما احتاج إليه ثم شرع في البناء على أساس إبراهيم عليه السلام ورفع جدرانها سبعاً وعشرين ذراعاً وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روي في حديثه وجعل فرشها وأزرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب.

ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات إلى أن تصدعت حيطانه. ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناه وزاده في البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم. ويقال: إنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة، وقال: وددت أني كنت حملت أبا حبيب من أمر البيت وبنائه ما تحمل. فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبراً مكان الحجر وبناها على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي. وترك سائرها لم يغير منه شيئاً؛ فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبين بنائه وبناء الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان لحمة ظاهرة بين البناءين. والبناء متميز عن البناء بمقدار إصبع شبه الصدع وقد لحم.

ويعرض ههنا إشكال قوي لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر الطواف ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس الجدر من أسفلها فيقع طوافه داخل البيت، بناء على أن الجدار إنما قام على بعض الأساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان، وكذا قالوا في تقبيل الحجر السود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائماً لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت، وإذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو إنما بني على أساس إبراهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه؟ ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين:

إما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعاده؛ وقد نقل ذلك جماعة إلا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتمييز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصناعة يرد ذلك.

وإما أن يكون ابن الزبير لم يردّ البيت على أساس إبراهيم من جميع جهاته، وإنما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله، فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم وهذا بعيد، ولا محيص من هذين والله تعالى أعلم.

ثم إن ساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين ولم يكن عليه جدار أيام النبي ﷺ وأبي بكر من بعده. ثم كثر الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دوراً هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جداراً دون القامة، وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك، وبناه بعمد الرخام، ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا.

وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به، وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة ومكاناً للعبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق مالم يوجبه لغيره، فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يستره، وحمى العائذ به والراتع في مسارحه من مواقع الآفات، فلا يراع فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر.

وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع ومن طريق الجعرانه تسعة أميال إلى الشعب، ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمرة، ومن طريق جدة سبعه أميال إلى منقطع العشائر.

هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب. ويقال لها أيضاً بكة. قال الأصمعي: لأن الناس يبك بعضهم بعضاً إليها أي يدفع. وقال مجاهد: إنما هي باء بكة أبدلوها ميماً كما قالوا: لازب ولازم لقرب المخرجين. وقال النخعي: بالباء للبيت وبالميم للبلد. وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم؛ وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبعث إليه بالأموال والذخائر مثل كسرى وغيره.

وقصة الأسياف وغزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة، وقد وجد رسول الله ﷺ حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت قيمتها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار، وزناً، وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا رسول الله! لو استعنت بهذا المال على حربك. فلم يفعل ثم ذكر لأبي بكر فلم يحركه. هكذا قال الأزرقي.

وفي البخاري بسنده إلى أبي وائل قال: جلست إلى شيبة بن عثمان وقال: جلس إلي عمر بن الخطاب فقال: هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين، قلت: ما أنت بفاعل؟ قال: ولم؟ قلت: فلم يفعله صاحباك فقال: هما اللذان يقتدى بهما.

وخرجه أبو داود وابن ماجه وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفطس وهو الحسن بن الحسين بن علي بن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب على مكة عمد إلى الكعبة فأخذ مافي خزائنها وقال: ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً فيها لا ينتفع به؟ نحن أحق به نستعين به على حربنا؛ وأخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ.

وأما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضعاً لهيكل الزهرة، وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه يصبونه على الصخرة التي هناك، ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم. وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني إسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم إسرائيل وأباه إسحق ويعقوب من قبله وأقاموا بأرض التيه أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنط عيّن بالوحي مقدارها وصفتها وهياكلها وتماثيلها، وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها، وأن يصنع مذبحاً للقربان وصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف، فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع المذبح عندها. وعهد الله إلى موسى بأن يكون هارون صاحب القربان، ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون إليها ويقربون في المذبح أمامها ويتعرضون للوحي عندها.

ولما ملكوا أرض الشام أنزلوها (بكلكال) من بلاد الأرض المقدسة ما بين قسم بني يامين وبني أفرايم. وبقيت هنالك أربع عشرة سنة سبعاً مدة الحرب، وسبعاً بعد الفتح أيام قسمة البلاد. ولما توفي يوشع عليه السلام نقلوها إلى بلد شيلو قريباً من كلكال، وأداروا عليها الحيطان. وأقامت على ذلك ثلثمائة سنة، حتى ملكها بنو فلسطين من أيديهم كما مر، وتغلبوا عليهم. ثم ردوا عليهم القبة ونقلوها بعد وفاة عالي الكوهن إلى نوف. ثم نقلت أيام طالوت إلى كنعان في بلاد بني يامين. ولما ملك داود عليه السلام نقل القبة والتابوت إلى بيت المقدس وجعل عليها خباء خاصاً ووضعها على الصخرة.

وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الصخرة ببيت المقدس، وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به إلى ابنه سليمان، فبناه لأربع سنين من ملكه ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام.

واتخذ عمده من الصفر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومنارته ومفتاحه من الذهب، وجعل في ظهره قبراً ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح وجاء به من صهيون بلد أبيه داود نقله إليه أيام عمارة المسجد، فجيء به تحمله الأسباط والكهنوتية حتى وضعه في القبر ووضعت القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أعد له من المسجد. وأقام كذلك ما شاء الله. ثم خربه بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ الهياكل ونثر الأحجار.

ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناه عزير نبي إسرائيل لعهده بإعانة بهمن ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني إسرائيل عليه من سبي بختنصر وحد لهم في بنيانه حدوداً دون بناء سليمان بن داوود عليهما السلام فلم يتجاوزوهما.

وأما الأواوين التي تحت المسجد، يركب بعضها بعضاً، عمود الأعلى منها على قوس الأسفل في طبقتين. ويتوهم كثير من الناس أنها إصطبلات سليمان عليه السلام، وليس كذلك. وإنما بناها تنزيهاً للبيت المقدس عما يتوهم من النجاسة، لأن النجاسات في شريعتهم وإن كانت في باطن الأرض وكان ما بينها وبين ظاهر الأرض محشواً بالتراب، بحيث يصل ما بينها وبين الظاهر خط مستقيم ينجس ذلك الظاهر بالتوهم. والمتوهم عندهم كالمحقق.

فبنوا هذه الأواوين على هذه الصورة بعمود الأواوين السفلية تنتهي إلى أقواسها وينقطع خطه، فلا تتصل النجاسة بالأعلى على خط مستقيم. وتنزه البيت عن هذه النجاسة المتوهمة ليكون ذلك أبلغ في الطهارة والتقديس.

ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبني اسرائيل في هذه المدة، لبني حشمناي من كهنتهم ثم لصهرهم هيرودس ولبنيه من بعده.

وبنى هيرودوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام وتأنق فيه حتى أكمله في ست سنين، فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم خرب بيت المقدس ومسجدها وأمر أن يزرع مكانه، ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه، ثم اختلف حال ملوك الروم في الأخذ بدين النصرانية تارةً وتركه أخرى إلى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمه هيلانة وارتحلت إلى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم، فأخبرها القمامصه بأنه رمي بخشبته على الأرض وألقي عليها القمامات والقاذورات، فاستخرجت الخشبة وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كأنها على قبره بزعمهم وخربت ما وجدت من عمارة البيت وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها عما فعلوه بقبر المسيح.

ثم بنوا بإزاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام والفتح وحضر عمر لفتح بيت المقدس، وسأل عن الصخرة فأري مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبنى عليها مسجداً على طريق البداوة وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه وما سبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت.

ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الإسلام بما شاء الله من الاحتفال، كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي ﷺ بالمدينة وفي مسجد دمشق، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد، وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه.

ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة في آخرها وكانت في ملكة العبيديين خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم، زحف الفرنجة إلى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها، حتى إذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردي بملك مصر والشام ومحا أثر العبيديين وبدعهم زحف إلى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام، وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد.

ولا يعرض لك الإشكال المعروف في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سئل عن أول بيت وضع فقال: «مكّة»، قيل: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس» قيل: فكم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» فإن المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان؛ لأن سليمان بانيه وهو ينيف على الألف بكثير.

واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس البناء، وإنما المراد أول بيت عين للعبادة ولا يبعد أن يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة، وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة فلعل ذلك؛ لأنها كانت مكاناً للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الأصنام والتماثيل حوالي الكعبة وفي جوفها، والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام فلا تبعد مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس، وإن لم يكن هناك بناء كما هو المعروف، وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام، فتفهمه ففيه حل هذا الإشكال.

وأما المدينة المنورة وبه سميت وهي المسماة بيثرب، فهي من بناء يثرب بن مهلائل من العمالقة وبه سمُيت وملَكَها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز، ثم جاورهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها. ثم أمر النبي ﷺ بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها، فهاجر إليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد أعده لذلك وشرفه في سابق أزله، وآواه أبناء قيلة ونصروه فلذلك سموا الأنصار، وتمت كلمة الإسلام من المدينة حتى علت على الكلمات وغلب على قومه وفتح مكة وملكها، وظن الأنصار أنه يتحول عنهم إلى بلده فأهمهم ذلك، فخطبهم رسول الله ﷺ وأخبرهم أنه غير متحول حتى إذا قبض ﷺ كان ملحده الشريف بها.

وجاء في فضلها من الأحاديث الصحيحة مالا خفاء به ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكة وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبي ﷺ قال: «المدينة خير من مكة» نقل ذلك عبد الوهاب في «المعونة» إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك وخالف أبو حنيفة والشافعي.

وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام وجنح إليها الأمم بأفئدتهم من كل أوب، فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها، وتفهم سر اللّه في الكون وتدريجه على ترتيب محكم في أمور الدين والدنيا.

وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه في الأرض إلا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه.

وقد كانت للأمم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم، منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز التي أمر النبي ﷺ بهدمها في غزواته، وقد ذكر المسعودي منها بيوتاً لسنا من ذكرها في شيء إذ هي غير مشروعة ولا هي على طريق ديني ولا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها، ويكفي في ذلك ما وقع في التواريخ، فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها، والله يهدي من يشاء سبحانه.

الفصل السابع

في أن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة

والسبب في ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كله بدوياً ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها، والدول التي ملكتهم من الإفرنجة والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها، فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا إليها أقرب فلم تكثر مبانيهم، وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو، والصنائع من توابع الحضارة وإنما تتم المباني بها فلا بد من الحذق في تعلمها، فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المباني فضلاً عن المدن. وأيضاً فهم أهل عصبيات وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو.

وإنما يدعو إلى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالاً على حاميتها، فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها ولايدعوهم إلى ذلك إلا الترف والغنى وقليل ما هو في الناس؛ فلذلك كان عمران إفريقية والمغرب كله أو أكثره بدوياً أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال، وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصاراً ورساتيق من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها؛ لأن العجم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتناغون في صراحتها والتحامها إلا في الأقل، وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب؛ لأن لحمة النسب أقرب وأشد فتكون عصبيته كذلك وتنزع بصاحبها إلى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب بالبسالة ويصيره عيالاً على غيره، فافهمه وقس عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثامن

في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول

والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه إذ العرب أيضاً أعرق في البدو وأبعد عن الصنائع، وأيضاً فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام، ولما تملكوها لم ينفسح الأمد حتى تستوفي رسوم الحضارة مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم، وأيضاً فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنيان والإسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة، وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال: افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة. وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر، قالوا: وما القدر؟ قال: ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد؛ فلما بعد العهد بالدين والتحرج في أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف، فحينئذ شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريباً بانقراض الدولة ولم ينفسح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والأمصار إلا قليلاً، وليس كذلك غيرهم من الأمم، فالفرس طالت مدتهم آلافاً من السنين، وكذلك القبط والنبط والروم، وكذلك العرب الأولى من عاد وثمود والعمالقة والتبابعة طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم، فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عدداً وأبقى على الأيام أثراً، واستبصر في هذا تجده كما قلت لك، واللّه وارث الأرض ومن عليها.

الفصل التاسع

في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه، فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها، وله واللّه أعلم وجه آخر وهو أمس به: وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه من المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي، فإنه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا، وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبث ولا قل أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية لانتقالهم في الأرض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد.

وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها والظعن كفيل لهم بطيبها؛ لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات؛ وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلى مراعي إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا بأنه يحتاج إليه في حفظ العمران، فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس؛ فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

الفصل العاشر

في مبادئ الخراب في الأمصار

اعلم أن الأمصار إذا اختطت أولاً تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التأنق، كالزلج والرخام والربج والزجاج والفسيفساء والصدف، فيكون بناؤها يومئذ بدوياً وآلاتها فاسدة، فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها، فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك ففقدت الإجادة في البناء والإحكام والمعالاة عليه بالتنميق، ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التي في مبانيهم فينقلونها من مصنع إلى مصنع؛ لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل لقلة العمران وقصوره عما كان أولاً، ثم لا تزال تنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يفقد الكثير منها جملة فيعودون إلى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضاً عن الحجارة والقصور عن التنميق بالكلية، فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمدر ويظهر عليها سيما البداوة ثم تمر في التناقص إلى غايتها من الخراب إن قدر لها به، سنة اللّه في خلقه.

الفصل الحادي عشر

في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وإنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً. فالقوت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه. وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات. فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم.

وأهل مدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالأقل من تلك الأعمال وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات، فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى، وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق أن المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب، وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتنفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم.

ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته. واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول. وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش. فالمصر إذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد في الآخر، فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف: القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي والأمير مع الأمير والشرطي مع الشرطي.

واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة، تجد بينهما بوناً كبيراً على الجملة، ثم على الخصوصيات، فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان وكذا كل صنف مع أهل صنفه. وكذا أيضاً حال تلمسان مع وهران والجزائر وحال وهران والجزائر مع ما دونهما إلى أن تنتهي إلى المدر الذين اعتمالهم في ضروريات معاشهم فقط أو يقصرون عنها. وما ذاك إلا لتفاوت الأعمال فيها فكأنها كلها أسواق للأعمال. والخرج في كل سوق على نسبته، فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجه، وكذا القاضي بتلمسان وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم وهما بفاس أكثر لنفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف فالأحوال أضخم. ثم هكذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضروراتها ولا تعد في الأمصار إذ هي من قبيل القرى والمدر. فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضروراتهم ولا يفضل ما يتأثلونه كسباً فلا تنمو مكاسبهم. وهم لذلك مساكين محاويج إلا في الأقل النادر. واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال، فإن السائل بفاس أحسن حالاً من السائل بتلمسان أو وهران. ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيراً من أحوال الترف واقتراح المآكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربال والآنية. ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر.

ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال أهل القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما نقضي منه العجب حتى إن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النقلة إلى مصر لذلك ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها. وتعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم. وأنهم أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار وليس كذلك، وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك فعظمت لذلك أحوالهم.

وأما حال الدخل والخرج فمتكافئ في جميع الأمصار. ومتى عظم الدخل، عظم الخرج وبالعكس. ومتى عظم الدخل والخرج،

اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر.

وكل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والإيثار على مبتغيه ومثّله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة، وكيف تختلف أحوالها في هجرانها أو غشيانها، فإن بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وأفنيتها نثير الحبوب وسواقط الفتات فيزدحم عليها غواشي النمل والخشاش. ويكثر في سربها الجرذان وتأوي إليه السنانير وتحلّق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطاناً وتمتلئ شبعاً ورياً، وبيوت أهل الخصاصة والفقر الكاسدة أرزاقهم لا يسري بساحتها دبيب ولا يحلق بجوها طائر ولا تأوي إلى زوايا بيوتهم فأرة ولا هرة كما قال الشاعر:

يسقط الطير حيث ينتثر الحب وتغشى منازل الكرماء

فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غاشية الأناسي بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها؛ لاستغنائهم عنها في الأكثر بوجود أمثالها لديهم، واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرته، والله سبحانه وتعالى أعلم وهو غني عن العالمين.

الفصل الثاني عشر

في أسعار المدن

اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس، فمنها الضروري وهي الأقوات من الحنطة وما معناها كالباقلا والحمص والجلبان وسائر حبوب الأقوات ومصلّحاتها كالبصل والثوم وأشباهه، ومنها الحاجي والكمالي مثل الأدم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني، فإذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه وغلت أسعار الكمالي من الأدم والفواكه وما يتبعها، وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس من ذلك. والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت فتتوفر الدواعي على اتخاذها، إذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه لا بد من ذلك. وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كثيرة تسد خلة كثيرين من أهل ذلك المصر، فتفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها في الغالب إلا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية، ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران.

وأما سائر المرافق من الأدم والفواكه وما إليها فإنها لا تعم فيها البلوى ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر أجمعين ولا الكثير منهم، ثم إن المصر إذا كان مستبحراً موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله، فيقصر الموجود منها على الحاجات قصوراً بالغاً ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الأغراض ويبذل أهل الرفه والترف أثمانها بإسراف في الغلاء لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم، فيقع فيها الغلاء كما تراه.

وأما الصنائع والأعمال أيضاً في الأمصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيه أمور ثلاثة: الأول: كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه.

والثاني: اعتزاز أهل الأعمال بخدمتهم وامتهان أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها.

والثالث: كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصناع في مهنهم، فيبذلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها، فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك.

وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه. وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضاً حاجة لقلة الساكن وضعف الأحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره.

وقد يدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة ما يفرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق وأبواب المصر وللجباة في منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم. وبذلك كانت الأسعار في الأمصار أغلى من الأسعار في البادية إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة. وبالعكس كثيرة في الأمصار لا سيما في آخر الدولة، وقد تدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالأندلس لهذا العهد. وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزارعة النكدة النبات وملكوا عليهم

الأرض الزاكية والبلد الطيب، فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وفلحها، وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة، وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم. واختص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك.

ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار في قطرهم أنها لقلة الأقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك، فهم أكثر أهل المعمور فلحاً فيما علمناه وأقومهم عليه وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلح إلا قليلاً من أهل الصناعات والمهن أو الطرّاء على الوطن من الغزاة المجاهدين. ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعولة وهي أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع. وإنما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه.

ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح مع كثرته وعمومه، فصار ذلك سبباً لرخص الأقوات ببلدهم، واللّه مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا رب سواه.

الفصل الثالث عشر

في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف. وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتنقلب ضرورات وتصير الأعمال فيه كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف، وبالمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات، ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه. ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم.

والبدوي لم يكن دخله كثيراً إذ كان ساكناً بمكان كاسد الأسواق في الأعمال التي هي سبب الكسب، فلم يتأثل كسباً ولا مالاً فيتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته. وهو في بدوه يسد خلته بأقل الأعمال؛ لأنه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر مؤنه فلا يضطر إلى المال؛ وكل من يتشوف إلى المصر وسكناه من البادية فسريعاً ما يظهر عجزه ويفتضح في استيطانه إلا من تقدم منهم تأثل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجري إلى الغاية الطبيعية لأهل العمران من الدعة والترف، فحينئذ ينتقل إلى المصر وينتظم حاله مع أحوال أهله في عوائدهم وترفهم. وهكذا شأن بداية عمران الأمصار. واللّه بكل شيء محيط.

الفصل الرابع عشر

في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقر مثل الأمصار

اعلم أن ما توفر عمرانه من الأقطار وتعددت الأمم في جهاته وكثر ساكنه، اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم، وعظمت دولهم وممالكهم. والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما يأتي ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته، فيعود على الناس كسباً يتأثلونه حسبما نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب، فيزيد الرفه لذلك وتتسع الأحوال ويجيء الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الأسواق، فيكثر مالها ويشمخ سلطانها ويتفنن في اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشييد الأمصار.

واعتبر ذلك بأقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم وأحوالهم. فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفههم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف.

وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين، فإنه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركبان بحديثها وربما تتلقى بالإنكار في غالب الأمر. ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم؛ أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك، فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الأقطار إنما هو ببلاد السودان وهي إلى المغرب أقرب. وجميع ما في أرضهم من البضاعة فإنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة. فلو كان المال عتيداً موفوراً لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها

الأموال ولاستغنوا عن أموال الناس بالجملة.

ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها، فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصاً في مواليد أهل المغرب، وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه، وهم إنما أعطوا في ذلك السبب النجومي وبقي عليهم أن يعطوا السبب الأرضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره.

وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه، فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق لا أن ذلك لمجرد الأثر النجومي. فقد فهمت مما أشرنا لك أولاً أنه لا يستقل بذلك؛ فإن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه.

واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر إفريقية وبرقة لما خف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصه. وضعفت جباياتها فقلت أموال دولها بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الأحوال في نفقاتهم وأعطياتهم. حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماته في غالب الأوقات، وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره إلى فتح مصر ألف حمل من المال يستعدها لأرزاق الجنود وأعطياتهم ونفقات الغزاة. وقطر المغرب - وإن كان في القديم دون إفريقية - فلم يكن بالقليل في ذلك وكانت أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة، وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه، فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ونقص عن معهوده نقصاً ظاهراً محسوساً، وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال إفريقية بعد أن كان عمرانه متصلاً من البحر الرومي إلى بلاد السودان في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة. وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى إلا ما هو منها بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل الخامس عشر

في تأثل العقار والضياع في الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها

اعلم أن تأثل العقار والضياع الكثيرة لأهل الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد، إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي تخرج قيمتها عن الحد ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ. وإنما يكون ملكهم وتأثلهم لها تدريجاً إما بالوراثة من آبائه وذوي رحمه حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر كذلك، أو أن يكون بحوالة الأسواق فإن العقار في أواخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر إلى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الأحوال فترخص قيمها وتتملك بالأثمان اليسيرة وتتخطى بالميراث إلى ملك الآخر وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال رائقة حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثر الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ، فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الأول. وهذا معنى الحوالة فيها ويصبح مالكها من أغنى أهل المصر، وليس ذلك بسعيه واكتسابه إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك.

وأما فوائد العقار والضياع فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه إذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه، وإنما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش. والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع، إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مرباهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب، فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي، فيكون ذلك العقار قواماً لحاله. هذا قصد المترفين في اقتنائه. وأما التمول منه وإجراء أحوال المترفين فلا. وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الأسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالي في جنسه وقيمته في المصر، إلا أن ذلك إذا حصل فربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب، والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم.

الفصل السادس عشر

في حاجات المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة

وذلك أن الحضري إذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تأثله وأصبح أغنى أهل المصر ورمقته العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والعوائد، زاحم عليها الأمراء والملوك وغصوا به. ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده وينافسونه فيه ويتحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلونه في ربقة حكم سلطاني، وسبب من المؤاخذة ظاهر ينتزع به ماله، وأكثر الأحكام السلطانية جائرة في الغالب إذ العدل المحض إنما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث، قال ﷺ «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكاً عضوضاً». فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يتحاماها السلطان فيستظل هو بظلها ويرتع في أمنها من طوارق التعدي. وإن لم يكن له ذلك أصبح نهباً بوجوه التحيلات وأسباب الحكام. والله يحكم لا معقب لحكمه.

الفصل السابع عشر

في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وإنما ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر ويقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها فتكون بمنزلة الصنائع، ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه المهرة فيه، وبقدر ما يتزيد من أصنافها تتزيد أهل صناعتها ويتلون ذلك الجيل بها، ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات حذق أولئك الصناع في صناعتهم ومهروا في معرفتها، والأعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرر أمثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً، وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في أهلها. وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة؛ لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال، فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصر وهم الأكثر، فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه وهذه هي الحضارة. ولهذا نجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها، وما ذاك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم كالماء يخضر ما قرب منه مما قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد.

وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم. فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه، وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة، ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحداً بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً، واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام نحواً من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم وحذقوا في أحوال المعاش وعوائده والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل حتى إنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم. ورسخت الحضارة أيضاً وعوائدها في الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة.

وكذلك أيضاً القبط دام ملكهم في الخليقة ثلاثة آلاف من السنين، فرسخت عوائد الحضارة في بلدهم مصر، وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل. فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة، وكذلك أيضاً رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالقة والتابعة آلافاً من السنين وأعقبهم ملك مضر.

وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكينية والكسروية والعرب بعدهم آلافاً من السنين، فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر.

وكذا أيضاً رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس ـلاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما أعقبها من ملك بني أمية ـ آلافاً من السنين، وكلتا الدولتين عظيمة فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت.

وأما إفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملك ضخم، إنما قطع الروم والإفرنجة إلى إفريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة، فكانوا

على قلعة أوفاز وأهل المغرب لم تجاورهم دولة وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر، ولما جاء الله بالإسلام وملك العرب إفريقية والمغرب ولم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلاً أول الإسلام، وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بإفريقية والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه، إذ كانوا برابر منغمسين في البداوة ثم انتقض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد ميسرة المظفري أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم وإن بايعوا لإدريس، فلا تعد دولته فيهم عربية؛ لأن البرابر هم الذين تولوها ولم يكن من العرب فيها كثير عدد وبقيت إفريقية للأغالبة ومن إليهم من العرب، فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان، وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم، وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمائة سنة وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة، وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها، وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف، فتجد له من أحوال الحضارة في شؤون منزله وعوائد أحواله آثاراً ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها، وكذا في أكثر أمصار إفريقية وليس ذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بإفريقية أكثر أمداً منذ عهد الأغالبة والشيعة وصنهاجة.

وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس، وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً وكانت من اتساع النطاق ما علمت، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الأندلس، ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً معظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها، فكان بذلك للمغرب وإفريقية حظ صالح من الحضارة عفي عليه الخفا ورجع على أعقابه وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخشونة، وعلى كل حال فآثار الحضارة بإفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم. فتفطن لهذا السر فإنه خفي عن الناس.

واعلم أنها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الأمة أو الجيل وعظم المدينة أو المصر وكثرة النعمة واليسار، وذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال، وأحوال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم، وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه، فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج عائدة عليهم في العطاء، فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة، وأصله كله العمران وكثرته، فاعتبره وتأمله في الدول تجده، والله سبحانه وتعالى يحكم ولا معقب لحكمه.

الفصل الثامن عشر

في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدول غاية للعصبية، وأن الحضارة غاية للبداوة، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً، وتبين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط. فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك؛ لأنه غاية لا مزيد وراءها، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها، والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه كالصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل. وللتأنق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها. وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها:

أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها.

وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها.

وبيانه أن المصر بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله، والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت

الحضارة أكمل. وقد كنا قدمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجاته. ثم تزيدها المكوس غلاء لأن كمال الحضارة إنما تكون عند نهاية الدولة في استفحالها وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم. والمكوس تعود على البياعات بالغلاء لأن السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤونة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات وأثمانها. فتعظم نفقات أهل الحاضرة وتخرج عن القصد إلى الإسراف. ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتتابعون في الإملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للبضائع فتكسد الأسواق وتفسد حال المدينة، وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف. وهذه مفسدتها في المدينة على العموم في الأسواق والعمران.

وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص، فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها؛ فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه. وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الأيمان والربا في البياعات، ثم تجدهم -لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف - أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الأقارب وذوي الأرحام والمحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك. وتجدهم أيضاً أبصر بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله.

ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وأهملته الدولة من عدادها وغلب عليه خلق الجوار والصحابة وإن كانوا أصحابه أهل أنساب وبيوتات، وذلك أن الناس بشر متماثلون، وإنما تفاضلوا وتمايزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل. فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة بأي وجه كان، وفسد خلق الخير فيه، لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته. ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدنيّة في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة، وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾.

ووجهه أن مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم أحوالهم. وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت، وهذا معنى ما يقوله بعض أهل الخواص:

إن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب، حتى إن كثيراً من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور تطيراً به. وليس المراد ذلك ولا أنه خاصة في النارنج وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة. ثم إن النارنج والليم والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غايات الحضارة، إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط ولا تغرس إلا بعد التفنن في مذاهب الترف. وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه. ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى وهو من هذا الباب، إذ الدفلى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف.

ومن مفاسد الحضارة أيضاً الإنهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ والمشارب وطيبها. ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط، فيفضي ذلك إلى فساد النوع: إما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا، فيجهل كل واحد ابنه، إذ هو لغير رشدة، لأن المياه مختلطة في الأرحام، فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون، ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع، أو يكون فساد النوع بغير واسطة، كما في اللواط إلى انقطاع النوع أو يكون فساد النوع بغير واسطه كما في اللواط المؤدي إلى عدم النسل رأساً وهو أشد في فساد النوع إذ هو يؤدي إلى أن لا يوجد النوع. والزنا يؤدي إلى عدم ما يوجد منه. ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله في اللواط أظهر من مذهب غيره، ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح.

فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات. بل نقول: إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد؛ لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته إما عجزاً لما حصل

له من الدعة أو ترفعاً لما حصل له من المربى في النعيم والترف وكلا الأمرين ذميم. وكذلك لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري بما قد فقد من خلق البأس بالترف والمربى في قهر التأديب التعليم فهو لذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه. ثم هو فاسد أيضاً في دينه غالباً بما أفسدت منه العوائد وطاعتها وما تلونت به النفس من ملكاتها كما قررناه إلا في الأقل النادر. وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة. وبهذا الاعتبار كان الذين يتقربون من جند السلطان إلى البداوة والخشونة أنفع من الذين يتربون على الحضارة وخلقها.

هذا موجود في كل دولة. فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم من العمران والدول؛ والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن.

الفصل التاسع عشر

في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها

قد استقرينا في العمران أن الدولة إذا اختلت وانتقضت، فإن المصر الذي يكون كرسياً لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف. والسبب فيه أمور: -

الأول: أن الدولة لا بد في أولها من البداوة المقتضية للتجافي عن أموال الناس والبعد عن التحذلق. ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمغارم. التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف فإذا صار المصر الذي كان كرسياً للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة ونقصت أحوال الترف فيها نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصر؛ لأن الرعايا تبع الدولة فيرجعون إلى خلق الدولة: إما طوعاً لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم أو كرهاً لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الأحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد؛ فتقصر لذلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف. وهي معنى ما نقول في خراب المصر.

الأمر الثاني: أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب، وإنما يكون بعد العداوة والحروب. والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر إحداهما على الأخرى في العوائد والأحوال. وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمنافي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكرة عند أهل الدولة الجديدة ومستبشعة وقبيحة. وخصوصاً أحوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة. وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في المصر.

الأمر الثالث: أن كل أمة لا بد لهم من وطن وهو منشأهم ومنه أولية ملكهم. وإذا ملكوا وطناً آخر تبعاً للأول، وأمصاره تابعة لأمصار الأول. واتسع نطاق الملك عليهم. ولا بد من توسط الكرسي بين تخوم الممالك التي للدولة؛ لأنه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوي أفئدة الناس إليه من أجل الدولة والسلطان فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسي الأول. والحضارة إنما هي بوفور العمران كما قدمنا فتنتقص حضارته وتمدنه. وهو معنى اختلاله. وهذا كما وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة، ولبني العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد، ولبني مرين بالمغرب في العدول عن مراكش إلى فاس. وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الأول.

الأمر الرابع: أن الدولة المتجدده إذا غلبت على الدولة السابقة لا بد فيها من تتبع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى قطر آخر تؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل المصر الكرسي أشياعُ الدولة. إما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو من أعيان المصر؛ لأن لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم. بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها. وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة. وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فتنقلهم من مصر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكتها. فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة حتى لا يبقى في مصر الكرسي إلا الباعة والهمل من أهل الفلح والعيارة وسواد العامة، وينزل مكانهم في حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر، وإذا ذهب من مصر أعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه. ثم لا بد أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة. وإنما ذلك بمثابة من يملك بيتاً داخله البلى والكثير من أوضاعه في بيوته ومرافقه لا توافق مقترحه وله قدرة على أوصاف

مخصوصة- على تغيير تلك الأوضاع وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانياً.

وقد وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراسي لذلك وشاهدناه. وعلمناه ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها. وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر. فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دون الدولة والملك متعذر بما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع فتتعين السياسة لذلك. أما الشريعة أو الملكية وهو معنى الدولة وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر كما كان عدمه مؤثراً في عدمه، والخلل العظيم إنما يكون من خلال الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم أو بني أمية أو بني العباس كذلك. وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض، فلا تؤثر كثير اختلال؛ لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة مع أشخاص الدولة، فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران فأذهبت أهل الشوكة بأجمعهم عظم الخلل كما قررناه أولاً، والله قادر على ما يشاء. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضاً، لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المصر، فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في المصر والحاجة إليه. وما لا يستدعي في المصر يكون غفلاً إذ لا فائدة لمنتحله في الاحتراف به. وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها، وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة، مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والسفاج والفراش والذباح وأمثال هذه وهي متفاوتة. وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصر دون غيره، ومن هذا الباب الحمامات لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التنعم؛ ولذلك لا يكون في المدن المتوسطة. وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها ويجري أحوالها. إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب وتفر عنها القَوَمة؛ لقلة فائدتهم ومعاشهم منها. والله يقبض ويبسط.

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض

من البين أن الالتحام أو الاتصال موجود في طباع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد إلا أنه كما قدمناه أضعف مما يكون بالنسب، وأنه تحصل به العصبية بعضاً مما تحصل بالنسب. وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لحماً لحماً وقرابة قرابة، وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترقون شيعاً وعصائب، فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة، والنفوس بطباعها متطاولة على الغلب والرئاسة فتطمح المشيخة- لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة- إلى الاستبداد وينازع كل صاحبه، ويستوصلون بالأتباع من الموالي والشيع والأحلاف ويبذلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب، فيعصوصب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم، فيعطف على أكفائه ليفض من أعنتهم ويتتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم الأظفار الخادشة ويستبد بمصره أجمع، ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه، فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجدة والهرم.

وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعاظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والأقطار والممالك فيتحلون بها من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة وإعداد المواكب للسير في أقطار البلد والتختم والتحية والخطاب

بالتهويل وما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل. إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية. وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذاهب السذاجة فراراً من التعريض بنفسه للسخرية والعبث. وقد وقع هذا بإفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزاب وما إلى ذلك. سموا إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والجباية. وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة وأقطعوها جانباً من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمعزل عنه. وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد. وحدث في خلقهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم، ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدولة. وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية. واستقل بأمصار الجريد أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي ونقلهم كلهم من إماراتهم بها إلى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر في أخباره. وكذا وقع بسبتة لآخر دولة بني عبد المؤمن.

وهذا التغلب يكون غالباً في أهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرئاسة في المصر، وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهماء. وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد لأسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصابة، والله سبحانه وتعالى غالب على أمره.

الفصل الثاني والعشرون

في لغات أهل الأمصار

اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها؛ ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير إعرابه؛ والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم والدين والملة صورة للوجود وللملك. وكلها مواد له والصورة مقدمة على المادة، والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما أن النبي ﷺ عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها.

واعتبر ذلك في نهي عمر رضي اللّه عنه عن رطانة الأعاجم وقال: إنها خب. أي مكر وخديعة. فلما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها؛ لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب. وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك. وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة. ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أواخره، وإن كان بقي في الدلالات على أصله وسمي لساناً حضرياً في جميع أمصار الإسلام.

وأيضاً فأكثر أهل الأمصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها، الهالكين في ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم. واللغات متوارثة، فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجام شيئاً فشيئاً. وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار بخلاف لغة البدو من العرب، فإنها كانت أعرق في العروبية، ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق، وزناتة والبربر بالمغرب، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحاً لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام إلا قليلاً بالأمصار عربية، فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلاً يقع تعليمه صناعياً بالقوانين المتدارسة من علوم العرب وحفظ كلامهم لمن يسره اللّه تعالى لذلك. وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين طلباً لها فانحفظت بعض الشيء، وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له أثر ولا عين حتى إن كتب العلوم صارت تكتب

باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس والله أعلم بالصواب.
والله مقدر الليل والنهار. صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الباب الخامس

في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال

وفيه مسائل

الفصل الأول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية

اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ والله سبحانه خلق جميع مافي العالم للإنسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ و﴿سخَّرَ لَكُمُ الشمسَ والقمرَ وسخَّر لكمُ الْبَحْرَ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ وسخر لكم الأنعام، وكثير من شواهده. ويد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف. وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك. وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض. فالإنسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها. قال الله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾.

وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله. إلا أنها إنما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي فتكون له. تلك المكاسب معاشاً إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشاً ومتمولاً إن زادت على ذلك. ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقاً. قال ﷺ: «إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» وإن لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقاً والمتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسباً. وهذا مثل التراث فإنه يسمى بالنسبة إلى المالك رزقاً، والمتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسباً. وهذا مثل التراث، فإنه يسمى إلى الهالك كسباً ولا يسمى رزقاً إذ لم يحصل له به منتفع، وبالنسبة إلى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقاً. هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة، وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقاً أن يكون بحيث يصح تملكه وما لا يتملك عندهم فلا يسمى رزقاً، وأخرجوا الغصوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقاً، والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختص برحمته وهدايته من يشاء. ولهم في ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها.

ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل، فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه. قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ والسعي إليه إنما يكون بأقدار الله تعالى وإلهامه، فالكل من عند الله. فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول: لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان أو النبات أو المعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع.

ثم إن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول، وهما الذخيرة والقنية لأهل العالم في الغالب. وإن اقتنى سواهما في بعض الأحيان فإنما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة الأسواق التي هما عنها بمعزل فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة. وإذا تقرر هذا كله فاعلم أن ما يفيده الإنسان ويقتنيه من المتمولات إن كان من الصنائع، فالمفاد المقتنى منه وهو قيمة عمله وهو القصد بالقنية، إذ ليس هنالك إلا العمل وليس بمقصود بنفسه للقنية. وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل إلا أن العمل فيهما أكثر، فقيمته أكثر، وإن كان من غير الصنائع فلا بد من قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به، إذ لولا العمل لم تحصل قنيتها. وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت. وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات بين الناس، فإن اعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه، لكنه خفي في الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤونته يسيرة، فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح. فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية وتبين مسمى الرزق وأنه المنتفع به. فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما.

واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب، ألا ترى إلى أمصار القليلة الساكن كيف

يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية، وكذلك الأمصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشد رفاهية كما قدمناه قبل، ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد إذا تناقص عمرانها إنها قد ذهب رزقها حتى أن الأنهار والعيون ينقطع جريها في القفر لما أن فور العيون إنما يكون بالأنباط والامتراء الذي هو بالعمل الإنساني كالحال في ضروع الأنعام، فما لم يكن إنباط ولا امتراء نضبت وغارت بالجملة كما يجف الضرع إذا ترك امتراؤه. وانظر في البلاد التي تعهد فيها العيون لأيام عمرانها ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

الفصل الثاني

في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مَفْعَل من العيش. كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جعلت موضعاً له على طريق المبالغة ثم إن تحصيل الرزق وكسبه: إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرماً وجباية.

وإما أن يكون من الحيوان الوحشي باقتناصه وأخذه برميه من البر أو البحر ويسمى اصطياداً.

وإما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتصرفة بين الناس في منافعهم، كاللبن من الأنعام والحرير من دوده والعسل من نحله، أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كله فلحاً.

وإما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية: إما في مواد بعينها وتسمى الصنائع من كتابة وتجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك، أو في مواد غير معينة وهي جميع الامتهانات والتصرفات، وإما أن يكون الكسب من البضائع وإعدادها للأعواض، إما بالتقلب بها في البلاد أو احتكارها وارتقاب حوالة الأسواق فيها. ويسمى هذا تجارة.

فهذه وجوه المعاش وأصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالحريري وغيره، فإنهم قالوا: المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة.

فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا إلى ذكرها، وقد تقدم شيء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها في الفصل الثاني.

وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش، أما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات إذ هي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علم؛ ولهذا تنسب في الخليقة إلى آدم أبي البشر وأنه معلمها والقائم عليها إشارة إلى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة.

وأما الصنائع فهي ثانيتها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار؛ ولهذا لا يوجد غالباً إلا في أهل الحضر الذي هو متأخر عن البدو وثان عنه. ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الأب الثاني للخليقة فإنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحي من اللّه تعالى.

وأما التجارة وإن كانت طبيعية في الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها، إنما هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة. ولذلك أباح الشرع فيه المكاسبة لما أنه من باب المقامرة إلا أنه ليس أخذاً للمال الغير مجاناً فلهذا اختص بالمشروعية. واللّه أعلم.

الفصل الثالث

في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

اعلم أن السلطان لا بد له من اتخاذ الخدمة في سائر أبواب الإمارة والملك الذي هو بسبيله من الجندي والشرطي والكاتب. ويستكفي في كل باب بمن يعلم غناءه فيه، ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله. وهذا كله مندرج في الإمارة ومعاشها إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإمارة، والملك الأعظم هو ينبوع جداولهم. وأما ما دون ذلك من الخدمة، فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته، أو يكون عاجزاً عنها، لما ربي عليه من خلق التنعم والترف؛ فيتخذ من يتولى ذلك له، ويقطعه عليه أجراً من ماله. وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان، إذ الثقة بكل أحد عجز، ولأنها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث اللذين ينبغي في مذاهب الرجولية التنزه عنهما. إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها، فهو ابن عوائده لا ابن نسبه. ومع ذلك فالخديم الذي يستكفى ويوثق بغنائه كالمفقود، إذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات: إما مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده؛ وإما بالعكس فيهما،

وهو أن يكون غير مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده، وإما بالعكس في إحداهما فقط، مثل أن يكون مضطلعاً غير موثوق أو موثوقاً غير مضطلع.

فأما الأول: وهو المضطلع الموثوق، فلا يمكن أحد استعماله بوجه، إذ هو باضطلاعه وثقته غني عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الأجر من الخدمة، لاقتداره على أكثر من ذلك، فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض، لعموم الحاجه إلى الجاه.

وأما الصنف الثاني: وهو ليس بمضطلع ولا موثوق، فلا ينبغي لعاقل استعماله، لأنه يجحف بمخدومه في الأمرين معاً، فيضيع عليه لعدم الاصطناع تارة، ويذهب ماله بالخيانة أخرى، فهو على كل حال كل على مولاه.

فهذان الصنفان لا يطمع أحد في استعمالها. ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين: موثوق غير مضطلع، ومضطلع غير موثوق. وللناس في الترجيح بينهما مذهبان، ولكل من الترجيحين وجه. إلا أن المضطلع، ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضييعه، ويحاول على التحرز عن خيانته جهد الاستطاعه. وأما المضيع ولو كان مأموناً، فضرره بالتضييع أكثر من نفعه. فاعلم ذلك واتخذه قانوناً في الاستكفاء بالخدمة. والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء.

الفصل الرابع

في أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويبتغون الكسب من ذلك. ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية. لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان.

فأهل الأمصار بإفريقية يرون أن الإفرنجة الذين كانوا قبل الإسلام بها دفنوا أموالهم كذلك وأودعوها في الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبيل إلى استخراجها. وأهل الأمصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أمم القبط والروم والفرس. ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره، فيجدونه خالياً أو معموراً بالديدان. أو يشارف الأموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم. أو تميد به الأرض حتى يظنه خسفاً أو مثل ذلك من الهذر.

ونجد كثيراً من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرمة الحواشي إما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن بإعطاء الأمارات عليها في أماكنها يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحفر والطلب، ويموهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات. وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه، فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول، فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم. والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل، إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير المجرى الطبيعي من هذا وأمثاله؛ عجزاً عن السعي في المكاسب وركوناً إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الأول ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات.

وربما يحمل على ذلك في الأكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى تقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا تفي بمطالبها. فإذا عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعي لم يجد وليجة في نفسه إلا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ليفي له ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده؛ ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ومن سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال مثل مصر وما في معناها، فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء. هكذا يبلغنا عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل، وأنه أعظم ما يستر دفيناً أو مختزناً في تلك الآفاق ويموه عليهم أصحاب تلك

الدفاتر المفتعلة في الاعتذار عن الوصول إليها بجرية النيل تستراً بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفاً بشأن السحر، متوارثاً في ذلك القطر عن أوليه، فعلومهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري وغيرها. وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك، وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي هذه:

يا طالباً للسر في التغوير ... اسمع كلام الصدق من خبير
دع عنك ما قد صنفوا في كتبهم ... من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتي ونصيحتي ... إن كنت ممن لا يرى بالزور
فإذا أردت تغور البئر التي ... حارت لها الأوهام في التدبير
صور كصورتك التي أوقفتها ... والرأس رأس الشبل في التقوير
ويداه ماسكتان للحبل الذي ... في الدلو ينشل من قرار البير
وبصدره هاء كما عاينتها ... عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطا على الطاءات غير ملامس ... مشي اللبيب الكيس النحرير
ويكون حول الكل خط دائر ... تربيعه أولى من التكوير
واذبح عليه الطير والطخه به ... واقصده عقب الذبح بالتبخير
بالسندروس وباللبان وميعة ... والقسط والبسه بثوب حرير
من احمر أو اصفر لا أزرق ... لا أخضر فيه ولا تكدير
ويشده خيطان صوف أبيض ... أو احمر من خالص التحمير
والطالع الأسد الذي قد بينوا ... ويكون بدء الشهر غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد ... في يوم سبت ساعة التدبير

يعني أن تكون الطاءات بين قدميه كأنه يمشي عليها، وعندي أن هذه القصيدة من تمويهات المتخرفين، فلهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبة وتنتهي التخرفة والكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذه ويحفرون بها الحفر ويضعون فيها المطابق والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبهم، ثم يقصدون ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف ويبعثون على اكتراء ذلك المنزل وسكناه ويوهمون أن به دفيناً من المال لا يعبر عن كثرته ويطالبونه بالمال لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم، ويعدونه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم، فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر، وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون به عليهم ليخفى عند محاورتهم فيما يتناولونه من حفر وبخور، وذبح حيوان وأمثال ذلك.

وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في علم ولا خبر.

واعلم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق لا على وجه القصد إليها. وليس ذلك بأمر تعم به البلوى حتى يدخر الناس غالباً أموالهم تحت الأرض ويختمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث.

والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين الجاهلية إنما يوجد بالعثور والاتفاق لا بالقصد والطلب، وأيضاً فمن اختزن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية فقد بالغ في إخفائه، فكيف ينصب عليه الأدلة والأمارات لمن يبتغيه! ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الأمصار والآفاق!؟ هذا يناقض قصد الإخفاء. وأيضاً فأفعال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع. ومن اختزن المال فإنه يختزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره. وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد وإنما هو للبلاء والهلاك أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الأمم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه.

وأما قولهم: أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور؟ فاعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن. والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد فيها أو ينقصها، وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث، وربما انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه. والعمران الذي يستدعيه فإن نقص المال في المغرب وإفريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والإفرنج، وإن نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند والصين. وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها، مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره. وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت.

وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر كانت في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر واللآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدول، فلما انقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف: كالأهرام من قبور الملوك وغيرها. وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد. ويعثر على الدفين فيها في كثير من الأوقات. أما

ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها. فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها. حتى إنهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدولة ضربت على أهل المطالب. وصارت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الأطماع الذريعة إلى الكشف عنه والذرع باستخراجه وما حصلوا إلا على الخيبة في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران، فيحتاج من وقع له شيء من هذا الوسواس أو ابتلي به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوذ رسول الله ﷺ من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الفصل الخامس

في أن الجاه مفيد للمال

وذلك أنا نجد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروة من فاقد الجاه. والسبب في ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يتقرب بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه، فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي، فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه وجميع ما شأنه أن تبذل فيه الأعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض، فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه. فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوفر عليه. والأعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لأقرب وقت ويزداد مع الأيام يساراً وثروة. ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم أكثر التجار. ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير. ومما يشهد لذلك أنا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا حسن الظن بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في إرفادهم فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال في مصالحهم، أسرعت إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى إلا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم. رأينا من ذلك أعداداً في الأمصار والمدن. وفي البدو يسعى لهم الناس في الفلح والتجر وكل قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأثل الغنى من غير سعي، ويعجب من لا يفطن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه ويساره، والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب.

الفصل السادس

في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق وإن هذا الخلق من أسباب السعادة

قد سبق لنا فيما سلف أن الكسب الذي يستفيده البشر إنما هو قيم أعمالهم، ولو قدر أحد عطل عن العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلية. وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته. وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه. وقد بينا آنفاً أن الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجلب المنافع. وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضاً عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض في صالح أو طالح. وتصير تلك الأعمال في كسبه وقيمها أموال وثروة له، فيستفيد الغنى واليسار لأقرب وقت. ثم إن الجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفل إلى من لا يملك ضراً ولا نفعاً بين أبناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما ينتظم معاشهم وتتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم؛ لأن النوع الإنساني لما كان لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاون أبنائه على مصالحهم، لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده وأنه وإن ندر ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاؤه. ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم في الأكثر بمصالح النوع ولما جعل لهم من الاختيار، وأن أفعالهم إنما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع. وقد يمتنع من المعاونة فيتعين حمله عليها فلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم لتتم الحكمة الإلهية في بقاء هذا النوع. وهذا معنى قوله تعالى:﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة وعلى أغراضه فيما سوى ذلك، ولكن

الأول مقصود في العناية الربانية بالذات، والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الإلهي، لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجل المواد، فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير. وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة فتفهم.

ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق، وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد هذا الجاه من أهل الطبقة التي فوقه، ويزداد كسبه تصرفاً فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه، والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه. فإن كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشئ عنه كذلك وإن كان ضيقاً وقليلاً فمثله. وفاقد الجاه وإن كان له مال فلا يكون يساره إلا بمقدار عمله أو ماله وعلى نسبة سعيه ذاهباً وآيباً في تنميته كأكثر التجار، وأهل الفلاحة في الغالب وأهل الصنائع كذلك، إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر ولا تسرع إليهم ثروة، وإنما يرمقون العيش ترميقاً ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة. وإذا تقرر ذلك وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله علمت إن بذله وإفادته من أعظم النعم وأجلها وأن باذلة من أجلّ المنعمين، وإنما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعن عزة، فيحتاج طالبه ومبتغيه إلى خضوع وتملق كما يسأل أهل العز والملوك وإلا فيتعذر حصوله. فلذلك قلنا: إن الخضوع والتملق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب، وإن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا الخلق ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض من الجاه فيقتصرون في التكسب على أعمالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة.

واعلم أن هذا الكبر والترفع من الأخلاق المذمومة إنما يحصل من توهم الكمال، وأن الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة، كالعالم المتبحر في علمه أو الكاتب المجيد في كتابته أو الشاعر البليغ في شعره، وكل محسن في صناعته يتوهم أن الناس محتاجون لما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك، وكذا يتوهم أهل الأنساب ممن كان في آبائه ملك أو عالم مشهور أو كامل في طور يعبرون به بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم في المدينة، ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم ووراثتهم عنهم. فهم متمسكون في الحاضر بالأمر المعدوم إذ الكمال لا يورث، وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالأمور قد يتوهم بعضهم كمالاً في نفسه بذلك واحتياجاً إليه.

وتجد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس، فيستنكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعده مذلة وهواناً وسفهاً. ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك. وربما يدخل على نفسه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه ويستمر في عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إباية الناس له من ذلك. ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التأله. وقل أن يسلم أحد منهم لأحد في الكمال والترفع عليه إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة. وهذا كله في ضمن الجاه. فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك مقته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من إحسانهم وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه لأجل المقت، وما يحصل له بذلك من القعود من تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل. وأما الثروة فلا تحصل له أصلاً.

ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ وهذا معناه. ومن خلق لشيء يسر له. والله المقدر لا رب سواه.

ولقد يقع في الدول أضراب في المراتب من أهل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك، وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويئس من سواهم من ذلك، وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك، وتحت يد السلطان وكأنهم خول له. فإذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من انتمى إلى خدمته وتقرب إليه بنصيحته واصطنعه السلطان لغنائه في كثير من مهماته. فتجد كثيراً من السوقة يسعى في التقرب من السلطان بجده ونصحه ويتزلف إليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسبه. حتى يرسخ قدمه معهم وينظمه السلطان في جملته فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينتظم في عدد أهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذللوا صعابها ومهدوا أكنافها، مغترين بما كان لآبائهم في ذلك من الآثار وتشمخ به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره ويجرون في مضمار الدّالة بسببه، فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم. ويميل إلى

هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ولا يذهبون إلى دالة ولا ترفع. إنما دأبهم الخضوع له والتملق والاعتمال في غرضه متى ذهب إليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم وتنصرف إليهم الوجوه والخواص بما يحصل لهم من ميل السلطان والمكانة عنده، ويبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم لا يزيدهم ذلك إلا بعداً من السلطان ومقتاً وإيثاراً لهؤلاء المصطنعين عليهم إلى أن تنقرض الدولة. وهذا أمر طبيعي في الدول، ومنه جاء شأن المصطنعين في الغالب، واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل السابع

في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

والسبب لذلك أن الكسب كما قدمناه قيمة الأعمال وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها. فإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران عامة البلوى فيه كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشد. وأهل هذه الصنائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه. وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر. وإنما يهتم بهم وبإقامة مراسمهم صاحب الدولة بما له من النظر في المصالح فيقسم لهم حظاً من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذي قررناه. لا يساويهم بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع الضروريه، وإن كانت بضاعتهم أشرف من حيث الدين والمراسم الشرعية، لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران فلا يصح في قسمتهم إلا القليل. وهم أيضاً لشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظاً يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والتدبر. بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف صنائعهم فهم بمعزل عن ذلك، فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب. ولقد باحثت بعض الفضلاء فأنكر ذلك علي فوقع بيدي أوراق مخرقة من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج يومئذ، وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين فوقفته عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه وقضينا العجب من أسرار اللّه في خليقته وحكمته في عوالمه، واللّه الخالق القادر لا رب سواه.

الفصل الثامن

في أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو

وذلك لأنه أصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه؛ ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضر في الغالب ولا من المترفين. ويختص منتحله بالمذلة، قال ﷺ وقد رأى السكة ببعض دور الأنصار: «ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل»، وحمله البخاري على الاستكثار منه. وترجم عليه (باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به).

والسبب فيه واللّه أعلم ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكم واليد العالية، فيكون الغارم ذليلاً بائساً بما تتناوله أيدي القهر والاستطالة. قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً»، إشارة إلى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق اللّه تعالى في المتمولات واعتبار الحقوق كلها مغرماً للملوك والدول. واللّه قادر على ما يشاء. واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل التاسع

في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيًا ما كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش. وذلك القدر النامي يسمى ربحاً. فالمحاول لذلك الربح: إما أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه، وإما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه. ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة: أنا أعلمها لك في كلمتين: اشتراء الرخيص وبيع الغالي. فقد حصلت التجارة إشارة منه بذلك إلى المعنى الذي قررناه. واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل العاشر

في أي أصناف الناس ينتفع بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها

قد تقدم أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء إما بانتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد هي فيه أنفق وأغلى، أو بيعها بالغلاء على الآجال. وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال نزر يسير؛ لأن المال إن كان كثيراً عظم الربح؛ لأن القليل في الكثير كثير.

ثم لا بد في محاولة هذه التنمية الذي هو الربح من حصول هذا المال بأيدي الباعة في شراء البضائع وبيعها. ومعاملتهم في تقاضي أثمانها. وأهل النصفة قليل، فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المطل في الأثمان المجحف بالربح. كتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها نماؤه. ومن الجحود والإنكار المُسْحِت لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة، وغناء الحكام في ذلك قليل؛ لأن الحكم إنما هو على الظاهر. فيعاني التاجر من ذلك أحوالاً صعبة. ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة، أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله. فإن كان جريئاً على الخصومة بصيراً بالحسبان شديد المماحكة مقداماً على الحكام كان ذلك أقرب له إلى النصفة بجراءته ومماحكته، وإلا فلا بد له من جاه يدّرع به، فيوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من غرمائه فيحصل له بذلك النصفة واستخلاص ماله طوعاً في الأول وكرهاً في الثاني، وأما من كان فاقداً للجراءة والإقدام من نفسه وفاقد الجاه من الحكام فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة؛ لأنه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير مأكلة للباعة ولا يكاد يتنصف منهم؛ لأن الغالب في الناس وخصوصاً الرعاع والباعة شرهون إلى ما في أيدي الناس سواهم متوثبون عليه. ولولا وازع الأحكام لأصبحت أموال الناس نهباً ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

الفصل الحادي عشر

في أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء؛ ولا بد فيه من المكايسة ضرورة فإن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها، وهي - أعني خلق المكايسة - بعيدة عن المروءة التي تتخلق بها الملوك والأشراف. وأما إن استرذل خلقه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم من المماحكة والغش والخلابة وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان رداً وقبولاً فأجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف. ولذلك تجد أهل الرئاسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لأجل ما يكسب من هذا الخلق. وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم جلاله إلا أنه في النادر بين الوجود، واللّه يهدي من يشاء بفضله وكرمه وهو رب الأولين والآخرين.

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع إلا ما تعم الحاجة إليه من الغني والفقير والسلطان والسوقة، إذ في ذلك نفاق سلعته. وأما إذا اختص نقله بما يحتاج إليه البعض فقط، فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ بأعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض فتكسد سوقه وتفسد أرباحه. وكذلك إذا نقل السلعة المحتاج إليها فإنما ينقل الوسط من صنفها، فإن الغالي من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الأقل. وإنما يكون الناس أسوة في الحاجة إلى الوسط من كل صنف فليتحر ذلك جهده ففيه نفاق سلعته أو كسادها، وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحاً وأكفل بحوالة الأسواق؛ لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها، وإذا قلّت وعزت غلت أثمانها. وأما إذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالأمن فإنه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها؛ ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم

أموالاً لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش. لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة يهتدي إليها أدلاء الركبان فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم. فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك. وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق لبعد الشقة أيضاً. وأما المترددون في الأفق الواحد ما بين أمصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقليها و ﴿اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الأمصار أن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشؤوم. وأنه يعود على فائدته بالتلف والخسران. وسببه - والله أعلم - أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبذلون فيها من المال اضطراراً، فتبقى النفوس متعلقة به، وفي تعلق النفوس بمالها سر كبير في وباله على من يأخذه مجاناً ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل، وهذا - وإن لم يكن مجاناً - فالنفوس متعلقة به لإعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالمكره وما عدا الأقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطرار للناس إليها وإنما يبعثهم عليها التفنن في الشهوات، فلا يبذلون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص. ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأخذه من أموالهم فيفسد ربحه. والله تعالى أعلم.

وسمعت فيما يناسب هذا حكاية ظريفة عن بعض مشيخة المغرب. أخبرني شيخنا أبو عبد الله الأبلي قال: حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان أبي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليلي، وقد عرض عليه أن يختار بعض الألقاب المخزنية لجرايته قال: فأطرق ملياً ثم قال لهم: من مكس الخمر. فاستضحك الحاضرون من أصحابه وعجبوا وسألوه عن حكمة ذلك. فقال: إذا كانت الجبايات كلها حراماً فأختار منها مالاً تتابعه نفس معطيه والخمر قل أن يبذل فيها أحد ماله إلا وهو طرب مسرور بوجدانه غير أسف عليه ولا متعلقة به نفسه؛ وهذه ملاحظة غريبة والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكنُّ الصدور.

الفصل الرابع عشر

في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخيص

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة. والتجارة هي شراء البضائع والسلع وادخارها. يتحين بها حوالة الأسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى ربحاً. ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائماً، فإذا استديم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فيه فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف ولم يحصل التاجر إلا على العناد، فقعد التجار عن السعي فيها وفسدت رؤوس أموالهم.

واعتبر ذلك أولاً بالزرع فإنه إذا استديم رخصه كيف تفسد أحوال المحترفين به بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه ونزارته أو فقده. فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه على قلة ويعودون بالإنفاق على رؤوس أموالهم وتفسد أحوالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة. ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرف من لدُن زراعته إلى صيرورته مأكولاً.

وكذا يفسد حال الجند إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعاً، فإنها تقل جبايتهم من ذلك ويعجزون عن إقامة الجندية التي هم بسببها، ويرتزقون من السلطان عليها ويقطع عنهم الرزق فتفسد أحوالهم، وكذا إذا استديم الرخص في العسل والسكر فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون به عن التجارة فيه، وكذا حال الملبوسات إذا استديم فيها الرخص أيضاً، فإذا الرخص المفرط مجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص، وكذا الغلاء المفرط أيضاً. وربما يكون في النادر سبباً لنماء المال بسبب احتكاره وعظم فائدته. وإنما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق، وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران. وإنما يحمد الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغني والفقير. والعالة من الخلق هم الأكثر في العمران فيعم الرفق بذلك ويرجح جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص و ﴿اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم.

الفصل الخامس عشر

في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

قد قدمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح، ولا بد في ذلك من المكايسة والمماحكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج وهي عوارض هذه الحرفة.

وهذه الأوصاف تغضُّ من الذكاء والمروءة وتجدح فيها لأن الأفعال لا بد من عود آثارها على النفس. فأفعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء، وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتتمكن وترسخ إن سبقت وتكررت وتنقص خلال الخير إن تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة في النفس شأن الملكات الناشئة عن الأفعال. وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم، فمن كان منهم سافل الطور مخالفاً لشرار الباعة أهل الغش والخلابة والخديعة والفجور في الأيمان على البياعات والأثمان إقراراً وإنكاراً. كانت رداءة تلك الخلق عنده أشد وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة. وإلا فلا بد له من تأثير المكايسة والمماحكة في مروءته، وفقدان ذلك فيهم في الجملة.

ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل قبلة أنهم يدرعون بالجاه ويعوض لهم من مباشرة ذلك، فيهم نادر وأقل من النادر. وذلك أن يكون المال قد توفر عنده دفعة بنوع غريب أو ورثه عن أحد من أهل بيته فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره، فيترفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من ولاته وحشمه. ويسهل له الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من بره وإتحافه، فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر. فتكون مروؤتهم أرسخ وأبعد عن المحرجات إلا ما يسري من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب، فإنهم يضطرون إلى مشارفة أحوال أولئك الوكلاء ووفاقهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الفصل السادس عشر

في أن الصنائع لا بد لها من العلم

اعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري ويكونه عملياً هو جسماني محسوس. والأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته. وعلى نسبة الأصل تكون الملكة. ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم. فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكه الحاصله على الخبر. وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته. ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب. والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للكماليات. والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصاً. ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج حتى تكمل. ولا يحصل ذلك دفعة وإنما يحصل في أزمان وأجيال، إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لا سيما في الأمور الصناعية فلا بد له إذن من زمان. ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط، فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل. وتنقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة. ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها. ومن الثاني الوراقة وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك. ومن الثالث الجندية وأمثالها. والله أعلم.

الفصل السابع عشر

في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته

والسبب في ذلك أن الناس ومالم يستوف العمران الحضري

وتمدن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها. فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش.

ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضرورته على العلوم والصنائع، وهي متأخرة عن الضروري. وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة. وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد او خياط أو حائك أو جزار. وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة، وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها.

وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها، فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز وصائغ وأمثال ذلك. وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد فيها كثير من الكمالات ويتأنق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها. بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ والسفاج والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع. ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها، فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك. وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارجاً عن الحد، كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الإنسية ويتخيل أشياء من العجائب بإيهام قلب الأعيان وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب؛ لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة. أدام اللّه عمرانها بالمسلمين. واللّه الحكيم العليم.

الفصل الثامن عشر

في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمده

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران والوأم. والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال. وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها. ولهذا فإنا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران، ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة، وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية بعد. وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد، فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللّهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده. فتجدهم أقوم عليها وأبصر بها. وتجد صنائعها مستحكمة لديهم، فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار. وإن كان عمرانها قد تناقص. والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدوة. وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جرا. فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول آماد الدول فيها، فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق. وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه إلى أن ينتقض بالكلية حال الصبغ إذا رسخ في الثوب. وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها من الحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم، وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال، وإن كان ذلك دون الأندلس، إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما. وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنة، وربما سكن أهلها هناك عصوراً فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان. فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن

أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة. ورسخ فيها من ذلك أحوال، وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد، إلا أن الصبغة إذا استحكمت فقليلاً ما تحول إلا بزوال محلها. وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك، وإن كانت هذه كلها اليوم خراباً أو في حكم الخراب. ولا يتفطن لها إلا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثاراً تدله على ما كان بها كأثر الخط الممحو في الكتاب والله ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

الفصل التاسع عشر

في أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجاناً؛ لأنه كسبه ومنه معاشه. إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع. وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها النفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع. فيجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم. وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد إلى تعلمها، فاختصت بالترك وفقدت للإهمال. ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن. بمعنى أن صناعته هي قيمته أي قيمة عمله الذي هو معاشه. وأيضاً فهنا سر آخر وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها. وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها؛ لأن الدولة هي السوق الأعظم وفيها نفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة. فما نفق فيها كان أكثرياً ضرورة. والسوقة وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة. والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء.

الفصل العشرون

في أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما بيناه من أن الصنائع إنما تستجاد إذا احتيج إليها وكثر طالبها. فإذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتقاص عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم، فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف؛ لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر إلى غيرها، أو يموت ولا يكون خلف منه. فيذهب رسم تلك الصنائع جملة، كما يذهب النقاشون والصواغون والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنّاع لحاجات الترف. ولا تزال الصناعات في التناقص ما زال المصر في التناقص إلى أن تضمحل. والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى.

الفصل الحادي والعشرون

في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها. والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها؛ لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه. حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش وفي القفر، والإعراق في البدو، مفقودة لديهم بالجملة، ومفقودة مراعيها، والرمال المهيئة لنتاجها؛ ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة، حتى تجلب إليه من قطر آخر. وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية، كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم. وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين. ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه.. فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة إلا ما كان من صناعة الصوف في نسجه، والجلد في خرزه ودبغه. فإنهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين أغلب السلع في قطرهم، لما هم عليه من حال البداوة. وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين من الفرس والنبط والقبط وبني إسرائيل ويونان والروم أحقاباً متطاولة، فرسخت فيهم أحوال الحضارة. ومن جملتها الصنائع كما قدمناه، فلم يمح رسمها. وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة، وإن ملكه العرب، إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين في أمم كثيرة منهم. واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم. والتبابعة والأذواء فطال

أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت، فلم تبل ببلى الدولة كما قدمناه. فبقيت مستجدة حتى الآن. واختصت بذلك للوطن، كصناعة الوشي والعصب وما يستجاد من حَوْكِ الثياب والحرير فيها، واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل الثاني والعشرون

في أن من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة في أخرى

ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها. والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة. ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها. فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف. وهذا بين يشهد له الوجود. فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معاً على رتبة واحدة من الإجادة. حتى إن أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة. ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته، بل يكون مقصراً فيه إن طلبه إلا في الأقل النادر من الأحوال. ومبني سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلوينه بلون الملكة الحاصلة في النفس. واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل الثالث والعشرون

في الإشارة إلى أمهات الصنائع

اعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة في العمران. فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد. إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ما سواها. فأما الضروري فكالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة، وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب.

فأما التوليد فإنها ضرورية في العمران وعامة البلوى إذ بها تحصل حياة المولود ويتم غالباً. وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهاتهم.

وأما الطب فهو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة، وموضوعه مع ذلك بدن الإنسان.

وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني.

وأما الغناء فهو نسب الأصوات ومظهر جمالها للأسماع. وكل هذه الصنائع الثلاث داع إلى مخالطة الملوك الأعاظم في خلواتهم ومجالس أنسهم، فلها بذلك شرف ليس لغيرها. وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة في الغالب. وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعي. واللّه أعلم بالصواب.

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعها وعلاج نباتها وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه وإحكام الأعمال لذلك. وتحصيل أسبابه ودواعيه. وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالباً، إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت. ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو. إذ قدمنا أنه أقدم من الحضر وسابق عليه، فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها؛ لأن أحوالهم كلها ثانية عن البداوة، فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها. واللّه سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد.

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكن والمأوى للأبدان في

المدن. وذلك أن الإنسان لما جبل عليها من الفكر في عواقب أحواله، لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها، والبشر مختلفون في هذه الجبلة الفكرية التي هي معنى الإنسانية، فالمفيدون فيها ولو على التفاوت يتخذون ذلك باعتدال كأهل الإقليم الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس. وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك لقصور أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج. ثم المعتدلون والمتخذون البيوت للمأوى قد يتكاثرون فتكثر بيوتهم في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون من طروق بعضهم بعضاً بياتاً فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة سياج الأسوار التي تحوطهم ويصير جميعاً مدينة واحدة ومصراً واحداً يحوطهم فيها الحكام بدفاع بعضهم عن بعض، وقد يحتاجون إلى الاعتصام من العدو ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم، وهؤلاء مثل الملوك ومن في معناهم من الأمراء وكبار القبائل. ثم يختلف أحوال البناء في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر. وكذا حال أهل المدينة الواحدة، فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالأصبغة والجص ويبالغ في كل ذلك بالتنجيد والتنميق إظهاراً للبسطة بالعناية في شأن المأوى. ويهيىء مع ذلك الأسراب والمطامير لاختزان أقواته والإسطبلات لربط مقرباته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معناهم، ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره عن الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة.

وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ويبالغون في إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصناعة مبالغها. وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك كله، وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه، إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها. وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين أو يأوون إلى الكهوف والغيران. وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون: فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر. ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة: فمنها البناء بالحجارة المنجدة أو بالآجر يقام بها الجدران ملصقاً بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها فيلتحم كأنها جسم واحد، ومنها البناء بالتراب خاصة تقام منه حيطان بأن يتخذ لها لوحان من الخشب مقدّران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير. وأوسطه أربع أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد ما بينهما على ما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر. ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مختلطاً بالكلس ويركز بالمراكز المعدة لذلك حتى ينعم ركزه ويختلط أجزاؤه بالكلس، ثم يزاد التراب ثانياً وثالثاً إلى أن يمتلىء ذلك الخلاء بين اللوحين وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً. ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة الأولى ويركز كذلك إلى أن يتم وتنتظم الألواح كلها سطراً فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحماً كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب. ومن صنائع البناء أيضاً أن تجلل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعاً أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط النارية المفسدة للإلحام. فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك إلى أن يلتحم.

ومن صنائع البناء عمل السقف بأن تمد الخشب المحكمة النجارة أو الساذجة على حائطي البيت ومن فوقها الألواح كذلك موصولة بالدساتر ويصب عليها التراب والكلس ويبلط بالمراكز حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالى عليها الكلس كما يعالى على الحائط. ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء ثم يرجع جسداً وفيه بقية البلل، فيشكل على التناسب تخريماً بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورواء. وربما عولي على الحيطان بقطع الرخام أو الآجر أو الخزف أو بالصدف أو السبج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في الكلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط للعيان، كأنه قطع الرياض المنمنمة. إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسيح الماء بعد أن تعد في البيوت قصاع الرخام القوراء المحكمة الخرط بالفوهات في وسطها لنبع الماء الجاري إلى الصهريج يجلب إليها من خارج في القنوات المفضية به إلى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء.

وتختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون. وربما يرجع الحكام إلى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء. وذلك أن الناس في المدن الكثيرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء للأعلى والأسفل في الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول

الضرر في الحيطان. فيمنع جاره من ذلك إلا ما كان لـه فيـه حـق. ويختلفـون أيضـاً في استحقاق الطـرق والمنـافذ للميـاه الجاريـة والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعـض في حائطه أو علوه أو قناته لتضايق الجـوار، أو يدعـي بعضهـم علـى جاره اعتلال حائطه وخشية سقوطه ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمـه ودفع ضرره عن جاره عنـد مـن يـراه أو يحتـاج إلى قسـمة دار أو عرصة بين شريكين، بحيث لا يقع معها فساد في الـدار ولا إهمـال لمنفعتها، وأمثال ذلك. ويخفى جميع ذلك إلا على أهل البصر بالبناء العارفين بأحواله المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكـز الخشـب وميل الحيطـان واعتدالها وقسـم المسـاكن علـى نسـبة أوضاعهـا. ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضـر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلـك. فلهـم بهـذا كلـه البصر والخبرة التي ليست لغيرهـم. وهـم مع ذلك يختلفون بـالجودة والقصور في الأجيال باعتبار الدول وقوتها.

فإنا قدمنا أن الصنائع وكمالهـا، إنمـا هـو بكمـال الحضـارة، وكثرتها بكثرة الطالب لها. فلذلك عندمـا تكـون الدولـة بدويـة في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى غير قطرها. كما وقع للوليـد بـن عبد الملك حين أجمع على بناء مسـجد المدينـة والقـدس ومسـجده بالشام. فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث إليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد.

وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشـياء مـن الهندسـة مثـل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بـأخذ الارتفـاع وأمثـال ذلـك فيحتاج إلى البصـر بشـيء مـن مسـائله. وكذلـك في جـر الأثقـال بالهندام، فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجـارة الكبـيرة تعجـز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق من أثقاب مقدرة على نسب هندسـية تصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفاً وتسـمى آلـة لذلـك بالمخـال، فيتم المراد من ذلك بغـير كلفـة، وهـذا إنمـا يتـم بـأصول هندسـية معروفة متداولين بين البشر وبمثلهـا كـان بنـاء الهيـاكل الماثلـة لهـذا العهد التي يحسب أنها من بناء الجاهلية. وأن أبدانهـم كـانت علـى نسبتها في العظم الجسماني وليس كذلك، وإنما تم لهم ذلك بـالحيل الهندسية كما ذكرناه. فتفهم ذلك. والله يخلق ما يشاء سبحانه.

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هذه الصناعـة مـن ضروريـات العمـران ومادتهـا الخشـب، وذلك أن الله سبحانه وتعـالى جعـل للآدمي في كـل مكـون مـن المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشـجر، فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد. ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا يبست، وأول منـافع الخشـب أن يكـون وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للاتكـاء والـذود وغيرهمـا مـن ضرورياتهم ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم. ثم بعد ذلك منـافع أخرى لأهل البدو والحضر:

فأما أهل البـدو فيتخـذون منهـا العمـد والأوتـاد لخيـامهم والحدوج لظعائنهم، والرماح والقسي والسهام لسلاحهم.

وأما أهل الحضـر فالسـقف لبيوتهـم والأغـلاق لأبوابهـم والكراسي لجلوسهم. وكل واحدة من هذه فالخشـبة مـادة لهـا ولا تصير إلى الصـورة الخاصـة بهـا إلا بالصناعـة. والصناعـة المتكللـة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجـارة علـى اختـلاف رتبها. فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً: إما بخشب أصغر منه أو ألواح. ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة. فهو في كل ذلك يحاول بصنعته إعداد تلـك الفصـائل بالانتظـام إلى أن تصـير أعضـاء لذلـك الشـكل المخصـوص. والقـائم علـى هـذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران.

ثم إذا عظمت الحضـارة وجـاء الـترف وتـأنق النـاس فيمـا يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسـي أو مـاعون، حدث التأنق في صناعـة ذلـك واسـتجادته بغرائـب مـن الصناعـة كمالية ليست من الضروري في شـيء مثـل التخطيـط في الأبـواب والكراسي ومثل تهيئة القطع مـن الخشـب بصناعـة الخـرط يحكـم بريها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدساتر فتبدو لمرأى العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب. يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجـيء آنـق مـا يكـون. وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشـب مـن أي نوع كان.

وكذلـك قـد يحتـاج إلى هـذه الصناعـة في إنشـاء المراكـب البحرية ذات الألواح والدسر وهي أجرام هندسـية صنعـت علـى قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله؛ ليكون ذلـك الشكل أعون لها علـى مصادمـة المـاء وجعـل لهـا عـوض الحركـة

الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح. وربما أعينت بحركة الجاذيف كما في الأساطيل. وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى جزء كبير من الهندسة في جميع أصنافها؛ لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير، إما عموماً أو خصوصاً، وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس.

ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة، فكان أوقليدوس صاحب كتاب «الأصول في الهندسة» نجاراً وبها كان يعرف. وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب «المخروطات» وميلاوش وغيرهم. وفيما يقال: إن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان. وهذا الخبر وإن كان ممكناً أعني كونه نجاراً إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد. وإنما معناه والله أعلم الإشارة إلى قدم النجارة؛ لأنه لم تصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها. فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الحياكة والخياطة

اعلم أن المعتدلين من البشر في معنى الإنسانية لا بد لهم من الفكر في الدفء كالفكر في الكن. ويحصل الدفء باشتمال المنسوج للوقاية من الحر والبرد. ولا بد لذلك من إلحام الغزل حتى يصير ثوباً واحداً، وهو النسج والحياكة. فإن كانوا بادية اقتصروا عليه، وإن مالوا إلى الحضارة فصلوا تلك المنسوجة قطعاً يقدرون منها ثوباً على البدن بشكله وتعدد أعضائه واختلاف نواحيها. ثم يلائمون بين تلك القطع بالوصائل حتى تصير ثوباً واحداً على البدن ويلبسونها. والصناعة المحصلة لهذه الملاءمة هي الخياطة.

وهاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه، فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإلحاماً في العرض وإحكاماً لذلك النسج بالالتحام الشديد، فيتم منها قطع مقدرة: فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس. والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد، تفصل أولاً بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو حبكاً أو تنبيتاً أو تفتيحاً على حسب نوع الصناعة.

وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً. وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها. وتفهم هذه في سر تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه، لا طيباً ولا نساءً ولا مخيطاً ولا خفاً، ولا يتعرض لصيد ولا لشيء من عوائده التي تكونت بها نفسه وخلقه، مع أنه يفقدها بالموت ضرورة. وإنما يجيء كأنه وارد على المحشر ضارعاً بقلبه مخلصاً لربه. وكان جزاؤه إن تم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. سبحانك ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طلب هدايتهم إليك.

وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل. وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج أهله إلى دفء. ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان أنهم عراة في الغالب. ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام وهو أقدم الأنبياء. وربما ينسبونها إلى هرمس وقد يقال: إن هرمس هو إدريس. والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم.

الفصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه من الرفق في إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك. ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر. وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض. وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة. استعير فيها معنى الإعطاء والقبول كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله. وذلك أن الجنين إذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ إلى غايته والمدة التي قدر الله لمكثه وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر. وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع بعض ما كان من الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم. وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلق، فتكون القابلة معينة في ذلك

بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يحاذي الرحم من الأسافل تساوق بذلك فعل الدافعة في إخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدي إلى معرفة عسره. ثم إذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه. وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضيلة ولا تضر بمعاه ولا برحم أمه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي أو بما تراه من وجوه الاندمال.

ثم إن الجنين عند خروجه من ذلك المنفذ الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمز والإصلاح حتى يرجع كل عضو إلى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سوياً. ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين؛ لأنها ربما تتأخر عن خروجه قليلا. ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية وهي فضلات فتتعفن ويسري عفنها إلى الرحم فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول في إعانة الدفع إلى أن تخرج تلك الأغشية إن كانت قد تأخرت ثم ترجع إلى المولود فتمرخ أعضاءه بالأدهان والذرورات القابضة لتشده وتجفف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لهاته وتسعطه لاستفراغ نطوف دماغه وتغرغره باللعوق لدفع السدد من معاه وتجويفها عن الالتصاق. ثم تداوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق وما لحق رحمها من ألم الانفصال، إذ المولود وإن لم يكن عضواً طبيعياً فحالة التكوين في الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل؛ فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع. وتداوي مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج. وهذه كلها أدواء نجد هولاء القوابل أبصر بدوائها. وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه إلى حين الفصال نجدهن أبصر بها من الطبيب الماهر. وما ذاك إلا لأن بدن الإنسان في تلك الحالة إنما هو بدن إنساني بالقوة فقط. فإذا جاوز الفصال صار بدناً إنسانياً بالفعل، فكانت حاجته حينئذ إلى الطبيب أشد. فهذه الصناعة -كما تراه- ضرورية في العمران للنوع الإنساني، لا يتم كون أشخاصه في الغالب دونها.

وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة، إما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقاً للعادة كما في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أو بإلهام وهداية يلهم لها المولود ويفطرعليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة. فأما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيراً. ومنه ما روي أن النبي ﷺ ولد مسروراً مختوناً واضعاً يديه على الأرض شاخصاً ببصره إلى السماء. وكذلك شأن عيسى في المهد وغير ذلك. وأما شأن الإلهام فلا ينكر. وإذا كانت الحيوانات العجم تختص بغرائب الإلهامات كالنحل وغيرها فما ظنك بالإنسان المفضل عليها. وخصوصاً من اختص بكرامة الله.

ثم الإلهام العام للمولودين في الإقبال على الثدي أوضح شاهد على وجود الإلهام العام لهم. فشأن العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به. ومن هنا يفهم بطلان رأي الفارابي وحكماء الأندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الانواع واستحالة انقطاع المكونات. وخصوصاً في النوع الإنساني، وقالوا: لو انقطعت أشخاصه لاستحال وجودها بعد ذلك لتوقفه على وجود هذه الصناعة التي لا يتم كون الإنسان إلا بها. إذ لو قدرنا مولوداً دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين الفصال لم يتم بقاؤه أصلاً. ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لأنها ثمرته وتابعة له. وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته إياه وذهابه إلى إمكان انقطاع الأنواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانياً لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبة تندر في الأحقاب بزعمه، فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه إنساناً ثم يقيض له حيوان يخلق فيه إلهاماً لتربيته والحنو عليه إلى أن يتم وجوده وفصاله. وأطنب في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حي بن يقظان. وهذا الاستدلال غير صحيح وإن كنا نوافقه على انقطاع الأنواع لكن من غير ما استدل به. فإن دليله مبني على إسناد الأفعال إلى العلة الموجبة. ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الأفعال والقدرة القديمة ولا حاجة إلى هذا التكلف.

ثم لو سلمناه جدلاً فغاية ما ينبني عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته في الحيوان الأعجم. وما الضرورة الداعية لذلك؟ وإذا كان الإلهام يخلق في الحيوان الأعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولاً. وخلق الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره، فكلا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما لما قررته لك والله تعالى أعلم.

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وأنها محتاج إليها في الحواضر والأمصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدتها، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم. واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية كما قال ﷺ في الحديث الجامع للطب كما ينقل بين أهل الصناعة وإن طعن فيه العلماء وهو قوله: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة».

فأما قوله: «المعدة بيت الداء» فهو ظاهر.

وأما قوله «الحمية رأس الدواء» فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام. والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الأدوية.

وأما قوله «أصل كل داء البردة» فمعنى البردة إدخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الأول.

وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دماً ملائماً لأجزاء البدن من اللحم والعظم، ثم تأخذه النامية فينقلب لحماً وعظماً. ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طوراً بعد طور حتى يصيرجزءاً بالفعل من البدن، وتفسيره أن الغذاء إذا حصل في الفم ولاكته الأشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخاً يسيراً وقلبت مزاجه بعض الشيء، كما تراه في اللقمة إذا تناولتها طعاماً ثم أجدتها مضغاً فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموساً وهو صفو ذلك المطبوخ وترسله إلى الكبد وترسل ما رسب منه في المعاء ثفلاً ثم ينفذ إلى المخرجين. ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دماً عبيطاً وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء. وترسب منه أجزاء يابسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم. ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول، ويأخذها طبخ الحار الغريزي هناك، فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني وتأخذ النامية مأخذها في الدم فيكون لحماً ثم غليظه عظاماً. ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع. هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لحماً.

ثم إن أصل الأمراض ومعظمها هي الحميات. وسببها أن الحار الغريزي قد يضعف عن إتمام النضج في طبخه في كل طور من هذه، فيبقى ذلك الغذاء دون نضج، وسببه غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأول، فيشتغل به الحار الغريزي ويترك الأول بحالة أو يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج. وترسله المعدة كذلك إلى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على إنضاجه. وربما بقي في الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة. وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو، فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللعاب إن اقتدر على ذلك. وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة وتتزايد مع الأيام. وكل ذي رطوبة من الممتزجات إذا لم يأخذه الطبخ والنضج يعفن، فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط. وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هي المسماة في بدن الإنسان بالحمى.

واعتبر ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفي الزبل إذا تعفن أيضاً، كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها. فهذا معنى الحميات في الأبدان وهي رأس الأمراض وأصلها كما وقع في الحديث. ولهذه الحميات علاجات بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ثم تناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه. وكذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ من هذا المرض وغيره، وأصله كما وقع في الحديث، وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص، فيتولد عنه مرض في ذلك العضو أو تحدث جراحات في البدن: إما في الأعضاء الرئيسة أو في غيرها. وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له. هذه كلها جماع الأمراض، وأصلها في الغالب من الأغذية وهذا كله مرفوع إلى الطبيب.

ووقوع هذه الأمراض في أهل الحضر والأمصار أكثر. لخصب عيشهم وكثرة مآكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية وعدم توقيتهم لتناولها. وكثيراً ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه، رطباً ويابساً في سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع. فربما عددنا في اللون الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعاً من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب. وربما يكون بعيداً عن ملاءمة البدن وأجزائه. ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات. والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها لأثر الحار

الغريزي في الهضم. ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ولا تؤثر فيهم أثراً، فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والأمصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة.

وأما أهل البدو فمأكولهم قليل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة. وربما يظن أنها جبلة لاستمرارها. ثم الأدم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة. وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إليه ترف الحضارة الذين هم بمعزل عنه فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن. وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات إن كانوا آهلين، أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظواعن.

ثم إن الرياضة موجودة فيهم من كثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات أو مهنة أنفسهم في حاجاتهم، فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد إدخال الطعام على الطعام فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد عن الأمراض، فتقل حاجتهم إلى الطب. ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه. وما ذاك إلا للاستغناء عنه إذ لو احتيج إليه لوجد، لأنه يكون له بذلك في البدو معاش يدعوه إلى سكناه ﴿سنة اللّه التي قد خلت في عباده وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾.

الفصل الثلاثون

في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس. فهو ثاني رتبة عن الدلالة اللغوية، وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان. وأيضاً فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد فتقضي الحاجات وقد دفعت مؤونة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه في علومهم وأخبارهم، فهي شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع. وخروجها في الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة. إذ هو من جملة الصنائع. وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون، ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصراً وقراءته غير نافذة. ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقاً لاستحكام الصنعة فيها. كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وتأتي ملكته على أتم الوجوه.

وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال، وليس الشأن في تعليم الخط بالأندلس والمغرب كذلك في تعلم كل حرف بانفراده، على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم، وإنما يتعلم بمحاكاة الخط من كتابة الكلمات جملة. ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له، إلى أن يحصل له الإجادة ويتمكن في بنانه الملكة؛ فيسمى مجيداً. وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري. وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق. ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين. فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر. ويقال: إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال: حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة. وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم:

قوم لهم ساحة العراق إذا ... ساروا جميعاً والخط والقلم

وهو قول بعيد؛ لأن إياداً وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة. والخط من الصنائع الحضرية. وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها، فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال، ورأيت في كتاب «التكملة» لابن الأبار عند التعريف بابن فروخ القيرواني الفاسي الأندلسي من أصحاب مالك رضي اللّه عنه واسمه عبد اللّه بن فروخ بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم. عن أبيه قال: قلت لعبد اللّه بن عباس: يا معشر قريش! خبروني عن هذا الكتاب العربي، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث اللّه محمداً ﷺ تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام والميم والنون؟ قال: نعم. قلت: وممن أخذتموه؟ قال: من حرب بن أمية. قلت: وممن أخذه حرب؟ قال:

من عبد الله بن جدعان. قلت: وممن أخذه عبد الله بن جدعان؟ قال: من أهل الأنبار. قلت: وممن أخذه أهل الأنبار؟ قال: من طارئ طرأ عليه من أهل اليمن. قلت: وممن أخذه ذلك الطارئ؟ قال: من الخلجان بن القسم كاتب الوحي لهود النبي عليه السلام. وهو الذي يقول:

أفي كل عام سنة تحدثونها ورأي على غير الطريق يعبر

والموت خير من حياة تسبنا بها جرهم فيمن يسب وحمير

انتهى ما نقله ابن الأبار في كتاب التكملة.

وزاد في آخره: حدثني بذلك أبو بكر بن أبي حميره في كتابه عن أبي بحر بن العاص عن أبي الوليد الوقشي، عن أبي عمر الطلمنكي ابن أبي عبد الله بن مفرح. ومن خطه نقلته عن أبي سعيد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان، عن يحيى بن محمد بن حشيش بن عمر بن أيوب المعافري التونسي، عن بهلول بن عبيدة الحمي، عن عبد الله بن فروخ. انتهى.

وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم. ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو، فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الأكثر. فكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريباً من كتابتهم لهذا العهد أو نقول: إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة؛ لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول. وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر، فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع، وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله ﷺ وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه. كما يقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركاً ويتبع رسمه خطأً أو صواباً. وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه، فاتبع ذلك وأثبت رسماً ونبه العلماء بالرسم على مواضعه.

ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه. ويقولون في مثل زيادة الألف في: لا أذبحنه: إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع؛ وفي زيادة الياء في بأييد إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض. وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط. وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح.

واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر. والكمال في الصنائع إضافي وليس بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس. وقد كان النبي ﷺ أمياً وكان ذلك كمالاً في حقه وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها. وليست الأمية كمالاً في حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية، فإن الكمال في حقه وتنزهه عنها جملةً بخلافنا.

ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلموه وتداولوه، فترقت الإجادة فيه واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان إلا أنها كانت دون الغاية. والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد.

ثم انتشرت العرب في الأقطار والممالك وافتتحوا إفريقية والأندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الإسلام ومركز الدولة العربية، وخالفت أوضاع الخط ببغداد أوضاعه بالكوفة. في الميل إلى إجادة وجمال الرونق وحسن الرواء. واستحكمت هذه المخالفة في الأمصار إلى أن رفع رايتها ببغداد علي بن مقلة الوزير. ثم تلاه في ذلك علي بن هلال. الكاتب الشهير بابن البواب. ووقف سند تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها.

وبعدت رسوم الخط البغدادي وأوضاعه عن الكوفة حتى انتهى إلى المباينة. ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة في إحكام رسومه وأوضاعه، حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت والولي علي العجمي. ووقف سند تعليم الخط عليهم وانتقل ذلك إلى مصر، وخالفت طريقة العراق بعض الشيء ولقنها العجم هنالك، فظهرت مخالفة لخط أهل مصر أو مباينة.

وكان الخط الإفريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد. يقرب من أوضاع الخط المشرقي وتميز ملك الأندلس بالأمويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد. وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر. وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له، وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه.

ثم لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم إلى مصر والقاهرة، فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد وللخط بها معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين في وضعها، وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسناً وحذق فيها دربةً وكتابةً وأخذها قوانين علمية فتجيء أحسن ما يكون.

وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد. وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة، فغلب خطهم على الخط الأفريقي وعفّى عليه ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما. وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس. وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم. إنما كانوا يفدون على دار الملك بتونس فصار خط أهل إفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس حتى إذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران، نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران. وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها، وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً واستعمالهم إياهم سائر الدولة. ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره. كأنه لم يعرف. فصارت الخطوط بإفريقية والمغربين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر، ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول، والله يحكم لا معقب لحكمه.

وللأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي الشهير بابن البواب قصيدة من بحر البسيط على روي الراء يذكر فيها صناعة الخط وموادها من أحسن ما كتب في ذلك. رأيت إثباتها في هذا الكتاب من هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة. وأولها:

يا من يريد إجادة التحرير ... ويروم حسن الخط والتصوير
إن كان عزمك في الكتابة صادقاً ... فارغب إلى مولاك في التيسير
أعدد من الأقلام كل مثقف ... صلب يصوغ صناعة التحبير
وإذا عمدت لبرية فتوخه ... عند القياس بأوسط التقدير
انظر إلى طرفيه فاجعل بريه ... من جانب التدقيق والتخضير
واجعل لجلفته قواماً عادلاً ... خلواً عن التطويل والتقصير
والشق وسّطه ليبقى بريه ... من جانبيه مشاكل التقدير
حتى إذا أتقنت ذلك كله ... فالقط فيه جملة التدبير
لا تطمعن في أن أبوح بسره ... إني أضن بسره المستور
لكن جملة ما أقول بأنه ... ما بين تحريف إلى تدوير
وألق دواتك بالدخان مدبراً ... بالخل أو بالحصرم المعصور
واضف إليه مغرة قد صولت ... مع أصفر الزرنيخ والكافور
حتى إذا ما خمرت فاعمد إلى ... الورق النقي الناعم المخبور
فاكبسه بعد القطع بالمعصار كي ... ينأى عن التشعيث والتغيير
ثم اجعل التمثيل دابك صابراً ... ما أدرك المأمول مثل صبور
إبدأ به في اللوح منتضيا له ... عزماً تجرده عن التشمير
لا تخجلن من الردى تختطه ... في أول التمثيل والتسطير
فالأمر يصعب ثم يرجع هيناً ... ولرب سهل جاء بعد عسير
حتى إذا أدركت ما أملته ... أضحيت رب مسرة وحبور
فاشكر إلهك واتبع رضوانه ... إن الإله يحب كل شكور
وارغب لكفك أن تخط بنانها ... خيراً تخلفه بدار غرور
فجميع فعل المرء يلقاه غداً ... عند الشقاء كتابه المنشور

واعلم بأن الخط بيان عن القول والكلام، كما أن القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني فلا بد لكل منهما أن يكون واضح الدلالة.

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ وهو يشتمل بيان الأدلة كلها. فالخط المجرد كماله أن تكون دلالته واضحة، بإبانة حروفه المتواضعة وإجادة وضعها ورسمها كل واحد على حدة متميز عن الآخر. إلا ما اصطلح عليه الكتاب من إيصال

حرف الكلمة الواحدة بعضها ببعض. سوى حروف اصطلحوا على قطعها، مثل الألف المتقدمة في الكلمة، وكذا الراء والزاي والدال والذال وغيرها، بخلاف ما إذا كانت متأخرة. وهكذا إلى آخرها. ثم إن المتأخرين من الكتاب اصطلحوا على وصل كلمات، بعضها ببعض، وحذف حروف معروفة عندهم، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم فتستعجم على غيرهم وهؤلاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة، كأنهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم لكثرة موارد الكتابة عليهم، وشهرة كتابتهم وإحاطة كثير من دونهم بمصطلحهم؛ فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم فينبغي أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان ما استطاعوه، وإلا كان بمثابة الخط الأعجمي، لأنهما بمنزلة واحدة من عدم التواضع عليه. وليس بعذر في هذا القدر، إلا كتاب الأعمال السلطانية في الأموال والجيوش، لأنهم مطلوبون بكتمان ذلك عن الناس فإنه من الأسرار السلطانية التي يجب إخفاؤها، فيبالغون في رسم اصطلاح خاص بهم. ويصير بمثابة المعمى. وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب والفواكه والطيور والأزاهر، ووضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما في ضمائرهم بالكتابة. وربما وضع الكتاب للعثور على ذلك، وإن لم يضعوه أولاً، قوانين بمقاييس استخرجوها لذلك بمداركهم يسمونها فك المعمى. وللناس في ذلك دواوين مشهورة. والله العليم الحكيم.

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط. وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة. وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس، إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهما. فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت. وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران. وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات، والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة التآليف صدر الملة كما نذكره. وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحة والإتقان.

ثم طما بحر التآليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك. فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه. واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية. وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت. ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها وواضعيها؛ لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها والفتيا إلى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها. وما لم يكن تصحيح المتون بإسنادها إلى مدونها فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتيا. وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق.

حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط، إذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمخضت زبدةً في تلك الأمهات المتلقاة بالقبول عند الأمة. وصار القصد إلى ذلك لغواً من العمل. ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا في تصحيح تلك الأمهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا، وغير ذلك من الدواوين والتآليف العلمية. واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم، والإسناد إليهم. وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبدة الطرق واضحة المسالك. ولهذا نجد الدواوين المنسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة. ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك. وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضنانة، ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية ينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف، فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقل النادر.

وأيضاً فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذاهب، وإنما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه. وتبع ذلك أيضاً ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التآليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية

بمقاصده. ولم يبق من هذا الرسم بالأندلس إلا إثارة خفية بالأنحاء وهي على الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب. والله غالب على أمره. ويبلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد. إلا أن الخط الذي بقي من الإجادة في الانتساخ هنالك إنما هو للعجم وفي خطوطهم. وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب وأشد. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة. ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفيه في تلك الأصوات. وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب، فيكون: صوت نصف صوت وربع آخر وخمس آخر وجزء من أحد عشر من آخر. واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة إلى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذاً عند السماع بل للمذوذ تراكيب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه، وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات إما بالقرع أو بالنفخ في آلات تتخذ لذلك فتزيدها لذة عند السماع.

فمنها لهذا العهد بالمغرب أصناف منها المزمار ويسمونه الشبابة وهي قصبة جوفاء بأبخاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت. ويخرج الصوت من جوفها على سداده من تلك الأبخاش ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك الأبخاش وضعاً متعارفاً حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلتذ السمع بإدراكها للتناسب الذي ذكرناه.

ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يسمى الزلامي وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب جوفاء من غير تدوير لأجل ائتلافها في قطعتين منفوذتين كذلك بأبخاش معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل، فينفذ النفخ بواسطتها إليها وتصوت بنغمة حادة ويجري فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأبخاش بالأصابع مثل ما يجري في الشبابة.

ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع. يتسع إلى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار دور الكف في شكل بري القلم. وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم إليه فيخرج الصوت ثخيناً دوياً وفيه أبخاش أيضاً معدودة. وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب فيكون ملذوذاً.

ومنها آلات الأوتار وهي جوفاء كلها: إما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون توضع الأوتار على بسائطها مشدودة في رأسها إلى دسر جائلة ليتأتى شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليه بإدارتها. ثم تقرع الأوتار إما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر. ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو نقله من وتر إلى وتر. واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة. وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع.

ولنبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء. وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم، والمحسوس إنما تدرك منه كيفية. فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة، وإذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة. فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق في مزاجها، وكذا الملائم من الملموسات، وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه المدرك وإليه تؤديه الحاسة. ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي.

وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها. فإذا كان المرئي متناسباً في أشكاله وتخاطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع، وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك. كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة فتلتذ بإدراك ملائمها، ولهذا تجد العاشقين المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب. وفي هذا سر تفهمه إن كنت من أهله وهو اتحاد المبدأ وإن كان ما سواك إذا نظرته وتأملته رأيت بينك

وبينه اتحاداً في البداية. يشهد لك به اتحادكما في الكون ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء. فتود أن تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى الحقيقة التي هي اتحاد المبدإ والكون. ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى مدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني، فكان إدراكه للجمال والحسن في تخاطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته، فيلهج كل إنسان بالحسن في المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة. والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة. وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك. والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن.

فأولاً: أن لا يخرج من الصوت إلى مدِّه دفعة بل بتدريج. ثم يرجع كذلك، وهكذا إلى المثل، بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين. وتأمل هذا من استقباح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فإنه من بابه.

وثانياً: تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه، على حسب ما يكون التنقل متناسباً على ما حصره أهل صناعة الموسيقى. فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة. ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعين عليه لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك. وتسمي العامة هذه القابلية بالمضمار. وكثير من القراء بهذه المثابة يقرأون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم. ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس يستوي في معرفته ولا كل الطبائع توافق صاحبها في العمل به إذا علم.

وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم. وقد أنكر مالك رحمه اللّه تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي اللّه تعالى عنه. وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فإنه لا ينبغي أن يختلف في حظره إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه؛ لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف من حيث إتباع الحركات في مواضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره، وأمثال ذلك. والتلحين أيضاً يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين، فاعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا. وتقديم التلاوة متعين فراراً من تغيير الرواية المنقولة في القرآن، فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر في القرآن بوجه، وإنما المراد من اختلافهم التلحين البسيط الذي يهتدي إليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه، فيردد أصواته ترديداً على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك. هذا هو محل الخلاف. والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب إليه الإمام رحمه اللّه تعالى؛ لأن القرآن هو محل خشوع بذكر الموت وما بعده وليس مقام التلذاذ بإدراك الحسن من الأصوات. وهكذا كانت قراءة الصحابة رضي اللّه عنهم كما في أخبارهم.

وأما قوله ﷺ: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود» فليس المراد به الترديد والتلحين، إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والإبانة في مخارج الحروف والنطق بها.

وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي، ثم إلى الكمالي، وتفننوا فيه، فتحدث هذه الصناعة، لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً في مذاهب الملذوذات. وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم. وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به، حتى لقد كان للملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة، ولهم مكان في دولتهم، وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها. وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أفق من آفاقهم. ومملكة من ممالكهم.

وأما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة. ويفصلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالإفادة، لا ينعطف على الآخر. ويسمونه البيت. فيلائم الطبع بالتجزئة أولاً ثم بتناسب الأجزاء في المقاطع والمبادئ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها. فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب. وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكاً لقرائحهم في إصابة المعاني وإجادة الأساليب. واستمروا على ذلك.

وهذا التناسب الذي من أجل الأجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى. إلا أنهم لم يشعروا بما سواه؛ لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعةً. وكانت البداوة أغلب نحلهم. ثم

تغنى الحداة منهم في حداء إبلهم والفتيان في قضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات وترنموا. وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناء، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغبيراً بالغين المعجمة والباء الموحدة. وعللها أبو إسحاق الزجاج بأنها تذكر بالغابر وهو الباقي أي بأحوال الآخرة. وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره. وكانوا يسمونه السناد. وكان أكثر ما يكون منهم، في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم. وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع. ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم.

فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك شيئاً ما. ولم يكن الملذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي كان ديدنهم ومذهبهم. فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ. وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للأصوات ولحنوا عليها أشعارهم.

وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب وحاثر مولى عبد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره. وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابنه حماد. وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه بهذا العهد وأمعنوا في اللّهو واللعب واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والأشعار التي يترنم بها عليه. وجعل صنفاً وحده، واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويتثاقفون، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللّهو.

وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها. وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غيرة منه، فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس. فبالغ في تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان. فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف. وطما منها بإشبيلية بحر زاخز وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بإفريقية والمغرب. وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها. وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع؛ لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح. وهو أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه. والله أعلم.

الفصل الثالث والثلاثون

في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب

قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة. وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولاً، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل وعقلاً محضاً فتكون ذاتاً روحانيةً وتستكمل حينئذ وجودها. فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلاً فريداً.

والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة. فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلاً والملكات الصناعية تفيد عقلاً والحضارة الكاملة تفيد عقلاً؛ لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها. وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً فيحصل منها زيادة عقل.

والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك؛ لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع. وبيانه أن في الكتابة انتقالاً من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس، فهو ينتقل أبداً من دليل إلى دليل، ما دام ملتبساً بالكتابة وتتعود النفس ذلك دائماً. فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي يكتسب به العلوم المجهولة فتكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به مزيد فطنة وكيس في

الأمور لما تعودوه من ذلك الانتقال. ولذلك قال كسرى في كتّابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس فقال: ديوانه، أي: شياطين أو جنون. قالوا: وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب؛ فإن في صناعة الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه إلى استدلال كثير فيبقى متعوداً للاستدلال والنظر وهو معنى العقل. والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون.

الباب السادس

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال

وفيه مقدمة ولواحق

فالمقدمة في الفكر الإنساني الذي تميز به البشر عن الحيوانات واهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والنظر في معبوده. وما جاءت به الرسل من عنده، فصار جميع الحيوانات في طاعته وملك قدرته وفضله به على كثير خلقه.

الفصل الأول

في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك. وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه. فهو مفكر في ذلك كله دائماً لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر. وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع. ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغباً في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه. ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له، فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً. وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشىء إلى تحصيل ذلك فيفزعون إلى أهل معرفته ويجيء التعليم من هذا. فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعي في البشر. والله أعلم.

الفصل الثاني

في أن تعليم العلم من جملة الصنائع

وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلاً. وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي. لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علماً وبين العالم النحرير.

والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي. والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب. والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر إلى التعليم. ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة يفتقر إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجيل. ويدل أيضاً على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه. فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها، فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم، إذ لو كان من العلم لكان واحداً عند جميعهم.

الا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين، وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه إلى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدل على أنها صناعات في التعليم. والعلم واحد في نفسه. وإذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه. وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر. وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس واستبحر عمرانهما، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة. ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة. فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً كان في دولة الموحدين بمراكش مستفاداً منها. ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم تتصل أحوال الحضارة فيها إلا في الأقل.

وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل إلى المشرق من إفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة، فأدرك

تلميذ الإمام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم. وحذق في العقليات والنقليات ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن. وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي. كان ارتحل إليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيداً فأخذ عنهما أهل تونس. واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما جيلاً بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام. شارح بن الحاجب وتلميذه، وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه. فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان لهذا العهد إلا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم.

ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشد إلى المشرق وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم. وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات والنقليات. ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد. ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها. وربما انتقل إلى تلمسان عمران المشد إلى تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها. وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل.

وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم. وأيسر طرق هذه الملكة قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها. فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة. فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علّم وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده. وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ من سواهم لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك. ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه العصور لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك. وأما أهل الأندلس.

فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين. ولم يبق من رسم العلم عندهم إلا فن العربية والأدب. اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه. وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين. وأما العقليات فلا أثر ولا عين. وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها إلا قليلاً بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها. والله غالب على أمره.

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه. وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أن اللّه تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك. وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان، وما وراء النهر من المشرق، ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب، فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائماً. فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع. حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى. وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب. ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع وليس كذلك.

وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللّهم إلا الأقاليم المنحرفة مثل الأول والسابع، فإن الأمزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر، وإنما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنائع، ونزيده الآن شرحاً وتحقيقاً. وذلك أن الحضر لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم. فلهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى. وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم. ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلاً جديداً تستعد به لقبول صناعة أخرى ويتهيأ بها العقل بسرعة الإدراك للمعارف.

ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحمر الإنسية والحيوانات العجم من الماشي، والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب ندورها، ويعجز

أهل المغرب عن فهمها فضلاً عن تعليمها.

وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية تزيد الإنسان ذكاء في عقله وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس. إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات فيزدادون بذلك كيساً لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية فيظنه العامي تفاوتاً في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك. الا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس حتى إن البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله وليس كذلك. وما ذاك إلا لإجادته من ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية ما لا يعرفه البدوي. فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته وليس كذلك. فإنا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته وإنما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك فهو رونق الصنائع والتعليم، فإن لهما آثاراً ترجع إلى النفس كما قدمناه. وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدماً، وكان أهل المغرب أقرب إلى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا، ظن المغفلون في بادئ الرأي أنه لكمال في حقيقة الإنسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح، فتفهمه، والله يزيد في الخلق ما يشاء وهو إله السموات والأرض.

الفصل الثالث

في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

والسبب في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع. وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار. وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة؛ لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع. ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو، كما قدمناه، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع في أهل البدو.

واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة. كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم. وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام. ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم. وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا. وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته. فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركاً لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير والصلاح والتماس الأجور في المقاصد والأفعال. فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها. والله يخلق ما يشاء.

الفصل الرابع

في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين:

صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه.

والأول: هي العلوم الحكمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر.

والثاني: هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة إلى

الخبر عن الواضع الشرعي. ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول؛ لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي. إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل وهو نقلي فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه.

وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من اللّه ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيأوها للإفادة. ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن. وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة؛ لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام اللّه تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنه بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق فلا بد من النظر في الكتاب: ببيان ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند اللّه واختلاف روايات القراء في قراءته، وهذا هو علم القراءات، ثم بإسناد السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم ويعمل ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث. ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيدنا العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه. وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام اللّه تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه.

ثم إن التكاليف: منها بدني، ومنها قلبي، وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد. وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر. والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام.

ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف: فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب حسبما نتكلم عليها.

وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها، وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث إنها علوم الشريعة المنزلة من عند اللّه تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها. وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنها ناسخة لها. وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيها محظور. فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن. قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد» ورأى النبي ﷺ في يد عمر رضي اللّه عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال: «ألم آتكم بها بيضاء نقية؟ واللّه لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أتباعي».

ثم إن هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا شيء فوقها وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون، فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق. وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم. واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون. وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله. وما أدري ما فعل اللّه بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانه والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم بالجراية من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم. واللّه سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد وبيده التوفيق والإعانة.

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

القرآن هو كلام اللّه المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف. وهو متواتر بين الأمة إلا أن الصحابة رووه عن رسول اللّه ﷺ على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها. وتنوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة. وربما زيد بعد ذلك قراءات أخر لحقت بالسبع إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل. وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها. وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لأنها عندهم كيفيات للأداء وهو غير منضبط. وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن. وأباه الأكثر وقالوا، بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها، كالمد والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع وهو الصحيح.

ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودونت، فكتبت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلماً منفرداً وتناقله الناس بالمشرق والأندلس

في جيل بعد جيل. إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالي العامريين وكان معتنياً بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته، فكان سهمه في ذلك وافراً. واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً وبالقراءات خصوصاً. فظهر لعهده أبو عمرو الداني وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها. وانتهت إلى روايته أسانيدها وتعددت تآليفه فيها. وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب «التيسير» له. ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم بن فيره من أهل شاطبة، فعمد إلى تهذيب ما دونه أ بو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف(أ ب ج د)ترتيباً أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها. فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً وعني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس.

وربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم أيضاً، وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية؛ لأن فيه حروفاً كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في «بأييد» وزيادة الألف في «لا أذبحنه» و «لا أوضعوا» والواو في «جزاؤ الظالمين» وحذف الألفات في مواضع دون أخرى وما رسم فيه من التاءات ممدوداً. والأصل فيه مربوط على شكل الهاء وغير ذلك، وقد مر تعليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط. فلما جاءت هذه مخالفة لأوضاع الخط وقانونه احتيج إلى حصرها، فكتب الناس فيها أيضاً عن كتبهم في العلوم. وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو الداني المذكور فكتب فيها كتباً من أشهرها: كتاب «المقنع» وأخذ به الناس وعولوا عليه. ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روي الراء وولع الناس بحفظها. ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى، ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني والمشتهر بحمل علومه ورواية كتبه، ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على «المقنع» خلافاً كثيراً، وعزاه لناقليه. واشتهرت بالمغرب، واقتصر الناس على حفظها. وهجروا بها كتب أبي.... داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم.

التفسير:

وأما التفسير فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه. وكان ينزل جُملاً جملاً وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع. ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخاً له. وكان النبي ﷺ هو المبين لذلك كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فكان النبي ﷺ يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه. كما علم من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أنها نعي النبي ﷺ وأمثال ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان اللّه تعالى عليهم أجمعين. وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل ذلك عنهم. ولم يزل ذلك متناقلاً بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوماً ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك إلى الطبري والواقدي والثعالبي وأمثالهم من المفسرين، فكتبوا فيه ما شاء اللّه أن يكتبوه من الآثار.

ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب فتنوسي ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان. فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن؛ لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم. وصار التفسير على صنفين:

تفسير نقلي مستند إلى الآثار المنقولة عن السلف وهي معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول ومقاصد الآي. وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين. وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود. والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية. فإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه

وعبد الله بن سلام وأمثالهم. فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض أخباراً موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل. وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملؤوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها كما قلناه عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم. لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ. فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى. وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق.

والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب. وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول إذ الأول هو المقصود بالذات. وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعات. نعم قد يكون في بعض التفاسير غالباً.

ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير كتاب «الكشاف» للزمخشري من أهل خوارزم العراق إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة. فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية محسناً للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله فليغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان.

ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذي علم عليم.

الفصل السادس

في علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة؛ لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل الله لهم بها. قال تعالى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ ومعرفة الناسخ والمنسوخ وإن كان عاماً للقرآن والحديث إلا أن الذي في القرآن منه اندرج في تفاسيره وبقي ما كان خاصاً بالحديث راجعاً إلى علومه. فإذا تعارض الخبران بالنفي والإثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ. وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها. قال الزهري: أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه. وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة.

ومن علوم الحديث النظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط؛ لأن العمل إنما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله ﷺ فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط. وإنما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين لتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة ويكون لنا ذلك دليلاً على القبول أو الترك.

وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحداً واحداً. وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها بأن يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنة لها وتنتهي بالتفاوت إلى طرفين، فحكم بقبول الأعلى ورد الأسفل. ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن. ولهم في ذلك، ألفاظ اصطلحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة. مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب، وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم. وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة اللسان أو الوفاق. ثم النظر في كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة، وتفاوت رتبها وما للعلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد.

ثم أتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما

يناسب ذلك. هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه.

وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلده فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر، والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم، وكانت طريقة أهل الحجاز في أعصارهم في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة لاشتدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط، وتجافيهم عن قبول المجهول الحال في ذلك وسيد الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة رضي اللّه تعالى عنه، ثم أصحابه مثل الإمام أبي عبداللّه محمد بن إدريس الشافعي رضي اللّه عنه، وابن وهب وابن بكير والقعنبي ومحمد بن الحسن ومن بعدهم الإمام أحمد بن حنبل وفي آخرين من أمثالهم.

وكان علم الشريعة في مبدإ هذا الأمر نقلاً صرفاً شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى أكملوها.

وكتب مالك رحمه اللّه كتاب «الموطأ» أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه. ثم عني الحفاظ بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدها المختلفة. وربما يقع إسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين، وقد يقع الحديث أيضاً في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها.

وجاء محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها في «مسنده الصحيح» بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين. واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال: إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين. منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب.

ثم جاء الإمام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه اللّه تعالى فألف «مسنده الصحيح». حذا فيه حذو البخاري. في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والأسانيد وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه. ومع ذلك فلم يستوعبا الصحيح كله. وقد استدرك الناس عليهما في ذلك.

ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل، إما من الرتبة العالية في الأسانيد وهو الصحيح كما هو معرف، وإما من الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك إماماً للسنة والعمل.

وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة وهي أمهات كتب الحديث في السنة فإنها، وإن تعددت ترجع إلى هذه في الأغلب، ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ والمنسوخ فيجعل فناً برأسه وكذا الغريب. وللناس فيه تآليف مشهورة ثم المؤتلف والمختلف.

وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا. ومن فحول علمائه وأئمتهم أبو عبد اللّه الحاكم وتآليفه فيه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه. وأشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لعهد أوائل المائة السابعة، وتلاه محيي الدين النووي بمثل ذلك. والفن شريف في مغزاه لأنه معرفة ما تحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة. وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقدمين إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئاً من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر هذا بعيد عنهم، وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها والنظر في أسانيدها إلى مؤلفها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والأحكام لتتصل الأسانيد محكمة إلى منتهاها. ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمس إلا في القليل.

فأما البخاري وهو أعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحاه من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم. ولذلك يحتاج إلى إمعان النظر في التفقه في تراجمه؛ لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب. وكذلك في ترجمةٍ وترجمةٍ إلى أن يتكرر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب وابن التين ونحوهم. ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم اللّه يقولون: شرح كتاب البخاري دين على الأمة يعنون أن أحداً من علماء الأمة. لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار.

وأما «صحيح مسلم» فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه، وأكثر ما وقع له في التراجم. وأملى الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحاً وسماه «المعلم

بفوائد مسلم» اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه وسماه «إكمال المعلم» وتلاهما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فجاء شرحاً وافياً.

وأما كتب السنن الأخرى وفيها معظم مآخذ الفقهاء فأكثر شرحها في كتب الفقه إلا ما يختص بعلم الحديث، فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج إليه من علم الحديث وموضوعاتها والأسانيد التي اشتملت على الأحاديث المعمول بها من السنة.

واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها، تنزلها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها. ولم يبق طريق في تصحيح ما يصح من قبل. ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه يفطنون إلى أنه قد قلب عن وضعه، ولقد وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل البخاري حين ورد على بغداد، وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدها فقال: «لا أعرف هذه، ولكن حدثني فلان». ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن إلى سنده وأقروا له بالإمامة.

واعلم أيضاً أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه الصناعة والإقلال، فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال: بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها، ومالك رحمه الله إنما صح عنده ما في كتاب «الموطأ» وغايتها ثلثمائة حديث أو نحوها. وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده خمسون ألف حديث ولكل ما أداه إليه اجتهاده في ذلك. وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث فلهذا قلت روايته. ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة. ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها. وإنما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عند الأكثر فيؤديه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف في الطرق.

هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق؛ لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر. والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي. وقلت من أجلها روايته فقل حديثه. لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً فحاشاه من ذلك. ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً. وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد، وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم.

وروى الطحاوي فأكثر وكتب «مسنده» وهو جليل القدر إلا أنه لا يعدل الصحيحين؛ لأن الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما مجمع عليها بين الأمة كما قالوه. وشروط الطحاوي غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره، فلهذا قدم «الصحيحان» بل وكتب السنن المعروفة قدمت عليه لتأخر شروطه عن شروطهم. ومن أجل هذا قيل في «الصحيحين» بالإجماع على قبولهما من جهة الإجماع على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها. فلا تأخذك ريبة في ذلك، فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم. والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الأمور.

الفصل السابع

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفقه هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه. وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم. ولا بد من وقوعه ضرورة. فإن الأدلة من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضاءات ألفاظها بكثير من معانيها - وخصوصاً الأحكام الشرعية - اختلافٌ بينهم معروف.

وأيضاً فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً. فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضاً، فالوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص. وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيُحمل على منصوص لمشابهة بينهما، وهذه كلها مثارات للخلاف ضرورية الوقوع. ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم. ثم إن الصحابة كلهم أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم.

وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي ﷺ أو ممن سمعه منهم من عليتهم. وكانوا يسمون لذلك القراء، أي الذين يقرأون الكتاب؛ لأن العرب كانوا أمة أمية. فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ. وبقي الأمر كذلك صدر الملة. ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء. وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز. وكان الحديث قليلاً في أهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس ومهروا فيه، فلذلك قيل أهل الرأي. ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده.

ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية. وجعلوا مدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى النص، لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها. وكان إمام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما. وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة. وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم، وهي كلها أصول واهية وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح. فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم ولا نروي كتبهم ولا أثر بشيء منها إلا في مواطنهم. فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك. ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة. ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وإنكار الجمهور على منتحله ولم يبق إلا في الكتب المجلدة، وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم، فلا يحلو بطائل ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه، وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بتلقيه العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين.

وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علو رتبته في حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم. وخالف إمامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين، فنقم الناس ذلك عليه وأوسعوا مذهبه استهجاناً وإنكاراً، وتلقوا كتبه بالإغفال والترك حتى إنها يحظر بيعها بالأسواق، وربما تمزّق في بعض الأحيان. ولم يبق إلا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز.

فأما أهل العراق فإمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق، شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصاً مالك والشافعي.

وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة رحمه اللّه تعالى واختص بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل أهل المدينة؛ لأنه رأى أنهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم. وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبي ﷺ الآخذين ذلك عنه، وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية. وظن كثير أن ذلك من مسائل الإجماع فأنكره؛ لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم بل هو شامل للأمة.

واعلم أن الإجماع إنما هو الإتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد. ومالك رحمه اللّه تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى، وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع صلوات اللّه وسلامه عليه. وضرورة اقتدائهم بعين ذلك يعم الملة ذُكرت في باب الإجماع لأنها أليق الأبواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع. إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة من قبلهم. ولو ذكرت المسألة في باب فعل النبي ﷺ وتقريره، أو مع الأدلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشَرْعِ من قبلنا والاستصحاب لكان أليق بها.

ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس المطلبي الشافعي رحمهما االلّه تعالى. رحل إلى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب، وخالف مالكاً رحمه اللّه تعالى في كثير من مذهبه. وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه اللّه. وكان من علية المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر. ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم. وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم. ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والإعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين. وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من

التلاعب ولم يبق إلا نقل مذاهبهم. وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية، لا محصول اليوم للفقه غير هذا.

ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود منكوص على عقبه مهجور تقليده، وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة. فأما أحمد بن حنبل فمقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث وميلاً بالاستنباط إليه عن القياس ما أمكن. وكان لهم ببغداد صولة وكثرة حتى كانوا يتواقعون مع الشيعة في نواحيها. وعظمت الفتنة من أجل ذلك، ثم انقطع ذلك عند استيلاء التتر عليها. ولم يراجع وصارت كثرتهم بالشام. وأما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلها. ولما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت تآليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافيات. وجاؤوا منها بعلم مستظرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس. وبالمغرب منها شيء قليل نقله إليه القاضي بن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتهما.

وأما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار. وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشحنت كتب الخلافيات بأنواع استدلالاتهم. ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره. وكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة منهم. وكان من تلميذه بها: البويطي والمزني وغيرهم، وكان بها من المالكية جماعة من بني عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم، ثم الحارس بن مسكين وبنوه، ثم القاضي أبو إسحق بن شعبان وأصحابه.

ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه أهل البيت، وكان من سواهم يتلاشوا ويذهبوا، وارتحل إليها القاضي عبد الوهاب من بغداد. آخر المائة الرابعة على ما أعلم، من الحاجة والتقليب في المعاش. فتأذن خلفاء العبيديين بإكرامه، وإظهار فضله نعياً على بني العباس في اطراح مثل هذا الإمام، والاغتباط به. فنفقت سوق المالكية بمصر قليلاً، إلى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب، فذهب منها فقه أهل البيت وعاد فقه الجماعة إلى الظهور بينهم ورجع إليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشام، فعاد إلى أحسن ما كان ونفقت سوقه، واشتهر فيهم محيي الدين النووي من الحلبة التي ربيت في ظل الدولة الأيوبية بالشام وعز الدين بن عبد السلام أيضاً. ثم ابن الرفعة بمصر وتقي الدين بن دقيق العيد، ثم تقي الدين السبكي بعدهما إلى أن انتهى ذلك إلى شيخ الإسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني، فهو اليوم كبير الشافعية بمصر، لا بل كبير العلماء من أهل العصر.

وأما مالك رحمه اللّه تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس. وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة. وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده. فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته. وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب. ولما صار مذهب كل إمام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذاهب إمامهم. وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة واتباع مذهب إمامهم فيهما ما استطاعوا.

وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد. وأهل المغرب جميعاً مقلدون لمالك رحمه اللّه. وقد كان تلاميذه افترقوا بمصر والعراق. فكان بالعراق منهم القاضي إسماعيل وطبقته مثل ابن خُوَيزمنداد وابن اللبان والقاضي أبو بكر الأبهري والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم. وكان بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين وطبقتهم، ورحل من الأندلس يحيى بن يحيى الليثي، ولقي مالكاً. وروى عنه كتاب الموطأ، وكان من جملة أصحابه. ورحل بعده عبد الملك بن حبيب، فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الأندلس ودون فيه كتاب الواضحة. ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية. ورحل من إفريقية أسد بن الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً. ثم انتقل إلى مذهب مالك. وكتب علي

ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء إلى القيروان بكتابه وسمي الأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات، فقرأ بها سحنون على أسد ثم ارتحل إلى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الأسدية، فرجع عن كثير منها. وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه منها، وكتب معه ابن القاسم إلى أسد أن يمحو من أسديَّته ما رجع عنه، وأن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك، فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب، فكانت تسمى المدونة والمختلطة. وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية.

ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه أيضاً أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من أهل إفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه. وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها. ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع، فكتب أهل إفريقية على المدونة ما شاء اللّه أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز والتونسي وابن بشير وأمثالهم. وكتب أهل الأندلس على العتبية ما شاء اللّه أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله. وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذاهب، وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة، وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفقين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان. ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعديد أقوالهم في كل مسألة، فجاء كالبرنامج للمذهب. وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكين وابن المبشر وابن اللّهيث وابن رشيق وابن شاس. وكانت بالإسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء اللّه. ولم أدر عمن أخذها أبو عمرو بن الحاجب، لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهاب فقه أهل البيت وظهور فقهاء السنة من الشافعية والمالكية، ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب، وخصوصاً أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه إلى المغرب. فإنه كان قرأ على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك، فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلميذه، ومنهم انتقل إلى سائر الأمصار المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه. وقد شرحه جماعة من شيوخهم: كابن عبد السلام وابن رشد وابن هارون، وكلهم من مشيخة أهل تونس وسابق حلبتهم في الإجادة في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم. واللّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وأما علم الفرائض وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة، من كم تصح، باعتبار فروضها الأصول أو مناسختها. وذلك إذا هلك أحد الورثة وانكرت سهامه على فروض ورثته، فإنه حينئذ يحتاج إلى حسبان يصحح الفريضة الأولى حتى يصل أهل الفروض جميعاً في الفريضتين إلى فروضهم من غير تجزئة. وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحد واثنين، وتتعدد كذلك بعدد أكثر. وبقدر ما تتعدد تحتاج إلى الحسبان، وكذلك إذا كانت فريضة ذات وجهين مثل أن يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ. وينظر مبلغ السهام، ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة. وكل ذلك يحتاج إلى الحسبان، فأفردوا هذا الباب من أبواب الفقه لما اجتمع فيه الفقه من الحسبان وكان غالباً فيه وجعلوه فناً مفرداً. وللناس فيه تآليف كثيرة أشهرها عند المالكية من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي، ومن متأخري إفريقية ابن النمر الطرابلسي وأمثالهم.

وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تآليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة، شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب وخصوصاً أبا المعالي رضي اللّه تعالى عنه وأمثاله من أهل المذهب، وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به إلى الحقوق في الوراثات بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين. وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية. ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وأمثال ذلك فيملؤون بها تآليفهم. وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه، فهو يفيد المران وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه.

وقد يحتج الأكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما ينسى، وفي رواية: نصف العلم؛ خرجه أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة. والذي يظهر أن هذا المحمل بعيد وأن المراد بالفرائض إنما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والمواريث وغيرها، وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية.

وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها، ويعني هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة، إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات. ولم يكن صدر الإسلام يطلق هذا اللفظ إلا على عمومه مشتقاً من الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع. وما كان المراد به في إطلاقه إلا جميع الفروض كما قلناه وهي حقيقته الشرعية، فلا ينبغي أن يحمل إلا على ما كان يحمل في عصرهم، فهو أليق بمرادهم منه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل التاسع

أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

اعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف. وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له. فعلى عهد النبي ﷺ كانت الأحكام تتلقى منه بما يوحى إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس. ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر. وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه. وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم تنزل الإجماع منزلتهما لإجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم. ولا يكون ذلك إلا عن مستند؛ لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة، فصار الإجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات.

ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة، فإذا هم يقيسون الأشباه منها بالأشباه. ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك. فإن كثيراً من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق. تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين. حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه. وهو القياس وهو رابع الأدلة.

واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس، إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأدلة الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها. لضعف مداركها وشذوذ القول فيها. فكان من أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة.

فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه والتواتر في نقله. فلم يبق فيه مجال للاحتمال.

وأما السنة وما نقل إلينا منها، فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه. معتضداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من إنفاذ الكتب والرسل إلى النواحي بالأحكام والشرائع آمراً وناهياً.

وأما الإجماع فلاتفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة.

وأما القياس فبإجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه. هذه أصول الأدلة، ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه، الذي هو مناط وجوب العمل بالخبر. وهذه أيضاً من قواعد الفن.

ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضاً وأبوابه. ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالات الألفاظ، وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة. والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان، وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علوماً ولا قوانين، ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها؛ لأنها جبلّة وملكة. فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علوماً يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله

تعالى. ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة بين تراكيب الكلام وهو الفقه.

ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق بل لا بد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة، وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصّل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة. مثل أن اللغة لا تثبت قياساً والمشترك لا يراد به معنياه معاً، والواو لا تقتضي الترتيب، والعام إذا أخرجت أفراد الخاص منة هل يبقى حجة فيما عداها؟ والأمر للوجوب أو الندب وللفور أو التراخي، والنهي يقتضي الفساد أو الصحة، والمطلق هل يحمل على المقيد والنص على العلة كاف في التعدد أم لا؟ وأمثال هذه. فكانت كلها من قواعد هذا الفن. ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية. ثم إن النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن؛ لأن فيه تحقيق الأصل والفرع فيما يقاس ويماثل من الأحكام وتنقيح الوصف الذي يغلب على الظن أن الحكم علق به في الأصل من تبين أوصاف ذلك المحل أو وجود ذلك الوصف في الفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه إلى مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد لهذا الفن.

واعلم أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غنية عنه بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية. وأما القوانين التي يحتاج إليها في استفادة الأحكام خصوصاً فعنهم أخذ معظمها. وأما الأسانيد فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم. فلما انقرض السلف وذهب الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل، احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فنًا قائماً برأسه سموه أصول الفقه. وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي اللّه تعالى عنه. أملى فيه رسالته المشهورة، تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس. ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها. وكتب المتكلمون أيضا كذلك إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الأمثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية. والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل عن الفقه ويميلون إلى الاستدلال العقلي ما أمكن؛ لأنه غالب فنونهم ومقتضى طريقتهم، فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن.

وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم، فكتب في القياس بأوسع من جميعهم وتمم الأبحاث والشروط التي يحتاج إليها فيه، وكملت صناعة أصول الفقه بكماله وتهذبت مسائله وتمهدت قواعده وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه. وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتابه البرهان لإمام الحرمين والمستصفى للغزالي وهما من الأشعرية وكتاب العهد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة. وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأركانه. ثم لخص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين، وهما الإمام فخر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الآمدي في كتاب الإحكام. واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج. فابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج، والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل.

وأما كتاب المحصول فاختصره تلميذ الإمام مثل سراج الدين الأموي في كتاب التحصيل وتاج الدين الأرموي في كتاب الحاصل، واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التنقيحات. وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج. وعني المبتدئون بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس. وأما كتاب الإحكام للآمدي وهو أكثر تحقيقاً في المسائل فلخصة أبو عمرو بن الحاجب في كتابه المعروف بالمختصر الكبير. ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم وعني أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات.

وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيراً وكان من أحسن كتابة المتقدمين فيها تأليف أبي زيد الدبوسي، وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الإسلام البزدوي من أئمتهم وهو مستوعب، وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الأحكام وكتاب البزدوي في الطريقتين وسمى كتابه بالبدائع، فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثاً. وأولع كثير من علماء العجم بشرحه. والحال على ذلك لهذا العهد.

هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعديد التآليف المشهورة لهذا العهد فيه. واللّه ينفعنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه وكرمه إنه على كل شيء قدير.

الخلافيات:

وأما الخلافيات فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافاً لا بد من وقوعه لما قدمناه. واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاؤوا منهم، ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار وكانوا بمكان من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم؛ لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة. فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة وأجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية.

وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمة، يحتج بها كل على صحة مذهبه الذي قلده وتمسك به وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه، فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدهما، وتارة يكون مالك وأبي حنيفة والشافعي يوافق أحدهما، وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة ومالك يوافق أحدهما، وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الأئمة ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم. كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات، ولابد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد، إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط وصاحب الخلافيات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلته.

وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه.

وتآليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تآليف المالكية؛ لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث.

وأما المالكية فالأثر أكثر معتمدهم وليسوا بأهل نظر وأ يضا فأكثرهم أهل المغرب وهم بادية غفل من الصنائع إلا في الأقل. وللغزالي رحمه اللّه تعالى فيه كتاب المآخذ ولأبي بكر العربي من المالكية كتاب التلخيص جلبه من المشرق، ولأبي زيد الدبوسي كتاب التعليقة، ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة، وقد جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع ما ينبني عليها من الفقه الخلافي مدرجاً في كل مسألة منه ما ينبني عليها من الخلافيات.

الجدل

وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج. ومنه ما يكون صواباً ومنة ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت لخصمه الكلام والاستدلال.

ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره.

وهي طريقتان طريقة البزدوي وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال. وطريقة العميدي: وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان وأكثره استدلالاً. وهو من المناحي الحسنة، والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة. وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي. إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة يتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي. وهذا العميدي هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة إليه. وضع الكتاب المسمى بالإرشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره، جاؤوا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التآليف. وهي لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الأمصار الإسلامية. وهي مع ذلك كمالية وليست ضرورية، واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل العاشر

علم الكلام

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة. وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. فلنقدم هنا لطيفة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق

والمآخذ، ثم نرجع إلى تحقيق علم الكلام وفيما ينظر ونشير إلى حدوثه في الملة وما دعا إلى وضعه:

فنقول: اعلم أن الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية، فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بها تقع في مستقر العادة وعنها يتم كونه. وكل واحد من تلك الأسباب حادث أيضاً فلابد له من أسباب أخرى ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها لا إله إلا هو سبحانه.

وتلك الأسباب في ارتقائها وتتضاعف فتنفسح طولاً وعرضاً، ويحار العقل في إدراكها وتعديدها. فإذاً لا يحصرها إلا العلم المحيط سيما الأفعال البشرية والحيوانية، فإن من جملة أسبابها في الشاهد القصود والإدارات إذ لا يتم كون الفعل إلا بإرادته والقصد إليه.

والقصودات والإرادات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضاً. وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل، وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى، وكل ما يقع في النفس من التصورات فمجهول سببه. إذ لا يطلع أحد على مبادئ الأمور النفسانية ولا على ترتيبها. إنما هي أشياء يلقيها الله في الفكر يتبع بعضها بعضاً، والإنسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها. وإنما يحيط علماً في الغالب بالأسباب التي هي طبيعة ظاهرة وتقع في مداركها على نظام وترتيب؛ لأن الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها.

وأما التصورات فنطاقها أوسع من النفس: لأنها للعقل الذي هو فوق طور النفس فلا تكاد النفس تدرك الكثير منها فضلاً عن الإحاطة. وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها، فإنه واد يهيم فيه الفكر ولا يخلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقة: ﴿قلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه، فزلت قدمه وأصبح من الضالين الهالكين، نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين.

ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك أو اختيارك، بل هو لون يحصل للنفس وصبغة تستحكم من الخوض في الأسباب على نسبة لا نعلمها. إذ لو علمناها لتحرزنا منها. فلنتحرز من ذلك بقطع النظر عنها جملة. وأيضاً فوجه تأثير هذه الأسباب في الكثير من مسبباتها مجهول؛ لأنها إنما يوقف عليها بالعادة، وقضية الاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر. وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة. ﴿وَمَا أُوتِيتُم من الْعِلْمِ إلا قَلِيلا﴾. فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها وإلغائها جملة والتوجه إلى مسبب الأسباب كلها وفاعلها وموجدها؛ لترسخ صبغة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس.

قال ﷺ: «من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة». فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وإن سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحداً بعد واحد، فأنا الضامن له أن لا يعود إلا بالخيبة. فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك.

واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه أنه منحصر في مداركه لا يعدوها والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه.

ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات. وكذلك الأعمى أيضا يسقط من الوجود عنده صنف المرعيات ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به؛ لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية، فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا؛ لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس. والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك والله من ورائهم محيط. فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ما أمرك الشارع به في اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك؛ لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها. غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع في محال.

ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب

فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك. على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه. وتفطن من هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه، فقد تبين لك الحق من ذلك وإذا تبين ذلك فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة، فيضل العقل في بيداء الأوهام ويحار وينقطع. فإذاً التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيراتها وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها، إذ لا فاعل غيره وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته، وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه لا غير.

وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين: العجز عن الإدراك إدراك. ثم إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حكمي، فإن ذلك من حديث النفس وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضاً حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود، حتى ينقلب المريد السالك ربانياً.

والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف. وشرحه أن كثيراً من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربة إلى الله تعالى مندوب إليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة، وهو لو رأى يتيماً أو مسكيناً من أبناء المستضعفين لفر عنه واستنكف أن يباشره فضلاً عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذاك من مقامات العطف والحنو والصدقة. فهذا إنما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف. ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها. فمتى رأى يتيماً أو مسكيناً بادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه. ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده؛ وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف. وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مراراً غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق، ويجيء العلم الثاني النافع في الآخرة. فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع؛ وهذا علم أكثر النظار؛ والمطلوب إنما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة.

واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به إنما هو في هذا، فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف، وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقيق بها. ثم إن الإقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة. قال ﷺ في رأس: «العبادات جعلت قرة عيني في الصلاة» فإن الصلاة صارت له صفة وحالاً يجد فيها منتهى لذته وقرة عينه وأين هذا من صلاة الناس ومن لهم بها؟ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ اللّهم وفقنا و ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾

فقد تبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس ينشأ عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية، وهو الذي تحصل به السعادة وأن ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية. ويتفهم منه أن الإيمان الذي هو أصل التكاليف كلها وينبوعها هو بهذه المثابة وأنه ذو مراتب:

أولها التصديق القلبي الموافق للسان، وأعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل مستولية على القلب فيستتبع الجوارح. وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني. وهذا أرفع مراتب الإيمان وهو الإيمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة، إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» وفي حديث هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي ﷺ وأحواله فقال في أصحابه: «هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا! قال: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب». ومعناه أن ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات إذا استقرت فإنها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة، وهذه هي المرتبة العالية من الإيمان وهي في المرتبة الثانية من العصمة؛ لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوباً سابقاً وهذه حاصلة للمؤمنين حصولاً تابعا لأعمالهم وتصديقهم، فبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الإيمان كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف.

وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الإيمان كثير منه. مثل: أن الإيمان قول وعمل وأنه يزيد وينقص وأن الصلاة والصيام من الإيمان، وأن تطوع رمضان من الإيمان، والحياء من الإيمان. والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أشرنا إليه وإلى ملكته وهو فعلي.

وأما التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه. فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين، ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الإيمان الكامل ظهر له التفاوت. وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق، إذ التصديق موجود في جميع رتبه؛ لأنه أقل ما يطلق عليه اسم الإيمان وهو المخلص من عهدة الكفر والفيصل بين الكافر والمؤمن فلا يجزي أقل منه. وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه فافهم.

واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المرتبة الأولى الذي هو تصديق وعين أموراً مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بها بألسنتنا وهي العقائد التي تقررت في الدين. قال ﷺ حين سئل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره». وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام. ولنشر إليها مجملة لتتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه فنقول:

اعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي رد الأفعال كلها إليه وأفرده بها كما قدمناه وعرفنا أن في هذا الإيمان نجاتنا عند الموت إذا حضرنا لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود إذ ذاك متعذر على إدراكنا ومن فوق طورنا. فكلّفنا أولا: اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين وإلا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير، ثم تنزيهه عن صفات النقص وإلا لشابه المخلوقين، ثم توحيده بالاتحاد وإلا لم يتم الخلق للتمانع، ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الإيجاد والخلق ومريد، وإلا لم يخصص شيء من المخلوقات، ومقدر لكل كائن وإلا فالإرادة حادثة. وأنه يعيدنا بعد الموت تكميلاً لعنايته، بالإيجاد، ولو كان للفناء الصرف كان عبثاً فهو للبقاء السرمدي بعد الموت. ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الإنباء بذلك وبيان الطريقين. وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب. هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة. وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأئمة إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة، فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل. فحدث بذلك علم الكلام. ولنبين لك تفصيل هذا المجمل:

وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في بابها فوجب الإيمان بها. ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها. ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات.

فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه. وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل. وهذا معنى قول الكثير منهم: اقرأوها كما جاءت، أي آمنوا بأنها من عند الله. ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء. فيجب الوقف والإذعان له. وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه: ففريق شبهوا، في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملاً بظواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق؛ لأن معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار. وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلق بظواهر هذه التي لنا عنها غنية، وجمع بين الدليلين بتأويلها ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم: جسم لا كالأجسام. وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول متناقض وجمع بين نفي وإثبات: إن كانا لمعقولية واحدة من الجسم، وإن خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسماً من أسمائه. ويتوقف مثله على الإذن. وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك. وآل قولهم إلى التجسيم فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم: صوت لا كالأصوات جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول يعنون من الأجسام.

واندفع ذلك بما اندفع به الأول، ولم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي؛ لئلا يكر النفي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن. ولهذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له وفي كتاب الحافظ ابن عبد البر وغيرهم، فإنهم يحومون على هذا المعنى. ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم. ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب، فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم

والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم ذلك من تعدد القديم بزعمهم، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها وقضوا بنفي صفة الإرادة فلزمهم نفي القدر؛ لأن معناه سبق الإرادة للكائنات وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام. وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ، وإنما هو إدراك للمسموع أو المبصر. وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس، فقضوا بأن القرآن مخلوق وذلك بدعة صرح السلف بخلافها. وعظم ضرر هذه البدعة ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم فحمل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف فاستحل لخلافهم إيسار كثير منهم ودماؤهم.

وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعاً في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين، فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف. وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق العقل والنقل. ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح وكمّل العقائد في البعثة وأحوال المعاد والجنة والنار والثواب والعقاب.

وألحق بذلك الكلام في الإمامة لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية من قولهم: إنها من عقائد الإيمان، وإنها يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة فيها لمن هي له، وكذلك على الأمة. وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية ولا تلحق بالعقائد؛ فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن وسموا مجموعة علم الكلام: إما لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي.

وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري واقتفى طريقته من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره. وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر للإمامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار وذلك مثل: إثبات الجوهر الفرد والخلاء. وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين. وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم. وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول. فكملت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية. إلا أن صور الأدلة فيها بعض الأحيان. على غير الوجه الصناعي لسذاجة القوم؛ ولأن صناعة المنطق التي تسير بها الأدلة وتعتبر بها الأقيسة لم تكن حينئذ ظاهرة في الملة، ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة فكانت مهجورة عندهم لذلك.

ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني من أئمة الأشعرية إمام الحرمين أبو المعالي فأملى في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه. ثم لخصه في كتاب الإرشاد واتخذه الناس إماماً لعقائدهم. ثم انتشر من بعد ذلك علم المنطق في الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعيار للأدلة فقط يسبر به الأدلة منها كما يسبر من سواها. ثم نظروا في تلك القواعد والمقدمات في فن الكلام للأقدمين فخالفوا الكثير منها بالبراهين التي أدتهم إلى ذلك، وربما أن كثيراً منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات. فلما سبروها بمعيار المنطق ردهم إلى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار إليه القاضي، فصارت هذه الطريقة في مصطلحهم مباينة للطريقة الأولى وتسمى طريقة المتأخرين، وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم. وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله وتبعه الإمام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم، ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحداً من اشتباه المسائل فيهما.

واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود البارئ وصفاته وهو نوع استدلالهم غالباً. فالجسم الطبيعي الذي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات هو بعض من هذه الكائنات. إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل. وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته، ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد.

وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فروضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فتُرفع البدع وتُزال الشكوك والشبه عن تلك العقائد، وإذا تأملت حال الفن في حدوثه وكيف تدرج

كلام الناس فيه صدراً بعد صدر وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة، علمت حينئذ ما قررناه لك في موضوع الفن وأنه لا يعدوه.

ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين عن الآخر. ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوالع، ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تآليفهم. إلا أن هذه الطريقة قد يعنى بها بعض طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والإغراق في معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها. وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام فإنما هو في الطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الإرشاد وما حذا حذوه.

ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب، فإنها وإن وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم، وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا. وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباريء عن الكثير من إيهاماته وإطلاقاته ولقد سئل الجنيد رحمه اللّه عن قوم مر بهم من المتكلمين يفيضون فيه فقال: ما هؤلاء؟ فقيل: قوم ينزهون اللّه بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص. فقال: نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب. لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها. واللّه ولي المؤمنين.

الفصل الحادي عشر

في أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر

اعلم أن عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة، كالعناصر وآثارها والمكونات الثلاثة عنها. التي هي المعدن والنبات والحيوان. وهذه كلها متعلقات القدرة الإلهية وعلى أفعال صادرة عن الحيوانات، واقعة بمقصودها، متعلقة بالقدرة التي جعل اللّه لها عليها: فمنها منتظم مرتب، وهي الأفعال البشرية، ومنها غير منتظم ولا مرتب، وهي أفعال الحيوانات غير البشر. وذلك الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع أو بالوضع، فإذا قصد إيجاد شيء من الأشياء، فلأجل الترتيب بين الحوادث لابد من التفطن بسببه أو علته أو شرطه، وهي على الجملة مبادؤه، إذ لا يوجد إلا ثانياً عنها ولا يمكن إيقاع المتقدم متأخراً، ولا المتأخر متقدماً. وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ آخر من تلك المبادئ لا يوجد إلا متأخراً عنه، وقد يرتقي ذلك أو ينتهي. فإذا انتهى إلى آخر المبادىء في مرتبتين أو ثلاث أو أزيد، وشرع في العمل الذي يوجد به ذلك الشيء بدأ بالمبدأ الأخير الذي انتهى إليه الفكر، فكان أول عمله. ثم تابع ما بعده إلى آخر المسببات التي كانت أول فكرته. مثلاً: لو فكر في إيجاد سقف يكنه انتقل بذهنه إلى الحائط الذي يدعمه، ثم إلى الأساس الذي يقف عليه الحائط فهو آخر الفكر. ثم يبدأ في العمل بالأساس، ثم بالحائط، ثم بالسقف، وهو آخر العمل.

وهذا معنى قولهم: أول العمل آخر الفكرة، وأول الفكرة آخر العمل، فلا يتم فعل الإنسان في الخارج إلا بالفكر في هذه المرتبات لتوقف بعضها على بعض. ثم يشرع في فعلها. وأول هذا الفكر هو المسبب الأخير، وهو آخرها في العمل. وأولها في العمل هو المسبب الأول وهو آخرها في الفكر. ولأجل العثور على هذا الترتيب يحصل الانتظام في الأفعال البشرية.

وأما الأفعال الحيوانية لغير البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذي يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل. إذ الحيوانات إنما تدرك بالحواس ومدركاتها متفرقة خلية من الربط؛ لأنه لا يكون إلا بالفكر. ولما كانت الحواس المعتبرة في عالم الكائنات هي المنتظمة وغير المنتظمة، إنما هي تبع لها. اندرجت حينئذ أفعال الحيوانات فيها، فكانت مسخرة للبشر. واستولت أفعال البشر على عالم الحوادث بما فيه، فكان كله في طاعته وتسخره. وهذا معنى الاستخلاف المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فهذا الفكر هو الخاصة البشرية التي تميز بها البشر عن غيره من الحيوان. وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون إنسانيته. فمن الناس من تتوالى له السببية في مرتبتين أو ثلاث، ومنهم من لا يتجاوزها، ومنهم من ينتهي إلى خمس أو ست فتكون إنسانيته أعلى. واعتبر ذلك بلاعب الشطرنج: فإن في اللاعبين من يتصور الثلاث حركات والخمس الذي ترتيبها وضعي، ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه. وإن كان هذا المثال غير مطابق؛ لأن لعب الشطرنج بالملكة، ومعرفة الأسباب والمسببات بالطبع. لكنه مثال يحتذي به الناظر في تعقل ما يورد عليه من القواعد. واللّه خلق الإنسان وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

الفصل الثاني عشر

في العقل التجريبي وكيفية حدوثه

إنك تسمع في كتب الحكماء قولهم: إن الإنسان هو مدني الطبع، يذكرونه في إثبات النبوات وغيرها. والنسبة فيه إلى المدينة، وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشري. ومعنى هذا القول، أنه لا تمكن حياة المنفرد من البشر، ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه. وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً بطبعه. وتلك المعاونة لابد فيها من المفاوضة أولاً، ثم المشاركة وما بعدها. وربما تفضي المعاملة عند اتحاد الأعراض إلى المنازعة والمشاجرة فتنشأ المنافرة والمؤالفة. والصداقة والعداوة. ويؤول إلى الحرب والسلم بين الأمم والقبائل. وليس ذلك على أي وجه اتفق، كما بين الهمل من الحيوانات، بل للبشر بما جعل اللّه فيهم من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر كما تقدم. جعل منتظماً فيهم ويسرهم لإيقاعه على وجوه سياسية وقوانين حكمية. ينكبون فيها عن المفاسد إلى المصالح، وعن الحسن إلى القبيح، بعد أن يميزوا القبائح والمفسدة. بما ينشأ عن الفعل من ذلك عن تجربة صحيحة، وعوائد معروفة بينهم، فيفارقون الهمل من الحيوان. وتظهر عليهم نتيجة الفكر في انتظام الأفعال وبعدها عن المفاسد.

هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد ولا يتعمق فيها الناظر، بل كلها تدرك بالتجربة وبها يستفاد. لأنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات وصدقها وكذبها، يظهر قريباً في الواقع، فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك. ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له منها مقتنصاً له بالتجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه. حتى يتعين له ما يجب وينبغي، فعلاً وتركاً. وتحصل في ملابسة الملكة في معاملة أبناء جنسه. ومن تتبع ذلك سائر عمره حصل له العثور على كل قضية قضية. ولابد بما تسعه التجربة من الزمن. وقد يسهل اللّه على كثير من البشر تحصيل ذلك في أقرب زمن التجربة، إذ قلد فيها الآباء والمشيخة والأكابر، ولقن عنهم ووعى تعليمهم، فيستغني عن طول المعاناة في تتبع الوقائع واقتناص هذا المعنى من بينها. ومن فَقد العلم في ذلك والتقليد فيه أو أعرض عن حسن استماعه واتباعه، طال غناؤه في التأديب بذلك، فيجري في غير مألوف ويدركها على غير نسبة، فتوجد آدابه ومعاملاته سيئة الأوضاع بادية الخلل، ويفسد حاله في معاشه بين أبناء جنسه. وهذا معنى القول المشهور: «من لم يؤدبه والده أدبه الزمان». أي من لم يلقن الآداب في معاملة البشر من والديه وفي -معناهما المشيخة والأكابر- ويتعلم ذلك منهم رجع إلى تعلمه بالطبع من الواقعات على توالي الأيام، فيكون الزمان معلمه ومؤدبه لضرورة ذلك بضرورة المعاونة التي في طبعه.

وهذا هو العقل التجريبي، وهو يحصل بعد العقل التمييزي الذي تقع به الأفعال كما بيناه. وبعد هذين مرتبة العقل النظري الذي تكفل بتفسيره أهل العلوم، فلا يحتاج إلى تفسيره في هذا الكتاب. واللّه ﴿جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا ما تَشْكُرُونَ﴾.

الفصل الثالث عشر

في علوم البشر وعلوم الملائكة

إنا نشهد في أنفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم: أولها: عالم الحس ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك. ثم نعتبر الفكر الذي اختص به البشر فنعلم منه وجود النفس الإنسانية علماً ضرورياً بما بين جنبينا من مدارك العلمية التي هي فوق مدارك الحس، فتراه عالماً آخر فوق عالم الحس. ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التي تلقى في أفئدتنا كالإرادات والوجهات، نحو الحركات الفعلية، فنعلم أن هناك فاعلاً يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا وهو عالم الأرواح والملائكة. وفيه ذوات مدركة لوجود آثارها فينا مع ما بيننا وبينها من المغايرة. وربما يستدل على هذا العالم الأعلى الروحاني وذواته بالرؤيا وما نجد في النوم، ويلقى إلينا فيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة، وتطابق الواقع في الصحيحة منها، فنعلم أنها حق ومن عالم الحق. وأما أضغاث الأحلام فصور خيالية يخزنها الإدراك في الباطن ويجول فيها الفكر بعد الغيبة عن الحس. ولا نجد على هذا العالم الروحاني برهاناً أوضح من هذا، فنعلمه كذلك على الجملة ولا ندرك له تفصيلاً.

وما يزعمه الحكماء الإلهيون في تفصيل ذواته وترتبها، المسماة عندهم بالعقول فليس شيء من ذلك بيقيني لاختلال شرط البرهان النظري فيه. كما هو مقرر في كلامهم في المنطق. لأن من شرطه أن تكون قضاياه أولية ذاتية. وهذه الذوات الروحانية مجهولة الذاتيات فلا سبيل للبرهان فيها. ولا يبقى لنا مدرك في تفاصيل هذه العوالم إلا ما نقتبسه من الشرعيات التي يوضحها

الإيمان ويحكمها. وأعقد هذه العوالم في مدركنا عالم البشر، لأنه وجداني مشهود في مداركنا الجسمانية والروحانية. ويشترك في عالم الحس مع الحيوانات وفي عالم العقل والأرواح مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس ذواته، وهي ذوات مجردة عن الجسمانية والمادة، وعقل صرف يتحد فيه العقل والعاقل والمعقول، وكأنه ذات حقيقتها الإدراك والعقل، فعلومهم حاصلة دائماً مطابقة بالطبع لمعلوماتهم لا يقع فيها خلل البتة.

وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم في ذواتهم بعد أن لا تكون حاصلة. فهو كله مكتسب، والذات التي يحصل فيها صور المعلومات وهي النفس مادة هيولانية تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شيئاً فشيئاً، حتى تستكمل، ويصح وجودها بالموت في مادتها وصورتها. فالمطلوبات فيها مترددة بين النفي والإثبات دائماً، بطلب أحدهما بالوسط الرابط بين الطرفين. فإذا حصل وصار معلوماً افتقر إلى بيان المطابقة، وربما أوضحها البرهان الصناعي، لكنه من وراء الحجاب. وليس كالمعاينة التي في علوم الملائكة. وقد ينكشف ذلك الحجاب فيصير إلى المطابقة بالعيان الإدراكي. فقد تبين أن البشر جاهل بالطبع للتردد الذي في علمه، وعالم بالكسب والصناعة لتحصيله المطلوب بفكرة الشروط الصناعية. وكشف الحجاب الذي أشرنا إليه إنما هو بالرياضة بالأذكار التي أفضلها صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وبالتنزه عن المتناولات المهمة ورأسها الصوم، وبالوجهة إلى الله بجميع قواه. والله علم الإنسان ما لم يعلم.

الفصل الرابع عشر

في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إنا نجد هذا الصنف من البشر تعتريهم حالة إلهية خارجة عن منازع البشر وأحوالهم، فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الإدراكية والنزوعية من الشهوة والغضب وسائر الأحوال البدنية. فتجدهم متنزهين عن الأحوال الربانية، من العبادة والذكر لله بما يقتضي معرفتهم به، مخبرين عنه بما يوحى إليهم في تلك الحالة، من هداية الأمة على طريقة واحدة وسنن معهود منهم لا يتبدل فيهم كأنه جبلة فطرهم الله عليها. وقد تقدم لنا الكلام في الوحي أول الكتاب في فصل المدركين للغيب. وبينا هنالك أن الوجود كله في عوالمه البسيطة والمركبة على تركيب طبيعي من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالاً لا ينخرم. وأن الذوات التي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى. استعداداً طبيعياً. كما في العناصر الجسمانية البسيطة. وكما في النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من أفق الحيوان، وكما في القردة التي استجمع فيها الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية. وهذا الاستعداد الذي في جانبي كل أفق من العوالم هو معنى الاتصال فيها.

وفوق العالم البشري عالم روحاني، شهدت لنا به الآثار التي فينا منه، بما يعطينا من قوى الإدراك والإرادة، فذوات العلم العالم إدراك صرف وتعقل محض، وهو عالم الملائكة، فوجب من ذلك كله أن يكون للنفس الإنسانية استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية. لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات. وفي لحة من اللمحات. ثم تراجع بشريتها وقد تلقت في عالم الملكية ما كلفت بتبليغه إلى أبناء جنسها من البشر. وهذا هو معنى الوحي وخطاب الملائكة. والأنبياء كلهم مفطورون عليه. كأنه جبلة لهم ويعالجون في ذلك الانسلاخ من الشدة والغطيط ما هو معروف عنهم. وعلومهم في تلك الحالة علم شهادة وعيان، لا يلحقه الخطأ والزلل، ولا يقع فيه الغلط والوهم، بل المطابقة فيه ذاتية لزوال حجاب الغيب وحصول الشهادة الواضحة، عند مفارقة هذه الحالة إلى البشرية، لا يفارق علمهم الوضوح. استصحاباً له من تلك الحالة الأولى، ولما هم عليه من الذكاء المفضي بهم إليها، يتردد ذلك فيهم دائماً إلى أن تكمل هداية الأمة التي بعثوا لها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُواْ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾. فافهم ذلك وراجع ما قدمناه لك أول الكتاب، في أصناف المدركين للغيب، يتضح لك شرحه وبيانه، فقد بسطناه هنالك بسطاً شافياً. والله الموفق.

الفصل الخامس عشر

في أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب

قد بينا أول هذه الفصول أن الإنسان من جنس الحيوانات، وأن الله تعالى ميزه عنها بالفكر الذي جعل له، يوقع به أفعاله على انتظام وهو العقل التمييزي أو يقتنص به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه، وهو العقل التجريبي، أو يحصل به في تصور الموجودات غائباً وشاهداً، على ما هي عليه، وهو العقل النظري، وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه.

ويبدأ من التمييز، فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة، معدود من الحيوانات، لاحق بمبدئه في التكوين، من النطفة والعلقة والمضغة. وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر. قال تعالى في الامتنان علينا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ فهو في الحالة الأولى قبل التمييز هيولاً فقط. لجهله بجميع المعارف. ثم تستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه بآلاته، فكمّل ذاته الإنسانية في وجودها. وانظر إلى قوله تعالى مبدأ الوحي على نبيه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلاً له بعد أن كان علقة ومضغة، فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتي والعلم الكسبي وأشارت إليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه بأول مراتب وجوده. وهي الإنسانية. وحالتاه الفطرية والكسبية في أول التنزيل ومبدأ الوحي. وكان الله عليماً حكيماً.

الفصل السادس عشر

في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة وما حدث لأجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقادات

اعلم أن الله سبحانه بعث إلينا نبينا محمداً ﷺ يدعونا إلى النجاة والفوز بالنعيم، وأنزل عليه الكتاب الكريم باللسان العربي المبين. يخاطبنا فيه بالتكاليف المفضية بنا إلى ذلك. وكان في خلال هذا الخطاب، ومن ضروراته، ذكر صفاته سبحانه وأسمائه، ليعرفنا بذاته، وذكر الروح المتعلقة بنا، وذكر الوحي والملائكة، الوسائط بينه وبين رسله إلينا. وذكر لنا يوم البعث وإنذاراته ولم يعين لنا الوقت في شيء منه. وثبت في هذا القرآن الكريم حروفاً من الهجاء مقطعة في أوائل بعض سوره، لا سبيل لنا إلى فهم المراد بها. وسمى هذه الأنواع كلها من الكتاب متشابهاً. وذم على اتباعها فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾. وحمل العلماء من سلف الصحابة والتابعين هذه الآية على أن المحكمات هي المبينات الثابتة الأحكام. ولذا قال الفقهاء في اصطلاحهم: المحكم المتضح المعنى. وأما المتشابهات فلهم فيها عبارات. فقيل: هي التي تفتقر إلى نظر وتفسير يصحح معناها، لتعارضها مع آية أخرى أو مع العقل، فتخفى دلالتها وتشتبه.

وعلى هذا قال ابن عباس: المتشابه يؤمن به ولا يعمل به. وقال مجاهد وعكرمة: كل ما سوى آيات الأحكام والقصص متشابه. وعليه القاضي أبو بكر وإمام الحرمين. وقال الثوري والشعبي وجماعة من علماء السلف: المتشابه، ما لم يكن سبيل إلى علمه، كشروط الساعة وأوقات الإنذارات وحروف الهجاء في أوائل السور، وقوله في الآية ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي معظمه وغالبه والمتشابه أقله، وقد يرد إلى المحكم. ثم ذم المتبعين للمتشابه بالتأويل أو بحملها على معان لا تفهم منها في لسان العرب الذي خوطبنا به. وسماهم أهل زيغ، أي ميل عن الحق من الكفار والزنادقة وجهلة أهل البدع. وأن فعلهم ذلك قصد الفتنة التي هي الشرك أو اللبس على المؤمنين أو قصداً لتأويلها بما يشتهونه فيقتدون به في بدعتهم.

ثم أخبر سبحانه بأنه استأثر بتأويلها ولا يعلمه إلا هو فقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ﴾. ثم أثنى على العلماء بالإيمان بها فقط. فقال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾. ولهذا جعل السلف والراسخون مستأنفاً ورجحوه على العطف؛ لأن الإيمان بالغيب أبلغ في الثناء، ومع عطفه إنما يكون إيماناً بالشاهد. لأنهم يعلمون التأويل حينئذ فلا يكون غيباً. ويعضد ذلك قوله ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ ويدل على ان التأويل فيها غير معلوم للبشر انّ الألفاظ اللغوية إنما يفهم منها المعاني التي وضعها العرب لها، فإذا استحال إسناد الخبر إلى مخبر عنه جهلنا مدلول الكلام حينئذ، وإن جاءنا من عند الله فوضنا علمه إليه ولا نشغل أنفسنا بمدلول نلتمسه، فلا سبيل لنا إلى ذلك. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: إذا رأيتم الذين يجادلون في القرآن، فهم الذين عنى الله، فاحذروهم. هذا مذهب السلف في الآيات المتشابهة. وجاء في السنة ألفاظ مثل ذلك محملها عندهم محمل الآيات لأن المنبع واحد.

وإذا تقررت أصناف المتشابهات على ما قلناه، فلنرجع إلى اختلاف الناس فيها. فأما ما يرجع منها على ما ذكروه إلى الساعة وأشراطها وأوقات الإنذارات وعدد الزبانية وأمثال ذلك، فليس هذا والله أعلم من المتشابه، لأنه لم يرد فيه لفظ مجمل ولا غيره وإنما هي أزمنة لحادثات استأثر الله بعلمها بنصه في كتابه وعلى لسان نبيه. وقال: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾. والعجب ممن عدها من

المتشابه.

وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فحقيقتها حروف الهجاء وليس ببعيد أن تكون مرادة. وقد قال الزمخشري: فيها إشارة إلى بعد الغاية في الإعجاز، لأن القرآن المنزل مؤلف منها، والبشر فيها سواء، والتفاوت موجود في دلالتها بعد التأليف. وإن عدل عن هذا الوجه الذي يتضمن الدلالة على الحقيقة فإنما يكون بنقل صحيح، كقولهم في طه، إنه نداء من طاهر وهادي وأمثال ذلك. والنقل الصحيح متعذر، فيجيء المتشابه فيها من هذا الوجه.

وأما الوحي والملائكة والروح والجن، فاشتباهها من خفاء دلالتها الحقيقية لأنها غير متعارفة، فجاء التشابه فيها من أجل ذلك. وقد ألحق بعض الناس بها كل ما في معناها من أحوال القيامة والجنة والدجال والفتن والشروط، وما هو بخلاف العوائد المألوفة، وهو غير بعيد، إلا أن الجمهور لا يوافقونهم عليه. وسيما المتكلمون فقد عينوا محاملها على ما تراه في كتبهم، ولم يبق من المتشابه إلا الصفات التي وصف اللّه بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه، مما يوهم ظاهره نقصاً أو تعجيزاً.

وقد اختلف الناس في هذه الظواهر من بعد السلف الذين قررنا مذهبهم. وتنازعوا وتطرقت البدع إلى العقائد. فلنشر إلى بيان مذاهبهم وإيثار الصحيح منه على الفاسد فنقول، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ﴾:

اعلم أن اللّه سبحانه وصف نفسه في كتابه بأنه عالم، قادر، مريد، حي، سميع، بصير. متكلم، جليل، كريم، جواد، منعم، عزيز، عظيم. وكذا أثبت لنفسه اليدين والعينين والوجه والقدم واللسان، إلى غير ذلك من الصفات: فمنها ما يقتضي صحة ألوهيّتِهِ. مثل العلم والقدرة والإرادة. ثم الحياة التي هي شرط جميعها، ومنها ما هي صفة كمال، كالسمع والبصر والكلام، ومنها ما يوهم النقص كالاستواء والنزول والمجيء، وكالوجه واليدين والعينين التي هي صفات المحدثات. ثم أخبر الشارع أنا نرى ربنا يوم القيامة كالقمر ليلة البدر، لا نضام في رؤيته كما ثبت في الصحيح.

فأما السلف من الصحابة والتابعين فأثبتوا له صفات الألوهية والكمال وفوضوا إليه ما يوهم النقص ساكتين عن مدلوله.

ثم اختلف الناس من بعدهم وجاء المعتزلة فأثبتوا هذه الصفات أحكاماً ذهنية مجردة، ولم يثبتوا صفة تقوم بذاته. وسموا ذلك توحيداً، وجعلوا الإنسان خالقاً لأفعاله. ولا تتعلق بها قدرة اللّه تعالى، سيما الشرور والمعاصي منها، إذ يمتنع على الحكيم فعلها. وجعلوا مراعاة الأصلح للعباد واجبة عليه. وسموا ذلك عدلاً، بعد أن كانوا أولاً يقولون بنفي القدر، وأن الأمر كله مستأنف بعلم حادث وقدرة وإرادة كذلك، كما ورد في الصحيح. وأن عبد اللّه بن عمر تبرأ من معبد الجهني وأصحابه القائلين بذلك. وانتهى نفي القدر إلى واصل بن عطاء الغزالي، منهم، تلميذ الحسن البصري، لعهد عبد الملك بن مروان. ثم آخراً إلى معمر السلمي ورجعوا عن القول به. وكان منهم أبو الهذيل العلاف، وهو شيخ المعتزلة. أخذ الطريقة عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل. وكان من نفاة القدر، واتبع رأي الفلاسفة في نفي الصفات الوجودية لظهور مذاهبهم يومئذ.

ثم جاء إبراهيم النظام، وقال بالقدر، واتبعوه. وطالع كتب الفلاسفة وشدد في نفي الصفات وقرر قواعد الاعتزال. ثم جاء الجاحظ والكعبي والجبائي. وكانت طريقتهم تسمى علم الكلام: إما لما فيها من الحجاج والجدال. وهو الذي يسمى كلاماً، وإما أن أصل طريقتهم نفي صفة الكلام. فلهذا كان الشافعي يقول: حقهم أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم. وقرر هؤلاء طريقتهم وأثبتوا منها وردوا، إلى أن ظهر الشيخ أبو الحسن الأشعري وناظر بعض مشيختهم في مسائل الصلاح والأصلح، فرفض طريقتهم، وكان على رأي عبد اللّه بن سعيد بن كلاب وأبي العباس القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي من أتباع السلف وعلى طريقة السنة. فأيد مقالاتهم بالحجج الكلامية وأثبت الصفات القائمه بذات اللّه تعالى، من العلم والقدرة والإرادة التي يتم بها دليل التمانع وتصح المعجزات للأنبياء. وكان من مذهبهم إثبات الكلام والسمع والبصر لأنها وإن أوهم ظاهراً النقص بالصوت والحرف الجسمانيين، فقد وجد للكلام عند العرب مدلول آخر غير الحروف والصوت، وهو ما يدور في الخلد. والكلام حقيقة فيه دون الأول، فأثبتوها لله تعالى وانتفى إيهام النقص. وأثبتوا هذه الصفة قديمة عامة التعلق بشأن الصفات الأخرى. وصار القرآن اسماً مشتركاً بين القديم بذات اللّه تعالى. وهو الكلام النفسي والمحدث الذي هو الحروف المؤلفة المقروؤة بالأصوات. فإذا قيل: قديم، فالمراد الأول، وإذا قيل: مقروء، مسموع، فلدلالة القراءة والكتابة عليه.

وتورع الإمام أحمد بن حنبل من إطلاق لفظ الحدوث عليه، لأنه لم يسمع من السلف قبله: لا أنه يقول إن المصاحف المكتوبة قديمة، ولا أن القراءة الجارية على السنة قديمة. وهو شاهدها محدثة. وإنما منعه من ذلك الورع الذي كان عليه. وأما

غير ذلك فإنكار للضروريات، وحاشاه منه.

وأما السمع والبصر، وإن كان يوهم إدراك الجارحة. فهو يدل أيضاً لغة على إدراك المسموع والمبصر وينتفي إيهام النقص حينئذ لأنه حقيقة لغوية فيهما.

وأما لفظ الاستواء والمجيء والنزول والوجه واليدين والعينين وأمثال ذلك، فعدلوا عن حقائقها اللغوية فما فيها من إيهام النقص بالتشبيه إلى مجازاتها، على طريقة العرب، حيث تتعذر حقائق الألفاظ، فيرجعون إلى المجاز. كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ﴾ وأمثاله، طريقة معروفة لهم غير منكرة ولا مبتدعة. وحملهم على هذا التأويل، وإن كان مخالفاً لمذهب السلف في التفويض أن جماعة من أتباع السلف وهم المحدثون والمتأخرون من الحنابلة ارتكبوا في محمل هذه الصفات فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى، مجهولة الكيفية. فيقولون في ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تثبت له استواء، بحيث مدلول اللفظة. فراراً من تعطيله. ولا نقول بكيفيته فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه آيات السلوب، من قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات استواء، والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعه الاستقرار والتمكن. وهو جسماني.

وأما التعطيل الذي يشنعون بإلزامه، وهو تعطيل اللفظ، فلا محذور فيه. وإنما المحذور في تعطيل الآلة. وكذلك يشنعون بإلزام التكليف بما لا يطاق وهو تمويه. لأن التشابه لم يقع في التكاليف، ثم يدعون أن هذا مذهب السلف، وحاشا لله من ذلك. وإنما مذهب السلف ما قررناه أولاً من تفويض المراد بها إلى الله، والسكوت عن فهمها. وقد يحتجون لإثبات الاستواء لله بقول مالك: إن الاستواء معلوم الثبوت لله. وحاشاه من ذلك، لأنة يعلم مدلول الاستواء. وإنما أراد أن الاستواء معلوم من اللغة، وهو الجسماني. وكيفيته أي حقيقته. لأن حقائق الصفات كلها كيفيات، وهي مجهولة الثبوت لله. وكذلك يحتجون على إثبات المكان بحديث السوداء. وأنها لما قال لها النبي ﷺ: «أين الله؟» وقالت: في السماء، فقال: «أعتقها فإنها مؤمنة». والنبي ﷺ لم يثبت لها الإيمان بإثباتها المكان لله، بل لأنها آمنت بما جاء به من ظواهر، أن الله في السماء، فدخلت في جملة الراسخين الذين يؤمنون بالمتشابه من غير كشف عن معناه. والقطع بنفي المكان حاصل من دليل العقل النافي للافتقار. ومن أدلة السلوب المؤذنة بالتنزيه مثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأشباهه. ومن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، إذ الموجود لا يكون في مكانين، فليست في هذا للمكان قطعاً، والمراد غيره. ثم طردوا ذلك المحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه والعينين واليدين، والنزول والكلام بالحرف والصوت يجعلون لها مدلولات أعم من الجسمانية وينزهونه عن مدلول الجسماني منها. وهذا شيء لا يعرف في اللغة. وقد درج على ذلك الأول والآخر منهم ونافرهم أهل السنة من المتكلمين الأشعرية والحنفية. ورفضوا عقائدهم في ذلك، ووقع بين متكلمي الحنفية ببخارى وبين الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ما هو معروف.

وأما المجسمة ففعلوا مثل ذلك في إثبات الجسمية. وأنها لا كالأجسام. ولفظ الجسم له يثبت في منقول الشرعيات. وإنما جرأهم عليه إثبات هذه الظواهر، فلم يقتصروا عليه، بل توغلوا وأثبتوا الجسمية. يزعمون فيها مثل ذلك وينزهونه بقول متناقض سفساف، وهو قولهم: جسم لا كالأجسام. والجسم في لغة العرب هو العميق المحدود وغير هذا التفسير من أنه القائم بالذات أو المركب من الجواهر وغير ذلك، فاصطلاحات للمتكلمين يريدون بها غير المدلول اللغوي. فلهذا كان المجسمة أوغل في البدعة بل والكفر. حيث أثبتوا لله وصفاً موهماً يوهم النقص لم يرد في كلامه. ولا كلام نبيه.

فقد تبين لك الفرق بين مذاهب السلف والمتكلمين السنية والمحدثين والمبتدعة من المعتزلة والمجسمة بما أطلعناك عليه. وفي المحدثين غلاة يسمون المشبه لتصريحهم بالتشبيه، حتى إنه يحكى عن بعضهم أنه قال: أعفوني من اللحية والفرج وسلوا عما بدا لكم من سواهما. وإن لم يتأول ذلك لهم، بأنهم يريدون حصر ما ورد من هذه الظواهر الموهمة. وحملها على ذلك المحمل الذي لأئمتهم، وإلا فهو كفر صريح والعياذ بالله. وكتب أهل السنة مشحونة بالحجاج على هذه البدع. وبسط الرد عليهم بالأدلة الصحيحة. وإنما أومأنا إلى ذلك إيماء يتميز به فصول المقالات وجملها. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأما الظواهر الخفية الأدلة والدلالة، كالوحي والملائكة والروح والجن والبرزخ وأحوال القيامة والدجال والفتن والشروط. وسائر ما هو متعذر على الفهم أو مخالف للعادات، فإن حملناه على ما يذهب إليه الأشعرية في تفاصيله، وهم أهل السنة. فلا تشابه، وإن قلنا فيه بالتشابه، فلنوضح القول فيه بكشف الحجاب عنه فنقول: اعلم أن العالم البشري أشرف العوالم من الموجودات، وأرفعها. وهو وإن اتحدت حقيقة الإنسانية فيه فله أطوار يخالف كل واحد منها الآخر بأحوال تختص به حتى كأن الحقائق فيها مختلفة.

فالطور الأول: عالمه الجسماني بحسه الظاهر وفكره المعاشي وسائر تصرفاته التي أعطاه إياها وجوده الحاضر.

الطور الثاني: عالم النوم، وهو تصور الخيال بإنفاذ تصوراته جائلة في باطنه، فيدرك منها بحواسه الظاهرة مجردة عن الأزمنة والأمكنة وسائر الأحوال الجسمانية، ويشاهدها في مكان ليس هو فيه. ويحدث للصالح منها البشرى بما يترقب من مسراته الدنيوية والأخروية، كما وعد به الصادق صلوات اللّه عليه. وهذان الطوران عامان في جميع أشخاص البشر، وهما مختلفان في المدارك كما تراه.

الطور الثالث: طور النبوة، وهو خاص بإشراف صنف البشر بما خصهم اللّه به من معرفته وتوحيده. وتنزل ملائكته عليهم بوحيه. وتكليفهم بإصلاح البشر في أحوال كلها مغايرة للأحوال البشرية الظاهرة.

الطور الرابع: طور الموت الذي تفارق أشخاص البشر فيه حياتهم الظاهرة إلى وجود قبل القيامة يسمى البرزخ يتنعمون فيه ويعذبون على حسب أعمالهم ثم يفضون إلى يوم القيامة الكبرى، وهي دار الجزاء الأكبر نعيماً وعذاباً في الجنة أو في النار.

والطوران الأولان شاهدهما وجداني. والطور الثالث النبوي شاهده المعجزة والأحوال المختصة بالأنبياء، والطور الرابع شاهده ما تنزل على الأنبياء من وحي اللّه تعالى في المعاد وأحوال البرزخ والقيامة، مع أن العقل يقتضي به، كما نبهنا اللّه عليه، في كثير من آيات البعثة. ومن أوضح الدلالة على صحتها أن أشخاص الإنسان لو لم يكن لهم وجود آخر بعد الموت غير هذه المشاهد يتلقى فيه أحوالاً تليق به. لكان إيجاده الأول عبثاً. إذ الموت إذا كان عدماً كان مآل الشخص إلى العدم. فلا يكون لوجوده الأول حكمة. والعبث على الحكيم محال. وإذا تقررت هذه الأحوال الأربعة، فلنأخذ في بيان مدارك الإنسان فيها كيف تختلف اختلافاً بيناً يكشف لك غور المتشابه. فأما مداركه في الطور الأول فواضحة جلية. قال اللّه تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾. فبهذه المدارك يستولي على ملكات المعارف ويستكمل حقيقة إنسانيته ويوفي حق العبادة المفضية به إلى النجاة.

وأما مداركه في الطور الثاني. وهو طور النوم. فهي المدارك التي في الحس الظاهر بعينها. لكن ليست في الجوارح كما هي في اليقظة. لكن الرأي يتيقن كل شيء أدركه في نومه لا يشك فيه ولا يرتاب. مع خلو الجوارح عن الاستعمال العادي لها. والناس في حقيقة هذه الحال فريقان: الحكماء، ويزعمون أن الصور الخيالية يدفعها الخيال بحركة الفكر إلى الحس المشترك الذي هو الفصل المشترك بين الحس الظاهر والحس الباطن. فتصور محسوسه بالظاهر في الحواس كلها. ويشكل عليهم هذا بأن المرائي الصادقة التي هي من اللّه تعالى أو من الملك أثبت وأرسخ في الإدراك من المرائي الخيالية الشيطانية، مع أن الخيال فيها على ما قرروه واحد.

الفريق الثاني: المتكلمون. أجملوا فيها القول. وقالوا: هو إدراك يخلقه اللّه في الحاسة فيقع كما يقع في اليقظة. وهذا أليق وإن كنا لا نتصور كيفيته. وهذا الإدراك النومي أوضح شاهد على ما يقع بعده من المدارك الحسية في الأطوار.

وأما الطور الثالث، وهو طور الأنبياء: فالمدارك الحسية فيها مجهولة الكيفية. عند وجدانيته عندهم بأوضح من اليقين. فيرى النبي اللّه والملائكة. ويسمع كلام اللّه منه أو من الملائكة. ويرى الجنة والنار، والعرش والكرسي، ويخترق السموات السبع في إسرائه ويركب البراق فيها، ويلقى النبيين هنالك. ويصلي بهم، ويدرك أنواع المدارك الحسية كما يدرك في طوره الجسماني والنومي، بعلم ضروري يخلقه اللّه له، لا بالإدراك العادي للبشر في الجوارح. ولا يلتفت في ذلك إلى ما يقوله ابن سينا من تنزيله أمر النبوة على أمر النوم في دفع الخيال صورة إلى الحس المشترك. فإن الكلام عليهم هنا أشد من الكلام في النوم، لأن هذا التنزيل طبيعة واحدة كما قررناه، فيكون على هذا حقيقة الوحي والرؤيا من النبي واحدة في يقينها وحقيقتها. وليست كذلك على ما علمت من رؤيا النبي ﷺ قبل الوحي ستة أشهر وأنها كانت بمدة الوحي ومقدمته. ويشعر ذلك بأنه رؤية في الحقيقة. وكذلك حال الوحي في نفسه فقد كان يصعب عليه ويقاسي منه شدة كما هي في الصحيح. حتى كان القرآن يتنزل عليه آيات مقطعات. وبعد ذلك نزل عليه براءة في غزوة تبوك جملة واحدة، وهو يسير على ناقته. فلو كان ذلك من تنزل الفكر إلى الخيال فقط، ومن الخيال إلى الحس المشترك، لم يكن بين هذه الحالات فرق.

وأما الطور الرابع، وهو طور الأموات في برزخهم الذي أوله القبر. وهم مجردون عن البدن. أو في بعثهم عندما يرجعون إلى الأجسام. فمداركهم الحسية موجودة، فيرى الميت في قبره الملكان يسائلانه. ويرى مقعده من الجنة أو النار بعيني رأسه، ويرى شهود الجنازة ويسمع كلامهم وخفق نعالهم في الانصراف عنه، ويسمع ما يذكرونه به من التوحيد أو من تقرير الشهادتين، وغير ذلك. وفي الصحيح: أن رسول اللّه ﷺ وقف على قليب بدر وفيه قتلى المشركين من قريش، وناداهم بأسمائهم، فقال عمر: يا

رسول اللّه! أتكلم هؤلاء الجيف؟ فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع منهم لما أقول».

ثم في البعثة يوم القيامة يعاينون بأسمائهم وأبصارهم كما كانوا يعاينون في الحياة من نعيم الجنة على مراتبه وعذاب النار على مراتبه، ويرون الملائكة ويرون ربهم، كما ورد في الصحيح: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة، كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته». وهذه المدارك لم تكن لهم في الحياة الدنيا وهي حسية مثلها. وتقع في الجوارح بالعلم الضروري الذي يخلقه اللّه كما قلناه. وسر هذا أن تعلم أن النفس الإنسانية هي تنشأ بالبدن وبمداركه، فإذا فارقت البدن بنوم أو بموت أو صار النبي حالة الوحي من المدارك البشرية إلى المدارك الملكية، فقد استصحبت ما كان معها من المدارك البشرية مجردة عن الجوارح، فيدرك بها في ذلك الطور أي إدراك شاءت منها، أرفع من إدراكها، وهي في الجسد. قاله الغزالي رحمه اللّه، وزاد على ذلك أن النفس الإنسانية صورة تبقى لها بعد المفارقة فيها العينان والأذنان وسائر الجوارح المدركة أمثالاً لها، كان في البدن وصوراً.

وأنا أقول: إنما يشير بذلك إلى الملكات الحاصلة من تصريف هذه الجوارح في بدنها زيادة على الإدراك. فإذا تفطنت لهذا كله علمت أن هذه المدارك موجودة في الأطوار الأربعة، لكن ليس على ما كانت في الحياة الدنيا، وإنما هي تختلف بالقوة والضعف بحسب ما يعرض لها من الأحوال. ويشير المتكلمون إلى ذلك إشارة مجملة بأن اللّه يخلق فيها علماً ضرورياً بتلك المدارك. أي مدرك كان، ويعنون به هذا القدر الذي أوضحناه. وهذه نبذة أومأنا بها إلى ما يوضح القول في المتشابه. ولو أوسعنا الكلام فيه لقصرت المدارك عنه. فلنفزع إلى اللّه سبحانه في الهداية والفهم عن أنبيائه وكتابه، بما يحصل به الحق في توحيدنا. والظفر بنجاتنا واللّه يهدي من يشاء.

الفصل السابع عشر

في علم التصوف

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى اللّه تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة. وقال القشيري رحمه اللّه: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس. والظاهر أنه لقب. ومن قال: اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه.

قلت: والأظهر أن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف، فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة اختصوا بمآخذ مدركة لهم، وذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم، وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك. فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال وهي التي يتميز بها الإنسان. وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم عن الأدلة والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به والنشاط عن الحمام والكسل عن الإعياء. وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لابد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة. وتلك الحالة إما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاماً للمريد، وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات. ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة. قال ﷺ: «من مات يشهد أن لا إله إلا اللّه دخل الجنة» فالمريد لابد له من الترقي في هذه الأطوار وأصلها كلها الطاعة والإخلاص ويتقدمها الإيمان ويصاحبها، وتنشأ عن الأحوال والصفات نتائج وثمرات. ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان. وإذا وقع، تقصير في النتيجة أو خلل فنعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله. وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية. فلهذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في حقائقها؛ لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك. والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه. ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس لأن الغفلة عن هذا كأنها شاملة.

وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع أنهم يأتون

بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الأجزاء والامتثال. وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أولاً، فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاماً ويترقى منها إلى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة. فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه. فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه. وصار علم الشريعة على صنفين:

صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات.

وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقي منها من ذوق إلى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك.

فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك. كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقتهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية له، ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق اهلها ومواجدهم في الأحوال كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم. وجمع الغزالي رحمه اللّه بين الأمرين في كتاب الإحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك.

ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر اللّه ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها. والروح من تلك العوالم. وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشؤه وأعان على ذلك الذكر، فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً. ويكشف حجاب الحس، ويتم وجود النفس التي لها من ذاتها. وهو عين الإدراك. فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة. وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود مالا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم. فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعوذون منه إذا هاجمهم.

وقد كان الصحابة رضي اللّه عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ لكنهم لم يقع لهم بها عناية. وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي اللّه عنهم كثير منها. وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقتهم من بعدهم. ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والكلام في المدارك التي وراءه واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها، فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش ثم إلى الطش. هكذا قال الغزالي رحمه اللّه في كتاب الإحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة.

ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة؛ لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين. وليس مرادنا إلا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومثاله أن المرآة الصقيلة إذا كانت محدبة أو مقعرة وحوذي بها جهة المرئي فإنه يتشكل فيه معوجاً على غير صورته. وإن كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحاً. فالاستقامة للنفس كالإنبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الأحوال. ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك. وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك. وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم. وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق رداً وقبولاً إذ هي من قبيل الوجدانيات.

تفصيل وتحقيق: يقع كثيرا في كلام أهل العقائد من علماء

الحديث والفقه أن اللّه تعالى مباين لمخلوقاته. ويقع للمتكلمين أنه لا مباين ولا متصل. ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه. ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات: إما بمعنى الحلول فيها، أو بمعنى أنه هو عينها. وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلاً. فلنبين تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحد منها، حتى تتضح معانيها فنقول: إن المباينة تقال لمعنيين:

أحدهما: المباينة في الحيز والجهة، ويقابله الاتصال. وتشعر هذه المقابلة على هذه التقيد بالمكان: إما صريحاً وهو تجسيم، أو لزوماً وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة. وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح بهذه المباينة، فيحتمل غير هذا المعنى. من أجل ذلك أنكر المتكلمون هذه المباينة وقالوا: لا يقال في البارئ أنه مباين مخلوقاته، ولا متصل بها، لأن ذلك إنما يكون للمتحيزات. وما يقال من أن المحل لا يخلو عن الاتصاف بالمعنى وضده. فهو مشروط بصحة الاتصاف أولاً، وأما مع امتناعه فلا، بل يجوز الخلو عن المعنى وضده. كما يقال في الجماد، لا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز ولا كاتب ولا أمي. وصحة الاتصاف بهذه المباينة مشروط بالحصول في الجهة على ما تقرر من مدلولها. والبارئ سبحانه منزه عن ذلك. ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع لإمام الحرمين وقال: ولا يقال في البارئ: مباين للعالم ولا متصل به، ولا داخل فيه ولا خارج عنه. وهو معنى ما يقوله الفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه، بناء على وجود الجواهر غير المتحيزة. وأنكرها المتكلمون لما يلزم من مساواتها للبارئ في أخص الصفات. وهو مبسوط في علم الكلام.

وأما المعنى الآخر للمباينة، فهو المغايرة والمخالفة فيقال: البارئ مباين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده وصفاته. ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط. وهذه المباينة هي مذهب أهل الحق كلهم من جمهور السلف وعلماء الشرائع والمتكلمين والمتصوفة الأقدمين كأهل الرسالة ومن نحا منحاهم.

وذهب جماعة من المتصوفة المتأخرين الذين صيروا المدارك الوجدانية علمية نظرية، إلى أن البارئ تعالى متحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته. وربما زعموا أنه مذهب الفلاسفة قبل أرسطو، مثل أفلاطون وسقراط، وهو الذي يعينه المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام عن المتصوفة ويحاولون الرد عليه لأنه ذاتان، تنتفي إحداهما، أو تندرج اندراج الجزء. فإن تلك مغايرة صريحة. ولا يقولون بذلك. وهذا الاتحاد هو الحلول الذي تدعيه النصارى في المسيح عليه السلام وهو أغرب؛ لأنه حلول قديم في محدث أو اتحاده به. وهو أيضاً عين ما تقوله الإمامية من الشيعة في الأئمة. وتقرير هذا الاتحاد في كلامهم على طريقين:

الأولى: أن ذات القديم كائنة في المحدثات محسوسها ومعقولها، متحدة بها في المتصورين، وهي كلها مظاهر له، وهو القائم عليها، أي المقوم لوجودها بمعنى لولاه كانت عدماً وهو رأي أهل الحلول.

الثانية: طريق أهل الوحدة المطلقة وكأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد، فنفوها بين القديم وبين المخلوقات في الذات والوجود والصفات. وغالطوا في غيرية المظاهر المدركة بالحس والعقل بأن ذلك من المدارك البشرية، وهي أوهام. ولا يريدون الوهم الذي هو قسيم العلم والظن والشك، وإنما يريدون أنها كلها عدم في الحقيقة، وجود في المدرك البشري فقط. ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم، لا في الظاهر ولا في الباطن كما نقرره بعد، بحسب الإمكان. والتعويل في تعقل ذلك على النظر والاستدلال، كما في المدارك البشرية، غير مفيد، لأن ذلك إنما ينقل من المدارك الملكية، وإنما هي حاصلة للأنبياء بالفطرة ومن بعدهم للأولياء بهدايتهم. وقصد من يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال. وربما قصد بعض المصنفين ذلك في كشف الموجودات وترتيب حقائقه على طريق أهل المظاهر فأتى بالأغمض فالأغمض.

وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه، فأتى بالأغمض فالأغمض بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح، فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التي هي مظهر الأحدية وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير. ويسمون هذا الصدور بالتجلي. وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه: «كنت كنزاً مخفيا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق ليعرفوني» وهذا الكمال في الإيجاد المتنزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية، وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين، والكمّل من أهل الملة المحمدية. وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية. ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك، ثم عالم العناصر، ثم عالم التركيب. هذا في عالم الرتق فإذا تجلت فهي في عالم الفتق.انتهى.

ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل. وربما أنكر بظاهر الشرع. هذا الترتيب فإنه لا يعرف في شيء من مناحيه، وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي أغرب من الأول في تعقله وتفاريعه. يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله، بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها.

والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها. ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب، كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها، وزيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية، وزيادة قوتها في نفسها وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية، ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة. وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هي القوة الإلهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه. لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة، فالكل واحد وهو نفس الذات الإلهية، وهي في الحقيقة واحدة بسيطة، والاعتبار هو المفصل لها كالإنسانية مع الحيوانية. ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها. فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه، وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال. وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال. والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما يقوله الحكماء في الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء، فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه.

وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي، بل والموجودات المعقولة والمتوهمة أيضاً مشروطة بوجود المدرك العقلي، فإذاً الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري. فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل في الوجود بل هو بسيط واحد، فالحر والبرد والصلابة واللين، بل والأرض والماء والنار والسماء والكواكب، إنما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس في الموجود، وإنما هو في المدارك فقط، فإذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل إنما هو إدراك واحد وهو أنا لا غيره. ويعتبرون ذلك بحال النائم فإنه إذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس، وهو في تلك الحال إلا ما يفصله له الخيال. قالوا: فكذا اليقظان إنما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدّر فَقْدُ مدركه فُقِدَ التفصيلُ، وهذا هو معنى قولهم: الوهم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية.

هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان وهو في غاية السقوط؛ لأنا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون إليه يقيناً مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا. والإنسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد نفسه في اليقين مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون: إن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع، ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق ولابد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة؛ لأنه يخشى على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته، فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة.

ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة، كما أشرنا إليه وملأوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره. وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم. وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر. واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم. وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين. يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه اللّه. ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان. وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف منها فقال: جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد. وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية، ولا دليل شرعي، وإنما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الأئمة عندهم، فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة ودانوا به. ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء. حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم ونحلتهم رفعوه إلى علي رضي اللّه عنه وهو من هذا المعنى أيضاً. وإلا فعلي رضي اللّه عنه لم يختص من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة في لباس ولا حال. بل كان أبو بكر وعمر رضي اللّه عنهما أزهد الناس بعد رسول اللّه ﷺ وأكثرهم عبادة. ولم

يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه على الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة.

تشهد بذلك سيرهم وأخبارهم، نعم إن الشيعة يخيلون بما ينقلون من ذلك اختصاص علي بالفضائل دون من سواه من الصحابة ذهاباً مع عقائد التشيع المعروفة لهم. والذي يظهر أن المتصوفة بالعراق، لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة، وظهر كلامهم في الإمامة وما يرجع إليها ما هو معروف، فاقتبسوا من ذلك الموزانة بين الظاهر والباطن وجعلوا الإمامة لسياسة الخلق في الانقياد إلى الشرع، وأفردوه بذلك أن لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع. ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله لأنه رأس العارفين، وأفردوه بذلك تشبيهاً بالإمام في الظاهر وأن يكون على وزانه في الباطن وسموه قطباً لمدار المعرفة عليه، وجعلوا الأبدال كالنقباء مبالغة في التشبيه؛ فتأمل ذلك!!

يشهد بذلك كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا به كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم. والله يهدي إلى الحق.

تذييل: وقد رأيت أن أجلب هنا فصلاً من كلام شيخنا العارف كبير الأولياء بالأندلس، أبي مهدي عيسى بن الزيات كان يقع له أكثر الأوقات على أبيات الهروي التي وقعت له في كتاب المقامات، توهم القول بالوحدة المطلقة أو يكاد يصرح بها وهي قوله:

ما وحد الواحد من واحد ... إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته ... تثنية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد

فيقول رحمه الله على سبيل العذر عنه: استشكل الناس إطلاق لفظ الجحود على كل من وحد الواحد ولفظ الإلحاد على من نعته ووصفه. واستبشعوا هذه الأبيات وحملوا قائلها على الكفر واستخفوه. ونحن نقول على رأي هذه الطائفة أن معنى التوحيد عندهم انتفاء عين الحدوث بثبوت عين القدم وأن الوجود كله حقيقة واحدة وآنية واحدة. وقد قال أبو سعيد الجزار من كبار القوم: الحق عين ما ظهر وعين ما بطن. ويرون أن وقوع التعدد في تلك الحقيقة وجود الاثنينية. وهم باعتبار حضرات الحس بمنزلة صور الضلال والصدا والمرأى. وأن كل ما سوى عين القدم، إذا استتبع فهو عدم. وهذا معنى: كان الله، ولا شيء معه، وهو الآن على ما هو عليه كان عندهم. ومعنى قول لبيد الذي صدقه رسول الله ﷺ في قوله: «ألا كل شيء، ما خلا الله باطل». قالوا: فمن وحد ونعت، فقد قال بموجد محدث. هو نفسه، وتوحيد محدث هو فعله، موجد قديم، هو معبود.

وقد تقدم معنى التوحيد انتفاء عين الحدوث، وعين الحدوث، الآن ثابتة بل متعددة، والتوحيد مجحود والدعوى كاذبة. كمن يقول لغيره، وهما معاً في بيت واحد: ليس في البيت غيرك! فيقول الآخر بلسان حاله: لا يصح هذا إلا لو عدمت أنت! وقد قال بعض المحققين في قولهم: خلق الله الزمان، هذه ألفاظ تناقض أصولها لأن خلق الزمان متقدم على الزمان وهو فعل لابد من وقوعه في الزمان. وإنما حمل ذلك ضيق العبارة عن الحقائق وعجز اللغات عن تأدية الحق فيها وبها. فإذا تحقق أن الموحد هو الموحد، وعدم ما سواه جملة. صح التوحيد حقيقة. وهذا معنى قولهم: لا يعرف الله إلا الله ولا حرج على من وحد الحق مع بقاء الرسوم والآثار، وإنما هو من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين. لأن ذلك لازم التقييد والعبودية والشفعية. ومن ترقى إلى مقام الجمع كان في حقه نقصاً، مع علمه بمرتبته، وأنه تلبيس تستلزمه العبودية ويرفعه الشهود ويطهر من دنس حدوثه عين الجمع. وأعرق الأصناف في هذا الزعم القائلون بالوحدة المطلقة. ومدار المعرفة بكل اعتبار على الانتهاء إلى الواحد، وإنما صدر هذا القول من الناظم على سبيل التحريض والتنبيه والتفطين لمقام أعلى ترتفع فيه الشفعية ويحصل التوحيد المطلق عيناً لا خطاباً. وعبارة: فمن سلّم استراح ومن نازعته حقيقة أنس بقوله: «كنت سمعه وبصره». وإذا عرفت المعاني لا مشاحة في الألفاظ. والذي يفيده هذا كله تحقق أمر فوق هذا الطور، لا نطق فيه ولا خبر عنه. وهذا المقدار من الإشارة كاف. والتعمق في مثل هذا حجاب. وهو الذي أوقع في المقالات المعروفة. انتهى كلام الشيخ أبي مهدي الزيات، ونقلته من كتاب الوزير ابن الخطيب الذي ألفه في المحبة. وسماه التعريف بالحب الشريف. وقد سمعته من شيخنا أبي مهدي مراراً! إلا أنني رأيت رسوم الكتاب أوعى له. لطول عهدي به. والله الموفق.

ثم إن كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة. والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل فإن كلامهم في أربعة مواضع:

أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقاماً ويترقى منه إلى غيره كما قلناه.

وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوّة

والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الأكوان في صدورها عن موجدها ومكونها كما مر.

وثالثها: التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات.

ورابعها: ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها، فمنكر ومحسن ومتأول.

فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة.

وأما الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات. فأمر صحيح غير منكر. وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق. وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة، فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به. قالوا: ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور؛ لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق. فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال. هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وإنكارها نوع مكابرة.

وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور. وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه، لما أنه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه. واللغات لا تعطى له دلالة على مرادهم منه؛ لأنها لم توضع إلا للمتعارف وأكثره من المحسوسات. فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه، ومن رزقه اللّه فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة. وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور.

فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وأمثاله، وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لأبي يزيد البسطامي وأمثاله. ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه. وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضاً. ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله. واللّه أعلم.

وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الإدراك، إنما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا، ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به، بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن، وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان. وعلم اللّه أوسع وخلقه أكبر وشريعته بالهداية أملك، فلا ينطقوا بشيء مما يدركون. بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده، بل ويلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء ويأمرون أصحابهم بالتزامها. وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد، واللّه الموفق للصواب.

الفصل الثامن عشر

في علم تعبير الرؤيا

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها. وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجوداً في السلف كما هو في الخلف. وربما كان في الملوك والأمم من قبل، إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الإسلام. وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق ولابد من تعبيرها. فلقد كان يوسف الصديق صلوات اللّه عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن. وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ وعن أبي بكر رضي اللّه عنه «والرؤيا مدرك من مدارك الغيب». وقال ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة». وقال: «لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له».

وأول ما بدئ به النبي ﷺ من الوحي الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح». «وكان النبي ﷺ إذا انفتل من صلاة الغداة يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟» يسألهم عن ذلك ليستبشر بما وقع من ذلك، مما فيه ظهور الدين وإعزازه.

وأما السبب في كون الرؤيا مدركاً للغيب فهو أن الروح

القلبي وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن، وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية وإحساسها. فإذا أدركه الملال بكثرة التصرف في الإحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشي سطح البدن ما يغشاه من برد الليل انخنس الروح من سائر أقطار البدن إلى مركزه القلبي، فيستجم بذلك لمعاودة فعله فتعطلت الحواس الظاهرة كلها، وذلك هو معنى النوم كما تقدم في أول الكتاب.

ثم إن هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الإنسان، والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته، إذ حقيقته وذاته عين الإدراك. وإنما يمنع من تعقُّله للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه. فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع إلى حقيقته وهو عين الإدراك فيعقل كل مدرك. فإذا تجرد عن بعضها خفت شواغله، فلابد له من إدراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد له وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها، وهي الشاغل الأعظم فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللائقة به من عالمه. وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع به إلى بدنه. إذ هو ما دام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية. والمدارك الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية، والمتصرف منها هو الخيال. فإنه ينتزع من الصور المحسوسة صوراً خيالية ثم يدفعها إلى الحافظة تحفظها له إلى وقت الحاجة إليها عند النظر والاستدلال. وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد من المحسوس إلى المعقول والخيال واسطة بينهما. وكذلك إذا أدركت النفس من عالمها ما تدركه ألقته إلى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ويدفعه إلى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس فيتنزل المدرك من الروح العقلي إلى الحسي. والخيال أيضاً واسطة. هذه حقيقة الرؤيا. ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصادقة وأضغاث الأحلام الكاذبة، فإنها كلها صور في الخيال حالة النوم. ولكن إن كانت تلك الصور متنزلة من الروح العقلي المدرك فهي رؤيا. وإن كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها إياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام.

واعلم أن للرؤيا الصادقة علامات تؤذن بصدقها وتشهد بصحتها فيستشعر الرائي البشارة من الله بما ألقى إليه في نومه: فمنها سرعة انتباه الرائي عندما يدرك الرؤيا، كأنه يعاجل الرجوع إلى الحس باليقظة ولو كان مستغرقاً في نومه، لثقل ما ألقي عليه من ذلك الإدراك، فيفر من تلك الحالة إلى حالة الحس التي تبقى النفس فيها منغمسة بالبدن وعوارضه، ومنها ثبوت ذلك الإدراك ودوامه بانطباع تلك الرؤيا بتفاصيلها في حفظه، فلا يتخللها سهو ولا نسيان. ولا يحتاج إلى إحضارها بالفكر والتذكر، بل تبقى متصورة في ذهنه إذا انتبه. ولا يغرب عنه شيء منها، لأن الإدراك النفساني ليس بزماني ولا يلحقه ترتيب، بل يدركه دفعة في زمن فرد. وأضغاث الأحلام زمانية، لأنها في القوى الدماغية يستخرجها الخيال من الحافظة إلى الحس المشترك كما قلناه. وأفعال البدن كلها زمانية فيلحقها الترتيب في الإدراك والمتقدم والمتأخر. ويعرض النسيان العارض للقوى الدماغية. وليس كذلك مدارك النفس الناطقة إذ ليست بزمانية، ولا ترتيب فيها. وما ينطبع فيها من الإدراكات فينطبع دفعة واحدة في أقرب من لمح البصر. وقد تبقى الرؤيا بعد الانتباه حاضرة في الحفظ أياما من العمر. لا تشذ بالغفلة عن الفكر بوجه إذا كان الإدراك الأول قوياً، وإذا كان إنما يتذكر الرؤيا بعد الانتباه من النوم بإعمال الفكر والوجهة إليها، وينسى الكثير من تفاصيلها حتى يتذكرها فليست الرؤيا بصادقة، وإنما هي من أضغاث الأحلام. وهذه العلامات من خواص الوحي. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ والرؤيا لها نسبة من النبوة والوحي كما في الصحيح. قال ﷺ: «الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» فلخواصها أيضاً نسبة إلى خواص النبوة. وبذلك القدر، فلا تستبعد ذلك، فهذا وجه الحق. والله الخالق لما يشاء.

وأما معنى التعبير، فاعلم أن الروح العقلي إذا أدرك مدركه وألقاه إلى الخيال فصوره، فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الأعظم فيصوره الخيال بصورة البحر أو يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية. فإذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره إلا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة وأن المدرك وراءها وهو يهتدي بقرائن أخرى تعين له المدرك فيقول مثلاً: هو السلطان لأن البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه بها السلطان وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدو لعظم ضررها، وكذا الأواني تشبه بالنساء لأنهن أوعية؛ وأمثال ذلك. ومن المرئي ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبير لجلائها ووضوحها أو لقرب النسبة فيها بين المدرك وشبهه. ولهذا وقع في الصحيح: «الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان». فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير، والرؤيا

التي من الشيطان هي الأضغاث.

واعلم أيضاً أن الخيال إذا ألقى إليه الروح مدركه. فإنما يصوره في القوالب المعتادة للحس وما لم يكن الحس أدركه قط من القوالب فلا يصور فيه شيئاً، فلا يمكن من ولد أعمى أكمه أن يصور له السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالأواني؛ لأنه لم يدرك شيئاً من هذه، وإنما يصور له الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات. وليتحفظ المعبر من مثل هذا، فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه.

ثم إن علم التعبير علم بقوانين كلية يبني عليها المعبر عبارة ما يقص عليه. وتأويله كما يقولون: البحر يدل على السلطان، وفي موضع آخر يقولون: البحر يدلُّ على الغيظ، وفي موضع آخر على الهم والأمر الفادح. ومثل ما يقولون: الحية تدل على العدو، وفي موضع آخر يقولون: تدل على الحياة وفي موضع آخر: هي كاتم سر، وأمثال ذلك. فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية، ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا. وتلك القرائن، منها في اليقظة ومنها في النوم، ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه، وكل ميسر لما خلق له. ولم يزل هذا العلم متناقلاً بين السلف. وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك قوانين وتناقلها الناس لهذا العهد. وألف الكرماني فيه من بعده. ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا. والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل «الممتّع» وغيره وكتاب «الإشارة» للسالمي من أنفع الكتب فيه وأحضرها. وكذلك كتاب «المرقبة العليا» لابن راشد من مشيختنا بتونس. وهو علم مضيء بنور النبوّة للمناسبة التي بينهما ولكونها كانت من مدارك الوحي كما وقع في الصحيح، والله علام الغيوب.

الفصل التاسع عشر

في العلوم العقلية وأصنافها

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها. وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة. وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم:

الأول: علم المنطق: وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة، وفائدته: تمييز الخطأ من الصواب، فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات نفياً وثبوتاً بمنتهى فكره. ثم النظر بعد ذلك عندهم إما في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية، أو النفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك. ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو العلم الثاني منها. وإما أن يكون النظر في الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وهو الثالث منها. والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وهي تسمى التعاليم.

أولها: علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الإطلاق. إما المنفصلة من حيث كونها معدودة أو المتصلة، وهي إما ذو بعد واحد وهو الخط أو ذو بعدين وهو السطح، أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي. ينظر في هذه المقادير وما يعرض لها، إما من حيث ذاتها أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض.

وثانيها: علم الأرثماطيقي: وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدد ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة.

وثالثها: علم الموسيقى وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاحين الغناء.

ورابعها: علم الهيئة: وهو تعيين الأشكال للأفلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة والثابتة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها.

فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة: المنطق وهو المقدم منها وبعده التعاليم، فالأرثماطيقي أولاً ثم الهندسة، ثم الهيئة، ثم الموسيقى، ثم الطبيعيات، ثم الإلهيات؛ ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه. فمن فروع الطبيعيات الطب، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات، ومن فروع الهيئة الأزياج وهي قوانين لحسبانات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك. ومن فروع النظر في النجوم علم الأحكام النجومية ونحن نتكلم عليها واحدا بعد واحد إلى آخرها.

واعلم أن أكثر من عني بها في الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الأمتان العظيمتان في الدولة قبل الإسلام وهما فارس

والروم، فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفوراً فيهم والدولة والسلطان قبل الإسلام وعصره لهم، فكان لهذه العلوم بحور زاخرة في آفاقهم وأمصارهم. وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم، وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان فاختص بها القبط وطمى بحرها فيهم كما وقع في المتلو من خبر هاروت وماروت وشأن السحرة وما نقله أهل العلم من شأن البرابي بصعيد مصر. ثم تتابعت الملل بحظر ذلك وتحريمه فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن إلا بقايا يتناقلها متحلو هذه الصنائع. الله أعلم بصحتها. مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها.

وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيماً ونطاقها متسعاً لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك. ولقد يقال: إن هذه العلوم إنما وصلت إلى يونان منهم حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية، فاستولى على كتبهم وعلومهم. إلا أن المسلمين لما افتتحوا بلاد فارس، وأصابوا من كتبهم وصحائف علومهم ما لا يأخذه الحصر كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين. فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء. فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالاً فقد كفاناه الله. فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا.

وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً، وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم. واختص فيها المشاؤون منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرأون في رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا. واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه إلى سقراط الدن، ثم إلى تلميذه أفلاطون ثم إلى تلميذه أرسطو ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفروسي، وتامسطيوس وغيرهم. وكان أرسطو معلماً للأسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم. وكان أرسخهم في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيه صيتاً وشهرة. وكان يسمى المعلم الأول فطار له في العالم ذكر.

ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقياصرة وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها. وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنهم، ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم.

ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للأمم. وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى إذا تبحبح السلطان والدولة وأخذوا من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم وتفننوا في الصنائع والعلوم. تشوفوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها. فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات. فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها. وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصاً وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب. وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وحذقوا في فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها. وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول، واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده. ودونوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو علي بن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم. واختص هؤلاء بالشهرة والذكر، واقتصر كثيرون على انتحال التعاليم وما ينضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات. ووقفت الشهرة في هذا المتحل على جابر بن حيان من أهل المشرق ومسلمة بن أحمد المجريطي من أهل الأندلس وتلميذه. ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة، واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه. ولو شاء ربك ما فعلوه.

ثم إن المغرب والأندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما إلا قليلاً من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة. ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر؛ وأنهم على ثبج من العلوم العقلية والنقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم. ولقد وقفت بمصر على تآليف في المعقول متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشتهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم. وفي أثنائها ما يدل له على أن له اطلاعاً على العلوم الحكمية وتضلعاً بها وقدماً عالية

في سائر الفنون العقلية، والله يؤيد بنصره من يشاء.

وكذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة وحملتها متوفرون وطلبتها متكثرون والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار.

الفصل العشرون

في العلوم العددية

وأولها الأرتماطيقي: وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف، إما على التوالي أو بالتضعيف، مثل أن الأعداد إذا توالت متفاضلة بعدد واحد فإن جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بُعدٌ واحد، ومثل ضعف الواسطة إن كانت عدة تلك الأعداد فردا مثل الأعداد على تواليها والأزواج على تواليها والأفراد على تواليها، ومثل أن الأعداد إذا توالت على نسبة واحدة بأن يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ، أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ، فإن ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعدٌ واحد أحدهما في الآخر. ومثل مربع الواسطة إن كانت العدة فرداً وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر، ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات إذا وضعت متتالية في سطورها بأن تجمع من الواحد إلى العدد الأخير فتكون مثلثة. وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الأضلاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة. وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون مخمسة وهلم جرا. وتتوالى الأشكال على توالي الأضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض. ففي عرضه الأعداد على تواليها، ثم المثلثات على تواليها، ثم المربعات ثم المخمسات الخ، وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغاً ما بلغ ويحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولاً وعرضاً خواص غريبة استقريت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها، وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد، فإن لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست في غيره.

وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها ويدخل في براهين الحساب. وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف، وأكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتآليف. فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين. وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور إذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فهجروه لذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب وغيره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

علم الحساب

ومن فروع علم العدد صناعة الحساب. وهي صناعة علمية في حساب الأعداد بالضم والتفريق. فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع. وبالتضعيف أي يضاعف عدد بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب، والتفريق أيضاً يكون في الأعداد إما بالإفراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح، أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة. وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر. ومعنى الكسر نسبة عدد إلى عدد وتلك النسبة تسمى كسراً. وكذلك يكون الضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع، والعدد الذي يكون مصرحاً به يسمى المنطق، ومربعه كذلك، ولا يحتاج فيه إلى تكلف عمل بالحسبان. والذي لا يكون مصرحاً به يسمى الأصم ومربعه: إما منطق مثل جذر ثلاثة الذي مربعه ثلاثة، وإما أصم مثل جذر ثلاثة الذي مربعه جذر ثلاثة، وهو أصم ويحتاج إلى عمل من الحسبان. فإن تلك الجذور أيضاً يدخلها الضم والتفريق، وهذه الصناعة الحسابية حادثة احتيج إليها للحسبان في المعاملات، وألف الناس فيها كثيراً وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان.

ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لأنها معارف متضحة وبراهين منتظمة، فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب. وقد يقال: من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره إنه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس، فيصير ذلك له خلقاً ويتعود الصدق ويلازمه مذهباً. ومن أحسن التآليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير. ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني. وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير بذلك. وساوق فيه المؤلف رحمه الله كتاب فقه الحساب، لابن منعم والكامل للأحدب، ولخص براهينهما وغيرهما عن اصطلاح الحروف فيهما إلى علل

معنوية ظاهرة، هي سر الإشارة بالحروف وزبدتها. وهي كلها مستغلقة وإنما جاءها الاستغلاق من طريق البرهان شأن علوم التعاليم؛ لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها. وإذا قصد شرحها فإنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال. وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل فتأمله. والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوي المتين.

علم الجبر:

ومن فروعه الجبر والمقابلة. وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك. فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب: أولها العدد لأنه به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول إليه.

وثانيها: الشيء لأن كل مجهول فهو من جهة إبهامه شيء وهو أيضا جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية.

وثالثها: المال وهو أمر مبهم وما بعد ذلك فعلى نسبة الأس من المضروبين. ثم يقع العمل المفروض في المسألة فيخرج إلى معادلة بين مختلفين أو أكثر من هذه الأجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحاً. ويحطون المراتب إلى أقل الأسوس إن أمكن حتى يصير إلى الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم وهي العدد والشيء والمال. فإن كانت المعادلة بين، واحد وواحد تعين فالمال والجذر يزول إبهامه بمعادلة العدد ويتعين. والمال إن عادل الجذور فيتعين بعدتها. وإن كانت المعادلة بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين وهي مبهمة فيعينها ذلك الضرب المفصل. ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين. وأكثر ما انتهت المعادلة عندهم إلى ست مسائل؛ لأن المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة أو مركبة تجيء ستة. وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم، وجاء الناس على أثره فيه. وكتابه في مسائله الست من أحسن الكتب الموضوعة فيه. وشرحه كثير من أهل الأندلس فأجادوا، ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي. وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق أنهى المعادلات إلى أكثر من هذه الستة الأجناس، وبلغها إلى فوق العشرين واستخرج لها كلها أعمالاً وثيقة وأتبعها ببراهين هندسية. والله يزيد في الخلق ما يشاء سبحانه وتعالى.

المعاملات والفرائض:

ومن فروعه أيضاً المعاملات. وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات تصرف في ذلك صناعتا الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها. والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول المران والدربة بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب. ولأهل الصناعة الحسابية من أهل الأندلس تآليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهراوي وابن السمح وأبي مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة المجريطي وأمثالهم. ومن فروعه أيضاً الفرائض. وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثات إذا تعددت وهلك بعض الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحمها على المال كله أو كان في الفريضة إقرار وإنكار من بعض الورثة دون بعض، فيحتاج في ذلك كله إلى عمل يعين به سهام الفريضة إلى كم تصح وسهام الورثة من كل بطن مصححاً حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة. فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسوره وجذوره ومعلومه ومجهوله وترتب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها. فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو أحكام الوراثات في الفروض والعول والإقرار والإنكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب في تصحيح السهمان باعتبار الحكم الفقهي وهي من أجل العلوم. وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل: الفرائض ثلث العلم وإنها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك. وعندي أن ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض العينية كما تقدم لا فرائض الوراثات، فإنها أقل من أن تكون في كميتها ثلث العلم.

وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً، وأوعبوا ومن أحسن التآليف فيه على مذهب مالك رحمه الله تعالى كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي والصردي وغيرهم. لكن الفضل للحوفي فكتابه مقدم على جميعها. وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله محمد بن سليمان الشطي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب. ولإمام الحرمين فيها تآليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم، ورسوخ قدمه، وكذا للحنفية والحنابلة. ومقامات الناس في العلوم مختلفة. والله يهدي من يشاء بمنه وكرمه لا رب سواه.

الفصل الحادي والعشرون

في العلوم الهندسية

هذا العلم هو النظر في المقادير: إما المتصلة كالخط والسطح والجسم، وإما المنفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية. مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين. ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في جهة ولو خرجا إلى غير نهاية. ومثل أن كل خطين متقاطعين، فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان. ومثل أن الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك. والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس ويسمى كتاب الأصول الأركان وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين. فمنها لحنين بن إسحاق ولثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج ويشتمل على خمس عشرة مقالة. أربعة في السطوح وواحدة في الأقدار المتناسبة وواحدة في نسبة السطوح بعضها إلى بعض، وثلاثة في العدد والعاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجذور وخمس في المجسمات. وقد اختصره الناس مختصرات كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء. أفرد له جزءاً منها اختصه به. وكذلك ابن أبي الصلت في كتاب الاقتصار وغيرهم. وشرحه آخرون شروحاً كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية بإطلاق.

واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله، استقامة في فكره؛ لأن براهينها كلها بينة الانتظام جلية الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع، وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون: من لم يكن مهندساً فلا يدخلن منزلنا؛ وكان شيوخنا رحمهم اللّه يقولون: ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار وينقيه من الأوضار والأدران، وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه.

ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكرية والمخروطات، أما الأشكال الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين لثاوذوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها وكتاب ثاوذوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه. ولابد منهما لمن يريد الخوض في علم الهيئة؛ لأن براهينها متوقفة عليهما. فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات كما نذكره فقد يتوقف على معرفة أحكام الأشكال الكرية سطوحها وقطوعها.

وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا. وهو علم ينظر فيما يقع في الأجسام المخروطة من الأشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعليم الأول. وفائدتها تظهر في الصنائع العلمية التي موادها الأجسام مثل النجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهياكل النادرة وكيف يتحيل على جر الأثقال ونقل الهياكل بالهندام والمخال وأمثال ذلك. وقد أفرد بعض المؤلفين في هذا الفن كتاباً في الحيل العلمية يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيبة. وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية وهو موجود بأيدي الناس ينسبونه إلى بني شاكر. واللّه تعالى أعلم.

المساحة:

ومن فروع الهندسة المساحة وهو فن يحتاج إليه في مسح الأرض، ومعناه استخراج مقدار الأرض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرهما، أو نسبة أرض من أرض إذ قويست بمثل ذلك. ويحتاج إلى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والفدن وبساتين الغراسة وفي قسمة الحوائط والأراضي بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك. وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة واللّه الموفق للصواب بمنه وكرمه.

المناظرة من فروع الهندسة وهو علم يتبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه نقطة الباصر وقاعدته المرئي. ثم يقع الغلط كثيراً في رؤية القريب كبيراً والبعيد صغيراً. وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة، ورؤية النقط النازلة من المطر خطاً مستقيماً والسلقة دائرة وأمثال ذلك. فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية، ويتبين به أيضاً اختلاف المنظر في القمر باختلاف العروض الذي ينبني عليه معرفة رؤية الأهلة وحصول الكسوفات وكثير من أمثال هذا. وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين. وأشهر من ألف فيه من الإسلاميين ابن الهيثم. ولغيره فيه أيضاً تآليف وهو من هذه العلوم الرياضية وتفاريعها.

الفصل الثاني والعشرون

في علم الهيئة

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيرة. ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية. كما يبرهن على أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الإقبال والإدبار، وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الأعظم، وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة، وكما يبرهن على تعدد الأفلاك للكوكب الواحد بتعداد الميول له وأمثال ذلك. وإدراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها إنما هو بالرصد، فإنا إنما علمنا حركات الإقبال والإدبار به. وكذا تركيب الأفلاك في طبقاتها، وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك.

وكان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيراً ويتخذون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين. وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبراهين عليه في مطابقة حركتها بحركة الفلك منقول بأيدي الناس.

وأما في الإسلام فلم تقع به عناية إلا في القليل. وكان في أيام المأمون شيء منه، وصنع لهذه الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق. وشرع في ذلك فلم يتم. ولما مات ذهب رسمه وأغفل واعتمد من بعده على الأرصاد القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الأحقاب. وإن مطابقة حركة الآلة لرصد لحركة الأفلاك والكواكب إنما هو بالتقريب ولا يعطي التحقيق، فإذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك التقريب. وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم في المشهور أنها تعطي صورة السماوات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة، بل إنما تعطي أن هذه الصور والهيآت للأفلاك لزمت عن هذه الحركات. وأنت تعلم أنه لا يبعد أن يكون الشيء الواحد لازماً لمختلفين، وإن قلنا: إن الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ولا يعطي الحقيقة بوجه على أنه علم جليل وهو أحد أركان التعاليم. ومن أحسن التآليف فيه كتاب المجسطي منسوباً لبطليموس. وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب. وقد اختصره الأئمة من حكماء الإسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء. ولخصه ابن رشد أيضاً من حكماء الأندلس وابن السمح وابن أبي الصلت في كتاب الاقتصار. ولابن الفرغاني هيئة ملخصة قربها وحذف براهينها الهندسية. والله علم الإنسان ما لم يعلم. سبحانه لا إله إلا هو رب العالمين.

علم الأزياج:

ومن فروعه علم الأزياج. وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأي وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة. ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والأصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية، وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض، يضعونها في جداول مرتبة تسهيلاً على المتعلمين وتسمى الأزياج. ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلاً وتقويماً. وللناس فيه تآليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني وابن الكماد.

وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن إسحاق من منجمي تونس في أول المائة السابعة. ويزعمون أن ابن إسحاق عول فيه على الرصد. وأن يهودياً كان بصقلية ماهراً في الهيئة والتعاليم وكان قد عني بالرصد وكان يبعث إليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها، فكأن أهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقة مبناه على ما يزعمون. ولخصه ابن البناء في آخر سماه المنهاج فولع به الناس لما سهل من الأعمال فيه، وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتبنى عليها الأحكام النجومية، وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان من الملك والدول والمواليد البشرية والكوائن الحادثة كما نبينه بعد ونوضح فيه أدلتهم إن شاء الله تعالى. والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه.

الفصل الثالث والعشرون

في علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات، وذلك لأن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس. وجميع الحيوانات

مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات. وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهي الكلي. ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض. فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليهما باعتبار ما اتفقا فيه. ولا يزال يرتقي في التجريد إلى الكليّ الذي لا يجد كلياً آخر معه يوافقه، فيكون لأجل ذلك بسيطاً. وهذا مثل ما يجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطبقة عليها. ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة عليهما. ثم ينظر بينهما وبين النبات إلى أن ينتهي إلى الجنس العالي وهو الجوهر فلا يجد كلياً يوافقه في شيء فيقف العقل هنالك عن التجريد. ثم إن الإنسان لما خلق اللّه له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم: إما تصوراً للماهيات ويعنى به إدراك ساذج من غير حكم معه، وإما تصديقاً أي حكماً بثبوت أمر لأمر، فصار سعي الفكر في تحصيل المطلوبات إما بأن تجمع تلك الكليات بعضها إلى بعض على جهة التأليف فتحصل صورة في الذهن كلية منطبقة على أفراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص، وإما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقاً. وغايته في الحقيقة راجعة إلى التصور؛ لأن فائدة ذلك إذا حصل فإنما هي معرفة حقائق الأشياء التي هي مقتضى العلم الحكمي. وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد، فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية ليتميز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق. وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملاً جملاً ومتفرقاً متفرقاً. ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو، فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم الحكمية وفاتحتها. ولذلك يسمى بالمعلم الأول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص وهو يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته. وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء.

فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب، فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيده وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من الظن. وقد ينظر في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة.

ويقال للنظر الأول: إنه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن، ويقال للنظر الثاني: إنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق، فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية:

الأول في الأجناس العالية التي ينتهي إليها تجريد المحسوسات في الذهن وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات.

والثاني: في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة.

والثالث: في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة.

ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين، وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية. ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك. وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحدود لا يحتمل غيرها، فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب.

والخامس: كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى وهي مذكورة هنالك. وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه بتمييز الجامع بين طرفي المطلوب المسمى بالوسط وفيه عكوس القضايا.

والسادس: كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو فاسد، وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه.

والسابع: كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات.

والثامن: كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو النفرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية.

هذه هي كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين. ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لابد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور المطابق للماهيات في الخارج، أو لأجزائها أو عوارضها وهي الجنس والفصل والنوع والخاص والعرض العام، فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي

الفن فصارت مقالاته تسعاً وترجمت كلها في الملة الإسلامية. وكتبها وتناولها فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس. ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها.

ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرسوم نقلوها من كتاب البرهان. وحذفوا كتاب المقولات؛ لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات. وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس. وإن كان من كتاب الجدل في كتب المتقدمين لكنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه، ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة، وحذفوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة: البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة. وربما يلم بعضهم باليسير منها إلماماً وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن. ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاماً مستبحراً ونظروا فيه من حيث إنه فن برأسه لا من حيث إنه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع. وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخونجي وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد. وله في هذه الصناعة كتاب كشف الأسرار وهو طويل مختصر الموجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل في قدر أربعة أوراق أخذ بمجامع الفن وأصوله يتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به. وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن وهي ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته كما قلناه. والله الهادي للصواب.

اعلم أن هذا الفن قد اشتد النكير على انتحاله من متقدمي السلف والمتكلمين. وبالغوا في الطعن عليه والتحذير منه وحظروا تعلمه وتعليمه. وجاء المتأخرون من بعدهم من لدن الغزالي والإمام ابن الخطيب فسامحوا في ذلك بعض الشيء. وأكب الناس على انتحاله من يومئذ إلا قليلاً، يجنحون فيه إلى رأي المتقدمين. فينفرون عنه ويبالغون في إنكاره. فلنبين لك نكتة القبول والرد في ذلك، لتعلم مقاصد العلماء في مذاهبهم، وذلك أن المتكلمين لما وضعوا علم الكلام لنصر العقائد الإيمانية بالحجج العقلية، كانت طريقتهم في ذلك بأدلة خاصة وذكروها في كتبهم كالدليل على حدث العالم بإثبات الأعراض وحدوثها. وامتناع خلو الأجسام عنها، وما لا يخلو عن الحوادث حادث. وكإثبات التوحيد بدليل التمانع. وإثبات الصفات القديمة بالجوامع الأربعة إلحاقاً للغائب بالشاهد. وغير ذلك من أدلتهم المذكورة في كتبهم. ثم قرروا تلك الأدلة بتمهيد قواعد وأصول هي كالمقدمات لها مثل إثبات الجوهر الفرد والزمن الفرد والخلاء بين الأجسام ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات. وأن العرض لا يبقى زمنين، وإثبات الحال، وهي صفة لموجود، لا موجودة ولا معدومة، وغير ذلك من قواعدهم التي بنوا عليها أدلتهم الخاصة. ثم ذهب الشيخ أبو الحسن، والقاضي أبو بكر والأستاذ أبو إسحاق إلا أن أدلة العقائد منعكسة بمعنى أنها إذا بطلت بطل مدلولها. ولهذا رأى القاضي أبو بكر أنها بمثابة العقائد والقدح فيها قدح في العقائد لابتنائها عليها. وإذا تأملت المنطق وجدته كله يدور على التركيب العقلي، وإثبات الكلي الطبيعي في الخارج لينطبق عليه الكلي الذهني المنقسم إلى الكليات الخمس، التي هي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام، وهذا باطل عند المتكلمين. والكلي والذاتي عندهم إنما اعتبار ذهني ليس في الخارج ما يطابقه. أو حال عند من يقول بها فتبطل الكليات الخمس والتعريف المبني عليها. والمقولات العشر، ويبطل العرض الذاتي، فتبطل ببطلانه القضايا الضرورية الذاتية المشروطة في البرهان وتبطل المواضع التي هي لباب كتاب الجدل. وهي التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين الطرفين في القياس، ولا يبقى إلا القياس الصوري، ومن التعريفات المساوئ في الصادقية على إفراد المحمود، لا يكون أعم منها، فيدخل غيرها، ولا أخص فيخرج بعضها، وهو الذي يعبر عنه النحاة بالجمع والمنع والمتكلمون بالطرد والعكس، وتنهدم أركان المنطق جملة. وإن أثبتنا هذه كما في علم المنطق أبطلنا كثيراً من مقدمات المتكلمين فيؤدي إلى إبطال أدلتهم على العقائد كما مر. فلهذا بالغ المتقدمون من المتكلمين في النكير على انتحال المنطق وعدوه بدعة أو كفراً على نسبة الدليل الذي يبطل. والمتأخرون من لدن الغزالي لما أنكروا انعكاس الأدلة، ولم يلزم عندهم من بطلان الدليل بطلان مدلوله، وصح عندهم رأي أهل المنطق في التركيب العقلي وجود الماهيات الطبيعية وكلياتها في الخارج، قضوا بأن المنطق غير مناف للعقائد الإيمانية. وإن كان منافياً لبعض أدلتها، بل قد يستدلون على إبطال كثير من تلك المقدمات الكلامية، كنفي الجوهر الفرد والخلاء وبقاء الأعراض وغيرها، ويستبدلون من أدلة المتكلمين على العقائد بأدلة أخرى يصححونها بالنظر والقياس العقلي. ولم يقدح ذلك عندهم في العقائد السنية بوجه. وهذا رأي الإمام والغزالي وتابعهما لهذا العهد، فتأمل ذلك واعرف مدارك العلماء ومآخذهم فيما يذهبون إليه. والله الهادي والموفق للصواب.

الفصل الرابع والعشرون

في الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من إنسان وحيوان ونبات ومعدن وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك. وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو النفس على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات. وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون، وألف الناس على حذوها مستتبعين لها بالبيان والشرح، وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء، جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا، ثم لخصه في كتاب النجاة وفي كتاب الإشارات، وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها.

وأما ابن رشد فلخص كتب أرسطو وشرحها متبعاً له غير مخالف. وألف الناس بعده في ذلك كثيراً لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة. ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لابن سينا وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الآمدي، وشرحه أيضاً نصير الدين الطوسي المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الإمام في كثير من مسائله فأوفى على أنظاره وبحوثه؛ وفوق كل ذي علم عليم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الخامس والعشرون

في علم الطب

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها، وما لكل مرض من الأدوية مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله للدواء.

أولاً: في السجية والفضلات والنبض محاذين لذلك قوة الطبيعة، فإنها المدبرة في حالتي الصحة والمرض. وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب. وربما أفردوا بعض الأعضاء بالكلام وجعلوه علماً خاصاً، كالعين وعللها وأكحالها. وكذلك ألحقوا بالفن منافع الأعضاء ومعناه المنفعة التي خلق لأجلها كل عضو من أعضاء البدن الحيواني. وإن لم يكن ذلك من موضوع علم الطب إلا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه.

ولجالينوس في هذا الفن كتاب جليل عظيم المنفعة، وهو إمام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الأقدمين وجالينوس في هذا الفن كتاب قليل عظيم المنفعة، يقال: إنه كان معاصرا لعيسى عليه السلام، ويقال: إنه مات بصقلية في سبيل تغلب ومطاوعة اغتراب. وتآليفه فيها هي الأمهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده. وكان في الإسلام في هذه الصناعة أئمة جاؤوا من وراء الغاية مثل الرازي والمجوسي وابن سينا، ومن أهل الأندلس أيضاً كثير وأشهرهم ابن زهر. وهي لهذا العهد في المدن الإسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه، وهي من الصنائع التي لا تستدعيها إلا الحضارة والترف كما نبينه بعد.

وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ويتداولونه متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا عن موافقة المزاج. وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره. والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء، وإنما هو أمر كان عادياً للعرب. ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل. فإنه ﷺ إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات. وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». فلا ينبغي أن يحمل شيء من الذي وقع من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنة مشروع، فليس هناك ما يدل عليه اللّهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيماني فيكون له أثر عظيم في النفع. وليس ذلك من الطب المزاجي وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية كما وقع في مداواة المبطون بالعسل ونحوه، والله الهادي إلى الصواب لا رب سواه.

الفصل السادس والعشرون

في الفلاحة

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشؤه بالسقي والعلاج واستجاده المنبت وصلاحيه الفصل وتعاهده بما يصلحه ويتمه من ذلك كله، وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها عندهم عاماً في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهياكل المستعمل ذلك كله في باب السحر، فعظمت عنايتهم به لأجل ذلك. وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط مشتملة من ذلك على علم كبير. ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدوداً والنظر فيه محظوراً، فاقتصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك، وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة. واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقي الفن الآخر منه مغفلاً، نقل منه مسلمة في كتبه السحرية أمهات من مسائله كما نذكره عند الكلام على السحر إن شاء الله تعالى.

وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام في الغراس والعلاج وحفظ النبات من حوائجه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله وهي موجودة.

الفصل السابع والعشرون

في علم الإلهيات

وهو علم ينظر في الوجود المطلق:

فأولاً في الأمور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان وغير ذلك، ثم ينظر في مبادئ الموجودات وأنها روحانيات، ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها، ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها إلى المبدأ. وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه، وأن ذلك عين السعادة في زعمهم. وسيأتي الرد عليهم بعد. وهو تال للطبيعيات في ترتيبهم؛ ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعة. وكتب المعلم الأول فيه موجودة بين أيدي الناس. ولخصها ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة، وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الأندلس.

ولما وضع المتأخرون في علوم القوم ودونوا فيها ورد عليهم الغزالي ما رده منها، ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لاشتراكهما في المباحث، وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الإلهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها فن واحد، ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والإلهيات وخلطوهما فناً واحداً قدموا فيه الكلام في الأمور العامة ثم أتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها إلى آخر العلم، كما فعله الإمام ابن الخطيب في المباحث المشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام. وصار علم الكلام مختلطاً بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها، كأن الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد. والتبس ذلك على الناس وهو صواب؛ لأن مسائل علم الكلام إنما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه، بمعنى أنها لا تثبت إلا به، فإن العقل معزول عن الشرع وأنظاره، وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها ليعلم بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة، بل إنما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية. وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين. وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها. فإذا هدانا الشارع إلى مدرك فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه، بل نعتقد ما أمرنا به اعتقاداً وعلماً ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه.

والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية، فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها، وأما النظر في مسائل الطبيعيات والإلهيات بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين. فاعلم ذلك لتميز به بين الفنين فإنهما مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف، والحق مغايرة كلٌ منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل، وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتقاد بالدليل وليس كذلك، بل إنما هو رد على الملحدين

والمطلوب مفروض الصدق معلومه. وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضاً فخلطوا مسائل الفنين بفنهم وجعلوا الكلام واحداً فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك. والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة؛ لأنهم يدعون فيها الوجدان ويفرون عن الدليل، والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه ونبينه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والله أعلم بالصواب.

الفصل الثامن والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وهي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول: هو السحر، والثاني: هو الطلسمات.

ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره، كانت كتبها كالمفقودة بين الناس. إلا ما وجد في كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوّة موسى عليه السلام مثل النبط والكلدانيين، فإن جميع من تقدمه من الأنبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤوا بالأحكام إنما كانت كتبهم مواعظ وتوحيداً لله وتذكيراً بالجنة والنار، وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي أهل مصر من القبط وغيرهم. وكان لهم فيها التآليف والآثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليل مثل الفلاحة النبطية لابن وحشية من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه، ووضعت بعد ذلك الأوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندي في صور الدرج والكواكب وغيرها.

ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة، فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص في زبدتها واستخرجها ووضع فيها عدة من التآليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء؛ لأنها من توابعها ولأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية، فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه.

ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات، فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده.

ولنقدم هنا مقدمة يتبين منها حقيقة السحر، وذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الآخر. وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها، فنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستعد بها للانسلاخ من الروحانية البشرية إلى الروحانية الملكية حتى يصير ملكاً في تلك اللحمة التي انسلخت فيها، وهذا هو معنى الوحي كما مر في موضعه، وهي في تلك الحالة محلة للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر. وما يتبع ذلك من التأثير في الأكوان ونفوس السحرة لها خاصية التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية. فأما تأثير الأنبياء فمدد إلهي وخاصية ربانية، ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية. وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر.

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتي شرحها:

فأوله المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين، وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر.

والثاني: بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد، ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول.

والثالث: تأثير في القوى المتخيلة. يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعاً من الخيالات والمحاكاة وصوراً مما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه، فينظرها الراؤون كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك، كما يحكى عن بعضهم أنه يري البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة.

هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها، وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة، ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل، فهي لذلك وجهة إلى غير الله وسجود له. والوجهة إلى غير الله كفر فلهذا كان السحر كفراً، والكفر من مواده وأسبابه كما رأيت.

ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد في الأكوان

والكل حاصل منه. ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة، أو إنما هو تخييل؟ فالقائلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين، والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة الأخيرة. فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم.

واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يخيل إليه أنه يفعله وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان، فأنزل الله عز وجل عليه في المعوذتين: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: فكان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا انحلت.

وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار، وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة. ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك، ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور، وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق. ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء، ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعده لذلك تفاؤلاً بالعقد واللزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفثه في فعله ذلك استشعاراً للعزيمة بالعزم. ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتنزل عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر.

وشاهدنا أيضاً من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فإذا هو مقطوع متخرق. ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج، فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض. وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحتت قلبه ويقع ميتاً وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه، ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء. وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة. وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحابة وهي ر ك ر ف د أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثمانون، ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلث وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان متساوياً للعدد الآخر صاحبه فتسمى لأجل ذلك المتحابة.

ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثراً في الإلفة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما تمثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظر مودة وقبول، ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويوضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر. ويقصد بالأكثر الذي يراد ائتلافه أعني المحبوب ما أدري الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء، فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر. قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة.

وكذا طابع الأسد ويسمى أيضاً طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب هند إصبع صورة أسد شائلاً ذنبه عاضاً على حصاة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية منسابة من رجليه إلى قبالة وجهه فاغرة فاها إلى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب. ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس. فإذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فما دونه من الذهب وغمس بعد في الزعفران محلولاً بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء، فإنهم يزعمون أن لممسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر عنه. وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم. ذكر ذلك أيضاً أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة. وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون من مواليد الملوك من الأدلة الشريفة، ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب. فزعموا أن له أثراً في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم. وأمثال ذلك كثير.

وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها وذكر لنا: أن الإمام الفخر بن الخطيب وضع كتاباً في ذلك وسماه بالسر المكتوم وأنه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه. والإمام لم يكن من أئمة الشأن فيما نظن ولعل الأمر بخلاف ذلك. وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت أولاً أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج. ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج؛ لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم متستررون بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكام، لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك، وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية وإشراك لروحانية الجن والكواكب، سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها، وأن بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال لهم، وأن التأثير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحر من المتاع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم: إنما نفعل فيما يمشي فيه الدرهم، أي ما يملك ويباع ويشترى من سائر المتملكات؛ هذا ما زعموه. وسألت بعضهم فأخبرني به، وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعاينتها من غير ريبة في ذلك.

هذا شأن السحر والطلسمات وأثارهما في العالم، فأما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعاً أثر للنفس الإنسانية واستدلوا على وجود الأثر للنفس الإنسانية بأن لها آثاراً في بدنها على غير المجرى الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل آثار عارضة من كيفيات الأرواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور، ومن جهة التصورات النفسانية أخرى، كالذي يقع من قبل التوهم. فإن الماشي على حرف حائط أو حبل منتصب إذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا شك. ولهذا تجد كثيراً من الناس يعودون أنفسهم ذلك بالدربة عليه حتى يذهب عنهم هذا الوهم، فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط.

فثبت أن ذلك من آثار النفس الإنسانية وتصورها للسقوط من أجل الوهم. وإذا كان ذلك أثراً للنفس في بدنها من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية، فجائز أن يكون لها مثل هذا الأثر في غير بدنها إذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة، لأنها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه، فثبت أنها مؤثرة في سائر الأجسام.

وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين، وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون: السحر اتحاد روح بروح، والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية، والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب؛ لذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة. والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير.

والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح اللّه على فعله ذلك. والساحر إنما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال، فبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس الأمر، وإنما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير وللنفوس المتمحصة للخير والتحدي بها على دعوى النبوّة. والسحر إنما يوجد لصاحب الشر، وفي أفعال الشر في الغالب من التفريق بين الزوجين وضرر الأعداء وأمثال ذلك. وللنفوس المتمحصة للشر. هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الإلهيين.

وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً في أحوال العالم وليس معدوداً من جنس السحر، وإنما هو بالإمداد الإلهي؛ لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوّة وتوابعها ولهم في المدد، الإلهي حظ عظيم على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة اللّه، وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتيها؛ لأنه متقيد فيما يأتيه ويذره للأمر الإلهي. فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله. ولما كانت المعجزة بإمداد روح اللّه والقوى الإلهية؛ فلذلك لا يعارضها شيء من السحر.

وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم واضمحل كأن لم يكن. وكذلك لما أنزل على النبي ﷺ في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد. قالت عائشة رضي اللّه عنها: فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت. فالسحر لا يثبت مع اسم اللّه وذكره بالهمة الإيمانية؛ وقد نقل المؤرخون أن زركش كاويان وهي راية كسرى كان فيها الوفق المئيني العددي منسوجاً بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق. ووجدت الراية

يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم.

وهو فيما يزعم أهل الطلسمات والأوفاق مخصوص بالغلب في الحروب، وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلاً. إلا أن هذه عارضها المدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله علية وسلم وتمسكهم بكلمة الله، فانحل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون.

وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات والشعبذة وجعلته كله باباً واحداً محظوراً. لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا، وما لا يهمنا في شيء منهما، فإن كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات؛ لأن أثرهما واحد وكالنجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير اللّه فيكون حينئذ ذلك الفعل محظوراً على نسبته في الضرر. وإن لم يكن مهماً علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من تركه قربة إلى اللّه فإن من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه. فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالحظر والتحريم.

وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر، فالذي ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التحدي وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه. قالوا: والساحر مصروف عن مثل هذا التحدي فلا يقع منه. ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور؛ لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية؛ لأن صفة نفسها التصديق، فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذباً وهو محال، فإذاً لا تقع المعجزة مع الكاذب بإطلاق.

وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشر في نهاية الطرفين. فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير، وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر، وكأنهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما. واللّه يهدي من يشاء وهو القوي العزيز لا رب سواه.

ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الإصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركاً من الذوات أو الأحوال ويفرط في استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حسد يروم معه سلب ذلك الشيء عمن اتصف به فيؤثر فساده. وهو جبلة فطرية، أعني هذه الإصابة بالعين. والفرق بينها وبين التأثيرات النفسانية أن صدورة فطري جبلي لا يتخلف ولا يرجع اختيار صاحبه ولا يكتسبه. وسائر التأثيرات وإن كان منها ما لا يكتسب فصدورها راجع إلى اختيار فاعلها والفطري منها قوة صدورها لا نفس صدورها ولهذا قالوا: القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل؛ والقاتل بالعين لا يقتل. وما ذلك إلا لأنه ليس مما يريده ويقصده أو يتركه وإنما هو مجبور في صدوره عنه. واللّه أعلم بما في الغيوب ومطلع على ما في السرائر.

الفصل التاسع والعشرون

علم أسرار الحروف

وهو المسمى لهذا العهد بالسيميا. نقل وضعه من الطلسمات إليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة، فاستعمل استعمال العام في الخاص. وحدث هذا العلم في الملة بعد صدر منها، وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس، وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر، وتدوين الكتب والاصطلاحات، ومزاعمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه. وزعموا أن الكمال الأسمائي مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب، وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء، فهي سارية في الأكوان على هذا النظام. والأكوان من لدن الإبداع الأول تتنقل في أطواره وتعرب عن أسراره، فحدث لذلك علم أسرار الحروف، وهو من تفاريع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله. تعددت فيه تآليف البوني وابن العربي وغيرهما ممن اتبع آثارهما. وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان.

ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في الحروف بما هو:

فمنهم من جعله للمزاج الذي فيه، وقسم الحروف بقسمة الطبائع إلى أربعة أصناف كما للعناصر. واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها فعلاً وانفعالاً بذلك الصنف، فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه التكسير إلى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر، فالألف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب. ثم ترجع كذلك على التوالي من الحروف والعناصر إلى أن تنفذ. فتعين لعنصر النار حروف سبعة: الألف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال،

وتعين لعنصر الهواء سبعة أيضاً: الباء والواو والياء والنون والضاد والتاء والظاء، وتعين لعنصر الماء أيضاً سبعة: الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والثاء والغين، وتعين لعنصر التراب أيضاً سبعة: الدال والحاء واللام والعين والراء والخاء والشين.

والحروف النارية لدفع الأمراض الباردة ولمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها، إما حساً أو حكماً. كما في تضعيف قوى المريخ في الحروب والقتل والفتك. والمائية أيضاً لدفع الأمراض الحارة من حميات وغيرها ولتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حساً أو حكماً، كتضعيف قوى القمر وأمثال ذلك.

ومنهم من جعل سر التصرف الذي في الحروف للنسبة العددية: فإن حروف أبجد دالة على أعدادها المتعارفة وضعاً وطبعاً فبينها من أجل تناسب الأعداد تناسب في نفسها أيضاً، كما بين الباء والكاف والراء لدلالتها كلها على الاثنين كل في مرتبته، فالباء على اثنين في مرتبة الآحاد، والكاف على اثنين في مرتبة العشرات، والراء على اثنين في مرتبة المئين. وكالذي بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالتها على الأربعة، وبين الأربعة والاثنين نسبة الضعف. وخرج للأسماء أوفاق كما للأعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من الأوفاق الذي يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف، وامتزج التصرف من السر الحرفي والسر العددي لأجل التناسب الذي بينهما.

فأما سر التناسب الذي بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع، أو بين الحروف والأعداد، فأمر عسير على الفهم، إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات، وإنما مستندهم فيه الذوق والكشف. قال البوني: ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل إليه بالقياس العقلي، وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهي.

وأما التصرف في عالم الطبيعة بهذه الحروف والأسماء المركبة فيها وتأثر الأكوان عن ذلك فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواتراً. وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد، وليس كذلك، فإن حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية من جوهر القهر، تفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر. بأسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جالبات لروحانية ذلك الطلسم، مشدودة فيه بالهمة، فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية، وهو عندهم كالخميرة المركبة من هوائية وأرضية ومائية ونارية حاصلة في جملتها، تخيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها وتقلبه إلى صورتها. وكذلك الإكسير للأجسام المعدنية كالخميرة تقلب المعدن الذي تسري فيه إلى نفسها بالإحالة. ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد في جسد؛ لأن الإكسير أجزاؤه كلها جسدانية. ويقولون: موضوع الطلسم روح في جسد لأنه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية. والطبائع السفلية جسد والطبائع العلوية روحانية.

وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء، بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله إنما هو للنفس الإنسانية والهمم البشرية أن النفس الإنسانية محيطة بالطبيعة وحاكمة عليها بالذات، إلا أن تصرف أهل الطلسمات إنما هو في استنزال روحانية الأفلاك وربطها بالصور أو بالنسب العددية. حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الإحالة والقلب بطبيعته، فعل الخميرة فيما حصلت فيه. وتصرف أصحاب الأسماء إنما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الإلهي والإمداد الرباني، فيسخر الطبيعة لذلك طائعة غير مستعصية، ولا يحتاج إلى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها، لأن مدده أعلى منها.

ويحتاج أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الأفلاك. وأهون بها وجهة ورياضة. بخلاف أهل الأسماء فإن رياضتهم هي الرياضة الكبرى، وليست لقصد التصرف في الأكوان إذ هو حجاب. وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض، كرامة من كرامات اللّه لهم. فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار اللّه وحقائق الملكوت، الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف، واقتصر على مناسبات الأسماء وطبائع الحروف والكلمات. وتصرف بها من هذه الحيثية وهؤلاء هم أهل السيمياء في المشهور كان إذا لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات، بل صاحب الطلسمات أوثق منه لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة. وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخلوص في الوجهة، وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه يكون حاله أضعف رتبة. وقد يمزج صاحب الأسماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب، فيعين لذكر الأسماء الحسنى، أو ما يرسم من أوفاقها، بل ولسائر الأسماء أوقاتاً تكون من حظوظ الكواكب الذي يناسب ذلك الاسم، كما فعله البوني في كتابه الذي سماه الأنماط. وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية. وهي برزخية الكمال الأسمائي. وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة. وإثبات هذه المناسبة عندهم إنما هو بحكم المشاهدة. فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة، وتلقى تلك المناسبة تقليداً، كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم، بل هوأوثق منه

كما قلناه. وكذلك قد يمزج أيضاً صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب، إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب الأسماء من الاطلاع في حال المشاهدة، وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية. من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات، من جواهر وأعراض وذوات ومعان، والحروف والأسماء من جملة ما فيه.

فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه، ويبنون على ذلك مباني غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو، كما فعله مسلمة المجريطي في الغاية. والظاهر من حال البوني في أنماطه أنه اعتبر طريقتهم. فإن تلك الأنماط إذا تصفحتها، وتصفحت الدعوات التي تضمنتها. وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة، ثم وقفت على الغاية، وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها، وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب، ويسمونها قيامات الكواكب، أي الدعوة التي يقام له بها، شهد له ذلك: إما بأنه من مادتها، أو بأن التناسب الذي كان في أصل الإبداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله. ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. وليس كل ما حرمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت، فقد ثبت أن السحر حق مع حظره. لكن حسبنا من العلم ما علمنا.

ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الأجوبة من الأسئلة، بارتباطات بين الكلمات حرفية، يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية، وإنما هي شبه المعاياة والمسائل السيالة. ولهم في ذلك كلام كثير من أدعية وأوراد. وأعجبه زايرجه العالم للسبتي وقد تقدم ذكرها. ونبين هنا ما ذكروه في كيفية العمل بتلك الزايرجة بدائرتها وجدولها المكتوب حولها، ثم نكشف عن الحق فيها وأنها ليست من الغيب. وإنما هي مطابقة بين مسألة وجوابها في الإفادة فقط، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه القصيدة، إلا أننا تحرينا أصح النسخ منها في ظاهر الأمر. والله الموفق بمنه. وهي هذه:

يقول سبيتي ويحمد ربه … مصل على هاد إلى الناس أرسلا
محمد المبعوث خاتم الأنبيا … ويرضى عن الصحب ومن لهم تلا
ألا هذه زايرجة العالم الذي … تراه بحكم وبالعقل قد حلا
فمن أحكم الوضع فيحكم جسمه … ويدرك أحكاما تدبرها العلا
ومن أحكم الربط فيدرك قوة … ويدرك للتقوى وللكل حصّلا
ومن أحكم التصريف يحكم سره … ويعقل نفسه وصح له الولا
وفي عالم الأمر تراه محققا … وهذا مقام من بالأذكار كملا
فهذي سرائر عليكم بكتمها … أقمها دوائر وللحاء عدلا
فطباء لها عرش وفيظ نقوشنا … بنظم ونثر قد تراه مجدولا
ونسب دوائر كنسبة فلكها … وارسم كواكباً لأدراجها العلا
وأخرج لأوتار وارسم حروفها … وكور بمثله على حد من خلا
أقم شكل زيرهم وسوّ بيوته … وحقق بهامهم ونورهم جلا
وحصّل علوماً للطباع مهندسا … وعلما لموسيقى والأرباع مثلا
وسو لموسيقى وعلم حروفهم … وعلم بآلات فحقق وحصلا
وسوّ دوائرها ونسب حروفها … وعالمها أطلق والإقليم جدولا
أمير لنا فهو نهاية دولة … زناتية آبت وحكم لها خلا
وقطر لأندلس فابن لهودهم … وجاء بنو نصر وظفرهم تلا
ملوك وفرسان وأهل لحكمة … فإن شئت نصبهم وقطرهم حلا
ومهدي توحيد بتونس حكمهم … ملوك وبالشرق بالأوفاق نزلا
واقسم على القطر وكن متفقدا … فإن شئت للروم فبالحر شكلا
ففنش وبرشنون الراء حرفهم … وإفرنسهم دال وبالطاء كملا
ملوك كناوة دلوا لقافهم … وإعراب قومنا بترقيق أعملا
فهند حباشي وسند فهرمس … وفرس ططاري وما بعدهم طلا
فقيصرهم جاء ويزدجردهم … لكاف وقبطيهم بلامه طولا
وعباس كلهم شريف معظم … ولكن تركي بذا الفعل عطلا
فإن شئت تدقيق الملوك وكلهم … فختم بيوتاً ثم نسب وجدولا
على حكم قانون الحروف وعلمها … وعلم طبائعها وكله مثلا
فمن علم العلوم تعلم علمنا … ويعلم أسرار الوجود وأكملا
فيرسخ علمه ويعرف ربه … وعلم ملاحيم بحاميم فصلا
وحيث أتى اسم والعروض يشقه … فحكم الحكيم فيه قطعاً ليقتلا
وتأتيك أحرف فسو لضربها … وأحرف سيبويه تأتيك فيصلا
فمكّن بتنكير وقابل وعوضن … بترنيمك الغالي للأجزاء خلخلا
وفي العقد والمجزور يعرف غالبا … وزد لمح وصفيه في العقل فعلا
واختر لمطلع وسويه رتبة … واعكس بجذريه وبالدور عدلا؟
ويدركها المرء فيبلغ قصده … وتعطي حروفها وفي نظمها انجلا
إذا كان سعد والكواكب أسعدت … فحسبك في الملك ونيل اسمه العلا
وإيقاع دالهم برموز ثمة … فنسب دنادينا تجد فيه منهلا
وأوتار زيرهم فللحاء بهم … ومنتاهم المثلث بجيمه قد جلا
وادخل بأفلاك وعدل بجدول … وارسم أباجاد وباقيه جملا
وجوز شذوذ النو تجري ومثله … أتى في عروض الشعر عن جملة ملا
فأصل لديننا وأصل لفقهنا … وعلم لنحونا فاحفظ وحصلا
فادخل لفسطاط على الوفق جذره … وسبح باسمه وكبر وهللا
فتخرج أبياتا وفي كل مطلب … بنظم طبيعي وسر من العلا
وتفنى بحصرها كذا حكم عدهم … فعلم الفواتيح ترى فيه منهلا

فتخرج أبياتا وعشرون ضعفت من الألف طبعياً فيا صاح جدولا
تريك صنائعاً من الضرب أكملت فصح لك المنى وصح لك العلا
وسجع بزيرهم وأثني بنقرة أقمها دوائر الزير وحصلا
أقمها بأوفاق وأصل لعدها من أسرار أحرفهم فعذبه سلسلا

٤٣ ك ١ ك وك ح وا ه عم له ر لا سع كط ١ ل م ن ح ع ف ول منافرة

الكلام على استخراج نسبة الأوزان وكيفياتها ومقادير المقابل منها وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة إلى موضع المعلق من امتزاج طبائع وعلم طب أو صناعة الكيميا:

أيا طالبا للطب مع علم جابر وعالم مقدار المقادير بالولا
إذا شئت علم الطب لابد نسبة لأحكام ميزان تصادف منهلا
فيشفى عليلكم والأكسير محكم وأمزاج وضعكم بتصحيح انجلا

الطب الروحاني:

وشئت إيلاوش ٥٦٥ ودهنه بحلا لبهرام برجيس وسبعة أكملا
لتحليل أوجاع البوارد صححوا كذلك والتركيب حيث تنقلا

كد منع مهم ٣٥٥ وهح ٦ صح لهاي ولمح ١ آ ١ وهح وى سكره لا ل ح مههت مههه ع ع مى مرح حـ ٢٢٤٢ ل ك عا عر.

مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك وبنيهم

وعلم مطاريح الشعاعات مشكل وضلع قسيها بمنطقة جلا
ولكن في حج مقام إمامنا ويبدو إذا عرض الكواكب عدلا
بدال مراكز بين طول وعرضها فمن أدرك المعنى علا ثم فوضلا
مواقع تربيع وسه مسقط لتسديسهم تثليث بيت التي تلا
يزاد لتربيع وهذا قياسه يقيناً وجذره وبالعين أعملا
ومن نسبة الربعين ركب شعاعك بصاد وضعفه وتربيعه انجلا

اختص صح صحـ عـ ٨ سع وى هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد عمله ولم ير أعجب منه.

مقامات الملوك المقام الأول ٥ المقام الثاني

ع ع والمقام الرا بع للح المقام الخامس لاى المقام السادس بير المقام السابع عره

خط الاتصال والانفصال

خط الاتصال

خط الانفصال

الوتر للجميع وتابع الجرر التام

الاتصال والانفصال

الواجب التام في الاتصالات

إقامة الأنوار

الجزر المجيب في العمل

إقامة السوال عن الملوك

مقام الأولا نورعه ي مقام بها ٥ حج لا

الانفعال الروحاني والانقياد الرباني:

أيا طالب السر لتهليل ربه لدى أسمائه الحسنى تصادف منهلا
تطيعك أخيار الأنام بقلبهم كذلك ريسهم وفي الشمس أعملا
ترى عامة الناس إليك تقيدوا وما قلته حقا وفي الغير أهملا
طريقك هذا السيل والسبل الذي أقوله غيركم ونصركموا اجتلى
إذا شئت تحيا في الوجود مع التقى ودينا متينا أو تكن متوصلا
كذي النون والجنيد مع سر صنعة وفي سر بسطام أراك مسربلا
وفي العالم العلوي تكون محدثا كذا قالت الهند وصوفية الملا
طريق رسول اللّه بالحق ساطع وما حكم صنع مثل جبريل أنزلا
فبطشك تهليل وقوسك مطلع ويوم الخميس البدء والأحد انجلى
وفي جمعة أيضا بالأسماء مثله وفي اثنين للحسنى تكون مكملا
وفي طائه سر في هائه إذا أراك بها مع نسبة الكل أعطلا
وساعة سعد شرطهم في نقوشها وعود ومصطكى بخور تحصلا
وتتلو عليها آخر الحشر دعوة والإخلاص والسبع المثاني مرتلا
(اتصال أنوار الكواكب) بلعاني لا هي ى لا ظ غ لدسع ق صح مـ ف
وفي يدك اليمنى حديد وخاتم وكل برأسك وفي دعوة فلا
وآية حشر فاجعل القلب وجهها واتلو إذا نام الأنام ورتلا
هي السر في الأكوان لا شيء غيرها هي الآية العظمى فحقق وحصلا
تكون بها قطبا إذا جدت خدمة وتدرك أسرارا من العالم العلا
سري بها ناجى ومعروف قبله وباح بها الحلاج جهراً فاعقلا؟
وكان بها الشبلي يدأب دائما إلى أن رقى فوق المريدين واعتلى
فصف من الأدناس قلبك جاهدا ولازم لأذكار وصم وتنقلا
فما نال سر القوم إلا محقق عليم بأسرار العلوم محصلا

مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلة وأئمة:

الانفعال الطبيعي:

لبرجيس في المحبة الوفق صرفوا بقزدير أو نحاس الخلط أكملا
وقيل بفضة صحيحا رأيته فجعلك طالعا خطوطه ما علا
توخ به زيادة النور للقمر وجعلك للقبول شمسه أصلا
ويومه والبخور عود لهندهم ووقت لساعة ودعوته الا
ودعوته بغاية فهي أعملت وعن طسيمان دعوة ولها جلا

وقيل بدعوة حروف لوضعها بحرٌ هواء أو مطالب أهلا
فتنقش أحرفاً بدال ولامها وذلك وفق للمربع حصلا
إذا لم يكن يهوى هواك دلالها فدال لبيدو واو زينب معطلا
فحسن لبانه وبانهم إذا هواك وباقيهم قليلة جملا
ونقش مشاكل بشرط لوضعهم وما زدت أنسبه لفعلك عدلا
ومفتاح مريم ففعلهما سوا فبوري وبسطامي بسورتها تلا
وجعلك بالقصد وكن متفقدا أدلة وحشي لقبضة ميلا
فاعكس بيوتها بألف ونيف فباطنها سر وفي سرها انجلا

فصل في المقامات للنهاية:

لك الغيب صورة من العالم العلا وتوجدها دار أو ملبسها الحلا
ويوسف في الحسن وهذا شبيهه بنشر وترتيل حقيقة أنزلا
وفي يده طول وفي الغيب ناطق فيحكى إلى عود يجاوب بلبلا
وقد جن بهلول بعشق جمالها وعند تجليها لبسطام أخذلا
ومات أجليه وأشرب حبها جنيد وبصرى والجسم أهملا
فتطلب في التهليل غايته ومن بأسمائه الحسنى بلا نسبة خلا
ومن صاحب الحسنى له الفوز بالمنى ويسهم بالزلفى لدى جيرة العلا
وتخبر بالغيب إذا جدت خدمة تريك عجائباً بمن كان موئلا
فهذا هو الفوز وحسن تناله ومنها زيادات لتفسيرها تلا

الوصية والتختم والإيمان والإسلام والتحريم والإلهية:

فهذا قصيدنا وتسعون عده وما زاد خطبة وختما وجدولا
عجبت لأبيات وتسعون عدها تولد أبياتا وما حصرها انجلا
فمن فهم السر فيفهم نفسه ويفهم تفسيراً تشابه أشكلا
حرام وشرعي لإظهار سرنا لناس وإن خصوا وكان التأهلا
فإن شئت أهليه فغلظ يمينهم وتفهم برحلة وديـن تطولا
لعلك أن تنجو وسامع سرهم من القطع والافشا فتراس بالعلا
فنجل لعباس لسره كاتم فنال سعادات وتابعه علا
وقام رسول اللّه في الناس خاطبا فمن يراس عرشا فذلك أكملا
وقد ركب الأرواح أجساد مظهر فسألت لقتلهم بدق تطولا
إلى العالم العلوي يفنى فناؤنا ويلبس أثواب الوجود على الولا
فقد تم نظما وصلى إلهنا على خاتم الرسل صلاة بها العلا
وصلى إله العرش ذو المجد والعلا على سيد ساد الأنام وكملا
محمد الهادي الشفيع إمامنا وأصحابه أهل المكارم والعلا

كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زايرجة العالم بحول اللّه منقولاً عمن لقيناه من القائمين عليها

السؤال له ثلاثمائة وستون جواباً عدة الدرج، وتختلف الأجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الأسئلة المضافة إلى حروف الأوتار. وتناسب العمل من استخراج الأحرف من بيت القصيد.

(تنبيه): تركيب حروف الأوتار والجدول على ثلاثة أصول: حروف عربية تنقل على هيآتها. وحروف برسم الغبار. وهذه تتبدل: فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الأدوار عن أربعة، فإن زادت عن أربعة نقلت إلى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه، ومنها حروف برسم الزمام كذلك، غير أن رسم الزمام يعطي نسبة ثانية، فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة، ولها نسبة من خمسة بالعربي. فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم، فاختصروا من الجدول بيوتاً خالية. فمتى كانت أصول الأدوار زائدة على أربعة حسبت في العدد في طول الجدول وإن لم تزد على أربعة لم يحسب إلا العامر منها.

والعمل في السؤال يفتقر إلى سبعة أصول: عدة حروف الأوتار وحفظ أدوارها بعد طرحها، اثني عشر اثني عشر، وهي ثمانية أدوار في الكامل وستة في الناقص أبداً. ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج، والدور الأكبر الأصلي، وهو واحد أبداً. وما يخرج من إضافة الطالع للدور الأصلي، وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج. وإضافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة أدوار مضروبة في أربعة، تكون اثني عشر دوراً. ونسبة هذه الثلاثة الأدوار التي هي كل دور من أربعة نشأة وثلاثية، كل نشأة لها ابتداء. ثم إنها تضرب أدواراً رباعية أيضاً ثلاثية. ثم إنها من ضرب ستة في اثنين، فكان لها نشأة، يظهر ذلك في العمل. ويتبع هذه الأدوار الاثني عشر نتائج. وهي في الأدوار، إما أن تكون نتيجة أو أكثر إلى ستة.

فأول ذلك نفرض سؤالاً عن الزايرجة، هل هي علم قديم، أو محدث بطالع أول درجة من القوس أثناء حروف الأوتار؟ ثم حروف السؤال. فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء. وثالثه وتر رأس الدلو إلى حد المركز، وأضفنا إليه

حروف السؤال، ونظرنا عدتها وأقل ما تكون ثمانية وثمانين، وأكثر ما تكون ستة وتسعين، وهي جملة الدور الصحيح، فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين. ويختصر السؤال إن زاد عن ستة وتسعين، بأن يسقط جميع أدواره الاثني عشرية، ويحفظ ما خرج منها وما بقي، فكانت في سؤالنا سبعة أدوار، الباقي تسعة، أثبتها في الحروف ما لم يبلغ الطالع اثني عشرة درجة، فإن بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور.

ثم تثبت أعدادها أيضاً إن زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث، ثم تثبت الطالع وهو واحد، وسلطان الطالع وهو أربعة، والدور الأكبر وهو واحد، واجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان في هذا السؤال، واضرب ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ثمانية، وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة، فهذه سبعة أصول. فما خرج من ضرب الطالع والدور الأكبر في سلطان القوس، مما لم يبلغ اثني عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعداً، وإن زاد على اثني عشر طرح أدواراً، وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية، وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع، يكون الطالع في ضلع السطح المبسوط الأعلى من الجدول، وتعد متوالياً خمسات أدواراً، وتحفظها إلى أن يقف العدد على حرف من أربعة، وهي ألف أو باء أو جيم أو زاي. فوقع العدد في عملنا على حرف الألف وخلف ثلاثة أدوار، فضربنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة. وهو عدد الدور الأول. فأثبته واجمع ما بين الضلعين: القائم والمبسوط يسكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العامرة بالعدد من الجدول، وإن وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على أحدها. فلا يعتبر وتستمر على أدوارك. وادخل بعدد ما في الدور الأول، وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمعا فيه. وهي ثمانية، ماراً إلى جهة اليسار، فوقع على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبداً حرف مركب. وإنما هو إذن حرف تاء أربعمائة برسم الزمام، فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد، واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر، ادخل بها في حروف الأوتار، وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد. ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم الطبيعي، وذلك أن تجمع حروف الدور الأول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة عشر، أضعفها بمثلها تكون ستة وعشرين، أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون.

فعلى ذلك يكون نظم الحروف الأول، ثم ثلاثة وعشرون مرتين، ثم إثنان وعشرون مرتين، على حسب هذا الطرح إلى أن ينتهي للواحد من آخر البيت المنظوم. ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولا. ثم ضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الأول إلى ثمانية، الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن سبعة عشر الباقي خمسة. فاصعد في ضلع ثمانيه بخمسة من حيث انتهيت في الدور الأول وعلم عليه، وأدخل في صدر الجدول بسبعة عشر، ثم بخمسة. ولا تعد الخالي، والدور عشرون، فوجدنا حرف ثاء خمسمائة، وإنما هو نون لأن دورنا في مرتبة العشرات، فكانت الخمسمائة بخمسين لأن دورها سبعة عشر فلو لم تكن سبعة عشر لكانت مئين. فأثبت نوناً ثم أدخل بخمسة أيضا من أوله. وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحداً، فقهقر العدد واحداً يقع على خمسة، أضف لها واحداً لسطح تكن ستة. أثبت واواً وعلم عليها من بيت القصيد أربعة، وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تبلغ اثني عشر، أضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر، وهو ما للدور الثاني. فدخلنا بسبعة عشر في حروف الأوتار، فوقع العدد على واحد. أثبت الألف وعلم عليها من بيت القصيد وأسقط من حروف الأوتار ثلاثة حروف عدة الخارج من الدور الثاني. وضع الدور الثالث وأضف خمسة إلى ثمانية تكن ثلاثة عشر، الباقي واحد. انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد وأدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر، وخذ ما وقع عليه العدد وهو (ق) وعلم عليه. وأدخل بثلاثة عشر في حروف الأوتار وأثبت ما خرج، وهو سين، وعلم عليه من بيت القصيد، ثم أدخل مما يلي السين الخارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر وهو واحد، فخذ مما يلي حرف سين من الأوتار فكان (ب) أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد. وهذا يقال له: الدور المعطوف، وميزانه صحيح. وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها، وتضيف إليها الواحد الباقي من الدور. تبلغ سبعة وعشرين. وهو حرف باء المستخرج من الأوتار من بيت القصيد. وأدخل في صدر الجدول بثلاثة عشر، وانظر ما قابله من السطح وأضعفه بمثله، وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر، فكان حرف جيم، وكانت للجملة سبعة، فذلك حرف زاي فأثبتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد. وميزانه أن تضعف السبعة بمثلها وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر، وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا آخر أدوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة بإضافة الباقي من الدور السابق، فاضرب الطالع مع الدور في السلطان، وهذا الدور آخر العمل في البيت الأول من الرباعيات.

فاضرب على حرفين من الأوتار واصعد بتسعة في ضلع

ثمانية وأدخل بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخرا من بيت القصيد، فالتاسع حرف راء، فأثبته وعلم عليه. وأدخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قابلها من السطح يكون (ج)، فهقر العدد واحداً يكون ألف وهو الثاني من حرف الراء من بيت القصيد فأثبته وعلم عليه. وعدّ مما يلي الثاني تسعة يكون ألف أيضاً أثبته وعلم عليه واضرب على حرف من الأوتار، واضعف تسعة بمثلها تبلغ ثمانية عشر، أدخل بها في حروف الأوتار تقف على حرف راء، أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين. وأدخل بثمانية عشر في حروف الأوتار تقف على (س) أثبتها وعلم عليها اثنين. وأضف اثنين إلى تسعة تكون أحد عشر. أدخل في صدر الجدول بأحد عشر تقابلها من السطح الف أثبتها وعلم عليها ستة، وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة. اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الأوتار واضعف خمسة بمثلها، وأضفها إلى سبعة عشر عدد دورها الجملة سبعة وعشرون، أدخل بها في حروف الأوتار تقع على (ب) أثبتها وعلم عليها اثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر اثنين التي هي في أس اثنين وثلاثين الباقي خمسة عشر. أدخل في حروف الأوتار تقف على ق أثبتها وعلم عليها ستة وعشرين. وأدخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغبار وذلك حرف ب أثبته وعلم عليه أربعة وخمسين، واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السادس، وعدته ثلاثة عشر. الباقي منه واحد، فتبين إذ ذاك أن دور النظم من خمسة وعشرين، فإن الأدوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد، فاضرب خمسة في خمسة تكن خمسة وعشرين، وهو الدور في نظم البيت، فانقل الدور في ضلع ثمانية بواحد. ولكن لم يدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمناه، لأنه دور ثانٍ من نشأة تركيبية ثانية، بل أضفنا الأربعة التي من أربعة وخمسين الخارجة على حروف ب من بيت القصيد إلى الواحد تكون خمسة، تضيف خمسة إلى ثلاثة عشر التي للدور تبلغ ثمانية عشر. أدخل بها في صدر الجدول وخذ ما قابلها من السطح وهو ألف أثبته وعلم عليه من بيت القصيد اثني عشر واضرب على حرفين من الأوتار. ومن هذا الجدول تنظر أحرف السؤال، فما خرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حروف السؤال ليكون داخلاً في العدد في بيت القصيد. وكذلك تفعل بكل حرف بعد ذلك مناسباً لحروف السؤال، فما خرج منها زده على بيت القصيد من آخره وعلم عليه. ثم أضف إلى ثمانية عشر ما علمته على حرف الألف من الآحاد، فكان اثنين تبلغ الجملة عشرين. أدخل بها في حروف الأوتار تقف على حرف راء، أثبته وعلم عليه من بيت القصيد، ستة وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف الوتري. فاضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السابع. وهو ابتداء لمخترع ثان ينشأ من الاختراعين. ولهذا الدور من العدد تسعة، تضيف لها واحدا تكون عشرة للنشأة الثانية، وهذا الواحد تزيده بعد إلى اثني عشر دوراً، إذا كان من هذه النسبة، أو تنقصه من الأصل تبلغ الجملة خمسة عشر. فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين وأدخل في صدر الجدول بعشرة تقف على خمسمائة، وإنما هي خمسون، نون مضاعفة بمثلها، وتلك ق أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين، وأسقط من اثنين وخمسين اثنين، وأسقط تسعة التي للدور، الباقي واحد وأربعون، فادخل بها في حروف الأوتار تقف على واحد أثبته. وكذلك أدخل بها في بيت القصيد تجد واحداً، فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فعلم عليه من بيت القصيد علامتين. علامة على الألف الأخير الميزاني، وأخرى على الألف الأولى فقط، والثانية أربعة وعشرون واضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقي خمسة، أدخل في ضلع ثمانية وخمسين وأدخل في بيت القصيد بخمسة تقع على عين بسبعين، أثبتها وعلم عليها. وأدخل في الجدول بخمسة، وخذ ما قابلها من السطح. وذلك واحد، أثبته وعلم عليه من البيت ثمانية وأربعين، وأسقط واحداً من ثمانية وأربعين للأس الثاني وأضف إليها خمسة، الدور. الجملة اثنان وخمسون. أدخل بها في صدر الجدول تقف على حرف ب غبارية وهي مرتبة مئينية لتزايد العدد، فتكون مائتين وهي حرف راء، أثبتها وعلم عليها من القصيد أربعة وعشرين، فانتقل الأمر إلى ستة وتسعين إلى الابتداء وهو أربعة وعشرون، فأضف إلى أربعة وعشرين خمسة، الدور، وأسقط واحداً تكون الجملة ثمانية وعشرين. أدخل بالنصف منها في بيت القصيد تقف على ثمانية، أثبت (٢) وعلم عليها وضع الدور التاسع، وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد. اصعد في ضلع ثمانية بواحد. وليست نسبة العمل هنا كنسبتها في الدور السادس لتضاعف العدد، ولأنه من النشأة الثانية، ولأنه أول الثلث الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من المثلثات. فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة، الجملة اثنان وخمسون، أدخل بها في صدر الجدول تقف على حرف اثنين غبارية، وإنما هي مئينية لتجاوزها في العدد عن مرتبتي الآحاد والعشرات، فأثبته مائتين راء. وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين، وأضف إلى ثلاثة عشر، الدور، واحد الأس، وادخل بأربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية، فعلم عليها ثمانية

وعشرين، واطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة اضرب على حرفين من الأوتار، وأدخل بسبعة تقف على حرف لام، أثبته وعلم عليه من البيت. وضع الدور العاشر وعدده تسعة، وهذا ابتداء المثلثة الرابعة، واصعد في ضلع ثمانية بتسعة، تكون خلاء، فاصعد بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء. اضرب تسعة في أربعة لصعودنا بتسعتين، وإنما كانت تضرب في اثنين. وأدخل في الجدول بستة وثلاثين تقف على أربعة زمامية وهي عشرية، فأخذناها أحادية لقلة الأدوار. فأثبت حرف دال، وإن أضفت إلى ستة وثلاثين واحد الأس كان حدها من بيت القصيد. فعلم عليها، ولو دخلت بالتسعة لا غير من ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية. فاطرح من ثمانية أربعة الباقي أربعة وهو المقصود. ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة في اثنين لوقف على واحد زمامي وهو عشري. فاطرح منه اثنين تكرار التسعة، الباقي ثمانية نصفها المطلوب. ولو دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بضربها في ثلاثة لوقعت على عشرة زمامية، والعمل واحد. ثم أدخل بتسعة في بيت القصيد وأثبت ما خرج وهو ألف، ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية وأسقط واحداً وأدخل في صدر الجدول بستة وعشرين، وأثبت ما خرج وهو مائتان بحرف راء وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين. واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة، إصعد في ضلع ثمانية بخمسة وتحسب ما تكرر عليه المشي في الدور الأول، وأدخل في صدر الجدول بخمسة تقف على خال، فخذ ما قابله من السطح وهو واحد، فأدخل بواحد في بيت القصيد تكن سين، أثبته وعلم عليه أربعة. ولو يكون الوقف في الجدول على بيت عامر لأثبتنا الواحد ثلاثة. وأضعف سبعة عشر بمثلها وأسقط واحداً وأضعفها بمثلها وزدها أربعة تبلغ سبعة وثلاثين، أدخل بها في الأوتار تقف على ستة أثبتها وعلم عليها، وأضعف خمسة بمثلها. وأدخل في البيت تقف على لام أثبتها وعلم عليها عشرين، واضرب على حرفين من الأوتار. وضع الدور الثاني عشر وله ثلاثة عشر الباقي واحد، اصعد في ضلع ثمانية بواحد، وهذا الدور آخر الأدوار وآخر الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية. والواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية، وإنما هي آحاد ثمانية، وليس معنا من الأدوار إلا واحد، فلو زاد عن أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثة من مثلثات اثني عشر لكانت (ح)، وإنما هي (د)، فأثبتها وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وسبعين، ثم انظر ما ناسبها من السطح تكن خمسة، أضعفها بمثلها للأس

تبلغ عشرة، أثبت (ى) وعلم عليها، وانظر في أي المراتب وقعت: وجدناها في الرابعة. دخلنا بسبعة في حروف الأوتار، وهذا المدخل يسمى التوليد الحرفي فكانت (ف)، أثبتها وأضف إلى سبعة واحد الدور، الجملة ثمانية. أدخل بها في الأوتار تبلغ (س) أثبتها وعلم عليها ثمانية، واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور، فإنها آخر مربعات الأدوار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرين، أدخل بها في بيت القصيد وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون. وهو نهاية الدور الثاني في الأدوار الحرفية، واضرب على حرفين من الأوتار وضع النتيجة الأولى ولها تسعة. وهذا العدد يناسب أبداً الباقي من حروف الأوتار بعد طرحها أدواراً وذلك تسعة، فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الأوتار، وأضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين، فأدخل بها في حروف الأوتار تبلغ ألفاً، أثبته وعلم عليه ستة وتسعين. وإن ضربت سبعة التي هي أدوار الحروف التسعينية في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على تسعين. والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك، واصعد في ضلع ثمانية بتسعة وأدخل في الجدول بتسعة تبلغ اثنين زمامية. واضرب تسعة فيما ناسب من السطح، وذلك ثلاثة، وأضف لذلك سبعة، عدد الأوتار الحرفية، واطرح واحداً الباقي من دور اثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين، ادخل بها في البيت تبلغ خمسة. فأثبتها وأضف تسعة بمثلها وادخل في صدر الجدول بثمانية عشر، وخذ ما في السطح وهو واحد، ادخل به في حروف الأوتار تبلغ (م) أثبته وعلم عليه، واضرب على حرفين من الأوتار. وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة، فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر، أضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة، وادخل بستة عشرفي بيت القصيد تبلغ (ت) أثبته وعلم عليه أربعة وستين. وأضف إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين. وزد واحداً الباقي من الدور الثاني عشر يكن تسعة. ادخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية، وانظر ما في السطح تجد واحداً أثبته وعلم عليه من بيت القصيد وهو التاسع أيضاً من البيت. وادخل بتسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة وهي عشرات. فأثبت لام وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقي واحد. فانقل في ضلع ثمانية بواحد وأضف إلى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين. وواحد الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ سبعة عشر، وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر. ادخل بها في حروف الأوتار تكن لاماً أثبتها فهذا آخر العمل.

والمثال في هذا السؤال السابق: أردنا أن نعلم أن هذه الزايرجة علم محدث أو قديم، بطالع أول درجة من القوس، أثبتنا حروف الأوتار، ثم حروف السؤال. ثم الأصول، وهي عدة الحروف ثلاثة وتسعون أدوارها سبعة الباقي منها تسعة، الطالع واحد، سلطان القوس أربعة، الدور الأكبر واحد، درج الطالع مع الدور اثنان، ضرب الطالع مع الدور في السلطان ثمانية، إضافة السلطان للطالع خمسة بيت القصيد.

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلا

حروف الأوتار: ص ط ه رث ك هـ م ص ص ون ب هـ س ا ن ل م ن ص ع ف ص ورس ك ل م ن ص ع ف ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش ط ى ع ح ص ر وح ر وح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه وز ح ط ى.

(حروف السؤال) ا ل ز ا ى رج ة ع ل م م ح د ث ا م ق د ى م الدورالأول ٩ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١ الدور الرا بع ٩ الدور الخامس ١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩ الدور الثامن ١٧ الباقي ٥ الدور التاسع ١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣ الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور الثاني عشر ١٣ الباقي ١ النتيجة الأولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة ١٣ الباقي ١.

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين إلى أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت وتنتقل الحروف جميعاً والله أعلم ن ف ر وح ر وح ا ل ود س ا د ر ر س ر ه ا ل د ر ى س وا ن س د ر وا ب لا ا م ر ب وا ا ل ع ل ل.

هذا آخر الكلام في استخراج الأجوبة من زايرجة العالم منظومة. وللقوم طرائق أخرى من غير الزايرجة يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة. وعندهم أن السر في استخراج الجواب منظوماً من الزايرجة، إنما هو مزجهم بيت مالك بن وهيب وهو: سؤال عظيم الخلق البيت، ولذلك يخرج الجواب على رويه. وأما الطرق الأخرى فيخرج الجواب غير منظوم. فمن طرائقهم في استخراج الأجوبة ما ننقله عن بعض المحققين منهم.

فصل في الاطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية

اعلم أرشدنا الله وإياك أن هذه الحروف أصل الأسئلة في كل قضية، وإنما تستنتج الأجوبة على تجزئته بالكلية، وهي ثلاثة وأربعون حرفاً كما ترى والله علام الغيوب ا ول ا ع ظ س ا ل م خ ى د ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ك ك ى ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا.

وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدد من حرفين وسماه القطب فقال:

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلا

فإذا أردت استنتاج المسألة فاحذف ما تكرر من حروفها وأثبت ما فضل منه. ثم احذف من الأصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسألة حرفاً يماثله، وأثبت ما فضل منه. ثم امزج الفضلين في سطر واحد تبدأ بالأول من فضله. والثاني من فضل المسألة. وهكذا إلى أن يتم الفضلان أو ينفد أحدهما قبل الآخر، فتضع البقية على ترتيبها. فإذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقاً لعدد حروف الأصل قبل الحذف فالعمل صحيح، فحينئذ تضيف إليها خمس نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفاً. فتعمر بها جدولاً مربعاً يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني. وتنقل البقية على حالها. وهكذا إلى أن تتم عمارة الجدول. ويعود السطر الأول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة، ثم تخرج وتر كل حرف بقسمة مربعة على أعظم جزء يوجد له، وتضع الوتر مقابلاً لحرفه. ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية، وتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك، وهذه صورته:

ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الأربعة، واحذر ما يلي الأوتاد وكذلك السواقط لأن نسبتها مضطربة. وهذا الخارج هو أول رتب السريان. ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات، يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية، فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهي عناصر الأمداد، يخرج أفق النفس الأوسط، وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط. وهذا مخصوص بعوالم الأكوان البسيطة لا المركبة. ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى، فتحمل عليه أول رتب السريان، ثم تطرح من الرابع أول عناصر الأمداد الأصلي يبقى ثالث رتبة السريان، فتضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبداً في رابع مرتبة السريان، يخرج أول عالم التفصيل، والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل، والثالث في الثالث يخرج

ثالث عالم التفصيل، والرابع في الرابع يخرج رابع عالم التفصيل. فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل. تبقى العوالم المجردة، فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول. ويقسم المنكسر على الأفق الأوسط يخرج الجزء الثاني، وما انكسر فهو الثالث. ويتعين الرابع هذا في الرباعي. وإن شئت أكثر من الرباعي فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان ومن الأوفاق بعد الحروف. والله يرشدنا وإياك.

وكذلك إذا قسم عالم التجريد على أول رتب السريان خرج الجزء الأول من عالم التركيب، وكذلك إلى نهاية الرتبة الأخيرة من عالم الكون. فافهم وتدبر والله المرشد المعين.

ومن طريقهم أيضاً في استخراج الجواب، قال بعض المحققين منهم:

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه، أن علم الحروف جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم. وللعمل به شرائط تلتزم. وقد يستخرج العالم أسرار الخليقة وسرائر الطبيعة، فيطلع بذلك على نتيجتي الفلسفة، أعني السيميا وأختها. ويرفع له حجاب المجهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب. وقد شهدت جماعة بأرض المغرب ممن اتصل بذلك، فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله.

واعلم أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر. مفتاح كل خير، كما أن الخرق والعجلة رأس الحرمان، فأقول: إذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف الفابيطوس أعني أبجد إلى آخر العدد، وهذا أول مدخل من علم الحروف، فانظر ما لذلك الحرف من الأعداد، فتلك الدرجة التي هي مناسبة للحرف هي قوته في الجسمانيات. ثم اضرب العدد في مثله تخرج لك قوته في الروحانيات وهي وتره. وهذا في الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير المنقوطة، لأن المنقوطة منها مراتب لمعان يأتي عليها البيان فيما بعد.

واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلاً في العالم العلوي أعني الكرسي، ومنها المتحرك والساكن والعلوي والسفلي كما هو مرقوم في أماكنه من الجداول الموضوعة في الزيارج.

واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام:

الأول وهو أقلها قوة تظهر بعد كتابتها، فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم، فمتى خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة كانت قوى الحروف مؤثرة في عالم الأجسام.

الثاني قوتها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر عن تصريف الروحانيات لها، فهي قوة في الروحانيات العلويات، وقوة شكلية في عالم الجسمانيات.

الثالث وهو يجمع الباطن، أعني القوة النفسانية على تكوينه، فتكون قبل النطق به صورة في النفس، بعد النطق به صورة في الحروف وقوة في النطق.

وأما طبائعها فهي الطبيعيات المنسوبة للمتولدات في الحروف وهي الحرارة واليبوسة، والحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة والبرودة والرطوبة، فهذا سر العدد اليماني، والحرارة جامعة للهواء والنار وهما: (ا هـ ط م ف ش ذ ج ز ك س ق ث ظ)، والبرودة جامعة للهواء والماء(ب وى ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ)، واليبوسة جامعة للنار والأرض(ا هـ ط م ف ش ذ ب وى ن ص ت ض)، فهذه نسبة حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض. وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات بأسباب الأمهات الأول، أعني الطبائع الأربع المنفردة، فمتى أردت استخراج مجهول من مسألة ما، فحقق طالع السائل أو طالع مسألته واستنطق حروف أوتارها الأربعة: الأول والرابع والسابع والعاشر مستوية مرتبة، واستخرج أعداد القوى والأوتار كما سنبين، واحمل وانسب واستنتج الجواب يخرج لك المطلوب، إما بصريح اللفظ أو بالمعنى. وكذلك في كل مسألة تقع لك. بيانه:

إذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع. مع اسم السائل والحاجة. فاجمع أعدادها بالجمّل الكبير، فكان الطالع الحمل رابعه السرطان سابعه الميزان عاشره الجدي. وهو أقوى هذه الأوتاد. فأسقط من كل برج حرفي التعريف. وانظر ما يخص كل برج من الأعداد المنطقة الموضوعة في دائرتها، واحذف أجزاء الكسر في النسب الاستنطاقية كلها وأثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك، ثم أعداد حروف العناصر الأربعة وما يخصها كالأول. وارسم ذلك كله أحرفاً ورتب الأوتاد والقوى والقرائن سطراً ممتزجاً. وكسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين. واجمع واستنتج الجواب يخرج لك الضمير وجوابه.

مثاله: افرض أن الطالع الحمل كما تقدم. ترسم (ح م ل): فللحاء من العدد ثمانية لها النصف والربع والثمن (د ب ا) الميم لها من العدد أربعون. لها النصف والربع والثمن والعشر، ونصف العشر إذا أردت التدقيق (م ك ى ه د ب)، اللام لها من العدد ثلاثون، لها النصف والثلثان والثلث والخمس والسدس والعشر

(ك ى وهـ ج). وهكذا تفعل بسائر حروف المسألة والاسم من كل لفظ يقع لك.

وأما استخراج الأوتار فهو أن تقسم مربع كل حرف على أعظم جزء يوجد له.

مثاله: حرف (د) له من الأعداد أربعة مربعها ستة عشر. اقسمها على أعظم جزء يوجد لها وهو اثنان يخرج وتراً لدال ثمانية. ثم تضع كل وتر مقابلاً لحرفه. ثم تستخرج النسب العنصرية، كما تقدم في شرح الاستنطاق. ولها قاعدة تطرد في استخراجها من طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف الاصطلاح. والله أعلم.

فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية

وذلك لو سأل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علته. وما الموافق لبرئه منه، فمر السائل أن يسمي ما شاء من الأشياء على اسم العلة المجهولة، لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك. ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة إن أردت التدقيق في المسألة، وإلا اقتصرت على الاسم الذي سماه السائل. وفعلت به كما نبين. فأقول مثلاً: سمى السائل فرساً فأثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقة. بيانه: أن للفاء من العدد ثمانين ولها (م ك ي ح ب)، ثم الراء لها من العدد مائتان (ق ن ك ى) ثم السين لها من العدد ستون ولها (م ل ك) فالواو عدد تام له (د جـ ب)، والسين مثله ولها (م ل ك). فإذا بسطت حروف الأسماء وجدت عنصرين متساويين، فاحكم لأكثرهما حروفاً بالغلبة على الآخر، ثم اجمل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط. وكذلك اسم الطالب واحكم للأكثر والأقوى بالغلبة.

وصفة قوى استخراج العناصر

فتكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة. واليبوسة طبع السوداء، فتحكم على المريض بالسوداء. فإذا ألفت من حروف الاستنطاق كلاماً على نسبة تقريبية خرج موضع الوجع في الحلق، ويوافقه من الأدوية حقنة ومن الأشربة شراب الليمون. هذا ما خرج من قوى أعداد حروف اسم فرس وهو مثال تقريبي مختصر.

وأما استخراج قوى العناصر من الأسماء العلمية فهو أن تسمي مثلاً محمداً، فترسم أحرفه مقطعة. ثم تضع أسماء العناصر الأربعة على ترتيب الفلك، يخرج لك ما في كل عنصر من الحروف والعدد. ومثاله:

فتجد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء، لأن عدد حروفه عشرون حرفاً، فجعلت له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور. وهكذا يفعل بجميع الأسماء. حينئذ تضاف إلى أوتارها، أو للوتر المنسوب للطالع في الزايرجة، أو لوتر البيت المنسوب لمالك بن وهيب. الذي جعله قاعدة لمزج الأسئلة وهو هذا:

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن   غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات، وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه. وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية. وصفة العمل بهذا الوتر المذكور أن ترسمه مقطعاً ممتزجاً بألفاظ السؤال على قانون صنعة التكسير. وعدة حروف هذا الوتر أعني البيت ثلاثة وأربعون حرفاً، لأن كل حرف مشدد من حرفين.

ثم تحذف ما تكرر عند المزج من الحروف ومن الأصل. لكل حرف فضل من المسألة حرف يماثله، وتثبت الفضلين سطراً ممتزجاً بعضه ببعض الحروف. الأول من فضلة القطب والثاني من فضلة السؤال، حتى تتم الفضلتان جميعاً فتكون ثلاثة وأربعين، فتضيف إليها خمس نونات ليكون ثمانية وأربعين، لتعدل بها الموازين الموسيقية. ثم تضع الفضلة على ترتيبها فإن كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الأصلي قبل الحذف فالعمل صحيح، ثم عمر بما مزجت جدولا مربعا يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني.

وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الأول بعينه، وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة. ثم تخرج وتر كل حرف كما تقدم تضعه مقابلاً لحرفه، ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية، لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك. وصفة استخراج النسب العنصرية هو أن تنظر الحرف الأول من الجدول ما طبيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه، فإن اتفقت فحسن، وإلا فاستخرج بين الحرفين نسبة. ويتسع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية. وتحقيق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر في دوائرها الموسيقية. ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الأربعة كما تقدم. واحذر ما يلي الأوتاد. وكذلك السواقط لأن نسبتها مضطربة. وهذا الذي يخرج لك هو أول مراتب السريان. ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس

المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية. فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهي عناصر الإمداد، يخرج أفق النفس الأوسط. وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط. وهذا مخصوص بعوالم الأكوان البسيطة لا المركبة. ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى. فتحمل عليه أول رتب السريان. ثم تطرح من الرابع أول عناصر الإمداد الأصلي يبقى ثالث رتبة السريان. ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبداً في رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل، والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل، وكذلك الثالث والرابع، فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل، تبقى العوالم المجردة، فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول. ومن هنا يطرد العمل في التامة. وله مقامات في كتب ابن وحشية والبوني وغيرهما. وهذا التدبير يجري على القانون الطبيعي الحكمي في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الإلهية، وعليه مدار وضع الزيارج الحرفية والصنعة الإلهية والنيرجات الفلسفية. والله الملهم وبه المستعان وعليه التكلان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفصل الثلاثون

في علم الكيمياء

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلاً عن المعادن. ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل مثل حل الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وإمهاء الصلب بالقهر والصلابة وأمثال ذلك. وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الإكسير. وأنه يلقى منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يحمى بالنار فيعود ذهباً إبريزاً. ويكنون عن ذلك الإكسير إذا ألغزوا اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد. فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء.

وما زال الناس يؤلفون فيها قديماً وحديثاً. وربما يعزى الكلام فيها إلى من ليس من أهلها. وإمام المدونين فيها جابر بن حيان حتى إنهم يخصونها به فيسمونها: علم جابر وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالألغاز. وزعموا أنه لا يفتح مقفلها إلا من أحاط علما بجميع ما فيها. والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء. وكتب فيها مسلمة المجريطي من حكماء الأندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قرينا لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم. وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع.

وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تآليفهم هي ألغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك. ونحن نذكر سبب عدولهم إلى هذه الرموز والألغاز. ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجيء في الشعر ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة فلا تكاد تفهم. وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض التآليف فيها وليس بصحيح لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطأ ما يذهبون إليه حتى ينتحله. وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين أن خالدا من الجيل العربي والبداوة إليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها؟! وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم، اللّهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن.

وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لأبي السمح في هذه الصناعة وكلاهما من تلاميذ مسلمة فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شأنها إذا أعطيته حقه من التأمل، قال ابن بشرون بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض: والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن فمنعنا اشتهارها من ذكرها، ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج إليه، فتبدأ بمعرفته فقد قالوا: ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولاً ثلاث خصال: أولها هل تكون؟ والثانية من أي تكون؟ والثالثة من أيّ كيفٍ تكون؟ فإذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم. فأما البحث

عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناكه بما بعثنا به إليك من الإكسير. وأما من أي شيء تكون، فإنما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وإن كان العمل موجوداً من كل شيء بالقوة لأنها من الطبائع الأربع منها تركبت ابتداء وإليها ترجع انتهاء، ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل، وذلك أن منها ما يمكن تفصيلها ومنها لا يمكن تفصيلها والتي يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهي التي تخرج من القوة إلى الفعل والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر؛ لأنها فيها بالقوة فقط، وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير. فينبغي لك وفقك اللّه أن تعرف أوفق الأحجار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب، فإن من لم يعرف هذه الأصول التي هي عماد هذه الصنعة لم ينجح ولم يظفر بخير أبداً.

وينبغي لك أن تعلم هل يمكن أن يستعان عليه بغيره أو يكتفي به وحده؟ وهل هو واحد في الابتداء أو شاركه غيره فصار في التدبير واحدا فسمي حجراً. وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله وكمية أوزانه وأزمانه، وكيف تركيب الروح فيه وإدخال النفس عليه؟ وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها؟ فإن لم تقدر فلأي علة؟ وما السبب الموجب لذلك؟ فإن هذا هو المطلوب فافهم.

واعلم أن الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت أنها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه. وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره؛ لأنه لا حياة فيه ولا نور. وإنما ذكرت الجسد والنفس؛ لأن هذه الصفات شبيهة بجسد الإنسان الذي تركيبه على الغذاء والعشاء وقوامه وتمامه بالنفس الحية النورانية التي بها يفعل العظائم والأشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها. وإنما انفعل الإنسان لاختلاف تركيب طبائعه؛ ولو اتفقت طبائعه لسلمت من الأعراض والتضاد ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ولكان خالداً باقياً. فسبحان مدبر الأشياء تعالى.

واعلم أن الطبائع التي يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء فيضية محتاجة إلى الانتهاء، وليس لها إذا صارت في هذا الحد أن تستحيل إلى ما منه تركبت كما قلناه آنفاً في الإنسان؛ لأن طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضاً وصارت شيئاً واحداً شبيهاً بالنفس في قوتها وفعلها، وبالجسد في تركيبه ومجسته بعد أن كانت طبائع مفردة بأعيانها. فيا عجباً من أفاعيل الطبائع أن القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتمامها؛ فلذلك قلت: قوي وضعيف. وإنما وقع التغير والفناء في التركيب الأول للاختلاف وعدم ذلك في الثاني للاتفاق.

وقد قال بعض الأولين: التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء، والتركيب موت وفناء. وهذا الكلام دقيق المعنى لأن الحكيم أراد بقوله: حياة وبقاء خروجه من العدم إلى الوجود؛ لأنه ما دام على تركيبه الأول فهو فان لا محالة، فإذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء. والتركيب الثاني لا يكون إلا بعد التفصيل والتقطيع؛ فإذاً التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة. فإذا بقي الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة؛ لأنه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها وذلك أنه لا وزن له فيه وسترى ذلك إن شاء اللّه تعالى.

وقد ينبغي لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ؛ وإنما أريد بذلك التشاكل في الأرواح والأجساد؛ لأن الأشياء تتصل بأشكالها. وذكرت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر من الطبائع اللطائف الروحانية منها من الغليظة الجسمانية. وقد يتصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من الأرواح، كما ترى أن الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الأرواح، فأقول: إن الأجساد قد كانت أرواحا في بدنها فلما أصابها حر الكيان قلبها أجساداً لزجة غليظة فلم تقدر النار على أكلها لإفراط غلظها وتلزجها. فإذا أفرطت النار عليها صيرتها أرواحاً كما كانت أول خلقها. وإن تلك الأرواح اللطيفة إذا أصابتها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها، فينبغي لك أن تعلم ما صير الأجساد في هذه الحالة وصير الأرواح في هذا الحال فهو أجل ما تعرفه.

أقول: إنما أبقت تلك الأرواح لاشتعالها ولطافتها. وإنما اشتعلت لكثرة رطوبتها ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لأنها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغتذي بها إلى أن تفنى. وكذلك الأجساد إذا أحست بوصول النار إليها لقلة تلزجها وغلظها، وإنما صارت تلك الأجساد لا تشتعل لأنها مركبة من أرض وماء صابر على النار، فلطيفه متحد بكثيفه لطول الطبخ اللين المازج للأشياء. وذلك أن كل متلاش إنما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة، فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما أشبههما. وإنما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلها، فإذا علمت ذلك علماً شافياً فقد أخذت حظك منها.

وينبغي لك أن تعلم أن الأخلاط التي هي طبائع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض مفصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزء منه ولا في الكل كما قال الفيلسوف: إنك إذا أحكمت تدبير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريباً، فقد أحكمت ما أردت إحكامه وقوامه، إذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها، فمن أدخل عليها غريباً فقد زاغ عنها ووقع في الخطأ.

واعلم أن هذه الطبيعة إذا حل لها جسد من قرائنها على ما ينبغي في الحل حتى يشاكلها في الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت معه حيثما جرى، لأن الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاوج، وحلُّ الأجساد لا يكون بغير الأرواح؛ فافهم هداك الله هذا القول.

واعلم هداك الله أن هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينتقض، وهو الذي يقلب الطبائع ويمسكها ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجيبة. وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لأنه مخالف للحياة، وإنما حله بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار، حتى يزول عن الغلظ وتنقلب الطبائع عن حالاتها إلى ما لها أن تنقلب من اللطافة والغلظ. فإذا بلغت الأجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله فلا خير فيه.

واعلم أن البارد من الطبائع هو ييبِّس الأشياء ويعقد رطوبتها، والحار منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها وإنما أفردت الحر والبرد لأنهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الأجسام وتتكون، وإن كان الحر أكثر فعلاً في ذلك من البرد؛ لأن البرد ليس له نقل الأشياء ولا تحركها والحر هو علة الحركة. ومتى ضعفت علة الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبداً كما أنه إذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برد أحرقته وأهلكته. فمن أجل هذه العلة احتيج إلى البارد في هذه الأعمال ليقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار. ولم يحذر الفلاسفة أكثر شيء إلا من النيران المحرقة. وأمرت بتطهير الطبائع والأنفاس وإخراج دنسها ورطوبتها ونفي آفاتها وأوساخها عنها وعلى ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم، فإنما عملهم إنما هو مع النار أولاً وإليها يصير آخراً فلذلك قالوا: إياكم والنيران المحرقات. وإنما أرادوا بذلك نفي الآفات التي معها فتجمع على الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه. وكذلك كل شيء إنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يقويه ويعينه إلا قهرته الآفة وأهلكته. واعلم أن الحكماء كلها ذكرت تراداد الأرواح على الأجساد مراراً ليكون ألزم إليها وأقوى على قتال النار إذا هي باشرتها عند الألفة، أعني بذلك النار العنصرية فاعلمه.

ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه، فمنهم من زعم أنه في الحيوان، ومنهم من زعم أنه في النبات، ومنهم من زعم أنه في المعادن، ومنهم من زعم أنه في الجميع. وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها؛ لأن الكلام يطول جداً وقد قلت فيما تقدم: إن العمل يكون في كل شيء بالقوة؛ لأن الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك، فنريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد إلى ما قاله الحراني: إن الصبغ كله أحد صبغين: إما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه وهو مضمحل منتقض التركيب، والصبغ الثاني تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولونه كتقليب الشجر بل التراب إلى نفسه وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه حتى يصير التراب نباتاً والنبات حيواناً، ولا يكون إلا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له توليد الأجرام وقلب الأعيان. فإذا كان هذا هكذا فنقول: إن العمل لابد أن يكون إما في الحيوان وإما في النبات وبرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتمامهما. فأما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل خوض الحكماء فيه. وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها، وذلك أن المعدن يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً، والحيوان لا يستحيل إلى شيء هو ألطف منه إلا أن ينعكس راجعاً إلى الغلظ، وأنه أيضاً لا يوجد في العالم شيء تتعلق به الروح الحية غيره، والروح ألطف ما في العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان إلا بمشاكلته إياها. فأما الروح التي في النبات فإنها يسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلظه وغلظ روحه. والروح المتحركة ألطف من الروح الكامنة كثيراً، وذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده. ولا تجري إذا قيست بالروح الحية إلا كالأرض عند الماء. كذلك النبات عند الحيوان، فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر. فينبغي للعاقل إذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلاً ويترك ما يخشى فيه عسراً.

واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساماً من الأمهات التي هي الطبائع والحديثة التي هي المواليد وهذا معروف متيسر الفهم، فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقساماً حية

وأقساماً ميتة، فجعلوا كل متحرك فاعلاً حياً، وكل ساكن مفعولاً ميتاً. وقسموا ذلك في جميع الأشياء وفي الأجساد الذائبة وفي العقاقير المعدنية فسموا كل شيء يذوب في النار ويطير ويشتعل حياً، وما كان على خلاف ذلك سموه ميتا، فأما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعاً حياً، وما لم ينفصل سموه ميتاً، ثم إنهم طلبوا جميع الأقسام الحية.

فلم يجدوا لوفق هذه الصناعة مما ينفصل فصولاً أربعة ظاهرة للعيان، ولم يجدوا غير الحجر الذي في الحيوان فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه، فتكيف لهم منه الذي أرادوا. وقد يتكيف مثل هذا في المعادن والنبات. بعد جمع العقاقير وخلطها ثم تفصل بعد ذلك. فأما النبات فمنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول مثل الأشنان، وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس، إذا مزجت ودبرت كان منها ما له تأثير. وقد دبرنا كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتدبيره أسهل وأيسر. فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان وطريق وجوده. إنا بينا أن الحيوان أرفع المواليد وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه كالنبات من الأرض. وإنما كان النبات ألطف من الأرض لأنه إنما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف، فوجب له بذلك اللطافة والرقة. وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب. وبالجملة فإنه ليس في الحيوان شيء ينفصل طبائع أربعاً غيره فافهم هذا القول، فإنه لا يكاد يخفى إلا على جاهل بيِّن الجهالة ومن لا عقل له. فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأعلمتك جنسه وأنا أبين لك وجوه تدابيره حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من الإنصاف إن شاء الله سبحانه.

التدبير على بركة الله خذ الحجر الكريم فأودعه القرعة والإنبيق وفصل طبائعه الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء وهي الجسد والروح والنفس والصبغ، فإذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فارفع كل واحد في إنائه على حدة وخذ الهابط أسفل الإناء وهو الثفل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفاؤه وبيضه تبييضاً محكماً وطير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه، فإنه يصير عند ذلك ماء أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد. ثم اعمد إلى تلك الطبائع الأول الصاعدة منه فطهرها أيضاً من السواد والتضاد وكرر عليها الغسل والتصعيد حتى تلطف وترق وتصفو. فإذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابدأ بالتركيب الذي عليه مدار العمل. وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعفين.

فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ، وأما التعفين فهو التمشية والسحق حتى يختلط بعضه ويصير شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء. فعند ذلك يقوى الغليظ على إمساك اللطيف وتقوى الروح على مقابلة النار وتصبر عليها وتقوى النفس على الغوص في الأجساد والدبيب فيها. وإنما وجد ذلك بعد التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع أجزائه ودخل بعضها في بعض لتشاكلها فصار شيئاً واحداً ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج.

وكذلك النفس إذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزاء الآخرين - أعني الروح - والجسد وصارت هي وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سلمت طبائعه واتفقت أجزاؤه، فإذا لقي هذا المركب الجسد المحلول وألح عليه النار وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ذاب في الجسد المحلول. ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها، فإذا أرادت النار التعلق بها منعها من الاتحاد بالنفس ممازجة الماء لها. فإن النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصاً. وكذلك الماء من شأنه النفور من النار. فإذا ألحت عليه النار وأرادت تطييره حبسه الجسد اليابس الممازج له في جوفه فمنعه من الطيران، فكان الجسد علة لإمساك الماء، والماء علة لبقاء الدهن، والدهن علة لثبات الصبغ، والصبغ علة لظهور الدهن، وإظهار الدهنية في الأشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها. فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل. وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سمتها الحكماء بيضة وإياها يعنون لا بيضة الدجاج. واعلم أن الحكماء لم تسميها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها. ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوماً وليس عنده غيري فقلت له: أيها الحكيم الفاضل أخبرني لأي شيء سمت الحكماء مركب الحيوان بيضة؟ أختياراً منهم لذلك أم لمعنى دعاهم إليه؟ فقال: بل لمعنى غامض! فقلت: أيها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة؟ فقال: لشبهها وقرابتها من المركب ففكر فيه، فإنه سيظهر لك معناه. فبقيت بين يديه مفكراً لا أقدر على الوصول إلى معناه. فلما رأى ما بي من الفكر وأن نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة وقال لي: يا أبا بكر ذلك للنسبة التي بينهما في كمية الألوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها. فلما قال ذلك انجلت عني الظلمة وأضاء لي نور قلبي وقوي عقلي على فهمه فنهضت شاكرا الله عليه إلى منزلي وأقمت على ذلك شكلاً هندسياً يبرهن به على صحة ما قاله مسلمة. وأنا واضعه لك في هذا الكتاب.

مثال ذلك أن المركب إذا تم وكمل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء إلى ما في البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب من طبيعة النار إلى ما في البيضة من طبيعة النار. وكذلك الطبيعتان الأخريان، الأرض والماء، فأقول: إن كل شيئين متناسبين على هذه الصفة هما متشابهان. ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة هزوح فإذا أردنا ذلك، فإنا نأخذ أقل طبائع المركب وهي طبيعة اليبوسة ونضيف إليها مثلها من طبيعة الرطوبة وندبرهما حتى تنشف طبيعة اليبوسة طبيعة الرطوبة وتقبل قوتها. وكأن في هذا الكلام رمزاً ولكنه لا يخفى عليك. ثم تحمل عليهما جميعاً مثليهما من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة أمثال. ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلاً من طبيعة الهواء التي هي النفس وذلك ثلاثة أجزاء فيكون الجميع تسعة أمثال اليبوسة بالقوة. وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذي طبيعته محيطة بسطح المركب طبيعتين فتجعل أولاً الضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعا (ا ح د) وسطح أبجد، وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعا هزوح، فأقول: إن سطح ابجد يشبه سطح هزوح طبيعة الهواء التي تسمى نفساً وكذلك (بجـ) من سطح المركب. والحكماء لم تسم شيئاً باسم شيء إلا لشبهه به. والكلمات التي سألت عن شرحها الأرض المقدسة وهي المنعقدة من الطبائع العلوية والسفلية. والنحاس هو الذي أخرج سواده وقطع حتى صار هباء ثم حمر بالزاج حتى صار نحاسياً والمغنيسيا حجرهم الذي تجمد فيه الأرواح وتخرجه الطبيعة العلوية التي تستجن فيها الأرواح لتقابل عليها النار والفرفرة لون أحمر يحدثه الكيان. والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشاكلة ومتجانسة. فالواحدة روحانية نيرة صافية وهي الفاعلة، والثانية نفسانية وهي متحركة حساسة غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى. والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لثقلها وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعا والمحيطة بهما. وأما سائر الباقية فمبتدعة ومخترعة. إلباساً على الجاهل، ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها. فهذا جميع ما سألتني عنه وقد بعثت به إليك مفسراً ونرجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام.

انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجريطي شيخ الأندلس في علوم الكيمياء والسيمياء والسحر في القرن الثالث وما بعده.

وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف، وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية. والذي يجب أن يعتقد في أمر الكيمياء وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة: إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة. فأما الكرامة فظاهرة، وأما السحر فلأن الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه يقلب الأعيان المادية بقوته السحرية. ولابد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات، وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها، كما وقع لسحرة فرعون في الحبال والعصي وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب والترك في قاصية الشمال أنهم يسحرون الجو للأمطار وغير ذلك.

ولما كانت هذه تخليقاً للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر، والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة. ومن كان قبلهم من حكماء الأمم إنما نحوا هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه ألغازاً حذراً عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه، لا أن ذلك يرجع إلى الضنانة بها كما هو رأي من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك. وانظر كيف سمى مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه في السحر والطلسمات غاية الحكيم إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه؛ لأن الغاية أعلى من الرتبة فكأن مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات. ومن كلامه في الفنين يتبين ما قلناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية. والله العليم الخبير.

الفصل الحادي والثلاثون

في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها

هذا الفصل وما بعده مهم؛ لأن هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن. وضررها في الدين كثير، فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها. وذلك أن قوماً من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية، وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع، فإنها بعض من مدارك العقل. وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني: محب الحكمة. فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانوناً

يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق. ومحصل ذلك أن النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل إنما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجرد منها أولاً صوراً منطبقة على جميع الأشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين أو شمع. وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الأوائل. ثم تجرد من تلك المعاني الكلية إذا كانت مشتركة مع معان أخرى وقد تميزت عنها في الذهن فتجرد منها معان أخرى وهي التي اشتركت بها. ثم تجرد ثانياً إن شاركها غيرها وثالثاً إلى أن ينتهي التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والأشخاص، ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الأجناس العالية.

وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض. لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات الثواني. فإذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة وطلب تصور الوجود. كما هو فلا بد للذهن من إضافة بعضها إلى بعض ونفي بعضها عن بعض بالبرهان العقلي اليقيني ليحصل تصور الوجود تصوراً صحيحاً مطابقاً إذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر. وصنف التصديق الذي هو تلك الإضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور في النهاية والتصور متقدم عليه في البداية والتعليم، لأن التصور التام عندهم هو غاية الطلب الإدراكي وإنما التصديق وسيلة له وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام، وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو، ثم يزعمون أن السعادة في إدراك الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين.

وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما آلت إليه وهو الذي فرعوا عليه قضايا أنظارهم أنهم عثروا أولاً: على الجسم السفلي بحكم الشهود والحس، ثم ترقى إدراكهم قليلاً فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس بالحيوانات، ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل. ووقف إدراكهم فقضوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء على أمر الذات الإنسانية. ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان، ثم أنهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر، تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر. ويزعمون أن السعادة في إدراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخلقها بالفضائل، وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره وميله إلى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته، وأن ذلك اذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدي وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة إلى خبط لهم في تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم.

وإمام هذه المذاهب الذي حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا في هذه الأحقاب هو أرسطو المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الإسكندر ويسمونه المعلم الأول على الإطلاق يعنون معلم صناعة المنطق، إذ لم تكن قبله مهذبة، وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها، وأحسن بسطها ولقد أحسن في ذلك القانون ما شاء، لو تكفل له بقصدهم في الإلهيات، ثم كان من بعده في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل. وذلك أن كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضله اللّه من منتحلي العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاريعها، وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه بأصبهان وغيرهما.

واعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه. فأما إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول واكتفاؤهم به في الترقي إلى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق اللّه، فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وكأنهم في اقتصارهم على إثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات الأجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل المعتقدين أنه ليس وراء الجسم في حكمة اللّه شيء.

وأما البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة وغير وافية بالغرض.

أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعي فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والأقيسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني؛ لأن تلك أحكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها. ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي، اللّهم إلا ما يشهد له الحس من ذلك، فدليله شهوده لا تلك البراهين، فأين اليقين الذي يجدونه فيها؟ وربما يكون تصرف الذهن أيضاً في المعقولات الأول المطابقة

للشخصيات بالصور الخيالية لا في المعقولات الثواني التي تجريدها في الرتبة الثانية، فيكون الحكم حينئذ يقينياً بمثابة المحسوسات إذ المعقولات الأول أقرب إلى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها فنسلم لهم حينئذ دعاويهم في ذلك. إلا أنه ينبغي لنا الإعراض عن النظر فيها إذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه، فإن مسائل الطبيعيات لا تهمنا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها.

وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وعلم ما بعد الطبيعة، فإن ذواتها مجهولة رأساً ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها؛ لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيما هو مدرك لنا. ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى بحجاب الحس بيننا وبينها، فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في إثبات وجودها على الجملة إلا ما نجده بين جنبينا من أمر النفس الإنسانية وأحوال مداركها وخصوصاً في الرؤيا التي هي وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه. وقد صرح بذلك محققوهم حيث ذهبوا إلى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه لأن مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية.

وقال كبيرهم أفلاطون: إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى يقين، وإنما يقال فيها بالأحق والأولى - يعني الظن - وإذا كنا إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفينا الظن الذي كان أولا فأي فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن إنما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات، وهذه هي غاية الأفكار الإنسانية عندهم.

وأما قولهم إن السعادة في إدراك الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود، وتفسيره أن الإنسان مركب من جزأين، أحدهما: جسماني، والآخر: روحاني ممترج به، ولكل واحد من الجزأين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية إلا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة، والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس. وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه. واعتبره بحال الصبي في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة، كيف يبتهج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الأصوات فلا شك أن الابتهاج بالإدراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ. فالنفس الروحانية إذا شعرت بإدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها، وهذا الإدراك لا يحصل بنظر ولا علم وإنما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة.

والمتصوفة كثيراً ما يعنون بحصول هذا الإدراك للنفس بحصول هذه البهجة، فيحاولون بالرياضة إماتة القوى الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ، وليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية يحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها. وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم.

فأما قولهم: إن البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيته، إذ البراهين والأدلة من جملة المدارك الجسمانية؛ لأنها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر. ونحن نقول: إن أول شيء نعنى به في تحصيل هذا الإدراك إماتة هذه القوى الدماغية كلها لأنها منازعة له قادحة فيه وتجد الماهر منهم عاكفاً على كتاب الشفاء والإشادات والنجاة وتلاخيص ابن رشد للقص من تاليف أرسطو وغيره يبعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها، ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها. ومستندهم في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو والفارابي وابن سينا أن من حصل له إدراك العقل الفعال واتصل به في حياته فقد حصل حظة من هذه السعادة.

والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الإدراك العلمي، وقد رأيت فساده، وإنما يعني أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والإدراك إدراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة وهو لا يحصل إلا بكشف حجاب الحس.

وأما قولهم: إن البهجة الناشئة عن هذا الإدراك هي عين السعادة الموعود بها فباطل أيضاً؛ لأنا إنما تبين لنا بما قرروه أن وراء الحس مدركاً آخر للنفس من غير واسطة وأنها تبتهج بإدراكها ذلك ابتهاجاً شديداً، وذلك لا يعين لنا أنه عين السعادة الأخروية ولابد، بل هي من جملة الملاذ التي لتلك السعادة.

وأما قولهم: إن السعادة في إدراك هذه الموجودات على ما هي عليه فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الأوهام والأغلاط في أن الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه. وبينا فساد ذلك وأن الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى إدراكه بجملته روحانياً أو جسمانياً. والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم أن الجزء الروحاني إذا فارق القوى

الجسمانية أدرك إدراكاً ذاتياً له مختصاً بصنف من المدارك وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا وليس بعام الإدراك في الموجودات كلها إذ لم تنحصر، وأنه يبتهج بذلك النحو من الإدراك ابتهاجاً شديداً كما يبتهج الصبي بمداركه الحسية في أول نشوءه، ومن لنا بعد ذلك بإدراك جميع الموجودات أو بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع إن لم نعمل لها، (هيهات هيهات لما توعدون).

وأما قولهم: إن الإنسان مستقل بتهذيب نفسه وإصلاحها بملابسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم، فأمر مبني على أن ابتهاج النفس بإدراكها الذي لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها؛ لأن الرذائل عائقة للنفس عن تمام إدراكها ذلك بما يحصل لها من الملكات الجسمانية وألوانها.

وقد بينا أن أثر السعادة والشقاوة ومن وراء الإدراكات الجسمانية والروحانية، فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين. وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدركين. وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب «المبدأ والمعاد» ما معناه: إن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس؛ لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة. وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة، وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها وليرجع في أحواله إليها.

فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها. وليس له فيما علمنا إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين. وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الأحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها، فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب في الحجاج والاستدلالات لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار. هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت. فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبنّ أحد عليها وهو خلو من علوم الملة، فقلّ أن يسلم لذلك من معاطبها. واللّه الموفق للصواب وللحق والهادي إليه. وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه.

الفصل الثاني والثلاثون

في إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية. فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله، إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم والظن. وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم. وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤونة إبطاله.

ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن اللّه، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق! وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية، قال: لأن فعل النيرين وأثرهما في العنصريات ظاهر لا يسع أحداً جحده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك، وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القثاء وسائر أفعاله.

ثم قال: ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان:

الأولى: التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مقنع للنفس.

والثانية: الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد

ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف مضادته. ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة، وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرهما، ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضاً إلى النير الأعظم.

وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر. والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحتها من المولدات وتتخلق به النطف والبزر فتصير حالاً للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال؛ لأن كيفيات البزرة والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما. قال: وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء وليس هو أيضاً من القضاء الإلهي - يعني القدر - إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن والقضاء الإلهي سابق على كل شيء. هذا محصل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره. ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه. والقوى النجومية على ما قرروه إنما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل، ثم إن القوى النجومية ليست هي الفاعل بجملتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب والنوع التي في النطفة، وقوى الخاصة التي تميز بها صنفٌ صنفٌ من النوع وغير ذلك.

فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن. ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين، وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن. والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة، فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك. هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب في سيرها لتتعرف به أوضاعها، ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه.

ومدرك بطليموس في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف؛ لأن قوة الشمس غالبة لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها، فقلّ أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال، وهذه كلها قادحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة. ثم إن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل، إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله بطريق استدلالي كما رأيته، واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان من أن إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية، والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادئ الرأي من التأثير، فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف. والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك.

والنبوات أيضاً منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها. واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله: «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته» وفي قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب» الحديث الصحيح.

فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث من عقائد العوام من الفساد، إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقاً لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق، فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك. فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها. ثم ما ينشأ عنها كثيراً في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء المتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة. وقد شاهدنا من ذلك كثيراً، فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول، ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعياً للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم. فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما، وإنما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار.

هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره. وليعلم من ذلك أنها، وإن كانت صحيحة في نفسها، فلا يمكن لأحد من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها، بل إن نظر فيها ناظر وظن الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر. فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متستراً عن الناس وتحت ربقة الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم، فكيف يحصل منها على طائل؟

ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه ديناً ودنيا وسهلت مآخذه

من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها إنما يحذق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال. فكيف يعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المأخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه إلى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر، فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها. ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته، فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا إليه. والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحداً.

ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين الأولياء والأعداء، وقال في ذلك أبو القاسم الروحي من شعراء أهل تونس:

أستغفر الله كل حين ... قد ذهب العيش والهناء
أصبح في تونس وأمسي ... والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا ... يحدثها الهرج والوباء
والناس في مرية وحرب ... وما عسى ينفع المراء
فأحمدي يرى علياً ... حل به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتي ... به إليكم صبّاً رخاء
والله من فوق ذا وهذا ... يقضي لعبديه ما يشاء
يا راصد الخنّس الجواري ... ما فعلت هذه السماء
مطلتمونا وقد زعمتم ... أنكم اليوم أمليـاء
مر خميس على خميس ... وجاء سبت وأربعاء
ونصف شهر وعشر ثان ... وثالث ضمه القضاء
ولا نرى غير زور قول ... أذاك جهل أم ازدراء
إنا إلى الله قد علمنا ... أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي إلهاً ... حسبكم البدر أو ذكاء
ما هذه الأنجم السواري ... إلا عباديد أو إماء
يقضى عليها وليس تقضي ... وما لها في الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قديماً ... ما شأنه الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعاً ... يحدثه الماء والهواء
لم تر حلواً إزاء مر ... تغذوهما تربة وماء
الله ربي ولست أدري ... ما الجوهر الفرد والخلاء
ولا الهيولى التي تنادي ... ما لي عن صورة عراء
ولا وجود ولا انعدام ... ولا ثبوت ولا انتفاء
ولست أدري ما الكسب إلا ... ما جلب البيع والشراء
وإنما مذهبي وديني ... ما كان والناس أولياء
إذ لا فصول ولا أصول ... ولا جدال ولا رياء
ما تبع الصدر واقتفينا ... يا حبذا كان الاقتفاء
كانوا كما يعلمون منهم ... ولم يكن ذلك الهذاء
يا أشعري الزمان إني ... أشعرني الصيف والشتاء
أنا أجزي بالشر شراً ... والخير عن مثله جزاء
وإنني إن أكن مطيعاً ... فلست أعصي ولي رجاء
وإنني تحت حكم بار ... أطاعه العرش والثراء
ليس انتصار لكم ولكن ... أتاحه الحكم والقضاء
لو حدث الأشعري عمن ... له إلى رأيه انتماء
لقال أخبرهم بأني ... مما يقولونه براء

الفصل الثالث والثلاثون

في إنكار ثمرة الكيميا واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها

اعلم أن كثيراً من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع ويرون أنها أحد مذاهب المعاش ووجوهه، وأن اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة الأموال في النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخراً إذا ظهر على خيبة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. وإنما أطمعهم في ذلك رؤية أن المعادن تستحيل وينقلب بعضها إلى بعض للمادة المشتركة، فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة، ويحسبون أنها من ممكنات عالم الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعة عندهم للعلاج المسماة عندهم بالحجر المكرم، هل هي العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك.

وجملة التدبير عندهم بعد تعين المادة أن تمهى بالفهر على حجر صلد أملس وتسقى أثناء إمهائها بالماء وبعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في انقلابها إلى المعدن المطلوب. ثم تجفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تكلس لاستخراج مائها أو ترابها، فإذا رضي بذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته أصول صنعته حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسمونه الإكسير ويزعمون أنه إذا

ألقي على الفضة المحماة بالنار عادت ذهباً أو النحاس المحمى بالنار عاد فضة على حسبِ ما قصد به في عمله.

ويزعم المحققون منهم أن ذلك الإكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها وتقلبه إلى صورتها ومزاجها وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى، كالخميرة للخبز تقلب العجين إلى ذاتها، وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء. وكذا إكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعادن يصرفه إليهما ويقلبه إلى صورتهما.

هذا محصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لأئمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم، ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف أسرارها إذ هي في الأكثر تشبه المعمّى. كتآليف جابر بن حيان في رسائله السبعين ومسلمة الجريطي في كتابه رتبة الحكيم والطغرائي والمغيربي في قصائده العريقة في إجادة النظم وأمثالها ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها.

فاوضت يوماً شيخنا أبا البركات التلفيفي كبير مشيخة الأندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التآليف فيها فتصفحه طويلاً ثم رده إلي وقال لي: وأنا الضامن له أن لا يعود إلى بيته إلا بالخيبة. ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط. إما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة جزء أو جزأين أو ثلاثة أو الخفية كإلقاء الشبه بين المعادن لصناعةٍ، مثل تبييض النحاس وتليينه بالزوق المصعد فيجيء جسماً معدنياً شبيها بالفضة ويخفى إلا على النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع دلستهم هذه سكةً يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويهاً على الجمهور بالخلاص. وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس، فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه، فهو سارق وأشر من السارق.

ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المتبذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار يأوون إلى مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش. ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون إلى موضع آخر ويستجدون حالاً أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بأطماعهم فيما لديهم. ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم؛ لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد الحكام عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم؛ لأن فيه إفساداً للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة. والسلطان مكلف بإصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها.

وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين ونقودهم، وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقصدير إلى الفضة بذلك النحو مع العلاج، وبالإكسير الحاصل عنده قلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك. مع أنا لا نعلم أن أحداً من أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية، إنما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس واعتيام الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها. ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها أو وقف إلى الوصول يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها ولا يستريبون في تصديقها شأن الكلفين المغرمين بوساوس الأخبار فيما يكلفون به، فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه وقالوا: إنما سمعنا ولم نر. هكذا شأنهم في كل عصر وجيل.

واعلم أن انتحال هذه الصنعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين، فلننقل مذاهبهم في ذلك ثم نتلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه، فنقول: إن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين، هل هي مختلفات بالفصول وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو إنها مختلفة بخواص من الكيفيات وهي كلها أصناف لنوع واحد؟

فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان من الصفرة والبياض والسواد، وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول، وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته، له فصل وجنس شأن سائر الأنواع. وبنى أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض لإمكان تبدل الأغراض حينئذ وعلاجها بالصنعة. فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ. وبنى أبو علي بن سينا على

مذهبه في اختلافها بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه، وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو اللّه عز وجل. والفصول مجهولة الحقائق رأساً بالتصور، فكيف يحاول انقلابها بالصنعة. وغلطه الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول. ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه إنما هو إعداد المادة لقبوله خاصة. والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على الأجسام بالصقل والإمهاء. ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته.

قال: وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والنتن، ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فقدت من عجاجيل البقر. وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكراً بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون، فما المانع إذاً من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة. فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة. ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها. انتهى كلام الطغرائي بمعناه. وهو الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح. لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذاً آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين لا الطغرائي ولا ابن سينا. وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعاً ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني حتى أحالته ذهباً أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان أقصر؛ لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى، فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في إحالته وذلك هو الإكسير على ما تقدم.

واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة، إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها، فلابد من الجزء الغالب على الكل. ولابد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورته، ثم كل متكون في زمان فلابد من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهي إلى غايته. وانظر شأن الإنسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم إلى نهايته. ونسب الأجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها وإلا لكان الطور بعينه الأول هو الآخر، وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر. فانظر إلى الذهب ما يكون له في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين، وما ينتقل فيه من الأحوال فيحتاج صاحب الكيمياء إلى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم.

ومن شرط الصناعة أبداً تصور ما يقصد إليه بالصنعة، فمن الأمثال السائرة للحكماء: أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل. فلابد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها. وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك، وإنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة. بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق إنسان من المني. ونحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علماً محصلاً بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سألنا له تخليق هذا الإنسان وأنى له ذلك!!.

ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول: حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به إلى أن يتم كون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلاً طبيعياً فتصيره وتقلبه إلى صورتها. والفعل الصناعي مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها أو فعل المادة ذات القوى فيها تصوراً مفصلاً واحدة بعد أخرى. وتلك الأحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عن الإحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات.

هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة، إنما هو من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها. وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته. وذلك أن

حكمة اللّه في الحجرين وندورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم. فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة اللّه في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء. وله وجه آخر من الاستحالة أيضاً وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد. فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها أو أقل زماناً لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخلقهما، وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى إليه العثور كما زعم.

وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء إلى هلم جرا ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة. ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا وإلى غيرنا.

وأما قولهم: إن الإكسير بمثابة الخميرة. وأنه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه إلى ذلك، فاعلم أن الخميرة إنما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد، والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع. والمطلوب بالإكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين أصعب من الفساد، فلا يقاس الإكسير بالخميرة. وتحقيق الأمر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم، فليست من باب الصنائع الطبيعية ولا تتم بأمر صناعي. وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق وما كان من ذلك للحلاج وغيره، وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبة ذلك. وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى وهذا كلام جابر في رسائله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشباً أو حيواناً فيما عدا مجرى تخليقه كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته إلا بإرفاد مما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع فكذلك من طلب الكيمياء طلباً صناعياً ضيع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم، لأن نيله إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع فهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف الأجساد ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة، أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾ وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلف بحسب حال من يؤتاها. فربما أوتيها الصالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة. وربما أوتيها الصالح ولا يملك إيتاءها فلا تتم في يد غيره.

ومن هذا الباب يكون عملها سحرياً فقد تبين أنها إنما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة إما معجزة أو كرامة أو سحراً. ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها ألغازاً لا يظفر بحقيقته إلا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة. وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد إلى تحصيلها. واللّه بما يعملون محيط.

وأكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش وابتغاؤه من غير وجوهه الطبيعية كالفلاحة والتجارة والصناعة، فيستصعب العاجز ابتغاءه من هذه ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها. وأكثر من يعني بذلك الفقراء من أهل العمران وللناس أقوال كثيرة -حتى في الحكماء المتكلمين- في إنكارها واستحالتها. فإن ابن سينا القائل باستحالتها كان عِلْيَةَ الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة، والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه. وهذه تهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها. واللّه الرزاق ذو القوة المتين لا رب سواه.

الفصل الرابع والثلاثون

في أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك. وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها. ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولابد دون رتبة التحصيل. ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير

والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه. ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد. والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها.

ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً، ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين، مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك، وكيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل؟! النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه. ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء. وهذا نادر من نوادر الوجود وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً، الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة؟ ولكن الله يهدي من يشاء.

الفصل الخامس والثلاثون

في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف وإلغاء ما سواها

اعلم أن العلوم البشرية خزانتها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصل لها ذلك بالتصور للحقائق أولاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً، إما بغير وسط أو بوسط، حتى يستنتج الفكر بذلك مطالبه التي يعني بإثباتها أو نفيها. فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير فلابد من بيانها لآخر: إما على وجه التعليم، أو على وجه المفاوضة، تصقل الأفكار في تصحيحها. وذلك البيان إنما يكون بالعبارة، وهي الكلام المركب من الألفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف، وهي كيفيات الأصوات المقطعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطباتهم، وهذه رتبة أولى في البيان عما في الضمائر، وإن كان معظمها وأشرفها العلوم، فهي شاملة لكل ما يندرج في الضمير من خبر أو إنشاء على العموم.

وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدى بها ما في الضمير، لمن توارى أو غاب شخصه وبعد، أو لمن يأتي بعد ولم يعاصره ولا لقيه. وهذا البيان منحصر في الكتابة، وهي رقوم باليد تدل أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ النطقية حروفاً بحروف وكلمات بكلمات، فصار البيان فيها على ما في الضمير بواسطة الكلام المنطقي، فلهذا كانت في الرتبة الثانية واحداً، فسمي هذا البيان. يدل على ما في الضمائر من العلوم والمعارف، فهو أشرفها. وأهل الفنون معتنون بإيداع ما يحصل في ضمائرهم من ذلك في بطون الأوراق بهذه الكتابة، لتعلم الفائدة في حصوله للغائب والمتأخر وهؤلاء هم المؤلفون.

والتآليف بين العوالم البشرية والأمم الإنسانية كثير، ومنتقلة في الأجيال والأعصار وتختلف باختلاف الشرائع والملل والأخبار عن الأمم والدول. وأما العلوم الفلسفية، فلا اختلاف فيها، لأنها إنما تأتي على نهج واحد، فيما تقتضيه الطبيعة الفكرية، في تصور الموجودات على ما هي عليه، جسمانيها وروحانيها وفلكيها وعنصريها ومجردها ومادتها. فإن هذه العلوم لا تختلف، وإنما يقع الاختلاف في العلوم الشرعية لاختلاف الملل، أو التاريخية لاختلاف خارج الخبر. ثم الكتابة مختلفة باصطلاحات البشر في رسومها وأشكالها، ويسمى ذلك قلماً وخطاً. فمنها الخط الحميري، ويسمى المسند، وهو كتابة حمير وأهل اليمن الأقدمين، وهو يخالف كتابة العرب المتأخرين من مضر، كما يخالف لغتهم. وإن الكل عربياً. إلا أن ملكة هؤلاء في اللسان والعبارة غير ملكة أولئك. ولكل منهما قوانين كلية مستقرأة من عبارتهم غير قوانين الآخرين. وربما يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة. ومنها الخط السرياني، وهو كتابة النبط والكلدانيين. وربما يزعم بعض أهل الجهل أنه الخط الطبيعي لقدمه فإنهم كانوا أقدم الأمم، وهذا وهمٌ، ومذهب عامي. لأن الأفعال الاختيارية كلها ليس شيء منها بالطبع، وإنما هو يستمر بالقديم والمران حتى يصير ملكة راسخة، فيظنها المشاهد طبيعية كما هو رأي كثير من البلداء في اللغة العربية، فيقولون: العرب كانت تعرب بالطبع وتنطق بالطبع. وهذا

وهم. ومنها الخط العبراني الذي هو كتابة بني عابر بن شالح من بني إسرائيل وغيرهم. ومنها الخط اللطيني، خط اللطينيين من الروم، ولهم أيضاً لسان مختص بهم. ولكل أمة من الأمم اصطلاح في الكتاب يعزى إليها ويختص بها. مثل الترك والفرنج والهنود وغيرهم. وإنما وقعت العناية بالأقلام الثلاثة الأولى. أما السرياني فلقدمه كما ذكرنا، وأما العربي والعبري فلتنزل القرآن والتوراة بهما بلسانهما. وكان هذان الخطان بياناً لمتلوهما، فوقعت العناية بمنظومهما أولاً وانبسطت قوانين لاطراد العبارة في تلك اللغة على أسلوبها لتفهم الشرائع التكليفية من ذلك الكلام الرباني. وأما اللطيني فكان الروم، وهم أهل ذلك اللسان، لما أخذوا بدين النصرانية، وهو كله من التوراة، كما سبق في أول الكتاب، ترجموا التوراة وكتب الأنبياء الإسرائيليين إلى لغتهم، ليقتنصوا منها الأحكام على أسهل الطرق. وصارت عنايتهم بلغتهم وكتابتهم آكد من سواها. وأما الخطوط الأخرى فلم تقع بها عناية، وإنما هي لكل أمة بحسب اصطلاحها. ثم إن الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدوها سبعة:

أولها: استنباط العلم بموضوعه وتقسيم أبوابه وفصوله وتتبع مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق ويحرص على إيصاله بغيره، لتعم المنفعة به فيودع ذلك بالكتاب في المصحف، لعل المتأخر يظهر على تلك الفائدة، كما وقع في الأصول في الفقه. تكلم الشافعي أولاً في الأدلة الشرعية اللفظية ولخصها، ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها، وانتفع بذلك من بعدهم إلى الآن.

وثانيها: أن يقف على كلام الأولين وتآليفهم فيجدها مستغلقة على الأفهام، ويفتح الله له في فهمها فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممن عساه يستغلق عليه، لتصل الفائدة لمستحقها. وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول، وهو فصل شريف.

وثالثها: أن يعثر المتأخر على غلط أو خطأ في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله وبعد في الإفادة صيته، ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده، إذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار التأليف في الآفاق والأعصار، وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه، فيودع ذلك الكتاب ليقف على بيان ذلك.

ورابعها: أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه، فيقصد المطلع على ذلك أن يتمم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله، ولا يبقى للنقص فيه مجال.

وخامسها: أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها، ويجعل كل مسألة في بابها، كما وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم، وفي العتبية من رواية العتبي عن أصحاب مالك، فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها، فهذب ابن أبي زيد المدونة وبقيت العتبية غير مهذبة. فنجد في كل باب مسائل من غيره. واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده.

وسادسها: أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى فيتنبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجميع مسائله، فيفعل ذلك، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم، كما وقع في علم البيان. فإن عبد القاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع منها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة، تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم، فكتبت في ذلك تآليفهم المشهورة، وصارت أصولاً لفن البيان، ولقنها المتأخرون فأربوا فيها على كل متقدم.

وسابعها: أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولاً مسهباً، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر، إن وقع، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول.

فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف ومراعاتها. وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء، مثل انتحال ما تقدم لغيره من التآليف أن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيس، من تبديل الألفاظ وتقديم المتأخر وعكسه، أو يحذف ما يحتاج إليه في الفن أو يأتي بما لا يحتاج إليه، أو يبدل الصواب بالخطأ، أو يأتي بما لا فائدة فيه. فهذا شأن الجهل والقحة. ولذا قال أرسطو، لما عدد هذه المقاصد، وانتهى إلى آخرها، فقال: وما سوى ذلك ففضل أو شره، يعني بذلك الجهل والقحة. نعوذ بالله من العمل في ما لا ينبغي للعاقل سلوكه. والله يهدي للتي هي أقوم.

الفصل السادس والثلاثون

في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في

العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسيراً على الفهم. وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم. وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل؛ وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي. ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها. لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت. ثم بعد ذلك كله فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة. وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة، فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها. ومن يهد اللّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل السابع والثلاثون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب. ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة. وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله. ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته. ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مبهماً ولا منغلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته، هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات. وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه، وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله فيخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية. ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن، وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه. وإنما أتى ذلك من سوء التعليم. ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره. لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم. واللّه يهدي من يشاء.

وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد والكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها؛ لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة؛ لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه. واللّه علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم

الآخر فيستغلقان معاً ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصراً عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

الفكر الإنساني:

واعلم أيها المتعلم أني أتحفك بفائدة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة، وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها: وذلك أن الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ. تارة يكون مبدأً للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب، وتارة يكون مبدأً لعلم ما لم يكن حاصلاً بأن يتوجه إلى المطلوب. وقد يصور طرفيه ويروم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر إن كان واحداً. وينتقل إلى تحصيل وسط آخر إن كان متعدداً ويصير إلى الظفر بمطلوبه، هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات. ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه ليعلم سداده من خطئه؛ لأنها وإن كان الصواب لها ذاتياً إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتهما من اشتباه الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للنتائج فتعين المنطق على التخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض. فالمنطق إذاً أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها؛ ولكونه أمراً صناعياً استغني عنه في الأكثر. ولذلك تجد كثيراً من فحول النظار في الخليقة يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة علم المنطق ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله تعالى، فإن ذلك أعظم معنى. ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فتفضي بهم بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه.

ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب. فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك.

فأولاً: دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق. ثم تلك المعاني مجردة في الفكر اشتراكاً يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه. وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعليم بسهولة، بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في اشتراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات، فقعد عن تحصيل المطلوب. ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة إلا قليلاً ممن هداه الله.

فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو تشغيب بالشبهات في ذهنك فاطرح ذلك وانتبذ حجب الألفاظ وعوائق الشبهات واترك الأمر الصناعي جملة، واخلص إلى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه. وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مرامك منه واضعاً قدمك حيث وضعها أكابر النظار قبلك متعرضاً للفتح من الله كما فتح عليهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فإذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك وحصل الإمام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطرك عليه كما قلناه، وحينئذ فارجع به إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعي ثم اكسه صور الألفاظ وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان.

وأما إن وقفت عند المناقشة في الألفاظ والشبهة في الأدلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطئها، وهذه أمور صناعية وضعية تستوي جهاتها المتعددة وتتشابه لأجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق منها، إذ جهة الحق إنما تستبين إذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتياب وتسدل الحجب على المطلوب وتقعد بالناظر عن تحصيله. وهذا شأن الأكثر من النظار والمتأخرين سيما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت على ذهنه أو من حصل له شغف بالقانون المنطقي تعصب له فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع فيقع في الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها. والذريعة إلى إدراك الحق بالطبع إنما هو الفكر الطبيعي كما قلناه، إذا جرد عن جميع الأوهام وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى، وأما المنطق فإنما هو واصف لفعل هذا الفكر فيساوقه لذلك في الأكثر. فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل، تشرق عليك أنواره بالإلهام إلى الصواب. والله الهادي إلى رحمته وما العلم إلا من عند الله.

الفصل الثامن والثلاثون

في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل

اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة، وعلوم هي آلة ووسيله لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات وكالمنطق للفلسفة. وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين.

فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة. وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالهما فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط. ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل؛ لأن ذلك يخرج بها عن المقصود إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير. فكلما خرجت عن ذلك خرجت في المقصود وصار الاشتغال بها لغواً مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها. وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر وشغلاً بما لا يغني.

وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق لا بل وأصول الفقه؛ لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلاً واستدلالاً وأكثروا من التفاريع والمسائل بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها مقصودة بذاتها، وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذات فتكون لأجل ذلك من نوع اللغو وهي أيضا مضرة بالمتعلمين على الإطلاق؛ لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بهذه الآلات والوسائل؛ فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد؟ فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها ولا يستكثروا من مسائلها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده. فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل ورأى من نفسه قياماً بذلك وكفاية به، فليختر لنفسه ما شاء من المراقي صعباً أو سهلاً؛ وكل ميسر لما خلق له.

الفصل التاسع والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه

اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعده من الملكات. وسبب ذلك أن التعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده؛ لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات. وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه. واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات.

فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة.

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر، أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم. وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم. إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب.

ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم. لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول. وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد

المعلم.

وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك. وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس؛ لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس، واستقروا بتونس وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك.

وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدري بم عنايتهم منها. والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطونه بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده كما تعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان. وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة، ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويبتغيه من أهل صنعته.

فأما أهل إفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها. وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام. وربما كان أهل إفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه، فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله.

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي. وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها. فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا.

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم وأعاد في ذلك وأبدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس. قال: لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديمه وتقديم العربية في التعليم ضرورةً فساداً للغة، ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة. ثم قال: ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب اللّه في أول عمره يقرأ مالا يفهم وينصب في أمر غيره أهم ما عليه منه. قال: ثم ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه، ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط. هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه اللّه وهو لعمري مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم دراسة القرآن إيثاراً للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن، لأنه ما دام في الحجر منقاد للحكم. فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن له لئلا يذهب خلواً منه. ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق. ولكن اللّه يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه سبحانه.

الفصل الأربعون

في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة. ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع. والتمدُّن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله. وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين.

وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها

العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه. ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به. وتجد ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى إنهم يوصفون في كل أفق. وعصر بالخرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد وسببه ما قلناه. فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدُّوا عليهم في التأديب. وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين: لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً. ومن كلام عمر رضي اللّه عنه: «من لم يؤدبه الشرع لا أدبه اللّه». حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له فإنه أعلم بمصلحته.

ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده. قال خلف الأحمر: بعث إلي الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال: يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن وعلمه الأخبار ورِوه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه. ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه. ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه. وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة. انتهى.

الفصل الحادي والأربعون

في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل: تارة علماً وتعليماً وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم. ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين. فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم. وهذا لمن يسر اللّه عليه طرق العلم والهداية. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال. واللّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثاني والأربعون

في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن، أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر على العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس. ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات. وأيضاً يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي. فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر. ولا تصير بالجملة إلى المطابقة وإنما يتفرع ما في الخارج عما في الذهن من ذلك كالأحكام الشرعية، فإنها فروع عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة فتطلب مطابقة ما في الخارج لها عكس الأنظار في العلوم العقلية. التي يطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج. فهم متعودون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها. والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها خفية. ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها.

ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر، إذ كما اشتبها في أمر واحد فلعلهما اختلفا في أمور، فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون في الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم. ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران لأنهم ينزعون بثقوب أذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة فيقعون في الغلط. والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على

حكمها، وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به ولا يعدي الحكم بقياس ولا تعميم ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه كالسابح لا يفارق البر عند الموج. قال الشاعر:

فلا توغلن إذا ما سبحت فإن السلامة في الساحل

فيكون مأموناً من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملة أبناء جنسه، فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره. وفوق كل ذي علم عليم.

ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع، وبعدها عن المحسوس فإنها نظر في المعقولات الثواني. ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني. وأما النظر في المعقولات الأول وهي التي تجريدها قريب فليس كذلك، لأنها خيالية وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثالث والأربعون

في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم وليس في العرب حملة علم لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية إلا في القليل النادر. وإن كان منهم العربي في نسبه فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي. والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه. والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتآليف والتدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة.

وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك. ونقله القراء أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عرباً فقيل لحملة القرآن يومئذ: قراء إشارة إلى هذا. فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح. قال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي». فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد، احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة، وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى هي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد، فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع.

وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها. والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف؛ لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم. وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم.

وكذا حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى لاتساع الفن بالعراق. وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. وظهر مصداق قوله ﷺ: «لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس».

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة العباسية وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع. والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين. وما زالوا يرون لهم حق القيام به، فإنه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار. حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشتغلين بما لا يغني ولا

يجدي علهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في فصل المراتب الدينية. فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم.

وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه. واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولاً. فلم يزل ذلك في الأمصار الإسلامية ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر. فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر اللّه في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة. ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع. وبقي بعض الحضارة في ما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها، فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر. وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تآليف وصلت إلينا إلى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني. وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الإصابة. فاعتبر ذلك وتأمله تر عجباً في أحوال الخليقة. واللّه يخلق ما يشاء لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا اللّه ونعم الوكيل والحمد لله.

الفصل الرابع والأربعون

في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

والسر في ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هي في المعاني الذهنية والخيالية، من بين العلوم الشرعية، التي هي أكثر مباحثها في الألفاظ وموادها من الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤدية لها، وهي كلها في الخيال، وبين العلوم العقلية، وهي في الذهن. واللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني، يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم، وممارسة البحث بالعلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك. والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر، وروابط وختام عن المعاني. ولابد في اقتناص تلك المعاني من ألفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عليها، وجودة الملكة للناظر فيها، وإلا فيعتاص عليه اقتناصها زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص. وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة، بحيث يتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفاظ عن استعمالها، شأن البديهي والجبلّي، زال ذاك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم أو خف، ولم يبق إلا معاناة ما في المعاني من المباحث فقط. هذا كله إذا كان التعليم تلقيناً وبالخطاب والعبارة.

وأما إن احتاج المتعلم إلى الدراسة والتقييد بالكتاب ومشافهة الرسوم الخطية من الدواوين بمسائل العلوم، كان هنالك حجاب آخر بين الخط ورسومه في الكتاب، وبين الألفاظ المقولة في الخيال. لأن رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على الألفاظ المقولة. وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة. وإن عرفت بملكة قاصرة كانت معرفتها أيضاً قاصرة، ويزداد على الناظر والمتعلم بذلك حجاب آخر بينه وبين مطلوبه، من تحصيل ملكات العلوم أعوص من الحجاب الأول. وإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وصار إنما يعاني فهم مباحثها فقط. هذا شأن المعاني مع الألفاظ والخط بالنسبة إلى كل لغة. والمتعلمون لذلك في الصغر أشد استحكاماً لملكاتهم، ثم إن الملة الإسلامية لما اتسع ملكها واندرجت الأمم في طيها ودرست علوم الأولين بنبوتها وكتابها، وكانت أمية النزعة والشعار، فأخذ الملك والعزة وسخرية الأمم لهم بالحضارة والتهذيب، وصيروا علومهم الشرعية صناعة، بعد أن كانت نقلاً، فحدثت فيهم الملكات، وكثرت الدواوين والتآليف، وتشوفوا إلى علوم الأمم فنقلوها بالترجمة إلى علومهم وأفرغوها في قالب أنظارهم، وجردوها من تلك اللغات الأعجمية إلى لسانهم وأربوا فيها على مداركهم، وبقيت تلك الدفاتر التي بلغتهم الأعجمية نسياً منسياً وطللاً مهجوراً وهباء منثوراً. وأصبحت العلوم كلها بلغة العرب، ودواوينها المسطرة بخطهم، واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من الألسن، لدروسها وذهاب العناية بها. وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان، وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد، فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة، صار مقصراً في اللغة العربية، لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل، فقل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى، وهو ظاهر. وإذا كان مقصراً في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاص عليه فهم المعاني منها كما مر. إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن

تستحكم عجمتهم. فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية. وكذا أيضاً شأن من سبق له تعلم الخط الأعجمي قبل العربي. ولهذا نجد الكثير من علماء الأعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراءتها ظاهراً يخففون بذلك عن أنفسهم مؤونة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعاني. وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغن عن ذلك، بتمام ملكته، وإنه صار له فهم الأقوال من الخط، والمعاني من الأقوال كالجبلة الراسخة، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وربما يكون الدؤوب على التعليم والمران على اللغة، وممارسة الخط يفضيان لصاحبهما إلى تمكن الملكة، كما نجده في الكثير من علماء الأعاجم، إلا أنه في النادر. وإذا قرن بنظيره من علماء العرب وأهل طبقته منهم، كان باع العرب أطول وملكته أقوى، لما عند المستعجم من الفتور بالعجمة السابقة التي يؤثر القصور بالضرورة ولا يعترض ذلك بما تقدم بأن علماء الإسلام أكثرهم العجم، لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التي قررنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات ومن جملتها العلوم. وأما عجمة اللغة فليست من ذلك وهي المرادة هنا. ولا يعترض ذلك أيضاً مما كان لليونانيين في علومهم من رسوخ القدم فإنهم إنما تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم. والأعجمي المتعلم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه، ومن غير خطه الذي يعرف ملكته. فلهذا يكون له ذلك حجاباً كما قلناه. وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج. وسائر من ليس من أهل اللسان العربي. وفي ذلك آيات للمتوسمين.

الفصل الخامس والأربعون

في علوم اللسان العربي

أركانه أربعة: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عربٌ، وشرح مشكلاتها من لغتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة. وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام، حسبما يتبين في الكلام عليها فناً فناً، والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدم، لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه، فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة، إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

علم النحو

اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد؛ لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني. مثل الحركات التي تعيِّن الفاعل من المفعول من المجرور، أعني المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال أي الحركات إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لابد له من ألفاظ تخصه بالدلالة؛ ولذلك نجد كلام العجم من مخاطباتهم أطول مما تقدره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً». فصار للحروف في لغتهم. والحركات والهيئات، أي الأوضاع، اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها. إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا.

فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً وتسمية الموجب لذلك

التغير عاملاً وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة. واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو. وأو ل من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة ويقال: بإشارة علي رضي اللّه عنه؛ لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة. ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد أحوج ما كان الناس إليها لذهاب تلك الملكة من العرب. فهذب الصناعة وكمل أبوابها. وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها ووضع فيها كتابه المشهور الدي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده. ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتباً مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه.

ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة: المصرين القديمين للعرب. وكثرت الأدلة والحجاج بينهم وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين. وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار، فاختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين، كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له. وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الأرجوزة الألفية. وبالجملة فالتآليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة، فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين. والكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك.

وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران، ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر، منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة. وتكلم على الحروف والمفردات والجمل وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الإعراب. وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرها، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها، وكأنه ينحو في طريقته منحى نحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه. واللّه يزيد في الخلق ما يشاء.

علم اللغة

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه. ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستُعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلاً مع هجنه المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشا عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين. وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي. ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي.

وتأتّى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة، وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد؛ لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية. ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك. ثم الثالث والرابع. ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحداً، فتكون كلها أعداداً على توالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين، فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب، وهو أن تجمع الأول مع الأخير وتضرب المجموع في نصف العدة. ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي؛ لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات.

وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجتمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالي العدد؛ لأن كل ثنائية يزيد عليها حرفاً، فتكون ثلاثية. فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفاً بعد الثنائية، فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات. ثم تضرب الخارج في ستة، جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية، فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم. وكذلك في الرباعي والخماسي. فانحصرت له التراكيب

بهذا الوجه، ورتب أبوابه على حروف العجم بالترتيب المتعارف. واعتمد فيه ترتيب المخارج، فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الأضراس، ثم الشفة، وجعل حروف العلة آخراً وهي الحروف الهوائية. وبدأ من حروف الحلق بالعين؛ لأنه الأقصى منها؛ فلذلك سمي كتابه بالعين؛ لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا، وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ. ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله، ولحق به الثنائي لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب، فكانت أوضاعه أكثر لدورانه. وضمَّن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوفاه.

وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة، فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كلّه، وكثيراً من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ أحسن تلخيص.

وألف الجوهري من المشارقة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف العجم، فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم فيجعل ذلك باباً. ثم يأتي بالحروف أول الكلمة على ترتيب حروف المعجم أيضاً ويترجم عليها بالفصول إلى آخرها. وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل.

ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب العين. وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها، فجاء من أحسن الدواوين. ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس. وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها، فكانا توأمي رحم وسليلي أبوة

ولكراع من أئمة اللغة كتاب المنجد، ولابن دريد كتاب الجمهرة ولابن الأنباري كتاب الزاهر

هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه. وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو لكلها. إلا أن وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب كما رأيت. ومن الكتب الموضوعة أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز وسماه أساس البلاغة بيَّن فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ فيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الإفادة.

ثم لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها، فرَّق ذلك عندنا، بين الوضع والاستعمال واحتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ، كما وُضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض، ثم اختُصّ ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ومن الإنسان بالأزهر ومن الغنم بالأملح حتى صار استعمال الأبيص في هذه كلها لحناً وخروجاً عن لسان العرب. واختُصّ بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي، وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من آكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه. فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك. وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فني نظمه ونثره، حذراً من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو أشر من اللحن في الإعراب وأفحش. وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة وتكفل بحصرها وإن لم يبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب للأكثر. وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلاً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما. وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأهم على الطالب للحفظ. والله الخلاق العليم لا رب سواه.

فصل:

واعلم أن النقل الذي تثبت به اللغة، إنما هو النقل عن العرب أنهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني، لا تقل: إنهم وضعوها؛ لأنه متعذر وبعيد. ولم يعرف لأحد منهم. وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم نعلم استعماله. على ما عرف استعماله في ماء العنب، باعتبار الإسكار الجامع. لأن شهادة الاعتبار في باب القياس إنما يدركها الشرع الدال على صحة القياس من أصله. وليس لنا مثله في اللغة إلا بالعقل، وهو محكم، وعلى هذا جمهور الأئمة. وإن مال إلى القياس فيها القاضي وابن سريج وغيرهم. لكن القول بنفيه أرجح. ولا تتوهمن أن إثبات اللغة في باب الحدود اللفظية، لأن الحد راجع إلى المعاني. ببيان أن مدلول اللفظ المجهول الخفي هو مدلول الواضح المشهور، واللغة إثبات أن اللفظ كذا، لمعنى كذا، والفرق في غاية الظهور.

علم البيان

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة، وهو من

العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده. ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني، وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي: إما تصور مفردات تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض. والدلالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف، وأما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة. ويدل عليها بتغير الحركات وهو الإعراب وأبنية الكلمات. وهذه كلها هي صناعة النحو. ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج إلى الدلالة عليه؛ لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة من كلامه. وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة.

الا ترى أن قولهم: (زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاءني زيد) من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم، فمن قال: جاءني زيد، أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه، ومن قال: زيد جاءني، أفاد أن اهتمامة بالشخص قبل المجيء المسند. وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة. وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم: زيد قائم وإن زيداً قائم وإن زيداً لقائم متغايرة كلها في الدلالة وإن استوت من طريق الإعراب، فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد بـ (إن) يفيد المتردد، والثالث يفيد المنكر فهي مختلفة.

وكذلك تقول: جاءني الرجل ثم تقول مكانه بعينه: جاءني رجل إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال. ثم الجملة الإسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أولاً، وإنشائية وهي التي لا خارج لها. كالطلب وأنواعه. ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية محل من الإعراب: فينزل بذلك منزلة التابع المفرد نعتاً أو توكيداً أو بدلاً بلا عطف، أو يتعين العطف إذا لم يكن للثانية محل من الإعراب. ثم يقتضي المحل الإطناب أو الإيجاز فيورد الكلام عليهما. ثم قد يدل باللفظ ولا يراد منطوقه ويراد لازمه إن كان مفرداً كما تقول: زيد أسد فلا تريد حقيقة الأسد لمنطوقة، وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد وتسمّى هذه استعارة.

وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول: زيد كثير رماد القدور وتريد ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف؛ لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما فهي دالة عليهما. وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب، وإنما هي هيئات وأحوال للواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه، فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيئات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: يبحث فيه عن هذه الهيآت والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة.

والصنف الثاني: يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه، ويسمى علم البيان.

والحقوا بهما صنفاً آخر: وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق: إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك ويسمى عندهم علم البديع.

وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني؛ لأن الأقدمين أول ما تكلموا فيه ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها. ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن مخض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه. وأخذه المتأخرون من كتابه ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب الإيضاح والتلخيص وهو أصغر حجماً من الإيضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره.

وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم أنه كمالي في العلوم اللسانية؛ والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران. والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرناه. أو نقول: لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله. وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقاباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً. وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن علم البديع سهل المأخذ. وصعبت

عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما.

وممن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور. وجرى كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاه.

واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها. وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه. فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاما في ذلك؛ لأنهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه.

وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه، حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير؛ لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة. ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة. فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنها بدعة فيعرض عنها ولا تضره في معتقده، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء. والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل.

علم الأدب

هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها. وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور، على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة. من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك، متفرقة، يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها. وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة.

والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه؛ لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.

ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف - يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث - إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية، فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها. وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها وفروع عنها. وكتب المحدثين في ذلك كثيرة.

وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه. وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه، فلم يكن انتحالة قادحاً في العدالة والمروءة. وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني، وهو ما هو، كتابه في الأغاني، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم. وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها. ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان. والله الهادي للصواب.

الفصل السادس والأربعون

في أن اللغة ملكة صناعية

اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو

بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً. ومعنى الحال أنها صفة غير راسخه ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي: صفة راسخة.

فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم.

هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال. وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع، أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم. ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم، وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضاً، فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى. وهذا معنى فساد اللسان العربي.

ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم. ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم. وأما من بَعُد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية. واللّه سبحانة وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل السابع والأربعون

في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مُضر وحمير

وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري، ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد. إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرق، لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها. ويبقى ما تقتضيه الأحوال - ويسمى بساط الحال - محتاجاً إلى ما يدل عليه. وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته، وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة أعراب. وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة. ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه، فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن.

وهذا معنى قوله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً». واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة: «إني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم: زيد قائم، وإن زيداً قائم، وإن زيدا لقائم والمعنى واحد». فقال له: إن معانيها مختلفة. فالأول: لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد. والثاني: لمن سمعه فتردد فيه، والثالث لمن عرف بالإصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال.

وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد. ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت، وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه. وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم، وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم

والشاعر المفلق على أساليب لغتهم. والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك. ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط، الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعاً معروفاً وهو الإعراب. وهو بعض من أحكام اللسان. وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولاً فانقلب لغة أخرى.

وكان القرآن منزلاً به والحديث النبوي منقولاً بلغته وهما أصلا الدين والملة، فخشي تناسيهما وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلا به، فاحتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستباط قوانينه. وصار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهله بعلم النحو وصناعة العربية، فأصبح فناً محفوظاً وعلماً مكتوباً وسلّماً إلى فهم كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ راقياً. ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها. ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر فليست اللغات وملكاتها مجاناً.

ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته. تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق (القيل) في اللسان الحميري أنه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح. ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر، إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه.

ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف، فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى. وما ينطقون بها أيضاً من مخرج الكاف وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي، بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال ومختصاً بهم لا يشاركهم فيها غيرهم. حتى إن من يريد التعرُّب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها. وعندهم أنه إنما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف. ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها، فإن هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقاً وغرباً في ولد منصور بن عكرمة بن حصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور. وهم لهذا العهد أكثر الأمم في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسائر الجيل معهم من بني كهلان في النطق بهذه القاف أسوة.

وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولين ولعلها لغة النبي ﷺ بعينها، وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن ﴿اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته، ولم أدر من أين جاء هذا؟ فإن لغة أهل الأمصار أيضاً لم يستحدثوها وإنما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الأمصار من لدن الفتح. وأهل الجيل أيضاً لم يستحدثوها إلا أنهم أبعد من مخالطة الأعاجم من أهل الأمصار. فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم. هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقاً وغرباً في النطق بها وأنها الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري.

والظاهر أن هذه القاف التي ينطق بها أهل الجيل العربي البدوي هو من مخرج القاف عند أولهم من أهل اللغة، وأن مخرج القاف متسع، فأوله من أعلى الحنك وآخره مما يلي الكاف. فالنطق بها من أعلى الحنك هو لغة الأمصار، والنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجيل البدوي. وبهذا يندفع ما قاله أهل البيت من فساد الصلاة بتركها في أم القرآن، فإن فقهاء الأمصار كلهم على خلاف ذلك. وبعيد أن يكونوا أهملوا ذلك، فوجهه ما قلناه. نعم نقول إن الأرجح والأولى ما ينطق به أهل الجيل البدوي؛ لأن تواترها فيهم كما قدمناه شاهد بأنها لغة الجيل الأول من سلفهم، وأنها لغة النبي ﷺ. ويرجح ذلك أيضاً إدغامهم لها في الكاف لتقارب المخرجين. ولو كانت كما ينطق بها أهل الأمصار من أصل الحنك، لما كانت قريبة المخرج من الكاف، ولم تدغم. ثم إن أهل العربية قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف، وجهي التي ينطق بها أهل الجيل البدوي من العرب لهذا العهد، وجعلوها متوسطة بين مخرجي القاف والكاف. على أنها حرف مستقل، وهو بعيد. والظاهر أنها من آخر مخرج القاف لاتساعه كما قلناه. ثم

إنهم يصرحون باستهجانه واستقباحه كأنهم لم يصح عندهم أنها لغة الجيل الأول. وفيما ذكرناه من اتصال نطقهم بها، لأنهم إنما ورثوها من سلفهم جيلاً بعد جيل، وأنها شعارهم الخاص بهم، دليل على أنها لغة ذلك الجيل الأول، ولغة النبي ﷺ كما تقدم ذلك كله. وقد يزعم زاعم أن هذه القاف التي ينطق بها أهل الأمصار ليست من هذا الحرف، وأنها إنما جاءت من مخالطتهم للعجم، وإنهم ينطقون بها كذلك، فليست من لغة العرب، ولكن الأقيس كما قدمناه من أنهما حرف واحد متسع المخرج. فتفهم ذلك. والله الهادي المبين.

الفصل الثامن والأربعون

في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر

اعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد.

فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي بعد عن صناعة أهل النحو لحناً. وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم، فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه. وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد.

وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل؛ فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة. فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد؛ لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه. وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم. فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى. واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق. أما إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم لوفور عمرانها بهم ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل، فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة. والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه فهي عن اللسان الأول أبعد. وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الأكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولاً ودايات وأظآراً ومراضع، ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى. وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالقة والإفرنجة. وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر ويخالف أيضاً بعضها بعضاً كما نذكره وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم. والله يخلق ما يشاء ويقدر.

الفصل التاسع والأربعون

في تعليم اللسان المضري

اعلم أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه. إلا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات. ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم. ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخاً وقوة ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينهما وبين مقتضيات الأحوال. والذوق يشهد بذلك وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما كما يذكر بعد. وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظماً ونثراً، ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها، وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها. والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه.

الفصل الخمسون

في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية لا نفس كيفية. فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً. مثل أن يقول بصير بالخياطة غير محكم لملكتها في التعبير عن بعض أنواعها: الخياطة هي أن تدخل الخيط في خرت الإبرة ثم تغرزها في لفقي الثوب مجتمعين وتخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم تردها إلى حيث ابتدأت وتخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين؛ ثم يتمادى على وصفه إلى آخر العمل، ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها. وهو إذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً.

وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول: هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة. وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه.

وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل. وكذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي، وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين في المنظوم والمنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية.

فمن هنا يعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة، وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيراً بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاقي، وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه. فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على خط من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته. وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الإفادة.

ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة. وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم، فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه. وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم فتنطبع النفس بها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها.

وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً وقطعوا النظر في التفقه في تراكيب كلام العرب إلا إن أعربوا شاهداً أو رجحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه. فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته، وأفاد ذلك حملتها في الأمصار هذه وآفاقها البعد عن الملكة بالكلية، وكأنهم لا ينظرون في كلام العرب. وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان. وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علماً بحتاً وبعدوا عن ثمرتها.

وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم. والله مقد الأمور كلها والله أعلم بالغيب.

الفصل الواحد والخمسون

في تفسير لفظة الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنها لا تحصل غالباً للمستعربين من العجم

اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان. وقد مر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك. فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده، فإذا اتصلت معاناته لذلك بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حيث لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر، بل وبغير فكر، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة. فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلّة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي. ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع.

وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مر ذلك. وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم. ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه؛ لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم. وإنما يعجز عن الاحتجاج بذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء. وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم.

ومثاله: لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وربي في جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها. وليس من العلم القانوني في شيء وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه. وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين أحيائهم. والقوانين بمعزل عن هذا واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان، والذوق وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم. لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه. وأيضاً فهو وجداني اللسان كما أن الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق. وإذا تبين لك ذلك علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب، فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا أمرها؛ لأن قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى إلى اللسان وهي لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل المصر بينهم في المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون إليه من ذلك. وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الأمصار وبعدوا عنها كما تقدم. وإنما لهم في ذلك ملكة أخرى وليست هذه ملكة اللسان المطلوبة. ومن عرف أحكام تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء. إنما حصل أحكامها كما عرفت. وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب. فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاماً مع حصول هذه الملكة لهم، فاعلم أن أولئك القوم الذين نسمع عنهم إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط. أما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها وكأنهم في أول نشأتهم بمنزلة الأصاغر من العرب الذين نشأوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها، فهم وإن كانوا عجماً في النسب فليسوا بأعاجم في اللغة والكلام؛ لأنهم أدركوا الملة في عنفوانها واللغة في شبابها ولم تذهب آثار الملكة منها ولا من أهل الأمصار ثم عكفوا على الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته.

واليوم الواحد من العجم إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار. ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة

اللسان العربي. ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمدارسة والحفظ ليستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له ما قدمناه من أن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة. وإن فرضنا أعجمياً في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالحفظ والمدارسة فربما يحصل له ذلك، لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر. وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها وهو غلط أو مغالطة، وإنما حصلت له الملكة إن حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثاني والخمسون

في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

والسبب في ذلك ما يسبق إلى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة بما سبق إليه من اللسان الحضري الذي أفادته العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضر لهذا العهد. ولهذا نجد المعلمين يذهبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للولدان. وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك، وإنما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب. نعم صناعة النحو أقرب إلى مخالطة ذلك وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق في العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ. واعتبر ذلك في أهل الأمصار.

فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم. ولقد نقل ابن الرقيق أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له: يا أخي ومن لا عدمت فقده أعلمني أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج. وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلاً ليس من هذا حرفاً واحداً. وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله. وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري وسببه ما ذكرنا. وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة، ولم تزل كذلك لهذا العهد، ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف. وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور.

وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا. وكان فيهم ابن حيان المؤرخ إمام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها وابن عبدربه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان الانفضاض والجلاء أيام تغلب النصرانية. وشغلوا عن تعلم ذلك وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض.

وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن المرحل من تلاميذ الطبقة الإشبيليين بسبتة وكانت دولة بني الأحمر في أولها. وألقت الأندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجلاء إلى العدوة من عدوة إشبيلية إلى سبتة، ومن شرق الأندلس إلى إفريقية. ولم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول العدوة لها وصعوبتها عليهم بعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية وهي منافية لما قلناه.

ثم عادت الملكة من بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت ونجم بها ابن سيرين وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم. ثم إبراهيم الساحلي الطويجن وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه. وكان له في اللسان ملكة لا تدرك واتبع أثره تلميذه من بعده. وبالجملة فشأن هذه الملكة بالأندلس أكثر وتعليمها أيسر وأسهل بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الأدب وسند تعليمها. ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم إنما هم طارئون عليهم. وليست عجمتهم أصلاً للغة أهل الأندلس والبربر في هذه العدوة وهم أهلها ولسانهم لسانها إلا في الأمصار فقط. وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الأندلس. واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية، فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة وإجادتها لبعدهم لذلك العهد عن الأعاجم ومخالطتهم إلا في القليل. فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم، وكان فحول الشعراء والكتاب

لعهدهم أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق.

وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من نظمهم ونثرهم، فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسير نبيهم ﷺ وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر مغانيهم له فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب. وبقي أمر هذه الملكة مستحكماً في المشرق في الدولتين، وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد. حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم، وصار الأمر للأعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم. وذلك في دولة الديلم والسلجوقية. وخالطوا أهل الأمصار وكثروهم فامتلأت الأرض بلغاتهم. واستولت العجمة على أهل الأمصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلمها منهم مقصراً عن تحصيلها. وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور وإن كانوا مكثرين منه. والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل الثالث والخمسون

في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية. وفي النثر وهو الكلام غير الموزون. وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام. فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها. ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم.

وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً. بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها. ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية وهو معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾. وتسمى آخر الآيات فيه فواصل، إذ ليست أسجاعاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف. وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني.

وانظر هذا ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه.

واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك. وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض. وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا إلا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه، وخصوصا أهل المشرق. وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطَب والمخاطِب.

وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر، فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه، إذ أساليب الشعر تباح فيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والإطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو لذلك كله ضرورة في الخطاب. والتزام التقفية أيضاً من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه. والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر. وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فإن المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وكناية واستعارة.

وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم، وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوته. وولعوا بهذا المسجع يلفقون به

ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه. ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالإسجاع والألقاب البديعية ويغفلون عما سوى ذلك. وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد، حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس. ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس. فتأمّل ذلك فانتقد بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه. واللّه الموفق للصواب بمنه وكرمه واللّه تعالى أعلم.

الفصل الرابع والخمسون

في أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل

والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكة في اللسان، فإذا سبقت إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة. لأن قبول الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر. وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المدة القابلة وعائقة عن سرعة القبول، فوقعت المنافاة وتعذر التمام في الملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق. وقد برهنا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان. فاعتبر مثله في اللغات، فإنها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة. وانظر من تقدم له شيء من العجمة كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبداً. فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلمه وعلمه. وكذا البربري والرومي والإفرنجي قلّ أن تجد أحداً منهم محكماً لملكة اللسان العربي. وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر، حتى إن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللسان العربي ومن كتبهم جاء مقصراً في معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتي إلا من قبل اللسان. وقد تقدم لك من قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع. وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدحم. وإن من سبقت له إجادة في صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولي فيها على الغاية. واللّه خلقكم وما تعملون.

الفصل الخامس والخمسون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات، إلا أنا الآن إنما نتكلم في الشعر الذي للعرب. فإن أمكن أن يجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم، وإلا فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه. وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى إذ هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه روياً وقافية، ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة. وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده. وإذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح أو نسيب أو رثاء، فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته. ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود، بأن يوطئ المقصود الأول ومعانيه إلى أن يناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التنافر. كما يستطرد من التشبيب إلى المدح، ومن وصف البيداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف، ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الرثاء إلى التأبين وأمثال ذلك.

ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه. فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس. ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض. وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن، وإنما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور. وقد حصروها في خمسة عشر بحراً بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظماً.

واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب. ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم. وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن ملكاتهم كلها. والملكات اللسانية كلها إنما تكسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبة في تلك الملكة. والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده ويصلح أن ينفرد

دون ما سواه، فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب ويبرزه مستقلاً بنفسه. ثم يأتي ببيت آخر كذلك ثم ببيت آخر ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده. ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة. ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكاً للقرائح في استجادة أساليبه وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه. ولا تكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق بل يحتاج بخصوصه إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها باستعمالها فيه.

ولنذكر هنا مدلول لفظه الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم. فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه. ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته أصل المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصّاً كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه، كان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة، فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله:

يا دار مية بالعلياء فالسند

ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله:

قفا نسأل الدار التي خف أهلها

أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله:

ألم تسأل فتخبرك الرسوم

ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله:

حي الديار بجانب الغزل

أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله:

أسقي طلولهم أجش هزيم ... وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو بسؤال السقيا لها من البرق كقوله:

يا برق طالع منزلاً بالأبرق ... واحد السحاب لها حداء الأينق

أو مثل التفجع في الرثاء باستدعاء البكاء كقوله:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله:

أرأيت من حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادي

أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله:

منابت العشب لا حام ولا راع ... مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية:

أيا شجر الخابور ما لك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو بتهنئة قريعه بالراحة من ثقل وطأته كقوله:

ألق الرماح ربيعة بن نزار ... أودى الردى بقريعك المغوار

وأمثال ذلك كثير من سائر فنون الكلام ومذاهبه. وتنتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل إنشائية وخبرية، اسمية أو فعلية، متفقة وغير متفقة، مفصولة وموصولة، على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الأخرى. يعرفك فيه ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها. فإن مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبنى فيه أو المنوال الذي ينسج عليه. فإن خرج عن القالب في بنائه أو على المنوال في نسجه كان فاسداً. ولا تقولن: إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك؛ لأنا نقول: قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية وقياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس. وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الإعرابية.

وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام بإطلاق.

وإن القوانين العلمية من العربية والبيان لا يفيد تعليمه بوجه. وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه. وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين

القياسية. فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان نظراً في المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس. ولهذا قلنا: إن المحصل لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم. وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور، فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاؤوا به مفصلاً في النوعين. ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة؛ وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً، وقد يقيدونه بالأسجاع، وقد يرسلونه. وكل واحد في من هذه معروفة في لسان العرب. والمستعمل منها عندهم هو الذي يبني مؤلق الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف كما يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال. فلهذا كان من تأليف الكلام منفرداً عن نظر النحوي والبياني والعروضي. نعم إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها، فإذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها أساليب. ولا يفيده إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً. وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو فلنذكر بعده حداً أو رسماً للشعر يفهمنا حقيقته على صعوبة هذا الغرض. فإنا لم نقف عليه لأحد من المتقدمين فيما رأيناه.

وقول العروضيين في حده: إنه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له. وصناعتهم إنما تنظر في الشعر من حيث اتفاق أبياته في عدد المتحركات والسواكن على التوالي، ومماثلة عروض أبيات الشعر لضربها. وذلك نظر في وزن مجرد عن الألفاظ ودلالتها. فناسب أن يكون حداً عندهم، ونحن هنا ننظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة. والوزن والقوالب الخاصة. فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا، فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول: الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعاره والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به.

فقولنا: «الكلام البليغ» جنس وقولنا: «المبني على الاستعارة والأوصاف» فصل له عما يخلو من هذه، فإنه في الغالب ليس بشعر وقولنا «المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروي» فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل، وقولنا: «مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده» بيان للحقيقة لأن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك ولم يفصل به شيء. وقولنا: «الجاري على الأساليب المخصوصة به» فصل له عما لم يجر منه على أساليب المعروفة، فإنه حينئذ لا يكون شعراً إنما هو كلام منظوم؛ لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور. وكذا أساليب المنثور لا تكون للشعر، فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يسمى شعراً. وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء؛ لأنهما لم يجريا على أساليب العرب فيه، وقولنا «في الحد الجاري على أساليب العرب» فصل له عن شعر غير العرب من الأمم عند من يرى أن الشعر يوجد للعرب لغيرهم. ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم، فلا يحتاج إلى ذلك ويقول مكانه الجاري على الأساليب المخصوصة.

وإذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع إلى الكلام في كيفية عمله فنقول:

اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً أولها: الحفظ من جنسه، أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب. وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين، مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذي الرمة وجرير وأبي نواس وحبيب والبحتري والرضي وأبي فراس. وأكثره شعر كتاب الأغاني؛ لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية. ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ. فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وإنما هو نظم ساقط. واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ. ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ. وربما يقال: إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادّة عن استعمالها بعينها. فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يؤخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة. ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار وكذا من المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور. ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط، فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه.

قالوا: وخير الأوقات لذلك أوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفي هواء الجمام. وربما قالوا: إن من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة

وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله.

قالوا: فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه. وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه يضعها ويبني الكلام عليها إلى آخره؛ لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها. فربما تجيء نافرة قلقة وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به، فإن كل بيت مستقل بنفسه ولم تبق إلا المناسبة، فليتخير فيها ما يشاء وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يضن به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة. فإن الإنسان مفتون بشعره إذ هو نبات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب، والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها، فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة.

وقد حظر أئمة اللسان على المولد ارتكاب الضرورة إذ هو في سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة. ويجتنب أيضاً المعقد من التراكيب جهده. وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم. وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم. وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى منها. فإن كانت المعاني كثيرة كان حشواً واشتغل الذهن بالغوص عليها فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة. ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن. ولهذا كان شيوخنا رحمهم اللّه يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر، فكان شعرهما كلاماً منظوما نازلاً عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق.

وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشي من الألفاظ والمقعر وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة، فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضاً فيصير مبتذلاً ويقرب من عدم الإفادة كقولهم: النار حارة والسماء فوقنا. وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان. ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب ولا يحذق فيه إلا الفحول وفي القليل على العسر؛ لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك. وإذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده، فإن القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف ويغرر بالترك والإهمال.

وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد. ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك. وهذه نبذة كافية واللّه المعين. وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها. ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيق:

لعن اللّه صنعة الشعر ماذا ... من صنوف الجهال فيها لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما ... كان سهلاً للسامعين مبينا
ويرون المحال معنى صحيحاً ... وخسيس الكلام شيئاً ثمينا
يجهلون الصواب منه ولا يد ... رون للجهل أنهم يجهلونا
فهم عند من سوانا يلامو ... ن وفي الحق عندنا يعذرونا
إنما الشعر ما يناسب في النظ ... م وإن كان في الصفات فنونا
فأتى بعضه يشاكل بعضا ... وأقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منه على ما ... تتمنى لو لم يكن أو يكونا
فتناهى من البيان إلى أن ... كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الألفاظ منه وجوه ... والمعاني ركبن فيه عيونا
قائماً في المرام حسب الأماني ... يتحلى بحسنه المنشدونا
فإذا ما مدحت بالشعر حرا ... رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسيب سهلاً قريباً ... وجعلت المديح صدقاً مبينا
وتنكبت ما تهجّن في السمع ... وإن كان لفظه موزونا
وإذا ما قرضته بهجاء ... عبت فيه مذاهب المرقبينا
فجعلت التصريح منه دواء ... وجعلت التعريض داء دفينا
وإذا ما بكيت فيه على الغا ... دين يوما للبين والظاعنينا
حلت دون الأسى وذللت ما كا ... ن من الدمع في العيون مصونا
ثم إن كنت عاتباً جئت بالوعد ... وعيدا وبالصعوبة لينا
فتركت الذي عتبت عليه ... حذراً آمنا عزيزاً مهينا
وأصح القريض ما فات في النظم ... وإن كان واضحاً مستبينا
فإذا قيل أطمع الناس طرا ... وإذا ريم أعجز المعجزينا

ومن ذلك أيضا قول بعضهم وهو الناشي:

الشعر ما قومت زيغ صدوره ... وشددت بالتهذيب أس متونه
ورأيت بالأطناب شعب صدوعه ... وفتحت بالايجاز عور عيونه
وجمعت بين قريبه وبعيده ... ووصلت بين مجمه ومعينه
وعمدت منه سحد أمر يقتضي ... شبهاً به فقرنته بقرينه
وإذا مدحت به جواداً ماجداً ... وقضيته بالشكر حق ديونه
أصفيته بنفيسه ورصينه ... وخصصته بخطيره وثمينه
فيكون جزلاً في مساق صنوفه ... ويكون سهلاً في اتفاق فنونه
وإذا بكيت به الديار وأهلها ... أجريت للمحزون ماء شؤونه
وإذا أردت كناية عن ريبة ... باينت بين ظهوره وبطونه

فجعلت سامعه يشوب شكوكه بثنائـه وظنونـه بيقينـه
وإذا عتبت على أخ في زلة ادمجت شدته لـه في لينه
فتركته مستأنساً بدماثة مستأمنا لوعوثـه وحزونه
وإذا نبذت إلى الذي علقتها إذ صارمتك بفاتنات شؤونه
تيمتها بلطيفه ورقيقه وشغفتها بخبيه وكمينه
وإذا اعتذرت لسقطة أسقطتها واشكت بين مخيله ومبينه
فيحول ذنبك عند من يعتده عتباً عليه مطالباً بيمينه

الفصل السادس والخمسون

في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني

اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل. فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم. وذلك أنا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل شأن الملكات، والذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر.

وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى تكلف صناعة في تأليفها، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني. فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه. وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء. كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد.

والمعاني واحدة في نفسها وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان، إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه. والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

الفصل السابع والخمسون

في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي، وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ. فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابئ، تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ أشعار المتأخرين مثل شعر ابن سهل أو ابن النبيه، أو ترسل البيساني أو العماد الأصبهاني لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك، يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق. وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة، لأن الطبع إنما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها. وذلك أن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات. واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفها من خارج. فبهذه يتم وجودها وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها، والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدريج كما قدمناه.

فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل، والعلمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار، والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول، والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له ملكة الرجوع إلى حسه الباطن وروحه وينقلب ربانياً وكذا سائرها.

وللنفس في كل واحد منها لون تتكيف به وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها، فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها إنما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام، ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة وما ذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة، لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها

في البلاغة، فإذا سبق ذلك المخفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم. وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلئ من حفظ النقي الحر من كلام العرب.

أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال: ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له وهو هذا:

لم أدرِ حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه، فقلت له: ومن أين لك ذلك؟ فقال: من قوله ما الفرق؟ إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب، فقلت له: لله أبوك إنه ابن النحوي.

وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل وانتقائهم لهم الجيد من الكلام.

ذاكرت يوما صاحبنا أبا عبد اللّه الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له: أجد استصعابا علي في نظم الشعر متى رمته مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وإن كان محفوظي قليلاً. وإنما أتيت واللّه أعلم بحقيقة الحال من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية. فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات والرسم واستظهرتهما وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس فامتلأ محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعديت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلي ساعة متعجباً ثم قال: لله أنت وهل يقول هذا إلا مثلك؟

ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم. فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة.

والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة.

ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا وكان شيخ هذه الصناعة أخذ بسبتة عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوبين واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه فسألته يوماً: ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين؟ ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه فسكت طويلاً ثم قال لي: واللّه ما أدري! فقلت له: أعرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك ولعله السبب فيه. وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت معجباً ثم قال لي: يا فقيه، هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب. وكان من بعدها يؤثر محلي ويصيخ في مجالس التعليم إلى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم، واللّه خلق الإنسان وعلمه البيان.

الفصل الثامن والخمسون

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع وكيف جودة المصنوع أو قصوره

اعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب، إنما سره وروحه في إفادة المعنى. وأما إذا كان مهملاً فهو كالموات الذي لا عبرة به. وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند أهل البيان؛ لأنهم يقولون: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعرفة الشروط والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال، هو فن البلاغة.

وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استقريت من لغة العرب وصارت كالقوانين. فالتراكيب بوضعها تفيد الإسناد بين المسندين، بشروط وأحكام هي جل قوانين العربية. وأحوال هذه التراكيب من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وإضمار وإظهار. وتقييد وإطلاق وغيرها، يفيد الأحكام المكتنفة من خارج الإسناد وبالمتخاطبين حال التخاطب بشروط وأحكام هي قوانين لفن، يسمونه علم المعاني من فنون البلاغة. فتندرج قوانين العربية لذلك في قوانين علم المعاني لأن إفادتها الإسناد جزء من إفادتها للأحوال المكتنفة بالإسناد. وما قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل في قوانين الإعراب أو قوانين المعاني كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال، ولحق بالمهمل الذي هو في عداد الموات.

ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفنن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات؛ لأن التركيب يدل بالوضع على معنى ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه، فيكون فيها مجازاً: إما باستعارة أو كناية كما هو مقرر في موضعه، ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل في الإفادة وأشد. لأن في جميعها ظفر بالمدلول من دليله. والظفر من أسباب اللذة كما علمت. ثم لهذه الانتقالات أيضاً شروط وأحكام كالقوانين صيروها صناعة، وسموها بالبيان. وهي شقيقة علم المعاني المفيد لمقتضى الحال، لأنها راجعة إلى معاني التراكيب ومدلولاتها. وقوانين علم المعاني راجعة إلى أحوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة. واللفظ والمعنى متلازمان متضايقان كما علمت. فإذا علم المعاني وعلم البيان هما جزء البلاغة، وبهما كمال الإفادة، فهو مقصر عن البلاغة ويلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم وأجدر به أن لا يكون عربياً، لأن العربي هو الذي يطابق بإفادته مقتضى الحال. فالبلاغة على هذا هي أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته.

ثم اعلم أنهم إذا قالوا: الكلام المطبوع؛ فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنه عبارة وخطاب، ليس المقصود منه النطق فقط. بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة. ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجية التي له بالأصالة ضروب من التحسين والتزيين، بعد كمال الإفادة وكأنها تعطيها رونق الفصاحة من تنميق الأسجاع، والموازنة بين حمل الكلام وتقسيمه بالأقسام المختلفة الأحكام والتورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه، والمطابقة بين المتضادات، ليقع التجانس بين الألفاظ والمعاني. فيحصل للكلام رونق ولذة في الأسماع وحلاوة وجمال كلها زائدة على الإفادة.

وهذه الصنعة موجودة في الكلام المعجز في مواضيع متعددة مثل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾، ومثل: ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾، إلى آخر التقسيم في الآية. وكذا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾إلى آخر الآية. وكذا: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾. وأمثاله كثير. وذلك بعد كمال الإفادة في أصل هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها. وكذا وقع في كلام الجاهلية منه، لكن عفواً من غير قصد ولا تعمد. ويقال: إنه وقع في شعر زهير.

وأما الإسلاميون فوقع لهم عفواً وقصداً، وأتوا منه بالعجائب. وأول من أحكم طريقته حبيب بن أوس والبحتري ومسلم بن الوليد، فقد كانوا مولعين بالصنعة. ويأتون منها بالعجب. وقيل: إن أول من ذهب إلى معاناتها بشار بن برد وابن هرمة، وكانا آخر من يستشهد بشعره في اللسان العربي. ثم اتبعهما عمرو بن كلثوم والعتابي ومنصور النميري ومسلم بن الوليد وأبو نواس. وجاء على آثارهم حبيب والبحتري. ثم ظهر ابن المعتز فختم على البديع والصناعة أجمع. ولنذكر مثالاً من المطبوع الخالي من الصناعة. مثل قول قيس بن ذريح:

واخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس في السر خاليا

وقول كثير:

وإني وتهيامي بعزة بعدما تخليت عما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلها تبوأ منها للمقيل اضمحلت

فتأمل هذا المطبوع، الفقيد الصنعة، في إحكام تأليفه وثقافة تركيبه. فلو جاءت فيه الصنعة من بعد هذا الأصل زادته حسناً.

وأما المصنوع فكثير من لدن بشار، ثم حبيب وطبقتهما، ثم ابن المعتز خاتم الصنعة الذي جرى المتأخرون بعدهم في ميدانهم، ونسجوا على منوالهم. وقد تعددت أصناف هذه الصنعة عند أهلها، واختلفت اصطلاحاتهم في ألقابها. وكثير منهم يجعلها مندرجة في البلاغة على أنها غير داخلة في الإفادة، وأنها هي تعطي التحسين والرونق. وأما المتقدمون من أهل البديع، فهي عندهم خارجة عن البلاغة. ولذلك يذكرونها في الفنون الأدبية التي لا موضوع لها. وهو رأي ابن رشيق في كتاب العمدة له، وأدباء الأندلس.

وذكروا في استعمال هذه الصنعة شروطاً منها: أن تقع من غير تكلف ولا اكتراث في ما يقصد منها. وأما العفو فلا كلام

فيه؛ لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان، لأن تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام، فتخل بالإفادة من أصلها، وتذهب بالبلاغة رأساً. ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات، وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر. وأصحاب الأذواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون، ويعدون ذلك من القصور عن سواه.

وسمعت شيخنا الأستاذ أبا البركات البلفيقي، وكان من أهل البصر في اللسان والقريحة. في ذوقه يقول: إن من أشهى ما تقترحه عليّ نفسي أن أشاهد في بعض الأيام من ينتحل فنون هذا البديع في نظمه أو نثره، وقد عوقب بأشد العقوبة، ونودي عليه. يحذر بذلك تلميذه أن يتعاطوا هذه الصنعة، فيكلفون بها، ويتناسون البلاغة.

ثم من شروط استعمالها عندهم: الإقلال منها وأن تكون في بيتين أو ثلاثة من القصيد، فتكفي في زينة الشعر ورونقه. والإكثار منها عيب، قاله ابن رشيق وغيره.

وكان شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي منفق اللسان العربي بالأندلس لوقته يقول: هذه الفنون البديعية إذا وقعت للشاعر أو للكاتب فيقبح أن يستكثر منها، لأنها من محسنات الكلام ومزيناته، فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها، ويقبح بتعدادها. وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المنثور في الجاهلية والإسلام. وكان أولاً مرسلاً معتبر الموازنة بين جمله وتراكيبه، شاهدة موازنته بفواصله من غير التزام سجع ولا اكتراث بصنعة. حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابي كاتب بني بويه، فتعاطى الصنعة والتقفية وأتى بذلك بالعجب. وعاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات السلطانية. وإنما حمله عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة الخلافة المنفقة لسوق البلاغة. ثم انتشرت الصناعة بعده في منشور المتأخرين ونسي عهد الترسيل وتشابهت السلطانيات والأخوانيات والعربيات بالسوقيات. واختلط المرعى بالهمل. وهذا كله يدلك على أن الكلام المصنوع بالمعاناة والتكليف، قاصر عن الكلام المطبوع، لقلة الإكتراث فيه بأصل البلاغة، والحاكم في ذلك الذوق. والله خلقكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

الفصل التاسع والخمسون

في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

اعلم أن الشعر كان ديواناً للعرب، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم. وكان رؤساء العرب متنافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوكه. حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم إبراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع. فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات.

ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوّة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً. ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة. ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه. وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة، وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به.

ثم جاء من بعد ذلك الملك الفحل والدولة العزيزة وتقرب إليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها. ويجيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان. والعرب يطالبون ولدهم بحفظها. ولم يزل الشأن هذا أيام بني أمية وصدراً من دولة بني العباس. وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للأصمعي في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بانتحاله والتبصر بجيد الكلام ورديئه وكثرة محفوظه منه.

ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان، وإنما تعلموه صناعة ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الأغراض كما فعله حبيب والبحتري والمتنبي وابن هانئ ومن بعدهم إلى هلم جرّاً. فصار غرض الشعر

في الغالب إنما هو للكدية والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للأولين كما ذكرناه آنفاً. وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من المتأخرين، وتغير الحال فيه وأصبح تعاطيه هجنة في الرئاسة ومذمة لأهل المناصب الكبيرة. والله مقلب الليل والنهار.

الفصل الستون

في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

اعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية، وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك، وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق: أوميروس الشاعر وأثنى عليه. وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون. ولما فسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين إعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة، فكان لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات. وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف وخالفت أيضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد. واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق، فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفهما أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره.

ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان؛ لأن الموازين على نسبة واحدة في إعداد المتحركات والسواكن وتقابلها، موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا فحولة وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليقة. بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ورصف بنائه على مهيع كلامهم.

فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام. وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون. فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم، وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي والحوراني والقيسي. وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية. ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام، وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد.

ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به مغصناً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمربع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين. ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون عن ذلك والكثير من المتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمج نظمهم إذا أنشد ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها. وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم، فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره، وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه، سواء كان الرفع دالاً على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس، وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه. فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة: فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحّت، الدلالة وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر. ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب.

فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان، ويذكر ظعنها مع قومها إلى المغرب:

قال الشريف ابن هاشم علي	ترى كبدي حرى شكت من زفيرها
يفز للأعلام أين ما رات خاطري	يرد غلام البدو يلوي عصيرها
وماذا شكاة الروح مما طرا لها	غداة وزائع تلف اللّه خبيرها
يحس إن قطاع عامر ضميرها	طوى وهند جافي ذكيرها
وعادت كما خوارة في يد غاسل	على مثل شوك الطلح عقدوا يسيرها
تجابذوها اثنين والنزع بينهم	على شوك لعه والبقايا جريرها
وباتت دموع العين ذارفات لشأنها	شبيه دوار السواني يديرها
تدارك منها النجم حذراً وزادها	مرون يجي متراكباً من صبيرها

يصب من القيعان من جانب الصفا … عيون ولجاز البرق في غزيرها
هاذا الغنى حتى تسابيت غزوة … ناضت من بغداد حتى فقيرها
ونادى المنادي بالرحيل وشدوا … وعرج عاريها على مستعيرها
وشد لها الأدهم دياب بن غانم … على أيدين ماضي وليد مقرب ميرها
وقال لهم حسن بن سرحان غربوا … وسوقوا النجوع إن كان أنا هو غفيرها
ويركض ويبده شهامه بالتسامح … وباليمين لا يجدوا في مغيرها
غدرني زيان السبح من عابس … وما كان يرضى زين حمير ومبرها
غدرني وهو زعماً صديقي وصاحبي … وأناليه ما من درقتي ما يديرها
ورجع يقول لهم بلال بن هاشم … بحر البلاد العطشى ما بخيرها
حرام علي باب بغداد وأرضها … داخل ولا عائد ركيزه من نعيرها
تصدف روحي عن بلاد ابن هاشم … على الشمس أوحول الغطا من
وباتت نيران العذارى قوادح … يلوذ وبجرجان يشدوا أسيرها

ومن قولهم في رثاء أمير زناتة أبي سعدى اليفرني مقارعهم بإفريقية وأرض الزاب ورثاؤهم له على جهة التهكم:

تقول فتاة الحي سعدى وهاضها … لها في ظعون الباكرين عويل
أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفة … خذ النعت مني لا تكون هبيل
تراه يعالي وادي ران وفوقه … من الربط عيساوي بناه طويل
أراه يميل النور من شارع النقا … به الواد شرقاً والبراع دليل
أيا لهف كبدي على الزناتي خليفة … قد كان لأعقاب الجياد سليل
قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم … جراحه كأفواه المزاد تسيل
أيا جائزاً مات الزناتي خليفة … لاترحل إلا أن يريد رحيل
ألا واش رحلنا ثلاثين مرة … وعشراً وستاً في النهار قليل

ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر عتاباً وقع بينه وبين ماضي بن مقرب:

تبدى ماضي الجبار وقال لي … أشكر ما نحنا عليك رضاش
أشكر أعد ما بقي ود بيننا … ورانا عريب عرباً لابسين نماش
نحن غدينا نصدفو ما قضى لنا … كما صادفت طعم الزباد طشاش
أشكر أعد إلى يزيد ملامه … ليحدو ومن عمر بلاده عاش
إن كان نبت الشوك يلقح بأرضكم … هنا العرب ما زدنا لهن صياش

ومن قولهم في ذكر رحلتهم إلى الغرب وغلبهم زناتة عليه:

وأي جميل ضاع لي في الشريف بن هاشم … وأي رجال ضاع قبلي جميلها
لقد كنت أنا وياه في زهو بيننا … عناني بحجة واغباني دليلها
وعدت كأني شارب من مدامة … من الخمر فهو ما قدر من يميلها
أو مثل شمطامات مظنون كبدها … غريبا وهي مدوخه عن قبيلها
أتاها زمان السوء حتى تدوحت … وهي بين عرباً غافلاً عن نزيلها
كذلك أنا مما لحاني من الوجى … شاكي بكبد باديتها زعيلها
وأمرت قومي بالرحيل وبكروا … وقووا وشداد الحوايا حميلها
قعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا … والبدو ماترفع عمود يقيلها
نظل على حداب الثنايا نوازي … يظل الجرى فوق النضا ونصيلها

ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة أحد بطون رياح وأهل الرياسة فيهم، يقولها وهو معتقل بالمهدية في سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص أول ملوك إفريقية من الموحدين:

يقول وفي بوح الدجا بعد وهنة … حرام على أجفان عيني منامها
يا من لقلب حالف الوجد والأسى … وروح هيامي طال ما في سقامها
حجازية بدوية عربية … عداوية ولها بعيد مرامها
مولعة بالبدو لا تألف القرى … سوى عانك الوعسا يؤتي خيامها
غيات ومشتاها بها كل شتوة … ممحونة بيها وبيها صحيح غرامها
ومرباها عشب الأراضي من الحيا … يواتي من الخور الخلايا جسامها
تشوق شوق العين مما تداركت … عليها من السحب السواري غمامها
وماذا بكت بالما وماذا تناحطت … عيون غزار المزن عنباً حمامها
كأن عروس البكر لاحت ثيابها … عليها ومن نور الأقاحي خزامها
فلاة ودهناً واتساع ومنة … ومرعى سوى ما في مراعي نعامها
ومشروبها من محض ألبان شولها … غنيم ومن لحم الجوازي طعامها
تغانت عن الأبواب والموقف الذي … يشيب الفتى مما يقاسي زحامها
سقى الله ذا الوادي المشجر بالحيا … وبلا ويحيى ما بلي من رمامها
فكافاتها بالود مني وليتني … ظفرت بأيام مضت في ركامها
ليالي أقواس الصبا في سواعدي … إذا قمت لم تحظ من أيدي سهامها
وفرسي عديد تحت سرجي مشاقة … زمان الصبا سرجاً ويدي لجامها
وكم من رداح أسهرتني ولم أرى … من الخلق أبهى من نظام ابتسامها
وكم غيرها من كاعب مرجحنة … مطرزة الأجفان باهي وشامها
وصفقت من وجدي عليها طريحة … بكفي ولم ينسى جداها ذمامها
ونار بخطب الوجد توهج في الحشا … وتوهج لا يطفا من الماء ضرامها
أيا من وعدتني الوعد هذا إلى متى … فني العمر في دار عماني ظلامها
ولكن رأيت الشمس تكسف ساعة … ويغمى عليها ثم يبدأ غيامها
بنود ورايات من السعد أقبلت … إلينا بعون الله يهفو علامها
أرى في الفلا بالعين أظعان عزوتي … ورمحي على كتفي وسيري أمامها
بجرعا عتاق النوق من فوق شامس … أحب بلاد الله عندي حشامها
إلى منزل بالجعفرية للسوى … مقيم بها ما لذ عندي مقامها
ونلقى سراة من هلال بن عامر … يزيل الصدا والغل عني سلامها
بهم تضرب الأمثال شرقاً ومغرباً … إذا قاتلوا قوماً سريع انهزامها
عليهم ومن هو في حماهم تحية … مدى الدهر ما غنى يفينا حمامها
فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى … فذي الدنيا ما دامت لأحد دوامها

ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر.

شيخ الكعوب. من أولاد أبي الليل. يعاتب أقتالهم أولاد مهلهل ويجيب شاعرهم شبل بن مسكيانة بن مهلهل. عن أبيات فخر عليهم فيها بقومه:

يقول وذا قول المصاب الذي نشا ... قوارع قيعان يعاني صعابها
يريح بها حادي المصاب إذا سعى ... فنوناً من إنشاد القوافي عذابها
محيرة مختارة من نشادها ... تحدى بها تام الوشا ملتها بها
مغربلة عن ناقد في غضونها ... محكمة القيعان دابي ودابها
وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى ... قوارع من شبل وهذي جوابها
أشبل جنيناً من حباك طرائفا ... فراح يريح الموجعين الغنا بها
فخرت ولم تقصر ولا أنت عادم ... سوى قلت في جمهورها ما أعابها
لقولك في أم المتين بن حمزة ... وحامي حماها عادياً في حرابها
أما تعلم أنه قامها بعدما لقي ... رصاص بني يحيى وغلاق دابها
شهاباً من أهل الأمر يا شبل خارق ... وهل ريت من جا للوغى واصطلى بها
سواها طفاها أضرمت بعد طفيه ... وأثنى طفاها جاسراً لا يهابها
وأضرمت بعد الطفيتين ألن صحت ... لفاس إلى بيت المنى يقتدى بها
وبان لوالي الأمر في ذا انشحابها ... فصار وهي عن كبر الأسنة تهابها
كما كان هو يطلب على ذا تجنبت ... رجال بني كعب الذي يتقي بها

منها في العتاب:

وليداً تعاتبتوا أنا أغنى لأنني ... غنيت بمعلاق الثنا واغتصابها
علي ونا ندفع بها كل مبضع ... بأسياف نتتاش العدا من رقابها
فإن كانت الأملاك بغت عرايس ... علينا بأطراف القنا اختضابها
ولا بعدها الأرهاف وذبل ... ورزق كالسنة الحناش انسلابها
بني عمنا ما نرتضي الذل غلمه ... تسير السبايا والمطايا ركابها
وهي عالماً بأن المنايا تنيلها ... بلا شك والدنيا سريع انقلابها

ومنها في وصف الظعائن:

قطعنا قطوع البيد لا نختشي العدا ... فوق محوبات نخوف جنابها
ترى العين فيها قبل لشبل عرائف ... وكل مهاة محتظيها ربابها
ترى أهلها غب الصباح أن يفلها ... بكل حلوب الجوف ما سد بابها
لها كل يوم في الأرامي قتائل ... ورا الفاجر الممزوج عفو رضابها

ومن قولهم في الأمثال الحكمية:

وطلبك في الممنوع منك سفاهة ... وصدك عمن صد عنك صواب
إذا رأيت أناساً يغلقوا عنك بابهم ... ظهور المطايا يفتح اللّه باب

ومن قول شبل يذكر انتساب الكعوب إلى برجم:

الشيب وشبان من أولاد برجم ... جميع البرايا تشتكي من ضهادها

ومن قول خالد يعاتب إخوانه في موالاة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين المستبد بحجابة السلطان بتونس على سلطانها مكفولة أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى وذلك فيما قرب من عصرنا:

يقول بلا جهل فتى الجود خالد ... مقالة قوال وقال صواب
مقالة حبر ذات ذهن ولم يكن ... هريجاً ولا فيما يقول ذهاب
تهجست معنا نابها لا لحاجة ... ولا هرج ينقاد منه معاب
وكنت بها كبدي وهي نعم صابة ... حزينة فكر والحزين يصاب
تفوهت بادي شرحها عن مآرب ... جرت من رجال في القبيل قراب
بني كعب أدنى الأقربين لدمنا ... بني عم منهم شايب وشباب
جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم ... مصافاة ود واتساع جناب
وبعضهم ملنا له عن خصيمه ... كما يعلموا قولي يقينه صواب
وبعضهمو مرهوب من بعض ملكنا ... جزاعاً وفي جو الضمير كتاب
وبعضهمو جانا جريحا تسمحت ... خواطر منها للنزيل وهاب
وبعضهمو نظار فينا بسوءة ... نقهناه حتى ما عنّا به ساب
رجع ينتهي مما سفهنا قبيحه ... مراراً وفي بعض المرار يهاب
وبعضهمو شاكي من أوغاد قادر ... غلق عنه في أحكام السقائف باب
فصمناه عنه واقتضى منه مورد ... على كره مولى البالقي ودياب
ونحن على دافي المدى نطلب العلا ... لهم ما حططنا للفجور نقاب
وحزنا حمى وطن بترشيش بعدما ... نفقنا عليها سبقا ورقاب
ومهد من الأملاك ما كان خارجا ... على أحكام والي أمرها له ناب
بردع قروم من قروم قبيلنا ... بني كعب لاواها الغريم وطاب
جرينا بهم عن كل تأليف في العدا ... وقمنا لهم عن كل قيد مناب
إلى أن عاد من لا كان فيهم بهمة ... ربيها وخيراته عليه نصاب
وركبوا السبايا المثمنات من أهمها ... ولبسوا من أنواع الحرير ثياب
وساقوا المطايا بالشرا لا نسوا له ... جماهير ما يغلو بها بجلاب
وكسبوا من أصناف السعايا ذخائر ... ضخام لحزات الزمان تصاب
وعادوا نظير البرمكيين قبل ذا ... وإلا هلالاً في زمان دياب
وكانوا لنا درعا لكل مهمة ... إلى أن بان من نار العدو شهاب
وخلوا الدار في جنح الظلام ولا اتقوا ... ملامه ولا دار الكرام عتاب
كسوا الحي جلباب البهيم لستره ... وهم لو دروا لبسوا قبيح جباب
كذلك منهم حابس ما دار النبا ... ذهل حلمي إن كان عقله غاب
يظن ظنونا ليس نحن بأهلها ... تمنى يكن له في السماح شعاب
خطا هو ومن واتاه في سو ظنه ... بالإثبات من ظن القبائح عاب
فوا عزوتي إن الفتى بو محمد ... وهوب لآلاف بغير حساب
وبرحت الأوغاد منه ويحسبوا ... بروحه ما يحيى بروح سحاب
جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع ... لقوا كل ما يستاملوه سراب
وهو لو عطى ما كان للراي عارف ... ولا كان في قلة عطاه صواب
وإن نحن ما نستاملوا عنه راحة ... وإنه بإسهام التلاف مصاب
وإن ما وطا ترشيش يضياق وسعها ... عليه ويمشي بالفزوع لزاب
وأنه منها عن قريب مفاصل ... خنوج عناز هوالها وقباب

وعن فاتنات الطرف بيض غوانج ... ربوا خلف أستار وخلف حجاب
يتيه إذا تاهوا ويصبوا إذا صبوا ... بحسن قوانين وصوت رباب
يضلوه عن عدم اليمين وربما ... يطارح حتى ما كأنه شاب
بهم حازله زمه وطوع أوامر ... ولذة مأكول وطيب شراب
حرام على ابن تافركين ما مضى ... من الود إلا ما بدل بحراب
وإن كان له عقل رجيح وفطنة ... يلجج في اليم الغريق غراب
وأما البدا لا بدها من فياعل ... كبار إلى أن تبقى الرجال كباب
ويحمي بها سوق علينا سلاعه ... ويحمار موصوف القنا وجعاب
ويمسي غلام طالب ريح ملكنا ... ندوماً ولا يمسي صحيح بناب
أيا واكلين الخبز تبغوا إدامه ... غلطتوا أدمتوا في السموم لباب

ومن شعر علي بن عمر بن إبراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة يعاتب بني عمه المتطاولين إلى رياسته:

محبرة كالدر في يد صانع ... إذا كان في سلك الحرير نظام
أباحها منها فيه أسباب ما مضى ... وشاء تبارك والضعون تسام
غدا منه لأم الحي حين وأنشطت ... عصاها ولا صبنا عليه حكام
ولكن ضميري يوم بان بهم إلينا ... تبرم على شوك القتاد برام
وإلا كأبراص التهامي قوادح ... وبين عواج الكانفات ضرام
وإلا لكان القلب في يد قابض ... أتاهم بمنشار القطيع غشام
لما قلت سما من شقا البين زارني ... إذا كان ينادي بالفراق وخام
ألا يا ربوع كان بالأمس عامر ... بيحيى وحله والقطين لمام
وغيد تداني للخطا في ملاعب ... دجى الليل فيهم ساهر ونيام
ونعم يشوف الناظرين التحامها ... لنا ما بدا من مهرق وكظام
وعرود باسمها ليدعو لسربها ... وإطلاق من شرب المها ونعام
واليوم ما فيها سوى البوم حولها ... ينوح على أطلال لها وخيام
وقفنا بها طوراً طويلاً نسالها ... بعين سخينا والدموع سجام
ولا صح لي منها سوى وحش خاطري ... وسقمي من أسباب أن عرفت أوهام
ومن بعد ذا تدّى لمنصور بو علي ... سلام ومن بعد السلام سلام
وقولوا له يا بو الوفا كلح رأيكم ... دخلتم بحور غامقات دهام
زواخر ما تنقاس بالعود إنما ... لها سيلات على الفضا وأكام
ولا قستمو فيها قياساً يدلكم ... وليس البحور الطاميات تعام
وعانوا على هلكاتكم في ورودها ... من الناس عدمان العقول لئام
أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهم ... قرار ولا دنيا لهن دوام
ألا عناهمو لو ترى كيف زايهم ... مثل سراب فلاة ما لهن تمام
خلو القنا يبغون في مرقب العلا ... مواضع ماهيا لهم بمقام
وحق النبي والبيت وأركانه العلى ... ومن زارها في كل دهر وعام
لبر الليالي فيه إن طالت الحيا ... يذوقون من خمط الكساع مدام
ولا برها تبقى البوادي عواكف ... بكل رديني مطرب وحسام
وكل مسافة كالسد إياه عابر ... عليها من أولاد الكرام غلام
وكل كميت يكتعص عض نابه ... يظل يصارع في العنان لجسام
وتحمل بنا الأرض العقيمة مدة ... وتولدنا من كل ضيق كظام
بالأبطال والقود الهجان وبالقنا ... لها وقت وجنات البدور زحام
اتجحدني وأنا عقيد نقودها ... وفي سن رمحي للحروب علام
ونحن كأضراس الموافي بنجعكم ... حتى يقاضوا من ديون غرام
متى كان يوم القحط يا مير أبو علي ... يلقى سعايا صايرين قدام
كذلك بو حمو إلى اليسر أبعته ... وخلى الجياد العاليات تسام
وخل رجالاً لا يرى الضيم جارهم ... ولا يجمعوا بدهى العدو زفام
ألا يقيموها وعقد بؤسهم ... وهم عذر عنه دائماً ودوام
وكم ثار طعنها على البدو سابق ... ما بين صحاصيح وما بين حسام
فتى ثار قطار الصوى يومنا على ... لنا أرض ترك الظاعنين زمام
وكم ذا يجيبوا أثرها من غنيمة ... حليف الثنا قشاع كل غيام
وإن جاء خافوه الملوك ووسعوا ... غدا طبعه يجدي عليه قيام
عليكم سلام الله من لسن فاهم ... ما غنت الورقا وناح حمام

ومن شعر عرب نمر بنواحي حوران لامرأة قتل زوجها فبعثت إلى أحلافه من قيس تغريهم بطلب ثأره تقول:

تقول فتاة الحي أم سلامة ... بعين أراع الله من لا رثى لها
تبيت بطول الليل ما تألف الكرى ... موجعة كان الشقا في مجالها
على ما جرى في دارها وبو عيالها ... بلحظة عين البين غير حالها
فقدنا شهاب الدين يا قيس كلكم ... ونمتوا عن أخذ الثأر ماذا مقالها
أنا قلت إذا ورد الكتاب يسرني ... ويبرد من نيران قلبي ذبالها
أيا حين تسريح الذوائب واللحى ... وبيض العذارى ما حميتو جمالها

الموشحات والأزجال للأندلس

وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح وينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة. ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر القبريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني. وأخذ ذلك عنه أبو

عبد اللّه أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما. فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية. وقد ذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهير يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما أتفق له من قوله:

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف. وجاء مصلياً خلفه منهم ابن رافع، رأس شعراء المأمون ابن ذي النون، صاحب طليطلة. قالوا: وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له حيث يقول:

العود قد ترنم بأبدع تلحين وسقت المذانب رياض البساتين

وفي انتهائه حيث يقول:

تخطر ولا تسلم عساك المأمون مروع الكتائب يحيى بن ذي النون

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملثمين فظهرت لهم البدائع، وسابق فرسان حلبتهم الأعمى الطليطلي، ثم يحيى بن بقي، وللطليطلي من الموشحات المهذبة قوله:

كيف السبيل إلى صبري وفي المعالم أشجان
والراكب وسط الفلا بالخرد النواعم قد بان

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية، وكان كل واحد منهم اصطنع موشحة وتأنق فيها فتقدم الأعمى الطليطلي للإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضاحك عن جمان سافرعن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدري

حرق ابن بقي موشحته وتبعه الباقون. وذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع ابن زهر يقول: ما حسدت قط وشاحا على قول إلا ابن بقي حين وقع له:

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحق أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق

وكان في عصرهما من الموشحين المطبوعين أبو بكر الأبيض. وكان في عصرهما أيضاً الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة، ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى على بعض قيناته موشحته التي أولها:

جرر الذيل أيما جر وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك لما ختمها بقوله:

عقد اللّه راية النصر لأمير العلا أبي بكر

وطرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح: واطرباه! وشق ثيابه وقال: ما أحسن ما بدأت وختمت وحلف بالأيمان المغلظة لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا على الذهب. فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه.

وذكر أبو الخطاب بن زهر أنه جرى في مجلس أبي بكر بن زهير ذكر أبي بكر الأبيض الوشاح المتقدم الذكر فغض منه أحد الحاضرين فقال كيف تغض مم يقول:

ما لـذّ لي راح
على رياض الأقاح
لولا هضيم الوشاح
إذا انثنى في الصباح

أو في الأصيل
أضحى يقول
ما للشمول
لطمت خدي؟

وللشمال
هبت فمال
غصن اعتدال
ضمه بردي

مما أباد القلوبا
يمشي لنا مستريبا
يا لحظة رد نوبا!
ويالماه الشنيبا

برد غليل
صب عليل
لا يستحيل
فيه عن العهدِ

ولا يزال
في كل حال
يرجو الوصال
وهو في الصد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف. قال الحسن بن دويريدة: رأيت حاتم بن سعيد على هذا الافتتاح:

شمس قاربت بدرا راح ونديم

وابن هرودس الذي له:

يـا ليلـة الوصـل والسـعود بالله عـودي

وابن مؤهل الذي له:

مـا العيـد في حلـة وطـاق وشـم طيـب
وإنما العيـد في التلاقـي مـع الحبيـب

وأبو إسحاق الرديني قال ابـن سـعيد: سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: إنه دخل على ابن زهر وقد أسن وعليه زي البادية إذ كان يسكن بحصن استبه فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس. وجرت المحاضرة فأنشد لنفسه موشحة وقع فيها:

كحل الدجى يجري مـن مقلـة الفجـر علـى الصبـاح
ومعصـم النهـر في حلـل خضـر مـن البطـاح

فتحرك ابن زهير وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبر! قـال: ومن تكون؟ فعرفه، فقال: ارتفـع! فوالله مـا عرفتـك، قـال ابـن سعيد: وسابق الحلبة التي أدركت هـؤلاء أبـو بكـر بـن زهـر وقـد شرقت موشحاته وغربت.

قال: وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: قيل لابـن زهر لو قيل لك: ما أبدع وأرفع ما وقع لك في التوشيح قـال: مـا كنت تقول: قال كنت أقول:

مـا للمولـه؟
مـن سكره لا يفيـق
يـا لـه سـكران
مـن غـير خمـر
مـا للكئيـب المشـوق
ينـدب الأوطـان؟
هـل تسـتعاد
أيامنـا بـالخليج
وليالينـا؟
أو يسـتفاد
مـن النسـيم الأريـج
مسـك دارينـا
أو هـل يكـاد
حسـن المكـان البهيـج
أن يحيينـا؟
روض أظلـه
دوح عليـه أنيـق
مـورق الأفنـان
والمـاء يجـري
وعـائم وغريـق
مـن جنـى الريحـان

واشتهر بعده ابن حيُّون الذي له من الزجل المشهور قوله:

يفـوق سـهمه كـل حـين بمـا شـئت مـن يـد وعـين

وينشد في القصيد:

خلقـت مليـح علمـت رامـي فليـس تخـل سـاع مـن قتـال
وتعمـل بـذي العينـين متـاعي مـا تعمـل يـدي بالنبـال

واشتهر معهما يومئذ بغرناطة المهـر بـن الفـرس، قـال ابـن سعيد: ولما سمع ابن زهر قوله:

لله مـا كـان مـن يـوم بهيـج بنهر حمص على تلـك المـروج
ثـم انعطفنا وعلـى فـم الخليـج نفـض في حانـه مسـك الختـام
عن عسجد زانـه صـافي المـدام ورداء الأصيل ضمه كـف الظـلام

قال ابن زهر: أين كنا نحن عن هذا الـرداء؟ وكـان معـه في بلده مطرف.

أخبر ابن سعيد عن والده أن مطرفاً هذا دخـل علـى ابـن الفرس فقام له وأكرمه، فقال: لا تفعل! فقال ابـن الفـرس: كيـف لا أقوم لمن يقول:

قلـوب تصـاب بالحـاظ تصيـب فقـل كيـف تبقـى بـلا وجـد

وبعد هذا ابن حزمون بمرسية. ذكـر ابـن الرائـس أن يحيـى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فأنشده موشحة لنفسه فقال لـه ابـن حزمون: لا يكون الموشح بموشح حتى يكون عارياً عن التكلـف، قال: على مثل ماذا؟ قال على مثل قولي:

يـا هـاجري هـل إلى الوصـال منـك سـبيل
أو هـل تـرى عـن هـواك سـالي قلـب العليـل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة. قال ابـن سـعيد: كـان والدي يعجب بقوله:

إن سـيل الصبـاح في الشـرق عـاد بحـراً في أجمـع الأفـق

فتداعـت نـوادب الـورق

أتراهـا خـافت مـن الغـرق فبكـت سـحرة علـى الـورق

واشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بـن الفضـل، قـال ابن سعيد عن والده: سمعت سهل بـن مـالك يقـول لـه: يـا ابـن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك:

واحسـرتا لزمـان مضـى عشـية بـان الهـوى وانقضـى
وأفـردت بـالرغم لا بـالرضى وبـت علـى جمـرات الغضـى
أعـانق بـالفكر تلـك الطلـول وألثـم بـالوهم تلـك الرسـوم

قال: وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته غير ما مرة، فما سمعتة يقـول لـه: لله درك، إلا في قوله:

قسماً بالهوى لذي حجر ما لليل المشوق من فجر
جمد الصبح ليس يطرد ما لليلي فيما أظن غد
اصح ياليل إنك الأبد
أو قفصت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسري

ومن محاسن موشحات ابن الصابوني قوله:

ما حال صب ذي ضنى واكتئاب أمرضه يا ويلتاه الطبيب
عامله محبوبه باجتناب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
جفا جفوني النوم لكنني لم أبكه إلا لفقد الخيال
وذا الوصال اليوم قد غرني منه كما شاء وشاء الوصال
فلست باللائم من صدني بصورة الحق ولا بالمحال

واشتهر ببَرِّ أهل العدوة ابن خلف الجزايري صاحب الموشحة المشهورة:

يد الأصباح قدحت زناد الأنوار في مجامر الزهر

وابن خرز البجائي وله من موشحة:

ثغر الزمان موافق حياك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبتة من بعدها فمنها قوله:

هل دري ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو في نار وخفق مثل ما لعبت ريح الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد اللّه بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره وقد مر ذكره فقال:

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس!
لم يكن وصلك إلا حلما
في الكرى أو خلسة المختلس!
إذ يقود الدهر أشتات المنى
تنقل الخطو على ما ترسم
زمراً بين فرادى وثنا
مثل ما يدعو الحجيج الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا
فسنا الأزهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما
كيف يروي مالك عن أنس؟
فكساه الحسن ثوباً معلّما
يزدهي منه بأبهى ملبس
في ليال كتمت سر الهوى
بالدجى لو لا شموس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى
مستقيم السير سعد الأثر
وطرٌ ما فيه من عيب سوى
أنه مر كلمح البصر

****

حين لذ النوم شيئاً أو كما
هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما
أثرت فينا عيون النرجس

****

أي شيء لامرئ قد خلصا
فيكون الروض قد كُنِّن فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا
أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجى والحصى
وخلا كل خليل بأخيه

****

تبصر الورد غيوراً برما
يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيبا فهما
يسرق السمع بأذني فرس

****

يا أهيل الحي من وادي الغضا!
وبقلبي مسكن أنتم به!
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا
لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى
تعتقوا عبدكم من كربه
واتقوا اللّه واحيوا مغرما
يتلاشى نفسا في نفس
حبس القلب عليكم كرما
أفترضون خراب الحُبُس

****

وبقلبي منكم مقترب
بأحاديث المنى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب
شقوة المضنى به وهو سعيد

قد تساوى محسن أو مذنب
في هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى
جال في النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى
ففؤادي نهبه المفترس

****

إن يكن جار وخاب الأمل
وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول
ليس في الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل ممتثل
في ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما
لم يراقب في ضعاف الأنفس
ننصف المظلوم ممن ظلما
ويجازي البر منها والمسي

****

ما لقلبي كلما هبت صبا
عاده عيد من الشوق جديد؟
جلب الهم له والوصبا
فهو للأشجان في جهد جهيد
كان في اللوح له مكتتبا
قوله إن عذابي لشديد!
لاعج من أضلعي قد أضرما
فهي نار في هشيم اليبس
لم تدع في مهجتي إلا ذما
كبقاء الصبح بعد الغلس

****

سلمي يا نفس في حكم القضا
واعمري الوقت برجعي ومتاب
ودعي ذكر زمان قد مضى
بين عتبى قد تقضت وعتاب
واصرفي القول إلى المولى الرضى
ملهم التوفيق في أم الكتاب
الكريم المنتهى والمنتمى
أسد السرج وبدر المجلس
ينزل النصر عليه مثل ما
ينزل الوحي بروح القدس

وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات. ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك التي اشتهرت شرقاً وغرباً وأولها:

حبيبي ارفع حجاب النور ... عن العذار
تنظر المسك على كافور ... في جلنار
كللي يا سحب تيجان الربى ... بالحلى واجعلي
سوارها منعطف الجدول

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور. لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله. ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً. واستحدثوا فناً سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد، فجاؤوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة.

وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان. وإن كانت قيلت قبله بالأندلس، لكن لم يظهر حلاها، ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه. وكان لعهد الملثمين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق.

قال ابن سعيد: ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب. قال: وسمعت أبا الحسن بن جحدر الأشبيلي، إمام الزجالين في عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة، وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه، فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر متدرجة فقال:

وعريش قد قام على دكان ... بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان ... من غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان ... بيه الفراق
وانطلق من ثم على الصفاح ... وألقى الصياح

وكان ابن قزمان، مع أنه قرطبي الدار. كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية وينتاب نهرها، فاتفق أن اجتمع ذات يوم جماعة من أعلام هذا الشأن. وقد ركبوا في النهر للنزهة. ومعهم غلام جميل الصورة من سروات أهل البلد وبيوتهم. وكانوا مجتمعين في زورق للصيد، فنظموا في وصف الحال، وبدأ منهم عيسى البليدي فقال:

يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتو ... وقد ضمني عشقو لشهماتو
تراه قد حصل مسكين محلاتو ... يغلق وكذاك أمر عظيم صاباتو
توحش الجفون الكحل إن غابو ... وذيك الجفون الكحل أبلاتو

ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الأشبيلي:

نشب والهوى من لج فيه ينشب ... ترى إيش دعاه يشقى ويتعذب
مع العشق قام في بالوان يلعب ... وخلق كثير من ذا اللعب ماتوا

ثم قال أبو الحسن المقري الداني:

نهار مليح يعجبن أوصافو ... شراب وملاح من حولي قد طافوا
والمقلين يقول من فوق صفصافو ... والبوري اخرى فقلاتو

ثم قال أبو بكر بن مرتين:

الحق تريد حديث بقالي عاد ... في الواد النزيه والبوري والصياد
لسنا حيتان ذيك الذي يصطاد ... قلوب الورى هي في شبيكاتو

ثم قال أبو بكر بن قزمان:

إذا شمر كمامو يرميها ... ترى البوري يرشق لذاك الجيها
وليس مرادو أن يقع فيها ... إلا أن يقبل بديساتو

وكان في عصرهم بشرق الأندلس مخلف الأسود، وله محاسن من الزجل منها قوله:

قد كنت منشوب واختشيت النشب ... وردني ذا العشق لأمر صعب
حتى تنظر الخد الشريق البهي ... تتهي في الخمر إلما تنتهي
يا طالب الكيميا في عيني هي ... تنظر بها الفضة وترجع ذهب

وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس، وقعت له العجائب في هذه الطريقة، فمن قوله في زجله المشهور:

ورذاذ دق ينزل ... وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض ... وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر ... والغصون ترقص وتطرب
وبريد تجي إلينا ... ثم تستحي وتهرب

ومن محاسن أزجاله قوله:

لاح الضيا والنجوم حيارى ... فقم بنا ننزع الكسل
شربت ممزوج من قراعا ... أحلى هي عندي من العسل
يا من يلمني كما تقلد ... قلدك الله بما تقول
يقول بأن الذنوب تولد ... وأنه يفسد العقول
لأرض الحجاز موريكن لك أرشد ... إيش ما ساقك معي في ذا الفضول
مر أنت للحج والزيارا ... ودعني في الشرب منهمل
من ليس لو قدره ولا استطاع ... النية أبلغ من العمل

وظهر بعد هؤلاء بإشبيلية ابن جحدر الذي فضل على الزجالين في فتح ميورقة بالزجل الذي أوله هذا:

من عاند التوحيد بالسيف يمحق ... أنا بري ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد: لقيته ولقيت تلميذه المعمع صاحب الزجل المشهور الذي أوله:

يا ليتني إن رايت حبيبي ... أفتل أذنو بالرسيلا
ليش أخذ عنق الغزيل ... وسرق فم الحجيلا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الأدب، ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع، فمن محاسنه في هذه الطريقة:

امزج الأكواس واملالي تجدد ... ما خلق المال إلا أن يبدد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششتري منهم:

بين طلوع وبين نزول ... اختلطت الغزول
ومضى من لم يكن ... وبقي من لم يزول

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى:

البعد عنك يا بني أعظم مصابي ... وحين حصل لي قربك سيبت قاربي

وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وكان إماماً في هذه الطريقة وله من زجل يعارض به مدغليس في قوله:

لاح الضياء والنجوم حيارى

بقوله:

حل المجون يا أهل الشطارا ... مذ حلت الشمس في الحمل
تجددوا كل يوم خلاعا ... لا تجعلوا بينها ثمل
إليها يتخلعوا في شنبل ... على خضورة ذاك النبات
وحل بغداد واجتاز النيل ... أحسن عندي من ذيك الجهات
وطاقتها أصلح من أربعين ميل ... إن مرت الريح عليه وجاءت
لم تلتق الغبار أمارا ... ولا بمقدار ما يكتحل
وكيف ولاش فيه موضع رقاعا ... إلا ونسرح فيه النحل

وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فن العامة بالأندلس من الشعر. وفيها نظمهم حتى أنهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر، لكن بلغتهم العامية ويسمونه الشعر الزجلي مثل قول شاعرهم:

دهر لي نعشق جفونك وسنين ... وأنت لا شفقة ولا قلب يلين
حتى ترى قلبي من أجلك كيف رجع ... صنعة السكة بين الحدادين
الدموع ترشرش والنار تلتهب ... والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصارى للغزو ... وأنت تغزو قلوب العاشقين

وكان من المجيدين لهذه الطريقة لأول هذه المائة الأديب أبو عبد الله اللوشي وله فيها قصيدة يمدح فيها السلطان ابن الأحمر:

طل الصباح قم يا نديمي نشربو ... ونضحكو من بعدما نطربو

سبيكة الفجر أحكت شفق ... في ميلق الليل فقسم قلبو
ترى عيارها خالص أبيض نقي ... فضة هو لكن الشفق ذهبو
فتتفق سكتوا عند البشر ... نور الجفون من نورها يكسبو
فهو النهار يا صاحبي للمعاش ... عيش الغني فيه باللّه ما أطيبو
والليل أيضا للقبل والعناق ... على سرير الوصل يتقلبو
جاد الزمان من بعد ما كان بخيل ... ولش ليفلت من يديه عقربو
كما جرع مرو فما قد مضى ... يشرب بيننو وياكل طيبو
قال الرقيب يا أدبا إيش ذا ... في الشرب والعشق ترى ننجبو
وتعجبوا عذالي من ذا الخبر ... فقلت يا قوم من ذا تتعجبوا
نعشق مليح الا رقيق الطباع ... علاش تكفروا باللّه أو تكتبوا
ليش يربح الحسن إلا شاعر أديب ... يفض بكرو ويدع ثيبو
أما الكأس فحرام نعم هو حرام ... على الذي ما يدري كيف يشربو
ويد الذي يحسن حسابه ولم ... يقدر يحسن ألفاظ أن يجلبوا
وأهل العقل والفكر والمجون ... يغفر ذنوبهم لهذا إن أذنبوا
ظبي بهي فيها يطفي الجمر ... وقلبي في جمر الغضى يلهبو
غزال بهي ينظر قلوب الأسود ... وبالوهم قبل النظر يذهبوا
ثم يحييهم إذا ابتسم يضحكوا ... ويفرحوا من بعدما ينلبوا
فميم كالخاتم وثغر نقي ... خطيب الأمة للقبل يخطبو
جوهر ومرجان أي عقد يا فلان ... قد صففه الناظم ولم يثقبو
وشارب أخضر يريد لاش يريد ... من شبهه بالمسك قد عيبو
يسبل دلال مثل جناح الغراب ... ليالي هجري منه يستغربوا
على بدن أبيض بلون الحليب ... ما قط راعي للغنم يحلبوا
وزوج هندات ما علمت قبلها ... ديك الصلايا ريت ما أصلبو
تحت العكاكن منها خصر رقيق ... من رقتو يخفي إذا تطلبوا
أرق هو من ديني فيما تقول ... جديد عتبك حق ما أكذبو
أي دين بقا لي معاك وأي عقل ... من يتبعك من ذا وذا تسلبوا
تحمل ارداف ثقال كالرقيب ... حين ينظر العاشق وحين يرقبو
إن لم ينفس غدر أو ينقشع ... في طرف ديسا والبشر تطلبو
يصير إليك المكان حين تجي ... وحين تغيب ترجع في عيني تبو
محاسنك مثل خصال الأمير ... أو الرمل من هو الذي يحسبو
عماد الأمصار وفصيح العرب ... من فصاحة لفظه يتقربو
يحمل العلم انفرد والعمل ... ومع بديع الشعر ما أكتبو
ففي الصدور بالرمح ما أطعنه ... وفي الرقاب بالسيف ما أضربو
من السماء يحسد في أربع صفات ... فمن يعد قلبي أو يحسبو
الشمس نورو والقمر همتو ... والغيث جودو والنجوم منصبو
يركب جواد الجود ويطلق عنان ... الأغنيا والجند حين يركبوا
من خلعتو يلبس كل يوم بطيب ... منه بنات المعالي تطيبوا
نعمتو تظهر على كل من يجيه ... قاصد ووارد قط ما خيبوا
قد اظهر الحق وكان في حجاب ... لاش يقدر الباطل بعدما يحجبو
وقد بنى بالسر ركن التقى ... من بعد ما كان الزمان خربو
تخاف حين تلقاه كما ترتجيه ... فمع سماحة وجهو ما أسيبو
يلقى الحروب ضاحكاً وهي عابسة ... غلاب هو لا شيء في الدنيا يغلبو
إذا جبد سيفه ما بين الردود ... فليس شيء يغني من يضربو
وهو سمي المصطفى والإله ... للسلطنة اختار واستنخبو
تراه خليفة أمير المؤمنين ... يقود جيوشو ويزين موكبو
لذي الإمارة تخضع الرؤوس ... نعم وفي تقبيل يديه يرغبوا
بيته بقي بدور الزمان ... يطلعوا في المجد ولا يغربوا
وفي المعالي والشرف يعدوا ... وفي التواضع والحيا يقربوا
واللّه يبقيهم ما دار الفلك ... وأشرقت شمسه ولاح كوكبو
وما يغني ذا القصيد في عروض ... يا شمس خدر مالها مغربو

ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً آخر من الشعر، في أعاريض مزدوجة كالموشح، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضاً وسموه عروض البلد، وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير. فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب إلا قليلاً مطلعها:

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام ... على الغصن في البستان قريب الصباح
وكف السحر يمحو مداد الظلام ... وماء الندى يجري بثغر الأقاح
باكرت الرياض والطل فيها افتراق ... كثير الجواهر في نحور الجوار
ودمع النواعير ينهرق انهراق ... يحاكي ثعابين حلقت بالثمار
لووا بالغصون خلخال على كل ساق ... ودار الجميع بالروض دور السوار
وأيدي الندى تخرق جيوب الكمام ... ويحمل نسيم المسك عنها رياح
وعاج الصبا يطلي بمسك الغمام ... وجر النسيم ذيلو عليها وفاح
رأيت الحمام بين الورق في القضيب ... قد ابتلت أرياشو بقطر الندى
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب ... قد التف من تربو الجديد في ردا
ولكن بما أحمر وساقو خضيب ... ينظم سلوك جوهر ويتقلدا
جلس بين الأغصان جلسة المستهام ... جناحا توسد والتوى في جناح
وصار يشتكي ما في الفؤاد من غرام ... منها ضم منقاره لصدره وصاح
قلت يا حمام أحرمت عيني الهجوع ... أراك ما تزال تبكي بدمع سفوح
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع ... بلا دمع نبقى طول حياتي ننوح
على فرخ طار لي لم يكن لو رجوع ... ألفت البكا والحزن من عهد نوح
كذا الوفا وكذا هو الزمام ... انظر جفون صارت بحال الجراح
وأنتم من بكى منكم إذا تم عام ... يقول عناني ذا البكا والنواح
قلت يا حمام لو خضت بحر الضنى ... كنت تبكي وترثي لي بدمع هتون
ولو كان بقلبك ما بقلبي أنا ... ما كان يصير تحتك فروع الغصون

اليوم نقاسي الهجر كم من سنا حتى لا سبيل جملة تراني العيون
وما كسا جسمي النحول والسقام أخفاني نحولي عن عيون اللواح
لو جتني المنايا كان يموت في المقام ومن مات بعد يا قوم لقد استراح
قال لي لو رقدت لأوراق الرياض من خوفي عليه وذا النفوس للفؤاد
وتخضبت من دمعي وذاك البياض طوق العهد في عنقي ليوم التناد
أما طرف منقاري حديثو استفاض بأطراف البلد والجسم صار في الرماد

فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته. وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم، وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافاً إلى المزدوج والكازي والملعبة والغزل. واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها. فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع من فصولهم وهو من أهل تازا:

المال زينة الدنيا وعز النفوس يبهي وجوهاً ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس ولوه الكلام والرتبة العاليا
يكبر من كثر مالو ولو كان صغير ويصغر عزيز القوم اذ يفتقر
من ذا ينطبق صدري ومن ذا تغير وكاد ينفقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجي من هو في قومو كبير لمن لا أصل عندو ولا لو خطر
لذا ينبغي يحزن على ذي العكوس ويصبغ عليه ثوب فراش صافيا
اللي صارت الأذناب أمام الرؤوس وصار يستفيد الواد من الساقيا
ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان ما يدروا على من يكثروا ذا العتاب
اللي صار فلان يصبح بو فلان ولو رأيت كيف يرد الجواب
عشنا والسلام حتى رأينا عيان أنفاس السلاطين في جلود الكلاب
كبار النفوس جداً ضعاف الأسوس هم ناحيا والجد في ناحيا
يرو أنهم والناس يروهم تيوس وجوه البلد والعمدة الراسيا

ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم في بعض مزدوجاته:

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليح عاهد إلا وخان قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العشاق ويتمنعوا ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وإن واصلوا من حينهم يقطعوا وان عاهدوا خانوا على كل حال
مليح كان هويتو وشت قلبي معو وصيرت من خدي لقدمو نعال
ومهدت لو من وسط قلبي مكان وقلت لقلبي أكرم لمن حل فيك
وهون عليك ما يعتريك من هوان فلا بد من هول الهوى يعتريك
حكمتوا علي وارتضيت بو أمير فلو كان يرى حالي إذا يصبرو
يرجع مثل در حولي بوجه الغدير مرديه ويتعطس بحال المحرو
وتعلمت من ساعا بسبق الضمير ويفهم مرادو قبل أن يذكرو
ويحتل في مطلو لو أن كان عصر في الربيع أو في الليالي يريك
ويمشي بسوق كان ولو بأصبهان وإيش ما يقل يحتاج لو يجيك

حتى أتى على آخرها.

وكان منهم علي بن المؤذن بتلمسان، وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف. أبدع في مذاهب هذا الفن. ومن أحسن ما علق له بمحفوظي قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى إفريقية يصف هزيمتهم بالقيروان. ويعزيهم عنها ويؤنسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيبهم على غزاتهم إلى إفريقية في ملعبة من فنون هذه الطريقة يقول في مفتتحها. وهو من أبدع مذاهب البلاغة في الأشعار بالمقصد في مطلع الكلام وافتتاحه ويسمى براعة الإستهلال:

سبحان مالك خواطر الأمرا ونواصيها في كل حين وزمان
إن طعناه أعظم لنا نصرا وإن عصيناه عاقب بكل هوان

إلى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص:

كن مرعى قل ولا تكن راعي فالراعي عن رعيته مسؤول
واستفتح بالصلاة على الداعي للإسلام والرضا السني المكمول
على الخلفاء الراشدين والأتباع واذكر بعدهم إذا تحب وقول
أحجاجا تخللوا الصحرا ودوا سرح البلاد مع السكان
عسكر فاس المنيرة الغرا وين سارت بوعزايم السلطان
أحجاج بالنبي الذي زرتم وقطعتم لو كلاكل البيدا
عن جيش الغرب حين يسألكم المتلوف في إفريقيا السودا
ومن كان بالعطايا يزودكم ويدع برية الحجاز رغدا
قام قل للسد صادف الجزرا ويعجز شوط بعدما يخفسان
ويزف كر دوم تهب في الغبرا أي ما زاد غزالهم سبحان
لو كان ما بين تونس الغربا وبلاد الغرب سد السكندر
مبنى من شرقها إلى غربا طبقا بحديد أو ثانياً بصفر
لا بد الطير أن تجيب نبا أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر
ما أعوصها من أمور وما شرا لو تقرأ كل يوم على الديوان
لجرت بالدم وانصدع حجرا وهوت الخراب وخافت الغزلان
أدرلي بعقلك الفحاص وتفكر لي بخاطرك جمعا
إن كان تعلم حمام ولا رقاص عن السلطان شهر وقبله سبعا
تظهر عند المهيمن القصاص وعلامات تنشر على الصمعا
الا قوم عاريين فلا سترا مجهولين لا مكان ولا إمكان
ما يدروا كيف يصوروا كسرا وكيف دخلوا مدينة القيروان
أمولاي أبو الحسن خطينا الباب قضية سيرنا إلى تونس
فقنا كنا على الجريد والزاب واش لك في إعراب إفريقيا القويس
ما بلغك من عمر فتى الخطاب الفاروق فاتح القرى المولس
ملك الشام والحجاز وتاج كسرى وفتح من إفريقيا وكان

رد ولدت لو كره ذكرى | ونقل فيها تفرق الإخوان
هذا الفاروق مردي الأعوان | صرح في إفريقيا بذا التصريح
وبقت حمى إلى زمن عثمان | وفتحها ابن الزبير عن تصحيح
لمن دخلت غنائمها الديوان | مات عثمان وانقلب علينا الريح
وافترق الناس على ثلاثة أمرا | وبقي ما هو للسكوت عنوان
إذا كان ذا في مدة السبرارا | إش نعمل في أواخر الأزمان
وأصحاب الحضر في مكناساتا | وفي تاريخ كأنا وكيوانا
تذكر في صحتها أبياتا | شق وسطيح وابن مرانا
إن مرين إذا تكف براياتا | لجدا وتونس قد سقط بنيانا
قد ذكرنا ما قال سيد الوزرا | عيسى بن الحسن الرفيع الشأن
قال لي رأيت وأنا بذا أدري | لكن إذا جاء القدر عميت الأعيان
ويقول لك ما دهى المرينيا | من حضرة فاس إلى عرب دياب
أراد المولى بموت ابن يحيى | سلطان تونس وصاحب الأبواب

ثم أخذ في ترحيل السلطان وجيوشه، إلى آخر رحلته ومنتهى أمره، مع أعراب إفريقية. وأتى فيها بكل غريبة من الإبداع. وأما أهل تونس فاستحدثوا فن الملعبة أيضاً على لغتهم الحضرية، إلا أن أكثره رديء ولم يعلق بمحفوظي منه شيء لرداءته.

الموشحات والأزجال في المشرق

وكان لعامة بغداد أيضاً فن من الشعر يسمونه المواليا، وتحته فنون كثيرة يسمون منها القوما، وكان وكان، ومنه مفرد ومنه في بيتين، ويسمونه دوبيت على الاختلافات المعتبرة عندهم في كل واحد منها، وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان. وتبعهم في ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب. وتبحروا فيها في أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية، فجاؤوا بالعجائب. ورأيت في ديوان الصفي الحلي من كلامه «أن المواليا من بحر البسيط، وهو ذو أربعة أغصان وأربع قواف، ويسمى صوتاً وبيتين. وأنه من مخترعات أهل واسط، وإن كان وكان فهو قافية واحدة وأوزان مختلفة في أشطاره: الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني ولا تكون قافيته إلا مردفة بحرف العلة وأنه من مخترعات البغداديين. وأنشد فيه لنا:

بغمز الحواجب حديث تفسير ومنو أويو، وأم الأخرس تعرف بلغة الخرسان». انتهى كلام الصفي.

ومن أعجب ما علق بحفظي منه قول شاعرهم:
هذي جراحي طريا | والدما تنضح
وقاتلي يا أخيا | في الفلا يمرح
قالوا ونأخذ بثارك | قلت ذا أقبح
إلى جرحتي يداويني | يكون أصلح

ولغيره:
طرقت باب الخبا قالت من الطارق | فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق
تبسمت لاح لي من ثغرها بارق | رجعت حيران في بحر أدمعي غارق

ولغيره:
عهدي بها وهي لا تأمن علي البين | وإن شكوت الهوى قالت فديتك العين
لمن يعاين لها غيري غلام الزين | ذكرتها العهد قالت لك علي دين

ولغيره في وصف الحشيش:
دي خمر صرف التي عهدي بها باقي | تغني عن الخمر والخمار والساقي
قحبا ومن قحبها تعمل على إحراقي | خبيتها في الحشى طلت من أحداقي

ولغيره:
يا من وصالو لأطفال المحبة بح | كم توجع القلب بالهجران أوه أح
أودعت قلبي حوحو والتصبر بح | كل الورى كخ في عيني وشخصك دح

ولغيره:
ناديتها ومشيبي قد طواني طي | جودي علي بقبلة في الهوى يا مي
قالت وقد كوت داخل فؤادي كي | ما ظن ذا القطن يغشى فم من هو حي

ولغيره:
راني ابتسم سبقت سحب أدمعي برقه | ماط اللثام تبدىٔ بدر في شرقه
أسبل دجى الشعرتاه القلب في طرقه | رجع هدانا بخيط الصبح من فرقه

ولغيره:
يا حادي العيس ازجر بالمطايا زجر | وقف على منزل أحبابي قبيل الفجر
وصي في حيهم يا من يريد الأجر | ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر

ولغيره:
عيني التي كنت أرعاكم بها باتت | ترعى النجوم وبالتسهيد اقتاتت
وأسهم البين صابتني ولا فاتت | وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

ولغيره:
هويت في قنطرتكم يا ملاح الحكر | غزال يبلى الأسود الضاريا بالفكر
غصن إذا ما انثنى يسبي البنات البكر | وإن تهلل فما للبدر عندو ذكر

ومن الذي يسمونه دوبيت:
قد أقسم من أحبه بالباري | أن يبعث طيفه مع الأسحار
يا نار أشواقي به فاقتدي | ليلاً فعساه يهتدي بالنار

واعلم أن الأذواق كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى

يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية. فلا يشعر الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب، ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمشرق، ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمغرب. لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم. وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾

خاتمة

وقد كدنا أن نخرج عن الغرض

ولذلك عزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه، وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاء له. ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده اللّه بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا، فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل. واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون.

قال مؤلف الكتاب عفا اللّه عنه: أتممت هذا الجزء الأول المشتمل على المقدمة بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة. ثم نقحته بعد ذلك وهذبته وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت في أوله وشرطته. وما العلم إلا من عند اللّه العزيز الحكيم.



الكتاب الثاني

في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد

وفيه ذكر معاصيرهم من الأمم المشاهير، مثل السريانيين والنبط والكلدانيين والفرس والقبط وبني إسرائيل وبني يونان والروم، والإلمام بأخبار دولهم. ويتقدم الكلام في ذلك مقدمتان: إحداهما في أمم العالم وأنسابهم على الجملة، الثانية في كيفية أوضاع الأنساب في هذا الكتاب.

المقدمة الأولى

في أمم العالم واختلاف أجيالهم والكلام على الجملة في أنسابهم

اعلم أن اللّه سبحانه وتعالى اعتمر هذا العالم بخلقه وكرم بني آدم باستخلافهم في أرضه، وبثهم في نواحيها لتمام حكمته، وخالف بين أممهم وأجيالهم إظهاراً لآياته فيتعارفون بالأنساب، ويختلفون باللغات والألوان، ويتمايزون بالسير والمذاهب والأخلاق، ويفترقون بالنحل والأديان والأقاليم والجهات. فمنهم العرب والفرس والروم وبنو إسرائيل والبربر، ومنهم الصقالبة والحبش والزنج، ومنهم أهل الهند وأهل بابل وأهل الصين وأهل اليمن وأهل مصر وأهل المغرب. ومنهم المسلمون والنصارى واليهود والصابئة والمجوس،و منهم أهل الوبر وهم أصحاب الخيام والحلل وأهل المدر وهم أصحاب المجاشر والقرى والأطم، ومنهم البدو الظواهر والحضر الأهلون. ومنهم العرب أهل البيان والفصاحة والعجم وأهل الرطانة بالعبرانية والفارسية والإغريقية واللطينية والبربرية. خالف أجناسهم وأحوالهم وألسنتهم وألوانهم ليتم أمر اللّه في اعتمار أرضه بما يتوزعونه من وظائف الرزق وحاجات المعاش بحسب خصوصياتهم ونحلهم فتظهر آثار القدرة وعجائب الصنعة وآيات الوحدانية إن في ذلك لآيات للعالمين.

واعلم أن الامتياز بالنسب أضعف المميزات لهذه الأجيال والأمم، لخفائه واندارسه بدروس الزمان وذهابه. ولهذا كان الاختلاف كثيراً ما يقع في نسب الجيل الواحد أو الأمة الواحدة إذا اتصلت مع الأيام وتشعبت بطونها على الأحقاب، كما وقع في نسب كثير من أهل العالم مثل اليونانيين والفرس والبربر وقحطان من العرب. فإذا اختلفت الأنساب واختلفت فيها المذاهب وتباينت الدعاوى استظهر كل ناسب على صحة ما ادعاه بشواهد الأحوال والمتعارف من المقارنات في الزمان والمكان وما يرجع إلى ذلك من خصائص القبائل وسمات الشعوب والفرق التي تكون فيهم متنقلة متعاقبة في بنيهم.

وسئل مالك رحمه اللّه تعالى عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم، فكره ذلك وقال من أين يعلم ذلك؟ فقيل له فإلى إسماعيل فأنكر ذلك وكره أيضاً أن يُرفع في أنساب الأنبياء مثل أن يقال: إبراهيم بن فلان بن فلان، وقال من يخبره به. وكان بعضهم إذا تلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ﴾ قال: كذب النسابون.

واحتجوا أيضاً بحديث ابن عباس أنه ﷺ لما بلغ نسبه الكريم إلى عدنان قال: «من ههنا كذب النسابون».

واحتجوا أيضاً بما ثبت فيه أنه «علم لا ينفع وجهالة لا تضر» إلى غير ذلك من الاستدلالات.

وذهب كثير من أئمة المحدثين والفقهاء مثل ابن إسحاق والطبري والبخاري إلى جواز الرفع في الأنساب ولم يكرهوه، محتجين بعمل السلف فقد كان أبو بكر رضي اللّه عنه أنسب قريش لقريش ومضر، بل ولسائر العرب وكذا ابن عباس وجبير بن مطعم وعقيل بن أبي طالب وكان من بعدهم ابن شهاب والزهري وابن سيرين، وكثير من التابعين. قالوا وتدعو الحاجة إليه في كثير من المسائل الشرعية مثل تعصيب الوراثة وولاية النكاح والعاقلة في الديات والعلم بنسب النبي ﷺ وأنه القرشي الهاشمي الذي كان بمكة وهاجر إلى المدينة فإن هذا من فروض الإيمان ولا يعذر الجاهل به. وكذا الخلافة عند من يشترط النسب فيها. فهذا كله يدعو إلى معرفة الأنساب ويؤكد فضل هذا العلم وشرفه فلا ينبغي أن يكون ممنوعاً.

وأما حديث ابن عباس أنه ﷺ لما بلغ نسبه إلى عدنان قال: «من ههنا كذب النسابون» يعني من عدنان. فقد أنكر السهيلي روايته من طريق ابن عباس مرفوعاً وقال: الأصح أنه موقوف على ابن مسعود. وخرج السهيلي عن أم سلمة أن النبي ﷺ قال: «معد بن عدنان بن أدد بن زيد بن البري بن أعراق الثرى». قال وفسرت أم سلمة زيداً بأنه الهميسع، والبري بأنه نبت أو نابت، وأعراق الثري بأنه إسماعيل، وإسماعيل هو ابن ابراهيم، وابراهيم

لم تأكله النار كما لا تأكل الثرى. ورد السهيلي تفسير أم سلمة وهو الصحيح، وقال إنما معناه معنى قوله ﷺ «كلكم بنو آدم وآدم من تراب» لا يريد أن الهميسع ومن دونه ابن لإسماعيل لصلبه وعضد ذلك باتفاق الأخبار على بعد المدة بين عدنان وإسماعيل التي تستحيل في العادة أن يكون فيها بينهما أربعة آباء، أو سبعة أو عشرة أو عشرون لأن المدة أطول من هذا كله كما نذكره في نسب عدنان فلم يبق في الحديث متمسك لأحد من الفريقين. وأما ما رووه من أن النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر فقد ضعف الأئمة رفعه إلى النبي ﷺ مثل الجرجاني وأبي محمد بن حزم وأبي عمر بن عبد البر.والحق في الباب أن كل واحد من المذهبين ليس على إطلاقه فإن الأنساب القريبة التي يمكن التوصل إلى معرفتها لا يضر الاشتغال بها لدعوى الحاجة إليها في الأمور الشرعية من التعصيب والولاية والعاقلة وفرض الإيمان بمعرفة النبي ﷺ، ونسب الخلافة والتفرقة بين العرب والعجم في الحرية والاسترقاق عند من يشترط ذلك كما مر كله وفي الأمور العادية أيضاً تثبت به اللحمة الطبيعية التي تكون بها المدافعة والمطالبة. ومنفعة ذلك في إقامة الملك والدين ظاهرة. وقد كان ﷺ وأصحابه ينسبون إلى مضر ويتساءلون عن ذلك. وروي عنه ﷺ أنه قال: «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم». وهذا كله ظاهر في النسب القريب، وأما الأنساب البعيدة العسرة المدرك التي لا يوقف عليها إلا بالشواهد والمقارنات لبعد الزمان وطول الأحقاب أو لا يوقف عليها رأساً لدروس الأجيال فهذا قد ينبغي أن يكون له وجه في الكراهة كما ذهب إليه من ذهب من أهل العلم مثل مالك وغيره، لأنه شغل الإنسان بما لا يعنيه. وهذا وجه قوله ﷺ فيما بعد عدنان من ههنا كذب النسابون لأنها أحقاب متطاولة ومعالم دراسة لا تثلج الصدور باليقين في شيء منها مع أن علمها ينفع وجهلها لا يضر كما نقل والله الهادي إلى الصواب.

ولنأخذ الآن في الكلام في أنساب العالم على الجملة ونترك تفصيل كل واحد منها إلى مكانه فنقول: إن النسابين كلهم اتفقوا على أن الأب الأول للخليقة هو آدم عليه السلام كما وقع في التنزيل إلا ما يذكره ضعفاء الإخباريين من أن الحن والطم أمتان كانتا فيما زعموا من قبل آدم، وهو ضعيف متروك وليس لدينا من أخبار آدم وذريته إلا ما وقع في المصحف الكريم وهو معروف بين الأئمة. واتفقوا على أن الأرض عمرت بنسله أحقاباً وأجيالاً بعد أجيال إلى عصر نوح عليه السلام، وأنه كان فيهم أنبياء مثل شيث وإدريس وملوك في تلك الأجيال معدودون وطوائف مشهورون بالنحل مثل الكلدانيين ومعناه الموحدون، ومثل السريانيين وهم المشركون. وزعموا أن أمم الصابئة منهم وأنهم من ولد صابئ بن لمك بن أخنوخ، وكان نحلتهم في الكواكب والقيام لها كلها واستنزال روحانيتها وأن من حزبهم الكلدانيين أي الموحدين. وقد ألف أبو إسحاق الصابي الكاتب مقالة في أنسابهم ونحلتهم. وذكر أخبارهم أيضاً داهر مؤرخ السريانيين والبابا الصابي الحراني وذكروا استيلاءهم على العالم وجملاً من نواميسهم. وقد اندرسوا وانقطع أثرهم. وقد يقال أن السريانيين من أهل تلك الأجيال، وكذلك النمرود والازدهاق، وهو المسمى بالضحاك من ملوك الفرس وليس ذلك بصحيح عند المحققين.

واتفقوا على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب بعمران الأرض أجمع بما كان من خراب المعمور ومهلك الذين ركبوا معه في السفينة ولم يعقبوا فصار أهل الأرض كلهم من نسله وعاد أباً ثانياً للخليقة وهو نوح بن لامك ويقال: لمك بن متوشلخ بفتح اللام وسكونها ابن خنوخ، ويقال: أخنوخ، ويقال: أشنخ، ويقال: اخنخ وهو إدريس النبي فيما قاله ابن إسحاق بن بيرد ويقال: بيرد بن مهلائيل ويقال: ماهلايل بن قاين ويقال: قنين بن أنوش ويقال: يانش بن شيث بن آدم، ومعنى شيث عطية الله هكذا نسبه ابن إسحاق وغيره من الأئمة وكذا وقع في التوراة نسبه وليس فيه اختلاف بين الأئمة. ونقل ابن إسحاق أن خنوخ الواقع اسمه في هذا النسب هو إدريس النبي صلوات الله عليه وهو خلاف ما عليه الأكثر من النسابين فإن إدريس عندهم ليس بجدٍ لنوح ولا في عمود نسبه وقد زعم الحكماء الأقدمون أيضاً أن إدريس، هو هرمس المشهور بالإمامة في الحكمة عندهم. وكذلك يقال: إن الصابئة من ولد صابئ بن لامك وهو أخو نوح عليه السلام. وقيل: أن صابئ متوشلخ جده.

واعلم أن الخلاف الذي في ضبط هذه الأسماء إنما عرض في مخارج الحروف فإن هذه الأسماء إنما أخذها العرب من أهل التوراة ومخارج الحروف في لغتهم غير مخارجها في لغة العرب، فإذا وقع الحرف متواسطاً بين حرفين من لغة العرب، فترده العرب تارة إلى هذا وتارة إلى هذا. وكذلك إشباع الحركات قد تحذفه العرب إذا نقلت كلام العجم، فمن ههنا اختلف الضبط في هذه الأسماء.

واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط. واعلم أن آدم هو كيوميرث وهو نهاية نسبهم فيما يزعمون، وأن أفريدون الملك في آبائهم هو نوح، وأنه بُعِصَ لازدهاق وهو الضحاك فلبسه الملك وقبله كما يذكر بعد في

أخبارهم. وقد تترجح صحة هذه الأنساب من التوراة وكذلك قصص الأنبياء الأقدمين إذ أخذت عن مسلمي يهوذا ومن نسخ صحيحة من التوراة يغلب على الظن صحتها وقد وقعت العناية في التوراة بنسب موسى عليه السلام وإسرائيل وشعوب الأسباط ونسب ما بينهم وبين آدم صلوات الله عليه. والنسب والقصص أمر لا يدخله النسخ فلم يبق إلا تحري النسخ الصحيحة والنقل المعتبر. وأما ما يقال من أن علمائهم بدلوا مواضع من التوراة بحسب أغراضهم في دياناتهم. فقد قال ابن عباس على ما نقل عنه البخاري في صحيحه: أن ذلك بعيد، وقال معاذ الله أن تعمد أمة من الأمم إلى كتابها المنزل على نبيها فتبدله أو ما في معناه، قال وإنما بدلوه وحرّفوه بالتأويل ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ ولو بدلوا من التوراة ألفاظها لم يكن عندهم التوراة التي فيها حكم الله وما وقع في القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل فيها إليهم فإنما المعني به التأويل اللّهم إلا أن يطرقها التبديل في الكلمات على طريق الغفلة وعدم الضبط. وتحريف من لا يحسن الكتابة بنسخها فذلك يمكن في العادة لا سيما وملكهم قد ذهب، وجماعتهم انتشرت في الآفاق واستوى الضابط منهم وغير الضابط، والعالم والجاهل، ولم يكن وازع يحفظ لهم ذلك لذهاب القدرة بذهاب الملك فتطرق من أجل ذلك إلى صحف التوراة في الغالب تبديل وتحريف غير متعمد من علمائهم وأحبارهم. ويمكن مع ذلك الوقوف على الصحيح منها إذ تحرى القاصد لذلك بالبحث عنه.

ثم اتفق النسابون ونقلت المفسرين على أن ولد نوح اللذين تفرعت الأمم منهم ثلاثة: سام وحام ويافث وقد وقع ذكرهم في التوراة، وأن يافث أكبرهم وحام الأصغر وسام الأوسط. وخرّج الطبري في الباب أحاديث مرفوعة بمثل ذلك وأن سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش والزنج وفي بعضها السودان. وفي بعضها سام أبو العرب وفارس الروم، ويافث أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وحام أبو القبط والسودان والبربر، ومثله عن ابن المسيب ووهب بن منبه. وهذه الأحاديث وإن صحت فإنما الأنساب فيها مجملة ولا بد من نقل ما ذكره المحققون في تفريع أنساب الأمم من هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً. وكذلك نقل الطبري أنه كان لنوح ولد اسمه كنعان وهو الذي هلك في الطوفان، قال وتسميه العرب يام، وآخر مات قبل الطوفان اسمه عابر. وقال هشام كان له ولد اسمه بوناطر والعقب إنما هو في الثلاثة على ما أجمع عليه الناس وصحت به الأخبار فأما سام فمن ولد العرب على اختلافهم وإبراهيم وبنوه صلوات الله عليهم باتفاق النسابين. والخلاف بينهم إنما هو في تفاريع ذلك أو في نسب غير العرب إلى سام.

فالذي نقله ابن إسحاق: أن سام بن نوح كان له من الولد خمسة وهم: أرفخشذ ولاوذ وإرم وأشوذ وغليم. وكذا وقع ذكر هذه الخمسة في التوراة وأن بني أشوذ هم أهل الموصل، وبني غليم أهل خوزستان ومنها الأهواز. ولم يذكر في التوراة ولد لاوذ. وقال ابن إسحاق: وكان للاوذ أربعة من الولد: وهم طسم وعمليق وجرجان وفارس قال: ومن العماليق أمة جاسم فمنهم بنو لف وبنو هزان وبنو مطر وبنو الأزرق ومنهم بديل وراحل وظفار، ومنهم الكنعانيون وبرابرة الشام وفراعنة مصر. وعن غير ابن إسحاق أن عبد بن ضخم وأميم من ولد لاوذ. قال ابن إسحاق: وكانت طسم والعماليق وأميم وجاسم يتكلمون بالعربية وفارس يجاورونهم إلى المشرق ويتكلمون بالفارسية.

قال وولد إرم: عوص وكاثر وعبيل ومن ولد عوص عاد ومنزلهم بالرمال والأحقاف إلى حضرموت. ومن ولد كاثر ثمود وجديس ومنزل ثمود بالحجر بين الشام والحجاز.

وقال هشام بن الكلبي: عبيل بن عوس أخو عاد. وقال ابن حزم عن قدماء النسابين: أن لاوذ هو ابن إرم بن سام أخو عاص وكاثر. قال: فعلى هذا يكون جديس وثمود أخوين، وطسم وعملاق أخوين أبناء عم لحام وكلهم بنو عم عاد. قال: ويذكرون أن عبد بن ضخم بن إرم وأن أميم بن لاوذ بن إرم. قال الطبري: وفهم الله لسان العربية عاداً وثمود وعبيل وطسم وجديس وأميم وعمليق وهم العرب العاربة. وربما يقال: إن من العرب العاربة يقطن أيضاً، ويسمون أيضاً العرب البائدة ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد. قال: وكان يقال عاد إرم فلما هلكوا قيل ثمود إرم ثم هلكوا فقيل لسائر ولد إرم أرمان وهم النبط. وقال هشام بن محمد الكلبي: إن النبط بنو نبيط بن ماش بن إرم والسريان بنو سريان بن نبط.

وذكر أيضاً أن فارس من ولد أشوذ بن سام وقال فيه فارس بن طبراش بن أشوذ، وقيل: أنهم من أميم بن لاوذ وقيل: ابن غليم.

وفي التوراة: ذكر ملك الأهواز واسمه كردلا عمرو من بني غليم والأهواز متصلة ببلاد فارس. فلعل هذا القائل ظن أن أهل أهواز هم فارس والصحيح أنهم من ولد يافث كما يذكر. وقال أيضاً إن البربر من ولد عمليق بن لاوذ وأنهم بنو تميلة من مارب بن قاران بن عمر بن عمليق والصحيح أنهم من كنعان بن حام

كما يذكر. وذكر في التوراة ولد إرم أربعة عوص وكاثر وماش ويقال: مشح والرابع حول. ولم يقع عند بني إسرائيل في تفسير هذا شيء إلا أن الجرامقة من ولد كاثر. وقد قيل أن الكوف والديلم من العرب. وهو قول مرغوب عنه.

وقال ابن سعيد كان لأشوذ أربعة من الولد إيران ونبيط وجرموق وباسل.فمن إيران الفرس والكرد والخزر، ومن نبيط النبط والسريان، ومن جرموق الجرامقة وأهل الموصل، ومن باسل الديلم وأهل الجبل. قال الطبري: ومن ولد أرفخشذ العبرانيون وبنو عابر بن شالخ بن أرفخشذ، وهكذا نسبه في التوراة. وفي غيره أن شالخ بن قينن بن أرفخشذ وإنما لم يذكر قينن في التوراة لأنه كان ساحراً وادعى الألوهية.

وعند بعضهم أن النمروذ من ولد أرفخشذ وهو ضعيف وفي التوراة أن عابر ولد اثنين من الولد هما فالغ ويقطن، وعند المحققين من النسابة أن يقطن هو قحطان عربته العرب هكذا. ومن فالغ إبراهيم عليه السلام وشعوبه ويأتي ذكرهم. ومن يقطن شعوب كثيرة ففي التوراة ذكر ثلاثة من الولد له وهم: المرذاذ ومعربه ومضاض وهم جرهم وإرم وهم حضور وسالف وهم أهل السلفات وسبا وهم أهل اليمن من حمير والتابعة وكهلان وهدرماوت وهم حضرموت. هؤلاء خمسة، وثمانية أخرى ننقل أسماءهم وهي عبرانية ولم نقف على تفسير شيء منها ولا يعلم من أي البطون هم، وهم: بباراح وأوزال ودفلا وعوثال وأفيمايل وأيوفير وحويلا ويوفاف، وعند النسابين أن جرهم من ولد يقطن فلا أدري من أيهم، وقال هشام بن الكلبي إن الهند والسند من نوفير بن يقطن والله أعلم.

وأما يافث فمن ولده الترك والصين والصقالبة ويأجوج ومأجوج باتفاق من النسابين. وفي آخرين خلاف كما يذكر. وكان له من الولد على ما وقع في التوراة سبعة: وهم كومر وياوان وماذاي وماغوغ وقطوبال وماشخ وطيراش وعدهم ابن إسحاق هكذا وحذف ماذاي ولم يذكر كومر وتوغرما وأشبان وريغاث هكذا في نص التوراة. ووقع في الإسرائيليات أن توغرما هم الخزر، وأن أشبان هم الصقالبة، وأن ريغاث هم الإفرنج ويقال لهم برنسوس والخزر هم التركمان وشعوب الترك كلهم من بني كومز، ولم يذكروا من أي الثلاثة هم. والظاهر أنه من توغرما ونسبهم ابن سعيد إلى الترك بن عامور بن سويل بن يافث، والظاهر أنه غلط، وأن عامور هو كومر صحف عليه.

وهم أجناس كثيرة منهم الطغرغر وهم التتر والخطا، وكانوا بأرض طغماج والخزلقية والغز الذين كان منهم السلجوقية والهياطلة الذي كان منهم الخلج، ويقال للهياطلة الصغد أيضاً. ومن أجناس الترك الغور والخزر والقفجاق، ويقال الخفشاخ، ومنهم يمك والعلان، ويقال الأزو، منهم الشركس وأزكش. ومن ماغوغ عند الإسرائيليين يأجوج ومأجوج. وقال ابن إسحاق: إنهم من كومر ومن مازاي الديلم ويسمون في اللسان العبراني ماهان. ومنهم أيضاً همذان وجعلهم بعض الإسرائيليين من بني همذان بن يافث وعد همذان ثامناً للسبعة المذكورين من ولده.

وأما ياوان واسمه يونان فعند الإسرائيليين أنه كان له من الولد أربعة وهم داود بن واليشا وكيتم وترشيش، وإن كيتم من هؤلاء الأربعة هو أبو الروم والباقي يونان، وأن ترشيش أهل طرسوس.

وأما قطوبال فهم أهل الصين من المشرق والليمان من المغرب.

ويقال أن أهل إفريقية قبل البربر منهم وأن الإفرنج أيضاً منهم. ويقال أيضاً أن أهل الأندلس قديماً منهم وأما ماشخ فكان ولده عند الإسرائيليين بخراسان وقد انقرضوا لهذا العهد فيما يظهر وعند بعض النسابين أن الأشبان منهم.

وأما طيراش فهم الفرس عند الإسرائيليين وربما قال غيرهم إنهم من كومر وأن الخزر والترك من طيراش وأن الصقالبة وبرجان والأشبان من ياوان وأن يأجوج من كومر وهي كلها مزاعم بعيدة عن الصواب.

وقال أهروشيوش مؤرخ الروم إن القوط واللطين من ماغوغ. وهذا آخر الكلام في أنساب يافث.

وأما حام فمن ولده السودان والهند. والسند والقبط وكنعان باتفاق. وفي آخرين خلاف نذكره وكان له على ما وقع في التوراة أربعة من الولد وهم: مصر ويقول بعضهم مصرايم وكنعان وكوش وقوط. فمن ولد مصر عند الاسرائيليين فتروسيم وكسلوحيم ووقع في التوراة فلشنين منهما معاً. ولم يتعين من أحدهما وبنو فلشنين الذين كان منهم جالوت. ومن ولد مصر عندهم كفتورع، ويقولون هم أهل دمياط ووقع الانقلوس ابن اخت قيطش الذي خرب القدس في الجلولة الكبرى على اليهود. قال أن كفتورع هو قبطقاي ويظهر من هذه الصيغة أنهم القبط لما بين الاسمين من الشبه.

ومن ولد مصر عناميم وكان لهم نواحي إسكندرية وهم أيضاً بفتوحيم ولوديم ولهابيم. ولم يقع إلينا تفسير هذه الأسماء. وأما كنعان بن حام فذكر من ولده في التوراة أحد عشر منهم

صيدون ولهم ناحية صيدا وإموري وكرساش، وكانوا بالشام وانتقلوا عندما غلبهم عليه يوشع إلى إفريقية فأقاموا بها. ومن كنعان أيضاً بيوسا وكانوا ببيت المقدس وهربوا أمام داود عليه السلام حين غلبهم عليه إلى إفريقية والمغرب وأقاموا بها. والظاهر أن البربر من هؤلاء المتنقلين أولاً وآخراً إلا أن المحققين من نسابتهم على أنهم من ولد مازيغ بن كنعان فلعل مازيغ ينتسب إلى هؤلاء. ومن كنعان أيضاً حيث الذين كان ملكهم عوج بن عناق.

ومنهم عرفان وأروادي وخوي ولهم نابلس وسبا ولهم طرابلس وضمارى ولهم حمص وحما ولهم أنطاكية وكانت تسمى حما باسمهم، وأما كوش بن حام فذكر له في التوراة خمسة من الولد وهم سفنا وسبا وجويلا ورعما وسفخا ومن ولد رعما شاو وهم السند ودادان وهم الهند. وفيها أن النمروذ من ولد كوش ولم يعينه وفي تفاسيرها أن جويلا زويلة وهم أهل برقة. وأما أهل اليمن فمن ولد سبا. وأما قوط فعند أكثر الإسرائيليين أن القبط منهم. ونقل الطبري عن ابن إسحاق أن الهند والسند والحبشة من بني السودان من ولد كوش. وأن النوبة وفزان وزغاوة والزنج منهم من كنعان. وقال ابن سعيد: أجناس السودان كلهم من ولد حام ونسب ثلاثة منهم إلى ثلاثة سماهم من ولده غير هؤلاء الحبشة إلى حبش، والنوبة إلى نوابة أو نوى، والزنج إلى زنج، ولم يسم أحداً من آباء الأجناس الباقية وهؤلاء الثلاثة الذين ذكروا لم يعرفوا من ولد حام فلعلهم من أعقابهم، أو لعلها أسماء أجناس.

وقال هشام بن محمد الكلبي إن النمروذ هو ابن كوش بن كنعان. أهروشيوش مؤرخ الروم: إن سبا وأهل إفريقية يعني البربر من جويلا بن كوش ويسمى يضول. وهذا والله أعلم غلط لأنه مر أن يضول في التوراة من ولد يافث ولذلك ذكر أن حبشة المغرب من دادان بن رعما من ولد مصر بن حسام بنو قبط بن لاب بن مصر. انتهى الكلام في بني حام. وهذا آخر الكلام في أنساب أمم العالم على الجملة والخلاف الذي في تفاصيلها يذكر في أماكنه والله ولي العون والتوفيق.

المقدمة الثانية

في كيفية وضع الأنساب في كتابنا لأهل الدول وغيرهم

أعلم أن الأنساب تتشعب دائماً وذلك أن الرجل قد يكون له من الولد ثلاثة أو أربعة أو أكثر، ويكون لكل واحد منهم كذلك، وكل واحد منهم فرع ناشئ عن أصل أو فرع أو عن فرع فرع فصارت بمثابة الأغصان للشجرة وتكون قائمة على ساق واحدة هي أصلها والفروع عن جانبها، ولكل واحد من الفروع فروع أخرى إلى أن تنتهي إلى الغاية. فلذلك اخترنا بعد الكلام على الأنساب للأمة وشعوبها أن نضع ذلك على شكل شجرة نجعل أصلها وعمود نسبها باسم الأعظم من أولئك الشعوب ومن له التقدم عليهم فيجعل عمود نسبه أصلاً لها وتفرع الشعوب الأخرى عن جانبه من كل جهة، كأنها فروع لتلك الشجرة حتى تتصل تلك الأنساب عموداً وفروعاً بأصلها الجامع لها ظاهرة للعيان في صفحة واحدة، فترسم في الخيال دفعة ويكون ذلك أعون على تصور الأنساب وتشعبها فإن الصور الحسية أقرب إلى الارتسام في الخيال من المعاني المتعلقة. ثم لما كانت هذه الأمم كلها لها دول وسلطان، اعتمدنا بالقصد الأول ذكر الملوك منهم في تلك الشجرات متصلة أنسابهم إلى الجد الذي يجمعهم، بعد أن نرسم على كل واحد منهم رتبته في تعاقبهم واحداً بعد واحد بحروف أ ب ج د فالألف للأول، والباء للثاني، والجيم للثالث، والدال للرابع، والهاء للخامس، وهلم جراً، ونهاية الأجداد لأهل تلك الدولة في الآخر منهم، ويكون للأول غصون وفروع في كل جهة عنه، فإذا نظرت في الشجرة علمت أنساب الملوك في كل دولة وترتبهم بتلك الحروف واحداً بعد واحد والله أعلم بالصواب.

القول في أجيال العرب وأوليتها واختلاف طبقاتهم وتعاقبها وأنساب كل طبقة منها

أعلم أن العرب منهم الأمة الراحلة الناجعة، أهل الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم، والأنعام لكسبهم، يقومون عليها، ويقتاتون من ألبانها، ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها، ويحملون أثقالهم على ظهورها. يتنازلون حللاً متفرقة، ويبتغون الرزق في غالب أحوالهم من القنص، ويختطف الناس من السبل، ويتقلبون دائماً في المجالات فراراً من حمارة القيظ تارة،

وصبارة البرد أخرى، وانتجاعاً لمراعي غنمهم، وارتياداً لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم، وحمل أثقالهم ودفئهم ومنافعهم، فاختصوا لذلك بسكن الإقليم الثالث ما بين البحر المحيط من المغرب إلى أقصى اليمن وحدود الهند من المشرق. فعمروا اليمن والحجاز ونجداً وتهامة وما وراء ذلك مما دخلوا إليه في المائة الخامسة كما ذكروه من مصر وصحاري برقة وتلولها وقسطنطينة وإفريقية وزاغا والمغرب الأقصى والسوس، لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالأرياف والتلول والأرياف الآهلة بمن سواهم من الأمم في فصل الربيع وزخرف الأرض لرعي الكلأ والعشب في منابتها، والتنقل في نواحيها إلى فصل الصيف لمدة الأقوات في سنتهم من حبوبها.

وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من أضرارهم بإفساد السابلة، ورعي الزرع مخضراً، وانتهابه قائماً وحصيداً إلا ما حاطته الدولة، وذادت عنه الحامية في الممالك التي للسلطان عليهم فيها. ثم ينحدرون في فصل الخريف إلى القفار لرعي شجرها، ونتاج إبلهم في رمالها، وما أحاط به عملهم من مصالحها، وفراراً بأنفسهم وظعائنهم من أذى البرد إلى دفاء مشاتيها، فلا يزالون في كل عام مترددين بين الريف والصحراء ما بين الإقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين على ممر الأيام، شعارهم لبس المخيط في الغالب، ولبس العمائم تيجاناً على رؤوسهم يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها وهم عرب المشرق، وقوم يلفون منها الليت والأخدع قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها وهم عرب المغرب حاكوا بها عمائم زناتة من أمم أذقانهم من فضلها وهم عرب المغرب، حاكوا بها عمائم زناتة من أمم البربر. وكذلك لقنوا منهم في حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية، وهجروا تنكب القسي. وكان المعروف لأولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الأمرين.

ثم إن العرب لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان ولذلك سموا بهذا الاسم فإنه مشتق من الابانة لقولهم أعرب الرجل عما في ضميره إذا أبان عنه. ومنه قوله ﷺ: «الثيب تعرب عن نفسها». والبيان سمتهم بين الأمم منذ كانوا. وانظروا قصة كسرى لما طلب من خليفته على العرب النعمان بن المنذر. أن يوفد عليه من كبرائهم وخطبائهم من رضي لذلك، فاختار منهم وفد أوفده عليه وكان من خبره واستغراب ما جاءوا به من البيان ما هو معروف.فهذه كلها شعائرهم وسماتهم وأغلبها عليهم اتخاذ الإبل والقيام على نتاجها وطلب الانتجاع بها لارتياد مراعيها ومفاحص توليدها بما كان معاشهم منها. فالعرب أهل هذه الشعار من أجيال الآدميين. كما أن الشاوية أهل القيام على الشاة والبقر لما كان معاشهم فيها فلهذا لا يختصون بنسب واحد بعينه إلا بالعرض ولذلك كان النسب في بعضهم مجهولاً عند الأكثر وفي بعضهم خفياً على الجمهور. وربما تكون هذه السمات والشعائر في أهل نسب آخر فيدعون باسم العرب إلا أنهم في الغالب يكونون أقرب إلى الأولين من غيرهم. وهذا الانتقال لا يكون إلا في أزمنة متطاولة وأحقاب متداولة. ولذلك يعرض في الأنساب ما يعرض من الجهل والخفاء.

واعلم أن جيل العرب بعد الطوفان وعصر نوح عليه السلام كان في عاد الأولى وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمي إليهم من العرب العاربة من أبناء سام بن نوح. ثم لما انقرضت تلك العصور وذهب أولئك الأمم وأبادهم الله بما شاء من قدرته وصار هذا الجيل في آخرين ممن قرب من نسبهم من حمير وكهلان وأعقابهم من التبابعة ومن إليهم من العرب المستعربة من أبناء عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام. ثم لما تطاولت تلك العصور وتعاقبت وكان بنو فالغ بن عابر أعالم من بين ولده واختص الله بالنبوة منهم إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناحور بن ساروخ بن أرغو بن فالغ وكان من شأنه مع نمروذ ما قصه القرآن. ثم كان من هجرته إلى الحجاز ما هو مذكور.

وتخلف ابنه إسماعيل مع أمه هاجر بالحجر قرباناً لله، ومرت بها رفقة من جرهم في تلك المفازة فخالطوها ونشأ إسماعيل بينهم، وربي في أحيائهم، وتعلم لغتهم العربية بعد أن، كان أبوه أعجمياً. ثم كان بناء البيت كما قصه القرآن ثم بعثه الله، وإلى جرهم والعمالقة الذين كانوا بالحجاز، فآمن كثير منهم واتبعوه، ثم عظم نسله وكثر وصار بالجيل آخر من ربيعة ومضر ومن إليهم من إياد وعك وشعوب نزار وعدنان وسائر ولد إسماعيل وهم العرب التابعة للعرب. ثم انقرض أولئك الشعوب في أحقاب طويلة وانقرض ما كان لهم من الدولة في الإسلام. وخالطوا العجم بما كان لهم من التغلب عليهم ففسدت لغة أعقابهم في آماد متطاولة وبقي خلفهم أحياء بادين في القفار والرمال والخلاء من الأرض تارة والعمران تارة. وقبائل بالمشرق والمغرب والحجاز واليمن وبلاد الصعيد والنوبة والحبشة وبلاد الشام والعراق والبحرين وبلاد فارس والسند وكرمان وخراسان، أمم لا يأخذها الحصر والضبط، قد كاثروا أمم الأرض لهذا العهد شرقاً وغرباً، واعتزوا عليهم فهم اليوم أكثر أهل العالم وأملك لأمرهم من جميع الأمم.

ولما كانت لغتهم مستعجمة على اللسان المضري الذي نزل به القرآن، وهو لسان سلفهم، سميناهم لذلك العرب المستعجمة فهذه أجيال العرب منذ مبدأ الخليقة ولهذا العهد في أربع طبقات متعاقبة، كان طبقة منها عصور وأجيال ودول وأحياء وقع العناية بها دون من سواهم من الأمم لكثرة أجيالهم واتساع النطاق من ملكهم. فلنذكر لكل طبقة أحوال جيلها وبعض أيامهم ودولهم، ومن كان عهدهم من ملوك الأمم ودولهم ليتبين لك بذلك مراتب الأجيال في الخليقة كيف تعاقبت، والله سبحانه وتعالى ولي العون.

برنامج بما تضمنه الكتاب من الدول في هذه الطبقات الأربع على ترتيبها والدول المعاصرين من العجم في كل خليقة منها

فنبدأ أولاً بذكر الطبقة الأولى وهم العرب العاربة ونذكر أنسابهم ومواطنهم وما كان لهم من الملك والدولة. ثم الطبقة الثانية وهم العرب المستعربة من بني حمير بن سبا ونذكر أنسابهم وما كان لهم من الملك باليمن في التبابعة وأعقابهم. ثم نرجع إلى ذكر معاصرهم من العجم وهم ملوك بابل من السريانيين، ثم ملوك الموصل ونينوى من الجرامقة، ثم القبط وملوكهم بمصر، ثم بني إسرائيل ودولهم ببيت المقدس قبل تخريب بختنصر وبعده وبالصابئة، ثم الفرس ودولهم الأولى والثانية، ثم يونان ودولهم الإسكندر وقومه، ثم الروم ودولهم في القياصرة وغيرهم.

ثم نرجع إلى ذكر الطبقة الثالثة وهم العرب التابعة للعرب من قضاعة وقحطان وعدنان وشعبيها العظيمين ربيعة ومضر. فنبدأ بقضاعة وأنسابهم وما كان لهم من الملك البدوي في آل النعمان بالحيرة والعراق ومن زاحمهم فيها من ملوك كندة بني حجر آكل المرار. ثم ما كان لهم أيضاً من الملك البدوي بالشام في بني جفنة بالبلقاء والأوس والخزرج بالمدينة النبوية.

ثم عدنان وأنسابهم وما كان لهم من الملك بمكة في قريش ثم ما شرفهم الله به وجيل الآدميين أجمع من النبوة، وذكر الهجرة والسير النبوية، ثم نذكر ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك، فنترجم للخلفاء الأربعة وما كان على عصرهم من الردة والفتوحات والفتن. ثم نذكر خلفاء الإسلام من بني أمية وما كان لعهدهم من أمر الخوارج. ثم نذكر خلفاء الشيعة وما كان لهم من الدول في الإسلام. والأولى الدولة العظيمة لبني العباس التي انتشرت في أكثر ممالك الإسلام، ثم دول العلوية المزاحمين لها بعد صدر منها وهي دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، ثم دولة العبيدية من الإسماعيلية بالقيروان ومصر، ثم القرامطة بالبحرين، ثم دعاة طبرستان والديلم، ثم ما كان من هؤلاء العلوية بالحجاز ثم نذكر بني أمية المنازعين لبني العباس بالأندلس، وما كان لهم من الدولة هنالك، والطوائف من بعدهم.

ثم نرجع إلى ذكر المستبدين بالدعوة العباسية بالمغرب والنواحي، وهم بنو الأغلب بإفريقية وبنو حمدان بالشام، وبنو المقلد بالموصل، وبنو صالح بن كلاب بحلب، وبنو مروان بديار بكر، وبنو أسد بالحلة، وبنو زياد باليمن، وبنو هود بالأندلس. ثم نرجع إلى القائمين بالدعوة العبيدية بالنواحي وهم الصلحيون باليمن، وبنو أبي الحسن الكلبي بصقلية وصنهاجة بالمغرب. ثم نرجع إلى المستبدين بالدعوة العباسية من العجم في النواحي، وهم بنو طولون بمصر ومن بعدهم بنو طغج، وبنو الصفار بفارس وسجستان، وبنو سامان فيما وراء النهر، وبنو سبكتكين في غزنة وخراسان، وغوربة في غزنة والهند، وبنو حسنويه من الكرد في خراسان.

ثم نرجع إلى ذكر المستبدين على الخلفاء ببغداد من العجم، وهم أهل الدولتين العظيمتين القائمتين بملك الإسلام من بعد العرب، وهم بنو بويه من الديلم والسلجوقية من الترك. ثم نرجع إلى ملوك السلجوقية المستبدين بالنواحي وهم بنو طغتكين بالشام، وبنو قطلمش ببلاد الروم، وبنو خوارزم شاه ببلاد العجم وما وراء النهر، وبنو سقمان بخلاط وأرمينية، وبنو أرتق بمادرين، وبنو زنكي بالشام، وبنو أيوب بمصر والشام. ثم الترك الذي ورثوا ملكهم هنالك، وبنو رسول باليمن ثم نرجع إلى ذكر التتر من الترك القائمين على دولة الإسلام والمصلين للخلافة العباسية، ثم ما كان من دخلوهم في دين الإسلام وقيامهم بالملك بالنواحي، وهم بنو هولاكو بالعراق، وبنو ذوشيخان بالشمال، وبنو أرتنا ببلاد الروم، ومن بعد بني هولاكو بنو الشيخ حسن ببغداد وتوريزو بنو المظفر بأصبهان وشيراز وكرمان، وبعد بني أرتنا ملوك بني عثمان من التركمان ببلاد الروم وما وراءها. ثم نرجع إلى الطبقة الرابعة من المغرب وهم المستعجمة ومن له ملك بدوي منهم بالمغرب والمشرق. ثم نخرج بعد ذكر ذلك إلى ذكر البربر ودولهم بالمغرب والمشرق. ثم نخرج بعد ذلك إلى ذكر البربر ودولهم بالمغرب لأنهم كانوا من شرط كتابنا. وهنالك نذكر برنامج دولهم والله سبحانه أعلم.

الطبقة الأولى من العرب وهم العرب العاربة وذكر نسبهم والإلمام بملكهم ودولهم على الجملة

هذه الأمة أقدم الأمم من بعد قوم نوح وأعظمهم قدرة وأشدهم قوة وآثاراً في الأرض، وأول أجيال العرب من الخليقة فيما سمعناه. لأن أخبار القرون الماضية من قبلهم يمتنع اطلاعنا عليها التطاول الأحقاب ودروسها، إلا ما يقصه علينا الكتاب ويؤثر عن الأنبياء بوحي الله إليهم، وما سوى ذلك من الأخبار الأزلية فمنقطع الإسناد. ولذلك كان المعتمد عند الإثبات في أخبارهم ما تنطق به آية القرآن في قصص بالأنبياء الأقدمين، أو ما ينقله زعماء المفسرين في تفسيرها من أخبارهم وذكر دولهم وحروبهم، ينقلون ذلك عن السلف من التابعين الذين أخذوا عن الصحابة، أو سمعوه ممن هاجر إلى الإسلام من أحبار اليهود وعلمائهم أهل التوراة أقدم الصحف المنزلة فيما علمنا، وما سوى ذلك من حطام المفسرين وأساطير القصص وكتب بدء الخليقة فلا نعول على شيء منه. وإن وجد لمشاهير العلماء تآليف مثل كتاب الياقوتية للطبري، والبدء للكسائي، فإنما نحوا فيها منحى القصّاص وجروا على أساليبهم، ولم يلتزموا فيها الصحة، ولا ضمنوا لنا الوثوق بها، فلا ينبغي التعويل عليها وتترك وشأنها.

وأخبار هذا الجيل من العرب وإن لم يقع لها ذكر في التوراة، إلا أن بني إسرائيل من بين أهل الكتاب أقرب إليهم عصراً، وأوعى لأخبارهم، فلذلك يعتمد نقل المهاجرة منهم لأخبار هذا الجيل، ثم إن هذه الأمم على ما نقل كان لهم ملوك ودول. فملوك جزيرة العرب، وهي الأرض التي أحاط بها بحر الهند من جنوبها، وخليج الحبشة من غربها، وخليج فارس من شرقها، وفيها اليمن والحجاز والشحر وحضرموت. وامتد ملكهم فيها إلى الشام ومصر في شعوب منهم على ما يذكر ويقال:إنهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام، فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين، ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وآطام وقصور حسبما نذكره، إلى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان. وهؤلاء العرب العاربة شعوب كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبد ضخم وجرهم وحضرموت وحضورا والسلفات.

وسمي أهل هذا الجيل العرب العاربة، إما بمعنى الرساخة في العروبية كما يقال: ليل أليل وصوم صائم. أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها. وقد تسمى البائدة أيضاً بمعنى الهالكة، لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم. فأما عاد وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام، فكانت مواطنهم الأولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشِحر. وكان أبوهم عاد فيما يقال أول من ملك من العرب، وطال عمره وكثر ولده، وفي التواريخ ولد له أربعة آلاف ولد ذكر لصلبه، وتزوج ألف امرأة، وعاش ألف سنة ومائتي سنة. وقال البيهقي: إنه عاش ثلثمائة سنة، وملك بعده بنوه الثلاثة شديد وبعده شداد وبعده إرم. وذكر المسعودي: إن الذي ملك من بعد عاد وشداد منهم، هو الذي سار في الممالك، واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق. وقال الزمخشري: إن شداد هو الذي بنى مدينة إرم في صحارى عدن، وشيدها بصخور الذهب وأساطين الياقوت والزبرجد، يحاكي بها الجنة لما سمع وصفها طغياناً منه وعتواً. ويقال: إن باني إرم هذه هو إرم بن عاد. وذكر ابن سعيد عن البيهقي: أن باني إرم هو إرم بن شداد بن عاد الأكبر، والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم وإنما هذا من خرافات القصاص، وإنما ينقله ضعفاء المفسرين. وإرم المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ القبيلة لا البلد.

وذكر المسعودي أن ملك عوص كان ثلثمائة وأن الذي ملك من بعده ابنه عاد بن عوص، وأن جيرون بن سعد بن عاد كان من ملوكهم وأنه الذي اختط مدينة دمشق ومصّرها، وجمع عمد الرخام والمرمر إليها وسماها إرم. ومن أبواب مدينة دمشق إلى هذا العهد باب جيرون، وذكره الشعراء في معاهدها قال الشاعر:

النخل فالقصر فالحماء بينهما ... أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

وهذا البيت في الصوت الأول من كتاب الأغاني. وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق: جيرون ويزيد أخوان هما ابنا سعد بن لقمان بن عاد، وبهما عرف جيرون ونهر يزيد. والصحيح أن باب جيرون إنما سمي باسم مولى من موالي سليمان عليه السلام في دولة بني إسرائيل، جيرون كان ظاهراً في دولتهم.

وذكر ابن سعيد في أخبار القبط أن شداد بن بداد بن هداد بن شداد بن عاد حارب بعضاً من القبط وغلب على أسافل مصر، ونزل الإسكندرية وبنى فيها حينئذ مدينة مذكورة في التوراة يقال لها أون، ثم هلك في حروبهم، وجمع القبط إخوتهم من البربر والسودان، وأخرجوا العرب من ملك مصر.

ثم لما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم انتحلوا عبادة الصنام والأوثان من الحجارة والخشب ويقال: إن ذلك

لانتحالهم دين الصابئة، فبعث الله إليهم أخاهم هوداً، وهو فيما ذكر المسعودي والطبري هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد، وفي كتاب البدء لابن حبيب: رباح بن حرب بن عاد، وبعضهم يقول هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ. فوعظهم وكان ملوكهم لعهده الخلجان، ولقمان بن عاد بن عاديا بن صدا بن عاد فآمن به لقمان وقومه وكفر الخلجان، وامتنع هود بعشيرته من عاد. وحبس الله عنهم المطر ثلاث سنين، وبعثوا الوفود من قومهم إلى مكة يستسقون لهم، وكان في الوفد على ما قاله الطبري نعيم بن هزال بن هزيل بن عبيل بن صدا بن عاد. وقيل ابن عنز منهم، وحلقمة بن الخسري ومرثد بن سعد بن عنز. وكان ممن آمن بهود واتبعه، وكان بمكة من عاد هؤلاء: معاوية بن بكر وقومه، وكانت هزيلة أخت معاوية عند نعيم بن هزال، وولدت له عبيداً وعمراً وعامراً، فلما وصل الوفد إلى مكة مروا بمعاوية بن بكر وابنه بكر ونزل الوفد عليه. ثم تبعهم لقمان بن عاد، وأقاموا عند معاوية وقومه شهراً لما بينهم من الخؤلة، ومكثوا يشربون وتغنيهم الجرادتان، قينتان لمعاوية بن بكر وابنه بكر. ثم غنتاهم شعراً تذكرهم بأمرهم، فانبعثوا ومضوا إلى الاستسقاء، وتخلف عنهم لقمان بن عاد ومرثد بن سعد، فدعوا في استسقائهم وتضرعوا وأنشأ الله السحب، ونودي بهم أن اختاروا فاختاروا سوداء من السحب، وأنذروا بعذابها فمضت إلى قومهم وهلكوا كما قصه القرآن.

وفي خبر الطبري أن الوفد لما رجعوا إلى معاوية بن بكر لقيهم خبر مهلك قومهم هنالك وأن هوداً بساحل البحر، وأن الخلجان ملكهم قد هلك بالريح فيمن هلك، وأن الريح كانت تدخل تحت الرجل فتحمله، حتى تقطعوا في الجبال، وتقلع الشجر وترفع البيوت حتى هلكوا أجمعون. انتهى كلام الطبري.

ثم ملك لقمان ورهطه من قوم عاد، واتصل لهم الملك فيما يقال ألف سنة أو يزيد، وانتقل ملكه إلى ولده لقمان، وذكر البخاري في تاريخه: أن الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً هو هدد بن بدد بن الخلجان بن عاد بن رقيم بن عابر بن عاد الأكبر، وأن المدينة بساحل برقة اه.ولم يزل ملكهم متصلاً إلى أن غلبهم عليه يعرب بن قحطان، واعتصموا بجبال حضرموت إلى أن انقرضوا. وقال صاحب زجار أن ملكهم عاد بن رقيم بن عابر بن عاد الأكبر هو الذي حارب يعرب بن قحطان، وكان كافراً يعبد القمر، وأنه كان على عهد نوح وهذا بعيد، لأن بعثة هود كانت عند استفحال دولتهم أو عند مبتدئها، وغلب يعرب كان عند انقراضها. وكذلك هدد الذي ذكر البخاري أنه ملك برقة إنما هو حافد الخلجان الذي اعتصم آخرهم بجبل حضرموت. وخبر البخاري مقدم، وقال علي بن العزيز الجرجاني: وكان من ملوك عاد يعمر بن شداد، وعبد أبهر بن معديكرب بن شمد بن شداد بن عاد، وحناد بن مياد بن شمد بن شداد، وملوك آخرون أبادهم الله والبقاء لله وحده.

فأما عبيل وهم إخوان عاد بن عوص فيما قاله الكلبي، وإخوان عوص بن إرم فيما قاله الطبري، وكانت ديارهم بالجحفة بين مكة والمدينة وأهلكهم السيل. وكان الذي اختط يثرب منهم، هكذا قال المسعودي، وقال هو يثرب بن بائلة بن مهلهل بن عبيل. وقال السهيلي: إن الذي اختط يثرب من العماليق وهو يثرب بن مهلايل بن عوص بن عمليق. وأما عبد ضخم بن إرم فقال الطبري: كانوا يسكنون الطائف وهلكوا فيمن هلك من ذلك الجيل. وقال غيره: إنهم أول من كتب بالخط العربي.

وأما ثمود وهم بنو ثمود بن كاثر بن إرم فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى، فيما بين الحجاز والشام، وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال، ويقال: لأن أعمارهم كان تطول، فيأتي البلاء والخراب على بيوتهم، فنحتوها لذلك في الصخر، وهي لهذا العهد، وقد مر بها النبي ﷺ في غزوة تبوك، ونهى عن دخولها كما في الصحيح، وفيه إشارة إلى أنها بيوت ثمود أهل ذلك الجيل، ويشهد ذلك ببطلان ما يذهب إليه القصاص. ووقع مثله للمسعودي من أن أهل تلك الأجيال كانت أجسامهم مفرطة في الطول والعظم، وهذه البيوت المشاهدة المنسوبة إليهم بكلام الصادق صلوات الله عليه، يشهد بأنهم في طولهم وعظم حجراتهم مثلنا سواء، فلا أقدم من عاد وأهل أجيالهم فيما بلغنا.ويقال: إن أول ملوكهم كان عابر بن إرم بن ثمود، ملك عليهم مائتي سنة. ثم كان من بعده جندع بن عمرو بن الدبيل بن إرم بن ثمود. ويقال: ملك نحواً من ثلثمائة سنة.

وفي أيامه كانت بعثة صالح عليه السلام، وهو صالح بن عبيل بن أسف بن شالخ بن عبيل بن كاثر بن ثمود، وكانوا أهل كفر وبغي رعبادة أوثان، فدعاهم صالح إلى الدين والتوحيد. قال الطبري: فلما جاءهم بذلك كفروا وطلبوا الآيات، فخرج بهم إلى هضبة من الأرض فتمخضت عن الناقة، ونهاهم أن يتعرضوا لها بعقر أو هلكة. وأخبرهم مع ذلك أنهم عاقروها ولا بدّ، ورأس عليهم قدار بن سالف، وكان صالح وصف لهم عاقر الناقة بصفة قدار هذا، ولما طال النذير عليهم من صالح سئموه وهموا بقتله، وكان يأوي إلى مسجد خارج ملائهم، فكمن له رهط منهم تحت صخرة في طريقه ليقتلوه، فانطبقت عليهم وهلكوا وحنقوا ومضوا

إلى الناقة، ورماها قدار بسهم في ضرعها وقتلها، ولجأ فصيلها إلى الجبل فلم يدركوه.

وأقبل صالح وقد تخوف عليهم العذاب، فلما رآه الفصيل أقبل إليه ورغا ثلاث رغاآت، فأنذرهم صالح ثلاثاً، وفي صبح الرابعة صعقوا بصيحة من السماء تقطعت بها قلوبهم فأصبحوا جاثمين، وهلك جميعهم حيث كانوا من الأرض، إلا رجلاً كان في الحرم منعه الله من العذاب. قيل: من هو يا رسول اللّه؟ قال: «أبو رغال». ويقال: إن صالحاً أقام عشرين سنة ينذرهم، وتوفي ابن ثمان وخمسين سنة، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ «مر في غزوة تبوك بقرى ثمود، فنهى عن استعمال مياههم وقال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون أن يصيبكم ما أصابهم» اه. كلام الطبري.

وقال الجرجاني: كان من ملوكهم دوبان بن يمنع ملك الإسكندرية وموهب بن مرة بن رحيب، وكان عظيم الملك. وأخوه هوبيل بن مرة كذلك. وفيما ذكره المفسرون أنهم أول من نحت الجبال والصخور، وأنهم بنو ألفاً وسبعمائة مدينة، وفي هذا ما فيه. ثم ذهبوا بما كسبوا ودرجوا في الغابرين وهلكوا. ويقال: إن من بقاياهم أهل الرس الذين كان نبيهم حنظلة بن صفوان، وليس ذلك بصحيح. وأهل الرس هم حضور ويأتي ذكرهم في بني فالغ بن عابر، وكذلك يزعم بعض النسابة أن ثقيفاً من بقايا ثمود هؤلاء وهو مردود. وكان الحجاج بن يوسف إذا سمع ذلك يقول: كذبوا. وقال والله جل من قائل يقول: وثمود فما أبقى، أي أهلكهم فما أبقى أحداً منهم. وأهل التوراة لا يعرفون شيئاً من أخبار عاد ولا ثمود، لأنهم لم يقع لهم ذكر في التوراة، ولا لهود ولا لصالح عليهما السلام، بل ولا لأحد من العرب العاربة، لأن سياق الأخبار في التوراة عن أولئك الأمم إنما هو لمن كان في عمود النسب ما بين موسى وآدم صلوات اللّه عليهم، وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر في عمود ذلك النسب فلم يذكروا فيها.

وأما جديس وطسم فعند ابن الكلبي أن جديساً لإرم بن سام، وديارهم اليمامة وهم إخوان لثمود بن كاثر، ولذلك ذكرهم بعدهم، وأن طسماً للاوذ بن سام وديارهم بالبحرين. وعند الطبري أنهما معاً للاوذ، وديارهم باليمامة. ولهذين الاثنين خبر مشهور ينبغي سياقه عند ذكرهم. قال الطبري عن هشام بن محمد الكلبي بسنده إلى ابن إسحاق وغيره من علماء العرب: أن طسماً وجديساً كانوا من ساكني اليمامة وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيراً وثماراً وحدائق وقصوراً. وكان ملك طسم غشوماً لا ينهاه شيء عن هواه، ويقال له: عملوق وكان مضراً لجديس مستذلاً لهم حتى كانت البكر من جديس لا تهدى إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفترعها.

وكان السبب في ذلك أن امرأة منهم كان اسمها هزيلة طلقها زوجها وأخذ ولده منها، فأمر عملوق ببيعها، وأخذ زوجها الخمس من ثمنها فقالت شعراً تتظلم منه، فأمر أن لا تزوج منهم امرأة حتى يفترعها. فقاموا كذلك حتى تزوجت الشموس وهي عفيرة ابنة غفار بن جديس أخت الأسود فافتضها عملوق، فقال الأسود بن غفار لرؤساء جديس: قد ترون ما نحن فيه من الذل والعار الذي ينبغي للكلاب أن تعافه، فأطيعوني أدعكم إلى عز الدهر، فقالوا: وما ذاك؟ قال: أصنع للملك وقومه دعوة فإذا جاؤوا، يعني طسماً، نهضنا إليهم بأسيافنا فنقتلهم. فأجمعوا على ذلك ودفنوا سيوفهم في الرمل، ودعوا عملوقاً وقومه. فلما حضروا قتلوهم، فأفنوهم وقتل الأسود عملوقاً وأفلت رباح بن مرة بن طسم، فأتى حسان بن تبع مستغيثاً، فنهض حسان في حمير لإغاثته، حتى كان من اليمامة على ثلاث مراحل. قال لهم رباح: إن لي أختاً مزوجة في جديس اسمها اليمامة ليس على وجه الأرض أبصر منها، وإنها لتبصر الراكب على ثلاث مراحل، وأخاف أن تنظر القوم. فأمر كل رجل أن يقلع شجرة فيجعلها في يده، ويسير كأنه خلفها ففعلوا، وبصرت بهم اليمامة فقالت لجديس: لقد سارت إليكم حمير، وإني أرى رجلاً من وراء شجرة بيده كتف يتعرقها أو نعل يخصفها، فاستبعدوا ذلك ولم يحفلوا به، وصبحهم حسان وجنوده من حمير فأبادهم وخرب حصونهم وبلادهم، وهرب الأسود بن غفار إلى جبلي طيء فأقام بهما، ودعا تبع باليمامة أخت رباح التي أبصرتهم فقلع عينها. ويقال: إنه وجد بها عروقاً سوداً زعمت أن ذلك من اكتحالها بالإثمد، وكانت تلك البلد تسمى جو فسميت باليمامة اسم تلك المرأة.

قال أبو الفرج الأصبهاني: وكانت طيء تسكن الجرف من أرض اليمن، وهي اليوم محلة مراد وهمدان، وسيدهم يومئذ سامة بن لؤي بن الغوث بن طيء، وكان الوادي مسبعة، وهم قليل عددهم، وكان يجتاز بهم بعير في زمن الخريف ويذهب ثم يجيء من قابل ولا يعرفون مقره، وكان الأزد قد خرجت أيام سيل العرم واستوحشت طيء فظعنوا على أثرهم، وقالوا لسامة: هذا البعير إنما يأتي من الريف والخصب، لأن في بعره النوى، فلما جاءهم زمن الخريف اتبعوه يسيرون لسيره حتى هبط عن الجبلين، وهجموا على النخل في الشعاب وعلى المواشي، وإذا هم بالأسود بن غفار، في بعض تلك الشعاب، فهالهم خلقه وتخوفوه، ونزلوا

ناحية ونفضوا الطريق فلم يروا أحداً، فأمر سامة ابنه الغوث بقتل الأسود، فجاء إليه فعجب من صغر خلقه، وقال: من أين أقبلتم؟ قال: من اليمن، وأخبره خبر البعير ثم رماه فقتله، وأقامت طيء بالجبلين بعده.

وذكر الطبري عن غير ابن إسحاق أن تبّع الذي أوقع بجديس هو والد حسان هذا، وهو ثبان أسعد أبو كرب بن ملكي كرب، ويأتي ذكره في ملوك اليمن إن شاء اللّه تعالى، انتهى كلام الطبري.وقال غيره أن حسان بن تبع لما سار بحمير إلى طسم بعث على مقدمته إليهم عبد كلال بن منوب بن حجر بن ذي رعين من أقيال حمير، فسلك بهم رباح بن مرة الرمل، وكانت الزرقاء أخت رباح ناكحاً في طسم، وتسمى عنزة واليمامة، وكانت تبصر على البعد فأنذرتهم فلم يقبلوا وصبح عبد بن كلال جديساً إلى آخر القصة، وبقيت اليمامة بعد طسم يباباً لا يأكل ثمرها إلا عوافي الطير والسباع، حتى نزلها بنو حنيفة، وكانوا بعثوا رائدهم عبيد بن ثعلبة الحنفي يرتاد لهم في البلاد فلما أكل من ذلك الثمر، قال: إن هذا لطعام! وحجر بعصاه على موضع قصبة اليمامة، فسميت حجرا، واستوطنها بنو حنيفة وبها صبحهم الإسلام كما يأتي في أخبارهم إن شاء اللّه تعالى.

وأما العمالقة فهم بنو عمليق بن لاوذ، وبهم يضرب المثل في الطول والجثمان. قال الطبري: عمليق أبو العمالقة كلهم أمم تفرقت في البلاد، فكان أهل المشرق وأهل عُمان والبحرين وأهل الحجاز منهم، وكانت الفراعنة بمصر منهم، وكانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون منهم. وكان الذين بالبحرين وعُمان والمدينة يسمون جاسم، وكان بالمدينة من جاسم هؤلاء بنو لف وبنو سعد بن هزالف وبنو مطر وبنو الأزرق، وكان بنجد منهم بديل وراحل وغفار، وبالحجاز منهم إلى تيما بنو الأرقم، ويسكنون مع ذلك نجداً وكان ملكهم يسمى الأرقم قال: وكان بالطائف بنو عبد ضخم بن عاد الأول انتهى.

وقال ابن سعيد فيما نقله عن كتب التواريخ التي اطلع عليها في خزانة الكتب، بدار الخلافة من بغداد قال: كانت مواطن العمالقة تهامة من أرض الحجاز فنزلوها أيام خروجهم من العراق أمام النماردة من بني حام، ولم يزالوا كذلك إلى أن جاء إسماعيل صلوات اللّه عليه، وآمن به من آمن منهم. وتطردّ لهم الملك إلى أن كان منهم السميدع بن لاوذ بن عمليق، وفي أيامه خرجت العمالقة من الحرم، أخرجتهم جرهم من قبائل قحطان، فتفرقوا ونزل بمكان المدينة منهم بنو عبيل بن مهلايل بن عوص بن عمليق فعرفت به، ونزل أرض أيلة ابن هومر بن عمليق، واتصل ملكها في ولده. وكان السميدع سمة لمن ملك منهم إلى أن كان آخرهم السميدع بن هومر، الذي قتله يوشع لما زحف بنو إسرائيل إلى الشام بعد موسى صلوات اللّه عليه، فكان معظم حروبهم مع هؤلاء العمالقة هنالك، فغلبه يوشع وأسره وملك أريحا قاعدة الشام، وهي قرب بيت المقدس، ومكانها معروف لهذا العهد. ثم بعث من بني إسرائيل بعثاً إلى الحجاز فملكوه وانتزعوه من أيدي العمالقة ملوكه ونزعوا يثرب وبلادها وخيبر. ومن بقاياهم يهود قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وسائر يهود الحجاز على ما نذكره. ثم كان لهم ملك بعد ذلك في دولة الروم، وملّكوا أذينة بن السميدع على مشارف الشام والجزيرة من ثغورهم، وأنزلوهم في التخوم ما بينهم وبين فارس، وهذا الملك أذينة بن السميدع هو الذي ذكره الشاعر في قوله:

ازال أذينة عن ملكه ... وأخرج عن أهله ذا يزن

وكان من بعده حسان بن أذينة، ومن بعده طرف بن حسان بن يدياه نسبة إلى أمه، وبعده عمرو بن طرف، وكان بينه وبين جذيمة الأبرش حروب، وقتله جذيمة واستولى على ملكهم. وكان آخراً من العمالقة كما نذكر ذلك في موضعه.ومن هؤلاء العمالقة فيما يزعمون عمالقة مصر وأن بعض ملوك القبط استنصر بملك العمالقة بالشام لعهده، واسمه الوليد بن دومغ، ويقال ثوران بن أراشة بن فادان بن عمرو بن عملاق، فجاء معه ملك مصر واستعبد القبط.

قال الجرجاني: ومن ثم ملك العماليق مصر ويقال: إن منهم فرعون إبراهيم وهو سنان بن الأشل بن عبيد بن عولج بن عمليق، وفرعون يوسف أيضاً منهم وهو الريان بن الوليد بن فوران، وفرعون موسى كذلك وهو الوليد بن مصعب بن أبي أهون بن الهلوان، ويقال إنه قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن فاران، وكان الذي ملك مصر بعد الريان بن الوليد طاشم بن معدان اه.كلام الجرجاني.

وقال غيره: الريان فرعون يوسف؛ وهو الذي تسميه القبط نقراوش، وأن وزيره كان أطفير وهو العزيز، وأنه آمن بيوسف، وأن أرض الفيوم كانت مغايض للماء فدبرها يوسف بالوحي والحكمة حتى صارت أعز الديار المصرية، وملك بعده ابنه دارم بن الريان، وبعده ابنه معدانوس فاستعبد بني إسرائيل.

قال الكلبي: ويذكر القبط أنه فرعون موسى، وذكر أهل الأثر أنه الوليد بن مصعب وأنه كان نجاراً من غير بيت الملك، فاستولى إلى أن ولي حرس السلطان، ثم غلب عليه ثم استبد بعده، وعليه انقرض أمر العمالقة. ولما غرق في اتباع موسى صلوات اللّه

عليه، رجع الملك إلى القبط فولوا من بيت ملكهم دلوكة العجوز كما نذكره في أخبارهم إن شاء الله تعالى، وأما بنو إسرائيل فليس عندهم ذكر لعمالقة الحجاز، وعندهم أن عمالقة الشام من ولد عملاق بن اليفاد بتفخيم الفاء ابن عيصو أو عيصاب أو العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. وفراعنة مصر منهم على الرأيين.

وأما الكنعانيون الذين ذكر الطبري أنهم من العمالقة، فهم عند الإسرائيليين من كنعان بن حام، وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام وملكوها، وكان معهم فيها بنو عيصو المذكورون، ويقال لهم بنو يدوم ومن أيديهم جميعاً ابتزها بنو اسرائيل عند المجيء أيام يوشع بن نون. ولذلك تزعم زناتة المغرب أنهم من هؤلاء العمالقة وليس بصحيح.

وأما أميم فهم إخوان عملاق بن لاوذ. قال السهيلي: يقال بفتح الهمزة وكسر الميم وبضم الهمزة وفتح الميم وهو أكثر ووجدت بخط بعض المشاهير أميم بتشديد الميم. ويذكر أنهم أول من بنى البنيان، واتخذ البيوت والآطام من الحجارة، وسقفوا بالخشب. وكانت ديارهم فيما يقال: أرض فارس، ولذلك زعم بعض نسابة الفرس أنهم من أميم وأن كيومرث الذين ينسبون إليه هو ابن أميم بن لاوذ وليس بصحيح وكان من شعوبهم وبار بن أميم، نزلوا رمل عالج بين اليمامة والشحر وسالت عليهم الريح فهلكوا.

وأما العرب البايدة من بني أرفخش بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ فهم جرهم وحضورا وحضرموت والسلف. فأما حضورا فكانت ديارهم بالرسّ وكانوا أهل كفر وعبادة أوثان، وبعث إليهم نبي منهم اسمه شعيب بن ذي مهرع فكذبوه وهلكوا كما هلك غيرهم من الأمم. وأما جرهم فكانت ديارهم باليمن، وكانوا يتكلمون بالعبرانية، وقال البيهقي: إن يعرب بن قحطان لما غلب عاداً على اليمن، وملكه من أيديهم ولّى إخوته على الأقاليم، وولي جرهم على الحجاز، وولي بلاد عاد الأولى، وهي الشحر، عاد بن قحطان، فعرفت به، وولي جرهم على الحجاز، وولى بلاد عاد الأولى وهي الشحر، عاد بن قحطان فعرفت به، وولى عمان يقطن بن قحطان. انتهى كلام البيهقي. وقيل إنما نزلت جرهم الحجاز، ثم بني قطور بن كركر بن عملاق لقحط أصاب اليمن، فلم يزالوا بمكة إلى أن كان شأن إسماعيل عليه السلام ونبوته، فآمنوا به وقاموا بأمره، وورثوا ولاية البيت عنه، حتى غلبتهم عليه خزاعة وكنانة فخرجت جرهم من مكة ورجعوا إلى ديارهم باليمن إلى أن هلكوا.

وأما حضرموت فمعدودون في العرب العاربة لقرب أزمانهم وليسوا من العرب البايدة لأنهم باقون في الأجيال المتأخرة، إلا أن يقال: أن جمهورهم قد ذهب من بعد عصورهم الأولى واندرجوا في كندة، وصاروا من عدادهم، فهم بهذا الاعتبار قد هلكوا وبادوا والله أعلم. وقال علي بن عبد العزيز: أنه كان فيهم ملوك التبابعة في علو الصيت ونهاية الذكر. قال وذكر جماعة من العلماء أن أول من انبسط ملكه منهم، وارتفع ذكره عمرو الأشنب بن ربيعة بن يرام بن حضرموت. ثم خلفه ابنه نمر الأزج، فملك مائة سنة وقاتل العمالقة، ثم ملك كريب ذو كراب، ثم نمر الأزج مائة وثلاثاً وثلاثين سنة، وهلك إخوته في ملكه. ثم ملك مرثد ذو مروان بن كريب مائة وأربعين سنة، وكان يسكن مأرب ثم تحول إلى حضرموت.

ثم ملك علقمة ذو قيعان بن مرثد ذي مروان بحضرموت ثلاثين سنة، ثم ملك ذو عيل بن ذي قيعان عشر سنين، وسكن صنعاء وغزا الصين، فقتل ملكها وأخذ سيفه ذا النور، ثم ملك ذو عيل بن ذي عيل بحضرموت عشر سنين، ولما شخص سنان ذو ألم لغزو الصين تحول ذو عيل إلى صنعاء واشتدت وطأته، وكان أول من غزا الروم من ملوك اليمن، وأول من أدخل الحرير والديباج إلى اليمن. ثم ملك بدعات بن ذي عيل بحضرموت أربع سنين، ثم ملك بدعيل بن بدعات وبنى حصوناً وخلف آثاراً، ثم ملك بديع ذو عيل، ثم ملك حماد بن بدعيل بحضرموت، فأنشأ حصنه المعقرب، وغزا فارس في عهد سابور ذي الأكتاف، وخرب وسبى، ودام ملكه ثمانين سنة. وكان أول من اتخذ الحِجاب من ملوكهم. ثم ملك يشرح ذو الملك بن ودب بن ذي حماد بن عاد من بلاد حضرموت مائة سنة، وكان أول من رتب الرواتب، وأقام الحرس والروابط. ثم ملك منعم بن ذي الملك دثار بن جذيمة بن منعم، ثم يشرح بن جذيمة بن منعم، ثم نمر بن بشرح، ثم ساجن المسمى ابن نمر وفي أيامه تغلبت الحبشة على اليمن.

هذه قبائل هذا الجيل من العرب العاربة وما كانوا عليه من الكثرة والملك، إلى أن انقرضوا وادال الله من أمرهم بالقحطانية كما نحن ذاكروه. ولم نغفل منهم إلا من لم يصلنا ذكره من خبره، والله وارث الأرض ومن عليها.

وأما جرهم فقال له ابن سعيد إنهم أمتان: أمة على عهد عاد وأمة من ولد جرهم بن قحطان، ولما ملك يعرب بن قحطان اليمن، ملك أخوه جرهم بن الحجاز. ثم ملك من بعده ابنه عبد ياليل، ثم بعده ابنه عبد المدان بن جرهم، ثم ابنه نفيلة بن عبد المدان، ثم ابنة عبد المسيح بن نفيلة، ثم ابنه مضاض بن عبد

المسيح، ثم ابنه الحرث. ثم ملك من بعده جرهم بن عبد ياليل، ثم بعده ابنه عمرو بن الحرث، ثم أخوه بشير بن الحرث، ثم مضاض بن عمرو بن مضاض. قال وهذه الأمة الثانية هم الذين بعث إليهم إسماعيل عليه السلام وتزوج فيهم. انتهى.

وأما بنو سبا بن يقطن فلم يبيدوا، وكان لهم بعد تلك الأجيال البائدة أجيال باليمن، منهم حمير وكهلان وملوك التبابعة، وهم أهل الطبقة الثانية. وفي مسند الإمام أحمد: أن رجلاً سأل رسول اللّه ﷺ قيل هو فروة بن مسيق المرادي عن سبا أرجلٌ هو أو امرأة أم أرض؟ فقال بل رجل ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة. فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعر وأنمار وحمير. وأما الشاميون فلخم وجذام وعاملة وغسان. وثبت أن أباهم قحطان كان يتكلم بالعربية، ولقنها عن الأجيال قبله، فكانت لغة بنيه. ولذلك سموا العرب المستعربة، ولم يكن في آباء قحطان من لدن نوح عليه السلام إليه من يتكلم بالعربية، وكذلك كان أخوه فالغ وبنوه إنما يتكلمون بالعجمية إلى أن جاء إسماعيل بن إبراهيم صلوات اللّه عليهما، فتعلم العربية من جرهم فكانت لغة بنيه، وهم أهل الطبقة الثالثة المسمون بالعرب التابعة للعرب. فلنذكر هذا النسب لينتظم أجياله مع الأجيال السابقة واللاحقة، ونستوفي أنساب الأمم منها.

الخبر عن إبراهيم أبي الأنبياء عليهم السلام ونسبه إلى فالغ بن عابر وذكر أولاده صلوات اللّه عليهم وأحوالهم

ولنذكر الآن أهل هذا النسب ما بين إسماعيل ونوح عليهما السلام، ومن كان منهم أو من إخوانهم أو أبنائهم من الأنبياء والشعوب والملوك، وما كان لإسماعيل صلوات اللّه عليه من الولد، ونختم هذه الطبقة الأولى بذكرهم، وإن كانوا عجماً في لغاتهم، إلا أنهم أصون الخليقة في أنسابهم، وكل البشر على بعض الآراء من أعقابهم، وهم مع ذلك معاصرون لهذه الطبقة، فيتسق الكلام فيهم على شرط كتابنا، ويتميز بذكر أخبارهم أحوال الطبقات التي بعدهم على الوفاء والكمال.

فنبدأ أولاً بذكر عمود هذا النسب على التوالي ثم نرجع إلى أخبارهم.

وإسماعيل صلوات اللّه عليه هو ابن إبراهيم بن آزر، وهو تارح وآزر اسم لصنمه لقب به ابن ناحور بن ساروخ بالخاء أو بالغين ابن عابر أو عنبر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وهذه الأسماء الأعجمية كلها منقولة من التوراة ولغتها عبرانية، ومخارج حروفها في الغالب مغايرة لمخارج الحروف العربية. وقد يجيء الحرف منها بين حرفين من العربية، فترده العرب إلى أحد ذينك الحرفين، وفي مخرجه فيتغير عن أصله، ولذلك تكون فيها إمالة متوسطة أو محضة، فيصير إلى حرف العلة التي بعده من ياء أو واو، فلذلك تنقل الكلمة منها على اختلاف. وإلا فشأن الأعلام أن لا تختلف. وقال الطبري أن بين شالخ وارفخشذ أباً آخر اسمه قينن، وسقط ذكره من التوراة لأنه كان ساحراً وادعى الألوهية.

وقال ابن حزم: في كتب النصارى أن بين فالغ وعابر أباً آخر اسمه ملكيصدق وهو أبو فالغ.

واعلم أن نوحاً صلوات اللّه عليه بلغ عمره يوم الطوفان ستمائة سنة، عاش بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة، فكانت جملة ذلك تسعمائة وخمسين سنة، ألف سنة إلا خمسين. وهذا نص المصحف الكريم، وكذا وقع في التوراة بعينه. ومن الغريب الواقع في التوراة أن عمر إبراهيم كان يوم وفاة نوح ثلاثاً وخمسين سنة، لأنه قال أن أرفخشذ ولد لسام بعد سنتين من الطوفان، ولما بلغ خمساً وثلاثين سنة ولد له ابنه شالخ، وبعد ثلاثين سنة ولد ابنه عابر، وبلغ عابر أربعاً وثلاثين سنة فولد ابنه فالغ، وبلغ فالغ ثلاثين سنة فولد له أرغو، وبلغ أرغو اثنتين وثلاثين سنة فولد شاروغ، وبلغ شاروغ ثلاثين سنة فولد ناحور، وبلغ ناحور تسعاً وعشرين سنة فولد تارح، وبلغ تارح خمساً وسبعين سنة فولد إبراهيم، وجملة هذه السنين من الطوفان إلى ولادة إبراهيم مائتان وسبع وتسعون سنة، وعمر نوح بعد الطوفان ثلثمائة وخمسون سنة، فيكون إبراهيم بعد وفاة نوح ابن ثلاث وخمسين سنة، فيكون لقي نوحاً صلوات اللّه عليهما، وخالطه وأخذ عنه، وهو على رأي بعضهم أب لجميع الشعوب من بعده، فلذلك كان الأب الثالث للخليقة من بعد آدم ونوح صلوات اللّه عليهم أجمعين اه.

وفي كتاب البدء ونقله ابن سعيد أن أول من ملك الأرض من ولد نوح كنعان بن كوش بن حام، فسار من أرض كنعان بالشام إلى أرض بابل، فبنى مدينة بابل اثني عشر فرسخاً في مثلها، وورث ملكه ابنه النمروذ بن كنعان، وعظم سلطانه في الأرض، وطال عمره وغلب على أكثر المعمور، وأخذ بدين الصابئة وخالفه الكلدانيون منهم في التوحيد وأسمائه، ومال معهم بنو سام، وكان سام قد نزل بشرقي الدجلة، وكان وصيّ أبيه في الدين والتوحيد، وورث ذلك ابنه أرفخشذ، ومعنى أرفخشذ مصباح مضيء،

فاشتغل بالعبادة ودعاه الكلدانيون إلى القيام بالتوحيد فامتنع. ثم قام من بعده ابنه شالخ وعاش طويلاً، وقام من بعده ابنه عابر كذلك، وخرج مع الكلدانيين على النمروذ منكراً لعبادة الهياكل، فغلبه نمروذ وأخرجه من كوثا، فلحق هو ومن معه من الحلفاء بالجزيرة، وهي مدينة المجدل بين الفرات ودجلة. وعابر هذا هو أبو العبرانيين الذين تكلموا بالعبرانية، واستفحل ملكه بالمجدل. قال ابن سعيد: وورث من بعده ابنه فالغ، وهو الذي قسم الأرض بين ولد نوح، وفي زمانه بنى النمروذ الصرح ببابل، وكان من أمره ما نصّه القرآن، وقام بأمر فالغ من بعد ابنه ملكان فيما زعموا وغلبه الجرامقة والنبط على ملكه، وقام بالمجدل في ملكهم إلى أن هلك وخلف ابنه أتيا ويقال له الخضر وأما أرغو بن فالغ فعبر إلى كلواذا، ودخل في دين النبط، وهي بدعة الصابئة، وولد له منهم ابنه شاروخ، ثم بعده ناحور بن شاروخ، ثم بعده تارح بن ناحور الذي سمي آزر، واستخلص النمروذ آزر وقدمه على بيت الأصنام، والنمروذ من ملوك الجرامقة واسمه هاصد بن كوش. انتهى كلام ابن سعيد.

وولد لتارح وهو آزر على ما وقع في التوراة ثلاثة من الولد إبراهيم وناحور وهاران، ومات هاران في حياة أبيه تارح وترك ابنه لوطاً فهو ابن أخي إبراهيم. قال الطبري: ولد إبراهيم الخليل قيل بناحية كوثا من السواد وهو قول ابن إسحاق، وقيل بحران وقيل ببابل، وعامة السلف أنه ولد على عهد نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام. وكان الكهان يتحدثون بولادة رجل يخالف الدين ويكسر الأصنام والأوثان، فأمر بذبح الولدان فولدته أمه وتركته بمغارة في فلاة من الأرض حتى كبر وشب، ورأى في الكواكب ما رآه وكملت نبوته، فأحضرته إلى أبيه ودعاه إلى التوحيد، فامتنع وكسر إبراهيم الأصنام وأحضر عند نمروذ وقذفه في النار، فصارت برداً وسلاماً، وخرج منها ولم تعد عليه كما نص ذلك القرآن.

ثم تدبر النمروذ في أمره، وطلب من إبراهيم أن يقرب قرباناً يفتدي مما دعاه إليه، فقال له إبراهيم: لن يقبل منك إلا الإيمان، فقال: لا أستطيع. وترك إبراهيم وشأنه.ثم أمر الله إبراهيم بالخروج من أرض الكلدانيين ببابل، فخرج به أبوه تارح ومعهما على ما في التوراة ابنه ناحور بن تارح، وزوجته مَلكا بنت أخيه هاران، وحافده لوط بن هاران، قال في التوراة: وكنته سارة يعني زوج إبراهيم، فقيل إنها أخت ملكا بنت هاران بن تارح، وقيل بنت ملك حران، طعنت على قومها في الدين، فتزوجها إبراهيم على أن لا يضرها. ويردّ هذا ما في التوراة أنها خرجت معهم من أرض الكلدانيين إلى حران فتزوجها، وقيل: إنها بنت هاران بن ناحور، وهاران عم إبراهيم قاله السهيلي، فأقاموا بحران ومات بها أبوه تارح وعمره مائتا سنة وخمس سنين. ثم أمر بالخروج إلى أرض الكنعانيين ووعده الله بأن تكون أثراً لبنيه، وأنهم يكثرون مثل حصى الأرض.

فنزل بمكان بيت المقدس وهو ابن خمس وسبعين سنة، ثم أصاب بلد الكنعانيين مجاعة، فخرج إبراهيم في أهل بيته وقدم مصر، ووصف لفرعون ملك القبط جمال امرأته سارة فأحضرها عنده، ولما همّ بها يبست يده على صدره، فطلب منها الإقالة فدعت له الله فانطلقت يده. ويقال عاود ذلك ثلاثاً يصاب في كلها وتدعو له فردها إلى إبراهيم واستخدمها هاجر.

قال الطبري: والملك الذي أراد سارة هو سنان بن علوان، وهو أخو الضحاك، والظاهر أنه من ملوك القبط.ثم ساروا إلى أرض كنعان بالشام. ويقال: إن هاجر أهدها ملك الأردن لسارة وكان اسمه فيما قال الضبي صلاوق، وأنه انتزع سارة من إبراهيم، ولما هم بها صرع مكانه، وسألها في الدعاء، فدعت له، فأفاق فردها إلى إبراهيم، وأخدمها هاجر أمة كانت لبعض ملوك القبط. ولما عاد إبراهيم إلى أرض كنعان، نزل جيرون وهو مدفنه المسمى بالخليل، وكانت معظمة تعظمها الصابئة، وتسكب عليها الزيت للقربان، وتزعم أنها هيكل المشتري والزهرة، فسماها العبرانيون إيليا ومعناه بيت الله.ثم أن لوطاً فارق إبراهيم عليه السلام لكثرة مواشيهما وتابعهما وضيق المرعى، فنزل المؤتكفة بناحية فلسطين وهي بلاد العدور المعروف بعدور صقر، وكانت هناك على ما نقله المحققون خمس قرى سدوم. ووجدهم على ارتكاب الفواحش فدعاهم إلى الدين، ونهاهم عن المخالفة، فكذبوه وعتوا وأقام فيها داعيا إلى الله إلى أن هلكوا كما قصه القرآن.

وخرج لوط مع عساكر كنعان وفلسطين للقاء ملوك الشرق حين زحفوا إلى أرض الشام، وكانوا أربعة ملوك: ملك الأهواز من بني غليم بن سام واسمه كرزلاً عامر، وملك بابل واسمه في التوراة شنعا واسمه أمر اقيل، ويقال هو نمروذ، وملك الأستار - وما أدري معنى هذه اللفظة - واسمه أريوح، وملك كوتم ومعناه ملك أمم أو جماعة واسمه تزعال. وكان ملوك كنعان الذين خرجوا إليهم خمسة على عدد القرى الخمسة، وذلك أن ملك الأهواز كان استعبدهم اثني عشرة سنة ثم عصوا، فزحف إليهم واستجاش بالملوك المذكورين معه، فأصابوا من أهل جبال يسعين إلى فاران التي في البرية، وكان بها يومئذ الجويون من شعوب كنعان أيضاً.

وخرج ملك سدوم وأصحابه لمدافعتهم، فانهزم هو والملوك الذين معه من أهل سدوم، وسباهم ملك الأهواز ومن معه من الملوك، وأسروا لوطاً وسبوا أهله، وغنموا ماشيته. وبلغ الخبر إبراهيم عليه السلام فاتبعهم في ولده ومواليه نحواً من ثلثمائة وثمانية عشر، ولحقهم بظاهر دمشق فدهمهم فانفضوا وخلص لوطاً في تلك الوقعة، وجاء بأهله ومواشيه، وتلقاهم ملك سدوم، واستعظم فعلتهم.

ثم أوحى الله إلى إبراهيم أن هذه الأرض: أرض الكنعانيين التي أنت بها، ملكتها لك ولذريتك وأكثرهم مثل حصى الأرض، وأن ذريتك يسكنون في أرض ليست لهم أربعمائة سنة ويرجع الحقب الرابع إلى هنا.ثم إن سارة وهبت مملوكتها هاجر القبطية لإبراهيم عليه السلام لعشر سنين من مجيئهم من مصر وقالت لعل الله يرزقك منها ولداً، وكان إبراهيم قد سأل الله أن يهب له ولداً فوعده به. وكانت سارة قد كبرت وعقمت عن الولد، فولدت هاجر لإبراهيم إسماعيل عليهما السلام لست وثمانين من عمره، وأوحى الله إليه أني قد باركت عليه وكثرته ويولد له اثنا عشر ولداً، ويكون رئيساً لشعب عظيم. وأدركت سارة الغيرة من هاجر وطلبت منه إخراجها، وأمره الله أن يطيع سارة في أمرها، فهاجر بها إلى مكة ووضعها وابنها بمكان زمزم عند دوحة هنالك وانطلق. فقالت له هاجر: الله أمرك؟ قال: نعم. فقالت: إذاً لا يضيعنا. وانطلق إبراهيم وعطش إسماعيل بعد ذلك عطشاً شديداً، وأقامت هاجر تتردد بين الصفا والمروة، إلى أن صعدت عليها سبع مرات لعلها تجد شيئاً، ثم أتته وهو يفحص برجليه فنبعت زمزم.

وعن السدي: أنه تركه في مكان الحجر، واتخذ فيه عريشاً وأن جبريل هو الذي همز له الماء بعقبه، وأخبر هاجر أنها عين يشرب بها ضيفان الله، وأن أبا هذا الغلام سيجيء ويبنيان بيتاً لله هذا مكانه. ثم مرت رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم أقبلوا من كداء، ونزلوا أسفل مكة، فرأوا الطير حائمة، فقالوا: لا نعلم بهذا الوادي ماء، ثم أشرفوا فرأوا المرأة ونزلوا معها هنالك.وعن ابن عباس: كانت أحياؤها قريباً من ذلك المكان، فلما رأوا الطير تحوم عليه أقبلوا إليه فوجدوهما فنزلوا معهما حتى كان بها أهل أبيات منهم، وشب إسماعيل بينهم وتعلم اللغة العربية منهم، وأعجبهم وزوجوه امرأة منهم، وماتت أمه هاجر فدفنها في الحجر. ولما رجع إبراهيم وأقام في أهله بالشام، وبالغ أهل المؤتفكة في العصيان والفاحشة، ودعاهم لوط فكذبوه وأقام على ذلك. قال الطبري: فأرسل الله رسولاً من الملائكة لإهلاكهم، ومروا بإبراهيم فأضافهم وخدمهم، وكان من ضحك سارة وبشارة الملائكة لها بإسحق وابنه يعقوب ما قصه القرآن، وكانت البشارة بإسحق وإبراهيم ابن مائة سنة وسارة بنت تسعين. وفي التوراة أنه أمر أن يحرر ولده إسماعيل لثلاث عشرة سنة من عمره، ولكل من في بيته من الأحرار فكان ذلك لتسع وتسعين من عمر إبراهيم، وقال له: ذلك عهد بيني وبينك وذريتك.

ثم أهلك الله المؤتكفة ونجى لوطاً إلى أرض الشام، فكان بها مع عمه إبراهيم صلوات الله عليهما. وولدت سارة إسحاق، وأمر الله إبراهيم بعد ولادة إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يعبد فيه ويذكر، ولم يعرف مكانه فجعل له علامة تسير معه حتى وقفت به على الموضع، يقال أنها ريح لينة لها رأسان تسير معه حتى تكون بالموضع، ويقال بل بعث معه جبريل لذلك حتى أراه الموضع.

وكان إبراهيم يعتاد إسماعيل لزيارته، ويقال أنه كان يستأذن سارة في ذلك، وأنها شرطت عليه أن لا يقيم عندهم، وأن إبراهيم وجد امرأة لإسماعيل في غيبة منه وكانت من العماليق، وهي عمارة بنت سعيد بن أسامة بن أكيل، فرآها فظة غليظة فأوصاها لإسماعيل بأن يحول عتبة بابه، فلما قصت عليه الخبر والوصية قال: ذاك أبي يأمرني أن أطلقك فطلقها وتزوج بعدها السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، وخالفه إبراهيم إلى بيته فتسهلت له بالإذن وأحسنت التحية وقربت الوضوء والطعام، فأوصاها لإسماعيل بأني قد رضيت عتبة بابك، ولما قصت عليه الوصية قال: ذلك أبي يأمرني بإمساكك فأمسكها. ثم جاء إبراهيم مرة ثالثة وقد أمره الله ببناء البيت وأمر إسماعيل بإعانته، فرفعوها من القواعد وتم بناؤها وأذن في الناس بالحج.ثم زوج لوط ابنته من مدين بن إبراهيم عليهما السلام، وجعل الله في نسلها البركة. فكان منه أهل مدين الأمة المعروفة.

ثم ابتلى الله إبراهيم بذبح ابنه في رؤيا رآها وهي وحي، وكانت الفدية ونجى الله ذلك الولد، كما قص في القرآن. واختلف في ذلك الذبيح من ولديه فقيل إسماعيل وقيل إسحاق. وذهب إلى كلا القولين جماعة من الصحابة والتابعين. فالقول بإسماعيل لابن عباس وابن عمر والشعبي ومجاهد والحسن ومحمد بن كعب القرظي. وقد يحتجون له بقوله ﷺ: أنا ابن الذبيحين، ولا تقوى الحجة به لأن عم الرجل قد يجعل أباه يضرب من التجوز لا سيما في مثل هذا الفخر. ويحتجون أيضاً بقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، ولو كان ذبيحاً في زمن الصبا لم تصح البشارة بابن يكون له، لأن الذبح في الصبا ينافي وجود الولد، ولا تقوم من ذلك حجة، لأن البشارة إنما وقعت على وفق العلم بأنه لا يذبح، وإنما كان ابتلاء لإبراهيم.

والقول بإسحق للعباس وعمر وعلي وابن مسعود وكعب الأحبار وزيد بن أسلم ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير وعطا والزهري ومكحول والسدي وقتادة.

وقال الطبري: والراجح أنه إسحاق لأن نص القرآن يقتضي أن الذبيح هو المبشر به، ولم يبشر إبراهيم بولد إلا من زوجته سارة مع أن البشارة وقعت إجابة لدعائه عند مهاجره من أرض بابل. وقوله إني ذاهب إلى ربي سيهدين، ثم قال عقبة: رب هب لي من الصالحين، ثم قال عقبة: فبشرناه بغلام حليم. وذلك كله كان قبل هاجر، لأن هاجر إنما ملكتها سارة بمصر، وملكتها لإبراهيم بعد ذلك بعشر سنين، فالمبشر به قبل ذلك كله إنما هو ابن سارة، فهو الذبيح بهذه الدلالة القاطعة. وبشارة الملائكة لسارة بعد ذلك حين كانوا ضيوفاً عند إبراهيم في مسيرهم لإهلاك سدوم، إنما كان تجديداً للبشارة المتقدمة اهـ.

ثم توفيت لمائة وسبع وعشرين من عمرها، وذلك في قرية جيرون من بلاد بني حبيب الكنعانيين، فطلب إبراهيم منهم مقبرة لها، فوهبه عفرون بن صخر مغارة كانت في مزرعته، فامتنع من قبولها إلا بالثمن، فأجاب إلى ذلك، وأعطاه إبراهيم أربعمائة مثقال فضة ودفن فيها سارة. وتزوج إبراهيم من بعدها قطورا بنت يقطان من الكنعانيين. وقال السهيلي: قنطورا بزيادة نون بين القاف والطاء، وهذا الاسم أعجمي وطاؤه قريبة من التاء، فولدت له كما هو مذكور في التوراة ستة من الولد وهم: زمران، يقشان، مدان، مدين، أشبق، شوخ.

ثم وقع في التوراة ذكر أولادهم فولد يقشان سبا ودذان، وولد دذان أشور ثم ولطوسيح ولاميم. وولد مدين عيفا وعيفين وحنوخ وأفيداع والزاعا. هذا آخر ولده من قنطورا في التوراة. وقال السهيلي: كان لإبراهيم عليه السلام أولاد آخرون: خمسة من امرأة اسمها حجين أو حجون بنت أهيب، وهم كبسان وفروخ وأميم ولوطان ونافس. ولما ذكر الطبري بني قنطورا الستة وسمى منهم يقشان، قال بعده: وسائرهم من الأخرى وهي رعوة. ثم قال: ومن يقشان جيل البربر اه.

فولد إبراهيم على هذا ثلاثة عشر: فإسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، وستة من قنطورا كما ذكر في التوراة، والخمسة بنو حجين عند السهيلي، أو رعوة عند الطبري.

وكان إبراهيم عليه السلام قد عهد لابنه إسحاق أن لا يتزوج في الكنعانيين، وأكد العهد والوصية بذلك لمولاه القائم على أموره، ثم بعثه إلى حران مهاجرهم الأول، فخطب من ابن أخيه بتويل بن ناحور بن آزر بنته رفقا فزوجها أبوها واحتملها ومن معها من الجواري وجاء بها إلى إسحاق في حياة أبيه وعمره يومئذ أربعون سنة فتزوجها، وولدت له يعقوب وعيصو توأمين وسنذكر خبرهما. ثم قبض اللّه نبيه إبراهيم صلوات اللّه عليه بمكان هجرته من أرض كنعان وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة، ودفن مع سارة في مغارة عفرون الحيبي، وعرف بالخليل لهذا العهد، ثم جعل اللّه في ذريته النبوة والكتاب آخر الدهر.

إسماعيل: فإسماعيل سكن مع جرهم بمكة وتزوج فيهم وتعلم لغتهم وتكلم بها وصار أباً لمن بعده من أجيال العرب، وبعثه اللّه إلى جرهم والعمالقة الذين كانوا بمكة، وإلى أهل اليمن فآمن بعض وكفر بعض. ثم قبضه اللّه إليه وخلف ولده بين جرهم، وكانوا على ما ذكر في التوراة اثني عشر أكبرهم بنايوت وهو الذي تقوله العرب نابت ونبت، ثم قيذار وأدبيل وبسام ومشمع وذوما ومسا وحراه وقيما وبطور ونافس وقدما.

قال ابن إسحاق: وعاش فيما ذكر مائة وثلاثين سنة، ودفن في الحجر مع أمه هاجر، ويقال آجر. وفي التوراة أنه قبض ابن مائة وسبع وثلاثين سنة، وأن شيعته سكنوا من حويلا إلى شور قبالة مصر من مدخل أثور، وسكنوا على حذر شيع إخوته. وحويلا عند أهل التوراة هي جنوب برقة والواو منها قريبة من الياء، وشور هي أرض الحجاز، وأثور بلاد الموصل والجزيرة. ثم ولي أمر البيت من بعد إسماعيل ابنه نابت، وأقام ولده بمكة مع أخوالهم جرهم حتى تشعبوا وكثر نسلهم وتعددت بطونهم من عدنان في عداد معد، ثم بطون معد في ربيعة ومضر وإياد وأنمار بني نزار بن معد، فضاقت بهم مكة على ما نذكره عند ذكر قريش وأخبار ملكهم بمكة، فكانت بطون عدنان هذه كلها من ولد إسماعيل لابنه نابت، وقيل لقيذار، ولم يذكر النسابون نسلاً من ولده الآخرين، وتشعبت من إسماعيل أيضاً عند جماعة من أهل العلم بالنسب بطون قحطان كلها فيكون على هذا أباً لجميع العرب بعده.

إسحاق: وأما إسحاق فأقام بمكانه في فلسطين، وعمر وعمي بعد الكثير من عمره وبارك على ولده يعقوب فغضب بذلك أخوه عيصو، وهمّ بقتله فأشارت عليه رفقا بنت بتويل بالسير إلى حران عند خاله لابان بن بتويل، فأقام عنده وزوجه بنتيه، فزوجه أولاً الكبرى واسمها ليا وأخدمها جاريتها زلفة، ثم من بعدها أختها الصغرى واسمها راحيل وأخدمها جاريتها بلها. وأول من ولد منهن ليا ولدت له روبيل، ثم شمعون، ثم لاوي، ثم يهوذا. وكانت راحيل لا تحبل فوهبت جاريتها بلها ليعقوب

لتلد منه، فولدت له دان ثم نفتالي. ولما فعلت ذلك راحيل وهبت أختها ليا ليعقوب عليه السلام جاريتها زلفة فولدت له كاد وآشر، ثم ولدت ليا من بعد ذلك يساخر، ثم زبولون، فكمل له بذلك عشرة من الولد. ثم دعت راحيل الله عز وجل أن يهب لها ولداً من يعقوب فولدت يوسف، وقد كملت له بحران عشرون سنة، ثم أمر بالرحيل إلى أرض كنعان التي وعدوا بملكها. فارتحل وخرج لابان في اتباعه وعزم له في المقام عنده فأبى، فودعه وانصرف إلى حران وسار يعقوب لوجهه حتى إذا قرب من بلد عيصو، وهو جبل يسعين بأرض الكرك والشوبك لهذا العهد، اعترضه عيصو لتلقيه وكرامته، فأهدى إليه يعقوب من ماشيته هدية احتفل فيها، وتودد إليه بالخضوع والتضرع، فذهب ما كان عند عيصو وأوحى الله إليه بأن يكون اسمه إسرائيل، ومر على أرشاليم وهي بيت المقدس فاشترى هنالك مزرعة ضرب فيها فسطاطه وأمر ببناء مرجح سماه إيل في مكان الصخرة.

يوسف: ثم حملت راحيل هنالك فولدت له بنيامين، وماتت من نفاسه ودفنها في بيت لحم. ثم جاء إلى أبيه إسحاق بقرية جيرون من أرض كنعان فأقام عنده.

ومات إسحاق عليه السلام لمائة وثمانين سنة من عمره ودفن مع أبيه في المغارة، وأقام يعقوب بمكانه وولده عنده، وشب يوسف عليه السلام على غير حالهم من كرامة الله به، وقص عليهم رؤياه التي بشر فيها بأمره فغصوا به وخرجوا معه إلى الصيد، فألقوه في الجب واستخرجه السيارة الذين مروا به بعد ذلك وباعوه للعرب بعشرين مثقالاً.

ويقال: إن الذي تولى بيعه هو مالك بن دعر بن واين بن عيفا بن مدين. واشتراه من العرب عزيز مصر وهو وزيرها أو صاحب شرطتها. قال ابن إسحاق واسمه أطفير بن رجيب وقيل قوطفير. وكان ملكها يومئذ من العماليق، الريان بن الوليد بن دومغ، وربي يوسف عليه السلام في بيت العزيز فكان من شأنه مع امرأته زليخا، ومكثه في السجن، وتعبيره الرؤيا للمحبوسين من أصحاب الملك ما هو مذكور في الكتاب الكريم. ثم استعمله ملك مصر عندما خشي السنة والغلاء على خزائن الزرع في سائر مملكته، يقدر جمعها وتصريف الأرزاق منها وأطلق يده بذلك في جميع أعماله، وألبسه خاتمه وحمله على مركبه، ويوسف لذلك العهد ابن ثلاثين سنة. فقيل عزل أطفير العزيز وولاه، وقيل بل مات أطفير فتزوج زليخا وتولى عمله وكان ذلك سبباً لانتظام شمله بأبيه وإخوته لما أصابتهم السنة بأرض كنعان وجاء بعضهم للميرة، وكال لهم يوسف عليه السلام، ورد عليهم بضاعتهم وطالبهم بحضور أخيهم فكان ذلك كله سبباً لاجتماعه بأبيه يعقوب بعد أن كبر وعمي.

قال ابن إسحاق: كان ذلك لعشرين سنة من مغيبه، ولما وصل يعقوب إلى بلبيس قريباً من مصر، خرج يوسف ليلقاه، ويقال خرج فرعون معه، وأطلق لهم أرض بلبيس يسكنون بها وينتفعون. وكان وصول يعقوب صلوات الله عليه في سبعين راكباً من بنيه، ومعه أيوب النبي من بني عيصو، وهو أيوب بن برحما بن زبرح بن رعويل بن عيصو، واستقروا جميعاً بمصر ثم قبض يعقوب صلوات الله عليه لسبع عشرة من مقدمه ولمائة وأربعين من عمره، وحمله يوسف صلوات الله عليه إلى أرض فلسطين، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها بإذن من فرعون. واعترضهم بعض الكنعانيين في طريقهم، فأوقعوا بهم، وانتهوا إلى مدفن إبراهيم وإسحاق عليهما السلام فدفنوه في المغارة عندهما، وانتقلوا إلى مصر، وأقام يوسف صلوات الله عليه بعد موت أبيه ومعه إخوته إلى أن أدركته الوفاة فقبض لمائة وعشرين سنة من عمره، وادرج في تابوت وختم عليه، ودفن في بعض مجاري النيل. وكان يوسف أوصى أن يحمل عند خروج بني إسرائيل إلى أرض البقاع، فيدفن هنالك ولم تزل وصيته محفوظة عندهم إلى أن حمله موسى صلوات الله عليه عند خروجه ببني إسرائيل من مصر. ولما قبض يوسف صلوات الله عليه وبقي من بقي من الأسباط إخوته وبنيه تحت سلطان الفراعنة بمصر، تشعب نسلهم وتعددوا إلى أن كاثروا أهل الدولة وارتابوا بهم فاستعبدوهم.

قال المسعودي: دخل يعقوب إلى مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف في سبعين راكباً، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى صلوات الله عليه نحواً من مائتين وعشر سنين، فتداولهم ملوك القبط والعمالقة بمصر، ثم أحصاهم موسى في التيه، وعد من يطيق حمل السلاح من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف ويزيدون. وقد ذكرنا ما في هذا العدد من الوهم والغلو في مقدمة الكتاب، فلا نطول به. ووقوعه في نص التوراة لا يقضي بتحقيق هذا العدد لأن المقام للمبالغة، فلا تكون إعداده نصوصاً. وكان ليوسف صلوات الله عليه من الولد كثير، إلا أن المعروف منهم اثنان: أفرائيم ومنشى وهما معدودان في الأسباط، لأن يعقوب صلوات الله عليه أدركهما وبارك عليهما وجعلهما من جملة ولده.

وقد يزعم بعض من لا تحقيق عنده أن يوسف صلوات الله عليه استقل آخراً بملك مصر. وينسب لبعض ضعفة المفسرين ومعتمدهم في ذلك قول يوسف عليه السلام في دعائه: رب قد

آتيتني من الملك. ولا دليل لهم في ذلك لأن كل من ملك شيئاً ولو في خاصة نفسه فاستيلاؤه يسمى ملكاً حتى البيت والفرس والخادم، فكيف من ملك التصرف ولو كان في شعب واحد منها فهو ملك، وقد كان العرب يسمون أهل القرى والمدائن ملوكاً، مثل هجر ومعان ودومة الجندل، فما ظنك بوزير مصر لذلك العهد وفي تلك الدولة، وقد كان في الخلافة العباسية تسمى ولاة الأطراف وعمالها ملوكاً، فلا استدلال لهم في هذه الصيغة، وأخرى أيضاً فيما يستدلون به من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أن لا يكون لهم فيه مستند لأن التمكين يكون بغير الملك. ونص القرآن إنما هو بولايته على أمور الزرع في جمعه وتفريقه كما قال تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. ومساق القصة كلها أنه مرؤوس في تلك الدولة بقرائن الحال كلها لا ما يتوهم من تلك اللفظة الواقعة في دعائه، فلا نعدل من النص المحفوف بالقرائن إلى هذا المتوهم الضعيف. وأيضاً فالقصة في التوراة قد وضعت صريحة في أنه لم يكن ملكاً ولا صار إليه ملك. وأيضاً فالأمر الطبيعي من الشوكة والقطامة له يدفع أن يكون حصل له ملك، لأنه إنما كان في تلك الدولة قبل أن يأتي إليه إخوته منفرداً لا يملك إلا نفسه ولا يتأتى الملك في هذا الحال وقد تقدم ذلك في مقدمة الكتاب والله أعلم.

عيصو: وأما عيصو بن إسحاق فسكن جبال بني يسعين من بني جوى، إحدى شعوب كنعان، وهي جبال الشراة بين تبوك وفلسطين وتعرف اليوم ببلاد كرك والشوبك، وكان من شعوبهم هنالك على ما في التوراة بنو لوطان وبنو شوبال وبنو صمقون وبنو عنا وبنو ديشوق وبنو يصد وبنو ديسان سبعة شعوب. ومن بني ديشون الأشبان، فسكن عيصو بينهم بتلك البلاد، وتزوج منهم من بنات عنا بن يسعين من جوى، وهي أهليقاما، وتزوج أيضا من بنات حي من الكنعانيين عاذا بنت أيلول، وباسمت بنت إسماعيل عليه السلام. وكان له من الولد خمسة مذكورون في التوراة وأكبرهم أليفاز، بالفاء المفخمة وإشباع حركتها وزاي معجمة من بعدها من عاذا بنت أيلول، ثم رعويل من باسمت بنت إسماعيل، ثم يعوش ويعلام وقورح من أهليقاما بنت عنا. وولد أليفاز ستة من الولد ثيمال وأومار وصفو وكعتام وقتال وعمالق السادس، لسرية اسمها تمتاع وهي شقيقة لوطان بن يسعين. وولد رعويل بن عيصو أربعة من الولد ناحة وزيدم وشتما ومرا. هكذا وقع ذكر ولد العيص وولدهم في التوراة.

وفيها أن العيص اسمه أدوم، فلذلك قيل لهم بنو أدوم، ولبعض الإسرائيليين أن أدوم اسم لذلك الجبل ومعناه بالعبرانية الجبل الأحمر الذي لا نبات به. وقد يقع لبعض المؤرخين أن القياصرة ملوك الروم من ولد عيصو، وقال الطبري: أن الروم وفارس من ولد رعويل بن باسمت. وليس ذلك كله بصحيح ورأيته في كتاب يوسف بن كرمون: مؤرخ العمارة الثانية ببيت المقدس قبيل الجلوة الكبرى، وكان من كهنوتينا اليهود وهو قريب من الغلط.

قال ابن حزم في كتاب الجمهرة: وكان لإسحاق عليه السلام ابن آخر غير يعقوب اسمه عيصاب أو عيصو، كان بنوه يسكنون جبال الشراة بين الشام والحجاز، وقد بادوا جملة، إلا أن قوماً يذكرون أن الروم من ولده وهذا خطأ. وإنما وقع لهم هذا الغلط لأن موضعهم كان يقال له أدوم فظنوا أن الروم من ذلك الموضع، وليس كذلك لأن الروم إنما نسبوا إلى رُمُس باني رومة، فإن ظن ظان أن قول النبي ﷺ للحر بن قيس: هل لك في بلاد بني الأصفر العام، وذلك في غزوة تبوك، يدل على أن الروم من بني الأصفر وهو عيصاب المذكور وليس كما ظن. وقول النبي ﷺ حق، وإنما عنى عليه السلام بني عيصاب على الحقيقة لا الروم، لأن مغزاه عليه الصلاة والسلام في تلك الغزوة كان إلى ناحية الشراة مسكن القوم المذكورين اه. كلام ابن حزم.

وزعم أهروشيوش مؤرخ الروم أن أم الفينان وهاؤا وعالوم وقدوح الأربعة من بنات كاتيم بن ياوان بن يافث، والأول أصح لأنه نص التوراة. ثم كثر نسل بني عيصو بأرض يسعين وغلبوا الجويين على تلك البلاد وغلبوا بني مدين أيضاً على بلادهم إلى أيلة. وتداول فيهم ملوك وعظماء كان منهم فالغ بن ساعور، وبعده يودب بن زيدح، ثم كان منهم هداد بن مداد الذي أخرج بني مدين عن مواطنهم، ثم كان فيهم بعده ملوك إلى أن زحف يوشع إلى الشام وفتح أريحا وما بعدما وانتزع الملك من جميع الأمم الذين كانوا هنالك، ثم استلحمهم بختنصر عندما ملك أرض القدس، ولحق بعضهم بأرض يونان، وبعضهم بإفريقية. وأما عمالق بن أليفاز فمن عقبه عند الإسرائيليين عمالقة الشام، وفي قول فراعنة مصر من القبط ونساب العرب يأبون من ذلك ونسبوهم إلى عملاق بن لاوذ كما مر. ثم بنو يروم وكنعان ولم يبق منهم عين تطرف والله الباقي بعد فناء خلقه.

مدين: وأما مدين بن إبراهيم فتزوج بابنة لوط وجعل الله في نسلها البركة، وكان له من الولد خمسة: عيفا وعيفين وحنوخ وأنيداع وألزاعا. وقد تقدم ذكرهم في ولد إبراهيم من قنطورا، فكان منهم مدين أمة كبيرة ذات بطون وشعوب، وكانوا من أكبر قبائل الشام وأكثرهم عددا، وكانت مواطنهم تجاور أرض معان

من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط، وكان لهم تغلب بتلك الأرض فعتوا وبغوا وعبدوا الآلهة، وكانوا يقطعون السبل ويبخسون في المكيال. وبعث الله فيهم شعيباً نبياً منهم، وهو ابن نويل بن رعويل بن عيا بن مدين. قال المسعودي: مدين هؤلاء من ولد المحضر بن جندل بن يعصب بن مدين، وأن شعيباً أخوهم في النسب، وكانوا ملوكاً عدة يسمون بكلمات أبجد إلى آخرها وفيه نظر. وقال ابن حبيب في كتاب البدء: هو شعيب بن نويب بن أحزم بن مدين.

وقال السهيلي: شعيب بن عيفا، ويقال ابن صيفون، وشعيب هذا هو شعيب موسى الذي هاجر إليه من مصر أيام القبط واستأجره على إنكاح ابنته إياه على أن يخدمه ثماني سنين، وأخذ عند آداب الكتاب والنبوة حسبما يأتي عند ذكر موسى صلوات الله عليهما وأخبار بني إسرائيل. وقال الصيمري: الذي استأجر موسى وزوجه: هو بثر بن رعويل، ووقع في التوراة أن اسمه يبثر وأن رعويل أباه أو عمه هو الذي تولى عقد النكاح. وكان لمدين هؤلاء مع بني إسرائيل حروب بالشام، ثم تغلب عليهم بنو إسرائيل وانقرضوا جميعاً.

لوط: وأما لوط بن هاران أخي إبراهيم عليهما السلام فقد تقدم من خبره مع قومه ما ذكرناه هنالك، ولما نجا بعد هلاكهم لحق بأرض فلسطين، فكان بها مع إبراهيم إلى أن قبضه الله، وكان له من الولد على ما ذكر في التوراة عمون بتشديد الميم وإشباع حركتها بالضم ونون بعدها، وموآبي بإشباع ضمة الميم وإشباع فتحة الهمزة بعدها وياء تحتية وبعدها ياء ساكنة هوائية، وجعل الله في نسلهما البركة، حتى كانوا من أكثر قبائل الشام، وكانت مساكنهم بأرض البلقاء ومدائنها في بلد موآبي ومعان وما والاهما، وكانت لهم مع بني إسرائيل حروب نذكرها في أخبارهم، وكان منهم بلعام بن باعور بن رسيوم بن برسيم بن موآبي، وقصته مع ملك كنعان حين طلبه في الدعاء على بني إسرائيل أيام موسى صلوات الله عليه وأن دعاءه صرف إلى الكنعانيين، مذكورة في التوراة ونوردها في موضعها.

وأما ناحور أخو إبراهيم عليه السلام فقد تقدم ذكره أنه هاجر مع إبراهيم عليه السلام من بابل إلى حران، ثم إلى الأرض المقدسة، فكان معه هنالك، وكانت زوجته ملكا بنت أخيه هاران، وملكا هذه هي أخت سارة زوج إبراهيم عليه السلام وأم إسحاق، وكان لناحور من ملكا على ما وقع في نص التوراة ثمانية من الولد: عوص وبوص وقمويل وهو أبو الأرمن، وكاس ومنه الكلدانيون الذين كان منه بختنصر وملوك بابل، وحذو وبلداس وبلداف ويثويل. وكان له من سرية اسمها أدوما أربعة من الولد وهم: طالج وكاحم وتاخش وماعخا. هؤلاء ولد ناحور أخي إبراهيم كلهم مذكورون في التوراة وهم اثنا عشر ولداً، وهؤلاء كلهم بادوا وانقرضوا، ولم يبق منهم إلا الأرمن من قمويل بن ناحور أخي إبراهيم عليه السلام ابن آزر وهم لهذا العهد على دين النصرانية ومواطنهم في أرمينية شرقي القسطنطينية، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وهذا آخر الكلام في الطبقة الأولى من العرب ومن عاصرهم من الأمم، ولنرجع إلى أهل الطبقة الثانية وهم العرب المستعربة، والله سبحانه وتعالى الكفيل بالإعانة.

الطبقة الثانية من العرب وهم العرب المستعربة وذكر أنسابهم وأيامهم وملوكهم والإلمام ببعض الدول التي كانت على عهدهم

وإنما سمي أهل هذه الطبقة بهذا الاسم لأن السمات والشعائر العربية لما انتقلت إليهم ممن قبلهم، اعتبرت فيها الصيرورة، بمعنى أنهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم، وهي اللغة العربية التي تكلموا بها، وفهو من استفعل بمعنى الصيرورة من قولهم: استنوق الجمل، واستحجر الطين. وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدم الأمم فيما يعلم جيلاً كانت اللغة العربية لهم بالأصالة وقيل العاربة.

واعلم أن أهل هذا الجيل من العرب يعرفون باليمنية والسبائية، وقد تقدم أن نسابة بني إسرائيل يزعمون أن أباهم سبا من ولد كوش بن كنعان، ونسابة العرب يأبون ذلك ويدفعونه، والصحيح الذي عليه كافتهم أنهم من قحطان، وأن سبا هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقال ابن إسحاق: يعرب بن يشجب فقدم وأخر. وقال ابن ماكولا على ما نقل عنه السهيلي: اسم قحطان مهزم. وبين النسابة خلاف في نسب قحطان: فقيل هو ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام أخو فالغ ويقطن، ولم يقع له ذكر في التوراة، وإنما ذكر فالغ ويقطن. وقيل هو معرب يقطن لأنه اسم أعجمي والعرب تتصرف في الأسماء الأعجمية بتبديل حروفها وتغييرها وتقديم بعضها على بعض. وقيل: إن قحطان بن يمن بن قيدار، وقيل: إن قحطان من ولد إسماعيل. وأصح ما قيل في هذا أنه قحطان بن يمن بن قيدر، ويقال الهميسع

بن يمن بن قيدار، وأن يمن هذا سميت به اليمن. وقال ابن هشام: أن يعرب بن قحطان كان يسمى يمنا وبه سميت اليمن. فعلى القول بأن قحطان من ولد إسماعيل تكون العرب كلهم من ولده لأن عدنان وقحطان يستوعبان شعوب العرب كلها.

وقد احتج لذلك من ذهب إليه بأن النبي ﷺ قال لرماة الأنصار: «ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً». والأنصار من ولد سبا وهو ابن قحطان، وقيل: إنما قال ذلك لقوم من أسلم من أقصى إخوة خزاعة بن حارثة بناء على أن نسبهم في سبا. وقال السهيلي: ولا حجة في شيء منهما لأنه إذا كانت العرب كلها من ولد إسماعيل، فهذا من السهيلي جنوح إلى القول بمفهوم اللقب وهو ضعيف. ثم قال: والصحيح أن هذا القول إنما كان منه ﷺ لأسلم كما قدمناه وإنما أراد أن خزاعة من معد بن إلياس بن مضر وليسوا من سبا، ولا من قحطان كما هو الصحيح في نسبهم على ما يأتي. واحتجوا أيضاً لذلك بأن قحطان لم يقع له ذكر في التوراة كما تقدم، فدل على أنه ليس من ولد عابر فترجح القول بأنه من إسماعيل، وهذا مردود بما تقدم أن قحطان معرب يقطن وهو الصحيح، وليس بين الناس خلاف في أن قحطان أبو اليمن كلهم.

ويقال: إنه أول من تكلم بالعربية ومعناه من أهل هذا الجيل الذين هم العرب المستعربة من اليمنية، وإلا فقد كان للعرب جيل آخر وهم العرب العاربة، ومنهم تعلم قحطان تلك اللغة العربية ضرورة ولا يمكن أن يتكلم بها من ذات نفسه. وكان بنو قحطان هؤلاء معاصرين لإخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهم على أمورهم، ولم يزالوا مجتمعين في مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك وترفه الذي كان لأولئك فأصبحوا بمنجاة من الهرم الذي يسوق إليه الترف والنضارة، فتشعبت في أرض الفضاء فصائلهم، وتعدد في جو القفر أفخاذهم وعشائرهم ونما عددهم، وكثرت إخوانهم من العمالقة في آخر ذلك الجيل، وزاحموهم بمناكبهم، واستجدوا خلق الدولة بما استأنفوه من عزهم.وكانت الدولة لبني قحطان متصلة فيهم، وكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب. يقال: إنه أول من حيّاه قومه بتحية الملك. قال ابن سعيد: وهو الذي ملك بلاد اليمن وغلب عليها قوم عاد، وغلب العمالقة على الحجاز، وولى إخوته على جميع أعمالهم، فولى جرهماً على الحجاز، وعاد بن قحطان على الشحر، وحضرموت بن قحطان على جبال الشحر، وعُمان بن قحطان على بلاد عُمان. هكذا ذكر البيهقي.

وقال ابن حزم: وعد لقحطان عشرة من الولد وأنه لم يعقب منهم أحد، ثم ذكر ابنين منهم دخلوا في حمير، ثم ذكر الحرث بن قحطان، وقال: فولد فيما يقال له لاسور، وهم رهط حنظلة بن صفوان نبي الرس، والرس ما بين نجران إلى اليمن ومن حضرموت إلى اليمامة، ثم ذكر يعرب بن قحطان وقال: فيهم الحميرية والعداد انتهى.

قال ابن سعيد: وملك بعد يعرب ابنه يشجب وقيل اسمه يمن واستبد أعمامه بما في أيديهم من الممالك، وملك بعده ابنه عبد شمس وقيل عابر ويسمى سبا لأنه قيل إنه أول من سن السبي، وبنى مدينة سبا وسد مأرب. وقال صاحب التيجان إنه غزا الأقطار وبنى مدينة عين شمس بإقليم مصر وولى عليها ابنه بابليون. وكان لسبا من الولد كثير وأشهرهم حمير وكهلان اللذان منهما الأمتان العظيمتان من اليمنية أهل الكثرة والملك والعز وملك حمير منهم أعظمه. وكان منهم التبابعة كما يذكر في أخبارهم، وعد ابن حزم في ولده زيدان وابنه نجران بن زيدان وبه سميت البلد.

ولما هلك سبا قام بالملك بعده ابنه حمير ويعرف بالعرنجج، وقيل: هو أول من تتوج بالذهب ويقال إنه ملك خمسين سنة، وكان له من الولد ستة فيما قال السهيلي: واثل ومالك وزيد وعامر وعوف وسعد. وقال أبو محمد بن حزم: الهميسع ومالك وزيد ووائل ومشروح ومعديكرب وأوس ومرة. وعاش فيما قال السهيلي ثلثمائة سنة، وملك بعده ابنه واثل وتغلب أخوه مالك بن حمير على عمان، فكانت بينهما حروب. وقال ابن سعيد: إن الذي ملك بعد حمير على عمان، فكان بينهما حروب. وقال ابن سعيد: إن الذي ملك بعد حمير أخوه كهلان، ومن بعده واثل بن حمير، ثم من بعد واثل السكسك بن واثل، وكانت مالك بن حمير قد هلك وغلب على عمان بعده ابنه قضاعة فحاربه السكسك وأخرجه عنها، وملك بعده ابنه يعفر بن السكسك، وخرجت عليه الخوارج، وحاربه مالك بن الحاف بن قضاعة، وطالت الفتنة بينهما، وهلك يعفر وخلف ابنه النعمان حملاً ويعرف بالمعافر، واستبد عليه من بني حمير ماران بن عوف بن حمير ويعرف بذي رياش وكان صاحب البحرين، فنزل نجران واشتغل بحرب مالك بن الحاف بن قضاعة.

ولما كبر النعمان حبس ذارياش واستبد بأمره وطال عمره وملك بعده ابنه أسجم بن المعافر، فاضطربت أحوال حمير، وصار ملكهم طوائف إلى أن استقر في الرايش وبنيه التبابعة كما نذكره.

ويقال إن بني كهلان تداولوا الملك مع حمير هؤلاء، وملك منهم جبار بن غالب بن كهلان، وملك أيضاً من شعوب قحطان

نجران بن زيد بن يعرب بن قحطان، وملك من حمير هؤلاء ثم من بني الهميسع بن حمير أبين بن زهير بن الغوث بن أبين بن الهميسع، وإليه نسب عرب أبين من بلاد اليمن، وملك منهم أيضاً عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيران بن قطن بن عريب بن زهير بن أبين بن الهميسع بن حمير، ثم ملك من أعقابه شداد بن المطاط بن عمرو بن ذي هرم بن الصوان بن عبد شمس، وبعده أخوه لقمان، ثم أخوهما ذو شدد وهداد ومداثر، وبعده ابنه الصعب ويقال إنه ذو القرنين.

وبعده أخوه الحرث بن ذي شدد، وهو الرائش جد الملوك التبابعة. وملك في حمير أيضاً من بني الهميسع من بني عبد شمس هؤلاء حسان بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس.

قال أبو المنذر هشام بن الكلبي في كتاب الأنساب ونقلته من أصل عتيق بخط القاضي المحدث أبي القاسم بن عبد الرحمن بن حبيش قال: ذكر الكلبي عن رجل من حمير من ذي الكلاع قال: أقبل قيس يحرق موضعاً باليمن، فأبدى عن أزج، فدخل فيه، فوجد سريراً عليه رجل ميت وعليه جباب وشي مذهبة، في رأسه تاج، وبين يديه محجن من ذهب، وفي رأسه ياقوتة حمراء، وإذا لوح مكتوب فيه: بسم اللّه رب حمير أنا حسان بن عمرو والقيل مات في زمان هيد وما هيد هلك فيها اثنا عشر ألف قبيل فكنت آخرهم قبيلاً فابتنيت ذا شعبين ليجيرني من الموت فاخفرني اه كلامه. وقال الطبري: وقيل أن أول من ملك من اليمن من حمير شمر بن الأملوك كان لعهد موسى عليه السلام وبني طفار وأخرج منها العمالقة، ويقال كان من عمال الفرس على اليمن. انتهى الكلام في أخبار حمير الأولى واللّه سبحانه وتعالى ولي العون.

الخبر عن ملوك التبابعة من حمير وأوليتهم باليمن ومصاير أمورهم

هؤلاء الملوك من ولد عبد شمس بن وائل بن الغوث باتفاق من النسابين، وقد مر نسبه إلى حمير، وكانت مدائن ملكهم صنعاء، ومأرب على ثلاث مراحل منها، وكان بها السد، ضربته بلقيس ملكة من ملوكهم سداً ما بين جبلين بالصخر والقار، فحقنت به ماء العيون والأمطار، وتركت فيه خروقاً على قدر ما يحتاجون إليه في سقيهم، وهو الذي يسمى العرم والسكر وهو جمع لا واحد له من لفظه قال الجعدي:

من سبأ الحاضرين مارب إذ يبنون من دون سيله العرما

أي السد ويقال إن الذي بنى السد هو حمير أبو القبائل اليمنية كلها قال الأعشى:

ففي ذلك للمؤتسي أسوة مارب غطى عليه العرم
رخام بناه لهم حمير إذا جاءه من رامه لم يرم

وقيل بناه لقمان الأكبر ابن عاد كما قاله المسعودي، وقال: جعله فرسخاً في فرسخ، وجعل له ثلاثين شعباً. وقيل: وهو الأليق والأصوب أنه من بناء سبا بن يشجب، وأنه ساق إليه سبعين وادياً، ومات قبل إتمامه، فأتمه حمير من بعده. وإنما رجحناه لأن المباني العظيمة، والهياكل الشاخة، لا يستقل بها الواحد كما قدمنا في الكتاب الأول، فأقاموا في جناته عن اليمين والشمال كما وصف القرآن. ودولتهم يومئذ في جناته عن اليمين والشمال كما وصف القرآن ودولتهم يومئذ أوفرما كانت، وأترف وأبذخ وأعلى يداً وأظهر، فلما طغوا وأعرضوا سلط اللّه عليهم الخلد، وهو الجرذ فنقبه من أسفله فأحجفهم السيل، وأغرق جناتهم، وخربت أرضهم، وتمزق ملكهم، وصاروا أحاديث.

وكان هؤلاء التبابعة ملوكاً عدة في عصور متعاقبة، وأحقاب متطاولة، ولم يضبطهم الحصر، ولا تقيدت منهم الشوارد، وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن إلى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب تارة، ويقتصرون على يمنهم أخرى، فاختلفت أحوالهم ودولهم، فلنات بما صح منها متحرياً جهد الاستطاعة عن طموس من الفكر، واقتفاء التقاليد المرجوع إليها والأصول المعتمد على نقلها، وعدم الوقوف على أخبارهم مدونة في كتاب واحد واللّه المستعان.

قال السهيلي: معنى تبع الملك المتبع. وقال صاحب المحكم: التبابعة ملوك اليمن وأحدهم تبع لأنهم يتبع بعضهم بعضاً كلما هلك واحد قام آخر تابعاً له في سيرته، وزادوا الباء في التبابعة لإرادة النسب. قال الزمخشري: قيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعون، كما قيل الأقيال لأنهم يتقيلون. قال المسعودي: ولم يكونوا يسمون الملك منهم تبعاً حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت، وقيل حتى يتبعه بنو جشم بن عبد شمس، ومن لم يكن له شيء من الأمرين فيسمى ملكاً ولا يقال له تبع.

وأول ملوك التبابعة باتفاق من المؤرخين، الحرث الرائش، وإنما سمي للرائش لأنه راش الناس بالعطاء. واختلف الناس في نسبه بعد اتفاقهم على أنه من ولد وائل بن الغوث بن حيران بن قطن بن عريب بن زهير بن أبين بن الهميسع بن حمير. فقال ابن إسحاق وأبو المنذر بن الكلبي أن قيساً بن معاوية بن جشم. فابن إسحاق يقول في نسبه إلى سبا: الحرث بن عدي بن صيفي، وابن

الكلبي يقول: الحرث بن قيس بن صيفي. وقال السهيلي: هو الحرث بن همال بن ذي سدد بن الملطاط بن عمرو بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن ذي سداد بن الملطاط بن عمرو بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل وجشم جد سبا هو ابن عبد شمس، هذا عند المسعودي. وعند بعضهم أنه أخوه وأنهما معاً ابنا وائل. وذكر المسعودي عن عبيد بن شرية الجرهمي، وقد سأله معاوية عن ملوك اليمن في خبر طويل ونسب الحرث منهم، فقال: هو الحرث بن شدد بن الملطاط بن عمرو. وأما عند الطبري فاختلف نسبه في نسب الحرث، فمرة قال: وبيت ملك التبابعة في سبا الأصغر ونسبه كما مر. وقال في موضع آخر: والحرث بن ذي شدد هو الرائش جد الملوك التبابعة، فجعله إلى شدد ولم ينسبه إلى قيس ولا عدي من ولد سبا. وكذلك اضطرب أبو محمد بن حزم في نسبه في الجمهرة مرة إلى الملطاط ومرة إلى سبا الأصغر، والظاهر أنه تبع في ذلك الطبري والله أعلم.

وملك الحرث الرائش فيما قالوا مائة وخمساً وعشرين سنة وكان يسمى تبعاً، وكان مؤمناً فيما قال السهيلي. ثم ملك بعده ابنه أبرهة ذو المنار مائة وثمانين سنة. قال المسعودي: وقال ابن هشام: أبرهة ذو المنار هو ابن الصعب بن ذي مداثر بن الملطاط، وسمي ذا المنار لأنه رفع المنار ليهتدي به، ثم ملك من بعده أفريقش بن أبرهة مائة وستين سنة. وقال ابن حزم: هو أفريقش بن قيس بن أبرهة مائة وستين سنة. وقال ابن حزم: هو أفريقش بن قيس بن صيفي أخو الحرث الرائش، وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية، وبه سميت وساق البربر إليها من أرض كنعان، مر بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم، فاحتمل الفل منهم، وساقهم إلى أفريقية، فأنزلهم بها، وقتل ملكها جرجير. ويقال إنه الذي سمي البرابرة بهذا الاسم لأنه لما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال: ما أكثر بربرتهم فسموا البرابرة. والبربرة في لغة العرب هي اختلاط أصوات غير مفهومة، ومنه بربرة الأسد.

ولما رجع من غزو المغرب ترك هنالك من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهم إلى الآن بها، وليسوا من نسب البربر، قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين.

ثم ملك من بعد أفريقش أخوه العبد بن أبرهة، وهو ذو الأذعار عند المسعودي قال: سمي بذلك لكثرة ذعر الناس من جوره. وملك خمساً وعشرين سنة، وكان على عهد سليمان بن داود وقبله بقليل، وغزا ديار المغرب، وسار إليه كيقاوس بن كنعان ملك فارس فبارزه وانهزم كيقاوس وأسره ذو الأذعار، حتى استنقذه بعد حين من يده وزيره رستم زحف إليه بجموع فارس إلى اليمن وحارب ذا الأذعار فغلبه واستخلص كيقاوس من أسره كما نذكره في أخبار ملوك فارس. وقال الطبري أن ذا الأذعار اسمه عمرو بن أبرهة ذي المنار بن الحرث الرائش بن قيس بن صيفي بن سبا الأصغر انتهى. وكان مهلك ذي الأذعار فيما ذكر ابن هشام مسموماً على يد الملكة بلقيس.وملك من بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن ذي الأذعار وهو ذو الصرح وملك ستاً أو عشراً فيما قال المسعودي. وملكت بعده ابنته بلقيس سبع سنين. وقال الطبري: إن اسم بلقيس بنت اليشرح بن الحرث بن قيس انتهى.

ثم غلبهم سليمان عليه السلام على اليمن كما وقع في القرآن فيقال تزوجها، ويقال بل عزلها في التأيم، فتزوجت سدد بن زرعة بن سبا، وأقاموا في ملك سليمان وابنه أربعاً وعشرين سنة. ثم قام بملكهم ناشر بن عمرو ذي الأذعار، ويعرف بناشر النعم، لفظين مركبين جعلا اسماً واحداً كذا ضبطه الجرجاني. وقال السهيلي: ناشر بن عمرو، ثم قال: ويقال ناشر النعم. وفي كتاب المسعودي نافس بن عمرو، ولعله تصحيف ونسبه إلى عمرو ذي الأذعار وليس يتحقق في هذه الأنساب كلها أنها للصلب، فإن الآماد طويلة والأحقاق بعيدة، وقد يكون بين اثنين منهما عدد من الآباء، وقد يكون ملصقاً به. وقال هشام بن الكلبي: أن ملك اليمن صار بعد بلقيس إلى ناشر بن عمرو بن يعفر الذي يقال له ياسر أنعم، لإنعامه عليهم بما جمع من أمرهم وقوي من ملكهم. وزعم أهل اليمن أنه سار غازياً إلى المغرب، فبلغ وادي الرمل ولم يبلغه أحد ولم يجد فيه مجازاً لكثرة الرمل، وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادي، وكتب في صدره بالخط المسند: هذا الصنم لياسر أنعم الحميري ليس وراءه منهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب انتهى.

ثم ملك بعد ياسر هذا ابنه شمر مرعش، سمي بذلك لارتعاش كان به. ويقال أنه وطئ أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنها وخرب مدينة الصغد وراء جيحون، فقالت العجم: «شمركنداي» شمر خرّب. وبنى مدينة هنالك فسميت باسمه هذا، وعربته العرب فصار سمرقند. ويقال أنه الذي قاتل قباذ ملك الفرس وأسره، وأنه الذي حيّر الحيرة. وكان ملكه مائة وستين سنة، وذكر بعض الإخباريين أنه ملك بلاد الروم، وأنه الذي استعمل عليهم ماهان قيصر فهلك، وملك بعده ابنه دقيوس. وقال السهيلي في شمر مرعش الذي سميت به سمرقند أنه شمر بن مالك ومالك هو الأملوك الذي قيل فيه:

فنقب عن الأملوك واهتف بذكره وعش دار عز لا يغالبه الدهر

وهذا غلط من السهيلي فإنهم مجمعون على أن الأملوك كان لعهد موسى صلوات الله عليه وشمر من أعقاب ذي الأذعار كان على عهد سليمان، فلا يصح ذلك إلا أن يكون شمر أبرهة، ويكون أول دولة التبابعة. ثم ملك على التبابعة بعد شمر مرعش تبع الأقرن واسمه زيد.

قال السهيلي: وهو ابن شمر مرعش وقال الطبري إنه ابن عمرو ذي الأذعار. وقال السهيلي: إنما الأقرن لشامة كانت في قرنه، وملك ثلاثاً وخمسين سنة. وقال المسعودي: ثلاثاً وستين. ثم ملك من بعده ابنه كلكيكرب وكان مضعفاً ولم يغز قط إلى أن مات. وملك بعده ابنه تبان أسعد أبو كرب، ويقال هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة. وعند الطبري أن الذي بعد ياسر ينعم بن عمرو ذي الأذعار تبع الأقرن أخوه، ثم بعد تبع الأقرن شمر مرعش بن ياسر ينعم، ثم من بعده تبع الأصغر وهو تبان أسعد أبو كرب هذا هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة. وقال الطبري: ويقال له الرائد وكان على عهد يستاسب وحافده أردشير بمن ابن ابنه أسفنديار من ملوك الفرس.

وأنه شخص من اليمن غازياً ومر بالحيرة فتحير عسكره هنالك فسميت الحيرة. وخلف قوماً من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقضاعة فأقاموا هنالك وبنو الأطام، واجتمع إليهم ناس من طيرة وكلب والسكون وأياد والحرث بن كعب. ثم توجه الأنبار ثم الموصل ثم أذربيجان، ولقي الترك فهزمهم وقتل وسبى، ثم رجع إلى اليمن، وهابته الملوك وهادنه ملوك الهند. ثم رجع لغزو الترك، وبعث ابنه حسان إلى الصغد، وابنه يعفر إلى الروم، وابن أخيه شمر ذي الجناح إلى الفرس. وإن شمر لقي كيقباذ ملك الفرس فهزمه، وملك سمرقند وقتله، وجاز إلى الصين فوجد أخاه حسان قد سبقه إليها، فأثخنا في القتل والسبي، وانصرفا بما معهما من الغنائم إلى أبيهما.

وبعث ابنه يعفر إلى القسطنطينية فتلقوه الجزية والأتاوة، فسار إلى رومة وحصرها، ووقع الطاعون في عسكره، فاستضعفهم الروم ووثبوا عليهم فقتلوهم، ولم يفلت منهم أحد. ثم رجع إلى اليمن، ويقال أنه ترك ببلاد الصين قوماً من حمير وأنهم بها لهذا العهد، وأنه ترك ضعفاء الناس بظاهر الكوفة فتحيروا هنالك وأقاموا معهم من كل قبائل العرب.

وقال ابن إسحاق: إن الذي سار إلى المشرق من التبابعة تبع الآخر، وهو تبان أسعد أبو كرب بن ملكيكرب بن زيد الأقرن بن عمرو ذي الأذعار، وتبان أسعد هو حسان تبع وهو فيما يقال أول من كسا الكعبة، وذكر ابن إسحاق الملاء والوصائل، وأوصى ولاته من جرهم بتطهيرها وجعل لها باباً ومفتاحاً، وذكر ابن إسحاق أنه أخذ بدين اليهودية، وذكر في سبب تهوده أنه لما غزا إلى المشرق مر بالمدينة يثرب فملكها، وخلف ابنه فيهم، فعدوا عليه وقتلوه غيلة ورئيسهم يومئذ عمرو بن الطلة من بني النجار. فلما أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة مجمعاً على خرابها فجمع هذا الحي من أبناء قيلة لقتاله فقاتلهم، وبينما هم على ذلك جاءه حبران من أحبار يهود من بني قريظة، وقالا له: لا تفعل فإنك لن تقدر وأنها مهاجر نبي قرشي يخرج آخر الزمان فتكون قراراً له. وأنه أعجب بهما واتبعهما على دينهما، ثم مضى لوجهه.

ولقيه دون مكة نفر من هذيل، وأغروه بمال الكعبة وما فيها من الجواهر والكنوز، فنهاه الحبران عن ذلك وقالا له: إنما أراد هؤلاء هلاكك. فقتل النفر من الهذليين وقدم مكة فأمره الحبران بالطواف بها والخضوع، ثم كساها كما تقدم، وأمر ولاتها من جرهم بتطهيرها من الدماء والحيض وسائر النجاسات، وجعل لها باباً ومفتاحاً، ثم سار إلى اليمن. وقد ذكر قومه ما أخذ به من دين اليهودية، وكانوا يعبدون الأوثان، فتعرضوا لمنعه ثم حاكموه إلى النار التي كانوا يحاكمون إليها، فتأكل الظالم وتدع المظلوم، وجاؤوا بأوثانهم. وخرج الحبران متقلدان المصاحف، ودخل الحميريون فأكلتهم وأوثانهم، وخرجا منها ترشح وجوههم وجباههم عرقاً، فآمنت حمير عند ذلك، وأجمعوا على اتباع اليهودية.

ونقل السهيلي عن ابن قتيبة في هذه الحكاية: أن غزاة تبع هذه إنما هي استصراخة أبناء قيلة على اليهود، فإنهم كانوا نزلوا مع اليهود حين أخرجوهم من اليمن على شروط، فنقضت عليهم اليهود فاستغاثوا بتبع فعند ذلك قدمها. وقد قيل: إن الذي استصرخه أبناء قيلة على اليهود إنما هو أبو جبلة من ملوك غسان بالشام، جاء به مالك بن عجلان، فقتل اليهود بالمدينة، وكان من الخزرج كما نذكر بعد. ويعضد هذا أن مالك بن عجلان بعيد عن عهد تبع بكثير، يقال أنه كان قبل الإسلام بسبعمائة سنة ذكره ابن قتيبة. وحكى المسعودي في أخبار تبع هذا أن أسعد أبا كرب سار في الأرض، ووطأ الممالك وذللها ووطئ أرض العراق في ملك الطوائف، وعميد الطوائف يومئذ خرداد بن سابور، فلقي ملكاً من ملوك الطوائف اسمه قباذ، وليس قباذ بن فيروز، فانهزم قباذ وملك أبو كرب العراق والشام والحجاز وفي ذلك يقول تبع أبو كرب:

إذا حسينا جيادنا من دماء ... ثم سرنا بها مسيرا بعيدا
واستبحنا بالخيل خيل قباذ ... وابن إقليد جاءنا مصفودا
وكسونا البيت الذي حرم اللّه ... ملاء منضدا وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشراً ... وجعلنا لبابه إقليدا

وقال أيضاً

لست بالتبع اليماني إن لم ... تركض الخيل في سواد العراق
أو تؤدي ربيعة الخرج قسراً ... لم يعقها عوائق العواق

وقد كانت لكندة معه وقائع وحروب، حتى غلبهم حجر بن عمرو بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة بن ملوك كهلان، فدانوا له وجع أبوكرب إلى اليمن، فقتله حمير، وكان ملكه ثلثمائة وعشرين سنة.ثم ملك من بعد أبي كرب هذا فيما قال ابن إسحاق ربيعة بن نصر بن الحرث بن نمارة بن لخم ولخم أخو جذام. وقال ابن هشام: ويقال ربيعة بن نصر بن أبي حارثة بن عمرو بن عامر. كان أبو حارثة تخلف باليمن بعد خروج أبيه، وأقام ربيعة بن نصر ملكاً على اليمن بعد هؤلاء التبابعة الذين تقدم ذكرهم، ووقع له شأن الرؤيا المشهورة. قال الطبري عن ابن إسحاق عن بعض أهل العلم أن ربيعة بن نصر رأى رؤيا هالته وفظع بها، وبعث في أهل مملكته في الكهنة والسحرة والمنجمين وأهل العيافة، فأشاروا عليه باستحضار الكاهنين المشهورين لذلك العهد في إياد وغسان وهما شق وسطيح.

قال الطبري: شق هو أبو صعب شكر بن وهب بن أمول بن يزيد بن قيس عبقر بن أنمار، وسطيح هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذيب بن عدي بن مازن بن غسان، ولوقوع اسم ذيب في نسبه كان يعرف بالذيبي. فأحضرهما وقص عليهما رؤياه وأخبراه بتأويلها، أن الحبشة يملكون بلاد اليمن من بعد ربيعة وقحطان بسعين سنة، ثم يخرج عليهما ابن ذي يزن من عدن فيخرجهم، ويملك عليهم اليمن، ثم تكون النبوة في قريش في بني غالب بن فهر. ووقع في نفس ربيعة أن الذي حدثه الكاهنان من أمر الحبشة كائن، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم، وكتب إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرداذ فأسكنهم الحيرة.

ومن بيت ربيعة بن نصر كان النعمان ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر. قال ابن إسحاق ولما هلك ربيعة بن نصر اجتمع ملك اليمن لحسان بن تبان أسعد بن كرب. قال السهيلي: وهو الذي استباح طسماً كما ذكرناه، وبعث على المقدمة عبد كهلان بن يثرب بن ذي حرب بن حارث بن ملك بن عبدان بن حجر بن ذي رعين. واسم ذي رعين يريم وهو ابن زيد الجمهور، وقد مر نسبه إلى سبا الأصغر. وقال السهيلي: في أيام حسان تبع كان خروج عمرو بن مزيقيا من اليمن بالأزد، وهو غلط من السهيلي لأن أبا كرب أباه إنما غزا المدينة فيما قال هو صريخاً للأوس والخزرج على اليهود وهو من غسان ونسبه إلى مزيقيا، فعلى هذا يكون الذي استصرخه الأوس والخزرج على اليهود إنما هو من ملوك غسان كما يأتي في أخبارهم. قال ابن إسحاق: ولما ملك حسان بن تبع بن تبان أسعد سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب والعجم كما كانت التبابعة تفعل، فكرهت حمير وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرجوع إلى بلادهم، فكلموا أخاً له كان معهم في العسكر يقال له عمرو، وقالوا له اقتل أخاك نملكك وترجع إلينا إلى بلادنا. فتابعهم على ذلك وخالفه ذو رعين في ذلك ونهى عمراً عن ذلك، فلم يقبل وكتب في صحيفة وأودعها عنده:

الا من يشتري سهراً بنوم ... سعيد من يبيت قرير عين
فاما حمير غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذي رعين

ثم قتل عمرو أخاه بعرصة لخم، وهي رحبة مالك بن طوق، ورجع حمير إلى اليمن فمنع النوم عليه السهر، وأجهده ذلك فشكى إلى الأطباء عدم نومه والكهان والعرافين، فقالوا ما قتل رجل أخاه إلا سلط عليه السهر. فجعل يقتل كل من أشار عليه بقتل أخيه ولم يغنه ذلك شيئاً، وهمّ بذي رعين فذكره شعره فكانت فيه معذرته ونجاته. وكان عمرو هذا يسمى موثبان، قال الطبري: لوثوبه على أخيه، وقال ابن قتيبة: لقلة غزوه ولزومه الوثب على الفراش. وهلك عمرو هذا لثلاث وستين سنة من ملكه.قال الجرجاني والطبري: ثم مرج أمر حمير من بعده وتفرقوا، وكان ولد حسان تبع صغاراً لا يصلحون للملك وكان أكبرهم قد استهوته الجن، فوثب على ملك التبابعة عبد كلال موثباً فملك عليهم أربعاً وتسعين سنة، وكان يدين بالنصرانية، ثم رجع ابن حسان تبع من استهواء الجن فملك على التبابعة. قال الجرجاني: ملك ثلاثاً وسبعين سنة وهو تبع الأصغر ذو المغازي والآثار البعيدة.

قال الطبري: وكان أبوه حسان تبع قد زوج بنته من عمرو بن حجر آكل المرار ابن عمرو بن معاوية من ملوك كندة، فولدت له ابنه الحرث بن عمرو، فكان ابن تبع بن حسان هذا، فبعثه على بلاد معد، وملك على العرب بالحيرة مكان آل نصر بن ربيعة. قال وانعقد الصلح بينه وبين كيقباد ملك فارس على أن يكون الفرات حداً بينهم، ثم أغارت العرب بشرقي الفرات، فعاتبه على ذلك، فقال لا أقدر على ضبط العرب إلا بالمال والجند، فأقطعه

بلاداً من السواد، وكتب الحرث إلى تبع يغريه بملك الفرس، وتضعيف أمر كيقباد، فغزاهم. وقيل إن الذي فعل ذلك هو عمرو بن حجر أبوه الذي ولاه تبع أبو كرب، وأنه أغراه بالفرس واستقدمه إلى الحيرة، فبعث عساكره مع ولده الثلاثة إلى الصغد والصين والروم، وقد تقدم ذكر ذلك.

قال الجرجاني: ثم ملك بعد تبع بن حسان تبع أخوه لأمه وهو مدثر بن عبد كلال، فملك إحدى وأربعين سنة. ثم ملك من بعده ابنه وليعة بن مدثر سبعاً وثلاثين سنة. ثم ملك من بعده أبرهة بن الصباح بن لهيعة بن شيبة بن مدثر قيلف بن يعلق بن معديكرب بن عبد الله بن عمرو بن ذي أصبح الحرب بن مالك، أخو ذي رعين، وكعب أبو سبا الأصغر. قال الجرجاني: وبعض الناس يزعم أن أبرهة بن الصباح إنما ملك تهامة فقط. قال: ثم ملك من بعده حسان بن عمرو بن تبع بن كلكيكرب سبعاً وخمسين سنة، ثم ملك لخنيعة ولم يكن من أهل بيت المملكة. قال ابن إسحاق: ولما ملك لخنيعة غلب عليهم، وقتل خيارهم، وعبث برجالات بيوت المملكة منهم، قيل إنه كان ينكح ولدان حمير، يريد بذلك أن لا يملكوا عليهم، وكانوا لا يملكون عليهم من نكح، نقله ابن إسحاق. وقال أقام عليهم مملكاً سبعاً وعشرين سنة، ثم وثب عليه ذو نواس زرعة تبع بن تبان أسعد أبي كرب، وهو حسان أبي ذي معاهر فيما قال ابن إسحاق، وكان صبياً حين قتل حسان ثم شب غلاماً جميلاً ذا هيئة وفضل ووضاءة ففتك بلخنيعة في خلوة أراده فيها على مثل فعلاته القبيحة، وعلمت به حمير وقبائل اليمن فملكوه واجتمعوا عليه، وجدد ملك التبابعة، وتسمى يوسف وتعصب لدين اليهودية، فكانت مدته فيما قال ابن إسحاق ثمانية وستين سنة.

إلى هنا اه ترتيب أبي الحسن الجرجاني. ثم قال: وقال آخرون ملك بعد أفريقش بن أبرهة قيس بن صيفي، وبعده الحرث بن قيس بن مياس، ثم ماء السماء بن محروه ثم شرحبيل وهو يصحب بن مالك بن زيد بن غوث بن سعد بن عوف بن علي بن الهمال بن المنثلم بن جهيم، ثم الصعب بن قرين بن الهمال بن المنثلم، ثم زيد بن الهمال، ثم ياسر بن الحرث بن عمرو بن يعفر، ثم زهير بن عبد شمس أحد بني صيفي بن سبا الأصغر وكان فاسقاً مجرماً يفتض أبكار حمير حتى نشأت بلقيس بنت اليشرح بن ذي جدن بن اليشرح بن الحرث بن قيس بن صيفي فقتلته غيلة، ثم ملكت. ولما أخذها سليمان ملك لمك بن شرحبيل، ثم ملك ذو وداع فقتله ملكيكرب بن تبع بن الأقرن وهو أبو ملك، ثم هلك. فملك أسعد بن قيس بن زيد بن عمرو ذي الأذعار بن أبرهة ذي المنار بن الرايش بن قيس بن صيفي بن سبا، وهو أبو كرب، ثم ملك حسان ابنه فقتله عمرو أخوه ووقع الاختلاف في حمير، ووثب على عمرو لخنيعة ينوف ذو الشناتر وملك. ثم قتله ذو نواس بن تبع وملك.اه كلام الجرجاني.

وزعم ابن سعيد ونقله من كتب مؤرخي المشرق: أن الحرث الرايش هو ابن ذي سدد ويعرف بذي مداثر، وأن الذي ملك بعده ابنه الصعب وهو ذو القرنين، ثم ابنه أبرهة بن الصعب وهو ذو المنار، ثم العبد ذو الأشفار بن أبرهة بن عمرو ذي الأذعار بن أبرهة، ثم قتلته بلقيس. قال في التيجان: إن حمير خلعوه، وملكوا شرحبيل بن غالب بن المنتاب بن زيد بن يعفر بن السكسك بن وائل وكان بمارب، فجاز به ذو الأذعار وحارب ابنه الهدهاد بن شرحبيل من بعده، وابنته بلقيس بنت الهدهاد الملكة من بعده، فصالحته على التزويج وقتلته، وغلبها سليمان عليه السلام على اليمن إلى أن هلك وابنه رحبعم من بعده. واجتمعت حمير من بعده على مالك بن عمرو بن يعفر بن عمرو بن حمير بن المنتاب بن عمرو بن يزيد بن يعفر بن السكسك بن وائل بن حمير، من بعده على مالك بن عمرو بن يعفر بن عمرو بن حمير بن المنتاب بن عمرو بن يزيد بن يعفر بن السكك بن وائل بن حمير. وملك بعده ابنه شمر يرعش وهو الذي خرب سمرقند، وملك بعده ابنه صيفي بن شمر على اليمن، وسار أخوه أفريقش بن شمر إلى أفريقية بالبربر وكنعان فملكها. ثم انتقل الملك إلى كهلان وقام به عمران بن عامر ماء السماء بن حارثة امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد وكان كاهناً، ولما احتضر عهد إلى أخيه عمرو بن عامر المعروف بمزيقيا وأعلمه بخراب سد مارب وهلاك اليمن بالسيل، فخرج من اليمن بقومه وأصحاب اليمن سيل العرم فلم ينتظم لبني قحطان بيعته، واستولى على قصر مارب من بعده ربيعة بن نصر. ثم رأى رؤيا ونذر بملك الحبشة وبعث ولده إلى العراق وكتب إلى سابور الأشعاني فأسكنهم الحيرة وكثرت الخوارج باليمن، فاجتمعت حمير على أن تكون لأبي كرب أسعد بن عدي بن صيفي فخرج من ظفار وغلب ملوك الطوائف باليمن، ودوخ جزيرة العرب، وحاصر الأوس والخزرج بالمدينة، وحمل حمير على اليهودية، وطالت مدته وقتلته حمير، وملك بعده ابنه حسان الذي أباد طسماً، ثم قتله أخوه عمرو بمداخلة حمير، وهلك عمرو. فملك بعده أخوه لأبيه عبد كلال بن منوب، وفي أيامه خلع سابور أكتاف العرب. وملك بعده تبع بن حسان وهو الذي بعث ابن أخيه الحرث بن عمرو الكندي إلى أرض بني معد بن عدنان بالحجاز فملك عليهم.

وملك بعده مرثد بن عبد كلال. ثم ابنه وليعة وكثرت الخوارج عليه، وغلب أبرهة الصباح على تهامة اليمن، وكان في ظفار ذو شناتر، وقتله ذو نواس كما مر، هذا ترتيب ابن سعيد في ملوكهم.وعند المسعودي: أنه لما هلك كليكرب بن تبع المعروف بالأقرن، قال هو الذي سار قومه نحو خراسان والصغد والصين، وولي بعد حسان بن تبع، فاستقام له الأمر خمساً وعشرين سنة، ثم قتله أخوه عمرو بن تبع، وملك أربعاً وستين سنة، ثم تبع أبو كرب وهو الذي غزا يثرب وكسا الكعبة بعد أن أراد هدمها، ومنعه الحبران من اليهود، وتهود وملك مائة سنة. ثم بعده عمرو بن تبع أبي كرب وخلع، وملكوا مرثد بن عبد كلال، واتصلت الفتن باليمن أربعين سنة. ومن بعده وليعة بن مرثد تسعاً وثلاثين سنة. ومن بعده أبرهة بن الصباح بن وليعة بن مرثد، ويدعى شيبة الحمد ثلاثاً وتسعين سنة، وكانت له سير وقصص. ومن بعده عمرو ذو قيفان تسع عشرة سنة. ومن بعده لخنيعة ذو شناتر ومن بعده ذو نواس.

وأما ابن الكلبي والطبري وابن حزم فعندهم أن تبع أسعد أبي كرب هو ابن كليكرب ابن زيد الأقرن بن عمرو بن ذي الأذعار بن أبرهة ذي المنار الرايش بن قيس بن صيفي بن سبا الأصغر. وقال السهيلي: أنه أسقط أسماء كثيرة وملوكاً. وقال ابن الكلبي وابن حزم: ومن ملوك التبابعة أفريقش بن صيفي، ومنهم شمر يرعش بن ياسر ينعم بن عمرو ذي الأذعار، ومنهم بلقيس ابنة اليشرح بن ذي جدن بن اليشرح بن الحرث الرايش بن قيس بن صيفي. ثم قال ابن حزم بعد ذكر هؤلاء من التبابعة: وفي أنسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة، ولا يصح من كتب أخبار التبابعة وأنسابهم إلا طرف يسير لاختلاف رواتهم وبعد العهد اهـ.

وقال الطبري: لم يكن لملوك اليمن نظام وإنما كان الرئيس منهم يكون ملكاً على مخلافه لا يتجاوزه، وإن تجاوز بعضهم عن مخلافه بمسافة يسيرة من غير أن يرث ذلك الملك عن آبائه ولا يرثه أبناؤه عنه إنما هو شأن شداد المتلصصة يغيرون على النواحي باستغفال أهلها، فإذا قصدهم الطلب لم يكن لهم ثبات، وكذلك كان أمر ملوك اليمن يخرج أحدهم من مخلافه بعض الأحيان ويبعد في الغزو والإغارة فيصيب ما يمر به، ثم يتشمر عند خوف الطلب زاحفاً إلى مكانه من غير أن يدين له أحد من غير مخلافه بالطاعة أو يؤدي إليه خراجاً اه.

وأما الخبر عن ذي نواس وما بعده فاتفق أهل الأخبار كلهم أن ذا نواس هو ابن تبان أسعد واسمه زرعة، وأنه لما تغلب على ملك آبائه التبابعة، تسمى يوسف وتعصب لدين اليهودية، وحمل عليه قبائل اليمن، وأراد أهل نجران عليها، وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ولهم فضل في الدين واستقامة. وكان رئيسهم في ذلك يسمى عبد الله بن الثامر، وكان هذا الدين وقع إليهم قديماً من بقية أصحاب الحواريين من رجل سقط لهم من ملك التبعية يقال له ميمون نزل فيهم، وكان مجتهداً في العبادة، مجاب الدعوة، وظهرت على يده الكرامات في شفاء المرضى، وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده، وتبعه على دينه رجل من أهل الشام اسمه صالح، وخرجا فارين بأنفسهما، فلما وطئا بلاد العرب اختطفتهما سيارة فباعوهما بنجران، وهم يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم، ويعلقون عليها في الأعياد من حليهم وثيابهم، ويعكفون عليها أياماً. وافترقا في الدير على رجلين من أهل نجران، وأعجب سيد ميمون صلاته ودينه وسأله عن شأنه، فدعاه إلى الدين وعبادة الله، وأن عبادة النخلة باطل، وأنه لو دعا معبوده عليها هلكت. فقال له سيده إن فعلت دخلنا في دينك. فدعا ميمون فأرسل الله ريحاً فجعفت النخلة من أصلها، وأطبق أهل نجران على أتباع دين عيسى صلوات الله عليه. ومن رواية ابن إسحاق أن ميمون نزل بقرية من قرى نجران، وكان يمر به غلمان أهل نجران، يتعلمون من ساحر كان بتلك القرية، وفي أولئك الغلمان عبد الله بن الثامر، فكان يجلس إلى ميمون، ويسمع منه فآمن به واتبعه، وحصل على معرفة اسم الله الأعظم، فكان مجاب الدعوة لذلك، واتبعه الناس على دينه، وأنكر عليه ملك نجران وهم بقتله. فقال له: لن تطيق حتى تؤمن وتوحد فآمن ثم قتله، فهلك ذلك الملك مكانه. واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وأقام أهل نجران على دين عيسى صلوات الله عليه حتى دخلت عليهم في دينهم الأحداث. ودعاهم ذو نواس إلى دين اليهودية، فأبوا. فسار إليهم في أهل اليمن وعرض عليهم القتل فلم يزدهم إلا جماحاً، فخدد لهم الأخاديد، وقتل وحرق حتى أهلك منهم فيما قال ابن إسحاق عشرين ألفاً أو يزيدون، وأفلت منهم رجل من سبا يقال له دوس ذو ثعلبان فسلك الرمل على فرسه وأعجزهم.

ملك الحبشة اليمن

قال هشام بن محمد الكلبي في سبب غزو ذي نواس أهل نجران: إن يهودياً كان بنجران فعدا أهلها على ابنين له فقتلوهما ظلماً، فرفع أمره إلى ذي نواس، وتوسل له باليهودية واستنصره على أهل نجران وهم نصارى، فحمي له ولدينه وغزاهم. ولما

أفلت دوس ذو ثعلبان فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذي نواس، وأعلمه بما ركب منهم وأراه الإنجيل قد احترق بعضه بالنار، فكتب له إلى النجاشي يأمره بنصره، وطلب بثأره، وبعث معه النجاشي سبعين ألفاً من الحبشة. وقيل: أن صريخ دوس كان أولاً للنجاشي، وأنه اعتذر إليه بقلة السفن لركوب البحر، وكتب إلى قيصر وبعث إليه بالإنجيل المحرق، فجاءته السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة، وأمر عليهم ارياطاً رجلاً منهم، وعهد إليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم فخرج أرياط لذلك ومعه أبرهة الأشرم فركبوا البحر، ونزلوا ساحل اليمن وجمع ذو نواس حمير ومن أطاعه من أهل اليمن على افتراق واختلاف في الأهواء، فلم يكن كبير حرب، وانهزموا. فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه بفرسه إلى البحر، ثم ضربه فدخل فيه وخاض ضحضاح البحر، ثم أفضى به إلى غَمْرةٍ فاقحمه فيه، فكان آخر العهد به، ووطئ أرياط اليمن بالحبشة، وبعث إلى النجاشي بثلث السبي كما عهد له، ثم أقام بها فضبطها وأذل رجالات حمير، وهدم حصون الملك بها مثل سلجيق وسون وغمدان، وقال ذو يزن يرثي حمير وقصور الملك باليمن:

هَوْنك ليس يرد الدمعُ ما فاتا لا تَهلكنْ اسفاً في إثر منْ ماتا
ابعْد سُون فلا عين ولا أثر وبعد سلجيق يَبني الناس ابياتاً

وفي رواية هشام بن محمد الكلبي أن السفن قدمت على النجاشي من قيصر، فحمل فيها الحبش ونزلوا بساحل اليمن، واستجاش ذو نواس بأقيال حمير فامتنعوا من صريخه وقالوا: كل أحد يقاتل عن ناحيته. فألقى ذو نواس باليد ولم يكن قتال. وأنه سار بهم إلى صنعاء، وبعث عماله في النواحي لقبض الأموال، وعهد بقتلهم في كل ناحية، فقتلوا. وبلغ ذلك النجاشي فجهز إلى اليمن سبعين ألفاً، وعليهم أبرهة فبلغوا صنعاء، وهرب ذو نواس واعترض البحر، فكان آخر العهد به. وملك أبرهة اليمن ولم يبعث إلى النجاشي بشيء، وذكر له أنه خلع طاعته. فوجه جيشاً من أصحابه عليهم أرياط. ولما حل بساحته دعاه إلى النصفة والنزال فتبارزا وخدعه أبرهة، وأكمن عبداً له في موضع المبارزة، فلما التقيا ضربه أرياط فشرم أنفه، وسمي الأشرم وخالفه العبد من الكمين، فضرب أرياطا فأنفذه، وبلغ النجاشي خبر أرياط فحلف ليريقن دمه، ثم كتب إليه أبرهة واسترضاه فرضي عليه وأقره على عمله.

وقال ابن إسحاق إن أرياط هو الذي قدم اليمن أولاً وملكه، وانتقض عليه أبرهة من بعد ذلك، فكان ما ذكرنا من الحرب بينهما وقتل أرياط، وغضب النجاشي لذلك ثم أرضاه واستبد أبرهة بملك اليمن.

ويقال أن الحبشة لما ملكوا اليمن أمر أبرهة بن الصباح، وأقاموا في خدمته. قاله ابن سلام وقيل: إن ملك حمير لما انقرض أمر التبابعة صار متفرقاً في الأذواء من ولد زيد الجمهور، وقام بملك اليمن منهم ذو يزن من ولد مالك بن زيد. قال ابن حزم: واسمه عَلَس بن زيد بن الحرث بن زيد الجمهور.

وقال ابن الكلبي وأبو الفرج الأصبهاني: هو عَلَس بن الحرث بن زيد بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد الجمهور. قالوا كلهم: ولما ملك ذو يزن بعد مهلك ذي نواس واستبد أمر الحبشة على أهل اليمن، طالبوهم بدم النصارى الذين في أهل نجران، فساروا إليه وعليهم أرياط، ولقيهم فيمن معه فانهزم واعترض البحر، فأقحم فرسه وغرق فهلك بعد ذي نواس، وولي ابنه مرثد بن ذي يزن مكانه، وهو الذي استجاشه امرؤ القيس على بني أسد، وكان من عقب ذي يزن أيضاً من هؤلاء الأذواء علقمة ذو قيفال بن شراحيل بن ذي يزن، وملك مدينة الهون فقتله أهلها من همدان.

ولما استقر أبرهة في ملك اليمن أساء السير في حمير ورؤسائهم، وبعث في ريحانة بنت علقمة بن مالك بن زيد بن كهلان فانتزعها من زوجها أبي مرة بن ذي يزن، وقد كانت ولدت منه ابنه معديكرب، وهرب أبو مرة، ولحق بأطراف اليمن واصطفى أبرهة ريحانة فولدت له مسروق بن أبرهة وأخته بسباسة. وكان لأبرهة غلام يسمى عَمْدَدة، وكان قد ولاه الكثير من أمره، فكان يفعل الأفاعيل حتى عدا عليه رجل من حمير أو خثعم فقتله، وكان حليماً فأهدر دمه.

غزو الحبشة الكعبة

ثم إن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء تسمى القليس لم ير مثلها وكتب إلى النجاشي بذلك، وإلى قيصر في الصناع والرخام والفسيفساء، وقال لست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب. وتحدث العرب بذلك فغضب رجل من السادة، أحد بني فقيم، ثم أحد بني مالك، وخرج حتى أتى القليس فقعد فيها، ولحق بأرضه. وبلغ أبرهة وقيل له الرجل من البيت الذي يحج إليه العرب، فحلف ليسيرن إليه يهدمه. ثم بعث في الناس يدعوهم إلى حج القليس، فضرب الداعي في بلاد كنانة بسهم فقتل. وأجمع أبرهة على غزو البيت وهدمه، فخرج سائرا بالحبشة ومعه الفيل. فلقيه ذو نفر الحميري وقاتله فهزمه وأسره، واستبقاه دليلاً في أرض

العرب.

قال ابن إسحاق: ولما مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف فأتوه بالطاعة وبعثوا معه أبا رغال دليلاً، فأنزله المغمس بين الطائف ومكة فهلك هنالك ورجمت العرب قبره من بعد ذلك قال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبي رغال

ثم بعث أبرهة خيلاً من الحبشة، فانتهوا إلى مكة، واستاقوا أموال أهلها، وفيها مائتا بعير لعبد المطلب وهو يومئذ سيد قريش، فهموا بقتاله ثم علموا أن لا طاقة لهم به فاقصروا. وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة يعلمهم بمقصده من هدم البيت، ويؤذنهم بالحرب إن اعترضوا دون ذلك، وأخبر عبد المطلب بذلك عن أبرهة، فقال له: والله ما نريد حربه، وهذا بيت الله فإن يمنعه فهو بيته وإن يخلي عنه فما لنا نحن من دافع. ثم انطلق به إلى أبرهة، ومر بذي نفر وهو أسير، فبعث معه إلى سائس الفيل، وكان صديقاً لذي نفر، فاستأذن له على أبرهة، فلما رآه أجله ونزل عن سريره، فجلس معه على بساطه. وسأله عبد المطلب في الإبل. فقال له أبرهة هلا سألت في البيت الذي هو دينك ودين آبائك وتركت البعير. فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه. فرد عليه إبله. وقال الطبري: وكان فيما زعموا قد ذهب مع عبد المطلب عمرو بن لعابة بن عدي بن الرمل سيد كنانة، وخويلد بن واثلة سيد هذيل، وعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة ويرجع عن هدم البيت، فأبى عليهم، فانصرفوا. وجاء عبد المطلب وأمر قريشا بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب للتحرز فيها، ثم قام عند الكعبة ممسكاً بحلقة الباب ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه، وعبد المطلب ينشد ويقول:

لا همَّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

في أبيات معروفة.ثم أرسل الله عليهم الطير الأبابيل من البحر، ترميم بالحجارة فلا تصيب أحداً منهم إلا هلك مكانه، وأصابه في موضع الحجر من جسده كالجدري والحصبة فهلك، وأصيب أبرهة في جسده بمثل ذلك، وسقطت أعضاؤه عضواً عضواً، وبعثوا بالفيل ليقدم على مكة فربض ولم يتحرك فنجا. وأقدم فيل آخر فحصب وبعث الله سيلاً مجحفاً فذهب بهم، والقاهم في البحر. ورجع أبرهة إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فانصدع صدره عن قلبه ومات.ولما هلك أبرهة ملك مكانه ابنه يكسوم وبه كان يكنى واستفحل ملكه وأذل حمير وقبائل اليمن ووطئتهم الحبشة، فقتلوا رجالهم ونكحوا نساءهم واستخدموا أبناءهم. ثم هلك يكسوم بن أبرهة فملك مكانه أخوه مسروق، وساءت سيرته وكثر عسف الحبشة باليمن، فخرج ابن ذي يزن واستجاش عليهم بكسرى، وقدم اليمن بعساكر الفرس، وقتل مسروقا وذهب أمر الحبشة بعد أن توارث ملك اليمن منهم أربعة في اثنتين وسبعين سنة أولهم أرباط، ثم أبرهة، ثم ابنه يكسوم، ثم أخوه مسروق بن أبرهة.

قصة سيف بن ذي يزن وملك الفرس على اليمن

ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري من الأذواء بقية ذلك السلف، وعقب أولئك الملوك، وديال الدولة المفوض للخمود. وقد كان أبرهة انتزع منه زوجته ريحانة وبعد أن ولدت منه ابنه معديكرب كما مر، ونسبه فيما قال الكلبي: سيف بن ذي يزن بن عافر بن أسلم بن زيد بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد الجمهور، هكذا نسبه ابن الكلبي، ومالك بن زيد هو أبو الأذواء. فخرج سيف وقدم على قيصر ملك الروم وشكى إليه أمر الحبشة، وطلب أن يخرجهم ويبعث على اليمن من شاء من الروم، فلم يسعفه عن الحبشة، وقال: الحبشة على دين النصارى. فرجع إلى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب، فشكى إليه واستمهله النعمان إلى حين وفادته على كسرى، وأوفد معه وسأله النصر على الحبشة وأن يكون ملك اليمن له. فقال: بعدت أرضك عن أرضنا، أو هي قليلة الخير إنما هي شاء وبعير ولا حاجة لنا بذلك. ثم كساه وأجازه، فنثر دنانير الإجازة ونهبها الناس يوهم الغنى بما في أرضه. فأنكر عليه كسرى ذلك. فقال: جبال أرضي ذهب وفضة، وإنما جئت لتمنعني من الظلم. فرغب في كسرى في ذلك، وأمهله للنظر في أمره، وشاور أهل دولته، فقالوا في سجونك رجال حبستهم للقتل ابعثهم معه فإن هلكوا كان الذي أردت بهم، وإن ملكوا كان ملكاً إزددته إلى ملكك. وأحصوا ثمانمائة وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتاً وأكبرهم سناً وكان وهزر الديلمي.

وعند المسعودي وهشام بن محمد السهيلي أن كسرى وعده بالنصر ولم ينصره وشغل بحرب الروم، وهلك سيف بن ذي يزن عنده، وكبر ابنه ابن ريحانة، وهو معديكرب وعرفته أمه بأبيه، فخرج ووفد على كسرى يستنجزه في النصرة التي وعد بها أباه،

وقال له: أنا ابن الشيخ اليمني الذي وعدته. فوهبه الدنانير ونثرها إلى آخر القصة. وقيل: إن الذي وفد على كسرى وأباد الحبشة هو النعمان بن قيس بن عبيد بن سيف بن ذي يزن. قالوا ولما كتبت الفرس مع وهزر وكانوا ثمانمائة، وقال ابن قتيبة: كانوا سبعة آلاف وخمسمائة.

وقال ابن حزم: كان وهزر من عقب جاماسب عم أنو شروان، فأمره على أصحابه وركبوا البحر ثمان سفائن فغرقت منها سفينتان وخلصت ست إلى ساحل عدن. فلما نزلوا بأرض اليمن، قال وهزر لسيف: ما عندك؟ قال: ما شئت من قوس عربي ورجلي مع رجلك حتى نظفر أو نموت. قال أنصفت. وجمع ابن ذي يزن من استطاع من قومه، وسار إليه مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة وأوباش اليمن، فتواقفوا للحرب، وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه، وأحفظه ذلك. وقال: أروني ملككم. فأروه إياه على الفيل عليه تاج وبين عينيه ياقوتة حمراء ثم نزل عن الفيل إلى الفرس، ثم إلى البغلة. فقال وهزر، ركب بنت الحمار، ذل وذل ملكه، ثم رماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه، وتغلغل في دماغه، وتنكس على دابته وداروا به، فحمل القوم عليهم وانهزم الحبشة في كل وجه وأقبل وهزر إلى صنعاء، ولما أتى بابها قال: لا تدخل رايتي منكوسة. فهدم الباب، ودخل ناصباً رايته فملك اليمن ونفى عنها الحبشة وكتب بذلك إلى كسرى وبعث إليه بالأموال. فكتب إليه أن يملك سيف بن ذي يزن على اليمن على فريضة يؤديها كل عام ففعل، وانصرف وهزر إلى كسرى. وملك سيف اليمن، وكان أبوه من ملوكها وخلف وهزر نائبا على اليمن في جماعة من الفرس ضمهم إليه وجعله لنظر ابن ذي يزن وأنزله بصنعاء. وانفرد ابن ذي يزن بسلطانه، ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان، يقال إن الضحاك بناه على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانيتها، خرب في خلافة عثمان قاله المسعودي. وقال السهيلي: كانت صنعاء تسمى أوال، وصنعاء اسم بانيها صنعاء بن أوال بن عمير بن عابر بن شالخ. ولما استقل ابن ذي يزن بملك اليمن وفدت العرب عليه يهنوه بالملك، لما رجع من سلطان قومه وأباد من عدوهم، وكان فيمن وفد عليه مشيخة قريش وعظماء العرب لعهدهم من أبناء إسماعيل وأهل بيتهم المنصوب لحجهم، فوفدوا في عشرة من رؤسائهم فيهم عبد المطلب، فأعظمهم سيف وأجلهم وأوجب لهم حقهم ووفر من ذلك قسم عبد المطلب من بينهم. وسأله عن بنيه حتى ذكر له شان النبي ﷺ وكفالته إياه بعد موت عبد اللّه أبيه عاشر ولد عبد المطلب، فأوصاه به وحضه على الإبلاغ في القيام عليه، والتحفظ به من اليهود وغيرهم، وأسر إليه البشرى بنبوته وظهور قريش قومهم على جميع العرب. وأسنى جوائز هذا الوفد بما يدل على شرف الدولة وعظمها لبعد غايتها في الهمة، وعلو نظرها في كرامة الوفد، وبقاء آثار الترف في الصبابة شاهد لشرافة الحال في الأول. ذكر صاحب الأعلام وغيره أنه أجاز سائر الوفد بمائة من الإبل وعشرة أعبد وصائف وعشرة أرطال من الورق والذهب وكرش مليء من العنبر وأضعاف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب.

قال ابن إسحاق: ولما انصرف وهزر إلى كسرى غزا سيف على الحبشة وجعل يقتل ويبقر بطون النساء، حتى إذا لم يبق إلا القليل جعلهم خولاً واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالحراب، وعظم خوفهم منه، فخرج يوماً وهم يسعون بين يديه، فلما توسطهم وقد انفردوا به عن الناس، رموه بالحراب فقتلوه، ووثب رجل منهم على الملك. وقيل: ركب خليفة وهزر فيمن معه من المسلحة، واستلحم الحبشة وبلغ ذلك كسرى، فبعث وهزر في أربعة آلاف من الفرس، وأمره بقتل كل أسود أو منتسب إلى أسود ولو جعداً قططاً ففعل، وقتل الحبشة حيث كانوا، وكتب بذلك إلى كسرى، فأمره على اليمن فكان يجبيه له حتى هلك. واستضافت حشابة ملك الحميريين بعد مهلك ابن ذي يزن وأهل بيته إلى الفرس، وورثوا ملك العرب وسلطان حمير باليمن بعد أن كانوا يزاحمونهم بالمناكب في عراقهم، ويجوسونهم بالغزو خلال ديارهم. ولم يبق للعرب في الملك رسم ولا طلل، إلا أقيالا من حمير وقحطان رؤساء في أحيائهم بالبدو لا تعرف لهم طاعة، ولا ينفذ لهم في غير ذاتهم أمر، إلا ما كان لكهلان إخوتهم بأرض العرب من ملك آل المنذر من لخم على الحيرة والعراق بتولية فارس، وملك آل جفنة من غسان على الشام بتولية آل قيصر كما يأتي في أخبارهم.

وقال الطبري: لما كانت اليمن لكسرى بعث إلى سرنديب من الهند قائداً من قواده، ركب البحر إليها في جند كثيف، فقتل ملكها واستولى عليها، وحمل إلى كسرى منها أموالاً عظيمة وجواهر. وكان وهزر يبعث العير إلى كسرى بالأموال والطيوب، فتمر على طريق البحرين تارة وعلى أرض الحجاز أخرى. وعدا بنو تميم في بعض الأيام على عيره بطريق البحرين، فكتب إلى عامله بالانتقام منهم، فقتل منهم خلقاً كما يأتي في أخبار كسرى. وعدا بنو كنانة على عيره بطريق الحجاز حين مرت بهم وكان في جوار رجل من أشراف العرب من قيس، فكانت حرب الفجار بين قيس وكنانة بسبب ذلك وشهدها النبي ﷺ وكان ينبل فيها

على أعمامه أي يجمع لهم النبل.

قال الطبري: ولما هلك وهزر أمر كسرى من بعده على اليمن ابنه المزربان، ثم هلك فأمر حافده خرخسرو بن التيجان بن المزربان، ثم سخط إليه وحمل إليه مقيدا، ثم أجاره ابن كسرى وخلى سبيله، فعزله كسرى وولى باذان فلم يزل إلى أن كانت البعثة وأسلم باذان وفشا الإسلام باليمن كما نذكره عند ذكر الهجرة وأخبار الإسلام باليمن.هذا آخر الخبر عن ملوك التابعة من اليمن ومن ملك بعدهم من الفرس، وكان عدد ملوكهم فيما قال المسعودي سبعة وثلاثين ملكاً في مدة ثلاثة آلاف ومائتي سنة إلا عشرا، وقيل: أقل من ذلك فكانوا ينزلون مدينة ظفار. قال السهيلي: زمار وظفار اسمان لمدينة واحدة، يقال: بناها مالك بن أبرهة وهو الأملوك ويسمى مالك وهو ابن ذي المنار، وكان على بابها مكتوب بالقلم الأول في حجر أسود:

يوم شيدت ظفار فقيل لمن ... أنت فقالت لخير الأخيار

ثم سيلت من بعد ذلك قالت ... إن ملكي أحابش الأشرار

ثم سيلت من بعد ذلك قالت ... إن ملكي لفارس الأحرار

ثم سيلت من بعد ذلك قالت ... إن ملكي لقريش التجار

ثم سيلت من بعد ذلك قالت ... إن ملكي لخير سنجار

وقليلاً ما يلبث القوم فيها ... غير تشييدها لحامي البوار

من أسود يلقيهم البحر فيها ... تشعل النار في أعالي الجدار

ولم تزل مدينة ظفار هذه منزلاً للملوك، وكذلك في الإسلام صدر الدولتين، وكانت اليمن من أرفع الولايات عندهم، بما كانت منازل العرب العاربة، ودار لملوك العظماء من التابعة والأقيال والعباهلة. ولم انقضى الكلام في أخبار حمير وملوكهم باليمن من العرب، استدعى الكلام ذكر معاصريهم من العجم على شرط كتابنا لنستوعب أخبار الخليفة، ونميز حال هذا الجيل العربي من جميع جهاته، والأمم المشاهير من العجم الذين كانت لهم الدول العظيمة لعهد الطبقة الأولى والثانية من العرب وهم النبط والسريانيون أهل بابل، ثم الجرامقة أهل الموصل، ثم القبط، ثم بنو إسرائيل والفرس ويونان والروم فلنأتِ الآن بما كان لهم من الملك والدولة وبعض أخبارهم على اختصار، والله ولي العون والتوفيق، لا رب غيره ولا مأمول إلا خيره.

الخبر عن ملوك بابل من القبط والسريانيين وملوك الموصل ونينوى من الجرامقة

قد تقدم لنا أن ملك الأرض من بعد نوح عليه السلام كان لكنعان بن كوش بن حام، ثم لابنه النمروذ من بعده، وأنه كان على بدعة الصابئة، وأن بني سام كانوا حنفاء يتحلون التوحيد الذي عليه الكلدانيون من قبلهم. قال ابن سعيد: ومعنى الكلدانيين الموحدين. ووقع ذكر النمروذ في التوراة منسوباً إلى كوش بن حام، ولم يقع فيها ذكر لكنعان بن كوش، فالله أعلم بذلك. وقال ابن سعيد أيضاً: وخرج عابر بن شالخ بن أرفخشذ فغلبه وسار من كوثا إلى أرض الجزيرة والموصل، فبنى مدينة مجدل هناك، وأقام بها إلى أن هلك، وورث أمره ابنه فالغ من بعده، وأصاب النمروذ وقومه على عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام ما أصابهم في الصرح وكانت البلبلة وهي المشهورة. وقد وقع ذكرها في التوراة ولا أدري معناها.

والقول بأن الناس أجمعين كانوا على لغة واحدة فباتوا عليها، ثم أصبحوا وقد افترقت لغاتهم قول بعيد في العادة، إلا أن يكون من خوارق الأنبياء فهو معجزة حينئذ ولم ينقلوه كذلك. والذي يظهر أنه إشارة إلى التقدير الإلهي في خرق العادة وافتراقها وكونها من آياته كما في القرآن الكريم، ولا يعقل في أمر البلبلة غير ذلك.

وقال ابن سعيد: سوريان بن نبيط ولاه فالغ على بابل، فانتقض عليه وحاربه، ولما هلك فالغ قام بأمره بعده ابنه ملكان، فغلبه سوريان على الجزيرة، وملكها هؤلاء الجرامقة إخوانه في النسب بنو جرموق بن أشوذ بن سام، وكانت مواطنهم بالجزيرة وكانت ابن أخت سوريان منهم الموصل بن جرموق، فولاه سوريان على الجزيرة وأخرج بني عابر منها، ولحق ملكان منها بالجبال فأقام هناك، ويقال: إن الخضر من عقبه، واستبد الموصل على خاله سوريان بن نبيط ملك بابل، وامتازت مملكة الجرامقة من مملكة النبط. وملك بعد الموصل ابنه راتق وكانت له حروب مع النبط، وملك من بعده ابنه أشور وبقي ملكها في عقبه وهو مذكور في التوراة، وملك بعده ابنه نينوى وبنى المدينة المقابلة للموصل من عدوة دجلة المعروفة باسمه.

ثم كان من عقبه سنجاريف بن أثور بن نينوى بن أثور وهو الذي بنى مدينة سنجار وغزا بني اسرائيل فصلبوه على بيت المقدس.وقال البيهقي: إن الجزيرة ملكها بعد مقتل سنجاريف أخوه ساطرون، وهو الذي بنى مدينة الحضر في برية سنجار على نهر الترتار لتولعه بصيد الأسود في غيضاتها. وملك من بعده ابنه زان وكان يدين بالصابئة، ويقال: إن يونس بن متى بعث إليه ويونس من الجرامقة من سبط بنيامين بن إسرائيل من ابنه، فآمن به زان بن ساطرون بعد الذي قصه القرآن من شأنه معهم، ثم إن

بختنصر لما غلب على بابل زحف إليه ودعاه إلى دين الصابئة، وشرط له أن يبقيه في ملكه فأجاب. ولم يزل على الجزيرة حتى زحف إليه جيوش الفرس مع أرتاق، فضمن القيام بالمجوسية على أن يبقوه في ملكه، وكتب بذلك أرتاق إلى بهمن ليضمن له، فأجابه بأن هذا رجل متلاعب بالأديان فاقتله، فقتله أرتاق وانقرض ملكه بعد ألف وثلثمائة سنة فيما قال البيهقي. وفي أربعين ملكاً منهم، وصارت الجزيرة لملوك الفرس.

والذي عند الإسرائيليين سنجاريف من ملوك نينوى وهم أولاد موصل بن أشوذ بن سام، وأنه كان قبله بالموصل ملوك منهم وهم فول وتلفات وبلناص، وأنهم ملكوا بلد الأسباط العشرة، وهي شورون المعروفة بالسامرة، وأنه غرب الأسباط الذين كانوا فيها إلى نواحي أصبهان وخراسان، وأسكن أهل كومة وهي الكوفة في شمورون هذه، فسلط اللّه عليهم السباع يفترسونهم في كل ناحية. فشكوا ذلك إلى سنجاريف وسألوه أن يخبرهم عن بلد شمورون في قسمة أي كوكب هي كي يتوجهوا إليه، ويستنزلوا روحانيته على طريق الصابئة، فأعرض عن ذلك وبعث كاهنان إليهم من اليهود فعلموهم دين اليهودية، وأخذوا به. وهؤلاء عند اليهود هم الشمرة نسبة إلى شمر وهي شمورون، وليس الشمرة عندهم من بني إسرائيل، ولا دينهم صحيح في اليهودية.

وزحف سنجاريف عندهم إلى بيت المقدس بعد استيلائه على شمورون فحاصرها وداخله العجب بكثرة عساكره، فقال لبني إسرائيل: من الذي خلصه إلهه من يدي حتى يخلصكم إلهكم، وفزع ملاك بني اسرائيل إلى نبيهم مدليلا، وسأله الدعاء فدعا له وأمنه من شر سنجاريف، ونزلت بعسكره في بعض لياليهم آفة سماوية، فأصبحوا كلهم قتلى. يقال أحصى قتلاهم فكانوا مائة وخمسة وثمانين ألفا، ورجع سنجاريف إلى نينوى، ثم قتله أولاده في سجوده لمعبوده من الكواكب، وولي ابنه أيسرحدون، ثم استولى عليهم بعد ذلك بختنصر كما سنذكره في خبره.

وأما ملوك بابل فهم النبط بنو نبيط بن أشوذ بن سام. وقال المسعودي: نبيط بن ماش بن إرم، وكانوا موطنين بأرض بابل وملك منهم سوريان بن نبيط، وقال المسعودي: هو أحد نبيط بن ماش ملك أرض بابل بولاية من فالغ، فلما مات فالغ أظهر بدعة الصابئة، وانتحلها بعده ابنه كنعان ويلقب بالنمروذ. وملك بعده ابنه كوش وهو نمروذ إبراهيم عليه السلام، وهو الذي قدم أباه آزر فاصطفاه هاجر على بيت الأصنام لأن أرعو بن فالغ لما هلك أبوه فالغ وكان على دين التوحيد الذي دعاه إليه أبوه عابر، رجع حينئذ أرغو إلى كوثا، ودخل مع النمارذة في دين الصابئة، وتوارثها بنوه إلى آزر بن ناحور، فاصطفاه هاجر بن كوش وقدمه على بيت الأصنام، وولد له إبراهيم عليه السلام، وكان من أمره ما ذكرناه فيما نصه التنزيل ونقله الثقات.

ثم توالت ملوك النمارذة ببابل وكان منهم بختنصر على ما ذهب إليه بعضهم، ويقال إن الجرامقة، وهم أهل نينوى غلبوا على بابل وملكها سنجاريف منهم واستعمل فيها بختنصر من ملوكها، ثم انتقض عليه بالجزا والطاعة، وغزا بني اسرائيل ببيت المقدس، فاقتحمها عليهم بعد الحصار، وأثخن فيهم بالقتل والأسر، وقتل ملكهم وخرب مسجدهم وتجاوزهم إلى مصر فملكها. ولما هلك بختنصر ملك من بعده فيما ذكروه ابنه نشبت نصر، ثم من بعده بنصر وغزاه أرتاق مرزبان كسرى من ملوك الكينية فقتله وملك بابل وأعمالها وصار النبط والجرامقة رعية للفرس، وانقرضت دولة النمارذة ببابل، هكذا ذكر ابن سعيد ونقله عن داهر مؤرخ دولة الفرس، وجعل السريانيين والنبط أمة واحدة، وهما دولة واحدة. وأما المسعودي فجعلهما دولتين.

وأما السريانيون فقال هم أول ملوك بعد الأرض الطوفان، وسمى من ملوكهم تسعة متعاقبين في مائة سنة أو فوقها بأسماء أعجمية لا فائدة في نقلها لقلة الوثوق بالأصول التي بأيدينا من كتبه وكثرة التغيير في الأسماء الأعجمية. نعم ذكر أن شوشان بشينين معجمتين، وأنه أول من وضع التاج على رأسه. والرابع منهم أنه الذي كور الكور ومدن المدن وأن ملك الهند لعهده كان اسمه رتبيل وأنه استولى على ملكه واستولى على السريانيين، وأن بعض ملوك المغرب ظاهرهم عليه وانتزع لهم ملكهم منه ورده عليهم. وسمى الثامن منهم ماروت وأشار في آخر كلامه إلى أنهم كانوا مستولين على بابل وعلى الموصل، وأن ملوك اليمن ربما غلبوهم على أمرهم بعض الأحيان. وذكر في التاسع أنه كان غير مستقل بأمره، وأن أخاه كان مقاسمه في سلطانه، وأن أول من اتخذ الخمر فلان وأول من ملك فلان، وأول من لعب بالصقور والشطرنج فلان، مزاعم كلها بعيدة من الصحة. إنما وجهه أن السريانيين لما كانوا أقدم في الخليفة نسب إليهم كل قديم من الأشياء، أو طبيعي كالخط واللغة والسحر واللّه أعلم.

وأما النبط فعند المسعودي أنهم من أهل بابل لقوله في ترجمتهم ذكر ملوك بابل والنبط وغيرهم المعروفين بالكلدانيين، وذكر أن أولهم نمروذ الجبار ونسبه إلى ماش بن إرم بن سام، وذكر أنه الذي بنى الصرح ببابل، واحتفر نهر الكوفة. ونسب النمروذ في موضع آخر إلى كوش بن حام لا أدري هو أو غيره. ثم عد

ملوكهم بعد النمروذ ستاً وأربعين أو نحوها في ألف وأربعمائة من السنين بأسماء أعجمية متعذر ضبطها فتركت نقلها. إلا أنه ذكر في الموفى منهم عدد العشرين وبعد التسعمائة من سنيهم أنه الذي غزت فارس لعهده مدينة بابل. وذكر في الموفى عدد ثلاثة وثلاثين منهم وعند الألف والأربعمائة من سنيهم أنه سنجاريف الذي حارب بني إسرائيل وحاصرهم ببيت المقدس حتى أخذ الجزية منهم. وأن آخر ملوكهم دارينوش، وهو دار الذي قتله الإسكندر لما ملك بابل. هذا ما ذكره المسعودي ولم يذكر منهم نمروذ الخليل عليه السلام. وذكر أن مدينتهم بابل وأن الذي اختطها اسمه نيز واسم إمراته شمِر أم ملوك السريانيين اسمان أعجميان لا وثوق لنا بضبطها. وقال الطبري: نمروذ بن كوش بن كنعان بن حام صاحب إبراهيم الخليل عليه السلام. وكان يقال عاد إرم، فلما هلكوا قيل ثمود إرم، فلما هلكوا قيل نمروذ إرم، فلما هلك قيل لسائر ولد إرم إرمان فهم النبط، وكانوا على الإسلام ببابل حتى ملكهم نمروذ فدعاهم إلى عبادة الأوثان فعبدوها. انتهى كلام الطبري.

وقال هروشيوش مؤرخ الروم: إنه نمروذ الجسيم، وأن بابل كانت مربعة الشكل، وكان سورها في دور ثمانين ميلاً، وارتفاعه مائتا ذراع وعرضه خمسون ذراعاً، وهو كله مبني بالآجر والرصاص، وفيه مائة باب من النحاس، وفي أعلاه مساكن الحراس والمقاتلة تبيت على الجانبين في سائر دورة الطريق بينهما. وحول هذا السور خندق بعيد المهوى، أجري فيه الماء، وأن الفرس هدموه، ولما تغلبوا على ملك بابل تولى ذلك منهم جيرش وهو كسرى الأول. انتهى كلام هروشيوش.

ويظهر من كلام هؤلاء أن اسم النمروذ سمة لكل من ملك بابل لوقوعه في أهل أنساب مختلفة مرة إلى سام ومرة إلى حام. وزعم بعض المؤرخين أن نمروذ الخليل عليه السلام هو النمروذ بن كنعان بن سنجاريف بن النمروذ الأكبر، وأن بختنصر من عقبه وهو ابن برزاد بن سنجاريف بن النمروذ، وأن الفرس الكينية غلبوا بختنصر على بابل، ثم أبقوه واستعملوه عليها، وأن كسرى الأول من بني ساسان خرب مدينة بابل. وعند الإسرائيليين وينقلونه عن كتاب دانيال وأرميا من أنبيائهم وضبط هذا الاسم يرميا: أن بختنصر من عقب كاسد بن حاور وهو أخو إبراهيم الخليل، وبنو كاسد هؤلاء من ملوك بابل ويعرفون بالكسدانيين نسبة إليه، وأن بختنصر منهم ملك أكثر المعمور، وغلب على بني إسرائيل وأزال دولتهم، وخرب بيت المقدس، وانتهى ملكه إلى مصر وما وراءها، وكان ملكه خمساً وأربعين.

وملك بعده ابنه أوبل مردود ثلاثاً وعشرين سنة، وبعده ابنه بلينصر ثلاث سنين ثم زحف إليه دارا من ملوك الفرس وصهره كورش فحاصروه بمدينة بابل، وقال بعض الإسرائيليين: أن بختنصر وملوك بابل من كسديم، وكسديم من عيلام بن سام وهو أخو أشوذ، ومن أشوذ ملوك الموصل، انتهى الكلام في ملوك الموصل وملوك بابل.وهذا غاية ما أدى إليه البحث من أخبارهم وأنسابهم، وكان من هؤلاء والكلدانيين دين الصابئة وهو عبادة الكواكب واستجلاب روحانيتها. ويذكر أنهم كانوا لذلك أهل عناية بأرصاد الكواكب، ومعرفة طبائعها، وخلاص المولدات، وما يشابه ذلك من علوم النجوم والطلسمات والسحر، وأنهم نهجوا ذلك لأهل الربع الغربي من الأرض.

وقد يشهد لذلك قراءة من قرأ: وما أُنْزِل على المَلِكَين، بكسر اللام، مشيراً إلى أن هاروت وماروت من ملوك السريانيين، وهم أول ملوك بابل، وعلى القراءة المشهور وأنهما من الملائكة، فيكون اختصاص هذه الفتنة والابتلاء ببابل من بين أقطار الأرض دليلاً على وفور قسطهما من صناعة السحر الذي وقع الابتلاء به، ومما يشهد لانتحالهم السحر وفنونه من النجوم وغيرها، أن هذه العلوم وجدناها من منتحل أهل مصر المجاورين لهم، وكان للملوكها عناية شديدة بذلك، حتى كان من مباهاتهم موسى بذلك وحشر السحرة له ما كان، وبقايا الآثار السحرية في برابي أخميم من صعيد مصر ما يشهد لذلك أيضاً والله أعلم.

الخبر عن القبط وأولية ملكهم ودولهم وتصاريف أحوالهم والإلمام بنسبهم

هذه الأمة أقدم أمم العالم وأطولهم أمداً في الملك، واختصوا بملك مصر وما إليها، ملوكها من لدن الخليقة إلى أن صبحهم الإسلام بها، فانتزعها المسلمون من أيديهم. ولعهدهم كان الفتح، وربما غلب عليهم جميع ما عاصرهم من الأمم حين يستفحل أمرهم مثل العمالقة والفرس والروم واليونان، فيستولون على مصر من أيديهم، ثم يتقلص ظلهم، فراجع القبط ملكهم هكذا إلى أن انقرضوا في مملكة الإسلام.وكانوا يسمون الفراعنة سمة للملوك مصر في اللغة القديمة، ثم تغيرت اللغة وبقي هذا الاسم مجهول المعنى، كما تغيرت الحميرية إلى المضرية، والسريانية إلى الرومية. ونسبهم في المشهور إلى حام بن نوح، وعند المسعودي إلى بنصر بن حام، وليس في التوراة ذكر لبنصر بن حام وإنما ذكر مصرايم وكوش وكنعان وقوط. وقال السهيلي: إنهم من ولد كنعان بن

حام لأنه لما نسب مصر قال فيه: مصر بن النبيط أو ابن قبط بن النبيط من ولد كوش بن كنعان. وقال أهروشيوش: أن القبط من ولد قبط بن لايق بن مصر. وعند الإسرائيليين أنهم من قوط بن حام.وعند بعضهم أنهم من كفتوريم قبطقايين ومعناه القبط.

وقال المسعودي: اختص بنصر بن حام أيام النمروذ ابن أخيه كنعان بولاية أرض مصر، واستبد بها وأوصى بالملك لابنه مصر، فاستفحل ملكه ما بين أسوان واليمن والعريش وأيلية وفرسية، فسميت كلها أرض مصر نسبة إليه، وفي قبليها النوبة وفي شرقيها الشام وفي شمالها بحر الزقاق وفي غربها برقة والنيل من دونها. وطال عمر مصر وكبر ولده وأوصى بالملك لأكبرهم وهو قبط بن مصر أبو الأقباط، فطال أمد ملكه وكان له بنون أربع: قبط بن مصر وأن مصر هو الذي قسم الأرض وعهد إلى أكبرهم بالملك وهو قبط، فغلب عليهم فأضيفوا إليه لمكان الملك والسن، وملك بعد قبط بن مصر أشمون بن مصر، ثم من بعده صائم أخوهما أتريب.

ثم عد ملوكاً بأسماء أعجمية بعيدة عن الضبط لعجمتها وفساد الأصول التي بين أيدينا من كتبته، ثم لما ذكر ستة منهم بعد أتريب قال: فكثر ولد بنصر بن حام وتشاغبوا وملك عليهم النساء، فسار إليهم ملك الشام من العمالقة الوليد بن دومع فملكهم وانقادوا إليه.وأما ابن سعيد فيما نقل من كتب المشارقة فقال: ملك مصر ابنه قبط، ثم من بعده أخوه أتريب. قال: وفي أيام قبط زحف شداد بن مداد بن شداد بن عاد إلى مصر وغلب على أسافلها، ومات قبط في حروبه، ثم جمع أتريب قومه واستظهر بالبربر والسودان على العرب حتى أخرجهم إلى الشام، واستبد أتريب بملك مصر وبنى المدينة المنسوبة إليه، ومدينة عين شمس. وملك بعده ابن أخيه البودشير بن قبط وهو الذي بعث هرمساً المصري إلى جبل القمر حتى ركب جرية النيل من هنالك، وعدل البطيحة الكبرى التي تنصب إليها عيون النيل، وعمر بلاد الواحات وحول إليها جمعاً من أهل بيته. ثم ملك من بعده عديم بن البودشير، ثم ابنه شدات بن عديم، ثم ابنه منذوش بن شدات وجدد مدينة عين شمس. وكان لهم في السحر آثار عجيبة. ثم ملك بعده ابنه مقلاوش بن مقناوش وعبد البقر وصورها من الذهب، ثم هلك وخلف بعد ابنه مرقيش فغلب عليه عمه أشمون بن قبط، وبنى مدينة الأشمون. وملك بعده ابنه أشاد بن أشمون، ثم من بعده عمه صا بن قبط وبنى مدينة باسمه، وملك بعده ابنه ندراس وكان حكيماً وهو الذي بنى هيكل الزهرة الذي هدمه بختنصر. وملك بعده ابنه ماليق بن ندراس فرفض الصابئة ودان بالتوحيد، ودوخ بلاد البربر والأندلس، وحارب الإفرنج. وملك بعده ابنه حربيا بن ماليق فرجع عن التوحيد إلى الصابئة، وغزا بلاد الهند والسودان والشام. وملك بعده ابنه كلكي بن حربيا، وهو الذي تسميه القبط حكيم الملوك، واتخذ هيكل زحل وعهد إلى أخيه ماليا بن حربيا، واشتغل باللّهو فقتله ابنه خرطيش وكان سفاكاً للدماء.

والقبط تزعم أنه فرعون الخليل عليه السلام، وأنه أول الفراعنة. ولما تعدى بالقتل إلى أقاربه سمته ابنته حوريا، وملكت القبط من بعده فنازعها أبراحس من ولد عمها أتريب، وحاربته فكان لها الغلب، وانهزم أبراحس إلى الشام، فاستظهر بالكنعانيين وبعث ملكهم قائده جيرون فلما قرب مصر استقبلته حوريا وأطمعته في زواجها على أن يقتل أبراحس ويبني مدينة الإسكندرية ففعل، ثم قتلته آخراً مسموماً واستقام لها الأمر، وبنت منارة الإسكندرية، وعهدت بأمرها لدليقية ابنة عمها باقوم، فخرج عليها أيمن من نسل أتريب طالباً بثأر قريبه أبراحس، ولحق بملك العمالقة يومئذ وهو الوليد بن دومع الذي ذكرناه عند ذكر العمالقة فاستنصر به وجاء معه وملك ديار مصر.

واستبد بالقبط نقراوس فاشتغل باللذات، واستكفى من بنيه أطفير وهو العزيز فكفاه، وقام بأمره ودبر له يوسف الفيوم بالوحي والهندسة، وكانت أرضها مغايض للماء فأخرجه وعمر القرى مكانه على عدد أيام السنة، فجعله على خزائنه. وملك بعده دارم بن الريان وسمته القبط ويعوص. وكان يوسف مدبر أمره بوصية أبيه، ومات لعهده فأساء السيرة وهلك غريقاً في النيل. وملك بعده ابنه معدانوس بن دارم فترهب واستخلف ابنه كاشم فاستعبد بني إسرائيل للقبط، وقتله حاجبه ونصب بعده ابنه لاطش، فاشتغل باللّهو فخلعه، ونصب آخر من نسل ندراس اسمه لهوب فتجبر، وتذكر القبط أنه فرعون موسى عليه السلام. وأهل الأثر يقولون: إنه الوليد بن مصعب وأنه كان نجاراً تقلب حاله إلى عرافة الحرس، ثم تطور إلى الوزارة، ثم إلى الاستبداد. وهذا بعيد لما قدمناه في الكتاب الأول.

وقال المسعودي: بل كان فرعون موسى من الأقباط.ثم هلك فرعون موسى، وخشي القبط من ملوك الشام، فملكوا عليهم دلوكة من بيت الملك وهي التي بنت الحائط على أرض مصر، ويعرف بحائط العجوز لأنها طال عمرها حتى كبرت واتخذت البرابي ومقاييس النيل. ثم سمى المسعودي من بعد دلوكة ثمانية من ملوكهم على ذلك النحو من عجمة الأسماء، وقال في الثامن أنه فرعون الأعرج الذي اعتصم به بنو إسرائيل

من بختنصر، فدخل عليه مصر وقتله وهدم هياكل الصابئة ووضع بيوت النيران له ولولده. وذكر في تواريخهم قال: قال ابن عبد الحكيم: وهذه العجوز دلوكة هي التي جددت البرابي بمصر، أرسلت إلى امرأة ساحرة كانت لعهدها اسمها ترورة، وكانت السحرة تعظمها، فعملت بربى من حجارة وسط مدينة منف، وصورت فيها صور الحيوانات من ناطق وأعجم، فلا يقع شيء بتلك الصورة إلا وقع بمثالها في الخارج. وكان لهم بذلك امتناع ممن يقصدهم من الأمم لأنهم كانوا أعلم الناس بالسحر، وأقامت عليهم عشرين سنة حتى بلغ صبي من أبنائهم اسمه دركون بطلوس فملكوه، وأقامت معه على ذلك أربعمائة سنة، ثم مات فولوا ابنه يرديس بن دركون، ومن بعده أخاه نقاس بن نقراس، ومن بعده مرينا بن مرينوس، ثم ابنه استمارس بن مرينا فطغى عليهم وخلعوه وقتلوه، وولوا عليهم من أشرافهم بلوطيس بن مناكيل أربعين سنة، ثم استخلف مالوس بن بلوطيس ومات، فاستخلف أخاه مناكيل بن بلوطيس ثم توفي، فاستخلف ابنه بركة بن مناكيل فملكهم مائة وعشرين سنة، وهو فرعون الأعرج الذي سبى أهل بيت المقدس، ويقال أنه خلع.

وقال ابن عبد الحكم: وولي من بعده ابنه مرينوس بن بركة، فاستخلف ابنه فرقون بن مرينوس فملكهم ستين سنة ثم هلك، واستخلف أخاه نقاس بن مرينوس، وكانت البراري كلها إذا فسد منها شيء لا يصلحه إلا رجل من ذرية تلك العجوز الساحرة التي وضعتها، ثم انقطعت ذريتها ففسدت البراري أيام نقاس هذا، وتجاسر الناس على طلب الملك الذي في أيديهم، وهلك نقاس واستخلف ابنه قومس بن نقاس، فملكهم دهراً ثم ملك بختنصر بيت المقدس، واستلحم بني إسرائيل وفرقهم وقتل وخرب ولحقوا بمصر، فأجارهم قومس ملكها وبعث فيهم بختنصر فمنعهم وزحف إليه وغلب عليه فقتله وخرب مدينة منف. وبقيت مصر أربعين سنة خراباً. وسكنها أرميا مدة ثم بعث إليه بختنصر فلحق به ثم رد أهل مصر إلى موضعهم، وأقاموا كذلك ما شاء اللّه إلى أن غلب الفرس والروم على الأمم، وقاتل أهل مصر إلى أن وضعوا عليهم الجزى، ثم تقاسمها فارس والروم.

ثم تداولوا ملكها فتوالت عليها نواب الفرس. ثم ملكها الإسكندر اليوناني وجدد الإسكندرية، والآثار التي خارجها مثل عمود السواري ورواق الحكمة. ثم غلب الروم على مصر والشام وأبقوا القبط في ملكها وصرفوهم في الولاية بمصر إلى أن جاء اللّه بالإسلام، وصاحب القبط بمصر والإسكندرية المقوقس، واسمه جريج بن مينا فيما نقله السهيلي، فأرسل إليه رسول اللّه ﷺ حاطب بن أبي بلتعة، وجبر مولى أبي رهم الغفاري، فقارب الإسلام وأهدى إلى رسول اللّه ﷺ هديته المعروفة ذكرها أهل السير كان فيها البغلة التي كان رسول اللّه ﷺ يركبها وتسمى دلدل، والحمار الذي يسمى يعفور، ومارية القبطية أم ولده إبراهيم وأمها وأختها سيرين وهبها رسول اللّه ﷺ لحسان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمن، وقدح من قوارير كان رسول اللّه ﷺ يشرب فيه، وعسل استظرفه له من بنها إحدى قرى مصر معروفة بالعسل الطيب. ويقال: إن هرقل لما بلغه شأن هذه الهدية اتهمه بالميل إلى الإسلام فعزله عن رياسة القبط.

وخرج مسلم في صحيحه من رواية أبي ذر أن رسول اللّه ﷺ قال: إذا افتتحتم مصر أو إنكم مستفتحون مصر فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً أو صهراً. ورواه ابن إسحاق عن الزهري وقال: قلت للزهري ما الرحم التي ذكر؟ قال: كانت هاجر أم إسماعيل منهم. ولبعض رواة الحديث في تفسير الصهر أن مارية أم إبراهيم منهم، أهداها له المقوقس، وكانت من كورة حفن من عمل أنصناء. وقال الطبري: إن عمرو بن العاص لما ملك مصر أخبرهم بوصية النبي ﷺ بهم، فقال: هذا نسب لا يحفظ حقه إلا نبي لأنه نسب بعيد، وذكروا له أن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم في بعضها دولة فقتلوا الملك وسبوها.

ومن هنالك تسيرت إلى أبيكم إبراهيم.ولما كمل فتح مصر والإسكندرية وارتحل الروم إلى القسطنطينية، أقام المقوقس والقبط على الصلح الذي عقده لهم عمرو بن العاص وعلى الجزى، وأبقوه على رياسة قومه، وكانوا يشاورونه فيما ينزل من المهمات إلى أن هلك، وكان ينزل الإسكندرية وفي بعض الأوقات ينزل منف من أعمال مصر. واختط عمرو بن العاص الفسطاط بموضع خيامه التي كان يحاصر منها مصر، فنزل بها المسلمون وهجروا المدينة التي كان بها المقوقس، إلى أن خربت. وكان في خرابها ومهلك المقوقس انقراض أمرهم. وبقي أعقابهم إلى هذا الزمان يستعملهم أهل الدول الإسلامية في حسابات الخراج، وجبايات الأموال لقيامهم عليها، وغنائهم فيها، وكفايتهم في ضبطها وتنميتها.

وقد يهاجر بعضهم إلى الإسلام فترتفع رتبتهم عند السلطان في الوظائف المالية التي أعلاها في الديار المصرية رتبة الوزارة، فيقلدونهم إياها ليحصل لهم بذلك قرب من السلطان وحظ عظيم في الدولة وبسطة يد في الجاه، تعددت منهم في ذلك رجال، وتعينت لهم بيوت قصر السلطان نظره على الاختيار منها لهذا

العهد. وعامتهم يقيم على دين النصرانية الذين كانوا عليها لهذا العهد. وأكثرهم بنواحي الصعيد وسائر الأعمال متحرفون بالفلح والله غالب على أمره.

وأما إقليم مصر فكان في أيام القبط والفراعنة جسوراً كله بتقدير وتدبير يحبسونه ويرسلونه كيف شاؤوا، والجنات حفاف النيل من أعلاه إلى أسفله ما بين أسوان ورشيد، وكانت مدينة منف وعين شمس يجري الماء تحت منازلها وأفنيتها بتقدير معلوم، ذكر ذلك كله عبد الرحمن بن شماسة، وهو من خيار التابعين، يرويه عن أشياخ مصر قالوا: ومدينة عين شمس كانت هيكل الشمس، وكان فيها من الأبنية والأعمدة والملاعب ما ليس في بلد. قلت: وفي مكانها لهذا العهد ضيعة متصلة بالقاهرة يسكنها نصارى من القبط وتسمى المطرية. قالوا: ومدينة منف مدينة الملوك قبل الفراعنة وبعدهم إلى أن خربها بختنصر كما تقدم في دولة قومس بن نقاس، وكان فرعون ينزل مدينة منف، وكان لها سبعون باباً وبنى حيطانها بالحديد والصفر، وكانت أربعة أنهار تجري تحت سريره، ذكره أبو القاسم بن خرداذبه في كتاب المسالك والممالك قال: وكان طولها اثني عشر ميلاً، وكانت جباية مصر تسعين ألف ألف دينار مكررة مرتين بالدينار الفرعوني وهو ثلاثة مثاقيل. وإنما سميت مصر بمصر بن بيصر بن حام، ويقال إنه كان مع نوح في السفينة فدعا له فأسكنه الله هذه الأرض الطيبة، وجعل البركة في ولده. وحدها طولاً من برقة إلى أيلة، وعرضاً من أسوان إلى رشيد. وكان أهلها صابئة، ثم حملهم الروم لما ملكوها بعد قسطنطين على النصرانية، عندما حملوا على الأمم المجاورة لهم من الجلالقة والصقالبة وبرجان والروس والقبط والحبشة والنوبة، فدانوا كلهم بذلك ورجعوا عن دين الصابئة في تعظيم الهياكل وعبادة الأوثان، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني إسرائيل وما كان لهم من النبوة والملك وتغلبهم على الأرض المقدسة بالشام وكيف تجددت دولتهم بعد الانقراض وما اكتنف ذلك من الأحوال

قد ذكرنا عند ذكر إبراهيم وبنيه صلوات الله عليه وسلامه عليهم ما كان من شأن يعقوب بن إسحاق واستقراره بمصر مع بنيه الأسباط، وفي التوراة أن الله سماه إسرائيل. وإيل عندهم كلمة مرادفة لعبد وما قبلها من أسماء الله عز وجل وصفاته والمضاف أبداً متأخر في لسان العجم، فلذلك كان إيل هو آخر الكلمة وهو المضاف. ثم قبض الله نبيه يعقوب بمصر لمائة وسبع وثمانين سنة من عمره، وأوصى أن يدفن عند أبيه، فطلب يوسف من فرعون أن يطلقه لذلك، فأذن له. وأمر أهل دولته بالانطلاق معه، فانطلقوا وحملوه إلى فلسطين فدفنوه بمقبرة آبائه، وهي التي اشتراها إبراهيم من الكنعانيين. ورجع يوسف إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي لمائة وعشرين سنة من عمره، ودفن بمصر وأوصى أن يحملوا شلوه معهم إذا خرجوا إلى أرض الميعاد، وهي الأرض المقدسة.

وأقام الأسباط بمصر وتناسلوا وكثروا حتى ارتاب القبط بكثرتهم واستعبدوهم، وفي التوراة أن ملكاً من الفراعنة جاء بعد يوسف لم يعرف شأنه ولا مقامه في دولة آبائه، فاسترق بني إسرائيل واستعبدهم. ثم تحدث الكهان من أهل دولتهم بأن نبوة تظهر في بني إسرائيل، وأن ملكك كائن لهم مع ما كان معلوماً من بشارة آبائهم لهم بالملك، فعمد الفراعنة إلى قطع نسلهم بذبح الذكور من ذريتهم. فلم يزالوا على ذلك مدة من الزمان حتى ولد موسى. وهو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب. وأمه يوحانذ بنت لاوى عمة عمران. وكان قاهث بن لاوى من القادمين إلى مصر مع يعقوب عليه السلام وولد عمران بمصر وولد هارون لثلاث وسبعين من عمره، وموسى لثمانين، فجعلته أمه في تابوت وألقته في ضحضاح اليم، وأرصدت أخته على بعد لتنظر من يلتقطه فتعرفه. فجاءت ابنة فرعون إلى البحر مع جواريها فرأته واستخرجته من التابوت فرحمته. وقالت: هذا من العبرانيين فمن لنا بظئر ترضعه؟ فقالت لها أخته: أنا آتيكم بها! وجاءت بأمه فاسترضعتها له ابنة فرعون، إلى أن فصل. فأتت به إلى ابنة فرعون وسمته موسى وأسلمته لها. ونشأ عندها ثم شب، وخرج يوماً يمشي في الناس وله صولة بما كان له في بيت فرعون من المربى والرضاع فهم لذلك أخواله، فرأى عبرانياً يضربه مصري فقتل المصري الذي ضربه ودفنه، وخرج يوماً آخر فإذا هو برجلين من بني إسرائيل وقد سطا أحدهما على الآخر فزجره، فقال له: ومن جعل لك هذا؟ أتريد أن تقتلني كما قتلت الآخر بالأمس؟ ونمي الخبر إلى فرعون فطلبه، وهرب موسى إلى أرض مدين عند عقبة أيلة.وبنو مدين أمة عظيمة من بني إبراهيم عليه السلام، كانوا ساكنين هناك وكان ذلك لأربعين سنة من عمره، فلقي عند مائهم بنتين لعظيم من عظمائهم فسقى لهما، وجاءتا به إلى أبيهما فزوجه بإحداهما، كما وقع في القرآن الكريم، وأكثر

المفسرين على أنه شعيب بن نوفل بن عيقا بن مدين وهو النبي ﷺ.

وقال الطبري: الذي استأجر موسى وزوجه بنته رعويل وهو بيتر حبر مدين أي عالمهم، وأن رعويل هو الذي زوجه البنت وأن اسمه بيتر. وعن الحسن البصري أنه شعيب رئيس بني مدين. وقيل إنه ابن أخي شعيب. وقيل ابن عمه. فأقام عند شعيب صهره مقبلاً على عبادة ربه، إلى أن جاءه الوحي وهو ابن ثمانين سنة، وأوحى إلى أخيه هارون وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، فأوحى اللّه إليهما بأن يأتيا فرعون ليبعث معهما بني إسرائيل فيستنقذانهم من مملكة القبط وجور الفراعنة، ويخرجون إلى الأرض المقدسة التي وعدهم اللّه بملكها على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

فخرجا إليه وبلغا بني إسرائيل الرسالة فآمنوا به واتبعوه، ثم حضرا إلى فرعون وبلغاه أمره اللّه له بأن يبعث معهما بني إسرائيل وأراه موسى عليه السلام معجزة العصا، فكان من تكذيبه وامتناعه وإحضار السحرة لما رأى من موسى في معجزته ثم إسلامهم ما نصه القرآن العظيم.ثم تمادى فرعون في تكذيبه ومناصبته، واشتد جوره على بني إسرائيل واستعبادهم واتخاذهم سخرياً في مهنة الأعمال، فأصابت فرعون وقومه الجوائح العشرة واحدة بعد أخرى يسالمهم عند وقوعها، ويتضرع إلى موسى في الدعاء بانجلائها، إلى أن أوحى اللّه إلى موسى بخروج بني إسرائيل من مصر.

ففي التوراة أنهم أمروا عند خروجهم أن يذبح أهل كل بيت حملاً من الغنم إن كان كفايتهم، أو يشتركون مع جيرانهم إن كان أكثر، وأن ينضحوا دمه على أبوابهم لتكون علامة، وأن يأكلوه سواء برأسه وأطرافه، ومعناه لا يكسرون له عظماً ولا يدعون شيئاً خارج البيوت، وليكن خبزهم فطيراً ذلك اليوم وسبعة أيام بعده، وذلك في اليوم الرابع عشر من فصل الربيع، وليأكلوا بسرعة وأوساطهم مشدودة، وخفافهم في أرجلهم، وعصيهم في أيديهم، ويخرجوا ليلاً وما فضل من عشائهم ذلك يحرقوه بالنار، وشرع هذا عيداً لهم ولأعقابهم ويسمى عيد الفصح.

وفي التوراة أيضاً أنه قتل في تلك الليلة أبكار النساء من القبط ودوابهم ومواشيهم ليكون لهم بذلك ثقل عن بني إسرائيل. وأنهم أمروا أن يستعير منهم حلياً كثيراً يخرجون به، فاستعاروه وخرجوا في تلك الليلة بما معهم من الدواب والأنعام، وكانوا ستمائة ألف أو يزيدون. وشغل القبط عنهم بالمآتم التي كانوا فيها على موتاهم، وأخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، استخرجه موسى صلوات اللّه عليه من المدفن الذي كان به بإلهام من اللّه تعالى، وساروا لوجههم حتى انتهوا إلى ساحل البحر بجانب الطور.

وأدركهم فرعون وجنوده، وأمر موسى بأن يضرب البحر بعصاه ويقتحمه، فضربه فانفلق طرقاً. وسار فيه بنو إسرائيل وفرعون وجنوده في اتباعه، ونزل بنو إسرائيل بجانب الطور، وسبحوا مع موسى بالتسبيح المنقول عندهم وهو: نسبح الرب البهي، الذي قهر الجنود، ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود إلى آخره. قالوا: وكانت مريم أخت موسى وهارون صلوات اللّه عليهما تأخذ الدف بيدها، ونساء بني إسرائيل في أثرها بالدفوف والطبول، وهي ترتل لهن التسبيح سبحان الرب القهار الذي قهر الخيول وركبانها ألقاها في البحر وهو المعنى الأول. ثم كانت المناجاة على جبل الطور وكلام اللّه لموسى والمعجزات المتتالية، ونزول الألواح، ويزعم بنو إسرائيل أنها كانت لوحين فيها الكلمات العشرة وهي: كلمة التوحيد، والمحافظة على السبت بترك الأعمال فيه، وبر الوالدين ليطول العمر، والنهي عن القتل والزنا والسرقة وشهادة الزور، ولا تمتد عين إلى بيت صاحبه أو امرأته، أو لشيء من متاعه. هذه الكلمات العشرة التي تضمنتها الألواح.وكان سبب نزول الألواح أن بني إسرائيل لما نجوا ونزلوا حول طور سيناء صعد موسى إلى الجبل، فكلمه ربه وأمره أن يذكر بني إسرائيل بالنعمة عليهم في نجاتهم من فرعون وأن يتطهروا ويغسلوا ثيابهم ثلاثة أيام، ويجتمعوا في اليوم الثالث حول الجبل من بعد، ففعلوا.

وظلت الجبل غمامة عظيمة ذات بروق ورعود ففزعوا، وقاموا في سفح الجبل دهشين، ثم غشى الجبل دخان في وسطه عمود نور وتزلزل له الجبل زلزلة عظيمة شديدة، واشتد صوت الرعد الذي كانوا يسمعونه، وأمر موسى صلوات اللّه عليه بأن يقرب بني إسرائيل لسماع الوصايا والتكاليف، قال فلم يطيقوا فأمر بحضور هارون وتكون العلماء غير بعيده ففعل، وجاءهم بالألواح.

ثم سار بعد ذلك إلى ميعاد اللّه بعد أربعين ليلة، فكلمه ربه وسأله الرؤية فمنعها، فكان الصعق وساخ الجبل، وتلقى كثيراً من أحكام التوراة في المواعظ والتحليل والتحريم. وكان حين سار إلى الميعاد استخلف أخاه هارون على بني إسرائيل، واستبطأوا موسى، وكان هارون قد أخبرهم بأن الحلي الذي أخذوه للقبط محرم عليهم، فأرادوا حرقه وأوقدوا عليه النار.

وجاء السامري في شيعة له من بني إسرائيل، وألقى عليه شيئاً كان عنده من أثر الرسول، فصار عجلاً وقيل عجلاً حيواناً، وعبده بنو إسرائيل، وسكت عنهم هارون خوفاً من افتراقهم. وجاء موسى صلوات اللّه عليه من المناجاة وقد أخبر بذلك في مناجاته، فلما رآهم على ذلك ألقى الألواح، ويقال كسرها، وأبدل غيرها من الحجارة، وعند بني إسرائيل أنهما اثنان، وظاهر القرآن أنها أكثر مع أنه لا يبعد استعمال الجمع في الاثنين، ثم أخذ برأس أخيه ووبخه واعتذر له بما اعتذر ثم حرق العجل، وقيل برده بالمبرد وألقاه في البحر.

وكان موسى صلوات اللّه عليه لما نجا ببني إسرائيل إلى الطور بلغ خبره إلى بيثر صهره من بني مدين، فجاء ومعه بنته صفورا زوجة موسى عليه السلام التي زوجها به أبوها رعويل كما تقدم، ومعها ابناها من موسى وهما جرشون وعازر، فتلقاها موسى صلوات اللّه عليه بالبر والكرامة وعظمه بنو إسرائيل، ورأى كثرة الخصومات على موسى، فأشار عليه بأن يتخذ النقباء على كل مائة أو خمسين أو عشرة فيفصلوا بين الناس، وتفصل أنت فيما أهم وأشكل، ففعل ذلك.

ثم أمر اللّه موسى ببناء قبة للعبادة والوحي من خشب الشمشاد، ويقال هو السنط وجلود الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بتزيينها بالحرير والمصبغ والذهب والفضة على أركانها صور منها صور الملائكة الكروبيين على كيفيات مفصلة في التوراة في ذلك كله، ولها عشر سرادقات مقدرة الطول والعرض، وأربعة أبواب وأطناب من حرير منقوش مصبغ، وفيها دفوف وصفائح من ذهب وفضة، وفي كل زاوية بابان وأبواب وستور من حرير، وغير ذلك مما هو مشروح في التوراة. ويعمل تابوت من خشب الشمشاد طول ذراعين ونصف في عرض ذراعين في ارتفاع ذراع ونصف مصفحاً بالذهب الخالص من داخل وخارج، وله أربع حلق في أربع زوايا، وعلى حافته كروبيان من ذهب يعنون مثالي ملكين بأجنحة ويكونان متقابلين، وأن يصنع ذلك كله فلان شخص معروف من بني إسرائيل.

وأن يعمل مائدة من خشب الشمشاد طول ذراعين في عرض ذراع ونصف بطناب ذهب، وإكليل ذهب، بحافة مرتفعة بإكليل ذهب، وأربع حلق ذهب في أربع نواحيها مغروزة في مثل الرمانة من خشب ملبس ذهباً، وصحافاً ومصافي وقصاعاً على المائدة كلها من ذهب.

وأن يعمل منارة من ذهب، بست قصبات من كل جانب ثلاث وعلى كل قصبة ثلاث سرج، وليكن في المنارة أربعة قناديل، ولتكن هي وجميع آلاتها من قنطار من ذهب. وأن يعمل مذبحاً للقربان، ووصف ذلك كله في التوراة بأتم وصف، ونصبت هذه القبة أول يوم من فصل الربيع ونصب فيها تابوت الشهادة وتضمن هذا الفصل في التوراة من الأحكام والشرائع في القربان والنحور وأحوال هذه القبة كثيراً، وفيها أن قبة القربان كانت موجودة قبل عبادة أهل العجل، وأنها كانت كالكعبة يصلون إليها وفيها، ويتقربون عندها، وأن أحوال القربان كانت كلها راجعة إلى هارون عليه السلام بعهد اللّه إلى موسى بذلك، وأن موسى صلوات اللّه عليه كان إذا دخلها يقفون حولها وينزل عمود الغمام على بابها، فيخرون عند ذلك سجداً اللّه عز وجل، ويكلم اللّه موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه وينهاه، وهو واقف عند التابوت صامد لما بين ذينك الكروبيين. فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي، وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من اللّه فيه بشيء، يجيء إلى قبة القربان، ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الخصومة.

ولما نجا بنو إسرائيل ودخلوا البرية عند سينا أول المصيف لثلاثة أشهر من خروجهم من مصر، وواجهوا جبال الشام وبلاد بيت المقدس التي وعدوا بها أن تكون ملكاً لهم على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلوات اللّه عليهم بمسيرهم إليها، وأتوه بإحصاء بني إسرائيل من يطيق حمل السلاح منهم من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون، وضرب عليهم الغزو ورتب المصاف والميمنة والميسرة، وعين مكان كل سبط في التعبية وجعل فيه التابوت والمذبح في القلب، وعين لخدمتها بني لاوى من أسباطهم، وأسقط عنهم القتال لخدمة القبة، وسار على التعبية سالكاً على برية فاران، وبعثوا منهم اثني عشر نقيباً من جميع الأسباط فأتوهم بالخبر عن الجبارين.

كان منهم كالب بن يوفنا بن حصرون بن بارص بن يهوذا بن يعقوب، ويوشع بن نون بن أليشامع بن عميهون بن بارص بن لعدان بن تاحن بن تالح بن أراشف بن رافح بن بريعا بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب، فاستطابوا البلاد واستعظموا العدو من الكنعانيين والعمالقة، ورجعوا إلى قومهم يخبرونهم الخبر وخذلوهم، إلا يوشع وكالب فقالا لهم ما قالا وهما الرجلان اللذان أنعم اللّه عليهما. وخامر بنو إسرائيل عن اللقاء، وأبوا من السير إلى عدوهم، والأرض التي ملكهم اللّه، إلى أن يهلك اللّه عدوهم على غير أيديهم.فسخط اللّه ذلك منهم وعاقبهم بأن لا يدخل الأرض المقدسة أحد من ذلك الجيل إلا كالباً ويوشع. وإنما

يدخلها أبناؤهم والجيل الذي بعدهم.

فأقاموا كذلك أربعين سنة في برية سينا وفاران، يترددون حوالي جبال السراة، وأرض ساعير، وأرض بلاد الكرك والشوبك، وموسى صلوات الله عليه بين ظهرانيهم يسأل الله لطفه بهم ومغفرته ويدفع عنهم مهالك سخطه، وشكوا الجوع، فبعث الله لهم المن حبات بيض منتشرة على الأرض مثل ذرير الكزبرة، فكانوا يطحنونه ويتخذون منه الخبز لأكلهم. ثم قرموا إلى اللحم فبعث لهم السلوى طيراً يخرج من البحر، وهو طير السماني، فيأكلون منه ويدخرون، ثم طلبوا الماء، فأمر أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وأقاموا على ذلك ثم ارتاب واحد منهم اسمه فودح بن إيصهر بن قاهث، وهو ابن عم موسى بن عمران بن قاهث، فارتاب هو وجماعة منهم من بني إسرائيل بشأن موسى، واعتمدوا مناصبته فأصابتهم قارعة وخسفت بهم وبه الأرض وأصبحوا عبرة للمعتبرين. واعتزم بنو إسرائيل على الاستقالة مما فعلوه والزحف إلى العدو، ونهاهم موسى عن ذلك فلم ينتهوا وصعدوا جبل العمالقة فحاربهم أهل ذلك الجبل فهزموهم وقتلوهم في كل وجه. فامسكوا وأقام موسى على الاستغفار لهم، فأرسل إلى ملك أدوم يطلب الجواز عليه إلى الأرض المقدسة فمنعهم، وحال دون ذلك.ثم قبض هارون صلوات الله عليه لمائة وثلاثة وعشرين سنة من عمره، ولأربعين سنة من يوم خروجهم من مصر، وحزن له بنو إسرائيل لأنه كان شديد الشفقة عليهم، وقام بأمره الذي كان يقوم به ابنه العيزار، ثم زحف بنو إسرائيل إلى بعض ملوك كنعان، فهزموهم وقتلوهم وغنموا ما أصابوا معهم، وبعثوا إلى سيحون ملك العموريين من كنعان في الجواز في أرضه إلى الأرض المقدسة فمنعهم وجمع قومه وغزا بني إسرائيل في البرية، فحاربوه وهزموه وملكوا بلاده إلى حد بني عمون، ونزلوا مدينته وكانت لبني مؤاب. وتغلب عليها سيحون.

ثم قاتلوا عوجاً وقومه من كنعان وهو المشهور بعوج بن عوق، وكان شديد البأس فهزموه وقاتلوه وبنيه وأثخنوا في أرضه، وورثوا أرضهم إلى الأردن بناحية أريحا وخشي ملك بني مؤاب من بني إسرائيل، واستجاش بمن يجاوره من بني مدين وجمعهم، ثم أرسل إلى بلعام بن باعورا وكان ينزل في التخم بين بلاد بني عمون وبني مؤاب، وكان مجاب الدعوة معبراً للأحلام. واستدعاه ليستعين بدعائه، وأتاه الوحي بالنهي عن الدعاء، وألح عليه ذلك الملك وأصعده إلى الأماكن الشاهقة، وأراه معسكر بني إسرائيل منها، فدعا لهم وأنطقه الله بظهورهم وأنهم يملكون إلى الموصل. ثم تخرج أمة من أرض الروم فيغلبون عليهم، فغضب الملك وانصرف بلعام إلى بلاده.

وفشا في بني إسرائيل الزنا ببنات مؤاب ومدين فأصابهم الموتان، فهلك منهم أربعة وعشرون ألفاً. ودخل فنحاص بن لعزرا على رجل من بني إسرائيل في خيمته ومعه امرأة من بني مدين قد أدخلها للزنا بمرأى من بني إسرائيل، فطعنها برمحه وانتظمها وارتفع الموتان عن بني إسرائيل. ثم أمر الله موسى والعازر بن هارون بإحصاء بني إسرائيل بعد فناء الجبل الذي أحصاهم موسى وهارون ببرية سينا، وانقضاء الأربعين سنة التي حرم الله عليهم فيها دخول تلك الأرض، وأن يبعث بعثاً من بني إسرائيل إلى مدين الذين أعانوا بني مؤاب، فبعث اثني عشر ألفاً من بني إسرائيل وعليهم فنحاص بن العيزر بن العزر بن هارون، فحاربوا بني مدين وقتلوا ملوكهم وسبوا نساءهم وملكوا أموالهم، وقسم ذلك في بني إسرائيل بعد أن أخذ منه الله، وكان فيمن قتل بلعام بن باعورا.

ثم قسم الأرض التي ملك من بني مدين والعموريين وبني عمون وبني مؤاب، ثم ارتحل بنو إسرائيل ونزلوا شاطئ الأردن، وقال الله قد ملكتكم ما بين الأردن والفرات كما وعدت أباءكم. ونهوا عن قتال عيصو الساكنين ساعير وبني عمون وعن أرضهم. وأكمل الله الشريعة والأحكام والوصايا لموسى عليه السلام، وقبضه إليه لمائة وعشرين سنة من عمره، بعد أن عهد إلى فتاه يوشع أن يدخل ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة ليسكنوها، ويعملوا بالشريعة التي فرضت عليهم فيها، ودفن بالوادي في أرض مؤاب ولم يعرف قبره لهذا العهد.

وقال الطبري: مدة عمر موسى صلوات الله عليه مائة وعشرون سنة، منها في أيام أفريدون عشرون، ومنها في أيام منوجهر مائة. قال: ثم سار يوشع من بعد موسى إلى أريحا، فهزم الجبارين ودخلها عليهم. وقال السدي: إن يوشع تنبأ بعد موسى، وسار إلى أريحا فهزم الجبارين، ودخلها عليهم، وأن بلعام بن باعورا كان مع الجبارين يدعو على يوشع، فلم يستجب له، وصرف دعاؤه على الجبارين. وكان بلعام من قرى البلقاء، وكان عنده الاسم الأعظم، فطلبه الكنعانيون في الدعاء على بني إسرائيل فامتنع، وألحوا عليه فأجاب، ودعا فصرف دعاؤه، وكان قيامه للدعاء على جبل حسان مطلاً على عسكر بني إسرائيل، هذا خبر السدي في أن دعاء بلعام كان لعهد يوشع. والذي في التوراة أنه كان لعهد موسى، وأن بلعام قتل لعهد موسى كما مر في خبر الطبري.

وقال السدي: إن يوشع بعد وفاة موسى صلوات الله عليه أمر أن يعبر، فسار ومعه التابوت تابوت الميثاق، حتى عبر الأردن، وقاتل الكنعانيين فهزمهم، وأن الشمس جنحت للغروب يوم قتالهم ودعا الله يوشع فوقفت الشمس حتى تمت عليهم الهزيمة، ثم نازل أريحا ستة أشهر، وفي السابع نفخوا في القرون، وضج الشعب ضجة واحدة، فسقط سور المدينة فاستباحوها وأحرقوها. وكمل الفتح واقتسموا بلاد الكنعانيين كما أمرهم الله. هذا مساق الخبر عن سيرة موسى صلوات الله عليه وبني إسرائيل أيام حياته وبعد مماته حتى ملكوا أريحا.

وفي كتب الإخباريين: أن العمالقة الذين كانوا بالشام قاتلهم يوشع فهزمهم وقتل آخر ملوكهم وهو السميدع بن هوبر بن مالك، وكان لقاؤهم إياه مع بني مدين في أرضهم وفي ذلك يقول عوف بن سعد الجرهمي:

ألم تر أن العلقمي بن هوبر ... بايلة امسى لحمه قد تمزعا
ترامت عليه من يهود جحافل ... ثمانون ألفاً حاسرين ودرعا

ذكره المسعودي وقد تقدم لنا خلاف النسابة في هؤلاء العمالقة وأنهم لعمليق بن لاوذ أو لعمالق بن أليفاز بن عيصو الثاني، لنسابة بني إسرائيل سار إليه علماء العرب. وأما الأمم الذين كانوا بالشام لذلك العهد، فأكثرهم لبني كنعان وقد تقدمت شعوبهم، وبنو أروم أبناء عمون، وبنو مؤاب أبناء لوط، وثلاثتهم أهل يسعير وجبال الشراة وهي بلاد الكرك والشوبك والبلقا، ثم بنو فلسطين من بني حام ويسمى ملكهم جالوت وهو من الكنعانيين منهم، ثم بنو مدين ثم العمالقة. ولم يؤذن لبني إسرائيل في غير بلاد الكنعانيين فهي التي اقتسموها وملكوها وصارت لهم تراثاً، وأما غيرهم فلم يكن لهم فيها إلا الطاعة والمغارم الشرعية من صدقة وغيرها.

وفي كتب الإخباريين: أن بني إسرائيل بعد ملكهم الشام بعثوا بعوثهم إلى الحجاز، وهنالك يومئذ أمة من العمالقة يسمون جاسم، وكان اسم ملكهم الإرم بن الأرقم، وكان أوصاهم أن لا يستبقوا منهم من بلغ الحلم فلما ظهروا على العمالقة وقتلوا الأرقم، استبقوا ابنه وضنوا به عن القتل لوضاءته. ولما رجعوا من بعد الفتح وبخهم إخوانهم ومنعوهم دخول الشام وأرجعوهم إلى الحجاز، وما تملكوا من أرض يثرب، فنزلوها واستتم لهم فتح في نواحيها، ومن بقاياهم يهود خيبر وقريظة والنضير. قال ابن إسحاق: قريظة والنضير والتحام وعمرو هَوْهَزل من الخزرج. وقال ابن الصريح بن التومان بن السبط بن إليسع بن سعد بن لاوى بن النمام بن يتحوم بن عازر بن عزر بن هارون عليه السلام. واليهود لا يعرفون هذه القصة وبعضهم يقول كان ذلك لعهد طالوت والله أعلم.

الخبر عن حكام بني إسرائيل بعد يوشع إلى أن صار أمرهم إلى الملك وملك عليهم طالوت

ولما قبض يوشع صلوات الله عليه بعد استكمال الفتح، وتمهيد الأمر، ضيع بنو إسرائيل الشريعة، وما أوصاهم به وحذرهم من خلافه، فاستطالت عليهم الأمم الذين كانوا بالشام، وطمعوا فيهم من كل ناحية. وكان أمرهم شورى فيختارون للحكم في عامتهم من شاؤوا، ويدفعون للحرب من يقوم بها من أسباطهم، ولهم الخيار مع ذلك على من يلي شيئاً من أمرهم، وتارة يكون نبياً يدبرهم بالوحي، وأقاموا على ذلك نحواً من ثلثمائة سنة لم يكن لهم فيها ملك مستفحل، والملوك تناوشهم من كل جهة، إلى أن طلبوا من نبيهم شمويل أن يبعث عليهم ملكاً، فكان طالوت، ومن بعده داود، فاستفحل ملكهم يومئذ وقهروا أعداءهم، على ما يأتي ذكره بعد. وتسمى هذه المدة بين يوشع وطالوت مدة الحكام ومدة الشيوخ.

وأنا الآن أذكر من كان فيها من الحكام على التتابع معتمداً على الصحيح منه، على ما وقع في كتاب الطبري والمسعودي، ومقابلاً به ما نقله صاحب حماة من بني أيوب في تاريخه عن سفر الحكام والملوك من الإسرائيليات، وما نقله أيضاً هروشيوش مؤرخ الروم في كتابه الذي ترجم للحكم المستنصر من بني أمية قاضي النصارى وترجمانهم بقرطبة وقاسم بن أصبغ. قالوا كلهم: لما فتح يوشع مدينة أريحا سار إلى نابلس فملكها ودفن هنالك شلو يوسف عليه السلام، وكانوا حملوه معهم عند خروجهم من مصر. وقد ذكرنا أنه كان أوصى بذلك عند موته.

وقال الطبري: أنه بعد فتح أريحا نهض إلى بلد عاي من ملوك كنعان، فقتل الملك وأحرق المدينة، وتلقاه خيقون ملك عمّان، وبارق ملك أروشليم بالجزى واستذموا بأمانه فأمنهم. وزحف إلى خيقون ملك الأرمانيين من نواحي دمشق فاستنجد بيوشع، فهزم يوشع ملك الأرمن إلى حوران واستلحمهم وصلب ملوكهم، وتتبع سائر الملوك بالشام فاستباح منهم واحداً وثلاثين ملكاً. وملك قيسارية، وقسم الأرض التي ملكها بين بني إسرائيل، وأعطى جبل المقدس لكالب بن يوفنا فسكن مدينة أورشليم، وأقام مع بني يهودا، ووضع القبة التي فيها تابوت العهد والمذبح

والمائدة والمنارة على الصخرة التي في بيت المقدس. وأما بنو أفرايم فكانوا يأخذون الجزية من الكنعانيين، ثم قبض يوشع في سفر الحكام أنه قبض لثمان وعشرين سنة من ملكه، وهو ابن مائة وعشرين سنة.

وقال الطبري: ابن مائة وستة وعشرين سنة. والأول أصح. قال: وكان تدبير يوشع لبني اسرائيل في زمن منوشهر عشرين سنة، وفي زمن أفراسيات سبع سنين. وقال أيضاً أن ملك اليمن شمر بن الأملوك من حمير كان لعهد موسى وبني أظفار واخرج منها العمالقة. ويقال أيضا كان من عمال الفرس على اليمن. وزعم هشام بن محمد الكلبي أن الفل من الكنعانيين بعد يوشع احتملهم أفريقش بن قيس بن صيفي من سواحل الشام في غزاته إلى المغرب التي قتل فيها جرجيس الملك، وأنه أنزلهم بأفريقية، فمنهم البربر وترك معهم صنهاجة وكتامة من قبائل حمير انتهى. وقام بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا بن حصرون بن بارص بن يهودا وقد مر نسبه، وكان فنحاص بن ألعيزر بن هارون كوهناً، يتولى أمر صلاتهم وقربانهم، ثم تنبأ وتنبأ أبوه ألعيزر وكان كالب مضعفا فأقاما كذلك سبع عشرة سنة. وقال الطبري كان مع كالب في تدبيرهم حزقيل بن يودي، ويقال له ولد العجوز، لأنه ولد بعد أن كبرت أمه وعقمت.

وحدث عن وهب بن منبه أن حزقيل هذا دبرهم بعد كالب ولم يقع لهذا ذكر في سفر الحكام. ثم بعد يوشع اجتمع بنو يهودا وبنو شمعون لحرب الكنعانيين، فغلبوهم وقتلوهم، وفتحوا أورشيلم وقتلوا ملكها، ثم فتحوا غزة وعسقلان وملكوا الجبل كله، ولم يقتلوا الغور. وأما سبط بنيامين فكان في قسمهم بلد اليونانيين في أرضهم، وأخذوا منهم الخراج واختلطوا بهم، وعبدوا آلهتهم فسلط اللّه عليهم ملك الجزيرة واسمه كوشان شقنائم، ومعناه أظلم الظالمين. ويقال: إنه ملك الأرمن في الجزيرة ودمشق وملك حوران وصيدا وحران ويقال: والبحرين ويقال: أنه من أدوم.

وقال الطبري: من نسل لوط فاستعبد بني إسرائيل ثمان سنين بعد وفاة كالب بن يوفنا، ثم ولى الحكم فيها عثينئال ابن أخيه قناز ابن يوفنا فحاربهم كوشان هذا، وأزال ملكته عن بني إسرائيل، ثم حاربه فقتله وكان له بعد ذلك حروب سائر أيامه مع بني مؤاب وبني عمون أسباط لوط ومع العماليق إلى أن هلك لأربعين سنة من دولته. ثم عبد بنو إسرائيل الأوثان من بعده فسلط اللّه عليهم ملك بني مؤاب واسمه عفلون، بعين مهملة ومعجمة ساكنة ولام مضمومة تجلب واواً ساكنة ونون بعدها، فاستعبدهم ثماني عشرة سنة. ثم قام بتدبيرهم أيهوذ بن كارا من سبط أفرايم، وقال ابن حزم: من بنيامين، وضبطه بهمزة ممالة تجلب ياء ثم هاء مضمومة تجلب واوا ثم ذال معجمة فاتفقذهم من يد بني مؤاب، وقتل ملكهم عفلون بحيلة تمت لهم في ذلك. وهو أنه جاء رسولاً عن بني إسرائيل متنكرا بهدايا وتحف منهم حتى إذا خلا به طعنه فأنقذه ولحق بمكانه من جبل أفرايم، ثم اجتمعوا ونزلوا فقتلوا من الحرس نحوا من عشرة آلاف، وغلب ببني إسرائيل بني مؤاب واستلحمهم وهلك لثمانين سنة من دولته.

وقام بتدبيرهم بعده شمكار بن عناث من سبط كاد، وضبطه بفتح الشين المثلثة بعدها ميم ساكنة وكاف تقرب من مخرج الجيم ويجلب فتحها ألفاً وبعدها راء مهملة، ومات لسنة من ولايته وبنو إسرائيل على حيالهم من المخالفة، فسلط اللّه عليهم ملك كنعان واسمه يافين، بفاء شفوية تقرب من الباء، فسرح إليهم قائده سميرا فملك عليهم أمرهم واستعبدهم عشرين سنة. وكانت فيهم كوهنة امرأة متنبئة اسمها دافورا، بفاء هوائية تقرب من الباء، وهي من سبط نفطالي، وقيل: من سبط أفرايم، وقيل: كان زوجها بارق ابن أبي نوعم من سبط نفطالي واسمه البيدوق، فدعته إلى حرب سميرا فأبى إلا أن تكون معه فخرجت ببني إسرائيل، وهزموا الكنعانيين، وقتل قائدهم سميرا وقامت بتدبيرهم أربعين سنة يرادفها زوجها بارق بن أبي نوعم. قال هروشيوش: وعلى عهدها كان أول ملوك الروم اللطينيين بأنطاكية بنقش بن شطونش وهو أبو القياصرة. ثم توفيت دافورا وبقي بنو إسرائيل فوضى وعادوا إلى كفرهم فسلط اللّه عليهم أهل مدين والعمالقة.

قال الطبري: وبنو لوط الذي بتخوم الحجاز قهروهم سبع سنين، ثم تنبأ فيهم من سبط منشى بن يوسف كدعون بن يواش، وضبطه بفتح الكاف القريبة من الجيم وسكون الدال المهملة بعدها وعين مهملة مضمومة تجلب واوا بعدها نون، فقام بتدبيرهم. وقد كان لمدين ملكان أحدهما اسمه رابح والآخر صلمناع، فبعث إلى بني إسرائيل عساكره مع قائدين عوديف وزديف، وأهم بني إسرائيل شأنهم، فخرج بهم كدعون فهزموا بني مدين، وغنموا منهم أموالاً جمة، ومكثوا أيام كدعون هذا على استقامة في دينهم، وغلب لأعدائهم أربعين سنة، وكان له من الولد سبعون ولدا، وعلى عهده بنيت مدينة طرسوس. وقال جرجيس بن العميد: وملطية أيضا. ولما هلك قام بتدبيرهم ولده أبو مليخ، وكانت أمه من بني سخام بن منشى بن يوسف من أهل نابلس، فأنجدوه بالمال وقتل بني أبيب كلهم ثم نازعوه بنو سخام أخواله الأمر، وطالت حروبه معهم، وهلك محاصرا لبعض حصونهم بحجر طرحته عليه

امرأة من السور فشدخه. فقال لصاحب سلاحه أجهز علي لئلا يقال قتلته امرأة. وذلك لثلاث سنين من ولايته.

ثم دبر أمرهم بعده طولاع بن فوا بن داود من سبط يساخر، وضبطه بطاء قريبة من التاء تجلب ضمتها واوا ثم لام ألف ثم عين. وقال الطبري: هو ابن خال أبي مليخ وابن عمه.

قلت: والظاهر أنه ابن خاله لأن سبط هذا غير سبط هذا غير ذلك. وقال ابن العميد: هو من سبط يساخر إلا أنه كان نازلا في سائر من جبل أفراييم. فمن هنا والله أعلم وقع اللبس في نسبه، ودبرهم ثلاثاً وعشرين سنة. قال هروشيوش: وعلى عهده كان بمدينة طرونية من ملوك الروم اللطينيين برماش بن بنقش. وملك ثلاثين سنة وقد مضى ذكره. ولما هلك طولاع قام بتدبيرهم بعده يائير بن كلعاد من سبط منشى بن يوسف وضبطه بياء مثناة تحتية مفتوحة وألف ثم همزة مكسورة بعدها ياء أخرى ثم راء مهملة، وقام في تدبيرهم اثنتين وعشرين سنة، ونصب أولاده كلهم حكاماً في بني إسرائيل وكانوا نحواً من ثلاثين، فلما هلك طغوا وعبدوا الأصنام، فسلط الله عليهم بني فلسطين وبني عمون فقهرهم ثماني عشرة سنة.وقام بتدبيرهم يفتاح من سبط منشى، وضبطه بياء مثناة تحتانية وفاء ساكنة وتاء مثناة من فوق بفتحة تجلب ألفاء ثم حاء مهملة، فلما قام بأمرهم طلب ضريبة النحل من بني عمون فامتنعوا من إعطائها، وكانوا ملوكاً منذ ثلثمائة سنة، فقاتلهم وغلبهم عليها وعلى اثنتين وعشرين قرية معها، ثم حارب سبط أفراييم وكانوا مستبدين وحدهم عن بني إسرائيل، فأرادهم على اتفاق الكلمة والدخول في الجماعة حتى استقاموا على ذلك، وأقام في تدبيرهم ست سنين. وعلى عهده أصابت بلاد اليونان المجاعة العظيمة التي هلك فيها أكثرهم.ولما هلك قام بتدبيرهم أبصان من سبط يهودا من بيت لحم، وضبطه بهمزة مفتوحة وباء موحدة ساكنة وصاد مهملة بفتحة تجلب ألفا وبعدها نون، ويقال: أنه جد داود عليه السلام، بوعز بن سلمون بن نحشون بن عميناذاب بن رم بن حصرون بن بارص بن يهودا. وحصرون هذا هو جد كالب بن يوفنا الذي دبرهم بعد يوشع. ونحشون كان سيد بني يهود العهد خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام، وهلك في التيه، ودخل ابنه سلمون أريحا مع يوشع ونزل بيت لحم على أربعة أميال من بيت المقدس. قال هروشيوش في أيام أبصان هذا كان انقراض ملك السريانيين، وخروج القوط وحروبهم مع النبط، وأقام أبصان في تدبير بني إسرائيل سبع سنين ثم هلك. فقام بتدبيرهم إيلون من سبط زبولون وضبطه بهمزة مكسورة تجلب ياء ثم لام مضمومة تجلب واوا ثم نون، فدبرهم عشر سنين ثم هلك، فدبرهم عبدون بن هلال بن سبط أفراييم ثمان سنين. وقال ابن العميد اسمه عكرون بن هليان وكان له أربعون ابناً وثلاثون حافداً. قال هروشيوش: وفي أيامه خربت مدينة طرونة قاعدة الروم اللطينيين خربها الروم الغريقيون في فتنة بينهم. ولما هلك عبدون دفن بأرض أفراييم في جبال العمالقة.

واختلف بنو إسرائيل بعده وعبدوا الأصنام وسلط اللّه عليهم بني فلسطين فقهروهم أربعين سنة، ثم تخلصهم من أيديهم شمشون بن مانوح من سبط دان، ويعرف بشمشون القوي لفضل قوة كانت في يده ويعرف أيضاً بالجبار وكان عظيم سبطه، ودبر بني إسرائيل عشر سنين بل عشرين سنة، وكثرت حروبه مع بني فلسطين، وأثخن فيهم وأتيح لهم عليه في بعض الأيام فأسروه ثم حملوه وحبسوه. واستدعاه ملكهم بعض الأيام إلى بيت آلهتهم ليكلمه فأمسك عمود البيت، وهزه بيده فسقط البيت على من فيه وماتوا جميعاً. ولما هلك اضطربت بنو إسرائيل وافترقت كلمتهم وانفرد كل سبط بحاكم يولونه منهم، والكهنونية فيهم جميعاً في عقب ألعيزار بن هارون من لدن وفاة هارون عليه السلام بتوليته موسى صلوات الله عليه بالوحي، ومعنى الكهنونية إقامة القرابين من الذبح والبخور على شروطها وأحكامها الشرعية عندهم.

وقال ابن العميد: إنه ولي تدبيرهم بعد شمشون حاكم آخر اسمه ميخائيل بن راعيل، دبرهم ثمان سنين، ولم تكن طاعته فيهم مستحكمة، وأن الفتنة وقعت بين بني إسرائيل ففني فيها سبط بنيامين عن آخرهم.

ثم سكنت الفتنة وكان الكوهن فيهم لذلك العهد عالي بن بيطات بن حاصاب بن إليان بن فنحاص بن العيزار بن هارون، وقيل من ولد ايتامار بن هارون، وضبطه بعين مهملة مفتوحة تجلب ألفا ثم لام مكسورة تجلب ياء تحتانية. فلما سكنت الفتنة كانوا يرجعون إليه في أحكامهم وحروبهم. وكان له ابنان عاصيان، فدفعهما إلى ذلك، وكثر لعهده قتال بني فلسطين، وفشا المنكر من ولديه، وأمر بدفعهم عن ذلك فلم يزدادوا إلا عتوا وطغيانا، وأنذر الأنبياء بذهاب الأمر عنه وعن ولده، ثم هزمهم بنو فلسطين في بعض أيامهم وأصابوا منهم، فتذامر بنو إسرائيل، واحتشدوا وحملوا معهم تابوت العهد، ولقيهم بنو فلسطين، فانهزم بنو إسرائيل أمامهم وقتلوا أبناء عالي كوهن كما أنذر به أبوهما وشمويل.

وبلغ أباهما الكوهن خبر مقتلهما فمات أسفاً لأربعين سنة من دولته، وغنم بنو فلسطين التابوت فيما غنموه، واحتملوه إلى بلادهم بعسقلان وغزة، وضربوا الجزية على بني إسرائيل، ولما

مضى القوم بالتابوت فيما حكى الطبري، وضعوه عند آلهتهم فقلاها مرارا فأخرجوه إلى ناحية من القرية، فأصيبوا فتبادروا بإخراجه وحملوه على بقرتين لهما تبيعان ووضعتاه عند أرض بني إسرائيل، ورجعتا إلى ولديهما وأقبل إليه بنو إسرائيل فكان لا يدنوا منه أحد إلا مات حتى أذن شمويل لرجلين منهم حملاه إلى بيت أمهما وهي أرملة فكان هنالك حتى ملك طالوت اه. وكان ردهم التابوت لسبعة أشهر من يوم حملوه، وكان عالي الكوهن قد كفل ابن عمه شمويل بن الكنا بن يوام بن إلياهد بن ياو بن سوف وسوف هو أخو حاصاب بن البلى بن يحاص.وقيل إن شمويل من عقب فورح وهو قارون بن يصهار بن قاهاث بن لاوى. ونسبه إليه شمويل بن القنا بن يروحام بن أليهوذ بن يوحا بن صوب بن إلقانا بن يويل بن عزيز ابن ضيعينا بن تاحث بن أسر بن ألقانا بن النشاسات بن قاوون. وكانت أمه نذرت أن تجعله خادماً في المسجد، وألقته هنالك فكلفه عالي وأوصى له بالكهنونية، ثم أكرمه اللّه بالنبوة، وولاه بنو إسرائيل أحكامهم فدبرهم عشر سنين. وقال جرجيس بن العميد عشرين سنة ونهاهم عن عبادة الأوثان فانتهوا وحاربوا أهل فلسطين واستردوا ما كانوا أخذوا لهم من القرى والبلاد، واستقام أمرهم ثم دفع الأمر إلى ابنيه يوال وأبيا، وكانت سيرتهما سيئة. فاجتمع بنو إسرائيل إلى شمويل، وطلبوه أن يسأل اللّه في ولاية ملك عليهم، فجاء الوحي بولاية طالوت. فولاه وصار أمر بني إسرائيل ملكاً بعد أن كان مشيخة، واللّه معقب الأمر بحكمته لا رب غيره.

الخبر عن ملوك بني إسرائيل بعد الحكام ثم افتراق أمرهم والخبر عن دولة بني سليمان بن داود على السبطين يهوذا وبنيامين بالقدس إلى انقراضها

لما نقم بنو إسرائيل على يوال وأبيا ابني شمويل مما نقموا من أمورهم، واجتمعوا إلى شمويل، وسألوه من اللّه أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم ويجمع نشرهم ويدفع الذل عنهم، فجاء الوحي بأن يولي اللّه طالوت ويدهنه بدهن القدس، فأبوا بعد أن أمر شمويل بأن يستهموا عليه، فاستهموا على بني آبائهم، فخرج السهم على طالوت وكان أعظمهم جسماً فولوه، واسمه عند بني إسرائيل شاول بن قيس بن أفيل، بالفاء الهوائية القريبة من الباء، ابن صار وابن نحورت بن أفياح، فقام بملكهم، واستوزر أفنين ابن عمه نير بن أفيل. وكان لطالوت من الولد يهوناتان وملكيشوع وتشبهات وأنبياداف. وقام طالوت بملك بني إسرائيل، وحارب أعداءهم من بني فلسطين وعمون ومؤاب والعمالقة ومدين فغلب جميعهم، ونصر بنو إسرائيل نصراً لا كفاء له.

وأول من زحف إليهم ملك بني عمون ونازل قرية بلقاء فهجم عليهم طالوت، وهو في ثلثمائة ألف من بني إسرائيل فهزمهم واستلحمهم، ثم أغزى ابنه في عساكر بني إسرائيل إلى فلسطين فنال منهم، واجتمعوا لحرب بني إسرائيل فزحف إليهم طالوت وشمويل فانهزموا واستلحمهم بنو إسرائيل، وأمر شمويل أن يسير إلى العمالقة وأن يقتلهم ودوابهم ففعل، واستبقى ملكهم أعاع مع بعض الأنام، فجاء الوحي إلى شمويل بأن اللّه قد سخطه وسلبه الملك فخبره بذلك، وهجره شمويل فلم يره بعد.وأمر شمويل أن يقدس داود، وبعث له بعلامته فسار إلى بني يهوذا في بيت لحم، وجاء به أبوه إيشا فمسحه شمويل، وسلب طالوت روح الجسد، وحزن لذلك ثم قبض شمويل وزحف جالوت وبنو فلسطين إلى بني إسرائيل فبرز إليهم طالوت في العساكر وفيهم داود بن إيشا من سبط يهوذا، وكان صغيراً يرعى الغنم لأبيه، وكان يقذف بالحجارة في مخلاته فلا تكاد تخطئ.

قال الطبري: وكان شمويل قد أخبر طالوت بقتل جالوت، وأعطاه علامة قاتله، فاعترض بني إسرائيل حتى رأى العلامة فيه فسلحه وأقام في المصاف. وقد احتمل الحجارة في مخلاته، فلما عاين جالوت قذفه بحجارة فصكه في رأسه ومات، وانهزم بنو فلسطين، وحصل النصر. فاستخلص طالوت حينئذ داود وزوجه ابنته، وجعله صاحب سلاحه، ثم ولاه على الحروب فاستكفى به. وكان عمره حينئذ فيما قال الطبري ثلاثين سنة. وأحبه بنو إسرائيل، واشتملوا عليه، وابتلي طالوت وبنوه بالغيرة منه، وهمّ بقتله ونفذ لذلك مراراً، ثم حمل ابنه يهونتان على قتله فلم يفعل لخلة ومصافاة كانت بينهما، ودس إلى داود بدخيلة أبيه فيه، فلحق بفلسطين وأقام فيهم أياماً، ثم إلى بني مؤاب كذلك، ثم رجع إلى سبطه يهوذا بنواحي بيت المقدس، فأقام فيهم يقاتل معهم بني فلسطين في سائر حروبهم، حتى إذا شعر به طالوت طلب بني يهوذا بإسلامه إليه، فأبوا فزحف إليهم فأخرجوه عنهم، ولحق ببني فلسطين وقاتلهم طالوت في بعض الأيام فهزموه، واتبعوه وأولاده يقاتلون دونه حتى قتل يهونتان ومشوى وملكيشوع، وبنو فلسطين في اتباعه حتى إذا أيقن بالهلكة قتل نفسه بنفسه. وذكر فيما قال الطبري لأربعين سنة من ملكه.

ثم جاء داود إلى بني يهوذا فملكوه عليهم، وهو داود بن إيشا بن عوفذ، بالفاء الهوائية، بن بوغر واسمه أفصان بالفاء

الهوائية والصاد المشمة. وقد قدمنا ذكره في حكام بني إسرائيل بن سلمون الذي نزل بيت لحم لأول الفتح، ابن نحشون سيد بني يهوذا عند الخروج من مصر ابن عميناذاب بن إرم بن حصرون بن بارص بن يهوذا، هكذا نسبه في كتاب اليهود والنصارى، وأنكره ابن حزم قال: لأن نحشون مات بالتيه وإنما دخل القدس ابنه سلمون، وبين خروج بني إسرائيل من مصر وملك داود ستمائة سنة باتفاق منهم، والذي بين داود ونحشون أربعة آباء، فإذا قسمت الستمائة عليهم يكون كل واحد منهم إنما ولد له بعد المائة والثلاثين سنة وهو بعيد.

ولما ملك داود على بني يهوذا نزل مدينتهم حفرون بالفاء الهوائية، وهي قرية الخليل عليه السلام لهذا العهد، واجتمع الأسباط كلهم إلى يشوشات بن طالوت، فملكه في أورشليم وقام بأمره وزير أبيه أفنيد وقد مر نسبه.

وفي كتاب أسفار الملوك من الإسرائيليات: أن رجلاً جاء لداود بعد وفاة طالوت، فأخبره بمهلكه ومهلك أولاده في هزيمتهم أمام بني فلسطين، وأمر هذا الرجل أن يقتله لما أدركوه، فقتله وجاء بتاجه ودملجه إلى داود، وانتسب إلى العمالقة، فقتله داود بقتله، وبكى على طالوت، وذهب إلى سبط يهوذا بأرض حفرون بالفاء القريبة من الباء، وهي قرية الخليل لهذا العهد، وأقام شيوشيات بن طالوت في أورشليم، والأسباط كلهم مجتمعون عليه، وأقامت الحرب بينهم وبين داود أكثر من سنتين، ثم وقع الصلح بينهم والمهادنة، وأذعن الأسباط إلى داود وتركوه، ثم اغتاله بعض قواده وجاء برأسه إلى داود فقتله به. وأظهر عليه الحزن والأسف وكفل أخواته وبنيه أحسن كفالة.واستبد داود بملك بني إسرائيل لثلاثين سنة من عمره وقاتل بني كنعان وغلبهم، ثم طالت حروبه مع بني فلسطين، واستولى على كثير من بلادهم، ورتب عليهم الخراج.

ثم حارب أهل مؤاب وعمون وأهل أدوم وظفر بهم وضرب عليهم الجزية، ثم خرب بلادهم بعد ذلك، وضرب الجزية على الأرمن بدمشق وحلب، وبعث العمال لقبضها. وصانعه ملك أنطاكية بالهدايا والتحف، واختط مدينة صهيون وسكنها واعتزم على بناء مسجد في مكان القبة التي كانوا يضعون بها تابوت العهد ويصلون إليها. فأوحى اللّه إلى دانيال نبي على عهده أن داود لا يبني وإنما يبنيه ابنه ويدوم ملكه فسر داود بذلك.

ثم انتقض عليه ابنه أبشلوم، وقتل أخاه أمون غيرة منه على شقيقه بامان وهرب. ثم استماله داود ورده، وأهدر دم أخيه وصير له الحكم بين الناس. ثم رجع ثانياً لأربع سنين بعدها وخرج معه سائر الأسباط، ولحق داود بأطراف الشام وقيل لحق بخيبر وما إليها من بلاد الحجاز، ثم تراجع للحرب فهزمه داود وأدركه مؤاب وزير داود وقد تعلق بشجرة فقتله، وقتل في الهزيمة عشرون ألفاً من بني إسرائيل، وسيق رأس قشلوط لولي أبيه داود فبكى عليه وحزن طويلاً، واستألف الأسباط ورضي عنهم ورضوا عنه. ثم أحصى بني إسرائيل فكانوا ألف ألف ومائة ألف، وسبط يهوذا أزيد من أربعمائة ألف. وعوتب في الوحي لأنه أحصاهم بغير إذن، وأخبره بذلك بعض الأنبياء لعهده.

وأقام داود صلوات اللّه عليه في ملكه والوحي يتتابع عليه، وسوَر الزبور تتنزل. وكان يسبح بالأوتار والمزامير، وأكثر المزامير المنسوبة إليه في ذكر التسبيح وشأنه. وفرض على الكهنونية من سبط لاوى التسبيح بالمزامير قدام تابوت العهد اثني عشر كوهناً لكل ساعة. ثم عهد عند تمام أربعين سنة من دولته لابنه سليمان صلوات اللّه عليهما، ومسحه مابان النبي وصادوق الحبر مسحة التقديس، وأوصى ببناء بيت المقدس. ثم قبض صلوات اللّه عليه ودفن في بيت لحم، وكان لعهده من الأنبياء نامان وكاد وآصاف. وكان الكهنون الأعظم أفيثار بن أحليج من عقب عالي الكوهن الذي ذكرناه في الحكام، وكان من بعده صادوق.

ثم قام بالملك من بعده من بني إسرائيل ابنه سليمان صلوات اللّه عليه وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، فاستفحل ملكه وغالب الأمم، وضرب الجزية على جميع ملوك الشام مثل فلسطين وعمون وكنعان ومؤاب وأدوم والأرمن، وأصهر إليه الملوك من كل ناحية ببناتهم، وكان ممن تزوج بنت فرعون مصر. وكان وزيره يؤاب بن نيثر وهو ابن أخت داود اسمها صوريا، وكان وزيراً لداود فلما ولي سليمان استوزره فقام بدولته ثم قتله بعد ذلك، واستوزر يشوع بن شيداح.

ولأربع سنين من ملكه شرع في بيت المقدس بعهد أبيه إليه بذلك، فلم يزل إلى آخر دولته بعد أن هدم مدينة أنطاكية وبنى مدينة تدمر في البرية وبعث إلى ملك صور ليعينه في قطع الخشب من لبنان، وأجرى على الفعلة فيه في كل عام عشرين ألف كر من الطعام ومثلها من الزيت ومثلها من الخمر. وكان الفعلة في لبنان سبعين ألفاً ولنحت الحجارة ثمانين ألفاً وخدمة المناولة سبعون ألفاً، وكان الوكلاء والعرفاء على ذلك العمل ثلاثة آلاف وثلثمائة رجل.ثم بنى الهيكل وجعل ارتفاعه مائة ذراع في طول ستين وعرض عشرين. وجعل بدائره كله أروقة وفوقها مناظر، وجعل بدائر البيت ابريداً من خارج، ونمقه وجعل الظهر مقوراً ليودع فيه تابوت العهد. وصفح البيت من داخله وسقفه بالذهب، وصنع في البيت كروبيين من الخشب مصفحتين بالذهب وهما تمثالان

للملائكة الكروبيين، وجعل للبيت أبواباً من خشب الصنوبر، ونقش عليها تماثيل من الكروبيين والنرجس والنخل والسوسن وغشاها كلها بالذهب. وأتم بناء الهيكل في سبع سنين، وجعل لها باباً من ذهب، ثم بنى بيتاً لسلاحه أقامه على أربعة صفوف من العمد من خشب الصنوبر في كل صف خمسة عشر عموداً، ووضع فيه مائتي ترس من الذهب، في كل ترس ستمائة من حجر الجوهر والزمر، وثلثمائة درقة من الذهب، في كل درقة ثلثمائة من حجر الياقوت، وسمى هذا البيت غيضة لبنان. وصنع منبراً لجلوسه تحت رواق وكراسي كثيرة كلها من العاج ملبسة من الذهب.

ثم بنى من فوق هذا البناء بيتاً لابنة فرعون التي تزوج بها، وصنع بها أوعية النحاس لسائر ما يحتاج إليه في البيت، واسترضى الصناع لذلك من مدينة صور. وعمل مذبح القربان بالبيت من الذهب، ومائدة الخبز الوجوه من الذهب، وخمس منابر عن يمين الهيكل، وخمساً عن يساره بجميع آلاتها من الذهب، ومجامر من الذهب. وأحضر موروث أبيه من الذهب والفضة والأوعية الحسنة فأدخلها إلى البيت، وبعث إلى تابوت العهد من صهيون قرية داود إلى البيت الذي بناه له، فحمله رؤساء الأسباط والكهنونية على كواهلهم حتى وضعوه تحت أجنحة التمثالين للكروبيين بالمسجد. وكان في التابوت اللوحان من الحجارة اللذان صنعهما موسى عليه السلام بدل الألواح المنكسرة، وحملوا مع تابوت العهد قبة القربان وأوعيتها إلى المسجد. وأقام سليمان أمام المذبح يدعو في يوم مشهود، اتخذ فيه وليمة لذلك ذبح فيها اثنين وعشرين ألفاً من البقر، ثم كان يقرب ثلاث مرات من السنة قرابين وذبائح كاملة، ويبخر البخور وجميع الأوعية لذلك كلها ذهب. وكانت جبايته في كل سنة ستمائة قنطار وستة وستين قنطاراً من الذهب، غير الهدايا والقربان إلى بيت المقدس.

وكانت له سفن بحر الهند تجلب الذهب والفضة والبضائع والفيلة والقرود والطواويس، وكانت له خيل مرتبة كثيرة تجلب من مصر وغيرها تبلغ ألفاً وستمائة فرس معدة كلها للحرب. وكانت له ألف امرأة لفراشه ما بين حرة وسرية منها ثلثمائة سرية. وفي الأخبار للمؤرخين أنه تجهز للحج فوافى الحرم وأقام فيه ما شاء الله، وكان يقرب كل يوم خمسة آلاف بدنة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة. ثم سما إلى ملك اليمن وسار إليه فوافى صنعاء من يومه، وطلب الهدهد لالتماس الوضوء، وكان قناقه أي ملتمس الوضوء له في الأرض فافتقده، ورجع إليه بخبر بلقيس كما قصه القرآن. ودافعته بالهدية فلم يقبلها، فلاذت بطاعته ودخلت في دينه وطاعته وملكته أمرها ووافته بملك اليمن، وأمرها بأن تتزوج فنكرت ذلك لمكان الملك فقال: لا بد في الدين من ذلك. فقالت: زوجني ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه وملكه على اليمن واستعملها فيه ورجع إلى الشام. وقيل تزوجها وأمر الجن فبنوا لها سليمين وغمدان. وكان يزورها في الشهر مرة يقيم عندها ثلاثاً، وعلماء بني إسرائيل ينكرون وصوله إلى الحجاز واليمن، وإنما ملك اليمن عندهم بمراسلة ملكة سبأ، وأنها وفدت عليه في يروشالم، وأهدت إليه مائة وعشرين قنطاراً من الذهب، ولؤلؤاً وجوهراً وأصنافاً من الطيب والمسك والعنبر فأجازها وأحسن إليها. وانصرفت، هكذا في كتاب الأنساب من كتبهم.ثم انتقض على سليمان آخر أيامه هدرور ملك الأرمن بدمشق، وهداد ملك أدوم، وكان قد ولى على ضواحي بيت المقدس وجميع أعماله يربعان بن نباط من سبط أفرايم، واستكفى به في ذلك، وكان جباراً فعوتب بالوحي على لسان أخيا النبي في توليته فأراد قتله، وشعر بذلك يربعان فهرب إلى مصر، فأنكحه فرعون ابنته وولدت له ابنه ناباط وأقام بمصر.وقبض سليمان صلوات الله عليه لأربعين سنة من ملكه، وقيل لاثنتين وخمسين، ودفن عند أبيه داود صلوات الله عليهما. وافترق ملك بني إسرائيل من بعده كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن افتراق بني إسرائيل منهم بيت المقدس على سبط يهوذا وبنيامين إلى انقراضه

لما قبض سليمان صلوات الله عليه وسلامه، ولي ابنه رحبعم، وضبطه براء مهملة وهاء مهملة مضمومتين وباء موحدة ساكنة وعين مهملة مضمومة وميم، فقام بأمره وزاد في عمارة بيت لحم وغزة وصور وأيلة، واشتد على بني إسرائيل وطلبوا منه تخفيف الضرائب، فامتنع وطالبهم بالوظائف، وأخذ فيهم برأي الغواة من بطانته، فنقموا عليه ذلك وانتقضوا. وجاءهم يربعم بن نباط من مصر، فبايعوه وولوه عليهم، واجتمع عليه سائر الأسباط العشرة من بني إسرائيل، ما عدا سبط يهوذا وبنيامين، وتزاحفوا للحرب. ثم دعاهم بعض أنبيائهم للصلح فتواضعوا واصطلحوا.وفي السنة الخامسة من ملك رحبعم زحف شيشاق ملك مصر إلى بيت المقدس، فهرب رحبعم، واستباحها شيشاق ورجع وضرب عليهم الجزية، ثم دفعوه ومنعوه.

فأقام بنو داود في سلطانهم على بني يهوذا وبنيامين ببيت

المقدس وعسقلان وغزة ودمشق وحلب وحمص وحماة وما إلى ذلك من أرض الحجاز، وملك الأسباط العشرة بنواحي نابلس وفلسطين، ثم نزلوا مدينة شومرون وهي شمر وسامرة في الناحية الشرقية الشمالية من الشام مما يلي الفرات والجزيرة، واتخذوها كرسياً لملكهم ذلك، وأقاموا على هذا الافتراق إلى حين انقراض أمرهم، ووقعوا في الجلاء الذي كتب اللّه عليهم كما نذكره.

ثم هلك رحبعم لسبع عشرة سنة من دولته، وولي بعده على سبط يهوذا وبنيامين بأرض القدس ابنه أفيا، وضبطه بهمزة مفتوحة ومتوسطة بين الفاء والذال من لغتهم وياء مثناة من تحت مشددة وألف، وكان على مثل سيرة أبيه. وكان عابداً صواماً، وكانت أيامه كلها حرباً مع يربعم بن نباط وبني إسرائيل، وهلك لثلاث سنين. وولي بعده ابنه أسا، بضم الهمزة وفتح السين المهملة والف بعدها، ابن أفيا. وطال أمد ملكه، وكان رجلاً صالحاً، وكان على مثل سيرة جده داود صلوات اللّه عليه، وتعددت الأنبياء في بني إسرائيل على عهده، ومات يربعم بن نباط لستين من ملكه، وملك بعده ابنه ناداب وقتله يعشا بن أحيا كما نذكر في أخبارهم.

ثم وقعت بينه وبين أسا حروب، واستبد أسا بملك دمشق فزحف معه، وكان يعشا ملك السامرة في ناحية يثرب لبنائها، فهرب وترك آلات البناء، فنقلها أسا ملك القدس وبنى بها الحصون. ثم خرج عليهم زادح ملك الكوش في الف ألف مقاتل، ولقيهم أسا فهزمهم وأثخن فيهم. ولم تزل الحرب قائمة بين أسا وبين الأسباط بالسامرة سائر أيامه، وعلى عهده اختطت السامرة كما نذكر بعد.ثم هلك أسا بن أفيا لإحدى وأربعين سنة من ملكه، وولي بعده ابنه يهوشافاط، بياء مفتوحة مثناة تحتانية وهاء مضمومة وواو ساكنة وشين معجمة بعدها ألف ثم فاء بعدها ألف وطاء، فكان على مثل سيرة أبيه، وكانت أيامه مع أهل السامرة وملوكهم سلماً.

واجتمع ملوك العمالقة، ويقال أدوم، وخرج لحربهم فهزمهم وغنم أموالهم. وكان لعهده من الأنبياء إلياس بن شوياق، وإليسع بن شوبوات. وقال ابن العميد: إيليا ومنحيا وعبوديا. وكانت له سفن في البحر يجلب له فيها بضائع الهند فأصابها قاصف الريح فتكسرت وغرقت. ثم هلك لخمسة وعشرين سنة من ملكه، وولي ابنه يهورام، بفتح المثناة التحتانية ثم هاء مضمومة تجلب واواً ثم راء مفتوحة تجلب ألفاً وبعدها ميم، وانتقض عليه أدوم، وولوا عليهم ملكاً النهم، فزحف إليهم ووقع بهم في سفيرا أوسط بلادهم، وأثخن فيهم بالسبي والقتل. ثم رجع عنهم، وأقاموا في عصيانهم. وعلى عهده زحف ملك الموصل إلى الأسباط بالسامرة، فكانت بينه وبينهم حروب كما نذكر.وقال ابن العميد: كانت على بني مؤاب جزية مضروبة لبني يهوذا مائتان من الغنم كل سنة، فمنعوها، واجتمع ملوك القدس والسامرة لحربهم وحاصروهم سبعة أيام، وفقدوا الماء فاستسقى لهم إليسع وجرى الوادي. فخرج أهل مؤاب فظنوه ماء، فقتلهم بنو إسرائيل وأثخنوا فيهم.

وفي أيام يهورام رفع إيليا النبي وانتقل سره إلى إليسع، وكان على عهده من الأنبياء أيضاً عبوديا. ثم هلك يورام لثمان سنين من ملكه، ودفن عند جده داود، وولي بعده ابنه أحزياهو، بهمزة مفتوحة وحاء مهملة مضمومة وزاي معجمة ساكنة ثم ياء مثناة تحتية تجلب ألفاً ثم هاء مضمومة تجلب واواً، وأمه عثليا بنت عمري أخت أخاب وسار سيرة خاله، وملك سنة واحدة، وقيل سنتين، وخرج لقتال ملك الجزيرة والموصل واستنفر معه صاحب السامرة يورام ابن خاله أخاب، فاقتتلوا معه ثم انصرفوا وابن خاله جريح. وجاءه أحزياهو في بعض الأيام يعوده وكان ابن يهوشافاض بن منشي من سبط منشا بن يوسف يترصد قتل يورام بن أخاب ملك السامرة، فأصاب فرصة في ذلك الوقت فقتلهما جميعاً.

وقال ابن العميد: إن يورام بن أخاب ملك السامرة خرج لحرب أدوم، في رواية كلعاد وخرج معه أحزياهو فقتلا في تلك الحرب. قال: وقيل أن ياهوعشا رمى بسهم فأصاب يورام بن أخاب، وكان لعصره من الأنبياء إليسع وعامور وفنحاء.ثم ملك بعد أحزيا أمه عثليا بنت عمري كذا وقع اسمها في كتاب الطبري، وفي كتاب الإسرائيليات اسمها أضالية. ويقال كانت من جواري سليمان، ثم استفحل ملكها بالقدح وقتلت بني داود كلهم، واغفلت ابناً رضيعاً من ولد ابيها أحزياهو اسمه يؤاش، بضم الياء المثناة التحتية ثم همزة مفتوحة تجلب ألفاً ثم شين معجمة، أخفته عمته يهوشيع بنت يهورام في بعض زوايا القدس، وعلم بمكانه زوجها يهوديادع وهو يومئذ الكوهن الأعظم. حتى إذا كملت له سبع سنين، ونقم بنو يهوذا سيرة عثليا، اجتمعوا إلى يهوديادع الكوهن فأخرج لهم يؤاش بن أحزياهو من مكانه، واستحلفهم فبايعوا له وقتلوا جدته عثليا ومن معها لسبع سنين من ملكها.

وقام يؤاش بملكه في تدبير يهوديادع الكوهن، ثم أراد عبادة الأصنام، فمنعه زكريا النبي فقتله. وكان لعهده من الأنبياء إليسع وعوفريا وزكريا بن يهوديادع. وهلك يهوديادع لثلاث وعشرين سنة من ملك يؤاش بعد أن جدد يؤاش بيت المقدس، ولثمان وثلاثين من ملكه قبض إليسع النبي صلوات اللّه عليه، وعلى

عهده زحف شريال ملك الكسدانيين ببابل إلى بيت المقدس، ويقال ملك نينوى والموصل. وقال ابن العميد: ملك الشام فأعطاهم جميع ما في خزائن الملك وبيت المقدس من الأموال، ودخل في طاعتهم إلى أن قتله وزراؤه وأهل دولته لأربعين سنة من ملكه.وولوا مكانه ابنه أمصياهو، بفتح الهمزة والميم وسكون الصاد المشمة بالزاي بعدها ياء مثناة تحتانية بفتحة تجلب ألفاً ثم هاء مضمومة تجلب واواً، واستبدوا عليه ثم ثار عليهم بأمه وقتلهم أجمعين. وسار إلى أدوم فظفر بهم، وقتل منهم نحواً من عشرين ألفاً، ثم زحف إليه ملك الأسباط بالسامرة ولقيه فهزمه وحصل في أسره.

وسار إلى بيت المقدس فحاصرها، وهدم من سورها نحواً من أربعمائة ذراع، واقتحمها فغنم ما في خزائن بيت السلطان وبيت الهيكل من الأموال والأواني والذخائر ورجع إلى السامرة، فأطلق أمصياهو ملك القدس، فرجع إلى قومه ورّم ما تثلم من سورها. ولم يزل ملكاً حتى نقموا عليه أفعاله فقتلوه لسبع وعشرين سنة من ملكه. وكان لعهده من الأنبياء يونان وناحوم، وتنبأ لعصره عاموص.ولما قتلوا أمصياهو ولوا ابنه عزياهو، بعين مهملة مضمومة وزاي معجمة مكسورة مشددة وياء مثناة تحتانية تجلب ألفاً وهاء تجلب واواً، وطالت مدته ثلاثاً وخمسين سنة، واختلفت فيها أحواله.

قال ابن العميد: ولخمس من ملكه كان ابتداء وضع سني الكبس التي هي سنة بعد أربع تزيد يوماً على الماضية بحساب ربع يوم في كل سنة الذي اقتضاه حساب مسير الشمس عندهم. قال: ولست من ملكه انقرض ملك الأرمانيين من الموصل وصارت إلى بابل، ولاثنتين وعشرين من ملكه غزا ملك بابل واسمه فول مدينة السامرة فاقتحمها، وأعطاه ملكها بدرة من المال فرجع عنه. قال: ولعهده ملك على بابل رينوس ويلقب قطب الملك، ولعهده ملك على اليونانيين ملكهم الأول من مدينة أنقياس لثلاث وعشرين سنة من تملك عزياهو. قال: ولإحدى وخمسين من ملكه ملك ببابل بختنصر الأول. قال: ولعهده أيضاً كان الملك الأول من الروم المقدويس ويسمى فروس. ولعهده كان من الأنبياء يوشع وغوزيا وأموص وأشعيا ويونس بن متى.

قال ابن العميد: وانتهت عساكر عزياهو إلى ثلثمائة ألف، وأصابه البرص بدعاء الكوهن لما أراد أن يخالف التوراة في استعمال البخور وهو محرم على سبط لاوي، فبرص ولزم بيته سنة وصار ابنه يؤام ينظر في أمر الملك إلى أن تغلب على أبيه. قال هروشيوش: وعلى عهده أيضاً قتل شرديال آخر ملوك بابل من الكلدانيين على يد قائده أرباط بن المادس، واستبد بملك بابل وأصاره إلى قومه بعد حروب طويلة، ثم زحف إلى القوط والعرب من قضاعة فحاربهم طويلاً وانصرف عنهم.ثم هلك عزياهو لثلاث وخمسين سنة من ملكه، وملك بعده ابنه يؤاب وكان صالحاً تقياً، وكان لعهده من الأنبياء هوسيع وأشعيا ويوئيل وعوفد. وفي أيامه استبد أغلب ملوك الجزيرة على اليهود وكانوا يعرفون بالسوريانيين. ثم هلك يوآب لست عشرة من ملكه، وملك ابنه أحاز، بهمزة مفتوحة ممالة وحاء مهملة تجلب ألفاً وزاي معجمة، فخالف سنة آبائه، وعبد بنو إسرائيل الأوثان في أيامه، وحارب الأرمن واستجاش عليهم بملك الموصل، فزحف معه وحاصر دمشق وملكها منهم واستباحها، ورجع إلى بلاده. ثم خرج أحآز لحربهم فهزموه وقتلوا من اليهود مائة وعشرين ألفاً ونحوها، وأرجعوا أحآز إلى دمشق أسيراً.

قال هروشيوش: وعلى عهد أحآز كان انقراض ملك الماريس على يد كيرش ملك الفرس، ورجعت أعمالهم إليه ويقال: إن آخر ملوكهم هو أشتانيش، وكان جد كيرش لأمه، وكفله صغيراً فلما شب وملك حارب جده فقتله وانتزع ملكه. وقال ابن العميد عن المسبحي: ولذلك العهد ملك على الروم الفرنجة غير اليونان، الأخوان روملس ورومانس، واختط مدينة رومة. وقال هروشيوش: ولعهده ملك على الروم اللطينيين بأرض أنطاكية روملس، ثم مركة وبنى مدينة رومة.

ثم هلك أحآز لست عشرة من ملكه، وولي ابنه حزقياهو، بحاء مهملة مكسورة وزاي معجمة ساكنة وقاف مكسورة وياء مثناة تحتانية مشددة تجلب ألفاً وهاء مضمومة تجلب واواً، فقطع عبادة الأوثان وسار سيرة جده داود، ولم يكن في ملوك بني يهوذا مثله. وعصى على ملك الموصل وبابل وتوريش وهزم فلسطين وخرب قراهم. وفي أيامه وأيام أبيه سار شليشار ملك الجزيرة والموصل إلى الأسباط بالسامرة فضرب عليهم الجزية، ثم سار في أيامه فأزال ملكهم. ولأربع من ملكه زحف إليه رضين ملك دمشق ورجع عنه من غير قتال. ولأربع عشرة من ملكه زحف إليه سنجاريف ملك الموصل بعد فتح السامرة، فافتتح أكثر مدائن يهوذا وحاصرهم ببيت المقدس. وصانعه حزقياهو بثلثمائة قنطار من الفضة وثلاثين من الذهب أخرج فيها ما كان في الهيكل وبيت الملك من المال ونثر الذهب من أبواب المسجد، دفع ذلك له ورجع عنه. ثم فسد ما بينهما وزحف إليه سنجاريف ثانياً وحاصره وامتنع من قبول مصانعته، وقال: من ذا الذي خلصه إلهه من يدي حتى يخلصكم أنتم إلهكم؟ فخافوا منه وفزعوا إلى النبي

شعياء في الدعاء فأمنهم منه ودعا عليه فوقع الطاعون في عسكره، ثم تواقعوا في بعض الليالي، فبلغ قتلاهم مائة وعشرين ألفاً، ورجع سنجاريف إلى نينوى والموصل، فقتله أبناؤه وهربوا إلى بيت المقدس وملك ابنه السرمعون.

وقال الطبري: إن ملك بني إسرائيل أسر سنجاريف وأوحى اللّه إلى شعياء أن يطلقه فأطلقه. قال: وقيل إن الذي سار إليه سنجاريف من ملوك بني إسرائيل كان أعرج، وأن سنجاريف لعهد ملك أذربيجان، وكان يدعى سليمان الأعسر، فلما نزل بيت المقدس صار بينهما أحقاد كامنة، فتواقعوا وهلك عامة عسكرهما، وصار ما معهما غنيمة لبني إسرائيل، وبعث ملك بابل إلى حزقيا ملك الفرس بالهدايا والتحف، فأعظم موصلها، وبالغ في كرامة الوفد وفخر عليهم بخزانته وطوفهم عليها، فنكر ذلك عليه شعياء النبي وأنذره بأن ملوك بابل يغنمون جميع هذه الخزائن، ويكون من أبنائك خصيان في قصرهم.ثم هلك حزقياهو لتسع وعشرين سنة من ملكه، وولي ابنه منشا، بميم مكسورة ونون مفتوحة وشين معجمة مشددة وألف، وكان عاصياً قبيح السيرة، وكانت آثاره في الدين شنيعة، وأنكر عليه شعيا النبي أفعاله، فقتله نشراً بالمناشير من رأسه إلى مفرق ساقيه، وقتل جماعة من الصالحين معه. وفي تاسعة وثلاثين من ملكه، ملك سنجاريف الصغير مملكته الموصل قاله ابن العميد. وفي الثانية والخمسين بنيت بوزنطية بناها بورس الملك، وهي التي جددها قسطنطين وسماها باسمه. وفي أيامه ملك برومة

قنوقرسوس الملك، وفي الحادية والخمسين من ملكه زحف سنجاريف ملك الموصل إلى القدس فحاصرها ثلاث سنين، وافتتحها في الرابعة والخمسين من ملكه. وولي بعده ابنه أمون، بهمزة قريبة من العين والميم مضمومة تجلب واواً ثم نون، وكانت حاله مثل حال أبيه فملك سنتين، وقيل اثنتي عشرة، ثم اغتاله عبيده فقتلوه.

واجتمع بنو يهوذا فقتلوا أولئك العبيد، وأقاموا ابنه يوشيا مكانه، وضبطه بياء مثناة تحتية مضمومة تجلب واواً بعدها شين معجمة مكسورة ثم ياء مثناة تحتية بفتحة تجلب ألفاً. فلما ملك أحسن السيرة وهدم الأوثان وكان صالح الطريقة مستقيم الدين، وقتل كهنة الأصنام وهدم البيوت والمذابح التي بناها يربعام بن نباط بالبرابرة. وكان في أيامه من الأنبياء صفونا وكلدي امرأة شالوم وناحوم. وتنبأ لعهده أرميا بن الحيا من نسل هارون، وأخبرهم بالجلاء إلى بابل سبعين سنة، فأخذ يوشيا قبة القربان وتابوت العهد وأطبق عليهما في مغارة فلم يعرف مكانهما من بعد ذلك.

وفي أيامه ملك المجوس بابل. ولإحدى وثلاثين من دولته ملك فرعون الأعرج مصر وزحف لقتال مسبح بالفرات، فخرج يوشيا لحربه وانهزم يوشيا فهلك بسهم أصابه لاثنتين وثلاثين من دولته.وولي بعده ابنه يوآش، ويقال اسمه يهوياحاز فعطل أحكام التوراة، وأساء السيرة، فزحف إليه فرعون الأعرج، وأخذه ورجع به إلى مصر فمات هنالك. وضرب على أرضهم الخراج مائة قنطار فضة وعشرة ذهباً، وكانت ولايته ثلاثة أشهر. وولوا مكانه أخاه ألياقيم بن يوشيا، بهمزة مفتوحة ولام ساكنة وياء مثناة تحتانية يجلب فتحها ألفا وقاف مكسورة تجلب ياء ثم ميم، وكان عاصياً كافراً، وكان يأخذ الخراج لفرعون من بني يهوذا على قدر أحوالهم.

ثم زحف إليه بختنصر ملك بابل لسبع من ولاية ألياقيم فملك الجزيرة وسار إلى بيت المقدس فضرب عليهم الجزية أولاً، ودخل ألياقيم في طاعته ثلاثة سنين، وسلط اللّه عليه أدوم (وعمون) ومؤاب والكلدانيين، ثم انتقض عليه فسرح الجيوش إليه، فقبضوا عليه واحتملوه إلى بابل، فهلك في طريقه لإحدى عشرة سنة من ملكه. وولى بختنصر مكانه ابنه يخنيو، بفتح الياء المثناة التحتانية بعدها خاء معجمة مضمومة ثم نون ساكنة وبعدها ياء تحتانية تجلب ضمتها واواً، فأقام ثلاثة أشهر، ثم زحف إليه وحاصره، وأخرج إليه أمه وأشراف مملكته فأشخصهم إلى بلده. وجمع أهله ورجال دولته وسائر بني إسرائيل نحواً من عشرة آلاف، واحتملهم أسارى إلى بابل. وغنم جميع ما كان في الهيكل والخزائن من الأموال وجميع الأواني التي صنعها سليمان للمسجد، ولم يترك بمدينة القدس إلا الفقراء والضعفاء وبقي يخنيو ملك بني إسرائيل محبوساً سبعاً وثلاثين سنة.وقال ابن العميد: إن بختنصر سار إلى القدس في الثالثة من مملكة ألياقيم، وسبى طائفة منها، وانتهب جميع ما في بيت الهيكل. وكان في سنة دانيا وخانيا وعزاريا وميصائل. وإن في السنة الخامسة من ملكه قاتل بختنصر فرعون الأعرج ملك مصر، وفي الثانية من ملك ألياقيم غزا بختنصر القدس ووضع عليهم الخراج وأبقى ألياقيم في ملكه وهلك لثلاث سنين بعد ذلك وملك ابنه يخنيو. وكان لعهده من الأنبياء إرميا وأوريا بن شعيا وموري والد حزقيا. وفي أيامه تنبأ دانيال، ثم سار بختنصر ليخنيو فأشخصه إلى بابل كما مر.

وقال الطبري ووافقه نقل هروشيوش: إن بختنصر ولى مكان يخنيو بن ألياقيم عمه متنيا، بميم مفتوحة وتاء مثناة فوقانية مفتوحة مشددة ونون ساكنة وياء مثناة تحتانية تجلب ألفاً، ويسمى صدقياهو، وكان عاصياً قبيح السيرة، ولتسع سنين من ولايته

انتقض على بختنصر، فزحف إليه في العساكر وحاصر بيت المقدس وبنى عليها المدر للحصار، وأقام ثلاث سنين واشتد الحصار بهم، فخرجوا هاربين منها إلى الصحراء واتبعتهم العساكر من الكلدانيين وأدركوهم في أريحا، فقبض على ملكهم صدقياهو وأتى به أسيراً فسمل عينيه. وقال الطبري: وذبح ولده بمرأى منه، ثم اعتقله ببابل إلى أن مات. ولحق بعض من بني إسرائيل بالحجاز فأقاموا مع العرب، وكان لعهده من الأنبياء إرميا وحبقون وباروح. وبعث بختنصر قائده نبوزراذون، بنون مفتوحة وباء موحدة مضمومة تجلب واواً بعدها زاي وراء مفتوحة تجلب ألفاً وذال مضمومة تجلب واواً بعدها نون، بعثه إلى مدينة القدس، وكانوا يدعونها مدينة أورشليم، فخربها وخرب الهيكل وكسر عمد الصفر التي نصبها سليمان في المسجد طول كل عمود منها ثمانية عشر ذراعاً وطول رؤوسها ثلاثة أذرع، وكسر صرح الزجاج وسائر ما كان بها من آثار الدين والملك، واحتمل بقية الأواني وما كان وجده من المتاع، وسبى الكوهن سارية والحبر منشا وخدمة الهيكل إلى بابل.

قال هروشيوش: وأبقى صدقياهو محبوساً ببابل إلى أن أطلقه بزداق قائد بهمن ملك الفرس حين غلبوا على بابل فأطلقه ووصله وأقطعه.وقال مؤرخ حماة ووافقه المسعودي: إن بختنصر بعد تخريب القدس هرب منه بعض ملوك بني إسرائيل إلى مصر وبها فرعون الأعرج، وطلبه بختنصر فأجاره فرعون وسار إليه بختنصر فقتله وملك مصر. وافتتح من المغرب مدائن وبث فيها دعاته، وكان إرميا نبي بني إسرائيل من سبط لاوي، ويقال اسمه إرمياء بن خلقيا، وكان على عهده صدقياهو ووجده بختنصر في محبسهم فأطلقه واحتمله معه في السبي إلى بابل، وقيل: إنه مات في محبسه ولم يدركه بختنصر. وكذلك احتمل معهم دانيال بن حزقيل من أنبيائهم.

وقال ابن العميد: وولي جدليا بن أحان على من بقي من ضعفاء اليهود بالقدس، ولسبعة أشهر من ولايته قام إسماعيل بن متنيا بن إسماعيل من بيت الملك فقتل جدليا واليهود والكلدانيين الذي معهم، ثم هرب إلى مصر وهرب معه إرميا، وهرب حبقون إلى الحجاز فمات وكان قيماً ولحقهم بمصر. وتنبأ إرميا في مصر وبابل وأورشليم وصور وصيدا وعمون ثمانية وثلاثين سنة، ورجمه أهل الحجاز فمات. وكان فيما أخبرهم به مسير بختنصر إلى مصر وتخريبه هياكلها وقتله أهلها. ولما دخل بختنصر مصر نقل جسده إلى الإسكندرية ودفنه بها، وقيل دفن بالقدس لوصيته. وأما حزقياهو فقتله اليهود في السبي.

قال الطبري: وافترقت جالية بني إسرائيل في نواحي العراق إلى أن ردهم ملوك الفرس إلى القدس فعمروه وبنو مسجده. وكان لهم فيه ملك في دولتين متصلتين إلى أن وقع بهم الخراب الثاني والجلوة الكبرى على يد طيطش من ملوك القياصرة كما نذكر بعد.ولنذكر هنا ما وقع من الخلاف في نسب بختنصر هذا، وإلى من يرجع من الأمم، فقد ذهب قوم إلى أنه من عقب سنجاريف ملك الموصل الذي كان يقاتل بني إسرائيل والسامرة بالقدس.

قال هشام بن محمد الكلبي فيما نقل الطبري: هو بختنصر بن نبوزراذون بن سنجاريف، ثم نسب سنجاريف إلى نمروذ بن كوش بن حام الذي وقع ذكره في التوراة في ولد كوش وعد بين سنجاريف والنمروذ ستة عشر أباً أو نحوها أولهم داريوش بن فالغ وعصا بن نمروذ، أسماء غير مضبوطة يغلب على الظن تصحيفها لعدم دراية الأصول وقلة الوثوق بضبطها. وقيل إن بختنصر من نسل أشوذ بن سام، ولم يقع إلينا رفع هذا النسب ولعله أصح من الأول لأنه قد تقدم نسب سنجاريف في الجرامقة ثم في الموصل منهم وهم من ولد أشوذ باتفاق من أهل فارس، نقله أيضاً الطبري عن ابن الكلبي، وأن اسمه بختمرسه فسمي بختنصر، وكان يملك ما بين الأهواز والروم من غربي دجلة أيام هراسب ويستاسب وبهمن من ملوك الفرس.

وأنه افتتح ما يليه من بلاد بابل والشام ثم سار إلى القدس فافتتحها كما تقدم، وقيل إن بهمن بعث رسله إلى القدس في طلب الطاعة منهم فقتلوه، فبعث بهمن أصبهبذاً للناحية القريبة من مملكته، وبعث معه داريوس من ملوك مارى بن نابت، وكيرش بن كيكوس من ملوك بني غليم بن سام، وأحشوارش بن كيرش بن جاماهن من قرابته. وسار معهم بختنصر بن نبوزراذون بن سنجاريف صاحب الموصل الذي لقومه البراآت في أهل المقدس فكان ما وقع من الفتح. وقيل كان بختنصر صاحب الموصل في مقدمتهم وكان الفتح على يده.وأما بنو إسرائيل فيزعمون أن بختنصر من الكلدانيين، وهم ولد ناحور بن آزر أبي إبراهيم عليه السلام، وكان لهم الملك ببابل وكان بختنصر هذا من أعقابهم، وكان مدة دولته خمساً وأربعين سنة، وكان فتحة المقدس لثمانية عشر من دولته. وملك بعده أويل مروماخ ثلاثاً وعشرين سنة، ثم بعده ابنه فيلسنصر بن أويل ثلاث سنين، ثم غلب عليهم كوروش وأزال ملكهم، وهو الذي رد بني إسرائيل إلى بيت المقدس فعمروه وجددوا به ملكاً كما نذكره.وقد اختلف في كيرش الذي رد بني إسرائيل إلى القدس من هو بعد اتفاقهم على أنه من الفرس، فقيل: هو يستاسب ولم يكن ملكاً وإنما كان مملكاً على

خوزستان وأعمالها من قبل كيقوس وبنجسون بن سياوش ولهراسب من بعدهما، وكان عظيم الشأن ولم يكن ملكاً. وقيل: إن كيرش هو ابن أحشوارش بن جاماسب بن لهراسب، وأبوه أحشوارش هذا الذي بعثه بهمن. ولما رجع من ذلك الفتح بعثه إلى ناحية الهند والسند وانصرف إلى حصن الأبر فولاه بابل وتزوج من سبي بني إسرائيل ابنة أبي حاويل الرحا وأخت مردخاي من الرضاع، وهو من أنبياء بني إسرائيل. فتزعم النصارى أنها ولدت عند حيراحوارس إلى بابل ابنه كيرش هذا فحضنه مردخاي ولقنه دين اليهودية، ولزم سائر أنبيائهم مثل متنيا وعازريا وميشائل وعزيز. وولي دانيال أحكام دولته، وجعل إليه أمره وأذن له أن يخرج ما في الخزائن من السبي والذخائر والآنية ويرده إلى مكانه ويقوم في بناء القدس فعمره. وراجعه بنو إسرائيل وسأله هؤلاء الأنبياء أن يرجعوا إلى بيت المقدس فمنعهم اغتباطاً بمكانهم.وقيل: إن كيرش هو كيرش بن كيكو بن غليم بن سام، وهو الذي كنا قدمنا أن بهمن بعثه مع قائده بختنصر إلى فتح بيت المقدس، وأن بختمرس ملكه بهمن على بابل، وكان يسمى بختمرسي كما ذكرنا، فملكها وملك ابنه من بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ثم ابنه بلتنصر سنة واحدة، ثم بلغ بهمن سوء سيرته فعزله وولى على بابل داريوش الماذة بن ماداي، ثم عزله وولى كيرش بن كيكو، وكتب إليه بهمن بأن يرفق ببني إسرائيل ويحسن ملكتهم، وأن يردهم إلى أرضهم ويولي عليهم من يختارونه، ففعل، فاختاروا دانيال من أنبيائهم فولاه. وقيل: وهو لعلماء بني إسرائيل أن بلتنصر حافد بختنصر وهو ملك بابل والكلدانيين، وأن دارا ويسمى داريوش ملك مازي، وكورش وهو كيرش ملك فارس، كان في طاعته فانتقضا عليه وخرج إليهم في العساكر فانهزم أولاً، ثم بعث عساكره وقواده إليهم فهزمهم ثم قتله خادمه على فراشه. ولحق بداريوش وكورش وزحفا إلى بابل فغلبا الكلدانيين عليها، واختص دارا وقومه مادي وأظنهم الديلم ببابل ونواحيها. واختص كورش وقومه فارس بسائر الأعمال والكور، وكان كورش نذر ببناء بيت المقدس وإطلاق الجالية ورد الآنية، ثم هلك دارا وانفرد كورش بالملك على فارس ومادي ووفى بنذره هذا محصل الخلاف في بختنصر وكيرش والله أعلم.

الخبر عن دولة الأسباط العشرة وملوكهم إلى حين انقراض أمرهم

قد تقدم لنا في دولة سليمان عليه السلام أن يربعام بن نباط من سبط أفرايم كان والياً لسليمان على جميع نواحي يورشيلم وهي بيت المقدس، وقيل إنما كان والياً على عمل بني يوسف بنابلس وما إليها، وكان جباراً وأن سليمان عوتب على ولايته من الله وانتقض ولحق بمصر، فلما قبض سليمان وولي ابنه رحبعم واختلف عليه بنو إسرائيل بما بلوا من سوء ملكته والزيادة في الضرائب عليهم، واجتمع الأسباط العشرة ما عدا يهوذا وبنيامين فاستقدموا يربعام بن نباط من مصر فبايعوا له وولوه الملك عليهم، وحاربوا رحبعم ومن في طاعته وهم سبط يهوذا وبنيامين، فامتنعوا عليهم بمدينة يروشليم، ثم انحازوا إلى جهة فلسطين في عمل بني يوسف. ونزل يربعم مدينة نابلس بملك الأسباط العشرة ومنعهم من الدخول إلى بيت المقدس والقربان فيه، وكان عاصياً مسخوط السيرة.

ولم يزل الحرب بينه وبين رحبعم بن سليمان وابنه أبيا من بعده واثنين من ملك أسا بن أبيا، وكان أبيا ظاهراً عليه في حروبه، ثم هلك يربعام بن نباط لسنتين من ملك أبيا ولثلاث وعشرين من ملكه، فولي مكانه على الأسباط يوناداب وكان على مثل سيرة أبيه من الجور وعبادة الأصنام، فسلط الله عليه بعشا بن أحيا فقتله وجميع أهل بيته لسنتين من ملكه. وقام بملك الأسباط فلم يزل يحارب أسا بن أبيا وأهل القدس سائر أيامه. وكان أسا يستمد عليه بملك دمشق من الأرمن. وسار معه إليه مرة، وكان أعشا بن أحيا نبي يثرب، فأجفل أمامهم وترك الآلات فأخذها أسا وبنى بها الحصون وهلك أعشا بن أحيا لأربع وعشرين سنة من ملكه ودفن في برصا مدينة ملكهم بعد أن أنذره بالهلاك نبيهم فاهو.

ولما هلك ولي بعده ابنه إيليا، ويقال إيلهوا في السادسة والعشرين من ملك أسا فأقام سنين ثم بعث عساكر بني إسرائيل إلى محاصرة بعض المدن بفلسطين، فوثب عليه سبط من الأسباط من عقب كان يعرف زمري صاحب المراكب، ويقال ابن إليافا، فقتله وجميع أهل بيته وقام بالملك ومكث أياماً يسيرة خلال ما بلغ الخبر لبني إسرائيل بمكانهم من حصار فلسطين، فلم يرضوه وملكوا عليهم صي بن كسات من سبطه ورجعوا إلى زمري المتوثب على الملك فحاصروه، فلما أحيط به دخل مجلس الملك وأوقد ناراً لتحرقه فاحترق فيه لسبعة أيام من فورتهم.

وكان عمري بن ناداب من سبط أفرايم ويلقب صاحب الحربة يرادف صي في الملك فقتله واستبد، وذلك في الحادية والثلاثين من ملك أسا. ثم اختلف عليه بنو إسرائيل ونصب بعضهم بنيامين فنال من سبك يساخر، وحاربهم عمري فغلبهم. وكان ينزل مدينة برصا، ولست سنين من ملكه اختط مدينة

السامرية ابتاع لها جبل شمران من رجل اسمه سامر بقنطار فضة، وبنى فيه قصوره وسميت سبسطية، ثم غلبت عليها النسبة إلى البائع. ويقال أن الاسم كان شومرون فعرب سامرة وأهملت شينها المثلثة، وكانت هذه المدينة مدينة ملكهم إلى انقراض أمرهم.

ثم هلك عمري لاثنتي عشرة سنة من ولايته ودفن في نابلس، وقام بملك الأسباط من بعده ابنه أحاب، وكان على مذهبه ومذهب سلفه منهم من الكفر والعصيان، وتزوج بنت ملك صيدا، وبنى هيكلاً بسامرة وجعل فيه صنماً يسجد له وأفحش في قتل الأنبياء، وبنى قرية أريحاء ودعا عليه إيليا النبي فقحطوا ثلاث سنين خرج فيها إيليا إلى البرية فسكنها، ثم رجع فدعا وأنزل اللّه المطر وذبح الذين حملوا أحاب على عبادة الأصنام هكذا قال ابن العميد. والذي قاله الطبري: إن هذا النبي الذي دعا عليهم هو الياس بن سين، وقيل ابن ياسين من نسل فنحاص بن العازار. وكان بعث إلى أهل بعلبك وإلى أحاب وقومه.

وقال الطبري: فكذبوه فأصابهم القحط ثلاثاً، ففزعوا إليه في الدعاء وباهلهم في أصنامهم فلم تغن شيئاً، فدعا لهم فمطروا، ثم أنهم أقاموا على ما كانوا عليه من الكفر والعصيان. وكان أحاب شديداً ودعا عليه إلياس ثم طلب من اللّه أن يتوفاه بعد أن أنذر الناس بهلاكه وهلاك قومه بل عقبه. وتنبأ بعده إليسع بن أخطوب من سبط أفرايم، وقيل ابن عم الياس. وقال ابن عساكر: اسمه أسباط بن عدي بن شوليم بن أفرائيم.

قال الطبري: كان مستخفياً مع الياس بجبل قاسيون من ملك بعلبك، ثم خلفه في قريته، انتهى كلام الطبري.وقال ابن العميد: في أيام أحاب أوحى اللّه إلى إيليا أن يبارك على الياس بن بعسا ففعل ذلك، وأن يبارك على أدوم بدمشق، وعلى ياهو ملكاً على بني إسرائيل ففعل ذلك. وهو أيضا على عهد أحاب فجاء سنداب ملك سورية فحاصر أحاب بن عمري والأسباط العشرة في السامرة، وخرجوا إليه فهزموه واستلحموا عامة عسكره، ثم رجع إليهم من العام القابل فخرجوا إليه وهزموه ثانياً وقتلوا من عسكره نحواً من مائة ألف، ومروا في أتباعهم، وامتنع سنداب في بعض حصونه وأحاطوا به فخرج إليهم ملقياً بنفسه على ملكهم أحاب، فعفا عنه ورده إلى ملكه، وسخط ذلك النبي من فعله وأنذره بعذاب يصيب ولده عقوبة من اللّه تعالى على إبقائه عليهم. ثم خرج أحاب من ملك الأسباط مع يهوشافاط ملك يهوذا المقدس لمحاربة ملك سورية، فأصابه سهم هلك فيه ودفن بسامرة لاثنتين وعشرين سنة من ملكه. قال ابن العميد: وقيل لثمان عشرة. وقال إنما خرج لحرب كلعاد ملك أدوم فانهزم

وقتل.ولما هلك ملك من بعده ابنه أحزيا ويقال أمشيا وكان عاصياً سيء السيرة قتل عاموص النبي وعبد بعلا الصنم وهلك لسنتين، فملك أخوه يوآم وقيل أنه لتسع عشرة من ملك يهوشافاط ملك الفرس، فملك يوآم على الأسباط اثنتي عشرة سنة زحف فيها أولاً إلى موآب لما منعوه الجزية التي كانت عليهم للأسباط مائتين من الغنم في كل سنة، واستنجد ملك يهوذا لحربهم فحاصرهم سبعة أيام وفقدوا الماء، فاستسقى لهم أليسع وجرى الوادي وخرج أهل مؤاب يظنونه دماً، فقتلهم بنو إسرائيل. وجمع هداد ملك أدوم لحصار سامرة ونازلها ثلاث سنين، ثم دعا عليهم إليسع فأجفلوا ورجعوا إلى بلادهم.

وفي الثانية عشر من ملك يوآم ملك الأسباط ثار عليه يهوشافاط بن يشا من سبط منشا بن يوسف، وذلك عند منصرفه من محاربة ملوك الجزيرة وأدوم مع أحزيا بن يهورام ملك القدس، وكان جريحاً فعاده أحزيا وكان هذا الفتى ياهو يترصد قتل يوآم فأمكنه الفرصة فيه تلك الساعة فقتله، وقتل معه أحزيا ملك القدس وبني يهوذا وملك على الأسباط.وقال ابن العميد: خرج يؤام بن أحآب ملك الأسباط لحرب أدوم ومعه أحزيا ملك القدس فقتلا جميعاً في تلك الحرب.

وقيل: إن ياهو بن منشا رمى بسهم فأصاب يؤام بن أحآب فمات. ولما ملك ياهو على الأسباط قتل بني أحآب كلهم كما أمره إليسع، وهلك لخمس وثلاثين من ملكه، وولي ابنه يوآص، وقيل: يهوذا، ولثمان وعشرين من دولة يوآص بن أحزيا ملك يهوذا القدس وكان قبيح السيرة عباداً للأصنام وعمل مذبحاً بسامرة وهلك لسبع عشرة من ملكه، وولي بعده ابنه يوآش لسبع وثلاثين من دولة يوآص بالقدس وزحف إلى القدس فملكها من يد أمصيا ملك يهوذا، وهدم من سورها أربعمائة ذراع، وسبى أهل المقدس وسبى أهل عزريا الكوهن، وأخذ جميع ما في المسجد ورجع إلى سامرة. ومرض إليسع فعاده يوآش فوعده بأنه يهلك أدوم ويظفر بهم ثلاث مرات، فكان كذلك وهلك لثلاث عشرة سنة من ملكه. وولي من بعده ابنه يربعام وكان سيء السيرة وزحف إلى أمصيا ملك يهوذا.

وقيل: إن الذي زحف إلى أمصيا إنما هو يؤاش أبوه، فهزمه وأخذه أسيراً وسار به إلى القدس فاقتحمها عنوة وغنم جميع ما في خزانتها وسبى بني عزريا الكوهن. ورجع إلى السامرة فأطلق أمصيا، ثم لإحدى وأربعين سنة من ملكه، ولسبع وعشرين من ملك عزيا هو بن أمصيا ملك القدس.قال ابن العميد: وبقي بنو إسرائيل بالسامرة فوضى إحدى عشرة سنة، ثم ملّكوا ابنه زكريا

في الثامنة والثلاثين من ملك عزياهو فملك ستة أشهر، وقال ابن العميد: شهراً، ثم وثب به مناخيم بن كاد من سبط زبلون من أهل برصا فقتله، وملك مكانه اثنتي عشرة سنة. وقال ابن العميد: عشر سنين. قال وفي التاسعة والثلاثين من ملك عزياهو خرج إلى مدينة برصا ففتحها عنوة واستباحها، وزحف إليه فول ملك الموصل فصانعه بألف قنطار من الفضة ورجع عنه، وكانت سيرته رديئة، ولما هلك مناخيم ملك ابنه بقحيا لأربعين من دولة عزيا ملك القدس فأقام فيهم اثنتي عشرة سنة، وقال ابن العميد: سنتين.

ثم ثار عليه من عماله باقح بن رسليا وكان على طريقة من تقدمه في الضلال فأقام ملكاً على الأسباط بالسامرة عشر سنين، وهلك لدولته عزيا بن أمصيا ملك يهوذا بالقدس، وأقام باقح بن رسليا على سوء السيرة وعبادة الأصنام إلى أن قتله هويشيع بن إيليا من سبط جاد في الثالثة من ملك يؤاب ملك القدس، وبقي الأسباط بعده فوضى عشر سنين، ثم ملكوا قاتله هويشيع بن إيليا المذكور، فأقام مملكا عليهم سبع سنين وفي أيامه زحف إليه ملك أثور والموصل فصير الأسباط في دولته وأدوا إليه الخراج، ثم إن هويشيع راسل ملك مصر في الاستعانة به والرجوع إلى طاعته، فلما بلغ ذلك إلى ملك الموصل زحف إليه وحاصره في مدينة السامرة ثلاث سنين واقتحمها في الرابعة.

وتقبض على هويشيع لتسع سنين من ملكه ونقله مع الأسباط كلهم إلى الموصل، ثم بعثهم إلى قرى أصبهان وأنزلهم بها، وقطع ملك بني إسرائيل من السامرة وبقي ملك يهوذا وبنيامين بالقدس، وكان ذلك لعهد أحزيا بن أحاز من ملوكهم لسنة من دولته، وتعاقبت ملوكهم بعد ذلك بالقدس إلى أن انقرضوا، وجمع ملك الموصل من كوره غاراً وحماة وصفرارام، ويقال: ومركتا وأسكنهم بالسامرة. قال ابن العميد: وتفسيرها حفيظة ويوآطر. قالوا: وسلط الله عليهم السباع يفترسونهم فبعثوا إلى ملك الموصل أن يعرفهم بصاحب قسمة السامرية من الكواكب ليتوجهوا إليه بما يناسبه على طريقة الصابئة، فقيل: إن العشرية التي رسخت فيها وهي دين اليهودية تمنع من ذلك ومن ظهور أثره. فبعث إليهم كوهنين من عامة اليهود يلعمانهم اليهودية فتلقوها عنهما، فهذا أصل السامرة في فرق اليهود وليسوا منهم عند أهل ملتهم لا في نسبهم ولا في دينهم، والله مالك الأمور لا رب غيره ولا معبود سواه سبحانه وتعالى.

الخبر عن عمارة بيت المقدس بعد الخراب الأول وما كان لبني اسرائيل فيها من الملك في الدولتين لبني حشمناي وبني هيرودوس إلى حين الخراب الثاني والجلوة الكبرى

هذه الأخبار التي كانت لليهود ببيت المقدس والملك الذي لهم في العمارة بعد جلاء بختنصر وأمر الدولتين اللتين كانتا لهم في تلك المدة، لم يكتب فيها أحد من الأئمة ولا وقفت في كتب التواريخ مع كثرتها واتساعها على ما يلم بشيء من ذلك. ووقع بيدي وأنا بمصر تأليف لبعض علماء بني إسرائيل من أهل ذلك العصر في أخبار البيت والدولتين اللتين كانتا بها ما بين خراب بختنصر الأول وخراب طيطس الثاني الذي كانت عنده الجلوة الكبرى، استوفى فيها أخبار تلك المدة بزعمه، ومؤلف الكتاب يسمى يوسف بن كريون وزعم أنه كان من عظماء اليهود وقوادهم عند زحف الروم إليهم، وأنه على صولة فحاصره أسبيانوس أبو طيطس واقتحمها عليه عنوة، وفر يوسف إلى بعض الشعاب وكمن فيها ثم حصل في قبضته بعد ذلك، واستبقاه ومن عليه وبقي في جملته. وكانت له تلك وسيلة إلى ابنه طيطش عندما أجلى بني اسرائيل عن البيت فتركه بها للعبادة كما يأتي في أخباره. هذا هو التعريف بالمؤلف.

وأما الكتاب فاستوعب فيه أخبار البيت واليهود بتلك المدة وأخبار الدولتين اللتين كانت بها لبني حشمناي وبني هيردوس من اليهود، وما حدث في ذلك من الأحداث فلخصتها هنا كما وجدتهما فيه لأني لم أقف على شيء فيها لسواه، والقوم أعلم بأخبارهم إذا لم يعارضها ما يقدم عليها. وكما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب». فقد قال «ولا تكذبوهم». مع أن ذلك إنما هو راجع إلى أخبار اليهود وقصص الأنبياء التي كان فيها التنزيل من عند الله لقوله بعد ذلك: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. وأما الخبر عن الواقعات المستندة إلى الحسن فخبر الواحد كاف فيه إذا غلب على الظن صحته، فينبغي أن نلحق هذه الأخبار بما تقدم من أخبارهم لتكمل لنا أحوالهم من أول أمرهم إلى آخره والله أعلم. ولم ألتزم صدقه من كذبه والله المستعان.

قال الطبري وغيره من الأئمة: كان يرميا ويقال: أرميا بن خلقيا من أنبياء بني اسرائيل ومن سبط لاوى وكان لعهد صدقيا هو آخر ملوك بني يهوذا ببيت المقدس، ولما توغلوا في الكفر والعصيان أنذرهم بالهلاك على يد بختنصر وسأله عنه وأطلقه

واحتمله معه في السبي، وكان فيما يقوله أرميا إنهم يرجعون إلى بيت المقدس بعد سبعين سنة يملك فيها بختنصر وابنه وابن ابنه ويهلكون وإذا فرغت مملكة الكلدانيين بعد السبعين يفتقدكم. يخاطب بذلك بني إسرائيل في نص آخر له عند كمال سبعين لخراب المقدس. وكان شعيا بن أمصيا من أنبيائهم أخبرهم بأنهم يرجعون إلى بيت المقدس على يد كورش من ملوك الفرس، ولم يكن وجد لذلك العهد، فلما استولى كورش على بابل وأزال مملكة الكلدانيين أذن لبني إسرائيل في الرجوع إلى بيت المقدس وعمارة مسجدها، ونادى في الناس أن اللّه أوصاني أن أبني بيتاً فمن كان لله وسعيه لله فليمض إلى بنائه. فمضى بنو اسرائيل في اثنين وأربعين ألفاً وعليهم زيربافيل - بالفاء الهوائية - بن شالتهيل بن يوخنيا آخر ملوكهم بالقدس الذي حبسه بختنصر وقد مر ذكره. وقد مضى معهم عزير من عقب أشيوع بن فنحاص ابن ألعازر بن هارون وبينه وبين أشيوع ستة آباء. لم أثق بنقلها لغلبة الظن بأنها مصحفة، ورد عليهم كورش الأواني وكانت لا يعبر عنها من الكثرة.

قال ابن العميد: كانت خمسة آلاف وأبعمائة قصعة ذهباً وفضة. فمضوا إلى بيت المقدس وشرعوا في العمارة وشرع كورش وسعى عليهم في إبطال ذلك بعض أعدائهم من السامرة، ولم يكن أمد السبعين التي وعدهم بها انقضى، لأن الخراب كان لثمان عشرة من ملك بختنصر وكانت دولته خمسة وأربعين ومدة ابنه وابنه خمس وعشرون، فبقيت من السبعين ثمانية عشر التي نفذت من ملك بختنصر قبل الخراب، فمنعوا من العمارة بسعاية السامرية إلى أن انقضت الثمان عشرة. وجاءت دولة دارا من ملوك الفرس فأذن لهم في العمارة وعاد السامرة لسعايتهم في إبطال ذلك عند دارا، فأخبره أهل دولته أن كورش أذن لهم في ذلك فخلى سبيلهم وعمروا بيت المقدس في الثانية من ملك دارا الأول، وهو أرفخشد والكوهن يومئذ عزير، وجدد لهم التوراة بعد سنتين من رجوعهم إلى البيت. ثم هلك زيربافيل وخلفه فيهم بهشمياس، وقبض العَزير وخلفه شمعون الصفا من بني هارون أيضاً.

وقال يوسف بن كريون: إن بختنصر لما رجع إلى بابل أقام ملكا سبعاً وعشرين سنة، وملك بعده ابنه بلتنصر ثلاث سنين، وانتقض عليه داريوش ملك ماذي، وأظنهم الديلم وكيرش ملك فارس، وهزمتهم عساكره كما مر، فعمل في بعض أيامه صنيعاً لقواده سروراً بالواقع، وسقاهم في أواني بيت المقدس التي احتملها جده من الهيكل، فسخط اللّه لذلك ورأى تلك الساعة كأن يداً خرجت من الحائط تومي بكتابة كلمات بالخط الكلداني والكلمات عبرانية، وهي أحصى وزن نفذ، فارتع لذلك هو والحاضرون وفزع إلى دانيال النبي في تفسيرها.

قال وهب بن منبه وهو من أعقاب حزقيل الأصغر وكان خلفاً من دانيال الأكبر، فقال له دانيال: هذا الكلمات تنذر بزوال ملكك ومعناها أن اللّه أحصى مدة ملكك، ووزن أعمالك، ونفذ قضاؤه بزوال ملكك عنك وعن قومك. وقتل تلك الليلة بلتنصر، وكان ما قدمناه من استقلال كورش وقومه فارس بالملك ورد الجالية إلى بيت المقدس، وأطلق لهم المال لعمارتها شكراً على الظفر بالكلدانيين ومضى بنو اسرائيل ومعهم عزرا الكاهن ونحميا ومردخاي وجميع رؤساء الجالية يبنون البيت والمذبح على حدودها وقربوا القرابين. وكان كورش بعد ذلك يطلق لهم في كل سنة من الحنطة والزيت والبقر والغنم والخمر ما يحتاجون إليه في خدمة البيت ويطلق لهم جراية واسعة.

وجرى ملوك الفرس بعده على سنته في ذلك إلا قليلاً في أيام أخشويروش منهم، كان وزيره هامان وكان من العمالقة، وكان طالوت قد استخلفهم بأمر اللّه، فكان هامان يعاديهم لذلك وعظمت سعايته فيهم وحمله على قتلهم. وكان مردخاي من رؤسائهم قد زوج أخته من الرضاع لأخشويروش، فدس إليها مردخاي أن تشفع إلى الملك في قومها فقبلها وعطف عليهم وأعادهم إلى أن انقرضت دولة الفرس بمهلك دارا، واستولى بنو يونان بمهلك دارا على ملك فارس.

وملك الإسكندر بن فيلفوس ودوخ الأرض، وفتح سواحل الشام، وسار إلى بيت المقدس لأنها من طاعة دارا، وخاف الكهنة من وصوله إليهم، ورأى في بعض تمثال رجلاً فقال: أنا رجل أرسلت لمعونتك. ونهاه عن أذية المقدس، وأوصاه بامتثال إشارتهم. فلما وصل إلى البيت لقيه الكوهن، فبالغ في تعظيمه ودخل معه إلى الهيكل، وبارك عليه، ورغب إليه الإسكندر أن يضع هنالك تمثاله من الذهب ليذكر به، فقال هذا حرام لكن تصرف همتك في مصالح الكهنة والمصلين ويجعل لك من الذكر دعاؤهم لك، وأن يسمى كل مولود لبني إسرائيل في هذه السنة بالإسكندر، فرضي الإسكندر وحمل لهم المال وأجزل عطية الكوهن، وسأله أن يستخير اللّه في حرب دارا، فقال له: امض واللّه مظفرك. وحض دانيال وقص عليه الإسكندر رؤيا رآها فأولها له بأنه يظفر بدارا.

ثم انصرف الإسكندر وسار في نواحي بيت المقدس، ومر بنابلس ولقيه سنبلاط السامري، وكان أهل المقدس أخرجوه عنهم، فأضافه وأهدى له أموالاً وأمتعة واستأذنه في بناء هيكل في

طول بريد فأذن له، فبناه وأقام صهره منشا كوهنا فيه، وزعم أنه المراد بقوله في التوراة اجعل البركة على جبل كريدم. فقصده اليهود في الأعياد، وحملوا إليه القرابين وعظم أمره، وغص بشأنه أهل بيت المقدس، إلى أن خربه هرمايوس بن شمعون أول ملوك بني حشمناي كما يأتي ذكره.

ثم هلك الإسكندر ببابل بعد استيفاء مدته لاثنتين وثلاثين من ملكه وقد كان قسم ملكه بين عظماء دولته، فكان سلياقوس بعد الإسكندر وكان عظيم أصحابه، فأكرم اليهود وحمل المال إلى فقراء البيت، ثم سعى عنده بأن في الهيكل أموالاً وذخائر نفيسة ورغبوه في ذلك، فبعث عظيماً من قواده اسمه أردوس ليقبض ذلك المال فحضر بالبيت، وأنكر الكاهن حنينان أن يكون بالبيت إلا بقية الصدقات من فارس ويونان وما أعطاهم سلياقوس آنفا، فلم يقبل، ووكل بهم في الهيكل فتوجهوا بالدعاء. وجاء أردوس ليقبض المال فصدع في طريقه، وجاء أصحابه إلى الكوهن حنينا وجماعة الكهنة يسألون الإقالة والدعاء لأردوس، فدعوا له وعوفي وارتحل وازداد الملك سلياقوس إعظاماً للبيت وحمل ما كان يحمل إليهم مضاعفاً.

قال ابن كريون: ثم ترجمت التوراة لليونانيين وكان من خبرها أن تلماي ملك مصر من اليونانيين بعد الإسكندر، وكان من أهل مقدونية، وكان محباً للعلوم ومشغوفاً بالحكمة والكتب الإلهية. وذكرت له كتب اليهود الأربعة والعشرون سفراً فتاقت نفسه للوقوف عليها، وكتب إلى كهنون القدس في ذلك وأهدى له، فاختار سبعين من أحبار اليهود وعلمائهم، وفيهم كوهن عظيم اسمه العازر، وبعثهم إليه ومعهم الأسفار فتلقاهم بالكرامة وأوسع لهم النزول ورتب مع كل واحد كاتباً يملي عليه ما يترجم له، حتى ترجم الأسفار من العبرانية إلى اليونانية وصححها وأجاز الأحبار وأطلق لهم من كان بمصر من سبي اليهود نحواً من مائة ألف، وصنع مائدة من الذهب نقشت عليها صورة أرض مصر والنيل ورصعها بالجواهر والفصوص وبعث بها إلى القدس فأودعت في الهيكل.

ثم هلك تلماي صاحب مصر، واستولى بعده أنطيوخوس صاحب مقدونية على أنطاكية ثم على مصر، وأطاعه ملوك الطوائف بأرض العراق، واستفحل ملكه وعظم طغيانه، وأمر الأمم بعبادة الأصنام. وعمل أصناماً على صورته، فامتنع اليهود من قبولها وسعى بهم عند بعض شرارهم، وكانوا أهل نجدة وشوكة، فسار أنطيوخوس إليهم وأثخن فيهم بالقتل والسبي، وفروا إلى الجبال والبراري، فرجع واستخلف على بيت المقدس قائده فليلقوس، وأمره أن يحملهم على بيت المقدس قائده فليلقوس، وأمره أن يحملهم على السجود لأصنامه وعلى أكل الخنزير وترك السبت والختان، ويقتل من يخالفه. ففعل ذلك أشد ما يكون، وبسط على اليهود أيدي أولئك الأشرار الساعين، وقتل العازر والكوهن الذي ترجم لهم التوراة لما امتنع من السجود لصنمه وأكل قربانه.

وكان فيمن هرب إلى الجبال والبراري متيتيا بن يوحنا بن شمعون الكوهن الأعظم ويعرف بحشمناي بن حونيا من بني نوذاب من نسل هارون عليه السلام، وكان رجلاً صالحاً خيراً شجاعاً، وأقام بالبرية وحزن لما نزل بقومه. فلما أبعد أنطيخوس الرحلة عن القدس، بعث متيتيا إلى اليهود يعرفهم بمكانه، وينمعض لهم ويحرضهم على الثورة على اليونانيين، فأجابوه وتراسلوا في ذلك، وبلغ الخبر - فليلقوس قائد أنطيخوس، فسار في عسكره إلى البرية طالباً متيتيا وأصحابه، فلما وصل إليهم حاربهم فغلبوه وانهزم في عساكره،وقوي اليهود على الخلاف، وهلك متيتيا خلال ذلك وقام بأمره ابنه يهوذا فهزم عساكر فليلقوس ثانية. وشغل أنطيخوس بحروب الفرس فزحف إليهم من مقدونية، واستخلف عليهم ابنه أفظر، وضم إليه عظيماً من قومه اسمه لشاوش، وأمرهم أن يبعثوا العساكر إلى اليهود، فبعثوا ثلاثاً من قوادهم وهم نيقانور وتلمياس وصردوس، وعهد إليهم بإبادة اليهود حيث كانوا فسارت العساكر، واستنفروا سائر الأرمن من نواحي دمشق وحلب، وأعداء اليهود من فلسطين وغيرهم. وزحف يهوذا بن متيتيا مقدم اليهود للقائهم بعد أن تضرعوا إلى الله وطافوا بالبيت وتمسحوا به، ولقيهم عسكر نيقانور فهزموه، وأثخنوا فيه بالقتل، وغنموا ما معهم، ثم لقيهم عسكر القائد ابن تلمياس وهيرودوس ثانياً فهزموهما كذلك، وقبضوا على فليلقوس القائد الأول لأنطيخوس فأحرقوه بالنار، ورجع نيقانور إلى مقدونية فدخلها وخبر ليشاوش وأفظر ابن الملك بالهزيمة، فجزعوا لها.

ثم جاءهم الخبر بهزيمة أنطيخوس أمام الفرس، ثم وصل إلى مقدونية واشتد غيظه على اليهود، وجمع لغزوهم فهلك دون ذلك بطاعون في جسده، ودفن في طريقه، وملك أفظر وسموه أنطيخوس باسم أبيه ورجع يهوذا بن متيتيا إلى القدس، فهدم جميع ما بناه أنطيخوس من المذابح وأزال ما نصبه من الأصنام، وطهر المسجد، وبنى مذبحاً جديداً للقربان، فوضع فيه الحطب ودعا اللّه أن يريهم آية في اشتعاله من غير نار، فاشتعل كذلك ولم ينطفء إلى الخراب الثاني أيام الجلوة، واتخذوا ذلك اليوم عيداً سموه عيد

العساكر،ونازل ليشاوش فزحف إليه يهوذا بن متيتيا في عسكر اليهود وثبت عسكر ليشاوش فانهزموا، ولجأ إلى بعض الحصون وطلب النزول على الأمان على أن لا يعود إلى حربهم، فأجابه يهوذا على أن يدخل أفظر معه في العقد وكان ذلك. وتم الصلح وعاهد أفظر اليهود على أن لا يسير إليهم، وشغل يهوذا بالنظر في مصالح قومه.

قال ابن كريون: وكان لذلك العهد ابتداء أمر الكيتم وهم الروم، وكان برومية وكان أمرهم شورى بين ثلثمائة وعشرين رئيساً، ورئيس واحد عليهم يسمونه الشيخ يدبر أمرهم، ويدفعون للحروب من يثقون بغنائه وكفايته منهم أو من سواهم. هكذا كان شأنهم لذلك العهد، وكانوا قد غلبوا اليونانيين واستولوا على ملكهم، وجازوا البحر إلى إفريقية فملكوها كما يأتي في أخبارهم، فأجمعوا السير إلى أنطيخوس أفظر وابن عمه ليشاوش بقية ملوك يونان بأنطاكية، وكاتبوا يهوذا ملك بني إسرائيل بالقدس يستميلونهم عن طاعة أنطيخوس واليونانيين فأجابوهم إلى ذلك.

وبلغ ذلك أنطيخوس فنبذ إلى اليهود عهدهم وسار إلى حربهم فهزموه ونالوا منه. ثم راسلهم في الصلح وأن يقيموا من على عهدهم معه ويحمل لبيت المقدس بما كان يحمله من المال، وأن يقتل من عنده من شرار اليهود الساعين عليهم، فتم العهد بينهم على ذلك وقتل شملاوش من الساعين على اليهود، ثم جهز أهل رومة قائد حروبهم دمترياس بن سلياقوس إلى أنطاكية، ولقيه أنطيخوس أفظر فانهزم أنطيخوس وقتل هو وابن عمه ليشاوش، وملك الروم أنطاكية. ونزلها قائدهم دمترياس وكان ألقيموس الكوهن من شرار اليهود عند أنطيخوس، فلما ملك دمترياس قائد الروم فسعى عنده في اليهود ورغبه في ملك القدس والاستيلاء على أمواله، فبعث قائده نيقانور لذلك وخرج يهوذا ملك القدس لتلقيه وطاعته، وقدم بين يديه الهدايا والتحف، فمال نيقانور إلى مسالمة اليهود وحسن رأيه وأكد بينه وبينهم العهد. ورجع وبادر ألقيموس الكوهن إلى دمترياس وأخبره بميل قائده نيقانور إلى اليهود، وزاد في إغرائه فبعث إلى قائده ينكر عليه ويستحثه لإنفاذ أمره وأن يحمل يهوذا مقيداً، وبلغ ذلك يهوذا فلحق بمدينة السامرة صبصطية، واتبعه نيقانور في العساكر فكر عليه يهوذا وهزمه وقتل أكثر عساكر الروم الذين معه. ثم ظفر به فصلبه على الهيكل ببيت المقدس، واتخذ اليهود ذلك اليوم عيداً وهو ثالث عشر آذار.

ثم بعث قائد الروم دمترياس من قابل الآخر يعتروس في ثلاثين ألفاً من الروم لمحاربة اليهود، وخرجت عساكرهم من المقدس، وفروا عن ملكهم يهوذا وافترقوا في الشعاب، وأقام معهم منهم فل قليل، واتبعهم يعتروس فلقيه يهوذا وأكمن له فانهزم اليهود، وخرج عليهم كمين الروم فقتل يهوذا في كثير من ولايته ودفن إلى جانب أبيه متيتيا. ولحق أخوه يوناثال فيمن بقي من اليهود، بنواحي الأردن وتحصنوا ببئر سبع، فحاصرهم يعتروس هنالك أياماً، ثم بيتوه فهزموه.

وخرج يوناثال واليهود في اتباعه فقبضوا عليه، ثم أطلقوه على مسالمة اليهود وأن لا يسير إلى حربهم. فهلك يوناثال إثر ذلك وقام بأمر اليهود أخوهما الثالث شمعون، فاجتمع إليه اليهود من كل ناحية وعظمت عساكره، وغزا جميع أعدائهم ومن ظاهر عليهم من سائر الأمم، وزحف إليه دمترياس قائد الروم بإنطاكية فهزمه شمعون وقتل غالب عسكره.

ولم تعاودهم الروم بعدها بالحرب إلى أن هلك شمعون. وثب عليه صهره تلماي زوج أخته فقتله وتقبض على بنيه وامرأته، وهرب ابنه الأكبر قانوس بن شمعون إلى غزة فامتنع بها، وكان اسمه يوحان وكان شجاعاً قتل في بعض الحروب شجاعاً اسمه هرقانوس فسماه أبوه باسمه.

ثم اجتمع عليه اليهود وملكوه وسار إلى بيت المقدس، وفر تلماي المتوثب على أبيه إلى حصن داخون فامتنع به، وسار هرقانوس إلى محاربته وضيق عليه، وأشرف تلماي في بعض الأيام من فوق السور بأم هرقانوس وأخته يتهددهما بقتلهما، فكف عن الحرب، وانصرف لحضور عيد المظال ببيت المقدس فقتل تلماي أخته وأمه وفر من الحصن،قال ابن كريون: ثم زحف دمترياس بن سلياقوس قائد الروم إلى القدس وحاصر اليهود فامتنعوا، وثلم السور، وراسلوه في تأخير الحرب إلى انقضاء عيدهم، ففعل على أن يكون له نصيب في القربان. ووقعت في نفسه صاغية إليهم، وأهدى تماثيل للبيت فحسن موقعها عندهم، وراسلوه في الصلح على المسالمة والمظاهرة لبعض فأجاب، وخرج إليه هرقانوس ملك اليهود وأعطاه ثلثمائة بدرة من الذهب استخرجها من بعض قبور داود.

ورحل عنهم الروم، وشغل هرقانوس في رم ما ثلم من السور، وحدثت خلال ذلك فتنة بين الفرس والروم فسار إليهم دمترياس في جموع الروم، وبينما أبطأ هرقانوس ملك اليهود لحضور عيدهم إذ جاءه الخبر بأن الفرس هزموا دمترياس، فنهز الفرصة وزحف إلى أعدائه من أهل الشام وفتح نابلس وحصون أدوم التي بجبل الشراة، وقتل منهم خلقاً، ووضع عليهم الجزية وأخذهم بالختان والتزام أحكام التوراة، وخرب الهيكل الذي بناه

سنبلاط السامري في طول بريد بإذن الإسكندر، وقهر جميع الأمم المجاورين لهم، ثم بعث وجوه اليهود وأعيانهم إلى الأشياخ والمدبرين برومة يسأل تجديد العهد، وأن يردوا على اليهود ما أخذ أنطيخوس ويونان من بلادهم التي صارت في مملكة الروم، فأجابوا وكتبوا له العهد بذلك وخاطبوه بملك اليهود. وإنما كان يسمى من سلف قبله من آبائه بالكوهن فسمى نفسه من يومئذ بالملك، وجمع بين منزلة الكهنونة ومنزلة الملك، وكان أول ملوك بني حشمناي. ثم سار إلى مدينة السامرة صبصطية ففتحها وخربها وقتل أهلها. قال ابن كريون: وكان اليهود في دينهم يومئذ ثلاث فرق: فرقة الفقهاء وأهل القياقة ويسمونهم الفروشيم وهم الربانيون، وفرقة الظاهرية المتعلقين بظواهر الألفاظ من كتابهم ويسمونهم الصدوقية وهم القراؤون، وفرقة العباد المنقطعين إلى العبادة والتسبيح والزهاد فيما سوى ذلك ويسمونهم الحيسيد.

وكان هرقانوس وآباؤه من الربانيين، ففارق مذهبهم إلى القرائين لأنه جمع اليهود يوماً عندما تمهد أمره، وأخذ بمذاهب الملك، ولقي به في صنيع احتفل به وألان لهم جانبه وخضع في قوله وقال: أريد منكم النصيحة. فطمع بعض الربانيين فيه وقال: إن النصيحة أن تنزل عن الكهنونة وتقتصر على الملك، وقد فاتك شرطها لأن أمك كانت سبية من أيام أنطيخوس. فغضب لذلك وقال للربانيين: قد حكمتكم في صاحبكم فأخذوا في تأديبه بالضرب فتنمر لهم من أجل ذلك، وفارق مذهبهم إلى مذهب القرائين، وقتل من الربانيين خلقاً كثيراً، ونشأت الفتنة بين هاتين الطائفتين من اليهود واتصلت بينهم الحرب إلى هذا العهد.

وهلك هرقانوس لإحدى وثلاثين سنة من دولته، وملك بعده ابنه أرستبلوس وكان كبيرهم، وكان له ولدان آخران وهما أنطيوخس ويحب الملك له ويبغض الإسكندر فأبعده إلى جبل الخليل، فلما ملك أرستبلوس أخذ من إخوته بمذهب أبيهم وقبض على الإسكندر وأمه واستخلص أنطيوخس وقدمه على العساكر، واكتفى به في الحروب، وترفع عن تاج الكهنونة ولبس تاج الملك. وخرج أنطقنوس إلى الأمم المجاورين الخارجين عن طاعتهم فردهم إلى الطاعة، وكثرت السعاية فيه عند أخيه من البطانة وأغروه به، فلما قدم أنطقنوس من مغيبه وافق عيد المظال، وكان أخوه ملتزماً بيته لمرض طرقه، فعدل أنطقنوس عن بيته إلى الهيكل للتبرك، فأوهموا الملك أنه إنما فعل ذلك لاستمالة الكهنونية والعامة وأنه يروم قتل أخيه، وعلامة ذلك أنه جاء بسلاحه.

فعهد أرستبلوس إلى حشمانه وغلمان قصره إن جاء متسلحاً أن يقتلوه وكان ذلك، وتمت حيلة البطانة وسعايتهم عليه، وعلم أرستبلوس أن قد خدع في أخيه، فندم واغتم ولطم صدره حتى قذف الدم من فيه، وأقام عليلاً بعده حولاً كاملاً ثم هلك. فأفرجوا عن أخيه الإسكندر من محبسه، وبايعوا له بالملك واستقام له الأمر، ثم انتقض عليه أهل عكا وأهل صيدا وأهل غزة بعثوا إلى قبرص، وسار الإسكندر إلى عكا فحاصرها وكانت كلوبطرة ملكة من بقية اليونان قد انتقض عليها ابنها واسمه ألظيرو وأجاز البحر إلى جزيرة قبرص فملكها، فبعث أهل عكا أنهم يملكونه وجاز إليهم في ثلاثين ألف مقاتل، حتى إذا أفرج الإسكندر عن حصارهم راجعوا أمرهم ومنعوا ألظيرو من الدخول إليهم، فسار في بلاد الإسكندر ونزل على جبل الخليل فقتل منه خلقاً، ونزل على الأردن.

وفي خلال ذلك زحف الإسكندر إلى صيدا ففتحها عنوة واستباحها، وعاد إلى القدس وأطاعته البلاد وحسم داء المنتقضين عليه، ثم تجددت الفتنة بين اليهود بالقدس وذلك أنهم اجتمعوا في عيد المظال بالمسجد، وحضر الإسكندر معهم فتلاعبوا بين يديه مراماةً بما عندهم من مشموم ومأكول، وأصاب الإسكندر رمية من الربانيين فغضب لها، وشاتمهم القراؤون بما كانوا من شيعته، فشتموا الإسكندر وقتلوا الشاتم وأصحابه فلم يغن عنهم، وعظم فيهم الفتك وانفض الجمع، وعهد الإسكندر أن يستد المذبح والكهنة بحائط عن الناس، ونفذ أمره بذلك.

واتصلت الفتنة بين اليهود ست سنين قتل من الربانيين نحو من خمسين ألفاً، والإسكندر يعين القرائين عليهم، وبعثوا إلى دمتريوس المسمى أنطيخوس وبذلوا له المال، فسار معهم إلى نابلس ولقي الإسكندر فهزمه وقتل عامة أصحابه ورجع. فخرج الإسكندر إلى الربانيين وأثخن فيهم وظفر منهم بجماعة تزيد على ثلثمائة فقتلهم صبراً وقهر سائر اليهود. وسار إلى دمتريوس ففتح الكثير من بلاده وخرج فظفر به الإسكندر وقتله وعاد إلى بيت المقدس لثلاث سنين في محاربة الربانيين ودمتريوس.

فاستقام أمره وعظم سلطانه ثم طرقه المرض فقام عليلاً ثلاثاً آخرين، وخرج بعدها لحصار بعض الحصون وانتقضوا عليه فمات هنالك، وأوصى امرأته الإسكندرة بكتمان موته حتى يفتح الحصن وتسير بشلوه إلى القدس فتدفنه فيه، وتصانع الربانيين على ولدها فتملكه، لأن العامة إليهم أميل. ففعلت ذلك واستدعت من كان نافراً من الربانيين، وجمعتهم وقدمتهم للشورى، واستبدت بالملك.

وكان لها ابنان من الإسكندر بن هرقانوس، اسم الأكبر منهما هرقانوس، والآخر أرستبلوس، وكانا صغيرين عند موت

أبيهما فلما كبرا عينت هرقانوس للكهنونة وقدمت أرستبلوس على العساكر والحروب، وضمت إليه الربانيين، وأخذت الرهن من جميع الأمم وسألها الربانيون في الأخذ بثأرهم من القرائين خلقاً كثيراً. وجاء القراؤون إلى ابنها الكهنون ينكرون ذلك وأنه إذا فعل بهم ذلك، وقد كانوا شيعاً لأبيه الإسكندر، فقد تحدث النفرة من الناس. وسألوه أن يلتمس لهم إذنها في الخروج عن القدس والبعد عن الربانيين، فأذنت لهم رغبة في انقطاع الفتنة.

وخرج معهم وجوه العسكر. ثم ماتت خلال ذلك لتسع سنين من دولتها، ويقال إن ظهور عيسى صلوات الله عليه كان في أيامها. وكان ابنها أرستبلوس قائد العسكر لما شعر بموتها خرج إلى القرائين يستدعيهم إلى نصرته فأجازوه، وتقبضت هي على ابنيه وامرأته، واجتمعت عليه العساكر من النواحي وضرب البوق وزحف لحرب أخيه هرقانوس والربانيين، وحاصرهم أرستبلوس ببيت المقدس، وعزم على هدم الحصن فخرج إليه أعيان اليهود والكهنونية ساعين في الصلح بينهما، وأجاب على أن يكون ملكاً ويبقى هرقانوس على الكهنونية، فتم ذلك واستقر عليه أمره.

ابتداء أمر انظفتر أبو هيردوس

ثم سعى في الفتنة بينهما أنظفتر أبو هيردوس، وكان من عظماء بني إسرائيل من الذين جمعوا مع العزير من بابل، وكان ذا شجاعة وبأس، وله يسار وقنية من الضياع والمواشي. وكان الإسكندر قد ولاه على بلاد أدوم وهي جبال الشراة، فأقام في ولايتها سنين، وكثر ماله وأنكحوه منهم، فكان له منها أربعة من الأبناء وهم: فسيلو وهيردوس وفرودا ويوسف، وبنت اسمها سلومث. وقيل أن أنظفتر لم يكن من بني إسرائيل، وإنما كان من أدوم وربي في جملة بني حشمناي وبيوتهم. فلما مات الإسكندر وملكت زوجته الإسكندرة عزلته عن جبال الشراة، فأقام بالقدس. حتى إذا استبد بالأمر أرستبلوس، وكان بين هرقانوس وأنظفتر مودة وصحبة، فغص أرستبلوس بمكانه من أخيه لما يعلم من مكر انظفتر وهم بقتله، فانفض عنه وأخذ في التدبير على أرستبلوس.

وفشا في الناس تبغضه إليهم وينكر تغلبه، ويذكر لهم أن هرقانوس أحق بالملك منه، ثم حذر هرقانوس من أخيه وخيل إليه أنه يريد قتله، وبعث لشيعة هرقانوس المال على تخويفه من ذلك حتى تمكن منه الخوف، ثم أشار عليه بالخروج إلى ملك العرب هرثمة، وكان يحب هرقانوس، فعقد معه عهداً على ذلك، ولحق هرقانوس بهرثمة ومعه أنظفتر، ثم دعوا هرثمة إلى حرب أرستبلوس فأجابهم بعد مراوغة، وتزاحفوا ونزع الكثير من عسكر أرستبلوس إلى هرقانوس، فرجع هارباً إلى القدس، ونازلهم هرقانوس وهرثمة واتصلت الحرب وطال الحصار.

وحضر عيد الفطير وافتقد اليهود القرابين فبعثوا إلى أصحاب هرقانوس فيها فاشتطوا في الثمن، ثم أخذوه ولم يعطوهم شيئاً، وقتلوا بعض النساك طلبوه في الدعاء على أرستبلوس وأصحابه، وامتنع فقتلوه، ووقع فيهم الوباء فمات منهم أمم.

قال ابن كريون: وكان الأرمن ببلاد دمشق وحمص وحلب، وكانوا في طاعة الروم، فانتقضوا عليهم في هذه المدة وحدثت عندهم صاغية إلى الفرس، فبعث الروم قائدهم فمقيوس فخرج لذلك من رومية، وقدم بين يديه قائده سكانوس فطوع الأرمن ولحق دمشق، ثم لحقه فمقيوس ونزل بها. وتوجهت إليه وجوه اليهود في أثرهم، وبعث إليه أرستبلوس من القدس وهرقانوس من كان حصاره، كل واحد منهما يستنجده على أخيه، وبعثوا إليه بالأموال والهدايا فأعرض عنها، وبعث إلى هرثمة ينهاه عن الدخول بينهما فرحل عن القدس، ورحل معه هرقانوس وأنظفتر، وأعاد أرستبلوس رسله وهداياه من بيت المقدس، وألح في الطلب وجاء أنظفتر إلى فمقيوس بغير مال ولا هدية، فنكث عنه فمقيوس، فرجع إلى رغبته ومسح أعطافه وضمن له طاعة هرقانوس الذي هو الكهنوت الأعظم. ويحصل بعد ذلك إضعاف أرستبلوس فأجابه فمقيوس على أن يتحيل له في الباطن ويكون ظاهره مع أرستبلوس حتى يتم الأمر.

وعلى أن يحملوا الخراج عند حصول أمرهم، فضمن أنظفتر ذلك. وحضر هرقانوس وأرستبلوس عند فمقيوس القائد يتظلم كل واحد من صاحبه، فوعدهم بالنظر بينهم إذا حل بالقدس وبعث أنظفتر في جميع الرعايا فجاؤوا شاكين من أرستبلوس، فأمره فمقيوس من إنصافهم فغضب لذلك واستوحش وهرب من معسكر فمقيوس وتحصن في القدس، وسار فمقيوس في أثره فنزل أريحا ثم القدس وخرج أرستبلوس واستقال فأقاله، وبذل له الأموال على أن يعينه على أخيه ويحمل له ما في الهيكل من الأموال والجواهر، وبعث معه قائده لذلك، فمنعهم الكهنونية وثارت بهم العامة وقتلوا بعض أصحاب القائد وأخرجوه، فغضب فمقيوس وتقبض لحينه على أرستبلوس، وركب ليقتحم البلد فامتنعت عليه، وقتل جماعة من أصحابه فرجع، وأقام عليهم. ووقعت الحرب بالمدينة بين شيع أرستبلوس وهرقانوس.

وفتح بعض اليهود الباب لفمقيوس فدخل البلد وملك القصر وامتنع الهيكل عليه، فأقام يحاصره أياماً، وصنع آلة الحصار

فهدم بعض أبراجه واقتحمه عنوة، ووجد الكهنونية على عبادتهم وقرباتهم مع تلك الحرب، ووقف على الهيكل فاستعظمه ولم يمد يده إلى شيء من ذخائره، وملك عليهم هرقانوس، وضرب عليهم الخراج يحمله كل سنة. ورفع يد اليهود عن جميع الأمم الذين كانوا في طاعتهم، ورد عليهم البلدان التي ملكها بنو حشمناي، ورجع إلى رومة.

واستخلف هرقانوس وأنظفتر على المقدس وأنزل معهما قائده سكانوس الذي قدمه لفتح دمشق وبلاد الأرمن عندما خرج من رومية، وحمل أرستبلوس وابنيه مقيدين معه، وهرب الثالث من بنيه وكان يسمى الإسكندر ولحقه فلم يظفر به.

ولما بعد فمقيوس عن الشام ذاهباً إلى مكانه خرج هرقانوس وانظفتر إلى العرب ليحملوهم على طاعة الروم، فخالفهم الإسكندر بن أرستبلوس إلى المقدس وكان متغيباً بتلك النواحي منذ مغيب أبيه لم يبرح، فدخل إلى المقدس وملكه اليهود عليهم وبنى ما هدمه فمقيوس من سور الهيكل، واجتمع إليه خلق كثير ورجع هرقانوس وأنظفتر فسار إليهم الإسكندر وهزمهم وأثخن في عساكرهم، وكان قائد الروم كينانوس قد جاء إلى بلاد الأرمن من بعد فمقيوس، فلحق به واستنصره على الإسكندر فسار معه إلى القدس، وخرج إليهم الإسكندر فهزموه، ومضى إلى حصن له يسمى الإسكندرونة واعتصم به.

وسار هرقانوس إلى القدس فاستولى على ملكه، وسار كينانوس قائد الروم إلى الإسكندر فحاصره بحصنه واستأمن إليه فقبله وعفا عنه وأحسن إليه. وفي أثناء ذلك هرب أرستبلوس أخو هرقانوس من محبسه برومية، وابنه أنطقنوس واجتمع إليه، فحاربه كينانوس وهزمه وحصل في أسره فرده إلى محبسه برومية، ولم يزل هنالك إلى أن تغلب قيصر على رومية، واستحدث الملك في الروم.

وخرج فمقيوس من رومية إلى نواحي عمله وجمع العساكر لمحاربة قيصر، فأطلق أرستبلوس من محبسه، وأطلق معه قائدين في اثني عشر ألف مقاتل، وسرحهم إلى الأرمن واليهود ليردوهم عن طاعة فمقيوس، وكتب فمقيوس إلى أنظفتر ببيت المقدس أن يكفيه أمر أرستبلوس، فبعث قوماً من اليهود لقوه في بلاد الأرمن ودسوا له سماً في بعض شرابه كان فيه حتفه.

وقد كان كينانوس كاتب الشيخ صاحب رومية في إطلاق من بقي من ولد أرستبلوس فأطلقهم.

قال ابن كريون: وكان أهل مصر لذلك العهد انتقضوا على ملكهم تلماي وطردوه وامتنعوا من حمل الخراج إلى الروم، فسار إليهم واستنفر معه أنظفتر فغلبهم وقتلهم، ورد تلماي إلى ملكه واستقام أمر مصر. ورجع كينانوس إلى بيت المقدس فجدد الملك لهرقانوس، وقدم أنظفتر مدبر المملكة وسار إلى رومية.

قال ابن كريون: ثم غضبت الفرس على الروم فندبوا إلى ذلك قائداً منهم يسمى عرنبوس، وبعثوه لحربهم، فمر بالقدس ودخل إلى الهيكل وطالب الكهنون بما فيه من المال، وكان يسمى ألعازر من صلحاء اليهود وفضلائهم، فقال له: إن كينانوس وفمقيوس لم يفعلوا ذلك بتلك. فاشتد عليه. فقال: أعطيك ثلثمائة من الذهب وتتجافى عن الهيكل. ودفع إليه سبيكة ذهب على صورة خشبة كانت تلقى عليها الصور التي تنزل من الهيكل الذي تجدد، وكان وزنها ثلثمائة فأخذها ونقض القول وتعدى على الهيكل، وأخذ جميع ما فيه منذ عمارتها من الهدايا والغنائم وقربانات الملوك والأمم وجميع آلات القدس، وسار إلى لقاء الفرس فحاربوه وهزموه وأخذوا جميع ما كان معه، وقتل واستولت الفرس على بلاد الأرمن: دمشق وحمص وحلب وما إليها.

وبلغ الخبر إلى الروم فجهزوا قائداً عظيماً في عساكر جمة اسمه كسناو، فدخل بلاد الأرمن الذين كانوا غلبوا عليها، وساروا إلى القدس فوجد اليهود يحاربون هرقانوس وأنظفتر فأعانهما حتى استقام ملك هرقانوس ثم سار إلى الفرس في عساكره فغلبهم وحملهم على طاعة الروم، ورد الملوك الذين كانوا عصوا عليهم إلى الطاعة، وكانوا اثنين وعشرين ملكاً من الفرس كان فمقيوس قائد الروم هزمهم، فلما سار عنهم انتقضوا.

قال ابن كريون: ثم ابتدأ أمر القياصرة وملك على الروم يولياس ولقبه قيصر لأن أمه ماتت حاملاً به عند مخاضها فشق بطنها عنه فذلك سمي قيصر، ومعناه بلغتهم القاطع. ويسمى أيضاً يولياس باسم الشهر الذي ولد فيه وهو يوليه خامس شهورهم ومعنى هذه اللفظة عندهم الخامس، وكان الثلثمائة والعشرون المدبرون أمر الروم والشيخ الذي عليهم قد أحكموا أمرهم مع جماعة الروم على أن لا يقدموا عليهم ملكاً، وأنهم يعينون للحروب في الجهات قائداً بعد آخر. هذا ما اتفقوا عليه النقلة في الحكاية عن أمر الروم وابتداء ملك القياصرة.

قالوا: ولما رأى قيصر هذا الشيخ الذي كان لذلك العهد كبر وشب على غاية من الشجاعة والإقدام، فكانوا يبعثونه قائداً على العساكر إلى النواحي، فأخرجوه مرة إلى المغرب فدوخ البلاد ورجع، فسمت نفسه إلى الملك فامتنعوا له وأخبروه أن هذا سنة

آبائهم منذ أحقاب، وحدثوه بالسبب الذي فعلوا ذلك لأجله، وهو أمر كيوس وأنه عهد لأولهم لا ينقض، وقد دوخ فمقيوس الشرق، وطوع اليهود ولم يطمع في هذا فوثب عليهم قيصر وقتلهم واستولى على ملك الروم منفرداً به وسمي قيصر، وسار إلى فمقيوس بمصر فظفر به وقتله، ورجع فوجد بتلك الجهات قواد فمقيوس فسار إليهم يولياس قيصر ومر ببلاد الأرمن فأطاعوه، وكان عليهم ملك اسمه متردات فبعثه قيصر إلى حربهم.

فسار في الأرمن ولقيه هرقانوس ملك اليهود بعسقلان ونفر معه إلى مصر هو وأنظفتر ليمحوا بعض ما عرف منهم من موالاة فمقيوس، وساروا جميعاً إلى مصر ولقيتهم عساكرها واشتد الحرب فحصر بلادهم، وكادت الأرمن أن ينهزموا، فثبت أنظفتر وعساكر اليهود وكان لهم الظفر واستولوا على مصر، وبلغ الخبر إلى قيصر فشكر لأنظفتر حسن بلائه واستدعاه فسار إليه مع ملك الأرمن متردات فقبله وأحسن وعده. وكان أنطقنوس بن أرستبلوس قد اتصل بقيصر وشكا بأن هرقانوس قتل أباه حين بعثه أهل رومة لحرب فمقيوس، فتحيل عليه هرقانوس وأنظفتر وقتلاه مسموماً، فأحسن أنظفتر العذر لقيصر بأنه إنما فعل ذلك في خدمة من ملك علينا من الروم وإنما كنت ناصحاً لقائدهم فمقيوس بالأمس، وأنا اليوم أيها الملك لك أنصح وأحب، فحسن موقع كلامه من قيصر ورفع منزلته وقدمه على عساكره لحرب الفرس، فسار إليه أنظفتر وأبلى في تلك الحروب ومناصحة قيصر، فلما انقلبوا من بلاد الفرس أعادهم قيصر إلى ملك بيت المقدس على ما كانوا عليه.

واستقام الملك لهرقانوس وكان خيراً، إلا أنه كان ضعيفاً عن لقاء الحروب فتغلب عليه أنظفتر، واستبد على الدولة، وقدم ابنه فسيلو ناظراً في بيت المقدس، وابنه هيردوس عاملاً على جبل الخليل. وكان كما بلغ الحلم واحتازوا الملك من أطرافه وامتلأ أهل الدولة منهم حسداً وكثرت السعاية فيهم، وكان في أطراف عملهم ثائر من اليهود يسمى حزقيا وكان شجاعاً صعلوكاً واجتمع إليه أمثاله فكانوا يغيرون على الأرمن وينالون منهم. وعظمت نكاياتهم فيهم فشكى عامل بلاد الأرمن وهو سفيوس ابن عم قيصر إلى هيردوس وهو بجبل الخليل ما فعله حزقيا وأصحابه في بلادهم، فبعث هيردوس إليه سرية فكبسوهم، وقتل حزقيا وغيره منهم، وكتب بذلك إلى سفيوس فشكره وأهدى إليه.

ونكر اليهود ذلك من فعل هيردوس وتظلموا عند هرقانوس وطلبوه في القصاص منه، فأحضروه في مجلس الأحكام وأحضر السبعين شيخاً من اليهود، وجاء هيردوس متسلحاً ودافع عن نفسه، وعلم هرقانوس بغرض الأشياخ، ففصلوا المجلس

فنكروا ذلك على هرقانوس، ولحق هيردوس ببلاد الأرمن فقدمه سفيوس على عمله ثم أرسل هرقانوس إلى قيصر يسأل تجديد عهود الروم لهم، فكتب له بذلك، وأمر بأن يحمل أهل الساحل خراجهم إلى بيت المقدس ما بين صيدا وغزة، ويحمل أهل صيدا إليها في كل سنة عشرين ألف وسق من القمح، وأن يرد على اليهود سائر ما كان بأيديهم إلى الفرات واللاذقية وأعمالها وما كان بنو حشمناي فتحوه عنوة من عداوات الفرات، لأن فمقيوس كان يتعدى عليهم في ذلك، وكتب العهد بذلك في ألواح من نحاس بلسان الروم ويونان، وعلقت في أسوار صور وصيدا واستقام أمر هرقانوس.

قال ابن كريون: ثم قتل قيصر ملك الروم. وأنظفتر وزير هرقانوس المستبد عليه. أما قيصر فوثب عليه كيساوس من قواد فمقيوس فقتله وملك وجمع العساكر وعبر البحر إلى بلاد أشيت ففتحها، ثم سار إلى القدس وطالبهم بسبعين بدرة من الذهب، فجمع له أنظفتر وبنوه من اليهود، ثم رجع كيساوس إلى مقدونية فأقام بها. وأما أنظفتر فإن اليهود داخلوا القائد ملكيا الذي كان بين أظهرهم من قبل كيساوس في قتل أنظفتر وزير هرقانوس، فأجابهم إلى ذلك، فدسوا إلى ساقيه سمّاً فقتله، وجاء ابنه هيردوس إلى القدس مجمعاً قتل هرقانوس، فكفه فسيلو عن ذلك، وجاء كيساوس من مقدونية إلى صور، ولقي هرقانوس وهيردوس وشكوا إليه ما فعله قائده ملكيا من مداخلة اليهود في قتل أنظفتر، فأذن لهم في قتله فقتلوه. ثم زحف كينانوس ابن أخي قيصر وقائده أنطونيوس في العساكر لحرب كيساوس المتوثب على عمه قيصر، فلقيهم قريباً من مقدونية فظفرا به وقتلاه، وملك كينانوس مكان عمه وسمي أوغسطس قيصر باسم عمه. فأرسل إليه هرقانوس ملك اليهود بهدية وفيها تاج من الذهب مرصع بالجواهر وسأل تجديد العهد لهم، وأن يطلق السبي الذي سبي منهم أيام كيساوس، وأن يرد اليهود إلى بلاد يونان وأثينة، وأن يجري لهم ما كان رسم به عمه قيصر، فأجابه إلى ذلك كله وسار أنطيانوس وأوغسطس إلى بلاد الأرمن بدمشق وحمص، فلقته هنالك كلبطرة ملكة مصر وكانت ساحرة فاستأمنته وتزوجها، وحضر عنده هرقانوس ملك اليهود.

وجاء جماعة من اليهود فشكوا من هيردوس وأخيه فسيلو وتظلموا منهما، وأكذبهم ملكهم هرقانوس وأبى عليها، وأمر أنطيانوس بالقبض على أولئك الشاكين وقتل منهم، ورجع هيردوس وأخوه فسارا إلى مكانهما ومكان أبيهما من تدبير مملكة هرقانوس، وسار أنطيانوس إلى بلاد الفرس فدوخها وعاث في

نواحيها وقهر ملوكهم وقفل إلى رومة.

قال ابن كريون: وفي خلال ذلك لحق أنطقنوس وجماعة من اليهود بالفرس، وضمنوا لملكهم أن يحملوا إليه بدرة من الذهب وثمانمائة جارية من بنات اليهود ورؤسائهم يسبيهن له، على أن يملكه مكان عمه هرقانوس ويسلمه إليه، ويقتل هيردوس وأخاه فسيلو، فأجابهم ملك الفرس إلى ذلك، وسار في العساكر وفتح بلاد الأرمن وقتل من وجد بها من قواد الروم ومقاتلتهم، وبعث قائده بعسكر من القدس مع أنطقنوس مورياً بالصلاة في بيت المقدس والتبرك بالهيكل، حتى إذا توسط المدينة ثار بها وأفحش في القتل، وبادر هيردوس إلى قصر هرقانوس ليحفظه، ومضى فسيلو إلى الحصن يضبطه. وتورط من كان بالمدينة من الفرس فتلهم اليهود عن آخرهم، وامتنعوا على القائد، وفسد ما كان دبره في أمر أنطقنوس.

فرجع إلى استمالة هرقانوس وهيردوس، وطلب الطاعة منهم للفرس وأنه يتلطف لهم عند الملك في إصلاح حالهم، فصغى هرقانوس وفسيلو إلى قوله وخرجوا إليه وارتاب هيردوس وامتنع، فارتحل بهما قائد الفرس حتى إذا بلغ الملك ببلاد الأرمن تقبض عليهما فمات فسيلو من ليلته، وقيد هرقانوس واحتمله إلى بلاده، وأشار أنطقنوس بقطع أذنه ليمنعه من الكهنونة، ولما وصل ملك الفرس إلى بلاده أطلق هرقانوس من الاعتقال، وأحسن إليه إلى أن استدعاه هيردوس كما يأتي بعد، وبعث ملك الفرس قائده إلى اليهود مع أنطقنوس ليملك، فخرج هيردوس عن القدس إلى جبل الشراة فترك عياله بالحصن عند أخيه يوسف، وسار إلى مصر يريد قيصر، فأكرمته كالبطرة ملكة مصر، وأركبته السفن إلى رومية، فدخل بها أنطيانوس إلى أوغسطس قيصر، وخبره الخبر عن الفرس والقدس، فملكه أوغسطس وألبسه التاج وأركبه في رومية في زي الملك، والهاتف بين يديه بأن أوغسطس ملكه.

واحتفل أنطيانوس في صنيع له حضره الملك أوغسطس قيصر وشيوخ رومية، وكتبوا له العهد في ألواح من نحاس، ووضعوا ذلك اليوم التاريخ، وهو أول ملك هيردوس.

وسار أنطيانوس بالعسكر إلى الفرس ومعه هيردوس، وفارقه من أنطاكية وركب البحر إلى القدس لحرب أنطقنوس، فخرج أنطقنوس إلى جبال الشراة للاستيلاء على عيال هيردوس، وأقام على حصار الحصن، وجاء هيردوس فحاربه وخرج يوسف من الحصن من ورائه، فانهزم أنطقنوس إلى القدس، وهلك أكثر عسكره، وحاصره هيردوس وبعث أنطقنوس بالأموال إلى قواد العسكر من الروم فلم يجيبوه، وأقام هيردوس على حصاره حتى جاءه الخبر عن أنطيانوس قائد قيصر أنه ظفر بملك الفرس وقتله ودوخ بلادهم، وإنه عاد ونزل الفرات. فترك هيردوس أخاه يوسف على حصار القدس مع قائد الروم سيساو، ومن تبعهم من الأرمن، وسار للقاء أنطيانوس، وبلغه وهو بدمشق أن أخاه يوسف قتل في حصار القدس على يد قائده أنطقنوس، وأن العساكر انفضت ورجعوا إلى دمشق، وجاء سيساو منهزماً قائد أنطيانوس بالعساكر. وتقدم هيردوس وقد خرج أنطقنوس للقائه فهزمه، وقتل عامة عسكره واتبعه إلى القدس. ووافاه سيساو قائد الروم فحاصروا القدس أياماً، ثم اقتحموا البلد وتسللوا صاعدين إلى السور، وقتلوا الحرس وملكوا المدينة، وأفحش سياسو في قتل اليهود، فرغب إليه هيردوس في الإبقاء. وقال له: إذا قتلت قومي فعلى من تملكني؟ فرفع القتل عنهم ورد ما نهب وقرب إلى البيت تاجاً من الذهب وضعت فيه، وحمل إليه هيردوس أموالاً. ثم عثروا على إلى أنطيانوس، وقد كان سار من الشام إلى مصر، فجاءه بأنطقنوس هنالك، ولحق بهم هيردوس وسأل من أنطيانوس قتل أنطقنوس فقتله. واستبد هيردوس بملك اليهود وانقرض ملك بني حشمناي والبقاء لله وحده.

انقراض ملك بني حشمناي وابتداء ملك هيردوس وبنيه

وكان أول ما افتتح به ملكه أن بعث إلى هرقانوس الذي احتمله الفرس وقطعوا أذنه يستقدمه ليأمن على ملكه من ناحيته، ورغبه في الكهنونية التي كان عليها، فرغب وحذره ملك الفرس من هيردوس، وعزله اليهود الذين معه، وأراه أنها خديعة وأنه العيب الذي به يمنع الكهنونية، فلم يقبل شيئاً من ذلك. وصغى إلى هيردوس وحسن ظنه به وسار إليه وتلقاه بالكرامة والإعطاء وكان يخاطبه بأبي في الجمع والخلوة.

وكانت الإسكندرة بنت هرقانوس تحت الإسكندر وابن أخيه أرستبلوس، وكانت بنتها منه مريم تحت هيردوس، فاطلعتا على ضمير هيردوس من محاولة قتله، فخبرتاه بذلك وأشارتا عليه باللحاق بملك العرب ليكون في جواره، فخاطبه هرقانوس في ذلك وأن يبعث إليه من رجالاتهم من يخرج به إلى أحيائهم، وكان حامل الكتاب من اليهود مضطغنا على هرقانوس، لأنه قتل أخاه وسلب ماله، فوضع الكتاب في يد هيردوس، فلما قرأه رده إليه وقال: أبلغه إلى ملك العرب وأرجع الجواب إلي فجاءه بالجواب من ملك العرب إلى هرقانوس وأنه أسعف وبعث الرجال فالقاهم

بوصولك إلي، فبعث هيردوس من يقبض على الرجال بالمكان الذي عينه، وأحضرهم وأحضر حكام البلاد اليهود والسبعين شيخاً.

وأحضر هرقانوس وقرأ عليه الكتاب بخطه، فلم يحر جوابا وقامت عليه الحجة، وقتله هيردوس لوقته لثمانين سنة من عمره وأربعين من ملكه، وهو آخر ملوك بني حشمناي وكان للإسكندر بن أرستبلوس ابن يسمى أرستبلوس، وكان من أجمل الناس صورة، وكان في كفالة أمه الإسكندر، وأخته يومئذ تحت هيردوس كما قلناه. وكان هيردوس يغص به وكانت أخته وأمهما يؤملان أن يكون كوهنا بالبيت مكان جده هرقانوس، وهيردوس يريد نقل الكهنونة عن بني حشمناي، وقدم لها رجلاً من عوام الكهنونية، وجعله كبير الكهنونية، فشق ذلك على الإسكندرة بنت هرقانوس وبنتها مريم زوج هيردوس.

وكان بين الإسكندرة وكلوبطره ملكة مصر مواصلة ومهاداة، وطلبت منها أن تشفع زوجها أنطيانوس في ذلك إلى هيردوس، فاعتذر له هيردوس بأن الكواهن لا تعزل، ولو أردنا ذلك فلا يمكننا أهل الدين من عزله، فبعثت بذلك إلى الإسكندرة. ودست الإسكندرة إلى الرسول الذي جاء من عند أنطيانوس، وأتحفته بمال فضمن لهم أن انطيانوس يعزم على هيردوس في بعث أرستبلوس إليه، ورجع إلى أنطيانوس فرغبه في ذلك ووصف له من جماله وأغراه باستقدامه، فبعث فيه أنطيانوس إلى هيردوس وهدده بالوحشة إن منعه، فعلم أنه يريد منه القبيح، فقدمه كهنوناً وعزل الأول، واعتذر لأنطيانوس بأن الكوهن لا يمكن سفره، واليهود تنكر ذلك. فأغفل أنطيانوس الأمر ولم يعاود فيه.

ووكل هيردوس بالإسكندرة بنت هرقانوس عهدته من يراعى أفعالها، فاطلع على كتبها إلى كلوبطرة أن تبعث إليها السفن والرجال يوصلنها إليها، وأن السفن وصلت إلى ساحل يافا، وأن الإسكندرة صنعت تابوتين لتخرج فيهما هي وابنتها على هيئة الموتى. فأرصد هيردوس من جاء بهما من المقابر في تابوتيهما فوبخهما ثم عفا عنهما. ثم بلغه أن أرستبلوس حضر في عيد المظال، فصعد على المذبح وقد لبس ثياب القدس وازدحم الناس عليه وظهر من ميلهم إليه ومحبتهم ما لا يعبر عنه، فغص بذلك واعمل التدبير في قتله. فخرج في متنزه له بأريحاء في نيسان، واستدعى أصحابه وأحضر أرستبلوس، فطعموا ولعبوا وانغمسوا في البرك يسبحون وعمد غلمان هيردوس إلى أرستبلوس فغمسوه في الماء حتى شرق وفاض، فاغتم الناس لموته وبكى عليه هيردوس ودفنه، وكان موته لسبع عشرة سنة من عمره.

وتأكدت البغضاء بين الإسكندرة وابنتها مريم زوج هيردوس أخت هذا الغريق، وبين أم هيردوس وأخته، وكثرت شكواهما إليه فلم يشكهما لمكان زوجته مريم وأمها منه، قال ابن كريون: ثم انتقض أنطيانوس على أوغسطس قيصر وذلك أنه تزوج كلوبطره وملك مصر، وكانت ساحرة فسحرته واستمالته، وحملته على قتل ملوك كانوا في طاعة الروم، وأخذ بلادهم وأموالهم، وسبي نسائهم وأموالهم، وكان من جملتهم هيردوس وتوقف فيه خشية من أوغسطس قيصر، لأنه كان يكرمه بسبب ما صنع في الآخرين، فحمله على الانتقاض العصيان، ففعل وجمع العسكر واستدعى هيردوس فجاءه وبعثه إلى قتال العرب، وكانوا خالفوا عليه، فمضى هيردوس لذلك ومعه أنيثاون قائد كلوبطرة، وقد دست له أن يجر الهزيمة على هيردوس ليقتل ففعل. وثبت هيردوس وتخلص من المعترك بعد حروب صعبة هلك فيها بين الفريقين خلق كثير.

ورجع هيردوس إلى بيت المقدس فصالح جميع الملوك والأمم المجاورين له، وامتنع العرب من ذلك فسار إليهم وحاربهم، ثم استباحهم بعد أيام ومواقف بذلوا وجمعوا له الأموال وفرض عليهم الخراج في كل سنة ورجع. وكان أنطيانوس لما بعثه إلى العرب سار هو إلى رومة وكانت بينه وبين أوغسطس قيصر حروب هزمه قيصر في آخرها وقتله، وسار إلى مصر فخافه هيردوس على نفسه لما كان منه في طاعة أنطيانوس وموالاته، ولم يمكنه التخلف عن لقائه. فأخرج خدمه من القدس فبعث بأمه وأخته إلى قلعة الشراة لنظر أخيه فردوا، وبعث بزوجه مريم وأمه الإسكندرة إلى حصن الإسكندرونة لنظر زوج أخته يوسف ورجل آخر من خالصته من أهل صور اسمه سوما وعهد إليها بقتل زوجته وأمها إن قتله قيصر.

ثم حمل معه الهدايا وسار إلى قيصر أوغسطس وكانت تحقد له صحبة أنطيانوس، فلما حضر بين يديه عنفه وأزاح التاج عن رأسه وهم بعقابه، فتلطف هيردوس في الاعتذار، وأن موالاته لأنطيانوس إنما كان لما أولى من الجميل في السعاية عند الملك وهي أعظم أياديه عندي، ولم تكن موالاتي له في عداوتك ولا في حربك ولو كان ذلك وأهلكت نفسي دونه كنت غير ملوم، فإن الوفاء شأن الكرام. فإن أزلت عني التاج فما أزلت عقلي ولا نظري، وإن أبقيتني فأنا محل الصنيعة والشكر. فانبسط أوغسطس لكلامه وتوجه كما كان، وبعثه على مقدمته إلى مصر، فلما ملك مصر وقتل كلوبطرة وهب لهيردوس جميع ما كان أنطيانوس أعطاها إياه ونفل. فأعاد هيردوس إلى ملكه ببيت المقدس وسار

إلى رومية.

قال ابن كريون: ولما عاد هيردوس إلى بيت المقدس أعاد حرمه من أماكنهن، فعادت زوجته مريم وأمها من حصن الإسكندرونة وفي خدمتها يوسف زوج أخته وسوما الصوري، وقد كانا حدثا المرأة وأمها بما أسر إليهما هيردوس، وقد كان سلف منه قتل هرقانوس وأرستبلوس فشكرتا له. وبينما هو آخذ في استمالة زوجته إذ رمتها أخته بالفاحشة مع سوما الصوري في ملاحات جرت بينهما، ولم يصدق ذلك هيردوس للعداوة والثقة بعفة الزوجة. ثم جرى منها في بعض الأيام وهو في سبيل استمالتها عتاب فيما أسر إلى سوما وزوج أخته، فقويت عنده الظنة بهم جميعاً وإن مثل هذا السر لم يكن إلا لأمر مريب، وأخذ في إخفائها وإقصائها ودست عليه أخته بعض النساء تحدثه بأن زوجته داخلته في أن تستحضر السم وأحضره فجرب وصح وقتل للحين صهره يوسف وصاحبه سوما، واعتقل زوجته ثم قتلها وندم على ذلك ثم بلغه عن أمها الإسكندرة مثل ذلك فقتلها وولى على أدوم مكان صهره رجلاً منهم اسمه كرسوس وزوجه أخته، فسار إلى عمله وانحرف عن دين التوراة والإحسان الذي حملهم عليه هرقانوس، وأباح لهم عبادة صنمهم وأجمع الخلاف، وطلق أخت هيردوس فسعت به إلى أخيها وخبرته بأحواله وأنه آوى جماعة من بني حشمناي المرشحين للملك منذ اثني عشر سنة.

فقام هيردوس في ركائبه، وبحث عنه فحضر وطالبه ببني حشمناي الذي عنده، فأحضرهم فقتله وقتلهم، وأرهف حده وقتل جماعة من كبار اليهود ومقدميهم اتهمهم بالإنكار عليه عليه. فأذعن له الناس واستفحل ملكه وأهمل المراعاة لوصايا التوراة وعمل في بيت المقدس سوراً واتخذ متنزه لعب، وأطلق فيه السباع ويحمل بعض الجهلة على مقابلتها فتفرسهم، فنكر الناس ذلك وأعمل أهل الدولة الحيلة في قتله فلم تتم لهم، وكان يمشي متنكراً للتجسس على أحوال الناس، فعظمت هيبته في النفوس.

وكان أعظم طوائف اليهود عنده الربانيون بما تقدم لهم في ولايته، وكان لطائفة العباد من اليهود المسمى بالحيسيد مكانة عنده أيضاً، كان شيخهم مناحيم لذلك العهد محدثاً وكان حدثه وهو غلام بمصير الملك له، وأخبره وهو ملك بطول مدته في الملك فدعا له ولقومه. وكان كلفاً ببناء المدن والحصون، ومدينة قيسارية من بنائه. ولما حدثت في أيامه المجاعة شمر لها وأخرج الزرع للناس وبثه فيهم بيعاً وهبة وصدقة، وأرسل في الميرة من سائر النواحي، وأمر قيصر في سائر تخومه وفي مصر ورومة أن يحملوا الميرة إلى بيت المقدس، فوصلت السفن بالزرع إلى ساحلها من كل جهة.

وأجرى على الشيوخ والأيتام والأرامل والمنقطعين كفايتهم من الخبز، وعلى الفقراء والمساكين كفايتهم من الحنطة، وفرق على خمسين ألفاً قصدوه من غير ملته، فرفعت المجاعة وارتفع له الذكر والثناء الجميل.

قال ابن كريون: ولما استفحل ملكه وعظم سلطانه أراد بناء البيت ما بناه سليمان بن داود، لأنهم لما رجعوا إلى القدس بإذن كورش عين لهم مقدار البيت لا يتجاوزونه، فلم يتم على حدود سليمان، ولما اعتزم على ذلك ابتدأ أولا بإحضار الآلات مستوفيات خشية أن يحصل الهدم وتطول المدة وتعرض القواطع والموانع. فأعد الآلات وأكمل جمعها في ست سنين، ثم جمع الصناع للبناء وما يتعلق به فكانوا عشرة آلاف، وعين ألفاً من الكهنة يتولون القدس الأقدس الذي لا يدخله غيرهم ولما تم له ذلك شرع في الهدم فحصل لأقرب وقت، ثم بنى البيت على حدوده وهيئته أيام سليمان وزاد في بعض المواضع على ما اختاره ووقف عليه نظره، فكمل في ثمان سنين. ثم شرع في الشكر لله تعالى على ما هيأ له من ذلك فقرب القربان واحتفل في الولائم وإطعام الطعام، وتبعه الناس في ذلك أياماً فكانت من محاسن دولته.

قال ابن كريون: ثم ابتلاه اللّه بقتل أولاده وكان له ولدان من مريم بنت الإسكندرة قتيلة السم، أحدهما الإسكندر والآخر أرستبلوس، وكانا عند قتل أمهما غائبين برومة يتعلمان خط الروم، فلما وصلا وقد قتل أمهما حصلت بينه وبينهما الوحشة، وكان له ولد آخر اسمه أنظفتر على اسم جده، وكان قد أبعد أمه راسيس لمكان مريم، فلما هلكت واستوحش من ولدها لطلب محل راسيس منه، قدم ابنها أنظفتر وجعله ولي عهده، وأخذ في السعاية على إخوته خشية منهما بأنهما يرومان قتل أبيهما فانحرف عنهما. واتفق أن سار إلى أوغسطس قيصر ومعه ابنه إسكندر، فشكاه عنده وتبرأ الإسكندر وحلف على براءته، فأصلح بينهما قيصر ورجع إلى القدس. وقسم القدس بين ولده الثلاثة، ووصاهم ووصى الناس بهم، وعهد أن لا يخالطوهم خشية مما يحدث عن ذلك، وأنظفتر مع ذلك متماد على سعايته بهما وقد داخل في ذلك عمه قدودا وعمته سلومنت، فأغروا أباه بأخويه المذكورين حتى اعتقلهما.

وبلغ الخبر أرسلاوش ملك كفتور، وكانت بنته تحت الإسكندر، منهما فجاء إلى هيردوس مظهراً السخط على الإسكندر والانحراف عنه وتحيل في إظهار جراءتهما، وأطلعه على جلية الحال وسعاية أخيه وأخته، فانكشف له الأمر وصدقه

وغضب على أخيه قدودا، فجاء إلى أرسلاوش وأحضره عند هيردوس حتى أخبره بمصدوقية الحال، ثم شفعه فيه وأطلق ولديه ورضي عنهما، وشكر لأرسلاوش من تلطفه في تلاقي هذا الأمر وانصرف إلى بلده ولم ينف ذلك أنظفتر عن تدبيره عليهما.

وما زال يغري أباه ويدس له من يغريه حتى أسخطه عليهما ثانية واعتقلهما، وأمضى بهما في بعض أسفاره مقيدين، ونكر ذلك بعض أهل الدولة فدس أنظفتر إلى أبيه: المنكر علي من المدبرين عليك، وقد ضمن لحجامك الإسكندر مالاً على قتلك. فأنزل هيردوس بهما العقاب ليكتشف الخبر، ونما بأن ذلك الرجل معه ولذعه العقاب وأقر على نفسه وقتل هو وأبوه والحجام، ثم قتل هيردوس ولديه وصلبهما على مصطبة. وكان لابنه الإسكندر ولدان من بنت أرسلاوش ملك كفتور وهما كوبان والإسكندر، ولابنه أرستبلوس ثلاثة من الولد: أعرباس وهيردوس وأستروبلوس.

ثم ندم هيردوس على قتل ولديه، وعطف على أولادهما فزوج كوبان بن الإسكندر بابنة أخيه قدودا وزوج ابنة ابنه أرستبلوس من ابن ابنه أنظفتر، وأمر أخاه قدودا وابنه أنظفتر بكفالتهما والإحسان إليهم، فكرها ذلك واتفقا على فسخه وقتل هيردوس متى أمكن، وبعث هيردوس ابنه أنظفتر إلى أوغسطس قيصر، ونما الخبر إليه بأن أخاه قدودا يريد قتله، فسخطه وأبعده وألزمه بيته. ثم مرض قدودا واستعد أخاه هيردوس ليعوده فعاده ثم مات، فحزن عليه ثم حزن باستكشاف ما نما إليه، فعاقب جواريه، فأقرت إحداهما بأن أنظفتر وقدودا كانا يجتمعان عند رسيس أم أنظفتر يدبران على قتل هيردوس على يد خازن أنظفتر، فأقر بمثل ذلك وإنه بعث على السم من مصر وهو عند امرأة قدودا، فأحضرت فأقرت بأن قدودا أمرها عند موته بإراقته، وأنها أبقت منه قليلاً يشهد لها إن سئلت، فكتب هيردوس إلى ابنه أنظفتر بالقدوم، فقدم مستريباً بعد أن أجمع على الهروب، فمنعه خدم أبيه. ولما حضر جمع له الناس في مشهد وحضر رسول أغسطس وقدم كاتبه نيقالوس.

وكان يحب أولاد هيردوس المقتولين ويميل إليهما عن أنظفتر، فدفع يخاصمه حتى قامت عليه الحجة وأحضر بقية السم وجرب في بعض الحيوانات فصدق فعله، فحبس هيردوس ابنه أنظفتر حتى مرض وأشرف على الموت، وأسف على ما كان منه لأولاده فهم بقتل نفسه، فمنعه جلساؤه وأهله، وسمع من القصر البكاء والصراخ لذلك، فهم أنظفتر بالخروج من محبسه ومنع، وأخبر هيردوس بذلك وأمر بقتله في الوقت فقتل.

ثم هلك بعده لخمسة أيام ولسبعين سنة من عمره ولخمس وثلاثين من ملكه وعهد بالملك لابن أركلاوش وخرج كاتبه نيقالوس فجمع الناس وقرأ عليهم العهد وأراهم خاتم هيردوس عليه، فبايعوا له وحمل أباه إلى قبره على سرير من الذهب مرصع بالجواهر والياقوت وعليه ستور الديباج منسوجة بالذهب، وأجلس مسنداً ظهره إلى الأرائك والناس أمامه من الأشراف والرؤساء، ومن خلفه الخدم والغلمان، وحواليه الجواري بأنواع الطيب إلى أن اندرج في قبره.

وقام أركلاوش بملكه وتقرب إلى الناس بإطلاق المسجونين، فاستقام أمره وانطلقت الألسنة بذم هيردوس والطعن عليه. ثم انتقضوا على أركلاوش بملكه بما وقع منه من القتل فيهم، فساروا إلى قيصر شاكين بذلك وعابوه عنده بأنه ولي من غير أمره، وحضر أركلاوش وكاتبه نيقالوس يخصمهم ودفع دعاويهم، وأشار عظماء الروم بإبقائه فملكه قيصر وأعاده إلى القدس. وأساء السيرة في اليهود وتزوج امرأة أخيه الإسكندر وكان له أولاد منها فماتت لوقتها. ووصلت شكاية اليهود بذلك كله إلى قيصر فبعث قائداً من الروم إلى المقدس، فقيد أركلاوش وحمله إلى رومة لسبع سنين من دولته، وولى على اليهود بالقدس أخاه أنطيفوس، وكان شراً منه واغتصب امرأة أخيه فيلقوس وله منها ولدان، ونكر ذلك عليه علماء اليهود والكهنونية. وكان لذلك العهد يوحنا بن زكريا فقتله في جماعة منهم، وهذا هو المعروف عند النصارى بالمعمدان الذي عمد عيسى أي طهره بماء المعمودية بزعمهم وفي دولة أنطيفوس هذا مات قيصر أوغسطس، فملك بعده طبريانوس وكان قبيح السيرة، وبعث قائده بعيلاس بصنم من ذهب على صورته ليسجد له اليهود فامتنعوا، فقتل منهم جماعة، فأذنوا بحربه وقاتلوه وهزموه. وبعث طبريانوس العساكر مع قائده إلى القدس فقبض على أنطيفس وحمله مقيداً. ثم عزله طبريانوس إلى الأندلس فمات بها وملك بعده على اليهود أغرباس ابن أخيه أرستبلوس المقتول، وهلك في أيامه طبريانوس قيصر وملك نيرون، وكان أشر من جميع من تقدمه وأمر أن يسمى الإلهو، وبنى المذبح للقربان وقرب وأطاعته الناس إلا اليهود، وبعثوا إليه في ذلك أفيلو الحكيم في جماعة فشتمهم وحبسهم وسخط اليهود. ثم قبحت أحواله وساءت أفعاله وثارت عليه دولته فقتلوه ورموا شلوه في الطريق فأكلته الكلاب. ثم ملك بعده قلديوش قيصر وأطلق أفيلو والذين معه إلى بيت المقدس، وهدم المذابح التي كان نيروش بناها وكان أغرباس حسن السيرة معظماً عند القياصرة وهلك لثلاث وعشرين سنة من دولته. وملك بعده ابنه أغرباس

بأمر اليهود وملك عشرين سنة، وكثرت الحروب والفتن في أيامه في بلاد اليهود والأرمن، وظهرت الخوارج والمتغلبون، وانقطعت السبل وكثر الهرج داخل المدينة في القدس. وكان الناس يقتل بعضهم بعضاً في الطرقات يحملون سكاكين صغاراً محدين لها فإذا ازدحم مع صاحبه في الطريق طعنه فأهواه حتى صاروا يلبسون الدروع لذلك، وخرج كثير من الناس عن المدينة فراراً من القتل.

وهلك ولد طبريوس قيصر ونيرون من بعده، وملك على الروم فيلقوس قيصر فسعى بعض الشرار عنده بأن هؤلاء الذين خرجوا من القدس يذمون على الروم، فبعث إليهم من قتلهم وأسرهم.

واشتد البلاء على اليهود وطالت الفتن فيهم، وكان الكهنون الكبير فيهم لذلك العهد عناني، وكان له ابن اسمه ألعازار وكان ممن خرج من القدس وكان فاتكاً مصعلكاً، وانضم إليه جماعة من الأشرار، وأقاموا يغيرون على بلاد اليهود والأرمن وينهبون ويقتلون، وشكتهم الأرمن إلى فيلقوس قيصر، فبعث من قيده وحمله وأصحابه إلى رومة، فلم يرجع إلى القدس إلا بعد حين.

واشتد قائد الروم ببيت المقدس على اليهود وكثر ظلمه فيهم، فأخرجوه عنهم بعد أن قتلوا جماعة من أصحابه، ولحق بمصر فلقي هنالك أغرباس ملك اليهود راجعاً من رومية ومعه قائدان من الروم، فشكى إليه فيلقوس بما وقع من اليهود، ومضى إلى بيت المقدس فشكى إليه اليهود بما فعل فيلقوس وأنهم عازمون على الخلاف، وتلطف لهم في الإمساك عن ذلك حتى تبلغ شكيتهم إلى قيصر ويعتذر منه، فامتنع ألعازار بن عناني وأبى إلا المخالفة، وأخرج القربان الذي كان بعثه معه نيرون قيصر من البيت، ثم عمد إلى الروم الذين جاءوا مع أغرباس فقتلهم حيث وجدوا، وقتل القائدين. ونكر ذلك أشياخ اليهود واجتمعوا لحرب ألعازار وبعثوا إلى أغرباس، وكان خارج القدس، فبعث إليهم بثلاثة آلاف مقاتل، فكانت الحرب بينهم وبين ألعازار سجالاً، ثم هزمهم وأخرجهم من المدينة، وعاث في البلد وخرب قصور الملك ونهبها وأموالها وذخائرها، وبقي أغرباس والكهنونة والعلماء والشيوخ خارج المقدس. وبلغهم أن الأرمن قتلوا من وجدوه من اليهود بدمشق ونواحيها وبقيسارية، فساروا إلى بلادهم وقتلوا من وجدوه بنواحي دمشق من الأرمن. ثم سار أغرباس إلى قيرش قيصر وخبره الخبر فامتعض لذلك، وبعث إلى كسنينا وقائده على الأرمن، وقد كان مضى إلى حرب الفرس فدوخها وقهرهم، وعاد إلى بلاد الأرمن فنزل دمشق فجاء عهد قيصر بالمسير مع أغرباس ملك اليهود إلى القدس، فجمع العساكر وسار وخرب كل ما مر عليه. ولقيه ألعازار الثائر بالقدس فانهزم ورجع، ونزل كسنينا وقائد الروم فأثخن فيهم، وارتحل كسنيناو إلى قيسارية، وخرج اليهود في أتباعهم فهزموهم، ولحق كسنيناو وأغرباس بقيصر قيرش، فوافقوا وصول قائده الأعظم أسبسيانوس عن بلاد الغرب، وقد فتح الأندلس ودوخ أقطارها فعهد إليه قيرش قيصر بالمسير إلى بلاد اليهود وأمره أن يستأصلهم ويهدم حصونهم. فسار ومعه ابنه طيطوش وأغرباس ملك اليهود، وانتهوا إلى أنطاكية، وتأهب اليهود لحربهم، وانقسموا ثلاث فرق في ثلاث نواحي مع كل فرقة كهنون، فكان عناني الكهنون الأعظم في دمشق ونواحيها، وكان ابنه ألعازار كهنون في بلاد أدوم وما يليها إلى أيلة، وكان يوسف بن كريون كهنون طبرية وجبل الخليل وما يتصل به، وجعلوا فيما بقي من البلاد من الأغوار إلى حدود مصر من يحفظها من بقية الكهنونية.

وعمر كل منهم أسوار حصونه ورتب مقاتلته وسار اسبسيانوس بالعساكر من أنطاكية فتوسط في بلاد الأرمن وأقام، وخرج يوسف بن كريون من طبرية فحاصر بعض الحصون بناحية الأغرباس ففتحه واستولى عليه، وبعث أهل طبرية من ورائه إلى الروم فاستأمنوا إليهم، فزحف يوسف مبادراً وقتل من وجد فيها من الروم، وقبل معذرة أهل طبرية. وبلغه مثل ذلك عن جبل الخليل فسار إليهم وفعل فيهم فعله في طبرية. فزحف إليه اسبسيانوس من عكا في أربعين ألف مقاتل من الروم ومعه أغرباس ملك اليهود وسارت معهم الأمم من الأرمن وغيرهم، إلا أدوم فإنهم كانوا حلفاء لليهود منذ أيام هرقانوس. ونزل اسبسيانوس بعساكره على يوسف بن كريون ومن معه بطبرية فدعاهم إلى الصلح، فسألوا الإمهال إلى مشاورة الجماعة بالقدس، ثم امتنعوا وقاتلهم اسبسيانوس بظاهر الحصن، فاستلحمهم حتى قل عددهم، وأغلقوا الحصن فقطع عنهم الماء خمسين ليلة، ثم بيتهم الروم فاقتحموا عليهم الحصن فاستلحموهم، وأفلت يوسف بن كريون ومن معه من الغل فامتنعوا ببطن الأعراب، وأعطاهم اسبسيانوس الأمان، فمال إليه يوسف وأبى القوم إلا أن يقتلوا أنفسهم وهموا بقتله، فوافقهم على رأيهم إلى أن قتل بعضهم بعضاً ولم يبق من يخشاه، فخرج إلى اسبسيانوس مطارحاً عليه، وحرضه اليهود على قتله فأبى واعتقله وخرب أعمال طبرية وقتل أهلها ورجع إلى قيسارية.

قال ابن كريون: وفي خلال ذلك حدثت الفتنة في القدس بين اليهود داخل المدينة، وذلك أنه كان في جبل الخليل بمدينة

كوشالة يهودي إسمه يوحنان، وكان مرتكباً للعظائم واجتمع إليه أشرار منهم فقوي بهم على قطع السابلة والنهب والقتل، فلما استولى الروم على كوشالة لحق بالقدس وتألف عليه أشرار اليهود من فل البلاد التي أخذها الروم، فتحكم على أهل المقدس وأخذ الأموال وزاحم عناني الكهنون الأعظم، ثم عزله واستبدل به رجلاً من غواتهم وحمل الشيوخ على طاعته، فامتنعوا فتغلب عليهم فقتلهم. فاجتمع اليهود إلى عناني الكهنون وحاربهم يوحنان وتحصنوا في المقدس، وراسله عناني في الصلح فأبى، وبعث إلى أدوم يستجيشهم فبعثوا إليه بعشرين ألفاً منهم، فأغلق عناني أبواب المدينة دونهم، وحاط بهم من الأسوار، ثم استغفلوه وكبسوا المدينة، واجتمع معهم يوحنان فقتلوا من وجوه اليهود نحوا من خمسة آلاف وصادروا أهل النعم على أموالهم، وبعثوا يوحنان إلى المدن الذين استأمنوا إلى الروم فغنم أموالهم وقتل من وجد منهم.

وبعث أهل القدس في استدعاء اسبسيانوس وعساكره فزحف من قيسارية حتى إذا توسط الطريق خرج يوحنان من القدس وامتنع ببعض الشعاب، فمال إليه اسبسيانوس العسكر وظفر بالكثير منهم فقتلوهم. ثم سار إلى بلاد أدوم ففتحها، وسبسطية بلاد السامرة ففتحها أيضاً، وعمر جميع ما فتح من البلاد، ورجع إلى قيسارية ليزيح علله ويسير إلى القدس. ورجع يوحنان أثناء ذلك من الشعاب، فغلب على المدينة، وعاث فيهم بالقتل، وتحكم في أموالهم، وأفسد حريمهم.

قال ابن كريون: وقد كان ثار بالمدينة في مغيب يوحنان ثائراً آخر اسمه شمعون، واجتمع إليه اللصوص والشرار حتى كثر جمعه وبلغوا نحوا من عشرين ألفاً، وبعث إليه أهل أدوم عسكراً فهزمهم واستولى على الضياع ونهب الغلال، وبعث إلى امرأته من المدينة فردها يوحنان من طريقها وقطع من وجد معها، ثم أسعفوه بامرأته وسار إلى أدوم فحاربهم وهزمهم، وعاد إلى القدس فحاصرها وعظم الضرر على أهلها شمعون خارج المدينة ويوحنان داخلها، ولجأوا إلى الهيكل وحاربوا يوحنان فغلبهم وقتل منهم خلقاً، فاستدعوا شمعون لينصرهم من يوحنان فدخل ونقض العهد وفعل أشر من يوحنان.

قال ابن كريون: ثم ورد الخبر إلى اسبسيانوس وهو بمكانه من قيسارية بموت قيروش قيصر وأن الروم ملكوا عليهم مضعفاً اسمه نطاوس فغضب البطارقة الذين مع اسبسيانوس وملكوه، وسار إلى رومة وخلف نصف العسكر مع ابنه طيطش، وقدم بين يديه قائدين إلى رومة لمحاربة نطاوس الذي ملكه الروم فهزم وقتل، وسار اسبسيانوس إلى إسكندرية وركب البحر منها.

ورجع طيطش إلى قيسارية إلى أن ينسلخ فصل الشتاء ويزيح العلل وعظمت الفتن والحروب بين اليهود داخل القدس وكثر القتل حتى سالت الدماء في الطرقات، وقتل الكهنونية على المذبح وهم لا يقربون الصلاة في المسجد لكثرة الدماء، وتعذر المشي في الطرقات من سقوط حجارة الرمي ومواقد النيران بالليل، وكان يوحنان أخبث القوم وأشرهم ولما انسلخ الشتاء زحف طيطش في عساكر الروم إلى أن نزل على القدس وركب إلى باب البلد يتخير المكان لمعسكره ويدعوهم إلى السلم، فصموا عنه وأكمنوا له بعض الخوارج في الطريق فقاتلوه، وخلص منهم بشدته، فعبى عسكره من الغد ونزل بجبل الزيتون شرقي المدينة ورتب العساكر والآلات للحصار.

واتفق اليهود داخل المدينة ورفعوا الحرب بينهم، وبرزوا إلى الروم فانهزموا، ثم عاودوا فظهروا، ثم انتفضوا بينهم وتحاربوا ودخل يوحنان إلى القدس يوم الفطر فقتل جماعة من الكهنونة وقتل جماعة أخرى خارج المسجد. وزحف طيطش وبرزوا إليه فردوه إلى قرب معسكره، وبعث إليهم قائده نيقانور في الصلح فأصابه سهم فقتله، فغضب طيطش وصنع كبشاً وأبراجاً من الحديد توازي السور وشحنها بالمقاتلة، فأحرق اليهود تلك الآلات ودفنوها وعادوا إلى الحرب بينهم وكان يوحنان قد ملك القدس ومعه ستة آلاف أو يزيدون من المقاتلة، ومع شمعون عشرة آلاف من اليهود وخمسة آلاف من أدوم، وبقية اليهود بالمدينة مع العازر وأعاد طيطش الزحف بالآلات وثلم السور الأول وملكه إلى الثاني، فاصطلم اليهود بينهم وتذامروا واشتد الحرب، وباشرها طيطش بنفسه ثم زحف بالآلات إلى السور الثاني فثلمه، وتذامر اليهود فمنعوهم عنه ومكثوا كذلك أربعة أيام.

وجاء المدد من الجهات إلى طيطش ولاذ اليهود بالأسوار وأغلقوا الأبواب، ورفع طيطش الحرب ودعاهم إلى المسالمة، فامتنعوا. فجاء بنفسه في اليوم الخامس وخاطبهم ودعاهم وجاء معه يوسف بن كريون فوعظهم ورغبهم في أمنة الروم ووعدهم، وأطلق طيطش أسراهم فجنح الكثير من اليهود إلى المسالمة، ومنعهم هؤلاء الرؤساء الخوارج، وقتلوا من يروم، الخروج إلى الروم، ولم يبق من المدينة ما يعصمهم إلا السور الثالث.

وطال الحصار واشتد الجوع عليهم والقتل، ومن وجد خارج المدينة لرعي العشب قتله الروم وصلبوه، حتى رحمهم طيطش ورفع القتل عمن يخرج في ابتغاء العشب.

ثم زحف طيطش إلى السور الثالث من أربعة جهاته ونصب الآلات، وصبر اليهود على الحرب وتذامر اليهود وصعب الحرب وبلغ الجوع في الشدة غايته، واستأمن متاي الكوهن إلى الروم وهو الذي خرج في استدعاء شمعون، فقتله شمعون وقتل بنيه وقتل جماعة من الكهنونية والعلماء والأئمة ممن حذر منه أن يستأمن. ونكر ذلك ألعازر بن عناني ولم يقدر على أكثر من الخروج عن بيت المقدس. وعظمت المجاعة فمات أكثر اليهود، وأكلوا الجلود والخشاش والميتة، ثم أكل بعضهم بعضاً، وعثر على امرأة تأكل ابنها، فأصابت رؤساؤهم لذلك رحمة، وأذنوا في الناس بالخروج، فخرجت منهم أمم وهلك أكثرهم حين أكلوا الطعام.

وابتلع بعضهم في خروجه ما كان له من ذهب أو جوهر ضنة به، وشعر بهم الروم فكانوا يقتلونهم ويشقون عنهم بطونهم، وشاع ذلك في توابع العسكر من العرب والأرمن فطردهم طيطش وطمع الروم في فتح المدينة وزحفوا إلى سورها الثالث بالآلات ولم يكن لليهود طاقة بدفعها وإحراقها فثلموا السور، وبنى اليهود خلف الثلمة فأصبحت منسدة، وصدمها الروم بالكبش فسقطت من الحدة، واستماتوا في تلك الحال إلى الليل. ثم بيت الروم المدينة وملكوا الأسوار عليهم وقاتلوهم من الغد فانهزموا إلى المسجد، وقاتلوا في الحصن، وهدم طيطش البناء ما بين الأسوار إلى المسجد ليتسع المجال.

ووقف ابن كريون يدعوهم إلى الطاعة فلم يجيبوا، وخرج جماعة من الكهنونية فأمنهم ومنع الرؤساء بقيتهم، ثم باكرهم طيطش بالتال من الغد فانهزموا الأقداس وملك الروم المسجد وصحنه واتصلت الحرب أياما وهدمت الأسوار كلها وثلم سور الهيكل، وأحاط العساكر بالمدينة حتى مات أكثرهم وفر كثير. ثم اقتحم عليهم الحصن فملكه ونصب الأصنام في الهيكل ومنع من تخريبه. ونكر رؤساء الروم ذلك ودسوا من أضرم النار في أبوابه وسقفه، وألقى الكهنونة أنفسهم جزعاً على دينهم وحزنوا، واختفى شمعون ويوحنان في جبل صهيون، وبعث إليهم طيطش بالأمان فامتنعوا وطرقوا القدس في بعض الليالي، فقتلوا قائداً من قواد العسكر ورجعوا إلى مكان اختفائهم.

ثم هرب عنهم أتباعهم وجاء يوحنان ملقياً بيده إلى طيطش فقيده، وخرج إليه يوشع الكوهن بآلات من الذهب الخالص من آلات المسجد فيها منارتان ومائدتان، ثم قبض على فنحاس خازن الهيكل، فأطلعه على خزائن كثيرة مملوءة دنانير ودراهم وطيباً فامتلأت يده منها، ورحل عن بيت المقدس بالغنائم والأموال والأسرى، وأحصى الموتى في هذه الوقعة.

قال ابن كريون: فكان عدد الموتى الذين خرجوا على الباب للدفن بأخبار مناحيم الموكل به مائة وخمسة وعشرون ألفاً وثمانمائة. وقال غير مناحيم كانت عدتهم ستمائة ألف دون من ألقي في الآبار، أو طرح إلى خارج الحصن وقتل في الطرقات ولم يدفن. وقال غيره كان الذي أحصي من الموتى والقتلى ألف ألف ومائة ألف والسبي والأسارى مائة ألف، كان طيطش في كل منزلة يلقي منهم إلى السباع إلى أن فرغوا. وكان فيمن هلك شمعون أحد الخوارج الثلاثة وأما الفرار بن عفان فقد كان خرج من القدس عندما قتل شمعون أمتاي الكوهن كما ذكرنا، فلما رحل طيطش عن القدس نزل في بعض القرى وحصنها واجتمع إليه فل اليهود، واتصل الخبر بطيطش وهو في أنطاكية، فبعث إليه عسكراً من الروم مع قائده سلياس فحاصرهم أياماً، ثم نهض الكهنونة وأولادهم وخرجوا إلى الروم مستميتين، فقاتلوا إلى أن قتلوا عن آخرهم. وأما يوسف بن كريون فافتقد أهله وولده في هذه الوقائع ولم يقف لهم بعدها على خبر وأراده طيطش على السكنى عنده برومة، فتضرع إليه في البقاء بأرض القدس، فأجابه إلى ذلك وتركه. وانقرضت دولة اليهود أجمع، والبقاء لله وحده سبحانه وتعالى لا انقضاء لملكه..

الخبر عن شأن عيسى بن مريم صلوات الله عليه في ولادته وبعثه ورفعه من الأرض والإلمام بشأن الحواريين بعده وكتبهم الأناجيل الأربعة وديانة النصارى بملته واجتماع الأقسة على تدوين شريعته

كان بنو ماثان من ولد داود صلوات الله عليه كهنونية بيت المقدس، وهو ماثان بن العازر بن أليهود بن أخس بن رادوق بن عازور بن ألياقيم بن أيود بن زوروقابل بن سالات بن يوحنانيا بن يوشيا السادس عشر من ملوك بني إسرائيل بن أمون بن عمون ابن منشا بن حزقيا بن أحاز بن يوآش بن أحزيا بن يورام بن يهوشافاط بن أسا بن رحبعم بن سليمان بن داود صلوات الله عليهما. ويوحنانيا بن يوشيا السادس عشر من ملوك بني سليمان ولد في جلاء بابل وهذا النسب نقلته من إنجيل متى.

وكانت الكهنونية العظمى من بعد بني حشمناي لهم، وكان كبيرهم قبل عصر هيردوس عمران أبو مريم، ونسبه ابن إسحاق إلى أمون بن منشا الخامس عشر من ملوك بيت المقدس من لدن

سليمان أبيهم، وقال فيه عمران بن ياشم بن أمون. وهذا بعيد لأن الزمان بين عمون وعمران أبعد من أن يكون بينهما أب واحد، فإن أمون كان قبيل الخراب الأول وعمران كان في دولة هيردوس قبيل الخراب الثاني، وبينهما قريب من أربعمائة سنة.

ونقل ابن عساكر، والظن أنه ينقل عن مستند، أنه من ولد زريافيل الذي ولي على بني إسرائيل عند رجوعهم إلى بيت المقدس، وهو ابن يخنيا آخر ملوكهم الذي حبسه بختنصر وولى عمه صدقيا هو بعده كما مر. وقال فيه: عمران بن ماثان بن فلان بن فلان إلى زريافيل، وعد نحواً من ثمانية آباء بأسماء عبرانية لا وثوق بضبطها، وهو أقرب من الأول وفيه ذكر ماثان الذي هو شهرتهم، ولم يذكره ابن إسحاق، وكان عمران أبو مريم كهنوناً في عصره، وكانت تحته حنة بنت فاقود بن فيل وكانت من العابدات، وكانت أختها إيشاع، ويقال: خالتها تحت زكريا بن يوحنا، ونسبه ابن عساكر إلى يهوشافاط خامس ملوك المقدس من عهد سليمان أبيهم وعد ما بينه وبين يهوشافاط اثني عشر أباً أولهم يوحنا بأسماء عبرانية، كما فعل في نسب عمران، ثم قال وهو أبو يحيى صلوات الله عليهما، ويقال بالمد والقصر من غير ألف، وكان نبياً من بني إسرائيل صلوات الله عليه اه.

ونقلت من كتاب يعقوب بن يوسف النجار مثان يعني ماثان من سبط داود، وكان له ولدان يعقوب ويؤاقيم، ومات فتزوج أمهما بعده مطنان، ومطنان بن لاوي من سبط سليمان بن داود وسمي ماثان فولدت هالي من مطنان. ثم تزوج ومات ولم يعقب فتزوج امرأته أخوه لأمه يعقوب بن ماثان فولدت منه يوسف خطيب مريم ونسب إلى هالي، لأن من أحكام التوراة إن مات من غير عقب فامرأته لأخيه وأول ولد منهما ينسب إلى الأول، فلهذا قيل فيه يوسف بن هالي بن مطنان، وإنما هو يوسف بن يعقوب بن ماثان، وهو ابن عم مريم لحا وكان ليوسف من البنين خمسة بنين وبنت وهم يعقوب ويوشا وبيلوت وشمعون ويهوذا وأختهم مريم، كانوا يسكنون بيت لحم. فارتحل بأهله ونزل ناصرة وسكن بها وتعلم النجارة حتى صار يلقب بالنجار.

وتزوج يؤاقيم حنة أخت إيشاع العاقر امرأة زكريا بن يوحنا المعمدان، وأقامت ثلاثين سنة لا يولد لها، فدعوا الله وولد لها مريم فهي بنت يؤاقيم موثان وهو مثان. وولدت إيشاع العاقر من زكريا ابنه يحيى. قلت في التنزيل مريم ابنة عمران فليعلم أن معنى عمران بالعبرانية يؤاقيم وكان له اسمان اه.

وعن الطبري: وكانت حنة أم مريم لا تحبل، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها حبيساً ببيت المقدس على خدمته على عاداتهم في نذر مثله، فلما حملت ووضعتها لفتها في خرقتها وجاءت بها إلى المسجد فدفعتها إلى عباده وهي ابنة إمامهم وكهنونهم، فتنازعوا في كفالتها، وأراد زكريا أن يستبد بها لأن زوجة إيشاع خالتها، ونازعوه في ذلك لمكان أبيها من إمامهم، فاقترعوا فخرجت قرعة زكريا عليها فكفلها ووضعها في مكان شريف من المسجد لا يدخله سواها وهو المحراب فيما قيل. والظاهر أنها دفعتها إليهم بعد مدة إرضاعها، فأقامت في المسجد تعبد الله وتقوم بسدانة البيت في نوبتها حتى كان يضرب بها المثل في عبادتها، وظهرت عليها الأحوال الشريفة والكرامات كما قصه القرآن.

وكانت خالتها إيشاع زوج زكريا أيضاً عاقراً، وطلب زكريا من الله ولداً، فبشره بيحيى نبياً كما طلب، لأنه قال يرثني ويرث من آل يعقوب وهم أنبياء فكان كذلك. وكان حاله في نشوه وصباه عجباً وولد في دولة هيردوس ملك بني اسرائيل، وكان يسكن القفار ويقتات الجراد ويلبس الصوف من وبر الإبل، وولاه اليهود الكهنونية ببيت المقدس، ثم أكرمه الله بالنبوة كما قصه القرآن.

وكان لعهده على اليهود بالقدس أنطيقس بن هيردوس وكان يسمى هيردوس باسم أبيه، وكان شريراً فاسقاً واغتصب امرأة أخيه وتزوجها ولها ولدان منه، ولم يكن ذلك في شرعهم مباحاً، فنكر ذلك عليه العلماء والكهنونية وفيهم يحيى بن زكريا، المعروف بيوحنا ويعرفه النصارى بالمعمدان، فقتل جميع من نكر عليه ذلك وقتل فيهم يحيى صلوات الله عليه. وقد ذكر في قتله أسباب كثيرة وهذا أقربها إلى الصحة، وقد اختلف الناس هل كان أبوه حياً عند قتله فقيل إنه لما قتل يحيى طلبه بنو إسرائيل ليقتلوه، ففر أمامهم ودخل في بطن شجرة كرامة له فدلهم عليه طرف ردائه خارجاً منها، فشقوها بالمنشار وشق زكريا فيها نصفين. وقيل: بل مات زكريا قبل هذا والمشقوق في الشجرة إنما هو شعيا النبي وقد مر ذكره. وكذلك اختلف في دفنه فقيل دفن ببيت المقدس وهو الصحيح.

وقال أبو عبيد بسنده إلى سعيد بن المسيب أن بختنصر لما قدم دمشق وجد دم يحيى بن زكريا يغلي، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن دمه. ويشكل أن يحيى كان مع المسيح في عصر واحد باتفاق وأن ذلك كان بعد بختنصر بأحقاب متطاولة وفي هذا ما فيه. وفي الإسرائيليات من تأليف يعقوب بن يوسف النجار أن هيردوس قتل زكريا عندما جاء المجوس للبحث عن إيشوع والإنذار به، وأنه طلب ابنه يوحنا ليقتله مع من قتل من صبيان

بيت لحم، فهربت به أمه إلى الشقراء واختفت. فطالب به أباه زكريا وهو كهنون في الهيكل، فقال لا علم لي هو مع أمه فتهدده وقتله. ثم قال بعد قتل زكريا بسنة تولى الكهنونية يعقوب بن يوسف إلى أن مات هيرودوس.

وأما مريم سلام الله عليها فكانت بالمسجد على حالها من العبادة إلى أن أكرمها الله بالولاية وبين الناس في نبوتها خلاف من أجل خطاب الملائكة لها. وعند أهل السنة أن النبوة مختصة بالرجل، قاله أبو الحسن الأشعري وغيره وأدلة الفريقين في أماكنها. وبشرت الملائكة باصطفاء الله لها، وأنها تلد ولداً من غير أب يكون نبياً، فعجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله قادر على ما يشاء، فاستكانت وعملت أنها محنة بما تلقاه من كلام الناس فاحتسبت.

وفي كتاب يعقوب بن يوسف النجار أن أمها حنة توفيت لثمان سنين من عمر مريم، وكان من سنتهم أنها إن لم تقبل التزويج يفرض لها من أرزاق الهيكل، فأوحى الله إليه أن يجمع أولاد هارون ويردها إليهم، فمن ظهرت في عصاه آية تدفعها إليه تكون له شبه زوجة ولا يقربها، وحضر الجمع يوسف النجار فخرج من عصاه حمامة بيضاء ووقفت على رأسه، فقال له زكريا: هذه عذراء الرب تكون لك شبه زوجة ولا تردها. فاحتملها متكرهاً بنت اثنتي عشرة سنة إلى ناصرة فأقامت معه، إلى أن خرجت يوماً تستقي من العين فعرض لها الملاك أولا وكلمها ثم عاودها وبشرها بولادة عيسى كما نص القرآن. فحملت وذهبت إلى زكريا ببيت المقدس فوجدته على الموت وهو يجود بنفسه، فرجعت إلى ناصرة، ورأى يوسف الحمل فلطم وجهه وخشي الفضيحة مع الكهنونية فيما شرطوا عليه، فأخبرته بقول الملك، فلم يصدق.

وعرض له الملاك في نومه وأخبره أن الذي بها من روح القدس، فاستيقظ وجاء إلى مريم فسجد لها وردها إلى بيتها. ويقال: إن زكريا حضر لذلك وأقام فيهما سنة اللعان الذي أوصى به موسى، فلم يصبهما شيء وبرأهما الله. ووقع في إنجيل متى أن يوسف خطب مريم ووجدها حاملاً قبل أن يجتمعا، فعزم على فراقها خوفاً من الفضيحة، فأمر في نومه أن يقبلها وأخبره الملاك بأن المولود من روح القدس، وكان يوسف صديقاً وولد على فراشه إيشوع انتهى.

وقال الطبري: كانت مريم ويوسف بن يعقوب ابن عمها، وفي رواية عنه أنه ابن خالها، وكانوا سدنة في بيت المقدس لا يخرجان منه إلا لحاجة الإنسان، وإذا نفد ماؤهما فيملآن من أقرب المياه. فمضت مريم يوماً وتخلف عنها يوسف، ودخلت المغارة التي كانت تعهد أنها للورد، فتمثل لها جبريل بشراً، فذهبت لتجزع، فقال لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ فاستسقاها.

وعن وهب بن منبه أنه نفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى الرحم، فاشتملت على عيسى، فكان معها ذو قرابة يسمى يوسف النجار، وكان في مسجد بجبل صهيون، وكان لخدمته عندهم فضل، وكانا يجمرانه ويقمانه. وكانا صالحين مجتهدين في العبادة، ولما رأى ما بها من الحمل استعظمه وعجب منه لما يعلم من صلاحها وأنها لم تغب قط عنه، ثم سألها فردت الأمر إلى قدرة الله، فسكت وقام بما ينوبها من الخدمة. فلما بان حملها أفضت بذلك إلى خالتها إيشاع، وكانت أيضاً حبلى بيحيى، فقالت لها: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك.

ثم أمرت بالخروج من بلدها خشية أن يعيرها قومها ويقتلوا ما في بطنها، فاحتملها يوسف إلى مصر وأخذها المخاض في طريقها، فوضعته كما قصه القرآن، واحتملته على الحمار، وأقامت تكتم أمرها من الناس وتتحفظ به، حتى بلغ اثنتي عشرة سنة وظهرت عليه الكرامات وشاع خبره، فأمرت أن ترجع به إلى إيلياء فرجعت. وتتابعت عنه المعجزات وانثال الناس عليه يستشفون ويسألون عن الغيوب.

قال الطبري: وفي خبر السدي أنها إنما خرجت من المسجد لحيض أصابها، فكان نفخ الملاك، وأن إيشاع خالتها التي سألتها عن الحمل وناظرتها فيه فحجتها بالقدرة، وأن الوضع كان في شرقي بيت لحم قريباً من بيت المقدس وهو الذي بنى عليه بعض ملوك الروم البناء الهائل لهذا العهد قال ابن العميد مؤرخ النصارى: ولد لثلاثة أشهر من ولادة يحيى بن زكريا، ولإحدى وثلاثين من دولة هيردوس الأكبر، ولاثنتين وأربعين من ملك أوغسطس قيصر.

وفي الإنجيل أن يوسف تزوجها ومضى بها ليكتم أمرها في بيت لحم، فوضعته هنالك ووضعته في مذود لأنها لم يكن لها موضع نزل. وأن جماعة من المجوس بعثهم ملك الفرس يسألون أين ولد الملك العظيم؟ وجاؤوا إلى هيردوس يسألونه وقالوا جئنا لنسجد له.

وحدثوه بما أخبر الكهان وعلماء النجوم من شأن ظهوره، وأنه يولد ببيت لحم. وسمع أوغسطس قيصر بخبر المجوس فكتب إلى هيردوس يسأله، فكتب له بمصدوقية خبره وأنه قتل فيمن قتل

من الصبيان من ابن سنتين فما دونها، وكان يوسف النجار قدر أمر أن يخرج به إلى مصر، فأقام هنالك اثنتي عشرة سنة، وظهرت عليه الكرامات، وهلك هيردوس الذي كان يطلبه وأمر بالرجوع إلى إيليا، فرجعوا، وظهر صدق شعيا النبي في قوله عنه: من مصر دعوتك.

وفي كتاب يعقوب بن يوسف النجار حذراً من أن يكتب كما أمر أوغسطس في بعض أيامه فأجاءها المخاض وهي في طريقها على حمار، فصابرته إلى قرية بيت لحم وولدت في غار وسماه إيشوع، وأنه لما بلغ سنتين، وكان من أمر المجوس ما قدمناه، حذر هيردوس من شأنه وأمر أن يقتل الصبيان ببيت لحم، فخرج يوسف به وبأمه إلى مصر، أمر بذلك في نومه وأقام بمصر سنتين حتى مات هيردوس، ثم أمر بالرجوع فرجع إلى ناصرة، وظهرت عليه الخوارق من إحياء الموتى وإبراء المعتوهين وخلق الطير وغير ذلك من خوارقه، حتى إذا بلغ ثماني سنين كف عن ذلك ثم جاء يوحنان المعمدان من البرية، وهو يحيى بن زكريا، ونادى بالتوبة والدعاء إلى الدين، وقد كان شعيا أخبر أنه يخرج أيام المسيح.

وجاء المسيح من الناصرة ولقيه بالأردن فعمده يوحنان وهو ابن ثلاثين سنة، ثم خرج إلى البرية واجتهد في العبادة والصلاة والرهبانية واختار تلامذته الاثني عشر: سمعان بطرس وأخوه أندراوس ويعقوب بن زبدي وأخوه يوحنا وفيلبس وبرتولوماوس وتوما ومتى العشار ويعقوب بن حلفا وتداوس وسمعان القناني ويهوذا الإسخريوطي. وشرع في إظهار المعجزات. ثم قبض هيردوس الصغير على يوحنان وهو يحيى بن زكريا لنكيره عليه في زوجة أخيه، فقتله ودفن بنابلس.

ثم شرع المسيح الشرائع من الصلاة والصوم وسائر القربات، وحلل وحرم وأنزل عليه الإنجيل، وظهرت على يديه الخوارق والعجائب، وشاع ذكره في النواحي، واتبعه الكثير من بني إسرائيل، وخافه رؤساء اليهود على دينهم، وتآمروا في قتله، وجمع عيسى الحواريين فباتوا عنده ليلتين يطعمهم ويبالغ في خدمتهم بما استعظموه، قال: وإنما فعلته لتتأسوا به، وقال يعظهم: ليكفرن بي بعضكم قبل أن يصيح الديك ثلاثاً ويبيعني أحدكم بثمن بخس وتأكلوا ثمني، ثم افترقوا. وكان اليهود قد بعثوا العيون عليهم، فأخذوا شمعون من الحواريين فتبرأ منهم وتركوه، وجاء يهوذا الإسخريوطي وبايعهم على الدلالة عليه بثلاثين درهماً، وأراهم مكانه الذي كان يبيت فيه، وأصبحوا به إلى فلاطش النبطي قائد قيصر على اليهود. وحضر جماعة الكهنونية وقالوا: هذا يفسد ديننا ويحل نواميسنا ويدعي الملك فاقتله! وتوقف فصاحوا به وتوعدوه بإبلاغ الأمر إلى قيصر فأمر بقتله، وكان عيسى قد أبلغ الحواريين بأنه يشبه على اليهود في شأنه فقتل ذلك الشبه وصلب، وأقام سبعاً، وجاءت أمه تبكي عند الخشبة فجاءها عيسى وقال: مالك تبكي؟ قالت: عليك! قال: إن الله رفعني ولم يصبني إلا خير وهذا شيء شبه لهم، وقولي للحواريين يلقوني بمكان كذا. فانطلقوا إليه وأمرهم بتبليغ رسالته في النواحي، كما عين لهم من قبل. وعند علماء النصارى أن الذي بعث من الحواريين إلى رومة بطرس ومعه بولس من الأتباع ولم يكن حوارياً، وإلى أرض السودان والحبشة - ويعبرون عن هذه الناحية بالأرض التي تأكل أهلها الناس - متى العشار، وأندراوس إلى أرض بابل، والمشرق توماس، وإلى أرض أفريقية فيلبس، وإلى أفسوس قرية أصحاب الكهف يوحنا، وإلى أورشليم وهي بيت المقدس يوحنا، وإلى أرض العرب والحجاز برتلوماوس، وإلى أرض برقة والبربر شمعون القناني.

قال ابن إسحاق: ثم وثب اليهود على بقية الحواريين يعذبونهم ويفتنونهم، وسمع القيصر بذلك وكتب إليه فلاطش النبطي قائده بأخباره ومعجزاته، وبغي اليهود عليه وعلى يوحنان قبله، فأمرهم بالكف عن ذلك، ويقال قتل بعضهم، وانطلق الحواريون إلى الجهات التي بعثهم إليها عيسى فآمن به بعض وكذب بعض. ودخل يعقوب أخو يوحنان إلى رومة فقتله غاليوس قيصر وحبس شمعون، ثم خلص وسار إلى أنطاكية ثم رجع إلى رومة أيام قلوديش قيصر بعد غاليوس، واتبعه كثير من الناس وآمن به بعض نساء القياصرة وأخبرها بخبر الصليب، فدخلت إلى القدس وأخرجته من تحت الزبل والقمامات بمكان الصلب وغشته بالحرير والذهب وجاءت به إلى رومة.

وأما بطرس كبير الحواريين وبولص اللذان بعثهما عيسى صلوات الله عليه إلى رومة فإنهما مكثا هنالك يقيمان دين النصرانية، ثم كتب بطرس الإنجيل بالرومية ونسبه إلى مرقص تلميذه، وكتب متّى إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس ونقله من بعد ذلك يوحنان بن زبدي إلى رومة، وكتب لوقا إنجيله بالرومية وبعثه إلى بعض أكابر الروم، وكتب يوحنا بن زبدي إنجيله برومة. ثم اجتمع الرسل الحواريون برومة ووضعوا القوانين الشرعية لدينهم وصيروها بيد إقليمنطس تلميذ بطرس، وكتبوا فيها عد الكتب التي يجب قبولها، فمن القديمة التوراة خمسة أسفار، وكتاب يوشع بن نون، وكتاب القضاة، وكتاب راعوث، وكتاب يهوذا، وأسفار الملوك أربعة كتب، وسفر بنيامين، وسفر المقباسين ثلاثة كتب، وكتاب عزرا الإمام، وكتاب أشير، وكتاب قصة هامان، وكتاب

أيوب الصديق، ومزامير داود النبي، وكتب ولده سليمان خمسة، ونبوات الأنبياء الصغار والكبار ستة عشر كتاباً، وكتاب يشوع بن شارخ. ومن الحديثة: كتب الإنجيل الأربعة، وكتب القتاليقون سبع رسائل، وكتاب بولس أربع عشرة رسالة، والإبركسيس وهو قصص الرسل ويسمى أفليمد ثمانية كتب تشتمل على كلام الرسل وما أمروا به ونهوا عنه، وكتاب النصارى الكبار إلى أساقفتهم الذين يسمون البطارقة ببلاد معينة يعلمون بها دين النصرانية، فكان: برومة بطرس الرسول الذي بعثه عيسى صلوات اللّه عليه، وكان ببيت المقدس يعقوب النجار، وكان بالإسكندرية مرقص تلميذ بطرس، وكان ببيزنطية وهي قسطنطينية أندرواس الشيخ، وكان بإنطاكية.

وكان صاحب هذا الدين عندهم والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة وخليفة المسيح فيهم، ويبعث نوابه وخلفاءه إلى من بُعد عنهم من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أي نائب البطرك، ويسمون القرا بالقسيس، وصاحب الصلاة بالجاثليق، وقومة المسجد بالشمامسة، والمنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب، والقاضي بالمطران، ولم يكن بمصر لذلك العهد أسقف إلى أن جاء دهدس الحادي عشر من أساقفة إسكندرية وكان بطرك أساقفة بمصر، وكان الأساقفة يسمون البطرك أباً، والقسوس يسمون الأساقفة أباً، فوقع الاشتراك في اسم الأب، فاخترع اسم البابا لبطرك الإسكندرية ليتميز عن الأسقف في اصطلاح القسوس، ومعناه أبو الآباء فاشتهر هذا الاسم، ثم انتقل إلى بطرك رومة لأنه صاحب كرسي بطرس كبير الحواريين ورسول المسيح، وأقام على ذلك لهذا العهد يسمى البابا.

ثم جاء بعد قلوديش قيصر نيرون قيصر فقتل بطرس كبير الحواريين وبولص اللذين بعثهما عيسى صلوات اللّه عليه إلى رومة، وجعل مكان بطرس أرنوس برومة، وقتل مرقص الإنجيلي تلميذ بطرس وكان بالإسكندرية يدعو إلى الدين سبع سنين ويبعثه في نواحي مصر وبرقة والمغرب، وقتله نيرون وولي بعده حنينيا وهو أول البطاركة عليها بعد الحواريين، وثار اليهود في دولته على أسقف بيت المقدس وهو يعقوب النجار وهدموا البيعة ودفنوا الصليب إلى أن أظهرته هيلانة أم قسطنطين كما نذكره بعد، وجعل نيرون مكان يعقوب النجار ابن عمه شمعون بن كيافا ثم اختلفت حال القياصرة من بعد ذلك في الأخذ بهذا الدين وتركه كما يأتي في أخبارهم، إلى أن جاء قسطنطين بن قسطنطين باني المدينة المشهورة، وكانت في مكانها قبله مدينة صغيرة تسمى بيزنطية. وكانت أمه هيلانة صالحة فأخذت بدين المسيح لاثنتين وعشرين سنة من ملك قسطنطين ابنها، وجاءت إلى مكان الصليب فوقفت عليه وترحمت وسألت عن الخشبة التي صلب عليها بزعمهم، فأخبرت بما فعل اليهود فيها وأنهم دفنوها وجعلوا مكانها مطرحاً للقمامة والنجاسة والجيف والقاذورات، فاستعظمت ذلك واستخرجت تلك الخشبة التي صلب عليها بزعمهم، وقيل من علامتها أن يمسها ذو العاهة فيعافى لوقته، فطهرتها وطيبتها وغشتها بالذهب والحرير، ورفعتها عندها للتبرك بها، وأمرت ببناء كنيسة هائلة بمكان الخشبة تزعم أنها قبره وهي التي تسمى لهذا العهد قمامة، وخربت مسجد بني إسرائيل وأمرت بأن تلقى القاذورات والكناسات على الصخرة التي كانت عليها القبة التي هي قبلة اليهود، إلى أن أزال ذلك عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه عند فتح بيت المقدس كما نذكره هنالك.

وكان من ميلاد المسيح إلى وجود الصليب ثلثمائة وثمان وعشرون سنة، وأقام هؤلاء النصرانية بطاركتهم وأساقفتهم على إقامة دين المسيح على ما وضعه الحواريون من القوانين والعقائد والأحكام، ثم حدث بينهم اختلاف في العقائد وسائر ما ذهبوا إليه من الإيمان باللّه وصفاته، وحاش لله وللمسيح وللحواريين أن يذهبوا إليه، وهو معتقدهم التثليث. وإنما حملهم عليه ظواهر من كلام المسيح في الإنجيل لما يهتدوا إلى تأويلها، ولا وقفوا على فهم معانيها، مثل قول المسيح حين صلب بزعمهم: أذهب إلى أبي وأبيكم. وقال: افعلوا كذا وكذا من البر لتكونوا أبناء أبيكم في السماء وتكونوا تامين، كما أن أباكم الذي في السماء تام. وقال له في الإنجيل: إنك أنت الابن الوحيد. وقال شمعون الصفا: إنك ابن اللّه حقاً. فلما أثبتوا هذه الأبوة من ظاهر هذا اللفظ زعموا أن عيسى ابن مريم من أب قديم، وكان اتصاله بمريم تجسد كلمة منه مازجت جسد المسيح وتدرعت به، فكان مجموع الكلمة والجسد ابناً، وهو ناسوق كلي قديم أزلي، وولدت مريم إلهاً أزلياً، والقتل والصلب وقع على الجسد والكلمة، ويعبرون عنهما بالناسوت واللاهوت.

وأقاموا على هذه العقيدة ووقع بينهم فيها اختلاف، وظهرت مبتدعة من النصرانية اختلفت أقوالهم الكفرية، كان من أشدهم ابن دنصان، ودافعهم هؤلاء الأساقفة والبطاركة عن معتقدهم الذين كانوا يزعمونه حقاً، وظهر يونس الشميصاتي بطرك أنطاكية بعد حين أيام أفلوديس قيصر، فقال بالواحدانية ونفى الكلمة والروح، وتبعه جماعة على ذلك، ثم مات فرد الأساقفة مقالته وهجروها ولم يزالوا على ذلك إلى أيام قسطنطين بن قسطنطين، فتنصر ودخل في دينهم، وكان بإسكندرية

إسكندروس البطرك وكان لعهده أريوس من الأساقفة، وكان يذهب إلى حدوث الابن وأنه إنما خلق الخلق بتفويض الأب إليه في ذلك، فمنعه إسكندروس الدخول إلى الكنيسة وأعلم أن إيمانه فاسد، وكتب بذلك إلى سائر الأساقفة والبطاركة في النواحي، وفعل ذلك باسقفين آخرين على مثل رأي أريوس، فدفعوا أمرهم إلى قسطنطين واحضرهم جميعاً لتسع عشرة من دولته، وتناظروا.

ولما قال أريوس: إن الابن حادث وأن الأب فوض إليه بالخلق، وقال الإسكندروس: بالخلق استحق الألوهية، فاستحسن قسطنطين قوله وأذن له أن يشيد بكفر أريوس وطلب الإسكندروس باجتماع النصرانية لتحرير المعتقد الإيماني، فجمعهم قسطنطين وكانوا ألفين وثلثمائة وأربعين أسقفاً وذلك في مدينة نيقية، فسمي المجتمع مجتمع نيقية، وكان رئيسهم الإسكندروس بطرك إسكندرية، وأسطانس بطرك أنطاكية، ومقاريوس أسقف بيت المقدس، وبعث سلطوس بطرك رومة بقسيس حضر معهم لذلك نيابة عنه، فتفاوضوا وتناظروا واتفقوا عنهم، بعد الاختلاف الكثير، على ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً على رأي واحد، فصار قسطنطين إلى قولهم، وأعطى سيفه وخاتمه وباركوا عليه ووضعوا له قوانين الدين والملك، ونفي أريوس وأشيد بكفره وكتبوا العقيدة التي اتفق عليها أهل ذلك المجمع، ونصها عندهم على ما نقله ابن العميد من مؤرخيهم والشهرستاني في كتاب الملل والنحل وهو: نؤمن بالله الواحد الأحد الأب مالك كل شيء وصانع ما يُرى وما لا يُرى، وبالابن الوحيد إيشوع المسيح ابن الله ذكر الخلائق كلها وليس بمصنوع إله حق من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم وكل شيء الذي من أجلنا ومن أجل خلاصنا بعث العوالم وكل شيء، الذي نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وولد من مريم البتول وصلب أيام فيلاطوس ودفن ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى بالقضاء بين الأحياء والأموات، ونؤمن بروح الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة قدسية مسيحية جاثليقية وبقيام أبداننا بالحياة الدائمة أبد الآبدين انتهى.

هذا هو اتفاق المجمع الأول الذي هو مجمع نيقية وفيه إشارة إلى حشر الأبدان ولا يتفق النصارى عليه، وإنما يتفقون على حشر الأرواح ويسمون هذه العقيدة الأمانة.

ووضعوا معها قوانين الشرائع ويسمونها الهيمايون، وتوفي الإسكندروس البطرك بعد هذا المجمع بخمسة أشهر، ولما عمرت هلانة أم قسطنطين الكنائس وأحب الملك أن يقدسها ويجمع الأساقفة لذلك، وبعث أوسانيوس بطرك القسطنطينية وحضر معهم أثناس بطرك الإسكندرية، واجتمعوا في صور وكان أوسانيوس الذي أخرجه إسكندروس مع أريوس من كنيسة إسكندرية، وكان بسبب بذلك مجمع نيقية وكتاب الأمانة. ونفي أريوس حينئذ وأوسانيوس وصاحبهما ولعنوا. جاء أوسانيوس من بعد ذلك وأظهر البراءة من أريوس ومن مقالته فقبله قسطنطين وجعله بطركاً بالقسطنطينية، فلما اجتمعوا في صور وكان فيهم أومانيوس على رأي أريوس، فأشار أوسانيوس بطرك القسطنطينية بأن يظاهر أثناس بطرك الإسكندرية عن مقالة أريوس، فقال أرمانيوس: إن أريوس لم يقل إن المسيح خلق العالم وإنما قال هو كلمة الله التي بها خلق كما وقع في الإنجيل، فقال أثناس بطرك الإسكندرية: وهذا الكلام أيضاً يقتضي أن الابن مخلوق وأنه خلق المخلوقات دون الأب لأنه إذا كان يخلق به فالأب لم يخلق شيئاً لأنه مستعين بغيره والفاعل بغيره محتاج إلى ذلك المتمم فهو في ذاته الخالق والله سبحانه منزه عن ذلك.

وإن زعم أريوس أن الأب يريد الشيء والابن يكونه فقد جعل فعل الابن أتم لأن الأب إنما له الإرادة فقط وللابن الاختراع فهو أتم فلما ظهر بطلان مقالة أريوس وثبوا على أرمانيوس المناظر عن مقالة أريوس وضربوه ضرباً وجيعاً، وخلصه ابن أخت الملك، ثم قدسوا الكنائس، وانفض الجمع وبلغ الخبر إلى قسطنطين فندم على بطركية أرمانيوس بالقسطنطينية وغضب عليه ومات لستتين من رياسته، واجتمع بعد ذلك أصحاب أريوس إلى قسطنطين فحسنوا له تلك المقالة، وأن جماعة نيقية ظلموا أريوس وبغوا عليه وصدوا عن الحق في قولهم إن الأب مساو للابن في الجوهرية وكاد الملك أن يقبل منهم.

فكتب إليه كيراش أسقف بيت المقدس يحذره من مقالة أريوس فقبل ورجع. واختلف حال ملوك القياصرة بعد قسطنطين في الأخذ بالأمانة أو بمقالة أريوس، وظهور إحدى الطائفتين متى كان الملك على دينهم. وأفحش بعض ملوك القياصرة في الحق على مخالفه، فقال له بعض العلماء والحكماء: لا تنكر المخالفة فالحنفاء يختلفون أيضاً وإنما هم الخلق يحمدون الله ويصفونه بالصفات الكثيرة والله يحب ذلك، فسكن بعض الشيء وكان بعضهم يعرض عن الطائفتين ويخلي كل أحد ودينه. ثم كان المجمع الثاني بقسطنطينية بعد مجمع نيقية بمائتين وخمسين سنة اجتمعوا للنظر في مقالة مقدونيوس وسليوس، بأن جسد المسيح بغير ناسوت وأن اللاهوت أغناه عنها، مستدلين بما وقع في الإنجيل أن الكلمة صار لحماً ولم يقل صار إنساناً، وجعلا من الإله

عظيماً وأعظم منه والأب أفضل عظماً. وقال: إن الأب غير محدود في القوة وفي الجوهر. فأبطلوا هذه المقالة ولعنوهما وأشادوا بكفرهما وزادوا في الأمانة التي قررها جماعة نيقية ما نصه: ونؤمن بروح القدس المنتقى من الأب. ولعنوا من يزيد بعد ذلك على كلمة الأمانة أو ينقص منها.

ثم كان لهم بعد ذلك بأربعين سنة المجمع الثالث على نسطوريوس البطرك بالقسطنطينية لأنه كان يقول: إن مريم لم تلد إلهاً وإنما ولدت إنساناً، وإنما اتحد به في المشيئة لا في الذات وليس هو إلهاً حقيقة بل بالموهبة والكرامة. ويقول بجوهرين وأقنومين، وهذا الرأي الذي أظهره نسطوريوس كان رأي تاودوس وديودس الأسقفين، وكان من مقالتهما أن المولود من مريم هو المسيح والمولود من الآب هو الابن الأزلي والابن الأزلي حل في المسيح المحدث فسمي المسيح ابن الله بالموهبة والكرامة.

وإنما الاتحاد بالمشيئة والإرادة، فأثبتوا لله ولدين أحدهما بالجوهر والثاني بالنعمة. وبلغت مقالة نسطوريوس إلى كرلس بطرك إسكندرية، فكتب إلى بطرك رومة وهو أكليمس، وإلى يوحنا وهو بطرك أنطاكية، وإلى يونالوس أسقف بيت المقدس، فكتبوا إلى نسطوريوس ليدفعوه عن ذلك بالحجة فلم يرجع ولا التفت إلى قولهم.

فاجتمعوا في مدينة أفسيس في مائتين أسقفاً للنظر في مقالته، فقرروا إبطالها ولعنوه وأشادوا بكفره، ووجد عليهم يوحنا بطرك أنطاكية حيث لم ينتظروا حضوره فخالفهم ووافق نسطوريوس، ثم أصلح بينهم باوداسوس من بعد مدة واتفقوا على نسطوريوس. وكتب أساقفة المشارقة أمانتهم وبعثوا بها إلى كرلس فقبلها ونفى نسطوريوس إلى صعيد مصر، فنزل أخميم ومات بها لسبع سنين من نزولها، وظهرت مقالته في نصارى المشرق وبفارس والعراق والجزيرة والموصل إلى الفرات.

وكان بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة المجمع الرابع بمدينة خلقدونية، اجتمع فيه ستمائة وأربعة وثلاثون أسقفاً من فتيان قيصر للنظر في مقالة ديسقورس بطرك الإسكندرية لأنه كان يقول: المسيح جوهر من جوهرين وأقنوم من أقنومين وطبيعة من طبيعتين ومشيئة من مشيئتين. وكانت الأساقفة والبطاركة لذلك العهد يقولون بجوهرين وطبيعتين ومشيئتين وأقنوم واحد، فخالفهم ديسقورس في بعض الأساقفة وكتب خطه بذلك ولعن من يخالفه. فأراد مرقيان قيصر قتله، فأشارت البطارقة بإحضاره وجمع الأساقفة لمناظرته، فحضر بمجلس مرقيان قيصر وافتضح في مخاطبتهم ومناظرتهم.

وخاطبته زوج الملك فأساء الرد فلطمته بيدها، وتناوله الحاضرون بالضرب، وكتب مرقيان قيصر إلى أهل مملكته في جميع النواحي بأن مجمع خلقدونية هو الحق ومن لا يقبله يقتل. ومر ديسقورس بالقدس وأرض فلسطين وهو مضروب منفي فاتبعوا رأيه، وكذلك اتبعه أهل مصر والإسكندرية، وولي وهو في النفي أساقفة كثيرة كلهم يعقوبية، قال ابن العميد: وإنما سمي أهل مذهب ديسقورس يعقوبية لأن اسمه كان في الغلمانية يعقوب، وكان يكتب إلى المؤمنين من المسكين المنفي يعقوب. وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب فنسبوا إليه. وقيل بل كان شاويرش بطرك أنطاكية على رأي ديسقورس وكان له تلميذ اسمه يعقوب، فكان شاويرش يبعث يعقوب إلى المؤمنين ليثبتوا على أمانة ديسقورس فنسبوا إليه قال: ومن جمع خلقدونية افترقت الكنائس والأساقفة إلى يعقوبية وملكية ونسطورية، فاليعقوبية أهل مذهب ديسقورس الذي قررناه آنفاً.

والملكية أهل الأمانة التي قررها جماعة نيقية وجماعة خلقدونية بعدهم وعليها جمهور النصرانية، والنسطورية أهل المجمع الثالث وأكثرهم بالمشرق. وبقي الملكية واليعقوبية يتعاقبون في الرياسة على الكراسي بحسب من يريدهم من القياصرة وما يختارونه من المذهبين.

ثم كان بعد ذلك بمائة وثلاثين سنة أو ثلاث وستين سنة المجمع الخامس بقسطنطينية في أيام يوسيطانوس قيصر، للنظر في مقالة أققسح لأنه نقل عنه أنه يقول بالتناسخ وينكر البعث. ونقل عن أساقفة أنقرا والمصيصة والرها أنهم يقولون: إن جسد المسيح فنطايسا. فأحضر قيصر جمعهم بالقسطنطينية ليناظرهم البطرك بها، فقال البطرك: إن كان جسد المسيح فني فقوله وفعله كذلك. وقال الأسقف أققسح: إنما قام المسيح من بين الأموات ليحقق البعث والقيامة، فكيف تنكر ذلك أنت؟ وجمع لهم مائة وعشرين أسقفاً فأشادوا بكفره وأوجبوا لعنتهم ولعنة من يقول بقولهم. واستقرت فرق النصارى على هذه الثلاثة.

الطبقة الأولى من الفرس وذكر ملوكهم وما صار إليه في الخليقة أحوالهم

الفرس كلهم متفقون على أن كيومرث هو آدم الذي هو أول الخليقة، وكان له ابن اسمه منشا ولمنشا سيامك ولسيامك أفروال ومعه أربعة بنين وأربع بنات، ومن أفروال كان نسل كيومرث، والباقون انقرضوا فلا يعرف لهم عقب. قالوا وولد

لأفروال أوشهنك بيشداد، فاللفظة الأولى حرفها الأخير بين الكاف والقاف والجيم واللفظة الأخرى معناها بلغتهم النور، قاله السهيلي وقال الطبري: أول حاكم بالعدل، وكان أفروال وارث ملك كيومرث وملك الأقاليم السبعة. قال الطبري عن ابن الكلبي: إنه أوشهنك بن عابر بن شالخ، قال: والفرس تدعيه وتزعم أنه بعد آدم بمائتي سنة، قال: وإنما كان نوح بعد آدم بمائتي سنة فصيره بعد آدم. وأنكره الطبري لأن شهرة أوشهنك تمنع من مثل هذا الغلط فيه، ويزعم بعض الفرس أن أوشهنك بيشداد هو مهلايل وأن أباه أفروال هو قينن وأن سيامك هو أنوش وأن منشا هو شيث وأن كيومرث هو آدم.

قال: وزعمت الفرس أن ملك أوشهنك كان أربعين سنة فلا يبعد أن يكون بعد آدم بمائتي سنة. وقال بعض علماء الفرس: إن كيومرث هو كومر بن يافث بن نوح، وأنه كان معمراً ونزل جبل دنباوند من جبال طبرستان وملكها، ثم ملك فارس وعظم أمره وأمر بنيه حتى ملكوا بابل. وأن كيومرث هو الذي بنى المدن والحصون واتخذ الخيل وتسمى بآدم وحمل الناس على دعائه بذلك، وأن الفرس من عقب ولده ماداي، ولم يزل الملك في عقبهم في الكينية والكسروية إلى آخر أيامهم.

وتقول الفرس أن أوشهنك وهو مهلايل ملك الهند، قالوا وملك بعد أوشهنك طهمورث بن أنوجهان بن أنكهد بن أسكهد بن أوشهنك. وقيل مكان أسكهد فيشداد، وكلها أسماء أعجمية لا عهدة علينا في نقلها لعجمتها وانقطاع الرواية في الأصول التي نقلت منها. قال ابن الكلبي: إن طهمورث أول ملوك بابل وأنه ملك الأقاليم كلها وكان محموداً في ملكه وفي أول سنة من ملكه ظهر بيوراسب ودعا إلى ملة الصابئة. وقال علماء الفرس: ملك بعد طهمورث جمشيد ومعناه الشجاع لجماعة وهو جم بن نوجهان أخو طهمورث، وملك الأرض واستقام أمره، ثم بطر النعمة وساءت أحواله فخرج عليه قبل موته بسنة بيوراسب وظفر به فنشره بمنشار وأكله وشرط أمعاءه. وقيل إنه ادعى الربوبية فخرج عليه أولاً أخوه أستوير فاختفى. ثم خرج بيوراسب فانتزع الأمر من يده وملك سبعمائة سنة. وقال ابن الكلبي مثل ذلك قال الطبري: بيوراسب هو الأزدهاك والعرب تسميه الضحاك، وهو بصاد بين السين والزاي وحاء قريب من الهاء وكاف قريبة من القاف، وهو الذي عنى أبو نواس بقوله:

وكان منا الضحاك تعبده الـ ـجامل والجن في محاربها

لأن اليمن تدعيه. قال: وتقول العجم: إن جمشيد زوج أخته من بعض أهل بيته وملك على اليمن فولدت الضحاك. وتقول أهل اليمن في نسبه: الضحاك بن علوان بن عبيدة بن عويج، وأنه بعث على مصر أخاه سنان بن علوان ملكاً وهو فرعون إبراهيم، قاله ابن الكلبي، وأما الفرس فينسبونه هكذا: بيوراسب بن رتيكان بن ويدوشتك بن فارس بن أفروال، ومنهم من خالف في هذا.

ويزعمون أنه ملك الأقاليم كلها، وكان ساحراً كافراً وقتل أباه، وكان أكثر إقامته ببابل وقال هشام: ملك الضحاك وهو نمرود الخليل بعد جمشيد وأنه التاسع منهم، وكان مولده بدنباوند، وأن الضحاك سار إلى الهند فخالفه أفريدون إلى بلاده فملكها، ورجع الضحاك فظفر به أفريدون وحبسه بجبال دنباوند، واتخذ يوم ظفر به عيداً.

وعند الفرس أن الملك إنما كان للبيت الذي وطنه أوشهنك وجمشيد وأن الضحاك هو بيوراسب خرج عليهم وبنى بابل، وجعل النبط جنده. وغلب أهل الأرض بسحره، وخرج عليه رجل من عامة أصبهان اسمه عالي، وبيده عصا علق فيها جراباً واتخذها رايةً، ودعا الناس إلى حربه فأجابوا، وغلبه فلم يدع الملك وأشار بتولية بني جمشيد لأنه من عقب أوشهنك ملكهم الأول ابن أفروال، فاستخرجوا أفريدون من مكان اختفائه فملكوه واتبع الضحاك فقتله، وقيل أسره بدنباوند. ويقال كان على عهد نوح وإليه بعث. ولهذا يقال: إن أفريدون هو نوح.

والتحقيق عند نسابة الفرس على ما نقل هشام بن الكلبي أن أفريدون من ولد جمشيد بينهما تسعة آباء. وملك مائتي سنة ورد غصوب الضحاك ومظالمه. وكان له ثلاثة بنين الأكبر سرم والثاني طوج والثالث إيرج، وإنه قسم الأرض بينهم، فكانت الروم وناحية المغرب لسرم، والترك والصين والعراق لإيرج وآثره بالتاج والسرير، ولما مات قتله أخواه واقتسما الأرض بينهما ثلثمائة سنة.

ويزعمون أن أفريدون وآباءه العشرة يلقبون كلهم أشكيان وقيل في قسمته الأرض بين ولده غير هذا، وأن بابل كانت لإيرج الأصغر وكان يسمى خيارث ويقال كان لإيرج ابنان: وندان وأسطوبة وبنت اسمها خورك، وقتل الابنان مع أبيهما بعد مهلك أفريدون، وأن أفريدون ملك خمسمائة سنة وأنه هو الذي محا آثار ثمود من النبط بالسواد، وأنه أول من تسمى بكي، فقيل كي أفريدون ومعناه التنزيه أي مخلص متصل بالروحانيات. وقيل معناه البهاء لأنه يغشاه نور من يوم قتل الضحاك، وقيل معناه مدرك الثأر.

وكان منوشهر الملك ابن منشحر بن إيرج من نسل

أفريدون، وكانت أمه من ولد إسحاق عليه السلام فكفلته حتى كبر، فملك وثار بأبيه إيرج من عمه بعد حروب كانت له معهما، ثم استبد ونزل بابل وحمل الفرس على دين إبراهيم عليه السلام، وثار عليه أفراسياب ملك الترك فغلبه على بابل وملكها. ثم اتبعه إلى غياض طبرستان فجهز العساكر لحصاره وسار إلى العراق فملكه. ويقال أفراسياب هذا من عقب طوج بن أفريدون، ولحق ببلاد الترك عندما قتل منوشهر جد طوج فنشأ عندهم وظهر من بلادهم فلهذا نسب إليهم.

وقال الطبري: لما هلك منوشهر بن منشحور، غلب أفراسياب بن أشك بن رستم بن ترك على خيارات، وهي بابل، وأفسد مملكة فارس وحيرها، فثار عليه زومر بن طهمارست. ويقال راسب بن طهمارست. وينسب إلى منوشهر في تسعة آباء، وأن منوشهر غضب على طهمارست وكانوا يحاربون أفراسياب فهم بقتله وشفع فيه أهل الدولة فنفاه إلى بلاد الترك، وتزوج منهم ثم عاد إلى أبيه وأعمل الحيلة في إخراج امرأته من بلاد الترك وكانت ابنة وامن ملك الترك، فولدت له زومر ابنه. وقام بالملك بعد منوشهر وطرد أفراسياب عن مملكة فارس وقتل جده وامن في حروبه مع الترك.

ولحق أفراسياب بتركستان واتخذ يوم ذلك الغلب عيداً ومهرجاناً وكان ثالث أعيادهم. وكان غلبه على بلاد فارس لاثنتي عشرة سنة من وفاة منوشهر جده، وكان زومر بن طهمارست هذا محموداً في سيرته وأصلح ما أفسد أفراسياب بن خيارت من مملكة بابل، وهو الذي حفر نهر الزاب بالسواد، وبنى على حافته المدينة العتيقة وسماها الزواهي، وعمل فيها البساتين وحمل إليها بزور الأشجار والرياحين. وكان معه في الملك كرشاسب من ولد طوج بن أفريدون وقيل من ولد منوشهر، ويقال إنما كان رديفاً له وكان عظيم الشأن في أهل فارس، ولم يملك وإنما كان الملك لزومر بن طهمارست، وهلك لثلاث سنين من دولته. وفي أيامه خرج بنو إسرائيل من التيه وفتح يوشع مدينة أريحاء ودال الملك من بعده للكينية حسبما يذكر وأولهم كيقباذ ويقال: إن مدة الملك لهذه الطبقة كانت ألفين وأربعمائة وسبعين سنة فيما قال البيهقي والأصبهاني، ولم يذكر من ملوكهم إلا هؤلاء التسعة الذين ذكرهم الطبري والله وارث الأرض ومن عليها.

الطبقة الثانية من الفرس وهم الكينية وذكر ملوكهم وأيامهم إلى حين انقراضهم

هذه الطبقة الثانية من الفرس وملوكهم يعرفون بالكينية لأن اسم كل واحد مضاف إلى كي وقد تقدم معناه، والمضاف عند العجم متأخر عن المضاف إليه وأولهم فيما قالوا كيقباذ من عقب منوشهر بينهما أربعة آباء، وكان متزوجاً بامرأة من رؤوس الترك ولدت له خمسة من البنين: كي وافيا وكيكاوس وكي أرش وكي نية وكي فاسمن، وهؤلاء هم الجبابرة وآباء الجبابرة.

قال الطبري: وقيل إن الملوك الكينية وأولادهم من نسله جرت بينه وبين الترك حروب، وكان مقيماً بنهر بلخ يمانع الترك من طروق بلاده وملك مائة سنة انتهى وملك بعده ابنه كيكاوس بن كينية وطالت حروبه مع أفراسيات ملك الترك، وهلك فيها ابنه سياوخش، ويقال كان على عهد داود، وأن عمراً ذا الأذعار من ملوك التبابعة غزاه في بلاده فظفر به وحبسه عنده باليمن، وسار وزيره رستم بن دستان بجنود فارس إلى غزو ذي الأذعار فقتله وتخلص كيكاوس إلى ملكه.

وقال الطبري: كان كيكاوس عظيم السلطان والحماية، وولد له ابنه سياوخش فدفعه إلى رستم الشديد ابن دستان، وكان أصهر بسجستان حتى إذا كملت تربيته وفصاله رده إلى أبيه، فرضيه وكفلت به امرأة أبيه فسخطه، وبعثه لحراب أفراسيات وأمره بالمناهضة، فراوده أفراسيات في الصلح، وامتنع أبوه كيكاوس فخشي منه على نفسه، ولحق بأفراسيات فزوجه ابنته أم كي خسرو، ثم خشيه أفراسيات على نفسه وأشار على ابنته بقتله فقتلته. وترك ابنة أفراسيات حاملاً بخسرو وولدته هنالك.

وأعمل كيكاوس الحيلة في إخراجه فلحق به ويقال إنه لما بلغه قتل ابنه، بعث عساكره مع قواده فوطئوا بلاد الترك وأثخنوا فيها وقتلوا بني أفراسيات فيمن قتلوه. قال الطبري: وإنه غزا بلاد اليمن ولقيه ذو الأذعار في حمير وقحطان، فظفر به وأسره وحبسه في بئر وأطبق عليها، وإن رستم سار من سجستان فحارب ذا الأذعار ثم اصطلحا على أن يسلم إليه كيكاوس فأخذه ورجع إلى بابل، وكافأه كيكاوس على ذلك بالعتق من عبودية الملك، ونصب لجلوسه سريراً من فضة بقوائم من ذهب وتوجه بالذهب، وأقطعه سجستان وأباستان، وهلك لمائة وخمسين من دولته، وملك بعده فيما قال الطبري والمسعودي والبيهقي وجماعة من المؤرخين حافده كي خسرو ابن ابنه سياوخش.

وقال السهيلي: إنه ملك كي خسرو بعد ثلاثة آخرين بينه وبين كيكاوس فأولهم بعده كي كينة، ثم من بعده ابنه أجو ابن كي كينة، ثم عمه سباوخش بن كيكاوس، ثم بعد الثلاثة كي خسرو بن سباوخش ا ه. وهو غريب فإنهم متفقون على أن سباوخش مات في حياة أبيه في حروب الترك قال الطبري: وقد كان كيكاوس بن كي كينية بن كيقباذ ملك كي خسرو حين جاءه من بلاد الترك مع أمه وأسفاقدين بنت أفراسيات. قالوا ولما ملك بعث العساكر مع أجو إلى أصبهان لحرب أفراسيات ملك الترك للطلب بثأر أبيه سباوخش، فزحفوا إلى الترك وكانت بينهم حروب شديدة انهزمت فيها عساكر الفرس، فنهض كي خسرو بنفسه إلى بلخ وقدم عساكره وقواده فقصدوا بلاد الترك من سائر النواحي وهزموا عساكرهم وقتلوا قوادهم.

وكان قاتل سباوخش بن كي خسرو فيمن قتل منهم، وبعث أفراسيات ابنه وكان ساحراً إلى كيخسرو يستميله، فعمد إلى القواد بمنعه وقتاله، وقاتل فقتل، وزحف أفراسيات فلقيه كي خسرو وكانت بينهما حروب شديدة انجلت عن هزيمة أفراسيات والترك، واتبعه كي خسرو فظفر به في أذربيجان فذبحه وانصرف ظافراً.

وكان فيمن حضر معه لهذا الفتح ملك فارس وهو كي أوجن بن حينوش بن كيكاوس بن كينية بن كيقباذ، وهو عند الطبري أبو كيهراسف الذي ملك بعد كيخسرو على ما نذكر وملك على الترك بعد أفراسيات جوراسف ابن أخيه شراشف. ثم أن كي خسرو ترهب وتزهد في الملك واستخلف مكانه كيهراسف بن كي أوجن الذي قدمناه أنه أبوه عند الطبري ولد كيخسرو فقيل غاب في البرية، وقيل مات، وذلك لستين سنة من ملكه.

ولما ملك كيهراسف اشتدت شوكة الترك فسكن لقتالهم مدينة بلخ على نهر جيحون، وأقام في حروبهم عامة أيامه.

وكان أصبهبذ ما بين الأهواز والروم من غربي دجلة في أيامه بختنرسي المشتهر ببختنصر، وأضاف إليه كهراسف ملكاً عندما سار إليه وأذن له في فتح ما يليه، وسار إلى الشام معه ملوك الفرس وبختنصر ملك الموصل وله سنجاريف ففتح بيت المقدس، وكان له الظهور على اليهود واستأصلهم كما مر في أخبارهم، وبختنصر هذا الذي غزا العرب وقاتلهم واستباحهم، ويقال إن ذلك كان في أيام كي بهمن حافد كيستاسب بن كيهراسف.

قال هشام بن محمد: أوحى اللّه إلى أرميا النبي عليه السلام، وكان حافد زريافيل الذي رجع بني إسرائيل إلى بيت المقدس، بأمر بختنصر أن يفرق العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ويستبيحهم بالقتل، ويعلمهم بكفرهم بالرسل واتخاذهم الآلهة وفي كتاب الإسرائيليين: والوحي بذلك كان إلى يرميا بن خلقيا وقد مر ذكره، وإنه أمر أن يستخرج معد بن عدنان من بينهم ويكفله إلى انقضاء أمر اللّه فيهم انتهى. قال: فوثب بختنصر على من وجده ببلاده من العرب للميرة، فحبسهم ونادى بالغزو وجاءت منهم طوائف مستسلمين فقبلهم وأنزلهم بالأنبار والحيرة.

وقال غير هشام: إن بختنصر غزا العرب بالجزيرة وما بين أيلة والأبلة، وملأها عليهم خيلاً ورجالاً ولقيه بنو عدنان فهزمهم إلى حضورا واستلحمهم أجمعين. وإن اللّه أوحى إلى أرميا ويوحنا أن يستخرجا معد بن عدنان الذي من ولده محمد أختم به النبيين آخر الزمان، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وردفه يوحنا على البراق وجاء به إلى حران، وربي بين أنبياء بني إسرائيل.

ورجع بختنصر إلى بابل وأنزل السبي بالأنبار فقيل أنبار العرب وسميت بهم، وخالطهم النبط بعد ذلك. ولما هلك بختنصر خرج معد بن عدنان مع أنبياء بني إسرائيل إلى الحج فحجوا، وبقي هنالك مع قومه وتزوج بعانة بنت الحارث بن مضاض الجرهمي، فولدت له نزار بن معد وأما كيهراسف فكان يحارب الترك عامة أيامه، وهلك في حروبهم لمائة وعشرين سنة من ملكه، وكان محمود السيرة وكانت الملوك شرقاً وغرباً يحملون إليه الأتاوة ويعظمونه، وقيل: إنه ولى ابنه كيستاسب على الملك وانقطع للعبادة. ولما ملك ابنه كيستاسب شغل بقتال الترك عامة أيامه، ودفع لحروبهم ابنه أسفنديار فعظم عناؤه فيهم.

وظهر في أيامه زرادشت الذي يزعم المجوس نبوته، وكان فيما زعم أهل الكتاب من أهل فلسطين خادماً لبعض تلامذة أرميا النبي خالصة عنده، فخانه في بعض أموره فدعا اللّه عليه فبرص ولحق بأذربيجان وشرع بها دين المجوسية. وتوجه إلى كيستاسف فعرض عليه دينه فأعجبه وحمل الناس على الدخول فيه، وقتل من امتنع. وعند علماء الفرس أن زرادشت من نسل منوشهر الملك، وأن نبياً من بني إسرائيل بعث إلى كيستاسف وهو ببلخ، فكان زرادشت وجاماسب العالم، وهو من نسل منوشهر أيضاً، يكتبان بالفارسية ما يقول ذلك النبي بالعبرانية، وكان جاماسب يعرف اللسان العربي ويترجمه لزرادشت، وأن ذلك كان لثلاثين سنة من دولة كيهراسف.

وقال علماء الفرس: إن زرادشت جاء بكتاب ادعاه وحياً، كتب في اثني عشر ألف بعده نقشاً بالذهب، وأن كيستاسف وضع ذلك في هيكل باصطخر ووكل به الهرابذة ومنع من تعليمه العامة.

قال المسعودي: ويسمى ذلك الكتاب نسناه وهو كتاب الزمزمة، ويدور على ستين حرفاً من حروف المعجم. وفسره زرادشت وسمي تفسيره زند، ثم فسر التفسير ثانياً وسماه زنديه، وهذه اللفظة هي التي عربتها العرب زنديق. وأقسام هذا الكتاب عندهم ثلاثة: قسم في أخبار الأمم الماضية، وقسم في حدثان المستقبل، وقسم في نواميسهم وشرائعهم مثل أن المشرق قبلة وأن الصلوات في الطلوع والزوال والغروب وأنها ذات سجدات ودعوات. وجدد لهم زرادشت بيوت النيران التي كان منوشهر أخمدها، ورتب لهم عيدين: النيروز في الاعتدال الربيعي والمهرجان في الاعتدال الخريفي، وأمثال ذلك من نواميسهم. ولما انقرض ملك الفرس الأول أحرق الإسكندر هذه الكتب، ولما جاء أردشير جمع الفرس على قراءة سورة منها تسمى أسبا. قال المسعودي: وأخذ كيستاسف بدين المجوسية من زرادشت لخمس وثلاثين سنة من نبوته فيما زعموا، ونصب كيستاسف مكانه جاماسب العالم من أهل أذربيجان، وهو أول موبذان كان في الفرس انتهى.

قال الطبري: وكان كيستاسف مهادناً أرجاماسب ملك الترك وقد اشترط عليه أن تكون دابة كيستاسف موقفة على بابه بمنزلة دواب الرؤساء عند أبواب الملوك، فمنعه من ذلك زرادشت وأشار عليه بفتنة الترك، فبعث إلى الدابة والموكل بها وصرفهما إليه. وبلغ الخبر إلى ملك الترك فبعث إليه بالعتاب والتهديد وأن يبعث بزرداشت إليه وإلا فيعزره. وأغلظ كيستاسف في الجواب وآذنه بالحرب، وسار بعضهما إلى بعض واقتتلوا وقتل رزين بن كيستاسف وانهزم الترك وأثخن فيهم الفرس، وقتل ساحر الترك قيدوشق ورجع كيستاسف إلى بلخ. ثم سعى عنده بابنه أسفنديار فحبسه وقيده وسار إلى جبل بناحية كرمان وسجستان فانقطع به للعبادة ودراسة الدين.

وخلف أباه كهراسف في بلخ شيخاً قد أبطله الكبر وترك خزائنه وأمواله فيها مع امرأته، فغزاهم بها خدراسف وقدم أخاه جورا في جموع الترك وكان مرشحاً للملك فأثخن واستباح واستولى على بلخ، وقتل كهراسف أباهم وغنموا الأموال وهدموا بيوت النيران وسبوا حمايي بنت كستاسف وأختها، وكان فيما غنموه العلم الأكبر الذي كانوا يسمونه زركش كاويان وهي راية الحداد الذي خرج على الضحاك وقتله. وولي أفريدون فسموا بتلك الراية ورصعوها بالجواهر ووضعوها في ذخائرهم يبسطوها في الحروب العظام، وكان لها ذكر في دولتهم وغنمها المسلمون يوم القادسية.

ثم مضى خدراسف ملك الترك في جموعه إلى كيستاسف وهو بجبال سجستان متعبداً فتحصن منه وبعث إلى ابنه أسفنديار مع جاماسب العالم وهو في الجبل فقلده الملك ومحاربة الترك، فسار إليهم وأبلى في حروبهم فانهزموا، وغنم ما معهم واسترد ما كانوا غنموه والراية زركش كاويان في جملته. ثم دخل أسفنديار إلى بلادهم في اتباعهم وفتح مدينتهم عنوة، وقتل ملكهم خدراسف وإخوته، واستلحم مقاتلته واستباح أمواله ونساءه، ودخل مدينة أفراسيات ودوخ البلاد، وانتهى إلى بلاد صول والتبت، وولى على كل ناحية من الترك، وفرض الخراج، وانصرف إلى بلخ وقد غص به أبوه.

قال هشام بن محمد: فبعثه إلى رستم ملك سجستان الذي كان يستنفره كيقباذ جدهم من ملوك اليمن، وأقطعه تلك الممالك جزاءً لفعله. فسار إليه أسفنديار وقاتله رستم وهلك كيستاسف لمائة وعشرين سنة. ويقال أنه الذي رد بني إسرائيل إلى بلادهم وأن أمه كانت من بني طالوت. ويقال أن ذلك هو حافد بهمن. وقيل أن الذي ردهم هو كورش من ملوك بابل أيام بهمن بأمره ثم ملك بعد كيستاسف حافده كي بهمن ويقال أردشير بهمن.

قال الطبري: ويعرف بالطويل الباع لاستيلائه على الممالك والأقاليم. قال هشام بن محمد: ولما ملك سار إلى سجستان طالباً بثأر أبيه فكانت بينهما حروب فقتل فيها رستم بن دستان وأبوه وإخوته وأبناؤه. ثم غزا الروم وفرض عليهم الأتاوة وكان من أعظم ملوك الفرس، وبنى مدناً بالسواد، وكانت أمه من نسل طالوت لأربعة آباء من لدنه وكانت له أم ولد من سبي بني إسرائيل اسمها راسف وهي أخت زريافيل الذي ملكه على اليهود ببيت المقدس وجعل له رياسة الجالوت وملك الشام، وملك ثمانين سنة، فملكت حماي ملكها الفرس لجمالها ولحسن أدبها وكمال معرفتها وفروسيتها، وكانت بلغت شهرأزاد. وقيل إنما ملوكها لأنها لما حملت من أبيها بدار الأكبر سألته أن يعقد له التاج في بطنها ففعل ذلك. وكان ابنه ساسان مرشحاً للملك فغضب، ولحق بجبال إصطخر زاهداً يتولى ماشيته بنفسه، فلما مات أبوه فقدوا ذكراً من أولاده فولوا حماي هذه وكانت مظفرة على الأعداء. ولما بلغ ابنها دارا الأشد، سلمت إليه الملك وسارت إلى فارس واختطت مدينة دار ابجرد، وردت الغزو إلى بلاد الروم، وأعطيت الظفر فكثر سبيهم عندها، وملكت ثلاثين سنة. ولما ملك ابنها دارا نزل بابل وضبط ملكه وغزا الملوك وأدوا الخراج إليه، ويقال إنه الذي رتب دواب البرد.

وكان معجباً بابنه دارا حتى سماه باسمه وولاه عهده وهلك لاثني عشرة سنة وملك بعده ابنه دارا بهمن، وكان له

مرب اسمه بيدلي قتله أبوه دارا بسعاية وزيره أرشيش محمود، وندم على قتله. فلما ولي دارا جعل على كتابته أخا بيدلي ثم استوزره رعياً لمرباه مع أخيه، فاستفسده على أرشيش وزيره ووزير أبيه وعلى سائر أهل الدولة استوحشوا منه. وقال هشام بن محمد: وملك دارا بن دارا أربع عشرة سنة فأساء السيرة وقتل الرؤساء وأهلك الرعية وغزاه الإسكندر بن فيلبس ملك بني يونان. وقد كانوا يسمونه... فوثب عليه بعضهم وقتله، ولحق بالإسكندر وتقرب بذلك إليه فقتله الإسكندر وقال هذا جزاء من اجرأ على سلطانه، وتزوج بنته روشنك كما نذكره في أخبار الإسكندر.

وقال الطبري: قال بعض أهل العلم بأخبار الماضين كان لدارا من الولد يوم قتل أربع بنين أسسك وبنودار وأردشير وبنت اسمها روشنك وهي التي تزوجها الإسكندر. قال وملك أربع عشرة سنة، هذه هي الأخبار المشهورة للفرس الأولى إلى ملكهم الأخير دارا قال هروشيوش مؤرخ الروم في مبدأ دولة الفرس هؤلاء إنما كانت بعد دخول بني إسرائيل إلى الشام، وعلى عهد عثنيال بن قناز بن يوفنا، وهو ابن أخي كالب بن يوفنا الذي دبر أمر بني إسرائيل بعد يوشع. قال: وفي ذلك الزمان خرج أبو الفرس من أرض الروم الغريقيين من بلاد آسيا واسمه بالعربية فارس وباليونانية يرشور وبالفارسية يرشيرش، فنزل بأهل بيته في ناحية وتغلب على أهل ذلك الموضع فنسبت إليه تلك الأمة، واشتق اسمها من اسمه، وما زال أمرهم ينمو إلى دولة كيرش الذي يقال فيه إنه كسرى الأول، فغلب على القضاعيين، ثم زحف إلى مدينة بابل وعرض له دونها النهر الثاني بعد الفرات وهو نهر دجلة، فاحتفر له الجداول وقسمه فيها، ثم زحف إلى المدينة وتغلب عليها وهدمها.

ثم حارب السريانيين فهلك في حروبهم ببلاد شيت. وولي ابنه قنبيشاش بن كيرش فثار منهم بأبيه، وتخطاهم إلى أرض مصر فهدم أوثانهم ونقض شرائعهم، فقتله السحرة وذلك لألف سنة من ابتداء دولتهم فولي أمر الفرس دارا وقتل السحرة بمصر ورد عمالة السريانيين إليهم، ورجّع بني إسرائيل إلى الشام في الثانية من أيامه، وزحف إلى بلاد الروم الغريقيين طالباً ثأر كيرش، ولم يزل في حروبهم إلى أن هلك لثلاث وعشرين من دولته ثار عليه أحد قواده فقتله، وولي بعده ابنه أرتشخار أربعين سنة، وولي بعده ابنه دارا أنوطو سبع عشرة سنة ثم ولي بعده ابنه أرتشخار بعد أن نازعه كيرش بن نوطو فقتله أرتشخار واستولى على الأمر وسالم الروم الغريقيين، ثم انتقضوا عليه واستعانوا بأهل مصر، فطالت الحرب ثم اصطلحوا ووقعت الهدنة، وهلك أرتشخار وذلك على عهد الإسكندر ملك اليونانيين وهو خال الإسكندر الأعظم، وهلك لعهده، فولي أبو الإسكندر الأعظم ببلد مقدونية وهو ملك فيلبس.

وهلك أرتشخار أوقش لست وعشرين من دولته وولي من بعده ابنه شخشار أربع سنين، وفي أيامه ولي على مقدونية واليونانيين وسائر الروم الغريقيين الإسكندر بن فيلبس. ثم ولي بعده شخاردارا وعلى عهده تغلب الإسكندر على يهود بيت المقدس وعلى جميع الروم الغريقيين، ثم حدثت الفتنة بينه وبين دارا وتزاحفوا مرات انهزم في كلها، وكان للإسكندر الظهور عليه، ومضى إلى الشام ومصر فملكهما وبنى الإسكندرية، وانصرف فلقيه دارا أنطوس فهزمه وغلب على ممالك الفرس واستولى على مدينتهم وخرج في اتباع دارا فوجده في بعض طريقه جريحاً، ولم يلبث أن هلك من تلك الجراحة، فأظهر الإسكندر الحزن عليه وأمر بدفنه في مقابر الملوك، وذلك لألف سنة ونحو من ثمانين سنة منذ ابتداء دولتهم كما قلناه انتهى كلام هروشيوش وقال السهيلي: وجده مثخنا في المعركة فوضع رأسه على فخذه وقال: يا سيد الناس لم أرد قتلك ولا رضيته فهل من حاجة؟ فقال: تتزوج ابنتي وتقتل قاتلي ففعل الإسكندر ذلك. وانقرض أمر هذه الطبقة الثانية والبقاء لله وحده سبحانه وتعالى.

قال ابن العميد: في ترتيب هؤلاء الملوك الفرس من بعد كيرش إلى دارا آخرهم يقال: إنه ملك من بعد كورش ابنه قمبوسيوس ثمانياً وقيل تسعاً وقيل اثنتين وعشرين سنة، وقيل أنه غزا مصر واستولى عليها وتسمى بختنصر الثاني، وملك بعده أريوش بن كستاسف خمساً وعشرين سنة وهو أول الملوك الأربعة الذين عناهم دانيال بقوله ثلاث ملوك يقومون بفارس والرابع يكثر ماله ويعظم على من قبله. فأولهم دارا بن كستاسب وهو مذكور في المجسطي، والثاني دارا ابن الأمة، والثالث الذي قتله الإسكندر، وقيل بل هو الرابع الذي عناه دانيال لأنه جعل أول الأربعة داريوش وأخشورش العادي وسركورش ورديفه في الملك، ثم عد الثلاثة بعده. وفي الثانية من ملكه داريوش بن كيستاسف لبابل تمت سبعون سنة لخراب القدس، وفي الثالثة كمل بناء البيت، ثم ملك بعد داريوش بن كيستاسف هذا أسمرديوس المجوسي سنة واحدة وقيل ثلاث عشرة سنة وسمي مجوسياً لظهور زرادشت بدين المجوسية في أيامه.

ثم ملك أخشويرش بن داريوش عشرين سنة وكان وزيره هامان العمليقي، وقد مرت قصته مع الجارية من بني إسرائيل. ثم ملك من بعده ابنه أرطحشاشت بن أخشويرش ويلقب بطويل

اليدين، وكانت أمه من اليهود بنت أخت مردخاي، وكانت حطية عند أبيه، وعلى يدها تخلص اليهود من سعاية وزيره فيهم عنده، وكان العزير في خدمته، ولعشرين من دولته أمر بهدم أسوار القدس ثم رغب إليه العزير في تجديدها فبناها في اثنتي عشرة سنة.

قال ابن العميد عن الجسطي: إن العزير هذا ويسمى عزرا هو الرابع عشر من الكهنونة من لدن هارون عليه السلام، وأنه كتب لنبي إسرائيل التوراة وكتب الأنبياء من حفظه بعد عودهم من الجلاء الأول، لأن بختنصر كان أحرقها، وقيل أن الذي كتب لهم ذلك هو يشوع بن أبو صادوق. ثم ملك من بعده أرطحشاشت الثاني خمس سنين وقيل إحدى وثلاثين وقيل ست عشرة وقيل شهرين، ورجح ابن العميد الخمس لموافقتها سياقة التواريخ، وكان لعهده أبقراط وسقراط في مدينة أشياش، ولعهده كتب النواميس الاثني عشر. ثم ملك بعده صغريتوس ثلاث سنين وقيل سنة واحدة وقيل سبعة أشهر، ولم يزل محنقاً لمرض كان به إلى أن هلك.

ثم ملك من بعده دارا ابن الأمة ويلقب الناكيش، وقيل داريوس الياريوس، ملك سبع عشرة سنة وكان على عهده من حكماء يونان سقراط وفيثاغورس وأقليوس، وفي الخامسة من دولته انتقض أهل مصر على يونان واستبدوا بملكهم بعد مائة وأربع وعشرين سنة، كانوا فيها في ملكتهم، ثم ملك من بعده أرطحشاشت ابن أخي كورش داريوش إحدى عشرة سنة وقيل اثنتين وعشرين سنة وقيل أربعين وقيل إحدى وعشرين، وكان لعهده الياقيم الكوهن الذي داهن الكهنونية ستاً وأربعين سنة. ثم ملك من بعده أرطحشاشت وتسمى أخوش، ويقال أوغش، عشرين سنة وقيل خمساً وعشرين وقيل تسعاً وعشرين، وزحف إلى مصر فملكها وهرب منها فرعون ساناق إلى مقدونية واسمه قصطرا.

وبنى أرطحشاشت قصر الشمع وجعل فيه هيكلاً وهو الذي حاصره عمرو بن العاص وملكه. ثم ملك من بعده ابنه أرشيش بن أرطحشاشت، وقيل اسمه فارس، أربع سنين وقيل إحدى عشرة، وكان لعهده من حكماء يونان بقراط وأفلاطون ودمقراطس، ولعهده قتل بقراط على القول بالتناسخ وقيل لم يكن مذهبه وإنما ألزمه به بعض تلامذته ثم شهدوا عليه وقتل مسموماً قتله القضاة بمدينة أثينا. ثم ملك من بعده ابنه دارا بن أرشيش عشرين سنة وقيل ست عشرة. وقال ابن العميد عن أبي الراهب: إنه دارا الرابع الذي أشار إليه دانيال كما مر، وكان هذا الملك عظيماً فيهم وتغلب على يونان، وألزمهم الوظائف التي كانت عليهم لآبائه وملكهم يومئذ الإسكندر بن فيلبس وكان عمره ست عشرة سنة، فطمع فيه دارا وطلب الضريبة فمنع وأجاب بالإغلاظ وزحف إليه فقاتله وقتله واستولى الإسكندر على ملك فارس وما وراءه انتهى كلام ابن العميد.

الطبقة الثالثة من الفرس وهم الأشكانية ملوك الطوائف وذكر دولهم ومصاير أمورهم إلى نهايتها

هذه الطبقة من ملوك الفرس يعرفون بالأشكانية، وكافها أقرب إلى الغين، من ولد أشكان بن دارا الأكبر، وقد مر ذكره، وكانوا من أعظم ملوك الطوائف عند افتراق أمر الفرس، وذلك أن الإسكندر لما قتل دارا الأصغر استشار معلمه أرسطو في أمر الفرس، فأشار عليه أن يفرق رياستهم في أهل البيوت منهم فتفترق كلمتهم ويخلص لك أمرهم، فولى الإسكندر عظماء النواحي من الفرس والعرب والنبط والجرامقة كلاً على عمله واستبد كل بناحية واستقام له ملك فارس والمشرق. ولما مات الإسكندر قسم ملكه بين أربعة من أمرائه: فكان ملك مقدونية وأنطاكية وما إليها من ممالك الروم لفيلبس من قواده، وكانت الإسكندرية ومصر والمغرب لفيلادفس ولقبه بطليموس، وكان الشام وبيت المقدس وما إلى ذلك لدمطوس، وكان السواد إلى الجبال والأهواز وفارس ليلاقش سيلقس ولقبه أنطيخس وأقام السواد في ملكته أربعاً وخمسين سنة.

قال الطبري: وكان أشك بن دارا الأكبر خلفه أبوه بالري فنشأ بها فلما كبر وهلك الإسكندر جمع العساكر وسار يريد أنطيخس، والتقيا بالموصل فانهزم أنطيخس وقتل، وغلب أشك على السواد من الموصل إلى الري وأصبهان، وعظمه سائر ملوك الطوائف لشرفه ونسبه وأهدوا إليه من غير أن يكون له عليهم إيالة في عزل ولا تولية، بل إنما كانوا يعظمونه ويبدأون باسمه في المخاطبات وهم مع ذلك متعادون، تختلف حالاتهم بعضهم مع بعض في الحرب والمهادنة. وقال بعضهم: كان رجل من نسل الملوك من فارس مملكاً على الجبال وأصبهان والسواد لقوات الإسكندر ثم غلب بعد ذلك ولده على السواد وجمعه إلى الجبال وأصبهان وصار كالرئيس على سائر ملوك الطوائف، ولذلك قصر ذكر هؤلاء الملوك دون غيرهم من الطوائف، فمنهم من قال: أنه أشك بن دارا، كما قدمناه وهو قول الفرس. وقيل هو أشك عقب أسفنديار بن كستاسب بينهما ستة آباء. وقيل هو أشك بن أشكان

الأكبر من ولد كينية بن كيقباذ، ويقال: إنه كـان أعظـم الأشكانية وقهر ملوك الطوائف واستولى علـى إصطخر لاتصالها بأصبهان وتخطاها إلى ما يتاخمها من بلاد فارس فغلب عليه واتصل ملكه عشرين سنة. وملك بعده جورا بن أشك وغزا بني إسرائيل بسبب قتلهم يحيى بن زكريا.

وقال المسعودي: ملك أشك بن أشك بن دارا بـن أشكان الأول منهم عشـر سنين، ثـم سابور ابنـه ستين سـنة وغـزا بـني إسرائيل بالشام ونهب أموالهم، ولإحدى وأربعين من ملكـه ظهـر عيسى صلوات الله عليه بأرض فلسطين. ثم ملك عمه جور عشر سنين، ثم نيرو بن سابور إحدى وعشرين سنة وفي أيامه غلب طيطش قيصر على بيت المقدس وخربها وأجلى منها اليهود كما مر. ثم جور بن نيرو تسع عشرة سنة. ثـم جرسي أخوه أربعين سنة، ثم هرمز أخوهما أربعين سنة، ثم ابنه أردوان بن هرمز خمس عشرة سنة، ثم ابنه كسرى بن أردوان أربعين سنة. ثم ابنه يـلاوش بن كسرى أربعاً وعشرين سنة.

وفي أيامه غـزت الـروم السـواد مـع قيصـر يطلبـون بثـأر أنطيخش ملك أنطاكية من اليونان الذي قتله أشـك جـد يـلاوش هذا، فجمع يـلاوش العسـاكر واستنفر ملـوك الطوائـف بفـارس والعراق فوجهوا له بالمدد واجتمع له أربعمائة ألـف مـن المقاتلـة، وولى عليهـم صـاحب الحضـر وكـان مـن ملـوك الطوائـف علـى السواد، فزحف إلى قيصر فقتله واستباح عسكر الروم وقتل وفتـح أنطاكية وانتهى إلى الخليج. وولي من بعد يـلاوش ابنـه أردوان بـن يلاوش ثلاث عشرة سنة. ثم خـرج عليـه أردشـير بـن بـابك بـن ساسان وجمع ملك فارس من أيدي ملوك الطوائف وجدد الدولـة الساسانية كما نذكر في أخبارهم.

قـال الطـبري: وفي أيـام الطوائـف كـانت ولادة عيسـى صلوات الله عليه لخمس وستين من غلب الإسـكندر علـى بـابل ولإحدى وخمسين مـن ملـك الأشكانية، والنصـارى يزعمـون أن ذلك كان لمضي ثلثمائة وثلاث وستين من غلب الإسـكندر علـى بابل. قال الطبري: وجميع سني الطوائـف مـن لـدن الإسـكندر إلى ظهور أردشير بن بابك واستوائه على الأمر مائتـان وسـتون سـنة، وبعضهم يقول خمسمائة وثـلاث وعشـرون سـنة. وقـال بعضهـم: ملك في هذه المدة منهم تسعون ملكـاً علـى تسـعين طائفـة كلهـم يعظم ملوك المدائن منهم وهم الأشكانيون.

الطبقة الرابعة من الفرس وهم الساسانية والخبر عن ملوكهم الأكاسرة إلى حين الفتح الإسلامي

هذه الدولة كانت من أعظم الدول في الخليقة وأشـدها قـوة وهي إحدى الدولتين اللتين صبحهما الإسلام في العالم وهما دولة فارس والروم. وكان مبدأ أمرها من توثب أردشير بن بـابك شاه ملك مرو، وهو ساسان الأصغر ابن بابك بن ساسان بن بابك بـن هرمز بن ساسان الأكبر ابن كي بهمن. وقـد تقـدم لنـا ذكـر كـي بهمن وأن ابنه ساسان غضب لما توج للملـك أخـوه دارا وهـو في بطن أمه، ولحق بجبال إصطخر فأقام هنالك وتناسل ولـده بهـا إلى أن كـان ساسـان الأصغـر منهـم، فكـان قيمـاً علـى بيـت النـار لإصطخر، وكان شجاعاً، وكانت امرأته من بيت ملك فولدت لـه ابنه بابك، وولد لبابك أردشير وضبطه الدارقطني: بالراء المهملة.

وكان على إصطخر يومئذ ملك مـن ملـوك الطوائـف ولـه عامل على دارابجرد خصي اسمه سري، فلما أتت لأردشـير سـبع سنين جاء به جده ساسان إلى ملك إصطخر وسـأله أن يضمـه إلى عامل دارابجرد الخصي يكفله إلى أن تتم تربيتـه، ولمـا هلـك عـامل دارابجرد فأقام بأمره فيها أردشير هذا وملكها، وكان لـه علـم مـن المنجمين بأن الملـك سيصير إليـه، فوثـب علـى كثـير مـن ملـوك الطوائف بأرض فارس فاستولى عليهم، وكتب إلى أبيه بذلـك، ثـم وثب على عامل إصطخر فغلبـه علـى مـا بيـده وملـك إصطخـر وكثيراً من أعمال فارس.

وكان زعيم الطوائف يومئذ أردوان ملك الأشكانيين فكتب إليه يسأله أن يتوجه فعنفه، وكتب إليه بالشخوص فامتنع، وخـرج بالعساكر من إصطخر وقدم موبذان رورين فتوجه ثم فتح كرمـان وبها ملك من ملوك الطوائف، وولى عليها ابنه، وكتب إليه أردوان يتهدده وأمـر ملـك الأهـواز مـن الطوائـف أن يسـير إليـه فرجـع مغلوباً. ثم سار أردشير إلى أصبهان فقتل ملكهـا واسـتولى عليهـا، ثم إلى الأهواز فقتل ملكها كذلك، ثـم زحـف إليـه أردوان عميـد الطوائف فهزمه أردشير وقتله وملك همـذان والجبـل وأذربيجـان وأرمينية والموصل ثم السواد. وبنى مدينة على شاطئ دجلة شرقي المدائن.

ثم رجع إلى إصطخر ففتح سجستان ثـم جرجـان ثـم مـرو وبلخ وخوارزم إلى تخوم خراسان، وبعث بكثير مـن الـرؤوس إلى بيت النيران، ثم رجع إلى فارس ونزل صول وأطاعه ملك كوشان

ومكران ثم ملك البحرين بعد أن حاصرها مدة، وألقى ملكها بنفسه في البحر. ثم رجع فنزل المدائن وتوجه ابنه سابور ولم يزل مظفراً وقهر الملوك حوله وأثخن في الأرض، ومدّن المدن واستكثر العمارة وهلك لأربع عشرة سنة من ملكه بأصطخر بعد مقتل أردوان.

وقال هشام بن الكلبي: قام أردشير في أهل فارس يريد الملك الذي كان لآبائه قبل الطوائف وأن يجمعه لملك واحد، وكان أردوان ملكاً على الأردوانيين وهم أنباط السواد، وكان بابا ملكاً على الأرمانيين وهم أنباط الشام، وبينهما حرب وفتنة فاجتمعا على قتال أردشير فحارباه مناوبة. ثم بعث أردشير إلى بابا في الصلح على أن يدعه في الملك ويخلي بابا بينه وبين أردوان، فلم يلبث أن قتل أردوان واستولى على السواد فأعطاه بابا الطاعة بالشام ودانت له سائر الملوك وقهرهم. ثم رجع إلى أمر العرب وكانت بيوتهم على ريف العراق ينزلون الحيرة، وكانوا ثلاث فرق: الأولى تنوخ ومنهم قضاعة الذين كنا قدمنا أنهم كانوا اقتتلوا مع ملك من التبابعة وأتى بهم وكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر ويضعونها غربي الفرات بين الأنبار والحيرة وما فوقها فأنفوا من الإقامة في مملكة أردشير وخرجوا إلى البرية، والثانية العباد الذين كانوا يسكنون الحيرة وأوطنوها، والثالثة الأحلاف الذين نزلوا بهم من غير نسبهم ولم يكونوا من تنوخ الناكثين عن طاعة الفرس ولا من العباد الذين دانوا بهم. فملك هؤلاء الأحلاف الحيرة والأنبار وكان منهم عمرو بن عدي وقومه، فعمروا الحيرة والأنبار ونزلوا وخربوها وكانتا من بناء العرب أيام بختنصر، ثم عمرها بنو عمرو بن عدي لما أصاروها نزلاً لملكهم إلى أن صبحهم الإسلام، واختط العرب الإسلاميون مدينة الكوفة فدثرت الحيرة وكان أردشير لما ملك أسرف في قتل الأشكانية حتى أفناهم لوصية جده، ووجد بقصر أردوان جارية استملحها ودفعت عن نفسها القتل بإنكار نسبها فيهم، فقالت أنا مولاة وبكر، فواقعها وحملت وظنت الأمن على نفسها، فأخبرته بنسبها فتنكر ودفعها إلى بعض مرازبته ليقتلها، فاستبقاها ذلك المرزبان إلى أن شكا إليه أردشير قلة الولد والخوف على ملكه من الانقطاع وندم على ما سلف منه من قتل الجارية وإتلاف الحمل، فأخبره بحياتها وأنها ولدت ولداً ذكراً وأنه سماه سابور وأنه قد كملت خصاله وآدابه، فاستحضره أردشير واختبره فرضيه وعقد له التاج ثم هلك أردشير فملك سابور من بعده فأفاض العطاء في أهل الدولة وتخير العمال، ثم شخص إلى خراسان فمهد أمورها، ثم رجع فشخص إلى نصيبين فملكها عنوة فقتل وسبى، وافتتح من الشام مدناً وحاصر أنطاكية وبها من الملوك أريانوس فاقتحمها عليه وأسره وحمله إلى جنديسابور فحبسه بها إلى أن فاداه على أموال عظيمة ويقال: على بناء شاذروان تستر ويقال جدع أنفه وأطلقه ويقال بل قتله، وكان بجبال تكريت بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضر وبها ملك من الجرامقة يقال له الساطرون من ملوك الطوائف وهو الذي يقول فيه الشاعر:

وأرى الموت قد تدلى من الحضر ... على رب أهله الساطرون
ولقد كان آمناً للدواهي ... ذا ثراء وجوهر مكنون

وقال المسعودي: وهو الساطرون بن إسطرون من ملوك السريانيين. قال الطبري: وتسميه العرب الضيزن. وقال هشام بن محمد الكلبي: من قضاعة وهو الضيزن بن معاوية بن العميد بن الأجذم بن عمرو بن النخع بن سليم، وسنذكر نسب سليم في قضاعة. وكان بأرض الجزيرة وكان معه من قبائل قضاعة ما لا يحصى وكان ملكه قد بلغ الشام، فخلف سابور في غزاته إلى خراسان وعاث في أرض السواد، فشخص إليه سابور عند انقضاء غزاته حتى أناخ على حصنه وحاصره أربع سنين قال الأعشى:

ألم تر للحضر إذ أهله ... بنعمة وهل خالد من نعم
أقام به سابور الجنود ... حولين يضرب فيه القمم

ثم إن ابنة ساطرون واسمها النضيرة وخرجت إلى ربض المدينة وكانت من أجمل النساء، وسابور كان جميلاً، فأشرفت عليه فشغفت به وشغف بها، وداخلته في أمر الحصن ودلته على عورته فدخله عنوة وقتل الضيزن وأباد قضاعة الذين كانوا معه وأكثرهم بنو حلوان فانقرضوا، وخرب حصن الحضر. وقال عدي بن زيد في رثائه:

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلة ... تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلساً ... فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فبا ... د الملك عنه فبابه مهجور

ثم أعرس بالنضيرة بعين النمر وباتت ليلها تتضور في فراشها وكان من الحرير محشواً بالقز والقسي فإذا ورقة آس بينها وبين الفراش وتؤذيها، فقال: ويحك! ما كان أبوك يغذيك؟ قالت: الزبد والمح والشهد وصفو الخمر، فقال: وأبيك لأنا أحدث عهداً وأبعد وداً من أبيك الذي غذاك بمثل هذا. وأمر رجلاً ركب فرساً جموحاً وعصب غدائرها بذنبه ولم يزل يركض حتى تقطعت أوصالها.

وعند ابن إسحاق: أن الذي فتح حصن الحضر وخربه وقتل الساطرون هو سابور ذو الأكتاف. وقال السهيلي: لا يصح لأن الساطرون من ملوك الطوائف والذي أزال ملكهم هو أردشير وابنه سابور، وسابور ذو الأكتاف بعدهم بكثير وهو التاسع من

ملوك أردشير. قال السهيلي: وأول من ملك الحيرة من ملوك الساسانية سابور بن أردشير، والحيرة وسط بلاد السواد وحاضرة العرب، ولم يكن لأحد قبله من آل ساسان حتى استقام العرب على طاعته، وولى عليهم عمرو بن عدي جد آل المنذر بعده وأنزله الحيرة، فجبى خراجهم وإتاوتهم واستبعدهم لسلطانه وقبض أيديهم عن الفساد بأقطار ملكه وما كانوا يرومونه بسواد العراق من نواحي مملكته. وولى بعده ابنه امرأ القيس بن عمرو عدي وصار ذلك ملكاً لآل المنذر بالحيرة توارثوه حسبما نذكر بعد.

وهلك سابور لثلاثين سنة من ملكه وولي بعده ابنه هرمز ويعرف بالبطل فملك سنة واحدة، وولي بعده ابنه بهرام بن هرمز وكان عامله على مذحج من ربيعة ومضر وسائر بادية العراق والجزيرة والحجاز امرؤ القيس بن عمرو بن عدي وهو أول من تنصّر من ملوك الحيرة وطال أمد ملكه.

قال هشام بن الكلبي: ملك مائة وأربع عشرة سنة من لدن أيام سابور اهـ.

وكان بهرام بن هرمز حليماً وقوراً وأحسن السيرة واقتدى بآبائه، وكان ماني الثنوي الزنديق صاحب القول بالنور والظلمة قد ظهر في أيام جده سابور فاتبعه قليلاً ثم رجع إلى المجوسية دين آبائه، ولما ولي بهرام بن هرمز جمع الناس لامتحانه، فأشادوا بكفره وقتله وقالوا زنديق. قال المسعودي: ومعناه أن من عدل عن ظاهر إلى تأويله ينسبونه إلى تفسير كتاب زرادشت الذي قدمنا أن اسمه زندة فيقولون زنديه فعربته العرب فقالوا زنديق، ودخل فيه كل من خالف الظاهر إلى الباطن المنكر، ثم اختص في عرف الشرع بمن يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

ثم هلك بهرام بن هرمز لثلاث سنين وثلاثة أشهر من دولته، وولي ابنه بهرام ثماني عشرة سنة عكف أولها على اللذات، وامتدت أيدي بطانته إلى الرعايا بالجور والظلم فخربت الضياع والقرى حتى نبهه الموبذان لذلك بمثل ضربه له، وذلك أنه سامره في ليلة قمر راجعاً من الصيد فسمعا بومين يتحدثان في خراب، فقال بهرام: ليت شعري هل أحد فهم لغات الطير؟ فقال له الموبذان: نعم إنا نعرف ذلك أيها الملك! وإنهما يتحاوران في عقد نكاح وإن الأنثى اشترطت عليه إقطاع عشرين ضيعة من الخراب فقبل الذكر وقال: إذا دامت أيام بهرام أقطعتك ألفاً. فتفطن بهرام لذلك وأفاق من غفلته وأشرف على أحوال ملكه مباشراً بنفسه وقابضاً أيدي البطانة عن الرعية وحسنت أيامه إلى أن هلك.

وولي بعده بهرام بن بهرام بن بهرام ثلاثة أسماء متشابهة وتلقب شاه، وكان مملكاً على سجستان وهلك لأربع سنين من دولته. وملك بعده أخوه قرسين بن بهرام تسع سنين أخرى، وكان عادلاً حسن السيرة. وملك بعده ابنه هرمز بن قرسين فوجل منه الناس لفظاظته، ثم أبدل من خلقه الشر بالخير وسار فيهم بالعدل والرفق والعمارة وهلك لسبع سنين من ولايته. وكان هؤلاء كلهم ينزلون جنديسابور من خراسان. ولما هلك ولم يترك ولدا شق ذلك على أهل مملكته لميلهم إليه ووجدوا ببعض نسائه حملاً فتوجوه وانتظروا إتمامه، وقيل بل كان هرمز أبوه أوصى بالملك لذلك الحمل فقام أهل الدولة بتدبير الملك ينتظرون تمام الولد.

وشاع في أطراف المملكة أنهم يتلومون صبياً في المهد فطمع فيهم الترك والروم، وكانت بلاد العرب أدنى إلى بلادهم وهم أحوج إلى تناول الحبوب من البلاد لحاجتهم إليها بما هم فيه من الشظف وسوء العيش، فسار منهم جمع من ناحية البحرين وبلاد القيس ووحاظة فأناخوا على بلاد فارس من ناحيتهم وغلبوا أهلها على الماشية والحرث والمعايش، وأكثروا الفساد ومكثوا في ذلك حيناً ولم يغزهم أحد من فارس ولا دافعوهم لصغر الملك، حتى إذا كبر وعرضوا عليه الأمور فأحسن فيها الفصل وبلغ ست عشرة سنة من عمره، ثم أطاق حمل السلاح نهض حينئذ للاستبداد بملكه.

وكان أول شيء ابتدأ به شأن العرب، فجهز إليهم العساكر وعهد إليهم أن لا يبقوا على أحد ممن لقوا منهم، ثم شخص بنفسه إليهم وغزاهم وهم غازون ببلاد فارس فقتلهم أبرح القتل، وهربوا أمامه وأجاز البحر في طلبهم إلى الخط وتعدى إلى بلاد البحرين قتلاً وتخريباً. ثم غزا بعدها رؤوس العرب من تميم وبكر وعبد القيس فأثخن فيهم وأباد عبد القيس ولحق فلهم بالرمال ثم أتى اليمامة فقتل وأسر وخرب ثم عطف إلى بلاد بكر وتغلب، ما بين مملكة فارس ومناظر الروم بالشام، فقتل من وجد هنالك من العرب وطم مياههم وأسكن من رجع إليه من بني تغلب دارين من البحرين والخط ومن بني تميم هجروا من بكر بن وائل كرمان ويدعون بكر إياد ومن بني حنظلة الأهواز، وبنى مدينة الأنبار والكرخ والسوس.

وفيما قاله غيره إن إياداً كانت تشتو بالجزيرة وتصيف بالعراق وتشن الغارة. وكانت تسمى طماً لانطباقها على البلاد، وسابور يومئذ صغير حتى إذا بلغ القيام على ملكه شرع في غزوهم ورئيسهم يومئذ الحرث بن الأغر الأيسادي، وكتب إليهم بالنذر بذلك رجل من إياد كان بين ظهراني الفرس، فلم يقبلوا حتى واقعتهم العساكر فاستلحمهم وخرجوا إلى أرض الجزيرة

والموصل إجلاء ولم يعاودوا العراق. ولما كان الفتح طلبهم المسلمون بالجزية مع تغلب وغيرهم فأنفوا ولحقوا بأرض الروم.

وقال السهيلي عند ذكر سابور بن هرمز: إنه كان يخلع أكتاف العرب ولذلك لقبه العرب ذو الأكتاف، وإنه أخذ عمرو بن تميم بأرضهم بالبحرين وله يومئذ ثلثمائة سنة وإنه قال إنما أقتلكم معاشر العرب لأنكم تزعمون أن لكم دولة. فقال له عمرو بن تميم: ليس هذا من الحزم أيها الملك! فإن يكن حقاً فليس قتلك إياهم بدافعه وقد تكون قد اتخذت يداً عندهم ينتفع بها ولدك وأعقاب قومك. فيقال إنه استبقاه ورحم كبره ثم غزا سابور بلاد الروم وتوغل فيها ونازل حصونهم.

وكان ملوك الروم على عصره قسطنطين وهو أول من تنصر من ملوكهم وهلك قسطنطين وملك بعده إليانوس من أهل بيته وانحرف عن دين النصرانية وقتل الأساقفة وهدم البيع وجمع الروم وانحدر لقتال سابور. واجتمعت العرب معهم لثأرهم عند سابور بمن قتل منهم وسار قائد إليانوس واسمه يوسانوس في مائة وسبعين ألفاً من المقاتلة، حتى دخل أرض فارس، وبلغ خبره وكثرة جموعه إلى سابور فأحجم عن اللقاء وأجفل وصبحه العرب، ففضوا جموعه وهرب في فل من عسكره، واحتوى إليانوس على خزائنه وأمواله واستولى على مدينة طبسون من مدائن ملكه. ثم استنفر أهل النواحي واجتمعت إليه فارس وارتجع مدينة طبسون وأقاما متظاهرين.

وهلك إليانوس بسهم أصابه، فبقي الروم فوضى وفزعوا إلى يوسانوس القائد أن يملكوه، فشرط عليهم الرجوع إلى دين النصرانية كما كان قسطنطين فقبلوا. وبعث إليه سابور في القدوم عليه، فسار إليه في ثمانين من أشراف الروم، وتلقاه سابور وعانقه وبالغ في إكرامه وعقد معه الصلح على أن يعطي الروم قيمة ما أفسدوه من بلاده فارس وأعطوا بدلاً عن ذلك نصيبين فرضي بها أهل فارس، وكانت مما أخذه الروم من أيديهم فملكها سابور وشرد عنها أهلها خوفاً من سطوته، فنقل إليها من أهل إصطخر وأصبهان وغيرهما.

وانصرف يوسانوس بالروم وهلك عن قريب ورجع سابور إلى بلاده وفيما نقله بعض الإخباريين أن سابور دخل بلاد الروم متنكراً وعثر عليه فأخذ وحبس في جلد ثور وزحف ملك الروم بعساكره إلى جنديسابور فحاصرها، وإن سابور هرب من حبسه ودخل جنديسابور المدينة ثم خرج إلى الروم فهزمهم وأسر ملكهم قيصر، وأخذه بعمارة ما خرب من بلاده ونقل التراب والغروس إليها ثم قطع أنفه وبعث به على حمار إلى قومه، وهي قصة واهية تشهد العادة بكذبها.

ثم هلك سابور لاثنتين وسبعين سنة من ملكه وهو الذي بنى مدينة نيسابور وسجستان وبنى الإيوان المشهور لمقعد ملوكهم، وملك لعهده امرؤ القيس بن عدي، وأوصى بالملك لأخيه أردشير بن هرمز، وفتك في أشراف فارس وعظمائهم فخلعوه لأربعين سنة من دولته. وملكوا سابور بن ذي الأكتاف فاستبشر الناس برجوع ملك أبيه إليه، وأحسن السيرة ورفق بالرعية وحمل على ذلك العمال والوزراء والحاشية ولم يزل عادلاً، وخضع له عمه أردشير المخلوع، وكانت له حروب مع إياد وفي ذلك يقول شاعرهم:

على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب إياد حولها الخيل والنعم

وقيل إن هذا الشعر إنما قيل في سابور ذي الأكتاف. ثم هلك سابور لخمس سنين من دولته، وملك أخوه بهرام ويلقب كرمان شاه وكان حسن السياسة وهلك لإحدى عشرة سنة من دولته رماه بعض الرماة بسهم في القتال فقتله. وملك بعده ابنه يزدجرد الأثيم، وبعض نسابة الفرس يقول إنه أخوه وليس ابنه وإنما هو ابن ذي الأكتاف. وقال هشام بن محمد: كان فظاً غليظاً كثير المكر والخديعة يفرغ في ذلك عقله وقوة معرفته وكان معجباً برأيه سيء الخلق كثير الحدة يستعظم الزلة الصغيرة ويرد الشفاعة من أهل بطانته متهماً للناس قليل المكافأة. وبالجملة فهو سيء الأحوال مذمومها، واستوزر لأول ولايته برسي الحكيم ويسمى فهربرشي ومهرمرسة، وكان متقدماً في الحكمة والفضائل وأمل أهل المملكة أن تهرب من يزدجرد الأثيم، فلم يكن ذلك واشتد أمره على الأشراف بالإهانة وعلى من دونهم بالقتل. وبينما هو جالس في مجلسه يوماً إذا بفرس عابر لم يطق أحد إمساكه قد وقف ببابه، فقام إليه ليتولى إمساكه بنفسه فرمحه فمات لوقته لإحدى وعشرين سنة من ملكه وملك بعده ابنه بهرام بن يزدجرد ويلقب ببهرام جور، وكان نشوؤه ببلاد الحيرة مع العرب أسلمه أبوه إليهم فربي بينهم وتكلم بلغتهم ولما مات أبوه قدم أهل فارس رجلاً من نسل أردشير، ثم زحف بهرام جور بالعرب فاستولى على ملكه كما نذكر في أخبار آل المنذر.

وفي أيام بهرام جور سار خاقان ملك الترك إلى بلاد الصغد من ممالكه فهزمه بهرام وقتله، ثم غزا الهند وتزوج ابنة ملكهم فهابته ملوك الأرض، وحمل إليه الروم الأموال على سبيل المهادنة، وهلك لتسع وعشرين من دولته وملك ابنه يزدجرد بن بهرام جور واستوزر مهربرسي الحكيم الذي كان أبوه استوزره، وجرى في ملكه بأحسن سيرة من العدل والإحسان، وهو الذي شرع في بناء

الحائط بناحية الباب والأبواب، وجعل جبل الفتح سداً بين بلاده وما وراءها من أمم الأعاجم، وهلك لعشرين سنة من دولته وملك من بعده ابنه هرمز وكان ملكاً على سجستان فغلب على الدولة ولحق أخوه فيروز بملك الصغد بمروالروذ.

وهذه الأمم هم المعروفون قديماً بالهياطلة وكانوا بين خوارزم وفرغانة، فأمر فيروز بالعساكر وقاتل أخاه هرمز فغلبه وحبسه. وكانت الروم قد امتنعت عن حمل الخراج فحمل إليهم العساكر مع وزيره مهربرسي، فأثخن في بلادهم حتى حملوا ما كانوا يحملونه واستقام أمره وأظهر العدل. وأصابهم القحط في دولته سبع سنين فأحسن تدبير الناس فيها وكف عن الجباية وقسم الأموال، ولم يهلك في تلك السنين أحد إتلافاً. وقيل إنه استسقى لرعيته من ذلك القحط فسقوا وعادت البلاد إلى أحسن ما كانت عليه.

وكان لأول ما ملك أحسن إلى الهياطلة جزاء بما أعانوه على أمره، فقوى ملكهم أمره وزحفوا إلى أطراف ملكه وملكوا طخارستان وكثيراً من بلاد خراسان وزحف هو إلى قتالهم فهزموه وقتلوه وأربعة بنين له وأربعة إخوة واستولوا على خراسان بأسرها. وسار إليهم رجل من عظماء الفرس من أهل شيراز فغلبهم على خراسان وأخرجهم منها حتى ألقوا بجميع ما أخذوه من عسكر فيروز من الأسرى والسبي، وكان مهلكه لسبع وعشرين من دولته. وبنى المدن بالري وجرجان وأذربيجان.

وقال بعضهم: إن ملك الهياطلة الذي سار إلى فيروز اسمه خشتوا، والرجل الذي استرجع خراسان من يده هوخرسوس من نسل منوشهر، وأن فيروز استخلفه لما سار إلى خشتوا والهياطلة على مدينتي الملك وهما طبسون ونهرشير، فكان من أمره مع الهياطلة بعد فيروز ما تقدم وملك بعد فيروز بن يزدجرد ابنه يلاوش بن فيروز ونازعه أخوه قباذ الملك فغلبه يلاوش ولحق قباذ بخاقان ملك الترك يستنجده. وأحسن يلاوش الولاية والعدل وحمل أهل المدن على عمارة ما خرب من مدنهم، وبنى مدينة ساباط بقرب المدائن.

وهلك لأربع سنين من دولته. وملك من بعده أخوه قباذ بن فيروز وكان قد سار بعساكر الترك أمده بها خاقان، فبلغه الخبر بمهلك أخيه وهو بنيسابور من طريقه، وقد لقي بها ابناً كان له هنالك حملت به أمه منه عند مروره ذلك إلى خاقان، فلما أحل بنيسابور ومعه العساكر سأل عن المرأة، فأحضرت ومعها الخبر وجاء الخبر هنالك بمهلك أخيه يلاوش فتيمن بالمولود وسار إلى سرحد الذي كان أبوه فيروز استخلفه على المدائن، ومال الناس إليه دون قباذ واستبد عليه. فلما كبر وبلغ سن الاستبداد بأمره أنف من استبداد سرحد عليه، فبعث إلى أصبهبذ البلاد وهو سابور مهران فقدم عليه وقبض على سرحد وحبسه ثم قتله ولعشرين من دولته حبس وخلع. ثم عاد إلى الملك وصورة الخبر عن ذلك أن مزدك الزنديق كان إباحياً، وكان يقول باستباحة أموال الناس وأنها فيء، وأنه ليس لأحد ملك شيء ولا حجرة، والأشياء كلها ملك لله مشاع بين الناس لا يختص به أحد دون أحد وهو لمن اختاره، فعثر الناس منه على متابعة مزدك في هذا الاعتقاد واجتمع أهل الدولة فخلعوه وحبسوه، وملكوا جاماسات أخاه.

وخرج رزمهر شاكياً داعياً لقباذ ويقرب إلى الناس بقتل المزدكية، وأعاد قباذ إلى ملكه، ثم سعت المزدكية عنده في رزمهر بإنكار ما أتى قبلهم فقتله، واتهمه الناس برأي مزدك فانتقضت الأطراف وفسد الملك وخلعوه وحبسوه وأعادوا جاماسات.

وفر قباذ من محبسه ولحق قباذ بالهياطلة وهم الصغد مستجيشاً لهم، ومر في طريقه بأبوشهر فتزوج بنت ملكها وولدت له أنوشروان، ثم أمده ملك الهياطلة، فزحف إلى المدائن لست سنين من مغيبه وغلب أخاه جاماسات واستولى على الملك. ثم غزا بلاد الروم وفتح آمد وسبى أهلها وطالت مدته وابتنى المدن العظيمة منها مدينة أراجان بين الأهواز وفارس، ثم هلك لثلاث وأربعين سنة من ملكه في الكرة الأولى وملك ابنه أنوشروان بن قباذ بن فيروز بن يزدجرد، وكان يلي الأصبهبذ وهي الرياسة على الجنود.

ولما ملك فرق أصبهبذ البلاد على أربعة: فجعل أصبهبذ المشرق بخراسان والمغرب بأذربيجان وبلاد الخزر واسترد البلاد التي تغلب عليها جيران الأطراف من الملوك مثل السند وبست الرخج وزابلستان وطخارستان ودهستان، وأثخن في أمة البازر وأجلى بقيتهم، ثم أدهنوا واستعانوا بهم في حروبه. وأثخن في أمة صول واستلحمهم، وكذلك الجرامقة وبلنجر واللان وكانوا يجاورون أرمينية ويتمالؤون على غزوها فبعث إليهم العساكر واستلحموهم وأنزل بقيتهم أذربيجان.

وأحكم بناء الحصون التي كان بناها قباذ وفيروز بناحية صول واللان لتحصين البلاد، وأكمل بناء الأبواب والسور الذي بناه جده بجبل الفتح، بنوه على الأزماق المنفوخة تغوص في الماء كلما ارتفع البناء إلى أن استقرت بقعر البحر وشقت بالخناجر فتمكن الحائط من الأرض ثم وصل السور في البر ما بين جبل الفتح والبحر، وفتحت فيه الأبواب ثم وصلوه في شعاب الجبل

وبقي فيه إلى أن كمل.

قال المسعودي: إنه كان باقياً لعصره. والظن أن التتر خربوه بعد لما استولوا على ممالك الإسلام في المائة السابعة، ومكانه اليوم في مملكة بني ذو شيخان ملوك الشمال منهم. وكان لكسرى أنوشروان في بنائه خبر مع ملوك الخزر ثم استفحل ملك الترك وزحف خاقان سيحور وقتل ملك الهياطلة واستولى على بلادهم وأطاعه أهل بلنجر وزحف إلى بلاد صول في عشرة آلاف مقاتل، وبعث إلى أنوشروان يطلب منه ما أعطاه أهل بلنجر في الفداء، وضبط أنوشروان أرمينية بالعساكر، وامتنعت صول بملكها أنوشروان والناحية الأخرى بسور الأبواب، فرجع خاقان خائباً وأخذ أنوشروان في إصلاح السابلة والأخذ بالعدل وتفقد أهل المملكة وتخير الولاة والعمال مقتدياً بسيرة أردشير بن بابك جده.

ثم سار إلى بلاد الروم وافتتح حلب وقبرص وحمص وأنطاكية ومدينة هرقل ثم الإسكندرية، وضرب الجزية على ملوك القبط، وحمل إليه ملك الروم الفدية، وملك الصين والتبت الهدايا. ثم غزا بلاد الخزر وأدرك فيهم بثأره وما فعلوه ببلاده.

ثم وفد عليه ابن ذي يزن من نسل الملوك التبابعة يستجيشه على الحبشة فبعث معه قائداً من قواده في جند من الديلم فقتلوا مسروقاً ملك الحبشة باليمن وملكوها، وملك عليهم سيف بن ذي يزن. وأمره أن يبعث عساكره إلى الهند فبعث إلى سرنديب قائداً من قواده فقتل ملكها واستولى عليها وحمل إلى كسرى أموالاً جمة. وملك على العرب في مدينة الحيرة. ثم سار نحو الهياطلة مطالباً بثأر جده فيروز فقتل ملكهم واستأصل أهل بيته.

وتجاوز بلخ وما وراءها، وأنزل عساكره فرغانة وأثخن في بلاد الروم وضرب عليهم الجزى. وكان مكرماً للعلماء محباً للعلم وفي أيامه ترجم كتاب كليلة وترجمه من لسان اليهود وحله بضرب الأمثال ويحتاج إلى فهم دقيق. وعلى عهده ولد رسول الله ﷺ لإثنتين وأربعين سنة من ملكه وذلك عام الفيل. وكذلك ولد أبوه عبد الله بن عبد المطلب لأربع وعشرين سنة من ملكه.

قال الطبري: وفي أيامه رأى الموبذان الإبل الصعاب تقود الخيل العراب وقد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها فأفزعه ذلك، وقص الرؤيا على من يعبرها، فقال: حادث يكون من العرب. فكتب كسرى إلى النعمان أن يبعث إليه بمن يسأله عما يريده فبعث إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حسان بن نفيلة الغساني وقص عليه الرؤيا فدله على سطيح، وقال له إئته أنت فسار إليه وقص عليه الرؤيا فأخبره بتأويلها وأن ملك العرب سيظهر والقصة معروفة.

وكان فيما قاله سطيح إنه يملك من آل كسرى أربعة عشرة ملكاً فاستطال كسرى المدة وملكوا كلهم في عشرين سنة أو نحوها.

وبعث عامل اليمن وهرز بهدية وأموال وطرف من اليمن إلى كسرى، فأغار عليها بنو يربوع من تميم وأخذوها، وجاء أصحاب العير إلى هوذة بن علي ملك اليمامة من بني حنيفة، فسار معهم إلى كسرى فأكرمه وتوجه بعقد من لؤلؤ ومن ثم قيل له ذو التاج، وكتب إلى عامله بالبحرين في شأنهم، وكان كثيراً ما يوقع ببني تميم ويقطعهم حتى سموه المكفر فتحيل عليهم بالميرة، ونادى مناديه في أحيائهم: إن الأمير يقسم فيكم بحصن المشعر ميرة، فتسايلوا إليه ودخلوا الحصن، فقتل الرجال وخصى الصبيان. وجاءت هدية أخرى من اليمن على أرض الحجاز أجازها رجل من بني كنانة فعدت عليه قيس وقتلوه وأخذوا الهدية، فنشأت الفتنة بين كنانة وقيس لأجل ذلك وكانت بينهم حرب الفجار عشرين سنة وشهدها رسول الله ﷺ صغيراً كان ينبل على أعمامه. ثم هلك أنوشروان لثمان وأربعين من دولته وملك ابنه هرمز.

قال هشام: وكان عادلاً حتى لقد أنصف من نفسه خصياً كان له، وكانت له خؤولة في الترك وكان مع ذلك يقتل الأشراف والعلماء، وزحف إليه ملك الترك شبابة في ثلثمائة ألف مقاتل، فسار هرمز إلى هراة وباذغيس لحربهم، وخالفه ملك الروم إلى ضواحي العراق، وملك الخزر إلى الباب والأبواب، وجموع العرب إلى شاطئ الفرات. فعاثوا في البلاد ونهبوا واكتنفته الأعداء من كل جانب، وبعث قائده بهرام صاحب الري إلى لقاء الترك، وأقام هو بمكانه من خراسان بيت هراة وباذغيس، وقاتل بهرام الترك وقتل ملكهم شبابة بسهم أصابه واستباح معسكره وأقام بمكانه.

فزحف إليه برمومة بن شبابة بالترك فهزمه بهرام وحاصره في بعض الحصون حتى استسلم وبعث به إلى هرمز أسيراً، وبعث معه بالأموال والجواهر والآنية والسلاح وسائر الأمتعة يقال في مائتين وخمسين ألفاً من الأحمال، فوقع ذلك من هرمز أحسن المواقع. وغص أهل الدولة ببهرام وفعله فأكثروا فيه السعاية وبلغ الخبر إلى بهرام فخشيه على نفسه فداخل من كان معه من المرازبة وخلعوا هرمز، ودعوا لابنه أبرويز وداخلهم ذلك في أهل الدولة، فلحق أبرويز بأذربيجان خائفاً على نفسه، واجتمع إليه المرازبة والأصبهبذيون فملكوه.

ووثب بالمدائن الأشراف والعظماء وتقدويه وبسطام خال

أبرويز فخلعوا هرمز وحبسوه وتحرزوا من قتله وأقبل أبرويز بمن معه إلى المدائن فاستولى على الملك، ثم نظر في أمر بهرام وتحرز منه وسار إليه وتوافقا بشط النهروان، ودعاه أبرويز إلى الدخول في أمره ويشترط ما أحب، فلم يقبل ذلك وناجزه الحرب فهزمه. ثم عاود الحرب مراراً وأحس أبرويز بالقتل من أصحابه فرجع إلى المدائن منهزماً، وعرض على النعمان أن يركبه فرسه فنجا عليها. وكان أبوه محبوساً بطبسون فأخبره الخبر وشاوره فأشار عليه بقصد مريق ملك الروم يستجيشه، فمضى لذلك ونزل المدائن لاثنتي عشرة سنة من ملكه.

وفي بعض طرق هذا الخبر أن أبرويز لما استوحش من أبيه هرمز لحق بأذربيجان واجتمع عليه مع من اجتمع ولم يحدث شيئاً. وبعث هرمز لمحاربة بهرام قائداً من مرازبته فانهزم وقتل ورجع فلّهم إلى المدائن وبهرام في اتباعهم، واضطرب هرمز وكتبت إليه أخت المرزبان المهزوم من بهرام تستحثه للملك فسار إلى المدائن وملك، وأتاه أبوه فتواضع له أبرويز وتبرأ له من فعل الناس وأنه إنما حمله على ذلك الخوف، وسأله أن ينتقم له ممن فعل به ذلك وأن يؤنسه بثلاثة من أهل النسب والحكمة يحادثهم في كل يوم فأجابه، واستأذنه في قتل بهرام جوبين فأشار به. وأقبل بهرام حثيثاً وبعث خاليه نفدويه وبسطام يستدعيانه للطاعة فرد أسوأ رد وقاتل أبرويز واشتدت الحرب بينهما، ولما رأى أبرويز فشل أصحابه شاور أباه ولحق بملك الروم، وقال له خالاه عند فصولهم من المدائن: نخشى أن يدخل بهرام المدائن ويملك أباك ويبعث فينا إلى ملك الروم. وانطلقوا إلى المدائن فقتلوا هرمز ثم ساروا مع أبرويز وقطعوا الفرات، واتبعتهم عساكر بهرام وقد وصلوا إلى تخوم الروم وقاتلوهم وأسروا نفدويه خال أبرويز ورجعوا عنهم. ولحق أبرويز ومن معه بأنطاكية وبعث إلى قيصر موريق يستنجده فأجابه وأكرمه وزوجه ابنته مريم، وبعث إليه أخاه بناطوس بستين ألف مقاتل وقائدهم، واشترط عليه الأتاوة التي كان الروم يحملونها، فقبل وسار بالعساكر إلى أذربيجان ووافاه هنالك خاله نفدويه هارباً من الأسر الذي كانوا أسروه.

ثم بعث العساكر من أذربيجان مع أصبهبذ الناحية، فانهزم بهرام جوبين ولحق بالترك وسار أبرويز إلى المدائن فدخلها وفرق في الروم عشرين ألف ألف دينار وأطلقهم إلى قيصر وأقام بهرام عند ملك الترك وصانع أبرويز عليه ملك الترك وزوجته حتى دست عليه من قتله، واغتم لذلك ملك الترك وطلقها من أجله، وبعث إلى أخت بهرام أن يتزوجها فامتنعت، ثم أخذ أبرويز في مهاداة قيصر موريق وألطافه، وخلعه الروم وقتلوه وملكوا عليهم ملكاً اسمه قوفا قيصر، ولحق ابنه بأبرويز فبعث العساكر على ثلاثة من القواد وسار أحدهم ودوخوا الشام إلى فلسطين، ووصلوا إلى بيت المقدس فأخذوا أساقفتها ومن كان بها من الأقسة وطالبوهم بخشبة الصليب فاستخرجوها من الدفن وبعثوا بها إلى كسرى.

وسار منهم قائد آخر إلى مصر وإسكندرية وبلاد النوبة فملكوا ذلك كله، وقصد الثالث قسطنطينية وخيم على الخليج وعاث في ممالك الروم ولم يجب أحد إلى طاعة ابن موريق وقتل الروم قوفا الذي كانوا ملكوه لما ظهر من فجوره، وملكوا عليهم هرقل فافتتح أمره بغزو بلاد كسرى وبلغ نصيبين، فبعث كسرى قائداً من أساورته فبلغ الموصل وأقام عليها يمنع الروم المجاوزة، وجاز هرقل من مكان آخر إلى جند فارس، فأمر كسرى قائده بقتاله فانهزم وقتل وظفر هرقل بحصن كسرى وبالمدائن، ووصل هرقل قريباً منها ثم رجع. وأولع كسرى العقوبة بالجند المنهزمين، وكتب إلى سخراب بالقدوم من خراسان وبعثه بالعساكر، وبعث هرقل عساكره والتقيا بأذرعات وبصرى فغلبتهم عساكر فارس، وسار سخراب في أرض الروم يخرب ويقتل ويسبي حتى بلغ القسطنطينية، ورجع وعزله أبرويز عن خراسان وولى أخاه.

وفي مناوبة هذا الغلب بين فارس والروم نزلت الآيات من أول سورة الروم.

قال الطبري: وأدنى الأرض التي أشارت إليها الآية هي أذرعات وبصرى التي كانت بها هذه الحروب. ثم غلبت الروم لسبع سنين من ذلك العهد وأخبر المسلمون بذلك الوعد الكريم لما أهمهم من غلب فارس الروم، لأن قريشاً كانوا يتشيعون لفارس لأنهم غير دائنين بكتاب، والمسلمون يودون غلب الروم لأنهم أهل كتاب، وفي كتب التفسير بسط ما وقع في ذلك بينهم وأبرويز هذا هو الذي قتل النعمان بن المنذر ملك العرب وعامله على الحيرة سخطه بسعاية عدي بن زيد العبادي وزير النعمان، وكان قد قتل أباه وبعثه إلى كسرى ليكون عنده ترجماناً للعرب كما كان أبوه قد فعل بسعايته في النعمان وحمله على أن يخطب إليه ابنته، وبعث إليه رسوله بذلك عدي بن زيد فترجم له عنه في ذلك مقالة قبيحة أحفظت كسرى أبرويز مع ما كان تقدم له في منعه الفرس يوم بهرام كما تقدم.

فاستدعاه أبرويز وحبسه بساباط، ثم أمر به فطرح للفيلة، وولى على العرب بعده أياس بن قبيصة الطائي جزاء بوفاء ابن عمه حسان يوم بهرام كما تقدم. ثم كان على عهده وقعة ذي قار لبكر بن وائل ومن معهم من عبس وتميم على الباهوت مسلحة

كسرى بالحيرة ومن معه من طيء، وكان سببها أن النعمان بن المنذر أودع سلاحه عند هانيء بن مسعود الشيباني وكانت شكة ألف فارس، وطلبها كسرى منه، فأبى إلا أن يردها إلى بيته، فآذنه كسرى بالحرب وآذنوه بها. وبعث كسرى إلى أياس أن يزحف إليه بالمسالح التي كانت ببلاد العرب بأن يوافوا أياساً، واقتتلوا بذي قار وانهزمت الفرس ومن معهم. وفيها قال النبي ﷺ: «اليوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا» أوحي إليه بذلك أو نفث في روعه، قيل إن ذلك كان بمكة وقيل بالمدينة بعد وقعة بدر بأشهر.

وفي أيام أبرويز كانت البعثة لعشرين من ملكه وقيل لاثنتين وثلاثين حكاه الطبري، وبعث إليه رسول الله ﷺ بكتابه يدعوه إلى الإسلام، كما تقدم في أخبار اليمن وكما يأتي في أخبار الهجرة ولما طال ملك أبرويز بطر وأشر وخسر الناس في أموالهم وولى عليهم الظلمة وضيق عليهم المعاش وبغض عليهم ملكه.

وقال هشام: جمع أبرويز من المال ما لم يجمعه أحد، وبلغت عساكره القسطنطينية وإفريقية، وكان يشتو بالمدائن ويصيف بهمدان، وكان له اثنتا عشرة ألف امرأة، وألف فيل وخمسون ألف دابة. وبنى بيوت النيران وأقام فيها اثني عشر ألف هربذ وأحصى جبايته لثمان عشرة سنة من ملكه فكان أربعمائة ألف ألف مكررة مرتين وعشرون ألف ألف مثلها فحمل إلى بيت المال بمدينة طبسون، وكانت هنالك أموال أخرى من ضرب فيروز بن يزدجرد منها اثنا عشر ألف بدرة في كل بدرة من الورق مصارفة أربعة آلاف مثقال فتكون جملتها ثمانية وأربعين ألف ألف مثقال مكررة مرتين في صنوف من الجواهر والطيوب والأمتعة والآنية لا يحصيها إلا الله تعالى.

ثم بلغ من عتوه واستخفافه بالناس أنه أمر بقتل المقيدين في سجونه وكانوا ستة وثلاثين ألفاً، فنقم ذلك عليه أهل الدولة وأطلقوا ابنه شيرويه واسمه قباذ وكان محبوساً مع أولاده كلهم لإنذار بعض المنجمين له بأن بعض ولده يغتاله فحبسهم، وأطلق أهل الدولة شيرويه وجمعوا إليه المقيدين الذين أمر بقتلهم، ونهض إلى قصور الملك بمدينة نهشير فملكها وحبس أبرويز وبعث إلى ابنه شيرويه يعنفه، فلم يرض ذلك أهل الدولة وحملوه على قتله.

وقتل لثمان وثلاثين سنة من ملكه، وجاءته أختاه بوران وأزرميدخت فأسمعتاه وأغلظتا له فيما فعل فبكى ورمى التاج عن رأسه، وهلك لثمانية أشهر من مقتل أبيه في طاعون هلك فيه نصف الناس أو ثلثهم، وكان مهلكه لسبع من الهجرة فيما قال السهيلي ثم ولي ملك الفرس من بعده ابنه أردشير طفلاً ابن سبع سنين لم يجدوا من بيت الملك سواه لأن أبرويز كان قتل المرشحين كلهم من بنيه وبني أبيه، فملك عظماء فارس هذا الطفل أردشير وكفله بهادرخشنش صاحب المائدة في الدولة، فأحسن سياسة ملكه وكان شهريران بتخوم الروم في جند ضمهم إليه أبرويز وحموهم هنالك وصاحب الشورى في دولتهم، ولما لم يشاوروه في ذلك غضب وبسط يده في القتل، وطمع في الملك وأطاعه من كان معه من العساكر. وأقبل إلى المدائن.

وتحصن بهادرخشنش بمدينة طبسون دار الملك، ونقل إليها الأموال والذخائر وأبناء الملوك، وحاصرها شهريران فامتنعت، ثم داخل بعض العسس ففتحوا له الباب فاقتحمها وقتل العظماء واستصفى الأموال وفضح النساء وبعث أردشير الطفل الملك من قتله لسنة ونصف من ملكه، وملك شهريران على التخت ولم يكن من بيت الملك، وامتعض لقتل أردشير جماعة من عظماء الدولة وفيهم زادان فروخ وشهريران ووهب مؤدب الأساورة، وأجمعوا على قتل شهريران.

وداخلوا في ذلك بعض حرس الملك فتعاقدوا على قتله، وكانوا يعملون قدام الملك في الأيام والمشاهد سماطين، ومر بهم شهريران بعض أيام بين السماطين وهم مسلحون فلما حاذاهم طعنوه فقتلوه وقتلوا العظماء بعد قتل أردشير الطفل ثم ملكوا بوران بنت أبرويز ودفعت أمر الدولة إلى قبائل شهريران من حرس الملك وهو فروخ بن ماخدشيراز من أهل إصطخر، ورفعت رتبته، وأسقطت الخراج عن الناس، وأمرت برم القناطر والجسور وضرب الورق، وردت خشبة الصليب على الجاثليق ملك الروم، وهلكت لسنة وأربعة أشهر.

وملكوا بعدها خشنشده من عمومة أبرويز عشرين يوماً فملك أقل من شهر. ثم ملك أزرميدخت بنت أبرويز وكانت من أجلّ نسائهم، وكان عظيم فارس يومئذ فروخ هرمز أصبهبذ خراسان فأرسل إليها في التزويج، فقالت هو حرام على الملكة ودعته ليلة كذا، فجاء وقد عهدت إلى صاحب حرسها أن يقتله ففعل، فأصبح بدار الملك قتيلاً وأخفي أثره.

وكان لما سار إلى أزرميدخت استخلف على خراسان ابنه رستم، فلما سمع بخبر أبيه أقبل في جند عظيم حتى نزل المدائن وملكها، وسمل أزرميدخت وقتلها، وقيل سمها فماتت وذلك لستة أشهر من ملكها، وملكوا بعدها رجلاً من نسل أردشير بن بابك وقتل لأيام قلائل، وقيل بل هو من ولد أبرويز اسمه فروخ زاد بن خسرو وجدوه بحصن الحجارة قريب نصيبين، فجاءوا به إلى المدائن وملكوه ثم عصوا عليه فقتلوه.

وقيل لما قتل كسرى بن مهرخشنش طلب عظماء فارس من يولونه الملك ولو من قبل النساء، فأتي برجل وجد بميسان اسمه فيروز بن مهرخشنش ويسمى أيضاً خشنشدة أمه صهاربخت بنت يرادقرار بن أنوشروان فملكوه كرهاً، ثم قتلوه بعد أيام قلائل. ثم شخص رجل من عظماء الموالي وهو رئيس الخول إلى ناحية الغرب، فاستخرج من حصن الحجارة قرب نصيبين ابناً لكسرى كان لجأ إلى طبسون فملكوه، ثم خلعوه وقتلوه لستة أشهر من ملكه.

وقال بعضهم: كان أهل إصطخر قد ظفروا بيزدجرد بن شهريار بن أبرويز فلما بلغهم أن أهل المدائن عصوا على خسرو فروخ زاد أتوا بيزدجرد من بيت النار الذي عندهم ويدعى أردشير، فملكوه بإصطخر وأقبلوا به إلى المدائن، وقتلوا فروخ زاد خسرو لسنة من ملكه. واستقل يزدجرد بالملك وكان أعظم وزرائه رئيس الموالي الذي جاء بفرخزاد خسرو من حصن الحجارة. وضعفت مملكة فارس، وتغلب الأعداء على الأطراف من كل جانب، فزحف إليهم العرب المسلمون بعد ستين من ملكه، وقيل بعد أربع، فكانت أخبار دولته كلها هي أخبار الفتح نذكرها هنالك إلى أن قتل بمرو بعد نيف وعشرين سنة من ملكه.

هذه هي سياقة الخبر عن دولة هؤلاء الأكاسرة الساسانية عند الطبري. ثم قال آخرها: فجميع سني العالم من آدم إلى الهجرة على ما يزعمه اليهود أربعة آلاف سنة وستمائة واثنان وأربعون سنة، وعلى ما يدعيه النصارى في توراة اليونانيين ستة آلاف سنة غير ثمان سنين، وعلى ما يقوله الفرس إلى مقتل يزدجرد أربعة آلاف ومائة وثمانون سنة ومقتل يزدجرد عندهم لثلاثين من الهجرة، وأما عند أهل الإسلام فبين آدم ونوح عشرة قرون والقرن مائة سنة وبين نوح وإبراهيم كذلك وبين إبراهيم وموسى كذلك ونقله الطبري عن ابن عباس وعن محمد بن عمرو بن واقد الإسلامي عن جماعة من أهل العلم وقال: إن الفترة بين عيسى وبين محمد ﷺ ستمائة سنة ورواه عن سلمان الفارسي وكعب الأحبار والله أعلم بالحق في ذلك والبقاء لله الواحد القهار.

الخبر عن دولة يونان والروم وأنسابهم ومصايرهم

كان هؤلاء الأمم من أعظم أمم العالم وأوسعهم ملكاً وسلطاناً، وكانت لهم الدولتان العظيمتان للإسكندر والقياصرة من بعده الذين صبحهم الإسلام وهم ملوك بالشام، ونسبهم جميعاً إلى يافث باتفاق من المحققين، إلا ما ينقل عن الكندي في نسب يونان إلى عابر بن فالغ وأنه خرج من اليمن بأهله وولده مغاضباً لأخيه قحطان فنزل ما بين الأفرنجة والروم فاختلط نسبه بهم، وقد رد عليه أبو العباس الناشيء في ذلك بقول:

تخلط يونان بقحطان ضلة ... لعمري لقد باعدت بينهما جداً

ولذلك يقال: إن الإسكندر من تبع، وليس شيء من ذلك بصحيح، وإنما الصحيح نسبهم إلى يافث، ثم إن المحققين ينسبون الروم جميعاً إلى يونان الأغريقيون منهم واللطينيون. ويونان معدود في التوراة من ولد يافث لصلبه، واسمه فيها يافان بفاء تقرب من الواو، فعربته العرب إلى يونان وأما هروشيوش فجعل الغريقيين خمس طوائف منتسبين إلى خمسة من أبناء يونان وهم: كيتم وحجيلة وترشوش ودداتم وإيشاي، وجعل من شعوب إيشاي سجينية وأنثاش وشمالا وطشال وجلدمون. ونسب الروم اللطينيين فيهم ولم يعين نسبهم في أحد من الخمسة، ونسب الإفرنج إلى غطرما بن عومر بن يافث، وقال: إن الصقالبة إخوانهم في نسبه، وقال: إن الملك كان في هذه الطوائف لبني أشكان بن غومر والملوك منهم هؤلاء الغريقيون قبل يونان وغيرهم. ونسب القوط إلى ماداي بن يافث وجعل من إخوانهم الأرمن، ثم نسب القوط مرة أخرى إلى ماغوغ بن يافث وجعل اللطينيين من إخوانهم في ذلك النسب. ونسب القالليين منهم إلى رفنا بن غومار، ونسب إلى طوبال بن يافث الأندلس والإيطاليين والأركاديين، ونسب إلى طبراش بن يافث أجناس الترك. واسم الغريقيين عنده يشمل أبناء يونان كلهم كما ذكره، وينوع الروم إلى الغريقيين واللطينيين وقال ابن سعيد فيما نقله من تواريخ المشرق عن البيهقي وغيره: إن يونان هو ابن علجان بن يافث، قال: ولذلك يقال لهم العلوج ويشركهم في هذا النسب سائر أهل الشمال من غير الترك، وإن الشعوب الثلاثة من ولد يونان، فالإغريقيون من ولد أغريقش بن يونان والروم من ولد رومي بن يومان واللطينيون من ولد لطين بن يونان، وإن الإسكندر من الروم منهم والله أعلم. ونحن الآن نذكر أخبار الدولتين الشهيرتين منهم مبلغ علمنا والله الموفق للصواب سبحانه وتعالى.

الخبر عن دولة يونان والإسكندر منهم وما كان لهم من الملك والسلطان إلى انقراض أمرهم

هؤلاء اليونانيون المتشعبون إلى الغريقيين واللطينيين كما

قلناه اختصوا بسكنى الناحية الشمالية من المعمور مع إخوانهم من سائر بني يافث كلهم كالصقالبة والترك والإفرنجة من ورائهم وغيرهم من شعوب يافث، ولهم منها الوسط ما بين جزيرة الأندلس إلى بلاد الترك بالمشرق طولاً وما بين البحر المحيط والبحر الرومي عرضاً، فمواطن اللطينيين منهم في الجانب الغربي ومواطن الغريقيين منهم في الجانب الشرقي والبحر بينهما خليج القسطنطينية. وكان لكل واحد من شعبي الغريقيين واللطينيين منهم دولة عظيمة مشهورة في العالم واختص الغريقيون باسم اليونانيين، وكان منهم الإسكندر المشهور الذكر أحد ملوك العالم، وكانت ديارهم كما قلناه بالناحية الشرقية من خليج القسطنطينية بين بلاد الترك ودروب الشام.

ثم استولى على ما وراء ذلك من بلاد الترك والعراق والهند، ثم جال أرمينية وما وراءها من بلاد الشام وبلاد مقدونية ومصر والإسكندرية، وكان ملوكهم يعرفون بملوك مقدونية وذكر هروشيوش مؤرخ الروم من شعوب هؤلاء الغريقيين نحو لجدمون وبنو أنتناش، قال: وإليهم ينسب الحكماء الأنتاشيون وهم ينسبون لمدينتهم أجدة أنتاش، قال: ومن شعوبهم أيضا بنو طمان ولجدمون كلهم بنو شمالا بن إيشاي، وقال في موضع آخر: لجدمون أخو شمالا وكانت شعوب هذه الأمة قبل الفرس والقبط وبني إسرائيل متفرقة بافتراق شعوبها، وكان بينهم وبين إخوانهم اللطينيين فتن وحروب، ولما استفحل ملك فارس لعهد الكينية أرادوهم على الطاعة لهم، فامتنعوا وغزتهم فارس، فاستصرخوا عليهم بالقبط فسالموهم إلى محاربة الغريقيين حتى أذلوهم وأخذوا الجزى منهم وولوا عليهم. ويقال: أن أفريدون ولى عليهم ابنه، وأن جده الإسكندر لأبيه من أعقابه. ويقال: إن بختنصر لما ملك مصر والمغرب أنفوه بالطاعة وكانوا يحملون خراجهم إلى ملك فارس عدداً من كرات الذهب أمثال البيض ضريبة معلومة عليهم في كل سنة، ولما فرغوا من شأن أهل فارس وأنفوا ملكهم بالجزى والطاعة صرفوا وجوههم إلى حرب اللطينيين، ثم استفحل أمر الإيشائيين من الغريقيين ولم يكن قوامهم إلا الجرمونيون، فغلبوهم وغلبوا بعدهم اللطينيين والفرناسيين والأركاديين، واجتمع إليهم سائر شعوب الغريقيين واعتز سلطانهم وصار لهم الملك والدولة.

وقال ابن سعيد: إن الملك استقر بعد يونان في ابنه أغريقش في الجانب الشرقي من خليج قسطنطينية، وتوالى الملك في ولده وقهروا اللطينيين والروم ودال ملكهم في أرمينية، وكان من أعظمهم هرقل الجبار بن ملكان بن سلقوس بن أغريقش، يقال: إنه ضرب الأتاوة على الأقاليم السبعة. وملك بعده ابنه يلاق وإليه تنسب الأمة اليلاّقية وهي الآن باقية على بحر سودان. واتصل الملك في عقب يلاق إلى أن ظهر إخوانهم الروم واستبدوا بالملك، وكان أولهم هردوس بن منطرون بن رومي بن يونان فملك الأمم الثلاثة وصار اسمه لقباً لكل من ملك بعده، وسمت به يهود الشام كل من قام بأمرها منهم.

ثم ملك بعده ابنه هرمس، فكانت له حروب مع الفرس إلى أن قهروه وضربوا عليه الأتاوة، فاضطرب حينئذ أمر اليونانيين وصاروا دولاً وممالك. وانفرد الإغريقيون برئيس لهم، وصنع مثل ذلك اللطينيون، إلا أن اللقب بملك الملوك كان لملك الروم، ثم ملك بعده ابنه مطريوش فحمل الأتاوة لملك الفرس لاشتغاله بحرب اللطينيين والإغريقيين. وملك بعده ابنه فليفوش وكانت أمه من ولد أفريدون الذي ملكه أبوه على اليونان، فظهر وهدم مدينة أغريقية وبنى مدينة مقدونية في وسط الممالك بالجانب الغربي من الخليج. وكان محباً للحكمة فلذلك كثر الحكماء في دولته.

ثم ملك من بعده ابنه الإسكندر وكان معلمه من الحكماء أرسطو وقال هروشيوش: إن أباه فيلفوش إنما ملك بعد الإسكندر بن تراوش أحد ملوكهم العظماء، وكان فيلفوش صهراً له على أخته لينبادة بنت تراوش، وكان له منها الإسكندر الأعظم. قال: وكان ملك الإسكندر بن تراوش لعهد أربعة آلاف وثمانمائة من عهد الخليقة ولعهد أربعمائة أو نحوها من بناء رومة، وهلك وهو محاصر لرومة قتله اللطينيون عليها لسبع سنين من دولته.

فولي أمر الغريقيين والروم من بعده صهره على أخته لينبادة فيلفوش ابن آمنتة بن هركلش، واختلفوا عليه فافترق أمرهم وحاربهم إلى أن انقادوا وغلبهم على سائر أوطانهم. وأراد بناء القسطنطينية فمنعه الجرمانيون بما كانت لهم، فقاتلهم حتى استلحمهم، واجتمع إليه سائر الروم والغريقيين من بني يونان، وملك ما بين المانية وجبال أرمينية. وكان الفرس لذلك العهد قد استولوا على الشام ومصر فاعتزم فيلفوش على غزو الشام، فاغتاله في طريقه بعض اللطينيين وقتله بثأر كان له عنده.

وولي من بعده ابنه الإسكندر فاستمر على مطالبة بلاد الشام، وبعث إليه ملوك فارس في الخراج على الرسم الذي كان لعهد أبيه فيلفوش، فبعث إليه الإسكندر إني قد ذبحت تلك الدجاجة التي كانت تبيض الذهب وأكلتها. ثم زحف إلى بلاد الشام واستولى عليها وفتح بيت المقدس وقرب فيه القربان وذلك لعهد مائتين وخمسين من فتح بختنصر إياها، وامتعض أهل فارس لانتزاعه إياها من ملكهم، فزحف إليه دارا في ستين ألفاً من الفرس ولقيه الإسكندر في ستمائة ألف من قومه فغلبهم وفتح

كثيراً من مدن الشام ورجع إلى طرسوس، فزحف إليه دارا ولقيه عليها فهزمه الإسكندر وافتتح طرسوس. ومضى وبنى الإسكندرية ثم تزاحف مع دارا وهزمه وقتله وتخطى إلى فارس فملك بلادها وهدم مدينة الملك بها وسبى أهلها، وأشار عليه معلمه أرسطو بأن يجعل الملك في أسافلهم لتتفرق كلمتهم ويخلص إليه أمرهم، فكاتب الإسكندر ملوك كل ناحية من الفرس والنبط والعرب وملك على كل ناحية وتوجه فصاروا طوائف في ملكهم، واستبد كل واحد منهم بجهة كان ملكها لعقبه.

ومعلمه أرسطو هذا من اليونانيين وكان مسكنه أثينا وكان كبير حكماء الخليفة غير منازع، أخذ الحكمة عن أفلاطون اليوناني، كان يعلم الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس فسمي تلاميذه بالمشائين. وأخذ أفلاطون عن سقراط ويعرف بسقراط الدن بسكناه في دن من الخزف اتخذه لرهبانيته، وقتله قومه أهل يونان مسموماً لما نهاهم عن عبادة الأوثان، وكان هو أخذ الحكمة عن فيثاغورس منهم، ويقال: إن فيثاغورس أخذ عن تاليس حكيم ملطية، وأخذ تاليس عن لقمان. ومن حكماء اليونانيين دميقراطيس، وأنكسيثاغورس كان مع حكمته مبرزاً في علم الطب وبعث فيه بهمن ملك الفرس إلى يونان فامتنع من إيفاده عليه ضنانة به.

وكان من تلامذته جالينوس لعهد عيسى عليه السلام ومات بصقلية ودفن بها.

ولما استولى الإسكندر على بلاد فارس تخطاها إلى بلاد السند فملكها وبنى بها مدينة سماها الإسكندرية، ثم زحف إلى بلاد الهند فغلب على أكثرها وحاربه فور ملك الهند فانهزم وأخذه الإسكندر أسيراً بعد حروب طويلة، وغلب على جميع طوائف الهنود وملك بلاد الصين والسند وذللت إليه الملوك وحملت إليه الهدايا والخراج من كل ناحية، وراسله ملوك الأرض من إفريقية والمغرب والإفرنجة والصقالبة والسودان.

ثم ملك بلاد خراسان والترك، واختط مدينة الإسكندرية عند مصب النيل في البحر الرومي، واستولى على الملوك يقال: على خمسة وثلاثين ملكاً. وعاد إلى بابل فمات بها، يقال مسموماً سمه عامله على مقدونية لأن أمه شكته إلى الإسكندر فتوعده فأهدى له سما وتناوله فمات لاثنتين وأربعين سنة من عمره، بعد أن ملك اثنتي عشرة سنة: سبعاً منها قبل مقتل دارا وخمساً بعده.

قال الطبري: ولما مات عرض الملك على ابنه إسكندروس فاختار الرهبانية، فملك يونان عليهم لوغوس من بيت الملك ولقبه بطليموس قال المسعودي: ثم صارت هذه التسمية لكل من يملك منهم ومدينتهم مقدونية وينزلون الإسكندرية، وملك منهم أربعة عشر ملكاً في ثلثمائة سنة.

وقال ابن العميد: كان قسم الملك في حياته بين أربعة من أمرائه: بطليموس فلدلفوس كان على الإسكندرية ومصر والمغرب، وفيلفوس بمقدونية وما إليها من ممالك الروم وهو الذي سم الإسكندر، ودمطرس بالشام، وسلقوس بفارس والمشرق. فلما مات استبد كل واحد بناحية وكتب أرسطو شرح كتاب هرمس وترجمه من اللسان المصري إلى اليوناني، وشرح ما فيه من العلوم والحكمة والطلسمات. وكتاب الأسطماخيس يحتوي على عبادة الأول، وذكر فيه أن أهل الأقاليم السبعة كانوا يعبدون الكواكب السيارة. كل إقليم لكوكب، ويسجدون له ويبخرون ويقربون ويذبحون، وروحانية ذلك الكوكب تدبرهم بزعمهم. وكتاب الأستماطس يحتوي على فتح المدن والحصون بالطلسمات والحكم، ومنها طلسمات لانزال المطر وجلب المياه. وكتب الأشطرطاش في الأختبارات على سرى القمر في المنازل والاتصالات، وكتب أخرى في منافع وخواص الأعضاء الحيوانيات والأحجار والأشجار والحشائش.

وقال هروشيوش: إن الذي ملك بعد الإسكندر صاحب عسكره بطليموس بن لاوي، فقام بأمرهم ونزل الإسكندرية واتخذها دارا لملكهم. ونهض كلمنس بن الإسكندر وأمه بنت دارا ولينبادة أم الإسكندر وساروا إلى صاحب أنطاكية واسمه فمشاندر فقتلهم. واختلف الغريقيون على بطليموس وافترق أمره وحارب كل واحد منهم ناحيته، إلى أن غلبهم جميعاً واستقام أمره، ثم زحف إلى فلسطين وتغلب على اليهود وأثخن فيهم بالقتل والسبي والأسر. ونقل رؤساءهم إلى مصر.

ثم هلك لأربعين سنة من ملكه وولي بعده ابنه فلديغيش، وأطلق أسرى اليهود من مصر، ورد الأواني إلى البيت وحباهم بآنية من الذهب وأمرهم بتعليقها في مسجد القدس، وجمع سبعين من أحبار اليهود ترجموا له التوراة من اللسان العبراني إلى اللسان الرومي واللطيني. ثم هلك فلديغيش لثمان وثلاثين سنة من ملكه وولي بعده ابنه أنطريس ويلقب أيضاً بطليموس لقبهم المخصوص بهم إلى آخر دولتهم، فانعقدت السلم بينه وبين أهل إفريقية على مدعيون ملك قرطاجنة، ووفد عليه وعقد معه الصلح عن قومه، وزحف قواد رومة إلى الغريقيين ونالوا منهم.

ثم هلك أنطريس لست وعشرين سنة من ملكه، وولي بعده أخوه فلوباذي فزحف إليه قواد رومة فهزمهم وجال في ممالكهم.

ثم كانت حروبه معهم بعدها سجالاً. وزحف إلى اليهود فملك الشام عليهم وولى الولاة من قبله فيهم وأثخن بالقتل والسبي فيهم، يقال: إنه قتل منهم نحواً من ستين ألفاً، وهلك لسبع عشرة سنة من ملكه. وولي بعده ابنه إيفانش وعلى عهده كانت فتنة أهل رومة وأهل إفريقية التي اتصلت نحواً من عشرين سنة، وافتتح أهل رومة صقلية وأجاز قوادهم إلى إفريقية وافتتحوا قرطاجنة، كما نذكر في أخبارهم، وهلك إيفانش لأربع وعشرين سنة من دولته.

وولي بعده بالإسكندرية ابنه فلوماطر فزحف الغريقيون إلى رومة، وكان فيهم صاحب مقدونية وأهل أرمينية والعراق وظاهرهم ملك النوبة واجتمعوا لذلك، فغلبهم الرومانيون وأسروا صاحب مقدونية، وهلك فلوماطر لخمس وثلاثين سنة من ملكه. وولي بعده ابنه إيرياطس وعلى عهده استفحل ملك أهل رومة واستولوا على الأندلس وجازوا البحر إلى قرطاجنة بإفريقية فملكوها وقتلوا ملكها أشدريال وخربوا مدينتها بعد أن عمرت تسعمائة سنة من بنائها كما نذكر في أخبارها. وزحف أيضاً أهل رومة إلى الغريقيين فغلبوهم وملكوا عليهم مدينتهم قرنطة من أعظم مدنهم، يقال: إنها كانت ثانية قرطاجنة. ثم هلك إيرياطش لسبع وعشرين سنة من ملكه وولي بعده ابنه شوطار سبع عشرة سنة وعلى عهده استفحل ملك أهل رومة ومهدوا الأندلس، وملك بعده أخوه الإسكندر عشر سنين، ثم ابنه ديونشيس مائة وثلاثين سنة وعلى عهده استولى الرومانيون على بيت المقدس ووضعوا الجزية على اليهود، وزحف قيصر يوليوس من قوادهم إلى الإفرنجة ولمياش أيضاً من قوادهم إلى الفرس فغلبوهم جميعاً وما حولهم إلى أنطاكية واستولوا على ما كان لهم من ذلك. وخرج الترك من بلادهم فأغاروا على مقدونية فردهم هامس قائد الرومانيين بالمشرق على أعقابهم.

وهلك ديونشيس فوليت بعده ابنته كلابطرة سنتين فيما قال هروشيوش لخمسة آلاف ونيف من مبدأ الخليقة ولسبعمائة سنة من بناء رومة، وعلى عهدها استبد قيصر يوليوس بملك رومة وغلب عليها القواد أجمع ومحا دولتهم منها وذلك بعد مرجعه من حرب الإفرنج، ثم سار إلى المشرق فملك إلى أرمينية ونازعه مبانش هنالك فهزمه قيصر، وفر مبانش إلى مصر مستنجداً بملكتها وهي يومئذ كلابطره، فبعثت برأسه إلى قيصر خوفاً منه، فلم يغنها ذلك وزحف قيصر إليها فملك مصر والإسكندرية من كلابطره هذه وانقرض ملك اليونانيين، وولي قيصر على مصر والإسكندرية وبيت المقدس من قبله وذلك لسبعمائة أو نحوها من بناء رومة ولخمسة آلاف من مبدأ الخليقة.

وذكر البيهقي: إن كلابطره زحفت إلى أرض اللطينيين وقهرتهم، وأرادت العبور إلى الأندلس فحال دونها الجبل الحاجز بين الأندلس والإفرنج فاستعملت في فتحه الحيل والنار حتى نفذت الأندلس، وإن مهلكها كان على يد أوغسطس يوليوس ثاني القياصرة. وكذا ذكر المسعودي وأنها ملكت إثنتين وعشرين سنة، وكان زوجها أنطونيوس مشاركاً لها في ملك مقدونية ومصر، وأن قيصر وأوغسطس زحف إليهم فهلك زوجها انطونيوس في حروبه، ثم أراد التحكم في كلابطره ليستولي على حكمتها إذ كانت بقية الحكماء من آل يونان، فخطبها وتحيلت في إهلاكه وإهلاك نفسها بعد أن اتخذت بعض الحيات القاتلة التي بين الشام والحجاز وأطلقتها بمجلسها بين رياحين نصبتها هنالك، ولمست الحيات فهلكت لحينها وأقامت بمكانها كأنها جالسة، ودخل أوغسطس لا يشعر بذلك حتى تناول من تلك الرياحين ليشمها فأصابته الحية وهلك لحينه وتمت حيلتها عليه.

وانقرض ملك اليونانيين بهلاكها، وذهبت علومهم إلا ما بقي بأيدي حكمائهم في كتب خزائنهم حتى بحث عنها المأمون وأمر باستخراجها فترجمت له من هروشيوش وأما ابن العميد فعد ملوك مصر والإسكندرية بعد الإسكندر أربعة عشر آخرهم كلابطره كلهم يسمون بطليموس كما قال المسعودي. ولم يذكر ملوك المشرق منهم بعد الإسكندر ولا ملوك الشام ولا ملوك مقدونية الذين قسم الملك فيهم كما ذكرناه إلا بذكر ملك إنطاكية من اليونانيين ويسميه أنطيوخس كما ذكرناه الآن.

وذكر في أسماء ملوك مصر هؤلاء وفي عددهم خلافاً كثيراً إلا أنه سمى كل واحد منهم بطليموس، فقال في بطليموس الأول: إنه أخو الإسكندر أو مولاه اسمه فلافاذافسد أو أرنداوس أو لوغس أو فيليبس ملك سبعاً وقيل: أربعين، قال: وفي عصره بنى سلقيوس وأظنه ملك المشرق منهم قمامة وحلب وقنسرين وسلوقية واللاذقية، قال: ومنها كان الكوهن الأعظم بالقدس سمعان بن خونيا وبعده أخوه العازر، قال: وفي التاسعة من ملك لوغش جاء أنطيوخس المعظم إلى بلاد اليهود واستعبدهم.

وفي الحادية عشر حارب الروم فغلبوه وأسروه وأخذوا منه ابنه أقفاقس رهينة، وفي الثالثة عشر تزوج أنطيوخس كلابطره بنت لوغس زوجها له أبوها وأخذ سورية بلاد المقدس في مهرها، وفي التاسعة عشر وثب أهل فارس والمشرق على ملكهم فخلعوه وولوا ابنه ثم هلك لوغس.

قال ابن العميد: بعد مائة وإحدى وثلاثين سنة لليونان ملك بطليموس بن الإسكندروس ويلقب غالب أثور، وملك

مصر والإسكندرية والبلاد الغربيـة إحـدى وعشـرين سنة وقيـل: ثمانيا وثلاثين سنة أيضاً فيلادلفوس أي محـب أخيـه، وهـو الـذي استدعى أحبار اليهود وعلماءهم الاثنين وسبعين يترجموا له التوراة وكتب الأنبياء من العبرانية إلى اليونانية وقابلوها بنسخهم فصحت، وكان من هؤلاء الأحبار سمعان المذكور أولاً وعـاش إلى أن حمل على ذراعيه في الهيكل ومات ابن ثلثمائة وخمسين.

وكان منهم العازر الذي قتله أنطيوخس علـى امتناعـه عـن السـجود لصنمـه وقتلـه ابـن سـبعين سـنة. ويظهـر مـن هـذا أن بطليموس هو تلماي وإنه من ملوك مقدونية وملك مصر لأن ابن كريون قال: وفي ذلك الزمان كان تلماي من أهـل مقدونيـة ملـك مصر وكان يحب العلوم، فاستدعى من اليهود سبعين من أحبارهم وترجموا له التوراة وكتب الأنبياء، وكان في عصره صادوق الكوهن انتهى. وملك خمساً وأربعين سنة وملـك بعـده بطليمـوس الأرنبـا وقيل: اسمه رغادي وقيل: راكـب الأنبر ملـك أربعـاً وعشـرين، وقيل: سبعاً وعشرين، وهو الـذي بنـى ملعـب الخيـل بإسكندرية الذي أحرق في عصر زينون قيصر. وملك بعـده بطليمـوس محـب أخيه ويقال: أوغسطس ويقال فيلادلفس ملك سـت عشـرة سـنة، وكان في عصره أخيم الكوهن، وملـك بعـده بطليمـوس الصـائغ، ويقال: أخيه ملك خمس سنين وقيل: خمساً وعشرين، وعلى عهـده كان اليهود الكوهن وكان ضالا غشوماً وقتله بعض خدمه خنقاً.

وملك بعده بطليموس محب أبيه، وقيـل: اسمـه فيلوبـاطر ملك سبع عشـرة سـنة وأخـذ الجزيـة مـن اليهـود. وملـك بعـده بطليموس المظفر وقيل: الغـالب وقيـل: محـب أمـه ملـك عشـرين وقيل: أربعاً وعشرين، وفي التاسع عشرة من ملكه خرج متيتيا بـن يوحنا بن شمعون الكوهـن الأعظـم ويعـرف بحشـمناي مـن بـني يوناداب من نسـل هـارون، بعـث أنطيخـوس ملـك أنطاكيـة ابنـه ألغايش بالعساكر إلى القدس فأعمل الحيلة في ملكها وقتـل العـازر الكوهن وحمل بني إسرائيل على السجود لآلهتـه، فهـرب متيتيـا في جماعة من اليهود إلى الجبال، حتى إذا خرجت عساكر يونـان رجـع إلى القدس ومر بالمذبح فوجـد يهوديـاً يذبـح خـنزيراً عليـه، وثـار باليونانيين فقتل قائدهم وأخرجهم واستبد بملك القدس كم ذكرناه في أخباره.

ثم ملك بطليموس فيلوباطر أي محب أبيـه خمسـاً وعشـرين سنة وقيل: عشرين، وكان في أيامه بالقدس يهوذا ابن متيتيا وبعـده أخوه يوناداب وبعده أخوه شمعون وبعده أخوه هرقانوس واسمه يوحنان وهو أول من تسمى بالملك من بن حشمناي، وبعـث ابنـه يوحنا بالعساكر لقتال قيدونوس قائد أنطيخوس فغلبه، وارتفع عن اليهود الخراج الذي كانوا يعطونه لملوك سورية مـن أيـام فيلبـوس ملك المشرق. وملك بعده بطليموس أرغـادي أي الفـاضل وقيـل بطليمـوس الصـائغ وقيـل: سـانيطر ملـك عشـرين وقيـل: ثلاثـاً وعشرين وقيل: ثلاثة عشر.

ولعهـده جـدد أنطيخـوس بنـاء أنطاكيـة وسماهـا باسمـه، ولعهده كان ملك هرقانوس علـى القـدس وبنيـه الثلاثـة وخـرب مدينة السامرة سبسطية، ولعهده أيضاً زحف أنطيخوس إلى القدس وحاصرها، فصانعه هرقانوس بثلثمائة كرة من الذهب اسـتخرجها من قـبر داود عليـه السـلام ثـم ملـك علـى مصـر والإسـكندرية بطليموس المخلص وقيل: مقروطون وقيل: شـعري ملـك ثمـاني عشـرة وقيـل: عشـرين وقيـل: سـبعاً وعشـرين، ولعهـده كـان الأسكندروس تلماي بن هرقانوس سابع بـني حشـمناي بـالقدس، وكانت فرق اليهود عندهم ثلاثة: الربانيون ثم القـرأوون وهـم في الأنجيل زنادقة وهم في الإنجيل الكتبة. ثـم علـى مصـر بطليمـوس محب أمة وقيل: الإسـكندروس وقيـل: قيقتـس وقيـل: الإسكندر وقيل: ابـن المخلـص ملـك عشـر سـنين لا غـير، ولعهـده كـانت الإسكندرة ملكة على بيت المقدس، ولعهده بطلت مملكـة سـورية لمائتين وسبع عشرة سنة من ملك يونان.

وقتل بطليموس هذا قتله أهل إهراقية وأحرقوه. ثـم ملـك على مصر بطليمـوس فينـاس وقيـل: إيزيـس وقيـل: المنفـي، لأن كلابطرة الملكو نفته عن الملـك وملـك ثمـان سـنين وقيـل: ثلاثـا وعشرين يوماً وقيـل: ثمانيـة عشـر يومـاً، وبعضهـم أسـقطه مـن البطالسة ولم يذكره. ثـم ملـك علـى مصـر بطليمـوس يوناشـيش إحدى وعشرين سنة وقيل: إحدى وثلاثين وقيل ثلاثـين، ولعهـده كان ارستبلوس وأخوه هرقانوس على القدس.

ثم ملك على مصر كلابطره بنت ديوناشـيش ومعنـى هـذا الاسم الساكنة على الصخرة ملكت ثلاثين وقيل: اثنتين وعشـرين وكانت حاذقة، وفي الثالثة من ملكهـا حفـرت خليـج الإسـكندرية وجرى فيه الماء وبنت بإسكندرية هيكل زحـل والعـاروص وبنـت مقياساً بأحميم وآخر بمدينة أنصنـاء، وفي الرابعـة مـن ملكهـا ملـك بروجة اغانيوس أول القياصرة ملك أربعاً ثم يوليوس بعـده ثلاثـاً، ثم أغسطس بن مونوجس فاستولى على الممـالك والنواحـي وبلـغ خبره إليها فحصنت بلادها وبنـت حائطـاً مـن الفرمـاء إلى النوبـة شرقي النيل وحائطاً آخر من اسكندرية إلى النوبة غربي النيل وهو حائط العجوز لهذا العهد.

وبعث أوغسطس العسـاكر إلى مصـر مـع قـائده أنطريـوس ومعه متردات ملك الأرمن، فخادعت كلابطره أنطريوس وأوعدته

بتزويجها فقتل رفيقه متردات وتزوجها وعصى أوغسطس، فسار أوغسطس إليها وملك مصر وقتل كلابطرة وولديها وقائده بطريوس الذي تزوجها. ويقال: إنها وضعت له سماً في مجلسها وإن أوغسطس تناوله ومات، والله أعلم. وانقرضت مملكة يونان من مصر والإسكندرية والمغرب بملكها وصارت هذه الممالك للروم إلى حين الفتح الإسلامي، وانتهى كلام ابن العميد والخلاف الذي ينقله عن جماعة مؤرخيهم يذكر منهم سعيد بن بطريق ويوحنا فم الذهب والمنجي وابن الراهب وابيفانيوس. والظاهر أنهم من مؤرخي النصارى والبقاء لله الواحد القهار سبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه.

الخبر عن اللطينيين وهم الكيتم المعرفون بالروم من أمم يونان وأشياعهم وشعوبهم وما كان لهم من الملك والغلب وذكر الدولة التي فيهم للقياصرة وأولية ذلك ومصايره

هذه الأمة من أشهر أمم العالم وهي ثانية الغريقيين عند هروشيوش ويجتمعان في نسب يونان، وثالثتهم عند البيهقي ويجتمعون في نسب يونان بن علجان بن يافث، واسم الروم يشملهم ثلاثتهم لما كان الروم أهل المملكة العظمى منهم، ومواطن هؤلاء اللطينيين بالناحية الغربية من خليج القسطنطينية إلى بلاد الافرنجة فيما بين البحر المحيط والبحر الرومي من شماليه. وملك هذه الأمة قديماً كانت لهم مدينة اسمها طروبة، وذكر هروشيوش أن أول من ملك من اللطينيين ألفنس بن شطرنش بن أيوب وذلك لعهد دائرة بني اسرائيل وقد مر ذكرها وفي آخر الألف الرابع من مبدأ الخليقة. وملك من بعده ابنه بريامش واتصل الملك في عقب ألفنس هذا وإخواته وكان منهم كرمنس بن مرسية بن شيبن بن مزكة الذي ألف حروف اللسان اللطيني وأثبتها ولم تكن قبله، وذلك على عهد يوائير بن كلعاد من حكام بني إسرائيل بعد أربعة آلاف وخمسين من مبدأ الخليقة.

وكان بين هؤلاء اللطينيين وبين الغريقيين وإخوانهم فتن طويلة، وعلى يدهم خربت طروبة مدينة اللطينيين لعهد أربعة آلاف ومائة وعشرين من مبدأ الخليقة أيام عبدون ملك بني إسرائيل وقد مر ذكره، وكان ملكهم يومئذ أناش من عقب بريامش بن ألفنس بن شطرنش، وولي بعده ابنه أشكانيش بن أناس وهو الذي بنى مدينة ألبا. ثم اتصل الملك فيهم إلى أن افترق أمرهم.

ثم كان من أعقابهم برقاش أيام انقراض ملك الكلدانيين، وصار للمازنيين والقضاعيين على عهد عزيا بن أمصيا من ملوك بني إسرائيل ولعهد أربعة آلاف ومائة وعشرين سنة من مبدأ الخليقة، فصار الأمر في اللطينيين لبرقاش هذا بتولية ملك المازنيين ما كان لهم وللسريانيين قبلهم من الصيت في العالم والتفوق على الملوك بنسبهم وعصبيتهم. ثم اتصل الملك لابنه ولحافديه روملوس وداموس وهما اللذان اختطا مدينة رومة وذلك لعهد أربعة آلاف وخمسمائة سنة من مبدأ الخليقة وعلى عهد حزقيا بن آحاز ملك بني إسرائيل، ولأربعمائة ونيف من خراب مدينة طروبة. وكان طول مدينة رومة من الشمال إلى الجنوب عشرين ميلاً في عرض إثني عشر ميلاً، وارتفاع سورها ثمانية وأربعون ذراعاً في عرض عشرة أذرع، وكانت من أحفل مدن العالم، ولم تزل دار مملكة اللطينيين والقياصرة منهم حتى صبحهم الإسلام وهي في ملكهم.

وكان اللطينيون بعد روملس وداموس وانقراض عقبهم قد سئموا ولاية الملوك عليهم فعزلوهم وصار أمرهم شورى بين الوزراء وكانوا يسمونهم القنشلش ومعناه الوزراء بلغتهم، وكان عددهم سبعين على ما ذكر هروشيوش. ولم يزل أمرهم على ذلك مدة سبعمائة سنة إلى أن استبد عليهم قيصر يوليوس بن غايش أول ملوك القياصرة كما نذكر بعد وكانت لهم حروب مع الأمم المجاورة لهم من كل جهة فحاربوا اليونايين ثم حاربوا الفرس من بعدهم، واستولوا على الشام ومصر ثم ملكوا جزيرة الأندلس ثم جزيرة صقلية ثم أجازوا إلى إفريقية فملكوها وخربوا قرطاجنة، وأجاز أهل إفريقية إليهم وحاصروا رومة واتصلت الفتن بينهم عشرين سنة أو نحوها على ما نذكر. وذهب جماعة من الإخباريين إلى أن الروم من ولد عيصو بن إسحاق عليه السلام.

قال ابن كريون: كان لليفاز بن عيصو ولد اسمه صفوا ولما خرج يوسف من مصر ليدفن أباه يعقوب في مدينة الخليل عليه السلام اعترضه بنو عيصو وقاتلوه، فهزمهم وأسر منهم صفوا بن اليفاز وبعثه إلى إفريقية، فصار عند ملكها، واشتهر بالشجاعة. وحدثت الفتنة بين أغنياس وبين الكيتم وراء البحر فأجاز إليهم أغنياس في أهل إفريقية وأثخن فيهم، وظهرت شجاعة صفوا بن اليفاز، ثم هرب صفوا إلى الكيتم وعظم بينهم وحسن أثره في أهل إفريقية وفي الأمم المجاورة لكيتم من أموال وغيرها فزوجوه وملكوه عليهم، قال: وهو أول من ملك في بلاد أسبانيا، وأقام

ملكاً خمساً وخمسين سنة.

ثم عد ابن كريون بعد ستة عشر ملكاً من أعقابه آخرهم روملس باني رومة، وكان لعهد داود عليه السلام، وخاف منه فوضع مدينة رومة وبنى على جميعها هياكله ونسبت المدينة إليه وسميت باسمه وسمى أهلها الروم نسبه إليها.

ثم عد بعد روملس خمسة من الملوك اغتصب خامسهم رجلاً في زوجه فقتلت نفسها، وقتله زوجها في الهيكل. وأجمع أهل رومة أن لا يولوا عليهم ملكاً وقدموا شيوخا ثلثمائة وعشرين يدبرون ملكهم، فاستقام أمرهم كما يجب، إلى أن تغلب قيصر وسمى نفسه ملكاً، فصاروا من بعده يسمون ملوكاً انتهى كلام ابن كريون. وهو مناقض لما قاله هروشيوش، فإنه زعم أن بناء رومة كان لعهد داود عليه السلام وهروشيوش قال: إنه كان لعهد حزقياً رابع عشر ملوك بني يهوذا من لدن داود عليه السلام، وبين المدتين تفاوت، وخبر هروشيوش مقدم لأن واضعيه مسلمان كانا يترجمان لخلفاء الإسلام بقرطبة وهما معروفان ووضعا الكتاب. فاللّه أعلم بحقيقة الأمر في ذلك.

الخبر عن فتنة الكيتم مع أهل إفريقية وتخريب قرطاجنة ثم بناؤها على الكيتم وهم اللطينيون

كان بناء قرطاجنة هذه قبل بناء رومة بإثنتين وسبعين سنة قال هروشيوش على يدي ديدن بن أليشا من نسل عيصو بن إسحاق. وكان بها أمير يسمى ملكون وهو الذي بعث إلى الإسكندرية بطاعته عند استيلائه على طرسوس، ثم صار ملك إفريقية إلى أملقا من ملوكهم فافتتح صقلية وهاجت الحرب بينه وبين الرومانيين وأهل الإسكندرية بسبب أهل سردانية وذلك لخمسين سنة من بناء رومة، ثم وقعت السلم بينهم وهي السلم التي وفد فيها عتون من ملوك إفريقية على أنطريطش ملك مقدونية واسكندرية وهو ملك الروم الأعظم.

ثم ولي بقرطاجنة أملقا ابنه أنبيل فأجاز إلى بلاد الإفرنج وغلبهم على بلادهم، وزحف إليه قواد رومة فوالى عليهم الهزائم وبعث أخاه أشدريال إلى الأندلس فملكها، وخالفه قواد الرومانيين إلى إفريقية بعد أن ملكوا من حصون صقلية أربعين أو نحوها، ثم أجازوا إلى إفريقية فملكوها وقتلوا غشول خليفة أنبيل فيها وافتتحوا مدينة جردا. وخرج آخرون من قواد رومة إلى الأندلس فهزموا أشدريال واتبعوه إلى أن قتلوه. وفر أخوه أنبيل عن بلادهم بعد ثلاث عشرة سنة من إجازته إليهم، وبعد أن حاصر رومة وأثخن في نواحيها فلحق بإفريقية ولقيه قواد أهل رومة الذين أجازوا إلى إفريقية فهزموه وحاصروه بقرطاجنة، حتى سأل الصلح على أن يغرم لهم ثلاثة آلاف قنطار من الفضة فأجابوا إليه.

وسكنت الحرب بينهم ثم ظاهر بعد ذلك أنبيل صاحب إفريقية ملوك السريانيين على حرب أهل رومة فهلك في حربهم مسموماً. وبعد أن تخلص أهل رومة من تلك الحروب رجعوا إلى الأندلس فملكوها، ثم أجازوا البحر إلى قرطاجنة ففتحوها وقتلوا ملكها يومئذ أنبيل وخربوها لتسعمائة سنة من بنائها وسبعمائة لبناء رومة.

ثم دارت الحرب بين أهل رومة وملك النوبة، واستظهر ملك النوبة بالبربر بعد أن هزمه أهل رومة واتبعوه إلى قفصة فملكوها واستولوا على ذخيرتها، وهي من بناء أركلش الجبار ملك الروم، وهزمهم أهل رومة فخافهم ملك البربر من ملوك النوبة إلى أن هلك في أسرهم. وكانت هذه الحروب لعهد بطليموس الإسكندر بعد أن كان قواد رومة اجتمعوا على بناء قرطاجنة وتجديدها لاثنتين وعشرين سنة من خرابها فعمرت واتصل بها لأهل رومة ملك على ما نذكره بعد إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن ملوك القياصرة من الكتيم وهم اللطينيون ومبدأ أمورهم ومصاير أحوالهم

لم يزل أمر هؤلاء الكيتم وهم اللطينيون راجعاً إلى الوزراء منذ سبعمائة سنة، كما قلناه من عهد بناء رومة أو قبلها بقليل كما قال هروشيوش، تقترع الوزراء في كل سنة فيخرج قائد منهم إلى كل ناحية كما توجبه القرعة فيحاربون أمم الطوائف ويفتحون الممالك. وكانوا أولاً يعطون إخوانهم من الروم اليونانيين طاعة معروفة بعد الفتن والمحاربة حتى إذا هلك الإسكندر وافترق أمر اليونانيين والروم وفشلت ريحهم وقعت فتنة هؤلاء اللطينيين وهم الكيتم مع أهل إفريقية، واستولوا عليها مرارا وخربوا قرطاجنة ثم بنوها كما ذكرناه. وملكوا الأندلس وملكوا الشام وأرض الحجاز وقهروا العرب بالحجاز وافتتحوا بيت المقدس وأسروا ملكها يومئذ من اليهود وهو أرستبلوس ابن الإسكندر ثامن ملوك بني حشمناي وغربوه إلى رومة وولوا قائدهم على الشام.

ثم حاربوا الغماس فكانت حربهم معهم سجالاً، إلى أن خرج يوليوس بن غايش ومعه ابن عمه لوجيار بن مدكه إلى جهة الأندلس، وحارب من كان بها من الإفرنج والجلالقة إلى أن ملك بريطنية واشبونة ورجع إلى رومة، واستخلف على الأندلس أكتبيان ابن أخيه يونان. فلما وصل إلى رومة وشعر الوزراء أنه يروم الاستبداد عليهم فقتلوه، فزحف اكتبيان ابن أخيه من الأندلس بثأره وملك رومة واستولى على أرض قسطنطينية وفارس وإفريقية والأندلس، وعمه يولس هو الذي تسمى قيصر فصار سمة لملوكهم من بعده. وأصل هذا الإسم جاشر فعربته العرب إلى قيصر، ولفظ جاشر مشترك عندهم فيقال جاشر للشعر وزعموا أن يولس ولد شعره نام يبلغ عينيه، ويقال أيضاً للمشقوق جاشر.

وزعموا أن قيصر ماتت أمه وهي مقرب فبقر بطنها واستخرج بولس، والأول أصح وأقرب إلى الصواب، وكانت مدة بولس قيصر خمس سنين، ولما ولي قيصر أكتبيان ابن أخته بملك الناحية الشمالية من الأرض، ووفد عليه رسل الملوك بالمشرق يرغبون في ولايته ويضرعون إليه في السلم فأسعفهم، ودانت له أقطار الأرض، وضرب الأتاوة على أهل الآفاق من الصغر. وكان العامل على اليهود بالشام من قبله هيردوس بن أنظفتر، وعلى مصر ابنه غايش. وولد المسيح لإثنتين وأربعين سنة خلت من ملكه. وهلك قيصر أكتبيان لست وخمسين من ملكه بعد سبعمائة وخمسين سنة لبناء رومة وخمسة آلاف ومائتين لمبدأ الخليقة انتهى كلام هروشيوش.

وأما ابن العميد مؤرخ النصارى فذكر عن مبدأ هؤلاء القياصرة أن أمر رومة كان راجعاً إلى الشيوخ الذين يدبرون أمرهم، وكانوا ثلثمائة وعشرين رجلاً لأنهم كانوا حلفوا أن لا يولوا عليهم ملكاً، فكان تدبيرهم يرجع إلى هؤلاء وكانوا يقدمون واحداً منهم ويسمونه الشيخ، وانتهى تدبيرهم في ذلك الزمان إلى أغانيوس فدبرهم أربع سنين، وهو الذي سمي قيصر لأن أمة ماتت وهو جنين في بطنها فبقروا بطنها وأخرجوه، ولما كبر انتهت إليه رياسة هؤلاء الشيوخ برومة أربع سنين.

ثم ولي من بعده يوليوس قيصر ثلاث سنين، ثم ولي من بعده أوغسطس قيصر بن مرنوخس، قال: ويقال إن أوغسطس قيصر كان أحد قواد الشيخ مدبر رومة، وتوجه بالعساكر لفتح المغرب والأندلس ففتحهما وعاد إلى رومة فملك عليهم، وطرد الشيخ من رياسته بها وتدبيره ووافقه الناس على ذلك. وكان للشيخ نائب بناحية المشرق يقال له: فمقيوس، فلما بلغه ذلك زحف بعساكره إلى رومة فخرج إليه أوغسطس فهزمه وقتله واستولى على ناحية المشرق. وسير عساكره إلى فتح مصر مع قائدين من قواده هما أنطونيوس ومترادت ملك الأرمن بدمشق، فتوجها إلى مصر وبها يومئذ كلابطره الملكة من بقية البطالسة ملوك يونان بالإسكندرية ومصر، فحصنت بلادها وبنت بعدوتي النيل حائطين مبدؤهما من النوبة إلى الإسكندرية غرباً وإلى الفرما شرقاً وهو حائط العجوز لهذا العهد. ثم داخلت القائد أنطونيوس وخادعته بالتزويج فتزوجها وقتل رفيقه مترادات وعصى على أوغسطس، فزحف إليه وقتله وملك مصر وقتل كلابطرة وولديها وكانا يسميان الشمس والقمر، وملك مصر والإسكندرية وذلك لإثنتي عشرة سنة من ملكه، قال ولإثنتين وأربعين سنة من ملك أوغسطس ولد المسيح بعد مولد يحيى بثلاثة أشهر. وذلك لتمام خمسة آلاف وخمسمائة سنة من سني العالم ولإثنتين وثلاثين من ملك هيردوس بالقدس، وقيل: لخمس وثلاثين من مملكته، والكل متفقون على أنها لإثنتين وأربعين من ملك أوغسطس.

قال: وسياقه التاريخ تقتضي أنها خمسة آلاف وخمسمائة شمسية من مبدأ العالم لأن من آدم إلى نوح ألفاً وستمائة، ومن نوح إلى الطوفان ستمائة، ومن الطوفان إلى إبراهيم ألفاً واثنتين وسبعين سنة، ومن إبراهيم إلى موسى أربعمائة وخمساً وعشرين، ومن موسى إلى داود عليهما السلام سبعمائة وستين، ومن داود إلى الإسكندر سبعمائة وستين سنة، ومن الإسكندر إلى مولد المسيح ثلثمائة وتسع عشرة سنة.

هكذا ذكر ابن العميد وأنها تواريخ النصارى وفيها نظر، ويظهر من كلامه أن قيصر الذي سماه أوغسطس، وذكر أن المسيح ولد لاثنتين وأربعين من ملكه هو الذي سماه هيردوس قيصر أكتبيان وجعل مهلكه لخمسة آلاف ومائتين من مبدأ الخليقة. وعند ابن العميد أن ملكه لخمسة آلاف وخمسمائة وخمس عشرة والله أعلم بالحق من ذلك، ثم ولي من بعد طباريش قيصر وكان وادعا واستولى على النواحي، وعلى عهده كان شأن المسيح وبغى اليهود عليه ورفعه الله من الأرض، وأقام الحواريون من بعده واليهود يضطهدونهم ويحبسونهم على إظهار أمرهم، وكان بلاطس النبطي الذي كان قائداً على اليهود يسعى إلى طباريش بأخبار المسيح وبغى اليهود عليه وعلى يوحنا المعمدان،، وتبعتهم الحواريون من بعده بالأذية، وأراه انهم على حق فأمر بتخلية سبيلهم، وهم بالأخذ بدينهم فمنعنه من ذلك قومه.

ثم قبض على هيردوس وأحضره إلى رومة ثم نفاه إلى الأندلس فمات بها، ثم ولي مكانته أغرباس ابن أخيه، وافترق الحواريون في الآفاق لإقامة الدين وحمل الأمم على عبادة الله. ثم

قتل طباريش قيصر أغرياس مملك اليهود إلى أشر من حالهم وقتلوا أتباع الحواريين من الروم، ومات طباريش لثلاث وعشرين من ملكه بعد أن جدد مدينة طبرية، فيما قال ابن العميد، واشتق اسمها من اسمه وملك من بعده غاينس قيصر. وقال هيروشيوش: هو أخو طباريش وسماه غاينس فليفة من أكتيان، وقال: هو رابع القياصرة وأشدهم وأراد اليهود على نصب وثنه ببيت المقدس فمنعوه.

وقال ابن العميد: ووقعت في أيامه شدة على النصارى وقتل يعقوب أخاه يوحنا من الحواريين وحبس بطرس رئيسهم ثم هرب إلى أنطاكية فأقام بها، وقدم هراديوس بطركاً عليها وهو أول البطاركة فيها. ثم توجه إلى رومة لسنتين من ملك غانيس فدبرها خمساً وعشرين سنة ونصب فيها الأساقفة وتنصرت امرأة من بيت الملك فعضدت النصارى الذين بالقدس شدائد من اليهود وكان الأسقف عليهم يومئذ يعقوب بن يوسف الخطيب.

وقال ابن العميد عن المسبحي: إن فيلبس ملك مصر غزا اليهود لأول سنة من ملك غانيس واستعبدهم سبع سنين، قال وفي الرابعة من ملكه أمر عامله على اليهود بسورية وهي أورشاليم. وهي بيت المقدس أن ينصب الأصنام في محاريب اليهود، ووثب عليه بعض قواده فقتله وملك من بعده قلوديش قيصر، قال هروشيوش: هو ابن طباريش وعلى عهده كتب متى الحواري إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية، قال ابن العميد: ونقله يوحنا بن زبدي إلى الرومية، قال: وفي أيامه كتب بطرس رأس الحواريين إنجيله بالرومية وبعث به إلى مرقص تلميذه، وكتب لوقا من الحواريين إنجيله بالرومية وبعث به إلى بعض الأكابر من الروم وكان لوقا طبيباً. ثم عظم الفساد بين اليهود ولحق ملكهم أغرباش برومة فبعث معه أقلوديش عساكر الروم فقتلوا من اليهود خلقاً، وحملوا إلى أنطاكية ورومة منهم سبياً عظيماً وخربت القدس وانجلى أهلها فلم يول عليهم القياصرة أحداً لخرابها، وافترقت اليهود على فرق كثيرة أعظمها سبعة.

قال: ولسبع من ملك أقلوديش دخلت بطريقة من الروم في دين النصارى على يد شمعون الصفا، وسمعت منه بالصليب، فجاءت إلى القدس لإظهاره، ورجعت إلى رومة، وهلك أقلوديش قيصر لأربع عشرة سنة من ملكه وملك من بعده ابنه نيرون. قال هروشيوش: هو سادس القياصرة، وكان غشوماً فاسقاً، وبلغه أن كثيراً من أهل رومة أخذوا بدين المسيح فنكر ذلك وقتلهم حيث وجدوا، وقتل بطرس رأس الحواريين، وأقام اريوس بطركاً برومة مكان بطرس من بعد خمس وعشرين سنة مضت لبطرس في كرسيها وهو رأس الحواريين ورسول المسيح إلى رومة، وقتل مرقص الإنجيلي بالإسكندرية لاثنتي عشرة من ملكه وكان هنالك منذ سبع سنين بها مساعداً إلى النصرانية بالإسكندرية ومصر وبرقة والمغرب، وولي مكانه حنانيا ويسمى بالقبطية جنبار وهو أول البطارقة بها واتخذ معه الأقسة الاثني عشر.

قال ابن العميد عن المسبحي: وفي الثانية من ملك نيرون عزل بلخس القاضي، كان على اليهود من جهة الروم، وولى مكانه قسطس القاضي، وقتل بوثار رئيس الكهنونية بالمقدس، ومات القاضي قسطس فثار اليهود على من كان بالمقدس من النصارى وقتلوا أسقفهم هنالك وهو يعقوب بن يوسف النجار، وهدموا البيعة وأخذوا الصليب والخشبتين ودفنوها إلى أن استخرجتها هلانة أم قسطنطين كما نذكر بعد. وولي مكان يعقوب النجار ابن عمه شمعون بن كنابا، ثم ثار بهم اليهود وأخرجوهم من المقدس لعشر من ملك نيرون فأجازوا الأردن وأقاموا هنالك. وبعث نيرون قائده أسباشيانس، وأمر بقتل اليهود وخراب القدس وتحصن اليهود منه وبنوا عليهم ثلاثة حصون، وحاصرهم أسباشيانس وخرب جميع حصونهم وأحرقها وأقام عليهم سنة كاملة. وقال هروشيوش: إن نيرون قيصر انتقض عليه أهل مملكته فخرج عن طاعته أهل برطانية من أرض الجوف، ورجع أهل أرمينية والشام إلى طاعة الفرس. فبعث صهره على أخته وهو يشبشيان بن لوجيه فسار إليهم في العساكر وغلبهم على أمرهم.

ثم زحف إلى اليهود بالشام وكانوا قد انتقضوا فحاصرهم بالقدس، وبينما هو في حصاره إذ بلغه موت نيرون لأربع عشرة سنة من ملكه، ثار به جماعة من قواده فقتلوه، وكان قد بعث قائداً إلى جهة الجوف والأندلس، فافتتح برطانية ورجع إلى رومة بعد مهلك نيرون قيصر فملكه الروم عليهم، وأنه قتل أخاه يشبشيان فأشار عليه أصحابه بالانصراف إلى رومة. وبشره رئيس اليهود وكان أسيراً عنده بالملك، ويظهر أنه يوسف بن كريون الذي مر ذكره، فانطلق إلى رومة وخلف ابنه طيطش على حصار القدس فافتتحها وخرب مسجدها وعمرانها كما مر ذكره.

وقال: وقتل منهم نحواً من ستمائة ألف ألف مرتين وهلك في حصارها جوعاً نحو هذا العدد، وبيع من سراريهم في الآفاق نحواً من تسعين ألفاً، وحمل منهم إلى رومة نحواً من مائة ألف استبقاهم لفتيان الروم يتعلمون المقاتلة فيهم ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح. وهي الجلوة الكبرى كانت لليهود بعد ألف ومائة وستين سنة من بناء بيت المقدس ولخمسة آلاف ومائتين وثلاثين من مبدأ الخليقة ولثمانمائة وعشرين من بناء رومة. فكان معه إلى أن افتتحها

وكان المستبد بها بعد مهلك نيرون قيصر، وانقطع ملك آل يولس قيصر لمائة وست عشرة سنة من مبدأ دولتهم، واستقام ملك يشبشيان في جميع ممالك الروم وتسمى قيصر كما كان من قبل اهـ. كلام هروشيوش.

وقال ابن العميد: إن أسباشيانس لما بلغه وهو محاصر للقدس أن نيرون هلك، ذهب بالعساكر الذين معه، وبشره يوسف بن كريون كهنون طبرية من اليهود بأن مصير ملك القياصرة إليه، ثم بلغه أن الروم بعد مهلك نيرون ملكوا غليان بن قيصر فاقام عليهم تسعة أشهر، وكان رديء السيرة، وقتله بعض خدمه غيلة، وقدموا عوضه أنون ثلاثة أشهر ثم خلعوه، وملكوا أبطالس ثمانية أشهر، فبعث أسباشيانس وهو الذي سماه هروشيوش يشبشيان قائدين إلى رومة فحاربوا أبطانش وقتلوه. وسار أسباشيانس إلى رومة وبعث إليه طيطش المحاصر للقدس بالأموال والغنائم والسبي، قال: وكانت عدة القتلى ألف ألف والسبي تسعمائة ألف، واحتمل الخوارج الذين كانوا في نواحي القدس مع الأسرى، وكان يلقي منهم كل يوم للسباع فرائس إلى أن فنوا. قال: ولما ملك طيطش بيت المقدس رجع النصارى الذين كانوا عبروا إلى الأردن فبنوا كنيسة بالمقدس وسكنوا، وكان الأسقف فيهم سمعان بن كلوبا ابن عم يوسف النجار وهو الثاني من أساقفة المقدس.

ثم هلك أسباشيانس وهو يشبشيان لتسع سنين من ملكه وملك بعده ابنه طيطش قيصر سنتين وقيل ثلاثاً. قال ابن العميد: لأربعمائة من ملك الإسكندر. وقال هيروشيوش: كان متفنناً في العلوم ملتزماً للخير عارفاً باللسان الغريقي واللطيني، وولي بعده أخوه دومريان خمس عشرة سنة، قال هيروشيوش: وهو ابن أخت نيرون قيصر، قال: وكان غشوماً كافراً وأمر بقتل النصارى فعل خاله نيرون، وحبس يوحنا الحواري، وأمر بقتل اليهود من نسل داود حذراً أن يملكوا، وهلك في حروب الإفرنج وسماه ابن العميد دانسطيانوس.

وقال: ملك ست عشرة سنة وقيل تسعاً، وكان شديداً على اليهود وقتل أبناء ملوكهم، وقيل له إن النصارى يزعمون أن المسيح يأتي ويملك فأمر بقتلهم، وبعث عن أولاد يهوذا بن يوسف من الحواريين وحملهم إلى رومة مقيدين، وسألهم عن شأن المسيح، فقالوا: إنما يأتي عند انقضاء العالم فخلى سبيلهم. وفي الثالثة من دولته طرد بطرك إسكندرية لسبع وثمانين سنة للمسيح، وقدم مكانه ملموا فأقام ثلاث عشرة سنة ومات فولى مكانه كرماهو.

قال ابن العميد عن المسبحي: ولعهده كان أمر ليونيوس صاحب الطلسمات برومة، فنفى ذوسطيالوس جميع الفلاسفة والمنجمين من رومة وأمر أن لا يغرس بها كرم، ثم هلك ذوسطيالوس، وهو الذي سماه هروشيوش دومريان، وقال: هلك في حروب الإفرنج، وملك بعده برما ابن أخيه طيطش نحواً من سنتين وسماه ابن العميد تاوداس، وقال: إن المسبحي سماه قارون، قال: ويسمى أيضاً برسطوس، وقال ملك على الروم سنة أو سنة ونصفاً وأحسن السيرة وأمر برد من كان منفياً من النصارى وخلاهم ودينهم ورجع يوحنا الإنجيلي إلى أفسس بعد ست سنين.

وقال هروشيوش: أطلقه من السجن. وقال: ولم يكن له ولد فعهد بالملك إلى طريانس من عظماء قواده وكان من أهل مالقة فولي بعده وتسمى قيصر. قال ابن العميد: واسمه أنديانوس، وسماه المسبحي طرينوس وملك على الروم باتفاق المؤرخين سبع عشرة سنة، وقتل سمعان بن كلاويا أسقف بيت المقدس وأغناطيوس بطرك أنطاكية. ولقي النصارى في أيامه شدة وتتبع أئمتهم بالقتل واستعبد عامتهم، وهو ثالث القياصرة بعد نيرون في هذه الدولة. ولعهده كتب يوحنا إنجيله برومة في بعض الجزائر لسادسة من ملكه وكان قد رجع اليهود إلى بيت المقدس فكثروا بها وعزموا على الانتقاض، فبعث عساكره وقتل منهم خلقاً كثيراً. وقال هروشيوش: إن الحرب طالت بينه وبين اليهود، فخربوا كثيراً من المدن إلى عسقلان ثم إلى مصر والإسكندرية فانهزموا هنالك وقتلوا وزحفوا بعدها إلى الكوفة، فأثخن فيهم بالقتل وخضد من شوكتهم.

قال ابن العميد: وفي تاسعة من ملكه مات كوثيانو بطرك الإسكندرية لإحدى عشرة سنة من ولايته، وولي مكانه أمرغو عشر سنوات أخرى. وقال بطليموس صاحب كتاب المجسطي: إن شيلوش الحكيم رصد برومة في السنة الأولى من ملك طرينوس وهو أندريانوس لأربعمائة وإحدى وعشرين للإسكندر ولثمانمائة وخمس وأربعين لبختنصر. وقال ابن العميد: خرج عليه خارجي ببابل فهلك في حروبه لتسع عشرة سنة من ولايته كما قلناه، فولي من بعد أندريانوس إحدى وعشرين سنة، وقال ابن العميد عن ابن بطريق عشرين سنة. وقال هروشيوش: إنه أثخن في اليهود، ثم بنى مدينة المقدس وسماها إيلياء.

وقال ابن العميد: كان شديداً على النصارى وقتل منهم خلقاً، وأخذ الناس بعبادة الأوثان، وفي ثامنة ملكه خرب بيت المقدس وقتل عامة أهلها وبنى على باب المدينة عموداً وعليه لوح

نقش فيه مدينة إيلياء. ثم زحف إلى الخارجي الذي خرج على طرنيوس قبله فهزمه إلى مصر وألزم أهل مصر حفر خليج من مجرى النيل إلى بحر القلزم وأجرى فيه الحلو، ثم أرتدم بعد ذلك، وجاء الفتح والدولة الإسلامية فألزمهم عمرو بن العاص حفره حتى جرى فيه الماء ثم انسد لهذا العهد، وكان أندريانوس هذا قد بنى مدينة القدس ورجع إليها اليهود وبلغه أنهم يرومون الانتقاض، وأنهم ملكوا عليهم زكريا من أبناء الملوك، فبعث إليهم العساكر وتتبعهم بالقتل وخرب المدينة حتى عادت صحراء، وأمر أن لا يسكنها يهودي، وأسكن اليونان بيت المقدس، وكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب طيطش الذي هو الجلوة الكبرى. وامتلأ القدس من اليونان وكانت النصارى يترددون إلى موضع القبر والصليب يصلون فيه، وكانت اليهود يرمون عليه الزبل والكناسات، فمنعهم اليونان من الصلاة فيه وبنوا هنالك هيكلاً على اسم الزهرة.

وقال ابن العميد عن المسبحي: وفي الرابعة من ملك أندريانوس بطل الملك من الرها وتداولتها القضاة من قبل الروم، وبنى أندريانوس بمدينة أثينوس بيتاً ورتب فيه جماعة من الحكماء لمدارسة العلوم، قال: وفي خامسة ملكه قدم نسطس بطركاً على إسكندرية وكان حكيماً فاضلاً فلبث إحدى عشرة سنة ثم مات، وقدم مكانه أمانيق في سادسة عشر من ملك أندريانوس فلبث إحدى عشرة سنة وهو سابع البطارقة. ثم مات أندريانوس لإحدى وعشرين من ملكه كما مر، وولي ابنه أنطونيش.

قال هروشيوش: ويسمى قيصر الرحيم. وقال ابن العميد: ملك اثنتين وعشرين. وقال الصعيديون إحدى وعشرين. قال: وفي خامسة ملكه قدم مرتيانو بطركاً بإسكندرية وهو الثامن منهم، فلبث تسع سنين ومات، وكان فاضل السيرة. وقدم بعده كلوتيانو فلبث أربع عشرة سنة، ومات في سابعة ملكه أورليانوس بعده وكان محبوباً. وقال بطليموس صاحب المجسطي: إنه رصد الاعتدال الخريفي في ثالثة ملك أنطونيوس، فكان لأربعمائة وثلاث وستين بعد الإسكندر.

ثم هلك أنطونيوس لاثنتين وعشرين كما مر، فملك من بعده أورليانوس. قال هروشيوش: وهو أخو أنطونيوس وسماه أورالش وأنطونيوس الأصغر، وقال: كانت له حروب مع أهل فارس وبعد أن غلبوا على أرمينية وسورية من ممالكه فدفعهم عنهما وغلبهم في حروب طويلة، وأصاب الأرض على عهده وباء عظيم، وقحط الناس سنتين، واستسقى لهم النصارى فأمطروا وارتفع الوباء والقحط بعد أن كان اشتد على النصارى وقتل منهم خلقاً، وهي الشدة الرابعة من بعد نيرون:

قال ابن العميد: وفي السابعة من ملكه قدم على الإسكندرية البطرك أغريبوس، فلبث اثني عشر سنة ومات في تاسعة عشر من ملك أنطونيوس الأصغر، قال وفي أيامه ظهرت مبتدعة من النصارى واختلفت أقوالهم وكان منهم ابن ديصان وغيره، فجاهدهم أهل الحق من الأساقفة وأبطلوا بدعتهم، وهلك أنطونيوس هذا لتسع عشرة من ملكه. وفي عاشرة ملكه ظهر أردشير بن بابك أول ملوك الساسانية واستولى على ملك الفرس، وكان صاحب الحضر متملكاً على السواد فغلبه وملك السواد وقتله وقصته معروفة.

وكان لعهده جالينوس المشهور بالطب وكان ربي معه، فلما بلغه أنه ملك على الروم قدم عليه من بلاد اليونان وأقام عنده، وكان لعهده أيضاً ديمقراطس الحكيم، ولأول سنة من ملكه قدم بليانوس بطركاً على إسكندرية وهو الحادي عشر من بطاركتها فلبث عشر سنين ومات.

وولي مكانه ديمتريوس فلبث فيهم ثلاثاً وثلاثين سنة ومات كمودة قيصر لثلاثة عشر كما قلناه. فولي من بعده ورمتيلوش ثلاثة أشهر. قال ابن العميد: وسماه ابن بطريق فرطنوش. وقال: وملك ثلاثة أشهر وسماه غيره فرطيخوس. وسماه الصعيديون برطانوس ومدة ملكه باتفاقهم شهران. وقال هروشيوش: اسمه اللبيس بن طيجليس وهو عم كمودة قيصر، قال وولي سنة واحدة وقتله بعض قواده وأقام في الملك ستة أشهر وقتل.

قال ابن العميد: وملك بعده يوليانس قيصر شهرين ومات، ثم ولي سوريانوس قيصر وسماه بعضهم سويرس وسماه هروشيوش طباريش بن أرنت بن أنطونيش، واختلفوا في مدته، فقال ابن العميد عن ابن بطريق: سبع عشرة سنة، وقال المسبحي: ثمان عشرة، وعن أبي فانيوس ستة عشرة، وعن ابن الراهب ثلاث عشرة، وعن الصعيديين سنتين. قال وملك في رابعة من ملك أردشير واشتد على النصارى وفتك فيهم وسار إلى مصر والإسكندرية فقتلهم وهدم كنائسهم وشردهم كل مشرد، وبنى بالإسكندرية هيكلاً سماه هيكل الإله. قال هروشيوش: هي الشدة الخامسة من بعد شدة نيرون. قال: ثم انتقض عليه اللطينيون ولم يزل محصوراً إلى أن هلك.

وملك من بعده أقطونيش. قال ابن العميد عن ابن بطريق: ست سنين، وعن المسبحي: سبع سنين. وسماه أنطونيش قسطس. قال: وكان ابتداء ملكه عندهم لخمس وعشرين وخمسمائة من

ملك الإسكندر، ولعهده سار أردشير ملك الفرس إلى نصيبين فحاصرها وبنى عليها حصناً، ثم بلغه أن خارجاً خرج عليه بخراسان، فأجفل عنهم بعد المصالحة على أن لا يتعرضوا لحصنه، فلما رحل بنوا من وراء الحصن وأدخلوه في مدينتهم، ورجع أردشير فنازلهم وامتنعوا عليه، فأشار بعض الحكماء بأن يجمع أهل العلم فيدعون الله دعوة رجل واحد، ففعلوا فملك الحصن لوقته. وقال هرشيوش: لما ولي أنطونيش ضعف عن مقاومة الفرس فغلبوا على أكثر مدن الشام ونواحي أرمينية وهلك في حروبهم وولي بعده مفريق بن مركة وقتله قواد رومة لسنة من ملكه وكذا قال ابن العميد، وسماه ابن بطريق بقرونشوش، والمسبحي هرقليانوس. قالوا جميعاً: وملك من بعده أنطونيش. قال ابن العميد عن ابن بطريق وابن الراهب: ثلاث سنين، وعن المسبحي والصعيديين: أربع سنين، قال: وفي أول سنة من ملكه بنيت مدينة عمّان بأرض فلسطين، وملك سابور بن أردشير مدناً كثيرة من الشام. ومات أنطونيش فملك من بعده إسكندروس لثلاث وعشرين من ملك سابور بن أردشير فملك على الروم ثلاث عشرة سنة وكانت أمة محبة في النصارى. وقال هروشيوش: ملك عشرين سنة وكانت أمة نصرانية وكانت النصارى معه في سعة من أمرهم.

قال ابن العميد: وفي سابعة ملكه قدم تاوكلا بطركاً بالإسكندرية وهو الثالث عشر من البطاركة فيهم فلبث ست عشر سنة ومات. قال هروشيوش: ولعشر من ملكه غزا فارس فقتل سابور بن أردشير وانصرف ظافراً فثار عليه أهل رومة وقتلوه.

وملك من بعده مخشميان بن لوجية ثلاث سنين، ولم يكن من بيت الملك وإنما ولوه لأجل حرب الإفرنج واشتد على النصارى الشدة السادسة من بعد نيرون. وأما ابن العميد فسماه فقيموس ووافق على الثلاث سنين في مدته وعلى ما لقي النصارى منه، وأنه قتل منهم سرجيوس في سلمية وواجوس في بالس على الفرات، وقتل بطرك إنطاكية فسمع أسقف بيت المقدس بقتله فهرب وترك الكرسي. قال: وفي ثالثة ملكه ملك سابور بن أردشير خلاف ما زعم هروشيوش من أنه قتله. ثم هلك فقيموس أرمشميان وولي من بعده يونيوس ثلاثة أشهر وقتل فيما قال ابن العميد، وقال: سماه أبو فانيوس لوكس قيصر وابن بطريق بلينايوس ولم يذكره هروشيوش.

ثم ملك عرديانوس قيصر، قال ابن العميد عن ابن بطريق وابن الراهب: أربع سنين، وعن المسبحي والصعيديين: ست سنين، وسماه أبو فانيوس فودينوس والصعيديون قرطانوس. قال: كان ملكه لإحدى وخمسين وخمسمائة من ملك الإسكندر. وقال هروشيوش: غرديار بن بليسان. قال: وملك سبع سنين وطالت حروبه مع الفرس وكان ظافراً عليهم وقتله أصحابه على نهر الفرات، قال وولي بعده فيلبس بن أولياق بن أنطونيش سبع سنين وهو ابن عم الإسكندر الملك قبله وأول من تنصر من ملوك الروم. وقال ابن العميد عن الصعيديين: ملك ست سنين وقيل تسع سنين، وكان ملكه لخمس وخمسين وخمسمائة من ملك الإسكندر وآمن بالمسيح.

وفي أول سنة من ملكه قدم دنوشيوش بطركاً بالإسكندرية وهو رابع عشر البطاركة بها فلبث تسع عشرة سنة، ولعهد فيلبس هذا قدم غرديانوس أسقفاً على بيت المقدس بعد هروب مركيوس ثم عاد من هروبه فأقام شريكاً معه سنة واحدة، ومات غرديانوس فانفرد مركيوس أسقفاً ببيت المقدس عشر سنين، قال: وقتل فيلبس قيصر قائد من قواده يقال له دافيس وملك مكانه خمس سنين. وقال عن المسبحي وابن الراهب سنةً، وعن ابن بطريق سنتين. قال: وكان يعبد الأصنام ولقي النصارى منه شدة، وكان من أولاد الملوك، وقتل بطرك رومة وأجاز من مدينة قرطاجنة إلى مدينة أفسس وبنى بها هيكلاً وحمل النصارى على السجود له.

قال: وفي أيامه كانت قصة فتية أهل الكهف وظهروا بعده في أيام تاودسيوس. وأما هروشيوش فسماه داجية بن مخشميان، وقال: ملك سنة واحدة، وكانت على النصارى في أيامه الشدة السابعة، وقتل بطرك رومة منهم وولي من بعده غالش قيصر سنتين واستباح في قتل النصارى وباء عظيم أقفلت له المدن. وقال هروشيوش: هو غالش بن يولياش، وقال ابن بطريق: إن يولياش كان شريكاً له في ملكه ومات قبله. قال ابن العميد: إحدى عشرة سنة لسبعين وخمسمائة من ملك الإسكندر. وقال هروشيوش وابن بطريق: ملك خمس عشرة سنة واسمه غاليوش، وقال المسبحي: خمس عشرة سنة، وسماه داقيوس وغاليوش ابنه. وقال آخرون اسمه أورليوش وملك خمس سنين. وقال أبو فانيوس: اسمه غليوس وملك أربع عشرة سنة. وقال الصعيديون ملك كذلك واسمه أراليونوس.

قال ابن العميد: وكان يعبد الأصنام ولقي النصارى منه شدة في أول سنة من ملكه قدم مكسيموس بطركاً بالإسكندرية وهو الخامس عشر من بطاركتها فلبث اثنتي عشرة سنة ومات، وهو خامسة ملكه قدم إسكندروس أسقفاً ببيت المقدس ثم قتله بعد سبع سنين وبعث ابنه في عساكر الروم لغزو الفرس، فانهزم وحمل أسيراً إلى كسرى بهرام فقتله. وقال هرشيوش: وولي غلينوس

خمسة عشر سنة فاشتد على النصارى الأمر وقتلهم وقتل معهم بطرك بيت المقدس، وكانت له حروب مع الفرس أسره في بعضها ملكهم سابور ثم منّ عليه وأطلقه، ووقع في أيامه برومة وباء عظيم فرفع طلبه عن النصارى بسببه، وفي أيامه خرج القوط من بلادهم وتغلبوا على بلاد الغريقيين ومقدونية وبلاد النبط.

وكان هؤلاء القوط يعرفون بالسنسبين وكانت مواطنهم في ناحية بلاد السريانيين، فخرجوا لعهد غلينوس هذا وغلبوا كما قلناه على بلاد الغريقيين ومقدونية وعلى مرية.

وهلك غلينوس قتيلاً على يد قواد رومة، ثم ملك أقاويدوش قيصر سنة واحدة، وقال ابن العميد عن المسبحي سنة وتسعة أشهر لثمانين وخمسمائة للإسكندر. وفي أول سنة من ملكه قدم يونس السميصاني بطركاً بأنطاكية فلبث ثمان سنين وكان يقول بالوحدانية ويجحد الكلمة بالروح، ولما مات اجتمع الأساقفة بأنطاكية وردوا مقالته. وقال هروشيوش: ولي بعد غلينوس فلدويش بن يلاريان بن موكله فنسبه هكذا، وقال فيه من عظماء القواد ولم يكن من بيت الملك ودفع القوط المتغلبين عن مقدونية من منذ خمس عشرة سنة عليها، ومات لستين من ملكه وهذا كما قال المسبحي، وقال هروشيوش: ولي بعده أخوه نطيل سبع عشرة يوماً وقتله بعض القواد، ولم يذكر ذلك ابن العميد.

ثم ملك بعده أوريليانس ست سنين وسماه ابن بطريق أوراليوس والمسبحي أرينوس وأبوفانيوس أوليوش وهروشيوش أورليان بن بلنسيان. وقال: ملك خمس سنين، قال ابن العميد: وفي الرابعة من ملكه قدم تاونا بطركاً بالإسكندرية سادس عشر البطاركة فلبث عشر سنين. وكان النصارى يقيمون الدين خفية، فلما صار بطركاً قابل الروم ولاطفهم بالهدايا فأذنوا له في بناء كنيسة مريم وأعلنوا فيها بالصلاة، قال: وفي سادسة ملكه ولد قسطنطين. وقال هروشيوش: إن أورليان بن بلنسيان هذا حارب القوط فظفر بهم وجدد بناء رومة واشتد على النصارى تاسعة بعد نيرون ثم قتل.

فولي بعده طانيش بن إلياس وملك قريباً من سنة. وقال ابن العميد: اسمه طافسوس وملك ستة أشهر. وقال ابن بطريق: اسمه طافساس وملك تسعة أشهر، ثم ملك فروفش قيصر خمس سنين، وقال أبو فانيوس: اسمه فروش، وقال ابن بطريق وابن الراهب والصعيديون ست سنين، وقال المسبحي سبع سنين وسماه ألاكيوس وأرفيون، وسماه ابن بطريق بروش، وسماه هروشيوش فاروش بن أنطويش. قال: وتغلب على كثير من بلاد الفرس، وقال ابن العميد: كان ملكه لسابعة من ملك سابور ذي الأكتاف ولخمسمائة واثنتين وتسعين من ملك الإسكندر، وكان شديداً على النصارى وقتل منهم خلقاً كثيراً وهلك هو وابناه في الحرب. وقال هروشيوش: ولما هلك فاروش ولي من بعده ابنه منارىان وقتل لحينه، ولم يذكره ابن العميد.

ثم ملك بقلاديانوش إحدى وعشرين سنة، وقال المسبحي: عشرين سنة، وقال غيره: ثماني عشرة سنة، وملك لخمسمائة وخمس وتسعين للإسكندر، وقال غيرهم: كان اسمه عريبطا وارتقى في أطوار الخدمة عند القياصرة إلى أن استخلصه فاريوش وجعله على خيله وكان حسن المزمار. ويقال إن الخيل كانت ترقص طرباً لمزاميره، وعشقته بنت فاريوش الملك، ولما مات أبوها وإخوتها ملكها الروم عليهم فتزوجته وسلمت له في الملك، فاستولى على جميع ممالك الروم وما والاها، وقسطنطش ابن عمه على بلاد أشيا وبيزنطية، وأقام هو بأنطاكية وله الشام ومصر إلى أقصى المغرب. وفي تاسعة عشر من ملكه انتقض أهل مصر والإسكندرية فقتل منهم خلقاً ورجع إلى عبادة الأصنام وأمر بغلق الكنائس، ولقي النصارى منه شدة وقتل القيسس مارجرس وكان من أكابر أبناء البطارقة، وقتل ملقوس منهم أيضاً. وفي عاشرة ملكه قدم ماربطرس بطركاً بالإسكندرية فلبث عشر سنين وقتله، وجعل مكانه تلميذه إسكندروس، وكان كبير تلامذته أريوش كثيراً لمخالفة له فسخطه وطرده، ولما مات ماربطرس رجع أريوش عن المخالفة فأدخله إسكندروس إلى الكنيسة وصيره قساً.

قال ابن العميد: وفي أيام ديقلاديانوس خرج قسطنطش ابن عمه ونائبه على بيرنطيا وأشيا ورأى هلانة، وكانت تنصرت على يد أسقف الرها، فأعجبته وتزوجها وولدت له قسطنطين، وحضر المنجمون لولادته فأخبروا بملكه، فأجمع ديقلاديانوس على قتله فهرب إلى الرها وثم جاء بعد موت ديقلاديانوس فوجد أباه قسطنطس قد ملك على الروم فتسلم الملك من يده على ما نذكر، وهلك ديقلاديانوس لعشرين سنة من ملكه ولستمائة وستة عشرة سنة من ملك الإسكندر وملك من بعده ابنه مقسيمانوس.

قال ابن بطريق: سبع سنين، وقال المسبحي وابن الراهب: سنة واحدة. قالوا وكان شريكه في الملك مقطوس، وكان أشد كفراً من ديقلاديانوس، ولقي النصارى منهما شدة وقتلا منهم خلقاً كثيراً، وفي أول سنة من ملكه قدم الإسكندروس تلميذ مار بطرس الشهير بطركاً بالإسكندرية، فلبث فيهم ثلاثاً وعشرين سنة وعلى عهد مقسيمانوس تذكر تلك الخرافة بين المؤرخين من أن سابور ملك الفرس دخل أرض الروم متنكراً، وحضر مكان مقسيمانوس وسجنه في جلد بقرة وسار إلى مملكة فارس وسابور في ذلك الجلد

وهرب منه، ولحق بفارس وهزم الروم، في حكاية مستحيلة وكلها أحاديث خرافة. والصحيح منه أن سابور سار إلى مملكة الروم فخرج إليه مقسيمانوس واستولى على ملكه كما نذكر بعد.

وأما هروشيوش فلما ذكر مناربان قيصر بن قاريوس وأنه ملك بعد أبيه وقتل لحينه، ثم قال: وقام بملكهم ديوقاريان وثار من قاتله، ثم خرج عليه أقرير بن قاريوس فقتله، ديوقاريان بعد حروب طويلة، ثم انتقض عليه أهل ممالكه وثار الثوار ببلاد الإفرنجة والأندلس وأفريقية ومصر، وسار إليه سابور ذو الأكتاف فدفع ديوقاريان إلى هذه الحروب كلها مخشميان هركوريش وصيره قيصراً، فبدأ أولاً ببلاد الإفرنجة فغلب الثوار بها وأصلحها وكان الثائر الذي بالأندلس قد ملك برطانية سبع سنين فقتله بعض أصحابه ورجعت برطانية إلى ملك ديوقاريان، ثم استعمل مخشميان خليفة ديوقاريان صهره قسطنطش وأخاه مخشمس ابني وليتنوس، فمضى إلى أفريقية وقهر الثوار بها وردها إلى طاعة الرومانيين.

وزحف ديوقاريان قيصر الأعظم إلى مصر والإسكندرية فحصر الثائر بها إلى أن ظفر به وقتله، ومضى قسطنطش إلى اللمانيين في ناحية بلاد الإفرنج فظفر بهم بعد حروب طويلة. وزحف مخشميان خليفة ديوقاريان إلى سابور ملك الفرس فكانت حروبه معه سجالاً حتى غلبه وأصاب منه، واستأصل مدينة غورة والكوفة من بلاده سبياً وقتلاً ورجع إلى رومة. ثم سرحه ديوقاريان قيصر إلى حروب أهل غالش من الإفرنجة، فأثخن فيهم قتلاً وسبياً، ثم اشتد ديوقاريان على النصارى الشدة العاشرة بعد نيرون وأثخن فيهم بالقتل ودام ذلك عليهم عشر سنين.

ثم اعتزل ديوقاريان وخليفته مخشميان الملك ورفضاه ودفعاه إلى قسطنطش بن وليتنوش وأخيه مخشمس ويسمى غلاريس، فاقتسما ملك الرومانيين، فكان لمخشمس غلاريس ناحية الشرق وكان لقسطنطش ناحية المغرب وكانت أفريقية وبلاد الأندلس وبلاد الإفرنج في ملكته. وهلك ديوقاريان ومخشميان معتزلين عن الملك بناحية الشام وأقام قسطنطش في الملك، ثم هلك ببرطانية وأقام بملك اللطينيين من بعده ابنه قسطنطين. انتهى كلام هروشيوش، ويظهر أن هذا الملك الذي سماه ابن العميد ديتلاديانوس هو الذي سماه هروشيوش ديوقاريان، والخبر من بعد ذلك متشابه والأسماء مختلفة ولا يخفى عليك وضع كل اسم في مكانه من الآخر والله سبحانه وتعالى أعلم.

الخبر عن القياصرة المتنصرة من اللطينيين وهم الكيتم واستفعال ملكهم بقسطنطينية ثم بالشام بعدها إلى حين الفتح الإسلامي ثم بعده إلى انقراض أمرهم

هؤلاء الملوك القياصرة المتنصرة من أعظم ملوك العالم وأشهرهم وكان لهم الاستيلاء على جانب البحر الرومي من الأندلس إلى رومة إلى القسطنطينية إلى الشام إلى مصر والإسكندرية إلى أفريقية والمغرب، وحاربوا الترك والفرس بالمشرق والسودان بالمغرب من النوبة فمن وراءهم. وكانوا أولاً على دين المجوسية، ثم بعد ظهور الحواريين ونشر دين النصرانية بأرضهم وتسلطهم عليهم بأرضهم مرة بعد أخرى أخذوا بدينهم. وكان أول من أخذ به قسطنطين بن قسطنطش بن وليتنوس وأمه هلانة بنت مخشميان قيصر خليفة ديوقاريان قيصر الثالث والثلاثون من القياصرة، وقد مر ذكره آنفاً.

وإنما سمي هذا الدين دين النصرانية نسبة إلى ناصرة القرية التي كان فيها مسكن عيسى عليه السلام عندما رجع من مصر مع أمه. وأما نسبه إلى نصران فهو من أبنية المبالغة ومعناه أن هذا الدين في غير أهل عصابة فهو دين من ينصره من أتباعه، ويعرف هؤلاء القياصرة ببني الأصفر وبعض الناس ينسبهم إلى عيصو بن إسحاق وقد أنكر ذلك المحققون وأبوه.

وقال أبو محمد بن حزم عند ذكر إسرائيل عليه السلام كان لإسحاق عليه السلام ابن آخر غير يعقوب واسمه عيصاب، وكان بنوه يسكنون جبال السراة من الشام إلى الحجاز، وقد بادوا جملة إلا أن قوماً يذكرون أن الروم من ولده وهو خطأ وإنما وقع لهم هذا الغلط لأن موضعهم كان يقال له أروم فظنوا أن الروم من ذلك الموضع وليس كذلك، لأن الروم إنما نسبوا إلى روملس باني رومة وربما يحتجون بأن النبي ﷺ قال في غزوة تبوك للحرث بن قيس: هل لك في جلاد بني الأصفر؟ ولا حجة فيه لاحتمال أن يريد بني عيصاب على الحقيقة لأن قصده كان إلى ناحية السراة وهو مسكن بني عيصو.

قلت: مسكن عيصو هؤلاء كان يقال له أيذوم، بالذال المعجمة إلى الظاء أقرب فعربتها العرب راء، ومن هنا جاء الغلط والله تعالى أعلم. وهذا الموضع يقال له يسعون أيضاً والاسمان له في التوراة، قال ابن العميد: خرج قسطنطين المؤمن على

مقسيمانوس فهزمه، ورجع إلى رومة وازدحم العسكر على الجسر فوقع بهم في البحر وغرق مقسيمانوس مع من غرق، ودخل قسطنطين رومة وملكها بعد أن أقام ملكاً على بيزنطية من بعد أبيه ستاً وعشرين سنة، فبسط العدل ورفع الجور. وخرج قائده يسكن ناحية قسطنطينية، وولاه على رومة وأعمالها وألزمه بإكرام النصارى، ثم انتقض عليه وقتل النصارى وعبد الأصنام، وكان فيمن قتل مارِيادس بطرك بطارقة، فبعث قسطنطين العساكر إلى رومة لحربه فساقوه أسيراً وقتله.

ثم تنصر قسطنطين في مدينة نيقيه لاثنتي عشر من ملكه وهدم بيوت الأصنام وبنى الكنائس، وللتاسعة عشرة من ملكه كان مجمع الأساقفة بمدينة نقية ونفى أريوس، كما ذكرنا ذلك كله من قبل وأن رئيس هذا المجمع كان إسكندروس بطرك الإسكندرية، وفي الخامسة عشر من رياسته توفي بعد المجمع بخمسة أشهر. وقال ابن بطريق: كانت ولاية إسكندروس في الخامسة من ملك قسطنطين وبقي ست عشرة سنة وقتل في السادسة والعشرين من ملك ديقلاديانوس وأنه كان على عهد أرسيانوس أسقف قيسارية. قال المسبحي: مكث بطركاً ثلاثاً وعشرين وكسر صنم النحاس الذي هو هيكل زحل بإسكندرية، وجعل مكانه كنيسة فهدمها العبيديون عند ملكهم إسكندرية.

وقال ابن الراهب: إن إسكندروس البطرك ولي أول سنة من ملك قسطنطين فمكث اثنتين وعشرين سنة وعلى عهده جاءت هلانة أم قسطنطين لزيارة بيت المقدس وبنت الكنائس وسألت عن موضع الصليب فأخبرها مقاريوس الأسقف: إن اليهود أهالوا عليه التراب والزبل فأحضرت الكهنونية وسألتهم عن موضع الصليب وسألتهم رفع ما هنالك من الزبل ثم استخرجت ثلاثة من الخشب وسألت أيتها خشبة المسيح؟ فقال لها الأسقف: علامتها أن الميت يحيا بمسيسها، فصدقت ذلك بتجربتها، واتخذوا ذلك اليوم عيداً لوجود الصليب، وبنت على الموضع كنيسة القمامة، وأمرت مقاريوس الأسقف ببناء الكنائس وكان ذلك لثلثمائة وثمان وعشرين من مولد المسيح عليه السلام.

وفي حادية وعشرين من ملك قسطنطين كان مهلك إسكندروس البطرك، وولي مكانه تلميذه أثناسيوس كانت أمه تنصرت على يده فربي ابنها عنده وعلمه وولي بطركاً مكانه وسعى به أصحاب أريوش إلى الملك بعده مرتين بقي فيهما على كرسيه ثم رجع. وحمل قسطنطين اليهود بالقدس على النصرانية فأظهروها وافتحوا في الامتناع من أكل الخنزير، فقتل منهم خلقاً وتنصر بعضهم، فزعموا أن أحبار اليهود نقصوا من سني مواليد الآباء نحواً من ألف وخمسمائة سنة ليبطلوا مجيء المسيح في السوابيع التي ذكر دانيال أن المسيح يظهر عندها، وأنها لم يحن وقتها وأن التوراة الصحيحة هي التي فسرها السبعون من أحبار اليهود ملك مصر. وزعم ابن العميد أن قسطنطين أحضرها واطلع منها على النقص الذي قاله، قال: وهي التوراة التي بيد النصارى الآن.

قال: ثم أمر قسطنطين بتجديد مدينة بيزنطية وسماها قسطنطينية باسمه وقسم ممالكه بين أولاده، فجعل لقسطنطين قسطنطينية وما والاها، ولقسطنطين الآخر بلاد الشام إلى أقصى المشرق، ولقسطوس الثالث رومة وما والاها. قال: وملك خمسين سنة منها ست وعشرون ببيزنطية قبل غلبة مقسيمانوس ومنها أربع وعشرون بعد استيلائه على الروم، وتنصر في اثنتي عشرة من آخر ملكه، وهلك لستمائة وخمسين للإسكندر.

قال هروشيوش: كان قسطنطين بن قسطنطش على دين المجوسية، وكان شديداً على النصارى، ونفى بطرك رومة فدعا عليه وابتلي بالجذام، ووصف له في مداواته أن ينغمس في دماء الأطفال، فجمع منهم لذلك عدداً ثم أدركته الرقة عليهم فأطلقهم، فرأى في منامه من يحضه على الاقتداء بالبطرك فرده إلى رومة وبرئ من الجذام. وجنح من حينئذ إلى دين النصرانية، ثم خشي خلاف قومه في ذالك، فارتحل إلى القسطنطينية ونزلها وشيد بناءها وأظهر ديانة المسيح، وخالف أهل رومة فرجع إليهم وغلبهم على أمرهم وأظهر دين النصرانية، ثم جاهد الفرس حتى غلبهم على كثير من ممالكهم. ولعشرين سنة من ملكه خرجت طائفة من القوط إلى بلاده فأغاروا وسبوا فزحف إليهم وأخرجهم من بلاده. ثم رأى في منامه عرباً وبنوداً على تمثال الصلبان وقائلاً يقول هذه علامة الظفر لك، فخرجت أمه هلانة إلى بيت المقدس لطلب آثار المسيح وبنت الكنائس في البلدان ورجعت ثم هلك قسطنطين لإحدى وثلاثين سنةمن ملكه اهـ. كلام هروشيوش

ثم ولي قسطنطين الصغير بن قسطنطين وسماه هروشيوش قسنطش. قال ابن العميد: ملك أربعاً وعشرين سنة وكان أخوه قسطوس برومة بولاية أبيهما ففي خامسة من ملك قسطنطين بعث العساكر فقتل مقنيطوس وأتباعه وولى على رومة من جهته فكانت له صاغية إلى أريوس فأخذ بمذهبه، وغلبت تلك المقالة على أهل قسطنطينية وأنطاكية ومصر والإسكندرية، وغلب أتباع أريوس على الكنائس ووثبوا على بطرك إسكندرية ليقتلوه فهرب كما مر، ثم هلك لأربع وعشرين سنة من ملكه.

وولي ابن عمه يولياش. وقال هروشيوش: ابن منخشمطش قال: وملك سنة واحدة. وقال ابن العميد: ملك سنتين باتفاق لثلاثة من ملك سابور وكان كافراً وقتل النصارى وعزلهم عن الكنائس وأطرحهم من الديوان وسار لقتل الفرس فمات من سهم أصابه. وقال هرشيوش: تورط في طريقه في مفازة ضل فيها عن سبيله فتقبض عليه أعداؤه وقتلوه، قال هروشيوش: وولي بعده بليان بن قسطنطي سنة أخرى، وزحف إلى الفرس وملكهم يومئذ سابور، فحجم عن لقائهم، فصالحهم ورجع وهلك في طريقه. ولم يذكر ابن العميد بليان هذا وإنما قال: ملك من بعد يوليانوس الملك يوشانوش سنة واحدة باتفاق في السادسة عشر من ملك سابور، وكان مقدم عساكر يوليانوس، فلما قتل اجتمعوا إليه وبايعوه واشترط عليهم الدخول في النصرانية فغلبوه.

وأشار سابور بتوليته ونصب له صليباً في العسكر، ولما ولي نزل على نصيبين للفرس ونقل الروم الذي بها إلى آمد ورجع إلى كرسي مملكتهم، فرد الأساقفة إلى الكنائس، ورجع فيمن رجع أثناسيوس بطرك إسكندرية، وطلب منه أن يكتب له أمانة أهل مجمع نيقية، فجمع الأساقفة وكتبوها وأشار عليه بلزومها. ولم يذكر هروشيوش يوشانوش هذا وذكر مكانه آخر قال: وسماه بلنسيان بن قسنطس. قال: وقاتل أمماً من القوط والإفرنجة وغيرهم، قال: وافترق القوط في أيامه فرقتين على مذهبي أريوس وأمانة نيقية، قال: وفي أيامه ولي داماش بطركا برومة ثم هلك بالفالج، وملك بعده أخوه واليس أربع سنين وعمل على مذهب أريوس واشتد على أهل الأمانة وقتلهم. وثار عليه بأهل أفريقية بعض النصارى مع البربر فأجاز إليهم البحر وحاربهم فظفر بالثائر وقتله بقرطاجنة، ورجع إلى قسطنطينية فحارب القوط والأمم من ورائهم وهلك في حروبهم.

وقال ابن العميد في قيصر الذي قتل واليس وسماه واليطنوس: أنه ملك اثنتي عشرة سنة فيما حكاه ابن بطريق وابن الراهب، وحكى عن المسبحي خمسة عشر سنة، وأن أخاه والياس كان شريكه في الملك وأنه كان مبايناً وأنه ملك لستمائة وست وسبعين للإسكندر وسبع عشرة لسابور كسرى. قال: وفي أيامه وثب أهل إسكندرية على أثناسيوس البطرك ليقتلوه فهرب وقدموا مكانه لوقيوس وكان على رأي أريوس، ثم اجتمع أهل الأمانة بعد خمسة أشهر ورجعوه إلى كرسيه وطردوا لوقيوس، وأقام أثناسيوس بطركاً إلى أن مات، فولوا بعده تلميذه بطرس سنتين، ووثب به أصحاب لوقيوس فهرب ورجع لوقيوس إلى الكرسي فأقام ثلاث سنين. ثم وثب به أهل الأمانة ورجعوا بطرس ومات لسنة من رجعته ولقي من داريانوس قيصر ومن أصحاب أريوس شدائد ومحناً.

وقال المسبحي: كان واليطينوس يدين بالأمانة، وأخوه واليس يدين بمذهب أريوس أخذه عن ثاودكسيس أسقف القسطنطينية، وعاهده على إظهاره، فلما ملك نفى جميع أساقفة الأمانة وسار أريوس أسقف أنطاكية بإذنه إلى الإسكندرية، فحبس بطرس البطرك وأقام مكانه أريوس من أهل سميساط، وهرب بطرس من السجن وأقام برومة، وكانت بين واليطينوس قيصر وبين سابور كسرى فتنة وحروب وهلك في بعض حروبه معهم، وولي بعده أخوه واليس. قال ابن العميد عن ابن الراهب: سنتين، وعن أبي فانيوس ثلاث سنين وسماه والاس. وقال: هو أبو الملكين اللذين تركا الملك وترهبا وسمي مكسيمنوس ودوقاديوس، قال: وفي الثانية من ملكه بعث طيماناوس أخا بطرس بطركاً على إسكندرية فلبث فيهم سبع سنين ومات، وفي سادسة ملكه كان المجمع الثاني بقسطنطينية وقد مر ذكره. وفي أيام واليس قيصر هذا مات بطرك قسطنطينية فبعث أغريوس أسقف يزناروا وولاه مكانه فوليه أربع سنين ومات. ثم خرج على واليس خارج من العرب فخرج إليه فقتل في حروبه ثم ولي أغراديانوس قيصر، قال ابن العميد: وهو أخو واليس وكان والنطوس بن واليس شريكاً له في الملك وملك سنة واحدة، وقال عن أبي فانيوس سنتين، وعن ابن بطريق ثلاث سنين.

وذكر عن ابن المسبحي وابن الراهب: أن تاوداسيوس الكبير كان شريكاً لهما وأن ابتداء ملكهم لستمائة وتسعين من ملك الإسكندر، وأنه رد جميع ما نفاه واليس قبله من الأساقفة إلى كرسيه وخلى كل واحد مكانه ومات أغراديانوس وابن أخيه في سنة واحدة، قال ابن العميد: وملك بعدهما ثاوداسيوس سبع عشرة سنة باتفاق لستمائة وتسعين من ملك الإسكندر ولإحدى وثلاثين من ملك سابور كسرى، وفي سادسة ملكه مات أثناسيوس، بطرك إسكندرية فولي مكانه كاتبه تاوفيلا، وكان بطرك القسطنطينية يوحنا فم الذهب، وأسقف قبرس أبوفانيوس كان يهودياً وتنصر.

قال: وكان لتاوداسيوس ولدان أرقاديوس وبرباريوس، قال: وفي خامسة عشر من ملكه ظهر الفتية السبعة أهل الكهف الذين قاموا أيام دقيانوس ولبثوا في نومهم ثلثمائة سنة وتسع سنين كما قصه القرآن، ووجد معهم صندوق النحاس والصحيفة التي أودع البطريق فيها خبرهم، وبلغ الأمر إلى قيصر تاوداسيوس فبعث في طلبهم فوجدهم قد ماتوا، فأمر أن يبنى عليهم كنيسة ويتخذ يوم

ظهورهم عيداً. قال المسبحي: وكان أصحاب أريوس قد استولوا على الكنائس منذ أربعين سنة فأزالهم عنها ونفاهم وأسقط من عساكره كل من يدين بتلك المقالة، وعقد الجمع الثاني بقسطنطينية لمائتين وخمسين سنة من مجمع نيقية، وقرر فيه الأمانة الأولى بنيقية وعهدوا أن لا يزاد فيها ولا ينقص. وفي الخامسة عشر من ملكه مات سابور بن سابور وملك بعده بهرام. ثم هلك تاوداسيوس لسبع عشرة سنة من ملكه.

وأما هروشيوش فقال بعد ذكر واليس: وملك بعده وليطانش ابن أخيه فلنسيان ست سنين وهو الموفي أربعين عدداً من ملوك القياصرة، قال واستعمل طودوشيش بن أنطيونش بن لوخيان على ناحية المشرق فملك الكثير منها، ثم هجم أهل رومة على قائدهم فقتلوه وخلعوا وليطيانش الملك، فلحق بطودوشيش بالمشرق فسلم إليه في الملك، فأقبل طودوشيش إلى رومة وقتل الثائر بها واستقل بملك القياصرة، وهلك لأربع عشرة سنة من ولايته، فولي ابنه كاديكش. ويظهر من كلام هروشيوش أن طودوشيش هو تاوداسيوس الذي ذكره ابن العميد، لأنهما متفقان في أن ابنه أركاديس ومتقاربان في المدة، فلعل وليطانش الذي ذكره هروشيوش هو أغراديانوس الذي ذكره ابن العميد اهـ.

قال ابن العميد: وملك أركاديش ولد تاوداسيوس الأكبر ثلاث عشرة سنة باتفاق في ثالثة ملك بهرام بن سابور وكان مقيماً بالقسطنطينية، وولي أخاه أنوريش على رومة، قال: وولد لأركاديش ابن سماه طودوشيش باسم أبيه، ولما كبر طلب معلمه أريانوس ليعلم ولده، فهرب إلى مصر وترهب، ورغبه المال فأبى وأقام في مغارة بالجبل المقطم على قرية طرا ثلاث سنين، ومات فبنى الملك على قبره كنيسة وديراً يسمى دير القصير، ويقال: دير البغل. وفي أيامه غرق أبو فانيوس بمرجعه إلى قبرص، ومات يوحنا فم الذهب بطرك القسطنطينية وكان نفاه أركاديش بموافقة أبي فانيوس، ودعا كل منهما على صاحبه فهلكا. وفي التاسعة من ملك أركاديش مات بهرام بن سابور وملك ابنه يزدجرد.

ثم هلك أركاديش وملك من بعده طودشيش الأصغر ابن أركاديش ثلاث عشرة سنة وولى أخاه أنوريش على رومة، فاقتسما ملك اللطينيين، وانتقض لعهديهما قومس أفريقية وخالفه إلى طاعة القياصرة فحدثت بأفريقية فتنة لذلك. ثم غلب القومس أخاه فلحق بقبرص وترهب بها، ثم زحف القوط إلى رومة وفر عنها أنوريش فحاربوها ودخلوها عنوة واستباحوها ثلاثاً وتجافوا عن أموال الكنائس. قال: ولما هلك أركاديش قيصر استبد أخوه أنوريش بالملك خمس عشرة سنة وأحسن في دفاع القوط عن رومة وهلك، فولي من بعده طودشيش ابن أخيه أركاديش ولم يذكر ابن العميد أنوريش وإنما ذكر بعد أركاديش ابنه طودشيش وسماه الأصغر.

قال: وملك اثنتين وأربعين سنة باتفاق في خامسة ملك يزدجرد، وكانت بينه وبين الفرس حروب كثيرة. قال: وفي أول سنة من ملكه مات تاوفيلا بطرك إسكندرية فولي مكانه كيرلوس ابن أخته، في السابعة عشر من ملكه قدم نسطوريش بطركاً بالقسطنطينية فأقام أربع سنين وظهرت عنه العقيدة التي دان بها وقد تقدمت، وبلغت مقالته إلى كيرلس بطرك الإسكندرية، فخاطب في ذلك بطرك رومة وأنطاكية وبيت المقدس، ثم اجتمعوا بمدينة أفسيس في مائتي أسقف وأجمعوا على كفر نسطوريس ونفوه، فنزل أخميم من صعيد مصر وأقام بها سبع سنين، وأخذ بمقالته نصارى الجزيرة والموصل إلى الفرات ثم العراق وفارس إلى المشرق، وولى طودوشيش بالقسطنطينية مقسيموس عوضاً عن نسطورس فأقام بها ثلاث سنين. وفي ثامنة وثلاثين من ملك طودوشيش الأصغر مات كيرلس بطرك الإسكندرية وولي مكانه ديسقرس، ولقي شدائد من مرقيان الملك بعده. وفي السادسة عشرة من ملك طودوشيش الأصغر مات يزدجرد كسرى وولي ابنه بهرام جور، وكانت بينه وبين خاقان ملك الترك وقائع ثم عدل عن حروبهم ودخل إلى أرض الروم فهزمه طودوشيش وملك ابنه يزدجرد.

قال هروشيوش: وفي أيام طودوشيش الأصغر تغلب القوط على رومة وملكوها وهلك ملكهم أبطريك كما نذكر في أخبارهم، ثم صالحوا الروم على أن يكون لهم الأندلس فانقلبوا إليها وتركوا رومة انتهى قال ابن العميد: ثم ملك مرقيان بعده ست سنين باتفاق وتزوج أخت طودوشيش وسماه هروشيوش مركيان بن مليكة. قالوا: وكان في أيامه الجمع الرابع بمقدونية وقد تقدم ذكره، وإنه كان بسبب ديسقوس بطرك إسكندرية وما أحدث من البدعة في الأمانة، فأجمعوا على نفيه وجعلوا مكانه برطارس، وافترقت النصارى إلى ملكية وهم أهل الأمانة فنسبوا إلى مركيان قيصر الملك الذي جمعهم وعهد بأن لا يقبل ما اتفق عليه أهل المجمع الخلقدوني، وإلى يعقوبية وهم أهل مذهب ديسقوس وتقدم الكلام في تسميتهم يعقوبية، وإلى نسطورية وهم نصارى المشرق. وفي أيام مركيان سكن شمعون الحبيس الصومعة بأنطاكية وترهب وهو أول من فعل ذلك من النصارى، وعلى عهده مات يزدجرد كسرى ومات مركيان قيصر لست سنتين من ملكه وملك بعده لاون الكبير.

قال ابن العميد: لسبعمائة وسبعين من ملك الإسكندر، ولثانية من ملك نيرون، ملك ست عشرة سنة. ووافقه هروشيوش على مدته، وقال فيه ليون بن شمخلية. قال ابن العميد: وكان على مذهب الملكية ولما سمع أهل إسكندرية بموت مركيان وثبوا على برطارس البطرك فقتلوه بعد ست سنين من ولايته وأقاموا مكانه طيمناوس، وكان يعقوبياً فجاء قائد من قسطنطينية بعد ثلاث سنين من ولايته فنفاه، وأبدل عنه سورس من الملكية وأقام تسع سنين. ثم عاد طيماناوس بالأمر لاون قيصر، ويقال: أنه بقي بطركاً اثنتين وعشرين سنة. ولثانية عشر من ملك لاون زحف الفرس إلى مدينة آمد وحاصروها وامتنعت عليهم، وفي أيامه مات شمعون الحبيس صاحب العمود ثم هلك لاون قيصر لست عشرة سنة من ملكه. قال ابن العميد: وولي من بعده لاون الصغير وهو أبو زينون الملك بعده. وقال ابن بطريق: وهو ابن سينون وكان يعقوبياً وملك سنة واحدة.

ولم يذكره هروشيوش وإنما ذكر زينون الملك بعده، وسماه سينون بالسين المهملة. وقال: ملك سبع عشرة سنة. وقال ابن العميد مثله ولثمانية عشر من ملك نيرون ولسبعمائة وسبع وثمانين للإسكندر، قال: وكان يعقوبياً وخرج عليه ولده ورجل من قرابته وحاربهما عشرين شهراً ثم قتلهما وأتباعهما ودخل قسطنطينية ووجد بطركها وكان رديء العقيدة قد غير كتب الكنيسة وزاد ونقص، فكتب زينون قيصر إلى بطرك رومة وجمع الأساقفة فناظروه ونفوه. وفي سابعة ملك زينون مات طيماناوس بطرك إسكندرية فولي مكانه بطرس وهلك بعد ثمان سنين، فولي مكانه أثناسيوس وهلك لسبع سنين وكان قيماً ببعض البيع في بطركيته. وقال المسبحي: وفي أيام زينون احترق ملعب الخيل الذي بناه بطليموس الأرنبا بالإسكندرية.

وقال ابن بطريق: وفي أيام زينون هاجت الحرب بين نيرون والهياطلة وهزموه في بعض حروبهم، وورد الكرة عليه بعض قواده كما في أخبارهم، ومات نيرون وتنازع الملك ابناه قياد وبلاش. وفي عاشرة من ملك زينون غلب بلاش أخاه واستقل بالملك ولحق أخوه قياد بخاقان ملك الترك، ثم هلك بلاش لأربع سنين ورجع قياد واستولى على مملكة فارس وذلك في أربعة عشر من ملك زينون فأقام ثلاثاً وأربعين سنة.

وهلك زينون لسبع عشرة من ولايته، فملك بعده نسطاس سبعاً وعشرين سنة في أربعة من ملك قياد ولثمانمائة وثلاث للإسكندر، وكان يعقوبياً وسكن حماة ولذلك أمر أن تشيد وتحصن فبنيت في سنتين. وعهد لأول ملكه أن يقتل كل امرأة كاتبة، وفي ثالثة ملكه أمر ببناء مدينة في المكان الذي قتل فيه دارا فوق نصيبين. ثم وقعت الحرب بينه وبين الأكاسرة وخرب قياد مدينة آمد ونازلت عساكر الفرس إسكندرية وأحرقوا ما حولها من البساتين والحصون، وقتل بين الأمتين خلق كثير. وفي سادسة ملكه مات أثناسيوس بطرك الإسكندرية فصير مكانه يوحنا وكان يعقوبياً ومات لتسع سنين، فصير بعده يوحنا الحسن ومات بعد إحدى عشرة. وفي أيام نسطاس قدم ساريوس بطركاً بأنطاكية وكان كلاهما على أمة ديسقوس. وفي سابعة وعشرين من ملك نسطاس قدم ساريوس بطركاً بأنطاكية ومات يوحنا بطرك إسكندرية فولى مكانه ديسقوس الجديد ومات لسنتين ونصف.

وقال سعيد بن بطريق: إن إيليا بطرك المقدس كتب إلى نسطاس قيصر يسأله الرجوع إلى الملكية ويوضح له الحق في مذهبهم، وصبا إليه في ذلك جماعة من الرهبان، فأحضرهم وسمع كلامهم وبعث إليهم بالأموال للصدقات وعمارة الكنائس. وكان بقسطنطينية رجل على رأي ديسقوس فمضى إلى نشطانش قيصر ومضى وأشار عليه باتباع مذهب ديسقوس وأن يرفض المجمع الخلقدوني. فقبل ذلك منه وبعث إلى جميع أهل مملكته، وبلغ ذلك بطرك أنطاكية فكتب إلى نشطانش قيصر بالملامة على ذلك فغضب ونفاه، وجعل مكانه بأنطاكية سويرس وبلغ ذلك إلى إيليا بطرك القدس، فجمع الرهبان ورؤساء الديور في نحو عشرة آلاف ولعنوا سويرس وأجرموه والملك نشطانش معه. فنفاه نشطانش إلى إيليا وذلك في ثالثة وعشرين من ملكه، فاجتمع جميع البطاركة والأساقفة من الملكية وأجرموا نشطانش الملك وسويرس ودسقوس إمام اليعقوبية ونسطورس. قال ابن بطريق: وكان لسيوس تلميذ اسمه يعقوب البرادعي يطوف البلاد داعياً إلى مقالة سويروس وديسقوس فنسب اليعاقبة إليه. وقال ابن العميد: وليس كذلك لأن اليعاقبة سموا بذلك من عهد ديسقوس كما مر ثم هلك نشطانش لسبع وعشرين من ملكه، وملك بعده يشطيانش قيصر لثمانية وثلاثين من ملك قياد بن نيرون ولثمانية وثلاثين للإسكندر، وملك تسع سنين باتفاق. وقال هروشيوش سبعاً. وقال المسبحي كان معه شريك في ملكه اسمه يشطيان.

وفي ثالثة ملكه غزت الفرس بلاد الروم فوقعت بين الفرس والروم حروب كثيرة، وزحف كسرى في آخرها لثمانية من ملك يشطيانش ومعه المنذر ملك العرب، فبلغ الرها وغلب الروم وغرق من الفريقين في الفرات خلق كثير وحمل الفرس أسارى الروم وسباياهم، ثم وقع الصلح بينهما بعد موت قيصر. وفي تاسعة ملكه أجاز البربر من المغرب إلى رومة وغلبوا عليها. قال

ابن بطريق: وكان يشطيانش على دين الملكية فرد كل من نفاه نشطانش قبله منهم، وصير طيماناوس بطركاً بالإسكندرية وكان يعقوبياً فلبث ثلاث سنين، وقيل سبع عشرة سنة.

وقال ابن الراهب: كان يشطيانش خلقدونياً ونفى طيماناوس البطرك عن إسكندرية وجعل مكانه أبوليناريوس وكان ملكياً، وعقد مجمعاً بالقسطنطينية يريد جمع الناس على رأي الخلقدونية مذهبه، وأحضر شاويرش بطرك أنطاكية وأساقفة المشرق فلم يوافقوه، فاعتقل بطرك أنطاكية سنين ثم أطلقه فسار إلى مصر وبقي مختفياً في الديور. ثم وصل أبوليناريوس بطرك إسكندرية ومعه كتاب الأمانة الخلقدونية، فقبل الناس منه وتبعوا مذهبه فيها وصاروا إليه وهلك يشطيانش لتسع سنين من ملكه ثم ملك يشطينانش قيصر لإحدى وأربعين من ملك قياد ولثمانمائة وأربعين للإسكندر وكان ملكياً وهو ابن عم يشطيانش الملك قبله. وقال المسبحي: بل كان شريكه كما مر وملك أربعين سنة باتفاق. وقال أبو فانيوس: ثلاثاً وثلاثين. وفي سابعة ملكه غزا كسرى بلاد الروم وأحرق إيليا وأخذ الصليب الذي كان فيها، وفي حادية عشر من ملكه عصت السامرية عليه فغزاهم وخرب بلادهم، وفي سادسة عشر من ملكه غزا الحارث بن جبلة أمير غسان والعرب ببرية الشام وغزا بلاد الأكاسرة وهزم عساكرهم وخرب بلادهم ولقيه بعض مرازبة كسرى فهزمهم ورد السبي منهم، ثم وقع الصلح بين فارس والروم وتوادعوا. وفي خمس وثلاثين من ملك يشطيانش عهد بأن يتخذ عيد الميلاد في أربع وعشرين من كانون الأول، وعيد الغطاس في ست منه، وكانا من قبل ذلك جميعاً في سادس كانون. وقال المسبحي: أراد يشطيانش حمل الناس على رأي الملكية طيماناوس بطرك إسكندرية وكان يعقوبياً، وأراده على ذلك فامتنع فهم بقتله، ثم أطلقه فرجع إلى مصر مختفياً ثم نفاه بعد ذلك وجعل مكانه بولس، وكان ملكياً فلم يقبله اليعاقبة وأقام على ذلك سنين.

قال سعيد بن بطريق: ثم بعث قيصر قائداً من قواده اسمه بوليناريوس وجعله بطرك إسكندرية فدخل الكنيسة بزي الجند ثم لبس زي البطاركة وقدس. فهموا به فصار إلى سياستهما فاقصدوا ثم حملهم على رأي اليعقوبية وقتل من امتنع وكانوا مائتين. وفي أيام يشطيانش هذا ثار السامرة بأرض فلسطين وقتلوا النصارى وهدموا كنائسهم فبعث العساكر وأثخنوا فيهم وأمر ببناء الكنائس كما كانت، وكانت كنيسة بيت لحم صغيرة فأمر بأن يوسع فيها فبنيت كما هي لهذا العهد. وفي عهده كان المجمع الخامس بقسطنطينية بعد مائة وثلاث وستين من المجمع الخلقدوني ولتاسعة وعشرين من ملك يشطيانش وقد مر ذكر ذلك.

وفي عهد قيصر هذا مات أبوليناريوس القائد الذي جعل بطركاً بإسكندرية لسبع عشرة سنة من ولايته، وهو كان رئيس هذا المجمع، وجعل مكانه يوحنا وكان أمانياً وهلك لثلاث سنين، وانفرد اليعاقبة بالإسكندرية وكان أكثرهم القبط وقدموا عليهم طودوشيوش بطركاً لبث فيهم اثنتين وثلاثين سنة، وجعل الملكية بطركهم داقيانوس وطردوا طودوشيوش من كرسيه ستة أشهر، ثم أمر يشطيانش قيصر بأن يعاد فأعيد وطلب منه المغامسة أن يقدم دقيانوس بطرك الملكية على الشمامسة فأجابهم.

ثم كتب يشطيانش إلى طودوشيوش البطرك باجتماع المجمع الخلقدوني أو يترك البطركية، فتركها ونفاه وجعل مكانه بولس التنسي فلم يقبله أهل إسكندرية ولا ما جاء به. ثم مات وغلقت كنائس القبط اليعقوبية ولقوا شدائد من الملكية ومات طودوشيوش البطرك في سابعة وثلاثين من ملكة يشطيانش وجعل مكانه بإسكندرية بطرس ومات بعد سنتين.

قال ابن العميد: وسار كسرى أنوشروان في مملكة يشطيانش قيصر إلى بلاد الروم وحاصر أنطاكية وفتحها وبنى قبالتها مدينة سماها رومة ونقل إليها أهل أنطاكية. ثم هلك يشطيانش وملك بعده يوشطونش قيصر لست وثلاثين من ملك أنوشروان ولثمانمائة وثمانين للإسكندر فملك ثلاثة عشر سنة. وقال هروشيوش: إحدى عشرة سنة. ولثانية من ملكه مات بطرس ملك إسكندرية فجعل مكانه داميانو فمكث ستاً وثلاثين سنة وخربت الديور على عهده، وفي الثانية عشرة من ملكه مات كسرى أنوشروان بعد أن كان بعث العساكر من الديلم مع سيف بن ذي يزن من التبابعة ففتحوا اليمن وصارت للأكاسرة.

ثم هلك يوشطونش قيصر لإحدى عشرة أو ثلاث عشرة من ملكه. وملك بعده طيباريوس قيصر لثالثة من ملك هرمز بن أنوشروان ولثمانمائة واثنتين وتسعين للإسكندر، فملك ثلاث سنين عند ابن بطريق وابن الراهب، وأربعاً عند المسبحي. ولعهده انتقض الصلح بين الروم وفارس واتصلت الحرب، وانتهت عساكر الفرس إلى رأس عين الخابور، فثار إليهم موريق من بطاركة الروم فهزمهم، ثم جاء طباريش قيصر على أثره فعظمت الهزيمة واستحر القتل في الفرس وأسر الروم منهم نحواً من أربعة آلاف غربهم إلى جزيرة قبرص.

ثم انتقض بهرام مرزبان هرمز كسرى وطرده عن الملك بمنجع من تخوم بلاد الروم وبعث بالصريخ إلى طباريش قيصر،

فبعث إليه المدد من الفرسان والأموال. يقال كان عسكر المدد أربعين ألفاً فسار هرمز ولقيه بهرام بين المدائن وواسط فانهزم واستبيح، وعاد هرمز إلى ملكه وبعث إلى طباريش بالأموال والهدايا أضعاف ما أعطاه، ورد إليه ما كانت الفرس أخذته من بلادهم وسألهم... وغيرها، ونقل من كان فيها من الفرس إلى بلاده. وسأله طباريش بأن يبني هيكلين للنصارى بالمدائن وواسط فأجابه إلى ذلك.

ثم هلك طباريش قيصر وملك من بعده موريكش قيصر في السادسة لهرمز ولثمانمائة وخمس وتسعين للإسكندر وملك عشرين سنة باتفاق المؤرخين فأحسن السيرة. وفي حادية عشر من ملكه بلغه عن بعض اليهود بأنطاكية أنهم بالوا على صورة المسيح، فأمر بقتلهم ونفيهم. ولعهده انتقض على هرمز كسرى قريبه بهرام وخلعه واستولى على ملكه وقتله، وسار ابنه أبرويز إلى موريكش قيصر صريخاً فبعث معه العساكر ورد أبرويز إلى ملكه، وقتل بهرام الخارج عليه وبعث إليه بالهدايا والتحف كما فعل أبوه من قبله مع القياصرة، وخطب أبرويز من موريكش قيصر ابنته مريم فزوجه إياها وبعث معها من الجهاز والأمتعة والأقمشة ما يضيق عنه الحصر.

ثم وثب على موريكش بعض مماليكه بمداخلة قريبه البطريق قوقا فدسه عليه فقتله وملك على الروم وتسمى قيصر وذلك لتسعمائة وأربع عشرة للإسكندر وخمس عشرة لأبرويز.

فملك ثماني سنين وقتل أولاد موريكش وأفلت صغير منهم فلحق بطور سينا وترهب ومات هنالك. وبلغ أبرويز كسرى ما جرى على موريكش وأولاده فجمع عساكره وقصد بلاد الروم ليأخذ ثار صهره، وبعث عساكره مع مرزبانه خزرويه إلى القدس وعهد إليه بقتل اليهود وخراب البلد. وبعث بمرزبان آخر إلى مصر والإسكندرية، وجاء بنفسه في عساكر الفرس إلى القسطنطينية وحاصرها وضيق عليها، وأما خزرويه المرزبان فسار إلى الشام وخرب البلاد. واجتمع يهود طبرية والخليل وناصرة وصور وأعانوا الفرس على قتل النصارى وخراب الكنائس، فنهبوا الأموال وأخذوا قطعة من الصليب، وعادوا إلى كسرى بالسبي وفيهم زخريا بطرك القدس، فاستوهبته مريم بنت موريكش من زوجها أبرويز فوهبه إياها مع قطعة الصليب. ولما خلت الشام من الروم واجتمع الفرس على القسطنطينية، تراسل اليهود من القدس والخليل وطبرية ودمشق وقبرص، واجتمعوا في عشرين ألفاً وجاءوا إلى صور ليملكوها، وكان فيها من اليهود نحو من أربعة آلاف فتقبض بطركها عليهم وقيدهم، وحاصرهم عساكر اليهود وهدموا الكنائس خارج صور والبطرك يقتل المقيدين ويرمي برؤوسهم إلى أن فنوا، وارتحل كسرى عن القسطنطينية جاثياً فأجفل اليهود عن صور وانهزموا.

وقال ابن العميد: وفي رابعة من قوقاص قيصر قدم يوحنا الرحوم بطركاً على الملكية بإسكندرية ومصر، وإنما سمي الرحوم لكثرة رحمته وصدقته، وهو الذي عمل البيمارستان للمرضى بإسكندرية. ولما سمع بمسير الفرس هرب مع البطريق الوالي بإسكندرية إلى قبرص فمات بها لعشر سنين من ولايته، وخلا كرسي الملكية بإسكندرية سبع سنين. وكان اليعاقبة بإسكندرية قدموا عليهم في أيام قوقاص قيصر بطركاً اسمه أنسطانيوس مكث فيهم اثني عشرة سنة، واسترد ما كانت الملكية استولت عليه من الكنائس اليعقوبية، وجاء أثناسيوس بطرك أنطاكية بالهدايا سروراً بولايته، فتلقاه هو بالأساقفة والرهبان، واتخذت الكنيسة بمصر والشام وأقام عنده أربعين يوماً ورجع إلى مكانه.

ومات أنسطانيوش بعد اثنتي عشرة من ولايته لثلثمائة وثلاثين من ملك ديقلاديانوس ولما انتهى أبرويز في حصار القسطنطينية نهايته وضيق عليها وعدموا الأقوات، واجتمع البطارقة بعلوقيا وبعثوا السفن مشحونة بالأقوات مع هرقل أحد بطارقة الروم، ففرحوا به، ومالوا إليه وداخلهم في الملك، وأن قوقاص سبب هذه الفتنة، فثاروا عليه وقتلوه وملكوا هرقل، وذلك لتسعمائة واثنتين وعشرين للإسكندر، فارتحل أبرويز عن القسطنطينية راجعاً إلى بلاده، وملك هرقل بعد ذلك إحدى وثلاثين سنة ونصف عند المسبحي وابن الراهب، واثنتين وثلاثين عند ابن بطريق. وكانت ملكته أول سنة من الهجرة. وقال هروشيوش: لتسع وسماه هرقل بن هرقل بن أنطونيش.

ولما تملك هرقل بعث أبرويز بالصلح بوسيلة قتلهم موريكش فأجابهم على تقرير الضريبة عليهم فامتنعوا فحاصرهم ست سنين أخرى إلى الثمان التي تقدمت، وجهدهم الجوع فخادعهم هرقل بتقرير الضريبة على أن يفرج عنهم حتى يجمعوا له الأموال. وضربوا الموعد معه ستة أشهر، ونقض هرقل فخالف كسرى إلى بلاده، واستخلف أخاه قسطنطين على قسطنطينية، وسار في خمسة آلاف من عساكر الروم إلى بلاد فارس فخرب وقتل وسبى وأخذ ابني أبرويز كسرى من مريم بنت موريكش وهما قباذ وشيرويه. ومر بحلوان وشهرازور إلى المدائن ودجلة ورجع إلى أرمينية، ولما قرب من القسطنطينية، وارتحل أبرويز كسرى إلى بلاده فوجدها خراباً وكان ذلك مما أضعف من مملكة الفرس وأوهنها.

وخرج هرقل لتاسعة من ملكه لجمع الأموال، وطلب عامل دمشق منصور بن سرحون فاعتذر بأنه كان يحمل الأموال إلى كسرى، فعاقبه واستخلص منه مائة ألف دينار وأبقاه على عمله. ثم سار إلى بيت المقدس وأهدى إليه اليهود فأمنهم أولاً ثم عرفه الأساقفة والرهبان بما فعلوه في الكنائس، ورآها خراباً وأخبروه بمن قتلوه من النصارى، فأمر هرقل بقتلهم فلم ينج منهم إلا من اختفى أو أبعد المفر إلى الجبال والبراري، وأمر بالكنائس فبنيت.

وفي العاشرة من ملكه قدم أندرسكون بطركاً لليعاقبة بإسكندرية فأقام ست سنين خربت فيها الديور، ثم مات فجعل مكانه بنيامين فمكث سبعاً وثلاثين سنة ومات والفرس يومئذ قد ملكوا مصر والإسكندرية.

وأما هرقل فسار من بيت المقدس إلى مصر وملكها وقتل الفرس، وولى على الإسكندرية فوس وكان أمانياً وجمع له بين البطركة والولاية. ورأى بنيامين البطرك في نومه شخصاً يقول قم فاختف إلى أن يجوز غضب الرب فاختفى، وتقبض هرقل على أخيه مينا وأراده على الأخذ بالأمانة الخلقدونية فامتنع فأحرقه بالنار ورمى بجثته في البحر. ثم عاد هرقل إلى قسطنطينية بعد أن جمع الأموال من دمشق وحمص وحماة وحلب وعمر البلاد، إلى أن ملك مصر عمرو بن العاص وفتحها لثلثمائة وسبع وخمسين لديقلاديانوس، وكتب لبنيامين البطرك بالأمان فرجع إلى إسكندرية بعد أن غاب عن كرسيه ثلاث عشرة سنة.

قال ابن العميد: وانتقل التاريخ إلى الهجرة لإحدى عشرة من ملك هرقل وذلك لتسعمائة وثلاث وثلاثين للإسكندر وستمائة وأربع عشرة للمسيح.

قال المسعودي: وقيل إن مولده عليه السلام كان لعهد نيشطيانش الثاني الذي ذكر أنه نوسطيونس الذي بنى كنيسة الرها وأن ملكه كان عشرين سنة. ثم ملك هرقل بن نوسطيونس خمس عشرة سنة وهو الذي ضرب السكة الهرقلية، وبعده مورق بن هرقل، قال: والمشهور بين الناس أن الهجرة وأيام الشيخين كان ملك الروم لهرقل. قال: وفي كتب السير أن الهجرة كانت على عهد قيصر بن مورق، ثم كان بعده ابنه قيصر بن قيصر أيام أبي بكر، ثم هرقل بن قيصر أيام عمر وعليه كان الفتح وهو المخرج من الشام، قال: ومدة ملكهم إلى الهجرة مائة وخمس وسبعون سنة.

قال الطبري: مدة ما بين عمارة المقدس بعد تخريب بختنصر إلى الهجرة على قول النصارى ألف سنة وتزيد، ومن ملك الإسكندر إليها تسعمائة ونيف وعشرين سنة، ومنه إلى مولد عيسى ثلثمائة وثلاث سنين، وعمره إلى رفعه اثنان وثلاثون سنة، ومن رفعه إلى الهجرة خمسمائة وخمس وثمانون سنة. وقال هروشيوش: إن ملك هرقل كانت الهجرة في تاسعته وسماه هرقل بن هرقل بن أنطونيوس لستمائة وإحدى عشرة من تاريخ المسيح، ولألف ومائة من بناء رومة والله تعالى أعلم.

الخبر عن ملوك القياصرة من لدن هرقل والدولة الإسلامية إلى حين انقراض أمرهم وتلاشي أحوالهم

قال ابن العميد: وفي الثانية من الهجرة بعث أبرويز عساكره إلى الشام والجزيرة فملكها، وأثخن في بلاد الروم، وهدم كنائس النصارى واحتمل ما فيها من الذهب والفضة والآنية، حتى نقل الرخام الذي كان بالمباني، وحمل أهل الرها على رأي اليعقوبية بإغراء طبيب منهم كان عنده فرجعوا إليه وكانوا ملكية. وفي سابعة الهجرة بعث عساكر الفرس ومقدمهم مرزبانه شهريار فدوخ بلاد الروم وحاصر القسطنطينية، ثم تغير له فكتب إلى المرازبة معه بالقبض عليه، واتفق وقوع الكتاب بيد هرقل فبعث به إلى شهريار فانتقض ومن معه، وطلبوا هرقل في المدد فخرج معهم بنفسه في ثلثمائة ألف من الروم وأربعين ألفاً من الخزر الذين هم التركمان.

وسار إلى بلاد الشام والجزيرة وافتتح مدائنهم التي كان ملكها كسرى من قبل وفيما افتتح أرمينية، ثم سار إلى الموصل فلقيه جموع الفرس وقائدهم المرزبان فانهزموا وقتل. وأجفل أبرويز عن المدائن واستولى هرقل على ذخائر ملكهم، وكان شيرويه بن كسرى محبوساً فأخرجه شهريار وأصحابه وملكوه وعقدوا مع هرقل الصلح، ورجع هرقل إلى آمد بعد أن ولى أخاه تداوس على الجزيرة والشام، ثم سار إلى الرها ورد النصارى اليعاقبة إلى مذهبهم الذي أكرهوا على تركه وأقام بها سنة كاملة.

وعن غير ابن العميد: وفي آخر سنة ست من الهجرة كتب النبي ﷺ إلى هرقل كتابه من المدينة مع دحية الكلبي يدعوه إلى الإسلام، ونصه على ما وقع في صحيح البخاري:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك

إثم الأريسيين. ﴿وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

فلما بلغه الكتاب جمع من كان بأرضه من قريش وسألهم عن أقربهم نسباً منه فأشاروا إلى أبي سفيان بن حرب، فقال لهم: إني سائله عن شأن هذا الرجل فاستمعوا ما يقوله. ثم سأل أبا سفيان عن أحوال تجب أن تكون للنبي ﷺ أو ينزه عنها، وكان هرقل عارفاً بذلك، فأجابه أبو سفيان عن جميع ما سأله من ذلك. فرأى هرقل أنه نبي لا محالة مع أنه كان حزاء ينظر في علم النجوم، وكان عنده علم من القرآن الكائن قبل الملة بظهور الملة والعرب، فاستيقن بنبوته وصحة ما يدعو إليه حسبما ذكره البخاري في صحيحه.

وكتب النبي ﷺ إلى الحرث بن أبي شمر الغساني ملك غسان بالبلقاء من أرض الشام وعامل قيصر على العرب مع شجاع بن وهب الأسدي يدعوه إلى الإسلام، قال شجاع: فأتيته وهو بغوطة دمشق يهيئ النزل لقيصر حين جاء من حمص إلى إيليا، فشغل عني إلى أن دعاني ذات يوم وقرأ كتابي وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن. ثم أمر بالخيول تنعل، وكتب بالخبر إلى قيصر، فنهاه عن المسير ثم أمرني بالانصراف وزودني بمائة دينار.

ثم بعث رسول اللّه ﷺ في الثامنة من الهجرة جيشه إلى الشام وهي غزوة مؤتة كان المسلمون فيها ثلاثة آلاف وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال: إن أصيب فجعفر فعبد اللّه بن رواحة. فانتهوا إلى معان من أرض الشام، ونزل هرقل صاب من أرض البلقا في مائة ألف من الروم. وانضمت إليه جموع جذام والغيد وبهرام وبلى، وعلى بلى مالك بن زافلة، ثم زحف المسلمون إلى البلقا ولقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب على مؤتة فكان التمحيص والشهادة، واستشهد زيد ثم جعفر ثم عبد اللّه، وانصرف خالد بن الوليد بالناس فقدموا المدينة. ووجد النبي ﷺ على من قتل من المسلمين ولا كوجده على جعفر بن أبي طالب لأنه كان تلاده.

ثم أمر بالناس في السنة التاسعة بعد الفتح وحنين والطائف أن يتهيأوا لغزو الروم فكانت غزوة تبوك، فبلغ تبوك وأتاه صاحب أيلة وجرباء وأذرح وأعطوا الجزية وصاحب أيلة يومئذ يوحنا بن رؤبة بن نفاثة أحد بطون جذام وأهدى له بغلة بيضاء، وبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل وكان بها أكيدر بن عبد الملك فأصابوه بضواحيها في ليلة مقمرة فأسروه وقتلوا أخاه وجاؤوا به إلى النبي ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية ورده إلى قريته. وأقام بتبوك بضع عشرة ليلة وقفل إلى المدينة وبلغ خبر يوحنا إلى هرقل فأمر بقتله وصلبه عند قريته اهـ عن غير ابن العميد.

ورجعنا إلى كلامه قال: وفي الثالثة عشرة من الهجرة جهز أبو بكر العساكر من المسلمين من العرب لفتح الشام: عمرو بن العاص لفلسطين، ويزيد بن أبي سفيان لحمص، وشرحبيل بن حسنة للبلقاء، وقائدهم أبو عبيدة بن الجراح. وبعث خالد بن سعيد بن العاصي إلى سماوة فلقيه ماهاب البطريق في جموع الروم، فهزمهم خالد إلى دمشق ونزل موضع الصفراء، ثم أخذوا عليه الطريق ونازلوه ثانية فتجهز إلى جهة المسلمين وقتل ابنه. وبعث أبو بكر خالد بن الوليد بالعراق يسير إلى الشام أميراً على المسلمين فسار ونزل معهم دمشق وفتحوها كما نذكر في الفتوحات. وزحف عمرو بن العاص إلى غيره ولقيته الروم هنالك فهزمهم وتحصنوا ببيت المقدس وقيسارية ثم زحف عساكر الروم من كل جانب في مائتين وأربعين ألفاً والمسلمون في بضع وثلاثين ألفاً، والتقوا باليرموك فانهزم الروم وقتل منهم من لا يحصى وذلك في الخامسة عشر من الهجرة. ثم تتابعت عليهم الهزائم ونازل أبو عبيدة وخالد بن الوليد حمص فصالحوهم على الجزية.

ثم سار خالد إلى قنسرين فلقيه مناس البطريق في جموع الروم فهزمهم، وقتل منهم خلق كثير وفتح قنسرين ودوخ البلاد، ثم سار عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة فحاصروا مدينة الرملة وجاء عمر بن الخطاب إلى الشام فعقد لأهل الرملة الصلح على الجزية وبعث عمراً وشرحبيل لحصار بيت المقدس فحاصروها، ولما أجهدهم البلاء طلبوا الصلح على أن يكون أمانهم من عمر نفسه، فحضر عندهم وكتب أمانهم ونصه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

من عمر بن الخطاب لأهل إيلياء أنهم آمنون على دمائهم وأولادهم ونسائهم وجميع كنائسهم لا تسكن ولا تهدم اهـ.

ودخل عمر بن الخطاب بيت المقدس وجاء كنيسة القمامة فجلس في صحنها، وحان وقت الصلاة فقال للبترك: أريد الصلاة، فقال له صل موضعك، فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً، فلما قضى صلاته قال للبترك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي وقالوا هنا صلى عمر، وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها. ثم قال للبترك أرني موضعاً أبني فيه مسجداً فقال: على

الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب، ووجد عليها ردماً كثيراً فشرع في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه، واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه، وأمر ببناء المسجد. ثم بعث عمرو بن العاص إلى مصر فحاصرها وأمده بالزبير بن العوام في أربعة آلاف من المسلمين فصالحهم المقوقس على الجزية، ثم سار إلى الإسكندرية فحاصرها وافتتحها.

وفي السابعة عشر من الهجرة جاء ملك الروم إلى حمص في جموع النصرانية وبها أبو عبيدة فهزمهم واستلحمهم، ورجع هرقل إلى أنطاكية، وقد استكمل المسلمون فتح فلسطين وطبرية والساحل كله. واستنفر العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام وقدم عليهم ماهاب البطريق وبعثه للقاء العرب، وكتب إلى عامله على دمشق منصور بن سرحون أن يمده بالأموال، وكان يحقد عليه نكبته من قبل، واستصفى ماله حين أفرج الفرج عن حصاره بالقسطنطينية لأول ولايته، فاعتذر العامل للبطريق عن المال وهون عليه أمر العرب.

فسار من دمشق للقائهم ونازلهم بجابية الخولان، ثم أتبعه العامل ببعض مال جهزه العساكر، وجاء العسكر ليلاً وأوقد المشاعل وضرب الطبول ونفخ البوقات، فظنهم الروم عسكر العرب جاؤوا من خلفهم وأنهم أحيط بهم، فأجفلوا وتساقطوا في الوادي وذهبوا طوائف إلى دمشق وغيرها من ممالك الروم، ولحق ماهاب بطور سيناء وترهب إلى أن هلك. وأتبع المسلمون الفل مع منصور إلى دمشق وحاصروها ستة أشهر فرقوا على أبوابها. ثم طلب منصور العامل الأمان للروم من خالد فأمنه، ودخل المدينة من الباب الشرقي، وتسامع الروم الذين بسائر الأبواب فهربوا وتركوها، ودخل منها الأمراء الآخرون عنوة ومنصور ينادي بأمان خالد، فاختلف المسلمون قليلاً ثم اتفقوا على أمان الروم الذين كانوا بالإسكندرية بعد أن افتتحها عمرو بن العاص ركبوا إليه البحر ووافوه بها.

ثم هلك هرقل لإحدى وعشرين من الهجرة ولإحدى وثلاثين من ملكه، فملك على الروم بقسطنطينية قسطنطين وقتله بعض نساء أبيه لستة أشهر من ملكه، وملك أخوه هرقل بن هرقل، ثم تشاءم به الروم فخلعوه وقتلوه وملكوا عليهم قسطنينوس بن قسطنطين، فملك ست عشرة سنة ومات لسابعة وثلاثين من الهجرة. وفي أيامه غزا معاوية بلاد الروم سنة أربع وعشرين وهو يومئذ أمير على الشام في خلافة عمر بن الخطاب، فدوخ البلاد وفتح منها مدناً كثيرة وقفل، ثم أغزى عساكر المسلمين إلى قبرص في البحر ففتح منها حصوناً وضرب الجزية على أهلها وذلك سنة سبع وعشرين.

وكان عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية كتب لبنيامين بطرك اليعاقبة بالأمان، فرجع بعد ثلاث عشرة من مغيبه، وكان ولاه هرقل في أول الهجرة كما قدمنا. وملك الفرس مصر والإسكندرية عشر سنين عند حصار قسطنطينية أيام هرقل، ثم غاب عن الكرسي عندما ملك الفرس وقدموا الملكية، وبقي غائباً ثلاث عشرة سنة أيام الفرس عشرة وثلاث من ملكة المسلمين، ثم أمنه عمرو بن العاص فعاد ثم مات في تاسعة وثلاثين من الهجرة، وخلفه في مكانه أغاثوا فملك سبع عشرة سنة.

ولما هلك قسطنينوس بن قسطنطين في سابعة وثلاثين من الهجرة كما قلناه ملك على الروم في القسطنطينية ابنه يوطيانوس فمكث اثنتي عشرة سنة وتوفي سنة خمسين، فملك بعده طيباريوس ومكث سبع سنين، وفي أيامه غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في عساكر المسلمين وحاصرها مدة ثم أفرج عنها، واستشهد أبو أيوب الأنصاري في حصارها ودفن في ساحتها، ولما قفل عنها توعدهم بتعطيل كنائسهم بالشام إن تعرضوا لقبره.

ثم قتل طيباريوس قيصر سنة ثمان وخمسين وملك أوغسطس قيصر، وفي أيام ولايته مات أغاثوا بطرك اليعاقبة القبط بإسكندرية وقدم مكانه يوحنا. ثم قتل أوغسطس قيصر ذبحه بعض عبيده سنة، وملك ابنه أصطفانيوس وكان لعهد عبد الملك بن مروان. وفي سنة خمس وستين من الهجرة زاد عبد الملك في المسجد الأقصى وأدخل الصخرة في الحرم. ثم خلع أصطفانيوس ثم ملك بعده لاون ومات سنة ثمان وسبعين، وملك طيباريوس سبع سنين ومات سنة ست وثمانين.

فملك سطيانوس وذلك في أيام الوليد بن عبد الملك، وهو الذي بنى مسجد بني أمية بدمشق، يقال إنه أنفق فيه أربعمائة صندوق في كل صندوق أربعمائة عشر ألف دينار، وكان فيه من جملة الفعلة اثنا عشر ألف مرخم، ويقال كانت فيه ستمائة سلسلة من الذهب لتعليق القناديل فكانت تغشى عيون الناظرين وتفتن المسلمين فأزالها عمر بن عبد العزيز وردها إلى بيت المال.

وكان الوليد لما اعتزم على الزيادة في المسجد أمر بهدم كنيسة النصارى وكانت ملاصقة للمسجد فأدخلها فيه، وهي معروفة عندهم بكنيسة مار يوحنا، ويقال إن عبد الملك طلبهم في ذلك فامتنعوا، وإن الوليد بذل لهم فيها أربعين ألف دينار فلم يقبلوا، فهدمها ولم يعطهم شيئاً، وشكوا أمرها إلى عمر بن عبد العزيز وجاؤوا بكتاب خالد بن الوليد وعهده أن لا تخرب

كنائسهم ولا تسكن، فراودهم على أخذ الأربعين ألفاً التي بذل لهم الوليد فأبوا، فأمر أن ترد عليهم فعظم ذلك على الناس، وكان قاضيه أبو إدريس الخولاني فقال لهم: تتركون هذه الكنيسة في الكنائس التي في العنوة في المدينة وإلا هدمناها، فأذعنوا وكتب لهم عمر الأمان على ما بقي من كنائسهم.

وفي سنة ست وسبعين بعث كاتب الخراج إلى سليمان بن عبد الملك بأن مقياس حلوان بطل فأمر ببناء مقياس في الجزيرة بين الفسطاط والجزيرة فهو لهذا العهد وفي سنة إحدى ومائة من الهجرة ملك تداوس على الروم سنة ونصفاً، ثم ملك بعده لاون أربعاً وعشرين سنة، وبعده ابنه قسطنطين. وفي سنة ثلاث عشرة ومائة غزا هشام بن عبد الملك الصائفة اليسرى، وأخوه سليمان الصائفة اليمنى، ولقيهم قسطنطين في جموع الروم فانهزموا وأخذ أسيراً ثم أطلقوه بعد.

وفي أيام مروان بن محمد وولاية موسى بن نصير لقي النصارى بالإسكندرية ومصر شدة وأخذوا بغرامة المال واعتقل بطرك الإسكندرية أبي ميخايل، وطلب بجملة من المال فبذلوا موجودهم وانطلقوا يستسعون ما يحصل لهم من الصدقة، وبلغ ملك النوبة ما حل بهم فزحف في مائة ألف من العساكر إلى مصر، فخرج إليه عامل مصر، فرجع من غير قتال. وفي أيام هشام ردت كنائس الملكية من أيدي اليعاقبة، وولي عليهم بطرك قريباً من مائة سنة، كانت رياسة البطرك فيها لليعاقبة وكانوا يبعثون الأساقفة للنواحي، ثم صارت النوبة من ورائهم للحبشة يعاقبة.

ثم ملك بالقسطنطينية رجل من غير بيت الملك اسمه جرجس، فبقي أيام السفاح والمنصور وأمره مضطرب، ثم مات وملك بعده قسطنطين بن لاون وبنى المدن وأسكنها أهل أرمينية وغيرها. ثم مات قسطنطين بن لاون وملك ابنه لاون، ثم هلك لاون وملك بعده نقفور وفي سنة سبع وثمانين ومائة غزا الرشيد هرقلة ودوخ جهاتها، وصالحه نقفور ملك الروم على الجزية فرجع إلى الرقة وأقام شاتياً وقد كلب البرد، وأمن نقفور من رجوعهم فانتقض، فعاد إليه الرشيد وأناخ عليه حتى قرر الموادعة والجزية عليه ورجع. ودخلت عساكر الصائفة بعدها من درب الصفصاف فدوخوا أرض الروم، وجمع نقفور ولقيهم فكانت عليه هزيمة شنعاء قتل فيها أربعون ألفا ونجا نقفور جريحاً.

وفي سنة تسعين ومائة دخل الرشيد بالصائفة إلى بلاد الروم في مائة وخمسة وثلاثين ألفاً سوى المطوعة، وبث السرايا في الجهات، وأناخ على هرقلة ففتحها، وبلغ سبيها ستة عشر ألفاً. وبعث نقفور بالجزية فقبل وشرط عليهم أن لا يعمر هرقلة وهلك نقفور في خلافة الأمين وولي ابنه أستبران قيصر، وغزا المأمون سنة خمس عشرة ومائتين إلى بلاد الروم ففتح حصوناً عدة ورجع إلى دمشق. ثم بلغه أن ملك الروم غزا طرسوس والمصيصة وقتل منها نحواً من ألف وستمائة رجل، فرجع وأناخ على أنطواغوا حتى فتحها صلحاً، وبعث المعتصم ففتح ثلاثين من حصون الروم، وبعث يحيى بن أكثم بالعساكر فدوخ أرضهم، ورجع المأمون إلى دمشق. ثم دخل بلاد الروم وأناخ على مدينة لؤلؤة مائة يوم وجهز إليها العساكر مع عجيف مولاه، ورجع ملك الروم فنازل عجيفاً، فأمده المأمون بالعسكر فرحل عنه ملك الروم وافتتح لؤلؤة صلحاً.

ثم سار المأمون إلى بلاد الروم ففتح سلغوس والبروة وبعث ابنه العباس بالعساكر فدوخ أرضهم وبنى مدينة الطولية ميلاً في ميل وجعل لها أربعة أبواب. ثم دخل غازياً بلاد الروم ومات في غزاته سنة ثمان عشرة ومائتين. وفي أيامه غلب قسطنطين على مملكة الروم وطرد ابن نقفور عنها، وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين فتح المعتصم عمورية وقصتها معروفة في أخباره. اهـ كلام ابن العميد. وأغفلنا من كلامه أخبار البطاركة من لدن فتح الإسكندرية لأنا رأيناه مستغنى عنه وقد صارت بطركيتهم الكبرى التي كانت بالإسكندرية بمدينة رومة، وهي هنالك للملكية ويسمونه البابا ومعناه أبو الآباء، وبقي ببلاد مصر بطرك اليعاقبة على المعاهدين من النصارى بتلك الجهات وعلى ملوك النوبة والحبشة.

وأما المسعودي فذكر ترتيب هؤلاء القياصرة من بعد الهجرة والفتح كما ذكره ابن العميد، قال: والمشهور بين الناس أن الهجرة وأيام الشيخين كان ملك الروم فيها لهرقل، قال: وفي كتب أهل السير أن الهجرة كانت على عهد قيصر بن مورق، ثم كان بعده ابنه قيصر بن قيصر أيام أبي بكر، ثم هرقل بن قيصر أيام عمر، وعليه كان الفتح وهو المخرج من الشام أيام أبي عبيدة وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان فاستقر بالقسطنطينية. وبعده مورق بن هرقل أيام عثمان، وبعده مورق بن مورق أيام علي ومعاوية، وبعده قلفط بن مورق آخر أيام معاوية وأيام يزيد ومروان بن الحكم وكان معاوية يراسله ويراسل أباه مورق، وكانت تختلف إليه علامة نياق وبشره مورق بالملك وأخبره أن عثمان يقتل وأن الأمر يرجع إلى معاوية، وهادى ابنه قلفط حين سار إلى حرب علي رضي الله عنه، ثم نزلت جيوش معاوية مع ابنه اليزيد قسطنطينية وهلك عليها في حصاره أبو أيوب الأنصاري.

ثم ملك من بعد قلفط بن مروق لاون بن قلفط أيام عبد

الملك بن مروان، وبعده جيرون بن لاون أيام الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز. ثم غشيهم المسلمون في ديارهم وغزوهم في البر والبحر، ونازل مسلمة القسطنطينية، واضطرب ملك الروم وملك عليهم جرجيس بن مرعش وملك تسع عشرة سنة ولم يكن من بيت الملك. ولم يزل أمرهم مضطرباً إلى أن ملك عليهم قسطنطين بن أليون وكانت أمه مستبدة عليه لمكان صغره، ومن بعده نقفور بن استبراق أيام الرشيد وكانت له معه حروب وغزاه الرشيد فأعطاه الانقياد ودفع إليه الجزية، ثم نقض العهد فتجهز الرشيد إلى غزوه ونزل هرقلة وافتتحها سنة تسعين ومائة وكانت من أعظم مدائن الروم، وانقاد نقفور بعد ذلك وحمل الشروط.

وملك بعده استبراق بن نقفور أيام الأمين، وغلب عليه قسطنطين بن قلفط وملك أيام المأمون، وبعده نوفيل أيام المعتصم واسترد زبطرة ونازل عمورية وافتتحها وقتل من كان بها من أمم النصرانية. ثم ملك ميخائيل بن نوفيل أيام الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين، ثم تنازع الروم وملكوا عليهم نوفيل بن ميخاييل، ثم غلب على الملك بسيل الصقلبي ولم يكن من بيت الملك وكان ملكه أيام المعتز والمهتدي وبعضاً من أيام المعتمد، ومن بعده إليون بن بسيل بقية أيام المعتمد وصدراً من أيام المعتضد. ومن بعده الإسكندروس ونقموا سيرته فخلعوه وملكوا أخاه لاوي بن إليون بقية أيام المعتضد والمكتفي وصدرا من أيام المقتدر.

ثم هلك وملك ابنه قسطنطين صغيراً وقام بأمره ارمنوس بطريق البحر وزوجه ابنته ويسمى الدمستق وهو الذي كان يحارب سيف الدولة ملك الشام من بني حمدان، واتصل ذلك أيام المقتدر والقاهر والراضي والمتقي. وافترق أمر الروم وأقام بعض بطارقتهم ويعرف أستفانوس في بعض النواحي وخوطب بالملك ارمنوس بطركاً بكرسي القسطنطينية. إلى هنا انتهى كلام المسعودي. وقال عقبه: فجميع سني الروم المتنصرة من أيام قسطنطين بن هلانة إلى عصرنا وهو حدود الثلثمائة والثلاثين للهجرة خمسمائة سنة وسبع سنين، وعدد ملوكهم أحد وأربعون ملكاً، قال: فيكون ملكهم إلى الهجرة مائة وخمساً وسبعين سنة. اهـ كلام المسعودي.

وفي تاريخ ابن الأثير: إن أرمانوس لما مات ترك ولدين صغيرين، وكان الدمستق على عهده قوقاش وملك ملطية من يد المسلمين بالأمان سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة وكان أمر الثغور لسيف الدولة بن حمدان، وملك قوقاش مرعش وعرزربة وحصونهما وأوقع بجابية طرسوس مراراً، وسار سيف الدولة في بلادهم فبلغ خرشنة وصارخة ودوخ البلاد وفتح حصوناً عدة ثم رجع. ثم ولى أرمانوس نقفور دمستقاً. واسم الدمستق عندهم على من يلي شرقي الخليج حيث ملك ابن عثمان لهذا العهد، فأقام نقفور دمستقاً.

وهلك أرمانوس وترك ولدين صغيرين، وكان نقفور غائباً في بلاد المسلمين فلما رجع اجتمع إليه زعماء الروم وقدموه لتدبير أمر الولدين والبسوه التاج، وسار إلى بلاد المسلمين سنة إحدى وخمسين وثلثمائة إلى حلب فهزم سيف الدولة وملك البلد وحاصر القلعة فامتنعت عليه، وقتل ابن أخت الملك في حصارها فقتل جميع الأسرى الذين عنده ثم بنى سنة ست وخمسين مدينة بقيسارية ليجلب منها على بلاد الإسلام، فخافه أهل طرسوس واستأمنوا إليه فسار إليهم وملكها بالأمان وملك المصيصة عنوة. ثم بعث أخاه في العساكر سنة تسع وخمسين إلى حلب فملكها، وهرب أبو المعالي بن سيف الدولة إلى البرية، وصالحه مرعويه بعد أن امتنع بالقلعة ورجع.

ثم إن أم الملكين ابني أرمانوس اللذين كانا مكفولين له، استوحشت منه وداخلت في قتله ابن الشميشق فقتله سنة ستين. وقام ابن أرمانوس الأكبر وهو بسيل بتدبير ملكه، وجعل ابن الشميشق دمستقاً وقام على الأورق أخي نقفور، وعلى ابنه ورديس بن لاون واعتقلهما. وسار إلى الرها وميافارقين، وعاث في نواحيهما، وصانعه أبو تغلب بن حمدان صاحب الموصل بالمال فرجع. ثم خرج سنة اثنتين وستين، فبعث أبو تغلب ابن عمه أبا عبد الله بن حمدان فهزمه وأسره وأطلقه. وكان لأم بسيل أخ قام بوزارتها فتحيل في قتل ابن الشميشق بالسم.ثم ولى بسيل بن أرمانوس سقلاروس دمستقاً، فعصى عليه سنة خمس وستين وطلب الملك لنفسه، وغلبه بسيل.

ثم خرج على بسيل ورد بن منير من عظماء البطاركة، واستجاش بأبي تغلب بن حمدان وملكوا الأطراف، وهزم عساكر بسيل مرة بعد مرة، فأطلق ورديس لاون وهو ابن أخي نقفور من معقله وبعثه في العساكر لقتاله فهزمه ورديس، ولحق ورد بن منير بميافارقين صريخاً بعضد الدولة، وراسله بسيل في شأنه فجنح عضد الدولة إلى بسيل وقبض على ورديس واعتقله ببغداد، ثم أطلقه ابنه صمصام الدولة لخمس سنين من اعتقاله، وشرط عليه إطلاق أسرى المسلمين، والنزول عن حصون عدة من معاقل الروم، وأن لا يغير على بلاد الإسلام. وسار فاستولى على ملطية ومضى إلى القسطنطينية فحاصرها وقتل ورديس بن لاون، واستنجد بسيل بملك الروم وزوجه أخته ثم صالح ورداً على ما بيده.

ثم هلك ورد بعد ذلك بقليل واستولى بسيل على أمره وسار إلى قتال البلغار فهزمهم وملك بلادهم وعاث فيها أربعين

سنة. واستمده صاحب حلب أبو الفضائل بن سيف الدولة، فلما زحف إليه منجوتكين صاحب دمشق من قبل الخليفة بمصر سنة إحدى وثمانين، فجاء بسيل لمدده وهزمه منجوتكين ورجع مهزوماً ورجع منجوتكين إلى دمشق، ثم عاودوا الحصار فجاء بسيل صريخاً لأبي الفضل فأجفل منجوتكين من مكانه على حلب، وسار إلى حمص وشيزر فملكها وحاصر طرابلس، وصالحه ابن مروان على ديار بكر. ثم بعث الدوقس الدمستق إلى أمامه فبعث إليه صاحب مصر أبا عبد اللّه بن ناصر الدولة بن حمدان في العساكر فهزمه وقتله.

ثم هلك بسيل سنة عشر وأربعمائة لنيف وسبعين من ملكه وملك بعده أخوه قسطنطين وأقام تسعاً ثم هلك عن ثلاث بنات، فملك الروم عليهم الكبرى منهن وأقام بأمرها ابن خالها أرمانوس وتزوجت به فاستولى على مملكة الروم. وكان خاله ميخاييل متحكماً في دولته ومداخلاً لأهله فمالت إليه الملكة وحملته على قتل أرمانوس، فقتله واستولى على الأمر. ثم أصابه الصرع وأذاه فعمد لابن أخته واسمه ميخاييل أيضاً وكان أرمانوس قد خرج سنة إحدى وعشرين إلى حلب في ثلاثة آلاف مقاتل، ثم خار عن اللقاء فاضطرب ورجع واتبعه العرب فنهبوا عساكره، وكان معه ابن الدوقس من عظماء البطارقة فارتاب وقبض عليه. وخرج سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة في جموع الروم فملك الرها وسروج وهزم عساكر ابن مروان.

ولما ملك ميخاييل سار إلى بلاد الإسلام فلقيه الدربري صاحب الشام من قبل العلوية فهزمه واقتصر الروم بعدها عن الخروج إلى بلاد الإسلام. وملك ميخاييل ابن أخته كما قلناه وقبض على أخواله وقرابتهم وأحسن السيرة في المملكة، ثم طلب زوجته في الخلع فأبت، فنفاها إلى بعض الجزائر واستولى على المملكة سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة. ونكر عليه البترك ما وقع فيه فهم بقتله ودخل بعض حاشيته في ذلك، ونمى الخبر إلى البترك فنادى في النصرانية بخلعه وحاصره في قصره واستدعى الملكة التي خلعها ميخاييل من مكانها وأعادوها إلى الملك فنفت ميخاييل كما نفاها أولاً.

ثم اتفق البترك والروم على خلع الملكة بنت قسطنطين وملكوا أختها الأخرى تودورة وسلموا ميخاييل لها، ثم وقعت الفتنة بين شيعة تودورة وشيعة ميخاييل واتصلت، وطلب الروم أن يملكوا عليهم من يمحو هذه الفتنة وأقرعوا على المرشحين فخرجت القرعة على قسطنطين منهم فملكوه أمرهم، وتزوج بالملكة الصغيرة تودورة وجعلت أختها الكبرى على ما بذلته لها وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

ثم توفي قسطنطين سنة ست وأربعين، وملك على الروم أرمانوس وقارن ذلك بظهور الدولة السلجوقية واستيلاء طغرلبك على بغداد، فردد الغزو إليهم من ناحية أذربيجان، ثم سار ابنه الملك ألبارسلان وملك مدناً من بلاد الكرج منها مدينة آي وأثخن في بلادهم. ثم سار ملك الروم إلى منبج وهزم ابن مرداس وابن حسان وجموع العرب، فسار ألبارسلان إليه سنة ثلاث وستين وخرج أرمانوس في مائتي ألف من الروم والدوس والكرج ونزل على نواحي أرمينية، فزحف إليه ألبارسلان من أذربيجان فهزمه وحصل في أسره ثم فاداه على مال يعطيه وأجروه عليه وعقد معه صلحاً. وكان أرمانوس لما انهزم وثب ميخاييل بعده على مملكة الروم، فلما انطلق من الأسر ورجع دفعه ميخاييل عن الملك والتزم أحكام الصلح الذي عقده مع ألبارسلان وترهب أرمانوس إلى هنا انتهى كلام ابن الأثير.

ثم استفحل ملك الإفرنج بعد ذلك واستبدوا بملك رومة وما وراءها، وكان الروم لما أخذوا بدين النصرانية حملوا عليه الأمم المجاورين لهم طوعاً وكرهاً، فدخل فيه طوائف من الأمم منهم الأرمن وقد تقدم نسبهم إلى ناحور أخي إبراهيم عليه السلام وبلدهم أرمينية وقاعدتها خلاط، ومنهم الكرج وهم من شعوب الروم وبلادهم الخزر ما بين أرمينية والقسطنطينية شمالاً في جبال ممتنعة، ومنه الجركس في جبال بالعدوة والشرقية من بحر نيطش وهم من شعوب الترك، ومنهم الروس في جزائر ببحر نيطش وفي عدوته الشمالية ومنهم البلغار نسبة إلى مدينة لهم في العدوة الشمالية أيضاً من بحر نيطش، ومنهم البرجان أمة كبيرة متوغلون في الشمال لا تعرف أخبارهم لبعدها.

وهؤلاء كلهم من شعوب الترك وأعظم من أخذ به من الأمم الإفرنج وقاعدة بلادهم فرنجة، ويقولون فرنسة بالسين وملكهم الفرنسيس، وهم في بسائط على عدوة البحر الرومي من شماليه وجزيرة الأندلس من ورائهم في المغرب تفصل بينهم وبينها جبال متوعرة ذات مسالك ضيقة يسمونها البون وساكنها الجلالقة من شعوب الإفرنج، وهؤلاء فرنسة أعظم ملوك الإفرنجة بالعدوة الشمالية من هذا البحر، واستولوا على الجزيرة البحرية منه على صقلية وقبرص وأقريطش وجنوة، واستولوا أيضاً على قطعة من بلاد الأندلس إلى برشلونة، واستفحل ملكهم بعد القياصرة الأول.

ومن أمم الإفرنجة البنادقة وبلادهم حفافي خليج يخرج من بحر الروم متضايقاً إلى ناحية الشمال ومغرباً بعض الشيء على سبعمائة ميل من البحر وهذا الخليج مقابل لخليج القسطنطينية.

وفي القرب منه وعلى ثمان مراحل من بلاده جنوة، ومن ورائها مدينة رومة حاضرة الإفرنجة ومدينة ملكهم وبها كرسي البطرك الأكبر الذي يسمونه البابا. ومن أمم الإفرنجة الجلالقة وبلادهم الأندلس وهؤلاء كلهم دخلوا في دين النصرانية تبعاً للروم إلى من دخل فيهم منهم من أمم السودان والحبشة والنوبة، ومن كان على ملكة الروم من برابرة العدوة بالمغرب مثل نفزاوة وهوارة بأفريقية والمصامدة بالمغرب الأقصى، واستفحل ملك الروم ودين النصرانية.

ولما جاء اللّه بالإسلام وغلب دينه على الأديان وكانت مملكة الروم قد انتشرت في حفافي البحر الرومي من عدوتيه، فانتزعوا منهم لأول أمرهم عدوته الجنوبية كلها من الشام ومصر وأفريقية والمغرب وأجازوا من خليج طنجة فملكوا الأندلس كلها من يد القوط والجلالقة وضعف أمر الروم وملكهم بعد الانتهاء إلى غايته شأن كل أمة. ثم شغل الإفرنجة بما دهمهم من العرب في الأندلس والجزائر بما كانوا يتخيمونهم ويرددون الصوائف إلى بسائطهم أيام عبد الرحمن الداخل وبنيه بالأندلس، وعبد اللّه الشيعي وبنيه بأفريقية. وملكوا عليهم جزائر البحر الرومي التي كانت لهم صقلية وميورقة ودانية وأخواتها، إلى أن فشل ريح الدولتين وضعف ملك العرب، فاستفحل الإفرنجة ورجعت لهم واسترجعوا ما ملكه المسلمون إلا قليلاً بسيف البحر الرومي مضائق العرض في طول أربع عشرة مرحلة واستولوا على جزائر البحر كلها.

ثم سموا إلى ملك الشام وبيت المقدس مسجد أنبيائهم ومطلع دينهم فسربوا إليه آخر المائة الخامسة، وتواثبوا على الأمصار والحصون وسواحله. ويقال: إن المستنصر العبيدي هو الذي دعاهم لذلك وحرضهم عليه لما رجا فيه من اشتغال ملك السلجوقية بأمرهم، وإقامتهم سداً بينه وبينهم عندما سموا إلى ملك الشام ومصر. وكان ملك الإفرنجة يومئذ اسمه بردويل وصهره روجيه ملك صقلية من أهل طاعته، فتظاهروا على ذلك وساروا إلى القسطنطينية سنة إحدى وتسعين ليجعلوها طريقاً إلى الشام، فمنعهم ملك الروم يومئذ ثم أجازهم على أن يعطوه ملطية إذا ملكوها فقبلوا شرطه. ثم ساروا إلى بلاد ابن قلطمش، وقد استولى يومئذ على مرية وأعمالها وأرزن الروم وأقصر وسيواس.

افتتح تلك الأعمال كلها عند هبوب ريح قومه على السلجوقية، ثم حدثت الفتنة بينهم وبين الروم بالقسطنطينية، واستنجد كل منهم بملوك المسلمين في ثغور الشام والجزيرة، وعظمت الفتن في تلك الآفاق ودامت الحال على ذلك نحواً من مائة سنة وملك الروم بالقسطنطينية في تناقص واضمحلال. وكان روجيه صاحب صقلية يغزو القسطنطينية من البحر ويأخذ ما يجد في مرساها من سفن التجار وشواني المدينة، ولقد دخل جرجي بن ميخاييل صاحب أسطوله إلى ميناء القسطنطينية سنة أربع وأربعين وخمسمائة ورمى قصر الملك بالسهام، فكانت تلك أنكى على الروم من كل ناحية.

ثم كان استيلاء الإفرنج على القسطنطينية آخر المائة السادسة وكان من خبرها أن ملك الروم بالقسطنطينية أصهر إلى الفرنسيس عظيم ملوك الإفرنج في أخته فزوجها له الفرنسيس وكان له منها ابن ذكر، ثم وثب بملك الروم أخوه فسمله وملك القسطنطينية مكانه. ولحق الابن بخاله الفرنسيس صريخاً به على عمه فوجده قد جهز الأساطيل لارتجاع بيت المقدس، واجتمع فيها ثلاثة من ملوك الإفرنجة بعساكرهم: دوقس البنادقة صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه كان ركوبهم، وكان شيخاً أعمى نقاداً ذا ركب والمركس مقدم الفرنسيس وكيدفليد وهو أكبرهم، فأمر الفرنسيس بالجواز على القسطنطينية ليصلحوا بين ابن أخته وبين عمه ملك الروم، فلما وصلوا إلى مرسى القسطنطينية، خرج عمه وحاربهم فهزموه ودخلوا البلد وهرب إلى أطراف البلد وقتل حاضروه وأضرموا النار في البلد، فاشتغل الناس بها وأدخل الصبي بشيعته، فدخل الإفرنج معه وملكوا البلد وأجلسوا الصبي في ملكه وساء أثرهم في البلد، صادروا أهل النعم وأخذوا أموال الكنائس، وثقلت وطأتهم على الروم فعقلوا الصبي وأخرجوهم واستدعوا ملكهم عم الصبي من مكان مقره وملكوه عليهم.

وحاصرهم الإفرنج فاستنجد بسليمان بن قليج أرسلان صاحب قونية وبلاد الروم شرقي الخليج، وكان في البلد خلق من الإفرنج، فقبل أن يصل سليمان ثاروا فيها وأضرموا النيران حتى شغل بها الناس، وفتحوا الأبواب فدخل الإفرنج واستباحوا ثمانية أيام حتى أقفرت، واعتصم الروم بالكنيسة العظمى منها وهي صوفيا. ثم خرجت جماعة القسيسين والأساقفة والرهبان، في أيديهم الإنجيل والصلبان فقتلوهم أجمعين، ولم يراعوا لهم ذمة ولا عهداً، ثم خلعوا الصبي واقترعوا ثلاثتهم على الملك فخرجت القرعة على كيدفليد كبيرهم فملكوه على القسطنطينية وما يجاورها، وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل أقريطش ورودس وغيرهما، وللمركيس مقدم الفرنسيس البلاد التي في شرقي الخليج. ثم تغلب عليهم بطريق من بطارقة الروم اسمه لسكري ودفع عنها الإفرنج وبقيت بيده واستولى بعدها على

القسطنطينية، وكان اسمه ميخاييل.

وفي كتاب المؤيد صاحب حماة أنه أقام ببعض الحصون ثم بنيت القسطنطينية وملكها وفر الإفرنج في مراكبهم وملك الروم وقتل الذي كان ملكاً قبله، وتوفي سنة إحدى وثمانين وستمائة وعقد معه الصلح المنصور قلاون صاحب مصر والشام لذلك العهد، قال: وملك بعده ابنه ماند ويلقب الدوقس وشهرتهم جميعاً اللسكري ثم انقرضت دولة بني قليج أرسلان، وملك أعمالهم التتر كما نذكر في أخبارهم، وبقي بني اللسكري ملوكاً على القسطنطينية إلى هذا العهد، وملك شرقي الخليج بعد انقضاء دولة التتر من بلاد الروم ابن عثمان جق أمير التركمان، وهو الآن متحكم على صاحب القسطنطينية ومتغلب على نواحيه من سائر جهاته. وهذا ما بلغنا من أخبار الروم من أول دولتهم منذ يونان والقياصرة لهذا العهد. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن القوط وما كان لهم من الملك بالأندلس إلى حين الفتح الإسلامي وأولية ذلك ومصايره

هذه الأمة من أمم أهل الدولة العظيمة المعاصرة لدول الطبقة الثانية من العرب وقد ذكرناهم عقب اللطينيين لأن الملك صار إليهم من بينهم كما ذكرناه، وسياقه الخبر عنهم أنهم كانوا يعرفون في الزمن القديم بالسيسيين نسبة إلى الأرض التي كانوا يعمرونها بالمشرق فيما بين الفرس واليونان، وهم في نسبهم إخوة الصين من ولد ماغوغ بن يافث، وكانت لهم مع الملوك السريانيين حروب موصوفة زحف إليهم فيها مومن مالي ملك سريان فدافعوه لعهد إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم كانت لهم حروب مع الفرس عند تخريب بيت المقدس وبناء رومة.

ثم غلبهم الإسكندر وصاروا في ملكته واندرجوا في قبائل الروم ويونان. ثم لما ضعف أمر الروم بعد الإسكندر وتغلبوا على بلاد الغريقيين ومقدونية ونبطة أيام غلينوش بن بارايان من ملوك القياصرة وكانت بينه وبينه حروب سجال، ثم غلبهم القياصرة من بعده وظفروا بهم، حتى إذا انتقل القياصرة إلى القسطنطينية وفشل أمرهم برومة زحف إليها هؤلاء القوط واقتحموها عنوة فاستباحوها. ثم خرجوا عنها أيام طودوسيوس بن أركاديوس بعد حروب كثيرة، وكان أميرهم لذلك العهد أنطرك كما ذكرناه، ومات لعهد طودوسيوس وأرادوا أن يجعل اسمه سمة الملوك برومة منهم مكان سمة قيصر، فاختلف عليه أصحابه في ذلك فرجع عنه.

ثم صالح الرومانيين على أن يكون له ما يفتح من بلاد الأندلس لما كان أمر الرومانيين قد ضعف عن الأندلس ولحق بها ثلاث طوائف من الغريقيين فاقتسموا ملكها وهم الأبيون والشوانيون والفندلس وباسم فندلس سميت الأندلس، وكان بالأندلس من قبلهم الأرباريون من ولد طوال بن يافث وهم أخوة الأنطاليس، سكنوها من بعد الطوفان وصاروا إلى طاعة أهل رومة، حتى دخل إليهم هؤلاء الطوالع من الغريقيين عندما اقتحم القوط مدينة رومة وغلبوا الأمم الذين كانوا بها من ولد طوال.

وقد يقال: إن هؤلاء الطوالع كلهم من ولد طوال بن يافث وليسوا من الغريقيين، واقتسم هؤلاء الطوالع ملكها وكانت جلقية لفندلس ولشبونة ومساردة وطليطلة ومرسية لشوانش وكانوا أشرافهم. وكانت إشبيلية وقرطبة وجيان وطالعة للأنبيق وأميرهم عند ريقش أخو لشيقش أربعين سنة حين زحف إليهم القوط من رومة، وكان قد ولي عليهم بعد اطفانش ملك آخر منهم اسمه طشريك وقتله الرومانيون، وولي مكانه منهم ماستة ثلاث سنين وزوج أخته من طودوسيوس ملك الرومانيين وصالحه على أن يكون له ما يفتحه من الأندلس.

ثم مات وولي مكانه لزريق ثلاث عشرة سنة وهو الذي زحف إلى الأندلس وقتل ملوكها وطرد الطوائف الذين كانوا بها فأجازوا إلى طنجة وتغلبوا على بلاد البربر وصرفوا البربر الذين كانوا بالعدوة عن طاعة القسطنطين إلى طاعتهم، فلم يزالسوا على ذلك إلى دولة يستنيانوس نحواً من ثمانين سنة، ثم هلك طوريق ملك القوط بالأندلس وولي مكانه (......) سبع عشرة سنة، وانتقض عليه البسكتس إحدى طوائف القوط فزحف إليهم وردهم إلى طاعته ثم هلك وولي بعده الديك ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت الإفرنج لعهده قد طمعوا في ملك الأندلس وأن يغلبوا عليها القوط، فجمعوا لهم وملكوا على أنفسهم منهم، فزحف إليهم الديك في أمم القوط إلى أن توغل في بلاد الإفرنج فغلبوه وقتلوه وعامة أصحابه.

وكانت القوط قبل دخولهم إلى الأندلس فرقتين كما ذكرنا في دولة بلنسيان بن قسطنطين من القياصرة المتنصرة، وكانت إحدى الفرقتين قد أقامت بمكانها من نواحي رومة فلما بلغهم خبر الديك صاحب الأندلس منهم امتعضوا لذلك، وكان أميرهم طورديك منهم، فزحف إلى الإفرنج وغلبهم على ما كانوا يملكونه من الأندلس، ودخل القوط الذين كانوا بالأندلس في طاعته فولي

عليهم ابنه أشتريك ورجع إلى مكانه من نواحي رومة، فزحف الإفرنج إلى محاربة أشتريك حتى غلبوه على طلوسة من ناحيتهم.

وهلك أشتريك بعد خمس سنين من ملكه وولي عليهم بعده بشليقش أربع سنين، ثم بعده طودريق إحدى وستين سنة وقتله بعض أصحابه بأشبيلية، وولي بعده أبرليق خمس سنين، وبعده طودس ثلاث عشرة سنة، وبعده طودشكل سنتين، وبعده أيلة خمس سنين وانتقض عليه أهل قرطبة فحاربهم وتغلب عليهم. وبعده طنجاد خمس عشرة سنة، وبعده ليولة سنة واحدة، وبعده لوبليدة ثماني عشرة سنة وانتقضت عليه الأطراف فحاربهم وسكنهم ونكر عليه النصارى تثليث أريش وراودوه على الأخذ بتوحيدهم الذين يزعمونه فأبى وحاربهم فقتل. وولي ابنه زدريق ست عشرة سنة ورجع إلى توحيد النصارى بزعمهم وهو الذي بنى البلاد المنسوبة إليه بقرطبة.

ولما هلك ولي بعده على القوط ليوبة سنتين، وبعده تبديقا عندمار سنتين، وبعده شيشوط ثماني سنين وعلى عهده كان هرقل ملك قسطنطينية والشام، ولعهده كانت الهجرة، وهلك شيشوط ملك القوط وولي بعده زدريق آخر منهم ثلاثة أشهر، وبعده شتله ثلاث سنين، وبعده سنشادش خمس سنين، وبعده خنشوند سبع سنين، وبعده وجنشوند ثلاثاً وعشرين سنة، ولهذه العصور ابتدأ ضعف الأحكام للقوط. وبعده مانيه ثمان سنين، وبعده لوري ثمان سنين، وبعده إيقه ست عشرة سنة، وبعده غطسة أربع عشرة سنة وهو الذي وقع من قصته مع ابنه يليان عامل طنجة ما وقع. ثم بعده زدريق سنتين وهو الذي دخل عليه المسلمون وغلبوه على ملك القوط وملكوا الأندلس، ولذلك العهد كان الوليد بن عبد الملك حسبما نذكره عند فتح الأندلس إن شاء اللّه تعالى، هذه سياقة الخبر عن هؤلاء القوط نقلته من كلام هروشيوش وهو أصح ما رأيناه في ذلك واللّه سبحانه وتعالى الموفق المعين بفضله وكرمه لا رب غيره ولا مأمول إلا خيره.

الطبقة الثالثة من العرب وهم العرب التابعة للعرب وذكر أفاريقهم وأنسابهم وممالكهم وما كان لهم من الدول على اختلافها والبادية والرحالة منهم وملكها

هذه الأمة من العرب البادية أهل الخيام الذين لا أغلاق لهم لم يزالوا من أعظم أمم العالم وأكثر أجيال الخليقة، يكثرون الأمم تارة وينتهي إليهم العز والغلبة بالكثرة فيظفرون بالملك ويغلبون على الأقاليم والمدن والأمصار، ثم يهلكهم الترفه والتنعم ويغلبون عليهم ويقتلون ويرجعون إلى باديتهم، وقد هلك المتصدرون منهم للرياسة بما باشروه من الترف ونضارة العيش وتصيير الأمر لغيرهم من أولئك المبعدين عنهم بعد عصور أخرى. هكذا سنة اللّه في خلقه وللبادية منهم مع من يجاورهم من الأمم حروب ووقائع في كل عصر وجيل بما تركوا من طلب المعاش، وجعلوا طلب المعاش رزقهم في معاشهم بترصد السبيل وانتهاب متاع الناس، ولما استفحل الملك للعرب في الطبقة الأولى للعمالقة، وفي الثانية للتبابعة، وكان ذلك عن كثرتهم فكانوا متشرين لذلك العهد باليمن والحجاز ثم بالعراق والشام، فلما تقلص ملكهم وكانوا بالعراق منهم بقية أقاموا ضاحين من ظل الملك. يقال في مبدأ كونهم هنالك أن بختنصر لما سلطه اللّه على العرب وعلى بني إسرائيل بما كانوا من بغيهم وقتلهم الأنبياء، قتل أهل الوبر بناحية عدن اليمن نبيهم شعيب بن ذي مهدم على ما وقع في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾. فأوحى اللّه إلى إرمياء بن حزقيا وبزخيا أن يسيرا بختنصر إلى العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم أن يقتل ولا يستحي ويستلحمهم أجمعين ولا يبقي منهم أثراً، وقال بختنصر: وأنا رأيت مثل ذلك. وسار إلى العرب، وقد نظم ما بين أيلة والأبلة خيلاً ورجلاً، وتسامع العرب بأقطار جزيرتهم واجتمعوا للقائه، فهزم عدنان أولاً ثم استلحم الباقين ورجع إلى بابل، وجمع السبايا فأنزلهم بالأنبار ثم خالطهم بعد ذلك النبطة.

وقال ابن الكلبي: إن بختنصر لما نادى بغزو العرب افتتح أمره بالقبض على من كان في بلاده من تجارهم للميرة وأنزلهم الحيرة، ثم خرج إليهم في العساكر فرجعت قبائل منهم إليه آثروا الإذعان والمسالمة، وأنزلهم بالسواد على شاطئ الفرات، وابتنوا موضع عسكرهم وسموه الأنبار، ثم أنزلهم الحيرة فسكنوها سائر أيامه ورجعوا إلى الأنبار بعد مهلكه.

قال الطبري: إن تبعاً أبا كرب لما غزا العراق أيام أردشير بهمن كانت طريقه على جبل طيء ومنه إلى الأنبار، وانتهى إلى موضع الحيرة ليلاً، فتحير وأقام فسمي المكان الحيرة. ثم سار لوجهه وخلف هنالك قوماً من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقضاعة، وطنوا وبنوا ولحق بهم ناس من طيء وكلب والسكون وإياد والحرث بن كعب فكانوا معهم، وقيل وهو قريب من الأول: خرج تبع في العرب حتى تحيروا بظاهر الكوفة فنزل بها ضعفاء الناس فسميت الحيرة، ولما رجع ووجدهم قد استوطنوا،

تركهم هنالك وفيهم من كل قبائل العرب من هذيل ولخم وجعفى وطيء وكلب وبني لحيان من جرهم.

قال هشام بن محمد: مات بختنصر انتقل الذين أسكنهم بالحيرة إلى الأنبار ومعهم من انضم إليهم من بني إسماعيل وبني معد وانقطعت طوالع العرب من اليمن عنهم، ثم كثر أولاد معد وفرقتهم العرب، وخرجوا يطلبون المنسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام، ونزلت قبائل منهم البحرين وبها يومئذ قوم من الأزد نزلوها أيام خروج مزيقياء من اليمن، وكان الذين أقبلوا من تهامة من العرب مالك وعمرو ابنا فهم بن تيم الله بن أسد بن ويرة بن قضاعة وابن أخيهما مالك بن زهير وابن عمرو بن فهم في جماعة من قومهم والختفار بن الحيق بن عمرو بن معد بن عدنان في قفص كلها ولحق بهم غطفان بن عمرو بن لطمان بن عبد مناف بن بعدم بن دعمى بن أياد بن أرقص بن صبيح بن الحارث بن أفصى بن دعمى وزهير بن الحرث بن أليل بن زهير بن أياد.

واجتمعوا بالبحرين وتحالفوا على المقام والتناصر وأنهم يد واحدة، وكان هذا الاجتماع والحلف أزمان الطوائف، وكان ملكهم قليلاً ومفترقاً وكان كل واحد منهم يغير على صاحبه ويرجع على أكثر من ذلك. فتطلعت نفوس العرب بالبحرين إلى ريف العراق، وطمعوا في غلب الأعاجم عليه أو مشاركتهم فيه، واهتبلوا الخلاف الذي كان بين الطوائف وأجمع رؤساؤهم المسير إلى العراق. فسار منهم الأول الحنفار بن الحبق في أشلاء قفص بن معد ومن معهم من أخلاط الناس، فوجدوا بأرض بابل إلى الموصل بني إرم بن سام الذين كانوا ملوكاً بدمشق، وقيل لها من أجلهم دمشق إرم وهم من بقايا العرب الأولى، فوجدوهم يقاتلون ملوك الطوائف، فدفعوهم عن سواد العراق، فارتفعوا عنه إلى أشلاء قفص، هؤلاء ينسبون إلى عمرو بن عدي بن ربيعة جد بني المنذر عند نسابة مضر، وفي قول حماد الراوية كما يأتي ذكره.

ثم طلع مالك وعمرو ابنا فهم وابن مالك بن زهير من قضاعة وغطفان بن عمرو وصبح بن صبيح وزهير بن الحرث من إياد فيمن معهم من غسان وحلفائهم بالأنبار، وكلهم تنوخ كما قدمنا، فغلبوا بني إرم ودفعوهم عن جهات السواد. وجاء على أثرهم نمارة بن قيس ونمارة بن لخم لجدة من قبائل كندة، فنزلوا الحيرة وأوطنوها، وأقامت طالعة الأنبار وطالعة الحيرة لا يدينون للأعاجم ولا تدين لهم حتى مر بهم تبع وترك فيهم ضعفة عساكره كما تقدم، وأوطنوا فيهم من كل القبائل كما ذكرنا جعف وطيء وتميم وبني لحيان من جرهم.

ونزل كثير من تنوخ ما بين الحيرة والأنبار بادين في الخيام لا يأوون إلى المدن ولا يخالطون أهلها، وكانوا يسمون عرب الضاحية، وأول من ملك منهم أزمان الطوائف مالك بن فهم، وبعده أخوه عمرو، وبعده ابن أخيه جذيمة الأبرش كما يأتي ذكر ذلك كله، وكان أيضاً ولد عمرو مزيقياء بعد خروجه من اليمن بالأزد قومه عند خروجه أنذرهم بسيل العرم في القصة المشهورة، وقد انتشروا بالشام والعراق وتخلف من تخلف منهم بالحجاز وهم خزاعة، فنزلوا مر الظهران وقاتلوا جرهماً بمكة فغلبوهم عليها، ونزل نصر بن الأزد عمان، ونزلت غسان جبال الشراة، وكانت لهم حروب مع بني معد إلى أن استقروا هنالك في التخوم بين الحجاز والشام.

هذا شأن من أوطن العراق والشام من قبائل سبا، تشاءم منهم أربعة وبقي باليمن ستة وهم: مذحج وكندة والأشعريون وحمير وأنمار وهو أبو خثعم وبجيلة، فكان الملك لهؤلاء باليمن في حمير ثم التبابعة منهم، ويظهر من هذا أن خروج مزيقياء والأزد كان لأول ملك التبابعة أو قبله بيسير، وأما بنو معد بن عدنان فكان إرميا وبرخيا لما أوحي إليهما بغزو بختنصر العرب، أمرهما اللّه أن يستخرجا معد بن عدنان لأن من ولده محمداً ﷺ، أخرجه آخر الزمان أختم به النبيين وأرفع به من الضعة، فأخرجاه على البراق وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وذهبا به إلى حران فربي عندهما. وغزا بختنصر العرب واستلحمهم وهلك عدنان وبقيت بلاد العرب خراباً، ثم هلك بختنصر فخرج معد بن عدنان مع أنبياء بني إسرائيل، فحجوا جميعاً وطفق يسأل عمن بقي من ولد الحرث بن مضاض الجرهمي. وكانت قبائل دوس(.....) أكثر جرهم على يده فقيل له بقي جرهم بن جلهة، فتزوج ابنته معانة وولدت له نزار بن معد.

قال السهيلي: وكان رجوع معد إلى الحجاز بعدما رفع اللّه بأسه عن العرب، ورجعت بقاياهم التي كانت بالشواهق إلى مجالاتهم بعد أن دوخ بختنصر بلادهم وخرب معمورهم واستأصل حضورا وأهل الرس التي كانت سطوة اللّه بالعرب من أجلهم. اهـ. كلام السهيلي، ثم كثر نسل معد في ربيعة ومضر وإياد، وتدافعوا إلى العراق والشام، وتقدم منهم أشلاء قفص كما ذكرنا وجاؤوا على أثرهم، فنزلوا مع أحياء اليمنية الذين ذكرناهم قبل، وكانت لهم مع تبع حروب وهو الذي يقول:

لست بالتبع اليماني إن لم ... تركض الخيل في سواد العراق
أو تؤدي ربيعة الخرج قسراً ... لم تعقها موانع العواق

ثم كان بالعراق والشام والحجاز أيام الطوائف ومن بعدهم

في أعقاب ملك التبابعة اليمنية والعدنانية ملك ودول بعد أن درست الأجيال قبلهم وتبدلت الأحوال السابقة لعصرهم، فاستحق بذلك أن يكون جيلاً منفرداً عن الأول، وطبقة مباينة للطباق السالفة. ولما لم يكن لهم أثر في إنشاء العروبية كما للعرب العاربة، ولا في لغتها عنهم كما في المستعربة، وكانوا تبعاً لمن تبعهم في سائر أحوالهم استحقوا التسمية بالعرب التابعة للعرب. واستمرت الرياسة والملك في هذه الطبقة اليمانية أزمنةً وآماداً بما كانت صبغتها لهم من قبل وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم.

فكان الملك بالحيرة للخم في بني المنذر، وبالشام لغسان في بني جفنة، وبيثرب كذلك في الأوس والخزرج ابني قيلة. وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية وأحياء ناجعة، وكانت في بعضهم رياسة بدوية وراجعة في الغالب إلى أحد هؤلاء، ثم نبضت عروق الملك في مضر وظهرت قريش على مكة ونواحي الحجاز أزمنة عرف فيها منهم ودانت الدول بتعظيمهم. ثم صبح الإسلام أهل هذا الجيل وأمرهم على ما ذكرناه فاستحالت صبغة الملك إليهم، وعادت الدول لمضر من بينهم، واختصت كرامة اللّه بالنبوة بهم، فكانت فيهم الدول الإسلامية كلها، إلا بعضاً من دولها قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيداً للدعوة حسبما نذكر ذلك كله.

فلنأت الآن بذكر قبائل هذه الطبقة من قحطان وعدنان وقضاعة، وما كان لكل واحدة منها من الملك قبل الإسلام وبعده: ومن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني في أخبار خزيمة بن نهد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة قال: كان بدء تفرق بني إسماعيل من تهامة ونزوعهم عنها إلى الآفاق وخروج من خرج منهم عن نسبه، أن قضاعة كانوا مجاورين لنزار وكان خزيمة بن نهد فاسقاً متعرضاً للنساء، فشبب بفاطمة بنت يذكر وهو عامر بن عنزة، وذكرها في شعره حيث يقول:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا
وحالت دون ذلك من هموم هموم تخرج الشجر الرينا
ارى ابنة يذكر ظعنت فحلت جنوب الحزن يا شحطاً مبينا

وسخط ذلك يذكر خشية خزيمة على نفسه فاغتاله وقتله، وانطفت نار يذكر ولم يصح على خزيمة شيء حتى تتوجه به المطالبة على قضاعة حتى قال في شعره:

فاه كان عند رضاب العصير ففيها يعل به الزنجبيل
قتلت أباها على حبها فتبخل إن بخلت أو تقيل

فلما سمعت نزار شعر خزيمة بن نهد وقتله يذكر بن عنزة، ثاروا مع قضاعة وتساندوا مع أحياء العرب الذين كانوا معهم، وكانت هذه مع نزار ونسبها يومئذ كندة بن جنادة بن معد، وجيرانهم يومئذ أجا بن عمرو بن أد بن أدد أخي عدنان بن أدد. وكانت قضاعة تنتسب إلى معد ومعد إلى عدنان، والأشعريون إلى الأشعر بن أدد أخي عدنان، وكانوا يظنون من تهامة إلى الشام ومنازلهم بالصفاع. وكانت عسقلان من ولد ربيعة، وكانت قضاعة ما بين مكة والطائف، وكندة من العمد إلى ذات عرق، ومنازل أجا والأشعر ومعد ما بين جدة والبحر. فلما اقتتلوا هزمت نزار قضاعة وقتل حزيمة وخرجوا متفرقين، فسارت تيم اللات من قضاعة وبعض بني رفيدة منهم وفرقة من الأشعريين نحو البحرين، ونزلوا هجر وأجلوا من كان بها من النبط وملكوها. وكانت الزرقاء بنت زهير كاهنة منهم فتكهنت لهم بنزول ذلك المكان والخروج عن تهامة وقالت في شعرها:

ودع تهامة لا وداع مخالف بذمامه لكن قلىً وملام
لا تنكري هجراً مقام غريبة لن تعدمي من ظاعنين تهام

ثم تكهنت لهم في سجع بأنهم يقيمون بهجر حتى ينعق غراب أبقع عليه خلخال ذهباً ويقع على نخلة وصفتها فيسيرون إلى الحيرة، وكان في سجعها مقام وتنوخ فسميت تلك القبائل تنوخ من أجل هذه اللفظة. ولحق بهم قوم من الأزد فدخلوا في تنوخ وأصاب بقية قضاعة الموتان، وسارت فرقة من بني حلوان فنزلوا عبقرة من أرض الجزيرة ونسج نساؤهم البرود العبقرية من الصوف والبرود التزيدية إليهم لأنهم بنو تزيد، وأغارت عليهم الترك فأصابوا منهم، وأقبل الحرث بن قراد البهراني ليستجيش بني حلوان فعرض له أبان بن سليح صاحب العين فقتله الحرث ولحقت بهرا بالترك، فاستنقذوا ما أخذوه من بني تزيد وهزموهم وقال الحرث:

كان الدهر جمع في ليال ثلاث بينهن بشهرزور
صففنا للأعاجم من معد صفوفاً بالجزيرة كالسعير

وسارت سليح بن عمرو بن الحاف وعليهم الهدرجان بن مسلمة، حتى نزلوا فلسطين على بني أدينة بن السميدع بن عاملة، وسارت أسلم بن الحاف وهي عذرة ونهد وحويكة وجهينة حتى نزلوا بين الحجر ووادي القرى، وأقامت تنوخ بالبحرين سنين. ثم أقبل الغراب بحلقتي الذهب ووقع على النخلة ونعق كما قالت الزرقاء فذكروا قولها وارتحلوا إلى الحيرة فنزلوها وهم أول من اختطها، وكان رئيسهم مالك بن زهير واجتمع إليه ناس كثيرة من بسائط القرى، وبنوا بها المنازل وأقاموا زماناً ثم أغار عليهم سابور الأكبر وقاتلوه، وكان شعارهم يا لعباد اللّه فسموا العباد. وهزمهم سابور فافترقوا، وسار أهل المهبط منهم مع الضيزن بن معاوية

التنوخي فنزل بالحضر الذي بناه الساطرون الجرمقاني، فأقاموا عليه. وأغارت حمير على قضاعة فأجلوهم وهم كلب. وخرج بنو زبان بن تغلب بن حلوان فلحقوا بالشام، ثم أغارت عليهم كنانة بعد ذلك بحين واستباحوهم فلحقوا بالسماوة وهي إلى اليوم منازلهم. اهـ كلام صاحب الأغاني قلت: وأحياء جدهم لهذا العهد ما بين عنزة وقلتة وفلسطين إلى معان من أرض الحجاز.

الخبر عن أنساب العرب من هذه الطبقة الثالثة واحدة وذكر مواطنهم ومن كان له الملك منهم

إعلم أن جميع العرب يرجعون إلى ثلاثة أنساب وهي: عدنان وقحطان وقضاعة: فأما عدنان فهو من ولد إسماعيل بالاتفاق، إلا ذكر الآباء الذين بينه وبين إسماعيل فليس فيه شيء يرجع إلى يقينه، وغير عدنان من ولد إسماعيل قد انقرضوا فليس على وجه الأرض منهم أحد وأما قحطان فقيل من ولد إسماعيل وهو ظاهر كلام البخاري في قوله: باب نسبه اليمن إلى إسماعيل، وساق في الباب قوله ﷺ لقوم من أسلم يناضلون: ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً. ثم قال: وأسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة يعني وخزاعة من سبأ والأوس والخزرج منهم، وأصحاب هذا المذهب على أن قحطان ابن الهميسع بن أبين بن قيذار بن نبت بن إسماعيل. والجمهور على أن قحطان هو يقطن المذكور في التوراة في ولد عابر وان حضرموت من شعوب قحطان، وأما قضاعة فقيل أنها حمير قاله ابن إسحاق والكلبي وطائفة. وقد يحتج لذلك بما رواه ابن لهيعة عن عقبة بن عامر الجهني قال: يا رسول الله ممن نحن؟ قال: أنتم من قضاعة بن مالك. وقال عمرو بن مرة وهو من الصحابة:

نحن بنو الشيخ العجاز الأزهري ... قضاعة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر

وقال زهير: قضاعية وأختها مضرية، فجعلهما أخوين. وقال: أنهما من حمير بن معد بن عدنان. وقال ابن عبد البر: وعليه الأكثرون، ويروي عن ابن عباس وابن عمرو وجبير بن مطعم وهو اختيار الزبير بن بكار وابن مصعب الزبير وابن هشام.

قال السهيلي: والصحيح أن أم قضاعة وهي عبكرة مات عنها مالك بن حمير وهي حامل بقضاعة فتزوجها معد وولدت قضاعة فتكنى به وتنسب إليه وهو قول الزبير. اهـ كلام السهيلي.

وفي كتب الحكماء الأقدمين من يونان مثل بطليموس وهروشيوش ذكر القضاعيين والخبر عن حروبهم، فلا يعلم أهم أوائل قضاعة هؤلاء وأسلافهم أو غيرهم، وربما يشهد للقول بأنهم من عدنان وأن بلادهم لا تتصل ببلاد اليمن وإنما هي ببلاد الشام وبلاد بني عدنان. والنسب البعيد يحيل الظنون ولا يرجع فيه إلى يقين.

ولنبدأ بقحطان وبطونها: لما أن الملك الأقدم للعرب كان في نسب سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ومنه تشعب بطون حمير بن سبأ وكهلان بن سبأ وينفرد بنو حمير بالملك وكان منهم التبابعة أهل الدولة المشهورة وغيرهم كما نذكر. فلنبدأ بذكر حمير أولاً من القحطانية، ونذكر بعدهم قضاعة لانتسابهم في المشهور إلى حمير، ثم نتبعهم بذكر كهلان إخوان حمير من القضاعية، ثم نرجع إلى ذكر عدنان.

الخبر عن حمير من القحطانية وبطونها وتفرع شعوبها

قد تقدم لنا ذكر الشعوب من حمير الذين كان لهم الملك قبل التبابعة فلا حاجة لنا إلى إعادة ذكرهم. وتقدم لنا أن حمير بن سبأ كان له من الولد تسعة وهم: الهميسع ومالك وزيد وعريب ووائل ومشروح ومعديكرب وأوس ومرة، فبنو مرة دخلوا إلى حضرموت، وكان من حمير أبين بن زهير بن الغوث بن أبين بن الهميسع بن حمير وإليهم تنسب عدن أبين، ومنهم بنو الأملوك وبنو عبد شمس وهما ابنا وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير، وعريب وأبين أخوان. ومن بني عبد شمس بنو شرعب بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس، وقد تقدم قول من ذهب إلى أن جشم وعبد شمس أخوان وهما ابنا وائل، والصحيح ما ذكرناه هنا فلترجع.

وبنو خيران وشعبان وهما ابنا عمرو أخي شرعب بن قيس وزيد الجمهور بن سهل أخي خيران وشعبان، ورابعهم حسان القيل بن عمرو وقد مر ذكره، ومن زيد الجمهور ذو رعين واسمه يريم بن زيد بن سهل وإليه ينسب عبد كلال الذي تقدم ذكره في ملوك التبابعة. والحارث وعريب ابنا عبد كلال بن عريب بن يشرح بن مدان بن ذي رعين وهما اللذان كتب لهما النبي ﷺ، ومنهم كعب بن زيد الجمهور ويلقب كعب الظلم وأبناء سبأ الأصغر بن كعب وإليه ينتهي نسب ملوك التبابعة. ومن زيد الجمهور بنو حضور بن عدي بن مالك بن زيد وقد مر ذكرهم.

وتقول اليمن أن منهم كان شعيب بن ذي مهدم النبي الذي قتله قومه، فغزاهم بختنصر فقتلهم. وقيل بل هو من حضور بن قحطان الذي اسمه في التوراة يقطن. ومنهم أيضاً بنو ميثم وبنو حالة ابني سعد بن عوف بن عدي بن مالك أخي ذي رعين، وعوف هذا أخو حضور وأخوه أحاظة وميثم بنو حراز بن سعد، فمن ميثم كعب الأحبار وقد مر ذكره، وهو كعب بن ماتع بن هلسوع بن ذي هجري بن ميثم. ومن أحاظة رهط ذي الكلاع وهو السميقع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن يزيد وهو ذو الكلاع الأكبر بن النعمان بن أحاظة.

ومن عمرو بن سعد الخبائر والسحول بنو سوادة بن عمرو بن الغوث بن سعد يحصب، وذو أصبح أبرهة بن الصباح، وكان من ملوك اليمن لعهد الإسلام وقد مر ذكره ونسبه، ومنهم مالك بن أنس إمام دار الهجرة وكبير فقهاء السلف وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر وهو نافع بن عمرو بن الحرث بن عثمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث وهو ذو أصبح وأبناء يحيى ومحمد وأعمامه أويس، وأبو سهل والربيع، وكانوا حلفاء لبني تيم من قريش. ومن زيد الجمهور مرثد بن علس بن ذي جدن بن الحرث ابن زيد وهو الذي استجاشه امرؤ القيس على بني أسد قاتلي أبيه.

ومن بني سبأ الأصغر الأوزاع وهم بنو مرثد بن زيد بن شدد بن زرعة بن سبأ الأصغر، ومن إخوان هؤلاء الأوزاع بنو يعفر الذين استبدوا بملك اليمن كما يأتي عند ذكر ملوك اليمن في الدولة العباسية، وهو يعفر بن عبد الرحمن بن كريب بن عثمان بن الوضاح بن إبراهيم بن مانع بن عون بن تدرص بن عامر بن ذي مغار البطين بن ذي مرايش بن مالك بن زيد بن غوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن شدد بن زرعة.

وكان آخر ملوك بني يعفر هؤلاء باليمن أبو حسان أسعد بن أبي يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر ملك أبو إبراهيم صنعاء وبنى قلعة كحلان باليمن، وورث ملكه بنوه من بعده إلى أن غلب عليهم الصليحيون من همدان بدعوة العبيديين من الشيعة كما نذكر في أخبارهم. ومن زيد الجمهور ملوك التبابعة وملوك حمير من ولد صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد.

قال ابن حزم: فمن ولد صيفي هذا تبع وهو تبان وهو أيضاً أسعد أبو كرب بن كليكرب وهو تبع بن زيد وهو تبع بن عمرو وهو تبع ذو الأذعار بن أبرهة وهو تبع ذو المنار بن الرايش بن قيس بن صيفي، قال: فولد تبع أسعد أبو كرب حسان ذو معاهر وتبع زرعة وهو ذو نواس الذي تهوّد وهود أهل اليمن، ويسمى يوسف، وقتل أهل نجران من النصارى. وعمرو بن سعد وهو موثبان.

قال: ومن هؤلاء التبابعة شمر يرعش بن ياسر ينعم بن عمرو ذي الأذعار، وأفريقش بن قيس بن صيفي، وبلقيس بنت إيلي أشرح بن ذي جدن بن إيلي أشرح بن الحرث بن قيس بن صيفي. قال: وفي أنساب التبابعة تخليط واختلاف ولا يصح منها ومن أخبارهم إلا القليل. اهـ ومن زيد الجمهور ذو يزن بن عامر بن أسلم بن زيد. وقال ابن حزم: إن عامر هو ذو يزن، قال ومن ولده سيف بن النعمان بن عفير بن زرعة بن عفير بن الحرث بن النعمان بن قيس بن عبيد بن سيف بن ذي يزن، الذي استجاش كسرى على الحبشة وأدخل الفرس إلى اليمن. هذه بطون حمير وأنسابها وديارهم باليمن من صنعاء إلى ظفار إلى عدن، وأخبار دولهم قد تقدمت واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ونلحق بالكلام في أنساب حمير بن سبأ أنساب حضرموت وجرهم وما ذكره النسابون من شعوبهما: فإنهم يذكرونهما مع حمير لأن حضرموت وجرهم إخوة سبأ كما وقع في التوراة وقد ذكرناه ولم يبق من ولد قحطان بعد سبأ معروف العقب غير هذين.

فأما حضرموت فقد تقدم ذكرهم في العرب البائدة ومن كان منهم من الملوك يومئذ، ونبهنا هنالك أن منهم بقية في الأجيال المتأخرة اندرجوا في غيرهم فلذلك ذكرناهم في هذه الطبقة الثالثة. قال ابن حزم: ويقال إن حضرموت هو ابن يقطن أخي قحطان واللّه أعلم. وكان فيهم رياسة إلى الإسلام، منهم وائل بن حجر له صحبة وهو وائل بن حجر بن سعيد بن مسروق بن وائل بن النعمان بن ربيعة بن الحارث بن عوف بن سعد بن عوف بن عدي بن شرحبيل بن الحرث بن مالك بن مرة بن حمير بن زيد بن لابي مالك بن قدامة بن أعجب بن مالك بن لابي بن قحطان، وابنه علقمة بن وائل. وسقط عنده بين حجر أبي وائل وسعيد بن مسروق أب اسمه سعد وهو ابن سعيد.

ثم قال ابن حزم: ويذكر بنو خلدون الأشبيليون فيقال إنهم من ولد الجبار بن علقمة بن وائل منهم علي المنذر بن محمد وابنه بقرمونة وأشبيلية، اللذين قتلهما إبراهيم بن حجاج اللخمي غيلة، وهما ابنا عثمان أبي بكر بن خالد بن عثمان أبي بكر بن مخلوف المعروف بخلدون الداخل المشرق. وقال غيره في خلدون الأول: إنه ابن عمرو بن خلدون. وقال ابن حزم في خلدون: أنه ابن عثمان بن هانيء بن الخطاب بن كريب بن معديكرب بن الحرث بن وائل بن حجر. وقال غيره: خلدون بن مسلم بن عمر بن الخطاب بن

هانيء بن كريب بن معديكرب بـن الحرث بـن وائـل. قـال ابـن حزم: والصدف من بني حضرموت وهو الصـدف بـن أسـلم بـن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر، قال: ومن حضرموت العلاء بن الحضرمي الذي ولاه رسول اللّه ﷺ البحرين وأبو بكر وعمر من بعده إلى أن توفي سنة إحدى وعشرين، وهو العـلاء بـن عبد اللّه بن عبدة بن حماد بن مالك حليف بني أمية بن عبد شمس وأخوه ميمون بن الحضرمي ابن الصدف، فيقال عبد اللّه بن حمـاد بن أكبر بن ربيعة بن مـالك بـن أكـبر بـن عريـب بـن مـالك بـن الخزرج بن الصدف، قال: وأخت العلاء الصعبة بنت الحضرمي أم طلحة بن عبد اللّه اهـ.

وأما جرهم فقال ابن سعيد: إنهم أمتان أمة على عهـد عـاد وأمة من ولد جرهم بن قحطـان، ولـما ملـك يعـرب بـن قحطـان اليمن ملك أخوه جرهم الحجاز، ثم ملك من بعده ابنه عبد يـاليل بن جرهم، ثم ابنه جرشم بن عبد ياليل، ثم ملـك مـن بعـده ابنـه عبد المدان بن جرشم، ثم ابنه نفيلة بن عبد المدان، ثـم ابنـه عبـد المسيح بن نفيلة، ثم إبنه مضاض بن عبد المسيح، ثم ابنه عمرو بن مضاض، ثم أخوه الحرث بن مضاض، ثم ابنه عمرو بن الحـرث، ثم أخوه بشر بن الحرث، ثم مضاض بن عمرو بن مضاض. قـال وهذه الأمة الثانية هم الذين بعث إليهـم إسمـاعيل وتـزوج فيهـم اهـ.

الخبر عن قضاعة وبطونها والإلمام ببعض الملك الذي كان فيها

قد تقدم آنفاً ذكر الخلاف الذي في قضاعة هل هم لحمير أو لعدنان ونقلنا الحجاج لكلا المذهبين وأتينا بذكر أنسابهم تالية حمير ترجيحاً للقول بأنهم منهم، وعلى هذا فقيل هو قضاعة بن مـالك بن حمير. وقال ابن الكلبي: قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بـن زيد بن مالك بن حمير. وكان قضاعة فيمـا قـال ابـن سـعيد ملكاً على بلاد الشحر، وصارت بعده لابنه الحاف ثم لابنـه مـالك. ولم يذكر ابن حزم في ولد الحاف مالكاً. قال ابـن سـعيد وكـانت بـين قضاعة وبين وائل بن حمير حروب، ثم استقل ببلاد الشـحر مهـرة بن حيدان بن الحـاف بـن قضاعـة وعرفـت بـه، قـال وملـك بنـو قضاعة أيضاً نجران ثم غلبهم عليها بنو الحرث بن كعب بـن الأزد وساروا إلى الحجاز فدخلـوا في قبـائل معـد، ومـن هنـا غلـط مـن نسبهم إلى معد اهـ.

ولنذكر الآن تشعب البطـون مـن قضاعـة: اتفـق النسـابون على أن قضاعة لم يكن له من الولد إلا الحاف ومنه سائر بطونهـم وللحاف ثلاثة من الولد: عمر وعمران وأسلم بضم اللام قاله ابن حزم.

فمن عمرو بن الحـاف حيـدان وبلـى وبهـرا، فمـن حيـدان مهرة، ومن بلى جماعة من مشاهير الصحابة: منهم كعب بن عجرة وخديج بن سلامة وسهل بن رافع وأبو بردة ابن نيار، ومـن بهـرا جماعة من الصحابـة أيضـاً منهـم: المقـداد بـن عمـرو وينسـب إلى الأسود بن عبد يغوث بن وهب خال رسول اللّـه ﷺ اخـي أمـه وتبناه فنسب إليه. ويقال: إن خالد بن برمك مولى بني بهرا.

ومن أسلم سعد هذيم وجهينة ونهد بنو زيد بـن ليـث بـن سود بن أسلم، فجهينة ما بين الينبع ويثرب إلى الآن في متسع مـن برية الحجاز وفي شماليهم إلى عقبة إيلة مواطن بلى وكلاهما علـى العدوة الشرقية من بحر القلزم وأجاز منهم أمم إلى العدوة الغربيـة وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشـة وكـثروا هنـالك سـائر الأمم وغلبوا على بـلاد النوبـة وفرقـوا كلمتهـم وأزالـوا ملكهـم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد. ومـن سـعد هذيـم بنـو عذرة المشهورون بين العرب في المحبة، كان منهم جميل بن عبد اللّـه بن معمر وصاحبته بثينة بنت حبابـا. قـال ابـن حـزم: كـان لأبيهـا صحبة ومنهم عروة بن حزام وصاحبته عفرا. ومن بني عذرة كـان رزاح بن ربيعة أخو قصي بـن كـلاب لأمـه وهـو الـذي اسـتظهر قصي به ويقومه على بني سعد بـن زيـد بـن منـاة ابـن عـم تميـم فغلبهم على الإجازة بالناس من عرفة، وكـانت مفتـاح رياسـته في قريش.

ومن عمران بن الحافي بنو سليح وهو عمرو بن حلوان بـن عمران، ومن بني سليح الضجاعم بنو ضجعم بن سعد بن سـليح كانوا ملوكاً بالشام للروم قبل غسان. ومن بني عمران بـن الحـاف بنو جرم بن زبان بن عمران بطن كبير وفيهم كثـير مـن الصحابـة ومواطنهم ما بين غزة وجبال الشراة من الشام، وجبال الشراة مـن جبال الكرك. ومن تغلب بن حلـوان بنـو أسـد وبنـو النمـر وبنـو كلب قبائل ضخمة كلهم بنو وبرة بن تغلب، فمن النمر خشين بن النمر ومن بني أسد بن وبرة تنوخ وهم فهـم بـن تيـم الـلات بـن أسد منهم مالك بن زهير بـن عمـرو بـن عمـرو بـن فهـم وعليـه تنخت تنوخ، وعلى عهد أبيه مالك بن فهم كما مر وكانوا حلفـاء لبني حزم. فتنوخ على ثلاثة أبطن بطن اسمـه فهـم وهـم هـؤلاء، وبطن اسمه نزار وهـم ليـس نـزار لهـم بوالـد لكنهـم مـن بطـون قضاعة كلها ومن بني تيم اللات ومن غيرهم بطـون ثـلاث يقـال لهم: الأحلاف من جميع قبائل العرب من كندة ولخم وجذام وعبد

القيس اهـ كلام ابن حزم.

ومن بني أسد بن وبرة بنو القين واسمه النعمان بن جسر بن شيع اللات بن أسد ومن بني كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بنو كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب، قبيلة ضخمة فيها ثلاثة بطون بنو عدي وبنو زهير وبنو عليم وبنو جناب بن هبل ابن عبد الله بن كنانة بطون ضخمة ومنهم عبيدة بن هبيل شاعر قديم ويقول فيه بعض الناس ابن حرام، وهو الذي عنى امرؤ القيس بقوله:

نبكي الديار كما بكى ابن حرام

وقد قيل: إنه من بكر بن وائل، وقال هشام بن السائب الكلبي: إذا سئلوا بم بكى ابن حرام الديار أنشدوا خمسة أبيات من كلمات امرئ القيس المشهورة:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ويقولون إن بقيتها لامرئ القيس بن حجر، وهذا امرؤ القيس بن حرام شاعر قديم دثر شعره لأنه لم يكن للعرب كتاب لبدأتها، وإنما بقي من أشعارهم ما ذكره رواة الإسلام وقيدوه من رواية الكتاب من محفوظ الرجال ومن بني عدي بنو حصين بن ضمضم بن عدي كانت منهم نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة بن الحرث بن حصن امرأة عثمان بن عفان، ومنهم أبو الخطار الحسام بن ضرار بن سلامان بن جشم بن ربيعة بن حصن أمير الأندلس، ومنسبة بن شحيم بن منجاش بن مزغور بن منجاش بن هذيم بن عدي بن زهير، وابن ابنه حسان بن مالك بن بحدل الذي قام بمروان يوم مرج راهط وكانت رياسة الإسلام في كلب لبني بحدل هؤلاء ومن عقبهم بنو منقذ ملوك شيزر، ومن بني زهير بن جناب حنظلة بن صفوان بن توبل بن بشر بن حنظلة بن علقمة بن شراحيل بن هرير بن أبي جابر بن زهير ولي إفريقية لهشام.

ومن عليم بنو جناب بنو معقل وربما يقال إن عرب المعقل الذين بالمغرب الأقصى لهذا العهد وفي زمانه ينتسبون فيهم، ومن بطون كلب بن عوف بن بكر بن عوف بن كعب بن عوف بن عامر بن عوف دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد امرئ القيس بن الخزرج بن عامر بن بكر بن عامر بن عوف صاحب رسول الله ﷺ الذي أتاه جبريل عليه السلام في صورته. ومنصور بن جهور بن حفر بن عمرو بن خالد بن حارثة بن العبيد بن عامر بن عوف القائم مع يزيد بن الوليد وولاه الكوفة، وحب رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبدود بن عوف سبي أبوه زيد في الجاهلية وصار إلى خديجة فوهبته إلى النبي ﷺ، وجاءه أبوه وخيره النبي ﷺ فاختاره على أبيه وأهله وأقام في كفالة النبي ﷺ ثم أعتقه، وربي ابنه أسامة في بيته ومع مواليه وأخباره مشهورة.

ومن بني كلب ثم من بني كنانة بن بكر بن عوف النسابة ابن الكلبي وهو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحرث بن عبد العزى بن امرئ القيس. قال ابن حزم: هكذا ذكره ابن الكلبي في نسبه وأرى امرؤ القيس هذا هو عامر بن النعمان بن عامر بن عبدود بن عوف بن كنانة بن عذرة وقد مر بقية نسبه، وكان لقضاعة هؤلاء ملك ما بين الشام والحجاز إلى العراق في أيلة وجبال الكرك إلى مشارف الشام واستعملهم الروم على بادية العرب هنالك.

وكان أول الملك فيهم في تنوخ وتتابعت فيهم فيما ذكر المسعودي ثلاثة ملوك: النعمان بن عمرو، ثم ابنه عمرو بن النعمان، ثم ابنه الحواري بن عمرو، ثم غلبهم على أمرهم سليح من بطون قضاعة وكانت رياستهم في ضجعم بن معد منهم. وقارن ذلك استيلاء طيطش من القياصرة على الشام فولاهم ملوكاً على العرب من قبله يجبيون له من ساحتهم إلى أن ولي منهم زيادة بن هبولة بن عمرو بن عوف بن ضجعم. وخرجت غسان من اليمن فغلبوهم على أمرهم وصار ملك العرب بالشام لبني جفنة وانقرض ملك الضجاعم حسبما نذكر.

وقال ابن سعيد: سار زيادة بن هبولة بن أبقى السيف منهم بعد غسان إلى الحجاز فقتله حجر آكل المرار الكندي، كان على الحجاز من قبل التبابعة، وأفنى بقيتهم فلم ينج منهم إلا القليل، قال: ومن الناس من يطلق تنوخ على الضجاعمة ودوس الذين تنخوا بالبحرين أي أقاموا، قال وكان لبني العبيد بن الأبرص بن عمر بن أشجع بن سليح ملك يتوارثونه بالحضر آثاره باقية في برية سنجار وكان آخرهم الضيزن بن معاوية بن العبيد المعروف عند الجرامقة بالساطرون وقصته مع سابور ذي الجنود من الأكاسرة معروفة.

قال: وكان لقضاعة ملك آخر في كلب بن وبرة يتداولونه مع السكون من كندة، فكانت لكلب دومة الجندل وتبوك ودخلوا في دين النصرانية وجاء الإسلام والدولة في دومة الجندل لأكيدر بن عبد الملك بن السكون، ويقال أنه كندي من ذرية الملوك الذين ولاهم التبابعة على كلب، فأسره خالد بن الوليد وجاء به إلى النبي ﷺ فصالح على دومة، وكان في أول من ملكها دجانة بن قنافة

بن عدي بن زهير بن جناب، قال: وبقيت بنو كلب الآن في خلق عظيم على خليج القسطنطينية منهم مسلمون ومنهم متنصرون. اهـ الكلام في أنساب قضاعة.

قال ابن حزم: وجميع قبائل العرب راجعة إلى أب واحد حاش ثلاث قبائل: وهي تنوخ والعتقي وغسان، فأما تنوخ فقد ذكرناهم، وأما العتقي فهم من حجر حمير ومن حجر من ذي رعين ومن سعد العشيرة ومن كنانة بن خزيمة ومنهم زبيد بن الحرث العتقي من حجر حمير وهو مولى عبد الرحمن بن القاسم وخالد بن جنادة المصري صاحب مالك بن أنس،و هو مولى زبيد لاحظ الشكل المذكور من أسفل، وأما غسان فإنهم من بني أب لا يدخل بعضهم في هذا النسب ويدخل فيهم من غيرهم. وسموا العتقا لأنهم اجتمعوا ليفتكوا برسول الله ﷺ فظفر بهم فأعتقهم، وكانوا جماعة من بطون شتى. وسموا تنوخ لأن التنوخ الإقامة فتحالفوا على الإقامة بموضعهم بالشام وهم من بطون شتى. وأما غسان فإنهم أيضاً طوائف نزلوا بماء يقال له: غسان فنسبوا إليه اهـ كلام ابن حزم.

الخبر عن بطون كهلان من القحطانية وشعوبهم واتصال بعضها مع بعض وانقضائها

هؤلاء بنو كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان إخوة بني حمير بن سبا، وتداولوا معهم الملك أول أمرهم، ثم انفرد بنو حمير به وبقيت بطون بني كهلان تحت ملكتهم باليمن. ثم لما تقلص ملك حمير بقيت الرياسة على العرب البادية لبني كهلان لما كانوا بادين لم يأخذ ترف الحضارة منهم ولا أدركهم الهرم الذي أودى بحمير، إنما كانوا أحياء ناجعة في البادية والرؤساء والأمراء في العرب إنما كانوا منهم. وكان لكندة من بطونهم ملك باليمن والحجاز، ثم خرجت الأزد من شعوبهم أيضاً من اليمن مع مزيقيا وافترقوا بالشام، وكان لهم ملك بالشام في بني جفنة، وملك بيثرب في الأوس والخزرج، وملك بالعراق في بني فهم. ثم خرجت لخم وطيء من شعوبهم أيضاً من اليمن، وكان لهم ملك بالحيرة في آل المنذر حسبما نذكر ذلك كله.

وأما شعوبهم فهي كلها تسعة من زيد بن كهلان في مالك بن زيد وعريب بن زيد، فمن مالك بطون همدان وديارهم لم تزل باليمن في شرقيه، وهم بنو أوسلة، وهو همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الجبار بن مالك بن زيد بن نوف بن همدان. ومن شعوب حاشد بنويام بن أصغى بن مانع بن مالك بن جشم بن حاشد ومنهم طلحة بن مصرف. ولما جاء الله بالإسلام افترق كثير من همدان في ممالكه، وبقي منهم من بقي باليمن، وكانوا شيعة لعلي كرم الله وجهه ورضي عنه عندما شجر بين الصحابة وهو المنشد فيهم متمثلاً:

فلو كنت بواباً على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ولم يزل التشيع دينهم أيام الإسلام كلها، ومنهم كان علي بن محمد الصليحي من بني يام القائم بدعوة العبيديين باليمن في حصن حرار من بني يام وهو من بطونهم وهو من بني يام من بطون حاشد، فاستولى عليه وورث ملكه لبنيه حسبما نذكره في أخبارهم. وكانت بعد ذلك وقبله دولة بني الرسي أيام الزيدية بصعدة فكانت على يدهم وبمظاهرتهم، ولم يزل التشيع دينهم لهذا العهد.

وقال البيهقي: وتفرقوا في الإسلام فلم تبق لهم قبيلة وبرية إلا باليمن وهم أعظم قبائله وهم عصبة المعطي من الزيدية القائمين بدعوته باليمن، وملكوا جملة من حصون اليمن باليمن، ولهم بها إقليم بكيل وإقليم حاشد من بطونهم، قال ابن سعيد: ومن همدان بنو الزريع وهم أصحاب الدعوة والملك في عدن والحيرة وهم زيدية وإخوة همدان الهان بن مالك بن زيد بن أوسلة ومن مالك بن زيد أيضاً الأزد وهو أزد بن الغوث بن نبت بن مالك وخثعم وبجيلة ابنا أنمار بن أراش أخي الأزد بن الغوث.

وقد يقال أنمار هو ابن نزار بن معد وليس بصحيح، فأما الأزد فبطن عظيم متسع وشعوب كثيرة، فمنهم بنو دوس من بني نصر بن الأزد وهو دوس بن عدثان بالثاء المثلثة ابن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحرث بن كعب بن مالك بن نصر بن الأزد بطن كبير، ومنهم كان جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس وديارهم بنواحي عمان، وكان بعد دوس وجذيمة ملك بعمان في إخوانهم بني نصر بن زهران بن كعب، كان منهم قبيل الإسلام المستكبر بن مسعود بن الجرار بن عبد الله بن مغولة بن شمس بن عمرو بن غنم بن غالب بن عثمان بن نصر بن زهران، والذي أدرك الإسلام منهم جيفر بن الجلندي بن كركر بن المستكبر وأخوه عبد الله ملك عمان، كتب إليهما النبي ﷺ فأسلموا، واستعمل على نواحيهما عمرو بن العاص.

ومن الأزد من بني مازن بن الأزد بنو عمرو مزيقيا بن عامر ويلقب ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البهلول بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وعمرو هذا وآباؤه كانوا ملوكاً على بادية كهلان باليمن مع حمير واستفحل لهم الملك من بعدهم.

وكانت أرض سبأ باليمن لذلك العهد من أرفه البلاد وأخصبها وكانت مدافع للسيول المنحدرة بين جبلين هنالك فضرب بينهما سد بالصخر والقار يحبس سيول العيون والأمطار حتى يصرفوه من خروق في ذلك السد على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، ومكث كذلك ما شاء الله أيام حمير، فلما تقلص ملكهم وانحل نظام دولتهم وتغلب بادية كهلان على أرض سبأ وانطلقت عليها الأيدي بالعبث والفساد وذهب الحفظة القائمون بأمر السد نذروا بخرابه، وكان الذي نذر به عمرو مزيقيا ملكهم لما رأى من اختلال أحواله. ويقال أن أخاه عمران الكاهن أخبره، ويقال طريفة الكاهنة. وقال السهيلي: طريفة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر وهي طريفة بنت الخير الحميرية لعهده.

وقال ابن هشام: عن أبي زيد الأنصاري أنه رأى جرذاً تحفر السد فعلم أنه لا بقاء للسد مع ذلك فأجمع النقلة من اليمن وكاد قومه بأن أمر أصغر بنيه أن يلطمه إذا أغلظ له ففعل فقال لا أقيم في بلد يلطمني فيها أصغر ولدي وعرض أمواله فقال أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا أمواله وانتقل في ولده وولد ولده فقال الأزد لا نتخلف عن عمرو فتجشموا للرحلة وباعوا أموالهم وخرجوا معه وكان رؤساءهم في رحلتهم بنو عمرو مزيقيا ومن إليهم من بني مازن ففصل الأزد من بلادهم باليمن إلى الحجاز.

قال السهيلي: كان فصولهم على عهد حسان بن تبان أسعد من ملوك التبابعة ولعهده كان خراب السد. ولما فصل الأزد من اليمن كان أول نزولهم ببلاد عك ما بين زبيد وزمع، وقتلوا ملك عك من الأزد ثم افترقوا إلى البلاد، ونزل بنو نصر بن الأزد بالشراة وعمان، ونزل بنو ثعلبة بن عمرو مزيقيا بيثرب، وأقام بنو حارثة بن عمرو بمر الظهران بمكة وهم فيما يقال خزاعة، ومروا على ماء يقال له: غسان بين زبيد وزمع فكل من شرب منه من بني مزيقيا سمي به، والذين شربوا منه بنو مالك وبنو الحرث وبنو جفنة وبنو كعب فكلهم يسمون غسان، وبنو ثعلبة العنقاء لم يشربوا منه فلم يسموا به.

فمن ولد جفنة ملوك الشام الذين يأتي ذكرهم ودولتهم بالشام. ومن ولد ثعلبة العنقاء الأوس والخزرج ملوك يثرب في الجاهلية وسنذكرهم، ومن بطن عمرو مزيقيا بنو أفصى بن حارثة بن عمرو ويقال أنه أفصى بن عامر بن قمعة بلا شك ابن إلياس بن مضر. قال ابن حزم: فإن كان أسلم بن أفصى منهم فمن بني أسلم بلا شك وبنو أبان وهو سعد بن عدي بن حارثة بن عمرو، وبنو العتيك من الأزد عمران بن عمرو.

وأما بجيلة فبلادهم في سروات البحرين والحجاز إلى تبالة وقد افترقوا على الآفاق أيام الفتح فلم يبق منهم بمواطنهم إلا القليل، ويقدم الحاج منهم على مكة في كل عام عليهم أثر الشظف ويعرفون من أهل الموسم بالسرو، وأما حالهم لأول الفتح الإسلامي فمعروف ورجالاتهم مذكورة، فمن بطون بجيلة قسر وهو مالك بن عبقر بن أنمار وبنو أحمس بن الغوث بن أنمار.

وأما بنو عريب بن زيد بن كهلان فمنهم طيء والأشعريون ومذحج وبنو مرة وأربعتهم بنو أدد بن زيد بن يشجب بن عريب، فأما الأشعريون فهم بنو أشعر وهو نبت بن أدد وبلادهم في ناحية الشمال من زبيد وكان لهم ظهور أول الإسلام ثم افترقوا في الفتوحات وكان لمن بقي منهم باليمن حروب مع ابن زياد لأول إمارته عليها أيام المأمون ثم ضعفوا عن ذلك وصاروا في عدد الرعايا.

وأما بنو طيّء بن أدد فكانوا باليمن وخرجوا منه على أثر الأزد إلى الحجاز ونزلوا سميرا وفيد في جوار بني أسد، ثم غلبوهم على أجا وسلمى وهما جبلان من بلادهم فاستقروا بهما وافترقوا لأول الإسلام في الفتوحات. قال ابن سعيد: ومنهم في بلادهم الآن أمم كثيرة ملأوا السهل والجبل حجازاً وشاماً وعراقاً يعني قبائل طيء هؤلاء وهم أصحاب الدولة في العرب لهذا العهد في العراق والشام ومصر منهم سنبس والثعالب بطنان مشهوران، فسنبس بن معاوية بن شبل بن عمرو بن الغوث بن طيء ومعهم بحتر بن ثعل.

قال ابن سعيد ومنهم زبيد بن معن بن عمرو بن عس بن سلامان بن ثعل وهم في برية سنجار، والثعالب بنو ثعلبة بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طيء، وثعلبة بن جدعا بن ذهل بن رومان. قال ابن سعيد: ومنهم لام بن ثعلبة منازلهم من المدينة إلى الجبلين وينزلون في أكثر أوقاتهم مدينة يثرب، والثعالب الذين بصعيد مصر من ثعلب بن عمرو بن الغوث بن طيء.

قال ابن حزم: لام بن طريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعا ومن الثعالب بنو ثعلبة بن ذهل بن رومان، وبجهة بنيامين والشام بنو صخر ومن بطونهم غزية المرهوب صولتهم بالشام والعراق. وهم بنو غزية بن أفلت بن معبد بن عمرو بن عس بن سلامان بن ثعل وبنو غزية كثيرون وهم في طريق الحاج بين العراق ونجد، وكانت الرياسة على طيء في الجاهلية لبني هني بن عمرو بن الغوث بن طيء وهم رمليون وإخوتهم جبليون، ومن ولده إياس بن قبيصة الذي أدال به كسرى أبرويز النعمان

المنذر حين قتله وأنزل طياً بالحيرة مكان لخم قوم النعمان وولى على العرب من إياساً هذا، وهو إياس بن قبيصة بن أبي يعفر بن النعمان بن حبيب بن الحرث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سعد بن هني، فكانت لهم الرياسة إلى حين انقراض ملك الفرس.

ومن عقب إياس هذا بنو ربيعة بن علي بن مفرح بن بدر بن سالم بن قصة بن بدر بن سميع، ومن ربيعة شعب آل مراد وشعب آل فضل، وآل فضل شعبان آل علي وآل مهنا فعلي ومهنا إبنا فضل، وفضل ومراد ابنا ربيعة وسميع الذين ينسبون إليه من عقب قبيصة بن أبي يعفر، ويزعم كثير من جهلة البادية أنه الذي جاءت به العباسة أخت الرشيد من جعفر بن يحيى زعما كاذباً لا أصل له. وكانت الرياسة على طيء أيام العبيديين لبني المفرح، ثم صارت لبني مراد بن ربيعة وكلهم ورثوا أرض غسان بالشام وملكهم على العرب، ثم صارت الرياسة لبني علي وبني مهنا ابني فضل بن ربيعة اقتسموها مدة، ثم انفرد بها لهذا العهد بنو مهنا الملوك على العرب إلى هذا العهد بمشارف الشام والعراق وبرية نجد، وكان ظهورهم لأمر الدولة الأيوبية ومن بعدهم من ملوك الترك بمصر والشام ويأتي ذكرهم، واللّه وارث الأرض ومن عليها.

وأما مذحج واسمه مالك بن زيد بن أدد بن زيد بن كهلان، ومنهم مراد واسمه يحابر بن مذحج، ومنهم سعد العشيرة بن مذحج بطن عظيم لهم شعوب كثيرة، منهم جعفر بن سعد العشيرة وزبيد بن صعب بن سعد العشيرة. ومن بطون مذحج النخع ورها ومسيلة وبنو الحرث بن كعب، فأما النخع فهو جسر بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج ومسيلة بن عامر بن عمرو بن علة، وأما رها فهو ابن منبه بن حرب بن علة. وبقي من مذحج وبرية ينجعون مع أحياء طيء في جملة أيام بني مهنا مع العرب بالشام زمن أحلافهم وأكثرهم من زبيد. وأما بنو الحرث فالحرث أبوهم ابن كعب بن علة وديارهم بنواحي نجران يجاورون بها ذهل بن مزيقيا من الأزد وبني حارث بن كعب بن عبد اللّه بن مالك بن نصر بن الأزد وكان نجران قبلهم لجرهم، ومنهم كان ملكها الأفعى الكاهن الذي حكم بين ولد نزار معد لما تنافروا إليه بعد موت نزار وإسمه الغلس بن غمر ماء بن همدان بن مالك بن منتاب بن زيد بن وائل بن حمير وكان داعية لسليمان عليه السلام بعد أن كان والياً لبلقيس على نجران، وبعثه إلى سليمان فصدق وآمن وأقام على دينه بعد موته. ثم نزل نجران بنو الحرث بن كعب بن علة بن جلد بن مذحج فغلبوا عليها بني الأفعى. ثم خرجت الأزد من اليمن فمروا بهم وكانت بينهم حروب، وأقام من أقام في جوارهم من بني نصر بن الأزد وبني ذهل بن مزيقيا واقتسموا الرياسة فنجران معهم. وكان من بني الحرث كعب هؤلاء المذحجيين بنو الزياد واسمه يزيد بن قطن بن زياد بن الحرث بن مالك بن كعب بن الحرث وهم بيت مذحج وملوك نجران وكانت رياستهم في عبد المدان بن الديان، وانتهت قبيل البعثة إلى يزيد بن عبد المدان، ووفد أخوه عبد الحجر بن عبد المدان على النبي ﷺ على يد خالد بن الوليد وكان ابن أخيهم زياد بن عبد اللّه بن عبد المدان خال السفاح، وولاه نجران واليمامة.

وقال ابن سعيد: ولم يزل الملك بنجران في بني عبد المدان، ثم في بني أبي الجواد منهم، وكان منهم في المائة السادسة عبد القيس بن أبي الجواد، ثم صار الأمر لهذا العهد إلى الأعاجم شأن النواحي كلها بالمشرق، ثم من بطون الحرث بن كعب بنو معقل وهو ربيعة بن الحرث بن كعب، وقد يقال إن المعقل الذين هم بالمغرب الأقصى لهذا العهد إنما هم من هذا البطن وليسوا من معقل بن كعب القضاعيين ويؤيد هذا أن هؤلاء المعقل جميعاً ينتسبون إلى ربيعة، وربيعة اسم معقل هذا كما رأيت واللّه تعالى أعلم.

وأما بنو مرة بن أدد إخوة طيء ومذحج والأشعريين فهم أبطن كثيرة وتنتهي كلها إلى الحرث بن مرة، مثل خولان ومعافر ولخم وجذام وعاملة وكندة. فأما معافر فهم بنو يعفر بن مالك بن الحرث بن مرة وافترقوا في الفتوحات وكان منهم المنصور بن أبي عامر صاحب هشام بالأندلس. وأما خولان وإسمه أفكل بن عمرو بن مالك وعمرو أخو يعفر وبلادهم في جبال اليمن من شرقيه، وافترقوا في الفتوحات وليس منهم اليوم وبرية إلا اليمن وهم لهذا العهد، وهمدان أعظم قبائل العرب باليمن ولهم الغلب على أهله والكثير من حصونه. وأما لخم واسمه مالك بن عدي بن الحرث بن مرة فبطن كبير متسع ذو شعوب وقبائل منهم الدار بن هانيء بن حبيب بن نمارة بن لخم، ومن أكبرهم بنو نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحرث بن مسعود بن مالك بن عمم بن أنمارة بن لخم، ويقال نمارة وهم رهط آل المنذر وحافده عمرو بن عدي بن نصر هو ابن اخت جذيمة الوضاح الذي أخذ بثأره من الزبا قاتلته، وولي الملك على العرب للأكاسرة بعد خاله جذيمة وأنزلوه بالحيرة حسبما يأتي الخبر عن ملكه وملك بنيه.

ومن شعوب بني لخم هؤلاء كان عباد ملوك أشبيلية ويأتي ذكرهم. وأما جذام وإسمه عمرو بن عدي أخو لخم بن عدي فبطن متسع له شعوب كثيرة مثل غطفان وأمصى وبنو حرام بن

جذام وبنو ضبيب وبنو مخرمة وبنو بعجة وبنو نفاثة وديارهم حوالي أيلة من أول أعمال الحجاز إلى الينبع من أطراف يثرب، وكانت لهم رياسة في معان وما حولها من أرض الشام لبني النافرة من نفاثة ثم لفروة بن عمرو بن النافرة منهم، وكان عاملاً للروم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب، وهو الذي بعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء. وسمع بذلك قيصر فأغرى بع الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان فأخذه وصلبه بفلسطين، وبقيتهم اليوم في مواطنهم الأولى في شعبين من شعوبهم يعرف أحدهما بنو عائذ وهم ما بين بلبيس من أعمال مصر إلى عقبة أيلة إلى الكرك من ناحية فلسطين، وتعرف الثانية بنو عقبة وهم من الكرك إلى الأزلم من برية الحجاز. وضمان السابلة ما بين مصر والمدينة النبوية إلى حدود غزة من الشام عليهم، وغزة من مواطن جرم إحدى بطون قضاعة كما مر، وبأفريقية لهذا العهد منهم وبرية كبيرة ينتجعون مع ذياب بن سليم بنواحي طرابلس.

وأما عامله واسمه الحرث بن عدي وهم إخوة لخم وجذام وإنما سمي الحرث عاملة بأمه القضاعية وهم بطن متسع ومواطنهم ببرية الشام.

وأما كندة وإسمه ثور بن عفير بن عدي وعفير أخو لخم وجذام، وتعرف كندة الملوك لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان كما نذكر، وبلادهم بجبال اليمن مما يلي حضرموت ومنها دمون التي ذكرها امرؤ القيس في شعره، وبطونهم العظيمة ثلاثة: معاوية بن كندة ومنه الملوك بنو الحرث بن معاوية الأصغر بن ثور بن مرتع بن معاوية والسكون وسكسك وابنهما أشرش بن كندة، ومن السكون بطن تجيب وهم بنو عدي وبنو سعد بن أشرش بن شبيب بن السكون وتجيب اسم أمهما. وكان للسكون ملك بدومة الجندل وكان عليها عبد المغيث بن أكيدر بن عبد الملك بن عبد الحق بن أعمى بن معاوية بن حلاوة بن أمامة بن شكامة بن شبيب بن السكون بعث إليه رسول الله ﷺ في غزوة تبوك خالد بن الوليد فجاء به أسيراً، وحقن ﷺ دمه وصالحه على الجزية ورده إلى موضعه. ومن معاوية بن كندة بنو حجر بن الحرث الأصغر ابن معاوية بن كندة منهم حجر آكل المرار ابن عمرو بن معاوية وهو حجر أبو الملوك ابن كندة الذين يأتي ذكرهم، والحرث الولادة أخو حجر وكان من عقبه الخارجين باليمن المسلمين طالب الحق وكان أباضياً وسيأتي ذكره، ومنهم الأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية وجبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية بن الحرث الأكبر جاهلي إسلامي، وابنه محمد بن الأشعث وابنه عبد الرحمن بن الأشعث القائم على عبد الملك والحجاج وهو مشهور، وابن عمهم أيضاً ابن عدي وهو الأذمر بن عدي بن جبلة له صحبة فيما يقال، وهو الذي قتله معاوية على الثورة بأخيه زياد وخبره معروف.

هذه قبائل اليمن من قحطان استوفينا ذكر بطونهم وأنسابهم ونرجع الآن إلى ذكر من كان الملك منهم بالشام والحجاز والعراق حسبما نقصه، والله تعالى المعين بكرمه ومنه لا رب غيره ولا خير إلا خيره.

الخبر عن ملوك الحيرة من آل المنذر من هذه الطبقة وكيف انساق الملك إليهم ممن قبلهم وكيف صار إلى طيء من بعدهم

أما أخبار العرب بالعراق في الجيل الأول وهم العرب العاربة فلم يصل إلينا تفاصيلها وشرح حالها، إلا أن قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق، والمسند في بعض الأقوال أن الضحاك بن سنان منهم كما مر. وأما في الجيل الثاني وهم العرب المستعربة فلم يكن لهم به مستبد وإنما كان ملكهم به بدوياً ورياستهم في أهل الظواعن. وكان ملك العرب كما مر في التابعة من أهل اليمن، وكانت بينهم وبين فارس حروب وربما غلبوهم على العراق وملكوه أو بعضه كما مر، لكن اليمن لم يغلبوا ثانياً على ما ملكوا منه، وقد مر إيقاع بختنصر وإثخانه فيهم ما تقدم. وكان في سواد العراق وأطراف الشام والجزيرة الأرمانيون من بني إرم بن سام، ومن كان من بقية عساكر ابن تبع من جعفر طيء وكلب وتميم وغيرهم من جرهم، ومن نزل معهم بعد ذلك من تنوخ ونمارة بن لخم وقنص بن معد ومن إليهم كما قدمنا ذكر ذلك. وكان ما بين الحيرة والفرات إلى ناحية الأنبار مواطن لهم وكانوا يسمون عرب الضاحية، وكان أول من ملك منهم في زمن الطوائف مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن قضاعة، وكان منزله مما يلي الأنبار.

وملك من بعده أخوه عمرو بن فهم. ثم ملك من بعدهما جذيمة الأبرش اثنتي عشرة سنة، وقد تقدم أنه صهرهما وأن مالك بن زهير بن عمرو بن فهم زوجه أخته وصاروا حلفاء مع الأزد من قوم جذيمة ونسب جذيمة في الأزد إلى بني زهران، ثم إلى دوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران، وهو جذيمة بن ملك بن فهم بن غنم بن دوس هكذا قال ابن الكلبي ويقال: إنه من وبار بن أميم بن لاوذ بن سام، وكان بنو زهران من الأزد خرجوا قبل خروج

مزيقيا من اليمن ونزلوا بالعراق وقيل ساروا من اليمن مع أولاد جفنة بن مزيقيا.

فلما تفرق الأزد على المواطن نزل بنو زهران هؤلاء بالشراة وعمان وصار لهم مع الطوائف ملك، وكان مالك بن فهم هذا من ملوكهم. وكان بشاطئ الفرات من الجانب الشرقي عمرو بن الظرب بن حسان بن أدينة من ولد السميدع بن هوثر من بقايا العمالقة، فكان عمرو بن الظرب على مشارف الشام والجزيرة، وكان منزله بالمضيق بين الخابور وقرقيسا فكانت بينه وبين مالك بن فهم حروب هلك عمرو في بعضها، وقامت بملكه من بعده ابنته الزباء بنت عمرو واسمها نائلة عند الطبري وميسون عند ابن دريد.

قال السهيلي: ويقال إن الزباء الملكة كانت من ذرية السميدع بن هوثر من بني قطورا أهل مكة، وهو السميدع بن مرثد بالثاء المثلثة ابن لاي بن قطور بن كركي بن عملاق، وهي بنت عمرو بن أدينة بن الظرب بن حسان. وبين حسان هذا والسميدع آباء كثيرة ليست بصحيحة لبعد زمن الزباء من زمن السميدع انتهى كلام السهيلي، ولم تزل الحرب بين مالك بن فهم وبين الزباء بنت عمرو إلى أن ألجأها إلى أطراف مملكتها، وكان يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما في أيديهم.

قال أبو عبيدة: وهو أول ملك كان بالعراق من العرب وأول من نصب المجانيق وأوقد الشموع وملك ستين سنة. ولما هلك قام بأمره من بعده جذيمة الوضاح ويقال له الأبرش، وكان يكنى بأبي مالك وهو منادم الفرقدين.

قال أبو عبيدة: كان جذيمة بعد عيسى بثلاثين سنة فملك أزمان الطوائف خمساً وسبعين سنة وأيام أردشير كلها خمسة عشر سنة وثماني سنين من أيام سابور، وكان بينه وبين الزباء سلم وحرب، ولم تزل تحاول الثأر منه بأبيها حتى تحيلت عليه وأطمعته في نفسها فخطبها وأجابته، وأجمع المسير إليها وأبى عليه وزيره قيصر بن سعد، فعصاه ودخل إليها ولقيته بالجنود وأحس بالشر، فنجا قصير ودخل جذيمة إلى قصرها فقطعت رواهشه وأجرت دمه إلى أن هلك في حكاية منقولة في كتب الإخباريين.

قال الطبري: وكان جذيمة من أفضل ملوك العرب رأياً وأبعدهم مغاراً وأشدهم حزماً وأول من استجمع له الملك بأرض العراق وسرى بالجيوش، وكان به برص فكنوا عنه بالوضاح إجلالاً له، وكانت منازله بين الحيرة والأنبار وهيت ونواحيها وعين التمر وأطراف البر العمق والقطقطانية وجفنة، وكانت تجبى إليه الأموال وتفد إليه الوفود، وغزا في بعض الأيام طسماً وجديساً في منازلهم باليمامة، ووجد حسان بن تبع قد أغار عليهم فانكفأ هو راجعاً بمن معه، وأتت خيول حسان على سرايا فأجاحوها. وكان أكثر غزو جذيمة للعرب العاربة، وكان قد تكهن وادعى النبوة.

وكانت منازل إياد بعين أباغ سميت باسم رجل من العمالقة نزل بها وكان جذيمة كثيراً ما يغزوهم حتى طلبوا مسالمته، وكان بينهم غلام من لخم من بني أختهم وكانوا أخوالاً له وهو عدي بن نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحرث بن مسعود بن مالك بن عمرو بن نمارة بن لخم، وكان له جمال وضرب وطلبه منهم جذيمة فامتنعوا من تسليمه إليه، فألح عليهم بالغزو وبعثت إياد من سرق لهم صنمين كانا عند جذيمة يدعو بهما ويستسقي بهما وعرفوه أن الصنمين عندهم وأنهم يردونهما بشريطة رفع الغزو عنهم، فأجابهم إلى ذلك بشريطة أن يبعثوا مع الصنمين عدي بن نصر فكان ذلك.

ولما جاء عدي بن نصر استخلصه لنفسه وولاه شرابه، وهويته رقاش أخته فراسلته فدافعها بالخشية من جذيمة، فقالت له اخطبني منه إذا أخذت الخمر منه وأشهد عليه القوم ففعل، وأعرس بها من ليلته، وأصبح مضرجاً بالخلوق. وراب جذيمة شأنه ثم أعلم بما كان منه فعض على يديه أسفاً، وهرب عدي فلم يظهر له أثر، ثم سألها في أبيات شعر معروفة فأخبرته بما كان منه فعرف عذرها وكف، وأقام عدي في أخواله إياد إلى أن هلك، وولدت رقاش منه غلاماً وسمته عمراً وربي عند خاله جذيمة وكان يستظرفه ثم استهوته الجن فغاب وضرب له جذيمة في الآفاق إلى أن رده عليه وافدان من العتقا، ثم من قضاعة وهما مالك وعقيل ابنا فارج بن مالك بن العنس أهديا له طرفاً ومتاعاً، ولقيا عمراً بطريقهما وقد ساءت حاله وسألاه فأخبرهما باسمه ونسبه فأصلحا من شأنه وجاءا به إلى جذيمة بالحيرة فسر به وسرت أمه. وحكم الرجلين فطلبا منادمته فأسعفهما وكانا ينادمانه حتى ضرب المثل بهما وقيل ندماني جذيمة، والقصة مبسوطة في كتاب الإخباريين بأكثر من هذا.

قال الطبري: وكان ملك العرب بأرض الحيرة ومشارف الشام عمرو بن ظرب بن حسان بن أدينة بن السميدع بن هوثر العملاقي، فكانت بينه وبين جذيمة حرب قتل فيها عمرو بن الظرب وفضت جموعه. وملكت بعده ابنته الزباء واسمها نائلة وجنودها بقايا العمالقة من عاد الأولى ومن نهد وسليح ابني حلوان ومن كان معهم من قبائل قضاعة، وكانت تسكن على

شاطئ الفرات وقد بنت هنالك قصراً وتربع عند بطن المجاز وتصيف بتدمر. ولما استحكم لها الملك أجمعت أخذ الثأر من جذيمة بأبيها فبعثت إليه توهمه الخطبة وأنها امرأة لا يليق بها الملك فيجمع ملكها إلى ملكه، فطمع في ذلك ووافقه قومه، وأبى عليه منهم قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس بن أربى بن نمارة بن لخم وكان حازماً ناصحاً، وحذره عاقبة ذلك، فعصاه واستشار ابن أخته عمرو بن عدي فوافقه فاستخلفه على قومه، وجعل على خيوله عمرو بن عبد الجن، وسار هو على غربي الفرات إلى أن نزل رحبة مالك بن طوق وأتته الرسل منها بالألطاف والهدايا، ثم استقبلته الخيول فقال له قصير إن أحاطت بك الخيول فهو الغدر فاركب فرسك العصا وكانت لا تجارى. فأحاطت به الخيول ودخل جذيمة على الزباء فقطعت رواهشه فسال دمه حتى نزف ومات.

وقدم قصير على عمرو بن عدي وقد اختلف عليه قومه ومال جماعة منهم إلى عمرو بن عبد الجن فأصلح أمرهم حتى انقادوا جميعاً لعمرو بن عدي، وأشار عليه يطلب الثأر من الزباء بخاله جذيمة. وكانت الكاهنة قد عرفتها بملكها وأعطتها علامات عمرو فحذرته وبعثت رجلاً مصوراً يصور لها عمراً في جميع حالاته، فسار إليه متنكراً واختلط بحشمه وجاء إليها بصورته فاستثبتته وتيقنت أن مهلكها منه، واتخذت نفقاً في الأرض من مجلسها إلى حصن داخل مدينتها. وعمد عمرو إلى قصير فجدع أنفه بمواطأة منه على ذلك فلحق بالزباء يشكو ما أصابه من عمرو وأنه اتهمه بمداخلة الزباء في أمر خاله جذيمة، وما رأيت بعد ما فعل بي أنكى له من أن أكون معك. فأكرمته وقربته حتى إذا رضي منها من الوثوق به أشار عليها بالتجارة في طرف العراق وأمتعته فأعطته مالاً وعيراً، وذهب إلى العراق ولقي عمرو بن عدي بالحيرة فجهزه بالطرف والأمتعة كيما يرضيها، وأتاها بذلك فازدادت به وثوقاً وجهزته بأكثر من الأولى.

ثم عاد الثالثة وحمل بغاة الجند من أصحاب عمرو في الغرائر على الجمال وعمرو فيهم، وتقدم فبشرها بالعيرة وبكثرة ما حمل إليها من الطرف، فخرجت تنظر فأنكرت ما رأته في الجمال من التكارد، ثم دخلت العير المدينة فلما توسطت أنيخت وخرج الرجال، وبادر عمرو إلى النفق فوقف عنده، ووضع الرجال سيوفهم في أهل البلد. وبادرت الزباء إلى النفق فوجدت عمراً قائماً عنده فلحمها بالسيف وماتت، وأصاب ما أصاب من المدينة وانكفأ راجعاً.

قال الطبري: وعمرو بن عدي أول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب، وأول من تجده أهل الحيرة في كتبهم من ملوك العرب بالعراق، وإليه ينسبون وهم ملوك آل نصر. ولم يزل عمرو بن عدي ملكاً حتى مات وهو ابن مائة وعشرين سنة مستبداً منفرداً يغزوهم ويغنم، وتفد عليه الوفود ولا يدين للملوك الطوائف ولا يدينون له حتى قدم أردشير بن بابك في أهل فارس.

قال الطبري: وإنما ذكرنا في هذا الموضع أمر جذيمة وابن أخته عمرو بن عدي لما قدمناه عند ذكر ملوك اليمن، وأنهم لم يكن لهم ملك مستفحل وإنما كانوا طوائف على المخاليف يغير كل واحد على صاحبه إذا استغفله، ويرجع خوف الطلب حتى كان عمرو بن عدي فاتصل له ولعقبه الملك على من كان بنواحي العراق وبادية الحجاز بالعرب، فاستعمله ملوك فارس على ذلك إلى آخر أمرهم. وكان أمر آل نصر هؤلاء ومن كان من ولاة الفرس وعمالهم على العرب معروفاً مثبتاً عندهم في كنائسهم وأشعارهم.

وقال هشام بن الكلبي: كنت أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة. وأما ابن إسحاق فذكر في آل نصر ومصيرهم إلى العراق أن ذلك كان بسبب الرؤيا التي رآها ربيعة بن نصر وعبرها الكاهنان شق وسطيح، وفيها أن الحبشة يغلبون على ملكهم باليمن، قال: فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرازاذ فأسكنهم الحيرة، ومن بقية ربيعة بن نصر كان النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر. وقد يقال أن المنذر من أعقاب ساطرون ملك الحضر من تنوخ قضاعة، رواه ابن إسحاق من علماء الكوفة ورواه عن جبير بن مطعم قال: لما أتى عمر رضي الله عنه بسيف النعمان دعا بجبير بن مطعم، وكان أنسب قريش لقريش والعرب، تعلمه من أبي بكر رضي الله عنه فسلمه إياه، ثم قال: ممن كان النعمان يا جبير؟ قال: كان من أسلاف قنص بن معد.

قال السهيلي: كان ولد قنص بن معد انتشروا بالحجاز فوقعت بينهم وبين بني أبيهم حرب وتضايق بالبلاد وأجدبت الأرض، فساروا نحو سواد العراق وذلك في أيام ملوك الطوائف فقاتلهم الأردوانيون وبعض ملوك الطوائف وأجلوهم عن السواد وقتلوهم، إلا أشلاء لحقت بقبائل العرب ودخلوا فيهم فانتسبوا إليهم.

قال الطبري: حين سأله عمر عن النعمان قال: كانت العرب تقول أن أشلاء قنص بن معد وهم من ولد عجم بن

قنص إلا أن الناس صحفوا عجم وجعلوا مكانه لخم. قال ابن إسحاق: وأما سائر العرب فيقولون النعمان بن المنذر رجل من لخم ربي بين ولد ربيعة بن نصر أهـ.

ولما هلك عمرو بن عدي ولي بعده على العرب وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة امرؤ القيس بن عمرو بن عدي، ويقال له البدء، وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس، وعاش فيما ذكر هشام بن الكلبي مائة وأربعة عشر سنة، منها أيام سابور ثلاثاً وعشرين سنة، وأيام هرمز بن سابور سنة واحدة، وأيام بهرام بن هرمز ثلاث سنين، وأيام بهرام بن بهرام ثماني عشرة سنة، ومن أيام سابور سبعون سنة.

وهلك لعهده فولي مكانه ابنه عمرو بن امرئ القيس البدء، فأقام في ملكه ثلاثين سنة بقية أيام سابور بن سابور، ثم ولي مكانه أوس بن قلام العمليقي فيما قال هشام بن محمد، وهو من بني عمرو بن عملاق، فأقام في ولايته خمس سنين ثم سار به جحجبا بن عتيك بن لخم فقتله وولي مكانه. ثم هلك في عهد بهرام بن سابور. وولي من بعده امرؤ القيس بن عمرو خمساً وعشرين سنة وهلك أيام يزدجرد الأثيم، فولي مكانه ابنه النعمان بن امرئ القيس وأمه شقيقة بنت ربيعة بن ذهل بن شيبان وهو صاحب الخورنق.

ويقال إن سبب بنائه إياه إن يزجرد الأثيم دفع إليه ابنه بهرام جور ليربيه وأمره ببناء هذا الخورنق مسكناً له وأسكنه إياه، ويقال: إن الصانع الذي بناه كان اسمه سنمار وأنه لما فرغ من بنائه ألقاه من أعلاه فمات من أجل محاورة وقعت اختلف الناس في نقلها والله أعلم بصحتها، وذهب ذلك مثلاً بين العرب في قبح الجزاء ووقع في أشعارهم منه كثير. وكان النعمان هذا من أفحل ملوك آل نصر وكانت له سنانان إحداهما للعرب والأخرى للفرس، وكان يغزو بهما بلاد العرب بالشام ويدوخها، وأقام في ملكه ثلاثين سنة ثم زهد وترك الملك ولبس المسوح وذهب فلم يوجد له أثر.

قال الطبري: وأما العلماء بأخبار الفرس فيقولون إن الذي تولى تربية بهرام هو المنذر بن النعمان بن امرئ القيس، دفعه إليه يزدجرد الأثيم لإشارة كانت عنده فيه من المنجمين، فأحسن تربيته وتأديبه وجاءه بمن يلقنه الخلال من العلوم والآداب والفروسية والنقابة حتى اشتمل على ذلك كله بما رضيه، ثم رده إلى أبيه فأقام عنده قليلاً ولم يرض بحاله، ووفد على أبيه وافد قيصر وهو أخوه قياودس، فقصده بهرام أن يسأل له من أبيه الرجوع إلى بلاد العرب فرجع، ونزل على المنذر. ثم هلك يزدجرد فاجتمع أهل فارس وولوا عليهم شخصاً من ولد أردشير وعدلوا عن بهرام لمرباه بين العرب وخلوه عن آداب العجم، وجهز المنذر العساكر لبهرام لطلب ملكه، وقدم ابنه النعمان فحاصر مدينة الملك ثم جاء على أثره بعساكر العرب وبهرام معه فأذعن له فارس وأطاعوه، واستوهب المنذر ذنوبهم من بهرام فعفا عنهم واجتمع أمره.

ورجع المنذر إلى بلاده وشغل باللّهو وطمع فيه الملوك حوله، وغزاه خاقان ملك الترك في خمسين ألفاً من العساكر، وسار إليه بهرام فانتهى إلى أذربيجان ثم إلى أرمينية. ثم ذهب يتصيد وخلف أخوه نرسي على العساكر فرماه أهل فارس بالجبن وأنه خار عن لقاء الترك، فراسلوا خاقان في الصلح على ما يرضاه فرجع عنهم. وانتهى الخبر بذلك إلى بهرام فسار في اتباعه وبيته فانفض بعسكره وقتله بيده، واستولى بهرام على ما في العساكر من الأثقال والذراري وظفر بتاج خاقان وأكليله وسيفه بما كان فيه من الجواهر واليواقيت، وأسر زوجته، وغلب على ناحية من بلاده فولى عليها بعض مرازبته وأذن له في الجلوس على سرير الفضة وأغزى ما وراء النهر فدانوا بالجزية، وانصرف إلى أذربيجان فجعل سيف خاقان وأكليله معلقاً ببيت النار وأخدمه خاتون امرأة خاقان، ورفع الخراج عن الناس ثلاث سنين شكراً لله تعالى على النصر، وتصدق بعشرين ألف ألف درهم مكررة مرتين، وكتب بالخبر إلى النواحي وولى أخاه نرسي على خراسان واستوزر له بهرنرسي بن بدارة بن فرخزاد، ووصل الطبري نسبه من هنا بعد أربعة فكان رابعهم أشك بن دارا وأغزى بهرام أرض الروم في أربعين ألفاً فانتهى إلى القسطنطينية ورجع.

قال هشام بن الكلبي: ثم جاء الحرث بن عمرو بن حجر الكندي في جيش عظيم إلى بلاد معد والحيرة وقد ولاه تبع بن حسان بن تبع، فسار إليه النعمان بن امرئ القيس بن الشقيقة وقاتله فقتل النعمان وعدة من أهل بيته وانهزم أصحابه، وأفلت المنذر بن النعمان الأكبر وأمه ماء السماء امرأة من اليمن، وتشتت ملك آل النعمان، وملك الحرث بن عمرو ما كانوا يملكونه. وقال غير هشام بن الكلبي: إن النعمان الذي قتله الحرث هو ابن المنذر بن النعمان وأمه هند بنت زيد مناة بن زيد الله بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن شيبان، وهو الذي أسرته فارس، ملك عشرين سنة منها في أيام فيروز بن يزدجرد عشر سنين وأيام يلاوش بن يزدجرد أربع سنين وفي أيام قباذ بن فيروز ست سنين.

قال هشام بن محمد الكلبي: ولما ملك الحرث بن عمرو ملك آل النعمان بعث إليه قباذ يطلب لقاءه وكان مضعفاً فجاءه الحرث وصالحه على أن لا يتجاوز بالعرب الفرات، ثم استضعفه

فأطلق العرب للغارة في نواحي السواد وراء الفرات فسأله اللقاء بابنه، واعتذر إليه أشظاظ العرب وأنه لا يضبطهم إلا المال فاقطعه جانباً من السواد، فبعث الحرث إلى ملك اليمن تبع يستنهضه بغزو فارس في بلادهم ويخبره بضعف ملكهم، فجمع وسار حتى نزل الحيرة وبعث ابن أخيه شمراً ذا الجناح إلى قباذ فقاتله واتبعه إلى الري فقتله، ثم سار شمر إلى خراسان وبعث تبع ابنه حسان إلى الصغد وأمرهما معاً أن يدوخا أرض الصين، وبعث ابن أخيه يعفر إلى الروم فحاصر القسطنطينية حتى أعطوا الطاعة والأتاوة، وتقدم إلى رومة فحاصرها. ثم أصابهم الطاعون ووهنوا له فوثب عليهم الروم فقتلوهم جميعاً.

وتقدم شمر إلى سمرقند فحاصرها واستعمل الحيلة فيها فملكها، ثم سار إلى الصين وهزم الترك ووجد أخاه حسان قد سبقه إلى الصين منذ ثلاث سنين فأقاما هنالك إحدى وعشرين سنة إلى أن هلك قال: والصحيح المتفق عليه أنهما رجعا إلى بلادهما بما غنماه من الأموال والذخائر وصنوف الجواهر والطيوب. وسار تبع حتى قدم مكة ونزل شعب حجاز وكانت وفاته باليمن بعد أن ملك مائة وعشرين سنة، ولم يخرج أحد بعده من ملوك اليمن غازياً. ويقال: إنه دخل في دين اليهود للأحبار الذين خرجوا معه من يثرب. وأما ابن إسحاق فعنده أن الذي سار إلى المشرق من التبابعة تبع الأخير وهو تبان أسعد أبو كرب، قال هشام بن محمد: وولي أنوشروان بعد الحرث بن عمرو المنذر بن النعمان الذي أفلت يوم قتل أبوه ونزل الحيرة وأبوه هو النعمان الأكبر، فلما قوي سلطان أنوشروان واشتد أمره بعث إلى المنذر فملكه الحيرة وما كان يليه الحرث بن عمرو آكل المرار فلم يزل كذلك حتى هلك. قال: وملك العرب من قبل الفرس بعد الأسود بن المنذر أخوه المنذر بن المنذر وأمه ماوية بنت النعمان سبع سنين.

ثم ملك بعده النعمان بن الأسود بن المنذر وأمه أم الملك أخت الحرث بن عمرو أربع سنين، ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة بن مالك بن عدي بن الذميل بن ثور بن أسد بن أربى بن نمارة بن لخم ثلاث سنين، ثم ملك المنذر بن امرئ القيس وهو ذو القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره وأمه ماء السماء بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر بن الضبيب بن سعد بن الخزرج بن تيم اللّه بن النمر بن قاسط فملك تسعاً وأربعين سنة، ثم ملك ابنه عمرو بن المنذر وأمه هند بنت الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار ست عشرة سنة ولثمان سنين من ملكه كان عام الفيل الذي ولد فيه رسول اللّه ﷺ.

ثم ولي عمرو بن هند شقيقه قابوس أربع سنين: سنة منها أيام أنوشروان وثلاثة أيام ابنه هرمز، ثم ولي بعده أخوهما المنذر أربع سنين، ثم ولي بعده النعمان بن المنذر وهو أبو قابوس اثنتين وعشرين سنة منها ثمان سنين أيام هرمز وأربع عشرة أيام أبرويز، وفي أيام النعمان هذا اضمحل ملك آل نصر بالجزيرة وعليه انقرض، وهو الذي قتله كسرى أبرويز وابدل منه في الولاية على الحيرة والعرب بإياس بن قبيصة الطائي، ثم رد رياسة الحيرة لمرازبة فارس إلى أن جاء الإسلام وذهب ملك فارس. وكان الذي دعا أبرويز إلى قتله سعاية زيد بن عدي العبادي فيه عند أبرويز بسبب أن النعمان قتل أباه عدي بن زيد.

وسياقة الخبر عن ذلك أن عدي بن زيد كان من تراجمة أبرويز وكان سبب قتل النعمان أن أباه وهو زيد بن حماد بن أيوب بن محروب بن عامر بن قبيصة بن امرئ القيس بن زيد مناة والد عدي هذا كان جميلاً شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس، وكانوا أهل بيت يكونون مع الأكاسرة ويقطعونهم القطائع على أن يترجموا عندهم عن العرب، وكان المنذر بن المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان في حجر عدي فأرضعه أهل بيته ورباه قوم من أشراف الحيرة ينسبون إلى لخم ويقال لهم بنو مرسي، وكان للمنذر بن المنذر عشرة سوى النعمان يقال لهم الأشاهب لجمالهم، وكان النعمان من بينهم أحمر أبرش قصيراً أمه سلمى بنت وائل بن عطية من أهل فدك كانت أمة للحرث بن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب بن كلب، وكان قابوس بن المنذر الأكبر عم النعمان بعث إلى أنوشروان بعدي بن زيد وإخوته فكانوا في كتابه يترجمون له، فلما مات المنذر أوصى على ولده إياس بن قبيصة الطائي وجعل أمره كله بيده فأقام على ذلك شهراً، ونظر أنوشروان فيمن يملكه على العرب وشاور عدي بن زيد واستنصحه في بني المنذر فقال بقيتهم في بني المنذر بن المنذر، فاستقدمهم كسرى وأنزلهم على عدي، وكان هواه مع النعمان، فجعل يرعى إخوته تفضيلهم عليه، ويقول لهم: إن أشار عليكم كسرى بالملك ومن يكفوه أمر العرب تكفلوا بشأن ابن أخيكم النعمان، ويسر للنعمان إن سأله كسرى عن شأن إخوته أن يتكفله ويقول: إن عجزت عنهم فأنا عن سواهم أعجز. وكان مع أخيه الأسود بن المنذر رجل من بني مرسي الذين ربوهم اسمه عدي بن أوس بن مرسي فنصحه في عدي وأعلمه أنه يغشه فلم يقبل. ووقف كسرى على مقالاتهم، فمال إلى النعمان وملكه وتوجه بقيمة ستين ألف دينار ورجع إلى الحيرة ملكاً على العرب، وعدي بن أوس في خدمته، وقد أضمر السعاية بعدي بن زيد فكان يظهر

الثناء عليه ويتواصى به مع أصحابه وأن يقولوا مثل قوله، إلا أنه يستصغر النعمان ويزعم أنه ملكه وأنه عامله حتى آسفوه بذلك، وبعث إليه في الزيارة فأتاه وحبسه ثم ندم وخشي عاقبة إطلاقه فجعل يمنيه.

ثم خرج النعمان إلى البحرين وخالفه جفنة ملك غسان إلى الحيرة وغار عليها ونال منها، وكان عدي بن زيد كتب إلى أخيه عند كسرى يشعره بطلب الشفاعة من كسرى إلى النعمان، فجاء الشفيع إلى الحيرة وبها خليفة النعمان، وجاء إلى عدي فقال له أعطني الكتاب أبعثه أنا ولازمني أنت هنا لئلا أقتل. وبعث أعداؤه من بني بقيلة إلى النعمان بأن رسول كسرى دخل عنده فبعث من قتله. فلما وفد وافد كسرى في الشفاعة أظهر له الإجابة وأحسن له بأربعة آلاف دينار وجارية وأذن له أن يخرجه من محبسه فوجده قد مات منذ ليال، فجاء إلى النعمان مثرباً فقال: واللّه لقد تركته حياً. فقال: وكيف تدخل إليه وأنت رسول إلي فطرده فرجع إلى كسرى وأخبره بموته وطوى عنه ما كان من دخوله إليه.

ثم ندم النعمان على قتله، ولقي يوماً وهو يتصيد ابنه زيداً فاعتذر إليه من أمر أبيه، وجهزه إلى كسرى ليكون خليفة أبيه على ترجمة العرب. فأعجب به كسرى وقربه وكان أسيراً عنده، ثم أن كسرى أراد خطبة بنات العرب فأشار عليه عدي بالخطبة في بني منذر فقال له كسرى: اذهب إليهم في ذلك، فقال: إنهم لا ينكحون العجم ويستريبون في ذلك فابعث معي من يفقه العربية فلعلي آتيك بغرضك. فلما جاء إلى النعمان قال لزيد: إما في عير السواد وفارس ما يغنيكم عن بناتنا؟ وسأل الرسول عن العير فقال له زيد: هي البقر. ثم رجعا إلى كسرى بالخيبة، وأغراه زيد فغضب كسرى وحقدها على النعمان. ثم استقدمه بعد حين لبعض حاجاته وقال له: لا بد من المشافهة لأن الكتاب لا يسعها. ففطن فذهب إلى طيء وغيرهم من قبائل العرب ليمنعوه، فأبوا وفرقوا من معاداة كسرى، إلا بني رواحة بن سعد من بني عبس، فإنهم أجابوه لو كانوا يغنون عنه فعذرهم، وانصرف عنهم إلى بني شيبان بذي قار والرياسة فيهم لهانئ بن مسعود بن عامر بن الخطيب بن عمرو المزدلف ابن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، ولقيس بن خالد بن ذي الخدين. وعلم أن هانئاً يمنعه وكان كسرى قد أقطعه، فرجع إليه النعمان ماله ونعمه وحلقته وهي سلاح ألف فارس شاكه، وسار إلى كسرى، فلقيه زيد بن عدي بساباط وتبين الغدر، فلما بلغ إلى كسرى قيده وأودعه السجن إلى أن هلك فيه بالطاعون ودعا ذلك إلى واقعة ذي قار بين العرب وفارس، وذلك أن كسرى لما قتل النعمان استعمل إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة مكان النعمان لبده التي أسلفها طيء عند كسرى يوم واقعة بهرام على أبرويز، وطلب من النعمان فرسه ينجو عليها فأبى واعترضه حسان بن حنظلة بن جنة الطائي وهو ابن عم إياس بن قبيصة فأركبه فرسه ونجا عليه، ومر في طريقه بإياس فأهدى له فرساً وجزوراً، فرعى له أبرويز هذه الوسائل وقدم إياساً مكان النعمان. وهو إياس بن قبيصة بن أبي عفر بن النعمان بن جنة، فلما هلك النعمان بعث إياس إلى هانيء بن مسعود في حلقة النعمان، ويقال كانت أربعمائة درع وقيل ثمانمائة، فمنعها هانيء وغضب كسرى وأراد استئصال بكر بن وائل، وأشار عليه النعمان بن زرعة من بني تغلب أن يمهل إلى فصل القيظ عند ورودهم مياه ذي قار. فلما قاظوا ونزلوا تلك المياه جاءهم النعمان بن زرعة يخيرهم في الحرب وإعطاء اليد فاختاروا الحرب، اختاره حنظلة بن سنان العجلي وكانوا قد ولوه أمرهم وقال لهم إنما هو الموت قتلاً إن أعطيتم باليد أو عطشاً إن هربتم وربما لقيكم بنو تميم فقتلوكم.

ثم بعث كسرى إلى إياس بن قبيصة أن يسير إلى حربهم ويأخذه معه مسالح فارس وهم الجند الذين كانوا معه بالقطقطانية وبارق وتغلب، وبعث إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الخدين وكان على طف شقران أن يوافي إياساً، فجاءت الفرس معها الجنود والأفيال عليها الأساورة، وكان رسول اللّه ﷺ يومئذ بالمدينة فقال: «اليوم انتصف العرب من العجم ونصروا»، وحفظ ذلك اليوم فإذا هو يوم الوقعة.

ولما تواقف الفريقان جاء قيس بن مسعود إلى هانيء وأشار عليه أن يفرق سلاح النعمان على أصحابه ففعل، واختلف هانيء بن مسعود وحنظلة بن ثعلبة بن سنان، فأشار هانيء بركوب الفلاة وقطع حنظلة حزم الرجال وضرب على نفسه وآلى أن لا يفر. ثم استقوا الماء لنصف شهر، واقتتلوا وهرب العجم من العطش واتبعهم بكر بن وعجل، فاصطف العجم وقاتلوا وصبروا وراسلت إياد بكر بن وائل: إنا نفر عند اللقاء فصحبوهم، واشتد القتال وقطعوا الآمال حتى سقطت الرجال إلى الأرض ثم حملوا عليهم، واعترضهم يزيد بن حماد السكوني في قومه كان كميناً أمامهم فشدوا على إياس بن قبيصة ومن معه من العرب فولت إياد منهزمة، وانهزمت الفرس وجاوزوا الماء في حر الظهيرة في يوم قائظ فهلكوا أجمعين قتلاً وعطشاً.

وأقام إياس في ولاية الحيرة مكان النعمان ومعه الهمرجان من مرازبة فارس تسع سنين وفي الثامنة منها كانت البعثة وولي بعده على الحيرة آخر من المرازبة اسمه زاذويه بن ماهان الهمذاني

سبع عشرة سنة إلى أيام بوران بنت كسرى. ثم ولي المنذر بن النعمان بن المنذر وتسميه العرب الغرور الذي قتل بالبحرين يوم أجداث، ولما زحف المسلمون إلى العراق ونزل خالد بن الوليد الحيرة حاصرهم بقصورها فلما أشرفوا على الهلكة خرج إليهم إياس بن قبيصة في أشراف أهل الحيرة واتقى من خالد والمسلمين بالجزية، فقبلوا منه وصالحهم على مائة وستين ألف درهم، وكتب لهم خالد بالعهد والأمان وكانت أول جزية بالعراق. وكان فيهم هانيء بن قبيصة أخو إياس بن قبيصة بالقصر الأبيض، وعدي بن عدي العبادي ابن عبد القيس، وزيد بن عدي بقصر العدسيين، وأهل نصر بن عدس من قصور الحيرة وهو بنو عوان بن عبد المسيح بن كلب بن وبرة وأهل قصر بني بقيلة لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين فقالوا: يا حارث ما أنت إلا بقيلة خضراء وعبد المسيح هذا هو المعمر وهو الذي بعثه كسرى أبرويز إلى سطيح في شأن رؤيا المرزبان، ولما صالح إياس بن قبيصة المسلمين وعقد لهم الجزية سخطت عليه الأكاسرة وعزلوه، فكان ملكه تسع سنين ولسنة منها وثمانية أشهر كانت البعوث، وولي حينئذ الخلافة عمر بن الخطاب وعقد لسعد بن أبي وقاص على حرب فارس، فكان أول عمل يزدجرد أن أمر مرزبان الحيرة أن يبعث قابوس بن قابوس بن المنذر وأغراه بالعرب ووعده بملك آبائه، وقال له ادع العرب وأنت على من أجابك كما كان آباؤك، فنهض قابوس إلى القادسية ونزلها وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان للنعمان فكاتبهم مقاربة ووعداً، وانتهى الخبر إلى المثنى بن حارثة الشيباني عقب مهلك أخيه المثنى وقبل وصول سعد، فأسرى من ذي قار وبيت قابوس بالقادسية ففض جمعه وقتله، وكان آخر من بقي من ملوك آل نصر بن ربيعة وانقرض أمرهم مع زوال ملك فارس. اهـ كلام الطبري وما نقله عن هشام بن الكلبي.

وقد كان المغيرة بن شعبة تزوج هنداً بنت النعمان، وسعد بن أبي وقاص تزوج صدقة بنت النعمان، وخبرهما معروف ذكره المسعودي وغيره. وعدة ملوك آل نصر عند هشام بن الكلبي عشرون ملكاً ومدتهم خمسمائة وعشرون سنة، وعند المسعودي ثلاث وعشرون ملكاً ومدتهم ستمائة وعشرون سنة. قال: وقد قيل أن مدة عمران الحيرة إلى أن خربت عند بناء الكوفة خمسمائة سنة، قال: ولم يزل عمرانها يتناقص إلى أيام المعتضد ثم أقفرت. وفيما نقله بعض الإخباريين أن خالداً بن الوليد قال لعبد المسيح: أخبرني بما رأيت من الأيام؟ قال: نعم!. قال: رأيت المرأة من الحيرة تضع مكتلها على رأسها ثم تخرج حتى تأتي الشام في قرى متصلة وبساتين ملتفة وقد أصبحت اليوم خراباً والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

هذا ترتيب الملوك من ولد نصر بن ربيعة بن كعب بن عمرو بن عدي الأول منهم وهو الترتيب الذي ذكره الطبري عن ابن الكلبي وغيره، وبين الناس فيه خلاف في ترتيب ملوكهم، بعد اتفاقهم على أن الذي ملك بعد عمرو بن عدي ابنه امرؤ القيس ثم ابنه عمرو بن امرئ القيس وهو الثالث منهم. قال علي بن عبد العزيز الجرجاني في أنسابه بعد ذكر عمرو هذا: ثم ثار أوس بن قلام العملقي وملك فثار به جحجب بن عتيك اللخمي فقتله وملك، ثم ملك من بعده امرؤ القيس البدء بن عمرو الثالث، ثم ملك من بعده ابنه النعمان الأكبر ابن امرئ القيس بن الشقيقة وهو الذي ترك الملك وساح، ثم ملك من بعده ابنه المنذر، ثم ابنه الأسود بن المنذر، ثم أخوه المنذر بن المنذر، ثم النعمان بن الأسود بن المنذر، ثم أبو يعفر بن علقمة بن مالك بن عدي بن الذميل بن ثور بن أسنش بن زبى بن نمارة بن لخم.

ثم ملك من بعده امرؤ القيس بن النعمان الأكبر، ثم ابنه امرؤ القيس، ثم كان أمر الحرث بن عدي الكندي حتى تصالحا وتزوج المنذر بنته هنداً فولدت له عمراً، ثم ملك بعد المنذر عمرو بن هند، ثم قابوس بن المنذر أخوه، ثم المنذر بن المنذر أخوه الآخر، ثم ابنه النعمان بن المنذر. وهكذا نسبه الجرجاني وهو موافق لترتيب الطبري إلا في الحرث بن عمرو الكندي فإن الطبري جعله بعد النعمان الأكبر بن امرئ القيس وابنه المنذر، والجرجاني جعله بعد المنذر بن امرئ القيس بن النعمان وبين هذا المنذر والمنذر بن النعمان الأكبر خمسة من ملوكهم فيهم أبو يعفر بن الذميل، فالله أعلم بالصحيح من ذلك.

وأما المسعودي فخالف ترتيبهم فقال: بعد النعمان الأكبر ابن امرئ القيس وسماه قائد الفرس ملك خمساً وستين سنة، ثم ملك ابنه المنذر خمساً وعشرين سنة وهذا مثل ترتيب الطبري والجرجاني. ثم خالفهما وقال: وملك النعمان بن المنذر الحيرة وهو الذي بنى الخورنق خمساً وثلاثين سنة، وملك الأسود بن النعمان عشرين سنة، وملك ابنه المنذر أربعين سنة وأمه ماء السماء من النمر قاسط من ربيعة وبها عرف، وملك ابنه عمرو بن المنذر أربعاً وعشرين سنة، ثم ملك بعده أخوه النعمان وأمه مامة وقتله كسرى وهو آخرهم. هكذا ساق المسعودي نسق ملوكهم ونسبهم وهو مخالف لما ذكره الطبري والجرجاني.

وقال السهيلي: كان للمنذر بن ماء السماء من الولد المملكين عمرو والنعمان وكان عمرو لهند بنت الحرث آكل المرار قال: وكان عمرو هذا من أعاظم ملوك الحيرة ويعرف بمحرق لأنه

حرق مدينة الملهم عند اليمامة، وكان يملك من قبل كسرى أنوشروان، ومن بعده ملك أخوه النعمان بن المنذر وأمه مامة وقتله كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان لموجدة وجدها بسعاية زيد بن عدي بن زيد العبادي، وساق قصة مقتله وولاية إياس بن قبيصة الطائي من بعده وما وقع بعد ذلك من حرب ذي قار وغلب العرب فيها على العجم إلى آخرها. فالله أعلم بالصحيح في ترتيب ملوكهم.

وقال ابن سعيد: أول حديثهم في الملك أن بني نمارة كانوا جنداً للعمالقة بأطراف الشام والجزيرة وكانوا مع الزباء، ولما قتلت جذيمة قام عمرو بن عدي منهم بثأره، وكان ابن أخته حتى أدركه وقتلها وبنى الحيرة على فرع من الفرات في أرض العراق.

وقال صاحب تواريخ الأمم: ملك مائة وثمانية وعشرين سنة أيام ملوك الطوائف، وبعده امرؤ القيس بن عمرو، ولما مات ولى أردشير بن سابور على الحيرة أوس بن قلام من العمالقة، ثم كان ملك الحيرة فوليها امرؤ القيس بن عمرو بن امرئ القيس المعروف بمحرق قال: وهو المذكور في قصيدة الأسود بن يعفر التي على روي الدال. وبعده ابنه النعمان بن شقيقة وهي من بني شيبان وجعل معه كسرى والياً للفرس وهو باني الخورنق والسدير على مياه الفرات، وملك إلى أن ساح وتزهد ثلاثين سنة وذكره عدي بن زيد في شعره.

وملك بعده ابنه المنذر وهو الذي سعى لبهرام جور في الملك حتى تم له وملك أربعاً وأربعين سنة، وملك بعده ابنه الأسود، ثم أخوه المنذر بن المنذر ثم النعمان بن الأسود وغضب عليه كسرى وولى مكانه الذميل بن لخم من غير بيت الملك، ثم عاد الملك إليهم فولي امرؤ القيس بن النعمان الأكبر وهو ابن الشقيقة وهو الذي غزا بكر بن وائل، وملك بعده ابنه المنذر بن ماء السماء وهي أمه أخت كليب سيد وائل وطالبه قباذ باتباع مزدك على الزندقة فأبى، وولى مكانه الحرث بن عمرو بن حجر الكندي، ثم رده أنوشروان إلى ملك الحيرة وقتله الحرث الأعرج الغساني يوم حليمة كما يأتي.

وملك بعده ابنه عمرو بن هند وهي مامة عمة امرئ القيس بن حجر المعروف بمضرط الحجارة لشدة بأسه، وهو محرق الثاني حرق بني دارم من تميم لأنهم قتلوا أخاه وحلف ليحرقن منهم مائة فحرقهم وملك ستة عشر سنة أيام أنوشروان، فتك به في رواق بين الحيرة والفرات عمرو بن كلثوم سيد تغلب ونهبوا حياءه. وملك بعده أخوه قابوس بن هند وكان أعرج وقتله بعض بني يشكر فولى أنوشروان على الحيرة بعض مرازبة الفرس فلم تستقم له طاعة العرب، فولى عليهم المنذر بن المنذر بن ماء السماء فخرج إلى جهة الشام طالباً ثأر أبيه من الحرث الأعرج الغساني فقتله الحرث أيضاً يوم أباغ.

وملك بعده ابنه النعمان بن المنذر وكان ذميماً أشقر أبرش، وهو أشهر ملوك الحيرة وعليه كثرت وفود العرب وطلبه بثأر أبيه، وحرد من بني جفنة حتى أسر خلقاً كثيراً من أشرافهم، وحمله عدي بن زيد على أن تنصر وترك دين آبائه، وحبس عدياً فشفع كسرى فيه بسعاية أخ له كان عنده فقتله النعمان في محبسه، ثم نشأ ابنه زيد بن عدي وصار ترجماناً لكسرى، فأغراه بالنعمان وحضر مع كسرى أبرويز في وقعة بين الفرس والروم وانهزمت الفرس ونجا النعمان على فرسه التخوم بعد أن طلبه منه كسرى ينجو عليه فأعرض عنه، ونزل له إياس بن قبيصة الطائي عن فرسه فنجا عليه، ووفد عليه النعمان بعد ذلك فقتله وولى على الحيرة إياس بن قبيصة، فلم تستقم له طاعة العرب وغضبوا لقتل النعمان، وكان لهم على الفرس يوم ذي قار سنة ثلاث من البعثة، ومات إياس وصارت الفرس يولون على الحيرة منهم إلى أن ملكها المسلمون.

وذكر البيهقي: أن دين بني نصر كان عبادة الأوثان، وأول من تنصر منهم النعمان بن الشقيقة وقيل بل النعمان الأخير. وملكت العرب بتلك الجهات ابنه المنذر فقتله جيش أبي بكر رضي الله عنه. وفي تواريخ الأمم أن جميع ملوك الحيرة من بني نصر وغيرهم خمسة وعشرون ملكاً في نحو ستمائة سنة والله أعلم وهذا الترتيب مساو لترتيب الطبري والجرجاني والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن ملوك كندة من هذه الطبقة ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم

قال الطبري عن هشام بن محمد الكلبي: كان يخدم ملوك حمير أبناء الأشراف من حمير وغيرهم وكان ممن يخدم حسان بن تبع عمرو بن حجر سيد كندة لوقته وأبوه حجر هو الذي تسميه العرب آكل المرار وهو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحرث الأصغر ابن معاوية بن الحرث الأكبر ابن معاوية بن كندة، وكان أخا حسان بن تبع لأمه، فلما دوخ حسان بلاد العرب وسار في الحجاز وهم بالانصراف ولى على معد بن عدنان كلها أخاه حجر بن عمرو هذا وهو آكل المرار، فدانوا له وسار فيهم أحسن سيرة، ثم هلك وملك من بعده ابنه عمرو المقصور.

قال الطبري عن هشام: ولما سار حسان إلى جديس خلفه على بعض أمور ملكه في حمير، فلما قتل حسان وولي بعده أخوه عمرو بن تبع وكان ذا رأي ونبل، فأراد أن يكرم عمرو بن حجر بما نقصه من ابن أخيه حسان، فزوجه بنت أخيه حسان بن تبع، وتكلمت حمير في ذلك وكان عندهم من الأحداث التي ابتلوا بها أن لا يتزوج في ذلك البيت أحد من العرب سواهم، فولدت بنت حسان لعمرو بن حجر الحرث بن عمرو. وملك بعد عمرو بن تبع عبد بن متون أصغر أولاد حسان، واستهوت الجن منهم تبع بن حسان فولوا عبد كلال مخافة أن يطمع في ملكهم أحد من بيت الملك، فولي عبد كلال لسرو رحمه، وكان على دين النصرانية الأولى وكان ذلك يسوء قومه، ودعا إليه رجل من غسان قدم عليه من الشام، ووثب حمير بالغساني فقتلوه.

ثم رجع تبع بن حسان من استهواء الجن وهو أعلم الناس بنجم وأعقل من يعلم في زمانه وأكثرهم حديثاً عما كان ويكون، فملك على حمير وهابته حمير والعرب، وبعث بابن أخته الحرث بن عمرو بن حجر الكندي في جيش عظيم إلى بلاد معد والحيرة وما والاها، فسار إلى النعمان بن امرئ القيس بن الشقيقة فقاتله فقتل النعمان وعدة من أهل بيته وهزم أصحابه، وأفلت المنذر بن النعمان الأكبر وأمه ماء السماء امرأة من النمر بن قاسط وذهب ملك آل النعمان وملك الحرث بن عمرو وما كانوا يملكون.

وفي كتاب الأغاني قال: لما ملك قباذ، وكان ضعيف الملك، توثبت العرب على المنذر الأكبر ابن ماء السماء وهو ذو القرنين بن النعمان بن الشقيقة فأخرجوه، وإنما سمي ذا القرنين لذؤابتين كانتا له، فخرج هارباً منهم حتى مات في إياد، وترك ابنه المنذر الأصغر فيهم وكان أنكى ولده، وجاؤوا بالحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار فملكوه على بكر وحشدوا له وقاتلوا معه، وظهر على من قاتله من العرب. وأبى قباذ أن يمد المنذر بجيش فلما رأى ذلك كتب إلى الحرث بن عمرو: إني في غير قومي وأنت أحق من ضمني وأنا متحول إليك فحوله وزوجه ابنته هنداً.

وقال غير هشام بن محمد: إن الحرث بن عمرو لما ولي على العرب بعد أبيه اشتدت وطأته وعظم بأسه ونازع ملوك الحيرة وعليهم يومئذ المنذر بن امرئ القيس وبين لهم إذ ولي كسرى قباذ بعد أبيه فيروز بن يزدجرد وكان زنديقاً على رأي ماني، فدعا المنذر إلى رأيه فأبى عليه وأجابه الحرث بن عمرو فملكه على العرب وأنزله بالحيرة، ثم هلك قباذ وولي ابنه أنوشروان فرد ملك الحيرة إلى المنذر، وصالحه الحرث على أن له ما وراء نهر السواد فاقتسما ملك العرب. وفرق الحرث ولده في معد فملك حجراً على بني أسد، وشرحبيل على بني سعد والرباب، وسلمة على بكر وتغلب، ومعديكرب على قيس وكنانة. ويقال: بل كان سلمة على حنظلة وتغلب، وشرحبيل على سعد والرباب وبكر، وكان قيس بن الحرث سيارة أي قوم نزل بهم فهو ملكهم. وفي كتاب الأغاني إنه ملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل، وحنظلة على بني أسد وطوائف من بني عمرو بن تميم والرباب وغلفا وهو معديكرب على قيس، وسلمة بن الحرث على بني تغلب والنمر بن قاسط والنمر بن زيد مناة. اه كلام الأغاني.

فأما شرحبيل فإنه فسد ما بينه وبين أخيه سلمة واقتتلوا بالكلاب ما بين البصرة والكوفة، على سبع من اليمامة وعلى تغلب السفاح وهو سلمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تميم بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب، وسبق إلى الكلاب سفيان بن مجاشع بن دارم من أصحاب سلمة في تغلب مع إخوته لأمه. ثم ورد سلمة وأصحابه فاقتتلوا عامة يومهم، وخذلت بنو حنظلة وعمرو بن تميم والرباب بكر بن وائل، وانصرفت بنو سعد وأتباعها عن تغلب، وصبر بنو بكر وتغلب ليس معهم غيرهم إلى الليل، ونادى منادي سلمة في ذلك اليوم من يقتل شرحبيل ولقاتله مائة من الإبل، فقتل شرحبيل في ذلك اليوم قتله عصيم بن النعمان بن مالك بن غياث بن سعد بن زهير بن بكر بن حبيب التغلبي. وبلغ الخبر إلى أخيه معديكرب فاشتد جزعه وحزنه على أخيه وزاد ذلك حتى اعتراه منه وسواس هلك به، وكان معتزلاً عن الحرث ومنع بنو سعد بن زيد مناة عيال شرحبيل وبعثوا بهم إلى قومهم، فعل ذلك عوف بن شحنة بن الحرث بن عطارد بن عوف بن سعد بن كعب.

وأما سلمة، فإنه فلج فمات، وأما حجر بن الحرث فلم يزل أميراً على بني أسد إلى أن بعث رسله في بعض الأيام لطلب الأتاوة من بني أسد فمنعوها وضربوا الرسل، وكان حجر بتهامة فبلغه الخبر، فسار إليهم في ربيعة وقيس وكنانة فاستباحهم وقتل أشرافهم وسرواتهم وحبس عبيداً بن الأبرص في جمع منهم فاستعطفه بشعر بعث به إليه فسرحه وأصحابه وأوفدهم، فلما بلغوا إليه هجموا عليه ببيته فقتلوه وتولى قتله علباء بن الحرث الكاهلي كان حجر قتل أباه، وبلغ الخبر امرئ القيس فحلف أن لا يقرب لذة حتى يدرك بثأره من بني أسد، وسار صريخاً إلى بني بكر وتغلب فنصروه وأقبل بهم فأجفل بنو أسد، وسار إلى المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة وأوقع امرؤ القيس في كنانة فأثخن فيهم، ثم سار في اتباع بني أسد إلى أن أعيا ولم يظفر منهم بشيء ورجعت عنه بكر وتغلب، فثار إلى مؤثر الخير بن ذي جدن من

ملوك حمير صريخاً بنصره بخمسمائة رجل من حمير ويجمع من العرب سواهم، وجمع المنذر لامرئ القيس ومن معه، وأمده كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة والتقوا فانهزم امرؤ القيس، وفرت حمير ومن كان معه ونجا بدمه وما زال يتنقل في القبائل والمنذر في طلبه وسار إلى قيصر صريخاً فأمده، ثم سعى به الطماح عند قيصر أنه يشبب ببنته، فبعث إليه بحلة مسمومة كان فيها هلاكه ودفن بأنقرة.

قال الجرجاني: ولا يعلم لكندة بعد هؤلاء ملوك اجتمع لهم أمرها وأطيع فيها سوى أنهم قد كان لهم رياسة ونباهة وفيهم سؤدد حتى كانت العرب تسميهم كندة الملوك، وكانت الرياسة يوم جبلة على العساكر لهم، فكان حسان بن عمرو بن الجور على تميم ومعاوية بن شرحبيل بن حصن على بني عامر والجور هو معاوية بن حجر أكل المرار اخو الملك المقصور عمرو بن حجر. والله وارث الأرض ومن عليها.

وفي كتاب الأغاني: أن امرئ القيس لما سار إلى الشام نزل على السموأل بن عاديا بالأبلق بعد إيقاعه ببني كنانة على أنهم بنو أسد وتفرق عنه أصحابه كراهيةً لفعله، واحتاج إلى الهرب فطلبه المنذر بن ماء السماء وبعث في طلبه جموعاً من إياد وبهرا وتنوخ وجيوشاً من الأساورة أمده بهم أنوشروان، وخذلته حمير وتفرقوا عنه فالتجأ إلى السموأل ومعه أدراع خمسة مسماة كانت لبني آكل المرار يتوارثونها، ومعه بنته هند وابن عمه يزيد بن الحرث بن معاوية بن الحرث ومال وسلاح كان بقي معه والربيع بن ضبع بن نزارة، وأشار عليه الربيع بمدح السموأل فمدحه ونزل به، فضرب لابنته قبة وأنزل القوم في مجلس له براح، فمكثوا ما شاء الله. وسأله امرؤ القيس أن يكتب له إلى الحرث بن أبي شمر يوصله إلى قيصر ففعل واستصحب رجلاً يدله على الطريق وأودع ابنته وماله وأدراعه السموأل، وخلف ابن عمه يزيد بن الحرث مع ابنته هند ونزل الحرث بن ظالم غازياً على الأبلق، ويقال الحرث بن أبي شمر ويقال ابن المنذر، وبعث الحرث بن ظالم ابنه يتصيد ويهدده بقتله فأبى من إخفار ذمته وقتل ابنه فضرب به المثل في الوفاء بذلك.

وأما نسب السموأل فقال ابن خليفة عن محمد بن سالم البيكندي عن الطوسي عن ابن حبيب: إنه السموأل بن عريض بن عاديا بن حيا، ويقال إن الناس يدرجون عريضاً في النسب ونسبه عمرو بن شبة ولم يذكر عريضاً، وقال عبد الله بن سعد عن دارم بن عقال: من ولد السموأل بن عاديا بن رفاعة بن ثعلبة بن كعب بن عمرو بن عامر مزيقيا وهذا عند محال لأن الأعشى أدرك سريح بن السموأل وأدرك الإسلام، وعمرو مزيقيا قديم لا يجوز أن يكون بينه وبين السموأل ثلاثة آباء ولا عشرة، وقد قيل إن أمه من غسان وكلهم قالوا: هو صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتيما المشهور بالزباء، وقيل: من ولد الكوهن بن هارون، وكان هذا الحصن لجده عاديا، واحتفر فيه أروية عذبةً، وتنزل به العرب فتصيبها وتمتار من حصنه وتقيم هنالك سوقاً اهـ كلام الأغاني.

وقال ابن سعيد: كندة لقب لثور بن عفير بن الحرث بن مرة بن أدد بن يشجب بن عبيد الله بن زيد بن كهلان، وبلادهم في شرقي اليمن، ومدينة ملكهم دمون، وتوالى الملك منهم في بني معاوية بن عنزة، وكان التابعة يصاهرونهم ويولونهم على بني معد بن عدنان بالحجاز، فأول من ولي منهم حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية الأكبر ولاه تبع بن كرب الذي كسا الكعبة، وولي بعده ابنه عمرو بن حجر، ثم ابنه الحرث المقصور وهو الذي أبى أن يتزندق مع قباذ ملك الفرس فقتل في بني كلب ونهب ماله، وكان قد ولى أولاده على بني معد فقتل أكثرهم، وكان على بني أسد منهم حجر بن الحرث فجار عليهم فقتلوه، وتجرد للطلب بثأره ابنه امرؤ القيس، وسار إلى قيصر فأغراه به الطماح الأسدي. وقال: إنه يتغزل ببنات الملوك فألبسه حلة مسموحة تقطع بها.

وقال صاحب التواريخ: إن الملك انتقل بعدهم إلى بني جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين، واشتهر منهم قيس بن معديكرب بن جبلة ومنهم الأعشى وابنته العمردة من مردة الإنس ولها في قتال المسلمين أخبار في الردة، وأسلم أخوها الأشعث ثم ارتد بعد الوفاة واعتصم بالحبر، ففتحه جيش أبي بكر رضي الله عنه وجيء به إليه أسيراً فمنّ عليه وزوجه أخته وخرج من نسله بنو الأشعث المذكورون في الدولة الأموية.

ومن بطون كندة السكون والسكاسك، وللسكاسك مجالات شرقي اليمن متميزة وهم معروفون بالسحر والكهانة، ومنهم تجب بطن كبير كان منهم بالأندلس بنو صمادح وبنو ذي النون وبنو الأفطس من ملوك الطوائف. والله تعالى وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا رب غيره.

الخبر عن أبناء جفنة ملوك غسان بالشام من هذه الطبقة وأوليتهم ودولهم وكيف انساق الملك إليهم ممن قبلهم

أول ملك كان للعرب بالشام فيما علمناه للعمالقة، ثم لبني

إرم بن سام ويعرفون بالأرمانيين. وقد ذكرنا خلاف الناس في العمالقة الذين كانوا بالشام هل هم من ولد عمليق بن لاوذ بن سام أو من ولد عماليق بن أليفاز بن عيصو، وأن المشهور المتعارف أنهم من عمليق بن لاوذ. وكان بنو إرم يومئذ بادية في نواحي الشام والعراق، وقد ذكروا في التوراة، وكان لهم مع ملوك الطوائف حروب كما تقدمت الإشارة إلى ذلك كله من قبل، وكان آخر هؤلاء العمالقة ملك السميدع بن هوثر وهو الذي قتله يوشع بن نون حين تغلب بنو إسرائيل على الشام، وبقي في عقبه ملك في بني الظرب بن حسان من بني عاملة العماليق، وكان آخرهم ملكاً الزباء بنت عمرو بن السميدع. وكانت قضاعة مجاورين لهم في ديارهم بالجزيرة وغلبوا العمالقة لما فشل ريحهم.

فلما هلكت الزباء وانقرض أمر بني الظرب بن حسان، ملك أمر العرب تنوخ من بطون قضاعة، وهم تنوخ بن مالك بن فهم بن تيم الله بن الأسود بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وقد تقدم ذكر نزولهم بالحيرة والأنبار ومجاورتهم للأرمانيين. فملك من تنوخ ثلاثة ملوك فيما ذكر المسعودي: النعمان بن عمرو، ثم ابنه عمرو بن النعمان، ثم أخوه الحوار بن عمرو، وكانوا مملكين من قبل الروم. ثم تلاشى أمر تنوخ واضمحل وغلبت سليح من بطون قضاعة، ثم الضجاعم منهم من ولد ضجعم بن سعد بن سليح واسمه عمرو بن خلوان بن عمران بن الحاف فتنصروا وملكتهم الروم على العرب وأقاموا على ذلك مدة، وكان نزولهم ببلاد مؤاب من أرض البلقاء. ويقال: إن الذي ولي سليخ على نواحي الشام هو قيصر طيطش ابن قيصر ماهان.

قال ابن سعيد: كان لبني سليح دولتان في بني ضجعم وبني العبيد، فأما بنو ضجعم فملكوا إلى أن جاءهم غسان فسلبوهم ملكهم، وكان آخرهم زياد بن الهبولة سار بمن أبقى السيف منهم إلى الحجاز فقتله والي الحجاز للتبابعة حجر آكل المرار. قال: ومن النسابين من يطلق تنوخ على بني ضجعم ودوس الذين تنخوا بالبحرين أي أقاموا، ثم سار الضجاعم إلى برية الشام ودوس إلى برية العراق. قال: وأما بنو العبيد بن الأبرص بن عمرو بن أشجع بن سليح فتوارثوا الملك بالحضر الذي آثاره باقية في برية سنجار، والمشهور منهم الضيزن بن معاوية بن العبيد المعروف عند الجرامقة بالساطرون وقصته مع سابور معروفة أهـ كلام ابن سعيد. ثم استحالت صبغة الرياسة عن العرب لحمير وصارت إلى كهلان إلى بلاد الحجاز، ولما فصلت الأزد من اليمن كان نزولهم ببلاد عك ما بين زبيد وزمع فحاربوهم وقتلوا ملك عك قتله ثعلبة بن عمرو مزيقيا.

قال بعض أهل اليمن: عك بن عدنان بن عبد الله بن أدد. قال الدارقطني: عك بن عبد الله بن عدثان بالثاء المثلثة وضم العين ولا خلاف أنه بنونين كما لم يختلف في دوس بن عدثان قبيلة من الأزد أنه بالثاء المثلثة. ثم نزلوا بالظهران وقاتلوا جرهم بمكة، ثم افترقوا في البلاد فنزل بنو نصر بن الأزد الشراة وعُمان ونزل بنو ثعلبة بن عمرو مزيقيا بيثرب وأقام بنو حارثة بن عمرو بمر الظهران بمكة وهم يقال لهم خزاعة.

وقال المسعودي: سار عمرو مزيقيا حتى إذا كان بالشراة بمكة أقام هنالك بنو نصر بن الأزد وعمران الكاهن، وعدي بن حارثة بن عمرو بالأزد حتى نزلوا بين بلاد الأشعريين وعك على ماء يقال له غسان بين واديين يقال لهما زبيد وزمع فشربوا من ذلك الماء فسموا غسان، وكانت بينهم وبين معد حروب إلى أن ظفرت بهم معد فأخرجوهم إلى الشراة وهو جبل الأزد الذين هم به على تخوم الشام ما بينه وبين الجبال مما يلي أعمال دمشق والأردن.

قال ابن الكلبي: ولد عمرو بن عامر مزيقيا جفنة ومنه الملوك والحرث وهو محرق أول من عاقب بالنار، وثعلبة وهو العنقا، وحارثة وأبا حارثة ومالكاً وكعباً ووداعة وهو في همدان وعوفا وذهل وائل ودفع ذهل إلى نجران ومنه أسقف وعبيدة وذهلاً وقيساً درج هؤلاء الثلاثة وعمران بن عمرو فلم يشرب أبو حارثة ولا عمران ولا وائل ماء غسان فليس يقال لهم غسان. وبقي من أولاد مزيقيا ستة شربوا منه فهم غسان وهم: جفنة وحارثة وثعلبة ومالك وكعب وعوف، ويقال: إن ثعلبة وعوفاً لم يشربا منه، ولما نزلت غسان الشام جاوروا الضجاعم وقومهم من سليح ورئيس غسان يومئذ ثعلبة بن عمرو بن المجالد بن الحرث بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد، ورئيس الضجاعم يومئذ داود اللثق بن هبولة بن عمرو بن عوف بن ضجعم. وكانت الضجاعم هؤلاء ملوكاً على العرب عمالاً للروم كما قلناه، يجمعون ممن نزل بساحتهم لقيصر، فغلبتهم غسان على ما بأيديهم من رياسة العرب لما كانت صبغة رياستهم الحميرية قد استحالت وعادت إلى كهلان وبطونها وعرفت الرياسة منها باليمن قبل فصولهم، وربما كانوا أولى عدة وقوة، وإنما العزة للكاثر.

وكانت غسان لأول نزولها بالشام طالبها ملوك الضجاعم بالأتاوة فمانعتهم غسان فاقتتلوا فكانت الدائرة على غسان، وأقرت بالصغار وأدت الأتاوة حتى نشأ جذع بن عمرو بن المجالد بن الحرث بن عمرو بن المجالد بن الحرث بن عمرو بن عدي بن

عمرو بن مازن بن الأزد، ورجال سليح من ولد رئيسهم داود اللثق وهو سبطة بن المنذر بن داود ويقال بل قتلة. فالتقوا فغلبهم غسان وأقاد بهم وتفردوا بملك الشام وذلك عند فساد كان بين الروم وفارس، فخاف ملك الروم أن يعينوا عليه فارساً، فكتب إليهم واستدناهم ورئيسهم يومئذ ثعلبة بن عمرو أخو جذع بن عمرو، وكتبوا بينهم الكتاب على أنه إن دهمهم أمر من العرب أمدهم بأربعين ألفاً من الروم وإن دهمه أمر أمدته غسان بعشرين ألفاً، وثبت ملكهم على ذلك وتوارثوه. أول من ملك منهم ثعلبة بن عمرو فلم يزل ملكها إلى أن هلك وولي مكانه منهم ثعلبة بن عمرو مزيقيا.

قال الجرجاني: وبعد ثعلبة بن عمرو ابنه الحرث بن ثعلبة يقال إنه ابن مارية، ثم بعده ابنه المنذر بن الحرث، ثم ابنه النعمان بن المنذر بن الحرث، ثم أبو بشر بن الحرث بن جبلة بن الحرث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، هكذا نسبه بعض النساب، والصحيح أنه ابن عوف بن الحرث بن عوف بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن، ثم الحرث الأعرج بن أبي شمر، ثم عمرو بن الحرث الأعرج، ثم المنذر بن الحرث الأعرج، ثم الأيهم بن جبلة بن الحرث بن جبلة بن الحرث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، ثم ابنه جبلة.

وقال المسعودي: أول من ملك منهم الحرث بن عمرو مزيقيا، ثم بعده الحرث بن ثعلبة بن جفنة وهو ابن مارية ذات القرطين، وبعده النعمان بن الحرث بن جفنة بن الحرث، ثم أبو شمر بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن الحارث، ثم ملك بعده أخوه المنذر بن الحارث، ثم أخوه جبلة بن الحارث، ثم بعده عوف بن أبي شمر، ثم بعده الحارث بن أبي شمر وعلى عهده كانت البعثة وكتب له النبي ﷺ فيمن كتب إليه من ملوك تهامة والحجاز واليمن وبعث إليه شجاع بن وهب الأسدي يدعوه إلى الإسلام ويرغبه في الدين كذا عند ابن إسحاق. وكان النعمان بن المنذر على عهد الحارث بن أبي شمر هذا وكانا يتنازعان في الرياسة ومذاهب المدح، وكانت شعراء العرب تفد عليهما مثل الأعشى وحسان بن ثابت وغيرهما.

ومن شعر حسان رضي اللّه تعالى عنه في مدح أبناء جفنة:

لله در عصابة نادمتهم	يوماً بجلق في الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم	قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهر كلابهم	لا يسألون عن السواد المقبل

ثم ملك بعد الحارث بن أبي شمر ابنه النعمان، ثم ملك بعده جبلة بن الأيهم بن جبلة، وجبلة جده هو الذي ملك بعد أخويه شمر والمنذر.

وقال ابن سعيد: أول من ملك من غسان بالشام وأذهب ملك الضجاعم جفنة بن مزيقيا. ونقل عن صاحب تواريخ الأمم: ولما ملك جفنة بنى جلق وهي دمشق وملك خمساً وأربعين سنة، واتصل الملك في بنيه إلى أن كان منهم الحارث الأعرج ابن أبي شمر وأمه مارية ذات القرطين من بني جفنة بنت الهانيء المذكورة في شعر حسان بأرض البلقاء ومعان. قال ابن قتيبة: وهو الذي سار إليه المنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة في مائة ألف، فبعث إليه الحارث مائة من قبائل العرب فيهم لبيد الشاعر وهو غلام، فاظهروا أنهم رسل في الصلح حتى إذا أحاطوا برواق المنذر فتكوا به وقتلوا جميع من كان معه في الرواق وركبوا خيولهم، فمنهم من نجا ومنهم من قتل. وحملت غسان على عسكر المنذر وقد اختبطوا فهزموهم، وكانت حليمة بنت الحارث تحرض الناس وهم منهزمون على القتال فسمي يوم حليمة، ويقال إن النجوم ظهرت فيه بالنهار من كثرة العجاج.

ثم توالى الملك في ولد الحارث الأعرج إلى أن ملك منهم جفنة بن المنذر بن الحارث الأعرج وهو محرق لأنه حرق الحيرة دار ملك آل النعمان، وكان جوالاً في الآفاق وملك ثلاثين سنة. ثم كان ثالثه في الملك النعمان بن عمرو بن المنذر الذي بنى قصر السويدا وقصر حارث عند صيدا وهو مذكور في شعر النابغة ولم يكن أبوه ملكاً وإنما كان يغزو بالجيش، ثم ملك جبلة بن النعمان وكان منزله بصفين وهو صاحب عين أباغ يوم كانت له الهزيمة فيه على المنذر بن المنذر ابن ماء السماء وقتل المنذر في ذلك اليوم، ثم اتصل الملك في تسعة منهم بعده وكان العاشر أبو كرب النعمان بن الحارث الذي رثاه النابغة وكان منزله بالجولان من جهة دمشق، ثم ملك الأيهم بن جبلة بن الحارث وكان له رأي في الإفساد بين القبائل حتى أفنى بعضهم بعضاً فعل ذلك ببني جسر وعاملة وغيرهم وكان منزله بتدمر وملك بعده منهم خمسة، فكان السادس منهم ابنه جبلة بن الأيهم وهو آخر ملوكهم اهـ. كلام ابن سعيد.

واستفحل ملك جبلة هذا وجاء اللّه بالإسلام وهو على ملكه، ولما افتتح المسلمون الشام أسلم جبلة وهاجر إلى المدينة، واستشرف أهل المدينة لمقدمه حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته لكرم وفادته، وأحسن عمر رضي اللّه عنه نزله وأكرم وفادته وأجله بأرفع رتب المهاجرين، ثم غلب عليه الشقاء ولطم رجلاً من المسلمين من فزارة وطيء فضل إزاره وهو يسحبه في الأرض، ونابذه إلى عمر رضي اللّه عنه في القصاص فأخذته العزة

بالإثم، فقال له عمر رضي اللّه عنه: لا بد أن أقيده منك، فقال له: إذن أرجع عن دينكم هذا الذي يقاد فيه للسوقة من الملوك، فقال له عمر رضي اللّه عنه: إذن أضرب عنقك! فقال أمهلني الليلة حتى أرى رأيي! واحتمل رواحله وأسرى فتجاوز الدروب إلى قيصر ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة عشرين من الهجرة. وفيما تذكره الثقات أنه ندم ولم يزل باكياً على فعلته تلك وكان فيما يقال يبعث بالجوائز إلى حسان بن ثابت لما كان منه في مدح قومه ومدحه في الجاهلية.

وعند ابن هشام: أن شجاع بن وهب إنما بعثه رسول اللّه ﷺ إلى جبلة. قال المسعودي: جميع ملوك غسان بالشام أحد عشر ملكاً وقال: إن النعمان والمنذر إخوة جبلة وأبي شمر وكلهم بنو الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة ملكوا كلهم. قال: وقد ملك الروم على الشام من غير آل جفنة مثل: الحارث الأعرج وهو أبو شمر بن عمرو بن الحارث بن عوف وعوف هذا جد ثعلبة بن عامر قاتل داود اللثق، وملكوا عليهم أيضاً أبا جبيلة بن عبد اللّه بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج بن ثعلبة بن مزيقيا وهو أبو جبيلة الذي استصرخه مالك بن العجلان على يهود يثرب حسبما نذكر بعد.

وقال ابن سعيد: عن صاحب تواريخ الأمم: إن جميع ملوك بني جفنة اثنان وثلاثون ومدتهم ستمائة سنة، ولم يبق لغسان بالشام قائمة، وورث أرضهم بها قبيلة طيء. قال ابن سعيد: وأمراؤهم بنو مِرا وأما الآن فأمراؤهم بنو مهنا وهما معاً لربيعة بن علي بن مفرج بن بدر بن سالم بن علي بن سالم بن قصة بن بدر بن سميع. وقامت غسان بعد منصرفها من الشام بأرض القسطنطينية حتىانقرض ملك القياصرة، فتجهزوا إلى جبل شركس، وهو ما بين بحر طبرستان وبحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية، وفي هذا الجبل باب الأبواب وفيه من شعوب الترك المتنصرة الشركس واركس واللاص وكسا ومعهم أخلاط من الفرس ويونان، والشركس غالبون على جميعهم، فانحازت قبائل غسان إلى هذا الجبل عند انقراض القياصرة والروم وتحالفوا معهم واختلطوا بهم ودخلت أنساب بعضهم في بعض، حتى ليزعم كثير من الشركس أنهم من نسب غسان. واللّه حكمة بالغة في خلقه واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا انقضاء لملكه ولا رب غيره.

الخبر عن الأوس والخزرج أبناء قيلة من هذه الطبقة ملوك يثرب دار الهجرة وذكر أوليتهم والإلمام بشأن نصرتهم وكيف انقرض أمرهم

قد ذكرنا فيما تقدم شأن يثرب وأنها من بناء يثرب بن فانية بن مهلهل بن إرم بن عبيل بن عوض وعبيل أخو عاد. وفيما ذكر السهيلي أن يثرب بن قائد بن عبيد بن مهلاييل بن عوص بن عمليق بن لاوذ بن إرم، وهذا أصح وأوجه. وقد ذكرنا كيف صار أمر هؤلاء لإخوانهم جاسم من الأمم العمالقة وأن ملكهم كان يسمي الأرقم وكيف تغلب بنو إسرائيل عليه وقتلوه وملكوا الحجاز دونه كله من أيدي العمالقة، ويظهر من ذلك أن الحجاز لعهدهم كان آهلاً بالعمران وجميع مياهه، يشهد بذلك أن داود عليه السلام لما خلع بنو إسرائيل طاعته وخرجوا عليه بابنه أشبوشت فر مع سبط يهوذا إلى خيبر وملك ابنه الشام وأقام هو وسبط يهوذا بخيبر سبع سنين في ملكه، حتى قتل ابنه وعاد إلى الشام. فيظهر من هذا أن عمرانه كان متصلاً بيثرب ويجاوزها إلى خيبر. وقد ذكرنا هنالك كيف أقام من بني إسرائيل من أقام بالحجاز وكيف تبعتهم يهود خيبر وبنو قريظة.

قال المسعودي: وكانت الحجاز إذ ذاك أشجر بلاد اللّه وأكثرها ماءً فنزلوا بلاد يثرب واتخذوا بها الأموال وبنوا الآطام والمنازل في كل موطن، وملكوا أمر أنفسهم، وانضافت إليهم قبائل من العرب نزلوا معهم واتخذوا الأطم والبيوت وأمرهم راجع إلى ملوك المقدس من عقب سليمان عليه السلام. قال شاعر بني نعيف:

ولو نطقت يوماً قباء لخبرت … بأنا نزلنا قبل عاد وتبع
وآطامنا عادية مشمخرة … تلوح فتنعى من يعادي ويمنع

فلما خرج مزيقيا من اليمن وملك غسان بالشام ثم هلك، وملك ابنه ثعلبة العنقاء ثم هلك ثعلبة العنقاء، وولي أمرهم بعد ثعلبة عمرو ابن أخيه جفنة سخط مكانه ابنه حارثة فأجمع الرحلة إلى يثرب، وأقام بنو جفنة بن عمرو ومن انضاف إليهم بالشام، ونزل حارثة يثرب على يهود خيبر وسألهم الحلف والجوار على الأمان والمنعة فأعطوه من ذلك ما سأل. قال ابن سعيد: وملك اليمن يومئذ شريب بن كعب فكانوا بادية لهم إلى أن انعكس الأمر بالكثرة والغلبة.

ومن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني قال: بنو قريظة

وبنو النضير الكاهنان من ولد الكوهن بن هارون عليه السلام، كانوا بنواحي يثرب بعد موسى عليه السلام وقبل تفرق الأزد من اليمن بسيل العرم ونزول الأوس والخزرج يثرب وذلك بعد الفجار.

ونقل ذلك عن علي بن سليمان الأخفش بسنده إلى العماري قال: ساكنو المدينة العماليق وكانوا أهل عدوان وبغي، وتفرقوا في البلاد، وكان بالمدينة منهم بنو نعيف وبنو سعد وبنو الأزرق وبنو نظرون، وملك الحجاز منهم الأرقم ما بين تيما إلى فدك وكان ملوك المدينة ولهم بها نخل وزرع، وكان موسى عليه السلام قد بعث الجنود إلى الجبابرة يغزونهم، وبعث إلى العمالقة جيشاً من بني إسرائيل وأمرهم أن لا يستبقوا أحداً فأبقوا إبناً للأرقم ضنوا به على القتل.

فلما رجعوا بعد وفاة موسى عليه السلام وأخبروا بني إسرائيل بشأنه فقالوا هذه معصية لا تدخلوا علينا الشام، فرجعوا إلى بلاد العمالقة ونزلوا المدينة وكان هذا أولية سكنى اليهود بيثرب. وانتشروا في نواحيها واتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع ولبثوا زماناً، وظهر الروم على بني إسرائيل بالشام وقتلوهم وسبوا، فخرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل هاربين إلى الحجاز وتبعهم الروم فهلكوا عطشاً في المفازة بين الشام والحجاز. وسمي الموضع ثمر الروم. ولما قدم هؤلاء الثلاثة المدينة نزلوا العالية فوجدوها وابية وارتادوا.

ونزل بنو النضير مما يلي البهجان، وبنو قريظة وبنو يهدل على نهر وز. وكان ممن سكن المدينة من اليهود حين نزلها الأوس والخزرج بنو الشقمة وبنو ثعلبة وبنو زرعة وبنو قينقاع وبنو يزيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل وبنو عوف وبنو عصص، وكان بنو يزيد من بلي وبنو نعيف من بلي وبنو الشقمة من غسان. وكان يقال لبني قريظة وبني النضير الكاهنان كما مر. فلما كان سيل العرم وخرجت الأزد نزلت أزد شنوءة الشام بالسراة وخزاعة بطوى، ونزلت غسان بصرى وأرض الشام، ونزلت أزد عمان الطائف، ونزلت الأوس والخزرج يثرب نزلوا في ضرار بعضهم بالضاحية وبعضهم بالقرى مع أهلها، ولم يكونوا أهل نعم وشاء لأن المدينة كانت ليست بلاد مرعى، ولا نخل لهم ولا زرع إلا الأعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من الموات والأموال لليهود فلبثوا حيناً.

ثم وفد مالك بن عجلان إلى أبي جبيلة الغساني وهو يومئذ ملك غسان فسأله فأخبره عن ضيق معاشهم، فقال: ما بالكم لم تغلبوهم حين غلبنا أهل بلدنا؟ ووعده أنه يسير إليهم فينصرهم، فرجع مالك وأخبرهم أن الملك أبا جبيلة يزورهم فأعدوا له نزلاً فأقبل ونزل بذي حرض، وبعث إلى الأوس والخزرج بقدومه، وخشي أن يتحصن منه اليهود في الآطام فاتخذ حائراً وبعث إليهم فجاؤوه في خواصهم وحشمهم، وأذن لهم في دخول الحائر وأمر جنوده فقتلوهم رجلاً رجلاً إلى أن أتوا عليهم، وقال للأوس والخزرج إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلأحرقنكم ورجع إلى الشام فأقاموا في عداوة مع اليهود.

ثم أجمع مالك بن العجلان وصنع لهم طعاماً ودعاهم فامتنعوا لغدرة أبي جبيلة، فاعتذر لهم مالك عنها وأنه لا يقصد نحو ذلك فأجابوه وجاؤوا إليه فغدرهم وقتل منهم سبعة وثمانين من رؤسائهم، وفطن الباقون فرجعوا وصورت اليهود بالحجاز مالك بن العجلان في كنائسهم وبيعهم وكانوا يلعنونه كلما دخلوا. ولما قتلهم مالك ذلوا وخافوا وتركوا مشي بعضهم إلى بعض في الفتنة كما كانوا يفعلون من قبل، وكان كل قوم من اليهود قد لجأوا إلى بطن من الأوس والخزرج يستنصرون بهم ويكونون لهم أحلافاً اهـ كلام الأغاني.

وكان لحارثة بن ثعلبة ولدان أحدهما أوس والآخر خزرج، وأمهما قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة وقيل بنت كاهن بن عذرة من قضاعة، فأقاموا كذلك زماناً حتى أثروا وامتنعوا في جانبهم وكثر نسلهم وشعوبهم، فكان بنو الأوس كلهم لمالك بن الأوس منهم خطمة بن جشم بن مالك وثعلبة ولوذان وعوف كلهم بنو عمرو بن عوف بن مالك، ومن بني عوف بن عمرو حنش ومالك وكلفة كلهم بنو عوف، ومن مالك بن عوف معاوية وزيد. فمن زيد عبيد وضبيعة وأمية ومن كلفة بن عوف جحجبا بن كلفة ومن مالك بن الأوس أيضاً الحارث وكعب ابنا الخزرج بن عمرو بن مالك، فمن كعب بنو ظفر ومن الحارث بن الخزرج حارثة وجشم، ومن جشم بنو عبد الأشهل، ومن مالك بن الأوس أيضاً بنو سعد وبنو عامر ابنا مرة بن مالك فبنوا سعد الجعادرة، ومن بني عامر عطية وأمية ووائل كلهم بنو زيد بن قيس بن عامر، ومن مالك بن الأوس أيضاً أسلم وواقف بنو امرئ القيس بن مالك فهذه بطون الأوس.

وأما الخزرج فخمسة بطون من كعب وعمرو وعوف وجشم والحارث، فمن كعب بن الخزرج بنو ساعدة بن كعب، ومن عمرو بن الخزرج بنو النجار وهم تيم الله بن ثعلبة بن عمرو وهم شعوب كثيرة: بنو مالك وبنو عدي وبنو مازن وبنو دينار كلهم بنو النجار، ومن مالك بن النجار مبدول واسمه عامر وغانم وعمرو ومن عمرو عدي ومعاوية، ومن عوف بن الخزرج بنو

سالم والقوافل وهما عوف بن عمرو بن عوف. والقواقل ثعلبة ومرضخة بنو قوقل بن عوف، ومن سالم بن عوف بنو العجلان بن زيد بن عصم بن سالم وبنو سالم بن عوف، ومن جشم بن الخزرج بنو غضب بن جشم وتزيد بن جشم، فمن غضب بن جشم بنو بياضة وبنو زريق ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب، ومن تزيد بن جشم بنو سلمة بن سعد بن علي بن راشد بن ساردة بن تزيد، ومن الحارث بن الخزرج بنو خدرة وبنو حرام ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج. فهذه بطون الخزرج. فلما انتشر بيثرب هذان الحيان من الأوس والخزرج وكثروا يهود، خافوهم على أنفسهم، فنقضوا الحلف الذي عقدوه لهم وكان العزة يومئذ بيثرب لليهود، قال قيس بن الحطيم:

كنا إذا رابنا قوم بمظلمة ... شدت لنا الكاهنان الخيل واعتزموا

بنوا الرهون وواسونا بأنفسهم ... بنو الصريخ فقد عفوا وقد كرموا

ثم نتج فيهم بعد حين مالك بن العجلان وقد ذكر نسب العجلان، فعظم شأن مالك وسوده الحيان، فلما نقض يهود الحلف واقعهم وأصاب منهم ولحق بأبي جبيلة ملك غسان بالشام وقيل بعث إليه الرنق بن زيد بن امرئ القيس فقدم عليه فأنشده:

أقسمت أطعم من رزق قطرةً ... حتى تكثر للنجاة رحيل

حتى الاقي معشراً أنى لهم ... خل ومالهم لنا مبذول

أرض لنا تدعى قبائل سالم ... ويجيب فيها مالك وسلول

قوم أولو عز وعزة غيرهم ... إن الغريب ولو يعز ذليل

فأعجبه وخرج في نصرتهم. وأبو جبيلة هو ابن عبد اللّه بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، كان حبيب بن عبد حارثة وأخوه غانم ابنا الجشمي ساروا مع غسان إلى الشام وفارقوا الخزرج. ولما خرج أبو جبيلة إلى يثرب لنصرة الأوس والخزرج لقيه أبناء قيلة وأخبروه أن يهود علموا بقصده فتحصنوا في آطامهم فوري عن قصده باليمن وخرجوا إليه. فدعاهم إلى صنيع أعده لرؤسائهم ثم استلحمهم، فعزت الأوس والخزرج من يومئذ وتفرقوا في عالية يثرب وسافلتها يتبوأون منها حيث شاؤوا، وملكت أمرها على يهود، فذلت اليهود وقل عددهم وعلت قدم أبناء قيلة عليهم، فلم يكن لهم امتناع إلا بحصونهم وتفرقهم أحزاباً على الحيين إذا اشتجرا.

وفي كتاب ابن إسحاق: إن تبعاً أبا كرب غزا المشرق فمر بالمدينة وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة، فلما رجع أجمع على تخريبها واستئصال أهلها، فجمع له هذا الحي من الأنصار رئيسهم عمرو بن ظلة، وظلة أمه وأبوه معاوية بن عمرو.

قال ابن إسحاق: وقد كان رجل من بني عدي بن النجار ويقال له أحمر نزل بهم تبع، وقال: إنما التمر لمن أبره. فزاد ذلك تبعاً حنقاً عليهم فاقتتلوا. وقال ابن قتيبة في هذه الحكاية إن الذي عدا على التبعي هو مالك بن العجلان، وأنكره السهيلي، وفرق بين القصتين بأن عمرو بن ظلة كان لعهد تبع ومالك بن العجلان لعهد أبي جبيلة واستبعد ما بين الزمانين. ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا اليهود على يثرب. وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في حلفهم من جاورهم من قبائل مضر وكانت بينهم في الحيين فتن وحروب ويستصرخ كل بمن دخل في حلفه من العرب ويهود.

قال ابن سعيد: ورحل عمرو بن الإطنابة من الخزرج إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة فملكه على الحيرة، واتصلت الرياسة في الخزرج والحرب بينهم وبين الأوس، ومن أشهر الوقائع التي كانت بينهم يوم بعاث قبل المبعث، كان على الخزرج فيه عمرو بن النعمان بن صلاة بن عمرو بن أمية بن عامر بن بياضة، وكان على الأوس يومئذ حضير الكتائب ابن سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل. وكان حلفاء الخزرج يومئذ أشج من غطفان وجهينة من قضاعة، وحلفاء الأوس مزينة من أحياء طلحة بن إياس وقريظة والنضير من يهود، وكان الغلب صدر النهر للخزرج ثم نزل حضير وحلف لا أركب أو أقتل، فتراجعت الأوس وحلفاؤها وانهزم الخزرج، وقتل عمرو بن النعمان رئيسهم. وكان آخر الأيام بينهم، وصبحهم الإسلام وقد سئموا الحرب وكرهوا الفتنة، فأجمعوا على أن يتوجوا عبد اللّه بن أبي بن سلول. ثم اجتمع أهل العقبة منهم بالنبي ﷺ بمكة ودعاهم إلى نصرة الإسلام، فجاؤوا إلى قومهم بالخبر كما نذكر وأجابوا واجتمعوا على نصرته، ورئيس الخزرج سعد بن عبادة والأوس سعد بن معاذ.

قالت عائشة: كان يوم بعاث يوماً قدمه اللّه لرسوله، ولما بلغهم خبر مبعث النبي ﷺ بمكة وما جاء به من الدين وكيف أعرض قومه عنه وكذبوه وآذوه وكان بينهم وبين قريش إخاء قديم وصهر، فبعث أبو قيس بن الأسلت من بني مرة بن مالك بن الأوس ثم من بني وائل منهم واسمه صيفي بن عامر بن شحم بن وائل وكان يحبهم لمكان صهره فيهم، فكتب إليهم قصيدة يعظم لهم فيها الحرمة ويذكر فضلهم وحلمهم وينهاهم عن الحرب، ويأمرهم بالكف عن رسول اللّه ﷺ، ويذكرهم بما رفع اللّه عنهم من أمر الفيل وأولها:

أيا راكباً إما عرضت فبلغن ... مقالة أوسي لؤي بن غالب

تناهز خمساً وثلاثين بيتاً ذكرها ابن إسحاق في كتاب السير،

فكان ذلك أول ما ألقح بينهم من الخير والإيمان. وكان رسول الله ﷺ لما يئس من إسلام قومه يعرض نفسه على وفود العرب وحجاجهم أيام الموسم أن يقوموا بدين الإسلام وبنصره حتى بلغ ما جاء به من عند الله وقريش يصدونهم عنه ويرمونه بالجنون والشعر والسحر كما نطق به القرآن، وبينما هو في بعض المواسم عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج ست نفر اثنان من بني غانم بن مالك وهما: أسعد بن زرارة بن عدي بن عبيد الله بن ثعلبة بن غانم وعوف بن الحرث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غانم وهو ابن عفراء، ومن بني زريق بن عامر رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق، ومن بني غانم بن كعب بن سلمة بن سعد بن عبد الله بن عمرو بن الحرث بن ثعلبة بن الحرث بن حرام بن كعب بن غانم كعب بن رئاب بن غانم وقطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غانم بن سواد بن غانم وعقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن حرام بن كعب بن غانم.

فلما لقيهم قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج! قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم! فقال: ألا تجلسون أكلمكم؟ فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله إنه النبي الذي تعدكم يهود به فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم وصدقوه وآمنوا به وأرجأوا الأمر في نصرته إلى لقاء قومهم، وقدموا المدينة فذكروا لقومهم شأن النبي ﷺ ودعوهم إلى الإسلام ففشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

ثم وافى الموسم في العام المقبل اثنا عشر منهم فوافوه بالعقبة وهي العقبة الأولى، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحرث وأخوه معاذ ابنا عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان، وعقبة بن عامر من الستة الأولى، وستة آخرون منهم من بني غانم بن عوف بن القواقل منهم عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غانم، ومن بني زريق ذكوان بن عبد القيس بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان، هؤلاء التسعة من الخزرج وأبو عبد الرحمن بن زيد بن ثعلبة بن خزيمة بن أصرم بسن عمرو بن عمارة من بني عصية من بلي إحدى بطون قضاعة حليف لهم، ومن الأوس رجلان الهيثم بن التيهان واسمه مالك بن التيهان بن مالك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل وعويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف. فبايعوه على الإسلام بيعة النساء وذلك قبل أن يفترض الحرب، ومعناه أنه حينئذ لم يؤمر بالجهاد وكانت البيعة على الإسلام فقط، كما وقع في بيعة النساء على ﴿أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْـرِقْنَ وَلا يَزْنِيـنَ وَلا يَقْتُلْـنَ أَوْلادَهُـنَّ﴾ الآية.

وقال لهم: «فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتم عليه في الدنيا إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر». وبعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي يقريهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يصلي بهم، وكان منزله على أسعد بن زرارة. وغلب الإسلام في الخزرج وفشا فيهم وبلغ المسلمون من أهل يثرب أربعين رجلاً فجمعوا، ثم أسلم من الأوس سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل وابن عمه أسيد بن حضير الكتائب وهما سيدا بني عبد الأشهل.

وأوعب الإسلام بني عبد الأشهل وأخذ من كل بطن من الأوس ما عدا بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف وهي أوس أمه من الأوس من بني حارثة، ووقف بهم عن الإسلام أبو قيس بن الأسلت يرى رأيه حتى مضى صدر من الإسلام ولم يبق دار من دور أبناء قيلة إلا وفيها رجال ونساء مسلمون. ثم رجع مصعب إلى مكة، وقدم المسلمون من أهل المدينة معه فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق فبايعوه، وكانوا ثلثمائة وسبعين رجلاً ومراتين، بايعوه على الإسلام وأن يمنعوه ممن أراده بسوء ولو كان دون ذلك القتل.

وأخذ عليهم النقباء اثني عشر تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وأسلم ليلتئذ عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر بن عبد الله، وكان أول من بايع البراء بن معرور من بني تزيد بن جشم من الخزرج. وصرخ الشيطان بمكانهم مع رسول الله ﷺ وتنسطت قريش الخبر فوجدوه قد كان فخرجوا في طلب القوم، وأدركوا سعد بن عبادة وأخذوه وربطوه حتى أطلقه جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل والحرث بن حرب بن أمية بن عبد شمس لجوار كان له عليهما ببلده. فلما قدم المسلمون المدينة أظهروا الإسلام ثم كانت بيعة الحرب حتى أذن الله لرسوله ﷺ في القتال، فبايعوه على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وأثرته عليهم، وأن لا ينازعوا الأمر أهله وأن يقوموا بالحق أينما كانوا ولا يخافوا في الله لومة لائم.

ولما تمت بيعة العقبة وأذن الله لنبيه في الحرب أمر المهاجرين الذين كانوا يؤذون بمكة أن يلحقوا بإخوانهم من الأنصار بالمدينة، فخرجوا أرسالاً وأقام هو بمكة ينتظر الإذن في الهجرة فهاجر من المسلمين كثير سماهم ابن إسحاق وغيره. وكان عمر بن الخطاب

رضي اللّه عنه فيمن هاجر هو وأخوه زيد وطلحة بن عبيد اللّه وحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأنيسة وأبو كبشة موالي رسول اللّه ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان رضي اللّه عنهم.

ثم أذن لرسول اللّه ﷺ في الهجرة فهاجر وصحبه أبو بكر رضي اللّه عنه، فقدم المدينة ونزل في الأوس على كلثوم بن مطعم بن امرئ القيس بن الحرث بن زيد بن عبيد بن مالك بن عوف. وسيد الخزرج يومئذ عبد اللّه بن أبي ابن سلول وأبي هو ابن مالك بن الحرث بن عبيد وإسم أم عبيد سلول وعبيد هو ابن مالك بن سالم بن غانم بن عوف بن غانم بن مالك بن النجار، وقد نظموا له الخرز ليملكوه على الحيين، فغلب على أمره واجتمعت أبناء قيلة كلهم على الإسلام، فضغن لذلك لكنه أظهر أن يكون له اسم منه، فأعطى الصفقة وطوى على النفاق كما يذكر بعد.

وسيد الأوس يومئذ أبو عامر بن عبد عمرو بن صيفي بن النعمان أحد بني ضبيعة بن زيد، فخرج إلى مكة هارباً من الإسلام حين رأى اجتماع قومه إلى النبي ﷺ بغضاً في الدين، ولما فتحت مكة فر إلى الطائف، ولما فتح الطائف فر إلى الشام فمات هنالك.

ونزل رسول اللّه ﷺ على أبي أيوب الأنصاري حتى ابتنى مساكنه ومسجده ثم انتقل إلى بيته. وتلاحق به المهاجرون واستوعب الإسلام سائر الأوس والخزرج وسموا الأنصار يومئذ بما نصروا من دينه، وخطبهم النبي ﷺ وذكرهم وكتب بين المهاجرين والأنصار كتاباً وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم كما يفيده كتاب ابن إسحاق فلينظر هنالك. ثم كانت الحرب بين رسول اللّه ﷺ وبين قومه فغزاهم وغزوه وكانت حروبهم سجالاً، ثم كان الظهور لرسول اللّه ﷺ آخراً كما نذكر في سيرته ﷺ، وصبر الأنصار في المواطن كلها واستشهد من أشرافهم ورجالاتهم كثير هلكوا في سبيل اللّه وجهاد عدوه. ونقض أثناء ذلك اليهود الذين بيثرب على المهاجر والأنصار ما كتب رسول اللّه ﷺ وظاهروا عليه، فأذن اللّه لنبيه ﷺ فيهم وحاصرهم طائفة بعد أخرى.

وأما بنو قينقاع فإنهم تثاوروا مع المسلمين بسيوفهم وقتلوا مسلماً، وأما بنو النضير وقريظة فمنهم من قتله اللّه وأجلاه، فأما بنو النضير فكان من شأنهم بعد أحد وبعد بئر معونة جاءهم رسول اللّه ﷺ يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية من القرى، ولم يكن علم بعقدهم مع رسول اللّه ﷺ حسبما نذكره، فهموا بقتل رسول اللّه ﷺ حين جاءهم لذلك خديعة منهم ومكراً، فحاصرهم حتى نزلوا على الجلاء وأن يحملوا ما استقلت به الإبل من أموالهم إلا الحلقة وافترقوا في خيبر وبني قريظة. وأما بنو قريظة فظاهروا قريشاً في غزوة الخندق فلما فرج اللّه كما نذكره حاصرهم رسول اللّه ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكمه وكلمته وشفع الأوس فيهم، وقالوا تهبهم لنا كما وهبت بني قينقاع للخزرج، فرد حكمهم إلى سعد بن معاذ وكان جريحاً في المسجد وأثبت في غزوة الخندق، فجاء وقال رسول اللّه ﷺ: «بم تحكم في هؤلاء» بعد أن استحلف الأوس أنهم راضون بحكمه؟ فقال: يا رسول اللّه تضرب الأعناق وتسبي الأموال والذرية، فقال: «حكمت بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة». فقتلوا عن آخرهم وهم ما بين الستمائة والتسعمائة.

ثم خرج إلى خيبر بعد الحديبية سنة ست فحاصرهم وافتتحها عنوة وضرب رقاب اليهود وسبى نساءهم، وكان في السبي صفية بنت حيي بن أخطب، وكان أبوها قتل مع بني قريظة وكانت تحت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وقتله محمد بن مسلمة غزاه من المدينة بأمر رسول اللّه ﷺ في ستة نفر فبيته. فلما افتتحت خيبر اصطفاها رسول اللّه ﷺ لنفسه وقسم الغنائم في الناس من القمح والتمر، وكان عدد السهام التي قسمت عليها أموال خيبر ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم الرجال الف وأربعمائة والخيل مائتان. وكانت أرضهم الشق ونطاة والكتيبة، فحصلت الكتيبة لرسول اللّه ﷺ والخمس ففرقها على قرابته ونسائه ومن وصلهم من المسلمين، وأعمل أهل خيبر على المساقاة ولم يزالوا كذلك حتى أجلاهم عمر رضي اللّه عنه.

ولما فتح مكة سنة ثمان وغزوة حنين على أثرها وقسم رسول اللّه ﷺ الغنائم فيمن كان يستألفه على الإسلام من قريش وسواهم، وجد الأنصار في أنفسهم وقالوا: سيوفنا تقطر من دمائهم وغنائمنا تقسم فيهم؟ مع أنهم كانوا ظنوا أن رسول اللّه ﷺ إذا فتح بلاده وجمع على الدين قومه إنه سيقيم بأرضه وله غنية عنهم. وسمعوا ذلك من بعض المنافقين. وبلغ ذلك كله رسول اللّه ﷺ فجمعهم وقال: «يا معشر الأنصار ما الذي بلغكم عني؟» فصدقوه الحديث، فقال: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم اللّه بي، وعالة فأغناكم اللّه ومتفرقين فجمعكم اللّه؟» فقالوا: اللّه ورسوله أمن. فقال: «لو شئتم لقلتم جئتنا طريداً فآويناك ومكذباً فصدقناك ولكن واللّه إني لأعطي رجالاً استألفهم على الدين وغيرهم أحب إلي، ألا ترضون أن ينقلب الناس بالشاء والبعير وتنقلبون برسول ﷺ إلى رحالكم؟ أما والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، الناس دثار وأنتم شعار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب

الأنصارا» ففرحوا بذلك ورجعوا برسول ﷺ إلى يثرب فلم يزل بين أظهرهم إلى أن قبضه الله إليه.

ولما كان يوم وفاته ﷺ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة بن كعب ودعت الخزرج إلى بيعة سعد بن عبادة، وقالوا لقريش: منا أمير ومنكم أمير ضناً بالأمر أو بعضه فيهم لما كان من قيامهم بنصر رسول الله ﷺ وامتنع المهاجرون، واحتجوا عليهم بوصية رسول الله ﷺ إياهم بالأنصار في الخطبة ولم يخطب بعدها. قال: «أوصيكم بالأنصار إنهم كرشي وعيبتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فأوصيكم بأن تحسنوا إلى محسنهم وتتجاوزوا عن مسيئهم فلو كانت الأمارة لكم» لكانت ولم تكن الوصية بكم فحجوهم. فقام بشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاس بن زيد بن مالك بن الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحرث بن الخزرج فبايع لأبي بكر واتبعه الناس، فقال حباب بن المنذر بن الجموع بن حرام بن كعب بن غانم بن سلمة بن سعد: يا بشير أنفست بها ابن عمك؟ يعني الإمارة، قال لا والله ولكني كرهت أن أنازع الحق قوماً جعله لهم. فلما رأى الأوس ما صنع بشير بن سعد وكانوا لا يريدون الأمر للخزرج قاموا فبايعوا أبا بكر، ووجد سعد فتخلف عن البيعة ولحق بالشام إلى أن هلك وقتله الجن فيما يزعمون وينشدون من شعر الجن.

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة ضربناه بسهم فلم تخط فؤاده

وكان لابنه قيس من بعده غناء في الأيام وأثراً في فتوحات الإسلام

وكان له انحياش إلى علي في حروبه مع معاوية، وهو القائل لمعاوية بعد مهلك علي رضي الله عنه وقد عرض به معاوية في تشيعه فقال: والآن ماذا يا معاوية؟ والله إن القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا، وعن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا. وكان أجود العرب وأعظمهم جثماناً، يقال: إنه كان إذا ركب تخط رجلاه الأرض. ولما ولي يزيد بن معاوية وظهر من عسفه وجوره وإدالته الباطل من الحق ما هو معروف، امتعضوا للدين وبايعوا لعبد الله بن الزبير حين خرجوا بمكة، واجتمعوا على حنظلة بن عبد الله الغسيل بن أبي عامر بن عبد عمر وبن صيفي بن النعمان بن مالك بن صيفي بن أمية بن ضبيعة بن زيد، وعقد ابن الزبير لعبد الله بن مطيع بن إياس على المهاجرين معهم.

وسرح يزيد إليهم مسلم بن عقبة المري، وهو عقبة بن رباح بن أسعد بن ربيعة بن عامر بن مرة بن عوف بن سعد بن دينار بن بغيض بن ريث بن غطفان، فيمن فرض عليه من بعوث الشام والمهاجرين. فالتقوا بالحرة، حرة بني زهرة، وكانت الدبرة على الأنصار واستلحمهم جنود يزيد، ويقال: إنه قتل في ذلك اليوم من المهاجرين والأنصار سبعون بدرياً وهلك عبد الله بن حنظلة يومئذ فيمن هلك، وكانت إحدى الكبر التي أتاها يزيد. واستفحل ملك الإسلام من بعد ذلك واتسعت دولة العرب، وافترقت قبائل المهاجرين والأنصار في قاصية الثغور بالعراق والشام والأندلس وإفريقية والمغرب حامية ومرابطين، فافترق الحي أجمع من أبناء قيلة وافترقت وأقفرت منه يثرب، ودرسوا فيمن درس من الأمم. وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. لا خالق سواه ولا معبود إلا إياه ولا خير إلا خيره ولا رب غيره، وهو نعم المولى ونعم النصير. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

الخبر عن بني عدنان وأنسابهم وشعوبهم وما كان لهم من الدول والملك في الإسلام وأولية ذلك ومصايره

قد تقدم لنا أن نسب عدنان إلى إسماعيل عليه السلام باتفاق من النسابين، وأن الآباء بينه وبين إسماعيل غير معروفة، وتنقلب في غالب الأمر مخلطة مختلفة بالقلة والكثرة في العدد حسبما ذكرناه، فأما نسبته إليه فصحيحة في الغلب ونسب النبي ﷺ منها إلى عدنان صحيح باتفاق من النسابين. وأما بين عدنان وإسماعيل فبين الناس فيه اختلاف كثير، فقيل من ولد نابت بن إسماعيل وهو عدنان بن أدد المقدم بن ناحور بن تنوخ بن يعرب بن يشجب بن نابت قاله البيهقي، وقيل: من ولد قيذار بن إسماعيل وهو عدنان بن أدد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيذار قاله الجرجاني علي بن عبد العزيز النسابة، وقيل: عدنان بن يشجب بن أيوب بن قيذار، ويقال: إن قصي بن كلاب كان يومي شعره بالانتساب إلى قيذار.

ونقل القرطبي عن هشام بن محمد: فيما بين عدنان وقيذار نحواً من اربعين أباً، وقال: سمعت رجلاً من أهل تدمر من مسلمة يهود وممن قرأ كتبهم يذكر نسب معد بن عدنان إلى إسماعيل من كتاب إرمياء النبي عليه السلام وهو يقرب من هذا النسب في العدد والأسماء إلا قليلاً، ولعل الخلاف إنما جاء من قبل اللغة لأن الأسماء ترجمت من العبرانية. ونقل القرطبي عن الزبير بن بكار بسنده إلى ابن شهاب: فيما بين عدنان وقيذار قريباً من ذلك

العدد، ونقل عن بعض النسابين أنه حفظ لمعد بن عدنان أربعين أباً إلى إسماعيل، وأنه قابل ذلك بما عند أهل الكتاب في نفسه فوجده موافقاً وإنما خالف في بعض الأسماء، قال: واستمليته فأملاه علي ونقله الطبري إلى آخره.

ومن النسابين من بعد بين عدنان وإسماعيل عشرين أو خمسة عشر ونحو ذلك. وفي الصحيح عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «معد بن عدنان بن أدد بن زيد بن برا بن أعراق الثراء». قالت أم سلمة: وزيد هو الهميسع وبرا هو نبت أو نابت وأعراق الثرى هو إسماعيل، وقد تقدم هذا أول الكتاب، وأن السهيلي رد تفسير أم سلمة وقال: ليس المراد بالحديث عد الآباء بين معد وإسماعيل وإنما معناه معنى قوله في الحديث الآخر: « أنتم بنو آدم وآدم من التراب » وعضد ذلك باتفاق النسابين على بعد المدة بين عدنان وإسماعيل بحيث يستحيل في العادة أن يكون بينهما أربعة آباء أو خمسة أو عشرة إذ المدة أطول من هذا كله بكثير. وكان لعدنان من الولد على ما قال الطبري ستة: الريب وهو عك وعرق وبه سميت عرق اليمن وأد وأبي الضحاك وعبق وأمهم مهدد، قال هشام بن محمد: هي من جديس وقيل: من طسم وقيل: من الطواسيم من نسل لفشان بن إبراهيم.

قال الطبري: ولما قتل أهل حضورا شعيب بن مهدم نبيهم أوحى اللّه إلى إرميا وأبرخيا من أنبياء بني إسرائيل بأن يأمر بختنصر يغزو العرب ويعلماه أن اللّه سلطه عليهم، وأن يحتملا معد بن عدنان إلى أرضهم ويستنقذاه من الهلكة لما أراده من شأن النبوة المحمدية في عقبه، كما مر ذلك من قبل، فحملاه على البراق ابن اثنتي عشرة سنة وخلصا به إلى حران فأقام عندهما وعلماه علم كتابهما، وسار بختنصر إلى العرب فلقيه عدنان فيمن اجتمع إليه من حضور أو غيرهم بذات عرق فهزمهم بختنصر وقتلهم أجمعين، ورجع إلى بابل بالغنائم والسبي وألقاها بالأنبار. ومات عدنان عقب ذلك وبقيت بلاد العرب خراباً حقباً من الدهر حتى إذا هلك بختنصر خرج معد في أنبياء بني إسرائيل إلى مكة، فحجوا وحج معهم ووجد أخويه وعمومته من بني عدنان قد لحقوا بطوائف اليمن وتزوجوا فيهم، وتعطف عليهم أهل اليمن بولادة جرهم فرجعهم إلى بلادهم، وسأل عمن بقي من أولاد الحرث بن مضاض الجرهمي فقيل له: بقي جرهم بن جلهة فتزوج ابنته معانة ولدت له نزار بن معد.

وأما مواطن بني عدنان هؤلاء فهي مختصة بنجد، وكلها بادية رحالة إلا قريشاً بمكة ونجد هو مرتفع من جانبي الحجاز وطوله مسيرة شهر من أول السروات التي تلي اليمن إلى آخرها المطلة على أرض الشام مع طول تهامة، وأوله في أرض الحجاز من جهة العراق العذيب مما يلي الكوفة وهو ماء لبني تميم، وإذا دخلت في أرض الحجاز فقد أنجدت، وأوله من جهة تهامة الحجاز حضن ولذلك يقال: أنجد من رأى حضناً. قال السهيلي: وهو جبل متصل بجبل الطائف الذي أعلى نجد تبيض فيه النسور.

قال: وسكانه بنو جشم بن بكر وهو أول حدود نجد، وأرض تهامة من الحجاز في قرب نجد مما يلي بحر القلزم في سمت مكة والمدينة وتيما وأيلة وفي شرقها بينها وبين جبل نجد غير بعيد، منها العوالي وهي ما ارتفع عن هذه الأرض، ثم تعلو عن السروات ثم ترتفع إلى نجد وهي أعلاها. والعوالي والسروات بلاد تفصل بين تهامة ونجد متصلة من اليمن إلى الشام كسروات الخيل تخرج من نجد منفصلة من تهامة داخلة في بلاد أهل الوبر. وفي شرقي هذا الجبل برية نجد ما بينه وبين العراق متصلة باليمامة وعمان والبحرين إلى البصرة، وفي هذه البرية مشاتي للعرب تشتو بها منهم خلق أحياء لا يحصيهم إلا خالقهم.

قال السهيلي: واختص بنجد من العرب بنو عدنان لم تزاحمهم فيه قحطان إلا طيء من كهلان فيما بين الجبلين سلمى وأجا، وافترق أيضاً من عدنان في تهامة والحجاز، ثم في العراق والجزيرة، ثم افترقوا بعد الإسلام على الأوطان. وأما شعوبهم فمن عدنان عك ومعد فمواطن عك في نواحي زبيد، ويقال عك بن الديث بالدال غير منقوطة والثاء مثلثة ابن عدنان، يقال أن عكا هذا هو ابن عدثان بالثاء المثلثة ابن عبد اللّه من بطون الأزد ومن عك بن عدثان بنو عايق بن الشاهد بن علقمة بن عك بطن متسع كان منهم في الإسلام رؤساء وأمراء.

وأما معد فهو البطن العظيم ومنه تناسل عقب عدنان كلهم، وهو الذي تقدم الخبر عنه بأن إرمياء النبي من بني إسرائيل أوحى اللّه إليه أن يأمر بختنصر بالانتقام من العرب وأن يحمل معداً على البراق أن تصيبه النقمة لأنه مستخرج من صلبه نبياً كريماً خاتماً للرسل فكان كذلك، ومن ولده إياد ونزار ويقال وقنص وأنمار، فأما قنص فكانت له الأمارة بعد أبيه على العرب وأراد إخراج أخيه نزار من الحرم، فأخرجوه أهل مكة وقدموا عليه نزاراً. ولما احتضر قسم ماله بين ولديه فجعل لربيعة الفرس، ولمضر القبة الحمراء، ولأنمار الحمار، ولإياد عند من جعله من ولده الحلمة والعصا. ثم تحاكموا في هذا الميراث إلى أفعى نجران في قصة معروفة ليست من غرض الكتاب.

وأما إياد فتشعبوا بطوناً كثيرة وتكاثر بنو إسماعيل وانفرد بنو مضر بن نزار برياسة الحرم وخرج بنو إياد إلى العراق، ومضى

أنمار إلى السروات بعد بنيه في اليمانية وهم: خثعم وبجيلة، ونزلوا آبار يافه وكان لهم في بلاد الأكاسرة آثار مشهورة إلى أن تابع لهم الأكاسرة الغزو وأبادوهم، وأعظم ما باد منهم سابور ذو الأكتاف هو الذي استلحمهم وأفناهم.

وأما نزار فمنه البطنان العظيمان ربيعة ومضر، ويقال: إن إياداً يرجعون إلى نزار وكذلك أنمار، فأما ربيعة فديارهم ما بين الجزيرة والعراق وهم ضبيعة وأسد ابنا ربيعة، ومن أسد عنزة وجديلة ابنا أسد فعنزة بلادهم في عين التمر في برية العراق على ثلاثة مراحل من الأنبار ثم انتقلوا عنها إلى جهات خيبر فهم هنالك، وورثت بلادهم غزية من طيء الذين لهم الكثرة والأمارة بالعراق لهذا العهد، ومن عنزة هؤلاء بإفريقية حي قليل مع رياح من بني هلال بن عامر، ومنهم أحياء مع طيء يتجعون ويشتون في برية نجد.

وأما جديلة فمنهم عبد القيس وهنب إبنا أفصى بن دعمي بن جديلة، فأما عبد القيس وكانت مواطنهم بتهامة ثم خرجوا إلى البحرين وهي بلاد واسعة على بحر فارس من غربية، وتتصل باليمامة من شرقيها، والبصرة من شماليها، وبعمان من جنوبها، وتعرف ببلاد هجر ومنها القطيف وهجر والعسير وجزيرة أوال والأحسا، وهجر هي باب اليمن من العراق وكانت أيام الأكاسرة من أعمال الفرس وممالكهم وكان بها بشر كثير من بكر بن وائل وتميم في باديتها، فلما نزل معهم بنو عبد القيس زاحموهم في ديارهم تلك وقاسموهم في المواطن ووفدوا على النبي ﷺ بالمدينة وأسلموا، ووفد منهم المنذر بن عائد بن المنذر بن الحارث بن النعمان بن زياد بن نصر بن عمرو بن عوف بن جذيمة بن عوف بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن بكر، وذكروا أنه سيدهم وقائدهم إلى الإسلام فكانت له صحبة ومكانة من النبي ﷺ.

ووفد أيضاً الجارود بن عمرو بن حنش بن المعلى بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة بن جذيمة، وثعلبة أخو عوف بن جذيمة وفد في عبد القيس سنة تسع مع المنذر بن ساوي من بني تميم وسيأتي ذكره، وكان نصرانياً فأسلم وكانت له أيضاً صحبة ومكانة. وكان عبد القيس هؤلاء من أهل الردة بعد الوفاة، وأمروا عليهم المنذر بن النعمان الذي قتل كسرى أباه، فبعث إليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمي في فتح البحرين وقتل المنذر. ولم تزل رياسة عبد القيس في بني الجارود أولاً ثم في ابنه المنذر وولاه عمر على البحرين ثم ولاه على إصطخر، ثم عبد الله بن زياد ولاه على الهند ثم ابنه حكيم بن المنذر وتردد على ولاية البحرين قبل ولاية العراق.

وأما هنب بن أفصى فمنهم النمر ووائل ابنا قاسط بن هنب. فأما بنو النمر بن قاسط فبلادهم رأس العين، ومنه صهيب بن سنان بن مالك بن عبد عمرو بن عقيل بن عامر بن جندلة بن جذيمة بن كعب بن سعد بن أسلم بن أوس مناة بن النمر بن قاسط صاحب رسول الله ﷺ المشهور، وينسب إلى الروم، وكان سنان أبوه استعمله كسرى على الأبلة، وكان لبني النمر بن قاسط شأن في الردة مذكور، ومنهم ابن القرية المشهور بالفصاحة أيام الحجاج، ومنصور بن النمر الشاعر مادح الرشيد.

وأما بنو وائل فبطن عظيم متسع أشهرهم بنو تغلب وبنو بكر بن وائل وهما اللذان كانت بينهما الحروب المشهورة التي طالت فيما يقال أربعين سنة، فلبني تغلب شهرة وكثرة وكانت بلادهم بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين وتعرف بديار ربيعة، وكانت النصرانية غالبة عليهم لمجاورة الروم. ومن بني تغلب عمرو بن كلثوم الشاعر، وهو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غانم بن تغلب وأمه هند بنت مهلهل، ومن ولده مالك بن طوق بن مالك بن عتاب بن زافر بن شريح بن عبد الله بن عمرو بن كلثوم وإليه تنسب رحبة مالك بن طوق على الفرات، وعاصم بن النعمان عم عمرو بن كلثوم هو الذي قتل شرحبيل بن الحرث الملك آكل المرار يوم الكلاب. ومن بني تغلب كليب ومهلهل إبنا ربيعة بن الحرث بن زهير بن جشم، وكان كليب سيد بني تغلب وهو الذي قتله جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان وكان متزوجاً بأخته فرعت ناقة البسوس في حمى كليب فرماها بسهم فأثبتها، وقتله جساس لأن البسوس كانت جارته، فقام أخو كليب وهو مهلهل بن الحرث كمن برياسة تغلب وطلب بكر بن وائل بثأر كليب فاتصلت الحرب بينهم أربعين سنة، وأخبارها معروفة، وطال عمر مهلهل وتغرب إلى اليمن فقتله عبدان له طريقه، وبنو شعبة الذين بالطائف لهذا العهد من ولد شعبة بن مهلهل. ومن تغلب الوليد بن طريف بن عامر الخارجي وهو من بني صيفي بن حي بن عمرو بن بكر بن حبيب وهو الذي رثته أخته ليلى بقولها:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يريد العز إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
خفيف على ظهر الجواد إلى الوغى ... وليس على أعدائه بخفيف
فلو كان هذا الموت يقبل فدية ... فديناه من ساداتنا بألوف

ومنهم بنو حمدان ملوك الموصل والجزيرة أيام المتقي، ومن بعده من خلفاء العباسيين وسيأتي ذكرهم في أخبار بني العباس وهم بنو حمدان من بني عدي بن أسامة بن غانم بن تغلب، كان

منهم سيف الدولة الملك المشهور.

وأما بكر بن وائل ففيهم الشهرة والعدد فمنهم يشكر بن بكر بن وائل وبنو عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ومنهم بنو حنيفة وبنو عجل ابني لجيم بن صعب. ففي بني حنيفة بطون متعددة أكثرهم بنو الدول بن حنيفة، فيهم البيت والعدد ومواطنهم باليمامة وهي من أوطان الحجاز كما هي نجران من اليمن، والشرقي منها يوالي البحري وبني تميم والغرب يوالي أطراف اليمن والحجاز، والجنوب نجران والشمالي أرض نجد وطول اليمامة عشرون مرحلة، وهي على أربعة أيام من مكة بلاد نخل وزلع وقاعدتها حجر بالفتح، وبها بلد اسمه اليمامة، ويسمى أيضاً جو باسم الزرقا، وكانت مقراً للملوك قبل بني حنيفة، واتخذ بنو حنيفة بعدها بلد حجر وبقي كذلك في الإسلام.

وكانت مواطن اليمامة لبني همدان بن يعفر بن السكسك بن وائل بن حمير غلبوا على من كان بها من طسم وجديس وكان آخر ملوكهم بها فيما ذكره الطبري قرط بن يعفر، ثم هلك فغلب عليها بعده طسم وجديس وكانت منهم الزرقا أخت رياح بن مرة بن طسم كما تقدم في أخبارهم. ثم استولى على اليمامة آخراً بنو حنيفة وغلبوا عليها طسماً وجديساً وكان ملكها منهم هوذة بن علي بن ثمامة بن عمرو بن عبد العزى بن شحيم بن مرة ابن الدول بن حنيفة، وتوجه كسرى وابن عمه عمرو بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن عبد العزى، قاتل المنذر ابن ماء السماء يوم عين أباغ.

وكان منهم ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة ملك اليمامة عند المبعث وثبت عند الردة. ومنهم الخارجي نافع بن الأزرق بن قيس بن صبرة بن ذهل بن الدول بن حنيفة وإليه تنسب الأزارقة، ومنهم محلم بن سبيع بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة صاحب مسيلمة الكذاب، هو من بني عدي بن حنيفة، وهو مسيلمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب بن الحرث بن عبد الحرث بن عدي، وأخبار مسيلمة في الردة معروفة وسيأتي الخبر عنها.

وأما بنو عجل بن لجيم بن صعب وهم الذين هزموا الفرس بمؤتة يوم ذي قار كما مر، فمنازلهم من اليمامة إلى البصرة وقد دثروا، وخلفهم اليوم في تلك البلاد بنو عامر المتفق بن عقيل بن عامر، وكان منهم بنو أبي دلف العجلي، كانت لهم دولة بعراق العجم يأتي ذكرها.

وأما عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل فمنهم تيم الله وقيس ابنا ثعلبة بن عكابة وشيبان بن ذهل بن ثعلبة، بطون ثلاثة عظيمة، وأوسعها وأكثرها شعوباً بنو شيبان، وكانت لهم كثرة في صدر الإسلام شرقي دجلة في جهات الموصل، وأكثر أئمة الخوارج في ربيعة منهم، وسيدهم في الجاهلية مرة بن ذهل بن شيبان كان له أولاد عشرة نسلوا عشرة قبائل أشهرهم همام وجساس، وسادهما بعد أبيه.

وقال ابن حزم: تفرع من همام ثمانية وعشرون بطناً. وأما جساس فقتل كليباً زوج أخته وهو سيد تغلب حين قتل ناقة البسوس جارته، وأقام ابن كليب عند بني شيبان إلى أن كبر وعقل أن جساس خاله هو الذي قتل أباه فقتله ورجع إلى تغلب، فمن ولد جساس بنو الشيخ كانت لهم رياسة بآمد وانقطعت على يد المعتضد. ومن بني شيبان هانيء بن مسعود الذي منع حلقة النعمان من أبرويز لما كانت وديعة عنده، وكان سبب ذلك يوم ذي قار وهو هانيء بن مسعود بن عامر بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، ومنهم الضحاك بن قيس الخارجي الذي بويع أيام مروان بن محمد على مذهب الصفرية وملك الكوفة وغيرها، وبايعه بالخلافة جماعة من بني أمية منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وقتله آخراً مروان بن محمد. وهو الضحاك بن قيس بن الحصين بن عبد الله بن ثعلبة بن زيد مناة بن أبي عمرو بن عوف بن ربيعة بن محلم بن ذهل بن شيبان، وسيأتي الإلمام بخبره. ومنهم المثنى بن حارثة الذي فتح سواد العراق أيام أبي بكر وعمر وأخوه المعنى بن حارثة. منهم عمران بن حطان من أعلام الخوارج. وهذا انقضاء الكلام في ربيعة بن نزار والله المعين.

وأما مضر بن نزار وكانوا أهل الكثرة والغلب بالحجاز من سائر بني عدنان وكانت لهم رياسة بمكة فيجمعهم فخذان عظيمان وهما خندف وقيس، لأنه كان له من الولد اثنان إلياس وقيس عيلان عبد حضنة قيس فنسب إليه، وقيل هو فرس، وقد قيل أن عيلان هو ابن مضر واسمه إلياس وأن له ابنين قيس ودهم، وليس ذلك بصحيح، وكان لإلياس ثلاثة من الولد مدركة وطابخة وقمعة لامرأة من قضاعة تسمى خندف فانتسب بنو إلياس كلهم إليها، وانقسمت مضر إلى خندف وقيس عيلان. فأما قيس فتشعبت إلى ثلاث بطون من كعب وعمرو وسعد بنيه الثلاثة، فمن عمرو بنو فهم وبنو عدوان ابني عمرو بن قيس، وعدوان بطن متسع وكانت منازلهم الطائف من أرض نجد نزلها بعد إياد العمالقة ثم غلبتهم عليها ثقيف فخرجوا إلى تهامة، وكان منهم عامر بن الظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن عدوان حكم

العرب في الجاهلية، وكان منهم أيضاً أبو سيارة الذي يدفع بالناس في الموسم، وعميلة ابن الأعزل بن خالد بن سعد بن الحرث بن رايش بن زيد بن عدوان، وبإفريقية لهذا العهد منهم أحياء بادية بالقفر يظعنون مع بني سليم تارة ومع رياح بن هلال بن عامر أخرى.

ومن بني فهم بن عمرو فيما ذكر البيهقي بنو طرود بن فهم بطن متسع كانوا بأرض نجد، وكان منهم الأعشى، وليس منهم الآن بها أحد، وبإفريقية لهذا العهد حي يظعنون مع سليم ورياح. وانقضى الكلام في بني عمرو بن قيس.

وأما سعد بن قيس فمنهم غني وباهلة وغطفان ومرة، فأما غني فهم بنو عمرو بن أعصر بن سعد، وأما باهلة فمنهم بنو مالك أعصر بن سعد صاحب خراسان المشهور، ومنهم أيضاً الأصمعي راوية العرب المشهور وهو عبد الملك بن علي بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع بن مطر بن رياح بن عمرو بن عبد شمس بن أعيا بن سعد بن عبد غانم بن قتيبة بن معن بن مالك.

وأما بنو غطفان بن سعد: فبطن عظيم متسع كثير الشعوب والبطون ومنازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبلي طيء، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية واستولت عليها قبائل طيء وليس منهم اليوم عمودة رجالة في قطر من الأقطار إلا ما كان لفزارة ورواحة في جوار هيب ببلاد برقة. وبنو غطفان بطون ثلاثة: منهم أشجع بن ريث بن غطفان، وعبس بن بغيض بن ريث بن غطفان، وذبيان. فأما أشجع فكانوا عرب المدينة يثرب وكان سيدهم معقل بن سنان من الصحابة، وكان منهم نعيم بن مسعود بن أنيف بن ثعلبة بن قند بن خلاوة بن سبيع بن أشجع الذي شتت جموع الأحزاب عن النبي ﷺ، إلى آخرين مذكورين منهم، وليس لهذا العهد منهم بنجد أحد إلا بقايا حوالي المدينة النبوية، وبالمغرب الأقصى منهم حي عظيم الآن يظعنون مع عرب المعقل بجهات سجلماسة ووادي ملوية ولهم عدد وذكر.

وأما بنو عبس فبيتهم في بني عدة بن قطيعة كان منهم الربيع بن زياد وزير النعمان، ثم إخوتهم بنو الحرث بن قطيعة كان منهم زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بسن آزر بن الحرث سيدهم، وكانت له السيادة على غطفان أجمع، وله بنون أربعة منهم قيس ساد بعده على عبس، وابنه زهير هو صاحب حرب داحس والغبرا فرسين كانت إحداهما وهي داحس لقيس والأخرى وهي الغبرا لحذيفة بن بدر سيد فزارة فأجرياهما وتشاحا في الحكم بالسبق فتشاجرا وتحاربا وقتل قيس حذيفة ودامت الحرب بين عبس وفزارة وإخوة قيس بن زهير الحرث وشاس ومالك وقتل مالك في تلك الحرب، وكان منهم الصحابي المشهور حذيفة بن اليماني بن حسل بن جابر بن ربيعة بن جروة بن الحرث بن قطيعة ومن عبس بن جابر بنو غالب بن قطيعة، ثم عنترة بن معاوية بن شداد بن مراد بن مخزوم بن مالك بن غالب الفارس المشهور وأحد الشعراء الستة في الجاهلية، وكان بعده من أهل نسبه وقرابته الحطيئة الشاعر المشهور واسمه جرول بن أوس بن جؤية بن مخزوم، وليس بنجد لهذا العهد أحد من بني عبس، وفي أحياء زغبة من بني هلال لهذا العهد أحياء ينتسبون إلى عبس، فما أدري من عبس هؤلاء أم هو عبس آخر من زغبة نسبوا إليه.

وأما ذبيان بن بغيض: فلهم بطون ثلاثة: مرة وثعلبة وفزارة، فأما فزارة فهم خمسة شعوب: عدي وسعد وشمخ ومازن وظالم. وفي بدر بن عدي كانت رياستهم في الجاهلية، وكانوا يرأسون جميع غطفان، ومن قيس وإخوتهم بنو ثعلبة بن عدي كان منهم حذيفة بن بدر بن جؤية بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة الذي راهن قيس بن زهير العبسي على جري داحس والغبراء وكانت بسبب ذلك الحرب المعروفة، ومن ولده عيينة بن حصن بن حذيفة الذي قاد الأحزاب إلى المدينة وأغار على المدينة لأول بيعة أبي بكر وكان رسول اللّه ﷺ يسميه الأحمق المطاع، ومنهم أيضاً الصحابي المشهور سمرة بن جندب بن هلال بن خديج بن مرة بن خرق بن عمرو بن جابر بن خشين ذي الرأسين بن لاي بن عصيم بن شمخ بن فزارة، ومن بني سعد بن فزارة يزيد بن عمرو بن هبيرة بن معية بن سكين بن خديج بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن فزارة ولي العراقين هو وأبوه أيام يزيد بن عبد الملك ومروان بن محمد، وهو الذي قتله المنصور بعد أن عاهده، ومن بني مازن بن فزارة هرم بن قطبة أدرك الإسلام وأسلم، إلى آخرين يطول ذكرهم ولم يبق بنجد منهم أحد.

وقال ابن سعيد: إن أبرق الحنان وأبانا من وادي القرى من معالم بلادهم، وإن جيرانهم من طيء مولدها لهذا العهد، وأن بأرض برقة منهم إلى طرابلس قبائل رواحة وهيب وفزان. قلت: وبإفريقية والمغرب لهذا العهد أحياء كثيرة اختلطوا مع أهله، فمنهم مع المعقل بالمغرب الأقصى أحياء كثيرة لهم عدد وذكر بالمعقل إلى الإستظهار بهم حاجة، ومنهم مع بني سليم بن منصور بأفريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الليل من شعوب بني سليم يستظهرون بهم في مواقف حروبهم ويولونهم على ما يتولونه للسلطان من أمور باديتهم نيابةً عنهم شأن الوزراء في الدول، وكان من أشهرهم معن بن معاطن وزير حمزة بن عمر بن أبي الليل أمير الكعوب بعده حسبما نذكره في أخبارهم، وربما يزعم

بنو مرين أمراء الزاب لهذا العهد أنهم منهم، وينتسبون إلى مازن بن فزارة، وليس ذلك بصحيح، وهو نسب مصون يتقرب به إليهم بعض البدو من فزارة هؤلاء طمعاً فيما بأيديهم لمكانهم من ولاية الزاب والانفراد بجبايته ومصانعة الناس بوفرها، فيلهجونهم بذلك ترفعاً على أهل نسبهم بالحقيقة من الأثابج، كما يذكر لكونه تحت أيديهم ومن رعاياهم.

وأما بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان فمنهم هرم بن سنان بن غيظ بن مرة وهو سيدهم في الجاهلية الذي مدحه زهير بن أبي سلمى، ومنهم أيضاً الفاتك وهو الحرث بن ظالم بن جذيمة بن يربوع بن غيظ فتك بخالد بن جعفر بن كلاب وشرحبيل بن الأسود بن المنذر، وحصل ابن الحرث في يد النعمان بن المنذر فقتله، وشاعره في الجاهلية النابغة زياد بن عمرو الذبياني أحد الشعراء الستة. ومنهم أيضاً مسلم بن عقبة بن رياح بن أسعد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن يربوع قائد يزيد بن معاوية صاحب يوم الحرة على أهل المدينة إلى آخرين يطول ذكرهم. وهذا آخر الكلام في بني غطفان وبلادهم بنجد مما يلي وادي القرى، وبها من المعالم أبنى والحاجر والهباءة وأبرق الحنان، وتفرقوا على بلاد الإسلام في الفتوحات ولم يبق لهم في تلك البلاد ذكر، ونزلت بها قبائل طيء وبانقضاء ذكرهم انقضى بنو سعد بن قيس.

وأما خصفة بن قيس: فتفرع منهم بطنان عظيمان وهما بنو سليم بن منصور وهوازن بن منصور، ولهوازن بطون كثيرة يأتي ذكرها، ويلحق بهذين البطنين بنو مازن بن منصور وعددهم قليل، وكان منهم عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب بن نشيب بن وهب بن زيد بن مالك بن عبد عوف بن الحرث بن مازن الصحابي المشهور الذي بنى البصرة لعمر بن الخطاب، وإليه ينسب العتبيون الذين سادوا بخراسان، ويلحق أيضاً بنو محارب بن خصفة. فأما بنو سليم فشعوبهم كثيرة منهم بنو ذكوان بن رفاعة بن الحرث بن رجا بن الحارث بن بهثة بن سليم، وإخوتهم بنو عبس بن رفاعة الذين منهم عباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد عبس الصحابي المشهور الذي أعطاه رسول الله ﷺ يوم حنين في المؤلفة قلوبهم، ثم زاده حين غضب استقلالاً لعطائه وأنشد الأبيات المعروفة في السير، وكان أبوه مرداس تزوج الخنساء وولدت منه.

ومن بني سليم أيضاً بنو ثعلبة بن بهثة بن سليم، كان منهم عبيد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الأعور والي أفريقية، وجده أبو الأعور من قواد معاوية واسمه عمرو بن سفيان بن عبد شمس بن سعد بن قائف بن الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة، والرود بن خالد بن حذيفة بن عمرو بن خلف بن مازن بن مالك بن ثعلبة وكان على بني سليم يوم الفتح، وعمرو بن عتبة بن منقذ بن عامر بن خالد كان صديقاً لرسول الله ﷺ في الجاهلية وأسلم ثلاث أبو بكر وبلال فكان يقول كنت يومئذ ربع الإسلام. ومن بني سليم أيضاً بنو علي بن مالك بن امرئ القيس بن بهثة وبنو عصية بن خفاف بن امرئ القيس، وهما اللذان لعنهما رسول الله ﷺ أهل بئر معونة وقتلهم إياهم. ومن شعوب عصية الشريد واسمه عمرو بن يقظة بن عصية. وقال ابن سعيد: الشريد بن رياح بن ثعلبة بن عصية الذين كانت منهم الخنساء وأخواها صخر ومعاوية ابنا عمرو بن الحرث بن الشريد والشريد بيت سليم في الجاهلية، قال ابن سعيد: كان عمرو بن الشريد يمسك بيده ابنيه صخراً ومعاوية في الموسم فيقول أنا أبو خيري مضر ومن أنكر فليعتبر فلا ينكر أحد وابنته الخنساء الشاعرة وقد تقدم ذكرها، وحضرت بأولادها حروب القادسية. وبنو الشريد لهذا العصر في جملة بني سليم في أفريقية ولهم شوكة وصولة، ومنهم إخوة عصية بن خفاف الذين كان منهم الخفاف كبير أهل الردة الذي أحرقه أبو بكر بالنار واسمه إياس بن عبد الله بن أليل بن سلمة بن عميرة.

ومن بني سليم أيضاً: بنو بهز بن إمرئ القيس بن بهثة كان منهم الحجاج بن علاط بن خالد بن نديرة بن حبتر بن هلال بن عبد ظفر بن سعد بن عمرو بن تميم بن بهز الصحابي المشهور، وابنه نصر بن حجاج الذي نفاه عمر عن المدينة، إلى آخرين من سليم يطول ذكرهم. قال ابن سعيد: ومن بني سليم بنو زغبة بن مالك بن بهثة كانوا بين الحرمين ثم انتقلوا إلى المغرب فسكنوا بأفريقية في جوار إخوتهم بني ذياب بن مالك ثم صاروا في جوار بني كعب. ومن بني سليم بنو ذياب بن مالك ومنازلهم ما بين قابس وبرقة، يجاورون مواطن يعهب، وبجهة المدينة خلق منهم يؤذون الحاج ويقطعون الطريق. وبنو سليمان بن ذياب في جهة فزان وودان ورؤساء ذياب لهذا العهد الجواري ما بين طرابلس وقابس، وبيتهم بنو صابر والمحامد بنواحي فاس وبيتهم في بني رصاب بن محمود وسيأتي ذكرهم.

ومن بني سليم بنو عوف بن بهثة: ما بين قابس وبلد العناب من أفريقية وجرما، هم مرداس وعلاق فأما مرادس فرياستهم في بني جامع لهذا العهد، وأما علاق فكان رئيسهم الأول في دخولهم أفريقية رافع بن حماد، ومن أعقابه بنو كعب رؤساء سليم لهذا العهد بأفريقية، ومن بني سليم بنو يعهب بن بهثة إخوة بني عوف بن بهثة وهم ما بين السدرة من برقة إلى العدوة الكبيرة

ثم الصغيرة من حدود الإسكندرية، فأول ما يلي الغرب منهم بنو أحمد لهم أجدابية وجهاتها وهم عدد يرهبهم الحاج ويرجعون إلى شماخ، وقبائل شماخ لها عدد وأسماء متمايزة ولها العز في بيت لكونها جازت المحصب من بلاد برقة مثل المرج وطلميثا ودرنا، وفي المشرق عن بني أحمد إلى العقبة الكبيرة، وأما الصغيرة فسال ومحارب والرياسة في هذين القبيلتين لبني عزاز وهبيب بخلاف سائر سليم لأنها استولت على إقليم طويل خربت مدنه ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية إلا لأشياخها وتحت أيديهم خلق من البرابرة واليهود زراعاً وتجاراً. وأما رواحة وفزارة اللذين في بلاد هبيب فهم من غطفان وهذا آخر الكلام في بني سليم بن منصور وكانت بلادهم في عالية نجد بالغرب وخيبر ومنها حرة بني سليم، وحرة النار بين وادي القرى وتيماً، وليس لهم الآن عدد ولا بقية في بلادهم، وبإفريقية منهم خلق عظيم كما يأتي ذكره في أخبارهم عند ذكر الطبقة الرابعة من العرب.

وأما هوازن بن منصور: ففيهم بطون كثيرة يجمعهم ثلاثة أجرام كلهم لبكر بن هوازن وهم: بنو سعد بن بكر وبنو معاوية بن بكر وبنو منبه بن بكر. فأما بنو سعد بن بكر، وهم أظآر النبي ﷺ أرضعته منهم حليمة بنت أبي ذؤيب بن عبد اللّه بن الحرث بن سحنة بن ناصرة بن عصية بن نصر بن أسعد، وبنوها عبد اللّه وأنيسة والشيماء بنو الحرث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملاذ بن ناصرة، وحصلت الشيماء في سبي هوازن فأكرمها رسول اللّه ﷺ وردها إلى قومها وكان فيها أثر عضة عضها إياها رسول اللّه ﷺ وهي تحمله.

فأما بنو منبه بن بكر فمنهم ثقيف، وهم بنو قسي بن منبه بطن عظيم متسع، منهم بنو جهم بن ثقيف كان منهم عثمان بن عبد اللّه بن ربيعة بن حبيب بن الحرث بن مالك بن حطيط صاحب لوائهم يوم حنين وقتل يومئذ كافراً وكان من ولده أمير الأندلس لسليمان بن عبد الملك وهو الحر بن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عثمان، ومنهم بنو عوف بن ثقيف ويعرفون بالأحلاف، فمنهم بنو سعد بن عوف كان منهم عتبان بن مالك بن كعب بن عمرون بن سعد بن عوف الذي وضعته ثقيف رهينة عند أبي مكسورة وأخوه معتب، وكان من بنيه عروة بن مسعود بن معتب الذي بعثه رسول اللّه ﷺ إلى قومه داعياً إلى الإسلام فقتلوه، وهو أحد عظيمي القريتين، ومن بنيه أيضاً الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب صاحب العراقين لعبد الملك وابنه الوليد.

ومنهم يوسف بن عمر بن محمد بن عبد الحكم والي العراقين لهشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد وكثير من قومه كانوا ولاة بالعراق والشام واليمن ومكة. ومن بني معتب أيضاً غيلان بن مسلمة بن معتب كانت له وفادة على كسرى، ومنهم بنو غيرة بن عوف الذين منهم الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن ثقيف، والحرث بن كلدة بن عمرو بن علاج طبيب العرب، وأبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن غيرة الصحابي المقتول يوم الجسر من أيام القادسية، وابنه المختار بن أبي عبيد الذي ادعى النبوة بالكوفة وكان عليها لعبد اللّه بن الزبير فانتقض عليه ودعا لمحمد بن الحنفية ثم ادعى النبوة.

ومنهم أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير في آخرين يطول ذكرهم. ومواطن ثقيف كانت بالطائف وهي مدينة من أرض نجد قريباً من مكة ثم جلس في شرقيها وشمالها وهي على قبة الجبل كانت تسمى واج وبوج، وكانت في الجاهلية للعمالقة ثم نزلتها ثمود قبل وادي القرى، ومن ثم يقال أن ثقيفاً كانت من بقايا ثمود، ويقال: أن الذي سكنها بعد العمالقة عدوان وغلبهم عليها ثقيف وهي الآن دارهم كذا ذكره السهيلي. ويقال: أنهم موال لهوازن ويقال: أنهم من إياد. ومن أعمال الطائف سوق عكاظ والعرج، وعكاظ حجر بين اليمن والحجاز، وكانت سوقها في الجاهلية يوماً في السنة يقصدها العرب من الأقطار فكانت لهم موسماً.

وأما بنو معاوية بن بكر بن هوازن ففيهم بطون كثيرة: منهم بنو نصر بن معاوية الذين منهم مالك بن سعد بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع بن واثلة بن دهمان بن نصر قائد المشركين يوم حنين وأسلم وحسن إسلامه. ومنهم بنو جشم بن معاوية، ومن جشم غزية رهط ابن دريد الصمة ومواطنهم بالسروات وهي بلاد تفصل بين تهامة ونجد متصلة من اليمن إلى الشام كسروات الجبل وسروات جشم متصلة بسروات هذيل، وانتقل معظمهم إلى الغرب وهم الآن به كما يأتي ذكره في الطبقة الرابعة من العرب، ولم يبق بالسروات منهم إلا من ليس له صولة، ومنهم بنو سلول ومنهم بنو مرة بن صعصعة بن معاوية وإنما عرفوا بأمهم سلول، وكانوا في الغرب كثيراً وفي الغرب منهم كثير لهذا العهد. ومنهم فيما يزعم العرب بنو يزيد أهل وطن حمزة غربي بجاية وبعض أحياء بجبل عياض. كما نذكر منهم بنو عامر بن صعصعة بن معاوية جرم كبير من أجرام العرب لهم بطون أربعة: نمير وربيعة وهلال وسواءة، فأما نمير بن عامر فهم إحدى جمرات العرب وكانت لهم كثرة وعزة في الجاهلية والإسلام ودخلوا إلى الجزيرة

الفراتية وملكوا حرار وغيرها، واستلحمهم بنو العباس أيام المعتز فهلكوا ودثروا. وأما سواءة بن عامر فشعوبهم في رباب من سمرة بن سواءة، فمنهم جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب بن رباب الصحابي المشهور، ومن بطن رباب هؤلاء بأفريقية حي ينجعون مع رياح بن هلال ويعرفون بهذا النسب كما يأتي في أخبار هلال من الطبقة الرابعة. وأما هلال بن عامر فبطون كثيرة كانوا في الجاهلية بنجد ثم ساروا إلى الديار المصرية في حروب القرامطة، ثم ساروا إلى أفريقية أجازهم الوزير البارزي في خلافة المستنصر العبيدي لحرب المعز بن باديس، فملك عليه ضواحي إفريقية، ثم زاحمهم بنو سليم فساروا إلى الغرب ما بين بونة وقسنطينة، إلى البحر المحيط، وكان لهلال خمسة من الولد: شعبة وناشرة ونهيك وعبد مناف وعبد الله، وبطونهم كلها ترجع إلى هؤلاء الخمسة، فكان من بني عبد مناف زينب أم المؤمنين بنت خزيمة بن الحرث بن عبد الله بن عمرو بن عبد الله بن عبد مناف، وكان من بني عبد الله ميمونة أم المؤمنين بنت الحرث بن حزن بن بجير بن هرم بن رويبة بن عبد الله. قال ابن حزم: ومن بطون بني هلال بنو قرة وبنو نعجة الذين بين مصر وأفريقية، وبنو حرب الذين بالحجاز، وبنو رياح الذين أفسدوا أفريقية.

وقال ابن سعيد: وجيل بني هلال مشهور بالشام وقد صار عربه حرائر وفيه قلعة صرخد مشهورة قال: وقبائلهم في العرب ترجع لهذا العهد إلى أثبج ورياح وزغبة وقارع. فأما الأثبج فمنهم سراح بجهة برقة، وعياض بجبل القلعة المسمى لهم ولغيرهم. وأما رياح فبلادهم بنواحي قسنطينة والسلم والزاب، ومنهم عتبة بنواحي بجاية، ومنهم بالمغرب الأقصى خلق كثير كما يأتي في أخبارهم. وأما زغبة فإنهم في بلاد زناتة خلق كثير. وأما قارع فإنهم في المغرب الأقصى مع المعقل وقرة وجشم.

وبنو قرة كانت منازلهم ببرقة وكانت رياستهم أيام الحاكم العبيدي لما مضى ابن مقرب، ولما بايعوا لأبي ركوة من بني أمية بالأندلس وقتله الحاكم سلط عليهم العرب والجيوش فأفنوهم، وانتقل جلهم إلى المغرب الأقصى، فهم مع جشم هنالك كما يأتي ذكره ويأتي الكلام في نسب هلال وشعوبهم ومواطنهم بالمغرب الأوسط وإفريقية عند الكلام عليهم في الطبقة الرابعة. وأما بنو ربيعة بن عامر فبطون كثيرة وعامتها ترجع إلى ثلاثة من بنيه وهم: عامر وكلاب وكعب، وبلادهم بأرض نجد الموالية لتهامة بالمدينة وأرض الشام، ثم دخلوا إلى الشام وافترق منهم على ممالك الإسلام فلم يبق منهم بنجد أحد.

فمن عامر بن ربيعة بنو التكما وهو ربيعة بن عامر بن ربيعة الذي اشترك ابنه حندج مع خالد بن جعفر بن كلاب في قتل زهير بن جذيمة العبسي، وبنو ذي السهمين معاوية بن عامر بن ربيعة وهو ذو الحجر عوف بن عامر بن ربيعة، وبنو فارس الضحيا عمرو بن عامر بن ربيعة منهم خداش بن زهير بن عمرو من فرسان الجاهلية وشعرائها. وأما بنو كلاب بن ربيعة فمنهم بنو الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب وبنو ربيعة المجنون بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب وبنو عمرو بن كلاب.

قال ابن حزم: يقال إن منهم بني صالح بن مرداس أمراء حلب، ومن بني كلاب بنو رواس واسمه الحرث بن كلاب، وبنو الضباب واسمه معاوية بن كلاب الذين منهم شهر بن ذي الجوش بن الأعور بن معاوية قاتل الحسين بن علي، ومن عقبه كان الصهيل بن حاتم بن شمر وزير عبد الرحمن بن يوسف الفهري بالأندلس، وبنو جعفر بن كلاب الذين منهم عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر وعمه أبو عامر بن مالك ملاعب الأسنة وربيعة بن مالك وتبع المعتبرين وأبوه لبيد بن ربيعة شاعر معروف مشهور.

وكانت بلاد بني كلاب حمى ضرية والربذة في جهات المدينة وفدك والعوالي، وحمى ضرية هي حمى كليب وائل نباته النضر تسمن عليه الخيل والإبل، وحمى الربذة هو الذي أخرج عليه عثمان أبا ذر رضي الله عنهما. ثم انتقل بنو كلاب إلى الشام فكان لهم في الجزيرة الفراتية صيت وملك وملكوا حلب وكثيراً من مدن الشام، تولى منهم بنو صالح بن مرادس، ثم ضعفوا فهم الآن تحت خفارة العرب المشهورين بالشام وهنالك بالإمارة من طيء.

قال ابن سعيد: وكان لهم في الإسلام دولة باليمامة. ومن بني كعب بن ربيعة بطون كثيرة منهم الحريش بن كعب بطن كان منهم مطرف بن عبد الله بن الشخير بن عوف بن وقدان بن الحريش الصحابي المشهور، ويقال: إن منهم ليلى التي شبب بها قيس بن عبد الله بن عمرو بن عدس بن ربيعة بن جعدة الشاعر، مادح النبي ﷺ، وعبد الله بن الحشرج بن الأشهب بن ورد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة الذي غلب على ناب فارس أيام الزبير وعم أمه زياد بن الأشهب الذي وفد على علي ليصلح بينه وبين معاوية، ومالك بن عبد الله بن جعدة الذي أجار قيس بن زهير العبسي. وبنو قشير بن كعب منهم مرة بن هبيرة بن عامر بن مسلمة الخير بن قشير وفد على النبي ﷺ فولاه صدقات قومه، وكلثوم بن عياض بن رصوح بن الأعور بن قشير الذي ولي إفريقية، وابن أخيه بلخ بن بشر. ومن بني قشير بخراسان أعيان

منهم أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة، ومنهم عريسة الأندلس بنو رشيق ملكها منهم عبد الرحمن بن رشيق وأخرج منها ابن عمارة، ومنهم الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة. وبنو العجلان بن عبد الله بن كعب وشاعرهم تميم بن مقبل. وبنو عقيل بن كعب وهم بطون كثيرة منهم: بنو المنتفق بن عامر بن عقيل. ومن أعقاب بني المنتفق هؤلاء العرب المعروفون في المغرب بالخلط. قال علي بن عبد العزيز الجرجاني: الخلط بنو عوف وبنو معاوية ابنا المنتفق بن عامر بن عقيل انتهى.

قال ابن سعيد: ومنازل المنتفق الآجام التي بين البصرة والكوفة والإمارة منهم في بني معروف. قلت: والخلط لهذا العهد في أعداد جشم بالمغرب، ومن بني عقيل بن كعب بنو عبادة بن عقيل، منهم الأخيل واسمه كعب بن الرحال بن معاوية بن عبادة، ومن عقبه ليلى الأخيلة بنت حذيفة بن سداد بن الأخيل.

وذكر ابن قتيبة أن قيس بن الملوح المجنون منهم. وبنو عبادة هؤلاء لهذا العهد فيما قال ابن سعيد بالجزيرة الفراتية فيما يلي العراق، ولهم عدد وذكر، وغلب منهم على الموصل وحلب في أواسط المائة الخامسة قريش بن بدران بن مقلد فملكها هو وابنه مسلم بن قريش من بعده، ويسمى شرف الدولة، وتوالى الملك في عقب مسلم بن قريش منهم إلى أن انقرضوا.

قال ابن سعيد: ومنهم لهذا العهد بقية بين الحازر والزاب يقال لهم: عرب شرف الدولة، ولهم إحسان من صاحب الموصل وهم في تجمل وعز إلا أن عددهم قليل نحو مائة فارس. ومن بني عقيل بن كعب خفاجة بن عمرو بن عقيل وانتقلوا في قرب من هذه العصور إلى العراق والجزيرة ولهم ببادية العراق دولة، ومن بني عامر بن عقيل بنو عامر بن عوف بن مالك بن عوف، وهم إخوة بني المنتفق وهم ساكنون بجهات البصرة وقد ملكوا البحرين بعد بني أبي الحسن ملكوها من تغلب.

قال ابن سعيد: وملكوا أرض اليمامة من بني كلاب، وكان ملكهم لعهد الخمسين من المائة السابعة عصفور وبنوه وقد انقضى الكلام في بطون قيس عيلان. والله المعين لا رب غيره ولا خير إلا خيره وهو نعم المولى، ونعم النصير، وهو حسبي ونعم الوكيل. وأسأله الستر الجميل آمين.

وأما بطون خندف بن إلياس بن نصر ولد إلياس مدركة وطابخة وقمعة وأمهم امرأة من قضاعة اسمها خندف فانتسب ولد إلياس كلهم إليها، فمن بطون قمعة أسلم وخزاعة، فأسلم بنو أفصى بن عامر بن قمعة، وخزاعة بن عمرو بن عامر بن لحي وهو ربيعة بن عامر بن قمعة واسمه حارثة. وعمرو بن لحي هو أول من غير دين إسماعيل وعبد الأوثان وأمر العرب بعبادتها، وفيه قال ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار» يعني أحشاءه. ومواطنهم بأنحاء مكة في مر الظهران وما يليه وكانوا حلفاء لقريش. ودخلوا عام الحديبية في عهد رسول الله ﷺ فيهم، فغزا قريشاً وغلبهم على أمرهم وافتتح مكة وكان عام الفتح.

وقد يقال: إن خزاعة هؤلاء من غسان وأنهم بنو حارثة بن عمرو مزيقيا، وأنهم أقاموا بمر الظهران حين سارت غسان إلى الشام وتخزعوا عنهم فسموا خزاعة، وليس ذلك بصحيح كما ذكر. وكان لخزاعة ولاية البيت قبل قريش في بني كعب بن عمرو بن لحي، وانتهت إلى حليل بن حبشية بن سلول وهو الذي أوصى بها لقصي بن كلاب حين زوجه ابنته حبى بنت حليل. ويقال: إن أبا غبشان بن حليل واسمه المحترش باع الكعبة من قصي بزق خمر وفيه جرى المثل المعروف. يقال: أخسر صفقة من أبي غبشان.

ومن ولد حليل بن حبشية كان كرز بن علقمة بن هلال بن حريبة بن عبد فهم بن حليل، الذي قفا أثر رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى الغار، ورأى عليه نسج العنكبوت وعش اليمامة ببيضها فرخوا عنه. ولخزاعة هؤلاء بطون كثيرة: منهم بنو المصطلق بن سعد بن عمرو بن لحي، وبنو كعب بن عمرو. ومنهم عمران بن الحصين صحابي، وسليمان بن صرد أمير التوابين القائمين بثأر الحسين. ومالك بن الهيثم من نقباء بني العباس وبنو عدي بن عمرو، ومنهم جويرية بنت الحارث أم المؤمنين، وبنو مليح بن عمرو، ومنهم طلحة الطلحات، وكثير الشاعر صاحب عزة وهو ابن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر بن عويمر بن مخلد بن سبيع بن خثعمة بن سعد بن مليح. وبنو عوف بن عمرو ومنهم العباد أهل الحيرة وهم بنو جهينة بن عوف. ومن إخوة خزاعة بنو أسلم بن أفصى بن عامر بن قمعة وبنو مالك بن أفصى، وماثان بن أفصى. فمن أسلم سلمة بن الأكوع الصحابي ودعبل وبنو الشيص الشاعران ومحمد بن الأشعث قائد بني العباس، ومنهم مالك بن سليمان بن كثير من دعاة بني العباس قتله أبو مسلم.

وأما طابخة فلهم بطون كثيرة أشهرها ضبة والرباب ومزينة وتميم، وبطون صغار إخوة لتميم، منهم صوفة ومحارب.

فأما بنو تميم بن مر فهم بنو تميم بن مر بن أد بن طابخة، وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة وانتشرت إلى العذيب من أرض الكوفة، وقد تفرقوا لهذا العهد في الحواضر ولم تبق منهم باقية، وورث منازلهم الحيان العظيمان بالمشرق لهذا العهد غزية من طيء وخفاجة من بني عقيل بن كعب.

ولتميم بطون كثيرة منهم الحارث بن تميم وفيهم ينسب المسيب بن شريك الفقيه وهم قليل، وبنو العنبر الذي بعثه رسول الله ﷺ على الصدقات، وزفر الفقيه بن ذهيل بن قيس بن مسلم بن قيس بن مكمل بن ذهل بن ذويب بن جذيمة بن عمرو بن جيجور بن جندب بن العنبر صاحب أبي حنيفة، والناسك الفاضل عامر بن عبد قيس بن ثابت بن بشامة بن حذيفة بن معاوية بن الجون بن كعب بن جندب وربيعة بن رفيع بن سلمة بن محلم بن صلاة بن عبدة بن عدي بن جندب، وبنو الهجيج بن عمرو بن تميم وبنو أسيد بن عمير.

وكان منهم أبو هالة هند بن زرارة بن النباش بن عدي بن نمير بن أسيد الصحابي المشهور، وحنظلة بن الربيع بن صيفي بن رياح بن الحرث بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد كاتب رسول الله ﷺ، والحليم المشهور أكثم بن صيفي بن رياح، ويحيى بن أكثم قاضي المأمون من ولد صيفي بن رياح. وبنو مالك بن عمرو بن تميم منهم النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد بن كلثوم بن عبدة بن زهير بن عروة بن جميل بن حجر بن خزاعي بن مازن بن مالك النحوي المحدث، وسلم بن أحوز بن أربد بن محرز بن لاي بن مهل بن ضباب بن حجبة بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك صاحب الشرطة لنصر بن سيار وقاتل يحيى بن زيد بن زين العابدين، وإخوة هلال بن أحوز قاتل آل المهلب، وقطري بن الفجاءة، واسم الفجاءة جعونة بن يزيد بن زياد بن جنز بن كابية بن حرقوص الخارجي الأزرقي سلم عليه بالخلافة عشرين سنة، ومالك بن الريب بن جوط بن قرط بن حسيل بن ربيعة بن كنانة بن حرقوص صاحب القصيدة المشهورة نعى بها نفسه وبعث بها إلى قومه وهو في خراسان في بعث عثمان بن عفان وأولها:

دعاني الهوى من أهل ودي ورفقتي ... بذي الشيطين فالتفت ورائيا
يقولون لا تبعد وهم يدفنونني ... وأين مكان البعد إلا مكانيا

وبنو عمرو بن العلاء بن عمار بن عدنان بن عبيد الله بن الحصي بن الحرث بن جلهم بن خزاعي بن مازن بن مالك، وبنو الحرث بن عمرو بن تميم وهم الحبطات منهم عباد بن الحصين بن يزيد بن أوس بن سيف بن عدم بن جبلدة بن قيار بن سعد بن الحرث وهو الملقب بالحبط لعظم بطنه، وبنو امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم وكان منهم زيد بن عدي بن زيد بن أيوب بن محروف بن عامر بن عطية بن امرئ القيس صاحب النعمان بن المنذر بالحيرة الذي سعى به إلى كسرى حتى قتله ومقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس بن إبراهيم بن أيوب بن مخوف صاحب قصر بني مقاتل بن منصور بالحيرة ولاهز بن قريط بن سري بن الكاهن بن زيد بن عصية من دعاة بني العباس الذي قتله أبو مسلم لنذارته لنصر بن سيار.

وبنو سعد بن زيد مناة بن تميم منهم الأبناء كان منهم رؤبة بن العجاج بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كنيف بن عمير بن حي بن ربيعة بن سعد بن مالك بن سعد، وعبدة بن الطيب الشاعر. وبنو منقر بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة، كان منهم قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر ولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه، وكان من ولده مية صاحبة ذي الرمة بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم. ومن بني منقر عمرو بن الأهتم صحابي وبنو مرة بن عبيد بن مقاعس، منهم الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين بن حفص بن عبادة بن النزال بن مرة وأبو بكر الأبهري المالكي، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح بن عمرو بن حفص بن عمرو بن مصعب بن الزبير بن سعد بن كعب بن عبادة بن النزال.

وبنو صريم بن مقاعس، منهم عبد الله بن أباض رئيس الأباضية من الخوارج، وعبد الله بن صفار رئيس الصفرية، والبرك بن عبد الله الذي اشترط بقتل معاوية وضربه فجرحه. وبنو عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة منهم، ثم من بني بهدلة بن عوف الزبرقان واسم الحصين بن بدر بن امرئ القيس بن خلف بن بهدلة وأويس ابن أخيه حنظلة الذي أسر هوذة بن علي الحنفي. ومن بني عطارد بن عوف كرب بن صفوان بن شحمة بن عطارد الذي كان يجيز بأهل الموسم في الجاهلية. ومن بني قريع بن عوف بن كعب جعفر الملقب أنف الناقة وكان ولده يغضبون منها إلى أن مدحهم الحطيئة بقوله:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

وبنوالحرث الأعرج بن كعب بن سعد بن زيد مناة، كان منهم زهرة بن جؤية بن عبد الله بن قتادة بن مرثد بن معاوية بن قطن بن مالك بن أرتم بن جشم بن الحرث الذي أبلى في القادسيه وقتل الجالنوس أمير الفرس، وقتله هو بعد ذلك أصحاب شبيب الخارجي مع عتاب بن ورقاء وبنو مالك بن سعد بن زيد مناة،

كان منهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفافة بن عباد بن عبد الله بن محرث بن سعد بن حرام بن سعد بن مالك أبو الولاة بإفريقية لبني العباس، وبنو ربيعة بن مالك بن زيد مناة كان منهم عروة بن جرير بن عامر بن عبد بن كعب بن ربيعة أول خارجي قال: لا حكم إلا الله يوم صفين. ويعرف بأن أباه نسبه إلى أمه. ومن بني حنظلة بن مالك البراجم وهم بنو عمرو. والظلم وغالب وكلبة وقيس كلهم بنو حنظلة كان منهم ضابئ بن الحرث بن أرطأة بن شهاب بن عبيد بن جنادال بن قيس وابن عمير بن ضابئ الذي قتله الحجاج.

وبنو ثعلبة بن يربوع بن حنظلة، وبنو الحرث بن يربوع منهم الزبير بن الماحور أمير الخوارج وأخوه عثمان وعلي وهم بنو بشير بن يزيد الملقب بالماحور بن الحارث بن ساحق بن الحرث بن سليط بن يربوع وكلهم أمراء الأزارقة.

وبنو كليب بن يربوع كان منهم جرير الشاعر ابن عطية بن الخطفي وهو حذيفة بن بدر بن سلم بن عوف بن كليب. وبنو العنبر بن يربوع منهم كانت سجاح المتنبئة بنت أويس بن جوين بن سامة بن عنبر. وبنو رياح كان منهم شبث بن ربعي بن حصين بن عميم بن ربيعة بن زيد بن رياح كان منهم رياح أسلم ثم سار مع الخوارج ثم رجع عنهم تائباً، ومعقل بن قيس أوفده عمار بن ياسر على أيام عمر بفتح تستر، وعتاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو بن همام بن رياح أمير أصبهان وقتله شبيب الخارجي.

وبنو طهية بن مالك وهم بنو أبي سود وعوف ابني مالك. وبنو دارم بن مالك بن حنظلة كان منهم ثم من بني نهشل بن دارم بن حازم بن خزيمة بن عبد الله بن حنظلة نضلة بن حدثان بن مطلق بن أصحر بن نهشل صاحب الشرطة لبني العباس. ومن بني مجاشع بن دارم الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع، والفرزدق بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال والحتات بن يزيد بن علقمة الذي آخى رسول الله ﷺ بينه وبين معاوية بن أبي سفيان. ومن بني عبد الله بن دارم المنذر بن ساوى بن عبد الله بن زيد بن عبد مناة بن دارم صاحب هجر ومن بني غرس بن زيد بن دارم حاجب بن زرارة غرس وابنه عطارد وبنوهم، كان فيهم رؤساء وأمراء وانقضى الكلام في تميم.

وأما بنو مزينة وهم بنو مر بن أد بن طابخة بن الياس واسم ولده عثمان وأوس وأمهما مزينة فسمي جمع ولديهما بها. فكان منهم زهير بن أبي سلمى وهو ربيعة بن أبي رباح بن قرة بن الحرث بن مازن بن خلاوة بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن لاظم بن عثمان أحد الشعراء الستة، وابناه بجير وكعب الذي مدح رسول الله ﷺ، والنعمان بن مقرن بن عامر بن صبح بن هجيم بن نصر بن حبشية بن كعب بن عفراء بن ثور بن هرمة، وأخوه سويد الذي قتل يوم نهاوند، ومعقل بن يسار بن عبد الله بن معير بن حراق بن لأبي بن كعب بن عبد ثور الصحابي المشهور.

وأما الرباب وهم بنو عبد مناة بن أد بن طابخة فمن بنيه تيم وعدي وعوف وثور، وسموا الرباب لأنهم غمسوا في الرب أيديهم في حلف على بني ضبة، وبلادهم جوار بني تميم بالدهنا، وفي أشعارهم ذكر حزوى وعالج من معالمهما. وتفرقوا لهذا العهد ولم يبق منهم أحد هنالك. وكان من بني تيم بن عبد مناة المستورد بن علقمة بن الفريس بن صبارى بن نشبة بن ربيع بن عمرو بن عبد الله بن لؤي بن عمرو بن الحرث بن تيم الخارجي قتله معقل بن قيس الرياحي في إمارة المغيرة بن شعبة، وابن باخمة ورد بن مجالد بن علقمة حضر مع عبد الرحمن بن ملجم في قتل علي وقتل، وقطام بنت بحنة بن عدي بن عامر بن عوف بن ثعلبة بن سعد بن ذهل بن تيم التي تزوجها عبد الرحمن بن ملجم ومهرها قتل علي فيما قيل حيث يقول:

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علي بالحسام المصمم

وكانت خارجية وقتل أبوها شحمة وعمها الأخضر يوم النهروان. ومن بني عدي بن عبد مناة ذي الرمة الشاعر، وهو غيلان بن عقبة بن بهس بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة بن ساعدة بن كعب بن عوف بن ثعلبة بن ربيعة بن ملكان بن عدي. ومن بني ثور بن عبد مناة ويسمى أطمل سفيان الثوري، وهو سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن منقر بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور وأخواه عمرو والمبارك والربيع بن خثيم الفقيه.

وأما ضبة فهم بنو ضبة بن أد وكانت ديارهم جوار بني تميم إخوتهم بالناحية الشمالية التهامية من نجد، ثم انتقلوا في الإسلام إلى العراق بجهة النعمانية وبها قتلوا المتنى الشاعر. فمنهم ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن أسعد بن ضبة سيد بني ضبة في الجاهلية، وبقيت سيادتهم في بنيه، وكان له ثمانية عشر ولداً ذكراً شهدوا معه يوم القريتين، وابنه حصين كان مع عائشة يوم الجمل، ومن ولده القاضي أبو شبرمة عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن حسان بن المنذر بن ضرار بن عنبسة بن إسحاق بن شمر بن عبس بن عنبسة بن شعبة بن المختبر عامر بن العباب بن حسل بن بجالة المذكور في قواد بني العباس وولي مصر أيام المتوكل. ويقال: إن الديلم من بني باسل بن

ضبة بن أد والله أعلم.

وأما صوفة: فهم بنو الغوث بن مر بن أد كانوا يجيزون بالحاج في الموسم لا يجوز أحد حتى يجوزوا ثم انقرضوا عن آخرهم في الجاهلية، وورث ذلك آل صفوان بن شحمة من بني سعد بن زيد مناة بن تميم، وقد مر ذكر ذلك وانقضى بنو طابخة بن إلياس.

وأما مدركة بن إلياس: فهم بطون كثيرة أعظمها هذيل والقارة وأسد وكنانة وقريش فأما هذيل: فهم بنو هذيل بن مدركة، وديارهم بالسورات، وسراتهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف، ولهم أماكن ومياه في أسفلها من جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة، ومنها الرجيع وبئر معونة. وهم بطنان سعد بن هذيل ولحيان بن هذيل فمن بني سعد بن هذيل أبو بكر الشاعر، والحطيئة فيما يقال، وعبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ فار بن مخزوم بن صاهلة بن الحارث بن تميم بن سعد الصحابي المشهور. وأخواه عتبة وعميس، وبنوه عبد الرحمن وعتبة، والمسعودي المؤرخ ابن عتبة وهو علي بن الحسين بن علي بن عبد الله بن زيد بن عتبة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، ومن عتبة أخوه عتبة بن عبد الله بن زيد بن عتبة فقيه المدينة. وقد افترقوا في الإسلام على الممالك ولم يبق لهم حي يطرف. وبأفريقية منهم قبيلة بنواحي باجة يعسكرون مع جند السلطان ويؤدون المغرم.

وأما بنو أسد: فمنهم بنو أسد بن خزيمة بن مدركة، وبطن كبير متسع ذو بطون، وبلادهم فيما يلي الكرخ من أرض نجد وفي مجاورة طيء، ويقال: إن بلاد طيء كانت لبني أسد، فلما خرجوا من اليمن غلبوهم على أجا وسلمى وجاءوا واصطلحوا وتجاوروا لبني أسد والتغلبية وواقصة وغاضرة. ولهم من المنازل المسماة في الأشعار غاضرة والنعف، وقد تفرقوا من بلاد الحجاز على الأقطار وليبق لهم حي وبلادهم الآن فيما ذكر ابن سعيد لطيء وبني عقيل الأمراء، كانوا بأرض العراق والجزيرة وكانوا في الدولة السلجوقية قد عظم أمرهم وملكوا الحلة وجهاتها، وكان بها منهم الملوك بنو مرين الذين ألف الهباري أرجوزته المعروفة به في السياسة. ثم اضمحل ملكهم بعد ذلك وورث بلادهم بالعراق خفاجة.

وكانت بنو أسد بطوناً كثيرة، كان منها بنو كاهل قاتل حجر بن عمرو الملك والد امرئ القيس، وبنو غنم بن دودان بن أسد: منهم عبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم الذي أسلم ثم تنصر ومات نصرانياً، وأخته زينب أم المؤمنين رضي الله عنها، وعكاشة بن محصن بن حدثان بن قيس بن مرة بن كثير الصحابي المشهور. وبنو ثعلبة بن دودان بن أسد منهم: الكميت الشاعر ابن زيد بن الأخنس بن ربيعة بن امرئ القيس بن الحرث بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة، وضرار بن الأزور وهو مالك بن أويس بن خزيمة بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة الصحابي، قاتل مالك بن نويرة، والحضرمي بن عامر بن مجمع بن موالة بن همام بن صحب بن القيس بن مالك وأفدهم على النبي ﷺ.

وبنو عمرو بن قعيد بن الحارث بن ثعلبة بن دودان منهم الطماح بن قيس بن طريف بن عمرو بن قعيد الذي سعى عند قيصر في هلاك امرئ القيس، وطليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس بن طريف بن عمرو الذي كان كاهناً وادعى النبوة ثم أسلم. وفي بني أسد بطون يطول ذكرها. وأما القارة وعكل: فهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس إخوة بني أسد وكانوا حلفاء لبني زهرة من قريش.

وأما كنانة فهم كنانة بن خزيمة بن مدركة إخوة بني أسد، وديارهم بجهات مكة، وفيهم بطون كثيرة وأشرفها قريش، وهم بنو النضر بن كنانة وسيأتي ذكرهم. ثم بنو عبد مناة بن كنانة وبنو مالك بن كنانة. فمن بني عبد مناة بنو بكر وبنو مرة وبنو الحارث وبنو عامر، فمن بني بكر بنو ليث بن بكر منهم بنو الملوح بن يعمر وهو الشداخ بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث. ومنهم الصعب بن جثامة بن قيس بن الشداخ الصحابي المشهور، والشاعر عروة بن أدينة بن يحيى بن مالك بن الحرث بن عبد الله بن الشداخ، ومنهم بنو شجع بن عامر بن ليث بن بكر ومنهم أبو واقد الليثي الصحابي وهو الحرث بن عوف بن أسيد بن جابر بن عديدة بن عبد مناة بن شجع، وبنو سعد بن ليث بن بكر منهم أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو بن جابر بن خميس بن عدي بن سعد آخر من بقي ممن رأى النبي ﷺ مات سنة سبع ومائة وواثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل بن ناشب بن عبدة بن سعد الصحابي المشهور.

وبنو جذع بن بكر بن ليث بن بكر: منهم أمير خراسان نصر بن سيار بن رافع بن عدي بن ربيعة بن عامر بن عوف بن جندع ورافع بن الليث بن نصر القائم بسمرقند أيام الرشيد بدعوة بني أمية ثم أستأمن إلى المأمون. ومن بني عبد مناف بنو عريج بن بكر بن عبد مناف وبنو الديل بن بكر: منهم الأسود بن رزق بن يعمر بن نافثة بن عدي بن الديل الذي كان بسببه فتح مكة.

وسارية بن زنيم بن عمرو بن عبد الله بن جابر بن محمية بن عبد بن عدي بن الديل الذي ناداه عمر فيما اشتهر من المدينة وهو بالعراق يقاتل وأبو الأسود واضع النحو وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن عمرو بن جندب بن يعمر بن حليس بن نافثة بن عدي. وبنو ضمرة بن بكر: منهم عامرة بن مخشى بن خويلد بن عبد بن نهم بن يعمر بن عوف بن جري بن ضمرة الذي وادع رسول الله ﷺ على قومه وعمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله بن إياس بن عبيد بن ناشرة بن كعب بن جري الصحابي، والبراض بن قيس بن رافع بن قيس بن جري الفاتك قاتل عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب وكان بسببها حرب الفجار.

ومن ضمرة غفار بن مليل بن ضمرة بطن كان منهم أبو ذر الغفاري الصحابي وهو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار، وصاحبه كثير الشاعر الذي تشبب بعزة بنت جميل بن حفص بن إياس بن عبد العزى بن حاجب غافر بن غفار ومنهم كلثوم بن الحصين بن خالد بن معيسير بن بدر بن خميس بن غفار واستخلفه النبي ﷺ على المدينة في غزوة الفتح. وبنو مدلج بن مرة بن عبد مناة: منهم سراقة بن مالك بن جعشم بن مالك بن عمرو بن مالك بن تميم بن مدلج الذي اتبع رسول الله ﷺ بجعالة قريش ليرده فظهرت فيه الآية وصرفه الله تعالى عنه ومجزز المدلجي الذي سر النبي ﷺ بقيافته في أسامة وزيد وهو مجزز بن الأعور بن جعد بن معاذ بن عتوارة بن عمرو بن مدلج.

وبنو عامر بن عبد مناة منهم بنو مساحق بن الأفرم بن جذيمة بن عامر الذين قتلهم خالد بن الوليد بالغميصا ووداهم النبي ﷺ وأنكر فعل خالد. وبنو الحارث بن عبد مناة منهم الحليس بن علقمة بن عمرو بن الأوقح بن عامر بن جذيمة بن عوف بن الحرث الذي عقد حلف الأحابيش مع قريش وأخوه تيم الذي عقد حلف القارة معهم. وبنو فراس بن مالك بن كنانة: منهم فارس العرب ربيعة بن المكدم بن عامر بن خويلد بن جذيمة بن علقمة بن جذل الطعان بن فارس.

وبنو عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة: منهم نسأة المشهور في الجاهلية قام الإسلام فيهم على جنادة بن أمية بن عوف بن قلع بن جذيمة بن فقيم بن علي بن عامر وكل من صارت إليه هذه المرتبة كان يسمى القلمس وأول من نسأ الشهور: سمير بن ثعلبة بن الحارث وكان منهم الرماحس بن عبد العزيز بن الرماحس بن الرسارس بن واقد بن وهب بن هاجر بن عز بن وائلة بن الفاكه بن عمرو بن الحرث ولاه عبد الرحمن الداخل حين جاء إلى الأندلس على الجزيرة وشذونة وامتنع بها ثم زحف إليه ففر إلى العدوة وبها مات. وكان له بالأندلس عقب ولهم في الدولة الأموية ذكر وولايات كان منها على الأساطيل فكان لهم فيها غناء وكانوا يغزون سواحل العبيديين بأفريقية فتعظم نكايتهم فيها. وهو وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا رب غيره ولا خير إلا خيره، ولا يرجى إلا إياه ولا معبود سواه، وهو نعم المولى، ونعم النصير، وأسأله الستر الجميل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين، حمداً دائماً كثيراً، والله ولي التوفيق.

وأما **قريش** وهم ولد النضر بن كنانة بن فهر بن مالك بن النضر، والنضر هو الذي يسمى قريشاً، قيل للتقرش وهو التجارة، وقيل: تصغير قرش وهو الحوت الكبير المفترس دواب البحر. وإنما انتسبوا إلى فهر لأن عقب النضر منحصر فيه لم يعقب من بني النضر غيره، فهذا وجه القول بأن قريشاً من بني فهر بن مالك أعني انحصار نسبهم فيه، وأما الذي اسمه قريش فهو النضر. فولد فهر غالب والحارث ومحارب فبنو محارب بن فهر من قريش الظواهر منهم الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان بن محارب صاحب مرج راهط، قاتل فيه مروان بن الحكم حين بويع له بالخلافة وقتل.

وضرار بن الخطاب بن مرادس بن كثير بن عمرو آكل السقف بن حبيب بن عمرو بن شيبان الفارس المشهور في الصحابة، وأبوه الخطاب بن مرداس سيد الظوهر في الجاهلية وكان يأخذ المرباع منهم وحضر حروب الفجار، وابنه من فرسان الإسلام وشعرائه. وعبد الملك بن قطي بن نهشل بن عمرو بن عبد الله بن وهب بن سعد بن عمرو آكل السقف شهد يوم الحرة وعاش حتى ولي الأندلس وصلبه أصحاب بلخ بن بشر القشيري.

وكرز بن جابر بن حسل بن لاحب بن حبيب بن عمرو بن شيبان قتل يوم الفتح وهو مع رسول الله ﷺ. وسار بنو الحرث بن فهر من الظواهر، منهم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن وهب بن ضبة بن الحرث من العشيرة وأمير المسلمين بالشام عند الفتح، وعقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ضرب بن الحرث، فاتح إفريقية ومؤسس القيروان بها، ومن عقبه عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة والي أفريقية أبوه حبيب بن عقبة هو قاتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، ويوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبيدة صاحب الأندلس وعليه دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فقتله ووليها هو وبنوه من بعده.

وأما غالب بن فهر: وهو عمود النسب الكريم فولد تيم الأدرم وولدين فبنو تيم الأدرم من الظواهر وهم بادية، كان منهم ابن خطل الذي أمر رسول الله ﷺ بقتله يوم الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة، وهو هلال بن عبد الله بن عبد مناة بن أسعد بن جابر بن كبير بن تيم الأدرم.

وأما لؤي بن غالب: في عمود النسب الكريم فولد كعباً وعامراً وبطوناً أخرى يختلف في نسبها إلى لؤي خزيمة وسامة وسعد وجشم، وهو الحارث وعوف وهم من قريش الظواهر على أقل، فمنهم خزيمة بن لؤي وبنو سامة بن لؤي، ويقال: ليس بنو سامة من قريش وهم بعمان. ويقال: إن منهم بني سامان ملوك ما وراء النهر. فأما بنو عامر بن لؤي فهم شقير حسل بن عامر ومعيص بن عامر فمن بني معيص بشر بن أرطاة وهو عويمر عمران بن الحليس بن يسار بن نزار بن معيص بن عامر وهو أحد قواد معاوية، ومكرز بن حفص بن الأحنف بن علقمة بن عبد الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص من سادات قريش الذي أجار أبا جندل بن سهيل فرده رسول الله ﷺ، وهو عمرو بن قيس بن زايدة بن جندب الأصم بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد معيص، وهو ابن خال خديجة وأمه أم كلثوم عاتكة بنت عبد الله بن عنكثه بن عامر بن مخزوم.

ومن بني حسل عامر بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن مالك بن حسل بن عامر أمير المسلمين في فتح أفريقية أيام عثمان وولي مصر وكان كتب لرسول الله ﷺ ثم رجع إلى مكة ثم جاء تائباً وحسنت حاله وقصته معروفة، وحويطب بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل له صحبة، وعبد عمرو بن شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك صاحب الحديبية وأخوه السكران، وابنه أبو جندل سهيل واسمه العاصي وهو الذي جاء في قيوده يوم صلح الحديبية إلى النبي ﷺ فرده وقصته معروفة. وزمعة بن قيس بن عبد شمس، وابنه عبد بن زمعة، وبنته سوده بنت زمعة أم المؤمنين وكانت زوجة السكران ابن عمها، ثم تزوجها بعده رسول الله ﷺ.

وأما كعب بن لؤي وهو في عمود النسب الكريم فولده مرة وهصيص وعدي وهم قريش البطاح أي بطائح مكة، فمن ابن كعب هصيص بن كعب بن لؤي بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب منهم العاصي بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم، وابناه عمرو وهشام ابنا العاصي، وعبد الرحمن بن معيص بن أبي وداعة وهو الحارث بن سعيد بن سعد بن سهم قارئ أهل مكة، وإسماعيل بن جامع بن عبد المطلب بن أبي وادعة مفتي مكة ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم قتلا يوم بدر كافرين وألقيا في القليب، وقتل يومئذ العاصي بن منبه، وكان له ذو الفقار سيف رسول الله ﷺ. وعبد اللّه بن الزبعري بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم كان يؤذي بشعره ثم أسلم وحسن إسلامه.

وحذافة بن قيس أبو الأخنس وخنيس، وكان خنيس على حفصة قبل رسول الله ﷺ، وعبد اللّه بن حذافة من مهاجرة الحبشة وهو الذي مضى بكتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى. وبنو جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب، كان منهم أمية بن خلف بن وهب بن حذافة قتل يوم بدر وأخوه أبي قتله رسول الله ﷺ يوم أحد بيده وابنه صفوان بن أمية أسلم يوم الفتح وابنه عبد الله بن صفوان قتل مع الزبير وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة وإخوته قدامة والسائب وعبد اللّه مهاجرون بدريون وأختهم زينب بنت مظعون أم حفصة.

وبنو عدي بن كعب: منهم زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي. رفض الأوثان في الجاهلية والتزم الحنيفية ملة إبراهيم إلى أن قتل بقرية من قرى البلقاء قتله لخم أو جذام، وابنه سعيد بن زيد أحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

وعمر بن الخطاب أمير المؤمنين، وابنه عبد اللّه وعاصم وعبيد الله وغيرهم، وخارجة بن حذافة بن غانم بن عامر بن عبيد الله بن عويج بن عدي بن كعب الذي قتله الحروري بمصر يظنه عمرو بن العاص وقال أردت عمراً وأراد اللّه خارجة فطارت مثلاً. وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم صاحب النفل يوم حنين ومطيع بن الأسود بن حارثة بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عويج صحابي، وابنه عبد الله بن مطيع كان على المهاجرين يوم الحرة قتل مع ابن الزبير بمكة.

وأما مرة بن كعب: وهو من عمود النسب الكريم فكان له من الولد كلاب وتيم ويقظة. فأما تيم بن مرة فمنهم: عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم سيد قريش في الجاهلية وتنسب إليه الدار المشهورة يومئذ بمكة. ومنهم أبو بكر الصديق إسمه عبد الله بن أبي قحافة وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب وابناه عبد الرحمن ومحمد وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب قتل يوم الجمل وابنه محمد السجاد وأعقابهم كثيرة.

وبنو يقظة بن مرة منهم: بن مخزوم بن يقظة بن مرة فمنهم صيفي بن أبي رفاعة وهو أمية عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، قتل هو أخوه ببدر كافراً، والأرقم بن أبي الأرقم واسمه عبد مناف بن أبي جندب، واسمه أسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم صاحبي بدري كان يجتمع بداره النبي ﷺ والمسلمون سراً قبل أن يفشوا الإسلام، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم من قدماء المهاجرين كان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ.

والفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم واسمه أبو قيس قتل يوم بدر كافراً، وأبو جهل هشام بن المغيرة واسمه عمرو وقتل يومئذ كافراً وابنه عكرمة صحابي، والحارث بن هشام بن المغيرة أسلم وحسن إسلامه وله عقب كثير مشهورون، وأبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة قتل يوم بدر كافراً وبنته أم سلمة أم المؤمنين وهشام بن أبي حذيفة من مهاجرة الحبشة، وعبد الله بن أبي ربيعة وهو عمرو بن المغيرة من الصحابه من ولده الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المعروف بالقباع، والوليد بن المغيرة مات بمكة كافراً وابنه خالد بن الوليد سيف الله صاحب الفتوحات الإسلامية، وسعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم تابعي، وأبوه المسيب من أهل بيعة الرضوان.

وأما كلاب بن مرة: من عمود النسب الكريم فولد له قصي وزهرة فبنو زهرة بن كلاب منهم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أم النبي ﷺ وابن أخيها عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث بن وهب، وسعد بن أبي وقاص واسمه مالك بن وهب بن عبد مناف أمير المسلمين في فتح العراق، وهاشم ابن أخيه عتبة من الأمراء يومئذ، وابنه عمر بن سعيد الذي بعثه عبد الله بن زياد لقتال الحسين وقتله المختار بن أبي عبيد، وأخوه محمد بن سعد قتله الحجاج بن أبي الأشعث، والمسور ابن مخرمة بن نوفل بن وهب صحابي وأبوه من المؤلفة قلوبهم، وعبد الله بن عوف بن عبد عوف بن الحرث بن زهرة وابنه سلمة وله عقب كثير.

وأما قصي بن كلاب من عمود النسب الكريم، وهو الذي جمع أمر قريش وأثل مجدهم، فولد له عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى. فبنو عبد الدار كان منهم النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار، أسر يوم بدر مع المشركين، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ومر بالصفراء أمر به فضرب عنقه هنالك. ومصعب بن عمرو بن هاشم بن عبد مناف صحابي بدري استشهد يوم أحد وكان صاحب اللواء.

ومن عقبه كان عامر بن وهب القائم بسرقسطة من الأندلس بدعوة أبي جعفر المنصور، وقتله يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الأندلس قبل عبد الرحمن الداخل. ومنهم أبو السنابل بن بعكك بن السباق بن عبد الدار الذي دفع إليه رسول الله ﷺ يوم الفتح مفتاح الكعبة، وقيل إنما دفعه إلى أخيه شيبة وصارت حجابة البيت إلى بني شيبة بن طلحة من يومئذ.

وبنو عبد العزى بن قصي منهم أبو البختري العاصي بن هاشم بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، أراد التملك على قريش من قبل قيصر فمنعوه فرجع عنهم إلى الشام، وسجن من وجد بها من قريش، وكان في جملتهم أبو أحيحة سعيد بن العاصي فدست قريش إلى عمرو بن جفنة الغساني، فسم عثمان بن الحويرث ومات بالشام.

وهبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، كان من عقبه عمر بن عبد العزيز بن المنذر بن الزبير بن عبد الرحمن بن هبار صاحب السند وليها في ابتداء الفتنة إثر قتل المتوكل، وتداول أولاده ملكها إلى أن انقطع أمرهم على يد محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وما دون النهر من خراسان، وكانت قاعدتهم المنصورة، وكان جده المنذر بن الربيع قد قام بقرقيسيا أيام السفاح فأسر وصلب. وإسماعيل بن هبار قتله مصعب بن عبد الرحمن غيلة، وهبار كان يهجو النبي ﷺ، ثم ابنه عوف أسلم فمدحه وحسن إسلامه. وعبد الله بن زمعة بن الأسود له صحبة، وتزوج زينب بنت أبي سلمة من أم سلمة أم المؤمنين. وخديجة أم المؤمنين بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، والزبير بن العوام بن خويلد أحد العشرة، وابناه عبد الله ومصعب. وحكيم بن حزام بن خويلد عاش ستين سنة في الإسلام وباع داره والندوة من معاوية بمائة ألف، وابنه هشام بن حكيم.

وأما عبد مناف وهو صاحب الشوكة في قريش وسنام الشرف وهو في عمود النسب الكريم، فولد له عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل. وكان بنو هاشم وبنو عبد شمس متقاسمين رياسة بني عبد مناف والبقية أحلاف لهم فبنو المطلب أحلاف لبني هاشم وبنو نوفل أحلاف لبني عبد شمس. فأما بنو عبد شمس فمنهم العبلات وهم بنو أمية الأصغر وبنته الثريا صاحبة عمرو بن أبي ربيعة وهي سيدة القريض المغني وبنو ربيعة بن عبد شمس: منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ومن عتبة ابنه الوليد وقتل يوم بدر كافراً، وأبو حذيفة صحابي وهو مولى سالم قتل يوم اليمامة، وهند بنت عتبة أم معاوية رضي الله عنها. وبنو عبد العزى بن عبد شمس: منهم أبو العاصي بن الربيع بن عبد العزى

صهر النبي وكانت له منها أمامة تزوجها علي بعد فاطمة رضي الله عنهما.

وبنو أمية الأكبر بن عبد شمس منهم سعيد بن أبي أحيحة العاصي بن أمية مات كافراً، وابنه خالد بن سعيد قتل يوم اليرموك، وسعيد بن العاصي بن سعيد قديم الإسلام ولي صنعاء واستشهد في فتح الشام، وابنه سعيد قتل يوم اليرموك، وسعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية ولي الكوفة لعثمان، وابنه عمرو والأشدق القائم على عبد الملك وقتله، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان بن العاصي بن أمية، ومروان بن الحكم بن أبي العاصي، وأعقابه الخلفاء الأولون في الإسلام والملوك بالأندلس معروفون يأتي ذكرهم عند أخبار دولهم.

وأبو سفيان بن حرب بن أمية: وأبناؤه معاوية أمير المؤمنين ويزيد وحنظلة وعتبة وأم حبيبة أم المؤمنين، وعقب معاوية بين الخلفاء والإسلام بين معروف يذكر عند ذكرهم. وعتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية ولاه رسول الله ﷺ على مكة إذ فتحها فلم يزل عليها إلى أن مات يوم ورود الخبر بموت أبي بكر الصديق. ومنهم بنو أبي الشوارب القضاة ببغداد من عهد المتوكل إلى المقتدر، وهم بنو أبي عثمان بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص وعقبة بن أبي معيط واسمه أبان بن عمرو بن أمية قتله رسول الله ﷺ ببدر صبراً، وابنه الوليد صحابي ولي الكوفة وهو الذي حد على الخمر بين يدي عثمان، وابنه أبو قطيفة الشاعر، ومن عقبة بن أبي معيط المعيطي الذي بويع بدانية من شرق الأندلس بايع له ملكها مجاهد زمن الفتنة بعد المائة الرابعة في آخر الدولة الأموية، وهو عبد الله بن عبد الله بن عبيد الله بن الوليد بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن عبد العزيز بن خالد بن عثمان بن عبد الله بن عبد العزيز بن خالد بن عقبة بن أبي معيط.

وبنو نوفل بن عبد مناف: منهم جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل الصحابي المشهور، وأبوه مطعم هو الذي نوه به النبي ﷺ يوم الطائف ومات قبل بدر، وطعيمة بن عدي قتل يوم بدر كافراً، ومولاه وحشي هو الذي قتل يوم أحد حمزة بن عبد المطلب.

وبنو المطلب بن عبد مناف: منهم قيس بن مخرمة بن المطلب صحابي، وابنه عبد الله بن قيس مولى يسار جد محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي، ومسطح وهو عوف بن أثاثة بن عباد بن المطلب أحد من تكلم بالإفك وهو ابن خالة أبي بكر الصديق، وركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب كان من أشد الرجال، وصارعه رسول الله ﷺ فصرعه وكانت آية من آياته. والسائب بن عبد يزيد كان يشبه رسول الله ﷺ وأسر يوم بدر. ومن عقبه الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب.

وأما بنو هاشم بن عبد مناف فسيدهم عبد المطلب بن هاشم، ولم يذكر من عقبه إلا عقب عبد المطلب هذا، وكان بنوه عشرة: عبد الله أبو النبي ﷺ وهو أصغرهم، وحمزة، والعباس وأبو طالب، والزبير، والمقوم ويقال: اسمه الغيداق، وضرار وحجل، وأبو لهب، وقثم والزبير لا عقب لهما. وعقب حمزة انقرض فيما قال ابن حزم. ومن عقب أبي لهب ابنه عتبة صحابي.

وأما عقب العباس وأبي طالب فأكثر من أن يحصر، والبيت والشرف من بني العباس في عبد الله بن العباس، ومن بني أبي طالب في علي أمير المؤمنين وبعده أخوه جعفر رضي الله عنهم أجمعين، وسنذكر من مشاهيرهم عند ذكر أخبارهم ودولهم ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى.

هذا آخر الكلام وفي أنساب قريش وانقضى بتمامها الكلام في أنساب مضر وعدنان فلنرجع الآن إلى أخبار قريش وسائر مضر وما كان لهم من الدول الإسلامية. والله المستعان لا رب غيره، ولا خير إلا خيره، ولا معبود سواه ولا يرجى إلا إياه، وهو حسبي ونعم الوكيل وأسأله الستر الجميل.

الخبر عن قريش من هذه الطبقة وملكهم بمكة وأولية أمرهم وكيف صار الملك إليهم فيها ممن قبلهم من الأمم السابقة

قد ذكروا عند الطبقة الأولى أن الحجاز وأكناف العرب كانت ديار العمالقة من ولد عمليق بن لاوذ وأنهم كان لهم ملك هنالك، وكانت جرهم أيضاً من تلك الطبقة من ولد يقطن بن شالخ بن أرفخشذ، وكانت ديارهم اليمن مع إخوانهم حضرموت. وأصاب اليمن يومئذ قحط ففروا نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى وعثروا في طريقهم بإسماعيل مع أمه هاجر عند زمزم، وكان من شأنه وشأنهم معه ما ذكرناه عند ذكر إبراهيم عليه السلام. ونزلوا على قطورا من بقية العمالقة، وعليهم يومئذ السميدع بن هوثر- بثاء مثلثة -ابن لاوي بن ذكر بن عملاق أو عمليق. واتصل خبر جرهم من ورائهم من قومهم باليمن وما أصابوا من النجعة بالحجاز فلحقوا بهم، وعليهم مضاض بن عمرو بن سعيد بن الرقيب بن هنء بن نبت بن جرهم، فنزلوا

على مكة بقعيقعان وكانت قطورا أسفل مكة. وكان مضاض يعشر من دخل مكة من أعلاها والسميدع من أسفلها، هكذا عند ابن إسحاق والمسعودي أن قطورا من العمالقة، وعند غيرهما أن قطورا من بطون جرهم وليسوا من العمالقة. ثم افترق أمر قطورا وجرهم وتنافسوا الملك واقتتلوا وغلبهم المضاض وقتل السميدع وانقضت العرب العاربة قال الشاعر:

مضى آل عملاق فلم يبق منهمو حقير ولاذ وعزة متشاوس
عتوا فأدال الدهر منهم وحكمه على الناس هذا واغذ ومبايس

ونشأ إسماعيل صلوات اللّه عليه بين جرهم وتكلم بلغتهم وتزوج منهم حرا بنت سعد بن عوف بن هنء نبت بن جرهم، وهي المرأة التي أمره أبوه بتطليقها لما زاره ووجده غائباً فقال لها: قولي لزوجك فليغير عتبته، فطلقها وتزوج بنت أخيها مامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف، ذكر هاتين المرأتين الواقدي في كتاب انتقال النور، وتزوج بعدهما السيدة بنت الحرث بن مضاض بن عمرو بن جرهم. ولثلاثين سنة من عمر إسماعيل قدم أبوه الحجاز فأمر ببناء الكعبة البيت الحرام، وكان الحجر زرباً لغنم إسماعيل فرفع قواعدها مع ابنه إسماعيل وصيرها خلوة لعبادته، وجعلها حجاً للناس كما أمره اللّه، وانصرف إلى الشام فقبض هنالك كما مر.

وبعث اللّه إسماعيل إلى العمالقة وجرهم وأهل اليمن فآمن بعض وكفر بعض إلى أن قبضه اللّه ودفن بالحجر مع أمه هاجر ويقال آجر، وكان عمره فيما يقال مائة وثلاثين سنة وعهد بأمره لابنه قيذار ومعنى قيذار صاحب الإبل وذلك لأنه كان صاحب إبل أبيه إسماعيل كذا قال السهيلي، وقال غيره معناه الملك. ويقال إنما عهد لابنه نابت فقام ابنه بأمر البيت ووليها، وكان ولده فيما ينقل أهل التوراة كما نقل اثني عشر: قيذار قيابوت أدبئيل مبسام مشمع دوما مسا حداد ديما يطور ياقيس قدما أمهم السيدة بنت مضاض قاله السهيلي. وهكذا وقعت أسماؤهم في الإسرائيليات، والحروف مخالفة للحروف العربية بعض الشيء باختلاف المخارج، فلهذا يقع الخلاف بين العلماء في ضبط هذه الألفاظ، وقد ضبط ابن إسحاق تيماً منهم بالطاء والياء وضبطه الدارقطني بالضاد المعجمة والميم قبل الياء كأنها تأنيث آضم وذكر ابن إسحاق ديما.

وقال البكري: به سميت دومة الجندل لأنه كان نزلها وذكر أن الطور بيطون ابن إسماعيل. ثم هلك نابت بن إسماعيل، وولي أمر البيت جده الحرث بن مضاض، وقيل وليها مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هنء بن نبت بن جرهم، ثم ابنه الحرث بن عمرو. ثم قسمت الولاية بين ولد إسماعيل بمكة وأخوالهم من جرهم ولاة البيت لا ينازعهم ولد إسماعيل إعظاماً للحرم أن يكون به بغي أو قتال. ثم بغت جرهم في البيت، ووافق بغيهم تفرق سبأ ونزول بني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر أرض مكة، فأرادوا المقام مع جرهم فمنعوهم واقتتلوا فغلبهم بنو حارثة، وهم فيما قيل خزاعة، وملكوا البيت عليهم، ورئيسهم يومئذ عمرو بن لحي وشرد بقية جرهم. ولحي هذا هو ربيعة بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر، وقيل: إنما ثعلبة بن حارثة بن عامر. وفي الحديث: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار» يعني أحشاءه، لأنه الذي بحّر البحيرة وسيّب السائبة وحمى الحامي وغير دين إسماعيل ودعا إلى عبادة الأوثان. وفي طريق آخر: رأيت عمراً بن عامر. قال عياض: المعروف في نسب أبي خزاعة هذا هو عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس وإنما عامر اسم أبيه أخو قمعة، وهو مدركة بن إلياس، وقال السهيلي: كان حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر خلف على أم لحي بعد أبيه قمعة ولحي تصغير واسمه ربيعة تبناه حارثة وانتسب إليه فالنسب صحيح بالوجهين، وأسلم بن أفصى بن حارثة أخو خزاعة. وعن ابن إسحاق: أن الذي أخرج جرهم من البيت ليست خزاعة وحدها، وإنما تصدى للنكير عليهم خزاعة وكنانة. وتولى كبره بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة وبنو غبشان بن عبد عمرو بن بوي بن ملكان بن أفصى بن حارثة فاجتمعوا لحربهم واقتتلوا، وغلبهم بنو بكر وبنو غبشان بن كنانة وخزاعة على البيت ونفوهم من مكة. فخرج عمرو، وقيل عامر بن الحرث بن مضاض الأصغر بمن معه من جرهم إلى اليمن بعد أن دفن حجر الركن وجميع أموال الكعبة بزمزم. ثم أسفوا على ما فارقوا من أمر مكة وحزنوا حزناً شديداً. وقال عمرو بن الحرث وقيل عامر:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف فما تحظى لدينا المكاثر
ملكنا فعززنا فأعظم ملكنا فليس لحي عندنا ثم فاخر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته فأبناؤنا منا ونحن الأصاهر
فإن تثني الدنيا علينا بحالها فإن لها حالاً وفيها التشاجر
فأخرجنا منها المليك بقدرة كذلك يا للناس تجري المقادر
أقول إذا نام الخلي ولم أنم إذا العرش لا يبعد سهيل وعامر
وبدلت منها أوجها لا أحبها قبائل منها حمير ويحابر
وصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة بذلك عضتنا السنون الغوابر
فساحت دموع العين تبكي لبلدة بها حرم أم وفيها المشاعر
ونبكي لبيت ليس يؤذى حمامه يظل بها أمناً وفيها العصافر

وفيـه وحـوش لا تـرام أنيسـة إذا خرجـت منـه فليسـت تغـادر

ثم غلبت بنو حبشية على أمر البيت بقومهم من خزاعة، واستقلوا بولايتها دون بني بكر عبد مناة، وكان الذي يليها لآخر عهدهم عمرو بن الحرث وهو غبشان. وذكر الزبير أن الذين أخرجوا جرهم من البيت من ولد إسماعيل هم إياد بن نزار. ومن بعد ذلك وقعت الحرب بين مضر وإياد فأخرجتهم مضر، ولما خرجت إياد قلعوا الحجر الأسود ودفنوه في بعض المواضع، ورأيت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها فاشترطوا على مضر إن دلوهم عليه أن لهم ولاية البيت دونهم، فوفوا لهم بذلك. وصارت ولاية البيت لخزاعة إلى أن باعها أبو غبشان لقصي. ويذكر أن من وليها منهم عمرو بن لحي ونصب الأصنام وخاطبه رجل من جرهم:

يـا عمـرو لا تظلـم بمـ ـكـة إنهـا بلـد حـرام
سـائل بعـاد أيـن هـم وكـذاك تخـترم الأنـام
وهـي العمـاليق الذيـ ـن لهـم بهـا كـان السوام

وكانت ولاية البيت لخزاعة وكان لمضر ثلاث خصال: الإجازة بالناس يوم عرفة لبني الغوث بن مرة إخوتهم وهو صوفة، والإفاضة بالناس غداة النحر من جمع إلى منى لبني زيد بن عدي وانتهى ذلك منهم إلى أبي سيارة عميرة بن الأعزل بن خالد بن سعد بن الحرث بن كانس بن زيد فدفع من مزدلفة أربعين سنة على حمار، ونسء الشهور الحرم، كان لبني مالك بن كنانة وانتهى إلى القلمس كما مر. وكان إذا أراد الناس الصدور من مكة قال: اللّهم إني أحللت أحد الصفرين ونسأت الآخر للعام المقبل قال عمرو بن قيس من بني فراس:

ونحـن الناسـئون علـى معـد شـهور الحـل نجعلهـا حرامـا

قال ابن إسحاق: فأقام بنو خزاعة وبنو كنانة على ذلك مدة الولاية لخزاعة دونهم كما قلناه. وفي أثناء ذلك تشعبت بطون كنانة ومن مضر كلها وصاروا جرماً وبيوتات متفرقين في بطن قومهم من بني كنانة، وكلهم إذ ذاك أحياء حلول بظواهرها. وصارت قريش على فرقتين: قريش البطاح وقريش الظواهر. فقريش البطاح ولد قصي بن كلاب وسائر بني كعب بن لؤي، وقريش الظواهر من سواهم وكانت خزاعة بادية لكنانة، ثم صار بنو كنانة لقريش، ثم صارت قريش الظواهر بادية لقريش البطاح، وقريش الظواهر من كان على أقل من مرحلة، ومن الضواحي من كان على أكثر من ذلك. وصار من سوى قريش وكنانة من قبائل مضر في الضواحي أحياء بادية وظعوناً ناجعة من بطون قيس، وخندف من أشجع وعبس وفزارة ومرة وسليم وسعد بن بكر وعامر بن صعصعة وثقيف.

ومن تميم والرباب وضبعي بني أسد وهذيل والقارة وغير هؤلاء من البطون الصغار، وكان التقدم في مضر كلها لكنانة ثم لقريش، والتقدم في قريش لبني لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر، وكان سيدهم قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي كان له فيهم شرف وقرابة وثروة وولد. وكان له في قضاعة ثم في بني عروة بن سعد بن زيد من بطونهم نسب ظئر ورحم كلالة كانوا من أجلها فيه شيعة، وذلك بما كان ربيعة بن حرام بن عذرة قدم مكة قبل مهلك كلاب بن مرة. وكان كلاب خلف قصياً في حجر أمه فاطمة بنت سعد بن باسل بن خثعمة الأسدي من اليمن فتزوجها ربيعة وقصي يومئذ فطيم فاحتملته إلى بلاد بني عذرة وتركت ابنها زهرة بن كلاب لأنه كان رجلاً بالغاً، وولدت لربيعة بن حرام رزاح بن ربيعة. ولما شب قصي وعرف نسبه رجع إلى قومه، وكان الذي يلي أمر البيت لعهده من خزاعة حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو، فأصهر إلى قصي في ابنته حبى فأنكحه إياها فولدت له عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي.

ولما انتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل، فرأى قصي أنه أحق بالكعبة وبأمر مكة وخزاعة وبني بكر لشرفه في قريش. ولما كثرت قريش سائر الناس واعتزت عليهم وقيل أوصي له بذلك حليل، ولما بدا له ذلك مشى في رجالات قريش ودعاهم إلى ذلك فأجابوه، وكتب إلى أخيه رزاح في قومه عذرة مستجيشاً بهم فقدم مكة في إخوته من ولد ربيعة ومن تبعهم من قضاعة في جملة الحاج مجمعاً نصر قصي.

قال السهيلي: وذكر غير ابن إسحاق أن حليلاً كان يعطي مفاتيح البيت بنته حبى حين كبر وضعف فكانت بيدها، وكان قصي ربما أخذها يفتح البيت للناس ويغلقه. فلما هلك حليل أوصى بولاية البيت إلى قصي وأبت خزاعة أن يمضي ذلك لقصي، فعند ذلك هاجت الحرب بينه وبين خزاعة وأرسل إلى رزاح أخيه يستنجده عليهم.

وقال الطبري: لما أعطى حليل مفاتيح الكعبة لابنته حبى لما كبر وثقل قالت: إجعل لرجل يقوم لك به. فجعله إلى أبي غبشان سليمان بن عمرو بن لؤي بن ملكان بن قصي، وكانت له ولاية الكعبة. ويقال: إن أبا غبشان هو ابن حليل باعه من قصي بزق خمر، قيل فيه. أخسر من صفقة أبي غبشان. فكان من أول ما بدأوا به نقض ما كان لصوفة من إجازة الحاج، وذلك أن بني سعد

بن زيد مناة بن تميم كانوا يلون الإجازة للناس بالحج من عرفة ينفر الحاج لنفرهم ويرمون الجمار لرميهم، ورثوا ذلك من بني الغوث بن مرة، كانت أمه من جرهم وكانت لا تلد، فنذرت إن ولدت أن تتصدق به على الكعبة عبداً يخدمها، فولدت الغوث وخلى أخواله من جرهم بينه وبين من نافسه بذلك، فكان له ولولده وكان يقال لهم صوفة.

وقال السهيلي عن بعض الإخباريين: إن ولاية الغوث بن مرة كانت من قبل ملوك كندة، ولما انقرضوا ورث بالتعدد بنو سعد بن زيد مناة، ولما جاء الإسلام كانت تلك الإجازة منهم لكرب بن صفوان بن حتات بن سحنة وقد مر ذكره في بطون تميم. فلما كان العام الذي أجمع فيه قصي الإنفراد بولاية البيت وحضر إخوته من عذرة، تعرض لبني سعد أصحاب صوفة في قومهم من قريش وكنانة وقضاعة عند الكعبة، فلما وقفوا للإجازة قال: لا نحن أولى بهذا منكم فتناجزا وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم، وعرفت خزاعة وبنو بكر عند ذلك أنه سيمنعهم من ولاية البيت كما منع الآخرين، فانحازوا عنه وأجمعوا لحربه وتناجزوا وكثر القتل، ثم صالحوه على أن يحكموا من أشراف العرب، وتنافروا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فقضى لقصي عليهم. فولي قصي البيت وقر بمكة وجمع قريشاً من منازلهم بين كنانة إليها وقطعها أرباعاً بينهم، فأنزل كل بطن منهم بمنزله الذي صبحهم به الإسلام وسمي بذلك مجمعاً قال الشاعر:

قصي لعمري كان يدعى مجمعاً ... به جمع اللّه القبائل من فهر

فكان أول من أصاب من بني لؤي بن غالب ملكاً أطاع له به قومه، فصار له لواء الحرب وحجابة البيت، وتيمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم إليه في قليل أمورهم وكثيرها، فاتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة في مشاوراتهم وجعل بابها إلى المسجد فكانت مجتمع الملاء من قريش في مشاوراتهم ومعاقدهم. ثم تصدى لإطعام الحاج وسقايته لما رأى أنهم ضيف اللّه وزوار بيته، وفرض على قريش خراجاً يؤدونه إليه زيادة على ذلك كانوا يردفونه به فحاز شرفهم كله، وكانت الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء له. ولما أسن قصي وكان بكره عبد الدار وكان ضعيفاً، وكان أخوه عبد مناف شرف عليه في حياة أبيه، فأوصى قصي لعبد الدار بما كان له من الحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية يجبر له بذلك ما نقصه من شرف عبد مناف، وكان أمره في قومه كالدين المتبع ولا يعدل عنه.

ثم هلك وقام بأمره في قومه بنوه من بعده وأقاموا على ذلك مدة وسلطان مكة لهم وأمر قريش جميعاً، ثم نفس بنو عبد مناف على بني عبد الدار ما بأيديهم ونازعوهم، فافترق أمر قريش وصاروا في مظاهرة بني قصي بعضهم على بعض فرقتين وكان بطون قريش قد اجتمعت لعهدها ذلك اثني عشر بطناً: بنو الحرث بن فهر، وبنو محارب بن لؤي، وبنو عدي بن كعب، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو جمح بن عمرو بن هصيص، وبنو تيم بن مرة، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو عبد الدار، وبنو عبد مناف بن قصي.

فأجمع بنو عبد مناف انتزاع ما بأيدي بني عبد الدار مما جعل لهم قصي، وقام بأمرهم عبد شمس أسن ولده واجتمع له من قريش: بنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو الحرث. واعتزل بنو عامر، وبنو المحارب الفريقين. وصار الباقي من بطون قريش مع بني عبد الدار وهم: بنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي، وبنو مخزوم. ثم عقد كل من الفريقين على أحلافه عقداً مؤكداً، وأحضر بنو عبد مناف وحلف قومهم عند الكعبة جفنة مملوءة طيباً غمسوا فيها أيديهم تأكيداً للحلف، فسمي حلف المطيبين. وأجمعوا للحرب وسووا بين القبائل وأن تبعث بعضها إلى بعض، فبعث بنو عبد الدار لبني أسد، وبنو جمح لبني زهرة، وبنو مخزوم لبني تيم، وبنو عدي لبني الحرث. ثم تداعوا للصلح على أن يسلموا لبني عبد مناف السقاية والرفادة، ويختص بنو عبد الدار بالحجابة واللواء فرضي الفريقان وتحاجز الناس.

وقال الطبري: قيل ورثها من أبيه. ثم قام بأمر بني عبد مناف هاشم ليساره وقراره بمكة، وتقلب أخيه عبد شمس في التجارة إلى الشام، فأحسن هاشم ما شاء في إطعام الحاج وإكرام وفدهم. ويقال: إنه أول من أطعم الثريد الذي كان يطعم فهو ثريد قريش الذي قال فيه النبي ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» والثريد لهذا العهد ثريد الخبز بعد أن يطبخ في المقلاوة والتنور وليس من طعام العرب، إلا أن عندهم طعاماً يسمونه البازين يتناوله الثريد لغة، وهو ثريد الخبز بعد أن يطبخ في الماء عجيناً رطباً إلى أن يتم نضجه، ثم يدلكونه بالمغرفة حتى تتلاحم أجزاؤه وتتلازج. وما أدري هل كان ذلك الطعام كذلك أولاً إلا أن لفظ الثريد يتناوله لغة.

ويقال: إن هاشم بن عبد المطلب أول من سن الرحلتين في الشتاء والصيف للعرب ذكره ابن إسحاق، وهو غير صحيح، لأن الرحلتين من عوائد العرب في كل جيل لمراعي إبلهم ومصالحها

لأن معاشهم فيها، وهذا معنى العرب وحقيقتهم أنه الجيل الذي معاشهم في كسب الإبل والقيام عليها في ارتياد المرعى وانتجاع المياه والنتاج والتوليد وغير ذلك من مصالحها، والفرار بها من أذى البرد عند التوليد إلى القفار ودفئها، وطلب التلول في المصيف للحبوب وبرد الهواء، وتكونت على ذلك طباعهم فلا بد لهم منها ظعنوا أو أقاموا وهو معنى العروبية، وشعارها أن هاشماً لما هلك وكان مهلكه بغزة من أرض الشام، تخلف عبد المطلب صغيراً بيثرب فأقام بأمره من بعده ابنه المطلب، وكان ذا شرف وفضل، وكانت قريش تسميه الفضل لسماحته، وكان هاشم قدم يثرب فتزوج في بني عدي وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك سيد الأوس لعهده، فولدت عمرو بن أحيحة وكانت لشرفها تشترط أمرها بيدها في عقد النكاح، فولدت عبد المطلب فسمته شيبة، وتركه هاشم عندها حتى كان غلاماً. وهلك هاشم فخرج إليه أخوه المطلب فأسلمته إليه بعد تعسف واغتباط به، فاحتمله ودخل مكة فردفه على بعيره فقالت قريش: هذا عبد ابتاعه المطلب فسمي شيبة عبد المطلب من يومئذ. ثم إن المطلب هلك بردمان من اليمن، فقام بأمر بني هاشم بعده عبد المطلب بن هاشم، وأقام الرفادة والسقاية للحاج على أحسن ما كان قومه يقيمونه بمكة من قبله، وكانت له وفادة على ملوك اليمن من حمير والحبشة، وقد قدمنا خبره مع ابن ذي يزن ومع أبرهة.

ولما أراد حفر زمزم للرؤيا التي رآها، اعترضته قريش دون ذلك، ثم حالوا بينه وبين ما أراد منها. فنذر لئن ولد له عشرة من الولد ثم يبلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم قرباناً لله عند الكعبة، فلما كملوا عشرة ضرب عليهم القداح عند هبل الصنم العظيم الذي كان في جوف الكعبة على البئر التي كانوا ينحرون فيها هدايا الكعبة، فخرجت القداح على ابنه عبد الله والد النبي ﷺ، وتحير في شأنه، ومنعه قومه من ذلك، وأشار بعضهم وهو المغيرة بن عبد الله بن مخزوم بسؤال العرافة التي كانت لهم بالمدينة على ذلك، فألفوها بخيبر وسألوها. فقالت: قربوه وعشراً من الإبل وأجيلوا القداح فإن خرجت على الإبل فذلك وإلا فزيدوا في الإبل حتى تخرج عليها القداح وانحروها حينئذ فهي الفدية عنه وقد رضي إلهكم. ففعلوا وبلغت الإبل مائة فنحرها عبد المطلب، وكانت من كرامات الله به. وعليه قوله ﷺ «أنا ابن الذبيحين» يعني عبد الله أباه وإسماعيل بن إبراهيم جده اللذين قربا للذبح، ثم فديا بذبح الأنعام. ثم إن عبد المطلب زوج ابنه عبد الله بآمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فدخل بها وحملت برسول ﷺ، وبعثه عبد المطلب يمتار لهم تمراً فمات هنالك، فلما أبطأ عليهم خبره بعث في أثره.

وقال الطبري عن الواقدي: الصحيح أنه أقبل من الشام في حي لقريش، فنزل بالمدينة ومرض بها ومات. أقام عبد المطلب في رياسة قريش بمكة والكون يصغي لملك العرب والعالم يتمخض بفصال النبوة، إلى أن وضح نور الله من أفقهم، وسرى خبر السماء إلى بيوتهم، واختلفت الملائكة إلى أحيائهم، وخرجت الخلافة في أنصبائهم، وصارت العزة لمضر ولسائر العرب بهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وعاش عبد المطلب مائة وأربعين سنة وهو الذي احتفر زمزم.

قال السهيلي: ولما حفر عبد المطلب زمزم استخرج منه تمثالي غزالين من ذهب وأسيافاً كذلك، كان ساسان ملك الفرس أهداها إلى الكعبة، وقيل سابور. ودفنها الحرث بن مضاض في زمزم لما خرج بجرهم من مكة، فاستخرجها عبد المطلب، وضرب الغزالين حلية للكعبة فهو أول من ذهب حلية الكعبة بها، وضرب من تلك الأسياف باب حديد وجعله للكعبة. ويقال: إن أول من كسى الكعبة واتخذ لها غلقاً تبع إلى أن جعل لها عبد المطلب هذا الباب. ثم اتخذ عبد المطلب حوضاً لزمزم يسقي منه، وحسده قومه على ذلك وكانوا يخرجون بالليل، فلما غمه ذلك رأى في النوم قائلاً يقول: قل لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل فإذا قلتها فقد كفيتهم. فكان بعد إذا أرادها أحد بمكروه رمى بداء في جسده، ولما علموا بذلك تناهوا عنه.

وقال السهيلي: أول من كسا البيت المسوح والخصف والأنطاع تبع الحميري. ويروى أنه لما كساها انتقض البيت فزال ذلك عنه، وفعل ذلك حين كساه الخصف فلما كساه الملاء والوصائل قبله وسكن. وممن ذكر هذا الخبر قاسم بن ثابت في كتاب الدلائل. وقال ابن إسحاق: أول من كسا الديباج الحجاج.

وقال الزبير بن بكار بن عبد الله بن الزبير: أول من كساها ذلك. وذكر جماعة منهم الدارقطني أن نتيلة بنت جناب أم العباس بن عبد المطلب كانت أضلت العباس صغيراً فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة، وكانت من بيت مملكة، فوفت بنذرها.

هذه أخبار قريش وملكهم بمكة، وكانت ثقيف جيرانهم بالطائف يساجلونهم في مذاهب العروبية وينازعونهم في الشرف، وكانوا من أوفر قبائل هوازن، لأن ثقيفاً هو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن، وكانت الطائف قبلهم لعدوان الذين كان فيهم حكيم

العرب عامر بن الظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن بكر بن عدوان وكثر عددهم حتى قاربوا سبعين ألفاً، ثم بغى بعضهم على بعض فهلكوا وقل عددهم، وكان قسي بن منبه صهراً لعامر بن الظرب، وكان بنوه بينهم فلما قل عدد عدوان تغلب عليهم ثقيف وأخرجهم من الطائف وملكوه إلى أن صبحهم الإسلام به على ما نذكره والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين والبقاء لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أمر النبوة والهجرة في هذه الطبقة الثالثة وما كان من اجتماع العرب على الإسلام بعد الإباية والحرب

لما استقر أمر قريش بمكة على ما استقر، وافترقت قبائل مضر في أدنى مدن الشام والعراق وما دونهما من الحجاز فكانوا ظعوناً وأحياء، وكان جميعهم بمسغبة وفي جهد من العيش بحرب بلادهم وحرب فارس والروم على تلول العراق والشام، وأربابهما ينزلون حاميتهم بثغورهما، ويجهزون كتائبهم بتخومهما، ويولون على العرب من رجالاتهم وبيوت العصائب منهم من يسومهم القهر، ويحملهم على الانقياد حتى يؤتوا جباية السلطان الأعظم وإتاوة ملك العرب، ويؤدوا ما عليهم من الدماء والطوائل ويسترهموا أبناءهم على السلم وكف العادية، ومن انتجاع الأرباب وميرة الأقوات، والعساكر من وراء ذلك توقع بمن منع الخراج وتستأصل من يروم الفساد.

وكان أمر مضر راجعاً في ذلك إلى ملوك كندة بني حجر آكل المرار منذ ولاه عليهم تبع حسان كما ذكرناه، ولم يكن في العرب ملك إلا في آل المنذر بالحيرة للفرس وفي آل جهينة بالشام للروم وفي بني حجر هؤلاء على مضر والحجاز. وكانت قبائل مضر مع ذلك بل وسائر العرب أهل بغي وإلحاد، وقطع للأرحام، وتنافس في الردى، وإعراض عن ذكر الله، فكانت عبادتهم الأوثان والحجارة، وأكلهم العقارب والخنافس والحيات والجعلان، وأشرف طعامهم أوبار الإبل إذا أمروها في الحرارة في الدم.

وأعظم عزهم وفادة على آل المنذر وآل جهينة وبني جعفر ونجعة من ملوكهم، وإنما كان تنافسهم الموءودة والسائبة والوصيلة والحامي. فلما تأذن الله بظهورهم واشرأبت إلى الشرف هوادي أيامهم وتم أمر الله في إعلاء أمرهم وهبت ريح دولتهم وملة الله فيهم، تبدت تباشير الصباح من أمرهم وأونس الخير والرشد في خلالهم ويبدل الله بالطيب الخبيث من أحوالهم وشرهم، واستبدلوا بالذل عزاً وبالمآثم متاباً وبالشر خيراً، ثم بالضلالة هدى وبالمسغبة شبعاً ورياً وإيالة وملكاً.

وإذا أراد الله أمراً يسر أسبابه: فكان لهم من العز والظهور قبل المبعث ما كان، وأوقع بنو شيبان وسائر بكر بن وائل وعبس بن غطفان بطيء، وهم يومئذ ولاة العرب بالحيرة وأميرها منهم قبيصة بن إياس ومعه الباهوت صاحب مسلحة كسرى، فأوقعوا بهم الوقعة المشهورة بذي قار والتحمت عساكر الفرس، وأخبر بها رسول الله ﷺ أصحابه بالمدينة بيومها وقال: «اليوم انتصفت العرب من العجم وبي نصروا».

ووفد حاجب بن زرارة من بني تميم على كسرى في طلب الانتجاع والميرة بقومه في أباب العراق، فطلب الأساورة منه الرهن على عادتهم، فأعطاهم قوسه واستكبر على استرهان ولده، توقعوا منه عجزاً عما سواها وانتقلت خلال الخير من العجم ورجالات فارس فصارت أغلب في العرب حتى كان الواحد منهم همه بخلاله وشرفه وغلب الشر والسفسفة على أهل دول العجم. وانظر فيما كتب عمر إلى أبي عبيدة بن المثنى حين وجهه إلى حرب فارس:

إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والحيرة تقدم على أقوام قد جرأوا على الشر فعملوه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون اهـ.

وتنافست العرب في الخلال وتنازعوا في المجد والشرف حسبما هو مذكور في أيامهم وأخبارهم. وكان حظ قريش من ذلك أوفر على نسبة حظهم من مبعثه وعلى ما كانوا ينتحلونه من هدى آبائهم، وينظر ما وقع في حلف الفضول حيث اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة وبنو تميم، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها، وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا من ظلمهم حتى ترد عليه مظلمته، وسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

وفي الصحيح عن طلحة: أن رسول الله ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت». ثم ألقى الله في قلوبهم التماس الدين وإنكار ما عليهم قومهم من عبادة الأوثان، حتى لقد اجتمع منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وزيد بن عمرو بن نفيل من بني عدي بن كعب عم عمر بن الخطاب، وعبيد الله بن جحش من بني أسد بن

خزيمة، وتلاوموا في عبادة الأحجار والأوثان وتواصلوا بالنفر في البلدان بالتماس الحنيفية: دين إبراهيم نبيهم.

فأما ورقة فاستحكم في النصرانية وابتغى من أهلها الكتب حتى علم من أهل الكتاب، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه حتى جاء الإسلام فأسلم وهاجر إلى الحبشة فتنصر وهلك نصرانياً: وكان يمر بالمهاجرين بأرض الحبشة فيقول: فقحنا وصأصأتم أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر مثلما يقال في الجرو وإذا فتح عينيه فقح وإذا أراد ولم يقدر صأصأ.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم قيصر فتنصر وحسنت منزلته عنده، وأما زيد بن عمرو فما همّ أن يدخل في دين ولا اتبع كتاباً واعتزل الأوثان والذبائح والميتة والدم ونهى عن قتل الموءودة وقال: أعبد رب إبراهيم وصرح بعيب آلهتهم وكان يقول: اللّهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبدتك ولكن لا أعلم ثم يسجد على راحته. وقال ابنه سعيد وابن عمه عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: استغفر الله لزيد بن عمرو قال: « نعم! إنه يبعث أمة واحدة » ثم تحدث الكهان والحزاة قبل النبوة وأنها كائنة في العرب وأن ملكهم سيظهر وتحدث أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما في التوراة والإنجيل من بعث محمد وأمته وظهرت كرامة الله بقريش ومكة في أصحاب الفيل إرهاصاً بين يدي مبعثه.

ثم ذهب ملك الحبشة من اليمن على يد ابن ذي يزن من بقية التبابعة، ووفد عليه عبد المطلب يهنيه عند استرجاعه ملك قومه من أيدي الحبشة، فبشره ابن ذي يزن بظهور نبي من العرب وأنه من ولده في قصة معروفة. وتحين الأمر لنفسه كثير من رؤساء العرب يظنه فيه، ونفروا إلى الرهبان والأحبار من أهل الكتاب يسألونهم ببلدتهم عن ذلك، مثل أمية بن أبي الصلت الثقفي وما وقع له في سفره إلى الشام مع أبي سفيان بن حرب وسؤاله الرهبان ومفاوضته أبا سفيان فيما وقف عليه من ذلك، يظن أن الأمر له أو لأشرف قريش من بني عبد مناف حتى تبين لهما خلاف ذلك في قصة معروفة، ثم رجمت الشياطين عن استماع خبر السماء في أمره وأصغى الكون لاستماع أنبائه.

المولد الكريم وبدء الوحي

ثم ولد رسول الله ﷺ عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، لأربعين سنة من ملك كسرى أنوشروان وقيل لثماني وأربعين، وثمانمائة واثنتين وثمانين لذي القرنين. وكان عبد الله أبوه غائباً بالشام وانصرف فهلك بالمدينة، وولد سيدنا رسول الله ﷺ بعد مهلكه بأشهر قلائل، وقيل غير ذلك. فكفله جده عبد المطلب بن هاشم وكفالة الله من ورائه، والتمس له الرضعاء واسترضع في بني سعد أبي عبد من هوازن، ثم في بني نصر بن سعد أرضعته منهم حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحرث بن شحنة بن رزاح بن ناظرة بن خصفة بن قيس، وكان ظئره منهم الحارث بن عبد العزى وقد مر ذكرهما في بني عامر بن صعصعة.

وكان أهله يتوسمون فيه علامات الخير والكرامات من الله، ولما كان من حديث رسول الله ﷺ شق الملكين بطنه واستخراج العلقة السوداء من قلبه وغسلهم حشاه وقلبه بالثلج ما كان، وذلك لرابعة من مولده، وهو خلف البيوت يرعى الغنم فرجع إلى البيت ممتقع اللون، وظهرت حليمة على شأنه فخافت أن يكون أصابه شيء من اللمم فرجعته إلى أمه. واسترابت آمنة برجعها إياه بعد حرصها على كفالته فأخبرتها الخبر، فقالت: كلا والله لست أخشى عليه. وذكرت من دلائل كرامة الله له وبه كثيراً. وأزارته أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أخوال جده عبد المطلب من بني عدي بن النجار بالمدينة، وكانوا أخوالاً لها أيضاً.

وهلك عبد المطلب لثمان سنين من ولادته، وعهد به إلى ابنه أبي طالب فأحسن ولايته وكفالته، وكان شأنه في رضاعه وشبابه ومرباه وأحواله عجباً. وتولى حفظه وكلاءته من مفارقة أحوال الجاهلية، وعصمته من التلبس بشيء منها حتى لقد ثبت أنه مر بعرس مع شباب قريش، فلما دخل على القوم أصابه غشي النوم، فما أفاق حتى طلعت الشمس وافترقوا. ووقع له ذلك أكثر من مرة. وحمل الحجارة مع عمه العباس لبنيان الكعبة وهما صبيان، فأشار عليه العباس بحملها في إزاره، فوضعه على عاتقه وحمل الحجارة فيه وانكشف، فلما حملها على عاتقه سقط مغشياً عليه، ثم عاد فسقط فاشتمل إزاره وحمل الحجارة كما كان يحملها.

وكانت بركاته تظهر بقومه وأهل بيته ورضعائه في شؤونهم كلها. وحمله عمه أبو طالب إلى الشام وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقيل ابن سبع عشرة، فمروا ببحيرا الراهب عند بصرى فعاين الغمامة تظلله والشجر تسجد له، فدعا القوم وأخبرهم بنبوته وبكثير من شأنه في قصة مشهورة.

ثم خرج ثانية إلى الشام تاجراً بمال خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى مع غلامها ميسرة ومروا بنسطور الراهب، فرأى ملكين يظلانه من الشمس فأخبر ميسرة بشأنه، فأخبر بذلك خديجة فعرضت نفسها عليه، وجاء أبو طالب فخطبها إلى أبيها

فزوجه، وحضر الملأ من قريش، وقام أبو طالب خطيباً فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضيء معد وعنصر مضر وجعل لنا بيتا محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا أمناء بيته وسواس حرمه وجعلنا الحكام على الناس وإن ابن أخي محمد بن عبد الله من قد علمتم قرابته وهو لا يوزن بأحد إلا رجح به فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالي كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل. ورسول الله ﷺ يومئذ ابن خمس وعشرين سنة وذلك بعد الفجار بخمس عشرة سنة.

وشهد بنيان الكعبة لخمس وثلاثين سنة من مولده حين أجمع كل قريش على هدمها وبنائها، ولما انتهوا إلى الحجر تنازعوا أيهم يضعه وتداعوا للقتال، وتحالف بنو عبد الدار على الموت ثم اجتمعوا وتشاوروا، وقال أبو أمية: حكموا أول من دخل من باب المسجد فتراضوا على ذلك. ودخل رسول الله ﷺ فقالوا: هذا الأمين- وبذلك كانوا يسمونه- فتراضوا به وحكموه. فبسط ثوباً ووضع فيه الحجر وأعطى قريشاً طرف الثوب، فرفعوه حتى أدنوه من مكانه، ووضعه عليه السلام بيده. وكانوا أربعة: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمر بن مخزوم، وقيس بن عدي السهمي. ثم استمر على أكمل الزكاء والطهارة في أخلاقه، وكان يعرف بالأمين، وظهرت كرامة الله فيه وكان إذا أبعد في الخلاء لا يمر بحجر ولا شجر إلا ويسلم عليه.

بدء الوحي

ثم بدأ بالرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم تحدث الناس بشأن ظهوره ونبوته، ثم حببت إليه العبادة والخلوة بها فكان يتزود للانفراد حتى جاء الوحي بحراء لأربعين سنة من مولده وقيل لثلاث وأربعين. وهي حالة يغيب فيها عن جلسائه وهو كائن معهم، فأحياناً يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه ويعي قوله وأحياناً يلقي عليه القول، ويصيبه أحوال الغيبة عن الحاضرين من الغط والعرق وتصيبه كما ورد في الصحيح من اخباره، قال: « وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » فأصابته تلك الحالة بغار حراء والقي عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وأخبر بذلك كما وقع في الصحيح. وآمنت به خديجة وصدقته وحفظت عليه الشأن. ثم خوطب في الصلاة وأراه جبريل طهرها، ثم صلى به وأراه سائر أفعالها. ثم كان شأن الإسراء من مكة إلى بيت المقدس من الأرض إلى السماء السابعة وإلى سدرة المنتهى وأوحى إليه ما أوحى.

ثم آمن به علي ابن عمه أبي طالب وكان في كفالته من أزمة أصابت قريشاً وكفل العباس جعفراً أخاه، فجعفر أسن عيال أبي طالب. فأدركه الإسلام وهو في كفالته فآمن وكان يصلي معه، في الشعاب مختفياً من أبيه حتى إذا ظهر عليهما أبو طالب دعاه رسول الله ﷺ فقال: لا أستطيع فراق ديني ودين آبائي! ولكن لا يخلص إليك شيء تكره ما بقيت، وقال لعلي: الزمه! فإنه لا يدعو إلا الخير.

فكان أول من أسلم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، ثم أبو بكر، وعلي بن أبي طالب، كما ذكرنا، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وبلال بن حمامة مولى أبي بكر، ثم عمر بن عنبسة السلمي، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية.

ثم أسلم بعد ذلك قوم من قريش اختارهم الله لصحابته من سائر قومهم وشهد لكثير منهم بالجنة. وكان أبو بكر محبباً سهلاً وكانت رجالات قريش تألفه فأسلم على يده من بني أمية عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، ومن عشيرة بني عمرو بن كعب بن سعد بن تيم طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو ومن بني زهرة بن قصي سعد بن أبي وقاص واسمه مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحرث بن زهرة.

ومن بني أسد بن عبد العزى الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد وهو ابن صفية عمة النبي ﷺ، ثم أسلم من بني الحرث بن فهر أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحرث، ومن بني مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب أبو سلمة عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ومن بني جمح بن عمر هصيص بن كعب عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح وأخوه قدامة، ومن بني عدي سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد الله بن قرط بن رياح بن عدي وزوجته فاطمة أخت عمر بن الخطاب بن نفيل وأبوه زيد هو الذي رفض الأوثان في الجاهلية ودان بالتوحيد وأخبر ﷺ أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

ثم أسلم عمير أخو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن

مسعود رضي اللّه عنه بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحرث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة حليف بني زهرة، كان يرعى غنم عقبة بن أبي معيط وكان سبب إسلامه أن رسول اللّه ﷺ حلب من غنمه شاةً حائلاً فعدت. ثم أسلم جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب وامرأته أسماء بنت عميس بنت النعمان بن كعب بن ملك بن قحافة الخثعمي، والسائب بن عثمان بن مظعون، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس واسمه مهشم، وعامر بن فهيرة أزدي وفهيرة أمه مولاة أبي بكر. وأفد بن عبد اللّه بن عبد مناف تميمي من حلفاء بني عدي. وعمار بن ياسر عنسي بن مذحج مولى لبني مخزوم وصهيب بن سنان من بني النمر بن قاسط حليف لبني جدعان. ودخل الناس في الدين أرسالاً وفشا الإسلام وهم يتجعون به ويذهبون إلى الشعاب فيصلون. ثم أمر رسول اللّه ﷺ أن يصدع بأمره ويدعو إلى دينه بعد ثلاث سنين من مبدأ الوحي، فصعد على الصفا ونادى: يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش. فقال: « لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونني؟ » قالوا: بلى! قال: « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ثم نزل قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾. وتردد إليه الوحي بالنذارة، فجمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون على طعام صنعه لهم علي بن أبي طالب بأمره، ودعاهم إلى الإسلام ورغبهم وحذرهم وسمعوا كلامه وافترقوا.

ثم إن قريشاً حين صدع وسب الآلهة وعابها نكروا ذلك منه ونابذوه وأجمعوا على عداوته، فقام أبو طالب دونه محامياً ومانعاً، ومشت إليه رجال قريش يدعونه إلى النصفة عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، وأبو البختري بن هشام بن الحرب بن أسد بن عبد العزى، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ابن أخي الوليد، والعاص بن وائل بن هشام بن سعد بن سهم، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم، والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة. فكلموا أبا طالب وعادوه فردهم رداً جميلاً، ثم عادوا إليه فسألوه النصفة فدعا النبي ﷺ إلى بيته بمحضرهم وعرضوا عليه قولهم فتلا عليهم القرآن وأيأسهم من نفسه وقال لأبي طالب:

« يا عماه لا أترك هذا الأمر حتى يظهره اللّه أو أهلك فيه »

واستعبر وظن أن أبا طالب بدا له فيه مجاف، فرق له أبو طالب وقال يا ابن أخي! قل ما أحببت فواللّه لا أسلمك أبداً.

هجرة الحبشة

ثم افترق أمر قريش وتعاهد بنو هاشم وبنو المطلب مع أبي طالب على القيام دون النبي ﷺ ووثب كل قبيلة على من أسلم منهم يعذبونهم ويفتنونهم واشتد عليهم العذاب، فأمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى أرض الحبشة فراراً بدينهم، وكان قريش يتعاهدونها بالتجارة فيحمدونها، فخرج عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت النبي ﷺ وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة مراغماً لأبيه وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو بن عامر بن لؤي والزبير بن العوام ومصعب بن عمير بن عبد شمس وأبو سبرة بن أبي هاشم بن عبد العزى العامري من بني عامر بن لؤي وسهيل ابن بيضاء من بني الحرث بن فهر وعبد اللّه بن مسعود وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي وهو من عنز بن وائل ليس من عنزة وامرأته ليلى بنت أبي خيثمة.

فهؤلاء الأحد عشر رجلاً كانوا أول من هاجر إلى أرض الحبشة، وتتابع المسلمون من بعد ذلك، ولحق بهم جعفر بن أبي طالب وغيره من المسلمين. وخرجت قريش في آثار الأولين إلى البحر فلم يدركوهم، وقدموا إلى أرض الحبشة فكانوا بها، وتتابع المسلمون في اللحاق بهم، يقال: إن المهاجرين إلى أرض الحبشة بلغوا ثلاثة وثمانين رجلاً. فلما رأت قريش النبي ﷺ قد امتنع بعمه وعشيرته وأنهم لا يسلمونه طفقوا يرمونه عند الناس ممن يفد على مكة بالسحر والكهونة والجنون والشعر يرومون بذلك صدهم عن الدخول في دينه، ثم انتدب جماعة منهم لمجاهرته ﷺ بالعداوة والأذى، منهم: عمه أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب أحد المستهزئين، وابن عمه أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعقبة بن أبي معيط أحد المستهزئين، وأبو سفيان من المستهزئين، والحكم بن أبي العاص بن أمية من المستهزئين أيضاً، والنضر بن الحرث من بني عبد الدار، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى من المستهزئين وابنه زمعة، وأبو البختري العاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، وأبو جهل بن هشام وأخوه العاص وعمهما الوليد وابن عمهم قيس بن الفاكه بن المغيرة، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي وابنا عمه نبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية وأبي ابنا خلف بن جمح.

وأقاموا يستهزئون بالنبي ﷺ ويتعرضون له بالاستهزاء

والإذاية حتى لقد كان بعضهم ينال منه بيده، وبلغ عمه حمزة يوماً أن أبا جهل بن هشام تعرض له يوماً بمثل ذلك وكان قوي الشكيمة، فلم يلبث أن جاء إلى المسجد وأبو جهل في نادي قريش، حتى وقف على رأسه وضربه وشجه، وقال له: تشتم محمداً وأنا على دينه؟ وثار رجال بني مخزوم إليه فصدهم أبو جهل وقال دعوه فإني سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. ومضى حمزة على إسلامه، وعلمت قريش أن جانب المسلمين قد اعتز بحمزة فكفوا بعض الشر بمكانه فيهم، ثم اجتمعوا وبعثوا عمرو بن العاص وعبد اللّه بن أبي ربيعة إلى النجاشي ليسلم إليهم من هاجر إلى أرضه من المسلمين فنكر النجاشي رسالتهما وردهما مقبوحين.

إسلام عمر بن الخطاب

ثم أسلم عمر بن الخطاب وكان سبب إسلامه أنه بلغه أن أخته فاطمة أسلمت مع زوجها سعيد ابن عمه زيد، وأن خباب بن الأرت عندهما يعلمهما القرآن، فجاء إليهما منكراً وضرب أخته فشجها، فلما رأت الدم قالت: قد أسلمنا وتابعنا محمداً فافعل ما بدا لك! وخرج إليه خباب من بعض زوايا البيت فذكره ووعظه وحضرته الإنابة فقال له: اقرأ علي من هذا القرآن! فقرأ من سورة طه وأدركته الخشية فقال له: كيف تصنعون إذا أردتم الإسلام؟ فقالوا له: وأروه الطهور. ثم سأل على مكان النبي ﷺ فدل عليه، فطرقهم في مكانهم، وخرج إليه النبي ﷺ فقال: « مالك يا ابن الخطاب؟ » فقال: يا رسول اللّه! جئت مسلماً! ثم تشهد شهادة الحق ودعاهم إلى الصلاة عند الكعبة فخرجوا وصلوا هنالك، واعتز المسلمون بإسلامه.

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: « اللّهم أعز الإسلام بأحد العمرين » يعنيه أو أبا جهل، فلما رأت قريش فشو الإسلام وظهوره أهمهم ذلك، فاجتمعوا وتعاهدوا على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في الكعبة، وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب كلهم كافرهم ومؤمنهم فصاروا في شعب أبي طالب محصورين متجنبين، حاشا أبي لهب فإنه كان مع قريش على قومهم، فبقوا كذلك ثلاث سنين لا يصل إليهم شيء ممن أرادوا صلتهم إلا سراً ورسول اللّه ﷺ مقبل على شأنه من الدعاء إلى اللّه والوحي عليه متتابع إلى أن قام في نقض الصحيفة رجال من قريش كان أحسنهم في ذلك أثراً هشام بن عمرو بن الحرث من بني حسن بن عامر بن لؤي، لقي زهير بن أبي أمية بن المغيرة

وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فعيره بإسلامه أخواله إلى ما هم فيه فأجاب إلى نقض الصحيفة. ثم مضى إلى مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وذكر رحم هاشم والمطلب ثم إلى أبي البختري بن هشام وزمعة بن الأسود فأجابوا كلهم، وقاموا في نقض الصحيفة، وقد بلغهم عن النبي ﷺ أن الصحيفة أكلت الأرضة كتابتها كلها حاشا أسماء اللّه، فقاموا بأجمعهم فوجدوها كما قال، فخزوا ونقض حكمها، ثم أجمع أبو بكر الهجرة وخرج لذلك فلقيه ابن الدغينة فرده، ثم اتصل بالمهاجرين في أرض الحبشة خبر كاذب بأن قريشاً قد أسلموا، فرجع قوم منهم إلى مكة: منهم عثمان بن عفان وزوجته وأبو حذيفة وامرأته وعبد اللّه بن عتبة بن غزوان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير وأخوه والمقداد بن عمر وعبد اللّه بن مسعود وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم المؤمنين وسلمة بن هشام بن المغيرة وعمار بن ياسر وبنو مظعون: عبد اللّه وقدامة وعثمان وابنه السائب وخنيس بن حذافة وهشام بن العاص وعامر بن ربيعة وامرأته وعبد اللّه بن مخرمة من بني عامر بن لؤي وعبد اللّه بن سهل بن السكران بن عمرو وسعد بن خولة وأبو عبيدة بن الجراح وسهيل بن بيضاء وعمرو بن أبي سرح، فوجدوا المسلمين بمكة على ما كانوا عليه مع قريش من الصبر على أذاهم، ودخلوا إلى مكة بعضهم مختفياً وبعضهم بالجوار، وأقاموا إلى أن كانت الهجرة إلى المدينة بعد أن مات بعضهم بمكة.

الأذى والاستهزاء

ثم هلك أبو طالب وخديجة وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين فعظمت المصيبة، وأقدم عليه سفهاء قريش بالإذاية والاستهزاء وإلقاء القاذورات في مصلاه. فخرج إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام والنصرة والمعونة وجلس إلى عبد ياليل بن عمر بن عمير وأخويه مسعود وحبيب وهم يومئذ سادات ثقيف وأشرافهم، وكلمهم فأساؤوا الرد، ويئس منهم فأوصاهم بالكتمان فلم يقبلوا وأغروا به سفهائهم فاتبعوه حتى ألجاوه إلى حائط عتبة وشيبة ابني ربيعة، فأوى إلى ظله حتى اطمأن ثم رفع طرفه إلى السماء يدعو: «اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين أنت ربي إلى من تكلني! إلى بغيض يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا

حول ولا قوة إلا بك».

ولما انصرف من الطائف إلى مكة بات بنخلة، وقام يصلي من جوف الليل، فمر به نفر من الجن وسمعوا القرآن. ثم دخل رسول اللّه ﷺ إلى مكة في جوار المطعم بن عدي بن نوفل بعد أن عرض ذلك على غيره من رؤساء قريش فاعتذروا بما قبله منهم.

ثم قدم عليه الطفيل بن عمرو الدوسي فأسلم ودعا قومه فأسلم بعضهم ودعا له رسول اللّه ﷺ أن يجعل اللّه له علامة للهداية فجعل لوجهه نوراً ثم دعا له فنقله إلى سوطه وكان يعرف بذي النور.

الإسراء

قال ابن حزم: ثم كان الإسراء إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات، ولقي من لقي من الأنبياء، ورأى جنة المأوى وسدرة المنتهى في السماء السادسة، وفرضت الصلاة في تلك الليلة. وعند الطبري الإسراء وفرض الصلاة كان أول الوحي، ثم كان رسول اللّه ﷺ يعرض نفسه على وفود العرب في الموسم يأتيهم في منازلهم ليعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إلى نصره ويتلو عليهم القرآن، وقريش مع ذلك يتعرضون لهم بالمقابح إن يقبلوا منهم وأكثرهم في ذلك أبو لهب. وكان من الذين عرض عليهم في الموسم بنو عامر بن صعصعة من مضر وبنو شيبان وبنو حنيفة من ربيعة وكندة من قحطان وكلب من قضاعة وغيرهم من قبائل العرب.

فكان منهم من يحسن الاستماع والعذر، ومنهم من يعرض ويصرح بالإذاية، ومنهم من يشترط الملك الذي ليس هو من سبيله فيرد ﷺ الأمر إلى اللّه. ولم يكن فيهم أقبح رداً من بني حنيفة. وقد ذخر اللّه الخير في ذلك كله للأنصار، فقدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف بن الأوس، فدعاه رسول اللّه ﷺ إلى الإسلام فلم يبعد ولم يجب، وانصرف إلى المدينة فقتل في بعض حروبهم وذلك قبل بعاث. ثم قدم بمكة أبو الحيسر أنس بن رافع في فتية من قومه من بني عبد الأشهل يطلبون الحلف، فدعاهم رسول اللّه ﷺ إلى الإسلام، فقال إياس بن معاذ منهم - وكان شاباً حدثاً -: هذا واللّه خير مما جئتنا له! فانتهره أبو الحيسر فسكت. ثم انصرفوا إلى بلادهم ولم يتم لهم الحلف ومات إياس فيقال إنه مات مسلماً.

ثم إن رسول اللّه ﷺ لقي عند العقبة في الموسم ستة نفر من الخزرج وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وعوف بن الحرث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زيد بن مالك بن غضبة بن جشم بن الخزرج، وطبقة بن عامر بن حيدرة بن عمر بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن مراد بن يزيد بن جشم، وعقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن خزام بن كعب بن غنم بن سلمة، وجابر بن عبد اللّه بن رئاب بن النعمان بن سلمة بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة فدعاهم رسول اللّه ﷺ إلى الإسلام، وكان من صنع اللّه لهم أن اليهود جيرانهم كانوا يقولون: إن نبياً يبعث وقد أظل زمانه، فقال بعضهم لبعض: هذا واللّه النبي الذي تحدثكم به اليهود فلا يسبقونا إليه. فآمنوا وأسلموا وقالوا إنا قد قدمنا بينهم حروباً فننصرف وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه! فعسى اللّه أن يجمع كلمتهم بك فلا يكون أحد أعز منك، فانصرفوا إلى المدينة ودعوا إلى الإسلام حتى فشا فيهم.

ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر النبي ﷺ.

العقبة الأولى

حتى إذا كان العام القابل قدم مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً: منهم خمسة من الستة الذي ذكرنا وهم من عدي وجابر بن عبد اللّه فإنه لم يحضرها، وسبعة من غيرهم وهم: معاذ بن الحرث أخو عوف بن الحرث المذكور وقيل: إنه ابن عفراء، وذكوان بن عبد قيس بن خالدة، وخالد بن مخلد بن عامر بن زريق، وعبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهد بن ثعلبة بن صرمة بن أصرم بن عمرو بن عبادة بن عصيبة من بني حبيب، والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف هؤلاء عشرة من الخزرج.

ومن الأوس: أبو الهيثم مالك بن التيهان وهو من بني عبد الأشهل بن جشم بن الحرث بن الخزرج بن عمر بن ملك بن أوس، وعويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة. فبايع هؤلاء رسول اللّه ﷺ عند العقبة على بيعة النساء، -وذلك قبل أن يفرض الحرب- على الطاعة لرسول اللّه ﷺ وعلى أن لا يشركوا باللّه شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يفتروا الكذب.

فلما حان انصرافهم بعث رسول اللّه ﷺ معهم ابن أم مكتوم ومصعب بن عمير يدعوهم إلى الإسلام ويعلم من أسلم

منهم القرآن والشرائع، فنزل بالمدينة على أسعد بن زرارة، وكان مصعب يؤمهم وأسلم على يديه خلق كثير من الأنصار. وكان سعد بن معاذ وأسعد بن زرارة ابنا الخالة، فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير إلى سعد بن زرارة -وكان جاراً لبني عبد الأشهل- فأنكرا عليه فهداهما الله إلى الإسلام، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد الرجال والنساء. ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها المسلمون رجال ونساء حاشا بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف: بطون من الأوس وكانوا في عوالي المدينة، فأسلم منهم وكان قوم سيدهم أبو قيس صيفي بن الأسلت الشاعر فوقف بهم عن الإسلام حتى كانت الخندق فأسلموا كلهم.

العقبة الثانية

ثم رجع مصعب المذكور بن عمير إلى مكة وخرج معه إلى الموسم جماعة ممن أسلم من الأنصار للقاء النبي ﷺ في جملة قوم منهم لم يسلموا بعد، فوافوا مكة وواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، ووافوا ليلة ميعادهم إلى العقبة متسللين من رحالهم سراً عمن حضر من كفار قومهم، وحضر معهم عبد الله بن حزام بن عمرو أبو جابر وأسلم تلك الليلة، فبايعوا رسول الله ﷺ على أن يمنعوه ما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وإزرهم وأن يرحل إليهم هو وأصحابه. وحضر العباس بن عبد المطلب، وكان على دين قومه بعد، وإنما توثق للنبي ﷺ وكان للبراء بن معرور في تلك الليلة المقام المحمود في الإخلاص والتوثق لرسول الله ﷺ وكان أول من بايع. وكان عدة الذين بايعوا تلك الليلة ثلاثاً وسبعين رجلاً وامرأتين، واختار منهم رسول الله ﷺ اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وقال لهم: «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي» فمن الخزرج من أهل العقبة الأولى: أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت. ومن غيرهم سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك، وثعلبة بن كعب بن الخزرج، وعبد الله بن رواحة بن امرئ القيس، والبراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة، وعبد الله بن عمرو بن حزام أبو جابر، وسعد بن عبادة بن ديلم بن حارثة بن لودان بن عبد ود بن يزيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة. وثلاثة من الأوس وهم: أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وسعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن الأوس، ورفاعة بن عبد المنذر بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس. فدعا قوم أبو الهيثم بن التيهان مكان رفاعة هذا والله أعلم.

ولما تمت هذه البيعة أمرهم رسول الله ﷺ بالرجوع إلى رحالهم فرجعوا، ونمي الخبر إلى قريش فغدت الخلة منهم على الأنصار في رحالهم فعاتبوهم، فأنكروا ذلك وحلفوا لهم، وقال لهم عبد الله بن أبي بن سلول: ما كان قومي ليتفقوا على مثل هذا وأنا لا أعلمه! فانصرفوا عنه وتفرق الناس من منى، وعلمت قريش الخبر فخرجوا في طلبهم، فأدركوا سعد بن عبادة فجاؤوا به إلى مكة يضربونه ويجرونه بشعره حتى نادى بجبير بن مطعم والحرث بن أمية وكان يجيرهما ببلده فخلصاه مما كان فيه. وقد كانت قريش قبل ذلك سمعوا صائحاً يصيح ليلاً على جبل أبي قبيس:

فإن يسلم السعدان يصبح محمد ... بمكة لا يخشى خلاف مخالف

فقال أبو سفيان: السعدان سعد بكر وسعد هذيم.

فلما كان في الليلة القابلة سمعوه يقول:

أيا سعد: سعد الأوس كن أنت ... ويا سعد سعد الخزرجى الغضارف
أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا ... على الله في الفردوس منية عارف
فإن ثواب الله للطالب الهدى ... جنان من الفردوس ذات رفارف

فقال والله هذان سعد بن عبادة وسعد بن معاذ.

ولما فشا الإسلام بالمدينة وطفق أهلها يأتون رسول الله ﷺ بمكة، تعاقدت على أن يفتنوا المسلمين عن دينهم فأصابهم من ذلك جهد شديد. ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

فلما تمت بيعة الأنصار على ما وصفناه أمر رسول الله ﷺ أصحابه ممن هو بمكة من المسلمين بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالاً وأول من خرج أبو سلمة بن عبد الأسد ونزل في قباء، ثم هاجر عامر بن ربيعة حليف بني عدي بامرأته ليلى بنت أبي خيثمة بن غانم، ثم هاجر جميع بني جحش من بني أسد بن خزيمة ونزلوا بقباء على عكاشة بن محصن وجماعة من بني أسد حلفاء بني أمية كانت فيهم زينب بنت جحش أم المؤمنين وأختاها حمنة وأم حبيبة.

ثم هاجر عمر بن الخطاب وعباس بن أبي ربيعة في عشرين راكباً فنزلوا في العوالي في بني أمية بن زيد وكان يصلي بهم سالم مولى أبي حذيفة. وجاء أبو جهل بن هشام فخادع عياش بن أبي ربيعة ورده إلى مكة فحبسوه حتى تخلص بعد حين ورجع. وهاجر

مع عمر أخوه زيد وسعيد ابن عمه زيد وصهره على بنته حفصة أم المؤمنين جحش بن حذافة السهمي وجماعة من حلفاء بني عدي، نزلوا بقباء على رفاعة بن عبد المنذر من بني عوف بن عمرو.

ثم هاجر طلحة بن عبيد الله فنزل هو وصهيب بن سنان على حبيب بن أساف في بني الحرث بن الخزرج بالسلم، وقيل بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة. ثم هاجر حمزة بن عبد المطلب ومعه زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحليفه أبو مرثد كناز بن حصن الغنوي فنزلوا في بني عمرو بن عوف بقباء على كلثوم بن الهدم، ونزل جماعة من بني المطلب بن عبد مناف فيهم مسطح بن أثاثة ومعه خباب بن الأرت مولى عتبة بن غزوان في بني المسجلان بقباء، ونزل عبد الرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع في بني الحرث بن الخزرج، ونزل الزبير بن العوام وأبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى على المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح في دار بني جحجبا، ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ في بني عبد الأشهل، ونزل أبو حذيفة بن عتبة ومولاه سالم وعتبة بن غزوان المازني على عباد بن بشر من بني عبد الأشهل، ولم يكن سالم عتيق أبي حذيفة وإنما أعتقته امرأة من الأوس كانت زوجاً لأبي حذيفة اسمها بثينة بنت معاذ فتبناه ونسب إليه. ونزل عثمان بن عفان في بني النجار على أوس أخي حسان بن ثابت. ولم يبق أحد من المسلمين بمكة مع رسول الله ﷺ إلا أبو بكر وعلي بن أبي طالب رضي ا لله عنهما فإنهما أقاما بأمره وكان ﷺ ينتظر أن يؤذن له في الهجرة.

الهجرة

ولما علمت قريش أن رسول اللّه ﷺ قد صار له شيعة وأنصار من غيرهم وأنه مجمع على اللحاق بهم وأن أصحابه من المهاجرين سبقوه إليهم تشاوروا ما يصنعون في أمره، واجتمعت لذلك مشيختهم في دار الندوة: عتبة وشيبة وأبو سفيان من بني أمية وطعيمة بن عدي وجبير بن مطعم والحارث بن عامر من بني نوفل والنضر بن الحارث من بني عبد الدار وأبو جهل من بني مخزوم ونبيه ومنبه ابنا الحجاج من بني سهم وأمية بن خلف من بني جمح، ومعهم من لا يعد من قريش. فتشاوروا في حبسه أو إخراجه عنهم.

ثم اتفقوا على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى شاباً جلداً فيقتلونه جميعاً فيتفرق دمه في القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميعهم. واستعدوا لذلك من ليلتهم وجاء الوحي بذلك إلى النبي ﷺ، فلما رأى أرصدهم على باب منزله أمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ويتوشح ببرده، ثم خرج رسول اللّه ﷺ عليهم فطمس اللّه تعالى على أبصارهم ووضع على رؤوسهم تراباً وأقاموا طول ليلهم، فلما أصبحوا خرج إليهم علي فعلموا أن النبي ﷺ قد نجا، وتواعد رسول اللّه ﷺ مع أبي بكر الصديق، واستأجر عبد اللّه بن أريقط الدولي من بني بكر بن عبد مناف ليدل بهما إلى المدينة وينكب عن طريق العظمى، وكان كافراً وحليفاً للعاص بن وائل، لكنهما وثقا بأمانته وكان دليلاً بالطريق.

وخرج رسول اللّه ﷺ من خوخة في ظهر دار أبي بكر ليلاً، وأتيا الغار الذي في جبل ثور بأسفل مكة فدخلا فيه، وكان عبد اللّه بن أبي بكر يأتيهما بالأخبار، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر وراعي غنمه يريح غنمه عليهما ليلاً فيأخذ حاجتهما من لبنها، وأسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام.

ونقض عامر بالغنم إثر عبد اللّه، ولما فقدته قريش اتبعوه ومعهم القائف فقاف الأثر حتى وقف عند الغار وقال هنا انقطع الأثر وإذا بنسج العنكبوت على فم الغار فاطمأنوا إلى ذلك ورجعوا، وجعلوا مائة ناقة لمن ردهما عليهم، ثم أتاهما عبد اللّه بن أريقط بعد ثلاث براحلتيهما فركبا، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة، وأتتهما أسماء بسفرة لهما وشقت نطاقها وربطت السفرة فسميت ذات النطاقين. وحمل أبو بكر جميع ماله نحو ستة آلاف درهم، ومروا بسراقة بن مالك بن جعشم فاتبعهم ليردهم، ولما رأوه دعا عليه رسول اللّه ﷺ فساخت قوائم فرسه في الأرض، فنادى بالأمان وأن يقفوا له. فطلب من النبي ﷺ أن يكتب له كتاباً فكتبه أبو بكر بأمره، وسلك الدليل من أسفل مكة على الساحل أسفل من عسفان وأمج وأجاز قديداً إلى العرج ثم إلى قباء من عوالي المدينة. ووردوها قريباً من الزوال يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، وخرج الأنصار يتلقونه وقد كانوا ينتظرونه إلى أن قلصت الظلال ورجعوا إلى بيوتهم. فتلقوه مع أبي بكر في ظل نخلة.

ونزل عليه السلام بقباء على سعد بن خيثمة، وقيل على كلثوم الهدم، ونزل أبو بكر بالسخ في بني الحرث بن خزرج على حبيب بن أسد، وقيل على خارجة بن زيد. ولحق بهم علي رضي اللّه عنه من مكة بعد أن رد الودائع للناس التي كانت عند النبي ﷺ، فنزل معه بقبا.

وأقام رسول اللّه ﷺ هنالك أياماً ثم نهض لما أمر اللّه وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد هنالك

ورغب إليه رجال بني سليم أن يقيم عندهم، وتبادروا إلى خطام ناقته اغتناماً لبركته. فقال عليه السلام: « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ثم مشى والأنصار حواليه إلى أن مر بدار بني بياضة، فتبادر إليه رجالهم يبتدرون خطام الناقة، فقال: « دعوها فإنها مأمورة » ثم مر بدار بني ساعدة فتلقاه رجال وفيهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ودعوه كذلك وقال لهم مثل ما قال للآخرين. ثم إلى دار بني حارثة بن الخزرج فتلقاه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة. ثم مر ببني عدي بن النجار أخوال عبد المطلب ففعلوا وقال لهم مثل ذلك، إلى أن أتى دار بني مالك بن النجار فبركت ناقته على باب مسجده اليوم وهو يومئذ لغلامين منهم في حجر معاذ بن عفراء اسمهما سهل وسهيل وفيه خرب ونخل وقبور للمشركين ومربد.

ولما بركت الناقة بقي على ظهرها ولم ينزل فقامت ومشت غير بعيد ولم يثنها، ثم التفتت خلفها ورجعت إلى مكانها الأول فبركت واستقرت ونزل رسول الله ﷺ عنها. وحمل أبو أيوب رحله إلى داره فنزل عليه وسأل عن المربد وأراد أن يتخذه مسجداً، فاشتراه من بني النجار بعد أن وهبوه له فأبى من قبوله، ثم أمر بالقبور فنبشت وبالنخل فقطعت، وبنى المسجد باللبن وجعل عضادتيه الحجارة وسواريه جذوع النخل وسقفه الجريد، وعمل فيه المسلمون حسبة لله عز وجل.

ثم وداع اليهود وكتب بينه وبينهم كتاب صلح وموادعة شرط فيه لهم وعليهم، ثم مات أسعد بن زرارة وكان نقيباً لبني النجار فطلبوا إقامة نقيب مكانه، فقال: « أنا نقيبكم » ولم يخص بها منهم أحد دون أحد فكانت من مناقبهم.

ولما رجع عبد الله بن أريقط إلى مكة أخبر عبد الله بن أبي بكر بمكانه فخرج ومعه عائشة أخته وأمهما أم رومان ومعهم طلحة بن عبيد الله فقدموا المدينة وتزوج رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر وبنى بها في منزل أبي بكر بالسنح. وبعث رسول الله ﷺ أبا رافع إلى بناته وزوجته سودة بنت زمعة فحملهما إليه من مكة، وبلغ الخبر بموت أبي أحيحة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل من مشيخة قريش.

المؤاخاة

ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فآخى بين جعفر بن أبي طالب وهو بالحبشة ومعاذ بن جبل، وبين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك من بني سالم، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخي حسان، وبين سعيد بن زيد وأبي بن كعب، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب، وبين أبي حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر بن وقش من بني عبد الأشهل، وبين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان العنسي حليف بني عبد الأشهل وقيل: بل ثابت بن قيس بن الشماس، وبين أبي ذر الغفاري والمنذر بن عمرو من بني ساعدة، وبين حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى وعويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وعمير بن بلتعة من بني الحرث بن الخزرج و... وبين بلال بن حمامة وأبي رويحة الخثعمي.

ثم فرضت الزكاة ويقال وزيد في صلاة الحاضر ركعتين فصارت أربعاً بعد أن كانت ركعتين سفراً وحضراً.

ثم أسلم عبد الله بن سلام وكفر جمهور اليهود، وظهر قوم من الأوس والخزرج منافقون يظهرون الإسلام مراعاة لقومهم من الأنصار ويصرون الكفر، وكان رئيسهم: من الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس، ومن الأوس الحرث بن سهيل بن الصامت وعباد بن حنيف ومربع بن قيظي وأخوه أوس من أهل مسجد الضرار. وكان قوم من اليهود أيضاً تعوذوا بالإسلام وهم يبطنون الكفر منهم: سعد بن خنيس وزيد بن اللطيت ورافع بن خزيمة ورفاعة بن زيد بن التابوت وكنانة بن حيورتا.

الغزوات

غزوة الأبواء

ولما كان شهر صفر بعد مقدم النبي ﷺ المدينة خرج في مائتين من أصحابه يريد قريشاً وبني ضمرة، واستعمل على المدينة سعد بن عبادة، فبلغ ودان والأبواء ولم يلقهم. واعترضه مخشي بن عمر وسيد بني ضمرة بن عبد مناة بن كنانة وسأله موادعة قومه فعقد له، ورجع إلى المدينة ولم يلق حرباً. وهي أول غزاة غزاها بنفسه، ويسمى بالأبواء وبودان المكانان اللذان انتهى إليهما، وهما متقاربان بنحو ستة أميال، وكان صاحب اللواء فيها حمزة بن عبد المطلب.

غزوة بواط

ثم بلغه أن عيراً لقريش نحو ألفين وخمسمائة فيها أمية بن خلف، ومائة رجل من قريش ذاهبة إلى مكة، فخرج في ربيع الآخر لاعتراضها واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون. وقال الطبري: سعد بن معاذ فانتهى إلى بواط ولم يلقهم ورجع إلى المدينة.

غزوة العشيرة

ثم خرج في جمادى الأولى غازياً قريشاً، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد فسلك عن جانب من الطريق إلى أن لقي الطريق بصخيرات اليمام إلى العشيرة من بطن ينبع، فأقام هنالك بقية جمادى الأولى وليلة من جمادى الثانية ووادع بني مدلج، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً.

غزوة بدر الأولى

وأقام بعد العشيرة نحو عشر ليال ثم أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج في طلبه حتى بلغ ناحية بدر، وفاته كرز فرجع إلى المدينة.

البعوث

وفي هذه الغزوات كلها غزا بنفسه وبعث فيما بينها بعوثاً نذكرها وفيها: بعث حمزة بن عبد المطلب بعد الأبواء، بعثه في ثلاثين راكباً من المهاجرين إلى سيف البحر فلقي أبا جهل في ثلثمائة راكب من أهل مكة فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني ولم يكن قتال. ومنها بعث عبيدة بن الحرث بن المطلب في ستين راكباً وثمانين من المهاجرين فبلغ ثنية المرار ولقي بها جمعاً عظيماً من قريش كان عليهم عكرمة بن أبي جهل وقيل مكرز بن حفص بن الأحنف ولم يكن بينهم قتال. وكان مع الكفار يومئذ من المسلمين المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان، خرجا مع الكفار ليجدا السبيل إلى اللحاق بالنبي ﷺ فهربا إلى المسلمين وجاءا معهم. وكان بعث حمزة وعبيدة متقاربين، واختلف أيهما كان قبل إلا أنهما أول راية عقدها رسول الله ﷺ. وقال الطبري: إن بعث حمزة كان قبل ودان في شوال لسبعة أشهر من الهجرة. ومنها بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين لطلب كرز بن جابر حين أغار على سرح المدينة فبلغ المرار ورجع.

ومنها بعث عبد الله بن جحش إثر مرجعه من بدر الأولى في شهر رجب بعثه بثمانية من المهاجرين وهم أبو حذيفة بن عتبة وعكاشة بن محصن بن أسد بن خزيمة وعتبة بن غزوان بن مازن بن منصور وسعد بن أبي وقاص وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي ووافد بن عبد الله بن زيد مناة بن تميم وخالد بن البكير بن سعد بن ليث وسهيل بن مضاض بن فهر بن مالك، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ولا يكره أحداً من أصحابه، فلما قرأ الكتاب بعد يومين وجد فيه أن تمضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف وترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم، فأخبر أصحابه وقال: حتى ننزل نخلةً بين مكة والطائف ومن أحب الشهادة فلينهض ولا أستكره أحداً. فمضوا كلهم وأضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان في بعض الطريق بعيراً لهما كانا يتعقبانه فتخلفا في طلبه ونفر الباقون إلى نخلة، فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان مولاهم وذلك آخر يوم من رجب، فتشاور المسلمون وتحرج بعضهم الشهر الحرام ثم اتفقوا واغتنموا الفرصة فيهم، فرمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمي فقتله وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وأفلت نوفل، وقدموا بالعير والأسيرين وقد أخرجوا الخمس فعزلوه. فأنكر النبي ﷺ فعلهم ذلك في الشهر الحرام، فسقط في أيديهم ثم أنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾. فسري عنهم وقبض النبي ﷺ الخمس وقسم الغنيمة وحكي: وقبل الفداء في الأسيرين، وردهم الحكم بن كيسان منهما، ورجع سعد وعتبة سالمين إلى المدينة. وهذه أول غنيمة غنمت في الإسلام وأول غنيمة خمّست في الإسلام وقتل عمرو بن الحضرمي هو الذي هاج وقعة بدر الثانية.

صرف القبلة

ثم صرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمه المدينة، خطب بذلك على المنبر وسمعه بعض الأنصار فقام فصلى ركعتين إلى الكعبة، قاله ابن حزم. وقيل على رأس ثمانية عشر شهراً، وقيل ستة عشر، ولم يقل غير ذلك.

غزوة بدر الثانية العظمى والكبرى

فأقام رسول اللّه ﷺ بالمدينة إلى رمضان من السنة الثانية، ثم بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة معها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش عميدهم أبو سفيان ومعه عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل، فندب عليه السلام المسلمين إلى هذه العير وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج، ولم يحتفل في الحشد لأنه لم يظن قتالاً، واتصل خروجه بأبي سفيان، فاستأجر ضمضم بن عمار الغفاري وبعثه إلى أهل مكة يستنصرهم لعيرهم فنفروا وأرعبوا إلا يسيراً منهم أبو لهب. وخرج ﷺ لثمان خلون من رمضان واستخلف على الصلاة عمرو بن أم مكتوم ورد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، ودفع إلى علي راية، وإلى رجل من الأنصار أخرى يقال كانتا سوداوين. وكان مع أصحابه ﷺ يومئذ سبعون بعيراً يعتقبونها فقط.

وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة من بني النجار، وراية الأنصار يومئذ مع سعد بن معاذ فسلكوا نقب المدينة مع سعد بن معاذ إلى ذي الحليفة ثم انتهوا إلى صخيرات تمام ثم إلى بئر الروحاء، ثم رجعوا ذات اليمين عن الطريق إلى الصفراء.

وبعث عليه السلام قبلها بسبس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة وعدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار إلى بدر يتجسسون أخبار أبي سفيان وغيره. ثم تنكب عن الصفراء يميناً وخرج على وادي دقران، فبلغه خروج قريش ونفيرهم، فاستشار أصحابه، فتكلم المهاجرون وأحسنوا، وهو يريد ما يقوله الأنصار وفهموا ذلك. فتكلم سعد بن معاذ وكان فيما قال: لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك فسر بنا يا رسول اللّه على بركة اللّه فسر بذلك، وقال: «سيروا وأبشروا فإن اللّه قد وعدني إحدى الطائفتين».

ثم ارتحلوا من دقران إلى قريب من بدر وبعث علياً والزبير وسعداً في نفر يلتمسون الخبر فأصابوا غلامين لقريش، فأتوا بهما وهو عليه الصلاة والسلام قائم يصلي، وقالوا: نحن سقاة قريش! فكذبوهما كراهية في الخبر ورجاء أن يكونا من العير للغنيمة وقلة المؤونة، فجعلوا يضربونهما فيقولان: نحن من العير. فسلّم رسول اللّه ﷺ وأنكر عليهم، وقال للغلامين: أخبراني أين قريش؟ فأخبراه أنهم وراء الكثيب وأنهم ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً. فقال عليه السلام: « القوم بين التسعمائة والألف » وقد كان بسبس وعدي الجهنيان مضيا يتجسسان الأخبار حتى نزلا بدراً وأناخا قرب الماء واستقيا في شن لهما ومجدي بن عمرو سيد جهينة بقربهما، فسمع عدي جارية من جواري الحي تقول لصاحبتها: العير تأتي غداً أو بعد غد فأعمل لهم وأقضيك الذي لك وجاءت إلى مجدي بن عمرو فصدقها، فرجع بسبس وعدي بالخبر. وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر فقال لمجدي: هل احسست أحداً؟ فقال: راكبين أناخا فيما يلي هذا التل فاستقيا الماء ونهضا، فأتى أبو سفيان مناخهما وفتت من أبعار رواحلهما، فقال: هذه واللّه علائف يثرب فرجع سريعاً وقد حذر وتنكب بالعير إلى طريق الساحل فنجا وأوصى إلى قريش بأنا قد نجونا بالعير فارجعوا! فقال أبو جهل: واللّه لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثاً وتهابنا العرب أبداً.

ورجع الأخنس بن شريق بجميع بني زهرة وكان حليفهم ومطاعاً فيهم، وقال: إنما خرجتم تمنعون أموالكم وقد نجت فرجعوا. وكان بنو عدي لم ينفروا مع القوم، فلم يشهد بدراً من قريش عدوي ولا زهري.

وسبق رسول اللّه ﷺ قريشاً إلى ماء بدر وثبطهم عنه مطر نزل وبله مما يليهم وأصاب المسلمين دهس الوادي، وأعانهم على السير، فنزل عليه السلام على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة، فقال له الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح: آللّه أنزلك بهذا المنزل فلا تتحول عنه أم قصدت الحرب والمكيدة؟

فقال عليه السلام: «لا بل هو الرأي والحرب»!. فقال يا رسول اللّه ليس هذا بمنزل، وإنما تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ونبني عليه حوضاً فنملؤه ونغوّر القلب كلها فنكون قد منعناهم الماء. فاستحسنه رسول اللّه ﷺ. ثم بنوا له عريشاً يكون فيه رسول اللّه ﷺ حتى يأتيه من ربه النصر، يريهم مصارع القوم واحداً واحداً، ولما نزل قريش مما يليهم بعثوا عمير بن وهب الجمحي يحذر لهم أصحاب رسول اللّه ﷺ، وكانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً فيهم فارسان: الزبير والمقداد، فحذرهم وانصرف وخبرهم الخبر، ورام حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ولا يكون الحرب، فأبى أبو جهل وساعده المشركون، وتوافقت الفتتان. وعدل رسول اللّه ﷺ الصفوف بيده ورجع إلى العريش ومعه أبو بكر وحده، وطفق يدعو ويلح وأبو بكر يقاوله ويقول في دعائه:

« اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض اللّهم انجز لي ما وعدتني » وسعد بن معاذ وقوم معه من الأنصار على باب العريش يحمونه وأخفق رسول اللّه ﷺ، ثم انتبه فقال: « أبشر يا أبا بكر فقد أتى نصر اللّه » ثم خرج يحرض الناس، ورمى

في وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول: « شاهت الوجوه » ثم تزاحفوا فخرج عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد يطلبون البراز فخرج إليهم عبيدة بن الحرث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب فقتل حمزة وعلي شيبة والوليد وضرب عتبة عبيدة فقطع رجله فمات وجاء حمزة وعلي إلى عتبة فقتلاه. وقد كان برز إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة من الأنصار فأبوا إلا قومهم.

وجال القوم جولة فهزم المشركون وقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً فمن مشاهيرهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة بن سفيان بن حرب وابنا سعيد بن العاص عبيدة والعاص، والحرث بن عامر بن نوفل وابن عمه طعيمة بن عدي وزمعة بن الأسود وابنه الحرث وأخوه عقيل بن الأسود وابن عمه أبو البحتري بن هشام ونوفل بن خويلد بن أسد وأبو جهل بن هشام، اشترك فيه معاذ ومعوذ ابنا عفراء وجَدّه عبد الله بن مسعود وبه رمق فحز رأسه، وأخوه العاص بن هشام وابن عمهما مسعود بن أمية وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وابن عمه أبو قيس بن الفاكه، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص والحراث ابنا منبه وأمية بن خلف وابنه علي وعمير بن عثمان عم طلحة.

وأسر العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب والسائب بن عبد العزيز من بني المطلب وعمرو بن أبي سفيان بن حرب وأبو العاص بن الربيع وخالد بن أسيد بن أبي العيص وعدي بن الخيار من بني نوفل وعثمان بن عبد شمس ابن عم عتبة بن غزوان وأبو عزيز أخو مصعب بن عمير وخالد بن هشام بن المغيرة وابن عمه رفاعة بن أبي رفاعة وأمية بن أبي حذيفة بن المغيرة والوليد بن الوليد أخو خالد وعبد الله وعمرو ابنا أبي بن خلف وسهيل بن عمرو في آخرين مذكورين في كتب السير.

واستشهد من المسلمين:

من المهاجرين: عبيدة بن الحارث بن المطلب وعمير بن أبي وقاص وذو الشمالين عبد عمرو بن نضلة الخزاعي حليف بني زهرة وصفوان بن بيضاء من بني الحرث بن فهر ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصابه سهم فقتله، وعاقل بن البكير الليثي حليف بني عدي من الأنصار. ثم من الأوس: سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر. ومن الخزرج: يزيد بن الحارث بن الخزرج وعمير بن الحمام من بني سلمة سمع رسول الله ﷺ يحض على الجهاد ويرغب في الجنة وفي يده تمرات يأكلهن فقال: بخ بخ أما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم رمى بهن وقاتل حتى قتل، ورافع بن المعلى من بني حبيب بن عبد حارثة وحارثة بن سراقة من بني النجار وعوف ومعوذ ابنا عفراء.

ثم انجلت قريش الحرب وأمر رسول الله ﷺ بقتلى المشركين فسحبوا إلى القليب وطم عليهم التراب، وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن مقدول بن عمر بن غنم بن مازن بن النجار، ثم انصرف إلى المدينة فلما نزل الصفراء قسم الغنائم كما أمر الله، وضرب عنق النضر بن كلدة من بني عبد الدار، ثم نزل عرق الظبية فضرب عنق عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية وكان في الأسارى ومر إلى المدينة فدخلها لثمان بقين من رمضان.

غزوة الكرز

وبلغ رسول الله ﷺ بعد رجوعه إلى المدينة اجتماع غطفان فخرج يريد بني سليم بعد سبع ليال من منصرفه، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري أو ابن أم مكتوم، فبلغ ماء يقال له الكرز وأقام عليه ثلاثة أيام ثم انصرف ولم يلق حرباً، وقيل إنه أصاب من نعمهم ورجع بالغنيمة، وإنه بعث غالب بن عبد الله الليثي في سرية فنالوا منهم وانصرفوا بالغنيمة. وأقام رسول الله ﷺ إلى ذي الحجة، وفدى رسول الله ﷺ أكثر أسارى بدر.

غزوة السويق

ثم إن أبا سفيان لما انصرف من بدر نذر أن يغزو المدينة فخرج في مائتي راكب حتى أتى بني النضير ليلاً، فتوارى عنه حيي بن أخطب ولقيه سلام بن مشكم وقراه وأعلمه بخبر الناس، ثم رجع ومر بأطراف المدينة فحرق نخلاً وقتل رجلين في حرث لهما، فنفر رسول الله ﷺ والمسلمون، واستعمل على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وبلغ الكرز وفاته أبو سفيان والمشركون وقد طرحوا سويقاً من أزوادهم ليتحففوا، فأخذها المسلمون فسميت لذلك غزوة السويق. وكانت في ذي الحجة بعد بدر بشهرين.

غزوة ذي أمر

ثم خرج رسول الله ﷺ في شهر المحرم غازياً غطفان واستعمل على المدينة عثمان بن عفان رضي ا لله عنه فأقام بنجد صفر وانصرف ولم يلق حرباً.

نجران

ثم خرج رسول اللّه ﷺ آخر ربيع الأول يريد قريشاً واستخلف ابن أم مكتوم فبلغ نجران معدناً في الحجاز ولم يلق حرباً. وأقام هنالك إلى جمادى الثانية من السنة الثالثة وانصرف إلى المدينة.

قتل كعب بن الاشرف

وكان كعب بن الأشرف رجلاً من طيء وأمه من يهود بني النضير، ولما أصيب أصحاب بدر، وبعث رسول اللّه ﷺ زيد بن حارثة وعبد اللّه بن رواحة مبشرين إلى المدينة، جعل يقول: ويلكم أحق هذا؟ وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، وإن كان محمد أصاب هؤلاء فبطن الأرض خير من ظهرها. ثم قدم مكة ونزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي، وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص بن أمية، فجعل يحرض على رسول اللّه ﷺ وينشد الأشعار ويبكي على أصحاب القليب، ثم رجع إلى المدينة فشبب بعاتكة ثم شبب بنساء المسلمين. فقال رسول اللّه ﷺ : «من يقتل كعب بن الاشرف؟» فانتدب لذلك محمد بن مسلمة وملكان بن سلامة بن وقش وأبو نائلة من بني عبد الأشهل أخو كعب من الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش بن بشر بن معاذ وأبو عبس بن جبر من بني حارثة.

وتقدم إليه ملكان بن سلامة وأظهر له انحرافاً عن النبي ﷺ عن إذن منه، وشكا إليه ضيق الحال ورام أن يبيعه وأصحابه طعاماً ويرهنون سلاحهم. فأجاب إلى ذلك ورجع إلى أصحابه، فخرجوا وشيعهم رسول اللّه ﷺ إلى بقيع الغرقد في ليلة قمراء، وأتوا كعباً فخرج إليهم من حصنه ومشوا غير بعيد ثم وضعوا عليه سيوفهم، ووضع محمد بن مسلمة معولاً كان معه في ثنته فقتله. وصاح عدو اللّه صيحة شديدة انذعر لها أهل الحصون التي حواليه، وأوقدوا النيران، ونجا القوم وقد جرح منهم الحرث بن أوس ببعض سيوفهم فنزفه الدم وتأخر ثم وافاهم بحرة العريض آخر الليل وأتوا النبي صلى ا لله عليه وسلم وهو يصلي، وأخبروه وتفل على جرح الحرث فبرئ. وأذن للمسلمين في قتل اليهود لما بلغه أنهم خافوا من هذه الفعلة، وأسلم حينئذ حويصة بن مسعود، وقد كان أسلم قبله أخوه محيصة بسبب قتل بعضهم.

غزوة بني قينقاع

وكان بنو قينقاع لما انصرف رسول اللّه ﷺ من بدر وقف بسوق بني قينقاع في بعض الأيام فوعظهم وذكرهم ما يعرفون من أمره في كتابهم، وحذرهم ما أصاب قريشاً من البطشة، فأساؤوا الرد وقالوا: لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا يعرفون الحرب فأصبت منهم! واللّه لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس. فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾. وقيل: بل قتل مسلم يهودياً بسوقهم في حق، فثاروا على المسلمين ونقضوا العهد ونزلت الآية. فسار إليهم رسول اللّه ﷺ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر، وقيل: أبا لبابة، وكانوا في طرف المدينة في سبعمائة مقاتل منهم ثلثمائة دارع، ولم يكن لهم زرع ولا نخل إنما كانوا تجاراً وصاغة يعملون بأموالهم، وهم قوم عبد اللّه بن سلام. فحصرهم عليه السلام خمس عشرة ليلة لا يكلم أحداً منهم حتى نزلوا على حكمه فكتفهم ليقتلوا، فشفع فيهم عبد اللّه بن أبي بن سلول وألح في الرغبة حتى حقن له رسول اللّه ﷺ دماءهم، ثم أمر بإجلائهم وأخذ ما كان لهم من سلاح وضياع، وأمر عبادة بن الصامت فمضى بهم إلى ظاهر ديارهم ولحقوا بخيبر، وأخذ رسول اللّه ﷺ الخمس من الغنائم وهو أول خمس أخذه، ثم انصرف إلى المدينة وحضر الأضحى فصلى بالناس في الصحراء وذبح بيده شاتين ويقال أنهما أول أضحيته ﷺ.

سرية زيد بن حارثة إلى قردة

وكانت قريش من بعد بدر قد تخوفوا من اعتراض المسلمين عيرهم في طريق الشام فصاروا يسلكون طريق العراق، وخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية واستجاروا بفرات بن حيان بن بكر بن وائل فخرج بهم في الشتاء وسلك بهم على طريق العراق، وانتهى خبر العير إلى النبي ﷺ وما فيها من المال وآنية الفضة، فبعث زيد بن حيان العجلي أسيراً فتعوذ بالإسلام وأسلم. وكان خمس هذه الغنيمة عشرين ألفاً.

قتل أبي الحقيق

كان سلام بن أبي الحقيق هذا من يهود خيبر وكنيته أبو رافع، وكان يؤذي رسول اللّه ﷺ وأصحابه ويحزب عليهم الأحزاب، مثلاً وقريباً من كعب بن الأشرف، وكان الأوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحلين في طاعة رسول اللّه ﷺ والذب عنه والنيل من أعدائه، لا يفعل أحد القبيلتين شيئاً من ذلك إلا فعل الآخرون مثله. وكان الأوس قد قتلوا كعب بن

الأشرف كما ذكرناه، فاستأذن الخزرج رسول اللّه ﷺ في قتل ابن أبي الحقيق نظير ابن الأشرف في الكفر والعداوة، فأذن لهم. فخرج إليهم من الخزرج ثم من بني سلمة ثمانية نفر منهم: عبد اللّه بن عقيل ومسعر بن سنان وأبو قتادة والحرث بن ربعي الخزاعي من حلفائهم في آخرين، وأمر عليهم عبد اللّه بن عقيل ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة، وخرجوا في منتصف جمادى الآخرة من سنة ثلاث، فقدموا خيبر، وأتوا دار ابن أبي الحقيق في علية له بعد أن انصرف عنه عميرة ونام، وقد أغلقوا الأبواب بعد أن أتموا كلما عليهم، ونادوه ليعرفوا مكانه بصوته، ثم تعاوروه بسيوفهم حتى قتلوه، وخرجوا من القصر وأقاموا ظاهرة حتى قام الناعي على سور القصر فاستيقنوا موته، وذهبوا إلى رسول اللّه ﷺ بالخبر. وكان أحدهم قد سقط من درج العلية فأصابه كسر في ساقه فمسح عليه رسول اللّه ﷺ فبرئت.

غزوة أحد

وكانت قريش بعد واقعة بدر قد توامروا وطلبوا من أصحاب العير أن يعينوهم بالمال ليتجهزوا به لحرب رسول اللّه ﷺ فأعانوهم، وخرجت قريش بأحابيشها وحلفائها وذلك في شوال من سنة ثلاث، واحتملوا الظعن التماساً للحفيظة وأن لا يفروا، وأقبلوا حتى نزلوا ذا الحليفة قرب أحد ببطن السبخة مقابل المدينة على شفير واد هنالك، وذلك في رابع شوال. وكانوا في ثلاثة آلاف: منهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وقائدهم أبو سفيان ومعهم خمس عشرة امرأة بالدفوف يبكين قتلى بدر. وأشار ﷺ على أصحابه بأن يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا وإن جاؤوا قاتلوهم على أفواه الأزقة، وافق ذلك على رأي عبد اللّه بن أبي بن سلول، وألح قوم من فضلاء المسلمين ممن أكرمه اللّه بالشهادة فلبس لامته وخرج.

وقدم أولئك الذين ألحو عليه وقالوا: يا رسول اللّه! إن شئت فاقعد. فقال: « ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل » وخرج في ألف من أصحابه، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين بالمدينة. فلما صار بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد اللّه بن أبي في ثلث الناس مغاضباً لمخالفة رأيه في المقام، وسلك رسول اللّه ﷺ حرة بني حارثة ومر بين الحوائط وأبو خثيمة من بني حارثة يدل به حتى نزل الشعب من أحد مستنداً إلى الجبل، وقد سرحت قريش الظهر والكراع في زروع المسلمين وتهيأ للقتال في سبعمائة فيهم خمسون فارساً وخمسون رامياً، وأمر على الرماة عبد اللّه بن جبير من بني عمرو بن عوف والأوس أخو خوات، ورتبهم خلف الجيش ينضحون بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من خلفهم، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير من بني عبد الدار، وأجاز يومئذ سمرة بن جندب الفزاري ورافع بن خديج من بني حارثة في الرماة وكان سناهما خمسة عشر عاماً، ورد أسامة بن زيد وعبد اللّه بن عمر بن الخطاب ومن بني مالك بن النجار زيد بن ثابت وعمرو بن حرام ومن بني حارثة البراء بن عازب وأسيد بن ظهير، ورد عرابة بن أوس وزيد بن أرقم وأبا سعيد الخدري وسن جميعهم يومئذ أربعة عشر عاماً. وجعلت قريش على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل.

وأعطى عليه السلام سيفه إلى أبي دجانة سماك بن خرشة من بني ساعدة وكان شجاعاً بطلاً يختال عند الحرب. وكان مع قريش ذلك اليوم والد حنظلة غسيل الملائكة أبو عامر عبد اللّه عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان من ضبيعة وكان في الجاهلية قد ترهب وتنسك، فلما جاء الإسلام غلب عليه الشقاء وفر إلى مكة في رجال من الأوس وشهد أحد مع الكفار، وكان يعد قريش في انحراف الأوس إليه لما أنه سيدهم، فلم يصدق ظنه، ولما ناداهم وعرفوه، قالوا: لا أنعم اللّه لك علينا يا فاسق! فقاتل المسلمين قتالاً شديداً وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاء شديداً، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين واشتد القتال وانهزم قريش أولاً، فخلت الرماة عن مراكزهم، وكر المشركون كرة وقد فقدوا متابعة الرماة فانكشف المسلمون واستشهد منهم من أكرمه اللّه، ووصل العدو إلى رسول اللّه ﷺ، وقاتل مصعب بن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل، وجرح رسول اللّه ﷺ في وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر، وهشمت البيضة في رأسه، يقال: إن الذي تولى ذلك عتبة بن أبي وقاص وعمرو بن قميئة الليثي. وشد حنظلة الغسيل على أبي سفيان ليقتله فاعترضه شداد بن الأسود الليثي من شعوب فقتله وكان جنباً، فأخبر رسول اللّه ﷺ أن الملائكة غسلته.

واكبت الحجارة على رسول اللّه ﷺ حتى سقط من بعض حفر هنالك، فأخذ علي بيده واحتضنه طلحة حتى قام، ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدري والد أبي سعيد، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ﷺ فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما فندرت ثنيتاه فصار أهتم. ولحق المشركون رسول اللّه ﷺ وكر دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم، وكان آخرهم عمار بن يزيد بن السكن. ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركين وأبو دجانة يقي النبي ﷺ بظهره وتقع فيه النبل فلا

يترك، وأصيبت عين قتادة بن النعمان من بني ظفر فرجع وهي على وجنته، فردها عليه السلام بيده فصحت وكانت أحسن عينيه.

وانتهى النضر بن أنس إلى جماعة من الصحابة وقد دهشوا وقالوا: قتل رسول الله ﷺ فقال فما تصنعون في الحياة بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة. وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة بعضها في رجله فعرج منها. وقتل حمزة عم النبي ﷺ قتله وحشي مولى جبير بن مطعم بن عدي، وكان قد جاء له على ذلك بعتقه فرآه يبارز سباع بن عبد العزى فرماه بحربته من حيث لا يشعر فقتله. ونادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، لأن عمرو بن قميئة كان قد قتل مصعب بن عمير يظن أنه النبي ﷺ، وضربته أم عمارة نسيبة بنت كعب من بني مازن ضربات فتوفي منها بدرعيه وخشع المسلمون لما أصابه ووهنوا لصريخ الشيطان. ثم إن كعب بن مالك الشاعر من بني سلمة عرف رسول الله ﷺ فنادى بأعلى صوته يبشر الناس ورسول الله ﷺ يقول له: « أنصت » فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب، فيهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير والحرث بن الصمة الأنصاري وغيرهم، وأدركه أبيّ بن خلف في الشعب، فتناول ﷺ الحربة من الحرث بن الصمة وطعنه بها في عنقه فكر أبيّ منهزماً، وقال له المشركون: ما بك من بأس! فقال: والله لو بصق علي لقتلني وكان ﷺ قد توعده بالقتل فمات عدو الله بسرف مرجعهم إلى مكة. ثم جاء علي إلى رسول الله ﷺ بالماء فغسل وجهه ونهض فاستوى على صخرة من الجبل وحانت الصلاة فصلى بهم قعوداً. وغفر الله للمنهزمين من المسلمين ونزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ﴾ الآية وكان منهم عثمان بن عفان وعثمان بن أبي عقبة الأنصاري.

واستشهد في ذلك اليوم حمزة كما ذكرنا وعبد الله بن جحش ومصعب بن عمير في خمسة وستين معظمهم من الأنصار، وأمر رسول الله ﷺ أن يدفنوا بدمائهم وثيابهم في مضاجعهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم. وقتل من المشركين اثنان وعشرون منهم الوليد بن العاص بن هشام وأبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن جمح، وكان أسر يوم بدر فمن عليه وأطلقه بلا فداء على أن لا يعين عليه فنقض العهد وأسر يوم أحد وأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه صبراً، وأبي بن خلف قتله رسول الله ﷺ بيده، وصعد أبو سفيان الجبل حتى أطل على رسول الله ﷺ وأصحابه ونادى بأعلى صوته: الحرب سجال! يوم أحد بيوم بدر، أعل هبل وانصرف وهو يقول: موعدكم العام القابل. فقال عليه السلام: « قولوا له هو بيننا وبينكم ».

ثم صار المشركون إلى مكة ووقف رسول الله ﷺ على حمزة، وكانت هند وصواحباتها قد جدّعنه وبقرن عن كبده فلاكتها ولم تسغها، ويقال أنه لما رأى ذلك في حمزة قال: « لئن أظفرني الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم » ورجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة. ويقال: إنه قال لعلي: لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا.

غزوة حمراء الأسد

ولما كان يوم أحد سادس عشر شوال، وهو صبيحة يوم أحد، أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج لطلب العدو وأن لا يخرج إلا من حضر معه بالأمس، وفسح لجابر بن عبد الله ممن سواهم، فخرج وخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح وصار عليه السلام متجلداً مرهباً للعدو، وانتهى إلى حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة وأقام بها ثلاثاً، ومر به هناك معبد بن أبي معبد الخزاعي سائراً إلى مكة، ولقي أبا سفيان وكفار قريش بالروحاء فأخبرهم بخروج رسول الله ﷺ في طلبهم وكانوا يرومون الرجوع إلى المدينة ففت ذلك في أعضادهم وعادوا إلى مكة.

بعث الرجيع

ثم قدم على رسول الله ﷺ في صفر متم الثلاثة من الهجرة نفر من عضل والقارة بني الهون بن خزيمة إخوة بني أسد، فذكروا أن فيهم إسلاماً ورغبوا أن يبعث فيهم من يفقههم في الدين، فبعث معهم ستة رجال من أصحابه: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح من بني عمرو بن عوف، وخبيب بن عدي من بني جحجبا بن كلفة، وزيد ابن الدثنة بن بياضة بن عامر، وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر، وأمر عليهم مرثداً منهم. ونهضوا مع القوم حتى إذا كانوا بالرجيع وهو ماء لهذيل قريباً من عسفان غدروا بهم، واستصرخوا هذيلاً فغشوهم في رحالهم ففزعوا إلى القتال فأمنوهم وقالوا: إنا نريد نصيب بكم فداء من أهل مكة، فامتنع مرثد وخالد وعاصم من أمنهم وقاتلوا حتى قتلوا، ورموا رأس عاصم بسيوفهم ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد وكانت نذرت أن

تشرب فيه الخمر لما قتل ابنيها من بني عبد الدار يوم أحد، فأرسل الله الدبر فحمت عاصماً منهم فتركوه إلى الليل فجاء السيل إليه فاحتمله. وأما الآخرون فأسروهم وخرجوا بهم إلى مكة ولما كانوا بمر الظهران انتزع ابن طارق يده من القرآن وأخذ سيفه فرموه بالحجارة فمات، وجاءوا بخبيب وزيد إلى مكة فباعوهما إلى قريش فقتلوهما صبراً.

غزوة بئر معونة

وقدم على رسول الله ﷺ في صفر هذا ملاعب الأسنة أبو براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فدعاه إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد! لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعوهم إلى أمرك ورجوت أن يستجيبوا لك! فقال: إني أخاف عليهم. فقال أبو براء: أنا لهم جار!. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو من بني ساعدة في أربعين من المسلمين، وقيل: في سبعين، منهم الحرث بن الصمة، وحرام بن ملحان خال أنس، وعامر بن فهيرة، ونافع بن بديل بن ورقاء. فنزلوا بئر معونة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبي ﷺ إلى عامر بن الطفيل فقتله، ولم ينظر في كتابه، واستعدى عليهم بني عامر فأبوا لجوار أبي براء إياهم، فاستعدى بني سليم فنهضت منهم عصية ورعل وذكوان وقتلوهم عن آخرهم، وكان سرحهم إلى جانب منهم ومعهم المنذر بن أحيحة من بني الجلاح وعمرو بن أمية الضمري فنظرا إلى الطير تحوم على العسكر، فأسرعا إلى أصحابهما فوجداهم في مضاجعهم، فأما المنذر بن أحيحة فقاتل حتى قتل، وأما عمرو بن أمية فجز عامر بن الطفيل ناصيته حين علم أنه من مضر لرقبة كانت عن أمه، وذلك لعشر بقين من صفر وكانت مع الرجيع في شهر واحد. ولما رجع عمرو بن أمية لقي في طريقه رجلين من بني كلاب أو بني سليم فنزلا معه في ظل كان فيه معهما عهد من النبي ﷺ لم يعلم به عمرو فانتسبا له في بني عامر أو سليم فعدا عليهما لما ناما وقتلهما، وقدم على النبي ﷺ فأخبره بذلك فقال: « لقد قتلت قتيلين لأدينهما »

غزوة بني النضير

ونهض رسول الله ﷺ إلى بني النضير مستعيناً بهم في دية هذين القتيلين فأجابوا، وقعد عليه السلام مع أبي بكر وعمر وعلي ونفر من أصحابه إلى جدار من جدرانهم، وأراد بني النضير رجلاً منهم على الصعود إلى ظهر البيت ليلقي على النبي ﷺ صخرة، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب منهم. وأوحى الله بذلك إلى نبيه فقام، ولم يشعر أحداً من أصحابه فاستبطأوه، واتبعوه إلى المدينة. فأخبرهم عن وحي الله بما أراد به يهود وأمر من أصحابه بالتهيؤ لحربه. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ونهض في شهر ربيع الأول أول السنة الرابعة من الهجرة، فتحصنوا منه بالحصون فحاصرهم ست ليال وأمر بقطع النخل وإحراقها، ودس إليهم عبد الله بن أبي والمنافقون إنا معكم قتلتم أو أخرجتم، ففر وهمّ بذلك ثم خذلوهم كرهاً وأسلموهم.

وسأل عبد الله من النبي ﷺ أن يكف عن دمائهم ويجليهم بما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، واحتمل إلى خيبر من أكابرهم حيي بن أخطب وابن أبي الحقيق فدانت لهم خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وقسم رسول الله ﷺ أموالهم بين المهاجرين الأولين خاصة، وأعطى منها أبا دجانة وسهل بن حنيف كانا فقيرين. وأسلم من بني النضير يامين بن عمير بن جحاش، وسعيد بن وهب فأحرزا أموالهما بإسلامهما. وفي هذه الغزاة نزلت سورة الحشر.

غزوة ذات الرقاع

وأقام رسول الله ﷺ بعد بني النضير إلى جمادى من السنة الرابعة، ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، وقيل: عثمان بن عفان، ونهض حتى نزل نجداً فلقي بها جمعاً من غطفان فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب، إلا أنهم خاف بعضهم بعضاً حتى صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف، فسميت ذات الرقاع لأن أقدامهم نقبت وكانوا يلقون عليها الخرق.

وقال الواقدي: لأن الجبل الذي نزلوا به كان به سواد وبياض وحمرة رقاعاً فسمي بذلك وزعم أنها كانت في المحرن.

غزوة بدر الصغرى ـ الموعد

كان أبو سفيان نادى يوم أحد كما قدمناه بموعد بدر من قابل وأجابوه بأمر رسول الله ﷺ، فلما كان في شعبان من هذه السنة الرابعة خرج لميعاده واستعمل على المدينة عبد الله بن أبي بن سلول، ونزل في بدر فأقام هناك ثمان ليال وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل الظهران وعسفان، ثم بدا له في الرجوع

واعتذر بأن العام عام جدب.

غزوة دومة الجندل

خرج إليها رسول الله ﷺ في ربيع الأول من السنة الخامسة وخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري. وقد كان بلغه أن جمعاً تجمعوا بها فغزاهم، ثم انصرفوا من طريقه قبل أن يبلغ دومة الجندل ولم يلق حرباً. وفيها وادع رسول الله ﷺ عيينة بن حصن أن يرعى بأراضي المدينة لأن بلاده كانت أجدبت، وكانت هذه قد أخصبت بسحابة وقعت فأذن له في رعيها.

كانت في شوال من السنة الخامسة، والصحيح أنها في الرابعة، كان ابن عمر يقول ردني رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فليس بينهما إلا سنة واحدة وهو الصحيح، فهي قبل دومة الجندل بلا شك. وكان سببها أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وحيي بن أخطب من بني النضير وهو ابن قيس وأبو عمارة من بني وائل، لما انجلى بنو النضير إلى خيبر خرجوا إلى مكة يحزبون الأحزاب ويحرضون على حرب رسول الله ﷺ ويرغبون من اشرأب إلى ذلك بالمال. فأجابهم أهل مكة إلى ذلك، ثم مضوا إلى غطفان وخرج بهم عيينة بن حصن على أشجع، وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وغيرهم. ولما سمع بهم رسول الله ﷺ أمر بحفر الخندق على المدينة وعمل فيه بيده والمسلمون معه، ويقال: إن سلمان أشار به. ثم أقبلت الأحزاب حتى نزلوا بظاهر المدينة بجانب أحد، وخرج عليه السلام في ثلاثة آلاف من المسلمين، وقيل: في تسعمائة فقط وهو راجل بلا شك. وخلف على المدينة ابن أم مكتوم فنزل بسطح سلع والخندق بينه وبين القوم وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الأطآم، وكان بنو قريظة موادعين لرسول الله ﷺ فأتاهم حيي وأغراهم فنقضوا العهد ومالوا مع الأحزاب، وبلغ أمرهم إلى النبي ﷺ، فبعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وخوان بن جبير وعبد الله بن رواحة يستخبرون الأمر، فوجدوهم مكاشفين بالغدر والنيل من رسول الله ﷺ، فشاتمهم سعد بن معاذ وكانوا أحلافه وانصرفوا. وكان ﷺ قد أمرهم إن وجدوا الغدر حقاً أن يخبروه تعريضاً لئلا يفتّوا في أعضاد الناس، فلما جاؤوا إليه قالوا: يا رسول الله عضل والقارة يريدون غدرهم بأصحاب الرجيع، فعظم الأمر وأحيط بالمسلمين من كل جهة، وهم بالفشل بنو حارثة وبنو سلمة معتذرين بأن بيوتهم عورة خارج المدينة ثم ثبتهم الله.

ودام الحصار على المسلمين قريباً من شهر ولم تكن حرب. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصين والحرث بن عوف أن يرجعا ولهما ثلثا ثمار المدينة، وشاور في ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فأبيا، وقالا: يا رسول الله! أشيء أمرك الله به فلا بد منه؟ أم شيء تحبه فنصنعه لك أم شيء تصنعه لنا؟ فقال: « بل أصنعه لكم! إني رأيت أن العرب رمتكم عن قوس واحدة » فقال سعد بن معاذ: قد كنا معهم على الشرك والأوثان ولا يطمعون منا بثمرة إلا شراء وبيعاً فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف. فطاب رسول الله ﷺ. وتمادى الأمر، وظهر فوارس من قريش إلى الخندق فيهم: عكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن عبد ود من بني عمرو بن لؤي، وضرار بن الخطاب من بني محارب فلما رأوا الخندق قالوا: هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها. ثم اقتحموا من مكان ضيق حتى جالت خيلهم بين الخندق وسلع، ودعوا إلى البراز وقتل علي بن أبي طالب عمرو بن عبد ود، ورجعوا إلى قومهم من حيث دخلوا ورمي في بعض تلك الأيام سعد بن معاذ بسهم فقطع عنه الأكحل، يقال: رماه حبان بن قيس ابن العرقة وقيل: أبو أسامة الجشمي حليف بني مخزوم، ويروى أنه لما أصيب جعل يدعو: اللّهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فلا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها شهادة لي، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

ثم اشتد الحال وأتى نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان فقال: يا رسول الله! إني أسلمت ولم يعلم قومي فمرني بما تشاء، فقال: « إنما أنت رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » فخرج نعيم فأتى بني قريظة وكان صديقهم في الجاهلية، فنقم لهم في قريش وغطفان وإنهم إن لم يكن الظفر لحقوا ببلادهم وتركوكم، ولا تقدرون على التحول عن بلدكم ولا طاقة لكم بمحمد وأصحابه، فاستوثقوا منهم برهن أبنائهم حتى يصابروا معكم. ثم أتى أبا سفيان وقريشاً فقال لهم: إن اليهود قد ندموا وراسلوا محمداً في المواعدة على أن يسترهنوا أبناءكم ويدفعوهم إليه. ثم أتى غطفان وقال لهم مثلما قال لقريش. فأرسل أبو سفيان وغطفان إلى بني قريظة في ليلة سبت إنا لسنا بدار مقام فأعدوا للقتال، فاعتذر اليهود بالسبت، وقالوا: مع ذلك لا نقاتل حتى

تعطونا رهناً. فصدق القوم خبر نعيم، وردوا إليهم بالإبابة من الرهن والحث على الخروج، فصدق أيضاً بنو قريظة خبر نعيم وأبوا من القتال. وأرسل اللّه على قريش وغطفان ريحاً عظيمة أكفأت قدورهم وآنيتهم وقلعت أبنيتهم وخيامهم، وبعث عليه السلام حذيفة بن اليمان عيناً فأتاه بخبر رحيلهم وأصبح -وقد ذهب الأحزاب- ورجع إلى المدينة.

غزوة بني قريظة

ولما رجع رسول اللّه ﷺ إلى المدينة أتاه جبريل بالنهوض إلى بني قريظة وذلك بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم، فأمر المسلمين أن لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريظة، وخرج وأعطى الراية علي بن أبي طالب، واستخلف ابن أم مكتوم، وحاصرهم ﷺ خمساً وعشرين ليلة، وعرض عليهم سيدهم كعب بن أسد إحدى ثلاث: إما الإسلام، وإما تبييت النبي ﷺ ليلة السبت ليكون الناس آمنين منهم، وإما قتل الذراري والنساء ثم الاستمانة. فأبوا كل ذلك وأرسلوا إلى النبي ﷺ أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر بن عمرو بن عوف بما كانوا حلفاء الأوس، فأرسله واجتمع إليه الرجال والنساء والصبيان فقالوا: يا أبا لبابة ترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ قال نعم! وأشار بيده في حلقه إنه الذبح. ثم رجع فندم وعلم أنه أذنب فانطلق على وجهه، ولم يرجع إلى النبي ﷺ، وربط نفسه إلى عمود في المسجد ينتظر توبة اللّه عليه وعاهد اللّه أن لا يدخل أرض بني قريظة مكاناً خان فيه ربه ونبيه، وبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: « لو أتاني لأستغفرن له فأما بعدما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب اللّه عليه » فنزلت توبته، فتولى عليه السلام إطلاقه بيده بعد أن قام مرتبطاً بالجذع ست ليال لا يحل إلا للصلاة ثم نزل بنو قريظة على حكم النبي ﷺ فأسلم بعضهم ليلة نزولهم وهم نفر أربعة من هذيل إخوة قريظة والنضير، وفر منهم عمرو بن سعد القرظي ولم يكن دخل معهم في نقض العهد فلم يعلم أين وقع. ولما نزل بنو قريظة على حكمه ﷺ طلب الأوس أن يفعل فيهم ما فعل بالخزرج في بني النضير، فقال لهم: « ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ » قالوا: بلى! قال: « فذلك إلى سعد بن معاذ » وكان جريحاً منذ يوم الخندق وقد أنزله رسول اللّه ﷺ في خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فأتي به على حمار فلما أقبل على المجلس قال رسول اللّه ﷺ لهم: «قوموا إلى سيدكم»!. ثم قالوا: يا سعد! إن رسول اللّه ﷺ قد ولاك حكم مواليك، فقال سعد: عليكم بذلك عهد اللّه وميثاقه، قالوا: نعم.... قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتسبى الذراري والنساء وتقسم الأموال. فقال رسول اللّه ﷺ: « لقد حكمت فيهم بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة » ثم أنه أمر بهم فأخرجوا إلى سوق المدينة وخندق لهم بها خنادق وضربت أعناقهم فيها وهم بين الستمائة والسبعمائة رجل، وقتلت فيهم امرأة واحدة بنانة امرأة الحكم القرظي وكانت طرحت على خلال بن سويد بن الصامت رحى من فوق الحائط فقتلته. وأمر عليه السلام بقتل من أثبت منهم. ووهب لثابت بن قيس بن الشماس ولد الزبير بن باطا فاستحيا منهم عبد الرحمن بن الزبير كانت له صحبة، وبعد أن كان ثابت استوهب من النبي ﷺ الزبير وأهله وماله فوهبه ذلك فمر الزبير عليه يده وأبى إلا القتل مع قومه اغتباطاً بهم قبحه اللّه.

ووهب عليه السلام لأم المنذر بنت قيس من بني النجار رفاعة بن سموأل القرظي فأسلم رفاعة وله صحبة.

وقسم ﷺ أموال بني قريظة فأسهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهما، وكانت خيل المسلمين يومئذ ستة وثلاثين فارساً، ووقع في سهم النبي ﷺ من سبيهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة من بني عمرو بن قريظة فلم تزل في ملكه حتى مات رسول اللّه ﷺ، وكان فتح بني قريظة آخر ذي القعدة من السنة الرابعة. ولما تم أمرهم أجيبت دعوة سعد بن معاذ فانفجر عرقه ومات فكان ممن استشهد يوم الخندق في سبعة آخرين من الأنصار، وأصيب من المشركين يوم الخندق أربعة من قريش فيهم عمرو بن عبد ود وابنه حسل ونوفل بن عبد اللّه بن مريرة، ولم تغز كفار قريش المسلمين منذ يوم الخندق. ثم خرج رسول اللّه ﷺ في جمادى الأولى من السنة الخامسة لستة أشهر من فتح بني قريظة، فقصد بني لحيان يطالب بثأر عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي وأهل الرجيع، وذلك إثر رجوعه من دومة الجندل، فسلك على طريق الشام أولاً ثم أخذ ذات اليسار إلى صخيرات اليمام، ثم رجع إلى طريق مكة وأجد السير حتى نزل منازل لبني بين أمج وعسفان فوجدهم قد حذروا وامتنعوا بالجبال، وفاتهم الغرة فيهم فخرج في مائتي راكب إلى المدينة.

غزوة الغابة وذي قرد

وبعد قفوله والمسلمين إلى المدينة بليال أغار عيينة بن حصن الفزاري في بني عبد اللّه بن غطفان فاستلحموا لقاح النبي ﷺ بالغابة، وكان فيها رجل من بني غفار وامرأته فقتلوا الرجل وحملوا المرأة، ونزل بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي وكان

ناهضاً، فعلا ثنية الوداع وصاح بأعلى صوته نذيراً بهم، ثم أتبعهم واستنقذ ما كان بأيديهم، ولما وقعت الصيحة بالمدينة ركب رسول اللّه ﷺ في أثرهم، ولحق به المقداد بن الأسود وعباد بن بشر وسعد بن زيد من بني عبد الأشهل. وعكاشة بن محصن ومحرز بن نضلة الأسدي وأبو قتادة من بني سلمة في جماعة من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم رسول اللّه ﷺ سعد بن زيد وانطلقوا في اتباعهم حتى أدركوهم، فكانت بينهم جولة قتل فيها محرز بن نضلة قتله عبد الرحمن بن عيينة وكان أول من لحق بهم. ثم ولى المشركون منهزمين وبلغ رسول اللّه ﷺ ما يقال له ذو قرد، فأقام عليه ليلة ويومين ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة ثم قفل إلى المدينة.

غزوة بني المصطلق

وأقام رسول اللّه ﷺ إلى شعبان من هذه السنة السادسة، ثم غزا بني المصطلق من خزاعة لما بلغه أنهم يجتمعون له وقائدهم الحرث بن أبي ضرار أبو جويرية أم المؤمنين، فخرج إليهم واستخلف أبا ذر الغفاري، وقيل نميلة بن عبد اللّه الليثي ولقيهم بالمريسع من مياههم ما بين قديد والساحل فتزاحفوا وهزمهم اللّه وقتل من قتل منهم وسبي النساء والذرية وكانت منهم جويرية بنت الحرث سيلهم، ووقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، وأدى عليه السلام عنها وأعتقها وتزوجها. وأصيب في هذه الغزاة هشام بن صبابة الليثي من بني ليث بن بكر قتله رجل من رهط عبادة بن الصامت غلطاً يظنه من العدو، وفي مرجع النبي ﷺ من هذه الغزاة، وفيها قال عبد اللّه بن أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل لمشاجرة وقعت بين جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب وبين سنان بن واقد الجهني حليف بني عوف بن الخزرج، فتشاوروا وتباهوا، فقال ما قال، وسمع زيد بن أرقم مقالته، وبلغها إلى رسول اللّه ﷺ. ونزلت سورة المنافقين وتبرأ منه ابنه عبد اللّه، وقال: يا رسول اللّه أنت واللّه الأعز وهو الأذل وإن شئت واللّه أخرجته. ثم اعترض أباه عند المدينة، وقال: واللّه لا تدخل حتى يأذن لك رسول اللّه ﷺ، فأذن له، وحينئذ دخل، وقال: يا رسول اللّه! بلغني أنك تريد قتل أبي وإني أخشى أن تأمر غيري فلا تدعني نفسي أن أقاتله، وإن قتلته قتلت مؤمناً بكافر، ولكن مرني بذلك فأنا واللّه أحمل إليك رأسه. فجزاه رسول اللّه ﷺ خيراً وأخبره أنه لا يصل إلى أبيه سوء.

وفيها قال أهل الإفك ما قالوا في شأن عائشة مما لا حاجة بنا إلى ذكره وهو معروف في كتب السير، وقد أنزل اللّه القرآن الحكيم ببراءتهما وتشريفهما. وقد وقع في الصحيح أن مراجعته وقعت في ذلك بين سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وهو وهم ينبغي التنبيه عليه، لأن سعد بن معاذ مات بعد فتح بني قريظة بلا شك داخل السنة الرابعة وغزوة بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة بعد عشرين شهراً من موت سعد، والملاحاة بين الرجلين كانت بعد غزوة بني المصطلق بأزيد من خمسين ليلة. والذي ذكر ابن إسحاق عن الزهري عن عبيد اللّه بن عبداللّه وغيره: إن المقاول لسعد بن عبادة إنما هو أسيد بن الحضين واللّه أعلم.

ولما علم المسلمون أن النبي ﷺ تزوج جويرية، اعتقوا كل ما كان في أيديهم من بني المصطلق أصهار رسول اللّه ﷺ، فأطلق بسببها مائة من أهل بيتها، ثم إن رسول اللّه ﷺ بعث إلى بني المصطلق بعد إسلامهم بعامين الوليد بن عقبة بن أبي معيط لقبض صدقاتهم، فخرجوا يتلقونه، فخافهم على نفسه ورجع، وأخبر أنهم هموا بقتله. فتشاور المسلمون في غزوهم ثم جاء وفدهم منكرين ما كان من رجوع الوليد قبل النبي ﷺ ذلك منهم ونزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ الآية.

عمرة الحديبية

ثم خرج رسول اللّه ﷺ في السادسة وفي ذي القعدة منها معتمراً بعد بني المصطلق بشهرين، واستنفر الأعراب حوالي المدينة فأبطأ أكثرهم فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن اتبعه من العرب فيما بين الثلثمائة بعد الألف إلى الخمسمائة، وساق الهدي وأحرم من المدينة ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً. وبلغ ذلك قريشاً فأجمعوا على صده عن البيت وقتاله دونه، وقدموا خالد بن الوليد في خيل إلى كراع الغميم، وورد خبرهم إلى النبي ﷺ بعسفان، فسلك على ثنية المرار حتى نزل الحديبية من أسفل مكة وجاء من ورائهم، فكر خالد في خيله إلى مكة. فلما جاء ﷺ إلى مكة بركت ناقته، فقال الناس: خلأت، فقال: « ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل » ثم قال: « والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ثم نزل واشتكى الناس فقد الماء فأعطاهم سهماً من كنانته غرزوه في بعض القلوب من الوادي، فجاش الماء حتى كفى جميع الجيش، يقال نزل به البراء بن عازب. ثم جرت السفراء بين رسول اللّه ﷺ وبين كفار قريش، وبعث عثمان بن

عفان بينهما رسولاً، وشاع الخبر أن المشركين قتلوه، فدعا رسول الله ﷺ المسلمين وجلس تحت شجرة فبايعوه على الموت وأن لا يفروا، وهي بيعة الرضوان، وضرب عليه السلام بيسراه على يمينه وقال: « هذه عن عثمان » ثم كان سهيل بن عمرو آخر من جاء من قريش فقاضى رسول الله ﷺ قريشاً على أن ينصرف عامه ذلك ويأتي من قابل معتمراً ويدخل مكة وأصحابه بلا سلاح حاشا السيوف في القرب، فيقيم بها ثلاثاً ولا يزيد، وعلى أن يتصل الصلح عشرة أعوام يتداخل فيه الناس ويؤمن بعضهم بعضاً، وعلى أن من هاجر من الكفار إلى المسلمين من رجل أو امرأة أن يرد إلى قومه ومن ارتد من المسلمين إليهم لم يردوه.

وعظم ذلك على المسلمين حتى تكلم فيه بعضهم، وقد كان النبي ﷺ علم أن هذا الصلح سبب لأمن الناس وظهور الإسلام، وأن الله يجعل فيه فرجاً للمسلمين وهو أعلم بما علمه ربه. وكتب الصحيفة علي، وكتب في صدرها: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ، فأبى سهيل من ذلك وقال: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فأمر رسول الله ﷺ علياً أن يمحوها، فأبى وتناول هو الصحيفة بيده ومحا ذلك وكتب محمد بن عبد الله.

ولا يقع في ذهنك من أمر هذه الكتابة ريب فإنها قد ثبتت في الصحيح، ومايعترض في الوهم من أن كتابته قادحة في المعجزة فهو باطل، لأن هذه الكتابة إذا وقعت من غير معرفة بأوضاع الحروف ولا قوانين الخط وأشكالها بقيت الأمية على ما كانت عليه، وكانت هذه الكتابة الخاصة من إحدى المعجزات انتهى.

ثم أتى أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده وكان قد أسلم، فقال سهيل: هذا أول ما نقاضي عليه. فرده رسول الله ﷺ إلى أبيه وعظم ذلك على المسلمين، وأخبر النبي ﷺ أبا جندل أن الله سيجعل له فرجاً، وبينما هم يكتبون الكتاب إذ جاءت سرية من جهة قريش قيل ما بين الثلاثين والأربعين يريدون الإيقاع بالمسلمين، فأخذتهم خيول المسلمين وجاؤوا بهم إلى رسول الله ﷺ فأعتقهم وإليهم ينسب العتيقيون.

ولما تم الصلح وكتابه أمر رسول الله ﷺ أن ينحروا ويحلقوا فتوقفوا، فغضب حتى شكى إلى زوجته أم سلمة فقالت: يا رسول الله أخرج وانحر واحلق فإنهم متابعوك فخرج ونحر وحلق رأسه حينئذ خراش بن أمية الخزاعي، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وما فتح من قبله فتح كان أعظم من هذا الفتح. قال الزهري: لما كان القتال حيث لا يلتقي الناس. فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً فالتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام أحداً يفعل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في ذينك السنتين في الإسلام مثلما كان قبل ذلك أو أكثر.

ولما رجع ﷺ إلى المدينة لحقه أبو بصير عتبة بن أسيد بن حارثة هارباً وكان قد أسلم وحبسه قومه بمكة وهو ثقفي من حلفاء بني زهرة، فبعث إليه الأزهر بن عبد عوف عم عبد الرحمن بن عوف والأخنس بن شريق سيد بني زهرة رجلاً من بني عامر بن لؤي مع مولى لهم، فأسلمه النبي ﷺ فاحتملاه. فلما نزلوا بذي الحليفة أخذ أبو بصير السيف من أحد الرجلين، ثم ضرب به العامري فقتله وفر الآخرون، وأتى أبو بصير إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! قد وفت ذمتك وأطلقني الله فقال عليه السلام: « ويلمه مسعر حرب لو كان له رجال » فبكى. ففطن أبو بصير من لحن هذا القول أنه سيرده، وخرج إلى سيف البحر على طريق قريش إلى الشام، وانضاف إليه جمهور من يفر عن قريش ممن أراد الإسلام فآذوا قريشاً وقطعوا على رفاقهم وسابلتهم، فكتبوا إلى النبي ﷺ أن يضمهم بالمدينة.

ثم هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وجاء فيها أخواها عمارة والوليد، فمنع الله من رد النساء وفسخ ذلك الشرط المكتتب، ثم نسخت براءة ذلك كله وحرم الله حينئذ على المسلمين إمساك الكوافر في عصمتهم فانفسخ نكاحهن.

إرسال الرسل إلى الملوك

وقال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله ﷺ فيما بين الحديبية ووفاته رجالاً من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم دعاة إلى الله عز وجل، فبعث سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود أخا بني عامر بن لؤي إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى أخي بني عبد القيس صاحب البحرين، وعمرو بن العاص إلى جيفر بن جلندي بن عامر بن جلندي صاحب عمان، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية فأدى إليه كتاب رسول الله ﷺ وأهدى المقوقس إلى رسول الله ﷺ أربع جوار منهن مارية أم إبراهيم ابنه.

وبعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر وهو هرقل ملك الروم، فوصل إلى بصرى وبعثه صاحب بصرى إلى هرقل، وكان يرى في ملاحمهم أن ملك الختان قد ظهر، وقرأ الكتاب وإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل

عظيم الروم! السلام على من اتبع الهدى. أما بعد أسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسين». وفي رواية: «إثم الأكارين عليك تعيا بحمله» فطلب من مملكته من قوم النبي ﷺ فأحضروا له من غزة، وكان فيهم أبو سفيان فسأله كما وقع في الصحيح، فأجابه وعلم أحواله وتفرس صحة أمره، وعرض على الروم أتباعه فأبوا ونفروا فلاطفهم بالقول وأقصر.

ويروى عن ابن إسحاق أنه عرض عليهم الجزية، فأبوا فعرض عليهم أن يصالحوا بأرض سورية.

قالوا: وهي أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب وما كان وراء الدرب فهو الشام.... فأبوا قال ابن إسحاق: وبعث رسول اللّه ﷺ شجاع بن وهب الأسدي أخا بني أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحرث بن شمر الغساني صاحب دمشق، وكتب معه: «السلام على من اتبع الهدى وآمن به أدعوك إلى أن تؤمن باللّه وحده لا شريك له يبقى لك ملكك. فلما قرأ الكتاب قال: من ينزع ملكي؟ أنا سائر إليه! فقال النبي ﷺ: «باد ملكه».

قال: وبعث رسول اللّه ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وكتب معه كتاباً:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام عليك! فإني أحمد إليك اللّه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم الطيبة البتول الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه وإني أدعوك إلى اللّه وحده لا شريك له والموالاة على طاعته تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول اللّه وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين فإذا جاؤوك فاقرهم ودع التجري وإني أدعوك وجنودك إلى اللّه فلقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى». فكتب إليه النجاشي: إلى محمد رسول اللّه من النجاشي الأصحم بن الحر.... سلام عليك يا رسول اللّه ورحمة اللّه وبركاته أحمد اللّه الذي لا إله إلا هو الذي هدانا للإسلام أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول اللّه فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد بالرأي على ما ذكرت أنه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول اللّه صادقاً مصدقاً فقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت لله رب العالمين وقد بعثت إليك بابني أرخا الأصحم فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول اللّه، فإني أشهد أن الذي تقول حق والسلام عليك يا رسول اللّه.

فذكر أنه بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة فغرقت بهم. وقد جاء أنه أرسل إلى النجاشي ليزوجه أم حبيبة، وبعث إليهما بالخطبة جاريته فأعطتها أوضاحاً وفتحاً ووكلت خالد بن سعيد بن العاص فزوجها، ودفع النجاشي إلى خالد بن سعيد أربعمائة دينار لصداقها، وجاءت إليها بها الجارية فأعطتها منها خمسين مثقالاً، فردت الجارية ذلك بأمر النجاشي. وكانت الجارية صاحبة دهنه وثيابه وبعث إليها نساء النجاشي بما عندهن من عود وعنبر وأركبها في سفينتين مع بقية المهاجرين، فلقوا النبي ﷺ بخيبر، وبلغ أبا سفيان تزويج أم حبيبة منه فقال: ذلك الفحل الذي لا يقدع أنفه.

وكتب رسول اللّه ﷺ في هذه السنة إلى كسرى، وبعث بالكتاب عبد اللّه بن حذافة السهمي وفيه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. من محمد رسول اللّه إلى كسرى عظيم فارس! سلام على من اتبع الهدى وآمن باللّه ورسله أما بعد فإني رسول اللّه إلى الناس كافة لينذر من كان حياً أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس» فمزق كسرى كتاب النبي ﷺ، فقال رسول اللّه ﷺ: «مزق اللّه ملكه». وفي رواية ابن إسحاق بعد قوله «وآمن باللّه ورسله وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأدعوك بدعاء اللّه فإني أنا رسول اللّه إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فإن أبيت فإثم الأريسيين عليك». قال: ثم كتب كسرى إلى باذان وهو عامله على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فبعث باذان قهرمانه بانويه وكان حاسباً كاتباً بكتاب فارس ومعه خرخسرة من الفرس، وكتب إليه معهما أن ينصرف إلى كسرى، وقال لقهرمانه: اختبر الرجل وعرفني بأمره. وأول ما قدما الطائف سألا عنه فقيل: هو بالمدينة. وفرح من سمع بذلك من قريش وكانوا بالطائف، فقالوا: قطب له كسرى وقد كفيتموه. وقدما على رسول اللّه ﷺ بالمدينة فكلمه بانويه وقال: إن شاهنشاه قد كتب إلى الملك باذان أن يبعث إليه من يأتيه بك وبعثني لتنطلق معي ويكتب معه إليك فينفعك وإن أبيت فهو من علمت ويهلك قومك ويخرب بلادك. وكانا قد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فنهاهما رسول اللّه ﷺ عن ذلك، فقالا: أمرنا به ربنا يعنون به كسرى. فقال لهما: «لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي لم أؤخرهما إلى غد».

وجاءه الوحي بأن اللّه يسلط على كسرى ابنه شيرويه

فيقتله ليلة كذا من شهر كذا لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع، فدعاهما وأخبرهما فقالا: هل تدري ما تقول؟ يحزنانه عاقبة هذا القول، فقال: « اذهبا وأخبراه بذلك عني وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وإن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء » وأعطى خرخسرة قطعة فيها ذهب وفضة كان بعض الملوك أهداها له. فقدما على باذان وأخبراه فقال: ما هذا كلام ملك! ما أرى الرجل إلا نبياً كما يقول ونحن ننتظر مقالته. فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه:

أما بعد فإني قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتسخيرهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه كثيراً إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه. فلما بلغ باذان الكتاب وأسلمت الأبناء تسعة من فارس ممن كان منهم باليمن، وكانت حمير تسمى خرخسرة ذا المفخرة للمنطقة التي أعطاه إياها النبي ﷺ والمنطقة بلسانهم المفخرة، وقد كان بانويه قال لباذان: ما كلمت رجلاً قط أهيب عندي منه، فقال: هل معك شرط؟ قال: لا!

قال الواقدي: وكتب إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام فلم يسلم.

غزوة خيبر

ثم خرج رسول الله ﷺ غازياً إلى خيبر في بقية المحرم آخر السنة السادسة وهو في ألف وأربعمائة راجل ومائتي فارس، واستخلف نميلة بن عبد الله الليثي، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب، وسلك على الصهباء حتى نزل بواديها إلى الرجيع، فحيل بينهم وبين غطفان وقد كانوا أرادوا إمداد يهود خيبر، فلما خرجوا لذلك قذف الله في قلوبهم الرعب لحس سمعوه من ورائهم فانصرفوا وأقاموا في أماكنهم. وجعل رسول الله ﷺ يفتتح حصون خيبر حصناً حصناً فافتتح أولاً منها حصن ناعم، وألقيت على محمود بن سلمة من أعلاه رحىً فقتله. ثم افتتح القموص حصن ابن أبي الحقيق، وأصيبت منهم سبايا: كانت منهن صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عروساً عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق فوهبها عليه السلام لدحية الكلبي، ثم ابتاعها منه بسبعة أرؤس ووضعها عند أم سلمة حتى اعتدت وأسلمت ثم أعتقها وتزوجها. ثم فتح حصن الصعب بن معاذ، ولم يكن بخيبر أكثر طعاماً وودكاً منه. وآخر ما افتتح من حصونهم الوطيح والسلالم حصرهما بضع عشرة ليلة. ودفع إلى علي الراية في حصار بعض حصونهم فافتتحه، وكان أرمد فتفل في عينيه ﷺ فبرأ.

وكان فتح بعض خيبر عنوة وبعضها وهو الأكثر صلحاً على الجلاء، فقسمها ﷺ وأقر اليهود على أن يعملوها بأموالهم وأنفسهم ولهم النصف من كل ما تخرج من زرع أو تمر يقرهم على ذلك ما بدا له، فبقوا على ذلك إلى آخر خلافة عمر فبلغه أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «لا يبقى دينان بأرض العرب » فأمر بإجلائهم عن خيبر وغيرها من بلاد العرب. وأخذ المسلمون ضياعهم من مغانم خيبر فتصرفوا فيها، وكان متولي قسمتها بين أصحابها جابر بن صخر من بني سلمة، وزيد بن سلمه من بني النجار، واستشهد من المسلمين جماعة تنيف على العشرين من المهاجرين والأنصار منهم عامر بن الأكوع وغيره وفي الغزاة حرمت لحوم الحمر الأهلية فأكفئت القدور وهي تفور بلحمها. وفيها أهدت اليهود زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم إلى النبي ﷺ شاة مصلية، وجعلت السم في الذراع منها وكان أحب اللحم إليه، فتناوله ولاك منه مضغة ثم لفظها، وقال: «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم»، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور وازدرد لقمته فمات منها. ثم دعا باليهودية فاعترفت ولم يقتلها لإسلامها حينئذ على ما قيل، ويقال إنه دفعها إلى أولياء بشر فقتلوها.

قدوم مهاجرة الحبشة

وكان مهاجرة الحبشة قد جاء جماعة منهم إلى مكة قبل الهجرة حين سمعوا بإسلام قريش ثم هاجروا إلى المدينة، وجاء آخرون منهم قبل خيبر بسنتين، ثم جاء بقيتهم إثر فتح خيبر. بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأنهم ليقدمهم عليه، فقدم جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس وبنوهما عبد الله ومحمد وعون، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية وامرأته أمينة بنت خلف وابنهما سعيد، وأم خالد وعمرو بن سعيد بن العاص، ومعيقب بن أبي فاطمة حليف أبي سعيد بن العاص وولي بيت المال لعمر، وأبو موسى الأشعري حليف آل عتبة بن ربيعة والأسود بن نوفل بن خويلد ابن أخي خديجة، وجهم بن قيس بن شرحبيل بن عبد الدار وابناه عمرو وخزيمة، والحرث بن خالد بن صخر من بني تيم، وعثمان بن ربيعة بن أهبان من بني جمح، ومحنية بن جون الزبيدي حليف بني

سهم ولي لرسول الله ﷺ الأخماس، ومعمر بن عبد الله بن نضلة من بني عدي، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عامر بن لؤي، وأبي عمرو مالك بن ربيعة بن قيس بن عبد شمس، فكان هؤلاء آخر من بقي بأرض الحبشة. ولما قدم جعفر على النبي ﷺ يوم فتح خيبر قبّل ما بين عينيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟».

فتح فدك ووادي القرى

ولما اتصل بأهل فدك شأن أهل خيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه الأمان على أن يتركوا الأموال، فأجابهم إلى ذلك فكانت خالصة لرسول الله ﷺ، مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فلم يقسمها ووضعها حيث أمره الله. ثم انصرف عن خيبر إلى وادي القرى فافتتحهما عنوةً وقسمهما، وقتل بها غلامه مدعم، قال فيه لما شهد له الناس بالجنة: «كلا إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم قبل القسم لتشتعل عليه ناراً» ثم رجع إلى المدينة في شهر صفر.

عمرة القضاء

وأقام ﷺ بعد خيبر إلى انقضاء شوال من السنة السابعة ثم خرج في ذي القعدة لقضاء العمرة التي عاهده عليها قريش يوم الحديبية وعقد لها الصلح، وخرج ملأ من قريش عن مكة عداوة لله ولرسوله وكرهاً في لقائه، فقضى عمرته وتزوج بعد إحلاله بميمونة بنت الحرث من بني هلال بن علي ابن خالة ابن عباس وخالد بن الوليد، وأراد أن يبني بها، وقد تمت الثلاثة التي عاهده قريش على المقام بها وأوصوا إليه بالخروج وأعجلوه على ذلك، فبنى بها بسرف.

غزوة جيش الأمراء أو غزوة مؤتة

وأقام رسول الله ﷺ بعد منصرفه من عمرة القضاء إلى جمادى الأول من السنة الثانية ثم بعث الأمراء إلى الشام، وقد كان أسلم قبل ذلك عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة وهم من كبراء قريش. وقد كان عمرو بن العاص مضى عن قريش إلى النجاشي يطلبه في المهاجرين الذين عنده، ولقي هنالك عمرو بن أمية الضمري وافد النبي ﷺ، فغضب النجاشي لما كلمه في ذلك، فوفقه الله ورأى الحق فأسلم وكتم إسلامه، ورجع إلى قريش ولقي خالد بن الوليد فأخبره فتفاوضا، ثم هاجرا إلى النبي ﷺ فأسلما.

وبعث رسول الله ﷺ خالداً مع بعث الشام وأمر على الجيش مولاه زيد بن حارثة وكانوا نحواً من ثلاثة آلاف، وقال: «إن أصابه قدر فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصابه قدر فالأمير عبد الله بن رواحة، فإن أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلوه أميراً عليهم» وشيعهم ﷺ وودعهم، ونهضوا حتى انتهوا إلى معان من أرض الشام، فأتاهم الخبر بأن هرقل ملك الروم قد نزل مؤاب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ومائة ألف من نصارى العرب البادين هنالك من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بهرا وبلي والقيس وعليهم مالك بن زاحلة من بني أراشة. فأقام المسلمون في معان ليلتين يتشاورون في الكتب إلى رسول الله ﷺ وانتظار أمره ومدده، ثم قال لهم عبد الله بن رواحة: أنتم إنما خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فهي إحدى الحسنيين إما ظهوره وإما شهادتنا فوافقوه ونهضوا إلى تخوم البلقاء فلقوا جموع هرقل عند قرية مؤتة ورتبوا الميمنة والميسرة، واقتتلوا فقتل زيد بن حارثة ملاقياً بصدره الرماح والراية في يده، فأخذها جعفر بن أبي طالب وعقر فرسه ثم قاتل حتى قطعت يمينه فأخذها بيساره فقطعت فقتل كذلك وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأخذها عبد الله بن رواحة وتردد عن النزول بعض الشيء ثم صمم إلى العدو فقاتل حتى قتل.

فأخذ الراية ثابت بن أقرن من بني العجلان وناولها لخالد بن الوليد فانحاز بالمسلمين، وأنذر النبي ﷺ بقتل هؤلاء الأمراء قبل ورود الخبر وفي يوم قتلهم، واستشهد مع الأمراء جماعة من المسلمين يزيدون على العشرة أكرمهم الله بالشهادة، ورجعوا إلى النبي ﷺ، فأحزنه موت جعفر ولقيهم خارج المدينة وحمل عبد الله بن جعفر بين يديه على دابته وهو صبي وبكى عليه واستغفر له وقال: «أبدله الله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة» فسمي ذا الجناحين.

فتح مكة

كان رسول الله ﷺ حين عقد الصلح بينه وبين قريش في الحديبية أدخل خزاعة في عقده المؤمن منهم والكافر، وأدخلت قريش بني بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقدها وكانت بينهم تراث في الجاهلية وذحول كان فيها الأول للأسود بن رزق من بني الديل

بن بكر بن عبد مناة وثأرهم عند خزاعة لما قتلت حليفهم مالك بن عباد الحضرمي، وكانوا قد عقدوا على رجل من خزاعة فقتلوه في مالك بن عباد حليفهم، وعدت خزاعة على سلمى وكلثوم وذؤيب بني الأسود بن رزق فقتلوهم وهم أشراف بني كنانة، وجاء الإسلام فاشتغل الناس به ونسوا أمر هذه الدماء، فلما انعقد هذا الصلح يوم الحديبية وأمن الناس بعضهم بعضاً، فاغتنم بنو الدئل هذه الفرصة في إدراك الثأر من خزاعة لقتلهم بني الأسود بن رزق، وخرج نوفل بن معاوية الدؤلي فيمن أطاعه من بني بكر بن عبد مناة وليس كلهم تابعه، وخرج معه بعضهم وخرجوا منهم وانحجزوا في دور مكة ودخلوا دار بديل بن ورقاء الخزاعي، ورجع بنو بكر وقد انتقض العهد فركب بديل بن ورقاء وعمرو بن سالم في وفد من قومهم إلى رسول الله ﷺ مستغيثين مما أصابهم به بنو الدئل بن عبد مناة وقريش، فأجاب ﷺ صريخهم وأخبرهم أن أبا سفيان يأتي يشد العقد ويزيد في المدة وإنه يرجع بغير حاجة.

وكان ذلك سبباً للفتح وندم قريش على مافعلوا، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليؤكد العقد ويزيد في المدة، ولقي بديل بن ورقاء بعسفان فكتمه الخبر وورّى له عن وجهه، وأتى أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فطوت دونه فراش النبي ﷺ وقالت: لا يجلس عليه مشرك! فقال لها: قد أصابك بعدي شر يا بنيتي. ثم أتى المسجد وكلم النبي ﷺ فلم يجبه، فذهب إلى أبي بكر وكلمه أن يتكلم في ذلك فأبى، فلقي عمر فقال: والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة وابنه الحسن صبياً فكلمه فيما أتى له فقال علي: ما نستطيع أن نكلمه في أمر عزم عليه، فقال لفاطمة: يا بنت محمد! أما تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس؟ فقالت: لا يجير أحد على رسول الله ﷺ، فقال له علي: يا أبا سفيان! أنت سيد بني كنانة فقم فأجر وارجع إلى أرضك، فقال ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: ما أظنه! ولكن لا أجد لك سواه. فقام أبو سفيان في المسجد فنادى: ألا إني قد أجريت بين الناس ثم ذهب إلى مكة وأخبر قريشاً، فقالوا: ما جئت بشيء وما زاد ابن أبي طالب على أن لعب بك.

ثم أعلم رسول الله ﷺ إنه سائر إلى مكة، وأمر الناس بأن يتجهزوا، ودعا الله أن يطمس الأخبار عن قريش، وكتب إليهم حاطب بن أبي بلتعة بالخبر مع ظعينة قاصدة إلى مكة، فأوحى الله إليه بذلك فبعث علياً والزبير والمقداد إلى الظعينة فأدركوها بروضة خاخ وفتشوا رحلها فلم يجدوا شيئاً، وقالوا: رسول الله أصدق، فقال علي: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الحوائج، فأخرجته من قرون رأسها. فلما قرئ على النبي ﷺ قال: « ما هذا يا حاطب؟ » فقال يا رسول الله! والله ما شككت في الإسلام! ولكني ملصق في قريش فأردت عندهم يداً يحفظوني بها في مخلف أهلي وولدي، فقال عمر: يا رسول الله! دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: « وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم »

وخرج ﷺ لعشر خلون من رمضان من السنة الثامنة في عشرة آلاف فيهم من سليم ألف رجل وقيل سبعمائة، ومن مزينة ألف، ومن غفار أربعمائة، ومن أسلم أربعمائة، وطوائف من قريش وأسد وتميم وغيرهم، ومن سائر القبائل جموع وكتائب الله من المهاجرين والأنصار. واستخلف أبا رهم الغفاري على المدينة، ولقيه العباس بذي الحليفة وقيل بالجحفة مهاجراً، فبعث رحله إلى المدينة وانصرف معه غازياً، ولقيه بشق العقاب أبو سفيان بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية مهاجرين واستأذنا فلم يؤذن لهما، وكلمته أم سلمة فأذن لهما، وأسلما فسار حتى نزل مر الظهران، وقد طوى الله أخباره عن قريش إلا أنهم يتوجسون الخيفة.

وخشي العباس تلافي قريش إن فاجأهم الجيش قبل أن يستأمنوا، فركب بغلة النبي ﷺ وذهب يتجسس، وقد خرج أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتجسسون الخبر، وبينما العباس قد أتى الأراك ليلقي من السابلة من ينذر أهل مكة إذ سمع صوت أبي سفيان وبديل وقد أبصرا نيران العساكر، فيقول بديل: نيران بني خزاعة، فيقول أبو سفيان: خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. فقال العباس: هذا رسول الله ﷺ بالناس والله إن ظفر بك ليقتلنك وأصباح قريش فارتدف خلفي. ونهض به إلى المعسكر ومر بعمر فخرج يشتد إلى رسول الله ﷺ يقول: الحمد لله الذي أمكنني منك بغير عقد ولا عهد، فسبقه العباس على البغلة ودخل على أثره فقال: يا رسول الله! هذا عدو الله أبو سفيان أمكنني الله منه بلا عهد فدعني أضرب عنقه، فقال العباس: قد أجرته! فزاره عمر، فقال العباس: لو كان من بني عدي ما قلت هذا ولكنه من عبد مناف، فقال عمر: والله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لأني أعرف أنه عند رسول الله ﷺ كذلك. فأمر رسول الله ﷺ العباس أن يحمله إلى رحله ويأتيه به صباحاً، فلما أتى به قال له ﷺ: «ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا، فقال: «ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»، قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في

النفس منها حتى الآن شيئاً.

فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن يضرب عنقك فأسلم. فقال العباس: يا رسول اللّه! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن». ثم أمر العباس أن يوقف أبا سفيان بخطم الوادي ليرى جنود اللّه ففعل ذلك، ومرت به القبائل قبيلة قبيلة، إلى أن جاء مركب رسول اللّه ﷺ في المهاجرين والأنصار، عليهم الدروع البيض، فقال: من هؤلاء؟ فقال له العباس: هذا رسول اللّه في المهاجرين والأنصار. فقال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فقال: يا أبا سفيان إنها النبوة، فقال: فهي إذاً! فقال له العباس: النجاء إلى قومك. فأتى بهم مكة وأخبرهم بما أحاط بهم وبأمان رسول اللّه وبقول النبي ﷺ من أتى المسجد أو دار أبي سفيان أو أغلق بابه.

ورتب الجيش وأعطى سعد بن عبادة الراية فذهب يقول:

اليوم يوم الملحمة   اليوم تستحل الحرمة

وبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر علياً أن يأخذ الراية منه، ويقال أمر الزبير. وكان على الميمنة خالد بن الوليد ومنها أسلم وغفار ومزينة وجهينة، وعلى الميسرة الزبير، وعلى المقدمة أبو عبيدة بن الجراح.

وسرب رسول اللّه ﷺ الجيوش من ذي طوى، وأمرهم بالدخول إلى مكة: الزبير من أعلاها، وخالد من أسفلها، وأن يقاتلوا من تعرض لهم. وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا للقتال، فناوشهم أصحاب خالد القتال، واستشهد من المسلمين كرز بن جابر من بني محارب، وخنيس بن خالد من خزاعة، وسلمة بن جهينة، وانهزم المشركون وقتل منهم ثلاثة عشر وأمن النبي ﷺ سائر الناس.

وكان الفتح لعشر بقين من رمضان، وأهدر دم جماعة من المشركين سماهم يومئذ منهم: عبد العزى بن خطل من بني تميم، والأدرم بن غالب كان قد أسلم وبعثه رسول اللّه ﷺ مصدقاً ومعه رجل من المشركين فقتله وارتد ولحق بمكة وتعلق يوم الفتح بأستار الكعبة فقتله سعد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي. ومنهم: عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ ثم ارتد ولحق بمكة ونميت عنه أقوال، فاختفى يوم الفتح وأتى به عثمان بن عفان وهو أخوه من الرضاعة فاستأمن له فسكت عليه السلام ساعة ثم أمنه، فلما خرج قال لأصحابه: « هلا ضربتم عنقه! » فقال له بعض الأنصار: هلا أومأت إلي؟ فقال: « ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين » ولم يظهر بعد إسلامه إلا خير وصلاح واستعمله عمر وعثمان.

ومنهم الحويرث بن نفيل من بني عبد بن قصي كان يؤذي رسول اللّه ﷺ بمكة فقتله علي بن أبي طالب يوم الفتح. ومنهم مقيس بن صبابة كان هاجر في غزوة الخندق ثم عدا على رجل من الأنصار كان قتل أخاه قبل ذلك غلطاً ووداه فقتله وفر إلى مكة مرتداً، فقتله يوم الفتح نميلة بن عبد اللّه الليثي وهو ابن عمه.

ومنهم قينتا ابن خطل كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ فقتلت إحداهما واستؤمن للأخرى فأمنها.

ومنهم مولاة لبني عبد المطلب اسمها سارة واستؤمن لها فأمنها رسول اللّه ﷺ. واستجار رجلان من بني مخزوم بأم هاني بنت أبي طالب يقال إنهما الحرث بن هشام وزهير بن أبي أمية أخو أم سلمة فأمنتهما، وأمضى رسول اللّه ﷺ أمانهما فأسلما.

ثم دخل رسول اللّه ﷺ المسجد وطاف بالكعبة وأخذ المفتاح من عثمان بن طلحة بعد أن مانعت دونه أم عثمان ثم أسلمته، فدخل الكعبة ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة وأبقى له حجابة البيت فهي في ولد شيبة إلى اليوم. وأمر بكسر الصور داخل الكعبة وخارجها، وبكسر الأصنام حواليها، ومر عليها وهي مسدودة بالرصاص يشير إليها بقضيب في يده وهو يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ فما بقي منهم صنم إلا خرّ على وجهه. وأمر بلالاً فأذن على ظهر الكعبة ووقف رسول اللّه ﷺ بباب الكعبة ثاني يوم الفتح وخطب خطبته المعروفة، ووضع مآثر الجاهلية إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، وأخبر أن مكة لم تحل لأحد قبله ولا بعده، وإنما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس، ثم قال: « لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا إن كل مأثورة أو دم أو مال يدعى في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج، ألا وإن قتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها أربعون في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم خلق من تراب »

ثم تلا رسول اللّه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ «يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أني فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً! أخ كريم، ثم قال: «اذهبوا

فأنتم الطلقاء». وأعتقهم على الإسلام وحبس لهم فيما قيل على الصفا فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، ولما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء. أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يبايعهن واستغفر لهن رسول الله ﷺ لأنه كان لا يمس امرأة حلالاً ولا حراماً .

وهرب صفوان بن أمية إلى اليمن واتبعه عمير بن وهب من قومه بأمان النبي ﷺ له فرجع وأنذره أربعة أشهر، وهرب ابن الزبير الشاعر إلى نجران ورجع فأسلم، وهرب هبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هاني إلى اليمن فمات هنالك كافراً.

ثم بعث النبي ﷺ السرايا حول مكة ولم يأمرهم بقتال، وفي جملتهم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة فقتل منهم وأخذ ذلك عليه، وبعث إليهم علياً بمال فودى لهم قتلاهم ورد عليهم ما أخذ لهم. ثم بعث رسول الله ﷺ خالداً إلى العزى بيت بنخلة كانت قصر تعظمه من قريش وكنانة وغيرهم، وسدنة بنو شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم فهزمهم، ثم أن الأنصار توقفوا إلى أن يقيم ﷺ بمكة داره بعد أن فتحها فأهمهم ذلك وخرجوا له، فخطبهم ﷺ وأخبرهم أن المحيا محياهم والممات مماتهم فسكتوا لذلك واطمأنوا.

غزوة حنين

وأقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلة وهو يقصر الصلاة فبلغه أن هوازن وثقيف جمعوا له وهم عامدون إلى مكة وقد نزلوا حنيناً، وكانوا حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من المدينة يظنون أنه إنما يريدهم، فاجتمعت هوازن إلى مالك بن عوف من بني النضير، وقد أوعب معه بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن وبني جشم بن معاوية، وبني سعد بن بكر وناساً من بني هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية والأحلاف، من بني مالك بن ثقيف بن بكر، ولم يحضرها من هوازن كعب ولا من كلاب. وفي جشم دريد بن الصمة بن بكر بن علقمة بن خزاعة بن أزية بن جشم رئيسهم وسيدهم شيخ كبير ليس فيه إلا ليؤتم برأيه ومعرفته.

وفي ثقيف سيدان ليس لهم في الأحلاف إلا قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب، وفي بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحرث بن مالك وأخوه أحمر. وجمع أمر الناس إلى مالك بن عوف. فلما أتاهم أن رسول الله ﷺ قد فتح مكة أقبلوا عامدين إليه، وساق مالك مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم يرى أنه أثبت لموقفهم، فنزلوا بأوطاس، فقال دريد بن الصمة لمالك: ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمار وبعار الشاء وبكاء الصغير، فقال: أموال الناس وأبناؤهم سقنا معهم ليقاتلوا عنها، فقال: راعي ضأن والله وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسلاحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. ثم سأل عن كعب وكلاب وأسف لغيابهم وأنكر على مالك رأيه ذلك، وقال: لم تصنع بتقديم نقيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ارفعهم إلى ممتنع بلادهم، ثم ألق الصبيان على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك وإن كانت لغيرك كنت قد أحرزت أهلك ومالك. وأبى عليه مالك واتبعه هوازن. ثم بعث النبي ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي يستعلم بخبر القوم فجاءه وأطلعه على جلية الخبر وأنهم قاصدون إليه، فاستعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية مائة درع وقيل أربعمائة وخرج على اثني عشر ألفاً من المسلمين عشرة آلاف الذين صحبوه من المدينة وألفان من مسلمة الفتح، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ومضى لوجهه. وفي جملة من اتبعه عباس بن مرداس، والضحاك بن سفيان الكلابي، وجموع من عبس وذبيان، ومزينة وبني أسد.

ومر في طريقه بشجرة سدر خضراء، وكان لهم في الجاهلية مثلها يطوف بها الأعراب ويعظمونها ويسمونها ذات أنواط فقال له جفاة الأعراب: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال لهم: « قلتم كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم » وزجرهم عن ذلك.

ثم نهض حتى أتى وادي حنين من أودية تهامة أول يوم من شوال من السنة الثامنة وهو وادي الحزن، فتوسطه في غبش الصبح وقد كمنت هوازن جانبيه فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد، فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد، وناداهم ﷺ فلم يرجعوا. وثبت معه أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحرث وابنه جعفر والفضل وقثم ابنا العباس وجماعة سواهم، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء دلدل والعباس آخذ بشكائمها وكان جهير الصوت فأمره رسول الله ﷺ أن ينادي بالأنصار وأصحاب الشجرة وقيل وبالمهاجرين، فلما سمعوا الصوت وذهبوا ليرجعوا فصدهم ازدحام المنهزمين أن يثنوا رواحلهم، فاستقاموا وتناولوا سيوفهم وتراسهم واقتحموا عن الرواحل راجعين إلى النبي ﷺ، وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة فاستقبلوا هوازن والناس متلاحقون، واشتدت الحرب وحمي الوطيس وقذف الله في قلوب هوازن الرعب حين وصلوا إلى

رسول الله ﷺ فلم يملكوا أنفسهم، فولوا منهزمين ولحق آخر الناس وأسرى هوازن مغلولة بين يديه. وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم واستحر القتل في بني مالك من ثقيف فقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً في جملتهم ذو الخمار وأخوه عثمان ابنا عبد الله بن ربيعة بن حبيب سيداهم، وأما قارب بن الأسود سيد الأحلاف من ثقيف ففر بقومه منذ أول الأمر وترك رايته فلم يقتل منهم أحد، ولحق بعضهم بنخلة. وهرب مالك بن عوف النصري مع جماعة من قومه فدخلوا الطائف مع ثقيف، واتجهت طوائف من هوازن إلى أوطاس واتبعتهم طائفة من خيل المسلمين الذين توجهوا من نخلة فأدركوا فيهم دريد بن الصمة فقتلوه، يقال قتله ربيعة بن رافع بن أهبان بن ثعلبة بن يربوع بن سماك بن عوف بن امرئ القيس. وبعث ﷺ إلى من اجتمع بأوطاس من هوازن أبا عامر الأشعري عم أبي موسى فقاتلهم، وقتل بسهم رماه به سلمة بن دريد بن الصمة فأخذ أبو موسى الراية وشد على قاتل عمه فقتله. وانهزم المشركون واستحر القتل في بني رباب من بني نصر بن معاوية، وانفضت جموع هوازن كلها. واستشهد من المسلمين يوم حنين أربعة منهم أيمن ابن أم أيمن أخو أسامة لأمه، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحرث من بني العجلان، وأبو عامر الأشعري.

حصار الطائف

ثم أمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال فحبست بالجعرانة بنظر مسعود بن عمرو الغفاري، وسار من فوره إلى الطائف فحاصر بها ثقيف خمس عشرة ليلة، وقاتلوا من وراء الحصون، وأسلم من كان حولهم من الناس وجاءت وفودهم إليه. وقد كان مر في طريقه بحصن مالك بن عوف النصري فأمر بهدمه، ونزل على أطم لبعض ثقيف فتمنع فيه صاحبه فأمر بهدمه فأخرب وتحصنت ثقيف. وقد كان عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة من ساداتهم ذهبا إلى جرش يتعلمان صنعة المجانيق والدبابات للحصار لما أحسوا من قصد رسول الله ﷺ إياهم فلم يشهدا الحصار ولا حنيناً قبله، وحاصرهم المسلمون بضع عشرة أو نصف شهر أو بضع وعشرين ليلة واستشهد بعضهم بالنبل ورماهم ﷺ بالمنجنيق، ودخل نفر من المسلمين تحت دبابة ودنوا إلى سور الطائف فصبوا عليهم سكك الحديد المحماة ورموهم بالنبل فأصابوا منهم قوماً، وأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناقهم، ورغب إليه ابن الأسود بن مسعود في ماله وكان بعيداً من الطائف وكف عنه، ثم رحل عن الطائف وتركهم ونزل أبو بكرة فأسلم.

واستشهد من المسلمين في حصاره: سعيد بن سعيد بن العاص، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أخو أم سلمة، وعبد الله بن عامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي في آخرين قريباً من اثني عشر فيهم أربعة من الأنصار.

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة وأتاه هنالك وفد هوازن مسلمين راغبين، فخيرهم بين العيال والأبناء والأموال فاختاروا العيال والأبناء، وكلموا المسلمين في ذلك بأمر رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» وقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وامتنع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن أن يردا عليهم ما وقع لهما من الفيء وساعدهما قومهما، وامتنع العباس بن مرداس كذلك. وخالفهم بنو سليم وقالوا: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فعرض رسول الله ﷺ من لم تطب نفسه عن نصيبه. ورد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم.

وكان عدد سبي هوازن ستة آلاف بين ذكر وأنثى فيهن الشيماء أخت النبي ﷺ من الرضاعة وهي بنت الحرث بن عبد العزى من بني ساعدة بن بكر من هوازن، وأكرمها رسول الله ﷺ وأحسن إليها وخيرها فاختارت قومها فردها إليهم. وقسم الأموال بين المسلمين، ثم أعطى من نصيبه من خمس الخمس قوماً يستألفهم على الإسلام من قريش وغيرهم، فمنهم من أعطاه مائة مائة، ومنهم خمسين خمسين، ومنهم ما بين ذلك، ويسمون المؤلفة وهم مذكورون في كتب السير يقاربون الأربعين: منهم أبو سفيان وابنه معاوية وحكيم بن حزام وصفوان بن أمية ومالك بن عوف وغيرهم، ومنهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر والأقرع بن حابس وهما من أصحاب المائة، وأعطى ابن عباس بن مرداس دونهما، فأنشده أبياته المعروفة يتسخط فيها، فقال: «اقطعوا عني لسانه فأتموا إليه المائة»

ولما أعطى المؤلفة قلوبهم وَجِد الأنصار في أنفسهم إذ لم يعطهم مثل ذلك وتكلم شبانهم مع ما كانوا يظنون أنه إذا فتح الله عليه بلده يرجع إلى قومه ويتركهم، فجمعهم ووعظهم وذكرهم وقال: «إنما أعطي قوماً حديثي عهد بالإسلام أتألفهم عليه، أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبعير وتنصرفوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الأنصار شعباً وسلك الناس شعباً لسلكت شعب الأنصار» فرضوا وافترقوا.

ثم اعتمر رسول الله ﷺ من الجعرانة إلى مكة، ثم رجع إلى المدينة فدخلها لست بقين من ذي القعدة من السنة الثامنة

لشهرين ونصف من خروجه، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد شاباً ينيف عمره على عشرين سنة، وكان غلبه الورع والزهد فأقام الحج بالمسلمين في سنته وهو أول أمير أقام حج الإسلام وحج المشركون على مشاعرهم.

وخلف بمكة معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن، وبعث عمرو بن العاص إلى أهل حنين وعمرو بن الجلندي من الأزد بعمان مصدقاً فأطاعوا له بذلك. واستعمل ﷺ مالك بن عوف على من أسلم من قومه ومن سلم منهم وما له حوالي الطائف من ثقيف، وأمره بمغادرة الطائف من التضييق عليهم ففعل حتى جاوؤا مسلمين كما يذكر بعد. وحسن إسلام المؤلفة قلوبهم ممن أسلم يوم الفتح أو بعده وإن كانوا متفاوتين في ذلك. ووفد على النبي ﷺ كعب بن زهير فأهدر دمه وضاقت به الأرض، وجاء فأسلم وأنشد النبي ﷺ قصيدته المعروفة بمدحه التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول... إلخ.

وأعطاه بردة في ثواب مدحه فاشتراها معاوية من ورثته بعد موته وصار الخلفاء يتوارثونها شعاراً.

غزوة تبوك

ووفد في السنة تسع على رسول الله ﷺ بالمدينة بنو أسد فأسلموا وكان منهم ضرار بن الأزور، وقالوا: قدمنا يا رسول الله قبل أن يرسل إلينا فنزلت ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية. ووفد فيها وفدتين في شهر ربيع الأول ونزلوا على رويفع بن ثابت البلوي. وأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد منصرفه من الطائف في ذي الحجة إلى شهر رجب من السنة التاسعة.

ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم: وكان في غزواته كثيراً ما يوري بغير الجهة التي يقصدها على طريقة الحرب إلا ما كان من هذه الغزاة لعسرها بشدة الحرب، وبعد البلاد وفصل الفواكه وقلة الظلال وكثرة العدو الذين يصدون. وتجهز الناس على ما في أنفسهم من استثقال ذلك، وطفق المنافقون يثبطونهم عن الغزو، وكان نفر منهم يجتمعون في بيت بعض اليهود، فأمر طلحة بن عبيد الله أن يخرب عليهم البيت فخربها. واستأذن ابن قيس من بني سلمة في القعود فأذن له وأعرض عنه، وانتدب كثير من المسلمين للإنفاق والحملان وكان من أعظمهم في ذلك عثمان بن عفان يقال: إنه أنفق فيها ألف دينار وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس وجهز ركاباً. وجاء بعض المسلمين يستحمل رسول الله ﷺ فلم يجد ما يحملهم عليه فتولوا باكين لذلك، وحمل بعضهم يامين بن عمير النضير وهما أبو ليلى بن كعب من بني مازن بن النجار وعبد الله بن مغفل المزني. واعتذر المخلفون من الأعراب فعذرهم رسول الله ﷺ. ثم نهض وخلف على المدينة محمد بن مسلمة وقيل: بل سباع بن عرفطة وقيل: بل علي بن أبي طالب، وخرج معه عبد الله بن أبي بن سلول في عدد وعدة، فلما سار ﷺ تخلف هو فيمن تخلف من المنافقين. ومر ﷺ بالحجر على ديار ثمود فأمر أن لا يستعمل ماؤها ويعلف ما عجن منه للإبل، وأذن لهم في بئر الناقة، وأمر أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا باكين، ونهى أن يخرج أحد منفرداً عن صاحبه.

فخرج رجلان من بني ساعدة جن أحدهما فمسح عليه فشفي، والآخر رمته الريح في جبل طيء فردوه بعد ذلك إلى النبي ﷺ. وضل ﷺ عن ناقته في بعض الطريق، فقال أحد المنافقين: محمد يدعي علم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: « والله لا أعلم إلا ما علمني الله وأن الناقة بموضع كذا » وكان قد أوحي إليه بها فوجدوها ثم، وكان قائل هذا القول زيد بن اللصيت من بني قينقاع وقيل: إنه تاب بعد ذلك. وفضح الوحي قوماً من المنافقين كانوا يخذلون بالناس ويهولون عليهم أمر الروم، فتاب منهم مخشي بن جهير ودعا أن يكفر عنه بشهادة يخفي مكانه فقتل يوم اليمامة.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يحينة بن رؤية صاحب أيلة وأهل جرباء وأذرح فصالحوا على الجزية وكتب لكل كتاباً. وبعث ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل من كندة كان ملكاً عليها وكان نصرانياً وأخبر أنه يجده يصيد البقر، واتفق أن بقر الوحش باتت تهد القصر بقرونها فنشط أكيدر لصيدها وخرج ليلاً، فوافق وصوله خالداً، فأخذه وبعث به إلى رسول الله ﷺ فعفا عنه وصالحه على الجزية ورده. وأقام بتبوك عشرين ليلة، ثم انصرف، وكان في طريقه ماء قليل نهى أن يسبق إليه أحد، فسبق رجلان واستنفدا ما فيه فنكر عليهما ذلك، ثم وضع يده تحت وشلة فصب ما شاء الله أن يصب ونضح بالوشل ودعا فجاش الماء حتى كفى العسكر.

وأخبر ﷺ أن ذلك الموضع سمي جناباً ولما قرب من المدينة بساعة من نهار أنفذ مالك بن الدخشم من بني سليم ومعن بن عدي من بني العجلان إلى مسجد الضرار، فأحرقاه وهدماه، وقد كان جماعة من المنافقين بنوه وأتوا إلى النبي ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فسألوه الصلاة فيه، فقال: « أنا على سفر ولو قدمنا أتيناكم فصلينا لكم فيه » فلما رجع أمر بهدمه.

وفي هذه الغزاة تخلف كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف وهلال بن أمية بن واقف وكانوا صالحين، فنهى ﷺ عن كلامهم خمسين يوماً، ثـم نزلـت توبتهـم، وكان المتخلفون من غير عذر نيفاً وثلاثـين رجـلاً. وكـان وصولـه ﷺ من تبوك في رمضـان سـنة تسـع، وفيـه كـانت وفـادة ثقيـف وإسلامهم، ونزل الكثير من سورة براءة في شأن المنافقين وما قالوه في غزوة تبوك آخر غزوة غزاها ﷺ.

إسلام عروة بن مسعود ثم وفد ثقيف وهدم اللات

كان ﷺ لما أفرج عن الطائف وارتحل إلى المدينة اتبعه عروة بن مسعود سيدهم، فأدركه في طريقه وأسلم ورجـع يدعـو قومـه، فرمي بسهم في سطح بيته وهو يؤذن للصلاة فمـات، ومنـع قومـه من الطلب بدمه وقال: هي شهادة ساقها الله إلي وأوصى أن يدفن مع شهداء المسلمين. ثم قدم ابنه أبـو المليـح وقـارب بـن مسـعود فأسلما، وضيق مالك بـن عـوف علـى ثقيـف واسـتباح سـرحهم وقطع سابلتهم. وبلغهـم رجـوع النـبي ﷺ مـن تبـوك وائتمـروا في الوفادة وعلموا أن لا طاقة لهم بحرب العرب المسلمين، وفزعوا إلى عبد ياليل بن عمرو بن عمير، فشرط عليهم أن يبعثوا معه رجـالا منهم ليحضروا مشهده خشية على نفسه مما نزل بعروة، فبعثوا معه رجلين من أحلاف قومه وثلاثاً من بني مـالك، فخـرج بهـم عبـد ياليل وقدموا على رسول الله ﷺ في رمضان من السـنة التاسـعة يريدون البيعة والإسلام فضرب لهم قبة في المسجد، وكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي في أمرهم وهو الذي كتـب كتـابهم بخطـه، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم حتى يأكل منـه خـالد، وسـألوه أن يدع لهم اللات ثلاث سنين رعياً لنسـائهم وأبنـائهم حتـى يأنسـوا فأبى، وسألوه أن يعفيهـم مـن الصـلاة فقـال: لا خـير في ديـن لا صلاة فيه، فسألوه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فقـال: أمـا هـذه فأنا سنكفيكهم منها. فأسلموا وكتب لهم وأمر عليهـم عثمـان بـن أبي العاص أصغرهم سناً لأنـه كـان حريصـاً علـى الفقـه وتعلـم القرآن. ثم رجعوا إلى بلادهم، وخرج معهم أبو سفيان بن حـرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات، وتأخر أبو سفيان حتى دخل المغـيرة فتناولها بيده ليهدمها، وقام بنو معتب دونه خشية عليه. ثم جاء أبو سفيان وجمع ما كان لها من الحلي وقضى منه دين عروة والأسـود ابني مسعود كما أمر النبي ﷺ وقسم الباقي.

الوفود

ولما فرغ رسول الله ﷺ من تبوك وأسلمت ثقيف ضربـت إليه وفود العرب من كل وجه حتى لقد سميت سنة الوفود. قـال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمـر هـذا الحـي من قريش وأمر النـبي ﷺ، وذلـك أن قريشـاً كـانوا إمـام النـاس وهاديهم وأهل البيت والحرم وصريح ولـد إسمـاعيل وقـادتهم لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحربه وخلافه. فلمـا افتتحت مكة ودانت قريش ودخلها الإسلام عرفت العـرب أنهـم لا طاقة لهم بحربه وعداوته، فدخلوا في دينه أفواجاً يضربـون إليـه من كل وجه انتهى.

فأول مـن قـدم إليـه بعـد تبـوك وفـد بـني تميـم وفيـه مـن رؤوسهم: عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس من بني دارم بـن مالك، والحباب بن يزيد، والأقرع بن حابس، والزبرقـان بـن بـدر من بني سعد، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم وهما مـن بـني منقر، ونعيم بن زيد ومعهم عيينة بن حصـن الفـزاري. وقـد كـان الأقرع وعيينة شهدا فتح مكة وخيبر وحصار الطائف، ثم جاءا مع وفد بني تميم، فلما دخلوا المسجد نادوا من وراء الحجرات فـنزلت الآيات في إنكار ذلك عليهم. ولما خرج قالوا جئنا: نفاخرك بخطيبنا وشاعرنا فأذن لهـم، فخطـب عطـارد وفـاخر ويقـال والأقـرع بـن حابس، ثم أنشد الزبرقان بن بدر شعراً بالمفاخرة، ودعا رسول الله ﷺ ثابت بن قيـس بـن الشـماس مـن بـني الحـرث بـن الخـزرج فخطب وحسان بن ثابت فأنشد مسـاجلين لهـم، فـأذعنوا للخطبـة والشعر والسؤدد والحلم، وقالوا: هذا الرجل هـو مؤيـد مـن اللـه خطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره أشعر مـن شـاعرنا وأصواتهـم أعلى من أصواتنا، ثم أسلموا وأحسن رسول الله ﷺ جوازهـم. وهذا كان شأنه مع الوفود ينزلهم إذا قدموا ويجهزهم إذا رحلوا.

ثم قدم على رسول الله ﷺ في آخـر رمضـان مقدمـه مـن تبوك كتاب ملوك حمير مع رسولهم ومع الحـرث بـن عبـد كـلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعـين وهمـدان ومعـافر. وبعث زرعة بن ذي يزن رسوله مالك بن مرة الرهاوي بإسـلامهم ومفارقة الشرك، وأهله وكتب إليهـم النـبي ﷺ كتابـه. وبعـث إلى ذي يزن معاذ بن جبل مع رسوله مالك بن مرة لجمع الصدقـات، وأوصاهم برسله معاذ وأصحابه. ثم مات عبـد اللـه بـن أبي بـن سلول في ذي القعدة، ونعى رسول الله ﷺ النجاشي وإنـه مـات في رجب قبل تبوك.

وقدم وفد بهرا في ثلاثة عشر رجلاً ونزلوا على المقـداد بـن

عمرو وجاء بهم فأسلموا وأجازهم وانصرفوا.

وقدم وفد بني البكاء ثلاثة نفر منهم. وقدم وفد بني فرازة بضعة عشر رجلاً فيهم خارجة بن حصن وابن أخيه الحر بن قيس فأسلموا. ووفد عدي بن حاتم بن طيء فأسلم وكان رسول الله ﷺ قد بعث قبل تبوك إلى بلاد طيء علي بن أبي طالب في سرية فأغار عليهم، وأصيب حاتم وسبيت ابنته وغنم سيفين في بيت أصنامه كانتا من قربان الحرث بن أبي شمر، وكان عدي قد هرب قبل ذلك ولحق ببلاد قضاعة بالشام فرارا من جيوش المسلمين وجوارا لأهل دينه من النصارى وأقام بينهم، ولما سيقت ابنة حاتم جعلت في الحظيرة بباب المسجد التي كانت السبايا تحبس بها، ومر بها رسول الله ﷺ فكلمته أن يمن عليها، فقال: قد فعلت ولا تعجلي حتى تجدي ذا ثقة من قومك يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني، قالت: فأقمت حتى قدم ركب من بني قضاعة وأنا أريد أن آتي أخي بالشام فعرفت رسول الله ﷺ فكساني وحملني وزودني وخرجت معه فقدمت الشام فلما لقيها عدي تلاوم ساعة ثم قال لها: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ فأشارت عليه باللحاق به فوفد، وأكرمه رسول الله ﷺ وأدخله إلى بيته وأجلسه على وسادته، بعد أن استوقفته في طريقه امرأة فوقف لها، فعلم عدي أنه ليس بملك وإنما هو نبي، ثم أخبره عن أخذه المرباع من قومه ولا يحل له فازداد استبعاداً فيه، ثم قال: لعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من يأخذه، أو لعله يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف، أو لعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان لغيرهم فيوشك أن تسمع بالقصور البيض من بابل قد فتحت. فأسلم عدي وانصرف إلى قومه.

ثم أنزل الله على نبيه الأربعين آية من أول سورة براءة في نبذ العهد الذي بينه وبين المشركين لا يصدوا عن البيت، ونهوا أن يقرب المسجد الحرام مشرك بعد ذلك، وأن لا يطوف بالبيت عرياناً، وإن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فيتم له إلى مدته، وأجلهم أربعة أشهر من يوم النحر. فبعث رسول الله صلى الله عليه والسلام بهذه الآيات أبا بكر وامره على إقامة الحج بالموسم من هذه السنة، فبلغ ذي الحليفة فاتبعه بعلي فأخذها منه، فرجع أبو بكر مشفقا أن يكون نزل فيه قرآن، فقال له النبي ﷺ: لم ينزل شيء ولكن: لا يبلغ عني غيري أو رجل مني. فسار أبو بكر على الحج وعلي على الأذن ببراءة، فحج أبو بكر بالناس وهم على حج الجاهلية، وقام علي عند العقبة يوم الأضحى فأذن بالآية التي جاء بها. قال الطبري: وفي هذه السنة فرضت الصدقات لقوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الآية.

وفيها قدم وفد ثعلبة بن منقذ ووفد هذيم من قضاعة. قال الطبري: وفيها بعث بنو سعد بن بكر ضمضام بن ثعلبة وافداً فاستحلف رسول الله ﷺ على ما جاء به من الإسلام، وذكر التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج واحدة واحدة حتى إذا فرغ تشهد وأسلم، وقال: لأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيت عنه ثم لا أزيد عليها ولا أنقص، فلما انصرف قال ﷺ: إن صدق دخل الجنة، ثم قدم على قومه فأسلموا كلهم يوم قدومه. والذي عليه الجمهور: أن قدوم ضمضام وقصته كانت سنة خمس.

ثم دخلت سنة عشر فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ربيع أو جمادى في سرية أربعمائة إلى نجران وما حولها يدعو بني الحرث بن كعب إلى الإسلام ويقاتلهم إن لم يفعلوا، فأسلموا وأجابوا داعيته، وبعث الرسل في كل وجه فأسلم الناس فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه بأن يقدم مع وفدهم، فأقبل خالد ومعه وفد بني الحرث بن كعب منهم قيس بن الحصين ذو القصة ويزيد بن عبد الله المران ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قريض الزيادي وشداد بن عبد الله الضبابي وعمرو بن عبد الله الضبابي، فأكرمهم النبي ﷺ وقال لهم: بم كنتم تغلبون من يقاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم. قال: صدقتم، فأسلموا وأمر عليهم قيس بن الحصين، ورجعوا صدر ذي القعدة من سنة عشر، ثم اتبعهم عمرو بن حزام من بني النجار ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة، وكتب إليه كتاباً عهد إليه في عهده وأمره بأمره، وأقام عاملا على نجران. وهذا الكتاب وقع في السير مروياً واعتمده الفقهاء في الاستدلالات وفيه مآخذ كثيرة للأحكام الفقهية ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من الله ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾، عهداً من محمد النبي رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وآمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه، وينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين للناس في الحق ويشتد عليهم في الظلم فإن الله حرم الظلم ونهى عنه فقال: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها وينذر الناس بالنار وعملها، ويستألف الناس حتى يتفقهوا في الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه وما أمر الله به

والحج الأكبر والحج الأصغر وهو العمرة، وينهى الناس أن يصلي أحد في ثوب صغير إلا أن يكون ثوباً يثنى طرفيه على عاتقه، وينهى أن يحتبيء أحد في ثوب واحد ويفضي بفرجه إلى السماء، وينهى أن يقص أحد شعر رأسه إذا عفا في قفاه، وينهي إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر وليكن دعاؤه إلى اللّه وحده لا شريك له فمن لم يدع إلى اللّه ودعا القبائل والعشائر فليعطفوه بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى اللّه وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء في وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ويمسحوا برؤوسهم كما أمرهم اللّه، وأمرهم بالصلاة بوقتها وإتمام الركوع والسجود يغلس بالصبح ويهجر بالهاجرة حتى تميل الشمس وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة والمغرب حين يقبل الليل لا تؤخر حتى تبدو نجوم السماء والعشاء أول الليل، وآمر بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها والغسل عند الرواح إليها، وآمره أن يأخذ من الغنائم خمس اللّه، وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عشر ما سقت العين أو سقت السماء وعلى ما سقى الغرب نصف العشر وفي كل عشر من الإبل شاتان وفي كل عشرين أربع شياة وفي كل أربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من البقر تبيع أو تبيعة جذع أو جذعة وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة فإنها فريضة اللّه التي افترض على المؤمنين في الصدقة فمن زاد خيراً فهو خير له، وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين له مثل مالهم وعليه ما عليهم ومن كان نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية، وعلى كل محتلم ذكراً وأنثى حر أو عبد دينار واف أو عوضه ثياباً. فمن أدى ذلك فإن له ذمة الاسلام ذمة اللّه وذمة رسوله. ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً صلوات اللّه على محمد والسلام عليه ورحمته وبركاته».

وقدم وفد غسان في رمضان من هذه السنة العاشرة في ثلاثة نفر فأسلموا وانصرفوا إلى قومهم فلم يجيبوا إلى الإسلام فكتموا أمرهم وهلك اثنان منهم ولقي الثالث أبو عبيدة عام اليرموك فأخبره بإسلامه. وقدم عليه وفد عامر عشرة نفر فأسلموا وتعلموا شرائع الإسلام وأقرأهم النبي القرآن وانصرفوا.

وقدم في شوال وفد سلامان بسبعة نفر رئيسهم حبيب فأسلموا من قومهم وتعلموا القرآن وانصرفوا.

وفيها قدم أزد جرش وفد فيهم صرد بن عبد اللّه الأزدي في عشرة من قومه، ونزلوا على فروة بن عمرو، وأمر النبي ﷺ بعد أن أسلموا صرداً على من أسلم منهم، وأن يجاهد المشركين حوله. فحاصر جرش ومن بها من خثعم وقبائل اليمن، وكانت مدينة حصينة اجتمع إليها أهل اليمن حين سمعوا بزحف المسلمين، فحاصرهم شهراً، ثم قفل عنهم فظنوا أنه انهزم فاتبعوه إلى جبل شكر، فصف وحمل عليهم ونال منهم، وكانوا بعثوا إلى رسول اللّه ﷺ رائدين وأخبرها ذلك اليوم بواقعة شكر وقال: إن بدن اللّه لتنحر عنده الآن فرجعا إلى قومهما فأخبرهم بذلك وأسلموا وحمى لهم حمى حول قريتهم.

ومنها كان إسلام همدان ووفادتهم على يد علي رضي اللّه عنه، وذلك أن رسول اللّه ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فمكث ستة أشهر لا يجيبونه، فبعث عليه السلام علي بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالداً، فلما بلغ علي أوائل اليمن جمعوا له فلما لقوه صفوا فقدم علي الإنذار وقرأ عليهم كتاب رسول اللّه ﷺ فأسلمت همدان كلها في ذلك اليوم، وكتب بذلك إلى النبي ﷺ فسجد لله شكراً، ثم قال: السلام على همدان ثلاث مرات. ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام وقدمت وفودهم، وكان عمرو بن معديكرب الزبيدي قال لقيس بن مكثوم المرادي: إذهب بنا إلى هذا الرجل فلن يخفى علينا أمره فأبى قيس من ذلك، فقدم عمرو على النبي ﷺ فأسلم، وكان فروة بن مسيك المرادي على زبيد لأنه وفد قبل عمرو مفارقاً للملوك كندة فأسلم ونزل على سعد بن عبادة وتعلم القرآن وفرائض الإسلام واستعمله رسول اللّه ﷺ على مراد وزبيد ومذحج كلها وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معهم في بلاده حتى كانت الوفاة.

وفي هذه السنة قدم وفد عبد القيس يقدمهم الجارود بن عمرو وكانوا على دين النصرانية، فأسلموا ورجعوا إلى قومهم. ولما كانت الوفاة ارتد عبد القيس ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر الذي يسمى الغرور وثبت الجارود على الإسلام، وكان له المقام المحمود وهلك قبل أن يراجعوا. وقد كان رسول اللّه ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوي العبدي فأسلم وحسن إسلامه، وهلك بعد الوفاة وقبل ردة أهل البحرين والعلاء أمير عنده لرسول اللّه ﷺ على البحرين.

وفي هذه السنة قدم وفد بني حنيفة في سنة عشر فيهم: مسيلمة بن حبيب الكذاب، ورجال بن عنفوة، وطلق بن علي بن قيس، وعليهم سلمان بن حنظلة، فأسلموا وأقاموا أياماً يتعلمون القرآن من أبي بن كعب، ورجال يتعلم، وطلق يؤذن لهم، ومسيلمة في الرحال، وذكروا للنبي ﷺ مكانه في رحالهم فأجازه، وقال: ليس بشركم مكاناً لحفظه رحالكم، فقال مسيلمة: عرف أن

الأمر لي من بعده. ثم ادعى مسيلمة بعد ذلك النبوة، وشهد له طلق أن رسول اللّه ﷺ أشركه في الأمر فافتتن الناس به كما سنذكره.

وفيها قدم وفد كندة يقدمهم الأشعث بن قيس في بضعة عشر وقيل في ستين وقيل في ثمانين، وعليهم الديباج والحرير، وأسلموا ونهاهم النبي ﷺ عنه فتركوه. وقال له أشعث نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار فضحك وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحرث وكانا تاجرين فإذا ساحا في أرض العرب قال: نحن بنو آكل المرار فيعتز بذلك كأن لهم عليه ولادة من الأمهات، ثم قال نحن بنو النضر بن كنانة فانتفوا منا ولا ينتفي من الينا.

وقدم مع وفد كنانة وفد حضرموت وهم بنو وليعة، وملوكهم صمرة ومخوش ومرح والضعة فأسلموا ودعا لمخوش بإزالة الرتة من لسانه. وقدم وائل بن حجر راغباً في الإسلام فدعا له ومسح رأسه، ونودي الصلاة جامعة سروراً بقدومه، وأمر معاوية أن ينزل بالحرة، فمشى معه وكان راكباً فقال له معاوية: أعطني نعلك أتوقى بها الرمضاء، فقال: ما كنت لألبسها وقد لبستها. وفي رواية لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك فقال: أردفني قال: لست من أرداف الملوك، ثم قال: إن الرمضاء قد أحرقت قدمي قال: امش في ظل ناقتي كفاك به شرفاً. ويقال إنه وفد على معاوية في خلافته فأكرمه وكتب له رسول اللّه ﷺ كتاباً:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. هذا كتاب محمد النبي لوائل بن حجر قيل حضرموت إنك إن أسلمت جعلت لك ما في يديك من الأرض والحصون ويؤخذ منك من كل عشرة واحدة ينظر في ذلك ذوو عدل منكم وجعلت لك ألا تظلم فيها معلم الدين. والنبي ﷺ والمؤمنين عليه أنصار».

قال عياض: وفيه إلى الأقيال العباهلة والأوراع المشابيب. وفيه في العبية شاة مقورة لاالياط ولا ضناك وفي السيوب الخمس ومن زنى من بكر فاصقعوه مائة واستوفضوه عاماً، ومن زنى من ثيب فضرجوه بالاضاحيم، ولا توصيم في الدين ولا غمة في فرائض اللّه وكل مسكر حرام ووائل بن حجر يترفل على الأقيال.

وفيها قدم وفد محارب في عشرة نفر فأسلموا. وفيها قدم وفد الرها من مذحج في خمسة عشر نفرا وأهدوا فرساً، فأسلموا وتعلموا القرآن وانصرفوا، ثم قدم نفر منهم وحجوا مع رسول اللّه ﷺ، وتوفي فأوصى لهم بمائة وسق من خيبر جارية عليهم من الكتيبة وباعوها من معاوية.

وفيها قدم وفد نجران النصارى في سبعين راكباً يقدمهم أميرهم العاقب عبد المسيح من كندة، وأسقفهم أبو حارثة من بكر بن وائل، والسيد الأيهم وجادلوا عن دينهم، فنزل صدر سورة آل عمران وآية المباهلة فأبوا منها وفرقوا وسألوا الصلح، وكتب لهم به على ألف حلة في صفر وألف في رجب وعلى دروع ورماح وخيل وحمل ثلاثين من كل صنف، وطلبوا أن يبعث معهم والياً يحكم بينهم فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، ثم جاء العاقب والسيد وأسلما.

وفيها قدم وفد الصدف من حضرموت في بضعة عشر نفرا فأسلموا، وعلمهم أوقات الصلاة وذلك في حجة الوداع. وفي هذه السنة قدم وفد عبس، قال ابن الكلبي: وفد منهم رجل واحد فأسلم ورجع ومات في طريقه. وقال الطبري: وفيها وفد عدي بن حاتم في شعبان انتهى.

وفيها قدم وفد خولان عشرة نفر فأسلموا وهدموا صنمهم، وكان وفد على رسول اللّه ﷺ في هدنة الحديبية قبل خيبر رفاعة بن زيد الضبيبي من جذام وأهدى غلاماً فأسلم، وكتب له رسول اللّه ﷺ كتاباً يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا، ولم يلبث أن قفل دحية بن خليفة الكلبي منصرفاً من عند هرقل حين بعثه النبي ﷺ ومعه تجارة، فأغار عليه الهنيد بن عوض وقومه بنو الضليع من بطون جذام فأصابوا كل شيء معه، وبلغ ذلك مسلمين من بني الضبيب فاستنقذوا ما أخذه الهنيد وابنه وردوه على دحية، وقدم دحية على النبي ﷺ فأخبره الخبر، فبعث النبي ﷺ زيد بن حارثة في جيش من المسلمين فأغار عليهم بالقضقاض من حرة الرمل، وقتلوا الهنيد وابنه في جماعة وكان معهم ناس من بني الضبيب فاستباحوهم معهم وقتلوهم، فركب رفاعة بن زيد ومعه أبو زيد بن عمرو من قومه في جماعة منهم فقدموا على النبي ﷺ وأخبروه الخبر، فقال: كيف أصنع بالقتلى؟ فقالوا: يا رسول اللّه أطلق لنا من كان حياً، فبعث معهم علي بن أبي طالب وحمله على جمل وأعطاه سيفه فلحقه بفيفاء الفحلتين وأمره برد أموالهم فردها.

وفي هذه السنة قدم وفد عامر بن صعصعة فيهم: عامر بن الطفيل بن مالك، وأربد ابن ربيعة بن مالك، فقال له عامر: يا محمد اجعل لي الأمر بعدك، قال: ليس ذلك لك ولقومك، قال: اجعل لي الوبر ولك المدر، قال: لا ولكن أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس، فقال: لأملأنها عليك خيلا ورجلاً ثم ولوا. فقال: اللّهم أكفنيهم اللّهم اهد عامر وأغن الإسلام عن عامر.

وذكر ابن إسحاق والطبري: أنهما أرادا الغدر برسول اللّه ﷺ فلم يقدروا عليه في قصة ذكرها أهل الصحيح، ثم رجعوا إلى بلادهم فأخذه الطاعون في عنقه فمات في طريقه في أحياء بني سلول وأصابت أخاه أربد صاعقة بعد ذلك. ثم قدم علقمة بن علاثة بن عوف وعوف بن خالد بن ربيعة وابنه فأسلموا.

وفيها قدم وفد طيء في خمسة عشر نفرا يقدمهم سيدهم زيد الخيل وقبيصة بن الأسود من بني نبهان فأسلموا، وسماه رسول اللّه ﷺ زيد الخير وأقطع له بئراً وأرضين معها وكتب له بذلك ومات في مرجعه.

وفي هذه السنة ادعى مسيلمة النبوة وأنه أشرك مع رسول اللّه ﷺ الأمر، وكتب إليه: من مسيلمة رسول اللّه إلى محمد رسول اللّه سلام عليك فإني قد أشركت في الأمر معك وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريش قوم لا يعدلون، وكتب إليه رسول اللّه ﷺ:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. من محمد رسول اللّه ﷺ إلى مسيلمة الكذاب! سلام على من اتبع الهدى؟ أما بعد فـ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾».

قال الطبري: وقد قيل: إن ذلك كان بعد منصرف النبي ﷺ من حجة الوداع كما نذكر.

حجة الوداع

ثم خرج النبي ﷺ إلى حجة الوداع في خمسة ليال بقين من ذي العقدة ومعه من أشراف الناس ومائة من الإبل هدايا، ودخل مكة يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة، ولقيه علي بن أبي طالب بصدقات نجران فحج معه، وعلم ﷺ الناس مناسكهم واسترحمهم وخطب الناس بعرفة خطبته التي بين فيها ما بين، حمد اللّه والثناء عليه ثم قال: «أيها الناس إسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كان رباً فهو موضوع: فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى اللّه أنه لا ربا إن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع كله وإن أول دم وضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب وكان مسترضعاً في بني ليث، فقتله بنو هذيل فهو أول ما أبدئ من دم الجاهلية. أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم أبرح الناس!. ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ الا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض وإن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهراً في كتاب اللّه يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد الذي بين جمادى وشعبان أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن اللّه قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوار لا يملكن لأنفسهن من الخير شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة اللّه واستحللتم فروجهن بكلمة اللّه فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي فإني قد بلغت وتركت فيكم ما إن استعصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب اللّه وسنة نبيه، أيها الناس! اسمعوا قولي واعلموا إن كل مسلم أخو المسلم وإن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفس فلا تظلموا أنفسكم ألا اللّهم قد بلغت» فذكر أنهم قالوا: اللّهم نعم. فقال رسول اللّه ﷺ: «اللّهم اشهد». وكانت هذه الحجة تسمى حجة البلاغ وحجة الوداع لأنه لم يحج بعدها وقد كان حج قبل ذلك حجتين واعتمر مع حجة الوداع عمرة فتلك ثلاث ثم انصرف إلى المدينة في بقية ذي الحجة من العاشر.

العمال على النواحي

كان رسول اللّه ﷺ حين أسلم باذان عامل كسرى على اليمن وأسلمت اليمن أمره على جميع مخاليفها ولم يشرك معه فيها أحد حتى مات، وبلغه موته وهو منصرف من حجة الوداع فقسم عمله على جماعة من الصحابة، فولى على صنعاء ابنه شمر بن باذان، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلي همدان عامر بن شمر الهمداني، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبي هالة وعلى ما بين نجران وزمع وزبيد خالد بن سعيد بن العاص، وعلى نجران عمرو بن حزام، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعلى السكاسك والسكون عكاشة بن ثور بن أصغر الغوثي، وعلى معاوية بن كندة عبد اللّه المهاجر بن أبي أمية واشتكى المهاجر فلم يذهب فكان زياد بن لبيد

يقوم على عمله، وبعث معاذ بن جبل معلماً لأهل اليمن وحضرموت، وكان قبل ذلك قد بعث على الصدقات عدي بن حاتم على صدقة طيء وأسد، ومالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وقسم صدقة بني سعد بين رجلين منهم، وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين وبعث علي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم وجزيتهم ويقدم عليه بها فوافاه من حجة الوداع كما مر.

خبر العنسي

كان الأسود العنسي واسمه عبهلة بن كعب ولقبه ذو الخمار، وكان كاهناً مشعوذاً يفعل الأعاجيب ويخلب بحلاوة منطقه، وكانت داره كهف خيار بها ولد ونشأ وادعى النبوة، وكاتب مذحجاً عامة فأجابوه وأوعدوا نجران فوثبوا بها وأخرجوا عمرو بن حزام وخالد بن سعيد بن العاص وأقاموه في عملها، ووثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك وهو على مراد فأجلوه، وسار الأسود في سبعمائة فارس إلى شمر بن باذان بصنعاء فلقيه شمر بن باذان فهزمه الأسود فقتله، وغلب على ما بين صنعاء وحضرموت إلى أعمال الطائف إلى البحرين من قبل عدن، وجعل يطير استطارة الحريق وعامله المسلمون بالتقية، وارتد كثير من أهل اليمن. وكان عمرو بن معدي يكرب مع خالد بن سعيد بن العاص، فخالفه واستجاب للأسود، فسار إليه خالد ولقيه فاختلفا ضربتين فقطع خالد سيفه الصمصامة وأخذها، ونزل عمرو عن فرسه وفتك في الخيل ولحق عمرو بالأسود فولاه على مذحج وكان أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث المرادي، وأمر الأبناء إلى فيروز ودادويه وتزوج امرأة شهر بن باذان واستفحل أمره. وخرج معاذ بن جبل هارباً ومر بأبي موسى الأشعري في مأرب فخرج معه ولحقا بحضرموت، ونزل معاذ في السكون وأبو موسى في السكاسك، ولحق عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بالمدينة. وأقام الطاهر بن أبي هالة ببلاد عك جبال صنعاء، فلما ملك الأسود اليمن واستفحل استخف بقيس بن عبد يغوث وبفيروز ودادويه، وكانت ابنة عم فيروز هي زوجة شمر بن باذان التي تزوجها الأسود بعد مقتله واسمها أزاد. وبلغ إلى النبي ﷺ فكتب مع وبر بن عنيس إلى الأبناء وأبي موسى ومعاذ والطاهر يأمرهم فيه أن يعملوا في أمر الأسود بالغيلة أو المصادقة ويبلغ عنه ما يروم عنده ديناً أو نجدة، وأقام معاذ والأبناء في ذلك فداخلوا قيس بن عبد يغوث في أمره فأجاب، ثم داخل فيروز بنت عمه زوجة الأسود فواعدته قتله، وكتب النبي ﷺ إلى عامر بن شمر الهمداني وبعث جرير بن عبد اللّه إلى ذي الكلاع وذي أمران وذي ظليم من أهل ناحيته وإلى أهل نجران من عربهم ونصاراهم واعترضوا الأسود ومشوا وتنحوا إلى مكان واحد. وأخبر الأسود شيطانه بغدر قيس وفيروز ودادويه فعاتبهم وهم بهم، ففروا إلى امرأته وواعدتهم أن ينقبوا البيت من ظهره ويدخلوا فبيتوه، ففعلوا ذلك ودخل فيروز ومعه قيس فقتل عنقه ثم ذبحه، فنادى بالأذان عند طلوع الفجر ونادى دادويه بشعار الإسلام، وأقام وبر بن حنيس الصلاة واهتاج الناس مسلمهم وكافرهم وماج بعضهم في بعض واختطف الكثير من أصحابه صبياناً من أبناء المسلمين، وبرزوا وتركوا كثيراً من أبنائهم ثم تراسلوا في رد كل ما بيده وأقاموا يترددون فيما بين صنعاء ونجران، وخلصت صنعاء والجنود، وتراجع أصحاب النبي ﷺ إلى أعمالهم وتنافسوا الإمارة في صنعاء، ثم اتفقوا على معاذ يصلي بهم وكتبوا إلى رسول اللّه ﷺ بالخبر، وكان قد أتاه خبر الواقعة من السماء فقال في غداتها: قتل العنسي البارحة قتله رجل مبارك وهو فيروز. ثم قدمت الرسل، وقد توفي النبي ﷺ.

بعث أسامة:

ولما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع آخر ذي الحجة ضرب على الناس في شهر المحرم بعثاً إلى الشام وأمر عليهم مولاه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم إلى الأردن من أرض فلسطين ومشارف الشام، فتجهز الناس وأوعب معه المهاجرون الأولون. فبينا الناس على ذلك ابتدأ ﷺ بشكواه التي قبضه اللّه فيها إلى كرامته ورحمته، وتكلم المنافقون في شأن أسامه، وبلغ الخبر بارتداد الأسود ومسيلمة، وخرج رسول اللّه ﷺ عاصباً رأسه من الصداع وقال: «إني رأيت البارحة في نومي أن في عضدي سوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطارا فأولتهما هذين الكذابين: صاحب اليمامة وصاحب اليمن».

«وقد بلغني أن أقواماً تكلموا في إمارة أسامة طعنوا في إمارته لقد طعنوا في إمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه لحقيقاً بالإمارة وإنه لحقيق بها انفروا».

فبعث أسامة فضرب أسامة بالحرق وتمهل، ونقل رسول اللّه ﷺ وتوفاه اللّه قبل توجه أسامة.

أخبار الأسود ومسيلمة وطليحة

كان النبي ﷺ بعدما قضى حجة الوداع تحلل به السير فاشتكى وطارت الأخبار بذلك فوثب الأسود باليمن كما مر

ووثب مسيلمة باليمامة، ثم وثب طليحة بن خويلد في بني أسد، يدعي كلهم النبوة. وحاربهم رسول اللّه ﷺ بالرسل والكتب إلى عماله ومن ثبت على إسلامه من قومهم أن يجدوا في جهادهم، فأصيب الأسود قبل وفاته بيوم ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر اللّه والذب عن دينه، فبعث إلى المسلمين من العرب في كل ناحية من نواحي هؤلاء الكذابين يأمرهم بجهادهم. وجاء كتاب مسيلمة إليه فأجابه كما مر وجاء ابن أخي طليحة يطلب الموادعة فدعا عليه ﷺ حتى كان من حكم اللّه فيهم بعد وفاته ما كان.

مرضه ﷺ

أول ما بدئ به رسول اللّه ﷺ من ذلك أن اللّه نعى إليه نفسه بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة، ثم بدأه الوجع لليلتين بقيتا من صفر وتمادى به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استقر به في بيت ميمونة، فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذنّ له. وخرج على الناس فخطبهم وتحلل منهم وصلى على شهداء أحد واستغفر لهم، ثم قال لهم: «إن عبداً من عباد اللّه خيره اللّه بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده». وفهمها أبو بكر فبكى، فقال: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال: على رسلك يا أبا بكر » ثم جمع رسول اللّه ﷺ أصحابه فرحب بهم وعيناه تدمعان ودعا لهم كثيراً وقال: أوصيكم بتقوى اللّه وأوصي اللّه بكم وأستخلفه عليكم وأودعكم إليه إني لكم نذير وبشير ألاّ تعلوا على اللّه في بلاده وعباده فإنه قال لي ولكم:﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ =لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَ=لا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾. »

ثم سالوه عن مغسله، فقال: « الأدنون من أهلي » وسألوه عن الكفن، فقال: في ثيابي هذه أو بياض مصر أو حلة يمانية » وسألوه عن الصلاة عليه، فقال: « دعوني على سريري في بيتي على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة حتى تصلي علي الملائكة ثم ادخلوا فوجاً بعد فوج فصلوا وليبدأ رجال أهل بيتي ثم نساؤهم » وسألوه عمن يدخله القبر، فقال: « أهلي » ثم قال: « ائتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده » فتنازعوا وقال بعضهم إنه يهجر وقال بعضهم: أهجر؟ يستفهم. ثم ذهبوا يعيدون عليه، ثم قال: « دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه » وأوصى بثلاث: أن يخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأن يجيزوا الوفد كما كان يجيزهم، وسكت عن الثالثة أو نسيها الرواي. وأوصى بالأنصار فقال: « إنهم كرشي وعيلتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم فقد أصبحتم يا معشر المهاجرين تزيدون والأنصار لا يزيدون » ثم قال: « سدوا هذه الأبواب في المسجد إلا باب أبي بكر فإني لا أعلم امرءاً أفضل يداً عندي في الصحبة من أبي بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة إخاء وإيمان حتى يجمعنا اللّه عنده » .

ثم ثقل به الوجع وأغمي عليه فاجتمع إليه نساؤه وبنوه وأهل بيته والعباس وعلي، ثم حضر وقت الصلاة فقال: « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقالت عائشة: إنه رجل أسيف لا يستطيع أن يقوم مقامك، فمر عمر فامتنع عمر، وصلى أبو بكر، ووجد رسول اللّه ﷺ خفة فخرج فلما أحسن به أبو بكر تأخر فجذبه رسول اللّه ﷺ وأقامه مكانه وقرأ من حيث انتهى أبو بكر، ثم كان أبو بكر يصلي بصلاته والناس بصلاة أبي بكر، قيل: صلوا كذلك سبع عشرة صلاة. وكان يدخل يده في القدح وهو في النزع فيسمح وجهه في الماء ويقول: « اللّهم أعني على سكرات الموت » فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج إلى صلاة الصبح عاصباً رأسه وأبو بكر يصلي، فنكص عن صلاته، ورده رسول اللّه ﷺ بيده وصلى قاعداً على يمينه، ثم أقبل على الناس بعد الصلاة فوعظهم وذكرهم، ولما فرغ من كلامه قال له أبو بكر: إني أراك قد أصبحت بنعمة اللّه وفضله كما نحب. وخرج إلى أهله في السنح. ودخل رسول اللّه ﷺ في بيته فاضطجع في حجرة عائشة، ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر عليه وفي يده سواك أخضر، فنظر إليه وعرفت عائشة أنه يريده قالت: فمضغته حتى لان وأعطيته إياه فاستن به ثم وضعه. ثم ثقل في حجري فذهبت انظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: « الرفيق الأعلى من الجنة » فعلمت أنه خيّر فاختار.

وفاته ﷺ

وكانت تقول: قبض رسول اللّه ﷺ بين سحري ونحري. وذلك نصف نهار يوم الاثنين لليلتين من شهر ربيع الأول ودفن من الغد نصف النهار من يوم الثلاثاء. ونادى النعي في الناس بموته وأبو بكر غائب في أهله بالسنح، وعمر حاضر فقام في الناس فقال: إن رجالاً من المنافقين زعموا أن رسول اللّه ﷺ مات وانه لم يمت وأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وليرجعن فيقطعن

أيدي رجال وأرجلهم. وأقبل أبو بكر وقد بلغه الخبر فدخل على رسول اللّه ﷺ فكشف عن وجهه وقبّله وقال: بأبي أنت وأمي قد ذقت الموتة التي كتب اللّه عليك ولن يصيبك بعدها موته أبداً. وخرج إلى عمر وهو يتكلم، فقال: أنصت! فأبى، وأقبل على الناس يتكلم فجاؤوا إليه وتركوا عمر، فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد اللّه فإن اللّه حي لا يموت ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية. فكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية في المنزل قال عمر: فما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أنه قد مات، وقيل: تلا معها: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ الآية. وبينما هم كذلك إذ جاء رجل يسعى بخبر الأنصار أنهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يبايعوا سعد بن عبادة يقولون: منا أمير ومن قريش أمير، فانطلق أبو بكر وعمر وجماعة المهاجرين إليهم، وأقام علي والعباس وابناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد يتولون تجهيز رسول اللّه ﷺ، فغسله علي مسنده إلى ظهره والعباس وابناه يقلّبونه معه وأسامة وشقران يصبان الماء وعلي يدلك من وراء القميص لا يفضي إلى بشرته بعد أن كانوا اختلفوا في تجهيزه، ثم أصابتهم سنة فخففونا وسمعوا من وراء البيت أن اغسلوه وعليه ثيابه ففعلوا، ثم كفنوه في ثوبين صحاريين وبرد حبرة أدرج فيهن إدراجاً، واستدعوا حفارين أحدهما يلحد والآخر يشق، ثم بعث إليهما العباس رجلين وقال: اللّهم اغفر لرسولك فجاء الذي يلحد وهو أبو طلحة زيد بن سهل كان يحفر لأهل المدينة فلحد لرسول اللّه ﷺ. ولما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته واختلفوا أيدفن في مسجده أو بيته، فقال أبو بكر: سمعته ﷺ يقول: ما قبض نبي إلا يدفن حيث قبض » فرفع فراشه الذي قبض عليه وحفر له تحته، ودخل الناس يصلون عليه أفواجاً الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد لا يؤم أحدهم أحداً، ثم دفن من وسط الليل ليلة الأربعاء وعن عائشة توفي لاثنتي عشر ليلة من ربيع الأول فكملت سنو الهجرة عشر سنين كوامل، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل خمس وستين سنة وقيل ستين.

خبر السقيفة

ولما قبض رسول اللّه ﷺ إرتاع الحاضرون لفقده حتى ظن بعضهم أنه لم يمت، واجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يبايعون سعد بن عبادة وهم يرون أن الأمر لهم بما أووا ونصروا، وبلغ الخبر إلى أبي بكر وعمر فجاؤوا إليهم ومعهم أبو عبيدة ولقيهم عاصم بن عدي وعويم بن ساعدة فأرادوهم على الرجوع وخفضوا عليهم الشان، فأبوا إلا أن يأتوهم فأتوهم في مكانهم ذلك فأعجلوهم عن شأنهم وغلبوهم عليه جماعاً وموعظة. وقال أبو بكر: نحن أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بأمره ولا ننازع في ذلك، وأنتم لكم حق السابقة والنصرة، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. وقال الحباب بن المنذر بن الجموح: منا أمير ومنكم أمير وإن أبوا فاجلوهم يامعشر الأنصار عن البلاد فبأسيافكم دان الناس لهذا الدين وإن شئتم أعدناها جذعة أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب. وقال عمر: إن رسول اللّه ﷺ أوصانا بكم كما تعلمون ولو كنتم الأمراء لأوصاكم بنا، ثم وقعت ملاحاة بين عمر والمنذر بن الحباب، وأبو عبيدة يخفضهما ويقول: اتقوا اللّه يامعشر الأنصار أنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر.

فقام بشير بن سعد بن النعمان بن كعب بن الخزرج فقال: الا إن محمداً من قريش وقومه أحق وأولى، ونحن وإن كنا أولي فضل في الجهاد وسابقة في الدين، فما أردنا بذلك إلا رضى اللّه وطاعة نبيه فلا نبتغي به من الدنيا عوضاً، ولا نستطيل به على الناس. فقال الحباب بن المنذر: نفست واللّه عن ابن عمك يابشير. فقال: لا واللّه! ولكن كرهت أن أنازع قوماً حقهم. فأشار أبو بكر إلى عمر وأبو عبيدة فامتنعا وبايعا أبا بكر وسبقهما إليه بشير بن سعد، ثم تناجى الأوس فيما بينهم وكان فيهم أسيد بن حضير أحد النقباء وكرهوا إمارة الخزرج عليهم وذهبوا إلى بيعة أبي بكر فبايعوه، وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطأون سعد بن عبادة، فقال ناس من أصحابه: اتقوا سعداً ولا تقتلوه. فقال عمر: اقتلوه قتله اللّه. وتماسكا فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر الرفق هنا أبلغ. فأعرض عمر ثم طلب سعداً في البيعة فأبى وأشار بشير بن سعد بتركه، وقال: إنما هو رجل واحد، فأقام سعد لا يجتمع معهم في الصلاة ولا يفيض معهم في الحديث حتى هلك أبو بكر. ونقل الطبري أن سعداً بايع يومئذ، وفي أخبارهم أنه لحق بالشام فلم يزل هنالك حتى مات وأن الجن قتله وينشدون البيتين الشهيرين وهما

نحن قتلنا سيد الخز ... رج سعد بن عباده
فرميناه بسه ... مين فلم نخط فؤاده

الخبر عن الخلافة الإسلامية في هذه الطبقة وما كان منها من الردة والفتوحات وما حدث بعد ذلك من الفتن والحروب في الإسلام ثم الاتفاق والجماعة

لما قبض رسول اللّه ﷺ وكان أمر السقيفة كما قدمناه، أجمع المهاجرون والأنصار على بيعة أبي بكر ولم يخالف إلا سعد إن صح خلافه فلم يلتفت إليه لشذوذه. وكان من أول ما اعتمده إنفاذ بعث أسامة، وقد ارتدت العرب إما القبيلة مستوعبة وإما بعض منها، ونجم النفاق والمسلمون كالغنم في الليلة المطرة لقلتهم وكثرة عدوهم وإظلام الجو بفقد نبيهم، ووقف أسامة بالناس ورغب من عمر التخلف عن هذا البعث والمقام مع أبي بكر شفقة من أن يدهمه أمر، وقالت له الأنصار: فإن أبي إلا المضي فليول علينا أسن من أسامة. فأبلغ عمر ذلك كله أبا بكر فقام وقعد وقال: لا أترك أمر رسول اللّه ﷺ حتى أخرج أو أنفذه. ثم خرج حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وأذن لعمر في الشخوص، وقال: أوصيكم بعشر فاحفظوها علي: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وإذا لقيتم أقواماً فحصوا أواسط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصايب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه. فإذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم اللّه عليه وكلوا ترفعوا باسم اللّه.

يا أسامة! اصنع ما أمرك به نبي اللّه ابدأ ببلاد قضاعة ثم أنت آفل ولا تقصر بشيء من أمر رسول اللّه ﷺ. ثم ودعه من الحرف ورجع. وقد كان بعث معه من القبائل حول المدينة الذين لهم الهجرة في ديارهم وحبس من بقي منهم فصار مسالح حول قبائلهم ومضى أسامة مغذاً وانتهى لما أمره به النبي ﷺ ، وبعث الجنود في بلاد قضاعة وأغار على أبنى فسبى وغنم ورجع لأربعين يوماً وقيل لسبعين، ولم يحدث أبو بكر في مغيبه شيئاً، وقد جاء الخبر بارتداد العرب عامة وخاصة إلا قريشاً وثقيفاً، واستغلظ أمر مسيلمة واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد وارتدت غطفان وتوقفت هوازن فأمسكوا الصدقة، وارتد خواص من بني سليم وكذا سائر الناس بكل مكان. وقدمت رسل النبي ﷺ من اليمن واليمامة وبني أسد من الأمراء من كل مكان بانتقاض العرب عامة أو خاصة، وحاربهم بالكتب والرسل وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة، فعاجلته عبس وذبيان ونزلوا في الأبرق ونزل آخرون بذي القصة ومعهم خبال من بني أسد ومن انتسب إليهم من بني كنانة، وبعثوا وفداً إلى أبي بكر نزلوا على وجوه الناس يطلبون الاقتصار على الصلاة دون الزكاة، فأبى أبو بكر من ذلك، وجعل على أنقاب المدينة علياً والزبير وطلحة وعبد اللّه بن مسعود، وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد، ورجع وفد المرتدين وأخبروا قومهم بقلة أهل المدينة فأغاروا على من كان بأنقاب المدينة، فبعثوا إلى أبي بكر فخرج في أهل المسجد على النواضح، فهربوا والمسلمون في اتباعهم إلى ذي خشب، ثم نفروا إبل المسلمين بلعبات اتخذوها فنفرت ورجعت بهم وهم لا يملكونها إلى المدينة ولم يصبهم شيء، وظن القوم بالمسلمين الوهن فبعثوا إلى أهل ذي القصة يستقدمونهم. ثم خرج أبو بكر في التعبئة وعلى ميمنته النعمان بن مقرن وعلى ميسرته عبد اللّه بن مقرن، وعلى الساقة سويد بن مقرن، وطلع عليهم مع الفجر واقتتلوا فما ذر قرن الشمس إلا وقد هزموهم وغنموا ما معهم من الظهر وقتل خبال، واتبعهم: أبو بكر إلى ذي القصة فجهز بها النعمان بن مقرن في عدد ورجع إلى المدينة، ووثب بنو ذبيان وعبس على من كان فيهم من المسلمين فقتلوهم وفعل ذلك غيرهم من المرتدين، وحلف أبو بكر ليقتلن من المشركين مثل من قتلوهم من المسلمين وزيادة. واعتز المسلمون بوقعة أبي بكر وطرقت المدينة صدقات. وقدم أسامة فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وخرج في نفر إلى ذي خشب وإلى ذي قصة ثم سار حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق وبها عبس وذبيان وبنو بكر من كنانة وثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة، فاقتتلوا وانهزم القوم، وأقام أبو بكر على الأبرق، وحرم تلك البلاد على بني ذبيان ثم رجع إلى المدينة.

ردة اليمن

توفي رسول اللّه ﷺ وعلى مكة وبني كنانة عتاب بن أسيد، وعلى الطائف وأرضها عثمان بن أبي العاص على المدر، ومالك بن عوف على الوبر، وعلى عجز هوازن عكرمة بن أبي جهل، وعلى نجران وأرضها عمرو بن حزام على الصلاة، وأبو سفيان بن حرب على الصدقات، وعلى ما بين زمع وزبيد إلى نجران خالد بن سعيد بن العاص، وعلى همدان كلها عامر بن شمر الهمداني، وعلى صنعاء فيروز الديلمي ومسانده دادويه وقيس بن مكشوح المرادي ورجعوا إليها بعد مقتل الأسود، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى مأرب أبو موسى الأشعري، وعلى

الأشعريين وعك الطاهر بن أبي هالة، وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياض وعكاشة بن ثور بن أصغر العوثي، وعلى كندة المهاجر بن أبي أمية، وقد كان رسول الله ﷺ غضب عليه في غزوة تبوك فاسترضته له أم سلمة وولاه على كندة، ومرض فلم يصل إليها، وأقام زياد بن لبيد ينوب عنه. وكان معاذ بن جبل يعلم القرآن باليمن يتنقل على هؤلاء في أعمالهم.

وثار الأسود في حياة رسول الله ﷺ وحاربه بالرسل وبالكتب فقتله الله وعاد الإسلام في اليمن كما كان، فلما بلغه الموت انتقضت اليمن وارتد أهلها في جميع النواحي وكانت الغالة من جند العنسي بين نجران وصنعاء لا يأوون إلى أحد، ورجع عمرو بن حزام إلى المدينة واتبعه خالد بن سعيد، وكان عمرو بن معديكرب بالجبال حيال فروة بن مسيك وابن مكشوح وتحيل في قتل الأبناء فيروز دادويه وخشنش والاستبداد بصنعاء، وبعث إلى الغالة من جيش الأسود يغريهم بالأبناء ويعدهم المظاهرة عليهم فجاءوا إليه، وخشي الأبناء غائلتهم وفزعوا إليه فأظهر لهم المناصحة، وهيأ طعاماً فجمعهم له ليغدر بهم، فظفر منهم بدادويه وهرب فيروز وخشنش وخرج قيس في أثرهما، فامتنعا بخولان أخوال فيروز وثار قيس بصنعاء وجبى ما حولها وجمع الغالة من جنود الأسود إليه، وكتب فيروز إلى أبي بكر بالخبر، فكتب له بولاية صنعاء، وكتب إلى الطاهر بن أبي هالة بإعانته، وإلى عكاشة بن ثور بأن يجمع أهل تهامة ويقيم بمكانة، وكتب إلى ذي الكلاع سميقح وذي ظليم حوشب، وذي تبان شهر بإعانة الأبناء وطاعة فيروز وإن الجند يأتيهم. وأرسل إليهم قيس بن مكشوح يغريهم بالأبناء، فاعتزل الفريقان واتبعت عوامهم قيس بن مكشوح في شأنه، وعمد قيس إلى عيلات الأبناء الذين مع فيروز فغر بهم وأخرجهم من اليمن في البر والبحر وعرضهم للنهب.

فأرسل فيروز إلى بني عقيل بن ربيعة وإلى عك يستصرخهم، فاعترضوا عيال فيروز والأبناء الذين معه فاستنقذوهم وقتلوا من كان معه، وجاءوا إلى فيروز فقاتلوا معه قيس بن مكشوح دون صنعاء فهزموه، ورجع إلى المكان الذي كان به مع فالة الأسود العنسي. وانضاف قيس إلى عمرو بن معديكرب وهو مرتد منذ تنبأ الأسود العنسي، وقام حيال فروة بن مسيك، وقد كان فروة وفد أسلم وكذلك قيس، واستعمل رسول الله ﷺ قيساً على صدقات مراد، وكان عمرو قد فارق قومه سعد العشيرة مع بني زبيد وأحلافها وانحاز إليهم فأسلم معهم وكان فيهم فلما انتقض الأسود، واتبعه عوام مذحج كان عمرو فيمن اتبعه، وأقام فروة فيمن معه على الإسلام فولى الأسود عمراً وجعله بحياله.

وكانت كندة قد ارتدوا وتابعوا الأسود العنسي بسبب ما وقع بينهم وبين زياد الكندي في أمر فريضة من فرائض الصدقة أطلقها بعض بني عمرو بن معاوية بعد أن وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً، فقاتلهم زياد وهزمهم، فاتفق بنو معاوية على منع الصدقة والردة إلا شراحيل بن السمط وابنه، وأشير على زياد بمعاجلتهم قبل أن ينضم إليهم بعض السكاسك وحضرموت، وأبضعه وجمد ومشرح ومخوس وأختهم العمردة، وهرب الباقون ورجع زياد بالسبي والغنائم، ومر بالأشعث بن قيس وبني الحرث بن معاوية واستغاث نساء السبي فسار الأشعث وتنقذهم، ثم جمع بني معاوية كلهم ومن أطاعه من السكاسك وحضرموت وأقام على ردته. وكان أبو بكر قد حارب أهل الردة أولاً بالكتب كما حاربهم رسول الله صلى اله عليه وسلم إلى أن رجع أسامة بن زيد ثم كان أول مصارم فخرج إلى الأبرق واستنفر من لم يرتد إلى من ارتد وابتدأ بالمهاجرين والأنصار، ثم استنفر كلاً على من يليه حتى فرغ من آخر أمور الناس لا يستعين بمرتد، وكتب إلى عتاب بن أسيد بمكة وعثمان بن أبي العاص بالطائف بركوب من ارتد بمن لم يرتد وثبت على الإسلام من أهل عملها. وقد كان اجتمع بتهامة وشباب من مدلج وخزاعة، فبعث عتاب إليهم ففرقهم وقتلهم. واجتمع بشنوءة جمع من الأزد وخثعم وبجيلة فبعث إليهم عثمان بن أبي العاص من فرقهم وقتلهم. واجتمع بطريق الساحل من تهامة جموع من عك والأشعريين فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة ومعه مسروق العكي فهزموهم وقتلوهم، وأقام بالأجناد ينتظر أمر أبي بكر ومعه مسروق العكي. وبعث أهل نجران من بني الأفعى الذين كانوا بها قبل بني الحرث وهم في أربعين ألف مقاتل، وجاء وفدهم يطلبون إمضاء العهد الذي بأيديهم من النبي ﷺ، فامضاه أبو بكر إلا ما نسخه الوحي بأن لا يترك دينان بأرض العرب.

ورجعت رسل النبي ﷺ الذين كان بعثهم عند انتقاض الأسود العنسي وهم: جرير بن عبد الله والأقرع ووبر بن مخنس فرد أبو بكر جريراً، ليستنفر من ثبت على الإسلام على من ارتد ويقاتل خثعم الذين غضبوا لهدم ذي الخليفة فيقتلهم ويقيم بنجران، فنفذ ما أمره به، ولم يمر به أحد إلا رجال قليل تتبعهم بالقتل، وسار إلى نجران.

وكتب أبو بكر إلى عثمان بن أبي العاص أن يضرب البعوث على مخاليف أهل الطائف، فضرب على كل مخلاف عشرين وأمر عليهم أخاه.

وكتب إلى عتاب بن أسيد أن يضرب على مكة وعملها خمسمائة بعث وأمر عليهم أخاه خالداً وأقاموا ينتظرون، ثم أمر المهاجر بن أبي أمية بأن يسير إلى اليمن ليصلح من أمره ثم ينفذ إلى عمله وأمره بقتال من بين نجران وأقصى اليمن ففعل ذلك. ومر بمكة والطائف فسار معهم خالد بن أسيد وعبد الرحمن بن أبي العاص بمن معهما، ومر بجرير بن عبد الله وعكاشة بن ثور فضمهما إليه، ثم مر بنجران وانضم إليه فروة بن مسيك، وجاءه عمرو بن معديكرب وقيس بن مكشوح فأوثقهما وبعث بهما إلى أبي بكر، وسار إلى لقائه فتبعهم بالقتل ولم يؤمنهم فقتلوا بكل سبيل. وحضر قيس عند أبي بكر فحظر قتل دادويه ولم يجد أمراً جلياً في أمره، وتاب عمرو بن معديكرب واستقالا فأقالهما وردهما.

وسار المهاجر حتى نزل صنعاء وتتبع ارتداد القبائل فقتل من قدر عليه وقبل توبة من رجع إليه وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء، فجاءه الجواب بأن يسير إلى كندة مع عكرمة بن أبي جهل وقد جاءه من ناحية عمان ومعه خلق كثير من مهرة والأزد وناجية وعبد القيس وقوم من مالك بن كنانة وبني العبتر، وقدم أبين وأقام بها لاجتماع النخع وحمير ثم سار مع المهاجر إلى كندة، وكتب زياد إلى المهاجر يستحثه فلقيه الكتاب بالمفازة بين مأرب وحضرموت، فاستخلف عكرمة على الناس وتعجل إلى زياد ونهدوا إلى كندة وعليهم الأشعث بن قيس فهزموهم وقتلوهم وفروا إلى النجير حصن له فتحصنوا فيه مع من استغووه من السكاسك وشذاذ السكون وحضرموت وسدوا عليهم الطرق، إلا واحدة جاء عكرمة بعدهم فسدها وقطعوا عنهم المدد وخرجوا مستميتين في بعض الأيام فغلبوهم وأخرجوهم. واستأمن الأشعث إلى عكرمة بما كانت أسماء بنت النعمان بن الجون تحته فخرج إليه، وجاء به إلى المهاجر وأمنه في أهله وماله وتسعة من قومه على أن يفتح لهم الباب، فاقتحمه المسلمون وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية فكان في السبي ألف امرأة، فلما فرغ من النجير دعا بكتاب الأمان من الأشعث وإذا هو قد كتب غرض نفسه في التسعة رجال من أصحابه، فأوثقه كتافاً وبعث به إلى أبي بكر ينظر في أمره، فقدم السبايا والأسرى، فقال له أبو بكر: أقتلك؟ قال إني راودت القوم على عشرة وأتيناهم بالكتاب مختومة، فقال أبو بكر: إنما الصلح على من كان في الصحيفة وأما غير ذلك فهو مردود. فقال يا أبا بكر: احتسب في وأقلني واقبل إسلامي ورد علي زوجتي، وقد كان تزوج أم فروة أخت أبي بكر حين قدم على رسول الله ﷺ وأخرها إلى أن يرجع، فأطلقه أبو بكر وقبل إسلامه ورد عليه زوجته وقال: ليبلغني عنك خيراً، ثم خلى عن القوم فذهبوا وقسم الأنفال.

بعث الجيوش للمرتدة

لما قدم أسامة ببعث الشام على أبي بكر استخلفه على المدينة ومضى إلى الربذة فهزم بني عبس وذبيان وكنانة بالأبرق ورجع إلى المدينة كما قدمناه، حتى إذا استجم جند أسامة وتاب من حوالي المدينة خرج إلى ذي القصة على بريد من تلقاء نجد، عقد فيها أحد عشر لواء على أحد عشر جنداً لقتال أهل الردة، وأمر كل واحد باستنفار من يليه من المسلمين من كل قبيلة، وترك بعضها لحماية البلاد. فعقد لخالد بن الوليد وأمره لطليحة وبعده لمالك بن نويرة بالبطاح، ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة واليمامة ثم أردفه بشرحبيل بن حسنة وقال له: إذا فرغت من اليمامة فسر إلى قتال قضاعة والمهاجر بن أبي أمية وأمره بالغالة من جنود العنسي باليمن وبإعانة الأبناء مع قيس بن مكشوح ومن معه ثم تمضي إلى كندة بحضرموت، ولخالد بن سعيد بن العاص وقد كان قدم بعد الوفاة إلى المدينة من اليمن وترك عماله فبعثه إلى مشارف الشام، ولعمرو بن العاص إلى قتال المرتدة من قضاعة، ولحذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة فحذيفة لأهل دبا وعرفجة لمهرة وكل واحد منهما أمير في عمله على صاحبه.

ولطريفة بن حاجز وبعثه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن، ولسويد بن مقرن وبعثه إلى تهامة اليمن، وللعلاء بن الحضرمي وبعثه إلى البحرين. وكتب إلى الأمراء عهودهم بنص واحد:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن الغارة عليهم حتى يقروا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب

إلى داعية اللّه قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل اللّه من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه، ومن أبى قاتله فإن أظهره اللّه عليه عز وجل قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران. ثم قسم ما أفاء اللّه عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وأن يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول انتهى.

وكتب إلى كل من بعث إليه الجنود من المرتدة كتاباً واحداً في نسخ كثيرة على يد رسل تقدموا بين أيديهم نصه بعد البسملة: هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول اللّه ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة أقام على الإسلام أو رجع عنه، سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع إلى الضلالة والهوى، فإني أحمد إليكم اللّه الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأومن بما جاء به وأكفر من أبى وأجاهده أما بعد: ثم قرر أمر النبوة ووفاة رسول اللّه ﷺ وأطنب في الموعظة ثم قال: وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية اللّه، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه، ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقي على أحد منهم هدر عليه، فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز اللّه، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية للأذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم وإن لم يؤذنوا فاسألوهم بما عليهم فإن أبو عاجلوهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم انتهى. فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وخرجت الأمراء ومعهم العهود وكان أول ما بدأ به خالد طليحة وبني أسد.

خبر طليحة

كان طليحة قد ارتد في حياة رسول اللّه ﷺ وكان كاهناً فادعى النبوة واتبعه أفاريق من بني إسرائيل ونزل سميراء، وبعث رسول اللّه ﷺ ضرار بن الأزور إلى قتاله مع جماعة، فاجتمع عليهم المسلمون وهم ضرار بمناجزته، فأتى الخبر بموت النبي ﷺ فاستطار أمر طليحة واجتمعت إليه غطفان وهوازن وطيء، وفر ضرار ومن معه من العمال إلى المدينة وقدمت وفودهم على أبي بكر في الموادعة على ترك الزكاة فأبى من ذلك، وخرج كما قدمناه إلى غطفان وأوقع بهم بذي القصة فانضموا بعد الهزيمة إلى طليحة وبني أسد بالبزاخة وكذلك فعلت طيء وأقامت بنو عامر وهوازن ينتظرون. وصعد خالد إلى طليحة ومعه عيينة بن حصن على بزاخة من مياه بني أسد وأظهر أنه يقصد خيبر ثم ينزل إلى سلمى وأجأ فيبدأ بطيء. وكان عدي بن حاتم قد خرج معه في الجيش فقال له: أنا أجمع لك قبائل طيء يصحبونك إلى عدوك. وسار إليهم فجاء بهم وبعث خالد عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم من الأنصار طليعة ولقيهما طليحة وأخوه فقتلاهما ومر بهما المسلمون فعظم عليهم قتلهما. ثم عبى خالد كتائبه وثابت بن قيس على الأنصار وعدي بن حاتم على طيء ولقي القوم فقاتلهم، وعيينة بن حصن مع طليحة في سبعمائة من غطفان، واشتد المجال بينهم وطليحة في عباءة يتكذب لهم في انتظار الوحي، فجاء عيينة بعدما ضجر من القتال وقال: هل جاءك أحد بعد؟ قال: لا! ثم راجعه ثانية ثم ثالثة فقال: جاء. وقال إن لك رحى كرحاه، وحديثاً لا تنساه. فقال عيينة: يا بني فزارة الرجل كذاب، وانصرف فانهزموا وقتل من قتل وأسلم الناس طليحة فوثب على فرسه واحتقب امرأته فنجا بها إلى الشام، ونزل في كلب من قضاعة على النقع حتى أسلمت أسد وغطفان، فأسلم ثم خرج معتمراً أيام عمر ولقيه بالمدينة فبايعه وبعثه في عساكر الشام، فأبلى في الفتح، ولم يصب من عيالات بني أسد في واقعة بزاخة شيء، لأنهم كانوا أخرجوهم في الحصون عند واسط وأسلموا خشية على ذراريهم.

خبر هوازن وسليم وبني عامر

كان بنو عامر ينتظرون أمر طليحة وما تصنع أسد وغطفان حتى أحيط بهم، وكان قرة بن هبيرة في كعب وعلقمة بن علاثة في كلاب وكان علقمة قد ارتد بعد فتح الطائف، ولما قبض النبي ﷺ رجع إلى قومه، وبلغ أبا بكر خبره فبعث إليه سرية مع القعقاع بن عمرو من بني تميم فأغار عليهم، فأفلت وجاء بأهله وولده وقومه فأسلموا. وكان قرة بن هبيرة قد لقي عمرو بن العاص منصرفه من عمان بعد الوفاة وأضافه وقال له: اتركوا الزكاة فإن العرب لا تدين لكم بالأتاوة، فغضب لها عمرو وأسمعه وأبلغها أبا بكر، فلما أوقع خالد ببني أسد وغطفان وكانت هوازن وسليم وعامر ينتظرون أمرهم فجاءوا إلى خالد وأسلموا وقبل منهم الإسلام، إلا من عدا على أحد من المسلمين أيام الردة فإنه تتبعهم فأحرق وقحط ورضخ بالحجارة ورمى من رؤوس الجبال، ولما فرغ من أمر بني عامر أوثق عيينة بن حصن

وقرة بن هبيرة وبعث بهما إلى أبي بكر فتجاوز لهما وحقن دماءهما.

ثم اجتمعت قبائل غطفان إلى سلمى بنت مالك بن حذيفة من بدر بن ظفر في الحوأب فنزلوا إليها وتذمروا، وكانت سلمى هذه قد سبيت قبل وأعتقتها عائشة وقال لها النبي ﷺ يوماً وقد دخل عليها وهي في نسوة ببيت عائشة فقال: «إن إحداكن تستنبح كلاب الحوأب» وفعلت ذلك سلمى حين ارتدت واجتمعت إليها الفلال من غطفان، وهوازن وسليم وطيء وأسد، وبلغ ذلك خالداً وهو يتبع الثأر ويأخذ الصدقات، فسار إليهم وقاتلهم وسلمى واقفة على جملها حتى عقد وقتلت، وقتل حول هودجها مائة رجل، فانهزموا وبعث خالد بالفتح على أثره بعده بعشرين ليلة.

وأما بنو سليم فكان الفجاءة بن عبد يا ليل قدم على أبي بكر ليستعينه بسلاح مدعياً إسلامه ويضمن له قتال أهل الردة فأعطاه وأمره، وخرج إلى الجون وارتد وبعث نجبة بن أبي المثنى من بني الشريد، وأمره بشن الغارة على المسلمين في سليم وهوازن. فبعث أبو بكر إلى طريفة بن حاجز قائده على جرهم وأعانه بعبد الله بن قيس الحاسي فنهضا إليه ولقياه، فقتل نجبة وهرب الفجاءة فلحقه طريفة فأسره وجاء به إلى أبي بكر فأوقد له في مصلى المدينة حطباً ثم رمى به في النار مقموطاً، وفاءت بنو سليم كلهم وفاء معهم أبو شجرة بن عبد العزى أبو الخنساء وكان فيمن ارتد.

خبر بني تميم وسجاح

قبض رسول الله ﷺ وعماله في بني تميم الزبرقان بن بدر على الرباب وعوف والأبناء وقيس بن عاصم على المقاعس والبطون وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو على بني عمرو ووكيع بن مالك على بني مالك ومالك بن نويرة على بني حنظلة، فجاء صفوان إلى أبي بكر حين بلغته الوفاة بصدقات بني عمرو، وجاء الزبرقان بصدقات أصحابه، وخالفه قيس بن عاصم في المقاعس والبطون، لأنه كان ينتظره، وبقي من أسلم منهم متشاغلا بمن تربص أو ارتاب. وبينما هم على ذلك فجأتهم سجاح بنت الحارث بن سويد من بني عقفان أحد بطون تغلب وكانت تنبأت بعد الوفاة، واتبعها الهذيل بن عمران من بني تغلب وعقبة بن هلال في النمر والسليل بن قيس في شيبان وزياد بن بلال وكان الهذيل نصرانياً فترك دينه إلى دينها، وأقبلت من الجزيرة في هذه الجموع قاصدة المدينة لتغزو أبا بكر والمسلمين، وانتهت إلى الحرف فدهم بني تميم أمر عظيم لما كانوا عليه من اختلاف الكلمة، فوادعها مالك بن نويرة وثناها عن الغزو وحرضها على بني تميم ففروا أمامها، ورجع إليها وكيع بن مالك واجتمعت الرباب وضبة فهزموا أصحاب سجاح أسروا منهم، ثم اصطلحوا.

وسارت سجاح فيمن معها تريد المدينة فبلغت النباج فاعترضهم بنو النجيم فيمن تأشب إليهم من بني عمرو وأغاروا عليهم فأسروا الهذيل وعقبة، ثم تحاجزوا على أن تطلق أسراهم ويرجعوا ولا يجتازوا عليهم، ورجع عن سجاح مالك بن نويرة ووكيع بن مالك إلى قومهم ويئست سجاح وأصحابها من الجواز عليهم، ونهدت إلى بني حنيفة، وسار معها من تميم الزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب وعمرو بن الأهتم وغيلان بن حريث وشبث بن ربعي ونظراؤهم، وصانعها مسيلمة بما كان فيه من مزاحمة ثمامة بن إثال له في اليمامة. وزحف شرحبيل بن حسنة والمسلمون إليه فأهدى لها واستأمنها وكانت نصرانية أخذت الدين من نصارى تغلب، فقال لها مسيلمة: نصف الأرض لنا ونصف الأرض لقريش لكنهم لم يعدلوا فقد جعلت نصفهم لك. ويقال إنها جاءت إليه واستأمنته وخرج إليها من الحصن إلى قبة ضربت لها بعد أن جمرها فدخل إليها وتحرك الحرث حوالي القبة وسجع لها وسجعت له من أسجاع الفرية، فشهدت له بالنبوة وخطبها لنفسه فتزوجته وأقامت عنده ثلاثاً ورجعت إلى قومها، فعذلوها في التزويج على غير صداق فرجعت إليه فقال لها: نادي في أصحابك إني وضعت عنهم صلاة الفجر والعتمة مما فرض عليهم محمد، وصالحته على أن يحمل لها النصف من غلات اليمامة فأخذته وسألت أن يسلفها النصف للعام القابل، ودفعت الهذيل وعقبة لقبضه فهم على ذلك، وإذا بخالد بن الوليد وعساكره قد أقبلوا فانفضت جموعهم وافترقوا، ولحقت سجاح بالجزيرة فلم تزل في بني تغلب حتى نقل معاوية عام الجماعة بني عقفان عشيرتها إلى الكوفة، وأسلمت حينئذ سجاح وحسن إسلامها.

ولما افترق وفد الزبرقان والأقرع على أبي بكر وقالا: إجعل لنا خراج البحرين ونحن نضمن لك أمرها ففعل وكتب لهم بذلك، وكان طلحة بن عبيد الله يتردد بينهم في ذلك، فجاء إلى عمر ليشهد في الكتاب فمزقه ومحاه وغضب طلحة، وقال لأبي بكر رضي الله عنه: أنت الأمير أم عمر رضي الله عنه؟ فقال عمر: غير أن الطاعة لي! وشهد الأقرع والزبرقان مع خالد اليمامة والمشاهد كلها. ثم مضى الأقرع مع شرحبيل إلى دومة.

خبر البطاح ومالك بن نويرة

لما انصرفت سجاح إلى الجزيرة وراجع بنو تميم الإسلام أقام مالك بن نويرة متحيراً في أمره واجتمع إليه من تميم بنو حنظلة واجتمعوا بالبطاح، فسار إليهم خالد بعد أن تقاعد عنه الأنصار يسألونه انتظار كتاب أبي بكر، فأبى إلا انتهاز الفرصة من هؤلاء، فرجعوا إلى اتباعه ولحقوا به. وكان مالك بن نويرة لما تردد في أمره فرق بني حنظلة في أموالهم ونهاهم عن القتال ورجع إلى منزله، ولما قدم خالد بعث السرايا يدعون إلى الإسلام ويأتون بمن لم يجب وأن يقتلوه، فجاءوا بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع واختلفت السرية فيهم، فشهد أبو قتادة أنهم أذنوا وصلوا فحبسهم عند ضرار بن الأزور وكانت ليلة ممطرة فنادى مناديه أن ادفئوا أسراكم وكانت في لغتة كناية عن القتل فبادر ضرار بقتلهم وكان كنانياً. وسمع خالد الداعية فخرج متأسفاً وقد فرغوا منهم، وانكر عليه أبو قتادة فزجره خالد، فغضب ولحق بأبي بكر ويقال: إنهم لما جاءوا بهم إلى خالد خاطبه مالك بقوله: فعل صاحبكم شأن صاحبكم فقال له خالد: أوليس لك بصاحب؟ ثم قتله وأصحابه كلهم ثم قدم خالد على أبي بكر وأشار عمر أن يقيد منه بمالك بن نويرة أو يعزله فأبى، وقال: ما كنت أشيم سيفاً سله الله على الكافرين، وودى مالكاً وأصحابه ورد خالداً إلى عمله.

خبر مسيلمة واليمامة

لما بعث أبو بكر رضي الله عنه عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة الكذاب واتبعه شرحبيل استعجل عكرمة فانهزم وكتب إلى أبي بكر بالخبر، فكتب إليه لا ترجع فتوهن الناس وامض إلى حذيفة وعرفجة فقاتلوا مهرة وأهل عمان فإذا فرغتم فامض أنت وجنودك واستنفروا من مررتم عليه حتى تلقوا المهاجر بن أمية باليمن وحضرموت، وكتب إلى شرحبيل أن يمضي إلى خالد فإذا فرغتم فامض أنت إلى قضاعة فكن مع عمرو بن العاص على من ارتد منهم. ولما فرغ خالد من البطاح ورضي عنه أبو بكر بعثه نحو مسيلمة وأوعب معه الناس، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبراء بن عازب، وتعجل خالد إلى البطاح وانتظر البعوث حتى قدمت عليه، فنهض إلى اليمامة وبنو حنيفة يومئذ كثير يقال أربعون ألف مقاتل متفرقين في قراها وحجرها، وتعجل شرحبيل كما فعل عكرمة بقتال مسيلمة فنكب وجاء خالد فلامه على ذلك.

ثم جاء خليط من عند أبي بكر مدداً لخالد ليكون ردءاً له من خلفه ففرت جموع كانت تجمعت هنالك من فلال سجاح، وكان مسيلمة قد جعل لهم جعلاً. وكان الرَّجَّال بن عنفوة من أشراف بني حنيفة شهد لمسيلمة بأن رسول الله ﷺ أشركه معه في الأمر لأن الرجال، كان قد هاجر وأقام مع رسول الله ﷺ وقرأ القرآن وتفقه في الدين فلما ارتد مسيلمة بعثه النبي ﷺ معلماً لأهل اليمامة ومشغباً على مسيلمة فكان أعظم فتنة على بني حنيفة منه. واتبع مسيلمة على شأنه وشهد له وكان يؤذن لمسيلمة ويشهد له بالرسالة بعد النبي ﷺ، فعظم شأنه فيهم وكان مسيلمة ينتهي إلى أمره، وكان مسيلمة يسجع لهم بأسجاع كثيرة يزعم أنها قرآن يأتيه، ويأتي بمخارق يزعم أنها معجزات فيقع منها ضد المقصود. ولما بلغ مسيلمة وبني حنيفة دنو خالد، خرجوا وعسكروا في منتهى ريف اليمن واستنفروا الناس فنفروا إليهم، وأقبل خالد ولقيه شرحبيل بن حسنة فجعله على مقدمته، حتى إذا كان على ليلة من القوم هجموا على مجاعة في سرية أربعين أو ستين راجعين من بلاد بني عامر وبني تميم يثأرون فيهم فوجدوهم دون ثنية اليمامة فقتلوهم أجمعين، وقيل له استبق مجاعة بن مرارة إن كنت تريد اليمامة فاستبقى.

ثم سار خالد ونازل بني حنيفة ومسيلمة والرجَّال على مقدمة مسيلمة واشتدت الحرب وانكشف المسلمون حتى دخل بنو حنيفة خباء خالد، ومجاعة بها أسير مع أم متمم زوجة خالد، فدافعهم عنها مجاعة وقالت: نعمت الحرة. ثم تراجع المسلمون وكروا على بني حنيفة فقال المحكم بن الطفيل: ادخلوا الحديقة يا بني حنيفة فإني أمنع أدباركم، فقاتل ساعة ثم قتله عبد الرحمن بن أبي بكر، ثم تذامر المسلمون وقاتل ثابت بن قيس فقتل ثم زيد بن الخطاب ثم أبو حذيفة ثم سالم مولاه ثم البراء أخو أنس بن مالك وكان تأخذه عند الحرب رعدة حتى ينتفض ويقعد عليه الرجال حتى يبول، ثم يثور كالأسد فقاتل وفعل الأفاعيل.

ثم هزم الله العدو والجأهم المسلمون إلى الحديقة وفيها مسيلمة فقال البراء: ألقوني عليهم من أعلى الجدار فاقتحم، وقاتلهم من أعلى الحديقة ودخل المسلمون عليهم، وقتل مسيلمة وهو مزبد متساند لا يعقل من الغيظ، وكان زيد بن الخطاب قتل الرجال بن عنفوة. وكان خالد لما نزل بني حنيفة ومسيلمة ودارت الرحى عليه طلب البراز فقتل جماعة، ثم دعا مسيلمة للبراز والكلام فحادثة فحاول فيه غرة وشيطانه يوسوس إليه، ثم ركبه خالد فأرهقه وأدبروا وزالوا عن مراكزهم وركبهم المسلمون فانهزموا.

وتطاير الناس عن مسيلمة بعد أن قالوا: أين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا على أحسابكم. وأتاه وحشي فرماه بحربه فقتل.

واقتحم الناس عليه حديقة الموت من حيطانها وأبوابها فقتل فيها سبعة عشر ألف مقاتل من بني حنيفة، وجاء خالد بمجاعة ووقفه على القتلى ليريه مسيلمة فمر بمحكم فقال: هوذا! فقال مجاعة: هذا واللّه خير منه، ثم أراه مسيلمة وهو رجل ذميم أخينس، فقال خالد: هذا الذي فعل فيكم ما فعل، فقال مجاعة: قد كان ذلك وإنه واللّه ما جاءك إلا سرعان الناس وإن جماهيرهم في الحصون فهلم أصالحك على قومي.

وقد كان خالد التقط من دون الحصون ما وجد من مال ونساء وصبيان ونادى بالنزول عليها فلما قال له مجاعة ذلك قال له: أصالحك على ما دون النفوس. وانطلق يشاوره فأفرغ السلاح على النساء ووقفن بالسور ثم رجع إليه وقال: أبوا أن يجيزوا ذلك، ونظر خالد إلى رؤوس الحصون قد اسودت والمسلمون قد نهكتهم الحرب وقد قتل من الأنصار ما ينيف على الثلاثمائة والستين، ومن المهاجرين مثلها ومن التابعين لهم مثلها أو يزيدون، وقد فشت الجراحات فيمن بقي، فجنح إلى السلم فصالحه على الصفراء والبيضاء، ونصف السبي والحلقة وحائط ومزرعة من كل قرية، فأبوا فصالحهم على الربع فصالحوه. وفتحت الحصون فلم يجد فيها إلا النساء والصبيان

فقال خالد: خدعتني يا مجاعة فقال: قومي! ولم أستطع إلا ما صنعت فعقد لهم وخيرهم ثلاثاً فقال له سلمة بن عمير لا نقبل صلحاً! ونعتصم بالحصون ونبعث إلى أهل القرى فالطعام كثير والشتاء قد حضر، فتشاءم مجاعة برأيه وقال لهم: لولا أني خدعت القوم ما أجابوا إلى هذا، فخرج معه سبعة من وجوه القوم وصالحوا خالداً وكتب لهم وخرجوا إلى خالد للبيعة والبراءة مما كانوا عليه.

وقد أضمر سلمة بن عمير الفتك بخالد فطرده حين وقعت عينه عليه وأطلع أصحابه على عذره فأوثقوه وحبسوه ثم أفلت فأتبعوه وقتلوه. وكان أبو بكر بعث إلى خالد مع سلمة بن وقش إن أظفره اللّه أن يقتل من جرت عليه الموسى من بني حنيفة، فوجده قد صالحهم فأتم عقده معهم، ووفى لهم وبعث وفداً منهم إلى أبي بكر بإسلامهم فقبلهم وسألهم عن أسجاع مسيلمة فقصوها عليه، فقال: سبحان اللّه هذا الكلام ما خرج إلا من إلّ أو برّ فأين يذهب بكم عن أحلامكم وردهم اللّه إلى قومهم.

ردة الحطم وأهل البحرين

لما فرغ خالد من اليمامة ارتحل إلى واد من أوديتها وكانت عبد القيس وبكر بن وائل وغيرهم من أحياء ربيعة قد ارتدوا بعد الوفاة وكذلك المنذر بن ساوى من بعدها بقليل، فأما عبد القيس فردهم الجارود بن المعلى وكان قد وفد وأسلم ودعا قومه فأسلموا فلما بلغهم خبر الوفاة ارتدوا وقالوا: لو كان نبياً ما مات فقال لهم الجارود: تعلمون أن لله أنبياء من قبله ولم تروهم وتعلمون أنهم ماتوا ومحمد ﷺ قد مات ثم تشهد فتشهدوا معه وثبتوا على إسلامهم، وخلوا بين سائر ربيعة وبين المنذر بن ساوى والمسلمين.

وقال ابن إسحاق: كان أبو بكر بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر وقد كان رسول اللّه ﷺ ولاه فلما كانت الوفاة وارتدت ربيعة ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر- وكان يسمى المغرور- فأقاموه ملكاً كما كان قومه بالحيرة، وثبت الجارود وعبد القيس على الإسلام واستمر بكر بن وائل على الردة، وخرج الحطم بن ربيعة أخو بني قيس بن ثعلبة حتى نزل بين القطيف وهجر، وبعث إلى دارين فأقاموا فجعل عبد القيس بينه وبينهم، وأرسل إلى المغرور بن سويد أخي النعمان بن المنذر وبعثه إلى جواثى وقال: أثبت فإن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة، فحاصره المسلمون بجواثى.

وجاء العلاء بن الحضرمي لقتال أهل الردة بالبحرين ومر باليمامة فاستنفر ثمامة بن أثال في مسلمة بني حنيفة وكان متردداً، وألحق عكرمة بعمان ومهرة، وأمر شرحبيل بالمقام حيث هو يغاور مع عمرو بن العاص أهل الردة من قضاعة، عمرو يغاور سعداً وبلق وشرحبيل يغاور كلباً ولفها.

ثم مر ببلاد بني تميم فاستقبله بنو الرباب وبنو عمر ومالك بن نويرة بالبطاح يقاتلهم ووكيع بن مالك يواقف عمرو بن العاص وقيس بن عاصم من المقاعس، والبطون يواقفون الزبرقان بن بدر والأبناء وعوف وقد أطاعوه على الإسلام وحنظلة متوقفون. فلما رأى قيس بن عاصم يلقى الرباب وعمرو العلاء وقدم وجاء بالصدقات إلى العلاء وخرج معه لقتال البحرين، فسار مع العلاء من بني تميم مثل عسكره ونزل هجر وبعث إلى الجارود أن ينازل بعبد القيس الحطم وقومه مما يليه، فاجتمع المشركون إلى الحطم إلا أهل دارين، والمسلمون إلى العلاء، وخندقوا واقتتلوا وسمعوا في بعض الليالي ضوضاء شديدة -أي جلبة وصياحاً- وبعثوا من يأتيهم بخبرها فجاءهم بأن القوم سكارى، فبيتوهم

ووضعوا السيوف فيهم واقتحموا الخندق وفر القوم هراباً فمتمرد وناج ومقتول ومأسور. وقتل قيس بن عاصم الحطم بن ربيعة، ولحق جابر بن بجير وضربه فقطع عصبه ومات، وأسر عفيف بن المنذر المغرور بن سويد وقال للعلاء: أجرني فقال له العلاء: أنت غررت بالناس! فقال: لكني أنا مغرور! ثم أرسل وأقام بهجر.

ويقال: إن المغرور اسمه وليس هو بلقب وقتل المغرور بن سويد بن المنذر وقسم الأنفال بين الناس، وأعطى عفيف بن المنذر وقيس بن عاصم وثمامة بن أثال من أسلاب القوم وثيابهم، وقصد الفلال إلى دارين وركبوا السفن إليها ورجع الآخرون إلى قومهم.

فكتب العلاء إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل بالقعود لأهل الردة في السبل وإلى خصفة التيمي والمثنى بن حارثة بمثل ذلك، فرجعوا إلى دارين وجمعهم اللّه بها. ثم لما جاءته كتب بكر بن وائل وعلم حسن إسلامهم أمر أن يؤتى من خلفه على أهل البحرين.

ثم لما ندب الناس إلى دارين أن يستعرضوا البحر، فارتحلوا واقتحموا البحر على الظهر، وكلهم يدعو: يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا. ثم أجازوا الخليج يمشون على مثل رمل مشياً فوقها ما يغمر أخفاف الإبل في مسيرة يوم وليلة، فلقوا العدو واقتتلوا، وما تركوا بدارين مخبراً وسبوا الذراري واستاقوا الأموال، وبلغ نفل الفارس ستة آلاف والراجل ألفين. ورجع العلاء إلى البحرين وضرب الإسلام بجرانه.

ثم أرجف المرجفون بأن أبا شيبان وثعلبة والحرّ قد جمعهم مفروق الشيباني على الردة، فوثق العلاء بأن اللّهازم تفارقهم وكانوا مجمعين على نصره، وأقبل العلاء بالناس فرجعوا إلى من أحب المقام، وقفل ثمامة بن أثال فيهم. ومروا بقيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل فرأوا خميصة الحطم عليه فقالوا: هو قتله فقال: لم أقتله ولكن الأمير نفلنيها فلم يقبلوا وقتلوه. وكتب العلاء إلى أبي بكر بهزيمة أهل الخندق وقتل الحطم قتله زيد ومسمع فكتب إليه أبو بكر أن بلغك عن بني ثعلبة ما خاض فيه المرجفون فابعث إليهم جنداً وأوصهم وشرد بهم من خلفهم.

ردة أهل عمان ومهرة واليمن

نبغ بعمان بعد الوفاة رجل من الأزد يقال له لقيط بن مالك الأزدي يسامى في الجاهلية الجلندي فدفع عنها الملكين اللذين كانا بها، وهما جيفر وعباد ابنا الجلندي، فارتد وادعى النبوة وتغلّب على عُمان ودفع عنها الملكين، وبعث جيفر إلى أبي بكر بالخبر، فبعث أبو بكر حذيفة بن محصن من حمير وعرفجة البارقي، حذيفة إلى عمان وعرفجة إلى مهرة، وإن اجتمعا فالأمير صاحب العمل، وأمرهما أن يكاتبا جيفر أو يأخذا برأيه. وقد كان بعث عكرمة إلى اليمامة ومسيلمة ووقعت عليه النكبة كما مر، فأمره بالمسير إلى حذيفة وعرفجة ليقاتل معهما عمان ومهرة ويتوجه إذا فرغ من ذلك إلى اليمن، فمضى عكرمة فلحق بهما قبل أن يصلا إلى عمان، وقد عهد إليهم أبو بكر أن ينتهوا إلى رأي عكرمة، فراسلوا جيفر وعباداً وبلغ لقيطاً مجيء الجيوش فعسكر بمدينة دبا وعسكر جيفر وعباد بصحار، واستقدموا عكرمة وحذيفة وعرفجة وكاتبوا رؤساء الدين مع لقيط فقدموا بجيوشهم، ثم صمدوا إلى لقيط وأصحابه فقاتلوهم، وقد أقام لقيط عياله وراء صفوفه، وهم المسلمون بالهزيمة حتى جاءهم مددهم من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان فانهزم العدو وظفر المسلمون، وقتلوا نحواً من عشرة آلاف وسبوا الذراري والنساء وتم الفتح، وقسموا الأنفال وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة وكان الخمس ثمانمائة رأس.

وأقام حذيفة بعمان وسار عكرمة إلى مهرة وقد استنفر أهل عمان ومن حولها من ناحية الأزد وعبد القيس وبني سعيد من تميم، فاقتحم مهرة بلادهم وهم على فرقتين يتنازعان الرياسة فأجابه أحد الفريقين، وسار إلى الآخرين فهزمهم وقتل رئيسهم، ثم أصابوا منهم ألفي نجيبة. وأفاد المسلمون قوة بغنيمتهم وأجاب أهل تلك النواحي إلى الإسلام وهم أهل نجد والروضة والشاطئ والجزائر والمر واللبان وأهل جيرة وظهور الشمر والفرات وذات الخيم، فاجتمعوا كلهم على الإسلام، وبعث إلى أبي بكر بذلك مع البشير وسار هو إلى اليمن للقاء المهاجر بن أبي أمية كما عهد إليه أبو بكر.

بعوث العراق وصلح الحيرة

ولما فرغ خالد من أمر اليمامة بعث إليه أبو بكر في المحرم من سنة اثنتي عشرة فأمره بالمسير إلى العراق ومرج الهند وهي الأبلة منتهى بحر فارس في جهة الشمال قرب البصرة، فيتألف أهل فارس ومن في مملكتهم من الأمم. فسار من اليمامة وقيل قدم على أبي بكر ثم سار من المدينة، وانتهى إلى قرية بالسواد وهي بانقيا وباروسما والليس وكانت لابن صلوبا فصالحهم على عشرة

آلاف دينار فقبضها خالد، ثم سار إلى الحيرة وخرج إليه أشرافها مع إياس بن قبيصة الطائي الأمير عليها بعد النعمان بن المنذر، فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية أو المناجزة، فصالحوه على تسعين ألف درهم، وقيل إنما أمره أبو بكر أن يبدأ بالأبلة ويدخل من أسفل العراق.

وكتب إلى عياض بن غنم أن يبدأ بالمضيخ ويدخل من أعلى العراق، وأمر خالداً بالقعقاع بن عمرو التيمي وعياضاً بن عوف الحميري، وقد كان المثنى بن حارثة الشيباني استأذن أبا بكر في غزو العراق فأذن له فكان يغزوهم قبل قدوم خالد، فكتب أبو بكر إليه وإلى حرملة ومدعور وسلمان أن يلحقوا بخالد بالأبلة وكانوا في ثمانية آلاف فارس، ومع خالد عشرة آلاف، فسار خالد في أول مقدمته المثنى وبعده عدي بن حاتم وجاء هو بعدهما على مسيرة يوم بين كل عسكر، وواعدهما الحفير ليجتمعوا به ويصادموا عدوهم وكان صاحب ذلك المرج من أساورة الفرس اسمه هرمز وكان يحارب العرب في البر والهند في البحر.

فكتب إلى أردشير كسرى بالخبر وتعجل هو إلى الكواظم في سرعان أصحابه حتى نزل الحفير، جعل على مجنبتيه قباذ وانوشجان يناسبانه في أردشير الأكبر واقترنوا بالسلاسل لئلا يفروا، وأروا خالداً أنهم سبقوا إلى الحفير فمال إلى كاظمة فسبقه هرمز إليها أيضاً. وكان للعرب على هزمر حنق لسوء مجاورته وقدم خالد فنزل قبالتهم على غير ماء وقال: ليعيدن الماء فإن اللّه جاعله لأصبر الفريقين، ثم أرسل اللّه سحابة فأغدرت من ورائهم.

ولما حطوا أثقالهم قدم خالد ودعا إلى النزال فبرز إليه هرمز وترجل ثم اختلفا ضربتين فاحتضنه خالد وحمل أصحاب هرمز للغدر به فلم يشغله ذلك عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو فقتلهم وانهزم أهل فارس وركبهم المسلمون.

وسميت الواقعة ذات السلاسل. وأخذ خالد سلب هرمز وكانت قلنسوته بمائة ألف، وبعث بالفتح والأخماس إلى أبي بكر. وسار فنزل بمكان البصرة وبعث المثنى- بن حارثة في آثار العدو فحاصر حصن المرأة وفتحه وأسلمت فتزوجها، وبعث معقل بن مقرن إلى الأبلة ففتحها وقيل إنما عقبة بن غزوان أيام عمر سنة أربع عشرة، ولم يتعرض خالد وأصحابه إلى الفلاحين وتركهم وعمارة البلاد كما أمر أبو بكر به.

وكان كسرى أردشير لما جاءه كتاب هرمز بمسير خالد أمره بقارن بن فريانس فسار من المدائن ولما انتهى إلى الدار لقيه المنهزمون عن هرمز ومعهم قباذ وأنوشجان فتذامروا ورجعوا ونزلوا النهر، وسار إليهم خالد واقتتلوا وبرز قان فقتله معقل بن الأعشى بن النباش وقتل عاصم أنوشجان وقتل عدي قباذ، وانهزمت الفرس وقتل منهم نحو ثلاثين ألفاً سوى من غرق ومنعت المياه المسلمين من طلبهم. وكانت الغنيمة عظيمة وأخذ الجزية في الفلاحين وصاروا في ذمة، ولم يقاتل المسلمين من الفرس بعد قارن أعظم منه، وتسمى هذه الوقعة بالثني وهو النهر.

ولما جاء الخبر إلى أردشير بالهزيمة بعد الأندرزغر وكان فارساً من مولد السواد فارسل في أثره مع بهمن حاذويه، وحشد الأندرزغر ما بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين وعسكر بالولجة، وسار إليهم خالد فقاتلهم وصبروا، ثم جاءهم كمين من خلفهم فانهزموا ومات الأندرزغر عطشاً. وبذل خالد الأمان للفلاحين فصاروا ذمة، وسبى ذراري المقاتلة ومن أعانهم وأصاب اثنين من نصارى بكر بن وائل أحدهما جابر بن بجير والآخر ابن عبد الأسود من عجل فأسرهما، وغضب بكر بن وائل لذلك.

فاجتمعوا على الليث وعليهم عبد الأسود العجلي، فكتب أردشير إلى بهمن حاذويه، وقد أقام بعد الهزيمة بقسيناثا يأمره بالمسير إلى نصارى العرب بالليس فيكون معهم إلى أن يقدم عليهم جابان من المرازبة، فقدم بهمن على أردشير ليشاوره وخالفه جابان إلى نصارى العرب من عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من الحيرة وهم مجتمعون على الليث. وسار إليهم خالد حين بلغه خبرهم ولا يشعر بجابان.

فلما حط الأثقال سار إليهم وطلب المبارزة، فبرز إليه مالك بن قيس فقتله خالد، واشتد القتال بينهم وسائر المشركين ينتظرون قدوم بهمن، ثم انهزموا واستأسر الكثير منهم وقتلهم خالد حتى سال النهر بالدم وسمي نهر الدم، ووقف على طعام الأعاجم وكانوا قعوداً للأكل فنفله المسلمين، وجعل العرب يتساءلون عن الرقاق يحسبونه رقاعاً. وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً. ولما فرغ من الليس سار إلى أمعيشيا فغزا أهلها وأعجلهم أن ينقلوا أموالهم فغنم جميع ما فيها وخربها.

فتح الحيرة

ثم سار خالد إلى الحيرة وحمل الرجال والأنفال في السفن، وخرج مرزبان الحيرة وهو ابن زيان من الحيرة ومعه الأزادية فعسكر عند الغريين وأرسل ابنه ليقاطع الماء على السفن، فوقفت

على الأرض. وسار إليه خالد فلقيه على فرات بازقلة فقتله وجميع من معه، وسار نحو أبيه على الحيرة فهرب بغير قتال لما كان بلغه من موت أردشير كسرى وقتل ابنه. ونزل خالد منزله بالغريين وحاصر قصور الحيرة وافتتح الديور وصاح القسيسون والرهبان بأهل القصور فرجعوا على الإباية، وخرج إياس بن قبيصة من القصر الأبيض، وعمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيان بن بقيلة - وكان معمراً - وسأله خالد عن عجيبة قد رآها، فقال: رأيت القرى ما بين دمشق والحيرة تسافر بينهما المرأة فلا تتزود إلا رغيفاً واحداً. ثم جاءه واستقرب منه ورأى مع خادمه كيساً فيه سم فأخذه خالد ونثره في يده، وقال ما هذا؟ قال خشيت أن تكونوا على غير ما وجدت فيكون الموت أحب إلي من مكروه أدخله على قومي، فقال له خالد: لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها. ثم قال: باسم اللّه الذي لا يضُرُّ مع اسمه شيء وابتلع السم فوعك ساعة ثم قام كأنما نشط من عقال. فقال عبد المسيح: لتبلغن ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا، ثم صالحهم على مائة أو مائتين وتسعين ألفاً وعلى كرامة بنت عبد المسيح لشريك كان النبي ﷺ وعده بها إذا فتحت الحيرة فأخذها شريك، وافتدت منه بألف درهم وكتب لهم بالصلح وذلك في أول سنة اثني عشرة.

فتح ما وراء الحيرة

كان الدهاقين يتربصون بخالد ما يصنع بأهل الحيرة فلما صالحهم واستقاموا له جاءته الدهاقين من كل ناحية فصالحوه عما يلي الحيرة من الفلاليج وغيرها على ألف ألف وقيل على ألفي ألف سوى جباية كسرى، وبعث خالد ضرار بن الأزور وضرار بن الخطاب والقعقاع بن عمرو والمثنى بن حارثة وعيينة بن الشماس فكانوا في الثغور وأمرهم بالغارة، فمخروا السواد كله إلى شاطئ دجلة. وكتب إلى ملوك فارس:

أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو نفعل ذلك كان شراً لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

وكتب إلى المرازبة: أما بعد فالحمد لله الذي فض حذقكم وفرق كلمتكم وفلّ حدكم وكسر شوكتم تسلموا وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر انتهى.

وكان العجم مختلفين بموت أردشير وقد أزالوا بهمن حاذويه فيمن سيره في العساكر فجبى خالد خراج السواد في خمسين ليلة، وغلب العجم عليه، وأقام بالحيرة سنة يصعد ويصوب، والفرس حائرون يخلعون ويملكون ولم يجدوا من يجتمعون عليه لأن سيرين كان قتل جميع من تناسب إلى بهرام جور. فلما وصلهم كتاب خالد تكلم نساء آل كسرى وولوا الفرخ زاد بن البندوان إلى أن يجدوا من يجتمعون عليه، ووصل جرير بن عبد اللّه البجلي إلى خالد بعد فتح الحيرة، وكان مع خالد بن سعيد بن العاص بالشام، ثم قدم على أبي بكر فكلمه أن يجمع له قومه كما وعد النبي ﷺ وكانوا أوزاعاً متفرقين في العرب، فسخط ذلك منه أبو بكر فقال: تكلمني بما لا يعني وأنت ترى ما نحن فيه من فارس والروم. وأمره بالمسير إلى خالد فقدم عليه بعد فتح الحيرة.

فتح الأنبار وعين التمر

وتسمى هذه الغزوة ذات العيون

ثم سار خالد على تعبيته إلى الأنبار وعلى مقدمته الأقرع بن حابس، وكان بالأنبار شيرزاد صاحب ساباط فحاصرهم ورشقوهم بالنبال حتى فقأوا منهم ألف عين. ثم نحر ضعاف الإبل وألقاها في الخندق حتى ردمه بها وجاز هو وأصحابه فوقها، فاجتمع المسلمون والكفار في الخندق، وصالح شيرزاد على أن يلحقوه بمأمنه ويخلي لهم عن البلد وما فيها، فلحق بهمن جادويه.

ثم استخلف خالد على الأنبار الزبرقان بن بدر، وسار إلى عين التمر وبها مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم، وعقّة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب، وحولهم طوائف من النمر وتغلب وإياد وغيرهم من العرب. وقال عقبة لبهرام: دعنا وخالداً فالعرب أعرف لقتال العرب. فدفعه لذلك واتقى به وسار عقبة إلى خالد وحمل خالد عليه وهو يقيم صفوفه، فاحتضنه وأخذه أسيراً.

وانهزم العسكر عن غير قتال وأسر أكثرهم. وبلغ الخبر إلى مهران فهرب وترك الحصن وتحصن به المنهزمون، واستأمنوا لخالد فأبى، فنزلوا على حكمه فقتلهم أجمعين، وعقة معهم. وغنم ما في الحصن وسبى أهليهم وأولادهم وأخذ من البيعة وهي الكنيسة غلماناً كانوا يتعلمون الإنجيل فقسمهم في الناس منهم: سيرين أبو محمد ونصير أبو موسى وحمران مولى عثمان، وبعث إلى أبي بكر بالفتح والخمس. وقتل من المسلمين عمير بن رباب السهمي من مهاجرة الحبشة وبشير بن سعد والد النعمان.

مطلب وقعة دومة الجندل

ولما فرغ خالد من عين التمر وافق وصول كتاب عياض بن غنم وهو على من بإزائه من نصارى العرب بناحية دومة الجندل وهم بهرا وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم، وكانت رياسة دومة لأكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة يقتسمانها، وأشار أكيدر بصلح خالد فلم يقبلوا منه فخرج عنه، وبلغ خالد مسيره فأرسل من اعترضه فقتله وأخذ ما معه، وسار خالد فنزل دومة وعياض عليها من الجهة الأخرى، وخرج الجودي لقتال عياض، فانهزموا من الجهتين إلى الحصن فأغلق دونهم وقتل الجودي وافتتح الحصن عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية.

الوقائع بالعراق

وأقام خالد بدومة الجندل وطمع الأعاجم في الحيرة وملأهم عرب الجزيرة غضباً لعقة، فخرج اسواران إلى الأنبار وانتهيا إلى حصيد والخنافس، فبعث القعقاع من الحيرة عسكرين حالا بينهما وبين الريف، ثم جاء خالد إلى الحيرة فعجل القعقاع بن عمرو وأبو ليلى بن فدكي إلى لقائهما بالحصيد، فقتل من العجم مقتلة عظيمة، وقتل الأسواران، وغنم المسلمون ما في الحصيد، وانهزمت الأعاجم إلى الخنافس وبها البهبوذان من الأساورة. وسار أبو ليلى في اتباعهم فهزم البهبوذان إلى المصيخ وكان بهما الهذيل بن عمران وربيعة بن بجير من عرب الجزيرة غضباً لعقة وجاءا مدداً لأهل الحصيد، فكتب خالد إلى القعقاع وأبي ليلى وأوعدهما المصيخ، وسار إليهم فتوافوا هنالك وأغاروا على الهذيل ومن معه من ثلاثة أوجه، فأكثروا فيهم القتل ففر الهذيل في قليل، وكان مع الهذيل عبد العزيز بن أبي رهم من أوس مناة ولبيد بن جرير وكانا أسلما وكتب لهما أبو بكر بإسلامهما فقتلا في المعركة، فوداهما أبو بكر وأوصى بأولادهما.

وكان عمر يعتمد بقتلهما وقتل مالك بن نويرة على خالد. ولما فرغ خالد من الهذيل بالمصيخ واعد القعقاع وأبا ليلى إلى الثني شرقي الرصافة ليغير على ربيعة بن بجير التغلبي صاحب الهذيل الذي جاء معه لمدد الفرس، وتبييتهم فلم يفلت منهم أحداً، ثم اتبع الهذيل بعد مفره من المصيخ إلى اليسير وقد لحق هنالك بعتاب بن أسيد فبيتهم خالد قبل أن يصل إليهم خبر ربيعة فقتل منهم مقتلة عظيمة، وسار إلى الرصافة وبها هلال بن عقبة فتفرق عنه أصحابه وهرب فلم يلق بها خالد. من الرضاب إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة فحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من مسالح فارس، واجتمعت معهم تغلب وإياد والنمر وساروا إلى خالد وطلبوا منه العبور، فقال: اعبروا أسفل منا فعبروا وامتاز الروم من العرب، فانهزمت الروم ذلك اليوم وقتل منهم نحواً من مائة ألف.

وأقام خالد على الفراض إلى ذي القعدة، ثم أذن للناس بالرجوع إلى الحيرة، وجعل شجرة بن الأغر على الساقة. وخرج من الفراض حاجاً مكتتماً بحجة وذهب ليتعسّف البلاد حتى أتى مكة فحج ورجع فوافى الحيرة مع جنده، وشجرة بن الأغر معهم ولم يعلم بحُجه إلا من أعلمه به، وعتب به أبو بكر في ذلك لما سمعه وكانت عقوبته إياه أن صرفه من غزو العراق إلى الشام، ثم شن خالد بن الوليد الغارات على نواحي السواد فأغار هو على شرق بغداد، وعلى قطربل، وعقرقوف، ومسكن، وبادروبا. وحج أبو بكر في هذه السنة واستخلف على المدينة عثمان بن عفان.

بعوث الشام

وكان من أول عمل أبي بكر بعد عوده من الحج أن بعث خالد بن سعيد بن العاص في الجنود إلى الشام أول سنة ثلاث عشرة، وقيل إنما بعثه إلى الشام لما بعث خالد بن الوليد إلى العراق أول السنة التي قبلها، ثم عزله قبل أن يسير لأنه كان لما قدم من اليمن عند الوفاة تخلف عن بيعة أبي بكر أياماً وغدا على علي وعثمان على الاستكانة لتيم وهما رؤوس بني عبد مناف فنهاه علي وبلغت الشيخين، فلما ولاه أبو بكر عقد له عمر فعزله وأمره أن يقيم بتيماء ويدعو من حوله من العرب إلى الجهاد حتى يأتيه أمره، فاجتمعت إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم خبره فضربوا البعث على عرب الضاحية بالشام من بهرا وسليح وكلب وغسان ولخم وجذام، وسار إليهم خالد فغلبهم على منازلهم وافترقوا. وكتب له أبو بكر بالإقدام فسار متقدماً ولقيه البطريك ماهان من بطاركة الروم فهزمه خالد واستلحم الكثير من جنوده.

وكتب إلى أبي بكر يستمده، ووافق كتابه المستنفرين وفيهم ذو الكلاع ومعه حمير وعكرمة بن أبي جهل ومن معه من تهامة والسرو وعمان والبحرين فبعثهم إليه. وحينئذ اهتم أبو بكر بالشام وكان عمرو بن العاص لما بعثه رسول الله ﷺ تسليماً إلى عمان وعده أن يعيده إلى عمله عند فراغه من أمر عمان، فلما جاء بعد الوفاة أعاده إليها أبو بكر إنجازاً لوعده ﷺ وهي صدقات سعد هذيم وبني عذرة، فبعث إليه لأن يأمره باللحاق بخالد بن سعيد

لجهاد الروم وأن يقصد فلسطين، وبعث أيضا إلى الوليد بن عقبة وكان على صدقات قضاعة وولاه الأردن، وأمر يزيد بن أبي سفيان على جمهور من انتدب إليه منهم: سهيل بن عمرو وأشباهه، وأمر أبا عبيدة بن الجراح على جميعهم وعين له حمص، وأوصى كل واحد منهم.

ولما وصل المدد إلى خالد بن سعيد وبلغه توجه الأمراء تعجل للقاء الروم قبلهم فاستطرد له ماهان ودخل دمشق.

واقتحم خالد الشام ومعه ذي الكلاع وعكرمة والوليد حتى نزل مرج الصفر عند دمشق فانطوت مسالح ماهان عليه وسدوا الطريق دونه وزحف إليه ماهان، ولقي ابنه سعيداً في طريقه فقتلوه وبلغ الخبر أباه خالداً فهرب فيمن معه وانتهى إلى ذي المروة قرب المدينة. وأقام عكرمة ردءاً من خلفهم فرد عنهم الروم فأقام قريباً من الشام.

وجاء شرحبيل بن حسنة إلى أبي بكر وافداً من العراق من عند خالد فندب إليه الناس وبعثه مكان الوليد إلى أردن ومرّ بخالد ففصل ببعض أصحابه.

ثم بعث أبو بكر معاوية وأمره باللحاق بأخيه يزيد، وأذن لخالد بن سعيد بدخول المدينة.

وزحف الأمراء في العساكر نحو الشام، فعبى هرقل عساكر الروم ونزل حمص بعد أن أشار على الروم بعدم قتال العرب ومصالحتهم على ما يريدون، فأبوا ولجّوا، ثم فرقهم على أمراء المسلمين، فبعث شقيقه تذارق في تسعين ألفاً نحو عمرو بن العاص بفلسطين، وبعث جرجة بن توذر نحو يزيد بن أبي سفيان، وبعث الدراقص نحو شرحبيل بن حسنة بالأردن، وبعث القيقار بن نسطورس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة بالجابية. فهابهم المسلمون ثم رأوا أن الاجتماع أليق بهم وبلغهم كتاب أبي بكر بذلك فاجتمعوا باليرموك في بضعة وعشرين ألفاً. وأمر هرقل أيضاً باجتماع جنوده، ووعدهم بوصول ماهان إليهم فاجتمعوا بحيال المسلمين والوادي خندق بينهم. فأقاموا بإزائه ثلاثة أشهر، واستمدوا أبا بكر فكتب إلى خالد بن الوليد أن يستخلف على العراق المثنى بن حارثة ويلحق بهم وأمره على جند الشام.

بعوث الشام

ولما استمد المسلمون أبا بكر بعث إليهم خالد بن الوليد من العراق واستحثه في السير إليهم، فنفذ خالد لذلك ووافى المسلمين مكانهم عندما وافى ماهان الروم أيضاً. وولي خالد قباله وولي الأمراء قبل الآخرين إزاءهم فهزم ماهان، وتتابع الروم على الهزيمة وكانوا مائتين وأربعين ألفاً وتقسموا بين القتل والطرق في الواقوصة والهوي في الخندق، وقتل صناديد الروم وفرسانهم، وقتل تذارق أخو هرقل، وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون حمص فارتحل وأجاز إلى ما وراءها لتكون بينه وبين المسلمين وأمّر عليها وعلى دمشق.

ويقال: إن المسلمين كانوا يومئذ ستة وأربعين ألفاً: سبعة وعشرين منها مع الأمراء، وثلاثة آلاف من بلال مع خالد بن سعيد قد أمر عليهم أبو بكر معاوية بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعشرة آلاف من إمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، وستة آلاف ثبتوا مع عكرمة ردءاً بعد خالد بن سعيد. وأن خالد بن سعيد عبّأهم كراديس ستة وثلاثين كردوساً لما رأى الروم تعبّوا كراديس، وكان كل كردوس ألفاً وكان ذلك في شهر جمادى، وأن أبا سفيان بن حرب أبلى يومئذ بلاءً حسناً بسعيه وتحريضه.

قالوا: وبينما الناس في القتال قدم البريد من المدينة بموت أبي بكر وولاية عمر، فأسرّه إلى خالد وكتمه عن الناس. ثم خرج جرجه من أمراء الروم فطلب خالداً وسأله عن أمره وأمر الإسلام، فوعظه خالد فاستبصر وأسلم وكانت وهناً على الروم. ثم زحف خالد بجماعة من المسلمين فيهم جرجه فقتل من يومه، واستشهد عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو، وأصيبت عين أبي سفيان، واستشهد سلمة بن هشام وعمرو وأبان ابنا سعيد وهشام بن العاص وسيّار بن سفيان والطفيل بن عمرو، وأثبت خالد بن سعيد فلا يعلم أين مات بعد ويقال استشهد في مرج الصفر في الوقعة الأولى.

ويقال إن خالداً لما جاءه من العراق مدداً للمسلمين بالشام طلب من الأدلاء أن يغوروا به حتى يخرج من وراء الروم، فسلك به رافع بن عمرو الطائي من فزارة في بلاد كلب حتى خرج إلى الشام ونحر فيها الإبل وأغار على مصيخ فوجد به رفقة فقتلهم وأسلبهم.

وقعة مرج راهط

وكان الحارث بن الأيهم وغسان قد اجتمعوا بمرج راهط فسلك إليهم واستباحهم، ثم نزل بصرى فافتتحها، ثم سار منها إلى المسلمين بالواقوصة فشهد معهم اليرموك. ويقال: إن خالداً لما جاء من العراق إلى الشام لقي أمراء المسلمين ببصرى فحاصروها جميعاً حتى فتحوها على الجزية، ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً

لعمرو بن العاص، وعمرو بالغور والروم بجلق مع تدارق أخي هرقل، وانكشفوا عن جلق إلى أجنادين وراء الرملة شرقاً.

ثم تزاحف الناس فاقتتلوا، وانهزم الروم وذلك في منتصف جمادى الأولى من السنة، وقتل فيها تدارق، ثم رجع هرقل ولقي المسلمين بالفاقوصة عند اليرموك، فكانت واقعة اليرموك كما قدمنا في رجب بعد أجنادين، وبلغت المسلمين وفاة أبي بكر وأنها كانت لثمان بقين من جمادى الآخرة.

خلافة عمر رضي الله عنه

ولما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر رضي الله عنهما بالأمر من بعده بعد أن شاور علياً طلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وأخبرهم بما يريد فيه، فأثنوا على رأيه، فأشرف على الناس وقال: إني قد استخلفت عمر ولم آل لكم نصحاً فاسمعوا له وأطيعوا. ودعا عثمان فأمره فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحالة التي يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آل لكم خيراً، فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي منه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

فكان أول ما انفذه من الأمور عزل خالد عن إمارة الجيوش بالشام وتوليه أبي عبيدة، وجاء الخبر بذلك والمسلمون مواقفون عدوهم في اليرموك فكتم أبو عبيدة الأمر كله، فلما انقضى أمر اليرموك كما مر سار المسلمون إلى فحل من أرض الأردن وبها واقعة الروم وخالد على مقدمة الناس فقاتلوا الروم.

فتح دمشق

واقتحموها عنوة وذلك في ذي القعدة ولحقت فواقعت الروم بدمشق وعليها ماهان من البطارقة فحاصرهم المسلمون حتى فتحوا دمشق، واظهر أبو عبيدة أمارته وعزل خالد. وقال سببه إن أبا بكر كان يسخط خالد بن سعيد والوليد بن عقبة من أجل فرارهما كما مر، فلما ولي عمر رضي الله عنه أباح لهما دخول المدينة ثم بعثهما مع الناس إلى الشام، ولما فرغ أمر اليرموك وساروا إلى فحل وبلغ عمر خبر اليرموك فكتب بعزل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص حتى يصير الحرب إلى فلسطين فتولاها عمر، وإن خالداً قدم على عمر بعد العزل وذلك بعد فتح دمشق وإنهم ساروا إلى فحل فاقتحموها، ثم ساروا إلى دمشق وعليها نسطاس بن نسطورس فحاصروها سبعين ليلة وقيل ستة أشهر من نواحيها الأربع، خالد وأبو عبيدة ويزيد وعمرو كل واحد على ناحية. وقد جعلوا بينهم وبين هرقل مدينة حمص ومن دونها ذو الكلاع في جيش من المسلمين.

وبعث هرقل المدد إلى دمشق وكان فيهم ذو الكلاع فسقط في أيديهم وقدموا على دخول دمشق وطمع المسلمون فيهم، واستغفلهم خالد في بعض الليالي فتسور سورهم من ناحيته وقتل الوليد وفتح الباب واقتحم البلد وكبّر وكبروا فقتلوا جميع من لقوه. وفزع أهل النواحي إلى الأمراء الذين يلونهم فنادوا لهم بالصلح والدخول، فدخلوا من نواحيهم صلحاً فأجريت ناحية خالد على الصلح مثلهم.

قال سيف: وبعثوا إلى عمر بالفتح فوصل كتابه بأن يصرف جند العراق إلى العراق، فخرجوا وعليهم هاشم بن عتبة وعلى مقدمته القعقاع. وخرج الأمراء إلى فحل وأقام يزيد بن أبي سفيان بدمشق، وكان الفتح في رجب سنة أربع عشرة. وبعث يزيد دحية الكلبي إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى حوران والبثنية، فصالحوهما وولي عليهما. ووصل الأمراء إلى فحل فبيتهم الروم فظفر المسلمون بهم وهزموهم فقتل منهم ثمانون ألفاً وكان على الناس في وقعة فحل شرحبيل بن حسنة، فسار بهم إلى بيسان وحاصرها فقتل مقاتلتها وصالحه الباقون فقبل منهم.

وكان أبو الأعور السلمي على طبرية محاصراً لها، فلما بلغهم شأن بيسان صالحوه فكمل فتح الأردن صلحاً ونزلت القواد في مدائنها وقراها وكتبوا إلى عمر بالفتح.

وزعم الواقدي: أن اليرموك كانت سنة خمسة عشرة وأن هرقل انتقل فيها من أنطاكية إلى قسطنطينية وأن اليرموك كانت آخر الوقائع. والذي تقدم لنا من رواية سيف أن اليرموك كانت سنة ثلاث عشرة وأن البريد بوفاة أبي بكر قدم يوم هربت الروم فيه، وأن الأمراء بعد اليرموك ساروا إلى دمشق ففتحوها ثم كانت بعدها وقعة فحل، ثم وقائع أخرى قبل شخوص هرقل والله أعلم.

خبر المثنى بالعراق بعد مسير خالد إلى الشام

لما وصل كتاب أبي بكر إلى خالد بعد رجوعه من حجه بان ينصرف إلى الشام أميراً على المسلمين بها ويخرج في شطر الناس ويرجع بهم إذا فتح اللّه عليه إلى العراق ويترك الشطر الثاني بالعراق مع المثنى بن حارثة، وفعل ذلك خالد ومضى لوجهه، وأقام المثنى بالحيرة ورتب المصالح. واستقام أهل فارس بعد خروج خالد بقليل على شهريار بن شيرين بن شهريار ممن يناسبه إلى كسرى أبي سابور وذلك سنة ثلاث عشرة، فبعث إلى الحيرة هرمز فاقتتلوا هنالك قتالا شديداً بعدوة الضراء وغار الفيل بين الصفوف فقتله المثنى وناس معه، وانهزم أهل فارس واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى انتهوا إلى المدائن، ومات شهريار إثر ذلك وبقي ما دون دجلة من السواد في أيدي المسلمين.

ثم اجتمع أهل فارس من بعد شهريار على آزرميدخت ولم ينفذ لها أمر فخلعت، وملك سابور بن شهريار وقام بأمره الفرخزاذ بن البندوان وزوجة آزرميدخت، فغضبت وبعثت إلى سياوخش الوازن وكان من كبار الأساورة وشكت إليه، فأشار عليها بالقبول. وجاء ليلة العرس فقتل الفرخزاذ ومن معه، ونهض إلى سابور فحاصره ثم اقتحم عليه فقتله، وملكت آزرميدخت وتشاغلوا بذلك عن ملكها.

انتهى شأن أبي بكر وشق السواد في سلطانه، وتشاغل أهل فارس عن دفاع المسلمين عنه. ولما أبطأ خبر أبي بكر على المثنى استخلف المثنى على الناس بشر بن الخصاصية وخرج نحو المدينة يستعلم ويستأذن، فقدم وأبو بكر يجود بنفسه وقد عهد إلى عمر وأخبره الخبر، فأحضر عمر وأوصاه أن يندب الناس مع المثنى وأن يصرف أصحاب خالد من الشام إلى العراق، فقال عمر: يرحم اللّه أبا بكر علم إنه تستر في إمارة خالد فأمرني بصرف أصحابه ولم يذكره.

ولاية أبي عبيد بن مسعود على العراق ومقتله

ولما ولي عمر ندب الناس مع المثنى بن حارثة أياماً وكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود، فقال عمر للناس: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين المهاجرون عن موعد اللّه؟ سيروا في الأرض التي وعدكم اللّه في الكتاب أن يورثكموها. فقال: ليظهره على الدين كله فاللّه مظهر دينه ومعز ناصره ومولي أهله مواريث الأمم. أين عباد اللّه الصالحون؟ فانتدب أبو عبيد الثقفي، ثم سعد بن عبيد الأنصاري، ثم سليط بن قيس، فولى أبا عبيد على البعث لسبقه، وقال: اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً بل اتئد فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف. ولم يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا لسرعته إلى الحرب، وفي السرعة إلى الحرب- إلا عن بيان -ضياع واللّه لولا سرعته لأمرته. فكان بعث أبي عبيد هذا أول بعث بعثه عمر، ثم بعث بعده يعلى بن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران لوصية رسول اللّه ﷺ بذلك في مرضه، وقال: أخبرهم بأنا نجليهم بأمر اللّه ورسوله أن لا يترك دينان بأرض العرب ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم وفاء بذمتهم كما أمر اللّه.

قالوا: فخرج أبو عبيد مع المثنى بن حارثة وسعد وسليط إلى العراق، وقد كانت بوران بنت كسرى كلما اختلفت الناس بالمدائن عدلت بينهم حتى يصطلحوا، فلما قتل الفرخزاذ بن البندوان وملكت آزرميدخت اختلف أهل فارس واشتغلوا عن المسلمين غيبة المثنى كلها، فبعثت بوران إلى رستم تستحثه للقدوم وكان على فرج خراسان، فأقبل في الناس إلى المدائن وعزل الفرخزاذ وفقأ عين آزرميدخت ونصب بوران، فملكته وأحضرت مرازبة فارس فأسلموا له ورضوا به وتوجه. وسبق المثنى إلى الحيرة، ولحقه أبو عبيد ومن معه. وكتب رستم إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين وبعث في كل رستاق رجلاً لذلك فكان في فرات باذقلا جابان وفي كسكر نرسي وبعث جند لمصادمة المثنى فساروا وتألفوا واجتمعوا أسفل الفرات. وخرج المثنى من الحيرة خوفاً أن يؤتى من خلفه، فقدم عليه أبو عبيد، ونزل جابان النمارق ومعه جمع عظيم، فلقيه أبو عبيد هنالك وهزم اللّه أهل فارس وأسر جابان ثم أطلق، وساروا في المنهزمين حتى دخلوا كسكر وكان بها نرسي ابن خالة كسرى فجمع الفالة إلى عسكره، وسار إليهم أبو عبيد من النمارق في تعبيته، وكان على مجنبتي نرسي نفدويه وشيرويه ابنا بسطام خال كسرى. واتصلت هزيمة جابان ببوران ورستم فبعثوا الجالينوس مدداً لنرسي وعاجلهم أبو عبيد فالتقوا أسفل من كسكر فاشتد القتال وانهزمت الفرس، وهرب نرسي وغنم المسلمون ما في عسكره.

وبعث أبو عبيد المثنى وعاصماً فهزموا من كان تجمع من أهل الرساتيق وخربوا وسبوا وأخذوا الجزية من أهل السواد وهم يتربصون قدوم الجالينوس ولما سمع به أبو عبيد سار إليه على

تعبيته فانهزم الجالينوس وهرب ورجع أبو عبيد فنزل الحيرة، وقد كان عمر قال له: إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والخزي تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون واحرز لسانك ولا تفش سرك فإن صاحب السر- ما ضبط- متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه وإذا ضيعه كان بمضيعة.

ولما رجع الجالينوس إلى رستم بعث بهمن حادويه ذا الحاجب إلى الحيرة فأقبل ومعه درفش كابيان راية كسرى عرض ثمانية أذرع في طول اثني عشر من جلود النمر فنزل في قسي الناطف على الفرات، وأقبل أبو عبيد فنزل عدوته وقعد إلى أن نصبوا للفريقين جسراً على الفرات، وخيرهم بهمن حادويه في عبوره أو عبورهم، فاختار أبو عبيد العبور وأجاز إليهم. وماجت الأرض بالمقاتلة ونفر جنود المسلمين وكراديسهم من الفيلة وأمر بالتخفيف عن الخيل فترجل أبو عبيد والناس وصافحوا العدو بالسيوف، ودافعتهم الفيلة فقطعوا وضنها فسقطت رحالها وقتل من كان عليهم، وقابل أبو عبيد فيلاً منهم فوطئه بيده وقام عليه فأهلكه. وقاتلهم الناس ثم انهزموا عن المثنى وسبقه بعض المسلمين إلى الجسر فقطعه، وقال: موتوا أو تظفروا. وتواثب بعضهم الفرات فغرقوا وأقام المثنى وناس معه مثل عروة بن زيد الخيل وأبي محجن الثقفي وأنظارهم، وقاتل أبو زيد الطائي كان نصرانياً وقدم الحيرة لبعض أمره فحضر مع المثنى وقاتل حينئذ حمية، ونادى المثنى الذين عبروا من المسلمين فعقدوا الجسر وأجاز بالناس، وكان آخر من قتل عند الجسر سليط بن قيس فانفض أصحابه إلى المدينة وبقي المثنى في قِلّه جريحاً.

وبلغ الخبر إلى عمر فشق عليه وعذر المنهزمين، وهلك من المسلمين يومئذ أربعة آلاف قتلى وغرقى وهرب ألفان وبقي الثلاثة آلاف وقتل من الفرس ستة آلاف. وبينما بهمن خادويه يروم العبور خلف المسلمين أتاه الخبر بأن الفرس ثاروا برستم مع الفيرزان فرجع إلى المدائن، وكانت الوقعة في مدائن سنة ثلاث عشرة. ولما رجع بهمن حادويه اتبعه جابان ومعه مردان شاه، وخرج المثنى في أثرهما فلما أشرف عليهما أتياه يظنان أنه هارب فأخذهما أسيرين، وخرج أهل الليس على أصحابهما فأتوه بهم أسرى وعقدوا معه مهادنة وقتل جميع الأسرى.

ولما بلغ عمر رضي اللّه عنه عن وقعة ابن عبيد بالجسر ندب الناس إلى المثنى، وكان فيمن ندب بجيلة وأمرهم إلى جرير بن عبد اللّه الذي جمعهم من القبائل بعد أن كانوا مفترقين ووعده النبي ﷺ بذلك وشغل عن ذلك أبو بكر بأمر الردة ووفى له عمر به وسيره مدداً للمثنى بالعراق، وبعث عصمة بن عبد الله الضبي، وكتب إلى أهل الردة بأن يوافوا المثنى وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب، فوافوا في جموع عظيمة حتى نصارى النمر جاؤوه وعليهم أنس بن هلال وقالوا: نقاتل مع قومنا. وبلغ الخبر إلى رستم والفيرزان فبعثا مهران الهمداني إلى الحيرة والمثنى بين القادسية وخفان.

فلما بلغه الخبر استبقى فرات باذقلا وكتب بالخبر إلى جرير وعصمة أن يقصدا العذيب مما يلي الكوفة، فاجتمعوا هنالك ومهران قبالتهم عدوة الفرات وتركوا له العبور فأجاز إليهم. وسار إليه المثنى في التبعية وعلى مجنبتيه مهران مرزبان الحيرة ابن الأزاذبة ومردارشاه، ووقف المثنى على الرايات يحرض الناس فأعجلتهم فارس وخالطوهم وركدت حربهم واشتدت.

ثم حمل المثنى على مهران فأزاله عن مركزه، وأصيب مسعود أخو المثنى، وخالط المثنى القلب ووثب المجنبات على المجنبات قبالتهم فانهزمت الفرس، وسبقهم المثنى إلى الجسر فهربوا مصعدين ومنحدرين، واستلحمهم خيول المسلمين وقتل فيها مائة ألف أو يزيدون، وأحصي مئة رجل من المسلمين قتل كل واحد منهم عشرة. وتبعهم المسلمون إلى الليل، وأرسل المثنى في آثار الفرس، فبلغوا ساباط فغنموا وسبوا ساباط واستباحوا القرى وسخروا السواد بينهم وبين دجلة لا يلقون مانعاً.

ورجع المنهزمون إلى رستم فاستهانوا ورضوا أن يتركوا ما وراء دجلة. ثم خرج المثنى من الحيرة واستخرج بشير بن الخصاصية وسار نحو السواد ونزل الليث من قرى الأنبار فسميت الغزاة غزاة الأنبار الآخرة وغزاة الليس الآخرة.

وجاءت إلى المثنى عيون فدلوه على سوق الخنافس وسوق بغداد، وأن سوق الخنافس أقرب ويجتمع بها تجار المدائن والسواد وخفراؤهم ربيعة وقضاعة، فركب إليها وأغار عليها يوم سوق، فاشتف السوق وما فيها وسلب الخفراء ورجع إلى الأنبار فأتوه بالعلوفة والزاد وأخذ منهم أدلاء تظهر له المدائن وسار بهم إلى بغداد ليلاً، وصبح السوق فوضع فيهم السيف وأخذ ما شاء من الذهب والفضة والجيد من كل شيء.

ثم رجع إلى الأنبار وبعث المضارب العجلي إلى الكباث وبه جماعة من تغلب فهربوا عنه، ولحقهم المضارب فقتل في أخرياتهم وأكثر. ثم سرح فرات بن حيان التغلبي وعتيبة بن النهاس للإغارة على أحياء من تغلب بصفين، ثم اتبعهم المثنى بنفسه فوجدوا أحياء صفين قد هربوا عنها فعبر المثنى إلى الجزيرة، وفني زادهم

وأكلوا رواحلهم وأدركوا عيراً من أهل خفان، فحضر نفر من تغلب فأخذوا العير ودلهم أحد الخفراء على حي من تغلب ساروا إليه يومهم، وهجموا عليهم فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الأموال، وكان هذا الحي بوادي الرويحلة، فاشترى أسراهم من كان هنالك من ربيعة بنصيبهم من الفيء وأعتقوهم وكانت ربيعة لا تسبي في الجاهلية.

ولما سمع المثنى أن جميع من يملك البلاد قد انتجع شاطىء دجلة خرج في اتباعهم فأدركهم بتكريت، فغنم ما شاء وعاد إلى الأنبار، ومضى عتيبة وفرات حتى أغارا على النمر وتغلب بصفين، وتمكن رعب المسلمين من قلوب أهل فارس وملكوا ما بين الفرات ودجلة.

أخبار القادسية

ولما دهم فارس من المسلمين بالسواد ما دهمهم وهم مختلفون بين رستم والفيرزان واجتمع عظماؤهم وقالوا لهما: إما أن تجتمعا وإلا فنحن لكما حرب فقد عرضتمونا للهلكة وما بعد بغداد وتكريت إلى المدائن فأطاعا لذلك، وفزعوا إلى بوران يسألونها في ولد من آل كسرى يولونه عليهم، فأحضرت لهم النساء والسراري وبسطوا عليهن العذاب فذكروا لهم غلاماً من ولد شهريار بن كسرى اسمه يزدجرد أخذته أمه عندما قتل شيرويه أبناء أبيه، فسألوا أمه عنه فدلتهم عليه عند أخواله كانت أودعته عندهم حينئذ فجاؤوا به ابن إحدى وعشرين سنة فملكوه واجتمعوا عليه.

وتبارى المرازبة في طاعته وعين المسالح والجنود لكل ثغر ومنها الحيرة والأبلة والأنبار وخرجوا إليها من المدائن. وكتب المثنى بذلك إلى عمر، وبينما هم ينتظر الجواب انتقض أهل السواد وكفروا وخرج المثنى إلى ذي قار، ونزل الناس في عسكر واحد. ولما وصل كتابه إلى عمر قال: واللّه لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي وشرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس، بل وغررهم وكتب إلى المثنى يأمره بخروج المسلمين من بين العجم والتفرق في المياه بحيالهم، وأن يدعو الفرسان وأهل النجدات من ربيعة ومضر ويحضرهم طوعاً وكرهاً، فنزل المسلمون بالحلة وسروا إلى عصي وهو جبل البصرة متناظرين.

وكتب إلى عماله على العرب أن يبعثوا إليه من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي وخرج إلى الحج، فحج سنة ثلاث عشرة، ورجع فجاءته أفواجهم إلى المدينة، ومن كان أقرب إلى العراق انضم إلى المثنى، فلما اجتمعت عنده أمراء العرب خرج من المدينة واستخلف عليها علياً وعسكر على صرار من ضواحيها، وبعث على المقدمة طلحة وجعل على الجنبتين عبد الرحمن والزبير وانْبَهم أمره على الناس، ولم يطق أحد سؤاله، فسأله عثمان. فأحضر الناس واستشارهم في المسير إلى العراق فقال العامة: سر نحن معك فوافقهم، ثم رجع إلى أصحاب رسول اللّه ﷺ وأحضر علياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن واستشارهم فأشاروا بمقامه وأن يبعث رجلاً بعده آخر من الصحابة بالجنود حتى يفتح اللّه على المسلمين ويهلك عدوهم، فقبل ذلك ورأى فيه الصواب. وعين لذلك سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن فأحضره وولاه حرب العراق وأوصاه وقال: ياسعد ابن أم سعد! لا يغرنك من اللّه أن يقال خال رسول اللّه وصاحب رسول اللّه فإن اللّه لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين اللّه وبين أحد نسب إلا بطاعته فالناس في دين اللّه سواء اللّه ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول اللّه ﷺ يلزمه فالزمه وعليك بالصبر.

ثم سرحه في أربعة آلاف ممن اجتمع إليه فيهم: حميضة بن النعمان بن حميضة على بارق، وعمرو بن معديكرب وأبو سبرة بن أبي رهم على مذحج، ويزيد بن الحرث الصدائي على عذرة وخبب ومسلية، وبشر بن عبد اللّه الهلالي على قيس عيلان، والحصين بن نمير ومعاوية بن خديج على السكون وكندة. ثم أمر بعد خروجه بألفي يماني وألفي فخري.

وسار سعد وبلغه في طريقه بزَرْورد أن المثنى مات من جراحة انتقضت، وإنه استخلف على الناس بشير بن الخصاصية، وكانت جموع المثنى ثلاثة آلاف، وكذلك أربعة آلاف من تميم والرباب وأقاموا، وعمر ضرب على بني أسد أن ينزلوا على حد أرضهم، فنزلوا في ثلاثة آلاف وأقاموا بين سعد والمثنى، وسار سعد إلى سيراف فنزلها، واجتمعت إليه العساكر ولحقه الأشعث بن قيس ومعه ثلاثون ألفاً، ولم يكن أحد أجرأ على الفرس من ربيعة.

ثم عبأ سعد كتائب من سيراف وأمّر الأمراء وعرّف على كل عشرة عريفاً، وجعل الرايات لأهل السابقة ورتب المقدمة والساقة والمجنبات والطلائع وكل ذلك بأمر عمر ورأيه، وبعث في المقدمة زهرة بن عبد اللّه بن قتادة الحيوي من بني تميم فانتهى إلى العذيب، وعلى الميمنة عبد اللّه بن المعتمر، وعلى الميسرة شرحبيل

بن السمط وخليفة بن خالد بن عرفطة حليف بني عبد شمس، وعاصم بن عمرو التميمي على الساقلة، وسواد بن مالك التميمي على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهلي على الجردة. ثم سار على التعبية ولقيه المعنى بن حارثة الشيباني بسيراف، وقد كان بعد موت أخيه المثنى سار بذي قار إلى قابوس بن قابوس بن المنذر بالقادسية وفد بعث الفرس إليها يستنفرون العرب فبيته المعنّى واستلحمه ومن معه ورجع إلى ذي قار.

وجاء إلى سعد بالخبر ليعلمه بوصية المثنى إليه أن لا تدخلوا بلاد فارس وقاتلوهم على حدود أرضهم بادئ حجر من أرض العرب، فإن يظهر اللّه المسلمين فلهم ما وراءهم وإلا رجعتم إلى فئة ثم تكونوا أعلم بسبيهم وأجرا على أرضهم إلى أن يردّ اللّه الكرب. فترحم سعد ومن معه على المثنى وولى أخاه المعنّى على عمله وتزوج سلمى زوجته، ووصله كتاب عمر بمثل رأي المثنى يسأله عن سيراف. ونزل العرب ثم أتى القادسية فنزلها بحيال القنطرة بين العتيق والخندق.

ووصله كتاب عمر يؤكد عليهم في الوفاء بالأنبار ولو كان إشارة أو ملاعبة، وكان زهرة في المقدمة فبعث سرية للإغارة على الحيرة عليها بكر بن عبد اللّه الليثي، وإذا أخت مرزبان الحيرة تزف إلى زوجها فحمل بكير على ابن الأزادية فقتله وحملوا الأثقال والعروس في ثلاثين امرأة ومئة من التوابع ومعهم ما لا يعرف قيمته، ورجعوا بالغنائم فصبح سعد بالعذيب فقسمه في المسلمين.

ولما رجع سعد إلى القادسية أقام بها شهراً يشن الغارات بين كسكر والأنبار ولم يأته خبر عن الفرس، وقد بلغت أخبارهم إلى يزدجرد وإن ما بين الحيرة والفرات قد نهب وخرب، فأحضر رستم ودفعه لهذا الوجه، فتقاعد عنه وقال: ليس هذا من الرأي. وبعث الجيوش يعقب بعضها بعضاً أولى من مصادمة مرة، فأبى يزدجرد إلا مسيرة لذلك. فعسكر رستم بساباط وكتب سعد بذلك إلى عمر، فكتب إليه لا يكترثنك ما يأتيك عنهم واستعن باللّه وتوكل عليه، وابعث رجالاً من أهل الرأي والجلد يدعونه فإن اللّه جاعل ذلك وهناً لهم. فأرسل سعد نفراً منهم النعمان بن مقرن، وبشر بن أبي أوهم وجملة من حيوة وحنظلة بن الربيع وعدي بن سهيل وعطارد بن حاجب والحرث بن حسان والمغيرة بن زرارة، والأشعث بن قيس، وفرات بن حبان وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معديكرب، والمغيرة بن شعبة، والمعنّى بن حارثة. فقدموا على يزدجرد وتركوا رستم، واجتمعوا بل واجتمع الناس ينظرون إليهم وإلى خيولهم وبردوهم.

فأحضرهم يزدجرد وقال لترجمانه: سلهم ما جاءكم وما أولعكم بغزونا وبلادنا؟ من أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا! فتكلم النعمان بن مقرن بعد أن استأذن أصحابه، وقال ما معناه: إن اللّه رحمنا وأرسل إلينا رسولاً صفته كذا يدعونا إلى كذا ووعدنا بكذا فأجابه منا قوم وتباعد قوم ثم أمر أن نجاهد من خالفه من العرب فدخلوا معه على وجهين: مكره اغتبط وطائع ازداد حتى اجتمعنا عليه وعرفنا فضل ما جاء به ثم أمرنا بجهاد من يلينا من الأمم ودعائهم إلى الإنصاف فإن أبيتم فالمناجزة.

فقال يزدجرد: لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم وقد كان أهل الضواحي يكفوننا أمركم ولا تطمعوا أن تقوموا للفرس فإن كان بكم جهد أعطيناكم قوتاً وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم. فقال المغيرة بن زرارة: هؤلاء أشراف العرب والأشراف يستحيون من الأشراف وأنا أكلمك وهم يشهدون، فأما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت وأشد ثم ذكر من عيش العرب ورحمة اللّه بهم بإرسال النبي ﷺ مثلما قال النعمان الخ.

ثم قال له: إختر إما الجزية عن يد وأنت صاغر أو السيف وإلا فنج نفسك بالإسلام. فقال يزدجرد: لو قتل أحد الرسل قبلي لقتلتكم. ثم استدعى بوقر من تراب وحمل على أعظمهم، وقال: ارجعوا إلى صاحبكم واعلموه أني مرسل رستم حتى يدفنكم أجمعين في خندق القادسية ثم يدوخ بلادكم أعظم من تدويخ سابور. فقام عاصم بن عمرو فحمل التراب على عنقه، وقال: إنا أشرف هؤلاء. ولما رجع إلى سعد فقال: أبشر فقد أعطانا اللّه تراب أرضهم وعجب رستم من محاورتهم، وأخبر يزدجرد بما قاله عاصم بن عمرو، فبعث في أثرهم إلى الحيرة فأعجزوهم.

ثم أغار سواد بن مالك التميمي بعد مسير الوفد إلى يزدجرد على الفراض فاستاق ثلاثمائة دابة بين بغل وحمار وثور وآخرها سمكة وصبح بها العسكر، فقسمه سعد في الناس، وواصلوا السرايا والبعوث لطلب اللحم، وأما الطعام فكان عندهم كثيراً. وسار رستم إلى ساباط في ستين ألفاً وعلى مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً وساقته عشرون ألفاً وفي الميمنة الهرمزان وفي الميسرة مهران بن بهرام الرازي، وحمل معه ثلاثة وثلاثين فيلاً ثمانية عشر في القلب وخمسة عشر في الجنبين. ثم سار حتى نزل كوثى، فأتى برجل من العرب، فقال له رستم: ما جاء بكم وما تطلبون؟ فقال: نطلب وعد اللّه بأرضكم وأبنائكم إن لم تسلموا. قال رستم: فإن قتلتم دون ذلك؟ قال: من قُتل دخل الجنة ومن بقي أنجزه اللّه وعده.

قال رستم: فنحن إذا وضعنا في أيديكم، فقال: أعمالكم وضعتكم وأسلمكم اللّه بها فلا يغرنك من ترى حولك فلست تحاول الناس إنما تحاول القضاء والقدر. فغضب وأمر به فضربت عنقه. وسار فنزل الفرس وفشا في عسكره المنكر وغصبوا الرعايا أموالهم وأبناءهم حتى نادى رستم منهم بالويل، فقال: صدق واللّه العربي. وأتى ببعضهم فضرب عنقه. ثم سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها فعزرهم وهم بهم، فقال له ابن بقيلة: لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا. وأرسل سعد السرايا إلى السواد وسمع بهم رستم فبعث لاعتراضهم الفرس، وبلغ ذلك سعداً فأمدهم بعاصم بن عمرو فجاءهم وخيل فارس تحتوشهم، فلما رأوا عاصماً هربوا.

وجاء عاصم بالغنائم. ثم أرسل سعد عمرو بن معديكرب وطليحة الأسدي طليعة فلما ساورا فرسخا وبعضه، لقوا المسالح فرجع عمرو، ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه وهتك أطناب خيمة أو خيمتين واقتاد بعض الخيل وخرج يعدو به فرسه، ونذر به الفرس فركبوا في طلبه إلى أن أصبح وهم في أثره فكر على فارس فقتله ثم آخر ثم آخر وأسر الرابع، وشارف عسكر المسلمين فرجعوا عنه. ودخل طليحة على سعد بالفارسي ولم يخلف بعده فيهم مثلهم بل مثله فأسلم ولزم طليحة.

ثم سار رستم فنزل القادسية بعد ستة أشهر من المدائن، وكان يطاول خوفاً وتقية، والملك يستحثه وكان رأى في منامه كأن ملكاً نزل من السماء ومعه النبي ﷺ وعمر وأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم ودفعه النبي إلى عمر فحزن لذلك أهل فارس في سيره. ولما وصل القادسية وقف على العتيق حيال عسكر المسلمين والناس يتلاحقون حتى اغتموا من كثرتهم، وركب رستم غداة تلك الليلة وصعد مع النهر وصوّب حتى وقف على القنطرة، وأرسل إلى زهرة فوافقه وعرض له بالصلح. وقال: كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم ويقرر صنيعهم مع العرب ويقول زهرة: ليس أمرنا من أولئك وإنما طلبنا وهمنا الآخرة وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث اللّه فينا رسولاً دعانا إلى دين الحق فأجبناه. وقال: قد سلطتكم على من لم يدن به وأنا منتقم بكم منهم وأجعل لكم الغلبة! فقال رستم: وما هو دين الحق. فقال: الشهادتان وإخراج الناس من عبادة الخلق إلى عبادة اللّه وإنهم إخوان في ذلك. فقال رستم: فإن أجبنا إلى هذا ترجعون؟ فقال: إي واللّه! فانصرف عنه رستم. ودعا رجال فارس وذكر ذلك لهم فأنفوا، وأرسل إلى سعد أن ابعث لنا رجلاً نكلمه ويكلمنا، فبعث إليه ربعي بن عامر

وحبسوه على القنطرة حتى أعلموا رستم، فجلس على سرير من ذهب -وبسط النمارق والوسائد منسوجة بالذهب- وأقبل ربعي على فرسه وسيفه في خرقة- ورمحه مشدودة بعصب- وقدم حتى انتهى إلى البساط ووطئه بفرسه، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما وجعل الحبل فيهما، فلم يحفلوا بذلك وأظهروا التهاون. ثم أخذ عباءة بعيره فاشتملها.

وأشاروا إليه بوضع سلاحه فقال: لو أتيتكم فعلت كذا بأمركم وإنما دعوتموني. ثم أقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه حتى أفسد ما مرّ عليه من البسط، ثم دنا من رستم وجلس على الأرض وركز رمحه على البساط وقال: إنا لا نقعد على زينتكم! فقال له الترجمان: ما جاء بكم؟ فقال: اللّه بعثنا لنخرج عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام وأرسلنا بدينه إلى خلقه فمن قبله قبلنا منه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفيء إلى الجنة أو الظفر. فقال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال: نعم! كم أحب إليك يوماً أو يومين، قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: إن مما سن لنا رسول اللّه ﷺ أن لا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث فانظر في أمرك وأمرهم واختر إما الإسلام وندعك وأرضك وإما الجزية فنقبل ونكف عنك وإن احتجت إلينا نصرناك والمنابذة في الرابع أن تبذلوا كفيلاً بهذا عن أصحابي.

قال أسيدهم أنت؟ قال: لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجيز بعضهم عن بعض يجيز أدناهم على أعلاهم. فخلا رستم برؤساء قومه وقال: رأيتم كلاماً قط مثل كلام هذا الرجل؟ فأروه الاستخفاف بشأنه وثيابه. فقال: ويحكم إنما انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة والعرب تستخف اللباس وتصون الأحساب.

ثم أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث اليهم حذيفة بن محصن ففعل كما فعل الأول ولم ينزل عن فرسه وتكلم وأجاب مثل الأول، فقال له: ما قعد بالأول عنا؟ فقال: أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء وهذه نوبتي. فقال رستم: والمواعدة إلى متى؟ فقال: إلى ثلاث من أمس وانصرف. وخلا رستم بأصحابه يعجبهم من شأن القوم. وبعث في الغد عن آخر فجاءه المغيرة بن شعبة فلما وصل إليهم وهم على زيهم وبسطهم على غلوة من مجلس رستم فجاء المغيرة حتى جلس معه على سريره فأنزلوه، فقال: لا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً فظننتكم كذلك وكان أحسن بكم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض مع أني لم آتكم وإنما دعوتموني فقد علمت أنكم مغلوبون ولم يقم ملك على هذه السيرة. فقالت

السفلة: صدق والله العربي، وقالت الأساطين: لقد رمانا بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه قاتل الله من يصغر أمر هذه الأمة. ثم تكلم رستم فعظم من أمر فارس بل من شأن فارس وسلطانهم وصغر أمر العرب وقال: كانت عيشتكم سيئة وكنتم تقصدوننا في الجدب فنردكم بشيء من التمر والشعير ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من الجهد ونحن نعطي أميركم كسوة وبغلاً وألف درهم وكل رجل منكم حمل تمر وتنصرفون فلست أشتهي قتلكم.

فتكلم المغيرة وخطب فقال: أما الذي وصفتنا به من سوء الحال والضيق والاختلاف فنعرفه ولا ننكره والدنيا دول والشدة بعدها الرخاء ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلاً عما أوتيتم وقد أسلمكم ا لله بضعف الشكر إلى تغير الحال وأن الله بعث فينا رسولاً، ثم ذكر مثلما تقدم إلى التخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال، ثم قال: وإن عيالنا ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لا صبر لنا عنه. فقال رستم: إذاً تموتون دونها، فقال المغيرة: يدخل من قتل منا الجنة ويظفر من بقي منا بكم. فاستشاط غضباً وحلف أن لا يقع الصلح أبداً حتى أقتلكم اجمعين.

وانصرف المغيرة وخلا رستم بأهل فارس وعرض عليهم مصالحة القوم، وحذرهم عاقبة حربهم، فلجّوا. وبعث إليه سعد يعرض عليه الإسلام ويرغّب، فأجابه بمثل ما كان يقول لأولئك من الامتنان على العرب والتعريض بالمطامع، فلم يتفق شيء من رأيهم. فقال رستم: تعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟

فقالوا: بل اعبروا! وأرسل إليهم سعد بذلك وأرادوا القنطرة، فقال سعد: لا ولا كرامة لا نرد عليكم شيئاً غلبناكم عليه فأبى. فباتوا يسكرُون العتيق بالتراب والقصب والبرادع حتى جعلوا جسراً. ثم عبر رستم ونصب له سريره وجلس عليه وضرب طيارة عليه وعبر عسكره، وجعل الفيلة في القلب والمجنبتين عليها الصناديق والرجال والرايات أمثال الحصون، وجعل الجالينوس بينه وبين الميمنة والفيرزان بينه وبين الميسرة.

ورتب يزدجرد الرجال بين المدائن والقادسية وما بينه وبين رستم رجلاً على كل دعوة تنتقل إليه ينبئهم أخبار رستم في أسرع وقت. ثم أخذ المسلمون مصافهم واختط سعد قصره، وكان به عرق النساء وأصابته معه دماميل لا يستطيع معها الجلوس فصعد على سطح القصر راكباً على وسادة في صدره وأشرف على الناس، وعاب ذلك عليه بعض الناس فنزل واعتذر إليهم وأراهم القروح في جسده فعذروه.

واستخلف خالد بن عرفطة على الناس وحبس من شغب عليه في القصر وقيدهم، وكان فيهم أبو محجن الثقفي، وقيل إنما حبسه بسبب الخمر. ثم خطب الناس وحثهم على الجهاد وذكرهم بوعد الله، وذلك في المحرم سنة أربع عشرة، وأخبرهم أنه استخلف خالد بن عرفطة. وأرسل جماعة من أهل الرأي لتحريض الناس على القتال مثل المغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس وغالب وعمرو، ومن الشعراء الشماخ والحطيئة والعبدي بل وعبدة بن الطيّب وغيرهم ففعلوا.

ثم أمر بقراءة سورة الجهاد وهي الأنفال فهشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها، فلما فرغت القراءة قال سعد: الزموا مواقفكم فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا. فإذا سمعتم الثانية فكبروا وأتموا عدتكم، فإذا سمعتم الثالثة فكبروا ونشّطوا الناس، فإذا سمعتم الرابعة فازحفوا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فلما كبر الثالثة برز أهل النجدان فأنشبوا القتال وخرج أمثالهم من الفرس فاعتوروا الطعن والضرب، وارتجزوا الشعر، وأول من أسر في ذلك اليوم هرمز من ملوك اللباب وكان متوجاً أسره غالب بن عبد الله الأزدي فدفعه إلى سعد ورجع إلى الحرب. وطلب البراز أسوار منهم فبرز إليه عمرو بن معديكرب فأخذه وجلد به الأرض فذبحه وسلب سواريه ومنطقته. ثم حملوا الفيلة على المسلمين وأمالوها على بجيلة فثقلت عليهم، فأرسل سعد إلى بني أسد أن يدافعوا عنهم، فجاءه طليحة بن خويلد وحمل ابن مالك فردوا الفيلة، وخرج على طليحة عظيم منهم فقتله طليحة.

وعير الأشعث بن قيس كندة بما يفعله بنو أسد فاستشاطوا ونهدوا معه فأزالوا الذين بإزائهم. وحين رأى الفرس ما لقي الناس والفيلة من بني أسد حملوا عليهم جميعاً وفيهم ذو الحاجب والجالينوس.

وكبر سعد الرابعة فزحف المسلمون وثبت بنو أسد، ودارت رحى الحرب عليهم وحملت الفيول على الميمنة والميسرة ونفرت خيول المسلمين منها فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو هل من حيلة لهذه الفيلة؟ فبعث الرماة يرشقونها بالنبل واشتد بردّها آخرون يقطعون الوضن.

وخرج عاصم بجميعهم ورحى الحرب على أسد، واشتد عواء الفيلة ووقعت الصناديق فهلك أصحابها، ونفس عن أسد أن أصيب منهم خمسمئة وردوا فارس إلى مواقفهم. ثم اقتتلوا إلى هدء

من الليل وكان هذا اليوم الأول وهو يوم الرماة. ولما أصبح سعد دفن القتلى وأسلم الجرحى إلى نساء يقمن عليهم، وإذا بنواحي الخيل طالعة من الشام، كان عمر بعد فتح دمشق عزل خالد بن الوليد عن جند العراق وأمر أبا عبيدة أن يؤمّر عليهم هاشم بن عتبة يردهم إلى العراق، فخرج بهم هاشم وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، فقدم القعقاع على الناس صبيحة ذلك اليوم وهو يوم أغواث، وقد عهد إلى أصحابه أن يقطعوا أعشاراً بين كل عشرين مد البصر وكانوا ألفاً، فسلم على الناس وبشرهم بالجنود وحرضهم على القتال.

وطلب البراز فخرج إليه ذو الحاجب فعرفه القعقاع ونادى بالثأر لأصحاب الجسر، وتضاربا فقتله القعقاع وسر الناس بقتله، ووهنت الأعاجم لذلك. ثم طلب البراز فخرج إليه الفيرزان والبندوان. وأكثر المسلمون القتل في الفرس وأخذوا الفيلة عن القتال لأن توابيتها تكسرت بالأمس، فاستأنفوا عملها، وجلل القعقاع إبلاً وجعل عليها البراقع وأركبها عشرة عشرة، وأطاف عليها الخيول تحميها، وحملها على خيل الفرس فنفرت منها وركبتهم خيول المسلمين، ولقي الفرس من الإبل أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة. وبرز القعقاع يومئذ في ثلاثين فارساً في ثلاثين حملة فقتلهم، كان آخرهم بزرجمهر الهمداني، وبارز الأعور بن قطنة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه.

ولما انتصف النهار تزاحف الناس فاقتتلوا إلى انتصاف الليل وقتلوا عامة أعلام فارس ثم أصبحوا في اليوم الثالث على مواقفهم بين الصفين ومن المسلمين ألف جريح وقتيل ومن المشركين عشرة آلاف، فدفن المسلمون موتاهم وأسلموا الجرحى إلى النساء ووكلوا النساء والصبيان بحفر القبور، وبقي قتلى المشركين بين الصفين. وبات القعقاع يسرب أصحابه إلى حيث فارقهم بالأمس، وأوصاهم إذا طلعت الشمس أن يقبلوا مئة مئة يجدد بذلك الناس، وجاء بينهما يلحق هاشم بن عتبة.

فلما ذرّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فتقدموا والمسلمون يكبّرون، فتزاحفت الكتائب طعناً وهرباً، وما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى لحق هاشم فعبى أصحابه سبعين سبعين وكان فيهم قيس بن المكشوح فلما خالط القلب كبر وكبر المسلمون ثم كبر فخرق الصفوف إلى العتيق، ثم عاد وقد أصبح الفرس على مواقفهم وأعادوا الصناديق على الفيلة وأحدقوا الرجال بها يحمونها أن تقطع وضنها، وأقام الفرسان يحمون الرجالة فلم تنفر خيل المسلمين منها. وكان هذا اليوم يوم عماس وكان شديداً، إلا أن الطائفتين فيه سواء وأبلى فيه قيس بن المكشوح وعمرو بن معديكرب، ثم زحفت الفيلة وفرقت بين الكتائب. وأرسل سعد إلى القعقاع وعاصم أن أكفياني الأبيض وكان بإزائهما، وإلى حمال والدميل أن أكفياني الأجرب وكان بإزائهما.

فحملوا على الفيلين فقتل الأبيض ومن كان عليه وقطع مشفر الأجرب وفقئت عينه وضرب سائسه الدميل بالطبر زين فأفلت جريحاً، وتحير الأجرب بن الصفين وألقى نفسه في العتيق واتبعته الفيلة وفرقت صفوف الأعاجم في أثره، وقصدت المدائن بوثوبها وهلك جميع من فيها. وخلص المسلمون والفرس فاختلفوا على سواء إلى المساء واقتتلوا بقية ليلتهم وتسمى ليلة الهرير. فأرسل سعد طليحة وعمر إلى مخاضة أسفل العسكر يقومون عليها خشية أن يؤتى المسلمون منها، فتشاوروا أن يأتوا الأعاجم من خلفهم، فجاء طليحة وراء العسكر وكبر فارتاع أهل فارس، فأغار عمر أسفل المخاضة ورجع وزاحفهم الناس دون إذن سعد وأول من زاحفهم من الناس دون إذن سعد زاحفهم القعقاع وقومه فحمل عليهم، ثم حمل بنو أسد ثم النخع ثم بجلية ثم كندة، وسعد يقول في كل واحدة اللّهم اغفر لهم وانصرهم. وقد كان قال لهم إذا كبرت ثلاثاً فاحملوا، فلما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضاً بعد صلاة العشاء واختلطوا وصليل الحديد كصوت القرن إلى الصباح.

وركدت الحرب وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم وأقبل سعد على الدعاء، وسمع نصف الليل صوت القعقاع في جماعة من الرؤساء إلى رستم حتى خالطوا صفه مع الصبح فحمل الناس من كل جهة على من يليهم واقتتلوا إلى قائم الظهيرة، فناجز الفيرزان والهرمزان بعض الشيء وانفرج القلب، وهبت ريح عاصف فقلبت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق، وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير وقد قام رستم عنه فاستظل في ظل بغل فحمله، وضرب هلال بن علقمة الحمل فوقع أحد العدلين على رستم فكسر ظهره، وضربه هلال ضربة نفحت مسكاً وضرب نحو العتيق ورمى بنفسه فيه فاقتحم هلال عليه وجره برجله فقتله، وصعد السرير وقال: قتلت رستم ورب الكعبة إلي إلي! فأطافوا به وكبّروا.

وقيل: إن هلالاً لما قصد رستم رماه بسهم، فأثبت قدمه بالركاب ثم حمل عليه، فقتله واحتز رأسه ونادى في الناس قتلت رستم!

فانهزم قلب المشركين وقام الجالينوس على الردم ونادى الفرس إلى العبور، وتهافت المقترنون بالسلاسل في العتيق وكانوا

ثلاثين ألفاً هلكوا، وأخذ ضرار بن الخطاب راية الفرس العظيمة وهي درفش كابيان فعوض منها ثلاثين ألفاً وكانت قيمتها ألف ألف ومائة ألف، وقتل ذلك اليوم من الأعاجم عشرة آلاف في المعركة، وقتل من المشركين في ذلك اليوم ستة آلاف دفنوا في الخندق حيال مسرق سوى ألفين وخمسمائة قتلوا ليلة الهرير، وجمع من الأسلاب والأموال ما لم يجمع قبله ولا بعده مثله. ونفل سعد هلال بن علقمة سلب رستم، وأمر القعقاع وشرحبيل باتباع العدو وقد كان خرج زهرة بن حيوة قبلهما في آثاره، فلحق الجالينوس بجمع المنهزمين فقتله وأخذ سلبه، فتوقف سعد من عطائه، وكتب إلى عمر، فكتب إليه: تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بمثل ما صلى به وقد بقي عليك من حربك ما بقي نفسد قلبه، امض له سلبه وفضله على أصحابه في العطاء بخمس مئة. ولحق سليمان بن ربيعة الباهلي وأخوه عبد الرحمن بطائفة من الفرس قد استماتوا فقتلوهم، واستمات بعد الهزيمة بضعة وثلاثون رئيساً من المسلمين فقتلوهم أجمعين.

وكان ممن هرب من أمراء الفرس الهرمزان والفرزاد بن بيهس وقارن، وممن استمات فقتل شهريار بن كبار وأسر المدمرون والفردان الأهوازي وخشرشوم الهمداني. وكتب سعد إلى عمر بالفتح وبمن أصيب من المسلمين، وكان عمر يسأل الركبان حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله.

فلما لقي البشير قال: من أين؟ فأخبره فقال: حدثني فقال: هزم اللّه المشركين. ففرح بذلك. وأقام المسلمون بالقادسية ينتظرون كتاب عمر إلى أن وصلهم بالإقامة. وكانت وقعة القادسية سنة أربع عشرة وقيل: خمس عشرة وقيل ست عشرة.

فتح المدائن وجلولاء بعدها

ولما انهزم أهل فارس بالقادسية انتهوا إلى بابل وهديل وفيهم بقايا الرؤساء النخيزجان ومهران الأهوازي والهرموان وأشباههم واستعملوا عليهم الفيرزان. وأقام سعد بعد الفتح شهرين وسار بأمر عمر إلى المدائن وخلف العيال بالعتيق في جند كثيف حامية لهم، وقدم بين يديه زهرة بن حياة وشرحبيل بن الصمت وعبد اللّه بن المعتمر، ولقيهم بعض عساكر الفرس فهزموهم حتى لحقوا ببابل. ثم جاء سعد وسار في التعبية ونزلوا على الفيرزان ومن معه ببابل، فخرجوا وقاتلوا المسلمين، فانهزموا وافترقوا فرقتين ولحق الهرمزان بالأهواز والفيرزان بنهاوند وبها كنوز كسرى.

وسار النخيزجان ومهران إلى المدائن فتحصنوا وقطعوا الجسر. ثم سار سعد من بابل على التعبية وزهرة في المقدمة، وقدم بين يديه بكير بن عبد اللّه الليثي وكثير بن شهاب السبيعي حتى عبرا ولحقا بأخريات القوم، فقتلا في طريقهما أسوارين من أساورتهم، ثم تقدموا إلى كوثي وعليها شهريار فخرج لقتالهم فقتل وانهزم أصحابه فافترقوا في البلاد. وجاء سعد فنفل قاتله سلبه.

وتقدم زهرة إلى ساباط فصالحه أهلها على الجزية وهزم كتيبة كسرى، ثم نزلوا جميعاً على بهرشير من المدائن، ولما عاينوا الإيوان كبّروا وقالوا: هذا أبيض كسرى هذا ما وعد اللّه. وكان نزولهم عليها ذا الحجة سنة خمس عشرة فحاصروها ثلاثة أشهر ثم اقتحموها، وكانت خيولهم تغير على النواحي وعهد إليهم عمر أن من أجاب من الفلاحين ولم يعن عليهم فذلك أمانه، ومن هرب فأُدرك فشأنكم به. ودخل الدهاقين من غربي دجلة وأهل السواد كلهم في أمان المسلمين واغتبطوا بملكهم، واشتد الحصار على بهرشير ونصبوا عليها المجانيق واستلحموهم في المواطن، وخرج بعض المرازبة يطلب البراز، فقاتله زهرة بن حيوة فقتلا معاً، ويقال: إن زهرة قتله شبيب الخارجي أيام الحجاج. ولما ضاق بهم الحصار وركب إليهم الناس بعض الأيام فلم يروا على الأسوار أحداً إلا رجلاً يشير إليهم فقال: ما بقي بالمدينة أحد وقد صاروا إلى المدينة القصوى التي فيها الإيوان، فدخل سعد والمسلمون وأرادوا العبور إليهم فوجدوهم جمعوا المعابر عندهم، فأقام أياماً من صبر ودله بعض العلوج على مخاضة في دجلة فتردد، فقال له أقدم فلا تأتي عليك ثلاثة إلا ويزدجرد قد ذهب بكل شيء فيها. فعزم سعد على العبور وخطب الناس وندبهم إلى العبور ورغبهم، وندب من يجيز أن لا يجيء الفراض حتى يجيز إليه الناس، فانتدب عاصم بن عمرو في ستمائة واقتحموا دجلة فلقيهم أمثالهم من الفرس عند الفراض وشدوا عليهم فانهزموا وقتل أكثرهم وعوروا من الطعن في العيون، وعاينهم المسلمون على الفراض، فاقتحموا في أثرهم يصيحون: نستعين باللّه ونتوكل عليه حسبنا اللّه ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

وساروا في دجلة وقد طبقوا ما بين عدوتيها وخيلهم سابحة بهم وهم يهيمنون تارة ويتحادثون أخرى حتى أجازوا البحر ولم يفقدوا شيئاً، إلا قدحاً لبعضهم غلبت صاحبه جرية الماء وألقته الريح إلى الشاطئ.

ورأى الفرس عساكر المسلمين قد أجازوا البحر فخرجوا هاربين إلى حلوان، وكان يزدجرد قدم إليها قبل ذلك عياله، ورفعوا ما قدروا عليه من عرض المتاع وخفيفه ومن بيت المال

والنساء والذراري، وتركوا بالمدائن من الثياب والأمتعة والآنية والألطاف ما لا تحصى قيمته، وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ألف مكررة ثلاث مرات تكون جملتها ثلاثمائة ألف قنطار من الدنانير، وكان رستم عند مسيره إلى القادسية حمل نصفها لنفقات العساكر وأبقى النصف. واقتحمت العساكر المدينة يجولون في سككها لا يلقون بها أحداً، وأرز سائر الناس القصر الأبيض حتى توثقوا لأنفسهم على الجزية.

ونزل سعد القصر الأبيض واتخذ الإيوان به مصلى ولم يغير ما فيه من التماثيل، ولما دخله قرأ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآية، وصلى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهن وأتم الصلاة بنية الإقامة. وسرح زهرة بن حيوة في آثار الأعاجم إلى النهروان وقراها من كل جهة، وجعل على الأخماس عمرو بن عمرو بن مقرن، وعلى القسم سلمان بن ربيعة الباهلي وجمع ما كان في القصر والإيوان والدور وما نهبه أهل المدائن عند الهزيمة، ووجدوا حلية كسرى: ثيابه وخرزاته وتاجه ودرعه التي كان يجلس فيها للمباهاة أخذ ذلك من أيدي الهاربين على بغلين، وأخذ منهم أيضاً وقر بغل من السيوف وآخر من الدروع والمغافر منسوبة كلها درع هرقل وخاقان ملك الترك وداهر ملك الهند وبهرام جور وسياوخش والنعمان بن المنذر وسيف كسرى وهرمز وقباذ وفيروز وهرقل وخاقان وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان أحضرها القعقاع.

وخيّره في الأسياف، فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام، وبعث إلى عمر سيف كسرى والنعمان وتاج كسرى وحليته وثيابه ليراها الناس. وقسم سعد الفيء بين المسلمين بعدما خمّسه، وكانوا ستين ألفاً فأصاب للفارس اثنا عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل، ونفل من الأخماس في أهل البلاد، وقسم المنازل بين الناس، واستدعى العيالات من العتيق فأنزلهم الدور ولم يزالوا بالمدائن حتى تم فتح جلولاء وحلوان وتكريت والموصل، واختطت الكوفة فتحولوا إليها، وأرسل سعد في الخمس كل شيء يعجب العرب منهم أن يصنع إليهم، وحضر إليهم نهار كسرى وهو الغطف وهو بساط طوله ستون ذراعاً في مثلها مقدار مزرعة جريب في أرضه وهي منسوجة بالذهب طرقاً كالأنهار وتماثيل خلالها بصدف الدر والياقوت وفي حافاتها كالأرض المزدرعة والمقبلة بالنبات ورقها من الحرير على قضبان الذهب وزهره حبات الذهب والفضة وثمره الجوهر، كانت الأكاسرة يبسطونه في الإيوان في فصل الشتاء عند فقدان الرياحين يشربون عليه، فلما قدمت الأخماس على عمر قسمها في الناس، ثم قال: أشيروا علي في هذا الغطف، فاختلفوا وأشاروا على نفسه، فقطعه بينهم، فأصاب عليّ قطعة منه باعها بعشرين ألفاً ولم تكن بأجودها.

وولّى عمر سعد بن أبي وقاص على الصلاة والحرب فيما غلب عليه، وولى حذيفة بن اليمان على سقي الفرات، وعثمان بن حنيف على سقي دجلة، ولما انتهى الفرس بالهرب إلى جلولاء، وافترقت الطرق من هنالك بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس، وقضوا هنالك خشية الافتراق واجتمعوا على مهران الرازي وخندقوا على أنفسهم وأحاطوا الخندق بجسره الحديد، وتقدم يزدجرد إلى حلوان. وبلغ ذلك سعداً فكاتب عمر بذلك يأمره أن يسرح إلى الفرس بجولاء هاشماً ابن أخيه عتبة في اثني عشر ألفاً وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، وأن يولي القعقاع بعد الفتح ما بين السواد والجبل. فسار هاشم من المدائن لذلك في وجوه المسلمين وأعلام العرب حتى قدم جلولاء فأحاط بهم وحاصرهم في خنادقهم، وزاحفوهم ثمانين يوماً ينصرون عليهم في كلها والمدد متصل من هاهنا وهاهنا ثم قاتلوهم آخر الأيام فقتلوا منهم أكثر من ليلة الهرير، وأرسل الله عليهم ريحاً وظلمة فسقط فرسانهم في الخندق وجعلوه طرقاً مما يليهم ففسد حصنهم، وشعر المسلمون بذلك فجاءه القعقاع إلى الخندق فوقف على بابه.

وشاع في الناس أنه أخذ في الخندق، فحمل الناس حملة واحدة انهزم المشركون لها وافترقوا، ومروا بالجسرة التي تحصنوا بها فعقرت دوابهم فترجلوا ولم يفلت منهم إلا القليل، يقال: إنه قتل منهم يومئذ مائة ألف. واتبعهم القعقاع بالطلب إلى خانقين، وأجفل يزدجرد من حلوان إلى الري واستخلف عليها خشرشوم، وجاء القعقاع إلى حلوان فبرز إليه خشرشوم وعلى مقدمته الرمي، فقتله القعقاع وهرب خشرشوم من ورائه، وملك القعقاع حلوان وكتب إلى عمر بالفتح واستأذنه في اتباعهم، فأبى وقال: وددت أن بين السواد والجبل سداً حصيناً من ريف السواد فقد آثرت سلامة المسلمين على الأنفال. وأحصيت الغنيمة فكانت ثلاثين ألف ألف، فقسمها سلمان بن ربيعة، يقال: إنه أصاب الفارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب. وبعثوا بالأخماس إلى عمر مع زياد ابن أبيه. فلما قدم الخمس قال عمر: والله لا يجنّه سقف حتى أقسمه، فجعله في المسجد وبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانه، ولما أصبح جاء في الناس ونظر إلى ياقوتة وجوهرة فبكى، فقال عبد الرحمن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين وهذا موطن شكر؟ قال: والله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا فيلقي الله بأسهم بينهم. ومنع عمر من قسمة السواد ما بين حلوان والقادسية فأقره حبساً، واشترى جرير بعضه بشاطئ

الفرات فرد عمر الشراء.

ولما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن بلغهم أن أدين بن الهرامون جمع جمعاً وجاء بهم إلى السهل، فبعث إليه ضرار بن الخطاب في جيش فلقيهم بماسبذان فهزمهم وأسر أدين فقتله، وانتهى في طلبه إلى النهروان وفتح ماسبذان عنوة ورد إليها أهلها ونزل بها فكانت أحد فروج الكوفة، وقيل كان فتحها بعد نهاوند والله سبحانه أعلم.

ولاية عتبة بن غزوان على البصرة

كان عمر عندما بعث المثنى إلى الحيرة بعث قتبة بن قتادة السلوسي إلى البصرة فكان يغير بتلك الناحية، ثم استمد عمر فبعث إليه شريح بن عامر بن سعد بن بكر فأقبل إلى البصرة ومضى إلى الأهواز، ولقيه مسلحة الأعاجم فقتلوه. فبعث عمر عتبة بن غزوان والياً على تلك الناحية، وكتب إلى العلاء بن الحضرمي أن يمده بعرفجة بن هرثمة وأمره أن يقيم بالتخم بين أرض العرب وأرض العجم، فانتهى إلى حيال الجسر ويبلغ صاحب الفرات خبرهم فأقبل في أربعة آلاف وعتبة في خمسمائة والتقوا فقتلوا الأعاجم أجمعين وأسروا صاحب الفرات.

ثم نزل البصرة في ربيع سنة أربع عشرة، وقيل إن البصرة بصرت سنة ست عشرة بعد جلولاء وتكريت. أرسل سعد إليها عتبة فاقام بها شهراً وخرج إليه أهل الأبلة، وكانت مرفأ للسفن من الصين، فهزمهم عتبة وأحجرهم في المدينة ورجع إلى عسكره، ورعب الفرس فخرجوا عن الأبلة وحملوا ما خف وخلوا المدينة وعبروا النهر، ودخلها المسلمون فغنموا ما فيها واقتسموه. ثم اختط البصرة وبدأ بالمسجد فبناه بالقصب. وجمع له أهل دست ميان فلقيهم عتبة فهزم وأخذ مرزبانها أسيراً، وأخذ قتادة منطقته فبعث بها إلى عمر، وسأل عنهم فقيل له: انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة. فرغب الناس في البصرة وأتوها.

ثم سار عتبة إلى عمر بعد أن بعث مجاشع بن مسعود في جيش إلى الفرات، واستخلف المغيرة بن شعبة على الصلاة إلى قدوم مجاشع، وجاء ألف بيكان من عظماء الفرس إلى المسلمين ولقيهم المغيرة بن شعبة بالمرغاب وبينما هم في القتال إذ لحق بهم النساء وقد اتخذن خمرهن رايات، فانهزم الأعاجم وكتبوا بالفتح إلى عمر، فرد عتبة إلى عمله فمات في طريقه، وقيل: إن إمارة عتبة كانت سنة خمس عشرة وقيل: ست عشرة فوليها ستة أشهر، واستعمل عمر بعده المغيرة بن شعبة سنتين فلما رمي بما رمي به عزله، واستعمل أبا موسى. وقيل: استعمل بعد عتبة أبا سبرة وبعده المغيرة.

وقعة مرج الروم وفتوح مدائن الشام بعدها

لما انهزم الروم بفحل سار أبو عبيدة وخالد إلى حمص واجتمعوا بذي الكلاع في طريقهم وبعث هرقل توذر البطريق للقائهم فنزلوا جميعاً بمرج الروم، وكان توذر بإزاء خالد وشمر بطريق آخر بإزاء أبي عبيدة وأمسوا مستترين. ثم أصبح فلم يجدوا توذر وسار إلى دمشق واتبعه خالد، واستقبله يزيد من دمشق فقاتله، وجاءه خالد من خلفه فلم يفلت منهم إلا القليل وغنموا ما معهم. وقاتل شمر أبو عبيدة بعد مسيرة خالد فانهزم الروم وقتلوا واتبعهم أبو عبيدة إلى حمص ومعه خالد، فبلغ ذلك هرقل فبعث بطريق حمص إليها وسار هو في الرها، فحاصر أبو عبيدة حمص حتى طلبوا الأمان فصالحهم.

وكان هرقل يعدهم في حصارهم المدد، وأمر أهل الجزيرة بإمدادهم فساروا لذلك. وبعث سعد بن أبي وقاص العساكر من العراق فحاصروا هيت وقرقيسيا فرجع أهل الجزيرة إلى بلادهم. ويئس أهل حمص من المدد فصالحوا على صلح أهل دمشق، وأنزل أبو عبيدة فيها السمط بن الأسود في بني معاوية من كندة والأشعث بن قيس في السكون والمقداد في بلي وغيرهم، وولى عليهم أبو عبيدة بن الصامت وسار إلى حماة فصالحوه على الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم، ثم سار نحو شيزر فصالحوا كذلك، ثم إلى المعرة كذلك ويقال: معرة النعمان وهو النعمان بن بشير الأنصاري.

ثم سار إلى اللاذقية ففتحها عنوة ثم سلمية، ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين فاعترضه ميناس عظيم الروم بعد هرقل فهزمهم خالد وأثخن فيهم، ونازل قنسرين حتى افتتحها عنوة وخربها. وأدرب إلى هرقل من ناحيته، وأدرب عياض بن غنم كذلك، وأدرب عمر بن مالك من الكوفة إلى قرقيسيا، وأدرب عبد الله بن المعتمر من الموصل، فارتحل هرقل إلى القسطنطينية من أمدها، وأخذ أهل الحصون بين الإسكندرية وطرسوس وشعبها أن ينتفع المسلمون بعمارتها. ولما بلغ عمر صنيع خالد قال: أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم مني بالرجال. وقد كان عزل خالداً والمثنى بن حارثة خشية أن يداخلهما كبر من تعظيم فوكلوا إليه، ثم رجع عن رأيه في المثنى عند قيامه بعد أبي عبيد، وفي خالد بعد قنسرين فرجع خالد إلى

إمارته.

ولما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب وبلغه أن أهل قنسرين غدروا فبعث إليهم السمط الكندي فحاصرهم وفتح وغنم، ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب وهو موضع قريب منها يجمع أصنافاً من العرب، فصالحوا على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك.

ثم أتى حلب وكان على مقدمته عياض بن غنم الفهري فحاصرهم حتى صالحوه على الأمان، وأجاز ذلك أبو عبيدة، وقيل صولحوا على مقاسمة الدور والكنائس، وقيل انتقلوا إلى أنطاكية حتى صالحوا ورجعوا إلى حلب. ثم سار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية وبها جمع كبير من فل قنسرين وغيرهم ولقوه قريباً منها فهزمهم وأحجرهم بالمدينة وحاصرهم حتى صالحوه على الجلاء أو الجزية ورحل عنهم، ثم نقضوا فبعث أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الأول وكانت عظيمة الذكر، فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب فيها حامية مرابطة ولا يؤخر عنهم العطاء.

ثم بلغ أبا عبيدة أن جمعاً بالروم بين معرة مصرين وحلب فسار إليهم فهزمهم وقتل بطارقتهم، وأمعن بل وأثخن فيهم، وفتح معرة مصرين على صلح حلب. وجالت خيوله فبلغت سرمين وتيرى وغلبوا على جميع أرض قنسرين وأنطاكية، ثم فتح حلب ثانية. وسار يريد قورس، وعلى مقدمته عياض، فصالحوه على صلح أنطاكية. وبث حيله ففتح تل نزار وما يليه، ثم فتح منبج على يد سلمان بن ربيعة الباهلي، ثم بعث عياضاً إلى دلوك وعيتاب فصالحهم على مثل منبج واشترط عليهم أن يكونوا عوناً للمسلمين. وولّى أبو عبيدة على كل ما فتح من الكور عاملا وضم إليه جماعة وشحن الثغور المخوفة بالحامية. واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات.

وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين. بعث أبو عبيدة جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي، فسلكوا درب تفليس إلى بلاد الروم فلقي جمعاً للروم ومعهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وأثخن فيهم، ولحق به على أنطاكية مالك بن الأشتر النخعي مدداً فرجعوا جميعاً إلى أبي عبيدة. وبعث أبو عبيدة جيشاً آخر إلى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وخربها، وبعث جيشاً آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحرث كذلك.

وفي خلل ذلك فتحت قيسارية، وبعث إليها يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية بأمر عمر فسار إليها وحاصرهم بعد أن هزمهم، وبلغت قتلاهم في الهزائم ثمانين ألفاً وفتحها آخراً وكان علقمة بن مجزز على غزة وفيها القبغار من بطاركة الروم.

وقعة أجنادين وفتح بيسان والأردن وبيت المقدس

لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص بعد واقعة مرج الروم نزل عمرو وشرحبيل على أهل بيسان فافتتحها وصالح أهل الأردن، واجتمع عسكر الروم بأجنادين وغزة وبيسان وعليهم أرطبون من بطارقة الروم، فسار عمرو وشرحبيل إليهم واستخلف على الأردن أبا الأعور السلمي. وكان الأرطبون قد أنزل بالرملة جنداً عظيماً من الروم وبيت المقدس كذلك، وبعث عمرو علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن العكي لقتال أهل بيت المقدس، وبعث أبا أيوب المالكي إلى قتال أهل الرملة، وكان معاوية محاصراً لأهل قيسارية فشغل جميعهم عنه، ثم زحف عمرو إلى الأرطبون واقتتلوا كيوم اليرموك أو أشد.

وانهزم أرطبون إلى بيت المقدس وأفرج له المسلمون الذين كانوا يحاصرونها حتى دخل. ورجعوا إلى عمرو وقد نزل أجنادين. وقد تقدم لنا ذكر هذه الواقعة قبل اليرموك على رأي من جعلها قبلها وهذا على قول من جعلها بعدها. ولما دخل أرطبون بيت المقدس فتح عمرو غزة، وقيل: كان فتحها في خلافة أبي بكر، ثم فتح سبسطية وفيها قبر يحيى بن زكريا، وفتح نابلس على الجزية ثم فتح مدينة لد، ثم عمواس وبيت حبرين ويافا ورفح وسائر مدائن الأردن. وبعث إلى الأرطبون فطلب أن يصالح كأهل الشام ويتولى العقد عمر وكتبوا إليه بذلك.

فسار عن المدينة واستخلف عليها علي بن أبي طالب بعد أن عذله في مسيره فأبى، وقد كان واعد أمراء الأجناد هنالك فلقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل ورماهم بالحجارة، وقال: أتستقبلوني في هذا الزي؟ وإنما شبعتم منذ سنتين والله لو كان على رأس المائتين لاستبدلت بكم قالوا: إنها بلا ثمن. وإن علينا السلاح، فسكت ودخل الجابية.

وجاءه أهل بيت المقدس وضم عمراً وشرحبيل إليه وقد هرب أرطبون عنهم إلى مصر، فصالحوه على الجزية وفتحوها له وكذلك أهل الرملة.

وولّى علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه

الرملة، وعلقمة بن مجزر على النصف الآخر وأسكنه بيت المقدس، وضم عمراً وشرحبيل إليه فلقياه بالجابية. وركب عمر إلى بيت المقدس فدخلها وكشف عن الصخرة وأمر ببناء المسجد عليها وذلك سنة خمس عشرة وقيل: سنة ست عشرة. ولحق أرطبون بمصر مع من أبى الصلح من الروم حتى هلك في فتح مصر، وقيل: إنما لحق بالروم وهلك في بعض الصوائف. ثم فرق عمر العطاء ودوّن الدوادين سنة خمس عشرة ورتب ذلك على السابقة.

ولما أعطى صفوان بن أمية والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو أقل من غيرهم قالوا: لا والله لا يكون أحد أكرم منا فقال: إنما أعطيت على سابقة الإسلام لا على الأحساب. فقالوا: فنعم إذن. وخرجوا إلى الشام فلم يزالوا مجاهدين حتى أصيبوا.

ولما وضع عمر الدواوين قال له علي وعبد الرحمن: ابدأ بنفسك، قال: لا! بعمّ رسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب، ورتب ذلك على مراتب ففرض خمسة آلاف ثم أربعة ثم ثلاثة ثم ألفين وخمسمائة ثم ألفين ثم ألفاً واحداً ثم خمسمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين وخمسين ثم مائتين، وأعطى نساء النبي ﷺ عشرة آلاف لكل واحدة وفضل عائشة بألفين، وجعل النساء على مراتب فلأهل بدر خمسمائة ثم أربعمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين، والصبيان مائة مائة والمساكين جرايتين في الشهر، ولم يترك في بيت المال شيئاً. وسئل في ذلك فأبى وقال: هي فتنة لمن بعدي.

وسأل الصحابة في قوته من بيت المال، فاذنوا له فيه وسألوه في الزيادة على لسان حفصة ابنته متكتمين عنه، فغضب وامتنع، وسألها عن حال رسول الله ﷺ في عيشه وملبسه وفراشه فأخبرته بالكفاف من ذلك، فقال: والله لأضعنّ الفضول موضعها ولأتبلغن بالترجية وإنما مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقاً وتزود الأول فبلغ المنزل واتبعه الآخر مقتدياً به كذلك ثم جاءه الثالث بعدهما فإن اقتفى طريقهما وزادهما لحق بهما وإلا لم يبلغهما.

وفتحت في جمادى من هذه السنة تكريت لأن أهل الجزيرة كانوا قد اجتمعوا إلى المرزبان الذي كان بها وهم من الروم وإياد وتغلب والنمر ومعهم المشهارجة ليحموا أرض الجزيرة من ورائهم، فسرح إليهم سعد بن أبي وقاص بأمر عمر، كاتبه عبد الرحمن بن المعتمر وعلى مقدمته ربعي بن الأفكل وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة، فحاصروهم أربعين يوماً ودخلوا العرب الذين معهم فكانوا يطلعونهم على أحوال الروم، ثم يئس الروم من أمرهم واعتزموا على ركوب السفن في دجلة للنجاة، فبعث العرب بذلك إلى المسلمين وسألوهم الأمان، فأجابوهم على أن يسلموا فأسلموا وواعدوهم الثبات والتكبير وأن يأخذوا على الروم أبواب البحر مما يلي دجلة ففعلوا. ولما سمع الروم التكبير من جهة البحر ظنوا أن المسلمين استداروا من هنالك فخرجوا إلى الناحية التي فيها المسلمون فأخذتهم السيوف من الجهتين، ولم يفلت إلا من أسلم من قبائل ربيعة من تغلب والنمر وإياد. وقسمت الغنائم فكان للفارس ثلاثة آلاف درهم وللراجل ألف. ويقال: إن عبد الله بن المعتمر بعث ربعي بن الأفكل بعهد عمر إلى الموصل ونينوى وهما حصنان على دجلة من شرقيها وغربيها، فسار في تغلب وإياد والنمر وسقوه إلى الحضين فأجابوا إلى الصلح وصاروا ذمة. وقيل بل الذي فتح الموصل عتبة بن فرقد سنة عشرين وأنه ملك نينوى وهو الشرقي عنوة.

وصالحه أهل الموصل وهو الغربي على الجزية وفتح معها جبل الأكراد وجميع أعمال الموصل وقيل إنما بعث عتبة بن فرقد عياض بن غنم عندما فتح الجزيرة على ما نذكره والله أعلم.

مسير هرقل إلى حمص وفتح الجزيرة وأرمينية

كان أهل الجزيرة قد راسلوا هرقل وأغروه بالشام وأن يبعث الجنود إلى حمص وواعدوه المدد، وبعثوا الجنود إلى أهل هيت مما يلي العراق، فأرسل سعد عمر بن مالك بن خيبر بن مطعم في جند وعلى مقدمته الحرث بن يزيد العامري فسار إلى هيت وحاصرهم، فلما رأى اعتصامهم بخندقهم حجر عليهم الحرث بن يزيد وخرج في نصف العسكر وجاء قرقيسيا على غرة فأجابوه إلى الجزية، وكتب إلى الحرث أن يخندق على عسكر الجزيرة فبيت حتى سألوا المسالمة والعود إلى بلادهم فتركهم ولحق بعمر بن مالك.

ولما اعتزم هرقل على قصد حمص وبلغ الخبر أبا عبيدة ضم إليه مسالحه وعسكر بفنائها، وأقبل إليه خالد من قنسرين، وكتبوا إلى عمر بخبر هرقل فكتب إلى سعد أن يذهب بل أن يندب الناس مع القعقاع بن عمرو ويسرحهم من يومهم فإن أبا عبيدة قد أحيط به، وأن يسرح سهيل بن عدي إلى الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استدعوا الروم إلى حمص، وأن يسرح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ثم يقصد حران والرها، وأن يسرح الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأن يكون عياض بن غنم على أمراء الجزيرة هؤلاء إن كانت حرب. فمضى القعقاع من يومه في أربعة آلاف إلى حمص، وسار عياض بن غنم وأمراء الجزيرة كل

أمير إلى كورته، وخرج عمر من المدينة فأتى الجابية يريد حمص مغيثاً لأبي عبيدة. ولما سمع أهل الجزيرة خبر الجنود فارقوا هرقل ورجعوا إلى بلادهم، وزحف أبو عبيدة إلى الروم فانهزموا، وقدم القعقاع من العراق بعد الوقعة بثلاث، وكتبوا إلى عمر بالفتح فكتب إليهم أن أشركوا أهل العراق في الغنيمة.

وسار عياض بن غنم إلى الجزيرة وبعث سهيل بن عدي إلى الرقة عندما انقبضوا عن هرقل فنهضوا معه، إلا إياد بن نزار، فإنهم دخلوا أرض الروم. ثم بعث عياض بن سهيل وعبد اللّه يضمهما إليه، وسار بالناس إلى حران فأجابوه إلى الجزية. ثم سرح سهيلاً وعبد اللّه إلى الرها فأجابوا إلى الجزية، وكمل فتح الجزيرة. وكتب أبو عبيدة إلى عمر لما رجع من الجابية وانصرف معه خالد أن يضم إليه عياض بن غنم مكانه ففعل، وولى حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها والوليد بن عقبة على عربها.

ولما بلغ عمر دخول إياد إلى بلاد الروم، كتب إلى هرقل: بلغني أن حياً من أحياء العرب تركوا دارنا وأتوا دارك فواللّه لتخرجنهم أو لنخرجن النصارى إليك، فأخرجهم هرقل وتفرق منهم أربعة آلاف فيما يلي الشام والجزيرة، وأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من تغلب إلا الإسلام، فكتب إليه عمر: إنما ذلك في جزيرة العرب التي فيها مكة والمدينة واليمن فدعهم على أن لا ينصروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام.

ثم وفدوا إلى عمر في أن يضع عنهم اسم الجزية فجعلها الصدقة مضاعفة ثم عزل الوليد عنهم لسطوته وعزتهم، وأمر عليهم فرات بن حيان وهند بن عمرو الجملي. وقال ابن إسحاق: إن فتح الجزيرة كان سنة تسع عشرة وإن سعداً بعث إليها الجند مع عياض بن غنم وفيهم ابنه عمر وعياض بن غنم، ففتح عمر الرها بل ففتح عياض الرها، وصالحت حران، وافتتح أبو موسى نصيبين، وبعث عثمان بن أبي العاص إلى أرمينيا فصالحوه على الجزية، ثم كان فتح قيسارية من فلسطين.

فتكون الجزيرة على هذا من فتوح أهل العراق والأكثر إنها من فتوح أهل الشام. وأن أبا عبيدة سيّر عياض بن غنم إليها، وقيل بل استخلفه لما توفي، فولاه عمر على حمص وقنسرين والجزيرة فسار إليها سنة ثمان عشرة في خمسة آلاف فانتهت طائفة إلى الرقة فحاصروها حتى صالحوه على الجزية والخراج على الفلاحين. ثم سار إلى حران فجهز عليها صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة، وسار هو إلى الرها فحاصرها حتى صالحوه. ثم رجع إلى حران وصالحهم كذلك، ثم فتح سميساط وسروج ورأس كيفا فصالحوه على منبج كذلك، ثم آمد ثم ميافارقين ثم كفرتوثا ثم نصيبين ثم ماردين ثم الموصل وفتح أحد حصنيها، ثم سار إلى أرزن الروم ففتحها ودخل الدرب إلى بدليس. ثم خلاط فصالحوه وانتهى إلى أطراف أرمينية، ثم عاد إلى الرقة ومضى إلى حمص فمات.

واستعمل عمر عمير بن سعد الأنصاري ففتح رأس عين وقيل: إن عياضاً هو الذي أرسله، وقيل: إن أبا موسى الأشعري هو الذي افتتح رأس عين بعد وفاة عياض بولاية عمر، وقيل إن خالداً حضر فتح الجزيرة مع عياض ودخل الحمام بآمد فاطلى بشيء فيه خمر وقيل: لم يسر خالد تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة. ولما فتح عياض سميساط بعث حبيب بن مسلمة إلى ملطية ففتحها عنوة ثم انتقض أهلها فلما ولي معاوية الشام والجزيرة وجه إليها حبيب بن مسلمة فقتتحها عنوة أيضاً ورتب فيها الجند وولى عليها، ولما أدرب عياض بن غنم من الجابية.

فرجع عمر إلى المدينة سنة سبع عشرة وعلى حمص أبو عبيدة، وعلى قنسرين خالد بن الوليد من تحته، وعلى دمشق يزيد، وعلى الأردن معاوية، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز، وعلى السواحل عبد اللّه بن قيس. وشاع في الناس ما أصاب خالد مع عياض بن غنم من الأموال فانتجعه رجال منهم الأشعث فإن كان من ماله فقد أسرف فاعزله واضمم إليك عمله.

فاستدعاه أبو عبيدة وجمع الناس وجلس على المنبر وسأل اليزيد خالداً فلم يجبه، فقام بلال وأنفذ فيه أمر عمر وسأله، فقال: من مالي فأطلقه وأعاد قلنسوته وعمامته. ثم استدعاه عمر فقال له: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسهمان وما زاد على ستين ألفاً فهو لك فجمع ماله فزاد عشرين فجعلها في بيت المال ثم استصلحه.

وفي سنة سبع عشرة هذه اعتمر عمر ووسع في المسجد، وأقام بمكة عشرين ليلة، وهدم على من أبى البيع دورهم لذلك، وكانت العمارة في رجب وتولاها مخرمة بن نوفل، والأزهر بن عبد عوف، وحويطب بن عبد العزى وسعيد بن يربوع، واستأذنه أهل المياه أن يبنوا المنازل بين مكة والمدينة فأذن لهم على شرط أن ابن السبيل أحق بالظل والماء.

غزو فارس من البحرين وعزل العلاء عن البصرة ثم المغيرة وولاية أبي موسى

كان العلاء بن الحضرمي على البحرين أيام أبي بكر ثم

عزله عمر بقدامة بن مظعون ثم أعاده، وكان العلاء يناوئ سعد بن أبي وقاص ووقع له في قتال أهل الردة ما وقع، فلما ظفر سعد بالقادسية كان أعظم من فعل العلاء، فأراد أن يؤثر في الفرس شيئاً فندب الناس إلى فارس وأجابوه، وفرقهم أجناداً بين الجارود بن المعلى والسوار بن همام وخليد بن المنذر وأمّره على جميعهم وحمله في البحر إلى فارس بغير إذن من عمر.

لأنه كان ينهى عن ذلك وأبو بكر قبله خوف الغرق. فخرجت الجنود إلى إصطخر وبإزائهم الهربذ في أهل فارس، وحالوا بينهم وبين سفنهم فخاطبهم خليد وقال: إنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب. ثم ناهدوهم واقتتلوا بطاوس، وقتل الجارود والسوار وأمر خالد أصحابه أن يقاتلوا رجالة، وقتل من الفرس مقتلة عظيمة.

ثم خرج المسلمون نحو البصرة وأخذ الفرس عليهم الطرق فعسكروا وامتنعوا، وبلغ ذلك عمر فأرسل إلى عتبة بالبصرة يأمره بإنفاذ جيش كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا، وأمر العلاء بالانصراف عن البحرين إلى سعد بمن معه، فأرسل عتبة الجنود اثني عشر ألف مقاتل فيهم عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة والأحنف بن قيس وأمثالهم وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم من عامر بن لؤي، فساحل بالناس حتى لقي خليداً والعسكر، وقد تداعى إليهم بعد وقعة طاوس أهل فارس من كل ناحية، فاقتتلوا وانهزم المشركون وقتلوا. ثم انكفأوا بما أصابوا من الغنائم واستحثهم عتبة بالرجوع فرجعوا إلى البصرة. ثم استأذن عتبة في الحج فأذن له عمر فحج، ثم استعفاه فأبى وعزم عليه ليرجعن إليه عمله فانصرف ومات ببطن نخلة على رأس ثلاث سنين من مفارقة سعد. واستخلف على عمله أبا سبرة بن أبي رهم فأقره عمر بقية السنة.

ثم استعمل المغيرة بن شعبة عليها، وكان بينه وبين أبي بكرة منافرة وكانا متجاورين في مشربتين ينفذ البصر من إحداهما إلى الأخرى من كوتين، فزعموا إن أبا بكرة وزياد ابن أبيه وهو أخوه لأمه وآخرين معهما عاينوا المغيرة على حالة قذفوه بها ادعوا الشهادة ومنعه أبو بكرة من الصلاة، وبعثوا إلى عمر، فبعث أبا موسى أميراً في تسعة وعشرين من الصحابة فيهم أنس بن مالك وعمران بن حصين وهشام بن عامر ومعهم كتاب عمر إلى المغيرة: أما بعد فقد بلغني عنك نبأ عظيم وبعثت أبا موسى أميراً فسلم إليه ما في يدك والعجل. ولما استحضرهم عمر اختلفوا في الشهادة ولم يستكملها زياد فجلد الثلاثة. ثم عزل أبا موسى عن البصرة بعمر بن سراقة ثم صرفه إلى الكوفة ورد أبا موسى فأقام عليه.

بناء البصرة والكوفة

وفي هذه السنة وهي أربع عشرة بلغ عمر أن العرب تقرّبل تغيرت ألوانهم ورأى ذلك في وجوه وفودهم فسألهم فقالوا: وخومة البلاد غيّرتنا، وقيل: إن حذيفة وكان مع سعد كتب بذلك إلى عمر فسأل عمر سعداً فقال: غيرتهم وخومة البلاد والعرب لا يوافقها من البلاد إلا ما وافق إبلها، فكتب إليه أن يبعث سلمان وحذيفة شرقيه فلم يرضيا إلا بقعة الكوفة فصليا فيها ودعيا أن تكون منزل ثبات. ورجع إلى سعد فكتب إلى القعقاع وعبد اللّه بن المعتمر أن يستخلفا على جندهما ويحضرا، وارتحل من المدائن فنزل الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة لسنتين وشهرين من وقعة القادسية ولثلاث سنين وثمانية أشهر من ولاية عمر، وكتب إلى عمر إني قد نزلت الكوفة بين الحيرة والفرات برياً بحرياً بين الجلاء والنصر وخيرت الناس بينهما وبين المدائن ومن أعجبته تلك جعلته فيها مسلحة، فلما استقروا بالكوفة ثاب إليهم ما فقدوه من حالهم. ونزل أهل البصرة أيضاً منازلهم في وقت واحد مع أهل الكوفة بعد ثلاث مرات نزلوها من قبل واستأذنوا جميعاً في بنيان القصب، فكتب عمر: أن العسكرة أشد لحربهم وأذكر لكم وما أحب أن أخالفكم فابتنوا بالقصب. ثم وقع الحريق في القصرين فاستأذنوا في البناء باللبن فقال: افعلوا ولا يزيد أحد على ثلاثة بيوت ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة. وكان على تنزيل الكوفة أبو هياج بن مالك، وعلى تنزيل البصرة أبو الحرب عاصم بن الدلف. وكانت ثغور الكوفة أربعة: حلوان وعليها القعقاع، وماسبدان وعليها ضرار بن الخطاب، وقرقيسيا وعليها عمر بن مالك، والموصل وعليها عبد اللّه بن المعتمر. ويكون بها خلفاؤهم إذا غابوا.

فتح الأهواز والسوس بعدها

لما انهزم الهرمزان يوم القادسية قصد خوزستان وهي قاعدة الأهواز فملكها وملك سائر الأهواز، وكان أصله منهم من البيوتات السبعة في فارس، وأقام يغير على أهل ميشان ودست ميشان من ثغور البصرة يأتي إليها من منادر ونهر تيري من ثغور الأهواز. واستمد عتبة بن غزوان سعداً فأمده بنعيم بن مقرن، ونعيم بن مسعود، فنزل بين ثغور البصرة وثغور الأهواز. وبعث عتبة بن غزوان سلمي بن القين وحرملة بن قريضة من بني العدوية من حنظلة فنزل على ثغور البصرة بميسان، ودعوا بني العم بن مالك وكانوا ينزلون خراسان، فأهل البلاد يأمنونهم،

فاستجابوا وجاء منهم غالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي فلقيا سلمي وحرملة وواعداهما الثورة بمنادر ونهر تيري. ونهض سلمي وحرملة يوم الموعد في التعبية وأنهض نعيماً والتقو هم والهرمزان وسلمي على أهل البصرة ونعيم على أهل الكوفة، وأقبل إليهما المدد من قبل غالب وكليب وقد ملك منادر ونهر تيري، فانهزم الهرمزان وقتل المسلمون من أهل فارس مقتلة، وانتهوا في اتباعهم إلى شاطئ دجيل وملكوا ما دونها. وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وصل دجيل بينه وبين المسلمين، ثم طلب الهرمزان الصلح فصالحوه على الأهواز كلها ما خلا نهر تيري ومنادر وما غلبوا عليه من سوق الأهواز فإنه لا يرد، وبقية المسالح على نهر تيري ومنادر وفيهما غالب وكليب. ثم وقع بينهما وبين الهرمزان اختلاف في التخم ووافقهما سلمي وحرملة فنقض الهرمزان ومنع ما قبله وكثف جنوده بالأكراد، وبعث عتبة بن غزوان حرقوص بن زهير السعدي لقتاله، فانهزم وسار إلى رام هرمز وفتح حرقوص سوق الأهواز ونزل بها واتسعت له البلاد إلى تستر. ووضع الجزية وكتب بالفتح وبعث في أثر الهرمزان جزء بن معاوية فانتهى إلى قرية الشغر، ثم إلى دورق فملكها وأقام بالبلاد وعمرها وطلب الهرمزان الصلح على ما بقي من البلاد.

ونزل حرقوص جبل الأهواز وكان يزدجرد في خلال ذلك يمد ويحرض أهل فارس حتى اجتمعوا وتعاهدوا مع أهل الأهواز على النصرة، وبلغت الأخبار حرقوصاً وجزءاً وسلمي وحرملة فكتبوا إلى عمر فكتب إلى سعد أن يبعث جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرن ينزلون منازل الهرمزان، وكتب إلى أبي موسى أن يبعث كذلك جنداً كثيفاً مع سعد بن عدي أخي سهيل ويكون فيهم البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وعرفجة بن هرثمة وغيرهم، وعلى الجندين أبو سبرة بن أبي رهم. فخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة فخلف حرقوصاً وسلمي وحرملة إلى الهرمزان وهو برام هرمز، فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدة ولقيه فانهزم ولحق بتستر، وجاء النعمان إلى رام هرمز فنزلها وجاء أهل البصرة من بعده فلحقهم خبر الواقعة بسوق الأهواز فساروا حتى أتوا تستر.

ولحقهم النعمان فاجتمعوا على تستر وبها الهرمزان، وأمدهم عمر بأبي موسى جعله على أهل البصرة فحاصروهم أشهراً وأكثروا فيهم القتل، وزاحفهم المشركون ثمانين زحفاً سجالاً ثم انهزموا في آخرها، واقتحم المسلمون خنادقهم وأحاطوا بها وضاق عليهم الحصار فاستأمن بعضهم من داخل البلد بمكتوب في سهم على أن يدلهم على مدخل يدخلون منه، فانتدب لهم طائفة ودخلوا المدينة من مدخل الماء وملكوها وقتلوا المقاتلة، وتحصن الهرمزان بالقلعة فأطافوا بها واستنزلوه على حكم عمر وأوثقوه. واقتسموا الفيء فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف والراجل ألف. وقتل من المسلمين في تلك الليلة البراء بن مالك ومجزأة بن ثور قتلهما الهرمزان.

ثم خرج أبو سبرة في أثر المنهزمين ومعه النعمان وأبو موسى فنزلوا على السوس، وسار زر بن عبد الله الفقيمي إلى جنديسابور فنزل عليها. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بالرجوع إلى البصرة وأمر مكانه الأسود بن ربيعة من بني ربيعة بن مالك صحابي يسمى المقترب، وأرسل أبو سبرة بالهرمزان إلى عمر في وفد منهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس فقدموا به بالمدينة وألبسوه كسوته من الديباج المذهب وتاجه مرصعاً بالياقوت وحليته ليراه المسلمون.

فلما رآه عمر أمر بنزع ما عليه وقال: يا هرمزان كيف رأيت أمر اللّه وعاقبة الغدر؟ فقال: يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان اللّه قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم. فلما صار الآن معكم غلبتمونا. قال: فما حجتك وما عذرك في الانتقاض مرة بعد أخرى؟ قال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك! قال: لا تخف ذلك. ثم استقى فأتي بالماء فقال: أخاف أن أقتل وأنا أشرب قال: لا بأس عليك حتى تشربه، فألقاه من يده وقال: لا حاجة لي في الماء وقد أمنتني. قال: كذبت. قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين فقد قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وحتى تشربه وصدّق الناس. فأقبل عمر على الهرمزان وقال: خدعتني؟ لا واللّه إلا أن تسلم! فأسلم. ففرض له في ألفين وأنزله المدينة واستأذنه الأحنف بن قيس في الانسياح في بلاد فارس وقال: لا يزالون في الانتقاض حتى يهلك ملكهم فأذن له.

ولما لحق أبو سبرة بالسوس ونزل عليها وبها شهريار أخو الهرمزان فأحاط بها ومعه المقترب بن ربيعة في جند البصرة، فسأل أهل السوس الصلح فأجابوهم. وسار النعمان بن مقرن بأهل الكوفة إلى نهاوند وقد اجتمع بها الأعاجم، وسار المقترب إلى زر بن عبد اللّه على جند يسابور فحاصروها مدة ثم رمى السهم بالأمان من خارج على الجزية فخرجوا لذلك، فناكرهم المسلمون فإذا عبد فعل ذلك أصله منهم، فأمضى عمر أمانه. وقيل في فتح السوس: إن يزدجرد سار بعد وقعة جلولاء فنزل إصطخر ومعه سياه في سبعين ألفاً من فارس فبعثه إلى السوس ونزل الكلبانية وبعث الهرمزان إلى تستر، ثم كانت واقعة أبي موسى فحاصرهم فصالحوه على الجزية وسار إلى هرمز ثم إلى تستر. ونزل سياه بين

رامهرمز وتستر.

وحمل أصحابه على صلح أبي موسى ثم على الإسلام على أن يقاتلوا الأعاجم ولا يقتلوا العرب ويمنعهم هو من العرب، ويلحق بأشراف العطاء فأعطاهم ذلك عمر وأسلموا وشهدوا فتح تستر، ومضى سياه إلى بعض الحصون في زي العجم فغدرهم وفتحه للمسلمين وكان فتح تستر وما بعدها سنة سبع عشرة وقيل ست عشرة.

مسير المسلمين إلى الجهات للفتح

لما جاء الأحنف بن قيس بالهرمزان إلى عمر قال له: يا أمير المؤمنين! لا يزال أهل فارس يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم فلو أذنت بالانسياح في بلادهم فأزلنا ملكهم انقطع رجاؤهم، فأمر أبا موسى أن يسير من البصرة غير بعيد حتى بل ويقيم حتى يأتي أمره، ثم بعث إليه مع سهيل بن عدي بألوية الأمراء الذين يسيرون في بلاد العجم لواء خراسان للأحنف بن قيس، ولواء أردشيرخرت وسابور لمجاشع بن مسعود السلمي، ولوء إصطخر لعثمان بن أبي العاص الثقفي، ولواء فسا ودارابجرد لسارية بن زنيم الكناني، ولواء كرمان لسهيل بن عدي، ولواء سجستان لعاصم بن عمرو، ولواء مكران للحكم بن عمير التغلبي. ولم يتهيأ مسيرهم إلاّ سنة ثماني عشرة، ويقال: سنة إحدى وعشرين أو اثنين وعشرين، ثم ساروا في بلاد العجم وفتحوا كما يذكر بعد.

مجاعة عام الرمادة وطاعون عمواس

وأصاب الناس سنة ثماني عشرة قحط شديد وجدب أعقب جوعاً بعُد العهد بمثله مع طاعون أتى على جميع الناس، وحلف عمر لا يذوق السمن واللبن حتى يحيا الناس، وكتب إلى الأمراء بالأمصار يستمدهم لأهل المدينة، فجاء أبو عبيدة بأربعة آلاف راحلة من الطعام، وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام من مصر فرخص السعر، واستقى عمر بالناس فخطب الناس وصلى. ثم قام وأخذ بيد العباس وتوسل به ثم بكى وجثا على ركبتيه يدعو إلى أن مطر الناس. وهلك بالطاعون أبو عبيدة ومعاذ ويزيد بن أبي سفيان والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وابنه عتبة في آخرين أمثالهم. وتفانى الناس بالشام، وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتفع بالمسلمين من الأرض التي هو بها فدعا أبا موسى يرتاد له منزلاً ومات قبل رحيله.

وسار عمر بالناس إلى الشام وانتهى إلى سرغ ولقيه أمراء الأجناد وأخبروه بشدة الوباء، واختلفت الناس عليه في قدد معه فقبل إشارة العود ورجع، وأخبر عبد الرحمن بن عوف بما سمع من رسول الله ﷺ في أمر الوباء فقال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه». أخرجاه في الصحيحين.

ولما هلك يزيد وولى عمر على دمشق مكانه أخاه معاوية بن أبي سفيان وعلى الأرض شرحبيل بن حسنة، ولما فحش أثر الطاعون بالشام أجمع عمر المسير إليه ليقسم مواريث المسلمين ويتطوف على الثغور ففعل ذلك، ورجع واستقضى في سنة ثماني عشرة على الكوفة شريح بن الحرث الكندي، وعلى البصرة كعب بن سوار الأزدي.

وحج في هذه السنة. ويقال: إن فتح جلولاء والمدائن والجزيرة كان في هذه السنة وقد تقدم ذكر ذلك وكذلك فتح قيسارية على يد معاوية وقيل: سنة عشرين.

فتح مصر

ولما فتح عمر بيت المقدس استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر فأغزاه ثم أتبعه الزبير بن العوام فساروا سنة عشرين أو إحدى أو إثنين أو خمس فافتحموا باب إليون ثم ساروا في قرى الريف إلى مصر ولقيهم الجاثليق أبو مريم والأسقف قد بعثه المقوقس، وجاء أبو مريم إلى عمرو فعرض الجزية والمنع وأخبره بما أوصى به رسول الله ﷺ في شأنهم، وأجّلهم ثلاثاً ورجعوا إلى المقوس وأرطبون أمير الروم فأبى من ذلك أرطبون وعزم الحرب وبيت المسلمين فهزموه وجنده. ونازلوا عين شمس وهي المطرية وبعثوا لحصار الفورفا أبرهه بن الصباح، ولحصار الإسكندرية عوف بن مالك، فراسلهم أهل البلاد وانتظروا عين شمس فحاصرهم عمرو والزبير مدة حتى صالحوهما على الجزية، وأجروا ما أخذوا قبل ذلك عنوة، فجرى الصلح وشرطوا رد السبايا فأمضاه لهم عمر بن الخطاب على أن يجيز السبايا في الإسلام وكتب العهد بينهم ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعدهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقضي ولا يساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة

نهرهم خمسين ألف ألف وعليه ممن جنى نصرتهم فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بعددهم وذمتنا ممن أبى بريئة وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا، وعليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أميرالمؤمنين وذمم المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب منقولاً من الطبري.

قال: فدخل في ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح ونزل المسلمون الفسطاط، وجاء أبو مريم الجاثليق يطلب السبايا التي بعد المعركة في أيام الأجل فأبى عمرو من ردها وقال: أغاروا وقاتلوا وقسمتهم في الناس، وبلغ الخبر إلى عمر فقال: من يقاتل في أيام الأجل فله الأمان وبعث بهم إلى الدقاق فردهم عليهم. ثم سار عمرو إلى الإسكندرية فاجتمع له من بينها وبين الفسطاط من الروم والقبط فهزمهم وأثخن فيهم، ونازل الإسكندرية وبها المقوقس وسأله الهدنة إلى مدة فلم يجبه وحاصرهم ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة وغنم ما فيها وجعلهم ذمة. وقيل: إن المقوقس صالح عَمراً على اثني عشر ألف دينار على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم وجعل عمرو فيها جنداً.

ولما تم فتح مصر والإسكندرية أغزى عمرو العساكر إلى النوبة فلم يظفروا، فلما كان أيام عثمان وعبد الله بن أبي سرح على مصر صالحهم على عدة رؤوس في كل سنة ويهدي إليهم المسلمون طعاماً وكسوة فاستمر ذلك فيما بعد.

وقعة نهاوند وما كان بعدها من الفتوحات

لما فتحت الأهواز ويزدجرد بمرو كاتبوه واستنجدوه، فبعث إلى الملوك ما بين الباب والسند وخراسان وحلوان يستمدهم فأجابوه، واجتمعوا إلى نهاوند وعلى الفرس الفريرزان في مئة وخمسين ألف مقاتل. وكان سعد بن أبي وقاص قد ألب أقوام عليه من عسكره، وشكوه إلى عمر فبعث محمد بن مسلمة في الكشف عن أمره فلم يسمع إلا خيراً سوى مقالة من بني عبس، فاستقدمه محمد إلى عمرو وخبره الخبر فقال: كيف تصلي يا سعد؟ قال: أطيل الأولتين وأحذف الأخيرتين. قال: هكذا الظن بك، ثم قال: من خليفتك على الكوفة؟ قال: عبد الله بن عبد الله بن عتبان فامره وشافهه بخبر الأعاجم وأشار بالانسياح ليكون أهيب على العدو.

فجمع عمر الناس واستشارهم بالمسير بنفسه، فمن موافق ومخالف إلى أن اتفق رأيهم على أن يبعث الجنود ويقيم ردءاً لهم، وكان ذلك رأي علي وعثمان وطلحة وغيرهم، فولى على حربهم النعمان بن مقرن المزني وكان على جند الكوفة بعد انصرافهم من حصار السوس، وأمره أن يصير إلى ماء لتجتمع الجيوش عليه ويسير بهم إلى الفيرزان ومن معه. وكتب إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان أن يستنفر الناس من النعمان، فبعثهم مع حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن، وكتب إلى المقترب وحرملة وزر الذين كانوا بالأهواز وفتحوا السوس وجنديسابور أن يقيموا بتخوم أصبهان وفارس ويقطعوا المدد عن أهل نهاوند.

واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة وجرير والمغيرة وابن عمر وأمثالهم، وأرسل النعمان طليحة وعمرو بن معديكرب طليعة، ورجع عمرو من طريقه. وانتهى طليحة إلى نهاوند ونقض الطرق فلم يلق بها أحداً وأخبر الناس، فرحل النعمان وعبى المسلمين ثلاثين ألفاً، وجعل على مقدمته نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع وعلى الساقة مجاشع بن مسعود. وعبّى الفيرزان كتائبه وعلى مجنبتيه زردق وبهمن جادويه مكان ذي الحاجب، وقد توافى إليهم بنهاوند كل من غاب من القادسية من أبطالهم.

فلما تراءى الجمعان كبر المسلمون وحطت العرب الأثقال وتبادر أشراف الكوفة إلى فسطاط النعمان فبنوه! حذيفة بن اليمان والمغيرة بن شعبة وعقبة بن عمرو وجرير بن عبد الله وحنظلة الكاتب وبشير بن الخصاصية والأشعث بن قيس ووائل بن حجر وسعيد بن قيس الهمداني. ثم تزاحفوا للقتال يوم الأربعاء والخميس والحرب سجال ثم أحجروهم في خنادقهم يوم الجمعة وحاصروهم أياماً، وسئم المسلمون اعتصامهم بالخنادق وتشاوروا، وأشار طليحة باستخراجهم للمناجزة بالاستطراد فناشبهم القعقاع فبرزوا إليه كأنهم حبال حديد قد تواثقوا أن لا يفروا وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا.

فلما بارزوا استطرد لهم حتى فارقوا الخنادق وقد ثبت لهم المسلمون ونزل الصبر، ثم وقف النعمان على الكتائب وحرض المسلمين ودعا لنفسه بالشهادة، وقال: إذا كبرت الثالثة فاحملوا. ثم كبر وحمل عند الزوال وتجاول الناس ساعة وركدت الحرب ثم انفض الأعاجم وانهزموا وقتلوا ما بين الظهر والعتمة حتى سالت

أرض المعركة دما تزلق فيه المشاة حتى زلق فيه النعمان وصرع، وقيل بل أصابه سهم، فسجاه أخوه نعيم بثوب. وتناول الراية حذيفة بعهده وتواصلوا بكتمان موته. وذهب الأعاجم ليلاً وعميت عليهم المذاهب، وعقرهم حسك الحديد ووقعوا في اللهيب الذي أعدوه في عسكرهم فمات منهم أكثر من مئة ألف منها نحو ثلاثين ألفاً في المعركة، وهرب الفيرزان بعد أن صرع إلى همذان واتبعه نعيم بن مقرن فأدركه بالثنية دونها وقد سدتها الأحمال وترجل وصعد في الجبل، وكان نعيم قد قدّم القعقاع أمامه فاعترضه وقتله المسلمون على الثنية، ودخل الفل همذان وبها خسرشنوم فنزل المسلمون عليها مع نعيم والقعقاع.

ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة وغنموا ما فيها وجمعوه إلى صاحب الأقباض السائب بن الأقرع.

وولي على الجند حذيفة بعهد النعمان إليه. ثم جاء الهربذ صاحب بيت النار إلى حذيفة فأمنه وأخرج له صفتين مملوأين جوهراً نفيساً كانا من دخائل كسرى أودعهما عنده البجرجان فنقلهما المسلمون، وبعث الخمس مع السائب إلى عمر وأخبره بالواقعة وبالفتح ومن استشهد فبكى، وبالصفتين فقال: ضعهما في بيت المال والحق بجندك. قال السائب: ثم لحقني رسوله بالكوفة فردني إليه فلما رآني قال: ما لي وللسائب ما هو إلا أن نمت الليلة التي خرجت فيها فباتت الملائكة تسحبني إلى السفطين يشعلان ناراً يتواعداني بالكي إن لم أقسمهما فخذهما عني وبعهما في أرزاق المسلمين. فبعثهما بالكوفة من عمرو بن حريث المخزومي بألفي ألف درهم وباعهما عمرو بأرض الأعاجم بضعفهما، فكان له بالكوفة مال.

وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف والراجل ألفين ولم يكن للفرس بعدها اجتماع. وكان أبو لؤلؤة قاتل عمر من أهل نهاوند حصل في أسر الروم وأسره الفرس منهم، فكان إذا لقي سبي نهاوند بالمدينة يبكي ويقول: أكل عمر كبدي. وكان أبو موسى الأشعري قد حضر نهاوند على أهل البصرة فلما انصرف مر بالدينور فحاصروها خمسة أيام، ثم صالحوه على الجزية. وسار إلى أهل شيروان فصالحوه كذلك. وبعث السائب بن الأقرع إلى العيمرة ففتحها صلحاً.

ولما اشتد الحصار بأهل همذان بعث خسرشنوم إلى نعيم والقعقاع في الصلح على قبول الجزية فأجابوه إلى ذلك ثم اقتدى أهل الماهين وهم الملوك الذين جاؤوا لنصرة يزدجرد بأهل همذان، وبعثوا إلى حذيفة فصالحوه. وأمر عمر بالانسياح في بلاد الأعاجم، وعزل عبد الله بن عبد الله بن عتبان عن الكوفة وبعثه في وجه آخر. وولى مكانه زياد بن حنظلة حليف لبني عبد قصي واستعفى فأعفاه، وولى عمار بن ياسر، واستدعى ابن مسعود من حمص فبعثه معه معلماً لأهل الكوفة، وأمدهم بأبي موسى، وأمد أهل البصرة مكانه بعبد الله بن عبد الله، ثم بعثه إلى أصبهان مكان حذيفة، وولى على البصرة عمرو بن سراقة.

ثم انتقض أهل همذان فبعث إلى نعيم بن مقرن يحاصرهم، وصار بعد فتحها إلى خراسان، وبعث عتبة بن فرقد وبكر بن عبد الله إلى أذربيجان فدخل أحدهما من حلوان والآخر من الموصل، ولما وصل عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى أصبهان، وكان من الصحابة من وجوه الأنصار حليف بني الحبلي فأمده بأبي موسى، وجعل على مجنبتيه عبد الله بن ورقاء الرياحي وعصمة بن عبد الله، فسار إلى نهاوند ورجع حذيفة إلى عمله على ما سقت دجلة. فسار عبد الله بمن معه ومن تبعه من عند النعمان نحو أصبهان، وعلى جندها الأسبيذان وعلى مقدمة شهريار بن جادويه في جمع عظيم برستاق أصبهان، فاقتتلوا وبارز عبد الله بن ورقاء شهريار فقتله، وانهزم أهل أصبهان وصالحهم الأسبيذان على ذلك الرستاق.

ثم ساروا إلى أصبهان -وتسمى جي- وملكها الفادوسفان، فصالحهم على الجزية والخيار بين المقام والذهاب وقال: ولكم أرض من ذهب. وقدم أبو موسى على عبد الله من ناحية الأهواز فدخل معه أصبهان وكتبوا إلى عمر بالفتح. فكتب إلى عبد الله أن يسيروا إلى سهيل بن عدي لقتال كرمان، فاستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع، ولحق بسهيل قبل أن يصل كرمان. وقد قيل: إن النعمان بن مقرن حضر فتح أصبهان أرسله إليها عمر من المدينة واستجاش له أهل الكوفة فقتل في حرب أصبهان، والصحيح أن النعمان قتل بنهاوند. وافتتح أبو موسى قم وقاشان. ثم ولى عمر على الكوفة سنة إحدى وعشرين المغيرة بن شعبة وعزل عماراً.

فتح همذان

كان أهل همذان قد صالح عليهم خشرشنوم القعقاع ونعيماً وضمنهما ثم انتقض فكتب عمر إلى نعيم أن يقصدها فودع حذيفة ورجع إليها من الطريق على تعبيته، فاستولى على بلادها أجمع حتى صالحوه على الجزية، وقيل: إن فتحها كان سنة أربع وعشرين فبينما نعيم يجول في نواحي همذان إذ جاءه الخبر بخروج الديلم وأهل الري وأسفنديار أخو رستم بأهل أذربيجان،

فاستخلف نعيم على همذان يزيد بن قيس الهمداني وسار إليهم فاقتتلوا وانهزم الفرس وكانت واقعتها مثل نهاوند وأعظم. وكتبوا إلى عمر بالفتح فأمر نعيماً بقصد الري والمقام بها بعد فتحها.

وقيل: إن المغيرة بن شعبة أرسل من الكوفة جرير بن عبد اللّه إلى همذان ففتحها صلحاً وغلب على أرضها، وقيل: تولاها بنفسه وجرير على مقدمته. ولما فتح جرير همذان بعث البراء بن عازب إلى قزوين ففتح ما قبلها وسار إليها، فاستنجدوا بالديلم فوعدوهم ثم جاء البراء في المسلمين فخرجوا لقتالهم والديلم وقوف بأعلى الجبل ينظرون، فيئس أهل قزوين منهم وصالحوا البراء على صلح أبهر قبلها. ثم غزا البراء الديلم وجيلان.

فتح الري

ولما انصرف نعيم من واقعته سار إلى الري وخرج إليه أبو الفرخان من أهلها في الصلح وأبى ذلك ملكها سياوخش بن مهران بن بهرام جوبين، واستمد أهل دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان فأمروه والتقوا مع نعيم فشغلوا به عن المدينة، وقد كان خلفهم أبو فرخان. ودخل المدينة من الليل ومعه المنذر بن عمرو وأخو نعيم فلم يشعروا وهم مواقفون لنعيم إلا بالتكبير من ورائهم، فانهزموا وقتلوا وأفاء اللّه على المسلمين بالري مثلما كان بالمدائن، وصالحه أبو الفرخان الزبيني على البلاد فلم يزل شرفهم في عقبه. وأخرب نعيماً مدينتهم العتيقة وأمر ببناء أخرى. وكتب إلى عمر بالفتح وصالحه أهل دنباوند على الجزية فقبل منهم.

ولما بعث بالأخماس إلى عمر كتب إليه بإرسال أخيه سويد إلى قومس ومعه هند بن عمرو الجملي، فسار فلم يقم له أحد وأخذها سلماً وعسكر بها. وكاتبه الفل الذين بطبرستان وبالمفاوز فصالحوه على الجزية، ثم سار إلى جرجان وعسكر فيها ببسطام وصالحه ملكها على الجزية، وتلقاه مرزبان صول قبل جرجان فكان معه حتى جبل خراج وأراه مروجها وسدها، وقيل: كان فتحها سنة ثلاثين أيام عثمان، ثم أرسل سويد إلى الأصبهبذ صاحب طبرستان على الموادعة فقبل وعقد له بذلك.

فتح أذربيجان

ولما افتتح نعيم الري أمره عمر أن يبعث سماك بن خرشة الأنصاري إلى أذربيجان مدداً لبكر بن عبد اللّه، وكان بكر بن عبد اللّه عندما سار إلى أذربيجان لقي بالجبال أسفنديار بن فرخزاد مهزوماً من واقعة نعيم معهم أبو حرود دون همذان وهو أخو رستم فهزمه بكير وأسره. فقال له: أسكني عندك فأصالح لك على البلاد وإلا فروا إلى الجبال وتركوها، وتحصن من تحصن إلى يوم ما فأمسكه وسارت البلاد صلحاً إلا الحصون. وقدم عليه سماك وهو في مثل ذلك وقد افتتح ما يليه وافتتح عتبة بن فرقد ما يليه.

وكتب بكير إلى عمر يستأذنه في التقدم، فأذن له أن يتقدم نحو الباب وأن يستخلف على ما افتتح، فاستخلف عتبة بن فرقد وجمع له عمر أذربيجان كلها، فولى عتبة سماك بن خرشة على ما افتتحه بكير. وكان بهرام بن الفرخزاد قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره مقتصداً بل معترضاً له فلقيه عتبة وهزمه، وبلغ خبره إلى الإسفنديار وهو أسير عند بكير فصالحه واتبعه أهل أذربيجان كلهم. وكتب بكير وعتبة بذلك إلى عمر وبعثوا بالأخماس فكتب عمر لأهل أذربيجان كتاب الصلح، ثم غزا عتبة بن فرقد شهرزور والصامغان ففتحهما بعد قتال على الجزية والخراج، وقتل خلقاً من الأكراد، وكتب إلى عمر إن فتوحي بلغت أذربيجان فولاه إياها وولى هرثمة بن عرفجة الموصل.

فتح الموصل الباب

ولما افتتح أمر عمر بكير بن عبد اللّه بغزو الباب والتقدم إليها، بعث سراقة بن عمرو على حربها فسار من البصرة، وجعل مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة وعلى إحدى مجنبتيه ابن أسيد الغفاري وعلى الأخرى بكير بن عبد اللّه المتقدم وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة الباهلي، ورد أبا موسى الأشعري إلى البصرة مكان سراقة، ثم أمد سراقة بحبيب بن مسلمة من الجزيرة وجعل مكانه زياد بن حنظلة، وسار سراقة من أذربيجان، فلما وصل عبد الرحمن بن ربيعة في مقدمته على الباب والملك بها يومئذ من ولد شهريار الذي أفسد بني إسرائيل وأغزى الشام منهم، فكاتبه منهم شهريار واستأمنه على أن يأتي فحضر وطلب الصلح والموادعة على أن تكون جزيته النصر والطاعة للمسلمين، قال: ولا تسومون الجزية فتوهنونا لعدوكم. فسيره عبد الرحمن إلى سراقة فقبل منه وقال: لا بد من الجزية على من يقيم ولا يحارب العدو. فأجابوا، وكتبوا إلى عمر فأجاز ذلك.

فتح موقان وجبال أرمينية

ولما فرغ سراقة من الباب بعث أمراء إلى ما يليه من الجبال

المحيطة بأرمينية، فأرسل بكير بن عبد الله إلى موقان، وحبيب بن مسلمة إلى تفليس، وحذيفة بن اليمان إلى جبال اللات، وسلمان بن ربيعة إلى الوجه الآخر. وكتب بالخبر إلى عمر فلم يرج تمام ذلك لأنه فرج عظيم، ثم بلغه موت سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، فأقره عمر على فرج الباب وأمره بغزو الترك. ولم يفتح أحد من أولئك الأمراء إلا بكير بن عبد الله فإنه فتح موقان، ثم تراجعوا على الجزية ديناراً عن كل حالم.

غزو الترك

ولما أمر عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك سار حتى جاء الباب وسار معه شهريار فغزا بلنجر وهم قوم من الترك ففروا منه وتحصنوا، وبلغت خلية على مائتي فرسخ من بلنجر وعاد بالظفر والغنائم. ولم يزل يردد الغزو فيهم إلى أيام عثمان فتذامر الترك وكانوا يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لأن الملائكة معهم تمنعهم، فأصابوا في هذه الغزاة رجلاً من المسلمين على غرة فقتلوه وتجاسروا، وقاتل عبد الرحمن فقتل وانكشف أصحابه، وأخذ الراية أخوه سلمان فخرج بالناس ومعه أبو هريرة الدوسي فسلكوا على جيلان إلى جرجان.

فتح خراسان

ولما عقدت الألوية للأمراء للانسياح في بلاد فارس كان الأحنف بن قيس منهم بخراسان، وقد تقدم أن يزدجر سار بعد جلولاء إلى الري وبها أبان جادويه من مرازبته فأكرهه على خاتمه، وكتب الضحاك بما اقترح من ذخائر يزدجرد وختم عليها وبعثها إلى سعد، فردها عليه على حكم الصلح الذي عقد له. ثم سار يزدجرد والناس معه إلى أصبهان ثم إلى كرمان ثم رجع إلى مرو من خراسان فنزلها وأمن من العرب، وكاتب الهرمزان وأهل فارس بالأهواز والفيرزان وأهل الجبال فنكثوا جميعاً وهزمهم الله وخذلهم وأذن عمر للمسلمين بالانسياح في بلادهم.

وأمر الأمراء كما قدمناه وعقد لهم الألوية، فسار الأحنف إلى خراسان سنة ثماني عشرة وقيل اثنين وعشرين فدخلها من الطبسين، وافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلال العبدي، ثم سار إلى مرو الشاهجان، وأرسل إلى نيسابور مطرف بن عبد الله بن الشخير، وإلى سرخس الحرث بن حسان، ودرج يزدجرد من مرو الشاهجان إلى مرو الروذ فملكها الأحنف ولحقه مدد أهل الكوفة هنالك، فسار إلى مرو الروذ واستخلف على الشاهجان حارثة بن النعمان الباهلي وجعل مدد الكوفة في مقدمته، فالتقوا هم ويزدجرد على بلخ فهزموه وعبر النهر فلحقهم الأحنف وقد فتح الله عليهم، ودخل أهل خراسان في الصلح ما بين نيسابور وطخارستان. وولى على طخارستان ربعي بن عامر، وعاد إلى مرو الروذ فنزلها وكتب إلى عمر بالفتح، فكتب إليه أن يقتصر على ما ودون النهر.

وكان يزدجرد وهو بمرو الروذ قد استنجد ملوك الأمم وكتب إلى ملك الصين وإلى خاقان ملك الترك وإلى ملك الصغد، فلما عبر يزدجرد النهر منهزماً أنجده خاقان في الترك وأهل فرغانة والصغد، فرجع يزدجرد وخاقان إلى خراسان فنزلا بلخ، واجتمع المسلمون إلى الأحنف بمرو الروذ ونزل المشركون عليه، ثم رحل ونزل سفح الجبل في عشرين ألفاً من أهل البصرة وأهل الكوفة وتحصن العسكران بالخنادق وأقاموا يقاتلون أياماً، وصحبهم الأحنف ليلة وقد خرج فارس من الترك يضرب بطبله ويتلوه اثنان كذلك، ثم يخرج العسكر بعدهم عادة لهم، فقتل الأحنف الأول ثم الثاني ثم الثالث فلما مر بهم خاقان تشاءم وتطير ورجع أدراجه فارتحل وعاد إلى بلخ، وبلغ الخبر إلى يزدجرد وكان على مرو الشاهجان محاصراً لحارثة بن النعمان ومن معه فجمع خزائنه وأجمع اللحاق بخاقان على بلخ، فمنعه أهل فارس وحملوه على صلح المسلمين والركون إليهم وإنهم أوفى ذمة من الترك، فأبى من ذلك وقاتلهم فهزموه واستولوا على الخزائن.

ولحق بخاقان وعبروا النهر إلى فرغانة، وأقام يزدجرد ببلد الترك أيام عمر كلها إلى أن كفر أهل خراسان أيام عثمان. ثم جاء أهل فارس إلى الأحنف ودفعوا إليه الخزائن والأموال وصالحوه واغتبطوا بملكة المسلمين، وقسم الأحنف الغنائم فأصاب الفارس ما أصابه يوم القادسية. ثم نزل الأحنف بلخ وأنزل أهل الكوفة في كورها الأربع ورجع إلى مرو الروذ فنزلها، وكتب بالفتح إلى عمر.

وكان يزدجرد لما عبر النهر لقي رسوله الذي بعثه إلى ملك الصين قد رده إليه يسأله أن يعيف له المسلمين الذين فعلوا به هذه الأفاعيل مع قلة عددهم، ويسأل عن وفائهم ودعوتهم وطاعة أمرائهم ووقوفهم عند الحدود ومآكلهم وشرابهم وملابسهم ومراكبهم، فكتب إليه بذلك كله. وكتب إليه ملك الصين أن يسالمهم فإنهم لا يقوم لهم شيء بما قام نردبل، فأقام يزدجرد بفرغانة بعهد من خاقان.

ولما وصل الخبر إلى عمر خطب الناس وقال: ألا وإن ملك المجوسية قد ذهب فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر

كيف تعملون فلا تبدلوا فيستبدل اللّه بكم غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة إلا أن تؤتى من قبلكم.

فتوح فارس

ولما خرج الأمراء الذين توجهوا إلى فارس من البصرة افترقوا وسار كل أمير إلى جهته وبلغ ذلك أهل فارس فافترقوا إلى بلدانهم وكانت تلك هزيمتهم وشتاتهم. وقصد مجاشع بن مسعود من الأمراء سابور وأردشيرخرت فاعترضه الفرس دونهما بتوج فقتلهم وأثخن فيهم، وافتتح توج واستباحها وصالحهم على الجزية وأرسل بالفتح والأخماس إلى عمر، فكانت واقعة توج هذه ثانية لواقعة العلاء بن الحضرمي عليهم أيام طاوس ثم دعوا إلى الجزية فرجعوا فأقروا بها.

إصطخر: وقصد عثمان بن أبي العاص إصطخر فزحفوا إليه بجور، فهزمهم وأثخن فيهم وفتح جور وإصطخر ووضع عليهم الجزية وأجابه الهربذ إليها، وكان ناس منهم فروا فتراجعوا إليها. وبعث بالفتح والخمس إلى عمر. ثم فتح كازرون والنوبندجان وغلب على أرضها، ولحق به أبو موسى فافتتح مدينة شيراز وأرجان على الجزية والخراج، وقصد عثمان جينا ففتحها ولقي الفرس بناحية جهرم فهزمهم وفتحها. ثم نقض شهرك في أول خلافة عثمان فبعث عثمان بن أبي العاص ابنه وأخاه الحكم وأتته الأمداد من البصرة وعليهم عبيد اللّه بن معمر وشبل بن معبد والتقوا بأرض فارس، فانهزم شهرك وقتله الحكم بن أبي العاص وقيل: سوار بن همام العبدي.

وقيل: أن ابن شهرك حمل على سوار فقتله. ويقال: أن إصطخر كانت سنة ثماني وعشرين وقيل: تسع وعشرين. وقيل: إن عثمان بن أبي العاص أرسل أخاه الحكم من البحرين إلى فارس في ألفين، فسار إلى توج وعلى مجنبتيه الجارود وأبو صفرة والد المهلب، وكان كسرى أرسل شهرك في الجنود للقائهم، فالتقوا بتوج وهزمهم إلى سابور وقتل شهرك وحاصروا مدينة سابور حتى صالح عليها ملكها واستعانوا به على قتال إصطخر، ثم مات عمر رضي اللّه عنه، وبعث عثمان بن عفان عبيد اللّه بن معمر مكان عثمان بن أبي العاص وأقام محاصراً إصطخر وأراد ملك سابور الغدر به، ثم أحضر وأصابت عبيد اللّه حجارة منجنيق فمات بها. ثم فتحوا المدينة فقتلوا بها بشراً كثيراً منهم.

بساودارا بجرد: وقصد سارية بن زنيم الكناني من أمراء الانسياح مدينة بسا ودارا بجرد فحاصرهم، ثم استجاشوا بأكراد فارس واقتتلوا بصحراء، وقام عمر على المنبر ونادي: يا سارية الجبل! يشير إلى جبل كان إزاءه أن يستند إليه، فسمع ذلك سارية ولجأ إليه ثم انهزم المشركون، وأصاب المسلمون مغانمهم وكان فيها صفت جوهر فاستوهبه سارية من الناس، وبعث به مع الفتح إلى عمر، ولما قدم به الرسول سأله عمر فأخبره عن كل شيء ودفع إليه السفط فأبى إلا أن يقسم على الجند فرجع به وقسمه سارية.

كرمان: وقصد سهيل بن عدي من أمراء الانسياح كرمان ولحق به عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان، وحشد أهل كرمان واستعانوا بالقفص وقاتلوا المسلمين في أدنى أرضهم فهزموهم بإذن اللّه، وأخذ المسلمون عليهم الطريق بل الطرق ودخل البشير بن عمرو العجلي إلى جيرفت وقتل في طريقه مرزبان كرمان، وعبد اللّه بن عبد اللّه من مفازة شير وأصابوا ما أرادوا من إبل وشاء. وقيل: إن الذي فتح كرمان عبد اللّه بل بديل بن ورقاء الخزاعي. ثم أتى الطبسين من كرمان، ثم قدم على عمر وقال: أقطعني الطبسين، فأراد أن يفعل فقال: إنهما رستاقان فامتنع.

سجستان: وقصد عاصم بن عمرو من الأمراء سجستان ولحق به عبد اللّه بن عمير وقاتلوا أهل سجستان في أدنى أرضهم فهزموهم وحصروهم بزرنج ومخروا أرض سجستان، ثم طلبوا الصلح على مدينتهم وأرضها، على أن الفرات حمى، ويسقي أهل سجستان على الخراج وكانت أعظم من خراسان وأبعد فروجاً يقاتلون القندهار والترك وأمماً أخرى، فلما كان زمن معاوية هرب الشاه من أخيه زنبيل ملك الترك إلى بلد من سجستان يدعى آمل، وكان على سجستان سلم بن زياد بن أبي سفيان فعقد له وأنزله آمل، وكتب إلى معاوية بذلك فأقره بغير نكير وقال: إن هؤلاء قوم غدر وأهون ما يجيء منهم إذا وقع اضطراب أن يغلبوا على بلاد آمل بأسرها، فكان كذلك. وكفر الشاه بعد معاوية وغلب على بلاد آمل واعتصم منه زنبيل بمكانه، وطمع هو في زربخ فحاصرها حتى جاءت الأمداد من البصرة فأجفلوا عنها.

مكران: وقصد الحكم بن عمرو التغلبي من أمراء الانسياح بلد مكران ولحق بها شهاب بن المخارق وجاء سهيل بن عدي وعبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان وانتهوا جميعاً إلى دوين وأهل مكران على شاطئية وقد أمدهم أهل السند بجيش كثيف، ولقيهم المسلمون فهزموهم وأثخنوا فيهم بالقتل، واتبعوهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر ورجعوا إلى مكران فأقاموا بها وبعثوا إلى عمر بالفتح والأخماس مع صحّار العبدي، وسأله عمر عن البلاد فأثنى عليها شراً، فقال: واللّه لا يغزوها جيش لي أبداً وكتب إلى سهيل والحكم أن لا يجوز مكران أحد من جنودكما.

خبر الأكراد

كان أمر أمراء الانسياح لما فصلوا إلى النواحي، حتى اجتمع ببيروذ بين نهر تيري ومنادر من أهل الأهواز جموع من الأعاجم أعظمهم الأكراد، وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى أن يسير إلى أقصى تخوم البصرة رداً للأمراء المنساحين، فجاء إلى بيروذ وقتل تلك الجموع قتالاً شديداً وقتل المهاجر بن زياد. ثم وهن الله المشركين فتحصنوا منه في قلة وذلة، فاستخلف أبو موسى عليهم أخاه الربيع بن زياد وسار إلى أصبهان مع المسلمين الذين يحاصرونها حتى إذا فتحت رجع إلى البصرة. وفتح الربيع بن زياد بيروذ وغنم ما فيها ولحق به بالبصرة وبعثوا إلى عمر بالفتح والأخماس، وأراد ضبة بن محصن العنزي أن يكون في الوفد فلم يجبه أبو موسى، فغضب وانطلق شاكياً إلى عمر بانتقائه ستين غلاماً من أبناء الدهاقين لنفسه وأنه أجاز الحطيئة بألف وولى زياد بن أبي سفيان أمور البصرة، واعتذر أبو موسى وقبله عمر. وكان عمر قد اجتمع إليه جيش من المسلمين فبعث عليهم سلمة بن قيس الأشجعي ودفعهم إلى الجهاد على عادته وأوصاهم، فلقوا عدواً من الأكراد المشركين فدعوهم إلى الإسلام أو الجزية، فأبوا وقاتلوهم وهزموهم وقتلوا وسبوا وقسموا الغنائم، ورأى سلمة جوهراً في سفط فاسترضى المسلمين وبعث به إلى عمر فسأل الرسول عن أمور الناس حتى أخبره بالسفط فغضب وأمر به فوجئ في عنقه، وقال: أسرع قبل أن تفترق الناس ليقسمه سلمة فيهم فباعه سلمة وقسمه في الناس وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً.

مقتل عمر وأمر الشورى وبيعة عثمان رضي الله عنه

كان للمغيرة بن شعبة مولى من نصارى العجم اسمه أبو لؤلؤة وكان يشدد عليه في الخراج، فلقي يوماً عمر في السوق فشكى إليه وقال: أعدني على المغيرة فإنه يثقل علي في الخراج درهمين في كل يوم، قال: وما صناعتك؟ قال: نجار حداد نقاش، فقال: ليس ذلك بكثير على هذه الصنائع وقد بلغني أنك تقول أصنع رحى تطحن بالريح فاصنع لي رحى. قال: أصنع لك رحى يتحدث الناس بها أهل المشرق والمغرب، وانصرف، فقال عمر: توعدني العلج.

فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة واستوت الصفوف ودخل أبو لؤلؤة في الناس وبيده خنجر برأسين نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات إحداهما تحت سرته، وقتل كليباً بن أبي البكير الليثي، وسقط عمر فاستخلف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة واحتمل إلى بيته.

ثم دعا عبد الرحمن وقال: أريد أن أعهد إليك! قال: فتشير علي بها؟ قال: لا! قال: والله لا أفعل. قال: فهبني صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. ثم دعا علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن معهم، وقال انتظروا طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم، وناشد الله من يفضي إليه الأمر منهم أن يحمل أقاربه على رقاب الناس، وأوصاهم بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان أن يحسن إلى محسنهم ويعفوا عن مسيئهم، وأوصى بالعرب فإنهم مادة الإسلام أن تؤخذ صدقاتهم فتوضع في فقرائهم، وأوصى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، ثم قال: اللهم قد بلغت لقد تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة.

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فقال: قم على باب هؤلاء ولا تدع أحداً يدخل إليهم حتى يقضوا أمرهم. ثم قال: يا عبد الله بن عمر اخرج فانظر من قتلني؟ قال: يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة. قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة. ثم بعث إلى عائشة يستأذنها في دفنه مع رسول الله ﷺ وأبي بكر فأذنت له. ثم قال: يا عبد الله إن اختلف القوم فكن مع الأكثر، فإن تساووا فكن مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف.

ثم أذن للناس فدخل المهاجرون والأنصار فقال لهم: أهذا عن ملأ منكم؟ فقالوا: معاذ الله! وجاء علي وابن عباس فقعدا عنه رأسه، وجاء الطبيب فسقاه نبيذاً فخرج متغيراً ثم لبناً فخرج كذلك، فقال له: إعهد! قال: قد فعلت! ولم يزل يذكر الله إلى أن توفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وصلى عليه صهيب وذلك لعشر سنين وستة أشهر من خلافته.

وجاء أبو طلحة الأنصاري ومعه المقداد بن الأسود، وقد كان أمرهما عمر أن يجمعا هؤلاء الرهط الستة في مكان ويلزماهم أن يقدموا للناس من يختاروه منهم وإن اختلفوا كان الاتباع للأكثر وإن تساووا حكموا عبد الله بن عمر أو اتبعوا عبد الرحمن بن عوف، ويؤجلهم في ذلك ثلاثاً يصلي فيها بالناس صهيب ويحضر عبد الله بن عمر معهم مشيراً ليس له شي من الأمر وطلحة شريكهم إن قدم في الثلاث ليال. فجمعهم أبو طلحة والمقداد في بيت المسور بن مخرمة وقيل: في بيت عائشة.

وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب فحصبهما سعد وأقامهما وقال: تريدان أن تقولا حضرنا وكنا في أهل الشورى. ثم دار بينهم الكلام وتنافسوا في الأمر، فقال عبد الرحمن: أيكم يخرج منها نفسه ويجتهد فيوليها أفضلكم وأنا أفعل ذلك؟ فرضي القوم وسكت علي. فقال: ما تقول على شريطة أن تؤثر الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة نصحاً وتعطينا العهد بذلك. قال: وتعطوني أنتم مواثيقكم على أن تكونوا معي على من خالف وترضوا من اخترت؟ وتواثقوا. ثم قال لعلي: أنت تقول إنك أحق ممن حضر بقرابتك وسوابقك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد في نفسك؟ فمن ترى أحق فيه بعدك من هؤلاء؟ قال: عثمان! وخلا بعثمان فقال له مثل ذلك فقال: علي.

ودار عبد ا لرحمن لياليه كلها يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ومن يوافي المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس ويشيرهم إلى صبيحة الرابع، فأتى منزل المسرور بن مخرمة وخلا فيه بالزبير وسعد أن يتركا الأمر لعلي أو عثمان فاتفقا على علي، ثم قال له سعد: بايع لنفسك وأرحنا فقال: قد خلعت لهم نفسي على أن أختار ولم أفعل ما أردتها.

ثم استدعى عبد الرحمن علياً وعثمان فناجى كلاً منهما إلى أن رضوا بل إلى أن صلوا الصبح ولا يعلم أحد ما قالوا. ثم جمع المهاجرين وأهل السابقة من الأنصار وأمراء الأجناد حتى غص المسجد بهم، فقال: أشيروا عليّ، فأشار عمار بعلي ووافقه المقداد. فقال ابن سرح: إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان ووافقه عبد الله بن أبي ربيعة، فتفاوضا وتشاتما ونادى سعد: يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس. فقال: نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً.

ثم قال لعلي: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده، قال: أرجوا أن أجتهد بل أن أفعل بمبلغ علمي وطاقتي. وقال لعثمان مثل ذلك فقال: نعم. فرفع رأسه إلى المسجد ويده في يد عثمان، وقال: اللهم اشهد أني قد جعلت ما في عنقي من ذلك في عنق عثمان فبايعه الناس.

ثم قدم طلحة في ذلك اليوم فأتى عثمان، فقال له عثمان: أنت على الخيار في الأمر وإن أبيت رددتها. فقال: أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم. قال: رضيت، ولا أرغب عما أجمع عليه.

وكانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، ومر أبو لؤلؤة بالهرمزان وبيده الخنجر الذي طعن به عمر فتناوله من يده وأطال النظر فيه ثم رده إليه، ومعهم جفينة نصراني من أهل الحيرة. فلما طعن عمر من الغداة قال عبد الرحمن بن أبي بكرة لعبيد الله بن عمر: إني رأيت هؤلاء الثلاثة يتناجون فلما رأوني افترقوا وسقط منهم هذا الخنجر، فعدا عبيد الله عليهم فقتلهم ثلاثتهم، وأمسكه سعد بن أبي وقاص وجاء به إلى عثمان بعد البيعة وهو في المسجد فأشار عليّ بقتله، وقال عمرو بن العاص: لا يقتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم، فجعلها عثمان دية واحتملها وقال: أنا وليه. ثم قام عثمان وصعد المنبر وبايعه الناس كافة، وولى لوقته سعد بن أبي وقاص على الكوفة وعزل المغيرة وذلك بوصية عمر لأنه أوصى بتولية سعد، وقال لم أعزله عن سوء ولا خيانة منه. وقيل إنما ولاه وعزل المغيرة بعد سنة وإنما أقر لأول أمره عمال عمر كلهم.

نقض أهل الإسكندرية وفتحها

لما سار هرقل إلى القسطنطينية وفارق الشام واستولى المسلمون على الإسكندرية وبقي الروم بها تحت أيديهم، فاتبعوا هرقل فاستنجدوه فبعث إليهم عسكراً مع منويل الخصي ونزلوا بساحل الإسكندرية لمنعهم المقوقس من الدخول إليه، فساروا إلى مصر ولقيهم عمرو بن العاص والمسلمون فهزموهم واتبعوهم إلى الإسكندرية، وأثخنوا فيهم بالقتل وقتل قائدهم منويل الخصي، وكانوا قد أخذوا في مسيرهم إلى مصر أموال أهل القرى فردها عمرو عليهم بالبينة ثم هدم سور الإسكندرية ورجع إلى مصر.

ولاية الوليد بن عقبة الكوفة وصلح أرمينية وأذربيجان

وفي سنة خمس وعشرين عزل عثمان سعداً عن الكوفة لأنه كان اقترض من عبد الله بن مسعود من بيت المال قرضاً، وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسر سعد فتلاحيا وتناجيا بالقبيح وافترقا يتلاومان، وتداخلت بينهما العصبية، وبلغ الخبر عثمان فعزل سعداً واستدعى الوليد بن عقبة من الجزيرة، وكان على غربها منذ ولاه عمر، فولاه عثمان على الكوفة فكان مكان سعد. ثم عزل عتبة بن فرقد عن أذربيجان فنقضوا، فغزاهم الوليد وعلى مقدمته عبد الله بن شبيل الأحمسي فأغار على أهل موقان والبرزند والطيلسان ففتح وغنم وسبى، وطلب أهل كور أذربيجان الصلح فصالحهم على صلح حذيفة ثمانمائة درهم وقبض المال.

ثم بث سراياه وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً فسار فيها وأثخن، ثم انصرف إلى الوليد وعاد الوليد إلى الكوفة وجعل طريقه على الموصل، فلقيه كتاب عثمان بأن الروم أجلبوا على معاوية بالشام فابعث إليه رجلاً من أهل النجدة والبأس في عشرة آلاف عند قراءة الكتاب.

فبعث الوليد الناس مع سلمان بن ربيعة ثمانية آلاف ومضوا إلى الشام ودخلوا أرض الروم مع حبيب بن مسلمة، فشنوا عليه بالغارات وافتتحوا الحصون، وقيل: إن الذي أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة هو سعيد بن العاص، وذلك أن عثمان كتب إلى معاوية أن يغزي حبيب بن مسلمة في أهل الشام أرمينية فبعثه وحاصر قاليقلا حتى نزلوا على الجلاء أو الجزية، فجلا كثيراً إلى بلاد الروم وأقام فيها فيمن معه أشهرا.

ثم بلغه أن بطريك أرميناقس وهي بلاد ملطية وسيواس وقونية إلى خليج قسطنطينية قد زحف إليه في ثمانين ألفاً، فاستنجد معاوية فكتب إلى عثمان فأمر سعيد بن العاص بإمداد حبيب فأمده بسلمان في ستة آلاف، وبيّت الروم فهزمهم وعاد إلى قاليقلا، ثم سار في البلاد فجاء بطريك خلاط وبيده أمان عياض بن غنم وحمل ما عليهم من المال فنزل حبيب خلاط، ثم سار منها فصالحه صاحب السيرجان ثم صاحب أردستان ثم صالح أهل دبيل بعد الحصار، ثم أهل بلاد السيرجان كلهم. ثم أتى أهل شميشاط فحاربوه فهزمهم وغلب على حصونهم، ثم صالحه بطريك خرزان على بلاده وسار إلى تفليس فصالحوه وفتح عدة حصون ومدن تجاورها.

وسار ابن ربيعة الباهلي إلى أران فصالح أهل البيلقان على الجزية والخراج، ثم أهل بردعة كذلك وقراها وقاتل أكراد البوشنجان وظفر بهم وصالح بعضهم على الجزية، وفتح مدينة شمكور وهي التي سميت بعد ذلك المتوكلية، وسار سلمان حتى فتح فلية وصالحه صاحب كسكر على الجزية وملكوا شروان وسائر ملوك الجبال إلى مدينة الباب وانصرفوا. ثم غزا معاوية الروم وبلغ عمورية ووجد ما بين أنطاكية وطرسوس من الحصون خاليا فجمع فيها العساكر حتى رجع وخربها.

ولاية عبد الله بن أبي سرح على مصر وفتح إفريقية

وفي سنة ست وعشرين عزل عثمان عمرو بن العاص عن خراج مصر واستعمل مكانه عبد الله بن أبي سرح أخاه من الرضاعة، فكتب إلى عثمان يشكو عمرا فاستقدمه واستقل عبد الله بالخراج والحرب وأمره بغزو إفريقية. وقد كان عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين سار من مصر إلى برقة فصالح أهلها على الجزية ثم سار إلى طرابلس فحاصرها شهراً، وكانت مكشوفة السور من جانب البحر وسفن الروم في مرساها فحصر القوم في بعض الأيام وانكشف أمرها لبعض المسلمين المحاصرين فاقتحموا البلد بين البحر والبيوت فلم يكن للروم ملجأ إلا سفنهم.

وارتفع الصياح فأقبل عمرو بعساكره فدخل البلد ولم تفلت الروم إلا بما خف في المراكب، ورجع إلى مدينة صبرة وقد كانوا قد آمنوا بمنعة طرابلس فصبحهم المسلمون ودخلوها عنوة، وكمل الفتح ورجع عمرو إلى برقة فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية وكان أكثر أهل برقة لواتة. وكان يقال أن البربر ساروا بعد قتل ملكهم جالوت إلى المغرب وانتهوا إلى لوبيا ومراقية كورتان من كور مصر، فصارت زناتة ومغيلة من البربر إلى المغرب فسكنوا الجبال وسكنت لوتة برقة وتعرف قديماً إنطابلس، وانتشروا إلى السوس ونزلت هوارة مدينة لبدة ونزلت نفوسة مدينة صبرة وجلوا من كان هنالك من الروم، وأقام الأفارق وهم خدم الروم وبقيتهم على صلح يؤدونه إلى من غلب عليهم إلى أن كان صلح عمرو بن العاص. ثم إن عبد الله بن أبي سرح كان أمره عثمان بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين، وقال له: إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم. وأمر عقبة بن نافع عبد القيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر وسرحهما، فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها.

ثم لما ولي عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده، فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به، فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير وساروا مع عبد الله بن أبي سرح سنة ست وعشرين، ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة، ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها، ثم ساروا إلى إفريقية وبثوا السرايا في كل ناحية، وكان ملكهم جرير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج، فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفاً من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطلة دار ملكهم وأقاموا يقتتلون ودعوه إلى الإسلام أو الجزية فاستكبر. ولحقهم عبد الرحمن بن الزبير مدداً بعثه عثمان لما أبطأت أخبارهم، وسمع جرجير بوصول المدد ففت في عضده، وشهد ابن الزبير معهم

القتال، وقد غاب ابن أبي سرح وسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل ابن أبي سرح فله مئة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال، فقال له ابن الزبير: تنادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مئة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، فخاف جرجير أشد منه.

ثم قال عبد الله بن الزبير لابن أبي سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب، ويقاتلون الروم بباقي العسكر إلى أن يضجروا فركب عليهم بالآخرين على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم، ووافق على ذلك أعيان أصحابة ففعلوا ذلك وركبوا من الغد إلى الزوال وألحوا عليهم حتى اتبعوهم ثم افترقوا، وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم، وقتل ابن الزبير جرجير وأخذت ابنته سبية فنفلها ابن الزبير، وحاصر ابن أبي سرح سبيطلة ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف. وبث جيوشه في البلاد إلى قفصة فسبوا وغنموا، وبعث عسكر إلى حصن الأجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحه على الأمان، ثم صالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمئة ألف دينار. وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمئة ألف دينار، وبعض الناس يقول أعطاه إياه ولا يصح، وإنما أعطى ابن أبي سرح خمس الخمس من الغزوة الأولى. ثم رجع عبد اللّـه بن أبي سرح إلى مصر بعد مقامه سنة وثلاثة أشهر.

ولما بلغ هرقل أن أهل إفريقية صالحوه بذلك المال الذي أعطوه غضب عليهم وبعث بطريقاً يأخذ منهم مثل ذلك، فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا: قد كان ينبغي أن يساعدنا مما نزل بنا. فقاتلهم البطريك وهزمهم وطرد الملك الذي ولوه بعد جرجير، فلحق بالشام وقد اجتمع الناس على معاوية بعد علي رضي اللّـه عنه، فاستجاشه على إفريقية فبعث معه معاوية بن حديج السكوني في عسكر، فلما وصل الإسكندرية وهلك الرومي ومضى ابن حديج في العساكر فنزل قونية، وسرح إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل وقاتلهم معاوية فهزمهم معاوية، وحاصر حصن جلولاء فامتنع معه حتى سقط ذات سوره فملكه المسلمون وغنموا ما فيه.

ثم بث السرايا ودوخ البلاد فأطاعوا، وعاد إلى مصر. ولما أصاب ابن أبي سرح من إفريقية ما أصاب ورجع إلى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازياً إلى الإسكندرية في ستمائة مركب وركب المسلمون البحر مع ابن أبي سرح ومعه معاوية في أهل الشام.

فلما تراءى الجمعان أرسوا جميعاً، وباتوا على أمان والمسلمون يقرأون ويصلون. ثم قرنوا سفنهم عند الصباح واقتتلوا ونزل الصبر واستحر القتل، ثم انهزم قسطنطين جريحاً في فل قليل من الروم، وأقام ابن أبي سرح بالموضع أياماً ثم قفل وسمى المكان ذات الصواري والغزوة كذلك لكثرة ما كان بها من الصواري، وكانت هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين وقيل: أربع وثلاثين. وسار قسطنطين إلى صقلية وعرفهم خبر الهزيمة فنكروه وقتلوه في الحمام.

فتح قبرص

كان أبو عبيدة لما احتضر استخلف على عمله عياض بن غنم وكان ابن عمه وخاله وقيل: استخلف معاذ بن جبل، واستخلف عياض بعده سعد بن حذيم الجمحي، ومات سعيد فولى عمر مكانه عمير بن سعيد الأنصاري، ومات يزيد بن أبي سفيان فجعل عمر مكانه على دمشق أخاه معاوية، فاجتمعت له دمشق والأردن، ومات عمر وهو كذلك وعمير على حمص وقنسرين، ثم استعفى عمير عثمان في مرضه فأعفاه وضم حمص وقنسرين إلى معاوية، ومات عبد الرحمن بن أبي علقمة وكان على فلسطين فضم عثمان عمله إلى معاوية.

فاجتمع الشام كله لمعاوية لسنتين من إمارة عثمان. وكان يلح على عمر في غزو البحر وكان وهو بحمص كتب إليه في شأن قبرص أن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرص وصياح دجاجهم، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه! فكتب إليه: هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء إن ركد فلق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة وراكبه دود على عود إن مال غرق وإن نجا برق. فكتب عمر إلى معاوية: والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن اللّه كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر، وباللّه لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي في ذلك فقد علمت ما لقي العلاء مني. ثم كاتب ملك الروم عمر وقاربه وأقصر عن الغزو، ثم ألح معاوية على عثمان بعده في غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم.

فاختار الغزو جماعة من الصحابة فيهم، أبو ذر وأبو الدرداء وشداد بن أوس وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان، واستعمل عليهم عبد اللّـه بن قيس حليف بني فزارة،

وساروا إلى قبرص وجاء عبد اللّه بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار بكل سنة، ويؤدون مثلها للروم، ولا منعة لهم عن المسلمين ممن أرادهم من سواهم وعلى أن يكونوا عيناً للمسلمين على عدوهم، ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم. وكانت هذه الغزاة سنة ثماني وعشرين وقيل تسعة وعشرين وقيل ثلاثة وثلاثين، وماتت فيها أم حرام سقطت عن دابتها حين خرجت من البحر.

وكان النبي ﷺ أخبرها بذلك. وأقام عبد اللّه بن قيس الحاسبي على البحر فغزا خمسين غزاة لم ينكب فيها أحد، إلى أن نزل في بعض أيام في ساحل المرقي من أرض الروم فثاروا إليه فقتلوه، ونجا الملاح وكان قد استخلف سفيان بن عوف الأزدي على السفن فجاء إلى أهل المرقي وقاتلهم حتى قتل وقتل معه جماعة.

ولاية ابن عامر على البصرة وفتوح فارس وخراسان

وفي السنة الثالثة من خلافة عثمان خرج أبو موسى من البصرة غازياً إلى أهل آمد والأكراد لما كفروا وحمل ثقله على أربعين بغلة من القصر بعد أن كان حض على الجهاد مشياً، فألب الناس عليه ومضوا إلى عثمان فاستعفوه منه وتولى كبر ذلك غيلان بن جرشة فعزله عثمان وولى عبد اللّه بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وهو ابن خال عثمان، وكان ابن خمس وعشرين سنة.

وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص من عمان والبحرين، فصرف عبيد اللّه بن معمر عن خراسان وبعثه إلى فارس، وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأثخن فيها حتى بلغ فرغانة ولم يدع كورة إلا أصلحها. ثم ولى عليها سنة أربع أمير بن أحمر اليشكري، وعلى كرمان عبد الرحمن بن عبيس، واستعمل على سجستان في سنة أربع عمران بن الفضيل البرجمي، وعلى كرمان عاصم بن عمرو فجاشت فارس وانتقضت بعبيد اللّه بن عمرو وجمعوا له فلقيهم بباب إصطخر فقتل عبيد اللّه وانهزم جنده. وبلغ الخبر عبد اللّه بن عامر فاستنفر أهل البصرة.

وسار بالناس، وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص وفي المجنبتين أبو برزة الأسلمي ومعقل بن يسار وعلى الخيل عمران بن حصين، ولقيهم بإصطخر فقتل منهم مقتلة عظيمة وانهزموا وفتح إصطخر عنوة، وبعدها دارا بجرد. وسار إلى مدينة جور وهي أردشيرخرت، وكان هرم بن حيان محاصراً لها فلما جاء ابن عامر فتحها. ثم عاد إلى إصطخر وقد نقضت فحاصرها طويلاً ورماها بالمجانيق واقتحمها عنوة ففني فيها أكثر أهل البيوتات والأساورة لأنهم كانوا لجأوا إليها، ووطئ أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل. وكتب إلى عثمان بالفتح فكتب إليه أن يستعمل على كور فارس هرم بن حيان اليشكري وهرم بن حيان العبسي والخريت بن راشد وأخاه المنجاب من بني سلمة والبرجان الهجيمي، وأن يفرق كور خراسان بين ستة نفر: الأحنف بن قيس على المرو، وحبيب بن قرط اليربوعي على بلخ، وخالد بن عبد اللّه بن زهير على هراة، وأمير بن أحمر اليشكري على طوس، وقيس بن هبيرة السلمي على نيسابور.

ثم جمع عثمان خراسان كلها لقيس، واستعمل أمير بن أحمر اليشكري على سجستان، ثم بعده عبد الرحمن بن سمرة من قرابة ابن عامر بن كريز، فلم يزل عليها حتى مات عثمان وعمران على كرمان وعمير بن عثمان بن مسعود على فارس وابن كريز القشيري على مكران، وخرج على قيس بن هبيرة بعد موت عثمان ابن عمه عبد اللّه بن حازم كما نذكره.

ولما افتتح ابن عامر فارس أشار عليه الناس بقصد خراسان وكانوا قد انتقضوا فسار إليها وقيل عاد إلى البصرة، واستخلف على فارس شريك بن الأعور الحارثي فبنى مسجدها. فلما دخل البصرة أشار عليه الأحنف بن قيس وحبيب بن أوس بالمسير إلى خراسان فتجهز واستخلف على البصرة زياد بن أبيه، وسار إلى كرمان وقد نكثوا فبعث لحربهم مجاشع بن مسعود السلمي ولحرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي، وسار هو إلى حوالي نيسابور وتقدمهم الأحنف بن قيس إلى الطبسين حصنان هما بابا خراسان فصالحه أهلها، وسار إلى قوهستان فقاتل أهلها حتى أحجرهم في حصنهم ولحقه ابن عامر فصالحوه على ستمائة ألف درهم، وقيل كان المتولي حرب قوهستان أمير بن أحمر اليشكري.

ثم بعث ابن عامر السرايا إلى أعمال نيسابور ففتح رستاق رام عنوة وباخرز وجيرفت عنوة، وبعث الأسود بن كلثوم بن عدي الرباب -وكان ناسكاً- إلى بيهق من أعمالها فدخل البلد من ثلمة كانت في سورها وقاتل حتى قتل وظفر أخوه أدهم بالبلد. وفتح ابن عامر بشت -بالشين المعجمة- من أعمال نيسابور ثم اسفارين ثم قصد نيسابور، وبعدها استولى على أعمالها فحاصرها شهراً وكان بها أربع مرازبة من فارس فسأل واحد منهم الأمان على أن يدخلهم ليلاً، وفتح لهم الباب وتحصن الأكبر منهم في

حصنها حتى صالح على ألف ألف درهم.

وولى ابن عامر على نيسابور قيس بن الهيثم السلمي. وبعث جيشاً إلى نساوابورد فصالحهم أهلها، وآخر إلى سرخس فصالحوا مرزبانها على أمان مائة رجل لم يدخل فيها نفسه فقتله واقتحمها عنوة، وجاء مرزبان طوس فصالحه على ستمائة ألف درهم، وبعث جيشاً إلى هراة مع عبد الله بن حازم فصالح مرزبانها على ألف ألف درهم. ثم بعث مرزبان مرو فصالح على ألف ألف ومائتي ألف وأرسل إليه ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلي، ثم بعث الأحنف بن قيس إلى طخارستان فصالح في طريقه رستاقاً على ثلاثمائة ألف وعلى أن يدخل رجل يؤذن فيه ويقيم حتى ينصرف ومر إلى مرو الروذ، وزحف إليه أهلها فهزمهم وحاصرهم وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن فكتب إلى الأحنف متوسلاً بذلك في الصلح فصالحه على ستمائة ألف. ثم اجتمع أهل الجوزجان والطالقان والفارياب في جمع عظيم ولقيهم الأحنف فقاتلهم قتالاً شديداً ثم انهزموا فقتلوا قتلاً ذريعاً.

ورجع الأحنف إلى مرو الروذ، وبعث الأقرع بن حابس إلى فلهم بالجوزجان فهزمهم وفتحها عنوة، ثم فتح الأحنف الطالقان صلحاً والفارياب صلحاً وقيل بل فتحها أمير بن أحمر، ثم سار الأحنف إلى بلخ وهي مدينة طخارستان فصالحوه على أربعمائة ألف وقيل سبعمائة واستعمل عليها أسيد بن المنشمر، ثم سار إلى خوارزم على نهر جيحون فامتنعت عليه فرجع إلى بلخ. وقد استوفى أسيد قبض المال وكتبوا إلى ابن عامر. ولما سار مجاشع بن مسعود إلى كرمان كما ذكرناه وكانوا قد انتقضوا ففتح هميد عنوة وبنى بها قصراً ينسب إليه، ثم سار إلى السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها وفتحها عنوة وجلى كثيراً من أهلها. ثم فتح جيرفت عنوة ودوخ نواحي كرمان وأتى القفص وقد تجمع له من العجم من أهل الجلاء، وقاتلهم فظفر وركب كثير منهم البحر إلى كرمان وسجستان، ثم نزل العرب إلى منازلهم وأراضيهم.

وسار الربيع بن زياد الحارثي بولاية ابن عامر كما قدمناه إلى سجستان فقطع المفازة من كرمان حتى أتى حصن زالق فأغار عليهم يوم المهرجان وأسر دهقانهم، فافتدى بما غمر عنزة قاعة من الذهب والفضة، وصالحوه على صلح فارس. وصار إلى زريخ ولقيه المشركون دونها فهزمهم وقتلهم وفتح حصوناً عدة بينها وبينه، ثم انتهى إليها وقاتله أهلها فأحجرهم وحاصرهم، وبعث مرزبانها في الأمان ليعضد فأمنه وجلس له على شلو من أشلاء القتلى وارتفق بآخر وفعل أصحابه مثله.

فرعب المرزبان من ذلك وصالح على ألف جام من الذهب يحملها ألف وصيف، ودخل المسلمون المدينة، ثم سار منها إلى وادي سنارود فعبره إلى القرية التي كان رستم الشديد يربط بها فرسه، فقاتلهم وظفر بهم، وعاد إلى زريخ وأقام بها سنة ثم سار بها إلى ابن عامر واستخلف عليها عاملاً فأخرجوه وامتنعوا. فكانت ولاية الربيع سنة ونصف سنة سبى فيها أربعين ألف رأس وكان الحسن البصري يكتب له.ثم استعمل ابن عامر على سجستان عبد الرحمن بن سمرة فسار إليها وحاصر زريخ حتى صالحوه على ألفي ألف درهم وألفي وصيف، وغلب على ما بينهما وبين الكش من ناحية الهند وعلى ما بينها وبين الدادين من ناحية المرجح.

ولما انتهى إلى بلد الدادين حاصرهم في بلد الزور حتى صالحوه ودخل على الزور وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان، فأخذهما وقطع يده، وقال للمرزبان: دونك الذهب والجوهر وإنما قصدت أنه لا يضر ولا ينفع. ثم فتح كامل وزابلستان وهي بلاد غزنة فتحها صلحاً.

ثم عاد إلى زريخ إلى أن اضطرب أمر عثمان، فاستخلف عليها أمير بن أحمر وانصرف فأخرجه أهلها وانتقضوا. ولما كمل الفتح لابن عامر في فارس وخراسان وكرمان وسجستان قال له الناس: لم يفتح لأحد ما فتح عليك فقال: لا جرم لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج محرماً من موقفي هذا. فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم، فسار قيس في أرض طخارستان ودوخها وامتنع عليه أهل سنجار فافتتحها عنوة.

ولاية سعيد بن العاص الكوفة

كان عثمان لأول ولايته قد ولى على الكوفة الوليد بن عقبة استقدمه إليها من عمله بالجزيرة وعلى بني تغلب وغيرهم من العرب، فبقي على ولاية الكوفة خمس سنين وكان أبو زبيد الشاعر قد انقطع إليه من أخواله بني تغلب ليد أسداها إليه وكان نصرانياً فأسلم على يده وكان يغشاه بالمدينة والكوفة، وكان أبو زبيد يشرب الخمر فكان بعض السفهاء يتحدث بذلك في الوليد لملازمته إياه. ثم عدا الشباب من الأزد بالكوفة على رجل من خزاعة فقتلوه ليلا في بيته وشهد عليهم أبو شريح الخزاعي فقتلهم الوليد فيه بالقسامة، وأقام آباءهم للوليد على حقه وكانوا ممن يتحدثون فيه، وجاؤوا إلى ابن مسعود بمثل ذلك فقال: لا نتبع عورة من استتر عنا. وتغيظ الوليد من هذه المقالة وعاتب ابن مسعود عليها،

ثم عمد أحد أولئك الرهط إلى ساحر قد أتى بـه الوليـد فاستفتى ابن مسعود فيه وأفتى بقتله، وحبسـه الوليـد ثـم أطلقـه، فغضبـوا وخرجوا إلى عثمان شاكين من الوليد وإنه يشرب الخمر. فاستقدمه عثمان وأحضره وقال: رأيتموه يشرب؟ قالوا: لا وإنما رأيناه يقـيء الخمر فأمر سعيد بن العـاص فجلـده وكـان علـي حـاضراً فقـال: انزعوا خميصته للجلد. وقيل: أن علياً أمر ابنـه الحسـن أن يجلـده فأبى فجلده عبد الله بن جعفر، فلما بلغ أربعين قال: أمسك جلـد رسول الله ﷺ وأبو بكر أربعين وجلد عمر ثمانين وكل سنة.

ولما وقعت هذه الوقعة عزل عثمان الوليد عن الكوفـة وولى مكانه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، مات سـعيد الأول كافراً وكان يكنى أحيحة، وخالد ابنه عم سعيد الثـاني ولاه رسول الله ﷺ صنعاء وكان يكتب له واستشهد يوم مرج الصفر، وربي سعيد الثاني في حجر عثمان فلما فتح الشام أقام مع معاويـة ثم استقدمه عثمان وزوجه وأقام عنده حتى كان من رجال قريش. فلما استعمله عثمان وذلـك سـنة ثلاثـين سـار إلى الكوفـة ومعـه الأشتر وأبو خيفة الغفاري وجندب بـن عبـد اللّـه والصعـب بـن جثامة، وكانوا شخصوا مـع الوليـد ليعينـوه فصـاروا عليـه، فلمـا وصل خطب الناس وحذرهم وتعرف الأحوال، وكتب إلى عثمان أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب الروادف والتابعة علـى أهل الشرف والسابقة، فكتب إليه عثمان أن يفضـل أهـل السـابقة ويجعل من جاء بعدهم تبعـاً ويعـرف لكـل منزلتـه ويعطيـه حقـه. فجمع الناس وقرأ عليهم كتاب عثمان وقال: أبلغونـي حاجـة ذي الحاجة. وجعل القـراء في سمـرة فلـم تـرض أهـل الكوفـة ذلـك وفشت المقالة، وكتب سعيد إلى عثمان فجمع النـاس واستشـارهم فقالوا: أصبت لا تطمع في الأمور من ليس لها بأهل فتفسد. فقال: يا أهل المدينة! إني أرى الفتن دبت إليكـم وإنـي أرى أن أتخلـص الذي لكم وأنقله إليكم من العراق. فقـالوا: وكيـف ذلـك؟ قـال: تبيعونـه ممـن شـئتم بمـالكم في الحجـاز واليمـن. ففعلـوا ذلـك واستخلصوا ما كان لهم بالعراق، منهم طلحة ومـروان والأشـعث بن قيس، ورجال من القبائل اشتروا ذلك بأموال كانت لهـم بخيبر ومكة والطائف.

غزو طبرستان

وفي هذه السنة غزا سعيد بـن العـاص طبرسـتان ولم يغزهـا أحد قبله، وقد تقدم أن الأصبهبذ صالح سويد بن مقرن عنها أيام عمر علـى مـال، فغزاهـا سـعيد في هـذه السـنة ومعـه نـاس مـن أصحاب رسول الله ﷺ منهم الحسن والحسين وابن عباس وابـن عمر وابن عمرو وابن الزبير وحذيفة بن اليمان في غيرهم، ووافـق خروج ابن عامر مـن البصـرة إلى خراسـان فـنزل نيسـابور، ونـزل سعيد قومس وهي صلح كان حذيفة صالحهم عليـه بعـد نهـاوند. فأتى سعيد جرجان فصـالحوه علـى مـائتي ألـف، ثـم أتـى متاخمـاً جرجان على البحر فقاتله أهلها.

ثم سألوا الأمان فأعطـاهم علـى أن لا يقتـل منهـم رجـلاً واحداً، وفتحوا فقتلهم أجمعين إلا رجـلاً وقتـل معهـم محمـد بـن الحكم بن أبي عقيل جد يوسف بن عمـرو، وكـان أهـل جرجـان يعطون الخراج تارة مئة ألف وأخرى مائتين وثلاثمائة وربما منعوه. ثم امتنعوا وكفروا فانقطع طريق خراسـان مـن ناحيـة قومـس إلا على خوف شديد، وصار الطريق إلى خراسان من فارس كما كـان من قبل حتى ولي قتيبة بن مسلم خراسان. وقدمها يزيد بن المهلب فصالح المرزبان وفتح البحيرة ودهستان وصالح أهل جرجان على صلح سعيد.

غزو حذيفة الباب وأمر المصاحف

وفي سنة ثلاثين هذه صرف حذيفة من غزو الـري إلى غـزو الباب مدداً لعبد الرحمن بن ربيعة وأقام له سعيد العاص بأذربيجان ردءاً حتى عاد بعد مقتل عبد الرحمن كما مر، فأخبره بمـا رأى مـن اختلاف أهل البلدان في القرآن وأن أهـل حمـص يقولـون: قراءتنـا خير من قراءة غيرنا وأخذناها عن المقداد، وأهـل دمشـق يقولـون كذلك، وأهل البصرة عن أبـي موسـى، وأهـل الكوفـة عـن ابـن مسعود. وأنكر ذلك واستعظمه وحذر من الاختـلاف في القـرآن، ووافقه من حضر من الصحابة والتابعين، وأنكر عليه أصحاب ابن مسعود فاغلظ عليهم وخطأهم، فـاغلظ لـه ابـن مسـعود فغضـب سعيد وافترق المجلس.

وسار حذيفة إلى عثمان فأخـبره وقـال: أنـا النذيـر العريـان فادرك الأمة. فجمع عثمان الصحابة فرأوا ما رآه حذيفـة، فأرسـل عثمان إلى حفصة أن ابعثي إلينا بـالصحف ننسـخها وكـانت هـذه الصحف هي التي كتبت أيام أبي بكـر، فـإن القتـل لمـا استحر في القرّاء يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر: أرى أن تأمر بجمـع القـرآن لئلا يذهب الكثير منه لفناء القراء، فأبى أولاً وقال: إن رسول الله ﷺ لم يفعله. ثم استبصر ورجـع إلى رأي عمـر وأمـر زيـد ثـابت بجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجـال، وكتـب في الصحـف فكانت عند أبي بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة. وأرسـل عثمـان

فأخذها، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال: إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش ففعلوا. ونسخوا المصاحف فبعث إلى كل أفق بمصحف يعتمد عليه، وحرق ما سوى ذلك فقبل ذلك الصحابة في سائر الأمصار، ونكره عبد الله بن مسعود في الكوفة حتى نهاهم عن ذلك وحملهم عليه.

مقتل يزدجرد

لما خرج ابن عامر من البصرة إلى فارس وافتتحها هرب يزدجرد من جور وهي أردشير خره في سنة ثلاثين، فبعث ابن عامر في أثره مجاشع بن مسعود وقيل: هرم بن حيان اليشكري وقيل: العنسي، فاتبعه إلى كرمان فهرب إلى خراسان وهلك الجند في طريقهم بالثلج، فلم يسلم إلا مجاشع ورجل معه وكان مهلكهم على خمسة فراسخ من السيرجان، ولحق يزدجرد بمرو ومعه خرزاذ أخو رستم، فرجع عنه إلى العراق ووصى به ما هو به مرزبان مرو فسأله في المال فمنعه وخافه على نفسه وعلى مرو واستجاش بالترك فبيتوه وقتل أصحابه وهرب يزدجرد ماشياً إلى شط المرغاب وآوى إلى بيت رجل ينقل الأرحاء، فلما نام قتله ورماه في النهر. وقيل إنما بيته أهل مرو ولما جاؤوا إلى بيت الرجل أخذوه وضربوه فأقر بقتله فقتلوه وأهله، واستخرجوا يزدجرد من النهر وحملوه في تابوت إلى إصطخر فدفن في ناوس هنالك.

وقيل: إن يزدجرد هرب من وقعة نهاوند إلى أرض أصبهان واستاذن عليه بعض رؤسائها وحجب فضرب البواب وشجه، فرحل عن أصبهان إلى الري، وجاء صاحب طبرستان وعرض عليه بلاده فلم يجبه ومضى من فوره ذلك إلى سجستان، ثم إلى مرو في ألف فارس، وقيل: بل أقام بفارس أربع سنين ثم بكرمان سنتين وطلبه دهقانها في شيء فمنعه فطرده عن بلاده، وأقام بسجستان خمس سنين، ثم نزل خراسان ونزل مرو ومعه الرهن من أولاد الدهاقين وفرخزاذ وكاتب ملوك الصين وفرغانة والخزار وكابل.

وكان دهقان مرو قد منعه الدخول خوفاً من مكره ووكل ابنه بحفظ الأبواب، فعمد يزدجرد يوماً إلى مرو ليدخلها فمنعه ابن الدهقان وأظهر عصيان أبيه في ذلك، وقيل بل أراد يزدجرد أن يجعل ابن أخيه دهقاناً عليها فعمل في هلاكه، وكتب إلى نيزك طرخان يستقدمه لقتل يزدجرد ومصالحة العرب عليه وأن يعطيه في اقتناعه كل يوم ألف درهم، فكتب نيزك إلى يزدجرد يعده المساعدة على العرب وإنه يقدم عليه فيلقاه منفرداً عن العسكر وعن فرخزاذ، فأجابه إلى ذلك بعد أن امتنع فرخزاذ واتهمه يزدجرد في امتناعه فتركه لشأنه بعد أن أخذ خطه برضاه بذلك.

وسار إلى نيزك فاستقبله بأشياء وجاء به إلى معسكره ثم سأله أن يزوجه ابنته فانف يزدجرد من ذلك وسبه فعلا رأسه بالمقرعة فركض منهزماً وقتل أصحابه، وانتهى إلى بيت طحان فمكث فيه ثلاثاً لم يطعم، ثم عرض عليه الطعام فقال: لا أطعم إلا بالزمزمة، فسأل من زمزم له حتى أكل ووشى المزمزم بأمره إلى بعض الأساورة فبعث إلى الطحان بخنقه وإلقائه في النهر، فأبى من ذلك وجحده، فدل عليه ملبسه وعرف المسك فيه فأخذوا ما عليه وخنقوه وألقوه في الماء فجعله أسقف مرو في تابوت ودفنه.

وقيل: بل سار يزدجرد من كرمان قبل وصول العرب إليها إلى مرو في أربعة آلاف على الطبسين وقهستان، ولقيه قبل مرو قائدان من الفرس متعاديين فسعى أحدهما في الآخر، ووافقه يزدجرد في قتله، ونمى الخبر إليه فبيت يزدجرد وعدوه، فهرب إلى رحى على فرسخين من مرو، وطلب منه الطحان شيئاً فأعطاه منطقته فقال: إنما أحتاج إلى أربعة دراهم، فقال: ليست معي. ثم نام فقتله الطحان وألقى شلوه في الماء. وبلغ خبر قتله إلى المطران بمرو فجمع النصارى وعظم عليهم من حقوق سلفه فدفنوه وبنوا له ناوساً وأقاموا له مأتماً، بعد عشرين سنة من ملكه ستة عشر منها في محاربة العرب وانقرض ملك الساسانية بموته.

ويقال: إن قتيبة حين فتح الصغد وجد جاريتين من ولد المخدج ابنه كان قد وطئ أمه بمرو فولدت هذا الغلام بعد موته ذاهب الشق فسمي المخدج، وولد له أولاد بخراسان وجد قتيبة هاتين الجاريتين من ولده فبعث بهما إلى الحجاج، وبعث بهما إلى الوليد أو بإحداهما فولدت له يزيد الناقص.

ظهور الترك بالثغور

كان الترك والخزر يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لما رأوا من شدتهم وظهورهم في غزواتهم حتى أكمنوا لهم في بعض الغياض فقتلوا بعضهم فتجاسروا على حربهم. وكان عبد الرحمن بن ربيعة على ثغور أرمينيا إلى الباب، استخلفه عليها سراقة بن عمر وأقره عمر وكان كثير الغزو في بلاد الخزر، وكثيراً ما كان يغزو بلنجر وكان عثمان قد نهاه عن ذلك فلم يرجع، فغزاهم سنة اثنين وثلاثين وجاء الترك لمظاهرتهم وتذامروا فاشتدت الحرب بينهم وقتل عبد الرحمن كما مر، وافترقوا فرقتين فرقة سارت نحو

الباب لقوا سلمان بن ربيعة قد بعثه سعيد بن العاص من الكوفة مدداً للمسلمين بأمر عثمان فساروا معه، وفرقة سلكوا على جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة.

ثم استعمل سعيد بن العاص على الباب سلمان بن ربيعة مكان أخيه، وبعث معه جنداً من أهل الكوفة حذيفة بن اليمان وأمدهم عثمان بحبيب بن مسلمة في جند الشام وسلمان أمير على الجميع، ونازعه حبيب الأمارة فوقع الخلاف، ثم غزا حذيفة بعد ذلك ثلاث غزوات آخرها عند مقتل عثمان.

وخرجت جموع الترك سنة اثنين وثلاثين من ناحية خراسان في أربعين ألفاً عليهم قارن من ملوكهم فانتهى إلى الطبسين، واجتمع له أهل بادغيس وهراة وقهستان، وكان على خراسان يومئذ قيس بن الهيثم السلمي استخلفه عليها ابن عامر عند خروجه إلى مكة محرماً فدوخ جهتها، وكان معه ابن عمه عبد اللّه بن حازم فقال لابن عامر: اكتب لي على خراسان عهداً إذا خرج منها قيس ففعل، فلما أقبلت جموع الترك قال قيس لابن حازم: ما ترى؟ قال: أرى أن تخرج عن البلاد فإن عهد ابن عامر عندي بولايتها. فترك منازعته وذهب إلى ابن عامر، وقيل أشار عليه أن يخرج إلى ابن عامر يستحده، فلما خرج أظهر عهد ابن عامر له بالولاية عند مغيب قيس.

وسار ابن حازم للقاء الترك في أربعة آلاف. ولما التقى الناس أمر جيشه بإيقاد النار في أطراف رحالهم فهاج العدو على دهش، وغشيهم ابن حازم بالناس متتابعين، فانهزموا وأثخن المسلمون فيهم بالقتل والسبي. وكتب ابن حازم بالفتح إلى ابن عامر فأقره على خراسان فلم يزل والياً عليها إلى حرب الجمل، فأقبل إلى البصرة وبقي أهل البصرة بعد غزوة ابن حازم هذه حتى غزوا المنتقضين من أهلها وعادوا جهزوا كتيبة من أربعة آلاف فارس هنالك.

بدء الانتقاض على عثمان رضي اللّه عنه

لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحابة الرسول ﷺ والإقتداء بهدية وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم. وأما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم، فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلاً منهم وكان لهم في الفتوحات قدم.

فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة من الصحابة ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة، فلما انحسر ذلك العباب وتنوسي الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك، كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار من قريش وسواهم، فأنفت نفوسهم منه، ووافق أيام عثمان فكانوا يظهارون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات، والاستبطاء عليهم في الطاعات والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان.

وفشت المقالة في ذلك من أتباعهم وتنادوا بالظلم من الأمراء في جهاتهم وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة، فارتابوا لها وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه. وبعث إلى الأمصار من يأتيه بصحيح الخبر: محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد اللّه بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر وغيرهم إلى سوى هذه، فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامهم إلا عماراً فإنه استماله قوم من الأشرار انقطعوا إليه منهم عبد اللّه بن سبأ ويعرف بابن السواد، كان يهودياً وهاجر أيام عثمان فلم يحسن إسلامه وأخرج من البصرة فلحق بالكوفة ثم بالشام وأخرجوه فلحق بمصر، وكان يكثر الطعن على عثمان ويدعو في السر لأهل البيت ويقول: إن محمداً يرجع كما يرجع عيسى. وعنه أخذ ذلك أهل الرجعة، وإن علياً وصي رسول اللّه ﷺ حيث لم يجز وصيته وإن عثمان أخذ الأمر بغير حق، ويحرض الناس على القيام في ذلك والطعن على الأمراء. فاستمال الناس بذلك في الأمصار وكاتب به بعضهم بعضاً، وكان معه خالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر فثبطوا عماراً عن المسير إلى المدينة.

وكان مما أنكروه على عثمان إخراج أبي ذر من الشام ومن المدينة إلى الربذة، وكان الذي دعا إلى ذلك شدة الورع من أبي ذر وحمله الناس على شدائد الأمور والزهد في الدنيا وأنه لا ينبغي لأحد أن يكون عنده أكثر من قوت يومه، ويأخذ بالظاهر في ذم الادخار بكنز الذهب والفضة. وكان ابن سبأ يأتيه فيغريه بمعاوية ويعيب قوله: المال مال اللّه، ويوهم أن في ذلك احتجانه للمال وصرفه على المسلمين، حتى عتب أبو ذر في ذلك معاوية فاستعتب له وقال: سأقول مال المسلمين، وأتى ابن سبأ إلى أبي الدرداء وعبادة بن الصامت بمثل ذلك فدفعوه، وجاء به عبادة إلى

معاوية وقال: هذا الذي بعث عليك أبا ذر.

ولما كثر ذلك على معاوية شكاه إلى عثمان فاستقدمه وقال له: ما لأهل الشام يشكون منك؟ فأخبره، فقال: يا أبا ذر لا يمكن حمل الناس على الزهد وإنما علي أن أقضي بينهم بحكم اللّه وارغبهم في الاقتصاد، فقال أبو ذر: لا نرضى من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا للجيران والإخوان ويصلوا القرابة، فقال له كعب الأحبار: من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه فضربه أبو ذر فشجه وقال: يا ابن اليهودية ما أنت وهذا؟ فاستوهب عثمان من كعب شجته فوهبه.

ثم استاذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة وقال: إن رسول اللّه ﷺ أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعاً، فاذن له، ونزل الربذة وبنى بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقاً، وكان يتعاهد المدينة فعد أولئك الرهط خروج أبي ذر فيما ينقمونه على عثمان مع ما كانوا يعدون عليه من إعطاء مروان خمس مغانم إفريقية والصحيح أنه اشتراه بخمسمائة ألف فوضعها عنه.

ومما عدوا عليه أيضاً زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة، وإتمامه الصلاة في منى وعرفة مع أن الأمر في حياة رسول اللّه ﷺ والشيخين بعده كان على القصر.

ولما سأله عبد الرحمن واحتج عليه بذلك قال له: بلغني أن بعض حاج اليمن والجفاة جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاتي وقد اتخذت بمكة أهلاً ولي بالطائف مال. فلم يقبل ذلك عبد الرحمن فقال: زوجتك بمكة إنما تسكن بسكناك ولو خرجت ومالك بالطائف على أكثر من مسافة القصر.

وأما حاج اليمن فقد شهدوا ذلك من رسول اللّه ﷺ والشيخين بعده وقد كان الإسلام ضرب بجرانه. فقال عثمان: هذا رأي رأيته. فمن الصحابة من تبعه على ذلك ومنهم من خالفه.

ومما عدوا عليه سقوط خاتم النبي ﷺ من يده في بئر أريس على ميلين من المدينة فلم يوجد. وأما الحوادث التي وقعت في الأمصار فمنها قصة الوليد بن عقبة وقد تقدم ذكرها وأنه عزله على شرب الخمر واستبدله بسعيد بن العاص منه، وكان وجوه الناس وأهل القادسية يسمرون عنده مثل مالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس من النخع وثابت بن قيس الهمداني وجندب بن زهير العامري وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعي وصعصعة بن صوحان وأخوه زيد وابن الكواء وكميل بن زياد وعمير بن ضابئ وطليحة بن خويلد.

وكانوا يفيضون في أيام الوقائع وفي أنساب الناس وأخبارهم وربما ينتهون إلى الملاحاة ويخرجون منها إلى المشاتمة والمقاتلة، ويعذلهم في ذلك حجّاب سعيد بن العاص فيهزمونهم ويضربونهم. وقد قيل: إن سعيداً قال يوماً: إنما هذا السواد بستان قريش، فقال له الأشتر: السواد الذي أفاء اللّه علينا بأسيافنا تزعم أنه بستان لك ولقومك؟ وخاض القوم في ذلك، فأغلظ لهم عبد الرحمن الأزدي صاحب شرطته فوثبوا عليه وضربوه حتى غشي عليه، فمنع سعيد بعدها السمر عنده. فاجتمعوا في مجالسهم يثلبون سعيداً وعثمان، والسفهاء يغشونهم.

فكتب سعيد وأهل الكوفة إلى عثمان في إخراجهم، فكتب أن يلحقوهم بمعاوية وكتب إلى معاوية أن نفراً خلقوا الفتنة فقم عليهم وانههم وإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم وإن أعيوك فارددهم علي، فأنزلهم معاوية وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق، وأقاموا عنده يحضرون مائدته ثم قال لهم يوماً: أنتم قوم من العرب لكم أسنان والسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مواريثهم وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً ولو لم تكن قريش كنتم أذلة إذ أئمتكم لكم جنة فلا تفترقوا على جنتكم وإن أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحملون عنكم المؤنة واللّه لتنتهن أو ليبتلينكم اللّه بمن يسومكم ولا يحمدكم على الصبر، ثم تكونوا شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم.

فقال له صعصعة منهم: أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر الناس ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلينا. فقال معاوية: الآن عرفتكم وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول وأنت خطيبهم ولا أرى لك عقلاً أعظم عليك أمر الإسلام وتذكرني في الجاهلية أخزى اللّه قوماً عظموا أمركم افقهوا عني ولا أظنكم تفقهون.

ثم ذكر شأن قريش وإن عزها إنما كان باللّه في الجاهلية والإسلام ولم يكن بكثرة ولا شدة، وكانوا على أكرم أحساب وأكمل مروءة وبوأهم اللّه حرمه فآمنوا فيه مما أصاب العرب والعجم والأسود والأحمر في بلادهم، ثم ذكر بعثة النبي ﷺ وأن اللّه ارتضى له أصحاباً كان خيارهم قريشاً فبنى الملك عليهم وجعل الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك إلا بهم، ثم قرعهم ووبخهم وهددهم، ثم أحضرهم بعد أيام، وقال: إذهبوا حيث شئتم لا ينفع اللّه بكم أحداً ولا يضره، وإن أردتم النجاة فالزموا الجماعة ولا

تبطرنكم النعمة وسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

وكتب إلى عثمان إنه قدم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان أبطرهم العدل إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ثم فاضحهم وليسوا بالذين يأتون الأمر إلا مع غيرهم فإنه سعيداً ومن عنده عنهم. فخرجوا من عنده قاصدين الجزيرة ومروا بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص فأحضرهم، وقال: يا آلة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد في نشاط خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم. ثم مضى في توبيخهم على ما فعلوه وما قالوه لسعيد ومعاوية، فهابوا سطوته وطفقوا يقولون نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله، حتى قال: تاب الله عليكم. وسرح الأشتر إلى عثمان تائباً فقال له عثمان: أحلك حيث تشاء، فقال: مع عبد الرحمن بن خالد قال ذاك إليك! فرجع إليه. وقيل إنهم عادوا إلى معاوية من القابلة ودار بينهم وبينه القول وأغلظوا له وأغلظ عليهم، وكتبوا إلى عثمان فأمر أن يردهم إلى سعيد، فردهم فأطلقوا ألسنتهم وضج سعيد منهم، وكتب إلى عثمان، فكتب إليه أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد فدار بينهم وبينه ما قدمناه.

وحدث بالبصرة مثل ذلك من الطعن وكان بدؤه فيما يقال شأن عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، هاجر إلى الإسلام من اليهودية ونزل على حكيم بن جبلة العبدي وكان يتشيع لأهل البيت، ففشت مقالته بالطعن وبلغ ذلك حكيم بن جبلة فأخرجه وأتى الكوفة فأخرج أيضاً واستقر بمصر، وأقام يكاتب أصحابه بالبصرة ويكاتبونه والمقالات تفشو بالطعن والنكير على الأمراء. وكان حمران بن أبان أيضاً يحقد لعثمان أنه ضربه على زواجه امرأة في العدة وسيره إلى البصرة، فلزم ابن عامر وكان بالبصرة عامر بن عبد القيس وكان زاهدا متقشفا فأغرى به حمران صاحبه ابن عامر فلم يقبل سعايته، ثم أذن له عثمان فقدم المدينة ومعه قوم فسعوا بعامر بن عبد القيس إنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة، فألحقه عثمان بمعاوية وأقام عنده حتى تبينت براءته وعرف فضله وحقه وقال: ارجع إلى صاحبك! فقال: لا أرجع إلى بلد استحل أهله مني ما استحلوا! وأقام بالشام كثير العبادة والانفراد بالسواحل إلى أن هلك.

ولما فشت المقالات بالطعن والإرجاف على الأمراء اعتزم سعيد بن العاص على الوفادة على عثمان سنة أربع وثلاثين، وكان قبلها قد ولى على الأعمال أمراء من قبله، فولى الأشعث بن قيس على أذربيجان وسعيد بن قيس على الري والنسير العجلي على همدان والسائب بن الأقرع على أصبهان ومالك بن حبيب على ماه وحكيم بن سلامة على الموصل وجرير بن عبد الله على قرقيسيا وسلمان بن ربيعة على الباب وجعل على حلوان عتيبة بن النهاس وعلى الحرب القعقاع بن عمرو، فخرجوا لأعمالهم وخرج هو وافداً على عثمان، واستخلف عمرو بن حريث وخلت الكوفة من الرؤساء. وأظهر الطاعنون أمرهم وخرج بهم يزيد بن قيس يريد خلع عثمان، فبادره القعقاع بن عمرو فقال له: إنما تستعفي من سعيد. وكتب يزيد إلى الرهط الذين عند عبد الرحمن بن خالد بحمص في القدوم، فساروا إليه وسبقهم الأشتر ووقف على باب المسجد يوم الجمعة يقول: جئتكم من عند عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم على مئة درهم ورد أولي البلاء منكم إلى ألفين، ويزعم أن فيئكم بستان قريش. ثم استخلف الناس ونادى يزيد في الناس: من شاء أن يلحق بيزيد لرد سعيد فليفعل، فخرجوا وذوو الرأي يعذلونهم فلا يسمعون. وأقام أشراف الناس وعقلاؤهم مع عمرو بن حريث ونزل يزيد وأصحابه الجرعة قريباً من القادسية لاعتراض سعيد ورده، فلما وصل قالوا: ارجع فلا حاجة لنا بك قال: إنما كان يكفيكم أن تبعثوا واحداً إلي أو إلى عثمان. وقال مولى له: ما كان ينبغي لسعيد أن يرجع، فقتله الأشتر ورجع سعيد إلى عثمان فأخبره بخبر القوم وإنهم يختارون أبا موسى الأشعري، فولاه الكوفة وكتب إليهم: أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد ووالله لأقرضنكم عرضي ولأبذلنكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي.

وخطب أبو موسى الناس، وأمرهم بلزوم الجماعة، وطاعة عثمان، فرضوا ورجع الأمراء من قرب الكوفة واستمر أبو موسى على عمله.

وقيل: إن أهل الكوفة أجمع رأيهم أن يبعثوا إلى عثمان ويعذلوه فيما نقم عليه، فأجمع رأيهم على عامر بن عبد القيس الزاهد وهو عامر بن عبد الله من بني تميم ثم من بني العنبس فأتاه وقال له: إن ناساً اجتمعوا ونظروا في أعمالك فوجدوك ركبت أموراً عظاماً، فاتق الله وتب إليه. فقال عثمان: الا تسمعون إلى هذا الذي يزعم الناس أنه قارئ ثم يجيء يكلمني في المحقرات؟ ووالله لا يدري أين الله. فقال عامر: بل والله إني لأدري إن الله لبالمرصاد. فأرسل عثمان إلى معاوية وعبد الله بن أبي سرح وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر وعمرو بن العاص -وكانوا بطانته دون الناس- فجمعهم وشاورهم، وقال: إنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي وقد صنع الناس ما رأيتم فطلبوا أن أعزل عمالي وأرجع إلى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم. فقال ابن عامر: أرى أن تشغلهم بالجهاد، وقال سعيد: متى تهلك قادتهم تفرقوا، وقال

معاوية: اجعل كفالتهم إلى أمرائهم وأنا أكفيك الشام، وقال عبد الله: استصلحهم بالمال. فردهم عثمان إلى أعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث ليكون لهم فيها شغل، ورد سعيد إلى الكوفة فلقيه الناس بالجزعة وردوه كما ذكرناه وولى أبا موسى وأمر عثمان حذيفة بغزو الباب فسار نحوه.

ولما كثر هذا الطعن في الأمصار وتواتر بالمدينة وكثر الكلام في عثمان والطعن عليه، وكان له منهم شيعة يذبون عنه: مثل زيد بن ثابت وأبي أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فلم يغنوا عنه، واجتمع الناس إلى علي بن أبي طالب وكلموه وعددوا عليه ما نقموه، فدخل على عثمان وذكر له شأن الناس وما نقموا عليه وذكّره بأفعال عمر وشدته ولينه هو لعماله وعرض عليه ما يخاف من عواقب ذلك في الدنيا والآخرة، فقال له: إن المغيرة بن شعبة ولّيناه وعمر ولاه، ومعاوية كذلك، وابن عامر تعرفون رحمه وقرابته. فقال له علي: إن عمر كان يطأ على صماخ من ولاه وأنت ترفق بهم وكانوا أخوف لعمر من غلامه يرفأ ومعاوية يستبد عليك، ويقول هذا أمر عثمان فلا تغير عليه. ثم تكالما طويلاً وافترقا وخرج عثمان على أثر ذلك، وخطب وعرض بما هو فيه من الناس وطعنهم وما يريدون منه، وإنهم تجرأوا عليه لرفقه بما لم يتجرأوا بمثله على ابن الخطاب، ووافقهم برجوعه في شأنه إلى ما يقدمهم.

حصار عثمان ومقتله رضي الله عنه وأثابه ورفع درجته

ولما كثرت الإشاعة في الأمصار بالطعن على عثمان وعماله، وكتب بعضهم إلى بعض في ذلك وتوالت الأخبار بذلك على أهل المدينة، جاؤوا إلى عثمان وأخبروه فلم يجدوا عنده علماً منه. وقال: أشيروا علي وأنتم شهود المؤمنين. قالوا: تبعث من تثق به إلى الأمصار يأتوك بالأخبار. فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام وغيرهم إلى سواها فرجعوا، وقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره علماء المسلمين ولا عوامهم، وتأخر عمار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه خالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر، وكتب عثمان إلى أهل الأمصار إني قد رفع إلي أهل المدينة أن عمالي وقع منهم أضرار بالناس وقد أخذتهم بأن يوافوني في كل موسم فمن كان له حق فليحضر يأخذ بحقه مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين. فبكى الناس عند قراءة كتابه عليهم ودعوا له، وبعث إلى عمال الأمصار فقدموا عليه في الموسم: عبد الله بن عامر وابن أبي سرح ومعاوية وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمراً وقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة؟ وإني لأخشى والله أن يكونوا صادقين! فقالوا له: ألم يخبرك رسلك بأن أحداً لم يشافههم بشيء وإنما هذه إشاعة لا يحل الأخذ بها واختلفوا في وجه الرأي في ذلك. فقال عثمان: إن الأمر كائن وبابه سيفتح ولا أحب أن تكون لأحد علي حجة في فتحه وقد علم الله أني لم آل الناس خيراً فسكّنوا الناس وبينوا لهم حقوقهم. ثم قدم المدينة فدعا علياً وطلحة والزبير- ومعاوية حاضر- فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أنتم ولاة هذا الأمر واخترتم صاحبكم يعني عثمان وقد كبر وأشرف وفشت مقالة خفتها عليكم فما عنيتم به من شيء فأنا لكم به ولا تطمعوا الناس في أمركم. فانتهره علي، ثم ذهب عثمان يتكلم، وقال: اللذان كانا قبلي منعا قرابتهما احتساباً وإن رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته وإن قرابتي أهل عيلة وقلة معاش فأعطيتهم فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه، فقالوا: أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً ومروان خمسة عشر ألفاً، قال: آخذ ذلك منهما، فانصرفوا راضين.

وقال له معاوية: اخرج معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك ما لا تطيقه، قال: لا أبتغي بجوار رسول الله ﷺ بدلاً. قال: فأبعث إليك جنداً يقيمون معك، قال: لا أضيّق على جيران رسول الله ﷺ فقال معاوية: لتغتالن ولتعيّرن، قال: حسبي الله ونعم الوكيل. ثم سار معاوية ومرّ على علي وطلحة والزبير فوصاهم بعثمان وودّعهم ومضى. وكان المنحرفون عن عثمان بالأمصار قد تواعدوا عند مسير الأمراء إلى عثمان أن يثبوا عليه في مغيبهم، فرجع الأمراء ولم يتهيأ لهم ذلك، وجاءتهم كتب من المدينة ممن صار إلى مذاهبهم في الانحراف عن عثمان أن اقدموا علينا فإن الجهاد عندنا، فتكاتبوا من أمصارهم في القدوم إلى المدينة، فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمائة وقيل في ألف وفيهم كنانة بن بشر الليثي وسودان بن حمران السكوني وميسرة أو قيترة بن فلان السكوني، وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العكي، وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبدي والأشتر النخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبد الله بن الأصم العامري، وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي وزريح بن عباد وبشر بن شريح القيسي وابن المحرش وعليهم حرقوص بن زهير السعدي وكلهم في مثل عدد أهل مصر، وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج. ولما كانوا من

المدينة على ثلاث مراحل تقدم ناس من أهل البصرة وكان هواهم في طلحة فنزلوا ذا خشب، وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم في الزبير فنزلوا الأعوص، ونزل معهم ناس من أهل مصر وكان هواهم في علي وتركوا عامتهم بذي المروة. وقال أبو زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم من أهل الكوفة: لا تعجلوا حتى ندخل المدينة فقد بلغنا أنهم عسكروا لنا فوالله إن كان حقاً لا يقوم لنا أمر.

ثم دخلوا المدينة ولقوا علياً وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين وأخبروهم أنهم إنما أتوا للحج وأن يستعفوا من بعض العمال، واستأذنوا في الدخول فمنعوهم ورجعوا إلى أصحابهم وتشاوروا في أن يذهب من أهل الكوفة وكل مصر فريق إلى أصحابهم كياداً وطلباً في الفرقة، فأتى المصريون علياً وهو في عسكره عند أحجار الزيت وقد بعث ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع عليه فعرضوا عليه أمرهم، فصاح بهم وطردهم وقال: إن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان رسول الله ﷺ وقد علم ذلك الصالحون. وأتى البصريون طلحة والكوفيون الزبير فقالا مثل ذلك فانصرفوا وافترقوا عن هذه الأماكن إلى عسكرهم على بعد. فتفرق أهل المدينة فلم يشعروا إلا والتكبير في نواحيها، وقد هجموا وأحاطوا بعثمان ونادوا بأمان من كف يده، وصلى عثمان بالناس أياماً ولزم الناس بيوتهم ولم يمنعوا الناس من كلامه، وغدا عليهم علي فقال: ماردكم بعد ذهابكم؟ قالوا: أخذنا كتاباً مع يزيد بقتلنا. وقال البصريون لطلحة والكوفيون للزبير مثل مقالة أهل مصر وإنهم جاؤوا لينصروهم، فقال لهم علي: كيف علمتم بما لقي أهل مصر وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم علينا جميعاً؟ هذا أمر أبرم بليل. فقالوا: اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا، وهم يصلون خلفه ومنعوا الناس من الاجتماع معه.

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستحثهم فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وبعث عبد الله بن أبي سرح معاوية بن جريج وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو، وتسابقوا إلى المدينة على الصعب والذلول، وقام بالكوفة نفر يحضون على إعانة أهل المدينة فمن الصحابة عقبة بن عامر وعبد الله بن أبي أوفى وحنظلة الكاتب، ومن التابعين مسروق الأسود وشريح وعبد الله بن حكيم. وقام بالبصرة في ذلك عمران بن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر، ومن التابعين كعب بن سوار وهرم بن حبان. وقام بالشام وبمصر جماعة أخرى من الصحابة والتابعين. ثم خطب عثمان في الجمعة القابلة وقال: يا هؤلاء! الله الله! فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد فامحوا الخطأ بالصواب. فقال محمد بن مسلمة: أنا أشهد بذلك. فأقعده حكيم بن جبلة، وقام زيد بن ثابت فأقعده آخر، وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وأصيب عثمان بالحصباء فصرخ وقاتل دونه سعد بن أبي وقاص والحسين وزيد بن ثابت وأبو هريرة. ودخل عثمان بيته وعزم عليهم في الانصراف فانصرفوا، ودخل علي وطلحة والزبير على عثمان يعودونه وعنده نفر من بني أمية فيهم مروان فقالوا لعلي: أهلكتنا وصنعت هذا الصنع والله لئن بلغت الذي تريد لتحزن عليك الدنيا، فقام مغضباً وعادوا إلى منازلهم. وصلى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً، ثم منعوه الصلاة، وصلى بالناس أمير المصريين الغافقي بن حرب العكي، وتفرق أهل المدينة في بيوتهم وحيطانهم ملازمين للسلاح وبقي الحصار أربعين يوماً. وقيل: بل أمر عثمان أبا أيوب الأنصاري فصلى أياماً، ثم صلى علي بعده بالناس وقيل: أمرَّ علياً سهل بن حنيف فصلى عشر ذي الحجة ثم صلى العيد والصلوات حتى قتل عثمان.

وقد قيل في حصار عثمان: أن محمد بن أبي بكر ومحمد بن حذيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان، فلما خرج المصريون في رجب مظهرين للحج ومضمرين قتل عثمان أو خلعه وعليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي كان فيمن خرج مع المصريين محمد بن أبي بكر، وبعث عبد الله بن سعيد في آثارهم وأقام محمد بن أبي حذيفة بمصر، فلما كان ابن أبي سرح بأيلة بلغه أن المصريين رجعوا إلى عثمان فحصروه، وأن محمد بن أبي حذيفة غلب على مصر فرجع سريعاً إليهما فمنع منهما، فأتى فلسطين وأقام بها حتى قتل عثمان. وأما المصريون فلما نزلوا ذا خشب جاء عثمان إلى بيت علي ومتّ إليه بالقرابة في أن يركب إليهم ويردهم لئلا تظهر الجراءة منهم، فقال له علي: قد كلمتك في ذلك فأطعت أصحابك وعصيتني! يعني مروان ومعاوية وابن عامر وابن أبي سرح وسعيداً. فعلى أي شيء أردهم؟ فقال: على أن أصير إلى ما تراه وتشيره وأن أعصي أصحابي وأطيعك. فركب علي في ثلاثين من المهاجرين والأنصار فيهم سعد بن زيد وأبو جهم العدوي وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب، ومن الأنصار أبو أسيد الساعدي وأبو حميد وزيد بن ثابت وحسان وكعب بن مالك، ومن العرب دينار بن مكرز، فأتوا المصريين وتولى الكلام معهم علي ومحمد بن مسلمة، فرجعوا إلى مصر، وقال ابن عديس لمحمد: أتوصينا بحاجة؟ قال: تتقي الله وترد من قبلك عن أمانه فقد وعدنا أن

يرجع وينزع. ورجع القوم إلى المدينة ودخل علي على عثمان وأخبره برجوع المصريين، ثم جاءه مروان من الغد فقال له: أخبر الناس بأن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عنك كان باطلاً قبل أن تجيء الناس من الأمصار ويأتيك ما لا تطيقه ففعل. فلما خطب ناداه الناس من كل ناحية: اتق الله يا عثمان وتب إلى الله وكان أولهم عمرو بن العاص، فرفع يده وقال لهم: إني تائب. وخرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين، ثم جاء الخبر بحصاره وقتله. وقيل: إن علياً لما رجع عن المصريين أشار على عثمان أن يسمع الناس ما اعتزم عليه من النزوع قبل أن يجيء غيرهم، ففعل وخطب بذلك وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: أنا أول من اتعظ أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه فليأت أشرافكم يروني رأيهم فوالله إن ردني الحق عبداً لأستن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد وما عن الله مذهب إلا إليه فوالله لأعطينكم الرضى ولا أحتجب عنكم. ثم بكى وبكى الناس ودخل منزله، فجاءه نفر من بني أمية يعذلونه في ذلك فوبختهم نائلة بنت الفرافصة فلم يرجعوا إليها، وعابوه فيما فعل واستذلوه في إقراره بالخطيئة والتوبة عند الخوف، واجتمع الناس بالباب وقد ركب بعضهم بعضاً، فقال لمروان: كلمهم! فأغلظ لهم في القول. وقال: جئتم لنزع ملكنا من أيدينا. والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غبّ رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن مغلوبون على ما في أيدينا. وبلغ الخبر علياً فنكر ذلك، وقال لعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث: أسمعت خطبته بالأمس ومقالة مروان للناس اليوم؟ يا لله ويا للناس! إن قعدت في بيتي قال تركتني وقرابتي وحقي وإن تكلمت فجاء ما يزيد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول. وقام مغضباً إلى عثمان واستقبح مقالة مروان وأنبه عليها وقال: ما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك فقد أذهبت شرفك وغلبت على رأيك. ثم دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول علي، فعذلته في طاعة مروان، وأشارت عليه باستصلاح علي فبعث إليه فلم يأته. فأتاه عثمان إلى منزله ليلاً يستلينه ويعده الثبات على رأيه معه فقال: بعد أن قام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم؟ فخرج عثمان وهو يقول: خذلتني وجرأت عليّ الناس! فقال علي: والله إني أكثر الناس ذباً عنك ولكني كلما جئت بشيء أظنه لك رضاً جاء مروان بأخرى فسمعت قوله وتركت قولي. ثم مُنع عثمان الماء فغضب علي غضباً شديداً حتى دخلت الروايا على عثمان.

وقيل: إن علياً كان عند حصار عثمان بخيبر فقدم والناس يجتمعون عند طلحة فجاءه عثمان وقال يا علي! إن لي حق الإخاء والقرابة والصهر، ولو كان أمر الجاهلية فقط كان عاراً على بني عبد مناف أن تنزع تيم أمرهم فجاء علي إلى طلحة وقال ما هذا؟ فقال طلحة: أبعد ما مس الحزام الطبيين يا أبا حسن! فانصرف علي إلى بيت المال، وأعطى الناس فبقي طلحة وحده وسر بذلك عثمان وجاء إليه طلحة فقال له: والله ما جئت تائباً ولكن مغلوباً فالله حسيبك يا طلحة.

وقيل: إن المصريين لما رجعوا خرج إليهم محمد بن مسلمة فأعطوه صحيفة قالوا وجدناها عند غلام عثمان بالبويب وهو على بعير من إبل الصدقة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم، وقيل: وجدت الصحيفة بيد أبي الأعور السلمي. فعاد المصريون وعاد معهم الكوفيون والبصريون وقالوا لمحمد بن مسلمة حين سألهم: قد كلمنا علياً وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فوعدونا أن يكلموه فليحضر علي معنا عند عثمان. ثم دخل علي ومحمد على عثمان وأخبروه بقول أهل مصر فحلف ما كتب ولا علم. فقال محمد: صدق! هذا من عمل مروان. ودخل المصريون فشكى ابن عديس بابن أبي سرح وما أحدثه بمصر وأنه ينسب ذلك إلى كتاب عثمان وإنا جئنا من مصر لقتلك فردنا علي ومحمد وضمنا لنا النزوع عن هذا كله فرجعنا ولقينا هذا الكتاب وفيه أمرك لابن أبي سرح بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس وهو بيد غلامك وعليه خاتمك، فحلف عثمان ما كتب ولا أمر ولا علم. قالوا: فكيف يجترأ عليك بمثل هذا؟ فقد استحقيت الخلع على التقديرين ولا يحل أن يولى الأمور من ينتهي إلى هذا الضعف، فاخلع نفسك فقال: لا أنزع ما ألبسني الله ولكن أتوب وأرجع.

قال: رأيناك تتوب وتعود فلا بد من خلعك أو قتلك وقتال أصحابك دون ذلك إلى أن يخلص إليك أو تموت، فقال: لا ينالكم أحد بأخرى ولو أردت ذلك لاستجشت بأهل الأمصار. ثم كثر اللغط وأخرجوا ومضى علي إلى منزله، وحصر المصريون عثمان وكتب إلى معاوية وابن عامر يستحثهم وقام يزيد بن أسد القسري فاستنفر أهل الشام وسار إلى عثمان وبلغهم قتله بوادي القرى فرجعوا، وقيل: سار من الشام حبيب بن مسلمة ومن البصرة مجاشع بن مسعود فبلغهم قتله بالربذة فرجعوا.

وكانت بطانة عثمان أشاروا عليه أن يبعث إلى علي في كفهم عنه على الوفاء لهم، فبعث إليه في ذلك فأجاب بعد توقف ثم بعث إليهم فقالوا: لا بد لنا أن نتوثق منه وجاءه فأعلمه وتوثق منه على أجل ثلاثة أيام، وكتب بينهم كتاباً على رد المظالم وعزل

من كرهوه من العمال. ثم مضى الأجل وهو مستعد ولم يغير شيئاً، فجاءه المصريون من ذي خشب يستنجزون عهدهم فأبى فحصروه.

وأرسل إلى علي وطلحة والزبير وأشرف عليهم فحياهم ودعا لهم، ثم قال: أنشدكم الله تعالى هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم؟ أتقولون إنه لم يستجب لكم أو تقولون إن الله لم يبال بمن ولّى هذا الدين أم تقولون إن الأمة ولوا مكابرة وعن غير مشورة فوكلهم إلى أمرهم أولم يعلم عاقبة أمري! ثم أنشدكم الله هل تعلمون لي من السوابق ما يجب حقه! فمهلاً فلا يحل إلا قتل ثلاثة: زان بعد إحصان وكافر بعد إيمان وقاتل بغير حق ثم إذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم، ثم لا يرفع الله عنكم الاختلاف.

فقالوا له: أما ما ذكرت من الاستخارة بعد عمر فكل ما صنع الله تعالى فيه الخيرة، ولكن الله ابتلى بك عباده وأما حقك وسابقتك فصحيح، لكن أحدثت ما علمت ولا نترك إقامة الحق مخافة الفتنة عاماً قابلاً، وأما حصر القتل في الثلاثة ففي كتاب الله: قتل من سعى في الأرض فساداً ومن قاتل على البغي وعلى منع الحق والمكابرة عليه، وأنت إنما تمسكت بالأمارة علينا وإنما قاتل دونك هؤلاء بهذه التسمية فلو نزعتها انصرفوا.

فسكت عثمان ولزم الدار وأقسم على الناس بالانصراف فانصرفوا إلا الحسن بن علي ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير. وكانت مدة الحصار أربعين يوماً، ولثمان عشرة منها وصل الخبر بمسير الجنود من الأمصار فاشتد الانحصار ومنعوه من لقاء الناس ومن الماء، وأرسل إلى علي وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين يطلب الماء فركب علي إليهم مغلساً، وقال: يا أيها الناس إن هذا لا يشبه أمر المؤمنين ولا الكافرين! وإن الأسير عند فارس والروم يطعم ويسقى. فقالوا لا والله ونعمة عين. فرجع وجاءت أم حبيبة على بغلتها مشتملة على أدواة وقالت: أردت أن أسأل هذا الرجل عن وصايا عنده لبني أمية أو تهلك أموال أيتامهم وأراملهم، فقالوا: لا والله، وضربوا وجه البغلة فنفرت وكادت تسقط عنها وذهب بها الناس إلى بيتها.

وأشرف عليهم عثمان وقرر حقوقه وسوابقه فقال بعضهم: مهلاً عن أمير المؤمنين، فجاء الأشتر وفرق الناس وقال: لا يمكر بكم. ثم خرجت عائشة إلى الحج ودعت أخاها فأبى، فقال له حنظلة الكاتب: تدعوك أم المؤمنين فلا تتبعها وتتبع سفهاء العرب فيما لا يحل؟ ولو قد صار الأمر إلى الغلبة غلبك عليه بنو عبد مناف. ثم ذهب حنظلة إلى الكوفة وبلغ طلحة والزبير ما لقي علي وأم حبيبة فلزموا بيوتهم. وكان آل حزم يدسون الماء إلى بيت عثمان في الغفلات، وكان ابن عباس ممن لزم باب عثمان للمدافعة فأشرف عليه عثمان وأمره أن يحج بالناس، فقال: جهاد هؤلاء أحب إلي! فأقسم عليه وانطلق.

ولما رأى أهل مصر أن أهل الموسم يريدون قصدهم، وأن أهل الأمصار يسيرون إليهم اعتزموا على قتل عثمان رضي الله عنه وتقبل شهادتهم يرجون في ذلك خلاصهم واشتغال الناس عنهم، فقاموا إلى الباب ليقتحموه فمنعهم الحسن بن علي وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة وقاتلوهم وغلبوهم دون الباب، ثم صدهم عثمان عن القتال وحلف ليدخلن فدخلوا وأغلق الباب فجاؤوا بالنار وأحرقوه، ودخلوا وعثمان يصلي وقد افتتح سوره طه، وقد سار أهل الدار فما شغله شيء من أمرهم حتى فرغ وجلس إلى المصحف يقرأ فقرأ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. ثم قال لمن عنده: إن رسول الله ﷺ قد عهد إلي عهداً فأنا صابر عليه، ومنعهم من القتال وأذن للحسن في اللحاق بأبيه وأقسم عليه فأبى وقاتل دونه، وكان المغيرة بن الأخنس بن شريق قد تعجل من الحج في عصابة لنصره فقاتل حتى قتل. وجاء أبو هريرة ينادي: يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار وقاتل.

ثم اقتحمت الدار من ظهرها من جهة دار عمرو بن حزم فامتلأت قوماً ولا يشعر الذين بالباب، وانتدب رجل فدخل على عثمان في البيت فحاوره في الخلع فأبى فخرج، ودخل آخر ثم آخر كلهم يعظه فيخرج ويفارق القوم، وجاء ابن سلام فوعظهم فهموا بقتله، ودخل عليه محمد بن أبي بكر فحاوره طويلاً بما لا حاجة إلى ذكره ثم استحيا وخرج. ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم وأكبت عليه نائلة امرأته تتقي الضرب بيدها فنفحها أحدهم بالسيف في أصابعها. ثم قتلوه وسال دمه على المصحف.

وجاء غلمانه فقتلوا بعض أولئك القاتلين وقتلاء أخر وانتهبوا ما في البيت وما على النساء حتى ملاءة نائلة، وقتل الغلمان منهم وقتلوا من الغلمان، ثم خرجوا إلى بيت المال فانتهبوه، وأرادوا قطع رأسه فمنعهم النساء فقال ابن عديس: اتركوه.

ويقال إن الذي تولى قتله كنانة بن بشر التجيبي وطعنه عمرو بن الحمق طعنات، وجاء عمير بن ضابيء وكان أبوه مات في سجنه فوثب عليه حتى كسر ضلعاً من أضلاعه. وكان قتله

لثمان عشرة خلت من ذي الحجة وبقي في بيته ثلاثة أيام.

ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم إلى علي فأذن لهم في دفنه، فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة ومروان فدفنوه في حش كوكب، وصلى عليه جبير وقيل مروان وقيل حكيم، ويقال: إن ناساً تعرضوا لهم ليمنعوا من الصلاة عليه، فأرسل إليهم علي وزجرهم. وقيل إن علياً وطلحة حضرا جنازته وزيد بن ثابت وكعب بن مالك.

وكان عماله عند موته على ما نذكره: فعلى مكة عبد الله بن الحضرمي، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن منية، وعلى الجند عبد الله بن ربيعة، وعلى البصرة والبحرين عبد الله بن عامر، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى حمص عبد الرحمن بن خالد من قبله، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة كذلك، وعلى الأردن أبو الأعور السلمي كذلك، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكندي كذلك، وعلى البحرين عبد الله بن قيس الفزاري، وعلى القضاء أبو الدرداء، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعري على الصلاة والقعقاع بن عمرو على الحرب، وعلى خراج السواد جابر المزني وسماك الأنصاري على الخراج، وعلى قرقيسيا جرير بن عبد الله، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس، وعلى حلوان عتيبة بن نهاس، وعلى أصبهان السائب بن الأقرع، وعلى ماسبذان خنيس، وعلى بيت المال عقبة بن عمرو، وعلى القضاء زيد بن ثابت.

بيعة علي رضي الله عنه

لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار وأتوا علياً يبايعونه، فأبى وقال: أكون وزيراً لكم خير من أن أكون أميراً ومن اخترتم رضيته، فألحوا عليه وقالوا له: لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك، فخرج إلى المسجد وبايعوه وأول من بايعه طلحة ثم الزبير بعد أن خيرهما - ويقال إنهما ادعيا الإكراه بعد ذلك بأربعة أشهر وخرجا إلى مكة- ثم بايعه الناس. وجاؤوا بابن عمر فقال كذلك. فقال ائتني بكفيل. قال لا أجده فقال الأشتر: دعني أقتله فقال علي: دعوه أنا كفيله.

وبايعت الأنصار وتأخر منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وسلمة بن سلامة بن وقش، وتأخر من المهاجرين عبد الله بن سلام وصهيب بن سنان وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون والمغيرة بن شعبة. وأما النعمان بن بشير فأخذ أصابع نائلة امرأة عثمان وقميصه الذي قتل فيه ولحق بالشام صريخاً.

وقيل: إن عثمان لما قتل بقي الغافقي بن حرب أميراً على المدينة خمسة أيام، والتمس من يقوم بالأمر فلم يجبه أحد، وأتوا إلى علي فامتنع، وأتى الكوفيون الزبير والبصريون طلحة فامتنعا، ثم بعثوا إلى سعد وابن عمر فامتنعا. فبقوا حيارى ورأوا أن رجوعهم إلى الأمصار بغير إمام يوقع في الخلاف والفساد، فجمعوا أهل المدينة وقالوا: أنتم أهل الشورى وحكمكم جائز على الأمة فاعقدوا الإمام ونحن لكم تبع وقد أجلناكم يومين وإن لم تفعلوا قتلنا فلاناً وفلاناً وغيرهم يشيرون إلى الأكابر. فجاء الناس إلى علي فاعتذر وامتنع، فخوفوه الله في مراقبة الإسلام، فوعدهم إلى الغد.

ثم جاؤوه من الغد وجاء حكيم بن جبلة في البصريين، فأحضر الزبير كرهاً، وجاء الأشتر في الكوفيين فأحضر طلحة كذلك وبايعوا لعلي، وخرج إلى المسجد وقال: هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أردتم وقد افترقنا أمس وأنا كاره فأبيتم إلا أن أكون عليكم، فقالوا: نحن على ما افترقنا لك عليه بالأمس، فقال لهم: اللّهم اشهد! ثم جاؤوا بقوم ممن تخلف قالوا نبايع على إقامة كتاب الله. ثم بايع العامة، وخطب علي وذكر الناس وذلك يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة ورجع إلى بيته، فجاءه طلحة والزبير وقالا: قد اشترطنا إقامة الحدود فلتقمها على قتلة هذا الرجل، فقال: لا قدرة لي على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس وتستقر الأمور فتؤخذ الحقوق، فافترقوا عنه.

وأكثر بعضهم المقالة في قتلة عثمان وباستناده إلى أربعة في رأيه.

وبلغه ذلك فخطبهم وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم، ثم هرب مروان وبنو أمية ولحقوا بالشام، فاشتد على علي منع قريش من الخروج، ثم نادى في اليوم الثالث برجوع الأعراب إلى بلادهم، فأبوا وتذامرت معهم السبئيه، وجاءه طلحة والزبير فقالا: دعنا نأت البصرة والكوفة فنستنفر الناس فأمهلهما. وجاء المغيرة فأشار عليه باستبقاء العمال حتى يستقر الأمر ويستبدلوا بمن شاء فأمهله، ورجع من الغد فأشار بمعالجة الاستبدال، وجاءه ابن عباس فأخبره بخبر المغيرة، فقال: نصحك أمس وغشك اليوم. قال: فما الرأي؟ قال: كان الرأي أن تخرج عند قتل الرجل أو قبل ذلك إلى مكة وأما اليوم فإن بني أمية يشبهون على الناس بأن يلجموك طرفاً من هذا الأمر ويطلبون ما طلب أهل المدينة في قتلة

عثمان فلا يقدرون عليهم والرأي أن تقر معاوية. فقال علي رضي الله عنه والله لا أعطيه إلا السيف.

فقال له ابن عباس: أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحرب خدعة». قال: بلى! فقال ابن عباس: أما والله إن أطعتني لأتركنهم ينظرون في دبر الأمور ولا يعرفون ما كان وجهها من غير نقصان عليك ولا إثم لك. فقال: يا ابن عباس لست من هنياتك ولا هنيات معاوية في شيء. فقال ابن عباس: أطعني والحق بمالك بينبع وأغلق بابك عليك فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، وإن نهضت مع هؤلاء القوم اليوم يحمّلك الناس دم عثمان غداً. فأبى علي وقال: أشر علي وإذا خالفتك أطعني. قال: أيسر ما لك عندي الطاعة. قال: فسر إلى الشام فقد وليتكها. قال: إذاً يقتلني معاوية بعثمان أو يحبسني فيتحكم علي لقرابتي منك ولكن اكتب إليه وعده فأبى. وكان المغيرة يقول: نصحته فلم يقبل فغضب ولحق بمكة. ثم فرق علي العمال على الأمصار فبعث على البصرة عثمان بن حنيف، وعلى الكوفة عمارة بن شهاب من المهاجرين، وعلى اليمن عبد الله بن عباس، وعلى مصر قيس بن سعد، وعلى الشام سهل بن حنيف. فمضى عثمان إلى البصرة فدخلها واختلفوا عليه فأطاعته فرقة وقال آخرون: ننظر ما يصنع أهل المدينة فنقتدي بهم، ومضى عمارة إلى الكوفة فلما بلغ زبالة لقي طليحة بن خويلد فقال له: إرجع فإن القوم لا يستبدلون بأبي موسى وإلا ضربت عنقك، ومضى ابن عباس إلى اليمن فجمع يعلى بن منية مال الجباية وخرج به إلى مكة ودخل عبد الله إلى اليمن، ومضى قيس بن سعد إلى مصر ولقيه بأيلة خيالة من أهل مصر فقالوا: من أنت؟ قال: قيس بن سعد من فل عثمان أطلب من آوي إليه وأنتصر به. ومضى حتى دخل مصر وأظهر أمره فافترقوا عليه فرقة كانت معه وأخرى تربصوا حين يروا فعله في قتلة عثمان.

ومضى سهل بن حنيف إلى الشام حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل فقال لهم: أنا أمير على الشام، قالوا إن كان بعثك غير عثمان فارجع فرجع. فلما رجع وجاءت أخبار الآخرين دعا علي طلحة والزبير وقال: قد وقع ما كنت أحذركم. فسألوه الإذن في الخروج من المدينة وكتب علي إلى أبي موسى مع معبد الأسلمي فكتب إليه بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم ومن الكاره منهم والراضي حتى كأنه يشاهد. وكتب إلى معاوية مع سبرة الجهني فلم يجبه إلى ثلاثة أشهر من مقتل عثمان، ثم دعا قبيصة من عبس وأعطاه كتاباً مختوماً عنوانه: من معاوية إلى علي وأوصاه بما يقول وأعاده مع رسول علي، فقدم في ربيع الأول ودخل العبسي وقد رفع الطومار كما أمره حتى دفعه إلى علي، ففضه فلم يجد فيه كتاباً فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال نعم! قال: تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود قال: وممن؟ قال منك وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان منصوباً على منبر دمشق. فقال: اللّهم إني أبرأ إليك من دم عثمان! قد نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله. ثم رده إلى صاحبه وصاحت السبئية: اقتلوا هذا الكلاب وافد الكلب، فنادى يا مضر يا لقيس أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحول والركاب وتقاووا عليه، فمنعته مضر ودس أهل المدينة على علي من يأتيهم برأيه في القتال وهو زياد بن حنظلة التميمي وكان منقطعاً إليه فجالسه ساعة فقال له علي: سيروا لغزو الشام. فقال لعلي: الأناة والرفق أمثل فتمثل يقول:

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فعلم أن رأيه القتال ثم جاء إلى القوم الذين دسوه فأخبرهم ثم استأذنه طلحة والزبير في العمرة ولحقا بمكة. ثم اعتزم على الخروج إلى الشام ودعا أهل المدينة إلى قتالهم، وقال: انطلقوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم. وأمر الناس بالتجهز إلى الشام ودفع اللواء لمحمد ابن الحنفية، وولّى عبد الله بن عباس ميمنته، وعمرو بن أبي سلمة ميسرته، ويقال: بل عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وولّى أبا ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخي عبيدة مقدمته، ولم يولّ أحداً ممن خرج على عثمان.

واستخلف على المدينة تمام بن العباس، وعلى مكة قثم بن العباس. وكتب إلى قيس بن سعد بمصر وعثمان بن حنيف بالبصرة وأبي موسى بالكوفة أن يندبوا الناس إلى الشام، وبينما هو على التجهز للشام إذ أتاه الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وأنهم على الخلاف فانتقض عن الشام.

أمر الجمل

ولما جاء خبر مكة إلى علي قام في الناس وقال: ألا إن طلحة والزبير وعائشة قد تمالأوا على نقض إمارتي ودعوا الناس إلى الإصلاح وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم وأكف إن كفوا واقتصد نحوهم، وندب أهل المدينة فتثاقلوا، وبعث كميلاً النخعي فجاءه بعبد الله بن عمر فقال: انهض معي! فقال: أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون، قال: فأعطني كفيلاً بأنك لا تخرج، قال:

ولا هذه، فتركه ورجع إلى المدينة.

وخرج إلى مكة وقد أخبر ابنة علي أم كلثوم بأنه سمع من أهل المدينة في تثاقلهم وأنه على طاعة علي ويخرج معتمراً. وجاء الخبر من الغداة إلى علي بأنه خرج إلى الشام فبعث في أثره على كل طريق، وماج أهل المدينة، وركبت أم كلثوم إلى أبيها وهو في السوق يبعث الرجال ويظاهر في طلبه فحدثته فانصرف عن ذلك ووثق فيما قاله، ورجع إلى أهل المدينة فخاطبهم وحرضهم فرجعوا إلى إجابته، وأول من أجابه أبو الهيثم بن التيهان البدري وخزيمة بن ثابت وليس بذي الشهادتين. ولما رأى زياد بن حنظلة تثاقل الناس عن علي انتدب إليه وقال: من تثاقل عنك فإنا نخف معك ونقاتل دونك.

وكان سبب اجتماعهم بمكة أن عائشة كانت خرجت إلى مكة وعثمان محصور كما قدمناه، فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة فلقيت في طريقها رجلاً من بني ليث أخوالها فأخبرها بقتل عثمان وبيعة علي، فقالت: قتل عثمان والله ظلماً ولأطلبن بدمه فقال لها الرجل: ولم أنت كنت تقولين ما قلت؟ فقالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وانصرفت إلى مكة.

وجاءها الناس فقالت: إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم من كان قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام: والله لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ولو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه. فقال عبد الله بن عامر الحضرمي وكان عامل مكة لعثمان: أنا أول طالب، فكان أول مجيب وتبعه بنو أمية وكانوا هربوا إلى مكة بعد قتل عثمان منهم: سعيد بن العاص والوليد بن عقبة. وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن منية من اليمن بستمائة بعير وستمائة ألف فأناخ بالأبطح.

ثم قدم طلحة والزبير من المدينة فقالت لهما عائشة: ما وراءكما؟ قالا: تحملنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب غلبوا على خيارهم فلم يمنعوا أنفسهم ولا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً، فقالت: انهضوا بنا إليهم، وقال آخرون: نأتي الشام، فقال ابن عامر: إن معاوية كفاكم الشام فأتوا البصرة فلي بها صنائع ولهم في طلحة هوى. فنكروا عليه مجيئه من البصرة واستقام رأيهم على رأيه وقالوا: إن الذين معنا لا يطيقون من بالمدينة ويحتجون ببيعة علي وإذا أتينا البصرة أنهضناهم كما أنهضنا أهل مكة وجاهدنا، فاتفقوا ودعوا عبد الرحمن بن عمر إلى النهوض فأبى وقال: أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون.

وكانت أمهات المؤمنين معها على قصد المدينة، فلما نهضت إلى البصرة قعدوا عنها وأجابتها حفصة فمنعها أخوها عبد الله. وجهزهم ابن عامر بما معه من المال ويعلى بن منية بما معه من المال والظهر، ونادوا في الناس بالحملان فحملوا على ستمائة بعير وساروا في ألف من أهل مكة ومن أهل المدينة وتلاحق بهم الناس فكانوا ثلاثة آلاف، وبعثت أم الفضل أم عبد الله بن عباس بالخبر استأجرت على كتابها من أبلغه علياً، ونهضت عائشة ومن معها، وجاء مروان بن الحكم إلى طلحة والزبير فقال: على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة، فقال ابن الزبير على أبي، وقال ابن طلحة: على أبي، فأرسلت عائشة إلى مروان تقول له: أتريد أن تفرق أمرنا ليصلّ بالناس ابن أختي تعني عبد الله بن الزبير. وودع أمهات المؤمنين عائشة من ذات عرق باكيات، وأشار سعيد بن العاص على مروان بن الحكم وأصحابه بإدراك ثأرهم من عائشة وطلحة والزبير. فقالوا: نسير لعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً.

ثم جاء إلى طلحة والزبير فقال: لمن تجعلان الأمر إن ظفرتما؟ قالا: لأحدنا الذي تختاره الناس، فقال: بل اجعلوه لولد عثمان لأنكم خرجتم تطلبون بدمه فقالا: وكيف ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم؟ قال: فلا أراني أسعى إلا لإخراجها من بني عبد مناف فرجع، ورجع عبد الله بن خالد بن أسيد ووافقه المغيرة بن شعبة ومن معه من ثقيف فرجعوا، ومضى القوم ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان. وأركب يعلى بن منية عائشة جملاً اسمه عسكر اشتراه بمائة دينار وقيل بثمانين، وقيل: بل كان لرجل من عرينة عرض لهم بالطريق على جمل فاستبدلوا به جمل عائشة على أن حمله بألف فزادوه أربعمائة درهم، وسألوه عن دلالة الطريق فدلهم ومر بهم على ماء الحوأب فنبحتهم كلابه. وسألوه عن الماء فعرفهم باسمه.

فقالت عائشة: ردوني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: « ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب؟ » ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وأقامت بهم يوماً وليلة إلى أن قيل: النجاء! النجاء! قد أدرككم علي، فارتحلوا نحو البصرة فلما كانوا بفنائها لقيهم عمير بن عبد الله التميمي وأشار بأن يتقدم عبد الله بن عامر إليهم فأرسلته عائشة وكتبت معه إلى رجال من البصرة: إلى الأحنف بن قيس وسمرة وأمثالهم، وأقامت بالحفيين تنتظر

الجواب.

ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن حصين وكان رجلاً عامة، وأبا الأسود الدؤلي وكان رجلاً خاصة، وقال: انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها. فجاءاها بالحفير وقالا: إن أميرنا بعثنا نسألك عن مسيرك؟ فقالت: إن الغوغاء ونزاع القبائل فعلوا ما فعلوا فخرجت في المسلمين أعلمهم بذلك وبالذي فيه الناس وراءنا وما ينبغي من إصلاح هذا الأمر... ثم قرأت ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ الآية.

ثم عدلا عنها إلى طلحة فقالا: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان! فقالا: ألم تبايع علياً؟ قال: بلى والسيف على رأسي وما أستقبل على البيعة إن هو لم يخل بيننا وبين قتلة عثمان. وقال لهما الزبير مثل ذلك، ورجعا إلى عثمان بن حنيف فاسترجع وقال: دارت رحى الإسلام ورب الكعبة، ثم قال: أشيروا عليّ! فقال عمران: اعتزل. قال: بل امنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين. فجاءه هشام بن عامر فأشار عليه بالمسالمة والمسامحة حتى يأتي أمر علي، فأبى ونادى في الناس بلبس السلاح ثم دس من يتكلم في الجمع ليرى ما عندهم، فقال رجل: إن هؤلاء القوم إن كانوا جاؤوا خائفين فبلدهم يأمن فيه الطير وإن جاؤوا لدم عثمان فما نحن بقتلته فأطيعوني وردوهم من حيث جاؤوا.

فقال الأسود بن سريع السعدي: إنما جاؤوا يستعينون بنا على قتلته منا ومن غيرنا. فحصبه الناس فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً وكسر ذلك كله.

وانتهت عائشة ومن معها إلى المربد، وخرج إليها عثمان فيمن معه وحضر أهل البصرة، فتكلم طلحة من الميمنة: فحمد الله وذكر عثمان وفضله ودعا إلى الطلب بدمه وحثّ عليه، وكذلك الزبير فصدقهما أهل الميمنة. وقال أصحاب عثمان من الميسرة: بايعتم علياً ثم جئتم تقولون. ثم تكلمت عائشة وقالت: كان الناس يتجنّون على عثمان ويأتوننا بالمدينة فنجدهم فجرة ونجده براً تقيا وهم يحاولون غير ما يظهرون، ثم كثروا واقتحموا عليه داره وقتلوه واستحلوا المحرمات بلا ترة ولا عذر، الا وأن ما ينبغي لكم ولا ينبغي غيره أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله ثم قرأت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

فاختلف أصحاب عثمان عليه وقال بعضهم إلى عائشة، ثم افترق الناس وتحاصبوا وانحدرت عائشة إلى المربد، وجاءها جارية بن قدامة السعدي فقال: يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكتِ سترك وأبحت حرمتك وإن من رأى قتالك يرى قتلك فإن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك وإن كنت مكرهة فاستعيني بالله وبالناس على الرجوع. وأقبل حكيم بن جبلة وهو على ظهر الخيل فأنشب القتال، وأشرع أصحاب عائشة رماحهم فاقتتلوا على فم السكة، وحجز الليل بينهم وباتوا يتأهبون وعاداهم حكيم بن جبلة فاعترضه رجل من عبد القيس فقتله حكيم، ثم قتل امرأة أخرى، واقتتلوا إلى أن زال النهار. وكثر القتل في أصحاب عثمان بن حنيف ولما عفتهم الحرب تنادوا إلى الصلح وتواعدوا على أن يبعثوا إلى المدينة فإن كان طلحة والزبير أكرها سلم لهم عثمان الأمر وإلا رجعا عنه.

وسار كعب بن سوار القاضي إلى أهل المدينة يسألهم عن ذلك، فجاءهم يوم جمعة وسألهم فلم يجبه إلا أسامة بن زيد فإنه قال: بايعا مكرهين. فضربه الناس حتى كاد يقتل. ثم خلصه صهيب وأبو أيوب ومحمد بن مسلمة إلى منزله، ورجع كعب وبلغ الخبر بذلك إلى علي، فكتب إلى عثمان بن حنيف يعجزه ويقول: والله ما أكره على فرقة ولقد أكره على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظروا.

ولما جاء كعب بقول أهل المدينة بعث طلحة والزبير إلى عثمان ليجتمع بهما، فامتنعا واحتج بالكتاب وقال: هذا غير ما كنا فيه. فجمع طلحة والزبير الناس وجاءا إلى المسجد بعد صلاة العشاء في ليلة ظلماء شاتية، وتقدم عبد الرحمن بن عتاب في الوحل فوضع السلاح في الجابية من الزط والسابجة وهم أربعون رجلاً فقاتلوهم وقتلوا عن آخرهم، واقتحموا على عثمان فأخرجوه إلى طلحة والزبير وقد نتفوا شعر وجهه كله، وبعثا إلى عائشة بالخبر فقالت: خلوا سبيله، وقيل أمرت بإخراجه وضربه، وكان الذي تولى إخراجه وضربه مجاشع بن مسعود. وقيل أن الاتفاق إنما وقع بينهم على أن يكتبوا إلى علي فكتبوا إليه وأقام عثمان يصلي فاستقبلوه ووثبوا عليه فظفروا به وأرادوا قتله، ثم استبقوه من أجل الأنصار وضربوه وحبسوه.

ثم خطب طلحة والزبير وقالا: يا أهل البصرة! توبة بحوبة إنما أردنا أن نستعتب عثمان فغلب السفهاء فقتلوه. فقالوا لطلحة: قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا! قال الزبير: أما أنا فلم أكاتبهم، وأخذ يرمي علياً بقتل عثمان فقال رجل من عبد القيس: يا معشر المهاجرين أنتم أول من أجاب داعي الإسلام وكان لكم بذلك الفضل، ثم استخلفتم مراراً ولم تشاورونا، وقتلتم كذلك، ثم

بايعتم علياً وجئتم تستعدوننا عليه فماذا الذي نقمتم عليه؟ فهموا بقتله ومنعته عشيرته، ثم وثبوا من الغد على عثمان ومن معه فقتلوا منهم سبعين.

وبلغ حكيم بن جبلة ما فعل بعثمان بن حنيف فجاء لنصره في جماعة من عبد القيس، فوجد عبد الله بن الزبير فقال له: ما شأنك؟ قال: تخلوا عن عثمان وتقيمون على ما كنتم حتى يقدم علي ولقد استحللتم الدم الحرام تزعمون الطلب بثأر عثمان وهم لم يقتلوه. ثم ناجزهم الحرب في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، وأقام حكيم أربعة قواد فكان هو بحيال طلحة، وذريح بحيال الزبير، وابن المحرش بحيال عبد الرحمن بن عتاب، وحرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن بن الحرث بن هشام. وتزاحفوا واستحرّ القتل فيهم حتى قتل كثير منهم وقتل حكيم وذريح، وأفلت حرقوص في فل من أصحابه إلى قومهم بني سعد، وتتبعوهم بالقتل وطالبوا بني سعد بحرقوص وكانوا عثمانية، فاعتزلوا وغضبت عبد القيس كلهم والكثير من بكر بن وائل، وأمر طلحة والزبير بالعطاء في أهل الطاعة لهما، وقصدت عبد القيس وبكر بيت المال فقاتلوهم ومنعوهم، وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة بالخبر وأمرتهم أن يثبطوا الناس عن علي وأن يقوموا بدم عثمان، وكتبت بمثل ذلك إلى اليمامة والمدينة.

ولنرجع إلى خبر علي: وقد كان لما بلغه خبر طلحة والزبير وعائشة ومسيرهم إلى البصرة دعا أهل المدينة للنصرة وخطبهم، فتثاقلوا أولاً وأجابه زياد بن حنظلة وأبو الهيثم وخزيمة بن ثابت وليس بذي الشهادتين وأبو قتادة في آخرين، وبعثت أم سلمة معه ابن عمها وخرج يسابق طلحة والزبير إلى البصرة ليردهما.

واستخلف على المدينة تمام بن العباس وقيل: سهل بن حنيف، وعلى مكة قثم بن العباس، وسار في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، وسار معه من نشط من الكوفيين والمصريين متخففين في تسعمائة، ولقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال يا أمير المؤمنين لا تخرج منها فوالله إن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً. فبدر الناس إليه، فقال: دعوه فنعم الرجل من أصحاب محمد ﷺ. وسار فانتهى إلى الربذة، وجاء خبر سبقهم إلى البصرة فأقام يأمر بما يفعل ولحقه ابنه الحسن وعذله في خروجه وما كان من عصيانه إياه، فقال: ما الذي عصيتك فيه حين أمرتني؟ قال: أمرتك أن تخرج عند حصار عثمان من المدينة ولا تحضر لقتله، ثم عند قتله ألاّ تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة الأمصار، ثم عند خروج هؤلاء أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا.

فقال: أما الخروج من المدينة فلم يكن إليه سبيل وقد كان أحيط بنا كما أحيط بعثمان، وأما البيعة فخفنا ضياع الأمر والحل والعقد لأهل المدينة لا للعرب ولا للأمصار ولقد مات رسول الله ﷺ وأنا أحق بالأمر بعده فبايع الناس غيري واتبعتهم في أبي بكر وعمر وعثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين، فأنا أقاتل من خالف بمن أطاع إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين، وأما القعود عن طلحة والزبير فإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر فمن ينظر فيه؟ ثم أرسل إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر يستنفران الناس، وأقام بالربذة يحرّض الناس وأرسل إلى المدينة في أداته وسلاحه، وقال له بعض أصحابه: عرّفنا بقصدك من القوم؟ قال: الإصلاح إن قبلوا وإن بادرونا امتنعنا.

ثم جاءه جماعة من طيء نافرين معه فقبلهم وأثنى عليهم. ثم سار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمرو بن الجراح، ولما انتهى إلى فيد أتته أسد وطيء وعرضوا عليه النفير معه، فقال: الزموا قراركم ففي المهاجرين كفاية. ولقيه هنالك رجل من أهل الكوفة من بني شيبان فسأله عن أبي موسى، فقال: إن أردت الصلح فهو صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه. فقال: والله ما أريد إلا الصلح حتى يرد علينا. ثم انتهى إلى الثعلبية والأساد، فبلغه ما لقي عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة، ثم جاءه بذي قار عثمان بن حنيف وأراه ما بوجهه، فقال: أصبت أجراً وخيراً إن الناس وليهم قبلي رجلان فعملا بالكتاب ثم ثالث فقالوا وفعلوا ثم بايعوني ومنهم طلحة والزبير ثم نكثا وألبّا عليّ. ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما علي! والله إنهما ليعلمان أني لست دونهم. ثم أخذ في الدعاء عليهما وابن وائل هنالك يعرضون عليه النفير فأجابهم مثل طيء وأسد.

وبلغه خروج عبد القيس على طلحة والزبير فأثنى عليهم. وأما محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فبلغا إلى الكوفة ودفعا إلى أبي موسى كتاب علي وقاما في الناس بأمره فلم يجبهما أحد وشاوروا أبا موسى في الخروج إلى علي، فقال: الخروج سبيل الدنيا والقعود سبيل الآخرة فقعدوا كلهم. وغضب محمد ومحمد وأغلظا لأبي موسى، فقال لهما: والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق علي وإن كان لا بد من القتال فحتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا، فرجعا إلى علي بالخبر وهو بذي قار، فرجع علي باللائمة على الأشتر، وقال: أنت صاحبنا في أبي موسى فاذهب أنت وابن العباس وأصلح ما أفسدت.

فقدما على أبي موسى وكلماه واستعانا عليه بالناس لم يجب إلى شيء ولم ير إلا القعود حتى تنجلي الفتنة ويلتئم الناس، فرجع

ابن عباس والأشتر إلى علي فأرسل علي ابنه الحسن وعمار بن ياسر وقال لعمار: انطلق فأصلح ما أفسدت. فانطلقا حتى دخلا المسجد، وخرج أبو موسى فلقي الحسن بن علي فضمه إليه وقال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا وأحللت نفسك مع الفجار؟ فقال: لم أفعل! فأقبل الحسن على أبي موسى فقال: لم تثبط الناس عنا وما أردنا إلا الإصلاح؟ ومثل أمير المؤمنين لا يخاف على شيء! قال: صدقت! بأبي أنت وأمي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب والمسلمون إخوان ودماؤهم وأموالهم حرام» فغضب عمار وسبه فسبه آخر وتثاور الناس، ثم كفهم أبو موسى. وجاء زيد بن صوحان بكتاب عائشة إليه وكتابها إلى أهل الكوفة فقرأهما على الناس في سبيل الإنكار عليها فسبه شبث بن ربعي، وتهاوى الناس وأبو موسى يكفهم ويأمرهم بلزوم البيوت حتى تنجلي الفتنة، ويقول: أطيعوني وخلوا قريشاً إذ أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم حتى ينجلي الأمر. وناداه زيد بن صوحان بإجابة علي والقيام بنصرته وتابعه القعقاع بن عمرو فقام بعده فقال: لا سبيل إلى الفوضى وهذا أمير المؤمنين مليء بما ولي وقد دعاكم فانفروا، وقال عبد خير مثل ذلك وزاد: يا أبا موسى هل تعلم أن طلحة والزبير بايعا؟ قال: نعم! قال: فهل أحدث علي ما ينقض البيعة؟ قال: لا أدري قالا: لا دريت ونحن نتركك حتى تدري. ثم قال سيحان بن صوحان مثلما قال القعقاع، وحرض على طاعة علي وقال: فإنه دعاكم تنظرون ما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الأمة الفقيه في الدين فقال عمار: وهو دعاكم إلى ذلك لتنظروا في الحق وتقاتلوا معه لا عليه، وقال الحسن: أجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم وإن أمير المؤمنين يقول: إن كنت مظلوماً أطيعوني أو ظالماً فخذوا مني بالحق. والله إن طلحة والزبير أول من بايعني وأول من غدر. فأجاب الناس، وحرض عدي بن حاتم قومه وحجر بن عدي كذلك فنفر مع الحسن من الكوفة تسعة آلاف سارت منها ستة في البر وباقيهم في الماء.

وأرسل علي بعد مسير الحسن وعمار الأشتر إلى الكوفة فدخلها والناس في المسجد وأبو موسى والحسن وعمار في منازعة معه ومع الناس، فجعل الأشتر يمر بالقبائل ويدعوهم إلى القصر حتى انتهى إليه في جماعة الناس فدخله وأبو موسى بالمسجد يخطبهم ويثبطهم والحسن يقول له: اعتزل عملنا واترك منبرنا، فدخل الأشتر إلى القصر وأمر بإخراج غلمان أبي موسى من القصر، وجاءه أبو موسى فصاح به الأشتر: اخرج لا أم لك وأجله تلك العشية. ودخل الناس لينهبوا متاعه فمنعهم الأشتر، ونفر الناس مع الحسن كما قلنا وكان الأمراء على أهل النفير: على كنانة وأسد وتميم والرباب ومزينة معقل بن يسار الرياحي، وعلى قبائل قيس ابن مسعود الثقفي عم المختار وعلى بكر وتغلب وعلة بن مجدوح الذهلي، وعلى مذحج والأشعريين حجر بن عدي، وعلى بجيلة وأنمار وخثعم والأزد مخنف بن سليم الأزدي.

ورؤساء الجماعة من الكوفيين القعقاع بن عمرو وسعد بن مالك وهند بن عمرو والهيثم بن شهاب، ورؤساء النفار زيد بن صوحان والأشتر وعدي بن حاتم والمسيب بن نجبة ويزيد بن قيس وأمثالهم. فقدموا على عليّ بذي قار، فركب إليهم ورحب بهم وقال: يا أهل الكوفة دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فهو الذي نريد وإن يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأونا بالظلم ولا ندع أمراً فيه الصلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله.

فاجتمع الناس عنده بذي قار وعبد القيس بأسرها وهم ألوف ينتظرونه ما بينه وبين البصرة، ثم دعا القعقاع وكان من الصحابة فأرسله إلى أهل البصرة وقال: إلق هذين الرجلين فادعهما للألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة فقال له: كيف تصنع إذا قالوا ما لا وصاة مني فيه عندك؟ قال: نلقاهم بالذي أمرت به فإذا جاء منهم ما ليس عندنا منك رأي فيه اجتهدنا رأينا وكلمناهم كما نسمع ونرى إنه ينبغي، قال: أنت لها.

فخرج القعقاع فقدم البصرة وبدأ بعائشة فقال: أي أمة ما أشخصك؟ قالت: أريد الإصلاح بين الناس، قال: فابعثي إلى طلحة والزبير تسمعي مني ومنهما، فبعثت إليهما فجاءا فقال لهما: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح وكذلك قالا. قال فأخبراني ما هو؟ قال: قتلة عثمان! فإن تركهم ترك للقرآن، قال: فقد قتلت منهم ستمائة من أهل البصرة وغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعته ستة آلاف فإن قاتلتم هؤلاء كلهم اجتمعت مضر وربيعة على حربكم فأين الإصلاح؟ قالت عائشة: فماذا تقول أنت؟ قال هذا الأمر دواؤه التسكين وإذا سكن اختلجوا فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح خير ولا تعرضونا للبلاء فنتعرض له ويصرعنا وإياكم، فقالوا قد أصبت وأحسنت فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر، فرجع وأخبر علياً فأعجبه وأشرف القوم على الصلح. وقد كانت وفود أهل البصرة أقبلوا إلى علي قبل رجوع القعقاع

وتفاوضوا مع أهل الكوفة واتفقوا جميعاً على الإصلاح، ثم خطب علي الناس وأمرهم بالرحيل من الغد وأن لا يرجع معه أحد ممن أعان على عثمان.

فاجتمع من أهل مصر ابن السوداء وخالد بن ملجم والأشتر والذين رضوا بمن سار إليه مثل علباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وسالم بن ثعلبة القيسي وشريح بن أوفى، وتشاوروا فيما قال علي وقالوا: هو أبصر بكتاب الله وأقرب إلى العمل به من أولئك وهو يقول ما يقول، وإنما معه الذين أعانوا على عثمان فكيف إذا اصطلحوا واجتمعوا ورأوا قلتنا في كثرتهم. فقال الأشتر رأيهم والله فينا واحد وإن يصطلحوا فعلى دمائنا فهلموا نثب على طلحة نلحقه بعثمان ثم يرضى منا بالسكوت، فقال ابن السوداء: طلحة وأصحابه نحو من خمسة آلاف وأنتم ألفان وخمسمائة فلا تجدون إلى ذلك سبيلاً.

وقال علباء بن الهيثم: اعتزلوا الفريقين حتى يأتيكم من تقومون به. فقال ابن السوداء: ودّ والله الناس لو انفردتم فيتخطفونكم، فقال عدي: والله ما رضيت ولا كرهت فأما إذا وقع ما وقع ونزل الناس بهذه المنزلة فإن لنا خيلاً وسلاحاً. فإن أقدمتم أقدمنا وإن أحجمتم أحجمنا، ثم قال سالم بن ثعلبة وسويد بن أوفى: أبرموا أمركم. ثم تكلم ابن السوداء فقال: يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال فلا يجدون بداً منه ويشغلهم الله عما تكرهون.

وافترقوا على ذلك. وأصبح علي راحلاً حتى نزل على عبد القيس فانضموا إليه وساروا معه فنزل الزاوية، وسار من الزاوية إلى البصرة. وسار طلحة والزبير وعائشة من الفرضة والتقوا بموضع قصر عبيد الله بن زياد منتصف جمادى الآخرة، وتراسلت بكر بن وائل وعبد القيس وجاؤوا إلى علي رضي الله تعالى عنه فكانوا معه، وأشار على الزبير بعض أصحابه أن يناجز القتال، فاعتذر بما وقع بينه وبين القعقاع.

وطلب من علي رضي الله عنه أصحابه مثل ذلك فأبى وسئل ما حالنا وحالهم في القتلى فقال: أرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقي قلبه لله إلا أدخله الله الجنة. ونهى عن قتالهم وبعث إليهم حكيم بن سلام ومالك بن حبيب إن كنتم على ما جاء به القعقاع فكفوا حتى ننزل وننظر في الأمر، وجاءه الأحنف بن قيس وكان معتزلاً عن القوم وقد كان بايع علياً بالمدينة بعد قتل عثمان مرجعه من الحج، قال الأحنف: ولم أبايعه حتى لقيت طلحة والزبير وعائشة بالمدينة وعثمان محصور وعلمت أنه مقتول فقلت لهم: من أبايع بعده؟ قالوا: علياً! فلما رجعت وقد قتل عثمان بايعت علياً فلما جاؤوا إلى البصرة دعوني إلى قتال علي فحرت في أمري ما بين خذلانهم أو خلع طاعتي، فقلت: ألم تأمروني بمبايعته؟ قالوا نعم لكنه بدّل وغيّر فقلت: لا أنقض بيعتي ولا أقاتل أم المؤمنين، ولكن أعتزل، ونزل بالجلحاء على فرسخين من البصرة في زهاء ستة آلاف.

فلما قدم علي جاءه وخيره بين القتال معه أو كف عشرة آلاف سيف عنه، فاختار الكف ونادى في تميم وبني سعد فأجابوه فاعتزل بهم حتى ظفر علي فرجع إليه واتبعه. ولما تراءى الجمعان خرج طلحة والزبير وجاءهم علي حتى اختلفت أعناق دوابهم. فقال علي: لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذراً ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرّم دمكما فهل من حدث أحلّ لكما دمي؟ قال طلحة: ألّبت على عثمان! قال علي: يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة أما بايعتني؟ قال: والسيف على عنقي. ثم قال للزبير: أتذكر يوم قال لك رسول الله ﷺ: « لتقاتلنه وأنت له ظالم؟ » قال اللّهم نعم ولو ذكرته قبل مسيري ما سرت. والله لا أقاتلك أبداً وافترقوا.

فقال علي لأصحابه: أن الزبير قد عهد أن لا يقاتلكم. ورجع الزبير إلى عائشة وقال: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف أمري غير موطني هذا قالت: فما تريد أن تصنع؟ قال: ادعهم وأذهب. فقال له ابنه عبد الله: خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أن حامليها فتية أنجاد وإن تحتها الموت الأحمر فجبنت فأحفظه ذلك. وقال: حلفت. قال: كفّر عن يمينك فأعتق غلامه مكحولاً. وقيل: إنما أراد الرجوع عن القتال حين سمع أن عمار بن ياسر مع علي لما ورد: « ويح عمار تقتله الفئة الباغية ».

وكان أهل البصرة على ثلاث فرق مفترقين مع هؤلاء وهؤلاء وثالثة اعتزلت كالأحنف بن قيس وعمران بن حصين، ونزلت عائشة في الأزد ورأسهم صبرة بن شيمان، وأشار عليه كعب بن سور بالاعتزال فأبى وكان معها قبائل كثيرة من مضر والرباب وعليهم المنجاب بن راشد، وبنو عمرو بن تميم وعليهم أبو الجربا، وبنو حنظلة وعليهم هلال بن وكيع وسليم وعليهم مجاشع بن مسعود، وبنو عامر وغطفان وعليهم زفر بن الحرث، والأزد وعليهم صبرة بن شيمان، وبكر وعليهم مالك بن مسمع، وبنو ناجية وعليهم الخريت بن راشد، وهم في نحو ثلاثين ألفاً. وعلي في عشرين ألفاً. والناس جميعاً متنازلون: مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة، ولا يشكون في الصلح وقد ردّوا حكيماً ومالكاً إلى علي إنا على ما فارقنا عليه القعقاع، وجاء ابن عباس إلى

طلحة والزبير، ومحمد بن طلحة إلى علي وتقارب أمر الصلح وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة يتشاورون، واتفقوا على إنشاب الحرب بين الناس فغسلوا وما يشعر بهم أحد، وقصد مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة ويمن إلى يمن فوضعوا فيهم السلاح، وثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم. وبعث طلحة والزبير عبد الرحمن بن الحرث بن هشام إلى الميمنة وهم ربيعة، وعبد الرحمن بن عتاب إلى الميسرة، وركبا في القلب، وتساءل الناس ما هذا؟ فقالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلاً! فقال طلحة والزبير: إن علياً لا ينتهي حتى يسفك الدماء.

ثم دفعوا أولئك المقاتلين فسمع علي وأهل عسكره الصيحة، فقال: ما هذا؟ فقيل له أظنه سقط من هنا طرقنا أو نحوه السبئية بيّتونا ليلاً فرددناهم. فوجدنا القوم على أهبة فركبونا، وثار الناس وركب علي. وبعث إلى الميمنة والميسرة صاحبها، وقال: إن طلحة والزبير لا ينتهيان حتى تسفك الدماء ونادى في الناس كفوا، وكان رأيهم جميعاً في تلك الفتنة أن لا يقتتلوا حتى يقيموا الحجة ولا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يستحلوا سلباً.

وأقبل كعب بن سور إلى عائشة وقال: قد أبى القوم إلا القتال فلعل اللّه يصلح بك فاركبها وألبسوا هودجها الأدراع وأوقفوها بحيث تسمع الغوغاء، واقتتل الناس حتى انهزم أصحاب الجمل وذهب، وأصيب طلحة بسهم في رجله فدخل البصرة ودمه يسيل إلى أن مات.

وذهب الزبير إلى وادي السباع لما ذكره علي، فمر بعسكر الأحنف واتبعه عمرو بن جرموز وكان يسائله حتى قام إلى الصلاة قتله ورجع بفرسه وسلاحه وخاتمه إلى الأحنف فقال: واللّه ما تدري أحسنت أم أسأت! فجاء ابن جرموز إلى علي وقال للحاجب: استأذن لقاتل الزبير فقال لحاجبه ائذن له وبشره بالنار. ولما بلغت الهزيمة البصرة ورأوا الخيل أطافت بالجمل رجعوا وشبت الحرب كما كانت.

وقالت عائشة لكعب بن سور وناولته مصحفاً: تقدم فادعهم إليه واستقبل القوم فقتله السبئية رشقاً بالسهم، ورموا عائشة في هودجها حتى جأرت بالاستغاثة ثم بالدعاء على قتلة عثمان، وضج الناس بالدعاء فقال علي: ما هذا؟ قالوا عائشة تدعو على قتلة عثمان! فقال: اللّهم إلعن قتلة عثمان.

ثم أرسلت عائشة إلى الميمنة والميسرة وحرّضتهم! وتقدم مضر الكوفة ومضر البصرة فاجتلدوا أمام الجمل حتى ضرسوا، وقتل زيد بن صوحان من أهل الكوفة وأخوه سيحان وارتث أخوهما صعصعة.

وتزاحف الناس وتأخرت يمن الكوفة وربيعتها ثم عادوا فقتل على رايتهم عشرة. ثم أخذها يزيد بن قيس فثبت، وقتل تحت راية ابن ربيعة زيد وعبد اللّه بن رقية وأبو عبيدة بن راشد بن سلمة، واشتد الأمر ولزقت ميمنة الكوفة بقلبهم وميسرة أهل البصرة بقلبهم، ومنعت ميمنة هؤلاء ميسرة هؤلاء وميسرة هؤلاء ميمنة هؤلاء، وتنادى شجعان مضر من الجانبين بالصبر وقصدوا الأطراف يقطعونها، وأصيبت يد عبد الرحمن بن عتاب قبل قتله، وقاتل عند الجمل الأزد ثم بنو ضبة وبنو عدي بن عبد مناف، وكثر القتل والقطع وصارت المجنبات إلى القلب ومحمد بن طلحة أمامهم وحمل عدي بن زيد ففقئت عينه وحمل الأشتر واستمر القتال إلى الجمل حتى قتل على الخطام أربعون رجلاً أو سبعون كلهم من قريش.

فجرح عبد اللّه بن الزبير وقتل عبد الرحمن بن عتاب وجندب بن زهير العامري وعبد اللّه بن حكيم بن حزام ومعه راية قريش فقتله الأشتر وأعانه فيه عدي بن حاتم، وقتل الأسود بن أبي البختري وهو آخذ بالخطام وبعده عمر بن الأشرف الأزدي في ثلاثة عشر من أهل بيته وجرح مروان بن الحكم وعبد اللّه بن الزبير سبعاً وثلاثين جراحة ما بين طعنة ورمية، ونادى علي اعقروا الجمل يتفرقوا، وضربه رجل فسقط فما كان صوت أشد عجيجاً منه. وكانت راية الأزد من أهل الكوفة مع مخنف بن سليم فقتل فأخذها الصقعب أخوه فقتل ثم أخوهما عبد اللّه كذلك، فأخذها العلاء بن عروة فكان الفتح وهي بيده.

وكانت راية عبد القيس من أهل الكوفة مع القاسم بن سليم فقتل ومعه زيد وسيحان ابنا صوحان وأخذها عدة فقتلوا منهم عبد اللّه بن رقية ثم منقذ بن النعمان، ودفعها إلى ابنه مرة فكان الفتح وهي بيده. وكانت راية بكر بن وائل في بني ذهل مع الحرث بن حسان فقتل من بني أهله ورجال من بني مخزوم وخمسة وثلاثين من بني ذهل.

وقيل في عقر الجمل إن القعقاع دعا الأشتر وقد جاء من القتال عند الجمل إلى العود فلم يجبه، وحمل القعقاع والخطام بيد زفر بن الحرث فأصيب شيوخ من بني عامر، وقال القعقاع لبجير بن دلجة من بني ضبة وهو من أصحاب علي: يا بجير! صح بقومك يعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين، فضرب ساق البعير فوقع على شقه، وأمر القعقاع من يليه واجتمع هو وزفر على قطع بطان البعير وحملا الهودج فوضعاه وهو كالقنفذ بالسهام، ومر من وراءه، وأمر علي فنودي: لا تتبعوا مدبراً ولا

تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور، وأمر بحمل الهودج من بين القتلى، وأمر محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبة وأن ينظر هل بها جراحة وجاء يسألها.

وقيل: لما سقط الجمل أقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه عمار فاحتملا الهودج إلى ناحية ليس قربه أحد وأتاها علي فقال: كيف أنت يا أمة! قالت: بخير! قال: يغفر الله لك! قالت ولك. وجاء وجوه الناس إليها فيهم القعقاع بن عمرو فسلم عليها، وقالت له: وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وجاء إلى علي فقال له مثل قولها ولما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبي بكر الصديق البصرة، فأقرها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية زوجته بنت الحرث بن أبي طلحة من بني عبد الدار أم طلحة الطلحات بن عبد الله، وتسلل الجرحى من بين القتلى فدخلوا ليلاً إلى البصرة وأذن علي في دفن القتلى فدفنوا بعد أن طاف عليهم.

ورأى كعب بن سور وعبد الرحمن بن عتاب وطلحة بن عبيد الله وهو يقول: زعموا أنه يخرج إلينا إلا الغوغاء وأمثال هؤلاء فيهم. ثم صلى على القتلى من الجانبين وأمر بالأطراف فدفنت في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من كل شيء وبعث به إلى مسجد البصرة وقال: من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً عليه سمة السلطان. وأحصى القتلى من الجانبين فكانوا عشرة آلاف منهم من ضبة ألف رجل. ولما فرغ علي من الوقعة جاءه الأحنف بن قيس في بني سعد فقال له: تربصت! فقال: ما أراني إلا قد أحسنت وبأمرك كان، فارفق فإن طريقك بعيد وأنت إلي غداً أحوج منك أمس فلا تقل لي مثل هذا فإني لم أزل لك ناصحاً. ثم دخل البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة.

وأتاه عبد الرحمن بن أبي بكرة فبايعه وعرض له في عمه زياد بأنه متربص، فقال: والله إنه لمريض وعلى مسرتك لحريص. فقال: انهض أمامي فمضى فلما دخل عليه علي فتبعه فقبل عذره واعتذر بالمرض قبل عذره، وأراده على البصرة فامتنع وقال: ولها رجلاً من أهلك تسكن إليه الناس وسأشير عليه، وأشار بابن عباس فولاه، وجعل زياداً على الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس بموافقته فيما يراه. ثم راح علي إلى عائشة في دار ابن خلف وكان عبد الله بن خلف قتل في الوقعة فاستاءت أمه وبعض النسوة عليه، فأعرض عنهن وحرضه بعض أصحابه عليهن فقال: إن النساء ضعيفات وكنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات فكيف بهن مسلمات؟

ثم بلغه أن بعض الغوغاء عرض لعائشة بالقول والإساءة، فأمر من أحضر له بعضهم وأوجعهم ضرباً، ثم جهزها علي إلى المدينة بما احتاجت إليه وبعثها مع أخيها محمد مع أربعين من نسوة البصرة اختارهن لمرافقتها، وأذن للفل ممن خرج عنها أن يرجعوا معها، ثم جاء يوم ارتحالها فودعها واستعتبت له واستعتب لها، ومشى معها أميالاً وشيعها بنوه مسافة يوم، وذلك غرة رجب، فذهبت إلى مكة فقضت الحج ورجعت إلى المدينة. وخرج بنو أمية من الفل ناجين إلى الشام.

فعتبة بن أبي سفيان وعبد الرحمن ويحيى أخو مروان خلصوا إلى عصمة بن أبير التيمي إلى أن اندملت جراحهم، ثم بعثهم إلى الشام. وأما عبد الله بن عامر فخلص إلى بني حرقوص ومضى من هنالك، وأما مروان بن الحكم فأجاره أيضاً مالك بن مسمع وبعثه وقيل: كان مع عائشة فلما ذهبت إلى مكة فارقها إلى المدينة، وأما الزبير فاختفى بدار بعض الأزد وبعث إلى عائشة يعلمها بمكانه فأرسلت أخاها محمداً وجاء إليها به.

ثم قسم عليّ جميع ما في بيت المال على من شهد معه، وكان يزيد على ستمائة ألف فأصاب كل رجل خمسمائة، وقال: إن أظفركم الله بالشام فلكم مثلها إلى أعطياتكم. فخاض السبئية في الطعن عليه بذلك وبتحريم أموالهم مع إراقة دمائهم، ورحلوا عنه فأعجلوه عن المقام بالبصرة، وارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمراً إن أرادوه.

وقد قيل في سياق أمر الجمل غير هذا، وهو أن علياً لما أرسل محمد بن أبي بكر إلى أبي موسى ليستنفر له أهل الكوفة وامتنع، سار هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى علي بالربذة فأخبره فأعاده إليه يقول له: إني لم أولك إلا لتكون من أعواني على الحق، فامتنع أبو موسى وكتب إليه هاشم مع المحل بن خليفة الطائي، فبعث علي ابنه الحسن وعمار بن ياسر يستنفران كما مر.

وبعث قرظة بن كعب الأنصاري أميراً وبعث إليه: إني قد بعثت الحسن وعماراً يستنفران الناس وبعثت قرظة بن كعب والياً على الكوفة فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً وإن لم تفعل فقد أمرته أن ينابذك وإن ظفر بك أن يقطعك إرباً إرباً وإن الناس تواقفوا للقتال، وأمر علي من يتقدم بالمصحف يدعوهم إلى ما فيه وإن قطع وقتل وحمله بعض الناس وفعل ذلك فقتل. وحملت ميمنة علي على ميسرتهم فاقتتلوا ولاذ الناس بجمل عائشة أكثرهم من ضبة والأزد ثم انهزموا آخر النهار، واستحر في الأزد القتل وحمل عمار على الزبير يحوزه بالرمح ثم استلان له وتركه.

وألقى عبد اللّه بن الزبير نفسه في الجرحى. وعقر الجمل واحتمل عائشة أخوها محمد فأنزلها وضرب عليها قبة ووقف عليها علي يعاتبها، فقالت له: ملكت فاسجح نعم ما أبكيت قومك اليوم، فسرحها في جماعة رجال ونساء إلى المدينة وجهزها بما تحتاج إليه.

هذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدناه للوثوق به ولسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين. وقتل يوم الجمل عبد الرحمن أخو طلحة من الصحابة والمحرز بن حارثة العبشمي وكان عمر ولاه على مكة، ومجاشع ومجالد ابنا مسعود مع عائشة. وعبد اللّه بن حكيم بن حزام وهند بن أبي هالة وهو ابن خديجة قتل مع علي وقيل بالبصرة وغيرهم. انتهى أمر الجمل.

ولما فرغ الناس من هذه الوقعة اجتمع صعاليك من العرب وعليهم جبلة بن عتاب الحنظلي وعمران بن الفضل البرجمي، وقصدوا سجستان وقد نكث أهلها، وبعث علي إليهم عبد الرحمن بن جرو الطائي فقتلوه، فكتب إلى عبد اللّه بن عباس أن يبعث إلى سجستان والياً، فبعث ربعي بن كاس العنبري في أربعة آلاف ومعه الحصين بن أبي الحر فقتل جبلة وانهزموا وضبط ربعي البلاد واستقامت.

انتفاض محمد بن أبي حذيفة بمصر ومقتله

لما قتل حذيفة بن عتبة يوم اليمامة ترك ابنه محمداً في كفالة عثمان وأحسن تربيته وسكر في بعض الأيام فجلده عثمان ثم تنسّك وأقبل على العبادة وطلب الولاية من عثمان، فقال: لست لها بأهل فاستأذنه على اللحاق بمصر لغزو البحر فأذن له وجهزه ولزمه الناس وعظموه لما رأوا من عبادته، ثم غزا مع ابن أبي سرح غزوة الصواري كما مر، فكان يتعرض له بالقدح فيه وفي عثمان وبتوليته ويجتمع في ذلك مع محمد بن أبي بكر، وشكاهما ابن أبي سرح إلى عثمان فكتب إليه بالتجافي عنهما لوسيلة ذاك بعائشة وهذا لتربيته.

وبعث إلى ابن أبي حذيفة ثلاثين ألف درهم وحمل من الكسوة فوضعهما ابن أبي حذيفة في المسجد، وقال: يا معشر المسلمين كيف أخادع عن ديني وآخذ الرشوة عليه، فازداد أهل مصر تعظيماً له وطعناً على عثمان وبايعوه على رياستهم، وكتب إليه عثمان يذكره بحقوقه عليه فلم يرده ذلك. وما زال يحرض الناس عليه حتى خرجوا لحصاره وأقام هو بمصر، وخرج ابن أبي سرح إلى عثمان فاستولى هو على مصر وضبطها إلى أن قتل عثمان وبويع علي وبايع عمرو بن العاص لمعاوية، وسار إلى مصر قبل قدوم قيس بن سعد فمنعهما فخدع محمد حتى خرج إلى العريش فتحصن بها في ألف رجل، فحاصره حتى نزل على حكمهم فقتلوه. وفي هذا الخبر بعض الوهن لأن الصحيح أن عمراً ملك مصر بعد صفين، وقيس ولاّه علي لأول بيعته، وقد قيل: إن ابن أبي حذيفة لما حوصر عثمان بالمدينة أخرج هو ابن أبي سرح عن مصر وضبطها، وأقام ابن أبي سرح بفلسطين حتى جاء الخبر بقتل عثمان وبيعة علي وتوليته قيس بن سعد على مصر.

فأقام بمعاوية. وقيل أن عمراً سار إلى مصر بعد صفين فبرز إليه ابن أبي حذيفة في العساكر وخادعه في الرجوع إلى بيعة علي، وأن يجتمعا لذلك بالعريش في غير جيش من الجنود، ورجع إلى معاوية عمرو فأخبره، ثم جاء إلى ميعاده بالعريش وقد استعد بالجنود وأكمنهم خلفه حتى إذا التقيا طلعوا على أثره فتبين ابن أبي حذيفة الغدر فتحصن بقصر العريش إلى أن نزل على حكم عمرو. وبعث به إلى معاوية فحبسه إلى أن فرّ من محبسه فقتل، وقيل: إنما بعثه عمرو إلى معاوية عند مقتل محمد بن أبي بكر وإنه أمنه ثم حمله إلى معاوية فحبسه بفلسطين.

ولاية قيس بن سعد على مصر

كان علي قد بعث إلى مصر لأول بيعته قيس بن سعد أميراً في صفر من سنة ست وثلاثين وأذن له في الإكثار من الجنود وأوصاه وقال له: لو كنت لا أدخلها إلا بجند آتي بهم من المدينة فلا أدخلها أبداً فأنا أدعو لك الجند تبعثهم في وجوهك، وخرج في سبعة من أصحابه حتى أتى مصر وقرأ عليهم كتاب علي بمبايعته وطاعته وإنه أميرهم، ثم خطب فقال بعد حمد اللّه: أيها الناس قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فبايعوه على كتاب اللّه وسنة رسوله. فبايعه الناس واستقامت مصر، وبعث عليها عماله إلا بعض القرى كان فيها قوم يدعون إلى الطلب بدم عثمان: مثل يزيد بن الحرث ومسلمة بن مخلد، فهادنهم وجبى الخراج وانقضى أمر الجمل وهو بمصر.

وخشي معاوية أن يسير إليه علي في أهل العراق وقيس من ورائه في أهل مصر فكتب إليه يعظم قتل عثمان ويطوّقه علياً ويحضه على البراءة من ذلك ومتابعته على أمره على أن يوليه العراقين إذا ظفر ولا يعزله، يولي من أراد من أهله الحجاز كذلك، ويعطيه ما شاء من الأموال. فنظر في أهله بين موافقته أو معاجلته

بالحرب فآثر الموافقة، فكتب إليه: أما بعد فإني لم أقارف شيئاً مما ذكرته وما اطلعت لصاحبي على شيء منه. وأما متابعتك فانظر فيها وليس هذا مما يسرع إليه، وأنا كافٍ عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه حتى نرى وترى.

فكتب إليه معاوية: إني لم أرك تدنو فأعدك سلماً ولا تتباعد فأعدك حرباً، وليس مثلي يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعي عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام.

فعلم قيس أن المدافعة لا تنفع معه فأظهر له ما في نفسه، وكتب إليه بالرد القبيح والشتم والتصريح بفضل علي والوعيد، فحينئذ أيس معاوية منه وكاده من قبل علي، فأشاع في الناس أن قيساً شيعة له تأتينا كتبه ورسله ونصائحه وقد ترون ما فعل بإخوانكم القائمين بثأر عثمان وهو يجري عليهم من الأعطية والأرزاق، فأبلغ ذلك إلى علي محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وعيونه بالشام فأعظم ذلك، وفاوض فيه الحسن والحسين وعبد اللّه بن جعفر، فقال له عبد اللّه: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك واعزله عن مصر. ثم جاء كتابه بالكف عن قتال المعتزلين فقال ابن جعفر: مره بقتالهم خشية أن تكون هذه ممالأة. فكتب إليه يأمره بذلك فلم ير قيس ذلك رأياً وقال: متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون والرأي تركهم. فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين! ابعث محمد بن أبي بكر على مصر، وكان أخاه لأمه، واعزل قيساً فبعثه. وقيل بعث قبله الأشتر النخعي، ومات بالطريق، فبعث محمداً ولما قدم محمد على قيس خرج عنها مغضباً إلى المدينة وكان عليها مروان بن الحكم فأخافه، فخرج هو وسهل بن حنيف إلى علي. وكتب معاوية إلى مروان يعاتبه لو امددت علياً بمئة ألف مقاتل كان أيسر عليّ من قيس بن سعد.

ولما قدم قيس على علي وكشف له عن وجه الخبر قبل عذره وأطاعه في أمره كله، وقدم محمد مصر فقرأ كتاب علي على الناس وخطبهم، ثم بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كان قيس وادعهم: ادخلوا في طاعتنا أو اخرجوا عن بلادنا! فقالوا: دعنا حتى ننظر! وأخذوا حذرهم، ولما انقضت صفين وصار الأمر إلى التحكيم بارزوه وبعث العساكر إلى يزيد بن الحرث الكناني بخربتا وعليهم الحرث بن جهمان فقتلوه ثم بعث آخر فقتلوه.

مبايعة عمرو بن العاص لمعاوية

لما أحيط بعثمان خرج عمرو بن العاص إلى فلسطين ومعه ابناه عبد اللّه ومحمد، فسكن بها هارباً مما توقعه من قتل عثمان إلى أن بلغه الخبر بقتله، فارتحل يبكي ويقول كما تقول النساء، حتى أتى دمشق فبلغه بيعة علي، فاشتد عليه الأمر وأقام ينتظر ما يصنعه الناس، ثم بلغه مسير عائشة وطلحة والزبير فأمل فرجاً من أمره، ثم جاءه الخبر بوقعة الجمل فارتاب في أمره، وسمع أن معاوية بالشام لا يبايع علياً وأنه يعظم قتل عثمان، فاستشار بنيه في المسير إليه، فقال له ابنه عبد اللّه: توفي النبي ﷺ والشيخان بعده وهم راضون عنك فارى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس. وقال له محمد: أنت ناب من أنياب العرب وكيف يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صيت؟ فقال: يا عبد اللّه! أمرتني بما هو خير لي في ديني، ويا محمد! أمرتني بما هو خير لي في دنياي وشر لي في آخرتي. ثم خرج ومعه ابناه حتى قدم على معاوية فوجدوهم يطلبون دم عثمان، فقال: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم. فأعرض معاوية قليلاً، ثم رجع إليه وشركه في سلطانه.

أمر صفين

لما رجع علي بعد وقعة الجمل إلى الكوفة مجمعاً على قصد الشام، بعث إلى جرير بن عبد اللّه البجلي بهمدان وإلى الأشعث بن قيس بأذربيجان ـ وهما من عمّال عثمان ـ لأن يأخذا له البيعة ويحضرا عنده، فلما حضرا بعث جرير إلى معاوية يعلمه ببيعته ونكث طلحة والزبير وحزبهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلما قدم عليه طاوله في الجواب وحمل أهل الشام ليرى جرير قيامهم في دم عثمان واتهامهم علياً به، وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان ملوثاً بالدم كما قدمناه وبأصابع زوجته نائلة، وضع معاوية القميص على المنبر والأصابع من فوقه، فمكث الناس يبكون مدة وأقسموا أن لا يمسهم ماء الجنابة ولا يناموا على فراش حتى يثأروا من عثمان ومن حال دون ذلك قتلوه. فرجع جرير بذلك إلى علي وعذله الأشتر فبعث جرير وإنه طال مقامه حتى تمكن أهل الشام من رأيهم فغضب لذلك جرير ولحق بقرقيسيا واستقدمه معاوية فقدم عليه.

وقيل إن شرحبيل بن الصمت الكندي أشار على معاوية برد جرير لمنافسة كانت بينهما منذ أيام عمر، وذلك أن شرحبيل كان عمر بن الخطاب بعثه إلى سعد بالعراق ليكون معه فقربه سعد وقدمه ونافسه له أشعث بن قيس، فأوصى جريراً عند وفادته على عمر أن ينال من شرحبيل عنده، ففعل فبعث عمر شرحبيل إلى الشام فكان يحقد ذلك على جرير، فلما جاء إلى معاوية أغراه

شرحبيل به وحمله على الطلب بدم عثمان. ثم خرج علي وعسكر بالنخيلة واستخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري وقدم عليه عبد اللّه بن عباس في أهل البصرة، وتجهز معاوية وأغراه عمرو بقلة عسكر علي واضطغان أهل البصرة، له بمن قتل منهم.

وعبّى معاوية أهل الشام وعقد لعمرو ولابنيه وغلامه وردان الألوية. وبعث علي في مقدمته زياد بن النضر الحارثي في ثمانية آلاف وشريح بن هانئ في أربعة آلاف، وسار من النخيلة إلى المدائن واستنفر من كان بها من المقاتلة وبعث منها معقل بن قيس في ثلاثة آلاف يسير من الموصل ويوافيه بالرقة وولى علي على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبي عبيد، وسار فلما وصل إلى الرقة نصب له جسر فعبر وجاء زياد وشريح من ورائه، وكانا سمعا بمسير معاوية وخشيا أن يلقاهما معاوية وبينهما وبين علي البحر ورجعا إلى هيت وعبرا الفرات، ولحقا بعلي فقدمهما أمامه.

فلما أتيا إلى سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي في جند من أهل الشام فطاولاه وبعثا إلى علي فسرح الأشتر وأمره أن يجعلهما على مجنبتيه، وقال: لا تقاتلهم حتى آتيك! وكتب إلى شريح وزياد بطاعته فقدم عليهما وكف عن القتال سائر يومه حتى حمل عليهم أبو الأعور بالعشي فاقتتلوا ساعة وافترقوا ثم خرج من الغداة وخرج إليه من أصحاب الأشتر بن عتبة المرقال واقتتلوا عامة يومهم. وبعث الأشتر سنان بن مالك النخعي إلى أبي الأعور السلمي يدعوه إلى البراز فأبى وحجز بينهم الليل، ووافاهم من الغد علي وعساكره.

فتقدم الأشتر وانتهى إلى معاوية ولحق به علي. وكان معاوية قد ملك شريعة الفرات فشكا الناس إلى علي العطش فبعث صعصعة بن صوحان إلى معاوية بأنا سرنا ونحن عازمون على الكف عنكم حتى نعذر إليكم فسابقنا جندكم بالقتال ونحن رأينا الكف حتى ندعوكم ونحتج عليك وقد منعتم الماء والناس غير منتهين فابعث إلى أصحابك يخلون عن الماء للورد حتى ننظر بيننا وبينكم وإذا أردت القتال حتى يشرب الغالب فعلنا. فأشار عمرو بن العاص بتخلية الماء لهم، وأشار ابن أبي سرح والوليد بن عقبة بمنعهم الماء، وعرضا بشتم فتشاتم معهم صعصعة ورجع، وأوعز إلى أبي الأعور بمنعهم الماء وجاء الأشعث بن قيس إلى الماء فقاتلهم عليه.

ثم أمر معاوية أبا الأعور يزيد بن أبي أسد القسري جد خالد بن عبد اللّه ثم بعمرو بن العاص بعده، وأمر علي الأشعث بشبث بن ربعي ثم بالأشتر وعليهم أصحاب علي وملكوا الماء عليهم، وأرادوا منعهم منه فنهاهم علي عن ذلك. وأقام يومين.

ثم بعث إلى معاوية أبا عمرو بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي، يدعونه إلى الطاعة وذلك أول ذي الحجة سنة ست وثلاثين، فدخلوا عليه وتكلم بشير بن عمرو بعد حمد اللّه والثناء عليه والموعظة الحسنة وناشده اللّه أن لا يفرق الجماعة ولا يسفك الدماء، فقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك. فقال بشير: ليس مثلك هو أحق بالأمر بالسابقة والقرابة. قال: فما رأيك؟ قال: تجيبه إلى ما دعا إليه من الحق، قال معاوية: ونترك دم عثمان لا واللّه لا أفعله أبداً! ثم قال شبث بن ربعي: يا معاوية! إنما طلبت دم عثمان تستميل به هؤلاء السفهاء الطغام إلى طاعتك، ولقد علمنا أنك أبطأت على عثمان بالنصر لطلب هذه المنزلة فاتق اللّه ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله. فأجابه معاوية وأبدع في سبه وقال: انصرفوا فليس بيني وبينكم إلا السيف. فقال له شبث: أقسم باللّه لنجعلنها لك.

ورجعوا إلى علي بالخبر. وأقاموا يقتتلون أيام ذي الحجة كلها عسكر من هؤلاء وعسكر من هؤلاء، وكرهوا أن يلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام حذراً من الاستئصال والهلاك. ثم جاء المحرم فذهبوا إلى الموادعة حتى ينقضي طمعاً في الصلح، وبعث إلى معاوية عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزياد بن حفصة، فتكلم عدي بعد الحمد والثناء ودعا إلى الدخول في طاعة علي ليجمع اللّه به الكلمة فلم يبق غيرك ومن معك واحذر يا معاوية أن يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل. فقال معاوية: كأنك جئت مهدداً لا مصلحاً هيهات يا عدي! أنا ابن حرب! واللّه ما يقعقع لي بالشنان وإنك من قتلة عثمان وأرجو أن يقتلك اللّه به. فقال له يزيد بن قيس: إنما أتيناك رسلا ولا ندع مع ذلك النصح والسعي في الإلفة والجماعة وذكر من فضل علي واستحقاقه للأمر بتقواه وزهده.

فقال معاوية: بعد الحمد والثناء: أما الجماعة التي تدعون إليها فهي معنا وأما طاعة صاحبكم فلا نراها لأنه قتل خليفتنا وآوى أهل ثأرنا ونحن مع ذلك نجيبكم إلى الطاعة والجماعة إذا دفع إلينا قتلة عثمان. فقال شبث بن ربعي: أيسرك يا معاوية أن تقتل عماراً؟ قال: نعم بمولاه! قال شبث حتى تضيق واللّه الأرض الفضاء عليك. فقال معاوية: لو كان ذلك لكانت عليك أضيق. وافترقوا عن معاوية ثم خلا بزياد بن حفصة وشكا إليه من علي وسأله النصر فيه بعشيرته وأن يوليه أحد المصرين. فأبى

وقال: إني على بينة من ربي فلن أكون ظهيراً للمجرمين. وقام عنه فقال معاوية لعمرو: كأن قلوبهم قلب رجل واحد.

ثم بعث معاوية إلى علي حبيب بن مسلمة وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد بن الأخنس فدخلوا عليه، فتكلم حبيب بعد الحمد لله والثناء فقال: إن عثمان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب اللّه وينيب إلى أمره فاستثقلتم حياته واستبطأتم موته فقتلتموه فادفع إلينا قتلته إن كنت لم تقتله ثم اعتزل أمر الناس فيولوا من أجمعوا عليه. فقال علي: ما أنت وهذا الأمر فاسكت فلست بأهل له! فقال: واللّه لترانى بحيث تكره، فقال: وما أنت لا أبقى اللّه عليك إن أبقيت وأذهب فصوب وصعد.

ثم تكلم بعد الحمد لله والثناء وهداية الناس لمحمد ﷺ وخلافة الشيخين وحسن سيرتهما، وقد وجدنا عليهما أن توليا ونحن أقرب منهما إلى رسول اللّه ﷺ لكن سامحناهما بذلك، وولي عثمان فعاب الناس عليه وقتلوه، ثم بايعوني مخافة الفرقة فأجبتهم، ونكث عليّ رجلان وخالف صاحبكم الذي ليس له مثل سابقي، والعجب من انقيادكم له دون بيت نبيكم ولا ينبغي لكم ذلك، وأنا أدعوكم إلى الكتاب والسنة ومعالم الدين وإماتة الباطل وإحياء الحق فقالوا: نشهد أن عثمان قتل مظلوماً، فقال: لا أقول مظلوماً ولا ظالماً. قالوا: فمن لم يقل ذلك فنحن منه براء وانصرفوا. فقرأ علي: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ الآية، ثم قال لأصحابه: لا يكن هؤلاء في ضلالهم أحد منكم في حقكم.

ثم نازع عدي بن حاتم في راية طيء عامر بن قيس الجرموزي وكان رهطه أكثر من رهط عدي، فقال عبد اللّه بن خليفة اليولاني: ليس فينا أفضل من عدي ولا من أبيه حاتم ولم يكن في الإسلام وهو الوافد إلى رسول اللّه ﷺ ورأس طيء في النخيلة والقادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند وتستر، وسأل علي قومهم فوافقوه على ذلك فقضى بها لعدي.

ولما انسلخ المحرم نادى علي في الناس بالقتال وعبّى الكتائب وقال لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثّلوا ولا تأخذوا مالاً ولا تهيجوا امرأة وإن شتمتكم فإنهن ضعاف الأنفس والقوى، ثم حرضهم ودعا لهم وجعل الأشتر على خيل الكوفة وسهل بن حنيف على خيل البصرة وقيس بن سعد على رجالة البصرة وعمار بن ياسر على رجالة الكوفة وهاشم بن عتبة معه الراية ومسعر بن فدكي على القراء، وعبّى معاوية كتائبه: فجعل على الميمنة ذا الكلاع الحميري وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة، وعلى المقدمة أبا الأعور وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص وعلى رجالتها مسلم بن عقبة المري. وعلى الناس كلهم الضحاك بن قيس. وتبايع رجال من أهل الشام على الموت فعقلوا أنفسهم بالعمائم في خمسة صفوف وخرجوا في اليوم الأول من صفر خرج الأشتر من أهل الكوفة وحبيب من أهل الشام فاقتتلوا عامة يومهم، وفي اليوم الثاني هاشم بن عتبة وأبو الأعور السلمي، وفي اليوم الثالث عمار بن ياسر وعمرو بن العاص فاقتتلوا أشد قتال وحمل عمار فأزال عمراً عن موضعه.

وفي اليوم الرابع محمد بن الحنفية وعبيد اللّه بن عمر بن الخطاب وتداعيا إلى البراز فرد علي ابنه وتراجعوا، وفي اليوم الخامس عبد اللّه بن عباس والوليد بن عقبة فاقتتلا كذلك، ثم عاد في اليوم السادس الأشتر وحبيب فاقتتلا قتالاً شديداً وانصرفا.

وخطب علي الناس عشية يومهم وأمرهم بمناهضة القوم بأجمعهم وأن يطيلوا ليلتهم القيام، ويكثروا التلاوة ويدعوا لله بالنصر والصبر، ويرموا غداً في لقائهم بالجد والحزم.

فبات الناس يصلحون ليلتهم سلاحهم، وعبّى علي الناس ليلته إلى الصباح، وزحف وسأل عن القبائل من أهل الشام وعرف مواقفهم وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من أهل الشام، ومن ليس منهم أحد بالشام يصرفهم إلى من ليس منهم أحد بالعراق مثل بجيلة صرفهم إلى لخم. وخرج معاوية في أهل الشام فاقتتلوا يوم الأربعاء قتالاً شديداً عامة يومهم ثم انصرفوا، وغلس علي يوم الخميس بالزحف وعلى ميمنته عبد اللّه بن بديل بن ورقاء وعلى ميسرته عبد اللّه بن عباس والقراء مع عمار وقيس بن سعد وعبد اللّه بن زيد والناس على راياتهم ومراكزهم، وعلي في القلب بين أهل الكوفة والبصرة ومعه أهل المدينة من الأنصار وخزاعة وكنانة.

ورفع معاوية قبة عظيمة وألقى عليها الثياب وبايعه أكثر أهل الشام على الموت، وأحاط بقبته خيل دمشق وزحف ابن بديل في الميمنة فقاتلهم إلى الظهر وهو يحرض أصحابه. ثم كشف خيلهم واضطرهم إلى قبة معاوية، وجاء الذين تبايعوا على الموت إلى معاوية فبعثهم إلى حبيب فحمل بهم على ميمنة أهل العراق فانجفل الناس عن أهل بديل إلا ثلاثمائة أو مائتين من القراء وانتهت الهزيمة إلى علي، وأمدّه علي بسهل بن حنيف في أهل المدينة فاستقبلهم جموع عظيمة لأهل الشام فمنعتهم.

ثم انكشفت مضر من الميسرة وثبتت ربيعة وجاء علي يمشي نحوهم فاعترضه أحمر مولى أبي سفيان فحال دونه كيسان مولاه فقتله أحمر، فتناول علي أحمر من درعه فجذبه وضرب به الأرض

وكسر منكبيه وعضديه، ثم دنا من ربيعة فصبرهم وثبت أقدامهم وتنادوا بينهم: إن أصيب بينكم أمير المؤمنين افتضحتم في العرب، وكان الأشتر مر به راكضاً نحو الميمنة واستقبل الناس منهزمين فأبلغهم مقالة علي: أين فراركم من الموت الذي لا تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم، ثم نادى: أنا الأشتر! فرجع إليه بعضهم فنادى مذحجاً وحرضهم فأجابوه، وقصد القوم واستقبله شباب من همذان ثمانمائة أو نحوها وكان قد هلك منهم في ذلك اليوم أحد عشر رئيساً وأصيب منهم ثمانون ومائة وزحف الأشتر نحو الميمنة.

وتراجع الناس واشتد القتال حتى كشف أهل الشام وألحقهم بمعاوية عند الاصفرار وانتهى إلى ابن بديل في مائتين أو ثلاثمائة من القراء قد لصقوا بالأرض، فانكشف عنهم أهل الشام وأبصروا إخوانهم وسألوا عن علي فقيل لهم هو بالميسرة يقاتل، فقال ابن بديل: استقدموا بنا ونهاه الأشتر فأبى ومضى نحو معاوية وحوله أمثال الجبال تقتل كل من دنا منه حتى وصل إلى معاوية، فنهض إليه الناس من كل جانب وأحيط به فقتل وقتل من أصحابه ناس ورجع آخرون مجروحون وأهل الشام في اتباعهم، فبعث الأشتر من نفس عنهم حتى وصلوا إليه وزحف الأشتر في همدان وطوائف من الناس فأزال أهل الشام عن مواقفهم حتى ألحقهم بالصفوف المعقلة بالعمائم حول معاوية، ثم حمل أخرى فصرع منهم أربعة صفوف حتى دعا معاوية بفرسه فركب، وخرج عبد اللّه بن أبي الحصين الأزدي في القراء الذين مع عمار فقاتلوا، وتقدم عقبة بن حبيب النميري مستميتاً ومعه إخوته فقاتلوا حتى قتلوا، وتقدم شمر بن ذي الجوشن مبارزاً فضرب أدهم بن محرز الباهلي وجهه بالسيف وحمل على أدهم فقتله، وحمل قيس بن المكشوح ومعه راية بجيلة فقاتل حتى أخذها آخر كذلك.

ولما رأى علي أهل ميمنة أصحابه قد عادوا إلى مواقفهم وكشفوا العدو قبالتهم أقبل إليهم وعذلهم بعض الشيء عن مفرهم وأثنى على رجوعهم، وقاتل الناس قتالاً شديداً وتبارز الشجعان من كل جانب وأقبلت طيء والنخع وخرجت حمير من ميمنة أهل الشام، وتقدم ذو الكلاع ومعهم عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب فقصد ربيعة في ميسرة أهل العراق وعليهم ابن عباس وحملوا عليهم حملة شديدة فثبتت ربيعة وأهل الحفاظ منهم وانهزم الضعفاء والفشلة، ثم رجعوا ولحقت بهم عبد القيس وحملوا على حمير فقتل ذي الكلاع وعبيد اللّه بن عمر وأخذ سيف ذي الكلاع وكان لعمر، فلما ملك معاوية العراق أخذه من قاتله. ثم خرج عمار بن ياسر وقال: اللّهم إني لا أعمل اليوم عملاً أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين ثم نادى: من سعى في رضوان ربه فلا يرجع إلى مال ولا ولد فأتاه عصابة فقال: اقصدوا بنا هؤلاء الذين يطلبون بدم عثمان يخادعون بذلك عما في نفوسهم من الباطل، ثم مضى فلا يمر بواد من صفين إلا اتبعه من هناك من الصحابة. ثم جاء هاشم بن عتبة وكان صاحب الراية فأنهضه حتى دنا من عمرو بن العاص فقال: يا عمرو بعت دينك بمصر؟ تباً لك! فقال: إنما أطلب دم عثمان، فقال: أشهد أنك لا تطلب وجه اللّه في كلام كثير من أمثال ذلك وأن رسول اللّه ﷺ قال في عمار: « تقتله الفئة الباغية » .

فلما قتل عمار حمل علي وحمل معه ربيعة ومضر وهمدان حملة منكرة فلم يبق لأهل الشام صفّ إلا انتقض حتى بلغوا معاوية فناداه علي: علام يقتل الناس بيننا هلمّ أحاكمك إلى اللّه فأينا قتل صاحبه استقام له الأمر، فقال له عمرو: أنصفك! فقال له معاوية: لكنك ما انصفت. وأسر يومئذ جماعة من أصحاب علي فترك سبيلهم، وكذلك فعل علي. ومر علي بكتيبة من الشام قد ثبتوا فبعث إليهم محمد ابن الحنفية فأزالهم عن مواقفهم، وصرع عبد اللّه بن كعب المرادي فمر به الأسود بن قيس فأوصاه بتقوى اللّه والقتال مع علي، وقال: أبلغه عني السلام، وقال له: قاتل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك فإنه من أصبح غداً والمعركة خلف ظهره فإنه العالي. ثم اقتتل الناس تلك الليلة إلى الصباح وهي ليلة الجمعة وتسمى ليلة الهرير، وعلي يسير بين الصفوف ويحرض كل كتيبة على التقدم حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهره، والأشتر في الميمنة وابن عباس في الميسرة والناس يقتتلون من كل جانب وذلك يوم الجمعة. ثم ركب الأشتر ودعا الناس إلى الحملة على أهل الشام فحمل حتى انتهى إلى عسكرهم وقتل صاحب رايتهم، وأمده علي بالرجال.

فلما رأى عمرو شدة أهل العراق وخاف على أصحابه الهلاك، قال لمعاوية: مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ويقولون كتاب اللّه بيننا وبينكم فإن فعلوا ذلك ارتفع عنا القتال وإن أبى بعضهم وجدنا في افتراقهم راحة. ففعلوا ذلك، فقال الناس: نجيب إلى كتاب اللّه فقال لهم علي: ياعباد اللّه! امضوا على حقكم وقتال عدوكم فإن معاوية وابن أبي معيط وحبيباً وابن أبي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم صحبتهم أطفالاً ورجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال، ويحكم واللّه ما رفعوها إلا مكيدة وخديعة. فقالوا: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب اللّه فلا نقبل، فقال: إنما قاتلناهم ليدينوا بكتاب اللّه فإنهم نبذوه.

فقال له مسعر بن فدك التميمي وزيد بن حصين الطائي في عصابة من القراء الذين صاروا خوراج بعد ذلك: يا علي أجب إلى كتاب اللّه وإلا دفعنا برمتك إلى القوم. أو فعلنا بك ما فعلنا بابن عفان. فقال: إن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فافعلوا ما بدا لكم، قالوا: فابعث إلى الأشتر وكفّه عن القتال، فبعث إليه يزيد بن هاني بذلك فأبى، وقال: قد رجوت أن يفتح اللّه لي!

فلما جاء يزيد بذلك ارتج الموقف باللغط، وقالوا لعلي: ما نراك إلا أمرته بقتال فابعث إليه فليأتك وإلا اعتزلناك، فقال علي: ويحك يا يزيد قل له أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت، فقال: ألرفع المصاحف؟ فقال: نعم! قال: لقد ظننت إن ذلك يوقع فرقة كيف ندع هؤلاء وننصرف والفتح قد وقع، فقال يزيد: تحب أن تظفر وأمير المؤمنين يسلم إلى عدوه أو يقتل؟ ثم أقبل إليهم الأشتر وأطال عتبهم، وقال: أمهلوني فواقاً فقد أحسست بالفتح، فأبوا فعذلهم وأطال في عذلهم، فقالوا: دعنا يا أشتر قاتلناهم لله، فقال: بل خدعتم فانخدعتم.

ثم كثرت الملاحاة بينهم وتشاتموا فصاح بهم عليّ فكفّوا، فقال له الأشعث بن قيس: أن الناس قد رضوا بما دعوا إليه من حكم القرآن فإن شئت أتيت معاوية وسألته ما يريد. قال: أفعل. فأتاه وسأله لأي شيء رفعتم المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر اللّه به من كتابه تبعثون رجلاً ترضونه، ونحن آخر ونأخذ عليهما عهد اللّه أن يعملا بما في كتاب اللّه لا يعدوانه. ثم نتبع ما اتفقا عليه، فقال الأشعث: هذا الحق ورجع إلى علي والناس وأخبرهم، فقال الناس: رضينا وقبلنا، ورضي أهل الشام عمراً، وقال الأشعث: وأولئك القراء الذين صاروا خوارج: رضينا بأبي موسى، فقال علي لا أرضاه! فقال الأشعث ويزيد بن الحصين ومسعر بن فدك: لا نرضى إلا به. قال: فإنه ليس بثقة قد فارقني وخذل الناس عني وهرب مني حتى أمنته بعد أشهر، قالوا: لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، قال: فالأشتر؟ قالوا: وهل سعر الأرض غير الأشتر؟ قال: فاصنعوا ما بدا لكم! فبعثوا إلى أبي موسى وقد اعتزل القتال، فقيل: إن الناس قد اصطلحوا، فحمد اللّه، قيل وقد جعلوك حكماً فاسترجع، وجاء أبو موسى إلى العسكر وطلب الأحنف بن قيس من علي أن يجعله مع أبي موسى، فأبى الناس من ذلك وحضر عمرو بن العاص عند علي ليكتبوا القضية بحضوره، فكتبوا بعد البسملة.

هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين، فقال عمرو: ليس هو بأميرنا! فقال له الأحنف: لا تمحها فإني أتطير بمحوها فمكث ملياً، ثم قال الأشعث: إمحها. فقال علي: اللّه أكبر! وذكر قصة الحديبية وفيها إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب، فقال عمرو: سبحان اللّه نشبه بالكفار ونحن مؤمنون؟ فقال علي: يا ابن النابعة ومتى لم تكن للفاسقين ولياً وللمؤمنين عدواً! فقال عمرو: واللّه لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم، فقال علي: أرجو أن يطهّر اللّه مجلسي منك ومن أشباهك. وكتب الكتاب. هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم ومعاوية على أهل الشام ومن معهم أنا ننزل عند حكم اللّه وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وإن كتاب اللّه بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات مما وجد الحكمان في كتاب اللّه. وهما أبو موسى عبد اللّه بن قيس وعمرو بن العاص وما لم يجدا في كتاب اللّه فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة.

وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد اللّه بن قيس وعمرو بن العاص عهد اللّه وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يورداها في حرب ولا فرقة حتى يقضيا، وأحلا القضاء إلى رمضان فإن أحبّا أن يؤخرا ذلك أخراه وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام. وشهد رجال من أهل العراق ورجال من أهل الشام وضعوا خطوطهم في الصحيفة، وأبى الأشتر أن يكتب اسمه فيها وحاوره الأشعث في ذلك فأساء الردّ عليه وتهدّده.

وكتب الكتاب لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين. واتفقوا على أن يوافي علي موضع الحكمين بدومة الجندل وبأذرح في شهر رمضان، ثم جاء بعض الناس إلى علي يحضه على قتال القوم فقال: لا يصلح الرجوع بعد الرضى ولا التبديل بعد الإقرار.

ثم رجع الناس عن صفين ورجع علي، وخالفت الحرورية وأنكروا تحكيم الرجال ورجعوا على غير الطريق الذي جاؤوا فيه حتى جازوا النخيلة ورأوا بيوت الكوفة، ومر علي بقبر خباب بن الأرت توفي بعد خروجه فوقف واسترحم له، ثم دخل الكوفة فسمع رجة البكاء في الدور فقيل: يبكين على القتلى فترحم لهم، ولم يزل يذكر اللّه حتى دخل القصر فلم تدخل الخوارج معه وأتوا حروراً فنزلوا بها في اثني عشر ألفاً، فقدموا شبث بن عمر التميمي أمير القتال وعبيد اللّه بن الكوى اليشكري أمير الصلاة.

قالوا: البيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر شورى بعد الفتح. فقالوا للناس: بايعتم علياً إنكم أولياء من والى وأعداء من عادى، وبايع أهل الشام معاوية على ما

أحب وكرهوا فلستم جميعاً من الحق في شيء. فقال لهم زياد بن النضر: والله ما بايعناه إلا على الكتاب والسنة ولكن لما خالفتموه تعيّنتم للضلال وتعيّن للحق. ثم بعث علي عبد الله بن عباس إليهم وقال: لا تراجعهم حتى آتيك فلم يصبر عن مكالمتهم، وقال: ما نقمتم من أمر الحكمين وقد أمر الله بهما بين الزوجين فكيف بالأمة؟ فقالوا: لا يكون هذا بالرأي والقياس! فإن ذلك جعل الله حكمه للعباد وهذا أمضاه كما أمضى حكم الزاني والسارق. قال ابن عباس: قال الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، قالوا: والأخرى كذلك وليس أمر الصيد والزوجين كدماء المسلمين. ثم قالوا له: قد كنا بالأمس نقاتل عمرو بن العاص فإن كان عدلاً فعلامَ قاتلناه؟ وإن لم يكن عدلاً فكيف يسوغ تحكيمه؟ وأنتم قد حكمتم الرجال في أمر معاوية وأصحابه والله تعالى قد أمضى حكمه فيهم أن يقتلوا أو يرجعوا وجعلتم بينكم الموادعة في الكتب وقد قطعها الله بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة. ثم جاء علي إلى فسطاط يزيد بن قيس منهم بعد أن علم أنهم يرجعون إليه في رأيهم، فصلى عنده ركعتين وولاّه على أصبهان والري.

ثم خرج إليهم وهم في مجلس ابن عباس فقال: من زعيمكم؟ قالوا: ابن الكوى! قال: فما هذا الخروج؟ قالوا: لحكومتكم يوم صفين، قال: أنشدكم الله أتعلمون إنه لم يكن رأيي وإنما كان رأيكم مع أني اشترطت على الحكمين أن يحكما بحكم القرآن فإن فعلا فلا ضير وإن خالفا فلا ضير ونحن براء من حكمهم، فقالوا فتحكيم الرجال في الدماء عدل؟ قال إنما حكمنا القرآن إلا أنه لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال، قالوا: فلم جعلتم الأجل بينكم؟ قال لعل الله يأتي فيه بالهدنة بعد افتراق الأمة فرجعوا إلى رأيه، وقال: ادخلوا مصركم فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا فدخلوا من عند آخرهم.

أمر الحكمين

ولما انقضى الأجل وحان وقت الحكمين بعث علي أبا موسى الأشعري في أربعمائة رجل عليهم شريح بن هاني الحارثي ومعهم عبد الله بن عباس يصلي بهم، وأوصى شريحاً بموعظة عمرو، فلما سمعها قال: متى كنت أقبل مشورة علي واعتدّ برأيه؟ قال: وما يمنعك أن تقبل من سيد المسلمين، وأساء الرد عليه فسكت عنه. وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام والتقوا بأذرح من دومة الجندل، فكان أصحاب عمرو أطوع من أصحاب ابن عباس لابن عباس، حتى لم يكونوا يسألونه عن كتاب معاوية إذا جاءه، ويسأل أهل العراق ابن عباس ويتهمونه، وحضر مع الحكمين عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام، وعبد الرحمن بن يغوث الزهري، وأبو جهم بن حذيفة العدوي، والمغيرة بن شعبة، وسعد بن أبي وقاص على خلاف فيه، وقيل: ندم على حضوره فأحرم بعمرة من بيت المقدس.

ولما اجتمع الحكمان قال عمرو لأبي موسى أما تعلم أن عثمان قتل مظلوماً وأن معاوية وقومه أولياؤه؟ قال: بلى! قال: فما يمنعك منه وهو في قريش كما علمت؟ وإن قصرت به السابقة قدمه حسن السياسة وإنه صهر رسول الله ﷺ وكاتبه وصاحبه والطالب بدم عثمان وعرّض بالولاية، فقال له أبو موسى: ياعمرو اتق الله واعلم أن هذا الأمر ليس بالشرف وإلا لكان لآل أبرهة بن الصباح وإنما هو بالدين والفضل مع أنه لو كان بشرف قريش لكان لعلي بن أبي طالب وما كنت لأرى لمعاوية طلبه دم عثمان وأوليه وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضك بالولاية فلو خرج لي عثمان عن سلطانه ما وليته وما أرتشي في حكم الله.

ثم دعاه إلى تولية عبد الله بن عمر، قال له عمرو: فما يمنعك من ابني وهو من علمت؟ فقال له رجل: صدق ولكنك غمسته في الفتنة، فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل له ضرس يأكل ويطعم -وكانت في ابن عمر غفلة- وكان ابن الزبير بإزائه فنبهه لما قال، فقال ابن عمر: لا أرشو عليها أبداً! ثم قال أبو موسى يا ابن العاص إن العرب أسندت أمرها إليك بعد المقارعة بالسيوف فلا تردهم في فتنة، قال له: فخبرني ما رأيك؟ قال: أرى أن نخلع الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم. فقال عمرو: الرأي ما رأيت!

ثم أقبلوا على الناس وهم ينتظرونهم، وكان عمرو قد عوّد أبا موسى أن يقدمه في الكلام لما له من الصحبة والسن، فقال: يا أبا موسى! أعلمهم أن رأينا قد اتفق، فقال: إنا رأينا أمراً نرجو الله أن يصلح به الأمة، فقال له ابن عباس: ويحك أظنه خدعك فاجعل له الكلام قبلك، فأبى وقال: أيها الناس إنا نظرنا في أمر الأمة فلم نر أصلح لهم مما اتفقنا عليه وهو أن نخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا وإني قد خلعتهما فولوا من أردتم ورأيتموه أهلاً.

فقال عمرو: إن هذا قد خلع صاحبه وقد خلعته كما خلعه وأثبتُ معاوية فهو ولي ابن عفان وأحق الناس بمقامه. ثم عدا ابن

عباس وسعد على أبي موسى باللائمة وقال: ما أصنع غدرني ورجع باللائمة على عمرو وقال: لا وفقك الله غدرت وفجرت. وحمل شريح على عمرو فضربه بالسيف وضربه ابن عمر كذلك، وحجز الناس بينهم، فلحق أبو موسى بمكة وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشريح إلى علي بالخبر فكان يقنت إذا صلى الغداة ويقول: اللّهم العن معاوية وعمراً وحبيباً وعبد الرحمن بن مخلد والضحاك بن قيس والوليد وأبا الأعور، وبلغ ذلك معاوية فكان إذ قنت يلعن علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر.

أمر الخوارج وقتالهم

ولما اعتزم علي أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه زرعة بن البرح الطائي وحرقوص بن زهير السعدي من الخوارج وقالا له: تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم، وقال علي: قد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وعاهدناهم، فقال حرقوص: ذلك ذنب تبتغي التوبة منه، فقال علي: ليس بذنب ولكن عجز من الرأي، فقال زرعة: لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك أطلب وجه الله، فقال علي: بؤساً لك كأني بك قتيلاً تسفى عليك الرياح، قال: وددت لو كان ذلك. وخرجا من عنده يناديان لا حكم إلا لله.

وخطب علي يوماً فتنادوا من جوانب المسجد بهذه الكلمة، فقال علي: الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل، وخطب ثانياً فقالوا كذلك، فقال: أما أن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا الفيء ما دمتم معنا ولا نقاتلكم حتى تبدأونا وننتظر فيكم أمر الله. ثم اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فوعظهم وحرضهم على الخروج إلى بعض النواحي لإنكار هذه البدع، وتبعه حرقوص بن زهير في المقال، فقال حمزة بن سنان الأزدي: الرأي ما رأيتم لكن لا بد لكم من أمير وراية، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي، ثم حرقوص بن زهير، ثم حمزة بن سنان، ثم شريح بن أبي أوفى العنسي فأبوا كلهم. ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فأجاب فبايعوه لعشر خلون من شوال، وكان يقال له: ذو الثفنات.

ثم اجتمعوا في منزل شريح وتشاوروا. وكتب ابن وهب إلى أهل البصرة منهم يستحث بهم على اللحاق بهم، ولما اعترفوا على المسير تعبدوا ليلة الجمعة ويومها وساروا، فخرج معهم طرفة بن عدي بن حاتم الطائي، واتبعه أبوه إلى المدائن فلم يقدروا عليه فرجع ولقيه عبد الله بن وهب في عشرين فارساً وأراد قتله فمنعه من كان معه من طيء. وأرسل علي إلى عامل المدائن سعد بن مسعود يخبرهم فاستخلف ابن أخيه المختار بن عبيد وسار في طلبهم في خمسمائة فارس، فتركوا طريقهم وساروا على بغداد ولحقهم سعد بالكرخ مساء، وجاءه عبد الله في ثلاثين فارساً وقاتلهم وامتنعوا، وأشار أصحابه بتركهم إلى أن يأتي فيهم أمر علي فأبى، ولما جن عليهم الليل عبر عبد الله إليهم دجلة وسار إلى أصحابه بالنهروان، واجتمعت خوارج البصرة في خمسمائة رجل عليهم مسعر بن فدكي التميمي واتبعهم أبو الأسود الدؤلي بأمر ابن عباس ولحقه فاقتتلوا حتى حجز بينهم الليل، فادلج مسعر بأصحابه فلحق بعبد الله بن وهب بالنهروان، ولما خرجت الخوارج بايع علياً أصحابه على قتالهم، ثم أنكر شأن الحكمين فخطب الناس وقال: بعد الحمد لله والموعظة ألا أن هذين الحكمين نبذا حكم القرآن واتبع كل واحد هواه واختلفا في الحكم وكلاهما لم يرشد، فاستعدوا للسير إلى الشام.

وكتب إلى الخوارج بالنهروان بذلك واستحثهم للمسير إلى العدو وقال: نحن على الأمر الأول الذي كنا عليه. فكتبوا إليه: إنك غضبت لنفسك ولم تغضب لربك فإن شهدت على نفسك بالكفر وتبت نظرنا بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على السواء. فيئس علي منهم ورأى أن يمضي إلى الشام ويدعهم، وقام في الناس يحرضهم لذلك، وكتب إلى ابن عباس من معسكره بالنخيلة يأمره بالشخوص في العساكر والمقام إلى أن يأتي أمره، فأشخص ابن عباس الأحنف بن قيس في ألف وخمسمائة، ثم خطب ثانية وندب الناس وقال: كيف ينفر هذا العدد القليل وانتم ستون ألف مقاتل ثم تهددهم وأمرهم بالنفير مع جارية بن قدامة السعدي. فخرج معه ألف وستمائة ووافوا علياً في ثلاثة آلاف ويزيدون.

ثم خطب أهل الكوفة ولاطفهم بالقول وحرضهم وأخبرهم بما فعل أهل البصرة مع كثرتهم وقال: ليكتب إلي كل رئيس منكم ما في عشيرته من المقاتلين من أبنائهم ومواليهم، فأجابه سعيد بن قيس الهمداني ومعقل بن قيس وعدي بن حاتم وزياد بن خصفة وحجر بن عدي وأشراف الناس بالسمع والطاعة، وأمروا ذويهم ألا يتخلف منهم أحد، فكانوا أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفاً ممن بلغ الحلم، وانتهت عساكره إلى ثمانية وستين ألفاً. وبلغه أن الناس يرون تقديم الخوارج فقال لهم: إن قتال أهل الشام أهم علينا لأنهم يقاتلونكم ليكونوا ملوكا جبارين ليتخذوا عباد الله خولاً فرجعوا إلى رأيه وقالوا: سر بنا إلى حيث شئت. وبينما هو على اعتزام السير إلى أهل الشام بلغه أن خوارج

أهل البصرة لقوا عبد اللّه بن خباب من صحابة رسول اللّه ﷺ قريباً من النهروان فعرفهم بنفسه، فسألوه عن أبي بكر وعمر فأثنى خيرا، ثم عن عثمان في أول خلافته وآخرها فقال: كان محقاً في الأول والآخر، فسألوه عن علي قبل التحكيم وبعده، فقال هو أعلم باللّه وأشد توقياً على دينه، فقالوا: إنك توالي الرجال على أسمائها، ثم ذبحوه وبقروا بطن امرأته ثم قتلوا ثلاث نسوة من طيء. فآسف علياً قتلهم عبد اللّه بن ضباب واعتراضهم الناس، فبعث الحرث بن مرة العبدي لينظر فيما بلغه عنهم فقتلوه، فقال له أصحابه: كيف ندع هؤلاء ونأمن غائلتهم في أموالنا وعيالنا إنما نقدم أمرهم على الشام، وقام الأشعث بن قيس بمثل ذلك فوافقهم علي وسار إليهم، وبعث من يقول لهم إدفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم فنكف عنكم حتى نرجع من قتال العرب لعل اللّه يردكم إلى خير فقالوا: كلنا قتلهم وكلنا مستحل دماءكم ودماءهم.

ثم جاءهم قيس بن سعد ووعظهم وأبو أيوب الأنصاري كذلك. ثم جاءهم علي فتهددهم وسفه رأيهم وبين لهم شأن الحكمين وأنهما لما خالفا حكم الكتاب والسنة نبذنا أمرهما ونحن على الأمر الأول فقالوا: إنا كفرنا بالتحكيم وقد تبنا فإن تبت أنت فنحن معك وإن أبيت فقد نابذناك، فقال: كيف أحكم على نفسي بالكفر بعد إيماني وهجرتي وجهادي؟ ثم انصرف عنهم.

وقيل: إن علياً خطبهم وأغلظ عليهم فيما فعلوه من الاستعراض والقتل فتنادوا لا تكلموهم وتأهبوا للقاء اللّه. ثم قصدوا جسر الخوارج ولحقهم علي دونه، وقد عبى أصحابه وعلى ميمنته حجر بن عدي وعلى ميسرته شبث بن ربعي أو معقل بن قيس وعلى الخيل أبو أيوب وعلى الرجالة أبو قتادة وعلى أهل المدينة سبعمائة أو ثمانمائة قيس بن سعد.

وعبأت نحوه الخوارج على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي وعلى الميسرة شريح بن أوفى العنسي وعلى الخيل حمزة بن سنان الأسدي وعلى الرجالة حرقوص بن زهير. ودفع علي إلى أبي أيوب راية أمان لهم لمن جاءها ممن لم يقتل ولم يستعرض فناداهم إليها وقال: من انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن. فاعتزل عنهم فروة بن نوفل الأشجعي في خمسمائة وقال أعتزل حتى يتضح لي أمر في قتال علي فنزل الدسكرة، وخرج آخرون إلى الكوفة، ورجع آخرون إلى علي وكانوا أربعة آلاف، وبقي منهم ألف وثمانمائة فحمل عليهم علي والناس حتى فرقهم على الميمنة والميسرة.

ثم استقبلتهم الرماة وعطفت عليهم الخيل من الجنبتين ونهض إليهم الرجال بالسلاح فهلكوا كلهم في ساعة واحدة كأنما قيل لهم موتوا، وقتل عبد اللّه بن وهب وزيد بن حصن وحرقوص بن زهير وعبد اللّه بن شجرة وشريح بن أوفى. وأمر علي أن يلتمس المخدج في قتلاهم وهو الذي ذكره رسول اللّه ﷺ في علاماتهم فوجد في القتلى فاعتبر علي وكبر واستبصر الناس، وأخذ ما في عسكرهم من السلاح والدواب فقسمه بين المسلمين ورد عليهم المتاع والإماء والعبيد.

ودفن عدي بن حاتم ابنه طرفة ورجالاً من المسلمين فنهى علي عن ذلك، وارتحل ولم يفقد من أصحابه إلا سبعة أو نحوهم.

وشكا إليه الناس الكلال ونفود السهام والرماح وطلبوا الرجوع إلى الكوفة ليستعدوا فإنه أقوى على القتال، وكان الذي تولى كلامه الأشعث بن قيس فلم يجبه، وأقبل فنزل النخيلة ومنعهم من دخول منازلهم حتى يسيروا إلى عدوهم، فتسللوا أيام المقامة إلى البيوت وتركوا المعسكر خالياً فلما رأى علي ذلك دخل في ندبهم ثانياً فلم ينفروا، فأقام أياماً ثم كلم رؤساءهم على رأيهم والذي يبطئ بهم فلم ينشط لذلك إلا القليل، فخطبهم وأغلظ في عتابهم وأعلمهم بما له عليهم من الطاعة في الحق والنصح فتثاقلوا وسكتوا.

ولاية عمرو بن العاص على مصر

قد تقدم لنا ما كان من اجتماع العثمانية بنواحي مصر مع معاوية بن حديج السكوني، وإن محمد بن أبي بكر بعث إليهم العساكر من الفسطاط مع ابن مضاهم فهزموه وقتلوه، واضطرمت الفتنة بمصر على محمد بن أبي بكر، وبلغ ذلك علياً فبعث إلى الأشتر من مكان عمله بالجزيرة وهو نصيبين فبعثه على مصر وقال: ليس لها غيرك. وبلغ الخبر إلى معاوية وكان قد طمع في مصر فعلم إنها ستمتنع بالأشتر، وجاء الأشتر فنزل على صاحب الخراج بالقلزم فمات هنالك، وقيل: إن معاوية بعث إلى صاحب القلزم فسمه على أن يسقط عنه الخراج وهذا بعيد.

وبلغ خبر موته علياً فاسترجع واسترحم وكان محمد بن أبي بكر لما بلغته ولاية الأشتر شق عليه فكتب علي يعتذر إليه وإنه لم يوله لسوء رأيه في محمد وإنما هو لما كان يظن فيه من الشدة فقد صار إلى اللّه ونحن عنه راضون فرضي اللّه عنه وضاعف له الثواب، فاصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر من ذكر اللّه والاستعانة به والخوف منه يكفيك ما أهمك ويعينك على ما ولاك. فأجابه محمد بالرضا برأيه والطاعة لأمره، وأنه مزمع على حرابة من خالفه.

ثم لما كان من أمر الحكمين ما كان واختلف أهل العراق على علي، وبايع أهل الشام معاوية بالخلافة، فأراد معاوية صرف عمله إلى مصر لما كان يرجو من الاستعانة على حروبه بخراجها، ودعا بطانته أبا الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة وبسر بن أرطأة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وشرحبيل بن السمط وشاورهم في شأنها، فأشار عليه عمرو بافتتاحها وأشار ببعث الجيش مع حازم صارم يوثق ويجتمع إليه من كان على رأيه من العثمانية.

فقال معاوية: بل الرأي أن نكاتب العثمانية بالوعد ونكاتب العدو بالصلح والتخويف ونأتي الحرب بعد ذلك، ثم قال معاوية: إنك يا ابن العاص بورك لك في العجلة وأنا في التؤدة، فقال: إفعل ما تراه وأظن الأمر لا يصير إلا للحرب. فكتب معاوية إلى معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد يشكرهما على الخلاف، ويحثهما على الحرب والقيام في دم عثمان، وفرحا بجوابهما فطلب المدد فجمع أصحابه وأشاروا بذلك.

فأمر عمرو بن العاص أن يتجهز إلى مصر في ستة آلاف رجل ووصاه بالتؤدة وترك العجلة، فنزل أدنى أرض مصر واجتمعت إليه العثمانية، وبعث كتابه وكتاب معاوية إلى محمد بن أبي بكر بالتهديد وإن الناس اجتمعوا عليك وهم مسلموك فاخرج، فبعث بالكتابين إلى علي فوعده بإنفاذ الجيوش وأمره بقتال العدو والصبر. فقدم محمد بن أبي بكر كنانة بن بشر في ألفين، فبعث معاوية عمرو بن حديج وسرحه في أهل الشام فأحاطوا بكنانة، فترجل عن فرسه وقاتل حتى استشهد. وجاء الخبر إلى محمد بن أبي بكر فافترق عنه أصحابه وفروا، وآوى في مفره إلى خربة واستتر في تلك الخربة، فقبض عليه فأخذه ابن حديج وجاء به إلى الفسطاط، وطلب أخوه عبد الرحمن من عمرو أن يبعث إلى ابن حديج في البقاء عليه فأبى، وطلب محمد الماء فمنعه ابن حديج جزاء بما فعل بعثمان، ثم أحرقه في جوف حمار بعد أن لعنه ودعا عليه وعلى معاوية وعمرو.

وكانت عائشة تقنت في الصلاة بالدعاء على قتلته. ويقال إنه لما انهزم اختفى عند جبلة بن مسروق حتى أحاط به معاوية بن حديج وأصحابه، فخرج إليهم فقاتل حتى قتل. ولما بلغ الخبر علياً خطب الناس وندبهم إلى أعدائهم وقال: اخرجوا بنا إلى الجزعة بين الحيرة والكوفة. وخرج من الغد إلى منتصف النهار يمشي إليها حتى نزلها فلم يلحق به أحد، فرجع من العشي وجمع أشراف الناس ووبخهم فأجاب مالك بن كعب الأرحبي في ألفين، فقال: سر وما أراك تدركهم فسار خمساً، ولحق حجاج بن عرفة الأنصاري قادماً من مصر فأخبره بقتل محمد، وجاء إلى علي عبد الرحمن بن شبث الفزاري وكان عيناً له بالشام، فأخبره بقتل محمد واستيلاء عمرو على مصر، فحزن لذلك، وبعث إلى مالك بن كعب أن يرجع بالجيش وخطب الناس فأخبرهم بالخبر وعذلهم على ما كان منهم من التثاقل حتى فات هذا الأمر ووبخهم طويلاً ثم نزل.

دعاء ابن الحضرمي بالبصرة لمعاوية ومقتله

ولما افتتح معاوية مصر بعث عبد اللّه بن الحضرمي إلى البصرة داعياً لهم وقد آنس منهم الطاعة بما كان من قتل علي إياهم يوم الجمل وإنهم على رأيه في دم عثمان، وأوصاه بالنزول في مصر وأن يتودد إلى الأزد وحذره من ربيعة وقال: إنهم ترائبه! يعني شيعة لعلي. فسار ابن الحضرمي حتى قدم البصرة.

وكان ابن عباس قد خرج إلى علي واستخلف عليها زياداً، ونزل في بني تميم واجتمع إليه العثمانية فحضهم على الطلب بدم عثمان من علي، فقال الضحاك بن قيس الهلالي: قبح اللّه ما جئت به وما تدعو إليه تحملنا على الفرقة بعد الاجتماع وعلى الموت ليكون معاوية أميراً؟ فقال له عبد اللّه بن حازم السلمي اسكت! فلست لها بأهل. ثم قال لابن الحضرمي نحن أنصارك ويدك والقول قولك، فقرأ كتاب معاوية يدعوهم إلى رأيه من الطلب بدم عثمان على أن يعمل فيهم بالسنة ويضاعف لهم الأعطية. فلما فرغ من قراءته قام الأحنف بن قيس معتزلاً وحض عمر بن مرحوم على لزوم البيعة والجماعة.

وقام العباس بن حجر في مناصرة ابن الحضرمي، فقال له المثنى بن مخرمة: لا يغرنك ابن صحار وارجع من حيث جئت، فقال ابن الحضرمي لصبرة بن شيمان الأزدي: ألا تنصرني؟ قال لو نزلت عندي فعلت! ودعا زياد أمير البصرة حصين بن المنذر ومالك بن مسمع ورؤوس بكر بن وائل إلى المنعة من ابن الحضرمي إلى أن يأتي أمر علي، فأجاب حصين وتثاقل مالك وكان هواه في بني أمية، فأرسل زياد إلى صبرة بن شيمان يدعوه إلى الجدار بما معه من بيت المال فقال: إن حملته إلى داري أجرتك فتحول إليه ببيت المال والمنبر، وكان يصلي الجمعة في مسجد قومه، وأراد زياد اختبارهم فبعث إليهم من ينذرهم بمسيره إليهم، وأخذ زياد جنداً منهم بعد صبره لذلك وقال: إن جاءوا جئناهم، وكتب زياد إلى علي بالخبر فأرسل أعين بن ضبيعة لنفرق تميماً عن ابن الحضرمي ويقاتل من عصاه بمن أطاعه، فجاء لذلك وقاتلهم

يوماً أو بعض يوم، ثم اغتاله قوم فقتلوه يقال من الخوارج.

ولاية زياد على فارس

ولما قتل ابن الحضرمي بالبصرة والناس مختلفون على علي طمع أهل النواحي من بلاد العجم في كسر الخراج، وأخرج أهل فارس عاملهم سهل بن حنيف، فأشار علي الناس فأشار عليه جارية بن قدامة بزياد فأمر ابن عباس أن يوليه عليه، فبعثه إليها في جيش كثيف فطوى بهم أهل فارس وضرب ببعضهم بعضاً وهرب قوم وأقام آخرون، وصفت له فارس بغير حرب. ثم تقدم إلى كرمان فدوخها مثل ذلك فاستقامت وسكن الناس ونزل اصطخر وسكن قلعة بها تسمى قلعة زيار.

فراق ابن عباس لعلي رضي الله عنهم

وفي سنة أربعين فارق عبد الله بن عباس علياً ولحق بمكة، وذلك أنه مر يوماً بأبي الأسود ووبخه على أمر، فكتب أبو الأسود إلى علي بأن ابن عباس استتر بأموال الله فأجابه علي يشكره على ذلك وكتب لابن عباس ولم يخبره بالكاتب، فكتب إليه بكذب ما بلغه من ذلك وإنه ضابط للمال حافظ له، فكتب إليه علي: أعلمني ما أخذت ومن أين أخذت وفيما وضعت؟ فكتب إليه ابن عباس فهمت استعظامك لما رفع إليك إني رزأته من هذا المال فابعث إلى عملك من أحببت فإني ظاعن عنه واستدعى أخواله من بني هلال، فجاءته قيس كلها فحمل المال وقال: هذه أرزاقنا، واتبعه أهل البصرة ووقفت دونه قيس. فرجع صبرة بن شيمان الهمداني بالأزد وقال قيس: إخواننا وهم خير من المال فاطيعوني.

وانصرف معهم بكر وعبد القيس ثم انصرف الأحنف بقومه من بني تميم وحجز بقية بني تميم عنه، ولحق ابن عباس بمكة.

مقتل علي رضي الله عنه

قتل علي رضي الله عنه سنة أربعين لسبع عشرة من رمضان وقيل: لأحدى عشرة وقيل: في ربيع الآخر والأول أصح، وكان سبب قتله أن عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي الصريمي واسمه الحجاج وعمرو بن بكر التميمي السعدي: ثلاثتهم من الخوارج لحقوا من فلهم بالحجاز، واجتمعوا فتذاكروا ما فيه الناس وعابوا الولاة وترحموا على قتلى النهروان، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلال وأرحنا منهم الناس.

فقال ابن ملجم -وكان من مصر- أنا أكفيكم علياً، وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر التميمي: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. وتعاهدوا أن لا يرجع أحد عن صاحبه حتى يقتله أو يموت. واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وانطلقوا. ولقي ابن ملجم أصحابه بالكوفة فطوى خبره عنهم، ثم جاء إلى شبيب بن شجرة من أشجع ودعاه إلى الموافقة في شأنه، فقال شبيب: ثكلتك أمك فكيف تقدر على قتله؟ قال أكمن له في المسجد في صلاة الغداة فإن قتلناه وإلا فهي الشهادة قال ويحك لا أجدني أنشرح لقتله مع سابقته وفضله، قال ألم يقتل العباد الصالحين أهل النهروان؟ قال بلى! قال فنقتله بمن قتله منهم، فأجابه.

ثم لقي امرأة من تيم الرباب فائقة الجمال قتل أبوها وأخوها يوم النهروان، فأخذت قلبه فخطبها فشرطت عليه عبداً وقينة وقتل علي، فقال كيف يمكن ما أنت تريدين؟ قالت التمس غرته فإن قتلته شفيت النفوس وإلا فهي الشهادة. قال: والله ما جئت إلا لذلك ولك ما سألت، قالت: سأبعث معك من يشد ظهرك ويساعدك، فبعثت معه رجلاً من قومها اسمه وردان. فلما كانت الليلة التي واعد ابن ملجم أصحابه على قتل علي وكانت ليلة الجمعة جاء إلى المسجد ومعه شبيب ووردان وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي للصلاة، فلما خرج ونادى للصلاة علاه شبيب بالسيف فوقع بعضادة الباب، وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه، وقال: الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك. وهرب وردان إلى منزله وأخبر بعض أصحابه بالأمر فقتله. وهرب شبيب مغلساً. وصاح الناس به فلحقه رجل من حضرموت فأخذه وجلس عليه والسيف في يد شبيب والناس قد أقبلوا في طلبه، وخشي الحضرمي على نفسه لاختلاط الغلس فتركه وذهب في غمار الناس.

وشد الناس على ابن ملجم واستخلف علي على الصلاة جعدة بن هبيرة وهو ابن أخته أم هانئ فصلى الغداة بالناس، وادخل ابن ملجم مكتوفاً على علي فقال: أيه عدو الله ما حملك على هذا؟ قال شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال أراك مقتولاً به! ثم قال إن هلكت فاقتلوه كما قتلني وإن بقيت رأيت فيه رأيي، يابني عبد المطلب لا تحرضوا على دماء المسلمين وتقولوا قتل أمير المؤمنين لا تقتلوا إلا قاتلي.

يا حسن أنا إن مت من ضربتي هذه فاضربه بسيفه ولا تمثلن بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «إياكم والمثلة».

وقالت أم كلثوم لابن ملجم وهو مكتوف وهي تبكي: أي عدو الله لا بأس على أبي والله مخزيك قال فعلام تبكين؟ والله لقد شريته بألف وصقلته أربعين ولو كانت هذه الضربة بأهل بلد ما بقي منهم أحد.

وقال جندب بن عبد الله لعلي أنبايع الحسن إن فقدناك؟ قال ما آمركم به ولا أنهاكم انتم أبصر، ثم دعا الحسن والحسين ووصاهما قال: أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ولا تأسفا على شيء إن زوى منهما عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم واعينا الضائع وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم. ثم قال لمحمد ابن الحنفية إني أوصيك بمثل ذلك وبتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك ولا تقطع أمراً دونهما، ثم وصاهما بابن الحنفية، ثم أعاد على الحسن وصيته. ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ولم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض.

وأحضر الحسن ابن ملجم فقال له هل لك البقاء علي: وإني قد عاهدت الله أن اقتل علياً ومعاوية، وإني عاهدت الله على الوفاء بالعهد فخل بيني وبين ذلك فإن قتلته وبقيت فلك عهد الله أن آتيك، فقال: لا والله حتى تعاين النار ثم قدمه فقتله. وأما البرك فإنه قصد لمعاوية تلك الليلة فلما خرج للصلاة ضربه بالسيف في إليته وأخذ فقال: عندي بشرى أتنفعني إن أخبرتك بها؟ قال نعم. قال إن أخا لي قتل علياً هذه الليلة، قال فلعله لم يقدر عليه، قال بلى إن علياً ليس معه حرس، فأمر به معاوية فقتل، وأحضر الطبيب فقال: ليس إلا الكي أو شربة تقطع منك الولد. فقال: في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني والنار لا صبر لي عليها.

وقد قيل إنه أمر بقطع البرك فقطع وأقام إلى أيام زياد فقتله بالبصرة، وعند ذلك اتخذ معاوية المقصورة وحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد. ويقال إن أول من اتخذ المقصورة مروان بن الحكم سنة أربع وأربعين حين طعنه اليماني. وأما عمرو بن بكر فأنه جلس إلى عمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكى فأمر صاحب شرطته خارجة بن أبي حبيبة بن عامر بن لؤي يصلي بالناس فشد عليه فضربه فقتله وهو يرى أنه عمرو بن العاص، فلما أخذوه وأدخلوه على عمرو قال: فمن قتلت إذاً؟ قالوا خارجة فقال لعمرو بن العاص والله ما ظننته غيرك! فقال عمرو: أردت عمراً وأراد الله خارجة. وأمر بقتله.

وتوفي علي رضي الله عنه وعلى البصرة عبد الله بن عباس وعلى قضائها أبو الأسود الدؤلي وعلى فارس زياد بن سمية وعلى اليمن عبيد الله بن العباس حتى وقع أمر بسر بن أبي أرطاة، وعلى مكة والطائف قثم بن العباس وعلى المدينة أبو أيوب الأنصاري وقيل سهل بن حنيف.

بيعة الحسن وتسليمه الأمر لمعاوية

ولما قتل علي رضي الله عنه اجتمع أصحابه فبايعوا ابنه الحسن، وأول من بايعه قيس بن سعد وقال: أبسط يدك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال الملحدين. فقال الحسن: على كتاب الله وسنة رسوله. ويأتيان على كل شرط. ثم بايعه الناس فكان يشترط عليهم إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت، فارتابوا وقالوا: ما هذا لكم بصاحب وما يريد القتال. وبلغ الخبر بمقتل علي إلى معاوية فبويع بالخلافة ودعي بأمير المؤمنين، وكان قد بويع بها بعد اجتماع الحكمين. ولأربعين ليلة بعد مقتل علي مات الأشعث بن قيس الكندي من أصحابه، ثم مات من أصحابه معاوية شرحبيل بن السمط الكندي. وكان علي قبل قتله قد تجهز بالمسلمين إلى الشام، وبايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت.

فلما بويع الحسن زحف معاوية في أهل الشام إلى الكوفة فسار الحسن في ذلك الجيش للقائه وعلى مقدمته قيس بن سعد في إثني عشر ألفا، وقيل بل كان عبد الله بن عباس على المقدمة وقيس في طلائعه. فلما نزل الحسن في المدائن شاع في العسكر إن قيس بن سعد قتل، واهتاج الناس وماج بعضهم في بعض وجاءوا إلى سرادق الحسن ونهبوا ما حوله حتى نزعوه بساطه الذي كان عليه واستلبوه رداءه وطعنه بعضهم في فخذه. وقامت ربيعة وهمدان دونه واحتملوه على سرير إلى المدائن ودخل إلى القصر وكاد أمره أن ينحل، فكتب إلى معاوية يذكر له النزول عن الأمر على أن يعطيه ما في بيت المال بالكوفة ومبلغه خمسة آلاف ألف، ويعطيه خراج دار ابجرد من فارس وأن لا يشتم علياً وهو يسمع، وأخبر بذلك أخاه الحسين وعبد الله بن جعفر وعذلاه فلم يرجع إليهما. وبلغت صحيفته إلى معاوية فأمسكها وكان قد بعث عبد الله بن عامر وعبد الله بن سمرة إلى الحسن ومعهما صحيفة بيضاء ختم في أسفلها وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فهو لك فاشترط فيها أضعاف ما كان في الصحيفة، فلما سلم له وطالبه في الشروط أعطاه ما في الصحيفة الأولى وقال: هو الذي طلبت. ثم نزعه أهل البصرة خراج دار ابجرد وقالوا: هو فيئنا لا نعطيه.

وخطب الحسن أهل العراق وقال سخى نفسي عنكم ثلاث: قتل أبي وطعني وانتهاب بيتي، ثم قال الا وقد أصبحتم بين قبيلتين قبيل بصفين يبكون له وقبيل بالنهروان يطلبون بثأره وأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى اللّه بضبي السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى. فناداه الناس من كل جانب الباقية البقية فأمضي الصلح. ثم بايع لمعاوية لستة أشهر من بيعته. ودخل معاوية الكوفة وبايعه الناس، وكتب الحسن إلى قيس بن سعد يأمره بطاعة معاوية فقام قيس في أصحابه فقال: نحن بين القتال مع غير إمام أو طاعة إمام ضلالة، فقال له الناس: طاعة الإمام أولى.

وانصرفوا إلى معاوية فبايعوه وامتنع قيس وانصرف. فلما دخل معاوية الكوفة أشار عليه عمرو بن العاص أن يقيم الحسن للناس خطيباً ليبدو للناس عيه، فلما قدم حمد اللّه وقال: أيها الناس إن اللّه هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وإن هذا الأمر مدة وإن الدنيا دول واللّه عز وجل يقول لنبيه: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ فقال له معاوية: اجلس! وعرف أنه خدع في رأيه.

ثم ارتحل الحسن في أهل بيته وحشمهم إلى المدينة وخرج أهل الكوفة لوداعه باكين، فلم يزل مقيماً بالمدينة إلى أن هلك سنة تسع وأربعين. وقال أبو الفرج الأصبهاني سنة إحدى وخمسين على فراشه بالمدينة، وما ينقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة وحاشا لمعاوية من ذلك.

وأقام قيس بن سعد على امتناعه من البيعة وكان معاوية قد بعث عبد اللّه بن عامر في جيش إلى عبيد اللّه بن عباس لما كتب إليه في الأمان بنفسه، فلقيه ليلاً وأمنه وسار معه إلى معاوية، فقام بأمر العسكر بعده قيس بن سعد وتعاقدوا على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة علي على دمائهم وأموالهم وما كانوا أصابوا في الفتنة، وبلغ الخبر إلى معاوية وأشار عليه عمرو في قتاله، فقال معاوية: يقتل في ذلك أمثالهم من أهل الشام ولا خير فيه. ثم بعث إليه بصحيفة ختم في أسفلها وقال: اكتب في هذا ما شئت فهو لك: فكتب قيس له ولشيعته الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل مالاً فأعطاه معاوية ذلك وبايعه قيس والشيعة الذين معه، ثم جاء سعد بن أبي وقاص فبايعه. واستقر الأمر لمعاوية واتفق الجماعة على بيعته وذلك في منتصف سنة إحدى وأربعين وسمي ذلك العام عام الجماعة من أجل ذلك.

ثم خرج عليه الخوارج من كل جهة من بقية أهل النهروان وغيرهم فقاتلهم واستلحمهم كما يأتي في أخبارهم على ما اشترطناه في تآليفنا من أفراد الأخبار عن الدول وأهل النحل دولة دولة وطائفة طائفة. وهذا آخر الكلام في الخلافة الإسلامية وما كان فيها من الردة والفتوحات والحروب ثم الاتفاق والجماعة أوردتها ملخصة عيونها ومجامعها من كتاب محمد بن جرير الطبري وهو تاريخه الكبير فإنه أوثق ما رأيناه في ذلك، وأبعد من المطاعن عن الشبه في كبار الأمة وخيارهم وعدولهم من الصحابة رضي اللّه عنهم والتابعين، فكثيرا ما يوجد في كلام المؤرخين أخبار فيها مطاعن وشبه في حقهم أكثرها من أهل الأهواء فلا ينبغي أن تسود بها العيون، (واتبعتها) بمفردات من غير كتاب الطبري بعد أن تحريت الصحيح جهد الطاقة وإذا ذكرت شيئاً في الأغلب نسبته إلى قائله.

وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة، ولا ينظر في ذلك إلى حديث: الخلافة بعدي ثلاثون سنة فإنه لم يصح، والحق إن معاوية في عداد الخلفاء وإنما أخره المؤرخون في التآليف عنهم لأمرين:

الأول إن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدمناه من العصبية التي حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختياراً واجتماعاً فميزوا بين الحالتين، فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبهون بعضهم ببعض وحاشى اللّه أن يشبه معاوية بأحد ممن بعده، فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المروانية ممن تلاه في المرتبة كذلك وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة فكيف يكون خليفة ملكاً.

واعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتية والمعبر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلا ينافي الخلافة ولا النبوة فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات اللّه عليهما نبيين وملكين وكانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربهما عز وجل. ومعاوية لم يطلب الملك ولا أبهته للإستكثار من الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبية بطبعها لما استولى المسلمون على الدولة كلها وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستعمل العصبية وتدعو لطبيعة الملك.

وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استعمال أحكامه ودواعيه، والقانون في ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار لا بالواهي، فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبي ﷺ في المسلمين، ومن خرجت أفعاله من ذلك فهو من ملوك الدنيا وإن سمي خليفة في المجاز.

الأمر الثاني: في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة أنهم كانوا أهل نسب واحد عظيمهم معاوية، فجعل مع أهل نسبه، والخلفاء الأولون مختلفو الأنساب فجعلوا في نمط واحد والحق بهم عثمان وإن كان من أهل هذا النسب للحوقه بهم قريباً في الفضل والله يحشرنا في زمرتهم ويرحمنا بالاقتداء بهم.

تمت تكملة الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وأوله.

الخبر عن الدول الإسلامية ونبدأ منها بدولة بني أمية معقبة لخلفاء صدر الإسلام وذكر أوليتهم وأخبار دولهم واحدة واحدة إلى انقضائها

دولة بني أمية

كان لبني عبد مناف في قريش جمل من العدد والشرف. لا يناهضهم فيها أحد من سائر بطون قريش. وكان فخذاهم بنو أمية وبنو هاشم حياً جميعاً ينتمون لعبد مناف وينسبون إليه. وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليهم إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً، والعزة إنما هي بالكثرة، قال الشاعر: وإنما العزة للكاثر.

وكان لهم قبيل الإسلام شرف معروف انتهى إلى حرب بن أمية وكان رئيسهم في حرب الفجار. وحدث الإخباريون أن قريشاً تواقعوا ذات يوم وحرب هذا مسند ظهره إلى الكعبة فتبادر إليه غلمة منهم ينادون يا عم أدرك قومك، فقام يجر إزاره حتى أشرف عليهم من بعض الربا ولوح بطرف ثوبه إليهم أن تعالوا فبادرت الطائفتان إليه بعد أن كان حمي وطيسهم.

ولما جاء الإسلام دهش الناس لما وقع من أمر النبوة والوحي وتنزل الملائكة، وما وقع من خوارق الأمور ونسي الناس أمر العصبية مسلمهم وكافرهم. أما المسلمون فنهاهم الإسلام عن أمور الجاهلية كما في الحديث « أن الله اذهب عنكم عُبِيَّةَ الجاهلية وفخرها لأننا وأنتم بنو آدم وآدم من تراب » . وأما المشركون فشغلهم ذلك الأمر العظيم عن شأن العصائب وذهلوا عنه حيناً من الدهر.

ولذلك لما افترق أمر بني أمية وبني هاشم بالإسلام. إنما كان ذلك الافتراق بحصار بني هاشم في الشعب لا غير. ولم يقع كبير فتنة لأجل نسيان العصبيات والذهول عنها بالإسلام حتى كانت الهجرة وشرع الجهاد. ولم يبق إلا العصبية الطبيعية التي لا تفارق وهي بعزة الرجل على أخيه وجاره في القتل والعدوان عليه فهذه لا يذهبها شيء ولا هي محظورة بل هي مطلوبة ونافعة في الجهاد والدعاء إلى الدين. ألا ترى إلى صفوان بن أمية وقوله عندما انكشف المسلمون يوم حنين وهو يومئذ مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ، فقال له أخوه: ألا بطل السحر اليوم؟ فقال له صفوان: اسكت! فض الله فاك لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن.

ثم إن شرف بني عبد مناف لم يزل في بني عبد شمس وبني هاشم. فلما هلك أبو طالب وهاجر بنوه مع رسول الله ﷺ وحمزة كذلك. ثم من بعده العباس والكثير من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم خلا الجو حينئذ من مكان بني هاشم بمكة واستغلظت رياسة بني أمية في قريش، ثم استحكمتها مشيخة قريش من سائر البطون في بدر وهلك فيها عظماء بني عبد شمس: عتبة وربيعة والوليد وعقبة بن أبي معيط وغيرهم. فاستقل أبو سفيان بشرف بني أمية والتقدم في قريش، وكان رئيسهم في أحدٍ وقائدهم في الأحزاب وما بعدها.

ولما كان الفتح قال العباس للنبي ﷺ لما أسلم أبو سفيان ليلتئذ، كما هو معروف وكان صديقاً له: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له ذكراً، فقال: « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ثم منَّ على قريش بعد أن ملكهم يومئذ وقال: « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وأسلموا.

وشكت مشيخة قريش بعد ذلك لأبي بكر ما وجدوه في أنفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين الأولين، وما بلغهم من كلام عمر في تركه شوارهم فاعتذر لهم أبو بكر وقال: أدركوا إخوانكم بالجهاد وأنفذهم لحروب الردة فأحسنوا الغناء عن الإسلام وقوموا الأعراب عن الحيف والميل. ثم جاء عمر فرمى بهم الروم وأرغب قريشاً في النفير إلى الشام فكان معظمهم هنالك. واستعمل يزيد بن أبي سفيان على الشام وطال أمد ولايته إلى أن هلك في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة فولى مكانه أخاه معاوية وأقره عثمان من بعد عمر فاتصلت رياستهم على قريش في الإسلام برياستهم قبيل الفتح التي لم تحل صبغتها ولا ينسى عهدها أيام شغل بني هاشم بأمر النبوة ونبذوا الدنيا من أيديهم بما اعتاضوا عنها من مباشرة الوحي وشرف القرب من الله برسوله.

وما زال الناس يعرفون ذلك لبني أمية. وانظر مقالة حنظلة بن زياد الكاتب لمحمد بن أبي بكر: أن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبك عليه بنو عبد مناف.

ولما هلك عثمان واختلف الناس على عليٍّ كانت عساكر علي أكثر عدداً لمكان الخلافة والفضل إلا أنها من سائر القبائل من ربيعة ويمن وغيرهم. وجموع معاوية إنما هي جند الشام من قريش شوكة مضر وبأسهم نزلوا بثغور الشام منذ الفتح فكانت عصبيته أشد وأمضى شوكة. ثم كسر من جناح عليٍّ ما كان من أمر الخوارج وشغله بهم إلى أن ملك معاوية وخلع الحسن نفسه واتفقت الجماعة على بيعة معاوية في منتصف سنة إحدى وأربعين عندما نسي الناس شأن النبوة والخوارق ورجعوا إلى أمر العصبية والتغالب وتعين بنو أمية للغلب على مضر وسائر العرب ومعاوية يومئذ كبيرهم.

فلم تتعده الخلافة ولا ساهمه فيها غيره فاستوت قدمه واستفحل شأنه واستحكمت في أرض مصر رياسته وتوثق عقده. وأقام في سلطانه وخلافته عشرين سنة ينفق من بضاعة السياسة التي لم يكن أحد من قوقه أوفر فيها منه يداً من أهل الترشيح من ولد فاطمة وبني هاشم وآل الزبير وأمثالهم ويصانع رؤوس العرب وقروم مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه. وكانت غايته في الحلم لا تدرك وعصابته فيها لا تنزع ومرقاته فيها تزل عنها الأقدام.

ذكر أنه مازح عدي بن حاتم يوماً يؤنبه بصحبة علي فقال له عدي: والله إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا وإن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ولئن أدنيت إلينا من الغدر شبراً لندنين إليك من الشر باعاً وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم، لأهون علينا من أن نسمع المساءة في عليٍّ فشم السيف يا معاوية يبعث السيف. فقال معاوية: هذه كلمات حق فاكتبوها وأقبل عليه ولاطفه وتحادثا وأخباره في الحلم كثيرة.

بعث معاوية العمال إلى الأمصار

لما استقلّ معاوية بالخلافة عام عدم الجماعة بعث العمال إلى الأمصار، فبعث على الكوفة المغيرة بن شعبة. ويقال إنه ولى عليها أولاً عبد الله بن عمرو بن العاص فأتاه المغيرة متنصحاً وقال عمرو بمصر وابنه بالكوفة فأنت بين نابي أسد فعزله وولى المغيرة. وبلغ ذلك عمراً فقال لمعاوية: يختان المال فلا تقدر على رده فعد فاستعمل من يخافك. فنصب المغيرة على الصلاة وولى على الخراج غيره، وكان على القضاء شريح.

ولما ولّى المغيرة على الكوفة استعمل كُثَيِّر بن شهاب على الري وأقره زياد بعده. وكان يغزو الديلم. ثم بعث على البصرة بسر بن أرطاة وكان قد تغلب عليها حمران بن زيد عند صلح الحسن مع معاوية فبعث بسراً عليها فخطب الناس وتعرض لعلي. ثم قال: نشدت الله رجلاً يعلم أني صادق أو كاذب ولا صدقني أو كذبني. فقال أبو بكرة: اللّهم لا نعلمك إلا كاذباً فأمر به فخنق. فقام أبو لؤلؤة الضبي فدفع عنه. وكان على فارس من أعمال البصرة زياد ابن أبيه. وبعث إليه معاوية يطلبه في المال فقال: صرفت بعضه في وجهه واستودعت بعضه للحاجة إليه وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمه الله. فكتب إليه معاوية بالقدوم لينظر في ذلك فامتنع. فلما ولي بسر على البصرة جمع عنده أولاد زياد والأكابر عبد الرحمن وعبد الله وعباد وكتب إليه لتقدمن أو لأقتلن بنيك فامتنع واعتزم بسر على قتلهم فأتاه أبو بكرة وكان أخا زياد لأمه فقال: أخذتهم بلا ذنب.

وصالح الحسن على أصحاب علي حيث كانوا فأمهله بسر إلى أن يأتي بكتاب معاوية. ثم قدم أبو بكرة على معاوية وقال: إن الناس لم يبايعوك على قتل الأطفال وإن بسراً يريد قتل بني زياد! فكتب إليه بتخليتهم وجاء إلى البصرة يوم المهاد ولم يبق منه إلا ساعة وهم موثقون للقتل فأدركهم وأطلقهم انتهى.

ثم عزل معاوية بسراً عن البصرة وأراد أن يولي عتبة بن أبي سفيان فقال له ابن عامر: إن لي بالبصرة أموالاً وودائع وإن لم تولني عليها ذهبت. فولاه وجعل إليه معها خراسان وسجستان وقدمها سنة إحدى وأربعين فولي على خراسان قيس بن الهيثم السلمي وكان أهل بلخ وباذغيس وهراة وبوشنج قد نضوا، فسار إلى بلخ وحاصرها حتى سألوا الصلح وراجعوا الطاعة. وقيل إنما صالحهم الربيع بن زياد سنة إحدى وخمسين على ما سيأتي.

ثم قدم قيس على ابن عامر فضربه وحبسه وولى مكانه عبد الله بن حازم، وقدم خراسان فأرسل إليه أهل هراة وباذغيس وبوشنج في الأمان والصلح فأجابهم وحمل لابن عامر مالاً انتهى. ثم ولى معاوية سنة اثنتين وأربعين على المدينة مروان بن الحكم وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام. واستقضى مروان عبد الله بن الحارث بن نوفل وعزل مروان عن المدينة سنة تسع وأربعين وولى مكانه سعيد بن العاص وذلك لثمان سنين من ولايته. وجعل سعيد على القضاء ابن عبد الرحمن مكان عبد الله بن الحارث ثم عزل معاوية سعيد سنة أربع وخمسين ورد إليها مروان.

قدوم زياد

وكان زياد قد امتنع بفارس بعد مقتل علي كما قدمناه وكان عبد الرحمن ابن أخيه أبي بكرة يلي أمواله بالبصرة ورفع إلى معاوية أن زياداً استودع أمواله عبد الرحمن فبعث إلى المغيرة بالكوفة أن ينظر في ذلك فأحضر عبد الرحمن وقال له: إن يكن أبوك أساء إلي فقد أحسن عمك وأحسن العذر عند معاوية.

ثم قدم المغيرة على معاوية فذكر له ما عنده من الوجل باعتصام زياد بفارس فقال: داهية العرب معه أموال فارس يدبر الحيل فما آمن أن يبايع لرجل من أهل البيت ويعيد الحرب خدعة، فاستأذنه المغيرة أن يأتيه ويتلطف له ثم أتاه وقال: إن معاوية بعثني إليك وقد بايعه الحسن ولم يكن هناك غيره فخذ لنفسك قبل أن يستغني معاوية عنك. قال: أشر علي والمستشار مؤتمن. فقال: أرى أن تشخص إليه وتصل حبلك بحبله وترجع عنه. فكتب إليه معاوية بأمانه.

وخرج زياد من فارس نحو معاوية ومعه المنجاب بن رابد الضبي وحارثة بن بدر الغداني، واعترضه عبد الله بن حازم في جماعة وقد بعثه ابن عامر ليأتيه به. فلما رأى كتاب الأمان تركه وقدم على معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق وبما حمل إلى علي وبما بقي عنده مودعاً للمسلمين فصدقه معاوية وقبضه منه. ويقال: إنه قال له: أخاف أن تكون مكروباً بي فصالحني فصالحه على ألفي ألف درهم بعث بها إليه واستأذنه في نزول الكوفة فأذن له. وكان المغيرة يكرمه ويعظمه وكتب إليه معاوية أن يلزم زياداً وحجر بن عدي وسليمان بن صرد وسيف بن ربعي وابن الكوا وابن الحميق بالصلاة في الجماعة فكانوا يحضرون معه الصلوات.

عمّال ابن عامر على الثغور

لما ولي ابن عامر على البصرة استعمل عبد الرحمن بن سمرة على سجستان فأتاها وعلى شرطتها عباد بن الحصين ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر وغيره. وكان أهل البلاد قد كفروا. ففتح أكثرها حتى بلغ كابل وحاصرها أشهراً ونصب عليها المجانيق حتى ثلم سورها ولم يقدر المشركون على سد الثلمة. وبات عباد بن الحسين عليها يطاعنهم إلى الصبح، ثم خرجوا من الغد للقتال فهزمهم المسلمون ودخلوا البلدة عنوة اهـ.

ثم سار إلى نسف فملكها عنوة ثم إلى حسك فصالحه أهلها ثم إلى الرخج فقاتلوه وظفر بهم وفتحها اهـ. ثم إلى زابلستان وهي غزنة وأعمالها ففتحها ثم عاد إلى كابل وقد نكث أهلها ففتحها اهـ. واستعمل على ثغر الهند عبد الله بن سوار العبدي، ويقال: بل ولاه معاوية من قبله فغزا التيعان فأصاب مغنماً ووفد على معاوية وأهدى له من خيولها، ثم عاد إلى غزوهم فاستنجدوا بالترك وقتلوه، وكان كريماً في الغاية. يقال: لم يكن أحد يوقد النار في عسكره، وسأل ذات ليلة عن نار رآها فقيل له خبيص يصنع لنفساء فأمر أن يطعم الناس الخبيص ثلاثة أيام.

واستعمل على خراسان قيس بن الهيثم فتغافل بالخراج والهدنة فولى مكانه عبد الله بن حاتم. فخاف قيساً وأقبل فزاد ابن عامر غضباً لتضييعه الثغر وبعث مكانه رجلاً من يشكر وقيل: أسلم بن زرعة الكلابي اهـ.

ثم بعث عبد الله بن حازم وقيل: إن ابن حازم قال لابن عامر: إن قيساً لا ينهض بخراسان وأخاف إن لقي قيس حرباً أن ينهزم ويفسد خراسان، فاكتب لي عهداً إن عجز عن عدو قمت مقامه. فكتب وخرجت خارجة من طخارستان فأشار ابن حازم عليه أن يتأخر حتى يجتمع عليه الناس فلما سار غير بعيد أخرج ابن حازم عهده وقام بأمر الناس وهزم العدو. وبلغ الخبر إلى الأمصار فغضبت أصحاب قيس وقالوا: خدع صاحبنا، وشكوا إلى معاوية فاستقدمه فاعتذر فقبل منه، وقال له: أقم في الناس بعذرك ففعل اهـ. وفي سنة ثلاث وأربعين توفي عمرو بن العاص بمصر فاستعمل معاوية عبد الله ابنه.

عزل ابن عامر

وكان ابن عامر حليماً ليناً للسفهاء فطرق البصرة الفساد من ذلك. وقال له زياد: جرّد السيف فقال: لا أصلح الناس بفساد نفسي. ثم بعث وفداً من البصرة إلى معاوية فوافقوا عنده وفد الكوفة ومنهم ابن الكوا وهو عبد الله بن أبي أوفى اليشكري. فلما سألهم معاوية عن الأمصار أجابه ابن الكوا بعجز ابن عامر وضعفه فقال معاوية: تكلم على أهل البصرة وهم حضور، وبلغ ذلك ابن عامر فغضب وولى على خراسان من أعداء ابن الكوا عبد الله بن أبي شيخ اليشكري أو طفيل بن عوف فسخر منه ابن الكوا لذلك وقال: وددت أنه ولى كل يشكري من أجل عداوتي.

ثم إن معاوية استقدم ابن عامر فقدم وأقام أياماً فلما ودعه قال: إني سائلك ثلاثاً قال هن لك، قال: ترد علي عملي ولا تغضب وتهب لي مالك بعرفة ودورك بمكة، قال: قد فعلت. قال:

وصلتك رحم، فقال ابن عامر: وإني سائلك ثلاثاً: ترد علي عملي بعرفة ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع لي أثراً وتنكحني إبنتك هنداً. قال قد فعلت! ويقال: إن معاوية خيره بين أن يرده على اتباع أثره وحسابه بما سار إليه أو يعزله ويسوغه ما أصاب. فاختار الثالثة فعزله وولى مكانه الحارث بن عبد الله الأسدي.

استخلاف زياد

كانت سمية أم زياد مولاة للحارث بن كندة الطبيب وولدت عنده أبا بكرة ثم زوجها بمولى له وولدت زياداً. وكان أبو سفيان قد ذهب إلى الطائف في بعض حاجاته فأصابها بنوع من أنكحة الجاهلية. وولدت زياداً هذا، ونسبه إلى أبي سفيان وأقر لها به، إلا أنه كان بخفية، ولما شب زياد سمت به النجابة. واستكتبه أبو موسى الأشعري وهو على البصرة، واستكفاه عمر في أمر فحسن منار دينه وحضر عنده يعلمه بما صنع، فأبلغ ما شاء في الكلام. فقال عمرو بن العاص - وكان حاضراً -: لله هذا الغلام، لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه. قال أبو سفيان وعليٌّ يسمع: والله إني لأعرف أباه ومن وضعه في رحم أمه، فقال له علي: اسكت فلو سمع عمر هذا منك كان إليك سريعاً. ثم استعمل علي زياداً على فارس فضبطها وكتب إليه معاوية يتهدده ويعرض له بولادة أبي سفيان إياه فقام في الناس فقال: عجباً لمعاوية يخوفني دين ابن عم الرسول في المهاجرين والأنصار.

وكتب إليه علي: إني وليتك وأنا أراك أهلاً وقد كان من أبي سفيان فلتة من آمال الباطل وكذب النفس، لا توجب ميراثاً ولا نسباً. ومعاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام اهـ.

ولما قتل علي وصالح زياد معاوية وضع مصقلة بن هبيرة الشيباني على معاوية ليعرض له بنسب أبي سفيان ففعل، ورأى معاوية أن يستميله باستلحاقه فالتمس الشهادة بذلك ممن علم لحوق نسبه بأبي سفيان فشهد له رجال من أهل البصرة وألحقه، وكان أكثر شيعة علي ينكرون ذلك وينقمونه على معاوية حتى أخوه أبو بكرة.

وكتب زياد إلى عائشة في بعض الأحيان من زياد بن أبي سفيان يستدعي جوابها بهذا النسب ليكون له حجة فكتبت إليه: من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد. وكان عبد الله بن عامر يبغض زياداً وقال يوماً لبعض أصحابه من عبد القيس: ابن سمية يقبح آثاري ويعترض عمالي لقد هممت بقسامة من قريش أن أبا سفيان لم ير سميَّة. فأخبر زياد بذلك فأخبر به معاوية. فأمر حاجبه أن يرده من أقصى الأبواب وشكا ذلك إلى يزيد، فركب معه فأدخله على معاوية فلما رآه قام من مجلسه ودخل إلى بيته. فقال يزيد: نقعد في انتظاره فلم يزالا حتى عدا ابن عامر فيما كان منه من القول، وقال: إني لا أتكثر بزياد من قلة ولا أتعزز به من ذلة ولكن عرفت حق الله فوضعته موضعه فخرج ابن عامر وترضّى زياداً ورضًى له معاوية.

ولاية زياد البصرة

كان زياد بعد صلح معاوية واستلحاقه نزل الكوفة وكان يتشوف الإمارة عليها.فاستثقل المغيرة ذلك منه فاستعفى معاوية من ولاية الكوفة فلم يعفه. فيقال: إنه خرج زياد إلى الشام، ثم إن معاوية عزل الحارث بن عبد الله الأزدي عن البصرة وولى عليها زياداً سنة خمس وأربعين. وجمع له خراسان وسجستان. ثم جمع له السند والبحرين وعمان، وقدم البصرة فخطب خطبته البتراء وهي معروفة. وإنما سميت البتراء لأنه لم يفتتحها بالحمد والثناء، فحذرهم في خطبته ما كانوا عليه من الانهماك في الشهوات والاسترسال في الفسق والضلال، وانطلاق أيدي السفهاء على الجنايات وانتهاك الحرم وهم يدنون منهم، فأطال في ذلك. عنّفهم ووبخهم وعرفهم ما يجب عليهم من الطاعة من المناصحة والانقياد للأمة. وقال: لكم عندي ثلاث: لا أحتجب عن طالب حاجة ولو طرقني ليلاً. ولا أحبس العطاء عن إبانه ولا أجر البعوث. فلما فرغ من خطبته قال له عبد الله بن الأيهم: أشهد أنك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب. قال: كذبت ذاك نبي الله داود.

ثم استعمل على شرطته عبد الله بن حصين وأمره أن يمنع الناس من الولوج بالليل. وكان قد قال في خطبته: لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه. وكان يأمر بقراءة سورة البقرة بعد صلاة العشاء مؤخرة. ثم يمهل بقدر ما يبلغ الرجل أقصى البصرة. ثم يخرج صاحب الشرطة فلا يجد أحداً إلا قتله، وكان أول من شدد أمر السلطان وشيد الملك فجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه السفهاء والدعار وأمن الناس على أنفسهم ومتاعهم حتى كان الشيء يسقط من يد الإنسان فلا يتعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه ولا يغلق أحد بابه، وأدر العطاء واستكثر من الشرط فبلغوا أربعة آلاف.

وسئل في إصلاح السابلة فقال: حتى أصلح المصر. فلما

ضبطه أصلح ما وراءه، وكان يستعين بعدة من الصحابة منهم عمران بن حصين ولاه قضاء البصرة فاستعفى، فولى مكانه عبد اللّه بن فضالة الليثي، ثم أخاه عاصماً، ثم زرارة بن أوفى وكانت أخته عند زياد، وكان يستعين بأنس بن مالك وعبد الرحمن بن سمرة وسمرة بن جندب. ويقال: إن زياداً أول من سير بين يديه بالحراب والعمد، واتخذ الحرس رابطة، فكان خمسمائة منهم لا يفارقون المسجد. ثم قسم ولاية خراسان على أربعة فولى على مرو أمين بن أحمد اليشكري، وعلى نيسابور خليد بن عبد اللّه الحنفي وعلى مرو الروذ والعاريات والطالقان قيس بن الهيثم. وعلى هراة وباذغيس وبوشنج نافع بن خالد الطائي. ثم إن نافعاً بعث إليه بجواد باهر غنمه في بعض وجوهه، وكانت قوائمه منه، فأخذ منها قائمة وجعل مكانها أخرى ذهباً وبعث الجواد مع غلامه زيد وكان يتولى أموره فسعى فيه عند زياد بأمر تلك القائمة فعزله وحبسه، وأغرمه مائة ألف كتب عليه بها كتاباً، وقيل: ثمانمائة ألف. وشفع فيه رجال من الأزد فأطلقه. واستعمل مكانه الحكم بن عمرو الغفاري وجعل معه رجالاً على الجباية منهم أسلم بن زرعة الكلابي. وغزا الحكم طخارستان فغنم غنائم كثيرة. ثم سار سنة سبع وأربعين إلى جبال الغور، وكانوا قد ارتدوا، ففتح وغنم وسبى وعبر النهر في ولايته إلى ما وراءه. فملأه غارة. ولما رجع من غزاة الغور مات بمرو واستخلف على عمله أنس بن أبي إياس بن ربين فلم يرضه زياد. وكتب إلى خليد بن عبد اللّه الحنفي بولاية خراسان، ثم بعث الربيع بن زياد المحاربي في خمسين ألفاً من البصرة والكوفة.

صوائف الشام

ودخل المسلمون سنة اثنتين وأربعين إلى بلاد الروم فهزموهم وقتلوا جماعة من البطارقة وأثخنوا فيها. ثم دخل بسر بن أرطاة أرضهم سنة ثلاث وأربعين ومشى بها وبلغ القسطنطينية. ثم دخل عبد الرحمن بن خالد وكان على حمص فشتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة في البحر. ثم دخل عبد الرحمن إليها سنة ست وأربعين فشتى بها، وشتى أبو عبد الرحمن السبيعي على أنطاكية. ثم دخلوا سنة ثمان وأربعين فشتى عبد الرحمن بانطاكية أيضاً، ودخل عبد اللّه بن قيس الفزاري في تلك السنة بالصائفة. وغزاهم مالك بن هبيرة اليشكري في البحر وعقبة بن عامر الجهني في البحر أيضاً بأهل مصر وأهل المدينة. ثم دخل مالك بن هبيرة سنة تسع وأربعين فشتى بأرض الروم ودخل عبد اللّه بن كرز الجيلي بالصائفة وشتى يزيد بن ثمرة الرهاوي في بلاد الروم بأهل الشام في البحر. وعقبة بن نافع بأهل مصر كذلك.

ثم بعث معاوية سنة خمسين جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم مع سفيان بن عوف، وندب يزيد ابنه معهم فتثاقل فتركه. ثم بلغ الناس أن الغزاة أصابهم جوع ومرض وبلغ معاوية أن يزيد أنشد في ذلك:

ما إن أبالي بما لاقت جموعهم ... بالفدفد البيد من حمى ومن شوم
إذا اتطأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مران عندي أم كلثوم

وهي امرأته بنت عبد اللّه بن عامر فحلف ليلحقن بهم فسار في جمع كثير جمعهم إليه معاوية. فيهم ابن عباس وابن عامر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري فأوغلوا في بلاد الروم وبلغوا القسطنطينية وقاتلوا الروم عليها. فاستشهد أبو أيوب الأنصاري ودفن قريباً من سورها. ورجع يزيد والعساكر إلى الشام ثم شتى فضالة بن عبيد بأرض الروم سنة إحدى وخمسين وغزا بسر بن أرطاة بالصائفة.

وفاة المغيرة

توفي المغيرة وهو عامل على الكوفة سنة خمسين بالطاعون، وقيل: سنة تسع وأربعين وقيل: سنة إحدى وخمسين، فولى مكانه معاوية زياداً وجمع له المصرين. فسار زياد إليها واستخلف على البصرة سمرة بن جندب. فلما وصل الكوفة خطبهم فحصبوه على المنبر. فلما نزل جلس على كرسي وأحاط أصحابه بأبواب المسجد يأتونه بالناس يستحلفهم على ذلك. ومن لم يحلف حبسه. فبلغوا ثمانين واتخذ المقصورة من يوم حبس. ثم بلغه عن أوفى بن حسين شيء فطلبه، فهرب ثم أخذه فقتله. وقال له عمارة بن عتبة بن أبي معيط: إن عمرو بن الحمق يجتمع إليه شيعة علي فأرسل إليه زياد ونهاه عن الاجتماع عنده. وقال: لا أبيح أحداً حتى يخرج علي، وأكثر سمرة بن حندب اليتامى بالبصرة. يقال: قتل ثمانية آلاف فأنكر ذلك عليه زياد اهـ.

كان عمرو بن العاص قبل وفاته استعمل عقبة بن عامر بن عبد قيس على أفريقية، وهو ابن خالته انتهى إلى لواتة ومرانة، فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى. ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين غذامس. وفي السنة التي بعدها ودان وكوراً من كور السودان وأثخن في تلك النواحي، وكان له فيها جهاد وفتوح. ثم ولاه معاوية على أفريقية سنة خمسين وبعث إليه عشرة آلاف فارس، فدخل أفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد، لأنهم كانوا إذا جاءت عساكر

المسلمين أسلموا، فإذا رجعوا عنهم ارتدوا. فرأى أن يتخذ مدينة يعتصم بها العساكر من البربر فاختط القيروان وبنى بها المسجد الجامع، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم، وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع، وكملت في خمس سنين وكان يغزو ويبعث السرايا للإغارة والنهب، ودخل أكثر البربر في الإسلام. واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين.

ثم ولى معاوية على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد الأنصاري واستعمل على أفريقية مولاه أبا المهاجر فأساء عزل عقبة واستخف به فسير ابن مخلد الأنصاري عقبة إلى معاوية وشكا إليه فاعتذر له ووعده برده إلى عمله، ثم ولاه يزيد سنة اثنتين وستين.

وذكر الواقدي أن عقبة ولي أفريقية سنة ست وأربعين فاختط القيروان ثم عزله يزيد سنة اثنتين وستين بأبي المهاجر. فحينئذ قبض على عقبة وضيق عليه فكتب إليه يزيد يبعثه إليه وأعاده والياً على أفريقية فحبس أبا المهاجر إلى أن قتلهم جميعاً كسلة ملك البرانس من البربر كما نذكر بعد.

كان المغيرة بن شعبة أيام إمارته على الكوفة كثيراً ما يتعرض لعلي في مجالسه وخطبه، ويترحم على عثمان ويدعو له. فكان حجر بن عدي إذا سمعه يقول: بلاياكم قد أضل الله ولعن. ثم يقول: أنا أشهد أن من تذمون أحق بالفضل، ومن تزكون أحق بالذم. فبعث له المغيرة يقول: يا حجر اتق غضب السلطان وسطوته، فإنها تهلك أمثالك لا يزيده على ذلك.

ولما كان آخر أمارة المغيرة قال في بعض أيامه مثل ما كان يقول فصاح به حجر ثم قال له: مر لنا بأرزاقنا فقد حبستها منا وأصبحت مولعاً بذم المؤمنين، وصاح الناس من جوانب المسجد: صدق حجر فمر لنا بأرزاقنا، فالذي أنت فيه لا يجدي علينا نفعاً. فدخل المغيرة إلى بيته وعذله قومه في جراءة حجر عليه يوهن سلطانه، ويسخط عليه معاوية. فقال: لا أحب أن آتي بقتل أحد من أهل المصر. وسيأتي بعدي من يصنع معه مثل ذلك فيقتله.

ثم توفي المغيرة وولي زياد. فلما قدم خطب الناس وترحم على عثمان ولعن قاتليه. وقال حجر ما كان يقول، فسكت عنه ورجع إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث وبلغه أن حجراً يجتمع إليه شيعة علي ويعلنون بلعن معاوية والبراءة منهم وأنهم حصبوا عمرو بن حريث فشخص إلى الكوفة حتى دخلها ثم خطب الناس وحجر جالس يسمع فتهدده وقال: لست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأودعه نكالاً لمن بعده. ثم

بعث إليه فامتنع من الإجابة فبعث صاحب الشرطة شداد بن الهيثم الهلالي إليه جماعة فسبهم أصحابه.

فجمع زياد أهل الكوفة وتهددهم فتبرؤوا. فقال: ليدع كل رجل منكم عشيرته الذين عند حجر ففعلوا حتى إذا لم يبق معه إلا قومه، قال زياد لصاحب الشرطة: انطلق إليه فأت به طوعاً أو كرهاً. فلما جاء يدعوه امتنع عن الإجابة فحمل عليهم وأشار إليه أبو العمرطة الكندي بأن يلحق بكندة فمنعوه، هذا وزياد على المنبر ينتظر. ثم غشيهم أصحاب زياد وضرب عمرو بن الحمق فسقط ودخل في دور الأزد فاختفى وخرج حجر من أبواب كندة فركب ومعه أبو العمرطة إلى دور قومه واجتمع إليه الناس ولم يأته من كندة إلا قليل.

ثم أرسل زياد وهو على المنبر مذحج وهمدان ليأتوه بحجر، فلما علم أنهم قصدوه تسرب من داره إلى النخع ونزل على أخي الأشتر. وبلغه أن الشرطة تسأل عنه في النخع. فأتى الأزد واختفى عند ربيعة بن ناجد، وأعياهم طلبه. فدعا حجر محمد بن الأشعث أن يأخذ له أماناً من زياد حتى يبعث به إلى معاوية، فجاء محمد ومعه جرير بن عبد الله وحجر بن يزيد وعبد الله بن الحارث أخو الأشتر فاستأمنوا له زياداً فأجابهم. ثم أحضروا حجراً فحبسه وطلب أصحابه فخرج عمرو بن الحمق إلى الموصل ومعه زواعة بن شداد فاختفى في جبل هناك.

ورفع أمرهما إلى عامل الموصل وهو عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ابن أخت معاوية، ويعرف بابن أم الحكم. فسار إليهما وهرب زواعة وقبض على عمرو، وكتب إلى معاوية بذلك. فكتب إليه أنه طعن عثمان سبعاً بمشاقص كانت معه فاطعنه كذلك فمات في الأولى والثانية. ثم جد زياد في طلب أصحاب حجر وأتي بقبيصة بن ضبيعة العبسي بأمان فحبسه. وجاء قيس بن عباد الشبلي برجل من قومه من أصحاب حجر فأحضره زياد وسأله عن علي فأثنى عليه فضربه وحبسه. وعاش قيس بن عباد حتى قاتل مع ابن الأشعث، ثم دخل بيته في الكوفة وسعى به إلى الحجاج فقتله.

ثم أرسل زياداً إلى عبد الله بن خليفة الطائي من أصحاب حجر فتوارى وجاء الشرط فأخذوه. ونادت أخته الفرار بقومه فخلصوه فأخذ زياد عدي بن حاتم وهو في المسجد وقال: ائتني بعبد الله وخبره جهرة فقال: آتيك بابن عمي تقتله؟ والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه فحبسه، فنكر ذلك الناس وكلموه وقالوا: تفعل هذا بصاحب رسول الله ﷺ وكبير طيىء قال: أخرجه على أن يخرج ابن عمه عني فأطلقه وأمر عدي عبد الله أن

يلحق بجبل طيئ فلم يزل هنالك حتى مات.

وأتي زياد بكريم بن عفيف الخثعمي من أصحاب حجر وغيره. ولما جمع منهم اثني عشر في السجن دعا رؤوس الأرباع يومئذ وهم عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة، وخالد بن عرفطة على ربع تميم وهمدان وقيس بن الوليد على ربع ربيعة وكندة، وأبو بردة بن أبي موسى على ربع مذحج وأسد. فشهدوا كلهم أن حجراً جمع الجموع وأظهر شتم معاوية، ودعا إلى حربه. وزعم أن الأمر لا يصلح إلا في الطالبيين. ووثب بالمصر وأخرج العامل وأظهر غدر أبي تراب والترحم عليه، والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن النفر الذين معه وهم رؤوس أصحابه على مقدم رأيه.

ثم استكثر زياد من الشهود فشهد إسحاق وموسى ابنا طلحة والمنذر بن الزبير وعمارة بن عقبة بن أبي معيط وعمر بن سعد بن أبي وقاص وغيرهم. وفي الشهود شريح بن الحارث وشريح بن هانئ. ثم استدعى زياد وائل بن حجر الحضرمي وكثير بن شهاب ودفع إليهما حجر بن عدي وأصحابه وهم: الأرقم بن عبد اللّه الكندي وشريك بن شداد الحضرمي وصيفي بن فضيل الشيباني وقبيصة بن ضبيعة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعمي، وعاصم بن عوف البجلي وورقاء بن سمي البجلي، وكرام بن حبان العنزي وعبد الرحمن بن حسان العنزي ومحرز بن شهاب التميمي وعبد اللّه بن حوية السعدي. ثم اتبع هؤلاء الإحدى عشر بعتبة بن الأخنس من سعد بن بكر وسعد بن غوات الهمداني، وأمرهما أن يسيرا إلى معاوية. ثم لحقهما شريح بن هانئ ودفع كتابه إلى معاوية بن وائل.

ولما انتهوا إلى مرج غدراء قريب دمشق تقدم ابن وائل وكثير إلى معاوية، فقرأ كتاب شريح وفيه: بلغني أن زياداً كتب شهادتي وأني أشهد على حجر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، حرام الدم والمال فإن شئت فاقبله أو فدعه. فقال معاوية: ما أرى هذا إلا أخرج نفسه من شهادتكم وحبس القوم بمرج غدراء حتى لحقهم عتبة بن الأخنس وسعد بن غوات اللذين ألحقهما زياد بهما. وجاء عامر بن الأسود العجيلي إلى معاوية فأخبره بوصولهما، فاستوهب يزيد بن أسد البجلي عاصماً وورقاء ابني عمه. وقد كتب يزيد يزكيهما ويشهد ببراءتهما فأطلقهما معاوية. وشفع وائل بن حجر في الأرقم وأبو الأعور السلمي في ابن الأخنس وحبيب بن سلمة في أخويه فتركهم. وسأله مالك بن هبيرة السكوني في حجر فرده فغضب وحبس في بيته.

وبعث معاوية هدبة بن فياض القضاعي، والحسين بن عبد اللّه الكلابي، وأبا شريف البدري إلى حجر وأصحابه ليقتلوا منهم من أمرهم بقتله فأتوهم وعرض عليهم البراءة من علي فأبوا وصلوا عامة ليلتهم. ثم قدموا من الغد للقتل. وتوضأ حجر وصلى وقال: لولا أن يظنوا بي الجزع من الموت لاستكثرت منها. اللّهم إنا نستعديك على أمشاء أهل الكوفة، يشهدون علينا وأهل الشام يقتلوننا.

ثم مشى إليه هدبة بن فياض بالسيف، فارتعد. فقالوا: كيف وأنت زعمت أنك لا تجزع من الموت؟ فابرأ من صاحبك وندعك. فقال: وما لي لا أجزع وأنا بين القبر والكفن، والسيف. وإن جزعت من الموت لا أقول ما يسخط الرب فقتلوه وقتلوا ستة معه وهم: شريك بن شداد وصيفي بن فضيل وقبيصة بن حنيفة، ومحرز بن شهاب، وكرام بن حبان ودفنوهم وصلوا عليهم بعبد الرحمن بن حسان العنزي وجيء بكريم بن الخثعمي إلى معاوية فطلب منه البراءة من علي فسكت واستوهبه سمرة بن عبد اللّه الخثعمي من معاوية فوهبه له، على أن لا يدخل الكوفة، فنزل إلى الموصل. ثم سأل عبد الرحمن بن حسان عن علي فأثنى خيراً. ثم عن عثمان فقال: أول من فتح باب الظلم وأغلق باب الحق. فرده إلى زياد ليقتله شر قتلة فدفنه حياً وهو سابع القوم.

وأما مالك بن هبيرة السكوني فلما لم يشفعه معاوية في حجر جمع قومه وسار ليخلصه وأصحابه فلقي القتلة وسألهم فقالوا: مات القوم. وسار إلى عدي فتيقن قتلهم فأرسل في أثر القتلة فلم يدركوهم، وأخبروا معاوية فقال: تلك حرارة يجدها في نفسه وكأني بها قد طفئت. ثم أرسل إليه بمائة ألف وقال: خفت أن يعيد القوم حرباً فيكون على المسلمين أعظم من قتل حجر فطابت نفسه.

ولما بلغ عائشة خبر حجر وأصحابه، أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلى معاوية يشفع فيهم فجاء وقد قتلوا. فقال لمعاوية: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ فقال: حيث غاب عني مثلك من حلماء قومي وحملني ابن سمية فاحتملت. وأسفت عائشة لقتل حجر وكانت تثني عليه. وقيل في سياقة الحديث غير ذلك. وهو أن زياداً أطال الخطبة في يوم جمعة فتأخرت الصلاة فأنكر حجر ونادى بالصلاة فلم يلتفت إليه. وخشي فوت الصلاة فحصبه بكف من الحصباء وقام إلى الصلاة فقام الناس معه فخافهم زياد ونزل فصلى. وكتب إلى معاوية وعظم عليه الأمر، فكتب إليه أن يبعث به موثقاً في الحديد. وبعث من يقبض عليه فكان ما مر. ثم قبض عليه وحمله إلى معاوية، فلما رآه معاوية أمر بقتله فصلى

ركعتين وأوصى من حضره من قومه لا تفكوا عني قيداً ولا تغسلوا دماً فإني لاق معاوية غداً على الجادة وقتل اهـ.

وقالت عائشة لمعاوية: أين حلمك عن حجر؟ قال: لم يحضرني رشيد اهـ.

وكان زياد قد ولى الربيع بين زياد الحارثي على خراسان سنة إحدى وخمسين بعد أن هلك حسن بن عمر الغفاري وبعث معه من جند الكوفة والبصرة خمسين ألفاً فيهم بريدة بن الحصيب، وأبو برزة الأسلمي من الصحابة وغزا بلخ ففتحها صلحاً، وكانوا انتقضوا بعد صلح الأحنف بن قيس. ثم فتح قهستان عنوة واستحلم من كان بناحيتها من الترك، ولم يفلت منهم إلا قيزل طرخان. وقتله قتيبة بن مسلم في ولايته. فلما بلغ الربيع بن زياد بخراسان قتل حجر سخط لذلك وقال: لا تزال العرب تقتل بعده صبراً. ولو نكروا قتله منعوا أنفسهم من ذلك، لكنهم أقروا فذلوا. ثم دعا بعد صلاة جمعة لأيام من خبره وقال للناس: إني قد مللت الحياة، وإني داع فأمنوا ثم رفع يديه وقال: اللّهم إن كان لي عندك خبر فاقبضني إليك عاجلاً وأمن الناس. ثم خرج فما تواترت ثيابه حتى سقط، فحمل إلى بيته، واستخلف ابنه عبد اللّه ومات من يومه. ثم مات ابنه بعد شهرين واستخلف خليد بن عبد اللّه الحنفي وأقره زياد.

وفاة زياد

ثم مات زياد في رمضان سنة ثلاث وخمسين بطاعون أصابه في يمينه يقال: بدعوة ابن عمر، وذلك أن زياداً كتب إلى معاوية أني ضبطت العراق بشمالي ويميني فارغة فأشغلها بالحجاز، فكتب له عهده بذلك، وخاف أهل الحجاز وأتوا عبد اللّه بن عمر يدعو لهم اللّه أن يكفيهم ذلك. فاستقبل القبلة ودعا معهم وكان من دعائه: اللّهم اكفناه، ثم كان الطاعون فأصيب في يمينه فأشير عليه بقطعها فاستدعى شريحاً القاضي فاستشاره فقال: إن يكن الأجل فرغ فتلقى اللّه أجذم كراهية في لقائه وإلا فتعيش أقطع، ويعير ولدك. فقال: لا أبيت والطاعون في لحاف واحد، واعتزم على قطعها. فلما نظر إلى النار والمكاوي جزع وتركه، وقيل: تركه لإشارة شريح. وعذل الناس شريحاً في ذلك فقال: المستشار مؤتمن.

ولما حضرته الوفاة قال له ابنه: قد هيأت لكفنك ستين ثوباً. فقال: يا بني قد دنا لأبيك لباس خير من لباسه. ثم مات ودفن بالتوسة قرب الكوفة، وكان يلبس القميص ويرقعه. ولما مات استخلف على الكوفة عبد اللّه بن خالد بن أسيد وكان خليفته على البصرة عبد اللّه بن عمر بن غيلان وعزل بعد ذلك عبد اللّه بن خالد عن الكوفة وولى عليها الضحاك بن قيس.

ولاية عبيد اللّه بن زياد على خراسان ثم على البصرة

ولما قدم ابنه عبيد اللّه على معاوية وهو ابن خمس وعشرين سنة قال: من استعمل أبوك على المصرين؟ فأخبره فقال: لو استعملك لاستعملتك. فقال عبيد اللّه: أنشدك اللّه أن يقول لي أحد بعدك لو استعملك أبوك وعمك استعملتك. فولاه خراسان ووصاه فكان من وصيته: اتق اللّه ولا تؤثرن على تقواه شيئاً، فإن في تقواه عوضاً وق عرضك من أن تدنسه، وإن أعطيت عهداً فأوف به، ولا تتبعن كثيراً بقليل، ولا يخرجن منك أمر حتى تبرمه فإذا خرج فلا يردن عليك. وإذا لقيت عوك فكبر أكبر من معك، وقاسمهم على كتاب اللّه، ولا تطعمنّ أحداً في غير حقه، ولا تؤيسن أحداً من حق هو له.

ثم ودعه فسار إلى خراسان أول سنة أربع وخمسين، وقدم إليها أسلم بن زرعة الكلابي، ثم قدم فقطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل ففتح رامين، ونسف وسكند. ولقيه الترك فهزمهم وكان مع ملكهم امرأته خاتون، فأعجلوها عن لبس خفيها، فأصاب المسلمون أحدهما وقوم بمائتي ألف درهم. وكان عبيد اللّه ذلك اليوم يحمل عليهم وهو يطعن حتى يغيب عن أصحابه ثم يرفع رايته تقطر دماً. وكان هذا الزحف من زحوف خراسان المعدودة، وكانت أربعة منها للأحنف بن قيس بقهستان والمرعات. وزحف لعبد اللّه بن حازم قضى فيه جموع فاران.

وأقام عبيد اللّه والياً على خراسان سنتين وولاه معاوية سنة خمس وخمسين على البصرة. وذلك أن ابن غيلان خطب وهو أمير على البصرة. فحصبه رجل من بني ضبة فقطع يده فأتاه بنو ضبة يسألونه الكتاب إلى معاوية بالاعتذار عنه، وأنه قطع على أمر لم يصح، مخافة أن يعاقبهم معاوية جميعاً. فكتب لهم وسار ابن غيلان إلى معاوية رأس السنة وأوفاه الضبيون بالكتاب، فادعوا أن ابن غيلان قطع صاحبهم ظلماً. فلما قرأ معاوية الكتاب قال: أما القود من عمالي فلا سبيل إليه، ولكن أدي صاحبكم من بيت المال. وعزل عبد اللّه بن غيلان عن البصرة، واستعمل عليها عبيد اللّه بن زياد، فسار إليها عبيد اللّه وولى على خراسان أسلم بن زرعة الكلابي فلم يغز ولم يفتح.

العهد ليزيد

ذكر الطبري بسنده قال: قدم المغيرة على معاوية فشكا إليه الضعف، فاستعفاه فأعفاه وأراد أن يولي سعيد بن العاص. وقال أصحاب المغيرة للمغيرة: إن معاوية قلاك، فقال لهم: رويداً ونهض إلى يزيد وعرض له بالبيعة. وقال: ذهب أعيان الصحابة وكبراء قريش ورادوا أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وسياسة، وما أدري ما يمنع أمير المؤمنين من العهد لك. فأدى ذلك يزيد إلى أبيه واستدعاه وفاوضه في ذلك. فقال: قد رأيت ما كان من الاختلاف وسفك الدماء بعد عثمان وفي يزيد منك خلف، فاعهد له يكون كهفاً للناس بعدك فلا تكون فتنة ولا يسفك دم. وأنا أكفيك الكوفة ويكفيك ابن زياد البصرة. فرد معاوية المغيرة إلى الكوفة، وأمره أن يعمل في بيعة يزيد. فقدم الكوفة وذاكر من يرجع إليه من شيعة بني أمية فأجابوه، وأوفد منهم جماعة مع ابنه موسى فدعاه إلى عقد البيعة ليزيد. فقال: أو قد رضيتموه؟ قالوا: نعم! نحن ومن وراءنا. فقال: ننظر ما قدمتم له ويقضي اللّه أمره، والأناة خير من العجلة ثم كتب إلى زياد يستثيره بفكر.

وكف عن هدم دار سعيد. وكتب سعيد إلى معاوية يعذله في إدخال الظغينة بين قرابته ويقول: لو لم نكن بني أب واحد لكانت قرابتنا ما جمعنا اللّه عليه من نصرة الخليفة المظلوم يجب عليك أن تدعي ذلك فاعتذر له معاوية وتنصل. وقدم سعيد عليه وسأله عن مروان فأثنى خيراً فلما كان سنة سبع وخمسين عزل مروان وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وقيل: سنة ثمان وخمسين.

عزل الضحاك عن الكوفة وولاية ابن أم الحكم ثم النعمان بن بشير

عزل معاوية الضحاك عن الكوفة سنة ثمان وخمسين وولى مكانه عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عثمان الثقفي وهو ابن أم الحكم أخت معاوية فخرجت عليه الخوارج الذين كان المغيرة حبسهم في بيعة المستورد بن علقمة، وخرجوا من سجنه بعد موته. فاجتمعوا على حيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جرير الطائي، فسير إليهم عبد الرحمن الجيش من الكوفة فقتلوا أجمعين كما يذكر في أخبار الخوارج. ثم إن أهل الكوفة نقلوا عن عبد الرحمن سوء سيرته، فعزله معاوية عنهم. وولى مكانه النعمان بن بشير. وقال: أوليك خيراً من الكوفة، فولاه مصر، وكان عليها معاوية بن خديج السكوني، وسار إلى مصر فاستقبله معاوية على مرحلتين منها، وقال: ارجع إلى حالك لا تسر فينا سيرتك في إخواننا أهل الكوفة فرجع إلى معاوية وأقام معاوية بن خديج في عمله.

ولاية عبد الرحمن بن زياد خراسان

وفي سنة تسع وخمسين قدم عبد الرحمن بن زياد وافداً على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين أما لنا حق؟ قال: بلى! فماذا قال توليني؟ قال: بالكوفة النعمان بن بشير من أصحاب رسول اللّه ﷺ بالبصرة وخراسان عبيد اللّه أخوك، وبسجستان عباد أخوك. ولا أرى ما يشبهك إلا أن أشركك في عمل عبيد اللّه فإن عمله واسع يحتمل الشركة. فولاه خراسان فسار إليها، وقدم بين يديه قيس بن الهيثم السلمي، فأخذ أسلم بن زرعة وحبسه. ثم قدم عبد الرحمن فأغرمه ثلاثمائة ألف درهم.

وأقام بخراسان وكان متضعفاً لم يقر قط. وقدم على يزيد بين يدي قتل الحسين، فاستخلف على خراسان قيس بن الهيثم. فقال له يزيد: كم معك من مال خراسان؟ قال عشرون ألف ألف درهم. فخيره بين اخذها بالحساب ورده إلى عمله أو تسويغه إياها وعزله، على أن يعطي عبد اللّه بن جعفر خمسمائة ألف درهم، فاختار تسويغها والعزل. وبعث إلى ابن جعفر بألف ألف وقال: نصفها من يزيد ونصفها مني.

ثم إن أهل البصرة وفدوا مع عبيد اللّه بن زياد على معاوية فأذن له على منازلهم ودخل الأحنف آخرهم وكان هيأ المنزلة من عبيد اللّه فرحب به معاوية وأجلسه معه على سريره. ثم تكلم القوم وأثنوا على عبيد اللّه وسكت الأحنف، فقال معاوية: تكلم يا أبا بحر فقال: أخشى خلاف القوم، فقال: انهضوا فقد عزلت عنكم عبيد اللّه واطلبوا والياً ترضونه، فطفق القوم يختلفون إلى رجال بني أمية وأشراف الشام، وقعد الأحنف في منزله ثم أحضرهم معاوية، وقال: من اخترتم؟ فسمى كل فريق رجلاً والأحنف ساكت. فقال معاوية: تكلم يا أبا بحر فقال: إن وليت علينا من أهل بيتك لم نعدل بعبيد اللّه احداً، وإن وليت من غيرهم ينظر في ذلك. قال: فإني أعدته عليكم، ثم أوصاه بالأحنف وقبح رأيه في مباعدته. ولما هاجت الفتنة لم يعزله غير الأحنف ثم أخذ على وفد البصرة البيعة لابنه يزيد معهم.

بقية الصوائف

دخل بسر بن أرطأة سنة اثنتين وخمسين أرض الروم وشتى بها وقيل: رجع ونزل هناك سفيان بن عوف الأزدي فشتى بها وتوفي هناك اهـ.

وغزا بالصائفة محمد بن عبد اللّه الثقفي، ثم دخل عبد الرحمن بن أم الحكم سنة ثلاث وخمسين إلى أرض الروم وشتى بها وافتتحت في هذه السنة رودس، فتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي ونزلها المسلمون على حذر من الروم، ثم كانوا يعترضونه في البحر ويأخذون سفنه، وكان معاوية يدركهم بالعطاء حتى خافهم الروم ثم نقلهم يزيد في ولايته.

ثم دخل سنة أربع وخمسين إلى بلاد الروم محمد بن مالك وشتى بها وغزا بالصائفة ابن يزيد السلمي، وفتح المسلمون جزيرة أروى القسطنطينية ومقدمهم جنادة بن أبي أمية، فملكوها سبع سنين ونقلهم يزيد في ولايته. وفي سنة خمس وخمسين كان شتى سفيان بن عوف بأرض الروم، وقيل: عمر بن محرز وقيل: عبد اللّه بن قيس. وفي سنة ست وخمسين كان شتى جنادة بن أبي أمية، وقيل: عبد الرحمن بن مسعود، وقيل: غزا في البحر يزيد بن سمرة. وفي البر عياض بن الحارث. وفي سنة سبع وخمسين كان شتى عبد اللّه بن قيس بأرض الروم. وغزا مالك بن عبد اللّه الخثعمي في البر، وعمر بن يزيد الجهني في البحر.

وفي سنة ثمان وخمسين كان شتى عمر بن مرة الجهني بأرض الروم، وغزا في البحر جنادة بن أمية. وفتح المسلمون في هذه السنة حصن كفخ من بلاد الروم، وعليهم عمير بن الحباب السلمي صعد سورها وقاتل عليه وحده حتى انكشف الروم وفتحه. وفي سنة ستين غزا مالك بن عبد اللّه سوية وملك جنادة بن أبي أمية رودس وهدم مدينتها.

وفاة معاوية

وتوفي معاوية سنة ستين وكان خطب الناس قبل موته وقال: إني كزرع مستحصد وقد طالت إمارتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه، كما أن من كان قبلي خير مني. وقد قيل من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه. اللّهم إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي وبارك لي.

فلم يمض إلا قليل حتى ازداد به مرضه فدعا ابنه يزيد وقال: يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأمور وأخضعت لك رقاب العرب. وجمعت لك ما لم يجمعه أحد. وإني لا أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر الذي انتسب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد اللّه بن عمر، وعبد اللّه بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما ابن عمر فرجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق غيره بايعك. وأما الحسين فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ما مثله وحقاً عظيماً. وأما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله وليس له همة إلا في النساء. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك روغان الثعلب وإذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير. فإن هو فعلها بك وقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً.

هذا حديث الطبري عن هاشم وله عن هاشم من طريق آخر قال: لما حضرت وفاة معاوية سنة ستين كان يزيد غائباً فدعا بالضحاك بن قيس الفهري وكان صاحب شرطته، ومسلم بن عتبة المزني فقال: أبلغا يزيد وصيتي، انظر أهل الحجاز فإنهم أهلك فأكرم من قدم إليك منهم وتعاهد من غاب. وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أخف من أن يشهر عليك مائة ألف سيف. وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، وإن رابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن قاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم. ولست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثاً ولم يذكر في هذا الطريق عبد الرحمن بن أبي بكر. وقال في ابن عمر: قد وقذه الدين فليس ملتمساً شيئاً قبلك. وقال في الحسين: ولو أني صاحبه عفوت عنه. وأنا أرجو أن يكفيك اللّه بمن قتل أباه وخذل أخاه. وقال في ابن الزبير: إذا شخص إليك فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحاً فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت.

وتوفي في منتصف رجب ويقال: في جمادى لتسع عشرة سنة وأشهر من ولايته وكان على خاتمه عبد اللّه بن محصن الحميري وهو أول من اتخذ ديوان الخاتم، وكان سببه أنه أمر لعمر بن الزبير بمائة ألف درهم، وكتب له بذلك إلى زياد بالعراق، ففض عمر الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية، وأخذ عمر بردها وحبسه فاداها عنه أخوه عبد اللّه. فأحدث عند ذلك ديوان الخاتم، وحزم الكتب ولم تكن تحزم. وكان على شرطته قيس بن همزة الهمداني، فعزله ابن بيد بن عمر العدوي، وكان على حرسه المختار من مواليه. وقيل: أبو المحاري مالك مولى حميرة وهو أول من اتخذ الحرس. وعلى حجابه مولاه سعد، وكان كاتبه

وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي، وعلى القضاء فضالة بن عبد اللّه الأنصاري وبعده أبو دويس عائد بن عبد اللّه الخولاني.

بيعة يزيد

بويع يزيد بعد موت أبيه وعلى المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص، وعلى البصرة عبيد اللّه بن زياد، وعلى الكوفة النعمان بن بشير. ولم يكن همه إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب إلى الوليد بموت معاوية، وأن يأخذ حسيناً وابن عمر وابن الزبير بالبيعة من غير رخصة. فلما قرأ مروان الكتاب بنعي معاوية، استرجع وترحم، واستشاره الوليد في أمر أولئك النفر، فأشار عليه أن يحضرهم لوقته فإن بايعوا وإلا قتلتهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فيثب كل رجل منهم في ناحية، إلا ابن عمر فإنه لا يحب القتال، ولا يحب الولاية، إلا أن يرفع إليه الأمر. فبعث الوليد لوقته عبد اللّه بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث، فجاء إلى الحسين وابن الزبير في المسجد في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس. وقال: أجيبا الأمير. فقالا: لا تنصرف إلا أن نأتيه، ثم حدثا فيما بعث إليهما، فلم يعلموا ما وقع.

وجمع الحسين فتيانه وأهل بيته وسار إليهم فأجلسهم بالباب، وقال: إن دعوتكم أو سمعتم صوتي فادخلوا بأجمعكم. ثم دخل فسلم ومروان عنده فشكرهما على الصلة بعد القطيعة، ودعا لهما بإصلاح ذات البين. فأقرأه الوليد الكتاب بنعي معاوية ودعاه إلى البيعة، فاسترجع وترحم وقال: مثلي لا يبايع سراً ولا يكتفي بها مني، فإذا ظهرت إلى الناس ودعوتهم كان أمرنا واحداً وكنت أول مجيب. فقال الوليد: وكان يحب المسالمة: انصرف. فقال مروان: لا يقدر منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينك وبينهم، ألزمه البيعة وإلا اضرب عنقه. فوثب الحسين وقال: أنت تقتلني أو هو! كذبت واللّه! وانصرف إلى منزله. وأخذ مروان في عذل الوليد. فقال: يا مروان واللّه ما أحب أن لي ما طلعت الشمس من مال الدنيا وملكها، وأني قتلت الحسين أن قال: لا أبايع.

وأما ابن الزبير فاختفى في داره وجمع أصحابه، وألحّ الوليد في طلبه، وبعث مواليه فشتموه وهددوه، وأقاموا ببابه في طلبه فبعث ابن الزبير أخاه جعفرا يلاطف الوليد ويشكو ما أصابه من الذعر، ويعده بالحضور من الغداة، وأن يصرف رسله من بابه فبعث إليهم وانصرفوا. وخرج ابن الزبير من ليلته مع أخيه جعفر وحدهما، وأخذا طريق الفرع إلى مكة فسرح الرحالة في طلبه فلم يدركوه ورجعوا وتشاغلوا بذلك عن الحسين سائر يومه. ثم أرسل إلى الحسين يدعوه فقال: أصبحوا وترون وفري.

وسار في الليلة الثانية ببنيه وإخوته وبني أخيه إلا محمد بن الحنفية، وكان قد نصحه وقال: تنحّ عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعث دعاتك إلى الناس، فإن أجابوك فاحمد اللّه، وإن اجتمعوا على غيرك فلم يضر بذلك دينك ولا عقلك، ولم تذهب به مروءتك ولا فضلك. وأنا أخاف أن تأتي مصراً أو قوماً فيختلفون عليك، فتكون الأول إساءة، فإذاً خير الأمة نفساً وأباً أضيعها ذماراً وأذلها. قال له الحسين: فإني ذاهب. قال: انزل مكة فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وإن فاتت بك لحقت بالرمال وشعب الجبال. ومن بلد إلى آخر حتى ننظر مصير أمر الناس، وتعرف الرأي. فقال: يا أخي نصحت وأشفقت! ولحق بمكة.

وبعث الوليد إلى ابن عمر ليبايع فقال: أنا أبايع أمام الناس، وقيل: ابن عمر وابن عباس كانا بمكة، ورجعا إلى المدينة فلقيا الحسين وابن الزبير وأخبراهما بموت معاوية وبيعة يزيد. فقال ابن عمر: لا تفرقا جماعة المسلمين، وقدم هو وابن عباس المدينة وبايعا عنه بيعة الناس. ولما دخل ابن الزبير مكة وعليها عمرو بن سعيد قال: أنا عائذ بالبيت، ولم يكن يصلي ولا يقف معهم ويقف هو وأصحابه ناحية.

عزل الوليد عن المدينة وولاية عمرو بن سعيد

ولما بلغ الخبر إلى يزيد بصنيع الوليد بن عتبة في أمر هؤلاء النفر، عزله عن المدينة واستعمل عليها عمرو بن سعيد الأشدق فقدمها في رمضان واستعمل على شرطته عمر بن الزبير بالمدينة لما كان بينه وبين أخيه من البغضاء، وأحضر نفراً من شيعة الزبير بالمدينة فضربهم من الأربعين إلى الخمسين إلى الستين، منهم المنذر بن الزبير وابنه محمد، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد اللّه بن حكيم بن حزام ومحمد بن عمار بن ياسر وغيرهم. ثم جهز البعوث إلى مكة سبعمائة أو نحوها. وقال لعمر بن الزبير: من نبعث إلى أخيك؟: فقال: لا تجد رجلاً أنكى له مني. فجهز معه سبعمائة مقاتل فيهم أنس بن عمير الأسلمي. وعذله مروان بن الحكم في غزو مكة وقال له: اتق اللّه ولا تحل حرمة البيت. فقال: واللّه لنغزونه في جوف الكعبة.

وجاء أبو شريح الخزاعي إلى عمرو بن سعيد فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما أذن لي بالقتال فيها ساعة من نهار، ثم عادت كحرمتها بالأمس». فقال له عمرو: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ. وقيل: إن يزيد كتب إلى عمرو بن سعيد أن يبعث عمر بن الزبير بالجيش إلى أخيه، فبعثه في ألفي مقاتل وعلى مقدمته أنيس. فنزل أنيس بذي طوى ونزل عمر بالأبطح وبعث إلى أخيه أن بر يمين يزيد، فإنه حلف أن لا يقبل بيعة إلا أن يؤتى بك في جامعة فلا يضرب الناس بعضهم بعضاً، فإنك في بلد حرام. فأرسل عبد الله بن الزبير من اجتمع له من أهل مكة مع عبد الله بن صفوان فهزموا أنيساً بذي طوى وقتل أنيس في الهزيمة وتخلف عن عمر بن الزبير أصحابه فدخل دار ابن علقمة وأجاره عبدة بن الزبير. وقال لأخيه: قد أجرته فأنكر ذلك عليه. وقيل: إن صفوان قال لعبد الله بن الزبير: اكفني أخاك وأنا أكفيك أنيس بن عمر، وسار إلى أنيس فهزمه وقتله. وسار مصعب بن عبد الرحمن إلى عمر فتفرق عنه أصحابه، وأجاره أخوه عبدة، فلم يجز أخوه عبد الله جواره وضربه بكل من ضربه بالمدينة وحبسه بسجن عارم ومات تحت السياط.

مسير الحسين إلى الكوفة ومقتله

ولما خرج الحسين إلى مكة لقيه عبد اللّه بن مطيع وسأله أين تريد؟ فقال: مكة! وأستخير اللّه فيما بعد، فنصحه أن لا يقرب الكوفة، وذكره قتلهم أباه وخذلانهم أخاه، وأن يقيم بمكة لا يفارق الحرم حتى يتداعى إليه الناس. ورجع عنه وترك الحسين بمكة فأقام والناس يختلفون إليه، وابن الزبير في جانب الكعبة يصلي ويطوف عامة النهار، ويأتي الحسين فيمن يأتي ويعلم أن أهل الحجاز لا يلقون إليه مع الحسين. ولما بلغ أهل الكوفة بيعة يزيد ولحاق الحسين بمكة اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد وكتبوا إليه عن نفر منهم سليمان والمسيب بن محمد، ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر وغيرهم يستدعونه وأنهم لم يبايعوا للنعمان، ولا يجتمعون معه في جمعة ولا عيد، ولو جئتنا أخرجناه. وبعثوا بالكتاب مع عبد اللّه بن سبع الهمداني، وعبد اللّه بن وال. ثم كتبوا إليه ثانياً بعد ليلتين نحو مائة وخمسين صحيفة، ثم ثالثاً يستحثونه للحاق بهم. كتب له بذلك شبث بن ربعي وحجاز بن أبجر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رويم وعروة بن قيس وعمر بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير التميمي.

فأجابهم الحسين: فهمت ما قصصتم وقد بعثت إليكم ابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، يكتب إلي بأمركم ورأيكم، فإن اجتمع ملؤكم على مثل ما قدمت به رسلكم أقدم عليكم قريباً. ولعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، يدين بدين الحق. وسار مسلم فدخل المدينة وصلى في المسجد وودع أهله واستأجر دليلين من قيس فضلا الطريق وعطش القوم فمات الدليلان بعد أن أشارا إليهم بموضع الماء، فانتهوا إليه وشربوا ونجوا. فتطير مسلم من ذلك، وكتب إلى الحسين يستعفيه. فكتب إليه: خشيت أن لا يكون حملك على ذلك إلا الجبن، فامض لوجهك والسلام.

وسار مسلم فدخل الكوفة أول ذي الحجة من سنة ستين، واختلف إليه الشيعة وقرأ عليهم كتاب الحسين، فبكوا ووعدوه النصر. وعلم مكانه النعمان بن بشير أمير الكوفة وكان حليماً يجنح إلى المسالمة، فخطب وحذر الناس الفتنة. وقال: لا أقاتل من لا يقاتلني ولا آخذ بالظنة والتهمة، ولكن إن نكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فواللّه لأضربنكم بسيفي ما دام قائمته بيدي، ولو لم يكن لي ناصر. فقال له بعض حلفاء بني أمية: لا يصلح ما ترى إلا الغشم، وهذا الذي أنت عليه مع عدوك رأي المستضعفين. فقال: أكون من المستضعفين في طاعة اللّه أحب إلي من أن أكون من الأعزين في معصية اللّه. ثم تركه. فكتب عبد اللّه بن مسلم وعمارة بن الوليد وعمارة بن سعد بن أبي وقاص إلى يزيد بالخبر، وتضعف النعمان وضعفه فابعث إلى الكوفة رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل عملك في عدوك فأشار عليه سرجون.

مسيرة المختار إلى الكوفة وأخذها من ابن المطيع بعد وقعة كربلاء

مضى إبراهيم إلى المختار وأخبره الخبر وبعثوا في الشيعة ونادوا بثأر الحسين، ومضى إبراهيم إلى النخع فاستركبهم وسار بهم في المدينة ليلاً وهو يتجنب المواضع التي فيها الأمراء. ثم لقي بعضهم فهزمهم، ثم آخرين كذلك ثم رجع إلى المختار فوجد شبث بن ربعي وحجاز بن أبجر العجلي يقاتلانه فهزمهما، وحاشب بن المطيع فأشار إليه بجمع الناس والنهوض إلى القوم قبل. فولى أمرهم فركب واجتمع الناس وتوافى إلى المختار نحو أربعة آلاف من الشيعة وبعث ابن مطيع شبث بن ربعي في ثلاثة آلاف وربع بن إياس في أربعة آلاف. فسرح إليهم المختار إبراهيم بن الأشتر لراشد في ستمائة فارس وستمائة راجل ونعيم بن هبيرة لشبث في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل واقتتلوا من بعد صلاة

الصبح. وقتل نعيم فوهن المختار لقتله وظهر شبث وأصحابه عليهم. وقاتل إبراهيم بن الأشتر راشد بن إياس فقتله، وانهزم أصحابه وركبهم الفشل.

وبعث ابن المطيع جيشاً كثيفاً فهزمهم، ثم حمل على شبث فهزمه، وبعث المختار فمنعه الرماة من دخول الكوفة. ورجع المنهزمون إلى ابن مطيع فدهش فشجعه عمر بن الحجاج الزبيدي وقال له: اخرج واندب الناس ففعل. وقام في الناس ووبخهم على هزيمتهم وندبهم. ثم بعث عمر بن الحجاج في ألفين وشمر بن ذي الجوشن في ألفين ونوفل بن مساحق في خمسة آلاف. ووقف هو بكتائبه.

واختلف على القصر شبث بن ربعي فحمل ابن الأشتر على ابن مساحق فهزمه وأسره، ثم منّ عليه. ودخل ابن مطيع القصر وحاصره إبراهيم بن الأشتر ثلاثاً ومعه يزيد بن أنس وأحمد بن شميط، ولما اشتد الحصار على ابن مطيع، أشار عليه شبث بن ربعي بأن يستأمن للمختار، ويلحق بابن الزبير وله ما يعده. فخرج عنهم مساء ونزل دار أبي موسى. واستأمن القوم للمختار فدخل القصر وغدا على الناس في المسجد فخطبهم، ودعاهم إلى بيعة ابن الحنفية، فبايعه أشراف الكوفة على الكتاب والسنة، واللطف بأهل البيت، ووعدهم بحسن السيرة. وبلغة أن ابن مطيع في دار موسى فبعث إليه بمائة ألف درهم وقال: يجهز بهذه.

وكان ابن مطيع قد فرق بيوت الأموال على الناس، وسار ابن مطيع إلى وجهه وملك الكوفة، وجعل على شرطته عبد اللّه بن كامل، وعلى حرسه كيسان أبا عمرة، وجعل الأشراف جلساءه، وعقد لعبد اللّه بن الحارث بن الأشتر على أرمينية، ولمحمد بن عمير بن عطارد على أذربيجان، ولعبد الرحمن بن سعيد بن قيس على الموصل، ولإسحاق بن مسعود على المدائن، ولسعد بن حذيفة بن اليمان على حلوان. وأمره بقتال الأكراد وإصلاح السابلة. وولى شريحاً على القضاء. ثم طعنت فيه الشيعة بأنه شهد على حجر بن عدي، ولم يبلغ عن هانئ بن عروة رسالته إلى قومه وأن علياً غرمه وأنه عثماني. وسمع ذلك هو فتمارض فجعل مكانه عبد اللّه بن عتبة بن مسعود ثم مرض فولى مكانه عبد اللّه بن مالك الطائي.

مسيرة ابن زياد إلى المختار وخلافة أهل الكوفة عليه

كان مروان بن الحكم لما استوثق له الشام بعث جيشين أحدهما إلى الحجاز مع جيش بن دلجة القيني وقدشاتة ومقتلة والآخر إلى العراق مع عبيد اللّه بن زياد فكان من أمره وأمر التوابين من الشيعة ما تقدم. وأقام محاصراً لزفر بن الحارث بقرقيسيا، وهو مع قومه قيس على طاعة ابن الزبير، فاشتغل بهم عن العراق سنة أو نحوها. ثم توفي مروان وولى بعده عبد الملك فأقره على ولايته وأمره بالجد. ويئس من أمر زفر وقيس فنهض إلى الموصل فخرج عنها عبد الرحمن بن سعيد عامل المختار إلى تكريت، وكتب إلى المختار بالخبر، فبعث يزيد بن أنس الأسدي في ثلاثة آلاف إلى الموصل، فسار إليها على المدائن وسرح ابن زياد للقائه ربيعة بن المختار الغنوي في ثلاثة آلاف فالتقيا ببابل. وعبى يزيد أصحابه وهو راكب على حمار وحرضهم. وقال: إن مت فأميركم ورقاء بن عازب الأسدي وإن هلك فعبد اللّه بن ضمرة الفزاري، وإن هلك فسعد الخثعمي.

ثم اقتتلوا يوم عرفة وانهزم أهل الشام وقتل ربيعة، وسار الفل غير بعيد فلقيهم عبد اللّه بن حملة الخثعمي قد سرحه ابن زياد في ثلاثة آلاف فرد المنهزمين وعاد القتال يوم الأضحى، فانهزم أهل الشام وأثخن فيهم أهل الكوفة بالقتل والنهب، وأسروا منهم ثلاثمائة فقتلوهم. وهلك يزيد بن أنس من آخر يومه وقام بأمرهم ورقاء بن عازب خليفته، وهاب لقاء ابن زياد بعد يزيد، وقال: نرجع بموت أميرنا قبل أن يتجرأ علينا أهل الشام بذلك. وانصرف الناس وتقدم الخبر إلى الكوفة فأرجف الناس بالمختار وأشيع أن يزيد قتل.

وسر المختار رجوع العسكر فسرح إبراهيم بن الأشتر في سبعة آلاف وضم إليه جيش يزيد ثم تأخر ابن زياد فسار لذلك. ثم اجتمع أشراف الكوفة عند شبث بن ربعي وكان شيخهم جاهلياً إسلامياً، وشكوا من سيرة المختار وإيثاره الموالي عليهم، ودعوه إلى الوثوب به. فقال: حتى ألقاه وأعذر إليه، ثم ذهب إليه وذكر له جميع ما نكروه فوعده الرجوع إلى مرادهم، وذكر له شأن الموالي وشركتهم في الفيء. فقال: إن أعطيتموني عهدكم على قتال بني أمية وابن الزبير تركتهم. فقال: اخرج إليهم بذلك وخرج فلم يرجع. واجتمع رأيهم على قتاله وهم شبث بن ربعي ومحمد بن الأشعث وعبد الرحمن بن سعد بن قيس وشمر بن ذي الجوشن وكعب بن أبي كعب النخعي، وعبد الرحمن بن مخنف الأزدي. وقد كان ابن مخنف أشار عليهم بأن يمهلوه لقدوم أهل الشام وأهل البصرة فيكفونكم أمره قبل أن يقاتلكم بمواليكم وشجعانكم وهم عليكم أشد، فأبوا من رأيه وقالوا: لا تفسد جماعتنا.

ثم خرجوا وشهروا السلاح وقالوا للمختار: اعتزلنا فإن

ابن الحنفية لم يبعثك. قال: نبعث إليه الرسل مني ومنكم، وأخذ يعللهم بأمثال هذه المراجعات وكف أصحابه عن قتالهم ينتظر وصول إبراهيم بن الأشتر، وقد بعث إليه بالرجوع. فجاء فرأى القوم مجتمعين ورفاعة بن شداد البجلي يصلي بهم. فلما وصل إبراهيم عبأ المختار أصحابه وسرح بين يديه أحمد بن شميط البجيلي وعبد الله بن كامل الشادي فانهزم أصحابهما وصبرا ومدهما المختار بالفرسان والرجال فوجاً بعد فوج، وسار ابن الأشتر إلى مصر وفيهم شيث بن ربعي فقاتلوه فهزمهم فاشتد ابن كامل على اليمن ورجع رفاعة بن شداد أمامهم إلى المختار فقاتل معه حتى قتل من أهل اليمن عبد الله بن سعيد بن قيس، والفرات بن زحر بن قيس، وعمر بن مخنف. وخرج أخوه عبد الرحمن فمات وانهزم أهل اليمن هزيمة قبيحة وأسر من الوادعيين خمسمائة أسير فقتل المختار كل من شهد قتل الحسين منهم فكانوا نصفهم وأطلق الباقين.

ونادى المختار الأمان إلا من شهد في دماء أهل البيت وفر عمر بن الحجاج الزبيدي، وكان أشد من حضر قتل الحسين، فلم يوقف له على خبر. وقيل أدركه أصحاب المختار فأخذوا رأسه، وبعث في طلب شمر بن ذي الجوشن، فقتل طالبه وانتهى إلى قرية الكلبانية فارتاح يظن أنه نجا... وإذا في قرية أخرى بإزائه أبو عمرة صاحب المختار، بعثه مسلحةً بينه وبين أهل البصرة، فنمي إليه خبره فركب إليه فقتله وألقى شلوه للكلاب.

وانجلت الوقعة عن سبعمائة وثمانين قتيلاً أكثرهم من اليمن، وكان آخر سنة ست وستين، وخرج أشراف الناس إلى البصرة وتتبع المختار قتلة الحسين ودل على عبيد الله بن أسد الجهني ومالك بن نسير الكندي. وحمل ابن مالك المحاربي بالقادسية فأحضرهم وقتلهم. ثم أحضر زياد بن مالك الضبعي وعمران بن خالد العثري وعبد الرحمن بن أبي حشكارة البجلي، وعبد الله بن قيس الخولاني، وكانوا نهبوا من الورث الذي كان مع الحسين فقتلهم. وأحضر عبد الله أو عبد الرحمن بن طلحة وعبد الله بن وهيب الهمداني ابن عم الأعشى فقتلهم. وأحضر عثمان بن خالد الجهني وأبا أسماء بشر بن سميط القابسي، وكانا مشتركين في قتل عبد الرحمن بن عقيل وفي سلبه، فقتلهما وحرقهما بالنار.

وبحث عن خولي بن يزيد الأصبحي صاحب رأس الحسين، فجيء برأسه وحرق بالنار. ثم قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص بعد أن كان أخذ له الأمان منه عبد الله بن أبي جعدة بن هبيرة فبعث أبا عمرة فجاءه برأسه وابنه حفص عنده. فقال: تعرف هذا؟ قال: نعم! ولا خير في العيش بعده فقتله. ويقال: إن الذي بعث المختار على قتلة الحسين أن يزيد بن شراحيل الأنصاري قدم على محمد بن الحنفية، فقال له ابن الحنفية: يزعم المختار أن لنا شيعة وقتلة الحسين عنده على الكراسي يحدثونه. فلما سمع المختار ذلك تتبعهم بالقتل وبعث برأس عمرو ابنه إلى ابن الحنفية وكتب إليه أنه قتل من قدر عليه وهو في طلب الباقين. ثم أحضر حكيم بن طفيل الطائي، وكان رمى الحسين بسهم، وأصاب سلب العباس ابنه. وجاء عدي بن حاتم يشفع فيه فقتله ابن كامل والشيعة قبل أن يصل حذراً من قبول المختار شفاعته. وبحث عن مرة بن منقذ بن عبد القيس قاتل علي بن الحسين فدافع عن نفسه ونجا إلى مصعب بن الزبير وقد شلت يده بضربة. وبحث عن زيد وفاد الحسين قاتل عبد الله بن مسلم بن عقيل رماه بسهمين وقد وضع كفه على جبهته يتقي النبل فأثبت كفه في جبهته وقتله بالأخرى فخرج بالسيف يدافع. فقال ابن كامل: ارموه بالحجارة فرموه حتى سقط وأحرقوه حياً. وطلب سنان بن أنس الذي كان يدعي قتل الحسين فلحق بالبصرة. وطلب عمر بن صبح الصدائي فقتله طعناً بالرماح، وأرسل في طلب محمد بن الأشعث وهو في قريته عند القادسية فهرب إلى مصعب وهدم المختار داره. وطلب آخرين كذلك من المتهمين بأمر الحسين فلحقوا بمصعب وهدم دورهم.

شأن المختار مع ابن الزبير

كان على البصرة الحارث بن أبي ربيعة وهو القبّاع عاملاً لابن الزبير. وعلى شرطته عباد بن حسين وعلى المقاتلة قيس بن الهيثم. وجاء المثنى بن مخرمة العبدي وكان ممن شهد مع سليمان بن صرد، ورجع فبايع للمختار وبعثه إلى البصرة يدعو له بها فأجابه كثير من الناس، وعسكر لحرب القباع. فسرح إليه عباد بن حسين وقيس بن الهيثم في العساكر فانهزم المثنى إلى قومه عبد القيس، وأرسل القباع عسكراً يأتونه به. فجاءه زياد بن عمر العنكي فقال له: لتردن خيلك عن إخواننا أو لنقاتلنهم فأرسل الأحنف بن قيس وأصلح الأمر على أن يخرج المثنى عنهم فسار إلى الكوفة.

وقد كان المختار لما أخرج ابن مطيع من البصرة كتب إلى ابن الزبير يخادعه ليتم أمره في الدعاء لأهل البيت، وطلب المختار في الوفاء بما وعده به الولاية، فأراد ابن الزبير أن يتبين الصحيح من أمره، فولى عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام على الكوفة، وأعلمه بطاعة المختار وبعثه إليها. وجاء الخبر إلى المختار،

فبعث زائدة بن قدامة في خمسمائة فارس، وأعطاه سبعين ألف درهم، وقال: ادفعها إلى عمر فهي ضعف ما أنفق، وأمره بالانصراف بعد تمكث، فإن أبى فاره الخيل فكان كذلك. ولما رأى عمر الخيل أخذ المال وسار نحو البصرة، واجتمع هو وابن مطيع في إمارة القباع قبل وثوب ابن مخرمة. وقيل: إن المختار كتب إلى ابن الزبير إني اتخذت الكوفة داراً فإن سوغتني ذلك وأعطيتني مائة ألف درهم سرت إلى الشام وكفيتك مروان. فمنعه من ذلك. فأقام المختار بطاعته ويوادعه ليتفرغ لأهل الشام.

ثم بعث عبد الملك بن مروان عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى فكتب المختار إلى ابن الزبير يعرض عليه المدد فأجابه أن يعجل بإنفاذ الجيش إلى جند عبد الملك بوادي القرى فسرح شرحبيل بن دوس الهمداني في ثلاثة آلاف أكريم من الموالي وأمره أن يأتي المدينة ويكاتبه بذلك، واتهمه ابن الزبير فبعث من مكة عباس بن سهل بن سعد في ألفين وأمره أن يستنفر العرب وإن رأى من جيش المختار خلافاً ناجزهم وأهلكهم. فلقيهم عباس بالرقيم وهم على تعبية فقال: سيروا بنا إلى العدو الذي بوادي القرى. فقال ابن دوس: إنما أمرني المختار أن آتي المدينة ففطن عباس لما يريد. فأتاهم بالعلوفة والزاد وتخير ألفاً من أصحابه وحمل عليهم فقتل ابن دوس وسبعين معه من شجعان قومه وأمن الباقين فرجعوا للكوفة، ومات أكثرهم في الطريق.

وكتب المختار إلى ابن الحنفية يشكو ابن الزبير، ويوهمه أنه بعث الجيش في طاعته، ففعل بهم ابن الزبير ما فعل. ويستأذنه في بعث الجيوش إلى المدينة ويبعث ابن الحنفية عليهم رجلاً من قبله فيفهم الناس أني في طاعتك، فكتب إليه ابن الحنفية: قد عرفت قصدك ووفاءك بحقي وأحب الأمر إلي الطاعة، فأطع اللّه وتجنب دماء المسلمين. فلو أردت القتال لوجدت الناس إلي سراعاً والأعوان كثيراً لكني أعتزلهم وأصبر حتى يحكم اللّه وهو خير الحاكمين.

ثم دعا ابن الزبير محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته وشيعته إلى البيعة فامتنع ويبعث إليه ابن الزبير وأغلظ عليه وعليهم، فاستكانوا وصبروا فتركهم. فلما استولى المختار على الكوفة وأظهر الشيعة دعوة ابن الحنفية خاف ابن الزبير أن يتداعى الناس إلى الرضا به، فاعتزم عليهم في البيعة، وتوعدهم بالقتل، وحبسهم بزمزم، وضرب لهم أجلاً. وكتب ابن الحنفية إلى المختار بذلك فأخبر الشيعة وندبهم وبعث أمراء منهم في نحو ثلاثمائة، عليهم أبو عبد اللّه الجدلي. ويبعث لابن الحنفية أربعمائة ألف درهم وساروا إلى مكة فدخلوا المسجد الحرام وبأيديهم الخشب كراهة إشهار السيوف في الحرم وطفقوا ينادون بثأر الحسين حتى انتهوا إلى زمزم. وأخرج ابن الحنفية وكان قد بقي من أجله يومان، واستأذنوه في قتال ابن الزبير، فقال: لا أستحل القتال في الحرم. ثم جاء باقي الجند وخافهم ابن الزبير وخرج ابن الحنفية إلى شعب علي واجتمع له أربعة آلاف رجل فقسم بينهم المال.

ولما قتل المختار واستوثق أمر ابن الزبير بعث إليهم في البيعة فخافه على نفسه وكتب لعبد الملك فأذن له أن يقدم الشام حتى يستقيم أمر الناس ووعده بالإحسان. وخرج ابن الحنفية وأصحابه إلى الشام. ولما وصل مدين لقيه خبر مهلك عمرو بن سعيد فندم وأقام بايلة، وظهر في الناس فضله وعبادته وزهده. وكتب له عبد الملك أن يبايعه فرجع إلى مكة ونزل شعب أبي طالب، فأخرجه ابن الزبير فسار إلى الطائف، وعذل ابن عباس ابن الزبير على شأنه، ثم خرج عنه ولحق بالطائف ومات هنالك. وصلى عليه ابن الحنفية وعاش إلى أن أدرك حصار الحجاج لابن الزبير.

ولما قتل ابن الزبير بايع لعبد الملك وكتب عبد الملك إلى الحجاج بتعظيم حقه وبسط أمله، ثم قدم إلى الشام وطلب من عبد الملك أن يرفع حكم الحجاج عنه ففعل، وقيل: إن ابن الزبير بعث إلى ابن عباس وابن الحنفية في البيعة حتى يجتمع الناس على إمام، فإن في هذه فتنة. فحبس ابن الحنفية في زمزم وضيق على ابن عباس في منزله وأراد إحراقهما فأرسل المختار جيشه كما تقدم ونفس عنهما. ولما قتل المختار قوي ابن الزبير عليهما فخرجا إلى الطائف.

مقتل ابن زياد

ولما فرغ المختار من قتال أهل الكوفة آخر سنة ست وستين بعث إبراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد وبعث معه وجوه أصحابه وفرسانهم وشيعته وأوصاه. وبعث معه بالكرسي الذي كان يستنصر به وهو كرسي قد غشاه بالذهب. وقال للشيعة: هذا فيكم مثل التابوت في بني إسرائيل، فكبر شأنه وعظم. وقاتل ابن زياد فكان له الظهور وافتتن به الشيعة، ويقال: إنه كرسي علي بن أبي طالب، وأن المختار أخذه من والد جعدة بن هبيرة، وكانت أمه أم هانئ بنت أبي طالب فهو ابن أخت علي. ثم أسرع إبراهيم بن الأشتر في السير وأوغل في أرض الموصل، وكان ابن زياد قد ملكها كما مر.

فلما دخل إبراهيم أرض الموصل عَبّى أصحابه، ولما بلغ نهر

الحارم بعث على مقدمته الطفيل بن لقيط النخعي، ونزل ابن زياد قريباً من النهر وكانت قيس مطبقة على بني مروان عند المرج، وجند عبد الملك يومئذ فلقي عمير بن الحباب السلمي إبراهيم بن الأشتر وأوعده أن ينهزم بالميسرة، وأشار عليه بالمشاجرة. ورأى عند ابن الأشتر ميلاً إلى المطاولة فثناه عن ذلك. وقال: إنهم ميلوا منكم رعباً وإن طاولتهم اجترؤوا عليكم. قال: وبذاك أوصاني صاحبي. ثم عبى أصحابه في السحر الأول، ونزل يمشي ويحرض الناس حتى أشرف على القوم. وجاءه عبد الله بن زهير السلولي بأنهم خرجوا على دهش وفشل وابن الأشتر يحرض أصحابه ويذكرهم أفعال ابن زياد وأبيه.

ثم التقى الجمعان وحمل الحصين بن نمير من ميمنة أهل الشام على ميسرة إبراهيم فقتل علي بن مالك الخثعمي، ثم أخذ الراية فرد ابن علي فقتل، وانهزمت الميسرة، فأخذ الراية عبد الله بن ورقاء بن جنادة السلولي، ورجع بالمنهزمين إلى الميسرة كما كانوا. وحملت ميمنة إبراهيم على ميسرة ابن زياد وهم يرجون أن ينهزم عمير بن الحباب كما وعدهم فمنعته الأنفة من ذلك وقاتل قتالاً شديداً. وقصد ابن الأشتر قلب العسكر وسواده الأعظم، فاقتتلوا أشد قتال حتى كانت أصوات الضرب بالحديد كأصوات القصارين، وإبراهيم يقول لصاحب رايته: انغمس برايتك فيهم. ثم حملوا حملة رجل واحد فانهزم أصحاب ابن زياد. وقال ابن الأشتر: إني قتلت رجلاً تحت راية منفردة شممت منه رائحة المسك وضربته بسيفي فقصمته نصفين فالتمسوه فإذا هو ابن زياد فأخذت رأسه وأحرقت جثته. وحمل شريك بن جدير الثعلبي على الحصين بن نمير فاعتقله وجاء أصحابه فقتلوا الحصين.

ويقال: إن الذي قتل ابن زياد هو ابن جدير هذا، وقتل شرحبيل بن ذي الكلاع وادعى قتله سفيان بن يزيد الأزدي وورقاء بن عازب الأزدي، وعبيد الله بن زهير السلمي واتبع أصحاب ابن الأشتر المنهزمين فغرق في النهر أكثر ممن قتل، وغنموا جميع ما في العسكر. وطرأ ابن الأشتر بالبشارة إلى المختار فأتته بالمدائن وأنفذ ابن الأشتر عماله إلى البلاد فبعث أخاه عبد الرحمن على نصيبين، وغلب على سنجار ودارا وما والاهما من أرض الجزيرة. وولى زفر بن الحارث قيس وحاتم بن النعمان الباهلي حران والرها وشمشاط وعمير بن الحباب السلمي كفرنوبي وطور عبدين وأقام بالموصل وأنفذ رؤوس عبيد الله وقواده إلى المختار.

مسير مصعب إلى المختار وقتله إياه

كان ابن الزبير في أول سنة سبع وستين أو آخر ست عزل الحارث بن ربيعة وهو القباع وولى مكانه أخاه مصعباً فقدم البصرة وصعد المنبر وجاء الحارث فأجلسه مصعب تحته بدرجة ثم خطب وقرأ الآيات من أول القصص ونزل ولحق به أشراف الكوفة حتى قربوا من المختار، ودخل عليه شبث بن ربعي وهو ينادي واغوثاه ثم قدم محمد بن الأشعث بعده واستوثقوه إلى المسير وبعث إلى المهلب بن أبي الصفرة وهو عامله على فارس ليحضر معه قتال المختار فأبطأ وأغفل. فأرسل إليه محمد بن الأشعث بكتابه، فقال المهلب: ما وجد مصعب بريداً غيرك؟ فقال: ما أنا ببريد ولكن غلبنا عبيدنا على أبنائنا وحرمنا فأقبل معه المهلب بالجموع والأموال وعسكر مصعب عند الجسر فأرسل عبد الرحمن بن مخنف إلى الكوفة سراً ليثبط الناس عن المختار ويدعو إلى ابن الزبير. وسار على التعبية وبعث في مقدمته عباد بن الحصين الحبطي التميمي وعلى ميمنته عمر بن عبيد الله بن معمر، وعلى ميسرته المهلب.

وبلغ الخبر المختار فقام في أصحابه، وقربهم إلى الخروج مع ابن شميط وعسكر مع محمد في أعفر. وبعث رؤوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر مع ابن شميط وأصحابه فثبتوا وحمل المهلب من الميسرة على ابن كامل فثبت ثم كرّ المهلب وحمل حملة منكرة وصبر ابن كامل قليلاً وانهزموا وحمل الناس جميعاً على ابن شميط فانهزم وقتل. واستمر القتل في الرجالة وبعث مصعب عباداً فقتل كل أسير أخذه. وتقدم محمد بن الأشعث في خيل من أهل الكوفة فلم يدركوا منهزماً إلا قتلوه. ولما فرغ مصعب منهم أقبل فقطع الفرات من موضع واسط وحملوا الضعفاء وأثقالهم في السفن ثم خرجوا إلى نهر الفرات وسار إلى الكوفة. ولما بلغ المختار خبر الهزيمة ومن قتل من أصحابه وأن مصعباً أقبل إليه في البر والبحر سار إلى مجتمع الأنهار نهر الجزيرة والمسلحين والقادسية ونهر يسر. فسكر الفرات فذهب ماؤه في الأنهار.

وبقيت سفن أهل البصرة في الطين فخرجوا إلى السكر وأزالوه وقصدوا الكوفة. وسار المختار ونزل حروراء بعد أن حصن القصر وأدخل عدة الحصار، وأقبل مصعب وعلى ميمنته المهلب، وعلى ميسرته عمر بن عبيد الله، وعلى الخيل عباد بن الحصين، وجعل المختار على ميمنته سليم بن يزيد الكندي، وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الهمداني وعلى الخيل عمر بن عبيد الله النهدي. ونزل محمد بن الأشعث فيمن هرب من أهل الكوفة بين

العسكرين.

ولما التقى الجمعان اقتتلوا ساعة وحمل عبد اللّه بن جعدة بن هبيرة المخزومي على من بإزائه فحطم أصحاب المختار حطمة منكرة وكشفوهم، وحمل مالك بن عمر النهدي في الرجالة عند المساء على ابن الأشعث حملة منكرة فقتل ابن الأشعث وعامة أصحابه، وقتل عبيد اللّه بن علي بن أبي طالب وقاتل المختار. ثم افترق الناس ودخل القصر وسار مصعب من الغد فنزل السبخة وقطع عنهم الميرة. وكان الناس يأتونهم بالقليل من الطعام والشراب خفية ففطن مصعب لذلك فمنعه وأصابهم العطش فكانوا يصبون العسل في الآبار ويشربون.

ثم إن المختار أشار على أصحابه بالاستماتة فتحنط وتطيب وخرج في عشرين رجلاً منهم السائب بن مسلك الأشعري فعذله. فقال: ويحك يا أحمق وثب ابن الزبير بالحجاز، ووثب نجدة باليمامة، وابن مروان بالشام فكنت كأحدهم إلا أني طلبت بثأر أهل البيت إذ نامت عقد العرب، فقاتل على حسبك إن لم يكن لك نية. ثم تقدم فقاتل حتى قتل على يد رجلين من بني حنيفة أخوين طرفة وطراف ابني عبد اللّه بن دجاجة. وكان عبد اللّه بن جعدة بن هبيرة لما رأى عزم المختار على الاستماتة تدلى من القصر، واختفى عند بعض إخوانه، ثم بعث الذين بقوا بالقصر إلى مصعب ونزلوا على حكمه فقتلهم أجمعين. وأشار عليه المهلب باستبقائهم، فاعترضه أشراف أهل الكوفة، ورجع إلى رأيهم. ثم أمر بكف المختار بن أبي عبيد فقطعت وسمرت إلى جانب المسجد فلم ينزعها من هنالك إلا الحجاج. وقتل زوجة عمرة بنت النعمان بن بشير زعمت أن المختار..... فاستأذن أخاه عبد اللّه وقتلها.

ثم كتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعته. ووعده بولاية أعنة الخيل وما غلب عليه من المغربة. وكتب إليه عبد الملك بولاية العراق، واختلف عليه أصحابه فجنح إلى مصعب خشية مما أصاب ابن زياد وأشراف أهل الشام. وكتب إلى مصعب بالإجابة وسار إليه فبعث على عمله بالموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان المهلب بن أبي صفرة. وقيل: إن المختار إنما أظهر الخلاف لابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة وأنه بعث على مقدمته أحمد بن شميط، وبعث مصعب عباداً الحبطي ومعه عبيد اللّه بن علي بن أبي طالب، وتراضوا ليلاً، فناجزهم المختار من ليلته. وانكشف أصحاب مصعب إلى عسكرهم واشتد القتال وقتل من أصحاب مصعب جماعة منهم محمد بن الأشعث.

فلما أصبح المختار وجد أصحابه قد توغلوا في أصحاب مصعب وليس عنده أحد فانصرف ودخل قصر الكوفة وفقد أصحابه فلحقوا به، ودخل القصر معه ثمانية آلاف منهم. وأقبل مصعب فحاصرهم أربعة أشهر يقاتلهم بالسيوف كل يوم حتى قتل، وطلب الذين في القصر الأمان من مصعب ونزلوا على حكمه فقتلهم جميعاً، وكانوا ستة آلاف رجل. ولما ملك مصعب الكوفة بعث عبد اللّه بن الزبير ابنه حمزة على البصرة مكان مصعب فأساء السيرة وقصر بالأشراف ففزعوا إلى مالك بن مسمع، فخرج إلى الجسر وبعث إلى حمزة أن الحق بأبيك. وكتب الأحنف إلى أبيه أن يعزله عنهم ويعيد لهم مصعباً ففعل.

وخرج حمزة بالأموال فعرض له مالك بن مسمع وقال: لا ندعك تخرج بأعطياتنا فضمن له عمر بن عبيد اللّه العطاء فكف عنه. وقيل: إن عبيد اللّه بن الزبير إنما رد مصعباً إلى البصرة عند وفادته عليه بعد سنة من قتل المختار. ولما رده إلى البصرة استعمل عمر بن عبيد اللّه بن معمر على فارس وولاه حرب الأزارقة. وكان المهلب على حربهم أيام مصعب وحمزة، فلما رد مصعباً أراد أن يولي المهلب الموصل والجزيرة وأرمينية ليكون بينه وبين عبد الملك فاستقدمه واستخلف على عمله المغيرة. فلما قدم البصرة عزله مصعب عن حرب الخوارج وبلاد فارس واستعمل عليها عمر بن عبيد اللّه بن معمر فكان له في حروبهم ما نذكره في أخبار الخوارج.

خلاف عمرو بن سعيد الأشدق ومقتله

كان عبد الملك بعد رجوعه من قنسرين أقام بدمشق زماناً، ثم سار لقتال زحر بن الحارث الكلابي بقرقيسيا، واستخلف على دمشق عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي ابن أخته، وسار معه عمرو بن سعيد. فلما بلغ بطنان انتقض عمرو وأسرى ليلاً إلى دمشق، وهرب ابن أم الحكم عنها فدخلها عمرو وهدم داره، واجتمع إليه الناس فخطبهم ووعدهم. وجاء عبد الملك على أثره فحاصره بدمشق ووقع بينهما القتال أياماً. ثم اصطلحا وكتب بينهما كتاباً وأمنه عبد الملك فخرج إليه عمرو ودخل عبد الملك دمشق فأقام أربعة أيام ثم بعث إلى عمرو ليأتيه، فقال له عبد اللّه بن يزيد بن معاوية وهو صهره وكان عنده: لا تأته فإني أخشى عليك منه. فقال: واللّه لو كنت نائماً ما أيقظني. ووعد الرسول بالرواح إليه، ثم أتى بالعشي ولبس درعه تحت القباء، ومضى في مائة من مواليه وقد جمع عبد الملك عنده بني مروان وحسان بن نجد الكلبي وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي وأذن لعمرو فدخل.

ولم يزل أصحابه يجلسون عند كل باب حتى بلغوا قاعة الدار وما معه إلا غلام واحد ونظر إلى عبد الملك والجماعة حوله فأحس بالشر وقال للغلام: انطلق إلى أخي يحيى وقل له يأتيني، فلم يفهم عنه وأعاد عليه فيجيبه الغلام لبيك وهو لا يفهم. فقال له: اغرب عني. ثم أذن عبد الملك لحسان وقبيصة فلقيا عمراً، ودخل فأجلسه معه على السرير وحادثه زمناً. ثم أمر بنزع السيف عنه. فأنكر ذلك عمرو وقال: اتق الله يا أمير المؤمنين! فقال له عبد الملك: أتطمع أن تجلس معي متقلداً سيفك؟ فأخذ عنه السيف؟ ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية إنك حين خلعتني حلفت يمين إن أنا رأيتك بحيث أقدر عليك أن أجعلك في جامعة، فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم! وما عسيت أن أصنع بأبي أمية؟ فقال بنو مروان: أبر قسم أمير المؤمنين يا أبا أمية فقال عمرو: قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين.

فأخرج من تحت فراشه جامعة وأمر غلاماً فجمعه فيها وسأله أن لا يخرجه على رؤوس الناس. فقال: أمكراً عند الموت؟ ثم جذبه جذبة أصاب فمه السرير فكسر ثنيته ثم سأل الإبقاء. فقال عبد الملك: والله لو علمت أنك تبقى أن أبقيت عليك وتصلح قريش لأبقيتك، ولكن لا يجتمع رجلان مثلنا في بلد. فشتمه عمرو وخرج عبد الملك إلى الصلاة وأمر أخاه عبد العزيز بقتله. فلما قام إليه بالسيف ذكره الرحم، فأمسك عنه وجلس. ورجع عبد الملك من الصلاة وغلقت الأبواب، فغلظ لعبد العزيز ثم تناول عمراً فذبحه بيده وقيل: أمر غلامه ابن الزغير فقتله.

وافتقد الناس عمر مع عبد الملك حين خرج إلى الصلاة فأقبل أخوه يحيى في أصحابه وعبيده وكانوا ألفاً، ومعه حميد بن الحارث وحريث وزهير بن الأبرد فهتفوا باسمه ثم كسروا باب المقصورة وضربوا الناس بالسيوف، وخرج الوليد بن عبد الملك واقتتلوا ساعة. ثم خرج عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي بالرأس فألقاه إلى الناس وألقى إليهم عبد العزيز بن مروان بدرّ الأموال فانتهبوها وافترقوا. ثم خرج عبد الملك إلى الناس وسأل عن الوليد فأخبر بجراحته وأتى بيحيى بن سعيد وأخيه عنبسة فحبسهما وحبس بني عمر بن سعيد ثم أخرجهم جميعاً وألحقهم بمصعب، حتى حضروا عنده بعد قتل مصعب فأمنهم ووصلهم.

وكان بنو عمرو أربعة: أمية وسعد وإسماعيل ومحمد. ولما حضروا عنده، قال: أنتم أهل بيت ترون لكم على جميع قومكم فضلاً لن يجعله الله لكم، والذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثاً بل كان قديماً في أنفس أوليكم على أولينا في الجاهلية. فقال سعيد: يا أمير المؤمنين! تعد علينا أمراً كان في الجاهلية والإسلام قد هدم ذلك ووعد جنة وحذر ناراً، وأما عمرو فهو ابن عمك وقد وصل إلى الله وأنت أعلم بما صنعت، وإن أحدثنا به فبطن الأرض خير لنا من ظهرها. ففرقّ لهم عبد الملك وقال: أبوكم خيرني بين أن يقتلني أو أقتله واخترت قتله على قتلي، وأما أنتم فما أرغبني فيكم وأوصلني لقرابتكم وأحسن حالتهم. وقيل إن عمراً إنما كان خلفه وقتله حين سار عبد الملك لقتال مصعب طلبه أن يجعل له العهد بعده كما فعل أبوه فلم يجبه إلى ذلك، فرجع إلى دمشق فعصى وامتنع بها وكان قتله سنة تسع وستين.

مسير عبد الملك إلى العراق ومقتل مصعب

ولما صفا الشام لعبد الملك اعتزم على غزو العراق وأتته الكتب من أشرافهم يدعونه فاستمهله أصحابه فأبى، وسار نحو العراق وبلغ مصعباً سيره فأرسل إلى المهلب بن أبي صفرة وهو بفارس في قتال الخوارج يستشيره. وقد كان عزل عمر بن عبيد الله بن معمر عن فارس وحرب الخوارج، وولى مكانه المهلب وذلك حين استخلف على الكوفة. وجاء خالد بن عبيد الله بن خالد بن أسيد على البصرة مختفياً، وأعيد لعبد الملك عند مالك بن مسمع في بكر بن وائل والأزد، وأمد عبد الملك بعبيد الله بن زياد بن ظبيان وحاربهم عمر بن عبيد الله بن معمر ثم صالحهم على أن يخرجوا خالداً فأخرجوه.

وجاء مصعب وقد طمع أن يدرك خالداً فوجده قد خرج فسخط على ابن معمر وسب أصحابه وضربهم وهدم دورهم وحلقهم وهدم دار مالك بن مسمع واستباحها. وعزل بن معمر عن فارس وولى المهلب وخرج إلى الكوفة. فلم يزل بها حتى سار للقاء عبد الملك وكان معه الأحنف فتوفي بالكوفة. ولما بعث عن المهلب ليسير معه أهل البصرة إلا أن يكون المهلب على قتال الخوارج رده وقال له المهلب: إن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فلا يتعدى.

ثم بُعث مصعب عن إبراهيم بن الأشتر وكان على الموصل والجزيرة فجعله في مقدمته وسار حتى عسكر في معسكره، وسار عبد الملك وعلى مقدمته أخوه محمد بن مروان، وخالد بن عبيد الله بن خالد بن أسيد، فنزلوا قريباً من قرقيسيا. وحضر زفر بن الحارث الكلابي، ثم صالحه. وبعث زفر معه الهذيل ابنه في عسكر وسار معه فنزل بمسكن قريباً من مسكن مصعب وفر الهذيل بن زفر فلحق بمصعب، وكتب عبد الملك إلى أهل العراق وكتبوا إليه وكلهم بشرط أصفهان وأتى ابن الأشتر بكتاب مختوماً إلى مصعب

فقرأه، فإذا هو يدعوه إلى نفسه ويجعل له ولاية العراق فأخبره مصعب بما فيه وقال: مثل هذا لا يرغب عنه. فقال إبراهيم: ما كنت لأتقلد الغدر والخيانة. ولقد كتب عبد الملك لأصحابك كلهم مثل هذا فأطعني واقتلهم أو احسبهم في أضيق محبس، فأبى عليه مصعب وأضمر أهل العراق الغدر بمصعب. وعذلهم قيس بن الهيثم منهم في طاعة أهل الشام فأعرضوا عنه.

ولما تدانى العسكران بعث عبد الملك إلى مصعب يقول، فقال: تجعل الأمر شورى. فقال مصعب: ليس بيننا إلا السيف. فقدم عبد الملك أخاه محمداً وقدم مصعب إبراهيم بن الأشتر وأمده بالجيش، فأزال محمداً عن موقفه، وأمده عبد الملك بعبيد الله بن يزيد فاشتد القتال وقتل من أصحاب مصعب بن عمر الباهلي والد قتيبة، وأمد مصعب إبراهيم بعتاب بن ورقاء فساء ذلك إبراهيم ونكره. وقال: أوصيته لا يمدني بعتّاب وأمثاله. وكان قد بايع لعبد الملك فجرَّ الهزيمة على إبراهيم وقتله وحمل رأسه إلى عبد الملك. وتقدم أهل الشام فقاتل مصعب ودعا رؤوس العراق إلى القتال فاعتذروا وتثاقلوا. فدنا محمد بن مروان من مصعب وناداه بالأمان وأشعره بأهل العراق فأعرض عنه، فنادى ابنه عيسى بن مصعب فأذن له أبوه في لقائه. فجاءه وبذل له الأمان وأخبر أباه فقال: أتظنهم يعرفون لك ذلك؟ فإن أحببت فافعل. قال: لا يتحدث نساء قريش إني رغبت بنفسي عنك. قال: فاذهب إلى عمك بمكة فأخبره بصنيع أهل العراق ودعني، فأني مقتولٌ فقال: لا اخبر قريشاً عنك أبداً، ولكن الحق أنت بالبصرة فإنهم على الطاعة أو بأمير المؤمنين بمكة. فقال: لا تتحدث قريش إني فررت.

ثم قال لعيسى: تقدم يا بني أحتسبك فتقدم في ناس فقتل وقتلوا. والح عبد الملك في قبول أمانه فأبى ودخل سرادقه فتحفظ ورمى السرادق وخرج فقاتل ودعاه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فشتمه وحمل عليه وضربه فجرحه. وخذل أهل العراق مصعباً حتى بقي في سبعة أنفس، وأثخنته الجراحة فرجع إليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فقتله وجاء برأسه إلى عبد الملك فأمر له بألف دينار فلم يأخذها. وقال: إنما قتلته بثأر أخي. وكان قطع الطريق فقتله صاحب شرطته وقيل: إن الذي قتله زائدة بن قدامة الثقفي من أصحاب المختار. وأخذ عبيد الله رأسه وأمر عبد الملك به وبابنه عيسى فدفنا بدار الجاثليق عند نهر رحبيل. وكان ذلك سنة إحدى وسبعين.

ثم دعا عبد الملك جند العراق إلى البيعة فبايعوه وسار إلى الكوفة فأقام بالنخيلة أربعين يوماً وخطب الناس فوعد المحسن، وطلب يحيى بن سعيد من جعفة وكانوا أخواله فأحضروه فأمنه. وولى أخاه بشر بن مروان على الكوفة ومحمد بن نمير على همدان ويزيد بن ورقاء بن رويم على الري ولم يف لهم بأصبهان كما شرطوا عليه، وكان عبد الله بن يزيد بن أسد والد خالد القسري، ويحيى بن معتوق الهمداني قد لجآ إلى علي بن عبد الله بن عباس ولجأ هذيل بن زفر بن الحارث وعمر بن يزيد الحكمي إلى خالد بن يزيد فأمنهم عبد الملك. وصنع عمر بن حريث لعبد الملك طعاماً فأخبره بالخورنق وأذن للناس عامة فدخلوا، وجاء عمر بن حريث فأجلسه معه على سريره وطعم الناس. ثم طاف مع عمر بن حريث على القصر يسأله عن مساكنه ومعالمه ولما بلغ عبد الله بن حازم مسير مصعب لقتال عبد الملك قال: أمعه عمر بن معمر قيل: هو على فارس. قال: فالمهلب؟ قيل: في قتال الخوارج. قال: فعباد بن الحسين؟ قيل: على البصرة. قال: وأنا بخراسان.

خذيني فجريني جهاراً وانشدي بلحم امرئ لم يشهد اليوم ناصره

ثم بعث عبد الملك برأس مصعب إلى الكوفة، ثم إلى الشام. فنصب بدمشق وأرادوا التطاوف به فمنعت من ذلك زوجة عبد الملك عاتكة بنت يزيد بن معاوية فغسلته ودفنته. وانتهى قتل مصعب إلى المهلب وهو يحارب الأزارقة فبايع الناس لعبد الملك بن مروان. ولما جاء خبر مصعب لعبد الله بن الزبير خطب الناس فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء. ألا وأنه لم يذل الله من كان الحق معه وإن كان الناس عليه طراً. وقد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا أتانا قتل مصعب. فالذي أفرحنا منه أن قتله شهادة وأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة. ثم عبد من عبيد الله وعون من أعواني ألا وإن أهل العراق، أهل الغدر والنفاق سلموه وباعوه بأقل الثمن فإن..... فوالله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبي العاص والله ما قتل رجل منهم في الجاهلية ولا في الإسلام. ولا نموت إلا طعناً بالرماح وتحت ظلال السيوف. ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه، فإن تقبل لا آخذها أخذ الأشر البطور، وإن تدبر لم أبك عليها بكاء الضرع المهين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ولما بلغ الخبر إلى البصرة تنازع ولايتها حمدان بن أبان وعبد الله بن أبي بكرة واستعان حمدان بعبد الله بن الأهتم عليها، وكانت له منزلة عند بني أمية، فلما تمهد الأمر بالعراق لعبد الملك بعد مصعب ولى على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد، فاستخلف عليها عبيد الله بن أبي بكرة، فقدم على حمدان وعزله

حتى جاء خالد، ثم عزل خالداً سنة ثلاث وسبعين وولى مكانه على البصرة أخاه بشراً وجمع له المصرين وسار بشر إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمر بن حريث. وولى عبد الملك على الجزيرة وأرمينية بعد قتل مصعب أخاه محمد بن مروان سنة ثلاث وستين، فغزا الروم ومزقهم بعد أن كان هادن ملك الروم أيام الفتنة على ألف دينار يدفعها إليه في كل يوم.

أمر زفر بن الحارث بقرقيسيا

قد ذكرنا في وقعة راهط مسير ابن زفر إلى قرقيسيا واجتماع قيس عليه. وأقام بها يدعو لابن الزبير. ولما ولي عبد الملك كتب إلى أبان بن عقبة بن أبي معيط، وهو على حمص بالمسير إلى زفر، فسار وعلى مقدمته عبد الله بن رميت العلائي فعاجله عبد الله بالحرب وقتل من أصحابه نحو ثلثمائة. ثم أقبل إبان فواقع زفر، وقيل ابنه وكيع بن زفر وأوهنه. ثم سار إليه عبد الملك إلى قرقيسيا قبل مسيره إلى مصعب فحاصره ونصب عليه المجانيق وقال: كلب لعبد الملك لا تخلط معنا القيسية، فإنهم ينهزمون إذا التقينا مع زفر ففعل. واشتد حصارهم وكان زفر يقاتلهم في كل غداة وأمر ابنه الهذيل يوماً أن يحمل زفر حتى يضرب فسطاط عبد الملك ففعل وقطع بعض أطنابه.

ثم بعث عبد الملك أخاه بالأمان لزفر وابنه الهذيل على أنفسهما ومن معهما وأن لهم ما أحبوا. فأجاب الهذيل وأدخل أباه في ذلك. وقال: عبد الملك لنا خير من ابن الزبير فأجاب أن له الخيار في بيعته سنة. وأن ينزل حيث شاء ولا يعين على ابن الزبير. وبينما الرسل تختلف بينهم إذ قيل لعبد الملك قد قدم من المدينة أربعة أبراج، فترك الصلح وزحف إليهم، فكشفوا أصحابه إلى عسكرهم ورجع إلى الصلح واستقر بينهم على الأمان ووضع الدماء والأموال. وأن لا يبايع لعبد الملك حتى يموت ابن الزبير للبيعة التي له في عنقه، وأن يدفع إليه مال نفسه في أصحابه. وتأخر زفر عن لقاء عبد الرحمن خوفاً من فعلته بعمر بن سعيد. فأرسل إليه بقضيب النبي ﷺ فجاء إليه وأجلسه عبد الملك معه على سريره. وزوج ابنه مسلمة الرباب بنت زفر. وسار عبد الملك إلى قتال مصعب فبعث زفر ابنه الهذيل معه بعسكر ولما قارب مصعباً هرب إليه وقاتل مع ابن الأشتر حتى إذا اقتتلوا اختفى الهذيل في الكوفة حتى أمّنه عبد الملك كما مر.

مقتل ابن حازم بخراسان وولاية بكير بن وشاح عليها

قد تقدم لنا خلاف بني تميم على ابن حازم بخراسان وأنهم كانوا على ثلاث فرق، وكف فرقتين منهم. وبقي يقاتل الفرقة الثالثة من نيسابور وعليهم بجير بن ورقاء الصريمي. فلما قتل مصعب بعث عبد الملك إلى حازم يدعوه إلى البيعة ويطعمه خراسان سبع سنين. وبعث الكتاب مع رجل من بني عامر بن صعصعة. فقال ابن حازم: لولا الفتنة بين سليم وعامر ولكن كلّ كتابك فأكله. وكان بكير بن وشاح التميمي خليفة ابن حازم على مرو، فكتب إليه عبد الملك بعهده على خراسان ورغبة بالمطامع أن انتهى، فخلع ابن الزبير ودعا إلى عبد الملك وأجابه أهل مرو. وبلغ ابن حازم فخاف أن يأتيه بكير ويجتمع عليه أهل مرو وأهل نيسابور فترك بجيراً وارتحل عنه إلى مرو ويزيد ابنه بترمد. فاتبعه بجير ولحقه قريباً من مرو واقتتلوا فقتل ابن حازم. طعنه بجير وآخران معه فصرعوه وقعد أحدهم على صدره فقطع رأسه.

وبعث بجير البشير بذلك إلى عبد الملك وترك الرأس وجاء بكير بن وشاح في أهل مرو وأراد إنفاذ الرأس إلى عبد الملك وأنه الذي قتل ابن حازم وأقام في ولاية خراسان. وقيل: إن ذلك إنما كان بعد قتل ابن الزبير وأن عبد الملك أنفذ رأسه إلى ابن حازم ودعاه إلى البيعة فغسل الرأس وكفنه وبعثه إلى ابن الزبير بالمدينة. وكان من شأنه مع الرسول ومع بجير وبكير ما ذكرناه.

كان عبد الملك لما بويع بالشام بعث إلى المدينة عروة بن أنيف في ستة آلاف من أهل الشام وأمره أن يسكن بالعرصة ولا يدخل المدينة وعامل ابن الزبير يومئذ على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن معمر الجمحي، فهرب الحارث وأقام ابن أنيف شهراً يصلي بالناس الجمعة بالمدينة ويعود إلى معسكره. ثم رجع ابن أنيف إلى الشام ورجع الحارث إلى المدينة. وبعث ابن الزبير سليمان بن خالد الدورقي على خيبر وفدك. ثم بعث عبد الملك إلى الحجاز عبد الملك بن الحارث بن الحكم في أربعة آلاف فنزل وادي القرى، وبعث سرية إلى سليمان بخيبر وهرب وأدركوه فقتلوه ومن معه. وأقاموا بخيبر وعليهم ابن القمقام. وذكر لعبد الملك ذلك فاغتم وقال: قتلوا رجلاً صالحاً بغير ذنب.

ثم عزل ابن الزبير الحارث بن حاطب عن المدينة وولى مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزهري فبعث جابر إلى خيبر أبا بكر بن أبي قيس في ستمائة فانهزم ابن القمقام وأصحابه أمامه وقتلوا صبراً. ثم بعث عبد الملك طارق بن عمر مولى عثمان،

وأمره أن ينزل بين أيلة ووادي القرى، ويعمل كما يعمل عمال ابن الزبير من الانتشار، وليسدّ خللاً إن ظهر له بالحجاز، فبعث طارق خيلاً إلى أبي بكير بخيبر واقتتلوا فاصيب أبو بكير في مائتين من أصحابه وكتب ابن الزبير إلى القبّاع وهو عامله على البصرة يستمده ألفي فارس إلى المدينة. فبعثهم القباع وأمر ابن الزبير جابر بن الأسود أن يسيرهم إلى قتال طارق ففعل ولقيهم طارق فهزمهم وقتل مقدمهم. وقتل من أصحابه خلقاً وأجهز على جريحهم ولم يستبق أسيرهم، ورجع إلى وادي القرى.

ثم عزل ابن الزبير جابراً عن المدينة واستعمل طلحة بن عبد اللّه بن عوف، وهو طلحة الندّاء وذلك سنة سبعين. فلم يزل على المدينة حتى أخرجه طارق. ولما قتل عبد الملك مصعباً ودخل الكوفة وبعث إليها الحجاج بن يوسف الثقفي في ثلاثة آلاف من أهل الشام لقتال ابن الزبير، وكتب معه بالأمان لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا. فسار في جمادى سنة اثنتين وسبعين، فلم يتعرض للمدينة ونزل الطائف. وكان يبعث الخيل إلى عرفة ويلقاهم هناك خيل ابن الزبير فينهزمون دائماً وتعود خيل الحجاج بالظفر. ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بضعف ابن الزبير وتفرق أصحابه ويستأذنه في دخول الحرم لحصار ابن الزبير ويستمده، فكتب عبد الملك إلى طارق يأمره باللحاق بالحجاج فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، وأخرج عنها طلحة النداء عامل ابن الزبير، وولى مكانه رجلاً من أهل الشام وسار إلى الحجاج بمكة في خمسة آلاف.

ولما قدم الحجاج مكة أحرم بحجه ونزل بئر ميمون وحج بالناس ولم يطف ولا سعى، وحصر ابن الزبير عن عرفة فنحر بدنة بمكة ولم يمنع الحاج من الطواف والسعي. ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبي قبيس ورمى به الكعبة وكان ابن عمر قد حج تلك السنة فبعث إلى الحجاج بالكف عن المنجنيق لأجل الطائفين ففعل، ونادى منادي الحجاج عند الإفاضة انصرفوا! فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير، ورمى بالمنجنيق على الكعبة وألحت الصواعق عليهم في يومين وقتلت من أصحاب الشام رجالاً فذعروا. فقال لهم الحجاج: لا شك فهذه صواعق تهامة وأن الفتح قد حضر فأبشروا.

ثم أصابت الصواعق من أصحاب ابن الزبير فسري عن أهل الشام فكانت الحجارة تقع بين يدي ابن الزبير وهو يصلي فلا ينصرف ولم يزل القتال بينهم، وغلت الأسعار وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه وقسم لحمها في أصحابه. وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد من الذرة بعشرين وبيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرةً وتمراً ولا ينفق منها إلا ما يمسك الرمق، يقوي بها نفوس أصحابه. ثم أجهدهم الحصار وبعث الحجاج إلى أصحاب ابن الزبير بالأمان فخرج إليه منهم نحو عشرة آلاف، وافترق الناس عنه. وكان ممن فارقه ابناه حمزة وحبيب، وأقام ابنه الزبير حتى قتل معه. وحرض الناس الحجاج وقال: قد ترون قلة أصحاب ابن الزبير وما هم فيه من الجهد والضيق فتقدموا واملؤوا ما بين الحجون والأبواء.

فدخل ابن الزبير على أمه أسماء وقال: يا أمه قد خذلني الناس حتى ولدي والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت: أنت أعلم بنفسك إن كنت على حق وتدعو إليه فامض له فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك وقد بلغت بها علمين بين بني أمية. وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك. وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين فقال: يا أمه أخاف أن يمثلوا بي ويصلبوني فقالت: يا بني الشاة إذا ذبحت لا تتألم بالسلخ، فامض على بصيرتك واستعن باللّه. فقبّل رأسها وقال: هذا رأيي والذي خرجت به داعياً إلى يومي هذا، وما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة وما أخرجني إلا الغضب لله وأن تستحل حرماته، ولكن أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتيني بصيرة.

وإني يا أمه في يومي هذا مقتول فلا يشتد حزنك وسلمي لأمر اللّه، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عمد بفاحشة ولم يجر ولم يغدر ولم يظلم ولم يقر على الظلم، ولم يكن آثر عندي من رضا اللّه تعالى. اللّهم لا أقر هذا تزكية لنفسي لكن تعزية لأمي حتى تسلو عني. فقالت: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً إن تقدمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك. ثم قالت: أخرج حتى أنظر ما يصير أمرك جزاك اللّه خيراً. قال: فلا تدعي الدعاء لي، فدعت له وودعها وودعته ولما عانقته للوداع وقعت يدها على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد! فقال: ما لبستها إلا لأشد منك. فقالت: إنه لا يشد مني فنزعها وقالت له: البس ثيابك مشمرة.

ثم خرج فحمل على أهل الشام حملة منكرة فقتل منهم ثم انكشف هو وأصحابه وأشار عليه بعضهم بالفرار فقال: بئس الشيخ إذن أنا في الإسلام إذا واقعت قوماً فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم. وامتلأت أبواب المسجد بأهل الشام والحجاج وطارق بناحية الأبطح إلى المروة وابن الزبير يحمل على هؤلاء وعلى هؤلاء وينادي أبا صفوان لعبد اللّه بن صفوان بن أمية بن

خلف فيجيبه من جانب المعترك. ولما رأى الحجاج إحجام الناس عن ابن الزبير غضب وترجل وحمل إلى صاحب الراية بين يديه فتقدم ابن الزبير إليهم وكشفهم عنه ورجع فصلى ركعتين عند المقام وحملوا على صاحب الراية فقتلوه عند باب بني شيبة وأخذوا الراية.

ثم قاتلهم وابن مطيع معه حتى قتل ويقال: أصابته جراحة فمات منها بعد أيام ويقال: إنه قال لأصحابه يوم قتل: يا آل الزبير أوطبتم لي نفساً عن أنفسكم كأهل بيت من العرب اصطلمنا في الله؟ فلا يرعكم وقع السيوف فإن ألم الدواء في الجرح أشد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم بما تصونون وجوهكم وغضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرئ قِرنه ولا تسألوا عني. ومن كان سائلاً فإني في الرعيل الأول. ثم حمل حتى بلغ الحجون فأصابته حجارة في وجهه فأرغش لها ودمي وجهه. ثم قاتل قتالاً شديداً وقتل في جمادى الآخر سنة ثلاث وسبعين.

وحمل رأسه إلى الحجاج فسجد، وكبر أهل الشام وثار الحجاج وطارق حتى وقفا عليه، وبعث الحجاج برأسه ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى عبد الملك. وصلب جثته منكسة على ثنية الحجون اليمنى. وبعثت إليه أسماء في دفنه فأبى، وكتب إليه عبد الملك يلومه على ذلك فخلى بينها وبينه. ولما قتل عبد الله ركب أخوه عروة وسبق الحجاج إلى عبد الملك فرحب به وأجلسه على سريره، وجرى ذكر عبد الله فقال عروة: إنه كان! فقال عبد الملك: وما فعل؟ قال: قتل فخر ساجداً. ثم أخبره عروة أن الحجاج صلبه فاستوهب جثته لأمه. فقال: نعم وكتب إلى الحجاج ينكر عليه صلبه فبعث بجثته إلى أمه وصلى عليه عروة ودفنه وماتت أمه بعده قريباً.

ولما فرغ الحجاج من ابن الزبير دخل إلى مكة فبايعه أهلها لعبد الملك وأمر بكنس المسجد من الحجارة والدم وسار إلى المدينة وكانت من عمله فأقام بها شهرين وأساء إلى أهلها وقال: أنتم قتلة عثمان. وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم كما يفعل بأهل الذمة. منهم جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وسهل بن سعد. ثم عاد إلى مكة ونقلت عنه في ذم المدينة أقوال قبيحة أمره فيها إلى الله، وقيل: إن ولاية الحجاج المدينة وما دخل منها كانت سنة أربع وسبعين وأن عبد الملك عزل عنها طارقاً واستعمله. ثم هدم الحجاج بناء الكعبة الذي بناه ابن الزبير وأخرج الحجر منه وأعاده إلى البناء الذي أقره عليه النبي ﷺ. ولم يصدق ابن الزبير في الحديث الذي رواه عن عائشة. فلما صح عنده بعد ذلك قال: وددت أني تركته وما تحمل.

ولاية المهلب حرب الأزارقة

ولما عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة واستعمل مكانه أخاه بشر بن مروان وجمع له المصرين أمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة فيمن ينتخبه من أهل البصرة ويتركه وراءه في الحرب، وأن يبعث من أهل الكوفة رجلاً شريفاً معروفاً بالبأس والنجدة والتجربة في جيش كثيف إلى المهلب، فيتبعوا الخوارج حتى يهلكوهم. فأرسل المهلب جذيع بن سعيد بن قبيصة ينتخب الناس من الديوان. وشق على بشر أن امرأة المهلب جاءت من عند عبد الملك، فغص به ودعا عبد الرحمن بن مخنف فأعلمه منزلته عنده وقال: إني أوليك جيش الكوفة بحرب الأزارقة فكن عند حسن ظني بك. أخذ يغريه بالمهلب وأن لا يقبل رأيه ولا مشورته، فأظهر له الوفاق. وسار إلى المهلب فنزلوا رامهرمز ولقي بها الخوارج فخدق عليه على ميل من المهلب حيث يتراءى العسكران. ثم أتاهم نعي بشر بن مروان لعشر ليال من مقدمهم وأنه استخلف على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد فافترق الناس من أهل المصرين إلى بلادهم، ونزلوا الأهواز وكتب إليهم خالد بن عبد الله يتهددهم ويحذرهم عقوبة عبد الملك إن لم يرجعوا إلى المهلب فلم يلتفتوا إليه ومضوا إلى الكوفة واستأذنوا عمر بن حريث في الدخول ولم يأذن لهم فدخلوا وأضربوا عن إذنه.

ولاية أسد بن عبد الله على خراسان

ولما ولي بكير بن وشاح على خراسان اختلف عليه بطون تميم وأقاموا في العصبية له وعليه سنتين، وخاف أهل خراسان أن تفسد البلاد ويقهرهم العدو فكتبوا إلى عبد الملك بذلك وأنها لا تصلح إلا على رجل من قريش. واستشار أصحابه فقال له أمية بن عبيد الله بن خالد بن أسيد: نزكيهم برجل منك. فقال: لولا انهزامك عن أبي فديك كنت لها. فاعتذر وحلف أن الناس خذلوه ولم يجد مقاتلاً فانحزت بالعصبة التي بقيت من المسلمين عن الهلكة، وقد كتب إليك خالد بن عبد الله بعذري وقد علمه الناس، فولاه خراسان.

ولما سمع بكير بن وشاح بمسيره بعث إلى بحير بن ورقاء وهو في حبسه كما مر فأبى وأشار عليه بعض أصحابه أن يقبل مخافة القتل فقبل. وصالح بكيراً أو بعث إليه بكير بأربعين ألفاً على أن لا يقاتله. فلما قارب أمية نيسابور إليه بحير وعرفه عن

أمور خراسان وما يحسن به طاعة أهله. وحذره غدر بكير. وجاء معه إلى مرو فلم يعرض أمية لبكير ولا لعماله وعرض عليه شرطته فأبى. وقال: لا أحمل الجزية اليوم وقد كانت تحمل إلي بالأمس وأراد أن يوليه بعض النواحي من خراسان فحذره بجير منه. ثم ولى أمية ابنه عبد اللّه على سجستان فنزل بَسْتا وغزا رَتْبيل الذي ملك على الترك بعد المقتول الأول وكان هائباً للمسلمين فراسلهم في الصلح وبعث ألف ألف وبعث بهدايا ورقيق. فأبى عبد اللّه من قبولها وطلب الزيادة فجلا رتبيل عن البلاد حتى أوغل فيها عبد اللّه. ثم أخذ عليه الشعاب والمضايق حتى سأل منه الصلح وأن يخلي عينه عن المسلمين فشرط رتبيل عليه ثلثمائة ألف درهم والعهد بأن لا يغزو بلادهم. فأعطاه ذلك وبلغ الخبر بذلك عبد الملك فعزله.

ولاية الحجاج العراق

ثم ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف على الكوفة والبصرة سنة خمس وسبعين وأرسل إليه وهو بالمدينة يأمره بالمسير إلى العراق فسار على النجب في اثني عشر راكباً حتى قدم الكوفة في شهر رمضان. وقد كان بشر بعث المهلب إلى الخوارج فدخل المسجد وصعد المنبر وقال: علي بالناس فظنوه من بعض الخوارج فهموا به، حتى تناول عمير بن ضابي البرجمي الحصباء وأراد أن يحصبه، فلما تكلم جعل الحصباء يسقط من يديه وهو لا يشعر به.

ثم حضر الناس فكشف الحجاج عن وجهه وخطب خطبته المعروفة. ذكرها الناس وأحسن من أوردها المبرد في الكامل يتهدد فيها أهل الكوفة ويتوعدهم عن التخلف عن المهلب. ثم نزل وحضر الناس عنده للعطاء واللحاق بالمهلب فقام إليه عمير بن ضابي وقال: أنا شيخ كبير عليل وابني هذا أشد مني. فقال: هذا خير لنا منك. قال: ومن أنت؟ قال: عمير بن ضابي قال: الذي غزا عثمان في داره؟ قال: نعم. فقال: يا عدو اللّه.... إلى عثمان بدلاً قال: إنه حبس أبي وكان شيخاً كبيراً. فقال: إني لا أحب حياتك إن في قتلك صلاح المصرين، وأمر به فقتل ونهب ماله. وقيل: إن عنبسة بن سعيد بن العاص هو الذي أغرى به الحجاج حين دخل عليه.

ثم أمر الحجاج مناديه فنادى ألا إن ابن ضابي تخلف بعد ثالثة من النداء فأمرنا بقتله، وذمة اللّه بريئة ممن بات الليلة من جند المهلب. فتساءل الناس إلى المهلب وهو بدار هرمز وجاءه العرفاء فأخذوا كتبه بموافاة العسكر. ثم بعث الحجاج على البصرة الحكم بن أيوب الثقفي وأمره أن يشتد على خالد بن عبد اللّه، وبلغه الخبر فقسم في أهل البصرة ألف ألف وخرج عنها. ويقال: إن الحجاج أول من عاقب على التخلف عن البعوث بالقتل قال الشعبي: كان الرجل إذا أخل بوجهه الذي يكتب إليه زمن عمر وعثمان وعلي تنزع عمامته ويقام بين الناس، فلما ولي مصعب أضاف إليه حلق الرؤوس واللحى، فلما ولي بشر أضاف إليه تعليق الرجل بمسمارين في يده في حائط فيخرق المسماران يده وربما مات. فلما جاء الحجاج ترك ذلك كله وجعل عقوبة من تخلى بمكانه من الثغر أو البعث القتل. ثم ولى الحجاج على السند سعيد بن أسلم بن زرعة فخرج عليه معاوية بن الحارث الكلابي العلاقي وأخوه، فغلباه على البلاد وقتلاه. فأرسل الحجاج مجاعة بن سعيد التميمي مكانه فغلب على الثغر وغزا وفتح فتوحات بمكران لسنة من ولايته.

وقوع أهل البصرة بالحجاج

ثم خرج الحجاج من الكوفة واستخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة وسار إلى البصرة وقدمها وخطب كما خطب بالكوفة وتوعد على القعود عن المهلب كما توعد فأتاه شريك بن عمرو السكري وكان به فتق فاعتذر به وبأن بشر بن مروان قبل عذره بذلك وأحضر عطاءه ليرد لبيت المال فضرب الحجاج عنقه وتتابع الناس مزدحمين إلى المهلب ثم سار حتى كان بينه وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً. وأقام يشد ظهره وقال: يا أهل المصرين! هذا واللّه مكانكم حتى يهلك اللّه الخوارج. ثم قطع لهم الزيادة التي زادها مصعب في الأعطية وكانت مائة مائة. وقال: لسنا نجيزها. فقال عبد اللّه بن الجارود: إنما هي زيادة عبد الملك وقد أجازها أخوه بشر بأمره، فانتهره الحجاج فقال: إني لك ناصح وإنه قول من ورائي فمكث الحجاج أشهراً لا يذكر الزيادة ثم أعاد القول فيها فرد عليه ابن الجارود مثل الرد الأول.

فقال له مضفلة بن كرب العبدي: سمعاً وطاعة للأمير فيما أحببنا وكرهنا وليس لنا أن نرد عليه. فانتهره ابن الجارود وشتمه وأتى الوجوه إلى عبد اللّه بن حكيم بن زياد المجاشعي وقالوا: إن هذا الرجل مجمع على نقص هذه الزيادة وإنا نبايعك على إخراجه من العراق، ونكتب إلى عبد الملك أن يولي علينا غيره وإلا خلعناه وهو يخافنا ما دامت الخوارج في العراق، فبايعوه سراً وتعاهدوا وبلغ الحجاج أمرهم فاحتاط وجد. ثم خرجوا في ربيع سنة ست وسبعين وركب عبد اللّه بن الجارود في عبد قيس على راياتهم ولم

يبق مع الحجاج إلا خاصته وأهل بيته وبعث الحجاج يستدعيه فأفحش في القول لرسوله، وصرح بخلع الحجاج فقال له الرسول: تهلك قومك وعشيرتك. وأبلغه تهديد الحجاج إياه فضرب وأخرج وقال: لولا أنك رسول لقتلتك.

ثم زحف ابن الجارود في الناس حتى غشي فسطاطه فنهبوا ما فيه من المتاع وأخذوا زجاجته وانصرفوا عنها. فكان رأيهم أن يخرجوه ولا يقتلوه. وقال الغضبان بن أبي القبعثري الشيباني لابن الجارود: لا ترجع عنه وحرضه على معالجته. فقال: إلى الغداة، وكان مع الحجاج عثمان بن قطن وزياد بن عمر العتكي صاحب الشرطة بالبصرة، فاستشارهما فأشار زياد بأن يستأمن القوم ويلحق بأمير المؤمنين. وأشار عثمان بالثبات ولو كان دونه الموت. وقال: لا تخرج إلى أمير المؤمنين من العراق بعد أن رقاك إلى ما رقاك وفعلت ما فعلت بابن الزبير في الحجاز. فقبل رأي عثمان وحقد على زياد في إشارته وجاءه عامر بن مسمع يقول: قد أخذ لك الأمان من الناس فجعل الحجاج يغالطه رافعاً صوته عليه ليسمع الناس ويقول: والله لا آمنهم حتى تؤتوني بالهذيل بن عمران وعند الله بن حكيم. ثم أرسل إلى عبيد بن كعب الفهري أن ائتني فامنعني. فقال له: إن أتيتني منعتك فأبى وبعث إلى محمد بن عمير بن عطارد وعبد الله بن حكيم بمثل ذلك، وأجابوه مثله.

ثم إن عباد بن الحصين الجفطي مر بابن الجارود والهذيل وعبد الله بن حكيم يتناجون فطلب الدخول معهم فأبوا وغضب وسار إلى الحجاج وجاءه قتيبة بن مسلم في بني أعصر للحمية القتيبية. ثم جاءه سبرة بن علي الكلابي وسعيد بن أسلم الكلابي وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف الأزدي، فثابت إليه نفسه وعلم أنه قد امتنع. وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع إن شئت أتيتك وإن شئت أقمت وثبطت عنك، فأجابه أن أقم فلما أصبح إذا حوله ستة آلاف. وقال ابن الجارود لعبد الله بن زياد بن ضبيان: ما الرأي؟ قال: تركته أمس ولم يبق إلا الصبر.

ثم تراجعوا وعبى ابن الجارود وأصحابه على ميمنة الهذيل وعلى ميسرته سعيد بن أسلم، وحمل ابن الجارود حتى حاصر أصحاب الحجاج وعطف الحجاج عليه فقارب ابن الجارود أن يظفر. ثم أصابه سهم غَرِب فوقع ميتاً. ونادى منادي الحجاج بأمان الناس إلا الهذيل وابن الحكيم وأمر أن لا يتبع المنهزمين، ولحق ابن ضبيان بعمار فهلك هنالك. وبعث الحجاج برأس ابن الجارود ورأس ثمانية عشر من أصحابه إلى الملك ونصبت ليراها الخوارج ليتأسوا من الاختلاف وحبس الحجاج عبيد بن كعب ومحمد بن عمير لامتناعهما من الإتيان إليه وحبس ابن القبعثري لتحريضه عليه، فأطلقه عبد الملك وكان فيمن قتل مع ابن الجارود عبد الله بن أنس بن مالك. فقال الحجاج: لا أرى أنساً يعين علي. ودخل البصرة وأخذ ماله. وجاءه أنس فأساء عليه وأفحش في شتمه وكتب أنس إلى عبد الملك يشكوه. فكتب عبد الملك إلى الحجاج يشتمه ويغلظ عليه في التهديد على ما فعل بأنس. وأن تجيء إلى منزله وتتنصل إليه وإلا نبعث من يضرب ظهرك ويهتك سترك. قالوا: وجعل الحجاج في قراءته يتغير ويرتعد وجبينه يرشح عرقاً. ثم جاء إلى أنس بن مالك واعتذر إليه. وفي عقب هذه الواقعة خرج الزنج بفرات البصرة، وقد كانوا خرجوا قبل ذلك أيام مصعب ولم يكونوا بالكثير وأفسدوا الثمار والزروع، ثم جمع لهم خالد بن عبد الله فافترقوا قبل أن ينال منهم وقتل بعضهم وصلبه. فلما كانت هذه الواقعة قدموا عليهم رجلاً منهم اسمه رياح ويلقب بشير زنجي أي: أسد الزنج وأفسدوا. فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود أمر زياد ابن عمر صاحب الشرطة أن يبعث إليهم من يقاتلهم وبعث ابنه حفصاً في جيش فقتلوه وانهزم أصحابه فبعث جيشاً فهزم الزنج وأبادهم.

مقتل ابن مخنف وحرب الخوارج

كان المهلب وعبد الرحمن بن مخنف واقفين للخوارج برامهرمز فلما أمدهم الحجاج بالعساكر من الكوفة والبصرة تأخر الخوارج من رامهرمز إلى كازرون وأتبعهم العساكر حتى نزلوا بهم. وخندق المهلب على نفسه، وقال ابن مخنف وأصحابه خدمنا سيوفنا. فبيتهم الخوارج وأصابوا الغِرَّة في ابن مخنف فقاتل هو وأصحابه: حتى قتلوا، هكذا حديث أهل البصرة، وأما أهل الكوفة فذكروا أنهم لما ناهضوا الخوارج اشتد القتال بينهم ومال الخوارج على المهلب فاضطروه إلى معسكره وأمده عبد الرحمن بالخيل والرجال.

ولما رأى الخوارج مدده تركوا من يشغل المهلب وقصدوا عبد الرحمن فقاتلوه وانكشفوا عنه، وصبر في سبعين من قومه فثابوا إلى عتاب بن ورقاء، وقد أمره الحجاج أن يسمع للمهلب فثقل ذلك عليه، فلم يحسن بينهما العشرة وكان يتراءف في الكلام، وربما أغلظ له المهلب. فأرسل عتاب إلى الحجاج يسأله القعود، وكان حرب الخوارج وشبيب قد اتسع عليه، فصادفا منه ذلك مرقعاً واستقدمه وأمره أن يترك العسكر مع المهلب فولى المهلب عليهم ابنه حبيباً، وأقام يقاتلهم بنيسابور نحواً من سنة وتحركت الخوارج على الحجاج من لدن سنة ست وسبعين إلى

سنة ثمان وشغل بحربهم وأول من خرج منهم صالح بن سرح من بني تميم. بعث إليه العساكر فقتل فولوا عليهم شبيباً واتبعه كثير من بني شيبان وبعث إليهم الحجاج العساكر مع الحارث بن عميرة ثم مع سفيان الخثعمي ثم انحدر ابن سعيد فهزموها وأقبل شبيب إلى الكوفة فحاربهم الحجاج وامتنع ثم سرح عليه العساكر وبعث في أثرهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فهزموهم. ثم بعث عتاب بن ورقاء وزهرة بن حوبة مدداً لهم فانهزموا وقتل عتاب وزهرة ثم قتل شبيب واختلف الخوارج بينهم وقتل منهم جماعة كما يذكر ذلك كله في أخبارهم.

ضرب السكة الإسلامية

كان عبد الملك كتب في صدر كتابه إلى الروم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وذكر النبي مع التاريخ، فنكر ذلك ملك الروم وقال: اتركوه وإلا ذكرناه نبيكم في دنانيرنا بما تكرهون. فعظم ذلك عليه واستشار الناس فأشار عليه خالد بن يزيد بضرب السكة وترك دنانيرهم ففعل. ثم نقش الحجاج فيها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. فكره الناس ذلك لأنه قد يمسها غير الطاهر، ثم بالغ في تخليص الذهب والفضة من الغش. وزاد ابن هبيرة أيام يزيد بن عبد الملك عليه. ثم زاد خالد القسري عليهم في ذلك أيام هشام. ثم أفرط يوسف بن عمر من بعدهم في المبالغة وامتحان العيار وضرب عليه فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية. ثم أمر المنصور أن لا يقبل في الخراج غيرها وسميت النقود الأولى مكروهة إما لعدم جودتها أو لما نقش عليها الحجاج وكرهه. وكانت دراهم العجم مختلفة بالصغر والكبر، فكان منها مثقال وزن عشرين قيراطاً واثني عشر وعشرة قراريط وهي أنصاف المثاقيل. فجمعوا قراريط الأنصاف الثلاثة فكانت اثنين وأربعين فجعلوا ثلثها وهو اثنا عشر قيراطاً وزن الدهم العربي فكانت كل عشرة دراهم تزن سبعة مثاقيل. وقيل: إن مصعب بن الزبير ضرب دراهم قليلة أيام أخيه عبد الله والأصح أن عبد الملك أول من ضرب السكة في الإسلام.

مقتل بكير بن وشاح بخراسان

قد تقدم لنا عزل بكير عن خراسان وولاية أمية بن عبيد الله بن خالد بن أسيد سنة أربع وسبعين وأن بكيراً أقام في سلطان أمية بخراسان وكان يكرمه ويدعوه لولاية ما شاء من أعمال خراسان فلا يجيب، وأنه ولاه طخارستان، وتجهز لها فيه بحير بن ورقاء فمنعه، ثم أمره بالتجهز لغزو ما وراء النهر، فحذره منه بحير فرده فغضب بكير. ثم تجهز أمية لغزو غارا، وموسى بن عبد الله بن حازم لترمذ واستخلف ابنه على خراسان. فلما أراد قطع النهر قال لبكير: إرجع إلى مرو فاكفنيها فقد وليتكها، وقم بأمر ابن حازم فإني أخشى أن لا يضبطها. فانتخب من وثق به من أصحابه ورجع، وأشار عليه صاحبه عتاب بأن يحرق السفن ويرجع إلى مرو فيخلع أمية، ووافقه الأحنف بن عبد الله العنبري على ذلك. فقال لهم بكير: أخشى على من معي. قالوا: نأتيك من أهل مرو بمن تشاء، قال: يهلك المسلمون. قال: ناد في الناس برفع الخراج فيكونون معك. قال: فيهلك أمية وأصحابه. قال لهم: عدد وعدد يقاتلون عن انفسهم حتى يبلغوا الصين فأحرق بكير السفن ورجع إلى مرو فخلع أمية وحبس ابنه. وبلغ الخبر أمية فصالح أهل الشام بخارى ورجع وأمر باتخاذ السفن وعبر وجاءه موسى بن عبد الله بن حازم من مدداً له وبعث شماس بن ورقاء في ثمانمائة في مقدمته فبيته بكير وهزمه، فبعث مكانه ثابت بن عطية فهزمه. ثم التقى أمية وبكير فاقتتلوا أياماً. ثم انهزم بكير إلى مرو وحاصره أمية أياماً حتى سأل الصلح على ولاية ما شاء من خراسان، وأن يقضي عنه أربعمائة ألف دينه، ويصل أصحابه ولا يقبل فيه سعاية بحير فتم الصلح ودخل أمية مدينة مرو وأعاد بكيراً إلى ما كان عليه من الكرامة وأعطى عتاب العدابي عشرين ألفاً وعزل بحير عن شرطته بعطاء بن أبي السائب. وقيل: إن بكيراً لم يصحب أمية إلى النهر وإنما استخلفه على مرو فلما عبر أمية النهر خلع وفعل ما فعل. ثم إن بحيراً سعى بأمية بأن بكيراً دعاه إلى الخلاف وشهد عليه جماعة من أصحابه، وأن معه ابني أخيه. فقبض عليه أمية وقتله وقتل معه ابني أخيه وذلك سنة سبع وسبعين. ثم عبر النهر لغزو بلخ فحصره الترك حتى جهد هو وعسكره وأشرفوا على الهلاك ثم نجوا ورجعوا إلى مرو.

مقتل بحير بن زياد

ولما قُتل بكير بسعاية بحير بن ورقاء تعاقد بنو سعد بن عوف من تميم وهم عشيرته على الطلب بدمه وخرج فتىً منهم من البادية اسمه شمردل وقدم خراسان ووقف يوماً على بحير فطعنه فصرعه ولم يمت وقتل شمردل وجاء مكانه صعصعة بن حرب العوفي ومضى إلى سجستان وجاور قرابة بحير مدة. وانتسب إلى حنفية ثم قال لهم: إن لي بخراسان ميراثاً فاكتبوا إلى بحير يعينني، فكتبوا له وجاء إليه وأخبره بنسبه وميراثه، وأقام عنده شهراً يحضر باب المهلب وقد أنس به وأمن غائلته، وجاء صعصعة يوماً وهو

عند المهلب في قميص ورداء ودنا ليكلمه فطعنه ومات من الغد. وقال صعصعة: فمنعته مُقاعس وقالوا: أخذ بثأره فحمل المهلب دم صعصعة وجعل دم بجير ببكير. وقيل: إن المهلب بعثه إلى بجير فقتله والله أعلم وكان ذلك سنة إحدى وثمانين.

ولاية الحجاج على خراسان وسجستان

وفي سنة ثمان وسبعين عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن خراسان وسجستان وضمهما إلى الحجاج بن يوسف. فبعث المهلب بن أبي صفرة على خراسان وقد كان فرغ من حرب الأزارقة فاستدعاه وأجلسه معه على السرير، وأحسن إلى أهل البلاد من أصحابه وزادهم وبعث عبيد الله بن أبي بكرة على سجستان. فأما المهلب فقدم ابنه حبيباً إلى خراسان فلم يعرض لأمية ولا لعماله حتى قدم أبوه المهلب بعد سنة من ولايته، وسار في خمسة آلاف وقطع النهر الغربي وما وراء النهر، وعلى مقدمته أبو الأدهم الرماني في ثلاثة آلاف، فنزل على كَشٌ وجاءه ابن عمر الَختن يستنجده على ابن عمه، فبعث معه ابنه يزيد. فبيت ابن العم عساكر الختن وقتل الملك وجاءه صَرٌ يريد قلعتهم حتى صالحوا بما رضي، ورجع. وبعث المهلب ابنه حبيباً في أربعة آلاف ووافى صاحب بخارى في أربعين ألفاً. وكبس بعض جنده في قرية فقتلهم وأحرقها ورجع إلى أبيه.

وأقام المهلب يحاصر كش سنتين حتى صالحوه على فدية. وأما عبد الله بن أبي بكرة فأقام بسجستان ورتبيل على صلحه يؤدي الخراج. ثم امتنع فأمر الحجاج ابن أبي بكرة فغزوه واستباحوا بلاده، فسار في أهل المصرين وعلى أهل الكوفة شريح بن هانئ من أصحاب علي، فدخل بلاد رتبيل وتوغل فيها حتى كانوا على ثمانية عشر فرسخاً من مدينتهم وأثخن واستباح وخرب القرى والحصون. ثم أخذ الترك عليهم القرى والشعاب حتى ظنوا الهلكة فصالحهم عبيد الله على الخروج من أرضهم، على أن يعطيهم سبعمائة ألف درهم. ونكر ذلك عليه شريح وأبى إلا القتال وحرض الناس ورجع. وقتل حين قتل بناس من أصحابه ونجا الباقون وخرجوا من بلاد رتبيل، ولقيهم الناس بالأطعمة فكانوا يموتون إذا شبعوا. فجعلوا يطعمونهم السمن قليلاً قليلاً حتى استمروا وكتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في غزو بلاد رتبيل فأذن له فجهز عشرين ألف فارس من الكوفة وعشرين ألفاً من البصرة واختار أهل الغنى والشجاعة، وأزاح عللهم وأنفق فيهم ألفي ألف سوي أعطياتهم، وأخذهم بالخيل الرائعة والسلاح الكامل. وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وكان يبغضه ويقول: أريد قتله. ويخبر الشعبي بذلك عبد الرحمن فيقول: أنا أزيله عن سلطانه، فلما بعثه على ذلك الجيش تنصح أخوه إسماعيل للحجاج وقال: لا تبعثه فإني أخشى خلافه. فقال: هو أهيب لي من أن يخالف أمري. وسار عبد الرحمن في الجيش وقدم سجستان واستنفرهم وحذر العقوبة لمن يتعدى. وساروا جميعاً إلى بلاد رتبيل وبذل الخراج فلم يقبل منه ودخل بلاده فحواها شيئاً فشيئاً. وبعث عماله عليها ورجع المصالح بالنواحي والأرصاد على العقاب والشعاب، وامتلأت أيدي الناس من الغنائم، ومنع من التوغل في البلاد إلى قابل. وقد قيل في بعث عبد الرحمن بن الأشعث غير هذا. وهو أن الحجاج كان قد أنزل هميان بن عدي السدي مسلحة بكرمان أن احتاج إليه عامل السند وسجستان، فمضى هميان فبعث الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث فهزمه وقام بموضعه. ثم مات عبد الله بن أبي بكرة فولاه الحجاج مكانه وجهز إليه هذا الجيش وكان يسمى جيش الطواويس لحسن زيهم.

أخبار ابن الأشعث ومقتله

ولما وصل كتاب ابن الأشعث إلى الحجاج كتب إليه يوبخه على القعود عن التوغل ويأمره بالمضي لما أمره به من هدم حصونهم وقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم. وأعاد عليه الكتاب بذلف ثانياً وثالثاً وقال له: إن مضيت وإلا فأخوك إسحاق أمير الناس. فجمع عبد الرحمن الناس ورد الرأي عليهم وقال: قد كنا عزمنا جميعاً على ترك التوغل في بلد العدو ورأينا رأياً وكتب بذلك إلى الحجاج وهذا كتابه يستعجزني ويستضعفني ويأمرني بالتوغل بكم وأنا رجل منكم، فثار الناس وقالوا: لا نسمع ولا نطيع الحجاج. وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني: اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا الأمير عبد الرحمن فتنادى الناس من كل جانب: فعلنا فعلنا. وقال عبد المؤمن بن شيث بن ربعي: انصرفوا إلى عدو الله الحجاج فانفوه عن بلادكم ووثب الناس إلى عبد الرحمن على خلع الحجاج ونفيه من العراق وعلى النصرة له ولم يذكر عبد الملك.

وصالح عبد الرحمن رتبيل على أنه إن ظهر فلا خراج على رتبيل ما بقي من الدهر، وإن هزم منعه بمن يريده. وجعل عبد الرحمن على بُسْتٍ عياض بن هميان الشيباني وعلى رومج عبد الله بن عامر التميمي، وعلى كَرْمان حرثة بن عمر التميمي. ثم

سار إلى العراق في جموعه وأعشى همدان بين يديه يجري بمدحه وذم الحجاج. وعلى مقدمته عطية بن عمير العيرني. ولما بلغ فارس بدا للناس في أمر عبد الملك وقالوا: إذا خلعنا الحجاج فقد خلعناه فخلعه الناس وبايعوا عبد الرحمن على السنة وعلى جهاد أهل الضلالة والمخلين وخلعهم.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره ويستمده وكتب المهلب إلى الحجاج بأن لا يعترض أهل العراق حتى يسقطوا إلى أهليهم، فنكر كتابه واتهمه. وجنّد عبد الملك الجند إلى الحجاج فساروا إليه متتابعين، وسار الحجاج من البصرة فنزل تُسْتُر وبعث مقدمة خيل فهزمهم أصحاب عبد الرحمن بعد قتال شديد وقتل منهم جمعاً كثيراً وذلك في أضحى إحدى وثمانين، وأجفل الحجاج إلى البصرة، ثم تأخر عنها إلى الغاوية وراجع كتاب المهلب فعلم نصيحته. ودخل عبد الرحمن البصرة فبايعه أهلها وسائر نواحيها لأن الحجاج كان اشتد على الناس في الخراج، وأمر من دخل الأمصار أن يرجع إلى القرى، يستوفي الجزية، فنكر ذلك الناس وجعل أهل القرى يبكون منه، فلما قدم عبد الرحمن بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك.

ثم اشتد القتال بينهم في المحرم سنة اثنتين وثمانين، وتزاحفوا على حرب الحجاج وخلع عبد الملك. وانهزم أهل العراق وقصدوا الكوفة وانهزم منهم خلق كثير. وفشا القتل في القرى فقتل منهم عقبة بن عبد الغافر الأزدي في جماعة استلحموا معه، وقتل الحجاج بعد الهزيمة منهم عشرة آلاف وكان هذا اليوم يسمى يوم الراوية. واجتمع من بقي بالبصرة على عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وبايعوه، فقاتل بهم الحجاج خمس ليال ثم لحق بابن الأشعث بالكوفة ربيعة طائفة من أهل البصرة.

ولما جاء عبد الرحمن الكوفة وخليفة الحجاج عليها عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي وثب به مطر بن ناجية من بني تميم مع أهل الكوفة، فاستولى على القصر وأخرجه. فلما وصل ابن الأشعث لقيه أهل الكوفة واحتفَّ به همذان. وجاء إلى القصر فمنعه مطر فصعد الناس القصر وأخذوه فحبسه عبد الرحمن وملك الكوفة. ثم إن الحجاج استعمل على البصرة الحكم بن أيوب الثقفي ورجع إلى الكوفة فنزل دوير قيرة، ونزل عبد الرحمن دير الجماجم واجتمع إلى كل واحد أمداده وخندق على نفسه. وبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمداً في جند كثيف وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج ويجري عليهم أعطياتهم كأهل الشام، وينزل عبد الرحمن إلى أي بلد شاء عاملاً لعبد الملك. فوجم الحجاج لذلك وكتب إلى عبد الملك: أن هذا مما يزيدهم جراءة وذكره بقضية عثمان وسعيد بن العاص. فأبى عبد الملك من رأيه وعرض عبد الله ومحمد بن مروان ما جاء به عبد الملك وتشاور أهل العراق بينهم وأشار عليهم عبد الرحمن بقبول ذلك، وأن العزة لهم على عبد الملك لا تزول، فتوثبوا من كل جانب منكرين لذلك ومجددين الخلع.

وتقدمهم في ذلك عبد الله بن دواب السلمي وعمير بن تيحان، ثم برزوا للقتال. وجعل الحجاج على ميمنته عبد الرحمن بن سليم الكلبي، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي، وعلى الخيل سفيان بن الأبرد الكلبي، وعلى الرجالة عبد الله بن حبيب الحكمي. وجعل عبد الرحمن على ميمنته الحجاج بن حارثة الخثعمي، وعلى ميسرته الأبرد بن قرة التميمي، وعلى خيله عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وعلى رجالته محمد بن سعد بن أبي وقاص، وعلى مجنبته عبد الله بن رزم الحرشي، وعلى القرى جبلة بن زخر بن قيس الجعفي وفيهم سعيد بن جبير وعامر الشعبي وأبو البختري الطائي وعبد الرحمن بن أبي ليلى. ثم أقاموا يتزاحفون كل يوم ويقتتلون بقية سنتهم، وكتيبة القرى معروفة بالصبر يحملون عليها فلا تنتقص.

فعبى الحجاج ثلاث كتائب مع الجراح بن عبد الله الحكمي وحملوا على القرى ثلاث حملات وجبلة يحرض القرى ويبيتهم والشعبي وسعيد بن جبير كذلك. ثم حملوا على الكتائب ففرقوها وأزالوها عن مكانها وتأخر جبلة عنهم ليكون لهم فئة يرجعون إليه، وأبصره الوليد بن نجيب الكلبي فقصده في جماعة من أهل الشام وقتله وجيء برأسه إلى الحجاج وقدموا عليهم مكانه وظهر القتل في القرى. ثم اقتتلوا بعد ذلك ما يزيد على مائة يوم كثر فيها القتلى والمبارزة. ثم اقتتلوا يوماً في منتصف جمادى الآخرة وحمل سفيان بن الأبرد في ميمنة الحجاج على ميسرة عبد الرحمن فانهزم الأبرد بن قرة من غير قتال فتقوضت صفوف الميمنة، وركبهم أصحاب الحجاج، ثم انهزم عبد الرحمن وأصحابه. ومضى الحجاج إلى الكوفة ومحمد بن مروان إلى الموصل وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام.

وأخذ الحجاج الناس على أن يشهدوا على أنفسهم بالكفر، وقتل من أبى ذلك. ودعا بكميل بن زياد صاحب علي فقتله لاقتصاصه. ثم أقام بالكوفة شهراً وأنزل أهل الشام في بيوت أهل الكوفة، ولحق ابن الأشعث بالبصرة فاجتمع إليه جموع المنهزمين ومعه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة ولحق به محمد بن سعد بن أبي وقاص بالمدائن، وسار نحو الحجاج ومعه بسطام بن مصقلة

بن هبيرة الشيباني كان قدم عليه قبل الهزيمة من الري وكان انتقض بها ثم غلب عليها ولحق بعبد الرحمن فكان معه. وبايع عبد الرحمن خلق كثير على الموت، ونزل مسكن وخندق عليه وعلى أصحابه والحجاج قبالتهم وقاتلهم خالد بن جرير بن عبد الله. وكان قدم من خراسان في بعث الكوفة، فقاتلهم خمسة عشر يوماً من شعبان أشد قتال، وقتل زياد بن غنيم القيني. وكان عليٌّ صالح الحجاج فهدٌ منهم ثم أبي بكر القتال. وحمل بسطام بن مصقلة بن هبيرة في أربعة آلاف من فرسان الكوفة والبصرة، كسروا جفون سيوفهم وحملوا على أهل الشام فكشفوهم مراراً وأحاط بهم الرماة ولحقوا فقتلوا.

وحمل عبد الملك بن المهلب على أصحاب عبد الرحمن فكشفوهم. ثم حمل أصحاب الحجاج من كل جانب فانهزم عبد الرحمن وأصحابه وقتل عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه، وأبو البختري الطائي ومعلى بن الأشعث نحو سجستان. ويقال: إن بعض الأعراب جاء إلى الحجاج فدله على طريق من وراء معسكر ابن الأشعث فبعث معه أربعة آلاف جاؤوا من ورائه، وأصبح الحجاج فقاتله واستطرد له حتى نهب معسكره. وأقبلت السرية من الليل إلى معسكر ابن الأشعث وكان الغرقى منهم أكثر من القتلى، وجاء الحجاج إلى المعسكر فقتل من وجد فيه وكان عدة القتلى أربعة آلاف: منهم عبد الله بن شداد بن الهادي وبسطام بن مصقلة وعمر بن ربيعة الرقاشي وبشر بن المنذر بن الجارود وغيرهم.

ولما سار ابن الأشعث إلى سجستان أتبعه الحجاج بالعساكر، وعليهم عمارة بن تميم اللخمي، ومعهم محمد بن الحجاج فأدركوه بالسوس فقاتلوه وانهزم إلى سابور واجتمع إليه الأكراد وقاتلوا العساكر قتالاً شديداً فهزم، وخرج عمارة ولحق ابن الأشعث بكرمان فلقيه عامله بها وهيأ له النزول فنزل. ثم رحل إلى زرنج فمنعه عامله من الدخول، فحاصرها أياماً ثم سار إلى بَسْت وعليها من قبله عياض بن هميان بن هشام السلوبي الشيباني، ثم استغفله فأوثقه. وكان رتبيل ملك الترك قد سار ليستقبله، ونزل على بست وتهدد عياضاً فأطلقه، وحمل رتبيل إلى بلاده وأنزله عنده.

واجتمع المنهزمون فاتفقوا على قصد خراسان لينمـوا بعشائرهم وقصدوا للصلاة عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث، وكتبوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث يستقدمونه فقدم عليهم وثناهم عن قصد خراسان مخافة من سطوة يزيد بن المهلب وأن يجتمع أهل الشام وأهل خراسان فأبوا وقالوا: بل يكثر بها تابعنا. فسار معهم إلى هراة فهرب عنهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة فخشي الانتقاض وقال: إنما أتيتكم وأمركم جميعاً وأنا الآن منصرف إلى صاحبي الذي جئت من عنده يعني: رتبيل. ورجع عنهم في قليل. وبقي معظم العسكر مع عبد الرحمن بن العباس بسجستان، فجمع بابن الأشعث وسار إلى خراسان في عشرين ألفاً ونزل هراة ولقوا الرقاد فقتلوه.

وبعث إليه يزيد بن المهلب بالرحلة من البلاد، فقال إنما نزلنا لنستريح ونرتحل. ثم أخذ في الجباية وسار نحوه يزيد بن المهلب والتقوا فافترق أصحاب عبد الرحمن عنه، وصبرت معه طائفة ثم انهزموا وأمر يزيد بالكف عنهم وغنم ما في عسكرهم وأسر جماعة منهم فيهم: محمد بن سعد بن أبي وقاص وعمر بن موسى بن عبد الله بن معمر وعباس بن الأسود بن عوف والهلقام بن نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة، وفيروز وأبو لعلج مولى عبيد الله بن معمر وسوار بن مروان وعبد الله بن طلحة الطلحات، وعبد الله بن فضالة الزهراني الأزدي. ولحق عبد الرحمن بن العباس بالسِّند وأتى ابن سمرة إلى مرو وانصرف يزيد إلى مرو. وبعث بالأسرى إلى الحجاج مع سَبْرة بن نجدة، وقال له أخوه حبيب: ألا تبعث عبد الرحمن بن طلحة؟ فإن له عندنا يدين، وقد ودى عن المهلب أبو طلحة مائة ألف، فتركه وترك عبد الله بن فضالة لأنه من الأزد. وبعث الباقين وقدموا عليه بمكان واسط قبل بنائها فدعا بفيروز وقال: ما أخرجك مع هؤلاء وليس بينك وبينهم نسب. قال: فتنة عمت الناس! قال: اكتب أموالك فكتب ألفي ألف وأكثر. فقال للحجاج: وأنا آمن على دمي؟ قال: لا والله لتؤدينها ثم أقتلك. قال: لا تجمع مالي ودمي وأمر به فنُحِّي.

ثم أحضر محمد بن سعد بن أبي وقاص فوبخه طويلاً ثم أمر به فقتل ثم دعا بعمر بن موسى فوبخه ولاطفه في العذر فلم يقبل ثم أمر به فقتل. ثم أحضر الهلقام بن نعيم فوبخه. وقال: ابن الأشعث طلب الممالك فما الذي طلبت أنت؟ قال: أن توليني العراق مكانك فأمر به فقتل. ثم أحضر عبد الله بن عامر فعذله في عبد الله بن يزيد بن المهلب لأنه أطلق قومه من الأسر وقاد نحوه مطراً، فأطرق الحجاج، ثم قال: ما أنت وذاك؟ ثم أمر به فقتل فلم يزل في نفسه من يزيد حتى عزله. ثم أمر بفيروز فعذب ولما أحس بالموت قال: أظهروني للناس ليردوا علي ودائعي فلما ظهر نادى من كان لي عنده شيء فهو في حل فأمر به فقتل. وأمر بقتل عمر بن فهر الكندي وكان شريفاً، وأحضر أعشى همدان واستنشده قصيدته بين الأثلج وبين قيس، وفيها تحريض ابن الأشعث وأصحابه فقال: ليست هذه وإنما التي بين الأثلج وبين قيس بارق على رويّ الدال. فأنشده فلما بلغ قوله: بخ بخ للوالدة

وللمولود. قال: واللّه لا تبخبخ بعدها أبداً وقتل.

وسأل الحجاج عن الشعبي فقال له يزيد بن أبي مسلم إنه لحق بالري فكتب إلى قتيبة بن مسلم وهو عامله على الري بإرسال الشعبي. فقدم على الحجاج سنة ثلاث وثمانين، وكان ابن أبي مسلم له صديقاً فأشار عليه بحسن الاعتذار. فلما دخل على الحجاج سلم عليه بالإمرة وقال: وايم اللّه لا أقول إلا الحق قد واللّه حرضنا وجهدنا فما كنا أقوياء فجرة، ولا أتقياء بررة، وقد نصرك اللّه وظفرت فإن سطوت فبذنوبنا وإن عفوت فبحلمك والحجة لك علينا. فقال الحجاج: هذا واللّه أحب إلي ممن يقول ما شهدت ولا فعلت وسيفه يقطر من دمائنا. ثم أمنه وانصرف.

ولما ظفر الحجاج بابن الأشعث وهزمه لحق كثير من المنهزمين بعمر بن الصلت وقد كان غلب على الري في تلك الفتنة. فلما اجتمعوا أرادوا أن يحظوا عند الحجاج ويمحوا عن أنفسهم ذنب الجماجم فأشاروا على عمر بخلع الحجاج فامتنع فدسوا عليه أباه فأجاب. ولما سار قتيبة إلى الري خرجوا مع عمر لقتاله ثم غدروا به فانهزم، ولحق بطبرستان وأقره الأصبهبد وأحسن إليه، وأرادوا الوثوب على الأصبهبد فشاور أباه وقال: قد علمت الأعاجم أني أشرف منه فمنعه أبوه ودخل قتيبة الري وكتب الحجاج إلى الأصبهبد أن يبعث بهم أو برؤوسهم ففعل ذلك.

ولما انصرف عبد الرحمن بن الأشعث من هراة إلى رتبيل قال له علقمة بن عمرو الأزدي: لا ادخل معك دار الحرب لأن رتبيل إن دخل إليه الحجاج فيك وفي أصحابك قتلكم أو أسلمكم إليه، ونحن خمسمائة وقد تابعنا على أن نتحصن بمدينة حتى نأمن أو نموت كراماً وقدم عليهم مودود البصري، وزحف إليهم عمارة بن تميم اللخمي وحاصرهم حتى استأمنوا فخرجوا إليه وقلاهم وتتابعت كتب الحجاج إلى رتبيل في عبد الرحمن يرهبه ويرغبه. وكان عبيد بن سميع التميمي من أصحاب ابن الأشعث، وكان رسوله إلى رتبيل أولاً، فأنس به رتبيل وزحف عليه وأغرى القاسم بن الأشعث أخاه عبد الرحمن بقتله فخافه وزين لرتبيل أخذ العهد من الحجاج وإسلام عبد الرحمن إليه على أن يكف عن أرضه سبع سنين فأجابه رتبيل وخرج إلى عمارة سراً. وكتب عمارة إلى الحجاج بذلك فأجاب وكتب له بالكف عنه عشر سنين، وبعث إليه رتبيل برأس عبد الرحمن وقيل: مات بالسل فقطع رأسه وبعث به، وقيل: أرسله مقيداً مع ثلاثين من أهل بيته إلى عمارة فألقى عبد الرحمن نفسه من سطح القصر فمات، فبعث عمارة برأسه وذلك سنة أربع أو خمس وثمانين.

قد كنا قدمنا حصار المهلب مدينة كش من وراء النهر فأقام عليها سنتين، وكان استخلف على خراسان ابنه المغيرة فمات سنة اثنتين وثمانين، فجزع عليه وبعث ابنه يزيد إلى مرو ومكنه في سبعين فارساً، ولقيهم في مفازة نسف جمع من الترك يقاربون الخمسمائة فقاتلوهم قتالاً شديداً يطلبون ما في أيديهم والمغيرة يمتنع حتى أعطى بعض أصحابه لبعضهم شيئاً من المتاع والسلاح، ولحقوا بهم ولحق يزيد بمرو. ثم سأل أهل كش من المهلب الصلح على مال يعطونه، فاسترهن منهم رهناً من أبنائهم في ذلك، وانفتل المهلب وخلف حريث بن قطنة مولى خزاعة ليأخذ الفدية ويرد الرهن، فلما صار ببلخ كتب إليه: لا تخل الرهن وإن قبضت الفدية حتى تقدم أرض بلخ لئلا يغيروا عليك. فأقرأ صاحب كش كتابة وقال: إن عجلت أعطيتك الرهن، وأقول له جاء الكتاب بعد إعطائه.

فعجل صاحب كش بالفدية وأخذ الرهن وعرض له الترك كما عرضوا ليزيد وقاتلهم فقتلهم وأسر منهم أسرى، ففدوهم فرداً فرداً وأطلقهم. ولما وصل إلى المهلب ضربه ثلاثين سوطاً عقوبة على مخالفة كتابه في الرهن. فحلف حريث أن ابن قطنة ليقتلن المهلب، وخاف ثابتاً إن كان ذلك المسير إليه. فبعث إليه المهلب أخاه ثابت بن قطنة يلاطفه فأبى وحلف ليقتلن المهلب، وخاف ثابت إن كان ذلك أن يقتلوا جميعاً فأشار عليه باللحاق بموسى بن عبد اللّه بن حازم، فلحق به في ثلاثمائة من أصحابهما.

ثم هلك المهلب واستخلف ابنه يزيد، وأوصى ابنه حبيباً بالصلاة وأوصى ولده جميعاً بالاجتماع والإلفة، ثم قال: أوصيكم بتقوى اللّه وصلة الرحم فإنها تنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد وأنهاكم عن القطيعة فإنها تعقب النار والذلة والقلة، وعليكم بالطاعة والجماعة ولتكن فعالكم أفضل من مقالكم. واتقوا الجواب وزلة اللسان فإن الرجل تزل قدمه فينعش ويزل لسانه فيهلك واعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له. وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرف واصنعوا المعروف، فإن الرجل من العرب تعده العدة فيموت فكيف بالصنيعة عنده. وعليكم في الحرب بالتؤدة والمكيدة فإنها أنفع من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء وإن أخذ الرجل بالحزم فظفر قيل أتى الأمر من وجهه فظفر، وإن لم يظفر قيل ما فرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن وتعلم السنن وآداب الصالحين وإياكم وكثرة الكلام في مجالسكم. ثم مات وذلك سنة اثنتين وثمانين.

ويقال: إنه لما حثهم على الإلفة والاجتماع أحضر سهاماً

مخزومة فقال: أتكسرون هذه مجتمعة؟ قالوا: لا. قال: فتكسرونها مفترقة؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة. واستولى يزيد على خراسان بعد أبيه وكتب له الحجاج بالعهد عليها. ثم وضع العيون على بيزك حتى بلغه خروجه عن قلعته فسار إليها وحاصرها ففتحها وغنم ما كان فيها من الأموال والذخائر، وكانت من أحصن القلاع. وكان بيزك إذا أشرف عليها يسجد لها. ولما فتحها كتب إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يعمر العدواني حليف هذيل فكتب: إنا لقينا العدو فمنحنا اللّه أكنافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برؤوس الجبال ومهامه الأودية وأهضام الغيطان وأفناء الأنهار. فقال الحجاج: من يكتب ليزيد؟ قيل: يحيى بن يعمر: فكتب بحمله على البريد. فلما جاءه قال: أين ولدت؟ قال: بالأهواز. قال: فمن أين هذه الفصاحة؟ قال: حفظت من أولاد أبي وكان فصيحاً. قال: يلحن عنبسة بن سعيد؟ قال: نعم كثيراً! قال فضلان؟ قال: نعم! قال: فأنا؟ قال: تلحن خفيفاً تجعل أن موضع إن وإن موضع أن. قال: أجلتك ثلاثاً وإن وجدتك بأرض العراق قتلتك فرجع إلى خراسان.

بناء الحجاج مدينة واسط

كان الحجاج يُنزل أهل الشام على أهل الكوفة فضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان سنة ثلاث وثمانين، وعسكروا قريباً من الكوفة حتى يستتموا، ورجع منهم ذات ليلة فتى حديث عهد بعرس بابنة عمه فطرق بيته ودق الباب فلم يفتح له إلا بعد هنيهة وإذا سكران من أهل الشام فشكت إليه ابنة عمه مراودته إياها. فقال لها: ائذني له فأذنت له. وجاء فقتله الفتى وخرج إلى العسكر. وقال: إبعثي إلى الشاميين وارفعي إليهم صاحبهم فأحضروها عند الحجاج فأخبرته. فقال: صدقت! وقال للشاميين: لا قود له ولا عقل فإنه قتيل اللّه إلى النار. ثم نادى مناديه لا ينزل أحد على أحد وبعث الرواد فارتادوا له مكان واسط ووجد هناك راهباً ينظف بقبعته من النجاسات فقال: ما هذه؟ قال: نجد في كتبنا أنه ينشأ ههنا مسجد للعبادة. فاختط الحجاج مدينة واسط هنالك وبنى المسجد في تلك البقعة.

عزل يزيد عن خراسان

يقال إن الحجاج وفد إلى عبد الملك ومر في طريقه براهب قيل له إن عنده علماً من الحدثان فقال: هل تجدون في كتابكم ما أنتم فيه؟ قال: نعم فقال: مسمًّى أو موصوفاً؟ قال: موصوفاً. قال: فما تجدون صفة ملكنا؟ قال: صفته كذا. قال: ثم من؟ قال: آخر اسمه الوليد. قال: ثم من؟ قال: آخر اسمه ثقفي. قال: فمن تجد بعدي؟ قال: رجل يدعى يزيد. قال: أتعرف صفته؟ قال: لا أعرف صفته إلا أنه يغدر غدرة. فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب ووجل منه وقدم على عبد الملك. ثم عاد إلى خراسان وكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب وأنهم زبيرية فكتب إليه أن وفاءهم لآل الزبير يدعوهم إلى الوفاء لي. فكتب إليه الحجاج يخوّفه غدرهم وما يقول الراهب. فكتب إليه عبد الملك أنك أكثرت في يزيد فانظر من تولي مكانه. فسمى له قتيبة بن مسلم فكتب له أن يوليه.

وكره الحجاج أن يكاتبه بالعزل فاستقدمه وأمره أن يستخلف أخاه المفضل واستشار يزيد حصين بن المنذر الرقاشي فقال له: أقم واعتل وكاتِب عبد الملك فإنه حسن الرأي فيك. نحن أهل بيت بورك لنا في الطاعة وأنا أكره الخلاف. وأخذ يتجهز وابطأ. فكتب الحجاج إلى المفضل بولاية خراسان واستلحاق يزيد. فقال: إنه لا يضرك بعدي وإنما ولاك مخافة أن أمتنع. وخرج يزيد في ربيع سنة خمس وثمانين. ثم عزل المفضل لتسعة أشهر من ولايته وولى قتيبة بن مسلم. وقيل: سبب عزل اليزيد أن الحجاج أذل العراق كلهم إلا آل المهلب وكان يستقدم يزيد فيعتل عليه بالعدا والحروب. وقيل: كتب إليه أن يغزو خوارزم فاعتذر إليه بأنها قليلة السلب شديدة الكلف. ثم استقدمه بعد ذلك فقال: إلى أن أغزو خوارزم. فكتب الحجاج لا تغزها فغزاها وأصاب سبياً وصالحه أهلها وانفتل في الشتاء. وأصاب الناس البرد فتدثروا بلباس الأسرى فبقوا عرايا وقتلهم المفضل. ولما ولّي المفضل خراسان غزا باذغيس ففتحها وأصاب مغنماً فقسمه ثم غزا شومان فغنم وقسم ما أصابه.

مقتل موسى بن حازم

كان عبد اللّه بن حازم لما قتل بني تميم بخراسان وافترقوا عليه فخرج إلى نيسابور، وخاف بنو تميم على ثقله بمرو فقال لابنه موسى: اقطع نهر بلخ حتى نلتجئ إلى بعض الملوك أو إلى حصن نقيم فيه. فسار موسى عن مرو في مائتين وعشرين فارساً واجتمع إليه شبه الأربعمائة وقوم من بني سليم وأتى قُمّ فقاتله أهلها فظفر بهم وأصاب منهم مالاً، وقطع النهر. وسأل صاحب بخارى أن ياوي إليه فأبى وخافه، وبعث إليه بصلة فسار عنه وعرض نفسه على ملوك الترك فأبوا خشية منه، وأتى سمرقند فأذن له ملكها

طرخون ملك الصغد في المقام فأقام وبلغه قتل أبيه عبد اللّه بن حازم ولم يزل مقيماً بسمرقند.

وبارز بعض أصحابه يوماً بعض الصغد فقتله فأخرجه طرخون عنه فأتى كِشَّ فنزلها ولم يطق صاحبها مدافعته واستجاش عليه بطرخون. فخرج موسى للقائه وقد اجتمع معه سبعمائة فارس فاقتتلوا إلى الليل ودس موسى بعض أصحابه إلى طرخون يخوفه عاقبة أمره وأن كل من يأتي خراسان يطالبه بدمه. فقال: يرتحل عن كش؟ قال له: نعم! وكف حتى ارتحل وأتى ترمذ، فنزل إلى جانب حصن بها مشرف على النهر، وأبى ملك ترمذ من تمليكه الحصن فأقام هنالك ولاطف الملك وتودد له وصار يتصيد معه. وصنع له الملك يوماً طعاماً وأحضره في مائة من أصحابه ليأكلوا، فلما طعموا امتنعوا من الذهاب. وقال موسى: هذا الحصن إما بيتي أو قبري وقاتلهم فقتل منهم عدة واستولى على الحصن وأخرج ملك ترمذ ولم يتعرض له ولا لأصحابه. ولحق به جمع من أصحاب أبيه فقوي بهم، وكان يغير على ما حوله.

ولما ولي أمية خراسان سار لغزوه وخالفه بكير كما تقدم. ثم بعث إليه بعد صلحه مع بكير الجيوش مع رجل من خزاعة وحاصروه. وعاود ملك ترمذ استنصاره بالترك في جمع كثير ونزلوا عليه من جانب آخر. وكان يقاتل العرب أول النهار والترك آخره ثلاثة أشهر. ثم بيت الترك ليلة فهزمهم وحوى عسكرهم بما فيه من المال والسلاح ولم يهلك من أصحابه إلا ستة عشر رجلاً. وأصبح الخزاعي والعرب وقد خافوا مثلها. وغدا عمر بن خالد بن حصين الكلابي على موسى بن حازم وكان صاحبه فقال: إنا لا نظفر إلا بمكيدة فاضربني وخلني، فضربه خمسين سوطاً فلحق بالخزاعي وقال: إن ابن حازم اتهمني بعصبيتكم وإني عين لكم فأمنه الخزاعي وأقام عنده. ودخل عليه يوماً وهو خال فقال له: لا ينبغي أن تكون بغير سلاح. فرفع طرف فراشه وأراه سيفاً منتضى تحته فضربه عمر حتى قتله ولحق بموسى. وتفرق الجيش واستأمن بعضهم موسى.

ولما ولي المهلب على خراسان قال لبنيه: إياكم وموسى! فإنه إن مات جاء على خراسان أمير من قيس. ثم لحق به حريث وثابت ابنا قطنة الخزاعي فكانا معه. ولما ولي يزيد أخذ أموالهما وحرمهما، وقتل أخاهما للأم الحارث بن معقد، فسار ثابت إلى طرخون صريخاً، وكان محبباً إلى الترك فغضب له طرخون. وجمع له نيزك وملك الصغد وأهل بخارى والصاغان، فقدموا مع ثابت إلى موسى وقد اجتمع عليه فَلُّ عبد الرحمن بن عباس من هراة وفل ابن الأشعث من العراق ومن كابل. فكان معه نحو ثمانية آلاف فقال له ثابت وحريث: سر بنا في هذا العسكر مع الترك، فنخرج يزيد من خراسان ونوليك، فحذر موسى أن يغلباه على خراسان، ونصحه بعض أصحابه في ذلك فقال لهما: إن أخرجنا يزيد قدم عامل المدينة عبد الملك، ولكنا نخرج عمال يزيد من وراء النهر ويكون لنا، فأخرجوهم وانصرف طرخون والترك.

وقوي أمر العرب بترمذ وجبوا الأموال واستبد ثابت وحريث على موسى وأغراه أصحابه بهما فهمَّ بقتلهما، وإذا بجموع العجم قد خرجت إليهم من الهياطلة والتبت والترك فخرج موسى فيمن معه للقتال. ووقف ملك الترك على ما قيل في عشرة آلاف، فحمل عليهم حريث بن قطنة حتى أزالهم عن موضعهم، وأصيب بسهم في وجهه وتحاجزوا ثم بيتهم موسى فانهزموا وقتل من الترك خلق كثير ومات منهم قليل. ومات حريث بعد يومين ورجع موسى بالظفر والغنيمة. وقال له أصحابه: قد كفينا أمر حريث فاكفنا أمر ثابت فأبى. وبلغ ثابت بعض ما كانوا يخوضون فيه ودس محمد بن عبد اللّه الخزاعي عليهم على أنه من سبي الباسيان ولا يحسن العربية، فاتصل بموسى وكان ينقل إلى ثابت خبر أصحابه فقال لهم ليلة: قد أكثرتم علي فعلى أي وجه تقتلونه ولا أغدر به؟ فقال له أخوه نوح: إذا أتاك غداً عدلنا به إلى بعض الدور فقتلناه قبل أن يصل إليك. فقال: واللّه إنه لهلاككم! وجاء الغلام إلى ثابت بالخبر فخرج من ليلته في عشرين فارساً وأصبحوا ففقدوه وفقدوا الغلام فعلموا أنه كان عيناً.

ونزل ثابت بحشود واجتمع إليه خلق كثير من العرب والعجم. وسار إليه موسى وقاتله، فحصر ثابتاً بالمدينة. وأتاه طرخون مدد فرجع موسى إلى ترمذ. ثم اجتمع ثابت وطرخون وأهل بخارى ونسف وأهل كش في ثمانين ألفاً. فحاصروا موسى بترمذ حتى جهد أصحابه. وقال يزيد بن هذيل: واللّه لأقتلن ثابتاً أو أموت. فاستأمن إليه وحذره بعض أصحابه منه فأخذ ابنيه قدامة والضحاك رهناً وأقام يزيد يتلمس غرة ثابت. ومات ابن الزياد والقصير الخزاعي فخرج إليه ثابت يعزيه وهو بغير سلاح فضربه يزيد على رأسه وهرب. وأخذ طرخون قدامة والضحاك ابني يزيد فقتلهما. وهلك ثابت لسبعة أيام وقام مكانه من أصحابه ظهير وضعف أمرهم وبيتهم موسى ليلاً في ثلثمائة فبعث إليه طرخون كف أصحابك فإنا نرحل الغداة. فرجع وارتحل طرخون والعجم جميعاً.

ولما ولي المفضل خراسان بعث عثمان بن مسعود في جيش إلى موسى بن حازم وكتب إلى مدرك بن المهلب في بلخ بالمسير معه، فعبر النهر في خمسة عشر ألفاً، وكتب إلى رتبيل وإلى طرخون

أن يكونوا مع عثمان. فحاصروا موسى بن حازم فضيقوا عليه شهرين، وقد خندق عثمان على معسكره حذر البيات. فقال موسى لأصحابه: اخرجوا بنا مستميتين واقصدوا الترك فخرجوا وخلف النضر ابن أخيه سليمان في المدينة. وقال له: إن أنا قتلت فملك المدينة لمدرك بن المهلب دون عثمان وجعل ثلث أصحابه بإزاء عثمان وقال: لا تقاتلوه إلا إن قاتلكم. وقصد طرخون وأصحابه وصدقوهم القتال، فانهزم طرخون وأخذوا وحجزت الترك والصغد بينهم وبين الحصن فقاتلهم فعقروا فرسه وأردفه مولى له فبصر به عثمان حين وثب فعرفه فقصده وعقروا به الفرس وقتلوه، وقتل خلق كثير من العرب. وتولى قتل موسى واصل العنبري ونادى منادي عثمان بكف القتل وبالأسر وبعث النضر بن سليمان إلى مدرك بن المهلب فسلم إليه مدينة ترمذ وسلمها مدرك إلى عثمان. وكتب المفضل إلى الحجاج بقتل موسى فلم يسرَّه لأنه من قيس وكان قتل موسى سنة خمس وثمانين لخمس عشرة سنة من تغلبه على ترمذ.

البيعة للوليد بالعهد

وكان عبد الملك يروم خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد والبيعة لابنه الوليد، وكان قبيصة ينهاه عن ذلك ويقول: لعل الموت يأتيه وتدفع العار عن نفسك وجاءه رَوْح بن زنباع ليلة وكان عنده عظيماً ففاوضه في ذلك فقال: لو فعلته ما انتطح فيه عنزان. فقال: نصلح إن شاء اللّه! وأقام روح عنده ودخل عليهما قبيصة بن ذؤيب من جنح الليل وهما نائمان وكان لا يحجب عنه وإليه الخاتم والسكة فأخبره بموت عبد العزيز أخيه. فقال روح: كفانا اللّه ما نريد. ثم ضم مصر إلى ابنه عبد اللّه بن عبد الملك وولاه عليها. ويقال: إن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد فكتب إلى عبد العزيز إني رأيت أن يصير الأمر إلى ابن أخيك، فكتب له أن تجعل الأمر له من بعدي فكتب له إني أرى في أبي بكر ما ترى في الوليد. فكتب له عبد الملك أن يحمل خراج مصر فكتب إليه عبد العزيز إني وإياك يا أمير المؤمنين قد أشرفنا على عمر أهل بيتنا ولا ندري أينا يأتيه الموت فلا تفسد عليَّ بقية عمري فرقٌ له عبد الملك وتركه.

ولما بلغ الخبر بموت عبد العزيز عبد الملك أمر الناس بالبيعة لابنه الوليد وسليمان، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان. وكان على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي فدعا الناس إلى البيعة فأجابوا وأبى سعيد بن المسيب فضربه ضرباً مبرحاً وطاف به وحبسه. وكتب عبد الملك إلى هشام يلومه ويقول: إن سعيداً ليس عنده شقاق ولا نفاق ولا خلاف وقد كان ابن المسيب امتنع من بيعة ابن الزبير فضربه جابر بن الأسود عامل المدينة لابن الزبير ستين سوطاً، وكتب إليه ابن الزبير يلومه. وقيل: إن بيعة الوليد وسليمان كانت سنة أربع وثمانين والأول أصح. وقيل: قدم عبد العزيز على أخيه عبد الملك من مصر فلما فارقه وصاه عبد الملك فقال: ابسط بشرك وألن كنفك وآثر الرفق في الأمور فهو أبلغ لك، وانظر حاجبك وليكن من خير أهلك فإنه وجهك ولسانك. ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو تردّه، فإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ جلساءك بالكلام يأنسوا بك وتثبت في قلوبهم محبتك. وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشورة فإنها تفتح مغاليق الأمور المبهمة. واعلم أن لك نصف الرأي ولأخيك نصفه ولن يهلك امرؤ من مشورة. وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته فإنك على العقوبة بعد التوقف عنها أقدر منك على ردها بعد إصابتها.

وفاة عبد الملك وبيعة الوليد

ثم توفي عبد الملك منتصف شوال سنة ست وثمانين وأوصى إلى بنيه فقال: أوصيكم بتقوى اللّه فإنها أزين حلية وأحصن كهف، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنه نابكم الذي عنه تفترّون، ولحيكم الذي عنه ترمون. وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر، ودوخ لكم البلاد، وأذل لكم مغنى الأعداء. وكونوا بني أم بررة لا تدب بينكم العقارب. وكونوا في الحرب أحراراً فإن القتال لا يقرِّب منية. وكونوا للمعروف مناراً فإن المعروف يبقى أجره وذخره وذكره، وضعوامعروفكم عند ذوي الأحساب فإنه لصون له، واشكر لما يؤتى إليهم منه، وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب فإن استقالوا فأقيلوا، وإن عادوا فانتقموا.

ولما دفن عبد الملك قال الوليد: إنا للّه وإنا إليه راجعون واللّه المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين والحمد للّه على ما أنعم علينا من الخلافة، فكان أول من عزى نفسه وهنأها. ثم قام عبد اللّه بن همام السامولي وهو يقول:

اللّه أعطاك التي لا فوقها ... وقد أراد الملحدون عوقها
عنك ويأبى اللّه إلا سوقها ... إليك حتى قلدوك طوقها

وبايعه ثم بايعه الناس بعده وقيل: إن الوليد صعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس لا مقدِّم لما أخره اللّه

ولا مؤخر لما قدمه اللّه وقد كان من قضاء اللّه وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت وقد صار إلى منازل الأبرار وولي هذه الأمة بالذي يحق لله عليه في الشدة على المذنب واللين لأهل الحق والفضل، وإقامة ما أقام اللّه من منازل الإسلام وإعلائه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على أعداء اللّه فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً. أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع المنفرد. أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه ثم نزل.

ولاية قتيبة بن مسلم خراسان وأخباره

قدم قتيبة خراسان أميراً عن الحجاج سنة ست وثمانين فعرض الجند وحث على الجهاد وسار غازياً وجعل على الحرب بمرو إياس بن عبد اللّه بن عمرو، وعلى الخراج عثمان بن السعدي وتلقاه دهاقين البلخ والطالقان وساروا معه. ولما عبر النهر تلقاه ملك الصغانيان بهداياه. وكان ملك أخرون وسومان يسيء جواره فدعاه إلى بلاده وسلمها إليه. وسار قتيبة إلى أخرون وسومان وهو من طخارستان فصالحه ملكهما على فدية أداها إليه. وقبضها ثم انصرف إلى مرو واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم، ففتح بعد رجوع قتيبة كاشان وأورشت من فرغانة، ثم أخسيكت مدينة فرغانة القديمة، وكان معه ابن يسار وأبلى في هذه الغزاة. وقيل: إن قتيبة قدم خراسان سنة خمس وثمانين وكان من ذلك السُّبي امرأة برمك. وكان برمك على النوبهار، فصارت لعبد اللّه بن مسلم أخي قتيبة فوقع عليها وعلقت منه بخالد، ثم صالح أهل بلخ وأمر قتيبة برد السبي، فألحق عبد اللّه به حملها. ثم ردت إلى برمك.

وذكر أن ولد عبد اللّه بن مسلم ادعوه ورفعوا أمرهم إلى المهدي وهو بالري، فقال لهم بعض قرابتهم: إنكم إن استلحقتموه لا بد لكم أن تزوجوه، فتركوه. ولما صالح قتيبة ملك سومرن كتب إلى بترك طرخان صاحب باذغيس فيمن عنده من أسرى المسلمين وهددهم فبعث بهم إليهم. ثم كتب إليه يستقدمه على الأمان فخشي وتثاقل، ثم قدم وصالح لأهل باذغيس على أن لا يدخلها قتيبة ثم غزا بيكنداد في مدائن بخارى إلى النهر سنة سبع وثمانين. فلما نزل بهم استجاشوا بالصغد ومن حولهم من الترك. وساروا إليه في جموع عظيمة، وأخذوا عليه الطرق. فانقطعت الأخبار والرسل ما بينه وبين المسلمين شهرين، ثم هزمهم بعض الأيام وأثخن فيهم بالقتل والأسر وجاء إلى السور ليهدمه، فسألوا الصلح فصالحهم واستعمل عليهم وسار عنهم غير بعيد. فقتلوا العامل ومن معه فرجع إليهم وهدم سورهم وقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم من السلاح وآنية الذهب والفضة ما لم يصيبوا مثله.

ثم غزا سنة ثمان وثمانين بلد نومكثت فصالحوه وسار إلى رامسة فصالحوه أيضاً، فانصرف وزحف أيضاً إليه الترك والصغد وأهل فرغانة في مائتي ألف وملكهم كوربعابور ابن أخت ملك الصين، واعترضوا مقدمته وعليها أخوه عبد الرحمن فقاتلهم حتى جاء قتيبة وكان ينزل معه، فأبلى مع المسلمين ثم انهزم الترك وجموعهم، ورجع قتيبة إلى مرو. ثم أمره الحجاج سنة تسع وثمانين بغزو بخارى وملكها وِرْدان خُذاه فعبر النهر من زم ولقيه الصغد وأهل كش ونسف بالمفازة وقاتلوه فهزمهم ومضى إلى بخارى فنزل عن يمين وردان ولم يظفر منه بشيء ورجع إلى مرو.

عمارة المسجد

كان الوليد عزل هشام بن إسماعيل المخزومي عن المدينة سنة سبع وثمانين لأربع سنين من ولايته، وولى عليها عمر بن عبد العزيز فقدمها ونزل دار مروان ودعا عشرة من فقهاء المدينة فيهم الفقهاء السبعة المعروفون، فجعلهم أهل مشورته لايقطع أمراً دونهم وأمرهم أن يبلغوه الحاجات والظلامات فشكروه وجزوه خيراً. ودعا له الناس. ثم كتب إليه سنة ثمان أن يدخل حجر أمهات المؤمنين في المسجد ويشتري ما في نواحيه حتى يجعله مائتي ذراع في مثلها، وقدِّم القبلة. ومن أبى أن يعطيك ملكه فقومه قيمة عدل وادفع إليه الثمن واهدم عليه الملك، ولك في عمر وعثمان أسوة. فأعطاه أهل الأملاك ما أحب منها بأثمانها وبعث الوليد إلى ملك الروم أنه يريد بناء المسجد فبعث إليه ملك الروم بمائة ألف مثقال من الذهب ومائة من الفعلة وأربعين حملاً من الفسيفساء وبعث بذلك كله إلى عمر بن عبد العزيز واستكثر معهم من فعلة الشام وشرع عمر في عمارته اهـ.

وولى الوليد في سنة تسع وثمانين على مكة خالد بن عبد اللّه القسري.

فتح السند

كان الحجاج قد ولى على ثغر السند ابن عمه محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل، وجهز معه ستة آلاف مقاتل ونزل مكران، فأقام بها أياماً ثم أتى فيريوز ففتحها ثم

أرمايل. ثم سار إلى الدبيل وكان بهَ بدّ عظيم في وسط المدينة على رأسه دِقْل عظيم وعليه راية. فإذا هبت الريح دارت فأطافت بالمدينة. والبدُّ صنم مركوز في بناء والدقل منارة عليه. وكل ما يعبد فهو عندهم بد. فحاصر الدبيل ورماهم بالمنجنيق فكسر الدقل فتطيروا بذلك. ثم خرجوا إليه فهزمهم وتسنم الناس الأسوار ففتحت عنوة وأنزل فيها أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها وسار عنها إلى النيروز.

وقد كانوا بعثوا إلى الحجاج وصالحوه فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم وسار عنها. وجعل لا يمر بمدينة من مدائن السند إلا فتحها حتى بلغ نهر مهران، واستعد ملك السند لمحاربته واسمه داهر بن صصة. ثم عقد الجسر على النهر وعبر فقاتله داهر وهو على الفيل وحوله الفيلة. ثم اشتد القتال وترجل داهر فقاتل حتى قتل وانهزم الكفار واستلحمهم المسلمون. ولحقت امرأة داهر بمدينة رارو فساروا إليها وخافته، فأحرقت نفسها وجواريها. وملك المدينة ولحق الفل بمدينة بدهمتاباد العتيقة على فرسخين من مكان المنصورة وهي يومئذ غيضة، ففتحها عنوة واستلحم من وجد بها وخربها. ثم استولى على مدائن السند واحدة واحدة وقطع نهر ساسل إلى الملقاد فحاصرها وقطع الماء عنها فنزلوا على حكمه، فقتل المقاتلة وسبى الذرية، وقتل سدنة البلد وهو ستة آلاف. وأصابوا في البلد ذهباً كثيراً في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية كانت الأموال تهدى إليه من البلدان ويحجون إليه ويحلقون شعرهم عنده ويزعمون أنه هو أيوب. فاستكمل فتح السند وبعث من الخمس بمائة وعشرين ألف ألف وكانت النفقة نصفها.

فتح الطالقان وسمرقند وغزو كَشّ ونسف والشاش وفرغانة وصلح خوارزم

قد تقدم أن قتيبة غزا بخارى سنة تسع وثمانين، وانصرف عنها ولم يظفر. وبعث إليه الحجاج سنة تسعين يوبخه على الانصراف عنها ويأمره بالعود. فسار إليها ومعه نيزك طرخان صاحب باذغيس، وحاصرها. واستجاش ملكها وردان أخذاه بمن حوله من الصغد والترك. فلما جاء مددهم خرجوا إلى المسلمين وكانت الأزد في المقدمة فانهزموا حتى جازوا عسكر المسلمين ثم رجعوا وزحفت العساكر حتى ردوا الترك إلى موقفهم. ثم زحف بنو تميم وقاتلوا الترك حتى خالطوهم في مواقفهم وأزالوهم عنها. وكان بين المسلمين وبينهم نهر لم يتجاسر أحد على عبوره إلا بنو تميم، فلما زالوا عن مواقفهم عبر الناس واتبعوهم وأثخنوا فيهم بالقتل، وخرج خاقان وابنه وفتح اللّه على المسلمين وكتب بذلك إلى الحجاج.

ولما استوت الهزيمة جاء طرخون ملك الصغد ومعه فارسان ودنا من عسكر قتيبة يطلب الصلح على فدية يؤديها فأجابه قتيبة وعقد له ورجع قتيبة ومعه نيزك وقد خافه لما رأى من الفتوح، فاستأذنه في الرجوع وهو بآمد، فرجع يريد طخارستان وأسرع السير. وبعث قتيبة إلى المغيرة بن عبد اللّه يأمره بحبسه وتبعه المغيرة فلم يدركه وأظهر نيزك الخلع ودعا لذلك الأصبهبذ ملك بلخ وباذان ملك مرو الروذ وملك الطالقان وملك القاريات وملك الجوزجان فأجابوه، وتوعدوا لغزو قتيبة. وكتب إلى كاتب شاه يستظهر به ويبعث إليه بأثقاله وأمواله واستأذنه في الإتيان إن اضطر إلى ذلك.

وكان جيفونة ملك طخارستان نيزك ينزل عنده، فاستضعفه وقبض عليه وقيده خشية من خلافه وأخرج عامل قتيبة من بلده. وبلغ قتيبة خبرهم قبل الشتاء وقد تفرق الجند فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم في اثني عشر ألف إلى البروقان، وقال: أقم بها ولا تحدث شيئاً، فإذا انقضى الشتاء تقدم إلى طخارستان وأنا قريب منك. ولما انصرم الشتاء استقدم قتيبة الجنود من نيسابور وغيرها فقدموا، فسار نحو الطالقان وكان ملكها قد دخل معهم في الخلع ففتحها وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وصلب منهم سماطين أربعة فراسخ في مثلها، واستخلف عليها أخاه محمد بن مسلم، وسار إلى القاريات فخرج إليه ملكها مطيعاً. واستعمل عليها وسار إلى الجوزجان فلقيه أهلها بالطاعة، وهرب ملكها إلى الجبال واستعمل عليها عامر بن ملك الحماس.

ثم أتى بلخ وتلقاه أهلها بالطاعة وسار يتبع أخاه عبد الرحمن إلى شعب حمله، ومضى نيزك إلى بغلان وخلف المقاتلة على فم الشعب ولا يهتدي إلى مدخل، ومضايقوه يمنعونه. ووضع أثقاله في قلعة من وراء الشعب. وأقام قتيبة أياماً يقاتلهم على فم الشعب ولا يهتدي إلى مدخل، حتى دله عليه بعض العجم هنالك على طريق سرب منه الرجال إلى القلعة فقتلوهم، وهرب من بقي منهم ومضى إلى سمنجان ثم إلى نيزك، وقدم أخاه عبد الرحمن وارتحل نيزك إلى وادي فرغانة، وبعث أثقاله وأمواله إلى كابل شاه، ومضى إلى السكون فتحصن به ولم يكن له إلا مسلك واحد صعب على الدواب فحاصره قتيبة شهرين حتى جهدوا وأصابهم جهد الجدري.

وقرب فصل الشتاء فدعا قتيبة بعض خواصه ممن كان

يصادق نيزك فقال: انطلق إليه وأئت عليه بغير أمان وإن أعياك فأمنه. وإن جئت دونه صلبتك. فمضى الرجل وأشار عليه بلقائه وأنه عازم على أن يشق هنالك، فقال: أخشاه! فقال له: لا يخلصك إلا إتيانك، وتنصح له بذلك وبأنه يخشى عليه من غدر أصحابه الذين معه. ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب، وهو يمتنع حتى قال له: إنه قد أمنك. فأشار عليه أصحابه بالقبول لعلمهم بصدقه وخرج معه نيزك ومعهم جيفونة ملك طخارستان الذي كان قيده حتى انتهوا إلى الشعب وهناك خيل أكمنه الرجل ما كان فيه وكتب إلى الحجاج يستأذنه في قتل نيزك فوافاه كتابه لأربعين يوماً بقتله فقتله وقتل معه صول طرخان خليفة جيفونة وابن أخي نيزك ومن أصحابه سبعمائة وصلبهم وبعث برأسه إلى الحجاج. وأطلق جيفونة وبعث إلى الوليد.

ثم رجع إلى مرو. وأرسل إليه ملك الجوزجان يستأمنه فامنه على أن يأتيه فطلب الرهن فأعطاه وقدم. ثم رجع فمات بالطالقان وذلك سنة إحدى وتسعين. ثم سار إلى شومان فحاصرها، وقد كان ملكها طرد عامل قتيبة من عنده، فبعث إليه بعد مرجعه من هذه الغزاة أن يؤدي ما كان صالح عليه، فقتل الرسول، فسار إليه قتيبة وبعث له صالح أخو قتيبة وكان صديقه ينصحه في مراجعة الطاعة فأبى، فحاصره قتيبة ونصب عليه المجانيق فهدم الحصن وجمع الملك ما في الحصن من مال وجوهر ورمى به في بئر لا يدرك قعره، ثم استمات وخرج فقاتل حتى قتل. وأخذ قتيبة القلعة عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية ثم بعث أخاه عبد الرحمن إلى الصغد وملكهم طرخون فأعطى ما كان صالح عليه قتيبة. وسار قتيبة إلى كش ونسف فصالحوه. ورجع ولقي أخاه ببخارى وساروا إلى مرو.

ولما رجع عن الصغد، حبس الصغد ملكهم طرخون لإعطائه الجزية وولوا عليهم غورك فقتل طرخون نفسه. ثم غزا في سنة اثنتين وتسعين إلى سجستان يريد رتبيل فصالحه وانصرف. وكان ملك خوارزم قد غلبه أخوه خراد على أمره وكان أصغر منه وعاث في الرعية وأخذ أموالهم وأهليهم فكتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه ليسلمها إليه على أن يمكنه من أخيه ومن عصاه من دونهم، فأجابه قتيبة ولم يطلع الملك أحداً من مرازبته على ذلك. وتجهز قتيبة سنة ثلاث وتسعين وأظهر غزو الصغد، فأقبل أهل خوارزم على شأنهم ولم يحتفلوا بغزوه، وإذا به قد نزل هزار سب قريباً منهم. وجاء أصحاب خوارزم شاه إليه يدعوه للقتال. فقال: ليس لنا به طاقة! ولكن نصالحه على شيء نعطيه كما فعل غيرنا، فوافقوه وسار إلى مدينة الفيد من وراء النهر، وهذا حصن بلاده.

وصالحه بعشرة آلاف رأس وعين ومتاع وأن يعينه على خام جرد وقيل: على مائة ألف رأس.

وبعث قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى خام جرد وهو عدو لخوارزم شاه فقاتله وقتله عبد الرحمن وغلب على أرضه، وأسر منهم أربعة آلاف فقتلهم. وسلم قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه من أمرائه فقتلهم، ودفع أموالهم إلى قتيبة. ولما قبض قتيبة أموالهم أشار عليه المحشر بن مخازم السلمي بغزو الصغد وهم آمنون على مسافة عشرة أيام. فقال: أكتم ذلك فقدم أخاه الفرسان والرماة، وبعثوا بالأثقال إلى مرو، وخطب قتيبة الناس وحثهم على الصغد وذكرهم الضغائن فيهم.

ثم سار فأتى الصغد بعد ثلاث من وصول أخيه، فحاصرهم بسمرقند شهراً واستجاشوا ملك الشاش وأخشاد خاقان وفرغانة فانتخبوا أهل النجدة من أبناء الملوك والمرازبة والأساورة وولوا عليهم ابن خاقان وجاؤوا إلى المسلمين، فانتخب قتيبة من عسكره ستمائة فارس، وبعث بهم أخاه صالحاً لإعتراضهم في طريقهم، فلقوهم بالليل وقاتلوهم أشد قتال، فهزموهم وقتلوهم وقتلوا ابن خاقان ولم يفلت منهم إلا القليل وغنموا ما معهم، ونصب قتيبة المجانيق فرماهم بها وثلم السور واشتد في قتالهم، وحمل الناس عليهم إلى أن بلغوا الثلمة. ثم صالحوه على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس، وأن يمكنوه من بناء مسجد بالمدينة ويخلوها حتى يدخل فيصلي فيه. فلما فعل ذلك ودخل المدينة أكرههم على إقامة جند فيها.

وقيل: إنه شرط عليهم الأصنام وما في بيوت النار فأعطوه فأخذ الحلية وأحرق الأصنام وجمع من بقايا مساميرها وكانت ذهباً خمسين ألف مثقال. وبعث بجارية من سبيها من ولد يزدجرد إلى الحجاج، فأرسلها الحجاج إلى الوليد وولدت له يزيد. ثم قال فورك لقتيبة انتقل عنا فانتقل وبعث إلى الحجاج بالفتح. ثم رجع إلى مرو واستعمل على سمرقند إياس بن عبد اللّه على حربها، وعبيد اللّه بن أبي عبيد اللّه مولى مسلم على خراجها، فاستضعف أهل خوارزم إياساً وجمعوا له فبعث قتيبة عبد اللّه عاملاً على سمرقند وأمره أن يضرب إياساً وحبايا السطي مائة مائة ويخلعهما. فلما قرب عبد اللّه من خوارزم مع المغيرة بن عبد اللّه فبلغهم ذلك وخشي ملكهم من أبناء الذين كان قتلهم ففر إلى بلاد الترك. وجاء المغيرة فقتل وسبى وصالحه الباقون على الجزية، ورجع إلى قتيبة فولاه على نيسابور.

ثم غزا قتيبة سنة أربع وتسعين إلى ما وراء النهر وفرض

البعث على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم، فسار منهم عشرون ألف مقاتل فبعثهم إلى الشاش. وسار هو إلى خجندة فجمعوا له واقتتلوا مراراً كان الظفر فيها للمسلمين. وفتح الجند الذين ساروا إلى مدينة الشاش وأحرقوها ورجعوا إلى قتيبة وهو على كشان مدينة فرغانة وانصرف إلى مرو. ثم بعث الحجاج إليه جيشاً من العراق وأمره بغزو الشاش فسار لذلك وبلغه موت الحجاج فرجعوا إلى مرو.

خبر يزيد بن المهلب وإخوته

كان الحجاج قد حبس يزيد وإخوته سنة ست وثمانين وعزل حبيب بن المهلب عن كرمان فأقاموا في محبسهم إلى سنة تسعين. وبلغه أن الأكراد غلبوا على فارس فعسكر قريباً من البصرة للبعث وأخرج معه بني المهلب وجعلهم في فسطاط قريباً منه ورتب عليهم الحرس من أهل الشام. ثم طلب منهم ستة آلاف ألف، وأمر بعذابهم وبكت أختهم هند بنت المهلب زوجة الحجاج فطلقها. ثم كف عنهم وجعل يستأديهم وبعثوا إلى أخيهم مروان وكان على البصرة أن يعد لهم خيلاً وكان حبيب منهم يعذب بالبصرة. فصنع يزيد للحرس طعاماً كثيراً وأمر لهم بشراب فأقاموا يتعاقرون واستغفلهم يزيد والمفضل وعبد الملك وخرجوا ولم يفطنوا لهم.

ورفع الحرس خبرهم إلى الحجاج فخشيهم على خراسان وبعث البريد إلى قتيبة بخبرهم ليحذرهم، وكان يزيد قد ركب السفن إلى البطائح واستقبلته الخيل المعدة له هناك، وساروا إلى الشام على السماوة ومعهم دليل من كلب. ونمي خبرهم فبعث إلى الوليد بذلك. وقدموا إلى فلسطين فنزلوا على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي وكان كريماً على سليمان فأخبره بحالهم وأنهم استجاروا به من الحجاج، فقال: إئتني بهم فقد أجرتهم. وكتب الحجاج إلى الوليد أن بني المهلب خانوا مال الله وهربوا مني فلحقوا بسليمان. فسكن ما به لأنه كان خشيهم على خراسان كما خشيهم الحجاج وكان غاضباً للمال الذي ذهبوا به. فكتب سليمان إلى الوليد أن يزيداً عندي وقد أمنته، وكان الحجاج أغرمه ستة آلاف ألف فأد نصفها وأنا أؤدي النصف.

فكتب الوليد لا أؤمنه حتى تبعث به، فكتب سليمان لأجيئن معه، فكتب الوليد إذن لا أؤمنه. فقال يزيد لسليمان: لا يتشاءم الناس بي لكما فاكتب معي وتلطف ما أطقت، فأرسله وأرسل معه ابنه أيوب وكان الوليد أمر أن يبعث مقيداً. فقال سليمان لابنه: ادخل على عمك أنت ويزيد في سلسلة. فقال الوليد لما رأى ذلك: لقد بلغنا من سليمان. ثم دفع أيوب كتاب أبيه بالشفاعة وضمان المال عن يزيد فقرأه الوليد واستعطفه أيوب في ذمة أبيه وجواره، وتكلم يزيد واعتذر فأمنه الوليد ورجع إلى سليمان وكتب الوليد إلى الحجاج بالكف عنهم فكف عنهم عن حبيب وأبي عبسة وكانا عنده وأقام يزيد عند سليمان يهدي إليه الهدايا ويصنع له الأطعمة.

ولاية خالد القسري على مكة وإخراج سعيد بن جبير عنها ومقتله

ولما كان في سنة ثلاث وتسعين كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد يقص عليه أفعال الحجاج بالعراق وما هم فيه من ظلمه وعدوانه، فبلغ بذلك الحجاج فكتب إلى الوليد: إن كثيراً من المرّاق وأهل الشقاق قد انجلوا عن العراق ولحقوا بالمدينة ومكة ومنعهم عمر وأصابه من ذلك وهن. فولى الوليد على مكة خالد بن عبد الله القسري وعثمان بن حيان بإشارة الحجاج، وعزل عمر عن الحجاز وذلك في شعبان من السنة.

ولما قدم خالد مكة أخرج من كان بها من أهل العراق كرهاً وتهدد من أنزل عراقياً أو أجره داراً وكانوا أيام عمر بن عبد العزيز يلجأ إلى مكة والمدينة كل من خاف الحجاج فيأمن. وكان منهم سعيد بن جبير هارباً من الحجاج. وكان قد جعله على عطاء الجند الذين وجههم مع عبد الرحمن بن الأشعث إلى قتال رتبيل. فلما خرج عبد الرحمن كان سعيد فيمن خلع فكان معه إلى أن هزم وسار إلى بلاد رتبيل. فلحق سعيد بأصبهان، وكتب الحجاج فيه إلى عاملها فتحرج من ذلك ودس إلى سعيد فسار إلى أذربيجان. ثم طال عليه المقام فخرج إلى مكة فكان بها مع ناس أمثاله من طلبة الحجاج يستخفون بأسمائهم.

فلما قدم خالد بن عبد الله مكة أمره الوليد بحمل أهل العراق إلى الحجاج فأخذ سعيد بن جبير ومجاهداً وطلق بن حبيب، وبعث بهم إلى الحجاج فمات طلق في الطريق وجيء بالآخرين إلى الكوفة وأدخلا على الحجاج. فلما رأى سعيداً شتم خالداً القسري على إرساله وقال: لقد كنت أعرف أنه بمكة وأعرف البيت الذي كان فيه، ثم أقبل على سعيد وقال: ألم أشركك في أمانتي؟ ألم أستعملك؟ ثم تفعل! يعدد أياديه عنده. فقال: بلى! قال: فما أخرجك على قتالي؟ أنا امرؤ من المسلمين أخطئ مرة وأصيب أخرى. ثم استمر في محاورته فقال: إنما كانت البيعة في عنقي

فغضب الحجاج وقال: ألم آخذ بيعتك لعبد الملك بمكة بعد مقتل ابن الزبير؟ ثم جددت له البيعة بالكوفة فأخذت بيعتك ثانياً؟ قال: بلى! قال: فنكثت بيعتين لأمير المؤمنين، وتوفي بواحدة للفاعل ابن الفاعل، والله لأقتلنك. فقال: إني لسعيد كما سمّتني أمي فضربت عنقه فهلل رأسه ثلاثاً أفصح منها بمرة. ويقال: إن عقل الحجاج التبس يومئذ وجعل يقول: قيودنا قيودنا فظنوها قيود سعيد بن جبير فأخذوها من رجليه وقطعوا عليها ساقيه، وكان إذا نام يرى سعيد بن جبير في منامه آخذاً بمجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتني؟ فينتبه مرعوباً يقول: ما لي ولسعيد بن جبير.

وفاة الحجاج

وتوفي الحجاج في شوال سنة خمس وتسعين لعشرين سنة من ولايته العراق، ولما حضرته الوفاة استخلف على ولايته ابنه عبد الله وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم، فأقرهم الوليد بعد وفاته. وكتب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجهدك وجهادك أعداء المسلمين وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي تحب، فأتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه ولم يغير الوليد أحداً من عمال الحجاج.

أخبار محمد بن القاسم بالسند

كان محمد بن القاسم بالمُلْتان وأتاه خبر وفاة الحجاج هنالك فرجع إلى الدور والثغور وكان قد فتحها ثم جهزه الناس إلى السلماس مع حبيب فأعطوا الطاعة وسالمه أهل شرست وهي مغزى أهل البصرة وأهلها يقطعون في البحر. ثم سار في العسكر إلى..... فخرج إليه دوهر فقاتله محمد وهزمه وقتله. ونزل أهل المدينة على حكمه فقتل وسبا. ولم يزل عاملاً على السند إلى أن ولي سليمان بن عبد الملك فعزله وولى يزيد بن أبي كبشة السكسكي على السند مكانه. فقيده يزيد وبعث به إلى العراق فحبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط وعذبه في رجال من قرابة الحجاج على قتلهم، وكان الحجاج قتل أخاه آدم على رأي الخوارج. ومات يزيد بن أبي كبشة لثمان عشرة ليلة من مقدمه.

فولى سليمان على السند حبيب بن المهلب فقدمها وقد رجع ملوك السند إلى ممالكهم ورجع حبشة بن داهر إلى برهماباذ فنزل حبيب على شاطئ مهران وأعطاه أهل الروم الطاعة، وحارب فظفر، ثم أسلم الملوك لما كتب عمر بن عبد العزيز إلى الإسلام على أن يملكهم وهم أسوة المسلمين فيما لهم وعليهم، فأسلم حبشة والملوك وتسموا بأسماء العرب وكان عمر بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر فغزا بعض الهند وظفر. ثم ولى الجنيد بن عبد الرحمن على السند أيام هشام بن عبد الملك، فأتى شط مهران. ومنعه حبشة بن داهر العبور وقال: إني قد أعملت وولاني الرجل الصالح ولست آمنك فأعطاه الرهن ثم ردها حبشة وكفر وحارب فحاربه الجنيد في السفن وأسره ثم قتله.

وهرب صصة بن داهر إلى العراق شاكياً لغدر الجنيد فلم يزل يؤنسه حتى جاءه فقتله. ثم غزا الجنيد المكيرج من آخر الهند وكانوا انقضّوا فاتخذ كباشاً زاحفة ثم صك بها سور المدينة فثلمها ودخل فقتل وسبى وغنم وبعث العمال إلى المرمد والمعدل ودهج وبعث جيشاً إلى أرين فأغاروا عليها وأحرقوا ربضها وحصل عنده سوى ما حمل أربعون ألف ألف وحمل مثلها. وولى تميم بن زيد الضبي فضعف ووهن ومات قريباً من الديبل. وفي أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند وتركوا مراكزهم. ثم ولي الحكم ابن سوام الكلبي وقد كفر أهل الهند إلا أهل قَصَّة، فبنى مدينة سماها المحفوظة وجعلها مأوى المسلمين. وكان معه عمر بن محمد بن القاسم وكان يفوض إليه عظائم الأمور وأغزاه عن المحفوظة. فلما قدم وقد ظهر أمره فبنى مدينة وسماها المنصورة وهي التي كان أمراء السند ينزلونها واستخلص ما كان غلب عليه العدو، ورضي الناس بولايته. ثم قتل الحكم وضعفت الدولة الأموية عن الهند. وتأتي أخبار السند في دولة المأمون.

فتح مدينة كاشغر

أجمع قتيبة لغزو مدينة كاشغر سنة ست وتسعين وهي أدنى مدائن الصين فسار لذلك وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعها بسمرقند وعبر النهر، وجعل على المجاز مسلحة يمنعون الراجع من العسكر إلا بإذنه. وبعث مقدمه إلى كاشغر فغنموا وسبوا وختم أعناق السبي. وأوغل حتى قارب الصين. فكتب إليه ملك الصين يستدعي من أشراف العرب من يخبره عنهم وعن دينهم. فانتخب قتيبة عشرة من العرب كان منهم هبيرة بن شمرج الكتابي. وأمر لهم بعدة حسنة ومتاع من الخز والوشي وخيول أربعة وقال لهم: أعلموه أني حالف إني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم. ولما قدموا على ملك الصين دعاهم في اليوم الأول فدخلوا وعليهم الغلائل والأردية، وقد تطيبوا ولبسوا

النعال. فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن حضره، وقالوا بعد انصرافهم هؤلاء نسوان. فلبسوا الوشي والمطارف وعمائم الخز وغدوا عليه فلم يكلمهم وقالوا هذه أقرب إلى هيئة الرجال. ثم دعاهم الثالثة فلبسوا أسلاحهم وعلى رؤوسهم البيضات والمغافر وتوشحوا السيوف واعتقلوا الرماح ونكبوا القسي فهالهم منظرهم. ثم انصرفوا وركبوا فتطاردوا فعجب القوم منهم. ثم دعا زعيمهم هبيرة بن شمرج فسأله لم خالفوا في زيهم؟ فقال: أما الأول فإنا نساء في أهلنا وأما الثاني فزينا عند أمرائنا، وأما الثالث فزينا لعدونا. فاستحسن ذلك. ثم قال له: قد رأيتم عظم ملكي وأنه ليس أحد يمنعكم مني، وقد عرفت قلتكم فقولوا لصاحبكم ينصرف وإلا بعثت من يهلككم. فقال هبيرة كيف نكون في قلة وأول خيلنا في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وأما القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه، ولنا آجال إذا حضرت فلن نتعداها وقد حلف صاحبنا أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ جزيتكم. قال الملك: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث له بتراب من أرضنا فيطؤه، ويقبض أبناءنا فيختمهم وبهدية ترضيه، ثم أجازهم فأحسن. وقدموا على قتيبة فقبل الجزية ووطئ التراب وختم الغلمان وردهم ثم انصرف من غداته. وأوفد هبيرة إلى الوليد، وبلغه وهو في الفرات موت الوليد.

وفاة الوليد وبيعة سليمان

ثم توفي الوليد في منتصف جمادى الأخيرة من سنة ست وتسعين وصلى عليه عمر بن عبد العزيز وكان من أفضل خلفاء بني أمية وبنى المساجد الثلاثة. مسجد المدينة، ومسجد القدس ومسجد دمشق. ولما أراد بناء مسجد دمشق كانت في موضعه كنيسة فهدمها وبناها مسجداً. وشكوا ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال: نرد عليكم كنيستكم ونهدم كنيسة توما فإنها خارج المدينة مما فتح عنوة ونبنيها مسجداً فتركوا ذلك. وفتح في ولايته الأندلس وكاشغر والهند، وكان يتخذ الضياع وكان متواضعاً يمر بالبقال فيسأله بكم حزمة البقل؟ ويسعر عليه. وكان يختم القرآن في ثلاث وفي رمضان في يومين وكان أراد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لولده عبد العزيز، فأبى سليمان فكتب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج وقتيبة وبعض خواصه. واستقدم سليمان ثم استبطأه فأجمع السير إليه ليخلعه فمرت دون ذلك. ولما مات بويع سليمان من يومه وهو بالرملة فعزل عثمان بن حيان من المدينة آخر رمضان، وولى عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وعزل ولاة الحجاج عن العراق فولى يزيد بن المهلب على المصرين وعزل عنهما يزيد بن أبي مسلم. فبعث يزيد أخاه زياداً على عمان وأمر سليمان يزيد بن المهلب بنكبة آل أبي العقيل قوم الحجاج وبني أبيه وبسط أصناف العذاب عليهم، فولى على ذلك عبد الملك بن المهلب.

مقتل قتيبة بن مسلم

ولما ولي سليمان خافه قتيبة لما قدمناه من موافقته الوليد على خلعه فخشي أن يولي يزيد بن المهلب خراسان فأجمع خلعه وكتب إليه لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمني لأخلعنك ولأملأنها عليك خيلا ورجلاً فأمنه وكتب له العهد على خراسان. وبعث إليه رسوله بذلك، فبعث الرسول وهو بحلوان أنه قد خلع وكان هو بعد بعثة الكتاب إلى سليمان قد اشتد وجله وأشار عليه أخوه عبد الله بالمعاجلة، فدعا الناس إلى الخلع وذكرهم بوائقه وسوء ولاية من تقدمه فلم يجبه أحد، فغضب وشتمهم وعدد ومثالبهم قبيلة قبيلة فأثنى على نفسه بالأب والبلد والمعشر. فغضب الناس وكرهوا خلع سليمان وأجمعوا على خلع قتيبة وخلافه. وعذل قتيبة أصحابه فيما كان منه فقال: لما لم تجيبوني غضبت فلم أدر ما قلت.

وجاء الأزد إلى حضين بن المنذر (بالضاد المعجمة) فقالوا: كيف ترى هذا يدعو إلى فساد الدين ويشتمنا فعرف مغزاهم فقال: إن مضر بخراسان كثير وتميم أكثرهم وهم شوكتها ولا يرضون بغيرهم فيصيبوا قتيبة ولا أرى لها إلا وكيعاً. وكان وكيع موثقاً من قتيبة بعزله وولاية ضرار بن حصين الضبي مكانه. وقال حيان النبطي مولى بني شيبان ليس لها غير وكيع ومشى الناس بعضهم إلى بعض سراً وتولى كبر ذلك حيان. ونمي خبره إلى قتيبة فأمر بقتله إذا دخل عليه، وتنصح بعض خدم قتيبة بذلك إلى حيان فلما دعاه تمارض، واجتمع الناس إلى وكيع وبايعوه. فمن أهل البصرة والعالية من المقاتلة تسعة آلاف، ومن بكر سبعة آلاف رئيسهم حضين بن المنذر، ومن تميم عشرة آلاف عليهم ابن زخر ومن الموالي سبعة آلاف عليهم حيان النبطي وقيل من الديلم، وسمي نبطياً للكنته.

وشرط على وكيع أن يحول له الجانب الشرقي من نهر بلخ فقبل، وفشا الخبر وبلغ قتيبة فدس ضرار بن حيان الضبي إلى وكيع فبايعه، وجاء إلى قتيبة بالخبر فأرسل قتيبة إلى وكيع فاعتذر بالمرض فقال لصاحب شرطته: إئتني به وإن أبى ائتني برأسه فلما جاء إلى وكيع ركب ونادى في الناس فأتوه أرسالا. واجتمع إلى قتيبة أهل

بيته وخواصه وثقاته وبنو عمه، وأمر فنودي في الناس قبيلة قبيلة، وأجابوه بالجفوة. يقول: أين بنو فلان؟ فيقولون: حيث وضعتهم! فنادى بأذكركم اللّه والرحم، فقالوا: أنت قطعتها! فنادى لكم العتبى، فقالوا: لا! إنا لنا اللّه إذا. فدعا ببرذون ليركبه فمنعه ورمحه فعاد إلى سريره. وجاء حيان النبطي في العجم، فأمره عبد اللّه أخو قتيبة أن يحمل على القوم، فاعتذر وقال لابنه: إذا لقيتني حولت قلنسوتي فمل بالأعاجم إلى وكيع، ثم حولها وسار بهم ورمى صالح أخو قتيبة بسهم فحمل إلى أخيه. ثم تهايج الناس وجاء إلى عبد الرحمن أخي قتيبة الغوغاء ونحوهم فأحرقوا آريا فيه إبل قتيبة ودوابه. ثم زحفوا به حتى بلغوا فسطاطه فقطعوا أطنابه وجرح جراحات كثيرة. ثم قطعوا رأسه وقتل معه إخوته عبد الرحمن وعبد اللّه وصالح وحصين وعبد الكريم ومسلم وابنه كثير، وقيل قتل عبد الكريم بقزوين، فكان عدة من قتل من أهله أحد عشر رجلاً، ونجا أخوه عمر مع أخواله من تميم. ثم صعد وكيع المنبر وأنشد الشعر في الثناء على نفسه وفعله والذم من قتيبة ووعد بحسن السيرة وطلب رأس قتيبة وخاتمه من الأزد وهددهم عليه فجاؤوا به فبعثه إلى سليمان. ووفى وكيع لحيان النبطي بما ضمن له.

ولاية يزيد بن المهلب خراسان

كان يزيد بن المهلب لما ولاه سليمان العراق على الحرب والصلاة والخراج استكره أن يحيف على الناس في الخراج فتلحقه المذمة كما لحقت الحجاج ويخرب العراق، وإن قصر عن ذلك لم يقبل منه. فرغب من سليمان أن يعفيه من الخراج وأشار عليه بصالح بن عبد الرحمن مولى تميم. فولاه سليمان الخراج وبعثه قبل يزيد. فلما جاء صالح إلى يزيد ضيق عليه صالح، وكان يزيد يطعم على ألف خوان. فاستكثرها صالح فقال: اكتب ثمنها علي وغير ذلك. وضجر يزيد. وجاء خبر خراسان ومقتل قتيبة فطمع يزيد في ولايتها ودس عبد اللّه بن الأهتم على سليمان أن يوليه خراسان ولا يشعر بطلبته بذلك. وسيره على البريد فقال له سليمان: إن يزيد كتب إلي بذكر عملك بالعراق! فقال: نعم بها ولدت وبها نشأت.

ثم استشاره فيمن يوليه خراسان ولم يزل سليمان يذكر الناس وهو يردهم، ثم حذره من وكيع وغدره قال: فسم أنت! قال شريطة الكمال الإجازة ممن أشير به، وإذا علم بكره ذلك. ثم قال: هو يزيد بن المهلب فقال سليمان: العراق أحب إليه! فقال ابن الأهتم: قد علمت ولكن نكرهه فيستخلف على العراق ويسير إلى خراسان، فكتب عهد يزيد على خراسان وبعثه مع ابن الأهتم. فلما جاءه بعث ابنه مخاداً على خراسان وبعثه مع ابن الأهتم. ثم سار بعده واستخلف على واسط الجراح بن عبد اللّه الحكمي وعلى البصرة ابن عبد اللّه بن هلال الكلابي، وعلى الكوفة حرملة بن عيد اللخمي. ثم عزله لأشهر بشير بن حيان النهدي، فكانت قيس تطلب بثأر قتيبة وتزعم أنه لم يخلع. فأوصى سليمان يزيد أن أقامت قيس بينة أنه لم يخلع أن يقيده من وكيع.

أخبار الصوائف وحصار قسطنطينية

كانت الصوائف تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية وحدوث الفتن واشتدت الفتن أيام عبد الملك اجتمعت الروم واستجاشوا على أهل الشام فصالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على أن يؤدي إليه كل يوم جمعة ألف دينار خشية منه على المسلمين ونظراً لهم، وذلك سنة سبعين لعشر سنين من وفاة معاوية. ثم لما قتل مصعب وسكنت الفتنة بعث الجيوش سنة إحدى وسبعين في الصائفة. فدخل فافتتح قيسارية، ثم ولى على الجزيرة وأرمينية أخاه محمد بن مروان سنة ثلاث وسبعين فدخل في الصائفة إلى بلاد الروم فهزمهم، ودخل عثمان بن الوليد من ناحية أرمينية في أربعة آلاف ولقيه الروم في ستين ألفاً فهزمهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر. ثم غزا محمد بن مروان سنة أربع وسبعين فبلغ أنبولية وغزا في السنة بعدها في الصائفة من طريق مرعش، فدوخ بلادهم وخرج الروم في السنة بعدها إلى العتيق فغزاهم من ناحية مرعش ثانية، ثم غزاهم سنة ست وسبعين من ناحية ملطية ودخل في الصائفة سنة سبع وسبعين الوليد بن عبد الملك فأثخن فيهم ورجع.

وجاء الروم سنة تسع وسبعين فأصابوا من أهل أنطاكية وظفروا بهم فبعث عبد الملك سنة إحدى وثمانين ابنه عبيد اللّه بالعسكر ففتح قاليقلا. ثم غزا محمد بن مروان سنة اثنتين وثمانين أرمينية وهزمهم، فسألوه الصلح فصالحهم وولى عليهم أبا شيخ بن عبد اللّه فغدروه وقتلوه فغزاهم سنة خمسين وثمانين. وصاف فيها وشتى ثم غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم ودوخها، ورجع وعاد إليها سنة سبع وثمانين. فأثخن فيهم بناحية المصيصة وفتح حصوناً كثيرة. منها حصن بولق والأحزم وبولس وقمقيم. وقتل

من المستقربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم. ثم غزا بلاد الروم سنة تسع وثمانين مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد، فافتتح مسلمة حصن سورية وافتتح العباس أردولية، ولقي جمعاً من الروم فهزمهم.

وقيل: إن مسلمة قصد عمورية فلقي بها جمعاً من الروم فهزمهم. وافتتح هرقلة وقمولية وغزا العباس الصائفة من ناحية البلدبدون. وغزا مسلمة بن عبد الملك الترك سنة تسع وثمانين من ناحية أذربيجان ففتح حصوناً ومدائن هناك. ثم غزا سنة تسعين ففتح الحصون الخمس التي بسورية. وغزا العباس حتى بلغ أردن وسورية.

وفي سنة إحدى وتسعين غزا عبد العزيز بن الوليد في الصائفة مع مسلمة بن عبد الملك وكان الوليد قد ولى مسلمة على الجزيرة وأرمينية وعزل عمه محمد بن مروان عنها، فغزا الترك من ناحية أذربيجان حتى الباب وفتح مدائن وحصوناً، ثم غزا سنة اثنتين وتسعين بعدها ففتح ثلاثة حصون وجلا أهل سرسنة إلى بلاد الروم ثم غزا العباس بن الوليد سنة ثلاث بعدها بلاد الروم ففتح سبيطلة، وغزا مروان بن الوليد فبلغ حنجرة. وغزا مسلمة ففتح ماشية وحصن الحديد وغزالة من ناحية ملطية. وغزا العباس بن الوليد سنة أربع وتسعين ففتح أنطاكية. وغزا عبد العزيز بن الوليد ففتح غزالة وبلغ الوليد بن هشام المعيطي مروج الحمام، ويزيد بن أبي كبشة أرض سورية.

وفي سنة خمس وتسعين غزا العباس الروم ففتح هرقلة. وفي سنة سبع وتسعين غزا مسلمة أرض الرضاخية وفتح الحصن الذي فتحه الرصاع، وغزا عمر بن هبيرة أرض الروم في البحر فشتى بها، ويعث سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية ويعث ابنه داود على الصائفة ففتح حصن المراة، وفي سنة ثمان وتسعين مات ملك الروم، فجاء ألقون إلى سليمان فأخبره وضمن له فتح الروم، وسار سليمان إلى وابق وبعث الجيوش مع أخيه مسلمة، ولما دنا من القسطنطينية أمر أهل المعسكر أن يحمل كل واحد مدين مدين من الطعام ويلقوه في معسكرهم فصار أمثال الجبال واتخذ البيوت من الخشب. وأمر الناس بالزراعة وصاف وشتى وهم يأكلون من زراعتهم وطعامهم الذي استاقوه مدخراً.

ثم جهد أهل القسطنطينية الحصار، وسألوا الصلح على الجزية ديناراً على الرأس، فلم يقبل مسلمة وبعث الروم إلى ألقون إن صرفت عنا المسلمين ملكناك فقال لمسلمة: لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنك قصدتهم بالقتال فنأخذهم باليد وهم الآن يظنون مع بقاء الزرع أنك تطاولهم، فأحرق الزرع فقوي الروم

وغدر ألقون وأصبح محارباً، وأصاب الناس الجوع فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وسليمان مقيم بوابق وحال الشتاء بينهم وبينه فلم يقدر أن يمدهم حتى مات. وأغارت برجان على مسلمة وهو في قلة فهزمهم وفتح مدينتهم. وغزا في هذه السنة الوليد بن هشام فأثخن في بلاد الروم.

وغزا داود بن سليمان سنة ثمان وتسعين ففتح حصن المراة مما يلي ملطية. وفي سنة تسع وتسعين بعث عمر بن عبد العزيز مسلمة وهو بأرض الروم وأمده بالنفول بالمسلمين ويعث إليه بالخيل والدواب، وحث الناس على معونتهم. ثم أمر عمر بن عبد العزيز أهل طريدة بالجلاء عنها إلى ملطية وخربها. وكان عبد اللّه بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين وفرض على أهل الجزيرة مسلحة تكون عندهم إلى فصل الشتاء، وكانت متوغلة في أرض الروم فخربها عمر، وولى على ملطية جعونة بن الحارث من بني عامر بن صعصعة. وأغزى عمر سنة مائة من الهجرة بالصائفة الوليد بن هشام المعيطي وعمر بن قيس الكندي.

فتح جرجان وطبرستان

كان يزيد بن المهلب يريد فتحهما لما أنهما كانتا للكفار، وتوسطتا بين فارس وخراسان ولم يصبهما الفتح. وكان يقول وهو في جوار سليمان بالشام إذا قصت عليه أخبار قتيبة وما يفعله بخراسان وما وراء النهر، ما فعلت جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت يوسس ونيسابور وليست هذه الفتوح بشيء والشأن في جرجان. فلما ولاه سليمان خراسان سار إليها في مائة ألف من أهل العراق والشام وخراسان سوى الموالي والمتطوعة، ولم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما هي جبال ومخارم يقوم الرجل على باب منها فيمنعه. فابتدأ بقهستان فحاصرها وبها طائفة من الترك فكانوا يخرجون فيقاتلون وينهزمون في كل يوم ويدخلون حصنهم. ولم يزل على ذلك حتى بعث إليه دهقان بتستأذن يسأل في الصلح ويسلم المدينة وما فيها فصالحه وأخذ ما فيها من الأموال والكنوز والسبي ما لا يحصى، وقتل أربعة عشر ألفاً من الترك، وكتب إلى سليمان بذلك.

ثم سار إلى جرجان وكان سعيد بن العاصي قد صالحهم على الجزية مائة ألف في السنة فكانوا أحياناً يجبون مائة وأحياناً مائتين وأحياناً ثلثمائة، وربما أعطوا ذلك وربما منعوا، ثم كفروا ولم خراجاً، ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد، ومنعوا الطريق إلى خراسان على فكان الناس يسلكون على فارس وسلماس. ثم

فتح قتيبة طريق قومس وبقي أمر جرجان حتى جاء يزيد فصالحوه. ولما فتح يزيد قهستان وجرجان طمع في طبرستان فاستعمل عبد اللّه بن معمر اليشكري على ساسان وقهستان، وخلف معه أربعة آلاف فارس، وسار إلى أدنى جرجان من جهة طبرستان ونزل بآمد.

ونسا راشد بن عمر في أربعة آلاف. ودخل بلاط طبرستان فسأل صاحبها الأصبهبذ في الصلح، وأن يخرج من طبرستان. فأبى يزيد ورجا أن يفتحها، ووجه أخاه عيينة من وجه وابنه خالد بن زيد من وجه، وإذا اجتمعا فعيينة على الناس. واستجاش الأصبهبذ أهل جيلان والديلم والتقوا فانهزم المشركون، واتبعهم المسلمون إلى الشعب وصعد المشركون في الجبل فامتنعوا على المسلمين وصعد أبو عيينة بمن معه خلفهم فهزمهم المشركون في الوعر فكفوا. وكاتب الأصبهبذ أهل جرجان ومقدمهم المرزبان أن يبيتوا للمسلمين عندهم ليقطعوا المادة عن يزيد والطرق بينه وبين جرجان ووعدهم بالمكافأة على ذلك. فساروا بالمسلمين وهم غارون، وقتل عبد اللّه بن معمر وجميع من معه ولم ينج أحد. وكتبوا إلى الأصبهبذ بأخذ المضايق والطرق، وبلغ ذلك يزيد وأصحابه فعظم عليهم وهالهم، وفزع يزيد إلى حيان النبطي وكان قد غرمه مائتي ألف درهم بسبب أنه كتب إلى ابنه مخلد كتاباً فبدأ بنفسه. فقال له: لا يمنعك ما كان مني إليك من نصيحة المسلمين، وقد علمت ما جاء من جرجان فاعمل في الصلح. فأتى حيان الأصبهبذ ومت إليه بنسب العجم وتنصل له وفتل له في الذروة والغارب حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة وقر زعفران أو قيمته من العين، وأربعمائة رجل على يد كل رجل منهم ترس وطيلسان وجام من فضة وخرقة حرير وكسوة، فأرسل يزيد لقبض ذلك ورجع اهـ.

وقيل في سبب مسير يزيد إلى جرجان أن صولا التركي كان على قهستان والبحيرة، جزيرة في البحر على خمسة فراسخ من قهستان، وهما من جرجان مما يلي خوارزم وكان يغير على فيروز بن فولفول مرزبان جرجان. وأشار فيروز بنصيب من بلاده، فسار فيروز إلى يزيد هارباً منه وأخذ صول جرجان وأشار فيروز على يزيد أن يكتب إلى الأصبهبذ ويرغبه في العطاء إن هو حبس صولا بجرجان حتى يحاصر بها، ليكون ذلك وسيلة إلى معاكسته وخروجه عن جرجان فيتمكن يزيد منه. فكتب إلى الأصبهبذ وبعث بالكتاب إلى صول فخرج من حينه إلى البحيرة. وبلغ يزيد الخبر فسار إلى جرجان ومعه فيروز واستخلف على خراسان ابنه مخلداً. وعلى سمرقند وكش ونسف وبخارى ابنه معاوية وعلى طخارستان ابن قبيصة بن المهلب، وأتى جرجان فلم يمنعه دونها أحد ودخلها. ثم سار منها إلى البحيرة وحصر صولا بها شهراً حتى سأل الصلح على نفسه وماله وثلثمائة ويسلم إليه البحيرة فأجابه يزيد وخرج صول عن البحيرة وقتل يزيد من الأتراك أربعة عشر ألفاً وأمر إدريس بن حنظلة العمي أن يحصي ما في البحرية ليعطي الجند فلم يقدر. وكان فيها من الحنطة والشعير والأرز والسمسم والعسل شيء كثير ومن الذهب والفضة كذلك. ولما صالح يزيد أصبهبذ طبرستان كما قدمناه سار إلى جرجان وعاهد اللّه إن ظفر بهم ليطحنن القمح على سائل دمائهم ويأكل منه. فحاصرهم سبعة أشهر وهم يخرجون إليه فيقاتلونه ويرجعون وكانوا متمنعين في الجبل والأوعار. وقصد رجل من عجم خراسان فأتبع بخلا في الجبل وانتهى إلى معسكرهم وعرف الطريق إليه ودل الأدلة على معالمة، وأتى يزيد فأخبره. فانتخب ثلثمائة رجل مع ابنه خالد وضم إليه جهم بن ذخر وبعثه وذلك الرجل يدل به، وواعده أن يناهضهم العصر من الغداة. ولما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كل حطب عنده حتى اضطرمت النيران ونظر العدو إلى النار فهالهم وحاملوا للقتال آمنين خلفهم فناشبهم يزيد إلى العصر وإذا بالتكبير من ورائهم فهربوا إلى حصنهم واتبعهم المسلمون فأعطوا ما بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد. فقتل المقاتل وسبى الذرية وقاد منهم اثني عشر ألفاً إلى وادي جرجان، ومكن أهل الثأر منهم حتى استلحموهم. وجرى الماء على الدم وعليه الأرحاء فطحن وخبز وأكل وقتل منهم أربعين ألفاً. وبنى مدينة جرجان ولم تكن بنيت قبل ورجع إلى خراسان وولى على جرجان جهم بن ذخر الجعفي ولما قتل مقاتلهم صلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره.

وفاة سليمان وبيعة عمر بن عبد العزيز

ثم توفي سليمان بدابق من أرض قنسرين من سنة تسع وتسعين في صفر منها وقد كان في مرضه أراد أن يعهد إلى ولده داود ثم استصغره وقال له كاتبه رجاء بن حيوة ابنك غائب عنك بقسطنطينية ولا يعرف حياته من موته فعدل إلى عمر بن عبد العزيز وقال له: إني واللّه لأعلم أنها تكون فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده، وكان عبد الملك قد جعل ذلك له وكتب بعد البسملة: هذا كتاب من عبد اللّه سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز: إني قد وليتك الخلافة من بعدي ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا اللّه، ولا تختلفوا فيطمع فيكم ختم الكتاب.

ثم أمر كعب بن جابر العبسي صاحب الشرطة أن يجمع أهل بيته، وأمر رجاء بن حيوة أن يدفع لهم كتابه وقال: أخبرهم أنه كتابي فليبايعوا من وليت فيه فبايعوه رجلاً رجلاً وتفرقوا. وأتى عمر إلى رجاء يستعمله ويناشده اللّه والمودة يستعفي من ذلك فأبى. وجاءه هشام أيضاً يستعمله ليطلب حقه في الأمر فأبى، فانصرف أسفاً أن يخرج من بني عبد الملك. ثم مات سليمان وجمع رجاء أهل بيته فقرأ عليهم الكتاب. فلما ذكر عمر قال هشام: واللّه لا نبايعه أبداً. فقال له رجاء: واللّه نضرب عنقك. فقام أسفاً يجر رجليه حتى جاء إلى عمر بن عبد العزيز وقد أجلسه رجاء على المنبر وهو يسترجع لما أخطأه، فبايعه واتبعه الباقون. ودفن سليمان وصلى عليه عمر بن عبد العزيز والوليد كان غائباً عن موت سليمان ولم يعلم بيعه عمر فعقد لواء ودعا لنفسه وجاء إلى دمشق. ثم بلغه عهد سليمان فجاء إلى عمر واعتذر إليه وقال: بلغني أن سليمان لم يعهد فخفت على الأموال أن تنهب فقال عمر: لو قمت بالأمر لقعدت في بيتي ولم أنازعك فقال عبد العزيز: واللّه لا أحب لهذا الأمر غيرك! وأول ما بدأ به عمر لما استقرت البيعة أنه رد ما كان لفاطمة بنت عبد الملك زوجته من المال والحلي والجوهر إلى بيت المال. وقال: لا أجتمع أنا وأنت وهو في بيت واحد فردته جميعه. ولما ولي أخوها يزيد من بعد رده عليها فأبت وقالت: ما كنت أعطيه حياً أعطيه ميتاً ففرقه يزيد على أهله. وكان بنو أمية يسبون علياً فكتب عمر إلى الآفاق بترك ذلك وكتب إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول بالمسلمين.

عزل يزيد بن المهلب وحبسه والولاية على عماله

ولما استقرت البيعة لعمر كتب في سنة مائة إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عماله ويقدم فاستخلف مخلداً ابنه وقدم من خراسان وقد كان عمر ولى على البصرة عدي بن أرطاة الفزاري وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وضم إليه أبا الزناد، فكتب إلى عدي بن أرطاة موسى أن يقبض على يزيد بن المهلب ويبعثه مقيداً، فلما نزل يزيد واسط وركب السفن يريد البصرة بعث علي بن أرطاة موسى بن الرحيبة الحميري فلقيه في نهر معقل عند الجسر فقيده وبعث به إلى عمر، وكان عمر يبغضه ويقول إنه مراء وأهل بيته جبابرة.

فلما طالبه بالأموال التي كتب بها إلى سليمان من خمس جرجان قال: إنما كتبت لأسمع الناس، وعلمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بذلك. فقال له عمر: إتق اللّه وهذه حقوق المسلمين لا يسعني تركها ثم حبسه بحصن حلب وبعث الجراح بن عبد اللّه الحكمي والياً على خراسان مكانه. وانصرف يزيد بن يزيد فقدم على عمر واستعطفه لأبيه وقال له: يا أمير المؤمنين إن كانت له بينة فخذ بها وإلا فاستحلفه وإلا فصالحه أو فصالحني على ما تسأل فأبى عمر من ذلك وشكر من مخلد ما فعل، ثم ألبس يزيد جبة صوف وحمله على جمل وسيره إلى دهلك. ومر يزيد على الناس وهو ينادي بعشيرة بالنكير لما فعل به فدخل سلامة بن نعيم الخولاني على عمر وقال: أردد يزيد إلى محبسه لئلا ينزعه قومه، فإنهم قد غضبوا، فرده إلى أن كان من أمر فزارة ما يذكر.

ولاية عبد الرحمن بن نعيم القشيرى على خراسان

ولما عزل يزيد عن خراسان وكان عامل جرجان جهم بن ذخر الجعفي فأرسل عامل العراق على جرجان عاملا مكانه، فحبسه جهم وقيده. فما جاء الجراح إلى خراسان أطلق جرجان عاملهم، ونكر الجراح على جهم ما فعل. وقال: لولا قرابتك مني ما سوغتك هذا! يعني أن جهماً وجعفاً معا ابنا سعد العشيرة. ثم بعث في الغزو وأوفد على عمر وفداً فكلم فيه بعضهم عمر بأنه يعري الموالي بلا عطاء ولا رزق ويؤاخذ من أسلم من أهل الذمة بالخراج. ثم عرض بأنه سيف من سيوف الجراح قد علم بالظلم والعدوان. فكتب عمر إلى الجراح انظر من صلى قبلك فخل عنه الجزية فسارع الناس إلى الإسلام فراراً من الجزية فامتحنهم بالختان وكتب إلى عمر ذلك.

فكتب عليه عمران: اللّه بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خاتناً واستقدم الجراح وقال: احمل معك أبا مخلد واستخلف على حرب خراسان عبد الرحمن بن نعيم القشيري. ولما قدم على عمر قال: متى خرجت؟ قال: في شهر رمضان. قال: صدقك من وصفك بالجفاء، الا أقمت حتى تفطر ثم تسافر. ثم سأل عمر أبا مخلد عن عبد الرحمن بن عبد اللّه فقال: يكافىء الأكفاء ويعادي الأعداء ويقدم إن وجد ما يساعده. قال فعبد الرحمن بن نعيم؟ قال: يحب العافية وتأتيه! قال: هو أحب إلي فولاه الصلاة والحرب، وولى عبد الرحمن القشيرى الخراج. فلم يزل عبد الرحمن بن نعيم على خراسان حتى قتل يزيد بن المهلب. وولي مسلمة. فكانت ولايته أكثر من سنة ونصف. وظهر من أيام الجراح بخراسان دعاة بني

العباس فيمن بعثه محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس إلى الآفاق حسبما يذكر في أخبار الدولة العباسية.

وفاة عمر بن عبد العزيز وبيعة يزيد

ثم توفي عمر بن عبد العزيز في رجب سنة إحدى ومائة بدير سمعان ودفن بها لسنتين وخمسة أشهر من ولايته ولأربعين من عمره وكان يدعى أشج بني أمية رمحته دابة وهو غلام فشجته. ولما مات ولي بعده يزيد بن عبد الملك بعهد سليمان كما تقدم وقيل لعمر حين احتضر: اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة فقال: بماذا أوصيه؟ إنه من بني عبد الملك! ثم كتب: أما بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة، إنك تترك ما أترك لمن لا يحمدك وتصير إلى من لا يعذرك والسلام. ولما ولي يزيد عزل أبا بكر بن محمد بن عمر بن حزم عن المدينة وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري وغير كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز وكان من ذلك شأن خراج اليمن. فإن محمدا أخا الحجاج جعل عليهم خراجاً مجدداً وأزال ذلك عمر إلى العشر أو نصف العشر. وقال: لئن يأتيني من اليمن حبة ذرة أحب إلي من تقرير هذه الوظيفة. فلما ولي يزيد أعادها وقال لعامله خذها منهم ولو صاروا حرضاً. وهلك عمه محمد بن مروان فولى مكانه على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية عمه الآخر مسلمة بن عبد الملك.

احتيال يزيد بن المهلب ومقتله

قد تقدم لنا حبس يزيد بن المهلب فلم يزل محبوساً حتى اشتد مرض عمر بن عبد العزيز فعمل في الهرب مخافة يزيد بن عبد الملك لأن زوجته بنت أخي الحجاج. وكان سليمان أمر ابن المهلب بتعذيب قرابة الحجاج كلهم فنقلهم من البلقاء وفيهم زوجة يزيد وعذبها. وجاءه يزيد بن عبد الملك إلى منزله شافعاً فلم يشفعه فضمن حمل ما قرر عليها فلم يقبل فتهدده فقال له ابن المهلب: لئن وليت أنت لأرمينك بمائة ألف سيف، فحمل يزيد بن عبد الملك عنها مائة ألف دينار. ولما اشتد مرض عمر خاف من ذلك وأرسل إلى مواليه أن يغدوا إليه بالإبل والخيل في مكان عينة لهم. وبعث إلى عامل حلب بإشفاقه من يزيد، وبذل له المال وإلى الحرس الذين يحفظونه فخلي سبيله، وأتى إلى دوابه فركبها ولحق بالبصرة. وكتب إلى عمر: إني واللّه لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك. ولكن خفت أن يقتلني يزيد شر قتلة. فقرأ عمر الكتاب وبه رمق فقال: اللّهم إن كان ابن المهلب يريد بالمسلمين سوءاً فألحقه به وهضه فقد هاض. انتهى.

ولما بويع ليزيد بن عبد الملك كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بالكوفة وإلى عدي بن أرطاة بالبصرة بهربه والتحرز منه وأبى عدي أن يأخذ المهلب بالبصرة فحبس المفضل حبيباً ومروان ابني المهلب، وبعث عبد الحميد من الكوفة جنداً عليهم هشام بن ساحق بن عامر فأتوا العذيب ومر بيزيد عليهم فوق القطقطانة فلم يقدموا عليه. ومضى نحو البصرة وقد جمع عدي بن أرطاة أهل البصرة وخندق عليها وبعث على خيلها المغيرة بن عبد اللّه بن أبي عقيل. وجاء يزيد على أصحابه الذين معه وانضم إليه أخوه محمد فيمن اجتمع إليه من قومهم. وبعث عدي بن أرطاة على كل خمس من أخماس البصرة رجالا: فعلى الأزد المغيرة بن زياد بن عمر العتكي، وعلى تميم محرز بن حمدان السعدي، وعلى بكرة نوح بن شيبان بن مالك بن مسمع، وعلى عبد القيس مالك بن المنذر بن الجارود، وعلى أهل العالية عبد الأعلى بن عبد اللّه بن عامر، وهم قريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ومزينة فلم يعرضوا ليزيد وأقبل فانزل. انتهى.

واختلف الناس إليه وأرسل إلى عدي أن يطلق له إخوته فينزل به البصرة، ويخرج حتى يأخذ لنفسه من يزيد، وبعث حميد ابن أخيه عبد الملك بن المهلب يستأمن له من يزيد بن عبد الملك فأجاره خالد القسري وعمر بن يزيد الحكمي بأمان يزيد له ولأهله. وقد كان بعد منصرف حميد فرق في الناس قطع الذهب والفضة فانثالوا عليه، وعدي يعطي درهمين درهمين. ثم تناجزوا الحرب وحمل أصحاب يزيد على أصحاب عدي فانهزموا ودنا يزيد من القصر، وخرج عدي بنفسه فانهزم أصحابه. وخاف أخوة يزيد وهم في الحبس أن يقتلوا قبل وصوله فأغلقوا الباب وامتنعوا فجاءهم الحرس يعالجون فأجفلهم الناس عنه فخلوا عنهم وانطلقوا إلى أخيهم.

ونزل يزيد دار مسلم بن زياد إلى جانب القصر وتسور القصر بالسلالم وفتحه وأتى بعدي بن أرطاة فحبسه. وهرب رؤوس البصرة من تميم وقيس ومالك بن المنذر إلى الكوفة والشام. وخرج المغيرة بن زياد بن عمر العتكي إلى الشام فلقي خالداً القسري وعمر بن يزيد وقد جاؤوا بأمان يزيد بن المهلب مع حميد ابن أخيه فأخبرهما بظهور يزيد على البصرة وحبسه عدياً فرجعا إلى وعد لهما فلم يقبلا، فقبض عبد الحميد بن عبد الرحمن بالكوفة على خالد بن يزيد بن المهلب وحماد بن ذخر، وحملهما وسيرهما إلى الشام فحبسهما يزيد حتى هلكا بالسجن. وبعث

يزيد بن عبد الملك إلى أهل الكوفة يثني عليهم ويمنيهم الزيادة وجهز أخاه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد إلى العراق في سبعين ألف مقاتل أو ثمانين من أهل الشام والجزيرة، فقدموا الكوفة ونزلوا النخيلة.

وتكلم العباس يوماً ببعض الكلام فأساء عليه حيان النبطي بالكشة الأعجمية. ولما سمع ابن المهلب بوصول مسلمة وأهل الشام فخطب الناس وشجعهم للقائهم وهون عليهم أمرهم وأخبرهم أن أكثرهم له. واستوثق له أهل البصرة وبعث عماله على الأهواز وفارس وكرمان. وبعث إلى خراسان مدرك بن المهلب وعليها عبد الرحمن بن نعيم وبعث بنو تميم ليمنعوه. ولقيه الأزد على رأس المغارة فقالوا: ارجع عنا حتى نرى مآل أمركم. ثم خطب يزيد الناس يدعوهم إلى الكتاب والسنة ويحثهم على الجهاد وأن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم ونكر ذلك الحسن البصري والنضر بن أنس بن مالك وتابعهما الناس في النكير.

وسار يزيد من البصرة إلى واسط واستخلف عليها أخاه مروان بن المهلب. وأقام بواسط أياماً ثم خرج منها سنة اثنتين ومائة واستخلف عليها أمان معونة. وقدم أخاه عبد الملك بن المهلب نحو الكوفة فاستقبله ابن الوليد بسور له فاقتتلوا وانهزم عبد الملك وعاد إلى يزيد. وأقبل مسلمة على شاطئ الفرات إلى الأنهار فعقد الجسر وعبر وسار حتى نزل على يزيد بن المهلب وفزع إليه ناس من أهل الكوفة وكان عسكره مائة وعشرين. وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن قد عسكر بالنخيلة وشق المياه وجعل الأرصاد على أهل الكوفة أن يفزعوا إلى يزيد بن المهلب، وبعث بعثاً إلى مسلمة مع صبرة بن عبد الرحمن بن مخنف فعزل مسلمة بن عبد الحميد عن الكوفة واستعمل عليها محمد بن عمر بن الوليد بن عقبة.

ثم أراد يزيد بن المهلب أن يبعث أخاه محمداً بالعساكر يبيتون مسلمة فأبى عليه أصحابه وقالوا: قد وعدناهم بالكتاب والسنة ووعدوا بالإجابة فلا نغدرهم. فقال يزيد: ويحكم تصدقونهم إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم فلا يسبقوكم إليه والله ما في بني مروان أمكر ولا أبعد غوراً من هذه الجرادة الصغرى يعني مسلمة. وكان مروان بن المهلب بالبصرة يحث الناس على اللحاق بيزيد أخيه والحسن البصري يثبطهم ويتهدده فلم يكف. ثم طلب الذين يجتمعون إليَّ؟ فافترقوا فأقام مسلمة بن عبد الملك يطاول يزيد بن المهلب ثمانية أيام. ثم خرج يوم الجمعة متنصف صفر فعبى أصحابه وعبى العباس بن الوليد كذلك والتقوا، واشتد القتال وأمر مسلمة فأحرق الجسر فسطع دخانه. فلما رآه أصحاب يزيد انهزموا واعترضهم يزيد يضرب في وجوههم حتى كثروا عليه فرجع وترجل في أصحابه. وقيل له: قتل أخوك حبيب فقال: لا خير في العيش بعده ولا بعد الهزيمة.

ثم استمات ودلف إلى مسلمة لا يريد غيره فعطف عليه أهل الشام فقتلوه هو وأصحابه، وفيهم أخوه محمد. وبعث مسلمة برأسه إلى يزيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عقبة. وقيل: إن الذي قتله الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي وأنف أن ينزل فيأخذ رأسه فأخذه غيره. وكان المفضل بن المهلب يقاتل في ناحية المعترك وما علم بقتل يزيد فبقي ساعة كذلك يكر ويفر حتى أخبر بقتل إخوته فافترق الناس عنه، ومضى إلى واسط. وجاء أهل الشام إلى عسكر يزيد فقاتلهم أبو رؤبة رأس الطائفة المرجئة ومعه جماعة منهم صدق، فقاتلوا ساعة من النهار ثم انصرفوا. وأسر مسلمة ثلثمائة أسير حبسهم في الكوفة.

وجاء كتاب يزيد إلى محمد بن عمر بن الوليد بقتلهم فأمر العريان بن الهيثم صاحب الشرطة بذلك وبدأ بثمانين من بني تميم فقتلهم. ثم جاء كتاب يزيد بإعفائهم فتركهم. وأقبل مسلمة فنزل الحيرة وجاء الخبر بقتل يزيد إلى واسط فقتل ابنه معاوية عدي بن أرطاة ومحمداً ابنه ومالكاً وعبد الملك ابنا مسمع في ثلاثين ورجع إلى البصرة بالمال والخزائن. واجتمع بعمه المفضل وأهل بيتهم، وتجهزوا للركوب في البحر وركبوا إلى قنديبل وبها وداع بن حميد الأسدي ولاه عليها يزيد بن المهلب ملجأ لأهل بيته إن وقع بهم ذلك فركبوا البحر بعيالهم وأموالهم إلى جبال كرمان فنزلوا بها واجتمع إليهم الفل من كل جانب.

وبعث مسلمة مدرك بن ضب الكلبي في طلبهم فقاتلهم وقتل من أصحاب المفضل النعمان بن إبراهيم ومحمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث وأسر ابن صول قهستان، وهرب عثمان بن إسحاق بن محمد الأشعث فقتل وحمل رأسه إلى مسلمة بالحيرة. ورجع ناس من أصحاب بني المهلب فاستأمنوا وأمنهم مسلمة منهم مالك بن إبراهيم بن الأشتر والورد بن عبد الله بن حبيب السعدي التميمي. ومضى إلى آل المهلب ومن معهم بقنديبل فمنعهم وداع بن حميد من دخولها وخرج معهم لقتال عدوهم. وكان مسلمة قد رد مدرك بن ضب بعد هزيمتهم في جبال كرمان وبعث في أثرهم هلال بن أحور التميمي فلحقهم بقنديبل فتبعوا لقتاله.

وبعث هلال راية أمان فمال إليه وداع بن حميد وعبد الله بن هلال وافترق الناس عن آل المهلب. ثم استقدموا فاستأمنوا

فقتلهم عن آخرهم: المفضل وعبد الملك وزياد ومروان بنو المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب والمنهال بن أبي عيينة بن المهلب وعمر بن يزيد بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب برتبيل ملك الترك. وبعث هلال بن أحوز برؤوسهم وسبيهم وأسراهم إلى مسلمة بالحيرة فبعث بهم مسلمة إلى يزيد بن عبد الملك فسيرهم يزيد إلى العباس بن الوليد في حلب فنصب الرؤوس. وأراد مسلمة أن يبتاع الذرية فاشتراهم الجراح بن عبد اللّه الحكمي بمائة ألف وخلى سبيلهم. ولم يأخذ مسلمة من الجراح شيئاً.

ولما قدم بالأسرى على يزيد بن عبد الملك وكانوا ثلاثة عشر أمر يزيد فقتلوا وكلهم من ولد المهلب واستأمنت هند بنت المهلب لأخيها عيينة إلى يزيد بن عبد الملك فأمنه وأقام عمرو وعثمان عند رتبيل حتى أمنهما أسد بن عبد اللّه القسري وقدما عليه بخراسان.

ولاية مسلمة على العراق وخراسان

ولما فرغ مسلمة بن عبد الملك من حرب بني المهلب ولاه يزيد بن عبد الملك العراق وجمع له ولاية البصرة والكوفة وخراسان فأقر على الكوفة محمد بن عمر بن الوليد وكان قد قام بأمر البصرة بعد بني المهلب شبيب بن الحارث التميمي فبعث عليها مسلمة عبد الرحمن بن سليم الكلبي وعلى شرطتها عمر بن يزيد التميمي. وأراد عبد الرحمن أن يقتل شيعة ابن المهلب بالبصرة فعزله وولى على البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان. وأقر عمر بن يزيد على الشرطة. واستعمل مسلمة على خراسان صهره على سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العباس ويلقب سعيد خذينة.

دخل عليه بعض العرب بخراسان وعليه ثياب مصبغة وحوله مرافق مصبغة، وسئل عنه لما خرج فقال: خذينة وهي الدهقانة ربة البيت. ولما ولاه على خراسان سار إليها فاستعمل شعبة بن ظهير النهشلي على سمرقند. فسار إليها وقدم الصغد وكان أهلها كفروا أيام عبد الرحمن بن نعيم، ثم عادوا إلى الصلح. فوبخ ساكنها من العرب وغيرهم بالجبن فاعتذروا بأمر أميرهم علي بن حبيب العبدي. ثم حبس سعيد عمال عبد الرحمن بن عبد اللّه وأطلقهم، ثم حبس عمال يزيد بن المهلب رفع لهم أنهم اختانوا الأموال فعذبهم فمات بعضهم في العذاب وبقي بعضهم في السجن حتى غزاهم الترك والصغد فأطلقهم.

العهد لهشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد

لما بعث يزيد بن عبد الملك الجيوش إلى يزيد بن المهلب مع مسلمة أخيه والعباس بن أخيه الوليد قال له العباس: إنا نخاف أن يرجف أهل العراق بموتك ويبث ذلك في أعضادنا وأشار عليه بالعهد لعبد العزيز أخيه ابن الوليد وبلغ ذلك مسلمة فجاءه وقال: أخوك أحق فإن ابنك لم يبلغ وأشار عليه بأخيه هشام وابنه الوليد من بعده. والوليد ابن إحدى عشرة سنة فبايع لهما كذلك. ثم بلغ ابنه الوليد فكان إذا رآه يقول: اللّه بيني وبين من قدم هشاماً عليك.

غزوة الترك

لما ولي سعيد خراسان استضعفه الناس وسموه خذينة واستعمل شعبة على سمرقند ثم عزله كما مر وولى مكانه عثمان بن عبد اللّه بن مطرف بن الشخير فطمعت الترك، وبعثهم خاقان إلى الصغد، وعلى الترك كورصول وأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلي وفيه مائة أهل بيت بذراريهم. وكتبوا إلى عثمان بسمرقند وخافوا أن يبطئ المدد، فصالحوا الترك على أربعين ألفاً وأعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة. وندب عثمان الناس فانتدب المسيب بن بشر الرياحي ومعه أربعة آلاف من سائر القبائل. فقال لهم المسيب: من أراد الغزو والصبر على الموت فليتقدم! فرجع عنه ألف، وقالها بعد فرسخ فرجع ألف ألف آخر، ثم أعادها ثالثة بعد فرسخ فاعتزله ألف.

وسار حتى كان على فرسخين من العدو فأخبره بعض الدهاقين بقتل الرهائن وميعادهم غداً. وقال أصحابي ثلثمائة مقاتل وهم معكم فبعث المسيب إلى القصر رجلين عجمياً وعربياً يأتيانه بالخبر، فجاؤوا في ليلة مظلمة وقد أجرت الترك الماء بدائر القصر لئلا يصل إليه أحد فصاح بهما فقالا له اسكت وادع لنا فلانا. فأعلماه قرب العسكر وسألا هل عندكم امتناع غداً؟ فقال لهما نحن مستميتون. فرجعا إلى المسيب فأخبراه فعزم على تبييت الترك وبايعه أصحابه على الموت وساروا يومهم إلى الليل. ولما أمسى حثهم على الصبر وقال: ليكن شعاركم يا محمد ولا تتبعوا مولياً واعقروا الدواب فإنه أشد عليهم، وليست بكم قلة فإن سبعمائة سيف لا يضرب بها في عسكر إلا أوهنته، وإن كثر أهله. ثم دنوا من العسكر في السحر وثار الترك وخالطهم المسلمون وعقروا الدواب وترجل المسيب في أصحاب له فقاتلوا قتالا

شديداً وقتل عظيم من عظماء الترك فانهزموا. ونادى منادي المسيب لا تتبعوهم واقصدوا القصر واحملوا من فيه، ولا تحملوا من متاعهم إلا المال. ومن حمل امرأة أو صبياً أو ضعيفاً حسبة فأجره على الله وإلا فله أربعون درهماً. وحملوا من في القصر إلى سمرقند ورجع الترك من الغد فلم يروا في القصر أحداً. ورأوا قتلاهم فقالوا: لم يكن الذين جاؤونا بالأمس.

غزو الصغد

ولما كان من انتقاض الصغد وإعانتهم الترك على المسلمين ما ذكرنا تجهز سعيد لغزوهم وعبر النهر فلقيه الترك وطائفة من الصغد فهزمهم المسلمون. ونهاهم سعيد عن أتباعهم وقال: هم جباية أمير المؤمنين فانكفوا عنهم. ثم سار المسلمون إلى واد بينهم وبين المرج فقطعه بعض العسكر وقد أكمن لهم الترك فخرجوا عليهم. وانهزم المسلمون إلى الوادي وقيل بل كان المنهزمون مسلحة للمسلمين. وكان فيمن قتل شعبة بن ظهر في خمسين رجلاً. وجاء الأمير والناس فانهزم العدو. وكان سعيد إذا بعث سرية فأصابوا وغنموا وسبوا رد السبي وعاقب فثقل سعيد على الناس وضعفوه. ولما رجع من هذه الغزاة وكان سورة بن الأبجر قد قال لحيان النبطي يوم أمر سعيد بالكف عن الصغد وأنهم جباية أمير المؤمنين. فقال: سورة إرجع عنهم يا حيان! فقال: عقيرة الله لا أدعها! فقال: انصرف يا نبطي. قال: أنبط الله وجهك. فحقدها عليه سورة وأغرى به سعيد خذينة وقال: إنه أفسد خراسان على قتيبة ويثب عليك ويتحصن ببعض القلاع. فقال له سعيد: لا يسمع هذا منك أحد، ثم حاول عليه وسقاه لبناً قد ألقى فيه ذهباً مسحوقاً. ثم ركض والناس معه أربعة فراسخ فعاش حيان من بعدها ليالي قلائل ومات.

ولاية ابن هبيرة على العراق وخراسان

كان مسلمة لما ولي على هذه الأعمال لم يدفع من الخراج شيئاً واستحيا يزيده من عزله فكتب إليه بالقدوم وأن يستخلف على عمله. وسار لذلك سنة ثلاث وأربعمائة، فلقيه عمر بن هبيرة بالطريق على دواب البريد، وقال: وجهني أمير المؤمنين لحيازه أموال بني المهلب فارتاب لذلك، وقال له بعض أصحابه: كيف يبعث ابن هبيرة من عند الجزيرة لمثل هذا الغرض؟ ثم أتاه أن ابن هبيرة عزل عماله. وكان عمر بن هبيرة من النجابة بمكان، وكان الحجاج يبعثه في البعوث، وهو ممن سار لقتال مطرف بن المغيرة حين خلع ويقال إنه الذي قتله، وجاء برأسه.

فسيره الحجاج إلى عبد الملك فاقطعه قرية قريبة من دمشق. ثم بعثه إلى كروم ابن مرثد الفزاري ليخلص منه مالا فارتاب وأخذ المال ولحق بعبد الملك عائذاً به من الحجاج. وقال قتلت ابن عمه ولست آمنه على نفسي، فأجاره عبد الملك، وكتب الحجاج إليه فيه. فقال: أمسك عنه وعظم شأنه عبد الملك وبنوه واستعمله عمر بن عبد العزيز على الروم من ناحية أرمينية وأثخن فيهم وأسر سبعمائة منهم وقتلهم. واستخدم أيام يزيد لمحبوبته حبابة فسعت له في ولاية العراق، فولاه يزيد مكان أخيه مسلمة. ولما ولي قدم عليه الجشر بن مزاحم السلمي، وعبد الله بن عمر الليثي في وفد فشكوا من سعيد وحذيفة عاملهم وهو صهر مسلمة فعزله وولى مكانه على خراسان سعيد بن عمر الحريشي من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، فسار خذينة عن خراسان وقدم سعيد فلم يعرض لعماله.

ولما قدم على خراسان كان الناس بإزاء العدو وقد نكثوا، فحثهم على الجهاد وخاف الصغد منه بما كانوا أعانوا الترك أيام حذيفة، فقال لهم ملكهم: احملوا له خراج ما مضى واضمنوا خراج ما يأتي والعمارة والغزو معه، وأعطوه الرهن بذلك. فأبوا إلا أن يستجيروا بملك فرغانة وخرجوا من بلادهم إلى خجندة وسألوا الجوار وأن ينزلوا شعب عصام. فقال: أمهلونا عشرين يوماً أو أربعين لنخليه لكم وليس لكم علي جوار قبل دخولكم إياه. ثم غزاهم الحريش سنة أربع ومائة فقطع النهر وترك قصر الريح على فرسخين من الدنوسية، وأتاه ابن عم ملك فرغانة يغريه بأهل الصغد وأنهم بخجندة، ولم يدخلوا جواره بعد، فبعث معه عبد الرحمن القسري في عسكر، وجاء في أثره حتى نزلوا على خجندة، وخرج أهل صغد لقتالهم فانهزموا، وقد كانوا حفروا خندقاً وغطوه بالتراب ليسقط فيه المسلمون عند القتال. فلما انهزموا ذلك اليوم أخطأهم الطريق وأسقطهم الله في ذلك الخندق.

ثم حاصرهم الحريشي، ونصب عليهم المجانيق وأرسلوا إلى ملك فرغانة ليجيرهم، فقال: قد شرت عليكم أن لا جوار قبل الأجل الذي بيني وبينكم. فسألوا الصلح من الحريشي على أن يردوا ما في أيديهم من سبي العرب، ويعطوا ما كسر من الخراج ولا يتخلف أحد منهم بخجندة، وإن أحدثوا حدثاً استبيحت دماؤهم. فقبل منهم وخرجوا من خجندة ونزلوا في العسكر على كل من يعرفه. وبلغ الحريشي أنهم قتلوا امرأة فقتل قاتلها، فخرج قبيل منهم فاعترض الناس وقتل جماعة. وقتل الصغد من أسرى

المسلمين مائة وخمسين، ولقي الناس منهم عنفاً ثم أحاطوا بهم وهم يقاتلون بالخشب ليس لهم سلاح فقاتلوا عن آخرهم ثلاثة آلاف أو سبعة آلاف.

وكتب الحريشي إلى يزيد بن عبد الملك ولم يكتب لعمر بن هبيرة فأحفظه ذلك ثم سرح الحريشي سليمان بن أبي السرى إلى حصن يطيف به وراء الصغد ومعه خوارزم شاه وملك أجرون وسومان. فسار سليمان وعلى مقدمته المسيب بن بشر الرياحي، ولقيه أهل الحصن فهزمهم ثم حاصرهم فسألوا الصلح على أن لا يعرض لسبيهم ويسلموا القلعة بما فيها فقبل. وبعث إلى الحريشي فقبضه وبعث من قبضه. وسار الحريشي إلى كش فصالحوه على عشرة آلاف رأس وولى نصر بن سيار على قبضها. واستعمل على كش ونسف حرباً وخراجاً سليمان بن السري واستنزل مكانه آخر اسمه قشقري من حصنه على الأمان وجاء به إلى مرو فشنقه وصلبه.

ولاية الجراح على أرمينية وفتح بلنجر

ولما سار ابن هبيرة على الجزيرة وأرمينية تشبب البهراني فحفل لهم الخزر وهم التركمان واستجاشوا بالقفجاق وغيرهم من أنواع الترك، ولقوا المسلمين بمرج الحجارة فهزموهم واحتوى التركمان على عسكرهم وغنموا ما فيه. وقدم المنهزمون على يزيد بن عبد الملك فولى على أرمينية الجراح بن عبد اللّه الحكمي وأمده بجيش كثيف وسار لغزو الخزر فعادوا لباب الأبواب. ونزل الجراح بردعة فأراح بها قليلا، ثم سار نحوهم وعبر نهر الكر وأشاع الإقامة ليرجع بذلك عيونهم إليهم. ثم أسرى من ليلته وأجد السير إلى مدينة الباب فدخلها وبث السرايا للنهب والغارة.

وزحف إليه التركمان وعليهم ابن ملكهم فلقيهم عند نهر الزمان واشتد القتال بينهم، ثم انهزم التركمان وكثر القتل فيهم، وغنم المسلمون ما معهم وساروا حتى نزلوا على الحصن، ونزل أهلها على الأمان فقتلهم. ثم سار إلى مدينة برغوا فحاصرها ستة أيام، ثم نزلوا على الأمان ونفلهم ثم ساروا إلى بلنجر وقاتلهم التركمان دونها فانهزموا وافتتح الحصن عنوة. وغنم المسلمون جميع ما فيه. فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً. ثم إن الجراح رجع حصن بلنجر إلى صاحبه ورد عليه أهله وماله، على أن يكون عيناً للمسلمين على الكفار. ثم نزل على حصن الوبيد وكان به أربعون ألف بيت من الترك فصالحوا الجراح على مال أعطوه إياه. ثم تجمع الترك والتركمان وأخذوا الطرق على المسلمين فأقام في رستاق سبى وكتب إلى يزيد بالفتح وطلب المدد وكان ذلك آخر عمر يزيد. وبعث بعد ذلك إليه بالمدد وأقره على العمل.

ولاية عبد الواحد القسري على المدينة ومكة

كان عبد الرحمن بن الضحاك عاملا على الحجاز منذ أيام عمر بن عبد العزيز وأقام عليها ثلاث سنين ثم حدثته نفسه خطبة فاطمة بنت الحسين فامتنعت فهددها بأن يجلد ابنها في الخمر وهو عبد اللّه بن الحسين المثنى. وكان على ديوان المدينة عامل من أهل الشام يسمى ابن هرمز. ولما رفع حسابه وأراد السير إلى يزيد جاء ليودع فاطمة، فقالت: أخبر أمير المؤمنين بما ألقى من ابن الضحاك وما يتعرض لي. ثم بعث رسولها بكتابها إلى يزيد يخبره. وقدم ابن هرمز على يزيد فبينا هو يحدثه عن المدينة قال الحاجب: بالباب رسول فاطمة بنت الحسين، فذكر ابن هرمز ما حملته. فنزل عن فراشه وقال: عندك مثل هذا وما تخبرني به؟ فاعتذر بالنسيان.

فادخل يزيد الرسول وقرأ الكتاب وجعل ينكث الأرض بخيزرانة ويقول: لقد اجترأ ابن الضحاك هل من رجل يسمعني صوته في العذاب؟ قيل له عبد الواحد بن عبد اللّه القسري. فكتب إليه بيده: قد وليتك المدينة فانهض إليها واعزل ابن الضحاك وغرمه أربعين ألف دينار، وعذبه حتى أسمع وأنا على فراشي. وجاء البريد بالكتاب إليه ولم يدخل على ابن الضحاك فأحضر البريد ودس إليه بألف دينار فأخبره الخبر فسار ابن الضحاك إلى مسلمة بن عبد الملك واستجار به وسأل مسلمة فيه يزيد. فقال: واللّه لا أعفيه أبداً. فرده مسلمة إلى عبد الواحد بالمدينة فعذبه ولقي شراً، ولبس جبة صوف يسأل الناس وكان قد آذى الأنصار فذموه وكان قدوم القسري في شوال سنة أربع ومائة وأحسن السيرة فأحبه الناس وكان يستشير القاسم بن محمد وسالم بن عبد اللّه.

عزل الحريشي وولاية مسلم الكلبي على خراسان

كان سعيد الحريشي عاملا على خراسان لابن هبيرة كما ذكرنا وكان يستخف به ويكاتب الخليفة دونه ويكنيه أبا المثنى. وبعث من عيونه من يأتيه بخبره فبلغه أعظم مما سمع فعزله وعذبه

حتى أدى الأموال وعزم على قتله ثم كف عنه. وولى ابن هبيرة على خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي، ولما جاء إلى خراسان حبسه وقيده وعذبه كما قلنا. فلما هرب ابن هبيرة بعد ذلك عن العراق أرسل خالد القسري في طلبه الحريشي فأدركه على الفرات. وقال لابن هبيرة ما ظنك بي؟ قال: إنك لا تدفع رجلاً من قومك إلى رجل من قسر. قال: هو ذاك ثم انصرف وتركه.

وفاة يزيد وبيعة هشام

ثم توفي يزيد بن عبد الملك في شعبان سنة خمس ومائة لأربع سنين من خلافته وولى بعده أخوه هشام بعهده إليه بذلك كما مر، وكان بحمص فجاءه الخبر بذلك فعزل عمر بن هبيرة عن العراق وولى مكانه خالد بن عبد اللّه القسري فسار إلى العراق من يومه.

غزو مسلم الترك

غزا مسلم بن سعيد الترك سنة خمسة ومائة فعبر النهر وعاث في بلادهم ولم يفتح شيئاً وقفل فاتبعه الترك ولحقوه على النهر فعبر الناس ولم ينالوا منه. ثم غزا بقية السنة وحاصر أفشين حتى صالحوه على ستة آلاف رأس، ثم دفعوا إليه القلعة. ثم غزا سنة ست ومائة، وتباطأ عنه الناس، وكان ممن تباطأ البختري بن درهم، فرد مسلم نصر بن سيار إلى بلخ وأمره أن يخرج الناس إليه. وعلى بلخ عمر بن قتيبة أخو مسلم، فجاء نصر وأحرق باب البختري وزياد بن طريف الباهلي. ثم منعهم عمر من دخول بلخ وقد قطع سعيد النهر، ونزل نصر بن سيار البروقان وأتى جند الصلاضيان، وتجمعت ربيعة والأزد بالبروقان على نصف فرسخ من نصر وخرجت مضر إلى نصر، وخرج عمر بن مسلم إلى ربيعة والأزد وتوافقوا وسفر الناس بينهما في الصلح وانصرف نصر.

ثم حمل البختري وعمر بن مسلم على نصر فكر عليهم فقتل منهم ثمانية عشر وهزمهم وأتى بعمر بن مسلم والبختري وزياد بن طريف فضربهم مائة مائة وحلق رؤوسهم ولحاهم وألبسهم المسوح. وقيل إن سبب تعزيز عمر بن مسلم إنهزام تميم عنه وقيل انهزام ربيعة والأزد ثم أمنهم نصر بعد ذلك وأمرهم أن يلحقوا بمسلم بن سعيد. ولما قطع مسلم النهر ولحقه من لحق من أصحابه سار إلى بخارى فلحقه بها كتاب خالد بن عبد اللّه القسري بولايته ويأمره بإتمام غزاته، فسار إلى فرغانة وبلغه أن خاقان قد أقبل إليه فارتحل. ولحقه خاقان بعد ثلاثة مراحل لقي فيها طائفة من المسلمين فأصابهم. ثم أطاف بالعسكر وقاتل المسلمين، وقتل المسيب بن بشر الرياحي والبراء من فرسان المهلب وأخو غورك.

وثار الناس في وجوههم فأخرجوهم من العسكر. ورحل مسلم بالناس ثمانية أيام والترك مطيفون بهم بعد أن أمر بإحراق ما ثقل من الأمتعة، فأحرقوا ما قيمته ألف ألف. وأصبحوا في التاسع قريب النهر دونه أهل فرغانة والشاش. فأمر مسلم الناس أن يخرطوا سيوفهم ويحملوا. فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر، ونزل مسلم بعسكره ثم عبر من الغد، وأتبعهم ابن خاقان. فكان حميد بن عبد اللّه على الساقة من وراء النهر وهو مثخن بالجراحة. فبعث إلى مسلم بالانتظار وعطف على الترك فقاتلهم وأسر قائدهم وقائد الصغد ثم أصابه سهم فمات. وأتوا خجندة وقد أصابتهم مجاعة وجهد ولقيهم هنالك كتاب أسد بن عبد اللّه القسري أخي خالد بولايته على خراسان واستخلافه عبد الرحمن بن نعيم. فقرأ مسلم الكتاب وقال سمعاً وطاعة.

ولاية أسد القسري على خراسان

ولما غزا خالد بن عبد اللّه خراسان استخلف عليها أخاه أسد بن عبد اللّه فقدم ومسلم بن سعيد بفرغانة فلما رجع وأتى النهر ليقطعه منعه الأشهب بن عبد اللّه التميمي وكان على السفن بآمد حتى عرفه أنه الأمير فأذن له. ثم عبر أسد النهر ونزل بالمرج وعلى سمرقند هانئ بن هانئ، فخرج بالناس وتلقى أسداً وأدخله سمرقند. وبعث أسد إلى عبد الرحمن بن نعيم بالولاية على العسكر فقفل بالناس إلى سمرقند. ثم عزل أسداً عنها وولى مكانه الحسن بن أبي العمرطة الكندي. ثم قدم مسلم بن سعيد بن عبد اللّه بخراسان فكان يكرمه. ومر بابن هبيرة وهو يروم الهرب وأسلم على يديه. ثم غزا الغور وهي جبال هراة. فوضع أهلها أثقالهم في الكهوف ولم يكن إليهم طريق. فاتخذ التوابيت ووضع فيها الرجال ودلاها بالسلاسل فاستخرجوا ما قدروا عليه. ثم قطع كماق النهر وجاءه خاقان ولم يكن بينهما قتال. وقيل عاد مهزوماً من الجسر. ثم سار إلى عوبرين وقاتلها وأبلى نصر بن سيار ومسلم بن أحوز وانهزم المشركون وحوى المسلمون عسكرهم بما فيه.

ولاية أشرس على العراق

كان أسد بن عبد الله في ولايته على خراسان يتعصب حتى أفسد الناس. وضرب نصر بن سيار بالسياط وعبد الرحمن بن نعيم وسورة بن أبجر والبختري بن أبي درهم، وعامر بن مالك الحماني وحلقهم وسيرهم إلى أخيه، وكتب إليه أنهم أرادوا الوثوب بي. فلامه خالد وعنفه وقال: هلا بعثت برؤوسهم؟ وخطب أسد يوماً فلعن أهل خراسان. فكتب هشام بن عبد الملك إلى خالد اعزل أخاك فعزله في رمضان سنة تسع وولى مكانه الحكم بن عوانة الكلبي فقعد عن الصائفة تلك السنة. فاستعمل هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلمي وأمره أن يراجع خالداً فكان خيراً ففرح به أهل خراسان.

عزل أشرس

أرسل أشرس إلى سمرقند سنة عشر ومائة أبا الصيدا صالح بن ظريف مولى بني ضبة والربيع بن عمران التميمي إلى سمرقند وغيرها مما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، على أن توضع عنهم الجزية، وعليها الحسن بن العمرطة الكندي على حربها وخراجها، فدعاهم إلى ذلك وأسلموا. وكتب غورك إلى الأشرس أن الجراح قد انكسر، فكتب أشرس إلى ابن العمرطة بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة، وإنما أسلموا نفوراً من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض، وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه.

ثم عزل ابن العمرطة عن الخراج وولى عليها ابن هانئ ومنعهم أبو الصيد أخذ الجزية ممن أسلم، وكتب هانئ إلى أشرس بأنهم أسلموا وبنوا المساجد. فكتب إليه وإلى العمال أن يعيدوا الجزية على من كانت عليه ولو أسلم، فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على فراسخ من سمرقند. وخرج معهم أبو الصيد وربيع بن عمران والهيثم الشيباني وأبو فاطمة الأزدي وعامر بن قشير وبشير الجحدري وبيان العنبري وإسماعيل بن عقبة لينصروهم. وبلغ الخبر إلى أشرس فعزل ابن العمرطة عن الحرب وولى مكانه المجشر بن مزاحم السلمي وعميرة بن سعد الشيباني، فكتب المجشر إلى أبي الصيدا يستقدمه هو وأصحابه فقدم ومعه ثابت قطنة فحبسهما وسيرهما إلى أشرس، واجتماع الباقون وولوا عليهم أبا فاطمة ليقاتلوا هانئاً فكتب أشرس ووضع عنهم الخراج فرجعوا وضعف أمرهم وتتبعوا فحبسوا كلهم.

وألح هانئ في الخراج واستخف بفعل العجم والدهاقين. وأقيموا في العقوبات وحرقت ثيابهم، وألقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذت الجزية ممن أسلم. فكفرت الصغد وبخارى، واستجاشوا بالترك وخرج أشرس غازياً فنزل آمد وأقام أشهراً. وقدم قطن بن قتيبة بن مسلم في عشرة آلاف فعبر النهر ولقي الترك وأهل الصغد وبخارى ومعهم خاقان، فحصروا قطناً في خندقه. وأغار الترك على سرح المسلمين، وأطلق أشرس ثابت قطنة بكفالة عبد الله بن بسطام بن مسعود بن عمر وبعثه معه في خيل، فاستقدمه من أيدي الترك ما أخذوه. ثم عبر أشرس بالناس ولحق بقطن ولقيهم العدو فانهزموا أمامهم. وسار أشرس بالناس حتى جاء بيكند فحاصرها المسلمون، وقطع أهل البلد عنهم الماء، وأصابهم العطش فرحلوا إلى المدينة. واعترضهم دونها العدو فقاتلوهم قتالا شديداً وأبلى الحارث بن شريح وقطن بن قتيبة بلاء شديداً وأزالوا الترك عن الماء. فقتل يومئذ ثابت قطنة وصخر بن مسلم بن النعمان العبدي، وعبد الملك بن دثار الباهلي وغيرهم.

وحمل قطن بن قتيبة في جماعة تعاقدوا على الموت، فانهزم العدو واتبعهم المسلمون يقتلونهم إلى الليل. ثم رجع أشرس إلى بخارى وجهز عليهم عسكراً يحاصرونها وعليهم الحارث بن شريح الأزدي. ثم حاصر خاقان مدينة كمرجة من خراسان وبها جمع من المسلمين. وقطعوا القنطرة وأتاهم ابن جسر وابن يزدجرد وقال: إن خاقان جاء يرد علي منكبي وأنا آخذ لكم الأمان فشتموه وأتاهم يزغري في مائتين وكان داهية، وكان خاقان لا يخالفه. فطلب رجلاً يكلمه فجاء يزيد بن سعد الباهلي فرغبه بإضعاف العطاء والإحسان على النزول ويسيرون معهم، فلاطفه ورجع إلى أصحابه وقال هؤلاء يدعونكم لقتال المسلمين، فأبوا وأمر خاقان فألقى الحطب الرطب في الخندق ليقطعه، وألقى المسلمون البهائم ليأكلوها ويحشوا جلودها ترابا ويملؤا بها الخندق. وأرسل الله سبحانه فاحتمل السيل ما في الخندق إلى النهر الأعظم ورمى المسلمون بالسهام فأصيب يزغري بسهم ومات من ليلته فقتلوا جميع ما عندهم من الأسرى والرهن. ولم يزالوا كذلك حتى نزلت جيوش المسلمين فرغانة فجرءوا عليهم واشتد قتالهم وصالحهم المسلمون على أن يسلموا لهم كمرجة ويرحلوا عليها إلى سمرقند والدنوسية وتراهنوا على ذلك. وتأخر خاقان حتى يخرجوا وخلف معهم كورصول ليبلغهم إلى مأمنهم فارتحلوا حتى بلغوا الدنوسية. وأطلقوا الرهن وكانت مدة الحصار ستين يوماً.

عزل أشرس عن خراسان وولاية الجنيد

وفي سنة إحدى عشرة ومائة عزل هشام أشرس بن عبد اللّه عن خراسان وولى مكانه الجنيد بن عبد الرحمن بن عمر بن الحارث بن خارجة بن سنان بن أبي حارثة المري أهدى إلى أم حكيم بنت يحيى بن الحكم امرأة هشام قلادة فيها جواهر فأعجبت هشاماً فاهدى له أخرى مثلها فولاه خراسان وحمله على البريد. فقدم خراسان في خمسمائة ووجد الخطاب بن محرز السلمي خليفة أشرس على خراسان. فسار الجنيد إلى ما وراء النهر ومعه الخطاب واستخلف على مرو المجشر بن مزاحم السلمي وعلى بلخ سورة بن أبجر التميمي. وبعث إلى أشرس وهو يقاتل أهل بخارى والصغد أن يبعث إليه بسرية مخافة أن يعترضه العدو.

فبعث إليه أشرس عامر بن مالك الجابي فعرض له الترك والصغد فقاتلوهم ثم استداروا وراء معسكر الترك وحمل المسلمون عليهم من أمامهم فانهزم الترك ولحق عامر بالجنيد فأقبل معه وعلى مقدمته عمارة بن حزيم واعترضه الترك فهزمهم. وزحف إليه خاقان بنواحي سمرقند وقطن بن قتيبة على ساقته، فهزم خاقان وأسر ابن أخيه وبعث به إلى هشام، ورجع إلى مرو ظافراً. واستعمل قطن بن قتيبة على بخارى والوليد بن القعقاع العبسي على هراة وحبيب بن مرة العبسي على شرطته ومسلم بن عبد الرحمن الباهلي على بلخ وعليها نصر بن سيار. فبعث مسلم إلى نصر وجيء به في قميص دون سراويل، فقال شيخ مضر جئتم به على هذه الحالة؟ فعزل الجنيد مسلماً عن بلخ وأوفد وفداً إلى هشام يخبر غزاته.

مقتل الجراح الحكمي

قد كان تقدم لنا دخوله إلى بلاد الخزر سنة أربع ومائة وانهزامهم أمامه وأنه أثخن فيهم وملك بلنجر وردها على صاحبها وأدركه الشتاء فأقام هنالك. وأن هشاماً أقره على عمله ثم ولاه أرمينية فدخل بلاد التركمان من ناحية تفليس سنة إحدى عشرة ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف ظافراً. فاجتمع الخزر والترك من ناحية اللاف، وزحف إليهم الجراح سنة اثنتي عشرة ولقيهم بمرج أردبيل، فاقتتلوا أشد قتال. وتكاثر العدو عليه فاستشهد ومن معه وقد كان استخلف أخاه الحجاج على أرمينية. ولما قتل طمع الخزر وهم التركمان وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا الموصل، وقيل كان قتله ببلنجر. ولما بلغ الخبر هشاماً دعا سعيداً الحريشي فقال: بلغني أن الجراح انهزم. قال: الجراح أعرف باللّه من أن ينهزم لكن قتل فابعثني على أربعين من دواب البريد وابعث إلي كل يوم أربعين رجلاً مدداً واكتب إلى الأمراء الأجناد يواسوني. ففعل وسار الحريشي فلا يمر بمدينة إلا ويستنهض أهلها فيجيبه من أراد الجهاد.

ووصل مدينة أزور فلقيه جماعة من أصحاب الجراح فردهم معه. ووصل إلى خلاط فحاصرها وفتحها وقسم غنائمها. ثم سار عنها يفتح القلاع والحصون إلى بروعة فنزلها وابن خاقان يومئذ بأذربيجان يحاصر مدينة ورثان منها ويبعث في نواحيها، وبعث الحريشي إلى أهل ورثان يخبرهم بوصوله فأخرج العدو عنهم ووصل إليهم الحريشي. ثم اتبع العدو إلى أردبيل وجاءه بعض عيونه بأن عشرة آلاف من عسكرهم على أربعة فراسخ منه ومعهم خمسة آلاف بيت من المسلمين أسارى وسبايا، فبيتهم وقتلهم أجمعين ولم ينج منهم أحد. واستنقذ المسلمين منهم.

وسار إلى باجروان فجاءه عين آخر ودله على جمع منهم فسار إليهم واستحلمهم أجمعين واستنفذ من معهم من المسلمين، وكان فيهم أهل الجراح وولده فحملهم إلى باجروان. ثم زحف إليهم جموع الخزر مع ابن ملكهم والتقوا بأرض زرند، واشتد القتال والسبي من معسكر الكفار فبكى المسلمون رحمة لهم وصدقوا الحملة، فانهزم الكفار وأتبعهم المسلمون إلى نهر أرس وغنموا ما كان معهم من الأموال واستنقذوا الأسرى والسبايا وحملوهم إلى باجروان. ثم تناصر الخزر في ملكهم ورجعوا فنزلوا نهر البيلقان واقتتلوا قتالا شديداً. ثم انهزموا فكان من غرق أكثر ممن قتل وجمع الحريشي الغنائم وعاد إلى باجروان فقسمها وكتب إلى هشام بالفتح. واستقدمه وولى أخاه مسلمة على أرمينية وأذربيجان.

وقعة الشعب بين الجنيد وخاقان

وخرج الجنيد سنة إثنتي عشرة ومائة من خراسان غازياً إلى طخارستان وبعث إليها عمارة بن خزيم في ثمانية عشر ألفاً، وبعث إبراهيم بن سام الليثي في عشرة آلاف إلى وجه آخر وحاشتك التركي. وزحف بهم خاقان إلى سمرقند وعليها سورة بن أبجر فكتب إلى الجند مستغيثاً فأمر الجنيد بعبور النهر. فقال له المجشر بن مزاحم السلمي وابن بسطام الأزدي: إن الترك ليسوا كغيرهم وقد مزقت جندك. فسلم ابن عبد الرحمن بالنبراود والبختري بهراة وعمارة بن حزيم بطخارستان. ولا تعبر النهر في

أقل من خمسين ألفاً. فاستقدم عمارة وأمهل فقال: أخي على سورة وعبر الجنيد فنزل كش وتأهب للسير. وغور الترك الآبار في طريق كش وسار الجنيد على التعبية واعتراضه خاقان ومعه أهل الصغد وفرغانة والشاش، وحملوا على مقدمته، وعليها عثمان بن عبد اللّه بن الشخير فرجعوا والترك في أتباعهم.

ثم حملوا على المدينة وأمدهم الجنيد بنصر بن سيار وشدوا على العدو وقتل أعياناً منهم. وأقبل الجنيد على الميمنة وأقبل تحت راية الأزد فقال له صاحب الراية: ما قصدت كرامتنا لكن علمت أنا لا نصل إليك ومنا عين تطرف! فصبروا وقاتلوا حتى كلت سيوفهم. وقطع عبيدهم الخشب فقاتلوا بها حتى أدركهم الملل وتعانقوا ثم تحاجزوا وهلك من الأزد في ذلك المعترك نحو من ثمانين فيهم عبد اللّه بن بسطام ومحمد بن عبد اللّه بن جودان والحسين بن شيخ ويزيد بن المفضل الحراني. وبينا الناس كذلك إذ طلعت أوائل عسكر خاقان فنادى منادي الجنيد بالنزول فترجلوا، وخندق كل كائن على رجاله. وقصد خاقان جهة بكر بن وائل وعليهم زياد بن الحارث فحملت بكر عليهم فافرجوا واشتد القتال.

وأشار أصحاب الجنيد عليه بأن يبعث إلى سورة بن أبجر من سمرقند ليتقدم الترك إليه ليكون لهم شغل به عن الجنيد وأصحابه. فكتب يستقدمه فاعتذر فأعاد عليه وتهدده وقال: اخرج وسر مع النهر لا تفارقه فلما خرج هو استبعد طريق النهر واستخلف على سمرقند موسى بن أسود الحنظلي. وسار محمد في إثني عشر ألفاً حتى إذا بقي بينه وبين الجنيد وعساكره فرسخ لقيه خاقان عند الصباح وحال بينهم وبين الماء وأضرم النار في اليبس حواليهم فاستماتوا وحملوا وانكشف الترك وأظلم الجو بالعجاج. وكان من وراء الترك لهب سقط فيه جميع العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه. ثم عطف الترك فقتلوا المسلمين ولم يبق منهم إلا القليل والحاش بالناس المهلب بن زياد والعجمي في ستمائة أو ألف، ومعه قريش بن عبد اللّه العبدي إلى رستاق المرغاب، وقاتلوا بعض قصوره فأصيب المهلب وولوا عليهم الرحب بن خالد.

وجاءهم الأسكيد صاحب نسف وغورك ملك الصغد فنزلوا معه إلى خاقان فلم يجز أمان غورك وقتلهم ولم ينج منهم أحد. ثم خرج الجنيد من الشعب قاصداً سمرقند وأشار عليه مجشر بن مزاحم بالنزول فنزل ووافقته جموع الترك. فجال الناس جولة وصبر المسلمون وقاتل العبيد وانهزم العدو. ومضى الجنيد إلى سمرقند فحمل العيالات إلى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر.

وكان صاحب الرأي بخراسان في الحرب المجشر بن مزاحم السلمي وعبد الرحمن بن أصبح المخزومي وعبيد اللّه بن حبيب الهجري. ولما انصرفت الترك بعث الجنيد نهار بن توسعة بن تيم اللّه وزميل بن سويد بن شيم بالخبر. وتحامل فيه على سورة بن أبجر بما عصاه من مفارقة النهر حتى نال العدو منه. فكتب إليه هشام قد بعث إليك من المدد عشرة آلاف من البصرة ومثلها من الكوفة وثلاثون ألف رمح ومثلها سيفاً. وأقام الجنيد بسمرقند وسار خاقان إلى بخارى وعليها قطن بن قتيبة بن مسلم فخاف عليه من الترك. واستشار عبد اللّه بن أبي عبد اللّه مولى بن سليم بعد أن اختلف عليه أصحابه فاشترط عليه أن لا يخالفه. فأشار بحمل العيالات من سمرقند فقدمهم واستخلف بسمرقند عثمان بن عبد اللّه بن الشخير في أربعمائة فارس وأربعمائة راجل ووفر أعطياتهم. وسار العيادات في مقدمته حتى من الضيق ودنا من الطواويس. فأقبل إليه خاقان بكير ميمنة أول رمضان سنة إثنتى عشرة، واقتتلوا قليلا. ثم رجع الترك وارتحل من الغد، فاعترضه الترك ثانياً وقتل مسلم بن أحوز بعض عظمائهم فرجعوا من الطواويس. ثم دخل الجنيد بالمسلمين بخارى وقدمت الجنود من البصرة والكوفة فسرح الجنيد معهم حورثة بن زيد العنبري فيمن انتدب معه.

ولاية عاصم على خراسان وعزل الجنيد

بلغ هشاماً سنة ست عشرة أن الجنيد بن عبد الرحمن عامل خراسان تزوج بنت يزيد بن المهلب فغضب لذلك وعزله وولى مكانه عاصم بن عبد اللّه بن يزيد الهلالي وكان الجنيد قد مرض بالاستسقاء. فقال هشام لعاصم: إن أدركته وبه رمق فأزهق نفسه فلما قدم عاصم وجده قد مات وكانت بينهما عداوة فحبس عمارة بن حزيم وكان الجنيد استخلفه وهو ابن عذبة فعذبه عاصم وعذب عمال الجنيد.

ولاية مروان بن محمد على أرمينية وأذربيجان

لما عاد مسلمة من غزو الخزر وهم التركمان إلى بلاد المسلمين وكان في عسكره مروان بن محمد بن مروان، فخرج مختفياً عنه إلى هشام وشكا له من مسلمة وتخاذله عن الغزو وما أدخل بذلك على المسلمين من الوهم. وبعث إلى العدو بالحرب وأقام شهراً حتى استعدوا وحشدوا ودخل بلادهم فلم يكن له فيهم

نكاية وقصد أراد السلامة ورغب إليه بالغزو إليهم لينتقم منهم، وأن يمده بمائة وعشرين ألف مقاتل ويكتم عليه. فأجابه لذلك وولاه على أرمينية. فسار إليها وجاءه المدد من الشام والعراق والجزيرة. فأظهر أنه يريد غزو اللان وبعث إلى ملك الخزر في المهادنة فأجاب. وأرسل رسله لتقرير الصلح فأمسكهم مروان إلى أن تجهز وودعهم وسار إلى أقرب الطرق. فوافاهم ورأى ملك الخزر أن اللقاء على تلك الحال غرر فتأخر إلى أقصى بلاده.

ودخل مروان فأوغل فيها وخرب وغنم وسبى إلى آخرها. ودخل بلاد ملك السرير وفتح قلاعها وصالحوه على ألف رأس نصفها غلمان ونصفها جواري ومائة ألف مد تحمل إلى الباب. وصالحه أهل تومان على مائة رأس نصفين وعشرين ألف مد. ثم دخل أرض وردكران فصالحوه. ثم أتى حمرين وافتتح حصنهم، ثم أتى سبدان فافتتحها صلحاً، ثم نزل صاحب اللكز في قلعته وقد امتنع من أداء الوظيفة، فخرج يزيد ملك الخزر فأصيب بسهم ومات وصالح أهل اللكز مروان، وأدخل عامله وسار مروان إلى قلعة سروان فأطاعوا، وسار إلى الرودانية فأوقع بهم ورجع.

خلع الحارث بن شريح بخراسان

كان الحارث هذا عظيم الأزد بخراسان فخلع سنة ست عشرة ولبس السواد، ودعا إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا على ما كان عليه دعاة بني العباس هناك. وأقبل إلى الغاريات وجاءته رسل عاصم مقاتل بن حيان النبطي والخطاب بن محرز السلمي فحبسهما وفروا من السجن إلى عاصم بدم الحارث وغدره. وسار الحارث من الغاريات إلى بلخ وعليها نصر بن سيار والتجيبي، فلقياه في عشرة آلاف وهو في أربعة فهزمهم، وملك بلخ واستعمل عليها سليمان بن عبد الله بن حازم. وسار إلى الجوزجان عليها ثم سار إلى مرو ونمي إلى عاصم أن أهل مرو يكاتبونه فاستوثق منهم بالقسامة وخرج وعسكر قريباً من مرو، وقطع الجسور. وأقبل الحارث في ستين ألفاً ومعه فرسان الأزد وتميم ودهاقين الجوزجان والغاريات، وملك الطالقان وأصلحوا القناطر ثم نزع محمد بن المثنى في ألفين من الأزد وحماد بن عامر الجابي في مثلها من بني تميم إلى عاصم، ولحقوا به ثم اقتتلوا. فانهزم الحارث وغرق كثير من أصحابه في نهر مرو وقتلوا قتلا ذريعاً. وكان ممن غرق حازم. ولما قطع الحارث نهر مرو ضرب رواقه واجتمع إليه بها ثلاثة آلاف فارس وكف عاصم عنهم.

ولاية أسد القسري الثانية بخراسان

كتب عاصم إلى هشام سنة سبع عشرة أن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق ليكون مددها قريب الغوث، فضم هشام خراسان إلى خالد بن عبد الله القسري وكتب إليه: إبعث أخاك يصلح ما أفسد فبعث خالد أخاه أسداً فسار على مقدمته محمد بن مالك الهمداني. ولما بلغ عاصم الخبر راود الحارث بن شريح على الصلح وأن يكتبا جميعاً إلى هشام يسألانه الكتاب والسنة، فإن أبى اجتمعا وأبى بعض أهل خراسان ذلك فانتفض بينهما واقتتلا، فانهزم الحارث وأسر من أصحابه كثير قتلهم عاصم. وبعث بالفتح إلى هشام مع محمد بن مسلم العنبري فلقيه أسد بالري. وجاء إلى خراسان فبعث عاصماً وطلبه بمائة ألف درهم، وأطلق عمارة بن حزيم وعمال الجنيد. ولم يكن لعاصم بخراسان إلا مرو ونيسابور. وكانت مرو الروذ للحارث، وواصل لخالد بن عبيد الله الهجري على مثل رأي الحارث. فبعث أسد عبد الرحمن بن نعيم في أهل الكوفة والشام إلى الحارث، وسار هو بالناس إلى آمد. فخرج إليه زياد القرشي مولى حيان النبطي في العسكر، فهزمهم أسد وحاصرهم حتى سألوا الأمان، واستعمل عليهم يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني، وسار إلى بلخ، وقد بايعوا سليمان بن عبد الله بن حازم. فسار حتى قدمها. ثم سار منها إلى ترمذ والحارث محاصر لها، وأعجزه وصول المدد إليها فخرج إلى بلخ، وخرج أهل ترمذ فهزموا الحارث وقتلوا أكثر أصحابه.

ثم سار أسد إلى سمرقند ومر بحصن زم وبه أصحاب الحارث فبعث إليهم وقال: إنما نكرتم منا سوء السيرة ولم يبلغ ذلك النساء واستحلال الفروج ولا مظاهر المشركين على مثل سمرقند وأعطاه الأمان على تسليم سمرقند. وهدده إن قاتل بأنه لا يؤمنه أبداً. فخرج إلى الأمان وسار معه إلى سمرقند فنزلهم على الأمان. ثم رجع أسد إلى بلخ وسرح جديعاً الكرماني إلى القلعة التي فيها ثقل الحارث وأصحابه في طخارستان. فحاصرها وفتحها وقتل مقاتلهم ومنهم بنو بزري من ثعلب أصحاب الحارث. وباع سبيهم في سوق بلخ وانتقض على الحارث أربعمائة وخمسون من أصحابه بالقلعة، ورئيسهم جرير بن ميمون القاضي، فقال لهم الحارث: إن كنتم مفارقي ولا بد فاطلبوا الأمان، وإن طلبتموه بعد رحيلي لا يعطونه لكم، فأبوا إلا أن ارتحل، فبعثوا بالأمان فلم يجبهم إليه. وسرح جديعة الكرماني في ستة آلاف فحصرهم حتى نزلوا على حكمه. وحمل خمسين منهم إلى أسد فيهم ابن ميمون القاضي. فقتلهم وكتب إلى الكرماني بإهلاك الباقين واتخذ أسد

مدينة بلخ داراً ونقل إليها الدواوين. ثم عزا طخارستان وأرض حبونة فغنم وسبى.

مقتل خاقان

ولما كانت سنة تسع عشرة غزا أسد بن عبد الله بلاد الختل فافتتح منها قلاعاً وامتلأت أيدي العسكر من السبي والشاء. وكتب ابن السائحي صاحب البلاد يستجيش خاقان على العرب ويضعفهم له فتجهز وخفف من الأزودة استعجالا للعرب. فلما أحس به ابن السائحي بعث بالنذير إلى أسد فلم يصدقه، فأعاد عليه أني الذي استمددت خاقان لأنك معرت البلاد، ولا أريد أن يظفر بك خشية من معاداة العرب واستطالة خاقان علي، فصدقه حينئذ أسد وبعث الأثقال مع إبراهيم بن عاصم العقيلي، الذي كان ولي سجستان وبعث معه المشيخة كثير بن أمية، وأبا سفيان بن كثير الخزاعي وفضيل بن حيان المهري وغيرهم وأمدهما بجند آخر. وجاء في أثرهم فانتهى إلى نهر بلخ وقد قطعه إبراهيم بن عاصم بالسبي والأثقال، فخاض النهر من ثلاثة وعشرين موضعاً، وحمل الناس شياههم حتى حمل هو شاة فما استكمل العبور حتى طلعت عليهم الترك وعلى المسلحة الأزد وتميم. فحمل خاقان عليهم فانكشفوا فرجع أسد إلى عسكره وخندق.

وظنوا أن خاقان لا يقطع النهر فقطع النهر إليهم وقاتله المسلمون في معسكرهم وباتوا والترك محيطون بهم. فلما أصبحوا لم يروا منهم أحداً فعلموا أنهم اتبعوا الأثقال والسبي، واستعملوا علمها من الطلائع، فشاروا أسد الناس فأشاروا بالمقام وأشار نصر بن سيار باتباعهم يخلص الأثقال ويقطع شقة لا بد من قطعها، فوافقه أسد وطير النذير إلى إبراهيم بن عاصم. وصبح خاقان للأثقال وقد خندقوا عليهم. فأمر أهل الصغد بقتلهم فهزمتهم مسلحة المسلمين فصعد على تل حتى رأى المسلمين من خلفهم.

وأمر الترك أن يأتوهم من هنالك ففعلوا وخالطوهم في معسكرهم وقتلوا صاغان خذاه وأصحابه وأحسوا بالهلاك. وإذا بالغبار قد رهج والترك يتنحون قليلا قليلا. وجاء أسد ووقف على التل الذي كان عليه خاقان. وخرج إليه بقية الناس وجاءته امرأة صاغان خذاه معولة فأعول معها، ومضى خاقان يقود أسرى المسلمين في الآفاق ويسوق الإبل الموقورة والجواري. وأراد أهل العسكر قتالهم فمنعهم أسد. ونادى رجل من عسكر خاقان وهو من أصحاب الحارث بن شريح يعير أسداً ويحرضه ويقول: قد كان لك عن الختل مندوحة وهي أرض آبائي وأجدادي، قد كان ما رأيت، ولعل الله ينتقم منك.

ومضى أسد إلى بلخ فعسكر في مرجها حتى جاء الشتاء، فدخل البلد وشتى فيها. وكان الحارث بن شريح بناحية طخارستان فانضم إلى خاقان وأغراه بغزو خراسان وزحفوا إلى بلخ. وخرج أسد يوم الأضحى فخطب الناس وعرفهم بأن الحارث بن شريح استجلب الطاغية ليطفئ نور الله ويبدل دينهم، وحرضهم على الإستنصار بالله. وقال أقرب ما يكون العبد لله ساجداً. ثم سجد وسجد الناس وأخلصوا الدعاء وخرج للقائهم وقد استمد خاقان من وراء النهر، وأهل طخارستان وحبونة في ثلاثين ألفاً وجاء الخبر إلى أسد وأشار بعض الناس بالتحصن منهم بمدينة بلخ واستمد خالد وهشام وأبى الأسد إلا اللقاء، فخرج واستخلف على بلخ الكرماني ابن علي. وعهد إليه أنه لا يدع أحداً يخرج من المدينة. واعتزم نصر بن سيار والقاسم بن نجيب وغيرهم على الخروج فأذن لهم وصلى بالناس ركعتين وطول. ثم دعا وأمر الناس بالدعاء ونزل من وراء القنطرة ينتظر من تخلف. ثم بدا له وارتحل فلقي طليعة خاقان وأسر قائدهم. وسار حتى نزل على فرسخين من الجوزجان ثم أصبحوا وقد تراءى الجمعان وأنزل أسد الناس ثم تهيأ للحرب ومعه الجوزجان اهـ.

وحملت الترك على الميسرة فانهزموا إلى رواق أسد، فشدت عليهم الأسد وبنو تميم والجوزجان من الميمنة فانكشفوا إلى خاقان وقد انهزم والحارث معه. وأتبعهم الناس ثلاثة فراسخ يقتلونهم واستاقوا مائة وخمسين ألفاً من الشاء ودواب كثيرة. وسلك خاقان غير الجادة والحارث بن شريح ولقيهم أسد عند الطريق. وسلك الجوزجان بعثمان بن عبد الله بن الشخير طريقاً، يعرفها حتى نزلوا على خاقان وهو آمن، فتركوا الأبنية والقدور تغلي وبناء العرب والموالي والعسكر مشحون من آنية الفضة، وركب خاقان والحارث يمانع عنه. وأعجلوا امرأة خاقان عن الركوب فقتلها الخصي الموكل بها. وبعث أسد بجوار الترك دهاقين خراسان يفادون بها أسراهم، وأقام خمسة أيام وانصرف إلى بلخ لتاسعة من خروجه. ونزل الجوزجان وخاقان هارب أمامه.

وانتهى خاقان إلى جونة الطخاري، فنزل عليه، وانصرف أسد إلى بلخ، وأقام خاقان عند جونة حتى أصلح آلته، وسار وسبية بها. فأخذه جد كاوش أبو فشين فأهدى إليه وأتحفه وحمل أصحابه يتخذ بذلك عنده يداً. ثم وصل خاقان بلاده وأخذ في الاستعداد للحرب ومحاصرة سمرقند وحمل الحارث وابن شريح وأصحابه على خمسة آلاف برذون. ولاعب خاقان بالنرد كورصول يوماً فغمزه كورصول فأنف وتشاجر، فصك كورصول

يد خاقان، فحلف خاقان ليكسرن يده فتنحى وجمع.

ثم بيت خاقان فقتله وافترق الترك وحملوه وتركوه بالعراء فحمله بعض عظمائهم ودفنه. وكان أسد بعث بالفتح من بلخ إلى خالد بن عبد اللّٰه فأخبره وبعث به إلى هشام فلم يصدقه، ثم بعده القاسم بن نجيب بقتل خاقان، فبعث قيس أسداً وخالداً، وقالوا لهشام: استقدم مقاتل بن حيان. فكتب بذلك إلى خالد، فأرسل إلى أسد أن يبعث به فقدم على هشام والأبرش وزيره جالس عنده، فقص عليه الخبر فسر بذلك وقال لمقاتل: ما حاجتك؟ قال يزيد بن المهلب أخذ من حيان أبي مائة ألف درهم بغير حق، فأمر بردها علي. فاستخلفه وكتب له بردها، وقسمها مقاتل بين ورثة حيان.

ثم غزا أسد الختل بعد مقتل خاقان، وقدم مصعب بن عمر الخزاعي إليها فسار إلى حصن بدر طرخان فاستأمن له أن يلقى أسداً فأمنه وبعث إلى أسد فسأل أن يقبل منه ألف درهم، وراوده على ذلك فأبى أسد ورده إلى مصعب ليرده إلى حصنه، فقال له مسلمة بن أبي عبد اللّٰه: - وهو من الموالي - إن أمير المؤمنين سيندم على حبسه. ثم أقبل أسد بالناس ووعد له الجشر بن مزاحم بدر طرخان أو قبول ما عرض، فندم أسد وأرسل إلى مصعب يسأل عنه فوجده مقيماً عند مسلمة، فجيء به وقطعت يده. ثم أمر رجلاً من الأسد كان بدر طرخان قتل أباه فضرب عنقه وغلب على القلعة. وبعث العساكر في بلاد الختل فامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي وامتنع ولد بدر طرخان وأمواله في قلعة فوق بلدهم صغيرة فلم يوصل إليهم.

وفاة أسد

وفي ربيع الأول سنة عشرين توفي ابن عبد اللّٰه القسري بمدينة بلخ واستخلف جعفر بن حنظلة النهرواني فعمل أربعة أشهر ثم جاء عهد نصر بن سيار بالعمل في رجب.

ولاية يوسف بن عمر الثقفي على العراق وعزل خالد

وفي هذه السنة عزل هشام خالداً عن أعماله جميعها بسعاية أبي المثنى وحسان النبطي وكانا يتوليان ضياع هشام بالعراق، فثقلا على خالد وأمر الأشدق بالنهوض على الضياع. وأنهى ذلك حسان بعد أبي المثنى، وأن غلته في السنة ثلاثة عشر ألف ألف فوقرت في نفس هشام. وأشار عليه بلال بن أبي بردة والعريان بن الهيثم أن يعرض أملاكه على هشام ويضمنون له الرضا فلم يجبهم. ثم شكا من خالد بعض آل عمر والأشدق بأنه أغلظ له في القول بمجلسة، فكتب إليه هشام يوبخه ويأمره بأن يمشي ساعياً على قدميه إلى بابه ويترضاه.

ونميت عنه من هذا أقوال كثيرة وأنه يستقل ولاية العراق، فكتب إليه هشام: يا ابن أم خالد! بلغني أنك تقول ما ولاية العراق لي بشرف، يا ابن اللخناء! كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفاً وأنت من بجيلة القليلة الذليلة؟ وأما واللّٰه إني لأظن أن أول من يأتيك صقر من قريش يشد يديك إلى عنقك. ثم كتب إلى يوسف بن عمر الثقفي وهو باليمن يأمره أن يقدم في ثلاثين من أصحابه إلى العراق فقد ولاه ذلك. فسار إلى الكوفة ونزل قريباً منها وقد ختن طارق خليفة خالد بالكوفة ولده وأهدى إليه وصيفاً ووصيفة سوى الأموال والثياب.

ومر يوسف وأصحابه ببعض أهل العراق فسألوهم فعرضوا وظنوهم خوارج، وركب يوسف إلى دور ثقيف فكتموا، ثم جمع يوسف بالمسجد من كان هنالك من مضر ودخل مع الفجر فصلى، وأرسل إلى خالد وطارق فأخذهما. وقيل إن خالداً كان بواسط وكتب إليه بالخبر بعض أصحابه من دمشق، فركب إلى خالد وأخبره بالخبر وقال: إركب إلى أمير المؤمنين واعتذر إليه قال: لا أفعل بغير إذن قال: فترسلني أستأذنه؟ قال: لا! قال: فاضمن له جميع ما انكسر في هذه السنين وآتيك بعهده وهي مائة ألف ألف. قال: واللّٰه ما أجد عشرة آلاف ألف. قال: أتحملها أنا وفلان وفلان. قال: لا أعطي شيئاً وأعود فيه. فقال طارق: إنما نقيك ونقي أنفسنا بأموالنا ونستبقي الدنيا وتبقى الدنيا عليك وعلينا خير من أن يجيء من يطالبنا بالأموال وهي عند الكوفة فنقتل ويأكلوا الأموال. فأبى خالد من ذلك كله فودعه طارق ومضى وبكى ورجع إلى الكوفة.

وخرج خالد إلى الحمة وجاء كتاب هشام بخطه إلى يوسف بولاية العراق وأن يأخذ ابن النصرانية يعني خالداً وعماله فيعذبهم، فأخذ الأولاد وسار من يومه واستخلف على اليمين ابنه الصلت. وقدم في جمادى الأخيرة سنة عشرين ومائة فنزل النجف وأرسل مولى كيسان فجاء بطارق ولقيه بالحيرة فضربه ضرباً مبرحاً ودخل الكوفة. وبعث عثمان عطاء بن مقدم إلى خالد بالحمة فقدم عليه وحبسه وصالحه عنه أبان بن الوليد وأصحابه على سبعة آلاف ألف. وقيل أخذ منه مائة ألف وكانت ولايته العراق خمس عشرة سنة. ولما ولي يوسف نزلت الذلة بالعراق في العرب وصار

الحكم فيه إلى أهل الذمة.

ولاية نصر بن سيار خراسان وغزوه وصلح الصغد

ولما مات أسد بن عبد الله ولى هشام على خراسان نصر بن سيار وبعث إليه على عهده عبد الكريم بن سليط الحنفي، وقد كان جعفر بن حنظلة لما استخلفه أسد عند موته عرض على نصر أن يوليه بخارى. فقال له: البختري بن مجاهد مولى بني شيبان لا تقبل! فإنك شيخ مضر بخراسان، وكان عهدك قد جاء على خراسان كلها فكان كذلك. ولما ولي نصر استعمل على بلخ مسلم بن عبد الرحمن وعلى مرو الروذ وشاح بن بكير بن وشاح، وعلى هراة الحارث بن عبد الله بن الحشرج، وعلى نيسابور زياد بن عبد الرحمن القسري، وعلى خوارزم أبا حفص علي بن حقنة، وعلى الصغد قطن بن قتيبة. وبقي أربع سنين لا يستعمل في خراسان إلا مضرياً فعمرت عمارة لم تعمر مثلها، وأحسن الولاية والجباية.

وكان وصول العهد إليه بالولاية في رجب سنة عشرين فغزا غزوات أولها إلى ما وراء النهر من نحو باب الحديد. وسار إليها من بلخ ورجع إلى مرو فوضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة وجعلها على من كان يخفف عنه منهم. وانتهى عددهم ثلاثين ألفاً من الصنفين وضعت عن هؤلاء وجعلت على هؤلاء ثم غزا الثانية إلى سمرقند، ثم الثالثة إلى الشاش سار إليها من مرو ومعه ملك بخارى وأهل سمرقند وكش ونسف في عشرين ألفاً.

وجاء إلى نهر الشاش فحال بينه وبين عبوره كورصول، عسكر نصر في ليلة ظلماء، ونادى نصر لا يخرج أحد. وخرج عاصم بن عمير في جند سمرقند، فجاولته خيل الترك ليلا وفيهم كورصول فأسره عاصم وجاء به إلى نصر فقتله وصلبه على شاطئ النهر فحزنت الترك لقتله وأحرقوا أبنيته وقطعوا آذانهم وشعورهم وأذناب خيولهم. وأمر نصر بإحراق عظامه لئلا يحملوها بعد رجوعه. ثم سار إلى فرغانة فسبى منها ألف رأس، وكتب إليه يوسف بن عمران ليسير إلى الحارث بن شريح في الشاش ويخرب بلادهم ويسبيهم. فسار لذلك وجعل على مقدمته يحيى بن حصين وجاء بهم إلى الحارث وقاتلهم وقتل عظيماً من عظماء الترك وانهزموا.

وجاء ملك الشاش في الصلح والهدنة والرهن. واشترط نصر عليه إخراج الحارث بن شريح من بلده فأخرجه إلى فاراب. واستعمل على الشاش بنزل بن صالح مولى عمرو بن العاص. ثم سار إلى أرض فرغانة وبعث أمه في إتمام الصلح، فجاءت لذلك وأكرمها نصر وعقد لها ورجعت. وكان الصغد لما قتل خاقان طمعوا في الرجعة إلى بلادهم، فلما ولي نصر بعث إليهم في ذلك وأعطوه ما سألوه من الشروط، وكان أهل خراسان قد نكروا شروطهم، وكان منها أن لا يعاقب من ارتد عن الإسلام إليهم ولا يؤخذ منهم أسرى إلا ببينة وحكم وعاب الناس ذلك على نصر لما أمضاه لهم. فقال: لو عاينتم شكوتهم في المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم. وأرسل إلى هشام في ذلك فأمضاه وذلك سنة ثلاث وعشرين.

ظهور زيد بن علي ومقتله

ظهر زيد بن علي بالكوفة خارجاً على هشام داعياً للكتاب والسنة وإلى جهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفيء ورد المظالم وأفعال الخير ونصر أهل البيت. واختلف في سبب خروجه فقيل: إن يوسف بن عمر لما كتب في خالد القسري كتب إلى هشام أنه شيعة لأهل البيت، وأنه ابتاع من زيد أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار ورد عليه الأمن، وأنه أودع زيداً وأصحابه الوافدين عليه مالا، فكان زيد قد قدم على خالد بالعراق هو ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وداود بن علي بن عبد الله بن عباس فأجازهم ورجعوا إلى المدينة. فبعث هشام عنهم وسألهم فأقروا بالجائزة وحلفوا على ما سوى ذلك وأن خالداً لم يودعهم شيئاً. فصدقهم هشام وبعثهم إلى يوسف فقاتلوا خالداً وصدقهم الآخر، وعادوا إلى المدينة ونزلوا القادسية.

وراسل أهل الكوفة زيداً فعاد إليهم، وقيل في سبب ذلك: إن زيداً اختصم مع ابن عمه جعفر بن الحسن المثنى في وقف علي، وكانا يحضران عند عامل خالد بن عبد الملك بن الحارث، فوقعت بينهما في مجلسه مشاتمة وأنكر زيد من خالد إطالته للخصومة وأن يستمع لمثل هذا فأغلظ له زيد وسار إلى هشام فحجبه، ثم أذن له بعد حين. فحاوره طويلا ثم عرض له بأنه ينكر الخلاف وتنقصه. ثم قال له: أخرج قال: نعم ثم لا أكون إلا بحيث تكره فسار إلى الكوفة. وقال له محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب: ناشدتك الله الحق بأهلك ولا تأت الكوفة وذكره بفعلهم مع جده وجده يستعظم ما وقع به..

وأقبل الكوفة فأقام بها مستخفياً يتنقل في المنازل. واختلف إليه الشيعة وبايعه جماعة: منهم مسلمة بن كهيل ونصر بن خزيمة

العبسي ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري وناس من وجوه أهل الكوفة يذكر لهم دعوته. ثم يقول: أتبايعون على ذلك؟ فيقولون: نعم فيضع يده على أيديهم ويقول عهد اللّه عليك وميثاقه وذمته وذمة نبيه بيقين تتبعني ولا تقاتلني مع عدوي ولتنصحن لي في السر والعلانية. فإذا قال نعم وضع يده على يده ثم قال: اللّهم اشهد! فبايعه خمسة عشر ألفاً وقيل أربعون. وأمرهم بالاستعداد وشاع أمره في الناس وقيل: إنه أقام في الكوفة ظاهراً ومعه داود بن علي بن عبد اللّه بن عباس لما جاؤوا لمقاتلة خالد فاختلف إليه الشيعة، وكانت البيعة. وبلغ الخبر إلى يوسف بن عمر فأخرجه من الكوفة ولحق الشيعة بالقادسية أو الغلبية وعذله داود بن علي في الرجوع معه وذكره حال جده الحسين. فقالت الشيعة لزيد: هذا إنما يريد الأمر لنفسه ولأهل بيته فرجع معهم ومضى داود إلى المدينة.

ولما أتى الكوفة جاءه مسلمة بن كهيل فصده عن ذلك وقال أهل الكوفة لا يعولون لك. وقد كان مع جدك منهم أضعاف مما معك ولم تعادله، وكان أعز عليهم منك على هؤلاء. فقال له: قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وعنقهم. قال: فتأذن لي أن أخرج من هذا البلد؟ فلا آمن أن يحدث حدث وأنا لا أهلك نفسي، فخرج لليمامة. وكتب عبد اللّه بن الحسن المثنى إلى زيد يعذله ويصده فلم يصغ إليه. وتزوج نساء بالكوفة وكان يختلف إليهن والناس يبايعونه، ثم أمر أصحابه يتجهزون.

ونمي الخبر إلى يوسف بن عمر فطلبه وخاف فتعجل الخروج وكان يوسف بالحيرة وعلى الكوفة الحكم بن الصلت وعلى شرطته عمر بن عبد الرحمن من القاهرة ومعه عبيد اللّه بن عباس الكندي في ناس من أهل الشام. ولما علم الشيعة أن يوسف يبحث عن زيد جاء إليه جماعة منهم فقالوا: ما تقول في الشيخين؟ فقال زيد: رحمهما اللّه وغفر لهما، وما سمعت أهل بيتي يذكرونهما إلا بخير. وغاية ما أقول إنا كنا أحق بسلطان رسول اللّه ﷺ من الناس فدفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك الكفر، وقد عدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة. قال: فإذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم؟ فقال: إن هؤلاء ظلموا المسلمين أجمعين فإنا ندعوهم إلى الكتاب والسنة وأن نحيي السنن، ونطفئ البدع، فإن أجبتم سعدتم وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: سبق الإمام الحق يعنون محمداً الباقر، وأن جعفراً ابنه إمامنا بعده، فسماهم زيد الرافضة ويقال إنما سماهم الرافضة حيث فارقوه.

ثم بعث يوسف بن عمر إلى الحكم بأن يجمع أهل الكوفة في المسجد فجمعوا وطلبوا زيداً في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة فخرج منها ليلا واجتمع إليه ناس من الشيعة وأشعلوا النيران ونادوا يا منصور حتى طلع الفجر، وأصبح جعفر بن أبي العباس الكندي فلقي اثنين من أصحاب زيد يناديان بشعاره فقتل واحداً وأتى بالآخر إلى الحكم فقتله، وأغلق أبواب المسجد على الناس. وبعث إلى يوسف بالخبر فسار من الحيرة وقدم الريان بن سلمة الأراشي في ألفين خيالة وثلثمائة ماشية. وافتقد زيد الناس فقيل إنهم في الجامع محصورون، ولم يجد معه إلا مائتين وعشرين. وخرج صاحب الشرطة في خيله فلقي نصر بن خزيمة العبسي من أصحاب زيد ذاهباً إليه فحمل عليه نصر وأصحابه فقتلوه وحمل زيد على أهل الشام فهزمهم. وانتهى إلى دار أنس بن عمر الأسدي ممن بايعه وناداه فلم يخرج إليه.

ثم سار زيد إلى الكناسة فحمل على أهل الشام فهزمهم ثم دخل الكوفة، والرايات في أتباعه. فلما رأى زيد خذلان الناس قال لنصر بن خزيمة: أفعلتموها حسينية؟ قال: أما أنا فواللّه لأموتن معك وإن الناس بالمسجد فامض بنا إليهم. فجاء إلى المسجد ينادي بالناس بالخروج إليه. فرماه أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد فانصرفوا عند المساء. وأرسل يوسف بن عمر من الغد العباس بن سعد المزني في أهل الشام فجاءه في دار الزرق وقد كان أوى إليها عند المساء. فلقيه زيد بن ثابت فاقتتلوا فقتل نصر. ثم حملوا على أصحاب العباس فهزمهم زيد وأصحابه وعباهم يوسف بن عمر من العشي ثم سرحهم فكشفهم أصحاب زيد ولم تثبت خيلهم لخيله.

وبعث إليهم يوسف بن عمر بالقادسية واشتد القتال وقتل معاوية بن زيد. ثم رمي زيد عند المساء بسهم أثبته فرجع أصحابه وأهل الشام يظنون أنهم تحاجزوا ولما نزع النصل من جبهته مات فدفنوه وأجروا عليه الماء. وأصبح الحكم يوم الجمعة يتبع الجرحى من الدور ودله بعض الموالي على قبر زيد فاستخرجه وقطع رأسه وبعث بها إلى يوسف بالحيرة، فبعثه إلى هشام فنصبه على باب دمشق. وامر يوسف الحكم أن يصلب زيداً بالكناسة ونصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق ويحرسهم. فلما ولي الوليد أمر بإحراقهم واستجار يحيي بن زيد بعبد الملك بن شبر بن مروان فأجاره حتى سكن المطلب ثم سار إلى خراسان في نفر من الزيدية.

ظهور أبي مسلم بالدعوة العباسية

كان أهل الدعوة العباسية بخراسان يكتمون أمرهم منذ بعث

محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس دعاته إلى الآفاق سنة مائة من الهجرة أيام عمر بن عبد العزيز، لما مر أبو هاشم عبد اللّه بن محمد بن الحنفية ذاهباً وجائياً من الشام من عند سليمان بن عبد الملك فمرض عنده بالحميمة من أعمال البلقاء وهلك هنالك وأوصى له بالأمر. وكان أبو هاشم قد علم شيعته بالعراق وخراسان وأن الأمر صائر في ولد محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس. فلما مات أبو هاشم قصدت الشيعة محمداً وبايعوه سراً وبعث دعاته منهم إلى الآفاق. وكان الذي بعث إلى العراق ميسرة ابن والي خراسان محمد بن حبيش، وأما عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار خال إبراهيم بن سلمة فجاؤوا إلى خراسان ودعوا إليه سراً وأجابهم الناس وجاؤوا بكتب من أجاب إلى ميسرة اهـ.

فبعث بها إلى محمد واختار أبو محمد الصادق إثني عشر رجلاً من أهل الدعوة فجعلهم نقباء عليهم وهم: سليمان بن كثير الخزاعي ولاهز بن قريط التميمي، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى أبي معيط ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطلحة بن زريق الخزاعي، وأبو حمزة بن عمر بن أعين مولى خزاعة وأخوه عيسى، وأبو علي شبلة بن طهمان الهروي مولى بني حنيفة. واختار بعده سبعين رجلاً وكتب إليه محمد بن علي كتاباً يكون لهم مثالا يقتدون به في الدعوة، وأقاموا على ذلك. ثم بعث ميسرة رسله من العراق سنة اثنتين ومائة في ولاية سعيد خدينة، وخلافة يزيد بن عبد الملك. وسعى بهم إلى سعيد فقالوا نحن تجار فضمنهم قوم من ربيعة واليمن فأطلقهم.

وولد لمحمد ابنه عبد اللّه السفاح سنة أربع ومائة، وجاء إليه أبو محمد الصادق في جماعة من دعاة خراسان فأخرجه لهم ابن خمسة عشر يوماً وقال: هذا صاحبكم الذي يتم الأمر على يده، فقبلوا أطرافه وانصرفوا. ثم دخل معهم في الدعوة بكير بن هامان جاء من السند مع الجنيد بن عبد الرحمن. فلما عزل قدم الكوفة ولقي أبا عكرمة وأبا محمد الصادق ومحمد بن حبيش وعمار العبادي خال الوليد الأزرق دعاه إلى خراسان في ولاية أسد القسري أيام هشام ووشى بهم إليه فقطع أيدي من ظفر به منهم وصلبه.

وأقبل عمار إلى بكير بن هامان فأخبره فكتب إلى محمد بن علي بذلك فأجابه: الحمد لله الذي صدق دعوتكم ومقالتكم وقد بقيت منكم قتلى ستعد. ثم كان أول من قدم محمد بن علي إلى خراسان أبو محمد زياد مولى همذان بعثه محمد بن علي سنة تسعة في ولاية أسد أيام هشام وقال له: انزل في اليمن وتلطف لمضر ونهاه عن غالب النيسابوري شيعة بني فاطمة. فشتى زياد بمرو ثم سعى به إلى أسد فاعتذر بالتجارة، ثم عاد إلى أمره، فأحضره أسد وقتله في عشرة من أهل الكوفة. ثم جاء بعدهم إلى خراسان رجل من أهل الكوفة اسمه كثير ونزل على أبي الشحم وأقام يدعو سنتين أو ثلاثة، ثم أخذ أسد بن عبد اللّه في ولايته الثانية سنة سبع عشرة. أخذ سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريط بثلاثمائة سوط وشهد حسن بن زيد الأسدي ببراءتهم فأطلقهم.

ثم بعث بكير بن هامان سنة ثماني عشر عمار بن زيد على شيعتهم بخراسان فنزل مرو وتسمى بخراش وأطاعه الناس. ثم نزل دعوتهم بدعوة الخرمية فأباح النساء وقال: إن الصوم إنما هو عن ذكر الإمام وأشار إلى إخفاء اسمه. والصلاة الدعاء له، والحج القصد إليه. وكان خراش هذا نصرانياً بالكوفة واتبعه على مقالته مالك بن الهيثم والحريش بن سليم. وظهر أسد على خبره وبلغ الخبر بذلك إلى محمد بن علي فنكر عليهم قبولهم من خراش وقطع مراسلتهم. فقدم عليه ابن كثير منهم يستعلم خبره ويستعطفه على ما وقع منهم، وكتب معه إليهم كتاباً مختوماً لم يجدوا فيه غير البسملة، فعلموا مخالفة خراش لأمره وعظم عليهم. ثم بعث محمد بن بكير بن أبان وكتب معه بكذب خراش فلم يصدقوه فجاء إلى محمد وبعث معه عصياً مضببةً بعضها بالحديد وبعضها بالنحاس. ودفع إلى كل رجل عصا فعلموا أنهم قد خالفوا السيرة فتابوا ورجعوا.

وتوفي محمد بن علي سنة أربع وعشرين وعهد إلى ابنه إبراهيم بالأمر وأوصى الدعاة بذلك، وكانوا يسمونه الإمام. وجاء بكير بن هامان إلى خراسان بنعيه والدعاء لإبراهيم الإمام سنة ست وعشرين ومائة، ونزل مرو ودفع إلى الشيعة والنقباء كتابه بالوصية والسيرة فقبلوه، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقاتهم فقدم بها بكير على إبراهيم.

ثم بعث إليهم أبا مسلم سنة أربع وعشرين وقد اختلف في أوليته اختلافاً كثيراً. وفي سبب اتصاله بإبراهيم الإمام أو أبيه محمد فقيل كان من ولد بزر جمهر، ولد بأصبهان وأوصى به أبوه إلى عيسى بن موسى السراج، فحمله إلى الكوفة ابن سبع سنين. ونشأ بها واتصل بإبراهيم الإمام. وكان اسم أبي مسلم إبراهيم بن عثمان بن بشار. فسماه إبراهيم الإمام عبد الرحمن وزوجة أبيه أبي النجم عمران بن إسماعيل من الشيعة. فبنى بها بخراسان وزوج ابنته من محرز بن إبراهيم فلم يعقب. وابنته أسماء من فهم بن محرز فأعقبت فاطمة وهي التي يذكرها الخرمية.

وقيل في إتصاله بإبراهيم الإمام: إن أبا مسلم كان موسى السراج وتعلم منه صناعة السروج وكان يتجهز فيها بأصبهان والجبال والجزيرة والموصل. واتصل بعاصم بن يونس العجلي صاحب عيسى السراج وابن أخيه عيسى وإدريس ابني معقل، وإدريس هو جد أبي دلف. ونمي إلى يوسف بن عمران العجلي من دعاة بني العباس فحبسهم مع عمال خالد القسري. وكان أبو مسلم معهم في السجن بخدمتهم وقبل منهم الدعوة. وقيل لم يتصل بهم من عيسى السراج وإنما كان من ضياع بني العجلي بأصبهان أو الجبل. وتوجه سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريط وقحطبة بن شبيب من خراسان يريدون إبراهيم الإمام بمكة، فمروا بعاصم بن يونس وعيسى وإدريس ابني معقل العجلي بمكانهم من الحبس فرأوا معهم أبا مسلم فأعجبهم وأخذوه. ولقوا إبراهيم الإمام بمكة فأعجبه فأخذه وكان يخدمه. ثم قدم النقباء بعد ذلك على إبراهيم الإمام يطلبون أن يوجه من قبله إلى خراسان فبعث معه أبا مسلم. فلما تمكن ونوى أمره ادعى أنه من ولد سليط بن عبد اللّه بن عباس.

وكان من أولية هذا الخبر أن جارية لعبد اللّه بن العباس ولدت لغير رشدة فحدها واستعبد وليدها وسماه سليطاً فنشأ واختص بالوليد. وادعى أن عبد اللّه بن عباس أقر بأنه ابنه وأقام البينة على ذلك. وخاصم علي بن عبد اللّه في الميراث وأذاه. وكان في صحابته عمر الدن من ولد أبي رافع مولى رسول اللّه ﷺ ودخل عليها سليط بالخبر، فاستعدت الوليد على علي فأنكر وحلف، فنبشوا في البستان فوجدوه. فأمر الوليد بعلي فضرب ليدله على عمر الدن. ثم شفع فيه عباد بن زياد فأخرج إلى الحميمة. ولما ولي سليمان رده إلى دمشق. وقيل إن أبا مسلم كان عبداً للعجليين، وابن بكير بن هامان كان كاتباً لعمال بعض السند. وقدم الكوفة فكان دعاة بني العباس فحبسوا وبكير معهم.

وكان العجليون في الحبس، وأبو مسلم العبسي بن معقل. فدعاهم بكير إلى رأيه فأجابوه، واستحسن الغلام فاشتراه من عيسى بن معقل بأربعمائة درهم وبعث به إلى إبراهيم الإمام، فدفعه إبراهيم إلى موسى السراج من الشيعة. فسمع منه وحفظ وصار يتردد إلى خراسان. وقيل كان لبعض أهل هراة وابتاعه منه إبراهيم الإمام، ومكث عنده سنين وكان يتردد بكتبه إلى خراسان. ثم بعثه أميراً على الشيعة وكتب إليهم بالطاعة له، وإلى أبي سلمة الخلال داعيهم بالكوفة يأمره بإنفاذه إلى خراسان فنزل على سليمان بن كثير وكان من أمره ما يذكر بعد هذا إن شاء اللّه تعالى.

ثم جاء سليمان بن كثير ولاهز بن قريط وقحطبة إلى مكة سنة سبع وعشرين بعشرين ألف دينار للإمام إبراهيم ومائتي ألف درهم ومسك ومتاع كثير ومعهم أبو مسلم وقالوا: هذا مولاك. وكتب بكير بن هامان إلى الإمام بأنه أوصى بأمر الشيعة بعده لأبي سلمة حفص بن سليمان الخلال وهو رضى. فكتب إليه إبراهيم بالقيام بأمر أصحابه وكتب إلى أهل خراسان بذلك فقبلوه وصدقوه وبعثوا بخمس أموالهم ونفقة الشيعة للإمام إبراهيم.

ثم بعث إبراهيم في سنة ثماني وعشرين مولاه أبا مسلم إلى خراسان وكتب له: إني قد أمرته بأمري فاسمعوا له وأطيعوا. وقد أمرته على خراسان وما غلبت غليه فارتابوا من قوله ووفدوا على إبراهيم الإمام من قابل مكة وذكر له أبو مسلم أنهم لم يقبلوه. فقال لهم: قد عرضت عليكم الأمر فأبيتم من قبوله، وكان عرضه على سليمان بن كثير ثم على إبراهيم بن مسلمة فأبوا. وإني قد اجمع رأيي على مسلم وهو منا أهل البيت فاسمعوا له وأطيعوا. وقال لأبي مسلم: إنزل في أهل اليمن وأكرمهم. فإن بهم يتم الأمر وآتهم البيعة. وأما مضر فهم العدو الغريب، واقتل من شككت فيه وإن قدرت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل وارجع إلى سليمان بن كثير واكتف به مني وسرحه معهم فساروا إلى خراسان.

وفاة هشام بن عبد الملك وبيعة الوليد بن يزيد

توفي هشام بن عبد الملك بالرصافة في ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة لعشرين سنة من خلافته وولي بعده الوليد ابن أخيه يزيد بعهد يزيد بذلك كما مر، وكان الوليد متلاعباً وله مجون وشراب وندمان، وأراد هشام خلعه فلم يمكنه. وكان يضرب من يأخذه في صحبته، فخرج الوليد في ناس من خاصته ومواليه وخلف كاتبه عياض بن مسلم ليكاتبه بالأحوال فضربه هشام وحبسه. ولم يزل الوليد مقيماً بالبرية حتى مات هشام، وجاءه مولى أبي محمد السفياني على البريد بكتاب سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل بالخبر فسأل عن كاتبه عياض فقال: لم يزل محبوساً حتى مات هشام، فأرسل إلى الحراق أن يحتفظوا بما في أيديهم حتى منعوا هشاماً من شيء طلبه. ثم خرج بعد موته من الحبس وختم أبواب الخزائن. ثم كتب الوليد من وقته إلى عمه العباس بن عبد الملك أن يأتي الرصافة فيحصي ما فيها من أموال هشام وولده وعماله وخدمه إلا مسلمة بن هشام فإنه كان يراجع

أباه بالرفق بالوليد، فانتهى العباس لما أمر به الوليد. ثم استعمل الوليد العمال وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة. فجاءته بيعتهم. وكتب مروان ببيعته واستأذن في القدوم. ثم عقد الوليد من سنته لابنيه: الحكم وعثمان بعده وجعلهما وليي عهده وكتب بذلك إلى العراق وخراسان.

ولاية نصر للوليد على خراسان

وكتب الوليد في سنته إلى نصر بن سيار بولاية خراسان وأفرده بها، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فاشترى منه نصراً وعماله فرد إليه الوليد خراسان. وكتب يوسف إلى نصر بالقدوم ويحمل معه الهدايا والأموال وعياله جميعاً وكتب له الوليد بأن يتخذ له برابط وطنابير وأباريق ذهب وفضة ويجمع له البراذين الغرة ويجمع بذلك إليه في وجوه أهل خراسان، واستحثه رسول يوسف فأجازه. ثم سار واستخلف على خراسان عصمة بن عبد اللّه الأسدي وعلى شاش موسى بن ورقاء وعلى سمرقند حسان ابن من أهل الصغانيان وعلى آمد مقاتل بن علي الصغدي. وأسر إليهم أن يداخلوا الترك في المسير إلى خراسان ليرجع إليهم. وبينا هو في طريقه إلى العراق ببيهق لقيه مولى لبني ليث، وأخبره بقتل الوليد والفتنة بالشام. وأن منصور بن جمهور قدم العراق وهرب يوسف بن عمر فرجع بالناس.

مقتل يحيى بن زياد

كان يحيى بن زياد سار بعد قتل أبيه وسكون الطلب عنه كما مر فأقام عنه الحريش بن عمرو ومروان في بلخ. ولما ولي الوليد كتب إلى نصر بأن يأخذه من عند الحريش فأحضر الحريش وطالبه بيحيى، فأنكر، فضربه ستمائة سوط، فجاء ابنه قريش ودله على يحيى فحبسه. وكتب إلى الوليد فامره أن يخلي سبيله وسبيل أصحابه. فأطلقه نصر وأمره أن يلحق بالوليد فسار وأقام بسرخس فكتب نصر إلى عبد اللّه بن قيس بن عياد يخرجه عنها فأخرجه إلى بيهق وخاف يحيى بن يوسف بن عمر فسار إلى نيسابور وبها عمر بن زرارة، وكان مع يحيى سبعون رجلاً، ولقوا دواب وأدركهم الإعياء فأخذوها بالثمن. وكتب عمر بن زرارة بذلك إلى نصر فكتب إليه يأمره بحربهم، فحاربهم في عشرة آلاف فهزموه وقتلوه، ومروا بهراة فلم يعرضوا لها. وسرح نصر بن سيار مسلم بن أحوز المازني إليهم فلحقهم بالجوزجان فقاتلهم قتالا شديداً وأصيب يحيى بسهم في جبهته فمات. وقتل أصحابه جميعاً وبعثوا برأسه إلى الوليد وصلب بالجوزان. وكتب الوليد إلى يوسف بن عمر بأن يحرق شلو زيد، فأحرقه وذراه في الفرات. ولم يزل يحيى مصلوباً بالجوزجان حتى استولى أبو مسلم على خراسان فدفنه ونظر في الديوان أسماء من حضر لقتله فمن كان حياً قتله ومن كان ميتاً خلفه في أهله بسوء.

مقتل خالد بن عبد اللّه القسري

قد تقدم لنا ولاية يوسف بن عمر على العراق وأنه حبس خالداً أصحاب العراق وخراسان قبله فأقام بحبسه في الحيرة ثمانية عشر شهراً مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد والمنذر ابن أخيه أسد. واستأذن هشاماً في عذابه فأذن له على أنه إن هلك قتل يوسف به فعذبه. ثم أمر هشام بإطلاقه سنة إحدى وعشرين، فأتى إلى قرية بإزاء الرصافة فأقام بها، حتى خرج زيد وقتل وانقضى أمره، فسعى يوسف بخالد عند هشام بأنه الذي داخل زيداً في الخروج، فرد هشام سعايته ووبخ رسوله وقال: لسنا نتهم خالداً في طاعة. وسار خالد إلى الصائفة وأنزل أهله دمشق وعليها كلثوم بن عياض القشيري، وكان يبغض خالداً.

فظهر في دمشق حريق في ليال، فكتب كلثوم إلى هشام بأن موالي خالد يريدون الوثوب إلى بيت المال ويتطرقون إلى ذلك بالحريق كل ليلة في البلد. فكتب إليه هشام بحبس الكبير منهم والصغير والموالي فحبسهم. ثم على صاحب الحريق وأصحابه. وكتب بهم الوليد بن عبد الرحمن عامل الخراج ولم يذكر فيهم أحداً من آل خالد ومواليه فكتب هشام إلى كلثوم يوبخه ويأمره بإطلاق آل خالد وترك الموالي. فشفع فيهم خالد عند مقدمه من الصائفة، فلما قدم دخل منزله وأذن للناس فاجتمعوا ببابه فوبخهم وقال: إن هشاماً يسوقهن إلى الحبس كل يوم. ثم قال: خرجت غازياً سامعاً مطيعاً فحبس أهلي مع أهل الجرائم كما يفعل بالمشركين. ولم يغير ذلك أحد منكم، أخفتم القتل؟ أخافكم اللّه. واللّه ليكفن عني هشام أن لأعودن إلى عراقي الهوى شامي الدار حجازي الأصل يعني محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس.

وبلغ ذلك هشاماً فقال: خرف أبو الهيثم. ثم تتابعت كتب يوسف بن عمر إلى الشام بطلب يزيد بن خالد فأرسل إلى كلثوم بإنفاذه إليه فهرب يزيد فطلبه كلثوم من خالد وحبسه فيه فكتب إليه هشام بتخليته ووبخه اهـ.

ولما ولي الوليد بن يزيد استقدم خالداً وقال أين ابنك؟ قال: هرب من هشام وكنا نراه عندك حتى استخلفك اللّه فلم نره

وطلبناه ببلاد قومه من الشراة فقال: ولكن خلفته طلباً للفتنة فقال: إنا أهل بيت طاعة. فقال: لتأتيني به أو لأرهقن نفسك. فقال: والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه. فأمر الوليد بضربه. ولما قدم يوسف بن عمر من العراق بالأموال اشتراه من الوليد بخمسين ألف ألف. فقال له الوليد: إن يوسف يشتريك بكذا فاضمنها لي قبل أن أدفعك إليه. فقال: ما عهدت العرب تباع والله لو سألتني عوداً ما ضمنته. فدفعه إلى يوسف فألبسه عباءة وحمله على غير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه. ثم حمله إلى الكوفة فاشتد في عذابه ثم قتله ودفنه في عباءة يقال: إنه قتله بشيء وضعه على وجهه. وقيل وضع على رجليه الأعواد وقام عليها الرجال حتى تكسرت قدماه. وذلك في المحرم سنة ست وعشرين ومائة.

مقتل الوليد وبيعة يزيد

ولما ولي الوليد لم يقلع عما كان عليه من الهوى والمجون. حتى نسب إليه في ذلك كثير من الشنائع. مثل رمية المصحف بالسهام حين استفتح فوقع على قوله: وخاب كل جبار عنيد. وينشدون له في ذلك بيتين تركتهما لشناعة مغزاهما. ولقد ساءت القالة فيه كثيراً، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه وقالوا: إنها من شناعات الأعداء ألصقوها به. قال المدائني: دخل ابن الغمر بن يزيد على الرشيد فسأله: ممن أنت؟ فقال: من قريش. قال: من أيها؟ فوجم، فقال: قل وأنت آمن ولو أنك مروان. فقال: أنا ابن الغمر بن يزيد. فقال: رحم الله الوليد ولعن يزيد الناقص، فإنه قتل خليفة مجمعاً عليه، إرفع حوائجك فرفعها وقضاها.

وقال شبيب بن شبة: كنا جلوساً عند المهدي فذكر الوليد فقال المهدي: كان زنديقاً فقام ابن علانة الفقيه فقال: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل أعدل من أن يولي خلافة النبوة وأمر الأمة زنديقاً لقد أخبرني عنه من كان يشهده في ملاعبه وشربه ويراه في طهارته وصلاته فكان إذا حضرت الصلاة يطرح الثياب التي عليه المصبية المصبغة. ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظيفة فيلبسها ويشتغل بربه. أترى هذا فعل من لا يؤمن بالله؟ فقال المهدي: بارك الله عليك يا ابن علانة، وإنما كان الرجل محسوداً في خلاله ومزاحماً بكبار عشيرته بيته من بني عمومته مع لهو كان يصاحبه، أوجد لهم به السبيل على نفسه.

وكان من خلاله قرض الشعر الوثيق ونظم الكلام البليغ. قال يوماً لهشام يعزيه في مسلمة أخيه: إن عقبى من بقي لحوق من مضى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى. وعلى أثر من سلف، يمضي من خلف، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى. فأعرض هشام وسكت القوم.

وأما حكاية مقتله فإنه لما تعرض له بنو عمه ونالوا من عرضه أخذ في مكافأتهم. فضرب سليمان ابن عمه هشام مائة سوط وحلقه وغربه إلى معان من أرض الشام، فحبسه إلى آخر دولته. وحبس أخاه يزيد بن هشام، وفرق بين ابن الوليد وبين امرأته، وحبس عدة من ولد الوليد، فرموه بالفسق والكفر واستباحة نساء أبيه. وخوفوا بني أمية منه بأنه اتخذ مية جامعة لهم وطعنوا عليه في تولية ابنيه الحكم وعثمان العهد مع صغرهما. وكان أشدهم عليه في ذلك يزيد بن الوليد لأنه كان يتنسك فكان الناس إلى قوله أميل.

ثم فسدت اليمامة عليه بما كان منه لخالد القسري. وقالوا: إنما حبسه ونكبه لامتناعه من بيعة ولديه. ثم فسدت عليه قضاعة وكان اليمن وقضاعة أكثر جند الشام. واستعظموا منه ما كان من بيعة خالد ليوسف بن عمر، وصنعوا على لسان الوليد قصيدة معيرة اليمنية بشأن خالد. فازداد واختفى. وأتوا إلى يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادوه على البيعة. وشاور عمر بن زيد الحكمي فقال: شاور أخاك العباس وإلا فأظهر إنه قد بايعك، فإن الناس له أطوع. فشاور العباس فنهاه عن ذلك فلم ينته، ودعا الناس سراً وكان بالبادية. وبلغ الخبر مروان بأرمينية فكتب إلى سعيد بن عبد الملك يعظم عليه الأمر ويحذره الفتنة ويذكر له أمر يزيد، فأعظم ذلك سعيد وبعث بالكتاب إلى العباس فتهدد أخاه يزيد فكتمه فصدقه.

ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق لأربع ليال متنكراً، معه سبعة نفر على الحمر. ودخل دمشق ليلا وقد بايع له أكثر أهلها سراً وأهل المزة. وكان على دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج فاستوباها فنزل قطنا، واستخلف عليها ابنه محمداً. وعلى شرطته أبو العاج كثير بن عبد الله السلمي. ونمي الخبر إليهما فكذباه وتواعد يزيد مع أصحابه بعد المغرب بباب الفراديس. ثم دخلوا المسجد فصلوا العتمة، ولما قضوا الصلاة جاء حرس المسجد لإخراجهم فوثبوا عليهم، ومضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد فجاء به إلى المسجد في زهاء مائتين وخمسين، وطرقوا باب المقصورة فأدخلهم الخادم فأخذوا أبا العاج وهو سكران وخزان بيت المال.

وبعث عن محمد بن عبد الملك فأخذه وأخذوا سلاحاً كثيراً كان بالمسجد، وأصبح الناس من الغد من النواحي القريبة

متسائلين للبيعة أهل المزة والسكاسك وأهل دارا. وعيسى بن شيب الثعلبي في أهل درهة وحرستا، وحميد بن حبيب اللخمي في أهل دمرعران، وأهل حرش والحديثة ودريكا وربعي بن هشام الحرشي في جماعة من عر وسلامان. ويعقوب بن عمير بن هاني العبسي جهينة ومواليهم. ثم بعث عبد الرحمن بن مصادي في مائتي فارس، فجاء بعبد الملك بن محمد بن الحجاج من قصره على الأمان. ثم جهز يزيد الجيش إلى الوليد بمكانه من البادية مع عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، ومنصور بن جمهور. وقد كان الوليد لما بلغه الخبر بعث عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دمشق فأقام بطريقه قليلا.

ثم بايع ليزيد وأشار على الوليد أصحابه أن يلحق بحمص فيتحصن بها. قال له ذلك يزيد بن خالد بن يزيد، وخالفه عبد الله بن عنبسة. وقال: ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره وحرمه قبل أن يقاتل. فسار إلى قصر النعمان بن بشير، ومعه أربعون من ولد الضحاك وغيره. وجاء كتاب العباس بن الوليد بأنه قادم عليه، وقاتلهم عبد العزيز ومنصور بعد أن بعث إليهم زياد بن حصين الكلبي يدعوهم إلى الكتاب والسنة. فقتله أصحاب الوليد واشتد القتال بينهم وبعث عبد العزيز بن منصور بن جمهور لاعتراض العباس بن الوليد أن يأتي بالوليد. فجاء به كرهاً إلى عبد العزيز وأرسل الوليد إلى عبد العزيز بخمسين ألف دينار وولاية حمص ما بقي على أن ينصرف عنه فأبى.

ثم قاتل قتالا شديداً حتى سمع النداء بقتله وسبه من جوانب الحومة، فدخل القصر فأغلق الباب وطلب الكلام من أعلى القصر، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي فذكره بحرمه وفعله فيهم. فقال ابن عنبسة: إنا ما ننقم عليك في أنفسنا، وإنما ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله، وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله. قال: حسبك الله يا أخا السكاسك! فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل الله سعة عما ذكرت. ثم رجع إلى الدار فجلس يقرأ في المصحف وقال: يوم كيوم عثمان: فتسوروا عليه وأخذ يزيد بن عنبسة بيده يقيه لا يريد قتله وإذا بمنصور بن جمهور في جماعة معه ضربوه واجتزوا رأسه فساروا به إلى يزيد فأمر بنصبه.

فتلطف له يزيد بن فروة مولى بني مرة في المنع من ذلك، وقال: هذا ابن عمك وخليفة وإنما تنصب رؤوس الخوارج ولا آمن أن يتعصب له أهل بيته. فلم يجبه، وأطافه بدمشق على رمح ثم دفع إلى أخيه سليمان بن يزيد وكان معهم عليه. وكان قتله آخر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين لسنتين وثلاثة أشهر من بيعته. ولما قتل خطب الناس يزيد فذمه وثلبه وإنه إنما قتله من أجل ذلك. ثم وعدهم بحسن الظفر والاقتصار عن النفقة في غير حاجاتهم وسد الثغور والعدل في العطاء والأرزاق ورفع الحجاب وإلا فلكم ما شئتم من الخلع.و كان يسمى الناقص لأنه نقص الزيادة التي زادها الوليد في أعطيات الناس وهي عشرة عشرة. ورد العطاء كما كان أيام هشام وبايع لأخيه إبراهيم بالعهد ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك حمله على ذلك أصحابه القدرية لمرض طرقه....

ولما قتل الوليد وكان قد حبس سليمان ابن عمه هشام بعمان، خرج سليمان من الحبس وأخذ ما كان هناك من الأموال ونقله إلى دمشق. ثم بلغ خبر مقتله إلى حمص وإن العباس بن الوليد أعان على قتله فانتقضوا وهدموا دار العباس وسبوها وطلبوه فلحق بأخيه يزيد. وكاتبوا الأجناد في الطلب بدم يزيد وأمروا عليهم مروان بن عبد الله بن عبد الملك ومعاوية بن يزيد بن حصين بن نمير وراسلهم يزيد فطردوا رسوله فبعث أخاه مسروراً في الجيش فنزل حوارين. ثم جاء سليمان به هشام من فرد عليه ما أخذ الوليد من أموالهم، وبعث على الجيش وأمر أخاه مسروراً بالطاعة.

واعتزم أهل حمص على المسير إلى دمشق فقال لهم مروان: ليس من الرأي أن تتركوا خلفكم هذا الجيش وإنما نقاتله قبل، فيكون ما بعده أهون علينا. فقال لهم السميط بن ثابت: إنما يريد خلافكم وإنما هواه مع يزيد والقدرية، فقتلوه وولوا عليهم محمداً السفياني وقصدوا دمشق، فاعترضهم ابن هشام بغدرا فقاتلهم قتالا شديداً. وبعث يزيد عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك في ثلاثة آلاف إلى ثنية العقاب وهشام بن مضاد في ألف وخمسمائة إلى عقبة السلامية. وبينما سالم يقاتلهم إذ أقبلت عساكر من ثنية العقاب فانهزم أهل حمص، ونادى يزيد بن خالد بن عبد الله القسري: الله الله على قومك يا سليمان. فكف الناس عنهم وبايعوا ليزيد. وأخذ أبا محمد السفياني ويزيد بن خالد بن يزيد وبعثهما إلى يزيد فحبسهما اهـ.

واستعمل على حمص معاوية بن يزيد بن الحصين وكان لما قتل الوليد وثب أهل فلسطين على عاملهم سعيد بن عبد الملك فطردوه وتولى منهم سعيد وضبعان ابنا روح. وكان ولد سليمان ينزلون فلسطين فأحضروا يزيد بن سليمان وولوه عليهم. وبلغ ذلك أهل الأردن فولوا عليهم محمد بن عبد الملك. وبعث يزيد سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني على ثمانين ألفاً، وبعث إلى ابني روح بالإحسان

والولاية، فرجعا بأهل فلسطين. وقدم سليمان عسكراً من خمسة آلاف إلى طبرية فنهبوا القرى والضياع وخشي أهل طبرية على من وراءهم، فانتهبوا يزيد بن سليمان ومحمد بن عبد الملك، ونزلوا بمنازلهم، فافترقت جموع الأردن وفلسطين. وسار سليمان بن هشام ولحقه أهل الأردن فبايعوا ليزيد وسار إلى طبرية والرملة وأخذ على أهلهما البيعة ليزيد وولى على فلسطين ضبعان بن روح وعلى الأردن إبراهيم بن الوليد.

ولاية منصور بن جمهور على العراق ثم ولاية عبد اللّه بن عمر

لما ولي يزيد استعمل منصور بن جمهور على العراق وخراسان لم يكن من أهل الدين، وإنما صار مع يزيد لرأيه في الغيلانية، وحنقاً على يوسف بقتله خالد القسري. ولما بلغ يوسف قتل الوليد ارتاب في أمره، وحبس اليمانية لما تجتمع المضرية عليه فلم ير عندهم ما يحب فأطلق اليمانية. وأقبل منصور وكتب من عين البقر إلى قواد الشام في الحيرة بأخذ يوسف وعماله، فأظهر يوسف الطاعة. ولما قرب منصور دخل دار عمر بن محمد بن سعيد بن العاصي ولحق منها بالشام سراً وبعث يزيد بن الوليد خمسين فارساً لتلقيه. فلما أحس بهم هرب واختفى، ووجد بين النساء فأخذوه وجاؤوا به إلى يزيد فحبسه مع ابني الوليد، حتى قتلهم مولى ليزيد بن خالد القسري.

ولما دخل منصور بن جمهور الكوفة لأيام خلت من رجب أفاض العطاء وأطلق من كان في السجون من العمال وأهل الخراج، واستعمل أخاه على الري وخراسان، فسار لذلك فامتنع نصر بن سيار من تسليم خراسان له. ثم عزل يزيد منصور بن جمهور لشهرين من ولايته، وولى على العراق عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز وقال: سر إلى أهل العراق فإن أهله يميلون إلى أبيك. فسار وانقاد له أهل الشام وسلم إليه منصور العمل، وانصرف إلى الشام. وبعث عبد اللّه العمال على الجهات واستعمل عمر بن الغضبان بن القبعثرا على الشرطة وخراج السواد والمحاسبات وكتب إلى نصر بن سيار بعهده على خراسان.

انتقاض أهل اليمامة

ولما قتل الوليد كان علي بن المهاجر على اليمامة عاملا ليوسف بن عمر فجمع له المهير بن سليمان بن هلال من بني الدول بن خولة. وسار إليه وهو في قصره بقاع هجر فالتقوا وانهزم علي وقتل ناس من أصحابه، وهرب إلى المدينة. وملك المهير اليمامة ثم مات واستخلف عليها عبد اللّه بن النعمان من بني قيس بن ثعلبة من الدول فبعث المندلب بن إدريس الحنفي على الفلج قرية من قرى بني عامر بن صعصعة فجمع له بني كعب بن ربيعة بن عامر وبني عمير فقتلوا المندلب وأكثر أصحابه. فجمع عبد اللّه بن النعمان جموعاً من حنيفة وغيرها وغزا الفلج وهزم بني عقيل وبني بشير وبني جعدة وقتل أكثرهم.

ثم اجتمعوا ومعهم نمير فلقوا بعض حنيفة بالصحراء وسلبوا نساءهم، ثم جمع عمر بن الوازع الحنفي الجموع وقال لست بدون عبد اللّه بن النعمان وهذه فترة من السلطان. وأغار وامتلأت يداه من الغنائم وأقبل ومن معه وأقبلت بنو عامر والتقوا فانهزم بنو حنيفة ومات أكثرهم من العطش. ورجع بنو عامر بالأسرى والنساء ولحق عمر بن الوازع باليمامة. ثم جمع عبيد اللّه بن مسلم الحنفي جمعاً وأغار على قشير وعكل فقتل منهم عشرين وسمى المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة والياً على اليمامة من قبل أبيه حتى ولي العراق لمروان فتعرض المثنى لبني عامر وضرب عدة من بني حنيفة وحلقهم. ثم سكنت البلاد ولم يزل عبيد اللّه بن مسلم الحنفي مستخفياً حتى قدم كسرى بن عبيد اللّه الهاشمي والياً على العامة لبني العباس ودل عليه فقتله.

اختلاف أهل خراسان

ولما قتل الوليد وقدم على نصر عهد خراسان من عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز صاحب العراق، انتقض عليه جديع بن علي الكرماني وهو أزدي. وإنما سمي الكرماني لأنه ولد بكرمان وقال لأصحابه: هذه فتنة فانظروا لأموركم رجلاً فقالوا له: أنت! وولوه. وكان الكرماني قد أحسن إلى نصر في ولاية أسد بن عبد اللّه، فلما ولي نصر عزله عن الرياسة بغيره فتباعد ما بينهما. وأكثر على نصر أصحابه في أمر الكرماني، فاعتزم على حبسه، وأرسل صاحب حرسه ليأتي به. وأراد الأزد أن يخلصوه فأبى، وجاء إلى نصر يعدد عليه أياديه قبله من مراجعة يوسف بن عمر في قتله، والغرامة عنه، وتقديم ابنه للرياسة. ثم قال: فبدلت ذلك بالإجماع على الفتنة، فأخذ يعتذر ويتنصل، وأصحاب نصر يتحاملون عليه مثل مسلم بن أحرو وعصمة بن عبد اللّه الأسدي.

ثم ضربه وحبسه آخر رمضان سنة ست وعشرين. ثم نقب السجن واجتمع له ثلاثة آلاف، وكانت الأزد قد بايعوا عبد الملك

بن حرملة على الكتاب والسنة. ولما جاء الكرماني قدمه عبد الملك ثم عسكر نصر على باب مرو الروذ، واجتمع إليه الناس، وبعث سالم بن أحور في الجموع إلى الكرماني وسفر الناس بينهما على أن يؤمنه نصر ولا يحبسه. وأجاب نصر إلى ذلك وجاء الكرماني إليه وأمره بلزوم بيته. ثم بلغه عن نصر شيء فعاد إلى حاله، وكلموه فيه فأمنه، وجاء إليه وأعطى أصحابه عشرة عشرة. فلما عزل جهور عن العراق وولي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز خطب نصر قدام بن جهور وأثنى على عبد الله، فغضب الكرماني لابن الجمهور وعاد لجمع المال واتخاذ السلاح. وكان يحضر الجمعة في ألف وخمسمائة ويصلي خارج المقصورة، ويدخل فيسلم ولا يجلس. ثم أظهر الخلاف وبعث إليه نصر سالم بن أحور فأفحش في صرفه وسفر بينهما الناس في الصلح على أن يخرج الكرماني من خراسان وتجهز للخروج إلى جرجان.

أمان الحارث بن شريح وخروجه من دار الحارث

لما وقعت الفتنة بخراسان بين نصر والكرماني خاف نصر أن يستظهر الكرماني عليه بالحارث بن شريح، وكان مقيماً ببلاد الترك منذ إثنتي عشرة سنة كما مر، فأرسل مقاتل بن حيان النبطي يراوده على الخروج من بلاد الترك، بخلاف ما يقتضي له الأمان من يزيد بن الوليد. وبعث خالد بن زياد البدي الترمذي وخالد بن عمرة مولى بني عامر لاقتضاء الأمان له من يزيد، فكتب له الأمان. وأمر نصراً أن يرد عليه ما أخذ له، وأمر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عامل الكوفة أن يكتب لهما بذلك أيضاً. ولما وصل إلى نصر بعث إلى الحارث بذلك فلقيه الرسول راجعاً مع مقاتل بن حيان وأصحابه ووصل سنة سبع وعشرين في جمادى الأخيرة وأنزله نصر بمرو، ورد عليه ما أخذ له، وأجرى عليه كل يوم خمسين درهماً وأطلق أهله وولده. وعرض عليه أن يوليه ويعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل. وقال: لست من الدنيا واللذات في شيء. وإنما أسأل كتاب الله والعمل بالسنة وبذلك أساعدك على عدوك، وإنما خرجت من البلاد منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجور فكيف تزيدني عليه. وبعث إلى الكرماني: إن عمل نصر بالكتاب عضدته في أمر الله ولا أعتبك إن ضمنت لي القيام بالعدل والسنة. ثم دعا قبائل تميم فأجاب منهم ومن غيرهم كثير واجتمع إليه ثلاثة آلاف وأقام على ذلك.

انتقاض مروان لما قتل الوليد

كان مروان بن محمد بن مروان على أرمينية وكان على الجزيرة عبدة بن رياح العبادي. وكان الوليد قد بعث بالصائفة أخاه فبعث معه مروان ابنه عبد الملك. فلما انصرفوا من الصائفة لقيهم بجرزان حين مقتل الوليد، وسار عبدة عن الجزيرة. فوثب عبد الملك بالجزيرة وجرزان فضبطهما، وكتب إلى أبيه بأرمينية يستحثه، فسار طلباً بدم الوليد بعد أن أرسل إلى الثغور من يضبطها. وكان معه ثابت بن نعيم الجذامي من أهل فلسطين، وكان صاحب فتنة. وكان هشام قد حبسه على إفساد الجند بأفريقية عند مقتل كلثوم بن عياض، وشفع فيه مروان فأطلقه واتخذه عنده يداً. فلما سار من أرمينية داخل ثابت أهل الشام في العود إلى الشام من وجه الفرات. واجتمع له الكبير من جند مروان وناهضه القتال. ثم غلبهم وانقادوا له وحبس ثابت بن نعيم وأولاده. ثم أطلقهم من حران إلى الشام وجمع نيفاً وعشرين ألفاً من الجزيرة ليسير بهم إلى يزيد، وكتب إليه يشترط ما كان عبد الملك ولى أباه محمداً من الجزيرة والموصل وأذربيجان، فأعطاه يزيد ولاية ذلك وبايع له مروان وانصرف.

وفاة يزيد وبيعة أخيه إبراهيم

ثم توفي يزيد آخر سنة ست وعشرين لخمسة أشهر من ولايته. ويقال إنه كان قدرياً وبايعوا لأخيه إبراهيم من بعده، إلا أنه انتقض عليه الناس ولم يتم له الأمر. وكان يسلم عليه تارة بالخلافة وتارة بالأمارة وأقام على ذلك نحواً من ثلاثة أشهر ثم خلعه مروان بن محمد على ما يذكر. وهلك سنة اثنتين وثلاثين.

مسير مروان إلى الشام

ولما توفي يزيد وولي أخوه إبراهيم وكان مضعفاً، انتقض عليه مروان لوقته، وسار إلى دمشق. فلما انتهى إلى قنسرين وكان عليها بشر بن الوليد عاملا لأخيه يزيد ومعه أخوهما مسرور، ودعاهم مروان إلى بيعته. ومال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة، وخرج بشر للقاء مروان. فلما تراءى الجمعان مال ابن هبيرة وقيس إلى مروان وأسلموا بشراً ومسروراً فأخذهما مروان وحبسهما، وسار بأهل قنسرين ومن معه إلى حمص، وكانوا امتنعوا من بيعه إبراهيم. فوجه إليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك في جند أهل دمشق. فكان يحاصرهم. فلما دخل مروان رحل عبد

العزيز عنهم، وبايعوا مروان وخرج للقائه سليمان بن هشام في مائة وعشرين ألفاً ومروان في ثمانين فدعاهم إلى الصلح وترك الطلب بدم الوليد على أن يطلقوا ابنيه الحكم وعثمان ولبى عهده فأبوا وقاتلوه. وسرب عسكراً جاؤوهم من خلفهم فانهزموا، وأثخن فيهم أهل حمص فقتلوا منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً وأسروا مثلها. ورجع مروان بالفل وأخذ عليهم البيعة للحكم وعثمان ابني الوليد وحبس يزيد بن العفار والوليد بن مصاد الكلبيين فهلكا في حبسه.

وكان ممن شهد قتل الوليد بن الحجاج وهرب يزيد بن خالد القسري إلى دمشق فاجتمع له مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج وتشاوروا في قتل الحكم وعثمان، خشية أن يطلقهما مروان فيثأرا بأبيهما. وولوا ذلك يزيد بن خالد فبعث مولاه أبا الأسد فقتلهما وأخرج يوسف بن عمر فقتله، واعتصم أبو محمد السفياني ببيت في الحبس فلم يطيقوا فتحه، وأعجلهم خيل مروان. فدخل دمشق وأتى بأبي الوليد ويوسف بن عمر مقتولين فدفنهما، وأتى بأبي عمر السفياني في قيوده فسلم عليه بالخلافة وقال: إن ولي العهد جعلها لك. ثم بايعه وسمع الناس فبايعوه وكان أولهم بيعة معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير وأهل حمص. ثم رجع مروان إلى خراسان واستأمن له إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام وقدما عليه، وكان قدوم سليمان من تدمر بمن معه من إخوته وأهل بيته ومواليه الذكوانية فبايعوا لمروان.

انتقاض الناس على مروان

ولما رجع إلى خراسان راسل ثابت بن نعيم من فلسطين أهل حمص في الخلاف على مروان فأجابوه وبعثوا إلى من كان بتدمر ممن طلب وجاء الأصبغ بن دوالة الكلبي وأولاده، ومعاوية السكسكي فارس أهل الشام وغيرها في ألف من فرسانهم، ودخلوا حمص ليلة الفطر من سنة سبع وعشرين. وزحف مروان في العساكر من حران ومعه إبراهيم المخلوع وسليمان بن هشام، ونزل عليهم ثالث يوم الفطر، وقد سدوا أبوابهم فنادى مناديه: ما دعاكم إلى النكث؟ قالوا لم ننكث ونحن على الطاعة. ودخل عمر بن الوضاح في ثلاثة آلاف فقاتله المحتشدون هنالك للخلاف وخرجوا من الباب الآخر وجفل مروان في اتباعهم وعلا الباب. فقتل منهم نحو خمسمائة وصلبهم وهدم من سورها علوه وأفلت الأصبغ بن دوالة وابنه فرافصة.

ثم بلغ مروان وهو بحمص خلاف أهل الغوطة وأنهم ولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحاصروا دمشق وأميرها زامل بن عمر، فبعث مروان إليهم أبا الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث، وعمر بن الوضاح في عشرة آلاف. فلما دنوا من دمشق حملوا عليهم، وخرج إليهم من كان بالمدينة فهزموهم وقتلوا يزيد بن خالد وبعثوا برأسه إلى مروان وأحرقوا المزة وقرى البرامة. ثم خرج ثابت بن نعيم في أهل فلسطين وحاصر طبرية وعليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم. فبعث مروان إليه أبا الورد، فلما قرب منه خرج أهل طبرية عليه فهزموه ولقيه أبو الورد منهزماً فهزمه أخرى، وافترق أصحابه وأسر ثلاثة من ولده وبعث بهم إلى مروان.

وتغيب ثابت وولى مروان على فلسطين الرماحس بن عبد العزيز الكناني فظفر بثابت بعد شهرين وبعث به إلى مروان موثقاً فقطعه وأولاده الثلاثة، وبعثهم إلى دمشق فصلبوا. ثم بايع لابنيه عبد الله وعبيد الله وزوجهما بنتي هشام، ثم سار إلى ترمذ من دير أيوب وكانوا قد غوروا المياه. فاستعمل المزاد والقرب والإبل وبعث وزيره الأبرش الكلبي إليهم وأجابوه إلى الطاعة. وهرب نفر منهم إلى البلد وهدم الأبرش سورها ورجع بمن أطاع إلى مروان. ثم بعث مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لقتال الضحاك الشيباني الخارجي بالكوفة وأمده ببعوث أهل الشام ونزل قرقيسياً ليقدم ابن هبيرة لقتال الضحاك.

وكان سليمان بن هشام قد استأذنه بالمقام في الرصافة أياماً ويلحق به فرجعت طائفة عظيمة من أهل الشام الذين بعثهم مروان مع ابن هبيرة فأقاموا بالرصافة ودعوا سليمان بن هشام بالبيعة فأجاب، وسار معهم إلى قنسرين فعسكر بها، وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه. وبلغ الخبر مروان فكتب إلى ابن هبيرة بالمقام ورجع من قرقيسيا إلى سليمان فقاتله فهزمه، واستباح معسكره وأثخن فيهم وقتل أسراهم، وقتل إبراهيم أكبر ولد سليمان وخالد بن هشام المخزومي جا أبيه فيما ينيف على ثلاثين ألفاً وهرب سليمان إلى حمص في الفل فعسكر بها وبنى ما كان تهدم من سورها.

وسار مروان إليه فلما قرب منه بيته جماعة من أصحاب سليمان تبايعوا على الموت، وكان على احتراس وتعبية فترك القتال بالليل وكمنوا له في طريقه من الغد فقاتلهم إلى آخر النهر، وقتل منهم نحواً من ستمائة. وجاؤوا إلى سليمان فلحق بتدمر وخلف أخاه سعيداً بحمص وحاصره مروان عشرة أشهر ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقاً حتى استأمنوا له وأمكنوه من سعيد بن هشام وآخرين شرطهم عليهم.

ثم سار لقتال الضحاك الخارجي بالكوفة. وقيل إن سليمان بن هشام لما انهزم بقنسرين لحق بعبد الله بن عمر بن عبد العزيز بالعراق، وسار معه إلى الضحاك فبايعوه وكان النضر بن سعيد قد ولي العراق. فلما اجتمعوا على قتاله سار نحو مروان فاعترضه بالقادسية جنود الضحاك من الكوفة مع ابن ملحان فقتله النضر. وولى الضحاك مكانه بالكوفة المثنى بن عمران وسار الضحاك إلى الوصل وأقبل ابن هبيرة إلى الكوفة فنزل بعيد التمر. وسار إليه المثنى فهزمه ابن هبيرة وقتله وعدة من قواد الضحاك. وانهزم الخوارج ومعهم منصور بن جمهور ثم جاؤوا إلى الكوفة واحتشدوا وساروا للقاء ابن هبيرة فهزمهم ثانية، ودخل الكوفة وسار إلى واسط وأرسل الضحاك عبيدة بن سوار الثعلبي لقتاله، فنزل الصراة وقاتله ابن هبيرة هنالك فانهزمت الخوارج كما يأتي في أخبارهم.

ظهور عبد الله بن معاوية

كان عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر قدم على عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الكوفة في إخوانه وولده، فأكرمهم عبد الله وأجرى عليهم ثلاثمائة درهم في كل يوم وأقاموا كذلك. ولما بويع إبراهيم بن الوليد بعد أخيه واضطرب الشام وسار مروان إلى دمشق، حبس عبد الله بن عمر عبد الله بن معاوية عنده، وزاد في رزقه بعده لمروان يبايعه ويقاتله. فلما ظفر مروان بإبراهيم سار إسماعيل بن عبد الله القسري إلى الكوفة وقاتله عبد الله بن عمر. ثم خاف إسماعيل أن يفتضح فكفوا خبرهم فوقعت العصبية بين الناس من إيثار عبد الله بن عمر بعضاً من مضر وربيعة بالعطاء دون غيرهم، فثارت ربيعة فبعث إليهم أخاه عاصماً ملقياً بيده فاستحيوا ورجعوا وأفاض في رؤوس الناس يستميلهم.

فاستنفر الناس واجتمعت الشيعة إلى عبد الله بن معاوية فبايعوه وأدخلوه قصر الكوفة وأخرجوا منه عاصم بن عمر. فلحق بأخيه بالحيرة وبايع الكوفيون ابن معاوية ومنهم منصور بن جمهور وإسماعيل أخو خالد القسري وعمر بن العطاء، وجاءته البيعة من المدائن وجمع الناس وخرج إلى عبد الله بن عمر بالحيرة، فسرح للقائه مولاه. ثم خرج في أثره وتلاقيا ونزع منصور بن جمهور وإسماعيل أخو خالد القسري وعمر بن العطاء. وجاءته البيعة من ابن عمر ولحقوا بالحيرة وانهزم ابن معاوية إلى الكوفة. وكان عمر بن الغضبان قد حمل على ميمنة ابن عمر فكشفها وانهزم أصحابه من ورائه، فرجع إلى الكوفة وأقام مع ابن معاوية في القصر، ومعهم ربيعة والزيدية على أفواه السكك يقاتلون ابن عمر. ثم أخذ ربيعة الأمان لابن معاوية ولأنفسهم وللزيدية، وسار ابن معاوية إلى المدائن وتبعه قوم من أهل الكوفة فتغلب بهم على حلوان والجبل وهمذان وأصبهان والري إلى أن كان من خبره ما نذكره.

غلبة الكرماني على مرو وقتله الحارث بن شريح

لما ولي مروان وولى على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة كتب يزيد إلى نصر بعهده على خراسان فبايع لمروان بن محمد فارتاب الحارث وقال: ليس لي أمان من مروان وخرج فعسكر وطلب من نصر أن يجعل الأمر شورى فأبى، وقرأ جهم بن صفوان مولى راسب وهو رأس الجهمية سيرته وما يدعو إليه على الناس، فرضوا وكثر جمعه. وأرسل إلى نصر في عزل سالم بن أحور عن الشرطة، وتغير العمال. فتقرر الأمر بينهما على أن يردوا ذلك إلى رجال أربعة: مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان بتعيين نصر والمغيرة بن شعبة الجهضي ومعاذ بن جبلة بتعيين الحارث. وأمر نصر أن يكتب بولاية سمرقند وطخارستان لمن يرضاه هؤلاء الأربعة.

وكان الحارث يقول إنه صاحب السور وإنه يهدم سور دمشق ويزيل ملك بني أمية. فأرسل إليه نصر: إن كان ما تقوله حقاً فتعال نسير إلى دمشق، وإلا فقد أهلكت عشيرتك. فقال الحارث: هو حق لكن لا تبايعني عليه أصحابي. قال: فكيف تهلك عشرين ألفاً من ربيعة واليمن؟ ثم عرض عليه ولاية ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف فلم يقبل. فقال له: فابدأ بالكرماني فاقتله وأنا في طاعتك. ثم اتفقا على تحكيم جهم ومقاتل، فاحتكما بأن يعزله نصر ويكون الأمر شورى. فأبى نصر فخالفه الحارث، وقدم على نصر جمع من أهل خراسان حين سمعوا بالفتنة منهم عاصم بن عمير الضمريمي وأبو الديال الناجي ومسلم بن عبد الرحمن وغيرهم، فكانوا معه. وأمر الحارث أن يقرأ سيرته في الأسواق والمساجد، وأتاه الناس وقرئت على باب نصر.

فضرب غلمان نصر قارئها فنادى بهم وتجهزوا للحرب. ونقب الحارث سور مرو من الليل ودخل بالنهار فاقتتلوا وقتل جهم بن مسعود الناجي وأعين مولى حيان ونهبوا منزل مسلم بن

أحور، فركب سالم حين أصبح فقاتل الحارث وهزمه، وجاء إلى عسكره فقتل كاتبه. وبعث نصر إلى الكرماني وكان في الأزد وربيعة وكان موافقاً للحارث لما قدمناه، فجاءه نصر على الأمان وحادثهم وأغلظوا له في القول فارتاب ومضى، وقتل من أصحابه جهم بن صفوان. ثم بعث الحارث ابنه حاتماً إلى الكرماني يستجيشه فقال له أصحابه: دع عدويك يضطربان، ثم ضرب بعد يومين وناوش القتال أصحاب نصر فهزمهم، وصرع تميم بن نصر ومسلم بن أحور.

وخرج نصر من مرو من الغد فقاتلهم ثلاثة أيام وانهزم الكرماني وأصحابه ونادى مناد يا معشر ربيعة واليمن! إن أبا سيار قتل فانهزمت مضر ونصر وترجل ابنه تميم فقاتل وأرسل إليه الحارث أني كاف عنك فإن اليمانية يعيروني بانهزامكم، فاجعل أصحابك إزاء الكرماني، ولما انهزم نصر غلب الكرماني على مرو ونهب الأموال فأنكر ذلك عليه الحارث، ثم اعتزل عن الحارث بشر بن جرموز الضبي في خمسة آلاف وقال: إنما كنا نقاتل معك طلباً للعدل، فأما إن اتبعت الكرماني للعصبية فنحن لا نقاتل. فدعى الحارث الكرماني إلى الشورى فأبى، فانتقل الحارث عنه وأقاموا أياماً.ثم ثلم الحارث السور ودخل البلد وقاتله الكرماني قتالا شديداً فهزمه وقتله وأخاه سوادة.

واستولى الكرماني على مرو وقيل إن الكرماني خرج مع الحارث لقتال بشر بن جرموز. ثم ندم الحارث على اتباع الكرماني وأتى عسكر بشر فأقام معهم وبعث إلى مضر من عسكر الكرماني فساروا إليهم وكانوا يقتتلون كل يوم ويرجعون إلى خنادقهم. ثم نقب الحارث بعد أيام سور مرو ودخلها وتبعه الكرماني واقتتلوا فقتل الحارث وأخاه وبشر بن جرموز وجماعة من بني تميم. وذلك سنة ثمان وعشرين ومائة فانهزم الباقون وصفت مرو لليمن وهدموا دور المضرية.

ظهور الدعوة العباسية بخراسان

قد ذكرنا أن أبا مسلم كان يتردد إلى الإمام من خراسان ثم استدعاه سنة تسعة وعشرين ليسأله عن الناس فسار في سبعين من النقباء مؤدين بالحج. ومر بنسا فاستدعى أسيداً فأخبره بأن كتب الإمام جاءت إليه مع الأزهر بن شعيب وعبد الملك بن سعيد، ودفع إليه الكتب. ثم لقيه بقومس كتاب الإمام إليه وإلى سليمان بن كثير أني قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث يلقاك كتابي ووجه قحطبة إلى الإمام بما معه من الأموال والعروض.

وجاء أبو مسلم إلى مرو وأعطى كتاب الإمام لسليمان بن كثير وفيه الأمر بإظهار الدعوة، فنصبوا أبا مسلم وقالوا رجل من أهل البيت ودعوا إلى طاعة بني العباس. وكتبوا إلى الدعاة بإظهار الأمر، وترك أبو مسلم بقرية من قرى مرو في شعبان من سنة تسع وعشرين.

ثم بثوا الدعاة في طخارستان ومرو الروذ والطالقان وخوارزم، وأنهم إن أعجلهم عدوهم. دون الوقت عاجلوه وجردوا السيوف للجهاد، ومن شغله العدو عن الوقت فلا حرج عليه أن يظهر بعد الوقت. ثم سار أبو مسلم فنزل على سليمان بن كثير الخزاعي آخر رمضان ونصر بن سيار يقاتل الكرماني وشيبان. فعقد اللواء الذي بعث به الإمام إليه وكان يدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً. ثم عقد الراية التي بعثها معه وتسمى السحاب وهو يتلو: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ الآية.

ولبسوا السواد هو وسليمان بن كثير وأخوه سليمان ومواليه ومن أجاب الدعوة من أهل تلك القرى وأوقدوا النيران ليلتهم لشيعتهم في خرقان فأصبحوا عنده. ثم قدم عليه أهل السقادم مع أبي الوضاح في سبعمائة راجل. وقدم من الدعاة أبو العباس المروزي وحَصِن أبو مسلم بسُفيدنج ورمَّها وحضر عيد الفطر، فصلى سليمان بن كثير وخطب على المنبر في العسكر وبدأ بالصلاة قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة. وكبر في الأولى ست تكبيرات وفي الثانية خمساً خلاف ما كانوا بنو أمية يفعلون. وكل ذلك مما سنّه لهم الإمام وأبوه.

ثم انصرفوا من الصلاة مع الشيعة فطعموا وكان أبو مسلم وهو في الخندق إذا كتب نصر بن سيار يبدأ باسمه فلما قوي بمن اجتمع إليه كتب إلى نصر وبدأ بنفسه وقال: أما بعد فإن اللّه تباركت أسماؤه عير قوماً في القرآن فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ إلى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾. فاستعظم الكتاب وبعث مولاه يزيد لمحاربة أبي مسلم لثمانية عشر شهراً من ظهوره فبعث إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي فدعاه إلى الرضا من آل رسول اللّه ﷺ فاستكبروا فقاتلهم مالك وهو في مائتين يوماً بكماله. وقدم على أبي مسلم صالح بن سليمان الضبي وإبراهيم بن يزيد وزياد بن عيسى فسرحهم إلى مالك فقوي مالك بهم، وقاتلوا القوم فحل عبد اللّه الطائي على يزيد مولى نصر فأسره، وانهزم أصحابه وأرسله الطائي إلى أبي مسلم ومعه رؤوس القتلى فأحسن أبو مسلم إلى يزيد وعالجه، ولما اندملت جراحه قال: إن شئت أقمت عندنا وإلا رجعت إلى مولاك سالماً بعد أن تعاهدنا على أن لا تحاربنا ولا تكذب علينا

فرجع إلى مولاه.

وتفرس نصر أنه عاهدهم فقال: والله هو ما ظننت وقد استحلفوني أن لا أكذب عليهم وأنهم والله يصلون الصلاة لوقتها بأذان وإقامة ويتلون القرآن ويذكرون الله كثيراً ويدعون إلى ولاية آل رسول الله ﷺ، وما أحسب أمرهم إلا سيعلو. ولولا أنك مولاي لأقمت عندهم. وكان الناس يرجفون عنهم بعبادة الأوثان واستحلال الحرام.

ثم غلب حازم بن خزيمة على مرو الروذ وقتل عامل نصر بها. وكان من بني تميم من الشيعة وأراد بنو تميم منعه. فقال: أنا منكم فإن ظفرت فهي لكم وإن قتلت كفيتم أمري فنزل قرية زاها. ثم تغلب على أهلها فقتل بشر بن جعفر السغدي عامل نصر عليها أوائل ذي القعدة، وبعث بالفتح إلى أبي مسلم مع ابنه خزيمة بن حازم. وقيل في أمر أبي مسلم غير هذا وإن إبراهيم الإمام أزوج أبا مسلم لما بعثه إلى خراسان بابنة أبي النجم وكتب إلى النقباء بطاعته.

وكان أبو مسلم من سواد الكوفة فهزما فانتهى لإدريس بن معقل العجلي. ثم سار إلى ولاية محمد بن علي، ثم ابنه إبراهيم، ثم للأئمة من ولاية من ولده. وقدم خراسان وهو حديث السن واستصغره سليمان بن كثير فرده. وكان أبو داود خالد بن إبراهيم غائباً وراء النهر، فلما جاء إلى مرو أقرأه كتاب الإمام وسألهم عن أبي مسلم فأخبروه أن سليمان بن كثير رده لحداثة سنة وأنه لا يقدر على الأمر، فنخاف على أنفسنا وعلى من يدعوه. فقال لهم أبو داود: إن الله بعث نبيه ﷺ إلى جميع خلقه، وأنزل عليه كتابه بشرائعه وأنباء بما كان وما يكون وخلف علمه رحمة لأمته وعلمه إنما هو عند عترته وأهل بيته وهم معدن العلم وورثة الرسول فيما علمه الله. أتشكون في شيء من ذلك؟ قالوا: لا. قال: فقد شككتم والرجل لم يبعثه إليكم حتى علم أهليته لما يقوم به فبعثوا عن أبي مسلم وردوه من قومس بقول أبي داود وولوه أمرهم وأطاعوه. ولم تزل في نفس أبي مسلم من سليمان بن كثير. ثم بعث الدعاة ودخل الناس في الدعوة أفواجاً واستدعاه الإمام سنة تسع وعشرين أن يوافيه بالمرسوم ليأمره بأمره في إظهار الدعوة وأن يقدم معه قحطبة بن شبيب ويحمل ما اجتمع عنده من الأموال. فسار في جماعة من النقباء والشيعة فلقيه كتاب الإمام بقومس يأمره بالرجوع وإظهار الدعوة بخراسان، وبعث قحطبة بالمال وأن قحطبة سار إلى جرجان.و استدعى خالد بن برمك وأبا عون فقدما بما عندهما من مال الشيعة فسار به نحو الإمام.

مقتل الكرماني

قد ذكرنا من قبل أن الكرماني قتل الحارث بن شريح فخلصت له مرو وتنحى نصر عنها. ثم بعث نصر سالم بن أحور في رابطته وفرسانه إلى مرو فوجد يحيى بن نعيم الشيباني في ألف رجل من ربيعة ومحمد بن المثنى في سبعمائة من الأزد وأبو الحسن بن الشيخ في ألف منهم والحربي السُغدي في ألف من اليمن. فتلاحى سالم وابن المثنى وشتم سالم الكرماني فقاتلوه فهزموه وقتل من أصحابه نحو مائة. فبعث نصر بعده عصمة بن عبد الله الأسدي فكان بينهم مثل ما كان أولاً، فقاتلهم محمد السغدي، فانهزم السغدي وقتل من أصحابه أربعمائة. ورجع إلى نصر. فبعث مالك بن عمر التميمي فاقتتلوا كذلك وانهزم مالك وقتل من أصحابه سبعمائة ومن أصحاب الكرماني ثلاثمائة.

ولما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أثخن صاحبه وأنه لا مدد لهم جعل يكتب إلى شيبان الخارجي يذم اليمانية تارةً ومضر أخرى ويوصي الرسول بكتاب مضر أن يتعرض لليمانية ليقرؤوا ذم مضر والرسول بكتاب اليمانية أن يتعرض لمضر ليقرؤوا ذم اليمانية حتى صار هوى الفريقين معه. ثم كتب إلى نصر بن سيار والكرماني: أن الإمام أوصاني بكم ولا أعدو رأيه فيكم. ثم كتب يستدعي الشيعة: أسد بن عبد الله الخزاعي بِنَسَا ومقاتل بن حكيم بن غزوان وكانوا أول من سود ونادوا يا محمد! يا منصور! ثم سوَّد أهل أبي ورد ومرو الروذ وقرى مرو فاستدعاهم أبو مسلم وأقبل فنزل بين خندق الكرماني وخندق نصر وهابه الفريقان وبعث إلى الكرماني أني معك وقبل فانضم أبو مسلم إليه، وكتب نصر بن سيار إلى الكرماني يحذره منه ويشير عليه بدخول مرو ليصالحه. فدخل ثم خرج من الغد، وأرسل إلى نصر في إتمام الصلح في مائتي فارس، فرأى نصر فيه غرةً فبعث إليه ثلاثمائة فارس فقتلوه. وسار ابنه إلى أبي مسلم وقاتلوا نصر بن سيار حتى أخرجوه من دار الإمارة إلى بعض الدور. ودخل أبو مسلم مرو فبايعه علي بن الكرماني، وقال له أبو مسلم: أقم على ما أنت عليه حتى آمرك بأمري. وكان نصر حين نزل أبو مسلم بين خندقه وخندق الكرماني ورأى قوته كتب إلى مروان بن محمد يعلمه بخروجه وكثرة من معه ودعائه لإبراهيم بن محمد:

ارى خلل الرماد وميض جمر	ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكو	وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها يخرجوها	مسجرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام

فإن يك قومنـا أضحـوا نيامـاً فقل قومـوا فقـد حـان القيـام
تعزي عـن رجـالك ثـم قـولي على الإسـلام والعرب السـلام

فوجده مشتغلاً بحرب الضحاك بن قيس فكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فأحثهم التلول قبلك. فقال نصر: أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنده. وصادف وصول كتاب نصر إلى مروان عثورهم على كتاب من إبراهيم الإمام لأبي مسلم يوبخه حيث لم ينتهز الفرصة من نصر والكرماني إذ أمكنته ويأمره أن لا يدع بخراسان متكلماً بالعربية. فلما قرأ الكتاب بعث إلى عامله بالبلقاء أن يسير إلى الحيسة فيبعث إليه إبراهيم بن محمد مشدوداً لوثاق فحبسه مروان.

اجتماع أهل خراسان على قتل أبي مسلم

لما أظهر أبو مسلم أمره سارع إليه الناس، وكان أهل مرو يأتونه ولا يمنعهم نصر، وكان الكرماني وشيبان الخارجي لا يكرهان أمر أبي مسلم لأنه دعا إلى خلع مروان. وكان أبو مسلم ليس له حرس ولا حجاب ولا غلظة الملك، فكان الناس يأنسون به لذلك، وأرسل نصر إلى شيبان الخارجي في الصلح ليتفرغ لقتال أبي مسلم، أما أن يكون معه أو يكف عنه، ثم نعود إلى ما كنا فيه. فهم شيبان بذلك، وكتب أبو مسلم إلى الكرماني فحرضه على منع شيبان من ذلك فدخل عليه وثناه عنه. ثم بعث أبو مسلم النضر بن نعيم الضبي إلى هراة فملكها وطرد عنها عيسى بن عقيل بن معقل الليثي عامل نصر.

فجاء يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني إلى الكرماني وشيبان وأغراهما بمصالحة نصر. وقال: إن صالحتم نصراً قاتله أبو مسلم وترككم لأن أمر خراسان لمضر. وإن لم تصالحوه صالحه وقاتلكم فقدموا نصراً قبلكم. فأرسل شيبان إلى نصر في الموادعة فأجاب وجاء مسلم بن أحور بكتب الموادعة فكتبوها. وبعث أبو مسلم إلى شيبان في موادعة ثلاثة أشهر. فقال ابن الكرماني: إذا ما صالحت نصراً إنما صالحه شيبان وأنا موتور بأبي. ثم عاود القتال وقعد شيبان عن نصره وقال: لا يحل الغدر فاستنصر ابن الكرماني بأبي مسلم فأقبل حتى نزل الماخران لاثنتين وأربعين يوماً من نزوله بسفيدنج وخندق على معسكره وجعل له بابين وعلى شرطته مالك بن الهيثم وعلى الحرس أبا إسحاق خالد بن عثمان، وعلى ديوان الجند أبا صالح كامل بن المظفر وعلى الرسائل أسلم بن صبيح وعلى القضاء القاسم بن مجاشع النقيب.

وكان القاسم يصلي بأبي مسلم ويقرأ القصص بعد العصر فيذكر فضل بني هاشم وسالف بني أمية. فلما نزل أبو مسلم الماخران أرسل إلى ابن الكرماني بأنه معه فطلب لقاءه فجاءه أبو مسلم وأقام عنده يومين ثم رجع وذلك أول المحرم سنة ثلاثين. ثم عرض الجند وأمر كامل بن المظفر بكتب أسمائهم وأنسابهم في دفتر فبلغت عدته سبعة آلاف. ثم إن القبائل من ربيعة ومضر واليمن توادعوا على وضع الحرب والاجتماع على قتال أبي مسلم فعظم ذلك عليه وتحول عن الماخران لأربعة أشهر من نزولها لأنها كانت تحت الماء. وخشي أن يقطع فتحول إلى طبسين وخندق بها، وخندق نصر بن سيار على نهر عياض وأنزل عماله بالبلاد، فأنزل أبا الدبال في جنده لطوسان فآذوا أهلها وعسفوهم وكان أكثرهم مع أبي مسلم في خندق فسير إليهم جنداً فقاتلوه فهزموه وأسروا من أصحابه ثلاثين، فأطلقهم أبو مسلم ثم بعث محرز بن إبراهيم في جمع من الشيعة ليقطع مادة نصر من مرو الروذ وبلخ وطخارستان فخندق بين نصر وبين هذه البلاد، واجتمع إليه ألف رجل وقطع المادة عن نصر.

مقتل عبد اللّه بن معاوية

قد تقدم لنا أن عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بويع بالكوفة وغلبه عليها عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز ولحق بالمدائن. وجاءه ناس من أهل الكوفة وغيرها فسار إلى الجبال وغلب عليها وعلى حلوان وقومس وأصبهان والري وأقام بأصبهان. وكان محارب بن موسى مولى بني يشكر عظيم القدر بفارس فجاء إلى دار الإمارة بإصطخر وطرد عامل عبد اللّه عنها، وبايع الناس لعبد اللّه بن معاوية. ثم سار إلى كرمان فأغار عليها وانضم إليه قواد من أهل الشام. فسار إلى سالم بن المسيب عامل عبد اللّه بن عمر على شيراز فقتله سنة ثمان وعشرين. ثم سار محارب إلى أصبهان وحول عبد اللّه بن معاوية إلى اصطخر بعد أن استعمل على الجبال أخاه الحسن بن معاوية، وأتى إلى اصطخر فنزل بها وأتاه بنو هاشم وغيرهم، وجبى المال وبعث العمال. وكان معه منصور بن جمهور وسليمان بن هشام، وأتاه شيبان بن عبد العزيز الخارجي ثم أتاه جعفر المنصور وعبد اللّه ابن أخيه عيسى.

ولما قدم يزيد بن عمر بن هبيرة على العراق أرسل نَباتة بن حنظلة الكلابي على الأهواز وأن يقاتل عبد اللّه بن معاوية، وبلغ سليمان بن حبيب وهو بالأهواز فسرح داود بن حاتم للقاء نباتة، وهرب سليمان من الأهواز إلى نيسابور وقد غلب الأكراد عليها

فطردهم عنها، وبايع لابن معاوية، فبعث أخاه يزيد بن معاوية عليها. ثم إن محارب بن موسى فارق عبد الله بن معاوية وجمع، وقصد نيسابور. فقاتله يزيد بن معاوية وهزمه، فأتى كرمان. وأقام بها حتى قدم محمد بن الأشعث فصار معه ثم نافره، فقتله ابن الأشعث وأربعة وعشرين ابناً له. ثم بعث يزيد بن هبيرة بعد نباتة بن حنظلة ابنه داود بن يزيد في العساكر إلى عبد الله بن معاوية، وعلى مقدمته داود بن ضَبارة.

وبعث معن بن زائدة من وجه آخر، فقاتلوا عبد الله بن معاوية وهزموه وأسروا وقتلوا، وهرب منصور بن جمهور إلى السند وعبد الرحمن بن يزيد إلى عُمان وعمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان إلى مصر، وبعثوا بالأسرى إلى ابن هبيرة فأطلقهم ومضى ابن معاوية عن فارس إلى خراسان.و سار معن بن زائدة في طلب منصور بن جمهور وكان فيمن أسر مع عبد الله بن معاوية عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، شفع فيه حرب بن قطن من أخواله بني هلال، فوهبه له ضبارة وغاب عبد الله بن معاوية عن ابن ضبارة، ورمى أصحابه باللواطة، فبعث إلى ابن هبيرة ليخبره، وسار ابن ضبارة في طلب عبد الله بن معاوية إلى شيراز فحاصره بها حتى خرج منها هارباً ومعه أخوه الحسن ويزيد وجماعة من أصحابه، فسلك المفازة على كرمان إلى خراسان طمعاً في أبي مسلم لأنه كان يدعو إلى الرضا من آل محمد، وقد استولى على خراسان فوصل إلى نواحي هراة وعليها مالك فقال له: انتسب نعرفك. فانتسب له فقال: أما عبد الله وجعفر فمن أسماء آل الرسول وأما معاوية فلا نعرفه في أسمائهم. قال: إن جدي كان عند معاوية حين ولد أبي فبعث إليه مائة ألف على أن يسمي ابنه باسمه. فقال: لقد اشتريتم الأسماء الخبيثة بالثمن اليسير فلا نرى لك حقاً فيما تدعو إليه. ثم بعث يخبره إلى أبي مسلم فأمره بالقبض عليه وعلى من معه فحبسهم. ثم كتب إليه بإطلاق أخويه الحسن ويزيد وقتل عبد الله فوضع الفراش على وجهه فمات..... لما تعاقد نصر وابن الكرماني وقبائل ربيعة واليمن ومضر على قتال أبي مسلم عظم على الشيعة، وجمع أبو مسلم أصحابه ودس سليمان بن كثير إلى ابن الكرماني يذكره بثأر أبيه من نصر فانتقضوا، فبعث نصر إلى أبي مسلم بموافقة مضر وبعث إليه أصحاب ابن الكرماني وهم ربيعة واليمن بمثل ذلك. واستدعى وفد الفريقين ليختار الركون إلى أحدهما وأحضر الشيعة لذلك وأخبرهم أن مضر أصحاب مروان وعماله وشيعته وقبله يحيى بن يزيد. فلما حضر الوفد تكلم سليمان بن كثير، ويزيد بن شقيق السلمي بمثل ذلك وبأن نصر بن سيار عامل مروان ويسميه أمير المؤمنين وينفذ أوامره فليس على هدى، وإنما يختار علي بن الكرماني وأصحابه. ووافق السبعون من الشيعة على ذلك وانصرف الوفد.

ورجع أبو مسلم من أبين إلى الماخران وأمر الشيعة ببناء المساكن وأمِن من فتنة العرب. ثم أرسل إليه علي بن الكرماني أن يدخل مرو من ناحيته ليدخل هو وقومه من الناحية الأخرى، فلم يطمئن لذلك أبو مسلم وقال: ناشبهم الحرب من قبل فناشب ابن الكرماني نصر بن سيار الحرب ودخل مرو من ناحيته وبعث أبو مسلم بعض النقباء. فدخل معه ثم سار وعلى مقدمته أسيد بن عبد الله الخزاعي، وعلى ميمنته مالك بن الهيثم وعلى ميسرته القاسم بن مجاشع. فدخل مرو والفريقان يقتتلان، ومضى إلى قصر الإمارة وهو يتلو: ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها. وأمر الفريقين بالانصراف فانصرفوا إلى معسكرهم وصفت له مرو، وأمر بأخذ البيعة من الجند، وتولى أخذها أبو منصور طلحة بن زريق أحد النقباء الذين اختارهم محمد بن علي من الشيعة حين بعث دعاته إلى خراسان سنة ثلاث وأربع، وكانوا إثني عشر رجلاً.

فمن خزاعة سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وزياد بن صالح وطلحة بن زريق وعمر بن أعين. ومن طيىء قحطبة بن شبيب بن خالد بن سعدان. ومن تميم أبو عيينة موسى بن كعب ولاهز بن قريط والقاسم بن مجاشع وأسلم بن سلام. ومن بكر بن وائل أبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني وأبو علي الهروي، ويقال شبل بن طهمان. وكان عمر بن أعين مكان موسى بن كعب وأبو النجم إسماعيل بن عمران مكان أبي علي الهروي وهو ختن أبي مسلم. ولم يكن أحد من النقباء غير أبي منصور طلحة بن زريق بن سعد وهو أبو زينب الخزاعي، وقد شهد حرب ابن الأشعث وصحب المهلب وغزا معه. وكان أبو مسلم يشاوره في الأمور. وكان نص البيعة: أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ والطاعة للرضا من آل رسول الله ﷺ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق، والمشي إلى بيت الله الحرام، وعلى أن لا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى تبدأكم به ولاتكم، وذلك سنة ثلاثين ومائة.

ثم أرسل أبو مسلم لاهز بن قريط في جماعة إلى نصر بن سيار يدعو إلى البيعة، وعلم نصر أن أمره قد استقام ولا طاقة له بأصحابه، فوعده بأنه يأتيه يبايعه من الغد، وأرسل أصحابه بالخروج من ليلتهم إلى مكان يأمنون فيه. فقال أسلم بن أحوز لا يتهيأ لنا الليلة. فلما أصبح..... أبو مسلم كتابه وأعاد لاهز بن قريط إلى نصر يستحثه فأجاب وأقام لوضوئه، فقال لاهز: إن الملأ

يأتمرون بك ليقتلوك. فخرج نصر عند المساء من خلف حجرته ومعه ابنه تميم والحكم بن غيلة النميري وامرأته المرزبانة وانطلقوا هراباً.

واستبطأه لاهز فدخل المنزل فلم يجده وبلغ أبا مسلم هربه فجاء إلى معسكره وقبض على أصحابه منهم سالم بن أحوز صاحب شرطته والبختري كاتبه، وابنان له ويونس بن عبد ربه ومحمد بن قطن وغيرهم. وسار أبو مسلم وابن الكرماني في طلبه ليلتهما فأدركا امرأته قد خلفها وسار فرجعوا إلى مرو. وبلغ نصر من سرخس فأقام بطوس خمس عشرة ليلة. ثم جاء نيسابور فأقام بها وتعاقد ابن الكرماني مع أبي مسلم على رأيه. ثم بعث إلى شيبان الحروري يدعوه إلى البيعة فقال شيبان: بل أنت تبايعني..... واستنصر بابن الكرماني فأبى عليه، وسار شيبان إلى سرخس واجتمع له جمع من بكر بن وائل وبعث إليه أبو مسلم في الكف فسجن الرسل. فكتب إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث المكنى بأبي ورد أن يسير إليه فقاتله وقتله وقتل بكر بن وائل الرسل الذين كانوا عنده.

وقيل: إن أبا مسلم إنما وجه إلى شيبان عسكراً من عنده عليهم خزيمة بن حازم وبسام بن إبراهيم. ثم بعث أبو مسلم كعباً من النقباء إلى أبيورد فافتتحها، ثم أبا داود خالد بن إبراهيم من النقباء إلى بلخ وبها زياد بن عبد الرحمن القشيري فجمع له أهل بلخ وترمذ وجند طخارستان ونزل الجوزجان، ولقيهم أبو داود فهزمهم وملك مدينة بلخ. وساروا إلى ترمذ فكتب أبو مسلم إلى أبي داود يستقدمه وبعث مكانه على بلخ يحيى بن نعيم أبا الميلا فداخله زياد بن عبد الرحمن في الخلاف على أبي مسلم، واجتمع لذلك زياد ومسلم بن عبد الرحمن الباهلي، وعيسى بن زرعة السلمي وأهل بلخ وترمذ وملوك طخارستان وما وراء النهر. ونزلوا على فرسخ من بلخ وخرج إليهم يحيى بن نعيم بمن معه.

واتفقت كلمة مضر وربيعة واليمن ومن معهم من العجم على قتال المسودة وولوا عليهم مقاتل بن حيان النبطي مخافة أن يتنافسوا. وبعث أبو مسلم أبا داود إليهم فأقبل بعساكره حتى اجتمعوا على نهر السرخسان واقتتلوا. وكان زياد وأصحابه قد خلفوا أبا سعيد القرشي مسلَّحةً وراءهم خشية أن يؤتوا من خلفهم وكانت راياته سوداً وأغفلوا ذلك. فلما اشتد القتال زحف أبو سعيد في أصحابه لمددهم فظنوه كميناً للمسودة فانهزموا وسقطوا في النهر، وحوى أبو داود في معسكرهم بما فيه وملك بلخ.

ومضى زياد ويحيى ومن معهما إلى ترمذ وكتب أبو مسلم يستقدم أبا داود. وبعث النضر بن صبيح المزني على بلخ. ولما قدم أبو داود أشار على أبي مسلم بالتفرقة بين علي وعثمان ابني الكرماني. فبعث عثمان على بلخ وقدمها فاستخلف الفرافصة بن ظهير العبسي وسار هو والنضر بن صبيح إلى مرو الروذ. وجاء مسلم بن عبد الرحمن الباهلي من ترمذ في المضرية، فاستولى على بلخ. ورجع إليه عثمان والنضر فهربوا من ليلتهم ولم يُعنَ النضر في طلبهم وقاتلهم عثمان ناحية عنه فانهزم، ورجع أبو داود إلى بلخ. وسار أبو مسلم إلى نيسابور ومعه علي بن الكرماني وقد اتفق مع أبي داود على قتال ابني الكرماني فقتل أبو داود عثمان في بلخ وقتل أبو مسلم علياً في طريقه إلى نيسابور.

مسير قحطبة للفتح

وفي سنة ثلاثين قدم قحطبة بن شبيب على أبي مسلم من عند الإمام إبراهيم وقد عقد له لواء على محاربة العدو فبعثه أبو مسلم في مقدمته وضم إليه العساكر وجعل إليه التولية والعزل، وأمر الجنود بطاعته. وقد كان حين غلب على خراسان بعث العمال على البلاد فبعث ساعي بن النعمان الأزدي على سمرقند وأبا داود خالد بن إبراهيم على طخارستان ومحمد بن الأشعث الخزاعي على طبسين وجعل مالك بن الهيثم على شرطته. وبعث قحطبة إلى طوس ومعه عدة من القواد: أبو عون عبد الملك بن يزيد وخالد بن برمك وعثمان بن نهيك، وحازم بن خزيمة وغيرهم فهزم أهل طوس وأفحش في قتلهم.

ثم بعث أبو مسلم القاسم بن مجاشع إلى نيسابور على طريق الحجة، وكتب إلى قحطبة بقتال تميم بن نصر بالسودقان، ومعه الثاني ابن سويد وأصحاب شيبان، وأمده بعشرة آلاف مع علي بن معقل. فزحف إليهم ودعاهم بدعوته وقاتلهم، فقتل تميم بن نصر وجماعة عظيمة من أصحابه، يقال: بلغوا ثلاثين ألفاً واستبيح معسكرهم وتحصن الباقي بالمدينة فافتتحها عليهم، وخلف خالد بن برمك على قبض الغنائم، وسار إلى نيسابور. فهرب منها نصر بن سيار إلى قَومِس ثم تفرق عنه أصحابه فسار إلى نباتة بن حنظلة بجرجان وكان يزيد بن هبيرة بعثه مدداً لنصر، فأتى فارس وأصبهان ثم سار إلى الري، ثم إلى جرجان.

وقدم قحطبة نيسابور فأقام بها رمضان وشوال وارتحل إلى جرجان، وجعل ابنه الحسن على مقدمته وانتهى إلى جرجان وأهل الشام بها مع نباتة فهابهم أهل خراسان فخطبهم قحطبة وأخبرهم أن الإمام أخبره أنهم يلقونه مثل هذه العدد فينصرونه عليهم. ثم

تقدم للقتال وعلى ميمنته ابنه الحسن فانهزم أهل الشام وقتل نباتة في عشرة آلاف منهم وبعث برأسه إلى أبي مسلم، وذلك في ذي الحجة من السنة وملك قحطبة جرجان. ثم بلغه أن أهل جرجان يرومون الخروج عليهم فاستعرضهم وقتل منهم نحواً من ثلاثين ألفاً وسار نصر من قومس إلى خوار الري وعليها أبو بكر العقيلي وكتب إلى ابن هبيرة بواسط يستمده فحبس رسله. فكتب مروان إلى ابن هبيرة فجهز ابن هبيرة جيشاً كثيفاً إلى نصر وعليهم ابن عطيف.

هلاك نصر بن سيار

ثم بعث قحطبة ابنه الحسن إلى محاصرة نصر في جوار الري في محرم سنة إحدى وثلاثين، وبعث إليه المدد مع أبي كامل وأبي القاسم محرز بن إبراهيم وأبي العباس المروزي. ولما تقاربوا نزع أبو كامل إلى نصر فكان معه وهرب جند قحطبة وأصحاب نصر أصابهم شيء من متاعهم فبعثه نصر إلى ابن هبيرة فاعترضه ابن عطيف بالري فأخذه فغاضبه نصر فأقام ابن عطيف بالري. وسار نصر إلى الري وعليها حبيب بن يزيد النهشلي. فلما قدمها سار ابن عطيف إلى همذان وكان فيها مالك بن أدهم بن محرز الباهلي، فعدل بن عطيف عنها إلى أصبهان وبها عامر بن ضبارة، وقدم نصر الري فأقام بها يومين ومرض وارتحل. فلما بلغ نهاوند مات لاثني عشر من ربيع الأول من السنة ودخل أصحابه همذان.

استيلاء قحطبة على الري

ولما مات نصر بن سيار بعث الحسن بن قحطبة خزيمة بن حازم إلى سمنان وأقبل قحطبة من جرجان وقدم زياد بن زرارة القشيري وقد كان قدم على طاعة أبي مسلم واعتزم على اللحاق بابن ضبارة، فبعث قحطبة في أثره المسيب بن زهير الضبي فهزمه، وقتل عامة مَن مع ابن معاوية ورجع، ولحق قحطبة ابنه الحسن إلى الري فخرج عنها حبيب بن يزيد النهشلي وأهل الشام، ودخلها الحسن في صفر ثم لحق به أبوه وكتب برسالة إلى أبي مسلم.

وقد أكثر أهل الري إلى بني أمية فأخذ أبو مسلم أملاكهم ولم يردها عليهم إلا السفاح بعد حين. فأقام قحطبة بالري وكتب أبو مسلم إلى أصبهبذ طبرستان بالطاعة وأداء الخراج فأجاب، وكتب إلى المصمغان صاحب دَنباوند وكبير الديلم بمثل ذلك فأفحش في الرد. فكتب أبو مسلم إلى موسى بن كعب أن يسير إليه من الري فسار ولم يتمكن منه لضيق بلاده. وكان الديلم يقاتلونه كل يوم، فكثر فيهم الجراح والقتل، ومنعهم الميرة فأصابهم الجوع فرجع موسى إلى الري ولم يزل المصمغان متمنعاً إلى أيام المنصور فأغزاه حماد بن عمر في جيش كثيف، ففتح دنباوند. ولما ورد كتاب قحطبة على أبي مسلم ارتحل عن مرو ونزل نيسابور ثم سير قحطبة ابنه الحسن بعد نزوله الري بثلاث ليال، فسار عنها مالك بن أدهم وأهل الشام وخراسان إلى نهاوند ونزل على أربعة فراسخ من المدينة، وأمدّه قحطبة بأبي الجهم بن عطية مولى باهلة في سبعمائة وأقام محاصراً لها.

استيلاء قحطبة على أصبهان ومقتل ابن ضبارة وفتح نهاوند وشهرزور

قد تقدم لنا أن ابن هبيرة بعث ابنه داود بن يزيد لقتال عبد الله بن معاوية باصطخر، وبعث معه عامر بن ضبارة فهزموه واتبعوه إلى كرمان سنة تسع وعشرين، فلما بلغ ابن هبيرة مقتل نباتة بجرجان سنة ثلاثين، كتب إلى ابنه داود بن ضبارة بالمسير إلى قحطبة فسار من كرمان في خمسين ألفاً ونزلوا أصبهان. وبعث إليهم قحطبة جماعة من القواد عليهم مقاتل بن حكيم الكعبي فنزلوا قُمّ وسار قحطبة إلى نهاوند مدداً لولده الحسن الذي حاصرهم فبعث مقاتلاً بذلك قحطبة، فسار حتى لحقه، وزحفوا للقاء داود بن ضبارة وهم في مائة ألف وقحطبة في عشرين ألفاً. وحمل قحطبة وأصحابه فانهزم ابن ضبارة وقتل واحتووا على ما كان في معسكرهم مما لا يعبر عنه من الأصناف وذلك في رجب.

وطيّر قحطبة بالخبر إلى ابنه الحسن وسار إلى أصبهان فأقام بها عشرين ليلة، وقدم على ابنه فحاصروا نهاوند ثلاثة أشهر إلى آخر شوال، ونصبوا عليها المجانيق وبعث بالأمان إلى من كان في نهاوند من أهل خراسان فلم يقبلوا، فبعث إلى أهل الشام فقالوا: أشغل عنا أهل المدينة بالقتال نفتح لك المدينة من ناحيتنا، ففعلوا وخرجوا إليه جميعاً فقتلوا أهل خراسان فيهم أبو كامل وحاتم بن شريح وابن نصر بن سيار وعاصم بن عمير وعلي بن عقيل وبيهس.

وكان قحطبة لما جاء إلى نهاوند بعث ابنه الحسن إلى جهات حلوان وعليها عبد الله بن العلاء الكندي فتركها وهرب. ثم بعث قحطبة عبد الملك بن يزيد ومالك بن طرا في أربعة آلاف إلى شهرزور وبها عثمان بن سفيان على مقدمته عبد الله بن محمد فقاتلوا عثمان آخر ذي الحجة فانهزم وقتل. وملك أبو عوف بلاد الموصل، وقيل: إن عثمان هرب إلى عبد الله بن مروان وغنم أبو

عون عسكره وقتل أصحابه، وبعث إليه قحطبة بالمدد. وكان مروان بن محمد بحران فسار في أهل الشام والجزيرة والموصل ونزل الزاب الأكبر وأتوا شهرزور إلى المحرم سنة اثنتين وثلاثين..

حرب السفاح ابن هبيرة مع قحطبة ومقتلهما وفتح الكوفة

ولما قدم على يزيد بن هبيرة ابنه داود منهزماً من حلوان خرج يزيد للقاء قحطبة في مدد لا يحصى، وكان مروان أمدّه بحوثرة بن سهيل الباهلي، فسار معه حتى نزل حلوان واحتفر الخندق الذي كانت فارس احتفرته أيام الواقعة. وأقام وأقبل قحطبة إلى حلوان ثم عبر دجلة إلى الأنبار فرجع ابن هبيرة مبادراً إلى الكوفة. وقدم إليها حوثرة في خمسة عشر ألفاً وعبر قحطبة الفرات من الأنبار لثمان من المحرم سنة اثنتين وثلاثين، وابن هبيرة معسكر على فم الفرات وعلى ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة، ومعه حوثرة وفلُّ ابن ضبارة. وأشار عليه أصحابه أن يدع الكوفة ويقصد هو خراسان فيتبعه قحطبة فأبى إلا البدار إلى الكوفة، وعبر إليها دجلة من المدائن، وعلى مقدمته حوثرة والفريقان يسيران على جانب الفرات.

وقال قحطبة لأصحابه: إن الإمام أخبرني بأن وقعة تكون بهذا المكان والنصر لنا، ثم دلوه على مخاضة فعبر منها، وقاتل حوثرة وابن نباتة فانهزم أهل الشام، وفقد قحطبة وشهد مقاتلٌ العِلْلي بأن قحطبة عهد لابنه الحسن بعده، فبايع جميع الناس لأخيه الحسن، وكان في سرية فبعثوا عنه وولوه. ووجد قحطبة في جدول هو وحرب بن كم بن أحوز وقيل: إن قحطبة لما عبر الفرات وقاتل ضربه معن بن زائدة فسقط وأوصى إذا مات أن يلقى في الماء. ثم انهزم ابن نباتة وأهل الشام ومات قحطبة وأوصى بأمر الشيعة إلى أبي مسلمة الخلّال بالكوفة وزير آل محمد. ولما انهزم ابن نباتة وحوثرة لحقوا بابن هبيرة فانهزم إلى واسط واستولى الحسن بن قحطبة على ما في معسكرهم.

وبلغ الخبر إلى الكوفة فثار بها محمد بن خالد القسري بدعوة الشيعة خرج ليلة عاشوراء وعلى الكوفة زياد بن صالح الحارثي وعلى شرطته عبد الرحمن بن بشير العجلي وسار إلى.... فهرب زياد ومن معه من أهل الشام ودخل القصر ورجع إليه حوثرة.... وعن محمد عامة من معه ولزم القصر. ثم جاء قوم من بَجِيلة من أصحاب حوثرة فدخلوا في الدعوة. ثم آخرون من كنانة، ثم آخرون من بجدل فارتحل حوثرة نحوه.... وكتب محمد إلى قحطبة وهو لم يعلم بهلاكه فقرأه الحسن على الناس. وارتحل نحو الكوفة فصبحها الرابعة من مسيره وقيل: إن الحسن بن قحطبة سار إلى الكوفة بعد قتل ابن هبيرة وعليها عبد الرحمن بن بشير العجلي فهرب عنها وسبق محمد بن خالد وخرج في أحد عشر رجلاً فلقي الحسن ودخل معه وأتوا إلى أبي مسلمة فاستخرجوه من بني مسلمة وعسكر بالنخيلة، ثم نزل حمام أعيُن.

وبعث الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال ابن هبيرة وبايع الناس أبا مسلمة حفص بن سليمان الخلال وزير آل محمد واستعمل محمد بن خالد القسري على الكوفة وكان يسمى الأمير، حتى ظهر أبو العباس السفاح وبعث حميد بن قحطبة إلى المدائن في قواد والمسيب بن هبيرة وخالد بن مرمل، إلى دير فناء وشراحيل إلى عير.... وبسام بن إبراهيم بن بسام إلى الأهواز، وبها عبد الرحمن بن عمر بن هبيرة فقاتله بسام وانهزم إلى البصرة وعليها مسلم بن قتيبة الباهلي عاملاً لأخيه. وبعث بسام في أثره سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب والياً على البصرة، فجمع سالم قيساً ومضر وبني أمية. وجاء قائد من قواد ابن هبيرة في ألفي رجل، وجمع سفيان اليمانية وحلفاءهم من ربيعة واقتتلوا في صفر. وقتل ابن سفيان واسمه معاوية فانهزم لذلك. ثم جاء إلى سالم أربعة آلاف مدداً من عند مروان فقاتل الأزد واستباحهم ولم يزل بالبصرة حتى قتل ابن هبيرة فهرب عنها. واجتمع ولد الحارث بن عبد المطلب إلى محمد بن جعفر فولوه أياماً حتى قدم أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي من قبل أبي مسلم. فلما بويع أبو العباس السفاح ولاها سفيان بن معاوية.

بيعة السفاح

قد كنا قدمنا خبر الدعاة وقبض مروان على إبراهيم بن محمد وأنه حبسه بحرّان وكان نعى نفسه إلى أهل بيته وأمرهم باللحاق بالكوفة وأوصى على أخيه أبي العباس عبد اللّه بن الحرثية. فسار أبو العباس ومعه أهل بيته ومن أخوته أبو جعفر المنصور وعبد الوهاب ومحمد ابن أخيه إبراهيم وعيسى ابن أخيه موسى ومن أعمامه داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد اللّه وعبد الصمد وبنو علي بن عبد اللّه بن عباس، وموسى ابن عمه داود ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس، فقدموا الكوفة في صفر وأبو سلمة والشيعة على حمام أعين بظاهر الكوفة وأنزلهم أبو سلمة دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود، وكتم أمرهم عن جميع القواد والشيعة أربعين ليلة، وأراد فيما زعموا أن يحول

الأمر إلى أبي طالب. وسأله أبو الجهم من الشيعة وغيره فيقول: لا تعجّلوا ليس هذا وقته.

ولقي أبو حميد محمد بن إبراهيم ذات يوم خادم إبراهيم الإمام وهو سابق الخورزمي فسأله عن الإمام فقال: قتل إبراهيم وأوصى إلى أخيه أبي العباس وها هو بالكوفة ومعه أهل بيته. فسأله في اللقاء فقال: حتى أستأذن، وواعده من الغد في ذلك المكان، وجاء أبو حميد إلى أبي الجهم فأخبره وكان في عسكر أبي سلمة فقال له: تلطف في لقائهم. فجاء إلى موعد سابق ومضى معه ودخل عليهم فسأل عن الخليفة فقال داود بن علي: هذا إمامكم وخليفتكم يشير إلى أبي العباس. فسلم عليه بالخلافة وعزاه بإبراهيم الإمام، ورجع ومعه خادم من خدمهم إلى أبي الجهم فأخبره عن منزلهم وأن أبا العباس أرسل إلى أبي سلمة أن يبعث إليه كراء الرواحل التي جاؤوا إليها، فلم يبعث إليهم شيئاً فمشى أبو الجهم وأبو الحميد والخادم إلى موسى بن كعب وأخبروه بالأمر وبعثوا إلى الإمام مائتي دينار مع خادمه.

واتفق رأي القواد على لقاء الإمام فنهض موسى بن كعب وأبو الجهم عبد الحميد بن ربعي وسلمة بن محمد وعبد اللّه الطائي وإسحاق بن إبراهيم وشراحيل وأبو حميد وعبد اللّه بن بسام ومحمد بن إبراهيم ومحمد بن حصين وسليمان بن الأسود فدخلوا على أبي العباس فسلموا عليه بالخلافة وعزوه في إبراهيم. ورجع موسى بن كعب وأبو الجهم وخلفوا الباقين عند الإمام وأوصوهم إن جاء أبو سلمة لا يدخلن إلا وحده. وبلغه الخبر فجاء ودخل وحده كما حددوا له وسلم على أبي العباس بالخلافة وأمره بالعود إلى معسكره وأصبح الناس يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول فلبسوا الصُفّاح واصطفوا للخروج إلى أبي العباس وأتوه بالدواب وله ولمن معه من أهل بيته، وأركبوهم إلى دار الإمارة.

ثم رجع إلى المسجد فخطب وصلى بالناس وبايعوه ثم صعد المنبر ثانية فقام في أعلاه وصعد عمه داود فقام دونه وخطب خطبته البليغة المشهورة وذكر حقهم في الأمر وميراثهم له، وزاد الناس في أعطياتهم، وكان موعوكاً فاشتد عليه الوعك فحبس على المنبر. وقام عمه داود على أعلى المراقي فخطب مثله وذم سيرة بني أمية وعاهد الناس على إقامة الكتاب والسنة وسيرة النبي. ثم اعتذر عن عود السفاح بعد الصلاة على المنبر وأنه أراد أن لا يخلط كلام الجمعة بغيرها، وإنما قطعه عن إتمام الكلام شدة الوعك فادعوا اللّه له بالعافية. ثم بالغ في ذم مروان وشكر شيعتهم من أهل خراسان وأن الكوفة منزلهم لا يتخلون عنها وأنه ما صعد هذا المنبر خليفة بعد رسول اللّه ﷺ إلا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وأمير المؤمنين عبد اللّه بن محمد وأشار إلى السفاح. وأن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا حتى نسلمه لعيسى بن مريم.

ثم نزل أبو العباس وداود أمامه حتى دخل القصر وأجلس أخاه أبا جعفر في المسجد يأخذ البيعة على الناس حتى جن الليل. وخرج أبو العباس إلى عسكر أبي سلمة ونزل معه في حجرته بينهما ستر. وحاجب السفاح يومئذ عبد اللّه بن بسام. واستخلف على الكوفة عمه داود وبعث عمه عبد اللّه إلى أبي عون بن يزيد بشهرزور وبعث ابن أخيه موسى إلى الحسن بن قحطبة وهو يحاصر ابن هبيرة بواسط وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس إلى أحمد بن قحطبة بالمدائن. وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز، وبعث سلمة بن عمر بن عثمان بن مالك بن الطواف. وأقام السفاح بالعسكر شهراً ثم ارتحل فنزل قصر الإمارة من المدينة الهاشمية. وقد قيل: إن داود بن علي وابنه موسى لم يكونا بالشام عند مسير بني العباس إلى الكوفة وإنهما لقياهم بدومة الجندل فعرفا خبرهم. وقال لهم داود: كيف تأتون الكوفة؟ ومروان بن محمد في حران في أهل الشام والجزيرة فطل على العراق ويزيد بن هبيرة بالعراق. فقال يا عم: من أحب الحياء ذل فرجع داود وابنه معه.

مقتل إبراهيم ابن الإمام

قد تقدم لنا أن مروان حبسه بحران وحبس سعيد بن هشام بن عبد الملك وابنيه عثمان ومروان والعباس بن الوليد بن عبد الملك وعبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز وأبا محمد السفياني فهلك منهم في السجن من وباء وقع بحران العباس بن الوليد وإبراهيم ابن الإمام وعبد اللّه بن عمر. وخرج سعيد بن هشام ومن معه من المحبوسين بعد أن قتلوا صاحب السجن فقتلهم الغوغاء من أهل حران. وكان فيمن قتلوه شراحيل بن مسلمة بن عبد الملك وعبد الملك بن بشر التغلبي وبطريق أرمينية واسمه كوشان. وتخلف أبو محمد السفياني في الحبس لم يستحل الخروج منه. ولما قدم مروان منهزماً من الزاب حل عنه فيمن بقي وقيل: إن شراحيل بن مسلمة كان محبوساً مع إبراهيم وكانا يتزاوران ويتهاديان، فدس في بعض الأيام إلى إبراهيم ابن الإمام بلبن مسموم على لسان شراحيل فاستطلق بطنه. وقيل: إن شراحيل

قال: إنا لله وإنا إليه راجعون احتيل والله عليه، وأصبح ميتاً من ليلته.

هزيمة مروان بالزاب ومقتله بمصر

قد ذكرنا أن قحطبة أرسل أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي إلى شهرزور فقتل عثمان بن سفيان وأقام بناحية الموصل وأن مروان بن محمد سار إليه من حران في مائة وعشرين ألفاً وسار أبو عون إلى الزاب ووجه أبو سلمة عيينة بن موسى والمنهال بن قبان وإسحاق بن طلحة كل واحد في ثلاثة آلاف مدداً له. فلما بويع أبو العباس وبعث مسلمة بن محمد في ألفين وعبد الله الطائي في ألف وخمسمائة وعبد الحميد بن ربعي الطائي في ألفين ودراس بن فضلة في خمسمائة كلهم مدداً لأبي عون، ثم ندب أهل بيته إلى المسير إلى أبي عون، فانتدب عبد الله بن علي فسار وقدم على أبي عون فتحول له عن سرادقه بما فيه. ثم أمر عيينة بن موسى بخمسة آلاف تعبر النهر من الزاب أول جمادى الأخير سنة اثنتين وثلاثين وقاتل عساكر مروان إلى المساء. ورجع ففقد مروان الجسر من الغد وقدم ابنه عبد الله وعبر فبعث عبد الله بن علي المخارق بن غفار في أربعة نحو عبد الله بن مروان فسرح ابن مروان الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، فانهزم أصحاب المخارق وأسر هو وجيء به إلى مروان مع رؤوس القتلى، فقال: أنت المخارق؟ قال: لا! قال: فتعرفه في هذه الرؤوس؟ قال: نعم! قال: هو ذا فخلى سبيله. وقيل: بل أنكر أن يكون في الرؤوس فخلى سبيله.

وعاجلهم عبد الله بن علي بالحرب قبل أن يفشوا الخبر وعلى ميمنته أبو عون وعلى ميسرته الوليد بن معاوية. وكان عسكره نحواً من عشرين ألفاً، وقيل: إثني عشر. وأرسل مروان إليه في الموادعة فأبى وحمل الوليد بن معاوية بن مروان وهو صهر مروان على ابنته، فقاتل أبا عون حتى انهزم إلى عبد الله بن علي فأمر الناس فارتحلوا. ومشى قدماً ينادي: يا لثارات إبراهيم! وبالأشعار: يا محمد يا منصور. وأمر مروان القبائل بأن يحملوا فتخاذلوا واعتذروا حتى صاحب شرطته. ثم ظهر له الخلل فأباح الأموال للناس على أن يقاتلوا فأخذوها من غير قتال. فبعث ابنه عبد الله يصدهم عن ذلك فتبادروا بالفرار وانهزموا وقطع مروان الجسر وكان من غرق أكثر ممن قتل. وغرق إبراهيم بن الوليد المخلوع وقيل: بل قتله عبد الله بن علي بالشام وممن قتل يحيى بن علي بن هشام وكان ذلك في جمادى الأخيرة سنة اثنتين وثلاثين.

وأقام عبد الله في عسكره سبعة أيام واجتاز عسكر مروان بما فيه. وكتب بالفتح إلى أبي العباس السفاح، وسار مروان منهزماً إلى مدينة الموصل وعليها هشام بن عمر الثعلبي وابن خزيمة الأسدي، فقطعا الجسر ومنعاه العبور إليهم وقيل: هذا أمير المؤمنين فتجاهلوا وقالوا: أمير المؤمنين لا يفر. ثم أسمعوه الشتم والقبائح فسار إلى حران وبها أبان ابن أخيه، وسار إلى حمص وجاء عبد الله إلى حران فلقيه أبو مسعود فأمنه ولقي الجزيرة. ولما بلغ مروان حمص أقام بها ثلاثاً وارتحل فاتبعه أهلها لينهبوه فقاتلهم وهزمهم وأثخن فيهم. وسار إلى دمشق وعليها الوليد بن عمه فأوصاه بقتال عدوه.

وسار إلى فلسطين فنزل نهر أبي فطرس وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضبعان الجذامي، فأرسل إلى عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامي فأجاره، ثم سار عبد الله بن علي في أثره من حران بعد أن هدم الدار التي حبس فيها أخوه الإمام إبراهيم. وانتهى إلى قنسج فأطاعه أهلها وقدم عليه أخوه عبد الصمد بعثه السفاح مدداً في ثمانية آلاف وافترق قواد الشيعة على أبواب دمشق فحاصروها أياماً. ثم دخلوها عنوة لخمس من رمضان واقتتلوا بها كثيراً وقتل عاملها الوليد بن معاوية. وأقام عبد الله بدمشق خمس عشرة ليلة وارتحل يريد فلسطين فأجفل مروان إلى العريش.

وجاء عبد الله فنزل نهر أبي فطرس ووصله هنالك كتاب السفاح بأن يبعث صالح بن علي في طلب مروان. فسار صالح في ذي القعدة وعلى مقدمته أبو عون وعامر بن إسماعيل الحارثي فأجفل مروان إلى النيل ثم إلى الصعيد ونزل صالح الفسطاط وتقدمت عساكره فلقوا خيلاً لمروان فهزموهم وأسروا منهم ودلوهم على مكانه ببوصير. فسار إليه أبو عون وبيته هنالك خوفاً من أن يفضحه الصبح فانهزم مروان وطعن فسقط في آخر ذي الحجة الحرام وقطع رأسه، وبعث به طليعة أبي عون إليه. فبعثه إلى السفاح وهرب عبد الله وعبيد الله ابنا مروان إلى الحبشة وقاتلوهم فقتل عبيد الله ونجا عبد الله وبقي إلى أيام المهدي. فأخذه عامل فلسطين وسجنه المهدي.

وكان طليعة أبي عون عامر بن إسماعيل الحارثي فوجد نساء مروان وبناته في كنيسة بوصير قد وكّل بهن خادماً يقتلهن بعده فبعث بهن صالح. ولما دخلن عليه سألنه في الإبقاء فلامهن على قتالهم عند بني أمية. ثم عفا عنهن وحملهن إلى حران يبكين. وكان مروان يلقب بالحمار لحرنه في مواطن الحرب. وكان أعداؤه يلقبونه الجعدي نسبة إلى الجعد بن درهم كان يقول بخلق القرآن

ويتزندق. وأمر هشام خالداً القسري بقتله فقتله. ثم تتبعوا بني أمية بالقتل. ودخل أسديف يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام وقد أمنه والده فقال:

لا يغرنك ما ترى من رجال ... أن بين الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها امويا

فأمر السفاح بسليمان فقتل. ودخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي وعنده ثمانون أو تسعون من بني أمية يأكلون على مائدته فقال:

أصبح الملك في ثبات الأساس ... بالبهاليل من بني العباس
طلبوا أمر هاشم فنعوتا ... بعد ميل من الزمان وباس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... فاقطعن كل رقلة وغراس
فلنا أظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسي
فلقد غاضني وغاض سوائي ... قربهم من غارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهون والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً ... وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أضحى ... ثاوياً رهن غربة ونعاس

فأمر بهم عبد الله فشدخوا بالعُمد، وبسط من فوقهم الأنطاع فأكل الطعام عليها وأنينهم يسمع حتى ماتوا، وذلك بنهر أبي فطرس. وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان والمعز بن يزيد وعبد الواحد بن سليمان وسعيد بن عبد الملك وأبو عبيدة بن الوليد بن عبد الملك. وقيل: إن إبراهيم المخلوع قتل معهم، وقيل: إن أسديفاً هو الذي أنشد هذا الشعر للسفاح وأنه الذي قتلهم. ثم قتل سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بالبصرة جماعة من بني أمية فأمر بأشلائهم في الطرق فأكلتهم الكلاب، وقيل: إن عبد الله بن علي أمر بنبش قبور الخلفاء من بني أمية فلم يجدوا في القبور إلا شبه الرماد وخيطاً في قبر معاوية وجمجمة في قبر عبد الملك. وربما وُجد فيها بعد الأعضاء إلا هشام بن عبد الملك فإنه وجد كما هو لم يبل، فضربه بالسوط ثم صلبه وحرقه وذراه في الريح، والله أعلم بصحة ذلك. ثم تتبعوا بني أمية بالقتل فلم يفلت منهم إلا الرضعاء أو من هرب إلى الأندلس مثل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وغيرهم ممن تبعه من قرابته كما يذكر في أخبارهم.

بقية الصوائف في الدولة الأموية

قد انتهينا بالصوائف إلى آخر أيام عمر بن عبد العزيز وفي سنة اثنتين ومائة أيام اليزيد غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية أرمينية وهو على الجزيرة قبل أن يلي العراق، فهزمهم وأسر منهم خلقاً وقتل منهم سبعمائة أسير. وغزا العباس بن الوليد الروم أيضاً ففتحها لسنة. ثم غزا سنة ثلاث بعدها فافتتح مدينة رَسْلة. ثم غزا الجراح الحكمي أيام هشام سنة خمس فبلغ وراء بلنجر وغنم وغزا في هذه السنة سعيد بن عبد الملك أرض الروم وبعث ألف مقاتل في سرية فهلكوا جميعاً. وغزا فيها مروان بن محمد بالصائفة اليمنى، ففتح مدينةً قريبةً من أرض الزوكخ. ثم غزا سعيد بن عبد الملك بالصائفة أيام هشام سنة ست. ثم غزا مسلمة بن عبد الملك الروم من الجزيرة وهو وال عليها ففتح قيسارية. وغزا إبراهيم بن هشام ففتح حصناً. وغزا معاوية بن هشام في البحر قبرس، وغزا سنة تسع ففتح حصناً آخر يقال له طبسة. وغزا سنة عشر بالصائفة عبد الله بن عقبة الفهري، وكان على جيش البحر عبد الرحمن بن معاوية بن خديج. وغزا بالصائفة اليسرى سنة إحدى عشرة معاوية بن هشام وبالصائفة اليمنى سعيد بن هشام وفي البحر عبد الله بن أبي مريم. وافتتح معاوية في صائفة ثلاثة عشرة سنة خرشفة. وغزا سنة ثلاث عشرة عبد الله البطال، فانهزم فثبت عبد الوهاب من أصحابه فقتل. ودخل معاوية بن هشام أرض الروم من ناحية مرعش. ثم غزا سنة أربع عشرة بالصائفة اليسرى وأصحاب ربض أفرق. والتقى عبد الله البطال مع قسطنطين، فهزمه البطال وأسره. وغزا سليمان بن هشام بالصائفة اليسرى فبلغ قيسارية، وهزم مسلمة بن عبد الملك خاقان وباب الباب. وغزا معاوية بن هشام بالصائفة سنة خمس عشرة. وغزا سفيان بن هشام بالصائفة اليسرى سنة سبع عشرة. وسليمان بن هشام بالصائفة اليمنى من ناحية الجزيرة، وفرق السرايا في أرض الروم وبعث فيها مروان بن محمد من أرمينية.... فافتتحوا من أرض اللان أهلها أخذها قومانساه صلحاً، وغزا معاوية وسليمان أيضاً أرض الروم سنة ثماني عشرة. وغزا فيها مروان بن محمد من أرمينية ودخل أرض وارقيس، فهرب وارقيس إلى الحرور ونازل حصنه فحاصره. وقتل وارقيس بعض من اجتاز به وبعث برأسه إلى مروان ونزل أهل الحصن على حكمه فقتل وسبى.

وغزا سنة تسع عشرة مروان بن محمد من أرمينية ومر ببلاد اللان إلى بلاد الخزر على بلنجر وسمندر وانتهى إلى خاقان فهرب خاقان منه. وغزا سليمان بن هشام سنة عشرين بالصائفة فافتتح سندرة وغزا إسحاق بن مسلم العقيلي قومانساه وافتتح قلاعه وخرب أرضه. وغزا مروان من أرمينية سنة إحدى وعشرين وأفنى قلعة بيت السرير فقتل وسبى، ثم قلعة أخرى كذلك ودخل

عزسك وهو حصن الملك فهرب منه الملك ودخل حصناً له يسمى جرج فيه سرير الذهب فنازله مروان حتى صالحه على ألف فارس كل سنة ومائة ألف مدنى. ثم دخل أرض أرزق ونصران فصالحه ملكها. ثم أرض نومان كذلك. ثم أرض حمدين فأخرب بلاده وحصر حصناً له شهراً حتى صالحه ثم أرض مسداد ففتحها على صلح. ثم نزل كيلان فصالحه أهل طبرستان وكيلان. وكل هذه الولايات على شاطئ البحر من أرمينية إلى طبرستان.

وغزا مسلمة بن هشام الروم في هذه السنة فافتتح بها مطامير. وفي سنة اثنتين وعشرين بعدها قتل البطال واسمه عبد الله بن الحسين الأنطاكي وكان كثير الغزو في بلاد الروم والإغارة عليهم. وقدمه مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان يغزو بلاد الروم إلى أن قتل هذه السنة. وفي سنة أربع وعشرين غزا سليمان بن هشام بالصائفة على عهد أبيه فلقي اليون ملك الروم فهزمه وغنم. وفي سنة خمس وعشرين خرجت الروم إلى حصن زنطره وكان افتتحه حبيب بن مسلمة الفهري وخزينة الروم وبنى بناء غير محكم فأخربوه ثانية أيام مروان. ثم بناه الرشيد وطرقه الروم أيام المأمون فشعبوه فأمر ببنائه وتحصينه. ثم طرقوه أيام المعتصم وخبره معروف. وفي هذه السنة غزا الوليد بن يزيد بالصائفة أخاه العمر وبعث الأسود بن بلال المحاربي بالجيش في البحر إلى قبرس ليجير أهلها بين الشام والروم فافترقوا فريقين، وغزا أيام مروان سنة ثلاثين بالصائفة الوليد بن هشام ونزل العَمْق وبنى حصن مرعش.

عمال بني أمية على النواحي

استعمل معاوية أول خلافته سنة أربعين عبد الله بن عمرو بن العاصي على الكوفة ثم عزله واستعمل المغيرة بن شعبة على الصلاة واستعمل.... على الخراج وكان على النقباء بها شريح وكان حمران بن أبان قد وثب على البصرة عندما صالح الحسن معاوية فبعث معاوية بشر بن أرطاة على البصرة وأمده فقتل أولاد زياد ابن أبيه، وكان عاملاً على فارس لعلي بن أبي طالب، فقدم البصرة وقد ذكرنا خبره مع بني زياد فيما قبل. ثم ولى على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس وضم إليه خراسان وسجستان فجعل على شرطته حبيب بن شهاب وعلى القضاء عميرة بن تبرى، وقد تقدم لنا أخبار قيس في خراسان. وكان عمرو بن العاص عليها كما تقدم، فولى سنة إحدى وأربعين من قبله على أفريقية عقبة بن نافع بن عبد قيس، وهو ابن خالته فانتهى إلى لواتة ومزاتة فأطاعوه ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى. ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين بعدها غذامس وقتل وسبى وافتتح سنة ثلاث وأربعين بعدها بلدودان وولى معاوية بالمدينة سنة اثنتين وأربعين مروان بن الحكم فاستقضى عبد الله بن الحارث بن نوفل.

وولى معاوية على مكة في هذه السنة خالد بن العاصي بن هشام، وكان على أرمينية حبيب بن مسلمة الفهري وولاه عليها معاوية ومات سنة اثنتين وأربعين فولى مكانه.

واستعمل ابن عامر في هذه السنة على ثغر الهند عبد الله بن سوار العبدي ويقال: ولاه معاوية. وعزل ابن عامر في هذه السنة قيس بن الهيثم عن خراسان وولى مكانه الحارث بن عبد الله بن حازم. ثم عزل معاوية عبد الله بن عامر عن البصرة سنة أربع وأربعين وولى مكانه الحارث بن عبد الله الأزدي، ثم عزله لأربعة أشهر وولى أخاه زياداً سنة خمس وأربعين، فولى على خراسان الحكم بن عمر الغفاري، وجعل معه على الخراج أسلم بن زرعة الكلابي. ثم مات الحكم فولى خليد بن عبد الله الحنفي سنة سبع وأربعين.

ثم ولي على خراسان سنة ثمان بعدها غالب بن فضالة الليثي، وتولى عمرو بن العاصي سنة تسع وأربعين فولى مكانه سعيد بن العاصي، فعزل عبد الله بن الحارث عن القضاء واستقضى أبا سلمة بن عبد الرحمن. وفي سنة خمسين توفي المغيرة بن شعبة فضم الكوفة إلى أخيه زياد، فجاء إليها واستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وكان يقسم السنة بين المصرين في الإقامة نصفاً بنصف. وفي سنة خمسين هذه اقتطع معاوية أفريقية عن معاوية بن خديج بمصر وولى عقبة بن نافع الفهري وكان مقيماً ببرقة وزويلة من وقت فتحها أيام عمرو بن العاصي، فأمده بعشرة آلاف فسار إليها. وانضاف إليه من أسلم من البربر، ودوخ البلاد وبنى بالقيروان، وأنزل عساكر المسلمين ثم استعمل معاوية على مصر وأفريقية مولاه أبا المهاجر، فأساء عزل عقبة، وجاء عقبة إلى الشام فاعتذر إليه معاوية ووعده بعمله ومات معاوية فولاه يزيد سنة اثنتين وستين.

وذكر الواقدي أن عقبة ولي سنة اثنتين وستين واستعمل أبا المهاجر فولي الأمصار، فحبس عقبة وضيق عليه وأمره يزيد بإطلاقه فوفد عقبة فأعاده إلى عمله. فحبس أبا المهاجر وخرج غازياً وأثخن حتى قتله كُسيلة كما يأتي في أخباره. وفي سنة إحدى وخمسين ولى زياد على خراسان الربيع بن زياد الحارث

مكان خليد بن عبد اللّه الحنفي. وفي سنة ثلاث وخمسين توفي زياد واستخلف على البصرة سمرة بن جندب وعلى الكوفة عبد اللّه بن خالد بن أسيد. ثم ولي الضحاك بن قيس سنة خمس بعدها.

وفي هذه السنة مات الربيع بن زياد عامل خراسان قبل موت زياد واستخلفه ابنه عبد اللّه ومات لشهرين. واستخلف خليد بن يربوع الحنفي وكان على صفابيروز الديلمي من قبل معاوية فمات سنة ثلاث وخمسين. وفي سنة أربع وخمسين عزل معاوية عن المدينة سعيد بن العاص وورد إليها مروان بن الحكم ثم عزله سنة سبعة وولي مكانه الوليد بن عقبة بن أبي سفيان. وعزل سنة تسع وخمسين عن البصرة ابن جندب وولي مكانه عبد اللّه بن عمر بن غيلان، وولي على خراسان عبيد اللّه بن زياد ثم ولاه سنة خمس بعدها على البصرة مكان غيلان. ثم ولي على خراسان سنة ست وخمسين سعيد بن عثمان بن عفان. وفي سنة ثمان وخمسين عزل معاوية عن الكوفة الضحاك بن قيس واستعمل مكانه ابن أم الحكم وهي أخته، وهو عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، وطرده أهل الكوفة فولاه مصر. فرده معاوية بن خديج وولي مكانه على الكوفة سنة تسع وخمسين النعمان بن بشير وولي فيها على خراسان عبد الرحمن بن زياد. فقدم إليها قيس بن الهيثم السلمي فحبس أسلم بن زرعة فأغرمه ثلاثمائة ألف درهم.

ثم مات معاوية سنة ستين وولاته على النواحي من ذكرناه وعلى سجستان عباد بن زياد وعلى كرمان شريك بن الأعور. وعزل يزيد لأول ولايته الوليد بن عقبة عن المدينة والحجاز وولاها عمر بن سعيد الأشدق. ثم عزله سنة إحدى وستين، ورد الوليد بن عقبة وولي على خراسان سالم بن زياد، فبعث سالم إليها الحارث بن معاوية الحارثي وبعث أخاه يزيد إلى سجستان وكان بها أخوهما عباد فخرج عنهما. وقاتل يزيد أهل كابل فهزموه، فبعث مسلم على سجستان طلحة الطلحات، وهو طلحة بن عبد اللّه بن خلف الخزاعي فبقي سنة، وبعث سنة اثنتين وستين عقبة بن نافع إلى أفريقية فحبس أبا المهاجر، واستخلف على القيروان زهير بن قيس البلوي كما نذكر في أخباره.

وتوفي في هذه السنة مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر. ثم هلك يزيد سنة أربع وستين واستخلف على أهل العراق عبيد اللّه بن زياد. وولي أهل البصرة عليهم عبد اللّه بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ويلقب ببه، وهرب ابن زياد إلى الشام. وجاء إلى الكوفة عامر بن مسعود من قبل ابن الزبير وبلغه خلاف أهل الري وعليهم الفرّخان فبعث عليهم محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب فهزموه، فبعث عتاب بن ورقاء فهزمهم.

ثم بويع مروان وسار إلى مصر فملكها من يد عبد الرحمن بن حجام القريشي داعية ابن الزبير وولي عليها عمر بن سعيد. ثم بعثه للقاء مصعب بن الزبير لما بعثه أخوه عبد اللّه إلى الشام، وولى على مصر ابنه عبد العزيز فلم يزل عليها والياً إلى أن هلك لسنة خمس وثمانين، فولى عبد الملك عليها ابنه عبد اللّه بن عبد الملك.

وخلع أهل خراسان بعد يزيد سالم بن زياد واستخلف المهلب بن أبي صفرة، ثم ولي مسلم عبد اللّه بن حازم فاستبد بخراسان إلى حين. ثم أخرج أهل الكوفة عمر بن حريث خليفة بن زياد وبايعوا لابن الزبير وقدم المختار بن أبي عبيد أميراً على الكوفة من قبله بعد ستة أشهر من مهلك يزيد، وامتنع شريح من القضاء أيام الفتنة. واستعمل ابن الزبير على المدينة أخاه مصعباً سنة خمس وستين مكان أخيه عبد اللّه وثار بنو تميم بخراسان على عبد اللّه بن حازم فغلبه عليها بكير بن وشاح. وغلب المختار على ابن مطيع عامل ابن الزبير بالكوفة سنة ست وستين.

ثم مات مروان سنة خمس وستين وولي عبد الملك. وولى ابن الزبير أخاه مصعباً على البصرة وولي مكانه بالمدينة جابر بن الأسود بن عوف الزهري. ثم ملك عبد العزيز العراق سنة إحدى وسبعين واستعمل على البصرة خالد بن عبد اللّه بن أسد وعلى الكوفة أخاه بشر بن مروان وكان على خراسان عبد اللّه بن حازم بدعوة ابن الزبير، فقام بكير بن وشاح التميمي بدعوة عبد الملك وقتله. وولاه عبد الملك خراسان. وكان على المدينة طلحة بن عبد اللّه بن عوف بدعوة ابن الزبير بعد جابر بن الأسود، فبعث عبد الملك طارق بن عمر مولى عثمان فغلبه عليها. ثم قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين وانفرد عبد الملك بالخلافة وولى على الجزيرة وأرمينية أخاه محمداً. وعزل خالد بن عبد اللّه عن البصرة وضمها إلى أخيه بشر فسار إليها واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث. وولى على الحجاز واليمن واليمامة الحجاج بن يوسف وبعثه من الكوفة لحرب ابن الزبير. وعزل طارقاً عن المدينة وسار من جنده.

وفي سنة أربع وسبعين استقضى أبا إدريس الخولاني وأمر بشر أخاه أن يبعث المهلب بن أبي صفرة لحرب الأزارقة. وعزل عن خراسان بكير بن وشاح وولى مكانه أمية بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد فبعث أمية ابنه عبد اللّه على سجستان. وكان على أفريقية زهير بن قيس البلوي فقتله البربر سنة تسع وستين. وشغل عبد الملك بفتنة ابن الزبير، فلما فرغ منها بعث إلى أفريقية سنة أربع وسبعين حسان بن النعمان القيساني في عساكر لم ير مثلها، فأثخن فيها وافترقت جموع الروم والبربر. وقتل الكاهنة كما يذكر في أخبار أفريقية.

ثم ولى عبد الملك سنة خمس وسبعين الحجاج بن يوسف على العراق فقط، وولى على السند سعيد بن أسلم بن زرعة وقتل في حروبها، وكان أمر الخوارج. وفي سنة ست وسبعين ولى على المدينة أبان بن عثمان وكان على قضاء الكوفة شريح. وعلى قضاء البصرة زرراة بن أبي أوفى بعد هشام بن هبيرة وعلى قضاء المدينة عبد اللّه بن قشير بن مخرمة. ثم كانت حروب الخوارج كما نذكر في أخبارهم. وفي سنة ثمان وسبعين عزل عبد الملك أمية بن عبد اللّه عن خراسان وسجستان وضمهما إلى الحجاج بن يوسف، فبعث الحجاج على خراسان المهلب بن أبي صفرة وعلى سجستان عبد اللّه بن أبي بكرة وولى على قضاء البصرة موسى بن أنس واستعفى شريح بن الحارث من القضاء بالكوفة فولى مكانه أبا بردة بن أبي موسى ثم ولى على قضاء البصرة عبد الرحمن بن أذينة وخرج عبد الرحمن بن الأشعث فملك سجستان وكرمان وفارس والبصرة ثم قتل ورجعت إلى حالها، وذلك سنة إحدى وثمانين.

وفي سنة اثنتين وثمانين مات المهلب بن أبي صفرة واستخلف ابنه يزيد على خراسان فأقره الحجاج. وفي هذه السنة عزل عبد الملك أبان بن عثمان عن المدينة وولى مكانه هشام بن إسماعيل المخزومي فعزل هشام نوفل بن مساحق عن القضاء وولى مكانه عمر بن خالد الزرقي. وبنى الحجاج مدينة واسط. وفي سنة خمس وثمانين عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن خراسان وولى مكانه هشام أخاه المفضل قليلاً ثم ولي قتيبة بن مسلم وتوفي عبد الملك. وعزل الوليد لأول ولايته هشام بن إسماعيل عن المدينة وولى مكانه عمر بن عبد العزيز فولى على القضاء أبا بكر بن عمرو بن حزم وولى الحجاج على البصرة الجراح بن عبد اللّه الحكمي وولى على قضائها عبد اللّه بن أذينة وعلى قضاء الكوفة أبا بكر بن أبي موسى الأشعري.

وفي سنة تسع وثمانين ولى الوليد على مكة خالد بن عبد اللّه القسري وكان على ثغر السند محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي وهو ابن عم الحجاج. ففتح السند وقتل ملكه، وكان على مصر عبد اللّه بن عبد الملك ولاه عليها أبوه ففل ملكها. فعزله الوليد في هذه السنة وولى مكانه قرة بن شريك، وعزل خالداً عن الحجاز وولى عمر بن عبد العزيز.

وفي سنة إحدى وتسعين عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأرمينية وولى مكانه أخاه مسلمة بن عبد الملك وكان على طنجة في قاصية المغرب طارق بن زياد عاملاً لمولاه موسى بن نصير عامل الوليد بالقيروان فأجاز البلاد والبحر إلى بلاد الأندلس وافتتحها سنة اثنتين وتسعين كما يذكر في أخبارها، وفي سنة ثلاث وتسعين عزل عمر بن عبد العزيز عن الحجاز وولى مكانه خالد بن عبد اللّه على مكة وعثمان بن حيان على المدينة.

ومات الحجاج سنة خمس وتسعين ثم مات الوليد سنة ست وتسعين وفيها قتل قتيبة بن مسلم لانتقاضه على سليمان وولاها سليمان يزيد بن المهلب. وفيها مات قرة بن شريك.... وكان على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم وعلى مكة عبد العزيز بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن موسى وعلى قضاء البصرة عبد الرحمن بن أذينة وفي سنة سبع وتسعين عزل سليمان بن موسى بن نصير عن أفريقية وولى مكانه محمد بن يزيد القرشي حتى مات سليمان فعزل. واستعمل عمر مكانه إسماعيل بن عبد اللّه. وفي سنة ثمان وتسعين كان فتح طبرستان وجرجان أيام سليمان بن عبد الملك على يد يزيد بن المهلب.

وفي سنة تسع وتسعين استعمل عمر بن عبد العزيز على البصرة عَدي بن أطأة الفزاري، وأمره بإبقاء يزيد بن المهلب موثوقاً فولى على القضاء الحسن بن أبي الحسن البصري ثم إياس بن معاوية وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن يزيد بن الخطاب. وولى على المدينة عبد العزيز بن أرطاة وولى على خراسان الجراح بن عبد اللّه الحكمي. ثم عزل سنة مائة. وولي عبد الرحمن بن نعيم القرشي وولى على الجزيرة عمر بن هبيرة الفزاري، وعلى أفريقية إسماعيل بن عبد اللّه مولى بني مخزوم وعلى الأندلس السمح بن مالك الخولاني.

ثم في سنة إحدى ومائة عزل إسماعيل عن أفريقية وولاها يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، فلم يزل عليها إلى أن قتل. وفي سنة اثنتين ومائة ولى يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة على العراق وخراسان فولى على خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية ويقال له: سعيد خدينة. ثم استحيا من مسلمة في أمر الجراح فعزله وولى مكانه ابن يزيد بن هبيرة، فجعل على قضاء الكوفة القاسم بن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن مسعود، وعلى قضاء البصرةعبد الملك بن يعلى. وكان على مصر أسامة بن زيد، وليها بعد قرة بن شريك وولى ابن هبيرة على خراسان سعيداً الحرشي مكان حذيفة.

وفي سنة ثلاث ومائة جمع يزيد مكة والمدينة لعبد الرحمن بن الضحاك، وعزل عبد العزيز بن عبد اللّه بن خالد عن مكة وعن الطائف وولى مكانه عبد الواحد بن عبد اللّه البصري.

وفي سنة أربع ومائة ولى يزيد على أرمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وعزل عبد الرحمن بن الضحاك عن مكة والمدينة لثلاث سنين من ولايته، وولى عليهما مكانه عبد الواحد البصري وعزل ابن هبيرة سعيداً الحرشي عن خراسان وولى عليها مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرعة الكلابي، وولى على قضاء الكوفة الحسين بن حسين الكندي.

ومات يزيد بن عبد الملك سنة خمس وولي هشام فعزل ابن هبيرة عن العراق وولي مكانه خالد بن عبد الله القسري، واستعمل خالد على خراسان أخاه أسداً سنة سبع ومائة. وعزل مسلم بن سعيد وولى على البصرة عقبة بن عبد الأعلى، وعلى قضائها ثمامة بن عبد الله بن أنس. وولى على السند الجنيد بن عبد الرحمن. واستعمل هشام على الموصل الحر بن يوسف، وعزل عبد الواحد البصري عن الحجاز، وولى مكانه إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، واستقضى بالمدينة محمد بن صفوان الجمحي، ثم عزله واستقضى الصلت الكندي. وعزل الجراح بن عبد الله عن أرمينية وأذربيجان وولى مكانه أخاه مسلمة، فولى عليها الحارث بن عمرو الطائي.

وكان على اليمن سنة ثمان يوسف بن عمر، وفي سنة تسع عزل خالد أخاه أسداً عن خراسان وولى هشام عليها أشرس بن عبد الله السلمي، وأمره أن يكاتب خالداً بعد أن كان خالد ولى الحكم بن عوانة الكلبي مكان أخيه، فلم يقر فعزله هشام. ومات في سنة تسع عامل القيروان بشر بن صفوان، فولى هشام مكانه عبيدة بن عبد الرحمن بن الأغر السلمي فعزل عبيدة يحيى بن سلمة الكلبي عن الأندلس، واستعمل حذيفة بن الأحوص الأشجعي. ثم عزل لستة أشهر ووليها عثمان بن أبي تسعة الخثعمي وفي سنة عشر ومائة جمع خالد الصلاة والأحداث والشرط والقضاء بالبصرة لبلال بن أبي بردة وعزل ثمامة عن القضاء. وفي سنة إحدى عشرة عزل هشام عن خراسان أشرس بن عبد الله وولى مكانه الجنيد بن عبد الرحمن بن الحارث بن خارجة بن سنان بن أبي حارثة المري وولى على أرمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وعزل مسلمة. وفيها عزل عبيدة بن عبد الرحمن عامل أفريقية وعثمان بن أبي تسعة عن الأندلس، وولى مكانه الهيثم بن عبيد الكناني.

وفي سنة اثنتي عشرة قتل الجراح بن عبد الله صاحب أرمينية قتله التركمان، فولى هشام مكانه سعيداً الحرشي. ومات الهيثم عامل الأندلس وولوا على أنفسهم مكانه محمد بن عبد الله الأشجعي شهرين وبعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من قبيل ابن عبد الرحمن السلمي عامل أفريقية. وغزا إفرنجة فاستشهد، فولى عبيدة مكانه عبد الملك بن قطن الفهري وعزل عبيدة عن أفريقية وولى مكانه عبيد الله بن الحبحاب، وكان على مصر فسار إليها.

وفي سنة أربع عشرة عزل هشام مسلمة عن أرمينية وولى مكانه مروان بن محمد بن مروان. وعزل إبراهيم بن هشام عن الحجاز وولى مكانه على المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، وعلى مكة والطائف محمد بن هشام المخزومي. وفي سنة ست عشرة ومائة عزل هشام الجنيد بن عبد الرحمن المري عن خراسان وولى مكانه عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي. وفيها استعمل عبد الله بن الحبحاب على الأندلس عقبة بن الحجاج القيسي مكان عبد الملك بن قطن ففتح خليتيه. وفي سنة سبع عشرة ومائة عزل هشام عاصم بن عبد الله عن خراسان وولى مكانه خالد بن عبد الله القسري فاستخلف خالد أخاه أسداً. وولى هشام على أفريقية والأندلس عبيد الله بن الحباب وكان على مصر فسار عليها واستخلف على مصر ولده. وولى على الأندلس عقبة بن الحجاج وعلى طنجة ابنه إسماعيل وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب، فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان وفتح وغنم. وأغزاه إلى صقلية سنة اثنتين وعشرين ومائة ففتح أكثرها. ثم استدعاه لفتنة ميسرة كما نذكره في أخبارهم.

وفي سنة ثمان عشرة عزل هشام عن المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث وولى مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل. وفي سنة عشرين مات أسد بن عبد الله الخراساني وولي مكانه نصر بن سيار. وعزل هشام خالداً القسري عن جميع أعماله بالعراقين وخراسان وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي استقدمه إليها من ولاية اليمن، فأقر نصر بن سيار على خراسان، وكان على قضاء الكوفة ابن شبرمة وعلى قضاء البصرة عامر بن عبيدة. وولى يوسف بن عمر بن شبرمة على سجستان واستقضى مكانه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى. وكان على قضاء البصرة إياس بن معاوية بن قرة فمات في هذه السنة. وفي سنة ثلاث وعشرين قتل كلثوم بن عياض الذي بعثه هشام لقتال البربر بالمغرب. وتوفي عقبة بن الحجاج أمير الأندلس وقيل: بل خلعوه، وولي مكانه عبد الملك بن قطن ولايته الثانية كما يذكر. وفي سنة أربع وعشرين ظهر أمر أبي مسلم بخراسان. وتلقب بلخ على الأندلس ثم مات. وكان سار إليها من فل كلثوم بن عياض لما قتله البربر بالمغرب. وولى هشام على الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي فأمر

حنظلة بن صفوان أن يوليه فولاه. وكان ثعلبة بن خزامة بن سلامة الجرابي قد ولوه بعد بلخ فعزله أبو الخطار.

وفي هذه السنة ولي الوليد بن يزيد خالد بن يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي على الحجاز فأسره. ثم قتل الوليد سنة ست وعشرين فعزل يزيد عن العراق يوسف بن عمر وولى مكانه منصور بن جمهور، فبعث عامله على خراسان فامتنع نصر بن سيار من تسليم العمل له. ثم عزل يزيد منصور بن جمهور وولى مكانه على العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وغلب حنظلة على أفريقية عبد الرحمن بن حبيب كما يذكر في خبرها. وعزل يزيد عن المدينة يوسف بن محمد بن يوسف، وولى مكانه عبد العزيز بن عمر بن عثمان، وغلب سنة سبع وعشرين عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على الكوفة، وولى مروان على الحجاز عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وعلى العراق النضر بن سعيد الحرشي. وامتنع ابن عمر من استلام العمل إليه ووقعت الفتنة بينهم. ولحق ابن عمر بالخوارج كما يذكر في أخبارهم. واستولى بنو العباس على العباس.

وفي سنة تسع وعشرين ولي يوسف بن عبد الرحمن الفهري على الأندلس بعد ثوابة بن سلامة كما يأتي في أخبارهم.. وولى مروان على الحجاز عبد الواحد.... وعلى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة. وفي سنة ثلاثين ملك أبو مسلم خراسان وهرب عنها نصر بن سيار فمات بنواحي همذان سنة إحدى وثلاثين. وجاء المسودة وعليهم قحطبة فطلبوا ابن هبيرة على العراق وملكوه وبايعوا خليفتهم أبا العباس السفاح. ثم غلبوا مروان على الشام ومصر وقتلوه. وانقرض أمر بني أمية وعاد الأمر والخلافة لبني العباس. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده. وهذه أخبار بني أمية ملخّصة. من كتاب أبي جعفر الطبري. ولنرجع إلى أخبار الخوارج كما شرطنا في أخبارها بالذكر، والله المعين لا رب غيره.

الخبر عن الخوارج وذكر أوليتهم وتكرر خروجهم في الملة الإسلامية

قد تقدم لنا خبر الحكمين في حرب صفين واعتزل الخوارج علياً منكرين للتحكيم مكفرين به ولاطفهم في الرجوع عن ذلك وناظرهم فيه بوجه الحق فلجوا وأبوا إلا الحرب. وجعلوا شعارهم النداء بلا حَكم إلا لله. وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي وقاتلهم علي بالنهروان فاستلحمهم أجمعين ثم خرج من فلهم طائفة بالأنبار فبعث إليهم من استلحمهم. ثم طويفة أخرى مع هلال بن علية فبعث معقل بن قيس فقتلهم. ثم أخرى ثالثة كذلك، ثم أخرى على المدائن كذلك، ثم أخرى بشهرزور كذلك، وبعث شريح بن هانئ فهزموه فجرح واستلحمهم أجمعين، واستأمن من بقي فأمنهم وكانوا نحو خمسين.

وافترق شمل الخوارج ثم اجتمع من وجدانهم الثلاثة الذين توعدوا لقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، فقتل بالسهم عبد الرحمن بن ملجم علياً رضي الله عنه وباء بإثمه وسلم الباقون، ثم اتفقت الجماعة على بيعة معاوية سنة إحدى وأربعين واستقل معاوية بخلافة الإسلام. وقد كان فروة بن نوفل الأشجعي اعتزل علياً والحسن ونزل شهرزور وهو في خمسمائة من الخوارج. فلما بويع معاوية قال فروة لأصحابه: قد جاء الحق فجاهدوا وأقبلوا فنزلوا النخيلة عند الكوفة فاستنفر معاوية أهل الكوفة فخرجوا لقتالهم، وسألوا أهل الكوفة أن يخلوا بينهم وبين معاوية فأبوا فاجتمعت أشجع على فروة فوعظوه فلم يرجع فأخذوه قهراً وأدخلوه الكوفة. واستعمل الخوارج بعده عبد الله بن أبي الحريشي من طيئ. وقاتلوا أهل الكوفة فقاتلوا وابن أبي الحريشي معهم.

ثم اجتمعوا بعده على حوثرة بن وداع الأسدي وقدموا إلى النخيلة في مائة وخمسين ومعهم فل بن أبي الحريشي. وبعث معاوية إلى حوثرة أباه ليرده عن شأنه فأبى، فبعث إليه عبد الله بن عوف في معسكر فقتله وقتل أصحابه إلا خمسين دخلوا الكوفة وتفرقوا فيها، وذلك في جمادى الأخيرة سنة إحدى وأربعين. وسار معاوية إلى الشام وخلف المغيرة بن شعبة فعاد فروة بن نوفل الأشجعي إلى الخروج. فبعث إليه المغيرة خيلاً عليها ابن ربعي ويقال: معقل بن قيس فلقيه بشهرزور فقتله. ثم بعث المغيرة إلى شبيب بن أبجر من قتله، وكان من أصحاب ابن ملجم وهو الذي أتى معاوية يبشره بقتل علي فخافه على نفسه وأمر بقتله. فتنكر بنواحي الكوفة إلى أن بعث المغيرة من قتله.

ثم بلغ المغيرة أن بعضهم يريد الخروج وذُكر له معن بن عبد الله المحاربي فحبسه ثم طالبه بالبيعة لمعاوية فأبى فقتله. ثم خرج على المغيرة أبو مريم مولى بني الحارث بن كعب فأخرج معه النساء، فبعث المغيرة مَن قتله وأصابه. ثم حكم أبو ليلى في المسجد بمشهد الناس وخرج في اثنين من الموالي فأتبعه المغيرة معقل بن قيس الرياحي فقتله بسور الكوفة اثنتين وأربعين. ثم خرج على ابن عامر في البصرة سهم بن غالم الجهني في سبعين رجلاً منهم الحطيم وهو يزيد بن حالك الباهلي، ونزلوا بين الجسرين والبصرة. ومر بهم بعض الصحابة منقلباً من الغزو فقتلوه وقتلوا

ابنه وابن أخيه، وقالوا: هؤلاء كفرة. وخرج إليهم ابن عامر فقتل منهم عدة وأمن باقيهم.

ولما أتى زياد البصرة سنة خمس وأربعين هرب منهم الحطيم إلى الأهواز وجمع ورجع إلى البصرة فافترق عنه أصحابه فاختفى وطلب الأمان من زياد فلم يؤمنه ثم دل عليه فقتله وصلبه بداره. وقيل: بل قتله عبد الله بعد زياد سنة أربع وخمسين.

ثم اجتمع الخوارج بالكوفة على المستورد بن عقلة التيمي من تيم الرباب وعلى حيان بن ظبيان السلمي وعلى معاذ بن جوين الطائي. وكلهم من فل النهروان الذين ارتثوا في القتلى ودخلوا الكوفة بعد مقتل علي واجتمعوا في أربعمائة في منزل حيان بن ظبيان وتشاوروا في الخروج، وتدافعوا الإمارة. ثم اتفقوا على المستورد وبايعوه في جمادى الأخيرة. وكبسهم المغيرة في منزلهم فسجن حيان وأفلت المستورد فنزل الحيرة واختلف إليه الخوارج. وبلغ المغيرة خبرهم فخطب الناس وتهدد الخوارج فقام إليه معقل بن قيس فقال: ليكفك كل رئيس قومه.

وجاء صعصعة بن صوحان إلى عبد القيس وكان عالماً بمنزلهم عند سليم بن مخدوج العبدي إلا أنه لا يسلم عشيرته، فخرجوا ولحقوا بالصراة في ثلاثمائة فجهز إليهم معقل بن قيس في ثلاثة آلاف وجعل معظمهم من شيعة علي، وخرج معقل في الشيعة وجاء الخوارج ليعبروا النهر إلى المدائن فمنعهم عاملها سمال بن عبد العبسي ودعاهم إلى الطاعة على الأمان فأبوا فساروا إلى المذار. وبلغ ابن عامر بالبصرة خبرهم فبعث شريك بن الأعور الحارثي في ثلاثة آلاف من الشيعة وجاء معقل بن قيس إلى المدائن وقد ساروا إلى المذار، فقدم بين يديه أبا الرواع الشاكري في ثلاثمائة، وسار ولحقهم أبو الرواع بالمذار فقاتلهم.

ثم لحقه معقل بن قيس متقدماً أصحابه عند المساء فحملت الخوارج عليه فثبت وباتوا على تعبية، وجاء الخبر إلى الخوارج بنهوض شريك بن الأعوار من البصرة فأسروا من ليلتهم راجعين. وأصبح معقل واجتمع بشريك وبعث أبا الرواع في أتباعهم في ستمائة فلحقهم بجرجان فقاتلهم فهزمهم إلى ساباط وهو في اتباعهم. ورأى المستورد أن هؤلاء مع أبي الرواع حماة أصحاب معقل فتسرب عنهم إلى معقل وأبو الرواع في اتباعه. ولما لحق بمعقل قاتلهم قتالاً وأدركهم أبو الرواع بعد أن لقي كثيراً من أصحاب معقل منهزمين فردهم واقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل المستورد معقلاً طعنه بالرمح فأنفذه وتقدم معقل والرمح فيه إلى المستورد فقسم دماغه بالسيف وماتا جميعاً. وأخذ الراية عمر بن محرز بن شهاب التميمي بعهد معقل بذلك. ثم حمل الناس على الخوارج فقتلوهم ولم ينج منهم إلا خمسة أو ستة.

وعند ابن الكلبي أن المستورد من تيم من بني رياح. خرج بالبصرة أيام زياد قريب الأزدي ورجاف الطائي ابنا الخالة، وعلى البصرة سمرة بن جندب وقتلوا بعض بني ضبة فخرج عليهم شبان من بني علي وبني راسب فرموهم بالنبل، وقتل قريب وجاء عبد الله بن أوس الطائي برأسه واشتد زياد في أمر الخوارج وسمرة وقتلوا منهم خلقاً. ثم خرج سنة اثنتين وخمسين على زياد بن حراش العجلي في ثلاثمائة بالسواد فبعث إليهم زياد سعد بن حذيفة في خيل فقتلوهم، وخرج أيضاً أصحاب المستورد حيان بن ظبيان ومعاذ من طيئ فبعث إليهما من قتلهما وأصحابهما. وقيل: بل استأمنوا وافترقوا.

ثم اجتمع بالبصرة سنة ثمان وخمسين سبعون رجلاً من الخوارج من عبد القيس وبايعوا طواف بن..... على أن يفتكوا بابن زياد، وكان سبب ذلك أن ابن زياد حبس جماعة من الخوارج بالبصرة وحملهم على قتل بعضهم بعضاً وخلى سبيل القاتلين ففعلوا وأطلقهم، وكان منهم طواف. ثم ندموا وعرضوا على أولياء المقتولين القود والدية فأبوا، وأفتاهم بعض علماء الخوارج بالجهاد لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ الآية، فاجتمعوا للخروج كما قلنا. وسعى بهم إلى ابن زياد فاستعجلوا الخروج وقتلوا رجلاً ومضوا إلى الجلحاء كما قلنا، فندب ابن زياد الشرط والمحاربة فقاتلوهم، فانهزم الشرط أولاً ثم كثرهم الناس فقتلوا عن آخرهم. واشتد ابن زياد على الخوارج وقتل منهم جماعة كثيرة منهم: عروة بن أدية أخو مرداس وأدية أمهما وأبوهما جرير بن تميم.

وكان وقف على ابن زياد يوماً يعظه فقال: أتبنون بكل ريع آية؟ تعبثون الآيات. فظن ابن زياد أن معه غيره فأخذه وقطعه وقتل ابنيه. وكان أخوه مرداس من عظمائهم وعبادهم وممن شهد النهروان بالاستعراض. ويحرم خروج النساء ولا يرى بقتال من لا يقاتله. وكانت امرأته من العابدات من بني يربوع وأخذها ابن زياد فقطعها. وألح ابن زياد في طلب الخوارج وقتلهم وخلى سبيل مرداس من بينهم لما وصف له من عبادته، ثم خاف فخرج إلى الأهواز. وكان يأخذ مال المسلمين إذا مر به فيعطي منه أصحابه ويرد الباقي.

وبعث ابن زياد إليهم أسلم بن زرعة الكلابي في ألفي رجل ودعاهم إلى معاودة الجماعة فأبوا وقاتلوهم فهزموا أسلم وأصحابه. فسرح إليهم ابن زياد عباد بن علقمة المازني. ولحقهم بتوج وهم يصلون فقتلهم أجمعين ما بين راكع وساجد لم يتغيروا

عن حالهم. ورجع إلى البصرة برأس أبي بلال مرداس فرصده عبيدة بن هلال في ثلاثة نفر عند قصر الإمارة ليستفتيه فقتلوه واجتمع عليهم الناس فقتلوا منهم. وكان على البصرة عبيد اللّه بن أبي بكرة فأمره زياد بتتبع الخوارج إلى أن تقدم فحبسهم، وأخذ الكفلاء على بعضهم وأتى بعروة بن أدية فقال: أنا كفيلك وأطلقه.

ولما جاء ابن زياد قتل المحبوسين منهم والمكفولين، وطالب ابن أبي بكرة بعروة بن أدية فبحث عنه حتى ظفر به وجاء به إلى ابن زياد فقطعه وصلبه سنة ثمان وخمسين. ثم مات يزيد واستفحل أمر ابن الزبير بمكة وكان الخوارج لما اشتد عليهم ابن زياد بعد قتل أبي بلال مرداس أشار عليهم نافع بن الأزرق منهم باللحاق بابن الزبير لجهاد عساكر يزيد لما ساروا إليه قالوا: وإن لم يكن على رأينا داحضاً عن البيت وقاموا يقاتلون معه فلما مات يزيد وانصرفت العساكر كشفوا عن رأي ابن الزبير فيهم وجاؤوه يرمون من عثمان ويتبرؤون منه فصرح بمخالفتهم. وقال بعد خطبة طويلة أثنى فيها على الشيخين وعلي وعثمان واعتذر عنه فيما يزعمون، وقال: أشهدكم ومن حضرني أني ولي لابن عفان وعدو لأعدائه قالوا: فبرئ اللّه منك! قال: بل برئ اللّه منكم! فافترقوا عنه.

وأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي وعبد اللّه بن صفار السعدي وعبد اللّه بن إباض، وحنظلة بن بيهس وبنو الماخور: عبد اللّه وعبيد اللّه والزبير من بني سليط بن يربوع وكلهم من تميم، حتى أتوا البصرة. وانطلق أبو طالوت عن بني بكر بن وائل وأبو فديك عبد اللّه بن نور بن قيس بن ثعلبة بن الأسود اليشكري إلى اليمامة فوثبوا بها مع أبي طالوت. ثم تركوه ومالوا عنه إلى نجدة بن عامر الحنفي.

ومن هنا افترقت الخوارج على أربع فرق: الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي وكان رأيه البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم والاستعراض وقتل الأطفال واستحلال الأمانة لأنه يراهم كفاراً. والفرقة الثانية: النجدية وهم بخلاف الأزارقة في ذلك كله. والفرقة الثالثة: الإباضية أصحاب عبد اللّه بن إباض المري وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المنافقين فلا ينتهون إلى الرأي الأول ولا يقفون عند الثاني ولا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم ولا المنافقين فيهم وهم عندهم كالمنافقين، وقول هؤلاء أقرب إلى السنة. ومن هؤلاء البيهسية أصحاب أبي بيهس هيصم بن جابر الضبعي. والفرقة الرابعة: الصفَرية وهم موافقون للإباضية إلا في العقدة فإن الإباضية أشد على العقدة منهم.

وربما اختلف هذه الآراء من بعد ذلك واختلف في تسمية الصفرية فقيل نسبوا إلى ابن صفّار وقيل: اصفروا بما نهكتهم العبادة. وكانت الخوارج من قبل هذا الافتراق على رأي واحد لا يختلفون إلا في الشاذ من الفروع. وفي أصل اختلافهم هذا مكاتبات بين نافع بن الأزرق وأبي بيهس وعبد اللّه بن إباض ذكرها المبرد في كتاب الكامل فلينظر هناك.

ولما جاء نافع إلى نواحي البصرة سنة أربع وستين فأقام بالأهواز يعترض الناس وكان على البصرة عبد اللّه بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فسرح إليه مسلم عبس بن كويز بن ربيعة من أهل البصرة بإشارة الأحنف بن قيس، فدافعه عن نواحي البصرة وقاتله بالأهواز، وعلى ميمنة مسلم الحجاج بن باب الحميري، وعلى ميسرته حارثة بن بدر الغداني، وعلى ميمنة ابن الأزرق عبيدة بن هلال وعلى ميسرته الزبير بن الماخور التميمي. فقتل مسلم ثم قتل نافع وأمّر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب والخوارج عبد اللّه بن الماخور ثم قتل الحجاج، وعبد اللّه فأمر أهل البصرة ربيعة بن الأخزم والخوارج عبيد اللّه بن الماخور. ثم اقتتلوا حتى أمسوا، وجاء إلى الخوارج مدد فحملوا على أهل البصرة فهزموهم. وقتل ربيعة وولوا مكانه حارثة بن بدر فقاتل وردهم على الأعقاب ونزل الأهواز.

ثم عزل عن البصرة عبد اللّه بن الحارث وبعث ابن الزبير عليها الحارث القباع بن أبي ربيعة فزحف الخوارج إلى البصرة، وأشار الأحنف بن قيس بتولية المهلب حروبهم، وقد كان ابن الزبير ولاه خراسان، فكتبوا لابن الزبير بذلك فأجاب، واشترطوا للمسلم ما سأل من ولاية ما غلب عليه، والإعانة بالأموال، فاختار من الجند إثني عشر ألفاً وسار إليهم فدفعهم عن الجسر. وجاء حارثة بن بدر بمن كان معه في قتال الخوارج، فردهم الحارث إلى المهلب. وركب حارثة البحر يريد البصرة فغرق في النهر. وسار المهلب وعلى مقدمته ابنه المغيرة فقاتلهم المقدمة ودفعوهم عن سوق الأهواز إلى مادر. ونزل المهلب بسولاف وقاتله الخوارج وصدقوا الحملة فكشفوا أصحاب المهلب. ثم ترك من الغد قتالهم وقطع دُجيل ونزل العُقيل ثم ارتحل فنزل قريباً منهم وخندق عليه وأذكى العيون والحرس.

وجاء منهم عبيدة بن هلال والزبير بن الماخور في بعض الليالي ليبيتوا عسكر المهلب فوجدوهم حذرين. وخرج إليهم المهلب من الغد في تعبية والأزد وتميم في ميمنته، وبكر وعبد القيس في ميسرته، وأهل العالية في القلب. وعلى ميمنة الخوارج

عبيدة بن هلال اليشكري، وعلى ميسرتهم الزبير بن الماخور واقتتلوا ونزل الصبر. ثم شدوا على الناس فأجفل عسكر المهلب وانهزم وسبق المنهزمين إلى ربوة ونادى فيهم فاجتمع له ثلاثة آلاف أكثرهم من الأزد، فرجع بهم وقصد عسكر الخوارج واشتد قتالهم ورموهم بالحجارة، وقتل عبد اللّه بن الماخور وكثير منهم وانكفؤوا راجعين إلى كرمان وناحية أصبهان منهزمين، واستخلفوا عليهم الزبير بن الماخور وأقام المهلب بمكانه حتى جاء مصعب بن الزبير أميراً على البصرة وعزل المهلب.

وأما نجدة وهو نجدة بن عامر بن عبد اللّه بن سيار بن مفرج الحنفي وكان مع نافع بن الأزرق. فلما افترقوا سار إلى اليمامة ودعا أبو طالوت إلى نفسه، وهو من بكر بن وائل وتابعه نجدة ونهب الحصارم بلد بني حنيفة وكان فيها رقيق كثير يناهز أربعة آلاف فقسمها في أصحابه، وذلك سنة خمس وستين. واعترض عيراً من البحرين جاءت لابن الزبير فأخذها وجاء بها إلى أبي طالوت فقسمها بين أصحابه. ثم رأى الخوارج أن نجدة خير لهم من أبي طالوت فخالفوه وبايعوا نجدة. وسار إلى بني كعب بن ربيعة فهزمهم وأثخن فيهم، ورجع نجدة إلى اليمامة في ثلاثة آلاف، ثم سار إلى البحرين سنة سبع وستين فاجتمع أهل البحرين من عبد القيس وغيرهم على محاربته. وسالمته الأزد والتقوا بالعطيف فانهزمت عبد القيس وأثخن فيهم نجدة وأصحابه وأرسل سرية إلى الخط فظفروا بأهله. ولما قدم مصعب بن الزبير البصرة سنة تسع وستين بعث عبد اللّه بن عمر الليثي الأعور في عشرين ألفاً ونجدة بالعطيف فقاتلوهم وهزمهم نجدة وغنم ما في عسكرهم. وبعث عطية بن الأسود الحنفي من الخوارج إلى عُمان وبها عباد بن عبد اللّه شيخ كبير فقاتله عطية فقتله وأقام أشهراً وسار عنها. واستخلف عليها بعض الخوارج فقتله أهل عمان وولوا عليهم سعيداً وسليمان ابني عباد.

ثم خالف عطية نجدة وجاء إلى عمان فامتنعت منه، فركب البحر إلى كرمان وأرسل إليه المهلب جيشاً فهرب إلى سجستان ثم إلى السند فقتله خيل المهلب بقنداييل. ثم بعث نجدة المعرفين إلى البوادي بعد هزيمة ابن عمير فقاتلوا بني تميم بكاظمة وأعانهم أهل طويلع فبعث نجدة من استباحهم وأخذ منهم الصدقة كرهاً. ثم سار إلى صنعاء فبايعوه وأخذ الصدقة من مخالفيها. ثم بعث أبا فديك إلى حضرموت فأخذ الصدقة منهم. وحج سنة ثمان وستين في تسعمائة رجل وقيل: في ألفين، ووقف ناحية عن ابن الزبير على صلح عقد بينهما.

ثم سار نجدة إلى المدينة وتأهبوا لقتاله، فرجع إلى الطائف وأصاب بنتاً لعبد اللّه بن عمر بن عثمان فضمها إليه. وامتحنه الخوارج بسؤاله بيعها فقال: قد أعتقت نصيبي منها. قالوا: فزوجها، قال: هي أملك بنفسها، وقد كرهت الزواج. ولما قرب من الطائف جاءه عاصم بن عروة بن مسعود فبايعه عن قومه وولى عليهم الخازرق وعلى يبانة والسراة. وولى على ما يلي نجران سعد الطلائع، ورجع إلى البحرين وقطع الميرة عن الحرمين. وكتب إليه ابن عباس أو ثمامة بن أثال لما أسلم قطع الميرة عن مكة وهم مشركون، فكتب إليه رسول اللّه ﷺ: أن أهل مكة أهل اللّه فلا تمنعهم الميرة فخلاها لهم، وأنك قطعت الميرة ونحن مسلمون فخلاها لهم نجدة.

ثم اختلف إليه أصحابه لأن أبا سنان حييُّ بن وائل أشار عليه بقتل من أطاعه تقية، فانتهره نجدة وقال: إنما علينا أن نحكم بالظاهر. وأغضبه عطية في منازعة جرت بينهما على تفضيله لسرية البر على سرية البحر في الغنيمة فشتمه نجدة فغضب. وسأله في درء الحد في الخمر عن رجل من شجعانهم فأبى، وكاتبه عبد الملك في الطاعة على أن يوليه اليمامة ويهدر لهم ما أصاب من الدماء. فاتهموه في هذه المكاتبة ونقموا عليه أمثال هذه، وفارقه عطية إلى عمان. ثم انحازوا عنه وولوا أمرهم أبا فديك عبد اللّه بن ثور أحد بني قيس بن ثعلبة. واستخفى نجدة وألح أبو فديك في طلبه وكان مستخفياً في قرية من قرى حجر. ثم نذر به فذهب إلى أخواله من تميم وأجمع المسير إلى عبد الملك، فعلم به أبو فديك، وجاءت سرية منهم وقاتلهم فقتلوه. وسخط قتله جماعة من أصحاب أبي فديك واعتمده مسلم بن جبير فطعنه إثنتي عشرة طعنة وقتل مسلم لوقته، وحمل أبو فديك إلى منزله.

ثم جاء مصعب إلى البصرة سنة ثمان وستين والياً على العراقين عن أخيه، وكان المهلب في حرب الأزارقة فأراد مصعب أن يوليه بلاد الموصل والجزيرة وأرمينية، ليكون بينه وبين عبد الملك. فاستقدمه من فارس وولاه، وولى على فارس وحرب الأزارقة عمر بن عبد اللّه بن معمر. وكان الخوارج قد ولوا عليهم بعد قتل عبد اللّه بن الماخور سنة خمس وستين أخاه الزبير فجاؤوا به إلى إصطخر، وقدم عمر ابنه عبيد اللّه إليهم فقتلوه ثم قاتل الزبير عمر فهزمهم وقتل منهم سبعون. وفلق قطري بن الفجاءة وشتر صالح بن مخراق وساروا إلى نيسابور، فقاتلهم عمر بها وهزمهم، فقصدوا أصبهان فاستحموا بها. ثم أقبلوا إلى فارس وتجنبوا عسكر عمر ومروا على ساجور ثم أرجان، فأتوا الأهواز قاصدين العراق. وأغذ عمر السير في أثرهم، وعسكر مصعب عند الجسر. فسار الزبير والخوارج فقطع أرض صرصر وشن الغارة

على أهل المدائن يقتلون الوالدان والرجال، ويبقرون بطون الحبالى.

وهرب صاحب المدائن عنها وانتهت جماعة منهم إلى الكرخ، فقاتلهم أبو بكر بن مخنف فقتلوه وخرج أمير الكوفة وهو الحارث بن أبي ربيعة القباع حتى انتهى إلى الصراة ومعه إبراهيم بن الأشتر وشبيب بن ربعي، وأسماء بن خارجة ويزيد بن الحارث ومحمد بن عمير، وأشاروا عليه بعقد الجسر والعبور إليهم، فانهزموا إلى المدائن. وأمر الحارث عبد الرحمن بن مخنف باتباعهم في ستة آلاف إلى حدود أرض الكوفة، فانتهوا إلى الري وعليها يزيد بن الحارث بن دويم الشيباني وما والاهم عليه أهل الري فهزموه وقتلوه. ثم انحطوا إلى أصبهان وبها عتاب بن ورقاء فحاصروه أشهراً وكان يقاتلهم على باب المدينة.

ثم دعا إلى الاستماتة في قتالهم فخرجوا وقاتلوهم، وانهزمت الخوارج وقتل الزبير واحتووا على معسكرهم. ثم بايع الخوارج قطري بن الفجاءة المازني ويكني أبا نعامة وارتحل بهم إلى كرمان حتى استجمعوا فرجعوا إلى أصبهان فامتنعت، فأتوا الأهواز وقاموا، وبعث مصعب إلى المهلب فرده إلى قتال الخوارج وولى على الموصل والجزيرة إبراهيم بن الأشتر، وجاء المهلب فانتجعت الناس من البصرة وسار إلى الخوارج فلقيهم بسولاف. واقتتلوا ثمانية أشهر وبعث مصعب إلى عتاب بن ورقاء الرياحي عامل أصبهان بقتال أهل الري بما فعله في ابن دويم، فسار إليهم وعليهم الفرخان فقاتلهم وافتتحها عنوة وقلاعها وعاث في نواحيها.

خبر ابن الحر ومقتله

كان عبيد اللّه بن الحر الجعفي من خيار قومه صلاحاً وفضلاً. ولما قتل عثمان حزن عليه، وكان مع معاوية على علي، وكانت له زوجة بالكوفة فتزوجت لطول مغيبه. فأقبل من الشام وخاصم زوجها إلى علي فعدد عليه شهوده صفين. فقال: أيمنعني ذلك من عدلك؟ قال: لا ورد إليه امرأته. فرجع إلى الشام وجاء إلى الكوفة بعد مقتل علي ولقي إخوانه وتفاوضوا في النكير على علي ومعاوية. ولما قتل الحسين تغيب على ملحمته وسأل عنه ابن زياد فلم يره. ثم لقيه فأساء عذله، وعرض له بالكون مع عدوه فأنكر وخرج مغضباً. وراجع ابن زياد رأيه فيه فطلبه فلم يجده فبعث عنه فامتنع، وقال: أبلغوه أني لا آتيه طائعاً أبداً. وأتى منزل أحمد بن زياد الطائي فاجتمع إليه أصحابه، وخرج إلى المدائن. ومضى لمصارع الحسين وأصحابه فاستغفر لهم، ولما مات يزيد

ووقعت الفتنة اجتمع إليه أصحابه وخرج بنواحي المدائن، ولم يعترض للقتل ولا للمال، إنما كان يأخذ مال السلطان متى لقيه فيأخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ويرد الباقي ويأخذ لصاحب المال بما أخذ.

وحبس المختار امرأته بالكوفة وجاء فأخرجها من الحبس وأخرج كل من فيه. وأراد المختار أن يسطو به فمنعه إبراهيم بن الأشتر إلى الموصل لقتال ابن زياد. ثم فارقه ولم يشهد معه وشهد مع مصعب قتال المختار وقتله. ثم أغرى به مصعب فحبسه وشفع فيه رجال من وجوه مذحج فشفعهم وأطلقه، وأتى إليه الناس يهنؤونه فصرح بأن أحداً لا يستحق بعد الأربعة ولا يحل أن يعقد لهم بيعة في أعناقنا، فليس لهم علينا من الفضل ما يستحقون به ذلك، وكلهم عاص مخالف، قوي الدنيا ضعيف الآخرة، ونحن أصحاب الأيام مع فارس، ثم لا يعرف حقنا وفضلنا وإني قد أظهرت لهم العداوة.

وخرج للحرب فأغار فبعث إليه مصعب سيف بن هانئ المرادي يعرض عليه الطاعة على أن يعطيه قطعة من بلاد فارس فأبى، فسرح إليه الأبرد بن فروة الرباحي في عسكر فهزمه عبيد اللّه فبعث إليه حريث بن زيد فهزمه فقتله، فبعث إليه الحجاج بن حارثة الخثعمي ومسلم بن عمر فقاتلهما بنهر صرصر وهزمهما، فأرسل إليه مصعب بالأمان والولاية فلم يقبل، وأتى إلى فارس فهرب دهقانها بالمال وتبعه ابن الحر إلى عين التمر وعليه بسطام بن معلقة بن هبيرة الشيباني فقاتل عبيد اللّه. ووافاهم الحجاج بن حارثة فهزمهما عبيد اللّه وأسرهما وأخذ المال الذي مع الدهقان.

وأقام بتكريت ليجبي الخراج فسرح مصعب لقتاله الأبرد بن فروة الرباحي والجون بن كعب الهمداني في ألف وأمدهم المهلب بيزيد بن المعقل في خمسمائة وقاتلهم عبيد اللّه يومين في ثلاثمائة ثم تحاجزوا وقال لأصحابه: إني سائر بكم إلى عبد الملك فتجهزوا! ثم قال: إني خائف أن أموت ولم أذعر مصعباً وقصد الكوفة وجاءته العساكر من كل جهة، ولم يزل يهزمهم ويقتل منهم بنواحي الكوفة والمدائن. وأقام يغير بالسواد ويجبي الخراج. ثم لحق بعبد الملك فأكرمه وأجلسه معه على سريره، وأعطاه مائة ألف درهم وقسم في أصحابه الأعطيات وسأل من عبد الملك أن يوجه معه عسكراً لقتال مصعب فقال: سر بأصحابك وادع من قدرت عليه وأنا ممدك بالرجال. فسار نحو الكوفة ونزل بناحية الأنبار وأذن لأصحابه في إتيان الكوفة ليخبروا أصحابه بقدومه. وبعث الحارث بن أبي ربيعة إليه جيشاً كثيفاً فقاتلهم وتفرق عنه أصحابه وأثخنه الجراح فخاض البحر إلى سفينة فركبها حتى توسط الفرات

فاشرفت خيالة على السفينة وتبادروا به فقام يمشي في البحر فتعلقوا به فألقى نفسه في الماء مع بعضهم فغرقوه.

حروب الخوارج مع عبد الملك والحجاج

ولما استقر عبد الملك بالكوفة بعد قتل مصعب بعث على البصرة خالد بن عبد اللّه وكان المهلب يحارب الأزارقة فولاه على خراج الأهواز. وبعث أخاه عبد العزيز بن عبد إلى قتال الخوارج، ومعه مقاتل بن مسمع، وأتت الخوارج من ناحية كرمان إلى دارابجرد وبعث قطري بن الفجاءة صالح بن مخراق في تسعمائة فاستقبل عبد العزيز ليلاً على غير تعبية فانهزم. وقتل مقاتل بن مسمع وأسرت بنت المنذر بن الجارود امرأة عبد العزيز فقتلها الخوارج.

وتغير عبد العزيز إلى رامهرمز. وكتب خالد بالخبر إلى عبد الملك فكتب إليه.... على ولاية أخيه الحرب وولاية المهلب جباية الخراج وأمره بأن يسرح المهلب بحربهم. وكتب إلى بشر بالكوفة بإمداده بخمسة آلاف مع من يرضاه، فإذا فرغوا من قتال الخوارج ساروا إلى الري، فكانوا هنالك مُسلَّحة فانفذ بشر العسكر وعليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وكتب له عهده على الري. وخرج خالد بأهل البصرة ومعه المهلب واجتمعوا بالأهواز. وجاءت الأزارقة فأحرقوا السفن. ومر المهلب بعبد الرحمن بن الأشعث وأمره أن يخندق عليه وأقاموا كذلك عشرين ليلة. ثم زحف الخوارج بالناس فهال الخوارج كثرتهم وانصرفوا.

ويعث خالد داود بن قحدم في آثارهم وانصرف إلى البصرة وكتب بالخبر إلى عبد الملك. فكتب إلى أخيه بشر أن يبعث أربعة آلاف من أهل الكوفة إلى فارس، ويلحقوا بداود بن قحدم في طلب الأزارقة. فبعث بهم بشر بن عتاب ولحقوا بداود واتبعوا الخوارج حتى أصابهم الجهد ورجع عامتهم مشاة إلى الأهواز.

ثم خرج أبو فديك من بني قيس بن ثعلبة فغلب على البحرين وقتل نجدة بن عامر الحنفي كما مر. وهزم خالداً فكتب إلى عبد الملك بذلك، وأمر عبد الملك عمر بن عبيد اللّه بن معمر أن يندب الناس من أهل الكوفة والبصرة ويسير لقتال أبي فديك. فانتدب معه عشرة آلاف وسار بهم وأهل الكوفة على ميمنته عليهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد اللّه، وأهل البصرة في ميسرته عليهم عمر بن موسى أخيه، وهو في القلب. وانتهوا إلى البحرين واصطفوا للقتال وحملوا على أبي فديك وأصحابه فكشفوا ميسرته حتى أبعدوا إلا المغيرة بن المهلب ومجاعة وعبد الرحمن وفرسان الناس فإنهم مالوا إلى أهل الكوفة بالميمنة ورجع أهل الميسرة. وحمل أهل الميمنة على الخوارج فهزموهم واستباحوا عسكرهم وقتلوا أبا فديك وحصروا أصحابه بالمشقر حتى نزلوا على الحكم فقتل منهم ستة آلاف وأسر ثمانمائة وذلك سنة ثلاث وسبعين.

ثم ولى عبد الملك أخاه بشراً على البصرة فسار إليها وأمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة وأن ينتخب من أهل البصرة من أراد ويتركه ورأيه في الحرب ويمده بعسكر كثيف من أهل الكوفة مع رجل معروف بالنجدة. فبعث المهلب لانتخاب الناس جديع بن سعيد بن قبيصة وشق على بشر ولاية المهلب من عبد الملك وأوغرت صدره. فبعث على عسكر الكوفة عبد الرحمن بن مخنف وأغراه بالمهلب في ترك مشورته وتنغصه. وسار المهلب إلى رامهرمز وبها الخوارج وأقبل ابن مخنف في أهل الكوفة فنزل على ميل منه بحيث يتراءى العسكران. ثم أتاهم نبأ بشر بن مروان وأنه استخلف خالد بن عبد اللّه بن خالد على البصرة وخليفته على الكوفة عمر بن حريث فافترق ناس كثيرة من أهل البصرة وأهل الكوفة فنزلوا الأهواز وكتب إليهم خالد بن عبد اللّه يتهددهم فلم يلتفتوا إليه. وأقبل أهل الكوفة إلى الكوفة وكتب إليهم عمر بن حريث بالنكير والعود إلى المهلب ومنعهم الدخول فدخلوا ليلاً إلى بيوتهم.

ثم قدم الحجاج أميراً على العراقين سنة خمس وسبعين فخطب بالكوفة خطبته المعروفة كان منها: ولقد بلغني رفضكم المهلب وإقبالكم إلى مصركم عاصين مخالفين، وأيم اللّه لا أجد أحداً من عسكره بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه وأنهب داره. ثم دعا العرفاء وقال: ألحقوا الناس بالمهلب وأتوني بالبراءة بموافاتهم، ولا تغلقن أبواب الجسر. ووجد عمر بن ضابئ من المتخلفين وأخبر أنه من قتله عثمان فقتله. فأخرج جند المهلب وازدحموا على الجسر وجاء العرفاء إلى المهلب برامهرمز فأخذوا كتابه بموافاة الناس، وأمرهم الحجاج بمناهضة الخوارج فقاتلوهم شيئاً ثم انزاحوا إلى كازرون وسار المهلب وابن مخنف فنزلوا بهم. وخندق المهلب ولم يخندق ابن مخنف وبيتهم الخوارج فوجدوا المهلب حذراً فمالوا إلى ابن مخنف فانهزم عنه أصحابه وقاتل حتى قتل. وفي حديث أهل الكوفة أنهم لما ناهضوا الخوارج مالوا إلى المهلب واضطروه إلى معسكره وأمده عبد الرحمن بعامة عسكره وبقي في خف من الجند. فمال إليه الخوارج فنزل ونزل معه القراء وواحد وسبعون من أصحابه فقتلوا. وجاء المهلب من الغد فدفنه وصلى عليه وكتب بالخبر إلى الحجاج فبعث على معسكره عتاب بن ورقاء وأمره

بطاعة المهلب، فأجاب لذلك وفي نفسه منه شيء. وعاتبه المهلب يوماً ورفع إليه القضيب فرده ابنه المغيرة عن ذلك. وكتب عتاب يشكو المهلب إلى الحجاج ويسأله العود وصادف ذلك أمر شبيب فاستقدمه وبقي المهلب.

حروب الصفرية وشبيب مع الحجاج

ثم خرج صالح بن مسرح التميمي من بني امرئ القيس بن زيد مناة وكان يرى رأي الصفرية، وكان عابداً ومسكنه أرض الموصل والجزيرة وله أصحاب يقرئهم القرآن والفقه. وكان يأتي الكوفة ويلقى أصحابه ويعد ما يحتاج إليه. فطلبه الحجاج فترك الكوفة وجاء إلى أصحابه بالموصل ودارا فدعاهم إلى الخروج وحث الناس عليه. وجاءه كتاب شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني من رؤوسهم يحثه على مثل ذلك. فكتب إليه: إني في انتظارك فأقدم. فقدم شبيب في نفر من أصحابه منهم أخوه المضاد والمحلل بن وائل اليشكري ولقيه بدارا، وأجمع صالح الخروج. وبعث إلى أصحابه وخرجوا في صفر سنة ست وسبعين. وأمر بالدعاء قبل القتال وخير في الدماء والأموال. وعرضت له دواب لمحمد بن مروان بالجزيرة فأخذوها وحملوا عليها أصحابهم.

وبلغ محمد بن مروان وهو أمير الجزيرة خروجهم فسرح إليهم عدي بن عدي الكندي في ألف فسار من حران وكان ناسكاً فكره حروبهم وبعث إليهم بالخروج فحبسوا الرسول. فساروا إليه فطلعوا عليه وهو يصلي الضحى وشبيب في الميمنة وسويد بن سليم في الميسرة. وركب عدي على غير تعبية فانهزم واحتوى الخوارج على معسكره ومضوا إلى آمد. وسرح محمد بن مروان خالد بن حر السلمي في ألف وخمسمائه، والحارث بن جعونة العامري في مثلها، وقال: أيكما سبق فهو أمير على صاحبه.

وبعث صالح شبيباً إلى الحارث وتوجه هو نحو خالد وقاتلوهم أشد القتال. واعتصم أصحاب محمد بخندقهم فسارت الخوارج عنهم وقطعوا أرض الجزيرة والموصل إلى الدسكرة. فسرح إليهم الحجاج الحارث بن عميرة بن ذي الشعار في ثلاثة آلاف من أهل الكوفة فلقيهم على تخم ما بين الموصل وصرصر والخوارج في تسعين رجلاً. فانهزم سويد بن سليم وقتل صالح وصرع شبيب. ثم وقف على صالح قتيلاً فنادى بالمسلمين فلاذوا به ودخلوا حصناً هنالك وهم سبعون. وعاث الحارث بهم وأحرق عليهم الباب ورجع يصبحهم من الغداة. فقال لهم شبيب: بايعوا من شئتم من أصحابكم واخرجوا بنا إليهم. فبايعوه وأطفؤوا النار بالماء في اللبود وخرجوا إليه فبيتوا وسرح الحارث فحملوا على أصحابه وانهزموا نحو المدائن وحوى شبيب عسكرهم.

وسار شبيب إلى أرض الموصل فلقي سلامة بن سنان التميمي من تميم شيبان أوخاه فضالة من أكابر الخوارج. وكان خرج قبل صالح في ثمانية عشر رجلاً ونزل على ماء لبني عنزة فقتلوهم، وأتوا برؤوسهم إلى عبد الملك يتقربون له بهم. فلما دعا شبيب سلامة إلى الخروج شرط عليه أن ينتخب ثلاثين فارساً ويسير بهم إلى عنزة. فيثأر منهم بأخيه فقبل شرطه. وسار إلى عنزة فأثخن فيهم وجعل يقتل الحلة بعد الحلة. ثم أقبل شبيب إلى دارا في نحو سبعين رجلاً ففرت منهم طائفة من بني شيبان نحو ثلاثة آلاف فنزلوا ديراً خراباً وامتنعوا منه، وسار في بعض حاجاته واستخلف أخاه مضاد بن يزيد بجماعة من بني شيبان في أموالهم مقيمين، فقتل منهم ثلاثين شيخاً فيهم حوثرة بن أسد. وأشرف بنو شيبان على مضاد وأصحابه، وسألوا الأمان ليخرجوا إليهم ويسمعوا دعوتهم فأخرجوا وقبلوا ونزلوا إليهم واجتمعوا بهم. وجاء شبيب فاستصوب فعلهم. وسار بطائفة أذربيجان.

وكان الحجاج قد بعث سفيان بن أبي العالية الخثعمي إلى طبرستان يحاصرها في ألف فارس، وكتب إليه الحجاج أن يرجع. فصالح أهل طبرستان ورجع فأقام بالدسكرة يطلب المدد. وبعث الحجاج أيضاً إلى الحارث بن عميرة الهمداني قاتل صالح أن يأتيه بجيش الكوفة والمدائن وإلى سورة بن أبجر التميمي في خيل المناظر. ويعجل سفيان في طلب شبيب فلحقه بخانقين فاستطردهم وأكمن كميناً لهم مع أخيه، واتبعوه في سفح الجبل فخرج عليهم الكمين فانهزموا بغير قتال، وثبت سفيان وقاتل. ثم حمل شبيب فانكشف ونجا إلى بابل مهرود، وكتب إلى الحجاج بالخبر وبوصول العساكر إلا سورة بن أبجر. فكتب الحجاج إلى سورة يتهدده ويأمره أن يتخذ من المدائن خمسمائة فارس ويسير إلى شبيب فسار. وانتهى شبيب إلى المدائن ثم إلى الهندوان فترحم على أصحابه هنالك. وبيتهم سورة هنالك وهم حذرون فلم يصب منهم الغرة. ورجع نحو المدائن وشبيب في اتباعه.

وخرج ابن أبي عصيفير عامل المدائن فقاتلهم وهرب كثير من جنده إلى الكوفة ومضى شبيب إلى تكريت. ووصل سورة إلى الكوفة بالفل فحبسه الحجاج ثم أطلقه. وسرح عثمان بن سعيد شرحبيل الكندي - ويلقب الجزل - في أربعة آلاف ليس فيهم من المنهزمين أحد وساروا لحرب شبيب وأصحابه. وقدم بين يديه عياض بن أبي لينة الكندي وجعلوا يتبعون شبيباً من رستاق إلى

رستاق وهو على غير تعبية والجزل على التعبية ويخندق على نفسه متى نزل. وطال ذلك على شبيب وكان في مائة وستين فقسمه على أربع فرق وثبت الجزل ومشايخه فلم يصب منهم فرجع عنهم. ثم صحبهم ثانية فلم يظهر منهم بشيء.

وسار الجزل في التبعية كما كان وشبيب يسير في أرض الخوارج وغيرها يكسب الخراج. وكتب الحجاج إلى الجزل ينكر عليه البطء ويأمره بالمناهضة وبعث سعيد بن المجالدي على جيش الجزل فجاءهم بالهندوان ووبخهم وعجزهم. وجاءهم الخبر بأن شبيباً قد دخل قطيطيا والدهقان يصلح لهم الغداء، فنهض سعيد في الناس وترك الجزل مع العسكر وقد صف بهم خارج الخندق. وجاء سعيد إلى قطيطيا وعلم به شبيب فأكل وتوضأ وصلى. وخرج فحمل على سعيد وأصحابه مستعرضاً فانهزموا وثبت سعيد فقتله وسار في اتباعهم إلى الجزل فقاتلهم الجزل حتى وقع بين القتلى جريحاً. وكتب إلى الحجاج بالخبر وأقام بالمدائن. وانتهى شبيب إلى الكرخ وعبر دجلة إليه وأرسل إلى سوق بغداد فأتاهم في يوم سوقهم واشترى منه حاجاته وسار إلى الكوفة.

فلما قرب منها بعث الحجاج سويد بن عبد الرحمن السعدي في ألفي رجل فساروا إلى شبيب. وأمر عثمان بن قطن فعسكر في السبخة. وخالفه شبيب إلى أهل السبخة فقاتلوه. وجاء سويد في آثاره فمضى نحو الحيرة وسويد في اتباعه. ثم رحل من الحيرة وجاء كتاب الحجاج إلى سويد يأمره باتباعه. فمضى في إتيانه وشبيب يغير في طريقه. وأخذ على القطقطانة ثم على قصر بني مقاتل ثم على الأنبار ثم ارتفع على أدنى أذربيجان. ولما أبعد سار الحجاج إلى البصرة واستعمل على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة فجاءه كتاب دهقان بابل مهرود يخبره بقصد شبيب الكوفة فبعث بالكتاب إلى الحجاج.

وأقبل شبيب حتى نزل عقرقوبا، ونزل وسار منها يسابق الحجاج إلى الكوفة. وطوى الحجاج المنازل فوصل الكوفة عند العصر ووصل شبيب عند المغرب. فأراح وطعموا ثم ركبوا ودخلوا إلى السوق. وضرب شبيب القصر بعموده. ثم اقتحموا المسجد الأعظم فقتلوا فيه من الصالحين ومروا بدار صاحب الشرطة فدعوه إلى الأمير ونكرهم فقتلوا غلامه. ومروا بمسجد بني ذهل فقتلوا ذهل بن الحارث وكان يطيل الصلاة فيه. ثم خرجوا من الكوفة واستقبلهم النضر بن القعقاع بن شور الذهلي، وكان ممن أقبل مع الحجاج من البصرة فتخلف عنه. فلما رآه قال: السلام عليك أيها الأمير! فقال له شبيب: قل أمير المؤمنين ويلك فقالها. وأراد شبيب أن يلقنه للقرابة بينهما. وكان النضر ناحية بيت هانئ بن قبيصة الشيباني فقال له: يا نضر لا حكم إلا لله ففطن بهم وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون وشد عليه أصحاب شبيب فقتلوه.

ونادى منادي الحجاج بالكوفة يا خيل اللّه اركبي وهو بباب القصر وكان أول من أتاه عثمان بن قطن بن عبد اللّه بن الحسين ذي القصة، ثم جاء الناس من كل جانب، فبعث الحجاج خالد بن الأسدي وزائدة بن قدامة الثقفي وأبا الضريس مولى بني تميم، وعبد الأعلى بن عبد اللّه بن عامر وزياد بن عبد اللّه العتكي في ألفين ألفين وقال: إن كان حرب فأميركم زائدة بن قدامة. وبعث معهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد اللّه من سجستان، وكان عبد الملك قد ولاه عليها، وأمر الحجاج أن يجهزه ويبعثه في آلاف من الجنود إلى عمله، فجهزه. وحدث أمر شبيب. فقال له الحجاج: تجاهد ويظهر اسمك ثم تمضي إلى عمالك، فساروا جميعاً ونزلوا أسفل الفرات.

وأخذ شبيب نحو القادسية وجرد الحجاج ألفاً وثمانمائة من نقاوة الجند مع ذخر بن قيس، وأمره بمواقعة شبيب أينما أدركه، وإن ذهب فاتركه. فأدركه بالسلخين وعطف عليه شبيب فقاتل ذخر حتى صرع وفيه بضعة عشر جرحاً. وانهزم أصحابه يظنون أنه قتل. ثم أفاق من برد السحر فدخل قرية وسار إلى الكوفة. ثم قصد شبيب وأعوانه وهم على أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة فقال: إن هزمناهم فليس دون الحجاج والكوفة مانع.

وانتهى إليهم وقد تعبؤوا للحرب وعلى الميمنة زياد بن عمر العتكي وعلى الميسرة بشر بن غالب الأسدي وكل أمير بمكانه. وعبى شبيب أصحابه ثلاثة كتائب: فحمل سويد بن سليم على زياد بن عمر فانكشفوا وثبت زياد قليلاً. ثم حمل الثانية فانهزموا وانهزم جريحاً عند المساء. ثم حملوا على عبد الأعلى بن عبد اللّه بن عامر فانهزم ولم يقاتل ولحق بزياد بن عمر وحملت الخوارج حتى انتهت إلى محمد بن موسى بن طلحة عند الغروب فقاتلوه وصبر لهم. ثم حمل مضاد أخو شبيب على بشر بن غالب في الميسرة فصبر ونزل في خمسين رجلاً فقاتلوه حتى قتلوا. وحملت الخوارج على أبي الضريس مولى بني تميم فهزموه حتى انتهى إلى أعين ثم حملوا عليه وعلى أعين فهزموهما إلى زائدة بن قدامة. فلما انتهوا إليه نادى نزال وقاتلهم إلى السحر ثم حمل شبيب عليه فقتله وقتل أصحابه ودخل أبو الضريس مع الفل إلى الجوسق بإزائهم.

ورفع الخوارج عنهم السيف ودعوهم إلى البيعة لشبيب عند الفجر فبايعوه وكان فيمن بايعه أبو بردة وبقي محمد بن موسى لم

ينهزم، فلما طلع الفجر سمع شبيب أذانهم وعلم مكانهم فأذن وصلى ثم حمل عليهم فانهزمت طائفة منهم وثبتت أخرى وقاتل محمد حتى قتل. وأخذ الخوارج ما في العسكر وانهزم الذين بايعوا شبيباً فلم يبق منهم أحد. وجاء شبيب إلى الجوسق الذي فيه أعين وأبو الضريس فتحصنوا منه فأقام يوماً عليهم وسار عنهم وأراده أصحابه على الكوفة وإزاءهم خوخى فتركها وخرج على نفر.

وسمع الحجاج بذلك فظن أنه يريد المدائن وهي باب الكوفة وأكثر السواد لها فهاله ذلك وبعث عثمان بن قطن أميراً على المدائن وخوخى والأنبار وعزل عنها عبد اللّه بن أبي عصيفير. وقيل في مقتل محمد بن موسى غير هذا وهو أنه كان شهد مع عمر بن عبد اللّه بن معمر قتال أبي فديك فزوجه عمر ابنته، وكانت أخته تحت عبد الملك فولاه سجستان فمر بالكوفة وقيل للحجاج: إن جاء إلى هذا أحد ممن تطلبه منعك منه فمره بقتال شبيب في طريقه لعل اللّه يريحك منه ففعل الحجاج وعدل محمد إلى قتال شبيب وبعث إليه شبيب بدهاء الحجاج وخديعته إياه وأن يعدل عنه فأبى إلا شبيباً فبارزه وقتله شبيب. ولما انهزم الأمراء وقتل موسى بن محمد بن طلحة دعا الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وأمره أن ينتخب ستة آلاف فارس ويسير في طلب شبيب أين كان، فسار لذلك. ثم كتب إليه وإلى أصحابه يتهددهم إن انهزموا ومر ابن الأشعث بالمدائن وعاد الجزل من جراحته فوصاه وحذره وحمله على فرسه وكانت لا تجارى. وسار شبيب على دقوقا وشهرزور وابن الأشعث في اتباعه إلى أن وقف على أرض الموصل وأقام يقاتله أهلها.

فكتب إليه الحجاج: أما بعد فاطلب شبيباً واسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فاقتله أو تنفيه فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين والجند جنده. فجعل ابن الأشعث يتبعه وشبيب يقصد به الأرض الخشنة الغليظة وإذا دنا منه رجع يبيته فيجده على حذره حتى أتعب الجيش وأحفى دوابهم ونزل بطن أرض الموصل ليس بينه وبين سواد إلا نهر حولايا في دادان الأعلى من الأرض خوخى. ونزل عبد الرحمن في عواقيل النهر وكانت أيام النحر، وطلب شبيب الموادعة فيها فأجابه قصداً للمطاولة. وكتب عثمان بن قطن بذلك إلى الحجاج فنكر وبعث إلى عثمان بن قطن بإمارة العسكر وأمره بالمسير وعزل عبد الرحمن بن الأشعث. وبعث على المدائن مطرف بن المغيرة مكان ابن قطن وقدم ابن قطن على عسكر الكوفة عشية يوم التروية وناداهم إلى الحرب فاستمهلوه وأنزله عبد الرحمن بن الأشعث.

وأصبحوا إلى القتال ثالث يومهم على تعبية وفي الميمنة خالد بن نهيك بن قيس وفي الميسرة عقيل بن شداد السلولي وابن قطن في الرجالة وعبر إليهم شبيب في مائة وثلاثين رجلاً فوقف في الميمنة وأخوه مضاد في القلب وسويد بن سليم في الميسرة وحمل شبيب على ميسرة عثمان بن قطن فانهزموا ونزل عقيل بن شداد فقاتل حتى قتل وقتل معه مالك بن عبد اللّه الهمداني. وحمل سويد على ميمنة عثمان فهزمها وقاتل خالد بن نهيك فجاء شبيب من ورائه فقتله وتقدم عثمان إلى مضاد في القلب فاشتد القتال وحمل شبيب من وراء عثمان وعطف عليه سويد بن سليم ومضاد من القلب حتى أحاطوا به فقتلوه. وانهزمت العساكر ووقع عبد الرحمن بن الأشعث فأتاه ابن أبي شثبة الجعفي وهو على بغلة فأردفه ونادى في الناس باللحاق بدير أبي مريم.

ورفع شبيب السيف عن الناس ودعاهم إلى البيعة فبايعوه ولحق ابن الأشعث بالكوفة فاختفى حتى أمنه الحجاج. ومضى شبيب إلى ماه نهرادان فأقام فيه فصل الصيف فلحق به من كان للحجاج عليه تبعة. ثم أقبل إلى المدائن في ثمانمائة رجل وعليها مطرف بن المغيرة. وبلغ الخبر إلى الحجاج فقام في الناس وتسخط وتوعد. فقال زهرة بن حوية وهو شيخ كبير لا يستطيع القيام إلا معتمداً. أنت تبعث الناس متقطعين فيصيبون منهم؟ فاستنفر الناس جميعاً وابعث عليهم رجلاً شجاعاً مجرباً يرى الفرار عاراً والصبر مجداً وكرماً. فقال الحجاج: أنت ذلك الرجل! فقال: إنما يصلح من يحمل الدرع والرمح ويهز السيف ويثبت على الفرس ولا أطيق من هذا شيئاً وقد ضعف بصري ولكن أكون مع أمير وأشير عليه. فقال له: جزاك اللّه خيراً عن الإسلام وأهله أول أمرك وآخره.

ثم قال للناس: سيروا فتجهزوا بأجمعكم فتجهزوا وكتب الحجاج إلى عبد الملك بأن شبيباً شارف المدائن يريد الكوفة وهم عاجزون عن قتاله بما هزم جندهم وقتل أمراءهم ويستمده من جند الشام، فبعث إليه عبد الملك سفيان بن الأبرد الكلبي في أربعة آلاف وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ألفين وذلك سنة ست وسبعين.

وكتب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الرياحي يستقدمه من عند المهلب وقد وقع بينهما كما مر فقدم عتاب وولاه على الجيش فشكر زهرة بن حوية له وقال: رميتهم بحجرهم واللّه لا يرجع إليك حتى يظفر أو يقتل. وبعث الحجاج إلى جند الشام يحذرهم البيات ويوصيهم الإحتياط وأن يأتوا على عين التمر. وعسكر عتاب بجماع أعين ثم قطع شبيب دجلة إلى المدائن وبعث إليه مطرف أن يأتيه رجال من وجوههم ينظر في دعوتهم فرجا منه

وبعث إليه بغيث بن سويد في جماعة مكثوا عنده أربعاً ولم يرجعوا من مطرف بشيء. ونزل عتاب الصراة وخرج مطرف إلى الجبال خوفاً أن يصل خبره مع شبيب إلى الحجاج.

فخلا لهم الجو. وجاء مضاد إلى المدائن فعقد الجسر ونزل عتاب سوق حكم في خمسين ألفاً. وسار شبيب بأصحابه في ألف رجل، فصلى الظهر بساباط وأشرف على عسكر عتاب عند المغرب وقد تخلف عنه أربعمائة من أصحابه فصلى المغرب، وعبى أصحابه ستمائة سويد بن سليم في مائتين في الميسرة، والمحلل بن وائل في مائتين في الميمنة وهو في مائتين في القلب. وكان على ميمنة عتاب محمد بن عبد الرحمن بن سعيد وعلى ميسرته نعيم بن عليم وعلى الرجالة حنظلة بن الحارث اليربوعي وهو ابن عمه وهم ثلاثة صفوف بين السيوف والرماح والرماة.

ثم حرض الناس طويلاً وجلس في القلب ومعه زهرة بن مرثد وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وأبو بكر بن محمد بن أبي جهم العدوي. وأقبل شبيب حين أضاء القمر بين العشاءين فحمل على الميسرة وفيها ربيعة فانفضوا وثبت قبيصة بن والق وعبيد بن الجليس ونعيم بن عليم على رايتهم حتى قتلوا. ثم حمل شبيب على عتاب بن ورقاء وحمل سويد بن سليم على محمد بن سليم في الميمنة في تميم وهمدان. واشتد القتال وخالط شبيب القلب وانفضوا وتركوا عتاباً وفر ابن الأشعث في ناس كثيرين وقتل عتاب بن ورقاء وركب زهرة بن حوية فقاتل ساعة ثم طعنه عامر بن عمر الثعلبي من الخوارج ووطأته الخيل فقتله الفضل بن عامر الشيباني منهم، ووقف عليه شبيب. وتوجع له ونكر الخوارج ذلك وقالوا: أتتوجع لرجل كافر؟ فقال: أعرف قديمه.

ثم رفع السيف عن الناس ودعا للبيعة فبايعوه وهربوا تحت ليلهم وحوى ما في العسكر وأتاه أخوه من المدائن وأقام يومين. ثم سار نحو الكوفة ولحق سفيان بن الأبرد وعسكر الشام بالحجاج، فاستغنى بهم عن أهل الكوفة واشتد بهم وخطب فوبخ أهل الكوفة وعجزهم. وجاء شبيب فنزل حمام أعين فسرح الحجاج إليه الحارث بن معاوية الثقفي في نحو ألف من الشرط لم يشهدوا يوم عتاب فبادر إليه شبيب فقتله وانهزم أصحابه إلى الكوفة وأخرج الحجاج مواليه فأخذوا بأفواه السكك وجاء شبيب فنزل السبخة ظاهر الكوفة وبنى بها مسجداً وسرح الحجاج مولاه أبا الورد في غلمان لقتاله فحمل عليه شبيب وقتله يظنه الحجاج. ثم أخرج إليه مولاه طهمان كذلك فقتله. فركب الحجاج في أهل الشام وجعل سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف على أفواه السكك. وقعد على كرسيه ونادى في أهل الشام وحرضهم فغضوا الأبصار وجثوا على الركب وشرعوا الرماح.

وأقبل شبيب في ثلاثة كراديس معه ومع سويد بن سليم ومع المحلل بن وائل. وحمل سويد وبيتوا وطاعنوه حتى انصرف. وقدم الحجاج كرسيه وحمل المحلل ثانية فكذلك وقدم الحجاج كرسيه فثبتوا له وألحقوه بأصحابه، وسرب شبيب سويد بن سليم إلى أهل السكك وكان عليها عروة بن المغيرة بن شعبة فلم يطق دفاعه. ثم حمل شبيب فطاعنوه وردوه وانتهى الحجاج إلى مسجده وصعد وملك العرصة. وقال له خالد بن عتاب: إئذن لي في قتالهم فإني موتور فأذن له، فجاءهم من ورائهم وقتل أخا شبيب وغزالة امرأته وخرق عسكرهم وحمل الحجاج عليهم فانهزموا، وتخلف شبيب رداً لهم. فأمر الحجاج أصحابه بموادعتهم ودخل الكوفة فخطب وبشر الناس.

ثم سرح حبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ثلاثة آلاف فارس لأتباعه وحذره بياته فانتهى في أثره إلى الأنبار وقد افترق عن شبيب كثير من أصحابه للأمان الذي نادى الحجاج به، فجاءه شبيب عند الغروب وقد قسم حبيب جنده أرباعاً وتواصوا بالاستماتة فقاتلهم شبيب طائفة بعد طائفة. فما زالت قدم إنسان عن موضعها إلى آخر الليل. ثم نزل شبيب وأصحابه واشتد القتال وكثر القتلى وسقطت الأيدي وفقئت الأعين، وقتل من أصحاب شبيب نحو ثلاثين ومن أهل الشام نحو مائة. وأدركهم الإعياء والفشل جميعاً. فانصرف شبيب بأصحابه وقطع دجلة ومر في أرض خوخى. ثم قطع دجلة أخرى عند واسط ومضى على الأهواز وفارس إلى كرمان ليريح بها.

وقد قيل في هذه الحرب غير هذا، وهو أن الحجاج بعث إليه أمراء واحداً بعد واحد فقتلهم وكان منهم أعين صاحب حمام أعين وكانت غزالة امرأة شبيب نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين بالبقرة وآل عمران. فجاء شبيب ودخل الكوفة ليلاً وأوفت بنذرها. ثم قاتلهم الناس وخرجوا. وقام الحجاج في الناس يستشيرهم وبرز إليه قتيبة وعذله في بعث الرعاع ينهزمون ويموت قائدهم والرأي أن تخرج بنفسك فتحالمه فخرج من الغد إلى السبخة وبها شبيب واختفى مكانه عن القوم ونصب أبا الورد مولاه تحت اللواء فحمل عليه شبيب فقتله. ثم حمل على خالد بن عتاب في الميسرة ثم على مطرف بن ناجية في الميمنة فكشفهما.

ونزل عند ذلك الحجاج وأصحابه وجلس على عباءة ومعه عنبسة بن سعيد. وبينما هم على ذلك إذ اختلف الخوارج وقال مصقلة بن مهلهل الضبي لشبيب: ما تقول في صالح بن سرح؟ قال: برئت منه فبريء مصقلة منه وفارقه. وشعر الحجاج

باختلافهم فسرح خالد بن عتاب لقتالهم فقاتلهم في عسكرهم وقتل غزالة وبعث برأسها إلى الحجاج فأمر شبيب من اعترضه فقتل حامله، وجاء به فغسله ودفنه. وانصرف الخوارج وتبعهم خالد. وقتل مضاد أخو شبيب ورجع خالد عنهم بعد أن أبلى وسار شبيب إلى كرمان. وكتب الحجاج إلى عبد الملك يستمده فبعث إليه سفيان بن الأبرد الكلبي في العساكر فأنفق فيهم المال، وسرحه بعد انصراف الخوارج بشهرين وكتب إلى عامل البصرة وهو الحكم بن أيوب زوج ابنته أن يبعث بأربعة آلاف فارس من جند البصرة إلى سفيان فبعثهم مع زياد بن عمر العتكي فلحقه انقضاء الحرب.

وكان شبيب بعد أن استجم بكرمان أقبل راجعاً فلقي سفيان بالأهواز فعبر إليه جسر دجيل وزحف في ثلاثة كراديس فقاتلهم أشد قتال وحملوا عليهم أكثر من ثلاثين حملة وسفيان وأهل الشام مستميتون يزحفون زحفاً حتى اضطر الخوارج إلى الجسر فنزل شبيب في مائة من أصحابه وقاتل إلى المساء حتى إذا جاء الليل انصرف وجاء إلى الجسر فقدم أصحابه وهو على أثرهم. فلما مر بالجسر اضطرب حجر تحت حافر فرسه وهو على حرف السفينة فسقط في الماء وغرق وهو يقول: وكان أمر الله مفعولاً، ذلك تقدير العزيز العليم. وجاء صاحب الجسر إلى سفيان وهو يريد الإنصراف بأصحابه فقال: إن رجلاً من الخوارج سقط فتنادوا بينهم غرق أمير المؤمنين ومروا وتركوا عسكرهم فكبر سفيان وأصحابه وركب إلى الجسر وبعث إلى عسكرهم فحوى ما فيه وكان كثير الخيرات ثم استخرجوا شبيباً من النهر ودفنوه.

خروج المطرف بن المغيرة بن شعبة

لما ولي الحجاج الكوفة وقدمها وجد بني المغيرة صلحاء أشرافاً فاستعمل عروة على الكوفة ومطرفاً على المدائن وحمزة على همذان فكانوا أحسن العمال سيرة وأشدهم على المريب. ولما جاء شبيب إلى المدائن نزل نهر شير ومطرف بمدينة الأبواب فقطع مطرف الجسر وبعث إلى شبيب أن يرسل إليه من يعرض عليه الدعوة، فبعث إليه رجلاً من أصحابه فقالوا: نحن ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإنا نقمنا على قومنا الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتبسط بالجزية فقال مطرف: دعوتم إلى حق..... جوراً ظاهراً وأنا لكم متابع فبايعوني على قتال هؤلاء الظلمة بأحداثهم وعلى الدعاء إلى الكتاب والسنة وعلى الشورى كما تركها عمر بن الخطاب حتى يولي المسلمون من يرضونه، فإن العرب إذا علمت أن المراد بالشورى الرضا من قريش رضوا فكثر مبايعكم فقالوا: لا نجيبك إلى هذا.

وأقاموا أربعة أيام يتناظرون في ذلك ولم يتفقوا وخرجوا من عنده. ثم دعا مطرف أصحابه وأخبرهم بما دار بينه وبين أصحاب شبيب وأن رأيه خلع عبد الملك والحجاج فوجموا من قوله وأشاروا عليه بالكتمان فقال له يزيد بن أبي زياد مولى أبيه: لن والله يخفى على الحجاج شيء مما وقع ولو كنت في السحاب لاستنزلك فالنجاء بنفسك، ووافقه أصحابه فسار عن المدائن إلى الجبال ولما كان في بعض الطريق دعا أصحابه إلى الخلع والدعاء إلى الكتاب والسنة، وأن يكون الأمر شورى فرجع عنه بعض إلى الحجاج منهم سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف وسار مطرف ومر بحلوان وبها سويد بن عبد الرحمن السعدي مع الأكراد فاعترضوه فأوقع مطرف بهم وأثخن في الأكراد ومال عن همذان ذات اليمين وبها أخو حمزة واستمده بمال وسلاح فأمده سراً.

وسار إلى قم وقاشان فبعث عماله في نواحيها وفزع إليه من كل جانب فجاءه سويد بن سرحان الثقفي وبكير بن هارون النخعي من الري في نحو مائة رجل. وكان على الري عدي بن زياد الإيادي وعلى أصبهان البراء بن قبيصة فكتب إلى الحجاج بالخبر واستمده فأمده بالرجال، وكتب إلى عدي بالري أن يجتمع مع البراء على حرب مطرف فاجتمعوا في ستة آلاف وعدي أميرهم. وكتب الحجاج إلى قيس بن سعد البجلي وهو على شرطة حمزة بهمذان بأن يقبض على حمزة ويتولى مكانه فجاءه في جمع من عجل وربيعة وأقرأه كتاب الحجاج فقال: سمعاً وطاعة. وقبض قيس عليه وأودعه السجن. وسار عدي والبراء نحو مطرف فقاتلوه وانهزم أصحابه وقتل يزيد مولى أبيه. وكان صاحب الراية وقتل من أصحابه عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف الأزدي وكان ناسكاً صالحاً وكان الذي تولى قتل مطرف عمر بن هبيرة الفزاري. وبعث عدي أهل البلاء إلى الحجاج وأمر بكير بن هارون وسويد بن سرحان، وكان الحجاج يقول: مطرف ليس بولد للمغيرة وإنما هو ابن مصقلة الحر، لأن أكثر الخوارج كانوا من ربيعة ولم يكن فيهم من قيس.

اختلاف الأزارقة

قد تقدم لنا مقام المهلب في قتال الأزارقة على سابور بعد مسير عتاب عنه إلى الحجاج وأنه أقام في قتالهم سنة، وكانت كرمان لهم وفارس للمهلب فانقطع عنهم المدد وضاقت حالهم

فتأخروا إلى كرمان وتبعهم المهلب ونزل خيررفت مدينة كرمان وقاتلهم حتى أزالهم عنها. وبعث الحجاج العمال على نواحيها وكتب إليه عبد الملك بتسويغ.... للمهلب معونة له على الحرب. وبعث الحجاج إلى المهلب البراء بن قبيصة يستحثه لقتال الخوارج فسار وقاتلهم والبراء مشرف عليه من ربوة واشتد قتاله، وجاء البراء من الليل فتعجب لقتاله وانصرف إلى الحجاج وأنهى غدر المهلب وقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء. ثم وقع الاختلاف بينهم فقيل في سببه: إن المقعطر الضبي وكان عاملاً لقطري على بعض نواحي كرمان قتل بعض الخوارج فطلبوا القود منه فمنعه قطري وقال: تأول فأخطأ، وهو من ذوي السابقة فاختلفوا وقيل: بل كان رجل في عسكرهم يصنع النصول مسمومة فيرمي بها أصحاب المهلب فكتب المهلب كتاباً مع رجل وامرأة أن يلتقيه في عسكرهم وفيه وصلت نصالك وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما وقف على الكتاب سأل الصانع فأنكر فقتله فأنكر عليه عبد ربه الكبير واختلفوا.

وقيل: بعث المهلب نصرانياً وأمره بالسجود لقطري فقتله بعض الخوارج وولوا عبد ربه الكبير وخلعوا قطرياً فبقي في نحو الخمسين منهم وأقاموا يقتتلون شهراً، ثم لحق قطري بطبرستان وأقام عبد ربه بكرمان وقاتلهم المهلب وحاصرهم بخيررفت. ولما طال عليهم الحصار خرجوا بأموالهم وحريمهم وهو يقاتلهم حتى أثخن فيهم. ثم دخل خيررفت وسار في أتباعهم فلحقهم على أربعة فراسخ فقاتلهم هو وأصحابه حتى أعيوا وكف عنهم. ثم استمات الخوارج ورجعوا فقاتلوه حتى يئس من نفسه. ثم نصره الله عليهم وهزمهم وقتل منهم نحواً من أربعة آلاف كان منهم عبد ربه الكبير ولم ينج منهم إلا القليل.

وبعث المهلب المبشر إلى الحجاج فأخبره وسأله عن بني المهلب فأثنى عليهم واحداً واحداً. قال: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفها فاستحسن قوله وكتب إلى المهلب يشكره ويأمره أن يولي على كرمان من يراه وينزل حامية ويقدم عليه، فولى عليها ابنه يزيد وقدم على الحجاج فاحتفل لقدومه وأجلسه إلى جانبه وقال: يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب. وسرح سفيان بن الأبرد الكلبي في جيش عظيم نحو طبرستان لطلب قطري وعبيدة بن هلال ومن معهم من الخوارج. والتقوا هنالك بإسحاق بن محمد بن الأشعث في أهل الكوفة واجتمعا على طلبهم، فلقوهم في شعب من شعاب طبرستان وقاتلوهم فافترقوا عن قطري ووقع عن دابته فتدهده إلى أسفل الشعب ومر به علج فاستقاه على أن يعطيه سلاحه. فعمد إلى أعلى الشعب وحدر عليه حجراً من فوق الشعب فأصابه في رأسه فأوهنه ونادى بالناس فجاء في أولهم نفر من أهل الكوفة فقتلوه..... منهم سورة بن أبجر التميمي وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف والسياح بن محمد بن الأشعث وحمل رأسه أبو الجهم إلى إسحاق بن محمد فبعث به إلى الحجاج، وبعثه الحجاج إلى عبد الملك.

وركب سفيان فأحاط بالخوارج وحاصرهم حتى أكلوا دوابهم، ثم خرجوا إليه واستماتوا فقتلهم أجمعين وبعث برؤوسهم إلى الحجاج ودخل دنباوند وطبرستان فكان هناك حتى عزله الحجاج قبل دير الجماجم. قال بعض العلماء: وانقرضت الأزارقة بعد قطري وعبيدة آخر رؤسائهم وأول رؤسائهم نافع بن الأزرق. واتصل أمرهم بضعاً وعشرين سنة إلى أن افترقوا كما ذكرناه سنة سبع وسبعين فلم تظهر لهم جماعة إلى رأس المائة.

خروج شوذب

خرج شوذب هذا أيام عمر بن عبد العزيز على رأس المائة واسمه بسطام وهو من بني يشكر. فخرج في مائتي رجل وسار في خوخى وعامل الكوفة يومئذ عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب. فكتب إليه عمران أن لا يعرض لهم حتى يقتلوا أو يفسدوا فيوجه إليهم الجند مع صليب حازم فبعث عبد الحميد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين فأقام بإزائه لا يحركه. وكتب عمر إلى شوذب: بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله، وكنت أولى بذلك مني، فهلم إلي أناظرك فإن كان الحق معنا دخلت مع الناس، وإن كان الحق معك نظرنا في أمرك. فبعث إليه عاصماً الحبشي مولى بني شيبان ورجلاً من بني يشكر فقدما عليه بخناصر فسألهما: ما أخرجكم وما الذي نقمتم؟ فقال عاصم: ما نقمنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر مشورة من الناس أم غلبت عليه: قال عمر: ما سألته وما غلبت عليه. وعهد إلي رجل قبلي فقمت ولم ينكر أحد، ومذهبكم الرضا لكل من عدل، وإن أنا خالفت الحق فلا طاعة لي عليكم.

قالا: فقد خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فتبرأ منهم والعنهم. فقال عمر: أنتم تريدون الآخرة وقد أخطأتم طريقها، وإن الله لم يشرع اللعن. وقد قال إبراهيم: ومن عصاني فإنك غفور رحيم. وقال: أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. وبقي تسمية أعمالهم مظالم ذماً، ولو كان لعن أهل الذنوب فريضة لوجب عليكم لعن فرعون، أنتم لا تلعنونه وهو أخبث الخلق، فكيف ألعن أنا أهل بيتي وهم مصلون صائمون ولم يكفروا

بظلمهم! لأن النبي ﷺ دعا إلى الإيمان والشريعة، فمن عمل بها قبل منه، ومن أحدث حدثاً فرض عليه الحد.

فقالا: فإن النبي ﷺ دعا إلى التوحيد والإقرار بما نزل عليه. فقال عمر: ليس أحد ينكر ما نزل عليه ولا يقول لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ، لكن القوم أسرفوا على أنفسهم. قال عاصم: فابرأ منهم ورد أحكامهم. قال عمر: أتعلمان أن أبا بكر سبى أهل الردة وأن عمر ردها بالفدية ولم يبرأ من أبي بكر وأنتم لا تبرؤون من واحد منهما قال: فأهل النهروان خرج أهل الكوفة منهم فلم يقتلوا ولا استعرضوا وخرج أهل البصرة فقتلوا عبد الله بن حباب وجارية حاملاً، ولم يتبرأ من لم يقتل ممن قتل واستعرض، ولا أنتم تتبرؤون من واحد منهما. وكيف ينفعكم ذلك مع علمكم باختلاف أعمالكم؟ ولا يسعني أنا البراءة من أهل بيتي والدين واحد. فاتقوا الله ولا تقبلوا المردود وتردوا المقبول، وقد أمّن رسول الله ﷺ من شهد شهادة الإسلام وعصم ماله ودمه، وأنتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر الأديان وتحرمون دماءهم وأموالهم.

فقال اليشكري: من استأمن على قوم وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أتراه أدى الحق الذي لزمه؟ فكيف تسلم هذا الأمر بعدك إلى يزيد مع علمك أنه لا يعدل فيه. فقال: إنما ولاه غيري والمسلمون أولى بذلك بعدي. قال: فهو حق ممن فعله وولاه، قال: أنظراني ثلاثاً. ثم جاءه عاصم فرجع عن رأي الخوارج وقال له اليشكري: أعرض عليهم ما قلت واسمع حجتهم. وأقام عاصم عند عمر وأمر له بالعطاء وتوفي عمر لأيام قلائل ومحمد بن جرير ينتظر عود الرسل.

ولما مات عمر كتب عبد الحميد إلى محمد بن جرير بمناجزة شوذب قبل أن يصل إليهم خبر عمر، فقالت الخوارج: ما خالف هؤلاء ميعادهم إلا وقد مات الرجل الصالح. واقتتلوا فانهزم محمد بن جرير واتبعه الخوارج إلى الكوفة، ورجعوا وقدم على شوذب صاحباه وأخبراه بموت عمر، وسرح يزيد تميم بن الحباب في ألفين فهزمه أصحابه، ثم بعث إليهم الشجاع بن وادع في ألفين فقتلوه وهزموه بعد أن قتل منهم هدبة ابن عم شوذب وبقي الخوارج بمكانهم. وجاء مسلمة إلى الكوفة فأرسل سعيد بن عمرو الحرشي في عسكر آلاف فاستماتت الخوارج وكشفوا العساكر مراراً ثم حملوا عليهم فطحنوهم طحناً.

وقتل شوذب وأصحابه ولم يبق منهم أحد، وضعف أمر الخوارج على ظهور أيام هشام سنة عشرين ومائة بهلول بن بشر بن شيبان وبلغت كنارة، وكان لما عزم على الخوارج حج ولقي بمكة من كان على رأيه، فأبعدوا إلى قرية من قرى الموصل واجتمعوا بها وهم أربعون وأمروا عليهم البهلول وأخفوا أنفسهم بأنهم قدموا من عند هشام. ومروا بقرية كان بهلول ابتاع منها خلاً فوجده خمراً وأبى البائع من رده واستعدى عليه عامل القرية، فقال: الخمر خير منك ومن قومك فقتلوه وأظهروا أمرهم وقصدوا خالداً القسري بواسط وتعللوا عليه بأنه يهدم المساجد ويبني الكنائس ويولي الجرد على المسلمين.

وجاء الخبر إلى خالد فتوجه من واسط إلى الحيرة وكان بها جند من بني العين نحو ستمائة بعثوا مدداً لعامل الهند، فبعثهم خالد مع مقدمهم لقتال بهلول وأصحابه وضم إليهم مائتين من الشرط والتقوا على الفرات، فقتل مقدمهم وانهزموا إلى الكوفة. وبعث خالد عابداً الشيباني من بني حوشب بن يزيد بن رويم فلقيه بين الموصل والكوفة فهزمهم إلى الكوفة وارتحل يريد الموصل. ثم بدا له وسار يريد هشاماً بالشام وبعث خالد جنداً من العراق وعامل الجزيرة جنداً، وبعث هشام جنداً فاجتمعوا بين الجزيرة والموصل بكحيل وهم في عشرين ألفاً وبهلول في سبعين فقاتلوا واستماتوا وصرع بهلول. وسأله أصحابه العهد فعهد إلى دعامة الشيباني ثم إلى عمر اليشكري من بعده. ومات بهلول من ليلته وهرب دعامة وتركهم ثم خرج عمر اليشكري فلم يلبث أن قتل.

ثم خرج على خالد بعد ذلك بسنتين الغفري صاحب الأشهب وبهذا كان يعرف فبعث إليه السمط بن مسلم البجلي في أربعة آلاف فالتقوا بناحية الفرات فانهزمت الخوارج ولقيهم عبيد أهل الكوفة وغوغاؤهم فرموهم بالحجارة حتى قتلوهم.

ثم خرج وزير السختياني على خالد بالحيرة فقتل وأحرق القرى فوجه إليه خالد جنداً فقتلوا أصحابه، وأثخن بالجراح وأتى به خالد فوعظه فأعجبه وعظه فأعفاه من القتل. وكان يسامره بالليل وسعى بخالد إلى هشام وأنه أخذ حرورياً يستحق القتل فجعله سميراً، فكتب إليه هشام بقتله فقتله.

ثم خرج بعد ذلك الصحارى بن شبيب بإفريقية فمضى وندم خالد فطلبه فلم يرجع، وأتى جبل وبها نفر من اللات بن ثعلبة فأخبرهم وقال: إنما أردت التوصل إليه لأقتله بفلان من قعدة الصفرية كان خالد قتله صبراً. ثم خرج معه ثلاثون منهم فوجه إليهم خالد جنداً فلقوهم بناحية المناذر فاقتتلوا فقتل الصحارى وأصحابه أجمعون.

ورد أمر الخوارج بعد ذلك مرة فلما وقعت الفتن أيام هشام

بالعراق والشام وشغل مروان بمن انتقض عليه فخرج بأرض كفربموتا سعيد بن بهدل الشيباني في مائتين من أهل الجزيرة وكان على رأي الحرورية، وخرج بسطام البهسي في مثل عدتهم من ربيعة، وكان مخالفاً لرأيه، فبعث إليه سعيد بن بهدل قائده الخيبري في مائة وخمسين فبيّتهم وقتل بسطاماً ومن معه، ولم يَنْجُ منهم إلا أربعة عشر رجلاً. ثم مضى سعيد بن بهدل نحو العراق فمات هنالك، واستخلف الضحاك بن قيس الشيباني فبايعه السراة وأتى أرض الموصل وشهرزور. واجتمع إليه من الصفرية أربعة آلاف أو يزيدون.

وولى مروان على العراق النضر بن سعيد الحريشي وعزل به عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فامتنع عبد الله بالحيرة، وسار إليه النضر وتحاربا أشهراً. وكانت الصفرية مع النضر عصبة لمروان لطلبه بدم الوليد وأمه قيسية وكانت اليمنية مع ابن عمر عصبية لدخولهم في قتل الوليد بما فعله مع خالد القسري، فلما علم الضحاك والخوارج باختلافهم، أقبل إلى العراق سنة سبع وعشرين وزحف إليهم فتراسل ابن عمر والنضر وتعاقدا واجتمعا لقتاله بالكوفة، وكل واحد منهما يصلي بأصحابه وابن عمر أمير على وإسماعيل أخو خالد القسري وغيرهم من الوجوه.

فلحق ابن عمر بواسط واستولى الضحاك على الكوفة وعادت الحرب بين ابن عمر والنضر. ثم زحف إليهما الضحاك فاتفقا وقاتلا حتى ضرستهما الحرب، ولحق منصور بن جمهور بالضحاك والخوارج وبايعهم ثم صالحهم ابن عمر ليشغلوا مروان عنه، وخرج إليهم وصلى خلف الضحاك وبايعه.

وكان معه سليمان بن هشام وصل إليه هارباً من حمص لما انتقض بها وعليه... عليها مروان فلحق بابن عمر وبايع معه الضحاك وصار معه وحرضها على مروان... إنما لحق بالضحاك وهو يحاصر نضيراً وتزوج أخت شيبان الحروري. فرجع الضحاك إلى الكوفة وسار منها إلى الموصل بعد عشرين شهراً من حصار واسط، بعد أن دخل أهل الموصل وعليهم القطرن أم أكمه من بني شيبان عامل لمروان فأدخلهم أهل البلد وقاتلهم القطرن فقتل ومن معه وبلغ الخبر إلى مروان وهو يحاصر حمص فكتب إلى ابنه عبد الله أن يسير إلى... يمانع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار في ثمانية آلاف فارس والضحاك في مائة ألف وحاصره بنصيبين. ثم سار مروان بن محمد إليه فالتقيا عند كفربموتا من نواحي ماردين فقاتله عامة يومه إلى الليل وترجل الضحاك في نحو ستة آلاف وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم وعثر على الضحاك في القتلى فبعث مروان برأسه إلى الجزيرة وأصبح الخوارج فبايعوا الخيبري قائد الضحاك وعاودوا الحرب مع مروان فهزموه وانتهوا إلى خيامه فقطعوا أطنابهم وجلس الخيبري على فرشه والجانحان ثابتان وعلى الميمنة عبد الله بن مروان وعلى الميسرة إسحاق بن مسلم العقيلي فلما انكشفت قلة الخوارج أحاطوا بهم في مخيم مروان فقتلوهم جميعاً والخيبري معهم. ورجع مروان من نحو ستة أميال.

وانصرف الخوارج وبايعوا شيبان الحروري وهو شيبان بن عبد العزيز اليشكري ويكنى أبا الدلفاء. وقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ وأقام في قتالهم أياماً وانصرف عن شيبان كثير منهم وارتحلوا إلى الموصل بإشارة سليمان بن هشام وعسكروا شرقي دجلة، وعقدوا الجسور واتبعهم مروان فقاتلهم لتسعة أشهر، وقتل من الطائفتين خلق كثير. وأسر ابن أخ لسليمان بن هشام اسمه أمية بن معاوية فقطعه ثم ضرب عنقه. وكتب مروان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة وهو بقرقيسية يأمره بالسير إلى العراق وولاه عليها وعلى الكوفة يومئذ المثنى بن عمران العائذي من قريش خليفة للخوارج فلقي ابن هبيرة بعين التمر فاقتتلوا وانهزمت الخوارج. ثم تجمعوا له بالنخيلة ظاهر الكوفة فهزمهم، ثم تجمعوا بالبصرة فأرسل شيبان إليهم عبيدة بن سوار في خيل عظيمة فهزمهم ابن هبيرة وقتل عبيدة واستباح عسكرهم، واستولى على العراق.

وكان منصور بن جمهور مع الخوارج فمضى إلى الماهين وغلب عليها وعلى الخيل جميعاً، وسار ابن هبيرة إلى واسط فحبس ابن عمر وكان سليمان بن حبيب عامل ابن عمر على الأهواز فبعث ابن هبيرة إليه نباتة بن حنظلة، وبعث هو داود بن حاتم والتقيا على دجلة فانهزم داود وقتل. وكتب مروان إلى ابن هبيرة أن يبعث إليه عامر بن ضبابة المزني فبعثه في ثمانية آلاف وبعث شيبان لاعتراضه الجون بن كلاب الخارجي في جمع فانهزم عامر وتحصن بالسند وجعل مروان يمده بالجنود وكان منصور بن جمهور بالجبل يمد شيبان بالأموال. ثم كثرت جموع عامر فخرج إلى الجون والخوارج الذين يحاصرونه فهزمهم وقتل الجون وسار قاصداً الخوارج بالموصل، فارتحل شيبان عنها وقدم عامر على مروان فبعثه في اتباع شيبان، فمر على الجبل وخرج على بيضاء فارس وبها يومئذ عامر بن عبد الله بن حطوبة بن جعفر في جموع كثيرة.

فسار ابن معاوية إلى كرمان وقاتله عامر فهزمه ولحق بهراة وسار عامر بمن معه فلقي شيبان والخوارج بخيررفت فهزمهم واستباح عسكرهم ومضى شيبان إلى سجستان فهلك بها سنة ثلاثين ومائة، وقيل: بل كان قتال مروان وشيبان على الموصل

شهراً، ثم انهزم شيبان ولحق بفارس وعامر بن صراة في أتباعه، ثم سار شيبان إلى جزيرة ابن كاوان، وأقام بها.

ولما ولي السفاح بعث حارثة بن خزيمة لحرب الخوارج هنالك لموجدة وجدها عليه، فأشير عليه ببعثه لذلك. فسار في عسكر إلى البصرة وركب السفن إلى جزيرة ابن كاوان، وبعث فضالة بن نعيم النهيلي في خمسمائة، فانهزم شيبان إلى عمان وقاتل هناك وقتله جلندي بن مسعود بن جعفر بن جلندي ومن معه سنة أربع وثلاثين. وركب سليمان بن هشام السفن بأهله ومواليه إلى الهند بعد مسير شيبان إلى جزيرة ابن كاوان حتى إذا بويع السفاح قدم عليه وأنشده سديف البيتين المعروفين وهما:

لايغرنك ما ترى من رجال ... إن بين الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع الصوت حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقتله السفاح وانصرف مروان بعد مسير شيبان إلى الموصل إلى منزله بحران. فلم يزل بها حتى سار إلى الزاب، ومضى شيبان بعد سلمة إلى خراسان والفتنة بها يومئذ بين نصر بن سيار والكرماني والحارث بن شريح وقد ظهر أبو مسلم بالدعوة العباسية فكان له من الحوادث معهم ما ذكرناه واجتمع مع علي بن الكرماني على قتال نصر بن سيار. فلما صالح الكرماني أبا مسلم كما مر وفارق شيبان تنحى شيبان عن عمر لعلمه أنه لا يقاومه. ثم هرب نصر بن سيار إلى سرخس واستقام أمر أبي مسلم بخراسان، فأرسل إلى شيبان يدعوه إلى البيعة ويأذنه بالحرب، واستجاش بالكرماني فأبى، فسار إلى سرخس واجتمع إليه الكثير من بكر بن وائل، وأرسل إليه أبو مسلم في الموادعة، فحبس الرسل، فكتب أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث بالمسير إلى شيبان فسار إليه فهزمه وقتل في عدة من بكر بن وائل. ويقال: إن خزيمة بن حازم حضر مع بسام في ذلك.

خبر أبي حمزة وطالب وإسحاق

كان اسم أبي حمزة الخارجي المختار بن عوف الأزدي البصري وكان من الخوارج الإباضية وكان يوافي مكة كل موسم يدعو إلى خلاف مروان، وجاء عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق سنة ثمان وعشرين وهو من حضرموت فقال له: انطلق معي فإني مطاع في قومي. فانطلق معه إلى حضرموت وبايعه على الخلافة. وبعثه عبد الله سنة تسع وعشرين مع بلخ بن عقبة الأزدي في سبعمائة فقدموا مكة وحكموا بالموقف وعامل المدينة يومئذ عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، فطلبهم في الموادعة حتى ينقضي الموسم.

وأقام للناس حَجَّهم ونزل بمنى وبعث إلى أبي حمزة عبيد الله بن حسن بن الحسن ومحمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد وعبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن ربيعة بن أبي عبد الرحمن في أمثالهم، فكشر في وجه العلوي والعثماني وانبسط إلى البكري والعمري، وقال لهما: ما خرجنا إلا بسيرة أبويكما، فقال له عبيد الله بن حسن: ما جئنا للتفضيل بين آبائنا وإنما جئنا برسالة من الأمير وربيعة يخبرك بها.

ثم أحكموا معه الموادعة إلى مدتها. ونفر عبد الواحد في النفر الأول فمضى إلى المدينة وضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة وبعث عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان، فانتهوا إلى فديك. وجاءتهم رسل أبي حمزة يسألونهم التجافي عن حربهم وأن يخلوا بينهم وبين عدوهم. فلما نزلوا قديد وكانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب، فطلع عليهم أصحاب أبي حمزة من الغياض فأثخنوا فيهم وكان قتلاهم نحو سبعمائة من قريش. وبلغ الخبر إلى عبد الواحد فلحق بالشام. ودخل أبو حمزة المدينة منتصف صفر سنة ثلاثين وخطب على المنبر وأعلن بدعوته ووعظ، وذكر ورد مقالات من عابهم وسفه رأيهم وأحسن السيرة في أهل المدينة واستمالهم حتى سمعوه يقول: من زنا فهو كافر ومن سرق فهو كافر وأقام ثلاثة أشهر، ثم ودعهم وسار نحو الشام.

وكان مروان قد سرح إليهم عبد الملك بن محمد بن عطية بن هوازن في أربعة آلاف ليقتل الخوارج حتى يبلغ اليمن فلقي أبا حمزة في وادي القرى، فانهزمت الخوارج وقتل أبو حمزة ولحق فلهم بالمدينة. وسار عطية في أثرهم إلى المدينة فاقام بها شهراً، ثم سار إلى اليمن واستخلف على المدينة الوليد ابن أخيه عروة، وعلى مكة رجلاً من أهل الشام. وبلغ عبد الله طالب الحق مسيره إليه وهو بصنعاء فخرج للقائه، واقتتلوا، وقتل طالب الحق وسار ابن عطية إلى صنعاء وملكها وجاء كتاب مروان بإقامة الحج بالناس، فسار في إثني عشر رجلاً ومعه أربعون ألف دينار وخلف ثقله بصنعاء ونزل الحرف فاعترضه ابن حماية المرادي في جمع، وقال له ولأصحابه: أنتم لصوص فاستظهروا بعهد مروان فكذبوه وقاتلهم فقتلوه. وركد ريح الخوارج من يومئذ إلى أن ظهرت الدولة العباسية وبويع المنصور بعد السفاح.

فخرج سنة سبع وثلاثين بالجزيرة مَلْبد بن حرملة الشيباني فسارت إليه روابط الجزيرة في ألف فارس فهزمهم وقاد منهم. ثم

سار إليه يزيد بن حاتم المهلبي ومهلل بن صفوان مولى المنصور، ثم نزار من قواد خراسان، ثم زياد بن مسكان ثم صالح بن صبيح فهزمهم كلهم واحداً بعد واحد، وقتل منهم. ثم سار إليه حميد بن قحطبة وهو عامل الجزيرة فهزمه وتحصن حميد منه، فبعث المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن أخا عبد الجبار في الجيوش، ومعه زياد بن مسكان فأكمن له الملبد، وقاتلهم ثم خرج الكعبين فانهزم عبد العزيز وقتل عامة أصحابه فبعث المنصور حازم بن خزيمة في ثمانية آلاف من أهل خراسان فسار إلى الموصل وعبر إليه الملبد دجلة فقاتله فانهزم أهل الميمنة وأهل الميسرة من أصحاب حازم، وترجل حازم وأصحابه، وترجل ملبد كذلك.

وأمر حازم أصحابه فنضحوهم بالنبل، واشتد القتال وتزاحفت الميمنة والميسرة ورشقوهم، فقتل ملبد في ثمانمائة ممن ترجل معه، وثلاثمائة قبل أن يترجل وتبعهم فضالة صاحب الميمنة فقتل منهم زهاء مائة وخمسين. ثم خرج سنة ثمان وأربعين أيام المنصور بنواحي الموصل حسان بن مخالد بن مالك بن الأجدع الهمداني أخو مسروق. وكان على الموصل الصفر بن نجدة وليها بعد حرب ابن عبد الله، فسار إليهم فهزموه إلى الدجلة. وسار حسان إلى العمال ثم إلى البحر وركب إلى السند وقاتل، وكاتب الخوارج بعمان يدعوهم ويستأذنهم في اللحاق بهم فأبوا، وعاد إلى الموصل فخرج إليه الصفر بن الحسن بن صالح بن جنادة الهمداني وهلال، فقتل هلالاً واستبقى ابن الحسن فاتهمه بعض أصحابه بالعصبية وفارقوه. وقد كان حسان أمه من الخوارج وخاله حفص بن أشتم من فقهائهم. ولما بلغ المنصور خروجه قال: خارجي من همذان؟ فقيل له: إنه ابن أخت حفص بن أشتم. قال: من هناك وإنما أنكر المنصور ذلك لأن عامة همذان شيعة.

وعزم المنصور على الفتك بأهل الموصل، فإنهم عاهدوه على أنهم إن خرجوا فقد فلت ديارهم وأموالهم وأحضر أبا حنيفة وابن أبي ليلى بن شبرمة واستفتاهم فتلطفوا له في العفو فأشار إلى أبي حنيفة فقال: أباحوا ما لا يملكون كما لو أباحت امرأة، فزوّجها بغير عقد شرعي فكف عن أهل الموصل.

ثم خرج أيام المهدي بخراسان يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرة واجتمع بشركس فبعث إليه المهدي يزيد بن مزيد الشيباني ابن أخي معن فاقتتلوا قتالاً شديداً وأسره يزيد وبعث به إلى المهدي موثقاً، وحمل من النهروان على بعير وحوّل وجهه إلى ذنبه كذلك فدخلوا إلى الرصافة وقطعوا ثم صلبوا.

وكان حروباً متعوداً فغلب على بوشنج ومرو الروذ والطالقان والجوزجان، وكان على بوشنج مصعب بن زريق جد طاهر بن الحسين فهرب منه وكان من أصحابه معاذ الفارياني وقبض معه. ثم خرج معه أيام المهدي بالجزيرة حمزة بن مالك الخزاعي سنة تسع وستين وهزم منصور بن زياد وصاحب الخراج وقوي أمره، ثم اغتاله بعض أصحابه فقتله.

ثم خرج آخر أيام المهدي بأرض الموصل خارجي من بني تميم اسمه ياسين يميل إلى مقاتلة صالح بن مسرح فهزم عسكر الموصل وغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة، فبعث إليها المهدي القائد أبا هريرة محمد بن مروخ وهزيمة بن أعين مولى بني ضبة فحارباه حتى قتل في عدة من أصحابه وانهزم الباقون. ثم خرج بالجزيرة أيام الرشيد سنة ثمان وسبعين الوليد بن طريف من بني تغلب، وقتل إبراهيم بن خالد بن خزيمة بنصيبين، ثم دخل أرمينية وحاصر خلاط عشرين يوماً وافتدوا بثلاثين ألفاً. ثم سار إلى أذربيجان ثم إلى حلوان وأرض السواد، وعبر إلى غرب دجلة وعاث في أرض الجزيرة، فبعث إليه الرشيد يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني، وهو ابن أخي معن في العساكر فمكث يقاتله، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد فأغروا به الرشيد وأنه أبقى على الوليد برجم وائل. فكتب إليه الرشيد يتهدده فناجزه يزيد الحرب في رمضان سنة تسع وسبعين وقاتلهم قتالاً شديداً فقتل الوليد وجيء برأسه. ثم أصبحت أخته مستلئمة للحرب فخرج إليها يزيد وضربها على رأسها بالرمح وقال لها: أعدي فقد فضحت العشيرة فاستحيت وانصرفت وهي تقول في رثائه الأبيات المشهورة التي منها:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً	كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى	ولا المال إلا من قناً وسيوف

وانقرضت كلمة هؤلاء بالعراق والشام، فلم يخرج بعد ذلك إلا شذاذ متفرقون يستلحمهم الولاة بالنواحي إلا ما كان من خوارج البربر بأفريقية، فإن دعوة الخارجية فشت فيهم من لدن مسيرة الظفري سنة ثلاث وعشرين ومائة. ثم فشت دعوة الإباضية والصفرية منهم في هوارة ولماية ونفزة ومغيلة وفي مغراوة وبني يفرن من زناتة حسبما يذكر في أخبار البربر لسي رستم من الخوارج بالمغرب دولة في تاهرت من الغرب الأوسط نذكرها في أخبار البربر أيضاً. ثم سار بأفريقية منهم على دولة العبيديين خلفاء القيروان أبو يزيد بن مخلد المغربي، وكانت له معهم حروب وأخبار نذكرها في موضعها.

ثم لم يزل أمرهم في تناقص إلى أن اضمحلت ديانتهم وافترقت جماعتهم وبقيت آثار نحلتهم في أعقاب البربر الذين دانوا بها أول الأمر. ففي بلاد زناتة بالصحراء منها أثر باق لهذا العهد

في قصور ربع وواديه، وفي مغراوة من شعوب زناتة يسمون الراهبية نسبة إلى عبد الله بن وهب الراهبي. أول من بويع منهم أيام علي بن أبي طالب. وهم في قصور هنالك مظهرين لبدعتهم لبعدهم عن مقال أهل السنة والجماعة، وكذلك في جبال طرابلس وزناتة أثر باق من تلك النحلة يدين بها أولئك البربر في المجاورة لهم مثل ذلك. وتطير إلينا هذا العهد من تلك البلاد دواوين ومجلدات من كلامهم في فقه الدين، وتمهيد عقائده وفروعه مباينة لمناحي السنة وطرقها بالكلية، وإلا أنها ضاربة بسهم في إجادة التأليف والترتيب وبناء الفروع على أصولهم الفاسدة.

وكان بنواحي البحرين وعمان إلى بلاد حضرموت وشرقي اليمن ونواحي الموصل آثار تفشي وعروق في كل دولة، إلى أن خرج علي بن مهدي من خولان باليمن ودعا إلى هذه النحلة. وغلب يومئذ من كان من الملوك باليمن واستلحم بني الصليحي القائمين بدعوة العبيديين من الشيعة وغلبوهم على ما كان بأيديهم من ممالك اليمن، واستولوا أيضاً على زبيد ونواحيها من يد موالي بني نجاح ومولى ابن زياد كما نذكر ذلك كله في أخبارهم إن شاء الله سبحانه وتعالى. فلتصفح في أماكنها. ويقال: إن باليمن لهذا العهد شيعة من هذه الدعوة ببلاد حضرموت، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

الدولة الإسلامية بعد افتراق الخلافة

لم يزل أمر الإسلام جميعاً دولة واحدة أيام الخلفاء الأربعة وبني أمية من بعدهم لاجتماع عصبية العرب. ثم ظهر من بعد ذلك أمر الشيعة، وهم الدعاة لأهل البيت، فغلب دعاة بني العباس على الأمر واستقلوا بخلافة الملك، ولحق الفل من بني أمية بالأندلس، فقام بأمرهم فيها من كان هنالك من مواليهم ومن هرب، فلم يدخلوا في دعوة بني العباس، وانقسمت لذلك دولة الإسلام بدولتين لافتراق عصبية العرب. ثم ظهر دعاة أهل البيت بالمغرب والعراق من العلوية ونازعوا خلفاء بني العباس واستولوا على القاصية من النواحي كالأدارسة بالمغرب الأقصى، والعبيديين بالقيروان ومصر، والقرامطة بالبحرين، والدواعي بطبرستان والديلم والأطروش فيها من بعده. وانقسمت دولة الإسلام بذلك دولاً متفرقة نذكرها واحدة بعد واحدة. ونبدأ منها أولاً بذكر الشيعة ومبادئ دولهم، وكيف انساقت إلى العباسية ومن بعدهم إلى آخر دولهم. ثم نرجع إلى دولة بني أمية بالأندلس. ثم نرجع إلى دولة الدعاة للدولة العباسية في النواحي من العرب والعجم كما ذكرناه في برنامج الكتاب، والله الموفق الصواب.

مبدأ دولة الشيعة

اعلم أن مبدأ هذه الدولة أن أهل البيت لما توفي رسول الله ﷺ كانوا يرون أنهم أحق بالأمر وأن الخلافة لرجالهم دون من سواهم من قريش. وفي الصحيح أن العباس قال لعلي في وجع رسول الله ﷺ الذي توفي فيه: اذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر، إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا. فقال علي:إن مُنعناها لا يعطيناها الناس بعده. وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه: « هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً » فاختلفوا عنده في ذلك، وتنازعوا ولم يتم الكتاب. وكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم، حتى لقد ذهب كثير من الشيعة إلى أن النبي ﷺ أوصى في مرضه ذلك لعلي، ولم يصح ذلك من وجه يعول عليه. وقد أنكرت هذه الوصية عائشة وكفى بإنكارها. وبقي ذلك معروفاً من أهل البيت وأشياعهم.

وفيما نقله أهل الآثار أن عمر قال يوماً لابن العباس: إن قومكم يعني قريشاً ما أرادوا أن يجمعوا لكم، يعني بني هاشم بين النبوة والخلافة فتحموا عليهم، وأن ابن عباس نكر ذلك، وطلب من عمر إذنه في الكلام فتكلم بما عصب له. وظهر من محاورتهما أنهم كانوا يعلمون أن في نفوس أهل البيت شيئاً من أمر الخلافة والعدول عنهم بها. وفي قصة الشورى: أن جماعة من الصحابة كانوا يتشيعون لعلي ويرون استحقاقه على غيره، ولما عدل به إلى سواه تأففوا من ذلك وأسفوا له: مثل الزبير ومعه عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وغيرهم. إلا أن القوم لرسوخ قدمهم في الدين وحرصهم على الإلفة، لم يزيدوا في ذلك على النجوى بالتأفف والأسف.

ثم لما فشا التكبر على عثمان والطعن في الآفاق كان عبد الله بن سبأ ويعرف بابن السوداء، من أشد الناس خوضاً في التشنيع لعلي بما لا يرضاه من الطعن على عثمان وعلى الجماعة في العدول إليه عن علي، وأنه ولي بغير حق، فأخرجه عبد الله بن عامر من البصرة ولحق بمصر. فاجتمع إليه جماعة من أمثاله جنحوا إلى الغلو في ذلك وانتحال المذاهب الفاسدة فيه: مثل خالد بن ملجم وسوذان بن حمدان وكنانة بن بشر وغيرهم.

ثم كانت بيعة علي وفتنة الجمل وصفين، وانحراف الخوارج

عنه بما أنكروا عليه من التحكيم في الدين. وتمحضت شيعته للاستماتة معه في حرب معاوية مع علي، وبويع ابنه الحسن وخرج عن الأمر لمعاوية، فسخط ذلك شيعة علي منه وأقاموا يتناجون في السر باستحقاق أهل البيت والميل إليهم، وسخطوا من الحسن ما كان منه، وكتبوا إلى الحسين بالدعاء له فامتنع، وأوعدهم إلى هلاك معاوية. فساروا إلى محمد بن الحنفية وبايعوه في السر على طلب الخلافة متى أمكنه، وولى على كل بلد رجلاً، وأقاموا على ذلك ومعاوية يكف بسياسة من غربهم، ويقتلع الداء إذا تعين له منهم، كما فعل بحجر بن عدي وأصحابه، ويروض من شماس أهل البيت ويسامحهم في دعوى تقدمهم واستحقاقهم. ولا يهيج أحداً منهم بالتثريب عليه في ذلك.

إلى أن مات وولي يزيد، وكان من خروج الحسين وقتله ما هو معروف، فكانت من أشنع الوقائع في الإسلام. عظمت بها الشحناء، وتوغل الشيعة في شأنهم، وعظم النكير والطعن على من تولى ذلك أو قعد عنه. ثم تلاوموا على ما أضاعوه من أمر الحسين وأنهم دعوه ثم لم ينصروه فندموا ورأوا أن لا كفارة في ذلك إلا الاستماتة دون ثأره، وسموا أنفسهم التوابين. وخرجوا لذلك يقدمهم سليمان بن صرد الخزاعي، ومعه جماعة من خيار أصحاب علي. وكان ابن زياد قد انتقض عليه العراق ولحق بالشام وجمع وزرينج قاصد العراق فزحفوا إليه وقاتلوه حتى قتل سليمان وكثير من أصحابه كما ذكرنا في خبره وذلك سنة خمس وستين. ثم خرج المختار بن أبي عبيد ودعا لمحمد بن الحنفية كما قدمناه في خبره، وفشا التعصب لأهل البيت في الخاصة والعامة بما خرج عن حدود الحق، واختلفت مذاهب الشيعة فيمن هو أحق بالأمر من أهل البيت، وبايعت كل طائفة لصاحبها سراً ورسخ الملك لبني أمية.

وطوى هؤلاء الشيعة قلوبهم على عقائدهم فيها، وتستروا بها مع تعدد فرقهم وكثرة اختلافهم كما ذكرناه عند نقل مذاهبهم في فصل الإمامة من الكتاب الأول. ونشأ زيد بن علي بن الحسين وقرأ على واصل بن عطاء إمام المعتزلة في وقته، وكان واصل متردداً في إصابة علي في حرب صفين والجمل، فنقل ذلك عنه. وكان أخوه محمد الباقر يعذله في الأخذ عمن يرى سخطيةً جده، وكان زيد أيضاً مع قوله بأفضلية علي على أصحابه، يرى أن بيعة الشيخين صحيحة وأن إقامة المفضول جائزة خلاف ما عليه الشيعة. ويرى أنهما لم يظلما علياً.

ثم دعته الحال إلى الخروج بالكوفة سنة إحدى وعشرين ومائة، واجتمع له عامة الشيعة ورجع عنه بعضهم لما سمعوه يثني على الشيخين وأنهما لم يظلما علياً. وقالوا: لم يظلمك هؤلاء ورفضوا دعوته فسموا الرافضة من أجل ذلك. ثم قاتل يوسف بن عمر فقتله يوسف وبعث برأسه إلى هشام وصلب شلوه بالكناسة ولحق ابنه يحيى بخراسان فأقام بها، ثم دعته شيعته إلى الخروج فخرج هنالك سنة خمس وعشرين، وسرح إليه نصر بن سيار العساكر مع سالم بن أحور المازني فقتلوه وبعث برأسه إلى الوليد وصلب شلوه بالجوزجان وانقرض شأن الزيدية. وأقام الشيعة على شأنهم وانتظار أمرهم، والدعاء لهم في النواحي يدعون على الأحجال للرضا من آل محمد، ولا يصرحون بمن يدعون له حذراً عليه من أهل الدولة. وكان شيعة محمد بن الحنفية أكثر شيعة أهل البيت، وكانوا يرون أن الأمر بعد محمد بن الحنفية لابنه أبي هشام عبد اللّه. وكان كثيراً ما يغدو على سليمان بن عبد الملك فمر في بعض أسفاره محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس بمنزله بالحميمة من أعمال البلقاء فنزل عليه وأدركه المرض عنده فمات، وأوصى له بالأمر. وقد كان أعلم شيعته بالعراق وخراسان أن الأمر صائر إلى ولده محمد بن علي هذا، فلما مات قصدت الشيعة محمد بن علي وبايعوه سراً. وبعث الدعاة منهم إلى الآفاق على رأس مائة من الهجرة أيام عمر بن عبد العزيز، وأجابه عامة أهل خراسان. وبعث عليهم النقباء وتداول أمرهم هنالك. وتوفي محمد سنة أربع وعشرين وعهد لابنه إبراهيم وأوصى الدعاة بذلك وكانوا يسمونه الإمام. ثم بعث أبو مسلم إلى أهل دعوته بخراسان ليقوم فيهم بأمره فهلك، وكتب إليهم بولايته. ثم قبض مروان بن محمد على إبراهيم الإمام وحبسه بخراسان فهلك هنالك لسنة. وملك أبو مسلم خراسان وزحف إلى العراق فملكها كما ذكرنا ذلك كله من قبل وغلبوا بني أمية على أمرهم وانقرضت دولتهم.

الخبر عن بني العباس من دول الإسلام في هذه الطبقة الثالثة للعرب وأولية أمرهم وإنشاء دولتهم والإلمام بنكت أخبارهم وعيون أحاديثهم

هذه الدولة من دولة الشيعة كما ذكرناه وفرقها منهم يعرفون بالكيسانية، وهم القائلون بإمامة محمد بن علي بن الحنفية بعد علي، ثم بعده إلى ابنه أبي هشام عبد اللّه. ثم بعده إلى محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس بوصيته كما ذكرنا. ثم بعده إلى ابنه إبراهيم الإمام ابن محمد، ثم بعده إلى أخيه أبي العباس السفاح

وهو عبد اللّه بن الحارثية، هكذا مساقها عند هؤلاء الكيسانية ويسمون أيضاً الحرماقية نسبة إلى أبي مسلم لأنه كان يلقب بحرماق. ولبني العباس أيضاً شيعة يسمون الراوندية من أهل خراسان يزعمون أن أحق الناس بالإمامة بعد النبي ﷺ هو العباس، لأنه وارثه وعاصبه لقوله وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب اللّه، وإن الناس منعوه من ذلك وظلموه إلى أن رده اللّه إلى ولده، ويذهبون إلى البراءة من الشيخين وعثمان ويجيزون بيعة علي لأن العباس قال له: يا ابن أخي هلم أبايعك فلا يختلف عليك اثنان. ولقول داود بن علي - عم الخليفة العباسي - على منبر الكوفة يوم بويع السفاح: يا أهل الكوفة إنه لم يقم فيكم إمام بعد رسول اللّه ﷺ إلا علي بن أبي طالب وهذا القائم فيكم يعني: السفاح.

دولة السفّاح

قد تقدم لنا كيف كان أصل هذه الدعوة وظهورها بخراسان على يد أبي مسلم، ثم استيلاء شيعتهم على خراسان والعراق، ثم بيعة السفاح بالكوفة سنة ثلاث وثلاثين ومائة، ثم قتل مروان بن محمد وانقراض الدولة الأموية. ثم خرج بعض أشياعهم وقوادهم وانتقضوا على أبي العباس السفاح، وكان أول من انتقض حبيب بن مرة المري من قواد مروان، وكان بحولان والبلقاء خاف على نفسه وقومه فخلع وبيض ومعناه لبس البياض ونصب الرايات البيض مخالفة لشعار العباسية في ذلك. وتابعته قيس ومن يليهم والسفاح يومئذ بالحيرة بلغه أن أبا الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي انتقض بقنسرين، وكان من قواد مروان، ولما انهزم مروان وقدم عليه عبد اللّه بن علي بايعه ودخل في دعوة العباسية وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالس والناعورة، فعبث بهم وبنسائهم القائد الذي جاءهم من قبل عبد اللّه بن علي. وشكوا ذلك إلى أبي الورد فقتل القائد، وخلع معه أهل قنسرين، وكاتبوا أهل حمص في الخلاف وقدموا عليهم أبا محمد عبد اللّه بن يزيد بن معاوية، وقالوا: هو السفياني الذي يذكر.

ولما بلغ ذلك عبد اللّه بن علي وادع حبيب بن مرة وسار إلى أبي الورد بقنسرين ومر بدمشق، فخلع بها أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي في أربعة آلاف فارس مع حرمه وأثقاله، وسار إلى حمص فبلغه أن أهل دمشق خلعوا وبيضوا وقام فيهم بذلك عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الأزدي. وأنهم هزموا أبا غانم وعسكره وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وانتهبوا ما خلف عندهم فأعرض عن ذلك وسار للقاء السفياني وأبي داود، وقدم أخاه عبد الصمد في عشرة آلاف فكشف ورجع إلى أخيه عبد اللّه منهزماً، فزحف عبد اللّه في جماعة القواد ولقيهم بمرج الأحزم وهم في أربعين ألفاً فانهزموا، وثبت أبو الورد في خمسمائة من قومه فقتلوا جميعاً.

وهرب أبو محمد إلى ترمذ وراجع أهل قنسرين طاعة العباسية ورجع عبد اللّه بن علي إلى قتال أهل دمشق ومن معهم. فهرب عثمان بن سراقة ودخل أهل دمشق في الدعوة وبايعوا لعبد اللّه بن علي، ولم يزل أبو محمد السفياني بأرض الحجاز متغيباً إلى أيام المنصور فقتله زياد بن عبد اللّه الحارثي عامل الحجاز يومئذ، وبعث برأسه إلى المنصور مع ابنين له أسيرين فأطلقهما المنصور.

ثم خلع أهل الجزيرة وبيضوا وكان السفاح قد بعث إليهم ثلاثة آلاف من جنده مع موسى بن كعب من قواده وأنزلهم بحران. وكان إسحاق بن مسلم العقيلي عامل مروان على أرمينية، فلما بلغته هزيمة مروان سار عنها واجتمع إليه أهل الجزيرة، وحاصروا موسى بن كعب بحران شهرين فبعث السفاح أخاه أبا جعفر إليهم وكان محاصراً لابن هبيرة بواسط، فسار لقتال إسحاق بن مسلم، ومر بقرقيسيا والرقة وأهلهما قد خلعوا وبيضوا. وسار نحو حران فأجفل إسحاق بن مسلم عنها، ودخل الرها وبعث أخاه بكار بن مسلم إلى قبائل ربيعة بنواحي ماردين، ورئيسهم يومئذ برمكة من الحرورية، فصمد إليهم أبو جعفر فهزمهم وقتل برمكة في المعركة وانصرف بكار إلى أخيه إسحاق، فخلفه بالرها وسار إلى شمشاط بمعظم عسكره. وجاء عبد اللّه بن علي فحاصره، ثم جاء أبو جعفر فحاصروه سبعة أشهر وهو يقول: لا أخلع البيعة من عنقي حتى أتيقن موت صاحبها. ثم تيقن موت مروان فطلب الأمان واستأذنوا السفاح، فأمرهم بتأمينه وخرج إسحاق إلى أبي جعفر فكان من مآثر أصحابه. واستقام أهل الجزيرة والشام وولى السفاح أخاه أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان فلم يزل عليها حتى استخلف.

حصار ابن هبيرة بواسط ومقتله

ثم تقدم لنا هزيمة يزيد بن هبيرة أمام الحسن بن قحطبة وتحصنه بواسط وكان جويرة وبعض أصحابه أشاروا عليه بعد الهزيمة اللحاق بالكوفة فأبى. وأشار عليه يحيى بن حصين باللحاق بمروان وخوفه عاقبة الحصار فأبى خشيةً على نفسه من مروان واعتصم بواسط. وبعث أبو مسلمة الحسن بن قحطبة في العسكر

لحصاره وعلى ميمنته ابنه داود فانهزم أهل الشام واضطروا إلى دجلة وغرق منهم كثير. ثم تحاجزوا ودخل ابن هبيرة المدينة وخرج لقتالهم ثانية بعد سبعة أيام فانهزم كذلك، ومكثوا أياماً لا يقتتلون إلا رمياً. وبلغ ابن هبيرة أن أبا أمية الثعلبي قد سود فحبسه فغضبت لذلك ربيعة ومعن بن زائدة وحبسوا ثلاثة نفر من فزارة رهناً في أبي أمية، واعتزل معن وعبد اللّه بن عبد الرحمن بن بشير العجلي فيمن معهما فخلى ابن هبيرة سبيل أبي أمية وصالحهم وعادوا إلى اتفاقهم.

ثم قدم على الحسن بن قحطبة من ناحية سجستان أبو نصر مالك بن الهيثم فأوفد غيلان بن عبد اللّه الخزاعي على السفاح يخبره بقدوم أبي نصر، وكان غيلان واجداً على الحسن، فرغب من السفاح أن يبعث عليهم رجلاً من أهل بيته، فبعث أخاه أبا جعفر، وكتب إلى الحسن: العسكر لك والقواد قوادك ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً فأحسن طاعته ومؤازرته.

وقدم أبو جعفر فأنزله الحسن في خيمته وجعل على حرسه عثمان بن نهيك. ثم تقدم مالك بن الهيثم لقتال أهل الشام وابن هبيرة. فخرجوا لقتاله وأكمنوا معن بن زائدة وأبا يحيى الجرافي. ثم استطردوا لابن الهيثم وانهزموا للخنادق. فخرج عليهم معن وأبو يحيى فقاتلهم إلى الليل وتحاجزوا وأقاموا بعد ذلك أياماً. ثم خرج أهل واسط مع معن ومحمد بن نباتة، فهزمهم أصحاب الحسن إلى دجلة فتساقطوا فيها. وجاء مالك بن الهيثم فوجد ابنه قتيلاً في المعركة، فحمل على أهل واسط حتى أدخلهم المدينة. وكان مالك يملأ السفن حطباً ويضرمها ناراً فتحرق ما تمر به فيأمر ابن هبيرة بأن تجر بالكلاليب، ومكثوا كذلك أحد عشر شهراً.

وجاء إسماعيل بن عبد اللّه القسري إلى ابن هبيرة بقتل مروان وفشلت اليمانية عن القتال معهم، وتبعهم الفزارية فلم يقاتل معه إلا الصعاليك. وبعث ابن هبيرة إلى محمد بن عبد اللّه بن الحسن المثنى بأن يبايع له فابطأ عنه جوابه، وكاتب السفاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة وأطمعهم. فخرج إليه زياد بن صالح وزياد بن عبيد اللّه الحرثيان، ووعدا ابن هبيرة أن يصلحا له جهة السفاح ولم يفعلا. وتردد الشعراء بين أبي جعفر وابن هبيرة في الصلح، وأن يكتب له كتاب أمان على ما اختاره ابن هبيرة وشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه وانفذه إلى أبي جعفر فأنفذه إلى السفاح وأمر بإمضائه، وكان لا يقطع أمراً دون أبي مسلم، فكتب إليه يحيى بن هبيرة قد خرج بعد الأمان إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائة فلقيه الحاجب سلام بن سليم فأنزله وأجلسه على وسادة وأطاف بحجرة أبي جعفر عشرة آلاف من أهل خراسان.

ثم أذن لابن هبيرة فدخل على المنصور وحادثه وخرج عنه ومكث يأتيه يوماً ويغبه يوماً. ثم أغرى أبا جعفر أصحابه بأنه يأتي في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل فيهتز له العسكر. فأمر أبو جعفر أن يأتي في حاشيته فقط. فكان يأتي في ثلاثين ثم آخراً في ثلاثة. ثم ألح السفاح على أبي جعفر في قتله، وهو يراجعه للأمان الذي كتب له حتى كتب إليه السفاح: واللّه لتقتلنه أو لأبعثن من يخرجه من حجرتك فيقتله. فبعث أبو جعفر إلى وجوه القيسية والمضرية وقد أعد لهم ابن نهيك في مائة من الخراسانية في بعض حجره.

وجاء القوم في اثنين وعشرين رجلاً يقدمهم محمد بن نباتة وجويرة بن سهيل فدعاهم سلام الحاجب رجلين رجلين وعثمان ابن نهيك يقيدهما إلى أن استكملهم وبعث أبو جعفر لحازم بن خزيمة والهيثم بن شعبة في مائة إلى ابن هبيرة فقالوا: نريد حمل المال فدلهم حاجبه على الخزائن فأقاموا عندها الرجال وأقبلوا نحوه فقام حاجبه في وجوههم. فضربه الهيثم فصرعه، وقاتل ابنه داود فقتل في جماعة من مواليه. ثم قتل ابن هبيرة آخراً وحملت رؤوسهم إلى أبي جعفر. ونادى بالأمان للناس إلا الحكم بن عبد الملك أبي بشر وخالد بن مسلمة المخزومي وعمر بن در فهرب الحكم وأمّن أبو جعفر خالداً فلم يجز السفاح أمانه وقتله واستأمن زياد بن عبيد اللّه لابن در فأمنه.

مقتل أبي مسلمة بن الخلال وسليمان بن كثير

قد تقدم لنا ما كان من أبي مسلمة الخلال في أمر أبي العباس السفاح واتهام الشيعة في أمره، وتغير السفاح عليه وهو بعكوة أعين ظاهر الكوفة. ثم تحول إلى مدينة الهاشمية ونزل قصرها وهو يتنكر لأبي مسلمة، وكتب إلى أبي مسلم ببغيته وبرايه فيه، فكتب إليه أبو مسلم بقتله. وقال له داود بن علي: لا تفعل. فيحتج بها أبو مسلم عليك والذين معك أصحابه وهم له أطوع، ولكن أكتب إليه يبعث من يقتله ففعل. وبعث أبو مسلم مرار بن أنس الضبي فقتله. فلما قدم نادى السفاح بالرضا عن أبي مسلمة ودعا به وخلع عليه. ثم دخل عنده ليلة أخرى فسهر عامة ليله، ثم انصرف إلى منزله فاعترضه مرار بن أنس وأصحابه فقتلوه وقالوا: قتله الخوارج. وصلى عليه من الغد يحيى أخو السفاح وكان يسمى وزير آل محمد وأبو مسلم أمير آل محمد. وبلغ الخبر

إلى أبي مسلم، وسرح سليمان بن كثير بالنكير لذلك فقتله أبو مسلم، وبعث على فارس محمد بن الأشعث وأمره أن يقتل ابن أبي مسلمة ففعل.

عمّال السفّاح

ولما استقام الأمر للسفاح ولى على الكوفة والسواد عمه داود بن علي ثم عزله وولاه على الحجاز واليمن واليمامة وولى مكانه على الكوفة عيسى ابن أخيه موسى بن محمد. ثم توفي داود سنة ثلاث وثلاثين فولى مكانه على الحجاز واليمامة خالد بن زياد بن عبيد اللّه بن عبيد..... وعلى اليمن محمد بن يزيد بن عبيد اللّه بن عبد... وولى السفاح على البصرة سفيان بن معاوية المهلبي، ثم عزله وولى مكانه عمه سليمان بن علي وأضاف إليه كور دجلة والبحرين وعمان. وولى عمه إسماعيل بن علي الأهواز وعمه عبد اللّه بن علي على الشام، وأبا عون عبد الملك بن يزيد على مصر، وأبا مسلم على خراسان، وبرمك على ديوان الخراج. وولى عمه عيسى بن علي على فارس، فسبقه إليها محمد بن الأشعث من قبل أبي مسلم. فلما قدم عليه عيسى همَّ محمد بقتله، وقال: أمرني أبو مسلم أن أقتل من جاءني بولاية من غيره. ثم أقصر عن قتله واستحلفه بأيمان لا مخارج لها أن لا يعلو منبراً ما عاش ولا يتقلد سيفاً إلا في جهاد فوفى عيسى بذلك بقية عمره.

واستعمل بعده على فارس عمه إسماعيل بن علي واستعمل على الموصل محمد بن صول فطرده أهلها وقالوا: بل علينا تولى خثعم، وكانوا منحرفين عن بني العباس، فاستعمل السفاح عليهم أخاه يحيى وبعثه في اثني عشر ألفاً، فنزل قصر الإمارة وقتل منهم اثني عشر رجلاً، فثاروا به وحمل السلاح فنودي فيهم بالأمان لمن دخل المسجد الجامع فتسايل الناس عليه، وقد أقام الرجال على أبوابه فقتلوا كل من دخل. يقال: قتل أحد عشر ألفاً ممن لبث وما لا يحصى من غيرهم. وسمع صياح النساء بالليل فأمر من الغد بقتل النساء والصبيان، واستباحهم ثلاثة أيام.

وكان في عسكره أربعة آلاف من الزنوج فعاثوا في النساء. وركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته وقالت له: ألست من بني هاشم؟ ألست ابن عم الرسول؟ أما تعلم أن المؤمنات المسلمات ينكحهن الزنوج؟ فأمسك عنها وجمع الزنج من الغد للعطاء، وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم. وبلغ السفاح سوء أمره في أهل الموصل فعزله، وولى مكانه إسماعيل بن علي، وولى يحيى مكان إسماعيل بالأهواز وفارس. وملك الروم ملطية وقاليقلا. وفي سنة ثلاث وثلاثين أقبل قسطنطين ملك الروم فحصر ملطية والفتن يومئذ بالجزيرة، وعاملها يومئذ موسى بن كعب بن أسان. فلم يزل حاصرهم حتى نزلوا على الأمان وانتقلوا إلى بلاد الجزيرة، وحملوا ما قدروا عليه. وخرب الروم ملطية وساروا عنها إلى مرج الحصى، وأرسل قسطنطين العساكر إلى قالقيلا من نواحي ماردين مع قائده كوشان الأرمني فحصرها وداخل بعض الأرمن من أهل المدينة فنقبوا له السور فاقتحم البلد من ذلك النقب واستباحها.

الثوار بالنواحي

كان المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة قد ولاه أبو علي اليمامة، فلما قتل يزيد أبوه امتنع هو باليمامة فبعث إليه زياد بن عبيد المدن بالعساكر من المدينة مع إبراهيم بن حبان السلمي فقتله وقتل أصحابه وذلك سنة ثلاث وثلاثين. وفيها خرج شريك ابن شيخ إسحاراً على أبي مسلم ونقض أفعاله واجتمع إليه أكثر من ثلاثين ألفاً فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله وقتله. وفيها توجه أبو داود وخالد بن إبراهيم إلى الختل فتحصن ملكهم ابن السبيل منهما ومنعه الدهاقين فحاصره أبو داود حتى جهد الحصار فخرج من حصنه مع الدهاقين ولحق بفرغانة. ثم سار منها إلى بلد الصين وأخذ أبو داود من ظفر به في الحصن فبعث بهم إلى أبي مسلم.

وفيها الفتنة بين أخشيد فرغانة وملك الشاش، واستمد الأخشيد ملك الصين فأمده بمائة ألف مقاتل وحصروا ملك الشاش حتى نزلوا على حكم ملك الصين، فلم يعرض له ولا لقومه بسوء. وبعث أبو مسلم زياد بن صالح لاعتراضهم فلقيهم على نهر الطرار فظفر بهم وقتل منهم نحواً من خمسين ألفاً وأسر نحواً من عشرين ألفاً ولحق بهم بالصين، وذلك في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين. ثم انتقض بسام بن إبراهيم بن بسام من فرسان أهل خراسان وسار من عسكر السفاح وجماعة على رأيه سراً إلى المدائن، فبعث السفاح في أثرهم خازم بن خزيمة فقاتلهم وقتل أكثرهم واستباحهم، وبلغ ماه وانصرف، فمر بذات المطامير، وبها أخوال السفاح من بني عبد المدان في نحو سبعين من قرابتهم ومواليهم.

وقيل له: إن المغيرة من أصحاب بسام عندهم فسألهم عنه فقالوا: مر بنا مجتازاً فهددهم إن لم يأخذه فأغلظوا له في القول فقتلهم أجمعين، ونهب أموالهم وهدم دورهم، وغضب اليمانية

لذلك ودخل بهم زياد بن عبيد الله الحارثي على السفاح وشكو إليه ما فعل بهم فهم بقتله. وبلغ ذلك موسى بن كعب وأبا الجهم بن عطية فدخلا على السفاح وذكراه سابقة الشيعة وطاعتهم وأنهم آثروكم على الأقارب والأولاد وقتلوا من خالفكم، فإن كان لا بد من قتله فابعثه لوجه من الوجوه، فإن قتل هو الذي تريد وإن ظفر فلك، بعثه إلى الخوارج الذين بجزيرة ابن كاوان من عُمان مع شيبان بن عبد العزيز اليشكري، فبعث معه سبعمائة رجل فحملهم سليمان بن علي من البصرة في السفن وقد انضم إليه من أهله وعشيرته ومواليه وعدة من بني تميم من البصرة، فلما أرسوا بجزيرة ابن كاوان قدم خازم فضلة بن نعيم المنشلي في خمسمائة إلى شيبان فانهزم هو وأصحابه وكانوا صفرية، وركبوا إلى عمان فقاتلهم الجلندي في الإباضية، فقتل شيبان ومن معه كما مر، وشيبان هذا غير شيبان بن سلمة الذي قتل بخراسان فربما يشتبهان.

ثم ركب خازم البحر إلى ساحل عمان فنزل وقاتل الجلندي أياماً أمر خازم أصحابه في آخرها أن يجعلوا على أطراف أسنتهم المشاقة ويدوروها بالنفط ويشعلوها بالنيران ويرموها في بيوت القوم، وكانت من خشب. فلما اضطرمت فيها النار شغلوا بأهليهم وأولادهم عن القتال، فحمل عليهم خازم وأصحابه فاستحملوهم. وقتل الجلندي وعشرة آلاف، فبعث خازم برؤوسهم إلى البصرة فبعثها سليمان إلى السفاح فندم اهـ.

ثم غزا خالد بن إبراهيم أهل كش فقتل الأخشيد ملكها وهو مطيع واستباحهم وأخذ من الأواني الصينية المنقوشة المذهبة، ومن الديباج والسروج ومتاع الصين وظرفه ما لم ير مثله، وحمله إلى أبي مسلم بسمرقند. وقتل عدة من دهاقين كش وملك طازان أخا الأخشيد على كش، ورجع أبو مسلم إلى مرو بعد أن فتك في الصغد وبخارى وأمر ببناء سور سمرقند. واستخلف زياد بن صالح على بخارى وسمرقند ورجع أبو داود إلى بلخ. ثم بلغ السفاح انتقاض منصور بن جمهور بالسند فبعث صاحب شرطته موسى بن كعب واستخلف مكانه على الشرطة المسيب بن زهير.

وسار موسى لقتال ابن جمهور فلقيه بتخوم الهند وهو في نحو اثني عشر ألفاً فانهزم ومات عطشاً في الرمال. ورحل عامله على السند بعياله وثقلته فدخل بهم بلاد الخزر. ثم انتقض سنة خمس وثلاثين زياد بن صالح وراء النهر. فسار أبو مسلم إليه من مرو وبعث أبو داود خالد بن إبراهيم نصر بن راشد إلى ترمذ ليمنعها من زياد فلما وصل إليها خرج عليه ناس من الطالقان فقتلوه فبعث مكانه عيسى بن ماهان فسمع قتلة نصر فقتلهم. وسار أبو مسلم فانتهى إلى آمد ومعه سباع بن النعمان الأزدي وكان السفاح قد دس معه إلى زياد بن صالح الأزدي أن ينتهز فرصة في أبي مسلم فيقتله. ونمى الخبر إلى أبي مسلم فحبس سباعاً بآمد، وسار عنها وأمر عامله بقتله. ولقيه قواد زياد في طريقه وقد خلعوا زياداً فدخل أبو مسلم بخارى ونجا زياد إلى دهقان هناك فقتله وحمل رأسه إلى أبي مسلم. وكتب أبو مسلم إلى أبي داود فقتله، وكان قد شغل بأهل الطالقان فرجع إلى كش وبعث عيسى بن ماهان إلى بسام فلم يظفر منها بشيء، وبعث إلى بعض أصحاب أبي مسلم يعيب أبا داود وعيسى، فضربه وحبسه، ثم أخرجه فوثب عليه الجند فقتلوه ورجع أبو مسلم إلى مرو.

حج أبي جعفر وأبي مسلم

وفي سنة ست وثلاثين استأذن أبو مسلم السفاح في القدوم عليه للحج، وكان منذ ولي خراسان لم يفارقها فأذن له في القدوم مع خمسمائة من الجند، فكتب إليه أبو مسلم أني قد عاديت الناس ولست آمن على نفسي فاذن له في ألف، وقال: إن طريق مكة لا تحتمل العسكر فسار في ثمانية آلاف فرّقهم ما بين نيسابور والري، وخلف أمواله وخزائنه بالري وقدم في ألف وخرج القواد بأمر السفاح لتلقيه، فدخل على السفاح وأكرمه وأعظمه. واستأذن في الحج فأذن له، وقال: لولا أن أبا جعفر يريد الحج لاستعملتك على الموسم، فأنزله بقربة وكان قد كتب إلى أبي جعفر أن أبا مسلم استأذنني في الحج وأذنت له وهو يريد ولاية الموسم، فاسألني أنت في الحج، فلا تطمع أن يتقدمك، وأذن له فقدم الأنبار. وكان ما بين أبي جعفر وأبي مسلم متباعداً من حيث بعث السفاح أبا جعفر إلى خراسان ليأخذ البيعة له ولأبي جعفر من بعده ويولي أبا مسلم على خراسان فاستخلى أبو مسلم بأبي جعفر. فلما قدم الان أبو جعفر السفاح بقتله وأذن له فيه ثم ندم وكفه عن ذلك، وسار أبو جعفر إلى الحج ومعه أبو مسلم واستعمل على حران مقاتل بن حكيم العكي.

موت السفاح وبيعة المنصور

كان أبو العباس قد تحول من الحيرة إلى الأنبار في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين فأقام بها سنتين ثم توفي في ذي الحجة سنة ست وثلاثين لثلاث عشرة ليلة خلت منه ولأربع سنين وثمانية أشهر من لدن بويع وصلى عليه عمه ودفن بالأنبار. وكان وزيره أبو الجهم بن عطية وكان قبل موته قد عهد بالخلافة لأخيه أبي جعفر ومن بعده لعيسى ابن أخيهما موسى، وجعل العهد في

ثوب وختمه بخواتيمه وخواتيم أهل بيتـه ودفعـه إلى عيسى، ولما توفي السفاح وكان أبو جعفر بمكة فأخذ البيعة على النـاس عيسى بن موسى، وكتب إليه بالخبر فجـزع واستدعى أبـا مسـلم وكـان متأخراً عنه فاقرأه الكتاب فبكى واسترجع، وسكن أبا جعفـر عـن الجزع فقال: أخاف شر عبد اللّه بن علي. فقال أنا أكفيكـه وعامـة جنده أهل خراسان وهم أطوع لي منه فسرّي عنـه. وبـايع لـه أبـو مسلم والناس وأقبلا حتى قدما الكوفة. ويقال: إن أبا مسلم كـان متقدماً على أبي جعفر، فإن الخبر قد أتاه قبلـه فكتب أبـو مسـلم إليه يعزيه ويهنيه بالخلافة وبعد يومين كتب لـه ببيعتـه. وقـدم أبـو جعفر الكوفة سنة سبع وثلاثين وسار منها إلى الأنبـار فسلم إليـه عيسى بيوت الأموال والدواوين واستقام أمر أبي جعفر.

انتقاض عبد اللّه بن علي وهزيمته

كان عبد اللّه بن علي قدم على السفاح قبل موته فبعثـه إلى الصائفة في جنود أهل الشام وخراسان فـانتهى إلى دلـوك ولم يـدر حتى جاءه كتاب عيسى بن موسى بوفاة السفاح وأخذ البيعة لأبي جعفر وله من بعده كما عهد به السفاح، فجمع عبـد اللّـه النـاس وقـرأ عليهـم الكتـاب وأعلمهـم أن السـفاح حـين أراد أن يبعـث الجنود إلى حران تكاسل بنو أبيه عنها فقال لهم: من انتـدب منكـم فهو ولي عهدي فلم ينتـدب غـيري، وشـهد لـه أبـو غـانم الطـائي وخفاف المروزي وغيرهما مـن القـواد وبـايعوه، وفيهـم حميد بـن حكيم بن قحطبة وغيره من خراسان والشـام والجزيـرة. ثـم سـار عبد اللّه حتى نزل حران وحاصر مقاتل بن حكيم العكـي أربعـين يوماً وخشي من أهل خراسان فقتل منهم جماعـة، وولى حميـد بـن قحطبة على حلب وكتب معه إلى عاملها زفر بن عاصم بقتله فقرأ الكتاب في طريقه وسار إلى العراق.

وجاء أبو جعفر من الحج فبعث أبا مسلم لقتـال عبـد اللّـه ولحقه حميد بن قحطبة نازعاً عن عبد اللّه فسار معه وجعـل على مقدمته مالك بن الهيثم الخزاعي. ولما بلغ عبد اللّه خبر إقباله وهـو على حران بذل الأمان لمقاتل بن حكيم ومن معـه وملـك حـران. ثم بعث مقاتلاً بكتابه إلى عثمان بن عبد الأعلى، فلما قرأ الكتاب قتله وحبس ابنيه حتى إذا هـزم عبـد اللّـه قتلهمـا. وأمـر المنصـور محمد بن صول وهو على أذربيجان أن يـأتي عبـد اللّـه بـن علي ليمكر به، فجاء وقال: إني سمعت السفاح يقـول: الخليفـة بعـدي عمي عبد اللّه فشعر بمكيدته وقتله. وهو جد إبراهيم بـن العبـاس الصولي الكاتب.

ثم أقبل عبد اللّه بن علي حتى نزل نصيبـين وخنـدق عليـه وقدم أبو مسلم فيمن معه. وكان المنصور قد كتب إلى الحسـن بـن قحطبة عامله على أرمينية بأن يوافي أبا مسلم، فقدم عليه بالموصل، وسار معه. ونزل أبو مسلم ناحية نصيبين وكتب إلى عبد اللّه: أني قد وليت الشام ولم أؤمر بقتالك فقال أهل الشام لعبد اللّه: سر بنا إلى الشام لنمنع نساءنا وأبناءنا. فقال لهـم عبـد اللّـه: مـا يريـد إلا قتالنا وإنما قصد المكر بنا، فأبوا إلا الشـام. فـارتحل بهـم إلى الشـام ونزل أبو مسلم في موضع معسكره وغور ما حوله من المياه فوقف أصحاب عبد اللّه بكار بن مسلم العقيلي وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي وعلى الخيل عبد الصمد بن علـي أخـو عبـد اللّـه وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة وعلى ميسرته خازم بـن خزيمة، فاقتتلوا شهراً.

ثم حمل أصحاب عبد اللّه على عسكر أبي مسلم فـأزالوهم عن مواضعهم وحمل عبد الصمد فقتل منهم ثمانية عشر رجلاً. ثم حمل عليهم ثانية فأزالوا صفهم. ثم نادى منادي أبي مسلم في أهل خراسان فتراجعوا. وكان يجلس إذا لقي الناس على عريـش ينظـر منه إلى الحومة فإن رأى خللاً أرسل بسده. فلا تزال رسله تختلـف بينه وبين الناس حتى ينصرفوا. فلما كان يوم الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين اقتتلوا وأمر أبو مسلم الحسن بن قحطبة أن يضـم إلى الميسـرة وينزل في الميمنـة حمـاة أصحابـه، فانضم أهل الشام من الميسـرة إلى الميمنـة كمـا أمرهـم. وأمـر أبـو مسلم أهل القلب فحطموهم وركبهم أصحاب أبي مسلم.

فانهزم أصحاب عبد اللّه فقال لابن سراقة. ما ترى؟ قـال: الصبر إلى أن تموت فالفرار فيكم بمثلك قبيح. قال: بل آتي العراق فأنا معك فانهزموا وحوى أبو مسلم عسكرهم. وكتـب بذلـك إلى المنصور ومضى عبد اللّه وعبد الصمد. فقدم عبد الصمـد الكوفـة فاستأمن له عيسى بـن موسـى، وأمنـه المنصـور. وقيـل: بـل أقـام بالرصافة حتى قدمها جمهور بن مروان العجلي في خيـول أرسـلها المنصور، فبعث به موثقاً مع أبي الخطيب، فأطلقه المنصور.

وأما عبد اللّه فقدم البصرة وأقام عند أخيه سليمان متوارياً حتى طلبه وأشخص إليه. ثم إن أبا مسلم أمن الناس بعـد الهزيمـة وأمر بالكف عنهم..... كان أبو مسلم لما حـج مـع المنصـور يؤيـد نفسه عليه ويتقدم بالإحسان للوفود وإصلاح الطريق والمياه، وكان الذكر له وكان الأعراب يقولون: هذا المكذوب عليه. ولما صـدروا عن الموسم تقدم أبو مسلم ولقيه الخبر بوفاة السفاح فبعث إلى أبي جعفر يعزيه ولم يهنئـه بالخلافـة ولا رجـع إليـه ولا أقـام ينتظـره. فغضب أبو جعفـر وكتـب إليـه وأغلـظ في العتـاب فكتـب يهنئـه

بالخلافة ويقدم إلى..... فدعا عيسى بن موسى إلى أن يبايع له فأبى وقدم أبو جعفر، وقد خلع عبيد اللّه بن علـي، فسرح أبا مسلم لقتاله فهزمه كما مر، وجمع الغنائم من عسكره. فبعث المنصور مولاه أبا الخصيب لجمعها، فغضب أبو مسلم وقال: أنا أعين على الدعاء فكيف أخون الأموال وهم بقتل الخصيب ثم خلى عنه.

وخشي المنصور أن يمضي إلى خراسان فكتب إليه بولاية مصر والشام فازداد نفاراً وخرج من الجزيرة يريد خراسان وسار المنصور إلى المدائن، وكتب إليه يستقدمه، فأجابه بالإمتناع والمسك بالطاعة عن بعد، والتهديد بالخلع إن طلب منه سوى ذلك. فكتب إليه المنصور ينكر عليه هذا الشرط وأنه لا يحسن طاعة. وبعث إليه عيسى بن موسى برسالة يؤنسه ويسليه. وقيل: بل كتب إليه أبو مسلم يعرض له بالخلع وأنه قد تاب إلى اللّه مما جناه من القيام بدعوتهم، وأخذ أبو مسلم طريق حلوان وأمر المنصور عمه عيسى ومشيخة بني هاشم بالكتاب على أبي مسلم يحرضونه على التمسك بالطاعة ويحذرونه عاقبة البغي ويأمرونه بالمراجعة.

وبعث الكتب مع مولاه أبي حميد المَرْوَرُوذي، وأمره بملاينته والخضوع له بالقول حتى ييأس منه، فإذا يئس يخبره بقسم أمير المؤمنين لأوكلت أمرك إلى غيري ولو خضت البحر خضته وراءك ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك وأموت. فأوصل أبو حميد الكتب وتلطف له في القول ما شاء واحتج عليه بما كان منه في التحريض على طاعتهم، فاستشار أبو مسلم مالك بن الهيثم فأبى له من الإصغاء إلى هذا القول وقال: واللّه لئن أتيته ليقتلنك. ثم بعث إلى نيزك صاحب الري يستشيره فأبى له من ذلك، وأشار عليه بنزول الري وخراسان من ورائه فيكون أمكن لسلطانه. فأجاب أبا حميد بالإمتناع فلما يئس منه أبلغه مقالة المنصور فوجم طويلاً ورعب من ذلك القول وأكبره. وكان المنصور قد كتب إلى عامل أبي مسلم بخراسان يرعبه في الانحراف عنه بولاية خراسان فأجاب سراً وكتب إلى أبي مسلم يحذره الخلاف والمعصية فزاده ذلك رعباً وقال لأبي حميد قبل انصرافه: قد كنت عزمت على المضي إلى خراسان ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين يأتيني برايته فإني أثق به.

ولما قدم أبو إسحاق تلقاه بنو هاشم وأهل الدولة بكل ما يجب وداخله المنصور في صرف أبي مسلم عن وجهة خراسان ووعده بولايتها، فرجع إليه وأشار عليه بلقاء المنصور، فاعتزم على ذلك. واستخلف مالك بن الهيثم على عسكره بحلوان، وسار فقدم المدائن في ثلاثة آلاف، وخشي أبو أيوب وزير المنصور أن يحدث منه عند قدومه فتك فدعا بعض إخوانه وأشار عليه بأن يأتي أبا مسلم ويتوسل به إلى المنصور في ولاية كسكر ليصيب فيها مالاً عظيماً. وأن يشرك أخاه في ذلك، فإن أمير المؤمنين عازم أن يوليه ما يوري به ويريح نفسه. واستأذن له المنصور في لقاء أبي مسلم فأذن له، فلقي أبا مسلم وتوسل إليه وأخبره الخبر فطابت نفسه وذهب عنه الحزن. ولما قرب أمر الناس بتلقيه ثم دخل على المنصور فقبل يده وانصرف ليريح ليلته، ودعا المنصور من الغد حاجبه عثمان بن نهيك وأربعة من الحرس منهم شبيب بن رواح وابن حنفية حرب بن قيس، وأجلسهم خلف الرواق، وأمرهم بقتل أبي مسلم إذا صفق بيديه.

واستدعى أبا مسلم، فلما دخل سأله عن سيفين أصابهما لعمه عبد اللّه بن علي وكان متقلداً بأحدهما فقال: هذا أحدهما! فقال: أرني! فانتضاه أبو مسلم وناوله إياه فأخذ يقلبه بيده ويهزه. ثم وضعه تحت فراشه، وأقبل يعاتبه فقال: كتبت إلى السفاح تنهاه عن الموات كأنك تعلمه! قال: ظننت أنه لا يحل، ثم اقتديت بكتاب السفاح وعلمت أنكم معدن العلم.

قال: فتوركك عني بطريق مكة! قال كرهت مزاحمتك على المال! قال فامتناعك من الرجوع إلي حين بلغك موت السفاح أو الإقامة حتى ألحقك! قال: طلبت الرفق بالناس والمبادرة إلى الكوفة! قال: فجارية عبد اللّه بن علي أردت أن تتخذها لنفسك! قال: لا إنما وكلت بها من يحفظها.

قال: فمراغمتك ومسيرك إلى خراسان! قال: خشيت منك فقلت: آتي خراساني وأكتب بعذري فأذهب ما في نفسك مني! قال: فالمال الذي جمعته بحران! قال: أنفقته في الجندية تقوية لكم. قال: ألست الكاتب إلي تبدأ بنفسك وتخطب آسية بنت علي وتزعم أنك ابن سليط بن عبد اللّه بن عباس؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقىً صعباً.

ثم قال له: وما الذي دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا، وهو أحد نقبائنا من قبل أن ندخلك في هذا الأمر؟ قال: أراد الخلافة فقتلته. ثم قال أبو مسلم: كيف يقال هذا بعد بلائي وما كان مني؟ قال: يا ابن الخبيثة لو كانت أمة مكانك لأغنت إنما ذلك بدولتنا وريحنا. وأكب أبو مسلم يقبل يده ويعتذر فازداد المنصور غضباً. ثم قال أبو مسلم: دع هذا! فقد أصبحت لا أخاف إلا اللّه. فشتمه المنصور وصفق بيديه فخرج الحرس. وضربه عثمان بن نهيك فقطع حمائل سيفه. فقال: استبقني لعدوك! فقال: لا أبقاني اللّه إذاً وأي عدو أعدى منك وأخذه الحرس بسيوفهم حتى قتلوه، وذلك لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين.

وخرج الوزير أبو الجهم فصرف الناس، وقال: الأمير قائل عند أمير المؤمنين فانصرفوا وأمر لهم بالجوائز وأعطى إسحاق مائة ألف. ودخل عيسى بن موسى على المنصور فسأل عنه وأخذ في الثناء على طاعته وبلائه وذكر رأي الإمام إبراهيم فيه. فقال المنصور: والله ما أعلم على وجه الأرض عدواً أعدى لكم منه هو ذا في البساط. فاسترجع عيسى، فأنكر عليه المنصور وقال: وهل كان لكم ملك معه؟ ثم دعا جعفر بن حنظلة واستشاره في أمر أبي مسلم فأشار بقتله فقال له المنصور: وفقك الله! ثم نظر إليه قتيلاً فقال له: يا أمير المؤمنين عدّ خلافتك من هذا اليوم. ثم دعا أبا إسحاق عن متابعة أبي مسلم وقال: تكلم بما أردت وأخرجه قتيلاً. فسجد أبو إسحاق ثم رفع رأسه يقول: الحمد لله! أميت هو؟ والله ما جئته قط إلا تكفنت وتحنطت ورفع ثيابه وأراه كفنه وحنوطه. فرحمه وقال له: استقبل طاعتك واحمد الله الذي أراحك.

وكتب المنصور بعد قتل أبي مسلم إلى أبي نصر بن الهيثم على لسان أبي مسلم يأمره بحمل أثقاله، وقد كان أبو مسلم أوصاه إن جاءك كتاب بخاتمي تاماً فاعلم أني لم أكتبه، فلما رآه كذلك فطن وانحدر إلى همذان يريد خراسان، فكتب له المنصور بولاية شهرزور، وكتب إلى زهير بن التركي بهمذان بحبسه. فمر أبو نصر بهمذان وخادعه زهير ودعاه إلى طعامه وحبسه. وجاء كتاب العهد بشهرزور لأبي نصر فأطلقه زهير ثم جاءه بعد ذلك الكتاب بقتله فقال: جاءني كتاب عهده فخليت سبيله.

وقدم أبو نصر على المنصور فعذله في إشارته على أبي مسلم بخراسان فقال: نعم استنصحني فنصحت له. وإن استنصحني أمير المؤمنين نصحت وشكرت، واستعمله على الموصل، وخطب أبو جعفر الناس بعد قتل أبي مسلم وانسهم وافترق أصحابه وخرج منهم بخراسان رجل اسمه سنباد ويسمى فيروز أصبهبد وتبعه أكثر الجبال يطلبون بدم أبي مسلم وغلب على نيسابور والري وأخذ خزائن أبي مسلم التي خلفها بالري حين شخص إلى السفاح. وسبى الحرم ونهب الأموال ولم يعرض إلى التجار. وكان يظهر أنه قاصد إلى الكعبة يهدمها فسرح إليه المنصور جمهور بن حرار العجلي والتقوا على طرق المفازة بين همذان والري، فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم نحواً من ستين ألفاً وسبى ذراريهم ونساءهم.

ولحق سنباد بطبرستان فقتله بعض عمال صاحبها وأخذ ما معه. وكتب إلى المنصور بذلك فكتب إليه المنصور في الأموال فأنكرها فسرح إليه الجنود فهرب إلى الديلم. ثم إن جمهور بن مرار لما حوى ما في عسكر سنباد ولم يبعث به خاف من المنصور فخلع واعتصم بالري فسرح إليه محمد بن الأشعث في الجيوش، فخرج من الري إلى أصبهان فملكها وملك محمد الري. ثم اقتتلوا وانهزم جمهور فلحق بأذربيجان، وقتله بعض أصحابه وحملوا رأسه إلى المنصور، وذلك سنة ثمان وثلاثين.

حبس عبد الله بن علي

كان عبد الله بن علي بعد هزيمته أمام أبي مسلم لحق بالبصرة، ونزل على أخيه سليمان. ثم إن المنصور عزل سليمان سنة تسع وثلاثين فاختفى عبد الله وأصحابه، فكتب المنصور إلى سليمان وأخيه عيسى بأمان عبد الله وقواده ومواليه وأشخاصهم إلى المنصور منهما فشخصوا. ولما قدما عليه فأذن لهما فأعلماه بحضور عبد الله واستأذناه له فشغلهما بالحديث وأمر بحبسه في مكان قد هيئ له في القصر، فلما خرج سليمان وعيسى لم يجد عبد الله فعلما أنه قد حبس وأن ذمتهما قد أخفرت، فرجعا إلى المنصور فحبسا عنه وتوزع أصحاب عبد الله بين الحبس والقتل، وبعث ببعضهم إلى أبي داود خالد بن إبراهيم بخراسان فقتلهم بها. ولم يزل عبد الله محبوساً حتى عهد المنصور إلى المهدي سنة تسع وأربعين وأمر موسى بن عيسى فجعله بعد المهدي ودفع إليه عبد الله، وأمره بقتله، وخرج حاجاً. وسارّ عيسى كاتبه يونس بن فروة في قتل عبد الله بن علي فقال: لا تفعل فإنه يقتلك به، وإن طلبه منك فلا ترده إليه سراً فلما قفل المنصور من الحج دس على أعمامه من يحرضهم على الشفاعة في أخيهم عبد الله فشفعهم، وقال لعيسى: جئنا به! فقال: قتلته كما أمرتني. فأنكر المنصور وقال خذوه بأخيكم فخرجوا به ليقتلوه حتى اجتمع الناس واشتهر الأمر فجاء به وقال: هو ذا حي سوي، فجعله المنصور في بيت أساسه ملح وأجرى عليه الماء فسقط ومات.

وقعة الراوندية

كان هؤلاء القوم من أهل خراسان ومن أتباع أبي مسلم يقولون بالتناسخ والحلول، وأن روح آدم في عثمان بن نهيك وأن الله حل في المنصور وجبريل في الهيثم بن معاوية. فحبس المنصور نحواً من مائتين منهم فغضب الباقون واجتمعوا وحملوا بينهم نعشاً كأنهم في جنازة وجاؤوا إلى السجن فرموا بالنعش وأخرجوا أصحابهم وحملوا على الناس في ستمائة رجل. وقصدوا قصر المنصور وخرج المنصور من القصر ماشياً. وجاء معن بن زائدة

الشيباني وكان مستخفياً من المنصور لقتاله مع ابن هبيرة وقد اشتد طلب المنصور له فحضر عنده هذا اليوم متلثماً وترجل وأبلى. ثم جاء إلى المنصور ولجام بغلته في يد الربيع حاجبه وقال: تنح ذا أنا أحق بهذا اللجام في هذا الوقت وأعظم فنازل وقاتل حتى ظفر بالراوندية. ثم سأله فانتسب فأمنه واصطنعه.

وجاء أبو نصر مالك بن الهيثم ووقف على باب المنصور وقال: أنا اليوم بواب. ثم قاتلهم أهل السوق وفتح باب المدينة ودخل الناس وحمل عليهم خازم بن خزيمة والهيثم بن شعبة حتى قتلوهم عن آخرهم. وأصاب عثمان بن نهيك في الحومة سهم فمات منه بعد أيام وجعل على الحبس بعده أخاه عيسى ثم بعده أبا العباس الطوسي وذلك كله بالهاشمية. ثم أحضر معناً ورفع منزلته وأثنى عليه بما كان منه في ذلك اليوم مع عمه عيسى، فقال معن: والله يا أمير المؤمنين لقد جئت إلى الحكومة وجلاً حتى رأيت شدتك فحملني ذلك على ما رأيت مني. وقيل: إنه كان مختفياً عند أبي الخصيب حاجب المنصور وأنه جاء يوم الراوندية فاستأذن أبو الخصيب وشاوره المنصور فأشار ببث المال في الناس. وأبى المنصور إلا الركوب إليهم بنفسه فخرج بين يديه وأبلى حتى قتلوا. ثم تغيب فاستدناه وأمنه وولاه على اليمن.

انتقاض خراسان ومسير المهدي إليها

كان السفاح قد ولى على خراسان أبا داود خالد بن إبراهيم الذهلي بعد انتقاض بسام بن إبراهيم ومهلكه. فلما كان سنة أربعين ثار به بعض الجند وهو بكشماهن وجاؤوا إلى منزله فأشرف عليهم ليلاً من السطح فزلت قدمه فسقط ومات ليومه. وكان عصام صاحب شرطته فقام بالأمر بعده. ثم ولى المنصور على خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن فقدم عليها وحبس جماعة من القواد اتهمهم بالدعاء للعلوية، منهم مجاشع بن حريث الأنصاري عامل بخارى وأبو المعرة خالد بن كثير مولى بني تميم عامل قهستان والحريش بن محمد الذهلي ابن عم أبي داود في آخرين.

ثم قتل هؤلاء وألح على عمال أبي داود في استخراج المال وانتهت الشكوى إلى المنصور بذلك فقال لأبي أيوب: إنما يريد بفناء شيعتنا الخلع، فأشار عليه أبو أيوب أن تبعث من جنود خراسان لغزو الروم فإذا فارقوه بعثت إليه من شئت واستمكن منه. فكتب إليه بذلك فأجاب بأن الترك قد جاشت وإن فرقت الجنود خشيت على خراسان. فقال له أبو أيوب: اكتب إليه بأنك تمده بالجيوش وابعث معها من شئت يستمكن منه، فأجاب عبد الجبار بأن خراسان مغلبة في عامها ولا تحتمل زيادة العسكر. فقال له أبو يوسف: هذا خلع فعاجله. فبعث ابنه المهدي فسار ونزل الري.

وقدم خازم بن خزيمة لحرب عبد الجبار فقاتلوه، فانهزم وجاء إلى مقطنة وتوارى فيها. فعبر إليه المحشد بن مزاحم من أهل مرو الروذ وجاء به إلى خازم فحمله على بعير وعليه جبة صوف، ووجهه إلى عجز البعير وحمله إلى المنصور في ولده وأصحابه. فبسط إليهم العذاب حتى استخرج الأموال ثم قطع يديه ورجليه وقتله. وذلك سنة اثنتين وأربعين وبعث بوُلْدِه إلى دَهْلَك فعزلهم بها وأقام المهدي بخراسان حتى رجع إلى العراق سنة تسع وأربعين.... وفي سنة اثنتين وأربعين انتقض عيينة بن موسى بن كعب بالسند، وكان عاملاً عليها من بعد أبيه، وكان أبوه يستخلف المسيب بن زهير على الشرط فخشي المسيب إن حضر عيينة عند المنصور أن يوليه على الشرط، فحذره المنصور وحرضه على الخلاف فخلع الطاعة. وسار المنصور إلى البصرة وسرح من هنالك عمر بن حفص بن أبي صفوة العتكي لحرب عيينة وولاه على السند والهند فورد السند وغلب عليها. وفي السنة انتقض الأصبهبذ بطبرستان وقتل من كان في أرضه من المسلمين فبعث المنصور مولاه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة وروح بن حاتم في العساكر فحاصروه في حصنه مدة ثم تحيلوا ففتح لهم الحصن من داخله وقتلوا المقاتلة وسبى الذرية وكان مع الأصبهبذ سم فشربه فمات.

أمر بني العباس

بنو هاشم حين اضطرب أمر مروان بن محمد اجتمعوا إليه وتشاوروا فيمن يعقدون له الخلافة فاتفقوا على محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن علي. وكان يقال: إن المنصور ممن بايعه تلك الليلة. ولما حج أيام أخيه السفاح سنة ست وثلاثين تغيب عنه محمد وأخوه إبراهيم، ولم يحضرا عنده مع بني هاشم. وسأل عنهما فقال له زياد بن عبيد الله الحارثي: أنا آتيك بهما وكان بمكة فرده المنصور إلى المدينة. ثم استخلف المنصور وطفق يسأل عن محمد ويختص بني هاشم بالسؤال سراً، فكلهم يقول: إنك ظهرت على طلبه لهذا الأمر فخافك على نفسه، ويحسن العذر عنه إلا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي. فإنه قال له: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه لا ينام عنك، فكان موسى بن عبد الله بن حسن يقول بعد هذا: اللهم اطلب الحسن بن زيد بدمائنا. ثم إن المنصور

حج سنة..... وألح على عبد اللّه بن حسن في إحضار ابنه محمد فاستشار عبد اللّه سليمان بن علي في إحضاره فقال له: لو كان عافياً عفى عن عمه، فاستمر عبد اللّه على الكتمان وبث المنصور العيون بين الأعراب في طلبه بسائر بوادي الحجاز ومياهها. ثم كتب كتاباً على لسان الشيعة إلى محمد بالطاعة والمسارعة وبعثه مع بعض عيونه إلى عبد اللّه وبعث معه بالمال والألطاف كأنه من عندهم.

وكان للمنصور كاتب على سره يتشيع، فكتب إلى عبد اللّه بن حسن بالخبر وكان محمد بجهينة، وألح عليه صاحب الكتاب أمر محمد ليدفع إليه كتاب الشيعة. فقال له: إذهب إلى علي بن الحسن المدعو بالأغر يوصلك إليه في جبل جهينة فذهب وأوصله إليه. ثم جاءهم حقيقة خبره من كاتب المنصور وبعثوا أبا هبَّار إلى محمد وعلي بن حسن يحذرهما الرجل، فجاء أبو هبار إلى علي بن حسن وأخبره ثم سار إلى محمد فوجد العين عنده جالساً مع أصحابه فخلا به وأخبره. فقال: وما الرأي؟ قال: تقتله! قال: لا أقارف دم مسلم. قال: تقيده وتحمله معك! قال: لا آمن عليه لكثرة الخوف والإعجال. قال: فتودعه عند بعض أهلك من جهينة! قال: هذه إذن. ورجع فلم يجد الرجل ولحق بالمدينة.

ثم قدم على المنصور وأخبره الخبر وسمى اسم أبي هبار وكنيته، وقال: معه وبر. فطلب أبو جعفر وبراً المري فسأله عن أمر محمد فأنكره وحلف فضربه وحبسه. ثم دعا عقبة بن سالم الأزدي وبعثه متنكراً بكتاب والطاف من بعض الشيعة بخراسان إلى عبد اللّه بن حسن ليظهر على أمره، فجاءه بالكتاب فانتهره وقال لا أعرف هؤلاء القوم. فلم يزل يتردد إليه حتى قبله وأنس به وسأله عقبة الجواب فقال: لا أكتب لأحد ولكن أقرئهم مني سلاماً وأعلمهم أن ابنيّ خارجان لوقت كذا.

فرجع عقبة إلى المنصور فانشأ الحج، فلما لقيه بنو حسن رفع مجالسهم وعبد اللّه إلى جنبه ثم دعا بالغداء فاصابوا منه. ثم قال لعبد اللّه بن حسن: قد أعطيتني العهود والمواثيق أن لا تبغيني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً فقال: وأنا على ذلك. فلحظ المنصور عقبة بن سالم فوقف بين عبد اللّه حتى ملأ عينه منه فبادر المنصور يسأله الإقالة فلم يفعل، وأمر بحبسه. وكان محمد يتردد في النواحي وجاء إلى البصرة فنزل في بني راهب وقيل: في بني مرة بن عبيد، وبلغ الخبر إلى المنصور فجاء إلى البصرة وقد خرج عنها محمد، فلقي المنصور عمر بن عبيد فقال له: يا أبا عثمان هل بالبصرة أحد نخافه على أمرنا؟ فقال: لا! فانصرف واشتد الخوف على محمد وإبراهيم وسار إلى عدن ثم إلى السند ثم إلى الكوفة، ثم إلى المدينة. وكان المنصور حج سنة أربعين وحج محمد وإبراهيم وعزما على اغتيال المنصور وأبى محمد من ذلك. ثم طلب المنصور عبد اللّه بإحضار ولديه وعنّفه وهمّ به، فضمنه زياد عامل المدينة.

وانصرف المنصور وقدم محمد المدينة قدمة فتلطف له زياد وأعطاه الأمان له. ثم قال له: إلحق بأي بلاد شئت. وسمع المنصور فبعث أبا الأزهر إلى المدينة في جمادى سنة إحدى وأربعين ليستعمل على المدينة عبد العزيز بن المطلب ويقبض زياداً وأصحابه. فسار بهم فحبسهم المنصور، وخلف زياد ببيت المال ثمانين ألف دينار. ثم استعمل على المدينة محمد بن خالد بن عبد اللّه القسري، وأمره بطلب محمد وإنفاق المال في ذلك. فكثرت نفقته واستبطأه المنصور واستشار في عزله، فأشار عليه يزيد بن أسيد السلمي من أصحابه باستعمال رباح بن عثمان بن حسان المزني فبعثه أميراً على المدينة في رمضان سنة أربع وأربعين، وأطلق يده في محمد بن خالد القسري.

فقدم المدينة وتهدد عبد اللّه بن حسن في إحضار ابنيه. وقال له عبد اللّه يومئذ: إنك لتريق المذبوح فيها كما تذبح الشاة، فاستشعر ذلك ووجد فقال له حاجبه أبو البختري: إن هذا ما اطلع على الغيب. فقال: ويلك! واللّه ما قال إلا ما سمع، فكان كذلك. ثم حبس رباح محمد بن خالد وضربه وجدّ في طلب محمد فاخبر أنه في شِعبان رَضْوى من أعمال ينبع وهو جبل جهينة، فبعث عامله في طلب فأفلت منه. ثم إن رباح بن مرة حبس بني حسن وقيدهم وهم: عبد اللّه بن حسن بن الحسن وإخوته حسن وإبراهيم وجعفر وابنه موسى بن عبد اللّه، وبنو أخيه داود وإسماعيل وإسحاق بنو إبراهيم بن الحسن، ولم يحضر معهم أخوه علي العائد. ثم حضر من الغد عند رباح وقال: جئتك لتحبسني مع قومي فحبسه، وكتب إليه المنصور أن يحبس معهم محمد بن عبد اللّه بن عمر بن عثمان المعروف بالديباجة. وكان أخا عبد اللّه لأمه أمهما فاطمة بنت الحسين.

وكان عامل مصر قد عثر على علي بن محمد بن عبد اللّه بن حسن بعثه أبوه إلى مصر يدعو له فأخذه وبعث به إلى المنصور فلم يزل في حبسه. وسمى من أصحاب أبيه عبد الرحمن بن أبي المولى وأبا جبير فضربهما المنصور وحبسهما. وقيل: عبد اللّه حبس أولاً وحده وطال حبسه. فأشار عليه أصحابه بحبس الباقين فحبسهم. ثم حج المنصور سنة أربع وأربعين، فلما قدم مكة بعث إليهم وهم في السجن محمد بن عمران بن إبراهيم بن طلحة ومال بن أنس يسألهم أن يرفعوا إليه محمداً وإبراهيم ابني عبد اللّه، فطلب عبد اللّه الإذن في لقائه فقال المنصور: لا واللّه حتى يأتيني

به وبابنيه، وكان محسناً مقبولاً لا يكلم أحداً إلا أجابه إلى رأيه.

ثم إن المنصور قضى حجه وخرج إلى الربذة، وجاء رباح ليودعه فأمر بأشخاص بني حسن ومن معهم إلى العراق فأخرجهم في القيود والأغلال وأردفهم في محامل بغير وطء، وجعفر الصادق يعاينهم من وراء ستر ويبكي. وجاء محمد وإبراهيم مع أبيهما عبد اللّه يسايرانه مستترين بزي الأعراب ويستأذنانه في الخروج فيقول: لا تعجلا حتى يمكنكما وإن منعتما أن تعيشا كريمين فلا تمنعا أن تموتا كريمين، وانتهوا إلى الزيدية. وأحضر العثماني الديقا عند المنصور فضربه مائة وخمسين سوطاً بعد ملاحاة جرت بينهما أغضبت المنصور. ويقال: إن رباحاً أغرى المنصور به وقال له: إن أهل الشام شيعته ولا يتخلف عنه منهم أحد.

ثم كتب أبو عون عامل خراسان إلى المنصور بأن أهل خراسان منتظرون أمر محمد بن عبد اللّه واحذر منهم. فأمر المنصور بقتل العثماني وبعث برأسه إلى خراسان، وبعث من يحلف أنه رأس محمد بن عبد اللّه وأن أمه فاطمة بنت رسول اللّه ﷺ. ثم قدم المنصور بهم الكوفة وحبسهم بقصر ابن هبيرة، يقال: إنه قتل محمد بن إبراهيم بن حسن منهم على إسطوانة وهو حي فمات. ثم بعده عبد اللّه بن حسن ثم علي بن حسن، ويقال: إن المنصور أمر بهم فقتلوا، ولم ينج منهم إلا سليمان وعبد اللّه ابنا داود وإسحاق وإسماعيل ابنا إبراهيم بن حسن وجعفر بن حسن واللّه أعلم.

ظهور محمد المهدي ومقتله

ولما سار المنصور إلى العراق وحمل معه بني حسن رجع رباح إلى المدينة وألح في طلب محمد وهو مختف يتنقل في اختفائه من مكان إلى مكان وقد أرهقه الطلب حتى تدلى في بئر. فتدلى فغمس في مائها وحتى سقط ابنه من جبل فتقطع ودل عليه رباح بالمداد، فركب في طلبه فاختفى عنه ولم يره. ولما اشتد عليه الطلب أجمع الخروج وأغراه أصحابه بذلك. وجاء الخبر إلى رباح بأنه الليلة خارج فأحضر العباس بن عبد اللّه بن الحارث بن العباس ومحمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضي المدينة وغيرهما، وقال لهم: أمير المؤمنين يطلب محمداً شرق الأرض وغربها وهو بين أظهركم. واللّه لئن خرج ليقتلنكم أجمعين. وأمر القاضي بإحضار عشيرة بني زهرة فجاؤوا في جمع كثير وأجلسهم بالباب.

ثم أحضر نفراً من العلويين فيهم جعفر بن محمد بن الحسين وحسين بن علي بن حسين بن علي ورجال من قريش فيهم إسماعيل بن أيوب بن سلمة بن عبد اللّه بن الوليد بن المغيرة وابنه خالد، وبينما هم عنده إذ سمعوا التكبير وقيل: قد خرج محمد فقال له..... ابن مسلم بن عقبة: أعطني أضرب أعناق هؤلاء فأبى، وأقبل من المداد في مائة وخمسين رجلاً وقصد السجن، فأخرج محمد بن خالد بن عبد اللّه القسري وابن أخيه النذير بن يزيد ومن كان معهم وجعل على الرجالة خوات بن جبير وأتى دار الإمارة وهو ينادي بالكف عن القتل. فدخلوا من باب المقصورة وقبضوا على رباح وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة فحبسهم، ثم خرج إلى المسجد وخطب الناس وذكر المنصور بما نقمه عليه ووعد الناس واستنصر بهم. واستعمل على المدينة عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبد اللّه المخزومي،و على بيت السلاح عبد العزيز الدراوردي، وعلى الشرط أبا الغلمش عثمان بن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، وعلى ديوان العطاء عبد اللّه بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة.

وأرسل إلى محمد بن عبد العزيز يلومه على القعود عنه فوعده بالبصرة وسار إلى مكة، ولم يتخلف عن محمد من وجوه الناس إلا نفر قليل منهم: الضحاك بن عثمان بن عبد اللّه بن خالد بن حرام وعبد اللّه بن المنذر بن المغيرة بن عبد اللّه بن خالد وأبو سلمة بن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عمر، وحبيب بن ثابت بن عبد اللّه بن الزبير. واستفتى أهل المدينة مالكاً في الخروج مع محمد وقالوا: في أعناقنا بيعة المنصور، فقال: إنما بايعتم مكرهين. فتشارع الناس إلى محمد ولزم مالك بيته، وأرسل محمد إلى إسماعيل بن عبد اللّه بن جعفر يدعوه إلى بيعته، وكان شيخاً كبيراً فقال: أنت واللّه وابن أخي مقتول فكيف أبايعك؟ فرجع الناس عنه قليلاً وأسرع بنو معاوية بن عبد اللّه بن جعفر إلى محمد فجاءت جمادة أختهم إلى عمها إسماعيل وقالت: يا عم إن مقالتك ثبطت الناس عن محمد وأخوتي معه، فأخشى أن يقتلوا فردها. فيقال: إنها عدت عليه فقتلته ثم حبس محمد بن خالد القسري بعد أن أطلقه واتهمه بالكتاب إلى المنصور فلم يزل في حبسه.

ولما استوى أمر محمد ركب رجل من آل أويس بن أبي سرح اسمه الحسين بن صخر، وجاء إلى المنصور في تسع فخبره الخبر فقال: أنت رأيته؟ قال: نعم! وكلمته على منبر رسول اللّه ﷺ. ثم تابع الخبر وأشفق المنصور من أمره واستشار أهل بيته ودولته. وبعث إلى عمه عبد اللّه وهو محبوس يستشيره فأشار عليه بأن يقصد الكوفة فإنهم شيعة لأهل البيت فيملك عليهم أمرهم ويحفها بالمسالح حتى يعرف الداخل والخارج، ويستدعي سالم بن

قتيبة من الري فيتحشد معه كافة أهل الشام ويبعثه وأن يبعث العطاء في الناس.

فخرج المنصور إلى الكوفة ومعه عبد الله بن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان. ولما قدم الكوفة أرسل إلى يزيد بن يحيى وكان السفاح يشاوره فأشار عليه بأن يشحن الأهواز بالجنود وأشار عليه جعفر بن حنظلة الحراني بأن يبعث الجند إلى البصرة. فلما ظهر إبراهيم بتلك الناحية تبين وجه إشارتهما. وقال المنصور لجعفر: كيف خفت البصرة؟ قال: لأن أهل المدينة ليسوا أهل حرب حسبهم أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعداء الطالبيين، ولم يبق إلا البصرة.

ثم إن المنصور كتب إلى محمد المهدي كتاب أمان فأجابه عنه بالرد والتعريض بأمور في الأنساب والأحوال، فأجابه المنصور عن كتابه بمثل ذلك وانتصف كل واحد منهما لنفسه بما ينبغي الإعراض عنه مع أنهما صحيحان مرويان نقلهما الطبري في كتاب الكامل فمن أراد الوقوف فليلتمسها في أماكنها. ثم إن محمداً المهدي استعمل على مكة محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر وعلى اليمن القاسم بن إسحاق وعلى الشام موسى بن عبد الله. فسار محمد بن الحسن إلى مكة والقاسم معه ولقيهما السري بن عبد الله عامل مكة ببطن أذاخر فانهزم. وملك محمد مكة حتى استنفره المهدي لقتال عيسى بن موسى فنفر هو والقاسم بن عبيد الله.

وبلغهما قتل محمد بنواحي قديد فلحق محمد بإبراهيم، فكان معه بالبصرة. واختفى القاسم بالمدينة حتى أخذت له الأمان امرأة عيسى، وهي بنت عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر. وأما موسى بن عبد الله فسار إلى الشام فلم يقبلوا منه فرجع إلى المدينة. ثم لحق بالبصرة مختفياً وعثر عليه محمد بن سليمان بن علي وعلى ابنه عبد الله وبعث بهما إلى المنصور فضربهما وحبسهما. ثم بعث المنصور عيسى بن موسى إلى المدينة لقتال محمد فسار في الجنود ومعه محمد بن أبي العباس بن السفاح وكثير بن حصين العبدي وحميد بن قحطبة وهو أزمرّد وغيرهم، فقال له: إن ظفرت فأغمد سيفك وابذل الأمان وإن تغيب فخذ أهل المدينة فإنهم يعرفون مذاهبه ومن لقيك من آل أبي طالب فعرفني به ومن لم يلقك فاقبض ماله.

وكان جعفر الصادق فيمن تغيب، فقبض ماله. ويقال: إنه طلبه من المنصور لما قدم بالمدينة بعد ذلك فقال: قبضه مَهْدِيُّكم. ولما وصل عيسى إلى فته كتب إلى نفر من أهل المدينة ليستدعيهم منهم: عبد العزيز بن المطلب المخزومي وعبيد الله بن محمد بن صفوان الجمحي وعبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب. فخرج إليه عبد الله هو وأخوه عمر وأبو عقيل محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل. واستشار المهدي أصحابه في القيام بالمدينة ثم في الخندق عليها فأمر بذلك اقتداء برسول الله ﷺ وحفر الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ للأحزاب. ونزل عيسى الأعراض، وكان محمد قد منع الناس من الخروج فخيَّرهم، فخرج كثير منهم بأهلهم إلى الجبال وبقي في شرذمة يسيرة.

ثم تدارك رأيه وأمر أبا الغلمش بردهم فأعجزوه ونزل عيسى على أربعة أميال من المدينة وبعث عسكراً إلى طريق مكة يعترضون محمداً إن انهزم إلى مكة، وأرسل إلى المهدي بالأمان والدعاء إلى الكتاب والسنة ويحذره عاقبة البغي. فقال: إنما أنا رجل فررت من القتل. ثم نزل عيسى بالجرف لاثنتي عشرة من رمضان سنة خمس وأربعين، فقام يومين، ثم وقف على مسلم ونادى بالأمان لأهل المدينة وأن يخلّوا بينه وبين صاحبه، فشتموه فانصرف وعاد من الغد، وقد فرق القواد من سائر جهات المدينة وبرز محمد في أصحابه ورايته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير وشعارهم أحد أحد.

وطلب أبو الغلمش من أصحابه البراز فبرز إليه أخو أسد فقتله. ثم آخر فقتلوا وقال: أنا ابن الفاروق. وأبلى محمد المهدي يومئذ بلاءً عظيماً وقتل بيده سبعين رجلاً. ثم أمر عيسى بن موسى حميد بن قحطبة فتقدم في مائة من الرجال إلى حائط دون الخندق فهدمه، وأجازوا الخندق وقاتلوا من وراءه، وصابرهم أصاب محمد إلى العصر. ثم أمر عيسى أصحابه فرموا الخندق بالحقائب ونصبوا عليها الأبواب وجازت الخيل واقتتلوا وانصرف محمد فاغتسل وتحنط. ثم رجع فقال: أترك أهل المدينة والله لا أفعل أو أقتل وأنت مني في سعة فمشى قليلاً معه، ثم رجع وافترق عنه جل أصحابه،و بقي في ثلثمائة أو نحوها. فقال له بعض أصحابه: نحن اليوم في عدة أهل بدر وطفق عيسى بن حصين من أصحابه يناشده في اللحاق بالبصرة أو غيرها، فيقول: والله لا تبتلون بي مرتين.

ثم جمع بين الظهر والعصر ومضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايعهم. وجاء إلى السجن لقتل رياح بن عثمان وأخاه عباسا وابن مسلم بن عقبة وتوثق محمد بن القسري بالأبواب فلم يصلوا إليه. ورجع ابن حصين إلى محمد فقاتل معه وتقدم محمد إلى بطن سلع ومعه بنو شجاع من الخمس. فعرقبوا دوابهم وكسروا جفون سيوفهم واستماتوا وهزموا أصحاب عيسى مرتين أو ثلاثة. وصعد نفر من أصحاب عيسى الجبل

وانحدروا منه إلى المدينة. ورفع بعض نسوة إلى العباس خماراً لها أسود على منارة المسجد. فلما رآه أصحاب محمد وهم يقاتلون هربوا، وفتح بنو غفار طريقاً لأصحاب عيسى فجاؤوا من وراء أصحاب محمد.

ونادى حميد بن قحطبة للبراز فأبى، ونادى ابن حصين بالأمان فلم يصغ إليه وكثرت فيه الجراح. ثم قتل وقاتل محمد على شلوه فهدّ الناس عنه هداً حتى ضرب فسقط لركبته وطعنه ابن قحطبة في صدره، ثم أخذ رأسه وأتى به عيسى فبعثه إلى المنصور مع محمد بن الكرام عبد الله بن علي بن عبد الله بن جعفر، وبالبشارة مع القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن، وأرسل معه رؤوس بني شجاع، وكان قتل محمد منتصف رمضان. وأرسل عيسى الألوية فنصبت بالمدينة للأمان وصلب محمد وأصحابه ما بين ثنية الوداع والمدينة،و استأذنت زينب أخته في دفنه بالبقيع، وقطع المنصور الميرة في البحر عن المدينة، حتى أذن فيها المهدي بعده، وكان مع المهدي سيف علي ذو الفقار فأعطاه يومئذ رجلاً من التجار في دين كان له عليه.

فلما ولي جعفر بن سليمان المدينة أخذه منه وأعطاه من دينه. ثم أخذه منه المهدي، وكان الرشيد يتقلده وكان فيه ثمان عشرة فقرة، وكان معه من مشاهير بني هاشم أخو موسى وحمزة بن عبد الله بن محمد بن علي بن الحسين وحسين وعلي ابنا زيد بن علي، وكان المنصور يقول: عجباً خرجا علي ونحن أخذنا بثأر أبيهما. وكان معه علي وزيد ابنا الحسن بن زيد بن الحسن وأبوهما الحسن مع المنصور والحسن ويزيد وصالح بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر،و القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر والمرجى علي بن جعفر بن إسحاق بن علي بن عبد الله بن جعفر وأبوه علي مع المنصور، ومن غير بني هاشم محمد بن عبد الله بن عمر بن سعيد بن العاص ومحمد بن عجلان وعبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم، وأبوبكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة، أخذ أسيراً فضرب وحبس في سجن المدينة، فلم يزل محبوساً إلى أن نازل السودان بالمدينة على عبد الله بن الربيع الحارثي، وفر عنها إلى بطن نخل وملكوا المدينة ونهبوا طعام المنصور.

فخرج ابن أبي سبرة مقيداً وأتى المسجد وبعث إلى محمد بن عمران ومحمد بن عبد العزيز وغيرهما، وبعثوا إلى السودان وردوهم عما كانوا فيه، فرجعوا ولم يصلّ الناس يومئذ جمعة. ووقف الأصبغ بن أبي سفيان بن عاصم بن عبد العزيز لصلاة العشاء ونادى: أصلي بالناس على طاعة أمير المؤمنين، وصلى. ثم أصبح ابن أبي سبرة وردّ من العبيد ما نهبوه، ورجع ابن الربيع من بطن نخل وقطع رؤساء.... العبيد.

وكان مع محمد بن عبد الله أيضا عبد الواحد بن أبي عون مولى الأزد وعبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة وعبد العزيز بن محمد الدراوردي وعبد الحميد بن جعفر وعبد الله بن عطاء بن يعقوب مولى بني سباع وبنوه تسعة وعيسى وعثمان ابنا خضير. وعثمان بن محمد بن خالد بن الزبير قتله المنصور من بعد ذلك لما أخذ بالبصرة وعبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع وعلي بن المطلب بن عبد الله بن حنطب وإبراهيم بن جعفر بن مصعب بن الزبير وهشام بن عمير بن الوليد بن..... بن عبد الجبار وعبد الله بن يزيد بن هرمز وغيرهم.

شأن إبراهيم بن عبد الله وظهوره ومقتله

كان إبراهيم بن عبد الله أخو المهدي محمد قد اشتد الطلب عليه وعلى أخيه منذ خمس سنين، وكان إبراهيم يتنقل في النواحي بفارس وبكرمان والجبل والحجاز واليمن والشام،و حضر مرة مائدة المنصور بالموصل، وجاء أخرى إلى بغداد حين خطها المنصور مع النظار على قنطرة الفرات حين شدها وطلبه فغاض في الناس فلم يوجد ووضع عليه الرصد بكل مكان. ودخل بيت سفيان بن حيان العَمى وكان معروفاً بصحبته فتحيل على خلاصه بأن أتى المنصور وقال: أنا آتيك بإبراهيم فاحملني وغلامي على البريد وابعث معي الجند ففعل. وجاء بالجند إلى البيت وأركب معه إبراهيم في زي غلامه وذهب بالجند إلى البصرة ولم يزل يفرقهم على البيوت ويدخلها موهماً أنه يفتشه حتى بقي وحده فاختفى.

وطلبه أمير البصرة سفيان بن معاوية فأعجزه، وكان قدم قبل ذلك الأهواز فطلبه محمد بن حصين واختفى منه عند الحسن بن حبيب ولقي من ذلك غياً. ثم قدم إبراهيم البصرة سنة خمس وأربعين بعد ظهور أخيه محمد بالمدينة يحيى بن زياد بن حيان النبطي وأنزله بداره في بني ليث. فدعا الناس إلى بيعة أخيه وكان أول من بايعه نميلة بن مرة العبسي وعبد الله بن سفيان وعبد الواحد بن زياد وعمر بن سلمة الهجيمي وعبد الله بن حي بن حصين الرقاشي وبثوا دعوته في الناس، واجتمع لهم كثير من الفقهاء. وأهل العلم. وأحصى ديوانه أربعة آلاف. واشتهر أمره.

ثم حولوه إلى وسط البصرة. ونزل دار أبي مروان مولى بني سليم في مقبرة بني يشكر وليقرب من الناس وولاه سفيان أمير البصرة على أمره، وكتب إليه أخوه محمد يأمره بالظهور وكان

المنصور بظاهر، وأرسل من القواد مدداً السفيان علي إبراهيم إن ظهر، ثم إن إبراهيم خرج أول رمضان من سنة خمس وأربعين وصلى الصبح في الجامع وجاء دار الإمارة بابن سفيان وحبسه وحبس القواد معه، وجاء جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي في ستمائة رجل. وأرسل إبراهيم إليها المعين بن القاسم الحدروري في خمسين رجلاً فهزمهما إلى باب زينب بنت سليمان بن علي وإليها ينسب الزينبيون من بني العباس. فنادى بالأمان وأخذ من بيت المال ألفي ألف درهم، وفرض لكل رجل من أصحابه خمسين.

ثم أرسل المغيرة على الأهواز في مائة رجل فغلب عليها محمد بن الحصين وهو في أربعة آلاف. وأرسل عمر بن شداد إلى فارس وبها إسماعيل وعبد الصمد ابنا علي، فتحصنا في دار بجرد وملك عمر نواحيها، فأرسل هارون بن شمس العجلي في سبعة عشر ألفاً إلى واسط فغلب عليها هارون بن حميد الإيادي وملكها. وأرسل المنصور لحربه عامر بن إسماعيل في خمسة آلاف وقيل: في عشرين. فاقتتلوا أياماً ثم تهادنوا حتى يروا مآل الأميرين المنصور وإبراهيم. ثم جاء نعي محمد إلى أخيه إبراهيم قبل الفطر فصلى يوم العيد وأخبرهم فازدادوا حنقاً على المنصور. ونفر في حره وعسكر من الغد واستخلف على البصرة غيلة وابنه حسناً معه. وأشار عليه أصحابه من أهل البصرة بالمقام وإرسال الجنود وإمدادهم واحداً بعد واحد. وأشار أهل الكوفة باللحوق إليها لأن الناس في انتظارك ولو رأوك ما توانوا عنك، فسار.

وكتب المنصور إلى عيسى بن موسى بإسراع العود وإلى مسلم بن قتيبة بالري وإلى سالم بقصد إبراهيم وضم إليه غيرها من القواد. وكتب إلى المهدي بإنفاذ خزيمة بن خازم الأهواز وفارس والمدائن وواسط والسواد وإلى جانبه أهل الكوفة في مائة ألف يتربصون به. ثم رمى كل ناحية بحجرها وأقام خمسين يوماً على مصلاه ويجلس ولم ينزع عنه جبته ولا قميصه وقد توسخا ويلبس السواد إذا ظهر للناس، وينزعه إذا دخل بيته. وأهديت له من المدينة امرأتان: فاطمة بنت محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله وأمه الكريم بنت عبد الله من ولد خالد بن أسيد فلم يحفل بهما. وقال: ليست هذه أيام نساء حتى أنظر رأس إبراهيم إلي أو رأسي له.

وقدم عليه عيسى بن موسى فبعثه لحرب إبراهيم في خمسة عشر ألفاً وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف وسار إبراهيم من البصرة ومائة ألف حتى نزلا بإزاء عيسى بن موسى على ستة عشر فرسخاً من الكوفة، وأرسل إليه مسلم بن قتيبة بأن يخندق على نفسه أو يخالف عيسى إلى المنصور فهو في حف من الجنون. ويكون أسهل عليك. فعرض ذلك إبراهيم على أصحابه فقالوا: نحن هارون وأبو جعفر في أيدينا فأسمع ذلك رسول سالم فرجع، ثم تصافوا للقتال. وأشار عليه بعض أصحابه أن يجعلهم كراديس ليكون أثبت والصف إذا انهزم بعضه تداعى سائره، فأبى إبراهيم إلا الصف صف أهل الإسلام، ووافقه بقية أصحابه.

ثم اقتتلوا وانهزم حميد بن قحطبة وانهزم معه الناس وعرض لهم عيسى يناشدهم اللّه والطاعة، فقال لهم حميد: لا طاعة في الهزيمة. ولم يبق مع عيسى إلا فل قليل فثبت واستمات. وبينما هو كذلك إذ قدم جعفر ومحمد بن سليمان بن علي وجاء من وراء إبراهيم وأصحابه فانعطفوا واتبعهم أصحاب عيسى. ورجع المنهزمون من أصحابه بأجمعهم اعترضهم أمامهم، فلا يطيقون مخافة ولا وثوبة، فانهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو في ستمائة أو أربعمائة من أصحابه وحميد يقاتله. ثم أصابه سهم بنحره فأنزلوه واجتمعوا عليه. وقال حميد: شدوا على تلك الجماعة فأحصروهم عن إبراهيم وقطعوا رأسه وجاؤوا به إلى عيسى فسجد وبعثه إلى المنصور، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة الحرام سنة خمس وأربعين.

ولما وضع رأسه بين يدي المنصور بكى، وقال: واللّه إني كنت لهذا كارهاً ولكني ابتليت بك وابتليت بي. ثم جلس للعامة فأذن للناس فدخلوا ومنهم من يثلب إبراهيم مرضاة للمنصور حتى دخل جعفر بن حنظلة الهراني فسلم ثم قال: عظم اللّه أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقك، فتهلل وجه المنصور وأقبل عليه وكناه بأبي خالد واستدناه.

بناء مدينة بغداد

وابتدأ المنصور سنة ست وأربعين في بناء مدينة بغداد وسبب ذلك ثورة الراوندية عليه بالهاشمية، ولأنه كان يكره أهل الكوفة ولا يأمن على نفسه منهم. فتجافى عن جوارهم وسار إلى مكان بغداد اليوم وجمع من كان هنالك من البطارقة فسألهم عن أحوال مواضعهم في الحر والبرد والمطر والوحل والهوام واستشارهم فأشاروا عليه بمكانها. وقالوا: تجيئك الميرة في السفن من الشام والرقة ومصر والمغرب إلى المصرات. ومن الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل في دجلة. ومن أرمينية وما اتصل بها في تامر حتى يتصل بالزاب. وأنت بين أنهار كالخنادق لا تعبر إلا على القناطر والجسور. وإذا قطعتها لم يكن لعدوك مطمع وأنت متوسط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل قريب من

البر والبحر والجبل.

فشرع المنصور في عمارتها. وكتب إلى الشام والجبل والكوفة وواسط والبصرة في الصناع والفعلة واختار من ذوي الفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة فأحضرهم لذلك. منهم الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة الفقيه. وأمر بخطها بالرماد فشكلت أبوابها وفضلانها وطاقاتها ونواحيها، وجعل على الرماد حب القطن. فأضرم ناراً ثم نظر إليها وهي تشتعل فعرف رسمها وأمر أن تحفر الأسس على ذلك الرسم. ووكل بها أربعة من القواد يتولى كل واحد منهم ناحية، ووكل أبا حنيفة بعد الآجر واللبن. وكان أراده على القضاء والمظالم فأبى. فحلف أن لا يقلع عنه حتى يعمل له عملاً فكان هذا. وأمر المنصور أن يكون عرض أساس القصر من أسفله خمسين ذراعاً ومن أعلاه عشرين وجعل في البناء القصب والخشب ووضع بيده أول لبنة وقال: بسم اللّه والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ثم قال: ابنوا على بركة اللّه، فلما بلغ مقدار قامة جاء الخبر بظهور محمد المهدي، فقطع البناء وسار إلى الكوفة حتى فرغ من حرب محمد وأخيه ورجع من مدينة ابن هبيرة إلى بغداد واستمر في بنائها، واستشار خالد بن برمك في نقض المدائن والإيوان. فقال: لا أرى ذلك لأنه من آثار الإسلام وفتوح العرب وفيه مصلى علي بن أبي طالب فاتهمه بمحبة العجم وأمر بنقض القصر الأبيض فإذا الذي ينفق في نقضه أكثر من ثمن الجديد فأقصر عنه. فقال خالد: لا أرى إقصارك عنه لئلا يقال عجزوا عن هدم ما بناه غيرهم، فأعرض عنه ونقل الأبواب إلى بغداد ومن واسط ومن الشام ومن الكوفة، وجعل المدينة مدورة وجعل قصره وسطها ليكون الناس منه على حد سواء.

وجعل المسجد الجامع بجانب القصر وعمل لها سورين والداخل أعلى من الخارج. ووضع الحجاج بن أرطاة قبلة المسجد، وكان وزن اللبنة التي يبني بها مائة رطل وسبعة عشر رطلاً وطولها ذراع في ذراع، وكانت بيوت جماعة من الكتاب والقواد تشرع أبوابها إلى رحبة الجامع، وكانت الأسواق داخل المدينة فأخرجهم إلى ناحية الكرخ لما كان الغرباء يطرقونها ويبيتون فيها، وجعل الطرق أربعين ذراعاً وكان مقدار النفقة عليها في المسجد والقصر والأسواق والفصلان والخنادق والأبواب أربعة آلاف ألف وثمانمائة ألف وثلاثة وثلاثين ألف درهم. وكان الأستاذ من البنائين يعمل يومه بقيراط، والروز كاري بحبتين، وحاسب القواد عند الفراغ منها فألزم كلاً بما بقي عنده وأخذه حتى أخذ من خالد بن الصلت منهم خمسة عشر درهماً بعد أن حبسه عليها.

العهد للمهدي وخلع عيسى بن موسى

كان السفاح قد عهد إلى عيسى بن موسى بن علي وولاه على الكوفة فلم يزل عليها، فلما كبر المهدي أراد المنصور أبوه أن يقدمه في العهد على عيسى، وكان يكرمه في جلوسه فيجلس عن يمينه والمهدي عن يساره فكلمه في التأخر عن المهدي في العهد فقال: يا أمير المؤمنين كيف بالإيمان التي علي وعلى المسلمين وأبى ذلك، فتغير له المنصور وباعده بعض الشيء. وصار يأذن للمهدي قبله ولعمه عيسى بن علي وعبد الصمد. ثم يدخل عيسى فيجلس تحت المهدي واستمر المنصور على التنكر له وعزله عن الكوفة لثلاث عشرة سنة من ولايته، وولى مكانه محمد بن سليمان بن علي، ثم راجع عيسى نفسه فبايع المنصور للمهدي بالعهد وجعل عيسى من بعده. ويقال: إنه أعطاه أحد عشر ألف ألف درهم ووضع الجند في الطرقات لأذاه وإشهاد خالد بن برمك عليه جماعة من الشيعة بالخلع تركت جميعها لأنها لا تليق بالمنصور وعدالته المقطوع بها فلا يصح من تلك الأخبار شيء.

خروج أستادسيس

كان رجل ادعى النبوة في جهات خراسان فاجتمع إليه نحو ثلثمائة ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس وسجستان وسار إليه الأخثم عامل مرو الروذ في العساكر فقاتل الأخثم وعامة أصحابه، وتابع القواد في لقائه فهزمهم. وبعث المنصور وهو بالبرداق خازم بن خزيمة إلى المهدي في اثني عشر ألفاً فولاه المهدي حربه فزحف إليه في عشرين ألفاً. وجعل على ميمنته الهيثم بن شعبة بن ظهير وعلى ميسرته نهار بن حصن السعدي وفي مقدمته بكار بن مسلم العقيلي ودفع لواءه للزبرقان. ثم راوغهم في المزاحفة وجاء إلى موضع فخندق عليه وجعل له أربعة أبواب، وأتى أصحاب أستادسيس بالفؤوس والمواعيل ليطموا الخندق فبدؤوا بالباب الذي يلي بكار بن مسلم فقاتلهم بكار وأصحابه حتى ردوهم عن بابهم. فأقبلوا على باب خازم وتقدم منهم الحريش من أهل سجستان فأمر خازم الهيثم بن شعبة أن يخرج من باب بكار ويأتي العدو من خلفهم وكانوا متوقعين قدوم أبي عون وعمر بن مسلم بن قتيبة وخرج خازم على الحريش واشتد قتاله معهم. وبدت أعلام الهيثم من ورائهم فكبر أهل العسكر وحملوا عليهم

فكشفوهم ولقيهم أصحاب الهيثم فاستمر فيهم القتال فقتل سبعون ألفاً وأسر أربعة عشر، وتحصن أستادسيس على حكم أبي عون فحكم بأن يوثق هو وبنوه ويعتق الباقون، وكتب إلى المهدي بذلك فكتب المهدي إلى المنصور. ويقال: إن أستادسيس أبو مراجل أم المأمون وابنه غالب خال المأمون الذي قتل الفضل بن سهل.

ولاية هشام بن عمرو التغلبي على السند

كان على السند أيام المنصور عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة ويلقب هزارمرد - يعني: ألف رجل - ولما كان من أمر المهدي ما قدمناه بعث ابنه عبد اللّه الأشتر إلى البصرة ليدعو له، فسار من هنالك إلى عمر بن حفص وكان يتشيع فأهدى له خيلاً يتمكن بها من لقائه. ثم دعاه فأجاب وبايع له وانزله عنده مختفياً ودعا القواد وأهل البلد فأجابوا فمزق الأعلام وهيأ لبسة من البياض يخطب فيها، وهو في ذلك إذ فجأه الخبر بقتل المهدي فدخل على ابنه أشتر وعزاه. فقال له: اللّه في دمي فأشار عليه باللحاق بملك من ملوك السند عظيم المملكة، كان يعظم جهة النبي ﷺ، وكان معروفاً بالوفاء، فأرسل إليه بعد أن عاهده عليه، واستقر عند ذلك الملك.

وتسلل إليه جماعة من الزيدية نحواً من أربعمائة، وبلغ ذلك المنصور فغاظه وكتب إلى عمر بن حفص بعزله وأقام يفكر فيمن يوليه السند، وعرض له يوماً هشام بن عمرو التغلبي وهو راكب ثم اتبعه إلى بيته وعرض عليه أخته، فقال للربيع: لو كانت لي حاجة في النكاح لقبلت، فجزاك اللّه خيراً، وقد وليتك السند فتجهز لها وأمره أن يحارب ملك السند ويسلم إليه الأشتر ففعل، وأقام المنصور يستحثه. ثم خرجت خارجة بالسند فبعث هشام أخاه سفيحاً لحسم الداء عنها، فمر بنواحي ذلك الملك فوجد الأشتر يتنزه في شاطئ همذان في عشرة من الفرسان فجاء ليأخذه فقاتلهم حتى قتل وقتل أصحابه جميعاً. وكتب هشام بذلك إلى المنصور. فشكره وأمر بمحاربة ذلك الملك فظفر به وغلب على مملكته، وبعث بسراري عبد اللّه الأشتر ومعه ولد منه اسمه عبد اللّه بعث بهم المنصور إلى المدينة وأسلمه إلى أهله. ولما ولي هشام بن عمر على السند وعزل عمر بن حفص عنها. ثم حدث فتق بأفريقية بعثه إلى سده كما سيأتي في أخبارها.

بناء الرصافة للمهدي

ولما رجع المهدي من خراسان قدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة فأجازهم وكساهم وحملهم وكذلك المنصور. ثم شعب عليهم الجند فأشار عليهم قثم بن العباس بن عبيد اللّه بن العباس بأن يفرق بينهم ويستكفيه في ذلك، وأمر بعض غلمانه أن يعترضه بدار الخلافة ويسأله بحق اللّه ورسله والعباس وأمير المؤمنين أبي الحسين من أشرف اليمن أم مضر؟ فقال: مضر كان منها رسول اللّه ﷺ وفيها كتاب اللّه وعندها بيت اللّه ومنها خليفة اللّه فغضب اليمن إذ لم يذكر لها فضلاً. ثم كبح بعضهم بغلة قثم فامتنعت مضر وقطعوا الذي كبحها فتشاجر الحيان وتعصبت لليمن ربيعة والخراسانية للدولة وأصبحوا أربع فرق، وقال قثم للمنصور: اضرب كل واحدة بالأخرى وسير لابنك المهدي فلل أثير له بجنده فيتناظرون في أهل مدينتك فقبل رأيه وأمر صالحاً صاحب المصلى ببناء الرصافة للمهدي.

مقتل معن بن زائدة

كان المنصور قد ولى على سجستان معن بن زائدة الشيباني وأرسل إلى رتبيل في الضريبة التي عليه فبعث بها عروضاً زائدة الثمن فغضب معن وسار إلى الرخج على مقدمته يزيد ابن أخيه يزيد ففتحها وسبى أهلها وقتلهم ومضى رتبيل إلى عزمه وانصرف معن إلى بست فشتى بها. ونكر قوم من الخوارج سيرته فهجموا عليه وفتكوا به في بيته. وقام يزيد بأمر سجستان وقتل قاتليه واشتدت على أهل البلاد وطأته فتحيل بعضهم بأن كتب المنصور على لسانه كتاباً يتضجر من كتب المهدي إليه ويسأله أن يعفى من معاملته، فأغضب ذلك المنصور وأقرأ المهدي كتابه وعزله وحبسه ثم شفع فيه شخص إلى مدينة السلام فلم يزل مجفواً حتى بعث إلى يوسف البرم بخراسان كما يذكر بعد.

العمال على النواحي أيام السفاح والمنصور

كان السفاح قد ولى عند بيعته على الكوفة عمه داود بن علي وجعل على حجابته عبد اللّه بن بسام وعلى شرطته موسى بن كعب وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك وبعث عمه عبد اللّه لقتال مروان مع أبي عون بن يزيد بن قحطبة تقدمة. وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس إلى المدائن، وكان أحمد بن قحطبة تقدمه وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن عمار بن ياسر إلى

الأهواز مدداً لبسام بن إبراهيم. ودفع ولاية خراسان إلى أبي مسلم، فولى أبو مسلم عليها إياداً وخالد بن إبراهيم وبعث عمه عبد الله في مقدمته لحرب مروان أخاه صالحاً ومعه أبو عون بن يزيد، فلما ظفر وانصرف ترك أبا عون يزيد بمصر واستقل عبد الله بولاية الشام.

وولى السفاح أخاه أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان فولى على أرمينية يزيد بن أسد وعلى أذربيجان محمد بن صول ونزل الجزيرة. وكان أبو مسلم ولى على فارس محمد بن الأشعث حين قتل أبا مسلمة الخلال، فبعث السفاح عليها عيسى فمنعه محمد بن الأشعث واستخلفه على الولاية فبعث عليها عمه إسماعيل. وولى على الكوفة ابن أخيه موسى، وعلى البصرة سفيان بن معاوية المهلبي وعلى السند منصور بن جمهور ونقل عمه داود إلى ولاية الحجاز واليمن واليمامة. ثم ولى على البصرة وأعمالها وكور دجلة والبحرين وعُمان. وتوفي داود بن علي سنة ثلاث وثلاثين، فولى مكانه على اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله بن عبد المدان وعلى مكة والمدينة والطائف واليمامة خاله زياد بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي وهو عم محمد بن يزيد.

وفيها بعث محمد بن الأشعث إلى أفريقية ففتحها. وفي سنة أربع وثلاثين بعث صاحب الشرطة موسى بن كعب لقتال منصور بن جمهور، وولاه مكانه على السند، فاستخلف مكانه على الشرطة المسيب بن زهير. وتوفي عامل اليمن محمد بن يزيد، فولى مكانه علي بن الربيع بن عبيد الله الحارثي. ولما استخلف المنصور وانتقض عبد الله بن علي وأبو مسلم ولى على خراسان أبا داود خالد بن إبراهيم وعلى مصر صالح بن علي وعلى الشام عبد الله بن علي.

ثم هلك خالد بن إبراهيم سنة أربعين فولى مكانه عبد الجبار بن عبد الرحمن فانتقض لسنة من ولايته، فبعث المنصور ابنه المهدي على خراسان وفي مقدمته خازم بن خزيمة فظفر بعبد الجبار. وتوفي سليمان عامل البصرة سنة أربعين فولى مكانه سفيان بن معاوية، ومات موسى بن كعب بالسند وولى مكانه ابنه عيينة فانتقض، فبعث المنصور مكانه عمر بن حفص بن أبي صفرة. وولى على مصر في هذه السنة حميد بن قحطبة. وولى على الجزيرة والثغور والعواصم أخاه العباس بن محمد وكان بها يزيد بن أسيد وعزل عمه إسماعيل عن الموصل، وولى مكانه مالك بن الهيثم الخزاعي.

وفي سنة ست وأربعين عزل الهيثم بن معاوية وولى على مكة والطائف مكانه السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس نقله إليها من اليمامة، وولى مكانه من اليمن قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس، وعزل حميد بن قحطبة عن مصر وولى مكانه نوفل بن الفرات، ثم عزله وولى مكانه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة. وولى على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري ثم اتهمه في أمر ابن أبي الحسن فعزله، وولى مكانه رباح بن عثمان المزني. ولما قتله أصحاب محمد المهدي ولى مكانه عبد الله بن الربيع الحارثي.

ولما قتل إبراهيم أخو المهدي سنة خمس وأربعين ولى المنصور على البصرة سالم بن قتيبة الباهلي، وولى على الموصل ابنه جعفراً مكان مالك بن الهيثم وبعث معه حرب بن عبد الله من أكابر قواده. ثم عزل سالم بن قتيبة عن البصرة سنة ست وأربعين، وولى مكانه محمد بن سليمان، وعزل عبد الله بن الربيع عن المدينة، وولى مكانه جعفر بن سليمان، وعزل السري بن عبد الله عن مكة وولى مكانه عمه عبد الصمد بن علي. وولى سنة سبع وأربعين على الكوفة محمد بن سليمان مكان عيسى بن موسى لما سخطه بسبب العهد. وولى مكان محمد بن سليمان على البصرة محمد بن السفاح فاستعفاه ورجع إلى بغداد فمات، واستخلف بها عقبة بن سالم فأقره. وولى على المدينة جعفر بن سليمان، وولى سنةثمان وأربعين على الموصل خالد بن برمك لإفساد الأكراد في نواحيها، وعزل سنة تسع وأربعين عمه عبد الصمد عن مكة، وولى مكانه محمد بن إبراهيم.

وفي سنة خمسين عزل جعفر بن سليمان عن المدينة، وولى مكانه الحسن بن زيد بن الحسن. وفي سنة إحدى وخمسين عزل عمر بن حفص عن السند وولى مكانه هشام بن عمرو التغلبي، وولى عمر بن حفص على أفريقية. ثم بعث يزيد بن حاتم من مصر مدداً له، وولى مكانه بمصر محمد بن سعيد. وفي هذه السنة قتل معن بن زائدة بسجستان كما تقدم فقام بأمره يزيد ابن أخيه يزيد، فأقره المنصور ثم عزله. وفي هذه السنة سار عقبة بن سالم من البصرة واستخلف نافع بن عقبة فغزا البحرين وقتل ابن حكيم العدوي واستقصره المنصور بإطلاق أسراهم فعزله وولى جابر بن مومة الكلابي، ثم عزله وولى مكانه عبد الملك بن ظبيان النميري. ثم عزله وولى الهيثم بن معاوية العكي.

وفيها ولى على مكة والطائف محمد بن إبراهيم الإمام، ثم عزله وولى مكانه إبراهيم ابن أخيه يحيى بن محمد، وولى على الموصل إسماعيل بن خالد بن عبد الله القسري. ومات أسيد بن عبد الله أمير خراسان فولى مكانه حميد بن قحطبة. وفي سنة ثلاث وخمسين توفي عبيد الله ابن بنت أبي ليلى قاضي الكوفة فاستقضى

شريك بن عبد الله النخعي وكان على اليمن يزيد بن منصور.

وفي سنة خمس وأربعين بل أربع وخمسين عزل عن الجزيرة أخاه العباس وأغرمه مالاً، وولى مكانه موسى بن كعب الخثعمي، وكان سبب عزله شكاية يزيد بن أسيد منه، ولم يزل ساخطاً على العباس حتى غضب على عمه إسماعيل، فشفع فيه أخوته عمومة المنصور. فقال عيسى بن عيسى: يا أمير المؤمنين شفعوا في أخيهم وأنت ساخط على أخيك العباس منذ كذا ولم يكلمك فيه أحد منهم فرضي عنه.

وفي سنة خمس وخمسين عزل محمد بن سليمان عن الكوفة وولى مكانه عمر بن زهير الضبي أخاه المسيب صاحب الشرطة، وكان من أسباب عزله، أنه حبس عبد الكريم بن أبي العوجاء خال معن بن زائدة على الزندقة، وكتب إليه أن يتبين أمره فقتله قبل وصول الكتاب، فغضب عليه المنصور وقال: لقد هممت أن أقيده به. وعزل عمه عيسى في أمره لأنه الذي كان أشار بولايته. وفيها عزل الحسن بن زيد عن المدينة وولى مكانه عمه عبد الصمد بن علي، وكان على الأهواز وفارس عمارة بن حمزة.

وفي سنة سبع وخمسين ولى على البحرين سعيد بن دعلج صاحب الشرطة بالبصرة، فأنفذ إليها ابنه تميماً ومات سوار بن عبد الله قاضي البصرة فولى مكانه عبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري. وعزل محمد بن الكاتب عن مصر وولى مكانه مولاه مطراً وعزل هشام بن عمرو عن السند وولى مكانه معبد بن الخليل. وفي سنة ثمان وخمسين عزل موسى بن كعب عن الموصل لشيء بلغه عنه فأمر ابنه المهدي أن يسير إلى الرقة مورياً بزيارة القدس ويكفل طريقه على الموصل فقبض عليه، وكان المنصور قد ألزم خالد بن برمك ثلاثة آلاف ألف درهم وأجله في إحضارها ثلاثاً وإلا قتله، فبعث ابنه يحيى إلى عمارة بن حمزة ومبارك التركي وصالح صاحب المصلى وغيرهم من القواد ليستقرض منهم، قال يحيى: فكلهم بعث إلا أن منهم من منعني الدخول ومنهم من يجيبني بالرد إلا عمارة بن حمزة فإنه أذن لي ووجهه إلى الحائط، ولم يقبل علي وسلمت فرد خفيفاً، وسأل كيف خالد؟ فعرفته واستقرضته فقال: إن أمكنني شيء يأتيك فانصرفت عنه.

ثم أنفذ المال فجمعناه في يومين وتعذرت ثلثمائة ألف. وورد على المنصور انتقاض الموصل والجزيرة وانتشار الأكراد بها، وسخط موسى بن كعب فأشار عليه المسيب بن زهير بخالد بن برمك فقال: كيف يصلح بعدما فعلنا؟ فقال: أنا ضامنه فصفح له عما بقي عليه، وعقد له على الموصل، ولابنه يحيى على أذربيجان. وسارا مع المهدي فعزل موسى بن كعب وولاهما.

قال يحيى: وبعثني خالد إلى عمارة بقرضه وكان مائة ألف، فقال لي: أكنت لأبيك صديقاً قم عني لا قمت. ولم يزل خالد على الموصل إلى وفاة المنصور. وفي هذه السنة عزل المنصور المسيب بن زهير عن شرطته وحبسه مقيداً لأنه ضرب أبان بن بشير الكاتب بالسياط حتى قتله، وكان مع أخيه عمر بن زهير بالكوفة، وولى المنصور على فارس نصر بن حرب بن عبد الله. ثم على الشرطة ببغداد عمر بن عبد الرحمن أخا عبد الجبار، وعلى قضائها عبد الله بن محمد بن صفوان. ثم شفع المهدي في المسيب وأعاده إلى شرطته.

الصوائف

كان أمر الصوائف قد انقطع منذ سنة ثلاثين بما وقع من الفتن، فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين أقبل قسطنطين ملك الروم إلى مَلَطْية ونواحيها فنازل حصن بلخ، واستنجدوا أهل ملطية فأمدوهم بثمانمائة مقاتل، فهزمهم الروم وحاصروا ملطية والجزيرة مفتوحة وعاملها موسى بن كعب بخراسان فسلموا البلد على الأمان لقسطنطين. ودخلوا إلى الجزيرة وخرب الروم ملطية، ثم ساروا إلى قاليقلا ففتحوها. وفي هذه السنة سار أبو داود وخالد بن إبراهيم إلى الجتن فدخلها فلم تمتنع عليه، وتحصن منه السبيل ملكهم وحاصره مدة، ثم فرض الحصن ولحق بفرغانة.

ثم دخلوا بلاد الترك وانتهوا إلى بلد الصين، وفيها بعث صالح بن علي بن فلسطين سعيد بن عبد الله لغزو الصائفة وراء الدروب. وفي سنة خمس وثلاثين غزا عبد الرحمن بن حبيب عامل أفريقية جزيرة صقلية فغنم وسبى وظفر بما لم يظفر به أحد قبله. ثم سفل ولاة أفريقية بفتن البربر فأمّن أهل صقلية وعمر الحصون والمعاقل وجعلوا الأساطيل تطوف بصقلية للحراسة، وربما صادفوا تجار المسلمين في البحر فأخذوهم. وفي سنة ثمان وثلاثين خرج قسطنطين ملك الروم فأخذ ملطية عنوة وهدم سورها وعفا عن أهلها. فغزا العباس بن محمد الصائفة ومعه عماه صالح وعيسى، وبنى ما خربه الروم من سور ملطية أثناء ثورة الروم، ورد إليها أهلها وأنزل بها الجند ودخل دار الحرب من درب الحارث وتوغل في أرضهم. ودخل جعفر بن حنظلة البهراني من درب ملطية.

وفي سنة تسع وثلاثين كان الفداء بين المسلمين والروم في أسرى قاليقلا وغيرهم. ثم غزا بالصائفة سنة أربعين عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ومعه الحسن بن قحطبة، وسار إليهم قسطنطين ملك الروم في مائة ألف فبلغ جيحان وسمع كثرة المسلمين

فأحجم عنهم ورجع،و لم تكن بعدها صائفة إلى سنة ست وأربعين، لاشتغال المنصور بفتنة بني حسن. وفي سنة ست وأربعين خرج الترك والخدر من باب الأبواب وانتهوا إلى أرمينية وقتلوا من أهلها جماعة ورجعوا.

وفي سنة سبع وأربعين أغار أسترخان الخوارزمي في جمع من الترك على أرمينية فغنم وسبى ودخل تفليس فعاث فيها. وكان حرب بن عبد الله مقيماً بالموصل في ألفين من الجند لمكان الخوارزمي بالجزيرة، فأمره المنصور بالمسير لحرب الترك مع جبريل بن يحيى، فانهزموا وقتل حرب في كثير من المسلمين. وفيها غزا بالصائفة مالك بن عبد الله الخثعمي من أهل فلسطين، ويقال له ملك الصوائف فغنم غنائم كثيرة وقسمها بدرب الحارث. وفي سنة تسع وأربعين غزا بالصائفة العباس بن محمد ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث، فدخلوا أرض الروم وعاثوا ورجعوا. ومات محمد بن الأشعث في طريقه في سنة إحدى وخمسين وقتل أخوه محمد ولم يدر.

ثم غزا بالصائفة سنة أربع وخمسين زفر بن عاصم الهلالي. وفي سنة خمس بعدها طلب ملك الروم الصلح على أن يؤدي الجزية، وغزا بالصائفة يزيد بن أسيد السلمي وغزا بها سنة ست وخمسين وغزا بالصائفة معيوب بن يحيى من درب الحارث ولقي العدو فاقتتلوا ثم تحاجزوا.

وفاة المنصور وبيعة المهدي

وفي سنة ثمان وخمسين توفي المنصور منصرفاً من الحج ببئر ميمون لست خلت من ذي الحجة وكان قد أوصى المهدي عند وداعه فقال: لم أدع شيئاً إلا تقدمت إليك فيه وسأوصيك بخصال وما أظنك تفعل واحدة منها، وله سفط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يفتحه غيره، فقال للمهدي: انظر إلى هذا السفط فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإن أحزنك أمر فانظر في الدفتر الكبير، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا ففي الثاني والثالث حتى تبلغ سبعة. فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فإنك واجد ما تريد فيها وما أظنك تفعل.

فانظر هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها، وقد جمعت فيها من الأموال ما أنكر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البيوت. فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل بيتك وأن تظهر كرامتهم وتحسن إليهم وتقدمهم وتوطئ الناس أعقابهم وتوليهم المنابر فإن عزك عزهم وذكرهم لك وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك وأن لا تخرج محبتك من قلوبهم، وأن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده وما أظنك تفعل. وإياك أن تبني مدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها وأظنك ستفعل. وإياك أن تستعين برجل من بني سليم وأظنك ستفعل. وإياك أن تدخل النساء في أمرك وأظنك ستفعل.

وقيل: قال له: إني ولدت في ذي الحجة ووليت في ذي الحجة وقد يحس في نفسي أن أموت في ذي الحجة في هذه السنة، وإنما حد لي الحج على ذلك. فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي يجعل لك فيما كربك وحزنك فرجاً ومخرجاً ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب. يا بني احفظ محمداً ﷺ في أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك، وإياك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم وعار في الدنيا لازم مقيم، والزم الحدود فإن فيها صلاحك في الأجل وصلاحك في العاجل، ولا تعتد فيها فتبور، فإن الله تعالى لو علم أن شيئاً أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به في كتابه.

واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً مع ما ادخر له من العذاب الأليم فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً﴾ الآية. فالسلطان يا بني حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه المقيم فاحفظه وحصنه وذب عنه، وأوقع بالملحدين واقمع المارقين منه، وقابل الخارجين عنه بالعقاب، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن. واحكم بالعدل ولا تشطط فإن ذلك أقطع للشعب وأحسم للعدو وأنجع في الدواء، واعف عن الفيء فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك. وافتتح بصلة الرحم وبر القرابة وإياك والأثرة والتبديد لأموال الرعية واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمن السبيل وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم وارفع المكاره عنهم وأعد الأموال واخزنها، وإياك والتبديد فإن النوائب غير مأمونة وهي من شيم الزمان. وأعد الأكراع والرجال والجند ما استطعت.

وإياك وتأخير عمل اليوم لغد فتتداول الأمور وتضيع، وخذ في أحكام الأمور النازلات في أوقاتها أولاً أولاً، واجتهد وشمر فيها وأعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل. وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حسن الظن وأسئ الظن بعملك وكتابك، وخذ

نفسك بالتيقظ وتفقد من يبيت على بابك وسهِّل إذنك للناس وانظر في أمر النزاع إليك وكِلْ بهم عيناً غير نائمة ونفساً غير ساهية، ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة ولا دخل عينيه الغمض إلا وقلبه مستيقظ. هذه وصيتي إليك والله خليفتي عليك.

ثم ودعه وسار إلى الكوفة فأحرم منها قارناً، وساق الهدي وأشعره وقلده لأيام خلت من ذي القعدة. ولما سار منازل عرض له وجعه الذي مات به. ثم اشتد فجعل يقول للربيع - وكان عديله - بادر بي إلى حرم ربي هارباً من ذنوبي فلما وصل بئر ميمون مات سحر السادس من ذي الحجة لم يحضر إلا خدمه والربيع مولاه. فكتموا الأمر ثم غدا أهل بيته على عادتهم، فدعا عيسى بن علي العم ثم عيسى بن موسى بن محمد ولي العهد، ثم الأكابر وذوي الأنساب، ثم عامتهم، فبايعهم الربيع للمهدي ثم بايع القواد وعامة الناس. وسار العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى مكة فبايعا الناس للمهدي بين الركن والمقام وجهزوه إلى قبره وصلى عليه عيسى بن موسى وقيل: إبراهيم بن يحيى، ودفن في مقبرة المعلاة وذلك لاثنتين وعشرين سنة من خلافته.

وذكر علي بن محمد النوفلي عن أبيه وهو من أهل البصرة وكان يختلف إلى المنصور تلك الأيام قال: جئت من مكة صبيحة موته إلى العسكر، فإذا موسى بن المهدي عند عمود السرادق والقاسم بن منصور في ناحية فعلمت أنه قد مات.

ثم أقبل الحسن بن زيد العلوي والناس حتى ملؤوا السرادق وسمعنا همس البكاء. ثم خرج أبو العنبر الخادم مشقوق الأقبية وعلى رأسه التراب وهو يستغيث، وقام القاسم فشق ثيابه. ثم خرج الربيع وفي يده قرطاس فقرأه على الناس وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم...

من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بني هاشم وشيعة من أهل خراسان وعامة المسلمين. ثم بكى وبكى الناس ثم قال: البكاء إمامكم فانصتوا رحمكم الله! ثم قرأ: أما بعد فإني كتبت كتابي هذا وأنا حي في آخر يوم من أيام الدنيا أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيعاً ولا يذيق بعضكم بأس بعض.

ثم أخذ في وصيتهم للمهدي وحثهم على الوفاء بعهده. ثم تناول الحسن بن زيد وقال: قم فبايع. فبايع موسى بن المهدي لأبيه ثم بايع الناس الأول فالأول. ثم دخل بنو هاشم وهو في أكفانه مكشوف الرأس لمكان الإحرام، فحملوه على ثلاثة أميال من مكة فدفنوه. وكان عيسى بن موسى لما بايع الناس أبى من الشيعة فقال له علي بن عيسى بن ماهان: والله لتبايعن وإلا ضربنا عنقك. ثم بعث موسى بن المهدي والربيع بالخبر والبردة والقضيب وخاتم الخلافة إلى المهدي وخرجوا من مكة.

ولما وصل الخبر إلى المهدي منتصف ذي الحجة إجتمع إليه أهل بغداد وبايعوه، وكان أول ما فعله المهدي حين بويع أنه أطلق من كان في حبس المنصور إلا من كان في دم أو مال أو ممن يسعى بالفساد، وكان فيمن أطلق يعقوب بن داود وكان محبوساً مع الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن.

فلما أطلق ساء ظن إبراهيم وبعث إلى من يشق به بحفر سرب يفضي إلى محبسه وبلغ ذلك يعقوب بن داود فجاء إلى ابن علاثة القاضي وأوصله إلى أبي عبيد الله الوزير ليوصله إلى المهدي فأوصله واستخلاه فلم يحدثه حتى قام الوزير والقاضي وأخبره بتحقيق الحال، فأمره بتحويل الحسن، ثم هرب بعد ذلك ولم يظفر به. وشاور يعقوب بن داود في أمره فقال: أعطه الأمان وأنا أُحضِره وأحضَره. ثم طلب من المهدي أن يجعل له السبيل في رفع أمور الناس وراء بابه إليه فاذن له وكان يدخل كلما أراد ويرفع إليه النصائح في أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغزاة وترويح العذاب وفكاك الأسرى والمحبوسين، والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعففين فحظي بذلك وتقدمت منزلته وسقطت منزلة أبي عبد الله، ووصله المهدي بمائة ألف وكتب له التوقيع بالإخاء في الله.

ظهور المقنع ومهلكه

كان هذا المقنع من أهل مرو ويسمى حكيماً وهاشمياً، وكان يقول بالتناسخ وأن الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح ثم إلى أبي مسلم ثم إلى هاشم وهو المقنع. فظهر بخراسان وادعى الإلهية واتخذ وجهاً من ذهب فجعله على وجهه فسمي المقنع، وأنكر قتل يحيى بن زيد وزعم أنه يأخذ بثأره، وتبعه خلق عظيم من الناس وكانوا يسجدون له. وتحصن بقلعة بسام من رساتيق كش وكان قد ظهر ببخارى والصغد جماعة من المبيضة فاجتمعوا معه على الخلاف، وأعانهم كفار الأتراك وأغاروا على المسلمين من ناحيتهم، وحاربهم أبو النعمان والجنيد وليث بن نصر بن سيار، فقتلوا أخاه محمد بن نصر وحسان ابن أخيه تميم.

وأنفذ المهدي إليهم جبريل بن يحيى وأخاه يزيد لقتال المبيضة فقاتلوهم أربعة أشهر في بعض حصون بخارى وملكوه عنوة، فقتل منهم سبعمائة ولحق فلهم بالمقنع وجبريل في اتباعهم.

ثم بعث المهدي أبا عون لمحاربة المقنع فلم يبالغ في قتاله فبعث معاذ بن مسلم في جماعة القواد والعساكر وعلى مقدمته سعيد الحريشي، وأتاه عقبة بن مسلم من ذم فاجتمعوا بالطواويس وأوقعوا بأصحاب المقنع فهزموهم، ولحق فلهم بالمقنع في بسام فتحصنوا بها. وجاء معاذ فنازلهم وفسد ما بينه وبين الحريشي، فكتب الحريشي إلى المهدي بالسعاية في معاذ ويضمن الكفاية إن أفرد بالحرب، فأجابه المهدي إلى ذلك وانفرد بحرب المقنع وأمده معاذ بابنه وجاؤوا بآلات الحرب حتى طلب أصحاب المقنع الأمان سراً فأمنهم، وخرج إليه ثلاثون ألفاً وبقي معه زهاء ألفين، وضايقوه بالحصار فأيقن بالهلاك وجمع نساءه وأهله. فيقال: سقاهم السم، ويقال بل أحرقهم وأحرق نفسه بالنار ودخلوا القلعة وبعث الحريشي برأس المقنع إلى المهدي فوصل إليه بحلب سنة ثلاث وتسعين.

الولاة أيام المهدي

وعزل المهدي سنة تسع وخمسين عمه إسماعيل عن الكوفة وولى عليها إسحاق بن الصفاح الكندي ثم الأشعي، وقتل عيسى بن لقمان بن محمد بن صاحب الجمحي وعزل سعيد بن دعلج عن أحداث البصرة وعبيد اللّه بن الحسن عن الصلاة، وولى مكانهما عبد الملك بن أيوب بن ظبيان النميري. ثم جعل الأحداث إلى عمارة بن حمزة فولاها للسود بن عبد اللّه الباهلي. وعزل قثم بن العباس عن اليمامة وولى مكانه الفضل بن صالح، وعزل مطراً مولى المنصور عن مصر وولى مكانه أبا ضمرة محمد بن سليمان. وعزل عبد الصمد بن علي عن المدينة وولى مكانه محمد بن عبد اللّه الكثيري ثم عزله وولى عبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن بن صفوان، ثم عزله وولى مكانه زفر بن عاصم الهلالي.

وتوفي معبد بن الخليل عامل السند فولى مكانه روح بن حاتم بإشارة وزيره أبي عبد اللّه، وتوفي حميد بن قحطبة بخراسان فولى عليها مكانه أبا عون عبد الملك بن يزيد، ثم سخطه سنة ستين فعزله، وولى معاذ بن مسلم. وولى على سجستان حمزة بن يحيى وعلى سمرقند جبريل بن يحيى فبنى سورها وحصنها. وكان على اليمن رجاء بن روح وولى على قضاء الكوفة شريك..... وولى على فارس والأهواز ودجلة قاضي البصرة عبيد اللّه بن الحسن ثم عزله وولى مكانه محمد بن سليمان، وولى على السند بسطام بن عمر وولى على اليمامة بشر بن المنذر.

وفي سنة إحدى وتسعين ولى على السند محمد بن الأشعث واستقضى عافية القاضي مع ابن علاثة بالرصافة وعزل الفضل بن صالح عن الجزيرة، وولى مكانه عبد الصمد بن علي، وولى عيسى بن لقمان على مصر ويزيد بن منصور على سواد الكوفة وحسان السروري على الموصل وبسطام بن عمرو التغلبي على أذربيجان، وعزله عن السند.

وتوفي نصر بن مالك بن صالح صاحب الشرطة فولى مكانه حمزة بن مالك وكان الأبان بن صدقة كاتباً للرشيد، فصرفه وجعله مع الهادي، وجعل هو مع هارون يحيى بن خالد وعزل محمد بن سليمان أبا ضمرة عن مصر وولى مكانه سليمان بن رجاء، وكان على سواد الكوفة يزيد بن منصور وعلى أحداثها إسحاق بن منصور. وفي سنة ست وستين عزل علي بن سليمان عن اليمن وولى مكانه عبد اللّه بن سليمان، وعزل مسلمة بن رجاء عن مصر وولى مكانه عيسى بن لقمان ثم عزله لأشهر وولى مكانه مولاه واضحاً، ثم عزله وولى مكانه يحيى الحريشي، وكان على طبرستان عمر بن العلاء وسعيد بن دعلج وعلى جرجان مهليل بن صفوان ووضع ديوان الأرمة وولى عليها عمر بن بزيع مولاه.

العهد للهادي وخلع عيسى

كان جماعة من بني هاشم وشيعة المهدي خاضوا في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادي بن المهدي، ونمي ذلك إلى المهدي فسر به واستقدم عيسى بن موسى من منزله بالرحبة من أعمال الكوفة فامتنع من القدوم. فاستعمل المهدي على الكوفة روح بن حاتم وأوصاه بالأضرار فلم يجد سبيلاً إلى ذلك. وكان عيسى لا يدخل الكوفة إلا يوم جمعة أو عيد. وبعث إليه المهدي يتهدده فلم يجب، ثم بعث عمه العباس يستقدمه فلم يحضر، فبعث قائدين من الشيعة فاستحضراه إليه، وقدم على عسكر المهدي وأقام أياماً يختلف إليه ولا يكلم بشيء. حضر الدار يوماً وقد اجتمع رؤساء الشيعة لخلعه، فثاروا به وأغلق الباب الذي كان خلفه فكسروه، وأظهر المهدي النكير عليهم فلم يرجعوا إلا أن كاشفه أكابر أهل بيته وأشدهم محمد بن سليمان واعتذر بالأيمان التي عليه. فأحضر المهدي القضاة والفقهاء وفيهم محمد بن علاثة ومسلم بن خالد الزنجي، فأفتوه بمخارج الأيمان وخلع نفسه وأعطاه المهدي عشرة آلاف درهم وضياعاً بالزاب وكسكر وبايع لابنه موسى الهادي بالعهد. ثم جلس المهدي من الغد وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم وخرج إلى الجامع وعيسى

معه فخطب وأعلم الناس ببيعة الهادي ودعاهم إليها فبادروا وأشهد عيسى بالخلع.

فتح باربد من السند

وبعث المهدي سنة تسع وخمسين عبد الملك بن شهاب المسمعي في جمع كثير من الجند والمقطوعة إلى بلاد الهند فركبوا البحر من فارس ونزلوا بأرض الهند، وفتحوا باربد فافتتحوها عنوة، ولجأ أهلها إلى البد فأحرقوه عليهم فاحترق بعض وقتل الباقون، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون وأقاموا بعض أيام إلى أن يطيب الريح فوقع فيهم موتان فهلك ألف فيهم إبراهيم بن صبيح. ثم ركبوا البحر إلى فارس فلما انتهوا إلى ساحل حران عصفت بهم الريح فانكسرت عامة مراكبهم وغرق الكثير منهم.

حج المهدي

وفي سنة ستين حج المهدي واستخلف على بغداد ابنه الهادي، وخاله يزيد بن منصور، واستصحب ابنه هارون وجماعة من أهل بيته، وكان معه الوزير يعقوب بن داود، فجاء في مكة بالحسن بن إبراهيم الذي ضمنه على الأمان فوصله بالمهدي وأقطعه. ولما وصل إلى مكة اهتم بكسوة الكعبة فكساها بأفخر الكسوة بعد أن نزع ما كان عليها. وكانت فيها كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخين، وقسم مالاً عظيماً هنالك في مصارف الخير فكان منه مما جاء به من العراق ثلاثون ألف درهم، ووصل إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار ومن اليمن مائة ألف دينار ففرق ذلك كله، وفرق مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب، ووسع المسجد، ونقل خمسمائة من الأنصار إلى العراق جعلهم في حرسه وأقطع لهم وأجرى الأرزاق. ولما رجع أمر ببناء القصور بطريق مكة أوسع من قصور المنصور من القادسية إلى زبالة، وأمر باتخاذ المصانع في كل منها منهل، وبتحديد الأميال وحفر الآبار، وولى على ذلك بقطير بن موسى، وأمر بالزيادة في مسجد البصرة وتصغير المنابر إلى مقدار منبر النبي ﷺ. وأمر في سنة سبع وستين بالزيادة في الحرمين على يد بقطير فدخلت فيه دول كثيرة، ولم يزل البناء فيهما إلى وفاة المهدي.

نكبة الوزير أبي عبد الله

كان أبو عبد الله الأشعري قد اتصل بالمهدي أيام أبيه المنصور فلطفت عنده منزلته واستوزره وسار معه إلى خراسان وعظمت به بطانة المهدي فأكثروا فيه السعاية، وكان الربيع يدرأ عنه ويعرض كتبه على المنصور ويحسن القول فيه. فكتب المنصور إلى المهدي بالوصاة به وأن لا يقبل فيه السعاية، ولما مات المنصور وقام الربيع ببيعة المهدي، وقدموا إلى بغداد جاء الربيع إلى باب أبي عبد الله قبل المهدي وقبل أهله فعذله ابنه الفضل على ذلك، فقال: هو صاحب الرجل وينبغي أن نعامله بغير ما كنا نعامله، وإياك أن تذكر ما كنا نصنع في حقه أو تمنن بذلك في نفسك. فلما وقف ببابه أمهله طويلاً من المغرب إلى العشاء. ثم أذن له فدخل عليه وهو متكئ فلم يجلس ولا أقبل عليه.

وشرع الربيع يذكر أمر البيعة فكفه وقال: قد بلغنا أمركم: فلما خرج استطال عليه ابنه الفضل بالعذل فيما فعل بأن لم يكن الصواب. فقال له: ليس الصواب إلا ما عملته، ولكن والله لأنفقن مالي وجاهي في مكروهه، وجدّ في السعاية فيه فلم يجد طريقاً إليها لاحتياطه في أمر دينه وأعماله. فأتاه من قبل ابنه محمد ودس إلى المهدي بعرضه لحرمه وأنه زنديق، حتى إذا استحكمت التهمة فيه أحضره المهدي في غيبة من أبيه، ثم قال له: اقرأ! فلم يحسن فقال لأبيه: ألم تقل إن ابنك يقرأ القرآن؟ فقال: فارقني منذ سنين وقد نسي، فأمر به المهدي فقتل. واستوحش من أبي عبد الله وساءت منزلته إلى أن كان من أمره ما نذكره وعزله عن ديوان الرسائل ورده إلى الربيع، وارتفعت منزلة يعقوب بن داود عند المهدي وعظم شأنه وأنفذ عهده إلى جميع الآفاق بوضع الأمناء ليعقوب، وكان لا ينفذ كتاب المهدي حتى يكتب يعقوب إلى يمينه بإنفاذ ذلك.

ظهور دعوة العباسية بالأندلس وانقطاعها

وفي سنة إحدى وستين أجاز عبد الرحمن بن حبيب الفهري من أفريقية إلى الأندلس داعية لبني العباس، ونزل بساحل مرسية، وكاتب سليمان بن يقظان عامل سرقسطة في طاعة المهدي فلم يجبه. وقصد بلاده فيمن معه من البربر فهزمه سليمان وعاد إلى تدبير. وسار إليه عبد الرحمن صاحب الأندلس وأحرق السفن في البحر تضييقاً على ابن حبيب في النجاة فاعتصم بجبل منيع بنواحي بلنسية فبذل عبد الرحمن فيه المال فاغتاله بعض البربر وحمل رأسه إليه فأعطاه ألف دينار وذلك سنة اثنتين وستين. وهم عبد الرحمن صاحب الأندلس أمر ذلك لغزو الشام من الأندلس على العدوة الشمالية لأخذ ثأره فعصى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن

يحيى بن سعيد بن سعد بن عثمان الأنصاري في سرقسطة فشغلوه عما اعتزم عليه من ذلك.

غزو المهدي

تجهز المهدي سنة ثلاث وستين لغزو الروم وجمع الأجناد من خراسان ومن الآفاق وتوفي عمه عيسى بن علي آخر جمادى الأخيرة بعسكره، وسار من الغد واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي واستصحب هارون، ومر في طريقه بالجزيرة والموصل، فعزل عبد الصمد بن علي وحبسه ثم أطلقه سنة ست وستين. ولما جاز ببني مسلمة بن عبد الملك ذكّره عمه العباس بما فعله مسلمة مع جدهم محمد بن علي، وكان أعطاه مرة في اجتيازه عليه ألف دينار فأحضر المهدي ولد مسلمة ومواليه وأعطاهم عشرين ألف دينار وأجرى عليهم الأرزاق، وعبر الفرات إلى حلب، فأقام بها وبعث ابنه هارون للغزو وأجاز معه الدروب إلى جيحان مشيعاً، وبعث معه عيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح والحسن بن قحطبة والربيع بن يونس ويحيى بن خالد بن برمك وكان إليه أمر العسكر والنفقات، وحاصروا حصن سمالو أربعين يوماً ثم فتحوه بالأمان وفتحوا بعده فتوحات كثيرة، وعادوا إلى المهدي وقد أثخن في الزنادقة وقتل من كان في تلك الناحية منهم. ثم قفل إلى بغداد ومر ببيت المقدس وصلى في مسجده ورجع إلى بغداد.

العهد لهارون

وفي سنة ست وستين أخذ المهدي البيعة لابنه هارون بعد أخيه الهادي ولقبه الرشيد.

نكبة الوزير يعقوب بن داود

كان أبو داود بن طهمان كاتباً لنصر بن سيار هو وأخوته وكان شيعياً وعلى رأي الزيدية. ولما خرج يحيى بن زيد بخراسان كان يكاتبه بأخبار نصر فاقصاه نصر، فلما طلب أبو مسلم بدم يحيى جاءه داود فأمنه في نفسه وأخذ ما اكتسبه من المال أيام نصر، وأقام بعد ذلك عاطلاً. ونشأ له وُلد أهل أدب وعلم وصحبوا أولاد الحسن. وكان داود يصحب إبراهيم بن عبد اللّه فورثوا ذلك عنه، ولما قتل إبراهيم طلبهم المنصور وحبس يعقوب وعلياً مع الحسن بن إبراهيم حتى توفي، وأطلقهما المهدي بعده مع من أطلق. وداخله المهدي في أمر الحسن لما فر من الحبس فكان ذلك سبباً لوصلته بالمهدي حتى استوزره، فجمع الزيدية وولاهم شرقاً وغرباً وكثرت السعاية فيه من البطانة بذلك وبغيره وكان المهدي يقبل سعايتهم حتى يروا أنها قد تمكنت، فإذا غدا عليه تبسم وسأله.

وكان المهدي مشتهراً بالنساء فيخوض معه في ذلك وفيما يناسبه ويتغلب برضاه وسامره في بعض الليالي وجاء ليركب دابته وقد نام الغلام، فلما ركب نفرت الدابة من قعقعة ردائه فسقط ورَمَحته فانكسر فانقطع عن المهدي وتمكن أعداؤه من السعاية حتى سخطه وأمر به فحبس وحبس عماله وأصحابه. ويقال بل دفع إليه علوياً ليقتله فاطلقه، ونمي ذلك إلى المهدي فأرسل من أحضره، وقال ليعقوب: أين العلوي؟ فقال: قتلته فأخرجه إليه حتى رآه. ثم حبس في المطبق ودلي في بئر فيه. وبقي أيام المهدي والهادي ثم أخرج وقد عمي وسأل من الرشيد المقام بمكة فاذن له. وقيل في سبب تغيره: إنه كان ينهى المهدي عن شرب أصحابه النبيذ عنده ويكثر عليه في ذلك ويقول: أبعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ! لا واللّه لا على هذا استوزرتني ولا عليه صحبتك.

مسير الهادي إلى جرجان

وفي سنة سبع وستين عصى وتداهر بن وشرو بن ملكا طبرستان من الديلم فبعث المهدي ولي عهده موسى الهادي وجعل على جنده محمد بن حميد وعلى حجابته نفيعاً مولى المنصور وعلى حرسه عيسى بن ماهان وعلى رسائله أبان بن صدقة وتوفي أبان بن صدقة. فبعث المهدي مكانه أبا خالد الأجرد. فسار المهدي وبعث الجنود في مقدمته وأمر عليهم يزيد فحاصرهما حتى استقاما. وعزل المهدي يحيى الحريشي عن طبرستان وما كان إليه وولى مكانه عمر بن العلاء وولى على جرجان فراشة مولاه ثم بعث سنة ثمان وستين يحيى الحريشي في أربعين ألفاً إلى طبرستان.

العمال بالنواحي

وفي سنة ثلاث وستين ولى المهدي ابنه هارون على المغرب كله وأذربيجان وأرمينية وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى وعلى الرسائل يحيى بن خالد بن برمك. وعزل زفر بن عاصم عن الجزيرة وولى مكانه عبد اللّه بن صالح، وعزل معاذ بن مسلم عن خراسان وولى مكانه المسيب بن زهير الضبي، وعزل يحيى الحريشي عن أصبهان وولى مكانه الحكم بن سعيد، وعزل سعيد بن دعلج

عن طبرستان وولى مكانه عمر بن العلاء، ومهلهل بن صفوان عن جرجان وولاها هشام بن سعيد. وكان على الحجاز واليمامة جعفر بن سليمان، وعلى الكوفة إسحاق بن الصباح، وعلى البحرين والبصرة وفارس والأهواز محمد بن سليمان، فعزله سنة أربع وستين وولى مكانه صالح بن داود.

وكان على السند محمد بن الأشعث. وفي سنة خمس وستين عزل خلف بن عبد الله عن الري وولاها عيسى مولى جعفر، وولى على البصرة روح بن حاتم وعلى البحرين وعمان والأهواز وفارس وكرمان النعمان مولى المهدي. وعزل محمد بن الفضل عن الموصل وولى مكانه أحمد بن إسماعيل. وفي سنه ست وستين عزل عبيد الله بن حسن العنبري عن قضاء البصرة واستقضى مكانه خالد بن طليق بن عمران بن حصين فاستعفى أهل البصرة منه. وولى المهدي على قضائه أبا يوسف حين سار إلى جرجان. واضطربت في هذه السنة خراسان على المسيب بن زهير فولاها أبا العباس الفضل بن سليمان الطوسي، وأضاف إليه سجستان، فولى هو على سجستان سعيد بن دعلج. وولى على المدينة إبراهيم ابن عمه وعزل منصور بن يزيد عن اليمن وولى مكانه عبد الله بن سليمان الربعي.

وكان على مصر إبراهيم بن صالح وتوفي في هذه السنة عيسى بن موسى بالكوفة وهي سنة سبع وستين. وعزل المهدي يحيى الحريشي عن طبرستان والرويان وما كان إليه وولاه عمر بن العلاء وولى على جرجان فراشة مولاه. وحج بالناس إبراهيم ابن عمه يحيى وهو على المدينة ومات بعد قضاء الحج، فولى مكانه إسحاق بن موسى بن علي وعلى اليمن سليمان بن زيد الحارثي وعلى اليمامة عبد الله بن مصعب الزبيري وعلى البصرة محمد بن سليمان وعلى قضائها عمر بن عثمان التيمي وعلى الموصل أحمد بن إسماعيل الهاشمي. وقتل موسى بن كعب ووقع الفساد في بادية البصرة من الأعراب بين اليمامة والبحرين وقطعوا الطرق وانتهكوا المحارم وتركوا الصلاة.

الصوائف

وفي سنة تسع وخمسين أغزى المهدي عمه العباس بالصائفة وعلى مقدمته الحسن الوصيف فبلغوا أهرة وفتحوا مدينة أوهرة ورجعوا سالمين ولم يصب من المسلمين أحد. وفي سنة إحدى وستين غزا بالصائفة يمامة بن الوليد فنزل دابق وجاشت الروم مع ميخاييل في ثمانين ألفاً ونزل عمق مرعش فقتل وسبى وغنم، وحاصر مرعش وقتل من المسلمين عدداً، وانصرف إلى جيحان فكان عيسى بن علي مرابطاً بحصن مرعش فعظم ذلك على المهدي وتجهز لغزو الروم. وخرجت الروم سنة اثنتين وستين إلى الحارث فهدموا أسوارها. وغزا بالصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألفاً من المرتزقة فبلغ جهة أدرركبه وأكثر التحريق والتخريق ولم يفتح حصناً ولا لقي جمعاً ورجع بالناس سالماً.

وغزا يزيد بن أسيد السلمي من ناحية قاليقلا فغنم وسبى وفتح ثلاثة حصون. ثم غزا المهدي بنفسه سنة ثلاث وستين كما مر. ثم غزا سنة أربع وستين عبد الكبير بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب من درب الحارث فخرج إليه ميخاييل وطارد الأرمني البطريقان في تسعين ألفاً فخام عن لقائهم ورجع بالناس، فغضب عليه المهدي وهم بقتله فشفع فيه وحبسه. وفي سنة خمس وستين بعث المهدي ابنه هارون بالصائفة وبعث معه الربيع فتوغل في بلاد الروم ولقيه عسكر نقيطا من القواميس فبارزه يزيد بن مزيد فهزمهم، وغلب على عسكرهم ولحقوا بالدمشق صاحب المسالح، فحمل لهم مائتي ألف دينار واثنتين وعشرين ألف درهم، وسار الرشيد بعساكره وكانت نحواً من مائة ألف فبلغ خليج قسطنطينية وعلى الروم يومئذ غسطة امرأة إليون كافلة لابنها منه صغيراً، فجرى الصلح على الفدية وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في الطريق لأن مدخله كان ضيقاً مخوفاً فأجابت لذلك، وكان مقدار الفدية سبعين ألف دينار كل سنة ومدة الصلح ثلاث سنين.

وكان ما سباه المسلمون قبل الصلح خمسة آلاف رأس وستمائة رأس وقتل من الروم في وقائع هذه الغزوات أربعة وخمسون ألفاً ومن الأسرى ألفان. ثم نقض الروم هذا الصلح سنة ثمان وستين ولم يستكملوا مدته بقي منها أربعة أشهر. وكان على الجزيرة وقنسرين علي بن سليمان فبعث يزيد بن البدر بن البطال في عسكر فغنموا وسبوا وظفروا ورجعوا.

وفاة المهدي وبيعة الهادي

وفي سنة تسع وستين اعتزم المهدي على خلع ابنه موسى الهادي من العهد والبيعة للرشيد به، وتقديمه على الهادي وكان بجرجان فبعث إليه بذلك فاستقدمه فضرب الرسول وامتنع. فسار إليه المهدي فلما بلغ ماسبذان توفي هنالك. يقال مسموماً من بعض جواريه، ويقال: سُمت إحداهما الأخرى في كمثرى فغلط وأكلها ويقال: حاز صيداً فدخل وراءه إلى خربة فدق الباب ظهره. وكان موته في المحرم وصلى عليه ابنه الرشيد وبويع ابنه موسى

الهادي لما بلغه موت أبيه وهو مقيم بجرجان يحارب أهل طبرستان.

وكان الرشيد لما توفي المهدي والعسكر بماسبذان نادى في الناس بالعطاء تسكيناً وقسم فيهم مائتين مائتين، فلما استوفوها تنادوا بالرجوع إلى بغداد وتشايعوا إليها واستيقنوا موت المهدي، فأتوا باب الربيع وأحرقوه وطالبوا بالأرزاق ونقبوا السجون. وقدم الرشيد بغداد في أثرهم فبعثت الخيزران إلى الربيع فامتنع يحيى خوفاً من غيرة الهادي وأمرت الربيع بتسكين الجند فسكنوا وكتب الهادي إلى الربيع يتهدده فاستشار يحيى في أمره وكان يثق بوده فأشار عليه بأن يبعث ابنه الفضل يعتذر عنه وتصحبه الهدايا والتحف ففعل ورضي الهادي عنه وأخذت البيعة ببغداد للهادي.

وكتب الرشيد بذلك إلى الآفاق وبعث نصيراً الوصيف إلى الهادي بجرجان فركب البريد إلى بغداد فقدمها في عشرين يوماً. فاستوزر الربيع وهلك لمدة قليلة من وزارته. واشتد الهادي في طلب الزنادقة وقتلهم، وكان منهم علي بن يقطين ويعقوب بن الفضل من وُلْد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان قد أقر بالزندقة عند المهدي إلا أنه كان مقسماً أن لا يقتل هاشمياً فحبسه وأوصى الهادي بقتله وبقتل وُلْد عمهم داود بن علي فقتلهما.

وأما عماله فكان على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعلى مكة والطائف عبد الله بن قثم وعلى اليمن إبراهيم بن مسلم بن قتيبة وعلى اليمامة والبحرين سويد القائد الخراساني وعلى عمان الحسن بن سليم الحواري وعلى الكوفة موسى بن عيسى بن موسى، وعلى البصرة ابن سليمان وعلى جرجان الحجاج مولى الهادي، وعلى قومس زياد بن حسان وعلى طبرستان والرويان صالح بن عميرة مولى.... وعلى الموصل هاشم بن سعيد بن خالد، وعزله الهادي لسوء سيرته وولى مكانه عبد الملك وصالح بن علي.

وأما الصائفة فغزا بها في هذه السنة وهي سنة تسع وستين معيوب بن يحيى وقد كان الروم خرجوا مع بطريق لهم إلى الحارث فهرب الوالي ودخلها الروم وعاثوا فيها فدخل معيوب وراءهم من درب الراهب وبلغ مدينة أستة وغنم وسبى وعاد.

ظهور الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن الحسن السبط ومقتله

وهو الحسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنى بن الحسن السبط، كان الهادي قد استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز كما مر فأخذ يوماً الحسن بن المهدي بن محمد بن عبد الله بن الحسين الملقب أبا الزفت، ومسلم بن جندب الهذلي الشاعر، وعمر بن سلام مولى العمريين على شراب لهم، فضربهم وطيف بهم بالمدينة بالحبال في أعناقهم، وجاء الحسين إليه فشفع فيهم وقال: ليس عليهم حد فإن أهل العراق لا يرون به بأساً وليس من الحد أن نطيفهم فحبسهم. ثم جاء ثانية ومعه من عمومته يحيى بن عبد الله بن الحسن صاحب الديلم بعد ذلك فكفلاه وأطلقه من الحبس.

وما زال آل أبي طالب يكفل بعضهم بعضاً ويعرضون فغاب الحسن عن العرض يومين، فطلب به الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله كافليه وأغلظ لهما، فحلف يحيى أنه يأتي به من ليلته أو يدق عليه الباب يؤذنه به. وكان بين الطالبيين ميعاد للخروج في الموسم فأعجلهم ذلك عنه وخرجوا من ليلتهم. وضرب يحيى على العمري في باب داره بالسيف واقتحموا المسجد فصلوا الصبح وبايع الناس الحسين المرتضى من آل محمد على كتاب الله وسنة رسوله. وجاء خالد اليزيدي في مائتين من الجند العمري وابن إسحاق الأزرق ومحمد بن واقد في ناس كثيرين فقاتلوهم وهزموهم من المسجد، واجتمع يحيى وإدريس بن عبد الله بن حسن فقتلاه وانهزم الباقون وافترق الناس.

وأغلق أهل المدينة أبوابهم وانتهب القوم من بيت المال بضعة عشر ألف دينار وقيل: سبعين ألفاً، واجتمعت شيعة بني العباس من الغد وقاتلوهم إلى الظهر وفشت الجراحات وافترقوا. ثم قدم مبارك التركي من الغد حاجاً فقاتل مع العباسية إلى منتصف النهار وافترقوا، وواعدهم مبارك الرواح إلى القتال واستغفلهم وركب رواحله راجعاً واقتتل الناس المغرب ثم افترقوا. ويقال: إن مباركاً دس إلى الحسين بذلك تجافياً عن أذية أهل البيت، وطلب أن يأخذ له عذراً في ذلك بالبيات فبيته الحسين واستطرد له راجعاً. وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة واحداً وعشرين يوماً آخر ذي القعدة، ولما بلغها نادى في الناس بعتق من أتى إليه من العبيد فاجتمع إليه جماعة.

وكان قد حج تلك السنة رجال من بني العباس منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد بن علي وموسى وإسماعيل أبناء عيسى بن موسى. ولما بلغ خبر الحسين إلى الهادي كتب إلى محمد بن سليمان وولاه على حربه وكان معه رجال وسلاح وقد أغذ بهم عن البصرة خوف الطريق، فاجتمعوا بذي طوى، وقدموا مكة فحلوا من العمرة التي كانوا أحرموا بها. وانضم إليهم من حج من شيعتهم ومواليهم

وقوادهم، واقتتلوا يوم التروية، فانهزم الحسين وأصحابه وقتل كثير منهم، وانصرف محمد بن سليمان وأصحابه إلى مكة ولحقهم بذي طوى رجل من خراسان برأس الحسين ينادي من خلفهم بالبشارة، حتى ألقى الرأس بين أيديهم مضروباً على قفاه وجبهته، وجمعت رؤوس القتلى فكانت مائة ونيفاً وفيها رأس سليمان أخي المهدي بن عبد الله، واختلط المنهزمون بالحاج.

وجاء الحسن بن المهدي أبو الزفت فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد فأخذه موسى بن عيسى وقتله وغضب محمد بن سليمان من ذلك وغضب الهادي لغضبه وقبض أمواله. وغضب على مبارك التركي وجعله سائس الدواب فبقي كذلك حتى مات الهادي. وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد الله أخو المهدي فأتى مصر وعلي بريدها، وأصبح مولى صالح بن المنصور وكان يتشيع لآل علي فحمله على البريد إلى المغرب ووقع بمدينة وليلة من أعمال طنجة واجتمع البربر على دعوته وقتل الهادي وأصحابه بذلك وصلبه وكان لإدريس وابنه إدريس وأعقابهم حروب نذكرها بعده.

حديث الهادي في خلع الرشيد

كان الهادي يبغض الرشيد بما كان المهدي أبوهما يؤثره، وكان رأى في منامه أنه دفع إليهما قضيبين فأورق قضيب الهادي من أعلاه وأورق قضيب الرشيد كله، وتأول ذلك بقصر مدة الهادي وطول مدة الرشيد وحسنها. فلما ولي الهادي أجمع خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر مكانه، وفاوض في ذلك قواده فأجابه يزيد بن مزيد وعلي بن عيسى وعبد الله بن مالك، وحرضوا الشيعة على الرشيد لينقصوه ويقولوا: لا نرضى به، ونهى الهادي أن يشاور بين يديه بالحرب فاجتنبه الناس، وكان يحيى بن خالد يتولى أموره فاتهمه الهادي بمداخلته وبعث إليه وتهدده فحضر عنده مستميتاً وقال: يا أمير المؤمنين أنت أمرتني بخدمته من بعد المهدي! فسكن غضبه وقال له في أمر الخلع فقال: يا أمير المؤمنين أنت إن حملت الناس على نكث الإيمان فيه هانت عليهم فيمن توليه، وإن بايعت بعده كان أوثق للبيعة، فصدقه وسكت عنه.

وعاد أولئك الذين جفلوه من القواد والشيعة فاغروه بيحيى وأنه الذي منع الرشيد من خلع نفسه، فحبسه الهادي فطلب الحضور للنصيحة، وقال له: يا أمير المؤمنين! أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو صبي ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم، وتأمن أن يسموا إليها عند ذلك أكابر بيتك فتخرج من ولد أبيك، والله لو لم يعقده المهدي لكان ينبغي أن تعقده أنت له حذراً من ذلك، وإني أرى أن تعقده لأخيك، فإذا بلغ ابنك أتيتك بأخيك فخلع نفسه وبايع له فقبل الهادي قوله وأطلقه. ولم يقنع القواد ذلك لأنهم كانوا حذرين من الرشيد في ذلك وضيق عليه واستأذنه في الصيد فمضى إلى قصر مقاتل ونكره الهادي وأظهر خفاءه وبسط الموالي والقواد فيه ألسنتهم.

وفاة الهادي وبيعة الرشيد

ثم خرج الهادي إلى حديقة الموصل فمرض واشتد مرضه هناك واستقدم العمال شرقاً وغرباً. ولما ثقل تآمر القواد الذين بايعوا جعفراً في قتل يحيى بن خالد، ثم أمسكوا خوفاً من الهادي. ثم توفي الهادي في شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وقيل: توفي بعد أن عاد من حديقة الموصل. ويقال: إن أمه الخيزران وصت بعض الجواري عليه فقتلته لأنها كانت أول خلافته تستبد عليه بالأمور فعكف الناس واختلفت المواكب، ووجد الهادي لذلك فكلمته يوماً في حاجة فلم يجبها فقالت: قد ضمنتها لعبد الله بن مالك. فغضب الهادي وشتمه وحلف لا قضيتها فقامت مغضبة، فقال: مكانك وإلا انتفيت من قرابتي من رسول الله ﷺ. لئن بلغني أن أحداً من قوادي وخاصتي وقف ببابك لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، ما للمواكب تغدو وتروح عليك! أما لك مِغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك: إياك! لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي فانصرفت وهي لا تعقل.

ثم قال لأصحابه: أيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه، ويقال: فعلت أم فلان وصنعت؟ فقالوا: لا نحب ذلك. قال: فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون معها؟ فيقال: إنه لما جد في خلع الرشيد خافت عليه منه، فلما ثقل مرضه وصت بعض الجواري فجلست على وجهه فمات، وصلى عليه الرشيد. وجاء هرثمة بن أعين إلى الرشيد فأخرجه وأجلسه للخلافة، وأحضر يحيى فاستوزره وكتب إلى الأطراف بالبيعة. وقيل: إن يحيى هو الذي جاءه وأخرجه فصلى على الهادي ودفنه..... إلى يحيى وأعطاه خاتمه. وكان يحيى يصدر عن رأي الخيزران أم الرشيد.

وعزل لأول خلافته عمر بن عبد العزيز العمري عن المدينة وولى مكانه إسحاق بن سليمان، وتوفي يزيد بن حاتم عامل أفريقية، فولى مكانه روح بن حاتم، ثم توفي فولى مكانه ابنه الفضل، ثم قتل فولى هرثمة بن أعين كما يذكر في أخبار أفريقية. وأفراد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها عِمالةً واحدةً

وسماها العواصم، وأمره بعمارة طرسوس ونزلها الناس. وحج لأول خلافته وقسم في الحرمين مالاً كثيراً.

وأغزى بالصائفة سليمان بن عبد الله البكائي، وكان على مكة والطائف عبد الله بن قثم وعلى الكوفة عيسى بن موسى وعلى البحرين والبصرة واليمامة وعُمان والأهواز وفارس محمد بن سليمان بن علي، وعلى خراسان أبو الفضل العباس بن سليمان الطوسي ثم عزله وولى مكانه جعفر بن محمد بن الأشعث. فسار إلى خراسان وبعث ابنه العباس إلى كابل فافتتحها وافتتح سابُها وغنم ما كان فيها. ثم استقدمه الرشيد فعزله وولى مكانه ابنه العباس، وكان على الموصل عبد الملك بن صالح فعزله وولى مكانه إسحاق بن محمد بن فروح، فبعث إليه الرشيد أبا حنيفة حرب بن قيس فأحضره إلى بغداد وقتله، وولى مكان..... وكان على أرمينية يزيد بن مزيد بن زائدة ابن أخي معن فعزله وولى مكانه أخاه عبد الله بن المهدي.

وولى سنة إحدى وسبعين على صدقات بني تغلب روح بن صالح الهمداني فوقع بينه وبين ثعلب خلاف وجمع لهم الجموع فبيتوه وقتلوه في جماعة من أصحابه. وتوفي سنة ثلاث وسبعين محمد بن سليمان والي البصرة وكان أخوه جعفر كثير السعاية فيه عند الرشيد وأنه يحدث نفسه بالخلافة؟ وأن أمواله كلها فيء من أموال المسلمين فاستصفاها الرشيد وبعث من قبضها، وكان لا يعبر عنها من المال والمتاع والدواب، وأحضروا من العين فيها ستين ألف ألف دينار. ولم يكن إلا أخوه جعفر فاحتج عليه الرشيد بإقراره أنها فيء. وتوفي سنة أربع وسبعين والي الرشيد إسحاق بن سليمان على السند ومكران واستقضى يوسف بن أبي يوسف في حياة أبيه، وفي سنة خمس وسبعين عقد لابنه محمد بن زبيدة ولاية العهد ولقبه الأمين وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين بسعاية خاله عيسى بن جعفر بن المنصور ووساطة الفضل بن يحيى، وفيها عزل الرشيد العباس بن جعفر عن خراسان وولاها خاله الغطريف بن عطاء الكندي.

خبر يحيى بن عبد الله في الديلم

وفي سنة خمس وسبعين خرج يحيى بن عبد الله بن حسن أخو المهدي بالديلم واشتدت شوكته وكثر جمعه وأتاه الناس من الأمصار فندب إليه الرشيد الفضل بن يحيى في خمسين ألفاً وولاه جرجان وطبرستان والري وما إليها ووصل معه الأموال. فسار ونزل بالطالقان وكاتب يحيى وحذره وبسط أمله وكتب إلى صاحب الديلم في تسهيل أمر يحيى على أن يعطيه ألف ألف درهم فأجاب يحيى على الأمان بخط الرشيد وشهادة الفقهاء والقضاة وأجِلّة بني هاشم ومشايخهم عن عبد الصمد منهم فكتب له الرشيد بذلك وبعثه مع الهدايا والتحف. وقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأفاض عليه العطاء وعظمت منزلة الفضل عنده. ثم إن الرشيد حبس يحيى إلى أن هلك في حبسه.

ولاية جعفر بن يحيى مصر

كان موسى بن عيسى قد ولاه الرشيد مصر فبلغه أنه عازم على الخلع فرد أمرها إلى جعفر بن يحيى وأمره بإحضار عمر بن مهران وأن يوليه عليها، وكان أحول مشوه الخلق خامل البزة يردف غلامه خلفه. فلما ذكرت له الولاية قال على شرطيّة أن يكون أمري بيدي إذا صلحت البلاد انصرفت فأجابه إلى ذلك. وسار إلى مصر وأتى مجلس موسى فجلس في أخريات الناس حتى إذا افترقوا رفع الكتاب إلى موسى فقرأه وقال: متى يقدم أبو حفص؟ فقال: أنا أبو حفص! فقال موسى: لعن الله فرعون حيث قال: أليس لي مُلْك مصر ثم سلم له العمل. فتقدم عمر إلى كاتبه أن لا يقبل من الهدية إلا ما يدخل في الكيس، فبعث الناس بهداياهم وكانوا يمطلون بالخراج. فلما حضر النجم الأول والثاني وشكوا الضيق في الثالث أحضر الهدايا وحسبها لأربابها واستوفى خراج مصر ورجع إلى بغداد.

الفتنة بدمشق

وفي هذه السنة هاجت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية ورأس المضرية أبو الهيدام عامر بن عمارة من ولد خارجة بن سنان بن أبي حارثة المري، وكان أصل الفتنة بين القيس وبين اليمانية أن اليمانية: قتلوا منهم رجلاً فاجتمعوا لثأره، وكان على دمشق عبد الصمد بن علي فجمع كبار العشائر ليصلحوا بينهم فأمهلتهم اليمانية وبيتوا المضرية فقتلوا ثلاثمائة أو ضعفها، فاستجاشوا بقبائل قضاعة وسليم فلم ينجدوهم وأنجدتهم قيس، وساروا معهم إلى البلقاء فقتلوا من اليمانية ثمانمائة وطال الحرب بينهم. وعزل عبد الصمد عن دمشق وولى مكانه إبراهيم بن صالح بن علي. ثم أصلحوا بعد سنين ووفد إبراهيم على الرشيد وكان هواه مع اليمانية فوقع في قيس عند الرشيد واعتذر عنهم عبد الواحد بن بشر استخلف إبراهيم على دمشق ابنه إسحاق فحبس جماعة من قيس وضربهم.

ثم وثبت غسان برجل من ولد قيس بن العبسي فقتلوه، واستنجد أخوه بالدواقيل من حوران فأنجدوه وقتلوا من اليمانية نفراً. ثم وثبت اليمانية بكليب بن عمر بن الجنيد بن عبد الرحمن وعنده ضيف له فقتلوهم، فجاءت أم الغلام سابة إلى أبي الهيدام، فقال: انظريني حتى ترفع دماؤنا إلى الأمير، فإن نظر فيها وإلا فأمير المؤمنين ينظر فيها. وبلغ ذلك إسحاق وحضر عنده أبو الهيدام فلم يأذن له. ثم قتل بعض الدواقيل رجلاً من اليمانية وقتلت اليمانية رجلاً من سليم ونهبوا جيران محارب، وركب أبو الهيدام معهم إلى إسحاق فوعده بالنظر لهم، وبعث إلى اليمانية يغريهم به فاجتمعوا وأتوا إلى باب الجابية فخرج إليهم أبو الهيدام وهزمهم واستولى على دمشق وفتح السجون.

ثم اجتمعت اليمانية واستنجدوا كلباً وغيرهم فاستمدوهم، واستجاش أبو الهيدام المضرية فجاؤوه وهو يقاتل اليمانية عند باب توما فهزمهم أربع مرات. ثم أمره إسحاق بالكف وبعث إلى اليمانية يخبرهم بغرته، وجاء الخبر وركب وقاتلهم فهزمهم، ثم هزمهم أخرى على باب توما. ثم جمعت اليمانية أهل الأردن والجولان من كلب وغيرهم فأرسل من يأتيه بالخبر فأبطؤوا ودخل المدينة فأرسل إسحاق من دلهم على مكمنه وأمرهم بالعبور إلى المدينة، فبعث من أصحابه من يأتيهم من ورائهم فانهزموا. ولما كان مستهل صفر جمع إسحاق الجنود عند قصر الحجاج وجاء أصحاب الهيدام من أراد نهب القرى التي لهم بنواحي دمشق. ثم سألوا الأمان من أبي الهيدام فأمنهم وسكن الناس.

وفرق أبو الهيدام أصحابه وبقي في نفر يسير من أهل دمشق، فطمع فيه إسحاق وسلط عليه العذافر السكسكي مع الجنود فقاتلهم فانهزم العذافر وبقي الجند يحاربونه ثلاثاً. ثم إن إسحاق قاتله في الثالثة والجند في اثني عشر ألفاً ومعهم اليمانية، فخرج أبو الهيدام من المدينة وقاتلهم على باب الجابية حتى أزالهم عنه. ثم أغار جمع من أهل حمص على قرية لأبي الهيدام فقاتلهم أصحابه وهزموهم وقتلوا منهم خلقاً وأحرقوا قرى وديارا لليمانية في الغوطة، ثم توادعوا سبعين يوماً أو نحوها. وقدم السندي في الجنود من قبل الرشيد وأغزته اليمانية بأبي الهيدام فبعث هو إليه بالطاعة فأقبل السندي إلى دمشق وإسحاق بدار الحجاج، وبعث قائده في ثلاثة آلاف وأخرج إليهم أبو الهيدام ألفاً وأحجم القائد عنهم ورجع إلى السندي فصالح أبا الهيدام وأمن أهل دمشق.

وسار أبو الهيدام إلى حوران وأقام السندي بدمشق ثلاثاً. وقدم موسى بن عيسى والياً عليها فبعث الجند يأتونه بأبي الهيدام فكبسوا داره وقاتلهم هو وابنه وعبده فانهزموا وجاء أصحابه من كل جهة وقصد بصرى. ثم بعث إليه موسى فسار إليه في رمضان سنة سبع وسبعين وقيل: إن سبب الفتنة بدمشق أن عامل الرشيد بسجستان قتل أخا الهيدام فخرج هو بالشام وجمع الجموع. ثم بعث الرشيد أخاً له ليأتيه به فتحيل حتى قبض عليه وشده وثاقاً وأتى به إلى الرشيد فمن عليه وأطلقه. وبعث جعفر بن يحيى سنة ثمانين إلى الشام من أجل هذه الفتن والعصبية فسكّن الثائرة وأمّن البلاد وعاد.

فتنة الموصل ومصر

وفي سنة سبع وثمانين تغلب العطاف بن سفيان الأزدي على خراسان وأهل الموصل على العامل بها محمد بن العباس الهاشمي وقيل: عبد الملك بن صالح فاجتمع عليه أربعة آلاف رجل وجبى الخراج وبقي العامل معه مغلباً إلى أن سار الرشيد إلى الموصل وهدم سورها ولحق العطاف بأرمينية ثم بالرقم فاتخذها وطناً. وفي سنة ثمان وسبعين ثارت الحوفية بمصر وهم من قيس وقضاعة على عاملها إسحاق بن سليمان وقاتلوه. وكتب الرشيد إلى هرثمة بن أعين وكان بفلسطين فسار إليهم وأذعنوا بالطاعة، وولي على مصر ثم عزله لشهر وولى عبد الملك بن صالح عليها.

كان على خراسان أيام المهدي والهادي أبو الفضل العباس بن سليمان الطوسي فعزله الرشيد وولى على خراسان جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي فأبوه من النقباء من أهل مصر وقدم ابنه العباس سنة ثلاث وسبعين، ثم قدم فغزا طخارستان وبعث ابنه العباس إلى كابل في الجنود وافتتح سابهار ورجع إلى مرو. ثم سار إلى العراق سنة ثلاث في رمضان وكان الأمين في حجره قبل أن يجعله في حجر الفضل بن يحيى.

ثم ولى الرشيد ابنه العباس بن جعفر ثم عزله عنها فولى خالداً الغطريف بن عطاء الكندي سنة خمس وسبعين على خراسان وسجستان وجرجان فقدم خليفة داود بن يزيد وبعث عامل سجستان، وخرج في أيامه حُصين الخارجي من موالي قيس بن ثعلبة من أهل أوق وبعث عامل سجستان عثمان بن عمارة الجيوش إليه فهزمهم حسين وقتل منهم وسار إلى باذغيس وبوشنج وهراة فبعث إليه الغطريف اثني عشر ألفاً من الجند فهزمهم حصين وقتل منهم خلقاً، ولم يزل في نواحي خراسان إلى أن قتل سنة سبع وسبعين.

وسار الفضل إلى خراسان سنة ثمان وسبعين وغزا ما وراء النهر سنة ثمانين ثم ولى الرشيد على خراسان علي بن عيسى بن

ماهان وقدم إليه يحيى..... فأقام بها عشرين سنة. وخرج عليه في ولايته حمزة بن أترك وقصد بوشنج وكان على هراة عمرويه بن يزيد الأزدي فنهض إليه في ستة آلاف فارس فهزمهم حمزة وقتل جماعة منهم ومات عمروية في الزحام، فبعث علي بن عيسى ابنه الحسن في عشرة آلاف ففض حربه فعزله، وبعث ابنه الآخر عيسى فهزمه حمزة فأمده بالعساكر ورده فهزم حمزة وقتل أصحابه، ونجا إلى قهستان في أربعين. وأثخن عيسى في الخوارج بارق وجوين وفيمن كان يعينهم من أهل القرى حتى قتل ثلاثين ألفاً.

وخلف عبد الله بن العباس النسيقي بزرنج فجبى الأموال وسار بها ومعه الصفّة ولقيه حمزة فهزموه وقتلوا عامة أصحابه. وسار حمزة في القرى فقتل وسبى وكان علي قد استعمل طاهر بن الحسين على بوشنج فخرج إلى حمزة وقصد قرية ففرّ الخوارج وهم الذين يرون التحكيم ولا يقاتلون والمحكّمة هم الذين يقاتلون وشعارهم لا حكم إلا اللّه. فكتب العقد إلى حمزة بالكف وواعدهم، ثم انتفض وعاث في البلاد وكانت بينه وبين أصحاب علي حروب كثيرة.

ثم ولى الرشيد سنة اثنتين وثمانين ابنه عبد اللّه العهد بعد الأمين ولقبه المأمون وولاه على خراسان وما يتصل بها إلى همذان واستقدم عيسى بن علي من خراسان وردها إليه من قبل المأمون. وخرج عليه بِنسا أبو الخصيب وهب بن عبد اللّه النسائي وعاث في نواحي خراسان ثم طلب الأمان فأمنه. ثم بلغه أن حمزة الخارجي عاث بنواحي باذغيس فقصده وقتل من أصحابه نحواً من عشرة آلاف وبلغ كل من وراء غزنة. ثم غدر أبو الخصيب ثانية وغلب أبيورد ونساوطوس ونيسابور، وحاصر مرو وانهزم عنها وعاد إلى سرخس، ثم نهض إليه ابن ماهان سنة ست وثمانين فقتله في نسا وسبى أهله.

ثم نُمي إلى الرشيد سنة تسع وثمانين أن علي بن عيسى مجمع على الخلاف وأنه قد أساء السيرة في خراسان وعنفهم، وكتب إليه كبراء أهلها يشكون بذلك، فسار الرشيد إلى الري فأهدى له الهدايا الكثيرة والأموال ولجميع من معه من أهل بيته وولده وكتابه وقواده. وتبين للرشيد من مناصحته خلاف ما أنهي إليه. فرده إلى خراسان وولي على الري وطبرستان ودنباوند وقومس وهمذان وبعث علي ابنه عيسى لحرب خاقان سنة ثمان وثمانين فهزمه وأسر أخوته، وانتقض على علي بن عيسى رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند وطالت حروبه معه وهلك في بعضها ابنه عيسى.

ثم إن الرشيد نقم على علي بن عيسى أموراً منها استخفافه بالناس وإهانته أعيانهم، ودخل عليه يوماً الحسين بن مصعب والد طاهر فأغلظ له في القول وأفحش في السب والتهديد وفعل مثل ذلك بهشام بن.... فأما الحسين فلحق بالرشيد شاكياً ومستجيراً وأما هشام فلزم بيته وادعى أنه بعلة الفالج حتى عزل علي، وكان مما نقم عليه أيضاً أنه لما قتل ابنه عيسى في حرب رافع بن الليث أخبر بعض جواريه أنه دفن في بستانه ببلخ ثلاثين ألف دينار. وتحدث الجواري بذلك فشاع في الناس، ودخلوا البستان ونهبوا المال، وكان يشكو إلى الرشيد بقلة المال ويزعم أنه باع حلي نسائه.

فلما سمع الرشيد هذا المال استدعى هرثمة بن أعين وقال له: وليتك خراسان، وكتب له بخطه وقال له: اكتم أمرك وامض كأنك مدد. وبعث معه رجاء الخادم فسار إلى نيسابور وولى أصحابه فيها ثم سار إلى مرو ولقي علي بن عيسى فقبض عليه وعلى أهله وأتباعه وأخذ أمواله فبلغت ثمانين ألف ألف، وبعث إلى الرشيد من المتاع وقر خمسمائة بعير وبعث إليه بعلي بن عيسى على بعير من غير غطاء ولا وطاء، وخرج هرثمة إلى ما وراء النهر وحاصر رافع بن الليث بسمرقند إلى أن استأمن فأمنه، وأقام هرثمة بسمرقند وكان قدم مرو سنة ثلاث وتسعين.

إيداع كتاب العهد

وفي سنة ست وثمانين حج الرشيد وسار من الأنبار ومعه أولاده الثلاثة محمد الأمين وعبد اللّه المأمون والقاسم، وكان قد ولى الأمين العهد وولاه العراق والشام إلى آخر الغرب. وولى المأمون العهد بعده وضم إليه من همذان إلى آخر المشرق وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون ولقبه المؤتمن وجعل خلعه وإثباته للمأمون. وجعل في حجر عبد الملك صالح وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم.

ومر بالمدينة فأعطاه فيها ثلاثة أعطية: عطاء منه ومن الأمين ومن المأمون فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. ثم سار إلى مكة فأعطى مثلها، وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كتاباً أشهد فيه على الأمين بالوفاء للمأمون وآخر على المأمون بالوفاء للأمين وعلق الكتابين في الكعبة وجدد عليها العهود هنالك.

ولما شخص إلى طبرستان سنة تسع وثمانين وأقام بها أشهد من حضره أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع للمأمون وجدد له البيعة عليهم وأرسل إلى بغداد فجدد له البيعة على الأمين.

أخبار البرامكة ونكبتهم

قد تقدم لنا أن خالد بن برمك كان من كبار الشيعة وكان له قدم راسخ في الدولة وكان يلي الولايات العظام وولاه المنصور على الموصل، وعلى أذربيجان، وولى ابنه يحيى على أرمينية ووكله المهدي بكفالة الرشيد فأحسن تربيته ودفع عنه أخاه الهادي أراده على الخلع وتولية العهد ابنه وحبسه الهادي لذلك. فلما ولي الرشيد استوزر يحيى وفوض إليه أمور ملكه وكان أولا يصدر عن رأي الخيزران أم الرشيد، ثم استبد بالدولة. ولما ماتت وكان بيتهم مشهوراً بالرجال من العمومة والقرابة، وكان بنوه جعفر والفضل ومحمد قد شابهوا آباءهم في عمل الدولة واستولوا على حظ من تقريب السلطان واستخلاصه.

وكان الفضل أخاه من الرضاع أرضعت أمه الرشيد وأرضعته الخيزران وكان يخاطب يحيى يا أبت واستوزر الفضل وجعفراً وولى جعفراً على مصر وعلى خراسان وبعثه إلى الشام عندما وقعت الفتنة بين المضرية واليمانية، فسكّن الأمور ورجع وولى الفضل أيضاً على مصر وعلى خراسان وبعثه لاستنزال يحيى بن عبد الله العلوي من الديلم. ودفع المأمون لما ولاه العهد إلى كفالة جعفر بن يحيى فحسنت آثارهم في ذلك كله. ثم عظم سلطانهم واستيلاؤهم على الدولة وكثرت السعاية فيهم. وعظم حقد الرشيد على جعفر منهم، يقال: بسبب أنه دفع إليه يحيى بن عبد الله لما استنزله أخوه الفضل من الديلم، وجعل حبسه عنده فأطلقه استبدادا على السلطان ودالة وأنهى الفضل بن الربيع ذلك إلى الرشيد فسأله فصدقه الخبر فأظهر له التصويب وحقدها عليه، وكثرت السعاية فيهم فتنكر له الرشيد.

ودخل عليه يوماً يحيى بن خالد بغير إذن فنكر ذلك منه، وخاطب به طبيبه جبريل بن بختيشوع منصرفاً به من مواجهته وكان حاضراً فقال يحيى: هو عادتي يا أمير المؤمنين، وإذ قد نكرت مني فسأكون في الطبقة التي تجعلني فيها! فاستحيى هارون وقال: ما أردت ما يكره. وكان الغلمان يقومون بباب الرشيد ليحيى إذا دخل، فتقدم لهم مسرور الخادم بالنهي عن ذلك فصاروا يعرضون عنه إذا أقبل، وأقاموا على ذلك زماناً. فلما حج الرشيد سنة سبع وثمانين ورجع من حجه ونزل الأنبار أرسل مسروراً الخادم في جماعة من الجند ليلاً فأحضر جعفراً بباب الفسطاط وأعلم الرشيد فقال: إئتني برأسه فطفق جعفر يتذلل ويسأله المراجعة في أمره حتى قذفه الرشيد بعصا كانت في يده وتهدده فخرج وأتاه برأسه وحبس الفضل من ليلته وبعث من احتياط على منازل يحيى وولده وجميع موجودهم وحبسه في منزله.

وكتب من ليلته إلى سائر النواحي بقبض أموالهم ورقيقهم، وبعث من الغد بشلو جعفر وأمر أن يقسم قطعتين وينصبان على الجسر، وأعفى محمد بن خالد من النكبة ولم يضيق على يحيى ولا بنيه الفضل ومحمد وموسى ثم تجردت عنه التهمة بعبد الملك بن صالح بن علي، وكانوا أصدقاء له، فسعى فيه ابنه عبد الرحمن بأنه يطلب الخلافة فحبسه عنه الفضل بن الربيع، ثم أحضره من الغداة وقرعه ووبخه فأنكر وحلف واعترف لحقوق الرشيد وسلفه عليه، فأحضر كاتبه شاهداً عليه فكذبه عبد الملك، فأحضر ابنه عبد الرحمن فقال: هو مأمون معذور أو عاق فاجر، فنهض الرشيد من مجلسه وهو يقول: سأصبر حتى أعلم ما يرضي اللّه فيك، فإنه الحكم بيني وبينك، فقال عبد الملك: رضيت باللّه حكماً وبأمير المؤمنين حاكماً فإنه لا يؤثر هواه على رضا ربه.

ثم أحضره الرشيد يوماً آخر فأرعد له وأبرق وجعل عبد الملك يعدد وسائله ومقاماته في طاعته ومناصحته فقال له الرشيد: لولا إبقائي على بني هاشم لقتلتك ورده إلى محبسه. وكلمه عبد اللّه بن مالك فيه، وشهد له بنصحه فقال: أطلقه إذاً، قال: أما في هذا القرب فلا! ولكن سهل حبسه ففعل وأجرى عليه مؤنه حتى مات الرشيد وأطلقه الأمين. وعظم حقده على البرامكة بسبب ذلك، فضيق عليهم وبعث إلى يحيى يلومه فيما ستر عنه من أمر عبد الملك. فقال: يا أمير المؤمنين كيف يطلعني عبد الملك على ذلك وأنا كنت صاحب الدولة، وهل إذا فعلت ذلك يجازيني بأكثر من فعلك؟ أعيذك باللّه أن تظن هذا الظن ألا أنه كان رجلاً متجملاً يسرني أن يكون في بيتك مثله، فوليته ولا خصصته. فعاد إليه الرسول يقول: إن لم تقر قتلت الفضل ابنك. فقال: أنت مسلط علينا فافعل ما أردت.

وجذب الرسول الفضل وأخرجه فودع أباه وسأله في الرضا عنه فقال: رضي اللّه عنك، وفرّق بينهما ثلاثة أيام ولم يجد عندهما شيئاً فجمعهما واحتفظ إبراهيم بن عثمان بن نهيك لقتل جعفر فكان يبكيه ويبكي قومه حزناً عليهم. ثم انتهى به إلى طلب الثأر بهم فكان يشرب النبيذ مع جواريه ويأخذ سيفه وينادي واجعفراه واسيّداه واللّه لأثأرن بك ولأقتلن قاتلك، فجاء ابنه وحفص كان مولاه إلى الرشيد فأطلعاه على أمره، فأحضر إبراهيم وأظهر له الندم على قتله جعفراً والأسف عليه، فبكى إبراهيم وقال: واللّه يا سيدي لقد أخطأت في قتله فانتهره الرشيد وأقامه. ثم دخل عليه ابنه بعد ليال قلائل فقتله يقال: بأمر الرشيد. وكان

يحيى بن خالد محبوساً بالكوفة ولم يزل بها كذلك إلى أن مات سنة تسعين ومائة ومات بعده ابنه الفضل سنة ثلاث وتسعين. وكانت البرامكة من محاسن العالم ودولتهم من أعظم الدول وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها.

الصوائف وفتوحاتها

كان الرشيد على ما نقله الطبري وغيره يغزو عاماً ويحج عاماً، ويصلي كل يوم مائة ركعة ويتصدق بألف درهم، وإذا حج حمل معه مائة من الفقهاء ينفق عليهم، وإذا لم يحج أنفق على ثلاثمائة حاج نفقة شائعة. وكان يتحذى بآثار المنصور إلا في بذل المال فلم يُر خليفة قبله أبذل منه للمال. وكان إذا لم يغز غزا بالصائفة كبار أهل بيته وقواده، فغزا بالصائفة سنة سبعين سليمان بن عبد الله البكائي، وقيل: غزا بنفسه. وغزا بالصائفة سنة اثنتين وسبعين إسحاق بن سليمان بن علي فأثخن في بلاد الروم وغنم وسبى. وغزا في سنة أربع وسبعين بالصائفة عبد الملك بن صالح وقيل: أبوه عبد الملك فبلغ في نكاية الروم ما شاء، وأصابهم برد شديد سقطت منه أيدي الجند. ثم غزا بالصائفة سنة سبع وسبعين عبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبي. وفي سنة ثمان وسبعين زفر بن عاصم.

وغزا سنة إحدى وثمانين بنفسه فافتتح حصن الصفصاف وأغزى عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة. وكان الفداء بين المسلمين والروم وهو أول فداء في دولة بني العباس، وتولاه القاسم بن الرشيد وأخرج له من طرسوس الخادم الوالي عليها، وهو أبو سليمان فرج فنزل المدامس على اثني عشر فرسخاً، وحضر العلماء والأعيان وخلق من أهل الثغور وثلاثون ألفاً من الجند المرتزقة فحضروا هنالك وجاء الروم بالأسرى ففودي بهم من كان لهم من الأسرى، وكان أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة. وغزا بالصائفة سنة اثنتين وثمانين عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح دفشوسوس مدينة أصحاب الكهف. وبلغهم أن الروم سلُوا ملكهم قسطنطين بن إليون وملّكوا أمه رُيى وتلقب عَطَشة، فأثخنوا في البلاد ورجعوا.

وفي سنة ثلاث وثمانين حملت ابنة خاقان ملك الخزر إلى الفضل بن يحيى فماتت ببردعة، ورجع من كان معها فأخبروا أباها أنها قتلت غيلة، فتجهز إلى بلاد الإسلام، وخرج من باب الأبواب وسبى أكثر من مائة ألف فارس وفعلوا ما لم يسمع بمثله. فولى الرشيد يزيد بن مزيد أمر أرمينية مضافة إلى أذربيجان وأمره بالنهوض إليهم وأنزل خزيمة بن خازم بنصيبين رداً لهم. وقيل: إن سبب خروجهم أن سعيد بن مسلم قتل الهجيم السلمي فدخل ابنه إلى الخزر مستجيشاً بهم على سعيد، ودخلوا أرمينية وهرب سعيد والخزر ورجعوا.

وفي سنة سبع وثمانين غزا بالصائفة القاسم بن الرشيد وجعله قرباناً لله وولاه العواصم، فأناخ على قرة وضيق عليها وبعث عليها ابن جعفر بن الأشعث فحاصر حصن سنان حتى جهد أهله وفادى الروم بثلاثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم، فأجابهم وتم بينهم الصلح ورحل عنهم، وكان ملك الروم يومئذ ابن زيني وقد تقدم ذكره فخلعه الروم وملكوا نيقفور وكان على ديوان خراجهم ومات زيني بعد خمسة أشهر. ولما ملك نيقفور كتب إلى الرشيد بما استفزه فسار إلى بلاد الروم غازياً، ونزل هرقل وأثخن في بلادهم حتى سأل نيقفور الصلح، ثم نقض العهد وكان البرد شديد الكلب وظن نيقفور أن ذلك يمنعه من الرجوع، فلم يمنعه ورجع حتى أثخن في بلاده ثم خرج من أرضهم.

وغزا بالصائفة سنة ثمان وثمانين إبراهيم بن جبريل ودخل من درب الصفصاف فخرج إليه نيقفور ملك الروم وانهزم وقتل من عسكره نحواً من أربعين ألفاً. وفي هذه السنة رابط القاسم بن الرشيد أبق: وفي سنة تسع وثمانين كتب الرشيد وهو بالري كتب الأمان لشروين أبي قارن، ووندا هرمز جد مازيار مرزبان خستان صاحب الديلم. وبعث بالكتب مع حسين الخادم إلى طبرستان فقدم خستان ووندا هرمز فأكرمهما الرشيد وأحسن إليهما وضمن وندا هرمز وشروين صاحبي طبرستان وذكرا كيف توجه الهادي لهما وحاصرهما.

وفي سنة ست وثمانين كان فداء بين المسلمين حتى لم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي. وفي سنة تسعين سار الرشيد إلى بلاد الروم بسبب ما قدمناه من غدر نيقفور في مائة وخمسة وثلاثين ألفاً من المرتزقة، سوى الأتباع والمتطوعة ومن ليس له ذكر في الديوان، واستخلف المأمون بالرقة وفوض إليه الأمور، وكتب إلى الآفاق بذلك،فنزل على هرقل فحاصرها ثلاثين يوماً وافتتحها وسبى أهلها وغنم ما فيها. وبعث داود بن عيسى بن موسى في سبعين ألفاً غازياً في أرضهم ففتح الله عليه وخرب ونهب ما شاء. وفتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة وديسة. وافتتح يزيد بن مخلد حصن الصفصاف وقونية، وأناخ عبد الله بن مالك على حصن ذي الكلاع.

واستعمل الرشيد حميد بن معيوب على الأساطيل ممن

بسواحل الشام ومصر إلى قبرس، فهزم وحرق وسبى من أهلها نحواً من سبعة عشر ألفاً وجاء بهم إلى الواقعة فبايعوا بها. وبلغ فداء أسقف قبرس ألفي دينار. ثم سار الرشيد إلى حلوانة فنزل بها وحاصرها. ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر. وبعث يقفور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير، وعن ابنه دينارين وعن بطارقته كذلك، وبعث يقفور في جارية من بني هرقلة وكان خطبها ابنه فبعث بها إليه. ونقض في هذه السنة قبرس فغزاهم معيوب بن يحيى فأثخن فيهم وسباهم. ولما رجع الرشيد من غزاته خرجت الروم إلى عين زربة والكنيسة السوداء وأغاروا ورجعوا فاستنقذ أهل المصيصة ما حملوه من الغنائم.

وفيها غزا يزيد بن مخلد الهبيري أرض الروم في عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضايق فانهزم، وقتل في خمسين من أصحابه على مرحلتين من طرسوس. واستعمل الرشيد على الصائفة هرثمة بن أعين قبل أن يوليه خراسان وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان، وأخرجه إلى الصائفة وسار بالعساكر الإسلامية في أثره ورتب بدرب الحارث عبد الله بن مالك وبمرعش سعيد بن مسلم بن قتيبة، وأغارت الروم عليه فأصابوا من المسلمين وانصرفوا ولم يتحرك من مكانه. وبعث الرشيد محمد بن زيد بن مزيد إلى طرسوس وأقام هو بدرب الحارث وأمر قواده بهدم الكنائس في جميع الثغور. وأخذ أهل الذمة بمخالفة زي المسلمين في ملبوسهم. وأمر هرثمة ببناء هرطوس وتولى ذلك، فخرج الخادم بأمر الرشيد وبعث إليها جنداً من خراسان ثلاثة أيام، وأشخص إليهم ألفاً من أهل المصيصة وألفاً من أنطاكية فتم بناؤها سنة اثنتين وتسعين. وفي هذه السنة تحركت الخرمية بناحية أذربيجان فبعث إليهم عبد الله بن مالك في عشرة آلاف فقتل وسبى وأسر، ووافاه بقرماسين فأمره بقتل الأسرى وبيع السبي. وفيها استعمل الرشيد على الثغور ثابت بن مالك الخزاعي فافتتح مطمورة وكان الفداء على يدية بالبرذون. ثم كان الفداء الثاني وكان عدة أسرى المسلمين فيه ألفين وخمسمائة.

الولاية على النواحي

كان على أفريقية مزيد بن حاتم كما قدمناه ومات سنة إحدى وسبعين بعد أن استخلف ابنه داود فبعث الرشيد على أفريقية أخاه روح بن حاتم فاستقدمه من فلسطين وبعثه إلى أفريقية. وعزل أبا هريرة محمد بن فروج عن الجزيرة وقتله وولى مكانه.....

وفي سنة ست وسبعين ولى الرشيد على الموصل الحكم بن سليمان، وقد كان خرج الفضل الخارجي بنواحي نصيبين وغنم وسار إلى داريا وآمد وأرزق وخلاط فقفل لذلك ورجع إلى نصيبين، فأتى الموصل وخرج إليه الفضل في عساكرها فهزمهم على الزاب. ثم عادوا لقتاله فقتل الفضل وأصحابه. وفي سنة ست وسبعين مات روح بن حاتم بأفريقية واستخلف حبيب بن نصر المهلبي فسار الفضل إلى الرشيد فولاه على أفريقية، وعاد إليها فاضطرب عليه الخراسانية من جند أفريقية ولم يرضوه، فولى مكانه هرثمة بن أعين وبعث في العساكر فسكن الاضطراب، ورأى ما بأفريقية من الاختلاف فاستعفى االرشيد من ولايتها فأعفاه، وقدم إلى العراق بعد سنتين ونصف من مغيبه.

وفي هذه ولى الفضل بن يحيى على مصر مكان أخيه جعفر مضافاً إلى ما بيده من الري وسجستان وغيرهما. ثم عزله عن مصر وولى عليها إسحاق بن سليمان فثارت به الجوفية من مصر وهم جموع من قيس وقضاعة فأمده بهرثمة بن أعين فأذعنوا وولاه عليهم شهراً، ثم عزله وولى عبد الملك بن صالح مكانه، وفيها فوّض أمر دولته إلى يحيى بن خالد. وفي سنة ثمانين بعث جعفر ابن يحيى إلى الشام في القواد والعساكر ومعه السلاح والأموال والعصبية التي كانت بها فسكنت الفتنة ورجع، فولاه خراسان وسجستان فاستعمل عليها عيسى بن جعفر، وولى جعفر بن يحيى المريس.

وقدم هرثمة بن أعين من أفريقية فاستخلفه جعفر على الحرد وعزل الفضل بن يحيى عن طبرستان والرويان وولاها عبد الله بن حازم، وولى على الجزيرة سعيد بن مسلم وولى على الموصل يحيى بن سعيد الحرشي فأساء السيرة وطالبهم بخراج سنين ماضية، فانجلا أكثر أهل البلد، وعزله الرشيد وولى عليها يحيى بن خالد. وفي سنة إحدى وثمانين ولى على أفريقية محمد بن مقاتل بن حكيم العكي وكان أبوه من قواد الشيعة ومحمد رضيع الرشيد وتلأده فلما استعفى هرثمة ولاه مكانه، واضطربت عليه أفريقية، وكان إبراهيم بن الأغلب بها والياً على الزاب، وكان جند أفريقية يرجعون إليه فأعانه وحمل الناس على طاعته بعد أن أخرجوه فكرهوا ولاية محمد بن مقاتل وحملوا إبراهيم بن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب ولاية أفريقية على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت تحمل من مصر معونة إلى والي أفريقية ويحمل هو كل سنة أربعين ألف دينار فاستشار الرشيد بطانته فأشار هرثمة بإبراهيم بن الأغلب، وولاه الرشيد في محرم سنة أربعة وثمانين، فضبط الأمور وقبض على المؤمنين وبعث بهم إلى الرشيد فسكنت

البلاد.

وابتنى مدينة بقرب القيروان وسماها العباسية وانتقل إليها بأهله وخاصته وحشمه، وصار مُلْك أفريقية في عقبة كما يذكر في أخبارها إلى أن غلبهم عليها الشيعة العبيديون. وكان يزيد بن مزيد على أذربيجان فولاه الرشيد سنة ثمان وثمانين على أرمينية مضافة إليها، وولى خزيمة بن خازم على نصيبين. وولى الرشيد سنة أربع وثمانين على اليمن ومكة حماداً البربري وعلى السند داود بن يزيد بن حاتم وعلى الجبل يحيى الحرشي، وعلى طبرستان مهروية الزاي، وقتله أهل طبرستان سنة خمس وثمانين، فولى مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي.

وفيها توفي يزيد بن زائدة الشيطاني ببردعة، وكان على أذربيجان وأرمينية فولى مكانه ابنه أسد بن يزيد بن حاتم. وفي سنة تسع وثمانين سار الرشيد إلى الري وولى على طبرستان والري ودنباوند وقوس وهمذان عبد الملك بن مالك. وفي سنة تسعين ولى على الموصل خالد بن يزيد بن حاتم وقد تقدم لنا ولاية هرثمة على سليمان ونكبة علي بن عيسى. في سنة إحدى وتسعين ظفر حماد البربري بهيصيم اليماني وجاء به إلى الرشيد فقتله، وولى في هذه السنة على الموصل محمد بن الفضل بن سليمان وكان على مكة الفضل بن العباس أخي المنصور والسفاح.

خلع رافع بن الليث بما وراء النهر

كان رافع بن نصر بن سيار من عظماء الجند فيما وراء النهر وكان يحيى بن الأشعث قد تزوج ببعض النساء المشهورات الجمال وتسرّى عليها وأكثر ضرارها وتشوقت إلى التخلص منه، فدس إليها رافع بن الليث بأن تحاول من يشهد عليها بالكفر لتتخلص منه وتحل للأزواج ثم ترجع وتتوب، فكان وتزوجها وشكا يحيى بن الأشعث إلى الرشيد وأطلعه على جل الأمر، فكتب إلى علي بن عيسى أن يفرق بينهما ويقيم الحد ى على رافع ويطوف به في سمر قند مقيداً على حمار ليكون عظة لغيره، ففعل ذلك ولم يجده رافع وحبس بسمرقند فهرب من الحبس ولحق بعلي بن عيسى في بلخ فهمّ بضرب عنقه، فشفع فيه ابنه عيسى فأمره بالإنصراف إلى سمرقند فرجع إليها ووثب بعاملها فقتله وملكها وذلك سنة تسعين. فبعث علي لحربه ابنه عيسى فلقيه رافع وهزمه وقتله، فخرج علي بن عيسى لقتله وسار من بلخ إلى مرو مخافة عليها من رافع بن الليث.

ثم كانت نكبة علي بن عيسى وولاية هرثمة بن أعين على خراسان وكان مع رافع بن الليث جماعة من القواد ففارقوه إلى هرثمة منهم عجيف بن عنبسة وغيره. وحاصر هرثمة رافع بن الليث في سمرقند وضايقه، واستقدم طاهر بن الحسين من خراسان فحضر عنده وعاث حمزة الخارجي في نواحي خراسان لخلائها من الجند، وحمل إليه عمال هراة وسجستان الأموال. ثم خرج عبد الرحمن إلى نيسابور سنة أربع وتسعين وجمع نحواً من عشرين ألفاً، وسار إلى حمزة فهزمه وقتل من أصحابه خلقاً وأتبعه إلى هراة حتى كتب المأمون إليه ورده عن ذلك.

وكانت سنة ثلاث وتسعين بين هرثمة وبين أصحاب رافع وقعة كان الظفر فيها لهرثمة وأسر بشراً أخا رافع وبعث به إلى الرشيد وافتتح بخاري. وكان الرشيد قد سار من الرقة بعد مرجعه من الصائفة التي بنى فيها طرسوس على اعتزام خراسان لشأن رافع، وكان قد أصابه المرض، فاستخلف على الرقة ابنه القاسم وضم إليه خزيمة بن خازم، وجاء إلى بغداد. ثم سار منها إلى خراسان في شعبان سنة اثنتين وتسعين واستخلف عليها ابنه الأمين، وأمر المأمون بالمقام معه فأشار عليه الفضل بن سهل بأن يطلب المسير مع الرشيد، وحذره البقاء من الأمين فأسعفه الرشيد بذلك وسار معه.

وفاة الرشيد وبيعة الأمين

ولما سار الرشيد عن بغداد إلى خراسان بلغ جرجان في سفر سنة ثلاث وتسعين وقد اشتدت عليه، فبعث ابنه المأمون إلى مرو ومعه جماعة من القواد: عبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ وأسد بن خزيمة والعباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث والسدي والحريشي ونعيم بن خازم، ثم سار الرشيد إلى موسى واشتد به الوجع وضعف عن الحركة وثقل فأرجف الناس بموته، وبلغه ذلك فأراد الركوب ليراه الناس فلم يطق النهوض فقال: ردوني. ووصل إليه وهو بطوس بشير أخو رافع أسيراً بعث به هرثمة بن أعين فأحضره وقال: لولم يبق من أجلي إلاحركة شفتي بكلمة لقلت اقتلوه. ثم أمر قصاباً ففصل أعضاءه ثم أغمي عليه وافترق الناس.

ولما يئس من نفسه أمر بقبره فحفر في الدار التي كان فيها وأنزل فيه قوماً قرؤوا فيه القرآن حتى ختموه وهو في محفة على شفيره ينظر إليه وينادي: واسوأتاه من رسول الله ﷺ. ثم مات وصلى عليه ابنه صالح وحضر وفاته الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح ومسرور وحسين ورشيد. وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين

سنة أو تزيد وترك في بيت المال تسعمائة ألف ألف دينار.

ولما مات الرشيد بويع الأمين في العسكر صبيحة يومه، والمأمون يومئذ بمرو وكتب حموية مولى المهدي صاحب البريد إلى نائبه ببغداد وهو سلام أبو مسلم يعلمه بوفاة الرشيد وهناه بالخلافة فكان أول من فعل ذلك. وكتب صالح إلى أخيه الأمين مع رجاء الخادم بوفاة الرشيد، وبعث معه بالخاتم والبردة والقضيب، فانتقل الأمين من قصره بالخلد إلى قصر الخلافة وصلى بالناس الجمعة وخطب ثم نعى الرشيد وعزى نفسه والناس، وبايعته جملة أهله ووكل سليمان بن المنصور وهو عم أبيه وأمه بأخذ البيعة على القواد وغيرهم. ووكل السندي بأخذ البيعة على الناس سواهم، وفرق في الجند ببغداد رزق سنين. وقدمت أمه زبيدة من الرقة فلقيها الأمين بالأنبار في جمع من بغداد من الوجوه، وكان معها خزائن الرشيد، وكان قد كتب إلى معسكر الرشيد وهو حي مع بكر بن المعتمر لما اشتدت علة الرشيد وإلى المأمون بأخذ البيعة لهما وللمؤتمن أخيهما، وإلى أخيه صالح بالقدوم بالعسكر والخزائن والأموال برأي الفضل. وإلى الفضل بالاحتفاظ على ما معه من الحرم والأموال، وأقر كل واحد على عمله كصاحب الشرطة والحرس والحجابة.

وكان الرشيد قد سمع بوصول بكر بالكتاب فدعاه ليستخرجها منه فجحدها فضربه وحبسه. ثم مات الرشيد وأحضره الفضل فدفعها إليه ولما قرؤوا الكتاب تشاوروا في اللحاق بالأمين وارتحل الفضل بالناس لهواهم في وطنهم تركوا عهود المأمون. فجمع المأمون من كان عنده من قواد أبيه وهم: عبد اللّه بن مالك ويحيى بن معاذ وشبيب بن حميد بن قحطبة والعلاء مولى الرشيد وكان على حجابته، والعباس بن المسيب بن زهير، وكان على شرطته، وأيوب بن أبي سمير. وهو على كتابته، وعبد الرحمن بن عبد الملك ابن صالح وذو الرياستين الفضل بن سهل، وهو أخصهم به وأحظاهم عنده، فأشار بعضهم أن يركب في أثرهم ويردهم ومنعه الفضل من ذلك وقال: أخشى عليك منهم ولكن تكتب وترسل رسولك إليهم تذكرهم البيعة والوفاء، وتحذرهم الحنث، فبعث سهل بن صاعد ونوفلاً الخادم بكتابه إليهم بنيسابور فقرأ الفضل كتابة وقال: أنا واحد من الجند.

وشد عبد الرحمن برجليه على سهل ليطعنه بالرمح وقال: لو كان صاحبك حاضراً لوضعته فيه وسب المأمون وانصرفوا، ورجع سهل ونوفل بالخبر إلى المأمون فقال له الفضل بن سهل: هؤلاء أعداء استرحت منهم وأنت بخراسان، وقد خرج بها المقنع وبعده يوسف البر فتضعضعت لهما الدولة ببغداد، وأنت رأيت عند خروج رافع بن الليث كيف كان الحال، وأنت اليوم نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم، فاصبر وأنا أضمن لك الخلافة. فقال المأمون: قد فعلت وجعلت الأمر إليك فقال: إن عبد اللّه بن مالك والقواد أنفع مني لشهرتهم وقوتهم وأنا خادم لمن يقوم بأمرك منهم حتى ترى رأيك.

وجاءهم الفضل في منازلهم وعرض عليهم البيعة للمأمون، فمنهم من امتنع ومنهم من طرده، فرجع إلى المأمون وأخبره فقال: قم أنت بالأمر وأشار عليه الفضل أن يبعث على الفقهاء ويدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة ورد المظالم ويعقد على الصفوف ففعل جميع ذلك، وأكرم القواد. وكان يقول للتميمي: نقيمك مقام موسى ابن كعب وللربعي مكان أبي داود وخالد بن إبراهيم، ولليماني مكان قحطبة ومالك بن الهيثم، وكل هؤلاء نقباء الدولة.

ووضع عن خراسان ربع الخراج فاغتبط به أهلها وقالوا: ابن أختنا وابن عم نبينا. وأقام المأمون يتولى ما كان بيده من خراسان والري وأهدى إلى الأمين وكتب إليه وعظمه. ثم إن الأمين عزل لأول ولايته أخاه القاسم المؤتمن عن الجزيرة واستعمل عليها خزيمة بن خازم وأقر المؤتمن على قنسرين والعواصم. وكان على مكة داود بن عيسى بن موسى بن محمد، وعلى حمص إسحاق بن سليمان فخالف عليه أهل حمص وانتقل عنهم إلى سلمية فعزله الأمين وولى مكانه عبد اللّه بن سعيد الحرشي، فقتل عدة منهم وحبس عدة، واضرم النار في نواحيها، وسألوا الأمان فأجابهم، ثم انتقضوا فقتل عدة منهم ثم ولى عليهم إبراهيم بن العباس.

أخبار رافع وملوك الروم

وفي سنة ثلاث وتسعين دخل هرثمة بن أعين سمرقند وملكها وقام بها ومعه طاهر بن الحسين فاستجاش رافع بالترك فأتوه وقوي بهم. ثم انصرفوا وضعف أمره، وبلغه الحسن سيرة المأمون فطلب الأمان وحضر عند المأمون فأكرمه. ثم قدم هرثمة على المأمون فولاه الحرس وأنكر الأمين ذلك كله. وفي هذه السنة قتل نيقفور ملك الروم في حزب برجان لسبع سنين من ملكه، وملك بعده ابنه استبراق وكان جريحاً فمات لشهرين وملك بعده صهره على أخته ميخاييل بن جرجيس، ووثب عليه الروم سنة أربع وتسعين بعد اثنتين من ملكه فهرب وترهب وولوا بعده إليون القائد.

الفتنة بين الأمين والمأمون

ولما قدم الفضل بن الربيع على الأمين ونكث عهد المأمون خشي غائلته، فأجمع قطع علائقه من الأمور وأغرى الأمين بخلعه والبيعة للعهد لابنه موسى، ووافقه في ذلك علي بن عيسى بن ماهان والسندي وغيرهما ممن يخشى المأمون. وخالفهم خزيمة بن خازم وأخوه عبد الله وناشدوا الأمين في الكف عن ذلك وأن لا يحمل الناس على نكث العهود فيطرقهم لنكث عهده. ولج الأمين في ذلك، وبلغه أن المأمون عزل العباس بن عبد الله بن مالك عن الري وأنه ولى هرثمة بن أعين على الحرس وأن رافع بن الليث استأمن له فآمنه وسار في جملته فكتب إلى العمال بالدعاء لموسى ابنه بعد الدعاء للمأمون والمؤتمن، فبلغ ذلك المأمون فأسقط اسم الأمين من الطرد وقطع البريد عنه.

وأرسل الأمين إليه العباس بن موسى بن عيسى وخاله عيسى بن جعفر بن المنصور وصالحاً صاحب الموصل، ومحمد بن عيسى بن نهيك يطلب منه تقديم ابنه موسى عليه في العهد ويستقدمه. فلما قدموا على المأمون استشار كبراء خراسان فقالوا: إنما بيعتنا لك على أن لا تخرج من خراسان فأحضر الوفد وأعلمهم بامتناعه مما جاؤوا فيه. واستعمل الفضل بن سهل العباس بن موسى ليكون عيناً لهم عند الأمين ففعل، وكانت كتبه تأتيهم بالأخبار. ولما رجع الوفد عاودوه بطلب بعض كور خراسان وأن يكون له بخراسان صاحب بريد يكاتبه، فامتنع المأمون من ذلك وأوعد إلى قعوده بالري ونواحيها يضبط الطرق وينقذها من غوائل الكتب والعيون، وهو مع ذلك يتخوف عاقبة الخلاف.

وكان خاقان ملك التبت قد التوى عليه وجيفونة فارق الطاعة، وملوك الترك منعوا الضريبة، فخشي المأمون ذلك وحفظ عليه الأمر بأن يولي خاقان وجيفونة بلادهما، ويوادع ملك كابل، ويترك الضريبة لملوك الترك الآخرين. وقال له بعد ذلك: ثم اضرب الخيل بالخيل والرجال بالرجال فإن ظفرت وإلا لحقت بخاقان مستجيراً فقبل إشارته وفعلها، وكتب إلى الأمين يخادعه بأنه عامله على هذا الثغر الذي أمره الرشيد بلزومه وأن مقامه به أشد غناء ويطلب إعفاءه من الشخوص إليه، فعلم الأمين أنه لا يتابعه على مراده فخلعه وبايع لولده في أوئل سنة خمس وتسعين وسماه الناطق بالحق، وقطع ذكر المأمون والمؤتمن من المنابر وجعل ولده موسى في حجر علي بن عيسى وعلى شرطته محمد بن عيسى بن نهيك وعلى حرسه أخوه عيسى، وعلى رسائله صاحب القتلى.

وكان يدعى له على المنابر ولابنه الآخر عبد الله ولقبه القائم بالحق، وأرسل إلى الكعبة من جاء بكتابي العهد للأمين والمأمون اللذين وضعهما الرشيد هنالك، وسارت الكتب من ذلك إلى المأمون ببغداد من عيونه بها، فقال المأمون: هذه أمور أخبر الرائي عنها وكفاني أنا أن أكون مع الحق وبعث الفضل بن سهل إلى جند الري بالأقوات والإحسان، وجمع إليهم من كان بأطرافهم. ثم بعث على الري طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق أسعد الخزاعي أبا العباس أميراً وضم إليه القواد والأجناد فنزلها ووضع المسالح والمراصد، وبعث الأمين عصمة بن حماد بن سالم إلى همذان في ألف رجل، وأمره أن يقيم بهمذان ويبعث مقدمته إلى ساوة.

خروج ابن ماهان لحرب طاهر ومقتله

ثم جهز الأمين علي بن عيسى بن ماهان إلى خراسان لحرب المأمون، يقال دس بذلك الفضل بن سهل العين له عند الفضل بن الربيع، فأشار به عليهم لما في نفوس أهل خراسان من النفرة عن ابن ماهان فجدوا في حربه. ويقال حرض أهل خراسان على الكتب إلى ابن ماهان ومخادعته إن جاء. فأمره الأمين بالمسير وأقطعه نهاوند وهمذان وقم وأصبهان وسائر كور الجبل حرباً وخراجاً، وحكمه في الخزائن وأعطاه الأموال وجهز معه خمسين ألف فارس. وكتب إلى أبي دلف القاسم بن عيسى بن إدريس العجلي وهلال بن عبد الله الحضرمي في الانضمام، وركب إلى باب زبيدة ليودعها فأوصته بالمأمون بغاية ما يكون أن يوصى به، وأنه بمنزلة ابنها في الشفقة والموصلة وناولته قيداً من فضة وقالت له: إن سار إليك فقيده به مع المبالغة في البر والأدب معه.

ثم سار علي بن عيسى من بغداد في شعبان وركب الأمين يشيعه في القواد والجنود ولم ير عسكر مثل عسكره. ولقي السفر بالسابلة فأخبروه أن طاهراً بالري يعرض أصحابه، وهو مستعد للقتال. وكتب إلى ملوك الديلم وطبرستان يعدهم ويمنيهم، وأهدى لهم التيجان والأسورة على أن يقطعوا الطريق عن خراسان فأجابوا، ونزل أول بلاد الري فأشار عليه أصحابه بإذكاء العيون والطلائع، والتحصن بالخندق فقال: مثل طاهر لا يستعد له، وهو إما أن يتحصن بالري فيثب إليه أهلها، وإما أن يفر إذا قربت منه خيلنا. ولما كان من الري على عشرة فراسخ استشار أصحاب طاهر في لقائه فمالوا إلى التحصن بالري فقال: أخاف أن يثب بنا أهلها. وخرج فعسكر على خمسة فراسخ منها في أقل من أربعة آلاف فارس.

وأشار عليه أحمد بن هشام كبير جند خراسان أن ينادي بخلع الأمين وبيعة المأمون لئلا يخادعه علي بن عيسى بطاعة الأمين وأنه عامله ففعل، وقال علي لأصحابه: بادروهم فإنهم قليل ولا يصبرون على حد السيوف وطعن الرماح، وأحكم تعبية جنده وقدم بين يديه عشر رايات مع كل راية ألف رجل، وبين كل رايتين غلوة سهم ليقاتلوا نوباً. وعبى طاهر أصحابه كراديس وحرضهم وأوصاهم، وهرب من أصحاب طاهر جماعة فجلدهم علي وأهانهم، فأقصر الباقون وجدّوا في قتاله.

وأشار أحمد بن هشام على طاهر بأن يرفع كتاب البيعة على رمح ويذكر علي بن عيسى بها نكثه. ثم اشتد القتال وحملت ميمنة علي فانهزمت ميسرة طاهر وكذلك ميسرته على ميمنة طاهر فأزالوها، واعتمد طاهر القلب فهزموهم ورجعت الجنبتان منهزمة وانتهت الهزيمة إلى علي وهو ينادي بأصحابه فرماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله وجاء برأسه إلى طاهر، وحمل شلوه على خشبة وألقي في بئر بأمر طاهر. واعتق طاهر جميع غلمانه شكراً لله وتمت الهزيمة. واتبعهم أصحاب طاهر فرسخين وأقفوهم فيها اثني عشرة مرة يقتلونهم في كلها ويأسرونهم حتى جن الليل بينهم.

ورجع طاهر إلى الري وكتب إلى الفضل: كتابي إلى أمير المؤمنين ورأس علي بين يدي وخاتمه في إصبعي، وجنده متصرفون تحت أمري والسلام. وورد الكتاب على البريد في ثلاثة أيام فدخل الفضل على المأمون وهنأه بالفتح ودخل الناس فسلموا عليه بالخلافة ووصل رأس علي بعدها بيومين وطيف به في خراسان، ووصل الخبر إلى الأمين بمقتل علي هزيمة العسكر فأحضر الفضل بن الربيع وكيل المأمون ببغداد وهو نوفل الخادم فقبض ما بيده من ضياعه وغلاته وخمسين ألف ألف درهم كان الرشيد وصاه بها وندم الأمين على فعله، وسعت الجند والقواد في طلب الأرزاق فهم عبد الله بن حاتم بقتالهم فمنعه الأمين وفرق فيهم أموالاً.

مسير ابن جبلة إلى طاهر ومقتله

ولما قتل علي بن عيسى بعث الأمين عبد الرحمن بن الأنباري في عشرين ألف فارس إلى همذان، وولاه عليها وعلى كل ما يفتحه من بلاد خراسان وأمده بالمال، فسار إلى همذان وحصنها وجاءه طاهر فبرز إليه ولقيه، فهزمه طاهر إلى البلد. ثم خرج عبد الرحمن ثانية فانهزم إلى المدينة وحاصره طاهر حتى ضجر منه أهل المدينة وطلب الأمان من طاهر وخرج من همذان. وكان طاهر عند نزوله عليها قد خشي من صاحب قزوين أن يأتيه من ورائه فجهز العسكر على همذان وسار إلى قزوين في ألف فارس ففر عاملها وملكها ثم ملك همذان وسائر أعمال الجبل وأقام عبد الرحمن بن جبلة في أمانه. ثم أصاب منه بعض الأيام غرة فركب وهجم عليه في عسكر فقاتله طاهر أشد القتال حتى انهزم أصحابه وقتل ولحق فلهم بعبد الله وأحمد ابني الحريشي في عسكر عظيم بعثهما الأمين مدداً لعبد الرحمن فانهزموا جميعاً إلى بغداد. وأقبل طاهر نحو البلاد وحده وأخذه إلى حلوان فخندق بها وجمع أصحابه.

بيعة المأمون

وأمر المأمون عندها بأن يُخطب له على المنابر ويخاطب بأمير المؤمنين وعقد للفضل بن سهل على المشرق كله من جبل همذان إلى البيت طولاً ومن بحر فارس إلى بحر الديلم وجرجان عرضاً وحمل له عماله ثلاثة آلاف ألف درهم. وعقد له لواء ذا شعبتين ولقبه ذا الرياستين يعني: الحرب والعلم، وحمل اللواء علي بن هشام، وحمل العلم نعيم بن خازم وولى أخاه الحسن بن سهل ديوان الخراج.

ظهور السفياني

هو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ويلقب أبا العميطر لأنه زعم أنها كنية الحِرْدون فلقبوه بها، وكانت أمه نفيسة بنت عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب وكان يقول: أنا ابن شيخي صفين يعني: علياً ومعاوية، وكان من بقايا بني أمية بالشام وكان من أهل العلم والرواية فادعى لنفسه بالخلافة آخر سنة خمس وتسعين وأعانه الخطاب بن وجه العلس مولى بني أمية، كان متغلباً على صيدا فملك دمشق من يد سليمان بن المنصور، وكان أكثر أصحابه من كلب. وكتب إلى محمد بن صالح بن بيهس يدعوه ويتهدده فأعرض عنه.

وقصد السفياني القيسية فاستجاشوا بمحمد بن صالح فجاءهم في ثلاثمائة فارس من الصبات ومواليه. وبعث السفياني يزيد بن هشام للقائهم في اثني عشر ألفاً فانهزم يزيد وقتل من أصحابه ألفان وأسر ثلاثة آلاف أطلقهم ابن بيهس وحلقهم. ثم جمع جمعاً مع ابنه القاسم وخرجوا إلى ابن بيهس فانهزموا وقتل القاسم وبعث برأسه إلى الأمين. ثم جمع جمعاً آخر وخرجوا مع

مولاه المعتمر فانهزموا وقتل المعتمر فوهن أمر السفياني وطمعت فيه قيس. ثم إن ابن بيهس مرض فجمع رؤساء بني نمير وأوصاهم ببيعة مسلمة بن يعقوب بن علي بن محمد بن سعد بن مسلمة بن عبد الملك بالخلافة. وقال لهم: تولوه وكيدوا به السفياني فإنكم لا تتقون بأهل بيته. وعاد ابن بيهس إلى حوران واجتمعت نمير على مسلمة فبايعوه فقتل منهم وجمع مواليه ودخل على السفياني فقيده وحبس رؤساء بني أمية، وأدنى القيسية وجعلهم بطانة. وأفاق ابن بيهس من مرضه فجاء إلى دمشق وحاصرها وسلمها له القيسية في محرم سنة ثمان وتسعين وهرب مسلمة والسفياني إلى المزة وملك ابن بيهس دمشق إلى أن قدم عبد الله بن طاهر دمشق وسار إلى مصر ثم عاد إليها فاحتمل ابن بيهس معه إلى العراق ومات بها.

مسير الجيوش إلى طاهر ورجوعهم بلا قتال

ولما قتل عبد الرحمن بن جبلة أرسل الفضل بن الربيع إلى أسد بن يزيد بن مزيد ودعاه لحرب طاهر بعد أن ولي الأمين الخلافة، وشكر لأسد فضل الطاعة والنصيحة وشدة البأس ويمن النقية، وطلب منه أرزاق الجند من المال لسنة، وألف فرس تحمل من معه بعد إزاحته عللهم بالأموال، وأن لا يطلب بحسبان ما يفتتح. فقال: قد أشططت! ولا بد من مناظرة أمير المؤمنين ثم ركب ودخل على الأمين فأمر بحبسه، وقيل إنه طلب ولدي المأمون كانا عند أمهما ابنة الهادي ببغداد بحملهما معه، فإن أطاعه المأمون وإلا قتلهما.

فغضب الأمين لذلك وحبسه، واستدعى عبد الله بن حميد بن قحطبة فاشتط كذلك فاستدعى أحمد بن مزيد واعتذر له عن حبس أسد وبعثه لحرب طاهر، وأمر الفضل بأن يجهز له عشرين ألف فارس وشفع في أسد بن أخيه فأطلقه.

ثم سار وسار معه عبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً أخرى، وانتهوا إلى حلوان وأقاموا..... وطاهر بموضعه ودس المرجفين في عسكرهم بأن العطاء والمنع ببغداد والجند يقبضون أرزاقهم. حتى مشى الجند بعضهم إلى بعض، واختلفوا واقتتلوا ورجعوا من غير لقاء. وتقدم طاهر فنزل حلوان وجاءه هرثمة في جيش من عند المأمون ومعه كتاب بأن يسلم إلى هرثمة ما ملكه من المدن ويتقدم إلى الأهواز ففعل ذلك.

أمر عبد الملك بن صالح وموته

قد تقدم لنا حبس عبد الملك بن صالح إلى أن مات الرشيد وأخرجه الأمين، ولما كان أمر طاهر جاء عبد الملك إلى الأمين وأشار عليه بأن يقدم أهل الشام لحربه، فهم أجرأ من أهل العراق وأعظم نكاية في العدو، وضمن طاعتهم بذلك، فولاه الأمين أهل الشام والجزيرة وقر له بالمال والرجال واستحثه، فسار إلى الرقة وكاتب أهل الشام فتسالموا إليه فأكرمهم وخلع عليهم وكثرت جموعه. ثم مرض واشتد مرضه ووقعت فتنة في عسكره بين الخراسانيين وأهل الشام بسبب دابة أخذت لبعضهم في وقعة سليمان بن أبي جعفر وعرفها عند بعض أهل الشام، فاقتتلوا وأرسل إليهم عبد الملك بالقتل فلم يقتلوا، فأكثر القتل وأظهر عبد الملك النصرة للشاميين وانتقض الحسين بن علي للخراسانيين، وتنادى الناس بالرجوع إلى بلادهم فمضى أهل حمص وقبائل كلب فانهزم أهل الشام وأقام عبد الملك بن صالح بالرقة، توفي بها.

خلع الأمين وإعادته

ولما مات عبد الملك بن صالح نادى الحسين بن علي في الجند بالرحيل إلى بغداد وقدمها فلقيه القواد ووجوه الناس ودخل منزله واستدعاه الأمين من جوف الليل فامتنع وأصبح، فوافى باب الجسر وأغراهم بخلع الأمين وحذرهم من نكثة ثم أمرهم بعبور الجسر فعبروا ولقيه أصحاب الأمين فانهزموا، وذلك منتصف رجب سنة ست، وأخذ البيعة للمأمون من الغد ووثب العباس بن عيسى بن موسى بالأمين فأخرجه من قصر الخلد وحبسه بقصر المنصور ومعه أمه زبيدة، فلما كان من الغد طلب الناس أرزاقهم من الحسين وماج بعضهم في بعض، وقام محمد بن أبي خالد فنكر استبداد الحسين بخلع الأمين وليس بذي منزلة ولا حسب ولا نسب ولا غنائم.

وقال أسد الحربي: قد ذهب أقوام بخلع الأمين فاذهبوا أنتم بفكه يا معشر الحربية، فرجع الناس على أنفسهم باللائمة وقالوا: ما قتل قوم خليفتهم إلا سلط الله عليهم السيف. ثم نهضوا إلى الحسين وتبعهم أهل الأرض فقاتلوه قتالاً شديداً وأسروه ودخل أسد الحربي إلى الأمين وكسر قيوده وأجلسه على أريكته، وأمرهم الأمين بلبس السلاح فانتهبه الغوغاء وجيء بالحسين إليه أسيراً، فاعتذر إليه وأطلقهم وأمر بجمع الجند والمسير إلى طاهر وخلع

عليه ما وراء بابه ووقف الناس يهتنونه بباب الجسر حتى إذا خف عنه الناس قطع الجسر وهرب. وركب الجند في طلبه وأدركوه على فرسخ من بغداد وقتلوه وجاؤوا برأسه إلى الأمين واختفى الفضل بن الربيع عند ذلك فلم يوقف له على خبر.

استلاء طاهر على البلاد

ولما جاء كتاب المأمون بالمسير إلى الأهواز قدم إليها الحسين بن عمر الرستمي وسار في أثره وأتته عيونه بأن محمد بن يزيد بن حاتم قد توجه من قبل الأمين في جند ليحمي الأهواز من أصحاب طاهر، فبعث من أصحابه محمد بن طالوت ومحمد بن العلاء والعباس بن بخارا أخذاه مدداً للرستمي. ثم أمدهم بقريش بن شبل ثم سار بنفسه حتى كان قريباً منهم وأشرفوا على محمد بن يزيد بعسكر مكرم وقد أشار إليه أصحابه بالرجوع إلى الأهواز والتحصن بها حتى تأتيه قومه الأزد من البصرة، فرجع وأمر طاهر قريش بن شبل باتباعه قبل أن يتحصن بالأهواز، فخرج لذلك وفاته محمد بن يزيد إلى الأهواز وجاء على أثره فاقتتلوا قتالاً شديداً، وفر أصحاب محمد واستمات هو ومواليه حتى قتلوا.

وملك طاهر الأهواز وولّي على اليمامة والبحرين وعمان ثم سار إلى واسط وبها السندي بن يحيى الحرشي والهيثم بن شعبة خليفة خزيمة بن حازم، فهربا عنها وملكها طاهر وبعث قائداً من قواده إلى الكوفة وبها العباس بن الهادي، فخلع الأمين وبايع للمأمون وكتب بذلك إلى طاهر، وكذلك فعل المنصور بن المهدي بالبصرة والمطلب بن عبد اللّه بن مالك بالموصل، وأقرهم طاهر على أعمالهم.

وبعث الحارث بن هشام وداود بن موسى إلى قصر ابن هبيرة وأقام بجرجايا ولما بلغ الخبر بذلك إلى الأمين بعث محمد بن سليمان القائد ومحمد بن حماد البربري إلى قصر ابن هبيرة فقاتلهم الحارث وداود قتالاً شديداً وهزموهم إلى بغداد. وبعث الأمين أيضاً الفضل بن موسى على الكوفة، فبعث إليه طاهر بن العلاء في جيش فلقيه في طريقه فأراد مسالمته بطاعة المأمون كياداً ثم قاتله فانهزم إلى بغداد. ثم سار طاهر إلى المدائن وعليها البرمكي والمدد متصل له كل يوم. فقدم قريش بن شبل، فلما أشرف عليهم وأخذ البرمكي في التعبية فكانت لا تتم له، فأطلق سبيل الناس وركب بعضهم بعضاً نحو بغداد، وملك طاهر المدائن ونواحيها ثم نزل صرصر وعقد بها أسراً.

بيعة الحجاز للمأمون

ولما أخذ الأمين كتب العهد من مكة وأمر داود بن عيسى وكان على مكة والمدينة بخلع المأمون قام في الناس ونكر نقض العهد، وذكرهم ما أخذ الرشيد عليهم من الميثاق لابنيه في المسجد الحرام أن يكونوا على الظالم، وأن محمداً بدأ بالظلم والنكث وخلع أخويه وبايع لطفل صغير رضيع، وأخذ الكتابين من الكعبة فحرقهما ظلماً ثم دعا إلى خلعه والبيعة للمأمون فأجابوه، ونادى بذلك في شعاب مكة وخطبهم. وكتب إلى ابنه سليمان بالمدينة بمثل ذلك ففعله، وذلك في رجب سنة ست وتسعين. وسار من مكة على البصرة وفارس وكرمان إلى المأمون وأخبره فسُرَّ بذلك وولاه مكانه وأضاف إليه ولاية عك وأعطاه خمسمائة ألف درهم وسير معه ابن أخيه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى على الموسم ويزيد بن جرير بن مزيد بن خالد القسري في جند كثيف عاملاً على اليمن ومروا بطاهر وهو محاصر بغداد فأكرمهم وأقام يريد اليمن فبايعوه للمأمون وأطاعوه.

حصار بغداد واستيلاء طاهر عليها ومقتل الأمين

ولما اتصلت بالأمين هذه الأحوال وقتل الحسين بن علي بن عيسى، شمر لحرب طاهر واستعد له وعقد في شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة..... شتى وأمر عليهم علي بن محمد بن عيسى بن نهيك، وأمرهم بالمسير إلى هرثمة فساروا إليه والتقوا بنواحي النهروان في رمضان فانهزموا وأسر قائدهم علي بن محمد فبعث به هرثمة إلى المأمون وترك النهروان، وأقام طاهر بصرصر والجيوش تتعاقب من قبل الأمين فيهزمها. ثم بذل الأمين الأموال ليستفسد بها عساكرهم فسار إليه من عسكر طاهر نحو من خمسة آلاف ففرق فيهم الأموال وقود جماعة من الحربية ودس إلى رؤساء الجند في عسكر طاهر ورغبهم فشغبوا على طاهر وسار كثير منهم إلى الأمين، وانضموا إلى قواد الحربية وقواد بغداد وساروا إلى صرصر. فعبى أصحابه كراديس وحرضهم ووعدهم.

ثم تقدم فقاتلهم ملياً من النهار وانهزم أصحاب الأمين، وغنم أصحاب طاهر عسكرهم. ولما وصلوا إلى الأمين فرق فيهم الأموال وقود منهم جماعة ولم يعط المنهزمين شيئاً ودس إليهم طاهر واستمالهم فشغبوا على الأمين فأمر هؤلاء المحدثين بقتالهم وطاهر يراسلهم وقد أخذ رهائنهم على الطاعة، وأعطاهم

الأموال. فسار فنزل باب الأنبار بقواده وأصحابه واستأمن إليه كثير من جند الأمين، وثارت العامة وفتقت السجون، ووثب الشطار على الأخيار ونزل زهير بن مسيب الضبي من ناحية ونصب المجانيق والعرادات، وحفر الخنادق ونزل هرثمة بناحية أخرى وفعل مثل ذلك.

ونزل عبيد الله بن الوضاح بالشماسية ونزل طاهر بباب الأنبار فضيق على الأمين بمنزلة ونفد ما كان بيد الأمين من الأموال، وأمر ببيع ما في الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة ليفرقها في الجند، وأحرق الحديثة فمات بها خلق، واستأمن سعيد بن مالك بن قادم إلى طاهر فولاه الأسواق وشاطئ دجلة، وأمره بحفر الخنادق وبناء الحيطان وكل ما غلب عليه من الدروب، وأمده بالرجال والأموال. ووكل الأمين بقصر صالح وقصر سليمان بن المنصور إلى دجلة بعض قواده فألح في إحراق الدور والرمي بالمجانيق وفعل طاهر مثل ذلك. وكثر الخراب ببغداد وصار طاهر يخندق على ما يمكنه من النواحي ويقاتل من لم يجبه، وقبض ضياع من لم يخرج إليه من بني هاشم والقواد وعجز الأجناد عن القتال.

وقام به الباعة والعيارون وكانوا ينهبون أموال الناس. واستأمن إليه القائد الموكل بقصر صالح فأمنه وسلم إليه ما كان بيده من تلك الناحية في جمادى الأخيرة من سنة سبع. واستأمن إليه محمد بن عيسى صاحب الشرطة فوهن الأمين. واجتمع العيارون والباعة والأجناد وقاتلوا أصحاب طاهر في قصر صالح، وقتلوا منهم خلقاً وكاتب طاهر القواد بالأمان وبيعة المأمون فأجابه بنو قحطبة كلهم ويحيى بن علي بن ماهان ومحمد بن أبي العباس الطائي وغيرهم. وفشل الأمين وفوض الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الحسن الهرش، ومعهم الغوغاء يتولون أمر تلك الفتنة. وأجفل الناس من بغداد وافترقوا في البلاد.

ولما وقع بطاهر في قصر صالح ما وقع بأصحابه شرع في هدم المباني وتخريبها ثم قطع الميرة عنهم وصرف السفن التي تحمل فيها إلى الفرات. فغلت الأسعار وضاق الحصار واشتد كلب العيارين فهزموا عبيد الله بن الوضاح وغلبوه على الشماسية. وجاء هرثمة ليعينه فهزموه أيضاً وأسروه ثم خلصه أصحابه. وعقد طاهر جسراً فوق الشماسية وعبر إليهم وقتلهم أشد قتال فردهم على أعقابهم، وقاتل منهم بشراً كثيراً وعاد ابن الوضاح إلى مركزه وأحرق منازل الأمين بالخيزرانية، وكانت النفقة فيها بلغت عشرين ألف درهم. وأيقن الأمين بالهلاك وفر منه عبد الله بن حازم ابن خزيمة إلى المدائن لأنه اتهمه وحمل عليه السفلة والغوغاء.

ويقال: بل كاتبه طاهر وقبض ضياعه فخرج عن الأمين وقصد الهرش ومن معه جزيرة العباس من نواحي بغداد فقاتلهم بعض أصحاب طاهر وهزموهم وغرق منهم خلق كثير وضجر الأمين وضعف أمره وسار المؤتمن بن الرشيد إلى المأمون فولاه جرجان وكاتب طاهر خزيمة بن حازم ومحمد بن علي بن موسى بن ماهان وأدخلهما في خلع الأمين فأجاباه ووثبا آخر محرم من سنة ثمان وتسعين فقطعا جسر دجلة وخلع الأمين وبعث إلى هرثمة وكان بإزائهما فسار إليهما من ناحيته ودخل عسكر المهدي وملكه وقدم طاهر من الغد إلى المدينة والكرخ فقاتلهم وهزمهم وملكها عنوة ونادى بالأمان ووضع الجند بسوق الكرخ وقصر الوضاح وأحاط بمدينة المنصور وقصر زبيدة وقصر الخلد من باب الجسر إلى باب البصرة وشاطئ الصراة إلى مصبها في دجلة ونصب عليها المجانيق.

واعتصم الأمين في أمه وولده بمدينة المنصور، اشتد عليه الحصار وثبت معه حاتم بن الصقر والحرشي والأفارقة. وافترق عامة الجنود والخصيان والجواري في الطرق وجاء محمد بن حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الأفريقي إلى الأمين وقالا له: بقي من خيلك سبعة آلاف فرس نختار سبعة آلاف ونجعلهم عليها ونخرج على بعض الأبواب ولا يشعر بنا أحد ونلحق بالجزيرة والشام فيكون ملك جديد، وربما مال إليك الناس ويحدث الله أمراً فاعتزم على ذلك وبلغ الخبر إلى طاهر فكتب إلى سليمان بن المنصور ومحمد بن عيسى بن نهيك والسندي بن شاهك يتهددهم إن لم يصرفوه عن ذلك الرأي. فدخلوا على الأمين وحذروه من ابن الصقر وابن الأغلب أن يجعل نفسه في أيديهم فيتقربوا به إلى طاهر وأشاروا عليه بطلب الأمان على يد هرثمة بن أعين والخروج إليه وخالفهم إليه ابن الصقر وابن الأغلب.

وقالوا له: إذا ملت إلى الخوارج فطاهر خير لك من هرثمة فأبى وتطير من طاهر وأرسل إلى هرثمة يستأمنه. فأجابه أنه يقاتل في أمانة المأمون فمن دونه وبلغ ذلك طاهراً فعظم عليه أن يكون الفتح لهرثمة واجتمع هو وقواده لهرثمة وقواده في منزل خزيمة بن حازم، وحضر سليمان والسندي وابن نهيك وأخبروا طاهراً أنه لا يخرج إليه أبداً وأنه يخرج إلى هرثمة ويدفع إليه الخاتم والقضيب والبردة وهو الخلافة فرضي.

ثم جاءه الهرش وأسر إليه أنهم يخادعونه وأنهم يحملونها مع الأمين إلى هرثمة فغضب وأعد رجالاً حول قصور الأمين،

ويبعث إليه هرثمة لخمس بقين من محرم سنة ثمان وتسعين بأن يتربص ليلة لأنه رأى أولئك الرجال بالشط فقال: قد افترق عني الناس ولا يمكنني المقام لئلا يدخل علي طاهر فيقتلني. ثم ودع ابنيه وبكى وخرج إلى الشط وركب حراقة هرثمة. وجعل هرثمة يقبل يديه ورجليه وأمر بالحراقة أن تدفع وإذا بأصحاب طاهر في الزواريق فشدوا عليها ونقبوها ورموهم بالآجر والنشاب فلم يرجعوا ودخل الماء إلى الحراقة فغرقت.

قال أحمد بن سالم صاحب المظالم: فسقط الأمين وهرثمة وسقطنا فتعلق الملاح بشعر هرثمة وأخرجه وشق الأمين ثيابه. قال: وخرجت إلى الشط فحملت إلى طاهر فسألني عن نفسي فانتسبت وعن الأمين فقلت غرق فحملت إلى بيت وحبست فيه حتى أعطيتهم مالاً فاديتهم به على نفسي. فبعد ساعة من الليل فتحوا علي الباب وأدخلوا علي الأمين عريان في سراويل وعمامة وعلى كتفه خرقة فاسترجعت وبكيت. ثم عرفني فقال: ضمني إليك فإني أجد وحشة شديدة، فضممته وقلبه يخفق فقال: يا أحمد! ما فعل أخي؟ فقلت: حي قال: قبح الله بريدهم كان يقول قد مات، يريد بذلك العذر عن محاربته فقلت: بل قبح الله وزراءك، فقال: تراهم يفون لي بالأمان؟ قلت: نعم إن شاء الله.

ثم دخل محمد بن حميد الطاهري فاستثبتنا حتى عرفه وانصرف، ثم دخل علينا منتصف الليل قوم من العجم منتضين سيوفهم فدافع عن نفسه قليلاً ثم ذبحوه ومضوا برأسه إلى طاهر ثم جاؤوا من السحر فأخذوا جثته. ونصب طاهر الرأس حتى رآه الناس ثم بعث به إلى المأمون مع ابن عمه محمد بن الحسن بن مصعب ومعه الخاتم والبردة والقضيب وكتب معه بالفتح فلما رآه المأمون سجد.

ولما قتل الأمين نادى طاهر بالأمان ودخل المدينة يوم الجمعة فصلى بالناس وخطب للمأمون وذم الأمين، ووكل بحفظ القصور الخلافية، وأخرج زبيدة أم الأمين وابنيه موسى وعبد الله إلى بلاد الزاب الأعلى. ثم أمر بحمل الولدين إلى المأمون وندم الجند على قتله وطالبوا طاهراً بالأموال فارتاب بجند بغداد وبجنده أنهم تواطؤوا عليه وثاوروا به لخمس من قتل الأمين. فهرب إلى عقرقوبا ومعه جماعة من القواد ثم تعبى لقتالهم فجاؤوا واعتذروا وأحالوا على السفهاء والأحداث فصفح عنهم وتوعدهم أن يعودوا لمثلها، وأعطاهم أربعة أشهر. واعتذر إليه مشيخة بغداد وحلفوا أنهم لم يدخلوا الجند في شيء من ذلك، فقبل منهم ووضعت أهل الحرب أوزارها واستوسق الأمر للمأمون في سائر الأعمال والممالك.

ثم خرج الحسن الهرش في جماعة من السفلة واتبعه كثير من بوادي الأعراب ودعا إلى الرضا من آل محمد وأتى النيل فجبى الأموال ونهب القرى وولى المأمون الحسن بن سهل أخا الفضل على ما افتتحه طاهر من كور الجبل والعراق وفارس الأهواز والحجاز واليمن، فقدم سنة تسعة وتسعين وفرق العمال وولى طاهراً على الجزيرة والموصل والشام والمغرب وأمره أن يسير إلى قتال نصر بن شبيب، وأمر هرثمة بالمسير إلى خراسان وكان نصر بن شبيب من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر في كيسوم شمالي حلب، وكان له ميل إلى الأمين. فلما قتل أظهر الوفاء له بالبيعة وغلب على ما جاوره من البلاد، وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وعبر إلى شرقي العراق وحصر حران.

وسأل منه شيعة الطالبيين أن يبايعوا لبعض آل علي لما رأوه من بني العباس ورجالهم وأهل دولتهم وقال: والله لا أبايع أولاد السوداوات، فيقول: إنه خلقني ورزقني. قالوا: فبعض بني أمية قال: قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل ولو سلم علي رجل مدبر لأعداني بإدباره، وإنما هواي في بني العباس، وإنما حاربتهم لتقديمهم العجم على العرب. ولما سار إليه طاهر نزل الرقة وأقام بها وكتب إليه يدعوه إلى الطاعة وترك الخلاف فلم يجبه وجاء الخبر إلى طاهر في الرقة بوفاة أبيه الحسين بن زريق بن مصعب بخراسان وأن المأمون حضر جنازته، ونزل الفضل قبره وجاءه كتاب المأمون يعزيه فيه.

وبعد قتل الأمين كانت الوقعة بالموصل بين اليمانية والنزارية وكان علي بن الحسن الهمداني متغلباً على الموصل فعسف بالنزارية وسار عثمان بن نعيم البرجمي إلى ديار مصر وشكا إلى أحيائهم واستنفرهم فسار معه من مصر عشرون ألفاً وأرسل إليهم علي بن الحسن بالرجوع إلى ما يريدون، فأبى عثمان فخرج علي في أربعة آلاف فهزمهم وأثخن فيهم وعاد إلى البلد.

ظهور ابن طباطبا العلوي

لما بعث المأمون الحسن بن سهل إلى العراق وولاه على ما كان افتتحه طاهر من البلاد والأعمال تحدث الناس أن الفضل بن سهل غلب على المأمون واستبد عليه وحجبه عن أهل بيته وقواده، فغضب بنو هاشم ووجوه الناس واجترؤوا على الحسن بن سهل وهاجت الفتنة وكان أبو السرايا السري بن منصور ويذكر أنه من بني شيبان من ولد هانئ بن قبيصة بن هانئ بن

مسعود، وقيل: من بني تميم بالجزيرة وطلب فعبر إلى شرقي الفرات وأقام هناك يخيف السابلة، ثم لحق بيزيد بن مزيد بأرمينية في ثلاثين فارساً فقوده وقاتل معه الحرمية وأسر منهم وأخذ منهم غلامه أبا الشوك.

ومات يزيد بن مزيد فكان مع ابنه أسد وعزل أسد فسار إلى أحمد بن مزيد. ولما بعث الأمين أحمد بن مزيد لحرب هرثمة بعثه طليعة إلى عسكره، فاستماله هرثمة فمال إليه ولحق به وقصد بني شيبان مع الجزيرة واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة واجتمع إليه أزيد من ألفي فارس. فلما قتل الأمين تعصى هرثمة عن أرزاقهم فغضب واستأذن في الحج فأذن له وأعطاه عشرين ألف درهم ففرقها في أصحابه ومضى وأوصاهم باتباعه، فاجتمع له منهم نحو مائتين وسار إلى عين التمر فأخذوا عاملها وقسموا ماله ولقوا عاملاً آخر بمال موفور على ثلاثة أنفار فاقتسموه.

وأرسل هرثمة عسكراً خلفه فهزمهم ودخل البرية ولحق به من تخلف من أصحابه فكثر جمعه وسار نحو دقوقا وعليها أبو ضرغامة في سبعمائة فارس فخرج وقاتله فهزمه ورجع إلى القصر فحاصره أبو السرايا حتى نزل على الأمان وأخذ أمواله. وسار إلى الأنبار وعليها إبراهيم الشروي مولى المنصور فقتله وأخذ ما فيها وعاد إليها عند إدراك الغلال فافتتحها. ثم قصد الرقة ومر بطوق بن مالك الثعلبي فاستجاشه على قيس فأقام عنده أربعة أشهر يقاتل قيساً بعصبية ربيعة حتى انقادت قيس إلى طوق.

وسار أبو السرايا إلى الرقة فلقي محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وتلقب أبوه إبراهيم طباطبا فدعاه إلى الخروج، وأنفذ إلى الكوفة فدخلاها وبايعهم أهلها على بيعة الرضا من آل محمد، نهب أبو السرايا قصر العباس بن موسى بن عيسى، وأخذ ما فيه من الأموال والجواهر مما لا يحصى، وذلك منتصف جمادى الأخيرة سنة تسع وتسعين، وقيل: إن أبا السرايا مطله هرثمة بأرزاق أصحابه فغضب ومضى إلى الكوفة فبايع ابن طباطبا. ولما ملك الكوفة هرع إليه الناس والأعراب من النواحي فبايعوه، وكان عليها سليمان بن المنصور من قبل الحسن بن سهل فبعث إليه زهير بن المسيب الضبي في عشرة آلاف وخرج إليه ابن طباطبا وأبو السرايا فهزموه واستباحوا عسكره وأصبح محمد بن طباطبا من الغد ميتاً فنصب أبو السرايا مكانه غلاماً من العلوية، وهو محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين واستبد عليه.

ورجع زهير إلى قصر ابن هبيرة فأقام به وبعث الحسن بن سهل عبدوس بن محمد بن خالد المروروذي في أربعة آلاف فلقيه أبو السرايا منتصف رجب وقتله ولم يفلت من أصحابه أحد كانوا بين قتيل وأسير، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة وبعث جيوشاً إلى البصرة وواسط، وولى على البصرة العباس بن محمد بن عيسى بن محمد الجعفري، وعلى مكة الحسين الأفطس بن الحسن بن علي زين العابدين وجعل إليه الموسم. وعلى اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق، وعلى فارس إسماعيل بن موسى بن جعفر الصادق، وعلى الأهواز زيد بن موسى الصادق، فسار إلى البصرة وأخرج عنها العباس بن محمد بن داود بن الحسن المثنى إلى المدائن وأمره أن يأتي بغداد من الجانب الشرقي ففعل.

وكان بواسط عبد اللّه بن سعد الحرشي من قبل الحسن بن سهل ففر أمامهم وبعث الحسن بن سهل إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبي السرايا، وكان قد سار إلى خراسان مغاضباً له، فرجع بعد امتناع، وسار إلى الكوفة في شعبان وبعث الحسن إلى المدائن وواسط علي بن أبي سعيد وأبلغ الخبر أبا السرايا وهو بقصر ابن هبيرة فوجه جيشاً إلى المدائن فملكوها في رمضان. وتقدم فنزل نهر صرصر وعسكر هرثمة بإزائه غدوة. وسار علي بن أبي سعيد في سؤال المدائن فحاصر بها أصحاب أبي السرايا، ورجع هو من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة وهرثمة وأتباعه، ثم حصره وقتل جماعة من أصحابه فانحاز إلى الكوفة ووثب الطالبيون على دور بني العباس وشيعتهم فنهبوها وخربوها وأخرجوهم واستخرجوا ودائعهم عند الناس، وكان على مكة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي، فلما بلغه قدوم حسين الأفطس جمع شيعة بني العباس.

وكان مسرور الكبير قد حج في مائة فارس فتعبى للحرب ودعا داود إلى حربهم فقال: لا أستحل ذلك في الحرم وخرج إلى العراق وتبعه مسرور. وكان حسين الأفطس بسَرْفٍ يخاف دخول مكة فبلغة الخبر أن مكة قد خلت من بني العباس فدخل في عشرة أنفس وطاف وسعى ووقف بعرفه ليلاً وأتم الحج. وأقام هرثمة بنواحي الكوفة يحاصرها، واستدعى منصور بن المهدي وكاتب رؤساء الكوفة وسار علي بن سعيد من المدائن إلى واسط فملكها، ثم توجه إلى البصرة واشتد الحصار على أبي السرايا بالكوفة فهرب عنها في ثمانمائة فارس ومعه صاحبه الذي نصبه وهو محمد بن جعفر بن محمد.

ودخلها هرثمة منتصف محرم فأقام بها يوماً وولى عليها غسان صاحب الحرس بخراسان وعاد وقصد أبو السرايا القادسية وسار منها إلى السوس ولقي بخراسان مالاً حُمِل من الأهواز فقسمه في أصحابه. وكان على الأهواز الحسن بن علي المأموني،

فخرج إليه فقاتله فهزمه وافترق أصحابه وجاء إلى المعتزلـه بـرأس عين من جلولاء ومعه صاحبه محمد وغلامه أبو الشوك فظفر بهـم حماداً الكندغوش وجاء بهم إلى الحسن بن سهل في النهروان فقتـل أبا السرايا وبعث برأسه إلى المأمون، وبصاحبه محمد معـه، ونصـب شلوه على جسر بغداد.

وسار علي بن أبي سعيد إلى البصرة فملكها من يد زيد بـن موسى بن جعفر الصادق، وكان يسمى زيد النار لكثرة مـا أحـرق من دور العباسيين وشيعتهم فاستأمن إليه زيد فأمنه وأخذه، وبعث الجيوش إلى مكة والمدينة واليمن لقتال من بها من العلويين، وكـان إبراهيم بن موسى بن جعفـر بمكـة فلمـا بلغـه خبـر أبي السـرايا ومقتله ولى وسار إلى اليمن وبها إسـحاق بـن موسـى بـن عيسـى فهرب إلى مكة، واستولى إبراهيم على اليمن وكـان يسـمى الجـزار لكثرة قتله وفتكه. ثم بعث رجلاً من وُلْد عقيل بن أبي طـالـب إلى مكة ليحج بالناس وقد جاء لذلك أبو الحسـن المعتصم في جماعـة من القواد فيهم حدوية بن علي بن عيسى بـن ماهـان والياً علـى اليمن مـن قبـل الحسـن بـن سـهل، فخام العقيلي عـن لقـائهم واعـترض قافلـة الكسـوة فأخذهـا ونهـب أمـوال التجار ودخـل الحجاج إلى مكة عراة فبعث الخلودي من القواد فصبحهم وهزمهم وأسر منهم وتفقد أموال التجار وكسـوة الكعبـة وطيبهـا وضـرب الأسراء عشرة أسواط لكل واحد وأطلقهم وحج المعتصم بالناس.

بيعة محمد بن جعفر بمكة

هو محمد بن جعفر الصادق بن محمد البـاقر بـن علـي زيـن العابدين ويلقب الديباجة، وكان عالماً زاهداً ويروي عن أبيه وكـان الناس يكتبون عنه. ولما ملك الحسـين الأفطـس مكـة كمـا ذكرنـاه عاث فيها ونزع كسوة الكعبة وكساها بأخرى من الغد أنفذها أبـو السرايا من الكوفة وتتبع ودائع بني العباس وجعلهـا ذريعـة لأخـذ أموال الناس فخرجوا من مكة. وقلع أصحابه شبابيك الحرم وقلع ما على الأساطين من الذهب واسـتخرج مـا كـان في الكعبـة مـن المال فقسمه في أصحابه وساء أثره في الناس.

فلما قتل أبو السرايا تنكروا له فخشي على نفسه فجـاء إلى محمد بن جعفر ليبايع له بالخلافـة فلـم يـزل بـه هـو وابنـه حسـن واستعانا عليه بابنه علي حتى بايعوه ودعوه بأمير المؤمنين. واسـتبد عليه ابنه علي وابن الأفطس بأسوأ مما كان قبل، وأفحشوا في الزنـا واللواط واغتصاب النساء والصبيان، فـاجتمع النـاس علـى خلـع محمد بن جعفر أو يرد إليهم ابن القاضي كان مغتصبـاً ببيـت ابنـه علي، فاستأمنهم حتى ركب إلى بيت ابنه وسلم إليهم الغلام.

وجاء إسحاق بن موسـى بـن عيسـى مـن اليمـن فـاجتمع الناس وخندقوا مكة وقـاتلهم إسحاق وامتنعـوا عليـه فسـار نحـو العراق ولقي الجنـد الذيـن بعثهـم هرثمـة إلى مكـة مـع الجلـودي ورجاء بن جميل، وهو ابن عم الحسين بن سهل. فرجع بهم وقاتل الطالبيين فهزمهم وافترقوا، واستأمن إليـه محمـد بـن جعفـر فأمنـه وملك مكة وسار محمد بن جعفر إلى الجحفة، ثـم إلى بـلاد جهينـة فجمع وقاتل هارون بن المسيب والي المدينة، فانهزم محمـد وفقئـت عينه وقتل خلـق مـن أصحابـه ورجـع إلى موضعـه. ولمـا انقضـى الموسم اسـتأمن الجلـودي ورجـاء بـن جميـل فأمنـاه ودخـل مكـة وخطب واعتذر عما فعله بأنه بلغه موت المأمون ثم صح أنه حي، وخلع نفسه وسار إلى الحسن والي المأمون بمرو فلم يـزل عنـده إلى أن سار المأمون إلى العراق فمات بجرجان في طريقه.

مقتل هرثمة

لما فرغ هرثمة من أبي السرايا رجع، وكان الحسن بن سـهل بالمدائن فلم يعرج عليه وسار علـى عقرقوبـا إلى النهـروان قـاصداً خراسـان، ولقيتـه كتـب المـأمون متلاحقـة أن يرجـع إلى الشـام والحجاز، فأبى إلا لقاءه دالة عليه بما سبق له من نصحه له ولآبائه وكان قصد أن يطلع المأمون على حال الفضـل بـن سـهل في طيـه الأخبار عنه وما عند النـاس مـن القلـق بذلـك، وباستبداده عليـه ومقامه بخراسان وعلم الفضل بذلك فأغرى به المأمون وألقي إليـه أنه سلط أبا السرايا وهو من جنده وقد خالف كتبك وجاء معـانداً سيئ القالة، وإن سومح في ذلك اجترأ غيره فسخطه المأمون وبقي في انتظاره، ولما بلغ مرو قرع طبوله يسمعها لئلا يطوى خبـره عـن المأمون، وسأل المـأمون عنهـا فقيـل: هرثمـة أقبـل يرعـد ويـبرق، فاستدعاه وقال هرثمة: مالأت العلويـين وأبـا السـرايا ولـو شـئت إهلاكهم جميعاً لفعلت، فذهب يعتذر فلم يمهله وأمر فربـس بطنـه وشدخ أنفه وسحب إلى السجن ثم دس إليه من قتله.

انتقاض بغداد على الحسن بن سهيل

ولما بلغ خبر هرثمة إلى العراق كتب الحسـن بـن سـهل إلى علي بن هشام والي بغداد من قبلـه أن يتعلـل علـى الجنـد الحربيـة والبغداديين في أرزاقهم، لأنه كان بلغـه عنهـم قبـل مسـير هرثمـة أنهم عازمون على خلعه وطرد عماله، وولوا عليهـم إسـحاق بـن الهادي خليفة المأمون. فلم يـزل الحسـين يتلطـف إليهـم ويكـاتبهم

حتى اختلفوا فأنزل علي بن هشام ومحمد بن أبي خالد في أحد جانبيها، وزهير بن المسيب في الجانب الآخر وقاتلوا الحربية ثلاثة أيام، ثم صالحهم على العطاء وشرع فيه.

وكان زيد بن موسى بن جعفر قد أخذه علي بن أبي سعيد من البصرة وحبسه كما ذكرناه قبل، فهرب من محبسه وخرج بناحية الأنبار ومعه أخ لأبي السرايا. ثم تلاشى أمره وأخذوا..... إلى علي بن هشام ثم جاء خبر هرثمة وقد انتقض محمد بن أبي خالد على علي بن هشام بما كان يستحق به، وغضب يوماً مع زهير بن المسيب فقنعه بالسوط، فسار إلى الحربية ونصب لهم الحرب، انهزم علي بن هشام إلى صرصر. وقيل: إن ابن هشام أقام الحد على عبد الله بن علي بن عيسى فغضب الحربية وأخرجوه.

واتصل ذلك بالحسن بن سهل وهو بالمدائن كما قلناه فانهزم إلى واسط أول سنة إحدى ومائتين، والفضل بن الربيع وقد ظهر من اختفائه من لدن الأمين. وجاء عيسى بن محمد بن أبي خالد من الرقة من عند طاهر، فاجتمع هو وأبوه على قتال الحسن وهزموا كل من تعرض للقائهم من أصحابه. وكان زهير بن المسيب عاملاً للحسن على جوخي من السواد وكان يكاتب بغداد فركب إليه محمد بن أبي خالد وأخذه أسيراً وانتهب ماله وحبسه ببغداد عند ابنه جعفر.

ثم تقدم إلى واسط وبعثه ابنه هارون إلى النيل فهزم نائب الحسن بها إلى الكوفة فلحق بواسط ورجع هارون إلى أبيه وتقدم نحو واسط فسار الحسن عنها. وأقام الفضل بن الربيع مختفياً بها واستأمن لمحمد وبعثه إلى بغداد. وسار إلى الحسن على البقية ولقيتهم عساكر الحسن وقواده، وانهزم محمد وأصحابه وتبعهم الحسن إلى تمام الصلح، ثم لحقوا بجرجايا. ووجه محمد ابن ابنه هارون إلى..... فأقام بها وسار محمد ابن ابنه أبورتيل وهو جريح إلى بغداد فمات بها ودفن في داره سراً. ومحمد أبو رتيل إلى زهير بن المسيب فقتله من ليلته. وقام خزيمة بن خازم بأمر بغداد، وبعث إلى عيسى بن محمد بأن يتولى حرب الحسن مكان أبيه، وبلغ الحسن موت محمد فبعث عسكره إلى هارون بالنيل فغلبوا وانتهبوها، ولحق هارون بالمدائن.

ثم اجتمع أهل بغداد وأرادوا منصور بن المهدي على الخلافة فأبى فجعلوه خليفة للمأمون ببغداد والعراق انحرافاً عن الحسن بن سهل. وقيل: إن الحسن لما ساعد أهل بغداد عيسى بن محمد بن أبي خالد على حربه خام عنه فلاطفه ووعده بالمصاهرة ومائة ألف دينار والأمان له ولأهل بيته ولأهل بغداد وولاية النواحي، فقبل وطلب خط المأمون بذلك، وكتب إلى أهل بغداد: إني شغلت بالحرب عن جباية الخراج فولوا رجلاً من بني هاشم، فولوا المنصور بن المهدي وأحصى عيسى أهل عسكره فكانوا مائة ألف وخمسة وعشرين ألفاً. وبعث منصور غسان بن الفرج إلى ناحية الكوفة فغزاه حميد الطوسي من قواد الحسن بن سهل وأخذ أسيراً ونزل النيل. فبعث منصور بن محمد يقطين في العساكر إلى حميد فلقيه حميد بكوثى فهزمه وقتل من أصحابه ونهب ما حول كوثى ورجع إلى النيل وأقام ابن يقطين بصرصر.

أمر المطوّعة

ولما كثر الهرج ببغداد وامتدت أيدي الدعاوي بأذاية الناس في أموالهم وأفشى المناكير فيهم وتعذر ذلك، فخرجوا إلى القرى فانتهوها. واستعدى الناس أهل الأمر فلم يغدوا عليهم فتمشى الصلحاء من عمل ريظ وكل بينهم ورأوا أنهم في كل درب قليلون بالنسبة إلى خيارهم فاعتزموا على مدافعتهم واشتد خالد المدريوش من أهل بغداد، فدعا جيرانه وأهل محلته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن يغيروا على السلطان. فشد على من كان عندهم من ادعار وحبسهم ورفعهم إلى السلطان وتعدى ذلك إلى غير محلته.

ثم قام بعده سهل بن سلامة الأنصاري من الحريشية من أهل خراسان ويكنى أبا حاتم فدعا إلى مثل ذلك وإلى العمل بالكتاب والسنة وعلّق في عنقه مصحفاً وعبر على العامة وعلى أهل الدولة فبايعوه على ذلك وعلى قتال من خالف. وبلغ خبرهما إلى منصور بن المهدي وعيسى بن محمد بن أبي خالد فنكروا ذلك لأن أكثر الدعّار كانوا يشايعونهم على أمرهم، فدخلوا بغداد بعد أن عقد عليه الصلح مع الحسن بن سهل على الأمان له ولأهل بغداد، وانتظروا كتاب المأمون ورضي أهل البلد بذلك، فسهّل عليهم أمر المدريوش وسهل.

العهد لعلي الرضا والبيعة لإبراهيم بن المهدي

ولما بلغ أهل بغداد أن المأمون قد بايع بالعهد لعلي بن موسى الكاظم ولقبه الرضا من آل محمد، وأمر الجند بطرح السواد ولبس الخضرة، وكتب بذلك إلى الآفاق، وكتب الحسن بن سهل إلى عيسى بن محمد بن أبي خالد ببغداد يعلمه بذلك في رمضان من سنة إحدى ومائتين، وأمره أن يأخذ من عنده من الجند وبني

هاشم بذلك، فأجاب بعض وامتنع بعض، وكبر عليهم إخراج الخلافة من بني العباس. وتولى كبر ذلك منصور وإبراهيم ابنا المهدي وشايعهم عليه المطلب بن عبد اللّه بن مالك والسدي ونصر الوصيف وصالح صاحب المصلى ومنعوا يوم الجمعة مَن نادى في الناس بخلع المأمون والبيعة لإبراهيم بن المهدي ومن بعده لإسحاق بن الهادي.

ثم بايعوه في المحرم سنة اثنتين ومائتين ولقبوه المبارك ووعد الجند بأرزاق ستة أشهر، واستولى على الكوفة والسواد، وخرج فعسكر بالمدائن وولى بها على الجانب الغربي العباس بن الهادي، وعلى الجانب الشرقي إسحاق بن الهادي. وكان بقصر ابن هبيرة حميد بن عبد الحميد عاملاً للحسن بن سهل، ومعه القواد سعيد بن الساحور وأبو البط وغسان بن الفرج ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب كانوا منحرفين عن حميد فداخلوا إبراهيم بن الهادي في أن يهلكوه في قصر ابن هبيرة وشعر بذلك الحسن بن سهل فاستقدم حميداً وخلا لهم الجو منه فبعث إبراهيم بن المهدي عيسى بن محمد بن أبي خالد وملك قصر ابن هبيرة وانتهب عسكر حميد ولحق به ابنه بجوارية.

ثم عاد إلى الكوفة فاستعمل عليها العباس بن موسى الكاظم وأمره أن يدعو لأخيه فامتنع غلاة الشيعة من إجابته وقالوا: لا حاجة لنا بذكر المأمون وقعدوا عنه وبعث إبراهيم بن المهدي من القواد سعيداً وأبا البط لقتاله، فسرح إليهم العباس بن عمه وهو علي بن محمد الديباجة فانهزم، ونزل سعيد وأبو البط الحيرة ثم تقدموا لقتال أهل الكوفة، وقاتلهم شيعة بني العباس ومواليهم. ثم سألوا الأمان للعباس وخرجوا من داره. ثم قاتل أصحابه أصحاب سعيد فهزموهم وأحرقوا دور عيسى بن موسى، وبلغ الخبر إلى سعيد بالحيرة بأن العباس قد نقض ورجع عن الأمان فركب وجاء إلى الكوفة وقتل من ظفر به ولقيه أهله فاعتذروا إليه بأن هذا فعل الغوغاء، وأن العباس باق على عهده.

ودخل سعيد وأبو البط ونادوا بالأمان وولوا على الكوفة الفضل بن محمد بن الصباح الكندي، ثم عزلوه وولوا مكانه غسان بن الفرج فقتل أخا السرايا. ثم عزلوه وولوا الهول ابن أخي سعيد القائد وقدم حميد بن عبد الحميد لحربهم بالكوفة، فهرب الهول وبعث إبراهيم بن المهدي بن عيسى بن محمد بن أبي خالد لحصار الحسن بواسط على طريق النيل.

وكان الحسن متحصناً بالمدينة، فسرح أصحابه لقتالهم فانهزموا وغنم عسكرهم، ورجع عيسى إلى بغداد فقاتل سهل بن سلامة المطوع حتى غلبه على منزله فاختفى في غمار النظار وأخذوه بعد ليال وأتوا به إسحاق فقال: كل ما كنت أدعو إليه باطل فقالوا: اخرج فأعلم الناس بذلك! فخرج وقال: قد كنت أدعوكم إلى الكتاب والسنة ولم أزل على ذلك فضربوه وقيدوه وبعثوا به إلى إبراهيم المهدي فضربه وحبسه، وظهر أنه قتل في محبسه خفية لسنة من قيامه. ثم أطلقه فاختفى إلى أن انقرض أمر إبراهيم.

وزحف حميد بن عبد الحميد سنة ثلاث ومائتين إلى قتال إبراهيم بن المهدي وأصحابه وكان عيسى بن محمد بن أبي خالد هو المتولي لقتالهم بأمر إبراهيم، فداخلهم في الغدر بإبراهيم وصار يتعلل عليه في المدافعة عنه، ونمي ذلك إلى إبراهيم بن هارون أخي عيسى فتنكر له، ونادى عيسى في الناس بمسالمة حميد فاستدعاه إبراهيم وعاتبه بذلك فأنكر واعتذر، فأمر به فضرب وحبس عدة من قواده وأفلت العباس خليفته، فمشى بعض الناس إلى بعض ووافقوا العباس على خلع إبراهيم وطردوا عامله من الجسر والكرخ. وثار الرعاع والغوغاء.

وكتب العباس إلى حميد يستقدمه ليسلم إليه بغداد ونزل صرصر وخرج إليه العباس والقواد وتواعدوا لخلع إبراهيم على أن يدفع لهم العطاء. وبلغ الخبر إلى إبراهيم فأخرج عيسى وإخوته، وسأله قتال حميد فامتنع. ودخل حميد فصلى الجمعة وخطب للمأمون وشرع في العطاء ثم قطعه عنهم فغضب الجند. وعاود إبراهيم سؤال عيسى في قتال حميد ومدافعته، فقاتل قليلاً ثم استأسر لهم وانفض العسكر راجعين إلى إبراهيم.

وارتحل حميد فنزل في وسط المدينة وتسلل أصحاب إبراهيم إلى المدائن فملكوها وقاتل بقيتهم حميد، وكان الفضل بن الربيع مع إبراهيم فتحول إلى حميد وكاتب المطلب بن عبد اللّه بن مالك بأن يسلموه إليه. وكان سعيد بن الساحور والبط وغيرهم من القواد يكاتبون علي بن هشام بمثل ذلك. ولما علم إبراهيم بما اجتمعوا عليه أقبل على مداراتهم إلى أن جن الليل. ثم تسرب في البلد واختفى منتصف ذي الحجة من سنة ثلاث، وبلغ الخبر إلى حميد وعلي بن هشام، فأقبلوا إلى دار إبراهيم فلم يجدوه، وذلك لسنتين من بيعته. وأقام علي بن هشام على شرقي بغداد وحميد على غربيها وأظهر سهل بن سلامة ما كان يدعو إليه فقربه حميد ووصله.

قدوم المأمون إلى العراق

لما وقعت هذه الفتن بالعراق بسبب الحسن بن سهل ونفور الناس من استبداده وأخيه على المأمون ثم من العهد لعلي الرضا بن موسى الكاظم وإخراج الخلافة من بني العباس، وكان الفضل بن سهل يطوي ذلك عن المأمون ويبالغ في إخفائه حذراً من أن يتغير رأي المأمون فيه وفي أخيه. ولما جاء هرثمة للمأمون وعلم أنه يخبره بذلك وأن المأمون يثق بقوله، أحكم السعاية فيه عند المأمون حتى تغير له فقتله ولم يصغ إلى كلامه.

فازدادت نفرة الشيعة وأهل بغداد وكثرت الفتن وتحدث القواد في عسكر المأمون بذلك ولم يقدروا على إبلاغه، فجاؤوا إلى عليّ الرضا وسألوه إنهاء ذلك إلى المأمون، فأخبره بما في العراق من الفتنة والقتال، وأنهم بايعوا إبراهيم بن المهدي فقال المأمون: إنما جعلوه أميراً يقوم بأمرهم! فقال: ليس كذلك وإن الحرب الآن قائمة بين ابن سهل وبينه، وإن الناس ينقمون عليك مكان الفضل والحسن ومكاني وعهدك لي، فقال له المأمون: ومن يعلم هذا غيرك؟ فقال: يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وغيرهما من وجوه قوادك. فاستدعاهم فكتموا حتى استأمنوا إليه ثم أخبروه بما أخبره به الرضا، وأن الناس بالعراق يتهمونه بالرفض لعهده لعلي الرضا وأن طاهر بن الحسين مع علم أمير المؤمنين ببلائه قد دفع إلى الرقة وضعف أمره، والبلاد تفتقت من كل جانب، وإن لم يتدارك الأمر ذهبت الخلافة منهم.

فاستيقن المأمون ذلك وأمر بالرحيل واستخلف على خراسان غسان بن عباد وهو ابن عم ابن الفضل بن سهل، وعلم الفضل بن سهل بذلك فشرع في عقاب أولئك القواد فلم يغنه. ولما نزل المأمون شرحبيل وثب بالفضل أربعة نفر فقتلوه في الحمام وهربوا، وجعل المأمون جُعْلاً لمن جاء بهم، فجاء بهم العباس بن الهيثم الدينوري. فلما حضروا عند المأمون قالوا له: أنت أمرتنا بقتله! وقيل: بل اختلفوا في القول فقال بعضهم: أمرنا بقتله ابن أخيه، وقال آخرون: بل عبد العزيز بن عمران من القواد وعلي وموسى وغيرهم، وأنكر آخرون. فأمر المأمون بقتلهم وقتل من أقروا عليه من القواد، وبعث إلى الحسن بن سهل وسار إلى العراق.

وجاءه الخبر بأن الحسن بن سهل أصابته الماليخوليا واختُلِط فبعث ديناراً مولاه ووكله بأمور العسكر وكان إبراهيم بن المهدي وعيسى بالمدائن وأبو البط وسعيد بالنيل والحرب متصلة بينهم. والمطلب بن عبد الله بن مالك قد اعتل بالمدائن فرجع إلى بغداد وجعل يدعو إلى المأمون سراً وإلى خلع إبراهيم وأن يكون منصور بن المهدي خليفة للمأمون وداخله في ذلك خزيمة بن خازم وغيره من القواد. وكتب إلى علي بن هشام وحميد أن يتقدما فنزل حميد نهر صرصر وعلي النهروان، وعاد إبراهيم بن المهدي من المدائن إلى بغداد منتصف صفر، وقبض على منصور وخزيمة ومنع المطلب مواليه، فأمر إبراهيم بنهب داره ولم يظفر، ونزل حميد وعلي بن هشام المدائن وأقاما بها.

وزوج المأمون في طريقه إبنته من علي الرضا وبعث أخاه إبراهيم بن موسى الكاظم على الموسم، وولاه اليمن وكان به حمدوية بن علي بن عيسى بن ماهان قد غلب عليه. ولما نزل المأمون مدينة طوس مات علي الرضا فجأة آخر صفر من سنة ثلاث من عنب أكله، وبعث المأمون إلى الحسن بن سهل بذلك، وإلى أهل بغداد وشيعته يعتذر من عهده إليه، وأنه قد مات ويدعوهم إلى الرجوع لطاعته. ثم سار إلى جرجان وأقام بها أشهراً وعقد على جرجان لرجاء بن أبي الضحاك قاعداً وراء النهر، ثم عزله سنة أربع وعقد لغسان بن عباد من قرابة الفضل بن سهل على خراسان وجرجان وطبرستان وسجستان وكرمان وروبان ودهارير، ثم عزله بطاهر كما نذكره.

ثم سار إلى النهروان فلقيه أهل بيته وشيعته والقواد ووجوه الناس وكان قد كتب إلى طاهر أن يوافيه بها، فجاء من الرقة ولقيه هنالك. وسار المأمون فدخل بغداد منتصف صفر من سنة أربع، فنزل الرصافة ثم نزل قصره بشاطيء دجلة، وبقي القواد في المعسكر وانقطعت الفتن وبقي الشيعة يتكلمون في لبس الخضرة، وكان المأمون قد أمر طاهر بن الحسين أن يسأل حوائجه فأول شيء سأل لبس السواد فأجابه، وقعد للناس وخلع عليه وعليهم الثياب السود واستقامت الأمور.....

كانت الفتنة قد وقعت بالموصل بين بني شامة وبني ثعلبة وكان علي بن الحسن الهمداني متغلباً عليها في قومه فاستجارت ثعلبة بأخيه محمد فأمرهم بالخروج إلى البرية ففعلوا، وتبعهم بنو شامة في ألف رجل وحاصروهم بالقوجاء ومعهم بنو ثعلب، وبعث علي ومحمد إليهم بالمدد فقتلوا جماعة من بني شامة وأسروا منهم، ومن بني ثعلب، فجاء أحمد بن عمر بن الخطاب الثعلبي إلى علي فوادعه وسكنت الفتنة. ثم إن علي بن الحسين سطا بمن كان في الموصل من الأزد عسفاً في الحكم عليهم، وقال لهم يوماً: الحقوا بعمان! فاجتمعت الأزد إلى السيد بن أنس كبيرهم وقاتلوه.

وكان في تلك النواحي مهدي بن علوان من الخوارج فادخله علي بن الحسين وبايعه وصلى بالناس، واشتدت الحرب.

ثم كانت إصراً على علي وأصحابه وأخرجهم الأزد عن البلد إلى الحديثة ثم اتبعوهم فقتلوا علياً وأخاه أحمد في جماعة، ولجأ محمد إلى بغداد وملك السيد بن أنس والأزد الموصل وخطب للمأمون. ولما قدم المأمون بغداد وفد عليه السيد بن أنس فشكاه محمد بن الحسين بن صالح واستعداه عليه بقتل أخويه وقومه، فقال: نعم يا أمير المؤمنين! أدخلوا الخارجي بلدك وأقاموه على منبرك وأبطلوا دعوتك فأهدر المأمون دماءهم.

ولاية طاهر على خراسان ووفاته

كان المأمون بعد وصوله إلى العراق قد ولى طاهر بن الحسين الجزيرة والشرطة بجانبي بغداد والسواد، ودخل عليه يوماً في خلوته فأذن له بالجلوس وبكى فقداه. فقال المأمون: أبكي لأمر ذكره ذل وستره حزن، ولن يخلو أحد من شجن، وقضى طاهر حديثه وانصرف. وكان حسين الخادم حاضراً فدس إليه على يد كاتبه محمد بن هارون أن يسأل المأمون عن مكاتبته على مائة ألف درهم ومثلها للكاتب، وخلا حسين بالمأمون وسأله ففطن وقال له: إن الثناء مني ليس برخيص، والمعروف عندي ليس بضائع فغيبي عن غير المأمون. فأجابه وركب إلى المأمون وفاوضه في أمر خراسان وأنها يخشى عليها من الترك وأن غسان بن عباد ليس بكفء لها. فقال: لقد فكرت في ذلك فمن ترى يصلح لها؟ قال: طاهر بن الحسين قال: هو خالع، قال: أنا ضامنه.

فاستدعاه وعقد له من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق من حلوان إلى خراسان، وعسكر من يومه خارج بغداد وأقام شهراً تحمل إليه كل يوم عشرة آلاف ألف درهم عادة صاحب خراسان. وولى المأمون مكانه بالجزيرة ابنه عبد الله، وكان ينوب عن أبيه بالشرطة، فحملها إلى ابن عمه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وخرج إلى عمله ونزل الرقة لقتال نصر بن شبث. ثم سار طاهر إلى خراسان آخر ذي القعدة سنة خمس ومائتين.

وقيل في سبب ولاية طاهر خراسان: إن عبد الرحمن المطوع جمع جموعاً كثيرة بنيسابور لقتال الحرورية، ولم يستأذن غسان بن عباد وهو الوالي على خراسان، فخشي أن يكون ذلك من المأمون فاضطرب وتعصب له الحسن بن سهل. وخشي المأمون على خراسان فولى طاهراً وسار إلى خراسان فأقام بها إلى سنة سبع، ثم اعتزم على الخلاف.

وخطب يوماً فأمسك عن الدعاء للمأمون ودعا بصلاح الأمة، وكتب صاحب البريد بذلك إلى المأمون بخلعه، فدعا بأحمد بن أبي خالد فقال: أنت ضمنته فسر وأتني به ثم جاء من الغد الخبر بموته فقال المأمون للبريد ونغّم: الحمد لله الذي قدّمه وأخرّنا، وولى طلحة من قبله وبعث إليه المأمون أحمد بن أبي خالد ليقوم بأمره فعبر أحمد إلى ما وراء النهر وافتتح أشروسنة وأسر كاووس بن خالد أحمد وابنه الفضل، وبعث بهما إلى المأمون ووهب طلحة لأحمد بن أبي خالد ثلاثة آلاف ألف درهم وعروضاً بألف ألف ولمكاتبته خمسمائة ألف درهم. ثم خالف الحسين بن الحسين بن مصعب بكرمان فسار إليه أحمد بن أبي خالد وأتى به إلى المأمون فعفا عنه.

ولاية عبد الله بن طاهر الرقة ومصر ومحاربته نصر بن شبث

وفي سنة ست ومائتين بلغ الخبر بوفاة يحيى بن معاذ عامل الجزيرة، وأنه استخلف ابنه أحمد، فولى المأمون عبد الله بن طاهر مكانه وجعل له ما بين الرقة ومصر، فأمره بحرب نصر بن شبث وقيل: ولاه سنة خمس، وقيل: سنة سبع، واستخلف على الشرطة ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن مصعب وهو ابن عمه، وكتب إليه أبو طاهر كتاباً بالوصية جمع فيه محاسن الآداب والسياسة ومكارم الأخلاق، وقد ذكرناه في مقدمة كتابنا، فسار عبد الله بن طاهر لذلك وبعث الجيوش لحصار نصر ابن شبث بكيسوم في نواحي جانب، ثم سار إليه بنفسه سنة تسع ومائتين، وأخذ بمخنقه. وبعث إليه المأمون محمد بن جعفر العامري يدعوه إلى الطاعة، فأجاب على شرط أن لا يحضر عنده.

فتوقف المأمون وقال: ما باله ينفر مني؟ فقال أبو جعفر: لما تقدم من ذنبه. فقال: فتراه أعظم ذنباً من الفضل بن الربيع وقد أخذ جميع ما أوصى له به الرشيد من الأموال والسلاح وذهب مع القواد إلى أخي، وأسلمني وأفسد علي حتى كان ما كان، ومن عيسى بن أبي خالد وقد خالف علي ببلدي وأخرب داري، وبايع لإبراهيم دوني فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين هؤلاء لهم سوابق ودالة يبقون بها، ونصر ليست له في دولتكم سابقة وإنما كان من جند بني أمية، وأنا لا أجيب إلى هذا الشرط، ولح نصر في الخلاف حتى جهده الحصار واستأمن فأمنه عبد الله بن طاهر وخرج إليه سنة عشر وبعث به إلى المأمون وأخرب حصن كيسوم لخمس سنين من حصاره ورجع عبد الله بن طاهر إلى الرقة ثم قدم بغداد سنة إحدى عشرة فتلقاه العباس بن المأمون والمعتصم وسائر الناس.

الظفر بابن عائشة وبإبراهيم بن المهدي

كان إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ويعرف بابن عائشة ممن تولى كبر البيعة لإبراهيم بن المهدي ومعه إبراهيم بن الأغلب ومالك بن شاهين وكانوا قد اختفوا عند قدوم المأمون في نواحي بغداد. ولما وصل نصر بن شبث وخرجت النظارة أنفذوا للخروج في ذلك اليوم ثم غلبهم بعض الناس فأخذوا في صفر من سنة عشر، ثم ضربوا حتى أقروا على من كان معهم في الأمر فلم يعرض لهم المأمون وحبسهم فضاق عليهم الحبس وأرادوا أن ينقبوه، فركب المأمون بنفسه وقتلهم وصلب ابن عائشة ثم صلى عليه ودفنه. ثم أخذ في هذه السنة إبراهيم بن المهدي وهو متنقب في زي امرأة يمشي بين إمرأتين واستراب به بعض العسس وقال: أين تردن في هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوت في يده فازداد ريبة ورفعهن إلى صاحب المسلحة، وجاء بهن إلى صاحب الجسر فذهب به إلى المأمون، وأحضره والغل في عنقه والملحبة على صدره ليراه بنو هاشم والناس. ثم حبسه عند أحمد بن أبي خالد، ثم أخرجه معه عندما سار الحسن بن سهل ليغنم الصلح، فشفع فيه الحسن وقيل: ابنته بوران، وقيل: إن إبراهيم لما أخذ حمل إلى دار المعتصم وكان عند المأمون فأدخله عليه وأنبه فيما كان منه. واعتذر بمنظوم من الكلام ومنثور أتى فيه من وراء الغاية وهو منقول في كتب التاريخ فلا نطيل بنقله.

انتقاض مصر والإسكندرية

كان السري بن محمد بن الحكم والياً على مصر وتوفي سنة خمس ومائتين، وبقي ابنه عبد اللّه، فانتقض وخلع الطاعة وأنزل بالإسكندرية جالية من الأندلس أخرجهم الحكم بن هشام من ربضي قرطبة وغرّبهم إلى المشرق. ولما نزلوا بالإسكندرية ثاروا وملكوها وولوا عليهم أبا حفص عمر البلوطي. وفشل عبد اللّه بن طاهر عنهم بمحاربة نصر بن شبث، فلما فرغ منه ثار من الشام إليهم، وقدم قائداً من قواده ولقيه ابن السري وقاتله وأغذ ابن طاهر المسير فلحقهم وهم في القتال، وانهزم ابن السري إلى مصر وحاصره عبد اللّه بن طاهر حتى نزل على الأمان، وذلك سنة عشر. ثم بعث إلى الجالية الذين ملكوا الإسكندرية بالحرب، فسألوا الأمان على أن يرتحلوا إلى بعض الجزائر في بحر الروم مما يلي الإسكندرية ففعل. ونزلوا جزيرة أقريطش واستوطنوها وأقامت في مملكة المسلمين من أعقابهم دهراً إلى أن غلب عليها الإفرنجة.

العمال بالنواحي

لما استقر المأمون ببغداد وسكن الهيج وذلك سنة أربع، ولى على الكوفة أخاه أبا عيسى، وعلى البصرة أخاه صالحاً، وعلى الحرمين عبد اللّه بن الحسين بن عبد اللّه بن العباس بن علي بن أبي طالب، وعلى الموصل السيد بن أنس الأزدي، وولى على الشرطة ببغداد ومعاون السواد طاهر بن الحسين استقدمه من الرقة، وكان الحسن بن سهل ولاه عليها فقدم واستخلف ابنه عبد اللّه عليها. ثم ولاه المأمون سنة خمس خراسان وأعمال المشرق كلها واستقدم ابنه عبد اللّه فجعله على الشرطة ببغداد مكان أبيه. وولى يحيى بن معاذ على الجزيرة وعيسى بن محمد بن أبي خالد على أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك. ومات عامل مصر السري بن محمد بن الحكم فولى ابنه عبيد اللّه مكانه.

ومات داود بن يزيد عامل السند فولى بشر بن داود مكانه على أن يحمل ألف ألف درهم كل سنة. ثم مات يحيى بن معاذ سنة ست واستخلف ابنه أحمد فعزله المأمون وولى مكانه عبد اللّه بن طاهر وأضاف إليه مصر، وسيره لمحاربة نصر بن شبث وولى عيسى بن يزيد الجلودي محاربة الزطّ سنة خمس، ثم عزله سنة ست وولى داود بن منحور مع أعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين، وولى في سنة سبع محمد بن حفص على طبرستان والرويان ودنباوند. وفيها أوقع السيد بن أنس بجماعة من عرب بني شيبان ووديعة بما فشا من إفسادهم في البلاد، فكبسهم بالدسكرة واستباحهم بالقتل والنهب.

وفي سنة تسع ولى صدقة بن علي ويعرف بزريق على أرمينية وأذربيجان وأمره بمحاربة بابك، وقام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافي فأسره بابك، فولى إبراهيم بن الليث بن الفضل أذربيجان. وكان على جبال طبرستان شهريار بن شروين فمات سنة عشر وقام مكانه ابنه سابور، فقتله مازيار بن قارن في حرب أسره فيها وملك جبال طبرستان وفي سنة إحدى عشرة قتل زريق بن علي بن صدقة الأزدي السيد بن أنس صاحب الموصل، وقد كان زريق تغلب على الجبال ما بين الموصل وأذربيجان وولاه المأمون عليها، فجمع وقصد الموصل لحرب السيد فخرج إليه أربعة آلاف فاشتد القتال بينهم وقتل السيد في المعركة فغضب المأمون لقتله، وولى محمد بن حميد الطوسي على الموصل وأمره بحرب زريق وبابك الخرمي فسار إلى الموصل واستولى عليها سنة

اثنتي عشرة.

ومات موسى بن حفص عامل طبرستان فولى المأمون مكانه ابنه، وولى حاجب بن صالح على الهند فوقعت بينه وبين بشر بن داود صاحب السند حرب. وانهزم بشر إلى كرمان ثم قتل محمد بن حميد الطوسي سنة أربع عشرة قتله بابك الخرمي وذلك أنه لما فرغ من أمر المتغلبين بالموصل سار إلى بابك في العساكر الكاملة الحشد وتجاوز إليه المضايق ووكل بحفظها حتى انتهى إلى الجبل، فصعد وقد أكمن بابك الرجال في الشعراء.

فلما جاز ثلاثة فراسخ خرجت عليهم الكمائن فانهزموا وثبت محمد بن حميد حتى إذا لم يبق معه إلا رجل واحد فتسلل يطلب النجاة فعثر في جماعة من الحربية يقاتلون طائفة من أصحابه فقصدوه وقتلوه، وعظم ذلك على المأمون واستعمل عبد الله بن طاهر على خراسان لأنه كان بلغه أن أخاه طلحة بن طاهر مات وقام علي أخوه مكانه خليفة لعبد الله، وعبد الله بالدينور يجهز العساكر إلى بابك فولى على نيسابور محمد بن حميد فكثر عيث الخوارج بخراسان فأمره المأمون بالمسير إليها فسار ونزل نيسابور وسأل عن سيرة محمد بن حميد فسكتوا فعزله لسكوتهم.

وفي سنة اثنتي عشرة خلع أحمد بن محمد العمري، يعرف بالأحمر العين باليمن، فولى المأمون ابنه العباس على الجزيرة والثغور والعواصم وأخاه أبا إسحاق المعتصم على الشام ومصر وسير عبد الله بن طاهر إلى خراسان وأعطى لكل واحد منهم خمسمائة ألف درهم، وبعث المعتصم أبا عميرة الباذغيسي عاملاً على مصر فوثب به جماعة من القيسية واليمانية فقتلوه سنة أربع عشرة، فسار المعتصم إلى مصر فقاتلهم وافتتح مصر وولى عليها واستقامت الأمور. وفي سنة ثلاث عشرة ولى المأمون غسان بن عباس على السند لما بلغه خلاف بشر بن داود.

وفي سنة أربع عشرة استقدم المأمون أبا دلف وكان بالكرخ من نواحي همذان منذ سار مع عيسى بن ماهان لحرب طاهر، وقتل عيسى فعاد إلى همذان وراسله طاهر يدعوه إلى البيعة فامتنع. وقال له: ولا أكون مع أحد وأقام بالكرخ. فلما خرج المأمون إلى الري أرسل إليه يدعوه فسار نحوه وجلاً بعد أن أغرى عليه أصحابه الامتناع. وفي سنة أربع عشرة قتل باليمن. وفيها ولى المأمون علي بن هشام الجبل وقم وأصبهان وأذربيجان وخلع أهل قم وكانوا سألوا الحطيطة من خراجهم وهو ألف ألف درهم لأن المأمون لما جاء من العراق أقام بالري أياماً وخفف عنهم من الخراج فطمع أهل قم في مثلها فأبى فامتنعوا من الاداء فسرح إليهم علي بن هشام وعجيف بن عنبسة وظفروا بهم وقتلوا يحيى بن عمران وهدموا سورها وجبوها على سبعة آلاف ألف.

وفي سنة ست عشرة ظهر عبدوس الفهري بمصر وقتل بعض عمال المعتصم، فسار المأمون إلى مصر وأصلحها وأتى بعبدوس فقتله وقدم من برقة وأقام بمصر وفيها غضب المأمون على علي بن هشام ووجه عجيفاً وأحمد بن هشام لقبض أمواله وسلاحه لما بلغه من عسفه وظلمه وأراد قتل عجيف واللحاق ببابك فلم يقدر وظفر به عجيف وجاء به إلى المأمون فأمر بقتله وطيف برأسه في الشام والعراق وخراسان ومصر ثم ألقي في البحر. وقدم غسان بن عباد من السند ومعه بشر بن داود مستأمناً، فولى على السند عمران بن موسى العكي وهرب جعفر بن داود القمي إلى قم فخلع وكان محبوساً بمصر منذ عزله المأمون عن قم فهرب الآن وخلع فغلبه علي بن عيسى القمي وبعث به إلى المأمون فقتل.

الصوائف

وفي سنة مائتين قتل الروم ملكهم إليون لسبع سنين ونصف من ملكه، وأعادوا ميخاييل بن جرجس المخلوع، وبقي عليهم تسع سنين. ثم مات سنة خمس عشرة وملك ابنه نوفل وفتح عبد الله بن خرداذبه والي طبرستان البلاد والسيرن من بلاد الديلم وافتتح جبال طبرستان، وأنزل شهريار بن شروين عنها وأشخص مازيار بن قارن إلى المأمون وأسر أبا ليل ملك الديلم وذلك سنة إحدى ومائتين. وفيها ظهر بابك الخرمي في الجاوندانية أصحاب جاوندان سهل، وتفسيره الدائم الباقي وتفسير خرم فرح، وكانوا يعتقدون مذاهب المجوس، وفي سنة أربع عشرة خرج أبو بلال الصابي الشاري، فسرح إليه المأمون ابنه العباس في جماعة من القواد وقتلوه.

وفي سنة خمس عشرة دخل المأمون بلاد الروم بالصائفة وسار عن بغداد في المحرم واستخلف عليها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وهو ابن عم طاهر، وولاه السواد وحلوان وكور دجلة، ولما وصل تكريت لقيه محمد بن علي الرضا فأجازه وزف إليه ابنته أم الفضل، وسار إلى المدينة فأقام بها وسار المأمون على الموصل إلى منبج ثم دابق، ثم أنطاكية ثم المصيصة وطرسوس. ودخل من هنالك فافتتح حصن قرة عنوة وهدمه. وقيل بل فتحه على الأمان، وفتح حصن ماجد كذلك. وبعثه أشناس إلى حصن سدس، ودخل ابنه العباس ملطية ووجه المأمون عجيفاً وجعفر الخياط إلى حصن سنان فأطاع. وعاد المعتصم من مصر فلقي

المأمون قبل الموصل، ولقيه العباس ابنه برأس عين. وجاء المأمون منصرفه من العراق إلى دمشق، ثم بلغه أن الروم أغاروا على طرسوس والمصيصة وأثخنوا فيهم بالقتل.

وكتب إليه ملك الروم فيه بنفسه فرجع إليهم وافتتح كثيراً من معاقلهم وأناخ على هرقلة حتى استأمنوا وصالحوه، وبعث المعتصم فافتتح ثلاثين حصناً منها مطمورة، وبعث يحيى بن أكثم فأثخن في البلاد وقتل وحرق وسبى. ثم رجع المأمون إلى كيسوم فأقام بها يومين ثم ارتحل إلى دمشق.

وفي سنة سبع عشرة رجع المأمون إلى بلاد الروم فأناخ على لؤلؤة فحاصرها مائة يوم، ثم رحل عنها وخلف عجيفاً على حصارها. وجاء نوفل ملك الروم فأحاط به فبعث إليه المأمون بالمدد فارتحل نوفل واستأمن أهل لؤلؤة إلى عجيف، وبعث نوفل في المهادنة والمأمون على سلوين فلم يجبه. ثم رجع المأمون سنة ثمان عشرة وبعث ابنه العباس إلى بناء طوانة فبنى بها ميلاً في ميل ودورها أربعة فراسخ، وجعل لها أربعة أبواب ونقل إليها الناس من البلدان.

وفاة المأمون وبيعة المعتصم

ثم مرض المأمون على نهر البربرون واشتد مرضه ودخل العراق وهو مريض فمات بطرسوس وصلى عليه المعتصم وذلك لعشرين سنة من خلافته، وعهد لابنه المعتصم وهو أبو إسحاق محمد فبويع له بعد موته، وذلك منتصف رجب من سنة ثمان عشرة ومائتين. وشغب الجند وهتفوا باسم العباس بن المأمون فأحضره وبايع فسكتوا وخرب لوقته ما كان بناه من مدينة طوانة وأعاد الناس إلى بلادهم وحمل ما أطاق حمله من الآلة وأحرق الباقي.

ظهور صاحب الطالقان

وهو محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي زين العابدين بن الحسين، كان ملازماً للمسجد بالمدينة فلزمه شيطان من أهل خراسان وزين له أنه أحق بالامامة، وصار يأتيه بحجاج خراسان يبايعونه. ثم خرج به إلى الجوزجان وأخفاه وأقبل على الدعاء له، ثم حمله على إظهار الدعوة للرضا من آل محمد على عادة الشيعة في هذا الإبهام كما قدمناه. وواقعه قواد عبد اللّه بن طاهر بخراسان المرة بعد المرة فهزموه وأصحابه، وأخرج ناجياً بنفسه ومر بنسا، فوشي به إلى العامل فقبض عليه وبعثه إلى عبد اللّه بن طاهر، فبعثه إلى المعتصم منتصف ربيع أول سنة تسع عشرة، فحبسه عند الخادم مسرور الكبير، ووكل بحفظه فهرب من محبسه ليلة الفطر من سنته ولم يوقف له على خبر.

حرب الزط

وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد وولوا عليهم رجلاً منهم اسمه محمد بن عثمان، وقام بأمره آخر منهم اسمه سماق. وبعث المعتصم لحربهم في هذه السنة عجيف بن عنبسة في جمادى الآخرة فسار إلى واسط وحاربهم، فقتل منهم في معركة ثلاثمائة وأسر خمسمائة، ثم قتلهم وبعث برؤوسهم إلى باب المعتصم وأقام قبالتهم سبعة أشهر. ثم استأمنوا إليه في ذي الحجة آخر السنة وجاؤوا بأجمعهم في سبعة وعشرين ألفاً، المقاتلة منهم اثنا عشر ألفاً فعباهم عجيف في السفن على هيئتهم في الحرب ودخل بهم بغداد في عاشوراء سنة عشرين، وركب المعتصم إلى الشماسة في سفينة حتى رآهم، ثم غربهم إلى عين زربة فأغارت عليهم الروم فلم يفلت منهم أحد.

بناء سامرّا

كان المعتصم قد اصطنع قوماً من أهل الحرف بمصر وسماهم المطاربة وقوماً من سمرقند وأشروسنة وفرغانة وسماهم الفرغانة وأكثر من صبيانهم، وكانوا يركضون الدواب في الطرق ويختلفون بها ركضاً، فيصدمون النساء والصبيان فتتأذى العامة بهم، وربما انفرد بعضهم فقتلوه وتأذى الناس من ذلك ونكروه وربما أسمعوا النكير للمعتصم، فعمد إلى بناء القاطون، وكانت مدينة بناها الرشيد ولم يستتمها وخربت، فجددها المعتصم وبناها سنة عشرين وسماها سُرَّ مَن رأى فرخّمها الناس سامرا وصارت داراً لملكهم من لدن المعتصم ومن بعده واستخلف ببغداد حتى انتقل إليها ابنه الواثق.

نكبة الفضل بن مروان

كان للمعتصم في ولاية أخيه كاتب يعرف بيحيى الجرمقابي، واتصل به الفضل بن مروان وهو من البردان، وكان حسن الخط. فلما هلك الجرمقابي استكتبه المعتصم وسار معه إلى

الشام فأثرى. ولما استخلف المعتصم استولى على هواه واستتبع الدواوين واحتجر الأموال ثم صار يرد أوامر المعتصم في العطايا ولا ينفذها، واختلفت فيه السعايات عند المعتصم ودسوا عليه عنده من ملأ مجلسه ومساخره مَنْ يُعيِّر المعتصم باستبداده عليه ورد أوامره فحقد له ذلك. ثم نكبه سنة عشرين وصادره وجميع أهل بيته، وجعل مكانه محمد بن عبد الملك بن الزيات وغرب الفضل إلى بعض قرى الموصل.

محاربة بابك الخرمي

قد تقدم لنا حديث بابك الخرمي وظهوره سنة اثنتين ومائتين بدعوة جاوندان بن سهل، واتخذ مدينة البذّ لامتناعه وتولى المأمون حروبه، فهزم عساكره وقتل جماعة من قواده وخرب الحصون فيما بين أردبيل وزنجان، فلما ولي المعتصم بعث أبا سعيد محمد بن يوسف فبنى الحصون التي خربها وشحنها بالرجال والأقوات، وحفظ السابلة لجلب الميرة. وبينما هو في ذلك أغارت بعض سرايا بابك بتلك النواحي فخرج في طلبهم واستنقذ ما أخذوه، وقتل كثيراً وأسر أكثر، وبعث بالرؤوس والأسرى إلى المعتصم.

وكان ابن البعيث أيضا في قلعة له حصينة من كور أذربيجان ملكها من يد ابن الرواد، وكان يصانع بابك ويضيف سراياه إذا مروا به. ومر به في هذه الأيام قائده عصمة، وأضافه على العادة، ثم قبض عليه وقتل أصحابه وبعث به إلى المعتصم، فسأله عن عورات بلاد بابك فدله عليها. ثم حبسه وعقد لقائده الأفشين حيدر بن كاوس على الجبال، ووجهه لحرب بابك، فسار إليها ونزل بساحتها وضبط الطرقات ما بينه وبين أردبيل، وأنزل قواده في العساكر ما بينه وبين أردبيل يتلقون الميرة من أردبيل من واحد إلى الآخر حتى تصل عسكر الأفشين. وكان إذا وقع بيده أحد من جواسيس بابك يسأله عن إحسان بابك إليه فيضاعفه ويطلقه. ثم إن المعتصم بعث بغا الكبير بمدد الأفشين بالنفقات وسمع بابك فاعتزم على اعتراضه وأخبر الأفشين بذلك بعض جواسيسهم، فكتب إلى بغا أن يرتحل من حصن النهرقيلا ثم يرجع إلى أردبيل ففعل ذلك.

وجاءت الأخبار إلى بابك وركب الأفشين في يوم موادعته لبغا وأغذ المسير، خرجت سرية بابك فلقيت قافلة النهر ولم يصادفوا بغا فيها فقتلوا من وجدوا فيها من الجند وفاتهم المال. ولقوا في طريقهم الهيثم من قواد الأفشين فهزموه وامتنع بحصنه، ونزل بابك عليه يحاصره وإذا بالأفشين قد وصل، فأوقع بهم وقتل الكثير من جنده، ونجا بابك إلى موقان وأرسل إلى عسكره في البر فلحقت به، وخرج معهم من موقان إلى البذ. ولما رجع الأفشين إلى عسكره استمر على حصار بابك وانقطعت عنه الميرة من سائر النواحي، ووجه صاحب مراغة إليه ميرة فلقيتها سرية من سرايا بابك فأخذوها، ثم خلص إليه بغا بما معه من المال ففرقه في العساكر، وأمر الأفشين قواده فتقدموا ليضيقوا الحصار على بابك في حصن البذ، ونزل على ستة أميال منه. وسار بغا الكبير حتى أحاط بقرية البذ وقاتلهم وقتلوا منهم جماعة فتأخر إلى خندق محمد بن حميد من القواد، وبعث إلى الأفشين في المدد، فبعث إليه أخاه الفضل وأحمد بن الخليل بن هشام وأبا خوس وصاحب شرطة الحسن بن سهر، وأمره بمناجزتهم إلى الحرب في يوم عينه له، فركبوا في ذلك اليوم، وقصدوا البذ وأصابهم برد شديد ومطر.

وقاتل الأفشين فغلب من بإزائه من أصحاب بابك واشتد عليهم المطر فنزلوا واتخذ بغا دليلاً أشرف به على جبل يطل منه على الأفشين ونزل عليهم الثلج والضباب فنزلوا منازلهم. وعمد بابك إلى الأفشين ففض معسكره وضجر أصحاب بغا من مقامهم في رأس الجبل فارتحل بهم ولا يعلم ما تم على الأفشين، وقصد حصن البذ فتعرف خبر الأفشين ورجع على غير الطريق الذي دخلوا منه لكثرة مضايقه وعقباته وتبعته طلائع بابك فلم يلتفت إليهم مسابقة للمضايق أمامه. وأجنهم الليل وخافوا على أثقالهم وأموالهم فعسكر بهم بغا من رأس جبل وقد تعبوا وفنيت أزوادهم وبيتهم بابك ففضهم ونهبوا ما كان معهم من المال والسلاح ونجوا إلى خندقهم الأول في أسفل الجبل وأقام بغا هنالك.

وكان طرخان كبير قواد بابك قد استأذنه أن يشتوا بقرية في ناحية مراغة، فأرسل الأفشين إلى بعض قواده بمراغة فأسرى إليه وقتله وبعث برأسه.

ودخلت سنة اثنتين وعشرين فبعث المعتصم جعفراً الخياط بالعساكر مدداً للأفشين، وبعث أتياخ بثلاثين ألف ألف درهم لنفقات الجند فأرسلها وعاد، ورحل الأفشين لأول فصل الربيع، ودنا من الحصن وخندق على نفسه. وجاءه الخبر بأن قائد بابك واسمه أدين قد عسكر بإزائه وبعث عياله إلى بعض حصون الجبل، فبعث الأفشين بعض قوداه لاعتراضهم فسلكوا مضايق وتملقوا وأغاروا إلى أن لقوا العيال فأخذوهم وانصرفوا، وبلغ الخبر أدين فركب لاعتراضهم وحاربهم واستنقذ بعض النساء.

وعلم بشأنهم الأفشين من علامات كان أمرهم بها أن رأى

بهم ريباً فركب إليهم فلما أحسوا به فرجوا عن المضيق ونجا القوم، وتقدم الأفشين قليلاً قليلا إلى حصن البذّ وكان يأمر الناس بالركوب ليلاً للحراسة خوف البيات فضجر الناس من التعب وارتاد في رؤوس تلك الجبال أماكن يتحصن فيها الرجالة فوجد ثلاثة فأنزل فيها الرجالة بأزوادهم وسد الطرق إليها بالحجارة وأقام يحاصرهم. وكان يصلي الصبح بغلس، ثم يسير زحفاً ويضرب الطبول ليزحف الناس لزحفه في الجبال والأودية على مصافهم، وإذا أمسك وقفوا وكان إذا أراد ان يتقدم المضيق الذي أتى منه عام أول خلف به عسكراً على رأس العقبة يحفظونه لئلا يأخذه الحرس منه عليهم. وكان بابك متى زحفوا عليه كمن عسكراً تحت تلك العقبة، واجتهد الأفشين أن يعرف مكان الكمين فلم يطق وكان يأمر أبا سعيد وجعفراً الخياط وأحمد بن الخليل بن هشام فيتقدمون إلى الوادي في ثلاثة كراديس، ويجلس على تلك ينظر إليهم وإلى قصر بابك ويقف بابك قبالته في عسكر قليل وقد أكمن بقية العسكر فيشربون الخمر ويلعبون بالسرياني، فإذا صلى الأفشين الظهر رجع إلى خندقه بروذ الروز مصافاً بعد مصاف، الأقرب إلى العدو ثم الذي يليه، وآخرين ترجع العسكر الذي عقبه المضيق حتى ضجرت الخرمية من المطاولة، وانصرف بعض الأيام وتأخر جعفر فخرج الخرمية من البذ على أصحابه فردهم جعفر على أعقابهم، وارتفع الصياح ورجع الأفشين وقد نشبت الحرب.

وكان مع أبي دلف من أصحاب جعفر قوم من المطّوعة فضيقوا على أصحاب بابك وكانوا يصدعون البذ، وبعث جعفر إلى الأفشين يستمده خمسمائة راجل من الناشبة فأتى له وأمره بالتحيل في الإنصراف، وتعلق أولئك المطوعة بالبذ وارتفع الصياح وخرج الكمناء من تحت العقبة، وتبين الأفشين أماكنهم واطلع على خدعتهم. وانصرف جعفر إلى الأفشين وعاتبه فاعتذر إليه يستأمن الكمين وأراه مكانه، فانصرف عن عتابه وعلم أن الرأي معه.

وشكا المطوعة ضيق العلوفة والزاد فأذن لهم في الإنصراف وتناولوه بالسنتهم، ثم طلبوه في المناهضة فأذن لهم وودعاهم ليوم معلوم، وتجهز وحمل المال والزاد والماء والمحامل لجرحان، وتقدم إلى مكانه بالأمس وجهز العسكر على العقبة على عادته، وأمر جعفراً بالتقدم بالمطوعة وان يأتوا من أسهل الوجوه وأطلق يده بمن يريده من الناشبة والنفاطين، وتقدم جعفر إلى مكانه بالأمس والمتطوعة معه، فقاتلوا وتعلقوا بسور البذ حتى ضرب جمعهم ما به وجاء الفعلة بالفؤوس وطيف عليهم بالمياه والأزودة ثم جاء الخزمية من الباب وكسروا على المطوعة وطرحوهم على السور ورموهم بالحجارة فنالت منهم وضعفوا عن الحرب، ثم تحاجزوا آخر يومهم وأمرهم الأفشين بالأنصراف وداخلهم اليأس من الفتح تلك السنة، وانصرف أكثر المطوعة.

ثم عاود الأفشين الحرب بعد أسبوعين وبعث من جوف الليل ألفاً من الناشبة إلى الجبل الذي وراء البذ حتى يعاينوا الأفشين من هذه الناحية فيرمون على الخرمية. وبعث عسكراً آخر كميناً تحت ذلك الجبل الذي وراء البذ، وركب هو من الغداة إلى المكان الذي يقف فيه على عادته. وتقدم جعفر الخياط والقواد حتى صاروا جميعاً حول ذلك الجبل، فوثب كمين بابك من أسفل الجبل بالعسكر الذي جاء إليه لما فضحهم الصبح، وانحدر الناشبة من الجبل وقد ركّبوا الأعلام على رماحهم، وقصدوا جميعاً أدين قائد بابك في جفلة، فانحدر إلى الوادي، فحمل عليه جماعة من أصحاب القواد فرمى عليهم الصخور من الجبل وتحدرت إليهم.

ولما رأى ذلك بابك استأمن للأفشين على أن يحمل عياله من البذ، وبينما هم في ذلك إذ جاء الخبر إلى الأفشين بدخول البذ، وأن الناس صعدوا بالأعلام فوق قصور بابك حتى دخل وادياً هنالك وأحرق الأفشين قصور بابك وقتل الخرمية عن آخرهم، وأخذ أمواله وعياله، ورجع إلى معسكره عند المساء، وخالفه بابك إلى الحصن فحمل ما أمكنه من المال والطعام وجاء الأفشين من الغد فهدم القصور وأحرقها وكتب إلى ملوك أرمينية وبطارقتهم بإذكاء العيون عليه في نواحيهم حتى يأتوه به، ثم عثر على بابك بعض العيون في واد كثير الغياض يمر من أذربيجان إلى أرمينية فبعث من يأتي فلم يعثروا عليه لكثرة الغياض والشجر.

وجاء كتاب المعتصم بأمانه فبعث به الأفشين بعض المستأمنة من أصحاب بابك فامتنع من قبوله. وقتل بعضهم، ثم خرج من ذلك الوادي هو وأخوه عبد الله ومعاوية وأمه يريدون أرمينية، ورآهم الحرس الذين جاؤوا لأخذه وكان أبو السفاح هو المقدم عليهم فمروا قي أتباعهم وأدركوهم على بعض المياه، فركب ونجا وأخذ أبو السفاح معاوية وأم بابك وبعث بهم إلى الأفشين وسار بابك في جبال أرمينية مختفياً وقد أذكوا عليه العيون حتى إذا مسه الجوع بعث بعض أصحابه بدنانير لشراء قوتهم فعثر به بعض المسلحة.

وبعث إلى سهل بن ساباط فجاء واجتمع بصاحب بابك الذي كانت حراسة الطريق عليه، ودله على بابك فأتاه وخادعه حتى سار إلى حصنه وبعث بالخبر إلى الأفشين فبعث إليه بقائدين من قبله وأمرهما بطاعة ابن ساباط، فأكمنهما في بعض نواحي

الحصن وأغرى بابك بالصيد وخرج معه فخرج القائدان من الكمين فأخذاه وجاء به إلى الأفشين ومعهما معاوية بن سهل بن سباط فحبسه ووكل بحفظه وأعطى معاوية ألف درهم، وآتى سهلاً ألف ألف درهم ومنطقة مفرقة بالجواهر. وبعث إلى عيسى بن يوسف بن أسطفانوس ملك البيلقان يطلب منه عبد الله أخا بابك، وقد كان لجأ إلى حصنه عندما أحاط به ابن سباط فأنفذه إليه، وحبسه الأفشين مع أخيه.

وكتب إلى المعتصم فأمره بالقدوم بهما وذلك في شوال من سنة اثنتين وعشرين، وسار الأفشين بهما إلى سامرا فكان يلقاه في كل رحلة رسول من المعتصم بخلعة وفرس. ولما قرب من سامرا تلقاه الواثق وكبر لقدومه وأنزل الأفشين وبابك عنده بالمطيرة وتوج الأفشين وألبسه وشاحين ووصله بعشرين ألف ألف درهم وعشرة آلاف ألف درهم يفرقها في عسكره، وذلك في صفر سنة ثلاث وعشرين.

وجاء أحمد ابن أبي داود إلى بابك متنكراً وكلمه، ثم جاء المعتصم أيضاً متنكراً فرآه. ثم عقد من الغد واصطف النظارة سماطين وجيء ببابك راكباً على فيل، فلما وصل أمر المعتصم بقطع أطرافه ثم بذبحه، وأنفذ رأسه إلى خراسان، وصلب شلوه بسامرا وبعث بأخيه عبد الله إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد ليفعل به مثل ذلك ففعل. وكان الذي أنفق الأفشين في مدة حصاره لبابك سوى الأرزاق والأنزال والمعاون عشرة آلاف ألف درهم يوم ركوبه لمحاربته، وخمسة آلاف يوم قعوده. وجميع من قتل بابك في عشرين سنة أيام فتنته مائة ألف وخمسة وخمسين ألفاً، وهزم من القواد يحيى بن معاذ وعيسى بن محمد بن أبي خالد وأحمد بن الجنيد وزريق بن علي بن صدقة ومحمد بن حميد الطوسي وإبراهيم بن الليث. وكان الذين أسروا مع بابك ثلاثة آلاف وثلثمائة والذي استنقذ من يديه من المسلمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة إنسان جعلوا في حظيرة، فمن أتى من أوليائهم وأقام بينة على أحد منهم أخذه، والذي صار في يد الأفشين من بني بابك وعياله سبعة عشر رجلاً وثلاثاً وعشرين امرأة.

فتح عمورية

وفي سنة ثلاث وعشرين خرج نوفل بن ميخاييل ملك الروم إلى بلاد المسلمين فأوقع بأهل زبطرة، لأن بابك لما أشرف على الهلاك كتب إليه أن المعتصم قد وجه عساكره حتى خياطة يعني: جعفر بن دينار وطباخه يعني: إيتاخ ولم يبق عنده أحد، فانتهز الفرصة ثلاثاً أو دونها. وظن بابك أن ذلك يدعو المعتصم إلى إنفاذ العساكر لحرب الروم، فيخف عنه ما هو فيه، فخرج نوفل في مائة ألف وفيهم من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال وهزمهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فلحق بالروم، وبلغ نوفل زبطرة فاستباحها قتلاً وسبياً وأعاد على ملطية وغيرها، ومثّل بالأسرى. وبلغ الخبر إلى المعتصم فاستعظمه وبلغه أن هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم: وامعتصماه! فأجاب وهو على سريره: لبيك، لبيك!.

ونادى بالنفير ونهض من ساعته فركب دابته واحتقب شكالاً وسكة من حديد فيها رداؤه. وجمع العساكر وأحضر قاضي بغداد عبد الرحمن بن إسحاق ومعه ابن سهل في ثلاثمائة وثلاثين من العدول فأشهدهم بما وقف من الضياع، ثلثاً لولده وثلثاً لمواليه، وثلثاً لوجه الله. وسار فعسكر بقرى دجلة لليلتين من جمادى الأولى وبعث عجيف بن عنبسة وعمر الفرغاني وجماعة من القواد مدداً لأهل زبطرة، فوجدوا الروم قد ارتحلوا عنها فأقاموا حتى تراجع الناس واطمأنوا.

ولما ظفر ببابك سأل أي بلاد الروم أعظم عندهم فقيل له: عمورية، فتجهز إليها بما لا يماثله أحد قبله من السلاح والآلة والعدد، وحياض الأدم والقرب والروايا وجعل مقدمته أشناس، وبعده محمد بن إبراهيم بن مصعب وعلى الميمنة إيتاخ، وعلى الميسرة جعفر بن دينار الخياط، وعلى القلب عجيف بن عنبسة وجاء إلى بلاد الروم فأقام بسلوقية على نهر السن قريباً من البحر، وعلى مسيرة يوم طرطوس وبعث الأفشين إلى سروج وأمره بالدخول من درب الحرب وبعث أشناس من درب طرطوس وأمره بانتظاره بالصفصاف، وقدم وصيفاً في أثر أشناس وواعدهم يوم اللقاء. ورحل المعتصم لست بقين من رجب. وبلغه الخبر أن ملك الروم عازم على كبس مقدمته فبعث إلى أشناس بذلك وأن يقيم ثلاثة أيام ليلحق به.

ثم كتب إليه أن يبعث إليه من قواده من يأتيه بخبر الروم وملكهم فبعث عمر الفرغاني في مائتي فارس، فطاف في البلاد وأحضر جماعة عند أشناس أخبروه بأن ملك الروم بينما هو ينتظر المقدمة ليواقعها إذ جاءه الخبر بأن العساكر دخلت من جهة أرمينية يعني: عسكر الأفشين، فاستخلف ابن خاله على عسكره وسار إلى تلك الناحية فوجه أشناس بهم إلى المعتصم. وكتب المعتصم إلى الأفشين بالمقام حذراً عليه وجعل لمن يوصل الكتاب عشرة آلاف درهم، وأوغل في بلاد الروم فلم يدركه الكتاب.

وكتب المعتصم إلى أشناس بأن يتقدم والمعتصم في أثره حتى

إذا كانوا على ثلاث مراحل من أنقرة أسر أشناس في طريقه جماعة من الروم فقتلهم، وقال لهم شيخ منهم: أنا أدلك على قوم هربوا من أنقرة معهم الطعام والشعيرة فبعث معه مالك بن كرد في خمسمائة فارس فدل بهم إلى مكان أهل أنقرة فغنموا منهم ووجدوا فيهم جرحى قد حضروا وقعة ملك الروم مع الأفشين، وقالوا: لما استخلف على عسكره سار إلى ناحية أرمينية فلقينا المسلمين صلاة الغداة فهزمناهم وقتلنا رجالهم وافترقت عساكرنا في طلبهم، ثم رجعوا بعد الظهر فقاتلونا وحرقوا عسكرنا وفقدنا الملك وانهزمنا، ورجعنا إلى العسكر فوجدناه قد انتقض وجاء الملك من الغد فقتل نائبه الذي استخلفه، وكتب إلى بلاده بعقاب المنهزمين ومواعدتهم بمكان كذا ليلقى المسلمين بها. ووجه خصياً له إلى أنقرة ليحفظها فوجد أهلها قد أجلوا فأمره الملك بالمسير إلى عمورية، فوعى مالك بن كرد خبرهم ورجع بالغنيمة والأسرى إلى أشناس وأطلق الأمير الذي دله.

وكتب أشناس بذلك إلى المعتصم ثم جاء البشير من ناحية الأفشين بالسلامة، وأن الوقعة كانت لخمس بقين من شعبان. وقدم الأفشين على المعتصم بأنقرة ورحل بعد ثلاث والأفشين في ميمنته وأشناس في ميسرته وهو في القلب، وبين كل عسكر وعسكر فرسخان، وأمرهم بالتخريب والتحريق وما بين أنقرة وعمورية.

ثم وافى عمورية وقسمها على قواده، وخرج إليه رجل من المتنصرة فدله على عورة من السور بني ظاهره وأخل باطنه فضرب المعتصم خيمته قبالته ونصبت عليه المجانيق، فتصدع السور. وكتب بطريقها باطيس والخصي إلى الملك يعلمانه بشأنهما في السور وغيره، فوقع في يد المسلمين مع رجلين.

وفي الكتاب أن باطيس عازم على أن يخرج ليلاً ويمر بعسكر المسلمين ويلحق بالملك فنادى المعتصم حرسه، ثم انثلمت فوهة من السور بين برجين وقد كان الخندق طم بأوعية الجلود المملؤة تراباً ثم ضرب بالذبالات عليها فدحرجها الرجال إلى السور فنشبت في تلك الأوعية وخلص من فيها بعد الجهد. ولما جاء من الغد بالسلالم والمنجنيقات فقاتلوهم على تلك الثلمة وحارب ويدر بالحرب أشناس وجمعت المنجنيقات على تلك الثلمة وحارب في اليوم الثاني الأفشين والمعتصم راكب ازاء الثلمة، وأشناس وأفشين وخواص الخدام معه.

ثم كانت الحرب في اليوم الثالث على المعتصم وتقدم إيتاخ بالمغاربة والأتراك واشتد القتال على الروم إلى الليل وفشت فيهم الجراحات، ومشى بطريق تلك الناحية إلى رؤساء الروم، وشكا إليهم واستمدهم فأبوا. فبعث إلى المعتصم يستأمن فأمنه وخرج من الغد إلى المعتصم وكان اسمه وندوا فبينما هو والمعتصم يحادثه أومأ عبد الوهاب بن علي من بين يديه إلى المسلمين بالدخول فافتتحوا من الثلمة ورآهم وندوا فخاف فقال له المعتصم: كل شيء تريده هو لك. ودخل المسلمون المدينة وامتنع الروم بكنيستهم وسطها فأحرقها المسلمون عليهم.

وامتنع باطيس البطريق في بعض أبراجها حتى استنزله المعتصم بالأمان، وجاء الناس بالأسرى والسبي من كل جانب، واصطفى الأشراف وقتل من سواهم وبيعت مغانمهم في خمسة أيام وأحرق الباقي. ووثب الناس على المغانم في بعض الأيام ينهبونها فركب المعتصم وسار نحوهم فكفؤوا بعمورية فهدمت وأحرقت وحاصرها خمسة وخمسين يوماً من سادس رمضان إلى آخر شوال، وفرق الأسرى على القواد ورجع نحو طرطوس. ولم يزل نوفل ملكاً على الروم إلى أن هلك سنة تسع وعشرين ومائتين في ولاية الواثق ونصبوا ابنه ميخاييل في كفالة أمه ندورة فأقامت عليهم ست سنين ثم اتهمها ابنها ميخاييل بقمط من أقماطها عليها وألزمها بيتها سنة ثلاث وثلاثين.

حبس العباس بن المأمون ومهلكه

كان المعتصم يقدم الأفشين على عجيف بن عنبسة ولما بعثه إلى زبطرة لم يطلق يده في النفقات كما أطلق للأفشين وكان يستقصر شأن عجيف وأفعاله، فطوى عجيف على النكث ولقي العباس بن المأمون فعذله على قعوده عند وفاة المأمون عن الأمر حتى بويع المعتصم وأغراه قبلاً في ذلك فقبل العباس منه، ودس رجلاً من بطانته يقال له السمرقندي قرابة عبد اللّه بن الوضاح وكان له أدب ومداراة فاستأمن له جماعة من القواد ومن خواص المعتصم فبايعوه وواعد كل واحد منهم أن يثب بالقائد الذي معه فيقتله من أصحاب المعتصم والأفشين وأشناس بالرجوع إلى بغداد فأبى من ذلك وقال: لا أفسد العراق. فلما فتحت عمورية وصعب التدبير بعض الشيء أشار عجيف بأن يضع من ينهب الغنائم فإذا ركب المعتصم وثبوا به ففعلوا مثل ما ذكرنا. وركب فلم يتجاسروا عليه.

وكان للفرغاني قرابة غلام أمرد في جملة المعتصم فجلس مع ندمان الفرغاني تلك الليلة وقص عليهم ركوب المعتصم فأشفق الفرغاني وقال: يا بني أقلل من المقام عند أمير المؤمنين والزم خيمتك، وإن سمعت هيعة فلا تخرج فأنت غلام غر. ثم ارتحل

المعتصم إلى الثغور وتغير أشناس على عمر الفرغاني وأحمد بن الخليل وأساء إليهما فطلبا من المعتصم أن يضمهما إلى من شاء وشكيا من أشناس فقال له المعتصم: أحسن أدبهما فحبسهما وحملهما على بغل، فلما صار بالصفصاف حدَّث الغلام ما سمع من قريبه عمر الفرغاني فأمر بغا أن يأخذه من عند أشناس ويسأله عن تأويل مقالته فأنكر، وقال: إنه كان سكران، فدفعه إلى إيتاخ.

ثم دفع أحمد بن الخليل إلى أشناس.... عنده نصيحة للمعتصم وأخبره خبر العباس بن المأمون والقواد والحارث السمرقندي فأنفذ أشناس إلى الحارث وقيده وبعث به إلى المعتصم، وكان في المقدمة فأخبر الحارث المعتصم بجلية الأمر فأطلقه وخلع عليه، ولم يصدقه على القواد لكثرتهم. ثم حضر العباس بن المأمون واستحلفه أن لا يكتم عنه شيئاً فشرح له القصة فحبسه عند الأفشين وتتبع القواد بالحبس والتنكيل وقتل منهم المشاء بن سهيل ثم دفع العباس للأفشين، فلما نزل منبج طلب الطعام فأطعم ومنع الماء. ثم أدرج في بج فمات. ولما وصل المعتصم إلى نصيبين احتفر لعمر الفرغاني بئراً وطمت عليه، ولما دخلوا بلاد الموصل قتل عجيف بمثل ما قتل به العباس واستلحم جميع القواد في تلك الأيام وسموا العباس اللعين. ولما وصل إلى سامرا جلس أولاد المأمون في داره حتى ماتوا.

انتقاض مازيار وقتله

كان مازيار بن قارن بن وندا هرمز صاحب طبرستان وكان منافراً لعبد اللّه بن طاهر فلا يحمل إليه الخراج وقال: لا أحمله إلا للمعتصم فيبعث المعتصم من يقبضه من أصحابه ويدفعه إلى وكيل عبد اللّه بن طاهر يرده إلى خراسان. وعظمت الفتنة بين مازيار وعبد اللّه وعظمت سعاية عبد اللّه في مازيار عند المعتصم حتى استوحش منه. ولما ظفر الأفشين ببابك وعظم محله عند المعتصم وطمع في ولاية خراسان ظن أن انتقاض مازيار وسيلة لذلك فجعل يستميل مازيار ويحرضه على عداوة ابن طاهر وإن أدت إلى الخلاف ليبعثه المعتصم لحربه فيكون ذلك وسيلة له إلى استيلائه على خراسان ظناً بأن ابن طاهر لا ينهض لمحاربته.

فانتفض مازيار وحمل الناس على بيعته كرهاً وأخذ رهائنهم وعجل جباية الخراج فأستكثر منه وخرب سور آمد وسور سابة وقتل أهلها إلى جبل يعرف بهرمازيارونى سرخاشان سورطمس منها إلى البحر على ثلاثة أميال وهي على حد جرجان وكانت تبنيه سداً بين الترك وطبرستان وجعل عليه خندقاً ومن أهل جرجان إلى نيسابور، وأنفذ عبد اللّه بن طاهر عمه الحسن بن الحسين في جيش كثيف لحفظ جرجان، فعسكر على الخندق، ثم بعث مولاه حيان بن جبلة إلى قومس فعسكر على جبال شروين.

وبعث المعتصم من بغداد محمد بن إبراهيم بن مصعب وبعث منصور بن الحسن صاحب دنباوند إلى الري، وبعث أبا الساج إلى دنباوند وأحاطت العساكر بجباله من كل ناحية، وداخل أصحاب الحسن بن الحسين أصحاب سرخاشان في تسليم سورهم وليس بينهما إلا عرض الخندق، فكلموه وسار الآخرون إليه على حين غفلة من القائدين، وركب الحسن بن الحسين وقد ملك أصحابه السور ودخلوا منه فهرب سرخاشان وقبضوا على أخيه شهريار فقتل. ثم قبض على سرخاشان على خمسة فراسخ من معسكره وجيء به إلى الحسن بن الحسين فقتله أيضاً.

ثم وقعت بين حيان بن جبلة وبين فارق بن شهريار وهو ابن أخي مازيار ومن قواده، مداخلة استمالة حيان، فأجاب أن يسلم مدينة سارية إلى حد جرجان على أن يملكوه جبال آبائه، وبعث حيان إلى ابن طاهر فسجل لقارن بما سأل، وكان قارن في جملة عبد اللّه بن قارن أخي مازيار ومن قواده فأحضر جميعهم لطعامه وقبض عليهم، وبعث بهم إلى حيان فدخل جبال قارن في جموعه واعتصم لذلك مازيار، وأشار عليه أخوه القوهيار أن يخلي سبيل من عنده من أصحابه ينزلون من الجبل إلى مواطنهم لئلا يؤتى من قبلهم، فصرف صاحب شرطته وخراجه وكاتبه حميدة، فلحقوا بالسهل ووثب أهل سارية بعامله عليهم مهرستان بن شهرين فهرب ودخل حيان سارية.

ثم بعث قوهيار أخو مازيار محمد بن موسى بن حفص عامل طبرستان وكانوا قد حبسوه عند انتقاضهم، فبعثه إلى حيان ليأخذ له الأمان وولاية جبال آبائه على أن يسلم إليه مازيار، وعزل قوهيار بعض أصحابه في عدوله بالاستئمان عن الحسن إلى حيان فرجع إليهم وكتبوا إلى الحسن يستدعون قوهيار من أخيه مازيار فركب من معسكره بطمس وجاء لموعدهم ولقي حيان على فرسخ فرده إلى جبال شروين التي افتتحها، ووبخه على غيبته عنها فرجع سارية وتوفي، وبعث عبد اللّه مكانه محمد بن الحسين بن مصعب وعهد إليه أن لا يمنع قارن ما يريده، ولما وصل الحسن إلى خرماباذ وسط جبال مازيار لقيه قاهيار هنالك، واستوثق كل منهما من صاحبه، وكاتب محمد بن إبراهيم بن مصعب من قواد المعتصم قوهيار بمثل ذلك، فركب قاصداً إليه، وبلغ الحسن خبره فركب في العسكر وحازم يسابق محمد بن إبراهيم إلى قوهيار فسبقه ولقي قوهيار وقد جاء بأخيه مازيار فقبض عليه وبعثه مع اثنين

من قواده إلى خرماباذ ومنها إلى مدينة سارية.

ثم ركب واستقبل محمد بن إبراهيم بن مصعب وقال: أين تريد؟ فقال: إلى المازيار فقال: هو بسارية، ثم حبس الحسن أخوي المازيار ورجع إلى مدينة سارية فقيد المازيار بالقيد الذي قيد به محمد بن محمد بن موسى بن حفص، وجاء كتاب عبد اللّه بن طاهر بأن يدفع المازيار وأخويه وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم يحملهم إلى المعتصم. وسأل الحسن المازيار عن أمواله فذكر أنها عند قوم من وجوه سارية سماهم وأمر الحسن القوهيار بحمل هذه الأموال، وسار إلى الجبل ليحملها، فوثب به مماليك المازيار من الديلم وكانوا ألفاً ومائتين فقتلوه بثأر أخيه وهربوا إلى الديلم، فاعترضتهم جيوش محمد بن إبراهيم وأخذوهم فبعث بهم إلى مدينة سارية.

وقيل: إن الذي غدر بالمازيار ابن عم له كان يتوارث جبال طبرستان والمازيار يتوارث سهلها، وكانت جبال طبرستان ثلاثة أجبل فلما انتقض واحتاج إلى الرجال دعا ابن عمه من السهل وولاه على أصعبها وظن أنه قد توثق به فكاتب هو الحسن وأطلعه على مكاتبة الأفشين لمازيار وداخله في الفتك على أن يوليه ما كان لآبائه، وأن المازيار لما ولاه الحسن بن سهل طبرستان انتزع الجبل من يده فأفضى له الحسن كتاب ابن طاهر وتوثق له فيه، وأوعده ليوم معلوم ركب فيه الحسن إلى الجبل فأدخله ابن عم مازيار وحاصروه حتى نزل على حكمه. ويقال: أخذه أسيراً في الصيد. ومضى الحسن به ولم يشعر صاحب الجبل الآخر وأقام في قتاله لمن كان بإزائه فلم يشعر إلا والعساكر من ورائه فانهزم، ومضى إلى بلاد الديلم فأتبعوه وقتلوه. ولما صار المازيار في يده طلبت منه كتب الأفشين فأحضرها، وأمر ابن طاهر أن يبعث بها معه إلى المعتصم، فلما وصل إلى المعتصم ضربه حتى مات وصلبه إلى جانب بابك وذلك سنة أربع وعشرين.

ولاية ابن السيد على الموصل

وفي سنة أربع وعشرين ولى المعتصم على الموصل عبد اللّه بن السيد بن أنس الأزدي وكان سبب ولايته أن رجلاً من مقدمي الأكراد يعرف بجعفر بن فهرجس كان قد عصى بأعمال الموصل، وتبعه خلق كثير من الأكراد وغيرهم، وأفسدوا البلاد فبعث المعتصم لحربه عبد اللّه بن السيد بن أنس فقاتله وغلبه على ماتعيس وأخرجه منها بعد أن كان استولى عليها ولحق بجبل دانس وامتنع بأعاليه، وقاتله عبد اللّه وتوغل في مضايق ذلك الجبل، فهزمه الأكراد وأثخنوا في أصحابه بالقتل، وقتل إسحاق بن أنس عم عبد اللّه فبعث المعتصم مولاه إيتاخ في العساكر إلى الموصل سنة خمس وعشرين وقصد جبل داس فقاتل جعفراً وقتله وافترق أصحابه، وأوقع بالأكراد واستباحهم وفروا أمامه إلى تكريت.

نكبة الأفشين ومقتله

كان الأفشين من أهل أشروسنَة تبواها ونشأ ببغداد عند المعتصم وعظم محله عنده ولما حاصر بابك كان يبعث إلى أشروسنة بجميع أمواله، فيكتب ابن طاهر بذلك إلى المعتصم، فيأمره المعتصم بأن يجعل عيونه في ذلك. وعثر مرةً ابن طاهر على تلك الأموال فأخذها وصرفها في العطاء، وقال له حاملوها: هذا مال الأفشين فقال: كذبتم لو كان ذلك لأعلمني أخي أفشين به، وإنما أنتم لصوص، وكتب إلى الأفشين بذلك بأنه دفع المال إلى الجند ليوجههم إلى الترك فكتب إليه أفشين: مالي ومال أمير المؤمنين واحد، وسأله في إطلاق القوم فأطلقهم واستحكمت الوحشة بينهما وتتابعت السعاية فيه من طاهر، وربما فهم الأفشين أن المعتصم يعزله عن خراسان فطمع في ولايتها، وكان مازيار يحسِّن له الخلافة ليدعو المعتصم ذلك إلى عزله وولاية الأفشين لحرب مازيار.

فكان من أمر مازيار ما ذكرناه وسيق إلى بغداد مقيداً، وولى المعتصم الأفشين على أذربيجان فولى عليها من قبله منكجور من بعض قرابته فاستولى على مال عظيم لبابك. وكتب به صاحب البريد إلى المعتصم فكذبه منكجور وهم بقتله، فمنعه أهل أردبيل فقاتلهم، وسمع ذلك المعتصم فأمر الأفشين بعزل منكجور وبعث قائداً في عسكره مكانه، فخلع منكجور وخرج من أردبيل فهزمه القائد ببعض حصون أذربيجان كان بابك خربه، فأصلحه وتحصن فيه شهراً ثم وثب أصحابه وأسلموه إلى القائد، فقدم به إلى سامرا فحبسه المعتصم واتهم الأفشين في أمره وذلك سنة خمس وعشرين ومائتين بأن القائد كان بغا الكبير وأنه خرج إليه بالأمان أهـ.

ولما أحسن الأفشين بتغير المعتصم أجمع أمره على الفرار واللحاق بارمينية، وكانت في ولايته ويخرج منها إلى بلاد الخزر ويرجع إلى بلاد أشروسنة، وصعب عليه ذلك بمباشرة المعتصم أمره فأراد أن يتخذ لهم صنيعاً يشغلهم فيه نهارهم، ثم يسير من أول الليل.

وعرض له في أثناء ذلك غضب على بعض مواليه وكان سيئ الملكة فأيقن مولاه بالهلكة، وجاء إلى إيتاخ فأحضره إلى

المعتصم وخبره الخبر فأمره بإحضاره وحبسه بالجوثق، وكان ابنه الحسن عاملاً على بعض ما وراء النهر فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر في الاحتيال عليه، وكان يشكو من نوح بن أسد صاحب بخارى. فكتب ابن طاهر إلى الحسن بولاية بخارى وكتب إلى نوح بذلك وأن يستوثق منه إذا وصل إليه ويبعث به، ثم يبعث به إلى ابن طاهر، ثم إلى المعتصم.

ثم أمر المعتصم بإحضار الأفشين ومناظرته فيما قيل عنه، فأحضر عند الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات وعنده القاضي أحمد بن أبي داود وإسحاق بن إبراهيم وجماعة القواد والأعيان، وأحضر المازيار من محبسه والمؤيد والمرزبان بن تركش أحد ملوك الصغد، ورجلان من أهل الصغد يدعيان أن الأفشين ضربهما وهما إمام ومؤذن بمسجد. فكشفا عن ظهورهما وهما عاريان من اللحم، فقال ابن الزيات للأفشين: ما بال هذين؟ قال: عهدا إلى معاهدين فوثبا على بيت أصنامهم فكسراها، واتخذا البيت مسجداً فعاقبتهما على ذلك. وقال ابن الزيات: ما بال الكتاب المحلى بالذهب والجواهر عندك وفيه الكفر؟ وقال: كتاب ورثته من آبائي وأوصوني بما فيه من آدابهم فكنت آخذها منه وأترك كفرهم، ولم أحتج إلى نزع حليته، وما ظننت أن مثل هذا يخرج عن الإسلام.

ثم قال المؤيد: إنه يأكل لحم المنخنقة ويحملني على أكلها ويقول: هو أرطب من لحم المذبوحة. ولقد قال لي يوماً: حملت على كل مكروه لي حتى أكلت الزيت وركبت الجمل ولبست النعل، وإلى هذه الغاية لم أختتن ولم تسقط عني شعرة العانة. فقال الأفشين: أثقة هذا عندكم في دينه؟ وكان مجوسياً قالوا: لا! قال: فكيف تقبلونه عليّ؟ ثم قال للمؤيد: أنت ذكرت أني أسررت إليك ذلك، فلست بثقة في دينك ولا بكريم في عهدك ثم قال له المرزبان: كيف يكاتبك أهل أشروسنة؟ قال: ما أدري! قال: أليس يكاتبونك بما تفسره بالعربي: إلى إله الآلهة من عبده فلان؟ قال: بلى! فقال ابن الزيات: فما أبقيت لفرعون؟ قال: هذه عادة منهم لأبي وجدي ولي قبل الإسلام، ولو منعتهم لفسدت علي طاعتهم.

ثم قال له: أنت كاتبت هذا؟ وأشار إلى المازيار. كتب أخوه إلى أخي قوهيار أنه لن ينصر هذا الدين غيري وغيرك وغير بابك، فأما بابك فقد قتل نفسه بجمعه، ولقد عهدت أن أمنعه فأبى إلا خنقه، وأنت إن خالفت لم يرمك القوم بغيري ومعي أهل النجدة، وإن توجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا العرب والمغاربة والترك، والعربي كلب تناوله لقمة وتضرب رأسه، والمغاربة أكله رأس، والأتراك لهم صدمة ثم تجول الخيل جولة فتأتي عليهم، ويعود هذا الدين إلى ما كان عليه أيام العجم.

فقال الأفشين: هذا يدّعي أن أخي كتب إلى أخيه فما يجب علي؟ ولو كتب فأنا أستميله مكراً به لأحظى عند الخليفة كما حظي به ابن طاهر، فزجره ابن أبي دؤاد فقال له الأفشين: ترفع طيلسانك فلا تضعه حتى تقتل جماعة فقال: أمتطهر أنت؟ قال: لا! قال: فما يمنعك وهو شعار الإسلام؟ قال: خشيت على نفسي من قطعة! قال: فكيف وأنت تلقى الرماح والسيوف؟ قال: تلك ضرورة أصبر عليها وهذا أستجلبه. فقال ابن أبي دؤاد لبغا الكبير: قد بان لكم أمره يا بغا عليك به! فدفعه بيديه ورده إلى محبسه، وضرب مازيار أربعمائة سوط فمات منها، وطلب أفشين من المعتصم أن ينفذ إليه من يثق به، فبعث حمدون بن إسماعيل فاعتذر له عن جميع ما قيل فيه وحمل إلى دار إيتاخ فقتل بها وصلب على باب العامة، ثم أحرق وذلك في شعبان من سنة ست وعشرين، وقيل: قطع عنه الطعام والشراب حتى مات.

ظهور المبرقع

كان هذا المبرقع يعرف بأبي حرب اليماني وكان بفلسطين وأراد بعض الجند النزول في داره فمنعه بعض النساء فضربها الجندي، وجاء فشكت إليه بفعل الجندي، فسار إليه وقتله، ثم هرب إلى جبال الأردن فأقام بها واختفى ببرقع على وجهه وصار يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعيب الخليفة ويزعم أنه أموي، واجتمع له قوم من تلك الناحية وقالوا: هو السفياني. ثم أجابه جماعة من رؤساء اليمانية منهم ابن بهيس وكان مطاعاً في قومه وغيره فاجتمع له مائة ألف، وسرح المعتصم رجاء بن أيوب في ألف من الجند فخام عن لقائهم لكثرة من معه، وعسكر قبالته ينتظر أوان الزراعة وانصراف الناس عنه لأعمالهم. وبينما همّ في الانصراف توفي المعتصم وثارت الفتنة بدمشق، فأمره الواثق بقتل من أثار الفتنة والعود إلى المبرقع، ففعل وقاتله فأخذه أسيراً وابن بهيس معه، وقتل من أصحابه عشرين ألفاً وحمله وذلك سنة سبع وعشرين ومائتين.

وفاة المعتصم وبيعة الواثق

وتوفي المعتصم أبو إسحاق محمد بن المأمون بن الرشيد منتصف ربيع الأول سنة سبع وعشرين لثمان سنين وثمانية أشهر من خلافته وبويع ابنه هارون الواثق صبيحته وتكنى أبا جعفر. فثار أهل دمشق بأميرهم وحاصروه وعسكروا بمرج واسط وكان رجاء بن أيوب بالرملة في قتال المبرقع، فرجع إليهم بأمر الواثق

فقاتلهم وهزمهم وأثخن فيهم، وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة ومن أصحابه نحو ثلاثمائة، وصلح أمر دمشق، ورجع رجاء إلى قتال المبرقع حتى جاء به أسيراً..... بيعة الواثق توجه أشناس ووشحه وكان للواثق سمر يجلسون عنده ويفيضون في الأخبار حتى أخبروه عن شأن البرامكة واستبدادهم على الرشيد واحتجابهم الأموال فأغراه ذلك بمصادرة الكتاب فحبسهم والزمهم الأموال.

فأخذ من أحمد بن إسرئيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه، ومن سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أربعمائة ألف، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألفاً، ومن إبراهيم بن رباح وكاتبه مائة ألف، ومن أبي الوزر مائة وأربعين ألفاً وكان على اليمن إيتاخ وولاه عليها المعتصم بعدما عزل جعفر بن دينار، وسخطه وحبسه ثم رضي عنه وأطلقه، فلما ولي الواثق ولّى إيتاخ على اليمن من قبله سارباميان، فسار إليها وكان الحرس إسحاق بن يحيى بن معاذ ولاه المعتصم بعد عزل الأفشين، وولي الواثق على المدينة سنة إحدى وعشرين محمد بن صالح بن العباس وبقي محمد بن داود على مكة، وتوفي عبد الله بن طاهر سنة ثلاثين وكان على خراسان وكرمان وطبرستان والري وكان له الحرب والشرطة والسواد فولى الواثق على أعماله كلها ابنه طاهراً.

وقعة بغا في الأعراب

كان بنو سليم يفسدون بنواحي المدينة ويتسلطون على الناس في أموالهم وأوقعوا بناس من كنانة وباهلة، وبعث محمد بن صالح إليهم مسلحة المدينة ومعهم متطوعة من قريش والأنصار فهزمهم بنو سليم وقتلوا عامتهم وأحرقوا لباسهم وسلاحهم وكراعهم ونهبوا القرى ما بين مكة والمدينة وانقطع الطريق، فبعث الواثق بغا الكبير، وقدم المدينة في شعبان فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم خمسين رجلاً وأسر مثلها، واستأمنوا له على حكم الواثق، فقبض على ألف منهم ممن يعرف بالفساد فحبسهم بالمدينة وذلك سنة ثلاثين. ثم حج وسار إلى ذات عرق وعرض على بني هلال مثل بني سليم فأخذ من المفسدين منهم نحو ثلاثمائة رجل وحبسهم بالمدينة وأطلق الباقين.

ثم خرج بغا إلى بني مرة فنقب أولئك الأسرى الحبس وقتلوا الموكلين، فاجتمع عليهم أهل المدينة ليلاً ومنعوهم من الخروج فقاتلوهم إلى الصبح ثم قتلوهم، وشق ذلك على بغا وكان سبب غيبته أن فزارة وبني مرة تغلبوا على فدك، فخرج إليهم وقدم رجلاً من قواده يعرض عليهم الأمان، فهربوا من سطوته إلى الشام واتبعهم إلى تخوم الحجاز من الشام، وأقام أربعين ليلة ثم رجع إلى المدينة بمن ظفر منهم.

وجاءه قوم من بطون غفار وفزارة وأشجع وتغلبة فاستخلفهم على الطاعة ثم سار إلى بني كلاب فأتوه في ثلاثة آلاف رجل فحبس أهل الفساد منهم ألفاً بالمدينة وأطلق الباقين، وأمره الواثق سنة اثنتين وثلاثين بالمسير إلى بني نمير باليمامة وما قرب منها لقطع فسادهم، فسار إليهم ولقي جماعة الشريف منهم فحاربهم وقتل منهم خمسين وأسر أربعين. ثم سار إلى مرة وبعث إليهم في الطاعة فامتنعوا وسار إلى جبال السند وطف اليمامة وبعث سراياهم فأوقع بهم في كل ناحية ثم سار إليهم في ألف رجل فلقيهم قريباً من أضاخ فكشفوا مقدمته وميسرته وأثخنوا في عسكره بالقتل والنهب.

ثم ساروا تحت الليل وهو في أتباعهم يدعوهم إلى الطاعة وبعث طائفة من جنده يدعون بعضهم وأصبح وهو في قلة، فحملوا عليه وهزموه إلى معسكره، وإذا بالطائفة الذين بعثهم قد جاؤوا من وجهتهم فلما رآهم بنو نمير من خلفهم ولوا منهزمين وأسلموا رجالهم وأموالهم ونجوا على خيلهم ولم يفلت من رجالتهم أحد، وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة، وأقام بمكان الوقعة واستأمن له أمراؤهم فقيدهم وحبسهم بالبصرة. وقدم عليهم واجن الأشروسني في سبعمائة مقاتل مدداً فبعثه إلى أتباعهم إلى أن بلغ تبالة من أعمال اليمن ورجع، وسار بغا إلى بغداد بمن معه منهم وكانوا نحو ألفي رجل ومائتي رجل، وكتب إلى صالح أمير المدينة أن يوافيه ببغداد من عنده منهم فجاء بهم وسلموا جميعاً.

مقتل أحمد بن نصر

وهو أحمد بن مالك وهو أحد النقباء كما تقدم وكان أحمد هذا نسيبة لأهل الحديث ويغشاه جماعة منهم مثل ابن حصين وابن الدورقي وأبي زهير، ولقن منهم النكير على الواثق بقوله بخلق القرآن. ثم تعدى ذلك إلى الشتم وكان ينعته بالخنزير والكافر، وفشا ذلك عنه وانتدب رجلان ممن كان يغشاه هما: أبو هارون السراج وطالب وغيرهما فدعوا الناس له وبايعه خلق على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفرقوا الأموال في الناس ديناراً لكل رجل، وأنفذوا لثلاث تمضي من شعبان من سنة إحدى وثلاثين يظهارون فيها دعوتهم.

واتفق أن رجالاً ممن بايعهم من بني الأشرس جاؤوا قبل

الموعد بليلة وقد نال منهم السكر فضربوا الطبل وصاحب الشرطة إسحاق بن إبراهيم غائب، فارتاع خليفتة محمد أخوه فأرسل من يسأل عن ذلك فلم يوجد أحد، وأتوه برجل أعور اسمه عيسى وجدوه في الحمام فدلهم على بني الأشرس وعلى أحمد بن نصر وعلى أبي هارون وطالب، ثم سيق خادم أحمد بن نصر فذكر القصة، فقبض عليه وبعث بهم جميعاً إلى الواثق بسامرا مقيدين، وجلس لهم مجلساً عاماً وحضر فيه أحمد بن أبي دؤاد، ولم يسأله الواثق عن خروجه وإنما سأله عن خلق القرآن فقال: هو كلام الله. ثم سأله عن الرؤية فقال: جاءت بها الأخبار الصحيحة ونصيحتي أن لا يخالف حديث رسول الله ﷺ. ثم سأل الواثق العلماء حوله عن أمره، فقال عبد الرحمن بن إسحاق قاضي الجانب الغربي: هو حلال الدم! وقال ابن أبي دؤاد: هو كافر يستتاب. فدعا الواثق بالصمصامة فانتضاها ومشى إليه فضربه على حبل عاتقه ثم على رأسه، ثم وخزه في بطنه، ثم أجهز سيما الدمشقي عليه وحزوا رأسه، ونصب ببغداد وصلب شلوه عنده بابها.

الفداء والصائفة

وفي سنة إحدى وثلاثين عقد الواثق لأحمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة على الثغور والعواصم، وأمره بحضور الفداء هو وخاقان الخادم، وأمرهما أن تمتحن الأسرى باعتقاد القرآن والرؤية. وجاء الروم بأسراهم والمسلمون كذلك والتقوا على نهر اللامس على مرحلة من طرطوس وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعة وستين والنساء والصبيان ثمانمائة وأهل الذمة مائة. فلما فرغوا من الفداء غزا أحمد بن سعيد بن مسلم شاتياً وأصاب الناس ثلج ومطر وهلك منهم مائة نفس، وأسر منهم نحوها وخرق بالنبل قرون خلق، ولقيه بطريق من الروم فخام عن لقائه ثم غنم ورجع، فعزله الواثق وولى مكانه نصر بن حمزة الخزاعي.

وفاة الواثق وبيعة المتوكل

وتوفي الواثق أبو جعفر هارون بن المعتصم محمد لست بقين من سنة اثنتين وثلاثين، وكانت علته الاستسقاء وأدخل في تنور مسجر فلقي خفة، ثم عاوده في اليوم الثاني أكثر من الأول فأخرج في محفة فمات فيها، ولم يشعروا به. وقيل: إن ابن أبي دؤاد غمضه ومات لخمس سنين وتسعة أشهر من خلافته، وحضر في الدار أحمد بن أبي دؤاد وإيتاخ ووصيف وعمر بن فرح وابن الزيات، وأراد البيعة لمحمد بن واثق وهو غلام إمَّر، فألبسوه فإذا هو قصير فقال وصيف: أما تتقون الله تولون الخلافة مثل هذا! ثم تناظروا فيمن يولونه وأحضروا المتوكل فألبسه ابن أبي دؤاد الطويلة وعمَّمه وسلم عليه بإمارة المؤمنين ولقبه المتوكل، وصلى على الواثق ودفنه. ثم وضع العطاء للجند لثمانية أشهر، وولى على بلاد فارس إبراهيم بن محمد بن مصعب، وكان على الموصل غانم بن محمد الطويس فأقره وعزل ابن العباس محمد بن وصول عن ديوان النفقات وعقد لابنه المنتصر على الحرمين واليمن والطائف.

نكبة الوزير ابن الزيات ومهلكه

كان محمد بن عبد الملك بن الزيات قد استوزره الواثق فاستمكن من دولته وغلب على هؤلاء، وكان لا يحفل بالمتوكل ولا يوجب حقه، وغضب الواثق عليه مرة فجاء إلى ابن الزيات ليستنزله فأساء معاملته في التحية والملاقاة فقال: اذهب فإنك إذا صلحت رضي عنك. وقام عنه حزيناً فجاء إلى القاضي أحمد بن دؤاد فلم يدع شيئاً من البر إلا فعله وحياه وفداه، وخطب حاجته فقال: أحب أن ترضي عني أمير المؤمنين فقال: أفعل ونعمة عين! ولم يزل بالواثق حتى رضي عنه. وكان ابن الزيات كتب إلى الواثق عندما خرج عنه المتوكل أن جعفر أتاني فسأل الرضا عنه وله وفرة شبه زي المخنثين، فأمره الواثق أن يحضره من شعر قفاه فاستحضره فجاء يظن الرضا عنه وأمر حجاماً أخذ من شعره وضرب به وجهه فحقد له ذلك وأساء له.

ولما ولي الخلافة بقي شهراً ثم أمر إيتاخ أن يقبض عليه ويقيده بداره ويصادره، وذلك في صفر سنة ثلاث وثلاثين، فصادره واستصفى أمواله وأملاكه وسلط عليه أنواع العذاب، ثم جعله في تنور خشب في داخله مسامير تمنع من الحركة وتزعج من فيه لضيقه، ثم مات متنصف ربيع الأول، وقيل: إنه مات من الضرب وكان لا يزيد على التشهد وذكر الله. وكان عمر بن الفرح الرخجي يعامل المتوكل بمثل ذلك فحقد له، ولما استخلف قبض عليه في رمضان واستصفى أمواله ثم صودر على أحد عشرة ألف ألف.

نكبة إيتاخ ومقتله

كان إيتاخ مولى السلام الأبرص وكان عنده ناخورياً طباخاً، وكان شجاعاً فاشتراه المعتصم منه سنة تسع وتسعين وارتفع في

دولته ودولة الواثق ابنه وكان لـه المؤنة بسامرا مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب. وكانت نكبة العظماء في الدولة على يديه وحبسهم بداره، مثل أولاد المأمون وابن الزيات وصالح وعجيف وعمر بن الفرج وابن الجنيد وأمثالهم، وكـان لـه البريد والحجابة والجيش والمغاربة والأتراك. وشرب ذات ليلة مـع المتوكـل فعربد على إيتاخ وهمّ إيتاخ بقتله، ثم غدا عليه فاعتذر لـه ودس عليه من زين له الحج فأستأذن المتوكل فاذن له وخلع عليه وجعله أمير كل بلد يمر به.

وسار لذلك في ذي القعدة سنة أربع وثلاثين أو ثلاث وثلاثين، وسار العسكر بين يديه وجعلت الحجابة إلى وصيف الخادم ولما عاد إيتاخ من الحج بعث إليه المتوكل بالهدايا والألطاف، وكتب إلى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره بحبسه. فلما قارب بغداد كتب إليه إسحاق بأن المتوكل أمر أن يدخل بغداد وأن تلقاه بنو هاشم ووجوه الناس وأن يقعد بـدار خزيمة بـن خـازم فيأمر للناس بالجوائز على قدر طبقـاتهم ففعل ذلـك، ووقف إسحاق على باب الدار فمنع أصحابه من الدخول إليه ووكل بالأبواب ثم قبض على ولديه منصور ومظفر وكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد، وبعث إيتاخ إليه يسأله الرفق بـالولدين ففعـل، ولم يـزل إيتاخ مقيداً بالسجن إلى أن مات فقيل: إنهم منعوه الماء وبقي ابناه محبوسين إلى أن أطلقهما المنتصر بعد المتوكل.

شأن ابن البغيث

كـان محمد بـن البغيث بـن الحليس ممتنعـاً في حصونـه بأذربيجان وأعظمها مرند، واستنزل من حصنه أيام المتوكل وحبس بسامرا فهرب من حبسه ولحق بمرند، وقيل: إنه في حبس إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وشفع فيه بغا الشرابي، فأطلقه إسحاق في كفالة محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، وكـان يتردد إلى سامرا حتى مرض المتوكل ففـر ولحق بمرند وشحنها بـالأقوات، وجاءه أهل الفتنة من ربيعة وغيرهم فاجتمع له نحو ألفين ومـائتي رجل، والوالي بأذربيجان يومئذ محمد بـن حـاتم بـن هرثمـة فلـم يقامعه فعزله المتوكل وولى حمدوية بن علي بـن الفضـل السعدي، فسار إليه وحاصره بمرند مدة وبعـث إليـه المتوكـل بـالمدد، وطـال الحصار فلم يقن فيه، فبعـث بغـا الشـرابي في ألفي فـارس فجـاء لحصاره. وبعث إليه عيسى بـن الشيخ بـن السلسل بالأمان لـه ولوجوه أصحابه أن ينزلوا على حكم المتوكل، فنزل الكثير منهم وانفض جمعه ولحق ببغا وخرج هو هارباً، ونهبت منازلـه وأسرت نساؤه وبناته. ثم أدرك بطريقة وأتي به أسيراً وبأخويه صقر وخالد وأبنائه حليس وصقر والبغيث، وجاء بهـم بغـا إلى بغـداد وحملهـم على الجمال يوم قدومه حتى رآهم الناس وحبسوا. ومات البغيث لشهر من وصوله سنة خمس وثلاثين وجعل بنوه في الشـاكرية مـع عبد اللّه بن يحيى خاقان.

بيعة العهد

وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين عقد المتوكل البيعـة والعهـد وكانوا ثلاثة: محمداً وطلحة وإبراهيم، ويقال في طلحة ابـن الزبـير وجعـل محمـداً أولهـم ولقبـه المستنصر وأقطعـه أفريقيـة والمغـرب وقنسرين والثغور والشامية والخزرية، وديـار مضـر وديـار ربيعـة، وهيت والموصل وغانة والخابور، وكور دجلـة والسـواد والحرمـين وحضرموت والحرمين والسند ومكـران وقندابيـل وكـور الأهـواز والمستغلات بسامرا، وماء الكوفة وماء البصرة.

وجعل طلحة ثانيهم ولقبه المعتز وأقطعـه أعمـال خراسـان وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وأعمال فارس، ثـم أضـاف إليه سنة أربعين خزن الأموال ودور الضرب في جميع الأفاق وأمـر أن يرسم اسمه في السكة.

وجعل الثالث إبراهيـم وأقطعـه حمـص ودمشـق وفلسـطين وسائر الأعمال الشـامية وفي هـذه السـنة أمـر الجنـد بتغيـير الـزي فلبسوا الطيالسة العسلية وشدوا الزنانير في أوساطهم..... وجعلـوا الطراز في لباس المماليك ومنع من لباس المناطق وأمر بهـدم البيـع المحدثة لأهل الذمة ونهى أن يستغاث بهم في الأعمال وأن يظهـروا في شعابهم الصلبان وأمر أن يجعل على أبوابهم صور شياطين مـن الخشب.

ملك محمد بن إبراهيم

كان محمد بن إبراهيم بـن الحسن بـن مصعـب علـى بـلاد فارس، وهو ابن أخـي طـاهر وكـان أخـوه إسحاق بـن إبراهيـم صـاحب الشـرطة ببغـداد منـذ أيـام المـأمون والمعتصـم والواثـق والمتوكل، وكان ابنه محمد بباب الخليفة بسامرا نائباً عنه. فلما مات إسحاق سنة خمس وثلاثين ولاه المتوكل وضـم إليـه أعمـال أبيـه، واستخلفه المعتز على اليمامة والبحريـن ومكـة وحمـل إلى المتوكـل وبنيه من الجواهر والذخائر كثيراً، وبلـغ ذلـك محمـد بـن إبراهيـم فتنكر للخليفة ولمحمد ابـن أخيـه، وشـكا ذلـك محمـد إلى المتوكـل

فسرحه إلى فارس وولاه مكان عمه محمد فسار وعزل عمه محمداً وولى مكانه ابن عمه الحسين بن إسماعيل بن مصعب، وأمره بقتل عمه محمد فأطعمه ومنعه الشراب فمات.

انتقاض أهل أرمينية

كان على أرمينية يوسف بن محمد فجاءه البطريق بقراط بن أسواط وهو بطريق البطارقة يستأمن فقبض عليه وعلى ابنه وبعث بهما إلى المتوكل، فاجتمع بطارقة أرمينية مع ابن أخيه وصهره موسى بن زرارة وتحالفوا على قتله وحاصروه بمدينة طرون في رمضان سنة سبع وثلاثين، وخرج لقتالهم فقتلوه ومن كان معه. فسرح المتوكل بغا الكبير فسار على الموصل والجزيرة وأناخ على أردن حتى أخذها وحمل موسى وإخوته إلى المتوكل وقتل منهم ثلاثين ألفاً وسبى خلقاً وسار إلى مدينة دبيل فأقام بها شهراً ثم سار إلى تفليس فحاصرها، وبعث في مقدمته بزرك التركي وكان بتفليس إسحاق بن إسماعيل بن إسحاق مولى بني أمية فخرج وقاتلهم، وكانت المدينة كلها مشيدة من خشب الصنوبر، فأمر بغا أن يرمي عليها بالنفط فاضطرمت النار في الخشب، واحترقت قصور إسحاق وجواريه وخمسون ألف إنسان وأسر الباقون، وأحاطت الأتراك والمغاربة بإسحاق فأسروه وقتله بغا لوقته، ونجا أهل إسحاق بأمواله إلى صعدنيل مدينة حذاء تفليس على نهر الكرمن من شرقيه بناها أنوشروان وحصنها إسحاق وجعل أمواله فيها فاستباحها بغا، ثم بعث الجند إلى قلعة أخرى بين بردعة وتفليس ففتحوها وأسروا بطريقها. ثم سار إلى عيسى بن يوسف في قلعة كيس من كور البيلقان ففتحها وأسره وحمل معه جماعة من البطارقة وذلك سنة ثمان وثلاثين ومائتين.

عزل ابن أبي دؤاد وولاية ابن أكثم

وفي سنة سبع وثلاثين غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد وقبض ضياعه وحبس أولاده، فحمل أبو الوليد منهم مائة وعشرين ألف دينار وجواهر تساوي عشرين ألفاً، ثم صولح عن ستة عشر ألف ألف درهم وأشهد عليهم ببيع أملاكهم وفلج أحمد، فأحضر المتوكل يحيى بن أكثم وولاه قضاء القضاة، وولى أبا الوليد بن أبي دؤاد المظالم ثم عزله. وولى أبا الربيع محمد بن يعقوب ثم عزله، وولى يحيى بن أكثم على المظالم ثم عزله سنة أربعين، وصادره على خمسة وسبعين ألف دينار وأربعة آلاف جربو، وولى مكانه جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي. وتوفي في هذه السنة أحمد بن أبي دؤاد بعد ابنه أبي الوليد بعشرين يوماً وكان معتزلياً أخذ مذهبهم عن بشر المريسي وأخذه بشر عن جهم بن صفوان وأخذه جهم عن الجعد بن دهم معلم مروان.

انتقاض أهل حمص

وفي سنة سبع وثلاثين وثب أهل حمص بعاملهم أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي بسبب أنه قتل بعض رؤسائهم فأخرجوه وقتلوا من أصحابه، فولى مكانه محمد بن عبدويه الأنباري فأساء إليهم وعسف فيهم فوثبوا به، وأمره المتوكل بجند من دمشق والرملة فظفر بهم وقتل منهم جماعة، وأخرج النصارى منها وهدم كنائسهم وأدخل منها بيعة في الجامع كانت تجاوره.

إغارة البجاة على مصر

كانت الهدنة بين أهل مصر والبجاة من لدن الفتح، وكان في بلادهم معادن الذهب يؤدون منها الخمس إلى أهل مصر، فامتنعوا أيام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين بالمعادن، وكتب صاحب البريد بذلك إلى المتوكل فشاور الناس في غزوهم فأخبروه أنهم أهل إبل وشاء وأن بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر ولا بد فيها من الزاد، وإن فنيت الأزواد هلك العسكر فأمسك عنهم. وخاف أهل الصعغد من شرهم، فولى المتوكل محمد بن عبد اللّه القمي على أسوان وقفط والأقصر وأسنا وأرمنت، وأمره بحرب البجاة.

وكتب إلى عنبسة بن إسحاق الضبي عامل مصر بتجهيز العساكر معه وأزاحه عليهم فسار في عشرين ألفاً من الجند والمتطوعة، وحملت المراكب من القلزم بالدقيق والتمر والأدم إلى سواحل بلاد البجاة وانتهى إلى حصونهم وقلاعهم. وزحف إليه ملكهم واسمه علي بابا في أضعاف عساكرهم على المهارى، وطاولهم علي بابا رجاء أن تفنى أزوادهم فجاءت المراكب وفرقها القمي في أصحابه، فناجزهم البجاة الحرب وكانت إبلهم نفورة، فأمر القمي جنده باتخاذ الأجراس بخيلهم. ثم حملوا عليهم فانهزموا وأثخن فيهم قتلاً وأسراً حتى استأمنوا على أداء الخراج لما سلف ولما يأتي وأن يرد إلى مملكته، وسار مع القمي إلى المتوكل واستخلف ابنه، فخلع القمي عليه وعلى أصحابه، وكسا أرجلهم الجلال المديحة وولاهم طريق ما بين مصر ومكة، وولى عليهم سعداً الإيتاخي الخادم فولى سعد محمد القمي فرجع معهم

واستقامت ناحيتهم.

الصوائف

وفي سنة ثمان وثلاثين ورد على دمياط اسطول الروم في مائة مركب فكبسوها وكانت المسلحة الذين بها قد ذهبوا إلى مصر باستدعاء صاحب المعونة عنسبة بن إسحاق الضبي فانتهزوا الفرصة في مغيبهم وانتهبوا دمياط وأحرقوا الجامع بها وأوقروا سفنهم سبياً ومتاعاً، وذهبوا إلى تنيس ففعلوا فيها مثل ذلك وأقلعوا. وغزا بالصائفة في هذه السنة علي بن يحيى الأرميني صاحب الصوائف. وفي سنة إحدى وأربعين كان الفداء بين الروم وبين المسلمين وكانت ندورة ملكة الروم قد حملت أسرى المسلمين على التنصر فتنصر الكبير منهم. ثم طلبت المفاداة فيمن بقي فبعث المتوكل سيفاً الخادم بالفداء ومعه قاضي بغداد جعفر بن عبد الواحد واستخلف على القضاء ابن أبي الشوارب وكان الفداء على نهر اللامس ثم أغارت الروم بعد ذلك روية فأسروا من كان هنالك من الزط وسبوا نساءهم وأولادهم ولما رجع علي بن يحيى الأرميني من الصائفة خرجت الروم في ناحية سمسياط فانتهوا إلى آمد واكتسحوا نواحي الثغور والخزرية نهباً وأسروا نحواً من عشرة آلاف ورجعوا وأتبعهم قرشاش وعمر بن عبد الأقطع وقوم من المتطوعة فلم يدركوهم وأمر المتوكل علي بن يحيى أن يدخل بالثانية في تلك السنة ففعل.

وفي سنة أربع وأربعين جاء المتوكل من بغداد إلى دمشق وقد اجتمع نزولها ونقل الكرسي إليها فأقام بها شهرين، ثم استوبأها ورجع بعد أن بعث بغا الكبير في العساكر للصائفة فدخل بلاد الروم فدوخها واكتسحها من سائر النواحي ورجع. وفي سنة خمس وأربعين أغارت الروم على سميساط فغنموا وغزا علي بن يحيى الأرميني بالصائفة كركرة وانتقض أهلها على بطريقهم فقبضوا عليه وسلموه إلى بعض موالي المتوكل، فأطلق ملك الروم في فداء البطريق ألف أسير من المسلمين. وفي سنة ست وأربعين غزا عمر بن عبد الله الأقطع بالصائفة فجاؤوا بأربعة آلاف رأس، وغزا قرشاس فجاء بخمسة آلاف رأس، وغزا الفضل بن قاران في الأسطول بعشرين مركباً فافتتح حصن انطاكية وغزا ملكها دورهم وسبا، وغزا علي بن يحيى فجاء بخمسة آلاف رأس ومن الظهر بعشرة آلاف وكان على يده في تلك السنة الفداء في ألفين وثلثمائة من الأسرى.

الولايات في النواحي

ولى المتوكل سنة اثنتين على بلاد فارس محمد بن إبراهيم بن مصعب وكان على الموصل غانم بن حميد الطوسي، واستوزر لأول خلافته محمد بن عبد الله بن الزيات. وولى على ديوان الخراج يحيى بن خاقان الخراساني مولى الأزدي، وعزل الفضل بن مروان. وولى على ديوان النفقات إبراهيم بن محمد بن حتول. وولى سنة ثلاث وثلاثين على الحرمين واليمن والطائف ابنه المستنصر، وعزل محمد بن عيسى. وولى على حجابة بابه وصيفاً الخادم عندما سار إيتاخ للحج. وفي سنة خمس وثلاثين عهد لأولاده كما مر، وولى على الشرطة ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب مكان ابنه إبراهيم عندما توفي، وكانت وفاته ووفاة الحسن بن سهل في سنة واحدة. وفي سنة ست وثلاثين استكتب عبيد الله بن يحيى بن خاقان ثم استوزره بعد ذلك، وولى على أرمينية وأذربيجان حرباً وخراجاً يوسف بن أبي سعيد محمد بن يوسف المروروذي عندما توفي أبوه فجاءه فسار إليها وضبطها، وأساء إلى البطارقة بالناحية فوثبوا به كما مر وقتلوه.

وبعث المتوكل بغا الكبير في العساكر فأخذ ثأره منهم، وولى معادن السواد عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم. وفي سنة تسع وثلاثين عزل ابن أبي دؤاد عن القضاء وصادره، وولى مكانه يحيى بن أكثم. وقدم محمد بن عبد الله بن طاهر من خراسان فولاه الشرطة والجزية وأعمال السواد، وكان على مكة علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور فحج بالناس، ثم ولى مكانه في السنة القابلة عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى. وولى على الأحداث بطريق مكة والمواسم جعفر بن دينار، وكان على حمص أبوا المغيب موسى بن إبراهيم الرافقي وثبوا به سنة تسع وثلاثين، فولى مكانه محمد بن عبدويه. وفي سنة تسع وثلاثين عزل يحيى بن أكثم عن القضاء، وولى مكانه جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان وفي سنة اثنتين وأربعين ولى على مكة عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام، وولى على ديوان النفقات الحسن بن مخلد بن الجراح عندما توفي إبراهيم بن العباس الصولي وكان خليفته فيها من قبل.

وفي سنة خمس وأربعين اختط المتوكل مدينته وأنزلها القواد والأولياء وأنفق عليها ألف ألف دينار، وبنى فيها قصر اللؤلؤة لم ير مثله في علوه وأجرى له الماء في نهر احتفره وسماه المتوكلية وتسمى الجعفري والماخورة وفيها ولى على طريق مكة أبا الساج مكان جعفر بن دينار لوفاته تلك السنة. وولى على ديوان الضياع

والتوقيع نجاح بن سلمة وكانت له صولة على العمال، فكان ينام المتوكل فسعى عنده في الحسن بن مخلد وكان معه ديوان الضياع ولي موسى بن عقبة عبد الملك وكان على ديوان الخراج، وضمن للمتوكل في مصادرتهما أربعين ألفاً. وأذن المتوكل وكانا منقطعين إلى عبيد اللّه بن خاقان، فتلطف عند نجاح وخادعه حتى كتب على الرقعتين، وأشار إليه بأخذ ما فيها معاً وبدأ بنجاح فكتبه وقبض منه مائة وأربعين ألف دينار سوى الغلات والفرش والضياع، ثم ضرب فمات وصودر أولاده في جميع البلاد على أموال جمة.

مقتل المتوكل وبيعة المنتصر ابنه

كان المتوكل قد عهد إلى ابنه المنتصر ثم ندم وأبغضه لما كان يتوهم فيه من استعجاله الأمر لنفسه، وكان يسميه المنتصر والمستعجل لذلك. وكان المنتصر تنكر عليه انحرافه عن سنن سلفه فيما ذهبوا إليه من مذهب الاعتزال والتشيع لعلي، وربما كان الندمان في مجلس المتوكل يفيضون في ثلب علي فينكر المنتصر ذلك ويتهددهم ويقول للمتوكل: إن علياً هو كبير بيتنا وشيخ بني هاشم، فإن كنت لا بد ثالبه فتول ذلك بنفسك ولاتجعل لهؤلاء الصفاعين سبيلاً إلى ذلك فيستخف به ويشتمه، ويأمر وزيره عبيد اللّه بصفعه ويتهدده بالقتل ويصرح بخلعه. وربما استخلف ابنه الحبر في الصلاة والخطبة مراراً وتركه فطوى من ذلك على النكث. وكان المتوكل قد استفسد إلى بغا ووصيف الكبير ووصيف الصغير ودواجن، فأفسدوا عليه الموالي. وكان المتوكل قد أخرج بغا الكبير من الدار وأمره بالمقام بسميساط لتعهد الصوائف، فسار لذلك واستخلف مكانه ابنه موسى في الدار وكان ابن خالة المتوكل، واستخلف على الستر بغا الشرابي الصغير.

ثم تغير المتوكل لوصيف وقبض ضياعه بأصبهان والجبل وأقطعها الفتح بن خاقان، فتغير وصيف لذلك وداخل المنتصر في قتل المتوكل، وأعد لذلك جماعة من الموالي بعثهم مع ولده صالح وأحمد وعبد اللّه ونصر، وجاؤوا في الليلة التي اتعدوا فيها. وحضر المنتصر ثم انصرف على عادته، وأخذ زرافة الخادم معه، وأمر بغا الشرابي الندمان بالانصراف حتى لم يبق إلا الفتح وأربعة من الخاصة، وأغلق الأبواب إلا باب دجلة فأدخل منه الرجال وأحسن المتوكل وأصحابه بهم فخافوا على أنفسهم، واستماتوا وابتدروا إليه فقتلوه. وألقى الفتح نفسه عليهم ليقيه فقتلوه.

وبعث إلى المنتصر وهو بيبت زرافة فأخبره وأوصى بقتل زرافة فمنعه المنتصر، وبايع له زرافة وركب إلى الدار فبايعه من حضر وبعث إلى وصيف أن الفتح قتل أبي فقتلته، فحضر وبايع. وبعث عن أخويه المعتز والمؤيد فحضرا وبايعا له. وانتهى الخبر إلى عبيد اللّه بن يحيى فركب من ليله وقصد منزل المعتز فلم يجده واجتمع عليه عشرة آلاف من الأزد والأرمن والزواقيل، وأغروه بالحملة على المنتصر وأصحابه فأبى وخام عن ذلك، وأصبح المنتصر فأمر بدفن المتوكل والفتح، وذلك لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين. وشاع الخبر بقتل المتوكل فثار الجند وتبعهم..... وركب بعضهم بعضاً، وقصدوا باب السلطان فخرج إليهم بعض الأولياء فسمعوه، ورجع فخرج المنتصر بنفسه وبين يديه المغاربة فشردوهم عن الأبواب فتفرقوا بعد أن قتل منهم ستة أنفس.

الخبر عن الخلفاء من بني العباس أيام الفتنة، وتغلب الأولياء وتضايق نطاق الدولة باستبداد الولاة في النواحي من لدن المنتصر إلى أيام المستكفي

كان بنو العباس حين ولوا الخلافة قد امتدت إيالتهم على جميع ممالك الإسلام، كما كان بنو أمية من قبلهم. ثم لحق بالأندلس من فل بني أمية من ولد هاشم بن عبد الملك حافده عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ونجا من تلك الهلكة فأجاز البحر ودخل الأندلس فملكها من يد عبد الرحمن بن يوسف الفهري، وخطب للسفاح فيها حولاً ثم لحق به أهل بيته من المشرق فعزلوه في ذلك فقطع الدعوة عنهم وبقيت بلاد الأندلس مقتطعة من الدولة الإسلامية عن بني العباس. ثم لما كانت وقعة فتح أيام الهادي علي بن الحسن بن علي سنة تسع وتسعين ومائة، وقتل داعيتهم يومئذ حسين بن علي بن حسن المثنى وجماعة من أهل بيته ونجا آخرون، وخلص منهم إدريس بن عبد اللّه بن حسن إلى المغرب الأقصى وقام بدعوته البرابرة هنالك، فاقتطع المغرب عن بني العباس فاستحدثوا هنالك دولة لأنفسهم.

ثم ضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال، وتغلب على الخليفة فيها الأولياء والقرابة والمصطنعون، وصار تحت حجرهم من حين قتل المتوكل وحدثت الفتن ببغداد، وصار العلوية إلى النواحي مظهرين لدعوتهم، فدعا أبو عبد اللّه الشيعي سنة ست وثمانين ومائتين بأفريقية في طامة لعبيد اللّه المهدي بن محمد بن

جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وبايع له، وانتزع أفريقية من يد بني الأغلب واستولى عليها وعلى المغرب الأقصى ومصر والشام واقتطعوا سائر هذه الأعمال عن بني العباس واستحدثوا له دولة أقامت مائتين وسبعين سنة كما يذكر في أخبارهم. ثم ظهر بطبرستان من العلوية الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط ويعرف بالداعي، خرج سنة خمسين ومائتين أيام المستعين ولحق بالديلم فأسلموا على يديه وملك طبرستان ونواحيها، وصار هنالك دولة أخذها من يد أخيه سنة إحدى وثلثمائة الأطروش من بني الحسين، ثم من بني علي، عمر داعي الطالقان أيام المعتصم وقد مر خبره. واسم هذه الأطروش الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر وكانت لهم دولة وانقرضت أيام الحسين، واستولى عليها الديلم وصارت لهم دولة أخرى.

وظهر باليمن الرئيس وهو ابن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن المثنى فأظهر هنالك دعوة الزيدية، وملك صعدة وصنعاء وبلاد اليمن، وكانت لهم هنالك دولة ولم تزل حتى الآن. وأول من ظهر منهم يحيى بن الحسين بن القاسم سنة تسعين ومائتين، ثم ظهر أيام الفتنة من دعاة العلوية صاحب الزنج ادعى أنه أحمد بن عيسى بن زيد الشهيد وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهتدي، وطعن الناس في نسبه فادعى أنه من ولد يحيى بن زيد قتيل الجوزجان، وقيل: إنه انتسب إلى طاهر بن الحسين بن علي والذي ثبت عند المحققين أنه علي بن عبد الحليم بن عبد القيس، فكانت له ولبنيه دولة بنواحي البصرة أيام الفتنة قام بها الزنج إلى أن انقرضت على يد المعتضد أيام السبعين ومائتين.

ثم ظهر القرظ بنواحي البحرين وعمان فسار إليها من الكوفة سنة تسع وسبعين أيام المعتضد، وانتسب إلى بني إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق دعوى كاذبة، وكان من أصحابه الحسن الجمالي وزكرونة القاشاني فقاموا من بعده بالدعوة ودعوا لعبد اللّه المهدي وغلبوا على البصرة والكوفة، ثم انقطعوا عنها إلى البحرين وعمان، وكانت لهم هنالك دولة انقرضت آخر المائة الرابعة، وتغلب عليهم العرب من بني سليم وبني عقيل. وفي خلال ذلك استبد بنو سامان بما وراء النهر آخر الستين ومائتين وأقاموا على الدعوة إلا أنهم لا ينفذون أوامر الخلفاء وأقامت دولتهم إلى آخر المائة الرابعة.

ثم اتصلت دولة أخرى في مواليهم بغزنة إلى منتصف المائة السادسة، وكانت للأغالبة بالقيروان وأفريقية دولة أخرى بمصر والشام بالاستبداد من لدن الخمسين والمائتين أيام الفتنة إلى آخر المائة الثالثة ثم أعقبتها دولة أخرى لمواليهم بني طفج إلى الستين والثلثمائة. وفي خلال هذا كله تضايق نطاق الدولة العباسية إلى نواحي السواد والجزيرة فقط، إلا أنهم قائمون ببغداد على أمرهم. ثم كانت للديلم دولة أخرى استولوا فيها على النواحي وملكوا الأعمال ثم ساروا إلى بغداد وملكوها وصيروا الخليفة في ملكتهم من لدن المستكفي أعوام الثلاثين والثلثمائة، وكانت من أعظم الدول. ثم أخذها من أياديهم السلجوقية من الغز إحدى شعوب الترك، فلم تزل دولتهم من لدن القائم سنة أربعين وأربعمائة إلى آخر المائة السادسة، وكانت دولتهم من أعظم الدول في العالم.

وتشعبت عنها دول هي متصلة إلى عهدنا حسبما يذكر ذلك كله في مكانه ثم استبد الخلفاء من بني العباس آخراً في هذا النطاق الضيق ما بين دجلة والفرات وأعمال السواد وبعض أعمال فارس، إلى أن خرج التتار من مفازة الصين وزحفوا إلى الدولة السلجوقية وهم على دين المجوسية، وزحفوا إلى بغداد فقتلوا الخليفة المعتصم، وانقرض أمر الخلافة وذلك سنة ست وخمسين وستمائة. ثم أسلموا بعد ذلك وكانت لهم دولة عظيمة، وتشعبت عنها دول لهم ولأشياعهم في النواحي وهي باقية لهذا العهد آخذه في الثلاثين كما نذكر ذلك كله في أماكنه.

دولة المنتصر

ولما بويع المنتصر كما ذكرناه ولى علي المظالم أبا عمرو أحمد بن سعيد، وعلى دمشق عيسى بن محمد النوشزي وكان على وزارته أحمد بن الخصيب، واستقامت أموره وتفاوض وصيف وبغا وأحمد بن الخصيب في شأن المعتز والمؤيد لما توقعوا من سطوتهما بسبب قتل المتوكل، فحملوا المنتصر على خلعهما لأربعين يوماً من خلافته وبعث إليهما بذلك فأجاب المؤيد وامتنع المعتز فأغلظوا عليه وأوهموه القتل فخلا به المؤيد وتلطف به حتى أجاب وخلع نفسه وكتبا ذلك بخطهما. ثم دخلا على المنتصر فأجلسهما واعتذر لهما بسمع من الأمراء بأنهم الذين حملوه على خلعهما فأجبتهم إلى ذلك خشية عليكما منهم، فقبلا يده وشكرا له وشهد عليهما القضاة وبنو هاشم والقواد ووجوه الناس، وكتب بذلك المنتصر إلى الآفاق وإلى محمد بن طاهر ببغداد. ثم إن أحمد بن الخصيب أخا المنتصر أمر بإخراج وصيف للصائفة وإبعاده عن الدولة لما بينهما من الشحناء، فأحضره المنتصر وقال له: قد أتانا من طاغية الروم أنه أفسد الثغر فلا بد من مسيرك أو مسيري، فقال: بل أنا

أشخص يا أمير المؤمنين! فأمر أحمد بن الخصيب أن يجهزه ويزيح علل العسكر معه، وأمره أن يوافي ثغر ملطية فسار وعلى مقدمته مزاحم بن خاقان أخو الفتح، وعلى نفقات العساكر والمغانم والمقاسم أبو الوليد القروالي أن يأتيه رأيه.

وفاة المنتصر وبيعة المستعين

ثم أصابت المنتصر علة الذبحة فهلك لخمس بقين من ربيع الأول من سنة ثمان وأربعين ومائتين لستة أشهر من ولايته، وقيل: بل أكثر من ذلك فجعل السم في مشرطة الطبيب فاجتمع الموالي في القصر وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش وغيرهم فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسية على الرضا بمن يرضونه لهم، ثم خلصوا للمشورة ومعهم أحمد بن الخصيب فعدلوا عن ولد المتوكل خوفاً منهم ونظروا في ولد المعتصم فبايعوه واستكتب أحمد بن الخصيب واستوزر أتامش وغدا على دار العامة في زي الخلافة، وإبراهيم بن إسحاق يحمل بين يديه الحربة، وصفت الممالك والأشروسية صفين بترتيب دواجن، وحضر أصحاب المراتب من العباسيين والطالبيين، وثار جماعة من الجند وقصدوا الدار يذكرون أنهم من أصحاب محمد بن عبد اللّه بن طاهر والغوغاء فشهروا السلاح وهتفوا باسم المعتز وشدوا على أصحاب دواجن فتضعضعوا، ثم جاءت المبيضة والشاكرية، وحمل عليهم المغاربة والأشروسية فنشبت الحرب وانتهبت الدروع والسلاح من الخزائن بدار العامة وجاء بغا الصغير فدفعهم عنها وقتل منهم عدة وفتقت السجون وتمت بيعة الأتراك للمستعين، ووضع العطاء على البيعة وبعث إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر فبايع له هو والناس ببغداد.

ثم جاء الخبر بوفاة طاهر بن عبد اللّه بن طاهر بخراسان وهلك عمه الحسين بن طاهر بمرو فعقد المستعين لابنه محمد بن طاهر مكانه وعقد لمحمد بن عبد اللّه بن طاهر على خراسان سنة ثمان وأربعين ومائتين، وولى عمه طلحة على نيسابور، وابنه منصور بن طلحة على مرو وسرخس وخوارزم، وعمه الحسين بن عبد اللّه على هراة وأعمالها، وعمه سليمان بن عبد اللّه على طبرستان، والعباس ابن عمه على الجوزجان والطالقان.

ومات بغا الكبير فولى ابنه موسى على أعماله كلها وبعث أناجور من قواد الترك إلى العمرط التغلبي فقتله. واستأذنه عبد اللّه بن يحيى بن خان في الحج فأذن له، ثم بعث خلفه من نفاه إلى برقة، وحبس المعتز والمؤيد في حجره بالجوسق بعد أن أراد قواد الأتراك قتلهما فمنعهم أحمد بن الخصيب من ذلك. ثم قبض على أحمد بن الخصيب فاستصفى ماله ومال ولده ونفاه إلى قرطيش واستوزر أتامش وعقد له على مصر والمغرب وعقد لبغا الصغير على حلوان وماسبذان ومهرجا تعرف، وجعل شاهك الخادم على داره وكراعه وحرمه وخاصة أموره وخدمة، وأشناس على جميع الناس. وعزل علي بن يحيى الأرمني عن الثغور الشامية وعقد له على أرمينية وأذربيجان. وكان على حمص كندر فوثب به أهلها فأخرجوه فبعث المستعين الفضل بن قارن وهو أخو مازيار فاستباحهم وحمل أعيانهم إلى سامرا وبعث المستعين إلى وصيف وهو بالثغر الشامي بأن يغزو بالصائفة، فدخل بلاد الروم وافتتح حصن قرورية ثم غزا بالصائفة سنة تسع وأربعين جعفر بن دينار وافتتح مطامير واستأذنه عمر بن عبد اللّه الأقطع في تدويخ بلاد الروم فأذن له فدخل في جماعة من أهل ملطية ولقي ملك الروم، فخرج الأسقف في خمسين ألفاً أحاطوا به وقتل عمر في ألفين من المسلمين. وكان على الثغور الجزرية فأغار عليها الروم وبلغ ذلك علي بن يحيى وهو قابل من أرمينية إلى ميافارقين ومعه جماعة من أهلها فنفر إليهم وهو في نحو أربعمائة فقتلوا وقتل.

فتنة بغداد وسامرا

ولما اتصل الخبر ببغداد وسامرا بقتل عمر بن عبد اللّه وعلي بن يحيى شق ذلك على الناس لما كانوا عليه من عظيم الغناء في الجهاد، واشتد نكيرهم على الترك في غفلتهم عن المصالح وتذكروا قتل المتوكل واستيلاءهم على الأمور فاجتمعت العامة وتنادوا بالنفير إلى الجهاد. وانضم إليهم الشاكرية يطلبون أرزاقهم ثم فتقوا السجون وقطعوا الجسور وانتهبوا دور كتاب محمد بن عبد اللّه بن طاهر. ثم أخرج أهل اليسار من بغداد الأموال ففرقوها في المجاهدين وجاءت العامة من الجبال وفارس والأهواز فنفروا للغزو، ولم يظهر للمستعين ولا لأهل الدولة في ذلك أثر. ثم وثب العامة بسامرا وفتقوا السجون وخرج من كان فيها وجاء جماعة من الموالي في طلبهم فوثب العامة بهم وهزموهم وركب بغا ووصيف وأتامش في الترك فقتلوا من العامة خلقاً وانتهوا منازلهم وسكنت الفتنة.

مقتل أتامش

كان المستعين لما ولي أطلق يد أمه وأتامش وشاهك الخادم في الأموال وما فضل عنهم فلنفقات العباس بن المستعين، وكان في

حجر أتامش فبعث ذلك عليه بغا ووصيف وضاق حال الأتراك والفراغنة ودسهم عليهم بغا ووصيف فخرج منهم أهل الكرخ والدور وقصدوه في الجوسق مع المستعين وأراد الهرب فلم يطق، واستجار بالمستعين فلم يجره وحاصروه يومين، ثم افتتحوا عليه الجوسق وقتلوه وقتلوا كاتبه شجاع بن القاسم ونهبت أموالهم واستوزر المستعين مكانه أبا عبد اللّه بن محمد بن علي على الأهواز، وبغا الصغير على فلسطين. ثم غضب بغا الصغير على أبي صالح فهرب إلى بغداد واستوزر المستعين مكانه محمد بن الفضل الجرجاني وولى على ديوان الرسائل سعيد بن حميد.

ظهور يحيى بن عمر ومقتله

كان على الطالبيين بالكوفة يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد الشهيد ويكنى أبا الحسين وأمه من ولد عبد اللّه بن جعفر وكان من سراتهم ووجوههم وكان عمر بن فرج يتولى أمر الطالبيين أيام المتوكل، فعرض له أبو الحسين عند مقدمه من خراسان يسأله صلة لدين لزمه فأغلظ له عمر القول وحبسه حتى أخذ عليه الكفلاء وانطلق إلى بغداد. ثم جاء إلى سامرا وقد أملق فتعرض لوصيف في رزق يجري له، فأساءه عليه وإليها فرجع إلى الكوفة وعاملها يومئذ أيوب بن الحسين بن موسى بن جعفر بن سليمان بن علي من قبل محمد بن عبد اللّه بن طاهر، فاعتزم على الخروج والتف عليه جمع من الأعراب وأهل الكوفة، ودعا للرضى من آل محمد ففتق السجون ونهبها وطرد العمال، وأخذ من بيت المال ألفي دينار وسبعين ألف درهم.

وكان صاحب البريد قد طير بخبره إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر فكتب إلى عامله بالسواد عبد اللّه بن محمود السرخسي أن يصير مدداً إلى الكوفة فلقيه وقاتله فهزمهم يحيى وانتهب ما معهم وخرج إلى سواد الكوفة وتبعه خلق من الزيدية، وانتهى إلى ناحية واسط وكثرت جموعه. وسرَّح محمد بن عبد اللّه بن طاهر إلى محاربة الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب في العساكر فسار إليه.

وقد كان يحيى قصد الكوفة فلقيه عبد الرحمن بن الخطاب المعروف بوجه الفلس فهزمه يحيى إلى ناحية ساهي، ودخل الكوفة واجتمعت عليه الزيدية، واشتمل عليه عامة أهل الكوفة وأمداد الزيدية من بغداد، وجاء الحسين بن إسماعيل وانضم إليه عبد الرحمن بن الخطاب وخرج يحيى من الكوفة ليعاجلهم الحرب فأسرى ليلته وصبح العساكر فساروا إليه فهزموه ووضعوا السيف في أصحابه، وأسروا الكثير من أتباعه، كان منهم الهيصم العجلي وغيره، وانجلت الحرب عن يحيى بن عمر قتيلاً فبعثوا برأسه إلى محمد عبد اللّه بن طاهر فبعث به إلى المستعين وجعل في صندوق في بيت السلاح وجيء بالأسرى فحبسوا وكان ذلك منتصف رجب سنة خمس ومائتين.

ابتداء الدولة العلوية بطبرستان

لما ظهر محمد بن عبد اللّه بن طاهر بيحيى بن عمرو وكان له من الغناء في حربه ما قدمناه، أقطعه المستعين قطائع من صوافي السلطان بطبرستان كانت منها قطعة بقرب ثغر الديلم تسمى روسالوس وفيها أرض موات ذات غياض وأشجار وكلأ، مباحة لمصالح الناس من الاحتطاب والرعي، وكان عامل طبرستان يومئذ من قبل محمد بن طاهر صاحب خراسان عمه سليمان بن عبد اللّه بن طاهر وهو أخو محمد صاحب القطائع، وكان سليمان مكفولاً لأمة وقد حظي عندها وتقدم وفرق أولاده في أعمال طبرستان وأساؤوا السيرة في الرعايا ودخل محمد بن أوس بلاد الديلم وهم مسالمون فسبى منهم وانحرفوا لذلك. وجاء نائب محمد بن عبد اللّه لقبض القطائع فحاز فيها تلك الأرض الموات المرصدة المرافق الناس، فنكر ذلك الناظر على تلك الأرض وهما محمد وجعفر ابنا رستم واستنهضا من أطاعهما من أهل تلك الناحية لمنعه من ذلك، فخافهما النائب ولحق بسليمان صاحب طبرستان. وبعث ابنا رستم إلى الديلم يستنجدانهم على حرب سليمان، وبعثا إلى محمد بن إبراهيم من العلويين بطبرستان يدعوانه إلى القيام بأمره، فامتنع ودلهما على كبير العلوية بالري الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط، فشخص إليهما وقد اجتمع أهل كلارو سالوس ومقدمهم ابنا رستم وأهل الريان ومعهم الديلم بأسرهم، فبايعوه جميعاً وطردوا عمال سليمان وابن أوس.

ثم انضم إليهم جبال طبرستان وزحف الحسن بمن معه إلى مدينة آمد، وخرج ابن أوس من سارية لمدافعتة فانهزم ولحق بسليمان من سارية فخرج سليمان لحرب الحسن. ولما التقى الجمعان بعث الحسن بعض قواده خالد سليمان إلى سارية وسمع بذلك سليمان فانهزم، وملك الحسن سارية، وبعث بعيال سليمان وأولاده في البحر إلى جرجان. وقيل: إن سليمان انهزم اختياراً لما كان بنو طاهر يتهمون به من التشيع ثم بعث الحسن إلى الري ابن عمه وهو القاسم بن علي بن إسماعيل ويقال محمد بن جعفر بن

عبد الله العقيقي بن الحسين بن علي بن زين العابدين فملكها، وبعث المستعين جنداً إلى همذان ليمنعها. ولما ملك محمد بن جعفر قائد الحسن بن زيد الري أساء السيرة، وبعث محمد بن طاهر قائد محمد بن ميكال أخو الشاه فغلبه على الري، وانتزعها منه وأسره، فبعث إليه الحسن بن زيد قائده دواجن فهزم ابن ميكال وقتله واسترجع الري. ثم رجع سليمان بن طاهر من جرجان إلى طبرستان فملكها ولحق الحسين بالديلم وسار سليمان إلى سارية وآمد، ومعهم أبناء قارن بن شهرزاد فصفح عنهم ونهى أصحابه عن الفتك والأذى. ثم جاء موسى بن بغا بالعساكر فملك الري من يدي أبي دلف وبعث مصلحاً إلى طبرستان فحارب الحسن بن زيد وهزمه واستولى على طبرستان ولحق الحسن بالديلم ودخل مفلح آمد وخرب منازل الحسن ورجع إلى موسى بالري.

مقتل باغر

وكان باغر هذا من قواد الترك ومن جملة بغا الصغير، ولما قتل المتوكل زيد في أرزاقة وأقطعوه قرى بسواد الكوفة وضمنها له بعض أهل باروسما بألفي دينار فطلبه ابن مارمة وكيل باغر وحبسه ثم تخلص وسار إلى سامرا، وكانت له ذمة من نصراني عند بغا الصغير فأجاره النصراني من كيد بغا وأغراه به فغضب لذلك باغر وشكى إلى بغا فأغلظ له القول، وقال: إني مستبدل من النصراني وأفعل فيه بعد ذلك ما تريد، ودس إلى النصراني بالحذر من باغر وأظهر عزله، وبقي باغر يتهدده وقد انقطع عن المستعين، وقد منعه بغا في يوم نوبته عن الحضور بدار السلطان فسأل المستعين وصيفاً عن أعمال إيتاخ وقلدها لباغر، فعذل وصيفاً في الشأن فحلف له أنه ما علم قصد الخليفة. وتنكر بغا لباغر فجمع أصحابه الذين بايعوه على المتوكل وجدد عليهم العهد في قتل المستعين وبغا ووصيف، وأن ينصبوا ابن المعتصم أو ابن الواثق ويكون الأمر لهم. ونما الخبر على الترك إلى المستعين فأحضر بغا ووصيفاً وأعلمهما بالخبر، فحلفا له على العلم وأمروا بحبس باغر ورجلين معه من الأتراك فسخطوا ذلك، وثاروا فانتهبوا الإصطبل وحضروا الجوثق وأمر بغا ووصيف وشاهك الخادم وكاتبه أحمد بن صالح بن شيرزاده ونزل على محمد بن طاهر في بيته في المحرم سنة إحدى وخمسين ولحق به القواد والكتاب والعمال وبنو هاشم وتخلف جعفر الخياط وسليمان بن يحيى بن معاذ فندم الأتراك، وركب جماعة من قوادهم إلى المستعين وأصحابه ليردوهم فأبوا ورجعوا آيسين منه وتفاوضوا في بيعة المعتز.

بيعة المعتز وحصار المستعين

كان قواد الأتراك لما جاؤوا إلى المستعين ببغداد يعتذرون من فعلهم ويتطارحون في الرضا عنهم والرجوع إلى دار مكة وهو يوبخهم ويعدد عليهم إحسانه وإساءتهم ولم يزالوا به حتى صرح لهم بالرضا، فقال بعضهم: فإن كنت رضيت فقم واركب معنا إلى سامرا فكلمه ابن طاهر لسوء خطابهم، وضحك المستعين لعجمتهم وجهلهم بآداب الخطاب، وأمر باستمرار أرزاقهم ووعدهم بالرجوع، فانصرفوا حاقدين ما كان من ابن طاهر، وأخرجوا المعتز من محبسه وبايعوا له بالخلافة، وأعطى للناس شهرين. وحضر للبيعة أبو أحمد بن الرشيد فامتنع منها وقال: قد خلعت نفسك! فقال: أكرهت! فقال: ما علمنا ذلك ولا نخلص لنا في إيماننا فتركه.

وولوا على الشرطة إبراهيم البربرح وأضيفت له الكتابة والدواوين وبيت المال، وهرب عتاب بن عتاب من القواد إلى بغداد وقام محمد بن عبد الله بن طاهر بالأحتشاد واستقدم مالك بن طوق في أهل بيته وجنده، وأمر حوية بن قيس -وهو على الأنبار- بالأحتشاد وكتب إلى سليمان بن عمران صاحب الموصل بمنع الميرة عن سامرا، وشرع في تحصين بغداد وأدار عليها الأسوار والخنادق من الجانبين وجعل على كل باب قائداً، ونصب على الأبواب الجانيق والعدادات، وشحن الأسوار بالرماة والمقاتلة وبلغت النفقة في ذلك ثلاثمائة وثلاثين ألف دينار وفوض للعيارين الرزق واغدق عليهم، وأنفذ كتب المستعين إلى العمال بالنواحي تحمل الخراج إلى بغداد.

وكتب المستعين إلى الأتراك يأمرهم بالرجوع عما فعلوا وكتب المعتز إلى محمد يدعوه إلى بيعته، وطالت المراجعات في ذلك وكان موسى بن بغا قد خرج لقتال أهل حمص، فاختلفت إليه وهو بالشام كتب المستعين والمعتز يدعوه كل واحد منهما إلى نفسه، فاختار المعتز ورجع إليه، وهرب إليه عبد الله بن بغا الصغير من بغداد بعد أن هرب عنه فقتله. وهرب الحسن بن الأفشين إلى بغداد فخلع عليه المستعين وضم إليه الأشروسنة. ثم عقد المعتز لأخيه إلى أحمد الواثق عن حرب بغداد وضم إليه الجنود مع باكليال من قوادهم، فسار في خمسين ألفاً من الأتراك والفراغنة والمغاربة، وانتهبوا ما بين عكبرا وبغداد من القرى والضياع وخربوها، وهرب إليهم جماعة من أصحاب بغا الصغير ووصلوا إلى باب الشماسية.

وولى المستعين على باب الشماسية الحسين بن إسماعيل بن

إبراهيم بن الحسن بن مصعب، وجعل القواد هنالك تحت يده ووافت طلائع الأتراك إلى باب الشماسية فوقفوا بالقرب منه، وأمده ابن طاهر بالشاه بن ميكال وبيدار الطبري. ثم ركب محمد بن عبد الله بن طاهر من الغد ومعه بغا ووصيف والفقهاء والقضاة، وذلك عاشر صفر، وبعث إليهم يدعوهم إلى مراجعة الطاعة على المعتز ولي عهده فلم يجيبوا. فانصرفوا وبعث إليه القواد من الغد بأنهم زحفوا إلى باب الشماسية فنهاهم عن مناداتهم بالقتال.

وقدم ذلك اليوم عبد الله بن سليمان خليفة بغا من مكة في ثلاثمائة رجل. ثم جاء الأتراك من الغد فاقتتلوا مع القواد وانهزم القواد وبلغ ابن طاهر أن جماعة من الأتراك ساروا نحو النهروان، فبعث قائداً من أصحابه إليهم فرجع منهزماً، واستولى الأتراك على طريق خراسان وقطعوها عن بغداد. ثم بعث المعتز عسكراً آخر نحو أربعة آلاف فنزلوا في الجانب الغربي، وبعث ابن طاهر إليهم الشاه بن ميكال فهزمهم وأثخن فيهم، ورجع إلى بغداد فخلع عليه وعلى سائر القواد أربع خلع وطوقاً وسواراً من ذهب لكل واحد. ثم أمر ابن طاهر بهدم الدور والحوانيت إلى باب الشماسية ليتسع المجال للحرب، وقدمت عليه أموال فارس والأهواز مع مكحول الأشروسي وخرج الأتراك لاعتراضه. وبعث ابن طاهر لحفظه فقدموا به بغداد، ولم يظفر به الأتراك، ومضوا نحو النهروان فأحرقوا سفن الجسر.

وكان المستعين قد بعث محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد والياً على الثغور الجزرية، وأقام ينتظر الجند والمال، فلما بلغه خبر هذه الفتنة جاء على طريق الرقة إلى بغداد فخلع عليه ابن طاهر وبعثه في جيش كثيف لمحاربتهم، وصار إلى ضبيعة بالسواد فأقام بها فقال ابن طاهر: لن يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره الله به! ثم ذهب الأتراك وقاتلوا. واتصل الحصار واشتدت الحرب وانتهبت الأسواق، وورد الخبر من الثغور بأن بلكاجور حمل الناس على بيعة المعتز فقال ابن طاهر: لعله ظن موت المستعين فكان كذلك، ووصل كتابه بأنه جدد البيعة، وكان موسى بن بغا مع الأتراك كما قد قدمنا، فأراد الرجوع على المستعين فامتنع أصحابه وقاتلوه فلم يتم له أمره وفر القطاعون من البصرة ورموا على الأتراك فأحرقوهم، فبعث ابن طاهر إلى المدائن ليحفظها، وأمده بثلاثة آلاف فارس، بعث إلى الأنبار حوبة بن قيس فشق الماء إلى خندقها من الفرات، وجاء إلى الإسحاقي من قبل المعتز فسبق المدد الذي جاء من قبل ابن طاهر، وملك الأنبار.

ورجع حوبة إلى بغداد فأنفذ ابن طاهر الحسين بن إسماعيل في جماعة من القواد والجند، فاعترضه الأتراك وحاربوه، وعاد الأنبار وتقدم وهو لينزل عليهما، وبينما هو يحط الأثقال إذا بالأتراك فقاتلهم وهزمهم وأثخن فيهم، وكانوا قد كمنوا له فخرج الكمين وانهزم الحسين وغرق كثير من أصحابه في الفرات، وأخذ الأتراك عسكره، ووصل إلى الياسرية آخر جمادى الآخرة ومنع ابن طاهر المنهزمين من دخول بغداد وتوعدهم على الرجوع إليه، وأمده بجند آخر، فدخل من الياسرية وبعث على المخاض الحسين بن علي بن يحيى الأرميني في مائتي مقاتل ليمنع الأتراك من العبور إليه من عدوة الفرات، فوافوه وقاتلوه عليها فهزموه، وركب الحسين في زورق منحدراً وترك عسكره وأثقاله، فاستولى عليها الأتراك ووصل المنهزمون إلى بغداد من ليلتهم، ولحق من عسكره جماعة من القواد والكتاب بالمعتز وفيهم علي ومحمد ابنا الواثق، وذلك أول رجب.

ثم كانت بينهم عدة وقعات وقتل من الفريقين خلق ودخل الأتراك في كثير من الأيام بغداد وأخرجوا عنها. ثم ساروا إلى المدائن وغلبوا عليها ابن أبي السفاح وملكوها. وجاء الأتراك الذين بالأنبار إلى الجانب الغربي وانتهوا إلى صرصر وقصر ابن هبيرة واتصل الحصار إلى شهر ذي القعدة وخرج ابن طاهر في بعض أيامه في جميع القواد والعساكر، فقاتلهم وانهزموا وقتل منهم خلق وارتقم الذين كانوا مع بغا ووصيف لذلك فلحقوا بالأتراك. ثم تراجع الأتراك وانهزم أهل بغداد.

ثم خرج في ذي الحجة رشيد بن كاووس أخو الأفشين ساعياً في الصلح بين الفريقين، واتهم الناس ابن طاهر بالسعي في خلع المستعين. فلما جاء رشيد وأبلغهم سلام المعتز وأخيه أبي أحمد شتموه وشتموا ابن طاهر وعمدوا إلى دار رشيد ليهدموها، وسأل ابن طاهر من المستعين أن يسكنهم، فخرج إليهم ونهاهم وبرأ ابن طاهر مما اتهموه به، فانصرفوا، وترددت الرسل بين ابن طاهر وبين أبي أحمد فتجدد للعامة والجند سوء الظن، وطلب الجند أرزاقهم فوعدهم بشهرين وأمرهم بالنزول، فأبوا إلا أن يعلمهم الصحيح من رأيه في المستعين. وخاف أن يدخلوا الأتراك كما عمل أهل المدائن والأنبار، فأصعد المستعين على سطح دار العامة حتى رآه الناس وبيده البردة والقضيب، وأقسم عليهم فانصرفوا.

واعتزم ابن طاهر على التحول إلى المدائن، فجاءه وجوه الناس واعتذروا له بالغوغاء فأقصروا بنقل المستعين عن دار ابن طاهر إلى دار رزق الخادم بالرصافة. وأمر القواد وبني هاشم بالكون مع ابن طاهر، فركب في تعبية وحلف لهم على المستعين

وعلى قصد الإصلاح فدعوا له، وسار إلى المستعين وأغراه به وأمر بغا ووصيفاً بقتله فلم يفعلا. وجاءه أحمد بن إسرائيل والحسين بن مخلد بمثل ذلك في المستعين، فتغير لـه ابن طـاهر. فلما كـان يوم الأضحى وقد حضر الفقهاء والقضاة طالبه ابن طاهر بإمضاء الصلح، فأجاب وخرج إلى باب الشماسية، فجلس هناك ابن طاهر إلى المستعين وأخبره بأنه عقد الأمر إلى أن يخلع نفسه، ويبذلوا خمسين ألف دينار، ويعطوه غلة ثلاثين ألف دينار، ويقيم بالحجاز متردداً بين الحرمين، ويكون بغا والياً على الحجاز، ووصيف على الجبل، ويكون ثلث الجباية لابن طاهر وجند بغداد والثلثان للموالي والأتراك. فامتنع المستعين أولاً من الخلع ظناً منه أن وصيفاً وبغا معه. ثم تبين موافقتهما عليه فأجاب وكتب بما أراد من الشروط وأدخل الفقهاء وأشهدهم بأنه قد صير أمره إلى ابن طاهر. ثم أحضر القواد وأخبرهم بأنه ما قصد بهذا الإصلاح إلا حقن الدماء وأخرجهم إلى المعتز ليوافقهم بخطه على كتاب الشرط ويشهدوا على إقراره، فجاؤوا بذلك لست خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

خلع المستعين ومقتله والفتن خلال ذلك

ولما تم ما عقده ابن طاهر ووافى القواد بخط المعتز على كتاب الشروط، أخذ البيعة للمعتز على أهل بغداد، وخطب له بها وبايع له المستعين وأشهد على نفسه بذلك، فنقله من الرصافة إلى قصر الحسن بن سهل ومعه عياله وأهله، وأخذ البردة والقضيب والخاتم ومنع من الخروج إلى مكة، فطلب البصرة فمنع منها وبعث إلى واسط. فاستوزر المعتز أحمد بن أبي اسرائيل ورجع أخوه أبو أحمد إلى سامرا. وفي آخر المحرم انصرف أبو الساج دبواز بن درموسب إلى بغداد فقلده ابن طاهر معاون السواد فبعث معه مؤنة إليها لطرد الأتراك والمغاربة عنها، وسار هو إلى الكوفة.

ثم كتب المعتز إلى ابن طاهر بإسقاط بغا ووصيف ومن معهما من الدواوين وكان محمد أبو عون من قواد ابن طاهر قد تكفل لأبي إسحاق بقتلهما، وعقد له المعتز على اليمامة والبحرين والبصرة. ونمي الخبر إليهما بذلك فركبا إلى ابن طاهر وأخبراه الخبر وأن القوم قد نقضوا العهد. ثم بعث وصيف أخته سعاد إلى المؤيد وكان في حجرها فاستوهبت له الرضا من المعتز وكذا فعل أبو أحمد مع بغا وكتب لهم المعتز جميعاً بالرضا. ثم رغب الأتراك في إحضارهما بسامرا، فكتب بذلك ودس إلى ابن طاهر بمنعهما. فخرجا فيمن معهما ولم يقدر ابن طاهر على منعهما. وحضرا بسامرا فعقد إليهما المعتز على أعمالهما، ورد البريد إلى موسى بن بغا الكبير.

ثم كانت فتنة بين جند بغداد وابن طاهر في شهر رمضان، جاؤوا إليه يطلبون أرزاقهم قال: كتبت إلى أمير المؤمنين في ذلك فكتب إلي إن كنت تريد الجند لنفسك فأعطهم، وإن كان لنا فلا حاجة لنا فيهم. فشغبوا ففرق فيهم ألفي دينار فسكنوا. ثم اجتمعوا ثانية ومعهم الأعلام والطبول، وضربوا الخيام بباب الشماسية وبنوا البيوت من الأعواد والقصب. وجمع محمد بن إبراهيم أصحابه وشحن داره بالرجال، وأرادوا يوم الجمعة أن يمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز فقعد واعتذر بالمرض، فخرجوا إلى الجسر ليقطعوه فقاتلهم أصحاب ابن طاهر ودفعوهم عنه. ثم دفعوا أصحاب ابن طاهر بإعانة أهل الجانب الشرقي، وجاء العامة فجلس الشرطة فأمر ابن طاهر بإحراق الحوانيت إلى باب الجسر ومات أصحاب تعبية الحرب وجاء من دله على عورة الجند فسرح الشاه ابن ميكال وعرض القواد فسار إلى ناحيتهم، وافترقوا وقتل بينهم ابن الخليل.

وحمل رئيسهم الآخر ابن القاسم عبدون بن الموفق إلى ابن طاهر ومات في خلال ذلك. وأخرج المعتز أخاه المؤيد من ولاية العهد، وذلك أن العلاء بن أحمد عامل أرمينية بعث إلى المؤيد بخمسة آلاف دينار فأخذها عيسى بن فرخانشاه، فأغرى المؤيد بعيسى الأتراك والمغاربة فبعث المعتز إلى المؤيد وأبي أحمد فحبسهما وقيد المؤيد فأخذ خطه بخلع نفسه. ثم نمي إليه أن الأتراك يرومون إخراجه من الحبس، فسأل عن ذلك موسى بن بغا فأنكر علم ذلك، وأخرج المؤيد من الغد ميتاً ودفنته أمه. فيقال غطي على أنفه فمات، وقيل: أقعد في الثلج ووضع على رأسه. ثم نقل أخوه ابن أحمد إلى مجلسه.

ثم اعتزم المعتز على قتل المستعين فكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أن يسلمه إلى سيما الخادم، وكتب محمد في ذلك إلى الموكلين به بواسط، يقال: بل أرسل بذلك أحمد بن طولون، فسار به في القاطون وسلمه إلى سعيد بن صالح، فضربه سعيد حتى مات وقيل: ألقاه في دجلة بحجر في رجله، وكانت معه دابته فقتلت معه وحمل رأسه إلى المعتز فأمر بدفنه، وأمر لسعيد بخمسين ألف درهم وولاه معونة البصرة. ثم وقعت فتنة بين الأتراك والمغاربة مستهل رجب، بسبب أن الأتراك وثبوا بعيسى بن فرخانشاه فضربوه وأخذوا دابته لما أمرهم المؤيد، فامتعضت المغاربة له ونكروا على الأتراك وغلبوهم على الجوسق وأخذوا دوابهم وركبوها وملكوا بيت المال.

واستجاش الأتراك بمن كان منهم في الكرخ والدور وانضم الغوغاء والشاكرية إلى المغاربة فضعفت الأتراك عن لقائهم وسعى بينهم جعفر بن عبد الواحد في الصلح فتوادعوا أياماً ثم اجتمع الأتراك على حين افتراق المغاربة فقصد محمد بن راشد ونصر بن سعيد منزل محمد بن عون يختفيان عنده حتى تسكن الهيعة، فدس للأتراك بخبرهما وجاؤوا فقتلوهما في منزله وبلغ ذلك المعتز فهم بقتل ابن عون ثم نفاه.

أخبار مساور الخارجي

كان الوالي على الموصل عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث بن هانئ الخزاعي، وكان صاحب الشرطة بالحديثة من أعمالها حسين بن بكير، وكان مساور بن عبد اللّه بن مساور البجلي من الخوارج يسكن بالبوازيج. وحبس صاحب الشرطة حسين بن بكير بالحديثة ابناً للمساور هذا يسمى جوثرة وكان جميلاً، فكتب إلى أبيه مساور بأن حسين بن بكير نال منه الفاحشة، فغضب لذلك وخرج فقصد الحديثة، فاختفى حسين وأخرج ابنه من الحبس. ثم كثر جمعه من الأكراد والأعراب وقصد الموصل فقاتلها أياماً، ثم رجع فكان تحت طريق خراسان، وكانت لنظربندار ومظفر بن مشبك فسار إليه بندار في ثلاثمائة مقاتل والخوارج مع مساور في سبعمائة فهزموه وقتلوه، ولم ينج منهم إلا نحو خمسين رجلاً وفر مظفر إلى بغداد.

وجاء الخوارج إلى جلولاء وكانت فيهم حرب هلك فيها من الجانبين خلق. ثم سار خطرمش في العساكر فلقيهم بجلولاء وهزمه مساور، ثم استولى مساور على أكثر أعمال الموصل، ثم ولي الموصل أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبي سنة أربع وخمسين، فاستخلف عليها ابنه الحسن، فجمع عسكراً كان فيهم حمدون بن الحارث بن لقمان جد الأمراء من بني حمدان ومحمد بن عبد اللّه بن السيد بن أنس، وسار إلى مساور وعبر إليه نهر الزاب فتأخر عن موضعه. وسار الحسن في طلبه فالتقوا واقتتلوا وانهزم عسكر الموصل وقتل محمد بن السيد الأزدي، ونجا الحسن بن أيوب إلى أعمال إربل.

ثم كانت الفتنة سنة خمس وخمسين خلع المعتز وبويع للمهتدي وولي على الموصل عبد اللّه بن سليمان فزحف إليه مساور، وخام عبد اللّه عن لقائه فملك مساور البلد وأقام بها جمعة وصلى وخطب، ثم خرج منها إلى الحديثة وكانت دار هجرته. ثم انتقض عليه سنة ست وخمسين رجل من الخوارج اسمه عبيدة بن زهير العمري بسبب الخلاف في توبة الخاطيء وقال عبيدة: لا تقبل واجتمع معه جماعة وخرج إليهم مساور من الحديثة واقتتلوا قتالاً شديداً ثم قتل عبيدة وانهزم أصحابه.

وخرج إليه آخر من بني زهر اسمه طوق، فجمع له الحسن بن أيوب بن أحمد العدوي جمعاً كثيراً وحاربه فقاتله سنة خمس أو سبع، واستولى مساور على أكثر العراق ومنع الأموال، فسار إليه موسى بن بغا بابكيال في العساكر فانتهوا إلى.... وبلغهم خبر الأتراك مع المهتدي فأقاموا ثم زحفوا بخلع المهتدي، فلما ولي المعتمد سير مفلحاً إلى قتال مساور في عسكر كبير وخرج مساور عن الحديثة إلى جبلين حذاءها وقاتله مفلح في اتباعه، ولحق الجبل فاعتصم به وأقام مفلح في حصاره، فكانت بينهما وقعات وكثرت الجراحة في أصحاب مساور من لدن حربه مع عبيدة إلى هذه الحروب فسار عن الجبل وتركه وأصبح مفلح وقد فقدهم فسار إلى الموصل ثم إلى ديار ربيعة وسنجار ونصيبين والخابور، فأصلح أمورها وخرج من الموصل إلى الحديثة ففارقها عنه فرجع مساور في اتباعهم يتخطف من أعقابهم ويقاتلهم حتى وصل الحديثة فأقام بها أياماً، ثم سار إلى بغداد في رمضان سنة ست وخمسين فرجع مساور الحديثة واستولى على البلاد واشتدت شوكته، ثم أوقع به مسرور البلخي سنة ثمان وخمسين، وجهز العسكر بالحديثة مع جعلان من قواد الترك. ثم قتل سنة إحدى وستين يحيى بن جعفر من ولاه خراسان، وسار مسرور في طلبه وتبعه الموفق فلم يدركاه.

مقتل وصيف ثم بغا

وفي سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز اجتمع الجند من الأتراك والفراغنة والأشروسنه فطلبوا أرزاقهم منهم لأربعة أشهر وشغبوا، فخرج إليهم بغا ووصيف وسيما الطويل، وكلمهم وصيف واعتذر بعدم المال وقال: خذوا التراب في أرزاقكم. ونزلوا بدار أشناس يتناظرون في ذلك، ومضى بغا وسيما إلى المعتز يسألانه في أمرهم، وبقي وصيف في أيديهم فوثب عليه بعضهم فقتله وقطعوا رأسه ونصبوه. ثم انقادوا وأهدر لهم ذلك، وجعل المعتز لبغا الشرابي ما كان لوصيف وألبسه التاج والوشاحين، ثم تغير له المعتز لما عليه من الاستبداد على الدولة، وخشي غائلته ومال باطناً إلى بابكيال وداخله في أمره واعتده لذلك.

ثم زوج بغا ابنته آمنة من صالح بن وصيف وشغل بجهازها، فركب المعتز في تلك الغفلة ومعه حمدان بن إسرائيل إلى بابكيال في كرخ سامرا وكانت بينه وبين بغا وحشة شديدة وبلغ

ذلك بغا فركب في خمسمائة من غلمانه وولده وقواده، وكان أكثرهم منحرفين عنه ولحق بالسن، وأقام المعتز على وجل لا ينام إلا بسلاحه. ثم تعلل أصحاب بغا عليه فأعرض عنهم وركب البحر راجعاً إلى بغداد، وجاء الجسر ليلا لئلا يفطن به الموكلون هنالك، وبعثوا إلى المعتز يخبره فأمر بقتله وحمل إليه رأسه ونصب بسامرا وأحرقت المغاربة شلوه وكان قصد دار صالح بن وصيف ليثبوا على المعتز.

ابتداء دولة الصفار

كان يعقوب بن الليث بن عمرو الصفار بسجستان وكان صالح بن النضر الكناني من أهل البيت قد ظهر بتلك الناحية وقام يقاتل الخوارج وسمى أصحابه المتطوعة حتى قيل له صالح المطوعي وصحبه جماعة منهم درهم بن الحسن ويعقوب بن الليث هذا وغلبوا على سجستان، ثم أخرجهم عنها طاهر بن عبد اللّه أمير خراسان. وهلك صالح إثر ذلك وقام بأمر المتطوعة درهم بن الحسن فكثر أتباعه. وكان يعقوب بن الليث شهماً وكان درهم مضعفاً، واحتال صاحب خراسان حتى ظفر به وحبس ببغداد فاجتمعت المتطوعة على يعقوب بن الليث، وقام بقتال السراة وأتيح له الظفر عليهم وأثخن فيهم وخرب قراهم، وكانت له شرية في أصحابه لم تكن لأحد قبله، فحسنت طاعتهم له وعظم أمره وملك سجستان مظهراً طاعة الخليفة وكاتبه وقلده حرب السراة، فأحسن الغناء فيه وتجاوزه إلى سائر أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم سار من سجستان إلى نواحي خراسان وعليها يومئذ محمد بن عبد اللّه بن طاهر، وعلى هراة من قبلة محمد بن أوس الأنباري، فجمع لمحاربة يعقوب وسار إليهم في التعبية، فاقتتلوا وانهزم ابن أوس وملك يعقوب هراة وبوشنج، وعظم أمره وهابه صاحب خراسان وغيرها من الأطراف. وكان المعتز قد كتب بولاية سجستان، فكتب له الآن بولاية كرمان، وكان على فارس علي بن الحسين بن شبل، وأبطأ عامل الخراج واعتذر، فكتب له المعتز بولاية كرمان يريد إعداء كل منهما بصاحبه لأن طاعتهما مهوضة فأرسل علي ابن الحسين بفارس طوق بن الغلس خليفة على كرمان، وسار يعقوب الصفار من سجستان فسبقه طوق واستولى عليها وأقام يعقوب بمكانه قريباً منها يترقب خروج طوق إليه.

وبعد شهرين ارتحل إلى سجستان فوضع طوق أوزار الحرب وأقبل على اللّهو، واتصل ذلك بيعقوب في طريقه، فكرّ راجعاً وأغذ السير فصادفه بعد يومين، وركب أصحابه وقد أحيط بهم ففروا ناجين بأنفسهم، وملك يعقوب كرمان وحبس طوق. وبلغ الخبر إلى علي بن الحسين وهو على شيراز، فجمع جيشه ونزل على مضيق شيراز وأقبل عليه يعقوب حتى نزل قبالته، والمضيق متوعر بين جبل ونهر ضيق المسلك بينهما، فاقتحم يعقوب النهر بينهما وأجاز إلى علي بن الحسين وأصحابه فانهزموا، وأخذ علي أسيراً واستولى على جميع عسكره، ودخل شيراز وملكها وجبى الخراج ورجع إلى سجستان وذلك سنة خمس وخمسين.

ويقال: بل وقع بينهما بعد عبور النهر حرب شديدة انهزم آخرها علي وكان عسكره نحواً من خمسة عشر ألفاً من الموالي والأكراد، ورجعوا منهزمين إلى شيراز آخر يومهم وازدحموا في الأبواب وافترقوا في نواحي فارس وانتهوا إلى الأهواز وبلغ القتلى منهم خمسة آلاف. ولما دخل يعقوب وملك فارس امتحن علياً وأخذ منه ألف بردة ومن الفرش والسلاح والآلة ما لا يحد، وكتب إلى الخليفة بطاعته وأهدى هدية جليلة يقال منها عشر بازات بيض وباز أبلق صيني ومائة نافجة من المسك وغير ذلك من الطرف ورجع إلى سجستان، ثم استعاد الخليفة بعد ذلك فارس وبعث عماله إليها.

ابتداء دولة ابن طولون بمصر

كان بابكيال من أكابر قواد الأتراك مع بغا ووصيف وسيما الطويل، ولما حدثت هذه الفتن وتغلبوا على الخلفاء أخذوا الأعمال والنواحي في أقطاعهم، فأقطع المعتز بابكيال هذا أعمال مصر وبها يومئذ ابن مدبر، وكان بابكيال مقيماً بالحفيدة فنظر فيمن يستخلفه عليها وكان أحمد بن طولون من أبناء الأتراك وأبوه من سُبيّ فرغانة وربي في دار الخلفاء، ونشأ ابنه أحمد بها على طريقة مستقيمة لبابكيال خاله، وأشير عليه بتوليته فبعثه على مصر فاستولى عليها أولاً دون أعمالها والاسكندرية ثم قتل المعتز بابكيال وصارت مصر في إقطاع بارجوع الترك وكان بينه وبين أحمد بن طولون مودة متأكدة فكتب إليه واستخلفه على مصر جميعها، ورسخت قدمه فيها وأصارها تراثاً لبنيه فكانت لهم فيها الدولة المعروفة.

استقدام سليمان بن طاهر لولاية بغداد

قد تقدم لنا أن محمد بن عبد اللّه بن طاهر بن الحسين كان

على العراق والسواد، وكانت لهم الشرطة وغيرها، كان مقيماً ببغداد وكان في المدافعة عن المستعين لما لجأ إليه. ثم صلح مابينه وبين المعتز، واستقل المعتز بالخلافة والآثار المذكورة. ثم هلك آخر سنة ثلاث وثمانين أيام المعتز وفوض ما كان بيده من الولاية إلى أخيه عبد اللّه، نازعه ابنه طاهر في الصلاة عليه ومالت العامة مع أصحاب طاهر والقواد مع عبيد اللّه لوصية أخيه. ثم أمضى المعتز عهد أخيه وخلع عليه، وبذل لصاحب الخلع خمسين ألف درهم.

ثم بعث المعتز عن سليمان بن عبد اللّه بن طاهر من خراسان، وولاه على العراق والشرطة وغيرها مكان أخيه محمد، وعزل أخاهما عبيد اللّه. فلما علم عبيد اللّه تقدم سليمان أخذ ما في بيت المال وانتقل إلى غربي دجلة، وجاء سليمان وقائده محمد ابن أوس ومعه جند من خراسان فأساؤوا السيرة في أهل بغداد فحنق الناس عليهم وأعطى أرزاقهم مما بقي في بيت المال وقدمهم على جند بغداد وشاكريها، فاتفق الجند على الثورة وفتقوا السجون، وعبر ابن أوس إلى الجزيرة واتبعه الجند والعامة، فحاربهم وانهزم وأخرجوه من باب الشماسية، ونهب من منزله قيمة ألفي ألف درهم، ومن الأمتعة ما لا يحصر ونهب منازل جنده.

ورأى سليمان أن يسكن الثائرة فأمر بالخروج إلى خراسان، ثم كانت الفتنة في خلع المعتز وولاية المهدي كما يذكر، وبعث المهتدي سلخ رجب من سنة خمس وخمسين إلى سليمان ليأخذ البيعة له ببغداد. وكان أبو أحمد بن المتوكل ببغداد قد بعثه إليها المعتز، فنقله سليمان إلى داره ووثب الجند والعامة لذلك واجتمعوا بباب سليمان، وقاتلهم أصحابه ملياً، ثم انصرفوا وخطب من الغد للمعتز فسكنوا ثم ساروا ودعوا إلى بيعة أبي أحمد، وطلبوا رؤيته فأظهره لهم ووعدهم بما طلبوا، فافترقوا ووكل بحفظ أبي أحمد ثم بايع للمهتدي في شعبان من تلك السنة.

خبر كرخ أصبهان وأبي دلف

قد تقدم لنا شأن أبي دلف أيام المأمون وأنه كان مقيماً بكرخة وأن المأمون عفا له عما وقع منه في القعود عن نصره، وأقام بتلك الناحية وهلك، فقام ابنه عبد العزيز مكانه. ولما كانت أيام الفتنة تمسك بطاعة المستعين وولى وصيف على الجبل وأصبهان، فكتب إلى عبد العزيز باستخلافه عليها وبعث عليه بالخلع، وعقد المعتز لموسى بن بغا الكبير في شهر رجب من سنة ثلاث وخمسين على الجبل وأصبهان، فسار لذلك وفي مقدمته مفلح، فلقيه عبد العزيز بن أبي دلف في عشرين ألفاً خارج همذان، فتحاربا وانهزم عبد العزيز وقتل أصحابه. وسار مفلح إلى الكرخ، فخرج إليه عبد العزيز وقاتله ثانية، فانهزم واستولى مفلح على الكرخ. ومضى عبد العزيز إلى قلعة نهاوند فتحصن بها وأخذ مفلح أهله وأمه.

ثم عقد له وصيف سنة اثنتين وخمسين على أعمال الجبل، ثم عقد لموسى بن بغا، فسار وفي مقدمته مفلح، فقاتله عبد العزيز فانهزم وملك مفلح الكرخ وأخذ ماله وعياله. ثم ملك عبد العزيز وقام مكانه ابنه دلف وقاتله القاسم بن صبهاه من أهالي أصبهان. ثم قتل القاسم أصحاب أبي دلف وولوا أخاه أحمد بن عبد العزيز سنة خمس وستين. وولاه عمر الصفار من قبله على أصبهان عندما ولاه عليها المعتمد سنة ست وستين، وحاربه كغليغ التركي سنة تسع وستين، فغلبه أحمد وأخرجه إلى الصميرة وبعث إليه عمر سنة ثمان وستين في المال فبعث إليه. ثم سار الموفق سنة ست وسبعين يريد أحمد بأصبهان فشاغله أحمد عن البلد وترك داره بفرشها لنزول الموفق. ثم مات أحمد سنة ثمانين وولي أخوه عمر وأخوه بكير يرادفه وقاتلا رافع بن الليث بأمر المعتضد فهزمهما كما يأتي ذكره. ثم قلده المعتضد أصبهان ونهوند والكرخ عمر بن عبد العزيز سنة إحدى وثمانين ثم راجعا الطاعة.

خلع المعتز وموته وبيعة المهتدي

كان صالح بن وصيف بن بغا متغلباً على المعتز، وكان كاتبه أحمد بن إسرائيل، وكانت أمه قبيحة ووزيرها الحسن بن مخلد، وكان أبو نوح عيسى بن إبراهيم من كبار الكتاب وجباة الأموال. وطلب الأتراك أرزاقهم وشغبوا، فقال صالح للمعتز: هذه الأموال قد ذهب بها الكتّاب والوزراء، وليس في بيت المال شيء فردّ عليه أحمد بن إسرائيل وأفحش في رده وتفاوضا في الكلام فسقط صالح مغشياً عليه، وتبادر أصحابه بالباب فدخلوا منتضين سيوفهم فدخل إلى قصره، فأمر صالح بالوزراء الثلاثة فقيدوا وشفع المعتز في أمر وزيره فلم يقبل شفاعته، وصادرهم على مال جليل حملوه فلم يسدّ شيئاً، فلما فعلوا بالكتاب ما فعلوا من المصادرة اتهم الجند أنهم حملوا على مال ولم يكن ذلك، فشفعوا في طلب أرزاقهم وضمنوا للمعتز قتل صالح بن وصيف على خمسين ألفاً يبذلها لهم. وسألهم عن أمه فاعتذرت فاتفقت كلمتهم على خلعه.

ودخل إليه صالح بن وصيف ومحمد بن بغا المعروف بأبي

نصر وبابكيال وطلبوه في الخروج إليهم، فاعتذر لهم وأذن لبعضهم في الدخول فدخلوا، وجروه إلى الباب وضربوه وأقاموه في الشمس في صحن الدار وكلما مر به أحد منهم لطمه. ثم أحضروا القاضي ابن أبي الشوارب في جماعة فاشهدهم على خلعه، وعلى صالح بن وصيف بأمانه وأمان أمه وأخته وولده. وفرّت أمه قبيحة من سَرَب كانت اتخذته بالدار، ثم عذبوا المعتز ثم جعلوه في سرب وطموا عليه، وأشهدوا على موته بني هاشم والقواد، وذلك آخر رجب من سنة خمس وخمسين، وبايعو لمحمد ابن عمه الواثق ولقبوه المهتدي بالله عندما خلع المعتز نفسه وأقر بالعجز والرغبة في تسليمها إلى المهتدي، وبايعه الخاصة والعامة. وكانت قبيحة أم المعتز لما فعل صالح بالكتاب ما فعل قد..... نفراً منهم على الفتك بصالح، ونمي ذلك إليه، فجمع الأتراك على الثوران، وأيقنت قبيحة بالهلاك فأودعت ما في الخزائن من الأموال والجواهر، وحفرت سرباً في حجرتها هربت منه لما أحيط بالمعتز، ولما قتل خشيت على نفسها فبعثت إلى صالح تستأمنه فأحضرها في رمضان وظفر منها بخمسمائة ألف دينار، وعذبها على خزائن تحت الأرض فيها ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ومقدار مكوك من الزبرجد لم يـر مثله ومقدار مكوك آخر من اللؤلؤ العظيم وجراب من الياقوت الأحمر القليل النظير، وذمها الناس بأنها عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار ومعها هذا المال، ثم سارت إلى مكة فأقامت هنالك، وقبض صالح على أحمد بن إسرائيل وزيد بن المعتز وعذبه وصادره. ثم قبض على أبي نوح وفعل به مثله، وقبض على الحسن بن مخلد كذلك ولم يمت. وبلغ المهتدي ذلك فنكره وقال: كان الحبس كافياً في العقوبة. ولأول ولاية المهتدي أخرج القيان والمغنين من سامرا ونفاهم عنها، وأمر بقتل السباع التي كانت في دار السلطان وطرد الكلاب ورد المظالم وجلس للعامة، وكانت الفتن قائمة، والدولة مضطربة، فشمر لإصلاحها لو أُمْهل واستوزر سليمان بن وهب وغلب على أمره صالح بن وصيف وقام بالدولة.

مسير موسى بن بغا إلى سامرّا ومقتل صالح بن وصيف

كان موسى بن بغا غائباً بنواحي الري وأصبهان منذ ولاية المعتز عليها سنة ثلاث وخمسين، ومعه مفلح غلام أبي الساج، وكانت قبيحة أم المعتز لما رأت اضطراب أموره كتبت إلى موسى قبل أن يفوت المعتز أمره، فجاءه كتابها، وقد بعث مفلحاً لحرب الحسن بن زيد العلوي فحربه بطبرستان فغلبه، وأحرق قصوره بآمد وخرج في اتباعه إلى الديلم، فكتب إلى موسى بالرجوع لمداهمة من شاء وبينما هو في استقدامه وانتظاره قتل المعتز وبويع المهتدي، وبلغ أصحابه ما حواه صالح من أموال المعتز وكتابه وأمه،، فشرهوا إلى مثل ذلك، وأغروا موسى بالمسير إلى سامرا.

ورجع مفلح من بلاد الديلم إليه وهو بالري، فسار نحو سامرا وسمع المهتدي بذلك فكتب إليه بالمقام يحذره على ما وراءه من العلويين فلم يصغ لذلك، وأفحش أصحابه في إساءة الرسل الواصلين بالكتب. فكتب بالاعتذار واحتج بما عاينه الرسل وأنه يخشى أن يقتله أصحابه إن عادوا إلى الري وصالح بن وصيف في خلال ذلك يغري به المهتدي وينسبه إلى المعصية والخلاف، إلى أن قدم في المحرم سنة ست وخمسين ودخل في التبعية، فاختفى صالح بن وصيف ومضى موسى إلى الجوسق والمهتدي جالس للمظالم فأعرض له عن الإذن ساعة ارتاب فيها هو وأصحابه وظنوا أنه ينتظر قدوم صالح بالعساكر. ثم أذن لهم فدخلوا وقبضوا على المهتدي وأودعوه دار باجورة وانتهبوا ما كان في الجوسق.

واستغاث المهتدي بموسى فعطف عليه ثم أخذ عليه العهود والأيمان أن لا يوالي صالحاً وأن باطنه وظاهره في موالاتهم سواء، فجددوا له البيعة واستبد موسى بالأمر، وبعث إلى صالح للمطالبة بما احتجبه من الأموال فلم يوقف له على أثر، وأخذوا في البحث عنه. وفي آخر المحرم أحضر المهتدي كتاباً رفعه إليه سيما الشرابي، زعم أن امرأة دفعته إليه وغابت فلم يرها، وحضر القواد وقرأه سليمان بن وهب عليهم وهو بخط صالح يذكر ما صار إليه من الأموال، وأنه إنما استتر خشية على نفسه وحسماً للفتنة وإبقاء على الموالي. ولما قرأ الكتاب حثهم المهتدي على الصلح والاتفاق، فإتهمه الأتراك بالميل إلى صالح وأنه مطلع على مكانه، وطال الكلام بينهم بذلك.

ثم اجتمعوا من الغد بدار موسى بن بغا داخل الجوسق واتفقوا على خلع المهتدي، إلا أخا بابكيال فإنه أبى من ذلك وتهددهم بأنه مفارقهم إلى خراسان، واتصل الخبر بالمهتدي فاستدعاه إليه وقد نظف ثيابه وتطيب وتقلد سيفه فأرعد وأبرق وتهددهم بالاستماتة، ثم حلف لا يعلم مكان صالح، وقال لمحمد بن بغا وبابكيال: قد حضرتما مع صالح في أمر المعتز وأموال الكتاب وأنتم شركاؤه في ذلك كله. وانتشر الخبر في العامة بأنهم أرهقوه وأرادوا خلعه فطفقوا يحاذرون على الدعاء في المساجد والطرقات ويبغون على القواد بغيهم على الخليفة، ويرمون الرقاع بذلك في الطرقات. ثم إن الموالي بالكرخ والدور دسوا إلى المهتدي

أن يبعثوا إليه أخاه أبا القاسم عبد اللّه بعد أن ركبوا وتحركوا فقالوا لأبي القاسم: بلغنا ما عليه موسى وبابكيال وأصحابهما ونحن شيعة للخليفة فيما يريده، وشكوا مع ذلك تأخر أرزاقهم وما صاروا من الإقطاع واالزيادات إلى قوادهم وما أخذه النساء والدخلاء حتى أصحب ذلك كله بالخراج والضياع، وكتبوا بذلك إلى المهتدي.

فأجابهم بالثناء على التشيع له والطاعة والوعد الجميل في الرزق، والنظر الجميل في شأن الإقطاعات للقواد والنساء، فأفاضوا في الدعاء وأجمعوا على منع الخليفة من الحجر الاستبداد عليه، وأن ترجع الرسوم على عادتها أيام المستعين على كل عشرة عريف، وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد، وأن تسقط النساء والزيادة في الإقطاع ويوضع العطاء في كل شهرين. وكتبوا بذلك إلى المهتدي وأنهم صائرون إلى بابه ليقضي حوائجهم، وإن أحد اعترض عليه أخذوا رأسه وإن تعرض له أحد قتلوا موسى بن بغا وبابكيال وما جور. فجاء أبو القاسم بالكتاب وقد قعد المهتدي للمظالم وعنده الفقهاء والقضاة والقواد قائمون في مراتبهم فقرأ كتابهم على القواد فاضطربوا وكتب جوابهم بما سألوا وطلب أبو القاسم من القواد أن يبعثوا معه رسولاً بالعذر عنهم ففعلوا، ومضى أبو القاسم إليهم بكتاب الكتاب وبرسل القواد وأعذارهم.

فكتبوا إلى المهتدي يطلبون التوقيعات بخط الزيادات ورد الإقطاعات وإخراج الموالي البرانيين من الخاصة، ورد الرسوم إلى عاداتها أيام المستعين، ومحاسبة موسى بن بغا وصالح بن وصيف على ما عندهم من الأموال ووضع العطاء على كل شهرين وصرف النظر في الجيش إلى بعض إخوته أو قرابته وإخراجه من الموالي، وكتبوا بذلك إلى المهتدي والقواد فأجابهم إلى جميع ما سألوه.

وكتب إليهم موسى بن بغا بالإجابة في شأن صالح والإذن في ظهوره فقرؤوا الكتابين ووعدوا بالجواب، فركب إليهم أبو القاسم واتبعه موسى في ألف وخمسمائة فوقف في طريقهم وجاءهم أبو القاسم فاضطربوا في الجواب ولم يتفقوا فرجع ورد موسى بن بغا فأمرهم المهتدي بالرجوع وأن يتقدم إليهم محمد بن بغا مع أبي القاسم، ويدفعوا إليهم كتاب الأمان لصالح بن وصيف، وقد كان من طلبتهم أن يكون موسى في مرتبة أبيه وصالح كذلك والجيش في يده، وأن يظهر على الأمان فأجيبوا إلى ذلك.

وافترق الناس إلى الكرخ والدور وسامرا، فلما كان من الغد ركب بنو وصيف في جماعة ولبسوا السلاح فنهبوا دواب العامة وعسكروا بسامرا وتعلقوا بأبي القاسم يطلبون صالحاً فأنكر المهتدي أن يكون علم بمكانه، وقال: إن كان عندهم فليظهروه. ثم ركب ابن بغا في القواد ومعه أربعة آلاف فارس وعسكر، وافترق الأتراك ولم يظهر للكرخيين ولا لأهل الدور وسامرا في هذا اليوم حركة، وجدّ موسى في طلب صالح ونادى عليه وعثر عليه بعض الغوغاء فجاء به إلى الجوسق والعامة في اتباعه فضربه بعض أصحاب مفلح فقتله وطيف برأسه على قناة وخرج موسى بن بغا لقتال السراة بناحية السن.

الصوائف منذ ولاية المنتصر إلى آخر أيام المهتدي

في سنة ثمان وأربعين أيام المستعين خرج بناحية الموصل محمد بن عمر الشاربي وحكم فسرح المنتصر إسحاق بن ثابت الفرغاني فأسره في عدة من أصحابه وقتلوا وصلبوا وفي هذه السنة غزا بالصائفة وصيف وأمره المنتصر بالمقام بملطية أربع سنين ويغزو في أوقات الغزو إلى أن يأتيه رأيه، وكان مقيماً بالثغر الشامي فدخل بلاد الروم وافتتح حصن قدورية. وفي سنة تسع وأربعين غزا بالصائفة جعفر بن دينار فافتتح مطامير واستأذنه عمر بن عبد اللّه الأقطع في الدخول إلى بلاد الروم فأذن له، فدخل في جموع من أهل ملطية، ولقي ملك الروم بمرج الأسقف في خمسين ألفاً فأحاطوا به وقيل: في ألفين من المسلمين، وخرج الروم إلى الثغور الخزرية فاستباحوها وبلغ ذلك علي بن يحيى الأرمني وقد كان صرف عن الثغور الشامية وعقد له على أرمينية وأذربيجان. فلما سمع بخبرهم نفر إليهم وقاتلهم فانهزم وقتل في أربعمائة من المسلمين، وفي سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية فانهزم وأسر.

الولاة

لما ولي المنتصر استوزر أحمد بن الخصيب وولى على المظالم أبا عمر أحمد بن سعيد مولى بني هاشم. ثم ولي المستعين ومات طاهر بن عبد اللّه بخراسان فولى المستعين مكانه ابنه محمداً وولى محمد بن عبد اللّه على العراق وجعل إليه الحرمين والشرطة ومعادن السواد، واستخلف أخاه سليمان بن عبد اللّه على طبرستان. وتوفي بغا الكبير فولى ابنه موسى على أعماله وضاف إليه ديوان البريد، وشغب أهل حمص على عاملهم وأخرجوه،

فبعث عليهم المستعين الفضل بن قارن أخا مازيار فقتل منهم خلقاً وحمل مائة من أعيانهم إلى سامرا.

واستوزر المستعين أتامش بعد أن عزل أحمد بن الخصيب، واستصفى بقي إلى أقريطش، وعقد لأتامش على مصر والمغرب، ولبغا الشرابي على حلوان وماسبذان ومهرجا بعده. ثم قتل أتامش فاستوزر المستعين مكانه أبا صالح عبد الله بن محمد بن داود وعزل الفضل بن مروان عن ديوان الخراج وولاه عيسى بن فرخانشاه، وولى وصيفاً على الأهواز وبغا الصغير على فلسطين، ثم غضب بغا على أبي صالح ففر إلى بغداد واستوزر المستعين مكانه محمد بن الفضل الجرجاني، وولى ديوان الرسائل سعيد بن حميد وعزل جعفر بن عبد الواحد عن القضاء ونفاه إلى البصرة، وولى جعفر بن محمد بن عمار البرجُمي.

وفي خمسين عقد لجعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى المعروف بساسان على مكة ووثب أهل حمص على عاملهم الفضل بن قارن فقتلوه فسرّح إليهم المستعين موسى بن بغا وحاربوه فهزمهم، وافتتحت حمص وأثخن فيهم وأحرقها، وفيها وثب الشاكرية والجند بفارس بعبد الله بن إسحاق فانتهبوا منزله، وقتلوا محمد بن الحسن بن قارن وهرب عبد الله بن إسحاق وفيها كان ظهور العلوية بنواحي طبرستان. وفي سنة إحدى وخمسين عقد المعتز لبغا ووصيف على أعمالها، ورد البريد إلى موسى بن بغا الكبير، وعقد محمد بن طاهر لأبي الساج وقدّم بين يديه عبد الرحمن كما قلنا، وأظهر أنه إنما جاء لحرب الأعراب وتلطف لأبي أحمد حتى خالطه وقيده وبعث به إلى بغداد في سنة اثنتين وخمسين. وولى المعتز الحسين بن أبي الشوارب على القضاء وبعث محمد ابن عبد الله بن طاهر أبا الساج على طريق مكة، وعقد المعتز لعيسى الشيخ بن السليل الشيباني من ولد جساس بن مرة على الرملة فاستولى على فلسطين وعلى دمشق وأعمالها، وقطع ما كان يحمل من الشام. وكان إبراهيم بن المدبر على مصر فبعث إلى بغداد من المال بسبعمائة ألف دينار فاعترضها عيسى وأخذها، وطولب بالمال فقال: الفتنة على الجند! فولاه المعتمد على أرمينية يقيم بها دعواه.

وبعث المعتمد إلى الشام ماجور على دمشق وأعمالها، وبلغ الخبر إلى عيسى فبعث ابنه منصوراً في عشرين ألف مقاتل، فانهزم وقتل وسار عيسى إلى أرمينية على طريق الساحل. وفيها عقد وصيف لعبد العزيز بن أبي دلف العجلي على أعمال الجبل. وفي سنة ثلاث وخمسين عقد لموسى بن بغا على الجبل، فسار وفي مقدمته مفلح مولى بني الساج، وقاتله عبد العزيز بن أبي دلف فانهزم ولجأ إلى قلعة لهادر وملك مفلح الكرخ وأخذ أهله وعياله، وفيها مات ابن عبد الله بن طاهر ببغداد وولى أخوه عبيد الله بعهده. ثم بعث المعتز عن أخيه سليمان بطبرستان فولاه مكانه، وكان على الموصل سليمان بن عمران الأزدي، وكانت بينه وبين الأزد حروب بنواحي الموصل. وفيها مات مزاحم بن خاقان بمصر. وفيها يعقوب الصفار سجستان وفارس وهراة، وكان ابتداء دولته، وولى بابكيال أحمد بن طولون على برمصر من قبله فكان ابتداء دولته. ثم أقطعها المعتمد سنة سبع وخمسين ليارجوج فولى عليها أحمد بن طولون من قبله وفي سنة خمس وخمسين أيام المهتدي استولى مساور الخارجي على الموصل وفيها ظهر صاحب الزنج وكان ابتداء فتنته.

أخبار صاحب الزنج وابتداء فتنته

كان أكثر دعاة العلوية الخارجين بالعراق أيام المعتصم وما بعده أكثرهم من الزيدية، وكان من أئمتهم علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد الشهير وكان نازلاً بالبصرة، ولما وقع البحث عليه من الخلفاء ظفروا بابن عمه علي بن محمد بن الحسين، فقتل بفدك، ولأيام من قتله خرج رجل بالري يدّعي أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى المطلوب وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهتدي. ولما ملك البصرة لقي علياً هذا حياً معروف النسب، فرجع عن ذلك وانتسب إلى يحيى قتيل الجوزجان أخي عيسى المذكور.

ونسبه المسعودي إلى طاهر بن الحسين وأظنه الحسين بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسين بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي، لأن ابن حزم قال في الحسين السبط أنه لا عقب له إلا من علي بن الحسين، وقال فيه علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن طاهر. وقال الطبري وابن حزم وغيرهم من المحققين أنه من عبد القيس، واسمه علي بن عبد الرحيم من قرية من قرى الري، ورأى كثرة خروج الزيدية فحدثته نفسه بالتوثب فانتحل هذا النسب، ويشهد لذلك أنه كان على رأي الأزارقة من الخوارج، ولا يكون ذلك من أهل البيت. وسياقة خبره أنه كان اتصل بجماعة من حاشية المنتصر ومدحهم.

ثم شخص من سامرا إلى البحرين سنة تسع وأربعين ادعى أنه من ولد العباس بن أبي طالب، ثم من ولد الحسن بن عبد الله بن العباس، ودعا الناس إلى طاعته فاتبعه كثير من أهل حجر وغيرها، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه وعظمت فتنته، فتحول عنهم إلى الإحساء ونزل على بني الشماس من سعد بن تميم،

وصحبه جماعة من البحرين منهم يحيى بن محمد الأزرق وسليمان بن جامع، فكانا قائدين له، وقاتل أهل البحرين فانهزم وافترقت العرب عنه واتبعه علي بن أبان وسار إلى البصرة ونزل في بني ضبيعة وعاملها يومئذ محمد بن رجاء، والفتنة فيها بين البلالية والسعدية، وطلبه ابن رجاء فهرب وحبس ابنه وزوجته وجماعة من أصحابه، فسار إلى بغداد وأقام بها حولاً وانتسب إلى محمد بن أبي أحمد بن عيسى كما قلناه، واستمال بها جماعة منهم جعفر بن محمد الصوحاني من ولد زيد بن صوحان ومسروق ورفيق غلامان ليحيى بن عبد الرحمن وسمى مسروقاً: حمزة وكناه: أبا أحمد، وسمى رفيقاً: جعفراً وكناه: أبا الفضل.

ثم وثب رؤساء البلالية والسعدية بالبصرة وأخرجوا العامل محمد بن رجاء، فبلغه ذلك وهو ببغداد، وأن أهله خلعوه فرجع إلى البصرة في رمضان سنة خمس وخمسين ويحيى بن محمد وسليمان بن جامع ومسروق ورفيق، فنزل بقصر القرش ودعا الغلمان من الزنوج ووعدهم بالعتق فاجتمع له منهم خلق وخطبهم ووعدهم بالملك ورغبهم في الإحسان وحلف لهم وكتب لهم في خرقة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ الآية. واتخذها راية وجاءه موالي الزنوج في عبيدهم فأمر كل عبد أن يضرب مولاه وحبسهم ثم أطلقهم، ولم يزل هذا رأيه والزنوج في متابعته والدخول في أمره وهو يخطبهم في كل وقت ويرغبهم. ثم عبر دُجيلاً إلى نهر ميمون، فأخرج عند الحميري وملكه وسار إلى الأُبلّة وبها ابن أبي عون فخرج إليه في أربعة آلاف فهزمهم ونال منهم.

ثم سار إلى القادسية فنهبها وكثر سلاحهم، وخرج جماعة من أهل البصرة لقتاله، فبعث إليهم يحيى بن محمد في خمسمائة رجل فهزمهم وأخذ سلاحهم. ثم طائفة أخرى كذلك وأخرى، وخرج قائدان من البصرة فهزمهما وقتل منهما، وكانت معهما سفن ألقتها الريح إلى الشط فغنموا ما فيها وقتلوا وكثر عيثه وفساده. وجاء أبو هلال من قواد الأتراك في أربعة آلاف مقاتل فلقيه على نهر الريان فهزمه الزنج واستلحموا أكثر أصحابه، ثم خرج أبو منصور أحد موالي الهاشميين في عسكر عظيم من المطوعة والبلالية والسعدية فسرح للقائهم علي بن أبان فلقي طائفة منهم فهزمهم، ثم أرسل طائفة أخرى إلى مرفأ السفن وفيه نحو من ألفي سفينة فهرب عنها أهلها ونهبوها، ثم جاءه عساكر أبي منصور وقعد الزنوج لهم بين النخل وعليهم علي بن أبان، ومحمد بن مسلم، فهزموا العسكر وقتلوا منهم وأخذوا سلاحهم. ثم سار فنهب القرى حتى امتلأت أيديهم بالنهب. ثم سار يريد البصرة ولقيته عساكرها فهزمهم الزنج وأثخنوا فيهم.

ثم سار من الغد نحو البصرة وخرج إليه أهلها واحتشدوا وزحفوا إليه براً وبحراً فلقيهم بالسد وانهزموا هزيمة شنعاء كثر فيها القتل. ووهن أهل البصرة وكتبوا إلى الخليفة فبعث إليهم جعلان التركي مدداً وولى على الأُبلّة أبا الأحوص الباهلي وأمه بجند من الأتراك، وقد بث صاحب الزنج أصحابه يميناً وشمالاً للغارة والنهب. ولما وصل جعلان إلى البصرة، ونزل على فرسخ منهم وخندق عليه، وأقام ستة أشهر يسرح لحربهم الزيني مع بني هاشم ومرجف. ثم بيته الزنج فقتلوا جماعة من أصحابه، وتحول عن مكانه ثم انصرف عن حربهم وظفر صاحب الزنج بعدد من المراكب غنم فيها أمولاً عظيمة، وقتل أهلها وألح بالغارات على الأبلة إلى أن دخلها عنوة آخر رجب سنة ست وخمسين، وقتل عاملها أبا الأحوص عبيد اللّه بن حميد الطوسي وخلقاً من أهلها واستباحها وأحرقها وبلغ ذلك أهل عبادان فأستأمنوا له وملكها، واستولى على ما فيها من الأموال والعبيد والسلاح إلى الأهواز وبها إبراهيم بن المدبر على الخراج، فهرب أهلها ودخلها الزنج ونهبوا وأسروا ابن المدبر فخاف أهل البصرة وافترق كثير منهم من البلدان. وبعث المعتمد سعيد بن صالح الحاجب لحربهم سنة سبع وخمسين فهزمهم وأخذ ما معهم واثخن فيهم وكان ابن المدبر أسيراً عندهم في بيت يحيى بن محمد البحراني وقد ضمن لهم مالاً كثيراً ووكل به رجلين قد أخلفهم حتى حفر سرباً من البيت وخرج منه ولحق بأهله.

خلع المهتدي وقتله وبيعة المعتمد

وفي أول رجب من سنة ست وخمسين شغب الأتراك من الترك والدور بطلب أرزاقهم وبعث المهتدي أخاه أبا القاسم ومعه كفقا وغيره فشكوهم وعادوا وبلغ محمد بن بغا أن المهتدي قال للأتراك: إن الأموال عند محمد وموسى ابني بغا، فهرب إلى أخيه بالسند وهو في مقاتلة موسى الشاربي فأمنه المهتدي ورجع ومعه أخوه حنون وكيغلغ فكتب له المهتدي بالأمان ورجع إلى أصحابه وحبسه وصادره على خمسة عشر ألف دينار. ثم قتله وبعث بابكيال بكتابه إلى موسى بن بغا بأن يتسلم العسكر وأوصاه بمحاربة الشاربي وقتل موسى بن بغا ومفلح، فقرأ الكتاب على موسى وتواطؤوا على أن يرجع بابكيال فيتدبر على قتل المهتدي، فرجع ومعه يارجوج وأساتكين وسيما الطويل، ودخلوا دار الخلافة منتصف رجب فحبس بابكيال من بينهم واجتمع أصحابه

ومعهم والأتراك وشغبوا.

وكان عند المهتدي صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور فأشار بقتله ومناجزتهم، فركب في المغاربة والأتراك والفراغنة على التعبية. ومشى والبلخي في الميمنة ويارجوج في الميسرة، ووقف هو في القلب ومعه أساتكين وغيره من القواد وبعث برأس بابكيال إليهم مع عتاب بن عتاب، ولحق الأتراك من ميمنة المهتدي وميسرته بإخوانهم الأتراك فانهزم الباقون على المهتدي وولى منهزماً ينادي بالناس ولا يجيبه أحد وسار إلى السجن فأطلق المحبوسين ودخل دار أحمد بن جميل صاحب الشرطة وافتحوا عليه وحملوه على بغل إلى الجوسق، وحبس عند أحمد ابن خاقان، وأرادوه على الخلع فأبى واستمات، فأخرجوا رقعة بخطه لموسى بن بغا وبابكيال وجماعة القواد أنه لا يغدر بهم ولا يقاتلهم ولايهم بذلك، ومتى فعل شيئاً من ذلك فقد جعل أمر الخلافة بأيديهم يولون من شاؤوا فاستحلّوا بذلك أمره وقتلوه.

وقيل في سبب خلعه غير هذا وهو: أن أهل الكرخ والدور من الأتراك طلبوا الدخول على المهتدي ليكلموه فأذن لهم وخرج محمد بن بغا إلى المحمدية ودخلوا في أربعة آلاف، فطلبوا أن يعزل عنهم قواده ويصادرهم وكتابهم على الأهواز، ويصير الأمر إلى أخوته فوعدهم بالإجابة وأصبحوا من الغد يطلبون الوفاء بما وعدهم به، فاعتذر لهم بالعجز عن ذلك إلا بسياسة ورفق فأبو إلا المعاجلة، فاستحلفهم على القيام معه في ذلك بإيمان البيعة فحلفوا، ثم كتبوا إلى محمد بن بغا عن المهتدي وعنهم يعذلونه في غيبته عن مجلسهم مع المهتدي، وأنهم إنما جاؤوا بشكوى حالهم ووجدوا الدار خالية فأقاموا ورجع محمد بن بغا فحبسوه في الأموال وكتبوا إلى موسى بن بغا ومفلح بالقدوم وتسليم العسكر إلى من ذكروه لهم، وبعثوا من يقيدهما إن لم يأتمرا ذلك.

ولما قرئت الكتب على موسى وأصحابه وامتنعوا لذلك وساوروا نحو سامرا، وخرج المهتدي لقتالهم على التعبية، وترددت الرسل بينهم بطلب موسى أن يولى على ناحية ينصرف إليها، ويطلب أصحاب المهتدي أن يحضر عندهم فيناظرهم على الأموال إلى أن انفض عنهم أصحابه وسار هو ومفلح على طريق خراسان، ورجع بابكيال وجماعة من القواد إلى المهتدي فقتل بابكيال ثم أنف الأتراك من مساواة الفراغنة والمغاربة لهم وأرادوا طردهم فأبى المهتدي ذلك، فخرج الأتراك عن الدار بأجمعهم طالبين ثأر بابكيال فركب المهتدي على التعبية في ستة آلاف من الفراغنة والمغاربة ونحو ألف من الأتراك أصحاب صالح بن وصيف، واجتمع الأتراك للحرب في عشرة آلاف فانهزم المهتدي وكان ما ذكرناه من شأنه. ثم أحضر أبو العباس أحمد بن المتوكل وكان محبوساً بالجوسق فبايعه الناس. وكتب الأتراك إلى موسى بن بغا وهو غائب فحضر وكملت البيعة لأحمد بن المتوكل ولقب المعتمد على الله واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان فأصبح المهتدي ثاني يوم البيعة ميتاً منتصف رجب من سنة ست وخمسين على رأس سنة من ولايته. ولم يزل ابن خاقان في وزارته إلى أن هلك سنة ثلاث وستين من سقطة بالميدان سال فيها دماغه من منخريه، فاستوزر محمد بن مخلد، ثم سخط عليه موسى بن بغا واختلفا فاستوزر مكانه سليمان بن وهب، ثم عزله وحبسه وولى الحسن بن مخلد وغضب الموفق لحبسه ابن وهب وعسكر بالجانب الغربي وترددت الرسل بينهما فاتفقا وأطلقه وذلك سنة أربع وستين.

ظهور العلوية بمصر والكوفة

وفي سنة ست وخمسين ظهر بمصر إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن الحنفية ويعرف بالصومي يدعو إلى الرضا من آل محمد وملك أشياء من بلاد الصعيد. وجاءه عسكر أحمد بن طولون من مصر فهزمهم وقتل قائدهم، فجاء جيش آخر فانهزم أمامهم إلى الواحات وجمع هنالك جموعاً وسار إلى الأشمومين فلقيه هنالك أبو عبد الرحمن العمري وهو عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر كان قد أخذ نفسه بحرب البجاة وغزو بلادهم لما كان منهم في غزو بلاد المسلمين، فاشتد أمره في تلك الناحية وكثر أتباعه، وبعث إليه ابن طولون عسكراً فقال لقائده: أنا ألبث هناك لدفع الأذى عن بلاد المسلمين، فشاور أحمد بن طولون! فأبى القائد إلا من أجَزْته فهزمه العمري.

ولما سمع ابن طولون خبره أنكر عليهم أن لا يكونوا بذكره، فبقي على حاله من الغارة على البجاة حتى أدوا الجزية. فلما جاء الصوفي من الأشمونين لقيه العمري فهزمه، وعاد العمري إلى أسوان واشتد عيثه، فبعث إليه ابن طولون العساكر فهرب إلى عيذاب وأجاز البحر إلى مكة وافترق أصحابه، وقبض عليه والي مكة وبعث به إلى ابن طولون فحبسه مدة ثم أطلقه، فرجع إلى المدينة ومات بها.

وفي هذه السنة ظهر علي بن زيد، وجاءه الشاه بن ميكال من قبل المعتمد في جيش كثيف فهزمه وأثخن في أصحابه. فسرح المعتمد إلى حربه كيجور التركي فخرج علي عن الكوفة إلى القادسية وملك كيجور الكوفة أول شوال، وأقام علي بن زيد

ببلاد بني أسد. ثم غزا كيجور آخر ذي الحجة فأوقع به وقتل وأسر من أصحابه ورجع إلى الكوفة، ثم إلى سُرَّ مَن رأى، وبقي علي هنالك إلى أن بعث المعتمد سنة تسع.... عسكراً فقتلوه بعكبرا وانقطع أمره وقيل: سار إلى صاحب الزنج فقتله سنة ستين وفي هذه السنة غلب الحسين بن زيد الطالبي على الري وسار موسى بن بغا إليه.

بقية أخبار الزنج

قدم تقدم لنا أن المعتمد بعث سعيد بن صالح الحاجب لحربهم فأوقع بهم، ثم عاودوه فأوقعوا به وقتلوا من أصحابه وأحرقوا عسكره، ورجع إلى سامرا فعقد المعتمد على حربهم لجعفر بن منصور الخياط فقطع عنهم ميرة السفن. ثم سار إليهم في البحر فهزموه إلى البحرين، ثم بعث الخبيث علي بن أبان من قواده إلى إربل لقطع قنطرتها، فلقي إبراهيم بن سيما منصرفاً من فارس، فأوقع بهم إبراهيم وخرج علي بن أبان وسار إبراهيم إلى نهر جي وأمر كاتبه شاهين بن بسطام باتباعه وجاء الخبر إلى علي ابن أبان بإقبال شاهين فسار ولقيه وهزمه أشد من الأول، وانصرف إلى جي.

وكان منصور بن جعفر الخياط منذ انهزم في البحر لم يعد لقتال الزنج واقتصر على حفر الخنادق وإصلاح السفن، فزحف علي بن أبان لحصاره بالبصرة، وضيق على أهل البلد وأشرف على دخولها، وبعث لاحتشاد العرب، فوافاه منهم خلق فدفعهم لقتال أهل البصرة وفرقهم على نواحيها فقاتلهم كذلك يومين، ثم افتتحها علي بن أبان منتصف شوال وأفحش في القتل والتخريب، ورجع ثم عاودهم ثانية وثالثة حتى طلبوا الأمان فأمنهم وأحضرهم في بعض دور الإمارة فقتلهم أجمعين وحرق علي ابن أبان الجامع ومواضع من البصرة واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل وعم النهب وأقام كذلك أياماً، ثم نادى بالأمان فلم يظهر أحد وانتهى الخبر إلى الخبيث فصرف علي بن أبان وولى عليها يحيى بن محمد البحراني.

مسير المولد لحربهم

لما دخل الزنج البصرة وخربوها، أمر المعتمد محمداً المعروف بالمولد بالمسير إلى البصرة، وسار إلى الأبلة، ثم نزل البصرة واجتمع إليه أهلها، وأخرج الزنج عنها إلى نهر معقل، ثم بعث الخبيث قائده يحيى بن محمد لحرب المولد فقاتله عشرة أيام ووطن المولد نفسه على المقام، وبعث الخبيث إلى يحيى بن محمد أبا الليث الأصبهاني مدداً وأمرهم بتبييت المولد، فبيتوه وقاتلوه تلك الليلة والغد إلى المساء، ثم هزموه وغنم الزنج عسكره واتبعه البحراني إلى الجامدة وأوقع بأهلها ونهب تلك القرى أجمع وعاث فيها ورجع إلى نهر معقل.

مقتل منصور الخياط

كان الزنج لما فرغوا من البصرة سار علي بن أبان إلى جي وعلى الأهواز يومئذ منصور بن جعفر الخياط قد ولاه عليها المعتمد بعد مواقعته الزنج بالبحرين، فسار إلى الأهواز ونزل جي وسار علي بن أبان قائد الزنج لحربه. وجاء أبو الليث الأصبهاني في البحر مدداً له وتقدم إلى منصور من غير أمر علي فظفر منصور وقتل الكثير ممن معه وأفلت منهزماً إلى الخبيث. ثم تواقع علي بن أبان مع منصور فهزمه واتبعه الزنج فحمل عليهم وألقى نفسه في النهر ليعبر إليهم فغرق، وقيل: تقدم إليه بعض الزنج لما رآه فقتله في الماء. ثم قتل أخوه خلف وغيره من العسكر وولى يارجوج على عمل منصور اصطيخور من قواد الأتراك.

مسير الموفق لحرب الزنج

كان أبو أحمد الموفق وهو أخو المعتمد بمكة، وكان المعتمد قد استقدمه عندما اشتد أمر الزنج وعقد له على الكوفة والحرمين وطريق مكة واليمن، ثم عقد له على بغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز، وأمره أن يعقد ليارجوج على البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين مكان سعيد بن صالح. ولما انهزم سعيد بن سعيد بن صالح عقد يارجوج لمنصور بن جعفر مكانه على البصرة وكور دجلة والأهواز ثم قتله كما قلناه فعقد المعتمد لأخيه أبي أحمد الموفق على مصر وقنسرين والعواصم وخلع على مفلح، وذلك في ربيع سنة ثمان وخمسين وسيرهما لحرب الزنج فساروا في عدة كاملة. وخرج المعتمد يشيع أخاه وكان علي بن أبان بجي ويحيى بن محمد البحراني بنهر العباس والخبيث في قلة من الناس، وأصحابه مترددون إلى البصرة لنقل ما نهبوه. فلما نزل الموفق نهر معقل أجفل الزنج إلى صاحبهم مرتاعين، فأمر علي بن أبان بالمسير إليهم ولقي مفلحاً في مقدمة الموفق فاقتتلوا وبينما هم يقتتلون إذ اصاب مفلحاً سهم غَرب فقتل، وانهزم أصحابه وأسر الكثير منهم. ثم رحل الموفق نحو الأبلة ليجمع العساكر ونزل نهر أبي الأسد ووقع الموتان في عسكره، فرجع إلى بادرود، وأقام

لتجهيز الآلة وإزاحة العلل وإصلاح السفن، ثم عاد إلى عسكر الخبيث فالتقوا واشتد الحرب بينهم على نهر أبي الخصيب وقتل جماعة من الزنج واستنقذ كثير من النساء المسبيات ورجع إلى عسكره ببادرود فوقع الحريق في عسكره، ورحل إلى واسط وافترق أصحابه فرجع إلى سامرا واستخلف على واسط.

مقتل البحراني قائد الزنج

كان أصطيخور لما ولي الأهواز بعد منصور الخياط بلغه مسير يحيى بن محمد قائد الزنج إلى نهر العباس عند مسير الموفق إليهم، فخرج إليه أصطيخور فقاتله وعبر يحيى النهر وغنم سفن الميرة التي كانت عند أصطيخور، وبعث طلائعه إلى دجلة فلقوا جيش الموفق فرجعوا هاربين، وطلائع الموفق في اتباعهم وعبروا النهر منهزمين. وبقي يحيى فقاتل وانهزم ودخل في بعض السفن جريحاً وغنم طلائع الموفق غنائمهم والسفن وأحرقوا بعضها وعبروا الماخورة على يحيى فأنزلوه من سفنهم خشية على أنفسهم، فسعى به طبيب كان يداوي جراحه وقبض عليه وحمل إلى سامرا وقطع ثم قتل. ثم أنفذ الخبيث علي بن أبان وسليمان بن موسى الشعراني من قواده إلى الأهواز، وضم إليهما الجيش الذي كان مع يحيى ومحمد البحراني وذلك سنة تسع وخمسين فلقيهما أصطيخور بدستميان وانهزم أمامهما وغرق، وهلك من أصحابه خلق وأسر الحسن بن هزيمة والحسن بن جعفر وغيرهما وحبسوا ودخل الزنج الأهواز فأقاموا يفسدون في نواحيها ويغنمون إلى أن قدم موسى بن بغا.

مسير ابن بغا لحرب الزنج

ولما ملك الزنج الأهواز سنة تسع وخمسين سرح المعتمد لحربهم موسى بن بغا وعقد له على الأعمال، فبعث إلى الأهواز عبد الرحمن بن مفلح وإلى البصرة إسحاق بن كنداجق وإلى باذرود إبراهيم بن سيما وأمرهم بمحاربة الزنج. فسار عبد الرحمن إلى علي بن أبان فهزمه أولاً ثم كانت لعبد الرحمن الكرّة ثانياً فأثخن فيهم ورجعوا إلى الخبيث وجاء عبد الرحمن إلى حصن نهدي فعسكر به وزحف إليه علي بن أبان فامتنع عليه، فسار إلى إبراهيم بن سيما ببادرود فواقعه فانهزم أولاً إبراهيم، ثم كانت له الكرة ثانياً. وسار ابن أبان في الغياض فاضرموها عليهم ناراً ففرّوا هاربين وأسر منهم جماعة. وسار عبد الرحمن إلى علي بن أبان وجاءه المدد من الخبيث في البحر فبينما عبد الرحمن في حربه إذ بعث علي جماعة من خلفه وشعر بهم، فرجع القهقرى ولم يصب منهم شيء إلا بعض السفن البحرية. ثم راجع عبد الرحمن حرب علي بن أبان وفي مقدمته طاشتمر فأوقعوا بعلي بن أبان ولحق بالخبيث صاحب الزنج، وأقام عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم يتناوبان حرب الخبيث ويوقعان به، وإسحاق بن كنداجق بالبصرة يقطع عنه المدد، وهو يبعث لكل منهما طائفة يقاتلونهم، وأقاموا على ذلك سبعة عشر شهراً إلى أن صرف موسى بن بغا عن حربهم ووليها مسرور البلخي كما نذكر.

استيلاء الصفار على فارس وطبرستان

قد تقدم استيلاء يعقوب بن الليث الصفار على فارس أيام المعتز من يد علي بن الحسين بن مقبل. ثم عادت فارس إلى الخلفاء، ووليها الحارث بن سيما، وكان بها من رجال العراق محمد بن واصل بن إبراهيم التيمي فاتفق مع أحمد بن الليث من الأكراد الذين بنواحيها ووثبوا بالحارث بن سيما فقتلوه، واستولى ابن واصل على فارس سنة ست وخمسين، وقام بدعوة المعتمد وبعث عليها المعتمد الحسن بن الفياض، فسار إليه يعقوب بن الليث سنة سبع وخمسين، وبلغ ذلك المعتمد فكتب إليه بالنكير، وبعث إليه الموفق بولاية بلخ وطخارستان فملكهما وقبض على رتبيل، وبعث إلى المعتمد برسله وهداياه. ثم رجع إلى بست، واعتزم على العود إلى سجستان فعجل بعض قواده الرحيل قبله، فغضب وأقام سنة ثم رجع إلى سجستان.

استيلاء الصفار على خراسان وانقراض أمر بني طاهر منها ثم استيلاؤه على طبرستان

ثم جاء إلى هراة وحاصر مدينة نيسابور حتى ملكها ثم سار إلى بوشنج وقبض على الحسين بن علي بن طاهر بن الحسين، وبعث إليه محمد بن طاهر بن عبد الله شافعاً فيه فأبى من إطلاقه، ثم ولى على هراة وبوشنج وباذغيس ورجع إلى سجستان وكان بها عبد الله السخري ينازعه. فلما قوي عليه يعقوب فر منه إلى خراسان وحاصر محمد بن طاهر في نيسابور، ورجع إليه الفقهاء فأصلحوا بينه وبين محمد، وولاه الطَبَسيْن وقهستان، وأرسل يعقوب في طلبه فأجاره محمد فسار يعقوب إليه بنيسابور فلم يطق لقاءه، ونزل يعقوب بظاهرها، فبعث محمد بعمومته وأهل بيته فتلقوه. ثم خرج إليه فوبخه على التفريط في عمله وقبض عليه

وعلى أهل بيته ودخل نيسابور واستعمل عليها، وأرسل إلى الخليفة بأن أهل خراسان استدعوه لتفريط ابن طاهر في أمره، وغلبه العلوي على طبرستان فبعث إليه المعتمد بالنكير والاقتصار على ما بيده وإلا سلك به سبيل المخالفين وذلك سنة تسع وخمسين.

وقيل في ملكه نيسابور غير ذلك وهو: أن محمد بن طاهر أصاب دولته العجز والإدبار، فكاتب بعض قرابته يعقوب بن الصفار واستدعوه، فكتب يعقوب إلى محمد بن طاهر بمجيئه إلى ناحية موزيا بقصد الحسن بن زيد في طبرستان، وإن المعتمد أمره بذلك، وإنه لا يعرض شيئاً من أعمال خراسان. وبعث بعض قواده عيناً عليه يمنعه من البراح عن نيسابور، وجاء بعده وقدم أخاه عمراً إلى محمد بن طاهر فقبض عليه وعنفه على الأعمال والعجز، وقبض على جميع أهل بيته نحو من مائة وستين رجلاً، وحملهم جميعاً إلى سجستان واستولى على خراسان، ووثب نوابه في سائر أعمالها وذلك لإحدى عشرة سنة وشهرين من ولاية محمد.

ولما قبض يعقوب على ابن طاهر واستولى على خراسان هرب منازعه عبد الله السخري إلى الحسن بن زيد صاحب طبرستان فبعث إليه فأجاره، وسار إلى يعقوب سنة ستين وحاربه فانهزم الحسن إلى أرض الديلم، وملك يعقوب سارية وآمل ومضى في أثر الحسين من عسكره نحو من أربعين ألفاً من الرجل والظهر ونجا بعد مشقة شديدة، وكتب إلى المعتمد بذلك وكان عبد الله السخري قد هرب بعد هزيمة الحسن العلوي إلى الري، فسار يعقوب في طلبه، وكتب إلى عامل الري يؤذنه بالحرب إن لم يدفعه إليه، فبعث به إليه وقتله ورجع إلى سجستان.

استيلاء الحسن بن زيد على جرجان

ولما هرب الحسن بن زيد أمام مفلح من طبرستان، ورجع مفلح اعتزم الحسن على الرجوع إلى جرجان، فبعث محمد بن طاهر إليها العساكر لحفظها فلم يغنوا عنها، وجاء الحسن فملكها وضعف أمر ابن طاهر في خراسان، وانتقض عليه كثير من أعمالها وظهر المتغلبون في نواحيها وعاث السلاة من الخوارج في أعمالها ولم يقدر على دفعهم، وآل ذلك إلى تغلب الصفار على ابن طاهر وانتزاع خراسان من يده كما ذكرنا.

فتنة الموصل

كان المعتمد قد ولى على الموصل أشاتكين من قواد الأتراك فبعث عليها هو ابنه أذكرتكين وسار إليها في جمادى سنة تسع وخمسين، فأساء السيرة وأظهر المنكر وعسف بالناس في طلب الخوارج، وتعرض بعض الأيام رجل من حاشيته إلى إمرأة في الطريق وتخلصها من يده بعض الصالحين، فأحضره أذكرتكين وضربه ضرباً شديداً، فاجتمع وجوه البلد وتآمروا في رفع أمرهم إلى المعتمد، فركب إليهم ليوقع بهم فقاتلوه وأخرجوه واجتمعوا على يحيى بن سليمان وولوه أمرهم، ولما كانت سنة إحدى وستين ولى أستاكين عليها الهيثم بن عبد الله بن العمد التغلبي العدوي وأمره أن يزحف لحربهم ففعل، وقاتلوه أياماً وكثرت القتلى بينهم، ورجع عنهم الهيثم وولى أستاكين مكانه إسحاق بن أيوب التغلبي جد بني حمدان وغيره، وحاصرها مدة ومرض يحيى بن سليمان الأمير وفي أثنائها، فطمع إسحاق في البلد وجدَّ في الحصار، واقتحمها من بعض الجهات فأخرجوه، وحملوا يحيى بن سليمان في قبة وألقوه أمام الصف واشتد القتال ولم يزل إسحاق يراسلهم ويعدهم حسن السيرة إلى أن أجابوه على أن يقيم بالربض فأقام أسبوعاً، ثم حدثت ممن بايعه بعض الفعلات فوثبوا به وأخرجوه، واستقر يحيى بن سليمان بالموصل.

حروب ابن واصل بفارس

قد تقدم لنا وثوب محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي بالحارث بن سيما عامل فارس وتغلبه عليها سنة ست وخمسين، فلما بلغ ذلك إلى المعتمد أضاف فارس إلى عبد الرحمن بن مفلح وبعثه إلى الأهواز وأمده بطاشتمر، وزحفوا من الأهواز إلى ابن واصل سنة إحدى وستين، فسار معهم من فارس ومعه أبو داود العلوس ولقيهم برام هرمز فهزمهم وقتل طاشتمر وأسر ابن مفلح وغنم عسكرهم. وبعث إليه المعتمد في إطلاق ابن مفلح فقتله خفية، وسار لحرب موسى بن بغا بواسط، وانتهى إلى الأهواز وبها إبراهيم بن سيما في جموع كثيرة. ولما رأى موسى بن بغا اضطراب هذه الناحية استعفى المعتمد من ولايتهم فأعفاه، وكان عند انصراف ابن مفلح عن الأهواز إلى فارس قد ولى مكانه بالساج وأمره بمحاربة الزنج، فبعث صهره عبد الرحمن لذلك، فلقيه علي بن أبان قائد الزنج، فهزمه علي وقتله، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مكرم، وملك الزنج الأهواز فعاثوا فيها.

ثم عزل أبو الساج عن ذلك وولي مكانه إبراهيم بن سيما فلم يزل بها حتى انصرف موسى بن بغا عن الأعمال كلها، ولما هزم إبراهيم بن سيما بن واصل بن عبد الرحمن بن مفلح وقتله طمع يعقوب الصفار في ملك فارس، فسار من سجستان مجداً، ورجع ابن واصل من الأهواز وترك محاربة ابن سيما، وأرسل خاله أبا بلال مرادس إلى الصفار، وراجعه بالكتب والرسل بحبس ابن واصل رسله، ورحل بعد السير ليفجأه على بغتة، وشعر به الصفار فقال لخاله مرادس: إن صاحبك قد غدر بنا وسار إليهم وقد أعيوا وتعبوا من شدة السير ومات أكثرهم عطشاً. فلما تراءى الجمعان انهزم ابن واصل دون قتال، وغنم الصفار ما في عسكره وما كان لابن مفلح، واستولى على بلاد فارس ورتب بها العمال وأوقع بأهل زم لإعانتهم ابن واصل، وطمع في الاستيلاء على الأهواز وغيرها.

مبدأ دولة بني سامان وراء النهر

كان جدهم أسد بن سامان من أهل خراسان وبيوتها وينتسبون في الفرس تارة إلى سامة بن لؤي وإلى ابن غالب أخرى، وكان لأسد أربعة من الولد: نوح وأحمد ويحيى وإلياس. وتقدموا عند المأمون أيام ولايته خراسان واستعملهم، ولما انصرف المأمون إلى العراق ولى على خراسان غسان بن عباد من قرابة الفضل بن سهل، فولى نوحاً منهم على سمرقند وأحمد على فرغانة ويحيى على الشاش وأشروسنة وإلياس على هراة. فلما ولي طاهر بن الحسين بعده أقرهم على أعمالهم. ثم مات نوح بن أسد فأقر أخويه يحيى وأحمد على عمله، وكان حسن السيرة. ومات إلياس بهراة، فولى عبد اللّه بن طاهر مكانه ابنه أبا إسحاق محمد بن إلياس، وكان لأحمد بن أسد من البنين سبعة: نصر ويعقوب ويحيى وإسماعيل وإسحاق وأسد وكنيته: أبو الأشعث وحميد وكنيته: أبوغانم.

فلما توفي أحمد استخلف ابنه نصراً على أعماله بسمرقند وما إليهما، وأقام إلى انقراض أيام بني طاهر وبعدهم، وكان يلي أعماله من قبل ولاة خراسان إلى حين انقراض أيام بني طاهر. واستولى الصفار على خراسان فعقد المعتمد لنصر هذا على أعماله من قبله سنة إحدى وستين، ولما ملك يعقوب الصفار خراسان كما قلنا بعث نصر جيوشه إلى شط جيحون مسلحة من الصفار، فقتلوا مقدمهم ورجعوا إلى بخارى، وخشيهم واليها على نفسه ففر عنها، فولوا عليهم ثم عزلوا ثم ولوا ثم عزلوا، فبعث نصر أخاه إسماعيل لضبط بخارى.

ثم ولي خراسان بعد ذلك رافع بن هرثمة بدعوة بني طاهر، وغلب الصفار عليها، وحصلت بينه وبين إسماعيل صاحب بخارى موالاة اتفقا فيها على التعاون والتعاضد، وطلب منه إسماعيل أعمال خوارزم، فولاه إياها، وفسد ما بين إسماعيل وأخيه مضر، وزحف نصر إليه سنة اثنتين وسبعين، واستجاش إسماعيل برافع بن هرثمة فسار إليه بنفسه مدداً، ووصل إلى بخارى، ثم أوقع الصلح بينه وبين أخيه خوفاً على نفسه، وانصرف رافع ثم انتقض ما بينهما وتحاربا سنة خمس وسبعين، وظفر إسماعيل بنصر. ولما حضر عنده ترجل له إسماعيل وقبّل يده ورده إلى كرسي إمارته بسمرقند، وأقام نائباً عنه ببخارى، وكان إسماعيل خيِّراً مكرماً لأهل العلم والدين.

مسير الموفق إلى البصرة لحرب الزنج وولاية العهد

ولما استعفى موسى بن بغا من ولاية الناحية الشرقية عزم المعتمد على تجهيز أخيه أبي أحمد الموفق، فجلس في دار العامة وأحضر الناس على طبقاتهم، وذلك في شوال من سنة إحدى وستين وعقد لابنه جعفر العهد من بعده، ولقّبه المفوض إلى اللّه، وضم إليه موسى بن بغا وولاه أفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان ونهر تصدق، وعقد لأخيه أبي أحمد العهد بعده ولقبه الناصر لدين اللّه الموفق، وولاه المشرق وبغداد وسواد الكوفة وطريق مكة واليمن وكسكر وكور دجلة والأهواز وفارس وأصبهان والكرخ والدينور والري وزنجان والسند. وعقد لكل واحد منهما لواءين أبيض وأسود، وشرط أنه إن مات وجعفر لم يبلغ يتقدم الموفق عليه، ويكون هو بعده وأخذت البيعة بذلك على الناس، وعقد جعفر لموسى بن بغا على أعمال العرب، واستوزر صاعد بن مخلد، ثم نكبه سنة اثنتين وسبعين، واستصفاه واستكتب مكانه الصفر إسماعيل بن بابل، وأمر المعتمد أخاه الموفق بالمسير لحرب الزنج، فبعثه في مقدمته واعتزم على المسير بعده.

وقعة الصفّار والموفّق

لما كان يعقوب الصفار ملك فارس من يد واصل وخراسان من يد ابن طاهر وقبض عليه صرح المعتمد بأنه لم يولّه ولا فعل

ما فعل بإذنه، وبعث ذلك مع حاج خراسان وطبرستان. ثم سار إلى الأهواز يريد لقاء المعتمد، وذلك سنة اثنتين وسبعين فأرسل إليه المعتمد إسماعيل بن إسحاق وفهواج من قواد الأتراك ليردوه على ذلك وبعث معهما من كان في حبسه من أصحابه الذين حبسوا عندما قبض على محمد بن طاهر، وعاد إسماعيل من عند الصفار بعزمه على الموصل، فتأخر الموفق لذلك عن المسير لحرب الزنج. ووصل مع إسماعيل من عند الصفار حاجبه ذرهم يطلب ولاية طبرستان وخراسان وجرجان والري وفارس والشرطة ببغداد، فولاه المعتمد ذلك كله مضافاً إلى ما بيده من سجستان وكرمان، وأعاد حاجبه إليه بذلك ومعه عمر بن سيما فكتب يقول: لا بد من الحضور بباب المعتمد. وارتحل من عسكر مكرم وسار إليه أبو الساج من الأهواز لدخوله تحت ولايته، فأكرمه ووصله وسار إلى بغداد. ونهض المعتمد من بغداد فعسكر بالزعفرانية وأخوه مسرور البلخي، فقاتله منتصف رجب، وانهزمت ميسرة الموفق، وقتل فيها إبراهيم بن سيما وغيره من القواد.

ثم تراجعوا واشتدت الحرب وجاء إلى الموفق محمد بن أوس والداراني مدداً من المعتمد، وفشل أصحاب الصفار لما رأوا مدد الخليفة فانهزموا، وخرج الصفار واتبعهم أصحاب الموفق وغنموا من عسكره نحواً من عشرة آلاف من الظهر، ومن الأموال ما يؤد حمله. وكان محمد بن طاهر معتقلاً معه في العسكر منذ قبض عليه بخراسان، فتخلص ذلك اليوم وجاء إلى الموفقة وخلع عليه وولاه الشرطة ببغداد، وسار الصفار إلى خوزستان فنزل جنديسابور، وأرسله صاحب الزنج يحثه على الرجوع ويعده المساعدة، فكتب إليه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ. لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ السورة. وكان ابن واصل قد خالف الصفار إلى فارس وملكها، فكتب إليه المعتمد بولايتها، وبعث الصفار إليه جيشاً مع عمر بن السري من قواده، فأخرجه عنها وولى على الأهواز محمد بن عبد الله بن طاهر. ثم رجع المعتمد إلى سامرا والموفق إلى واسط واعتزم الموفق على اتباع الصفار، فقعد به المرض عن ذلك، وعاد إلى بغداد ومعه مسرور البلخي سار بعد موسى وأقطعه ما لأبي الساج من الضياع والمنازل، وقدم معه محمد بن طاهر فقام بولاية الشرطة ببغداد.

سياقة أخبار الزنج

قد ذكر أن مسروراً البلخي سار بعد موسى بن بغا لحرب الزنج، ثم سار مسرور للقاء المعتمد وحضر الموفق حرب الصفار، ويلغ صاحب الزنج جاؤوا النواحي من العساكر، فبعث سراياه فيها للنهب والحرق والتخريب في بعث سليمان بن جامع إلى البطيحة، وسليمان بن موسى إلى القادسية. وجاء أبو التركي في السفن يريد عسكر الزنج، فأخذ عليه سليمان بن موسى وقاتله شهراً حتى تخلص وانحاز إلى سليمان بن جامع، وبعث إليهما الخبيث بالمدد، وكان مسرور قد بعث قبل مسيره من واسط جنداً في البحر إلى سليمان فهزمهم وأوقع بهم وقتل أسراهم، ونزل بَقْرة مروان قريباً من يعقوب متحصناً بالغياض والأغوار. وزحف إليه قائدان من بغداد وهما أغرتمش وحشيش في العساكر براً وبحراً وأمر سليمان أصحابه بالاختفاء في تلك الغياض حتى يسمعوا أصوات الطبول.

وأقبل أغرتمش ونهض شرذمة من الزنج فواقعوا أصحابه وشاغلوهم، وسار سليمان من خلفهم وضرب طبوله وعبروا إليهم في الماء، فانهزم أصحاب أغرتمش وظهر ما كان مختفياً، وقتل حشيش، واتبعوهم إلى العسكر وغنموا منه، وأخذوا من القطع البحرية، ثم استردها أغرتمش من أيديهم، وعاد سليمان ظافراً وبعث برأس حشيش إلى الخبيث صاحبه، فبعث به إلى علي بن أبان في نواحي الأهواز. وكان مسرور البلخي قد بعث إلى كور الأهواز أحمد بن كيتونة، فنزل السوس وكان صاحب الأهواز من قِبَل الصفار يكاتب صاحب الزنج ويداريه، ويطلب له الولاية عنه، فشرط عليه أن يكون خليفة لابن أبان، واجتمعا بتستر.

ولما رأى أحمد تظافرهما رجع إلى السوس، وكان علي بن أبان يروم خطبة محمد له بعمله، فلما اجتمعا بتستر خطب للمعتضد والصفار ولم يذكر الخبيث، فغضب علي وسار إلى الأهواز. وجاء أحمد بن كيتونة إلى تستر، فأوقع بمحمد بن عبد الله وتحصن منه بتستر. وأقبل علي بن أبان إليه فاقتتلا واشتد القتال بينهما، وانهزم علي بن أبان وقتل جماعة من أصحابه، ونجا بنفسه جريحاً في الساريات بالنهر، وعاد إلى الأهواز. وسار منها إلى عسكر الخبيث، واستخلف على عسكره بالأهواز حتى دواى جراحه ورجع. ثم بعث أخاه الخليل إلى أحمد بن كيتونة بعسكر مكرم فقاتله، وقد أكمن لهم فانهزموا، وقتل من الزنج خلق ورجع المنهزمون إلى علي بن أبان، وبعث مسلحة إلى السرقان فاعترضهم جيش من أعيان فارس أصحاب أحمد بن كيتونة، وقتلهم الزنج جميعاً فحظي عنده بذلك وبعث في أثر إبراهيم من قتله في سرخس.

ولما أراد الصفار العود إلى سجستان ولى على نيسابور عزيز

بن السري، وعلى هراة أخاه عمرو بن الليث، فاستخلف عمرو عليها طاهر بن حفص الباذغيسي وسار إلى سجستان سنة إحدى وستين، فجاء الخبيث إلى أخيه علي وزين له أن يقيم نائباً عنه في أموره بخراسان، وطلب ذلك من أخيه يعقوب فأذن له. ولما ارتحلوا جمع جمعاً وحارب علياً فأخرجه من بلده. ثم غلب عزيز بن السري على نيسابور وملكها أول اثنين وستين، وقام بدعوة بني طاهر. واستقدم رافع بن هرثمة من رجالاتهم فجعله صاحب جيشه، وكتب إلى يعمر بن سركب وهو يحاصر بلخ يستقدمه، فلم يثق إليه، وسار إلى هراة فملكها من يد طاهر بن حفص، وقتله وزحف إليه أحمد وكانت بينهما مواساة، ثم داخل بعض قواد أحمد الخجستاني في الغدر بيعمر على أن يمكنه من أخيه أبي طلحة، فكلف ذلك القائد به فتم ذلك، وكبسهم أحمد وقبض على يعمر وبعثه إلى نائبه بنيسابور فقتله، وقتل أبا طلحة القائد الذي غدر بأخيه. وسار إلى نيسابور في جماعة، فلقي بها الحسين بن طاهر مردوداً من أصبهان طمعاً أن يدعو له أحمد الخجستاني كما كان يزعم حين أورد فلم يخطب، فخطب له أبو طلحة وأقام معه بنيسابور، فسار إليهما الخجستاني من هراة في اثنى عشر ألفا.

وقدّم أخاه العباس فخرج إليه أبو طلحة وهزمه، فرجع أحمد إلى هراة ولم يقف على خبر أخيه، وانتدب رافع وهرثمة إلى استعلام خبره واستأمن إلى أبي طلحة فأمنه ووثق إليه، وبعث رافع إلى أحمد بخبر أخيه العباس، ثم أنفذه طاهر إلى بيهق لجباية مالها، وضم معه قائدين لذلك، فجبى المال وقبض على القائدين وانتقض. وسار إلى الخجستاني ونزل في طريقه بقرية وبها علي بن يحيى الخارجي، فنزل ناحية عنه، وركب ابن طاهر في أتباعه فأدركه بتلك القرية، فأوقع بالخارجي يظنه رافعاً ونجا رافع إلى الخجستاني. وبعث ابن طاهر إسحاق الشرابي إلى جرجان لمحاربة الحسن بن زيد والديلم منتصف ثلاث وستين فأثخن في الديلم ثم انتقض على ابن طاهر، فسار إليه وكبسه إسحاق في طريقه فانهزم إلى نيسابور، واستضعفه أهلها فأخرجوه، فأقام إلى فرسخ منها وجمع جمعاً وحاربهم، ثم كتب إلى أهل نيسابور إلى إسحاق باستدعائه ومساعدته على ابن طاهر وأبي طلحة، وكتب إلى أهل نيسابور عن إسحاق بالمواعدة. وسار إسحاق أبو محمد في قلة من الجند، فاعترضه أبو طلحة وقتله وحاضر نيسابور، فاستقدموا الخجستاني من هراة وأدخلوه.

وسار أبو طلحة إلى الحسن بن زيد مستنجداً فأنجده ولم يظفر، وعاد إلى بلخ وحاصرها سنة خمس وستين، وخرج للخجستاني من نيسابور به، وحاربه الحسن بن زيد لمساعدته أبا طلحة. وجاء أهل جرجان مدداً للحسن، فهزمهم الخجستاني وأغرمهم أربعة آلاف ألف درهم. ثم جاء عمرو بن الليث إلى هراة بعد وفاة أخيه يعقوب الصفار وعاد الخجستاني من جرجان إلى نيسابور، وسار إليه عمرو من هراة فاقتتلا وانهزم عمرو ورجع إلى هراة، وأقام أحمد بنيسابور.

وكانت الفقهاء بنيسابور يميلون إلى عمرو لتولية السلطان إياه، فأوقع السجستاني بينهم الفتنة ليشغلهم بها، ثم سار إلى هراة سنة سبع وستين وحاصر عمرو بن الليث فلم يظفر منه بشيء، فسار نحو سجستان وترك نائبه بنيسابور، فأساء السيرة وقوى أهل الفساد، فوثب به أهل نيسابور واستعانوا بعمرو بن الليث وبعث إليهم جنداً يقبض على نائب الخجستاني وأقاموا بها، ورجع من سجستان فأخرجهم وملكها، وأقام إلى تمام سبع وستين، وكاتب عمرو أبا طلحة وهو يحاصر بلخ فقدم عليه وأعطاه أموالاً واستخلفه بخراسان، وسار إلى سجستان، وسار أحمد إلى سرخس ولقيه أبو طلحة فهزمه أحمد ولحق بسجستان، وأقام بطخارستان. ثم جاء أبو طلحة إلى نيسابور فقبض على أهل الخجستاني وعياله، وجاء أحمد من طخارستان إلى نيسابور وأقام بها. ثم تبين لابن طاهر أن الخجستاني إنما يروم لنفسه وليس على ما يدعيه من القيام بأمرهم.

وكان على خوارزم أحمد بن محمد بن طاهر فبعث قائده أبا العباس النوفلي إلى نيسابور في خمسة آلاف مقاتل، وخرج أحمد أمامهم وأقام قريباً منهم وأفحش النوفلي في القتل والضرب والتشويه، وبعث إليه الخجستاني فنهاه عن مثل ذلك فضرب الرسل، فلحق أهل نيسابور بالخجستاني واستدعوه وجاؤوا به وقبض على النوفلي وقتله. ثم بلغه أن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله بن طاهر بمرو، فسار إليه من أسورد في يوم وليلة وقبض عليه وولى عليها موسى البلخي، ثم وافاها الحسين بن طاهر فأحسن فيهم السيرة ووصل إليهم نحو عشرين ألف درهم، وكان الخجستاني لما بلغه أخذ والدته من نيسابور وهو بطخارستان وسار مجداً، فلما بلغ هراة أتاه غلام لأبي طلحة مستأمناً فأمنه وقرّبه، فغصّ به وغلامه الخالصة عنده والجنود، وطلب الفرصة في قتل الخجستاني، وكان قد غوّر ساقية قطلغ، فاتفقا على قتله فقتلاه في شوال سنة ثمان وستين. وأنفذ دامجور خاتمه إلى الإسطبل مع جماعة فركبوا الدواب وساروا بالخبر إلى أبي طلحة ليستقدموه، وأبطأ ظهوره على القواد فدخلوا فوجدوه قتيلاً، وأخبرهم صاحب الإسطبل بخبر الخاتم والدواب، وطلبوا دامجور فلم يجدوه، ثم عثروا عليه بعد أيام فقتلوه، واجتمعوا على رافع بن هرثمة

وكان من خبره ما نذكره.

استيلاء الصفار على الأهواز

ثم سار يعقوب الصفار من فارس إلى الأهواز، وأحمد بن كيتونة قائد مسرور البلخي على الأهواز مقيم على تستر فرحل عنها ونزل يعقوب جنديسابور، ففر كل من كان في تلك النواحي من عساكر السلطان، وبعث إلى الأهواز من أصحابه الخضر بن المعير، فأفرج عنها علي بن أبان والزنج ونزلوا السدرة ودخل خضر الأهواز، وأقام أصحاب الخضر وابن أبان يغير بعضهم على بعض. ثم فر ابن أبان وسار إلى الأهواز فأوقع بالخضر وفتك في أصحابه وغنم، ولحق الخضر بعسكر مكرم، واستخرج ابن أبان ما كان بالأهواز ورجع إلى نهر السدرة. وبعث يعقوب إلى الخضر مدداً وأمره بالكف عن قتال الزنج والمقام بالأهواز، فأبى ابن أبان من ذلك إلا أن ينقل طعاماً ما كان هناك فنقله وتوادعوا.

استيلاء الزنج على واسط

قد تقدم لنا واقعة أغرتمش مع سليمان بن جامع، وظفر سليمان به فلما انقضى أمره سار سليمان إلى صاحب الخبيث ومر في طريقه بعسكر تكين البخاري وهو ببردود، فلما حاذاه قريباً أشار عليه الجناني أن يغير على العسكر في البحر ويستطرد لهم لينتهزوا منهم الفرصة ففعل وجاء مستطردا وقد أكمنوا لهم الكمناء حتى أجازوا موضع الكمائن. وركب سليمان إليهم وعطف الجناني على من في النهر وخرجت الكمائن من خلفهم فأثخنوا فيهم إلى معسكرهم، ثم بيتوهم ليلاً فنالوا منهم، وانكشف سليمان قليلاً، ثم عبر أصحابه وأتاهم من وجوه عديدة براً وبحراً، فانهزم تكين وغنم الزنج عسكره. ثم استخلف سليمان على عسكره الجناني وسار إلى صاحب الخبيث سنة ثلاث وستين. ومضى الجناني بالعسكر لطلب الميرة فاعترضه جعلان من قواد السلطان وهزمه وأخذ سيفه.

ثم زحف منكجور ومحمد بن علي بن حبيب من القواد وبلغ الحجاجية فرجع سليمان مغذاً إلى طهتا يريد جعلان وفي مقدمته الجناني. ثم كر إلى ابن خبيث فهزمه وقتل أخاه وغنم ما معه. ثم سار في شعبان إلى قرية حسان فأوقع بالقائد هناك جيش ابن خمار تكين وهزمه ونهب القرية وأحرقها. ثم بعث العساكر في الجهات للنهب براً وبحراً، واعترض جعلان بعضهم فأوقع بهم، ثم سار سليمان إلى الرصافة فأوقع بالقائد بها واستباحها وغنم ما فيها ورجع إلى منزله بمدينة الخبيث، وجاء مطر إلى الحجاجية فعاث فيها وأسر جماعة منها كان منهم القاضي سليمان، فحمله إلى واسط. ثم سار إلى طهتا وكتب الجناني بذلك إلى سليمان فوافاه لاثنتين من ذي الحجة، وجاء أحمد بن كيتونة بعد أن كان سار إلى الكوفة وجبيل، فعاد إلى البريدية وصرف جعلان وضبط تلك الأعمال، وأوقع تكين بسليمان وقتل جماعة من قواده. ثم ولي الموفق على مدينة واسط محمد بن الوليد وجاءه في العساكر واستمد سليمان صاحبه الخليل بن أبان في ألف وخمسمائة مقاتل، فزحف إلى ابن المولد وهزمه واقتحم واسط بها منكجور البخاري فقاتله عامة يومه، ثم قتل ونهب البلد وأحرقها وانصرف سليمان إلى جبيل واستدعوه في نواحيها تسعين ليلة.

استيلاء ابن طولون على الشام

كان على دمشق أيام المعتمد ماجور من قواد الأتراك، فتوفي سنة أربع وستين وقام ابنه علي مكانه. وتجهز أحمد بن طولون من مصر إلى دمشق وكتب إلى ابن ماجور بأن المعتمد أقطعه الشام والثغور، فأجاب بالطاعة، وسار أحمد واستخلف على مصر ابنه العباس ولقيه ابن ماجور بالرملة فولاه عليها، وسار إلى دمشق فملكها وأقر القواد على أقطاعهم. ثم سار حمص فملكها ثم حماة ثم حلب، وكان على أنطاكية وطرسوس سيما الطويل من قواد الأتراك، فبعث إليه ابن طولون بالطاعة وأن يقره على ولايته فامتنع، فسار إليه ودلوه على عورة في سور البلد نصب عليها المجانيق، وقاتله فملكها عنوة وقتل سيما في الحرب، فسار ثم قصد طرسوس فدخلها واعتزم على المقام بها ويريد الغزو. وشكا أهلها غلاء السعر وسألوه الرحيل فرحل عنهم إلى الشام، ومضى إلى حران وبها محمد بن أتامش فحاربه وهزمه واستولى عليها.

ثم جاءه الخبر بانتقاض ابنه العباس بمصر وأنه أخذ الأموال وسار إلى برقة فلم يكترث لذلك، وأصلح أحوال الشام وأنزل بحران عسكراً، وولى مولاه لؤلؤاً على الرقة وأنزل معه عسكراً، وبلغ موسى بن أتامش خبر أخيه محمد فجمع العساكر وسار نحو جرجان وبها أحمد بن جيفونة من قواد ابن طولون فأهمل مسيره وقال له بعض الأعراب واسمه أبو الأعز: لا يهمك أمره فإنه طياش قلق وأنا آتيك به! فقال: إفعل وزاده عشرين رجلا، وسار إلى عسكر موسى بن أتامش، فأكمن بعض أصحابه ودخل العسكر بالباقي على زي الأعراب وقصد الخيل المرتبطة عند خيام ابن موسى فأطلقها وصاحوا فيها فنفرت واهتاج العسكر وركبوا

واستطرد لهم أبو الأعز حتى جاوز الكمين وموسى في أوائلهم، فخرج الكمين وانهزم أصحاب موسى من ورائه، وعطف عليه أبو الأعز فأخذه أسيراً وجاء به إلى ابن جيفونة، وبعث به إلى ابن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر وذلك سنة ست وستين.

ومن أخبار الزنج أن سليمان احتفر نهراً يمر إلى سواد الكوفة ليتهيأ له الغارة على تلك النواحي وكان أحمد بن كيتونة..... فكبسهم وهم يعلمون، وقد جمروا عساكرهم لذلك فأوقع بهم وقتل منهم نحواً من أربعين قائداً وأحرق سفنهم ورجع سليمان مهزوماً إلى طهتا. ثم عدت عساكر الزنج على النعمانية واستباحوها وصار أهلها إلى جرجرايا وأجفل أهل السواد إلى بغداد، وزحف علي بن أبان بعسكر الزنج إلى تستر فحاصرها وأشرف على أخذها. وكان الموفق استعمل على كور الأهواز مسروراً البلخي فولى عليها تكين البخاري فسار إليها ووافاها أهل تستر في تلك الحال فأغزى علي بن أبان وهزمه وقتل من الزنج خلقاً ونزل تستر. وبعث ابن أبان جماعة من قواد الزنج ليقيموا بقنطرة فارس، وجاء عين بخبرهم إلى تكين فكبسهم وهزمهم وقتل منهم جماعة. وسار ابن أبان فانهزم أمامه، وكتب ابن أبان إلى تكين يسأله الموادعة فوادعه بعض الشيء واتهمه مسرور فسار وقبض عليه وحبسه عند عجلان بن أبان، وفر منه أصحابه وطائفة إلى الزنج وطائفة إلى محمد بن عبد اللّه الكرخي ثم أمّن الباقين فرجعوا إليه.

موت يعقوب الصفار وولاية عمرو أخيه

وفي سنة خمس وستين أخريات شوال منها مات يعقوب الصفار وقد كان افتتح الرجح وقتل ملكها وأسلم أهلها على يده، وكانت مملكة واسعة الحدود وافتتح زابلستان وهي غزنة، وكان المعتمد قد استماله وقلده أعمال فارس، ولما مات قام أخوه عمرو بن الليث وكتب إلى المعتمد بطاعته، فولاه الموفّق من قِبله ما كان له من الأعمال: خراسان وأصبهان والسند وسجستان والشرطة ببغداد وسُرَّ مَن رأى وقبله عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر، وخلع الموفق عمرو بن الليث وولى على أصبهان من قبله أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف محمد بن أبي الساج.

أخبار الزنج مع أغرتمش

قد كان تقدم لنا إيقاع سليمان بن جامع بأغرتمش وحربه بعد ذلك مع تكين وجعلان ومطر بن جامع وأحمد بن كيتونة واستيلاؤه على مدينة واسط، ثم ولّى أغرتمش مكان تكين البخاري ما يتولاه من أعمال الأهواز فدخل تستر في رمضان ومعه مطر بن جامع. وقتل جماعة من أصحاب أبان كانوا مأسورين بها. ثم سار إلى عسكر مكرم، ووافاه هناك علي بن أبان والزنج، فاقتتلوا ثم تحاجزوا لكثرة الزنج، ورجع علي إلى الأهواز وسار أغرتمش إلى الخليل بن أبان ليعبروا إليه من قنطرة أربل وجاءه أخوه علي وخاف أصحابه المخلفون بالأهواز، فارتحلوا إلى نهر السروة وتحارب علي وأغرتمش يوماً ثم رجع عليّ إلى الأهواز ولم يجد أصحابه، فبعث من يردهم إليه فلم يرجعوا. وجاء أغرتمش وقتل مطر بن جامع في عدة من القواد. وجاء المدد لابن أبان من صاحبه الخبيث فوادعه أغرتمش وتركه.

ثم بعث محمد بن عبيد اللّه إلى أبكلاي ابن الخبيث في أن يرفع عنه يد ابن أبان فزاد ذلك في غيظه، وبعث يطالبه محمد بالخراج ودافعه فسار إليه، وهرب محمد من رامهرمز إلى أقصى معاقله، ودخل علي والزنج رامهرمز وغنموا ما فيها. ثم صالحه محمد على مائتي ألف درهم، وترك أعماله. ثم استنجده محمد بن عبيد اللّه على الأكراد على أن لعلي غنائمهم، فاستخلف علي على ذلك مُجلز وطلب منه الرهن فمطل وبعث إليه الجيش فزحف بهم إلى الأكراد. فلما نشب القتال انهزم أصحاب محمد فانهزم الزنج وأثخن الأكراد فيهم، وبعث علي من يعترضهم فاستلبوهم وكتب علي إلى محمد يتهدده فاعتذر وردّ عليهم كثيراً من أسلابهم، وخشي من الخبيث وبعث إلى أصحابه مالاً ليسألوه في الرضا عنه، فأجابهم إلى ذلك على أن يقيم دعوته في أعماله ففعل كذلك. ثم سار ابن أبان لحصار موتة واستكثر من آلات الحصار، وعلم بذلك مسرور البلخي وهو بكور الأهواز، فسار إليه ووافاه عليها، فانهزم ابن أبان وترك ما كان حمله هناك، وقتل من الزنج خلق وجاء الخبر بمسير الموفق إليهم.

استرجاع ابن الموفق ما غلب عليه الزنج من أعمال دجلة

لما دخل الزنج واسط وعاثوا فيها كما ذكرناه بعث الموفق ابنه أبا العباس، وهو الذي ولي الخلافة بعد المعتمد ولقب المعتضد، فبعثه أبوه بين يديه في ربيع سنة ست وستين في عشرة آلاف من الخيل والرجال. وركب لتشييعه وبعث معه السفن في النهر عليها أبو حمزة نصر، فسار حتى وافى الخيل والرَّجْل والسفن النهرية، وعلى مقدمته الجناني وأنهم نزلوا الجزيرة قريباً من بردروبا،

وجاءهم سليمان بن موسى الشعراني مدداً بمثل ذلك وأن الزنج اختلفوا في الاحتشاد، ونزلوا من السفح إلى أسفل واسط ينتهزون الفرصة في ابن الموفق لما يظنون من قلة درايته بالحرب، فركب أبو العباس لاستعلام أمرهم ووافى نصيراً، فلقيهم جماعة من الزنج فاستطرد لهم أولاً، ثم كر في وجوههم وصاح بنصير فرجع، وركب أبو العباس السفن النهرية فهزم الزنج وأثخن فيهم واتبعهم ستة فراسخ، وغنم من سعيهم وكان ذلك أول الفتح.

ورجع سليمان بن جامع إلى نهر الأمين وسليمان بن موسى الشعراني إلى سوق الخميس، وأبو العباس على فرسخ من واسط يغاديهم القتال ويراوحهم. ثم احتشد سليمان وجاء من ثلاثة وجوه، وركب في السفن النهرية وبرز إليه نصير في سفنه، وركب معه أبو العباس في خاصته، وأمر الجند بمحاذاته من الشط، ونشب الحرب فوقعت الهزيمة على الزنج وغنمت سفنهم، وأفلت سليمان والجناني من الهلكة وبلغوا طهتا، ورجع أبو العباس إلى معسكره وأمر بإصلاح السفن المغنومة، وحفر الزنج في طريق الجبل الآبار وغطوها، فوقع بعض الفرسان فيها، فعدل جند السلطان عن ذلك الطريق. وأمر الخبيث أصحابه بالسفن في النهر وأغاروا على سفن أبي العباس وغنموا بعضها، وركب في أتباعهم واستنقذ سفنهم وغنم من سفنهم نحواً من ثلاثين، وجدّ في قتالهم وتحصن ابن جامع بطهتا، وسمى مدينته المنصورة. والشعراني بسوق الخميس وسمى مدينته المنيعة.

وكان أبو العباس يغير على الميرة التي تأتيهم من سائر النواحي، وركب في بعض الأيام إلى مدينة الشعراني التي سماها المنيعة، وركب نصير في النهر، وافترقوا في مسيرهم واعترضت أبا العباس جماعة من الزنج فمنعوه من طريق المدينة وقاتلوه مقدار نهاره، وأشاعوا قتل نصير، وخالفهم نصير إلى المدينة فأثخن فيها وأضرموا النار في بيوتها. وجاء الخبر بذلك إلى أبي العباس بسبرة. ثم جاء نصير ومعه أسرى كثيرون فقاتلوا الزنج وهزموهم، ورجع أبو العباس إلى عسكره وبعث الخبيث إلى ابن أبان وابن جامع فأمرهما بالاجتماع على حرب أبي العباس.

وصول الموفق لحرب الزنج وفتح المنيعة والمنصورة

كان الموفق لما بعث ابنه أبا العباس لحرب الزنج تأخر لإمداده بالحشود والعدد وإزاحة علله ومسارقة أحواله، فلما بلغه اجتماع ابن أبان وابن جامع لحربه سار من بغداد إليه فوصل إلى واسط في ربيع الأول من سنة سبع وستين، ولقيه ابنه وأخبره بالأحوال، ورجع إلى عسكره. ونزل الموفق على نهر شداد ونزل ابنه شرقي دجلة على موهة بن مساور فأقام يومين ثم رحل إلى المنيعة بسوق الخميس، سار إليها في النهر ونادى بالمقامة، ولقيه الزنج فحاربوه، ثم جاء الموفق فانهزموا واتبعهم أصحاب أبي العباس فاقتحموا عليهم المنيعة وقتلوا خلقاً وأسروا آخرين، وهرب الشعراني، واختفى في الآجام آخرون. ورجع الموفق إلى عسكره وقد استنقذ من المسلمات نحو خمس عشرة امرأة، ثم غدا على المنيعة فأمر بنهبها وهدم سورها وطم خندقها وإحراق ما بقي من السفن فيها، وبعث الأقوات التي أخذت، فكانت لا حد لها، فصرفت في الجند.

وكتب الخبيث إلى ابن جامع يحذره مثل ما نزل بالشعراني، وجاءت العيون إلى الموفق أن ابن جامع بالحوانيت، فسار إلى الضبية وأمر ابنه بالسير في النهر إلى الحوانيت، فلم يلق ابن جامع بها، ووجد قائدين من الزنج استخلفهم عليها بحفظ الغلات، ولحق بمدينته المنصورة بطهتا، فقاتل ذلك الجند ورجع إلى أبيه بالخبر فأمره بالمسير إليه، وسار على أثره براً وبحراً حتى نزلوا على ميلين من طهتا. وركب لبيوني مقاعد القتال على المنصورة فلقيه الزنج وقاتلوه وأسروا جماعة من غلمانه.

ورمى أبو العباس بن الموفق أحمد بن مهدي الجناني فمات وأوهن موته، ثم ركب يوم السبت آخر ربيع من سنة سبع وعبى عسكره وبعث السفن في البحر الذي يصل إلى المنصورة، ثم صلى وابتهل بالدعاء، وقدم ابنه أبا العباس إلى السور، واعترضه الجند فقاتلهم عليه واقتحموا وولوا منهزمين إلى الخنادق وراءه، فقاتلوه عندها واقتحمها عليهم كلها، ودخلت السفن المدينة من النهر فقتلوا وأسروا، وأجلوهم عن المدينة وما اتصل بها، وهو مقدار فرسخ وملكه الموفق وأفلت ابن جامع في نفر من أصحابه، وبلغ الطلاب في أثره إلى دجلة، وكثر القتل في الزنج والأسر واستنقذ العباس من نساء الكوفة وواسط وصبيانهم أكثر من عشرة آلاف وأعطى ما وجد في المنصورة من الذخائر والأموال للأجناد، وأسر من نساء سليمان وأولاده عدة. ولما جاء جماعة من الزنج إلى الآجام اختفوا، فأمر بطلبهم وهدم سور المدينة وطم خنادقها وأقام سبعة عشر يوماً في ذلك ثم رجع إلى واسط.

حصار مدينة الخبيث المختارة وفتحها

ثم إن الموفق عرض عساكره وأزاح عللهم، وسار معه ابنه

أبو العباس إلى مدينة الخبيث فأشرف عليها ورأى من حصانتها بالأسوار والخنادق ووعر الطرق، وما أعد من الآلات للحصار ومن كثرة المقاتلة ما استعظمه، ولما عاين الزنج عساكر الموفق دهشوا. وقدم ابنه العباس في السفن حتى ألصقها بالأسوار فرموه بالحجارة في المجانيق والمقاليع والأيدي، ورأوا من صبره وأصحابه ما لم يحتسبوه. ثم رجعوا وتبعهم مستأمنة من المقاتلة والملاحين نزعوا إلى الموفق، فقبلهم وأحسن إليهم، فتتابع المستأمنون في النهر فوكل الخبيث بفوهة النهر من منعهم، وتعبى أهل السفن للحرب مع بهبود قائد الخبيث، فزحف إليه أبو العباس في السفن وهزمه، وقتل الكثير من أصحابه ورجع فاستأمن إليه بعض تلك السفن النهرية وكثير من المقاتلة فأمنهم وأقام شهراً لم يقاتلهم.

ثم عبى عساكره منتصف شعبان في البر والبحر وكانوا نحواً من خمسين ألفاً، وكان الزنج في نحو ثلاثمائة ألف مقاتل، فأشرف عليهم ونادى بالأمان إلا للخبيث، ورمى بالرقاع في السهام بالأمان، فجاء كثير منهم ولم يكن حرب. ثم رحل من مكانه ونزل قريباً من المختارة، ورتب المنازل من إنشاء السفن، وشرع في اختطاط مدينة لنزله سماها الموفقية. فأكمل بناءها وشيد جامعها وكتب بحمل الأموال والميرة إليها وأغب الحرب شهراً فتتابعت الميرة إلى المدينة، ورحل إليها التجار بصنوف البضائع، واستبحر فيها العمران ونفقت الأسواق وجلبت صنوف الأشياء.

ثم أمر الموفق ابنه أبا العباس بقتال من كان من الزنج خارج المختارة فقاتلهم وأثخن فيهم، فاستأمن إليه كثير منهم فأمنهم ووصلهم، وأقام الموفق أياماً يحاصر المحاربين ويصل المستأمنين، واعترض الزنج بعض الوفاد الجائية بالميرة، فأمر بترتيب السفن على مخارج الأنهار، ووكل ابنه أبا العباس بحفظها، وجاءت طائفة من الزنج بعض الأيام إلى عسكر نصير يريدون الإيقاع به، فأوقع بهم وظفر ببعض القواد منهم، فقتل رشقاً بالسهام، وتتابع المستأمنة فبلغوا إلى آخر رمضان خمسين ألفاً.

ثم بعث الخبيث عسكراً من الزنج مع علي بن أبان ليأتوا من وراء الموفق إذا ناشبهم الحرب، ونمى إليه الخبر فبعث ابنه أبا العباس فأوقع بهم وحملت الأسرى والرؤوس في السفن النهرية ليراها الخبيث وأصحابه، وظنوا أن ذلك تمويه فرميت الروس في المجانيق حتى عرفوها، فظهر منهم الجزع وتكررت الحرب في السفن بين أبي العباس وبين الزنج، وهو يظهر عليهم في جميعها حتى انقطعت الميرة عنهم، فاشتد الحصار عليهم وخرج كثير من وجوه أصحابه مستأمنين، مثل محمد بن الحارث القمي وأحمد البريوعي. وكان من أشجع رجاله القمي منهم موكلاً بحفظ السور فأمنهم الموفق ووصلهم، وبعث الخبيث قائدين من أصحابه في عشرة آلاف ليأتوا البطيحة من ثلاثة وجوه، فيعبروا من تلك النواحي ويقطعوا الميرة عن الموفق. وبلغ الموفق خبرهم فبعث إليهم عسكراً مع مولاه، ونزل فأوقع بهم وقتل وأسر، وأخذ منهم أربعمائة سفينة.

ولما تتابع خروج المستأمنة وكُل الخبيث من يحفظها، وجهدهم الحصار فبعث جماعة من قواده إلى الموفق يستأمنون وأن يناشبهم الحرب ليجدوا السبيل إليه، فأرسل ابنه أبا العباس إلى نهر الغربي وبه علي ابن أبان فاشتد الحرب وظهر أبو العباس على بن أبان، وأمدّه الخبيث بابن جامع ودامت الحرب عامة يومهم، وكان الظفر لأبي العباس، وسار إليه المستأمنة الذين واعدوه. وانصرف أبو العباس إلى مدينة الخبيث وقاتل بعض الزنج طمعاً فيهم لقتلهم فتكاثروا عليه، ثم جاءه المدد من قبل أبيه فظهر عليهم. وكان ابن جامع قد صعد في النهر وأتى أبا العباس من ورائه، وخفقت طبوله فانكشف أصحاب أبي العباس، ورجع منهزمة الزنج فاجبّت جماعة من غلمان الموفق وعدة من أعلامهم، وحامى أبو العباس عن أصحابه حتى خلصوا، وقوي الزنج بهذه الواقعة، فأجمع الموفق العبور إلى مدينتهم بعسكره.

فعبى الناس لذلك من الغداة آخر ذي الحجة واستكثر من المعابر والسفن وقصدوا حصن أوكان بالمدينة وفيها أنكلاي بن الخبيث وابن جامع وابن أبان وعليه المجانيق والآلات، فأمر غلمانه بالدنو منه فخافوا لاعتراض نهر الأتراك بينهم وبينه، فصاح بهم فقطعوا النهر سبحاً، وتناولوا الركن بالسلاح يهدمونه، ثم صعدوا عليه وملكوه ونصبوا به علم الموفق، وأحرقوا ما كان عليه من الآلات وقتلوا من الزنج خلقاً عظيماً، وكان أبو العباس يقاتلهم من الناحية الأخرى وابن أبان قبالته فهزمه، ووصل أصحاب أبي العباس إلى السور فثلموه ودخلوا، ولقيهم ابن جامع فقاتلهم حتى ردهم إلى مواقفهم.

ثم توافى الفَعَلة فثلموا السور في مواضع، ونصبوا على الخندق جسراً عبر عليه المقاتلة، فانهزم الزنج عن السور واتبعهم أصحاب الموفق يقتلونهم إلى دير ابن سمعان، فملكه أصحاب الموفق وأحرقوه، وقاتلهم الزنج هناك ثم انهزموا فبلغوا ميدان الخبيث، فركب من هنالك وانهزم عنه أصحابه، وأظلم الليل ورجع الموفق بالناس، وتأخر أبو العباس لحمل بعض المستأمنين في السفن، واتبعه بعض الزنج ونالوا من آخر السفن. وكان بهبود بازاء مسرور البلخي فنال من أصحابه واستأمن بعض المنهزمين من الزنج والأعراب بعثوا بذلك من عبادان والبصرة، وكان منهم

قائده ريحان أبو صالح المغري فأمنهم الموفق وأحسن إليهم وضم ريحان إلى أبي العباس.

وخرج في المحرم إلى الموفق من قواد الخبيث وثقاته جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجان فأحسن إليه الموفق وحمله في بعض السفن إلى قصر الخبيث، فوقف وكلم الزنوج في ذلك، وأقام الموفق أياماً استجم فيها أصحابه، فلما كان منتصف ربيع الثاني قصد مدينة الخبيث، وفرق القواد على جهاتها ومعهم النقابون للسور ومن ورائهم الرماة يحمونهم. وتقدم إليهم أن لا يدخلوا بعد الهزم إلا بإذنه، فوصلوا إلى السور وثلموه وحاربوا الزنج من ورائه وهزموهم، وبلغوا أبعد مما وصلوا إليه بالأمس. ثم تراجع الزنج وحاربوا من المكامن فرجع أصحاب الموفق نحو دجلة بعد أن نال منهم الزنج، ورجع الموفق إلى مدينته، ولام أصحابه على تقدمهم بغير إذنه.

ثم بلغ الموفق أن بعض الأعراب من بني تميم يجلبون الميرة إلى الزنج فبعث إليهم عسكراً أثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، وجيء بالأسرى فقتلهم، وأوعز إلى البصرة بقطع الميرة فانقطعت عن الزنج بالكلية، وجهدهم الحصار وكثر المستأمنة وافترق كثير من الزنج في القرى والأمصار البعيدة، وبث الموفق دعاته فيهم ومن أبى قتلوه وعرض المستأمنين وأحسن إليهم ليستميلهم، وتابع الموفق وابنه قتال الزنج، وقتل بهبود بن عبد الواحد من قواد الخبيث في تلك الحروب، فكان قتله من أعظم الفتوح، وكان قتله في السفن البحرية ينصب فيها أعلاماً كأعلام الموفق ويخايل أطراف العسكر فيصيب منهم. وأفلت في بعض الأيام من يد أبي العباس بعد أن كان حصل في قبضته، ثم خيل أخرى لبعض السفن طامعاً فيها فحاربوه وطعنه بعض الغلمان منها فسقط في الماء، وأخذه أصحابه فمات بين أيديهم. وخلع الموفق على الغلام الذي طعنه وعلى أهل السفينة. ولما هلك بهبود قبض الخبيث على بعض أصحابه وضربهم على ماله، فاستفسد قلوبهم، وهرب كثير منهم إلى الموفق، فوصلهم ونادى بالأمان لبقيتهم. ثم اعتزم على العبور إلى الزنج من الجانب الغربي وكانت طرقه ملتفة بالنخيل فأمر بقطعها، وأدار الخنادق على معسكره حذراً من البيات. ثم صعب على الموفق القتال من الجانب الغربي لكثرة أوعاره وصعوبة مسالكه وما يتوجه فيها على أصحابه من خيل الزنج لقلة خبرتهم بها، فصرف قصده إلى هدم أسوارهم وتوسعت الطرق فهدم طائفة من السور من ناحية نهر سلمى، وباشر الحرب بنفسه، واشتد القتال وكثرت القتلى في الجانبين وفشت الجراح، وكانت في النهر قنطرتان يعبر منهما الزنج عند القتال، يأتون أصحاب الموفق من ورائهم فأمر بهدمهما فهدمتا، ثم هدم طائفة من السور ودخلوا المدينة وانتهوا إلى دار ابن سمعان من خزائن الخبيث ودواوينه.

ثم تقدموا إلى الجامع فخربوه وجاؤوا بمنبره إلى الموفق بعد أن استمات الزنج دونه، فلم يَغْنوا به. ثم أكثروا من هدم السور وظهرت علامات الفتح، ثم أصاب الموفق في ذلك اليوم سهم في صدره وذلك لخمس بقين من جمادى سنة تسع وستين، فعاد إلى عسكره. ثم صابح الحرب تقوية لقلوب الناس. ثم لزم الفراش واضطرب العسكر وأشير عليه بالذهاب إلى بغداد فأبى فاحتجب عن الناس ثلاثة أشهر حتى اندمل جرحه. ثم ركب إلى الحرب فوجد الزنج قد سددوا ما تثلم من الأسوار، فأمر بهدمها كلها، واتصل القتال مما يلي نهر سلمى كما كان، والزنج يظنون أنهم لا يأتون إلا منها، فركب يوماً لقتالهم وبعث السفن أسفل نهر أبي الخصيب، فانتهوا إلى قصر من قصور الزنج فأحرقوه وانتهبوا ما فيه واستنقذوا كثيرا من الساكن فيه.

ورجع الموفق آخر يومه ظافراً. ثم بكر لحربهم فوصلت المقدمات دار أنكلاي بن الخبيث وهي متصلة بدار أبيه، وأشار ابن أبان بإجراء المياه على الساج وحفر الخنادق بين يدي العساكر، وأمر الموفق بطم الخنادق والأنهار، ورام إحراق قصره وقصده من دجلة فمنع من ذلك كثرة الحماة عنه، فأمر أن تسقف السفن بالأخشاب، وتطلى بالأدوية المانعة من الإحراق. ورتب فيها أنجاد أصحابه، وباتوا على أهبة الزحف من الغد. وجاء كاتب الخبيث وهو محمد بن سمعان عشاء ذلك اليوم مستأمناً، وبكروا إلى الحرب وأمر الموفق ابنه أبا العباس بإحراق منازل القواد المتصلة بقصر الخبيث ليشغلهم عن حمايته، وقصدت السفن المطلية قصر الخبيث فأحرقوا الرواشن والأبنية الخارجة وعلت النار فيه ورموا بالنار على السفن فلم تؤثر فيها.

ثم حصر الماء من النهر فزحفت السفن، فلما جاء الدعاة إلى القصر أحرقوا بيوتاً كانت تشرع على دجلة، واشتعلت النار فيها وقويت وهرب الخبيث وأصحابه وتركوها وما فيها. واستولى أصحاب الموفق على ذلك كله واستنقذوا جماعة من النساء، وأحرق قصر أنكلاي ابنه، وجرحا، وعاد الموفق عشاء يومه مظفراً. ثم بكر من الغد للقتال وأمر نصيراً قائد السفن بقصد القنطرة التي كان الخبيث عملها في نهر أبي الخصيب دون القنطرة التي كان اتخذها، وفرق العسكر في الجهات فدخل نصير في أول المد ولصق بالقنطرة، واتصل الشد من ورائه فلم يقدر على الرجوع حتى حسر الماء عنها، وفطن لها الزنج فقصدوها فألقى

الملاحون أنفسهم في الماء وألقى نصير نفسه وقاتل ابن جامع ذلك اليوم أشد قتال. ثم انهزم وسقط في الحريق فاحترق، ثم خلص بعد الجهد.

وانصرف الموفق سالماً وأصابه مرض المفاصل واتصل به إلى شعبان من سنته فأمسك في هذه المدة عن الحرب حتى أبلى فأعاد الخبيث القنطرة التي غرق عندها نصير وزاد فيها وأحكمها، وجعل أمامها سكراً من الحجارة ليضيق المدخل على السفن، فبعث الموفق طائفة من شرقي نهر أبي الخصيب، وطائفة من بحرية ومعهم الفعلة لقطع القنطرة، وجعل أمامها سفناً مملوءه من القصب لتصيبها النار بالنفط فيحترق الجسر، وفرق جنده على القتال وساروا لما أمرهم عاشر شوال، وتقدموا إلى الجسر ولقيهم أنكلاي بن الخبيث وابن أبان وابن جامع وحاموا عن القنطرة لعلمهم بما في قطعها من المضرة عليهم، ودامت الحرب عليها إلى العشي.

ثم غلبهم أصحاب الموفق عليها، ونقضها النجارون ونقضوا الأثقال التي دونها وأدخلوا السفن بالقصب، وأضرموها ناراً ووافت القنطرة فأحرقتها ووصل النجارون بذلك إلى ما أرادوا. وسهل سبيل السفن في النهر وقتل من الزنج خلق واستأمن آخرون، وانتقل الخبيث بعد حرق قصوره ومساكن أصحابه إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، ونقل أسواقه إليه وتبين ضعفه فانقطعت عنه الميرة وفقدت الأقوات وغلت حتى أكل بعضهم بعضاً، وأجمع الموفق أن يحرق الجانب الشرقي كما أحرق الغربي فقصد دار الهمذان وكان حصيناً وعليه الآلات فلما انتهى إليها تعذر الصعود لعلو السور فرموا بالكلاليب ونشبت في أعلام الخبيث وجذبوها فتساقطت، فانهزم المقاتلة وصعد النفاطون فأحرقوا ما كان عليها من الآلة، ونهبوا الأثاث والمتاع. واتصل الحريق بما حولها من الدور واستأمن للموفق جماعة من خاصة الخبيث فأمنهم ودلوه على سوق عظيمة متصلة بالجسر الأول تسمى المباركة، وبها التجار الذين بهم قوامهم، فقصدها لإحراقها وحاربه الزنج بعدها، وأضرم أصحابه النار فيها فاتصلت وبقي الحريق عامة اليوم.

ثم رجع الموفق ثم انتقل التجار بأمتعتهم وأموالهم إلى أعلى المدينة، ثم فعل الخبيث في الجانب الشرقي بعد هذه من حفر الخنادق وتغوير الطرق مثل ما كان فعل في الجانب الغربي، واحتفر خندقا عريضاً حصَّن به منازل أصحابه على النهر الغربي. ثم خرق الموفق باقي السور إلى النهر الغربي بعد حرب شديدة كانت عليه، وكان للخبيث جمع من الزنج وهم أشجع أصحابه، وقد تحصنوا بحصن منيع يخرجون على أصحاب الموفق عند الحرب فيعوقونهم فأجمع على تخريبه وجمع المقاتلة عليه براً وبحراً وفرقهم على سائر جهاته وجهات الخبيث، وأمد الخبيث الحصن بالمهلبي وابن جامع، فلم يغنوا عنه وانهزموا، وتركوا الحصن في يدي أصحاب الموفق وهزموه وقتلوا من الزنج خلقاً، وخلصوا من الحصن كثيراً من النساء والصبيان، ورجع الموفق إلى عسكره ظافراً.

استيلاء الموفق على الجهة الغربية

ولما هدم الموفق سور دار الخبيث أمر بتوسعة الطرق للحرب، وأحرق الجسر الأول الذي على نهر أبي الخصيب ليمنع من مدد بعضهم بعضاً، فكان في إحراقه حرب عظيمة. وأعدت لذلك سفينة ملئت قصباً وجعل فيها النفط، وأرسلت في قوة المدد فتبادر الزنوج إليها وغرقوها فركب الموفق إلى فوهة نهر أبي الخصيب وقصدهم من غربي النهر وشرقيه إلى أن انتهوا إلى الجسر من غربيه وعليه أنكلاي بن الخبيث وابن جامع فأحرقوه، وفعال مثل ذلك من الجانب الشرقي، فاحترق الجسر والحظيرة التي كانت لإنشاء السفن، وسجن كان هناك للخبيث. وانحاز هو وأصحابه من الجانب الغربي واستأمن كثير من قواده فأمنهم وأخرجوا أرسالاً وخرج قاضيه هارباً، ووكل بالجسر الثاني من يحفظه وأمر الموفق ابنه أبا العباس بأن يتجهز لإحراقه فزحف في إنجاد غلمانه ومعه الفعلة والآلات.

وكان في الجانب الغربي قبالة أبي العباس أنكلاي وابن جامع، وفي الجانب الغربي قبالة أسد مولى الموفق الخبيث نفسه والمهلبي، وجاءت السفن في النهر وقاتلوا حامية الجسر فانهزم ابن جامع وأنكلاي وأضرمت النار في الجسر، ولما وافياه وهو مضطرم ناراً ألقيا أنفسهما في النهر فخلصا بعد أن غرق من أصحابهما خلق، واحترق الجسر واتصل الحريق بدورهم وقصورهم وأسواقهم، وافترق الجيش في الجانبين ونهبت دار الخبيث واستنقذ من كان في حبسه من النسوة والرجال. وأخرج ما كان في نهر أبي الخصيب من أصناف السفن إلى دجلة ونهبها أصحاب الموفق واستأمن أنكلاي بن الخبيث وعلم أبوه فثناه عن ذلك. واستأمن ابن سليمان بن موسى الشعراني من رؤساء قواده فأجيب بعد توقف. ولما خرج تبعه أصحاب الخبيث فقاتلهم، ووصل إلى الموفق فأحسن إليه واقتفى أثره في ذلك شبل بن سالم من قواده، وعظم على الخبيث وأوليائه استئمان هؤلاء، وصار شبل بن سالم يخرج في السرايا إلى عسكر الخبيث ويكثر النكاية فيهم.

استيلاء الموفق على الجهة الشرقية

وفي خلال هذه الحروب واتصالها مرن أصحاب الموفق على تخلل تلك المسالك والشعاب مع تضايقها ووعرها، وأجمع الموفق على قصد الجانب الشرقي في نهر أبي الخصيب، وندب لذلك قواد المستأمنة لخبرتهم بذلك دون غيرهم، ووعدهم بالإحسان والزيادة فأبوا وسألوه الإقالة فأبى لتتميز مناصحتهم. وجمع سفن دجلة من كل جانب، وكان فيها عشرة آلاف ملاح من المرتزقة. وأمر ابنه أبا العباس بقصد مدينة الخبيث الشرقية من جهاتها، فسار إلى دار المهلبي وهو في مائة وخمسين قطعة من السفن قد شحنها بأنجاد غلمانه، وانتخب عشرة آلاف مقاتل وأمرهم بالمسير حفافي النهر يشاهد أحوالهم. وبكّر الموفق لثمان خلون من ذي القعدة زاحفاً للحرب، فاقتتلوا ملياً وصبروا. ثم انهزم الزنج وقتل منهم خلق، وأسر آخرون فقتلوا، وقصد الموفق بجمعه دار الخبيث، وقد جمع الخبيث أصحابه للمدافعة فلم يغنوا عنه وانهزموا وأسلموها فنهبها أصحاب الموفق، وسبوا حريمه وبنيه وكانوا عشرين. ونجا إلى دار المهلبي ونهبها واشتغل أصحابهم جميعاً بنقل الغنائم إلى السفن، فأطمع ذلك الزنج فيهم وتراجعوا وردوا الناس إلى مواقفهم. ثم صدق الموفق الحملة عشي النهار فهزم الزنج إلى دار الخبيث ورجع الناس إلى عسكره، ووصله كتاب لؤلؤ غلام ابن طولون يستأذنه في القدوم عليه فأخر القتال إلى حضوره.

مقتل صاحب الزنج

ولما وصل غلام ابن طولون في ثالث المحرم من سنة سبعين وجاء في جيش عظيم، فأحسن إليهم الموفق وأجرى لهم الأرزاق على مراتبهم، وأمره بالتأهب لقتال الخبيث. وقد كان لما غلب على نهر أبي الخصيب وقطعت القناطر والجسور التي عليه، أحدث فيه سكراً وضيق جرية الماء ليمنع السفن من دخوله إذا حضر، ويتعذر خروجها أمامه. وبقي جريه لا يتهيأ إلا بإزالة ذلك السكر، فحاول ذلك مدة والزنج يدافعون عنه، ودفع الموفق لذلك لؤلؤاً في أصحابه ليتمرنوا على حرب الزنج في تلك المسالك والطرق فأحسنوا البلاء فيها ووصلهم، وألح على العسكر، وهو كل يوم يقتل مقاتلتهم ويحرق مساكنهم ويقتل المستأمنة منهم. وقد كان بقي بالجهة الغربية بقية من أبنية ومزارع وبها جماعة يحفظونها، فسار إليهم أبو العباس وأوقع بهم، ولم يسلم منهم إلا الشريد.

ثم غلبهم على السكر وأحرقه واعتزم على لقاء الخبيث وقدم ابنه أبا العباس إلى دار المهلب وأضاف المستأمنة إلى شبل بن سالم وأمرهم أن ينتظروا بالقتال نفخ البوق، ونصب علمه الأسود على دار الكرماني. ثم صمد إليهم وزحف الناس في البر والنهر، ونفخت الأبواق وذلك لثلاث بقين من المحرم سنة سبعين. واشتد القتال وانهزم الزنج ومات منهم قتلاً وغرقاً ما لا يحصى، واستولى الموفق على المدينة واستنقذوا الأسرى وأسروا الخليل وابن أبان وأولادهما وعيال أخيهما، ومضى الخبيث ومعه ابنه أنكلاي وابن جامع وقواد من الزنج إلى موضع بنهر السفياني كانوا أعدوه ملجأ إذا غلب على المدينة، واتبعه الموفق في السفن ولؤلؤ في البر. ثم اقتحم النهر بفرسه واتبعه أصحابه فأوقعوا بالخبيث ومن معه حتى عبروا نهر السامان واعتصموا بجبل وراءه، ورجع لؤلؤ عنهم وشكره الموفق ورفع منزلته واستبشر الناس بالفتح.

وجمع الموفق أصحابه فوبخهم على انقطاعهم عنه فاستعذروا بأنهم ظنوا انصرافه. ثم تحالفوا على الإقدام والثبات حتى يظفروا وسألوه أن ترد المعابر التي يعبرون فيها ليستميت الناس في حرب عدوهم، فوعدهم بذلك وأصبح ثالث صفر فعبى المراكب وبعثهم إلى المراكز ورد المعابر التي عبروا فيها وتقدم العسكر فأوقعوا بالخبيث وأصحابه ففضوا جماعة وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، وافترقوا كل ناحية. وثبت مع الخبيث لمة من أصحابه فيهم المهلبي وذهب ابنه أنكلاي وابن جامع وأتبع كلاً منهم طائفة من العسكر بأمر أبي العباس بن الموفق. ثم أسر إبراهيم بن جعفر الهمذاني فاستوثقوا منه.

ثم كر الخبيث والمنهزمون معه على من اتبعهم من أهل العسكر فأزالوهم عن مواقفهم. ثم رجعوا ومضى الموفق في اتباع الخبيث إلى آخر نهر أبي الخصيب فلقيه غلام من أصحاب لؤلؤ برأس الخبيث وسار أنكلاي نحو الديناري ومعه المهلبي وبعث الموفق أصحابه في طلبهم فظفر بهم وبمن معهم، وكانوا زهاء خمسة آلاف، فاستوثق منهم ثم استأمن إليه ورمونة وكان عند البطيحة قد اعتصم بمغايض وآجام هنالك يخيف السابلة، ويغير على تلك النواحي وعلى الواردين إلى مدينة الموفق. فلما علم بموت الخبيث سقط في يده وبعث يستأمن فأمنه الموفق فحسنت توبته ورد الغصوبات إلى أهلها ظاهراً، وأمر الموفق بالنداء برجوع الزنج إلى موطنهم فرجعوا وأقام الموفق بمدينة الموفقية ليأمن الناس بمقامه، وولى على البصرة والأبلة وكور دجلة محمد بن حماد وقدم ابنه أبا العباس إلى بغداد فدخلها منتصف جمادي من سنة سبعين وكان خروج صاحب الزنج آخر رمضان سنة خمس وخمسين وقتله أول صفر سنة سبعين لأربع عشرة سنة وأربعة أشهر من دولته.

ولاية ابن كنداج على الموصل

لما سار أحمد بن موسى بن بغا إلى الجزيرة وولى موسى بن أتامش على ديار ربيعة فتغير لذلك إسحاق بن كنداج وفارق عسكره وأوقع بالأكراد اليعقوبية وانتهب أموالهم ثم لقي ابن مساور الخارجي فقتله، وسار إلى الموصل فقاطع أهلها على مال، وكان عليهم علي بن داود قائداً، فدفعه وسار ابن كنداج إليه، فخرج علي بن داود واجتمع حمدان بن حمدون التغلبي وإسحاق بن عمر بن أيوب بن الخطاب التغلبي العدوي، فكانوا خمسة عشر، وجاءهم علي بن داود فلقيهم إسحاق في ثلاثة آلاف فهزمهم بدسيسة من أهل مسيرتهم، وسار حمدان وعلي بن داود إلى نيسابور، وابن أيوب إلى نصيبين، وابن كنداج في اتباعه، فسار عنها واستجار بعيسى ابن الشيخ الشيباني وهو بآمد، وأبي العز موسى بن زرارة وهو عامل أردن، فأنجداه وبعث المعتمد إلى إسحاق بن كنداج بولاية الموصل فدخلها، وأرسل إليه ابن الشيخ وابن زرارة مائة ألف دينار على أن يقرهم على أعمالهم فأبى، فاجتمعوا على حربه، فرجع إلى إجابتهم. ثم حاربوه سنة سبع وستين. واجتمع لحربه إسحاق بن أيوب وعيسى ابن الشيخ وأبو العز بن حمدان بن حمدون في ربيعة وتغلب وبكر واليمن فهزمهم ابن كنداج إلى نصيبين، ثم إلى آمد وحمر عسكر لحصار ابن الشيخ بآمد وكانت بينهم حروب.

حروب الخوارج بالموصل

كان مساور الخارجي قد هلك في حروبه مع العساكر سنة ثلاث وستين بالبوارسح وأراد أصحابه ولاية محمد بن حرداد بشهرزور فامتنع، وبايعوا أيوب بن حيان المعروف بالغلام فقتل، فبايعوا هارون بن عبد الله البجلي وكثر أتباعه واستولى على بلد الموصل، وخرج عليه من أصحابه محمد بن حرداد، وكان كثير العبادة والزهد يجلس على الأرض ويلبس الصوف الغليظ ويركب البقر لئلا يفر من الحرب، فنزل واسط وجاء وجوه أهل الموصل، فسار إليهم وهارون غائب في الأحشاد، فبادر إليه واقتتلا، وانهزم هارون وقتل من أصحابه نحو مائتين، وقصد بني تغلب مستنجداً بهم فأنجدوه وسار معه حمدان بن حمدون ودخل معه الموصل، ودخل ابن حرداد، واستمال هارون أصحابه، ورجع إلى الحديثة، ولم يبق مع ابن حرداد إلا قليل من الأكراد فمالوا إلى هارون بالموصل، فخرج وأوقع بابن حرداد فقتله وأوقع بالأكراد الجلالية وكثر أتباعه، وغلب على القرى والرساتيق، وجعل على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المصعدة والمنحدرة، ووضع في الرساتيق من يقبض اعتبار الغلات، واستقام أمره. ثم جاء بنو ساسان لقتاله سنة ست وسبعين واستنجد بحمدان بن حمدون فجاءه بنفسه، وسار إلى نهر الخازن وانهزمت طليعتهم، وانهزموا بانهزامها، وجاء بنو شيبان إلى فسا فانجفل أهلها وأقام هارون وأصحابه بالحديثة.

أخبار رافع بن هرثمة من بعد الخجستاني

لما قتل أحمد الخجستاني سنة ثمان وستين كما قدمناه اجتمع أصحابه على رافع بن هرثمة من قواد محمد بن طاهر، وكان رافع هذا لما استولى يعقوب الصفار على نيسابور، وزال بنو طاهر، صار رافع في جملته، وصحبه إلى سجستان. ثم أقصاه عن خدمته وعاد إلى منزله بنواحي جي حتى استخدمه الخجستاني وجعله صاحب جيشه. فلما قتل الخجستاني اجتمع الجيش عليه بهراة وأمّروه وسار إلى نيسابور فحاصر بها أبا طلحة بن شركب وقد كان وصل إليها من جرجان، فضيق عليه المخنق ففارقها أبو طلحة إلى مرو، وولى على هراة ابن المهدي وخطب لمحمد بن طاهر بمرو وهراة وزحف إليه عمرو بن الليث فهزمه وغلبه على ما بيده. واستخلف على مرو محمد بن سهل بن هاشم، وخرج أبو طلحة إلى مكمد واستعان بإسماعيل بن أحمد الساماني، فأمده بعسكر وأخرج محمد بن سهل، وخطب بها لعمرو بن الليث سنة إحدى وسبعين.

ثم قلد الموفق تلك السنة أعمال خراسان لمحمد بن طاهر، وهو ببغداد، فاستخلف عليها رافع بن الليث وأقر على ما وراء النهر نصر بن أحمد. ووردت كتب الموفق بعزل عمرو بن الليث ولعنه، فسار رافع إلى هراة وقد كان بها محمد بن المهدي خليفة أبي طلحة، فثار عليه يوسف بن معبد. فلما جاء رافع استأمن إليه فأمنه واستعمل على هراة مهدي بن محسن. ثم سار رافع إلى أبي طلحة بمرو بعد أن استمد إسماعيل بن احمد وأمده بنفسه في أربعة آلاف فارس، واستقدم علي بن محسن المروروزي فقدم عليه في عسكره، وساروا جميعاً إلى أبي طلحة بمرو سنة اثنتين وسبعين، فهزموه وعاد إسماعيل إلى بخارى ولحق بأبي طلحة وبها مهدي، فاجتمع معه على مخالفة رافع فهزمهما رافع، ولحق أبو طلحة بعمرو بن الليث وقبض على مهدي سنة اثنتين وسبعين ثم خلى سبيله وسار رافع إلى خوارزم فجبى أموالها ورجع إلى نيسابور.

مغاضبة المعتمد للموفق ومسيرة ابن طولون وما نشأ من الفتنة لأجل ذلك

كان الموفق حدثت بينه وبين ابن طولون وحشة وأراد عزله، وبعث موسى بن بغا في العساكر إليه سنة اثنتين وستين فأقام بالرقة عشرة أشهر، واختلف عليه العسكر فرجع، وكان الموفق مستبداً على أخيه المعتمد منذ قيامه بأمر دولته مع ما كان من الكفاية والغناء، إلا أنه كان المعتمد يتأفف من الحجر، وكتب إلى أحمد بن طولون في السر يشكو ذلك وأشار عليه باللحاق إليه بمصر لينصره، وبعث عسكراً إلى الرقة في انتظاره، وكان الموفق مشغولاً بحرب الزنج، فسار المعتمد منتصف سنة تسع وستين في القواد مظهراً أنه يتصيد، ثم سار إلى أعمال الموصل وعليها يومئذ وعلى سائر الجزيرة أصحاب كنداج وكتب صاعد بن مخلد وزير الموفق عن الموفق إلى إسحاق بردة عن طريقه، والقبض على من معه من القواد.

فلما وصل المعتمد إلى عمله أظهر إسحاق طاعته، فارتحل في خدمته إلى أول عمل ابن طولون. ثم اجتمع بالمعتمد والقواد وفيهم نيزك وأحمد بن خاقان وغيرهم فعذلهم في المسير إلى ابن طولون والمقام تحت يده، وطال الكلام بينهم ملياً ثم دعاهم إلى خيمته للمناظرة في ذلك أدباً مع المعتمد، وقيدهم وجاء إلى المعتمد فعذله في المسير عن دار خلافته ومغاضبة أخيه، وهو في دفاع عدوه ومن يريد خراب ملكه، وحمل الجميع إلى سامرا. وقطع ابن طولون الدعاء للموفق على منابره وأسقط اسمه من الطرر وغضب الموفق بسبب ذلك على أحمد بن طولون، وحمل المعتمد على أن يشار بلعنه على المنابر.

وولى إسحاق بن كنداج على أعماله وفوض إليه من باب الشماسية إلى أفريقية، وكان لؤلؤ مولى ابن طولون عاملاً له على حمص وحلب وقنسرين وديار مصر من الجزيرة. وكان منزله بالرقة فانتقض عليه في هذه السنة، وسار إلى بالس فنهبها، وكتب إلى الموفق فمر بقرقيسيا وبها ابن صفوان العقيلي فحاربه وغلبه عليها وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق. ووصل إلى الموفق في عسكر عظيم وهو يقاتل صاحب الزنج فأكرمه الموفق وأحسن هو الغناء في تلك الحرب. ثم بعث ابن طولون في تلك السنة جيشه إلى مكة لإقامة الموسم، وعامل مكة هارون بن محمد ففارقها خوفاً منهم، وبعث الموفق جعفراً في عسكر فقوي بهم هارون ولقوا أصحاب ابن طولون فهزموهم وصادروا القائد على ألف دينار. وقرئ الكتاب في المسجد بلعن ابن طولون وانقلب أهل مصر إلى بلدهم آمنين. ولم يزل لؤلؤ في خدمة الموفق إلى أن قبض علية سنة ثلاث وسبعين وصادره على أربعمائة ألف وأدبر أمره ثَمّ، ثم عاد إلى مصر آخر أيام هارون بن خمارويه.

وفاة ابن طولون ومسير ابن كنداج إلى الشام

وفي سنة سبعين انتقض بازمان الخادم بطرسوس وقبض على نائبه، وسار إليه أحمد بن طولون في العساكر وحاصروه فامتنع عليه، فرجع إلى أنطاكية فمرض هنالك ومات لست وعشرين سنة من ولايته على مصر وولي بعده ابنه خمارويه، وانتقضت عليه دمشق فبعث إليها العساكر وعادت إلى طاعته. وكان يومئذ بالموصل والجزيرة إسحاق بن كنداج وعلى الأنبار والرحبة وطريق الفرات محمد بن أبي الساج، فكاتبا الموفق في المسير إلى الشام واستمداه، فأذن لهما ووعدهما بالمدد، فسارا وملكا ما يجاورهما من بلاده، واستولى إسحاق على أنطاكية وحلب وحمص، وكاتبه نائب دمشق واجتمع الخلاف على خمارويه فسار إليه فهرب إلى شيزر وهي في طاعة خمارويه، ودمشق. وجاء أبو العباس بن الموفق وهو المعتضد من بغداد بالعساكر فكبس شيزر وقتل من جنل ابن طولون مقتله عظيمة، ولحق فلُّهم بدمشق وأبو العباس في اتباعهم، فجلوا عنها، وملكها في شعبان سنة إحدى وسبعين. ورجعت عساكر خمارويه إلى الرملة فأقاموا بها. وزحف إسحاق بن كنداج إلى الرقة وعليها وعلى الثغور والعواصم ابن دعاص من قبل خمارويه فقاتله وكان الظهور لإسحاق. ثم زحف أبو العباس المعتضد من دمشق إلى الرملة، وسار خمارويه من مصر واجتمع بعساكره في الرملة على ماء الطواحين، وكان المعتضد قد استفسد لابن كنداج وابن أبي الساج ونسبهما إلى الجبن في انتظارهما إياه في محاربة خمارويه.

وعبى المعتضد عساكره ولقي خمارويه وقد أكمن له، فانهزم خمارويه أولاً وملك المعتضد خيامه، وشغل أصحابه بالنهب فخرج عليهم الكمين فانهزم المعتضد إلى دمشق، فلم يفتح له أهلها، فراح إلى طرسوس وأقام العسكران يقتتلان دون أمير، وأقام أصحاب خمارويه عليهم أخاه سعداً مكانه، وذهبوا إلى الشام فملكوه أجمع، وأذهبوا منه دعوة الموفق وابنه. وبلغ الخبر إلى خمارويه فسُرَّ وأطلق الأسرى الذين كانوا معه. ثم سار أهل طرسوس بأبي العباس فأخرجوه، وسار إلى بغداد وولوا عليهم مازيار، فاستبد بها ثم دعا لخمارويه بعد أن وصله بمال جليل يقال: أنفذ إليه ثلاثين ألف

دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف وسلاحاً كثيراً، فدعا له ثم بعث إليه بخمسين ألف دينار.

وفاة صاحب طبرستان وولاية أخيه

ثم توفي الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان في رجب سنة سبعين لعشرين سنة من ولايته وولي مكانه أخوه وكان على قزوين أتكوتكين فسار إلى الري في أربعة آلاف فارس، وسار إليه محمد بن زيد في عالم كثير من الديلم والخراسانية، والتقوا فانهزم محمد بن زيد وقتل من عسكره نحو من ستة آلاف وأسر ألفان، وغنم أتكوتكين عسكراً وملك الري وأغرم أهلها مائة ألف دينار، وفرق عماله عليها، وسار محمد بن زيد إلى جرجان، ثم عزل عمرو بن الليث عن خراسان وولي عليها محمد بن طاهر، واستخلف محمد بن رافع بن هرثمة، وسار سنة خمس وسبعين إلى جرجان وهرب عنها ليلاً إلى استرباد فحاصره رافع فيها سنتين حتى أجهده الحصار، ففر عنها ليلاً إلى سارية، فاتبعه فهرب عن طبرستان سنة سبع وسبعين، واستأمن رستم بن قارن إلى رافع بطبرستان فأمنه، وبعث إلى سالوس محمد بن هارون نائباً عنه وأتاه بابا علي بن كاني مستأمناً. ثم جاءه محمد وحاصرهما بسالوس، وانقطعت أخبارهما عن نافع. ثم جاءه الخبر بحصارهما فسار إليهما فارتحل محمد بن زيد إلى أرض الديلم، فدخل رافع خلفه وأثخن فيها نهباً وتخريباً إلى حدود قزوين، وعاد إلى الري إلى أن توفي المعتمد سنة تسع وتسعين.

فتنة ابن كنداج وابن أبي الساج وابن طولون

كان ابن أبي الساج في أعماله بقنسرين والفرات والرحبة ينافس إسحاق وهو على الجزيرة، ويريد التقدم عليه، فحدثت لذلك منهما فتنة. فخطب ابن أبي الساج لخمارويه بن طولون. وبعث ابنه ديوداد رهينة إليه، فبعث إليه خمارويه أموالاً جمة وسار إلى الشام، واجتمع بابن أبي الساج ببالس، ثم عبر ابن أبي الساج الفرات إلى الرقة، وهزم إسحاق بن كنداج، واستولى على أعماله. وعبر خمارويه ونزل الرقة ومضى إسحاق إلى قلعة ماردين وحاصره ابن أبي الساج بها، ثم أفرج عنها وسار إلى سنجار لقتال بعض الأعراب فسار ابن كنداج من ماردين إلى الموصل، فاعترضه ابن أبي الساج، وهزمه فعاد إلى ماردين، واستولى ابن أبي الساج على الجزيرة والموصل، وخطب لخمارويه ثم لنفسه بعده، وبعث غلامه فتحاً إلى أعمال الموصل لجباية الخراج.

وكان اليعقوبية من السراة قريباً منه، فهادنهم، ثم غدر بهم فكسبهم، وجاءهم أصحابهم من غير شعور بالواقعة، فحملوا على أصحاب فتح فاستلحموهم. ثم انتقض ابن أبي الساج واستبيح عسكره. وكان له بحمص مخلف من أثقاله، فقدم خمارويه طائفة من العسكر إليها، فاستولوا على ما فيها، ومنعوا ابن أبي الساج من دخولها، فسار إلى حلب، ثم إلى الرقة وخمارويه في اتباعه، فعبر الفرات إلى الموصل، وجاء خمارويه إلى بلد وأقام بها وسار ابن أبي الساج إلى الحديثة وكان إسحاق بن كنداج قد لحق بخمارويه من ماردين فبعث معه جيشاً وجماعة من القواد، وسار في طلب ابن أبي الساج، وقد عبر دجلة فجمع ابن كنداج السفن ليوطئ جسراً للعبور.

وبينما هو في ذلك أسرى ابن أبي الساج من تكريت إلى الموصل، فوصلها الرابعة وسار ابن كنداج في اتباعه، فاقتتلوا بظاهر الموصل واين أبي الساج في ألفين، فصبر واشتد القتال، وانهزم ابن كنداج وهو في عشرين ألفاً. فخلص إلى الرقة ومحمد بن أبي الساج في اتباعه. وكتب إلى الموفق يستأذنه في عبور الفرات إلى بلاد خمارويه بالشام، فأمره بالتوقف إلى وصول المدد من عنده، ومضى ابن كنداج إلى جمارويه فجاء بجيوشه إلى الفرات، وتوافق مع ابن أبي الساج والفرات بينهما. ثم عبرت طائفة من عسكر ابن كنداج فأوقعوا بطائفة من عسكر ابن أبي الساج فانهزموا إلى الرقة، فسار ابن أبي الساج عن الرقة إلى بغداد سنة ست وسبعين في ربيع منها، فأكرمه الموفق ووصله واستولى ابن كنداج على ديار ربيعة من أعمال الجزيرة، وأقام بها وولى الموفق بن أبي الساج على أذربيجان، فسار إليها فخرج إليه عبد اللّه بن الحسين الهمذاني عامل مراغة ليصده فهزمه ابن أبي الساج فحاصره وأخذ منه مراغة سنة ثمان وسبعين وقتله. واستقر ابن أبي الساج في عمله بأذربيجان.

أخبار عمرو بن الليث

كان عمرو بن الليث بعد مهلك أخيه يعقوب قد ولاه الموفق خراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد كما كان أخوه، وقد ذكرنا ذلك قبل. وكان عامله على فارس ابن الليث فانتقض عليه سنة ثمان وستين فسار عمرو لحربه فهزمه واستباح عسكره ونهب اصطخر ثم ظفرت جيوشه بمحمد

وأسره وحبسه بكرمان، فأقام بها ثم بعث إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف وهو بأصبهان يطلبه بالمال. فبعث إليه بالأموال، وبعث عمرو إلى الموفق بثلاثمائة ألف دينار، وبخمسين مَنّاً من المسك ومثلها من العنبر ومائتين من العود، وثلثمائة ثوب من الوشي ومن آنية الذهب والفضة والدواب والغلمان قيمة مائة ألف دينار. واستأذنه في غزو محمد بن عبيد الكردي رامهرمز فأذن له، فبعث قائداً من جيشه إليه فأسره وجاء به إلى عمرو.

ثم عزل المعتمد سنة إحدى وستين عمرو بن الليث عما كان قلده من الأعمال، وأدخل إليه الحاج من أهلها عند منصرفهم من مكة، فأعلمهم بعزله، وأنه قد ولى على خراسان محمد بن طاهر، وأمر بلعن عمرو على المنابر. وجهز مخلد بن صاعد إلى فارس لحرب عمرو، واستخلف محمد بن طاهر على خراسان رافع بن هرثمة، وكتب المعتمد إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف يأمره بقتاله، وبعث إليه الجيوش فاقتتلوا مع عمرو، وكان في خمسة عشر ألف مقاتل، فانهزم عمرو وخرج قائده الديلمي وقتل مائة من أعيانهم وأسر ثلاثة آلاف، فاستأمن منهم وغنموا من عسكره ما لا يحصى. ثم زحف الموفق سنة أربع وسبعين إلى فارس لحرب عمرو فأنفذ عمرو ابنه محمداً إلى أرَّجان في العساكر، وعلى مقدمته أبو طلحة بن شركب وعباس بن إسحاق إلى سيراف، واستأمن أبو طلحة إلى الموفق ففت ذلك في عضد عمرو، وعاد إلى كرمان واستراب الموفق بأبي طلحة فقبض عليه قريباً من شيراز، وجعل ماله لابنه أبي العباس المعتضد، وسار في طلب عمرو، فخرج من كرمان إلى سجستان ومات ابنه محمد بالمفازة، ورجع عنه الموفق وسار رافع بن الليث من خراسان وغلب محمد بن زيد على طبرستان كما قدمناه، وقدم عليه هنالك علي بن الليث هو وابناه المعدل والليث (بن حسن أخيه علي) بكرمان ثم قتله رافع سنة ثمان وستين.

مسير الموفق إلى أصبهان والجبل

كان كاتب أتوتكين أنهى إلى المعتضد أن له مالاً عظيماً ببلاد الجبل فتوجه لذلك فلم يجد شيئاً ثم سار إلى الكرخ ثم إلى أصبهان يريد أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف فتنحى أحمد عن البلد بعسكره، وترك داره بفرشها لنزل الموفق عند قدومه، ثم رجع الموفق إلى بغداد.

قبض الموفق على ابنه أبي العباس المعتضد ثم وفاته وقيام ابنه أبي العباس بالأمر بعده

كان الموفق بعد رجوعه من أصبهان نزل واسط، ثم عاد إلى بغداد وترك المعتمد بالمدائن، وأمر ابنه أبا العباس وهو المعتضد بالمسير إلى بعض الوجوه فأبى، فأمر بحبسه، ووكل به. وركب القواد من أصحابه واضطربت بغداد فركب الموفق إلى الميدان وسكن الناس، وقال: إني احتجت إلى تقويم ابني فقومته، فانصرف الناس وذلك سنة ست وسبعين. وكان عند منصرفه من الجبل قد اشتد به وجع النقرس ولم يقدر على الركوب، فكان يُحمل في المِحفَّة، ووصل إلى داره في صفر من سنة سبع، وطال مرضه وبعث كاتبه أبا الصقر بن بلبل إلى الميدان، فجاء بالمعتمد وأولاده وأنزله بداره، ولم يأت دار الموفق، فارتاب الأولياء لذلك، وعمد غلمان أبي العباس فكسروا الأقفال المغلقة عليه وأخرجوه وأقعدوه عند رأس أبيه وهو يجود بنفسه، فلما فتح عينه قربه وأدناه وجمع أبو الصقر عنده القواد والجند.

ثم تسامع الناس أن الموفق حي، فتسللوا عن أبي الصقر وأولهم محمد بن أبي الساج، فلم يسع أبا الصقر إلا الحضور بدار الموفق، فحضر هو وابنه وأشاع أعداء أبي الصقر أنه هرب بمال الموفق إلى المعتمد، فنهبوا داره، وأخرجت نساؤه حفاة عراة، ونهب ما يجاوره من الدور، وفتقت السجون، ثم خلع الموفق على ابنه أبي العباس وأبي الصقر، وركب إلى منزلهما وولى أبو العباس غلامه بدار الشرطة. ثم مات لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ودفن بالرصافة. واجتمع القواد فبايعوا ابنه أبا العباس المعتضد بالله، واجتمع عليه أصحاب أبيه، ثم قبض المعتضد على أبي الصقر ابن بلبل وأصحابه، وانتهبت منازلهم، وولى عبد الله بن سليمان بن وهب الوزارة وبعث محمد بن أبي الساج إلى واسط ليرد غلامه وصيفاً إلى بغداد فأبى وصيف وسار إلى السوس فأقام بها.

ابتداء أمر القرامطة

كان ابتداء أمرهم فيما زعموا أن رجلاً ظهر بسواد الكوفة سنة ثمان وسبعين ومائتين يتسم بالزهد، وكان يدعى قرمط يقال لركوبه على ثور كان صاحبه يدعى كَرْميطة فعرِّب وقيل: بل اسمه حمدان ولقبه قرمط. يقال: وزعم أنه داعية لأهل البيت للمنتظر منهم واتبعه العباس فقبض عليه الهيصم عامل الكوفة

وحبسه، ففر من حبسه وزعم أن الإغلاق لا يمنعه. ثم زعم أنه الذي بشّر به أحمد بن محمد بن الحنفية، وجاء بكتاب تناقله القرامطة فيه بعد البسملة: يقول الفرج بن عثمان من قرية نصرانه أنه داعية المسيح وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنيفة، وهو جبريل. وإن المسيح تصور له في جسم إنسان فقال له: إنك الداعية وإنك الحجة وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك يحيى بن زكريا وإنك روح القدس، وعرفه أن الصلاة أربع ركعات قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها، وأن الأذان بالتكبير في افتتاحه وشهادة التوحيد مرتين، ثم شهادة بالرسالة لآدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم عيسى ثم محمد صلوات اللّه عليهم، ثم لأحمد بن محمد بن الحنيفة ويقرأ الاستفتاح في كل ركعة وهو من المنزل على أحمد بن محمد الحنيفة، والقبلة بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين، ولا يعمل فيه شيء.

والسورة التي تقرأ فيها: الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المنجد لأوليائه بأوليائه، قل إن الأهلّة مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي، اتقوني يا أولى الألباب، وأنا الذي لا أُسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي وفي نعمتي، ومن زال عن أمري وكذب رسلي أخلدته مهاناً في عذابي وأتممت أجلي وأظهرت على ألسنة رسلي. فأنا الذي لم يعل جبار إلا وضعته وأذللته. فبئس الذي أصر على أمره، ودام على جهالته.

وقال: لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون. ثم يركع ويقول في ركوعه مرتين: سبحان ربي ورب العزة وتعالى عما يصف الظالمون، وفي سجوده: اللّه أعلى مرتين، اللّه أعظم مره، والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز. والنبيذ حرام والخمر حلال، والغسل من الجنابة كالوضوء. ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخالب، ومن خالفهم وحارب وجب قتله، وإن لم يحارب أخذت منه الجزية وانتهى. إلى غير ذلك من دعاوى شنيعة متعارضة يهدم بعضها بعضاً، وتشهد عليهم بالكذب، وهذا الفرج بن يحيى الذي ذكر هذا أول الكتاب أنه داعية القرامطة يلقب عندهم ذِكْروية بن مهروية. ويقال: إن ظهور هذا الرجل كان قبل مقتل صاحب الزنج، وإنه سار إليه على الأمان، وقال له: إن ورائي مائة سيف، فتعال نتناظر فلعلنا نتفق ونتعاون. ثم تناظرا فاختلفا وانصرف قرمط عنه، وكان يسمي نفسه القائم بالحق. وزعم بعض الناس أنه كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج.

فتنة طرسوس

قد تقدم لنا انتقاض بازمان بطرسوس على مولاه أحمد بن طولون، وأنه حاصره فامتنع عليه، وأنه راجع بعد طاعة ابنه خمارويه بما حمل إليه من الأموال والأمتعة والسلاح، فاستقام أمره بطرسوس مدة، وغزا سنة ثمان وسبعين بالصائفة مع أحمد الجعفي وحاصروا اسكندا فأصيب بحجر منجنيق، فرجع وهلك في طريقه ودفن بطرسوس. وكان استخلف ابن عجيف فأقره خمارويه وأمده بالخيل والسلاح والمال، ثم عزله واستعمل عليها ابن عمه ابن محمد بن موسى بن طولون. ولما توفي الموفق نزع خادم من خواصه اسمه راغب إلى الشك، وطلب المقام بالثغر للجهاد، فأذن له المعتضد، فسار إلى طرسوس وحط أثقاله بها وسار إلى لقاء خمارويه بدمشق فأكرمه واستجلب أنسه، فطال مقامه والهم أصحابه بطرسوس أنه قبض عليه، فأوصلوا أهل البلد في ذلك، فوثبوا بأميرهم محمد بن موسى حتى يطلق لهم راغب، وبلغ الخبر إلى خمارويه فأطلقه فجاء إليهم ووبخهم على فعلهم، فأطلقوا محمد بن موسى وسار عنهم إلى بيت المقدس فأعادوا ابن عجيف إلى ولايته.

فتنة أهل الموصل مع الخوارج

قد تقدم لنا هارون بن سليمان كان على الشراة من الخوارج، وكان بنو شيبان يقاتلونهم ويغيرون على الموصل. فلما كانت سنة تسع وسبعين جاء بنو شيبان لذلك وأغاروا على سُوى وغيرها من الأعمال، فاجتمع هارون الشاري في الخوارج وحمدان بن حمدون التغلبي على مدافعتهم. وكان مع بني شيبان هارون بن سيما مولى أحمد بن عيسى بن الشيخ الشيباني، بعثه محمد بن إسحاق بن كنداجق والياً على الموصل عندما مات أبوه إسحاق، ووليَ مكانه على أعماله بالموصل وديار ربيعة فلم يرضه أهل الموصل وطردوه، فسار إلى بني شيبان مستنجداً بهم، فلما التقى الجمعان انهزم بنو شيبان أولاً واشتغل أصحاب حمدان والخوارج بالنهب، فكرّ عليهم بنو شيبان وظفروا بهم. وكتب هارون بن سيما إلى محمد بن إسحاق بن كنداجق يستمده فسار بنفسه وخشيه أهل الموصل فسار بعضهم إلى بغداد يطلبون عاملاً يكفيهم أمر ابن كنداجق، ومروا في طريقهم بمحمد بن يحيى المجروح الموكل بحفظ الطريق فألفوه وقد وصل إليه بولاية العهد بالموصل، فبادر ملكها، وتواتق ابن كنداجق في مكانه، وبعث إلى خمارويه بالهدية، ويسأل إمارة الموصل كما كان من قبل، فلم يجبه إلى ذلك، ثم عزل

المجروح وولي بعده علي بن داود الكردي.

الصوائف أيام المعتمد

وصل الخبر في سنة سبع وخمسين بأن ملك الروم بالقسطنطينية ميخاييل بن روفيل وثب عليه قريبه مسك، ويعرف بالصقلي فقتله لأربع وعشرين سنة من ملكه، وملك مكانه. وفي سنة تسع وخمسين خرجت عساكر الروم فنازلوا سميساط ثم نازلوا مليطة وقاتلهم أهلها فانهزموا، وقتل بطريق من بطارقتهم. وفي سنة ثلاث وستين استولى الروم على قلعة الصقالبة، وكانت ثغراً لطرسوس وتسمى قلعة كركرة فردّ المعتمد ولاية ثغر طرسوس لابن طولون، وكان أحمد بن طولون قد خطب ولايتها من الموفق يريد أن يجعلها ركاباً لجهاده لخبرته بأحوالها. وكان يردد الغزو من طرسوس إلى بلاد الروم قبل ولاية مصر، فلم يجبه الموفق، وولى عليها الموفق محمد بن هارون التغلبي، واعترضه الشراة أصحاب مساور وهو مسافر في دجلة فقتلوه، فولى مكانه أماجور بن أولغ بن طرخان من الترك، فسار إليها وكان غراً جاهلاً، فأساء السيرة ومنع أقران أهل كركرة ميرتهم، وكتبوا إلى أهل طرسوس يشكون فجمعوا لهم خمسة عشر ألف دينار فأخذها أماجور لنفسه. وأبطأ على أهل القلعة شأنها. فنزلوا عنها وأعطوها الروم، وكثر أسف أهل طرسوس لذلك بما كانت ثغرهم وعيناً لهم على العدو، وبلغ ذلك المعتمد، فكتب لأحمد بن طولون بولايتها وفوض إليهم أمر الثغور، فوليها واستعمل فيها من يحفظ الثغر ويقيم الجهاد، وقارن ذلك وفاة أماجور عامل دمشق، وملك ابن طولون الشام جميعها كما ذكرناه قبل.

وفي سنة أربع وستين غزا بالصائفة عبد الله بن رشيد بن كاوس في أربعين ألفاً من أهل الثغور الشامية، فأثخن فيهم وغنم ورجع، فلما رحل عن البدبدون خرج عليه بطريق سلوقية، وقرة كوكب وحرسية، وأحاطوا بالمسلمين فاستمات المسلمون واستلحمهم الروم بالقتل، ونجا فلهم إلى الثغر، وأسر عبد الله بن كاوس وحمل إلى القسطنطينية وفي سنة خمس وستين خرج خمسة من بطارقة الروم إلى أذنه فقتلوا وأسروا والي الثغور أوخرد فعزل عنها وأقام مرابطاً، وبعث ملك الروم بعبد الله بن كاوس ومن معه من الأسرى إلى أحمد بن طولون، وأهدى إليه عدة مصاحف.

وفي سنة ست وستين لقي أسطول المسلمين أسطول الروم عند صقيلة فظفر الروم بهم، ولحق من سلم منهم بصقيلة، وفيها خرجت الروم على ديار ربيعة، واستنفر الناس فنفروا ولم يطيقوا دخول الدرب لشدة البرد فيها. وغزا عامل ابن طولون على الثغور الشامية في ثلاثمائة من أهل طرسوس واعترضهم أربعة آلاف من الروم من بلاد هرقل، فنال المسلمون منهم أعظم النيل. وفي سنة ثمان وستين خرج ملك الروم، وفيها غزا بالصائفة خلف الفرغاني عامل ابن طولون على الثغور الشامية فأثخن ورجع. وفي سنة سبعين زحف الروم في مائة ألف ونزلوا قلمية على ستة أميال من طرسوس، فخرج إليهم بازيار فهزمهم وقتل منهم سبعين ألفاً وجماعة من البطارقة، وقتل مقدّمهم بطريق البطارقة، وغنم منهم سبع صلبان ذهباً وفضة، وكان أعظمها مكللاً بالجواهر. وغنم خمسة عشر ألف دابة، ومن السروج والسيوف مثل ذلك، وأربع كراسٍ من ذهب، ومائتين من فضة وعشرين علماً من الديباج وآنية كثيرة.

وفي سنة ثلاث وسبعين غزا بالصائفة بازيار وتوغل في أرض الروم وغنم وأسر وسبى وعاد إلى طرسوس. وفي سنة ثمان وسبعين دخل أحمد الجعفي طرسوس وغزا مع بازيار بالصائفة ونازلوا إسكندا فأصيب بازيار عليها بحجر منجنيق فرجع ومات في طريقه ودفن بطرسوس.

الولايات بالنواحي أيام المعتز

كانت الفتنة قد ملأت نواحي الدولة من أطرافها وأوساطها واستولى بنو سامان على ما وراء النهر، والصفار على سجستان وكرمان وملك فارس من يد عمال الخليفة، وانتزع خراسان من بني طاهر وكلهم مع ذلك يقيمون دعوة الخليفة. وغلب الحسن بن زيد على طبرستان وجرجان منازعاً بالدعوة ومحارباً بالديلم لابن سامان والصفار وعساكر الخليفة بأصبهان، واستولى صاحب الزنج على البصرة والأبلة إلى واسط وكور دجلة منازعاً للدعوة ومشاققاً، وأضرم تلك النواحي فتنةً. ولم يزل الموفق في محاربته حتى حسم علته وقطع أثره واضطرمت بلاد الموصل والجزيرة فتنة بخوارج السراة وبالقرب من بني شيبان وتغلب بالأكراد واستولى ابن طولون على مصر والشام مقيماً لدعوة الخلافة العباسية، وابن الأغلب بأفريقية كذلك.

وأما المغرب الأقصى والأندلس فاقتطعا عن المملكة العباسية منذ أزمان كما قلنا، ولم يكن للمعتمد مدة خلافته كلها حكم ولا أمر ونهي، إنما كان مغلباً لأخيه الموفق وتحت استبداده، ولم يكن لهما جميعاً كبير ولاية في النواحي باستيلاء من استولى عليها ممن ذكرناه إلا بعض الأجناس، فلنذكر ما وصل إلينا من

هذه الولايات أيام المعتمد، فلأول ولايته استوزر عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان وبعث جعلان لحرب الزنج بالبصرة فكان أمره معهم كما مر. ثم ولى عيسى بن الشيخ من بني شيبان على دمشق فاستأثر بها ومنع الخراج، وجاءه حسين الخادم من بغداد يطلب المال فاعتذر بأنه أنفقه على الجند، فكتب له المعتمد عهده في أرمينية ليقيم بها دعوته وقلد أماجور دمشق وأعمالها فسار إليها، وأنفذ عيسى ابن الشيخ ابنه منصوراً لقتال أماجور في عشرين ألفاً، فانهزموا وقتل منصور وسار عيسى إلى أرمينية على طريق الساحل ودخل أماجور دمشق.

وفي سنة ست وخمسين سار موسى بن بغا لحرب مساور الخارجي فلقيه ساحة جائعين فنال الخوارج منهم، وفيها كان وثوب محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي على الحارث بن سيما عامل فارس، فقتله وغلب عليها كما مر. وفيها غلب الحسن بن زيد الطالبي على الري فسار إليها موسى بن بغا وغلب على عساكر الحسن، وظهر علي بن زيد بالكوفة وملكها، وبعث المعتمد لمحاربته كيجور التركي فخرج عنها إلى القادسية، ثم إلى ختان ثم إلى بلاد بني أسد. وغزاه كيجور من الكوفة فأوقع به وعاد إلى الكوفة، ثم إلى سُرَّ مَن رأى.

وفي سنة سبع وخمسين عقد المعتمد لأخيه الموفق على الكوفة والحرمين واليمن ثم على بغداد والسواد إلى البصرة والأهواز وأمره أن يعقد ليارجوج على البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين مكان سعيد الحاجب. وعقد يارجوج على ذلك لمنصور بن جعفر الخياط ونزل الأهواز ثم عقد المعتمد حرب الزنج بالبصرة لأحمد بن المولد، فسار إليها وقاتل الزنج. وكان بالبطائح سعيد بن أحمد الباهلي متغلباً عليها فأخذه ابن المولد وبعث به إلى سامرا وفيها تغلب يعقوب الصفار على فارس وبعض أعمال خراسان، وولاه المعتمد ما غلب عليها.

وفيها غلب الحسن بن زيد على خراسان، وانتقضت على بن طاهر أعمال خراسان، وفيها اقتطع المعتمد مصر وأعمالها ليارجوج التركي فولى عليها أحمد بن طولون، ومات يارجوج لسنة بعدها فاستبد ابن طولون بها، وكان عبد العزيز بن أبي دلف على الري، فخرج عليها خوفاً من جيوش ابن زيد صاحب طبرستان، فبعث الحسن من قرابته القاسم بن علي بن القاسم، فأساء فيها السيرة.

وفي سنة ثمان وخمسين قتل منصور بن جعفر الخياط في حرب الزنج، وولي يارجوج على أعمال منصور، فولى عليها أصطيخور، وهلك في حرب الزنج، وعقد المعتمد للموفق على ديار مصر وقنسرين والعواصم. وبعثه لحرب الزنج ومعه مفلح فهلك في تلك الحرب. وعقد المعتمد على الموصل والجزيرة لمسرور البلخي فكانت بينه وبين مساور الشيباني حروب وكذلك بين الأكراد واليعقوبية، وأوقع بهم كما مر. وفيها رجع أحمد بن واصل إلى طاعة السلطان وسلم فارس للحسن بن الفياض. وفي سنة تسع وخمسين كان مهلك أصطيخور بالأهواز، فأمر المعتمد موسى بن بغا بالمسير لحرب الزنج كما مر. وفيها ملك يعقوب الصفار خراسان وقبض على محمد بن طاهر، وكان لمنكجور على الكوفة، فسار عنها إلى سامرا بغير إذن، وأُمر بالرجوع فأبى، وبعث المعتمد عدة من القواد فلقوه بعكبرا فقتلوه وحملوا رأسه.

وفيها غلب الحسن بن زيد على قومس وملكها، وكانت وقعة بين محمد بن الفضل بن نيسان وبين دهشودان بن حسان الديلمي فهزمه محمد، وفيها غلب شركب الحمال على مرو ونواحيها.

وفي سنة ستين قام يعقوب بن الصفار على الحسن بن زيد فهزمه وملك طبرستان كما مر. وأخرج أهل الموصل عاملهم أتكوتكين بن أساتكين، فبعث عليهم أساتكين إسحاق بن أيوب في عشرين ألفاً ومعه حمدان بن حمدون التغلبي فامتنع أهل الموصل منهم وولوا عليهم يحيى بن سليمان، فاستولى عليها. وفيها قتلت الأعراب منكجور والي حمص فولي بكتر، وولى على أذربيجان الرذيني عمر بن علي لما بلغه أن عاملها العلاء بن أحمد الأزدي فلج، فلما أتى الرذيني حاربه العلاء فانهزم وقتل، واستولى الرذيني على مخلفه قريباً من ألفي ألف وسبعمائة ألف درهم.

وفيها سار علي بن زيد القائد بالكوفة إلى صاحب الزنج فقتله.

وفي سنة إحدى وستين عقد المعتمد لموسى بن بغا على الأهواز والبصرة والبحرين واليمامة، مضافاً لما بيده. فولاها عبد الرحمن بن مفلح وبعثه لحرب ابن واصل، فهزمه ابن واصل وأسره كما مر، ورأى موسى بن بغا اضطراب تلك الناحية، فاستعفى منها ووليها أبو الساج، وملك الزنج الأهواز من يده، فصُرف عن ولايتها ووليها إبراهيم بن سيما وولي محمد بن أوس البلخي طريق خراسان. ثم جاء الصفار إلى فارس، فغلب عليها ابن واصل كما مر، فجهز المعتمد أخاه الموفق إلى البصرة بعد أن ولاه المعتمد عهده بعد ابنه جعفر كما ذكرناه. وبعث الموفق ابنه أبا العباس لحرب الزنج فتقدما بين يديه، وفيها فارق محمد بن زيد ولاية يعقوب الصفار، وسار ابن أبي الساج إلى الأهواز وطلب أن يوجه الحسين بن طاهر بن عبد اللّه بن طاهر إلى خراسان، وفيها

استبد نصر بن أحمد بن سامان بسمرقند وما وراء النهر، وولى أخاه إسماعيل بخارى وفيها ولى المعتمد على الموصل الخضر بن أحمد بن عمر بن الخطاب.

وفيها رجع الحسين بن زيد إلى طبرستان وأخرج منها أصحاب الصفار، وأحرق سالوس لممالأة أهلها الصفار وأقطع ضياعهم للديلم، وفيها نادى المعتمد في حاج خراسان والري وطبرستان وجرجان بالنكير على ما فعله الصفار في خراسان وابن طاهر، وإنه لم يكن عن أمره ولا ولاه. وفيها قتل مساور الشاربي يحيى بن جعفر من ولاة خراسان، فسار مسرور البلخي في طلبه والموفق من ورائه.

وفي سنة اثنتين وستين كانت الحرب بين الموفق والصفار،واستولى الزنج على البطيحة ودسميسان وولى على الأهواز كما ذكرنا، وبعث مسرور البلخي أحمد بن ليتونة لحربهم كما مر. وفيها ثار أحمد بن عبد اللّه الخجستاني في خراسان بدعوة بني طاهر، وغلب عليها الصفار إلى أن قتل كما مر ذكره. وفيها وقعت مغاضبة بين الموفق وابن طولون فبعث إليه الموفق موسى بن بغا فأقام بالرقّة حولاً، وعجز عن المسير لقلة الأموال فرجع إلى العراق. وفيها انصرف عامل الموصل وهو القطان صاحب مفلح فقتله الأعراب بالبرية.

وفي سنة ثلاث وستين استولى الصفار على الأهواز، ومات مساور الشاربي وهو قاصد لقاء العساكر السلطانية بالبواريخ. فولى الخوارج مكانه هارون بن عبد اللّه البلخي، فاستولى على الموصل. وفيها ظفر أصحاب الصفار بابن واصل. وفيها هزم ابن أوس من طريق خراسان وعاد إلى الموصل. وفيها ظفر أصحاب الصفار بابن واصل وأسروه، ومات عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد فاستوزر مكانه الحسن بن مخلد، وكان موسى بن بغا غائباً في غزو العرب، فلما قدم خافه الحسين وتغيب، فاستوزر مكانه سليمان بن وهب وفيها غلب أخو شركب الجمال على نيسابور وخرج عنها الحسين بن طاهر إلى مرو وبها خوارزم شاه يدعو لأخيه محمد.

وفيها ملك الزنج مدينة واسط وقاتله دونها محمد بن المولد فهزمه ودخلها واستباحها. وفيها قبض المعتمد على وزيره سليمان بن وهب وولى مكانه الحسن بن مخلد، وجاء الموفق مع عبد اللّه بن سليمان شفيعاً فلم يشفعه، فتحول إلى الجانب الغربي مغاضباً واختلفت الرسل بينه وبين المعتمد، وكان مع الموفق مسرور كيغلغ وأحمد بن موسى بن بغا. ثم أطلق سليمان ودعا إلى الجوسق وهرب محمد بن صالح بن شيرزاده والقواد الذين كانوا بسامرا مع المعتمد خوفاً من الموفق، فوصلوا إلى الموصل وكتب الموفق لأحمد بن أبي الأصبغ في قبض أموالهم. وفيها مات أماجور عامل دمشق وملك ابن طولون الشام وطرسوس وقتل عاملها سيما.

وفي سنة خمس وستين ولي مسرور البلخي على الأهواز وهزم الزنج. وفيها مات يعقوب الصفار وقام بأمره أخوه عمر، ولاه الموفق مكان أخيه بخراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد. وفيها وثب القاسم بن مهان بدلف بن عبد العزيز بن أبي دلف بأصبهان فقتله، فوثب جماعة من أصحاب دلف بالقاسم فقتلوه. فولي أصبهان أحمد بن عبد العزيز أخو دلف، وفيها لحق محمد بن المولد بيعقوب الصفار وقبضت أمواله وعقاره ببغداد. وفيها حبس الموفق سليمان بن وهب وابنه عبد اللّه وصادرهما على تسعمائة ألف دينار، وفيها ذهب موسى بن أتامش وإسحاق بن كنداجق والفضل بن موسى بن بغا مغاضبين، وبعث الموفق في أثرهم صاعد بن مخلد فردهم من صرصر.

وفيها استوزر الموفق أبا الصقر إسماعيل بن بلبل. وفي سنة ست وستين ملك الزنج رامهرمز وغلب أساتكين على الري وأخرج عنها عاملها فطلقت. ثم مضى إلى قزوين وبها أخوه كيغلغ فصالحه ملكها. وفيها ولي علي بن الليث على الشرطة ببغداد عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر، وعلى اصبهان أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وعلى الحرمين وطريق مكة محمد بن أبي الساج، وولى الموفق على الجزيرة أحمد بن موسى بن بغا فولى من قبله على ديار ربيعة موسى بن أتامش، فغضب لذلك إسحاق بن كنداجق وفارق عسكر موسى، وسار إلى بلد وأوقع بالأكراد اليعقوبية، ثم لقي ابن مساور الخارجي فقاتله وسار إلى الموصل، وطلب من أهلها المال، وخرج على بن داود لقتاله مع إسحاق بن أيوب وحمدان بن حمدون، وكانت بينهم حروب آخرها المعتمد وعقد لإسحاق بن كنداجق على الموصل، وقد مر ذلك من قبل.

وفيها قتل أهل حمص عاملها عيسى الكرخي. وفيها كانت بين لؤلؤ غلام ابن طولون وبين موسى بن أتامش وقعة برأس عين، وأسره لؤلؤ وبعث به إلى الرقة، ثم لقيه أحمد بن موسى فاقتتلوا، وغلب أحمد أولاً ثم كر لؤلؤ فغلبهم وانتهوا إلى قرقيسيا. ثم ساروا إلى بغداد وسامرا. وفيها أوقع أحمد بن عبد العزيز ببكتمر فانهزم ولحق ببغداد وأوقع الخجستاني بالحسن بن زيد بجرجان فلحق بآمد، وملك الخجستاني جرجان وأقطعه من طبرستان واستخلف على سارية الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد اللّه العقيقي بن حسين الأصفر بن زيد العابدين، فلما انهزم الحسن بن زيد أظهر الحسن بن محمد أنه قتل، ودعا لنفسه وحاربه الحسن بن

زيد فظفر به وقتله.

وفيها ملك الخجستاني نيسابور من يد عامل ابن عمرو بن الليث، وفيها في صفر زحف الموفق لقتال صاحب الزنج، فلم يزل يحاصره حتى اقتحم عليه مدينته وقتله منتصف سنة سبعين. وفيها كانت الحرب بالمدينة بين بني حسن وبني جعفر. وفي سنة سبع وستين كانت الفتنة بالموصل بين الخوارج. وفيها حبس السلطان محمد بن عبد الله بن طاهر وجماعة من بيته، اتهمه عمرو بن الليث بممالأة الخجستاني والحسين بن طاهر أخيه، فكتب إلى المعتمد وحبسه. وفيها كانت بين كيغلغ التركي وأحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وانهزم أحمد وملك كيغلغ همذان، فزحف إليه أحمد بن عبد العزيز فهزمه، وملك همذان. وسار كيغلغ إلى الصحيرة.

وفيها أزال الخجستاني ذِكْر محمد بن طاهر من المنابر ودعا لنفسه بعد المعتمد، وضرب السكة باسْمِه وجاء يريد العراق فانتهى إلى الري. ثم رجع وفيها أوقع أصحاب أبي الساج بالهيثم العجلي صاحب الكوفة، وغنموا عسكره. وفيها أوقع أبو العباس بن الموفق بالأعراب الذين كانوا يجلبون الميرة بالزنج من بني تميم وغيرهم.

وفي سنة ثمان وستين كان مقتل الخجستاني..... وأصحابه بعده على رافع بن هرثمة من قواد بني طاهر وملك بلاد خراسان وخوارزم، وفيها انتقض محمد بن الليث بفارس على أخيه عمرو، فسار إليه وهزمه واستباح عسكره، وملك أصطيخور وشيراز وظفر به، فحبسه كما مر. وفيها كانت وقعة بين أتكوتكين بن أساتكين وبين أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف فهزمه أتكوتكين وغلبه على قم. وفيها بعث عمرو بن الليث عسكراً إلى محمد بن عبد الله الكردي. وفيها انتقض لؤلؤ على مولاه أحمد بن طولون، وسار إلى الموفق وقاتل معه الزنج. وفيها سار المعتمد إلى ابن طولون بمصر مغاضباً لأخيه الموفق، وكتب الموفق إلى إسحاق بن كنداجق بالموصل بردة، فسار معه إلى آخر عمله، ثم قبض على القواد الذين معه ورده إلى سامرا. وفيها وثب العامة ببغداد بأميرهم الخلنجي وكان كاتب عبيد الله بن طاهر، وقتل غلام له امرأة بسهم فلم يعدهم عليه، فوثبوا به وقتلوا من أصحابه ونهبوا منزله وخرج هارباً فركب محمد بن عبد الله واسترد من العامة ما نهبوه.

وفيها وثب بطرسوس خلق من أصحاب ابن طولون وعامله على الثغور الشامية، فاستنقذه أهل طرسوس من يده، وزحف إليهم ابن طولون فامتنعوا عليه، ورجع إلى حمص، ثم إلى دمشق. وفيها كانت وقعة بين العلويين والجعفريين بالحجاز، فقتل ثمانية من الجعفريين وخلصوا عامل المدينة من أيديهم. وفيها عقد هارون بن الموفق لأبي الساج على الأنبار والرحبة وطريق الفرات، وولى محمد بن أحمد على الكوفة وسوادها ودافعه عنها محمد بن الهيثم فهزمه محمد ودخلها. وفيها مات عيسى بن الشيخ عامل الشيباني عامل أرمينية وديار بكر. وفيها عظمت الفتنة بين الموفق وابن طولون، فحمل المعتمد على لعنه وعزله، وولى إسحاق بن كنداجق على أعماله إلى أفريقية، وعلى شرطة الخاصة. وقطع ابن طولون الخطبة للموفق واسمه من الطراز وفيها ملك ابن طولون الرحبة بعد مقاتلة أهلها، وهرب أحمد بن مالك بن طوق إلى الشام، ثم سار إلى ابن الشماخ بقرقيسيا.

وفي سنة سبعين كان مقتل صاحب الزنج وانقراض دعوته، ووفاة الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان، وقيام أخيه محمد بأمره، ووفاة أحمد بن طولون صاحب مصر وولاية ابنه خمارويه ومسير إسحاق بن كنداجق بابن دعامس عامل الرقة والثغور العواصم لابن طولون.

وفي سنة إحدى وسبعين ثار بالمدينة محمد وعلي ابنا الحسن بن جعفر بن موسى الكاظم وقتلا جماعة من أهلها، ونهبا أموال الناس، ومنعا الجمعة بمسجد رسول الله ﷺ شهراً. وفيها عزل المعتمد عمرو بن الليث من خراسان فقاتله أحمد بن عبد الله بن أبي دلف بأصبهان وهزمه. وفيها استعاد خمارويه الشام من يد أبي العباس بن الموفق، وفر إلى طرسوس كما تقدم. وفيها عقد المعتمد لأحمد بن محمد الطائي على المدينة وطريق مكة، وكان يوسف بن أبي الساج والي مكة. وجاء بدر غلام الطائي أميراً على الحاج فحاربه يوسف على باب المسجد الحرام وأسره، فسار الجند والحاج بيوسف وأطلقوا بدراً من يده وحملوا يوسف أسيراً إلى بغداد.

وفي منتصف سنة اثنتين وسبعين غلب أتكوتكين على الري من يد محمد بن زيد العلوي. سار هو من قزوين في أربعة آلاف، ومحمد بن زيد من طبرستان في الديلم، وأهل خراسان، فانهزموا وقتل منهم ستة آلاف. وفيها ثار أهل طرسوس بأبي العباس بن الموفق وأخرجوه إلى بغداد وولوا عليهم بازيار. وفيها توفي سليمان بن وهب في حبس الموفق. وفيها دخل حمدان بن حمدون وهارون مدينة الموصل. وفيها قدم صاعد بن مخلد الوزير من فارس، وقد كان بعثه الموفق إليها لحرب فرجع إلى واسط وركب القواد لاستقباله فترجلوا إليه وقبلوا يده، ولم يكلمهم. ثم قبض الموفق على جميع أصحابه وأهله ونهب منازلهم، وكتب إلى بغداد بقبض

ابنه أبي عيسى وصالح وأخيه عبدون واستكتب مكانه أبا الصقر إسماعيل بن بلبل، واقتصر به على الكتابة.

وفيها جاء بنو شيبان إلى الموصل فعاثوا في نواحيها واجمع هارون الشاربي وأصحابه على قصدهم، وكتب إلى أحمد بن حمدون التغلبي فجاءه وساوروا إلى الموصل وعبروا الجانب الشرقي من دجلة، ثم ساوروا إلى نهر الحادر فلما تراءى الجمعان انهزم هارون وأصحابه وانجلى سوى عنها.

وفي سنة ثلاث وسبعين وقعت الفتنة بين ابن كنداجق وبين ابن أبي الساج وسار ابن أبي الساج إلى ابن طولون واستولى على الجزيرة والموصل، وخطب له فيها. وقاتل الشراة كما ذكرنا. وفيها قبض الموفق على لؤلؤ غلام ابن طولون وصادره على أربعمائة ألف دينار وبقي في إدبار إلى أن عاد إلى مصر أيام هارون بن خمارويه.

وفي سنة أربع وسبعين سار الموفق إلى فارس فاستولى عليها من يد عمرو بن الليث ورجع عمرو إلى كرمان وسجستان. وعاد الموفق إلى بغداد. وفي سنة خمس وسبعين نقض ابن أبي الساج طاعة خمارويه وقاتله خمارويه فهزمه، وملك الشام من يده وسار إلى الموصل، وخمارويه في اتباعه إلى بغداد. ولحق ابن أبي الساج بالحديثة فأقام بها إلى أن رجع خمارويه. وكان إسحاق بن كنداجق قد جاء إلى خمارويه فبعث معه جيشاً وقواداً في طلب ابن أبي الساج. واشتغل بعمل السفن للعبور إليه فسار ابن أبي الساج عنها إلى الموصل، واتبعه ابن كنداج وسار إلى الرقة فاتبعه ابن أبي الساج، وكتب إلى الموفق يستأذنه في اتباعه إلى الشام. وجاء ابن كنداج بالعساكر من عند خمارويه وأقام على حدود الشام ثم هزم ابن أبي الساج فسار إلى الموفق وملك ابن كنداج ديار ربيعة وديار مضر، وقد تقدم ذكر ذلك.

وفيها خرج أحمد بن محمد الطائي من الكوفة لحرب فارس العبدي كان يخيف السابلة فهزمه العبدي، وكان الطائي على الكوفة وسوادها وطريق خراسان وسامرا وشرطة بغداد، وخراج بادردباد قطربل، وفيها قبض الموفق على ابنه أبي العباس وحبسه. وفيها ملك رافع بن هرثمة جرجان من يد محمد بن زيد وحاصره في استراباذ نحواً من سنتين، ثم فارقها الجيش لحربه فسار عن سارية وعن طبرستان سنة سبع وسبعين. واستأمن رستم بن قارن إلى رافع وقدم عليه علي بن الليث من حبس أخيه بكرمان هو وابناه العدل والليث. وبعث رافع على سالوس محمد بن هارون وجاء إليه علي بن كاني مستأمناً فحصرهما محمد بن زيد، وسار إليه رافع ففر إلى أرض الديلم ورافع في اتباعه إلى حدود قزوين فسار فيها وأحرقها وعاد إلى الري.

وفي سنة ست وسبعين رضي المعتمد عن عمرو بن الليث وولاه وكتب اسمه على الأعلام، وولى على الشرطة ببغداد من قبله عبيد الله بن عبد الله بن طاهر. ثم انتقض فأزيل. وفيها كان مسير الموفق إلى الجبل لأتكوتكين ومحاربة أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وقد تقدم ذلك. وفيها ولى الموفق ابن أبي الساج على أذربيجان فسار إليها ودافعه عبد الله بن حسن الهمذاني صاحب مراغة فهزمه ابن أبي الساج، واستقر في عمله. وفيها زحف هارون الشاري من الحديثة إلى الموصل يريد حربها، ثم صانعه أهل الموصل ورحل عنهم. وفي سنة سبع وسبعين دعا مازيار بطرسوس لخمارويه بن أحمد بن طولون، وكان أنفذ إليه ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف وسلاحاً كثيراً. وبعث إليه بعد الدعاء بخمسين ألف دينار.

وفي سنة ثمان وسبعين كانت وفاة الموفق وبيعة المعتضد بالعهد كما مر. وفيها كان ابتداء أمر القرامطة وقد تقدم. وفي سنة تسع وسبعين خلع جعفر بن المعتمد وقدم عليه المعتضد وكانت الحرب بين الخوارج وأهل الموصل، وبين بني شيبان وعلى بني شيبان هارون بن سيما من قبل محمد بن إسحاق بن كنداج، ولاه عليها فطرده أهلها، فزحف إليهم مع بني شيبان ودافع عن أهل الموصل هارون الشاري وحمدان بن حمدون فهزمهم بنو شيبان، وخاف أهل الموصل من ابن سيما وبعثوا إلى بغداد يطلبون والياً، فولى المعتمد عليهم محمد بن يحيى المجروح الموكل بحفظ الطريق، وكان ينزل الحديثة فأقام بها أياماً ثم استبدل منه بعلي بن داود الكردي.

وفاة المعتمد وبيعة المعتضد

توفي المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل لعشر بقين من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين لثلاث وعشرين سنة من ولايته، ودفن بسامرا، وهو أول من انتقل إلى بغداد وكان في خلافته مغلباً عاجزاً وكان أخوه الموفق مستبداً عليه، ولم يكن له معه حكم في شيء. ولما مات الموفق سنة ثمان وسبعين كما قدمناه أقام مكانه ابنه أبا العباس أحمد المعتضد وحجر المعتمد كما كان أبوه يحجره، وولاه عهده كما كان أبوه. ثم قدمه في العهد على ابنه جعفر، ثم هلك فبايع الناس للمعتضد بالخلافة صبيحة موته، فولى غلامه بدراً الشرطة وعبيد الله بن سليمان بن وهب الوزارة، ومحمد بن الشاري بن مالك الحرس. ووفد عليه لأول خلافته

رسول عمرو بن الليث بالهدايا وسأل ولاية خراسان فعقد له عليها، وبعث إليه بالخلع واللواء،ولأول خلافته مات نصر بن أحمد الساماني ملك ما وراء النهر، وقام مكانه أخوه إسماعيل.

مقتل رافع بن الليث

كان رافع بن الليث قد وضع يده على قرى السلطان بالري، وكتب إليه المعتضد برفع يده عنها، فكتب إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف بإخراجه عن الري فقاتله وأخرجه، وسار إلى جرجان ودخل نيسابور سنة ثلاث وثمانين، فوقعت بينه وبين عمرو حرب وانهزم رافع إلى أسورد وخلص عمرو وابني أخيه من حبسه، وهما العدل والليث ابنا علي بن لليث، وقد تقدم خبرهما. ثم سار رافع إلى هراة ورصده عمرو بسرخس فشعر به ورجع إلى نيسابور في مسالك صعبة، وطرق ضيقة، واتبعه عمرو فحاصره في نيسابور. ثم تلاقيا وهرب عن رافع بعض قواده إلى عمرو فانهزم رافع، وبعث أخاه محمد بن هرثمة إلى محمد بن زيد يستمده كما شرط له فلم يفعل. وافترق عن رافع أصحابه وغلمانه، وفارقه محمد بن هارون إلى أحمد بن إسماعيل في بخارى، ولحق رافع بخوارزم في فل من العسكر ومعه بقية أمواله وآلته، ومر في طريقه بأبي سعيد الدرعاني ببلد.... فاستغفله وغدر به وحمل رأسه إلى عمرو بن الليث بنيسابور وذلك في شوال سنة ثلاث وثمانين.

خبر الخوارج بالموصل

قد تقدم لنا أن خوارج الموصل من الشراة استقدر عليهم بعد مساور هارون الشاري وذكرنا شيئاً من أخبارهم. ثم خرج عليه سنة ثمانين محمد بن عبادة ويعرف بأبي جوزة من بني زهير من البقعاء، وكان فقيراً ومعاشه ومعاش بنيه في التقاط الكمأة وغيرها وأمثال ذلك، وكان يتدين ويظهر الزهد، ثم جمع الجموع وحكم واستجمع إليه الأعراب من تلك النواحي، وقبض الزكوات والأعشار من تلك الأعمال، وبنى عند سنجار حصناً ووضع فيه أمتعته وماعونه، وأنزل به ابنه أبا هلال في مائة وخمسين، فجمع هارون الشاري أصحابه وبدأ بحصار الحصن فأحاط به وبمحمد بن عبادة في داخله. وجدّ في حصاره حتى أشرف على فتحه وقيد أبا هلال ابنه ونفراً معه وبعث بنو تغلب وهم مع هارون إلى من كان بالحصن من بني زهير فأمنوهم، وملك هارون الحصن. ثم ساروا إلى محمد فلقيهم وهزمهم أولاً ثم كروا عليه مستميتين فهزموه، وقتلوا من أصحابه ألفاً وأربعمائة، وقسم هارون ماله ولحق محمد بآمد، فحاربه صاحبها أحمد بن عيسى بن الشيخ فظفر به وبعثه إلى المعتضد فسلخه حياً.

إيقاع المعتضد ببنى شيبان واستيلاؤه على ماردين

وفي سنة ثمانين سار المعتضد إلى بني شيبان بأرض الجزيرة ففروا أمامه، وأثار على طوائف من العرب عند السند فاستباحهم، وسار إلى الموصل، فجاءه بنو شيبان وأعطوه رهنهم على الطاعة، فغلبهم وعاد إلى بغداد. وبعث إلى أحمد بن عيسى بن الشيخ في أموال ابن كنداج التي أخذها بآمد، فبعث بها وبهل أياماً كثيرة معها. ثم بلغه أن أحمد بن حمدون ممالئ لهارون الشاري، وداخل في دعوته، فسار المعتضد إليه سنة إحدى وثمانين واجتمع الأعراب من بني تغلب وغيرهم للقائه، وقتل منهم وغرق في الزاب كثيراً، وسار إلى الموصل. ثم بلغه أن أحمد هرب عن ماردين وخلف بها ابنه، فسار المعتضد إليه ونازله وقاتله يوماً، ثم صعد من الغد إلى باب القلعة، وصاح بابن حمدان واستفتح الباب ففتح له دهشاً وأمر بنقل ما في القلعة وهدمها، وبعث في طلب حمدان وأخذ أمواله.

الولاية على الجبل وأصبهان

عقد المعتضد سنة إحدى وثمانين لابنه علي وهو المكتفي على الري وقزوين وزنجان وأبهر وقم وهمذان والدينور فاستأمن إليه عامل الري لرافع بن الليث، وهو الحسن بن علي كوره فأمنه وبعث به إلى أبيه.

عود حمدان إلى الطاعة

وفي سنة اثنتين وثمانين سار المعتضد إلى الموصل واستقدم إسحاق بن أيوب وحمدان بن حمدون، فبادر إسحاق بقلاعه وأودع حرمه وأمواله، فبعث إليه المعتضد العساكر مع وصيف ونصر القسوري، فمروا بذيل الزعفران من أرض الموصل وبه الحسن بن علي كوره، ومعه الحسين بن حمدان. فأستأمن الحسين وبعثوا به إلى المعتضد فأمر بهدم القلعة. وسار وصيف في اتباع حمدان. فواقعه وهزمه وعبر إلى الجانب الغربي من دجلة وسار في ديار ربيعة، وعبرت إليه العساكر وحبسوه فأخذوا ماله، وهرب وضاقت عليه الأرض فقصد خيمة إسحاق بن أيوب في عسكر المعتضد مستجيراً

به فأحضره عند المعتضد فوكل به وحبسه.

هزيمة هارون الشاري ومهلكه

كان المعتضد قد ترك بالموصل نصر القسروي لإعادته العمال على الجباية. وخرج بعض العمال لذلك فأغارت عليهم طائفة من أصحاب هارون الشاري وقتل بعضهم، فكثر عيث الخوارج. وكتب نصر القسروي إلى هارون يهدده. فأجابه وأساء في الرد وعرض بذكر الخليفة فبعث نصر بالكتاب إلى المعتضد فأمره بالجد في طلب هارون، وكان على الموصل يكتم طاتشمر من مواليهم فقبض عليه وقيده، وولى على الموصل الحسن كوره، وأمر ولاة الأعمال بطاعته، فجمعهم وعسكر بالموصل، وخندق على عسكره إلى أن أوقع بالناس غلاتهم. ثم سار إلى الخوارج وعبر الزاب إليهم فقاتلهم قتالاً شديداً فهزمهم وقتل منهم وافترقوا، وسار الكثير منهم إلى أذربيجان ودخل هارون البرية واستأمن وجوه أصحابه إلى المعتضد فأمنهم.

ثم سار المعتضد سنة ثلاث وثمانين في طلب هارون فانتهى إلى تكريت، وبعث الحسين بن حمدون في عسكر نحو من ثلاثمائة فارس، واشترط إن جاء به إطلاق ابنه حمدان وسار معه وصيف وانتهى إلى بعض مخايض دجلة فأرصد بها وصيفاً وقال: لا تفارقوها حتى تروني! ومضى في طلبه فواقعه وهزمه، وقتل من أصحابه. وأقام وصيف ثلاثة أيام فأبطأ عليه الأمر فسار في اتباع ابن حمدان، وجاء هارون منهزماً إلى تلك المخاضة فعبر، وابن حمدان في أثره إلى حي من أحياء العرب قد اجتاز بهم هارون، فدلوا ابن حمدان عليه فلحقه وأسره وجاء به إلى المعتضد. فرجع المعتضد آخر ربيع الأول وخلع على الحسين وأخوته وطوقه، وأدخل هارون على الفيل وهو ينادي: لا حكم إلاالله ولو كره المشركون، وكان صغدياً.

ثم أمر المعتضد بحل القيود عن حمدان بن حمدون والإحسان إليه وبإطلاقه. وفي سنة اثنتين وثمانين سار المعتضد من الموصل إلى الجبل فبلغ الكرخ فهرب عمر بن عبد العزيز بن أبي دلف بين يديه فأخذ أمواله وبعث إليه في طلب جد كان عنده فوجهه إليه. ثم بعث المعتضد وزيره عبيد الله بن سليمان إلى ابنه بالري ليسير من هنالك إلى عمر بن عبد العزيز بالأمان، فسار وأمنه ورجع إلى الطاعة فخلع عليه وعلى أهل بيته، وكان أخوه بكر بن عبد العزيز قد استأمن قبل ذلك إلى عبيد الله بن سليمان وبدر فولاه عمله، على أن يسير إلى حربه. فلما وصل عمر في الأمان قال لبكر: إنما وليناك وأخوك عاص فامضيا إلى أمير المؤمنين المعتضد وولى عيسى النوشري على أصبهان من قبل عمر وهرب بكر إلى الأهواز.

وسار عبيد الله بن سليمان الوزير إلى علي بن المعتضد بالري، ولما بلغ الخبر إلى المعتضد بعث وصيفاً موسكين إلى بكر بن عبد العزيز بالأهواز فلحقه بحدود فارس، فمضى بكر إلى أصبهان ليلاً ورجع وصيف إلى بغداد، وكتب المعتضد إلى بدر مولاه بطلب بكر بن عبد العزيز وحربه، فأمر بذلك عيسى النوشري فقام به ولقي بكراً بنواحي أصبهان فهزمه بكر، ثم عاد النوشري لقتاله سنة أربع وثمانين فهزمه بنواحي أصبهان واستباح عسكره.

ولجأ بكر إلى محمد بن زيد العلوي بطبرستان وهلك بها سنة خمس وثمانين، وكان عمر لما مات أبوه قبض على أخيه الحارث ويكنى أبا ليلى، وحبسه في قلعة رد، ووكل به شفيعاً الخادم. فلما جاء المعتضد واستأمن من عمر وهرب بكر وبقيت القلعة بيد شفيع بأموالها، رغب إليه الحارث في إطلاقه فلم يفعل، وكان شفيع يسامره كل ليلة وينصرف فحادثه ليلة ونادمه وقام شفيع لبعض حاجته فجعل الحارث في فراشه تمثالاً وغطاه وقال لجاريته: قولي لشفيع إذا عاد هو نائم. ومضى فاختفى في الدار وفك القيد عن رجله بمبرد أدخل إليه ويرد به مسماره. ولما أخبر شفيع بنومه مضى إلى مرقده وقصده أبو ليلى على فراشه فقتله، وأمر أهل الدار واجتمع عليه الناس فاستحلفهم ووعدهم، وجمع الأكراد وغيرهم وخرج من القلعة ناقضاً للطاعة. فسار إلى عيسى النوشري وحاربه فأصاب أبا ليلى منهم فمات، وحمل رأسه إلى أصبهان ثم إلى بغداد.

خبر ابن الشيخ بآمد

وفي سنة خمس وثمانين توفي أحمد بن عيسى بن الشيخ وقام بأمره في آمد وأعمالها ابنه محمد فسار المعتضد إليه في العساكر ومعه ابنه أبو محمد علي المكتفي، ومر بالموصل وحاصر المعتمد إلى ربيع الآخر من سنة ست وثمانين ونصب عليها المجانيق حتى استأمن لنفسه ولأهل آمد، وخرج إلى المعتمد فخلع عليه وهدم سورها ثم بلغه أنه يروم الهرب فقبض عليه وعلى أهله.

خبر ابن أبي الساج

قد تقدم لنا ولاية محمد بن أبي الساج على أذربيجان ومدافعة الحسين إياه عن مراغة، ثم فتحها واستيلاؤه على أعمال

أذربيجان، وبعث المعتضد سنة اثنتين وثمانين أخاه يوسف بن أبي الساج إلى الصمرة مدداً لفتح القلانسي غلام الموفق، فخرج يوسف فيمن أطاعه فولاه المعتضد على أعماله، وبعث إليه بالخلع وأعطاه الرهن بما ضمن من الطاعة والمناصحة وبعث بالهدايا.

ابتداء أمر القرامطة بالبحرين والشام

كان في سنة إحدى وثمانين قد جاء إلى القطيف بالبحرين رجل تَسمّى بيحيى بن المهدي وزعم أنه رسول من المهدي، وأنه قد قرب خروجه، وقصد من أهل القطيف علي بن المعلى بن حمدان الريادي، وكان متغالياً في التشيع، فجمع الشيعة وأقرأهم كتاب المهدي ليشيع الخبر في سائر قرى البحرين، فأجابوا كلهم وفيهم أبو سعيد الجنابي وكان من عظمائهم. ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ورجع بكتاب المهدي يشكرهم على إجابتهم وأمرهم أن يدفعوا ليحيى ستة دنانير وثلثين عن كل رجل منهم ففعلوا. ثم غاب وجاء بكتاب آخر بأن يدفعوا إليه خمس أموالهم فدفعوا، وأقام يتردد في قبائل قيس، ثم أظهر أبو سعيد الجنابي الدعوة بالبحرين سنة ست وثمانين واجتمع إليه القرامطة والأعراب، وقتل واستباح وسار إلى القطيف طالباً البصرة، وبلغت النفقة فيه أربعة عشر ألف دينار.

ثم قرب أبو سعيد من نواحي البصرة، وبعث المعتضد إليهم المدد مع عباس بن عمر الغنوي وعزله عن فارس وأقطعه اليمامة والبحرين، وضم إليه ألفين من المقاتلة، وسار إلى البصرة وأكثر من الحشد جنداً ومتطوعة. فسار ولقي أبا سعيد الجنابي، ورجع من كان معه من بني ضبة إلى البصرة. ثم كان اللقاء فهزمه الجنابي وأسره واحتوى على معسكره وحرق الأسرى بالنار وذلك في شعبان من هذه السنة. وسار إلى هجر فملكها وأمن أهلها ورجع إلى أهل البصرة، وبعثوا إليهم بالرواحل عليها الطعام والماء، فاعترضهم بنو أسد وأخذوا الرواحل وقتلوا الفل، واضطربت البصرة وتشوف أهلها إلى الانتقال فمنعهم الواثقي. ثم أطلق الجنابي العباس الغنوي فركب إلى الأبلة وسار منها إلى بغداد، فخلع عليه المعتضد.

وأما ظهورهم بالشام فإن داعيتهم ذكروية بن مهروية الذي جاء بكتاب المهدي إلى العراق لما رأى الجيوش متابعة إلى القرامطة بالسواد، وأبادهم القتل، لحق بأعراب أسد وطيء، فلم يجبه فبعث أولاده في كلب بن وبرة فلم يجبه منهم إلا بنو القليظي بن ضمضم بن عدي بن جناب، فبايعوا ذكرويه ويسمى بيحيى ويكنى بأبي القاسم، ولقبوه الشيخ، وأنه من ولد إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق. وأنه يحيى بن عبد الله بن يحيى بن إسماعيل، وزعم أن له مائة ألف تابع، وأن ناقته التي يركبها مأمورة فمن تبعها كان منصوراً. فقصدهم شبل مولى المعتضد في العساكر من ناحية الرصافة فقتلوه. فسار إليهم شبل مولى أحمد بن محمد الطائي فاوقع بهم.

وجاء ببعض رؤسائهم أسيراً فأحضره المعتضد وقال له: هل تزعمون أن روح الله وأنبيائه تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلل، وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال له: يا هذا أرأيت إن حلت روح إبليس فما ينفعك؟ فاترك مالا يعنيك إلى ما يعنيك. قال له: فقل فيما يعنيني؟ فقال له: قبض رسول الله ﷺ وأبوكم العباس حي فلم يطلب الأمر ولا بايعه. ثم مات أبو بكر واستخلف عمر وهو يرى العباس ولم يعهد إليه عمر ولاجعله من أهل الشورى، وكانوا ستة وفيهم الأقرب والأبعد، وهذا إجماع منهم على دفع جدك عنها. فبماذا تستحقون أنتم الخلافة؟ فأمر به المعتضد فعذب وخلعت عظامه، ثم قطع مرتين ثم قتل. ولما أوقع شبل بالقرامطة بسواد الكوفة ساروا إلى الشام فانتهوا إلى دمشق وعليها طغج بن جف مولى أحمد بن طولون من قبل ابنه هارون، فخرج إليهم فقاتلهم مراراً، هزموه في كلها. هذه أخبار بدايتهم ونقبض العنان عنها إلى أن نذكر سياقتها عندما نعد أخبارهم على شريطتنا في هذا الكتاب كما تقدم.

استيلاء ابن سامان على خراسان من يد عمرو بن الليث وأسره ثم مقتله

لما تغلب عمرو بن الليث الصفار على خراسان من يد رافع بن الليث، وقتله وبعث برأسه إلى المعتضد، وطلب منه أن يوليه ما وراء النهر مضافاً إلى ولاية خراسان، كتب له بذلك فجهز الجيوش لمحاربة إسماعيل بن أحمد صاحب ما وراء النهر، وجعل عليهم محمد بن بشير من أخص أصحابه. وبعث معه القواد فانتهوا إلى آمد من شط جيحون، وعبر إليهم إسماعيل فهزمهم وقتل محمد بن بشير في ستة آلاف، ولحق الفل بعمرو في نيسابور، فتجهز وسار إلى بلخ، وكتب إليه إسماعيل يستعطفه ويقول: أنا في ثغر وأنت في دنيا عريضة فاتركني واستفد الفتي فأبى.

وصعب على أصحابه عبور النهر لشدته فعبر إسماعيل وأخذ الطرق على بلخ وصار عمرو محصوراً. ثم اقتتلوا وانهزم عمرو وتسرب من بعض المسالك عن أصحابه فوجد في أجمة

وأخذ أسيراً، وبعث به إسماعيل إلى سمرقند ومن هناك إلى المعتضد سنة ثمان وثمانين، فحبسه إلى أن مات المعتضد سنة تسع بعدها فقتله ابنه المكتفي وعقد لإسماعيل على خراسان كما كانت لعمرو، وكان عمرو عظيم السياسة، وكان يستكثر من المماليك ويجري عليهم الأرزاق ويفرقهم على قواد ليطالعوه بأخبارهم. وكان شديد الهيبة، ولم يكن أحد يتجاسر أن يعاقب غلاماً ولا خادماً إلا أن يرفعه إلى حجابه.

استيلاء ابن سامان على طبرستان من يد العلوى ومقتله

ولما بلغ محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان والديلم ما وقع بعمرو بن الليث وأنه أسر طمع هو في خراسان وظن أن ابن إسماعيل لا يتجاوز عمله، فسار إلى جرجان وبعث إليه إسماعيل بالكف فأبى، فجهز لحربه محمد بن هارون، وكان من قواده رافع بن الليث. واستأمن إلى عمرو ثم إلى إسماعيل فنظمه في قواده وندبه الآن لحرب محمد بن زيد، فسار لذلك. ولقيه على باب خراسان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم محمد بن هارون أولاً، وافترقت عساكر محمد بن زيد على النهب ثم رجع هو وأصحابه، وانهزم محمد بن زيد وجرح جراحات فاحشة هلك منها لأيام، وأسر ابنه زيد، وبعث به إسماعيل إلى بخارى واجترأ عليه وغنم ابن هارون معسكرهم، ثم سار إلى طبرستان فملكها وصار خراسان وطبرستان لبني سامان، واتصلت لهم دولة نذكر سياقة أخبارها عند إفراد دولتهم بالذكر كما شرطناه في تأليفنا.

ولاية علي بن المعتضد على الجزيرة والثغور

ولما ملك المعتضد آمد من يد ابن الشيخ كما قدمناه، سار إلى الرقة وتسلم قنسرين والعواصم من يد عمال هارون بن خمارويه لأنه كان كتب إليه أن يقاطعه على الشام ومصر ويسلم إليه أعمال قنسرين، ويحمل إليه أربعمائة ألف دينار وخمسين ألفاً فأجابوه وسار من آمد إلى الرقة فأنزل ابنه علياً الذي لقبه بعد ذلك بالمكتفي وعقد له على الجزيرة وقنسرين والعواصم سنة ست وثمانين. واستكتب له الحسن بن عمر النصراني واستقدم وهو بالرقة راغباً مولى الموفق من طرسوس، فقدم عليه وحبسه وحبس ملنون غلامه، واستصفى أموالهما، ومات راغب لأيام من حبسه وقد كان راغب استبد بطرسوس وترك الدعاء لهارون بن خمارويه، ودعا لبدر مولى المعتضد. ولما جاء أحمد بن طبان للغز سنة ثلاث وثمانين تنازع معه راغب، فركب أحمد البحر في رجوعه ولم يعرج على طرسوس وترك بها دميانة غلام بازيار وأمده فقوي وأنكر على راغب أفعاله بحمل دميانة إلى بغداد، واستبد راغب إلى استدعاء المعتضد ونكبه كما قلناه، وولى ابن الأخشاء على طرسوس فمات لسنة.

واستخلف أبا ثابت وخرج سنة سبع وثمانين غازياً فأسر وولى الناس عليهم مكانه علي بن الأعرابي، ولحق بملطية في هذه السنة وصيف مولى محمد بن أبي الساج صاحب بردعة، وكتب إلى المعتمد يسأله ولاية الثغور وقد وطأ صاحبه أن يسير إليه إذا وليها فيقصدان ابن طولون ويملكان مصر من يده، وظهر المعتضد على ذلك فسار لاعتراضه، وقدم العساكر بين يديه، فأخذه بعين زربة وجاؤوا به إلى المعتضد فحبسه، وأمن عسكره ورحل إلى قرب طرسوس، واستدعى رؤساءها وقبض عليهم بمكاتبتهم وصيفاً، وأمر بإحراق مراكب طرسوس بإشارة دميانة، واستعمل على أهل الثغور الحسن بن علي كوره وسار إلى أنطاكية وحلب ورجع منها إلى بغداد وقتل وصيفاً وصلبه. واستقدم المكتفي بعد وفاة المعتضد الحسن بن علي، وولى على الثغور مظفر بن حاج. ثم شكا أهل الثغر منه فعزله وولى أبا العشائر بن أحمد بن نصر سنة تسعين.

حرب الأعراب

وفي سنة ست وثمانين اعترضت طيىء ركب الحاج بالأجيعر، وقاتلوه ونهبوا أموال التجار ما قيمته ألف ألف دينار، ثم اعترضوا الحاج كذلك سنة تسع وثمانين بالقرن فهزمهم الحاج وسلموا.

تغلب ابن الليث على فارس وإخراج بدر إياه

وفي فاتح ثمان وثمانين جاء طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث في العساكر إلى بلاد فارس، وأخرج منها عامل المعتضد وهو عيسى النوشري كان على أصبهان فولاه المعتضد فارس، فسار إليها فجاءه طاهر وملكها. وكتب إليه إسماعيل صاحب ما وراء النهر بأن المعتضد ولاه سجستان لذلك، وعقد المعتضد لبدر مولاه على فارس، وهرب عمال طاهر عنها وملكها بدر وجبى خراجها. ثم مات المعتضد وسار مغرباً عن فارس فقتل بواسط وقاطع طاهر

بلاد فارس على مال يحمله، فقلده المكتفي ولايتها سنة تسعين.

الولايات في النواحي

كان أكثر النواحي في دولة المعتضد مغلباً عليها كخراسان وما وراء النهر لابن سامان، والبحرين للقرامطة ومصر لابن طولون وأفريقية لابن الأغلب، وقد ذكرنا من ولي الموصل. وفي سنة خمس وثمانين ولى المعتضد عليها وعلى الجزيرة والثغور الشامية.... مولاه، ثم ملك آمد من يد ابن الشيخ وجعلها لابنه علي المكتفي وأنزله الرقة كما ذكرناه وعقد له على الثغور. ثم عقد بعده للحسن بن علي كوره وولى على فارس بدراً مولاه. ومات إسحاق بن أيوب بن عمر بن الخطاب التغلبي العدوي أمير ديار ربيعة، فولى المعتضد مكانه عبد الله بن الهيثم بن عبد الله بن المعمر.

وفي سنة ثمان وثمانين ظهر باليمن بعض العلويين وتغلب على صنعاء، فجمع له بنو يعفر وقاتلوه فهزموه وأسروا ابنه، وتجافى نحو خمسين فارساً وملك بنو يعفر صنعاء وخطبوا فيها للمعتضد، وهلك ابن أبي الساج في هذه السنة، فولى أصحابه ابنه ديوداد. ونازعه عمه يوسف بن رافع بابن أخيه وهزمه ومضى إلى بغداد على طريق الموصل، واستقل يوسف بملك أذربيجان، وعرض على ابن أخيه المقام عنده فأبى، وقلد المعتضد لأول خلافته ديوان المشرق لمحمد بن داود بن الجراح، عوضاً عن أحمد بن محمد بن الفرات، وديوان المغرب علي بن عيسى بن داود بن الجراح، ومات وزيره عبيد الله بن سليمان بن وهب فولى ابنه أبا القاسم مكانه.

الصوائف

وفي سنة خمس وثمانين غزا راغب مولى الموفق من طرسوس في البحر، فغنم مراكب الروم، قتل فيها نحواً من ثلاثة آلاف وأحرقها. وخرج الروم سنة سبع وثمانين ونازلوا طرسوس فقاتلهم أميرها واتبعهم إلى نهر الرحال فأسروه. وفي سنة ثمان وثمانين بعث الحسن بن علي كوره صاحب الثغور بالصائفة، فغزا وفتح حصوناً كثيرة وعاد بالأسرى، فخرج الروم في أثره براً وبحراً إلى كيسوم من نواحي حلب فأسروا نحواً من خمسة عشر ألفاً ورجعوا.

وفاة المعتضد وبيعة ابنه

كان بدر مولى المعتضد عظيم دولته، وكان القاسم بن عبيد الله الوزير يروم نقل الخلافة في غير بني المعتضد، وفاوض في ذلك بدراً أيام المعتضد فأبى، ولم يمكن القاسم مخالفته. فلما مات المعتضد كان بدر بفارس بعثه إليها المعتضد لما بلغه أن طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث غلب عليها فبعث بدراً وولاه. فلما مات عقد الوزير البيعة لابنه المكتفي وخشي من بدر فيما اطلع عليه منه، فأعمل الحيلة في أمره. وكان المكتفي أيضاً يحقد لبدر كثيراً من منازعة معه أيام أبيه، فدس الوزير إلى القواد الذين مع بدر بمفارقته، ففارقه العباس بن عمر الغنوي ومحمد بن إسحاق بن كنداج وخاقان العلجى وغيرهم، فأحسن الملتقى إليهم وسار بدر إلى واسط، فوكل المكتفي بداره وقبض على أصحابه وأمر بمحو اسمه من الفراش والأعلام وبعث الحسن بن علي كوره في جيش إلى واسط، وعرض على بدر ما شاء من النواحي، فقال: لا بد لي أن أشافه مولاي بالقول فخوف الوزير المكتفي خائنته ومنعه من ذلك، وشعر أن بدراً بعث عن ابنه هلال فوكل به. ثم بعث الوزير عن القاضي أبي عمر المالكي وحمله الأمان إلى بدر فجاء بأمانه وبعث الوزير من اعتراضه بالطريق فقتله لست خلون من رمضان، وحمل أهله شلوه إلى مكة فدفن بها لوصيته بذلك. وحزن القاضي أبو عمر لإخفار ذمته.

استيلاء محمد بن هارون على الري ثم أسره وقتله

قد تقدم لنا ذكر محمد بن هارون وأنه كان من قواد رافع بن هرثمة، ونظمه إسماعيل بن أحمد صاحب ما وراء النهر في قواده وبعثه لحرب محمد بن زيد فهزمه واستولى على طبرستان، وولاه إسماعيل عليها. ثم انتقض ودعا بدعوة العلوية وبيض وساعده ابن حسان الديلمي. وبعث إسماعيل العساكر لقتال ابن حسان فهزموه. وكان على الري من قبل المكتفي أغرتمش التركي، فأساء السيرة فبعث أهل الري إلى محمد بن هارون أن يسير إليهم ويولوه، فسار وحارب أغرتمش فهزمه وقتله، وقتل ابنيه وأخاه كيغلغ من القواد واستولى على الري وبعث المكتفي مولاه خاقان المفلحي لولاية الري في جيش كثيف فلم يصلها. وبعث المكتفي إلى إسماعيل بولايته ومحاربة محمد بن هارون فسار إسماعيل إليه وهزمه، فخرج عن الري إلى قزوين وزنجان. ثم لحق بطبرستان

واستقر مع ابنه مستجيراً، ولما ملك إسماعيل الري ولى على جرجان مولاه نارس الكبير والزمه إحضار محمد بن هارون فكاتبه نارس وضمن له صلاح الحال، فقبل وانصرف عن الديلم إلى بخارى، فبعث إسماعيل من اعترضه وحمل إلى بخارى مقيداً فمات في الحبس بعد شهر وذلك في شعبان سنة تسعين.

استيلاء المكتفي على مصر وانقراض دولة ابن طولون

كان محمد بن سليمان من قواد بني طولون وكاتب جيشهم واستوحش منهم، فلحق بالمعتضد وصرفوه في الخدم، وكانت القرامطة عاثوا في بلاد الشام وحاصروا عامل بني طولون بدمشق وهو طغج بن جف، وقتلوا قواده. وسار المكتفي إليهم فنزل الرقة وبعث محمد بن سليمان لحربهم ومعه الحسن بن حمدان والعساكر وبنو شيبان، فلقيهم قرب حماة فهزمهم واتبعهم إلى الكوفة، وقبض في طريقه على أميرهم صاحب الشامة فبعث به إلى المكتفي، فرجع إلى بغداد وخلف محمد بن سليمان في العساكر فتبعهم وأسر جماعة منهم. وبينما هو يروم العود إلى بغداد جاءه كتاب بدر الحمامي مولى هارون بن خمارويه ومحمد فائق صاحب دمشق يستقدمانه إلى البلاد لعجز هارون عنها. فأنهى ذلك محمد بن سليمان عند عوده إلى المكتفي فأعاده وأمده بالجنود والأموال. وبعث دميانة غلام بازيار في الأسطول ليدخل من فوهة النيل ويحاصر مصر، ولما وصل ودنا من مصر كاتب القواد، وخرج إليه رئيسهم بدر الحمامي وتتابع منهم جماعة، وبرز هارون لقتاله فحاربه أياماً.

ثم وقعت بعض الأيام في عسكره هيعة ركب لها ليسكنها فأصابته حربه مات منها، واجتمع أصحابه على عمه شيبان وبذل الأموال فقاتلوا معه. ثم جاءهم كتاب محمد بن سليمان بالأمان فأجابوه، وخالف شيبان إلى مصر فاستولى عليها واستأمن إليه شيبان سراً فأمنه ولحق به. ثم قبض على بني طولون وحبسهم واستصفى أموالهم وذلك في صفر سنة اثنتين وتسعين، وأمره المكتفي بإزالة آل طولون وأشياعهم من مصر والشام ففعل. وسار بهم إلى بغداد وولى المكتفي على مصر عيسى النوشري وخرج عليه إبراهيم الخليجي من قواد بني طولون يخلف عن محمد بن سليمان، فخلفه وكثر جمعه وسار النوشري إلى الإسكندرية عجزاً عن مدافعته، واستولى الخليجي على مصر وبعث المكتفي بالجنود مع فاتك مولى المعتضد وأحمد بن كيغلغ وبدر الحمامي من قواد بني طولون، فوصلوا سنة ثلاث وتسعين، وتقدم أحمد بن كيغلغ وجماعة من القواد، فلقيهم قرب العريش فهزمهم وقوي الأمر، وبلغ الخبر إلى المكتفي فعسكر ظاهر بغداد، وانتهى مده إلى تكريت فلقيه كتاب فاتك في شعبان يذكر أنهم هزموا الخليجي بعد حروب متصلة، وغنموا عسكره. ثم هرب واختفى بفسطاط مصر وجاء من دل عليه فأمر المكتفي بحمله ومن معه إلى بغداد فبعثوا بهم وحبسوا.

ابتداء دولة بني حمدان

وفي سنة اثنتين وتسعين عقد المكتفي على الموصل وأعمالها لأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون العدوي التغلبي فقدمها أول المحرم وجاء الصريخ من نينوى بأن الأكراد الهدبانية ومقدمهم محمد بن سلال قد أغاروا على البلاد وعاثوا، فخرج في العساكر وعبر الجسر إلى الجانب الشرقي، ولقيهم على الحارد فقاتلهم وقتل من قواد سليمان الحمداني ورجع عنهم، وبعث إلى الخليفة يستمده، فأبطأ عليه المدد إلى ربيع من سنة أربع، فلما جاءه المدد سار إلى الهدبانية وهم مجتمعون في خمسة آلاف بيت، فارتحلوا أمامه واعتصموا بجبل السَلَق المشرف على الزاب، فحاصرهم وعرفوا حقه فخذله أميرهم محمد بن سلال بالمراسلة في الطاعة والرهن، وحث أصحابه خلال ذلك المسير إلى أذربيجان، واتبعهم أبو الهيجاء فلحقهم صاعداً إلى جبل القنديل فنال منهم، وامتنعوا بذروته.

ورجع أبو الهيجاء عنهم فلحقوا بأذربيجان، ووفد أبو الهيجاء على المكتفي فأنجده العسكر وعاد إلى الموصل. ثم سار إلى الأكراد بجبل السلق فدخله وحاصرهم بقنّته، وطال حصارهم واشتد البرد وعدمت الأقوات، وطلب محمد بن سلال النجاة بأهله وولده، فنجا واستولى ابن حمدان على أموالهم وأهليهم وأمّنهم. ثم استأمن محمد بن سلال فأمنه وحضر عنده وأقام بالموصل وتتابع الأكراد الحميدية مستأمنين، واستقام أمر أبي الهيجاء بالموصل. ثم انتقض سنة إحدى وثلثمائة فبعث إليه المقتدر مؤنساً الخادم فجاء بنفسه مستأمناً ورجع به إلى بغداد، فقبله المقتدر وأكرمه. وبقي ببغداد إلى أن انتقض أخوه الحسين بديار ربيعة سنة ثلاث وثلثمائة. وسارت العساكر فجاؤوا به أسيراً. فحبس المقتدر عند ذلك أبا الهيجاء وأولاده، وجمع إخوته بداره ثم أطلقهم سنة خمس وثلثمائة.

أخبار ابن الليث بفارس

قد تقدم لنا استقلال طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ببلاد فارس وأن المكتفي عقد له عليها سنة تسعين، ثم أنه تشاغل باللّهو والصيد، وأعرض عن أمور ملكه. ومضى في بعض الأيام إلى سجستان فوثب على فارس الليث بن علي بن الليث، وسيكرى مولى عمرو بن الليث، فاستوحش منهما أحد قوادهما يعرف بأبي قابوس، وفارقهما إلى بغداد وأحسن المكتفي إليه. ثم كتب إليه طاهر في رد أبي قابوس إليه، ويحتسب له ما معه من أموال الجباية فأعرض الخليفة عن ذلك.

الصوائف

وفي سنة إحدى وتسعين خرج الروم إلى الثغور في مائة ألف، وقصد جماعة منهم الحدث. ثم غزا بالصائفة من طرسوس القائد المعروف غلام زرافة، ففتح مدينة أنطاكية وفتحها عنوة فقتل خمسة آلاف من مقاتلتهم وأسر مثلها. واستنقذ من أسرى المسلمين مثلها، وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق، فقسمها مع غنائم أنطاكية، فكان السهم ألف دينار. وفي سنة اثنتين وتسعين أغار الروم على مرعش ونواحيها، فخرج أهل المصيصة وأهل طرسوس فأصيب منهم جماعة، فعزل المكتفي أبا العشائر عن الثغور وولى رستم بن برد، فكان على يديه الفداء، وفودي ألف من المسلمين. ثم أغارت الروم سنة ثلاث وتسعين على موارس من أعمال حلب، وقاتلهم أهلها فانهزموا وقتل منهم خلق، ودخلها الروم فأحرقوا جامعها وأخذوا من بقي فيها.

وفي سنة أربع وتسعين غزا ابن كيغلغ من طرسوس فأصاب من الروم أربعة آلاف سبياً، واستأمن بطريق من الروم فأسلم. ثم عاود ابن كيغلغ الغزو وبلغ سكند وافتتحها، وسار إلى الليس فبلغ خمسين ألف رأس. وقتل من الروم خلقاً ثم استأمن البطريق المتولي الثغور من جهة الروم إلى المكتفي، وخرج بمائتي أسير من المسلمين. وكان ملك الروم قد شعر بأمره وبعث من يقبض عليه، فقتل الأسرى المسلمون من جاء للقبض عليه وغنموا عسكرهم. واجتمع الروم على محاربة البطريق انذوقس وزحف المسلمون لخلاصه وخلاص من معه من الأسرى، فبلغوا قونية وخربوها وانصرف الروم، ومر المسلمون في طريقهم بحصن اندوس فخرج معهم بأهله وسار إلى بغداد. وفي سنة إحدى وتسعين خرج الترك إلى ما وراء النهر في خلق لا يحصون، فبعث إليهم إسماعيل عسكراً عظيماً من الجند والمتطوعة فكبسوهم واستباحوهم. وفي سنة ثلاث وتسعين افتتح إسماعيل مدائن كثيرة من بلاد الترك والديلم.

الولايات بالنواحي

قد ذكرنا ولايات خاقان المفلحي على الري، ثم إسماعيل بن أحمد بن سامان بعده. وولاية عيسى النوشري على مصر بعد انتزاعها من بني طولون، وولاية أبي العشائر أحمد بن نصر على طرسوس وعزل مظفر بن حاج عنها سنة تسعين، ثم عزل أبي العشائر وولاية رستم بن برد، سنة اثنتين وتسعين. وانتزاع الليث بن علي بن الليث بلاد فارس من يد طاهر بن محمد سنة ثلاث وتسعين بعد أن كان المكتفي عقد له عليها سنة تسعين، وولاية أبي الهيجاء عبد اللّه بن حمدان على الموصل سنة ثلاث وتسعين. وفي هذه السنة ثار داعية القرامطة باليمن إلى صنعاء فملكها واستباحها وتغلب على كثير من مدن اليمن وبعث المكتفي المظفر بن الحاج في شوال من هذه السنة إلى عمله باليمن فأقام به. وفي سنة إحدى وتسعين توفي الوزير أبو القاسم بن عبيد اللّه واستوزر مكانه العباس بن الحسن.

وفاة المكتفي وبيعة المقتدر

ثم توفي المكتفي باللّه أبو محمد علي بن المعتضد في شهر جمادى سنة خمس وتسعين لست سنين ونصف من ولايته، ودفن بدار محمد بن طاهر من بغداد بعد أن عهد بالأمر إلى أخيه جعفر. وكان الوزير العباس بن الحسن قد استشار أصحابه فيمن يوليه، فأشار محمد بن داود بن الجراح بعبد اللّه بن المعتز، ووصفه بالعقل والرأي والأدب، وأشار أبو الحسين بن محمد بن الفرات بجعفر بن المعتضد بعد أن أطال في مفاوضته وقال له: اتق اللّه ولا تول إلا من خبرته ولا تول البخيل فيضيق على الناس في الأرزاق، ولا الطماع فيشره إلى أموال الناس، ولا المتهاون بالدين فلا يجتنب المآثم ولا يطلب الثواب. ولا تول من خبر الناس وعاملهم واطلع على أحوالهم، فيستكثر على الناس نعمهم، وأصلح الموجودين مع ذلك جعفر بن المعتضد. قال: ويحك وهو صبي؟ فقال: وما حاجتنا بمن لا يحتاج إلينا ويستبد علينا! ثم استشار علي بن عيسى فقال: اتق اللّه وانظر من يصلح. فمالت نفس الوزير إلى جعفر كما أشار ابن الفرات، وكما أوصى أخوه، فبعث صائفاً الخدمي فأتى به من داره بالجانب الغربي، ثم خشي عليه غائلة الوزير

فتركه في الحراقة، وجاء إلى دار الخلافة فأخذ له البيعة على الحاشية. ثم جاء به من الحراقة وأقعده على الأريكة وجاء الوزير والقواد فبايعوه، ولقب المقتدر بالله وأطلق يد الوزير في المال وكان خمسة عشر ألف ألف دينار فأخرج منه حق البيعة واستقام الأمر.

خلع المقتدر بابن المعتز وإعادته

ولما بويع المقتدر وكان عمره ثلاث عشرة سنة استصغره الناس وأجمع الوزير خلعه والبيعة لأبي عبد الله محمد بن المعتز وراسله في ذلك، فأجاب وانتظر قدوم نارس حاجب إسماعيل بن سامان، كان قد انتقض إلى مولاه وسار عنه، فاستأذن في القدوم إلى بغداد وأذن له. وقصد الاستعانة به على موالي المعتضد. وأبطأ نارس عليه، وهلك أبو عبد الله بن المقتدر خلال ذلك فصرف الوزير وجهه لأبي الحسين بن الموكل فمات، فأقر المقتدر، ثم بدا له وأجمع عزله، واجتمع لذلك مع القواد والقضاة والكتاب وراسلوا عبد الله بن المعتز فأجابهم على أن لا يكون قتال. فأخبروه باتفاقهم وأن لا منازع لهم. وكان المتولون لذلك الوزير العباس بن الحسين ومحمد بن داود بن الجراح وأبا المثنى أحمد بن يعقوب القاضي، ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوارتكين.

ثم رأى الوزير أمره صالحاً مع المقتدر فبدا له في ذلك فأجمع الآخرون أمرهم، واعترضه الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف في طريق لستانة فقتلوه لعشر بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين، وخلعوا المقتدر من الغد وبايعوا لابن المعتز، وكان المقتدر في الحلبة يلعب الأُكرة، فلما بلغه قتل الوزير دخل الدار وأغلق الأبواب، وجاء الحسين بن حمدان إلى الحلبة ليفتك به فلم يجده، فقدم وأحضروا ابن المعتز فبايعوه، وحضر الناس والقواد وأرباب الدواوين سوى أبي الحسن بن الفرات وخواص المقتدر فلم يحضروا.

ولقب ابن المعتز المرتضي بالله، واستوزر محمد بن داود بن الجراح، وقلد علي بن موسى الدواوين، وبعث إلى المقتدر بالخروج من دار الخلافة، فطلب الإمهال إلى الليل، وقال مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وعريب الخال وسائر الحاشية: لا بد أن يبدي عذراً فيما أصابنا. وباكر الحسين بن حمدان من الغد دار الخلافة فقاتله الغلمان والخدم من وراء السور وانصرف. فلما جاء الليل سار الموصل بأهله، وأجمع رأي أصحاب المقتدر على قصد ابن المعتز في داره فتسلحوا وركبوا في دجلة، فلما رآهم أصحاب ابن المعتز اضطربوا وهربوا واتهموا الحسين بن حمدان أنه قد واطأ المقتدر عليهم، وركب ابن المعتز ووزيره محمد بن داود بن الجراح وخرجوا إلى الصحراء ظناً منهم أن الجند الذين بايعوهم يخرجون معهم، وأنهم يلحقون بسامرا فيمتنعون، فلما تفردوا بالصحراء رجعوا إلى البلد وتسربوا في الدور، واختفى ابن الجراح في داره، ودخل ابن المعتز ومولاه دار أبي عبد الله بن الجصاص مستجيراً به.

وثار العيارون والسُّفل ينتهبون. وفشا القتل وركب ابن عمرويه صاحب الشرطة، وكان ممن بايع ابن المعتز، فنادى بشار المقتدر مغالطاً، فقاتله فهرب واستتر، وأمر المقتدر مؤنساً الخازن فزحف في العسكر وقبض على وصيف بن صوارتكين فقتله، وقبض على القاضي أبي عمر علي بن عيسى والقاضي محمد بن خلف، ثم أطلقهم وقبض على القاضي أبي المثنى أحمد بن يعقوب، قال له: بايع المقتدر! قال: هو صبي! فقتله وبعث المقتدر إلى أبي الحسن بن الفرات كان مختفياً فأحضره واستوزره. وجاء سوسن خادم ابن الجصاص فأخبر صافياً الخرمي مولى المقتدر بمكانه عندهم، فكبست الدار وأخذ ابن المعتز وحبس إلى الليل، ثم خصيت خصيتاه فمات وسُلّم إلى أهله وأخذ ابن الجصاص وصودر على مال كثير، وأخذ محمد بن داود وزير ابن المعتز وكان مستتراً فقتل.

ونفي علي بن عيسى بن علي إلى واسط، واستأذن من ابن الفرات في المسير إلى مكة فسار إليها على طريق البصرة وأقام بها، وصودر القاضي أبو عمر على مائة ألف دينار، وسارت العساكر في طلب الحسين بن حمدان إلى الموصل فلم يظفروا به، وشفع الوزير ابن الفرات في ابن عمروية صاحب الشرطة وإبراهيم بن كيغلغ وغيرهم. وبسط ابن الفرات الإحسان وأدرّ الأرزاق للعباسيين والطالبيين وأرضى القواد بالأموال، ففرق معظم ما كان في بيت المال، وبعث المقتدر القاسم بن سيما وجماعة من القواد في طلب الحسين بن حمدان، فبلغوا قرقيسيا والرحبة ولم يظفروا به، وكتب المقتدر إلى أخيه أبي الهيجاء وهو عامل الموصل بطلبه، فسار مع القاسم بن سيما والقواد ولقوه عند تكريت فهزموه، وبعث مع أخيه إبراهيم يستأمن فأمنوه وجاؤوا به إلى بغداد، فخلع عليه المقتدر وعقد له على قم وقاشان، وعزل عنها العباس بن عمر الغنوي فسار إليها الحسين، ووصل نارس مولى إسماعيل بن سامان فقلده المقتدر ديار ربيعة.

ابتداء دولة العبيديين من الشيعة بأفريقية

نسبة هؤلاء العبيديين إلى أول خلفائهم، وهو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، ولا يلتفت لإنكار هذا النسب، فكتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار يغريهم بالقبض عليه لما سار إلى المغرب شاهد بصحة نسبهم وشعر الشريف الرضي في قوله:

ألبس الذل في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي
مَن أبوه أبي ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد النا ... س جميعاً محمد وعلي

وأما المحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر بالقدح في نسبهم، وشد فيه أعلام الأئمة مثل القدوري والصهيري وأبي العباس الأبيوردي وأبي حامد الأسفرايني وأبي الفضل النسوي وأبي جعفر النسفي. ومن العلوية المرتضى وابن البطحاوي، وابن الأزرق، وزعيم الشيعة أبو عبد الله بن النعمان، فهي شهادة على السماع. وكان ذلك متصلا في دولة العباسية منذ مائتين من السنين فاشياً في أمصارهم وأعصارهم. والشهادة على السماع في مثله جائزة على أنها شهادة نفي. ولا تعارض ما ثبت في كتاب المعتضد مع أن طبيعة الوجود في الانقياد لهم، وظهور كلمتهم أدلُّ شيء على صدق نسبهم.

وأما من جعل نسبهم في اليهودية أو النصرانية كميمون القداح وغيره فكفاه إثماً تعرضه لذلك. وأما دعوتهم التي كانوا يدعون لها فقد تقدم ذكرها في مذاهب الشيعة من مقدمة الكتاب، وانقسمت مذاهب الشيعة مع اتفاقهم على تفضيل علي على جميع الصحابة إلى الزيدية القائلين بصحة إمامة الشيخين مع فضل علي، ويجوزون إمامة المفضول وهو مذهب زيد الشهيد وأتباعه، والرافضة ويدعون بالإمامية المتبرئين من الشيخين بإهمالهما وصية النبي ﷺ بخلافة علي. مع أن هذه الوصية لم تنقل من طريق صحيح قال بها أحد من السلف الذين يُقتدى بهم، وإنما هي من أوضاع الرافضة.

وانقسم الرافضة بعد ذلك إلى اثني عشرية نقلوا الخلافة من جعفر بعد الحسن والحسين وعلي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم وولده على سلسلة واحدة إلى تمام الاثني عشر، وهو محمد المهدي وزعموا أنه دخل سرداباً وهم في انتظاره إلى الآن. وإلى الإسماعيلية نقلوا الخلافة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ثم ساقوها في عقبه فمنهم من انتهى بها إلى عبيد الله هذا المهدي، وهم العبيديون، ومنهم من ساقها إلى يحيى بن عبيد الله بن محمد المكتوم. وهؤلاء طائفة من القرامطة وهي من كذباتهم، ولايعرف لمحمد بن إسماعيل ولد اسمه عبيد الله. وكان شيعة هؤلاء العبيديين بالمشرق واليمن وأفريقية. وسار بها إلى أفريقية رجلان يعرف أحدهما بالحلواني والآخر بالسفياني أنفذهما الشيعة إلى هنالك وقالوا لهما: إن العرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيا صاحب البذر، وسارا لذلك ونزلا أرض كتامة، أحدهما ببلد يسمى سوق حمار.

وفشت هذه الدعوة منهما في أهل تلك النواحي من البربر وخصوصاً في كتامة، وكانوا يزعمون أن النبي ﷺ أوصى إلى علي بالخلافة بالنصوص الجلية وعدل عنها الصحابة إلى غيره فوجب البراءة ممن عدل عنها. ثم أوصى علي إلى ابنه الحسن ثم الحسن إلى أخيه الحسين، ثم الحسين إلى ابنه علي زين العابدين، ثم زين العابدين إلى ابنه محمد الباقر، ثم محمد الباقر إلى ابنه جعفر الصادق، ثم جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل الإمام، ومنه إلى ابنه محمد، ويسمونه المكتوم لأنهم كانوا يكتمون اسمه حذراً عليه. ثم أوصى محمد المكتوم إلى ابنه جعفر المصدق، وجعفر المصدق إلى ابنه محمد الحبيب، ومحمد الحبيب إلى ابنه عبيد الله المهدي الذي دعا له أبو عبد الله الشيعي. وكانت شيعهم منتشرين في الأرض من اليمن إلى الحجاز والبحرين والطرق وخراسان والكوفة والبصرة والطالقان. وكان محمد الحبيب ينزل سلمية من أرض حمص، وكان عادتهم في كل ناحية يدعون للرضا من آل محمد، ويرومون إظهار الدعوة بحسب ما عليهم. وكان الشيعة من النواحي يعلمون مكيهم في أكبر الأوقات لزيارة قبر الحسين، ثم يعرجون على سلمية لزيارة الأئمة من ولد إسماعيل -وكان باليمن من شيعتهم-. ثم بعده لأئمة قوم يعرفون ببني موسى ورجل آخر يعرف بمحمد بن الفضل أصله من جند. وجاء محمد إلى زيارة الإمام محمد الحبيب. فبعث معه أصحابه رستم بن الحسين بن حوشب بن داود النجار، وهو كوفي الأصل وأمره باقامة الدعوة، وأن المهدي خارج في هذا الوقت، فسار إلى اليمن ونزل على بني موسى وأظهر الدعوة هنالك للمهدي من آل محمد الذي ينعتونه بالنعوت المعروفة عندهم، فاتبعه واستولى على كثير من نواحي اليمن.

وكان أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالمحتسب، وكان محتسباً بالبصرة. وقيل: إنما المحتسب أخوه أبو العباس المخطوم وأبو عبد الله يعرف بالعلم. لأنه كان يعرف مذهب الإمامية الباطنية، قد اتصل بالإمام محمد الحبيب وخبر

أهليته، فأرسله إلى أبي حوشب، ولزم مجالسته وأفاد علمه. ثم بعثه مع الحاج اليمني إلى مكة، وبعث معه عبد الله بن أبي ملا، فأتى الموسم ولقي به رجالات كتامة مثل حريث الحميلي وموسى بن مكاد، فاختلط بهم وعكفوا عليه لما رأوا عنده من العبادة والزهد، ووجه إليهم بدراً من ذلك المذهب، فاغتبط واغتبطوا وارتحل معهم إلى بلدهم ونزل بها منتصف ربيع سنة ثمان وثلاثين، وعين لهم مكان منزله بفتح الأحار وأن النص عنده من المهدي بذلك ولجهره بالمهدي وأن أنصاره الأخيار من أهل زمانه، وأن اسم أنصاره مشتق من الكتمان ولم يعينه، واجتمع لمناظرته كثير من أهل كتامة فأبى، ثم أطاعوه بعد فتن وحروب. واجتمعوا على دعوته وكانوا يسمونه أبا عبد الله المشرقي والشيعي.

ولما اختلف كتامة عليه واجتمع كثير منهم على قتله قام بنصرته الحسن بن هارون، وسار به إلى جبل إيكجان وأنزله مدينة تاصروت من بلد زرارة، وقاتل من لم يتبعه بمن تبعه حتى استقاموا جميعاً على طاعته. وبلغ خبره إبراهيم بن أحمد بن الأغلب عامل أفريقية بالقيروان، فأرسل إلى عامل ميلة يسأله عن أمره فحقره وذكر أنه رجل يلبس الخشن، ويأمر بالعبادة والخير فأعرض عنه حتى إذا اجتمع لأبي عبد الله أمرُه، زحَف في قبائل كتامة إلى بلد ميلة فملكها على الأمان بعد الحصار، فبعث إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ابنه الأحول في عسكرهم يجاور عشرين ألفاً، فهزم كتامة وامتنع أبو عبد الله بجبل إيكجان، وأحرق الأحول مدينة تاصروت ومدينة ميلة، وعاد إلى أفريقية، وبنى أبو عبد الله بجبل إيكجان مدينة سماها دار الهجرة. ثم توفي إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقية وولي ابنه أبو العباس، وقتل واستقر الأمر لزيادة الله، وكان الأحول حمل العساكر لحضوره فاستقدمه زيادة الله وقتله.

وفاة الحبيب وإيصاؤه لابنه عبيد الله

ولما توفي محمد الحبيب وأوصى لابنه عبيد الله، وقال له: أنت المهدي وتهاجر بعدي هجرة بعيدة، وترى محناً شديدة. فقام عبيد الله بالأمر وانتشرت دعوته وأرسل إليه أبو عبد الله الشيعي رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم، وأنهم في انتظاره. وشاع خبره وطلبه المكتفي فهرب هو وولده نزار الذي ولي بعده وتلقب بالقائم. وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب. وانتهى إلى مصر وعليها يومئذ عيسى النوشري، فلبس عبيد الله زي التجار يتستر به. وجاء كتاب المكتفي للنوشري بالقبض عليه، وفيه صفته وحليته، فبعث العيون في طلبه. ونمي الخبر بذلك إلى عبيد الله من بعض خواص النوشري فخرج في رفقة، ورآه النوشري وأحضره ودعاه للمؤاكلة فاعتذر بالصوم، ثم امتحنه فلم تشهد له أحواله بشيء مما ذكر له عنه.

وقارن ذلك رجوع ابنه أبي القاسم يسأل عن كلب للصيد ضاع له، فلما رآه النوشري وأخبر أنه ولد عبد الله علم أن هذه الدالة في طلب الضائع منافيه للرقبة والخوف، فخلى سبيله. وجدَّ المهدي في السير وكان له كتب من الملاحم ورثها منقولة عن أبيه سرقت من رحله في تلك الطريق، ويقال: إن ابنه أبا القاسم لما زحف إلى مصر أخذها من بلاد برقة. ولما انتهى المهدي وابنه إلى طرابلس وفارقه التجار أهل الرفقة، قدم أبا العباس أخا أبي عبيد الله الشيعي إلى أخيه بكتامة، ومر بالقيروان، وقد سبق خبرهم إلى زيادة الله وهو يسأل عنهم، فقبض على أبي العباس وسأله فأنكر فحبسه، وكتب إلى عامل طرابلس بالقبض على المهدي ففاته، وسار إلى قسنطينة فعدل عنها خشية على أبي العباس أخي الشيعي المعتقل بالقيروان، وذهب إلى سجلماسة وبها إليشع بن مدرار فأكرمه.

ثم جاءه كتاب زيادة الله ويقال: كتاب المكتفي بأنه المهدي الذي داعيه في كتامة فحبسه، وبعث زيادة الله العساكر إلى كتامة مع قريبه إبراهيم بن حبش وكانوا أربعين ألفاً، فانتهى إلى قسنطينة فأقام بها وهم متحصنون بخيلهم ستة أشهر. ثم زحف إليهم ودافعهم عند مدينة بلزمة فانهزم إلى القيروان. وكتب أبو عبد الله بالفتح إلى المهدي وهو في محبسه. ثم زحف إلى مدينة طبنة فحاصرها وملكها بالأمان، ثم إلى مدينة بلزمة فملكها عنوة، فبعث زيادة الله العساكر مع هارون الطبني فانتهوا إلى مدينة دار ملوك، وكانوا قد أطاعوا الشيعي فهدمها هارون، وقتل أهلها، وسار إلى الشيعي فانهزم من غير قتال وقتل.

وفتح الشيعي مدينة عيسى فزحف زيادة الله في العساكر سنة خمس وتسعين ونزل الأربس ثم أشار عليه أصحابه بالرجوع إلى القيروان ليكون ردءاً للعساكر، فبعث الجيوش مع إبراهيم بن أبي الأغلب من قرابته ورجع، وزحف أبو عبد الله إلى باغاية فهرب عاملها وملكها. ثم إلى مدينة مرماجنة فافتتحها عنوة وقتل عاملها ثم إلى مدينة تيفاش فملكها على الأمان، واستأمن إليه القبائل من كل جهة فأمنهم وسار بنفسه إلى مسلبابة ثم إلى تبسة ثم إلى مجانة ففتحها على الأمان، ثم سار إلى القصرين من قمودة وأمن أهلها وسار يريد قاده وبلغ الخبر إلى إبراهيم بن أبي الأغلب وهو بالأربس أميراً على الجيش، فخشي على زيادة الله برقادة

لقلة عسكره، وارتحل ذاهباً إليه، وسار أبو عبد الله إلى قسنطينة فحاصرها وافتتحها على الأمان ورجع إلى باغاية فأنزل بها عسكراً وعاد إلى ايكجان فسار إبراهيم بن أبي الأغلب إلى باغاية وحاصر أصحاب أبي عبد الله بها، فبعث أبو عبد الله عساكره إلى مرج العرعار فألفوا إبراهيم قد عاد عنها إلى الأربس. ثم زحف أبو عبد الله إلى إبراهيم سنة ست وتسعين في مائة ألف مقاتل وبعث من عسكره من يأتي إبراهيم من خلفه، وسار إليه فانهزم وأثخن فيهم أبو عبد الله بالقتل والأسر، وغنم أموالهم وخيلهم وظهرهم. ودخل الأربس فاستباحها، ثم سار فنزل قمودة، وبلغ الخبر إلى زيادة الله فهرب إلى مصر.

وافترق أهل مدينة رقادة إلى القيروان وسوسة ونهب قصور بني الأغلب ووصل إبراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان، فنزل قصر الإمارة وجمع الناس ووعدهم الحماية، وطلب المساعدة بطاعتهم وأموالهم، فاعتذروا وخرجوا إلى الناس فأخبروهم، فثاروا به وأخرجوه. وبلغ أبا عبد الله الشيعي هرب زيادة الله وهو يشبه فدخل إلى رقادة وقدم بين يديه عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير فساروا وأمنوا الناس. وخرج أهل القيروان للقاء أبي عبد الله فأكرمهم وأمنهم، ودخل رقادة في رجب سنة ست وتسعين، ونزل قصورها وفرق دورها على كتامة ونادى بالأمان. وتراجع الناس فأخرج العمال وطلب أهل الشر فهربوا، وجمع أموال زيادة الله وسلاحه وأمر بحفظها وبحفظ جواريه، واستأذنه الخطباء لمن يخطبون فلم يعين لهم أحداً. ونقش على السكة من أحد الوجهين بلغت حجة الله، ومن الآخر تفرق أعداء الله، وعلى السلاح عدة في سبيل الله، ووسم أفخاذ الخيل بالملك لله.

بيعة المهدي بسجلماسة

ولما ملك أبو عبد الله أفريقية لقيه أخوه العباس منطلقاً من اعتقاله، فاستخلفه عليها وترك معه أبا زاكي تمام بن معارك من قواد كتامة. وسار إلى المغرب ففرق القبائل من طريقه، وخافته زناتة فدخلوا في طاعته، ولما قرب من سجلماسة إلى المهدي بمحبسه يسأله عن حاله فأنكر، ثم سأل ولده كذلك فأنكر، وضرب رجاله فأنكروا، ونمي الخبر إلى أبي عبد الله فخشي عليهم وأرسل إلى اليسع يتلطفه فقتل الرسل فأغذ أبو عبد الله السير وحاصره يوماً وهرب اليسع من الليل هو وأصحابه وبنو عمه. وخرج أهل البلد إلى أبي عبد الله فجاء إلى مجلس المهدي فأخرجه هو وابنه أبا القاسم، وأركبهما ومشى مع رؤساء القبائل بين يديهما وهو يقول: هذا مولاكم ويبكي من شدة الفرح، ثم أنزله بالمخيم وبعث في أثر اليسع فجيء به فجلد، ثم قتل، وأقام بسجلماسة أربعين يوماً ورجع إلى أفريقية، ووصل إلى رقادة في ربيع من سنة ست وتسعين وجدد البيعة للمهدي واستولى على ملك بني الأغلب بأفريقية. وملك مدرارسجلماسة ونزل برقادة وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين وبعث دعاته في الناس فحملوهم على مذهبهم فأجابوا إلا قليلاً عرض عليهم السيف، وقسم الأموال والجواري في رجال كتامة، وأقطعهم الأموال والأعمال، ودوّن الدواوين وجبى الأموال وبعث العمال على البلاد. فبعث على صقلية الحسن بن أحمد بن أبي خنزير فوصل إلى مازر في عيد الأضحى من سنة تسع وتسعين، فاستقضى بها إسحاق بن المنهال، وأجاز البحر سنة ثمان وتسعين إلى بسط قلورية فأثخن فيها وعاد وثار به أهل صقيلية سنة تسع وتسعين فحبسوه واعتذروا إلى المهدي لسوء سيرته، فعذرهم وولى عليهم علي بن عمر البلوي فوصل إليهم خاتمة السنة المذكورة.

أخبار ابن الليث بفارس

قد ذكرنا من قبل استيلاء الليث بن علي بن الليث وسيكرى مولى عمر بن الليث على فارس من يد طاهر بن محمد. ثم أخرج سيكرى بعد ذلك الليث وانفرد بها، وسار إليه طاهر بن محمد بن عمرو، فواقعه وانهزم طاهر وأسر سيكرى وأسر أخاه يعقوب، وبعث بهما إلى المقتدر مع كاتبه عبد الرحمن بن جعفر الشيرازي، وقد أمره على ما يحمله وذلك سنة ست وتسعين، ثم سار إليه الليث بن علي من سجستان سنة سبع وتسعين، فغلبه وملك فارس، وهرب سيكرى إلى أرجان وأمده المقتدر بمؤنس الخادم في العساكر، فجاء إلى أرجان وجاء الحسين بن حمدان من قم إلى البيضاء في إعانته، فسار لملاقاته وأضل الطريق إلى مسالك صعبة أشرف على عسكر مؤنس. وكان سيكرى قد بعث أخاه إلى شيراز ليحفظها، فلما أشرف على العسكر ظنه عسكر أخيه فثاروا إليه واقتتلوا وانهزم عسكر الليث وأخذ أسيراً. وأشار عليه أصحابه أن يقبض على سيكرى ويطلب من المقتدر ولاية فارس مكانه فوافقهم طاهر ودس إليه، فلحق بشيراز وعاد مؤنس إلى بغداد بالليث أسيراً، والحسين بن حمدان إلى عمله بقم.

ثم إن عبد الرحمن بن جعفر كاتب سيكري استولى على أمره، وحسده أصحابه وأكثروا السعاية فيه عند سيكرى فحبسه، واستكتب مكانه إسماعيل بن إبراهيم اليمن، فحمله على العصيان

ومنع الحمل ودس عبد الرحمن بن جعفر من محبسه إلى الوزير ابن الفرات بذلك، فكتب إلى مؤنس وهو بواسط يأمره بالعود إلى فارس، فسار وأرسله سيكري أنسه وسأل منه الوساطة في أمره، وشعر ابن الفرات بميل مؤنس إلى بغداد، وسار محمد بن جعفر فهزم سيكرى على شيراز فخلص إلى قم وتحصن بها، وحاصره محمد بن جعفر ثم خرج إليه فهزمه ثانية، ودخل مغارة خراسان فلقيته عساكر إسماعيل إلى بغداد، فحبسا هنالك واستولى محمد بن جعفر من القواد على فارس وولى عليها قبيحاً خادم الأفشين، ثم صارت ولايتها لبدر ابن عبد اللّه الحمامي.

وفي آخر سنة تسع وتسعين ومائتين قبض حرمه وقامت الهيعة ببغداد ثلاثة أيام، ثم سكنت وذلك لثلاث سنين وثلاثة أشهر من وزارته. فاستوزر مكانه أبا علي محمد بن يحيى بن عبيد اللّه بن يحيى، فرتب الأمور وولي على الدواوين. ثم زاد قرفه لضيق صدره وطيشه وعدوله عن مذاهب الرياسة إلى الوضاعة ومراجعة أصحاب الحاجات والحقوق إلى ما يريد قضاءه منها، وكثرة التولية والعزل وتبجح أصحابه عليه في إطلاق الأموال وانبساط الجاه بإفساد الأحوال. واعتزم المقتدر على عزله بأبي الحسين بن أبي الفضل، فاستدعاه من أصبهان، ثم قبض عليه وعلى أبي الحسن ببغداد، وأهمل رأي الوزراء وصار يرجع إلى قول النساء والخدم، فطمع العمال في الأطراف، ثم أخرج ابن الفرات من محبسه وجعله في بعض الحجر، وأحسن إليه وصار يعرض عليه مطالعات العمال، وأراد أن يستوزره ثم بدا له واستدعى علي بن عيسى من مكة فاستوزره لأول سنة إحدى وثلثمائة، وقبض على الخاقاني وحبسه وعين حرسياً عليه. وقام علي بن عيسى بالوزارة وأصلح ما أفسده الخاقاني واستقامت الأمور.

قيام أهل صقلية بدعوة المقتدر ثم رجوعهم إلى طاعة المهدي

قد ذكرنا ولاية علي بن عمر على صقلية من عبد اللّه المهدي سنة تسع وتسعين. ثم إن أهل صقلية انتقضوا عليه وولوا عليهم أحمد بن موهب ثم انتقضوا عليه وأرادوا قتله فدعا إلى طاعة المقتدر وخطب له بصقلية، وقطع خطبة المهدي وبعث أسطولاً إلى ناحية ساحل أفريقية، فلقوا أسطول المهدي، وعليه الحسن بن أبي خنزير، فأحرقوه وقتلوا الحسن ووصلت خلع السواد والويته لابن وهب من بغداد ثم جاءت أساطيل المهدي في البحر وفسد أمر ابن وهب ثم ثارت أهل صقلية به سنة ثلاثمائة وأسروه وبعثوا به إلى المهدي مع جماعة من أصحابه فأمرهم بقتلهم على قبر ابن أبي خنزير.

ولاية العهد

وفي سنة إحدى وثلثمائة ولي المقتدر ابنه أبا العباس العهد وهو الذي ولي الخلافة بعد القاهر وسمي بالرافضي فولاه أبوه المقتدر العهد وهو ابن سنين وقلده مصر والمغرب، واستخف له عليها مؤنساً الخادم وولى ابنه الآخر علياً على الري ودنباوند وقزوين وأذربيجان وأبهر.

ظهور الأطروش وملكه خراسان

كان هذا الأطروش من ولد عمر بن علي زين العابدين وهو الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر وكان قد دخل إلى الديلم بعد قتل محمد بن زيد، ولبث فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويأخذ منهم العشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسان، فأسلم على يديه منهم خلق كثير وبنى لهم المساجد، وزحف بهم إلى ثغور المسلمين، وقراهم مثل قزوين وسالوس فأطاعوه، وهدم حصن سالوس. ثم دعاهم إلى غزو طبرستان وهي في طاعة ابن سامان، وكان إسماعيل بن أحمد لما انتقض بها محمد بن هارون، وقبض عليه إسماعيل ولى عليها أبا العباس عبد اللّه بن محمد بن نوح، فأحسن السيرة وأظهر العدل، وبالغ في الإحسان إلى العلوية الذين بها، واستمال الديلم بالمهاداة والإحسان، فاشتمل الناس عليه.

فلما دعاهم الحسن إلى غزو طبرستان، لم يجيبوه من أجل ابن نوح. ثم إن أحمد بن إسماعيل عزل ابن نوح عنها، وولى عليها سلاماً فأساء السيرة ولم يحسن سياسة الديلم. فهاجوا عليه فقاتلهم وهزمهم، واستعفى من ولايتها فعاد إليها ابن نوح وصلحت الحال كما كانت إلى أن مات، فولى عليها محمد بن إبراهيم بن صعلوك، فأساء السيرة وتنكر للديلم فصادف الحسن منها الغِرّة ودعاهم إلى غزو طبرستان فأجابوه، وسار إليه ابن صعلوك على من يرحّله من سالوس بشاطئ البحر، فانهزم وقتل من أصحابه أربعة آلاف، ولجأ الباقون إلى سالوس، فحاصرهم الأطروش حتى استأمنوا، ورجع عنهم إلى آمد.

ثم جاء الحسن بن القاسم العلوي الداعي صهر الأطروش

إلى أولئك المستأمنين فقتلهم، واستولى الأطروش على طبرستان، ولحق ابن صعلوك بالري سنة إحدى وثلثمائة، وسار منها إلى بغداد وكان الأطروش زيدي المذهب، وجميع الذين أسلموا على يده فيما وراء اسعيد ولي إلى آمد كلهم على مذهب الشيعة. ثم إن الأطروش العلوي تنحى عن آمد إلى سالوس بعد أن غلب عليها، فبعث إليه صعلوك الري من قبل ابن سامان جيشاً فهزمهم وعاد إلى آمد. ثم زحفت إليه عساكر السعيد صاحب خراسان سنة أربع وثلثمائة فقتلوه.

وكان هذا الأطروش عادلاً حسن السيرة لم ير مثله في أيامه وأصابه الصمم من ضربة في رأسه بالسيف في الحرب. وقال ابن مسكويه في كتاب تجارب الأمم ويقال فيه الحسن بن علي الدعي وليس به، وإنما الداعي الحسن بن القاسم صهره، وسنذكره فيما بعد. وكان له من الولد أبو الحسن، وكان قواده من الديلم جماعة منهم ابن النعمان وكانت له ولاية جرجان، وما كان ابن كالي وكان على استراباذ ومعرا. ثم كان من قواد ولده من الديلم جماعة آخرون منهم أسفار بن شيروية من أصحاب ما كان ابن كالي ومرداويج بن زياد من أصحاب أسفار، وأسكرى من أصحابه أيضاً، وبنو بوية من أصحاب مرداويج، وسيأتي الخبر عن جميعهم إن شاء اللّه تعالى.

غلب المهدي على الإسكندرية ومسير مؤنس إلى مصر

وفي سنة اثنتين وثلاثمائة بعث عبيد اللّه المهدي عساكره من أفريقية إلى الإسكندرية مع قائده خفاشة الكتابي فغلب عليها وسار إلى مصر، وبلغ المقتدر فبعث مؤنساً الخادم في العساكر لمحاربته، وأمده بالأموال والسلاح، وسار إليهم وقاتلهم فهزمهم بعد وقائع متعددة، قتل فيها من الفريقين، وبلغ القتل والأسر من المغاربة سبعة آلاف ورجعوا إلى المغرب.

انتقاض الحسين على ابن حمدان بديار ربيعة وأسره

كان الحسين بن حمدان والياً على ديار ربيعة وطالبه الوزير علي بن عيسى بالمال، فدافعه وأمره بتسليم البلاد إلى عمال السلطان فامتنع، وكان مؤنس الخادم بمصر في محاربة عساكر المهدي صاحب إفريقية، فجهز الوزير إلى ابن حمدان رائقاً الكبير في عسكر سنة ثلاث وثلاثمائة، وكتب إلى مؤنس أن يسير إلى الجزيرة لقتاله بعد فراغه من أصحاب العلوي بمصر، فسار رائق أولاً وهزمه الحسين، ولحق بمؤنس فأمره بالمقام بالموصل. وسار نحو الحسين وتبعه أحمد بن كيغلغ، وانتهى إلى جزيرة ابن عمر والحسين بأرمينية. ورجع الكثير من عسكره إلى مؤنس. ثم بعث مؤنس عسكراً في أثره عليهم بليق ومعه سيما الجزري. وجاء الصفواني واتبعوه فادركوه، وقاتلوه فهزموه، وجاؤوا به أسيراً ومعه ابنه عبد الوهاب وأهله وكثير من أصحابه. وعاد مؤنس إلى بغداد على الموصل، فحبسه المقتدر وأغار على أبي الهيجاء بن حمدان وجميع إخوته وحبسهم. ثم أطلق أبا الهيجاء سنة خمس وقتل الحسين سنة ست تقريباً كما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

وزارة ابن الفرات الثانية

كان الوزير أبو الحسن بن الفرات محبوساً كما ذكرنا وكان المقتدر يشاوره ويرجع إلى رأيه، ويبغي بعض أصحاب المقتدر إعادته. ويبلغ ذلك الوزير علي بن عيسى فاستعفى ومنعه المقتدر. ثم جاءت في بعض الأيام قهرمانة القصر تناظره في نفقات الحرم والحاشية وكسوتهم، فألفته نائماً فلم يوقظه لها أحد. فرجعت وشكت إلى المقتدر وأمه فقبض عليه في ذي القعدة من سنة أربع وثلاثمائة، وأعاد ابن الفرات على أن يحمل إلى بيت المال ألف دينار وخمسمائة دينار في كل يوم. وقبض على الوزير من قبله علي بن عيسى والخاقاني وأصحابهما، وصادرهم أبو علي بن مقلة وكان مختفياً منذ قبض على ابن الفرات فقدمه الآن واستخلصه.

خبر ابن أبي الساج بأذربيجان

قد ذكرنا استقرار يوسف بن أبي الساج على أرمينية وأذربيجان منذ مهلك أخيه محمد سنة ثمان وثمانين ومائتين، وكان على الحرب والصلاة والأحكام، وكان عليه مال يؤديه. فلما ولي الخاقان وعلي بن عيسى الوزارة، والتأمت أمور يوسف في الاستبداد، وأخر بعض المال واجتمع له ما يريده لذلك، وبلغته نكبة الوزير علي بن عيسى، فأظهر أن العهد وصل إليه بولاية الري على يد علي بن عيسى. وكان حميد بن صعلوك من قواد ابن سامان قد بعث على الري وما يليها، وقاطع عليها بمال يحمله فسار إليه يوسف سنة أربع وثلاثمائة فهرب إلى خراسان واستولى يوسف على الري وقزوين وزنجان، وكتب إلى الوزير ابن الفرات بالفتح ويعتذر بأنه طرد المتغلبين، ويذكر كثرة ما أنفق من ذلك،

وأنه كان بأمر الوزير علي بن عيسى وعهده إليه بذلك فاستعظم المقتدر ذلك، وسئل علي بن عيسى فأنكر وقال: سلموا الكتاب والحاشية والعهد واللواء اللذين كان يسير بهما مع بعض القواد والخدام.

فكتب ابن الفرات بالنكير على يوسف، وجهز العساكر لحربه مع خاقان المفلحي، ومعه أحمد بن مسرور البلخي، وسيما الخزري، ونحرير الصغير، وساوروا سنة خمس وثلاثمائة فهزمهم يوسف وأسر منهم جماعة فبعث المقتدر مؤنساً الخادم في جيش كثيف لمحاربته وعزل خاقان المفلحي عن أعمال الجبل، وولاها نحريراً الصغير. وسار مؤنس واستأمن له أحمد بن علي أخو صعلوك فأمنه وأكرمه، وبعث ابن أبي الساج في المقاطعة على أعمال الري بسبعمائة ألف دينار سوى أرزاق الجند والخدم، فأبى له المقتدر من ذلك عقوبة على ما أقدم عليه، وولى على ذلك العمل وصيفاً البكتمري، وطلب ابن أبي الساج أن يقاطعه على ما كان بيده قبل الري من أذربيجان وأرمينية، فأبى المقتدر إلا أن يحضر في خدمته.

فلما يئس ابن أبي الساج إلى مؤنس وقاتله، فانهزم مؤنس إلى زنجان وقتل من قواده جماعة، وأسر هلال بن بدر وغيره فحبسهم يوسف في أردبيل، وأقام مؤنس بزنجان بجميع العساكر يستمد من المقتدر وابن أبي الساج يراسله في الصلح، والمقتدر لا يجيب إلى ذلك. ثم قاتله مؤنس في فاتح سنة سبع وثلاثمائة عند أردبيل فهزمه وأسره وعاد به إلى بغداد أسيراً، فحبسه المقتدر وولى مؤنس على الري ودنباوند وقزوين وأبهر وزنجان علي بن وهشودان وجعل أموالها لرجاله، وولى مؤنس على أصبهان وقم وقاشان أحمد بن علي بن صعلوك، وسار عن أذربيجان فوثب سبك مولى يوسف بن أبي الساج فملكها واجتمع عليه عسكر فولى مؤنس بن محمد بن عبيد الفارقي وسار بمحاربة سبك فانهزم وعاد إلى بغداد.

وتمكن سبك في أذربيجان وسأل المقاطعة على مائتي ألف وعشرين ألف دينار في كل سنة. فأجيب وعقد له عليها، وكان مقيماً بقزوين فقتله على مراسة ولحق ببلده، فولى المقتدر وصيفاً البكتمري مكانه على أعمال الري، وولى محمد بن سليمان صاحب الجيش على الخوارج بها، ثم وثب أحمد بن علي بن صعلوك صاحب أصبهان وقم على الري، فملكها وكتب إليه المقتدر بالنكير، وأن يعود إلى قم، فعاد ثم أظهر الخلاف وأجمع المسير إلى الري، وسار وصيف البكتمري لحربه. وأمر نحرير الصغير أن يسير مدداً لبكتمري، فسبقهم أحمد بن صعلوك إلى الري وملكها، وقتل محمد بن سليمان صاحب الخوارج، وبعث إلى نصر الحاجب ليصلح أمره بالمقاطعة على أعمال الري بمائة وستين ألف دينار، وينزل عن قم فكتب له بذلك وولى غيره على قم.

خبر سجستان وكرمان

وكانت سجستان قد صارت لابن سامان منذ سنة ثمان وتسعين ومائتين، ثم تغلب عليها كثير بن أحمد بن صهفود من يده، فكتب المقتدر إلى عامل فارس وهو بدر بن عبد الله الحمامي أن يرسل العساكر لمحاربته، ويؤمر عليهم دركاً، ويجعل على الخراج بها زيد بن إبراهيم. فسارت العساكر وحاربوا أهل سجستان فهزموهم وأسروا زيد بن إبراهيم، وكتب كثير إلى المقتدر بالبراءة من ذلك، وطوية أهل سجستان. وأرسل المقتدر أن يسير لقتاله بنفسه، فخاف كثير وطلب المقاطعة على خمسمائة ألف دينار في كل سنة، فأجيب وقررت البلاد عليه، وذلك سنة أربع وثلاثمائة. وانتقض في هذه السنة بكرمان صاحب الخوارج بها أبو زيد خالد بن محمد المارداني، وسار منها إلى شيراز يروم التغلب على فارس فسار إليه بدر الحمامي العامل، وحاربه فقتله وحمل رأسه إلى بغداد.

وزارة حامد بن العباس

وفي سنة ست وثلثمائة قبض المقتدر على وزيره أبي الحسن بن الفرات بسبب شكوى الجند بمطله أرزاقهم، واعتذر بضيق الأموال للنفقة في حروب ابن أبي الساج، ونقص الارتياع بخروج الري عن ملكه. فشغب الجند وركبوا، وطلب ابن الفرات من الخليفة إطلاق مائتي ألف دينار من خاصته يستعين بها، فنكر ذلك عليه لأنه كان ضمن القيام بأرزاق الأحشاد وجميع النفقات المرتبة، فاحتج بنقص الارتياع وبالنفقة في الحرب كما تقدم، فلم يقبل. ويقال: سعى فيه عند المقتدر بأنه يروم إرسال الحسين بن حمدان إلى أبي الساج فيحاربه، وإذا سار عنده اتفقا على المقتدر، فقتل المقتدر ابن حمدان وقبض على ابن الفرات في جمادى الآخرة، وكان حامد بن العباس على الأعمال بواسط، وكان منافراً لابن الفرات، وسعى به عنده بزيادة ارتياعه على ضمانه، فخشيه حامد على نفسه.

وكتب إلى نصر الحاجب والي والده المقتدر سعة نفسه وكثرة أتباعه، وذلك عند استيحاشه من ابن الفرات، فاستقدمه من واسط، وقبض على ابن الفرات وابنه المحسن وأتباعهما، واستوزر

حامداً فلم يوف حقوق الوزارة ولا سياستها، وتحاشى عليه الدواوين فأطلق المقتدر علي بن عيسى وأقامه على الدواوين كالنائب عن حامد. فكان يزاحمه واستبد بالأمور دونه ولم يبق لحامد أمر عليه فأجابه ابن الفرات بأسفه منه وقال لشفيع اللؤلؤي: قل لأمير المؤمنين حامد إنما حمله على طلب الوزارة، أني طالبته بأكثر من ألفي ألف دينار من فضل ضمانه، فاستشاط حامد وزاد في السفه، فأنفذ المقتدر من رد ابن الفرات إلى محبسه، ثم صودر وضرب ابنه المحسن وأصحابه وأخذت منهم الأموال. ثم إن حامداً لما رأى استطالة علي بن عيسى عليه وكثرة تصرفه في الوزارة دونه، ضمن للمقتدر أعمال الخوارج والضياع الخاصة والمستحدثة والقرارية، بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان، واستأذنه في الانحدار إلى واسط لاستخراج ذلك فانحدر واسم الوزارة له وأقام علي بن عيسى يدبر الأمور، فأظهر حامد سوء تصرف في الأموال، وبسط المقتدر يده حتى خافه علي بن عيسى. ثم تحرك السعر ببغداد فشغبت العامة ونهبوا الغلال، لأن حامداً وغيره من القواد كانوا يخزنون الغلال. وأحضر حامد لمنعهم فحضر فقاتلوه، وفتقوا السجون ونهبوا دار الشرطة. وأنفذ المقتدر غريب الخال في العسكر، فسكّن الفتنة وعاقب المتصدين للشر، وأمر بفتح المخازن التي للحنطة وبيعها، فرخص السعر وسكن إلى منع الناس من بيع الغلال في البيادر وخزنها فرفع الضمان عن حامد، وصرف عماله عن السواد ورد ذلك لعلي بن عيسى وسكن الناس.

وصول ابن المهدي وهو أبو القاسم إلى ابنه

وفي سنة سبع وثلاثمائة بعث المهدي صاحب أفريقية أبا القاسم في العساكر إلى مصر فوصل إلى الإسكندرية في ربيع الآخر وملكها، ثم سار إلى مصر ونزل بالجيزة واستولى على الصعيد، وكتب إلى أهل مكة في طاعته فلم يجيبوا. وبعث المقتدر مؤنساً والخادم إلى مصر لمدافعته، فكانت بينهم حروب كثر فيها القتلى من الجانبين، وكان الظهور لمؤنس ولقّب يومئذ بالمظفر. ووصل من أفريقية أسطول من ثمانين مركباً مدداً للقائهم، وعليهم سليمان الخادم ويعقوب الكتامي، وأمر المقتدر بأن يسير إليهم أسطول طرسوس فسار في خمسة وعشرين مركباً وعليهم أبو اليمن، ومعهم العدد والأنفاط، فغلبوا أسطول أفريقية وأحرقوا أكثر مراكبه. وأسر سليمان الخادم ويعقوب الكتامي في جماعة قتل أكثرهم، وحبس سليمان بمصر، وحمل يعقوب إلى بغداد. ثم هرب وعاد إلى أفريقية وانقطع المدد عن عسكر المغاربة، فوقع الغلاء عندهم وكثر الموتان في الناس والخيل فارتحلوا راجعين إلى بلادهم وسار عساكر مصر في أثرهم حتى أبعدوا.

بقية خبر ابن أبي الساج

قد تقدم لنا أن مؤنساً حارب يوسف بن أبي الساج عامل أذربيجان فأسره وحمله إلى بغداد فحبس بها، واستقر بعده في عمله سبك مولاه. ثم إن مؤنساً شفع فيه سنة عشر. فأطلقه المقتدر وخلع عليه ثم عقد له على أذربيجان وعلى الري وقزوين وأبهر وزنجان وعلى خمسمائة ألف دينار في كل سنة سوى أرزاق العساكر. وسار يوسف إلى أذربيجان ومعه وصيف البكتمري في العساكر، ومر بالموصل فنظر في أعمالها وأعمال ديار ربيعة. وقد كان المقتدر تقدم إليه بذلك. ثم سار إلى أذربيجان وقد مات مولاه سبك، فاستولى عليها وسار سنة إحدى عشرة إلى الري وكان عليها أحمد بن علي أخو صعلوك، وقد اقتطعها كما قدمنا، ثم انتقض على المقتدر وهادن ما كان ابن كالي من قواد الديلم القائم بدعوة أولاد الأطروش في طبرستان وجرجان.

فلما جاء يوسف إلى الري حاربه أحمد فقتله يوسف وأنفذ رأسه إلى بغداد واستولى على الري في ذي الحجة وأقام بها مدة، ثم سار عنها إلى همذان فاتح ثلاث عشرة، واستخلف بها مولاه مفلحاً وأخرجه أهل الري عنهم، فعاد يوسف إليهم في جمادى من سنته، واستولى عليها ثانية. ثم قلده المقتدر سنة أربع عشرة نواحي المشرق وأذن له في صرف أموالها في قواده وأجناده وأمره بالمسير إلى واسط، ثم منها إلى هجر لمحاربة أبي طاهر القرمطي، فسار يوسف إلى أبي طاهر وكان بها مؤنس المظفر، فرجع إلى بغداد وجعل له أموال الخراج بنواحي همذان وساوة وقم وقاشان وماه البصرة وماه الكوفة وماسبذان لينفقها في عسكره، ويستعين بها على حرب القرامطة.

ولما سار من الري كتب المقتدر إلى السعيد نصر بن سامان بولاية الري وأمره بالمسير إليها وأخذها من فاتك مولى يوسف، فسار إليها فاتح أربع عشرة، فلما انتهى إلى جبل قارن منعه أبو نصر الطبري من العبور، وبذل له ثلاثين ألف دينار فترك سبيله وسار إلى الري فملكها من يد فاتك وأقام بها شهرين، وولى عليها سيمجور الدواني وعاد إلى بخارى. ثم استعمل على الري محمد بن أبي صعلوك فأقام بها إلى شعبان سنة ست عشرة وأصابه مرض، وكاتب الحسن بن القاسم الداعي وماكان ابن كالي أميري الديلم في تسليم الري إليهما، فقدما وسار عنها ومات في طريقه،

واستولى الداعي والديلم عليها.

بقية الخبر عن وزراء المقتدر

قد تقدم الكلام في وزارة حامد بن العباس وأن علي بن عيسى كان مستبداً عليه في وزارته، وكان كثيراً ما يطرح جانبه ويسيء في توقعاته على عماله. وإذا اشتكى إليه أحد من نوابه يوقع على القصة إنما عقد الضمان على الحقوق الواجبة فليكف الظالم عن الرعية. فأنف حامد من ذلك واستأذن في المسير إلى واسط للنظر في ضمانه، فأذن له ثم كثرت استغاثة الخدم والحاشية من تأخر أرزاقهم وفسادها، فإن علي بن عيسى كان يؤخرها وإذا اجتمعت عدة شهور أسقطوا بعضها، وكثرت السعاية واستغاث العمال وجميع أصحاب الأرزاق بأنه حط من أرزاقهم شهرين من كل سنة، فكثرت الفتنة على حامد، وكان الحسن ابن الوزير ابن الفرات متعلقاً بمفلح الأسود خالصة الخليفة المقتدر وكان شقيقه لأبيه، وجرى بينه وبين حامد يوماً كلام، فأساء عليه حامد وحقد له.

وكتب ابن الفرات إلى المقتدر وضمن له أموالاً فأطلقه واستوزره، وقبض على علي بن عيسى وحبسه في مكانه، وذلك سنة إحدى عشرة، وجاء حامد من واسط فبعث ابن الفرات من يقبض عليه، فهرب من طريقه واختفى ببغداد. ثم مضى إلى نصر بن الحاجب سراً وسأل إيصاله إلى المقتدر، وأن يحبسه بدار الخلافة، ولا يمكن ابن الفرات منه. فاستدعى نصر الحاجب مفلحاً الخادم حتى وقفه على أمره وشفع له في رفع المؤاخذة بما كان منه، فمضى إلى المقتدر وفاوضه بما أحب، وأمر المقتدر بإسلامه لابن الفرات فحبسه مدة ثم أحضره وأحضر له القضاة والعمال، وناظره فيما وصل إليه من الجهات فأقر بنحو ألف ألف دينار. وضمنه المحسن بن الفرات بخمسمائة ألف دينار فسلم إليه وعذبه أنواعاً من العذاب، وبعثه إلى واسط لبيع أمواله هناك فهلك في طريقه بإسهال أصابه.

ثم صودر علي بن عيسى على ثلثمائة ألف دينار وعذبه المحسن بعد ذلك عليها فلم يستخرج منه شيئاً وسيره ابن الفرات أيام عطلته وحبسه بعد أن كان رباه وأحسن إليه، فقبض عليه مدة ثم أطلقه، وقبض على ابن الجوزي وسلمه إلى ابنه المحسن، فعذبه ثم بعثه إلى الأهواز لاستخراج الأموال، فضربه الموكل به حتى مات. وقبض أيضاً على الحسين بن أحمد -وكان تولى مصر والشام- وعلى محمد بن علي الماردانى وصادرهما على ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، وصادر جماعة من الكتاب سواهم ونكبهم. وجاء مؤنس من غزاته فأنهى إليه أفعال ابن الفرات وما يعتمده من المصادرات والنكايات وتعذيب ابنه للناس، فخافه ابن الفرات وخوف المقتدر منه. وأشار بسيره إلى الشام ليقيم هنالك بالثغر، فبعثه المقتدر وأبعده.

ثم سعى ابن الفرات بنصر الحاجب وأغراه به وأطمعه في ماله وكان مكثراً واستجار نصر بأم المقتدر. ثم كثر الإرجاف بابن الفرات، فخاف وأنهى إلى المقتدر بأن الناس عادوه لنصحه للسلطان واستيفاء حقوقه، وركب هو وابنه المحسن إلى المقتدر فأوصلهما إليه وأسهمهما، وخرجا من عنده فمنعهما نصر الحاجب، ودخل مفلح على المقتدر وأشار إليه بعزله، فأسرَّ إليه وفاقه على ذلك، وأمر بتخلية سبيلهما. واختفى المحسن من يومه. وجاء نازوك ويليق من الغد في جماعة من الجند إلى دار ابن الفرات فأخرجوه حافياً حاسراً، وحمل إلى مؤنس المظفر ومعه هلال بن بدر، ثم سلم إلى شفيع اللؤلؤي فحبس عنده وصودر على ألف ألف دينار، وذلك سنة اثنتي عشرة. وكان عبد اللّه أبو القاسم بن علي بن محمد بن عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان لما تغير حال ابن الفرات سعى في الوزارة، وضمن في ابن الفرات وأصحابه ألفي ألف دينار على يد مؤنس الخادم وهارون بن غريب الحال ونصر الحاجب، فاستوزره المقتدر على كراهية فيه، ومات أبوه علي على وزارته. وشفع إليه مؤنس الخادم في إعادة علي بن عيسى من صنعاء، فكتب له في العود وبمشارفة أعمال مصر والشام،و أقام المحسن بن الفرات مختفياً مدة. ثم جاءت امرأة إلى دار المقتدر تنادي بالنصيحة، فأحضرها نصر الحاجب فدلت على المحسن، فأحضره نازوك صاحب الشرطة، فسلم للوزير وعذب بأنواع العذاب، فلم يستخرج منه شيء فأمر المقتدر بحمله إلى أبيه بدار الخلافة، وجاء الوزير أبو القاسم الخاقاني إلى مؤنس وهارون ونصر فحذرهم شأن ابن الفرات وغائلته بدار الخلافة، وأغراهم به، فوضعوا القواد والجند وقالوا: لابد من قتل ابن الفرات وولده، ووافق هؤلاء على ذلك فأمر نازوك بقتلهما فذبحهما.

وجاء هارون إلى الوزير الخاقاني يهنته بذلك فأغمي عليه، ثم أفاق وأخذ منه ألفي دينار وشفع مؤنس المظفر في ابنيه عبد اللّه وأبي نصر فأطلقهما ووصلهما بعشرين ألف دينار. ثم عزل الخاقاني سنة ثلاث عشرة لأنه أصابه المرض وطال به، وشغب الجند في طلب أرزاقهم فوقفت به الأحوال، وعزله المقتدر وولى مكانه أبا العباس الخصي وكان كاتباً لأمه فقام بالأمر، وأقر علي بن عيسى على أعمال مصر والشام، فكان يتردد إليهما من مكة، ثم

إن الخصي اضطربت أموره وضاقت الجباية، وكان مدمناً للسكر مهملاً للأمور، ووكل من يقوم عنه فآثروا مصالحهم وأضاعوا مصلحته. وأشار مؤنس المظفر بعزله وولاية ابن عيسى، فعزل لسنة وشهرين.

واستقدم علي بن عيسى من دمشق وأبو القاسم عبد اللّه بن محمد الكلوذي بالنيابة عنه إلى أن يحضر، فحضر أول سنة خمس عشرة واستقل بأمر الوزارة، وطلب كفالات المصادرين والعمال، وما ضمن من الأموال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب، فاستحضرها شيئاً بعد شيء وأدر الأرزاق وبسط العطاء وأسقط أرزاق المغنين والمسامرة والندمان والصفاعنة وأسقط من الجند أصاغر الأولاد ومن ليس له سلاح والهرمى والزمنى، وباشر الأمور بنفسه واستعمل الكفاة وطلب أبا العباس الخصي في المناظرة، وأحضر له الفقهاء والقضاة والكتاب، وسأله عن أمواله الخوارج والنواحي والمصادرات وكفالاتها، وما حصل من ذلك وما الواصل والبواقي؟ فقال: لا أعلم. فسأله عن المال الذي سلمه لابن أبي الساج كيف سلمه بلا مصرف ولا منفق، وكيف سلم إليه أعمال المشرق، وكيف بعثه لبلاد الصحراء بهجرهو وأصحابه من أهل الغلول والخصب؟ فقال: ظننت منهم القدرة على ذلك.

وامتنع ابن أبي الساج من المنفق فقال: وكيف استجزت ضرب حرم المصادرين؟ فسكت، ثم سئل عن الخراج فخلط فقال: أنت غررت أمير المؤمنين من نفسك فهلا استعذرت بعدم المعرفة. ثم أعيد إلى محبسه واستمر علي بن عيسى في ولايته. ثم اضطربت عليه الأحوال واختلفت الأعمال، ونقص الارتياع نقصاً فاحشاً، وزادت النفقات، وزاد المقتدر تلك الأيام في نفقات الخدم والحرم ما لا يحصى، وعاد الجند من الأنبار فزادهم في أرزاقهم مائتين وأربعين ألف دينار. فلما رأى ذلك علي بن عيسى ويئس من انقطاعه أو توقفه، وخشي من نصر الحاجب، فقد كان انحرف عنه لميل مؤنس إليه وما بينهما من المنافرة في الدولة، فاستعفى من الوزارة وألح في ذلك وسكنه مؤنس فقال له: أنت سائر إلى الرقة، وأخشى على نفسي بعدك.

ثم فاوض المقتدر نصر الحاجب بعد مسير مؤنس فأشار بوزارة أبي علي ابن مقلة، فاستوزره المقتدر سنة ست عشرة وقبض على علي بن عيسى وأخيه عبد الرحمن، وأقام ابن مقلة بالوزارة وأعانه فيها أبو عبد اللّه البريدي لمودة كانت بينهما واستمرت حاله على ذلك. ثم عزله المقتدر ونكبه بعد سنتين وأربعة أشهر حين استوحش من مؤنس كما نذكره. وكان ابن مقلة متهماً بالميل إليه فأتفق مغيبه في بعض الوجوه فقبض عليه المقتدر. فلما جاء مؤنس سأل في إعادته فلم يجبه المقتدر أراد قتله فمنعه، واستوزر المقتدر سليمان بن الحسن وأمر علي بن عيسى بمشاركته في الاطلاع على الدواوين، وصودر ابن مقلة على مائتي ألف دينار، وأقام سليمان في وزارته سنة وشهرين وعلي بن عيسى يشاركه في الدواوين، وضاقت عليه الأحوال إضاقة شديدة، وكثرت المطالبات ووقفت وظائف السلطان.

ثم أفرد السواد بالولاية فانقطعت مواد الوزير لأنه كان يقيم من قبله من يشتري توقعات الأرزاق ممن لا يقدر على السعي في تحصيلها من العمال والفقهاء وأرباب البيوت، فيشتريها بنصف المبلغ فيتعرض بعض من كان يتمى لمفلح الخادم لتحصيل ذلك للخليفة، وتوسط له مفلح فدافع لذلك وجاهر في تحصيله من العمال، فاختلت الأحوال بذلك وفضح الديوان ودفعت الأحوال لقطع منافع الوزراء والعمال التي كانوا يرتفقون بها، وإهمالهم أمور الناس بسبب ذلك. وعاد الخلل على الدولة وتحرك المرشحون للوزارة في السعاية وضمان القيام بالوظائف وأرزاق الجند. وأشار مؤنس بوزارة أبي القاسم الكلوذي فاستوزره المقتدر في رجب من سنة تسع عشرة وأقام في وزارته شهرين.

وكان ببغداد رجل من المخرفين يسمى الدانيالي، وكان وراقاً ذكياً محتالاً يكتب الخطوط في الورق ويداويها حتى تتم بالبلى. وقد أودعها ذكر من يراه من أهل الدوله برموز وإشارات، ويقسم له فيها من حظوظ الملك والجاه والتمكين قسمة من عالم الغيب، يوهم أنها من الحدثان القديم المأثور عن دانيال وغيره، وأنها من الملاحم المتوارثة عن آبائه، ففعل مثل ذلك بمفلح. وكتب له في الأوراق م م م بأن يكون له كذا وكذا، وسأله مفلح عن الميم فقال: هو كناية عنك لأنك مفلح مولى المقتدر. وناسب بينه وبين علامات مذكورة في تلك الأوراق حتى طبقها عليه، فشغف به مؤنس وأغناه. وكان يداخل الحسين بن القاسم بن عبد اللّه بن وهب، فرمز اسمه في كتاب وذكر بعض علاماته المنطبقة عليه، وذكر أنه يستوزره الخليفة الثامن عشر من بني العباس، وتستقيم الأمور على يديه، ويقهر الأعادي وتعمر الدنيا في أيامه وخلط ذلك في الكتاب بحدثان كثير وقع بعضه ولم يقع الآخر.

وقرأ الكتاب على مفلح فأعجبه، وجاء بالكتاب إلى المقتدر فأعجب به الآخر، وقال لمفلح: من تعلم بهذه القصة؟ فقال: لا أراه إلا الحسين بن القاسم. قال: صدقت وإني لأميل إليه، وقد كان المقتدر أراد ولايته قبل ابن مقلة وقبل الكلوذي، فامتنع مؤنس. ثم قال المقتدر لمفلح: إن جاءتك رقعة منه بالسعي في

الوزارة فأعرضها علي. ثم سأل مفلح الدانيالي من أين لك الكتاب؟ قال: وراثة من آبائي وهو من ملاحم دانيال. فأنهى ذلك إلى المقتدر واغتبطوا بالحسين وبلغ الخبر إليه، فكتب إلى مفلح بالسعي في الوزارة، فعرض كتابه على المقتدر فأمره بإصلاح مؤنس.

واتفق أن الكلوذي عمل حساباً بما يحتاج إليه من النفقات الزائدة على الحاصل، فكانت سبعمائة ألف دينار وكتب عليه أهل الديوان خطوطهم، وقال: ليس لهذه جهة إلا ما يطلقه أمير المؤمنين. فعظم ذلك على المقتدر، وأمر الحسين بن القاسم أن يضمن جميع النفقات وزيادة ألف ألف دينار لبيت المال. وعرض كتابه على الكلوذي فاستقال، وأذن للكلوذي لشهرين من وزارته، وولى الحسين بن القاسم واشترط أن لا يشاركه علي بن عيسى في شيء من أموره، وإخراجه الصافية. واختص به الحسين بن اليزيدي وابن الفرات. ولما ولي واطلع على نقصان الارتياع وكثرة الإنفاق وضاق عليه الأمر فتعجل الجباية المستقبلة، وصرفها في الماضية. وبلغ ذلك هارون بن غريب الحال فأنهاه إلى المقتدر، فرتب معه الخصي واطلع على حسابه، فالقى له حسبة ليس فيها رمزه. فأظهر ذلك المقتدر وجميع الكتاب واطلعوا عليها وقابلوا الوزير بتصديق الخصي فيما قاله، وقبض على الحسين بن القاسم في شهر ربيع من سنة عشرين لسبعة أشهر من ولايته. واستوزر أبا الفتح الفضل بن جعفر وسلم إليه الحسين فلم يؤاخذه بإساءته ولم يزل على وزارته.

أخبار القرامطة في البصرة والكوفة

كان القرامطة قد استبد طائفة منهم بالبحرين وعليهم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجناني، ورث ذلك عن أبيه واقتطعوا ذلك العمل بأسره عن الدولة، كما يذكر في أخبار دولتهم عند إفرادها بالذكر، فقد أبو طاهر البصرة سنة إحدى عشرة ومائتين وبها سبط مفلح، فكبسها ليلاً في ألفين وسبعمائة، وتسنموا الأسوار بالحبال، وركب سبك فقتلوه ووضعوا السيف في الناس فأفحشوا في القتل وغرق كثير في الماء، وأقام أبو طاهر بها سبعة عشر يوماً، وحمل ما قدر عليه من الأموال والأمتعة والنساء والصبيان وعاد إلى هجر. وولى المقتدر على البصرة محمد بن عبد اللّه الفارقي فانحدر إليها بعد انصرافهم عنها. ثم سار أبو طاهر القرمطي سنة اثنتي عشرة معترضاً للحاج في رجوعهم من مكة، فاعترض أوائلهم ونهبهم، وجاء الخبر إلى الحاج وهم بعيد، وقد فنيت أزوادهم وكان معهم أبو الهيجاء بن حمدان صاحب طريق الكوفة. ثم أغار عليهم أبو طاهر فأوقع بهم وأسر أبا الهيجاء أحمد بن بدر من أخوال المقتدر، ونهب الأمتعة وسبى النساء والصبيان، ورجع إلى هجر.

وبقي الحجاج ضاحين في القفر إلى أن هلكوا، ورجع كثير من الحرم إلى بغداد، وأشغبوا واجتمع معهم حرم المنكوبين أيام ابن الفرات، فكان ذلك من أسباب نكبته. ثم أطلق أبو طاهر الأسرى الذي عنده ابن حمدان وأصحابه، وأرسل إلى المقتدر يطلب البصرة والأهواز، فلم يجبه وسار من هجر لاعتراض الحاج، وقد سار بين أيديهم جعفر بن ورقاء الشيباني في ألف رجل من قومه، وكان صاحب أعمال الكوفة وعلى الحاج بمثل صاحب البحر وجنا الصفواني وطريف اليشكري وغيرهم في ستة آلاف رجل، فقاتل جعفر الشيباني أولاً وهزمه. ثم اتبع الحاج إلى الكوفة فهزم عسكرهم وفتك فيهم، وأسرجنا الصفواني، وهرب الباقون. وملك الكوفة، وأقام بظاهرها ستة أيام يقيم في المسجد إلى الليل ويبيت في عسكره وحمل ما قدر عليه من الأموال والمتاع ورجع إلى هجر.

ووصل المنهزمون إلى بغداد فتقدم المقتدر إلى مؤنس بالخروج إلى الكوفة فسار إليها بعد خروجهم عنها، واستخلف عليها ياقوتاً ومضى إلى واسط ليمانع أبا طاهر دونها، ولم يحج أحد هذه السنة وبعث المقتدر سنة أربع عشرة عن يوسف بن أبي الساج من أذربيجان وسيره إلى واسط لحرب أبي طاهر. ورجع مؤنس إلى بغداد وخرج أبو طاهر سنة خمس عشرة وقصد الكوفة، وجاء الخبر إلى ابن أبي الساج فخرج من واسط آخر رمضان يسابق أبا طاهر إليها، فسبقه أبو طاهر وهرب العمال عنها واستولى على الأتراك والعلوفات التي أعدت بها. ووصل ابن أبي الساج ثامن شوال بعد وصول أبي طاهر بيوم وبعث يدعوه إلى الطاعة للمقتدر، فقال: لا طاعة إلا للّه فآذنه بالحرب وتزاحفوا يوماً إلى الليل.

ثم انهزم أصحاب ابن أبي الساج وأسروا ووكل أبو طاهر طبيباً يعالج جراحته، ووصل المنهزمون ببغداد فأرجفوا بالهرب، وبرز مؤنس المظفر لقصد الكوفة. وقد سار القرامطة إلى عين التمر فبعث مؤنس من بغداد خمسمائة سرية ليمنعهم من عبور الفرات. ثم قصد القرامطة الأنبار ونزلوا غربي الفرات، وجاؤوا بالسفن من الحديثة، فأجاز فيها ثلاثمائة منهم، وقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم واستولوا على مدينة الأنبار. وجاء الخبر إلى بغداد فخرج الحاجب في العساكر ولحق بمؤنس المظفر واجتمعوا في نيف

وأربعين ألف مقاتل إلى عسكر القرامطة ليخلصوا ابن أبي الساج فقاتلهم القرامطة وهزموهم. وكان أبو طاهر قد نظر إلى ابن أبي الساج وهو يستشرف إلى الخلاص، وأصحابه يشيرونه، فأحضره وقتله وقتل جميع الأسرى من أصحابه، وكثر الهرج ببغداد واتخذوا السفن بالانحدار إلى واسط ومنهم من نقل متاعه إلى حلوان. وكان نازوك صاحب الشرطة فأكثر التطواف بالليل والنهار، وقتل بعض الدعار فأقصروا عن....

ثم سار القرامطة عن الأنبار فاتحة سنة ست عشرة ورجع مؤنس إلى بغداد وسار أبو طاهر إلى الرحبة فملكها واستباحها، واستأمن إليه أهل قرقيسيا فأمنهم، وبعث السرايا إلى الأعراب بالجزيرة فنهبوهم وهربوا بين يديه، وقدر إليهم الأتاوة في كل سنة يحملونها إلى هجر. ثم سار أبو طاهر إلى الرقة وقاتلها ثلاثاً، وبعث السرايا إلى رأس عين، وكفر توثا وسنجار فاستأمنوا إليهم، وخرج مؤنس المظفر من بغداد في العسكر وقصد الرقة، فسار أبو طاهر عنها إلى الرحبة ووصلها مؤنس، وسار القرامطة إلى هيت، فامتنعت عليهم فساروا إلى الكوفة. وخرج من بغداد نصر الحاجب وهارون بن غريب وبُني بن قيس في العساكر إليها، ووصلت جند القرامطة إلى قصر ابن هبيرة. ثم مرض نصر الحاجب واستخلف على عسكره أحمد بن كيغلغ، وعاد فمات في طريقه، وولى مكانه على عسكره هارون بن غريب، وولى مكانه في الحجة ابنه أحمد. ثم انصرف القرامطة إلى بلادهم، ورجع هارون إلى بغداد في شوال من السنة. ثم اجتمع بالسواد جماعات من أهل هذا المذهب بواسط وعين التمر، وولى كل جماعة عليهم رجلاً منهم، فولى جماعة واسط حريث بن مسعود، وجماعة عين التمر عيسى بن موسى وسار إلى الكوفة ونزل بظاهرها وصرف العمال عن السواد، وجبى الخراج. وسار حريث إلى أعمال الموفق وبنى بها داراً سماها دار الهجرة، واستولى على تلك الناحية. وكان صاحب الحرب بواسط بني بن قيس فهزموه، فبعث إليه المقتدر هارون بن غريب في العساكر، وإلى قرامطة الكوفة صافياً البصري، فهزموهم من كل جانب وجاؤوا بأعلامهم بيضاء عليها مكتوب ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ الآية، وأدخلت إلى بغداد منكوسة، واضمحل أمر القرامطة بالسواد.

استيلاء القرامطة على مكة وقلعهم الحجر الأسود

ثم سار أبو طاهر القرمطي سنة تسع عشرة إلى مكة وحج بالناس منصور الديلمي، فلما كان يوم التروية، نهب أبو طاهر أموال الحجاج وفتك فيهم بالقتل حتى في المسجد والكعبة، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى هجر، وخرج إليه أبو مخلب أمير مكة في جماعة من الأشراف، وسألوه فلم يسعفهم، وقاتلوه فقتلهم وقلع باب البيت، وأصعد رجلاً يقتلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في زمزم ودفن الباقين في المسجد حيث قتلوا، ولم يغسلوا ولا صلى عليهم ولا كفنوا. وقسم كسوة البيت على أصحابه ونهب بيوت أهل مكة. وبلغ الخبر إلى المهدي عبيد اللّه بأفريقية وكانوا يظهارون الدعاء له، فكتب إليه بالنكير واللعن ويتهدده على الحجر الأسود فرده وما أمكنه من أموال الناس واعتذر عن بقية ما أخذوه بافتراقه في الناس.

خلع المقتدر وعوده

كان من أول الأسباب الداعية لذلك أن فتنةً وقعت بين ماجورية هارون الخال ونازوك صاحب الشرطة في بعض مذاهب الفواحش، فحبس نازوك ماجوريه هارون، وجاء أصحابه إلى محبس الشرطة ووثبوا بنائبه وأخذوا أصحابهم من الحبس. ورفع نازوك الأمر إلى المقتدر فلم يعد أحداً منهما لمكانهما منه، فعاد الأمر بينهما إلى المقاتلة وبعث المقتدر إليهما بالنكير فأقصرا، واستوحش هارون، وخرج بأصحابه ونزل البستان النجمي وبعث إليه المقتدر يسترضيه، فأرجف الناس أن المقتدر جعله أمير الأمراء، فشق ذلك على أصحاب مؤنس، وكان بالرقة فكتبوا إليه فأسرع العود إلى بغداد ونزل بالشماسية مستوحشاً من المقتدر ولم يلقه، وبعث ابنه أبا العباس ووزيره ابن مقلة لتلقيه وإيناسه فلم يقبل، وتمكنت الوحشة وأسكن المقتدر ابن خاله هارون معه في داره فازداد نفور مؤنس.

وجاء أبو العباس بن حمدان من بلاده في عسكر كبير، فنزل عند مؤنس وتردد الأمراء بين المقتدر ومؤنس، وسار إليه نازوك صاحب الشرطة، وجاءه بني بن قيس، وكان المقتدر قد أخذ منه الدينور وأعادها إليه مؤنس، واشتمل عليه. وجمع المقتدر في داره هارون بن غريب وأحمد بن كيغلغ والغلمان الحجرية والرجال المصافية، ثم انتقض أصحاب المقتدر وجاؤوا إلى مؤنس وذلك في فتح سنة سبع عشرة. فكتب مؤنس إلى المقتدر بأن الناس ينكرون سرفه فيما أقطع الحرم والخدم من الأموال والضياع ورجوعه إليهم في تدبير ملكه، ويطالبه بإخراجهم من الدار وإخراج هارون بن غريب معهم، وانتزع ما في أيديهم من الأموال والأملاك.

فأجاب المقتدر إلى ذلك، وكتب يستعطفه ويذكره البيعة ويخوفه عاقبة النكث، وأخرج هارون إلى الثغور الشامية والجزرية، فسكن مؤنس ودخل إلى بغداد ومعه ابن حمدان ونازوك والناس يرجفون بأنه خلع المقتدر.

فلما كان عشر محرم من هذه السنة، ركب مؤنس إلى باب الشماسية وتشاور مع أصحابه قليلاً، ثم رجعوا إلى دار الخليفة بأسرهم، وكان المقتدر قد صرف أحمد بن نصر القسوري عن الحجابة وقلدها ياقوتاً وكان على حرب فارس، فاستخلف مكانه ابنه أبا الفتح المظفر. فلما جاء مؤنس إلى الدار هرب ابن ياقوت وسائر الحجبة والخدم والوزير وكل من بالدار، ودخل مؤنس فأخرج المقتدر وأمه وولده وخواص جواريه، فنقلهم إلى داره واعتقلهم بها، وبلغ الخبر هارون بن غريب بقطربل فدخل إلى بغداد واستتر، ومضى ابن حمدان إلى دار ابن طاهر فأحضر محمد بن المعتضد، وبايعوه ولقبوه القاهر باللّه. وأحضروا القاضي أبا عمر المالكي عند المقتدر للشهادة عليه بالخلع، وقام ابن حمدان يتأسف له ويبكي ويقول: كنت أخشى عليك مثل هذا ونصحتك فلم تقبل، وآثرت قول الخدم والنساء على قولي، ومع هذا فنحن عبيدك وخدمك، وأودع كتاب الخلع عند القاضي أبي عمر ولم يظهر عليه أحداً حتى سلمه إلى المقتدر بعد عوده، فحسن موقع ذلك منه وولاه القضاء. ولما تم الخلع عمد مؤنس إلى دار الخليفة فنهبها ومضى ابن نفيس إلى تربة أم المقتدر فاستخرج من بعض قبورها ستمائة ألف دينار وحملها إلى القاهر.

وأخرج مؤنس علي بن عيسى الوزير من الحبس وولى علي بن مقلة الوزارة، وأضاف إلى نازوك الحجابة مع الشرطة، وأقطع ابن حمدان حلوان والدينور وهمذان وكرمان والصيمرة ونهاوند وشيراز وماسبذان مضافاً إلى ما بيده من أعمال طريق خراسان، وكان ذلك منتصف المحرم. ولما تقلد نازوك الحجابة أمر الرجالة بتقويض خيامهم من الدار وأدالهم ابن جالة من أصحابه فأسفهم بذلك وتقدموا إلى خلفاء الحجاب بأن يمنعوا الناس من الدخول إلا أصحاب المراتب فاضطربت الحجرية لذلك. فلما كان سابع عشر المحرم وهو يوم الاثنين بكّر الناس إلى الخليفة لحضور الموكب وامتلأت الرحاب وشاطئ دجلة بالناس، وجاء الرجالة المصافية شاكي السلاح يطالبون بحق البيعة ورزق سنة، وقد بلغ منهم الحنق على نازوك مبالغة، وقعد مؤنس عن الحضور ذلك اليوم، وزعق الرجالة المصافية فنهى نازوك أصحابه أن يعرضوا لهم، فزاد شغبهم وهجموا على الصحن المنيعي، ودخل معهم من كان على الشط من العامة بالسلاح، والقاهر جالس وعنده علي بن مقلة الوزير ونازوك، فقال لنازوك: اخرج إليهم فسكنهم فخرج وهو متحامل من الخمار فتقدم إلى الرجالة للشكوى بحالهم ورأى السيوف في أيديهم فهرب، فحدث لهم الطمع فيه وفي الدولة، واتبعوه فقتلوه وخادمه عجيفاً ونادوا بشعار المقتدر.

وهرب كل من في الديار من سائر الطبقات وصلبوا نازوك وعجيفاً على شاطئ دجلة. ثم ساروا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر، وأغلق الخادم أبواب دار الخليفة، وكانوا كلهم صنائع المقتدر، وقصد أبو الهيجاء حمدان الفرات فتعلق به القاهر واستقدم به، فقال له: أخرج معي إلى عشيرتي أقتل دونك فوجد الأبواب مغلقة فقال له ابن حمدان: قف حتى أعود إليك ونزع ثيابه ولبس بعض الخلقان، وجاء إلى الباب فوجده مغلقاً والناس من ورائه، فرجع إلى القاهر وتمالأ بعض الخدام على قتله، فقاتلهم حتى كشفهم، ودخل في بعض مسارب البستان فجاؤوه فخرج إليهم فقتلوه وحملوا رأسه. وانتهى الرجالة إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر فسلمه إليهم وحملوه على رقابهم إلى دار الخلافة، فلما توسط الصحن المنيعي اطمان وسأل عن أخيه القاهر وابن حمدان وكتب لهما الأمان بخطه، وبعث فيهما فقيل له: إن ابن حمدان قد قتل، فعظم عليه وقال: واللّه ما كان أحد بسيف في هذه الأيام غيره، وأحضر القاهر فاستدناه وقبل رأسه وقال له: لا ذنب لك ولو لقبوك المقهور لكان أولى من القاهر وهو يبكي ويتطارح عليه حتى حلف له على الأمان، فانبسط وسكن. وطيف برأس نازوك وابن حمدان وخرج أبو نفيس هارباً من مكان استتاره إلى الموصل، ثم إلى أرمينية، ولحق بالقسطنطينية فتنصر، وهرب أبو السرايا أخو أبي الهيجاء إلى الموصل، وأعاد المقتدر أبا علي بن مقلة إلى الوزارة، وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم. وبيع ما في الخزائن بأرخص الأثمان وأذن في بيع الأملاك لتتمة الأعطيات، وأعاد مؤنساً إلى محله من تدبير الدولة والتعويل عليه في أموره. ويقال: إنه كان مقاطعاً للمقتدر وإنه الذي دس إلى المصافية والحجرية بما فعلوه، ولذلك قعد عن الحضور إلى القاهر. ثم إن المقتدر حبس أخاه القاهر عند أمه فبالغت في الإحسان إليه والتوسعة عليه في النفقة والسراري.

أخبار قواد الديلم وتغلبهم على أعمال الخليفة

قد تقدم لنا الخبر عن الديلم في غير موضع من الكتاب، وخبر افتتاح بلادهم بالجبال والأمصار التي تليها، مثل طبرستان

وجرجان وسارية وآمد واستراباذ، وخبر إسلامهم على يد الأطروش، وأنه جمعهم وملك بهم بلاد طبرستان سنة إحدى وثلثمائة، وملك من بعده أولاده والحسن بن القاسم الداعي صهره، واستعمل منهم القواد على ثغورها فكان منهم ليلى بن النعمان، كانت إليه ولاية جرجان عن الحسن ابن القاسم الداعي سنة ثمان وثلاثين. وكانت بين بني سامان وبين بني الأطروش والحسن بن القاسم الداعي وقواد الديلم حروب هلك فيها ليلى بن النعمان سنة تسع وثلاثمائة، لأن أمر الخلفاء كان قد انقطع عن خراسان، وولوها لبني سامان فكانت بسبب ذلك بينهم وبين أهل طبرستان من الحروب ما أشرنا إليه.

ثم كانت بعد ذلك حرب مع بني سامان فولاها من قواد الديلم شرخاب بن بهبودان وهو ابن عم ماكان بن كالي وصاحب جيش أبي الحسن الأطروش، وقاتله سيمجور صاحب جيش بني سامان، فهزمه وهلك شرخاب، وولى ابن الأطروش ماكان ابن كالي على استراباذ، فاجتمع إليه الديلم وقدموه على أنفسهم، واستولى على جرجان كما يذكر ذلك كله في أخبار العلوية. وكان من أصحاب ماكان هذا أسفار ابن شيرويه من قواد الديلم عن ماكان إلى قواد بني سامان. فاتصل ببكر بن محمد بن اليسع بنيسابور، وبعثه في الجنود لافتتاح جرجان، وبها أبو الحسن بن كالي نائباً عن أخيه ماكان وهو بطبرستان. فقتل أبو الحسن وقام بأمر جرجان علي بن خرشيد. ودعا أسفار بن شيرويه إلى حمايتها من ماكان، فزحف إليهم من طبرستان فهزموه وغلبوه عليها ونصبوا أبا الحسن وعلي بن خرشيد. فزحف ماكان إلى أسفار وهزمه وغلبه على طبرستان، ورجع إلى بكر بن محمد بن اليسع بجرجان.

ثم توفي بكر سنة خمس عشرة، فولى نصر بن أحمد بن سامان أسفار بن شيروية مكانه على جرجان،و بعث أسفار عن مرداويج بن زيار الجبلي وقدمه على جيشه، وقصدوا طبرستان فملكوها. وكان الحسن بن القاسم الداعي قد استولى على الري وأعمالها من يد نصر بن سامان، ومعه قائده ماكان بن كالي. فلما غلب أسفار على طبرستان زحف إليه الداعي وقائده ماكان فانهزما وقتل الداعي ورجع ماكان إلى الري، واستولى أسفار ابن شيرويه على طبرستان وجرجان، ودعا لنصر بن أحمد بن سامان، ونزل سارية واستعمل على آمد هارون بن بهرام. ثم سار أسفار إلى الري، فأخذها من يد ماكان ابن كالي وسار ماكان إلى طبرستان واستولى أسفار على سائر أعمال الري وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرخ، وعظمت جيوشه وحدثته نفسه بالملك، فانتقض على نصر بن سامان صاحب خراسان، واعتزم على حربه وحرب الخليفة.

وبعث المقتدر هارون بن غريب الحال في عسكر إلى قزوين، فحاربه أسفار وهزمه وقتل كثيراً من أصحابه. ثم زحف إليه نصر بن سامان من بخارى فراسله في الصلح وضمان أموال الجباية، فأجابه وولاه ورجع إلى بخارى، فعظم أمر أسفار وكثر عيثه وعسف جنده، وكان قائده مرداويج من أكبر قواده قد بعث أسفار إلى سلار صاحب سميرم، والطرم يدعوه إلى طاعته. فاتفق مع سلار على الوثوب بأسفار، وقد باطن في ذلك جماعة من قواد أسفار ووزيره محمد بن مطرف الجرجاني. ونمي الخبر إلى أسفار وثار به الجند فهرب إلى بيهق. وجاء مرداويج من قزوين إلى الري، وكتب إلى ماكان بن كالي يستدعيه من طبرستان ليظاهره على أسفار، فقصد ماكان أسفار، فهرب أسفار إلى الري ليتصل بأهله وماله، وقد كان أنزلهم بقلعة المرت. وركب المفازة إليها، ونمي الخبر إلى مرداويج فسار لاعتراضه وقدم بعض قواده أمامه فلحقه القائد وجاء به إلى مرداويج فقتله ورجع إلى الري ثم إلى قزوين، وتمكن في الملك وافتتح البلاد وأخذ همذان والدينور وقم وقاشان وأصبهان، وأساء السيرة في أهل أصبهان وصنع سريراً من ذهب لجلوسه. فلما قوي أمره نازع ماكان في طبرستان فغلبه عليها ثم سار إلى جرجان فملكها وعاد إلى أصبهان ظافراً.

وسار ماكان على الديلم مستنجداً بأبي الفضل الثائر بها، وسار معه إلى طبرستان فقاتلهم عاملها من قبل مرداويج بالقسم ابن بايجين وهزمهم، ورجع الثائر إلى الديلم وسار ماكان إلى نيسابور، ثم سار إلى الدامغان فصده عنها القسم فعاد إلى خراسان. وعظم أمر مرداويج واستولى على بلد الري والجبل واجتمع إليه الديلم وكثرت جموعه وعظم خرجه. فلم يكف ما في يده من الأعمال فسما إلى التغلب على النواحي، فبعث إلى همذان الجيوش مع ابن أخته، وكانت بها عساكر الخليفة مع محمد بن خلف، فحاربهم وهزمهم وقتل ابن أخت مرداويج. فسار من الري إلى همذان وهرب عسكر الخليفة عنها وملكها مرداويج عنوة واستباحها. ثم أمن بقيتهم.

وأنفذ المقتدر هارون بن غريب الحال في العساكر فلقيه مرداويج وهزمهم واستولى على بلاد الجبل وما وراء همذان، وبعث قائده إلى الدينور ففتحها عنوة، وانتهت عساكره إلى حلوان فقتل وسبى. وسار هارون إلى قرقيسيا فأقام بها واستمد المقتدر وكان معه اليشكري من قواد أسفار، وكان قد استأمن بعد أسفار إلى الخليفة وسار في جملته. وجاء مع هارون في هذه الغزاة إلى

نهاوند لحمل المال إليه منها. فلما دخلها استمدت عينه إلى ثروة أهلها، فصادرهم على ثلاثة آلاف ألف دينار، واستخرجها في مدة أسبوع، وجند بها جنداً ومضى إلى أصبهان، وبها يومئذ ابن كيغلغ قبل استيلاء مرداويج عليها، فقاتله أحمد وانهزم وملك اليشكري أصبهان، ودخل إليها أصحابه، وقام بظاهرها.

وسار أحمد بن كيغلغ في ثلاثين فارساً إلى بعض قرى أصبهان وركب اليشكري ليتطوف على السور، فنظر إليهم فسار نحوهم فقاتلوه، وضربه أحمد بن كيغلغ على رأسه بالسيف فقدّ المغفر وتجاوزه إلى دماغه فسقط ميتاً. وقصد أحمد المدينة ففر أصحاب اليشكري، ودخل أحمد إلى أصبهان وذلك قبل استيلاء عسكر مرداويج عليها، فاستولى عليها وجددوا له فيها مساكن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي وبساتينه، وجاء مرداويح في أربعين أو خمسين ألفاً، فنزلها وبعث جمعاً إلى الأهواز فاستولوا عليها، والي خوزستان كذلك، وجبى أموالها وقسم الكثير منها في أصحابه، وادخر الباقي وبعث إلى المقتدر يطلب ولاية هذه الأعمال وإضافة همذان وماه الكوفة إليها على مائتي ألف دينار في كل سنة، فأجابه وقاطعه وولاه وذلك سنة تسع عشرة. ثم دعا مرداويح سنة عشرين أخاه وشكمير من بلاد كيلان، فجاء إليه بدوياً حافياً بما كان يعاني من أحوال البداوة والتبذل في المعاش ينكر كل ما يراه من أحوال الترف ورقة العيش. ثم صار إلى ترف الملك وأحوال الرياسة فرقت حاشيته وعظم ترفه. وأصبح من عظماء الملوك وأعرفهم بالتدبير والسياسة.

ابتداء حال أبي عبد الله البريدي

كان بداية أمره عاملاً على الأهواز وضبط ابن ماكرلان هذا الاسم بالموحدة والراء المهملة نسبة إلى البريد. وضبطه ابن مسكوية بالياء المثناة التحتانية والزاي نسبة إلى يزيد بن عبد الله بن المنصور الحميري، كان جده يخدمه ولما ولي علي بن عيسى الوزارة واستعمل العمال، وكان أبو عبد الله قد ضمن الخاصة بالأهواز وأخوه أبو يوسف على سوق فائق من الاقتصارية وأخوه على هذا. فلما وزر أبو علي بن مقلة بذل له عشرين ألف دينار على أن يقلده أعمالاً فائقة، فقلده الأهواز جميعها غير السوس وجناسابور وقلد أخاه أبا الحسن القرانية وأخاهما أبا يوسف الخاصة والأسافل، وضمن المال أبا يوسف السمسار، وجعل الحسين بن محمد المارداني مشرفاً على أبي عبد الله، فلم يلتفت إليه. وكتب إليه الوزير بن مقلة بالقبض على بعض العمال ومصادرته، فأخذ منه عشرة آلاف دينار واستأثر بها على الوزير، فلما نكب ابن مقلة كتب المقتدر بخطه إلى الحاجب أحمد بن نصر القسوري بالقبض على أولاد البريدي، وأن لا يطلقهم إلا بكتابه، فقبض عليهم وجاء أبو عبد الله بكتاب المقتدر بخطه بإطلاقهم وظهر تزويره فأحضرهم إلى بغداد وصودروا على أربعمائة ألف دينار فأعطوها.

الصوائف أيام المقتدر

سار مؤنس المظفر سنة ست وتسعين في العساكر من بغداد إلى الفرات، ودخل من ناحية ملطية ومعه أبو الأغر السلمي، فظفر وغنم وأسر جماعة. وفي سنة سبع وتسعين بعث المقتدر أبا القاسم بن سيما لغزو الصائفة سنة ثمان وتسعين. وفي سنة تسع وتسعين غزا بالصائفة رستم أميرالثغور، ودخل من ناحية طرسوس ومعه دميانة، وحاصر حصن مليح الأرمني ففتحه وأحرقه. وفي سنة ثلاثمائة مات إسكندروس بن لاور ملك الروم، وملك بعده ابنه قسطنطين ابن اثني عشرة سنة. وفي سنة اثنتين وثلثمائة سار علي بن عيسى الوزير في ألف فارس لغزو الصائفة مدداً لبسر الخادم عامل طرسوس، ولم يتيسر لهم الدخول في المصيف، فدخلوا شاتية في كَلَب البرد وشدته، غنموا وسبوا.

وفي سنة اثنتين وثلثمائة غزا بسر الخادم والي طرسوس بلاد الروم، ففتح وغنم وسبى وأسر مائة وخمسين. وكان السبي نحواً من ألفي رأس. وفي سنة ثلاث وثلثمائة أغارت الروم على ثغور الجزيرة ونهبوا حصن منصور وسبوا أهله بتشاغل عسكر الجزيرة بطلب الحسين بن حمدان مع مؤنس، حتى قبض عليه كما مر. وفي هذه السنة خرج الروم إلى ناحية طرسوس والفرات فقاتلوا وقتلوا نحواً من ستمائة فارس، وجاء مليح الأرمني إلى مرعش فعاث في نواحيها، ولم يكن للمسلمين في هذه السنة صائفة.

وفي سنة أربع بعدها سار مؤنس المظفر بالصائفة ومر بالموصل فقلد سبكا المفلحي باريدي وقردي من أعمال الفرات، وقلد عثمان العبودي مدينة بلد وسنجار ووصيفاً البكتمري باقي بلاد ربيعة، وسار إلى ملطية فدخل منها وكتب إلى أبي القاسم علي بن أحمد بن بسطام أن يدخل من طرسوس في أهلها، ففتح مؤنس حصوناً كثيرة وغنم وسبى ورجع إلى بغداد فأكرمه المعتضد وخلع عليه. وفي سنة خمس وثلثمائة وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر في المهادنة والفداء، فتلقيا بالإكرام وجلس لهما الوزير في الأبهة، وصف الأجناد بالسلاح العظيم الشأن والزينة

الكاملة، فأديا إليه الرسالة وأدخلهما من الغد على المقتدر وقد احتفل في الأبهة ما شاء، فأجابهما إلى ما طلب ملكهم. وبعث مؤنساً الخادم للفداء، وجعله أميراً على بلد يدخله إلى أن ينصرف. وأطلق الأرزاق الواسعة لمن سار معه من الجنود، وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار للفدية. وفيها غزا الصائفة جنا الصفواني فغنم وغزا وسير ثمالي الخادم في الأسطول فغنم. وفي السنة بعدها غزا ثمالي في البحر كذلك، وجنا الصفواني فظفر وفتح وعاد وغزا بشر الأفشين بلاد الروم، ففتح عدة حصون وغنم وسبى.

وفي سنة سبع غزا ثمالي في البحر فلقي مراكب المهدي صاحب أفريقية فغلبهم وقتل جماعة منهم، وأسر خادماً للمهدي. وفي سنة عشرة وثلثمائة غزا محمد بن نصر الحاجب من الموصل على قاليقلا، فأصاب من الروم، وسار أهل طرسوس من ملطية فظفروا واستباحوا وعادوا. وفي سنة إحدى عشرة غزا مؤنس المظفر بلاد الروم فغنم وفتح حصوناً، وغزا ثمالي في البحر فغنم ألف رأس من السبي وثمانية آلاف من الظهر ومائة ألف من الغنم وشيئاً كثيراً من الذهب والفضة.

وفي سنة اثني عشرة جاء رسول ملك الروم بالهدايا ومعه أبو عمر بن عبد الباقي يطلبان الهدنة وتقرير الفداء، فأجيبا إلى ذلك. ثم غدروا بالصائفة فدخل المسلمون بلاد الروم فأثخنوا ورجعوا. وفي سنة أربع عشرة خرجت الروم إلى ملطية ونواحيها من الدمستق ومليح الأرمني صاحب الدروب وحاصروا ملطية وهربوا إلى بغداد واستغاثوا، فلم يغاثوا. وغزا أهل طرسوس بالصائفة فغنموا ورجعوا.

وفي سنة خمس عشرة دخلت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم فأوقع بهم الروم وقتلوا أربعمائة رجل صبراً، وجاء الدمستق في عساكر من الروم إلى مدينة دبيل، وبها نصر السبكي فحاصرها وضيق مخنقها واشتد في قتالها حتى نقب سورها، ودخل الروم إليها ودفعهم المسلمون فأخرجوهم وقتلوا منهم بعد أن غنموا ما لا يحصى وعاثوا في أنعامهم، فغنموا من الغنم ثلاثمائة ألف رأس فأكلوها. وكان رجل من رؤساء الأكراد يعرف بالضحاك في حصن له يعرف بالجعبري فتنصر وخدم ملك الروم، فلقيه المسلمون في سنة الغزاة فأسروه وقتلوا من معه. وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة خرج الدمستق في عساكر الروم فحاصر خلاط وملكها صلحاً، وجعل الصليب في جامعها، ورحل إلى تدنيس ففعل بها كذلك، وهرب أهل أردن إلى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا.

وفيها ظهر أهل ملطية على سبعمائة رجل من الروم والأرمن، دخلوا بلدهم خفية وقدمهم مليح الأرمني ليكونوا لهم عوناً إذا حاصروها، فقاتلهم أهل ملطية عن آخرهم. وفي سنة سبع عشرة بعث أهل الثغور الجزرية مثل ملطية وفارقين وآمد وأرزا يستمدون المقتدر في العساكر وإلا فيعطوا الأتاوة للروم فلم يمدهم، فصالحوا الروم وملكوا البلاد. وفيها دخل مفلح الساجي بلاد الروم. وفي سنة عشرين غزا ثمالي بلاد الروم من طرسوس ولقي الروم فهزمهم وقتل منهم ثلاثمائة وأسر ثلاثة آلاف، وغنم من الفضة والذهب شيئاً كثيراً وعاد بالصائفة في سنته في حشد كثير، وبلغ عمورية فهرب عنها من كان تجمع إليها من الروم، ودخلها المسلمون فوجدوا من الأمتعة والأطعمة كثيراً، فغنموا وأحرقوا وتوغلوا في بلاد الروم يقتلون ويكتسحون ويخربون حتى بلغوا انكمورية التي مصرها أهده وعادوا سالمين. وبلغت قيمة السبي مائة ألف وستة وثلاثين ألف دينار.

وفي هذه السنة راسل ابن الريداني وغيره من الأرمن في نواحي أرمينية وحثوا الروم على قصد بلاد الإسلام فساروا وخربوا نواحي خلاط وقتلوا وأسروا فسار إليهم مفلح غلام يوسف بن أبي الساج من أذربيجان في جموع من الجند والمتطوعة، فأثخن في بلاد الروم حتى يقال إن القتلى بلغوا مائة ألف، وخرب بلاد ابن الرايدني ومن وافقه، وقتل ونهب. ثم جاءت الروم إلى سميساط فحصروها وأمدهم سعيد بن حمدان، وكان المقتدر ولاه الموصل وديار ربيعة على أن يسترجع ملطية من الروم. فلما جاء رسول أهل سميساط إليهم فأجفل الروم عنها فسار إلى ملطية وبها عساكر الروم ومليح الأرمني صاحب الثغور الرومية، وبُني ابن قيس صاحب المقتدر الذي تنصر. فلما أحسوا بإقبال سعيد هربوا وتركوها خشية أن يثب بهم أهلها وملكها سعيد فاستخلف عليها وعاد إلى الموصل.

الولايات على النواحي أيام المقتدر

كان بأصبهان عبد الله بن إبراهيم المسمعي عاملاً عليها، خالف لأول ولاية المقتدر وجمع من الأكراد عشرة آلاف، وأمر المقتدر بدراً الحمامي عامل أصبهان بالمسير إليه. فسار إليه في خمسة آلاف من الجند وأرسل من يخوفه عاقبة المعصية، فراجع الطاعة وسار إلى بغداد واستخلف على أصبهان. وكان على اليمن المظفر بن هاج. ففتح ما كان غلب عليه الحارثي باليمن وأخذ الحاتمي من أصحابه. وكان على الموصل أبو الهيجاء بن حمدان، وسار أخوه الحسين بن حمدان وأوقع بأعراب كلب وطيئ، وأسر سنة أربع

وتسعين. ثم سار إلى الأكراد المتغلبين على نواحي الموصل سنة خمس وتسعين فاستباحهم وهربوا إلى رؤوس الجبال. وخرج بالحاج في سنة أربع وتسعين رصيف بن سوارتكين فحصره أعراب وطيئ بالقتال وأوقعهم فهزمهم، ومضى إلى وجهه. ثم أوقع بهم هنالك الحسن بن موسى فأثخن فيهم.

وكان على فارس سنة ست وتسعين اليشكري غلام عمرو بن الليث، فلما تغلب وكان على الثغور الشامية أحمد بن كيغلغ في سنة سبع وتسعين ملك الليث فارس من يد اليشكري، ثم جاءه مؤنس فغلبه وأسره ورجع اليشكري إلى عمله كما مر في خبره. وفي سنة ست وتسعين وصل ناسر موسى بن سامان وقلد ديار ربيعة وقد مر ذكره. وفيها رجع الحسين بن حمدان من الخلاف وعقد له على قم وقاشان، فسار إليها ونزل عنها العباس بن عمر الغنوي.

وفي سنة سبع وتسعين توفي عيسى النوشري عامل مصر وولى المقتدر مكانه تكين الخادم. وفي سنة ثمان وتسعين توفي منيح خادم الأفشين وهو عامل فارس وكان معه محمد بن جعفر الفريابي فماتا معاً. وولى على فارس عبد الله بن إبراهيم المسمعي وأضيفت إليه كرمان وفيها وليت أم موسى الهاشمية قهرمة دار المقتدر وكانت تؤدي الرسائل عن المقتدر وأمه إلى الوزراء وعن الوزراء إليهما.

وفي سنة تسع وتسعين كان على البصرة محمد بن إسحاق بن كنداج وجاء إليه القرامطة فقاتلهم فهربوا. وفي سنة ثلاثمائة عزل إبراهيم بن عبد الله المسمعي عن فارس وكرمان ونقل إليها بدر الحمامي عامل أصبهان، وولى على أصبهان علي بن وهشودان وفيها ولي بشير الأفشين طرسوس وفيها قلد أبو العباس بن المقتدر مصر والمغرب وهو ابن أربع سنين، واستخلف له على مصر مؤنس المظفر وقلد معين الطولوني المعونة بالموصل، ثم عزل واستعمل مكانه نحرير الصغير. وفيها خالف أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بالموصل فسار إليه مؤنس وجاء به على الأمان، ثم قلد الموصل سنة اثنتين وثلثمائة فاستخلف عليها وهو ببغداد. ثم خالف أخوه الحسين سنة ثلاثمائة وسار إليه مؤنس وجاء به أسيراً فحبس وقبض المقتدر على أبي الهيجاء وإخوته جميعاً فحبسوا. وفيها ولى الحسين بن محمد بن عينونة عامل الخراج والضياع بديار ربيعة بعد وفاة أبيه محمد بن أبي بكر. وفي سنة أربع عزل علي بن وهشودان صاحب الحرب بأصبهان بمنافرة وقعت بينه وبين أحمد بن شاه صاحب الخراج، وولى مكانه أحمد بن مسرور البلخي. وأقام ابن وهشودان بنواحي الجبل. ثم تغلب يوسف بن أبي الساج عليها كما مر. وسار إليه مؤنس سنة سبع فهزمه وأسره، وولى على أصبهان وقم وقاشان وساوة أحمد بن علي بن صعلوك، وعلى الري ودنباوند وقزوين وأبهر وزنجان علي بن وهشودان استدعاه من الجبل فولاه، ووثب به عمه أحمد بن مسافر صاحب الكرم فقتله بقزوين. فاستعمل مكانه على الحرب وصيفاً البكتمري، وعلى الخراج محمد بن سليمان.

ثم سار أحمد بن صعلوك إليها فقتل محمد بن سليمان وطرد وصيفاً. ثم قاطع على الأعمال بمال معلوم كما مر. وكان على أعمال سجستان كُثير بن أحمد مقهور متغلباً عليها، فسار إليه أبو الحمامي عامل فارس، فخافه كثيراً وقاطع على البلاد وعقد له عليها. وكان على كرمان سنة أربع وثلثمائة أبو زيد خالد بن محمد المارداني، فانتقض وسار إلى شيراز فقاتله بدر الحمامي وقتله. وفي هذه السنة قتل مؤنس المظفر عند مسيره إلى الصائفة وانتهائه إلى الموصل، فولوا على بلد باريدى وقردى سبكاً المفلحي وعلى مدينة بلد وسنجار وباكري عثمان العبودي صاحب الحرب بديار مصر، فولى مكانه وصيف البكتمري فعجز عن القيام بها، فعزل وولى مكانه جنا الصفواني. وكان على البصرة في هذه السنة الحسن بن الخليل، تولاها منذ سنين ووقعت فتن بينه وبين العامة في مضر وربيعة، واتصلت وقتل منهم خلق. ثم اضطروه إلى الالتحاق بواسط فاستعمل عليها أبا دلف هاشم بن محمد الخزاعي، ثم عزل لسنة وولى سبكاً المفلحي نيابة عن شفيع المقتدري.

وفي سنة ست وثلثمائة عزل عن الشرطة نزار وجعل فيها نجيح الطولوني، فأقام في الأرباع فقهاء يعمل أهل الشرطة بفتواهم، فضعفت الهيبة بذلك، وكثر اللصوص والعيارون، وكبست دور التجار واختطفت ثياب الناس. وفي سنة سبع وثلثمائة ولي إبراهيم بن حمدان ديار ربيعة، وولي بُني بن قيس بلاد شهرزور، واتسعت عليه فاستمد المقتدر وحاصرها. ثم قلد الحرب بالموصل وأعمالها، وكان على الموصل قبله محمد بن إسحاق بن كنداج، وكان قد سار لإصلاح البلاد فوقعت فتنة بالموصل فرجع إليها فمنعوه الدخول فحاصرهم. وعزله المقتدر سنة ثلاث وثلثمائة وولى مكانه عبد الله بن محمد الغساني.

وفي سنة ثمان وثلثمائة ولى المقتدر أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان على طريق خراسان والدينور، وفيها ولى على دقوقا وعكبرا وطريق الموصل بدراً الشرابي. وفي سنة تسع ولى المقتدر على حرب الموصل ومعونتها محمد بن نصر الحاجب، فسار إليها وأوقع بالمخالفين من الأكراد المادرانية. وفيها ولى داود بن حمدان على

ديار ربيعة. وفي سنة عشر عقد ليوسف بن أبي الساج على الري وقزوين وأبهر وزنجان وأذربيجان على تقدير العلوية كما مر. وفيها قبض المقتدر على أم موسى القهرمانة لأنها كانت كثيرة المال، وزوجت بنت أختها من بعض وُلْد المتوكل، كان مرشحاً للخلافة، وكان محسناً فلما صاهرته أوسعت في الشوار واليسار والعرس، وسعى بها إلى المقتدر انها استخلصت القواد فقبض عليها وصادرها على أموال عظيمة وجواهر نفيسة. وفيها قتل خليفة نصر بن محمد الحاجب بالموصل، قتله العامة فجهز العساكر من بغداد، وسار إليها.

وفي سنة إحدى عشرة ملك يوسف بن أبي الساج الري من يد أحمد بن علي صعلوك، وقتله المقتدر وقد مر خبره. وفيها ولى المقتدر بُني بن قيس على حرب أصبهان، وولى محمد بن بدر المعتضدي على فارس مكان ابنه بدر عندما هلك. وفي سنة اثنتي عشرة ولى على أصبهان يحيى الطولوني، وعلى المعاون والحرب بنهاوند سعيد بن حمدان. وفيها توفي محمد بن نصر الحاجب صاحب الموصل وتوفي شفيع اللؤلؤي صاحب البريد، فولى مكانه شفيع المقتدري.

وفي سنة ثلاث عشرة فتح إبراهيم المسمعي عامل فارس ناحية القفص من حدود كرمان، وأسر منهم خمسة آلاف، وكان في هذه السنة ولى على الموصل أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان وابنه ناصر الدولة خليفة فيها، فأفسد الأكراد والعرب بأرض الموصل وطريق خراسان وكانت إليه، فكتب إليه ابنه ناصر الدولة سنة أربع عشرة بالانحدار إلى تكريت للقائه، فجاءه في الحشد وأوقع بالعرب والأكراد الخلالية وحسم علتهم. وفيها قلد المقتدر يوسف بن أبي الساج أعمال الشرق وعزل عن أذربيجان وولاه واسط، وأمده بالسير إليها لحرب القرامطة وأقطعه همذان وساوة وقم وقاشان وماه البصرة وماه الكوفة وماسبذان للنفقة في الحرب، وجعل على الري من أعماله نصر بن سامان، فوليها وصار من عماله كما مر.

وفيها ولى أعمال الجزيرة والضياع بالموصل أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان وأضيف إليه باريدى وقردى وما إليهما. وفيها قتل ابن أبي الساج كما مر. وفي سنة خمس عشرة مات إبراهيم المسمعي بالنوبندجان، وولى المقتدر على مكانه ياقوت، وعلى كرمان أبا طاهر محمد بن عبد الصمد. وفي سنة ست عشرة عزل أحمد بن نصر القسوري عن حجبة الخليفة ووليها ياقوت وهو على الحرب بفارس واستخلف عليها ابنه أبا الفتح المظفر. وفيها ولى على الموصل وأعمالها يونس المؤنسي، وكان على الحرب بالموصل ابن عبد الله بن حمدان، وهو ناصر الدولة فغضب وعاد إلى الخلافة. وقتل في تلك الفتنة نازوك، وأقر على أعمال قردى وباريدى التي كانت بيد أبي الهيجاء ابنه ناصر الدولة الحسن، وعلى أعمال الموصل نحريراً الصغير.

ثم ولى عليها سعيداً ونصراً ابني حمدان، وهما أخوا أبي الهيجاء. وولى ناصر الدولة على ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين وميافارقين من ديار بكر وأرزن على مقاطعة معلومة. وفي سنة ثمان عشرة صرف ابنا رائق عن الشرطة، ووليها أبو بكر محمد بن ياقوت عن الحجبة وقلد أعمال فارس وكرمان. وقلد ابنه المظفر أصبهان وابنه أبا بكر محمداً سجستان وجعل مكان ياقوت وولده في الحجبة والشرطة إبراهيم ومحمد ابنا رائق، فأقام ياقوت بشيراز وكان علي بن خلف بن طيان على الخوارج، فتعاقدا على قطع الحمل عن المقتدر إلى أن ملك علي بن بويه بلاد فارس سنة ثلاث وعشرين. وفي هذه السنة غلب مرداويح على أصبهان وهمذان والري وحلوان، وقاطع عليها بمال معلوم وصارت في ولايته.

استيحاش مؤنس من المقتدر ومسيره إلى الموصل

كان الحسين بن القاسم بن عبد الله بن وهب وزيراً للمقتدر، وكان مؤنس منحرفاً عنه قبل الوزارة حتى أصلح بليق حاله عند مؤنس، فوزر واختص به بنو البريدي وابن الفرات. ثم بلغ مؤنساً أن الحسين قد واطأ جماعة من القواد في التدبير عليه، فتنكر له مؤنس وضاقت الدنيا على الحسين وبلغه أن مؤنساً يكبسه، فانتقل إلى دار الخلافة وكتب الحسين إلى هارون بن غريب الخال يستقدمه، وكان مقيماً بدير العاقول بعد انهزامه من مرداويح، كتب إلى محمد بن ياقوت يستقدمه من الأهواز فاستوحش مؤنس. ثم جمع الحسين الرجال والغلمان الحجرية في دار الخلافة، وأنفق فيهم فعظمت نفرة مؤنس، وقدم هارون من الأهواز فخرج مؤنس مغاضباً للمقتدر وقصد الموصل، وكتب الحسين إلى القواد الذين معه بالرجوع فرجع منهم جماعة، وسار مؤنس في أصحابه ومواليه ومعه من الساجية ثمانمائة من رجالهم، وتقدم الوزير بقبض أملاكه وأملاك من معه وأقطاعهم فحصل منه مال كثير، واغتبط المقتدر به لذلك ولقبه عميد الدولة ورسم اسمه في السكة وأطلق يده في الولاية والعزل، فولى على البصرة وأعمالها أبا يوسف يعقوب بن محمد البريدي على مبلغ ضمنه،

وكتب إلى سعيد وداود ابني حمدان وابن أخيهما ناصر الدولة الحسين بن عبد الله بمحاربة مؤنس، فاجتمعوا على حربه إلا داود فإنه توقف لإحسان مؤنس إليه وتربيته إياه.

ثم غلبوا عليه فوافقهم على حربه، وجمع مؤنس في طريقه رؤوساء العرب وأوهمهم أن الخليفة ولاه الموصل وديار ربيعة، فنفر معه بعضهم واجتمع له من العسكر ثمانمائة وزحف إليه بنو حمدان في ثلاثين ألفاً فهزمهم وملك مؤنس الموصل في صفر من سنة عشرين، وجاءته العساكر من بغداد والشام ومصر رغبة في إحسانه. وعاد ناصر الدولة بن حمدان إلى خدمته وأقام معه بالموصل ولحق سعد ببغداد.

مقتل المقتدر وبيعة القاهر

ولما ملك مؤنس الموصل أقام بها تسعة واجتمعت العساكر فانحدر إلى بغداد لقتال المقتدر، وبعث المقتدر الجنود مع أبي محمد بن ياقوت وسعيد بن حمدان، فرجع عنهم العسكر إلى بغداد ورجعوا وجاء مؤنس فنزل بباب الشماسية والقواد قبالته، وندب المقتدر ابن خاله هارون بن غريب إلى الخوارج لقتاله، فاعتذر ثم خرج، وطالبوا المقتدر بالمال لنفقات الجند فاعتذر وأراد أن ينحدر إلى واسط ويستدعي العساكر من البصرة والأهواز وفارس وكرمان، فرده ابن ياقوت عن ذلك وأخرجه للحرب وبين يديه الفقهاء والقواد والمصاحف مشهورة وعليه البردة والناس يحدقون به، فانهزم أصحابه ولقيه علي بن بليق من أصحاب مؤنس، فعظمه وأشار عليه بالرجوع ولحقه قوم من المغاربة والبربر فقتلوه وحملوا رأسه وتركوه بالعراء، فدفن هنالك. ويقال إن علي بن بليق أشار إليهم بقتله. ولما رأى مؤنس ذلك ندم وسقط في يده وقال: والله لنقتلن جميعاً، وتقدم إلى الشماسية وبعث من يحتاط على دار الخلافة وكان ذلك لخمس وعشرين سنة من خلافة المقتدر.

فاتسع الخرق وطمع أهل القاصية في الاستبداد وكان مهملاً لأمور خلافته محكّماً للنساء والخدم في دولته مبذراً لأمواله. ولما قتل لحق ابنه عبد الواحد بالمدائن ومعه هارون بن غريب الخال ومحمد بن ياقوت وإبراهيم بن رائق. ثم اعتزم مؤنس على البيعة لولده أبي العباس وكان صغيراً، فعزله وزيره أبو يعقوب إسماعيل النوبختي في ولاية صغير في حجر أمه وأشار بأخيه أبي منصور محمد بن المعتضد، فأجاب مؤنس إلى ذلك على كره، وأحضروه وبويع آخر شوال من سنة عشرين، ولقبوه القاهر بالله. واستخلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق وابنه علي، واستقدم أبا علي بن مقلة من فارس فاستوزره، واستحجب علي بن بليق. ثم قبض على أم المقتدر وضربها على الأموال فحلفت فأمرها بحل أوقافها فامتنعت، فأحضر هو القضاة وأشهد بحل أوقافها ووكل في بيعها، فاشتراها الجند من أرزاقهم، وصادر جميع حاشية المقتدر، واشتد في البحث عن ولده وكبس عليهم المنازل إلى أن ظفر بأبي العباس الراضي وجماعة من إخوته وصادرهم وسلمهم علي بن بليق إلى كاتبه الحسين بن هارون، فأحسن صحبتهم وقبض الوزير ابن مقلة على البريدي وإخوته وأصحابه وصادرهم على جملة من المال.

خبر ابن المقتدر وأصحابه

قد ذكرنا أن عبد الواحد بن المقتدر لحق بعد مقتل أبيه بالمدائن، ومعه هارون بن غريب الخال ومفلح ومحمد بن ياقوت وابنا رائق. ثم انحدروا منها إلى واسط وأقاموا بها، وخشيهم القاهر على أمره واستأمن هارون بن غريب على أن يبذل ثلاثمائة ألف دينار وتطلق له أملاكه، فأمنه القاهر ومؤنس وكتب له بذلك وعقد له على أعمال ماه الكوفة وماسبذان ومهروبان، وسار إلى بغداد وسار عبد الواحد بن المقتدر فيمن معه من واسط، ثم إلى السوس وسوق الأهواز، وطردوا العمال وجبوا الأموال.

وبعث مؤنس إليهم بليقاً في العساكر وبذل أبو عبد الله البريدي في ولاية الأهواز خمسين ألف دينار فأنفقت في العساكر. وسار معهم وانتهوا إلى واسط ثم إلى السوس، فجاز عبد الواحد ومن معه من الأهواز إلى تستر، ثم فارقه جميع القواد واستأمنوا إلى بليق إلا ابن ياقوت ومفلحاً ومسروراً الخادم، وكان محمد بن ياقوت مستبداً على جميعهم في الأموال والتصرف، فنفروا لذلك واستأمنوا لأنفسهم ولابن المقتدر إلى بليق، فأمنهم بعد أن استأمنوا محمد بن ياقوت وأذن لهم، ثم استأمن هو على بليق إلى أمان القاهر ومؤنس، وساروا إلى بغداد جميعهم فوفى لهم القاهر وأطلق لعبد الواحد أملاكه وترك لأمه المصادرة التي صادرها، واستولى أبو عبد الله البريدي على أعمال فارس وأعاد إخوته إلى أعمالهم.

مقتل مؤنس وبليق وابنه

لما رجع محمد بن ياقوت من الأهواز واستخلصه القاهر واختصه لخلواته وشوراه، وكانت بينه وبين الوزير ابن علي بن مقلة عداوة، فاستوحش لذلك ودس إلى مؤنس أن محمد بن ياقوت يسعى به عند القاهر، وأن عيسى الطبيب سفيره في ذلك،

فبعث مؤنس علي بن بليق لإحضار عيسى، وتقدم علي بن بليق بالاحتياط على القاهر، فوكل به أحمد بن زيرك وضيق على القاهر وكشف وجوه النساء المختلفات إلى القصر خشية إيصالهم الرقاع إلى القاهر حتى كشفت أواني الطعام، ونقل بليق المحابيس من دار الخلافة إلى داره وفيهم أم المقتدر فأكرمها علي بن بليق وأنزلها عند أمه فماتت في جمادى من سنة إحدى وعشرين. وعلم القاهر أن ذلك من مؤنس وابن مقلة فشرع في التدبير عليهم وكان طريف السبكري ونشرى من خدم مؤنس قد استوحشا مؤنس لتقدم بليق وابنه عليهما. وكان اعتماد مؤنس على الساجية وقد جاؤوا معه من الموصل ولم يوف لهم فاستوحشوا لذلك، فداخلهم القاهر جميعاً وأغراهم بمؤنس وبليق، وبعث إلى أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله وكان مختصاً بابن مقلة وصاحب رأيه! فوعده بالوزارة فكان يطالعه بالأخبار. وشعر ابن مقلة بذلك فأبلغوا إلى مؤنس وبليق، وأجمعوا على خلع القاهر، واتفق بليق وابنه علي وابن مقلة والحسن بن هارون على البيعة لأبي أحمد بن المكتفي فبايعوه، وحلفوا له وأطلعوا مؤنساً على ذلك، فأشار بالمهل وتأنيس القاهر حتى يعوفوا من واطأه من القواد والساجية والحجرية فأبوا وهونوا عليه الأمر في إستعجال خلعه فأذن لهم، فأشاعوا أن أبا طاهر القرمطي ورد الكوفة، وندبوا علي بن بليق للمسير إليه ليدخل للوداع ويقبض على القاهر وابن مقلة كان نائماً فلما استيقظ أعاد الكتاب إلى القاهر فاستراب. ثم جاءه طريف السبكري غلام مؤنس في زي امرأة مستنصحاً، فأحضره وأطلعه على تدبيرهم وبيعتهم لأبي أحمد بن المكتفي فأخذ القاهر حذره، وأكمن الساجية في دهاليز القصر وممراته، وجاء علي بن بليق في خف من أصحابه، واستأذن فلم يؤذن له، وكان ذا خمار فغضب وأفحش في القول فأخرج الساجية في السلاح وشتموه وردوه، وفر عنه أصحابه وألقي بنفسه في الطيار وعبر إلى الجانب الغربي.

واختفى الوزير ابن مقلة والحسن بن هارون، وركب طريف إلى دار القاهر، فأنكر بليق ما جرى لابنه وشتم الساجية وقال: لابد أن أستعدي الخليفة عليهم، وجاء إلى القاهر ومعه قواد مؤنس، فلم يأذن له وقبض عليه وحبسه، وعلى أحمد بن زيرك صاحب الشرطة، وجاء العسكر منكرين لذلك فاسترضاهم ووعدهم بالزيارة وبإطلاق هؤلاء المحبوسين فافترقوا، وبعث إلى مؤنس بالحضور عنده ليطالعه برأيه فأبى فعزله، وولى طريف السبكري مكانه وأعطاه خاتمه وقال: قد فوضت إلى ابني عبد الصمد ما كان المقتدر فوضه إلى ابنه محمد، وقلدتك خلافته وریاسة الجيش وإمارة الأمراء وبيوت الأموال كما كان مؤنس وأمض إليه وأحمله إلى دار الخلافة مرفهاً عليه لئلا يجتمع إليه أهل الشر ويفسد ما بيننا وبينه، فسار طريف إلى مؤنس وأخبره بأمان القاهر له ولأصحابه، وحمله على الحضور عنده وهون عليه أمره، وأن القاهر لا يقدر على مكروهة.

فركب وحضر فقبض عليه القاهر وحبسه قبل أن يراه، وندم طريف على ما فعل واستوحش. واستوزر القاهر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله، ووكل بدور مؤنس وبليق وابنه علي وابن مقلة وابن زيرك وابن هارون ونقل ما فيها، وأحرقت دار ابن مقلة وجاء محمد بن ياقوت وقام بالحجبة، فتنكر له طريف السبكري والساجية فاختفى ولحق بابنه بفارس، وكتب إليه القاهر بالعتب على ذلك وولاه الأهواز، وكان الذي دعا طريفاً السبكري إلى الانحراف عن مؤنس وبليق أن مؤنساً رفع رتبة بليق وابنه عليه بعد أن كانا يخدمانه، فأهملا جانبه. ثم اعتزم بليق على أن يوليه مصر وفاوض في ذلك الوزير ابن مقلة، فوافق عليه. ثم أراد علي بن بليق عمل مصر لنفسه، ومنع من إرسال طريف فتربص بهم. وأما الساجية فكانوا مع مؤنس بالموصل وكان يعدهم ويمنيهم. ولما ولي القاهر واستبد بأمره لم يف لهم. وكان من أعيانهم الخادم صندل، وكان له بدار القاهر خادم اسمه مؤتمن باعه واتصل بالقاهر قبل الخلافة، فلما شرع في التدبير على مؤنس وبليق بعث مؤنساً هذا إلى صندل يمت إليه تقديه ويدخله في أمر القاهر وإزالة الحجر عنه. فقصد إلى صندل وزوجته وتلطف ووصف القاهر بما شاء من محاسن الأخلاق، وحمل زوجته على الدخول إلى دار القاهر حتى شافهها بما أراد إبلاغه إلى صندل، وداخل صندل في ذلك سيما من قواد الساجية، واتفقوا على مداخلة طريف السبكرى في ذلك لعلمهم باستيحاشه من مؤنس، فأجابهم على شريطة الإبقاء على مؤنس وبليق وابنه، وأن لا يزال مؤنس من مرتبته وتحالفوا على ذلك من الجانبين.

وطلب طريف عهد القاهر بخطه، فكتب وزاد فيه أنه يصلي بالناس ويخطب لهم ويحج بهم ويغزو معهم ويتند لكشف المظالم وغير ذلك من حسن السيرة، وكان جماعة من الحجرية قد أبعدهم ابن بليق وأدال منهم بأصحابه، فداخلهم طريف في أمر القاهر فأجابوه، ونمي الخبر بذلك إلى ابن مقلة وإلى بليق، وأرادوا القبض على قواد الساجية والحجرية. ثم خشوا الفتنة ودبروا على القاهر فلم يصلوا إليه لاحتجابه عنهم بالمرض. فوضعوا أخبار القرامطة كما قدمناه.

ولما قبض القاهر على مؤنس ولى الحجابة سلامة الطولوني.

وعلى الشرطة أحمد بن خاقان، واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبد اللّه مكان ابن مقلة، وأمر بالنداء على المتسترين والوعيد لمن أخفى، وطلب أبا أحمد بن المكتفي فظفر به، وبنى عليه حائطاً فمات. ثم ظفر بعلي فقتله. ثم شغب الجند في شعبان ومعهم أصحاب مؤنس، وثاروا ونادوا بشعاره، وطلبوا إطلاقه وأحرقوا روشن دار الوزير أبي جعفر. فعمد القاهر إلى بليق في محبسه وأمر به فذبح وحمل الرأسين إلى مؤنس، فلما رآهما مؤنس استرجع ولعن قاتلهما فأمر به فذبح وطيف بالرؤوس. ثم أودعت بالخزانة. وقيل: إن قتل علي بن بليق تأخر عن قتل أبيه ومؤنس لأنه كان مختفياً، فلما ظفر به بعدهما قتله. ثم بعث القاهر إلى أبي يعقوب إسحاق بن إسماعيل اليوصحي فأخذ من محبس الوزير محمد بن القاسم وحبسه، وارتاب الناس من شدة القاهر، وندم الساجية والحجرية على مداخلته في ذلك الأمر. ثم قبض القاهر على وزيره أبي جعفر وأولاده وأخيه عبيد اللّه وخدمة لثلاثة أشهر ونصف من ولايته، ومات لثمان عشرة ليلة من حبسه، واستوزر مكانه أبا العباس أحمد بن عبيد اللّه بن سليمان الحصيبي. ثم استبد القاهر على طريف السبكري واستخف به، فخافه وتنكر. ثم أحضره بعد أن قبض على الوزير أبي جعفر فقبض عليه وأودعه السجن إلى أن خلع القاهر.

ابتداء دولة بني بويه

كان أبوهم أبو شجاع بوية من رجالات الديلم، وكان له أولاد علي والحسن وأحمد، فعلي أبو الحسن عماد الدولة، والحسن أبو علي ركن الدولة، وأحمد أبو الحسن معز الدولة. ونسبهم ابن ماكولا في الساسانية إلى بهراجور بن يزدجرد، وابن مسكوية إلى يزدجرد بن شهريار، وهو نسب مدخول، لأن الرياسة على قوم لا تكون في غير أهل بلدهم كما ذكرنا في مقدمة الكتاب.

ولما أسلم الديلم على يد الأطروش وملك بهم طبرستان وجرجان، وكان من قواده ماكان بن كالي وليلى بن النعمان وأسفار بن شيروية ومرداويج بن وزيار، وكانوا ملوكاً عظاماً وازدحموا في طبرستان، فساروا لملك الأرض عند اختلاط الدولة العباسية وضعفها، وقصدوا الاستيلاء على الأعمال والأطراف. وكان بنو بويه من جملة قواد ماكان بن كالي فلما وقع بينه وبين مرداويج من الفتنة والخلاف ما تقدم، وغلبه مرداويج على طبرستان وجرجان عادوا إلى مرداويخ لتخف عنه مؤنتهم على أن يرجعوا إليه إذا صلح أمره، فساروا إلى مرداويج فقبلهم وأكرمهم، واستأمن إليه جماعة ومن قواد ماكان فقتلهم وأولادهم. وولى علي بن بويه على الكرج، وكان أكبر إخوته. وسار جميعهم إلى الري وعليها وشمكير بن وزيار أخو مرداويج ومعه وزيره الحسين بن محمد الملقب بالعميد، فاتصل به علي بن بويه وأهدى إليه بغلة كانت عنده ومتاعاً، وندم مرداويج على ولاية هؤلاء المستأمنة من قواد ماكان، فكتب إلى أخيه وشمكير بالقبض على الباقين، وأراد أن يبعث في أثر علي بن بويه فخشي الفتنة وتركه.

ولما وصل علي بن بويه إلى الكرج استقام أمره وفتح قلاعاً للخرمية ظفر منها بذخائر كثيرة، واستمال الرجال وعظم أمره، وأحبه الناس، ومرداويج يومئذ بطبرستان. ثم عاد إلى الري وأطلق مالاً لجماعة من القواد على الكرج فوصلوا إلى علي بن بوية فأحسن إليهم واستمالهم، وبعث إليهم مرداويج فدافعه فندم على إطلاقهم، وبعث فيهم مرداويج أمراء الكرج فاستأمن إليه شيرزاد من أعيان قواد الديلم. فقويت نفسه وسار إلى أصبهان وبها المظفر بن ياقوت على الحرب في عشرة آلاف مقاتل، أبو علي بن رستم على الخوارج، فأرسل علي بن بويه يستعطفهما في الانحياز إلى طاعة الخليفة وخدمته، والمسير إلى الحضرة فلم يجيباه. وكان أبو علي أشد كراهة له فمات تلك الأيام.

وسار ابن ياقوت ثلاثة فراسخ عن أصبهان، وكان في أصحابه حسل وديلم، واستأمنوا إلى ابن بويه، ثم اقتتلوا فانهزم ابن ياقوت واستولى علي بن بويه على أصبهان، وهو عماد الدولة، وكان عسكره نحواً من تسعمائة، وعسكر ابن ياقوت نحواً من عشرة آلاف. وبلغ ذلك القاهر فاستعظمه وبلغ مرداويج فأقلقه وخاف على ما بيده، وبعث إلى عماد الدولة يخادعه يطلب الطاعة منه ليطمئن للرسالة، ويخالفه أخوه وشمكير في العساكر. وشعر ابن بويه بذلك فرحل عن أصبهان وقصد أرّجان وبها أبو بكر بن ياقوت، فانهزم أبو بكر من غير قتال ولحق برامهرمز. واستولى ابن بويه على أرجان وخالفه وشمكير أخو مرداويج إلى أصبهان فملكها، وأرسل القاهر إلى مرداويح بأن يسلم أصبهان لمحمد بن ياقوت ففعل. وكتب أبو طالب يستدعيه ويهون عليه أمر ابن ياقوت ويغريه به، فخشي ابن بويه من كثرة عساكر ياقوت وأمواله، وأن يحصل بينه وبين ابنه تأهبات فتوقف، فأعدى عليه أبو طالب وأراه أن مرداويج طلب الصلح من ابن ياقوت وخوفه اجتماعهما عليه. فسار ابن بويه إلى أرجان في ربيع سنة إحدى وعشرين ولقيتهم هنالك مقدمة ابن ياقوت فانهزمت، فزحف ابن ياقوت إليهم وبعث عماد الدولة أخاه ركن الدولة الحسن إلى

كازرون وغيرها من أعمال فارس، فجبى أموالها ولقي عسكر ابن ياقوت هنالك فهزمهم ورجع إلى أخيه، وخشي عماد الدولة من اتفاق مرداويج مع ابن ياقوت فسار إلى أصطخر، واتبعه ابن ياقوت وشيعه إلى قنطرة بطريق كرمان اضطروا إلى الحرب عليها. فتزاحفوا هنالك واستأمن بعض قواده إلى ابن ياقوت فقتلهم، فاستأمن أصحابه وانهزم ابن ياقوت واتبعه ابن بويه واستباح معسكره، وذلك في جمادى سنة اثنتين وعشرين.

وأبلى أخوه معز الدولة أحمد في ذلك اليوم بلاء حسناً، ولحق ابن ياقوت بواسط، وسار عماد الدولة إلى شيراز فملكها وأمن الناس واستولى على بلاد فارس، وطلب الجند أرزاقهم فعجز عنها وعثر على صناديق من مخلف ابن ياقوت وذخائر بني الصفار فيها خمسمائة ألف دينار فامتلأت خزائنه وثبت ملكه. واستقر ابن ياقوت بواسط وكاتبه أبو عبد اللّه اليزيدي حتى قتل مرداويج. عاد إلى الأهواز ووصل عسكر مكرم، وكانت عساكر ابن بويه سبقته فالتقوا بنواحي أرجان وانهزم ابن ياقوت فأرسل أبو عبد اللّه اليزيدي في الصلح فأجابه ابن بويه، واستقر ابن ياقوت بالأهواز ومعه ابن اليزيدي وابن بويه ببلاد فارس. ثم زحف مرداويج إلى الأهواز وملكها من يد ابن ياقوت، ورجع إلى واسط وكتب إلى الراضي. وكان بعد القاهر كما نذكره، وإلى وزيره أبي علي بن مقلة بالطاعة والمقاطعة فيما بيده من البلاد بأعمال فارس على ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك وبعث إليه باللواء والخلع وعظم شأنه في فارس وبلغ مرداويج شأنه فخاف غائلته، وكان أخوه وشمكير قد رجع إلى أصبهان بعد خلع القاهر وصرف محمد بن ياقوت عنها، فسار إليها مرداويج للتدبير على عماد الدولة وبعث أخاه وشمكير على الري وأعمالها.

خلع القاهر وبيعة الراضي

ولما قتل القاهر مؤنساً وأصحابه أقام يتطلب الوزير أبا علي بن مقلة والحسن بن هارون وهما مستتران، وكانا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويغريانهم بالقاهر، فإنهم غرّوه كما فعل بأصحابه قبلهم. وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ويراسلهم ويجيء إليهم متنكراً ويغريهم، ووضعوا على سيما أن منجماً أخبره أنه ينكب القاهر ويقتله، ودسوا إلى معبر كان عنده أموالاً على أن يحذره من القاهر، فنفر واستوحش، وحفر القاهر مطامير في داره، فقيل لسيما والقواد: إنما صنعت لكم فازدادوا نفرة. وكان سيما رئيس الساجية فارتاب بالقاهر وجمع أصحابه وأعطاهم السلاح، وبعث إلى الحجرية فجمعهم عنده وتحالفوا على خلع القاهر، وزحفوا إلى الدور وهجموا عليه فقام من النوم ووجد الأبواب مشحونة بالرجال فهرب إلى السطح، ودلهم عليه خادم فجاؤوه واستدعوه للنزول فأبى فتهددوه بالرشق بالسهام فنزل وجاؤوا به إلى محبس طريف السيكري فحبسوه مكانه وأطلقوه حتى سمل بعد ذلك، وذلك لسنة ونصف من خلافته.

وهرب الخصيبي وزيره وسلامة حاجبه. وقد قيل في خلعه غير هذا وهو: أن القاهر لما تمكن من الخلافة اشتد على الساجية والحجرية واستهان بهم، فتشاكوا ثم خافه حاجبه سلامة لأنه كان يطالبه بالأموال ووزيره الخصيبي كذلك، وحفر المطامير في داره فارتابوا به كما ذكرنا. وأسر جماعة من القرامطة فحبسهم بتلك المطامير وأراد أن يستظهر بهم على الحجرية والساجية فتنكروا ذلك وقالوا فيه للوزير وللحاجب، فأخرجهم من الدار وسلمهم لمحمد بن ياقوت صاحب الشرطة وأوصاه إليهم فازداد الساجية والحجرية ريبة. ثم تنكر لهم القاهر وصار يعلن بذمهم وكراهتهم فاجتمعوا لخلعه كما ذكرنا.

ولما قبض القاهر بحثوا عن أبي العباس بن المقتدر وكان محبوساً مع أمه، فأخرجوه وبايعوه في جمادى سنة اثنتين وعشرين، وبايعه القواد والناس، وأحضر علي بن عيسى وأخاه عبد الرحمن وصدر عن رأيهما، وأراد علي بن عيسى على الوزارة فامتنع واعتذر بالنكير، وأشار بابن مقلة فأمنه واستوزره. وبعث القضاة إلى القاهر ليخلع نفسه فأبى فسمل وأمن ابن مقلة الخصيبي وولاه وولى الفضل بن جعفر بن الفرات نائباً عنه عن أعمال الموصل وقردى وباريدى وماردين وديار الجزيرة وديار بكر وطريق الفرات والثغور الجزرية والشامية وأجناد الشام وديار مصر يعزل ويولي من يراه في الخراج والمعادن والنفقات والبريد وغير ذلك.

وولى الراضي على الشرطة بدراً الخمامي وأرسل إلى محمد بن رائق يستدعيه، وكان قد استولى على الأهواز ودفع عنها ابن ياقوت من تلك الولاية إلى السوس وجنديسابور، وقد ولي على أصبهان وهو يروم المسير إليها. فلما ولي الراضي استدعاه للحجابة فسار إلى واسط، وطلب محمد بن ياقوت الحجابة فأجيب إليها فسار في أثر ابن رائق، وبلغ ابن رائق الخبر فسار من واسط مسبقاً لابن ياقوت بالمدائن توقيع الراضي بالحرب، والمعادن في واسط مضافاً إلى ما بيده من البصرة والمعادن، فعاد منحدراً في دجلة ولقيه ابن ياقوت مصعداً ودخل بغداد وولي الحجبة وصارت إليه رياسة الجيش ونظر في أمر الدواوين وأمرهم بحضور مجلسه، وأن لا ينفذوا توقيعاً في ولاية أو عزل أو إطلاق إلا بخطه، وصار

نظر الوزير في الحقيقة له وابن مقلة مكابر مجلسه مع جملتهم ومتميز عنهم في الإيثار والمجلس فقط.

مقتل هارون

كان هارون بن غريب الحال على ماه الكوفة والدينور وماسبذان سائر الأعمال التي ولاها القاهر إياه، فلما خلع القاهر واستخلف الراضي رأى هارون أنه أحق بالدولة من غيره لأنه ابن خال المقتدر، فكاتب القواد ووعدهم وسار من الدينور إلى خانقين وشكا ابن مقلة وابن ياقوت والحجرية والساجية إلى الراضي فأذن لهم في منعه، فراسلوه أولا بالممانعة. والزيادة على ما في يده من الأعمال، فلم يلتفت إليهم وشرع في الجباية فقويت شوكته، فسار إليه محمد بن ياقوت في العساكر وهرب عنه بعض أصحابه إلى هارون، وكتب إلى هارون يستميله فلم يجب، وقال: لابد من دخول بغداد. ثم تزاحفوا لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين، فانهزم أولاً أصحاب ابن ياقوت ونهب سوادهم وسار محمد حتى قطع قنطرة تبريز، وسار هارون منفرداً لاعتراضه، فدخل في بعض المياه وسقط عن فرسه، ولحقه غلام لمحمد بن ياقوت فقطع رأسه وانهزم أصحابه وقتل قواده وأسر بعضهم ورجع ابن ياقوت إلى بغداد ظافراً.

نكبة ابن ياقوت

قد ذكرنا أنه نظر في أمر الدواوين وصير ابن مقلة كالعاطل، فسعى به عند القاضي وأوهمه خلافه حتى أجمع القبض عليه في جمادى سنة ثلاث وعشرين، فجلس الخليفة على عادته وحضر الوزير وسائر الناس على طبقاتهم يريد تقليد جماعة من القواد للأعمال. واستدعى ابن ياقوت للخدمة في الحجبة على عادته، فبادر وعدل به إلى حجرة فحبس فيها وخُمّار. وبعث الوزير ابن مقلة إلى دار محمد من يحفظها من النهب وأطلق يده في أمور الدولة واستبد بها وكان ياقوت مقيماً بواسط، فلما بلغه القبض على ابنه انحدار إلى فارس لمحاربة ابن بوية، وكتب يستعطف الراضي ويسأله إبقاء ابنه ليساعده على شأنه. ولم يزل محمد محبوساً إلى أن هلك سنة أربع عشرة في محبسه.

خبر البريدي

كان أبو عبد اللّه البريدي أيام ابن ياقوت ضامناً للأهواز، فلما استولى عليها مرداويج وانهزم ابن ياقوت كما مر رجع البريدي إلى البصرة وصار يتصرف في أسافل الأهواز مع كتابة ياقوت. ثم سار إلى ياقوت فأقام معه بواسط، فلما قبض على ابن ياقوت وكتب ابن مقلة إليه وإلى ياقوت يعتذر عن قبض ابن ياقوت ويأمرهما بالمسير لفتح فارس، فسار ياقوت على السوس والبريدي على طريق الماء حتى انتهيا إلى الأهواز. وكان إلى أخويه أبي الحسن وأبي يوسف ضمان السوس وجنديسابور، وادعيا أن دَخْل البلاد أخذه مرداويج. وبعث ابن مقلة ثانياً لتحقق ذلك، فوافاهم وكتب بصدقهم، فاستولى ابن البريدي ما بين ذلك على أربعة آلاف ألف دينار، ثم أشار أبو عبد اللّه بن علي بن ياقوت بالمسير لفتح فارس، وأقام هو لجباية الأموال فحصل منها بغيته. وسار ياقوت فلقيه ابن بويه على أرجان فهزمه وسار إلى عسكر مكرم. واتبعه ابن بويه إلى رامهرمز وأقام بها إلى أن اصطلحا.

مقتل ياقوت

قد تقدم لنا انهزام ياقوت من فارس أمام عماد الدولة ابن بويه إلى عسكر مكرم واستيلاء ابن بويه على فارس. وكان أبو عبد اللّه البريدي بالأهواز ضامناً كما تقدم. وكان مع ذلك كاتباً لياقوت، وكان ياقوت يستنيم إليه ويثق به، وكان مغفلاً ضعيف السياسة فخادعه أبو عبد اللّه البريدي وأشار عليه بالمقام بعسكر مكرم وأن يبعث إليه بعض جنده الواصلين من بغداد تخفيفاً للمؤنة وتحذيراً من شغبهم. وبعث إليه أخاه بذلك أبا يوسف ودفع له من مال الأهواز خمسين ألف دينار. ثم قطع عنه فضاق الحال عليه وعلى جنده، وكان قد نزع إليه من أصحاب ابن بويه طاهر الجمل وكاتبه أبو جعفر الصهيري، ثم انصرف عنه لضيق حاله إلى غربي تستر ليتغلب على ماه البصرة، فكبسه ابن بويه وغنم معسكره وأسر الصهيري فشفع فيه وزيره وأطلقه، فلحق بكرمان واتصل بعد ذلك بمعز الدولة ابن بويه واستكتبه.

ولما انصرف طاهر عن ياقوت كتب إلى البريدي يشكو ضعفه واستطالة أصحابه، فأشار عليه بإرسالهم إلى الأهواز متعرفين لقومهم. فلما وصلوا إليه انتقى خيارهم ورد الباقين، وأحسن إلى من عنده. وبعث ياقوت إليه في طلب المعز فلم يبعث إليه، فجاءه بنفسه فتلقاه وترجل إليه وقبل يده، وأنزله بداره وقام في خدمته أحسن مقام، ووضع الجند على الباب يشغبون ويرومون قتله، فأشار إليه بالنجاة، فعاد إلى عسكر مكرم فكتب إليه يحذره اتباعهم، وإن عسكر مكرم على ثمانية فراسخ من

الأهواز، وأرى أن تتأخر بتستر فتتحصن بها. وكتب له على عامل تستر بخمسين ألف دينار، وعذله خادمه مؤنس في شأن ابن البريدي وأراه خديعته وأشار إليه باللحاق ببغداد، وأنه شيخ الحجرية، وقد كاتبوك فسر إلى رياسة بغداد وإلا فتعاجل إلى البريدي وتخرجه عن الأهواز، فصم عن نصيحته وأبى من قبول السعاية فيه، وتسايل أصحابه إلى ابن البريدي حتى لم يبق معه إلا نحو الثمانمائة.

وجاءه ابنه المظفر ناجياً من حبس الراضي بعد أسبوع، فأطلقه وبعثه إلى أبيه فأشار عليه بالمسير إلى بغداد، فإن حصل على ما يريد وإلا فإلى الموصل وديار ربيعة ويتملكها فأبى عليه أبوه ففارقه إلى ابن البريدي فأكرمه ووكل به. ثم حذر ابن البريدي غائلة ياقوت فبعث إليه بأن الخليفة أمره بإزعاجه من البلاد إما إلى بغداد وإما إلى بلاد الجبل ليوليه بعض أعمالها، فكتب يستمهله فأبى من المهلة وبعث العساكر من الأهواز. وسار ياقوت إلى عسكر مكرم ليكبس ابن البريدي هنالك فصبح البلد ولم يجده، وجاءت عساكر ابن البريدي مع قائد أبي جعفر الجمال، فقاتله من أمامه وأكمن آخرين من خلفه فانهزم وافترق أصحابه، وحسا إلى حائط متنكراً فمر به قوم ابن البريدي فكشفوا وجهه وعرفوه فقتلوه وحملوا رأسه إلى العسكر فدفنه الجمال وبعث البريدي إلى تستر فحمل ما كان لياقوت هنالك، وقبض على ابنه المظفر وبعثه إلى بغداد واستبد بتلك الأعمال وذلك سنة أربع وعشرين.

مسير ابن مقلة إلى الموصل واستقرارها لابن حمدان

كان ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن أبي الهيجاء عبد اللّه بن حمدان عاملاً على الموصل فجاء عمه أبو العلاء سعيد فضمن الموصل وديار ربيعة سراً وسار إليها فظهر أنه في طلب المال من ابن أخيه. وشعر ناصر الدولة بذلك فخرج لتلقيه، فخالفه إلى بيته فبعث من قبله واهتم الراضي بذلك وأمر الوزير أبا علي بن مقلة بالمسير إلى الموصل فسار في العساكر من شعبان سنة ثلاث وعشرين، فرحل عنها ناصر الدولة ودخل الزوران واتبعه الوزير إلى جبل السن. ثم عاد عنها إلى الموصل وأقام في جبايتها وبعث ناصر الدولة إلى بغداد بعشرة آلاف دينار لابن الوزير ليستحث أباه في القدوم، فكتب إليه بما أزعجه، فسار من الموصل واستخلف عليها علي بن خلف بن طياب وماترد الديلمي من الساجية. ودخل بغداد منتصف شوال، وجمع ناصر الدولة ولقي ماترد الديلمي على نصيبين إلى الرقة وانحدر منها إلى بغداد ولحقه ابن طياب، واستولى ناصر الدولة حمدان على الموصل وكتب في الرضا وضمان البلاد فأجيب وتعذرت عليه.

نكبة ابن مقلة وخبر الوزارة

كان الوزير بن مقلة قد بعث سنة ثلاث وعشرين إلى محمد بن رائق بواسط يطالبه بارتفاع أعمال واسط والبصرة، وكان قد قطع الجبل. فلما جاءه كتاب ابن مقلة، كتب إليه جوابه يغالطه وكتب إلى الرضي بالسعي في الوزارة، وأنه يقوم بنفقات الدار وأرزاق الجند، فجهز الوزير ابنه سنة أربع وعشرين لقصده ووري بالأهواز، وأنفذ رسوله إلى ابن رائق بهذه التورية يؤنسه بها، وباكر القصر لإنفاد الرسول فقبض عليه المظفر بن ياقوت والحجرية وكان المظفر قد أطلق من محبسه وأعيد إلى الحجبة، فاستحسن الراضي فعلهم، واختفى أبو الحسين ابن الوزير وسائر أولاده وحرمه وأصحابه، وأشار إلى الحجرية والساجية بوزارة علي بن عيسى فامتنع وسار بأخيه عبد الرحمن فاستوزره الراضي وصادر ابن مقلة. ثم عجز عن تمشية الأمور وضاقت عليه الجباية فاستعفى من الوزارة، فقبض عليه الراضي وعلى أخيه على ثلاثة أشهر من وزارته، واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي فصادر علي بن عيسى على مائة ألف دينار، ثم عجز عن الوزارة وضاقت الأموال وانقطعت، وطمع أهل الأعمال فيما بأيديهم، فقطع ابن رائق حمل واسط والبصرة وقطع ابن البريدي حمل الأهواز وأعمالها، وانقطع حمل فارس لغلب ابن بويه عليها، ولم يبق غير هذه الأعمال ونطاق الدولة قد تضايق إلى الغاية وأهل الدولة مستبدون على الخلافة والأحوال متلاشية، فتحير أبو جعفر وكثرت عليه المطالبات وذهبت هيبته، فاختفى لثلاثة أشهر ونصف من وزارته واستوزر الراضي مكانه أبا القاسم سليمان بن الحسن، فكان حاله مثل حال من قبله في قلة المال ووقوف الحال.

استيلاء ابن رائق على الخليفة

ولما رأى الراضي وقوف الحال من الوزراء استدعى أبا بكر محمد بن رائق من واسط وكاتبه بأنه قد أجابه إلى ما عرض من السعي في الوزارة على القيام بالنفقات وأرزاق الجند، فسر ابن رائق بذلك وشرع يتجهز للمسير. ثم أنفذ إليه الراضي الساجية وقلده إمارة الجيش، وجعله أمير الأمراء، وفوض إليه الخراج والدواوين والمعادن في جميع البلاد، وأمر بالخطبة له على المنابر،

وانحدر إليه أرباب الدواوين والكتاب والحجاب. ولما جاءه الساجية قبض عليهم بواسط في ذي الحجة من سنة أربع وعشرين، ونهب رجالهم ودوابهم ومتاعهم ليوفر أرزاقهم على الحجرية، فاستوحشوا لذلك وخيموا بدار الخلافة، وأصعد ابن رائق إلى بغداد وفوض الخليفة إليه أمرهم. وأمر الحجرية بتقويض خيامهم والرجوع إلى منازلهم، وأبطل الدواوين وصير النظر إليه، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور.

وبقي ابن رائق وكتابه ينظرون في جميع الأمور فبطلت الدواوين وبيوت الأموال من يومئذ وصارت لأمير الأمراء، والأموال تحمل إلى خزانته، ويتصرف فيها كما يريد، ويطلب من الخليفة ما يريد. وتغلب أصحاب الأطراف وزال عنهم الطاعة. ولم يبق للخليفة إلا بغداد وأعمالها وابن رائق مستبد عليه. وأما باقي الأعمال فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان والأهواز في يد ابن البريدي، وفارس في يد عماد الدولة ابن بويه، وكرمان في يد علي بن الياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة ابن بويه، وشمكير أخو مرداويج ينازعه في هذه الأعمال، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد حمدان، ومصر والشام في يد ابن طغج، والمغرب وأفريقية في يد العبيديين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن الناصر من ولد عبد الرحمن الداخل وما وراء النهر في يد بني سامان، وطبرستان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي الطاهر القرمطي، ولم يبق لنا من الأخبار إلا ما يتعلق بالخلافة فقط في نطاقها المتضايق أخيراً، وإن كانت مغلبة وهي أخبار ابن رائق والبريدي، وأما غير ذلك من الأعمال التي اقتطعت كما ذكرناه، فنذكر أخبارها منفردة ونسوق المستبدين دولاً كما شرطناه أول الكتاب. ثم كتب ابن رائق عن الراضي إلى أبي الفضل بن جعفر بن الفرات وكان على الخراج بمصر والشام، وظن أنه بوزارته تكون له تلك الجباية، فوصل إلى بغداد وولي وزارة الراضي وابن رائق جميعاً.

وصول يحكم مع ابن رائق

كان يحكم هذا من جملة مرداويج قائد الديلم ببلاد الجبل، وكان قبله في جملة ماكان بن كالي ومن مواليه، وهبه له وزيره أبو علي الفارض، ثم فارق ماكان مع من فارقه إلى مرداويج. وكان مرداويج قد ملك الري وأصبهان والأهواز، وضخم ملكه وصنع كراسي من ذهب وفضة للجلوس عليها هو وقواده، ووضع على رأسه تاجاً تظنه تاج كسرى.و أمر أن يخاطب بشاهنشاه واعتزم على قصد العراق والاستيلاء عليه، وتجديد قصور كسرى بالمدائن. وكان في خدمته جماعة من الترك ومنهم يحكم. فأساء ملكهم وعسكرهم فقتلوه سنة ثلاث وعشرين بظاهر أصبهان كما نذكره في أخبارهم. واجتمع الديلم والجبل بعده على أخيه وشمكير بن زيار وهو والد قابوس، ولما قتل مرداويج إفترق الأتراك فرقتين ففرقة سارت إلى عماد الدولة بن بويه بفارس، والأخرى وهي الأكثر سارت نحو الجبل عند يحكم، فجبوا خراج الدينور وغيرها. ثم ساروا إلى النهروان وكاتبوا الراضي في المسير إليه، فأذن لهم وارتاب الحجرية بهم، فأمرهم الوزير بالرجوع إلى بلد الجبل فغضبوا واستدعاهم ابن رائق صاحب واسط والبصرة فمضوا إليه وقدم عليهم يحكم وكان الأتراك والديلم من أصحاب مرداويج فجاءته جماعة منهم فأحسن إليهم وإلى يحكم وسماه الرائقي نسبة إليه وأذن له أن يكتبه في مخاطباته.

مسير الراضي وابن رائق لحرب ابن البريدي

ثم اعتزم ابن رائق سنة خمس وعشرين على الراضي في المسير إلى واسط لطلب ابن البريدي في المال ليكون أقرب لمناجزته، فانحدر في شهر محرم وارتاب الحجرية بفعله مع الساجية، فتخلفوا ثم تبعوه فاعترضهم وأسقط أكثرهم من الديوان، فاضطربوا وثاروا فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم جماعة ولجأ فلهم إلى بغداد، فأوقع بهم لؤلؤ صاحب الشرطة ونهبت دروهم وقطعت أرزاقهم وقبضت أملاكهم، وقتل ابن رائق من كان في حبسه من الساجية، وسار هو والراضي نحو الأهواز لإجلاء ابن البريدي منها. وقدم إليه في طلب الاستقامة وتوعده فجدد ضمان الأهواز بألف دينار في كل شهر، ويحمل في كل يوم قسطه. وأجابه إلى تسليم الجيش لمن يسير إلى قتال ابن بويه لنفرتهم عن بغداد. وعرض ذلك على الراضي، فأشار الحسين بن علي القونجي وزير ابن رائق بأن لا تقبل لأنه خداع ومكر وأشار أبو بكر بن مقاتل بإجابته، وعقد الضمان على ابن البريدي، وعاد ابن رائق والراضي إلى بغداد فدخلاها أول صفر، ولم يف ابن البريدي بحمل المال، وأنفذ ابن رائق جعفر بن ورقاء ليسير بالجيش إلى فارس، ودس إليهم ابن البريدي أن يطلبوا منه المال ليتجهزوا به فاعتذر، فشتموه وتهددوه بالقتل. وأتى ابن البريدي فأشار عليه بالنجاء.

ثم سعى ابن مقاتل لابن البريدي في وزارة ابن رائق عوضاً عن الحسين القونجي وبذل عنه ثلاثين ألف دينار، فاعتذر له

بسوابق القونجي عنده وسعيه له، وكان مريضاً فقال له ابن مقاتل: إنه هالك، فقال ابن رائق: قد أعلمني الطبيب أنه ناقه، فقال: الطبيب يراجيك فيه لقربة منك، ولكن سل ابن أخيه علي بن حمدان. وكان القونجي قد استناب ابن أخيه في مرضه، فأشار عليه ابن مقاتل أن يعرف الأمير إذا بمهلكة، وأشار عليه أن يستوزره. فلما سأله ابن رائق أيأسه منه؟ فقال ابن رائق عند ذلك لابن مقاتل: أكتب لابن البريدي يرسل من ينوب عنه في الوزارة، فبعث أحمد بن الكوني واستولى مع مقاتل على ابن رائق، وسعوا لابن البريدي أبي يوسف في ضمان البصرة.

وكان عامل البصرة من قبل ابن رائق محمد بن يزداد وكان شديد الظلم والعسف بهم، فخادعه ابن البريدي وأنفذ أبو عبد اللّه مولاه إقبالاً في ألفي رجل، وأقاموا في حصن مهدي قريباً. فعلم ابن يزداد أنه يروم التغلب على البصرة، وأقاما على ذلك وأقام ابن رائق شأن هذا العسكر في حصن مهدي. وبلغه أيضاً أنه استخدم الحجريين الذين أذن لهم في الانسياح في الأرض، وأنهم اتفقوا مع عسكره على قطع الحمل، وكاتبه بطردهم عنه فلم يفعل. فأمر ابن الكوني أن يكتب إلى ابن البريدي بالكتاب على ذلك. ويأمر بإعادة العسكر من حصن مهدي، فأجاب بإعدادهم للقرامطة وابن يزداد عاجز عن الحماية.

وكان القرامطة قد وصلوا إلى الكوفة في ربيع الآخر وخرج ابن رائق في العساكر إلى حصن ابن هبيرة ولم يستقر بينهم أمر. وعاد القرمطي إلى بلده وسار ابن رائق إلى واسط. فكتب ابن البريدي إلى عسكره بحصن مهدي أن يدخلوا البصرة ويملكوها من ابن يزداد، وأمدهم بجماعة من الحجرية فقصدوا البصرة وقاتلوا ابن يزداد فهزموه، ولحق بالكوفة، وملك إقبال مولى ابن البريدي وأصحابه البصرة، وكتب ابن رائق إلى البريدي يتهدده ويأمره بإخراج أصحابه من البصرة فلم يفعل.

استيلاء بجكم على الأهواز

ولما امتنع ابن البريدي من الإفراج عن البصرة بعث ابن رائق العساكر مع بدر الحريشي وبجكم مولاه، وأمرهم بالمقام بالجامدة فتقدم بجكم عن بدر وسار إلى السوس، وجاءته عساكر البريدي مع غلامه محمد الجمال في ثلاثة آلاف ومع بجكم مائتان وسبعون من الترك، فهزمهم بجكم ورجع محمد بن الجمال إلى ابن البريدي فعاقبه على انهزامه، وحشد له العسكر فسار في ستة آلاف ولقيهم بجكم عند نهر تستر فانهزموا من غير قتال، وركب ابن البريدي السفن ومعه ثلاثمائة ألف دينار ففرق أصحابه وماله ونجا إلى البصرة، وأقام بالأبلّة وبعث غلامه إقبالاً فلقي جماعة من أصحاب ابن رائق فهزمهم، وبعث ابن رائق مع جماعة من أهل البصرة يستعطفه فأبى، فطلبوا البصرة فحلف ليحرقنها ويقتل كل من فيها، فرجعوا مستبصرين في قتاله.

وأقام ابن البريدي بالبصرة، واستولى بجكم على الأهواز ثم بعث ابن رائق جيشه في البحر والبر فانهزم عسكر البر واستولى عسكر الماء على الكلأ، فهرب ابن البريدي في السفن إلى جزيرة أوال، وترك أخاه أبا الحسين في عسكر بالبصرة فدفع عسكر ابن رائق عن الكلأ فسار ابن رائق من واسط، واستولى بجكم على الأهواز، وقاتلوا البصرة فامتنعت عليهم، وسار أبو عبد اللّه بن البريدي من أوال إلى عماد الدولة بن بويه بفارس، فأطعمه في العراق وبعث معه أخاه معز الدولة إلى الأهواز فسير إليها ابن رائق مولاه بجكم على أن يكون له الحرب والخراج، وأقام ابن البريدي على البصرة وزحفت إليه عساكرهم فأعجلوه عن تقويض خيامه فأحرقها وسار إلى الأهواز مجرداً، وسبقته عساكره إلى واسط وأقام عند بجكم أياماً وأشير عليه بحبسه فلم يفعل ورجع ابن رائق إلى واسط.

استيلاء معز الدولة على الأهواز

لما سار أبو عبد اللّه بن البريدي من جزيرة أوال إلى عماد الدولة ابن بويه بفارس مستجيراً به من ابن رائق وبجكم ومستنجداً عليهم، طمع عماد الدولة في الاستيلاء على العراق. فسير معه أخاه معز الدولة أحمد بن بويه في العسكر، ورهن ابن البريدي عنده ولديه أبا الحسين محمداً وأبا جعفر الفياض. وسار بجكم للقائهم فلقيهم بأرجان فانهزم أمامهم وعاد إلى الأهواز، وخلف جيشاً بعسكر مكرم. فقاتلهم معز الدولة ثلاثة عشر يوماً ثم انفضوا ولحقوا بتستر، وملك معز الدولة عسكر مكرم وذلك سنة ست وعشرين وسار بجكم من الأهواز إلى تستر، وبلغ الخبر إلى ابن رائق بواسط، فسار إلى بغداد وجاء بجكم من تستر إلى واسط. ولما استولى معز الدولة وابن البريدي على عسكر مكرم، ولقيهم أهل الأهواز وسار معهم إليها فأقاموا شهراً. ثم طلب معز الدولة من ابن البريدي عسكره الذي في البصرة ليسير بهم إلى أخيه ركن الدولة بأصبهان لحرب وشمكير، فأحضر منهم أربعة آلاف. ثم طلب من عسكره الذين بحصن مهدي ليسير بهم في الماء إلى واسط فارتاب ابن البريدي وهرب إلى البصرة. وبعث إلى عسكرها الذين

ساروا إلى أصبهان وكانوا متوقفين بالسوس، فرجعوا إليه. ثم كتب إلى معز الدولة أن يفرج له عن الأهواز ليتمكن من الجباية والوفاء بها لأخيه عماد الدولة، وكان قد ضمن له الأهواز والبصرة بثمانية عشر ألف ألف درهم، فرحل معز الدولة إلى عسكر مكرم وأنفذ ابن البريدي عامله إلى الأهواز.

ثم بعث إلى معز الدولة بأن يتأخر إلى السوس فأبى، وعلم يحكم بحالهم فبعث جيشاً استولوا على السوس وجنديسابور، وبقيت الأهواز بيد ابن البريدي ومعز الدولة بعسكر مكرم، وقد ضاقت أحوال جنده. ثم بعث إليه أخوه عماد الدولة بالمدد فسار إلى الأهواز وملكها. ورجع ابن البريدي إلى البصرة ويحكم في ذلك مقيم بواسط، وقد صرف همه إلى الاستيلاء على رتبة ابن رائق ببغداد. وقد أنفذ له ابن رائق علي بن خلف بن طياب ليسيروا إلى الأهواز ويخرجوا ابن بويه. ويكون يحكم على الحرب وابن خلف على الخراج، فلم يلتفت يحكم لذلك واستوزر علي بن خلف ويحكم في أحوال واسط. ولما رأى أبو الفتح الوزير ببغداد إدبار الأحوال أطمع ابن رائق في مصر والشام، وقال: أنا أجبيهما لك، وعقد بينه وبين ابن طغج صهراً. وسار أبو الفتح إلى الشام في ربيع الآخر وشعر ابن رائق بمحاولة يحكم عليه، فبعث إلى ابن البريدي بالاتفاق على أن يضمن ابن البريدي واسط بستمائة ألف، فنهض يحكم إلى ابن البريدي قبل ابن رائق وسار إلى البصرة، فبعث إليه ابن البريدي أبا جعفر الجمال في عشرة آلاف فهزمهم يحكم وارتاع ابن البريدي لذلك، ولم يكن قصد يحكم إلا الإلفة فقط، والتضرع لابن رائق، فبعث إليه بالمسالمة وأن يقلده واسط إذا تم أمره، فاتفقا على ذلك وصرف نظره إلى أمر بغداد.

وزارة ابن مقلة ونكبته

ولما انصرف أبو الفتح بن الفرات إلى الشام استوزره الراضي أبا علي بن مقلة على سنن من قبلة والأمر لابن رائق، وابن مقلة كالعارية. وكتب له في أمواله وأملاكه فلم يردها. فشرع في التدبير عليه، فكتب إلى ابن رائق بواسط ووشمكير بالري يطمع كلاً منهما في مكانه، وكتب الراضي يشير بالقبض على ابن رائق وأصحابه، واستدعى يحكم لمكانه وأنه يستخرج منهم ثلاثة آلاف ألف دينار، فأطمعه الراضي على كره. فكتب هو إلى يحكم يستحثه وطلب من الراضي أن ينتقل إلى دار الخلافة حتى يتم الأمر فأذن له وحضر متنكراً آخر ليلة من رمضان سنة ست وعشرين، فأمر الراضي باعتقاله وأطلع ابن رائق من الغد على كتبه فشكر ذلك له ابن رائق، وأمر بابن مقلة في منتصف شوال فقطع ثم عولج، وبرئ وعاد إلى السعي في الوزارة والتظلم من ابن رائق والدعاء عليه، فأمر بقطع لسانه وحبسه إلى أن مات.

استيلاء يَحْكَم على بغداد

لم يزل يحكم يظهر التبعية لابن رائق ويكتب على أعلامه وتراسه يحكم الرائقي إلى أن وصلته كتب ابن مقلة بأن الراضي قلده إمره الأمراء، فطمع وكاشف ابن رائق ومحا نسبه إليه من أعلامه وسلاحه. وسار من واسط إلى بغداد في ذي القعدة سنة ست وعشرين. وكتب إليه الراضي بالرجوع فأبى، ووصل إلى نهر ديالي وأصاب ابن رائق في غربيه فانهزموا وعبروا النهر سبحاً. وسار ابن رائق إلى عَكْبرا، ودخل يحكم بغداد منتصف ذي القعدة ولقي الراضي من الغد، وولاه أمير الأمراء، وكتب عن الراضي إلى القواد الذين مع ابن رائق بالرجوع عنه فرجعوا، وعاد ابن رائق إلى بغداد فاختفى بها لسنة وأحد عشر شهراً من إمارته، ونزل يحكم بدار مؤنس واستقر ببغداد متحكماً في الدولة مستبداً على الخليفة.

دخول أذربيجان في طاعة وشمكير

كان من عمال وشمكير على أعمال الجبل السيكري بن مردى.

وحشة البساسيري

كان أبو الغنائم وأبو سعد ابنا المجلبان صاحبي قريش بن بدران، وبعثهما إلى القائم سراً من البساسيري بما فعل بالأنبار فانتقض البساسيري لذلك، واستوحش من القائم ومن رئيس الرؤساء، وأسقط مشاهرتهم ومشاهرة حواشيهم وهمّ بهدم منازل بني المجلبان. ثم أقصر وسار إلى الأنبار، وبها أبو القاسم بن المجلبان، وجاءه دبيس بن مزيد ممداً له فحاصر الأنبار وفتحها عنوة ونهبها وأسر من أهلها خمسمائة، ومائة من بني خفاجة وأسر أبا الغنائم وجاء به إلى بغداد فأدخله على جمل، وشفع دبيس بن مزيد في قتله، وجاء إلى مقابل التاج من دار الخليفة فقبل الأرض وعاد إلى منزله.

وصول الغزالي الدسكرة ونواحي بغداد

وفي شوال من سنة ست وأربعين وصل صاحب حلوان من الغز وهو إبراهيم بن إسحاق إلى الدسكرة فافتتحها ونهبها وصادر النساء. ثم سار إلى رسغباد وقلعة البردان وهي لسعدي بن أبي الشوك، وبها أمواله فامتنعت عليه فخرب ما حولها من القرى ونهبها، وقوي طمع الغز في البلاد وضعف أمر الديلم والأتراك. ثم بعث طغرلبك أبا علي بن أبي كاليجار الذي كان بالبصرة في جيش من الغز إلى خوزستان فاستولى على الأهواز وملكها ونهب الغز الذين معه أموال الناس ولقوا منهم عناء.

ظهور ابن رائق ومسيره إلى الشام

وفي سنة سبع وعشرين وثلثمائة سار بجكم إلى الموصل وديار ربيعة بسبب أن ناصر الدولة بن حمدان أخر المال الذي عليه من ضمان البلاد، فأقام الراضي بتكريت وسار بجكم، ولقيه ناصر الدولة على ستة فراسخ من الموصل، فانهزم واتبعه بجكم إلى نصيبين ثم إلى آمد، وكتب إلى الراضي بالفتح. فسار من تكريت في الماء إلى الموصل، وفارقه جماعة من القرامطة كانوا في عسكره، وكان ابن رائق يكاتبهم من مكان اكتفائه، فلما وصلوا بغداد خرج ابن رائق إليهم واستولى، وطار الخبر الى الراضي فأصعد من الماء وسار إلى الموصل، وكتب إلى بجكم بذلك. فرجع عن نصيبين بعد أن استولى عليها.

وشرع أهل العسكر يتسللون إلى بغداد فأهمّ ذلك بجكم. ثم جاءت رسالة ابن حمدان في الصلح وتعجيل خمسمائة ألف درهم، فأجابوه وقرره ورجعوا إلى بغداد، ولقيهم أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد رسولاً عن ابن رائق في الصلح على أن يقلده الراضي طريق الفرات وديار مضر وحران والرها وما جاورها جندي قنسرين والعواصم. فأجابه الراضي وقلده وسار إلى ولايته في ربيع الآخر. وكان بجكم قد استناب بعض قواد الأتراك على الأنبار واسمه بالبان، وطلب تقليد طريق الفرات فقلد وسار إلى الرحبة. ثم انتقض وعاد لابن رائق وعصى على بجكم، فسار إليه غازياً وكبسه بالرحبة على حين غفلة لخمسة أيام من مسيره، فظفر به وأدخله بغداد على جمل وحبسه وكان آخر العهد به.

وزارة ابن البريدي

قد تقدم لنا مسير الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات إلى الشام، ولما سار استناب بالحضرة عبد اللّه بن علي البصري، وكان بجكم قد قبض على وزيره خلف بن طباب، واستوزر أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، فسعى في وزارة ابن البريدي ليحكم حتى تم ذلك. ثم ضمن ابن البريدي أعمال واسط بستمائة ألف دينار كل سنة. ثم جاء الخبر بموت أبي الفتح بن الفرات بالرملة، فسعى أبو جعفر ابن شيرزاد في وزارة أبي عبد اللّه للخليفة، فعقد له الراضي بذلك واستخلف بالحضرة عبد الله بن علي البصري كما كان مع أبي الفتح.

مسير ركن الدولة إلى واسط ورجوعه عنها

لما استقر ابن البريدي بواسط بعث جيشاً إلى السوس وبها أبو جعفر الظهيري وزير معز الدولة أحمد بن بويه ومعز الدولة بالأهواز. فتحصن أبو جعفر بقلعة السوس، وعاث الجيش في نواحيها. وكتب معز الدولة إلى أخيه ركن الدولة وهو على أصطخر قد جاء من أصبهان لما غلبه وشمكير عليها. فلما جاء كتاب أخيه معز الدولة سار محمد إلى السوس وقد رجع عنه جيش ابن البريدي. ثم سار إلى واسط يحاول ملكها فنزل في جانبها الشرقي، وابن البريدي في الجانب الغربي، واضطرب عسكر ابن بويه واستأمن جماعة منهم إلى ابن البريدي. ثم سار الراضي وبجكم من بغداد إلى واسط للإمداد، فرجع ركن الدولة إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز. وبلغه أن وشمكير قد أنفذ عسكره مدداً لماكان بن كالي وأن أصبهان خالية، فسار إليها من رامهرمز وأخرج من بقي منها من أصحاب وشمكير وملكها فاستقر بها.

مسير بجكم إلى بلد الجبل وعوده إلى واسط واستيلاؤه عليها

كان بجكم قد أرسل ابن البريدي وصاهره واتفقا على أن يسير بجكم إلى بلاد الجبل لفتحها من يد وشمكير، وأبو عبد اللّه بن البريدي إلى الأهواز لأخذها من يد معز الدولة ابن بويه، فسار بجكم إلى حلوان وبعث إليه ابن البريدي بخمسمائة رجل مدداً. وبعث بجكم بعض أصحابه إلى ابن البريدي يستحثه إلى السوس والأهواز، فأقام يماطله ويدافعه ويبين له أنه يريد مخالفة بجكم إلى بغداد. فكتب إليه بذلك فرجع عن قصده إلى بغداد، وعزل ابن البريدي من الوزارة، وولى مكانه أبا القاسم بن سليمان بن الحسين بن مخلد وقبض على ابن شيرزاد الذي كان ساعياً له وتجهز إلى

واسط وانحدر في الماء آخر ذي الحجة سنة ثمان وعشرين. وبعث عسكراً في البر، وبلغ الخبر ابن البريدي فسار عن واسط إلى البصرة واستولى عليها بحكم وملكها.

استيلاء ابن رائق على الشام

قد تقدم لنا مسير ابن رائق إلى ديار مضر وثغور قنسرين والعواصم فلما استقر بها حدثته نفسه بملك الشام فسار إلى حمص فملكها ثم سار إلى دمشق وبها بدر بن عبد الله الأخشيدي ويلقب بدير، فملكها من يده. ثم سار إلى الرملة ومنها إلى عريش مصر يريد ملك الديار المصرية، ولقيه الأخشيد محمد بن طغج وانهزم أولاً وملك أصحاب ابن رائق خيامه. ثم خرج كمين الأخشيد فانهزم ابن رائق إلى دمشق وبعث الأخشيد في أثره أخاه أبا نصر بن طغج، وسار إليهم ابن رائق من دمشق فهزمهم وقتل أبو نصر، فكفنه ابن رائق وحمله مع ابنه مزاحم إلى أخيه الأخشيذ بمصر. وكتب يعزيه ويعتذر فأكرم الأخشيذ مزاحماً، واصطلح مع أبيه على أن تكون مصر للأخشيذ من حد الرملة وما وراءها من الشام لابن رائق ويعطي الأخشيذ عن الرملة في كل سنة مائة وأربعين ألف دينار.

الصوائف أيام الراضي

وفي سنة اثنتين وعشرين سار الدمستق إلى سميساط في خمسين ألفاً من الروم، ونازل ملطية وحاصرها مدة طويلة حتى فتحها بالأمان، وبعثهم إلى مأمنهم مع بطريق من بطارقته. وتنصر الكثير منهم محبة في أهليهم وأموالهم. ثم افتتحوا سميساط وخربوا أعمالها وأفحشوا في أسطوله في البحر. ففتحوا بلد جنوة ومروا بسردانية فأوقعوا بأهلها، ثم مروا بقرقيسيا من ساحل الشام فأحرقوا مراكبها وعادوا سالمين، وفي سنة ست وعشرين كان الفداء بين المسلمين والروم في ذي القعدة على يد ابن ورقاء الشيباني البريدي ستة آلاف وثلثمائة أسير.

الولايات أيام الراضي والقاهر قبله

قد تقدم لنا أنه لم يبق من الأعمال في تصريف الخلافة لهذا العهد إلا أعمال الأهواز والبصرة وواسط والجزيرة، وذكرنا استيلاء بني بويه على فارس وأصبهان، ووشمكير على بلاد الجبل، وابن البريدي على البصرة، وابن رائق على واسط، وأن عماد الدولة ابن بويه على فارس، وركن الدولة أخوه يتنازع مع وشمكير على أصبهان وهمذان وقم وقاشان والكرج والري وقزوين. واستولى معز الدولة أخوهما على الأهواز وعلى كرمان واستولى ابن البريدي على واسط وسار ابن رائق إلى الشام فاستولى عليها. وفي سنة ثلاث وعشرين قلد الراضي ابنيه أبا جعفر وأبا الفضل ناحية المشرق والمغرب. وفي سنة إحدى وعشرين ورد الخبر بوفاة تكين الخاصكي بمصر وكان أميراً عليها، وولى القاهر مكانه ابنه محمداً وثار به الجند، فظفر بهم. وفيها وقعت الفتنة بين بني تغلب وبني أسد ومعهم طيىء، وركب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ومعه أبو الأعز بن سعيد بن حمدان ليصلح بينهم، فوقعت ملاحاة قتل فيها أبو الأعز على يد رجل من تغلب، فحمل عليهم ناصر الدولة واستباحهم إلى الحديثة. فلقيهم يانس غلام مؤنس والياً على الموصل، فانضم إليه بنو تغلب وبنو أسد وعادوا إلى ديار ربيعة. وفي سنة أربع وعشرين قلد الراضي محمد بن طغج أعمال مصر مضافاً إلى ما بيده من الشام وعزل عنها أحمد بن كيغلغ.

وفاة الراضي وبيعة المتقي

وفي سنة تسع وعشرين وثلثمائة توفي الراضي أبو العباس أحمد بن المقتدر في ربيع الأول منها لسبع سنين غير شهر من خلافته. ولما مات أحضر بحكم ندماءه وجلساءه لينتفع بما عندهم من الحكمة فلم يفهم عنهم لعجمته. وكان آخر خليفة خطب على المنبر وإن خطب غيره فنادر. وآخر خليفة جالس السمر ووصل الندماء. ودولته آخر دول الخلفاء في ترتيب النفقات والجوائز والجرايات والمطابخ والخدم والحجاب، وكان بحكم يوم وفاته غائباً بواسط حين ملكها من يد ابن البريدي، فانتظر في الأمور وصول مراسمه، فورد كتابه مع كاتبه أبي عبد الله الكوفي يأمر فيه باجتماع الوزراء وأصحاب الدواوين والقضاة والعلويين والعباسيين ووجوه البلد عند الوزير أبي القاسم سليمان بن الحسن، ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضي مذهبه وطريقه، فاجتمعوا وذكروا إبراهيم بن المقتدر، واتفقوا عليه وأحضروه من الغد وبايعوا له آخر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين. وعرضت عليه الألقاب فاختار المتقي لله وأقر سليمان على وزارته كما كان، والتدبير كله للكوفي كاتب بحكم، وولى سلامة الطولوني على الحجبة.

مقتل بجكم

كان أبو عبد اللّه البريدي بعد هربه إلى البصرة من واسط أنفذ جيشاً إلى المدار، فبعث إلى لقائهم جيشاً من واسط عليهم تورون انتخب له الكرد، فظفر بجيش ابن البريدي ولقي بجكم خبره في الطريق فسر بذلك، وذهب يتصيد فبلغ نهر جور، وعثر في طريقه ببعض الأكراد فشره لغزوهم، وقصدهم في خف من أصحابه وهربوا بين يديه وهو يرشقهم بسهامه، وجاءه غلام منهم من خلفه فطعنه فقتله. واختلف عسكره فمضى الديلم فكانوا ألفاً وخمسمائة إلى ابن البريدي، وقد كان عزم على الهرب من البصرة، فبعث وضاعف أرزاقهم وأدرها عليهم، وذهب الأتراك إلى واسط وأطلقوا بكتيك من حبسه وولوه عليهم، فسار بهم إلى بغداد في خدمة المتقي وحصر ما كان في دار بجكم من الأموال والدواوين فكانت ألف ألف ومائة ألف دينار ومدة إمارته سنتان وثمانية أشهر.

إمارة البريدي ببغداد وعوده إلى واسط

لما قتل بجكم قدم الديلم عليهم بكشوار بن ملك بن مسافر ومسافر هو ابن سلار وصاحب الطرم الذي ملك ولده بعده أذربيجان، وقاتلهم الأتراك فقتلوه، فقدم الديلم عليهم مكانه كورتكين منهم. وقدم الأتراك عليهم بكتيك مولى بجكم، وانحدر الديلم إلى أبي عبد اللّه بن البريدي فقوي بهم، وأصعدوا إلى واسط. وأرسل المتقي إليهم مائة وخمسين ألف دينار على أن يرجعوا عنها. ثم قسم في الأتراك في أجناد بغداد أربعمائة ألف دينار من مال بجكم. وقدم عليهم سلامة الطولوني وبرز بهم المتقي إلى نهر ديالي آخر شعبان سنة ست وعشرين. وسار ابن البريدي من واسط فأشفق أتراك بجكم، ولحق بعضهم بابن البريدي، وسار آخرون إلى الموصل منهم تورون وجحجح. واختفى سلامة الطولوني، وأبو عبد اللّه الطولوني، ودخل أبو عبد اللّه البريدي بغداد أول رمضان ونزل بالشفيعي ولقيه الوزير أبو الحسين بن ميمون والكتاب والقضاة وأعيان الناس، وبعث إليه المتقي بالتهنئة والطعام، وكان يخاطب بالوزير. ثم قبض على الوزير أبي الحسين لشهرين من وزارته وحبسه بالبصرة وطلب من المتقي خمسمائة ألف دينار للجند، وهدده بما وقع للمعتز والمستعين والمهتدي، فبعث بها إليه ولم يلقه مدة مقامه ببغداد. ولما وصله المال من المتقي شغب الجند عليه في طلبه وجاء الديلم إلى دار لأخيه أبي الحسين، ثم انضم إليهم الترك، وقصدوا دار أبي عبد اللّه، فقطع الجسر ووثب العامة على أصحابه، وهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابهم، وانحدروا إلى واسط وذلك سلخ رمضان لأربعة وعشرين يوماً من قدومه.

إمارة كورتكين الديلمي

ولما هرب ابن البريدي استولى كورتكين على الأمور ببغداد ودخل إلى المتقي فقلده إمارة الأمراء، وأحضر علي بن عيسى وأخاه عبد الرحمن فدبر الأمور ولم يسمهما بوزارة واستوزر أبا إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي القراريطي، وولي على الحجبة بدر الجواشيني. ثم قبض كورتكين على بكتيك مقدم الأتراك خامس شوال وغرقه، واقتتل الأتراك والديلم وقتل بينهما خلق، وانفراد كورتكين بالأمر وقبض على الوزير أبي إسحاق القراريطي لشهر ونصف من وزارته، وولى مكانه أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي.

عود ابن رائق إلى بغداد

قد تقدم لنا أن جماعة من أتراك بجكم لما انقضوا عن المتقي ساروا إلى الموصل، ثم ساروا منها إلى ابن رائق بالشام، وكان من قوادهم تورون وجحجح وكورتكين وصيقوان فأطمعوه في بغداد. ثم جاءته كتب المتقي يستدعيه، فسار آخر رمضان واستخلف بالشام أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل وتنحى ناصر الدولة بن حمدان على طريقه. ثم حمل إليه مائة ألف دينار وصالحه، وبلغ الخبر إلى أبي عبد اللّه بن البريدي، فبعث إخوته إلى واسط وأخرج الديلم عنها وخطبوا له بها. وخرج كورتكين عن بغداد إلى عكبرا فقاتله ابن رائق أياماً ثم أسرى له ليلة عرفة فأصبح ببغداد من الجانب الغربي ولقي الخليفة وركب معه في دجلة، ووصل كورتكين آخر النهار فركب ابن رائق لقتاله وهو مرجل، واعتزم على العود إلى الشام، ثم طائفة من عسكره ليعبروا دجلة ويأتوا من ورائهم، وصاحت العامة مع ابن رائق بكورتكين وأصحابه ورجموهم، فانهزموا واستأمن منهم لحو أربعمائة فقتلوا وقتل قواده، وخلع المتقي علي ابن رائق وولاه أمير الأمراء، وعزل الوزير أبا جعفر الكرخي لشهر من ولايته، وولى مكانه أحمد الكوفي وظفر بكورتكين فحبسه بدار الخلافة.

وزارة ابن البريدي واستيلاؤه على بغداد وفرار المتقي إلى الموصل

لما استقر ابن رائق في إمارة الأمراء ببغداد أخر ابن البريدي حمل المال من واسط، فانحدر إليه في العساكر في عاشوراء من سنة ثلاثين، وهرب بنو البريدي إلى البصرة. ثم سعى أبو عبد اللّه الكوفي بينهم وبين ابن رائق، وضمن واسط بستمائة ألف دينار وبقاياها بمائتي ألف. ورجع ابن رائق إلى بغداد فشغبت عليه الجند، وفيهم تورون وأصحابه. ثم انفضوا آخر ربيع إلى أبي عبد اللّه بواسط، فقوي بهم وذهب ابن رائق إلى مداراته، فكاتبه بالوزارة واستخلف عليها أبا عبد اللّه بن شيرزاد. ثم انتقض واعتزم على المسير إلى بغداد في جميع الأتراك والديلم. وعزم ابن رائق على التحصن بدار الخلافة، ونصب عليها المجانيق والعرادات، وجند العامة، فوقع الهرج، وخرج بالمتقي إلى نهر ديالي منتصف جمادى الآخرة. وأتاهم أبو الحسين في الماء والبر فهزمهم ودخل دار الخلافة، وهرب المتقي وابنه أبو منصور وابن رائق إلى الموصل لستة أشهر من إمارته.

واختفى الوزير القراريطي ونهبت دار الخليفة، ودور الحرم، وعظم الهرج، وأخذ كورتكين من محبسه فأنفذ إلى واسط، ولم يتعرضوا للقاهر. وكان نزل أبو الحسين بدار الخلافة وجعل تورون على الشرطة بالجانب الغربي، وأخذ رهائن القواد تورون وغيره وبعث بنسائهم وأولادهم إلى أخيه عبد اللّه بواسط. وعظم النهب ببغداد وترك الناس دورهم، وفرضت المكوس في الأسواق خمسة دنانير على الكر فغلت الأسعار، وانتهى إلى ثلثمائة دينار الكر، وجاءت ميرة من الكوفة وأخذت فقيل: إنها لعامل الكوفة، وأخذها عامل بغداد وكان معه جماعة من القرامطة فقاتلهم الأتراك وهزموهم، ووقعت الحرب بين العامة والديلم فقتل خلق من العامة، واختفى العمال لمطاولة الجند إلى الضواحي ينتهبون الزرع بسنبلة عند حصاده، وساءت أحوال بغداد وكثرت نقمات اللّه فيهم.

مقتل ابن رائق وولاية ابن حمدان مكانه

كان المتقي قد بعث إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على ابن البريدي عندما قصد بغداد، فأمده بعسكر مع أخيه سيف الدولة، فلقيه بتكريت منهزماً ورجع معه إلى الموصل. وخرج ناصر الدولة عن الموصل حتى حلف له ابن رائق واتفقا، فجاء وتركه شرقي دجلة وعبر إليه أبو منصور بن المتقي وابن رائق فبالغ في تكرمتهما. فلما ركب ابن المتقي قال لابن رائق: أقم نتحدث في رأينا فذهبا إلى الاعتذار، وألح عليه ناصر الدولة فاستراب وجذب يده وقصد الركوب، فسقط فأمر ناصر الدولة بقتله وإلقائه في دجلة، وبعث إلى المتقي بالعذر وأحسن القول، وركب إليه فولاه أمير الأمراء ولقبه ناصر الدولة وذلك مستهل شعبان من سنة ثلاثين، وخلع على أخيه أبي الحسن ولقبه بسيف الدولة، فلما قتل ابن رائق سار الأخشيذ من مصر إلى دمشق وبها محمد بن يزداد من قبل ابن رائق فاستأمن إليه وملك الأخشيذ دمشق وأقر ابن يزداد عليها ثم نقله إلى شرطة مصر.

عود المتقي إلى بغداد وفرار البريدي

لما استولى أبو الحسين البريدي على بغداد وأساء السيرة كما مر، وامتلأت القلوب منه نفرة، فلما قتل ابن رائق أخذ الجند في الفرار عنه والانتقاض عليه، ففر جحجح إلى المتقي واعتزم تورون وأنوش تكين والأتراك على كبس أبي الحسين البريدي. وزحف تورون لذلك في الديلم فخالفه أنوش نكين في الأتراك فذهب تورون إلى الموصل فقوي بهم ابن حمدان والمتقي وانحدروا إلى بغداد، وولى ابن حمدان على أعمال الخراج والضياع بديار مضر، وهي الرها وحران. ولقيا أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل فاقتتلوا وقتل ابن مقاتل واستولى ابن طباب عليها. ولما وصل المتقي وابن حمدان إلى بغداد هرب أبو الحسين ابن البريدي منها إلى واسط لثلاثة أشهر وعشرين يوماً من دخوله، واضطربت العامة وكثر النهب ودخل المتقي وابن حمدان في العساكر في شوال من السنة. وأعاد أبا إسحاق القراريطي إلى الوزارة، وولى تورون على الشرطة. ثم سار إليهم أبو الحسين البريدي، فخرج بنو حمدان للقائهم وانتهوا إلى المدائن، فأقام بها ناصر الدولة، وبعث أخاه سيف الدولة وابن عمه أبا عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان، فاقتتلوا عنده أياماً وانهزم سيف الدولة أولاً، ثم أمدهم ناصر الدولة بالقواد الذين كانوا معه وجحجح بالأتراك، وعاودوا القتال فانهزم أبو الحسين إلى واسط، وأقصر سيف الدولة عن إتباعه لما أصاب أصحابه من الوهن والجراح. وعاد ناصر الدولة إلى بغداد منتصف ذي الحجة. ثم سار سيف الدولة إلى واسط وهرب بنو البريدي عنها إلى البصرة فملكها وأقام بها.

استيلاء الديلم على أذربيجان

كانت أذربيجان بيد ديسم بن إبراهيم الكردي من أصحاب يوسف بن أبي الساج، وكان أبوه من أصحاب هارون الشاري من الخوارج. ولما قتل هارون لحق بأذربيجان وشرد في الأكراد فولد له ديسم هذا فكبر وخدم ابن أبي الساج، وتقدم عنده إلى أن ملك بعدهم أذربيجان. وجاء السيكري خليفة وشمكير في الجبل سنة ست وعشرين وغلبه على أذربيجان. ثم سار هو إلى وشمكير وضمن له طاعة ومالاً، واستمده فأمده بعسكر من الديلم وساروا معه، فغلب السيكري وطرده وملك البلاد، وكان معظم جيشه الأكراد فتغلبوا على بعض قلاعه فاستكثر من الديلم وفيهم صعلوك بن محمد بن مسافر بن الفضل وغيرهما. فاستظهر بهم وانتزع من الأكراد ما تغلبوا عليه، وقبض على جماعة من رؤسائهم. وكان وزيره أبو القاسم علي بن جعفر قد ارتاب منه، فهرب إلى الطرم وبها محمد بن مسافر من أمراء الديلم وقد انتقض عليه ابناه وهشودان والمرزبان واستوليا على بعض قلاعه، ثم قبضا على أبيهما محمد وانتزعا أمواله وذخائره وتركاه في حصنه سليباً فريداً، فقصد علي بن جعفر المزبان وأطمعه في أذربيجان، فقلده وزارته وكانت نحلتهما في التشيع واحدة. لأن علي بن جعفر كان من الباطنية والمرزبان من الديلم وهم شيعة.

وكاتب علي بن جعفر أصحاب ديسم واستمالهم واستفسدهم عليه وخصوصاً الديلم، ثم التفتوا للحرب وجاء الديلم إلى المرزبان واستأمن معهم كثير من الأكراد، وهرب ديسم في فل من أصحابه إلى أرمينية واستجار بجاحق بن الديواني فأجاره وأكرمه، وندم على ما فرط في إبعاد الأكراد وهم على مذهبه في الخارجية، وملك المرزبان أذربيجان واستولى عليها. ثم استوحش منه علي بن جعفر وزير ديسم وتنكر له أصحاب المرزبان فأطمعه المرزبان بأخذ أموالهم وحملهم على طاعة ديسم، وقتل الديلم عندهم من جند المرزبان ففعلوا. وجاء ديسم فملكها وفر إليه من كان عند المرزبان حتى اشتد عليه الحصار، واستصلح أثناء ذلك الوزير علي بن جعفر، ثم خرجوا من توزير، ولحق ديسم بأردبيل، وجاء علي بن جعفر إلى المرزبان. ثم حاصر المرزبان أردبيل حتى نزل له ديسم على الأمان وملكها صلحاً. وملك توزير كذلك. ووفى له، ثم طلب ديسم أن يبعثه إلى قلعته بالطرم فبعثه بأهله وولده وأقام هنالك.

خبر سيف الدولة بواسط

لما فر بنو البريدي عن واسط إلى البصرة ونزل بها سيف الدولة أراد الانحدار خلفهم لانتزاع البصرة منهم، واستمد أخاه ناصر الدولة فأمده بمال مع أبي عبد اللّه الكوفي، وكان تورون وجحجح يستطيلان عليه، فأراد الاستئثار بالمال فرده سيف الدولة مع الكوفي إلى أخيه، وأذن لتورون في مال الجامدة ولجحجح في مال المدار. وكان من قبل يراسل الأتراك وملك الشام ومصر معه فلا يجيبونه. ثم ثاروا عليه في شعبان من سنة إحدى وثلاثين، فهرب من معسكره ونهب سواده وقتل جماعة من أصحابه. وكان ناصر الدولة لما أخبره أبو عبد اللّه الكوفي بخبر أخيه في واسط، برز يسير إلى الموصل، وركب إليه المتقي يستمهله، فوقف حتى عاد وأغذ السير لثلاثة عشر شهراً من إمارته، فثار الديلم ونهبوا داره، ودبر الأمور أبو إسحاق القراريطي من غير لقب الوزارة.

وعزل أبو العباس الأصبهاني لأحد وخمسين يوماً من وزارته، ثم تنازع الإمارة بواسط بعد سيف الدولة تورون وجحجح، واستقر الحال أن يكون تورون أميراً وجحجح صاحب الجيش. ثم طمع ابن البريدي في واسط وأصعد إليها وطلب من تورون أن يضمنه إياها، فرده رداً جميلاً. وكان قد سار جحجح لمدافعته فمر به الرسول في طريقه وحادثه طويلاً، وسعى إلى تورون بأنه لحق بابن البريدي فأسرى إليه وكبسه منتصف رمضان، فقبض عليه وجاء به إلى واسط فسمله، وبلغ الخبر إلى سيف الدولة وكان لحق بأخيه، فعاد إلى بغداد منتصف رمضان، وطلب المال من المتقي لمدافعة تورون، فبعث أربعمائة ألف درهم وفرقها في أصحابه وظهر له من كان مستخفياً ببغداد وجاء تورون من واسط بعد أن خلف بها كيغلغ. فلما أحس به سيف الدولة رحل فيمن إنضم إليه من أجناد واسط وفيهم الحسن بن هارون، وسار إلى الموصل ولم يعاود بنو حمدان بعدها بغداد.

إمارة تورون ثم وحشته مع المتقي

لما سار سيف الدولة عن بغداد دخلها تورون آخر رمضان سنة إحدى وثلاثين، فولاه المتقي أمير الأمراء، وجعل النظر في الوزارة لأبي جعفر الكرخي كما كان الكوفي. ولما سار تورون عن واسط خالفه إليها البريدي فملكها. ثم انحدر تورون أول ذي القعدة لقتل البريدي، وقد كان يوسف بن وجيه صاحب عمان سار في المراكب إلى البصرة، وحارب ابن البريدي حتى أشرفوا

على الهلاك. ثم احترقت مراكب عمان بحيلة دبرها بعض الملاحين ونهب منها مال عظيم. ورجع يوسف بن وجيه مهزوماً في المحرم سنة اثنتين وثلاثين، وهرب في هذه الفتنة أبو جعفر بن شيرزاد من تورون فاشتمل عليه، وكان تورون عند إصعاده من بغداد استخلف مكانه محمد بن ينال الترجمان. ثم تنكر له فارتاب محمد، وارتاب الوزير أبو الحسن بن مقلة بمكان ابن شيرزاد من تورون وخافا غائلته وخوفا المتقي كذلك، وأوهماه أن البريدي ضمنه من تورون بخمسمائة ألف دينار التي أخذها من تركة بحكم، وأن ابن شيرزاد جاء عن البريدي ليخلعه ويسلمه، فانزعج لذلك وعزم على المسير إلى ابن حمدان، وكتبوا إليه أن ينفذ عسكراً يسير صحبته.

مسير المتقي إلى الموصل

ولما تمت سعاية ابن مقلة وابن ينال بتورون مع المتقي اتفق وصول ابن شيرزاد إلى بغداد أول اثنتين وثلاثين في ثلاثمائة فارس، وأقام بدست الأمر والنهي لا يعرج على المتقي في شيء. وكان المتقي قد طلب من ناصر الدولة بن حمدان عسكراً يصحبه إلى الموصل. فبعثهم ابن عمه أبو عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، فلما وصلوا بغداد اختفى ابن شيرزاد وخرج المتقي إليهم في حرمه وولده، ومعه وزيره وأعيان دولته مثل سلامة الطولوني وأبي زكريا يحيى بن سعيد السوسي وأبي محمد المارداني وأبي إسحاق القراريطي وأبي عبد الله الموسوي وثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الطبيب، وأبي نصر بن محمد بن ينال الترجمان. وساروا إلى تكريت وظهر ابن شيرزاد في بغداد، وظلم الناس وصادرهم، وبعث إلى تورون في واسط بخبر المتقي، فعقد ضمان واسط على ابن البريدي، وزوجه ابنته، وسار إلى بغداد.

وجاء سيف الدولة إلى المتقي بتكريت. ثم بعث المتقي إلى ناصر الدولة يستحثه، فوصل إليه في ربيع الآخر، وركب المتقي من تكريت إلى الموصل، وأقام هو بتكريت. وسار تورون لحربه فتقدم إليه أخوه سيف الدولة فاقتتلوا أياماً. ثم انهزم سيف الدولة وغنم تورون سواده وسواد أخيه، ولحقوا بالموصل وتورون في اتباعهم. ثم ساروا عنها مع المتقي إلى نصيبين، ودخل تورون الموصل ولحق المتقي بالرقة، وراسل تورون بأن وحشته لأجل ابن البريدي، وأن رضاه في إصلاح بني حمدان، فصالحهما تورون وعقد الضمان لناصر الدولة على ما بيده من البلاد لثلاث سنين بثلاثة آلاف وستمائة ألف درهم لكل سنة، وعاد تورون إلى بغداد وأقام المتقي وبنو حمدان بالرقة.

مسير ابن بويه إلى واسط وعوده عنها ثم استيلاؤه عليها

كان معز الدولة بن بويه بالأهواز، وكان ابن البريدي يطمعه في كل وقت في ملك العراق، وكان قد وعده أن يمده إلى واسط. فلما أصعد تورون إلى الموصل خالفه معز الدولة إلى واسط وأخلف ابن البريدي وعده في المدد. وعاد تورون من الموصل إلى بغداد، وانحدر منها للقاء معز الدولة منتصف ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين، واقتتلوا بقباب حميد بضعة عشر يوماً. ثم تأخر تورون إلى نهر ديالي فعبره ومنع الديلم من عبوره بمن كان معه من المقاتلة في الماء، وذهب ابن بويه ليصعد ويتمكن من الماء، فبعث تورون بعض أصحابه فعبروا ديالي وكمنوا له حتى إذا صار مصعداً خرجوا عليه على غير أهبة، فانهزم هو ووزيره الصهيري وأسر منهم أربعة عشر قائداً واستأمن كثير من الديلم إلى تورون، ولحق ابن بويه والصهيري بالسوس. ثم عاد إلى واسط ثانية فملكها ولحق أصحاب بني البريدي بالبصرة.

قتل ابن البريدي أخاه ثم وفاته

كان أبو عبد الله بن البريدي قد استهلك أمواله في هذه النوائب التي تنوبه، واستقرض من أخيه أبي يوسف مرة بعد مرة، وكان أثرى منه ومال الجند إليه لثروته. وكان يعيب على أخيه تبذيره وسوء تدبيره. ثم نمي الخبر إليه أنه يريد المكر به، والاستبداد بالأمر. وتنكر كل واحد منهما للآخر، ثم أكمن أبو عبد الله غلمانه في طريق أبي يوسف فقتلوه، وشغب الجند لذلك فأراهم شلوه فافترقوا، ودخل دار أخيه وأخذ ما فيها من الأموال، وجواهر نفيسة كان باعها له بخمسين ألف درهم، وكان أصلها لبحكم وهبها لبنته حين زوجها له، وأخذها بحكم من دار الخلافة، فاحتاج إليه أبو عبد الله بعد فباعها له وبخسه أبو يوسف في قيمتها. وكان ذلك من دواعي العداوة بينهما. ثم هلك أبو عبد الله بعد مهلك أخيه بثمانية أشهر، وقام بالأمر بعده بالبصرة أخوهما أبو الحسن، فأساء السيرة في الجند فثاروا به ليقتلوه، فهرب منهم إلى هجر مستجيراً بالقرامطة، وولوا عليهم بالبصرة أبا القاسم ابن أخيه أبي عبد الله، وأمد أبو طاهر القرمطي أبا الحسن، وبعث معه أخويه لحصار البصرة فامتنعت عليهم،

وأصلحوا بين أبي القاسم وعمه، ودخل البصرة وسار منها إلى تورون ببغداد. ثم طمع يأنس مولى أبي عبد الله في الرياسة وداخل بعض قواد الديلم في الثورة بأبي القاسم. واجتمع الديلم إلى القائد وبعث أبو القاسم واليه يأنس فهمَّ به ليفرد بالأمر، فهرب يأنس واختفى وتفرق الديلم واختفى القائد. ثم قبض عليه ونفاه وقبض على يأنس بعد أيام وصادره على مائة ألف دينار، وقتله.

ولما قدم أبو الحسين البريدي إلى بغداد مستأمناً إلى تورون فأمنه وطلب الإمداد على ابن أخيه، وبذل في ذلك أموالاً. ثم بعث ابن أخيه من البصرة بالأموال فأقره على عمله وشعر أبو الحسن بذلك فسعى عند ابن تورون في ابن شيرزاد إلى أن قبض عليه، وضرب واستظهر أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشمي بفتاوي الفقهاء والقضاة بإباحة دم أبي الحسين،كانت عنده من أيام ناصر الدولة، وأحضروا بدار المتقي وسئلوا عن فتاويهم، فاعترفوا بأنهم أفتوا بها، فقتل وصلب ثم أحرق ونهب داره. وكان ذلك منتصف ذي الحجة من السنة، وكان ذلك آخر أمر البريديين.

الصوائف أيام المتقي

خرج الروم سنة ثلاثين أيام المتقي وانتهوا إلى قرب حلب فعاثوا في البلاد وبلغ سبيهم خمسة آلاف. وفيها دخل ثمل من ناحية طرسوس فعاث في بلاد الروم، وامتلأت أيدي عسكره من الغنائم، وأسر عدة من بطارقتهم. وفي سنة إحدى وثلاثين بعث ملك الروم إلى المتقي يطلب منه منديلاً في بيعة الرها زعموا أن المسيح مسح به وجهه، فارتسمت فيه صورته، وأنه يطلق فيه عدداً كثيراً من أسرى المسلمين، واختلف الفقهاء والقضاة في إسعافه بذلك، وفيه غضاضة أو منعه ويبقى المسلمون بحال الأسر. فأشار عليه وعلى ابن عيسى بإسعافه لخلاص المسلمين، فأمر المتقي بتسلميه إليهم. وبعث إلى ملك الروم من يقوم بتسليم الأسرى. وفي سنة اثنتين وثلاثين خرجت طوارق من الروس في البحر إلى نواحي أذربيجان، ودخلوا في نهر اللكز إلى بردعه. وبها نائب المرزبان ابن محمد بن مسافر ملك الديلم بأذربيجان، فخرج في جموع الديلم والمطوعة فقتلوهم، وقاتلوهم فهزمهم الروس وملكوا البلد، وجاءت العساكر الإسلامية من كل ناحية لقتالهم فامتنعوا بها، ورماهم بعض العامة بالحجارة فأخرجوهم من البلد وقاتلوا من بقي، وغنموا أموالهم واستبدوا بأولادهم ونسائهم.

واستنفر المرزبان الناس وزحف إليهم في ثلاثين ألفاً، فقاتلوهم فامتنعوا عليه فأكمن لهم بعض الأيام فهزمهم وقتل أميرهم، ونجا الباقون إلى حصن البلد، وحاصرهم المرزبان وصابرهم. ثم جاءه الخبر بأن أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان بلغ سلماس متوجهاً إلى أذربيجان بعثه إليها ابن عمه ناصر الدولة ليتملكها، فجهز عسكراً لحصار الروس في بردعة، وسار إلى قتال ابن حمدان. فارتحل ابن حمدان راجعاً إلى ابن عمه باستدعائه بالانحدار إلى بغداد. لما مات تورون وأقام العسكر على حصار الروس ببردعة، حتى هربوا من البلد وحملوا ما قدروا عليه، وطهر الله البلد منهم. وفيها ملك الروم رأس عين واستباحوها ثلاثاً وقاتلهم الأعراب ففارقوها.

الولايات أيام المتقي

قد تقدم لنا أنه لم يكن بقي في تصريف الخليفة إلا أعمال الأهواز والبصرة وواسط والجزيرة والموصل لبني حمدان. واستولى معز الدولة على الأهواز ثم على واسط،و بقيت البصرة بيد أبي عبد الله بن البريدي واستولى على بغداد مع المتقي بجكم، ثم ابن البريدي، ثم تورتكين الديلمي، ثم ابن رائق ثانية، ثم ابن البريدي ثانية، ثم حمدان، ثم تورون. يختلفون على المتقي واحداً بعد واحد، وهو مغلب لهم والحل والعقد والإبرام والنقض بأيديهم، ووزير الخليفة عامل من عمالهم متصرف تحت أحكامهم، وآخر من دبر الأمور أبو عبد الله الكوفي كاتب تورون، وكان قبله كاتب ابن رائق، وكان على الحجبة بدر بن الجرسي، فعزله عنها سنة ثلاثين وجعل مكانه سلامة الطولوني وولى بدر طريق الفرات ففزع إلى الأخشيد واستأمن إليه فولاه دمشق. وكان من المستبدين في النواحي يوسف بن وجيه، وكان صاحب الشرطة ببغداد أبا العباس الديلمي.

خلع المتقي وولاية المستكفي

لم يزل المتقي عند بني حمدان من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين إلى آخر السنة، ثم آنس منهم الضجر واضطر لمراجعة تورون، فأرسل إليه الحسن بن هارون وأبا عبد الله بن أبي موسى الهاشمي في الصلح، وكتب إلى الأخشيد محمد بن طغج صاحب مصر يستقدمه، فجاءه وانتهى إلى حلب وبها أبو عبد الله بن سعيد بن حمدان من قبل ابن عمه ناصر الدولة، فارتحل عنها وتخلف عنه ابن مقاتل، وقد كان صادره ناصر الدولة على خمسين ألف دينار، فاستقدم الأخشيد وولاه خراج مصر. وسار الأخشيد من حلب

ولقي المتقي بالرقة، وأهدى إليه وإلى الوزير بن الحسين بن مقلة وسائر الحاشية، واجتهد به أن يسير معه إلى مصر ليقيم خلافته هنالك فأبى، فخوفه من تورون فلم يقبل.

وأشار على ابن مقلة أن يسير معه إلى مصر فيحكمه في البلاد فأبى، وكانوا ينتظرون عود رسلهم من تورون، فبعثوا إليهم بيمين تورون والوزير ابن شيرزاد بمحضر القضاة والعدول والعباسيين والعلويين وغيرهم من طبقات الناس. وجاء الكتاب بخطوطهم بذلك وتأكيد اليمين، ففارق المتقي الأخشيذ وانحدر من الوقت في الفرات آخر المحرم سنة ثلاث وثلاثين، ولقيه تورون بالسندية فقبل الأرض وقال: قد وفيت بيميني! ووكل به وبأصحابه وأنزله في خيمته. ثم سلمه لثلاث سنين ونصف من خلافته، وأحضر أبا القاسم عبد الله بن المكتفي فبايعه الناس على طبقاتهم، ولقب المستكفي، وجيء بالمتقي فبايعه وأخذت منه البردة والقضيب واستوزر أبا الفرج محمد بن علي السامري، فكان له اسم الوزارة على سنن من قبله، والأمور راجعة لابن شيرزاد كاتب تورون. ثم خلع المستكفي على تورون وتوجه وحبس المتقي، وطلب أبا القاسم الفضل بن المقتدر الذي لقب فيما بعد بالمطيع، فاختفى سائر أيامه وهدمت داره.

وفاة تورون وإمارة ابن شيرزاد

وفي المحرم من سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مات تورون ببغداد لست سنين وخمسة أشهر من إمارته، وكان ابن شيرزاد كاتبه أيامه كلها، وبعثه قبل موته لاستخلاص الأموال من هيت. فلما بلغه خبر الوفاة عزم على عقد الإمارة لناصر الدولة بن حمدان، فأبى الجند من ذلك واضطربوا وعقدوا له الرياسة عليهم، واجتمعوا عليه وحلفوا، وبعث إلى المستكفي ليحلف له، فأجابه وحلف له بحضرة القضاة والعدول، ودخل إليه ابن شيرزاد فولاه أمير الأمراء، وزاد في الأرزاق زيادة متسعة فضاقت عليه الأموال، فبعث أبا عبد الله بن أبي موسى الهاشمي إلى ابن حمدان يطالبه بالمال ويعده بإمارة الأمراء، فأنفذ إليه خمسمائة ألف درهم وطعاماً، وفرقها في الجند فلم تكف ففرض الأموال على العمال والكتاب والتجار لأرزاق الجند، ومدت الأيدي إلى أموال الناس، وفشا الظلم وظهرت اللصوص وكبسوا المنازل، وأخذ الناس في الخلاص من بغداد. ثم استعمل على واسط نيال كوشه، وعلى تكريت الفتح السيكري، فسار إلى ابن حمدان ودعا له شكراً فولاه عليها من قبله.

استلاء معز الدولة بن بويه على بغداد واندراج أحكام الخلافة في سلطانهم

قد تقدم لنا استبداد أهل النواحي على الخلافة منذ أيام المتوكل، ولم يزل نطاق الدولة العباسية يتضايق شيئاً فشيئاً، وأهل الدولة يستبدون واحداً بعد واحد إلى أن أحاطوا ببغداد وصاروا ولاة متعددة يفرد كل واحد منهم بالذكر وسياقة الخبر إلى آخرها. وكان من أقرب المستبدين إلى مقر الخلافة بنو بويه بأصبهان وفارس، ومعز الدولة منهم بالأهواز. وقد تغلب على واسط، ثم انتزعت منه. وبنو حمدان بالموصل والجزيرة، وقد تغلب على هيت وصارت تحت ملكهم، ولم يبق للخلفاء إلا بغداد ونواحيها ما بين دجلة والفرات، وأمراؤهم مع ذلك مستبدون عليهم، ويسمون القائم بدولتهم أمير الأمراء كما مر في أخبارهم إلى أن انتهى ذلك إلى دولة المتقي والقائم بها ابن شيرزاد. وولى على واسط نيال كوشه كما قلنا فانحرف عن ابن شيرزاد. وكاتب معز الدولة، وقام بدعوته في واسط واستدعاه لملك بغداد. فزحف في عساكر الديلم إليها ولقيه ابن شيرزاد والأتراك وهربوا إلى ابن حمدان بالموصل، واختفى المستكفي وقدم معز الدولة كاتبه الحسن بن محمد المهلبي إلى بغداد، فدخلها وظهر الخليفة، فظهر عنده المهلبي وجدد له البيعة عن معز الدولة أحمد بن بويه، وعن أخويه عماد الدولة علي وركن الدولة الحسن. وولاهم المستكفي على أعمالهم ولقبهم بهذه الألقاب ورسمها على سكته. ثم جاءه معز الدولة إلى بغداد وملكها، وصرف الخليفة في حكمه، واختص باسم السلطان. فبقيت أخبار الدولة تؤثر عنهم، وإن كان منها ما يختص بالخليفة فقليل. فلذلك صارت أخبار هؤلاء الخلفاء منذ المستكفي إلى المتقي مندرجة في أخبار بني بويه والسلجوقية من بعدهم لعطلهم من التصرف إلا قليلاً يختص بالخلفاء نحن ذاكروه ونرجع ببقية أخبارهم إلى أخبار الديلم والسلجوقية الغالبين على الدولة عندما نفرد دولتهم كما شرطناه.

الخبر عن الخلفاء من بني العباس المغلبين لدولة بني بويه من السلجوقية من بعدهم من لدن المستكفي إلى المتقي وما لهم من الأحوال الخاصة بهم ببغداد ونواحيها

لما دخل معز الدولة بن بويه إلى بغداد غلب على المستكفي

وبقي في كفالته، وكان المستكفي في سنة ثلاث وثلاثين قبلها قبض على كاتبه أبي عبد الله بن أبي سليمان وعلى أخيه، واستكتب أبا أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي في خاص أمره، وكان قبله كاتباً لابن حمدان، وكان يكتب للمستكفي قبل الخلافة. فلما نصب للخلافة قدم من الموصل فاستكتبه المستكفي في هذه السنة على وزيره أبي الفرج لاثنتين وأربعين من وزارته، وصادره على ثلثمائة ألف درهم. ولما استولى معز الدولة ببغداد على الأمر وبعث أبو القاسم البريدي صاحب البصرة ضمن واسط وأعمالها وعقد له عليها.

خلع المستكفي وبيعة المطيع

وأقام المستكفي بعد استيلاء معز الدولة على الأمر أشهراً قلائل، ثم بلغ معز الدولة أن المستكفي يسعى في إقامة غيره، فتنكر له، ثم أجلسه في يوم مشهود لحضور رسول من صاحب خراسان، وحضر هو في قومه وعشيرته، وأمر رجلين من نقباء الديلم جاءا ليقبلا يد المستكفي، ثم جذباه عن سريره وساقاه ماشياً. وركب معز الدولة وجاء به إلى داره فاعتقله بها، واضطرب الناس وعظم النهب ونهب دار الخلافة، وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي، وكان ذلك في جمادى الآخرة لسنة وأربعة أشهر من خلافته.

ثم بويع أبو القاسم الفضل بن المقتدر، وقد كان المستكفي طلبه حين ولي لإطلاعه على شأنه في طلب الخلافة، فلم يظفر به واختفى. فلما جاء معز الدولة تحول إلى داره واختفى عنده، فلما قبض على المستكفي بويع له ولقب المطيع لله، ثم أحضر المستكفي عنده فأشهد على نفسه بالخلع، وسلم عليه بالخلافة، ولم يبق للخليفة من الأمر شيء البتة منذ أيام معز الدولة. ونظر وزير الخليفة مقصور على إقطاعه ونفقات داره والوزارة منسوبة إلى معز الدولة وقومه من الديلم شيعة للعلوية منذ إسلامهم على يد الأطروش، فلم يكونوا من شيعة العباسية في شيء ولقد يقال بأن معز الدولة اعتزم على نقل الخلافة منهم إلى العلوية، فقال له بعض أصحابه: لا تول أحداً يشركك قومك كلهم في محبته والاشتمال عليه، وربما يصير لهم دونك، فأعرض عن ذلك وسلبهم الأمر والنهي، وتسلم عماله وجنده من الديلم وغيرهم أعمال العراق وسائر أراضيه. وصار الخليفة إنما يتناول منه ما يقطعه معز الدولة ومن بعده فيما يسد بعض حاجاته. نعم إنهم كانوا يفردونهم بالسرير والمنبر والسكة والختم على الرسائل والصكوك والجلوس للوفد وإجلالهم في التحية والخطاب، وكل ذلك طوع القائم على الدولة، وكان يفرد في كل دولة بني بويه والسلجوقية بلقب السلطان مما لا يشاركه فيه أحد، ومعنى الملك من تصريف القدرة وإظهار الأبهة والعز حاصل له دون الخليفة وغيره، وكانت الخلافة حاصلة للعباسي المنصوب لفظاً المسلوب معنى، والله المدبر للأمور لا إله غيره.

انقلاب حال الدولة بما تجدد في الجباية والاقطاع

لما استوى معز الدولة طلب الجند أرزاقهم على عادتهم وأكثر لسبب ما تجدد من الاستيلاء الذي لم يكن له، فاضطر إلى ضرب المكوس وأخذ أموال الناس من غير وجهها، وأقطع قواده وأصحابه من أهل عصبيته وغير المساهمين له في الأمر جميع القرى التي بجانب السلطان، فارتفعت عنها أيدي العمال وبطلت الدواوين واختلف حال القرى في العمارة عما كان في أيدي القواد والرؤساء، حصل بهم لأهلها الرفق فزادت عمارتها وتوفر دخلها، ولم تكن مناظرتهم في ذلك ولا تقديره عليهم، وما كان بأيدي العامة والأتباع عظم خرابه لما كان يعدم من الغلاء والنهب واختلاف الأيدي وما يزيد الآن من الظلم ومصادرات الرعايا والحيف في الجباية وإهمال النظر في تعديل القناطر والمشارب، وقسم المياه على الأرضين فإذا خربت قراهم ردوها وطلبوا العوض عنها فيصير الآخر منها لما صار إليه الأول، ثم أمر معز الدولة قواده وأصحابه بحماية الأقطاع والضياع وولاتها، وصارت الجبايات لنظرهم والتعويل في المرتفع على أخبارهم. فلا يقدر أهل الدواوين والحسابات على تحقيق ذلك عليهم، ولم يقف عند ذلك على غاية. فبطلت الأموال وصار جمعها من المكوس والظلامات، وعجز معز الدولة عن ذخيرة يعدها لنوائب سلطانه. ثم استكثر من الموالي الأتراك ليجدع بهم من أنوف قومه، وفرض لهم الأرزاق وزاد لهم الأقطاع، فعظمت غيرة قومه من ذلك وآل الأمر إلى المنافرة كما هو الشأن في طبيعة الدول.

دولة بني حمدان مسير ابن حمدان إلى بغداد

ولما استولى معز الدولة على بغداد وخلع المستكفي، بلغ الخبر إلى ناصر الدولة بن حمدان، فشق ذلك عليه، وسار من الموصل إلى بغداد وانتهى إلى سامرا في شعبان سنة أربع. وكان معز

الدولة حين سمع قدوم عساكره مع ينال كوشه وقائد آخر، فقتل القائد ولحق بناصر الدولة. وجاء ناصر الدولة إلى بغداد فأقام بها وخالفه معز الدولة إلى تكريت فنهبها لأنها من أعماله. ثم عاد معز الدولة والمطيع فنزلوا بالجانب الغربي من بغداد، وقاتلوا ناصر الدولة بالجانب الشرقي وتقدم ناصر الدولة إلى الأعراب بالجانب الغربي بقطع الميرة عن معز الدولة فغلت الأسعار وعزت الأقوات، ومنع ناصر الدولة من الخطبة للمطيع والمعاملة بسكته، ودعا للمتقي وبيت معز الدولة مراراً. وضاق الأمر به، واعتزم على ترك بغداد والعود إلى الأهواز.

ثم أظهر الرحيل ذات ليلة وأمر وزيره أبا جعفر الصهيري بالعبور في أكثر العساكر، وأقام بالكينة مكانه، وجاء ينال كوشه لقتاله فانهزم واضطرب عسكر ناصر الدولة وأجفلوا، وغنم الديلم أموالهم وأظهرهم. ثم أمن معز الدولة الناس وعاد المطيع إلى داره في محرم سنة خمس وثلاثين وقام التورونية عليه، فلما شعروا به نكروه وهموا بقتله، فأسرى هارباً ومعه ابن شيرزاد، وفر إلى الجانب الغربي. ثم لحق بالقرامطة فأجاروه وبعثوه إلى الموصل. ثم استقر الصلح بينه وبين الدولة كما طلب، ولما وفر عن الأتراك اتفقوا على تكين الشيرازي فولوه عليهم وقبضوا على من تخلف من كتابه وأصحابه، وساروا في اتباعه إلى نصيبين، ثم إلى سنجار، ثم إلى الحديثة، ثم إلى السن، ولحق هنالك عسكر معز الدولة مع وزيره أبي جعفر الصهيري، وقد كان استمده ناصر الدولة. وسار ناصر الدولة وابن الصهيري إلى الموصل، فنزلوا عليها وأخذ الصهيري من ناصر الدولة ابن شيرزاد وحمله إلى معز الدولة وذلك سنة خمس وثلاثين.

استيلاء معز الدولة على البصرة

وفي هذه السنة انتقض أبو القاسم البريدي بالبصرة، فجهز معز الدولة الجيش وجماعة أعيانهم إلى واسط، ولقيهم جيش ابن البريدي في الماء على الظهر، فانهزموا إلى البصرة وأسروا من أعيانهم جماعة. ثم سار معز الدولة سنة ست وثلاثين إلى البصرة ومعه المطيع لاستنقاذها من يد أبي القاسم بن البريدي وسلكوا إلى البرية. فبعث القرامطة يعذلون في ذلك معز الدولة فكتب يهددهم. ولما قارب البصرة استأمنت إليه عساكر أبي القاسم، وهرب هو إلى القرامطة فأجاروه، وملك معز الدولة البصرة. ثم سار منها إلى الأهواز لتلقي أخيه عماد الدولة، وترك المطيع وأبا جعفر الصهيري بالبصرة. ولقي أخاه بأرَّجان. ثم عاد إلى بغداد والمطيع معه وأراد السير إلى الموصل فأرسل إليه ناصر الدولة في الصلح وحمل المال فتركه. ثم انتفض سنة سبع وثلاثين فسار إليه معز الدولة، وملك الموصل، ولحق ناصر الدولة بنصيبين، وأخذ معز الدولة في ظلم الرعايا وعسفهم. ثم بعث إليه أخوه ركن الدولة بأصبهان بأن عسكر خراسان قصدت جرجان والري، واستمده فاضطر معز الدولة إلى صلح ناصر الدولة عن الموصل والجزيرة وما ملكه سيف الدولة من الشام ودمشق وحلب على ثمانية آلاف ألف ألف درهم، ويخطب لعماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة بني بويه، فاستقر الصلح على ذلك وعاد إلى بغداد.

ابتداء أمر بني شاهين بالبطيحة

كان عمران بن شاهين من أهل الجامدة، وحصلت عنده جبايات، فهرب إلى البطيحة خوفاً من الحكام، وأقام بين القصب والآجام يقتات بصيد السمك والطير وكشف سابلة البطيحة. واجتمع عليه جماعة من الصيادين واللصوص. ثم اشتد خوفه فاستأمن إلى أبي القاسم بن البريدي صاحب البصرة نقله جماعة الجامدة ونواحي البطائح. وجمع السلاح واتخذ مقاتل على تلال البطيحة وغلب على نواحيها، وسرح معز الدولة وزيره أبا جعفر الصهيري سنة ثمان وثلاثين فقاتله وهرب واستأمن أهله وعياله. ثم جاء الخبر إلى معز الدولة بموت أخيه عماد الدولة بفارس، واضطراب أحواله بها. فكتب إلى الصهيري بالفرار إلى شيرزاد لإصلاح الأمور، فسار إليها وعاد عمران بن شاهين إلى البطيحة، واجتمع إليه أصحابه وقوي أمره. وبعث معز الدولة إلى قتاله روزبهان من أعيان عسكره، فأطال حصاره في مضايق البطيحة. ثم ناجزه الحرب فهزمه عمران وهرب عسكره، وصار أصحابه يطلبون البَذْرَقة والخفارة من جند السلطان في السابلة، وانقطع طريق البصرة إلا على الظهر.

وكان الصهيري قد هلك وولى مكانه المهلبي، فكتب معز الدولة إلى المهلبي وهو بالبصرة، فصعد إلى واسط وأمده بالقواد والسلاح، وأطلق يده في الإنفاق. فزحف إلى البطيحة وضيق على عمران فانتهى إلى مضايق خفية، وأشار عليه روزبهان بمعالجة القوم، وكتب إلى معز الدولة يشكو المطاولة من المهلبي، فكتب إليه معز الدولة بالاستبطاء فبادر إلى المناجزة وتوغل في تلك المضايق، فانهزم وقتل من أصحابه وأسر ونجا هو سباحة في الماء، وأسر عمران أكابر القواد حتى صالحه معز الدولة وقلده البطائح وأطلق له أهله على أن يطلق القواد الذين في أسره فأطلقهم.

موت الصهيري ووزارة المهلبي

كان أبو جعفر محمد بن أحمد الصهيري وزيراً لمعز الدولة، وكان قد سار لقتال عمران واستخلف مكانه أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي، فعرفت كفايته وإصلاحه وأمانته، وتوفي أبو جعفر الصهيري محاصراً لعمران، فولى معز الدولة مكانه أبا محمد المهلبي، فأحسن السيرة وأزال المظالم وخصوصاً عن البصرة فكان فيها شعب كثيرة من المظالم من أيام أبي البريدي، وتنقل في البلاد لكشف المظالم وتخليص الحقوق، فحسن أثره ونقم عليه معز الدولة بعض الأمور فنكبه سنة إحدى وأربعين وحبسه في داره ولم يعزله.

حصار البصرة

قد تقدم لنا أن القرامطة أنكروا على معز الدولة مسيره إلى البصرة على بلادهم، وذكرنا ما دار بينهم في ذلك. ولما علم يوسف بن وجيه استيحاشهم بعث إليهم يطمعهم في النصرة، واستمدهم فأمدوه. وسار في البحر سنة إحدى وأربعين، وبلغ الخبر إلى الوزير المهلبي، وقد قدم من شأن الأهواز. فسار إلى البصرة وسبق إليها ابن وجيه وقاتله فهزمه وظفر بمراكبه.

استيلاء معز الدولة على الموصل وعوده

قد تقدم لنا صلح معز الدولة مع ناصر الدولة على ألفي ألف درهم كل سنة. فلما كانت سنة سبع وأربعين أخرج وحمل المال، فسار معز الدولة إلى الموصل في جمادى ومعه وزيره المهلبي، فاستولى على الموصل ولحق ناصر الدولة بنصيبين ومعه كتابه وجميع أصحابه وحاشيته، ومن يعرف وجوه المنافع، وأنزلهم في قلعة كواشي وغيرها. وأمر الأعراب بقطع الميرة عن الموصل فضاقت الأبواب على عسكر معز الدولة، فسار عن الموصل إلى نصيبين واستخلف عليها سبكتكين الحاجب الكبير، وبلغه في طريقه أن أولاد ناصر الدولة بسنجار في عسكر، فبعث عسكراً فكبسوهم واشتغلوا بالنهب، فعاد إليهم أولاد ناصر الدولة وهم غازون فاستلحموهم، وسار ناصر الدولة عن نصيبين إلى ميافارقين. ورجع أصحابه إلى معز الدولة مستأمنين، فسار هو إلى أخيه سيف الدولة بحلب فتلقاه وأكرمه وتراسلوا في الصلح على ألفي ألف درهم وتسعمائة ألف درهم، وإطلاق من أسر بسنجار وأن يكون ذلك في ضمان سيف الدولة فتم بينهما، وعاد معز الدولة إلى العراق في محرم سنة ثمان وأربعين.

بناء معز الدولة ببغداد

أصاب معزل الدولة سنة خمسين مرض أشفي منه حتى وصّى، واستوخم بغداد فارتحل إلى كلواذا ليسير إلى الأهواز، وأسف أصحابه لمفارقة بغداد، فأشاروا عليه أن يبني لسكناه في أعاليها. فبنى داراً أنفق عليها ألف ألف دينار، وصادر فيها جماعة من الناس.

ظهور الكتابة على المساجد

كان الديلم كما تقدم لنا شيعة لإسلامهم على يد الأطروش، وقد ذكرنا ما منع بني بويه من تحويل الخلافة على العباسية إليهم. فلما كان سنة إحدى وخمسين وثلثمائة أصبح مكتوباً على باب الجامع ببغداد: لعن صريح في معاوية ومن غصب فاطمة فدك، ومن منع من دفن الحسن عند جده ومن نفى أبا ذر، ومن أخرج العباس من الشورى، ونسب ذلك إلى معز الدولة. ثم محي من الليلة القابلة، فأراد معز الدولة إعادته، فأشار المهلبي بأن يكتب مكان المحو: لعن معاوية فقط والظالمين لآل رسول الله ﷺ. وفي ثامن عشر ذي الحجة من هذه السنة أمر الناس بإظهار الزينة والفرح لعبد العزيز من أعيان الشيعة. وفي السنة بعدها أمر الناس في يوم عاشوراء أن يغلقوا دكاكينهم ويقعدوا عن البيع والشراء ويلبسوا المسوح، ويعلنوا بالنياحة، وتخرج النساء مسبلات الشعور مسوّدات الوجوه قد شققن ثيابهن ولطمن خدودهن حزناً على الحسين، ففعل الناس ذلك. ولم يقدر أهل السنة على منعه لأن السلطان للشيعة وأعيد ذلك سنة ثلاث وخمسين فوقعت فتنة بين أهل السنة والشيعة ونهب الأموال.

استيلاء معز الدولة على عمان وحصاره البطائح

انحدر معز الدولة سنة خمس وخمسين إلى واسط لقتال عمران بن شاهين بالبطائح فأنفذ الجيش من هنالك مع أبي الفضل العباس بن الحسن، وسار إلى الأبلة فأنفذ الجيش إلى عمان، وكان القرامطة قد استولوا عليها وهرب عنها صاحبها نافع، وبقي أمرها فوضى، فاتفق قاضيها وأهل البلد أن ينصبوا عليهم رجلاً منهم فنصبوه، ثم قتله بعضهم فولوا آخر من قرابة القاضي يعرف بعبد

الرحمن بن أحمد بن مروان، واستكتب علي بن أحمد الذي كان وصل مع القرامطة كاتباً، وحضر وقت العطاء، فاختلف الزنج والبيض في الرضا بالمساواة وبعدمها واقتتلوا، فغلب الزنج وأخرجوا عبد الوهاب واستقر علي بن أحمد أميراً. فلما جاء معز الدولة إلى واسط هذه السنة، قدم عليه نافع الأسود صاحب عمان مستنجداً به، فانحدر به من الأبلة، وجهز له المراكب لحمل العساكر، وعليهم أبو الفرج محمد بن العباس بن فساغس وهي مائة قطعة، فساروا إلى عمان وملكوها تاسع ذي الحجة من سنة خمس وخمسين، وقتلوا من أهلها وأحرقوا مراكبها، وكانت تسعة وثمانين، وعاد معز الدولة إلى واسط، وحاصر عمران، وأقام هنالك فاعتلّ وصالح عمران وانصرف عنه.

وفاة الوزير المهلبي

سار الوزير المهلبي في جمادى سنة اثنتين وخمسين إلى عمان ليفتحها فاعتل في طريقه ورجع إلى بغداد فمات في شعبان قبل وصوله، وحمل فدفن بها لثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر من وزارته. وقبض معز الدولة أمواله وذخائره وصارت إليه وحواشيه، ونظر في الأمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي وأبو الفرج محمد بن العباس بن فساغس ولم يلقب أحد منهما بوزارة.

وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار

ولما رجع معز الدولة إلى بغداد اشتد مرضه فعهد بالسلطنة إلى ابنه عز الدولة، وتصدق وأعتق. وتوفي في ربيع من سنة ست وخمسين لاثنتين وعشرين سنة من سلطنته، وولي ابنه عز الدولة بختيار وقد كان أوصاه بطاعة عمه ركن الدولة، وبطاعة ابنه عضد الدولة، لأنه كان أكبر سناً وأخبر بالسياسة ووصاه بحاجبه سبكتكين وبكاتبيه أبي الفضل العباس وأبي الفرج، فخالف وصاياه وعكف على اللهو وأوحش هؤلاء، ونفى كبار الديلم شرها في أقطاعاتهم. وشغب عليه الأصاعد فذادهم واقتدى بهم الأتراك، وجاء أبو الفرج محمد بن العباس من عمان بعد أن سلمها إلى نواب عضد الدولة الذين كانوا في أمداده، وخشي أن يؤمر بالمقام بها وينفرد أبو الفضل صاحبه بالوزارة ببغداد، فكان كما ظن. ثم انتقض بالبصرة حبشي بن معز الدولة على أخيه بختيار سنة ست وخمسين، فبعث الوزير أبو الفضل العباس فسار مورياً بالأهواز ونزل واسط وكتب إلى حبشي بأنه جاء ليسلمه البصرة وطلب منه المعونة على أمره فأنفذ إليه مائتي ألف درهم وأرسل الوزير خلال ذلك إلى عسكر الأهواز أن يوافوه بالأبلة لموعد ضربه لهم، فوافوه وكبسوا حبشياً بالبصرة وحبسوه برامهرمز ونهبوا أمواله، وكان من جملة ما أخذ له عشرة آلاف مجلد من الكتب وبعث ركن الدولة بتخليص حبشي ابن أخيه وجعله عند عضد الدولة فأقطعه إلى أن مات سنة سبع وستين.

عزل أبي الفضل ووزارة ابن بقية

لما ولي أبو الفضل وزارة بختيار كثر ظلمه وعسفه، وكان محمد بن بقية من حاشية بختيار، وكان يتولى له المطبخ. فلما كثر شغب الناس من أبي الفضل عزله بختيار سنة اثنتين وستين وولى مكانه محمد بن بقية، فانتشر الظلم أكثر، وخربت النواحي وظهر العيارون ووقعت الفتن بين الأتراك وبختيار، فأصلح ابن بقية بينهم وركب سبكتكين بالأتراك إلى بختيار، ثم أفسد بينهم وتحرك الديلم على سبكتكين وأصحابه فأرضاهم بختيار بالمال ورجعوا عن ذلك..... كان ناصر الدولة بن حمدان قد قبض عليه ابنه أبو تغلب وحبسه سنة ست وخمسين وطمع في المسير إلى بغداد، وجاء أخوه حمدان وإبراهيم فازعين إلى بختيار ومستنجدين به فشغل عنهما بما كان فيه من شأن البطيحة وعمان، حتى إذا قضى وطره من ذلك وعزل أبا الفضل الوزير واستوزر ابن بقية حمله على ذلك وأغراه به، فسار إلى الموصل ونزلها في ربيع الآخر سنة ثلاث وستين، ولحق أبو تغلب بسنجار بأصحابه وكتابه ودواوينه.

ثم سار إلى بغداد وبعث بختيار في أثره الوزير ابن بقية وسبكتكين فدخل ابن بقية بغداد وأقام سبكتكين يحاربه في ظاهرها، ووقعت الفتنة داخل بغداد في الجانب الغربي بين أهل السنة والشيعة. واتفق سبكتكين وأبو تغلب على أن يقبضا على الخليفة والوزير وأهل بختيار، ويعود سبكتكين إلى بغداد مستولياً وأبو تغلب إلى الموصل. ثم أقصر سبكتكين عن ذلك وتوقف، وجاءه الوزير ابن بقية وأرسلوه إلى أبي تغلب في الصلح. وأن يضمن البلاد ويرد على أخيه حمدان أقطاعه وأملاكه إلا ماردين، وعاد أبو تغلب إلى الموصل ورحل بختيار، وسار سبكتكين للقائه.

واجتمع بختيار وأبو تغلب على الموصل، وطلب أبو تغلب زوجته ابنة بختيار وأن يحط عنه من الضمان ويلقب لقباً سطانياً فأجيب إلى ذلك خشية منه، ورحل بختيار إلى بغداد، وسر أهل الموصل برحيله لما نالهم منه، وبلغه في طريقه أن أبا تغلب قتل قوماً من أصحابه، وكانوا استأمنوا لبختيار وزحفوا لنقل أهلهم وأموالهم

فاشتد ذلك عليه، وكتب إلى الوزير أبي طاهر بن بقية والحاجب ابن سبكتكين يستقدمهما في العساكر، فجاؤوا وعادوا إلى الموصل، وعزم على طلبه حيث سار. فأرسل أبو تغلب في الصلح، وجاء الشريف أبو أحمد الموسوي والد الشريف الرضي وحلف على العلم في قتل أولئك المستأمنة، وعاد الصلح والاتفاق كما كان، ورجع بختيار إلى بغداد وبعث ابنته إلى زوجها أبي تغلب.

الفتنة بين بختيار وسبكتكين والأتراك

كان بختيار قد قلت عنده الأموال وكثرت مطالب الجند وشغبهم، فكان يحاول على جمع الأموال فتوجه إلى الموصل لذلك، ثم رجع فتوجه إلى الأهواز ليجدد ريعه إلى مصادرة عاملها، وتخلف عنه سبكتكين والأتراك الذين معه، ووقعت فتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز واقتتلوا ولج الأتراك في طلب ثأرهم، وأشار عليه أصحاب الديلم بقبض رؤساء الأتراك وقوادهم ففعل، وكان من جملتهم عامل الأهواز وكاتبه، ونهبت أموالهم وبيوتهم، ونودي في البلد باستباحتهم، وبلغ الخبر إلى سبكتكين وهو ببغداد فنقض طاعة بختيار وركب في الأتراك وحاصر داره يومين وأحرقها وأخذ أخويه وأمهما فبعثهم إلى واسط في ذي القعدة سنة ثلاث وستين، وانحدر المطيع معهم فرده وترك الأتراك في دور الديلم ونهبوها وثارت العامة مع سبكتكين لأن الديلم كانوا شيعة وسفكت الدماء وأحرق الكرخ وظهر أهل السنة.

خلع المطيع وولاية الطائع

كان المطيع قد أصابه الفالج وعجز عن الحركة وكان يتستر به وانكشف حاله بسبكتكين في هذه الواقعة، فدعاه إلى أن يخلع نفسه ويسلم الخلافة عبد الكريم ففعل ذلك منتصف ذي القعدة سنة ثلاث وستين لست وعشرين سنة ونصف من خلافته، وبويع ابنه عبد الكريم ولقب الطائع.

الصوائف

وعادت الصوائف منذ استبد ناصر الدولة بن حمدان بالموصل وأعمالها، وملك سيف الدولة أخوه مدينتي حلب وحمص سنة ثلاث وثلاثين، فصار أمر الصوائف إليه فنذكرها في أخبار دولتهم. فقد كان لسيف الدولة فيها آثار وكان للروم في أيامه جولات حسنت فيها مدافعته. وأما الولايات فانقطعت منذ استيلاء معز الدولة على العراق، وانقسمت الدولة الإسلامية دولاً نذكر ولايات كل منها في أخبارها عند انفرادها على ما شرطناه.

فتنة سبكتكين وموته وإمارة أفتكين

لما أوقع بختيار في الأتراك بالأهواز ما أوقع وانتقض سبكتكين ببغداد عمد بختيار إلى من حبسه من الأتراك فأطلقهم، وولى منهم على الأتراك زادويه الذي كان عامل الأهواز، وسار إلى واسط للقائه وأخويه، وكتب إلى عمه ركن الدولة وابن عمه عضد الدولة يستنجدهما، وإلى أبي تغلب بن حمدان في المدد بنفسه، ويسقط عنه مال الإقطاع، وإلى عمران بن شاهين بالبطيحة كذلك، فجهز إليه عمه ركن الدولة العسكر مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وكتب إلى ابن عمه عضد الدولة بالمسير معه فتثاقل وتربص بختيار طمعاً في ملك العراق. وأما عمران بن شاهين فدافع واعتذر بأن عسكره لا يفتكون في الديلم لما كان بينهم، وأما أبو تغلب فبعث أخاه أبا عبد الله الحسين في عسكر إلى تكريت. فلما سار الأتراك عن بغداد إلى واسط لقتال بختيار وجاء هو إليها ليقيم الحجة في سقوط الإقطاع عنه، ووجد الفتنة حامية بين العيارين فكف القسامة وانتظر ما يقع ببختيار فيدخل بغداد ويملكها. ولما سار الأتراك إلى واسط حملوا معهم خليفتهم الطائع لله وأباه المطيع المخلوع، وانتهوا إلى دير العاقول فهلك المطيع وسبكتكين معاً، وولى الأتراك عليهم أفتكين من أكابر قوادهم ومولى معز الدولة، فانتظم أمرهم وساروا إلى واسط وحاصروا بها بختيار خمسين يوماً حتى اشتد عليه الحصار وهو يستحث عضد الدولة.

نكبة بختيار على يد عضد الدولة ثم عوده إلى ملكه

لما تتابعت كتب بختيار إلى عضد الدولة باستحثاثه سار في عساكر فارس، وجاءه أبو القاسم بن العميد وزير أبيه إلى الأهواز في عساكر الري وساروا إلى واسط، وأجفل عنها أفتكين والأتراك إلى بغداد ورجع أبو تغلب إلى الموصل. ولما جاء عضد الدولة إلى واسط سار إلى بغداد في الجانب الشرقي، وسار بختيار في الجانب الغربي وحاصروا الأتراك ببغداد من جميع الجهات. وأرسل بختيار إلى ضبة بن محمد الأسدي من أهل عين التمر وإلى أبي سنان وأبي تغلب بن حمدان بقطع الميرة والإغارة على النواحي فغلا السعر

ببغداد وثار العيارون ووقع النهب، وكبس أفتكين المنازل في طلب الطعام فعظم الهرج، وخرج أفتكين والأتراك للحرب فلقيهم عضد الدولة فهزمهم وقتل أكثرهم واستباحهم، ولحقوا بتكريت وحملوا الخليفة معهم، ودخل عضد الدولة إلى بغداد في جمادى سنة أربع وستين. وحاول في رد الخليفة الطائع فرده وأنزله بداره وركب للقائه الماء في يوم مشهود.

ثم وضع الجند على بختيار فشغبوا عليه في طلب أرزاقهم وأشار عليه بالغلظة عليهم، والاستعفاء من الإمارة، وأنه عند ذلك يتوسط في الإصلاح فأظهر بختيار التخلي، وصرف الكتاب والحجاب ثقة بعضد الدولة، وتردد السفراء بينهم ثلاثاً ثم قبض عضد الدولة على بختيار وإخوته ووكل بهم، وجمع الناس أعلمهم بعجز بختيار ووعدهم بحسن النظر وقام بواجبات الخلافة. وكان المرزبان بن بختيار أميراً بالبصرة فامتنع فيها على عضد الدولة، وكتب إلى ركن الدولة يشكو ما جرى على أبيه بختيار من ابنه عضد الدولة ووزيره ابن العميد، فأصابه من ذلك المقيم المقعد حتى لقد طرقه المرض الذي لم يستقل منه.

وكان ابن بقية وزير بختيار قد سار إلى عضد الدولة وضمنه واسط وأعمالها فانتقض عليه بها، وداخل عمران بن شاهين في الخلافة فأجابه، وكتب إلى سهل بن بشر وزير أفتكين بالأهواز وقد كان عضد الدولة ضمنه إياها وبعثه إليها مع جيش بختيار فاستماله ابن بقية، وخرجت إليه جيوش عضد الدولة فهزمهم، وكاتب أباه ركن الدولة بالأحوال، وأوعز ركن الدولة إليه وإلى المرزبان بالبصرة على المسير بالعراق لإعادة بختيار.

واضطربت النواحي على عضد الدولة لإنكار أبيه، وانقطع عن مدد فارس وطمع فيه الأعداء، فبعث أبا الفتح بن العميد إلى أبيه يعتذر عما وقع، وأن بختيار عجز ولايقدر على المملكة وأنه يضمن أعمال العراق بثلاثين ألف ألف درهم، ويبعث بختيار وإخوته إليه لينزله بأي الأعمال أحب، ويخير أباه في نزوله العراق لتدبير الخلافة ويعود هو إلى فارس، وتهدد أباه بقتل بختيار وإخوته وجميع شيعهم إن لم يوافق على واحدة من هذه. فخاف ابن العميد غائلة هذه الرسالة وأشار بإرسال غيره وأن يمضي هو بعدها كالمصلح فبعث عضد الدولة غيره. فلما ألقى الرسالة غضب ركن الدولة ووثب إلى الرسول ليقتله، ثم رده بعد أن سكن غضبه، وحمله إلى عضد الدولة من الشتم والتقريع على ما فعله وعلى ما يطلب منه من كل صعب من القول.

وجاء ابن العميد على أثر ذلك فحجبه وتهدده، ثم لم يزل يسترضيه بجهده واعتذر بأن قبوله لهذه الرسالة حيلة على الوصول إليه والخلاص من عضد الدولة، وضمن له إعادة عضد الدولة إلى فارس وتقرير بختيار بالعراق، فأجاب عضد الدولة إلى ذلك وأفرج عن بختيار ورده إلى السلطنة على أن يكون نائباً عنه ويخطب عنه، ويجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش لعجز بختيار، ورد عليهم ما أخذ لهم وسار إلى فارس وأمر ابن العميد أن يلحق به بعد ثلاث فتشاغل مع بختيار باللذات ووعده أن يصير إلى وزارته بعد ركن الدولة. وأرسل بختيار عن ابن بقية فقام بأمر الدولة واحتجن الأموال فإذا طولب بها دس للجند فشغبوا حتى تنكر له بختيار واستوحش هو.

خبر أفتكين

ولما انهزم أفتكين من عضد الدولة بالمدائن لحق الشام ونزل قريباً من حمص، وقصد ظالم بن موهوب أمير بني عقيل العلوية بالشام فلم يتمكن منه، وسار أفتكين إلى دمشق وأميرها ريان خادم المعز لدين الله العلوي وقد غلب عليه الأحداث فخرج إليه مشيخة البلد وسألوه أن يملكهم ويكف عنهم شر الأحداث وظلم العمال واعتقاد الرافضة فاستحلفهم على ذلك ودخل دمشق وخطب فيها للطائع في شعبان سنة أربع وستين. ورجع أيدي العرب من ضواحيها وفتك فيهم وكثرت جموعه وأمواله وكاتب المعز بمصر يداريه بالانقياد، فكتب يشكره ويستدعيه ليوليه من جهته، فلم يثق إليه فتجهز لقصده، ومات في طريقه سنة خمس وستين كما نذكر بقية خبره في دولتهم.

ملك عضد الدولة بغداد وقتل بختيار

ولما انصرف عضد الدولة إلى فارس كما ذكرناه أقام بها قليلاً ثم مات أبوه ركن الدولة سنة ست وستين بعد أن رضي عنه وعهد له بالملك كما نذكره في خبره. فلما مات شرع بختيار ووزيره ابن بقية في استمالة أهل أعماله مثل أخيه فخر الدولة وحسنويه الكردي وطلب ابن حمدان وعمران بن شاهين في عدوانه فسار عضد الدولة لطلب العراق واستمد حسنويه وابن حمدان فواعداه ولم يبعداه فسار إلى الأهواز، ثم سار إلى بغداد، ولقيه بختيار فهزمه عضد الدولة واستولى على أمواله وأثقاله ولحق بواسط، وحمل إليه ابن شاهين أموالاً وهدايا ودخل إليه مؤكداً للاستجارة به. ثم صعد إلى واسط، وبعث عضد الدولة عسكراً إلى البصرة فملكوها، وكانت مصر شيعة له دون ربيعة. وجمع بختيار ما كان له ببغداد والبصرة في واسط وقبض على ابن بقية

وأرسل عضد الدولة في الصلح واختلفت الرسائل، وجاءه عبد الرزاق وبدر ابنا حسنويه في ألف فارس مدداً فانتقض وسار إلى بغداد وسار عضد الدولة إلى واسط ثم إلى البصرة فأصلح بين ربيعة ومضر بعد اختلافهم مائة وعشرين سنة.

ثم دخلت سنة سبع وستين فقبض عضد الدولة على أبي الفتح بن العميدي وزير أبيه وجدع أنفه وسمل إحدى عينيه لما بلغه عنه في مقامه بالفرات عند بختيار. ولما أطلع عليه من مكاتبته إياه فبعث إلى أخيه فخر الدولة بالري بالقبض عليه وعلى أهله فقبض عليه وأخذ داره بما فيها. ثم سار عضد الدولة إلى بغداد سنة سبع وستين، وبعث إلى بختيار يخيره في الأعمال فأجاب إلى طاعته، وأمره بإنفاذ ابن بقية إليه ففقأ عينيه وأنفذه، وخرج عن بغداد يقصد الشام، ودخل عضد الدولة بغداد وخطب له بها وضرب على بابه ثلاث نوتات ولم يكن شيء من ذلك لمن قبله، وأمر بابن بقية فرمي بين الفيلة فقتلته.

ولما سار بختيار إلى الشام ومعه حمدان أخو أبي تغلب وانتهوا إلى عكبرا أحسن له حمدان وقصد الموصل. وكان عضد الدولة قد استحلفه أن لا يدخل ولاية أبي تغلب فنكث وقصدها، وجاءته رسل أبي تغلب بتكريت في إسلام أخيه حمدان إليه فيمده بنفسه، ويعيده إلى ملكه فقبض على حمدان وبعثه مع نوابه فحبسه وسار أبو تغلب إليه في عشرين ألف مقاتل، وزحفوا إلى بغداد ولقيهما عضد الدولة فهزمهما وأمر ببختيار فقتل صبراً في عدة من أصحابه لإحدى عشرة سنة من ملكه.

استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان

ثم سار عضد الدولة بعد الهزيمة ومقتل بختيار إلى الموصل فملكها منتصف ذي القعدة من سنة سبع وستين، وكان حمل معه الميرة والعلوفات فأقام في رغد، وبث السراة في طلب أبي تغلب، وراسله في ضمان البلاد على عادته فلم يجبه، فسار إلى نصيبين ومعه المرزبان بن بختيار وأبو إسحاق وطاهر أخو بختيار وأمهم، فبعث عضد الدولة عسكراً إلى جزيرة ابن عمر مع حاجبه أبي عمر لحرب طغان، وعسكراً إلى نصيبين مع أبي الوفاء طاهر بن محمد ففارقها أبو تغلب إلى ميافارقين وأتبعه أبو الوفاء إليها فامتنعت عليه. ولحق أبو تغلب بأردن الروم ثم بالحسنية من أعمال الجزيرة، وتتبع أبو تغلب قلاعه وأخذ أمواله في كواشي وغيرها، وعاد إلى ميافارقين. ثم سار عضد الدولة إليه بنفسه واستأمن إليه كثير من أصحابه، ورجع إلى الموصل وبعث العسكر في اتباعه فدخل بلاده فصاهره ورد الرومي المملك عليهم في غير بيت الملك ليستعين به على أمره، واتبعه عسكر عضد الدولة فهزمهم ونجا إلى بلاد الروم لمساعدة ورد على شأنه لما يؤمل من نصرته إياه. واتفق أن ورداً انهزم فيئس منه أبو تغلب وعاد إلى بلاد الإسلام ونزل بآمد شهرين، حتى فتح عضد الدولة جميع بلاده كما يذكر في أخبار دولتهم، واستخلف أبا الوفاء على الموصل وعاد إلى بغداد وانقطع ملك بني حمدان عن الموصل حيناً من الدهر.

وفاة عضد الدولة وولاية ابنه صمصام الدولة

ثم توفي عضد الدولة في شوال سنة اثنتين وسبعين لخمس سنين ونصف من ملكه، واجتمع القواد والأمراء على ولاية ابنه كاليجار المرزبان وبايعوه ولقبوه صمصام الدولة. وجاءه الطائع معزياً في أبيه، وبعث أخويه أبا الحسين أحمد وأبا طاهر فيروزشاه فانتقض أخوهم شرف الدولة بكرمان في فارس، وسبق إليها أخويه وملكها وأقاما بالأهواز، وقطع خطبة صمصام الدولة أخيه وخطب لنفسه، وتلقب تاج الدولة. وبعث إليه صمصام الدولة عسكراً صحبة علي بن دنقش حاجب أبيه، وبعث شرف الدولة عسكره مع الأمير أبي الأغر دفليس بن عفيف الأسدي، والتقيا عند قرقوب، فانهزم ابن دنقش في ربيع سنة ثلاث وسبعين وأسر واستولى أبو الحسن على الأهواز ورامهرمز، وطمع في الملك.

ثم إن أسفار بن كردويه من أكابر الديلم قام بدعوة شرف الدولة ببغداد سنة خمس وسبعين، واستمال كثيراً من العسكر، واتفقوا على ولاية أبي نصر بن عضد الدولة نائباً عن أخيه شرف الدولة، وراسلهم صمصام الدولة في الرجوع عن ذلك فلم يزدهم إلا تمادياً. وأجابه فولاد بن مابدرار أنفة من متابعة أسفار وقاتله فهزمه. وأخذ أبا مضل أسيراً وأحضره عند أخيه صمصام الدولة، واتهم وزيره ابن سعدان بمداخلتهم فقتله، ومضى أسفار إلى أبي الحسين بن عضد الدولة وباقي الديلم إلى شرف الدولة. وسار شرف الدولة إلى الأهواز فملكها من يد أخيه الحسين. ثم ملك البصرة من يد أخيه أبي طاهر وراسله صمصام الدولة في الصلح فاتفقوا على الخطبة لشرف الدولة بالعراق، وبعث إليه بالخلع والألقاب من الطائع.

نكبة صمصام الدولة وولاية أخيه شرف الدولة

لما ملك شرف الدولة من يد أخيه أبي طاهر سار إلى واسط فملكها، وعمد صمصام الدولة إلى أخيه أبي نصر وكان محبوساً عنده فاطلقه وبعثه إلى أخيه شرف الدولة بواسط يستعطفه به، فلم يلتفت إليه، وجزع صمصام الدولة واستشار أصحابه في طاعة أخيه شرف الدولة فخوفوه عاقبته، وأشار بعضهم بالصعود إلى عكبرا ثم منها إلى الموصل وبلاد الجبل حتى يحدث من أمر الله في فتنة بين الأتراك والديلم أو غير ذلك ما يسهل العود، وأشار بعضهم بمكاتبة عمه فخر الدولة والمسير على طريق أصبهان فيخالف شرف الدولة إلى فارس فربما يقع الصلح على ذلك. فأعرض صمصام الدولة عن ذلك كله وركب البحر إلى أخيه شرف الدولة فتلقاه وأكرمه. ثم قبض عليه لأربع سنين من إمارته، وسار إلى بغداد في شهر رمضان من سنة ست وسبعين فوصلها وأخوه صمصام الدولة في اعتقاله. واستفحل ملكه واستطال الديلم على الأتراك بكثرتهم فإنهم بلغوا خمسة عشر ألفاً، والأتراك ثلاثة آلاف. ثم كثرت المنازعات بينهم وغصَّ الديلم بالأتراك وأرادوا إعاده صمصام الدولة إلى الملك ثم اقتتلوا فغلبهم الديلم وقتلوا منهم وغنموا أموالهم وسار بعضهم فذهب في الأرض، ودخل الآخرون مع شرف الدولة إلى بغداد، وخرج الطائع لتلقيه وهناه وأصلح شرف الدولة بين الفريقين، وبعث صمصام الدولة إلى فارس فاعتقل بها واستوزر شرف الدولة أبا منصور بن صالحان.

ابتداء دولة باد وبني مروان بالموصل

قد تقدم لنا أن عضد الدولة استولى على ملك بني حمدان بالموصل سنة سبع وستين، ثم استولى على ميافارقين وآمد وسائر ديار بكر من أعمالهم، وعلى ديار مضر أيضاً من أعمالهم سنة ثمان وستين وولى عليها أبا الوفاء من قواده، وذهب ملك بني حمدان من هذه النواحي. وكان في ثغور ديار بكر جماعة من الأكراد الحميدية مقدمهم أبو عبد الله الحسين بن دوشتك، ولقبه باد وكان كثير الغزو بتلك البلاد وإخافة سبلها. وقال ابن الأثير: حدثني بعض أصدقائنا من الأكراد الحميدية أن اسمه باد وكنيته أبو شجاع وأن الحسين هو أخوه وأن أول أمره أنه ملك أرجيش من بلاد أرمينية فقوي اه.

ولما ملك عضد الدولة الموصل حضر عنده وهم بقبضه، ثم سأل عنه فافتقده وكف عن طلبه. فلما مات عضد الدولة استفحل أمره واستولى على ميافارقين، وكثير من ديار بكر، ثم على نصيبين. وقال ابن الأثير: سار من أرمينية إلى ديار بكر فملك ثم ميافارقين، وبعث صمصام الدولة إليه العساكر مع أبي سعيد بهرام بن أردشير فهزمهم وأسر جماعة منهم، فبعث عساكر أخرى مع أبي القاسم سعيد بن الحاجب فلقيهم في بلد كواشي وهزمهم، وقتل منهم وأسر، ثم قتل الأسرى صبراً. ونجا سعيد إلى الموصل وباد في أتباعه فثار به أهل الموصل نفوراً من سوء سيرة الديلم فهرب منها ودخل باد وملك الموصل. وحدث نفسه بالمسير إلى صمصام الدولة ببغداد وانتزاع بغداد من يد الديلم واحتفل فيه ولقيهم باد في صفر من سنة أربع وسبعين فهزموه وملكوا الموصل، ولحق باد بديار بكر وجمع عليه عساكر.

وكان بنو سيف الدولة بن حمدان بحلب قد ملكها معهم سعد الدولة ابنه بعد مهلكه، فبعث إليه صمصام الدولة أن يكفيه أمر باد على أن يسلم إليه ديار بكر، فبعث سعد الدولة إليه جيشاً فلم يكن لهم طاقة، وزحفوا إلى حلب فبعث سعد الدولة من اغتاله في مرقده بخيمته من البادية وضربه فاعتل وأشفى على الموت، وبعث إلى سعد وزياد الأميرين بالموصل فصالحهما على أن تكون ديار بكر والنصف من طور عبدين لباد، ورجع زياد إلى بغداد وهو الذي جاء بعساكر الديلم وانهزم باد أمامه. ثم توفي سعد الحاجب بالموصل سنة سبع وسبعين فتجدد لباد الطمع في ملكها، وبعث شرف الدولة على الموصل أبا نصر خواشاذه فدخل الموصل واستمد العساكر والأموال فأبطأت عنه فدعا العرب من بني عقيل وبني نمير وأقطعهم البلاد ليدافعوا عنها.

واستولى باد على طور عبدين وأقام بالجبل، وبعث أخاه في عسكر لقتال العرب فانهزم وقتل. وبينما خواشاذه يتجهز لقتال باد جاءه الجند بموت شرف الدولة. ثم جاء أبو طاهر إبراهيم وأبو عبدالله الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان أميرين على الموصل من قبل بهاء الدولة، وبقيت في ملكهما إلى سنة إحدى وثمانين، فبعث بهاء الدولة عسكراً مع أبي جعفر الحجاج بن هرمز فمكلها، وزحف إليه أبو الرواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل فقاتله وبالغ في مدافعته واستمد بهاء الدولة فبعث إليه الوزير أبا القاسم علي بن أحمد وسار أول سنة اثنتين وثمانين وكتب إلى أبي جعفر بالقبض عليه بسعاية ابن المعلم، وشعر الوزير بذلك فصالح أبا الرواد ورجع ووجد بهاء الدولة قد قبض على ابن المعلم وقتله.

وفاة شرف الدولة وملك بهاء الدولة

ثم توفي شرف الدولة أبو الفوارس شرزيك بن عضد الدولة في جمادى سنة تسع وسبعين لستتين وثمانية أشهر من إمارته ودفن بمشهد علي بعد أن طالت علته بالاستسقاء، وبعث وهو عليل إلى أخيه صمصام الدولة بفارس فشمله، وبعث ابنه أبا علي إلى بلاد فارس ومعه الخزائن والعدد وجملة من الأتراك. وسئل شرف الدولة في العهد فملكه وأبى أن يعهد واستخلف أخاه بهاء الدولة لحفظ الأمور في حياته. فلما مات قعد في المملكة وجاء الطائع للعزاء وخلع عليه للسلطنة فأقر أبا منصور بن صالحان على وزارته، وبعث أبا طاهر إبراهيم وأبا عبد اللّه الحسين ابني ناصر الدولة بن حمدان إلى الموصل، وكان في خدمته شرف الدولة فاستأذنا بهاء الدولة بعد موته في الإصعاد إلى الموصل فأذن لهما. ثم ندم على ما فرط في أمرهما وكتب إلى خواشاذه بمدافعتهما فامتنعا وجاءا ونزلا بظاهر الموصل.

وثار أهل الموصل بالديلم والأتراك وخرجوا إلى بني حمدان، وقاتلوا الديلم فهزموهم، وقتل الديلم كثيراً منهم واعتصم الباقون بدار الإمارة فأخرجوهم على الأمان ولحقوا ببغداد، وملك بنو حمدان الموصل. وكان أبو علي بن شرف الدولة لما انصرف إلى فارس بلغه موت ابنه بالبصرة، فبعث العيال والأموال في البحر إلى أرجان وسار هو إليها. ثم سار إلى شيراز فوافاه بها عمه صمصام الدولة وأخوه أبو طاهر قد أطلقهما الموكلون بهما ومعهما فولاد، وجاؤوا إلى شيراز، واجتمع عليهم الديلم وخرج أبو علي إلى الأتراك فاجتمعوا عليه، وقاتل صمصام الدولة والديلم أياماً. ثم سار إلى نسا فملكها وقتل الديلم بها. ثم سار إلى أرجان وبعث الأتراك إلى شيراز لقتال صمصام الدولة فنهبوا البلد وعادوا إليه بأرجان. ثم بعث بهاء الدولة إلى علي ابن أخيه يستقدمه، واستمال الأتراك سراً فحملوا أبا علي على المسير إليه فسار في جمادى سنة ثمانين فأكرمه ثم قبض عليه وقتله. ثم وقعت الفتنة ببغداد بين الأتراك والديلم واقتتلوا خمسة أيام. ثم راسلهم بهاء الدولة في الصلح فلم يجيبوا وقتلوا رسله فظاهر الأتراك عليهم فغلبوهم، واشتدت شوكة الأتراك من يومئذ وضعف أمر الديلم وصالح بينهم على ذلك وقبض على بعض الديلم وافترقوا.

خروج القادر إلى البطيحة

كان إسحاق بن المقتدر لما توفي ترك ابنه أبا العباس أحمد الذي لقب بالقادر، فجرت بينه وبين أخت له منازعة في ضيعة، ومرض الطائع مرضاً مخوفاً ثم أبلّ فسعت تلك الأخت بأخيها، وأنه طلب الخلافة في مرض الطائع فأنفذ أبا الحسين بن حاجب النعمان في جماعة للقبض عليه، وكان بالحريم الظاهري فغلبهم النساء عليه، وخرج من داره متستراً ثم لحق بالبطيحة ونزل على مهذب الدولة فبالغ في خدمته إلى أن أتاه بشير الخلافة.

فتنة صمصام الدولة

لما تغلب صمصام الدولة على بلاد فارس وجاء أبو علي شرف الدولة إلى عمه بهاء الدولة فقتله كما ذكرنا، سار بهاء الدولة من بغداد إلى خوزستان سنة ثمانين وثلثمائة قاصداً بلاد فارس. واستخلف أبا نصر خواشاذه على بغداد، ولما بلغ خوزستان أتاه نعي أخيه أبي طاهر فجلس للعزاء به. ثم سار إلى أرجان فملكها وأخذ ما فيها من الأموال وكان ألف ألف دينار وثمانية آلاف درهم، وكثيراً من الثياب والجواهر، وشغب الجند لذلك فأطلق تلك الأموال كلها لهم، ثم سارت مقدمته وعليها أبو العلاء بن الفضل إلى النوبندجان، وبها عسكر صمصام الدولة فانهزموا وثبت أبو العلاء بن الفضل في نواحي فارس.

ثم بعث صمصام الدولة عسكره وعليهم فولاد بن مابدان فهزموا أبا العلاء وعاد إلى أرجان، وجاءه صمصام الدولة من شيراز إلى فولاد، ثم وقع الصلح على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ولبهاء الدولة خوزستان وما وراءها من ملك العراق، وأن يكون لكل واحد منهما أقطاع في بلد صاحبه، وتعاقدا على ذلك، ورجع بهاء الدولة إلى بغداد فوجد الفتنة بين أهل السنة والشيعة بجانب بغداد، وقد كثر القتل والنهب والتخريب فأصلح ذلك. وكان قبل سيره إلى خوزستان قبض على وزيره أبي منصور بن صالحان، واستوزر أبا نصر سابور بن أردشير، وكان الحكم والتدبير في دولته لأبي الحسين بن المعلم.

خلع الطائع وبيعة القادر

ثم إن بهاء الدولة قلت عنده الأموال وكثر شغب الجند ومطالباتهم، وقبض على وزيره سابور فلم يغن عنه، وامتدت عيناه إلى أموال الطائع وهمّ بالقبض عليه، وحسّن له ذلك أبو الحسين بن المعلم الغالب على هواه فتقدم إلى الطائع بالجيوش لحضوره في خدمته فجلس وجلس بهاء الدولة على كرسي، ثم جاء بعض الديلم يقبل يد الطائع فجذبه عن سريره وأخرجه،

ونهب قصور الخلافة وفشا النهب في الناس، وحمل الطائع إلى دار بهاء الدولة فأشهد عليه بالخلع سنة إحدى وثمانين لسبع عشرة سنة وثمانية أشهر من خلافته. وأرسل بهاء الدولة خواص أصحابه إلى البطيحة ليحضروا القادر باللّه أبا العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ليبايعوه، فجاؤوا به بعد أن بايع مهذب الدولة صاحب البطيحة في خدمته وسار بهاء الدولة وأعيان الناس لتلقيه فتلقوه وساروا في خدمته، ودخل دار الخلافة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، وخطب له صبيحتها وكانت مدة إقامته بالبطيحة ثلاث سنين غير شهر، ولم يخطب له بخراسان وأقاموا على بيعة الطائع فأنزله بحجرة من قصره، ووكل عليه من يقوم بخدمته على أتم الوجوه، وأجرى أحواله على ما كان عليه في الخلافة إلى أن توفي سنة ثلاث وتسعين فصلى عليه ودفنه.

ملك صمصام الدولة الأهواز وعودها لبهاء الدولة ثم استيلاؤه ثانياً عليها

قد تقدم لنا ما وقع بين بهاء الدولة وصمصام الدولة من الصلح على أن يكون له فارس ولبهاء الدولة خورستان وما وراءها، وذلك سنة ثمان. ولما كانت سنة ثلاث وثمانين تحيل بهاء الدولة فبعث أبا العلاء عبد اللّه بن الفضل إلى الأهواز على أن يبعث إليه الجيوش مفترقة، فإذا اجتمعت كبس بلاد فارس على حين غفلة. وشعر صمصام الدولة بذلك قبل اجتماع العساكر، فبعث عساكره إلى خوزستان، ثم جاءت عساكر العراق والتقوا فانهزم أبو العلاء، وحمل إلى صمصام الدولة أسيراً فاعتقله، وبعث بهاء الدولة وزيره أبا نصر بن سابور إلى واسط يحاول له جمع المال فهرب إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة.

ثم كثر شغب الديلم على بهاء الدولة ونهبوا دار الوزير نصر بن سابور واستعفى واستوزر أبا القاسم علي بن أحمد. ثم هرب وعاد سابور إلى الوزارة وأصلح الديلم، ثم أنفذ بهاء الدولة عسكره إلى الأهواز سنة أربع وثمانين وعليهم طغان التركي، وانتهوا إلى السوس فارتحل عنها أصحاب صمصام الدولة وملكها طغان، وكان أكثر أصحابه الترك وأكثر أصحاب صمصام الدولة الديلم ومعه تميم وأسد، فزحف إلى طغان بالأهواز، وأسرى من تستر ليكبس الأتراك الذين مع طغان فقتل في طريقه وأصبح دونهم بمرأى منهم فركبوا لقتالهم وأكمنوا له ثم قاتلوه فهزموه وفتكوا في الديلم بالقتل حرباً وصبراً.

وجاء الخبر إلى بهاء الدولة بواسط فسار إلى الأهواز فترك بها طغان، ورجع ولحق صمصام الدولة بفارس فاستلحم من وجد بها من الأتراك وهرب فلهم إلى كرمان، واستأذنوا ملك السند في اللحاق بأرضه فأذن لهم، ثم ركب لتلقيهم فقتلهم عن آخرهم. ثم جهز صمصام الدولة عساكره إلى الأهواز مع العلاء بن الحسين وكان أفتكين برامهرمز من قبل بهاء الدولة مكان أبي كاليجار المرزبان بن سفهيعون وجاء بهاء الدولة إلى خوزستان للعلاء قائد صمصام الدولة، وكاتبه وكاتب أفتكين وابن مكرم إلى أن قرب منهم، وملك البلد من أيديهم وأقاموا بظاهرها، واستمدوا بهاء الدولة فأمدهم بثمانين من الأتراك فقتلوهم عن آخرهم، وسار بهاء الدولة نحو الأهواز، ثم عاد إلى البصرة وعاد ابن مكرم إلى عسكر مكرم والعلاء والديلم في اتباعه إلى أن جاوزوا تستر إليه فاقتتلوا طويلاً وأصحاب بهاء الدولة من تستر إلى رامهرمز وهم الأتراك وأصحاب صمصام لدولة من تستر إلى أرجان فاقتتلوا ستة أشهر ورجعوا إلى الأهواز ثم رحل الأتراك إلى واسط واتبعهم العلاء قليلاً ثم رجع وأقام بعسكر مكرم.

ملك صمصام الدولة البصرة

لما رحل بهاء الدولة إلى البصرة استأمن كثير من الديلم الذين معه إلى العلاء نحو من أربعمائة، فبعثهم مع قائده السكرستان إلى البصرة وقاتلوا أصحاب بهاء الدولة، ومال إليهم أهل البلد ومقدمهم أبو الحسن بن أبي جعفر العلوي وارتاب بهم بهاء الدولة فهرب الكثير منهم إلى السكرستان وحملوه في السفن فأدخلوه البصرة. وخرج بهاء الدولة وأصحابه فكتب إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة يغريه بالبصرة، فبعث إليها جيشاً مع قائده عبد اللّه بن مرزوق فغلب عليها السكرستان، وملكها لمهذب الدولة، ثم عاد السكرستان وقاتلها وكاتب مهذب الدولة بالصلح والطاعة والخطبة له بالبصرة، وأعطى ابنه رهينة على ذلك، فأجابه وملك البصرة وعسف بهم، وكان يظهر طاعة صمصام الدولة وبهاء الدولة ومهذب الدولة.

ثم إن العلاء ابن الحسن نائب صمصام الدولة بخوزستان توفي بعسكر مكرم فبعث مكانه أبا علي إسماعيل بن أستاذ هرمز وسار إلى جنديسابور فدفع عنها أصحاب بهاء الدولة وأزاح الأتراك عن ثغر خراسان جملة وعادوا إلى واسط وكاتب جماعة منهم ففزعوا إليه، ثم زحف إليهم أبو محمد مكرم والأتراك وجرت بينهم وقائع، ثم انتفض أبا علي إسماعيل بن أستاذ هرمز ورجع إلى طاعة بهاء الدولة وهو بواسط سنة ثمان وثمانين

فاستوزره ودبر أمره واستدعاه إلى مظاهرة قائده ابن مكرم بعسكر مكرم فسار إليه وكانت من إسماعيل خديعة تورط فيها بهاء الدولة واستمد بدر بن حسنويه فأمده بعض الشيء وكاد يهلك، ثم جاءه الفرج بقتل صمصام الدولة.

مقتل صمصام الدولة

كان صمصام الدولة بن عضد الدولة مستولياً على فارس كما ذكرناه، وكان أبو القاسم وأبو نصر ابنا بختيار محبوسين ببعض قلاع فارس، فجرد الموكلين بهما في القلعة وأخرجوا عنها واجتمع إليهما من الأكراد وكان جماعة من الديلم استوحشوا من صمصام الدولة لما أسقطهم من الديوان، فلحقوا بابني بختيار وقصدوا أرجان وتجهز صمصام الدولة إليهم وكان أبو علي بن أستاذ هرمز مقيماً بنسا فثاره به الجند وحبسه ابنا بختيار ثم نجا. وقصد صمصام الدولة القلعة التي على شيراز ليتمنع فيها إلى أن يأتيه المدد، فلم يمكنه أن يأتيها من ذلك، وأشار عليه باللحاق بأبي علي بن أستاذ هرمز أو بالأكراد، وجاءته منهم طائفة فخرج معهم بأمواله فنهبوه وسار بعض الرودمان على مرحلتين من شيراز. وجاء أبو النصر بن بختيار إلى شيراز فقبض صاحب الرودمان على صمصام الدولة، وأخذه منه أبو نصر وقتله في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين لتسع سنين من إمارته على فارس.

استيلاء بهاء الدولة على فارس

ولما قتل صمصام الدولة وملك ابنا بختيار بلاد فارس، كتبا إلى أبي علي بن أستاذ هرمز في الأهواز بأخذ الطاعة لهما من الديلم، ومحاربة بهاء الدولة فخافهما أبو علي بما كان من قتله أخويهما، وأغرى الديلم بطاعة بهاء الدولة. وراسله واستحلفه لهم فحلف وضمن لهم غائلة الأتراك الذين معه، وأغراهم بثأر أخيه من ابني بختيار فدخلوا في طاعته، وجاءه وفد من أعيانهم فاستوثقوا منه وكتبوا إلى من كان بالسوس منهم بذلك. وركب بهاء الدولة إلى نائب السوس فقاتلوه أولاً ثم اجتمعوا عليه وساروا إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز وأرجان، وملكوا سائر بلاد خوزستان. وسار أبو علي بن إسماعيل إلى شيراز وقاتلهما وتسرب إليه أصحاب ابني بختيار فاستولى على شيراز سنة تسع وثمانين، ولحق أبو نصر بن بختيار ببلاد الديلم وأبو القاسم ببدر بن حسنويه، ثم بالبطيحة، وكتب أبو علي إلى بهاء الدولة بالفتح فجاءه وترك شيراز وأحرق قرية الرودمان حيث قتل أخوه صمصام الدولة، واستأصل أهلها وبعث عسكراً مع أبي الفتح إلى جعفر بن أستاذ هرمز إلى كرمان فملكها.

ولما لحق أبو القاسم بن بختيار ببلاد الديلم، كاتب من هنالك الديلم الذين بكرمان وفارس تسلمهم فأجابوه وسار إلى بلاد فارس، واجتمع عليه كثير من الزط والديلم والأتراك. ثم سار إلى كرمان وبها أبو جعفر بن أستاذ هرمز فهزمه إلى السرجان، ومضى ابن بختيار إلى جيرفت فملكها وأكثر كرمان، وبعث بهاء الدولة الموفق بن علي بن إسماعيل في العساكر إلى جيرفت فاستأمن إليه ما كان بها من أصحاب بختيار، وملكها وتجرد في جماعة من شجعان أصحابه لاتباع ابن بختيار فلحقه بدارين، وقاتله فغدر به بعض أصحابه فقتله وحمل رأسه إلى الموفق، واستولى على بلاد كرمان وإسماعيل عليها، وعاد إلى بهاء الدولة فتلقاه وعظمه واستعفى الموفق من الخدمة فلم يعفه، ولج الموفق في ذلك فقبض عليه بهاء الدولة، وكتب إلى وزيره سابور بالقبض على ذويه، ثم قتله سنة أربع وتسعين واستعمل بهاء الدولة أبا محمد مكرماً على عُمان.

الخبر عن وزراء بهاء الدولة

قد ذكرنا أن بهاء الدولة كان استوزر أبا نصر بن سابور بن أردشير ببغداد وقبض على وزيره أبي منصور بن صالحان قبل مسيره إلى خوزستان، وأن أبا الحسن بن المعلم كان يدبر دولته وذلك منذ سنة ثمانين، فاستولى ابن المعلم على الأمور وانصرفت إليه الوجوه، فأساء السيرة وسعى في أبي نصر خواشاده وأبي عبد اللّه بن طاهر فقبضهما بهاء الدولة مرجعه من خوزستان، وشغب الجند وطلبوا تسليمه إليهم، ولاطفهم فلم يرجعوا فقبض عليه وسلمه إليهم فقتلوه وذلك سنة اثنتين وثمانين. ثم قبض على وزيره أبي نصر بالأهواز سنة إحدى وثمانين، واستوزر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، ثم استوزر بعده أبا القاسم علي بن أحمد وقبض عليه سنة اثنتين وثمانين لاتهامه بمداخلة الجند في أمر ابن المعلم، واستوزر أبا نصر بن سابور وأبا منصور بن صالحان جميعاً. وشغب الجند على أبي نصر ونهبوا داره سنة ثلاث وثمانين فاستعفى رفيقه ابن صالحان فاستوزر أبا القاسم علي بن أحمد، ثم هرب وعاد أبو نصر إلى الوزارة بعد أن أصلح أمور الديلم فاستوزر مكانه الفاضل، وقبض عليه سنة ست وثمانين واستوزر أبا نصر سابور بن أردشير فبقي شهرين، وفرق أموال بهاء الدولة في القواد ثم هرب إلى البطيحة فاستوزر بهاء الدولة مكانه عيسى

بن ماسرجس.

ولاية العراق

كان بهاء الدولة منذ استولى على فارس سنة تسع وثمانين أقام بها وولى على خوزستان والعراق أبا جعفر الحجاج بن هرمز فنزل بغداد ولقبه عميد الدولة فساءت سيرته وفسدت أموال البلاد وعظمت الفتنة ببغداد بين الشيعة وأهل السنة وتطاول الدعار والعيارون فعزله بهاء الدولة سنة تسعين، وولى مكانه أبا علي الحسن بن أستاذ هرمز، ولقبه عميد الجيوش فأحسن السيرة وحسم الفتنة، وحمل إلى بهاء الدولة أموالا جليلة. ثم ولى مكانه سنة إحدى وتسعين أبا نصر سابور، وثار به الأتراك ببغداد فهرب منهم ووقعت الفتنة بين أهل الكرخ والأتراك، وكان أهل السنة مع الأتراك ثم مشى الأعلام بينهم في الصلح فتهادنوا.

انقراض دول وابتداء أخرى في النواحي

وفي سنة ثمانين ابتدأت دولة بني مروان بديار بكر بعد مقتل خالهم باد، وقد مر ذكره. وفي سنة اثنتين وثمانين انقرضت دولة بني حمدان بالموصل وابتدئت دولة بني المسيب من عقيب كما نذكرها. وفي سنة أربع وثمانين انقرضت دولة بني سامان من خراسان وابتدئت دولة بني سبكتكين فيها. وفي سنة تسع وثمانين انقرضت دولة بني سامان مما وراء النهر وانقسمت بنو سبكتكين وملك الخاقان ملك الترك. وفي سنة ثمان وثمانين ابتدأت دولة بني حسنويه الأكراد بخراسان. وفي سنة تسع وتسعين كان ابتداء دولة بني صالح بن مرداس من بني كلاب بحلب كما نستوفي سياقة أخبارهم في دولهم منفردة كما شرطناه.

ظهور بني مزيد

وفي سنة سبع وثمانين خرج أبو الحسن علي بن مزيد في قومه بني أسد ونقض طاعة بهاء الدولة، فبعث إليه العساكر فهرب أمامهم وأبعد حتى امتنع عليهم. ثم بعث في الصلح والاستقامة وراجع الطاعة، ثم رجع إلى انتقاضه سنة اثنتين وتسعين، واجتمع مع قرواش بن المقلد صاحب الموصل وقومه بني عقيل فحاصروا المدائن. ثم بعث إليهم أبو جعفر الحجاج وهو نائب بغداد العساكر فدفعوهم عنها، وخرج الحجاج واستنجد خفاجة فجاء من الشام وقاتل بني عقيل وبني أسد فهزموه، ثم خرج إليهم ولقيهم بنواحي الكوفة فهزمهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر، واستباح ملك بني مزيد وظهر في بغداد في مغيب أبي جعفر من الفتنة والفساد والقتل والنهب مالا يحصى فكان ذلك السبب في أن بعث بهاء الدولة أبا علي بن جعفر أستاذ هرمز كما مر. ولقبه عميد الجيوش فسكن الفتنة وأمن الناس.

ولما عزل أبو جعفر أقام بنواحي الكوفة وارتاب به أبو علي فجمع الديلم والأتراك وخفاجة، وسار إليه واقتتلوا بالنعمانية وذلك سنة ثلاث وتسعين، فانهزم أبو جعفر وسار أبو علي إلى خوزستان، ثم إلى السوس، فعاد أبو جعفر إلى الكوفة ورجع أبو علي في اتباعه فلم تزل الفتنة بينهما، وكل واحد منهما يستنجد ببني عقيل وبني أسد وخفاجة، حتى أرسل بهاء الدولة عن أبي علي وبعثه إلى البطيحة لفتنة بني واصل كما نذكره في دولتهم.

ولما كانت سنة سبع وتسعين جمع أبو جعفر وسار لحصار بغداد وأمده ابن حسنويه أمير الأكراد، وذلك أن عميد الجيوش ولى على طريق خراسان أبا الفضل بن عنان، وكان عدوّ البدر بن حسنويه فارتاب لذلك، واستدعى أبا جعفر وجمع له جموعاً من أمراء الأكراد منهم هندي بن سعد وأبو عيسى شادي بن محمد، ورزام بن محمد وكان أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي انصرف عن بهاء الدولة مغاضباً له، فسار معهم وكانوا عشرة آلاف وحاصروا بغداد وبها أبو الفتح بن عنان شهراً. ثم جاءهم الخبر بانهزام ابن واصل بالبطيحة الذي سار عميد الجيوش إليه فافترقوا، وعاد ابن مزيد إلى بلده وسار أبو جعفر إلى حلوان وأرسل بهاء الدولة في الطاعة عنده بتستر فأعرض عنه رغباً لعميد الجيوش.

فتنة بني مزيد وبني دبيس

كان أبو الغنائم محمد بن مزيد مقيماً عند أصهاره بني دبيس في جزيرتهم بخوزستان، فقتل أبو الغنائم بعض رجالاتهم ولحق بأخيه أبي الحسن، فانحدر أبو الحسن إليهم في ألفي فارس، واستمد عميد الجيوش فأمده بعسكر من الديلم ولقيهم فانهزم أبو الحسن، وقتل أخوه أبو الغنائم.

ظهور دعوة العلوية بالكوفة والموصل

وفي أول المائة الخامسة خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل لصاحب مصر الحاكم العلوي في جميع أعماله: وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، فبعث القادر القاضي أبا بكر الباقلاني

إلى بهاء الدولة يعرّفه فاكرمه، وكتب إلى عميد الجيوش بمحاورة قرواش، وأطلق لـه مائة ألـف دينار يستعين بهـا، وسـار عميد الجيوش لذلك فراجع قرواش الطاعة وقطع خطبة العلويين، وكان ذلك داعياً في كتابه المحضر بالطعن في نسب العلويـة بمصر، شهد فيه الرضي والمرتضى وابن البطحاوي وابن الأزرق والزكـي وأبـو يعلى عمر بن محمد، ومن العلمـاء والقضـاة ابـن الأكفـاني وابـن الجزري وأبو العباس الأبيوردي وأبو حامد الأسفرايني والكستلي والقـدوري والصهـيري وأبـو عبـد اللّـه البيضـاوي وأبـو الفضـل النسوي وأبو عبد اللّه النعمان فقيه الشيعة. ثم كتب ببغداد محضر آخر بمثل ذلك سنة أربع وأربعين وزيد فيه انتسابهم إلى الديصانيـة من المجوس وبنو القداح من اليهود، وكتب فيه العلويـة والعباسية والفقهاء والقضاة وعملت به نسخ وبعث بها إلى البلاد.

وفاة عميد الجيوش وولاية فخر الملك

كان عميد الجيوش أبو علـي بـن أبـي جعفـر أستاذ هرمـز وكان أبو جعفر هذا من حجاب عضد الدولة، وجعل ابنه أبا علي في خدمة ابن صمصـام الدولـة، فلمـا قتـل رجـع إلى خدمـة بهـاء الدولة، ولما استولى الخراب على بغداد وظهر العيـارون بعثـه بهـاء الدولـة عليهـا فأصلحهـا وقمـع المفسـدين، ومـات لثمـان سـنين ونصف من ولايته إلى أول المائة الخامسة. وولى بهاء الدولة مكانـه بالعراق فخر الملك أبـا غـالب، فوصـل بغـداد وأحسـن السياسـة واستقامت الأمور به. واتفق لأول قدومه وفاة أبي الفتح محمد بـن عنان صاحب طريق خراسـان بحلـوان لعشـرين سـنة مـن إمارتـه، وكان كثير الأجلاب على بغداد. فلما توفي ولّي ابنـه أبـو الشـوك وقام مقامه فبعث فخر الملك العساكر لقتاله فهزموه إلى حلوان. ثم راجع الطاعة وأصلح حاله.

مقتل فخر الملك وولاية ابن سهلان

كان فخر الملك أبو غالب من أعظم وزراء بـني بويـه، وولى نيابة بغداد لسلطان الدولة خمس سـنين وأربعـة أشـهر. ثـم قبـض عليه وقتله في ربيع سـنة سـت وأربعمائـة، وولى مكانـه أبـا محمـد الحسن بن سهلان ولقبه عميد أصحاب الجيوش، وسار سنة تسـع إلى بغداد وجرد من الطريق مع طراد بن دبيس الأسـدي في طلـب مهارش ومضر ابني دبيس، وكان مضر قد قبض عليـه قديمـاً بـأمر فخر الملك، فأراد أن يأخذ جزيـرة بـني أسـد منـه ويوليهـا طـراداً، فساروا عن المدار واتبعهم ولحق الحسن بن دبيس آخرهم فأوقع به

واستباحه. ثم استأمن له مضر ومهـارش فأمنهمـا وأشـرك معهمـا طراداً في الجزيرة، ورجع وأنكر عليه سلطان الدولة فعله، ووصـل إلى واسط والفتنة قائمة فأصلحها، ثم بلغـه اشـتداد الفـتن ببغـداد فسار وأصلحها وكان أمر الديلم قد ضعـف ببغـداد وخرجـوا إلى واسط.

الفتنة بين سلطان الدولة وأخيه أبي الفوارس

قد ذكرنا أن سلطان الدولة لما ملك بعـد أبيـه بهـاء الدولـة ولّى أخاه أبا الفوارس على كرمان، فلمـا سـار إليهـا اجتمـع إليـه الديلم وحملوه على الانتقاض وانتزاع الملك مـن يـد أخيـه، فسـار سنة ثمان إلى شيراز. ثم سـار منهـا ولقيـه سـلطان الدولـة فهزمـه وعاد إلى كرمان، واتبعه سلطان الدولة فخـرج هاربـاً مـن كرمـان، ولحق محمود بن سبكتكين مستنجداً بـه فاكرمـه وأمـده بالعسـاكر، وعليهـم أبـو سـعيد الطـائي مـن أعيـان قـواده، فسـار إلى كرمـان وملكها، ثم إلى شيراز كذلك، وعاد سلطان الدولـة لحربـه فهزمـه وأخرجـه مـن بـلاد فـارس إلى كرمـان، وبعـث الجيـوش في أثـره فانتزعوا كرمان منه، ولحق بشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويـه صاحب همذان، وترك ابن سبكتكين لأنه أساء معاملة قـائده أبـي سعيد الطائي. ثم فارق شمس الدولة إلى مهذب الدولـة صـاحب البطيحة فاكرمه، وبعث إليه أخوه جلال الدولة مـن البصـرة مـالاً وثياباً وعرض عليه المسير إليه فأبى وأرسل أخاه سلطان الدولة في المراجعة وأعاده إلى ولاية كرمان، وقبض سلطان الدولة سنة تسـع على وزير بن فانجس وإخوته، وولّى مكانه أبا غـالب الحسـن بـن منصور.

خروج الترك من الصين

وفي سنة ثمان وأربعين خرجت من المفازة التي بـين الصـين وما وراء النهر أمم عظيمة مـن الـترك تزيـد علـى ثلاثمائـة ألـف خيمة ويسـمون الخيمـة جذكـان، ويتخذونهـا مـن الجلـود. وكـان معظمهم من الخطا قد ظهروا في ملـك تركسـتان، فمـرض ملكهـا طغان فساروا إليها وعاثوا فيها، ثم أبـل طغـان واستنفر المسلمين من جميع النواحي وسار إليهم في مائة وعشرين ألفاً فهزمـوا أمامـه واتبعهم مسيرة ثلاثة أشهر، ثم كبسهم فقتل منهم نحواً مـن مـائتي الف وأسر مائة ألف، وغنم من الدواب والبيوت وأواني الذهـب

والفضة من معمول الصين ما لا يعبر عنه.

ملك مشرف الدولة وغلبه على سلطان الدولة

لم يزل سلطان الدولة ثابت القدم في ملكه بالعراق إلى سنة إحدى عشرة وأربعمائة فشغب عليه الجند ونادوا بشعار أخيه مشرف الدولة فأشير عليه بحبسه فعف عن ذلك وأراد الانحدار إلى واسط فطلبه الجند في الاستخلاف فاستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق، وسار إلى الأهواز، فلما بلغ تستر استوزر سهلان، وقد كان اتفق مع أخيه مشرف الدولة الوزير ابن سهلان أن لا يستوزره، فاستوحش لذلك مشرف الدولة، وبعث سلطان الدولة الوزير ابن سهلان ليخرجه من العراق فجمع أتراك واسط وأبا الأغرديس بن علي بن مزيد، ولقي ابن سهلان عند واسط فهزمه وحاصره بها حتى اشتد حصاره، وجهده الحصار فصالحه ونزل عن واسط فملكها في ذي الحجة من سنة إحدى عشرة.

وسار الديلم الذين بواسط في خدمته، وسار أخوه جلال الدولة أبو طاهر صاحب البصرة إلى وفاقه وخطب له ببغداد، وقبض على ابن سهلان وكحله، وسار سلطان الدولة إلى أرجان ثم رجع إلى الأهواز وثار عليه الأتراك الذين هنالك، ودعوا بشعار مشرف الدولة، وخرجوا إلى السابلة فأفسدوها، وعاد مشرف الدولة إلى بغداد فخطب له بها سنة اثنتي عشرة، وطلب منه الديلم أن ينحدروا إلى بيوتهم بخوزستان فبعث معهم وزيره أبا غالب، فلما وصلوا إلى الأهواز انتفضوا ونادوا بشعار سلطان الدولة، وقتلوا أبا غالب لسنة ونصف من وزارته. ولحق الأتراك الذين كانوا معه طراد بن دبيس بالجزيرة، وبلغ سلطان الدولة قتل أبي غالب وافتراق الديلم فأنفذ ابنه أبا كاليجار إلى الأهواز وملكها. ثم وقع الصلح بينهما على يد أبي محمد بن أبي مكرم ومؤيد الملك الرخجي على أن تكون العراق لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة.

واستوزر مشرف الدولة أبا الحسين بن الحسن الرخجي ولقبه مؤيد الملك بعد قتل أبي غالب ومصادرة ابنه أبي العباس. ثم قبض عليه سنة أربع عشرة بعد حول من وزارته بسعاية الأثير الخادم فيه واستوزر مكانه أبا القاسم الحسين بن علي بن الحسين المغربي، كان أبوه من أصحاب سيف الدولة بن حمدان، وهرب إلى مصر وخدم الحاكم فقتله وهرب ابنه أبو القاسم هذا إلى الشام، وحمل حسان بن الفرج بن الجراح الطائي على نقض طاعة الحاكم والبيعة لأبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي أمير مكة، فاستقدمه إلى الرملة وبايعه. ثم خلفه وعاد إلى مكة وقصد أبو القاسم العراق، واتصل بالوزير فخر الملك وأمره القادر بإبعاده، فلحق قرواش أمير الموصل، وكتب له ثم عاد إلى العراق وتنقلت به الحال إلى أن وزر بعد مؤيد الملك الرخجي، وكان خبيثاً محتالاً حسوداً. ثم قدم مشرف الدولة إلى بغداد سنة أربع عشرة ولقيه القادر ولم يلق أحداً قبله.

الخبر عن وحشة الأكراد وفتنة الكوفة

كان الأثير عنبر الخادم مستولياً في دولة مشرف الدولة الوزير أبي القاسم المغربي عديله في حملها فنقم الأتراك عليهما، وطلب من مشرف الدولة الخراج من بغداد خوفاً على أنفسهما، فخرج معهما غضباً على الأتراك، ونزلوا على قرواش بالسندية. واستعظم الأتراك ذلك، وبعثوا بالاعتذار والرغبة. وقال أبو القاسم المغربي: دَخْل بغداد إنما هو أربعمائة ألف وخرجها ستمائة فاتركوا مائة واحتمل مائة فأجابوه إلى ذلك خداعاً. وشعر بوصولهم فهرب لعشرة أشهر من وزارته.

ثم كانت فتنة بالكوفة بين العلوية والعباسية، وكان لأبي القاسم المغربي صهر وصداقة في العلوية فاستدعى العباسيون المغربي عليهم فلم يعدهم لمكان المغربي. وأمرهم بالصلح فرجعوا إلى الكوفة، واستمد كل واحد منهم خفاجة فأمدوهم وافترقوا عليهم، واقتتل العلوية والعباسية فغلبهم العلوية ولحقوا ببغداد، ومنعوا الخطبة يوم الجمعة، وقتلوا بعض قرابة العلوية الذين بالكوفة، فعهد القادر للمرتضى أن يصرف أبا الحسن علي بن أبي طالب ابن عمر عن نقابة الكوفة. ويردها إلى المختار صاحب العباسية. وبلغ ذلك المغربي عند قرواش بسُرَّ مَنْ رأى فشرع في إرغام القادر. وبعث القادر إلى قرواش يطرده فلحق بابن مروان في ديار بكر.

وفاة مشرف الدولة وولاية أخيه جلال الدولة

ثم توفي مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة سنة ست عشرة في ربيع لخمس سنين من ملكه، وولي مكانه بالعراق أخوه أبو طاهر جلال الدولة صاحب البصرة، وخطب له ببغداد، واستقدم فبلغ واسط ثم عاد إلى البصرة فقطعت خطبته، وخطب

ببغداد في شوال لابن أخيه أبي كاليجار بن سلطان الدولة، وهو بخوزستان يحارب عمه أبا الفوارس صاحب كرمان. وسمع جلال الدولة بذلك فبادر إلى بغداد ومعه وزيره أبو سعد بن ماكولا. ولقيه عسكرها فردوه أقبح رد ونهبوا خزائنه فعاد إلى البصرة، واستحثوا أبا كاليجار فتباطأ لشغله بحرب عمه، وسار إلى كرمان لقتال عمه فملكها واعتصم عمه بالجبال. ثم تراسلا واصطلحا على أن تبقى كرمان لأبي الفوارس وتكون بلاد فارس لأبي كاليجار.

قدوم جلال الدولة إلى بغداد

ولما رأى الأتراك اختلال الأحوال وضعف الدولة بفتنة العامة وتسلط العرب والأكراد بحصار بغداد، وطمعهم فيها وأنهم بقوا فوضى، وندموا على ما كان منهم في رد جلال الدولة، اجتمعوا إلى الخليفة يرغبون اليه أن يحضر جلال الدولة من البصرة ليقيم أمر الدولة فبعث إليه القاضي أبا جعفر السمناني بالعهد عليه وعلى القواد فسار جلال الدولة إلى بغداد في جمادى من سنة ثمان عشرة. وركب الخليفة في الطيار لتلقيه فدخل ونزل التجيبي وأمر بضرب الطبل في أوقات الصلوات. ومنعه الخليفة من ذلك فقطعه مغاضباً. ثم أذن له الخليفة فيه فأعاده، وأرسل مؤيد الملك أبا علي الرخجي إلى الأثير عنبر الخادم عند قرواش يستدعيه يعتذر عن الأتراك، ثم شغب الأتراك عليه سنة تسع عشرة وحاصروه بداره وطلبوا من الوزير أبي علي بن ماكولا أرزاقهم، ونهبوا دوره ودور الكتاب والحواشي. وبعث القادر من أصلح بينهم وبينه فسكن شغبهم. ثم خالفوا أبا كاليجار بن سلطان الدولة إلى البصرة فملكها، ثم ملك كرمان بعد وفاة صاحبها قوام الدولة أبي الفوارس ابن بهاء الدولة كما نذكر في أخبارهم في دولتهم عند إفرادها بالذكر فنستوفي أخبارهم ودول سائر بني بويه وبني وشمكير وبني المرزبان وغيرهم من الديلم في النواحي.

مسير جلال الدولة إلى الأهواز

كان نور الدولة دبيس بن علي بن مزيد صاحب الحلة، ولم تكن الحلة يومئذ بمدينة، قد خطب لأبي كاليجار لمضايقة المقلد بن أبي الأغر الحسن بن مزيد وجمع عليه منيعاً أمير بني خفاجة وعساكر بغداد، فخطب هو لأبي كاليجار واستدعاه للملك واسط وبها الملك العزيز ابن جلال الدولة فلحق بالنعمانية وتركها، وضيق عليه نور الدولة من كل جهة فتفرق ناس من أصحابه وهلك الكثير من أثقاله واستولى أبو كاليجار على واسط ثم خطب له في البطيحة وأرسل إلى قرواش صاحب الموصل وعنده الأثير عنبر يستدعيهما إلى بغداد، فانحدر عنبر إلى الكحيل ومات به. وقعد قرواش وجمع جلال الدولة عساكره ببغداد، واستمد أبا الشوك وغيره، وانحدر إلى واسط وأقام هنالك من غير قتال، وضاقت عليه الأحوال. واعتزم أبو كاليجار على مخالفته إلى بغداد، وجاءه كتاب أبي الشوك بزحف عساكر محمود بن سبكتكين إلى العراق، ويشير بالصلح والاجتماع لمدافعتهم، فأنفذ أبو كاليجار الكتاب لجلال الدولة فلم ينته عن قصده، ودخل الأهواز فنهبها، وأخذ من دار الإمارة مائتي ألف دينار، واستباح العرب والأكراد سائر البلد وحمل حريم كاليجار إلى بغداد سبياً فماتت أمه في الطريق.

وسار أبو كاليجار لاعتراض جلال الدولة وتخلف عنه دبيس لدفع خفاجة عن أصحابه، واقتتلوا في ربيع سنة إحدى وعشرين ثلاثة أيام فانهزم أبو كاليجار، وقتل من أصحابه ألفان. ودبيس لما فارق أبا كاليجار وصل إلى بلده وجمع إليه جماعة من قومه، وكانوا منتقضين عليه بالجامعين فأوقع بهم وحبس منهم وردهم إلى وفاقه. ثم لقي المقلد بن أبي الأغر وعساكر جلال الدولة فانهزم أمامهم وأسر جماعة من أصحابه، وسار منهزماً إلى أبي سنان غريب بن مكين فأصلح حاله مع جلال الدولة وأعاده إلى ولايته على ضمان عشرة آلاف دينار، وسمع بذلك المقلد فجمع خفاجة ونهبوا النيل وسورا وأحرقوا منازلها. ثم عبر المقلد إلى أبي الشوك فأصلح أمره مع جلال الدولة، ثم بعث جلال الدولة سنة إحدى وعشرين عسكره إلى المدار فملكها من يد أصحاب أبي كاليجار واستباحوها، وبعث أبو كاليجار عسكره لمدافعتهم فهزموهم وثار أهل البلد بهم فقتلوهم، ولحق من نجا منهم بواسط وعادت المدار إلى أبي كاليجار.

استيلاء جلال الدولة على البصرة ثانياً وانتزاعها منه

لما استولى جلال الدولة على واسط نزل بها ولده وبعث وزيره أبا علي بن ماكولا إلى البطائح فملكها. ثم بعثه إلى البصرة وبها أبو منصور بختيار بن علي من قبل أبي كاليجار، فسار في السفن وعليهم أبو عبد الله الشرابي صاحب البطيحة فلقي بختيار وهزمه. ثم سار الوزير أبو علي في أثره في السفن فهزمه بختيار. وسيق إليه أسيراً فأكرمه وبعثه إلى أبي كاليجار فأقام عنده، وقتله

غلمانه خوفاً منه لقبيح منهم اطلع عليه. وكان قد أحدث في ولايته رسوماً جائرة ومكوساً فاضحة. ولما أصيب الوزير أبو علي بعث جلال الدولة من كان عنده من جند البصرة فقاتلوا عسكر أبي كاليجار، وهزموهم وملكوا البصرة ونجا من كان بها إلى أبي منصور بختيار بالأبلة. وبعث السفن لقتاله من البصرة فظفر بهم أصحاب جلال الدولة فسار بختيار بنفسه وقاتلهم، وانهزم وقتل وأخذ كثير من السفهاء.

وعزم الأتراك بالبصرة على المسير إلى الأبلة وطلبوا المال من العامل فاختلفوا وتنازعوا وافترقوا، ورجع صاحب البطيحة، واستأمن آخرون إلى أبي الفرج بن مسافجس وزير أبي كاليجار، وجاء إلى البصرة فملكها. ثم توفي بختيار نائب الملك أبي كاليجار في البصرة، وقام بعده صهره أبو القاسم بطاعة أبي كاليجار في البصرة. ثم استوحش وانتقض وبعث بالطاعة لجلال الدولة وخطب له، وبعث إلى ابنه العزيز بواسط يستدعيه فسار إليه وأخرج عساكر أبي كاليجار وأقام معه إلى سنة خمس وعشرين والحكم لأبي القاسم. ثم أغراه الديلم به وأنه يتغلب عليه، فأخرجه العزيز وامتنع بالأبلة وحاربهم أياماً، وأخرج العزيز عن البصرة، ولحق بواسط وعاد أبو القاسم إلى طاعة أبي كاليجار.

وفاة القادر ونصب القائم

ثم توفي القادر بالله سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة لإحدى وعشرين سنة وأربعة أشهر من خلافته، وكانت الخلافة قبلها قد ذهب رونقها بجسارة الديلم والأتراك عليها، فأعاد إليها أبهتها وجدد ناموسها، وكان له في قلوب الناس هيبة. ولما توفي نصب للخلافة ابنه أبو جعفر عبد الله، وقد كان أبوه بايع له بالعهد في السنة قبلها لمرض طرقه وأرجف الناس بموته، فبويع الآن واستقرت له الخلافة ولقب القائم بأمر الله. وأول من بايعه الشريف المرتضى. وبعث القاضي أبا الحسن الماوردي إلى أبي كاليجار ليأخذ عليه البيعة ويخطب له في بلاده، فأجاب وبعث بالهدايا. ووقعت لأول بيعته فتنة بين أهل السنة والشيعة، وعظم الهرج والنهب والقتل وخربت فيها أسواق وقتل كثير من جباة المكوس. وأصيب أهل الكرخ وتطرق الدعار إلى كبس المنازل ليلاً، وتنادى الجند بكراهية جلال الدولة وقطع خطبته. ولم يجبهم القائم إلى ذلك وفرق جلال الدولة فيهم الأموال فسكنوا، وقعد في بيته وأخرج دوابه من الأصطبل وأطلقها بغير سائس ولا حافظ لقلة العلف. وطلب الأتراك منه أن يحملهم في كل وقت فأطلقها،

وكانت خمسة عشر وفقد الجاري فطرد الطواشي والحواشي والأتباع وأغلق باب داره والفتنة تتزايد إلى آخر السنة.

وثوب الجند بجلال الدولة وخروجه من بغداد

ثم جاء الأتراك سنة ست وعشرين إلى جلال الدولة فنهبوا داره وكتبه ودواوينه وطلبوا الوزير أبا إسحاق السهيلي فهرب إلى حلة غريب بن مكين، وخرج جلال الدولة إلى عكبرا وخطبوا ببغداد لأبي كاليجار وهو بالأهواز واستقدموه فأشار عليه بعض أصحابه بالامتناع فاعتذر إليهم فأعادوا لجلال الدولة. وساروا إليه معتذرين وأعادوه بعد ثلاثة وأربعين يوماً واستوزر أبا القاسم بن ماكولا، ثم عزله واستوزر عميد الملك أبا سعيد عبد الرحيم. ثم أمره بمصادرة أبي المعمر بن الحسين البساسيري فاعتقله في داره، وجاء الأتراك لمنعه فضربوا الوزير ومزقوا ثيابه وأدموه. وركب جلال الدولة فأطفأ الفتنة وأخذ من البساسيري ألف دينار وأطلقه، واختفى الوزير.

ثم شغب الجند ثانياً في رمضان وأنكروا تقديم الوزير أبي القاسم من غير علمهم وأنه يرد التعرض لأموالهم فوثبوا به ونهبوا داره وأخرجوه إلى مسجد هنالك فوكلوا به فوثب العامة مع بعض القواد من أصحابه فأطلقوه وأعادوه إلى داره. وذهب هو في الليل إلى الكرخ بحرمه ووزيره أبو القاسم معه. واختلف الجند في أمره وأرسلوا إليه بأن يملكوا بعض أولاده الأصاغر، وينحدر هو إلى واسط، وهو في خلال ذلك يستميلهم حتى فرق جماعتهم، وجاء الكثير إليه فأعادوه إلى داره، واستخلف البساسيري في جماعة للجانب الغربي سنة خمس وعشرين لاشتداد أمر العيارين ببغداد، وكثر الهرج وكفايته هو ونهضته.

ثم عاد أمر الخلافة والسلطنة إلى أن اضمحل وتلاشى، وخرج بعض الجند إلى قرية فلقيهم أكراد وأخذوا دوابهم وجاؤوا إلى بستان القائم فتعللوا على عماله بأنهم لم يدفعوا عنهم، ونهبوا ثمرة البستان، وعجز جلال الدولة من عتاب الأكراد وعقاب الجند، وسخط القائم أمره وتقدم إلى القضاة والشهود والفقهاء بتعطيل المراتب الدينية، فرغب جلال الدولة من الجند أن يحملهم إلى ديوان الخلافة فحملوا وأطلقوا، وعظم أمر العيارين وصاروا في حماية الجند وانتشر العرب في النواحي فنهبوها وأفسدوا السابلة، وبلغوا جامع المنصور من البلد، وسلبوا النساء في المقبرة.

ولحق الوزير أبو سعيد وزير جلال الدولة بأبي الشوك

مفارقاً للوزارة، ووزر بعده أبا القاسم فكثرت مطالبات الجند عليه فهرب وأخذه الجند وجاؤوا به إلى دار الملك حاسراً عارياً إلا من قميص خلق، وذلك لشهرين من وزارته، وعاد سعيد بن عبد الرحيم إلى الوزارة. ثم ثار الجند سنة سبع وعشرين بجلال الدولة وأخرجوه من بغداد بعد أن استمهلهم ثلاثاً فأبوا ورموه بالحجارة فأصابوه، ومضى إلى دار المرتضى بالكرخ، وسار منها إلى رافع بن الحسين بن مكن بتكريت، ونهب الأتراك داره وقلعوا أبوابها، ثم أصلح القائم شأنه مع الجند، وأعاده وقبض على وزيره أبي سعيد بن عبد الرحيم، وهي وزارته السادسة. وفي هذه السنة نهى القائم عن التعامل بالدنانير المعزية، وتقدم إلى الشهود أن لا يذكروها في كتب التعامل.

الصلح بين جلال الدولة وأبي كاليجار

ترددت الرسل سنة ثمان وعشرين بين جلال الدولة وابن أخيه أبي كاليجار حتى انعقد بينهما الصلح على يد القاضي أبي الحسن الماوردي وأبي عبد الله المردوسني، واستحلف كل واحد منهما للآخر، وأظهر جلال الدولة سنة تسع وعشرين من القائم الخطاب بملك الملوك فرد ذلك إلى الفتيا، وأجازه القاضي أبو الطيب الطبري، والقاضي أبو عبد الله الصهيري، والقاضي ابن البيضاوي وأبو القاسم الكرخي، ومنع منه القاضي أبو الحسن الماوردي ورد عليهم فأخذ بفتواهم، وخطب له بملك الملوك. وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة، وكان يتردد إليه. ثم انقطع عنه بهذه الفتيا، ولزم بيته من رمضان إلى النحر فاستدعيه جلال الدولة وحضر خائفاً، وشكره على القول بالحق وعدم المحاباة، وقد عدت إلى ما تحب فشكره ودعا له، وأذن للحاضرين بالانصراف معه، وكان الإذن لهم تبعاً له.

استيلاء أبي كاليجار على البصرة

وفي سنة إحدى وثلاثين بعث أبو كاليجار عساكره إلى البصرة مع العادل أبي منصور ابن مسافنة، وكانت في ولاية الظهير أبي القاسم..... وليها بعد بختيار، انتقض عليه مرة ثم عاد، وكان يحمل إلى أبي كاليجار كل سنة سبعين ألف دينار، وكثرت أمواله ودامت دولته. ثم تعرض ملا الحسين بن أبي القاسم بن مكرم صاحب عمان فكاتب أبا كاليجار وضمن البصرة بزيادة ثلاثين ألف دينار، وبعث أبو كاليجار العساكر مع ابن مسافيه كما ذكرنا. وجاء المدد من عمان إلى البصرة، وملكوها وقبض على الظهير أبي القاسم، وأخذت أمواله وصودر على مائتي ألف دينار فأعطاها، وجاء الملك أبو كاليجار البصرة فأقام بها أياماً وولى فيها ابنه عز الملوك ومعه الوزير أبو الفرج بن فسانجس، ثم عاد إلى الأهواز وحمل معه الظهر.

شغب الأتراك على جلال الدولة

ثم شغب الأتراك على جلال الدولة سنة اثنتين وثلاثين وخيموا بظاهر البلد ونهبوا منها مواضع. وخيم جلال الدولة بالجانب الغربي وأراد الرحيل عن بغداد فمنعه أصحابه فاستمد دبيس بن مزيد وقرواشاً صاحب الموصل فأمدوه بالعساكر. ثم صلحت الأحوال بينهم وعاد إلى داره وطمع الأتراك وكثر نهبهم وتعديهم وفسدت الأمور بالكلية.

ابتداء دولة السلجوقية

قد تقدم لنا أن أمم الترك في الربع الشرقي الشمالي من المعمور: ما بين الصين إلى تركستان إلى خوارزم والشاش وفرغانة، وما وراء النهر بخارى وسمرقند وترمذ، وأن المسلمين أزاحوهم أول الملة عن بلاد ما وراء النهر وغلبوهم عليها، وبقيت تركستان وكاشغر والشاش وفرغانة بأيديهم يؤدون عليها الجزاء. ثم أسلموا عليها فكان لهم بتركستان ملك ودولة، نذكرها فيما بعد، فإن استفحالها كان في دولة بني سامان جيرانهم فيما وراء النهر. وكان في المفازة بين تركستان وبلاد الصين أمم من الترك لا يحصيهم إلا خالقهم لاتساع هذه المفازة وبعد أقطارها فإنها فيما يقال مسيرة شهر من كل جهة، فكان هنالك أحياء بادون متجعون رجالة غذاؤهم اللحوم والألبان والذرة في بعض الأحيان ومراكبهم الخيل، ومنها كسبهم وعليها قيامهم وعلى الشاء والبقر من بين الأنعام، فلم يزالوا بتلك القفار مذودين عن العمران بالحامية، والمالكين له في كل جهة.

وكان من أممهم الغز والخطا والتتر وقد تقدم ذكر هؤلاء الشعوب. فلما انتهت دولة ملوك تركستان وكان شغر إلى غايتها، وأخذت في الاضمحلال والتلاشي كما هو شأن الدول وطبيعتها. تقدم هؤلاء إلى بلاد تركستان فأجلبوا عليها بما كان غالب معاشهم في تخطف الناس من السبل، وتناول الرزق بالرماح شأن أهل القفر البادين، وأقاموا بمفازة بخارى.

ثم انقرضت دولة بني سامان ودولة أهل تركستان. واستولى

محمود بن سبكتكين من قواد بني سامان وصنائعهم على ذلك كله. وعبر بعض الأيام إلى بخارى فحضر عنده أرسلان بن سلجوق فقبض عليه، وبعث به إلى بلاد الهند فحبسه، وسار إلى أحيائه فاستباحها، ولحق بخراسان، وسارت العساكر في اتباعهم فلحقوا بأصبهان وهمّ صاحبها علاء الدولة بن كالويه بالغدر بهم، وشعروا بذلك فقاتلوه بأصبهان فغلبهم، فانصرفوا إلى أذربيجان فقاتلهم صاحبهم وهشودان من بني المرزبان. وكانوا لما قصدوا أصبهان بقي فلهم بنواحي خوارزم فعاثوا في البلاد، وخرج إليهم صاحب طوس وقاتلهم. وجاء محمود بن سبكتكين فسار في اتباعهم من رستاق إلى جرجان، ورجع عنهم، ثم استأمنوا فاستخدمهم وتقدمهم يغمر، وأنزل ابنه بالري.

ثم مات محمود وولي أخوه مسعود، وشغل بحروب الهند فانتفضوا وبعث إليهم قائداً في العساكر، وكانوا يسمون العراقية وأمراؤهم يومئذ كوكاش ومرقاوكول ويغمر وباصعكي، ووصلوا إلى الدامغان فاستباحوها، ثم سمنان، ثم عاثوا في أعمال الري واجتمع صاحب طبرستان وصاحب الري مع قائد مسعود وقاتلوهم فهزمهم الغز وفتكوا فيهم وقصدوا الري فملكوه، وهرب صاحبه إلى بعض قلاعه فتحصن بها، وذلك سنة ست وعشرين وأربعمائة.

واستألفهم علاء الدولة بن كالويه ليدافع بهم ابن سبكتكين فأجابوه أولاً، ثم انتقضوا. وأما الذين قصدوا أذربيجان منهم، ومقدموهم بوقا وكوكباش ومنصور ودانا فاستألفهم وهشودان ليستظهر بهم، فلم يحصل على بغيته من ذلك. وساروا إلى مراغة سنة تسع وعشرين فاستباحوها، ونالوا من الأكراد الهذبانية فحاربوهم وغلبوهم وافترقوا فرقتين، فرجع بوقا إلى أصحابهم الذين بالري، وسار منصور وكوكباش إلى همذان، وبها أبو كاليجار بن علاء الدولة بن كالويه فظاهرهم على حصاره متى خسرو ابن مجد الدولة فلما جهده الحصار لحق بأصبهان وترك البلد فدخلوها واستباحوها، وفعلوا في الكرخ مثل ذلك، وحاصروا قزوين حتى أطاعوهم وبذلوا لهم سبعة آلاف دينار. وسار طائفة منهم إلى بلد الأرمن فاستباحوها وأثخنوا فيها ورجعوا إلى أرمينية.

ثم رجعوا من الري إلى حصار همذان فتركها أبو كاليجار وملكوها سنة ثلاثين ومعهم متى خسرو المذكور فاستباحوا تلك النواحي إلى أستراباذ، وقاتلهم أبو الفتح بن أبي الشوك صاحب الدينور فهزمهم وأسر منهم وصالحوه على إطلاق أسراهم. ثم مكروا بأبي كاليجار أن يكون معهم ويدبر أمرهم، وغدروا به ونهبوه. وخرج علاء الدولة من أصبهان فلقي طائفة منهم فأوقع بهم وأثخن فيهم وأوقع وهشودان بمن كان منهم في أذربيجان وظفر بهم الأكراد وأثخنوا فيهم، وفرقوا جماعتهم.

ثم توفي كول أمير الفرق التي بالري، وكانوا لما أجازوا من وراء النهر إلى خراسان بقي بمواطنهم الأولى هنالك طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق وإخوته داود وسعدان وينال وهمفري فخرجوا إلى خراسان من بعدهم. وكانوا أشد منهم شوكة وأقوى عليهم سلطاناً فسار ينال أخو طغرلبك إلى الري فهربوا إلى أذربيجان ثم إلى جزيرة ابن عمر وديار بكر. ومكر سليمان بن نصير الدولة بن مروان صاحب الجزيرة بمنصور بن عزّ علي منهم فحبسه وافترق أصحابه، وبعث قرواش صاحب الموصل إليهم جيشه فطردهم وافترقت جموعهم، ولحق الغز بديار بكر وأثخنوا فيها، وأطلق نصير الدولة أميرهم منصوراً من يد ابنه فلم ينتفع منهم بذلك. وقاتلهم صاحب الموصل فحاصروه ثم ركب في السفين ونجا إلى السند وملكوا البلد وعاثوا فيها. وبعث قرواش إلى الملك جلال الدولة يستنجده، وإلى دبيس بن مزيد وأمراء العرب. وفرض الغز على أهل الموصل عشرين ألف دينار فثار الناس بهم، وكان كوكباش قد فارق الموصل فرجع ودخلها عنوة في رجب سنة خمس وثلاثين، وأفحش في القتل والنهب. وكانوا يخطبون للخليفة ولطغرلبك بعده، فكتب الملك جلال الدولة إلى طغرلبك يشكو له بأحوالهم، فكتب إليه أن هؤلاء الغز كانوا في خدمتنا وطاعتنا حتى حدث بيننا وبين محمود بن سبكتكين ما علمتم، ونهضنا إليه، وساروا في خدمتنا في نواحي خراسان فتجاوزوا حدود الطاعة وملكة الهيبة، ولا بد من إنزال العقوبة بهم، وبعث إلى نصير الدولة بعده يكفهم عنه.

وسار دبيس بن مزيد وبنو عقيل إلى قرواش صاحب الموصل وقعد جلال الدولة عن إنجاده لما نزل به من الأتراك. وسمع الغز بجموع قرواش فبعثوا إلى من كان بديار بكر منهم واجتمعوا إليهم، واقتتل الفريقان فانهزم العرب أول النهار، ثم أتيحت لهم الكرة على الغز فهزموهم واستباحوهم وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، واتبعهم قرواش إلى نصيبين ورجع عنهم فساروا إلى ديار بكر وبلاد الأرمن والروم، وكثر عيثهم فيها وكان طغرلبك وإخوته لما جاؤوا إلى خراسان طالت الحروب بينهم وبين عساكر بني سبكتكين حتى غلبوهم وحصل لهم الظفر، وهزموا سياوشي حاجب مسعود آخر هزائمهم، وملكوا هراة فهرب عنها سياوشي الحاجب ولحق بغزنة، وزحف إليهم مسعود ودخلوا البرية، ولم يزل في اتباعهم ثلاث سنين.

ثم انتهزوا فيه الفرصة باختلاف عسكره يوماً على الماء فانهزموا وغنموا عسكره وسار طغرلبك إلى نيسابور سنة إحدى وثلاثين فملكها وسكن الساذياج، وخطب له بالسلطان الأعظم العمال في النواحي. وكان الدعار قد اشتد ضررهم بنيسابور فسد أمرهم وحسم عللهم، واستولى السلجوقية على جميع البلاد. وسار بيقو إلى هراة فملكها وسار داود إلى بلخ وبها القوتياق حاجب مسعود فحاصره، وعجز مسعود عن إمداده فسلم البلد لداود، واستقل السلجوقية بملك البلاد أجمع. ثم ملك طغرلبك طبرستان وجرجان من يد أنو شروان بن متوجهر قابوس، وضمنها أنو شروان بثلاثين ألف دينار، وولى على جرجان مرداويج من أصحابه بخمسين ألف دينار، وبعث القائم القاضي أبو الحسن الماوردي إلى طغرلبك فقرر الصلح بينه وبين جلال الدولة القائم بدولته ورجع بطاعته.

فتنة قرواش مع جلال الدولة

كان قرواش قد أنفذ عسكره سنة إحدى وثلاثين لحصار خميس بن ثعلب بتكريت، واستغاث بجلال الدولة، وأمر قرواشاً بالكف عنه فلم يفعل وسار لحصاره بنفسه. وبعث إلى الأتراك ببغداد يستفسدهم على جلال الدولة فاطلع على ذلك فبعث أبا الحارث أرسلان البساسيري في صفر سنة اثنتين وثلاثين للقبض على نائب قرواش بالسندسية، واعترضه العرب فمنعوه ورجع وأقاموا بين صرصر وبغداد يفسدون السابلة، وجمع جلال الدولة العساكر وخرج إلى الأنبار وبها قرواش فحاصروها. ثم اختلفت عقيل على قرواش فرجع إلى مصالحة جلال الدولة.

وفاة جلال الدولة وملك أبي كاليجار

لما قلت الجبايات ببغداد مد جلال الدولة يده إلى الجوالي فأخذها وكانت خاصة بالخليفة. ثم توفي جلال الدولة أبو طاهر ابن بهاء الدولة في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة لسبع عشرة من ملكه. ولما مات خاف حاشيته من الأتراك والعامة فانتقل الوزير كمال الملك بن عبد الرحيم وأصحابه الأكابر إلى حرم دار الخلافة، واجتمع القواد للمدافعة عنهم وكاتبوا الملك العزيز أبا منصور بن جلال الدولة في واسط بالطاعة واستقدموه وطلبوا حتى البيعة فراوضهم فيها، فكاتبهم أبو كاليجار عنها فعدلوا إليه. وجاء العزيز من واسط وانتهى إلى النعمانية فغدر به عسكره، ورجعوا إلى واسط وخطبوا لأبي كاليجار. وسار العزيز إلى دبيس بن مزيد، ثم إلى قرواش بن المقلد، ثم فارقه إلى أبي الشوك فغدر به فسار إلى نيال أخي طغرلبك فأقام عنده مدة. ثم قصد بغداد مختفياً فظهر على بعض أصحابه فقتله، ولحق هو بنصير الدولة بن مروان فتوفي عنده بميافارقين سنة إحدى وأربعين.

وأما أبو كاليجار فخطب له ببغداد في صفر سنة ست وثلاثين. وبعث إلى الخليفة بعشرة آلاف دينار وبأموال أخرى فرقت إلى الجند ولقبه القائم بمحي الدين، وخطب له أبو الشوك ودبيس بن مزيد ونصير الدولة بن مروان بأعمالهم. وسار إلى بغداد ومعه وزيره أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن فسانجس. وهمّ القائم لاستقباله فاستعفى من ذلك، وخلع على أرباب الجيوش، وهم البساسيري والنساوري والهمام أبو اللقاء. وأخرج عميد الدولة أبا سعيد من بغداد فمضى إلى تكريت، وعاد أبو منصور بن علاء الدولة بن كالويه صاحب أصبهان إلى طاعته، وخطب له على منبره انحرافاً عن طغرلبك. ثم راجعه بعد الحصار واصطلحا على مال يحمله، وبعث أبو كاليجار إلى السلطان طغرلبك في الصلح وزوجه ابنته فأجاب وتم بينهما سنة تسع وثلاثين.

وفاة أبي كاليجار وملك ابنه الملك الرحيم

كان أبو كاليجار والمرزبان بن سلطان الدولة قد سارا سنة أربعين إلى نواحي كرمان، وكان صاحبها بهرام بن لشكرستان من وجوه الديلم قد منع الحمل فتنكر له أبو كاليجار، وبعث إلى أبي كاليجار يحتمي به، وهو بقلعة بردشير فملكها من يده، وقتل بهرام بعض الجند الذين ظهر منهم على الميل لأبي كاليجار فسار إليه ومرض في طريقه، ومات بمدينة جنابا في سنة أربعين لأربع سنين وثلاثة أشهر من ملكه. ولما توفي نهب الأتراك معسكره وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى مخيم الوزير أبي منصور، وأرادوا نهبه فمنعهم الديلم، وساروا إلى شيراز فملكها أبو منصور واستوحش الوزير منه فلحق ببعض قلاعه، وامتنع بها، ووصل خبر وفاة أبي كاليجار إلى بغداد وبها ولده الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز فبايع له الجند وبعث إلى الخليفة في الخطبة والتلقب بالملك الرحيم فأجابه إلى ما سأل إلا اللقب بالرحيم للمانع الشرعي من ذلك. واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة، وكان بها أخوه أبو علي، واستولى أخوه أبو منصور كما ذكرنا على شيراز فبعث الملك الرحيم أخاه أبا سعد في العساكر فملكها، وقبض على أخيه أبي منصور، وسار العزيز جلال الدولة من عند

قرواش إلى البصرة فدافعه أبو علي بن كاليجار عنها. ثم سار الملك الرحيم إلى خوزستان، وأطاعه من بها من الجند وكثرت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعة.

مسير الملك الرحيم إلى فارس

ثم سار الملك الرحيم من الأهواز إلى فارس سنة إحدى وأربعين، وخيم بظاهر شيراز، ووقعت فتنة بين أتراك شيراز وبغداد فرحل أتراك بغداد إلى العراق، وتبعهم الملك الرحيم لانحرافه عن أتراك شيراز. وكان أيضاً منحرفاً عن الديلم بفارس لميلهم إلى أخيه فلاستون بأصطخر، وانتهى إلى الأهواز فأقام بها واستخلف بأرجان أخويه أبا سعد وأبا طالب فزحف إليهما أخوهما فلاستون. وخرج الملك الرحيم من الأهواز إلى رامهرمز للقائهم فلقيهم وانهزم إلى البصرة ثم إلى واسط. وسارت عساكر فارس إلى الأهواز فملكوها وخيموا بظاهرها. ثم شغبوا على أبي منصور. وجاء بعضهم إلى الملك الرحيم فبعث إلى بغداد واستقر الجند الذين بها، وسار إلى الأهواز فملكها وأقام ينتظر عسكر بغداد. ثم سار إلى عسكر مكرم فملكها سنة اثنتين وأربعين.

ثم تقدم سنة ثلاث وأربعين ومعه دبيس بن مزيد والبساسيري وغيرهما. وسار هزار شب بن تنكير ومنصور بن الحسين الأسدي فيمن معهما من الديلم والأكراد من أرجان إلى تستر فسبقهم الملك الرحيم إليها وغلبهم عليها. ثم زحف في عسكر هزارشب فوافاه أميره أبو منصور بمدينة شيراز فاضطربوا ورجعوا، ولحق منهم جماعة بالملك الرحيم فبعث عساكر إلى رامهرمز وبها أصحاب أبي منصور فحاصرها وملكها في ربيع سنة ثلاث وأربعين. ثم بعث أخاه أبا سعد في العساكر إلى بلاد فارس لأن أخاه أبا نصر خسرو كان بأصطخر، وضجر من تغلب هزارشب بن تنكير صاحب أخيه أبي منصور فكتب إلى أخيه الملك الرحيم بالطاعة فبعث إليه أخاه أبا سعد فأدخله أصطخر وملكه.

ثم اجتمع أبو منصور فلاستون وهزارشب ومنصور بن الحسين الأسدي، وساروا للقاء الملك الرحيم بالأهواز، واستمدوا السلطان طغرلبك وأبوا طاعته، فبعث إليهم عسكراً، وكان قد ملك أصبهان واستطال وافترق كثير من أصحاب الملك الرحيم عنه، مثل البساسيري ودبيس بن مزيد والعرب والأكراد وبقي في الديلم الأهوازية وبعض الأتراك من بغداد ورأى أن يعود من عسكر مكرم إلى الأهواز ليتحصن بها وينتظر عسكر بغداد. ثم بعث أخاه أبا سعد إلى فارس كما ذكرنا ليشغل أبا منصور وهزارشب ومن معهما عن قصده فلم يعرجوا على ذلك. وساروا إليه بالأهواز وقاتلهم فانهزم إلى واسط ونهب الأهواز وفقد في الواقعة الوزير كمال الملك أبو المعالي عبد الرحيم فلم يوقف له على خبر.

وسار أبو منصور وأصحابه إلى شيراز لأجل أبي سعد وأصحابه فلقيهم قريباً منها، وهزمهم مرات واستأمن إليه الكثير منهم، واعتصم أبو منصور ببعض القلاع وأعيدت الخطبة بالأهواز للملك الرحيم، واستدعاه الجند بها وعظمت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعة في غيبة الملك الرحيم واقتتلوا، وبعث القائم نقيب العلويين ونقيب العباسيين لكشف الأمر بينهما فلم يوقف على يقين في ذلك. وزاد الأمر وأحرقت مشاهد العظماء من أهل البيت، وبلغ الخبر إلى دبيس بن مزيد فاتهم القائم بالمداهنة في ذلك فقطع الخطبة له ثم عوتب فاستعتب وعاد إلى حاله.

مهادنة طغرلبك للقائم

قد تقدم لنا شأن الغز واستيلائهم على خراسان من يد بني سبكتكين عام اثنتين وثلاثين، ثم استيلاء طغرلبك على أصبهان من يد ابن كالويه سنة اثنتين وأربعين. ثم بعث السلطان طغرلبك أرسلان ابن أخيه داود إلى بلاد فارس فافتتحها سنة اثنتين وأربعين، واستلحم من كان بها من الديلم، ونزل مدينة نسا وبعث إليه القائم بأمر اللّه بالخلع والألقاب، وولاه على ما غلب عليه فبعث إليه طغرلبك بعشرة آلاف دينار، وأعلاق نفيسة من الجواهر والثياب والطيب، وإلى الحاشية بخمسة آلاف دينار، وللوزير رئيس الرؤساء بألفين، وحضروا العيد في سنة ثلاث وأربعين ببغداد فأمر الخليفة بالاحتفال في الزينة والمراكب والسلاح. ثم سار الغز سنة أربع وأربعين إلى شيراز وبها الأمير أبو سعد أخو الملك الرحيم فقاتلهم وهزمهم كما نذكر في أخبارهم.

استيلاء الملك الرحيم على البصرة من يد أخيه

ثم بعث الملك الرحيم سنة أربع وأربعين جيوشه إلى البصرة مع بصيرة البساسيري فحاصروا بها أخاه أبا علي وقاتلوا عسكره في السفن فهزموهم وملكوا عليهم دجلة والأنهر. وجاء الملك الرحيم بالعسكر في البر واستأمن إليه قبائل ربيعة ومضر فأمنهم

وملك البصرة، وجاءته رسل الديلم بخوزستان بطاعتهم. ومضى أخوه أبو علي إلى شط عمان وتحصن به فسار إليه الملك الرحيم، وملك عليه شط عمان ولحق بعبادان، وسار منها إلى أرجان. ثم لحق بالسلطان طغرلبك بأصبهان فاكرمه وأصهر إليه، وأقطع له وأنزله بقلعة من أعمال جرباذقان. وولى الملك الرحيم وزيره البساسيري على البصرة، وسار إلى الأهواز وأرسل منصور بن الحسين وهزارشب في تسليم أرجان وتستر فتسلمها واصطلحا. وكان المقدم على أرجان فولاذ بن خسرو من الديلم فرجع إلى طاعة الملك الرحيم سنة خمس وأربعين.

فتنة ابن أبي الشوك ثم طاعته

كان سعدي بن أبي الشوك قد أعطى طاعته للسلطان طغرلبك بنواحي الري، وسار في خدمته، وبعثه سنة أربع وأربعين في العساكر إلى نواحي العراق فبلغ النعمانية وكثر عيثه، وراسله ملد من بني عقيل قرابة قريش بن بدران في الاستظهار له على قريش ومهلهل أخي أبي الشوك فوعدهم، فسار إليهم مهلهل وأوقع بهم على عكبرا فساروا إلى سعدي وشكو إليه وهو على سامرا فسار وأوقع بعمه مهلهل وأسره وعاد إلى حلوان وهمّ الملك الرحيم بتجهيز العساكر إليه بحلوان واستقدم دبيس بن مزيد لذلك.

ثم عظمت الفتنة سنة خمس وأربعين ببغداد من أهل الكرخ وأهل السنة، ودخلها طوائف من الأتراك، وعم الشر واطرحت مراقبة السلطان، وركب القواد لحسم العلة فقتلوا علوياً من أهل الكرخ فنادت نساؤه بالويل فقاتلهم العامة، وأضرم النار في الكرخ بعض الأتراك فاحترق جميعه، ثم بعث القائم وسكن الأمر، وكان مهلهل لما أسر سار ابنه بدر إلى طغرلبك وابن سعدي كان عنده رهينة، وبعث إلى سعدي بإطلاق مهلهل عند ذلك، فامتنع سعدي من ذلك وانتفض على طغرلبك، وسار من همذان إلى حلوان وقاتلها فامتنعت عليه، فكاتب الملك الرحيم بالطاعة ولحقه عساكر طغرلبك فهزموه، ولحق ببعض القلاع هنالك وسار بدر في اتباعه إلى شهرزور، ثم جاءه الخبر بأن جمعاً من الأكراد والأتراك قد أفسدوا السابلة وأكثروا العيث، فخرج إليهم البساسيري واتبعهم إلى البواريج وأوقع بالطوائف منهم واستباحهم وعبروا الزاب فلم يمكنه العود إليهم ونجوا.

فتنة الأتراك

وفي سنة ست وأربعين شغب الأتراك على وزير الملك الرحيم في مطالبة أرزاقهم واستعدوه عليه فلم يعدهم فشكوا من الديوان وانصرفوا مغضبين، وباركوا من الغد لحصار دار الخليفة، وحضر البساسيري واستكشف حال الوزير فلم يقف على خبر. وكبست الدور في طلبه فكان ذلك وسيلة للأتراك في نهب دور الناس. واجتمع أهل المحال لمنعهم، ونهاهم الخليفة فلم ينتهوا فهم بالرحلة عن بغداد. ثم ظهر الوزير وأنصفهم في أرزقهم فتمادوا على بغيهم وعسفهم، واشتد عيث الأكراد والأعراب في النواحي فخربت البلاد وتفرق أهلها، وأغار أصحاب ابن بدران بالبرد وكبسوا حلل كامل بن محمد بن المسيب ونهبوها، ونهبوا في جملتها ظهراً وأنعاماً للبساسيري وانحل أمر الملك والسلطنة بالكلية.

استيلاء طغرلبك على أذربيجان وعلى أرمينية والموصل

سار طغرلبك سنة أربعين إلى أذربيجان فاطاعه صاحب قبرير أبو منصور وشهودان ابن محمد وخطب له ورهن ولده عنده. ثم أطاعه صاحب جنده أبو الأسوار ثم تابع سائر النواحي على الطاعة وأخذ رهنهم، وسار إلى أرمينية فحاصر ملاذكرد وامتنعت عليه فخرب ما جاورها من البلاد. وبعث إليه نصير الدولة بن مروان بالهدايا وقد كان دخل في طاعته من قبل وسار السلطان طغرلبك لغزو بلاد الروم واكتسحها إلى أن بلغ أردن الروم، ورجع إلى أذربيجان ثم إلى الري، وخطب له قريش بن بدران صاحب الموصل في جميع أعماله وزحف إلى الأنبار ففتحها ونهب ما فيها البساسيري فانتفض لذلك وسار في العساكر إلى الأنبار فاستعاده من يده.

وحشة البساسيري

كان أبو الغنائم وأبو سعد أبنا المجلبان صاحبي قريش بن بدران وبعثهما إلى القائم سراً من البساسيري بما فعل بالأنبار فانتقض البساسيري لذلك، واستوحش من القائم ومن رئيس الرؤساء، وأسقط مشاهراتهم ومشاهرة حواشيهم، وهم يهدم منازل بني المجلبان. ثم أقصر وسار إلى الأنبار وبها أبو القاسم بن المجلبان، وجاءه دبيس بن مزيد ممداً له فحاصر الأنبار وفتحها عنوة ونهبها وأسر من أهلها خمسمائة، ومائة من بني خفاجة وأسر أبا

الغنائم وجاء به إلى بغداد فأدخله على جمل، وشفع دبيس بن مزيد في قتله، وجاء إلى مقابل التاج من دار الخليفة فقبل الأرض وعاد إلى منزله.

وصول الغز إلى الدسكرة ونواحي بغداد

وفي شوال من سنة ست وأربعين وصل صاحب حلوان من الغز وهو إبراهيم بن إسحاق إلى الدسكرة فافتتحها ونهبها وصادر النساء. ثم سار إلى رسغباد وقلعة البردان وهي لسعدي بن أبي الشوك، وبها أمواله فامتنعت عليه فخرب ما حولها من القرى ونهبها، وقوي طمع الغز في البلاد وضعف أمر الديلم والأتراك. ثم بعث طغرلبك أبا علي بن أبي كاليجار الذي كان بالبصرة في جيش من الغز إلى خوزستان فاستولى على الأهواز وملكها ونهب الغز الذين معه أموال الناس ولقوا منهم عناء.

استيلاء الملك الرحيم على شيراز

وفي سنة سبع وأربعين سار فولاذ -الذي كان بقلعة أصطخر من الديلم، وقد ذكرناه- إلى شيراز فملكها من يد أبي منصور فولاستون بن أبي كاليجار، وكان خطب بها للسلطان طغرلبك فخطب فولاذ بها للملك الرحيم ولأخيه أبي سعد يخادعهما بذلك، وكان أبو سعد بأرجان فاجتمع هو وأخوه أبو منصور على حصار شيراز في طاعة أخيهما الملك واشتد الحصار على فولاذ وعدمت الأقوات فهرب عنها إلى قلعة أصطخر وملك الأخوان شيراز وخطبا لأخيهما الملك الرحيم.

وثوب الأتراك ببغداد بالبساسيري

قد ذكرنا تأكد الوحشة بين البساسيري ورئيس الرؤساء. ثم تأكدت سنة سبع وأربعين وعظمت الفتنة بالجانب الشرقي بين العامة وبين أهل السنة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحضروا الديوان حتى أذن لهم في ذلك وتعرضوا لبعض سفن البساسيري منحدرة إليه بواسط، وكشفوا فيها عن جرار خمر، فجاؤوا إلى أصحاب الديوان الذين أمروا بمساعدتهم واستدعوهم لكسرها فكسروها، واستوحش لذلك البساسيري ونسبه إلى رئيس الرؤساء. واستفتى الفقهاء في أن ذلك تعدّ على سفينته فأفتاه الحنفية بذلك. ووضع رئيس الرؤساء الأعيان على البساسيري بإذن من دار الخلافة، وأظهر معايبه. وبالغوا في ذلك، ثم قصدوا في رمضان دور البساسيري بإذن من دار الخلافة فنهبوها وأحرقوها، ووكلوا بحرمه وحاشيته وأعلن رئيس الرؤساء بذم البساسيري وأنه يكاتب المستنصر صاحب مصر فبعث القائم إلى الملك الرحيم فأمره بإبعاده فأبعده.

استيلاء السلطان طغرلبك على بغداد والخلعة والخطبة له

قد ذكرنا من قبل رجوع السلطان طغرلبك من غزو الروم إلى الري، ثم رجع إلى همذان، ثم سار إلى حلوان عازماً على الحج والاجتياز بالشام لإزالته من يد العلوية. وأجفل الناس إلى غربي بغداد، وعظم الإرجاف ببغداد ونواحيها، وخيم الأتراك بظاهر البلد. وجاء الملك الرحيم من واسط بعد أن طرد البساسيري عنه كما أمره القائم فسار إلى بلد دبيس بن مزيد لصهر بينهما. وبعث طغرلبك إلى لقائهما بالطاعة وإلى الأتراك بالمقاربة والوعد فلم يقبلوا، وطلبوا من القائم إعادة البساسيري لأنه كبيرهم. ولما وصل الملك الرحيم سأل من الخليفة إصلاح أمره مع السلطان طغرلبك فأشار القائم بأن يقوض الأجناد خيامهم ويخيموا بالحريم الخلافي، ويبعثوا جميعاً إلى طغرلبك بالطاعة، فقبلوا إشارته وبعثوا إلى طغرلبك بذلك فأجاب بالقبول والإحسان.

وأمر القائم بالخطبة لطغرلبك على منابر بغداد فخطب آخر رمضان من سنة سبع وأربعين، واستأذن في لقاء الخليفة وخرج إليه رؤساء الناس في موكب من القضاة والفقهاء والأشراف وأعيان الديلم. وبعث طغرلبك للقائم وزيره أبا نصر الكندري وأبلغه رسالة القائم واستخلفه له وللملك الرحيم وأمراء الأجناد. ودخل طغرلبك بغداد ونزل بباب الشماسية لخمس بقين من رمضان، وجاء هنالك قريش بن بدران صاحب الموصل وكان من قبل في طاعته.

القبض على الملك الرحيم وانقراض دولة بني بويه

ولما نزل طغرلبك بغداد وافترق أهل عسكره في البلد يقضون بعض حاجاتهم، فوقعت بينهم وبين بعض العامة منازعة فصاحوا بهم ورجموهم، وظن الناس أن الملك الرحيم قد اعتزم على قتال طغرلبك فتواثبوا بالغز من كل جهة إلا أهل الكرخ فإنهم سألوا من وقع إليهم من الغز. وأرسل عميد الملك وزير

طغرلبك عن عدنان بن الرضي نقيب العلويين، وكان مسكنه بالكرخ فشكره عن السلطان طغرلبك. ودخل أعيان الديلم وأصحاب الملك الرحيم إلى دار الخلافة نفياً للتهمة عنهم. وركب أصحاب طغرلبك فقاتلوا العامة وهزموهم وقتلوا منهم خلقاً ونهبوا سائر الدروب ودور رئيس الرؤساء وأصحابه والرصافة، ودور الخلفاء، وكان بها أموال الناس نقلت إليها للحرمة فنهب الجميع، واشتد البلاء وعظم الخوف وأرسل طغرلبك إلى القائم بالعتاب ونسبه ما وقع إلى الملك الرحيم والديلم، وأنهم انحرفوا، وكانوا برآء من ذلك.

وتقدم إليهم الخليفة بالحضور عند طغرلبك مع رسوله، فلما وصلوا إلى الخيام نهبها الغز ونهبوا رسل القائم معهم، ثم قبض طغرلبك على الملك الرحيم ومن معه، وبعث بالملك الرحيم إلى قلعة السيروان فحبس بها وكان ذلك لست سنين من ملكه. ونهب في تلك الهيعة قريش بن بدران صاحب الموصل ومن معه من العرب، ولجا سليباً إلى خيمة بدر بن المهلهل، واتصل بطغرلبك خبره فأرسل إليه وخلع عليه وأعاده إلى مخيمه، وبعث القائم إلى طغرلبك بإنكار ما وقع في إخفار ذمته في الملك الرحيم وأصحابه، وأنه يتحول عن بغداد فأطلق له بعضهم بلكسكسالربه وأنزع الإقطاعات من يد أصحابه الملك الرحيم فلحقوا بالبساسيري وكثر جمعه، وبعث طغرلبك إلى دبيس بالطاعة وإنفاذ البساسيري فخطب له في بلاده، وطرد البساسيري فسار إلى رحبة ملك، وكاتب المستنصر العلوي صاحب مصر.

وأمر طغرلبك بأخذ أموال الأتراك الجند وأهملهم وانتشر الغز السلجوقية في سواد بغداد فنهبوا الجانب الغربي من تكريت إلى النيل، والجانب الشرقي إلى النهروانات وخرب السواد وانجلى أهله وضمن السلطان طغرلبك البصرة والأهواز من هزارشب بن شكر بن عياض بثلثمائة وستين ألف دينار، وأقطعه أرجان، وأمره أن يخطب لنفسه بالأهواز دون ما سواها.

وأقطع أبا علي بن كاليجار ويسين وأعمالها وأمر أهل الكرخ بزيادة: الصلاة خير من النوم في نداء الصبح، وأمر بعمارة دار المملكة وانتقل إليها في شوال. وتوفي ذخيرة الدين أبو العباس محمد بن القائم باللّه في ذي القعدة من هذه السنة. ثم أنكح السلطان طغرلبك من القائم باللّه خديجة بنت أخيه داود واسمها أرسلان خاتون، وحضر للعقد عميد الملك الكندي وزير طغرلبك وأبو علي بن أبي كاليجار وهزارشب بن شكر بن عياض الكردي وابن أبي الشوك وغيرهم من أمراء الأتراك من عسكر طغرلبك. وخطب رئيس الرؤساء وولي العقد وقبل الخليفة بنفسه. وحضر نقيب النقباء أبو علي بن أبي تمام، ونقيب العلويين عدنان بن الرضي والقاضي أبو الحسن الماوردي وغيرهم.

انتقاض أبي الغنائم بواسط

كان رئيس الرؤساء سعى لأبي الغنائم بن المجلبان في ولاية واسط وأعمالها، فوليها وصادر أعيانها، وجند جماعة وتقوى بأهل البطيحة، وخندق على واسط، وخطب للمستنصر العلوي بمصر فسار أبو نصر عميد العراق لحربه فهزمه وأسر من أصحابه، ووصل إلى السور فحاصره حتى تسلم البلد. ومر أبو الغنائم ومعه الوزير بن فسانجس ورجع عميد العراق إلى بغداد بعد أن ولى واسط منصور بن الحسين فعاد ابن فسانجس إلى واسط وأعاد خطبة العلوي وقتل من وجده من الغز، ومضى منصور بن الحسين إلى المدار وبعث يطلب المدد فكتب إليه عميد العراق ورئيس الرؤساء بحصار واسط فحاصرها، وقاتله ابن فسانجس فهزمه وضيق حصاره، واستأمن إليه جماعة من أهل واسط فملكها وهرب فسانجس واتبعوه فأدركوه وحمل إلى بغداد في صفر سنة ست وأربعين فشُهِّر وقتل.

الوقعة بين البساسيري وقطلمش

وفي سلخ شوال من سنة ثمان وأربعين سار قطلمش وهو ابن عم السلطان طغرلبك وجدُّ بني قليج أرسلان ملوك بلاد الروم، فسار ومعه قريش بن بدران صاحب الموصل لقتال البساسيري ودبيس، وسار بهم إلى الموصل وخطبوا بها للمستنصر العلوي صاحب مصر وبعث إليهم بالخلع. وكان معهم جابر بن ناشب وأبو الحسن وعبد الرحيم وأبو الفتح بن ورائر ونصر بن عمر ومحمد بن حماد.

مسير طغرلبك إلى الموصل

لما كان السلطان طغرلبك قد ثقلت وطأته على العامة ببغداد، وفشا الضرر والأذى فيهم من معسكره فكاتبه القائم يعظه ويذكره، ويصف له ما الناس فيه فأجابه السلطان بالاعتذار بكثرة العساكر. ثم رأى رؤيا في ليلته كأن النبي ﷺ يوبخه على ذلك، فبعث وزيره عميد الملك إلى القائم بطاعة أمره فيما أمر، وأخرج الجند من وراء العامة ورفع المصادرات. ثم بلغه خبر وقعة قطلمش مع البساسيري وانحراف قريش صاحب الموصل إلى

العلوية، فتجهز وسار عن بغداد ثلاثة عشر شهراً من نزوله عليها، ونهبت عساكره أوانا وعكبرا، وحاصر تكريت حتى رجع صاحبها نصر بن عيسى إلى الدعوة العباسية، وقتله السلطان، ورجع عنه إلى البواريج فتوفي نصر وخافت أمه غريبة بنت غريب بن حكن أن يملك البلد أخوه أبو العشام، فاستخلفت أبا الغنائم ابن المجلبان ولحقت بالموصل، ونزلت على دبيس بن مزيد.

وأرسل أبو الغنائم رئيس الرؤساء فأصلح حاله ورجع إلى بغداد وسلم له تكريت، وأقام السلطان بالبواريخ إلى سنة تسع وأربعين، وجاءه أخوه ياقوتي في العساكر فسار إلى الموصل، وأقطع مدينة بلد هزارشب بن شكر الكردي، وأراد العسكر نهبها فمنعهم السلطان، ثم أذن لهم في اللحاق إلى الموصل، وتوجه إلى نصيبين، وبعث هزارشب إلى البرية في ألف فارس ليصيب من العرب، فسار حتى قارب رحالهم، وأكمن الكمائن، وقاتلهم ساعة. ثم استطرهم واتبعوه فخرجت عليهم الكمائن فانهزموا وأثخن فيهم الغز بالقتل والأسر. وكان فيهم جماعة من بني نمير أصحاب حران والرقة، وحمل الأسرى إلى السلطان فقتلهم أجمعين. ثم بعث دبيس وقريش إلى هزارشب يستعطف لهم السلطان فقبل السلطان ذلك منهما، وورد أمر البساسيري إلى الخليفة فرحل ومعه الأتراك البغداديون، ومقبل ابن المقلد وجماعة من عقيل إلى الرحبة، وأرسل السلطان إليهما أبا الفتح بن ورام يستخبرهما فجاء بطاعتهما، وبمسير هزارشب إليهما فأذن له السلطان في المسير، وجاء إليهما واستحلفهما وحثهما على الحضور فخافا.

وأرسل قريش أبا السيد هبة اللّه بن جعفر، ودبيس ابنه منصوراً فأكرمهما السلطان، وكتب لهما بأعمالهما. وكان لقريش نهر الملك وبادرويا والأنبار وهيت ودجيل ونهر بيطر وعكبرا وأوانا وتكريت والموصل ونصيبين. ثم سار السلطان إلى ديار بكر فحاصر جزيرة ابن عمر وبعث إليه يستعطفه ويبذل له المال، وجاء إبراهيم نيال أخو السلطان وهو محاصر، ولقيه الأمراء والناس، وبعث هزارشب إلى دبيس وقريش يحذرهما فانحدر دبيس إلى بلده بالعراق. وأقام قريش عند البساسيري بالرحبة ومعه ابنه مسلم، وشكا قطلمش ما أصاب أهل سنجار منه عند هزيمته أمام قريش ودبيس، فبعث العساكر إليها، وحاصرها ففتحها عنوة واستباحها، وقتل أميرها علي ابن مرجي وشفع إبراهيم في البارقين فتركها وسلمها اللّه وسلم معها الموصل وأعمالها ورجع إلى بغداد في سنة تسع وأربعين فخرج رئيس الرؤساء للقائه عن القائم، وبلغه سلامه وهديته، وهي جام من ذهب فيه جواهر، وألبسه لباس الخليفة وعمامته فقبل السلطان ذلك بالشكر والخضوع والدعاء، وطلب لقاء الخليفة، فأسعف وجلس له جلوساً فخماً. وجاء السلطان في البحر فقرب له لما نزل من السهيرية من مراكب الخليفة، والقائم على سرير علوه سبعة أذرع متوشحاً البردة وبيده القضيب، وقبالته كرسي لجلوس السلطان فقبل الأرض وجلس على الكرسي، وقال له رئيس الرؤساء عن القائم: أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك، ولاك ما ولاه اللّه من بلاده، ورد إليك مراعاة عباده فاتق اللّه فيما ولاك واعرف نعمته عليك، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية، فقبل الأرض، وأفيضت عليه الخلع وخوطب بملك المشرق والمغرب، وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ودفع إليه كتاب العهد، وخرج فبعث إلى القائم خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً من الأتراك متقين بخيولهم وسلاحهم، إلى ما في معنى ذلك من الثياب والطيب وغيرهما.

فتنة نيال مع أخيه طغرلبك ومقتله

كان إبراهيم نيال قد ملك بلاد الجبل وهمذان واستولى على الجهات من نواحيها إلى حلوان عام سنة سبع وثلاثين. ثم استوحش من السلطان طغرلبك بما طلب منه أن يسلم إليه مدينة همذان والقلاع فأبى من ذلك نيال وجمع جموعاً وتلاقيا فانهزم ينال وتحصن بقلعة سرماج فملكها عليه بعد الحصار، واستنزله منها، وذلك سنة إحدى وأربعين. وأحسن إليه طغرلبك وخيره بين المقام معه أو إقطاع الأعمال فاختار المقام. ثم لما ملك طغرلبك بغداد وخطب له بها سنة سبع وأربعين، خرج إليه البساسيري مع قريش بن بدران صاحب الموصل ودبيس بن مزيد صاحب الحلة، وسار طغرلبك إليهم من بغداد، ولحقه أخوه إبراهيم ينال فلما ملك الموصل سلمها إليه وجعلها لنظره مع سنجار والرحبة وسائر تلك الأعمال التي لقريش، ورجع إلى بغداد سنة تسع وأربعين.

ثم بلغه سنة خمسين بعدها أنه سار إلى بلاد الجبل فاستراب به وبعث إليه يستقدمه بكتابه وكتاب القائم مع العهد الكندي فقدم معه. وفي خلال ذلك قصد البساسيري وقريش بن بدران الموصل فملكاها وجفلوا عنها فاتبعهم إلى نصيبين، وخالفه أخوه إبراهيم ينال إلى همذان في رمضان سنة خمسين. يقال: إن العلوي صاحب مصر والبساسيري كاتبوه واستمالوه وأطمعوه في السلطنة، فسار السلطان في اتباعه من نصيبين، ورد وزيره عميد الملك الكندي وزوجته خاتون إلى بغداد، ووصل إلى همذان ولحق به من كان ببغداد من الأتراك فحاصر همذان في قلعة من

العسكر، واجتمع لأخيه خلق كثير من الترك وحلف لهم أن لا يصالح طغرلبك ولا يدخل بهم العراق لكثرة نفقاته. وجاءه محمد وأحمد ابنا أخيه أرباش بأمداد من الغز فقوي بهم، ووهن طغرلبك فأفرج عنه إلى الري، وكاتب إلى أرسلان ابن أخيه داود، وقد كان ملك خراسان بعد أبيه سنة إحدى وخمسين كما يذكر في أخبارهم، فزحف إليه في العساكر ومعه أخوه ياقوت وقاروت بك، ولقيهم إبراهيم فيمن معه فانهزم، وجيء به وبابني أخيه محمد وأحمد أسرى إلى طغرلبك فقتلهم جميعاً ورجع إلى بغداد لاسترجاع القائم.

دخول البساسيري بغداد وخلع القائم ثم عوده

قد ذكرنا أن طغرلبك سار إلى همذان لقتال أخيه وترك وزيره عميد الملك الكندي ببغداد مع الخليفة، وكان البساسيري وقريش بن بدران فارقا الموصل عند زحف السلطان طغرلبك إليهما، فلما سار عن بغداد لقتال أخيه بهمذان خالفه البساسيري وقريش إلى بغداد فكثر الإرجاف بذلك، وبعث عن دبيس بن مزيد ليكون حاجبه ببغداد ونزلوا بالجانب الشرقي، وطلب من القائم الخروج معه إلى أحيائه، واستدعى هزارشب من واسط للمدافعة، واستمهل في ذلك فقال العرب: لا نشير فأشيروا بنظركم، وجاء البساسيري ثامن ذي القعدة سنة خمسين في أربعمائة غلام على غاية من سوء الحال ومعه أبو الحسين بن عبد الرحيم، وجاء حسين بن بدران في مائة فارس وخيموا مفترقين عن البلد، واجتمع العسكر والقوم إلى عميد العراق، وأقاموا إزاء البساسيري وخطب البساسيري ببغداد للمستنصر العلوي صاحب مصر بجامع المنصور، ثم بالرصافة، وأمر بالأذان بحي على خير العمل، وخيم بالزاهر، وكان هوى البساسيري لمذاهب الشيعة، وترك أهل السنة للانحراف عن الأتراك فرأى الكندي المطاولة لانتظار السلطان، ورأى رئيس الرؤساء المناجزة وكان غير بصير بالحرب، فخرج لقتالهم في غفلة من الكندي، فانهزم وقتل من أصحابه خلق ونهب باب الأزج وهو باب الخلافة.

وهرب أهل الحريم الخلافي فاستدعى القائم العميد الكندي للمدافعة عن دار الخلافة فلم يرعهم إلا اقتحام العدو عليهم من الباب النوبي، فركب الخليفة ولبس السواد، والنهب قد وصل باب الفردوس، والعميد الكندي قد استأمن إلى قريش فرجع ونادى بقريش من السور فاستأمن إليه على لسان رئيس الرؤساء، واستأمن هو أيضاً معه، وخرجا إليه وسارا معه ونكر البساسيري على قريش نقضه لما تعاهدا عليه، فقال: إنما تعاهدنا على الشركة فيما يستولي عليه، وهذا رئيس الرؤساء لك والخليفة لي.

ولما حضر رئيس الرؤساء عند البساسيري وبخه وسأله العفو فأبى منه، وحمل قريش القائم إلى معسكره على هيئته، ووضع خاتون بنت أخي السلطان طغرلبك في يد بعض الثقات من خواصه وأمره بخدمتها، وبعث القائم ابن عمه مهارش فسار به إلى بلده حديثة خان وأنزله بها. وأقام البساسيري ببغداد وصلى عيد النحر بالألوية المصرية وأحسن إلى الناس وأجرى أرزاق الفقهاء ولم يتعصب لمذهب. وأنزل أم القائم بدارها وسهل جرايتها، وولى محمود بن الأفرم على الكوفة، وسعى الفرات وأخرج رئيس الرؤساء من محبسه آخر ذي الحجة فصلبه عند التجيبي لخمسين سنة من تردده في الوزارة. وكان ابن ماكرلا قد قبل شهادته سنة أربع عشرة، وبعث البساسيري إلى المستنصر العلوي بالفتح والخطبة له بالعراق. وكان هنالك أبو الفرج ابن أخي أبي القاسم المغربي، فاستهان بفعله وخوفه عاقبته، وأبطأت أجوبته مدة، ثم جاءت بغير ما أمل، وسار البساسيري من بغداد إلى واسط والبصرة فملكها، وأراد قصر الأهواز فبعث صاحبها هزارشب بن شكر فأصلح أمره على مال يحمله.

ورجع البساسيري إلى واسط في شعبان سنة إحدى وخمسين، وفارقه صدقة بن منصور بن الحسين الأسدي إلى هزارشب، وقد كان ولى بغداد أباه على ما يذكر. ثم جاء الخبر إلى البساسيري بظفر طغرلبك بأخيه، وبعث إليه والي قريش في إعادة الخليفة إلى داره، ويقيم طغرلبك، وتكون الخطبة والسكة له فأبى البساسيري من ذلك، فسار طغرلبك إلى العراق، وانتهى إلى قصر شيرين، وأجفل الناس بين يديه. ورحل أهل الكرخ بأهليهم وأولادهم براً وبحراً، وكثر عيث بني شيبان في الناس، وارتحل البساسيري بأهله وولده سادس ذي القعدة سنة إحدى وخمسين لحول كامل من دخوله وكثر الهرج في المدينة والنهب والإحراق. ورحل طغرلبك إلى بغداد بعد أن أرسل من طريقه الأستاذ أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران بالشكر على فعله في القائم وفي خاتون بنت أخيه زوجة القائم، وأن أبا بكر بن فورك جاء بإحضارهما والقيام بخدمتهما.

وقد كان قريش بعث إلى مهارش بأن يدخل معهم إلى البرية بالخليفة ليصد ذلك طغرلبك عن العراق، ويتحكم عليه بما يريد فأبى مهارش لنقض البساسيري عهوده، واعتذر بأنه قد عاهد الخليفة القائم بما لا يمكن نقضه ورحل بالخليفة إلى العراق، وجعل

طريقه على بدران بن مهلهل. وجاء أبو فورك إلى بدر فحمله معه إلى الخليفة وأبلغه رسالة طغرلبك وهداياه، وبعث طغرلبك للقائم وزيره الكندي والأمراء والحجاب بالخيام والسرادقات والمقربات بالمراكب الذهبية فلقوه في بلد بدر. ثم خرج السلطان فلقيه بالنهروان واعتذر عن تأخره بوفاة أخيه داود بخرسان وعصيان إبراهيم بهمذان، وأنه قتله على عصيان. وأقام حتى رتب أولاد داود في مملكته وقال: إنه يسير إلى الشام في اتباع البساسيري. وطلب صاحب مصر فقلده القائم سيفه إذ لم يجد سواه، وأبدى وجهه للأمراء فحيوه وانصرفوا. وتقدم طغرلبك إلى بغداد فجلس في الباب النوبي مكان الحاجب، وجاء القائم فأخذ طغرلبك بلجام بغلته إلى باب داره وذلك لخمس بقين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وسار السلطان إلى معسكره وأخذ في تدبير أموره.

مقتل البساسيري

ثم أرسل السلطان طغرلبك خمارتكين في ألفين إلى الكوفة، واستقر معه سرايا بن منيع في بني خفاجة، وسار السلطان طغرلبك في أثرهم فلم يشعر دبيس وقريش والبساسيري وقد كانوا نهبوا الكوفة إلا والعساكر قد طلعت عليهم من طريق الكوفة، فأجفلوا نحو البطيحة. وسار دبيس ليرد العرب إلى القتال فلم يرجعوا، ومضى معهم، ووقف البساسيري وقريش فقتل من أصحابهما جماعة وأسر أبو الفتح بن ورام ومنصور بن بدران وحماد بن دبيس، وأصاب البساسيري سهم فسقط عن فرسه، وأخذ رأسه لمتكيرز وأتى العميد الكندري وحمله إلى السلطان، وغنم العسكر جميع أموالهم وأهليهم، وحمل رأس البساسيري إلى دار الخلافة فعلق قبالة النوبي في منتصف ذي الحجة. ولحق دبيس بالبطيحة ومعه زعيم الملك أبو الحسن عبد الرحيم، وكان هذا البساسيري من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة اسمه أرسلان وكنيته أبو الحارث ونسبه في الترك. وهذه النسبة المعروفة له نسبة إلى مدينة بفارس حرفها الأول متوسط بين الفاء والباء، والنسبة إليه فسوي، ومنها أبو علي الفارسي صاحب الإيضاح. وكان أولاً ينسب إليها فلذلك قيل فيه: هو بساسيري.

مسير السلطان إلى واسط وطاعة دبيس

ثم انحدر السلطان إلى واسط أول سنة اثنتين وخمسين وحضر عنده هزارشب بن شكر من الأهواز، وأصلح حال دبيس بن مزيد وصدقة بن منصور بن الحسين، أحضرهما عند السلطان وضمن واسط أبو علي بن فضلان بمائتي ألف دينار، وضمن البصرة الأغر أبو سعد سابور بن المظفر، وأصعد السلطان إلى بغداد، واجتمع بالخليفة، ثم سار إلى بلد الجبل في ربيع سنة اثنين وخمسين. وأنزل ببغداد الأمير برسو شحنة، وضمن أبو الفتح المظفر بن الحسين في ثلاث سنين بأربعمائة ألف دينار، ورد إلى محمود الأخرم إمارة بني خفاجة، وولاه الكوفة وسقي الفرات وخواص السلطان بأربعة آلاف دينار في كل سنة.

وزارة القائم

ولما عاد القائم إلى بغداد ولى أبا تراب الأشيري على الأنهار وحضور المراكب، ولقبه حاجب الحجاب، وكان خدمه بالحديثة ثم سعى الشيخ أبو منصور في وزارة أبي الفتح بن أحمد بن دارست على أن يحمل مالاً فأجيب وأحضر من الأهواز في منتصف ربيع من سنة ثلاث وخمسين فاستوزره وكان من قبل تاجراً لأبي كاليجار، ثم ظهر عجزه في استيفاء الأموال فعزله، وعاد إلى الأهواز. وقدم أثر ذلك أبو نصر بن جهير وزير نصير الدولة بن مروان نازعاً منه إلى الخليفة القائم فقبله واستوزره، ولقبه فخر الدولة.

عقد طغرلبك على ابنة الخليفة

كان السلطان طغرلبك قد خطب من القائم ابنته على يد أبي سعد قاضي الري سنة ثلاث وخمسين، فاستنكف من ذلك. ثم بعث أبا محمد التميمي في الاستعفاء من ذلك وإلا فيشترط ثلاثمائة ألف دينار وواسط وأعمالها. فلما ذكر التميمي ذلك للوزير عميد الملك بنى الأمر على الإجابة قال: ولا يحسن الاستعفاء، ولا يليق بالخليفة طلب المال، وأخبر السلطان بذلك فسر به وأشاعه في الناس ولقب وزيره عميد الملك وأتى أرسلان خاتون زوجة القائم ومعه مائة ألف ألف دينار وما يناسبها من الجواهر والجوار، وبعث معهم قرامرد بن كاكويه وغيره من أمراء الري، فلما وصلوا إلى القائم استشاط وهم بالخروج من بغداد. وقال له العميد: ما جمع لك في الأول بين الامتناع والاقتراح وخرج مغضباً إلى النهروان فاستوقفه قاضي القضاة والشيخ أبو منصور بن يوسف. وكتب من الديوان إلى خمارتكين من أصحاب السلطان بالشكوى من عميد الملك وجاءه الجواب بالرفق. ولم يزل عميد الملك يريض الخليفة وهو يتمنع إلى أن رحل في جمادى من سنة أربع وخمسين. ورجع إلى السلطان وعرفه بالحال، ونسب

القضية إلى خمارتكين فتنكر له السلطان وهرب، واتبعه أولاد نيال فقتلوه بثأر أبيهم، وجعل مكانه سارتكين وبعث للوزير بشأنه.

وكتب السلطان إلى قاضي القضاة والشيخ أبي منصور بن يوسف بالعتب، وطلب بنت أخي زوجة القائم فأجاب الخليفة حينئذ إلى الأصهار، وفوض إلى الوزير عميد الكندري عقد النكاح على ابنته للسلطان، وكتب بذلك إلى أبي الغنائم المجلبان فعقد عليها في شعبان من تلك السنة بظاهر تبريز. وحمل السلطان للخليفة أموالاً كثيرة وجواهر لولي العهد وللمخطوبة، وأقطع ما كان بالعراق لزوجته خاتون المتوفاة للسيدة بنت الخليفة. وتوجه السلطان في المحرم سنة خمس وخمسين من أرمينية إلى بغداد ومعه من الأمراء أبو علي بن أبي كاليجار وسرخاب بن بدر وهزار وأبو منصور بن قرامرد بن كاكويه، وخرج الوزير ابن جهير فتلقاه، وترك عسكره بالجانب الغربي، ونادى الناس بهم. وجاء الوزير ابن العميد لطلب المخطوبة فأفرد له القائم دوراً لسكناه وسكنى حاشيته، وانتقلت المخطوبة إليها وجلست على سرير ملبس بالذهب، ودخل السلطان فقبل الأرض، وحمل لها مالاً كثيراً من الجواهر وأولم أياماً، وخلع على جميع أمرائه وأصحابه، وعقد ضمان بغداد على أبي سعد الفارسي بمائة وخمسين ألف دينار، وأعاد ما كان أطلقه رئيس العراقين من المواريث والمكوس، وقبض على الأعرابي سعد ضامن البصرة، وعقد ضمان واسط على أبي جعفر بن فضلان بمائتي ألف.

وفاة السلطان طغرلبك وملك ابن أخيه داود

ثم سار السلطان طغرلبك من بغداد في ربيع الآخر إلى بلد الجبل، فلما وصل الري أصابه المرض وتوفي ثامن رمضان من سنة خمس وخمسين، وبلغ خبر وفاته إلى بغداد فاضطربت، واستقدم القائم مسلم بن قريش صاحب الموصل ودبيس بن مزيد وهزارشب صاحب الأهواز وبني ورام وبدر بن مهلهل فقدموا، وأقام أبو سعد الفارسي ضامن بغداد سوراً على قصر عيسى، وجمع الغلال، وخرج مسلم بن قريش من بغداد فنهب النواحي، وسار دبيس بن مزيد وبنو خفاجة وبنو ورام والأكراد لقتاله. ثم استتيب ورجع إلى الطاعة وتوفي أبو الفتح بن ورام مقدم الأكراد والجاوانية، وحمل العامة السلاح لقتال الأعراب فكانت سبباً لكثرة الذعار.

ولما مات طغرلبك بايع عميد الدولة الكندري بالسلطنة لسليمان بن داود، وجعفر بك، وكان ربيب السلطان طغرلبك خلف أخاه جعفر بك داود على أمه، وعهد إليه بالملك، فلما خطب له اختلف عليه الأمر وسار باغي سيان وأردم إلى قزوين فخطب لاخيه ألب أرسلان وهو محمد بن داود، وهو يومئذ صاحب خراسان ووزيره نظام الملك سار إلى المذكور، وسال الناس إليه وشعر الكندري باختلال أمره فخطب بالري للسلطان ألب أرسلان وبعده لأخيه سليمان. وزحف ألب أرسلان في العساكر من خراسان إلى الري فلقيه الناس جميعاً ودخلوا في طاعته، وجاء عميد الملك الكندري إلى وزيره نظام الملك فخدمه وهاداه فلم يغن عنه، وخشي السلطان غائلته فقبض عليه سنة ست وخمسين وحبسه بمرو الروذ.

ثم بعث بعد سنة من محبسه بقتله في ذي الحجة من سنة سبع وخمسين، وكان من أهل نيسابور كاتباً بليغاً. فلما ملك طغرلبك نيسابور، وطلب كاتباً فدله عليه الموفق والد أبي سهل فاستكتبه واستخلصه، وكان خصياً يقال: إن طغرلبك خصاه لأنه تزوج بامرأة خطبها له، وغطى عليه فظفر به فحاصره وأقره على خدمته. وقيل: أشاع عند أعدائه أنه تزوجها ولم يكن ذلك فخصى نفسه ليأمن غائلته، وكان شديد التعصب على الشافعية والأشعرية.

واستأذن السلطان في لعن الرافضة على منابر خراسان، ثم أضاف إليهم الأشعرية فاستعظم ذلك أئمة السنة. وفارق خراسان أبو القاسم القشيري ثم أبو المعالي إلى مكة فأقام أربعة سنين يتردد بين الحرمين يدرس ويفتي حتى لقب إمام الحرمين. فلما جاءت دولة ألب أرسلان أحضرهم نظام الملك وزيره فأحسن إليهم وأعاد السطان ألب أرسلان السيدة بنت الخليفة التي كانت زوجة طغرلبك إلى بغداد، وبعث في خدمتها الأمير أيتكين السليماني، وولاه شحنة ببغداد، وبعث معها أيضاً أبا سهل محمد بن هبة اللّه المعروف بابن الموفق لطلب الخطبة ببغداد فمات في طريقه، وكان من رؤساء الشافعية بنيسابور.

وبعث السلطان مكانه العميد أبا الفتح المظفر بن الحسين فمات أيضاً في طريقه، فبعث وزيره نظام الملك، وخرج عميد الملك ابن الوزير فخر الدولة بن جهير لتلقيهم، وجلس لهم القائم جلوساً فخماً في جمادى الأولى من سنة ست وخمسين، وساق الرسل بتقليد ألب أرسلان السلطنة، وسلمت إليهم الخلع بمشهد من الناس، ولقب ضياء الدولة، وأمر بالخطبة له على منابر بغداد، وأن يخاطب بالولد المؤيد حسب اقتراحه، فأرسل إلى الديوان لأخذ البيعة النقيب طراد الزينبي، فأرسل إليه بنقجوان من

أذربيجان وبايع وانتقض على السلطان ألب أرسلان من السلجوقية صاحب هراة وصغانيان، فسار إليهم وظفر بهم كما نذكر في أخبارهم ودولتهم عن أفرادها بالذكر. انتهى.

فتنة قطلمش والجهاد بعدها

كان قطلمش هذا من كبار السلجوقية وأقربهم نسباً إلى السلطان طغرلبك، وسن أهل بيته، وكان قد استولى على قومة وأقصراي وملطية، وهو الذي بعثه السلطان طغرلبك أول ما ملك بغداد سنة تسع وأربعين لقتال البساسيري وقريش بن بدران صاحب الموصل، ولقيهم على سنجار الري. فجهز ألب أرسلان العساكر من نيسابور في المحرم من سنة سبع وخمسين، وساروا على المفارقة فسبقوا قطلمش إلى الري، وجاء كتاب السلطان إليه ولقيه فلم يثبت ومضى منهزماً واستباح السلطان عسكره قتلاً وأسراً وأجلت الواقعة عنه قتيلاً، فحزن له السلطان ودفنه. ثم سار إلى بلاد الروم معتزماً على الجهاد، ومر بأذربيجان ولقيه طغرتكين من أمراء التركمان في عشيرة، وكان ممارساً للجهاد فحثه على قصده، وسلك دليلاً بين يديه فوصل إلى نجران على نهر أرس وأمر بعمل السفن لعبوره، وبعث عساكر لقتال خوي وسلماس من حصون أذربيجان، وسار هو في العساكر فدخل بلاد الكرخ وفتح قلاعها واحدة بعد واحدة كما نذكر في أخبارهم. ودوخ بلادهم وأحرق مدنهم وحصونهم، وسار إلى مدينة آي من بلاد الديلم فافتتحها وأثخن فيها وبعث بالبشائر إلى بغداد وصالحه ملك الكرخ على الجزية ورجع إلى أصبهان. ثم سار منها إلى كرمان فأطاعه أخوه قاروت بن داود جعفر بك. ثم سار إلى مرو وأصهر إليه خاقان ملك ما وراء النهر بابنته لابنه ملكشاه، وصاحب غزنة بابنته لابنه الآخر. انتهى.

العهد بالسلطنة لملكشاه بن ألب أرسلان

وفي سنة ثمان وخمسين عهد ألب أرسلان بالسلطنة لابنه ملكشاه، واستخلف له الأمراء وخلع عليهم وأمر بالخطبة في سائر أعماله، وأقطع بلخ لأخيه سليمان وخوارزم لأخيه أزعزا. ومرو لابنه أرسلان شاه، وصغانيان وطخارستان لأخيه إلياس ومازندران للأمير أبنايخ وبيغوا وجعل ولاية نقشوان ونواحيها لمسعود بن أزناس وكان وزيره نظام الملك قد ابتدأ سنة سبع وخمسين بناء المدرسة النظامية ببغداد، وتمت عمارتها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين، وعين للتدريس بها الشيخ إسحاق الشيرازي، واجتمع الناس لحضور درسه، وتخلف لأنه سمع أن في مكانها غصباً. وبقي الناس في انتظاره حتى يئسوا منه، فقال الشيخ أبو منصور: لا ينفصل هذا الجمع إلا عن تدريس، وكان أبو منصور الصباغ حاضراً فدرس وأقام مدرساً عشرين يوماً حتى سمع أبو إسحاق الشيرازي بالتدريس فاستقر بها.

وزراء الخليفة

كان فخر الدولة ابن جهير وزير القائم كما ذكرناه، ثم عزله سنة ستين وأربعمائة فلحق بنور الدولة دبيس بن مزيد بالقلوجة، وبعث القائم عن أبي يعلى والد الوزير أبي شجاع، وكان يكتب لهزارشب بن عوض صاحب الأهواز فاستقدمه ليوليه الوزارة، فقدم ومات في طريقه، وشفع دبيس بن مزيد في فخر الدولة بن جهير فأعيد إلى وزارته سنة إحدى وستين في صفر.

الخطبة بمكة

وفي سنة اثنتين وستين خطب محمد بن أبي هاشم بمكة للقائم وللسلطان ألب أرسلان، وأسقط خطبة العلوي صاحب مصر وترك حي على خير العمل من الأذان، وبعث ابنه وافداً على السلطان بذلك فأعطاه ثلاثين ألف دينار، وخلعاً نفيسة ورتب كل سنة عشرة آلاف دينار.

طاعة دبيس ومسلم بن قريش

كان مسلم بن قريش متقضاً على السلطان، وكان هزارشب بن شكر بن عوض قد أغرى السلطان بدبيس بن مزيد ليأخذ بلاده فانتقض. ثم هلك هزارشب سنة اثنتين وستين بأصبهان منصرفاً من وفادته على السلطان بخراسان، فوفد دبيس على السلطان ومعه مشرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل، وخرج نظام الملك لتلقيهما وأكرمهما السلطان ورجعا إلى الطاعة.

الخطبة العباسية بحلب واستيلاء السلطان عليها

كان محمود بن صالح بن مراد قد استولى هو وقومه على مدينة حلب، وكانت للعلوي صاحب مصر. فلما رأى إقبال دولة

ألب أرسلان وقوتها خافه على بلده فحملهم على الدخول في دعوة القائم، وخطب له على منابر حلب سنة ثلاث وستين، وكتب بذلك إلى القائم، فبعث إليه نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي بالخلع، ثم سار السلطان ألب أرسلان إلى حلب ومر بديار بكر فخرج إليه صاحبها ابن مروان وخدمه بمائة ألف دينار. ومر بآمد فامتنعت عليه وبالرها كذلك. ثم نزل على حلب وبعث إليه صاحبها محمود مع نقيب النقباء طراد بالاستعفاء من الحضور فألح في ذلك وحاصره فلما اشتد عليه الحصار خرج ليلاً إلى السلطان، ومعه أمه منيعة بنت رتاب النميري ملقياً بنفسه فأكرمه السلطان وخلع عليه وأعاده إلى بلده فقام بطاعته.

واقعة السلطان مع ملك الروم وأسره

كان ملك الروم في القسطنطينية وهو أرمانوس قد خرج سنة اثنتين وستين إلى بلاد الشام في عساكر كثيفة، ونزل على منبج ونهبها وقتل أهلها، وزحف إليه محمود بن صالح بن مرداس وابن حسان الطائي في بني كلاب وطيئ ومن إليهم من جموع العرب فهزمهم، وطال عليه المقام على منبج وعزت الأقوات فرجع إلى بلاده، واحتشد وسار في مائتي ألف من الزنج والروم والروس والكرخ، وخرج في احتفال إلى أعمال خلاط ووصل إلى ملازجرد. وكان السلطان ألب أرسلان بمدينة خوي من أذربيجان عند عوده من حلب فتشوق إلى الجهاد، ولم يتمكن من الاحتشاد، فبعث أثقاله وزوجته مع نظام الملك إلى همذان وسار فيمن حضره من العساكر، وكانوا خمسة عشر ألفاً ووطن نفسه على الاستماتة، فلقيت مقدمته عند خلاط جموع الروسية في عشرة آلاف فانهزموا وجيء بملكهم إلى السلطان فجبسه، وبعث بالأسلاب إلى نظام الملك ليرسلها إلى بغداد.

ثم تقارب العسكران وجنح السلطان للمهادنة فأبى ملك الروم فاعتزم السلطان وزحف وأكثر من الدعاء والبكاء. وعفر وجهه بالتراب. ثم حمل عليهم فهزمهم وامتلأت الأرض بأشلائهم وأسر الملك أرمانوس، جاء به بعض الغلمان أسيراً فضربه السلطان على رأسه ثلاثاً ووبخه. ثم فاداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وعلى أن يطلق كل أسير عنده. وأن تكون عساكر الروم مدداً للسلطان متى يطلبها. وتم الصلح على ذلك لمدة خمسين سنة. وأعطاه السلطان عشرة آلاف دينار وخلع عليه وأطلقه، ووثب ميخائيل على الروم فملك عليهم مكان أرمانوس فجمع ما عنده من الأموال فكان مائتي ألف دينار، وجيء بطبق مملوء بجواهر قيمته تسعون ألف. ثم استولى أرمانوس بعد ذلك على أعمال الأرمن وبلادهم.

شحنة بغداد

قد ذكرنا أن السلطان ألب أرسلان ولى لأول ملكه أيتكين السليماني شحنة بغداد سنة ست وخمسين فأقام فيها مدة، ثم سار إلى السلطان في بعض مهماته، واستخلف ابنه مكانه فأساء السيرة، وقتل بعض المماليك الداوية فأنفذ قميصه من الديوان إلى السلطان، وخوطب بعزله. وكان نظام الملك يعني به فكتب فيه بالشفاعة، وورد سنة أربع وستين فقصد دار الخلافة وسأل العفو فلم يجب، وبعث إلى تكريت ليسوغها بإقطاع السلطان فبرز المرسوم من ديوان الخلافة بمنع ذلك. ولما رأى السلطان ونظام الملك إصرار القائم على عزله، بعث السلطان مكانه سعد الدولة كوهرابين اتباعا لمرضاة الخليفة. ولما ورد بغداد خرج الناس للقائه وجلس له القائم واستقر شحنة.

مقتل السلطان ألب أرسلان وملك ابنه ملكشاه

سار السلطان ألب أرسلان محمد إلى ما وراء النهر، وصاحبه شمس الملك تكين، وذلك سنة خمس وستين، وعبر على جسر عقده على جيحون في نيف وعشرين يوماً، وعسكره تزيد على مائتي ألف. وجيء له بمستحفظ القلاع، ويعرف بيوسف الخوارزمي فأمر بعقابه على ارتكابه فأفحش في سب السلطان فغضب وأمر بإطلاقه، ورماه بسهم فأخطأه، فسير إليه يوسف، وقام السلطان عن سريره فعثر ووقع فضربه بسكينة، وضرب سعد الدولة، ودخل السلطان خيمته جريحاً. وقتل الأتراك يوسف هذا، ومات السلطان من جراحته عاشر ربيع سنة خمس وستين لتسع سنين ونصف من ملكه، ودفن بمرو عند أبيه. وكان كريماً عادلا كثير الشكر لنعمة اللّه والصدقة، واتسع ملكه حتى قيل فيه سلطان العالم.

ولما مات وقد أوصى بالملك لابنه ملكشاه فجلس للملك، وأخذ له البيعة وزيره نظام الملك، وأرسل إلى بغداد فخطب له على منابرها. وكان ألب أرسلان أوصى أن يعطي أخوه قاروت بك أعمال فارس وكرمان وشيء عينه من المال، وكان بكرمان. وأن يعطي ابنه إياس بن ألب أرسلان ما كان لأبيه داود، وهو

خمسمائة ألف دينار، وعهد بقتال من لم يقض بوصيته. وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر فعبر الجسر في ثلاثة أيام. وزاد الجند في أرزاقهم سبعمائة ألف دينار، ونزل نيسابور وأرسل إلى ملوك الأطراف بالطاعة والخطبة فأجابوا. وأنزل أخاه إياس بن ألب أرسلان ببلخ وسار إلى الري. ثم فوض إلى نظام الملك وأقطعه مدينة طوس التي هي منشؤه وغيرها، ولقبه ألقاباً منها: أتابك ومعناها الأمير الوالد، فحمل الدولة بصرامة وكفاية وحسن سيرة، وبعث كوهرابين الشحنة إلى بغداد سنة ست وستين لاقتضاء العهد، فجلس له القائم وعلى رأسه حافده وولي عهده المقتدي بأمر الله، وسلم إلى سعد الدولة كوهرابين عهد السلطان ملكشاه بعد أن قرأ الوزير أوله في المحفل وعقد له اللواء بيده ودفعه إليه.

وفاة القائم ونصب المقتدي للخلافة

ثم توفي القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر افتصد منتصف شعبان من سنة سبع وستين ونام فانفجر فصاده، وسقطت قوته. ولما أيقن بالموت أحضر حافده أبا القاسم عبد الله ابن ابنه ذخيرة الدين محمد، وأحضر الوزير ابن جهير والنقباء والقضاة وغيرهم، وعهد له بالخلافة. ثم مات لخمس وأربعين سنة من خلافته وصلى عليه المقتدي، وبويع بعهد جده، وحضر بيعته مؤيد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الدولة بن جهير وابنه عميد الدولة، وأبو إسحاق الشيرازي وأبو نصر بن الصباغ، ونقيب النقباء طراد، والنقيب الطاهر المعمر بن محمد، وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني، وغيرهم من الأعيان والأماثل. ولما فرغوا من البيعة صلى بهم العصر ولم يكن للقائم عقب ذكر غيره لأن ابنه ذخيرة الدين أبا العباس محمداً توفي في حياته ولم يكن له غيره فاعتمد القائم لذلك.

ثم جاءت جاريته أرجوان بعد موته لستة أشهر بولد ذكر فعظم سرور القائم به، ولما كان حادثة البساسيري حمله أبو الغنائم بن المجلبان إلى حران وهو ابن أربع سنين، وأعاده عند عود القائم إلى داره. فلما بلغ الحلم عهد له القائم بالخلافة ولما تمت بيعته لقب المقتدي وأقر فخر الدولة بن جهير على وزارته بوصية جده القائم بذلك. وبعث ابن عميد الدولة إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة في رمضان من سنة سبع وستين، وبعث معه من الهدايا ما يجل عن الوصف. وقدم سعد الدولة كوهرابين سنة ثمان وستين إلى بغداد شحنة، ومعه العميد أبو نصر ناظراً في أعمال بغداد، وقدم مؤيد الملك ابن نظام الملك سنة سبعين للإقامة ببغداد، ونزل بالدار التي بجوار مدرستهم.

عزل الوزير ابن جهير ووزارة أبي شجاع

كان أبو نصر بن الأستاذ أبي القاسم القشيري قد حج سنة تسع وستين، فورد بغداد منصرفاً من الحج، ووعظ الناس بالنظامية، وفي رباط شيخ الشيوخ، ونصر مذهب الأشعري فأنكر عليه الحنابلة، وكثر التعصب من الجانبين، وحدثت الفتنة والنهب عند المدرسة النظامية، فأرسل مؤيد الملك إلى العميد والشحنة فحضروا في الجند، وعظمت الفتنة ونسب ذلك إلى الوزير فخر الدولة بن جهير، وعظم ذلك على عضد الدولة فأعاد كوهرابين إلى الشحنة ببغداد وأوصاه المقتدي بعزل فخر الدولة من الوزارة، وأمر كوهرابين بالقبض على أصحابه ونمي الخبر إلى بني جهير فبادر عميد الدولة ابن الوزير إلى نظام الملك يستعطفه. ولما بلغ كوهرابين رسالة الملك إلى المقتدي أمر فخر الدولة بلزوم منزله. ثم جاء ابنه عميد الدولة، وقد استصلح نظام الملك في الشفاعة لهم، فأعيد عميد الملك إلى الوزارة دون أبيه فخر الدولة وذلك في صفر سنة اثنتين وسبعين.

استيلاء تُتُش بن ألب أرسلان على دمشق وابتداء دولته نفيه فيها

كان أتسز- بهمزة وسين وزاي- بن أبق الخوارزمي من أمراء السلطان ملك شاه وقد سار سنة ثلاث وستين إلى فلسطين من الشام ففتح مدينة الرملة، ثم حاصر بيت المقدس وفتحها من يد العلويين أصحاب مصر، وملك ما يجاورها ما عدا عسقلان. ثم حاصر دمشق حتى جهدها الحصار فرجع وبقي يردد الغزوات إليها كل سنة. ثم حاصرها سنة سبع وستين وبها المعلى بن حمدرة من قبل المنتصر العبيدي فأقام عليها شهراً. ثم أقلع ديار أهل دمشق بالمعلى لسوء سيرته فهرب إلى بانياس ثم إلى صور، ثم أخذ إلى مصر وجلس بها ومات محبوساً واجتمع المصامدة بعد هربه من دمشق وولوا عليهم انتصار بن يحيى المصمودي ولقبوه زين الدولة. ثم اختلفوا عليه ووقعت الفتنة، وغلت الأسعار ورجع أتسز إلى حصارها فنزل له عنها انتصار على الأمان، وعوضه عنها بقلعة بانياس ومدينة يافا من الساحل، وخطب فيها أتسز للمقتدي العباسي في ذي القعدة سنة ثمان وستين.

وتغلب على أكثر الشام ومنع من الأذان بحي على خير العمل. ثم سار سنة تسع وستين إلى مصر وحاصرها حتى أشرف على أخذها. ثم انهزم من غير قتال ورجع إلى دمشق وقد انتقض عليه أكثر بلاد الشام، فشكر لأهل دمشق صونهم لمخلفه وأمواله، ورفع عنهم خراج سنة. وبلغه أن أهل القدس وثبوا بأصحابه ومخلفه وحصروهم في محراب داود عليه السلام، فسار إليهم وقاتلوه فملكهم عنوة وقتلهم في كل مكان إلا من كان عند الصخرة.

ثم إن السلطان ملك شاه أقطع أخاه تاج الدولة تتش سنة سبعين وأربعمائة بلاد الشام وما يفتحه من نواحيها، فسار إلى حلب سنة إحدى وسبعين وحاصرها وضيق عليها، وكانت معه جموع كثيرة من التركمان. وكان صاحب مصر قد بعث عساكره مع قائده نصير الدولة لحصار دمشق فأحاطوا بها، وبعث أتسز إلى تتش وهو على حلب يستمده فسار إليه، وأجفلت العساكر المصرية عن دمشق، وجاء إليها تتش فخرج أتسز للقائه بظاهر البلد فتجني عليه حيث لم يستعد للقائه، وقبض عليه وقتله لوقته، وملك البلد وأحسن السيرة فيها وذلك سنة إحدى وسبعين فيما قال الهمذاني. وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: إن ذلك كان سنة اثنتين وسبعين. وقال ابن الأثير والشاميون في هذا الاسم: أقسلس والصحيح أنه أتسز وهو اسم تركي.

سفارة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي عن الخليفة

كان عميد العراق أبو الفتح بن أبي الليث قد أسار السيرة وأساء إلى الرعية وعسفهم، واطرح جانب الخليفة المقتدي وحواشيه فاستدعى المقتدي الشيخ أبا إسحاق الشيرازي وبعثه إلى السلطان ملك شاه والوزير نظام الملك بالشكوى من ابن العميد، فسار لذلك ومعه جماعة من أعيان الشافعية منهم أبو بكر الشاشي وغيره، وذلك سنة خمس وخمسين. وتنافس أهل البلاد في لقائه والتمسح بأطرافه والتماس البركة في ملبوسه ومركوبه، وكان أهل البلاد إذا مر بهم يتسايلون إليه ويزدحمون على ركابه، وينشدون على موكبه كل أحد ما يناسب ذلك، وصدر الأمر بإهانة ابن العميد ورفع يده عما يتعلق بحواشي المقتدي، وجرى بينه وبين إمام الحرمين مناظرة بحضرة نظام الملك ذكرها الناس في كتبهم. انتهى.

عزل ابن جهير عن الوزارة وإمارته على ديار بكر

ثم إن عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير عزله الخليفة المقتدي عن الوزارة ووصل يوم عزل رسول من قبل السلطان ونظام الملك يطلب بني جهير فأذن لهم وساروا بأهلهم إلى السلطان فلقَّاهم كرامة وبراً، وعقد لفخر الدولة على ديار بكر مكان بني مروان وبعث معه العساكر سنة وأعطاه الآلة وأذن له أن يخطب فيها لنفسه، ويكتب اسمه في السكة فسار لذلك سنة ست وسبعين ثم بعث إليه السلطان سنة سبع وسبعين بمدد العساكر مع الأمير أرتق بن أكسب جل أصحاب ماردين لهذا العهد، وكان ابن مروان قد استمد فخر الدولة بن جهير بنواحيها، وكان معه جماعة من التركمان فتقدموا إلى قتل مشرف الدولة، وانهزم أمامهم وغنم التركمان من كان معه من أحياء العرب، ودخل آمد فحصره بها فخر الدولة وأرتق، فراسل أرتق ويذل له مالاً على الخروج من ناحيته، فأذن له وخرج. ورجع ابن جهير إلى ميافارقين ومعه بهاء الدولة منصور بن مزيد صاحب الحلة والنيل والجامعين وابنه سيف الدولة صدقة ففارقوه إلى العراق، وسار هو إلى خلاط.

وكان السلطان لما بلغه انهزام مشرف الدولة وحصاره بآمد بعث عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير في عسكره إلى الموصل ومعه قسيم الدولة أقسنقر جد نور الدين العادل، وكاتب أمراء التركمان بطاعته وساروا إلى الموصل فملكوها. وسار السلطان بنفسه إليها وقارن ذلك خلوص مشرف الدولة من حصار آمد فراسل مؤيد الدولة بن نظام الملك وهو على الرحبة، وأهدى له فسعى له عند السلطان وأحضره وأهدى للسلطان سوابق خيله وصالحه وأقره على بلاده، وعاد إلى خراسان. ولم يزل فخر الدولة بن جهير في طلب ديار بكر حتى ملكها. فأنفذ إليه زعيم الرؤساء القاسم سنة ثمان وسبعين، وحاصرها وضيق عليها حتى غدر بها بعض أهل العسكر من خارج وملكها. وعمد أهل البلد إلى بيوت النصارى بينهم فنهبوها بما كانوا عمال بني مروان، وكان لهم جور على الناس.

وكان فخر الدولة مقيماً على ميافارقين محاصراً لها، وجاءه سعد الدولة كوهرابين في العسكر مدداً من عند السلطان فخرج في حصارها وسقط بعض الأيام جانب من سورها فدهش أهل البلد وتنادوا بشعار السلطان ملك شاه، واقتحم فخر الدولة البلد واستولى على ما كان لبني مروان، وبعث بأموالهم إلى السلطان مع ابنه زعيم الرؤساء فلحقه بأصبهان سنة ثمان وسبعين. ثم بعث

فخر الدولة أيضاً عسكراً إلى جزيرة ابن عمر وحاصروها حتى جهدهم الحصار، فوثب طائفة من أهل البلد بعاملها، وفتحوا الباب، ودخل مقدم العسكر فملك البلد ودخل سنة ثمان وسبعين. وانقرضت دولة بني مروان من ديار بكر واستولى عليها فخر الدولة بن جهير، ثم أخذها السلطان من يده وسار إلى الموصل فتوفي بها، وكان مولده بها واستخدم لبرلة بن مقلة وسفر عنه إلى ملك الروم. ثم سار إلى حلب ووزر لمعز الدولة أبي هال بن صالح. ثم مضى إلى ملطية ثم إلى مروان بديار بكر، فوزر له ولولده. ثم سار إلى بغداد ووزر للخليفة كما مر في آخر ما ذكرنا، وتوفي سنة ثلاث وثمانين. انتهى.

خبر الوزارة

لما عزل الخليفة المقتدي عميد الدولة عن الوزارة سنة ست وسبعين رتب في الديوان أبا الفتح المظفر بن رئيس الرؤساء. ثم استوزر أبا شجاع محمد بن الحسين فلم يزل في الوزارة إلى سنة أربع وثمانين فتعرض لأبي سعد بن سمحاء اليهودي وكان وكيلاً للسلطان، ونظام الملك، وسار كوهرابين الشحنة إلى السلطان بأصبهان، فمضى اليهودي في ركابه، وسمع المقتدي بذلك فخرج توقيعه بإلزام أهل الذمة بالغيار فأسلم بعضهم وهرب بعضهم. وكان ممن أسلم أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب بن موصلايا الكاتب وقرابته، ولما وصل كوهرابين وأبو سعد إلى السلطان وعظمت سعايتهما في الوزير أبي شجاع فكتب السلطان ونظام الملك إلى المقتدي في عزله فعزله، وأمره بلزوم بيته، وولى مكانه أبا سعد بن موصلايا الكاتب، وبعث المقتدي إليهما في عميد الدولة بن جهير فبعثا به إليه واستوزره سنة أربع وثمانين، وركب إليه نظام الدولة فهنأه بالوزارة في بيته، وتوفي الوزير أبو شجاع سنة ثمان وثمانين.

استيلاء السلطان على حلب

قد ذكرنا من قبل استيلاء السلطان ألب أرسلان على حلب، وخطبة صاحبها محمود بن صالح بن مرداس على منابره باسمه سنة ثلاث وستين. ثم عاد بعد ذلك إلى طاعة العلوية بمصر. ثم انتقضت دولة بني مرداس بها، وعادت رياستها شورى في مشيختها، وطاعتهم لمسلم بن قريش صاحب الموصل، وكبيرهم ابن الحثيثي. واستقر ملك سليمان بن قطلمش ببلاد الروم، وملك أنطاكية سنة سبع وسبعين. وتنازع مع مشرف الدولة ابن قريش ملك حلب وتزاحفا فقتل سليمان بن قطلمش مسلم بن قريش سنة تسع وسبعين. وكتب إلى أهل حلب يستدعيهم إلى طاعته فاستمهلوه إلى أن يكاتبوا السلطان ملك شاه. فإن الكل كانوا في طاعته وكتبوا إلى تتش أخي السلطان وهو بدمشق أن يملكوه فسار إليهم ومعه أرتق بن أكسب، كان قد لحق به عندما جاء السلطان إلى الموصل وفتحها خشية مما فعله في خلاص مسلم بن قريش من حصار آمد فأقطعه تتش بيت المقدس.

فلما جاء تتش إلى حلب وحاصر القلعة، وبها سالم بن مالك بن بدران ابن عم مشرف الدولة مسلم بن قريش، وكان ابن الحثيثي وأهل حلب قد كاتبوا السلطان ملك شاه أن يسلموا إليه البلد، فسار من أصبهان في جمادى سنة تسع وستين، ومر بالموصل ثم بحران فتسلمها وأقطعها محمد بن مسلم بن قريش، ثم بالرها فملكها من يد الروم، ثم بقلعة جعفر فحاصرها وملكها من يد بعض بني قشير، ثم بنبج فملكها ثم عبر الفرات إلى حلب فأجفل أخوه تتش إلى البرية ومعه أرتق. ثم عاد إلى دمشق وكان سالم بن مالك ممتنعاً بالقلعة فاستنزله منها وأقطعه قلعة جعبر فلم تزل بيده ويد بنيه حتى ملكها منهم نور الدين العادل، وبعث إلى السلطان بالطاعة على شيراز، وولى السلطان على حلب قسيم الدولة صاحب شيراز نصر بن علي بن منقذ الكناني وسلم إليه اللاذقية وكفرطاب وفامية، فأقر على شيراز، وولى السلطان على حلب قسيم الدولة أقسنقر جد نور الدين العادل، ورحل إلى العراق وطلب أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحثيثي فحمله معه وأنزله بديار بكر فتوفي فيها بحال أملاق.

ودخل السلطان بغداد في ذي الحجة من سنة تسع وسبعين وأهدى إلى المقتدي وخلع عليه الخليفة، وقد جلس له في مجلس حفل ونظام الملك قائم يقدم أمراء السلطان واحداً بعد واحد آخر للسلام للخليفة، ويعرف بأسمائهم وأنسابهم ومراتبهم. ثم فوض الخليفة المقتدي إلى السلطان أمور الدولة، وقبل يده وانصرف. ودخل نظام الملك إلى مدرسته فجلس في خزانة الكتب وأسمع جزء حديث وأملى آخر. وأقام السلطان في بغداد شهراً ورحل في صفر من سنة ثمانين إلى أصبهان وجاء إلى بغداد مرة أخرى في رمضان من سنة أربع وثمانين ونزل بدار الملك وقدم عليه أخوه تاج الدولة تتش وقسيم الدولة أقسنقر من حلب، وغيرهما من أمراء النواحي. وعمل ليلة الميعاد من سنة خمس وثمانين، ولم ير أهل بغداد مثله وأخذ الأمراء في بناء الدور ببغداد لسكناهم عند قدومهم فلم تمهلهم الأيام لذلك.

فتنة بغداد

كانت مدينة بغداد قد احتفلت في كثرة العمران بما لم تنته إليه مدينة في العالم منذ مبدء الخليقة فيما علمناه، واضطربت آخر الدولة العباسية بالفتن، وكثر فيها المفسدون والدعار والعيارون من الرها، وأعيا على الحكام أمرهم، وربما أركبوا العساكر لقتالهم ويثخنون فيهم فلم يحسم ذلك من عللهم شيئاً وربما حدثت الفتن من أهل المذاهب ومن أهل السنة والشيعة من الخلاف في الإمامة ومذاهبها، وبين الحنابلة والشافعية وغيرهم من تصريح الحنابلة بالتشبية في الذات والصفات، ونسبتهم ذلك إلى الإمام أحمد، وحاشاه منه، فيقع الجدال والنكير ثم يفضي إلى الفتنة بين العوام. وتكرر ذلك منذ حجر الخلفاء. ولم يقدر بنو بويه ولا السلجوقية على حسم ذلك منها لسكنى أولئك بفارس، وهؤلاء بأصبهان، وبعدهم عن بغداد والشوكة التي تكون بها حسم العلل لاتفاقهم. وإنما تكون ببغداد شحنة تحسم ما خف من العلل ما لم ينته إلى عموم الفتنة، ولم يحصل من ملوكهم اهتمام لحسم ذلك لاشتغالهم بما هو أعظم منه في الدولة والنواحي. وعامة بغداد أهون عليهم من أن يصرفوا همتهم عن العظائم إليهم فاستمرت هذه العلة ببغداد، ولم يقلع عنها إلى أن اختلفت جدتها وتلاشى عمرانها، وبقي طراز في ردائها لم تذهبه الأيام.

مقتل نظام الملك وأخباره

كان من أبناء الدهاقين بطوس أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق، فشب وقرأ بها وسمع الحديث الكبير وتعلق بالأحكام السلطانية وظهرت فيها كفايته، وكان يعرف بحسن الطوسي. وكان أميره الذي يستخدمه يصادره كل سنة فهرب منه إلى داود وحفري بك، وطلبه مخدومه الأمير فمنعه، وخدم أبا علي بن شاذان متولي الأعمال ببلخ لحفري بك أخي السلطان طغرلبك، وهو والد السلطان ألب أرسلان. ولما مات أبو علي وقد عرف نظام الملك هذا بالكفاية والأمانة أوصى به ألب أرسلان فأقام بأمور دولته ودولة ابنه ملك شاه من بعده، وبلغ المبالغ كما مر واستولى على الدولة.

وولى أولاده الأعمال وكان فيمن ولاه منهم ابن ابنه عثمان جمال. وولّي على مرو، وبعث السلطان إليها شحنة من أعظم أمرائه، وقع بينه وبين عثمان نزاع فحملته الحداثة والأدلال بجاهه على أن قبض على الأمير وعاقبه، فانطلق إلى السلطان مستغيثاً، وامتعض لها السلطان وبعث إلى نظام الملك بالنكير مع خواصه وثقاته فحملته الدالة على تحقيق تعديد حقوقه على السلطان، وإطلاق القول في العتاب والتهديد بطوارق الزمن. وأرادوا طي ذلك عن السلطان فوشى به بعضهم. فلما كان رمضان من سنة خمس وثمانين، والسلطان على نهاوند عائداً من أصبهان إلى بغداد، وقد انصرف الملك يومه ذلك من خيمة السلطان إلى خيمته، فاعترضه صبي قيل إنه من الباطنية في صورة مستغيث فطعنه بسكينة فمات، وهرب الصبي فأدرك وقتل، وجاء السلطان إلى خيمة نظام الملك يومه، وسكن أصحابه وعسكره، وذلك لثلاثين سنة من وزارته سوى ما وزر لأبيه ألب أرسلان أيام إمارته بخراسان.

وفاة السلطان ملك شاه وملك ابنه محمود

لما قتل نظام الملك على نهاوند كما ذكرناه سار السلطان لوجهه، ودخل بغداد آخر رمضان من سنته، ولقيه الوزير عميد الدولة بن جهير واعتزم السلطان أن يولي وزارته تاج الملك وهو الذي سعى بنظام الملك، وكانت قد ظهرت كفايته. فلما صلى السلطان العيد عاد إلى بيته وقد طرقه المرض، وتوفي منتصف شوال، فكتمت زوجته تركمان خاتون موته وأنزلت أموالها وأموال أهل الدولة بحريم دار الخلافة، وارتحلت إلى أصبهان. وسلّوا السلطان معها في تابوته وقد بذلت الأموال للأمراء على طاعة ابنها محمود والبيعة له فبايعوه، وقدمت من طريق قوام الدولة كربوقا الذي ملك الموصل من بعد ذلك، فسار بخاتم السلطان لنائب القلعة وتسلمها. ولما بايعت لولدها محمود وعمره يومئذ أربع سنين بعثت إلى الخليفة المقتدي في الخطبة له فأجابها على شرط أن يكون أثر من أمراء أبيه هو القائم بتدبير الملك، وأن يصدر عن رأي الوزير تاج الملك، ويكون له ترتيب العمال وجباية الأموال فأبت أولاً من قبول هذا الشرط، حتى جاءها الإمام أبو حامد الغزالي وأخبرها أن الشرع لا يجيز تصرفاته فأذعنت لذلك، فخطب لابنها آخر شوال من السنة، ولقب ناصر الدولة والدين، وكتب إلى الحرمين الشريفين فخطب له بهما.

ثورة بَرْكَيارُق بملك شاه

كانت تركمان خاتون عند موت السلطان ملك شاه قد كتمت موته وبايعت لابنها محمود كما قلناه، وبعثت إلى أصبهان سراً في القبض على بركيارق ابن السلطان ملك شاه خوفاً من أن

ينازع ابنها محموداً فحبس. فلما ظهر موت ملك شاه وثب مماليك بركيارق نظام الملك على سلاح كان له بأصبهان وثاروا في البلد وأخرجوا بركيارق من محبسه وبايعوه وخطبوا له بأصبهان. وكانت أمه زبيدة بنت عم ملك شاه وهو ياقوتي خائفة على ولدها من خاتون أم محمود، وكان تاج الملك قد تقدم إلى أصبهان وطالبه العسكر بالأموال فطلع إلى بعض القلاع لينزل منها المال وامتنع فيها خوفاً من مماليك نظام الملك. ولما وصلت تركمان خاتون إلى أصبهان جاءها فقبلت عذره. وكان بركيارق لما أقامت خاتون ابنها محموداً بأصبهان خرج فيمن معه من النظامية إلى الري واجتمع معه بعض أمراء أبيه وبعثت خاتون العساكر إلى قتاله، وفيهم أمراء ملك شاه. فلما تراءى الجمعان هرب كثير من الأمراء إلى بركيارق واشتد القتال فانهزم عسكر محمود وخاتون، وعادوا إلى أصبهان وسار بركيارق في أثرهم فحاصرهم بها.

مقتل تاج الملك

كان الوزير تاج الملك قد حضر مع عسكر خاتون وشهد وقعة بركيارق. فلما انهزموا سار إلى قلعة يزدجرد فحبس في طريقه، وحمل إلى بركيارق وهو محاصر أصبهان، وكان يعرف كفايته فأجمع ان يستوزره، وأصلح هو النظامية وبذل لهم مائتي ألف دينار واسترضاهم بها. ونمي ذلك إلى عثمان نائب نظام الملك فوضع الغلمان الأصاغر عليه الطالبين ثار سيدهم وأغراهم فقتلوه وقطعوه قطعاً وذلك في المحرم سنة ست وثمانين. ثم خرج إلى بركيارق من أصبهان وهو محاصر لها عز الملك أبو عبد الله بن الحسين بن نظام الملك وكان على خوارزم، ووفد على السلطان ملك شاه قبل مقتل أبيه. ثم كان ملكهما فأقام هو بأصبهان وخرج إلى بركيارق وهو يحاصرها فاستوزره وفوض إليه أمر دولته. انتهى.

الخطبة لبركيارق ببغداد

ثم قدم بركيارق بغداد سنة ست وثمانين، وطلب من المقتدي الخطبة فخطب له على منابرها ولقب ركن الدين وحمل الوزير عميد الدولة بن جهير إليه الخلع فلبسها وتوفي المقتدي وهو مقيم ببغداد.

وفاة المقتدي ونصب المستظهر للخلافة

ثم توفي المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله في منتصف محرم سنة سبع وثمانين، وكان موته فجأة، أحضر عنده تقليد السلطان بركيارق ليعلم عليه فقرأه ووضعه. ثم قدم إليه طعام فأكل منه ثم غشي عليه فمات، وحضر الوزير فجهزوا جنازته وصلى عليه ابنه أبو العباس أحمد ودفن وذلك لتسع عشرة سنة وثمانية أشهر من خلافته. وكانت له قوة وهمة لولا أنه كان مغلباً، وعظمت عمارة بغداد في أيامه، وأظن ذلك لاستفحال دولة بني طغرلبك. ولما توفي المقتدي وحضر الوزير أحضر ابنه أبا العباس أحمد الحاشية فبايعوه ولقبوه المستظهر، وركب الوزير إلى بركيارق وأخذ بيعته للمستظهر. ثم حضر بركيارق لثالثة من وفاته ومعه وزيره عز الملك بن نظام الملك وأخوه بهاء الملك، وأمر السلطان بأرباب المناصب فجمعوا وحضر النقيبان طراد العباسي والمعمر العلوي، وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني والغزالي والشاشي وغيرهم فحبسوا في العراء وبايعوا.

أخبار تتش وانتقاضه وحروبه ومقتله

قد ذكرنا فيما تقدم أن تتش بن السلطان ألب أرسلان استقل بملك دمشق وأعمالها، وأنه وفد على السلطان ملك شاه ببغداد قبل موته وانصرف، وبلغه خبر وفاته بهيت فملكها وسار إلى دمشق فجمع العساكر، وزحف إلى حلب فأطاعه صاحبها قسيم الدولة أقسنقر. وسار معه، وكتب إلى ناعيسان صاحب أنطاكية وإلى برار صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تتش حتى يصلح حال أولاد ملك شاه فقبلوا منه، وخطبوا له في بلادهم وساروا معه فحضر الرحبة وملكها في المحرم سنة ست وثمانين، وخطب فيها لنفسه. ثم فتح نصيبين عنوة وعاث فيها وسلمها لمحمد بن مشرف الدولة وسار يريد الموصل ولقيه الكافي فخر الدولة بن جهير وكان في جزيرة ابن عمر فاستوزره وبعث إلى إبراهيم بن مشرف الدولة مسلم بن قريش وهو يومئذ ملك الموصل يأمره بالخطبة له، وتسهيل طريقه إلى بغداد فأبى من ذلك وزحف إليه تتش وهو في عشرة آلاف وأقسنقر على ميمنته وتوزران على ميسرته، وإبراهيم في ستين ألفاً والتقوا فانهزم إبراهيم وأخذ أسيراً وقتل جماعة من أمراء العرب صبراً، وملك تاج الدولة تتش الموصل، وولى عليها علي بن مشرف الدولة. وفوض إليه أمر صفية عمة تتش وبعث إلى بغداد يطلب مساعدة

كوهرايين الشحنة فجاء العذر بانتظار الرسل من العسكر، فسار إلى ديار بكر وملكها، ثم إلى أذربيجان، وبلغ خبره إلى بركيارق، وقد استولى على همذان والري فسار لمدافعته، فلما التقى العسكران جنح أقسنقر إلى بركيارق وفاوض توران في ذلك، وأنهما إنما اتبعا تتش حتى يظهر أمر أولاد ملكشاه، فوافقه على ذلك، وسارا معاً إلى بركيارق فانهزم تتش وعاد إلى دمشق، واستفحل بركيارق وجاءه كوهرايين يعتذر عن مساعدته لتتش في الخطبة فلم يقبله، وعزله وولى الأمير تكبرد شحنة بغداد مكانه. ثم خطب لبركيارق ببغداد كما قدمناه.

ومات المقتدي ونصب المستظهر، ولما عاد تتش من أذربيجان إلى الشام جمع العساكر وسار إلى حلب لقتال أقسنقر، وبعث بركيارق كربوقا الذي صار أمير الموصل مدداً لأقسنقر، ولقيهم تتش قريباً من حلب فهزمهم وأسر أقسنقر فقتله صبراً. ولحق توران وكربوقا بحلب، وحاصرهما تتش فملكها وأخذهما أسيرين، وبعث إلى حران والرها في الطاعة، وكانتا لتوران فامتنعوا، فبعث برأسه إليهم وأطاعوه، وحبس كربوقا في حمص إلى أن أطاعه رضوان بعد قتل أبيه تتش.

ثم سار تتش إلى الجزيرة فملكها، ثم ديار بكر ثم خلاط وأرمينية، ثم أذربيجان. ثم سار إلى همذان فملكها، وكان بها فخر الدولة نظام الملك، سار من حران لخدمة بركيارق فلقيه الأمير تاج من عسكر محمود بن ملكشاه بأصبهان، فنهب ماله ونجا بنفسه إلى همذان، وصادف بها تتش وشفع فيه باغسيان وأشار بوزارته فاستوزره، وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة من المستظهر، وبعث يوسف بن أبق التركماني شحنته إلى بغداد في جمع من التركمان فمنع من دخولها.

وكان بركيارق قد سار إلى نصيبين وعبر دجلة فوق الموصل إلى أربل، ثم إلى بلد سرخاب بن بدر حتى إذا كان بينه وبين عمه تسعة فراسخ، وهو في ألف رجل وعمه في خمسين ألفاً، فبيته بعض الأمراء من عسكر عمه فانهزم إلى أصبهان، وبها محمود ابن أخيه، وقد ماتت أمه تركمان خاتون فأدخله أمراء محمود، واحتاطوا عليه. ثم مات محمود سلخ شوال من سنة سبع وثمانين، واستولى بركيارق على الأمر، وقصده مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره في ذي الحجة، واستمال الأمراء فرجعوا إليه وكثر جمعه. وكان تتش بعد هزيمة بركيارق قد اختلف عليه الأمراء وراسل أمراء أصبهان يدعوهم إلى طاعته فواعدوه انتظار بركيارق، وكان قد أصابه الجدري، فلما أبلَّ نبذوا إليه عهده، وساروا مع بركيارق من أصبهان، وأقبلت إليهم العساكر من كل مكان وانتهوا إلى ثلاثين ألفاً والتقوا قريباً من الري فانهزم تتش وقتله بعض أصحاب أقسنقر، وكان قد حبس وزيره فخر الملك بن نظام الملك فأطلق ذلك اليوم، واستفحل أمر بركيارق وخطب له ببغداد.

ظهور السلطان ملكشاه والخطبة له ببغداد

كان السلطان بركيارق قد ولى على خراسان وأعمالها أخاه لأبيه سنجر فاستقل بأعمال خراسان كما يذكر في أخبار دولتهم عند انفرادها بالذكر. وإنما نذكر هنا من أخبارهم ما يتعلق بالخلافة والخطبة لهم ببغداد، لأن مساق الكلام هنا إنما هو عن أخبار دولة بني العباس، ومن وزر لهم أو تغلب خاصة. وكان لسنجر بن ملكشاه أخ شقيق اسمه محمد. ولما هلك السلطان ملكشاه سار مع أخيه محمود وتركمان خاتون إلى أصبهان. فلما حاصرهم بركيارق لحق به أخوه محمد هذا وسار معه إلى بغداد سنة ست وثمانين، وأقطعه دجلة وأعمالها وبعث معه قطلغ تكين أتابك. فلما استولى على أمره قتله أنفة من حجره.

ثم لحق به مؤيد الملك بن عبيد اللّه بن نظام الملك، كان مع الأمير أنز وداخله في الخلاف على السلطان بركيارق. فلما قتل أنز كما نذكر في أخبارهم لحق مؤيد الملك بمحمد بن السلطان ملك شاه، وأشار عليه ففعل وخطب لنفسه. واستوزره مؤيد الملك، وقارن ذلك أن السلطان بركيارق قتل خاله مجد الملك البارسلاني فاستوحش منه أمراؤه، ولحقوا بأخيه محمد وسار بركيارق إلى الري واجتمع له بها عساكر وجاء عز الملك منصور بن نظام الملك في عساكر. وبينما هو في الري إذ بلغه مسير أخيه محمد إليه فأجفل راجعاً إلى أصبهان فمنعه أهلها الدخول، فسار إلى خوزستان. وجاء السلطان محمد إلى الري أول ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين، ووجد أم بركيارق بها وهي زبيدة خاتون فحبسها مؤيد الملك وقتلها، واستفحل ملك محمد، وجاءه سعد الدولة كوهرايين شحنة بغداد وكان مستوحشاً من بركيارق، وجاء معه كربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، وسرخاب ابن بدر صاحب كركور فلقوه جميعاً بقم وسار كربوقا وجكرمش معه إلى أصبهان، ورد كوهرايين إلى بغداد في طلب الخطبة من الخليفة، وأن يكون شحنة بها فأجابه المستظهر إلى ذلك وخطب له منتصف ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين ولقب غياث الدنيا والدين.

إعادة الخطبة لبركيارق

لما سار بركيارق مجفلاً من الري إلى خوزستان أمام أخيه

محمد، وأمير عسكره يومئذ نيال بن أنوش تكين الحسامي، ومعه جماعة من الأمراء، أجمع المسير إلى العراق، فسار إلى واسط، وجاءه صدقة بن مزيد صاحب الحلة. ثم سار إلى بغداد فخطب له بها منتصف صفر من سنة ثلاث وتسعين. ولحق سعد الدولة كوهرايين ببعض الحصون هنالك ومعه أبو الغازي بن أرتق وغيره من الأمراء، وأرسل إلى السلطان محمد ووزيره مؤيد الملك يستحثهما في الوصول، فبعث إليه كربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب الجزيرة فلم يرضه، وطلب جكرمش العود إلى بلده فأطلقه. ثم نزع كوهرايين ومن معه من الأمراء إلى بركيارق بإغراء كربوقا صاحب الموصل، وكاتبوه فخرج إليهم ودخلوا معه بغداد واستوزره الأغر أبو المحاسن عبد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني، وقبض على عميد الدولة ابن جهير وزير الخليفة وطالبه بأموال ديار بكر والموصل في ولايته وولاية أبيه، وصادره على مائة وستين ألف دينار فحملها إليه وخلع المستظهر على السلطان بركيارق واستقر أمره.

المصاف الأول بين بركيارق ومحمد وقتل كوهرايين والخطبة لمحمد

ثم سار بركيارق من بغداد إلى شهرزور لقتال أخيه محمد، واجتمع إليه عسكر عظيم من التركمان، وكاتبه رئيس همذان بالمسير إليه فعدا عنه، ولقي أخاه محمداً على فراسخ من همذان ومحمد في عشرين ألف مقاتل، ومعه الأمير سرخو شحنة أصبهان وعلى ميمنته أمير آخر وابنه أياز، وعلى ميسرته مؤيد الملك والنظامية، ومع بركيارق في القلب وزيره أبو المحاسن، وفي ميمنته كوهرايين وصدقة بن مزيد وسرخاب بن بدر. وفي ميسرته كربوقا وغيره من الأمراء. فحمل كوهرايين من ميمنة بركيارق على ميسرة محمد فانهزموا حتى نهبت خيامهم. ثم حملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارق فانهزمت، وحمل محمد معهم فانهزم بركيارق، ورجع كوهرايين للمنهزمين فكبا به فرسه وقتل، وافترقت عساكر بركيارق وأسر وزيره أبو المحاسن فأكرمه مؤيد الملك وأنزله وأعاده إلى بغداد ليخاطب المستظهر في إعادة الخطبة للسلطان محمد ففعل، وخطب له ببغداد منتصف رجب سنة ثلاث وتسعين.

وابتداء أمر كوهرايين أنه كان لامرأة بخوزستان وصار خادماً للملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة. وحظي عنده وكان يستعرض حوائج تلك المرأة وأصاب أهلها منه خيراً. وأرسله أبو كاليجار مع ولده أبي نصر إلى بغداد، فلما قبض عليه السلطان طغرلبك مضى معه إلى محبسه بقلعة طبرك. ولما مات أبو نصر سار إلى خدمة السلطان ألب أرسلان فحظي عنده وأقطعه واسط وجعله شحنة بغداد، وكان حاضراً معه يوم قتله يوسف الخوارزمي ووقاه بنفسه. ثم بعثه ابنه ملك شاه إلى بغداد لإحضار الخلع والتقليد، واستقر شحنة ببغداد إلى أن قتل، ورأى ما لم يره خادم قبله من نفوذ الكلمة وكمال القدرة وخدمة الأمراء والأعيان وطاعتهم. انتهى.

مصاف بركيارق مع أخيه سنجر

ولما انهزم السلطان بركيارق من أخيه محمد لحق بالري واستدعى شيعته وأنصاره من الأمراء فلحقوا به. ثم ساروا إلى أسفراين وكاتب الأمير داود حبشي بن التونطاق يستدعيه وهو صاحب خراسان وطبرستان ومنزله بالدامغان، فأشار عليه باللحاق بنيسابور حتى يأتيه. فدخل نيسابور وقبض على رؤسائها، ثم أطلقهم وأساء التصرف. ثم أعاد الكتاب إلى داود حبشي بالاستدعاء فاعتذر بأن السلطان سنجر زحف إليه في عساكر بلخ. ثم سأل منه المدد فسار بركيارق إليه في ألف فارس وهو في عشرين ألفاً والتقوا بسنجر عند النوشجان وفي ميمنة سنجر الأمير برغش وفي ميسرته كوكر، ومعه في القلب رستم. فحمل بركيارق على رستم فقتله وانهزم أصحابه ونهب عسكرهم، وكادت الهزيمة تتم عليهم. ثم حمل برغش وكوكر على عسكر بركيارق وهم مشتغلون بالنهب فانهزموا، وانهزم بركيارق. وجاء بعض التركمان بالأمير داود حبشي أسيراً إلى برغش فقتله ولحق بركيارق بجرجان ثم بالدامغان، وقطع البرية إلى أصبهان بمراسلة أهلها فسبقه أخوه محمد إليها فعاد أسيرهم. انتهى.

عزل الوزير عميد الدولة ابن جهير ووفاته

قد ذكرنا أن وزير السلطان بركيارق وهو الأغر أبو المحاسن أسر في المصاف الأول بين بركيارق ومحمد، وأن مؤيد الملك بن نظام الملك وزير محمد أطلقه واصطنعه وضمنه عمارة بغداد، وحمله طلب الخطبة لمحمد ببغداد من المستظهر فخطب له، وكان فيما حمله للمستظهر عزل وزيره عميد الدولة بن جهير. وبلغ ذلك عميد الدولة فأرسل من يعترض الأغر ويقتله فامتنع بعقر بابل. ثم صالحه ذلك الذي اعترضه وطلب لقاءه فلقيه، ودس الأغر إلى أبي الغازي بن أرتق، وكان وصل معه وسبقه إلى بغداد فرجع إليه ليلاً ويئس منه ذلك الذي اعترضه، ووصل الأغر بغداد، وبلغ إلى

المستظهر رسالة مؤيد الدولة في عزل عميد الدولة فقبض عليه في رمضان من سنة ثلاث وتسعين، وعلى اخوته، وصودر على خمسة وعشرين ألف دينار، وبقي محبوساً بدار الخلافة إلى أن هلك في محبسه.

المصاف الثاني بين بركيارق وأخيه محمد ومقتل مؤيد الملك والخطبة لبركيارق

قد ذكرنا أن بركيارق لما انهزم أمام أخيه محمد في المصاف الأول سار إلى أصبهان، ولم يدخلها فمضى إلى عسكر مكرم إلى خوزستان وجاءه الأميران زنكي وألبكي ابنا برسق. ثم سار إلى همذان فكاتبه أياز من كبار أمراء محمد بما كان استوحش منه فجاءه في خمسة آلاف فارس وأغراه باللقاء فارتحل لذلك. ثم استأمن إليه سرخاب بن كنخسرو صاحب آوة فاجتمع له خمسون ألفاً من المقاتلة، وبقي أخوه في خمسة عشر ألفاً. ثم اقتتلوا أول جمادى الأخرة سنة أربع وتسعين، وأصحاب محمد يغدون على محمد شيئاً فشيئاً مستأمنين. ثم انهزم آخر النهار وأسر وزيره مؤيد الملك، وأحضره عند بركيارق غلام لمجد الملك البارسلاني ثار منه مولاه، فلما حضر وبخه بركيارق وقتله وبعث الوزير أبو المحاسن من يسلم إليه أمواله، وصادر عليها قرابته في بغداد وفي غير بغداد وفي بلاد العجم. ويقال: كان فيما أخذ له قطعة من البلخش زنة إحدى وأربعين مثقالاً.

ثم سار بركيارق إلى الري ولقيه هناك كربوقا صاحب الموصل، ونور الدولة دبيس بن صدقة بن مزيد، واجتمعت إليه نحو من مائة ألف فارس حتى ضاقت بهم البلاد ففرق العساكر. وعاد دبيس إلى أبيه وسار كربوقا إلى أذربيجان لقتال مودود بن إسماعيل بن ياقوتا، كان خرج على السلطان هنالك وسار أياز إلى همذان ليقضي الصوم عند أهله ويعود، فبقي بركيارق في خف من الجنود. وكان محمد أخوه لما انهزم لجهات همذان سار إلى شقيقه بخراسان فانتهى إلى جرجان، وبعث يطلب منه المدد فأمده بالمال أولاً. ثم سار إليه بنفسه إلى جرجان وسار معه إلى الدامغان وخرب عسكر خراسان ما مروا به من البلاد، وانتهوا إلى الري، واجتمعت إليهم النظامية وبلغهم افتراق العساكر عن بركيارق فأغذوا إليه السير فرحل إلى همذان فبلغه أن أياز راسل محمداً، فقصد خوزستان وانتهى إلى تستر، واستدعى بني برسق فقعدوا عنه لما بلغهم مراسلة أياز للسلطان، فسار بركيارق نحو العراق، وكان أياز راسل محمداً في الكون معه فلم يقبله فسار من همذان، ولحق بركيارق إلى حلوان وساروا جميعاً إلى بغداد.

واستولى محمد على مخلف أياز بهمذان وحلوان وكان شيئاً مما لا يعبر عنه. وصادر جماعة من أصحاب أياز من أهل همذان، ووصل بركيارق إلى بغداد منتصف ذي القعدة سنة أربع وتسعين، وبعث المستظهر لتلقيه أمين الدولة بن موصلايا في المراكب، وكان بركيارق مريضاً فلزم بيته، وبعث المستظهر في عيد الأضحى إلى داره منبراً خطب عليه باسمه، وتخلف بركيارق عن شهود العيد لمرضه، وضاقت عليه الأموال فطلب الإعانة من المستظهر، وحمل إليه خمسين ألف دينار بعد المراجعات، ومد يده إلى أموال الناس وصادرها فضجوا، وارتكب خطيئة شنعاء في قاضي جبلة وهو أبو محمد عبد الله بن منصور. وكان من خبره أن أباه منصوراً كان قاضياً بجبلة في ملكة الروم، فلما ملكها المسلمون وصارت في يد أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس أقره على القضاء بها. وتوفي فقام ابنه أبو محمد هذا مقامه ولبس شعار الجندية وكان شهماً، فهمّ ابن عمار بالقبض عليه، وشعر فانتقض وخطب للخلفاء العباسية. وكان ابن عمار يخطب للعلوية بمصر، وطالت منازلة الفرنج بحصن جبلة إلى أن ضجر أبو محمد هذا، وبعث إلى صاحب دمشق وهو يومئذ طغتكين الأتابك أن يسلم إليه البلد، فبعث ابنه تاج الملوك موري وتسلم منه البلد، وجاء به إلى دمشق وبذل لهم فيه ابن عمار ثلاثين ألف دينار دون أمواله، فلم يرضوا بإخفار ذمتهم وسار عنهم إلى بغداد، ولقي بها بركيارق فأحضره الوزير أبو المحاسن وطلبه في ثلاثين ألف دينار، فأجاب وأحالهم على منزله بالأنبار، فبعث الوزير من أتاه بجميع ما فيه، وكان لا يعبرّ فكانت من المنكرات التي أتاها بركيارق. ثم بعث الوزير إلى صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد صاحب حلب يطلب منه ألف ألف دينار متخلفة من مال الجباية، وتهدده عليها فغضب وانتقض وخطب لمحمد، وبعث إليه بركيارق الأمير أياز يستقدمه فلم يجب، وبعث إلى الكوفة وطرد عنها نائب بركيارق واستضافها إليه.

استيلاء محمد على بغداد

قد ذكرنا استيلاء محمد على همذان في آخر ذي الحجة من سنة أربع وتسعين، ومعه أخوه سنجر. وذهب بركيارق إلى بغداد فاستولى عليها وأساء السيرة بها، وبلغ الخبر إلى محمد فسار من همذان في عشرة آلاف فارس، ولقيه بحلوان أبو الغازي بن أرتق شحنته ببغداد في عساكره وأتباعه. وكان بركيارق في شدة من

المرض، وقد أشرف على الهلاك فاضطرب أصحابه وعبروا بـه إلى الجانب الغربي حتى إذا وصل محمد بغداد وتـرآى الجمعـان مـن عُدوتَي دجلة ذهب بركيارق وأصحابه إلى واسط ودخل محمد بغداد، وجاءه توقيع المستظهر بالانتقاض مما وقع به بركيارق، وخطب له على منابر بغداد، وجاءه صدقة بن منصور صاحب الحلة فأخرج الناس للقائه ونزل سنجر بدار كوهرابين، واستوزر محمد بعد مؤيد الملك خطيب الملك أبا منصور محمد بن الحسين، فقدم إليه في المحرم سنة خمس وتسعين. انتهى.

المصاف الثالث والرابع وما تخلل بينهما من الصلح ولم يتم

ثم ارتحل السلطان وأخوه سنجر عن بغداد منتصف المحرم من سنة خمس وتسعين، وقصد سنجر خراسان ومحمد همذان، فاعترض بركيارق خاص الخليفة المستظهر، وأبلغه القبيح فاستدعى المستظهر محمداً لقتال بركيارق فجاء إليه وقال: أنا أكفيكه: ورتب أبا المعالي شحنة ببغداد، وكان بركيارق بواسط كما قلنا، فلما أبلَّ من مرضه عبر إلى الجانب الشرقي بعد جهد وصعوبة لفرار الناس من واسط لسوء سيرتهم. ثم سار إلى بلاد بني برسق حتى أطاعوا واستقاموا وساروا معه فاتبع أخاه محمداً إلى نهاوند وتصافوا يومين ومنعهما شدة البرد من القتال. ثم اجتمع أياز والوزير الأغر من عسكر بركيارق وبلد أجي وغيرهم من الأمراء من عسكر محمد. وتفاوضوا في شكوى ما نزل بهم من هذه الفتنة، ثم اتفقوا على أن تكون السلطنة بالعراق لبركيارق ويكون لمحمد من البلاد الحيرة وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل على أن يمده بركيارق بالعسكر متى احتاج إليه على من يمتنع عليه منها. وتحالفا على ذلك وافترقا في ربيع الأول سنة خمس وتسعين، ثم سار بركيارق إلى ساوة ومحمد إلى قزوين، وبدا له في الصلح واتهم الأمراء الذين سعوا فيه، وأسرَّ إلى رئيس قزوين أن يدعوهم إلى صنيع عنده، وغدر بهم محمد فقتل بعضاً وسمل بعضاً وأظهر الفتنة. وكان الأمير ينال بن أنوش تكين قد فارق بركيارق، وأقام مجاهداً للباطنية في الجبال والقلاع فلقي محمداً وسار معه إلى الري، وبلغ الخبر إلى بركيارق فأغذ إليه السير في ثمان ليال واصطفوا في التاسع وكلا الفريقين في عشرة آلاف مقاتل. وحمل سرخاب بن كنجسر والديلمي صاحب آوة من أصحاب بركيارق على نيال بن أنوش تكين فهزمه، وانهزم معه عسكر محمد، وافترقوا فلحق فريق بطبرستان وآخر بقزوين، ولحق محمد بأصبهان في سبعين فارساً، واتبعه أياز والبكي بن برسق فنجا إلى البلد وبها نوابه، فلمْ ما تشعَّث من السور، وكان من بناء علاء الدين بن كاكويه سنة تسع وعشرين لقتال طغرلبك وحفر الخنادق وأبعد مهواها وأجرى فيها المياه، ونصب المجانيق، واستعد للحصار.

وجاء بركيارق في جمادى ومعه خمسة عشر ألف فارس ومائة ألف من الرجل والأتباع، فحاصرها حتى جهدهم الحصار وعدمت الأقوات والعلوفة، فخرج محمد عن البلد في عيد الأضحى من سنته في مائة وخمسين فارساً، ومعه نيال، ونزل في الأمراء، وبعث بركيارق في اتباعه الأمير أياز. وكانت خيل محمد ضامرة من الجوع، فالتفت إلى أياز يذكره العهود فرجع عنه بعد أن نهب منه خيلاً ومالاً، وأخذ علمه وجنده وعاد إلى بركيارق. ثم شد بركيارق في حصار أصبهان، وزحف بالسلاليم والذبابات، وجمع الأيدي على الخندق فطمَّه، وتعلق الناس بالسور فاستمات أهل البلد ودفعوهم. وعلم بركيارق امتناعها فرحل عنها ثامن عشر ذي الحجة. وجمر عسكراً مع ابنه ملكشاه وترشك الصوالي على البلد القديم الذي يسمى شهرستان، وسار إلى همذان بعد أن كان قتل على أصبهان وزيره الأغر أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني، اعترضه في ركوبه من خيمته إلى خدمة السلطان متظلم فطعنه وأشواه، ورجع إلى خيمته فمات، وذهب للتجار الذين كانوا يعاملونه أموال عظيمة لأن الجباية كانت ضاقت بالفتن، فاحتاج إلى الاستدانة، ونفر منه التجار لذلك. ثم عامله بعضهم فذهب ما لهم بموته، وكان أخوه العميد المهذب أبو محمد قد سار إلى بغداد لينوب عنه حين عقد الأمراء الصلح بين بركيارق ومحمد، فقبض عليه الشحنة ببغداد أبو الغازي بن أرتق وكان على طاعة محمد.

الشِّحْنة ببغداد والخطبة لبركيارق

كان أبو الغازي بن أرتق شحنة ببغداد وولاه عليها السلطان محمد عند استيلائه في المصاف الأول، وكان طريق خراسان إليه فعاد بعض الأيام منها إلى بغداد، وضرب فارس من أصحابه بعض الملاحين بسهم في ملاحاة وقعت بينهم عند العبور فقتله فثارت بهم العامة وأمسكوا القاتل، وجاؤوا به إلى باب النوبة في دار الخلافة ولقيهم ولد أبي الغازي فاستنقذه من أيديهم فرجموه، وجاء إلى أبيه مستغيثاً وركب إلى محلة الملاحين فنهبها وعطف عليه العيارون فقتلوا من أصحابه، وركبوا السفين للنجاة فهرب الملاحون وتركوهم فغرقوا، وجمع أبو الغازي التركماني لنهب

الجانب الغربي، فبعث إليه المستظهر قاضي القضاة والكيا الهراسي مدرس النظامية بالامتناع من ذلك فاقتصر أبو الغازي أثناء ذلك متمسكاً بطاعة السلطان محمد. فلما انهزم محمد وانطلق من حصار أصبهان واستولى بركيارق على الري بعث في منتصف ربيع الأول من سنة ست وتسعين من همذان كمستكين القيصراني شحنة إلى بغداد. فلما سمع أبو الغازي بعث إلى أخيه سقمان بحصن كيفا يستدعيه للدفاع.

وجاءه سقمان ومر بتكريت فنهبها، ووصل كمستكين ولقيه شيعة بركيارق وأشاروا عليه بالمعاجلة، ووصل إلى بغداد منتصف ربيع. وخرج أبو الغازي وأخوه سقمان إلى دجيل ونهبا بعض قراها، واتبعهما طائفة من عسكر كمستكين. ثم رجعوا عنهما وخطب للسلطان بركيارق ببغداد وبعث كمستكين إلى سيف الدولة صدقة بالحلة عنه وعن المستظهر بطاعة بركيارق فلم يجب، وكشف القناع وسار إلى جسر صرصر فقطعت الخطبة على منابر بغداد فلم يذكر أحد عليها من السلاطين، واقتصر على الخليفة فقط.

وبعث سيف الدولة صدقة إلى أبي الغازي وسقمان بأنه جاء لنصرتهما فعادوا إلى دجيل وعاثوا في البلاد، واجتمع لذلك حشد العرب والأكراد مع سيف الدولة، وبعث إليه المستظهر في الإصلاح، وخيموا جميعاً بالرملة وقاتلهم العامة وبعث الخليفة قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني وتاج رؤساء الرياسة ابن الموصلايا إلى سيف الدولة بكف الأيدي عن الفساد، فاشترطوا خروج كمستكين القيصراني شحنة بركيارق وإعادة الخطبة للسلطان محمد، فتم الأمر على ذلك، وعاد سيف الدولة إلى الحلة وعاد القيصراني إلى واسط، وخطب بها لبركيارق فسار إليه صدقة وأبو الغازي، وفارقها القيصراني فاتبعه سيف الدولة. ثم استأمن ورجع إليه فأكرمه وخطب للسلطان محمد بواسط، وبعده لسيف الدولة وأبي الغازي واستناب كل واحد ولده، ورجع أبو الغازي إلى بغداد وسيف الدولة إلى الحلة، وبعث ولده منصورا إلى المستظهر يخطب رضاه بما كان منه في هذه الحادثة فأجيب إلى ذلك.

استيلاء نيال على الري بدعوة السلطان محمد ومسيره إلى العراق

كانت الخطبة بالري للسلطان بركيارق، فلما خرج السلطان محمد من الحصار بأصبهان، بعث نيال بن أنوش تكين الحسامي إلى الري ليقيم الخطبة له بها فسار ومعه أخوه علي، وعسف الرعايا.

ثم بعث السلطان بركيارق إليه برسق بن برسق في العساكر فقاتله على الري، وانهزم نيال وأخوه منتصف ربيع من سنة ست وتسعين، وذهب علي إلى قزوين وسلك نيال على الجبال إلى بغداد وتقطع أصحابه في الأوعار وقتلوا، ووصل إلى بغداد في سبعمائة رجل، وأكرمه المستظهر واجتمع هو وأبو الغازي وسقمان ابنا أرتق بمشهد أبي حنيفة، فاستحلفوه على طاعة السلطان محمد، وساروا إلى سيف الدولة صدقة واستحلفوه على ذلك.

واستقر نيال ببغداد في طاعة السلطان محمد، وتزوج أخت أبي الغازي كانت تحت تاج الدولة تُتش. وعسف بالناس وصادر العمال واستطال أصحابه على العامة بالضرب والقتل. وبعث إليه المستظهر مع القاضي الدامغاني بالنهي عن ذلك وتقبيح فعله، ثم مع أبلغاري فأجاب وحلف على كف أصحابه ومنعهم. واستمر على قبح السيرة فبعث المستظهر إلى سيف الدولة صدقة يستدعيه لكف عدوانه، فجاء إلى بغداد في شوال من سنة ست وتسعين، وخيم بالمنجمي ودعا نيالاً للرحلة عن العراق على أن يدفع إليه. وعاد إلى الحلة وسار نيال مستهل ذي القعدة إلى أوانا ففعل من النهب والعسف أقبح مما فعل ببغداد، فبعث المستظهر إلى صدقة في ذلك، فارسل ألف فارس، وساروا إليه مع جماعة من أصحاب المستظهر وأبي الغازي الشحنة، وذهب نيال أمامهم إلى أذربيجان قاصداً إلى السلطان محمد ورجع أبو الغازي والعساكر عنه.

المصاف الخامس بين السلطانين

كانت كنجة وبلاد أرزن للسلطان محمد وعسكره مقيم بها مع الأمير غز علي، فلما طال حصاره بأصبهان جاؤوا لنصرته، ومعهم منصور بن نظام الملك ومحمد بن أخيه مؤيد الملك، ووصلوا إلى الري آخر ذي الحجة سنة خمس وتسعين، وفارقه عسكر بركيارق. ثم خرج محمد من أصبهان فساروا إليه ولقوه بهمذان، ومعه نيال وعلي ابنا أنوش تكين فاجتمعوا في ستة آلاف فارس. وسار نيال وأخوه على الري وأزعجتهم عنها عساكر بركيارق كما مر. ثم جاءهم الخبر في همذان بزحف بركيارق إليهم، فسار محمد إلى بلاد شروان. ولما انتهى إلى أردبيل بعث إليه مودود بن إسماعيل بن ياقوتي، وكان أميراً على بيلقان من أذربيجان، وكان أبوه إسماعيل خال بركيارق، وانتقض عليه أول أمره فقتله فكان مودود يطالبه بثأر أبيه، وكانت أخته تحت محمد فبعث إليه وجاءه إلى بيلقان. وتوفي مودود إثر قدومه منتصف

ربيع من سنة ست وتسعين، فاجتمع عسكره على الطاعة لمحمد وفيهم سقمان القطبي صاحب خلاط وأرمينية ومحمد بن غاغيسا، كان أبوه صاحب انطاكية. وكان ألب أرسلان ابن السبع الأحمر.

ولما بلغ بركيارق اجتماعهم لحربه أغذ السير إليهم فوصل وقاتلهم على باب خوي من أذربيجان من المغرب إلى العشاء. ثم حمل أياز من أصحاب بركيارق على عسكر محمد فانهزموا، وسار إلى خلاط ومعه سقمان القطبي ولقيه الأمير علي صاحب أرزن الروم، ثم سار إلى..... وبها منوجهر أخو فضلون الروادي. ثم سار إلى تبريز ولحق محمد بن يزيد الملك بديار بكر، وسار منها إلى بغداد وكان من خبره أنه كان مقيماً ببغداد مجاوراً للمدرسة النظامية فشكا الجيران منه إلى أبيه، فكتب إلى كوهرابين بالقبض عليه فاستجار بدار الخلافة. ثم سار سنة اثنتين وتسعين إلى محمد الملك الباسلاني وأبوه حينئذ بكنجة عند السلطان محمد قبل أن يدعو لنفسه. ثم سار بعد أن قتل محمد الملك إلى والده مؤيد الملك، وهو وزير السلطان محمد. ثم قتل أبوه واتصل هو بالسلطان، وحضر هذه الحروب كما ذكرنا. وأما السلطان بركيارق بعد هزيمة محمد فإنه نزل جبلاً بين مراغة وتبريز وأقام به حولاً، وكان خليفة المستظهر سديد الملك أبو المعالي كما ذكرناه. ثم قبض عليه منتصف رجب سنة ست وتسعين وحبس بدار الخليفة مع أهله كانوا قد وردوا عليه من أصبهان. وسبب عزله جهله بقواعد ديوان الخلافة لأنه كان يتصرف في أعمال السلاطين، وليست فيها هذه القوانين. ولما قبض عاد أمين الدولة أبو سعد بن الموصلايا إلى النظر في الديوان وبعث المستظهر عن زعيم الرؤساء أبي القاسم بن جهير من الحلة، وكان ذهب إليها في السنة قبلها مستجيراً بسيف الدولة صدقة لأن خاله أمين الدولة أبا سعد بن الموصلايا كان الوزير الأعز وزير بركيارق يشيع عنه أنه الذي يحمل المستظهر على موالاة السلطان محمد، والخطبة له دون بركيارق، فاعتزل أمين الدولة الديوان وسار ابن أخته هذا أبو القاسم بن جهير مستجيراً بصاحب الحلة فاستقدمه الخليفة الآن. وخرج أرباب الدولة لاستقباله، وخلع عليه للوزارة ولقبه قوام الدولة، ثم عزله على رأس المائة الخامسة. واستجار سيف الدولة صدقة بن منصور ببغداد فأجاره وبعث عنه إلى الحلة وذلك لثلاث سنين ونصف من وزارته، وناب في مكانه القاضي أبو الحسن بن الدامغاني أياماً. ثم استوزر مكانه أبا المعالي بن محمد بن المطلب في المحرم سنة إحدى وخمسمائة، ثم عزله سنة اثنتين بإشارة السلطان محمد، وأعاده بإذنه على شرطية العدل وحسن السيرة، وأن لا يستعمل أحداً من أهل الذمة. ثم عزل في رجب من سنة اثنتين وخمسين، واستوزر أبا القاسم بن جهير سنة تسع وخمسين، واستوزر بعده الربيع أبا منصور بن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير السلطان.

الصلح بين السلطانين بركيارق ومحمد

ولما تطاولت الفتنة بين السلطانين، وكثر النهب والهرج وخربت القرى، واستطال الأمر عليهم وكان السلطان بركيارق بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين، وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له بها وببلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق جميعه إلا تكريت. وأما البطائح فبعضها لهذا وبعضها لهذا، والخطبة بالبصرة لهما جميعاً. وأما خراسان من جرجان إلى ما وراء النهر، فكان يخطب فيها لسنجر بعد أخيه السلطان محمد. فلما استبصر بركيارق في ذلك، ورأى تحكم الأمراء عليه، وقلة المال، جنح إلى الصلح وبعث القاضي أبا المظفر الجرجاني الحنفي وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمذاني، المعروف بصاحب قراتكين إلى أخيه محمد في الصلح، فوصلا إليه بمراغة وذكّراه ووعظاه فأجاب إلى الصلح على أن السلطان لبركيارق، ولا يمنع محمداً من اتخاذ الآلة، ولا يذكر أحد منهما مع صاحبه في الخطبة في البلاد التي صارت إليه وتكون المكاتبة من وزيريهما في الشؤن لا يكاتب أحدهما الآخر، ولا يعارض أحد من العسكر في الذهاب إلى أيهما شاء، ويكون للسلطان محمد من نهر إسبندرو إلى الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، وأن يدخل سيف الدولة صدقة بأعماله في خلفه وبلاده والسلطنة كلها، وبقية الأعمال والبلاد كلها للسلطان بركيارق.

وبعث محمد إلى أصحابه بأصبهان بالإفراج عنها لأصحاب أخيه، وجاؤوا بحريم محمد إليه بعد أن دعاهم السلطان بركيارق إلى خدمته فامتنعوا فأكرمهم، وحمل حريم أخيه وزودهم بالأموال، وبعث العساكر في خدمتهم. ثم بعث السلطان بركيارق إلى المستظهر بما استقر عليه الحال في الصلح بينهم، وحضر أبو الغازي بالديوان وهو شحنة محمد وشيعته، إلا أنه وقف مع الصلح، فسأل الخطبة لبركيارق فأمر بها المستظهر، وخطب له على منابر بغداد وواسط في جمادى سنة سبع وتسعين، ونكر الأمير صدقة صاحب الحلة الخطبة لبركيارق وكان شيعة لمحمد. وكتب إلى الخليفة بالنكير على أبي الغازي وأنه سائر لإخراجه عن بغداد، فجمع أبو الغازي التركمان، وفارق بغداد إلى عقرقوبا وجاء سيف الدولة صدقة ونزل مقابل التاج وقبل الأرض وخيم بالجانب الغربي. وأرسل

إليه أبو الغازي يعتذر عن طاعة بركيارق بالصلح الواقع، وأن إقطاعه بحلوان في جملة بلاده التي وقع الصلح عليها وبغداد التي هو شحنه فيها قد صارت له فقبل ورضي، وعاد إلى الحلة وبعث المستظهر في ذي القعدة من سنة سبع وتسعين الخلع للسلطان بركيارق والأمير أياز والخطير وزير بركيارق، وبعث معهما العهد له بالسلطنة واستحلفه الرسل على طاعة المستظهر ورجعوا.

وفاة السلطان بركيارق وملك ابنه ملك شاه

كان السلطان بركيارق بعد الصلح وانعقاده أقام بأصبهان أشهراً وطرقه المرض فسار إلى بغداد، فلما بلغ بلد يزدجرد اشتد مرضه وأقام بها أربعين يوماً حتى أشفى على الموت، فأحضر ولده ملك شاه وجماعة الأمراء، وولاه عهده في السلطنة، وهو ابن خمس سنين وجعل الأمير أياز أتابكه، وأوصاهم بالطاعة لهما واستحلفهم على ذلك، وأمرهم بالمسير إلى بغداد وتخلف عنهم ليعود إلى أصبهان فتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين. وبلغ الخبر إلى ابنه ملك شاه والأمير أياز على اثني عشر فرسخاً من بلد يزدجرد فرجعوا، وحضروا لتجهيزه وبعثوا به إلى أصبهان للدفن بها في تربة أعدها، وأحضر أياز السرادقات والخيام والخفر والشمسة، وجميع آلات السلطنة فجعلها للملك شاه. وكان أبو الغازي شحنة ببغداد وقد حضر عند السلطان بركيارق بأصبهان في المحرم وحثه على المسير إلى بغداد، فلما مات بركيارق سار مع ابنه ملك شاه والأمير أياز ووصلوا بغداد منتصف ربيع الآخر في خمسة آلاف فارس، وركب الوزير أبو القاسم علي بن جهير لتلقيهم فلقيهم بديالي، وأحضر أبو الغازي والأمير طُمأيْدل بالديوان وطلبوا الخطبة للملك شاه بن بركيارق فأجاب المستظهر إلى ذلك وخطب له ولقب بألقاب جده ملك شاه ونثرت الدنانير عند الخطبة.

وصول السلطان محمد إلى بغداد واستبداده بالسلطنة والخطبة ومقتل أياز

كان محمد بعد صلحه مع أخيه بركيارق قد اعتزم على المسير إلى الموصل ليتناولها من يد جكرمس لما كانت من البلاد التي عقد عليها وكان بتبريز ينتظر وصول أصحابه من أذربيجان، فلما وصلوا استوزر سعد الملك أبا المحاسن لحسن أثره في حفظ أصبهان. ثم رحل في صفر سنة ثمان وتسعين يريد الموصل وسمع جكرمس فاستعد للحصار وأمر أهل السواد بدخول البلد. وجاء محمد فحاصره وبعث إليه كتب أخيه بأن الموصل والجزيرة من قسمته، وأراه أيمانه بذلك، ووعده بأن يقره على ولايتها فقال جكرمس: قد جاءتني كتب بركيارق بعد الصلح بخلاف هذا فاشتد محمد في حصاره، وقتل بين الفريقين خلق، ونقب السور ليلة فأصبحوا وأعادوه، ووصل الخبر إلى جكرمس بوفاة بركيارق عاشر جمادى فاستشار أصحابه ورأى المصلحة في طاعة السلطان محمد فارسل إليه بالطاعة، وأن يدخل إليه وزيره سعد الملك فدخل، وأشار عليه بالحضور عند السلطان فحضر، وأقبل السلطان عليه ورده لجيشه لما توقع من ارتياب أهل البلد بخروجه، وأكثر من الهدايا والتحف للسلطان ولوزيره.

ولما بلغه وفاة أخيه بركيارق سار إلى بغداد ومعه سقمان القطبي نسبة إلى قطب الدولة إسماعيل بن ياقوتا بن داود، وداود هو حقربيك وأبو ألب أرسلان، وسار معه جكرمس وصاحب الموصل وغيرهما من الأمراء. وكان سيف الدولة صاحب الحلة قد جمع عسكراً خمسة عشر ألفاً من الفرسان وعشرة آلاف رجل، وبعث ولديه بدران ودبيس إلى السلطان محمد يستحثه على بغداد. ولما سمع الأمير أياز بقدومه، خرج هو وعسكره وخيموا خارج بغداد واستشار أصحابه فصمموا على الحرب، وأشار وزيره أبو المحاسن بطاعة السلطان محمد وخوّفه عاقبة خلافه وسفه آراءهم في حربه، وأطمعه في زيادة الإقطاع، وتردد أياز في أمره وجمع السفن عنده، وضبط المثار ووصل السلطان محمد آخر جمادى من سنة ثمان وتسعين، ونزل بالجانب الغربي وخطب له هنالك، وللملك شاه بالجانب الشرقي. واقتصر خطيب جامع المنصور على الدعاء للمستظهر ولسلطان العالم فقط. وجمع أياز أصحابه لليمين فأبوا من المعاودة وقالوا: لا فائدة فيها والوفاء إنما يكون بواحدة فارتاب أياز بهم، وبعث وزيره المصفى أبا المحاسن إلى السلطان محمد في الصلح، وتسليم الأمر فلقي أولاً وزيره سعد الملك أبا المحاسن سعد بن محمد وأخبر فأحضره عند السلطان محمد وأدى رسالة أياز والعذر عما كان منه أيام بركيارق فقبله السلطان وأعتبه، وأجابه إلى اليمين.

وحضر من الغد القاضي والنقيبان واستحلف الكيا الهراسي مدرس النظامية بمحضر القاضي -وزير أياز بمحضرهم- للملك شاه ولأياز وللأمراء الذين معه، فقال: أما ملك شاه فهو ابني وأما أياز والأمراء فأحلف لهم إلا نيال بن أنوش، وسار واستحلفه الكيا الهراسي مدرس النظامية بمحضر القاضي والنقيبين. ثم حضر أياز

من الغد ووصل سيف الدولة صدقة وركب السلطان للقائهما وأحسن إليهما، وعمل أياز دعوة في داره وهي دار كوهرابين وحضر عنده السلطان وأتحفه بأشياء كثيرة منها حبل البلخش الذي كان أخذه من تركة مؤيد الملك بن نظام الملك. وحضر مع السلطان سيف الدولة صدقة بن مزيد. وكان أياز قد تقدم إلى غلمانه بلبس السلاح ليعرضهم على السلطان، وحضر عندهم بعض الصفاعين فأخذوا معه في السخرية وألبسوه درعاً تحت قميصه، وجعلوا يتناولونه بأيديهم فهرب منهم إلى خواص السلطان، ورآه السلطان متسلحاً فأمر بعض غلمانه فالتمسوه وقد وجدوا السلاح فارتاب ونهض من دار أياز.

ثم استدعاه بعد أيام ومعه جكرمس وسائر الأمراء فلما حضر وقف عليهم بعض قواده وقال لهم: إن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش قصد ديار بكر ليملكها فأشيروا بمن نسيره لقتاله، فأشاروا جميعاً بالأمير أياز، وطلب هو مسير سيف الدولة صدقة معه فاستدعى أياز وصدقة ليفوضهم في ذلك فنهضوا إليه، وقد أعد جماعة من خواصه لقتل أياز فلما دخلوا ضرب أياز فقطع رأسه ولف شلوه في مشلح وألقي على الطريق. وركب عسكره فنهبوا داره وأرسل السلطان لحمايتها فافترقوا واختفى وزيره. ثم حمل إلى دار الوزير سعد الملك وقتل في رمضان من سنته. وكان من بيت رياسة بهمذان وكان أياز من مماليك السلطان ملك شاه، وصار بعد موته في جملة أمير آخر فاتخذه ولداً، وكان شجاعاً حسن الرأي في الحرب واستبد السلطان محمد بالسلطنة وأحسن السيرة، ورفع الضرائب، وكتب بها الألواح ونصبت في الأسواق وعظم فساد التركمان بطريق خراسان، وهي من أعمال العراق فبعث أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد بدل ابن أخيه بهرام بن أرتق على ذلك البلد فحماه وكف الفساد منه. وسار إلى حصن من أعمال سرخاب بن بدر فحصره وملكه. ثم ولى السلطان محمد سنقر البرسقي شحنة بالعراق وكان معه في حروبه وأقطع الأمير قاياز الكوفة وأمر صدقة صاحب الحلة أن يحمي أصحابه من خفاجة. ولما كان شهر رمضان من سنة ثمانية وتسعين عاد السلطان محمد إلى أصبهان وأحسن فيهم السيرة وكف عنهم الأيدي العادية.

الشحنة ببغداد

كان السلطان قد قبض سنة اثنتين وخمسين على أبي القاسم الحسين بن عبد الواحد صاحب المخزن، وعلي بن الفرج ابن رئيس الرؤساء واعتقلهما وصادرهما على مال يحملانه، وأرسل مجاهد الدين لقبض المال، وأمره بعمارة دار الملك فاضطلع بعمارتها، وأحسن السيرة في الناس وقدم السلطان أثر ذلك إلى بغداد فشكر سيرته، وولاه شحنة بالعراق وعاد إلى أصبهان.

وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود

ثم توفي السلطان محمد بن ملك شاه آخر ذي الحجة من سنة إحدى وخمسمائة، وقد كان عهد لولده محمود وهو يومئذ غلام محتلم، وأمره بالجلوس على التخت بالتاج والسوارين وذلك لاثنتي عشرة سنة ونصف من استبداده بالملك واجتماع الناس عليه بعد أخيه. وولي بعده ابنه محمود وبايعه أمراء السلجوقية، ودبر دولته الوزير الرسب أبو منصور ابن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير أبيه، وبعث إلى المستظهر في الخطبة فخطب له على منابر بغداد منتصف المحرم سنة اثنتي عشرة، وكان أقسنقر البرسقي مقيماً بالرحبة استخلف بها ابنه مسعوداً، وسار إلى السلطان محمد يطلب الزيادة في الإقطاع والولاية ولقيه خبر وفاته قريباً من بغداد فمنعه بهروز الشحنة من دخولها، وسار إلى أصبهان فلقيه بحلوان توقيع السلطان محمود بأن يكون شحنة بغداد لسعي الأمراء له في ذلك تعصباً على مجاهد الدين بهروز وغيره منه لمكانه عند السلطان محمد.

ولما رجع أقسنقر إلى بغداد هرب مجاهد الدين بهروز إلى تكريت وكانت من أعماله. ثم عزل السلطان محمود أقسنقر وولى شحنة بغداد الأمير منكبرس حاكماً في دولته بأصبهان، فبعث نائباً عنه ببغداد والعراق الأمير حسين بن أرويك أحد أمراء الأتراك. ورغب البرسقي من المستظهر بالعدة فلم يتوقف فسار أقسنقر إليه وقاتله وانهزم الأمير حسين وقتل أخوه وعاد إلى عسكر السلطان وذلك في ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة.

وفاة المستظهر وخلافة المسترشد

ثم توفي المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بالله أبو القاسم عبد الله بن القائم بالله في منتصف ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة لأربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر من خلافته، وبويع بعده ابنه المسترشد بالله الفضل، وكان ولي عهده منذ ثلاث وعشرين سنة وبايعه أخوه عبد الله محمد وهو المقتدي، وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدي وغيرهم من الأمراء والقضاة والأئمة والأعيان. وتولى أخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغاني،

وكان نائباً عن الوزارة فأقره المسترشد عليها، ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا للمسترشد، وأحمد بن أبي داود للواثق والقاضي أبو علي إسماعيل بن إسحاق للمعتضد. ثم عزل المسترشد قاضي القضاة عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الرسب أبي منصور، خاطبه أبوه وزير السلطان محمود وابنه محمد في شأنه فاستوزره، ثم عزله سنة عشر واستوزر مكانه جلال الدين عميد الدولة أبا علي بن صدقة، وهو عم جلال الدين أبي الرضي بن صدقة وزير الراشد.

ولما شغل الناس ببيعة المسترشد ركب أخوه الأمير أبو الحسن في السفن مع ثلاثة نفر وانحدروا إلى المدائن، ومنها إلى الحلة فأكرمه دبيس، وأهمَّ ذلك المسترشد وبعث إلى دبيس في إعادته مع النقيب علي بن طراد الزينبي فاعتذر بالذمام، وأنه لا يكرهه فخطب النقيب أبا الحسن أخا الخليفة في الرجوع فاعتذر بالخوف، وطلب الأمان. ثم حدث من البرسقي ودبيس ما نذكره فتأخر ذلك إلى صفر من سنته وهي سنة ثلاث عشرة، فسار أبو الحسن بن المستظهر إلى واسط وملكها، فبادر المسترشد إلى ولاية العهد لابنه جعفر المنصور ابن اثنتي عشرة سنة، فخطب له وكتب إلى البلاد بذلك، وكتب إلى دبيس بمعاجلة أخيه أبي الحسن فإنه فارق ذمامه فبعث دبيس العساكر إلى واسط فهرب منها، وصادفوه عند الصبح فنهبوا أثقاله وهرب الأكراد والأتراك عنه، وقبض عليه بعض الفرق وجاؤوا به إلى دبيس فأكرمه المسترشد وأمنه وأنزله أحسن نزل.

انتقاض الملك مسعود على أخيه السلطان محمود ثم مصالحته واستقرار جكرمس شحنة ببغداد

كان السلطان محمد قد أنزل ابنه مسعوداً بالحلة وجعل معه حيوس بك أتابك، فلما ملك السلطان محمود بعد وفاة أبيه، ثم ولي المسترشد الخلافة بعد أبيه، وكان دبيس صاحب الحلة مُمرضاً في طاعته، وكان أقسنقر البرسقي شحنة بالعراق كما ذكرناه، أراد قصد الحلة وأخلى دبيس عنها، وجمع لذلك جموعاً من العرب والأكراد، وبرز من بغداد في جمادى سنة اثنتي عشرة، وبلغ الخبر إلى الملك مسعود بالموصل وأن العراق خال من الحامية، فأشار عليه أصحابه بقصد العراق للسلطنة فلا مانع دونها. فسار في جيوش كثيرة ومعه وزيره فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، وسيأتي خبره، وقسيم الدولة زنكي بن أقسنقر ابن الملك العادل، وصاحب سنجار، وأبو الهيجاء صاحب أربل، وكربادي بن خراسان التركماني صاحب البواريخ.

ولما قربوا من العراق خافهم أقسنقر البرسقي بمكان حيوس بك من الملك المسعود، وأما هو فقد كان أبوه محمد جعله أتابك لابنه مسعود فسار البرسقي لقتالهم، وبعثوا إليه الأمير كربادي في الصلح، وأنهم إنما جاؤوا بجدة له على دبيس فقبل، وتعاهدوا ورجعوا إلى بغداد كما مر خبره، وسار البرسقي لقتاله فاجتمع مع دبيس بن صدقة واتفقا على المعاضدة، وسار الملك مسعود ومن معه إلى المدائن للقاء دبيس ومنكبرس. ثم بلغهم كثرة جموعهما فعاد الملك مسعود والبرسقي وحيوس بك، وعبروا نهر صرصر وحفظ المخاضات وأفحش الطائفتان في نهب السواد واستباحته بنهر الملك ونهر صرصر ونهر عيسى ودجيل. وبعث المسترشد إلى الملك مسعود والبرسقي بالنكير عليهم فأنكر البرسقي وقوع شيء من ذلك، واعتزم على العود إلى بغداد، وبلغه أن دبيس ومنكبرس قد جهز العساكر إليها مع منصور أخي دبيس وحسن بن أوريك ربيب منكبرس فأغذ السير وخلف ابنه عز الدين مسعوداً على العسكر بصرصر، واستصحب عماد الدين زنكي بن أقسنقر، وجاؤوا بغداد ليلاً فمنعوا عساكر منكبرس ودبيس من العبور.

ثم انعقد الصلح بين منكبرس والملك مسعود وكان سببه أن حيوس بك كاتب السلطان محمود وهو بالموصل في طلب الزيادة له وللملك مسعود، فجاء كتاب الرسول بأنه أقطعهم أذربيجان، ثم بلغه قصدهم بغداد فاتهمهم بالانتقاض وجهز العساكر إلى الموصل وسقط الكتاب بيد منكبرس، وكان على أم الملك مسعود فبعث به إلى حيوس بك، وداخله في الصلح والرجوع عما هم فيه فاصطلحوا واتفقوا. وبلغ الخبر إلى البرسقي فجاء إلى الملك مسعود وأخذ ماله وتركه، وعاد إلى بغداد فخيم بجانب منها، وجاء الملك مسعود وحيوس بك فخيما في جانب آخر، وأصعد دبيس ومنكبرس فخيما كذلك، وتفرق عن البرسقي أصحابه وجموعه وسار عن العراق إلى الملك مسعود فأقام معه، واستقر منكبرس شحنة ببغداد وعاد دبيس إلى الحلة، وأساء منكبرس السيرة في بغداد بالظلم والعسف، وانطلاق أيدي أصحابه بالفساد حتى ضجر الناس، وبعث عنه السلطان محمود فسار إليه وكفى الناس شره.

انتقاض الملك طغرل على أخيه السلطان محمود

كان الملك طغرل قد أقطعه أبوه السلطان محمد سنة أربع وخمسين وخمسمائة ساوة وآوة وزنجان، وجعل أتابكه الأمير شركير، وكان قد افتتح كثيراً من قلاع الإسماعيلية فاتسع ملك طغرل بها، ولما مات السلطان محمد بعث السلطان محمود الأمير كتبغري أتابك طغرل، وأمره أن يحمله إليه، وحسن له المخالفة فانتقض سنة ثلاث عشرة، فبعث إليه السلطان بثلاثين ألف دينار وتحف وودعه بأقطاع كثيرة، وطلبه في الوصول فمنعه كتبغري وأجاب بأننا في الطاعة، ومعنا العساكر وإلى أي جهة أراد السلطان قصدنا. فاعتزم السلطان على السير إليهم وسار من همذان في جمادى سنة ثلاث عشرة في عشرة آلاف غازياً وجاء النذير إلى كتبغري بمسيره، فأجفل هو وطغرل إلى قلعة سرجهان، وجاء السلطان إلى العسكر بزنجان فنهبه وأخذ من خزانة طغرل ثلاثمائة ألف دينار، وأقام بزنجان وتوجه منها إلى الري وكتبغري من سرجهان بكنجة، وقصده أصحابه وقويت شوكته وتأكدت الوحشة بينه وبين أخيه السلطان محمود.

الفتنة بين السلطان محمود وعمه سنجر صاحب خراسان والخطبة ببغداد لسنجر

كان الملك سنجر أميراً على خراسان وما وراء النهر منذ أيام شقيقه السلطان محمد الأولي مع بركيارق. ولما توفي السلطان محمد جزع له جزعاً شديداً حتى أغلق البلد للعزاء، وتقدم للخطبة بذكر آثاره ومحاسن سيره من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك. وبلغه ملك ابنه محمود مكانه وتغلب الأمراء عليه، فنكر ذلك واعتزم على قصد بلد الجبل والعراق، وأتى له محمود ابن أخيه، وكان يلقب بناصر الدين فتلقب بمعز الدين لقب أبيه ملك شاه. وبعث إليه السلطان محمود بالهدايا والتحف مع شرف الدولة أنوشروان بن خالد، وفخر الدولة طغايرك بن أكفربن وبذل عن مازندان مائتي ألف دينار كل سنة فتجهز لذلك، ونكر على محمود تغلب وزيره أبي منصور وأمير حاجب علي بن عمر عليه، وسار وعلى مقدمته الأمير أنز، وجهز السلطان محمود علي بن عمر حاجبه وحاجب أبيه في عشرة آلاف فارس، وأقام هو بالري. فلما قارب الحاجب مقدمة سنجر مع الأمير أنز بجرجان راسله باللين والخشونة، وأن السلطان محمداً وصانا بتعظيم أخيه سنجر واستحلفنا على ذلك إلا أنا لا نقضي على زوال ملكنا.

ثم تهدده بكثرة العساكر وقوتها فرجع أنز عن جرجان، واتبعه بعض العساكر فنالوا منه. وعاد علي بن عمر إلى السلطان محمود فشكره، وأشار عليه أصحابه بالمقام بالري فلم يقبل. ثم ضجر وسار إلى حرقان وتوافت إليه الأمداد من العراق، منكبرس شحنة بغداد في عشرة آلاف فارس، ومنصور أخو دبيس وأمراء البلخية وغيرهم. وسار إلى همذان فأقام بها وتوفي بها وزيره الربيب، واستوزر مكانه أبا طالب السميري. ثم جاء السلطان سنجر إلى الري في عشرين ألفاً وثمانية عشر فيلاً ومعه ابن الأمير أبي الفضل صاحب سجستان وخوارزم شاه محمد، والأمير أنز والأمير قماج، واتصل به علاء الدولة كرساسف بن قرامرد بن كاكويه صاحب يزد وكان صهر محمد وسنجر على أختهما. واختص بمحمد ودعاه محمود فتأخر عنه فأقطع بلده لقراجا الساقي الذي ولي بعد ذلك فارس.

وسار علاء الدولة إلى سنجر وعرفه حال السلطان محمود واختلاف أصحابه وفساد بلاده، فزحف إليه السلطان محمود من همذان في ثلاثين ألفاً، ومعه علي بن عمر أمير حاجب ومنكبرس وأتابكة غز غلي وبنو برسق وسنجق البخاري وقراجا الساقي ومعه تسعمائة حمل من السلاح والتقيا على ساوة في جمادى سنة ثلاث عشرة فانهزمت عساكر السلطان سنجر أولاً وثبت هو بين الفيلة والسلطان محمود، واجتمع أصحابه إليه. وبلغ الخبر إلى بغداد فأرسل دبيس بن صدقة إلى المسترشد في الخطبة للسلطان سنجر فخطب له آخر جمادى، وقطعت خطبة محمود بعد الهزيمة إلى أصبهان ومعه وزيره أبو طالب السميري والأمير علي بن عمر وقراجا، واجتمعت عليه العساكر وقوي أمره.

وسار السلطان سنجر من همذان ورأى قلة عساكره فراسل ابن أخيه في الصلح، وكانت والدته وهي جدة محمود تحرضه على ذلك فأجاب إليه. ثم وصل إليه أقنسقر البرسقي الذي كان شحنة ببغداد، وكان عند الملك مسعود من يوم انصرافه عنها، وجاء رسوله من عند السلطان محمود بأن الصلح إنما يوافق عليه الأمراء بعد عود السلطان سنجر إلى خراسان، فأنف من ذلك وسار من همذان إلى الكرج، وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح وأن يكون ولي عهده فأجاب إلى ذلك، وتحالفا عليه. وجاء السلطان محمود إلى عمه سنجر ونزل في بيت والدته وهي جدة محمود، وحمل إليه هدية حفلة. وكتب السلطان سنجر إلى أعماله بخراسان وغزنة وما وراء النهر وغيرها من الولايات بأن يخطب للسلطان محمود، وكتب إلى بغداد بمثل ذلك، وأعاد عليه جميع البلاد سوى

الري لئلا تحدث محموداً نفسه بالانتقاض.

ثم قتل السلطان محمود الأمير منكبرس شحنة بغداد لأنه لما انهزم محمود وسار إلى بغداد ليدخلها منعه دبيس فعاث في البلاد، ورجع وقد استقر في الصلح فقصد السلطان مستجيراً به فأبى من إجارته ومؤاخذته، وبعثه إلى السلطان محمود فقتله صبراً لما كان يستبد عليه بالأمور. وسار شحنة إلى بغداد على زعمه فحقد له ذلك، وأمر السلطان سنجر بإعادة مجاهد الدين بهروز شحنة بالعراق، وكان بها نائب دبيس بن صدقة فعزل به. ثم قتل السلطان محمود حاجبه علي بن عمر وكان قد استخلفه ورفع منزلته فكثرت السعاية فيه فهرب إلى قلعة عند الكرخ، كان بها أهله وماله. ثم لحق بخوزستان وكان بيد بني برسق فاقتضى عهودهم وسار إليهم. فلما كان على تستر بعثوا من يقبض عليه فقاتلهم فلم يقر عنه وأسروه واستأذنوا السلطان محموداً في أمره فأمر بقتله وحمل رأسه إليه.

انتقاض الملك مسعود على أخيه السلطان محمود والفتنة بينهما

كان الملك مسعود قد استقر بالموصل وأذربيجان منذ صالحه السلطان محمود عليها بأول ملكه، وكان أقسنقر البرسقي مع الملك مسعود منذ فارق شحنة بغداد، وأقطعه مراغة مضافة إلى الرحبة وكان دبيس يكاتب حيوس بك الأتابك في القبض عليه وبعثه إلى مولاه السلطان محمود، ويبذل لهم المال على ذلك. وشعر بذلك البرسقي ففارقه السلطان محمود، وعاد إلى جميل رأيه فيه. وكان دبيس مع ذلك يغري الأتابك حيوس بك بالخلاف على السلطان محمود، ويعدهم من نفسه المناصرة لينال باختلافهم في تمهيد سلطانه ما ناله أبوه باختلاف بركيارق ومحمد. وكان أبو المؤيد محمد بن أبي إسماعيل الحسين بن علي الأصبهاني يكتب للملك محمود، ويرسم الطغري وهي العلامة على مراسيمه، ومنها هباته. وجاء والده أبو إسماعيل من أصبهان فعزل الملك مسعود وزيره أبا علي بن عمار صاحب طرابلس، واستوزره مكانه سنة ثلاث عشرة فحسن له الخلاف الذي كان دبيس يكاتبهم فيه ويحسنه لهم. وبلغ السلطان محموداً خبرُهم فكتب يحذرهم فلم يقبلوا وخلعوا، وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس، وذلك سنة أربع عشرة.

وكانت عساكر السلطان محمود مفترقة فبادروا إليه والتقوا في عقبة أستراباذ منتصف ربيع الأول، والبرسقي في مقدمة محمود، وأبلى يومئذ، واقتتلوا يوماً كاملاً وانهزمت عساكر مسعود في عشيته وأسر جماعة منهم، وفيهم الوزير الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي، فأمر السلطان بقتله لسنة من وزارته، وقال: هو فاسد العقيدة، وكان حسن الكتابة والشعر وله تصانيف في الكيمياء. وقصد الملك مسعود بعد الهزيمة جبلاً على اثني عشر فرسخاً من مكان الوقعة فاختفى فيه، وبعث يطلب الأمان من أخيه فبعث إليه البرسقي يؤمنه ويحضره.

وكان بعض الأمراء قد لحق به في الجبل وأشار عليه باللحاق بالموصل، واستمد دبيساً فسار لذلك وأدركه البرسقي على ثلاثين فرسخا من مكانه وأمنه على أخيه، وأعاده إليه فأريب العساكر للقائه وبالغ في إكرامه وخلطه بنفسه. وأما أتابكة حيوس بك فلما افتقد السلطان مسعود سار إلى الموصل وجمع العساكر، وبلغه فعل السلطان مع أخيه فسار إلى الزاب. ثم جاء السلطان بهمذان فأمنه وأحسن إليه. وأما دبيس فلما بلغه خبر الهزيمة عاث في البلاد وأخربها وبعث إليه المسترشد بالنكير فلم يقبل، فكتب بشأنه إلى السلطان محمود وخاطبه السلطان في ذلك فلم يقبل، وسار إلى بغداد وخيم إزاء المسترشد وأظهر أنه يثأر منهم بأبيه.

ثم عاد عن بغداد ووصل السلطان في رجب، فبعث دبيس إليه زوجته بنت عميد الدولة بن جهير بمال وهدايا نفيسة وأجيب إلى الصلح على شروط امتنع منها فسار إليه السلطان في شوال ومعه ألف سفينة. ثم استأمن إلى السلطان فأمنه وأرسل نساءه إلى البطيحة. وسار إلى أبي الغازي مستجيراً به، ودخل السلطان الحلة وعاد عنها ولم يزل دبيس عند أبي الغازي. وبعث أخاه منصوراً إلى أصحابه من أمراء النواحي ليصلح حاله مع السلطان فلم يتم ذلك. وبعث إليه أخوه منصور يستدعيه إلى العراق، فسار من قلعة جعبر إلى الحلة سنة خمس عشرة وملكها، وأرسل إلى الخليفة والسلطان بالاعتذار والوعد بالطاعة، فلم يقبل منه، وسارت إليه العساكر مع سعد الدولة بن تتش ففارق الحلة ودخلها سعد وأنزل بالحلة عسكراً وبالكوفة آخر. ثم راجع دبيس الطاعة على أن يرسل أخاه منصوراً رهينة فقبل، ورجع العسكر إلى بغداد سنة ست عشرة.

إقطاع الموصل للبريقي وميافارقين لأبي الغازي

ثم أقطع السلطان محمود الموصل وأعمالها، والجزيرة وسنجار وما يضاف إلى ذلك للأمير أقسنقر البرسقي شحنة بغداد،

وذلك انه كان ملازماً للسلطان في حروبه ناصحاً له وهو الذي حمل السلطان مسعوداً على طاعة أخيه محمود وأحضره عنده، فلما حضر حيوس بك وزيره عند السلطان محمود من الموصل بقيت بدون أمير، فولى عليها البرسقي سنة خمس عشرة وخمسمائة، وأمره بمجاهدة الفرنج فأقام في إمارتها دهراً هو وبنوه كما يأتي في أخبارهم. ثم بعث الأمير أبو الغازي بن أرتق ابنه حسام الدين تمرتاش شافعاً في دبيس بن صدقة، وأن يضمن الحلة بألف دينار وفرس في كل يوم، ولم يتم ذلك. فلما انصرف عن السلطان أقطع أباه أبا الغازي مدينة ميافارقين وتسلمها من يد سقمان صاحب خلاد سنة خمس عشرة، وبقيت في يده ويد بنيه إلى أن ملكها منهم صلاح الدين بن أيوب سنة ثمانين وخمسمائة كما يذكر في أخبارهم.

طاعة طغرل لأخيه السلطان محمود

قد تقدم ذكر انتقاض الملك طغرل بساوة وزنجان على أخيه السلطان محمود بمداخلة أتابكة كتبغري، وأن السلطان محموداً المشار إليه أزعجه إلى كنجة، وسار إلى أذربيجان يحاول ملكها. ثم توفي أتابكة كتبغري في شوال سنة خمس عشرة، وكان أقسنقر الأحمد يلي صاحب مراغة فطمع في رتبة كتبغري، وسار إلى طغرل واستدعاه إلى مراغة وقصدوا أردبيل فامتنعت عليهم، فجاؤوا إلى تبريز، وبلغهم أن السلطان أقطع أذربيجان لحيوس بك، وبعثه في العساكر وأنه سبقهم إلى مراغة فعدلوا عنها وكافؤوا صاحب زنجان فأجابهم وسار معهم إلى أبهر، فلم يتم لهم مرادهم، وراسلوا السلطان في الطاعة واستقر حالهم، وأما حيوس بك فوقعت بينه وبين الأمراء من عسكره منافرة، فسعوا به عند السلطان فقتله بتبريز في رمضان من سنته، وكان تركياً من مماليك السلطان محمد، وكان حسن السيرة مضطلعاً بالولاية. ولما ولي الموصل والجزيرة كان الأكراد قد عاثوا في نواحيها، وأخافوا سبلها فأوقع بهم وحصر قلاعهم، وفتح الكثير منها ببلد الهكارية وبلد الزوزان وبلد النسوية وبلد النحسة، حتى خاف الأكراد واطمأن الناس وأمنت السبل.

أخبار دبيس مع المسترشد

قد ذكرنا مسير العساكر إلى دبيس مع برسق الكركوي سنة أربع عشرة وكيف وقع الاتفاق وبعث دبيس أخاه منصوراً رهينة فجاء برتقش به إلى بغداد سنة ست عشرة، ولم يرض المسترشد ذلك، وكتب إلى السلطان محمود بأن دبيس لا يصلحه شيء لأنه مطالب بثأر أبيه، وأشار بأن يبعث عن البرسقي من الموصل لتشديد دبيس ويكون شحنة ببغداد فبعث إليه السلطان وأنزله شحنة ببغداد، وأمره بقتال دبيس، فأقام عشرين شهراً ودبيس معمل في الخلاف. ثم أمره المسترشد بالمسير إليه وإخراجه من الحلة، فاستقدم البرسقي عساكره من الموصل، وسار إلى الحلة، ولقيه دبيس فهزم عساكره ورجع إلى بغداد في ربيع من سنة ست عشرة، وكان معه في العسكر مضر بن النفيس بن مذهب الدولة أحمد بن أبي الخير عامل البطيحة، فغدا عليه عمه المظفر بن عماد بن أبي الخير فقتله في انهزامهم.

وسار إلى البطيحة فتغلب عليها، وكاتب دبيس في الطاعة، وأرسل دبيس إلى المسترشد بطاعته، وأن يبعث عماله لقرى الخاص يقبضون دَخْلها على أن يقبض المسترشد على وزيره جلال الدين بن علي بن صدقة فتم بينهما ذلك، وقبض المسترشد على وزيره، وهرب ابن أخيه جلال الدين أبو الرضي إلى الموصل، وبلغ الخبر بالهزيمة إلى السلطان محمود فقبض على منصور أخي دبيس وحبسه، وأذن دبيس لأصحاب الإقطاع بواسط في المسير إلى اقطاعهم، فمنعهم الأتراك منها، فجهز إليهم عسكراً مع مهلهل بن أبي العسكر وأمر مظفر بن أبي الخير عامل البطيحة بمساعدته وبعث البرسقي المدد إلى أهل واسط فلقيهم مهلهل بن أبي المظفر فهزموه وأسروه وجماعة من عسكره واستلحموا كثيراً منهم.

وجاء المظفر أبو الخير على أثره، وأكثر النهب والعيث، وبلغه خبر الهزيمة فرجع وبعث أهل واسط بتذكرة وجدوها مع مهلهل بخط دبيس فأمره بالقبض على المظفر فمال إليهم وانحرف عن دبيس، ثم بلغ دبيس أن السلطان محموداً سمل أخاه منصوراً، فانتقض ونهب ما كان للخليفة بأعماله، وسار أهل واسط إلى النعمانية فأجلوا عنها أصحاب دبيس. وتقدم المسترشد إلى البرسقي بالمسير لحرب دبيس فسار لذلك كما نذكر. ثم أقطع السلطان محمود مدينة واسط للبرسقي مضافة إلى ولاية الموصل فبعث عماد الدين زنكي بن أقسنقر ولد نور الدين العادل.

نكبة الوزير ابن صدقة وولاية نظام الملك

قد ذكرنا آنفاً أن دبيس اشترط على المسترشد في صلحه معه القبض على وزيره جلال الدين أبي علي بن صدقة، فقبض عليه في جمادى سنة ست عشرة، وأقام في نيابة الوزارة شرف الدين علي بن طراد الزينبي. وهرب جلال الدين أبو الرضي ابن أخي

الوزير إلى الموصل. وبعث السلطان محمود إلى المسترشد في أن يستوزر نظام الدولة أبا نصر أحمد بن نظام الملك، وكان السلطان محمود قد استوزر أخاه شمس الملك عثمان عندما قتل الباطنية بهمذان..... وزيره الكمال أبا طالب السميري فقبل المسترشد إشارته، واستوزر نظام الملك، وقد كان وزر للسلطان محمد سنة خمسمائة، ثم عزل ولزم داره ببغداد. فلما وزر وعلم ابن صدقة أنه يخرجه طلب من المسترشد أن يسير إلى سليمان بن مهارش بحديثة غانة، فأذن له، فسار ونهب في طريقه وأسر، ثم خلص إلى مأمنه في واقعة عجيبة. ثم قتل السلطان محمود وزيره شمس الملك فعزل المسترشد أخاه نظام الدين أحمد عن وزارته، وأعاد جلال الدين أبا علي بن صدقة إلى مكانه.

واقعة المسترشد مع دبيس

كان دبيس في واقعته مع البرسقي قد أسر عفيفاً الخادم، ثم أطلقه سنة سبع عشرة، وحمله إلى المسترشد رسالة بخروج البرسقي للقتال يتهدده بذلك على ما بلغه من سمل أخيه، وحلف لينهبن بغداد، فاستطار المسترشد غضباً وأمر البرسقي بالمسير لحربه، فسار في رمضان من سنته. ثم تجهز للخليفة وبرز من بغداد واستدعى العساكر فجاءه سليمان بن مهارش صاحب الحديثة في بني عقيل، وقرواش بن مسلم وغيرهما. ونهب دبيس نهر الملك من خاص الخليفة ونودي في بغداد بالنفير فلم يتخلف أحد، وفرقت فيهم الأموال والسلاح وعسكر المسترشد خارج بغداد في عشر ذي الحجة، وبرز لأربع بعدها وعبر دجلة وعليه قباء أسود وعمامة سوداء، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة حديد صيني، ووزيره معه نظام الدين ونقيب الطالبيين ونقيب النقباء علي بن طراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل وغيرهم. فنزل بخيمة، وبلغ البرسقي خروجه فعاد بعسكره إليه.

ونزل المسترشد بالحديثة بنهر الملك واستحلف البرسقي والأمراء على المناصحة، وسار فنزل المباركة، وعبى البرسقي أصحابه للحرب ووقف المسترشد وراء العسكر في خاصته، وعبى دبيس أصحابه صفاً واحداً وبين يديهم الإماء تعزف وأصحاب الملاهي، وعسكر الخليفة تتجاذب القراءة والتسبيح مع جنباته، ومع أعلامه كرباوي خراسان وفي الساقة سليمان بن مهارش. وفي ميمنة البرسقي أبو بكر بن إلياس مع الأمراء البلخية، فحمل عنتر بن أبي العسكر من عسكر دبيس على ميمنة البرسقي فدحرها وقتل ابن أخي أبي بكر. ثم حمل ثانية كذلك فحمل عماد الدين زنكي بن أقسنقر في عسكر واسط على عنتر بن أبي العسكر فأسره ومن معه.

وكان من عسكر المسترشد كمين متوار، فلما التحم الناس خرج الكمين واشتد الحرب وجرد المسترشد سيفه وكبر وتقدم فانهزمت عساكر دبيس، وجيء بالأسرى فقتلوا بين يدي الخليفة وسُبي نساؤهم، ورجع الخليفة إلى بغداد في عاشوراء من سنة سبع عشرة. وذهب دبيس وخفي أثره وقصد غزية من العرب فأبوا من ذلك إيثاراً لرضا المسترشد والسلطان، فسار إلى المشقر من البحرين فأجابوه وسار بهم إلى البصرة فنهبوها وقتلوا أميرها، وتقدم المسترشد للبرسقي بالانحدار إليه بعد أن عنفه على غفلته عنه، وسمع دبيس ففارق البصرة، وبعث البرسقي عليها زنكي بن أقسنقر فأحسن حمايتها وطرد العرب عن نواحيها، ولحق دبيس بالفرنج في جعبر وحاصر معهم حلب فلم يظفروا وأقلعوا عنها سنة ثمان عشرة، فلحق دبيس بطغرل ابن السلطان محمد وأغراه بالمسترشد وبملك العراق كما نذكر.

ولاية برتقش شحنة بغداد

ثم إن المسترشد وقعت بينه وبين البرسقي منافرة فكتب إلى السلطان محمود في عزله عن العراق، وإبعاده إلى الموصل فأجابه إلى ذلك، وأرسل إلى البرسقي بالمسير إلى الموصل لجهاد الإفرنج، وبعث إليه بابن صغير من أولاده يكون معه وولى على شحنة بغداد برتقش الزكوي، وجاء نائبه إلى بغداد فسلم إليه البرسقي العمل وسار إلى الموصل بابن السلطان، وبعث إلى عماد الدين زنكي أن يلحق به فسار إلى السلطان، وقدم عليه بالموصل فأكرمه وأقطعه البصرة وأعاده إليها.

وصول الملك طغرل ودبيس إلى العراق

قد ذكرنا مسير دبيس بن صدقة من الشام إلى الملك طغرل فأحسن إليه ورتبه في خاص أمرائه، وجعل دبيس يغريه بالعراق ويضمن له ملكه، فسار لذلك سنة تسع عشرة، ووصلوا دقوقاً، فكتب مجاهد الدين مهروز من تكريت إلى المسترشد بخبرهما، فتجهز إلى دفاعهما وسار إليهما. وأمر برتقش الزكوي الشحنة أن يستنفر ويستعد فبلغت عدة العسكر اثني عشر ألفاً سوى أهل بغداد، وبرز خامس صفر سنة تسع عشرة، وسار فنزل الخالص، وعدل طغرل إلى طريق خراسان، وأكثرت عساكره النهب، ونزل رباط جلولاء. وسار إليه الوزير جلال الدين بن صدقة في

العساكر، فنزل الدسكرة وجاء المسترشد فنزل معه، وتوجه طغرل ودبيس فنزلا الهارونية، واتفقا أن يقطعا جسر النهروان فيقيم دبيس على المعابر، ويخالفهم طغرل إلى بغداد، ثم عاقتهم جميعاً عوائق المطر وأصابت طغرل الحمى، وجاء دبيس إلى النهروان ليعبر وقد لحقهم الجوع، فصادف أحمالاً من البر، والأطعمة جاءت من بغداد للمسترشد فنهبها، وأرجف في معسكر المسترشد أن دبيس ملك بغداد فأجفلوا من الدسكرة إلى النهروان وتركوا أثقالهم. ولما حلوا بالنهروان وجدوا دبيس وأصحابه نياماً فاستيقظ وقبّل الأرض بين يدي المسترشد وتذلل فهمَّ بصلحه ووصل الوزير ابن صدقة فثناه عن ذلك ثم مد المسترشد الجسر وعبر ودخل بغداد لفتنة خمسة وعشرين يوماً. وسار دبيس إلى طغرل ثم اعتزموا على المسير إلى السلطان سنجر، ومروا بهمذان فعاثوا في أعمالها وصادروا، واتبعهم السلطان فانهزموا بين يديه ولحقوا بالسلطان سنجر شاكين من المسترشد والشحنة برتقش.

الفتنة بين المسترشد والسلطان محمود

ثم وقعت بين برتقش الزكوي وبين نواب المسترشد نبوة فبعث إليه المسترشد يتهدده فخافه على نفسه، وسار إلى السلطان محمود في رجب سنة عشرين فحذر منه، وأنه ثاور العساكر ولقي الحروب وقويت نفسه، وأشار بمعاجلته قبل أن يستفحل أمره ويمتنع عليه فسار السلطان نحو العراق، فبعث إليه المسترشد بالرجوع عن البلاد لما فيها من الغلاء من فتنة دبيس، وبذل له المال، وأن يسير إلى العراق مرة أخرى، فارتاب السلطان وصدق ما ظنه برتقش وأغذ السير فعبر المسترشد إلى الجانب الغربي مغضباً يظهر الرحيل عن بغداد إذ قصدها السلطان. وصانعه السلطان بالاستعطاف وسؤاله في العود فأبى فغضب السلطان ودخل نحو بغداد.

وأقام المسترشد بالجانب الغربي وبعث عفيفاً الخادم من خواصه في عسكر إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان، فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكي بن أقسنقر وكان على البصرة كما ذكرناه، فسار إليه وهزمه وقتل من عسكره، ونجا عفيف إلى المسترشد برأسه فجمع المسترشد السفن وسد أبواب دار الخلافة إلا باب النوبي، ووصل السلطان في عشر ذي الحجة من سنة عشرين، ونزل باب الشماسية، ومنع العسكر عن دور الناس. وراسل المسترشد في العود والصلح فأبى، ونجا جماعة من عسكر السلطان فنهبوا التاج في أول المحرم سنة إحدى وعشرين فضج العامة لذلك واجتمعوا، وخرج المسترشد والشماسية على رأسه والوزير بين يديه، وأمر بضرب الطبول ونفخ الأبواق، ونادى بأعلى صوته يا لهاشم! ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة. وكان في الدار رجال مختفون في السراديب فخرجوا على العسكر وهم مشتغلون في نهب الدار فأسروا جماعة منهم ونهب العامة دور أصحاب السلطان وعبر المسترشد إلى الجانب الشرقي في ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد، وأمر بحفر الخنادق فحفرت ليلاً، ومنعوا بغداد عنهم، واعتزموا على كبس السلطان محمود.

وجاء عماد الدين زنكي من البصرة في حشود عظيمة ملأت البر والبحر فاعتزم السلطان على قتال بغداد، وأذعن المسترشد إلى الصلح فأصطلحوا وأقام السلطان ببغداد إلى ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين، ومرض فاشير عليه بمفارقة بغداد فارتحل إلى همذان ونظر فيمن يوليه شحنة العراق مضافاً إلى ما بيده، ويثق به في سد تلك الخلة. وحمل إليه الخليفة عند رحيله الهدايا والتحف الألطاف فقبل جميعها. ولما أبعد السلطان عن بغداد قبض على وزيره أبي القاسم علي بن الناصر النشاباذي لاتهامه بممالأة المسترشد، واستوزر مكانه شرف الدين أنوشروان بن خالد، وكان مقيماً ببغداد فاستدعاه وأهدى إليه الناس حتى الخليفة. وسار من بغداد في شعبان فوصل إلى السلطان بأصبهان وخلع عليه، ثم استعفى لعشرة أشهر وعاد إلى بغداد ولم يزل الوزير أبو القاسم محبوساً إلى أن جاء السلطان سنجر إلى الري في السنة بعدها فأطلقه وأعاده إلى وزارة السلطان.

أخبار دبيس مع السلطان سنجر

لما وصل دبيس إلى السلطان سنجر ومعه طغرل أغرياه بالمسترشد والسلطان محمود، وأنهما عاصيان عليه، وسهلا عليه أمر العراق فسار إلى الري واستدعى السلطان محموداً يختبر طاعته بذلك فبادر للقائه. ولما وصل أمر سنجر العساكر فتلقوه وأجلسه معه على سريره، وأقام عنده مدة وأوصاه بدبيس أن يعيده إلى بلده، ورجع سنجر إلى خراسان منتصف ذي الحجة ورجع محمود إلى همذان ودبيس معه. ثم سار إلى بغداد فقدمها في تاسوعاء سنة ثلاث وعشرين واسترضى المسترشد لدبيس فرضي عنه، على شريطة أن يوليه غير الحلة فبذل في الموصل مائة ألف دينار. وشعر بذلك زنكي فجاء بنفسه إلى السلطان وهجم على الستر متذمماً، وحمل الهدايا وبذل مائة ألف فأعاده السلطان إلى الموصل، وأعاد

بهروز شحنة على بغداد، وجعلت الحلة لنظره.

وسار السلطان إلى همذان في جمادى سنة ثلاث وعشرين، ثم مرض السلطان فلحق دبيس بالعراق، وحشد المسترشد لمدافعته، وهرب بهروز من الحلة فدخلها دبيس في رمضان من سنة ثلاث وعشرين. وبعث السلطان في أثره الأميرين اللذين ضمناه له، وهما كزل والأحمديلي، فلما سمع دبيس بهما أرسل إلى المسترشد يستعطفه، وتردد الرسل وهو يجمع الأموال والرجال حتى بلغ عسكره عشرة آلاف، ووصل الأحمديلي بغداد في شوال وسار في أثر دبيس. ثم جاء السلطان إلى العراق فبعث إليه دبيس بالهدايا وبذل الأموال على الرضى فأبى، ووصل إلى بغداد، ودخل دبيس البرية، وقصد البصرة فأخذ ما كان فيها للخليفة والسلطان، وجاءت العساكر في اتباعه فدخل البرية. انتهى.

وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود ثم منازعته عمومته واستقلال مسعود

ثم توفي السلطان محمود في شوال من سنة خمس وعشرين لثلاث عشرة سنة من ملكه، واتفق وزيره أبو القاسم النشاباذي وأتابكة أقسنقر الأحمديلي على ولاية ابنه داود مكانه وخطب له في جميع بلاد الجبل وأذربيجان، ووقعت الفتنة بهمذان ونواحيها ثم سكنت، فسار الوزير بأمواله إلى الري ليأمن في إيالة السلطان سنجر. ثم إن الملك داود سار في ذي القعدة من سنة خمس وعشرين من همذان إلى ربكان، وبعث إلى المسترشد ببغداد في الخطبة، وأتاه الخبر بأن عمه مسعوداً سار من جرجان إلى تبريز وملكها فسار إليه وحصره في تبريز إلى سلخ المحرم من سنة ست وعشرين، ثم اصطلحا وأفرج داود عن تبريز، وخرج السلطان مسعود منها، واجتمعت عليه العساكر فانتقض وسار إلى همذان.

وأرسل إلى المسترشد في الخطبة فأجابهم جميعاً بأن الخطبة للسلطان سنجر صاحب خراسان، ويعين بعده من يراه. وبعث إلى سنجر بأن الخطبة إنما ينبغي أن تكون لك وحدك فوقع ذلك منه أحسن موقع، وكاتب السلطان منه أحسن موقع وكاتب السلطان مسعود عماد الدين زنكي صاحب الموصل فأجابه وسار إليه وانتهى إلى المعشوق. وبينما هم في ذلك إذ ثار قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان بالملك سلجوق شاه ابن السلطان محمد، وكان أتابكة فدخل بغداد في عسكر كبير، ونزل دار السلطان واستخلفه المسترشد لنفسه، ووصل مسعود إلى عباسة فبرزوا للقائه، وجاءهم خبر عماد الدين زنكي فعبر قراجا إلى الجانب الغربي للقائه، وواقعه فهزمه، وسار منهزماً إلى تكريت وبها يومئذ نجم الدين أيوب أبو السلطان صلاح الدين، فهيأ له الجسر للعبور، وعبر فأمن وسار لوجهه. وجاء السلطان مسعود من العباسة للقاء أخيه سلجوق ومن معه مدلاً بمكان زنكي وعسكره من ورائهم، وبلغه خبر انهزامهم فنكص على عقبه، وراسل المسترشد بأن السلطان سنجر وصل إلي وطلب الاتفاق من المسترشد وأخيه سلجوق شاه قراجا على قتال سنجر، على أن يكون العراق للمسترشد يتصرف فيه نوابه، والسلطنة لمسعود وسلجوق شاه ولي عهده فأجابوه إلى ذلك وجاء إلى بغداد في جمادى الأولى سنة ست وعشرين، وتعاهدوا على ذلك.

واقعة مسعود مع سنجر وهزيمته وسلطنة طغرل

لما توفي السلطان محمود وولي ابنه داود مكانه، نكر ذلك عمه السلطان سنجر عليهم، وسار إلى بلاد الجبل ومعه طغرل ابن أخيه السلطان محمد، كان عنده منذ وصوله مع دبيس فوصل إلى الري، ثم إلى همذان، وسار السلطان مسعود وأخوه سلجوق وقراجا الساقي أتابك سلجوق للقائه. وكان المسترشد قد عاهدهم على الخروج وألزموه ذلك. ثم إن السلطان سنجر بعث إلى دبيس وأقطعه الحلة وأمره بالمسير إلى بغداد، وبعث إلى عماد الدين زنكي بولاية شِحْنكيَّة بغداد، والسير إليها فبلغ المسترشد خبر مسيرهما فرجع لمدافعتهما.

وسار السلطان مسعود وأصحابه للقاء السلطان سنجر، ونزل أستراباذ في مائة ألف من العسكر فخاموا عن لقائه، ورجعوا أربع مراحل فأتبعهم سنجر، وتراءى الجمعان عند الدينور ثامن رجب، فاقتتلوا وعلى ميمنة مسعود قراجا الساقي وكُزل، وعلى ميسرته برتقش باردار، ويوسف حاروس فحمل قراجا الساقي في عشرة آلاف على السلطان سنجر، حتى تورط في مصافه فانعطفوا عليه من الجانبين، وأخذ أسيراً بعد جراحات. وانهزم مسعود وأصحابه، وقتل بعضهم، وفيهم يومئذ يوسف حاروس، وأسر آخرون فيهم قراجا فأحضر عند السلطان سنجر فوبخه، ثم أمر بقتله. وجاء السلطان مسعود إليه فأكرمه وعاتبه على مخالفته وأعاده أميراً إلى كنجة. وولى الملك طغرل ابن أخيه محمداً في السلطنة وجعل وزيره أبا القاسم النشاباذي وزير السلطان محمود، وعاد إلى خراسان ووصل نيسابور في عاشر رمضان من سنته.

وأما الخليفة فرجع إلى بغداد كما قلناه لمدافعة دبيس

وزنكي، وبلغه الخبر بهزيمة السلطان مسعود، فعبر إلى الجانب الغربي وسار إلى العباسية، ولقيهما بحصن البرامكة آخر رجب. وكان في ميمنته جمال الدولة إقبال، وفي ميسرته مطر الخادم فانهزم إقبال لحملة زنكي، وحمل الخليفة ومطر على دبيس فانهزم، وتبعه زنكي فاستمرت الهزيمة عليهم وافترقوا، ومضى دبيس إلى الحلة وكانت بيد إقبال، وجاءه المدد من بغداد فلقي دبيس وهزمه، ثم تخلص بعد الجهد، وقصد واسط وأطاعه عسكرها إلى أن خلت سنة سبع وعشرين، فجاءهم إقبال وبرنقش بازدار، وزحفوا في العساكر براً وبحراً فانهزمت أهل واسط.

ولما استقر طغرل بالسلطنة وعاد عمه سنجر إلى خراسان لخلاف أحمد خان صاحب ما وراء النهر عليه، وكان داود ببلاد أذربيجان وكنجة فانتقض وجمع العساكر وسار إلى همذان وبرز إليه طغرل وفي ميمنته ابن برسق وفي ميسرته كزل وفي مقدمته آقسنقر. وسار إليه داود في ميمنته برنقش الزكوي والتقيا في رمضان سنة ست وعشرين فأمسك برنقش عن القتال، واستراب التركمان منه فنهبوا خيمته، واضطرب عسكر داود لذلك فهرب أتابكة آقسنقر الأحمديلي، واستمرت الهزيمة عليهم وأسر برنقش الزكوي، ومضى داود ثم قدم بغداد ومعه أتابكة آقسنقر الأحمديلي فأنزله الخليفة بدار السلطان وأكرمه.

ولما بلغ السلطان مسعوداً هزيمة داود ووصوله إلى بغداد قدم إليها وخرج داود لتلقيه، وترجل له عن فرسه، ونزل مسعود بدار السلطنة في صفر سنة سبع وعشرين، وخطب له على منابر بغداد ولداود بعده، واتفقا مع المسترشد بالسير إلى أذربيجان وأن يمدهما، وسارا لذلك، وملك مسعود سائر بلاد أذربيجان، وحاصر جماعة من الأمراء بأردبيل ثم هزمهم وقتل منهم، وسار إلى همذان وبرز أخو طغرل للقائه فانهزم، واستولى مسعود على همذان وقتل آقسنقر، قتله الباطنية ويقال: بدسيسة السلطان محمود. ولما انهزم طغرل قصد الري وبلغ قم، ثم عاد إلى أصبهان ليمتنع بها وسار أخوه مسعود للحصار فارتاب طغرل بأهل أصبهان، وسار إلى بلاد فارس فاتبعه مسعود، واستأمن إليه بعض أمراء طغرل فارتاب بالباقين، وانهزم إلى الري في رمضان من سنته، واتبعه مسعود فلحقه بالري، وقاتله فانهزم طغرل وأسر جماعة من أمرائه. وعاد مسعود إلى همذان ظافراً، وعندما قصد طغرل الري من فارس قتل في طريقه وزيره أبا القاسم النشاباذي في شوال من سنته لموجدة وجدها عليه.

مسير المسترشد لحصار الموصل

لما انهزم عماد الدين زنكي أمام المسترشد كما قلنا لحق بالموصل، وشغل سلاطين السلجوقية في همذان بالخلف الواقع بينهم، ولجأ من أمراء السلجوقية إلى بغداد فراراً من الفتنة فقوي بهم المسترشد، وبعث إلى عماد الدين زنكي بعض شيوخ الصوفية من حضرته فأغلظ له في الموعظة فأهانه زنكي وحبسه، فاعتزم المسترشد على حصار الموصل وبعث بذلك إلى السلطان مسعود، وسار من بغداد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين في ثلاثين ألف مقاتل. ولما قارب الموصل فارقها زنكي ونزل بها نائبه نصير الدين حقر، ولحق بسنجر وأقام يقطع المدد والميرة عن عسكر المسترشد حتى ضاقت بهم الأمور، وحاصرها المسترشد ثلاثة أشهر فامتنعت عليه ورحل عائداً إلى بغداد، فوصل يوم عرفة من سنته. يقال: إن مطراً الخادم جاء من عسكر السلطان مسعود لأنه قاصد العراق فارتحلا لذلك.

مصاف طغرل ومسعود وانهزام مسعود

ولما عاد مسعود إلى همذان بعد انهزام أخيه طغرل، بلغه انتقاض داود ابن أخيه محمود بأذربيجان فسار إليه وحصره ببعض قلاعها، فخالفه طغرل إلى بلاد الجبل، واجتمعت عليه العساكر ففتح كثيراً من البلاد، وقصد مسعوداً وانتهى إلى قزوين فسار مسعود للقائه، وهرب من عسكره جماعة كان طغرل قد داخلهم واستمالهم، فولى مسعود منهزماً آخر رمضان سنة ثمان وعشرين، واستأذن المسترشد في دخول بغداد وكان نائبه بأصبهان البقش السلامي، ومعه أخوه سلجوق شاه، فلما بلغهم خبر الهزيمة لحقوا ببغداد، ونزل سلجوق بدار السلطان، وبعث إليه الخليفة بعشرة آلاف دينار. ثم قدم مسعود بعدهم ولقي في طريقه شدة وأصحابه بين راجلين وركاب فبعث إليهم المسترشد بالمقام والخيام والأموال والثياب والآلات، وقرب إليهم المنازل، ونزل مسعود بدار السلطنة ببغداد منتصف شوال سنة ثمان، وأقام طغرل بهمذان.

وفاة طغرل واستيلاء السلطان مسعود

ولما وصل مسعود إلى بغداد أكرمه المسترشد، ووعده بالمسير معه لقتال أخيه طغرل، وأزاح علل عسكره واستحثه لذلك، وكان جماعة من أمراء السلجوقية قد ضجروا من الفتنة، ولحقوا بالمسترشد فساروا معه ودس إليهم طغرل بالمواعيد فارتاب

المسترشد ببعضهم، وأطلع على كتاب طغرل إليه، وقبض عليه ونهب ماله، فلحق الباقون بالسلطان، وبعث فيهم المسترشد فمنعهم السلطان فحدثت بينهم الوحشة لذلك، وبعث السلطان إلى الخليفة يلزمه المسير معه، وبينا هما على ذلك إذ جاءه الخبر بوفاة طغرل، في المحرم من سنة تسع وعشرين، فسار السلطان مسعود إلى همذان وأقبلت إليه العساكر فاستولى عليها، وأطاعه أهل البلاد، واستوزر شرف الدين أنوشروان خالداً، وكان قد سار معه بأهله.

فتنة السلطان مسعود مع المسترشد

لما استولى السلطان مسعود على همذان استوحش منه جماعة من أعيان الأمراء، منهم برتقش وكزل وسنقر والي همذان، وعبد الرحمن بن طغرلبك، ففارقوه ودبيس بن صدقة معهم، واستأمنوا إلى الخليفة ولحقوا بخوزستان وتعاهدوا مع برسق على طاعة المسترشد، وحذر المسترشد من دبيس وبعث شديد الدولة بن الأنباري الأمان للأمراء دون دبيس، ورجع دبيس إلى السلطان مسعود. وسار الأمراء إلى بغداد فأكرمهم المسترشد، واشتدت وحشة السلطان مسعود لذلك، ومنافرته للمسترشد فاعتزم المسترشد على قتاله، وبرز من بغداد في عاشر رجب وأقام بالشفيع وعصي عليه صاحب البصرة فلم يجبه، وأمراء السلجوقية الذين بقوا معه يحرضونه على المسير فبعث مقدمته إلى حلوان.

ثم سار من شعبان واستخلف على العراق إقبالاً خادمه في ثلاث آلاف فارس ولحقه برسق بن برسق فبلغ عسكره سبعة آلاف فارس، وكان أصحاب الأعراب يكاتبون المسترشد بالطاعة فاستصلحهم مسعود، ولحقوا به، وبلغ عسكره خمسة عشر ألفاً، وتسلل إليه كثير من عسكر المسترشد حتى بقي في خمسة آلاف، وبعث إليه داود ابن السلطان محمود من أذربيجان بأن يقصد الدينور ليلقاه بها بعسكره فجفل للقاء السلطان مسعود، وسار وفي ميمنتا برتقش بازدار وكور الدولة سنقر وكزل وبرسق بن برسق، وفي ميسرته جاولي برسفي وسراب سلار وأغلبك الذي كان قبض عليه من أمراء السلجوقية بموافقتهم السلطان وكان ذلك عاشر رمضان سنة تسع وعشرين.

وانحازت ميسرة المسترشد إليه وانطبقت عساكره عليه، وانهزم أصحاب المسترشد وأخذ هو أسيراً بموكبه، وفيهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي، وقاضي القضاة والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم. وأنزل المسترشد في خيمة، وحبس الباقون بقلعة سرحاب، وعاد السلطان إلى همذان وبعث الأمير بك آي المحمدي إلى بغداد شحنة، فوصل سلخ رمضان، ومعه عميد فقبضوا أملاك الخليفة وأخذوا غلاته، وضج الناس ببغداد وبكوا على خليفتهم، وأعول النساء ثم عمد العامة إلى المنبر فكسروه ومنعوا من الخطبة وتعاقبوا في الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم، وقاتلوا أصحاب الشحنة فأثخن فيهم بالقتل وهرب الوالي والحاجب وعظمت الفتنة، ثم بلغ السلطان في شوال أن داود ابن أخيه محمود عصى عليه بالمراغة، فسار لقتاله والمسترشد معه وتردد الرسل بينهما في الصلح.

مقتل المسترشد وخلافة الراشد

قد ذكرنا مسير المسترشد مع السلطان مسعود إلى مراغة وهو في خيمة موكل به. وترددت الرسل بينهما وتقرر الصلح على أن يحمل مالاً للسلطان ولا يجمع العساكر لحرب ولا فتنة، ولا يخرج من داره فانعقد على ذلك بينهما، وركب المسترشد وحملت الغاشية بين يديه وهو على العود إلى بغداد فوصل الخبر بموافاة رسول من السلطان سنجر فتأخر مسيره لذلك، وركب السلطان مسعود للقاء الرسول، وكانت خيمة المسترشد منفردة العسكر فدخل عليه عشرون رجلاً أو يزيدون من الباطنية فقتلوه وجدعوه وصلبوه، وذلك سابع عشر ذي القعدة من سنة تسع وعشرين، لسبع عشرة ونصف من خلافته.

وقتل الرجال الذين قتلوه وبويع ابنه أبو جعفر بعهد أبيه إليه بذلك فجددت له البيعة ببغداد في ملأ من الناس، وكان إقبال خادم المسترشد في بغداد، فلما وقعت هذه الحادثة عبر إلى الجانب الغربي وأصعد إلى تكريت ونزل على مجاهد الدين بهروز. ثم بعد مقتل المسترشد بأيام قتل دبيس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خويّ، أمر السلطان مسعود غلاماً أرمنياً بقتله فوقف على رأسه فضربه، وأسقط رأسه، واجتمع إلى أبيه صدقة بالحلة عساكره ومماليكه واستأمن إليه قطلغ تكين، وأمر السلطان مسعود بك آي شحنة بغداد فأخذ الحلة من يد صدقة فبعث بعض عسكره إلى المدائن، وخام عن لقائه حتى قدم السلطان إلى بغداد سنة إحدى وثلاثين فقصده وصالحه ولزم بابه.

الفتنة بين الراشد والسلطان مسعود ولحاقه بالموصل وخلعه

وبعد بيعة الراشد واستقراره في الخلافة وصل برتقش الزكوي من عند السلطان محمود يطلب من الراشد ما استقر على أبيه من المال أيام كونه عندهم، وهو أربعمائة ألف دينار فأجابه بأنه لم يخلف شيئاً وأن ماله كان معه فنهب. ثم نمي إلى الراشد أن برتقش تهجم على دار الخلافة وفتش المال فجمع الراشد العساكر وأصلح السور، ثم ركب برتقش ومعه الأمراء البلخية وجاؤوا لهجم الدار، وقاتلهم عسكر الخليفة والعامة فساروا إلى طريق خراسان وانحدر بك آي إلى خراسان، وسار برتقش إلى البندهجين، ونهبت العامة دار السلطان والراشد واشتدت الوحشة بين السلطان والراشد، وانحرف الناس عن طاعة السلطان إلى الخليفة، وسار داود بن السلطان في عسكر أذربيجان إلى بغداد، ونزل بدار السلطان في صفر من سنة ثلاثين.

ووصل عماد الدين زنكي من الموصل، ووصل برتقش باردار صاحب قزوين، والبقش الكبير صاحب أصبهان، وصدقة بن دبيس صاحب الحلة، وابن برسق وابن الأحمديلي وجفل الملك داود برتقش باردار شحنة ببغداد، وقبض الراشد على ناصح الدولة أبي عبد الله الحسن بن جهير أستادار، وعلى جمال الدين إقبال. وكان قدم إليه من تكريت فتنكر له أصحابه وخانوه، وشفع زنكي في إقبال الخادم فأطلقه وصار عنده، وخرج الوزير جلال الدين أبو الرضا بن صدقة لتلقي زنكي فأقام عنده. ثم شفع فيه وأعاده إلى وزارته ولحق قاضي القضاة الزينبي بزنكي أيضاً، وسار معه إلى الموصل، ووصل سلجوق شاه إلى واسط وقبض بها بك آي ونهب ماله فانحدر زنكي إليه وصالحه ورجع إلى بغداد.

ثم سار السلطان داود نحو طريق خراسان ومعه زنكي لقتال السلطان مسعود، وبرز الراشد أول رمضان وسار إلى طريق خراسان ورجع بعد ثلاث وأرسل إلى داود والأمراء بالعود وقتال مسعود من وراء السور، وراسلهم مسعود بالطاعة والموافقة فأبوا، وتبعهم الخليفة في ذلك. وجاء مسعود فنزل على بغداد وحصرهم فيها، وثار العيارون وكثر الهرج وأقاموا كذلك نيفاً وخمسين، وامتنعوا وأقلع السلطان عنهم. ثم وصله طرنطاي صاحب واسط بالسفن فعاد وعبر إلى الجانب الغربي فاضطرب الراشد وأصحابه، وعاد داود إلى بلاده، وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الراشد وسار معه إلى الموصل، ودخل السلطان مسعود بغداد منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين، وأمن الناس. واستدعى القضاة والفقهاء والشهود وعرض عليهم يمين الراشد بخطه: إني متى جندت جنداً، وخرجت ولقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر فافتوا بخلعه. ووافقهم على ذلك أصحاب المناصب والولايات، واتفقوا على ذمه فتقدم السلطان لخلعه، وقطعت خطبته ببغداد وسائر البلاد في ذي القعدة من سنة ثلاثين لسنة من خلافته.

خلافة المقتفي

ولما قطعت خطبة الراشد استشار السلطان مسعود أعيان بغداد فيمن يوليه، فأشاروا بمحمد بن المستظهر فقدم إليهم بعمل محضر في خلع الراشد، وذكروا ما ارتكبه من أخذ الأموال ومن الأفعال القادحة في الإمامة، وختموا آخر المحضر بأن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً. وحضر القاضي أبو طاهر بن الكرخي فشهدوا عنده بذلك وحكم بخلعه، ونفذه القضاة الآخرون وكان قاضي القضاة غائباً عند زنكي بالموصل، وحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي وصاحب المخزن ابن العسقلاني، وأحضر أبو عبد الله بن المستظهر فدخل إليه السلطان والوزير واستخلفاه. ثم أدخلوا الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء فبايعوه ثامن عشر ذي الحجة ولقبوه المقتفي. واستوزر شرف الدين علي بن طراد الزينبي وبعث كتاب الحكم بخلع الراشد إلى الآفاق، وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم علي بن الحسين فأعاده إلى منصبه، وكمال الدين حمزة بن طلحة صاحب المخزن كذلك.

فتنة السلطان مسعود مع داود واجتماع داود للراشد للحرب ومقتل الراشد

ولما بويع للمقتفي والسلطان مسعود ببغداد، بعث عساكره يطلب الملك داود فلقيه عند مراغة فانهزم داود وملك قراسنقر أذربيجان. ثم قصد داود خوزستان، واجتمع عليه من عساكر التركمان وغيرهم نحو عشرة آلاف مقاتل، وحاصر تستر وكان السلطان سلجوق شاه بواسط بعث إلى أخيه مسعود يستنجده فأنجده بالعساكر وسار إلى تستر فقاتله داود وهزمه. وكان السلطان مسعود مقيماً ببغداد مخافة أن يقصد الراشد العراق من الموصل، وكان قد بعث لزنكي فخطب للمقتفي في رجب سنة إحدى وثلاثين، وسار الراشد من الموصل، فلما بلغ خبر مسيره إلى

السلطان مسعود أذن للعسكر في العود إلى بلادهم، وانصرف صدقة بن دبيس صاحب الحلة بعد أن زوجه ابنته.

ثم قدم على السلطان مسعود جماعة الأمراء الذين كانوا مع الملك داود مثل البقش السلامي وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر خمارتكين شحنة همذان، فرضي عنهم وولى البقش شحنة ببغداد فظلم الناس وعسفهم. ولما فارق الراشد زنكي من الموصل سار إلى أذربيجان وانتهى إلى مراغة، وكان بوزابة وعبد الرحمن طغرلبك صاحب خلخال، والملك وداود ابن السلطان محمود خائفين من السلطان مسعود فاجتمعوا إلى منكبرس صاحب فارس وتعاهدوا على بيعة داود، وأن يردوا الراشد إلى الخلافة فأجابهم الراشد إلى ذلك، وبلغ الخبر إلى السلطان فسار من بغداد في شعبان سنة اثنتين وثلاثين، وبلغهم قبل وصوله وصول الراشد إليهم فقاتلهم بخوزستان فانهزموا وأسر منكبرس صاحب فارس فقتله السلطان مسعود صبراً، وافترقت عساكره للنهب وفي طلب المنهزمين، ورآه بوزابة وعبد الرحمن طغرلبك في فل من الجنود فحملوا عليه، وقتل بوزابة جماعة من الأمراء منهم صدقة بن دبيس وابن قراسنقر الأتابك صاحب أذربيجان وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم كان قبض عليهم لأول الهزيمة وأمسكهم عنده، فلما بلغه قتل منكبرس قتلهم جميعاً وانصرف العسكران منهزمين، وقصد مسعود أذربيجان وداود همذان. وجاء إليه الراشد بعد الوقعة وأشار بوزابة وكان كبير القوم بمسيرهم، فسار بهم إلى فارس فملكها وأضافها إلى خوزستان.

وسار سلجوق شاه ابن السلطان مسعود ليملكها فدافعه عنها البقش الشحنة ومطر الخادم أمير الحاج، وثار العيارون أيام تلك الحرب، وعظم الهرج ببغداد، ورحل الناس عنها إلى البلاد. فلما انصرف سلجوق شاه واستقر البقش الشحنة فتك فيهم بالقتل والصلب. ولما قتل صدقة بن دبيس ولى السلطان على الحلة محمداً أخاه وجعل معه مهلهلاً أخا عنتر بن أبي العسكر يدبره. ولما وصل الراشد والملك داود إلى خوزستان مع الأمراء على ما ذكرنا، وملكوا فارس، ساروا إلى العراق ومعهم خوارزم شاه. فلما قاربوا الجزيرة خرج السلطان مسعود لمدافعتهم فافترقوا، ومضى الملك داود إلى فارس وخوارزم شاه إلى بلاده، وبقي الراشد وحده فسار إلى أصبهان فوثب عليه في طريقه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه في القيلولة خامس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بشهرستان ظاهر أصبهان.

وعظم أمر هذه الفتنة واختلفت الأحوال والمواسم وانقطعت كسوة الكعبة في هذه السنة من دار الخلافة من قبل السلاطين، حتى قام بكسوتها تاجر فارسي من المترددين إلى الهند، أنفق فيها ثمانية عشر ألف دينار مصرية، وكثر الهرج من العيارين حتى ركب زعماؤهم الخيول وجمعوا الجموع، وتستر الوالي ببغداد بلباس ابن أخيه سراويل الفتوة عن زعيمهم ليدخل في جملتهم، وحتى همّ زعيمهم بنقش اسمه في سكة بانبار فحاول الشحنة والوزير على قتله فقتل، ونسب أمر العيارين إلى البقش الشحنة لما أحدث من الظلم والعسف فقبض عليه السلطان مسعود وحبسه بتكريت عند مجاهد الدين بهروز، ثم أمر بقتله فقتل. ثم قدم السلطان مسعود في ربيع سنة ثلاث وثلاثين في الشتاء، وكان يشتي بالعراق ويصيف بالجبال. فلما قدم أزال المكوس وكتب بذلك في الألواح فنصبت في الأسواق وعلى أبواب الجامع ورفع عن العامة نزول الجند عليهم فكثر الدعاء له والثناء عليه.

وزارة الخليفة

وفي سنة أربع وثلاثين وقع بين المقتفي ووزيره علي بن طراد الزينبي وحشة بما كان يعترض على المقتفي في أمره، فخاف واستجار بالسلطان مسعود فأجاره، وشفع إلى المقتفي في إعادته فامتنع وأسقط اسمه من الكتب، واستناب المقتفي ابن عمه قاضي القضاة والزينبي، ثم عزله واستناب شديد الدولة الأنباري. ثم وصل السلطان إلى بغداد سنة ست وثلاثين فوجد الوزير شرف الدين الزينبي في داره فبعث وزيره إلى المقتفي شفيعاً في إطلاق سبيله إلى بيته فأذن له. انتهى.

الشحنة ببغداد

وفي سنة ست وثلاثين عزل مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد، وولى كزل أميراً آخر من مماليك السلطان محمود، فكان على البصرة فأضيف إليه شحنكية بغداد، ولما وصل السلطان مسعود إلى بغداد ورأى تبسط العيارين وفسادهم أعاد بهروز شحنة، ولم ينتفع الناس بذلك لأن العيارين كانوا يتمسكون بالجاه من أهل الدولة فلا يقدر بهروز على منعهم، وكان ابن الوزير وابن قاروت صهر السلطان يقاسمانهم فيما يأخوذن من النهب. واتفق سنة ثمان وثمانين أن السلطان أرسل نائب الشحنكية ووبخه على فساد العيارين فأخبره بشأن صهره وابن وزيره فأقسم ليصلبنه إن لم يصلبهما فأخذ خاتمه على ذلك، وقبض على صهره ابن قاروت فصلبه وهرب ابن الوزير، وقبض على أكثر العيارين وافترقوا وكفى الناس شرهم.

انتقاض الأعياض واستبداد الأمراء على الأمير مسعود وقتله إياهم

وفي سنة أربعين سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره إلى قاشان ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود، واتصل بهم الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد، ولقي بوزابة الأمير عباس صاحب الري وتآمرا في الانتقاض على السلطان مسعود، وملكاً كثيراً من بلاده فسار السلطان مسعود عن بغداد، ونزل بها الأمير مهلهل والخادم مطر وجماعة من غلمان بهروز. وسار معه الأمير عبد الرحمن طغرلبك، وكان حاجبه ومتحكماً في دولته، وكان هواه مع ذينك الملكين، فسار السلطان وعبد الرحمن حتى تقارب العسكران، فلقي سليمان شاه أخاه مسعوداً فحنق عليه، وجرى عبد الرحمن في الصلح بين الفريقين، وأضيفت وظيفة أذربيجان وأرمينية إلى ما بيده.

وسار أبو الفتح ابن هزارشب وزير السلطان مسعود ومعه وزير بوزابة فاستبدوا على السلطان وحجروه عن التصرف فيما يريده، وكان بك أرسلان بن بلنكري المعروف بخاص بك خالصة للسلطان بما كان من تربيته فداخلوه واستولوا به على هوى السلطان بكل معنى. وكان صاحب خلخال وبعض أذربيجان، فلما عظم تحكمه أسر السلطان إلى خاص بك بقتل عبد الرحمن، فدس ذلك إلى جماعة من الأمراء وقتلوه في موكبه، ضربه بعضهم بمقرعة حديد فسقط إلى الأرض ميتاً وبلغ إلى السلطان مسعود ببغداد ومعه عباس صاحب الري في عسكر أكثر من عسكره فامتعض لذلك فتلطف له السلطان، واستدعاه إلى داره، فلما انفرد عن غلمانه أمر به فقتل. وكان عباس من غلمان السلطان محمود وولي الري، وجاهد الباطنية وحسنت آثاره فيهم. وكان مقتله في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين. ثم حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تكريت، وبلغ مقتل عباس إلى بوزابة فجمع عساكره من فارس وخوزستان وسار إلى أصبهان فحاصرها، ثم سار إلى السلطان مسعود والتقيا بمرج قراتكين فقتل بوزابة قيل: بسهم أصابه وقيل: أخذ أسيراً وقتل صبراً، وانهزمت عساكره إلى همذان وخراسان.

انتقاض الأمراء ثانية على السلطان

ولما قتل السلطان من قتل من أمرائه استخلص الأمير خاص بك وأنفذ كلمته في الدولة، ورفع منزلته فحسده كثير من الأمراء وخافوا غائلته وساروا نحو العراق -وهم أيلدكز المسعودي صاحب كنجة وأرانية، وقيصر والبقش كون صاحب أعمال الجبل- وقتل الحاجب وطرنطاي المحمودي شحنة واسط وابن طغايرك. ولما بلغوا حلوان خاف الناس بأعمال العراق وعني المقتفي بإصلاح السور، وبعث إليهم بالنهي عن القدوم فلم ينتهوا ووصلوا في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين، والملك محمد ابن السلطان محمود معهم، ونزلوا بالجانب الشرقي، وفارق مسعود جلال الشحنة ببغداد إلى تكريت، ووصل إليهم علي بن دبيس صاحب الحلة، ونزل بالجانب الغربي وجند المقتفي أجناداً وقتلوهم مع العامة فكانوا يستطردون للعامة والجند حتى يبعدوا، ثم يكرون عليهم فيثخنوا فيهم. ثم كثر عيثهم ونهبهم. ثم اجتمعوا مقابل التاج وقبلوا الأرض واعتذروا، وترددت الرسل ورحلوا إلى النهروان.

وعاد مسعود جلال الشحنة من تكريت إلى بغداد، وافترق هؤلاء الأمراء وفارقوا العراق، والسلطان مع ذلك مقيم ببلد الجبل. وأرسل عمه سنجر إلى الري سنة أربع وأربعين فبادر إليه مسعود وترضاه فأعتبه وقبل عذره. ثم جاءت سنة أربع وأربعين جماعة أخرى من الأمراء وهم البقش كون والطرنطاي وابن دبيس وملك شاه ابن السلطان محمود فراسلوا المقتفي في الخطبة لملك شاه فلم يجبهم، وجمع العساكر وحصن بغداد وكاتب السلطان مسعوداً بالوصول إلى بغداد فشغله عمه سنجر إلى الري، ولما علم البقش مراسلة المقتفي إلى مسعود نهب النهروان، وقبض على علي بن دبيس وهرب الطرنطاي إلى النعمانية، ووصل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف شوال، ورحل البقش كون من النهروان وأطلق ابن دبيس.

وزارة المقتفي

وفي سنة أربع وأربعين استوزر المقتفي يحيى بن هبيرة وكان صاحب ديوان الزمام وظهرت منه كفاية في حصار بغداد فاستوزره المقتفي.

وفاة السلطان مسعود وملك ملك شاه ابن أخيه محمود

ثم توفي السلطان مسعود أول رجب سنة سبع وأربعين وخمسمائة لإحدى وعشرين سنة من بيعته، وعشرين من عوده بعد

منازعة إخوته. وكان خاص بك بن سلمكري متغلباً على دولته، فبايع لملك شاه ابن أخيه السلطان محمود، وخطب له بالسلطنة في همذان، وكان هذا السلطان مسعود آخر ملوك السلجوقية عن بغداد، وبعث السلطان ملك شاه الأمير شكاركرد في عسكر إلى الحلة فدخلها، وسار إليه مسعود جلال الشحنة، وأظهر له الاتفاق. ثم قبض عليه وغرقه واستبد بالحلة وأظهر المقتفي إليه العساكر مع الوزير عون الدولة والدين بن هبيرة فعبر الشحنة إليهم الفرات، وقاتلهم فانهزموا وثار أهل الحلة بدعوة المقتفي ومنعوا الشحنة من الدخول فعاد إلى تكريت.

ودخل ابن هبيرة الحلة وبعث العساكر إلى الكوفة وواسط فملكوها، وجاءت عساكر السلطان إلى واسط فغلبوا عليها عسكر المقتفي فتجهز بنفسه، وانتزعها من أيديهم، وسار منها إلى الحلة. ثم عاد إلى بغداد في عشر ذي القعدة. ثم إن خاص بك المتغلب على السلطان ملك شاه استوحش وتنكر وأراد الاستبداد فبعث عن الملك محمد ابن السلطان محمد بخوزستان سنة ثمان وأربعين فبايعه أول صفر وأهدى إليه وهو مضمر الفتك، فسبقه السلطان محمد لذلك وقتله ثاني يوم البيعة إيد غدي التركماني المعروف بشملة من أصحاب خاص بك ونهاه عن دخوله إلى السلطان محمد، فلم يقبل. فلما قتل خاص بك نهب شملة عسكره ولحق بخوزستان وكان خاص بك صبياً من التركمان اتصل بالسلطان مسعود واستخلصه وقدمه على سائر الأمراء.

حروب المقتفي مع أهل الخلاف وحصار البلاد

ثم بعث المقتفي عساكره لحصار تكريت مع ابن الوزير عون الدين والأمير ترشك من خواصه وغيرهما، ووقع بينه وبين ابن الوزير منافرة خشي لها ترشك على نفسه فصالح الشحنة صاحب تكريت، وقبض على ابن الوزير والأمراء، وحبسهم صاحب تكريت وغرق كثير منهم، وسار ترشك والشحنة إلى طريق خراسان فعاثوا فيها وخرج المقتفي في اتباعهم فهربا بين يديه، ووصل تكريت وحاصرها أياماً. ثم رجع إلى بغداد وبعث سنة تسع وأربعين بتكريت في ابن الوزير وغيره من المأسورين، فقبض على الرسول فبعث إليهم عسكراً فامتنعوا عليه، فسار المقتفي بنفسه في صفر من سنته وملك تكريت، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها، ورجع في ربيع. ثم بعث الوزير عون الدين في العساكر لحصارها واستكثر من الآلات وضيق عليها.

ثم بلغه الخبر بأن شحنة مسعود وترشك وصلا في العساكر ومعهم الأمير البقش كون وأنهما استحثا الملك محمداً لقصد العراق، فلم يتهيأ له فبعث هذا العسكر معهم، وانضاف إليهم خلق كثير من التركمان، فسار المقتفي للقائهم، وبعث الشحنة مسعود عن أرسلان ابن السلطان طغرل بن محمد وكان محبوساً بتكريت فأحضره عنه ليقاتل به المقتفي، والتقوا عند عقر بابل فتنازلوا ثمانية عشر يوماً، ثم تناجزوا آخر رجب فانهزمت ميمنة المقتفي إلى بغداد، ونهبت خزائنه وثبت هو واشتد القتال وانهزمت عساكر العجم وظفر المقتفي بهم، وغنم أموال التركمان وسبى نساءهم وأولادهم. ولحق البقش كون ببلد المحلو وقلعة الماهكين وأرسلان بن طغرل، ورجع المقتفي إلى بغداد أول شعبان.

وقصد مسعود الشحنة وترشك بلد واسط للعيث فيها، فبعث المقتفي الوزير ابن هبيرة في العساكر فهزمهم. ثم عاد فلقيه المقتفي سلطان العراق وأرسلان بن طغرل، وبعث إليه السلطان محمد في إحضاره عنده. ومات البقش في رمضان من سنته وبقي أرسلان مع ابن البقش، وحسن الخازنداد فحملاه إلى الجبل ثم سارا به إلى الركن زوج أمه، وهو أبو البهلوان وأرسلان وطغرل الذي قتله خوارزم شاه، وكان آخر السلجوقية ثلاثتهم أخوة لأم. ثم سار المقتفي سنة خمسين إلى دقوقا فحاصرها أياماً، ثم رجع عنها لأنه بلغه أن عسكر الموصل تجهز لمدافعته عنها فرحل.

استيلاء شملة على خوزستان

قد ذكرنا من قبل شأن شملة وأنه من التركمان واسمه إيدغدي وأنه كان من أصحاب خاص بك التركماني، وهرب يوم قتل السلطان محمد صاحبه خاص بك بعد أن حذره منه فلم يقبل، ونجا من الواقعة فجمع جموعاً وسار يريد خوزستان وصاحبها يومئذ ملك شاه ابن السلطان محمود بن محمد. وبعث المقتفي عساكره لذلك فلقيهم شملة في رجب وهزمهم وأسر وجوههم. ثم أطلقهم وبعث إلى الخليفة يعتذر فقبل عذره، وسار إلى خوزستان فملكها من يد ملك شاه ابن السلطان محمود.

إشارة إلى بعض أخبار السلطان سنجر بخوزستان ومبدأ دولة بني خوارزم شاه

كان السلطان سنجر من ولد السلطان ملك شاه لصلبه، ولما استولى بركيارق بن ملك شاه على خوزستان سنة تسعين

وأربعمائة من يد عمه أرسلان أرغون، كما نذكر في أخبارهم عند تفردها مستوفى، ولي عليها أخاه سنجر، وولى على خوارزم محمد بن أنوش تكين من قبل الأمير داود حبشي بن أليوساق. ثم لما ظهر السلطان محمد ونازع بركيارق وتعاقبا في الملك، وكان سنجر شقيقاً لمحمد فولاه على خراسان، ولم يزل عليها. ولما اختلف أولاد محمد من بعده كان عقيد أمرهم وصاحب شوراهم إذ خلف له ببغداد مقدماً اسمه على اسم سلطان العراق منهم سنة..... ثم خرجت أمم الخطا من الترك من مفازة الصين وملكوا ما وراء النهر من يد الجابية ملوك تركستان سنة ست وثلاثين كما نذكر في أخبارهم.

وسار سنجر لمدافعتهم فهزموه فوهن لذلك فاستعد عليه خوارزم شاه بعض الشيء. وكان الخلفاء لما ملكوا بلاد تركستان أزعجوا الغز عنها إلى خراسان وهم بقية السلجوقية هناك. وأجاز السلجوقية لأول دولتهم إلى خراسان فملكوها، وبقي هؤلاء الغز بنواحي تركستان فأجازوا أمام الخطا إلى خراسان، وأقاموا السلطان بها حتى عتوا ونموا. ثم كثر عيثهم وفسادهم وسار إليهم السلطان سنجر سنة ثمان وأربعين فهزموه واستولوا عليه وأسروه، وملكوا بلاد خراسان وافترق أمراؤه على النواحي. ثم ملكوه وهو أسير في أيديهم ذريعة لنهب البلاد واستولوا به على كثير منها، وهرب من أيديهم سنة إحدى وخمسين ولم يقدر على مدافعتهم. ثم توفي سنة اثنتين وخمسين وافترقت بلاد خراسان على أمرائه كما يذكر في أخبارهم. ثم تغلب بنو خوارزم شاه عليها كلها وعلى أصبهان والري من ورائها وعلى أعمال غزنة من يد بني سبكتكين وشاركهم فيها النور بعض الشيعة وقام بنو خوارزم شاه مقام السلجوقية إلى أن انقرضت دولتهم على يد جنكزخان ملك التتر من أمم الترك في أوائل المائة السابعة كما يذكر ذلك كله في أخبار كل منهم عندما نفردها بالذكر إن شاء اللّه تعالى.

الخطبة ببغداد لسليمان شاه ابن السلطان محمد وحروبه مع السلطان محمد بن محمود

كان سليمان بن محمد عند عمه سنجر بخراسان منذ أعوام وقد جعله ولي عهده، وخطب له بخراسان فلما غلب الغز على سنجر وأسروه تقدم سليمان شاه على العساكر، ثم غلبتهم الغز فلحق بخوارزم شاه فصاهره أولاً بابنة أخيه، ثم تنكر فسار إلى أصبهان فمنعه شحنتها من الدخول فسار إلى قاشان، فبعث إليه السلطان محمد شاه بن محمود فقصد اللحف، ونزل على السيد محسن، وبعث إلى المقتفي ليستأذنه في القدوم، وبعث زوجته وولده رهناً على الطاعة والمناصحة فاذن له، وقدم في خف من العساكر ثلاثمائة أو نحوها، وأخرج الوزير عون الدين بن هبيرة ولده لتلقيه ومعه قاضي القضاة والنقباء، ودخل وعلى رأسه الشمسية، وخلع عليه.

ولما كان المحرم من سنة إحدى وخمسين حضر عند المقتفي بمحضر قاضي القضاة وأعيان العباسيين واستحلفه على الطاعة، وأن لا يتعرض للعراق. ثم خطب له ببغداد وبلقب أبيه السلطان محمد، وبعث عسكراً نحو ثلاثة آلاف واستقدم داود صاحب الحلة فجعل له أمر الحجابة، وسار نحو الجبل في ربيع. وسار المقتفي إلى حلوان وسار إلى ملك شاه بن محمود أخي سليمان صاحب خوزستان فاستحلفه لسليمان شاه وجعله ولي عهده، وأمدهما بالمال والأسلحة، وساروا إلى همذان وأصبهان، وجاءهم المذكر صاحب بلاد أران فكثر جمعهم وبلغ خبرهم السلطان محمد بن محمود فبعث إلى قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، ونائبه زين الدين ليستنجدهما فأجاباه، وسار للقاء سليمان شاه وأصحابه فالتقوا في جمادى، وانهزم سليمان شاه وافترقت عساكره. وسار المذكر إلى بلاده، وسار سليمان شاه إلى بغداد وسلك على شهرزور فاعترضه زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين بالموصل، وكان مقطع شهرزور الأمير بران من جهة زين الدين فاعترضاه وأخذاه أسيراً، وحمل زين الدين إلى الموصل فحبسه بقلعتها، وبعث إلى السلطان محمد بالخبر.

حصار السلطان محمد بغداد

كان السلطان محمد قد بعث إلى المقتفي في الخطبة له ببغداد فامتنع من إجابته، ثم بايع لعمه سليمان وخطب له وكان ما قدمناه من أمره معه. ثم سار السلطان محمد من همذان في العساكر نحو العراق، فقدم في ذي الحجة سنة إحدى وخمسين، وجاءته عساكر الموصل مدداً من قبل قطب الدين ونائبه زين الدين، واضطربت الناس ببغداد، وأرسل المقتفي عن فضلو بواش صاحب واسط فجاء في عسكره. وملك مهلهل الحلة فاهتم ابن هبيرة بأمر الحصار وجمع السفن تحت الناحي، وقطع الجسر، وأجفل الناس من الجانب الغربي، ونقلت الأموال إلى حريم دار الخلافة، فرّق المقتفي السلاح في الجند والعامة، ومكثوا أياماً يقتتلون، ومد السلطان جسراً على دجلة فعبر على الجانب الشرقي حتى كان القتال في الجانبين.

ونفذت الأقوات في العسكر واشتد القتال والحصار على أهل بغداد لانقطاع الميرة والظهر من عسكر الموصل لأن نور الدين محمود بن زنكي وهو أخو قطب الدين الأكبر بعث إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة. ثم بلغ السلطان محمداً أن أخاه ملك شاه والمذكر صاحب بلاد أران، وأرسلان ابن الملك طغرل بن محمد ساروا إلى همذان وملكوها فارتحل عن بغداد في آخر ربيع سنة اثنتين وخمسين. وسار إلى همذان وعاد زين الدين كوجك إلى الموصل.

ولما قصد السلطان محمد همذان صار ملك شاه والمذكر ومن معهما إلى الري فقاتلهم شحنتها أبنايخ وهزموه، وأمده السلطان محمد بالأمير سقمان بن قيماز فسار لذلك ولقيهما منصرفين عن الري قاصدين بغداد فقاتلهما، وانهزم أمامهما فسار السلطان في أثرهما إلى خوزستان، فلما انتهى إلى حلوان جاءه الخبر بأن المذكر بالدينور وبعث إليه أبنايخ بأنه استولى على همذان وأعاد خطبته فيها، فافترقت جموع ملك شاه والمذكر وفارقهم شملة صاحب خوزستان، فعادوا هاربين إلى بلادهم وعاد السلطان محمد إلى همذان.

حروب المقتفي مع أهل النواحي

كان سنقر الهمذاني صاحب اللحف، وكان في هذه الفتنة قد نهب سواد بغداد وطريق خراسان، فسار المقتفي لحربه في جمادى سنة ثلاث وخمسين وضمن له الأمير خطلوبرس إصلاحه، فسار إليه خاله على أن يشرك المقتفي معه في بلد اللحف الأمير أزغش المسترشدي فأقطعهما لهما جميعاً ورجع ثم عاد سنقر على أزغش وأخرجه، وانفرد ببلده وخطب للسلطان محمد فسار إليه خطلوبرس من بغداد في العساكر وهزمه، وملك اللحف وسار سنقر إلى قلعة الماهكي للأمير قايماز العميدي ونزلها في أربعمائة الف فارس.

ثم سار إليه سنقر سنة أربع وخمسين فهزمه ورجع إلى بغداد فخرج المقتفي إلى النعمانية وبعث العساكر مع ترشك فهرب سنقر في الجبال ونهب ترشك مخلفه وحاصر قلعة الماهكي، ثم عاد إلى البندنجين وبعث بالخبر إلى بغداد. ولحق سنقر بملك شاه فأمده بخمسمائة فارس وبعث ترشك إلى المقتفي في المدد فأمده، وبعث إليه سنقر في الإصلاح فحبس رسوله، وسار إليه فهزمه واستباح عسكره ونجا سنقر جريحاً إلى بلاد العجم فأقام بها. ثم جاء بها سنة أربع وخمسين إلى بغداد، وألقى نفسه تحت التاج فرضي عنه المقتفي، وأذن له في دخول دار الخلافة. ثم زحف إلى قايماز السلطان في ناحية بادرايا سنة ثلاث وخمسين فهزمه وقتله وبعث المقتفي عساكره لقتال شملة فلحق بملك شاه.

وفاة السلطان محمد بن محمود وملك عمه سليمان شاه ثم أرسلان بن طغرل

ثم إن السلطان محمد بن محمود بن ملك شاه لما رجع عن حصار بغداد أصابه مرض السل وطال به، وتوفي بهمذان في ذي الحجة سنة أربع وخمسين لسبع سنين ونصف من ملكه، وكان له ولد فيئس من طاعة الناس له، ودفعه لأقسنقر الأحمديلي وأوصاه عليه فرحل به إلى مراغة. ولما مات السلطان محمد اختلف الأمر فيمن يولونه، ومال الأكثر إلى سليمان شاه عمه، وطائفة إلى ملك شاه أخيه، وطائفة إلى أرسلان بن السلطان طغرل الذي مع الدكز ببلاد أران. وبادر ملكشاه أخوه فسار من خوزستان ومعه شملة التركماني ودكلا صاحب فارس، ورحل إلى أصبهان فأطاعه ابن الخجندي، وأنفق عليه الأموال وبعث إلى عساكر همذان في الطاعة فلم يجيبوه، وأرسل أكابر الأمراء من همذان إلى قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل في سليمان شاه المحبوس عنده ليولوه عليهم، وذلك أول سنة خمس وخمسين فأطلقه على أن يكون أتابكاً له وجمال الدين وزيره وزيراً وجهزه بجهاز السلطنة وبعث معه نائبه زين الدين علي كوجك في عسكر الموصل. فلما قاربوا بلاد الجبل وأقبلت العساكر من كل جهة على السلطان سليمان ارتاب كوجك لذلك، وعاد إلى الموصل فلم ينتظم أمر سليمان، ودخل همذان وبايعوا له وخطب له ببغداد.

وكثرت جموع ملك شاه بأصبهان وبعث إلى بغداد في الخطبة، وأن يقطع خطبة عمه ويراجع القواعد بالعراق إلى ما كانت فوضع عليه الوزير عون الدين بن هبيرة جارية بعث بها إليه فسمته، فمات سنة خمس وخمسين، فأخرج أهل أصبهان أصحابه وخطبوا لسليمان شاه. وعاد شملة إلى خراسان فملك كل ما كان ملك شاه تغلب عليه منها. واستقر سليمان شاه بتلك البلاد، وشغل باللّهو والسكر ومنادمة الصفاعين، وفوض الأمور إلى شرف الدين دواداره من مشايخ السلجوقية، كان ذا دين وعقل وحسن تربية، فشكا الأمراء إليه فدخل عليه وعذله وهو سكران فأمر الصفاعين بالرد عليه، وخرج مغضباً. وصحا سليمان فاستدرك أمره بالاعتذار فأظهر القبول، واجتنب الحضور عنده وبعث سليمان إلى أبنايخ صاحب الري يستقدمه فاعتذر بالمرض

إلى أن يفيق.

ونمي الخبر إلى كربازه الخادم فعمل دعوة عظيمة حضرها السلطان والأمراء وقبض عليه وعلى وزيره أبي القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدي وعلى أصحابه في شوال من سنة ست وخمسين فقتل وزيره وخواصه وحبسه أياماً.

وخرج أينايخ صاحب الري ونهب البلاد وحاصر همذان وبعث كردباز إلى الدكز يستدعيه ليبايع لربيبه أرسلان شاه بن طغرل فسار في عشرين ألف فارس، ودخل همذان وخطب لربيبه أرسلان شاه بن طغرل بالسلطنة وجعل الدكز أتابكاً له، وأخاه من أمه البهلول بن الدكز حاجباً. وبعث إلى المقتفي في الخطبة، وأن تعاد الأمور إلى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود فطرد رسوله وعاد إليه على أقبح حالة. وبعث إلى أينايخ صاحب الري فحالفه على الاتفاق، وصاهره في ابنته على البهلول وجاءت إليه بهمذان وكان الدكز من مماليك السلطان مسعود، وأقطعه أران وبعض أذربيجان ولم يحضر شيئاً من الفتنة، وتزوج أم أرسلان شاه وزوجه طغرل فولدت له محمد البهلوان، وعثمان كزل أرسلان. ثم بعث الدكز إلى أقسنقر الأحمديلي صاحب مراغة في الطاعة لأرسلان شاه ربيبه، فامتنع وهددهم بالبيعة للطفل الذي عنده محمود بن ملك شاه. وقد كان الوزير ابن هبيرة أطمعه في الخطبة لذلك تطفل فيما بينهم، فجهز الدكز العساكر مع ابنه البهلوان وسار إلى مراغة، واستمد أقسنقر ساهرمز صاحب خلاط فأمده بالعساكر، والتقى أقسنقر والبهلوان فانهزم البهلوان وعاد إلى همذان. وعاد أقسنقر إلى مراغة ظافراً.

وكان ملك شاه بن محمود لما مات بأصبهان مسموماً كما ذكرنا لحق طائفة من أصحابه ببلاد فارس، ومعه ابنه محمود، فقبض عليه صاحب فارس زنكي بن دكلا السلفري بقلعة أصطخر، ولما مات بعث الدكز إلى بغداد في الخطبة لربيبه أرسلان وشرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة في التصريف بينهم بعث ابن دكلا وأطمعه في الخطبة لمحمود بن ملك شاه الذي عنده ان ظفر بالدكز فأطلقه ابن دكلا وبايع له، وضرب الطبل على بابه خمس نوب وبعث إلى أينايخ صاحب الري فوافقه وسار إليه في عشرة آلاف، وبعث إليه أقسنقر الأحمديلي، وجمع الدكز العساكر، وسار إلى أصبهان يريد بلاد فارس، وبعث إلى صاحبها زنكي بن دكلا في الطاعة لربيبه أرسلان فأبى، وقال: إن المقتفي أقطعني بلاده وأنا سائر إليه. واستمد المقتفي وابن هبيرة فواعدوه وكاتبوا الأمراء الذين مع الدكز بالتوبيخ على طاعته والانحراف عنه إلى زنكي بن دكلا صاحب فارس، وأينايخ صاحب الري، ويدأ الدكز بقصد أينايخ. ثم بلغه أن زنكي بن دكلا نهب سميرم ونواحيها، فبعث عسكراً نحواً من عشرة آلاف فارس لحفظها فلقيهم زنكي فهزمهم، فبعث الدكز إلى عساكر أذربيجان فجاء بها ابنه كزل أرسلان. وبعث زنكي بن دكلا العساكر إلى أينايخ ولم يحضر بنفسه خوفاً على بلاد شملة من صاحب خوزستان. ثم التقى الدكز وأينايخ في شعبان سنة ست وخمسين فانهزم أينايخ واستبيح عسكره وحاصره الدكز ثم صالحه ورجع إلى همذان.

وفاة المقتفي وخلافة المستنجد وهو أول الخلفاء المستبدين على أمرهم من بني العباس عند تراجع الدولة وضيق نطاقها ما بين الموصل وواسط والبصرة وحلوان

ثم توفي المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر في ربيع الأول سنة خمس وخمسين لأربع وعشرين سنة وأربعة أشهر من خلافته، وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم، فحكم على عسكره وأصحابه فيما بقي لملكتهم من البلدان بعد استبداد الملوك في الأعمال والنواحي. ولما اشتد مرضه تطاول كل من أمُ ولده إلى ولاية ابنها. وكانت أم المستنجد تخاف عليه، وأم أخيه علي تروم ولاية ابنها، واعتزمت على قتل المستنجد واستدعته لزيارة أبيه وقد جمعت جواريها وآتت كل واحدة منهن سكيناً لقتله وأمسكت هي وابنها سيفين، وبلغ الخبر إلى يوسف المستنجد فأحضر أستاذدار أبيه، وجماعة من الفراشين وأفرغ السلاح ودخل معهم الدار، وثار به الجواري فضرب إحداهن وأمكنها فهربوا وقبض على أخيه علي وأمه فحبسها وقسم الجواري بين القتل والتغريق حتى إذا توفي المقتفي جلس للبيعة فبايعه أقاربه أولهم عمه أبو طالب، ثم الوزير عون الدين بن هبيرة وقاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له. وأقر ابن هبيرة على الوزارة وأصحاب الولايات على ولايتهم، وأزال المكوس والضرائب، وقرب رئيس الرؤساء، وكان أستاذدار فرفع منزلته عبد الواحد المقتفي، وبعث عن الأمير ترشك سنة ست وخمسين من بلد اللحف وكان مقتطعاً بها فاستدعاه لقتال جمع من التركمان أفسدوا في نواحي البندنجين فامتنع من المجيء وقال: يأتيني العسكر وأنا أقاتل بهم، فبعث المستنجد العساكر مع جماعة من الأمراء فقتلوه وبعثوا برأسه إلى بغداد. ثم استولى بعد ذلك على قلعة الماهكي من يد مولى سنقر الهمذاني ولاه عليها سنقر وضعف عن مقاومة التركمان والأكراد حولها

فاستنزله المستنجد عنها بخمسة عشر ألف دينار، وأقام ببغداد. وكانت هذه القلعة أيام المقتدر بأيدي التركمان والأكراد.

فتنة خفاجة

اجتمعت خفاجة سنة ستة وخمسين إلى الحلة والكوفة، وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر، وكان مقطع الكوفة أرغش وشحنة الحلة قيصر، وهما من مماليك المستنجد فمنعوهما، فعاثوا في تلك البلاد والنواحي فخرجوا إليهم في أثرهم، واتبعوهم إلى الرحبة، فطلبوا الصلح فلم يجبهم أرغش ولا قيصر، فقاتلوهم فانهزمت العساكر. وقتل قيصر وخرج أرغش ودخل الرحبة، فاستأمن له شحنتها وبعثوه إلى بغداد. ومات أكثر الناس عطشاً في البرية وتجهز عون الدين بن هبيرة في العساكر لطلب خفاجة فدخلوا البرية ورجع، وانتهت خفاجة إلى البصرة وبعثوا بالعدو وسألوا الصلح فأجيبوا.

إجلاء بني أسد من العراق

كان في نفس المستنجد بالله من بني أسد أهل الحلة لفسادهم ومساعدتهم السلطان محمد في الحصار، فأمر يزدن بن قماج بإجلائهم من البلاد، وكانوا منبسطين في البطائح، فجمع العساكر وأرسل إلى ابن معروف فقدم السفن، وهو بأرض البصرة. فجاءه في جموع وحاصرهم وطاولهم، فبعث المستنجد يعاتبه ويتهمه بالتشيع، فجز هو وابن معروف في قتالهم، وسد مسالكهم في الماء فاستسلموا، وقتل منهم أربعة آلاف ونودي عليهم بالملا من الحلة فتفرقوا في البلاد، ولم يبق بالعراق منهم أحد وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى ابن معروف.

الفتنة بواسط وما جرت إليه

كان مقتطع البصرة منكبرس من موالي المستنجد، وقتله سنة تسع وخمسين، وولى مكانه كمستكين، وكان ابن سنكاه ابن أخي شملة صاحب خوزستان، فانتهز الفرصة في البصرة ونهب قراها، وأمر كمستكين بقتاله فعجز عن إقامة العسكر وأصعد ابن سنكاه إلى واسط ونهب سوادها وكان مقتطعها خلطوبرس فجمع الجموع وخرج لقتاله، واستمال ابن سنكاه الأمراء الذين معه فخذلوه، وانهزم وقتله ابن سنكاه سنة إحدى وستين ثم قصد البصرة سنة اثنتين وستين ونهب جهتها الشرقية وخرج إليه كمستكين وواقعه، وسار ابن سنكاه إلى واسط وخافه الناس ولم يصل إليها.

مسير شملة إلى العراق

سار شملة صاحب خوزستان إلى العراق سنة اثنتين وستين وانتهى إلى قلعة الماهكي وطلب من المستنجد إقطاع البلاد، واشتط في الطلب فبعث المستنجد العساكر لمنعه، وكتب إليه يحذره عاقبة الخلاف فاعتذر بأن الدكز وربيبه السلطان أرسلان شاه أقطعا الملك الذي عنده، وهو ابن ملك شاه بلاده البصرة وواسط والحلة، وعرض للتوقيع بذلك، وقال: أنا أقنع بالثلث منه فأمر المستنجد حينئذ بلعنه، وأنه من الخوارج، وتعبت العساكر إلى أرغمش المسترشدي بالنعمانية وإلى شرف الدين أبي جعفر البلدي ناظر واسط ليجتمعا على قتال شملة، وكان شملة أرسل مليح ابن أخيه في عسكر لقتال بعض الأكراد فركب إليه أرغمش وأسره وبعض أصحابه، وبعث إلى بغداد، وطلب شملة الصلح فلم يجب إليه. ثم مات أرغمش من سقطة سقطها عن فرسه وبقي العسكر مقيماً ورجع شملة إلى بلاده لأربعة أشهر من سفره.

وفاة الوزير يحيى

ثم توفي الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن المظفر بن هبيرة سنة ستين وخمسمائة في جمادى الأولى، وقبض المستنجد على أولاده وأهله وأقامت الوزارة بالنيابة. ثم استوزر المستنجد سنة ثلاث وستين شرف الدين، أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي ناظر واسط وكان عضد الدين أبو الفرج بن دبيس قد تحكم في الدولة فأمره المستنجد بكف يده وأيدي أصحابه، وطالب الوزير أخاه تاج الدين بحساب عمله بنهر الملك من أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره، فخافه العمال وأهل الدولة وحصل بذلك أموالاً جمة.

وفاة المستنجد وخلافة المستضيء

كان الخليفة المستنجد قد غلب على دولته أستاذدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، وكان أكبر الأمراء ببغداد، وكان يرادفه قطب الدين قايماز المظفري ولما ولى المستنجد أبا جعفر البلدي على وزارته غض من أستاذدار وعارضه في أحكامه فاستحكمت بينهما العداوة، وتنكر المستنجد لأستاذدار وصاحبه قطب الدين، فكانا يتهمان بأن ذلك بسعاية الوزير. ومرض

المستنجد سنة ست وستين وخمسمائة واشتد مرضه فتحيلا في إهلاكه، يقال: إنهما واضعا عليه الطبيب، وعلم أن هلاكه في الحمام فأشار عليه بدخول فدخله، وأغلقوا عليه بابه فمات. وقيل: كتب المستنجد إلى الوزير ابن البلدي بالقبض على أستاذدار وقايماز وقتلهما، وأطلعهما الوزير على كتابه فاستدعيا يزدن وأخاه يتماش وفاوضهما، وعرضا عليهم كتابه، واتفقوا على قتله فحملوه إلى الحمام وأغلقوا عليه الباب وهو يصيح إلى أن مات تاسع ربيع من سنة ست وستين لإحدى عشرة سنة من خلافته.

ولما أرجف بموته قبل أن يقبض ركب الأمراء والأجناد متسلحين، وغشيتهم العامة واحتفت بهم، وبعث إليه أستاذدار بأنه إنما كان غشياً عرضاً، وقد أفاق أمير المؤمنين وخف ما به، فخشي الوزير من دخول الجند إلى دار الخلافة، فعاد إلى داره وافترق الناس. فعند ذلك أغلق أستاذدار وقايماز أبواب الدار وأحضرا ابن المستنجد أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضيء بأمر اللّه، وشرطا عليه أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذدار وقطب الدين قايماز أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك، وبايعه أهل بيته البيعة الخاصة. ثم توفي المستنجد وبايعه الناس من الغد في التاج البيعة العامة وأظهر العدل وبذل الأموال وسقط في يد الوزير وندم على ما فرط، واستدعي للبيعة، فلما دخل قتلوه وقبض المستضيء على القاضي ابن مزاحم وكان ظلوماً جائراً واستصفاه ورد الظلامات منه على أربابها، وولى أبا بكر بن نصر بن العطار صاحب المخزن ولقبه ظهير الدين.

انتقاض الدولة العلوية بمصر وعود الدعوة العباسية إليها

ولأول خلافة المستضيء كان انقراض الدولة العلوية بمصر، والخطبة بها للمستضيء من بني العباس في شهر المحرم فاتح سنة سبع وستين وخمسمائة قبل عاشوراء، وكان آخر الخلفاء العبيديين بها العاضد لدين اللّه من أعقاب الحافظ لدين اللّه عبد المجيد، وخافوا المستضيء معه ثامن خلفائهم، وكان مغلباً لوزارته. واستولى شاور منهم وثقلت وطأته عليهم فاستقدم ابن شوار من أهل الدولة من الإسكندرية. وفر شاور إلى الشام مستنجداً بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من أقسنقر، وكان من مماليك السلجوقية وأمرائهم المقيمين للدعوة العباسية. وكان صلاح الدين يوسف بن نجم أيوب بن الكردي.... هو وأبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه في جماعة من الأكراد في خدمة نور الدين محمود بالشام.

فلما جاء شاور مستنجداً بعث معه هؤلاء الأمراء الأيوبية وكبيرهم أسد فأعاده إلى وزارته، وقتل الضرغام، ولم يوف له شاور بما ضمن له عند مسيره من الشام في نجدته. وكان الفرنج قد ملكوا سواحل مصر والشام وزاحموا ما يليها من الأعمال، وضيقوا على مصر والقاهرة إلى أن ملكوا بلبيس وأيلة عند العقبة. واستولوا على الدولة العلوية في الضرائب والطلبات وأصبحوا مأوى لمن ينحني عن الدولة. وداخلهم شاور في مثل ذلك فارتاب به العاضد وبعث عز الدين مستصرخاً به على الفرنج في ظاهر أمره، ويسرحون في ارتعاء من إباة شاور والتمكن منه فوصل لذلك، وولاه العاضد وزارته وقلده ما وراء بابه، فقتل الوزير شاور وحسم داءه وكان مهلكه قريباً من وزارته يقال: لسنة ويقال: لخمسين يوماً فاستوزر العاضد مكانه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين فقام بالأمر وأخذ في إصلاح الأحوال وهو يعد نفسه وعمه من قبله نائباً عن نور الدين محمود بن زنكي الذي بعثه وعمه للقيام بذلك.

ولما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين ضعف أمر العاضد وتحكم صلاح الدين في أموره وأقام خادمه قراقوش للولاية عليه في قصره والتحكم عليه، فبعث إليه نور الدين محمود الملك العادل بالشام أن يقطع الخطبة للعاضد ويخطب للمستضيء ففعل ذلك على توقع النكير من أهل مصر. فلما وقع ذلك ظهر منه الاغتباط وانمحت آثار الدولة العلوية، وتمكنت الدولة العباسية فكان ذلك مبدأ الدولة لبني أيوب بمصر ثم ملكوا من بعدها أعمال نور الدين بالشام واستضافوا اليمن وطرابلس الغرب واتسع ملكهم كما يذكر في أخبارهم. ولما خطب للمستضيء بمصر كتب له نور الدين محمود من دمشق مبشراً بذلك فضربت البشائر ببغداد، وبعث بالخلع إلى نور الدين وصلاح الدين مع عماد الدين صندل من خواص المقتفوية، وهو أستاذدار المستضيء فجاء إلى نور الدين بدمشق، وبعث الخلع إلى صلاح الدين وللخطباء بمصر وبإسلام السواد. واستقرت الدعوة العباسية بمصر إلى هذا العهد واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ثم بعث نور الدين محمود إلى المستضيء رسوله القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد اللّه الشهرزوري قاضي بلاده يطلب التقليد لما بيده من الأعمال، وهي مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما هو في طاعته كديار بكر وخلاط وبلاد الروم التي لقليج أرسلان وان يقطع صريعين ودرب هارون من بلاد سواد العراق كما كانتا لأبيه، فأكرم الرسول وزاد في الإحسان إليه

وكتب له بذلك.

خبر يزدن من أمراء المستضيء

كان يزدن قد ولاه المستضيء الحلة فكانت في أعماله، وكانت حمايتها لخفاجة وبني حزن منهم فجعلها يزدن لبني كعب منهم، وأمرهم الغضبان فغضب بنو حزن وأغاروا عليهم على السواد، وخرج يزدن في العسكر لقتالهم، ومعه الغضبان وعشيرة بنو كعب فبينما هم ليلة يسيرون رمي الغضبان بسهم فمات، فعادت العساكر إلى بغداد، وأعيدت حفاظة السواد إلى بني حزن. ثم مات يزدن سنة ثمان وستين، وكانت واسط من أقطاعه فاقتطعت لأخيه إيتامش ولقب علاء الدين.

مقتل سنكاه بن أحمد أخي شملة

قد ذكرنا في دولة المستنجد فتنة سنكاه هذا وعمه شملة صاحب خوزستان. ثم جاء ابن سنكاه إلى قلعة الماهكي فبنى بإزائها قلعة ليتمكن بها من تلك الأعمال، فبعث المستضيء العسكر من بغداد لمنعه فقاتلهم واشتد قتاله. ثم انهزم وقتل وعلق رأسه ببغداد وهدمت القلعة.

وفاة قايماز وهربه

قد ذكرنا شأن قطب الدين قايماز وأنه الذي بايع للمستضيء وجعله أمير العسكر وجعله عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وزيراً. ثم استفحل أمر قايماز وغلب على الدولة وحمل المستضيء على عزل عضد الدين أبي الفرج من الوزارة، فلم يمكنه مخالفته، وعزله سنة سبع وستين فأقام معزولاً. وأراد الخليفة سنة تسع وتسعين أن يعيده إلى الوزارة فمنعه قطب الدين من ذلك، وركب فأغلق المستضيء أبواب داره مما يلي بغداد، وبعث إلى قايماز ولاطفه بالرجوع فيما هم به من وزارة عضد الدين فقال: لا بد من إخراجه من بغداد فاستجار برباط شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل فأجاره، واستطال قايماز على الدولة وأصهر على علاء الدين يتامش في أخته فزوجها منه وحملوا الدولة جميعاً.

ثم سخط قايماز ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن وكان خاصاً بالخليفة، وطلبه فهرب فأحرق داره، وجمع الأمراء فاستحلفهم على المظاهرة وأن يقصدوا دار المستضيء ليخرجوا منها ابن العطار، فقصد المستضيء على سطح داره وخدامه يستغيثون، ونادى في العامة بطلب قايماز ونهب داره فهرب من ظهر بيته، ونهبت داره وأخذ منها ما لا يحصى من الأموال واقتتل العامة على..... ولحق قايماز بالحلة وتبعه الأمراء، وبعث إليه المستضيء شيخ الشيوخ عبد الرحيم ليسير عن الحلة إلى الموصل تخوفاً من عوده إلى بغداد فيعود استيلاؤه لمحبة العامة فيه، وطاعتهم له، فسار إلى الموصل وأصابه ومن معه في الطريق عطش فهلك الكثير منهم، وذلك في ذي الحجة ومن سنة سبعين. وأقام صهره علاء الدين يتامش بالموصل. ثم استأذن الخليفة في القدوم إلى بغداد فقدم وأقام بها عاطلاً بغير إقطاع، وهو الذي حمل قايماز على ما كان منه، وولى الخليفة أستاذداره سنجر المقتفوي، ثم عزله سنة إحدى وسبعين وولى مكانه أبا الفضل هبة الله بن علي بن الصاحب.

فتنة صاحب خوزستان

قد ذكرنا أن ملك شاه بن محمود بن السلطان محمد استقر بخوزستان وذكرنا فتنة شملة مع الخلفاء. ثم مات شملة سنة سبعين وملك ابنه مكانه. ثم مات ملك شاه بن محمود وبقي ابنه بخوزستان فجاء سنة اثنتين وسبعين إلى العراق، وخرج إلى البندنجين، وعاث في الناس وخرج الوزير عضد الدين أبو الفرج في العساكر ووصل عسكر الحلة وواسط مع طاش تكين أمير الحاج وغز علي، وساروا للقاء العدو وكان معه جموع من التركمان فأجفلوا ونهبتهم عساكر بغداد. ثم ردهم الملك ابن ملك شاه وأوقعوا بالعسكر أياماً ثم مضى الملك إلى مكانه وعادت العساكر إلى بغداد.

مقتل الوزير

قد ذكرنا أخبار الوزير عضد الدين أبي الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة، كان أبوه أستاذدار المقتفي. ولما مات ولي ابنه مكانه. ولما مات المقتفي أقره المستنجد ورفع قدره، ثم استوزره المستضيء وكان بينه وبين قايماز ما قدمناه، وأعاده المستضيء للوزارة فلما كانت سنة ثلاث وسبعين استأذن المستضيء في الحج فأذن له وعبر دجلة فسافر في موكب عظيم من أرباب المناصب، واعترضه متظلم ينادي بظلامته، ثم طعنه فسقط وجاء ابن المعوذ صاحب الباب ليكشف خبره فطعن الآخر وحملا إلى بيتهما فماتا. وولي

الوزير ظهير الدين أبو منصور بن نصر ويعرف بابن العطار فاستولى على الدولة وتحكم فيها.

وفاة المستضيء وخلافة الناصر

ثم توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد في ذي القعدة سنة خمس وسبعين لتسع سنين ونصف من خلافته، وقام ظهير الدين العطار في البيعة لابنه أبي العباس أحمد ولقبه الناصر لدين الله فقام بخلافته، وقبض على ظهير الدين بن العطار وحبسه واستصفاه. ثم أخرجه من عشر ذي القعدة من محبسه ميتاً وفطن به العامة. فتناوله العامة وبعثوا به، وتحكم في الدولة أستاذدار مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب، وكان تولى أخذ البيعة للناصر مع ابن العطار، وبعث الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة. وسار صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان صاحب همذان وأصبهان والري فامتنع من البيعة فأغلظ له صدر الدين في القول. وحرض أصحابه على نقض طاعته إن لم يبايع فاضطر إلى البيعة والخطبة. ثم قبض سنة ثلاث وثمانين على أستاذدار أبي الفضل ابن الصاحب وقتله من أجل تحكمه، وأخذ له أموالاً عظيمة. وكان الساعي فيه عند الناصر عبيد الله بن يونس من أصحابه وصنائعه، فلم يزل يسعى فيه عند الناصر حتى أمر بقتله، واستوزر ابن يونس هذا ولقبه جلال الدين وكنيته أبو المظفر ومشى أرباب الدولة في خدمته حتى قاضي القضاة.

هدم دار السلطنة ببغداد وانقراض ملوك السلجوقية

قد ذكرنا فيما تقدم ملك أرسلان شاه بن طغرل ربيب الدكز، واستيلاء الدكز عليه وحروبه مع أبنايخ صاحب الري. ثم قتله سنة أربع وستين واستولى على الري. ثم توفي الدكز الأتابك بهمذان سنة ثمان وستين، وقام مكانه ابنه محمد البهلوان، وبقي أخوه السلطان أرسلان بن طغرل في كفالته. ثم مات سنة ثلاث وستين ونصب البهلوان مكانه ابنه طغرل. ثم توفي البهلوان سنة اثنتين وثمانين وفي مملكته همذان والري وأصبهان وأذربيجان وأرانيه وغيرها، وفي كفالته السلطان طغرل بن أرسلان. ولما مات البهلوان قام مكانه أخوه كزل أرسلان ويسمى عثمان، فاستبد طغرل وخرج عن الكفالة ولحق به جماعة من الأمراء والجند، واستولى على بعض البلاد ووقعت بينه وبين كزل حروب. ثم قوي أمر طغرل وكثر جمعه وبعث كزل إلى الناصر يحذره من طغرل ويستنجده ويبذل الطاعة على ما يختاره المستضيء رسوله، فأمر بعمارة دار السلطنة ليسكنها.

وكانت ولايتهم ببغداد والعراق قد انقطعت منذ أيام المقتفي فأكرم رسول كزل وعده بالنجدة، وانصرف رسول طغرل بغير حرب وأمر الناصر بهدم دار السلطنة ببغداد فمحى أثرها. ثم بعث الناصر وزيره جلال الدين أبا المظفر عبيد الله بن يونس في العساكر لإنجاد كزل ومدافعة طغرل عن البلاد، فسار لذلك في صفر لسنة أربع وثمانين، واعترضهم طغرل على همذان قبل اجتماعهم بكزل، واقتتلوا ثامن ربيع، وانهزمت عساكر بغداد وأسروا الوزير. ثم استولى كزل على طغرل وحبسه ببعض القلاع، ودانت له البلاد وخطب لنفسه بالسلطنة وضرب النوب الخمس. ثم قتل على فراشه سنة سبع وثمانين ولم يعلم قاتله.

استيلاء الناصر على النواحي

توفي الأمير عيسى صاحب تكريت سنة خمس وثمانين قتله إخوته، فبعث الناصر العساكر فحصروها حتى فتحوها على الأمان وجاؤوا بإخوة عيسى إلى بغداد فسكنوها وأقطع لهم السلطان. ثم بعث سنة خمس وثمانين عساكره إلى مدينة غانة فحاصروها مدة وقاتلوها طويلاً ثم جهدهم الحصار فنزلوا عنها على الأمان وإقطاع عيونها ووفى لهم الناصر بذلك.

نهب العرب البصرة

كانت البصرة في ولاية طغرل مملوك الناصر، كان مقطعها واستناب بها محمد بن إسماعيل، واجتمع بنو عامر بن صعصعة سنة ثمان وثمانين، وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة للنهب والعيث. وخرج إليهم محمد بن إسماعيل في صفر فقاتلهم سائر يومه. ثم ثلموا في الليل ثلماً في السور ودخلوا البلد وعاثوا فيها قتلا ونهباً. ثم بلغ بني عامر أن خفاجة والمشفق ساروا لقتالهم، فرحلوا إليهم وقاتلوهم فهزموهم، وغنموا أموالهم وعادوا إلى البصرة، وقد جمع الأمير أهل السواد فلم يقوموا للعرب وانهزموا، ودخل العرب البصرة فنهبوها ورحلوا عنها.

استيلاء الناصر على خوزستان ثم أصبهان والري وهمذان

كان الناصر قد استناب في الوزاة بعد أسر ابن يونس مؤيد الدين أبا عبد الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب، وكان قد ولي الأعمال في خوزستان وغيرها، وله فيها الأصحاب. ولما توفي صاحبها شملة واختلف أولاده راسله بعضهم في ذلك، فطلب من الناصر أن يرسل معه العساكر ليملكها فأجابه وخرج في العساكر سنة إحدى وتسعين، وحارب أهل خوزستان فملك أولاً مدينة تستر ثم ملك سائر الحصون والقلاع وأخذ بني شملة ملوكها فبعث بهم إلى بغداد، وولى الناصر على خوزستان طاش تكين مجير الدين أمير الحاج.

ثم سار الوزير إلى جهات الري سنة إحدى وتسعين، وجاءه قطلغ أبنايخ بن البهلوان وقد غلبه خوارزم شاه وهزمه عند زنجان، وملك الري من يده. وجاء قطلغ إلى الوزير مؤيد ورحل معه إلى همذان وبها ابن خوارزم شاه في العساكر فأجفل عنها إلى الري، وملك الوزير همذان ورحل في اتباعهم وملك كل بلد مروا بها إلى الري، وأجفل عسكر خوارزم إلى دامغان وبسطام وجرجان. ورجع الوزير إلى الري فأقام بها. ثم انتقض قطلغ بن البهلوان وطمع في الملك فامتنع بالري وحاصره الوزير فخرج عنها إلى مدينة آوة فمنعهم الوزير منها ورحل الوزير في أثرهم من الري إلى همذان، وبلغه أن قطلغ قصد مدينة الكرج فسار إليه وقاتله وهزمه، ورجع إلى همذان فجاءه رسول خوارزم شاه محمد تكش بالنكير على الوزير في أخذ البلاد، ويطلب إعادتها فلم يجبه الوزير إلى ذلك، فسار خوارزم شاه إلى همذان وقد توفي الوزير ابن القصاب خلال ذلك في شعبان سنة اثنتين وتسعين، فقاتل العساكر التي كانت معه بهمذان وهزمهم، وملك همذان وترك ولده بأصبهان، وكانوا يبغضون الخوارزمية فبعث صدر الدين الخجندي رئيس الشافعية إلى الديوان ببغداد يستدعي العساكر لملكها، فجهز الناصر العساكر مع سيف الدين طغرل يقطع بلد اللحف من العراق، وسار فوصل أصبهان، ونزل ظاهر البلد وفارقها عسكر الخوارزمية فملكها طغرل وأقام فيها الناصر وكان من مماليك البهلوان.

ولما رجع خوارزم شاه إلى خراسان، اجتمعوا واستولوا على الري وقدموا عليهم كركجه من أعيانهم، وساروا إلى أصبهان فوجدوا بها عسكر الناصر وقد فارقها عسكر الخوارزمية فملكوا أصبهان، وبعث كركجه إلى بغداد بالطاعة، وأن يكون له الري وساوة وقم وقاشان. ويكون للناصر أصبهان وهمذان وزنجان وقزوين فكتب له بما طلب وقوي أمره.

ثم وصل إلى بغداد أبو الهيجاء السمين من أكابر أمراء بني أيوب وكان في إقطاعه بيت المقدس وأعماله، فلما ملك العزيز والعادل مدينة دمشق من الأفضل بن صلاح الدين عزلوا أبا الهيجاء عن القدس، فسار إلى بغداد فأكرمه الناصر وبعثه بالعساكر إلى همذان سنة ثلاث وتسعين فلقي بها أزبك بن البهلوان وأمير علم وابنه قطلمش، وقد كاتبوا الناصر بالطاعة فداخل أمير علم وقبض على أزبك وابن قطلمش بموافقته، وأنكر الناصر ذلك على أبي الهيجاء وأمره بإطلاقهم. وبعث إليهم بالخلع فلم يأمنوا، وفارقوا أبا الهيجاء فخشي من الناصر ودخل إلى أربل لأنه كان من أكرادها، ومات قبل وصوله إليها.

وأقام كركجه ببلاد الجبل واصطنع رفيقه إيدغمش، واستخلصه ووثق به فاصطنع إيدغمش المماليك وانتقض عليه آخر المائة السادسة، وحاربه فقتله واستولى على البلاد ونصب أزبك بن البهلوان للملك وكفله. ثم توفي طاش تكين أمير خوزستان سنة اثنتين وستمائة وولى الناصر مكانه صهره سنجر وهو من مواليه، وسار سنجر سنة ثلاث وستمائة إلى جبال تركستان جبال منيعة بين فارس وعمان وأصبهان وخوزستان وكان صاحب هذه الجبال يعرف بأبي طاهر وكان للناصر مولى اسمه قشتمر من أكابر مواليه ساءه وزير الدولة ببعض الأحوال فلحق بأبي طاهر صاحب تركستان فأكرمه وزوجه بابنته.

ثم مات أبو طاهر فأطاع أهل تلك الولاية قشتمر وملك عليهم، وبعث الناصر إلى سنجر صاحب خوزستان يعضده في العساكر فسار إليه ويذل له الطاعة على البعد. فلم يقبل منه فلقيه وقاتله فانهزم سنجر، وقوي قشتمر على أمره وأرسل إلى ابن دكلا صاحب فارس، وإلى إيدغمش صاحب الجبل فاتفق معهما على الامتناع على الناصر واستمر حاله.

عزل الوزير نصير الدين

كان نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي من أهل الري من بيت إمارة، وقدم إلى بغداد عندما ملك الوزير ابن القصاب الري فأقبل عليه الخليفة، وجعله نائب الوزارة. ثم استوزره وجعل ابنه صاحب المخزن فتحكم في الدولة، وأساء إلى أكابر موالي الناصر، فلما حج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع سنة ثلاث وستمائة وكان أميراً ففارق الحاج ومضى إلى الشام، وبعث إلى

الناصر أن الوزير ينفي عليك مواليك ويريد أن يدعي الخلافة فعزله الناصر وألزمه بيته. وبعث من كل شيء ملكه، ويطلب الإقامة بالمشهد فأجابه الناصر بالأمان والاتفاق، وان المعزلة لم تكن لذنب وإنما أكثر الأعداء المقالات فوقع ذلك. واحترز لنفسه موضعاً ينتقل إليه موقراً محترماً فاختار أيالة الناصر، خوفاً أن يذهب الأعداء بنفسه.

ولما عزل عاد سنقر أمير الحاج، وعاد أيضاً قشتمر، وأقيم نائباً في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن إسمينا الواسطي، ولم يكن له ذلك التحكم، وقارن ذلك وفاة صاحب المخزن ببغداد أبو فراس نصر بن ناصر بن مكي المدائني فولى مكانه أبو الفتوح المبارك بن عضد الدين أبي الفرج بن رئيس الرؤساء، وأعلى محله، وذلك في المحرم سنة خمس وستمائة. ثم عزل آخر السنة لعجزه، ثم عزل في ربيع من سنة ست وستمائة فخر الدين بن إسمينا، ونقل إلى المخزن وولي نيابة الوزارة مكانه مكين الدين محمد بن محمد بن محمد بن بدر القمر كاتب الإنشاء ولقب مؤيد الدين.

انتقاض سنجر بخوزستان

قد ذكرنا ولاية سنجر مولى الناصر على خوزستان بعد طاش تكين أمير الحاج ثم استوحش سنة ست وستمائة واستقدمه الناصر فاعتذر فبعث إليه العساكر مع مؤيد الدين نائب الوزارة، وعز الدين بن نجاح الشرابي من خواص الخليفة. فلما قاربته العساكر لحق بصاحب فارس أتابك سعد بن دكلا فأكرمه ومنعه، ووصلت عساكر الخليفة خوزستان في ربيع من سنته وبعثوا إلى سنجر في الرجوع إلى الطاعة فأبى وساروا إلى أرجاز لقصد ابن دكلا بشيراز، والرسل تتردد بينهم. ثم رحلوا في شوال يريدون شيراز فبعث ابن دكلا إلى الوزير والشرابي بالشفاعة في سنجر واقتضاء الأمان له فأجابوه إلى ذلك، وأعادوا سنجر إلى بغداد في المحرم سنة ثمان وستمائة، ودخلوا به مقيداً. وولى الناصر مولاه ياقوتاً أمير الحاج على خوزستان. ثم أطلق الناصر سنجر في صفر من سنة ثمان وستمائة وخلع عليه.

استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصبهان وهرب إيدغمش ثم مقتله ومقتل منكلي وولاية إغلمش

قد ذكرنا استيلاء إيدغمش من أمراء البهلوانية على بلاد الجبل همذان وأصبهان والري وما إليها فاستفحل فيها وعظم شأنه وتخطى إلى أذربيجان وأرانيه فحاصر صاحبها أزبك بن البهلوان. ثم خرج سنة ثمان وستمائة منكلي من البهلوانية، ونازعه الملك وأطاعه البهلوانية، فاستولى على سائر تلك الأعمال وهرب شمس الدين إيدغمش إلى بغداد، وأمر الناصر بتلقيه، فكان يوماً مشهوداً وخشي منكلي من اتصاله فأوفد ابنه محمداً في جماعة من العسكر، وتلقاه الناس على طبقاتهم وقد كان الناصر شرع في إمداد إيدغمش، فأمده وسار إلى همذان في جمادى من سنة عشر، ووصل إلى بلاد ابن برجم من التركمان الأيوبية، وكان الناصر عزله عن إمارة قومه وولى أخاه الأصغر، فبعث إلى منكلي يخبر إيدغمش، فبعث العساكر بطلبه فقتلوه وافترق جمعه.

وبعث الناصر إلى أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأرانية يغريه به وكان مستوحشاً منه وأرسل أيضاً إلى جلال الدين صاحب قلعة الموت وغيرها من قلاع الإسماعيلية من بلاد العجم بمعاضدة أزبك على أن يقتسموا بلاد الجبل. وجمع الخليفة العساكر من الموصل والجزيرة وبغداد وقدّم على عسكر بغداد مملوكه مظفر الدين وجه السبع واستقدم مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك وهو على أربل وشهرزور وأعمالها، وجعله مقدم العساكر جميعاً وساروا إلى همذان فهرب منكلي إلى جبل قريب من الكرج وأقاموا عليه يحاصرونه ونزل منكلي في بعض الأيام فقاتل أزبك وهزمه إلى مخيمه. ثم جاء من الغد وقد طمع فيهم فاشتدوا في قتاله وهزموه فهرب عن البلاد أجمع، وافترقت عساكره واستولت العساكر على البلاد، وأخذ جلال الدين ملك الإسماعيلية منها ما عينته القسمة وولى أزبك بن البهلوان على بقية البلاد أغلمش مملوك أخيه وعادت العساكر إلى بلادها ومضى منكلي منهزماً إلى مدينة ساوة فقبض عليه الشحنة بها وقتله وبعث أزبك برأسه إلى بغداد وذلك في جمادى سنة اثنتي عشرة.

ولاية حافد الناصر على خوزستان

كان للناصر ولد صغير اسمه علي وكنيته أبو الحسن قد رشحه لولاية العهد وعزل عنها ابنه الأكبر، وكان هذا أحب ولده

إليه فمات في ذي القعدة سنة عشر فتفجع له وحزن عليه حزناً لم يسمع بمثله. وشمل الأسف عليه الخاص والعام. وكان ترك ولدين لقبهما المؤيد والموفق فبعثهما الناصر إلى تستر من خوزستان بالعساكر في المحرم سنة ثلاث عشرة وبعث معهما مؤيد الدين نائب الوزارة، وعزل مؤيد الدين الشرابي فأقاما بها أياماً. ثم أعاد الموفق مع الوزير والشرابي إلى بغداد في شهر ربيع وأقام المؤيد بتستر.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الجبل وطلب الخطبة له ببغداد

كان أغلمش قد استولى على بلاد الجبل كما ذكرناه واستفحل أمره وقوي ملكه فيها. ثم قتله الباطنية سنة أربع عشرة وستمائة. وكان علاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه وارث ملك السلجوقية قد استولى على خراسان وما وراء النهر فطمع في إضافة هذه البلاد إليه فسار في عساكره واعترضه صاحب بلاد فارس أتابك سعد بن دكلا على أصبهان وقد ساقه من الطمع في البلاد مثل الذي ساقه فقاتله وهزمه خوارزم وأخذه أسيراً. ثم سار إلى ساوة فملكها ثم قزوين وزنجان وأبهر، ثم همذان ثم أصبهان وقم وقاشان. وخطب له صاحب أذربيجان وأرانية وكان يبعث في الخطبة إلى بغداد ولا يجاب، فاعتزم الآن على المسير إليها وقدم أميراً في خمسة عشر ألف فارس وأقطعه حلوان فنزلها. ثم أتبعه بأمير آخر، فلما سار عن همذان سقط عليهم الثلج وكادوا يهلكون، وتخطف بقيتهم بنو برجم من التركمان وبنو عكا من الأكراد. واعتزم خوارزم شاه على الرجوع إلى خراسان، وولى على همذان طابسين وجعل إمارة البلاد كلها لابنه ركن الدين وأنزل معه عماد الملك المساوي متولياً أمور دولته، وعاد إلى خراسان سنة خمس عشرة وأزال الخطبة للناصر من جميع أعماله.

إجلاء بني معروف عن البطائح

كان بنو معروف هؤلاء من ربيعة ومقدمهم معلى، وكانت رحالهم غربي الفرات قرب البطائح، فكثر عيثهم وإفسادهم السابلة، وارتفعت شكوى أهل البلاد إلى الديوان منهم، فرسم للشريف سعد متولي واسط وأعمالها أن يسير إلى قتالهم وإجلائهم، فجمع العساكر من تكريت وهيت والحديثة والأنبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة فهزمهم واستباحهم، وتقسموا بين القتل والأسر والغرق، وحملت الرؤوس إلى بغداد في ذي القعدة سنة عشر.

ظهور التتر

ظهرت هذه الأمة من أجناس الترك سنة ست عشرة وستمائة وكانت جبال طمغاج من أرض الصين بينها وبين بلاد تركستان ما يزيد على ستة أشهر وكان ملكهم يسمى جنكزخان، من قبيلة يعرفون نوحي فسار إلى بلاد تركستان وما وراء النهر وملكها من أيدي الخطا، ثم حارب خوارزم شاه إلى أن غلبه على ما في يده من خراسان وبلاد الجبل، ثم تخطى أرانيه فملكها. ثم ساروا إلى بلاد شروان وبلد اللان واللكز فاستولوا على الأمم المختلفة بتلك الأصقاع. ثم ملكوا بلاد قنجاق وسارت طائفة أخرى إلى غزنة وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان فملكوا ذلك كله في سنة أو نحوها، وفعلوا من العيث والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله في غابر الأزمان. وهزموا خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش فلحق بجزيرة في بحر طبرستان فامتنع بها إلى أن مات سنة سبع عشرة وستمائة لاحدى وعشرين سنة من ملكه. ثم هزموا ابنه جلال الدين بغزنة واتبعه جنكزخان إلى نهر السند فعبر إلى بلاد الهند، وخلص منهم وأقام هنالك مدة ثم رجع سنة اثنتين وعشرين إلى خوزستان والعراق. ثم ملك أذربيجان وأرمينية إلى أن قتله المظفر حسبما نذكر ذلك كله مقسماً بين دولتهم ودولة بني خوارزم شاه أو مكرراً فيهما. فهناك تفصيل هذا المحل من أخبارهم والله الموفق بمنه وكرمه.

وفاة الناصر وخلافة الظاهر ابنه

ثم توفي أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء في آخر شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة لسبع وأربعين سنة من خلافته بعد أن عجز عن الحركة ثلاث سنين من آخر عمره وذهبت إحدى عينيه وضعف بصر الأخرى. وكانت حاله مختلفة في الجد واللعب وكان متفنناً في العلوم وله تآليف في فنون منها متعددة، ويقال: إنه الذي أطمع التتر في ملك العراق لما كانت بينه وبين خوارزم شاه من الفتنة، وكان مع ذلك كثيراً ما يشتغل برمي البندق واللعب بالحمام المناسيب ويلبس سراويل الفتوة شأن العيارين من أهل بغداد. وكان له فيها سند إلى زعمائها يقتصه على من يلبسه إياها، وكان ذلك كله دليلاً لى هرم الدولة وذهاب الملك عن أهلها بذهاب ملاكها منهم. ولما توفي بويع ابنه أبو نصر

محمد ولقب الظاهر. وكان ولي عهده عهد له أولاً سنة خمس وثمانين وخمسمائة ثم خلعه من العهد وعهد لأخيه الصغير علي لميله إليه. وتوفي سنة اثنتي عشرة فاضطر إلى إعادة هذا، فلما بويع بعد أبيه أظهر من العدل والإحسان ما حمد منه ويقال: إنه فرق في العلماء ليلة الفطر التي بويع فيها مائة ألف دينار.

وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر

ثم توفي الظاهر أبو نصر محمد في منتصف رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة لتسعة أشهر ونصف من ولايته وكانت طريقته مستقيمة وأخباره في العدل مأثورة. ويقال: إنه قبل وفاة كتب بخطه إلى الوزير توقيعاً يقرؤه على أهل الدولة فجاء الرسول به، وقال: أمير المؤمنين يقول: ليس غرضنا أن يقال: برز مرسوم وأنفذ مثال، ثم لا يتبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال.

ثم تناولوا الكتاب وقرؤوه فإذا فيه بعد البسملة: أنه ليس إمهالنا إهمالاً ولا إغضاؤنا إغفالاً، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملاً وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد، وتشريد الرعايا وتقبيح السنة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكاً للأغراض، انتهزتم فرصتها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب، تنطقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم، ما طلتم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن فقد بدل الله سبحانه بخوفكم أمناً وفقركم غنى وباطلكم حقاً ورزقكم سلطاناً يقبل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر، ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه يخاف الله فيخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته، فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام.

ولما توفي بويع ابنه أبو جعفر المستنصر وسلك مسالك أبيه، إلا أنه وجد الدولة اختلفت والأعمال قد انتقضت والجباية قد انتقصت أو عدمت، فضاقت عن أرزاق الجند وأعطياتهم فأسقط كثيراً من الجند، واختلفت الأحوال. وهو الذي أعاد له محمد بن يوسف بن هود دعوة العباسية بالأندلس آخر دولة الموحدين بالمغرب فولاه عليها، وذلك سنة تسع وعشرين وستمائة كما يذكر في أخبارهم. ولآخر دولته ملك التتر بلاد الروم من يد غياث الدين كنخسرو وآخر ملوك بني قليج أرسلان، ثم تخطوها إلى بلاد أرمينية فملكوها. ثم استأمن إليهم غياث الدين فولوه من قبلهم وفي طاعتهم كما يذكر في أخبارهم إن شاء الله تعالى. انتهى.

وفاة المستنصر وخلافة المستعصم آخر بني العباس ببغداد

لم يزل هذا الخليفة المستنصر ببغداد فالنطاق الذي بقي لهم بعد استبداد أهل النواحي كما قدمنا. ثم انحل أمرهم من هذا النطاق عروة، وتملك التتر سائر البلاد، وتغلبوا على ملوك النواحي ودولهم أجمعين، ثم زاحموهم في هذا النطاق وملكوا أكثره، ثم توفي المستنصر سنة إحدى وأربعين لست عشرة سنة من خلافته، وبويع بالخلافة ابنه عبد الله ولقب المستعصم، وكان فقيهاً محدثاً. وكان وزيره ابن العلقمي رافضياً، وكانت الفتنة ببغداد لا تزال متصلة بين الشيعة وأهل السنة، وبين الحنابلة وسائر أهل المذاهب، وبين العيارين والدعار والمفسدين مبدأ الأمراء الأول، فلا تتجدد فتنة بين الملوك وأهل الدول، إلا ويحدث فيها بين هؤلاء ما يعني أهل الدولة خاصة زيادة لما يحدث منهم أيام سكون الدول واستقامتها، وضاقت الأحوال على المستعصم فأسقط أهل الجند وفرض أرزاق الباقين على البياعات والأسواق وفي المعايش، فاضطرب الناس وضاقت الأحوال وعظم الهرج ببغداد ووقعت الفتن بين الشيعة وأهل السنة، وكان مسكن الشيعة بالكرخ في الجانب الغربي، وكان الوزير ابن العلقمي منهم فسطوا بأهل السنة، وأنفذ المستعصم ابنه أبا بكر وركن الدين الدوادار، وأمرهم بنهب بيوتهم بالكرخ، ولم يراع فيه ذمة الوزير فآسفه ذلك، وتربص بالدولة وأسقط معظم الجند يموه بأن يدافع التتر بما يتوفر من أرزاقهم في الدولة.

وزحف هلاكو ملك التتر سنة اثنتين وخمسين إلى العراق وقد فتح الري وأصبهان وهمذان وتتبع قلاع الإسماعيلية، ثم قصد قلعة الموت سنة خمس وخمسين فبلغه في طريقه كتاب ابن الموصلايا صاحب أربل وفيه وصية ابن العلقمي وزير المستعصم إلى هلاكو يستحثه لقصد بغداد، ويهون عليه أمرها، فرجع عن بلاد الإسماعيلية وسار إلى بغداد واستدعى أمراء التتر فجاءه بنحو مقدم العسكر ببلاد الروم، وقد كانوا ملكوها. ولما قاربوا بغداد برز لقائهم أيبك الدوادار في العساكر فانكشف التتر أولاً ثم تذامروا فانهزم المسلمون واعترضهم دون بغداد أو حال مياه من بثوق انفثت من دجلة، فتبعهم التتر دونها وقتل الدوادار وأسر

الأمراء الذين معه.

ونزل هلاكو بغداد وخرج إليه الوزير مؤيد الدين بن العلقمي فاستأمن لنفسه ورجع بالأمان إلى المستعصم، وأنه يبقيه على خلافته كما فعل بملك بلاد الروم، فخرج المستعصم ومعه الفقهاء والأعيان فقبض عليه لوقته، وقتل جميع من كان معه. ثم قتل المستعصم شدخاً بالعمد ووطأ بالأقدام لتجافيه بزعمه عن دماء أهل البيت، وذلك سنة ست وخمسين. وركب إلى بغداد فاستباحها واتصل العيث بها أياماً وخرج النساء والصبيان وعلى رؤوسهم المصاحف والألواح فداستهم العساكر وماتوا أجمعين. ويقال: إن الذي أحصي ذلك اليوم من القتلى ألف ألف وستمائة ألف، واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعد، وألقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم جميعاً في دجلة، وكانت شيئاً لا يعبر عنه مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح في كتب الفرس وعلومهم. واعتزم هلاكو على إضرام بيوتها ناراً فلم يوافقه أهل مملكته. ثم بعث العساكر إلى ميافارقين فحاصروها سنين، ثم جهدهم الحصار واقتحموها عنوة وقتل حاميتها جميعاً وأميرهم من بني أيوب، وهو الملك ناصر الدين محمد بن شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب وبايع له صاحب الموصل، وبعث بالهدية والطاعة وولاه على عمله ثم بعث بالعساكر إلى أربل فحاصرها وامتنعت فرحل العساكر عنها، ثم وصل إليه صاحبها ابن الموصلايا فقتله واستولى على الجزيرة وديار بكر وديار ربيعة كلها، وتاخم الشام جميع جهاته حتى زحف إليه بعد كما يذكر، وانقرض أمر الخلافة الإسلامية لبني العباس بغداد وأعاد لها ملوك الترك رسماً جديداً في خلفاء نصبوهم هنالك من أعقاب الخلفاء الأولين، ولم يزل متصلاً لهذا العهد على ما نذكر الآن. ومن العجب أن يعقوب بن إسحاق الكندي فيلسوف العرب ذكر في ملاحمه وكلامه على القرآن الذي دل على ظهور الملة الإسلامية العربية أن انقراض أمر العرب يكون أعوام الستين والستمائة، فكان كذلك، وكانت دولة بني العباس من يوم بويع للسفاح سنة اثنتين وثلاثين ومائة إلى أن قتل المستعصم سنة خمس وستمائة، خمسمائة سنة وأربعاً وعشرين وعدد خلفائهم ببغداد سبعة وثلاثون خليفة. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن الخلفاء العباسيين المنصوبين بمصر من بعد انقراض الخلافة ببغداد ومبادئ أمورهم وتصاريف أحوالهم

لما هلك المستعصم ببغداد واستولى التتر على سائر الممالك الإسلامية فافترق شمل الجماعة وانتثر سلك الخلافة وهرب القرابة المرشحون وغير المرشحين من قصور بغداد فذهبوا في الأرض طولاً وعرضاً، ولحق بمصر كبيرهم يومئذ أحمد ابن الخليفة الظاهر، وهو عم المستعصم وأخو المستنصر، وكان سلطانها يومئذ الملك الظاهر بيبرس ثالث ملوك الترك بعد بني أيوب بمصر والقاهرة، فقام على قدم التعظيم وركب لتلقيه وسُرَّ بقدومه، وكان وصوله له سنة تسع وخمسين فجمع الناس على طبقاتهم بمجلس الملك بالقلعة، وحضر القاضي يومئذ تاج ابن بنت الأغر فأثبت نسبه في بيت الخلفاء بشهادة العرب الواصلين معه بالاستفاضة، ولم يكن شخصه خفياً، وبايع له الظاهر وسائر الناس ونصبه للخلافة الإسلامية ولقبوه المستنصر، وخطب له على المنابر ورسم اسمه في السكة. وصدرت المراسم السلطانية بأخذ البيعة له في سائر أعمال السلطان، وفوض هو للسلطان الملك الظاهر سائر أعماله، وكتب تقليده بذلك وركب السلطان ثاني يومه إلى خارج البلد، ونصب خيمة يجتمع الناس فيها فاجتمعوا وقرأ كتاب التقليد.

وقام السلطان بأمر هذا الخليفة ورتب له أرباب الوظائف والمناصب الخلافية من كل طبقة، وأجرى الأرزاق السنية، وأقام له الفسطاط والآلة. ويقال: أنفق عليه في معسكره ذلك ألف ألف دينار من الذهب العين، واعتزم على بعثه إلى بلاد العراق لاسترجاعه ممالك الإسلام من يد أهل الكفر. وقد كان وصل على إثر الخليفة صاحب الموصل وهو إسماعيل الصالح بن لؤلؤ أخرجه التتر من ملكه بعد مهلك أبيه فامتعض له الملك الظاهر، ووعده باسترجاع ملكه وخرج آخر هذه السنة مشيعاً للخليفة ولصالح بن لؤلؤ، ووصل بهما إلى دمشق فبالغ هناك في تكرمتهما وبعث معهما أميرين من أمرائه مدداً لهما، وأمرهما أن ينتهيا معهما إلى الفرات. فلما وصلوا الفرات بادر الخليفة بالعبور وقصد الصالح بن لؤلؤ الموصل، واتصل الخبر بالتتر فجردوا العساكر للقائه والتقى الجمعان بعانة، وصدموه هنالك فصادمهم قليلاً. ثم تكاثروا عليه فلم يكن له بهم طاقة وأبلى في جهادهم طويلاً ثم استشهد رحمه الله.

وسارت عساكر التتر إلى الموصل فحاصروا الصالح

إسماعيل سبعة أشهر، وملكوها عليه عنوة، وقتل رحمه الله. وتطلب السلطان بمصر الملك الظاهر بعده آخر من أصل هذا البيت يقيم برسم الخلافة الإسلامية، وبينما هو يسائل الركبان عن ذلك، إذ وصل رجل من بغداد ينسب إلى الراشد بن المسترشد. قال صاحب حماة في تاريخه عن نسابة مصر: إنه أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الأمير أبي علي ابن الأمير حسن بن الراشد. وعند العباسيين السليمانيين في درج نسبهم الثابت أنه أحمد بن أبي بكر بن علي بن أحمد بن الإمام المسترشد، انتهى كلام صاحب حماة. ولم يكن في آبائه خليفة فيما بينه وبين الراشد. وبايع له بالخلافة الإسلامية ولقبه الحاكم، وفوض هو إليه الأمور العامة والخاصة، وخرج هو له عن العهدة وقام حافظاً لسياج الدين بإقامة رسم الخلافة. وعمرت بذكره المنابر وزينت باسمه السكة، ولم يزل على هذا الحال أيام الظاهر بيبرس وولديه بعده، ثم أيام الصالح قلاون وابنه الأشرف، وطائفة من دولة ابنه الملك الناصر محمد بن قلاون إلى أن هلك سنة إحدى وسبعمائة، ونصب ابنه أبو الربيع سليمان للخلافة بعده ولقبه المستكفي. وحفظ به الرسم وحضر مع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون للقاء التتر في النوبتين اللتين لقيهم فيها، فاستوحش منه السلطان بعض أيامه وأنزله بالقلعة، وقطعه عن لقاء الناس عاماً أو نحوه. ثم أذن له في النزول إلى بيته ولقائه الناس إذا شاء، وكان ذلك سنة ست وثلاثين.

ثم تجددت له الوحشة وغربه إلى قوص سنة ثمان وثلاثين، ثم هلك الخليفة أبو الربيع سنة أربعين قبل مهلك الملك الناصر رحمهما الله تعالى. وكان عهد بالخلافة لابنه أحمد فبويع له ولقب الحاكم. ثم بدا للسلطان في إمضاء عهد أبيه بذلك فعزله، واستبدل منه بأخيه إبراهيم ولقبه الواثق. وكان مهلك الناصر لأشهر قريبة من ذلك، فأعادوا أحمد الحاكم ولي عهد أبيه سنة إحدى وأربعين، وأقام في الخلافة إلى سنة ثلاث وخمسين. وهلك رحمه الله فولي من بعده أخوه أبو بكر ولقب المعتضد، ولم يزل مقيماً لرسم الخلافة إلى أن هلك لعشرة أعوام من خلافته سنة ثلاث وستين، ونصب بعده ابنه محمد ولقب المتوكل فأقام برسم الخلافة، وحضر مع السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر عام انتقض عليه الترك في طريقه إلى الحج. وفسد أمره ورجع الفل إلى مصر، وطلبه أمراء الترك في البيعة له بالسلطنة مع الخلافة فامتنع من ذلك. ثم خلعه أيبك من أمراء الترك المستبدين أيام سلطانه بالقاهرة سنة تسع وتسعين لمغاضبة وقعت بينهما، ونصب للخلافة زكريا ابن عمه إبراهيم الواثق فلم يطل ذلك، وعزل زكريا لأيام قليلة، وأعاده إلى منصبه إلى أن كانت واقعة قرط التركماني من أمراء العساكر بمصر ومداخلته للمفسدين في الثورة بالسلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق سنة خمس وثمانين، وسعى عند السلطان بأنه ممن داخله قرط هذا فاستراب به وحبسه بالقلعة سنة ستين، وأدال منه بعمر ابن عمه الواثق إبراهيم ولقبه فأقام ثلاثاً أو نحوها ثم هلك رحمه الله آخر عام ثمانية وثلاثين، ونصب السلطان عوضه أخاه زكريا الذي كان أيبك نصبه كما قدمنا ذكره، ثم حدثت فتنة بلقيا الناصري صاحب حلب سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وتعالى على السلطان بحبسه الخليفة، وأطال النكير في ذلك فأطلق السلطان الخليفة محمد المتوكل من محبسه بالقلعة وأعاده إلى الخلافة على رسمه الأول، وبالغ في تكرمته وجرت فيما بين ذلك خطوب نذكر أخبارها مستوفاة في دولة الترك المقيمين لرسم هؤلاء الخلفاء بمصر. وإنما ذكرنا هنا من أخبارهم ما يتعلق بالخلافة فقط دون أخبار الدولة والسلطان. وهذا الخليفة المتوكل المنصوب الآن لرسم الخلافة والمعين لإقامة المناصب الدينية على مقتضى الشريعة، والمبرك بذكره على منابر هذه الأيالة تعظيماً لأبيهم الظاهر، وجرياً على سنن التبرك بسلفهم، ولكمال الإيمان في محبتهم وتوفية لشروط الإمامة بينهم وما زال ملوك الهند وغيرهم من ملوك الإسلام بالنواحي يطلبون التقليد منه ومن سلفه بمصر ويكاتبون في ذلك ملوك الترك بها من بني قلاون وغيره فيجيبونهم إلى ذلك، ويبعثون إليهم بالتقليد والخلع والأبهة، ويمدون القائمين بأمورهم بمواد التأييد والإعانة بمنِّ الله وفضله.

أخبار الدولة العلوية المزاحمة لدولة بني العباس

ونبدأ منهم بدولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.

قد تقدّم لنا ذكر شيعة أهل البيت لعلي بن أبي طالب وبنيه رضي الله عنهم، وما كان من شأنهم بالكوفة، وموجدتهم على الحسن في تسليم الأمر لغيره، واضطراب الأمر على زياد بالكوفة من أجلهم، حتى قتل المتولون كبر ذلك منهم حِجْر بن عَدِي وأصحابه، ثم استدعوا الحسين بعد وفاة معاوية فكان من قتله بكربلاء ما هو معروف، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان، وخرج عبيد الله بن زياد عن الكوفة، وسموا أنفسهم التوّابين، وولوا عليه سليمان بن صُرد ولقيتهم جيوش ابن زياد بأطراف الشام فاستلحموهم.

ثم خرج المختار بن أبي عبيد بالكوفة طالباً بدم الحسين رضي الله عنه وداعياً لمحمد بن الحنفية وتبعه على ذلك جموعه من

الشيعة، وسماهم شرطة اللّه، وزحف إليه عبيد اللّه بن زياد فهزمه المختار وقتله، وبلغ محمد بن الحنفية من أحوال المختار ما نقمه عليه فكتب إليه بالبراءة منه فصار إلى الدعاء لعبد اللّه بن الزبير.

ثم استدعى الشيعة من بعد ذلك زيد بن علي بن الحسين إلى الكوفة أيام هشام بن عبد الملك فقتله صاحب الكوفة يوسف بن عمر وصلبه، وخرج إليه ابنه يحيى بالجوزجان من خراسان فقتل وصلب كذلك، وطلت دماء أهل البيت في كل ناحية، وقد تقدم ذلك كله في أخبار الدولتين.

ثم اختلف الشيعة وافترقت مذاهبهم في مصير الإمامة إلى العلوية وذهبوا طرائق قدداً، فمنهم الإمامية القائلون بوصية النبي ﷺ لعليّ بالإمامة، ويسمونه الوصي بذلك، ويتبرؤون من الشيخين لما منعوه حقه بزعمهم، وخاصموا زيداً بذلك حين دعا بالكوفة، ومن لم يتبرأ من الشيخين رفضوه فسموا بذلك رافضة.

ومنهم الزيدية القائلون بإمامة بني فاطمة لفضل علي وبنيه على سائر الصحابة، وعلى شروط يشترطونها، وإمامة الشيخين عندهم صحيحة وإن كان علي أفضل، وهذا مذهب زيد وأتباعه، وهم جمهور الشيعة وأبعدهم عن الانحراف والغلو.

ومنهم الكيسانيّة نسبة إلى كيسان يذهبون إلى إمامة محمد بن الحنفية وبنيه من بعد الحسن والحسين ومن هؤلاء كانت شيعة بني العباس القائلون بوصيّة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس بالإمامة.

وانتشرت هذه المذاهب بين الشيعة وافترق كل مذهب منها إلى طوائف بحسب اختلافهم، وكان الكيسانية شيعة بني الحنفية أكثرهم بالعراق وخراسان.

ولما صار أمر بني أمية إلى اختلال أجمع أهل البيت بالمدينة، وبايعوا بالخلافة سراً لمحمد بن عبد اللّه بن حسن المثّنى بن الحسن بن علي وسلم له جميعهم، وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس وهو المنصور، وبايع فيمن بايع له من أهل البيت، وأجمعوا على ذلك لتقدّمه فيهم لما علموا له من الفضل عليهم، ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما اللّه يحتجان إليه حين خرج من الحجاز، ويريدون أن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر لانعقاد هذه البيعة من قبل، وربما صار إليه الأمر عند الشيعة بانتقال الوصية من زيد بن علي.

وكان أبو حنيفة يقول بفضله، ويحتج إلى حقه فتأدّت إليهما المحنة بسبب أيام أبي جعفر المنصور، حتى ضرب مالك على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة على القضاء.

ولما انقرضت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس، وصار الأمر لأبي جعفر المنصور سعى عنده ببني حسن، وأن محمد بن عبد اللّه يروم الخروج وأن دعاته ظهروا بخراسان فحبس المنصور لذلك بني حسن وإخوته وإبراهيم وجعفر، وعلي القائم وابنه موسى بن عبد اللّه وسليمان وعبد اللّه ابن أخيه داود، ومحمد وإسماعيل وإسحاق بنو عمه إبراهيم بن الحسن في خمسة وأربعين من أكابرهم وحبسوا بقصر ابن هبيرة ظاهر الكوفة حتى هلكوا في حبسهم، وأرهبوا لطلب محمد بن عبد اللّه فخرج بالمدينة سنة خمس وأربعين وبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة فغلب عليها، وعلى الأهواز وفارس، وبعث الحسن بن معاوية إلى مكة فملكها، وبعث عاملاً إلى اليمن، ودعا لنفسه، وخطب على منبر النبي ﷺ وتسمى بالمهدي وكان يدعى النفس الزكية، وحبس رباح بن عثمان المري عامل المدينة فبلغ الخبر إلى أبي جعفر المنصور فاشفقوا من أمره وكتب إليه كتابه المشهور ونصه:

بعد البسملة من عبد اللّه أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد اللّه.

أما بعد ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وأن لك ذمة اللّه وعهده وميثاقه، إن تبت من قبل أن نقدر عليك أن نؤمِّنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن تابعك وجميع شيعتك، وأن أُعطيك ألف درهم، وأنزلك من البلاد حي شئت، وأقضي لك ما شئت من الحاجات، وأن أطلق من سُجن من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا أتبع أحداً منكم بمكروه، وإن شئت ان تتوثق لنفسك فوجّه إلي من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام.

فأجابه محمد بن عبد اللّه بكتاب نصه بعد البسملة:

من عبد اللّه محمد المهدي أمير المؤمنين ابن عبد اللّه محمد.

أما بعد ﴿طسم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا

كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني فقد تعلم أن الحق حقُّنا وانكم إنما أعطيتموه بنا، ونهضتم فيه بسعينا وحزتموه بفضلنا، وأن أبانا علياً عليه السلام، كان الوصي والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء! وقد علمتم أنه ليس أحد من بني هاشم يشيد بمثل فضلنا، ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ونسيبنا، وأنا بنو بنته فاطمة في الإسلام من بينكم فإنا أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً، لم تلدني العجم ولم تعرف فيَّ أمهات الأولاد، وأن الله عز وجل لم يزل يختار لنا، فولدني من النبيين أفضلهم محمدٌ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً علي بن أبي طالب، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المتولدين في الإسلام سيدا شباب أهل الجنة، ثم قد علمت أن هاشماً ولد علياً مرتين من قبل جدي الحسن والحسين فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في معنى النار، فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار.

ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي أن أؤمنك على نفسك وولدك، وكل ما أصبته إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك في ذلك فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان منك.

فأما أمانك الذي عرضت علي فهو أي الأمانات هي؟ أأمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم؟ والسلام.

فأجابه المنصور بعد البسملة: من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله.

فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك، فإذا جل فخرك بالنساء لتضل به الحفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة، ولا الآباء كالعصبة والأولياء، وقد جعل الله العم أباً وبدأ به على الولد فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ وعمومته أربعة، فأجابه اثنان أحدهما أبي وكفر به اثنان أحدهما أبوك.

وأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطى على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كلّه لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه.

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب فإن الله لم يهد أحداً من ولدها إلى الإسلام، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنة غداً، ولكن الله أبى ذلك فقال: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب، وفاطمة أم الحسين وأن هاشماً ولد علياً مرتين، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين، فخير الأولين رسول الله ﷺ، لم يلده هاشم إلا مرة واحدة، ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة.

وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله ﷺ، فإن الله عز وجل قد أبى ذلك فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، ولكنكم قرابة ابنته وأنها لقرابة قريبة، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث، ولا يجوز أن تؤمّ فكيف تورث الإمامة من قبلها ولقد طلب بها أبوك من كل وجه، وأخرجها تخاصم، ومرضها سراً ودفنها ليلاً، وأبى الناس إلا تقديم الشيخين: ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله ﷺ فأمر بالصلاة غيره!

ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان في أصحاب الشورى، فكلٌّ دفعه عنها، بايع عبد الرحمن عثمان، وقبلها عثمان، وحارب أباك طلحة والزبير، ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه.

ثم بايع معاوية بعده، وأفضى أمر جدّك إلى أبيك الحسن، فسلمه إلى معاوية بخزف ودراهم، وأسلم في يديه شيعته، وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير حِلّه، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه.

فأما قولك: «إن الله اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً» فليس في الشر خيار، ولا من عذاب الله هيّن، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار، سترِدُ فتعلم، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وأما قولك: لم تلدك العجم ولم تعرف فيك أمهات الأولاد، وأنك أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخراً وأصلاً وفصلاً، فخرت على إبراهيم بن رسول الله ﷺ، وعلى والد والده، فانظر ويحك أين تكون من الله غداً وما ولد قبلكم مولود بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن

الحسين، وهو لأمّ ولد، ولقد كان خيراً من جدك حسن بن حسن.

ثم ابنه محمد خير من أبيك، وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر وهو خير، ولقد علمت أن جدك علياً حكم الحكمين وأعطاهما عهده وميثاقه على الرضا بما حكما به، فأجمعا على خلعه.

ثم خرج عمك الحسين بن علي بن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه، ثم أتوا بكم على الأقتاب كالسبيّ المجلوب إلى الشام، ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرّقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا يسيركم إذ لم تدركوه، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار كل صلاة مكتوبة كما يلعن الكفرة، فسفّهناهم وكفّرناهم وبيّنا فضله، وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا بما ذكرنا من فضل علي قدّمناه على حمزة والعبّاس وجعفر، كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وابتلي أبوك بالدماء.

ولقد علمت أن مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم، وولاية زمزم، وكانت للعباس من دون إخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر بها، وتوفي رسول الله ﷺ وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس، وكان وارثه دون عبد المطلب، وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات عمّاك طالب وعقيل جوعاً ويلحسان جفان عتبة وشيبة، فأذهب عنهما العار والشنار.

ولقد جاء الإسلام والعبّاس يمون به طالب للأزمة التي أصابتهم، ثم فدى عقيلاً يوم بدر، فعززناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وورثناه دونكم خاتم الأنبياء وأدركنا بثأركم إذ عجزتم عنه، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام.

ثم عقد أبو جعفر على حربه لعيسى ابن عمه موسى بن علي، فزحف إليه في العساكر، وقاتله بالمدينة فهزمه وقتله في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين، ولحق ابنه علي بالسند إلى أن هلك هناك، واختفى ابنه الآخر عبد اللّه الأشتر إلى أن هلك في أخبار طويلة قد استوفيناها كلها في أخبار أبي جعفر المنصور، ورجع عيسى إلى المنصور فجهزه لحرب إبراهيم أخي محمد بالعبرة فقاتله آخر ذي القعدة من تلك السنة فهزمه، وقتله حسبما مر ذكره هنالك، وقتل معه عيسى بن زيد بن علي فيمن قتل من أصحابه.

وزعم ابن قتيبة أن عيسى بن زيد بن علي ثار على المنصور بعد قتل أبي مسلم، ولقيه في مائة وعشرين ألفاً، وقاتله أياماً إلى أن همّ المنصور بالفرار، ثم أتيح له الظفر فانهزم عيسى ولحق بإبراهيم بن عبد اللّه بالبصرة فكان معه هنالك إلى أن لقيه عيسى بن موسى بن علي وقتلهما كما مر.

ثم خرج بالمدينة أيام المهدي سنة تسع وستين من بني حسن الحسين بن علي بن حسن المثلث، وهو أخو عبد اللّه بن حسن المثنى، وعمّ المهدي، وبويع للرضا من آل محمد وسار إلى مكة، وكتب الهادي إلى محمد بن سليمان بن علي وقد كان قدم حاجّاً من البصرة فولاه حربه يوم التروية، فقاتله بفجّة على ثلاثة أميال من مكة، وهزمه وقتله، وافترق أصحابه، وكان فيهم عمه إدريس بن عبد اللّه فأفلت من الهزيمة مع من أفلت منهم يومئذ، ولحق بمصر نازعاً إلى المغرب، وعلى بريد مصر يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين، وكان يتشيع، فعلم بشأن إدريس وأتاه إلى المكان الذي كان به مستخفياً، وحمله على البريد إلى المغرب ومعه راشد مولاه فنزل بوليلى سنة ست وسبعين، وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة من قبائل البربر، وكبيرهم لعهده فأجاره وأكرمه، وجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العبّاسية وكشف القناع واجتمع عليه البرابرة بالمغرب فبايعوه وقاموا بأمره، وكان فيهم مجوس فقاتلهم إلى أن أسلموا.

وملك المغرب الأقصى، ثم ملك تِلْمِسان سنة ثلاث وسبعين، ودخلت ملوك زناتة أجمع في طاعته، واستفحل مُلكه، وخاطب إبراهيم بن الأغلب صاحب القيروان، وخاطب الرشيد بذلك، فشدّ إليه الرشيد مولى من موالي المهدي اسمه سليمان بن حريز، ويعرف بالشّماخ، وأنفذه بكتابه إلى ابن الأغلب فأجازه ولحق بإدريس مظهراً للنزوع إليه فيمن نزع من وحدان المغرب متبرئاً من الدعوة العباسية ومتحلاً للطالبيين، واختصه الإمام إدريس وحلي بعينيه، وكان قد تأبط سماً في سنون فناوله إياه عند شكايته من وجع أسنانه فكان فيها فيما زعموا حتفه، ودفن ببوليلى سنة خمس وسبعين، وفرّ الشمّاخ ولحقه راشد بوادي ملوية فاختلفا بينهما ضربتين قطع فيها راشد يده، وأجاز الشمّاخ الوادي فأعجزه وبايع البرابرة بعد مهلكه ابنه إدريس سنة ثمان وثمانين، واجتمعوا على القيام بأمره ولحق به كثير من العرب من إفريقية والأندلس، وعجز بنو الأغلب أمراء إفريقية عنه فاستفحلت له ولبنيه بالمغرب الأقصى دولة إلى أن انقرضت على يد أبي العافية وقومه مكناسة أولياء العبيديين عام ثلاثة عشر وثلاثمائة حسبما

نذكر ذلك في أخبار البربر، ونعدّد ملوكهم هناك واحداً واحداً، وانقراض دولتهم وعودها، ونستوعب ذلك كله لأنه أمسّ بالبربر فإنهم كانوا القائمين بدعوتهم.

ثم خرج يحيى أخو محمد بن عبد اللّه بن حسن وإدريس في الديلم سنة ست وسبعين أيام الرشيد، واشتدّت شوكتهم وسرّح الرشيد لحربه الفضل بن يحيى فبلغ الطالقان، وتلطف في استنزاله من بلاد الديلم على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه، فتم بينهما، وجاء به الفضل فوفى له الرشيد بكل ما أحب، وأجرى له أرزاقاً سنيّة ثم حبسه بعد ذلك لسعاية كانت فيه من آل الزبير فيقال: أطلقه بعدها، ووصله بمال، ويقال: سمّه لشهر من اعتقاله، ويقال: أطلقه جعفر بن يحيى افتياتاً فكان بسببه نكبة البرامكة، وانقرض شأن بني حسن وخفيت دعوة الزيديّة حيناً من الدهر حتى كان منهم بعد ذلك باليمن والديلم ما نذكره واللّه غالب على أمره.

الخبر عن خروج الفاطميين بعد فتنة بغداد

كانت الدولة العباسية قد تمهدت من لدن أبي جعفر المنصور منهم، وسكن أمر الخوارج والدعاة من الشيعة من كل جهة حتى إذا هلك الرشيد، ووقع بين بنيه من الفتنة ما وقع، وقتل الأمين بيد طاهر بن الحسين، ووقع في حصار بغداد من الحرب والعبث ما وقع، وبقي المأمون مقيماً بخراسان تسكيناً لأهلها عن ثائرة الفتن، وولى على العراق الحسن بن سهل، اتسع الخرق حينئذ بالعراق وأشيع عن المأمون أن الفضل بن سهل غلب عليه، وحجره فامتعض الشيعة لذلك، وتكلموا وطمع العلوية في التوثّب على الأمر فكان في العراق أعقاب إبراهيم بن محمد بن حسن المثنّى المقتول بالبصرة أيام المنصور.

وكان منهم محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ولقبه أبوه طباطبا، للكنة كانت في لسانه، أيام مرباه بين داياته فلقب بها.

وكان شيعته من الزّيديّة وغيرهم يدعون إلى إمامته لأنها كانت متوارثة في آبائه من إبراهيم الإمام جدّه على ما قلناه في خبره، فخرج سنة تسع وتسعين، ودعا لنفسه، ووافاه أبو السرايا السري بن منصور كبير بني شيبان فبايعه وقام بتدبير حربه، وملك الكوفة وكثر تابعوه من الأعراب وغيرهم.

وسرح الحسن بن سهل زهير بن المسيب لقتاله فهزمه طباطبا واستباح معسكره، ثم مات محمد في صبيحة ذلك اليوم فجأة، ويقال: إن أبا السرايا سمّه لما منعه من الغنائم فبايع أبو السرايا يومه ذلك لمحمد بن محمد بن زيد بن عليّ زين العابدين واستبدّ عليه، وزحفت عليه جيوش المأمون فهزمهم أبو السرايا وملك البصرة وواسط والمدائن.

وسرّح الحسن بن سهل لحربه هَرثَمة بن أعين وكان مغضباً فاسترضاه وجهّز له الجيوش، وزحف إلى أبي السرايا وأصحابه فغلبهم على المدائن، وهزمهم وقتل منهم خلقاً، ووجه أبو السرايا إلى مكة الحسين الأفطس بن الحسن بن علي زين العابدين، وإلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن حسن المثّنى بن الحسن، وإلى البصرة زيد بن موسى بن جعفر الصادق، وكان يقال له زيد النار لكثرة من أحرق من الناس بالبصرة فملكوا مكة والمدينة والبصرة، وكان بمكة مسرور الخادم الأكبر، وسليمان بن داود بن عيسى، فلما أحسوا بقدوم الحسين فرّوا عنها، وبقي الناس في الموقف فوضى، ودخلها الحسين من الغد فعاث في أهل الموسم ما شاء اللّه، واستخرج الكنز الذي كان في الكعبة من عهد الجاهلية وأقرّه النبي ﷺ والخلفاء بعده، وقدره فيما قيل مائتا قنطار اثنتان من الذهب فأنفقه وفرّقه في أصحابه ما شاء اللّه.

ثم إن هرثمة واقع أبا السرايا فهزمه، ثم بحث عن منصور بن المهدي فكان أميراً معه، واتبع أبا السرايا فغلبه على الكوفة، وخرج إلى القادسيّة، ثم إلى واسط ولقيه عاملها وهزمه، ولحق بجلولا مغلولاً جريحاً فقبض عليه عاملها وقدمه إلى الحسن بن سهل بالنَّهْرَوان وضرب عنقه، وذلك سنة مائتين وبلغ الخبر الطالبيّين بمكة فاجتمعوا وبايعوا محمد بن جعفر الصادق، وسمّوه أمير المؤمنين، وغلب عليه ابناه علي وحسين فلم يكن يملك معهما من الأمر شيئاً، ولحق إبراهيم بن أخيه موسى الكاظم بن جعفر الصادق باليمن في أهل بيته فدعا لنفسه هنالك، وتغلب على الكثير من بلاد اليمن، وسمي الجزّار لكثرة من قتل من الناس.

وخلص عامل اليمن وهو إسحاق بن موسى بن عيسى إلى المأمون فجهزه لحرب هؤلاء الطالبيين فتوجه إلى مكة وغلبهم عليها، وخرج جعفر بن محمد الصادق إلى الأعراب بالساحل فاتبعهم إسحاق وهزمهم، ثم طلبهم وطلب محمد الأمان فأمّنه، ودخل مكة وبايع للمأمون وخطب على المنبر بدعوته، وسابقته الجيوش إلى اليمن فشرّدوا عنه الطالبيين وأقاموا فيه الدعوة العباسية ثم خرج الحسين الأفطس ودعا لنفسه بمكة، وقتله المأمون وقتل ابنيه عليّاً ومحمداً.

ثم إن المأمون لما رأى كثرة الشيعة واختلاف دعاتهم وكان يرى مثل رأيهم أو قريباً منه في شأن علي والسبطين فعهد بالعهد من بعده لعلي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق سنة

إحدى ومائتين، وكتب بذلك إلى الآفاق، وتقدّم إلى الناس فنزع السواد ولبس الخضرة، فحقد بنو العباس ذلك من أمره وبايعوا بالعراق لعمّه إبراهيم بن المهدي سنة اثنتين ومائتين، وخطب له ببغداد وعظمت الفتنة.

وشخص المأمون من خراسان متلافياً أمر العراق وهلك علي بن موسى في طريقه فجأة، ودفن بطوس سنة ثلاث ومائتين.

ووصل المأمون إلى بغداد سنة أربع، وقبض على عمه إبراهيم وعفا عنه وسكن الفتنة.

وفي سنة تسع بعدها خرج باليمن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب يدعو للرضا من آل محمد، وبايعه أهل اليمن وسرّح إليه المأمون مولاه ديناراً، واستأمن له فأمّنه وراجع الطاعة.

ثم كثر خروج الزيدية من بعد ذلك بالحجاز والعراق والجبال والديلم وهرب إلى مصر خلق، وأخذ منهم خلق، وتتابع دعاتهم.

فأول من خرج منهم بعد ذلك محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن زين العابدين، هرب خوفاً من المعتصم سنة تسع عشرة ومائتين، وكان بمكان من العبادة والزهد فلحق بخراسان، ثم مضى إلى الطالقان ودعا بها لنفسه، واتبعته أمم الزيدية كلهم.

ثم حاربه عبد اللّه بن طاهر صاحب خراسان فغلبه وقبض عليه، وحمله إلى المعتصم فحبسه حتى مات، ويقال: إنه مات مسموماً.

ثم خرج من بعده بالكوفة أيضاً الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد اللّه بن الحسين الأعرج بن علي ابن زين العابدين، واجتمع إليه الناس من بني أسد وغيرهم من جموعه وأشياعه، وذلك سنة إحدى وخمسين ومائتين، وزحف إليه ابن بشكال من أمراء الدولة فهزمه، ولحق بصاحب الزنج فكان معه.

وكاتبه أهل الكوفة في العود إليه، وظهر عليه صاحب الزنج فقتله.

وكان خروج صاحب الزنج بالبصرة قبله بقليل، واجتمعت له جموع العبيد من زنج البصرة وأعمالها، وكان يقول في لفظه من أعلمه أنه من ولد عيسى بن زيد الشهيد وأنه علي بن محمد بن زيد بن عيسى، ثم انتسب إلى يحيى بن زيد الشهيد، والحق أنه دعي في أهل البيت كما نذكره في أخباره.

وزحف إليه الموفّق أخو المعتمد ودارت بينه وبينهم حروب إلى أن قتله، ومحا أثر تلك الدعوة كما قدمناه في أخبار الموفق ونذكره في أخبارهم.

ثم خرج في الديلم من ولده الحسن بن زيد بن الحسن السبط الداعي المعروف بالعلوي، وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن خرج لخمس وخمسين فملك طبرستان وجرجان وسائر أعمالها، وكانت له ولشيعته الزيديّة دولة هناك، ثم انقرضت آخر المائة الثالثة، وورثها من ولد الحسن السبط، ثم من ولد عمر بن علي بن زين العابدين الناصر الأطروش وهو الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر وهو ابن صاحب الطالقان.

أسلم الديلم على يد هذا الأطروش وملك بهم طبرستان وسائر أعمال الداعي، وكانت له ولبنيه هنالك دولة.

وكانوا سبباً لملك الديلم البلاد وتغلبهم على الخلفاء كما نذكر ذلك في أخبار دولتهم.

ثم خرج باليمن من الزيدية من ولد القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا أخي محمد صاحب أبي السرايا أعوام ثمانية وثمانين ومائتين يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي فاستولى على صعدة وأورث عقبه فيها ملكاً باقياً لهذا العهد، وهي مركز الزيدية كما نذكر في أخبارهم.

وفي خلال ذلك خرج بالمدينة الأخوان محمد وعلي ابنا الحسن بن جعفر بن موسى الكاظم وعاثا في المدينة عيثاً شديداً وتعطلت الصلاة بمسجد النبي ﷺ نحواً من شهر وذلك سنة إحدى وسبعين.

ثم ظهر بالمغرب من دعاة الرافضة أبو عبد اللّه الشيعي في كتامة من قبائل البربر أعوام ستة وثمانين ومائتين داعياً لعبيد اللّه المهدي محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق فظهر على الأغالبة بالقيروان، وبايع لعبيد اللّه المهدي سنة ست وتسعين فتم أمره وملك المغربين، واستفحلت له دولة بالمغرب ورثها بنوه، ثم استولوا بعد ذلك على مصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فملكها منهم المعز لدين اللّه معد بن إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد اللّه المهدي وشيد القاهرة.

ثم ملك الشام واستفحل ملكه إلى أن انقرضت دولتهم على العاضد منهم على يد صلاح الدين بن أيوب سنة خمس وستين وخمسمائة.

ثم ظهر في سواد الكوفة سنة ثمان وخمسين ومائتين من دعاة الرافضة رجل اسمه الفرج بن يحيى، ويدعى قرمط، بكتاب زعم أنه من عند أحمد بن محمد بن الحنفية فيه كثير من كلمات

الكفر والتحليل والتحريم، وادّعى أن محمد بن الحنفيّة هو المهدي المنتظر، وعاث في بلاد السواد، ثم في بلاد الشام وتلقب وكرويه بن مَهْرَوَيْه واستبدَّ طائفة منهم بالبحرين ونواحيها ورئيسهم أبو سعيد الجنابي، وكان له هناك ملك ودولة أورثها بنيه من بعده إلى أن انقرضت أعوامهم كما يذكر في أخبار دولتهم، وكان أهل البحرين هؤلاء يرجعون إلى دعوة العبيديين بالمغرب وطاعتهم.

ثم كان بالعراق من دعاة الإسماعيلية وهؤلاء الرافضة طوائف آخرون، واستبدوا بكثير من النواحي، ونسب إليهم فيها القلاع: قلعة الموت وغيرها، وينسبون تارة إلى القرامطة، وتارة إلى العبيديين، وكان من رجالاتهم الحسن بن الصبّاح في قلعة الموت وغيرها إلى أن انقرض أمرهم آخر الدولة السلجوقية.

وكان باليمامة ومكة والمدينة من بعد ذلك دول للزيديّة والرافضة فكان باليمامة دولة لبني الأخضر، وهو محمد بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن حسن المثنّى، خرج أخوه إسماعيل بن يوسف في بادية الحجاز سنة اثنتين وخمسين ومائتين وملك مكة، ثم مات فمضى أخوه محمد إلى اليمامة فملكها وأورثها لبنيه إلى أن غلبهم القرامطة.

وكان بمكة دولة لبني سليمان بن داود بن حسن المثنى خرج محمد بن سليمان أيام المأمون وتسمى بالناهض، وملك مكة، واستقرّت إمارتها في بنيه إلى أن غلبهم عليها الهواشم وكبيرهم محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون فملكها من إبراهيم سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وغلب بني حسن على المدينة وداول الخطبة بمكة بين العبّاسيين والعُبيديين واستفحل ملكه في بنيه إلى أن انقرضوا آخر المائة السادسة، وغلب على مكة بنو أبي قمي أمراؤها لهذا العهد، ملك أولهم أبو عزيز قتادة بن إدريس مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن موسى الجون وورث دولة الهواشم وملكهم، أورثها بنيه إلى هذا العهد كما نذكر في أخبارهم، وهؤلاء كلهم زيدية، وبالمدينة دولة للرافضة لولد الهناء.

قال المسبّحي: اسمه الحسن بن طاهر بن مسلم، وفي كتاب العتبي مؤرّخ دولة ابن سَبُكْتَكين أن مسلماً اسمه محمد بن طاهر وكان صديقاً لكافور، ويدبر أمره وهو من ولد الحسن بن علي زين العابدين.

واستولى طاهر بن مسلم على المدينة أعوام ستين وثلاثمائة وأورثها بنيه لهذا العهد كما نذكر في أخبارهم والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن الأدارسة ملوك المغرب الأقصى ومبدأ دولتهم وانقراضها ثم تجددها مفترقة في نواحي المغرب

لما خرج حسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنّى بن الحسن السبط بمكة في ذي القعدة سنة ست وتسعين ومائة أيام المهدي، واجتمع عليه قرابته وفيهم عماه إدريس ويحيى، وقاتلهم محمد بن سليمان بن علي بعجة على ثلاثة أميال بمكة فقتل الحسين في جماعة من أهل بيته وانهزموا وأسر كثير منهم، ونجا يحيى بن إدريس وسليمان، وظهر يحيى بعد ذلك في الديلم، وقد ذكرنا خبره من قبل وكيف استنزله الرشيد وحبسه.

وأما إدريس ففرَّ ولحق بمصر، وعلى بريدها يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين، وكان واضح يتشيّع، فعلم شأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذي كان به مستخفياً ولم ير شيئاً أخلص من أن يحمله على البريد إلى المغرب ففعل، ولحق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه راشد، ونزل بوليلى سنة اثنتين وسبعين وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة وكبيرهم لعهده فأجاره، وأجمع البرابرة على القيام بدعوته، وكشف القناع في ذلك، واجتمعت عليه زواغة ولواتة ومدراتة وغياثة ونفرة ومكْناسة وغمارة وكافة البربر بالمغرب فبايعوه، وقاموا بأمره.

وخطب الناس يوم بويع فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه: لا تمدن الأعناق إلى غيرنا فإن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا. ولحق به من إخوته سليمان، ونزل بأرض زناته من تِلْمسان ونواحيها ونذكر خبره فيما بعد.

ولما استوثق أمر إدريس وتمت دعوته زحف إلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل قندلاوه وبهلوانه ومديونة وما زار وفتح تامستا ومدينة شاله وتادلا وكان أكثرهم على دين اليهودية والنصرانية فأسلموا على يديه طوعاً وكرهاً وهدم معاقلهم وحصونهم.

ثم زحف إلى تلمسان وبها من قبائل بني يعرب ومغراوه سنة ثلاث وسبعين، ولقيه أميرها محمد بن حرز بن جزلان فأعطاه الطاعة، وبذل له إدريس الأمان ولسائر زناتة فأمكنه من قياد البلد، وبنى مسجدها وأمر بعمل منبره وكتب اسمه فيه حسبما هو

مخطوط في صفح المنبر لهذا العهد.

ورجع إلى مدينة بوليلى ثم دسّ إليه الرشيد مولى من موالي المهدي اسمه سليمان بن حريز ويعرف بالشمّاخ أنفذه بكتابه إلى ابن الأغلب فأجازه، ولحق بإدريس مظهراً النزوع إليه فيمن نزع من وهران المغرب متبرّئاً من الدعوة العباسية ومتحلاً للطلب، واختصه الإمام إدريس وحلا بعينه وكان قد تأبط سُمّاً في سنون، فناوله إياه عند شكايته من وجع أسنانه، فكان فيه كما زعموا حتفه ودفن ببوليلى سنة خمس وسبعين.

وفر الشمّاخ ولحقه فيما زعموا راشد بوادي مَلْويّة فاختلفا ضربتين قطع فيها راشد يد الشمّاخ، وأجاز الوادي فأعجزه واعتلق بالبرابر من أوربة وغيرهم فجمل من دعوته في ابنه إدريس الأصغر من جاريته كنزه بايعوه حملاً ثم رضيعاً ثم فصيلاً إلى أن شب واستتم فبايعوه بجامع وليلى سنة ثمان وثمانين ابن إحدى عشرة سنة، وكان ابن الأغلب دسّ إليهم الأموال واستمالهم حتى قتلوا راشداً مولاه سنة ست وثمانين، وقام بكفالة إدريس من بعده أبو خالد بن يزيد بن إلياس العبدي، ولم يزل كذلك إلى أن بايعوا لإدريس، فقاموا بأمره وجرّدوا لأنفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته، وافتتحوا بلاد المغرب كلّها واستوثق لهم الملك بها واستوزر إدريس مصعب بن عيسى الأزدي المسمّى بالملجوم من ضربة في بعض حروبهم.

وسمته على الخرطوم وكأنها خطام، ونزع إليه كثير من قبائل العرب والأندلس، حتى اجتمع إليه منهم زهاء خمسمائة فاختصهم دون البربر، وكانوا له بطانة وحاشية، واستفحل بهم سلطانه.

ثم قتل كبير أوربة إسحاق بن محمود سنة اثنتين وتسعين لما أحسّ منه بموالاة إبراهيم بن الأغلب، وكثرت حاشية الدولة وأنصارها، وضاقت وليلى بهم فاعتام موضعاً لبناء مدينة لهم، وكانت فاس موضعاً لبني بوغش وبني الخير من وزاغة، وكان في بني بوغش مجوس ويهود ونصارى، وكان موضع شيبوبة منها بيت نار لمجوسهم، وأسلموا كلهم على يده.

وكانت بينهم فتن فبعث للإصلاح بينهم كاتبه أبا الحسن عبد الملك بن مالك الخزرجي.

ثم جاء إلى فاس وضرب أبنيته بكزواوه، وشرع في بنائها فاختطّ عدوة الأندلس سنة اثنتين وتسعين.

وفي سنة ثلاث بعدها اختطّ عدوة القرويين وبنى مساكنه، وانتقل إليها وأسّس جامع الشرفاء، وكانت عدوة القرويين من لدن باب السلسلة إلى غدير الجوزاء والجرف، واستقام له أمر الخلافة وأمر القائمين بدعوته وأمر العز والملك.

ثم خرج غازياً المصامدة سنة سبع وتسعين فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته.

ثم غزا تلمسان وجدّد بناء مسجدها وإصلاح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين، وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة ومحوا دعوة الخوارج منهم، واقتطع الغربيين عن دعوة العباسيين من لدن الشموس الأقصى إلى شلف.

ودافع إبراهيم بن الأغلب عن حماه بعدما ضايقه بالمكاد، واستقاد الأولياء واستمال بهلول بن عبد الواحد المظفري بمن معه من قومه عن طاعة إدريس إلى طاعة هارون الرشيد.

ووفد عليه بالقيروان، واستراب إدريس بالبرابرة فصالح إبراهيم بن الأغلب وسكن من غربه.

وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة، ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير بالغضّ من إدريس والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس بما هو أوهن من خيوط العناكب.

وهلك إدريس سنة ثلاث عشرة وقام بالأمر من بعده ابنه محمد بعهده إليه فأجمع أمره بوفاة جدته كنزة أم إدريس على أن يشرك إخوته في سلطانه ويقاسم ممالك أبيه.

فقسم المغرب بينهم أعمالا اختص منها القاسم بطنجة وبسكرة وسبته وتيطاوين وقلعة حجر النسر وما إلى ذلك من البلاد والقبائل واختص عمر بتيكيسان وترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة واختص داود ببلاد هوارة وتسول وتازى وما بينهما من القبائل:: مكناسة وغياثة واختص عبد اللّه بإغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى، واختص يحيى بأصيلا والعرائش وبلاد زوغة وما إلى ذلك.

واختص عيسى بشالة وسلا وأزمور وتامستا وما إلى ذلك من القبائل.

واختص حمزة بوليلى وأعمالها وأبقى الباقين في كفالتهم وكفالة جدتهم كنزة لصغرهم، وبقيت تلمسان لولد سليمان بن عبد اللّه.

وخرج عيسى بأزمور على أخيه محمد طالباً الأمر لنفسه، فبعث لحربه أخاه عمر بعد أن دعا القاسم لذلك فامتنع.

ولما أوقع عمر بعيسى وغلب على ما في يده استتابه إلى أعماله بإذن أخيه محمد.

ثم أمره أخوه محمد بالنهوض إلى حرب القاسم لقعوده عن إجابته في محاربة عيسى فزحف إليه، وأوقع به، واستتاب عليه إلى ما في يده فصار الريف البحري كله من عمل عمر هذا من تيكيسان، وبلاد غمارة إلى سبته، ثم إلى طنجة.

وهذا ساحل البحر الرومي، ثم ينعطف إلى أصيلا ثم سلا، ثم أزمور وبلاد تامستا، وهذا ساحل البحر الكبير.

وتزهد القاسم وبنى رباطاً بساحل أصيلا للعبادة إلى أن هلك.

واتسعت ولاية عمر بعمل عيسى والقاسم، وخلصت طويته لأخيه محمد الأمير، وهلك في إمارة أخيه محمد ببلد صنهاجة بموضع يقال له فج الفرس سنة عشرين ومائتين، ودفن بفاس وعمر هذا هو جدّ الحموديين الدائلين بالأندلس من بني أمية كما نذكره.

وعقد الأمير محمد على عمله لولده علي بن عمر.

ثم كان مهلك الأمير محمد لسبعة أشهر من مهلك أخيه عمر سنة إحدى وعشرين ومائتين بعد أن استخلف ولده علياً في مرضه وهو ابن تسع سنين فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة وبايعوه غلاماً مُتَرَعْرِعاً وقاموا بأمره وأحسنوا كفالته وطاعته فكانت أيامه خير أيام، وهلك سنة أربع وثلاثين لثلاث عشرة سنة من ولايته، وعهد لأخيه يحيى بن محمد فقام بالأمر، وامتدّ سلطانه وعظمت دولته، وحسنت آثار أيامه.

واستجدّت فاس في العمران وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار، وبنيت الأرباض، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية واتفق أن نزلتها امرأة من أهل القيروان تسمى أم البنين بنت محمد الفهري، وقال ابن أبي ذرع: اسمها فاطمة، وأنها من هوارة.

وكانت مثرية بموروث أفادته من ذويها، واعتزمت على صرفه في وجوه الخير فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين أصغر ما كان سنة خمس وأربعين في أرض بيضاء كان أقطعها الإمام إدريس، وأنبطت بصحنها بئراً شراباً للناس، فكأنما نبهت بذلك عزائم الملوك من بعدها، ونقلت إليه الخطبة من جامع إدريس لضيق محلّته وجوار بيته.

واختط بعد ذلك أحمد بن سعيد بن أبي بكر اليفرني صومعته سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، على رأس مائة سنة من اختطاط الجامع حسبما هو منقوش في الحجارة بالركن الشرقي منها، ثم أوسع في خطّته المنصور بن أبي عامر، وجلب إليه الماء وأعدّ له السقاية والسلسلة بباب الحفاة منه، ثم أوسع في خطته آخر ملوك لمتونة من الموحدين، وبنى مرين واستمرت العمارة به، وانصرفت هممهم إلى تشييده والمنافسات في الاحتفال به فبلغ الاحتفال فيه ما شاء الله حسبما هو مذكور في تواريخ المغرب.

وهلك يحيى هذا سنة ولي ابنه يحيى بن يحيى فأساء السيرة وكثر عيثه في الحرم وثارت به العامة لمركب شنيع أتاه وتولى كبر الثورة عبد الرحمن بن أبي سهل الحزامي، وأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين فتوارى ليلتين ومات أسفاً لليلته، وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس، وبلغ الخبر بشأن يحيى إلى ابن عمه علي بن عمر صاحب الريف، واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجاء إلى فاس ودخلها وبايعوه، واستولى على أعمال المغرب إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الخارجي، خرج بجبال لمتونة وكان على رأي الصفْرية فزحف إلى فاس وغلب عليها، ففرّ إلى أوربة وملك عبد الرزاق عدوة الأندلس، وامتنعت منه عدوة القرويين، وولوا على أنفسهم يحيى بن القاسم بن إدريس، وكان يعرف بالصرام، بعثوا إليه فجاءهم في جموعه، وكانت بينه وبين الخارجي حروب.

ويقال: إنه أخرجه من عدوة الأندلس، واستعمل عليها ثعلبة بن محارب بن أبي صفرة.

ثم استعمل ابنه عبد الله المعروف بعبود من بعده، ثم ابنه محارب بن عبود بن ثعلبة إلى أن اغتاله الربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

وقام بالأمر مكانه يحيى بن إدريس بن عمر صاحب الريف، وهو ابن أخي علي بن عمر فملك جميع أعمال الأدارسة، وخطب له على سائر أعمال المغرب، وكان أعلى بني إدريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً، وكان فقيهاً عارفاً بالحديث ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة.

وفي أثناء ذلك كله خلط الملك للشيعة بإفريقية، وتغلّبوا على الإسكندرية واختطوا المهدية كما نذكره في دولة كتامة.

ثم طمحوا إلى ملك المغرب وعقدوا لمضالة بن حبوس كبير مكناسة وصاحب تاهرت على محاربة ملوكه سنة خمس وثلاثمائة، فزحف إليه في عساكر مكناسة وكتامة، وبرز لمدافعته يحيى بن إدريس صاحب المغرب بجموعه من المغرب، وأولياء الدولة من أوربة وسائر البرابرة والموالي، والتقوا على مكناسة وكانت الدبرة على يحيى وقومه، ورجع إلى فاس مغلولاً وأجاز له بها معاملة إلى أن صالحه على مال يؤديه إليه وطاعة معروفة لعبيد الله الشيعي

سلطانه، يؤديها فقبل الشرط، وخرج عن الأمر، وخلع نفسه، وأنفذ بيعته إلى عبيد اللّه المهدي وأبقى عليه مصالحه في سكنى فاس، وعقد له على عملها خاصة، وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يومئذ وصاحب سنوروتازه على سائر أعمال البربر كما نذكره في أخبار مكناسة ودولة موسى.

وكان بين موسى بن أبي العافية وبين يحيى بن إدريس شحناء وعداوة، يضطغنها كل واحد لصاحبه حتى إذا عاد مضالة إلى المغرب في غزاته الثانية سنة تسع أغزاه موسى بن أبي العافية بطلحة بن يحيى بن إدريس صاحب فاس، فقبض عليه مضالة واستصفى أمواله وذخائره وغرّبه إلى أصيلا والريف عمل ذي قرباه ورحمه، وولى على فاس ريحان الكتامي.

ثم خرج يحيى يريد إفريقية فاعترضه ابن أبي العافية وسجنه سنتين وأطلقه ولحق بالمهدية سنة إحدى وثلاثين وهلك في حصار أبي يزيد سنة واستبد ابن أبي العافية بملك المغرب وثار على ريحان الكتامي بفاس سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بالحجام، ونفى ريحان عنها وملكها عامين، وزحف للقاء موسى بن أبي العافية وكانت بينهما حروب شديدة هلك فيها ابنه منهال بن موسى، وانجلت المعركة على أكثر من ألف قتيل وخلص الحسن إلى فاس منهزماً وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله، وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس وملكها وطالبه بإحضار الحسن فدافعه عن ذلك، وأطلق الحسن متنكراً فتدلى من السور فسقط ومات من ليلته وفر حامد بن حمدان إلى المهدية، وقتل موسى بن أبي العافية عبد اللّه بن ثعلبة بن محارب وابنيه محمداً ويوسف وذهب ملك الأدارسة، واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم أخي الحسن وولوه عليهم واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وأنزلوه وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك.

وشمر الناصر المرواني لطلب المغرب، وملك سبتة علي بن إدريس سنة تسع عشرة، وكبيرهم يومئذ أبو العيش بن إدريس بن عمر فانجابوا له عنها وأنزل بها حاميته.

وهلك إبراهيم بن محمد كبير بني محمد فتولى عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكانون، وهو أخو الحسن الحجام، واسمه القاسم بن محمد بن القاسم، وقام بدعوة الشيعة انحرافاً عن أبي العافية ومذاهبه، واتصل الأمر في ولده وغمارة أولياؤهم والقائمون بأمرهم كما نذكره في أخبار غمارة.

ودخلت دعوة المروانيّين خلفاء قرطبة إلى المغرب، وتغلبت زناتة على الضواحي.

ثم ملك بنو يعرب فاس وبعدهم مغراوة وأقام الأدارسة بالريف مع غمارة وتجدّد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة وقلعة حجر النسر ومدينة سبتة وأصيلا.

ثم تغلب عليهم المروانيون وأثخنوهم إلى الأندلس، ثم أجازوهم إلى الإسكندرية وبعث العزيز العبيدي بن كانون منهم لطلب ملكهم بالمغرب فغلبه عليه المنصور بن أبي عامر وقتله، وعليه كان انقراض أمرهم وانقراض سلطان أوربة من المغرب، وكان من أعقاب الأدارسة الذين أووا إلى غمارة فكانوا الدائلين من ملوك الأموية بالأندلس، وذلك أن الأدارسة لما انقرض سلطانهم صاروا إلى بلاد غمارة واستجدوا بها رياسة، واستمرت في بني محمد وبني عمر من ولد إدريس بن إدريس، وكانت للبربر إليهم بسبب ذلك طاعة وخلطة.

وكان بنو حمود هؤلاء من غمارة فأجازوا مع البربر حين أجازوا في مظاهرة المستعين ثم غلبوه بعد ذلك على الأمر وصار لهم ملك الأندلس حسبما نذكر في أخبارهم.

وأما سليمان أخو إدريس أخبر فإنه فر إلى المغرب أيام العباسيين فلحق بجهات تاهرت بعد مهلك أخيه إدريس، وطلب الأمر هناك فاستنكره البرابرة وطلبه ولاة الأغالبة فكان في طلبهم تصحيح نسبه.

ولحق بتلمسان فملكها وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك، وورث ملكه ابنه محمد بن سليمان على سننه، ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم بن محمد بن أحمد، وأظن هذا القاسم هو الذي يدعي بنو عبد الواد نسبه، فإن هذا أشبه من القاسم بن إدريس بمثل هذه الدعوى.

وكانت أرشكول لعيسى بن محمد بن سليمان وكان منقطعاً إلى الشيعة، وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى وكنيته أبو العيش، ولم تزل إمارتها في ولده، ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى، ثم ابنه يحيى بن إبراهيم، ثم أخوه إدريس بن إبراهيم، وكان إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكول منقطعاً إلى عبد الرحمن الناصر وأخوه يحيى كذلك.

وارتاب من قبله ميسور قائد الشيعة فقبض عليه سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، ثم انحرف عنهم فلما أخذ ابن أبي العافية

بدعوة العلوية نابذ أولياء الشيعة فحاصر صاحب جراوة الحسن بن أبي العيش، وغلبه على جراوة فلحق بابن عمه إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكول.

ثم حاصرها البوري بن موسى بن أبي العافية وغلب عليهما، وبعث بهما إلى الناصر فأسكنهما قرطبة، وكانت تنس لإبراهيم بن محمد بن سليمان ثم لابنه محمد من بعده، ثم لابنه يحيى بن محمد، ثم ابنه علي بن يحيى، وتغلب عليه زيري بن مناد سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة ففر إلى الجبر بن محمد بن خزر، وجاز ابناه حمزة ويحيى إلى الناصر فتلقاهما رحباً وتكرمة، ورجع يحيى منهما إلى طلب تنس فلم يظفر بها.

وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط.

وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء ويطوش بن حناتش بن الحسن بن محمد بن سليمان، قال ابن حزم: وهم بالمغرب كثير جداً، وكان لهم بها ممالك، وقد بطل جميعها ولم يبق منهم بها رئيس بنواحي بجاية وحمل بني حمزة هؤلاء جوهر إلى القيروان وبقيت منهم بقايا في الجبال والأطراف معروفون هنالك عند البربر والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن صاحب الزنج وتصاريف أمره واضمحلال دعوته

هذه الدعوة فيها اضطراب منذ أولها فلم يتم لصاحبها دولة، وذلك أن دعاة العلوية منذ زمان المعتصم من الزيدية كما شرحناه، وكان من أعظمهم الذين دعا لهم شيعهتم بالنواحي علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد الشهيد، ولما اشتهر أمره فرّ وقتل ابن عمه علي بن محمد بن الحسن بن علي بن عيسى، وبقي هو متغيباً فادعى صاحب الزنج هذا سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهدي أنه هو، فلما ملك البصرة ظهر هذا المطلوب، ولقيه صاحب الزنج حياً معروفاً بين الناس فرجع عن دعوى نسبه وانتسب إليه إلى يحيى بن يزيد قتيل الجون، ونسبه المسعودي إلى طاهر بن الحسين بن علي، وقال فيه: علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن طاهر.

ويشكل ذلك بأن الحسين بن فاطمة لم يكن له عقب إلا من زين العابدين، قاله ابن حزم وغيره، فإن أراد بطاهر طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن عبيد الله بن الحسن الأصغر بن زين العابدين فتطول سلسلة نسبه، وتشتمل على اثني عشر إلى الحسين بن فاطمة، ويبعد ذلك إلى العصر الذي ظهر فيه.

والذي عليه المحققون الطبري وابن حزم وغيرهما أنه رجل من عبد القيس من قرية تسمى ودريفن من قرى الري، واسمه علي بن عبد الرحيم حدثته نفسه بالتوثب، ورأى كثرة خروج الزيدية من الفاطميين فانتحل هذا النسب وادعاه، وليس من أهله.

ويصدق هذا أنه كان خارجياً على رأي الأزارقة يلعن الطائفتين من أهل الجمل وصفين، وكيف يكون هذا من علوي صحيح النسب؟ ولأجل انتحاله هذا النسب وبطلانه في دعاويه فسد أمره فقتل ولم تقم له دولة بعد أن فعل الأفاعيل وعاث في جهات البصرة، واستباح الأمصار وخربها، وهزم العساكر وقتل الأمراء الأكابر، واتخذ لنفسه حصوناً قتل فيها من جاوبه لمكره سنة الله في عباده.

وسياق الخبر عنه أنه شخص من الذين حجبوا ببغداد مع جماعة من حاشية المنتصر، ثم سار إلى البحرين سنة تسع وأربعين ومائتين فادعى أنه علوي من ولد الحسين بن عبيد الله بن العباس بن علي، ودعا الناس إلى طاعته فاتبعه كثير من أهل هجر، ثم تحول إلى الإحساء، ونزل على بعض بني تميم ومعه قوارة يحيى بن محمد الأزرق وسليمان بن جامع، وقاتل أهل البحرين فهزموه وافترقت العرب عنه، ولحق بالبصرة والفتنة فيها بين البلالية والسعدية، وبلغ خبره محمد بن رجاء العامل فطلبه فهرب وحبس ابنه وزوجته وبعض أصحابه، ولحق هو ببغداد فانتسب إلى عيسى بن زيد الشهيد كما قلناه، وأقام بها حولاً.

ثم بلغه أن البلالية والسعدية أخرجوا محمد بن رجاء من البصرة، وأن أهله خلصوا فرجع إلى البصرة في رمضان سنة خمس وخمسين، ومعه يحيى بن محمد وسليمان بن جامع.

ومن أهل بغداد الذين استمالهم جعفر بن محمد الصمدحاني وعلي بن أبان وعبدان غير من سمينا فنزل بظاهر البصرة، ووجه دعوته إلى العبيد من الزنوج وأفسدهم على مواليهم ورغبهم في العتق، ثم في الملك، واتخذ راية رسم فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية.

وجاءه موالي العبيد في طلبهم فأمرهم بضربهم وحبسهم، ثم أطلقهم، وتسايل إليه الزنوج واتبعوه وهزم عساكر البصرة والأبلّة وذهب إلى القادسية، وجاءت العساكر من بغداد فهزمهم ونهب النواحي، وجاء المدد إلى البصرة مع جعلان من قوّاد الترك

وقاتلوه فهزمهم.

ثم ملك الأبلة واستباحها، وسار إلى الأهواز وبها إبراهيم بن المدبر على الخوارج، فافتتحها وأسر ابن المدبر سنة ست وخمسين إلى أن فر من محبسهم، فبعث المعتمد سعيد بن صالح الحاجب لحربهم سنة سبع وخمسين، وهو يومئذ عامل البصرة وسار من واسط فهزمه علي بن أبان من قواد الزنج لحربهم، هزمه إلى البحرين فتحصن بالبصرة، وزحف علي بن أبان لحصاره حتى نزل على أمانه، ودخلها وأحرق جامعها، ونكب عليه صاحب الزنج فصرفه، وولى على البصرة مكانه يحيى بن محمد البحراني.

وبعث المعتمد محمد المولد إلى البصرة فأخرج عنه الزنج، ثم بيتوا محمد بن المولد فهزموه.

ثم ساروا إلى الأهواز وعليها منصور الخياط فواقع الزنج فغلبوه وكان المعتمد قد استقدم أخاه أبا أحمد الموفق من مكة وعقد له على الكوفة والحرمين وطريق مكة واليمن، ثم عقد له على بغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز، وأمره أن يعقد ليارجوج على البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين مكان سعيد بن صالح.

ثم انهزم سعيد بن صالح فعقد يارجوج لمنصور بن جعفر مكانه، ثم قتله الزنج كما قلناه فأمر المعتمد أخاه الموفق بالمسير إليهم في ربيع سنة ثمان وخمسين، وعلى مقدمته مفلح فأجفل الزنج عن البصرة، وسار قائدهم علي بن أبان فلقي مفلحاً فقتل مفلح وانهزم أصحابه ورجع الموفق إلى سامرا، وكان اصطيخور ولي الأهواز بعد منصور الخياط، وجاءه يحيى بن محمد البحراني من قواد الزنج، وبلغهم مسير الموفق فانهزم يحيى البحراني، ورجع في السفن، فأخذ وحمل إلى سامرا فقتل وبعث صاحب الزنج مكانه علي بن أبان وسليمان الشعراني فملكوا الأهواز من يد اصطيخور سنة تسع وخمسين، بعد أن هزموه وهرب في السفن فغرق.

وسرح المعتمد لحربهم موسى بن بغا بعد أن عقد له على تلك الأعمال فبعث إلى الأهواز عبد الرحمن بن مفلح، وإلى البصرة إسحاق بن كيداجق، وإلى باداورد إبراهيم بن سليمان، وأقاموا في حروبهم مدة سنة ونصفها.

ثم استعفى موسى بن بغا وولى على تلك الأعمال مكانه مسرور البلخي، وجهز المعتمد أخاه أبا أحمد الموفق لحربهم بعد أن عهد له بالخلافة ولقبه الناصر لدين الله الموفق، وولاه على أعمال المشرق كلها إلى آخر أصفهان وعلى الحجاز، فسار لذلك سنة اثنتين وستين، واعترضه يعقوب الصفار يريد بغداد فشغل بحربه، وانهزم الصفار وانتزع من يده ما كان ملكه من الأهواز.

وكان مسرور البلخي قد سار إلى المعتمد وحضر معه حرب الصفار، فاغتنم صاحب الزنج خلو تلك النواحي من العسكر وبث سراياه للنهب والتخريب في القادسية، وجاءت العساكر من بغداد مع أغرتمش وخشنش، فهزمهم الزنج وقائدهم سليمان بن جامع، وقتل خشنش.

وكان علي بن أبان من قوادهم قد سار إلى الأهواز، وأميرها يومئذ محمد بن هزارمرد الكردي، فبعث مسرور البلخي أحمد بن الينونة للقائهم فغلب أولاً على الأهواز علي بن أبان، ثم ظاهره محمد بن هزارمرد والأكراد فرجع إلى السوس، وأقام علي بن أبان وصاحبه بتستر، وطمع أنه يخطب لصاحب الزنج فخطب هو للصفار فاقتتلا، وانهزم علي بن أبان وخرج واضطربت فارس بالفتنة.

ثم ملك الصفار الأهواز وواعد الزنج، وسار سليمان بن جامع من قواد الزنج، وولى الموفق على مدينة واسط أحمد بن المولد فزحف إليه الخليل بن أبان فهزمه، واقتحم واسطاً واستباحها سنة أربع وستين وضربت خيولهم في نواحي السواد إلى النعمانية إلى جرجرايا فاستباحوها، وسار علي بن أبان إلى الأهواز فحاصرها واستعمل الموفق عليها مسروراً البلخي فبعث تكيد البخاري إلى تستر فهزمهم علي بن أبان وجماعة الزنج، وسألوه الموادعة فوادعهم واتهمه مسرور فقبض عليه، وبعث مكانه أغرتمش فهزم الزنج أولاً ثم هزموه ثانياً فوادعهم.

ثم سار علي بن أبان إلى محمد بن هزارمرد الكردي فغلبه على رامهرمز حتى صالحه عليها على مائتي ألف درهم، وعلى الخطبة له في أعماله.

ثم سار ابن أبان لحصار بعض القلاع بالأهواز، فزحف إليه مسرور البلخي فهزمه واستباح معسكره.

وكان الموفق لما اقتحم الزنج مدينة واسط بعث ابنه أبا العباس سنة ست وستين في عشرة آلاف من المقاتلة، ومعه السفن في النهر عليها أبو حمزة نصير فكتب إليه نصير بأن سليمان بن جامع أقبل في المقاتلة والسفن براً وبحراً، وعلى مقدمته الجناني، ولحقهم سليمان بن موسى الشعراني بالعساكر، ونزلوا من الطفح إلى أسفل واسط، فسار إليهم أبو العباس فهزمهم، فتأخروا وراءهم وأقام على واسط يردد عليهم الحروب والهزائم مرة بعد أخرى ثم أمر صاحب الزنج قائده ابن أبان وابن جامع أن يجتمعا

لحرب أبي العباس بن الموفق، وبلغ ذلك الموفق فسار من بغداد في ربيع سنة سبع وستين فانتهى إلى المنيعة، وقاتل الزنج فانهزموا أمامه واتبعهم أصحاب أبي العباس ابنه فاقتحموا عليهم المنيعة وقتلوا وأسروا، وهدم سور المنيعة وطمس خندقها وهرب الشعراني وابن جامع، وسار أبو العباس إلى المنصورة بطهشا فنازلها وغلب عليها، وأفلت ابن جامع إلى واسط، وغلب على ما فيها من الذخائر والأموال، وهدم سورها وطم خنادقها ورجع إلى واسط.

ثم سار الموفق إلى الزنج بالأهواز واستخلف ابنه هارون على جنده بواسط، وجاءه الخبر برجوع الزنج إلى طهشا والمنصورة فرد إليهم من يوقع بهم ومضى لوجهه فانتهى إلى السوس وعلي بن أبان بالأهواز فسار إلى صاحبه واستأمن المخلفون هنالك إلى الموفق فأمنهم، وسار إلى تستر وأمن محمد بن عبد الله الكردي، ثم وافى الأهواز وكتب إلى ابنه هارون أن يوافيه بالجند بنهر المبارك من فرات البصرة وبعث ابنه أبا العباس لحرب الخبيث بنهر أبي الخصيب واستأمن إليه جماعة من قواده فأمنه وكتب إليه بالدعوة والأعذار، وزحف إليه في مدينته المختارة له، وأطلق السفن في البحر وعبى عساكره وهي نحو من خمسين ألفاً والزنج في نحو من ثلاثمائة ألف مقاتل، ونصب الآلات ورتب المنازل للحصار، وبنى المقاعد للقتال، واختط مدينه الموفقية لنزوله، وكتب بحمل الأموال والميرة إليها فحملت، وقطع الميرة عن المختارة، وكتب إلى البلاد بإنشاء السفن والاستكثار منها، وقام يحاصرها من شعبان سنة سبع وستين إلى صفر من سنة سبعين.

ثم اقتحم عليهم المختارة فملكها وفر الخبيث وابنه انكلاي وابن جامع إلى معقل أعده واتبعه طائفة من الجند فانقطعوا عنه، وأمرهم من الغد باتباعه فانهزم وقتل من أصحابه وأسر ابن جامع.

ثم قتل صاحب الزنج وجيء برأسه ولحق انكلاي بالديناري في خمسة آلاف، ولحقهم أصحاب الموفق فظفروا بهم وأسروهم أجمعين، وكان درمونة من قواده قد لحق بالبطيحة، واعتصم بالمغايض والآجام ليقطع الميرة عن أصحاب الموفق.

فلما علم بقتل صاحبه استأمن إلى الموفق فأمنه ثم أقام الموفق بمدينته قليلاً وولى على البصرة والأبلة وكور دجلة، ورجع إلى بغداد فدخلها في جمادى سنة سبعين، وكان لصاحب الزنج من الولد محمد ولقبه أنكلاي ومعناه بالزنجية ابن الملك، ثم يحيى وسليمان والفضل حبسوا في المطبق إلى أن هلكوا.

والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبرعن دعاة الديلم والجبل من العلوية وما كان لهم من الدولة بطبرستان للداعي وأخيه أولاً ثم للأطروش وبنيه وتصاريف ذلك إلى انقضائه

كان أبو جعفر المنصور قد اختص من العلوية من بني الحسن السبط حافده الحسن بن زيد بن الحسن وولاه المدينة، وهو الذي امتحن الإمام مالكاً رحمه الله كما هو معروف.

وهو الذي أغرى المنصور من قبل ببني حسن وأخبره بدسيسة محمد المهدي وابنه عبد الله في شأن الدعاء لهم حتى قبض عليهم وحملهم إلى العراق كما قدمناه.

وكان له عقب بالري منهم: الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن والي المدينة، ولما حدث بين عامل طبرستان محمد بن أوس الكافل بها لسليمان بن عبد الله بن طاهر نائباً عن محمد بن طاهر صاحب خراسان، وبين محمد وجعفر من بني رستم من أهل نواحي طبرستان حادث فتنة، وقد تقدم ذكرها، أغروا به أهل تلك النواحي وبعثوا إلى الديلم ليستنجدوا بهم عليه، وكانوا على المجوسية يومئذ، وهم حرب لمحمد بن أوس لدخوله بلادهم، وقتله وسبيه منهم أيام المسالمة، وملكهم يومئذ وهشوذار بن حسان فأجابوا ابني رستم إلى حربه.

وبعث ابنا رستم إلى محمد بن إبراهيم بطبرستان لكون الدعوة له فامتنع ودلهم على الحسن بن زيد بالري فاستدعوه بكتاب محمد بن إبراهيم فشخص إليهم، وقد اتفق الديلم وابنا رستم وأهل ناحيتهم على بيعته فبايعوه، وانضم إليهم أهل جبال طبرستان.

وزحف إلى آمد فقاتله ابن أوس دونه، وخالفه الحسن بن زيد في جماعة إلى آمد فملكها، ونجا ابن أوس إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر بسارية وزحف إليهم الحسن فخرجوا للقائه فناشبهم الحرب، وبعث بعض قواده إلى سارية فملكها، وانهزم سليمان إلى جرجان، واستولى الحسن على معسكره بما فيه وعلى حرمه وأولاده فبعثهم إليه في السفن.

ويقال: إن سليمان انهزم له لدسيسة التشيع التي كانت في بني طاهر، ثم أقبل الحسن بن زيد إلى طبرستان فملكها وهرب عنها سليمان، ثم بعث الحسن دعاته إلى النواحي وكان يعرف

بالداعي العلوي فبعث إلى الري القاسم ابن عمه علي بن إسماعيل، وبها القاسم بن علي بن زين العابدين السمري فملكها، واستخلف بها محمد بن جعفر بن أحمد بن عيسى بن حسين الصغير بن زين العابدين.

وبعث إلى قزوين الحسين المعروف بالكوكبي بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن جعفر، وهزمه وأسره فبعث الحسن بن زيد قائده دواجن إلى محمد بن ميكال فهزمه وقتله، وملك الري من يده، وذلك سنة خمسين ومائتين.

ثم زحف سليمان بن عبد اللّه بن طاهر من جرجان في العساكر فأجفل الحسن بن زيد عن طبرستان إلى الديلم ودخلها سليمان، ثم قصد سارية وأتاه ابنا قاران بن شهرزاد من الديلم وأتاه أهل آمد وغيرهم طائعين فصفح عنهم، ثم سار محمد بن طاهر إلى لقاء الحسن فهزمه، وقتل من أعيان أصحابه ثلاثمائة وأربعين رجلاً.

ثم زحف موسى بن بغا لحربهم سنة ثلاث وخمسين فلقيه الحسن الكوكبي على قزوين، وانهزم إلى الديلم واستولى موسى بن بغا على قزوين.

ثم رجع الكوكبي سنة ست وخمسين فاستولى على الري واستولى القاسم بن علي بعدها على الكرخ سنة سبع ثم زحف الحسن بن زيد إلى جرجان وبعث إليها محمد بن طاهر صاحب خراسان العساكر فهزمهم الحسن، وغلبهم عليها وانتقض أمر ابن طاهر بخراسان من يومئذ واختلف المغلبون عليه، وكان ذلك داعياً إلى انتزاع يعقوب الصفار خراسان من يده.

ثم غلبه الحسين سنة تسع وخمسين على قومس.

استيلاء الصفار على طبرستان

كان عبد اللّه السخري ينازعه يعقوب بن الليث الصفّار الرياسة بسجستان، فلما استولى يعقوب على الأمر هرب عبد اللّه إلى نيسابور مستجيراً بابن طاهر فأجاره.

فلما هلك يعقوب الصفار بنيسابور هرب عبد اللّه إلى الحسن بن زيد ونزل سارية وبعث فيه يعقوب الصفار فلم يسلمه الحسن بن زيد، فسار إليه يعقوب سنة ستين، وهزمه فلحق بأرض الديلم ولحق عبد اللّه بالري.

وملك يعقوب سارية وآمد وجبى خراجها، وسار في طلب الحسن فتعلق بجبال طبرستان، واعترضته الأمطار والأوحال فلم يخلص إلا بمشقة.

وكتب إلى الخليفة بخبر الحسن وما فعله معه، وسار إلى الري في طلب عبد اللّه السخري فأمكنه منه، والي الري فقتله.

ثم رجع الحسن بن زيد إلى طبرستان سنة إحدى وستين، وغلب عليها أصحاب الصفار واقتطعها عنهم.

ثم انتقض السجستاني على يعقوب بن الليث بخراسان وملكها من يده كما ذكرناه، فسار وحاربه أبو طلحة بن شركب وأمره الحسن بن زيد فسار السجستاني إلى محاربته بسبب ذلك سنة خمس وستين، وانتزاع جرجان من يده، ثم خرج عنها بقتال عمرو بن الليث بعد موت أخيه يعقوب كما نذكر في أخبارهم، فملكها الحسن بن زيد.

ثم أوقع السجستاني بالحسن بن زيد سنة ست وستين، كبسه بجرجان وهو غاز فهزمه ولحق بآمد وملك سارية، واستخلف عليها الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد اللّه الشيعي بن الحسين الأصغر بن زين العابدين، وانصرف فأظهر الحسن بسارية قتل الحسن بن زيد، ودعا لنفسه فبايعه جماعة.

ثم وافاه الحسن بن زيد فظفر به وقتله.

و فاة الحسن بن زيد وولاية أخيه

ثم توفي الحسن بن زيد صاحب طبرستان في رجب سنة سبعين وولي مكانه أخوه محمد، وكان قيامهم أولاً على ابن طاهر كما ذكرناه.

ثم غلب يعقوب الصفّار على خراسان وانتقض عليه أحمد السجستاني، وملكها من يده.

ثم مات يعقوب سنة خمس وستين وولي مكانه أخوه عمرو، وزحف إلى خراسان، وقاسم السجستاني فيها وكانت بينهما حروب، وكان الحسن داعي طبرستان يقابلهما جميعاً إلى أن هلك، وولي مكانه أخوه كما ذكرناه.

وكانت قزوين تغلب عليها أثناء ذلك عساكر الموفق ووليها اذكوتكين من مواليهم فزحف إلى الري سنة اثنتين وسبعين، وزحف إليه محمد بن زيد في عالم كبير من الديلم وأهل طبرستان وخراسان فانهزم، وقتل من عسكره ستة آلاف، وأسر ألفان، وغنم اذكوتكين عسكره جميعاً وملك الري وفرق عماله في نواحيها.

ثم مات السجستاني وقام بأمره في خراسان رافع بن الليث من قواد الظاهرية فغلب محمد بن زيد على طبرستان وجرجان

فلحق بالديلم، ثم صالحه سنة إحدى وثمانين وخطب له فيها سنة اثنتين وثمانين على أن ينجده على عمرو بن الليث، وكتب له عمرو بن الليث، يعذله عن ذلك فأقصر عنه، فلما غلب عمرو على رافع رعي لمحمد بن زيد خذلانه لرافع فخلى له عن طبرستان وملكها.

مقتل محمد بن زيد

كان عمرو بن الليث لما ملك خراسان، وقتل رافع بن هرثمة، طلب من المعتضد ولاية ما وراء النهر فولاه.

واتصل الخبر بإسماعيل بن أحمد الساماني ملك تلك الناحية فعبر جيحون وهزم جيوش عمرو بن الليث ورجع إلى بخارى، فزحف عمرو بن الليث من نيسابور إلى بلخ وأعوزه العبور.

وجاء إسماعيل فعبر النهر، وأخذ عليه الجهات بكثرة جموعه فأصبح كالمحاصر ثم اقتتلوا فانهزم عمرو وأسره إسماعيل وبعث به إلى المعتضد سنة ثمان وثمانين فحبسه إلى أن قتل، وعقد لإسماعيل على ما كان بيد عمرو.

ولما اتصل بمحمد بن زيد، واقعة عمرو وأسره سار من طبرستان لا يرى أن إسماعيل يقصدها فلما انتهى إلى جرجان بعث إليه إسماعيل يصده عن ذلك فأبى، فسرح إليه محمد بن هارون، وكان من قواد رافع بن هرثمة، وصار من قواد إسماعيل بن سامان فلقي محمد بن زيد على جرجان واقتتلوا فانهزم محمد بن هارون أولاً.

ثم رجعت الكرة على محمد بن زيد، وافترقت عساكره وقتل من عسكره عالم وأسر ابنه زيد، وأصابته هو جراحات هلك منها لأيام قلائل، وغنم ابن هارون عسكره بما فيه، وسار إلى طبرستان فملكها وبعث يزيد إلى إسماعيل فأنزله ببخارى، ووسع عليه الأنفاق واشتدت عليه شوكه الديلم وحاربهم إسماعيل سنة تسع وثمانين، وملكهم يومئذ ابن حسان فهزمهم، وصارت طبرستان وجرجان في ملك بني سامان مع خراسان، إلى أن ظهر بها الأطروش كما نذكر بعد.

ويقال: إن زيد بن محمد بن زيد ملك طبرستان من بعد ذلك إلى أن توفي وملكها من بعده ابنه الحسن بن زيد.

ظهور الأطروش العلوي وملكه طبرستان

الأطروش هذا من ولد عمر بن زين العابدين الذي كان منهم داعي الطالقان أيام المعتصم، وقد مر ذلك.

واسم الأطروش الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر، دخل إلى الديلم بعد مقتل محمد بن زيد وأقام فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويأخذ منهم العشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسان، فأسلم منهم خلق كثير، واجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد وحملهم على رأي الزيدية فدانوا به.

ثم دعاهم إلى المسير معه إلى طبرستان.

وكان عاملها محمد بن نوح من قبل أحمد بن إسماعيل بن سامان، وكان كثير الإحسان إليهم فلم يجيبوا الأطروش إلى البغي عليه.

ثم عزل ابن سامان عن طبرستان ابن نوح وولى عليها غيره، فأساء السيرة فأعاد إليها ابن نوح، ثم مات فاستعمل عليها أبا العباس محمد بن إبراهيم صعلوكاً فأساء السيرة وتنكر لرؤساء الديلم، فدعاهم الحسن الأطروش للخروج معه فأجابوه فسار إليهم صعلوك، ولقيهم بشاطئ البحر على مرحلة من سالوس فانهزم وقتل من أصحابه نحو من أربعة آلاف، وحصر الأطروش بقيتهم في سالوس حتى استأمنوا إليه فأمّنهم ونزل آمد.

وجاء صهره الحسن بن قاسم بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد والي المدينة، وقد مر ذكره، فلم يحضر قتل أولئك المستأمنين، واستولى الأطروش على طبرستان وتسمى الناصر، وذلك سنة إحدى وثلاثمائة، ولحق صعلوك بالري، وسار منها إلى بغداد.

ثم زحف الناصر سنة اثنتين وثلاثمائة، فخرج عن آمد ولحق بسالوس، وبث إليه صعلوك العساكر فهزمهم الحسن الداعي وهو الحسن بن زيد.

ثم زحفت إليه عساكر خراسان وهي للسعيد نصر بن أحمد فقتلوه سنة أربع وثلاثمائة، وولى صهره وبنوه وكانت بينهم حروب بالديلم كما نذكره.

وكان له من الولد أبو القاسم وأبو الحسن وكان قوّاده من الديلم جماعة منهم ليلى بن النعمان، وولاه صهره الحسن بعد ذلك جرجان، وما كان بن كالي، وكانت له ولاية أستراباذ، ويقرأ من كتاب الديلم، وكان من قواده من الديلم جماعة أخرى منهم أسفار بن شيرويه من أصحاب ماكان ومرداويج من أصحاب

أسفار والسيكري من أصحابه أيضاً، ومولويه من أصحاب مرداويج، ويأتي الخبر عن جميعهم.

وكان الحسن بن قاسم صهر الأطروش، وكان رديفه في الأمر حتى كان يعرف بالداعي الصغير، واستعمل على جرجان سنة ثمان وثلاثمائة ليلى بن النعمان من كبار الديلم.

وكان له مكان في قومه، وكان الأطروش وأولاده يلقّبونه المؤيّد لدين الله، المنتصر لآل رسول الله، وكانت خراسان يومئذ لنصر بن أحمد من بني سامان.

وكان الدامغان ثغرها من ناحية طبرستان، وكان بها فراتكين من موالي ابن سامان فوقعت بينه وبين ليلى حروب وهزمه ليلى، واستفحل أمره ونزع إليه فارس مولى فراتكين فأكرمه وأصهر إليه بأخته واستأمن إليه أبو القاسم بن حفص وهو ابن أخت أحمد بن سهل قائد السامانية عندما نكب خاله أحمد فأمنه وأجاره.

ثم حرضه الحسن بن قاسم الداعي الصغير على المسير إلى نيسابور فسار إليها ومعه أبو القاسم بن حفص فملكها من فراتكين سنة ثمان وثلاثمائة، وخطب بها للداعي، وأنفذ السعيد نصر عساكره إليه من بخارى مع قائده حمويه بن علي، ومعه محمد بن عبيد الله البلعي وأبو جعفر صعلوك، وخوارزم شاه وسيجور الدواني وبقراخان فلقيهم ليلى بطوس، وقاتلوه فانهزم إلى آمد ولم يقدر على الحصار، ولحقه بقراخان فقبض عليه وبعث حمويه من قتله، واستأمن الديلم إليهم فأمّنوهم، وأشار حمويه بقتلهم فاستجاروا بالقواد، وبعث برأس ليلى إلى بغداد، وذلك في ربيع من سنة تسع وبقي فارس مولى فراتكين بجرجان.

إمارة العلوية بطبرستان بعد الأطروش

ولما قتل الحسن الأطروش سنة أربع وثلاثمائة، كما قدمناه، ولي مكانه بطبرستان صهره، وهو الحسن بن القاسم، وقد مر ذكره، ويسمى بالداعي الصغير، ويلقب بالناصر.

وبعض الناس يقولون هو الحسن بن محمد أخي الأطروش، هكذا قال ابن حزم وغيره، وليس بصحيح وإنما هو صهره الحسن بن القاسم من عقب الحسين بن زيد والي المدينة، ثم من عقب حافده محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن، وكان أبو الحسن بن الأطروش باستراباذ فبايع له ماكان بن كالي، وقام بأمره فلما قتل ليلى بن النعمان صاحب جرجان، وعاد فراتكين إليها، ثم انصرف عنها وجاءه أبو الحسن بن الأطروش باستراباذ فبايع له فملكها، فبعث السعيد بن سامان صاحب خراسان قائده سيجور الدواني في أربعة آلاف فارس لحصاره بجرجان فحاصره شهراً، ومع الحسن صاحب جيشه سرخاب بن وهشوداب، وهو ابن عم ماكان بن كالي فلما اشتد بهم الحصار خرج أبو الحسن وسرخاب في ثمانية آلاف من الديلم والجند فانهزم سيجور أولاً فاتبعوه وقد أكمن لهم الكمائن فخرجت عليهم، وقتل من الديلم والجند نحو أربعة آلاف، وخلص أبو الحسن في البحر إلى أستراباذ، ولحقه سرخاب فخلفه، وأقام سيجور بجرجان.

ثم هلك سرخاب وسار أبو الحسن إلى سارية واستخلف ماكان بن كالي على أستراباذ، فاجتمع إليه الديلم وولوه على أنفسهم، وزحف إليه عساكر السعيد بن سامان فحاصروه مدة.

ثم خرج عن أستراباذ إلى سارية فملكوها وولوا عليها بقراخان، وعادوا إلى جرجان ثم إلى نيسابور ثم سار ماكان بن كالي إلى أستراباذ وملكها من يد بقراخان، ثم ملك جرجان وأقام بها وذلك سنة عشر وثلاثمائة.

ثم استولى أسفار بن شيرويه على جرجان، واستقل بها، وكان سبب ذلك أنه كان من أصحاب ماكان بن كالي ونكره لبعض أحواله فطرده من عسكره، وسار إلى أبي بكر بن محمد بن اليسع من السامانية بنيسابور فخدمه، وبعثه في عسكر إلى جرجان ليفتحها له، وقد كان ماكان سار إلى طبرستان وولى على جرجان مكانه أخاه أبا الحسن علياً، وكان أبو الحسن بن الأطروش معتقلاً عنده، وهم ليلة بقتله، وقصده في محبسه فظفر به أبو علي وقتله، وخرج من الدار واختفى وبعث من الغد الى القواد فبايعوا له وولوا على جيشه علي بن خرشيد ورضوا به.

واستقدموا أسفار بن شيرويه فأستأذن بكر بن محمد وقدم عليهم، وسار إليهم ماكان بن كالي فحاربوه وغلبوه على طبرستان، وانزلوا بها أبا علي بن الأطروش فأقام بها أياماً ومات على أثره علي بن خرشيد صاحب جيشه، وجاء ماكان بن كالي لحرب أسفار بطبرستان فانهزم أسفار ولحق ببكر بن محمد بجرجان وأقام إلى أن توفي سنة خمس عشرة وثلاثمائة فولاه السعيد على جرجان، وأرسل إلى مرداويج بن دينار الجبلي، وجعله أمير جيشه، وزحفوا إلى طبرستان فملكوها.

وكان الحسن بن القاسم الداعي قد استولى على الري وقزوين وزنجان وأبهر وقم، وقائده ماكان بن كالي الديلمي فسار إلى طبرستان وقاتله أسفار فانهزم ماكان، والحسن بن القاسم الداعي، وقتل بخذلان أصحابه إياه، لأنه كان يشتد عليهم في تغيير المنكرات فتشاوروا في أن يستقدموا هذرسيدان من رؤساء الجبل،

وكان خال مرداويج ووشكين فيقدموه عليهم ويحبسوا الحسن الداعي وينصبوا أبا الحسن بن الأطروش.

ونما الخبر بذلك إلى الداعي وقدم هذرسيدان فلقيه الداعي مع القواد وأدخلهم إلى قصره بجرجان ليأكلوا من مائدته فدخلوا وقتلهم عن آخرهم، فعظمت نفرتهم عنه فخذلوه في هذا الموطن وقتل، واستولى أسفار على طبرستان والري وجرجان وقزوين وزنجار وأبهر وقُمّ والكرج، ودعا للسعيد بن سامان صاحب خراسان، وأقام بسارية واستعمل على آمد هارون بن بهرام، وقصد بذلك استخلاصه لنفسه لأنه كان يخطب لأبي جعفر من ولد الناصر الأطروش فولاه آمد وزوجه بإحدى نسائه الأعيان بها، وحضر عرسه أبو جعفر وغيره من العلويين، وهجم عليه أسفار يوم عرسه بآمد، فقبض على أبي جعفر وغيره من أعيان العلويين، وحملهم إلى بخارى فاعتقلوا بها إلى أن خلصوا من بعد ذلك.

ومن تاريخ بعض المتأخرين أن الحسن بن القاسم الداعي صهر الأطروش، بويع بعد موته ولقب الناصر، وملك جرجان.

وكان الديلم قد اشتملوا على جعفر بن الأطروش، وتابعوه فصار الداعي إلى طبرستان وملكها ولحق جعفر بدنباوند فقبض عليه علي بن أحمد بن نصر وبعث به إلى علي بن وهشودان بن حسان ملك الديلم وهو عامله، فحبسه علي بن وهشودان بن حسان ملك الديلم فلما قتل أطلقه من بعده حسرة فيروز، فاستجاش جعفر بالديلم وعاد إلى طبرستان فملكها وهرب الحسن.

ثم مات جعفر فبويع أبو الحسن ابن أخيه الحسن، فلما ظهر ماكان بن كالي بايع للحسن الداعي وأخرجه إليه، وقبض على الحسن بن أحمد وهو ابن أخي جعفر وحبسه بجرجان عند أخيه أبي علي ليقتله فقتله الحسن ونجا، وبايعه القواد بجرجان.

ثم حاربه ماكان فانهزم الحسن إلى آمد ومات بها، وبويع أخوه أبو جعفر بن محمد بن أحمد وقصده ماكان من الري فهرب من آمد إلى سارية وبها أسفار بن شيرويه، فقاتل دونه وانهزم أسفار إلى جرجان، واستأمن إلى أبي بكر بن محمد بن الياس.

ثم بايع ماكان لأبي القاسم الداعي، وخرج الحسن إلى الري وطلب مرداويج بثأر خاله سيداب بن بندار، وكان الداعي بجرجان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، وانصرف ماكان إلى الديلم، ثم ملك طبرستان وبايع بها لأبي علي الناصر بن إسماعيل بن جعفر بن الأطروش، وهلك بعد مدة.

ومضى أبو جعفر محمد بن أبي الحسن أحمد بن الأطروش إلى الديلم إلى أن غلب مرداويج على الري، فكتب إليه وأخرجه عن الديلم وأحسن إليه.

فلما غلب على طبرستان وأخرج ماكان عنها بايع لأبي جعفر هذا، وسمي صاحب القلنسوة إلى أن مات، وبويع أخوه ولقب الثائر، وأقام مع الديلم وزحف سنة ست وثلاثين إلى جرجان، وبها ركن الدولة بن بويه فسرح إليه ابن العميد فانهزم الثائر، وتعلق بالجبال، وأقام مع الديلم وملوك العجم يخطبون له إلى أن هلك سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، لثلاثين سنة من ملكه، وبايعوا لأخيه الحسين بن جعفر وتلقب بالناصر، وتقبض عليه ليكوبن وشكس ملك الجبل وسلمه وانقرض ملك الفاطميين أجمع بتلك الجبال والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة الاسماعيلية ونبدأ منهم بالعبيديين الخلفاء بالقيروان والقاهرة وما كان لهم من الدولة من المشرق والمغرب

أصل هؤلاء العبيديين من الشيعة الإمامية، وقد تقدم لنا حكاية مذهبهم والبراءة من الشيخين ومن سائرالصحابة، لعدولهم عن بيعة علي إلى غيره مع وصية النبي ﷺ له بالإمامة بزعمهم، وبهذا امتازوا عن سائر الشيعة.

وإلا فالشيعة كلهم مطبقون على تفضيل علي ولم يقدح ذلك عند الزيدية في إمامة أبي بكر لقولهم بجواز إمامة المفضول مع الأفضل، ولا عند الكيسانية لأنهم لم يدعوا هذه الوصية، فلم يكن عندهم قادح فيمن خالفها، وهذه الوصية لم تعرف لأحد من أهل النقل، وهي من موضوعات الإمامية، وقد يسمون رافضة، قالوا: لأنه لما خرج زيد الشهيد بالكوفة واختلف عليه الشيعة ناظروه في أمر الشيخين وأنهم ظلموا علياً فنكر ذلك عليهم فقالوا له: وأنت أيضاً فلم يظلمك أحد، ولا حق لك في الأمر، وانصرفوا عنه ورفضوه فسموا رافضة، وسمي أتباعه زيدية.

ثم صارت الإمامة من علي إلى الحسن ثم الحسين، ثم ابنه علي زين العابدين، ثم ابنه محمد الباقر، ثم ابنه جعفر الصادق، كل هؤلاء بالوصية، وهم ستة أئمة لم يخالف أحد من الرافضة في إمامتهم، ثم افترقوا من ههنا فرقتين وهم الاثنا عشرية والإسماعيلية.

واختص الاثنا عشرية باسم الإمامية لهذا العهد، ومذهبهم

أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم، وخرج دعاته بعد موت أبيه فحمله هارون من المدينة وحبسه عند عيسى بن جعفر، ثم أشخصه إلى بغداد وحبسه عند ابن شاهك.

ويقال أن يحيى بن خالد سمه في رطب فقتله، وتوفي سنة ثلاث وثمانين ومائة، وزعم شيعتهم أن الإمام بعده ابنه علي الرضا وكان عظيما في بني هاشم، وكانت له مع المأمون صحبة، وعهد له بالأمر من بعده سنة إحدى ومائتين عند ظهور الدعاة للطالبيين وخروجهم في كل ناحية.

وكان المأمون يومئذ بخراسان لم يدخل العراق بعد مقتل أخيه الأمين فنكر ذلك عليه شيعة العباسيين وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي ببغداد، فارتحل المأمون إلى العراق وعلي الرضا معه، فهلك علي في طريقه سنة ثلاث ومائتين ودفن بطوس، ويقال: إن المأمون سمه.

ويحكى أنه دخل عليه يعوده في مرضه فقال له: أوصني فقال له علي: إياك أن تعطي شيئاً وتندم عليه، ولا يصح ذلك لنزاهة المأمون عن إراقة الدماء بالباطل سيما دماء أهل البيت ثم زعم شيعتهم أن الأمر من بعد علي الرضا لابنه محمد التقي وكان له من المأمون مكان، وأصهر إليه في ابنته، فأنكحه المأمون إياها سنة خمس ومائتين.

ثم هلك سنة عشرين ومائتين ودفن بمقابر قريش وتزعم الاثنا عشرية أن الإمام بعده ابنه علي ويلقبونه الهادي، ويقال: الجواد، ومات سنة أربع وخمسين ومائتين وقبره بقم، وزعم ابن سعيد أن المقتدر سمه.

ويزعمون أن الإمام بعده ابنه الحسن، ويلقب العسكري لأنه ولد بسرّ من رأى، وكانت تسمى العسكر، وحبس بها بعد أبيه إلى أن هلك سنة ستين ومائتين، ودفن إلى جنب أبيه في المشهد وترك حملاً ولد منه ابنه محمد فاعتقل، ويقال: دخل مع أمه في السرداب بدار أبيه وفقد، فزعمت شيعتهم أنه الإمام بعد أبيه، ولقبوه المهدي والحجة، وزعموا أنه حي لم يمت وهم الآن ينتظرونه، ووقفوا عند هذا الانتظار، وهو الثاني عشر من ولد علي ولذلك سميت شيعته الاثني عشرية.

وهذا المذهب في المدينة والكرخ والشام والحلة والعراق، وهم حتى الآن على ما بلغنا يصلون المغرب، فإذا قضوا الصلاة قدموا مركباً إلى دار السرداب بجهازه وحليته ونادوا بأصوات متوسطة، أيها الإمام أخرج إلينا فإن الناس منتظرون، والخلق حائرون، والظلم عام، والحق مفقود فاخرج إلينا فتقرب الرحمة من اللّه آثارك ويكرّرون ذلك إلى أن تبدو النجوم، ثم ينصرفون إلى الليلة القابلة هكذا دأبهم.

وهؤلاء من الجهل بحيث ينتظرون من يقطع بموته مع طول الأمد، لكن التعصب حملهم على ذلك وربما يحتجون لذلك بقصة الخضر والأخرى أيضاً باطلة، والصحيح أن الخضر قد مات.

وأما الإسماعيلية فزعموا أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل، وتوفي قبل أبيه، وكان أبو جعفر المنصور طلبه فشهد له عامل المدينة بأنه مات.

وفائدة النص عندهم على إسماعيل وإن كان مات قبل أبيه بقاء الإمامة في ولده كما نص موسى على هارون صلوات اللّه عليهما ومات قبله.

والنص عندهم لا مرجع وراءه، لأن البداء على اللّه محال.

ويقولون في ابنه محمد أنه السابع التام من الأئمة الظاهرين، وهو أول الأئمة المستورين عندهم الذين يستترون ويظهرون الدعاة، وعددهم ثلاثة ولن تخلوا الأرض منهم عن إمام، إما ظاهر بذاته أو مستور، فلا بد من ظهور حجته ودعاته.

والأئمة يدور عددها عندهم على سبعة عدد الأسبوع، والسماوات والكواكب، والنقباء تدور عندهم على اثني عشر.

وهم يغلّطون الأئمة المستورين عندهم محمد بن إسماعيل وهو محمد المكتوم، ثم ابنه جعفر المصدّق، ثم ابنه محمد الحبيب ثم ابنه عبد اللّه المهدي صاحب الدولة بإفريقية والمغرب التي قام بها أبو عبد اللّه الشيعي بكتامة.

وكان من هؤلاء الإسماعيلية القرامطة، واستقرت لهم دولة بالبحرين في أبي سعيد الجنابي وبنيه أبي القاسم الحسين بن فروخ بن حوشب الكوفي داعي اليمن لمحمد الحبيب، ثم ابنه عبد اللّه ويسمى بالمنصور، وكان من الاثني عشرية أولاً فلما بطل ما في أيديهم رجع إلى رأي الإسماعيلية وبعث محمد الحبيب أبو عبد اللّه إلى اليمن داعية له، فلما بلغه عن محمد بن يعفر ملك صنعاء أنه أظهر التوبة والنسك، وتخلى عن الملك فقدم اليمن ووجد بها شيعة يعرفون ببني موسى في عدن لاعة.

وكان عليّ بن الفضل من أهل اليمن ومن كبار الشيعة، وطاهر بن حوشب على أمره، وكتب له الإمام محمد بالعهد لعبد اللّه ابنه، وأذن له في الحرب فقام بدعوته وبثها في اليمن وجيش الجيوش، وفتح المدائن وملك صنعاء، وأخرج منها بني يعفر، وفرّق الدعاة في اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب، وكان يظهر الدعوة للرضا من آل محمد، وكان من دعاته

أبو عبد اللّه الشيعي صاحب كتامة ومن عنده سار إلى إفريقية فوجد في كتامة من الباطنية خلقاً كثيراً، وكان هذا المذهب هنالك من لدن الدعاة الذين بعثهم جعفر الصادق إلى المغرب.

أقاموا بإفريقية وبثوا فيها الدعوة، وتناقله من البرابرة أمم وكان أكثرهم من كتامة فلما جاء أبو عبد اللّه الشيعي داعية المهدي ووجد هذا المذهب في كتامة فقام على تعليمه وبثه وإحيائه حتى تمّ الأمر وبويع لعبد اللّه كما نذكر الآن في أخبارهم.

ابتداء دولة العبيديين

وأولهم عبيد اللّه المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد المكتوم بن جعفر الصادق.

ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم وبالمحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر بالطعن في نسبهم، وشهد فيه أعلام الأئمة.

وقد مر ذكرهم فإن كتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة يغريهم بالقبض عليه لما سار إلى المغرب شاهد بصحة نسبهم، وشعر الشريف الرضي مسجل بذلك، والذين شهدوا في المحضر فشهادتهم على السماع وهي ما علمت وقد كان نسبهم ببغداد منكراً عند أعدائهم شيعة بني العباس منذ مائة سنة فتلّون الناس بمذهب أهل الدولة، وجاءت شهادة عليه مع أنها شهادة على النفي، مع أن طبيعة الوجود في الانقياد إليهم، وظهور كلمتهم حتى في مكة والمدينة أدلّ شيء على صحة نسبهم.

وأما من يجعل نسبهم في اليهودية والنصرانية ليعمون القدح وغيره فكفاه ذلك إثماً وسفسفة.

وكان شيعة هؤلاء العبيديين بالمشرق واليمن وإفريقية.

وكان أصل ظهورهم بإفريقية دخول الحلواني وأبي سفيان من شيعتهم إليها أنفذهما جعفر الصادق، وقال لهما: بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر فنزل أحدهما ببلد مراغة، والآخر ببلد سوف جمار وكلاهما من أرض كتامة ففشت هذه الدعوة في تلك النواحي، وكان محمد الحبيب ينزل سلمية من أرض حمص وكان شيعتهم يتعاهدونه بالزيارة إذا زاروا قبر الحسين، فجاء محمد بن الفضل من عدن لاعة من اليمن لزيارة محمد الحبيب، فبعث معه رستم بن الحسن بن حوشب من أصحابه لإقامة دعوته باليمن، وأن المهدي خارج في هذا الوقت فسار وأظهر الدعوة للمهدي من آل محمد بنعوته المعروفة عندهم، واستولى على أكثر اليمن، وتسمى بالمنصور وابتنى حصناً بجبل لاعة.

وملك صنعاء من بني يعفر وفرّق الدعاة في اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب.

وكان أبو عبد اللّه الحسين بن محمد بن زكريا المعروف بالمحتسب، وكان محتسباً بالبصرة، وقيل: إنما المحتسب أخوه أبو العباس المخطوم وأبو عبد اللّه هذا يعرف بالمعلّم لأنه كان يعلّم مذهب الإمامية، فاتصل أبو عبد اللّه بمحمد الحبيب، ورأى ما فيه من الأهلية فأرسله الى ابن حوشب باليمن ليأخذ عنه، ثم يذهب إلى المغرب يقصد بلد كتامة فيظهر بينهم الدعوة.

فجاء أبو عبد اللّه إلى ابن حوشب ولزمه وشهد مجالسه وأفاد علمه.

ثم خرج مع حاج اليمن إلى مكة فلقي بالموسم رجالات كتامة ورؤساءهم، وفيهم من لقي الحلواني وابن بكار وأخذوا عنهما فقصدهم أبو عبد اللّه في رحالهم، وكان منهم موسى بن حريث كبير بني سكان من جملة أحد شعوبهم وأبو القاسم الورنجومي من أحلافهم، ومسعود بن عيسى بن ملال المساكتي، وموسى بن تكاد، فجلس إليهم وسمعوا منه مذاهبهم ورأوا ما هو عليه من العبادة والزهد فعلق بقلوبهم، وصار يتعهدهم في رحالهم فاغتبطوا به واغتبط بهم.

ولما أرادوا الرحلة إلى بلادهم سألوه الصحبة فوافقهم طاوياً وجه مذهبه عنهم، بعد أن سألهم عن قومهم وعصابتهم وبلادهم وملكة السلطان فيهم فكشفوا له علم ذلك، وأنهم إنما يعطون السلطان طاعة معروفة فاستيقن تمام أمره فيهم، وخرج معهم إلى المغرب وسلكوا طريق الصحراء، وعدلوا عن القيروان إلى أن وصلوا بلد سومانة، وبها محمد بن حمدون بن سماك الأندلسي من بجاية الأندلس نزيلاً عندهم، وكان قد أدرك الحلواني وأخذ عنه.

فنزل أبو عبد اللّه الشيعي عليه فأكرمه، وفاوضه وتفرّس ابن حمدون فيه أنه صاحب الدولة.

ثم ارتحلوا وصحبهم ابن حمدون، ودخلوا بلد كتامة منتصف ربيع سنة ثمان وثمانين ومائتين فنزل على موسى بن حريث ببلده أنكجان في بلد بني سكتان من جبيلة، وعين له مكان منزله بفجّ الأخيار، وأن النص عنده من المهدي بذلك وبهجرة المهدي وأن أنصار الأخيار من أهل زمانه وأن اسمهم مشتق من الكتمان.

واجتمع إليه الكثير من أهل كتامة ولقي علماءهم واشتمل عليه الكثير من أهوائهم فجاهر بمذهبه، وأعلن بإمامة أهل البيت، ودعا للرضا من آل محمد واتبعه أكثر كتامة، وكانوا يسمونه بأبي عبد اللّه الشيعي والمشرقي.

ويلغ خبره إلى أمير إفريقية إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فبعث إليه بالتهديد والوعيد، فأساء الرد عليه، وخاف رؤساء كتامة عادية بن الأغلب، وأغراهم عمال بلادهم بالشيعي مثل موسى بن عياش صاحت مسيلة، وعلي بن حفص بن عسلوجة صاحب سريف.

وجاء ابن تميم صاحب يلزمة، فاجتمعوا وتفاوضوا في شأنه، وحضر يحيى المساكتي وكان يدعى بالأمير ومهدي بن أبي كمارة رئيس لهيعة، وفرج بن حيران رئيس أجانة، وثمل بن بحل رئيس لطانة.

وراسلوا بيان بن صقلان رئيس بني سكتان، وأبو عبد اللّه الشيعي عندهم بجبل ايكجان في أن يسلمه إليهم أو يخرجه من بلدهم، وحذروه عاقبة أمره فرد أمره إلى أهل العلم، فجاؤوا بالعلماء وهموا باغتياله فلم يتم لهم ذلك، وأطبقت بجيلة على مظاهرته فهزموا هؤلاء المثيرين عليه وردوهم خائبين.

ثم راجعوا بيات بن صقلاب في أمره ولاطفوه حتى صفا إليهم، وشعر بذلك أبو عبد اللّه الشيعي وأصحابه، فبعثوا إلى الحسن بن هارون الغساني يسألونه الهجرة إليهم، فأجابهم ولحق ببلدة تازروت من بلادهم.

واجتمعت غسان لنصرته مع بطون كتامة الذين بايعوه من قبل، فاعتز وامتنع وعظم أمره.

ثم انتقض على الحسن بن هارون أخوه محمد منافسة له في الرياسة، وكان صديقاً لمهدي بن أبي كمارة فداخله في التثريب على أبي عبد اللّه، وعظمت الفتنة بين لهيعة وغسان، وولى أبو عبد اللّه الشيعي الحسن بن هارون على حروبه، وظهر بعد أن كان مختفياً.

وكان لمهدي بن أبي كمارة شيخ لهيعة أخ اسمه أبو مديني، وكان من أحباب أبي عبد اللّه فقتل أخاه مهدياً ورأس على لهيعة مكانه، فصاروا جميعاً إلى ولاية أبي عبد اللّه وأبي مديني شيخهم.

ثم تجمعت كتامة لحرب الشيعي وأصحابه، ونازلوه بمكانه من تازروت، وبعث الشيعي سهل بن فوكاش إلى فحل بن نوح رئيس لطانة، وكان صهره لينجد له عن حربهم، في السلم، فمشى إلى كتامة، وأبوا إلا أن يناجزوهم الحرب، فغلبهم أبو عبد اللّه وأصحابه، وانهزمت كتامة وأبلى عروبة بن يوسف الملوشي في ذلك اليوم بلاء حسناً، واجتمعت إلى أبي عبد اللّه غسان كلها ويلزمة ولهيعة وعامة بجاية ورئيسهم يومئذ ماكنون بن ضبارة وأبو زاكي تمام بن معارك.

ولحق بجيلة من بجاية فرج بن خيران، ويوسف بن محمد من لطانة، وفحل بن نوح، واستقام أمر الباقي للشيعي وجمع فتح بن يحيى من أطاعه من قومه مسالمة لحرب الشيعي، فسار إليهم وأوقع بهم، ولحق فلهم بسطيف.

ثم استأمنوا إليه فأمنهم ودخلوا في أمره، وولى منهم هارون بن يونس على حروبه، ولحق رئيسهم فتح بن يحيى بعجيسة، وجمع ثانية لحربه الشيعي فسار إليه ومعه جموع كتامة، وتحصن منه فتحٌ ببعض قلاعهم فحاصره الشيعي وفتحها، واجتمعت إليه عجيسة وزواوة وجميع قبائل كتامة، ورجع إلى تازروت وبث دعاته في كل ناحية فدخل الناس في أمره طوعاً وكرهاً.

ولحق فتح بن يحيى بالأمير إبراهيم بن أحمد بتونس، واستحثه لحرب الشيعي.

ثم فتح أبو عبد اللّه مساكتة بمداخلة بعض أهلها، وقتل صاحبها موسى بن عياش وولى عليها ماكنون بن ضبارة الجايي وهو أبو يوسف، ولحق إبراهيم بن موسى بن عياش بأبي العباس إبراهيم بن الأغلب بتونس بعد خروج أبيه إلى صقلية.

وكان فتح بن يحيى المساكتي قد نزع إليه من قبل ذلك، ووعده المظاهرة فجهز العساكر، وعقد عليها لابنه أبي خوال، وزحف من تونس سنة تسع وثمانين فدوخ كتامة، ثم صمد إلى تازروت فلقيه أبو عبد اللّه الشيعي في جموعه ببلد ملوسة فهزمهم أبو خوال، وفر الشيعي من قصر تازروت إلى ايكجان فامتنع بها، فهدم أبو خوال القصر واتبعه، وتوغل أبو خوال في بلاد كتامة فاضطرب أمره، وتوقع البيات.

وسار إبراهيم بن موسى بن عياش من عسكر أبي خوال إلى نواحي مسيلة يتجسس الأخبار فتواقع مع طائفة من أصحاب الشيعي فهزموه واتبعوه إلى المعسكر فاضطرب، وأجفل أبو خوال وخرج من بلاد كتامة، واستوطن أبو عبد اللّه إيكجان وبنى بها بلداً وسماها دار الهجرة، واستبصر الناس في أمره ودخلوا في دعوته.

ثم هلك الحسن بن هارون، وجهز أبو العباس العساكر ثانية مع ابنه أبي خوال ورده لحرب الشيعي وكتامة فسار في بلادهم، ورجع منهزماً وأقام قريباً منهم يدافعهم، ويمنعهم من

التقدم.

وفي خلال ذلك هلك إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وقتل ابنه أبو العباس، وقام بالأمر ابنه زيادة اللّه فاستدعى أخاه أبا خوال وقتله، وانتقل من تونس إلى رقادة، وانهمك في لذاته، وانتشرت جيوش الشيعي في البلاد، وعلا أمره وبشرهم بأن المهدي قرب ظهوره فكان كما قال.

وصول المهدي الى المغرب واعتقاله بسجلماسة ثم خروجه من الاعتقال وبيعته

ولما توفي محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن إسماعيل الإمام، عهد إلى ابنه عبيداللّه وقال له: أنت المهدي وتهاجر بعدي هجرة بعيدة، وتلقى محناً شديدة.

واتصل خبره بسائر دعاته في إفريقية واليمن، وبعث إليه أبو عبد اللّه رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح اللّه عليهم، وأنهم في انتظاره.

وشاع خبره واتصل بالعباسيين، فطلبه المكتفي ففر من أرض الشام الى العراق، ثم لحق بمصر ومعه ابنه أبو القاسم غلاماً حدثاً وخاصته ومواليه، بعد أن كان أراد قصد اليمن فبلغه ما أحدث بها علي بن الفضل من بعد ابن حوشب، وأنه أساء السيرة فثنى عن ذلك، واعتزم على اللحاق بأبي عبد اللّه الشيعي بالمغرب فارتحل من مصر إلى الإسكندرية، ثم خرج من الإسكندرية في زي التجار.

وجاء كتاب المكتفي إلى عامل مصر وهو يومئذ عيسى النوشري يخبرهم، والقعود لهم بالمراصد، وكتب نعته وحليته فسرح في طلبهم حتى وقف عليهم، وامتحن أحوالهم فلم يقف على اليقين في شيء منها فخلى سبيلهم.

وجد المهدي في السير وكان له كتب في الملاحم منقولة عن أبائه سرقت من رحله في طريقه، فيقال: إن ابنه أبا القاسم استردها من برقة حين زحف إلى مصر، ولما انتهى إلى طرابلس وفارقه التجار أهل الرفقة بعث معهم أبا العباس أخا أبي عبد اللّه الشيعي إلى أخيه بكتامة، ومر بالقيروان وقد سبق خبرهم إلى زيادة اللّه، وهو يسأل عنهم فقبض على أبي العباس وساء له فأنكر فحبسه.

وكتب إلى عامل طرابلس بالقبض على المهدي ففاته وسار إلى قسطنطينة.

ثم عدل عنها خشية على أبي العباس أخي الشيعي المعتقل بالقيروان فذهب إلى سجلماسة وبها اليسع بن مدرار فأكرمه.

ثم جاء كتاب زيادة اللّه ويقال: كتاب المكتفي بأنه المهدي الذي داعيته في كتامة فحبسه اليسع، ثم أن أبا عبد اللّه الشيعي بعد مهلك أبي خوال الذي كان مضايقاً لهم اجتمعت إليه سائر كتامة وزحف إلى سطيف فحاصرها مدة، وكان بها علي بن جعفر بن عسكوجة صاحبها، وأخوه أبو حبيب فملكها وكان بها أيضاً داود بن جاثة من كبار لهيعة، لحق بها فيمن لحق من وجوه كتامة فقام بها من بعد علي وأخيه.

واستأمن أهل سطيف فأمنهم أبو عبد اللّه ودخلها فهدمها، وجهز زيادة اللّه العساكر إلى كتامة مع قريبه إبراهيم بن حشيش، وكانوا أربعين ألفاً فانتهى إلى قسنطينة فأقام بها وهم متحصنون بجبلهم، ثم زحف إليهم وواقعهم عند مدينة يلزمة فانهزم إلى باغاية ولحق بالقيروان.

وكتب الشيعي بالفتح إلى المهدي مع رجال من كتامة أخفوا أنفسهم حتى وصلوا إليه وعرفوه بالخبر.

ثم زحف الشيعي إلى طبنة فحاصرها وقتل فتح بن يحيى المساكتي، ثم افتتحها على الأمان، ثم زحف إلى يلزمة فملكها عنوة.

وجهز زيادة اللّه العساكر مع هارون الطبني عامل باغاية فانتهوا إلى مدينة أزمول، وكانوا في طاعة الشيعي فهدمها هارون وقتل أهلها وزحف إليه عروبة بن يوسف من أصحاب الشيعي فهزمه وقتله.

ثم فتح الشيعي مدينة ينجبت كلها على يد يوسف الغساني ولحق عسكرها بالقيروان وشاع عن الشيعي وفاؤه بالأمان فأمنه الناس، وكثر الأرجاف بزيادة اللّه فجهز العساكر وأزاح العلل، وأنفق ما في خزائنه وذخائره، وخرج بنفسه سنة خمس وتسعين ونزل الأريس.

ثم حاد عن اللقاء وأشار عليه أصحابه بالرجوع إلى القيروان ليكون ردءاً للعساكر فرجع، وقدم على العساكر إبراهيم بن أبي الأغلب من قرابته وأمره بالمقام هنالك.

ثم زحف الشيعي إلى باغاية فهرب عاملها وملكها صلحاً وبعث إلى مدينة قرطاجنة فافتتحها عنوة، وقتل عاملها، وسرح عساكره في إفريقية فرددوا فيها الغارات على قبائل البربر من نفزة وغيرهم.

ثم استأمن إليه أهل تيفاش فأمنهم، واستعمل عليهم صواب بن أبي القاسم السكتاني، فجاء إبراهيم بن الأغلب

واقتحمها عليه ثم نهض الشيعي في احتفال من العساكر إلى باغاية ثم إلى سكتانة ثم إلى تَبْسّة ففتحها كلها على الأمان.

ثم إلى القصرين من قمودة فأمّن أهلها وأطاعوه، وسار يريد رقادة فخشي إبراهيم بن أبي الأغلب على زيادة الله لقلة عسكره، فنهض إلى الشيعي واعترضه في عساكره واقتتلوا، ثم تحاجزوا، ورجع الشيعي إلى إيكجان وإبراهيم إلى الأريس.

ثم سار الشيعي ثانية بعساكره إلى قسنطينة فحاصرها واقتحمها على الأمان، ثم إلى قفصة كذلك، ثم رجع إلى باغاية فأنزل بها عسكراً مع أبي مكدولة الجيلي.

ثم سار إلى إيكجان وخالفه إبراهيم إلى باغاية، وبلغ الخبر إلى الشيعي فسرح لقتاله أبا مديني بن فروخ اللّهيمي، ومعه عروبة بن يوسف الملوشي ورجاء بن أبي قنة في اثني عشر ألفاً، فقاتلوا ابن أبي الأغلب ومنعوه من باغاية فرحل عنها، واتبعوه إلى فج العرعر ورجعوا عنه.

ثم زحف أبو عبد الله الشيعي سنة ست وتسعين في مائتي ألف من العساكر إلى إبراهيم بن أبي الأغلب بالأريس.

ثم اقتتلوا أياماً ثم انهزم إبراهيم واستبيح عسكره، وفر إلى القيروان، ودخل الشيعي الأريس فاستباحها، ثم سار فنزل قمودة واتصل الخبر بزيادة الله وهو برقادة ففر إلى المشرق، ونهبت قصوره، وافترق أهل رقادة إلى القيروان وسوسة.

ولما وصل إبراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان نزل قصر الإمارة وجمع الناس وأرادهم على البيعة له على أن يعينوه بالأموال فاعتدوا وتصايحت به العامة ففر عنها، ولحق بصاحبه وبلغ أبا عبد الله الشيعي خبر فرارهم بسبيبة فقدم إلى رقادة، وقدم بين يديه عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير فساروا وأمنوا الناس، وجاء على أثرهم.

وخرج أهل رقادة والقيروان للقائه فأمنهم وأكرمهم، ودخل رقادة في رجب سنة ست وتسعين ونزل قصرها، وأطلق أخاه أبا العباس من الاعتقال ونادى بالأمان فتراجع الناس، وفر العمال فى النواحي وطلب أهل القيروان فهربوا، وقسم دور البلد على كتامة فسكنوها، وجمع أموال زيادة الله وسلاحه فأمر بحفظها وحفظ جواريه، واستأذنه الخطباء لمن يخطبون فلم يعين أحداً.

ونقش على السكة من أحد الوجهين بلغت حجة الله، ومن الآخر تفرق أعداء الله، وعلى السلاح عدة في سبيل الله، وفي وسم الخيل الملك لله.

ثم ارتحل إلى سجلماسة في طلب المهدي، واستخلف على إفريقية أخاه أبا العباس، وترك معه أبا زاكي تمام بن معارك الألجائي واهتز المغرب لخروجه، وفرت زناتة من طريقه.

ثم بعثوا إليه بالطاعة فقبلهم وأرسل إلى اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة يتلطفه فقتل الرسل وخرج للقائه.

فلما تراءى الجمعان انفض معسكره وهرب هو وأصحابه وخرج أهل البلد من الغد للشيعي وجاؤوا معه إلى محبس المهدي وابنه فأخرجهما وبايع للمهدي، ومشى للمهدي ومشى مع رؤساء القبائل بين أيديهما وهو يبكي من الفرح ويقول: هذا مولاكم حتى أنزله بالمخيم، وبعث في طلب اليسع فأدرك، وجيء به فقتل، وأقاموا بسجلماسة أربعين يوماً ثم ارتحلوا إلى إفريقية، ومروا بأيكجان، فسلم الشيعي ما كان بها من الأموال للمهدي.

ثم نزلوا رقادة في ربيع سبع وتسعين، وحضر أهل القيروان وبويع للمهدي البيعة العامة، واستقام أمره وبث دعاته في الناس فأجابوا إلا قليلاً عرض عليهم السيف، وقسم الأموال والجواري في رجال كتامة، وأقطعهم الأعمال، ودون الدواوين وجبى الأموال وبعث العمال على البلاد فبعث على طرابلس ماكنون بن ضبارة الألجائي، وعلى صقلية الحسن بن أحمد بن أبي خنزير، فسار إليها ونزل البحر، ونزل مازر في عيد الأضحى من سنة سبع وتسعين، فاستقضى إسحاق بن المنهال، وولى أخاه على كريت.

ثم أجاز البحر سنة ثمان وتسعين إلى العدوة الشمالية، ونزل بسيط قلورية من بلاد الإفرنج فأثخن فيها، ورجع إلى صقلية فأساء السيرة في أهلها فثاروا به وحبسوه، وكتبوا إلى المهدي فقبل عذرهم، وولى عليهم مكانه علي بن عمر البلوي فوصل خاتم تسع وتسعين.

مقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه

لما استقام سلطان عبيد الله المهدي بإفريقية استبد بأمره، وكفح أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس عن الاستبداد عليه، والتحكم فى أمره فعظم ذلك عليهما، وصرح أبو العباس بما في نفسه فنهاه أخوه أبو عبد الله عن ذلك فلم يصغ إليه.

ثم استماله أبو العباس لمثل رأيه فأجابه، وبلغ ذلك إلى المهدي فلم يصدقه.

ثم نهى أبا عبد الله عن مباشرة الناس، وقال: إنه مفسد للهيبة فتلطف في رده ولم يجبه إليه ففسدت النية بينهما، واستفسدوا كتامة وأغروهم به وذكروهم بما أخذه من أموال أيكجان، واستأثر

به دونهم وألقوا إليهم أن هذا ليس هو الإمام المعصوم الذي دعونا إليه، حتى بعث إلى المهدي رجل كان في كتامة يعرف بشيخ المشايخ، وقال له: جئنا بآية على أمرك فقد شككنا فيك، فقتله المهدي.

ثم عظمت استرابتهم واتفقوا على قتل المهدي، وداخلهم في ذلك أبو زاكي تمام بن معارك وغيره من قبائل كتامة.

ونمي الخبر إلى المهدي فتلطف في أمرهم وولى من داخلهم من قواد كتامة على البلاد، فبعث تمام بن معارك على طرابلس، وبعث إلى عاملها ماكنون بقتله، فقتله عند وصوله.

ثم اتهم المهدي ابن الغريم بمداخلتهم، وكان من أصحاب زيادة الله فأمر بقتله واستصفاء أمواله، وكان أكثرها لزيادة الله.

ثم إن المهدي استدعى عروبة بن يوسف، وأخاه حباسة، وأمرهما بقتل الشيعي وأخيه فوقفا لهما عند القصر، وحمل عروبة على أبي عبد الله، فقال له: لا تفعل، فقال: الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك، ثم أجهز عليهما في نصف جمادى سنة ثمان وتسعين.

ويقال: إن المهدي صلى على أبي عبد الله وترحم عليه، وعلم أن الذي حمله على ذلك إغراء أبي العباس أخيه، وثارت فتنة بسبب قتلهما من أصحابهما فركب المهدي وسكنها.

ثم ثارت فتنة أخرى بين كتامة وأهل القيروان، وفشا القتل فيهم فركب المهدي وسكنها، وكف الدعاة عن طلب التشيع من العامة وقتل جماعة من بني الأغلب برقادة لما رجعوا إليها بعد زيادة الله.

بقية أخبار المهدي بعد الشيعي

ولما استقام أمر المهدي بعد الشيعي، جعل ولاية عهده لابنه أبي القاسم نزار، وولى على برقة وما إليها حباسة بن يوسف.

وعلى المغرب أخاه عروبة، وأنزله باغاية فسار إلى تاهرت فاقتحمها، وولى عليها دواس بن صولات اللّهيص.

ثم انتقضت عليه كتامة بقتله أبا عبد الله الشيعي، ونصبوا طفلاً لقبوه المهدي، وزعموا أنه نبي وأن أبا عبد الله الشيعي لم يمت، فجهز ابنه أبا القاسم لحربهم فقاتلهم وهزمهم، وقتل الطفل الذي نصبوه وأثخن فيهم ورجع.

ثم انتقض أهل طرابلس سنة ثلاثمائة، وأخرجوا عاملهم ماكنون فبعث إليهم ابنه أبا القاسم فحاصرها طويلاً، ثم فتحها وأثخن فيهم وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار.

ثم أغزى ابنه أبا القاسم وجموعه كتامة سنة إحدى وثلاثمائة إلى الإسكندرية ومصر، وبعث أسطوله في البحر في مائتين من المراكب، وشحنها بالإمداد وعقد عليها لحباسة بن يوسف، وسارت العساكر فملكوا برقة، ثم الإسكندرية والفيوم.

وبعث المقتدر العساكر من بغداد مع سبكتكين ومؤنس الخادم فتواقعوا مرات، وأجلاهم عن مصر فرجعوا إلى المغرب، ثم عاد حباسة في العساكر في البحر سنة اثنتين وثلثمائة إلى الإسكندرية فملكها، وسار يريد مصر فجاء مؤنس الخادم من بغداد لمحاربته فتواقعوا مرات، وكان الظهور آخراً للمؤنس، وقتل من أصحابه نحو من سبعة آلاف.

وانصرف إلى المغرب فقتله المهدي وانتقض لذلك أخوه عروبة بالمغرب واجتمع إليه خلق كثير من كتامة والبربر.

وسرح إليهم المهدي مولاه غالباً في العساكر فهزمهم وقتل عروبة وبني عمه في أمم لا تحصى.

ثم انتقض أهل صقلية وتقبضوا على عاملهم علي بن عمرو، وولوا عليهم أحمد بن قهرب، فدعا للمقتدر العباسي، وذلك سنة أربع وثلاثمائة. وخلع طاعة المهدي وجهز إليه الأسطول مع الحسن بن أبي خنزير فلقيه أسطول بن قهرب فغلبه، وقتل ابن أبي خنزير.

ثم راجع أهل صقلية أمرهم وكاتبوا المهدي وثاروا بابن قهرب فخلعوه، وبعثوا به إلى المهدي فقتله على قبر ابن أبي خنزير، وولى على صقلية علي بن موسى بن أحمد، وبعث معه عساكر كتامة. ثم اعتزم المهدي على بناء مدينة على ساحل البحر يتخذها معصماً لأهل بيته لما كان يتوقعه على الدولة من الخوارج.

ويحكى عنه أنه قال: بنيتها لتعتصم بها الفواطم ساعة من نهار، وأراهم موقف صاحب الحمار بساحتها فخرج بنفسه يرتاد موضعاً لبنائها، ومر بتونس وقرطاجنة حتى وقف على مكانها جزيرة متصلة بالبر كصورة كف اتصلت بزند، فاختط المهدية بها وجعلها دار ملكه، وأدار بها سوراً محكماً وجعل لها أبواباً من الحديد وزن كل مصراع مائة قنطار، وابتدأ ببنائها آخر سنة ثلاث.

ولما ارتفع السور رمى من فوقه بسهم إلى ناحية المغرب، ونظر إلى منتهاه وقال: إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار يعني أبا يزيد.

ثم أمر أن ينحت في الجبل دار لإنشاء السفن تسعمائة سفين، ونحت في أرضها أهراء للطعام ومصانع للماء، وبنى فيها القصور والدور فكملت سنة ست، ولما فرغ منها قال: اليوم أمنت

على الفواطم.

ثم جهز ابنه أبا القاسم بالعساكر إلى مصر مرة ثانية سنة سبع وثلاثمائة فملك الإسكندرية، ثم سار فملك الجيزة والأشمونين وكثيرا من الصعيد.

وكتب إلى أهل مكة بطلب للطاعة فلم يجيبوا إليها، وبعث المقتدر مؤنساً الخادم في العساكر وكانت بينه وبين أبي القاسم عدة وقعات ظهر فيها مؤنس، وأصاب عسكر أبي القاسم الجهد من الغلاء والوباء فرجع إلى إفريقية، وكانت مراكبهم قد وصلت من المهدية إلى الإسكندرية في ثمانين أسطولاً مدداً لأبي القاسم وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامي وكانا شجاعين، وسار الأسطول من طرسوس للقائهم في خمسة وعشرين مركباً والتقوا على رشيد وظفرت مراكب طرسوس وأحرقوا وأسروا سليمان ويعقوب، فمات سليمان في حبس مصر، وهرب يعقوب من حبس بغداد إلى إفريقية.

ثم اغزى المهدي سنة ثمان وثلاثمائة مضالة بن حبوس في رجالات مكناسة إلى بلاد المغرب فأوقع بملك فاس من الأدارسة وهو يحيى بن إدريس بن إدريس بن عمرو، واستنزله عن سلطانه إلى طاعة المهدي فأعطى بها صفقته، وعقد لموسى بن أبي العافية المكناسي من رجالات قومه على أعمال المغرب ورجع.

ثم عاود غزو المغرب سنة تسع فدوخه ومهد جوانبه وأغراه قريبه عامل المغرب موسى بن أبي العافية بيحيى بن إدريس صاحب فاس، فتقبض عليه وضم فاس إلى أعمال موسى ومحا دعوة الإدريسية من المغرب، وأجهضهم عن أعماله فتحيزوا إلى بلاد الريف وغمارة واستجدوا بها ولاية كما نذكره في أخبار غمارة.

ومنهم كان بنو حمود العلويون المستولون على قرطبة عند انقراض ملك الأمويين في سنة ثلاث وأربعمائة كما نذكر هنالك.

ثم صمد مضالة إلى بلاد سجلماسة فقتل أميرها من آل مدرار المكناسيين المنحرف عن طاعة الشيعة، وعقد لابن عمه كما نذكر في أخبارهم.

وسار في أتباعه زناتة في نواحي المغرب فكانت بينه وبينهم حروب هلك مضالة فى بعضها على يد محمد بن خزر.

واضطرب المغرب فبعث المهدي ابنه أبا القاسم غازياً إلى المغرب في عساكر كتامة وأولياء الشيعة سنة خمس عشرة وثلاثمائة، ففر محمد بن خزر، وأصحابه إلى الرمال.

وفتح أبو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة وسائر الأباضية والصفرية ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط إلى ما وراءها، ثم عاج إلى الريف فافتتح بلد لكور من ساحل المغرب الأوسط، ونازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش وضيق عليه ودوخ أقطار المغرب، ورجع ولم يلق كيداً.

ومر بمكان بلد المسيلة وبها بنو كملان من هوارة، وكان يتوقع منهم الفتنة فنقلهم إلى فح القيروان، وقضى الله أن يكونوا أولياء لصاحب الحمار عند خروجه.

ولما نقلهم أمر ببناء المسيلة في بلدهم وسماها المحمدية، ودفع علي بن حمدون الأندلسي من صنائع دولتهم إلى بنائها، وعقد له عليها وعلى الزاب بعد اختطاطها فبناها وحصنها وشحنها بالأقوات، فكانت مدداً للمنصور في حصار صاحب الحمار كما يذكر.

ثم انتقض موسى بن أبي العافية عامل فاس والمغرب، وخلع طاعة الشيعة، وانحرف إلى الأموية من وراء البحر وبث دعوتهم في أقطار المغرب فنهض إليه أحمد بن بصلين المكناسي قائد المهدي وسار في العساكر فلقيه ميسور وهزمه، وأوقع به وبقومه بمكناسة، وأزعجه عن الغرب إلى الصحارى وأطراف البلاد ودوخ المغرب وثقف أطرافه ورجع ظافراً.

وفاة عبيد الله المهدي وولاية ابنه أبي القاسم

ثم توفي عبيد الله المهدي في ربيع سنة اثنتين وعشرين لأربع وعشرين سنة من خلافته، وولي ابنه أبو القاسم محمد، ويقال نزار بعده، ولقب القائم بأمر الله فعظم حزنه على أبيه حتى يقال إنه لم يركب سائر أيامه إلا مرتين، وكثر عليه الثوار.

وثار بجهات طرابلس ابن طالوت القرشي وزعم أنه ابن المهدي وحاصر طرابلس.

ثم ظهر للبربر كذبه فقتلوه، ثم أغزى المغرب وملكه، وولى على فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذابي، وحاصر الأدارسة ملوك الريف وغوارة فنهض ميسور الخصي من القيروان في العساكر، ودخل المغرب وحاصر فاس، واستنزل عاملها أحمد بن بكر.

ثم نهض في اتباع موسى فكانت بينهما حروب، وأخذ الثوري بن موسى في بعضها أسيراً وأجلاه ميسور عن المغرب، وظاهره عليه الأدارسة الذين بالريف، وانقلب ميسور إلى القيروان

سنة أربع وعشرين، وعقد للقاسم بن محمد كبير أدارسة الريف من ولد محمد بن إدريس على أعمال ابن أبي العافية وما يفتحه من البلاد، فملك المغرب كلها ما عدا فاس، وأقام دعوة الشيعة بسائر أعماله.

ثم جهز أبو القاسم أسطولاً ضخماً لغزو ساحل الإفرنجة وعقد عليه ليقرب ابن اسحاق فأثخن في بلاد الإفرنجة، وسبى ونازل بلد جنوة وافتتحها، وعظم صنع الله في شأنها، ومروا بسردانية من جزر الفرنج فأثخنوا فيها.

ثم مروا بقرقيسا من سواحل الشام فأحرقوا مراكبها.

ثم بعث عسكراً إلى مصر مع خادمه زيران فملكوا الإسكندرية، وجاءت عساكر الإخشيد من مصر فازعجوهم عنها ورجعوا إلى المغرب.

أخبار أبي يزيد الخارجي

وهو أبو يزيد مخلد بن كيراد، وكان أبوه كيراد من أهل قسطيلة من مدائن بلد توزر، وكان يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة وبها ولد ولده أبو يزيد ونشأ بتوزر. وتعلم القرآن وخالط النكارية من الخوارج وهم الصفرية، فمال إلى مذهبهم وأخذ به ثم سافر إلى تاهرت وأقام فيها يعلم الصبيان. ولم صار الشيعي إلى سجلماسة في طلب المهدي انتقل هو إلى تقيوس، وأقام يعلم فيها.

وكان يذهب إلى تكبير أهل ملته، واستباحة الأموال والدماء والخروج على السلطان.

ثم أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر بسنة ست عشرة وثلاثمائة فكثر أتباعه. ولما مات المهدي خرج بناحية جبل أوراس، وركب الحمار وتلقب بشيخ المؤمنين، ودعا للناصر صاحب الأندلس من بني أمية فاتبعه أمم من البربر.

وزحف إليه عامل باغاية فلقيه في جموع البربر وهزمه، وزحف إلى باغاية فحاصرها، ثم انهزم عنها، وكتب إلى بني واسى من قبائل زناتة بضواحي قسطنينة يأمرهم بحصارها فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين.

ثم فتح تبسة صلحاً، ومجانة كذلك، وأهدى له رجل من أهل مرماجنة حماراً أشهب فكان يركبه وبه لقب، وكان يلبس جبة صوف قصيرة ضيقة الكمين.

وكان عسكر الكتاميين على الأريس فانفضوا، وملكها أبو يزيد وأحرقها ونهبها وقتل في الجامع من لجأ إليه، وبعث عسكراً إلى سبيبة ففتحها وقتل عاملها.

وبلغ الخبر إلى القاسم فقال: لابد أن يبلغ المصلى من المهدية. ثم جهز العساكر وبعثها إلى رقادة والقيروان، وبعث خادمه ميسوراً الخصي لحربه.

وبعث عسكراً مع خادمه بشرى إلى باجة فنهض إليه أبو يزيد وهزمه إلى تونس، ودخل أبو يزيد باجة فنهبها وأحرقها، وقتل الأطفال وسبى النساء، واجتمع إليه قبائل البربر، واتخذ الأبنية والبيوت وآلات الحرب، وبعث إليه بشرى عسكراً من تونس، وبعث أبو يزيد للقائهم عسكراً آخر فانهزم أصحاب أبي يزيد وظفر أصحاب بشرى.

ثم ثار أهل تونس ببشرى فهرب فاستأمنوا لأبي يزيد فأمنهم وولى عليهم، وسار إلى القيروان وبعث القائم خديمه بشرى للقائه.

وامره أن يبعث من يتجسس عن أخباره فبعث طائفة، وبعث أبو يزيد طائفة أخرى فانهزم عسكر أبي يزيد وقتل منهم أربعة آلاف، وجيء بأسراهم إلى المهدية فقتلوا، فسار أبو يزيد إلى قتال الكتاميين فهزم طلائعهم وأتبعهم إلى القيروان، ونزل على رقادة في مائتي ألف مقاتل، وعاملها يومئذ خليل بن إسحاق وهو ينتظر وصول ميسور بالعساكر، ثم ضايقه أبو يزيد وأغراه الناس بالخروج فخرج، وهزمه أبو يزيد فمضى إلى القيروان.

ودخل أبو يزيد رقادة فعاث فيها وبعث أيوب الزويلي في عسكر إلى القيروان فملكها في صفر سنة ثلاث وثلاثين، ونهبها وأمن خليلاً فقتله أبو يزيد، وخرج إليه شيوخ أهل القيروان فأمنهم ورفع النهب عنهم، وزحف ميسور إلى أبي يزيد، وكان معه أبو كملان فكاتبوا أبا يزيد وداخلوه في الغدر بميسور، وكتب إليه القائم بذلك فحذرهم فطردهم عنه، ولحقوا بأبي يزيد وساروا معه إلى ميسور فانهزم ميسور، وقتله بنو كملان وجاؤوا برأسه فأطافه بالقيروان، وبعث بالبشرى إلى البلاد.

وبلغت هزيمة ميسور إلى القائم بالمهدية فاستعد للحصار، وأمر بحفر الخنادق، وأقام أبو يزيد سبعين يوماً في مخيم ميسور وبث السرايا في كل ناحية يغنمون ويعودون، وأرسل سرية إلى سوسة ففتحوها عنوة واستباحوها، وخرب عمران إفريقية من سائر الضواحي ولحق فلهم بالقيروان حفاة عراة، ومات أكثرهم جوعاً وعطشاً.

ثم بعث القائم إلى رؤساء كتامة والقبائل وإلى زيري بن مناد ملك صنهاجة بالمسير إلى المهدية فتأهبوا لذلك، وسمع أبو يزيد

بخبرهم فنزل على خمسة فراسخ من المهدية، وبث السرايا في جهاتها، وسمع كتامة بافتراق عسكره في الغارة فخرجوا لبياته آخر جمادى الأولى، وكان ابنه فضل قد جاء بالمدد من القيروان فبعثه للقاء كتامة، وركب في أثرهم ولقي أصحابه منهزمين.

ولما رآه الكتاميون انهزموا بغير قتال واتبعهم أبو يزيد إلى باب المهدية ورجع.

ثم جاء بعد أيام لقتالهم فوقف على الخندق المحدث، وعليه جماعة من العبيد فقاتلهم ساعة وهزمهم، وجاوز السور إلى البحر ووصل المصلى على رمية سهم من البلد، والبربر يقاتلون من الجانب الآخر.

ثم حمل الكتاميون عليهم فهزموهم وبلغ ذلك أبا يزيد، وسمع بوصول زيري بن مناد فاعتزم أن يمر بباب المهدية ويأتي زيري وكتامة من ورائهم فقاتلوا أهل الأرباض، ومالوا عليه لما عرفوه ليقتلوه، وتخلص بعد الجهد ووصل إلى منزله فوجدهم يقاتلون العبيد كما تركهم فقوي أصحابه وانهزم العبيد.

ثم رحل وتأخر قليلاً وحفر على معسكره خندقاً واجتمع عليه خلق عظيم من البربر ونفوسة والزاب وأقاصي المغرب، وضيق على أهل المرية ثم زحف إليها آخر جمادى فقاتلهم وتورط في قتالها يومه ذلك.

ثم خلص وكتب إلى عامل القيروان أن يبعث إليه مقاتلتها، فجاؤوا وزحف بهم آخر رجب فانهزم، وقتل من أصحابه.

ثم زحف الزحف الرابع آخر شوال ولم يظفر، ورجع إلى معسكره واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الميتات والدواب، وافترق أهلها في النواحي، ولم يبق بها إلا الجند وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدها المهدي وفرقها فيهم.

ثم اجتمعت كتامة وعسكروا بقسنطينة فبعث إليهم أبو يزيد بعثاً من ورجومة وغيرهم فهزموا كتامة ووافت أبا يزيد حشود البربر من كل ناحية وأحاط بسوسة وضيق عليها.

ثم انتقض البربر عليه بما كان منه من المجاهرة بالمحرمات والمنافسة بينهم فانفضوا عنه، ورجع إلى القيروان سنة أربع وثلاثين وغنم أهل المهدية معسكره، وكثر عبث البربر في أمصار أفريقيه وضواحيها، وثار أهل القيروان بهم، وراجعوا طاعة القائم، وجاء علي بن حمدون من المسيلة بالعساكر فبيته أيوب بن أبي يزيد وهزمه، وسار إلى تونس وجاءت عساكر القائم فواقعوه مرات وانهزم إلى القيروان في ربيع سنة أربع وثلاثين.

فبعث أيوب ثانية لقتال علي بن حمدون ببلطة وكانت حروبه معه سجالاً إلى أن اقتحم عليه البلد بمداخلة بعض أهلها.

ولحق ابن حمدون ببلاد كتامة واجتمعت قبائل كتامة ونفزة ومزاتة وعسكروا بقسنطينة.

وبعث ابن حمدون العساكر إلى هوارة فأوقعوا بهم، وجاءهم مدد أبي يزيد فلم يغن عنهم.

وملك ابن حمدون مدينة يتجست وباغاية.

ثم زحف أبو يزيد إلى سوسة في جمادى الآخرة من سنته وبها عسكر القائم، وتوفي القائم وهو بمكانه من حصارها.

وفاة القائم وولاية ابنه المنصور

ثم توفي القائم أبوالقاسم محمد بن عبيد الله المهدي صاحب إفريقية، بعد أن عهد إلى ولده إسماعيل بعده وتلقب بالمنصور، وكتم موت أبيه حذراً أن يطلع عليه أبو يزيد وهو بمكانه من حصار سوسة، فلم يسم بالخليفة ولا غيرالسكة ولا الخطبة ولا البنود إلى أن فرغ من أمر أبي يزيد كما يذكر.

بقية أخبار أبي يزيد ومقتله

ولما مات القائم كان أبو يزيد محاصراً لسوسة كما تقدم، وقد جهد أهلها الحصار، فلما ولي إسماعيل المنصور وكان أول عمله أن بعث الأساطيل من المهدية إلى سوسة مشحونة بالمدد من المقاتلة والأمتعة والميرة مع رشيق الكاتب ويعقوب بن إسحاق، وخرج بنفسه في أثرهم، وأشار أصحابه بالرجوع فرجع ووصل الأسطول إلى سوسة، وخرجوا لقتال أبي يزيد وعساكر سوسة معهم فانهزم أبو يزيد، واستبيح معسكره نهباً وإحراقاً، ولحق بالقيروان فمنعه أهلها من الدخول وثاروا بعامله فخرج إليه، ورحل إلى سبيبة وذلك أواخر شوال سنه أربع.

وجاء المنصور إلى القيروان وأمن أهلها وأبقى على حرم أبي يزيد وأولاده، وأجرى عليهم الرزق، وخرجت سرية من عسكر المنصور لاستكشاف خبر أبي يزيد وجاءت أخرى من معسكر أبي يزيد لمثل ذلك فالتقوا وانهزمت سرية المنصور، فقوي أبو يزيد بذلك وكثر جمعه، وعاد فقاتل القيروان وخندق المنصور على عسكره، وقاتلهم أبو يزيد فكان الظفر أول يوم للمنصور، ثم قاتلهم ثانياً فانهزموا وثبت المنصور وراجع أصحابه من طريق المهدية وسوسة.

ولما رأى أبو يزيد امتناعهم عليه رحل أواخر ذي القعدة،

ثم رجع فقاتلهم وكانت الحرب سجالاً، وبعث السرايا إلى طريق المهدية وسوسة نكاية فيهم، وبعث إلى المنصور في حرمه وأولاده فبعثهم إليه بعد أن وصلهم.

وقد كان أقسم على الرحيل، فلما وصلوا إليه نكث وقاتلهم خامس المحرم سنة خمس وثلاثين فهزمهم.

ثم عبى المنصور عساكره منتصف المحرم وجعل البرابر في الميمنة وكتامة في الميسرة، وهو وأصحابه في القلب.

وحمل أبو يزيد على الميمنة فهزمها ثم على القلب فلقيه المنصور واشتد القتال.

ثم حملوا عليه حملة رجل واحد فانهزم وأسلم أثقاله وعسكره وقتل خلق من أصحابه وبلغت رؤوس القتلى الذي في أيدي صبيان القيروان عشرة آلاف، ومضى أبو يزيد لوجهه، ومر بباغاية فمنعه أهلها من الدخول فأقام يحاصرها، ورحل المنصور في ربيع الأول لاتباعه، واستخلف على المهدية مراماً الصقلي وأدركه على باغاية فأجفل المنصور في اتباعه.

وكلما قصد حصناً سبقه المنصور إليه إلى أن نزل المنصور طبنة فجاءته رسل محمد بن خزر أمير مغراوة من أصحاب أبي يزيد ومواطنه بالغرب الأوسط فاستأمن للمنصور فأمنه، وأمره بطلب أبي يزيد.

ووصل أبو يزيد إلى بني برزال وكانوا نكارية، وبلغه خبر المنصور في اتباعه فسلك الرملة.

ثم عاد نواحي غمرة فصادف المنصور وقاتله فانهزم أبو يزيد إلى جبل سالات، والمنصور في أثره في جبال وأوعار ومضايق تفضي إلى القفر، وأصابهم الجهد وعلم أنه ليس أمامه إلا المفازة إلى بلاد السودان فرجع إلى غمرت من بلاد صنهاجة.

ووفد عليه هنالك زيري بن مناد أمير صنهاجة فأكرمه ووصله كما يجب له.

وجاء كتاب محمد بن خزر بالمكان الذي فيه أبو يزيد من المفازة، وأقام المنصور هنالك لمرض أصابه فرجع أبو يزيد إلى المسيلة وحاصرها.

فلما عوفي المنصور رحل أول رجب سنة خمس وثلاثين وقصده فأفرج عن المسيلة، وقصد المفازة يريد بلاد السودان فأبى عليه بنو كملان أصحابه فرجعوا إلى جبال كتامة وعجيسة فتحصنوا بها.

وجاء المنصور فنزل بساحتهم عاشر شعبان ونزل أبو يزيد فقاتلهم فانهزم وأسلم عسكره وأولاده، وطعنه بعض الفرسان فأكبه وحامى عنه أصحابه فقتل في الحومة ما يزيد على عشرة آلاف، وتخلص.

ثم سار المنصور في أثره أول رمضان ولم يقدر أحد من الفريقين على الهزيمة لضيق المكان وصعوبته.

ثم انهزم أبو يزيد لما ضرسه الحرب، وترك أثقاله وساروا إلى رؤوس الجبال يرمون بالصخر، وتزاحفوا حتى تعانقوا بالأيدي وكثر القتل.

ثم تحاجزوا وتحصن أبو يزيد بقلعة كتامة واستأمن الذين معه من هوارة فأمنهم المنصور، وحصر أبا يزيد في القلعة وقاتلها غير مرة حتى افتتحها عنوة وأضرمها ناراً، وقتل أصحاب أبي يزيد في كل ناحية وجمع أهله وأولاده في القصر، وأظلم الليل فأمر المنصور بإشعال النيران في الشعراء المحيطة بالقصر حتى أضاء الليل لتكون أحواله بمرأى منهم حذراً من فراره، حتى خرج الليل وحمل في أصحاب المنصور حملة منكرة فأفرجوا له، وأمر المنصور بطلبه فألفوه وقد حمله ثلاثة من أصحابه لأنه كان جريحاً فسقط من الوعر وارتث فحملوه إلى المنصور فسجد سجدة الشكر، وأقام عنده إلى سلخ المحرم من سنة ست وثلاثين.

ثم هلك من الجراحة التي به فأمر بسلخ جلده وحشوه تبنا واتخذ له قفصا فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه بعثاله.

ورحل إلى القيروان والمهدية ولحق ابنه فضل بمعبد بن خزر، وزحف به إلى طبنة وبسكرة.

وقصد المنصور فانهزم معبد وصعد إلى كتامة، فبعث إليه العساكر مع مَوْلَيَيْه شفيع وقيصر، ومعهما زيري بن مناد في صنهاجة، فانهزم فضل ومعبد وافترق جمعهم ورجع المنصور إلى القيروان فدخلها.

بقية أخبار المنصور

ثم انتقض حميد بن يصلبتن عامل المغرب وانحرف عن طاعة الشيعة، ودعا للأموية من وراء البحر، وزحف إلى تاهرت فحاصرها فنهض إليه المنصور في صفر سنة ست وثلاثين، وجاء إلى سوق حمزة فأقام به.

وحشد زيري بن مناد جموع صنهاجة من كل ناحية، ورحل مع المنصور فأخرج حميد عن تاهرت، وعقد عليها ليعلى بن محمد اليفرني، وعقد لزيري بن مناد على قومه وعلى سائر بلادهم.

ثم رحل لقتال لواتة فهربوا إلى الرمال، وأقام هو على وادي ميناس، وكان هنالك ثلاثة جبال كل منهم عليه قصر مبني بالحجر المنحوت، فوجد في وجه أحد هذه القصور كتابة على حجر فسيح، فأمر المنصور التراجمة بقراءته، وإذا فيه أنا سليمان السردغوس خالف أهل هذا البلد على الملك، فبعثني إليهم ففتح اللّه عليهم وبنيت هذا البناء لأذكر به.

ذكر هذه الغريبة ابن الرقيق في تاريخه.

ثم رحل المنصور إلى القيروان بعد أن خلع على زيري بن مناد وحمله ودخل المنصورية في جمادى سنة ست وثلاثين، فبلغه أن فضل بن أبي يزيد جاء إلى جبل أوراس، وداخل البربر في الثورة فخرج إليه المنصور فدخل الرمل، ورجع المنصور إلى القيروان ثم إلى المهدية، ورجع فضل بن أبي يزيد إلى باغاية وأقام يحاصرها فغدر به باطيط، وبعث برأسه الى المنصور.

ثم عقد سنة تسع وثلاثين للحسين بن علي بن أبي الحسين الكلبي على صقلية وأعمالها، وكانت لخليل بن إسحاق فصرفه الحسين واستقل بولايتها، فكان له فيها ولبنيه ملك سنذكره.

وبلغ المنصور أن ملك إفرنجة يريد غزو المسلمين فأخرج أسطوله، وشحنه بالعساكر لنظر مولاه فرج الصقلي، وأمر الحسين بن علي عامل صقلية بالخروج معه فأجازوا البحر إلى عدوة الإفرنجة، ونزلوا قلورية ولقيهم رجاء ملك الفرنجة فهزموه.

وكان فتحاً لا كفاء له، وذلك سنة أربعين وثلاثمائة، ورجع فرج بالغنائم إلى المهدية سنة اثنتين وأربعين، وكان معبد بن خزر بعد مظاهرته لفضل بن أبي يزيد لم يزل متقضاً وأولياء المنصور في طلبه حتى أخذ في بعض الوقائع، وسيق مع ابنه إلى المنصور فطيف بهما في أسواق المنصورية، ثم قتلا سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

وفاة المنصور وولاية ابنه المعز

ثم توفي المنصور إسماعيل بن القاسم سلخ رمضان سنة إحدى وأربعين لسبع سنين من خلافته، أصابه الجهد من مطر وثلج تجلد على ملاقاته، ودخل على أثره الحمام فعيت حرارته ولازمه السهر فمات.

وكان طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي قد نهاه عن الحمام فلم يقبل وولي الأمر بعده ابنه معد، ولقب المعز لدين اللّه فاستقام أمره، وخرج لجبل أوراس سنة اثنتين وأربعين، وجالت فيه عساكره واستأمن إليه بنو كملان ومليلة من هوارة، ودخلوا في طاعته فأمنهم وأحسن إليهم.

واستأمن إليه محمد بن خزر بعد مقتل أخيه معبد فأمنه ورجع إلى القيروان وترك مولاه قيصر في العساكر، وعقد له على باغاية فدوّخ البلاد وأحسن إلى الناس، وألف من كان شارداً من البربر، ورجع بهم إلى القيروان فأكرمهم المعز ووصلهم.

ثم وفد بعدهم محمد بن خزر أمير مغراوة فلقاه مبرة وتكريماً، وأقام عنده بالقيروان إلى أن هلك سنة ثمان وأربعين.

واستقدم المعز زيري بن مناد سنة ثلاث وأربعين أمير صنهاجة، فقدم من أشير فأجزل صلته ورده إلى عمله.

وبعث إلى الحسين بن علي عامل صقلية سنة أربع وأربعين أن يخرجه بأسطوله إلى ساحل المرية من بلاد الأندلس، فعاث فيه وغنم وسبى، ورجع فأخرج الناصر صاحب الأندلس أسطوله إلى سواحل إفريقية مع غالب مولاه فمنعتهم العساكر، وأقلعوا.

ثم عاودوا سنة خمس وأربعين في سبعين مركباً فأحرقوا مرسى الخزر وعاثوا في جهات سوسة، ثم في نواحي طبرنة ورجعوا.

واستقام أمر المعز في بلاد إفريقية والمغرب واتسعت إيالته، وكانت أعماله من إيفكان خلف تاهرت بثلاثة مراحل إلى زناتة التي دون مصر وعلى تاهرت وإيفكان يعلى بن محمد اليفرني، وعلى أشير وأعمالها زيري بن مناد الصنهاجي وعلى المسيلة وأعمالها، جعفر بن علي الأندلسي وعلى باغاية وأعمالها قيصر الصقلي.

وكان على فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، وعلى سجلماسة محمد بن واسول المكناسي.

ثم بلغه سنة سبع وأربعين أن يعلى بن محمد اليفرني داخل الأموية من وراء البحر، وأن أهل المغرب الأقصى نقضوا طاعة الشيعة، فأغزى جوهراً الصقلي الكاتب إلى المغرب بالعساكر، وكان على وزارته، وخرج معه جعفر بن علي صاحب المسيلة، وزيري بن مناد صاحب أشير وتلقاهم يعلى بن محمد صاحب المغرب الأوسط.

ولما ارتحل عن إيفكان وقعت هيعة في أصحاب صيلة وقيل له: إن بني يعرب أوقعوها فتقبض على يعلى وناشته سيوف كتامة لحينه، وخرب إيفكان وأسر ابنه يدو بن يعلى، وتمادوا إلى فاس ثم تجاوزوها إلى سجلماسه فأخذها، وتقبض على الشاكر لله محمد بن الفتح الذي تلقب بأمير المؤمنين من بني واسول، وولى ابن

المعتز من بني عمه مكانه ودوخ المغرب إلى البحر.

ثم رجع إلى فاس وحاصرها وواليها يومئذ أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، وقاتلها مدة فامتنعت عليه وجاءته هدايا الأمراء الأدكرنية من السوس.

ثم رحل الى سجلماسة، وبها محمد بن واسول من مكناسة وقد تلقب بأمير المؤمنين الشاكر لله، وضرب السكة باسمه تقدست عزة الله، فلما سمع بجوهر هرب، ثم أخذ أسيراً وجيء به إلى جوهر، وسار عن سجلماسة وافتتح البلاد في طريقه.

ثم عاد إلى فاس وأقام في حصارها إلى أن افتتحها عنوة على يد زيري بن مناد تسنم أسوارها ليلاً ودخلها وتقبض على أحمد بن بكر، وذلك سنة ثمان وأربعين، وولى عليها من قبله، وطرد عمال بني أمية من سائر المغرب، وانقلب إلى القيروان ظافرا عزيزاً، وضم تاهرت إلى زيري بن مناد.

وقدم بالفاطميين وبأحمد بن بكر وبمحمد بن واسول أسيرين في قفصين، ودخل بهما إلى المنصورية في يوم مشهود.

وكانت ولاية المغرب والمشرق منقسمة بين موليه قيصر ومظفر، وكانا متغلبين على دولته فقبض عليهما سنة تسع وأربعين وقتلهما.

وفي سنة خمسين كان تغلب للنصارى على جزيرة إقريطش، وكان بها أهل الأندلس من جالية الحكم بن هشام بسبب ثورة الرفض، ففر بهم إلى الإسكندرية فثاروا بها، وعبد الله بن طاهر يومئذ عامل مصر فحاصرهم بالإسكندرية حتى نزلوا على الأمان، وأن يجيزوا البحر إلى جزيرة إقريطش فعمروها ونزلوها منذ تلك الأيام، وأميرها أبو حفص البلوطي منهم، واستبد بها وورث بنوه رياسة فيها إلى أن نازلهم النصارى في هذه السنة في سبعمائة مركب، واقتحموها عليهم عنوة، وقتلوا منهم وأسروا، وبقيت في أيدي النصارى لهذا العهد والله غالب على أمره.

وافتتح صاحب صقلية سنة إحدى وخمسين قلعة طرمين، من حصون صقلية بعد حصار طويل أجهدهم فنزلوا على حكم صاحب صقلية بعد تسعة أشهر ونصف للحصار، وأسكن المسلمين بالقلعة وسماها المعزية نسبة إلى المعز صاحب إفريقية.

ثم سار صاحب صقلية بعدها وهو أحمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسن إلى حصار رمطة من قلاع صقلية فاستمدوا ملكهم صاحب القسطنطينية، فجهز لهم العساكر براً وبحراً، واستمد صاحب صقلية المعز فأمده بالعساكر مع ابنه الحسن، ووصل مدده إلى مدينة ميسنى، وساروا بجموعهم إلى رمطة، وكان على حصارها الحسن بن عمار، فحمل عسكراً على رمطة وزحف إلى عسكر الروم مستميتاً فقاتلهم فقتل أمير الروم وجماعة من البطارقة وهزموا أقبح هزيمة، واعترضهم خندق فسقطوا فيه، وأثخن المسلمون فيهم وغنموا عسكرهم.

واشتد الحصار على أهل رمطة وعدموا الأقوات فاقتحمها المسلمون عنوة، وركب فل الروم البحر يطلبون النجاة، فاتبعهم الأمير أحمد بن الحسن في أسطوله فادركهم وسبح بعض المسلمين في الماء فخرق مراكبهم وانهزموا، وبث أحمد سرايا المسلمين في مدائن الروم فغنموا منها وعاثوا فها حتى صالحوهم على الجزية، وكانت هذه الواقعة سنة أربع وخمسين وتسمى وقعة المجاز.

فتح مصر

ثم إن المعز لدين الله بلغه اضطراب أحوال مصر بعد موت كافور الأخشيدي وعظم فيها الغلاء وكثرت الفتن وشغل بغداد عنهم بما كان من الفتن بين بختيار بن معز الدولة، وعضد الدولة ابن عمه، فاعتزم المعز على المسير إلى مصر، وأخرج جوهراً الكاتب إلى المغرب لحشد كتامة، وأوعز إلى عمال برقة لحفر الآبار في طريقها، وذلك سنة خمس وخمسين، فسيره إلى مصر وخرج لتوديعه وأقام أياماً في معسكره، وسار جوهر وبلغ خبره إلى عساكر الأخشيدية بمصر فافترقوا، وكان ما يذكر في أخبارهم، وقدم جوهر منتصف شعبان من سنة ثمان وخمسين فدخلها وخطب في الجامع العتيق منه باسم المعز، وأقيمت الدعوة العلوية. وفي جمادى من سنة تسع وخمسين دخل جوهر جامع ابن طولون فصلى فيه، وأمر بزيادة «حي على خير العمل» في الآذان، فكان أول أذان أذن به في مصر.

ثم بعث إلى المعز بالهدايا وبأعيان دولة الأخشيدية فحبسهم المعز بالمهدية، وأحسن إلى القضاة والعلماء من وفدهم، وردهم إلى مصر، وشرع جوهر في بناء القاهرة واستحث المعز للقدوم على مصر.

فتح دمشق

ولما فتحت مصر، وأخذ بنو طفج هرب منهم الحسن بن عبد الله بن طفج إلى مكة ومعه جماعة من قوادهم، فلما استشعر جوهر به بعث جعفر بن فلاح الكتامي في العساكر إليه فقاتله مراراً ثم أسره ومن كان معه من القواد، وبعث بهم إلى جوهر

فبعث بهم جوهر إلى المعز بإفريقية، ودخل جعفر الرملة عنوة فاستباحها، ثم أمن من بقي وجبى الخراج وسارإلى طبرية وبها ابن ملهم وقد أقام الدعوة للمعز فتجافى عنه، وسار إلى دمشق فافتتحها عنوة وأقام بها الخطبة للمعز لأيام من المحرم سنة تسع وخمسين، وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي وكان مطاعاً فيهم، فجمع الأوباش والذعار وثار بهم في الجمعة الثانية، ولبس السواد وأعاد الخطبة للمطيع فقاتلهم جعفر بن فلاح أياماً وأولى عليهم الهزائم وعاثت جيوش المغاربة في أهل دمشق فهرب ابن أبي يعلى ليلاً من البلد وأصبحوا حيارى، وكانوا قد بعثوا الشريف الجعفري إلى جعفر في الصلح فأعاده إليهم بتسكين الناس والوعد الجميل، وأن يدخل البلد فيطوف فيه ويرجع إلى معسكره فدخل، وعاث المغاربة في البلد بالنهب فثار الناس بهم وحملوا عليهم، وقتلوا منهم وشرعوا في حفر الخنادق وتحصين البلد.

ومشى الشريف أبو القاسم في الصلح بينهم وبين جعفر بن فلاح، فتم ذلك منتصف ذي الحجة من سنة تسع وخمسين، ودخل صاحب شرطة جعفر فسكن الناس وقبض على جماعة من الأحداث وقتل منهم وحبس.

ثم قبض على الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى في المحرم من سنة ستين، وبعث به إلى مصر، واستقام ملك دمشق لجعفر بن فلاح، وكان خرج بإفريقية في سنة ثمان وخمسين أبو جعفر الزناتي واجتمعت إليه جموع من البربر والنكارية، وخرج إليه المعز بنفسه، وانتهى إلى باغاية وافترقت جموع أبي خزر وسلك الأوعار فعاد المعز وأمر بلكين بن زيري بالمسير في طلبه فسار لذلك حتى انقطع عنه خبره، ثم جاء أبو جعفر مستأمناً سنة تسع وخمسين فقبله، وأجرى عليه الرزق، وعلى أثر ذلك وصلت كتب جوهر بإقامة دعوته بمصر والشام، وباستدعائه إليها فاشتد سرور المعز بذلك، وأظهره في الناس ونطق الشعراء بامتداحه ثم زحف القرامطة إلى دمشق وعليهم ملكهم الأعصم، ولقيهم جعفر بن فلاح فظفر بهم وقتلهم.

ثم رجعوا إليه سنة إحدى وستين وبرز إليهم جعفر فهزموه وقتلوه، وملك الأعصم دمشق وسار إلى مصر وكاتب جوهر بذلك المعز فاعتزم على الرحلة إليها.

مسير المعز الى مصر ونزوله بالقاهرة

ولما انتهت هذه الأخبار إلى المعز اعتزم على المسير إلى مصر، وبدأ بالنظر في تمهيد المغرب وقطع شواغله، وكان محمد بن الحسن بن خزر المغراوي مخالفاً عليه بالمغرب الأوسط، وقد كثرت جموعه من زناتة والبربر، وكان جباراً طاغياً فأهم المعز أمره وخشي على إفريقية غائلته، فأمر بلكين بن زيري بن مناد بغزوه فغزاه في بلاده، وكانت بينهما حروب عظيمة.

ثم انهزم محمد بن خزر وجموعه، ولما أحس بالهزيمة تحامل على سيفه فقتل نفسه، وقتل في المعركه سبعة عشر من أمراء زناتة وأسر منهم كثير وذلك سنة ستين.

وسر المعز ذلك وقعد للهناء به. واستقدم بلكين بن زيري فاستخلفه على إفريقية والمغرب، وأنزله القيروان وسماه يوسف، وكناه أبا الفتوح، وولى على طرابلس عبد اللّه بن يخلف الكتامي، ولم يجعل لبلكين ولاية عليه، ولا على صاحب صقلية.

وجعل على جباية الأموال زيادة اللّه بن الغريم، وعلى الخراج عبد الجبار الخراساني، وحسين بن خلف المرصدي بنظر بلكين، وعسكر ظاهر المنصورية آخر شوال من سنة إحدى وستين، وأقام على سردانية قريباً من القيروان حتى فرغ من أعماله، ولحقته عساكره وأهل بيته وعماله، وحمل له ما كان في قصره من الأموال والأمتعة.

وارتحل بعد أربعة أشهر من مقامه وسار معه بلكين قليلاً، ثم ودعه ورده إلى عمله، وسار هو إلى طرابلس في عساكره، وهرب بعضهم إلى جبل نفوسة فامتنعوا به، وسار إلى برقة فقتل بها شاعره محمد بن هانىء الأندلسي، وجد قتيلاً بجانب البحر في آخر رجب من سنة اثنتين وستين.

ثم سار إلى الإسكندرية وبلغها في شعبان من هذه السنة، ولقيه بها أعيان مصر فأكرمهم ووصلهم، وسار فدخل القاهرة لخمس من رمضان من هذه السنة فكانت منزله ومنزل الخلفاء بعده إلى آخر دولتهم.

حروب المعز مع القرامطة واستيلاؤه على دمشق

كان للقرامطة على بني طفج بدمشق ضريبة يؤدونها إليهم، فلما ملك ابن فلاح بدعوة المعز قطع تلك الضريبة، وآسفهم بذلك فرجعوا إلى دمشق وعليهم الأعصم ملكهم، فبرز إليهم جعفر بن فلاح فهزموه وقتلوه، وملكوا دمشق وما بعدها، إلى الرملة، وهرب من كان بالرملة وتحصنوا بيافا.

وملك القرامطة الرملة وجهزوا العساكر على يافا، وساروا إلى مصر ونزلوا عين شمس وهي المعروفة لهذا العهد بالمطرية.

واجتمع إليهم خلق كثير من العرب وأولياء بني طفج، وحاصروا المغاربة بالقاهرة وقاتلوهم أياماً فكان الظفر بهم.

ثم خرج المغاربة واستماتوا وهزمهم فرحلوا إلى الرملة وضيقوا حصار يافا، وبعث إليهم جعفر بالمدد في البحر فأخذه القرامطة وانتهى الخبر إلى المعز بالقيروان، وجاء إلى مصر ودخلها كما ذكرناه.

وسمع أنهم يريدون المسير إلى مصر فكتب إلى الأعصم يذكره فضل بنيه وأنهم إنما دعوا له ولآبائه وبالغ في وعظه وتهدده فأساء في جوابه، وكتب إليه: وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله، ونحن سائرون إليك والسلام.

وسار من الأحساء إلى مصر ونزل عين شمس في عساكره، واجتمع إليه الناس من العرب وغيرهم.

وجاء حسان بن الجراح في جموع عظيمة من طيىء، وبث سراياه في البلاد فعاثوا فيها وأهم المعز شأنه، فراسل ابن الجراح واستماله بمائة ألف دينار على أن ينهزم عن القرامطة واستحلفوه على ذلك.

وخرج المعز ليوم عينوه لذلك فانهزم ابن الجراح بالعرب وثبت القرامطة قليلاً ثم انهزموا وأخذ منهم نحو ألف وخمسمائة أسير. وساروا في أتباعهم ولحق القرامطة بأذرعات، وساروا منها إلى الأحساء، وقتلوا صبراً ونهب معسكرهم وجرد المعز القائد أبا محمود في عشرة آلاف فارس، وبعث المعز القائد ظالم بن موهوب العقيلي والياً على دمشق فدخلها، وكان العامل بها من قبل القرامطة أبو اللجاء وابنه في جماعة منهم فحبسهم ظالم وأخذ أموالهم، ورجع القائد أبو محمود من أتباع القرامطة إلى دمشق فتلقاه ظالم وسر بقدومه وسأله المقام بظاهر دمشق حذراً من القرامطة ففعل ودفع أبا اللجاء وابنه فبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها.

وعاث أصحاب أبي محمود في دمشق، فاضطرب الناس وقتل صاحب الشرطة بعضهم فثاروا به وقتلوا أصحابه.

وركب ظالم بذراريهم وأجفل أهل الضواحي إلى البلد من عيث المغاربة، ثم وقعت في منتصف شوال من سنة ثلاث وستين فتنة بين العامة وبين عسكر أبي محمود وقاتلوه أياماً، ثم هزمهم وتبعهم إلى البلد.

وكان ظالم بن موهوب يداري العامة فأشفق في هذا اليوم على نفسه، وخرج من دار الإمارة وأحرق المغاربة ناحية باب الفراديس، ومات فيها خلق، واتصلت الفتنة إلى ربيع الآخر من سنة أربع وستين.

ثم وقع الصلح بينهم على إخراج ظالم من البلد وولاية جيش بن الصمصامة ابن أخت أبي محمود فسكن الناس إليه.

ثم رجع المغاربة إلى العيث وعاد العامة إلى الثورة، وقصدوا القصر الذي فيه جيش فهرب ولحق بالعسكر، وزحف إلى البلد فقاتلهم وأحرق ما كان بقي وقطع الماء عن البلد فضاقت الأحوال وبطلت الأسواق، وبلغ الخبر إلى المعز فنكر ذلك على أبي محمود واستعظمه، وبعث إلى ريّان الخادم في طرابلس يأمره بالمسير إلى دمشق لاستكشاف حالها، وأن يصرف القائد أبا محمود عنها، فصرفه إلى الرملة، وبعث إلى المعز بالخبر، وأقام بدمشق إلى أن وصل أفتكين والياً على دمشق.

وكان أفتكين هذا من موالي عز الدولة بن بويه، ولما ثار الأتراك على ابنه بختيار مع سبكتكين، ومات سبكتكين، قدمه الأتراك عليهم، وحاصروا بختيار بواسط، وجاء عضد الدولة لإنجاده فأجفلوا عن واسط فتركوه ببغداد.

وسار أفتكين في طائفة من الجند إلى حمص فنزل قريباً منها، وقصده ظالم بن موهوب العقيلي ليقبضه فعجز عنه، وسار أفتكين فنزل بظاهر دمشق وبها زياد خادم المعز، وقد غلب عليه، وعلى أعيان البلد الأحداث والذعار، فلم يملكوا معهم أمر أنفسهم فخرج الأعيان إلى أفتكين، وسألوا منه الدخول إليهم ليولوه، وشكوا إليه حال المغاربة وما يحملونهم عليه من عقائد بعض الرفض، وما أنزل بهم عمالهم من الظلم والعسف، فأجابهم واستحلفهم وحلف لهم، وملك البلد وخرج منها زياد الخادم، وقطع خطبة المعز العلوي وخطب للطائع العباسي، وقمع أهل الفساد ودفع العرب عما كانوا استولوا عليه من الضواحي.

واستقل ملك دمشق وكاتب المعز بطلب طاعته وولايتها من قبله، فلم يثق إليه ورده، وتجهز لقصده، وجهز العساكر فتوفي بعسكره ببلبيس كما يذكر.

وفاة المعز وولاية ابنه العزيز

ثم توفي المعز بمصر في منتصف ربيع الآخر سنة خمس وستين لثلاث وعشرين سنة من خلافته، وولي ابنه نزار بعهده إليه ووصيته، ولقب العزيز بالله، وكتم موت أبيه إلى عيد النحر من السنة فصلى بالناس وخطبهم، ودعا لنفسه وعزي بأبيه، وأقر

يعقوب بن كلس على الوزارة كما كان أيام أبيه، وأقر بلكين بن زيري على ولاية إفريقية وأضاف إليه ولاية عبد اللّه بن يخلف الكتامي، وهي طرابلس وسرت وجر أبيه.

وكان أهل مكة والمدينة قد خطبوا للمعز أبيه في الموسم فتركوا الخطبة للعزيز، فبعث جيوشه إلى الحجاز فحاصروا مكة والمدينة وضيقوا عليهم حتى رجعوا إلى دعوتهم، وخطب للعزيز بمكة وكان أمير مكة عيسى بن جعفر والمدينة طاهر بن مسلم، ومات في هذه السنة فولي ابنه الحسن وابن أخيه مكانه.

بقية أخبار أفتكين

ولما توفي المعز وولي العزيز، قام أفتكين وقصد البلاد التي لهم بساحل الشام فبدأ بصيدا فحاصرها، وبها ابن الشيخ في رؤوس المغاربة وظالم بن موهوب العقيلي فبرزوا إليه وقاتلوه فاستنجد لهم، ثم كر عليهم وأوقع بهم وقتل منهم أربعة آلاف، وسار إلى عكة فحاصرها وقصد طبرية وفعل فيها مثل صيدا.

ورجع واستشار العزيز وزيره يعقوب بن كلس فأشار بإرسال جوهر الكاتب إليه، فجهزه العزيز وبعثه، وأقبل أفتكين على أهل دمشق يريهم التحول عنهم ويذكرهم بذلك ليختبرهم فتطارحوا إليه، واستماتوا واستحلفهم على ذلك.

ووصل جوهر في ذي القعدة سنة خمس وستين فحاصر دمشق شهرين، وضيق حصارها وكتب أفتكين إلى الأعصم ملك القرامطة يستنجده، فسار إليه من الأحساء واجتمع إليهم من رجال الشام والعرب نحو من خمسين ألفاً، وأدركوا جوهراً بالرملة وقطعوا عنه الماء فارتحل إلى عسقلان فحاصروه بها حتى بلغ الجهد، وأرسل جوهر إلى أفتكين بالمغاربة والوعد.

والقرمطي يمنعه، ثم سأله في الاجتماع فجاءه أفتكين، ولم يزل جوهر يعتل له في الدروة والغارب، وأفتكين يعتذر بالقرمطي ويقول: أنت حملتني على مداراته.

فلما أيس منه كشف لهم عمّا هم فيه من الضيق، وسأله الصنيعة وأنها يتخذها عند العزيز فحلف له على ذلك، وعزله القرمطي.

وأراه جوهر أن يحمل العزيز على المسير بنفسه فصم من عزله وأبى إلا الوفاء، وانطلق جوهر إلى مصر وأغرى العزيز بالمسير إليهم، فتجهز في العساكر، وسار وجوهر في مقدمته، ورجع أفتكين والقرمطي إلى الرملة، واحتشدوا ووصل العزيز فاصطفوا للحرب بظاهر الرملة في محرم سنة سبع وستين.

وبعث العزيز إلى أفتكين يدعوه إلى الطاعة ورغبه ويعده بالتقدم في دولته ويدعوه إلى الحضور عنده، فتقدم بين الصفين وترجل وقبل الأرض وقال: قل لأمير المؤمنين لو كان قبل هذه لسارعت، وأما الآن فلا يمكنني.

وحمل على الميسرة فهزمهم وقتل الكثير منهم، فامتعض العزيز وحمل هو والميمنة جميعاً فهزمهم، ووضع المغاربة السيف فقتلوا نحواً من عشرين ألفاً، ثم نزل في خيامه وجيء بالأسرى فخلع على من جاء بهم وبذل لمن جاء بأفتكين مائة ألف دينار، فلقيه المفرج بن دغفل الطائي، وقد جهده العطش فاستسقاه فسقاه وتركه بعرشه مكرماً.

وجاء إلى العزيز فأخبره بمكانه، وأخذ المائة ألف التي بذلها فيه، وأمكنه من قياده.

ولما حضر عند العزيز وهو لا يشك أنه مقتول أكرمه العزيز ووصله، ونصب له الخيام وأعاد إليه ما نهب له، ورجع به إلى مصر فجعله أخص خدمه وحجابه، وبعث إلى الأعصم القرمطي من يرده إليه ليصله، كما فعل بأفتكين فأدرك بطبرية، وامتنع من الرجوع فبعث إليه بعشرين ألف دينار وفرضها له ضريبة، وسار القرمطي إلى الأحساء، وعاد العزيز إلى مصر ورقي رتبة أفتكين وخص به الوزير يعقوب بن كلس فسمه، وسمع العزيز بأنه سمه فحبسه أربعين يوماً وصادره على خمسمائة ألف دينار، ثم خلع عليه وأعاده إلى وزارته.

وتوفي جوهر الكاتب في ذي القعدة من سنة إحدى وثمانين، وقام ابنه الحسن مقامه، ولقب قائد القواد.

وكان أفتكين قد استخلص أيام وزارته بدمشق رجلاً اسمه قسام، فعلا صيته وكثر تابعه، واستولى على البلد.

ولما انهزم أفتكين والقرامطة، بعث العزيز القائد أبا محمود بن إبراهيم والياً على دمشق كما كان لأبيه المعز فوجد فيها قساماً قد ضبط البلد، وهو يدعو للعزيز فلم يتم له معه ولاية.

وبقي قسام مستبداً عليه إلى أن مات أبو محمود سنة سبعين.

ثم جاء أبو ثعلب بن حمدان صاحب الموصل إلى دمشق، عند انهزامه أمام عضد الدولة، فمنعه قسام من الدخول وخاف أن يغلبه على البلد بنفسه أو بأمر العزيز، واستوحش أبو ثعلب لذلك فقاتله قليلاً، ثم رحل إلى مطرية.

وجاءت عساكر العزيز مع قائده الفضل فحاصروا قساماً

بدمشق، ولم يظفروا به ورجعوا.

ثم بعث العزيز سنة تسع وستين سليمان بن جعفر بن فلاح فنزل بظاهرها، ولم يمكنه قسام من دخولها، ودس إلى الناس فقاتلوه وأزعجوه عن مكانه.

وكان مفرج بن الجراح أمير بني طيئ وسائر العرب بأرض فلسطين قد كثرت جموعه وقويت شوكته، وعاث في البلاد وخربها، فجهز العزيز العساكر لحربه مع قائده بلتكين التركي، فسار إلى الرملة، واجتمع إليه العرب من قيس وغيرهم، ولقي ابن الجراح وقد أكمن لهم بلتكين من ورائهم، فانهزم ومضى إلى أنطاكية، فأجاره صاحبها.

وصادف خروج ملك الروم من القسطنطينية إلى بلاد الشام فخاف ابن الجراح وكاتب بكجور مولى سيف الدولة وعامله على حمص، ولجأ إليه فأجاره.

ثم زحف بلتكين إلى دمشق وأظهر لقسام أنه جاء لإصلاح البلد.

وكان مع قسام جيش ابن الصمصامة ابن أخت أبي محمود قد قام بعده في ولايته، فخرج إلى بلتكين فأمره بالنزول معه بظاهر البلد هو وأصحابه، واستوحش قسام وتجهز للحرب، ثم قاتل وانهزم أصحابه، ودخل بلتكين أطراف البلد فنهبوا وأحرقوا.

واعتزم أهل البلد على الاستئمان إلى بلتكين، وشافهوه بذلك فأذن لهم، وسمع قسام فاضطرب وألقى ما بيده واستأمن الناس إلى بلتكين لأنفسهم ولقسام، فأمن الجميع وولى على البلد أميراً اسمه خطلخ، فدخل البلد وذلك في المحرم سنة اثنتين وسبعين.

ثم اختفى قسام بعد يومين فنهبت دوره ودور أصحابه، وجاء ملقياً بنفسه على بلتكين فقبله وحمله إلى مصر فأمنه العزيز.

وكان بكجور فى غوية من غلمان سيف الدولة وعامله على حمص.

وكان يمد دمشق أيام هذه الفتنة والغلاء، ويحمل الأقوات من حمص إليها ويكاتب العزيز بهذه الخدم، ثم استوحش سنة ثلاث وسبعين من مولاه أبي المعالي فاستنجز من العزيز وعده إياه بولاية دمشق، وصادف ذلك أن المغاربة بمصر أجمعوا على التوثب بالوزير ابن كلس، ودعت الضرورة إلى استقدام بلتكين من دمشق فأمره العزيز بالقدوم، وولاية بكجور على دمشق ففعل.

ودخلها بكجور في رجب من سنة ثلاث وسبعين، وعاث في أصحاب ابن كلس وحاشيته بدمشق لما كان يبلغه عنه من صد العزيز عن ولايته.

ثم أساء السيرة في أهل دمشق فسعى ابن كلس في عزله عند العزيز، وجهز العساكر سنة ثمان وسبعين مع منير الخادم، وكتب إلى نزال عامل طرابلس بمظاهرته، وجمع بكجور العرب وخرج للقائه فانهزم.

ثم خاف من وصول نزال فاستأمن لهم وتوجه إلى الرقة فاستولى عليها، ودخل منير دمشق واستقر في ولايتها، وارتفعت منزلته عند العزيز وجهزه لحصار سعد الدولة بحلب.

وكان بكجور بعد انصرافه من دمشق إلى الرقة سأل من سعد الدولة العود إلى ولاية حمص فمنعه فأجلب عليه، واستنجد العزيز لحربه، وبعث إلى نزال عامل طرابلس بمظاهرته فسار إليه بالعساكر، وخرج سعد الدولة من حلب للقائهم وقد أضمر نزال الغدر ببكجور، وتقدم إليه بذلك عيسى بن نسطورس وزير العزيز بعد ابن كلس.

وجاء سعد الدولة للقائهم وقد استمد عامل أنطاكية للروم فأمّده بجيش كثير وداخل العرب الذين مع بكجور في الإنهزام عنه، ووعدوه بذلك من أنفسهم، فلما تراءى الجمعان وشعر بكجور بخديعة العرب فاستمات وحمل على الصف بقصد سعد الدولة، فقتل لؤلؤ الكبير مولاه بطعنه إياه.

ثم حمل عليه سعد الدولة فهزمه، فسار إلى بعض العرب وحمل إلى سعد الدولة فقتله، وسار إلى الرقة فملكها وقبض جميع أمواله، وكانت شيئاً لا يعبر عنه، وكتب أولاده إلى العزيز يستشفعون به، فشفع إلى سعد الدولة فيهم أن يبعثهم إلى مصر، ويتهدده على ذلك، فأساء سعد الدولة الرد وجهز لحصار حلب الجيوش مع منجوتكين، فنزل عليها وحاصرها وبها أبو الفضائل بن سعد الدولة ومولاه لؤلؤ الصغير.

وأرسلا إلى بسيل ملك الروم يستنجدانه وهو في قتال بلغار، فبعث إلى عامل أنطاكية أن يمدهما، فسار في خمسين ألفاً حتى نزل جسر العاصي، وبلغ خبره إلى منجوتكين فارتحل عن حلب، ولقي الروم فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وأسراً.

وسار إلى أنطاكية وعاث في نواحيها، وخرج أبو الفضائل في مغيب منجوتكين إلى ضواحي حلب، فنقل ما فيها من الغلال وأحرق بقيتها لتفقد عساكر منجوتكين الأقوات.

فلما عاد منجوتكين إلى الحصار، جهز عسكره وأرسل لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي في الصلح، فعقد له ذلك، ورحل

منجوتكين، إلى دمشق، وبلغ الخبر إلى العزيز فغضب، وكتب إلى منجوتكين بالعود إلى حصار حلب وإبعاد الوزير المغربي، وأنفذ الأقوات للعسكر في البحر إلى طرابلس.

وأقام منجوتكين في حصار حلب وأعادوا مراسلة ملك الروم فاستنجدوه وأغزوه، وكان قد توسط بلاد البلغار فعاد مجداً في السير.

وبعث لؤلؤ إلى منجوتكين بالخبر حذراً على المسلمين، وجاءته جواسيسه بذلك، فأجفل بعد أن خرب ما كان اتخذه في الحصار من الأسواق والقصور والحمامات.

ووصل ملك الروم إلى حلب ولقي أبا الفضائل ولؤلؤاً، ثم سار في الشام وافتتح حمص وشيزر ونهبهما، وحاصر طرابلس أربعين يوماً فامتنعت عليه، وعاد إلى بلاده.

وبلغ الخبر إلى العزيز فعظم عليه، واستنفر الناس للجهاد، وبرز من القاهرة وذلك سنة إحدى وثمانين، ثم انتقض منير في دمشق، فزحف إليه منجوتكين إلى دمشق.

أخبار الوزراء

كان وزير المعز لدين الله يعقوب بن يوسف بن كلس أصله من اليهود وأسلم، وكان يدبر الأحوال الأخشيدية بمصر، وعزله أبو الفضائل بن الفرات سنة سبع وخمسين، وصادره فاستتر بمصر، ثم فر إلى المغرب ولقي المعز لدين الله، وجاء في ركابه إلى مصر فاستوزره وعظم مقامه عنده، واستوزره بعده ابنه العزيز إلى أن توفي سنة ثمانين وصلى عليه العزيز وحضر دفنه، وقضى عنه دينه، وقسم عمله فرد النظر في الظلامات إلى الحسن بن عمار كبير كتامة، ورد النظر في الأموال إلى عيسى بن نسطورس، ولم تزل الوزارة سائر دولتهم في أرباب الأقلام، وكانوا بمكان، وكان منهم البارزي.

وكان مع الوزارة قاضي القضاة وداعي الدعاة، وسأل أن يرسم اسمه على السكة فغرب ومنع، ومات قتيلاً بتنيس.

وأبو سعيد النسري، وكان يهودياً وأسلم قبل وزارته، والجرجاني وقطع الجرجاني في أمر منع من الكتب فيه فكتب وحلف الحاكم بيمين لا تكفر ليقطعنه.

ثم رده بعد ثلاث وخلع عليه وابن أبي كدينة ثلاثة عشر شهراً ثم صرف وقتل.

وأبو الطاهر بن ياشاد، وكان من أهل الدين واستعفى فأعفي، وأقام معتكفاً في جامع مصر وسقط ليلة من السطح فمات.

وكان آخرهم الوزير أبو القاسم بن المغربي وكان بعده بدر الجمالي أيام المستنصر وزير سيف الدولة، واستبد له على الدولة ومن بعده منهم كما يأتي في أخبارهم.

أخبار القضاة

كان النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون في خطة القضاء للمعز بالقيروان.

ولما جاء إلى مصر أقام بها في خطة القضاء إلى أن توفي وولي ابنه علي، ثم توفي سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، فولى العزيز أخاه أبا عبد الله محمداً، خلع عليه وقلده سيفاً.

وكان المعز قد وعد أباه بقضاء ابنه محمد هذا بمصر، وتم في سنة تسع وثمانين أيام الحاكم، وكان كبير الصيت، كثير الإحسان شديد الاحتياط في العدالة، فكانت أيامه شريفة.

وولي بعده ابن عمه أبو عبد الله الحسين بن علي بن النعمان أيام الحاكم، ثم عزل سنة أربع وتسعين، وقتل وأحرق بالنار، وولي مكانه ملكة بن سعيد الفارقي إلى أن قتله الحاكم سنة خمس وأربعمائة بنواحي القصور، وكان عالي المنزلة عند الحاكم ومداخلاً له في أمور الدولة، وخالصة له في خلواته.

وولي بعده أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي العوام.

واتصل في آخرين إلى آخر دولتهم، كان كثيراً ما يجمعون للقاضي المظالم والدعوة، فيكون داعي الدعاة، وربما يفردون كلاً منهما.

وكان القاضي عندهم يصعد مع الخليفة المنبر مع من يصعده من أهل دولته عندما يخطب الخلفاء في الجمع والأعياد.

وفاة المعز وولاية ابنه الحاكم

قد تقدم لنا أن العزيز استنفر الناس للجهاد سنة إحدى وثمانين، وبرز في العساكر لغزو الروم، ونزل ببلبيس فاعتورته الأمراض، واتصلت به إلى أن هلك آخر رمضان سنة ست وثمانين لإحدى عشرة سنة ونصف من خلافته، ولقب الحاكم بأمر الله، واستولى برجوان الخادم على دولته كما كان لأبيه العزيز بوصيته بذلك، وكان مدبر دولته، وكان رديفه في ذلك أبو محمد

الحسن بن عمار ويلقب بأمين الدولة، وتغلب على ابن عمار وانبسطت أيدي كتامة في أموال الناس وحرمهم، ونكر منجوتكين تقديم ابن عمار في الدولة، وكاتب برجوان بالموافقة على ذلك فأظهر الانتقاض، وجهز العساكر لقتاله مع سليمان بن جعفر بن فلاح فلقيهم بعسقلان، وانهزم منجوتكين وأصحابه، وقتل منهم ألفين وسيق أسيراً إلى مصر، فأبقى عليه ابن عمار واستماله للمشارقة.

وعقد على الشام لسليمان بن فلاح، ويكنى أبا تميم، فبعث من طبرية أخاه علياً إلى دمشق، فامتنع أهلها، فكاتبهم أبو تميم وتهددهم وأذعنوا، ودخل على البلد ففتك فيهم.

ثم قدم أبو تميم فأمن وأحسن وبعث أخاه علياً إلى طرابلس وعزل عنها جيش بن الصمصامة فسار إلى مصر، وداخل برجوان في الفتك بالحسن بن عمار وأعيان كتامة، وكان معهما في ذلك شكر خادم عضد الدولة نزع إلى مصر بعد مهلك عضد الدولة، ونكبة أخيه شرف الدولة إياه، فخلص إلى العزيز فقربه وحظي عنده، فكان مع برجوان وجيش ابن الصمصامة.

وثارت الفتنة واقتتل المشارقة والمغاربة فانهزمت المغاربة، واختفى ابن عمار وأظهر برجوان الحاكم وجدد له البيعة، وكتب إلى دمشق بالقبض على أبي تميم بن فلاح فنهب، ونهبت خزائنه، واستمر القتل في كتامة واضطربت الفتنة بدمشق، واستولى الأحداث.

ثم أذن برجوان لابن عمار في الخروج من أستاره وأجرى له أرزاقه على أن يقيم بداره.

واضطرب الشام فانتقض أهل صور، وقام بها رجل ملاح اسمه العلاقة وانتقض مفرج بن دغفل بن الجراح، ونزل على الرملة، وعاث في البلاد وزحف الدوقس ملك الروم إلى حصن أفامية محاصراً لها.

وجهز برجوان العساكر مع جيش ابن الصمصامة، فسار إلى عبد اللّه الحسين بن ناصر الدولة بن حمدون، وأسطولاً في البحر، واستنجد العلاقة ملك الروم فأنجده بالمقاتلة في المراكب، فظفر بهم أسطول المسلمين.

واضطرب أهل صور وملكها ابن حمدان، وأسر العلاقة، وبعث به إلى مصر فسلخ وصلب وسار جيش ابن الصمصامة إلى الفرج بن دغفل فهرب أمامه، ووصل إلى دمشق، وتلقاه أهلها مذعنين، وأحسن إليهم وسكنهم ورفع أيدي العدوان عنهم.

ثم سار إلى أفامية وصاف الروم عندها فانهزم أولاً هو وأصحابه، وثبت بشارة الأخشيدي بن قرارة في خمسمائة فارس، ووقف الدوقس ملك الروم على رابية في ولده وعدة من غلمانه ينظر فعل الروم في المسلمين، فقصد كردي من مصاف الأخشيدي وبيده عصا من حديد يسمى الخشت، وظنه الملك مستأمناً، فلما دنا منه ضربه بالخشت فقتله، وانهزم الروم وأتبعهم جيش ابن الصمصامة إلى أنطاكية يغنم ويسبي ويحرق.

ثم عاد مظفراً إلى دمشق فنزل بظاهرها ولم يدخل.

واستخلص رؤساء الأحداث واستحجبهم وأقيم له الطعام في كل يوم، وأقام على ذلك برهة.

ثم أمر أصحابه إذا دخلوا للطعام أن يغلق باب الحجرة عليهم، ويوضع السيف في سائرهم، فقتل منهم ثلاثة آلاف، ودخل دمشق وطاف بها وأحضر الأشراف فقتل رؤساء الأحداث بين أيديهم، وبعث بهم إلى مصر وأمن الناس.

ثم إنه توفي وولي محمود بن جيش وبعث برجوان إلى بسيل ملك الروم فصالحه لعشر سنين، وبعث جيشاً إلى برقة وطرابلس المغرب ففتحها، وولى عليها يانساً الصقلي.

ثم ثقل مكان برجوان على الحاكم فقتله سنة تسع وثمانين، وكان خصياً أبيض، وكان له وزير نصراني استوزره الحاكم من بعده.

ثم قتل الحسين بن عمار، ثم الحسين بن جوهر القائد.

ثم جهز العساكر مع يارختكين إلى حلب، وقصد حسان بن فرج الطائي، لما بلغ من عيثه وفساده، فلما رحل من غزوه إلى عسقلان لقيه حسان وأبوه مفرج فانهزم وقتل، ونهبت النواحي وكثرت جموع بني الجراح وملكوا الرملة، واستقدموا الشريف أبا الفتوح الحسن بن جعفر أمير مكة فبايعوه بالخلافة.

ثم استمالهما الحاكم ورغبهما فرداه إلى مكة وراجعا طاعة الحاكم، وراجع هو كذلك، وخطب له بمكة.

ثم جهز الحاكم العساكر إلى الشام مع علي بن جعفر بن فلاح، وقصد الرملة، فانهزم حسان بن مفرج وقومه، وغلبهم على تلك البلاد واستولى على أموالهم وذخائرهم، وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل السراة، ووصل إلى دمشق في شوال سنة تسعين، فملكها واستولى عليها، وأقام مفرج وابنه حسان شريدين بالقفز نحواً من سنتين.

ثم هلك مفرج وبعث حسان ابنه إلى الحاكم فأمنه وأقطعه ثم وفد عليه بمصر فأكرمه ووصله.

خروج أبي ركوة ببرقة والظفر به

كان أبو ركوة هذا يزعم أنه الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل، وأنه هرب من المنصور بن أبي عامر حين تتبعهم بالقتل وهو ابن عشرين سنة، وقصد القيروان فأقام بها يعلم الصبيان.

ثم قصد مصر وكتب الحديث، ثم سار إلى مكة واليمن والشام وكان يدعو للقائم من ولد أبيه هشام، واسمه الوليد وإنما لقبه أبا ركوة لأنه كان يحملها لوضوئه على عادة الصوفية.

ثم عاد إلى نواحي مصر ونزل على بني قرة من بادية هلال بن عامر، وأقام يعلم الصبيان ويؤمهم في صلاتهم، ثم أظهر ما في نفسه ودعا للقائم.

وكان الحاكم قد أسرف في القتل في أصناف الناس وطبقاتهم، والناس معه على خطر، وكان قتل جماعة من بني قرة وأحرقهم بالنار لفسادهم، فبادر بنو قرة وكانوا في أعمال برقة فأجابوه وانقادوا له وبايعوا.

وكان بينهم وبين لواتة ومزاتة وزناتة جيرانهم في الأصل حروب ودماء فوضعوها، واتفقوا على بيعته.

وكتب عامل برقة أنيال الطويل يخبرهم إلى الحاكم فأمره بالكف عنهم.

ثم اجتمعوا وساروا إلى برقة فهزموا العامل برمادة، وملكوا برقة وغنموا الأموال والسلاح وقتلوه.

وأظهر أبو ركوة العدل، وبلغ الخبر إلى الحاكم فاطمأنت نفسه، وكف عن الأذى والقتل، وجهز خمسة آلاف فارس مع القائد أبي الفتوح الفضل بن صالح فبلغ ذات الحمام، وبينها وبين برقة مفازة صعبة معطشة، وأمر أبو ركوة من غور المياه التي فيها على قلبها.

ثم سار للقائهم بعد خروجهم من المفازة على جهد العطش فقاتلهم، ونال منهم وثبت أبو ركوة واستأمن إليه جماعة من كتامة لما نالهم من أذى الحاكم وقتله فأمنهم، ولحقوا به، وانهزمت عساكر الحاكم وقتل خلق كثير منهم.

ورجع أبو ركوة إلى برقة ظافراً وردد البعوث والسرايا إلى الصعيد وأرض مصر، وأهم الحاكم أمره وندم على ما فرط.

وجهز علي بن فلاح العساكر لحربهم، وكاتب الناس أبا ركوة يستدعونه، وممن كتب إليه الحسن بن جوهر قائد القواد، وبعثهم في ستة عشر ألف مقاتل سوى العرب، وبعث أخاه في سرية فواقع بني قرة وهزمهم، وقتل من شيوخهم عبد العزيز بن مصعب ورافع بن طراد ومحمد بن أبي بكر، واستمال الفضل بني قرة فأجابه ماضي بن مقرب من أمرائهم، وكان يطالعه بأخبارهم.

وبعث علي بن فلاح عسكراً إلى الفيوم فكبسه بنو قرة وهزموه، ونزل أبو ركوة بالهرمين، ورجع من يومه ثم رحل الفضل إلى الفيوم لقتالهم فواقعهم برأس البركة وهزمهم، واستأمن بنو كلاب وغيرهم، ورجع علي بن فلاح، وتقدم الفضل لطلب أبي ركوة وخذل ماضي بن مقرب بني قرة عن أبي ركوة فقالوا له: أنج بنفسك إلى بلد النوبة، ووصل إلى تخومهم وقال: أنا رسول الحاكم فقالوا: لابد من استئذان الملك، فوكلوا به وطالعوا الملك بحقيقة الحال.

وكان صغيراً قد ولي بعد سرقة أبيه، وبعث إليه الفضل بشأنه وطلبه فكتب إلى شجرة بن مينا قائد الخيل بالثغر بأن يسلمه إلى نائب الحاكم، فجاء به رسول الفضل وأنزله الفضل في خيمة وحمله إلى مصر فطيف به على جمل لابساً طرطوراً وخلفه قرد يصفعه، ثم حمل إلى ظاهر القاهرة ليقتل، فمات قبل وصوله، وقطع رأسه وصلب.

وبالغ الحاكم في إكرام الفضل ورفع مرتبته، ثم قتله بعد ذلك، وكان ظفر الحاكم بأبي ركوة سنة سبع وتسعين.

بقية أخبار الحاكم

كان الحسن بن عمار زعيم كتامة مدبر دولته كما ذكرناه، وكان برجوان خادمه وكافله، وكان بين الموالي والكتاميين في الدولة منافسة.

وكان كثيراً ما يفضي إلى القتال، واقتتلوا سنة سبع وثمانين، وأركب المغاربة ابن عمار والموالي برجوان، وكانت بينهم حروب شديدة.

ثم تحاجزوا واعتزل ابن عمار الأمور وتخلى بداره عن رسومه وجراياته، وتقدم برجوان بتدبير الدولة.

وكان كاتب بن فهر بن إبراهيم يربع وينظر في الظلامات ويطالعه، وولى على برقة يأنس صاحب الشرطة مكان صندل.

ثم قتل برجوان سنة تسع وثمانين ورجع التدبير إلى القائد أبي عبد اللّه الحسين بن جوهر، وبقي ابن فهر على حاله.

وفي سنة تسعين انقطعت طرابلس عن منصور بن بلكين بن

زيري صاحب إفريقية، وولي عليها يأنس العزيزي من موالي العزيز، فوصل إليها وأمكنه عامل المنصور منها، وهو عصولة بن بكار.

وجاء إلى الحاكم بأهله وولده وماله وأطلق يد يأنس على مخلفه بطرابلس، يقال: كان له من الولد نيف وستون بين ذكر وأنثى، ومن السراري خمس وثلاثون فتلقي بالمبرة وهيىء له القصور ورتب له الجراية وقلده دمشق وأعمالها، فهلك بها لسنة من ولايته.

وفي سنة اثنتين وتسعين وصل الصريخ من جهة فلفول بن خزرون المغراوي في ارتجاع طرابلس إلى منصور بن بلكين، فجهزت العساكر مع يحيى بن علي الأندلسي الذي كان جعفر أخوه عامل الزاب للعبيديين، ونزع إلى بني أمية وراء البحر.

ولم يزل هو وأخوه في تصريفهم إلى أن قتل المنصور بن أبي عامر جعفراً منهما، ونزع أخوه يحيى إلى العزيز بمصر فنزل عليه وتصرف في خدمته وبعثه الآن الحاكم في العساكر لما قدمناه، فاعترضه بنو قرة ببرقة ففضوا جموعه، ورجع إلى مصر وسار يأنس من برقة إلى طرابلس، فكان من شأنه مع عصولة ما ذكرناه.

وبعد وفاة عصولة ولي علي دمشق مفلح الخادم، وبعده علي بن فلاح سنة ثمان وتسعين.

وبعد مسير يأنس ولي على برقة صندل الأسود.

وفي سنة ثمان وتسعين عزل الحسين بن جوهر القائد وقام بتدبير الدولة صالح بن علي بن صالح الروباذي.

ثم نكب حسين القائد بعد ذلك وقتل، ثم قتل صالح بعد ذلك وقام بتدبير الدولة الكافي بن نصر بن عبدون، وبعده زرعة بن عيسى بن نسطورس، ثم أبو عبد اللّه الحسن بن طاهر الوزان.

وكثر عيث الحاكم في أهل دولته وقتله إياهم - مثل الجرجراي وقطعه أيديهم، حتى أن كثيراً منهم كانوا يهربون من سطوته، وآخرون يطلبون الأمان فيكتب لهم به السجلات.

وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة.

وأما ما يرمي به من الكفر وصدور السجلات بإسقاط الصلوات فغير صحيح، ولا يقوله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته، وأما مذهبه في الرافضة فمعروف، ولقد كان مضطرباً فيه مع ذلك، فكان يأذن في صلاة التراويح ثم ينهي عنها، وكان يرى بعلم النجوم ويؤثره، وينقل عنه أنه منع النساء من التصرف في الأسواق، ومنع من أكل الملوخيا.

ورفع إليه أن جماعة من الروافض تعرضوا لأهل السنة في التراويح بالرجم، وفي الجنائز، فكتب في ذلك سجلاً قرىء على المنبر بمصر كان فيه:

أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلوا عليكم آية من كتاب اللّه المبين، ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الآية.

مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه.

معاشر المسلمين نحن الأئمة، وأنتم الأمة.

لا يحل قتل من شهد الشهادتين ولا يحل عروة بين اثنين تجمعها هذه الأخوة، عصم اللّه بها من عصم، وحرم لها ما حرم، من كل محرم من دم ومال ومنكح، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح، والفساد والإفساد بين العباد يستقبح.

يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر، ويعرض عما انقضى فلا يذكر.

ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت عليه في الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين سلام اللّه عليهم أجمعين، مهديهم باللّه وقائمهم بأمر اللّه، ومنصورهم باللّه ومعزهم لدين اللّه، وهو إذ ذاك بالمهدية والمنصورية، وأحوال القيروان تجري فيها ظاهرة غير خفية ليست بمستورة عنهم ولا مطوية.

يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون، صلاة الخمس للدين بها جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون.

يخمس في التكبر على الجنائز المخمسون، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون.

يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون.

لا يسب أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف، والخالف فيهم بما خلف.

لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده وإلى اللّه ربه ميعاده، عنده كتابه وعليه حسابه.

ليكن عباد اللّه على مثل هذا عملكم منذ اليوم، لا يستعلي مسلم على مسلم بما اعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا، وبعده

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتب في رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

وفاة الحاكم وولاية الظاهر

ثم توفي الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز نزار قتيلاً ببركة الحبش بمصر، وكان يركب الحمار ويطوف بالليل ويخلو بدار في جبل المقطم للعبادة، ويقال: لاستنزال روحانية الكواكب.

فصعد ليلة من ليالي لثلاث بقين من شوال سنة إحدى عشرة ركب على عادته ومشى معه راكبان فردهما واحداً بعد آخر في تصاريف أموره، ثم افتقد ولم يرجع، وأقاموا أياماً في انتظاره.

ثم خرج مظفر الصقلي والقاضي وبعض الخواص إلى الجبل فوجدوا حماره مقطوع اليدين، واتبعوا أثره إلى بركة الحبش فوجدوا ثيابه مزررة وفيها عدة ضربات بالسكاكين فأيقنوا بقتله.

ويقال: إن أخته بلغه أن الرجال يتناوبون بها فتوعدها فأرسلت إلى ابن دواس من قواد كتامة، وكان يخاف الحاكم فأغرته بقتله، وهونته عليه لما يرميه به الناس من سوء العقيدة، فقد يهلك الناس ونهلك معه.

ووعدته بالمنزلة والإقطاع، فبعث إليه رجلين فقتلاه في خلوته، ولما أيقنوا بقتله اجتمعوا إلى أخته ست الملك فأحضرت علي بن دواس، وأجلس علي بن الحاكم صبياً لم يناهز الحلم وبايع له الناس، ولقب الظاهر لإعزاز دين الله، ونفذت الكتب إلى البلاد بأخذ البيعة له.

ثم حضر ابن دواس من الغد وحضر معه القواد فأمرت ست الملك خادمها فعلاه بالسيف أمامهم حتى قتله وهو ينادي بثأر الحاكم فلم يختلف فيه اثنان، وقامت بتدبير الدولة أربع سنين ثم ماتت.

وقام بتدبير الدولة الخادم معضاد وتافر بن الوزان، وولي وزارته أبو القاسم علي بن أحمد الجرجراي وكان متغلباً على دولته، وانتقض الشام خلال ذلك، وتغلب صالح بن مرداس من بني كلاب على حلب، وعاث بنو الجراح في نواحيه، فبعث الظاهر سنة عشرين قائده الزريري والي فلسطين في العساكر، وأوقع بصالح بن الجراح، وقتل صالح وابنه وملك دمشق، وملك حلب من يد شبل الدولة نصر بن صالح وقتله، وكان بينه وبين بني الجراح قبل ذلك وهو بفلسطين حروب، حتى هرب من الرملة إلى قيسارية فاعتصم بها وأخرب ابن الجراح الرملة وأحرقها.

وبعث السرايا فانتهت إلى العريش وخشي أهل بلبيس وأهل القرافة على أنفسهم، فانتقلوا إلى مصر، وزحف صالح بن مرداس في جموع العرب لحصار دمشق وعليها يومئذ ذو القرنين ناصر الدولة بن الحسين.

وبعث حسان بن الجراح إليهم بالمدد، ثم صالحوا صالح بن مرداس وانتقل إلى حصار حلب وملكها من يد شعبان الكتامي، وجردت العساكر من الشام مع الوزيري وكان ما تقدم وملك دمشق وأقام بها.

وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر

ثم توفي الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن الحاكم منتصف شعبان سنة سبع وعشرين لست عشرة سنة من خلافته، فولي ابنه أبو تميم معد ولقب المستنصر بأمر الله، وقام بأمره وزير أبيه أبو القاسم علي بن أحمد الجرجراي، وكان بدمشق الوزيري واسمه أنوش تكين وكانت البلاد صلحت على يديه لعدله ورفقه وضبطه، وكان الوزير الجرجراي يحسده ويبغضه، وكتب إليه بإبعاد كاتبه أبي سعيد، فأنفذ إليه أنه يحمل الوزيري على الانتقاض، فلم يجب الوزيري إلى ذلك واستوحش، وجاء جماعة من الجند إلى مصر في بعض حاجاتهم فداخلهم الجرجراي في التوثب به، ودس معهم بذلك إلى بقية الجند بدمشق فتعللوا عليه فخرج إلى بعلبك سنة ثلاث وثلاثين فمنعه عاملها من الدخول، فسار إلى حماة فمنع أيضا فقوتل، وهو خلال ذلك ينهب فاستدعى بعض أوليائه من كفرطاب فوصل إليه في ألفي رجل، وسار إلى حلب فدخلها وتوفي بها في جمادى الآخرة من السنة، وفسد بعده أمر الشام وطمع العرب في نواحيه، وولى الجرجراي على دمشق الحسين بن حمدان فكان قصارى أمره منع الشام، وملك حسان بن مفرج فلسطين وزحف معز الدولة بن صالح الكلابي إلى حلب فملك المدينة، وامتنع عليه أصحاب القلعة وبعثوا إلى مصر للنجدة فلم ينجدهم، فسلموا القلعة لمعز الدولة بن صالح فملكها.

مسير العرب إلى إفريقية

كان المعز بن باديس قد انتقض دعوة العبيديين بإفريقية

وخطب للقائم العباسي، وقطع الخطبة للمستنصر العلوي سنة أربعين وأربعمائة، فكتب إليه المستنصر يتهدده.

ثم إنه استوزر الحسين بن علي التازوري بعد الجرجراي ولم يكن في رتبته فخاطبه المعز دون ما كان يخاطب من قبله، كان يقول في كتابه إليهم عبده، ويقول في كتاب التازوري صنيعته فحقد ذلك، وأغرى به المستنصر، وأصلح بين زغبة ورياح من بطون هلال وبعثهم إلى إفريقية وملكهم كل ما يفتحونه، وبعث إلى المعز: أما بعد فقد أرسلنا إليك خيولاً وحملنا عليها رجالاً فحولاً ليقضي اللّه أمرا كان مفعولا.

فساروا إلى برقة فوجدوها خالية لأن المعز كان أباد أهلها من زنانة، فاستوطن العرب برقة، واحتقر المعز شأنهم واشترى العبيد واستكثر منهم حتى اجتمع له منهم ثلاثون ألفاً.

وزحف بنو زغبة إلى طرابلس فملكوها سنة ست وأربعين، وجازت رياح الأثبج وبنو عدي إلى إفريقية، فأضرموها ناراً.

ثم سار أمراؤهم إلى المعز وكبيرهم مؤنس بن يحيى من بني مرداس من زياد فأكرمهم المعز وأجزل لهم عطاياه فلم يغن شيئاً، وخرجوا إلى ما كانوا عليه من الفساد، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله، فخرج إليهم المعز في جموعه من صنهاجة والسودان نحواً من ثلاثين ألفاً، والعرب في ثلاثة آلاف فهزموه وأثخنوا في صنهاجة بالقتل واستباحوهم، ودخل المعز القيروان مهزوماً.

ثم بيتهم يوم النحر وهم في الصلاة فهزموه أعظم من الأولى، ثم سار إليهم بعد أن احتشد زناتة معه فانهزم ثالثة وقتل من عسكره نحو من ثلاثة آلاف، ونزل العرب بمصلى القيروان ووالوا عليهم الهزائم، وقتلت منهم أمم.

ثم أباح لهم المعز دخول القيروان للميرة فاستطالت عليهم العامة فقتلوا منهم خلقاً وأدار المعز السور على القيروان سنة ست وأربعين ثم ملك مؤنس بن يحيى مدينة باجة سنة ست وأربعين وأمر المعز أهل القيروان بالانتقال إلى المهدية للتحصن بها، وولى عليها ابنه تيماً سنة خمس وأربعين.

ثم انتقل إليها سنة تسع وأربعين، وانطلقت أيدي العرب على القيروان بالنهب والتخريب، وعلى سائر الحصون والقرى كما يذكر في أخبارهم.

ثم كانت الخطبة للمستنصر ببغداد على يد البساسيري من مماليك بني بويه عند انقراض دولتهم واستيلاء السلجوقية كما نذكره في أخبارهم.

مقتل ناصرالدولة بن حمدان بمصر

كانت أم المستنصر متغلبة على دولته وكانت تصطنع الوزراء وتوليهم، وكانوا يتخذون الموالي من الأتراك للتغلب على للدولة، فمن استوحشت منه أغرت به المستنصر فقتله، فاستوزرت أولاً أبا الفتح الفلاحي، ثم استوحشت منه فقبض عليه المستنصر وقتله، ووزر بعده أبا البركات حسن بن محمد وعزله.

ثم ولي الوزارة أبا محمد التازوري من قرية بالرملة تسمى تازور، فقام بالدولة إلى أن قتل، ووزر بعده أبو عبد اللّه الحسين بن البابلي، وكان في الدولة من موالي السودان ناصر الدولة بن حمدان، واستمالوا معهم كتامة والمصامدة، وخرج العبيد إلى الضياع واجتمعوا في خمسين ألف مقاتل، وكان الأتراك ستة آلاف، وشكوا إلى المستنصر فلم يشكهم، فخرجوا إلى غرمائهم والتقوا بكوم الريش، وأكمن الأتراك للعبيد ولقوهم فانهزموا، وخرج كمينهم على العبيد وضربوا البوقات والكاسات فارتاب العبيد وظنوه المستنصر فانهزموا، وقتل منهم وغرق نحو أربعين ألفاً.

وفدى الأتراك وتغلبوا، وعظم الافتراء فيهم فخلت الخزائن، واضطربت الأمور وتجمع باقي العسكر من الشام وغيره إلى الصعيد، واجتمعوا مع العبيد وكانوا خمسة عشر ألفاً وساروا إلى الجيزة فلقيهم الأتراك وعليهم ناصر الدولة بن حمدان فهزموهم إلى الصعيد، وعاد ناصر الدولة والأتراك ظافرين.

واجتمع العبيد في الصعيد وحضر الأتراك بدار المستنصر فأمرت أمه العبيد بالدار أن يفتكوا بمقدمي الأتراك ففعلوا وهربوا إلى ظاهر البلد ومعهم ناصرالدولة، وقاتل أولياء المستنصر فهزمهم، وملك الإسكندرية ودمياط وقطع الخطبة منهما ومن سائر الريف للمستنصر، وراسل الخليفة العباسي ببغداد وافترق الناس من القاهرة، ثم صالح المستنصر ودخل القاهرة واستبد عليه وصادر أمه على خمسين ألف دينار، وافترق عنه أولاده وكثير من أهله في البلاد، ودس المستنصر لقواد الأتراك بأنه يحول الدعوة فامتعضوا لذلك وقصدوه في بيته، وهو آمن منهم، فلما خرج إليهم تناولوه بسيوفهم حتى قتلوه وجاؤوا برأسه، ومروا على أخيه في بيته فقطعوا رأسه، وأتوا بهما جميعاً إلى المستنصر وذلك سنة خمس وستين، وولى عليهم الذكر منهم وقام بأمر الدولة.

استيلاء بدر الجمالي على الدولة

أصل بدر هذا من الأرمن من صنائع الدولة بمصر ومواليها،

وكان حاجباً لصاحب دمشق، واستكفاه فيما وراء بابه.

ثم مات صاحب دمشق فقام بالأمور إلى أن وصل الأمير على دمشق، وهو ابن منير فسار هو إلى مصر وترقى في الولايات إلى أن ولي عكا وظهر منه كفاية واضطلاع.

ولما وقع بالمستنصر ما وقع من استيلاء الترك عليه والفساد والتضييق، استقدم بدراً الجمالي لولاية الأمور بالحضرة، فاستأذن في الاستكثار من الجند لقهر من تغلب من جند مصر فأذن له في ذلك، وركب البحر من عكا في عشرة مراكب، ومعه جند كثيف من الأرمن وغيرهم، فوصل إلى مصر، وحضر عند الخليفة فولاه ما وراء بابه، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق، ولقبه بالسيد الأجل أمير الجيوش، مثل والي دمشق، وأضيف إلى ذلك كافل قضاة المسلمين، وداعي دعاة المؤمنين، ورتب الوزارة وزاده سيفه ورد الأمور كلها إليه، ومنه إلى الخليفة، وعاهده الخليفة على ذلك، وجعل إليه ولاية الدعاة والقضاة، وكان مبالغاً في مذهب الإمامية، فقام بالأمور واسترد ما كان تغلب عليه أهل النواحي مثل ابن عمار بطرابلس وابن معروف بعسقلان وبني عقيل بصور.

ثم استرد من القواد والأمراء بمصر جميع ما أخذوه أيام الفتنة من المستنصر من الأموال والأمتعة.

وسار إلى دمياط وقد تغلب عليها جماعة من المفسدين من العرب وغيرهم، فأثخن في لواتة بالقتل والنهب في الرجال والنساء وسبى نساءهم وغنم خيولهم.

ثم سار إلى جهينة وقد ثاروا ومعهم قوم من بني جعفر فلقيهم على طرخ العليا سنة تسع وستين فهزمهم وأثخن فيهم وغنم أموالهم.

ثم سار إلى أسوان وقد تغلب عليها كنز الدولة محمد فقتله وملكها، وأحسن إلى الرعايا ونظم حالهم وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، وعادت الدولة إلى أحسن ما كانت عليه.

وصول الغز إلى الشام واستيلاؤهم عليه وحصارهم مصر

كان السلجوقية وعساكرهم من الغز قد استولوا في هذا العصر على خراسان والعراقين وبغداد، وملكهم طغرلبك، وانتشرت عساكرهم في سائر الأقطار، وزحف إتسز بن أنز من أمراء السلطان ملك شاه وسمّاه الشاميون أفسفس والصحيح هذا، وهو اسم تركي هكذا قال ابن الأثير، فزحف سنة ثلاث وثلاثين بل وستين ففتح الرملة، ثم بيت المقدس وحاصر دمشق وعاث في نواحيها وبها المعلى بن حيدرة، ولم يزل يوالي عليها البعوث إلى سنة ثمان وستين، وكثر عسف المعلى بأهلها مع ما هم فيه من شدة الحصار فثاروا به، وهرب إلى بلبيس، ثم لحق بمصر فحبس إلى أن مات.

ولما هرب من دمشق اجتمعت المصامدة وولوا عليهم انتصار بن يحيى منهم ولقبوه وزير الدولة، ثم اضطربوا مما هم فيه من الغلاء، وجاء أمير من القدس فحاصرهم حتى نزلوا على أمانه، وأنزل وزير الدولة بقلعة بانياس ودخل دمشق في ذي القعدة، وخطب فيها للمقتدي العباسي.

ثم سار إلى مصر سنة تسع وستين فحاصرها، وجمع بدر الجمالي العساكر من العرب وغيرهم، وقاتله فهزمه وقتل أكثر أصحابه، ورجع إتسز منهزماً إلى الشام فأتى دمشق، وقد صانوا مخلفه فشكرهم ورفع عنهم خراج سنة تسع وستين، وجاء إلى بيت المقدس فوجدهم قد عاثوا في مخلفه وحصروا أهله وأصحابه في مسجد داود عليه السلام، فحاصرهم ودخل البلد عنوة، وقتل أكثر أهله حتى قتل كثيراً في المسجد الأقصى.

ثم جهز أمير الجيوش بدر الجمالي العساكر من مصر مع قائده نصير الدولة، فحاصر دمشق وضيق عليها، وكان ملك السلجوقية السلطان ملك شاه قد أقطع أخاه تتش سنة سبعين وأربعمائة بلاد الشام، وما يفتحه منها فزحف إلى حلب وحاصرها وضيق عليها، ومعه جموع كثيرة من التركمان فبعث إليه إتسز من دمشق يستصرخه، فسار إليه، وأجفلت عساكر مصر عن دمشق، وخرج إتسز من دمشق للقائه فقتله وملك البلد، وذلك سنة إحدى وسبعين.

وملك ملك شاه بعد ذلك حلب واستولى السلجوقية على الشام أجمع، وزحف أمير الجيوش بدر الجمالي من مصر في العساكر، إلى دمشق وبها تاج الدولة تتش فحاصره وضيق عليه، وامتنع عليه ورجع، وزحفت عساكر مصر سنة اثنتين وثمانين إلى الشام فاسترجعوا مدينة صور من يد أولاد القاضي عين الدولة بن أبي عقيل، كان أبوهم قد انتزى عليها، ثم فتحوا مدينة صيدا ثم مدينة جبيل وضبط أمير الجيوش البلاد وولى عليها العمال.

وفي سنة أربع وثمانين استولى الفرنج على جزيرة صقلية، وكان أمير الجيوش قد ولى على مدينة صور منير الدولة الجيوشي من طائفته، فانتقض سنة ست وثمانين، وبعث إليه أمير الجيوش

العساكر فثار به أهل المدينة، واقتحمت عليهم العساكر وبعث منير الدولة إلى مصر في جماعة من أصحابه فقتلوا كلهم.

ثم توفي أمير الجيوش بدر الجمالي سنة سبع وثمانين في ربيع الأول لثمانين سنة من عمره.

وكان له موليان أمين الدولة لاويز ونصير الدولة أفتكين، فلما قضى بدر نحبه استدعى المستنصر لاويز ليقلده فأنكر ذلك أفتكين وركب في الجند وشغبوا على المستنصر، واقتحموا القصر وأسمعوه خشن الكلام فرجع إلى ولاية ولد بدر، وقدم للوزارة ابنه محمد الملك أبا القاسم شاه، ولقبه بالأفضل مثل لقب أبيه.

وكان أبو القاسم بن المقري رديفاً لبدر في وزارته بما كان اختصه لذلك، فولي بعد موته الوزارة المقري وكانت عندهم عبارة عن التوقيع بالقلم الغليظ.

وقام الأفضل أبو القاسم بالدولة وجرى على سنن أبيه في الاستبداد، وكانت وفاة المستنصر قريباً من ولايته.

وفاة المستنصر وولاية ابنه المستعلي

ثم توفي المستنصر معد بن الظاهر يوم التروية سنة سبع وثمانين لستين سنة من خلافته ويقال: لخمس وستين بعد أن لقي أهوالاً وشدائد، وانفتقت عليه فتوق استهلك فيها أمواله وذخائره حتى لم يكن له إلا بساطه الذي يجلس عليه، وصار إلى حد العزل والخلع، حتى تدارك أمره باستقدام بدر الجمالي من عكا فتقوم أمره، ومكنه في خلافته.

ولما مات خلف من الولد أحمد ونزاراً وأبا القاسم، وكان المستنصر فيما يقال قد عهد لنزار، وكانت بينه وبين أبي القاسم الأفضل عداوة، فخشي بادرته وداخل عمته في ولاية أبي القاسم، على أن تكون لها كفالة الدولة، فشهدت بأن المستنصر عهد له بمحضر القاضي والداعي فبويع ابن ست، ولقب المستعلي بالله، وأكره أخوه الأكبر على بيعته، ففر إلى الإسكندرية بعد ثلاث، وبها نصير الدولة أفتكين مولى بدر الجمالي الذي سعى للأفضل، فانتقض وبايع لنزار بعهده ولقب المصطفى لدين الله.

وسار الأفضل بالعساكر وحاصرهم بالإسكندرية واستنزلهم على الأمان، وأعطاهم اليمين على ذلك، وأركب نزاراً السفن إلى القاهرة وقتل بالقصر.

وجاء الأفضل ومعه أفتكين أسيراً فأحضره يوماً ووبخه، فهم بالرد عليه فقتل بالضرب بالعصي، وقال: لا يتناول اليمن هذه للقتلة، ويقال: إن الحسين بن الصباح رئيس الإسماعيلية بالعراق قصد المستنصر في زي تاجر، وسأله إقامة الدعوة له ببلاد العجم فأذن له في ذلك، وقال له الحسين: من إمامي بعدك؟ فقال: ابني نزار فسار ابن الصباح ودعا الناس ببلاد العجم إليه سراً.

ثم أظهر أمره وملك القلاع هنالك مثل قلعة الموت وغيرها كما نذكره في أخبار الإسماعيلية، وهم من أجل هذا الخبر يقولون بإمامة نزار.

ولما ولي المستعلي خرج ثغر عن طاعته وولي عليه واليه كشيلة وبعث المستعلي العساكر فحاصره، ثم اقتحموا عليه وحملوه إلى مصر فقتل بها سنة إحدى وتسعين وأربعمائة.

وكان تتش صاحب الشام قد مات واختلف بعده ابناه رضوان ودقاق، وكان دقاق بدمشق ورضوان بحلب فخطب رضوان في أعماله للمستعلي بالله أياماً قلائل ثم عاود الخطبة للعباسيين.

استيلاء الفرنج على بيت المقدس

كان بيت المقدس قد أقطعه تاج الدولة تتش للأمير سليمان بن أرتق التركماني، وقارن ذلك استفحال الفرنج واستطالتهم على الشام، وخروجهم سنة تسعين وأربعمائة، ومروا بالقسطنطينية وعبروا خليجها، وخلى صاحب القسطنطينية سبيلهم ليحولوا بينه وبين صاحب الشام من السلجوقية والغز فنازلوا أولاً أنطاكية فأخذوها من يد باغيسيان، من قواد السلجوقية، وخرج منها هارباً فقتله بعض الأرمن في طريقه، وجاء برأسه إلى الفرنج بأنطاكية.

وعظم الخطب على عساكر الشام وسار كربوقا صاحب الموصل فنزل مرج دابق واجتمع إليه دقاق بن تتش، وسليمان بن أرتق، وطغتكين أتابك صاحب حمص وصاحب سنجار، وجمعوا من كان هنالك من الترك والعرب، وبادروا إلى أنطاكية لثلاثة عشر يوماً من حلول الفرنج بها.

وقد اجتمع ملوك الفرنج ومقدمهم بنميد، وخرج الفرنج وتصادموا مع المسلمين فانهزم المسلمون، وقتل الفرنج مهنم ألوفاً، واستولوا على معسكرهم، وساروا إلى معرة النعمان وحاصروها أياماً، وهربت حاميتها، وقتلوا منها نحواً من مائة ألف، وصالحهم ابن منقذ على بلده شيزر، وحاصروا حمص فصالحهم عليها جناح الدولة، ثم حاصروا عكة فامتنعت عليهم، وأدرك عساكر الغز من الوهن ما لا يعبر عنه فطمع أهل مصر فيهم، وسار الأفضل بن بدر بالعساكر لاسترجاع بيت المقدس فحاصرها، وبها سقمان وأبو

الغازي ابنا أرتق وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سوتج، ونصبوا عليها نيفاً وأربعين منجنيقاً، وأقاموا عليها نيفاً وأربعين يوماً، ثم ملكوها بالأمان في سنة تسعين.

وأحسن الأفضل إلى سقمان وأبي الغازي ومن معهما، وخلى سبيلهم، فسار سقمان إلى بلد الرها وأبو الغازي إلى بلد العراق، وولى الأفضل على بيت المقدس ورجع إلى مصر.

ثم سارت الفرنج إلى بيت المقدس وحاصروه نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه برجين ثم اقتحموها من الجانب الشمالي لسبع بقين من شعبان، واستباحوها أسبوعاً، ولجأ المسلمون إلى محراب داود عليه السلام واعتصموا به إلى أن استنزلهم الفرنج بالأمان، وخرجوا إلى عسقلان وقتل بالمسجد عند الشجرة سبعون ألفاً، وأخذوا من المسجد نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة يزن كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمائة، وتنوراً من الفضة يزن أربعين رطلاً بالشامي، ومائة وخمسين قنديلاً من الصفر وغير ذلك مما لا يحصى.

وأجفل أهل بيت المقدس وغيرهم من أهل الشام إلى بغداد باكين على ما أصاب الإسلام ببيت المقدس من القتل والسبي والنهب.

وبعث الخليفة أعيان العلماء إلى السلطان بركيارق وإخوته محمد وسنجر بالمسير إلى الجهاد فلم يتمكنوا من ذلك، للخلاف الذي كان بينهم، ورجع الوفد مؤيسين من نصرهم.

وجمع الأفضل أمير الجيوش بمصر العساكر وسار إلى الفرنج، فساروا إليهم وكبسوهم على غير أهبة فهزموهم، وافترق عسكر مصر وقد لاذوا بخم الشعراء هناك فأضرموها عليهم ناراً فاحترقوا وقتل من ظهر، ورجع الفرنج إلى عسقلان فحاصروها حتى أنزلوا لهم عشرين ألف دينار فارتحلوا.

وفاة المستعلي وولاية ابنه الآمر

ثم توفي المستعلي أبو القاسم أحمد بن المستنصر منتصف صفر سنة خمس وتسعين لسبع سنين من خلافته، فبويع ابنه أبو علي ابن خمس سنين ولقب الآمر بأحكام اللّه، ولم يل الخلافة فيهم أصغر منه ومن المستنصر، فكان هذا لا يقدر على ركوب الفرس وحده.

هزيمة الفرنج لعساكر مصر

ثم بعث الأفضل أمير الجيوش بمصر العساكر لقتال الفرنج مع سعد الدولة الفراسي أميراً مملوك أبيه، فلقي الفرنج بين الرملة ويافا ومقدمهم بغدوين فقاتلهم، وانهزم وقتل واستولى الفرنج على معسكره فبعث الأفضل ابنه شرف المعالي في العساكر فبارزوهم قرب الرملة وهزمهم، واختفى بغدوين في الشجر ونجا إلى الرملة مع جماعة من زعماء الفرنج، فحاصرهم شرف المعالي خمسة عشر يوماً حتى أخذهم فقتل منهم أربعمائة صبراً، وبعث ثلاثمائة إلى مصر ونجى بغدوين للغزو، وسار بهم إلى عسقلان فهرب شرف المعالي وعاد إلى أبيه.

وملك الفرنج عسقلان وبعث العساكر في البر مع تاج العجم مولى أبيه إلى عسقلان، وبعث الأسطول في البحر إلى يافا مع القاضي ابن قادوس فبلغ إلى يافا واستدعى تاج العجم وحبسه.

وبعث جمال الملك من مواليه إلى عسقلان مقدم العساكر الشامية.

ثم بعث الأفضل سنة ثمان وتسعين ابنه سنا الملك حسين وأمر جمال الملك بالسير معه لقتال الفرنج، فساروا في خمسة آلاف واستمدوا طغتكين أتابك دمشق، فأمدهم بألف وثلاثمائة، ولقوا الفرنج بين عسقلان ويافا فتفانوا بالقتل وتحاجزوا، وافترق المسلمون إلى عسقلان ودمشق، وكان مع الفرنج بكتاش بن تتش عدل عنه طغتكين بالملك إلى ابن أخيه دقاق بن تتش، فلحق بالإفرنج مغاضباً.

استيلاء الفرنج على طرابلس وبيروت

كانت طرابلس رجعت إلى صاحب مصر وكان يحاصرها من الفرنج ابن المرداني صاحب صيحيل، والمدد يأتيهم من مصر.

فلما كانت سنة ثلاث وخمسين وصل أسطول من الفرنج مع ويعتدين إلى صيحيل من قمامصتهم فنزل على طرابلس، وتشاجر مع المرداني فبادر بغدوين صاحب القدس وأصلح بينهم، ونزلوا جميعاً على طرابلس وألصقوا أبراجهم بسورها، وتأخرت الميرة عنهم من مصر في البحر لركود البحر فاقتحمها الفرنج عنوة ثاني الأضحى من سنة ثلاث وخمسين، وقتلوا ونهبوا وأسروا وغنموا.

وكان واليها قد استأمن قبل فتحها في جماعة من الجند

فلحقوا بدمشق، ووصل الأسطول بالمدد وكفاية سنة من الأقوات بعد فتحها ففرقوه في صور وصيدا وبيروت، واستولى الفرنج على معظم سواحل الشام.

وإنما خصصنا هذه بالذكر في الدولة العلوية لأنها كانت من أعمالهم، وسنذكر البقية في أخبار الفرنج إن شاء اللّه تعالى.

استرجاع أهل مصر عسقلان

كان الآمر قد استولى على عسقلان وبها قائد من قواد شمس الخلافة، فداخل بغدوين صاحب بيت المقدس من الفرنج وهاداه ليمتنع به على أهل مصر، وجهز أمير الجيوش عسكراً من مصر للقبض عليه إذا حضر وشعر بذلك، وانتقض وأخرج من عنده من أهل مصر، وخاف الأفضل أن يسلم عسقلان إلى الفرنج فأقره على عمله، وارتاب شمس الخلافة بأهل عسقلان واتخذ بطانة من الأرمن فاستوحش أهل البلد فثاروا به وقتلوه، وبعثوا إلى الآمر والأفضل بذلك، فأرسل إليهم الوالي من مصر وأحسن إليهم واستقامت أحوالهم.

وحاصر بغدوين بعد ذلك مدينة صور وفيها عساكر الأرمن واشتد في حصارها بكل نوع، وكان بها عز الملك الأعز من أولياء الأمر فاستمد طغتكين أتابك دمشق فأمده بنفسه وطال الحصار، وحضر أوان الغلال فخشي الفرنج أن يفسد طغتكين غلال بلدهم فأفرجوا عنها إلى عكا وكفى اللّه شرهم.

ثم زحف بغدوين ملك الفرنج من القدس إلى مصر وبلغ سنتين وسبح في النيل فانتقض عليه جرح كان به، وعاد إلى القدس ومات، وعهد بملك القدس للقمص صاحب الرها، ولولا ما نزل بملوك السلجوقية من الفتنة لكانوا قد استرجعوا من الفرنج جميع ما ملكوه من الشام، ولكن اللّه خبأ ذلك لصلاح الدين بن أيوب حتى فاز بذكره.

مقتل الأفضل

قد قدمنا أن الآمر ولاه الأفضل صغيرا ابن خمس، فلما استجمع واشتد تنكر للأفضل وثقلت وطأته عليه فانتقل الأفضل إلى مصر وبنى بها داراً ونزلها، وخطب منه الأفضل ابنته فزوجها على كره منه وشاور الآمر أصحابه في قتله، فقال له ابن عمه عبد المجيد وكان ولي عهده: لا تفعل وحذره سوء الأحدوثة لما اشتهر بين الناس من نصحه ونصح أبيه وحسن ولايتهما للدولة، ولابد من إقامة غيره والاعتماد عليه فيتعرض للحذر من مثلها إلى الامتناع منه.

ثم أشار عليه من مداخلة ثقته أبي عبد اللّه بن البطائحي في مثل ذلك فإنه يحسن تدبيره ويضع عليه من يغتاله، ويقتل به فيسلم عرضك.

وكان ابن البطائحي فراشاً بالقصر، واستخلصه الأفضل ورقاه واستحجبه، فاستدعاه الآمر وداخله في ذلك، ووعده بمكانه فوضع عليه رجلان فقتلاه بمصر وهو سائر في موكبه من القاهرة منقلباً من خزانة السلاح في سنة خمس عشرة وخمسمائة، كان يفرق السلاح على العادة في الأعياد وثار الغبار في طريقه فانفرد عن الموكب فبدره الرجلان وطعناه فسقط، وقتلا، وحملاه إلى داره وبه رمق فجاءه الآمر متوجعاً وسأله عن ماله فقال: أما الظاهر فأبو الحسن بن أبي أسامة يعرفه، وكان أبوه قاضياً بالقاهرة وأصله من حلب، وأما الباطن فإن البطائحي يعرفه.

ثم قضى الأفضل نحبه لثمان وعشرين سنة من وزارته، واحتاط الآمر على داره فوجد له ستة آلاف كيس من الذهب العين، وخمسين أردبا من الورق، ومن الديباج الملون والمتاع البغدادي والإسكندري وطرف الهند وأنواع الطيوب والعنبر والمسك ما لا يحصى، حتى لقد كان من ذخائره دكة عاج وأبنوس محلاة بالفضة عليها عرم مثمن من العنبر زنته ألف رطل، وعلى العرم مثل طائر من الذهب برجلين مرجاناً ومنقار زمردًا وعينان ياقوتتان كان ينصبها في بيته ويضوع عرفها فيعم القصر وصارت إلى صلاح الدين.

ولاية ابن البطائحي

قال ابن الأثير: كان أبوه من جواسيس الأفضل بالعراق، ومات لم يخلف شيئاً، ثم ماتت أمه وتركته معلقاً، فتعلم البناء أولا ثم صار يحمل الأمتعة بالأسواق، ويدخل بها على الأفضل فخف عليه واستخدمه مع الفراشين، وتقدم عنده واستحجبه، ولما قتل الأفضل ولاه الآمر مكانه وكان يعرف بابن فاتت وابن القائد فدعاه الآمر جلال الإسلام، ثم خلع عليه بعد سنتين من ولايته للوزارة ولقبه المأمون، فجرى على سنن الأفضل في الاستبداد ونكر ذلك الآمر وتنكر له، واستوحش المأمون وكان له أخ يلقب المؤتمن فاستأذن الآمر في بعثه إلى الإسكندرية لحمايتها ليكون له ردءاً هنالك فاذن له، وسار معه القواد وفيهم علي بن السلار وتاج الملوك قائمين، وسنا الملك الجمل ودري الحروب وأمثالهم،

وأقام المأمون على استيحاش من الآمر وكثرت السعاية فيه وأنه يدعي أنه ولد نزار من جارية خرجت من القصر حاملاً به، وأنه بعث ابن نجيب الدولة إلى اليمن يدعو له، فبعث الآمر إلى اليمن في استكشاف ذلك.

مقتل البطائحي

ولما كثرت السعاية فيه عند الآمر وتوغر صدره عليه، كتب إلى القواد الذين كانوا مع أخيه بثغر الإسكندرية بالوصول إلى دار الخلافة فهم لذلك علي بن سلار فحضروا، واستأذن المؤتمن بعدهم في الوصول فأذن له.

وحضر رمضان من سنة تسع عشرة فجاؤوا إلى القصر للإفطار على العادة، ودخل المأمون والمؤتمن فقبض عليهما وحبسهما داخل القصر، وجلس الآمر من الغد في إيوانه وقرأ عليه وعلى الناس كتاباً بتعديد ذنوبهم، وترك الآمر رتبة الوزارة خلواً، وأقام رجلين من أصحاب الدواوين يستخرجان الأموال من الخراج والزكاة والمكس، ثم عزلهما لظلمهما.

ثم حضر الرسول الذي بعثه إلى اليمن ليكشف خبر المأمون، وحضر ابن نجيب وداعيته فقتل وقتل المأمون وأخوه المؤتمن.

مقتل الآمر وخلافة الحافظ

كان الآمر مؤثراً للذاته طموحاً إلى المعالي وقاعداً عنها، وكان يحدث نفسه بالنهوض إلى العراق في كل وقت، ثم يقصر عنه وكان يقرض الشعر قليلاً ومن قوله:

أصبحت لا أرجو ولا أتقي ... إلا إلهي وله الفضل

جدي نبي وإمامي أبي ... ومذهبي التوحيد والعدل

وكانت الفداوية تحاول قتله فيتحرر منهم، واتفق أن عشرة منهم اجتمعوا في بيت، وركب بعض الأيام إلى الروضة، ومر على الجسر بين الجزيرة ومصر فسبقوه فوقفوا في طريقه، فلما توسط الجسر انفرد عن الموكب لضيقه، فوثبوا عليه وطعنوه وقتلوا لحينهم، ومات هو قبل الوصول إلى منزله سنة أربع وعشرين وخمسمائة، لتسع وعشرين سنة ونصف من خلافته.

وكان قد استخلص مملوكين وهما برغش العادل وبرعوارد هزبر الملوك، وكان يؤثر العادل منهما، فلما مات الآمر تحيلوا في قيام المأمون عبد الحميد بالأمر وكان أقرب القرابة سناً وأبوه أبو القاسم بن المستضيء معه، وقالوا: إن الآمر أوصى بأن فلانة حامل فدلته الرؤيا بأنها تلد ذكراً فهو الخليفة بعدي، وكفالته لعبد الحميد فأقاموه كافلاً ولقبوه الحافظ لدين الله، وذكروا من الوصية أن يكون هزبر الملوك وزيراً والسعيدباس من موالي الأفضل صاحب الباب، وقرأوا السجل بذلك في دار الخلافة.

ولاية أبي علي بن الأفضل الوزارة ومقتله

ولما تقرر الأمر على وزارة هزبر الملوك، وخلع عليه أنكر ذلك الجند وتولى كبر ذلك رضوان بن ولخش كبيرهم.

وكان أبو علي بن الأفضل حاضراً بالقصر فحثه برغش العادل على الخروج حسداً لصاحبه، وأوجد له السبيل إلى ذلك فخرج، وتعلق به الجند وقالوا: هذا الوزير ابن الوزير، وتنصل فلم يقبلوا، وضربوا له خيمة بين القصرين وأحدقوا به، وأغلقت أبواب القصر فتسوروه وولجوا من طيقانه.

واضطر الحافظ إلى عزل هزبر الملوك، ثم قتله وولي أبو علي أحمد بن الأفضل الوزارة، وجلس بدست أبيه وورد الناس أموال الوزارة المقضية.

واستبد على الحافظ ومنعه من التصرف، ونقل الأموال من الذخائر والقصر إلى داره، وكان إمامياً متشدداً فأشار عليه الإمامية بإقامة الدعوة للقائم المنتظر.

وضرب الدراهم باسمه دون الدنانير ونقش عليها: الله الصمد الإمام محمد، وهو الإمام المنتظر، وأسقط ذكر إسماعيل من الدعاء على المنابر، وذكر الحافظ وأسقط من الأذان حي على خير العمل، ونعت نفسه بنعوت أمر الخطباء بذكرها على المنابر، وأراد قتل الحافظ بمن قتله الآمر من أخوته، فإن الآمر أجحفهم عند نكبة الأفضل وقتلهم، فلم يقدر أبو علي على قتله فخلعه واعتقله.

وركب بنفسه في المواسم وخطب للقائم مموهاً فتنكر له أولياء الشيعة ومماليك الخلفاء، وداخل يأنس الجند من كتامة وغيرهم في شأنه، واتفقوا على قتله، وترصد له قوم من الجند فاعترضوه خارج البلد، وهو في موكبه وهم يتلاعبون على الخيل، ثم اعتمدوه فطعنوه وقتلوه، وأخرجوا الحافظ من معتقله وجددوا له البيعة بالخلافة، ونهب دار أبي علي.

وركب الحافظ وحمل ما بقي فيها إلى القصر واستوزر أبا الفتح يانساً الحافظي، ولقبه أمير الجيوش، وكان عظيم الهيبة بعيد

الغور، واستبد عليه فاستوحش كل منهما بصاحبه.

ويقال: إن الحاكم وضع له سمّاً في المستراح هلك به وذلك آخر ذي الحجة سنة ست وعشرين.

قيام حسن بن الحافظ بأمر الدولة ومكره بأبيه ومهلكه

ولما هلك يأنس أراد الحافظ أن يخلي دست الوزارة ليستريح من التعب الذي عرض منهم للدولة، وأجمع أن يفوض الأمور إلى ولده، وفوض إلى ابنه سليمان.

ومات لشهرين، فأقام ابنه الآخر حسناً فحدثته نفسه بالخلافة، وعزم على اعتقال أبيه، وداخل الأجناد في ذلك فأطاعوه، واطلع أبوه على أمره ففتك بهم يقال: إنه قتل منهم في ليلة أربعين، وبعث أبوه خادماً من القصر لقتله فهزمه حسن وبقي الحافظ محجوراً، وفسد أمره وبعث حسن بهرام الأرمني لحشد الأرمن ليستظهر بهم على الجند، وثاروا بحسن وطلبوه من أبيه، ووقفوا بين القصرين وجمعوا الحطب لإحراق القصر واستبشع الحافظ قتله بالحديد فأمر طبيبه ابن فرقة عنه في ذلك سنة تسع وعشرين.

وزارة بهرام ورضوان بعده

ولما مات حسن بن الحافظ ورحل بهرام لحشد الأرمن اجتمع الجند وكان بهرام كبيرهم وراودوا الحافظ على وزارته فوافقهم وخلع عليه وفوض إليه الأمور السلطانية، واستثنى عليه الشرعية، وتبعه تاج الدولة أفتكين في الدولة، واستعمل الأرمن وأهانوا المسلمين.

وكان رضوان بن ولخيس صاحب الباب، وهو الشجاع الكاتب من أولياء الدولة، وكان ينكر على بهرام ويهزأ به، فولاه بهرام الغربية، ثم جمع رضوان وأتى إلى القاهرة ففر بهرام وقصد قوص في ألفين من الأرمن، ووجد أخاه قتيلاً فلم يعرض لأهل قوص، وباء بحق الخلافة، وصعد إلى أسوان فامتنعت عليه بكنز الدولة.

ثم بعث رضوان العساكر في طلبه مع أخيه الأكبر وهو إبراهيم الأوحد فاستنزله على الأمان له وللأرمن الذين معه، وجاء به فأنزله الحافظ في القصر إلى أن مات على دينه.

واستقر رضوان في الوزارة ولقب بالأفضل وكان سنيّاً، وكان أخوه إبراهيم إمامياً، فأراد الاستبداد وأخذ في تقديم معارفه سيفاً وقلماً.

وأسقط المكوس وعاقب من تصدى لها، فتغير له الخليفة فأراد خلعه، وشاور في ذلك داعي الدعاة وفقهاء الإمامية فلم يعينوه في ذلك بشيء.

وفطن له الحافظ فدس خمسين فارساً ينادون في الطرقات بالثورة عليه، وينهضون باسم الحافظ فركب لوقته هارباً منتصف شوال سنة ثلاث وثلاثين، ونهبت داره، وركب الحافظ وسكن الناس، ونقل ما فيها إلى قصره.

وسار رضوان يريد الشام ليستنجد الترك، وكان في جملته شاور وهو من مصطفيه، وأرسل الحافظ الأمير بن مصال ليرده على الأمان فرجع، وحبس في القصر، وقيل: وصل إلى سرخد فأكرمه صاحبها أمين الدولة كمستكين، وأقام عنده ثم رجع إلى مصر سنة أربع وثلاثين فقاتلهم عند باب القصر وهزمهم.

ثم افترق عنه أصحابه وأرادوا العود إلى الشام فبعث عنه الحافظ بن مصال وحبسه بالقصر إلى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وهرب إلى الجيزة، وجمع المغاربة وغيرهم ورجع إلى القاهرة ونزل عند جامع الأقمر، وأرسل إلى الحافظ في المال ليفرقه فبعث عشرين ألفاً على عادتهم مع الوزير، ثم استزاد عشرين وعشرين.

وفي خلال ذلك وضع الحافظ عليه جمعاً كثيراً من السودان فحملوا عليه وقتلوه وجاؤوا برأسه إلى الحافظ.

واستمر الحافظ في دولته مباشراً لأموره وأخلى رتبة الوزارة فلم يول أحداً بعده.

وفاة الحافظ وولاية ابنه الظافر

ثم توفي الحافظ لدين اللّه عبد الحميد بن الأمير أبي القاسم أحمد بن المستنصر سنة أربع وأربعين لتسع عشرة سنة ونصف من خلافته، وعن أبي العالية يقال: بلغ عمره سبعاً وسبعين سنة، ولم يزل في خلافته محجور الوزارة، ولما مات ولي بعده ابنه أبو منصور إسماعيل بعهده إليه بذلك ولقب الظافر بأمر اللّه.

وزارة ابن مصال ثم ابن السلار

كان الحافظ لما عهد لابنه الظافر أوصاه بوزارة ابن مصال فاستوزره أربعين يوماً وكان علي بن السلار والياً على الإسكندرية

ومعه بلارة بنت عمه القاسم وابنه منها عباس وتزوجت بعده بابن السلار، وشب عباس وتقدم عند الحافظ حتى ولي الغربية فلم يرض ابن السلار وزارة ابن مصال واتفق مع عباس على عزله، وبلغ الخبر إلى ابن مصال فشكا إلى الظافر فلم يشكه فقال ذوو الحروب: ليس هنا من يقاتل ابن السلار فغضب الظافر ودس عليه من بني علي مصلحيه فخرج إلى الصعيد، وقدم ابن السلار إلى القاهرة فاستوزره الظافر، وهو منكر له ولقبه العادل.

وبعث العساكر مع العباس ربيبه في اتباع ابن مصال فخرج في طلبه.

وكان جماعة من لواتة السودان فتحصنوا من عباس في جامع دولام فأحرقه عليهم، وقتل ابن مصال وجاء برأسه.

وقام ابن سلار بالدولة وحفظ النواميس وشد من مذاهبه أهله.

وكان الخليفة مستوحشاً منه منكراً له وهو مبالغ في النصيحة والخدمة.

واستخدم الرجالة لحراسته، فارتاب له صبيان الخاص من حاشية الخليفة فاعتزموا على قتله، ونمي ذلك إليه فقبض على رؤوسهم فحبسهم، وقتل جماعة منهم وافترقوا، ولم يقدر الظافر على إنكار ذلك.

واحتفل ابن السلار بأمر عسقلان، ومنعها من الفرنج وبعث إليها بالمدد كل حين من الأقوات والأسلحة فلم يغن ذلك عنها، وملكها الفرنج وكان لذلك من الوهن على الدوله ما تحدث به الناس.

ولما قتل العادل بن السلار صبيان الخاص تأكد نكر الخليفة له، واشتد قلقه.

وكان عباس بن أبي الفتوح صديقاً ملاطفاً له فكان يسكنه ويهديه، وكان لعباس ولد اسمه نصير، استخصه الظافر واستدناه، ويقال كان يهواه، ففاوض العادل عباساً في شأن ابنه عن مخالطة ابنه للظافر فلم ينته ابنه، فنهى العادل جدته من السماح للولد أن يدخل إلى بيته فشق ذلك على نصير وعلى أبيه، وتنكر للعادل.

وزحف الفرنج إلى عسقلان فجهز العادل الجيوش والعساكر إليها مدداً مع ما كان يمدها به، وبعثهم مع عباس بن أبي الفتوح فارتاب لذلك، وفاوض للظافر في قتل العادل وحضر معهم مؤيداً لدولة الأمير أسامة بن منقذ أحد أمراء شيزر، وكان مقربا عند الظافر وصديقاً لعباس، فاستصوب ذلك وحث عليه، وخرج عباس بالعساكر إلى بلبيس، وأوصى إبنه نصير بقتله، فجاء في جماعة إلى بيت جدته، والعادل نائم فدخل إليه وضربه فلم يجهز عليه، وخرج إلى أصحابه.

ثم دخلوا جميعاً فقتلوه وجاؤوا برأسه إلى الظافر، ورجع عباس من بلبيس بالعساكر فاستوزره الظافر، وقام بالدولة وأحسن إلى الناس، وأيس أهل عسقلان من المدد فأسلموا أنفسهم وبلدهم بعد حصار طويل وكان ذلك كله سنة ثمان وأربعين.

مقتل الظافر وأخويه وولاية ابنه الفائز

ولما وزر عباس للظافر، وقام بالدولة، كان ولده نصير من ندمان الظافر، وكان يهواه كما تقدم.

وكان أسامة بن منقذ من خلصاء عباس وأصدقائه فقبح عليه سوء المقالة في ابنه، وأشارعليه بقتل الظافر فاستدعى ابنه نصيراً وقبح عليه في شناعة الأحدوثة فيه بين الناس، وأغراه باغتيال الظافر ليمحو عنه ما يتحدث به الناس، فسأل نصير من الظافر أن يأتي إلى بيته في دعوة فركب من القصر إليه فقتله نصير ومن جاء معه، ودفنهم في داره، وذلك في محرم سنة تسع وأربعين وباكر إلى القصر ولم ير الظافر، وسأل خدام القصر فأحسن العذر ورجع إلى أخوي الظافر يوسف وجبريل فخبرهما بركوب الظافر إلى دار نصير فقالا له: خبر الوزير، فلما جاء عباس من الغد أخبره بأنه ركب إلى بيت نصير ابنه ولم يعد فاستشاط غيظاً عليه، ورماه بأنه داخل أخويه في قتله.

ثم استدعاهما فقتلهما وقتل معهما ابناً هنالك لحسن بن الحافظ، ثم أخرج ابنه القاسم عيسى ابن خمس سنين وحمله على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له بالخلافة، ولقبه الفائز بالله ونقل عباس بسبب ذلك ما في القصر من الأموال والذخائر ما لا حد له.

وعند خروجه بأخويه رأى القتلى فاضطرب وفزع وبقي سائر أيامه يعتاده الصرع.

وزارة الصالح بن رزيك

ولما قتل الظافر وأخواه كما ذكرناه كتب النساء من القصر إلى طلائع بن رزيك وكان والياً على الأشمونين والبهنسة.

وجاء الخبر بأن الناس اختلفوا على عباس بسبب ذلك، فجمع وقصد القاهرة ولبس السواد حزناً ورفع على الرماح الشعور التي بعث بها النساء حزناً.

ولما عبر البحر خرج عباس وولده ودفعوا ما قدروا عليه من مال وسلاح من حاصل الدولة، ومعهما صديقهما أسامة بن منقذ فاعترضهم الفرنج، وقاتلوا فقتل عباس وأسر ولده ونجا أسامة إلى الشام، ودخل طلائع القاهرة في ربيع سنة تسع وخمسين، وجاء إلى القصر راجلاً.

ثم مضى إلى دار عباس ومعه الخادم الذي حضر لقتله فاستخرجه من التراب ودفنه عند آبائه، وخلع الفائز عليه الوزارة ولقبه الصالح.

وكان إماميا كاتباً أديباً فقام بأمر الدولة، وشرع في جمع الأموال والنظر في الولايات.

وكان الأوحد بن تميم من قرابة عباس والياً على تنيس، وكان لما سمع بفعلة قريبه عباس جمع وقصد القاهرة فسبقه طلائع، فلما استقل بالوزارة أعاده إلى عمله بدمياط وتنيس.

ثم بعث في فداء نصير بن عباس من الفرنج فجيء به وقتله وصلبه بباب زويلة.

ثم نظر في المزاحمين من أهل الدولة، ولم يكن أرفع رتبة من تاج الملوك قايماز وابن غالب، فوضع عليهما الجند فطلبوهما فهربا ونهب دورهما، وتتبع كبراء الأمراء بمثل ذلك حتى خلا الجو، ووضع الرقباء والحجاب على القصر، وثقلت وطأته على الحرم، ودبرت عمة الفائز في قتل الصالح، وفرقت الأموال في ذلك، ونمي الخبر إليه فجاء إلى القصر، وأمر الأستاذين والصقالبة بقتلها فقتلوها سراً، وصار الفائز في كفالة عمته الصغرى، وعظم اشتداد الفائز واستفحل أمره، وأعطى الولايات للأمراء واتخذ مجلساً لأهل الأدب يسامرون فيه، وكان يقرض الشعر ولا يجيده.

وولى شاور السعدي على قرضه، وأشار عليه حجابه بصرفه، واستقدمه فامتنع وقال: إن عزلني دخلت بلاد النوبة.

وعلى عهده كان استيلاء نور الدين محمود الملك العادل على دمشق من يد ابن طغتكين أتابك تتش سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

وفاة الفائز وولاية العاضد

ثم توفي الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر إسماعيل سنة خمس وخمسين، لست سنين من خلافته، فجاء الصالح بن رزيك إلى القصر وطلب الخدام بإحضار أبناء الخلفاء ليختار منهم، وعدل عن كبرائهم إلى صغرائهم لمكان استبداده، فوقع اختياره على أبي محمد عبد الله بن يوسف قتيل عباس فبايع له بالخلافة وهو غلام، ولقبه العاضد لدين الله وزوجه ابنته وجهزها بما لم يسمع مثله.

مقتل الصالح بن رزيك وولاية ابنه رزيك

ولما استفحل أمر الصالح وعظم استبداده بجباية الأموال والتصرف، وحجر العاضد تنكر له الحرم ودس إلى الأمراء بقتله.

وتولت كبر ذلك عمة العاضد الصغرى التي كانت كافلة الفائز بعد أختها.

واجتمع قوم من القواد والسودان منهم الريفي الخادم وابن الداعي والأمير بن قوام الدولة، وكان صاحب الباب وتواطؤوا على قتله، ووقفوا في دهليز القصر، وأخرج ابن قوام الدولة الناس أمامه وهو خارج من القصر، واستوقفه عنبر الريفي يحادثه، وتقدم ابنه رزيك فوثب عليه جماعة منهم وجرحوه، وضرب ابن الداعي الصالح فأثبته، وحمل إلى داره فبقي يجود بنفسه يومه ذلك، وإذا أفاق يقول: رحمك الله يا عباس. ومات من الغد.

وبعث إلى العاضد يعاتبه على ذلك فحلف على البراءة من ذلك، ونسبه إن العمة، وأحضر ابنه رزيك وولاه الوزارة مكان أبيه، ولقبه العادل فأذن له في الأخذ بثأره، فقتل العمة وابن قوام الدولة والأستاذ عنبر الريفي وقام بحمل الدولة، وأشير عليه بصرف شاور من قوص، وقد كان أبوه أوصاه ببقائه وقال له: قد ندمت على ولايته، ولم يمكني عزله، فصرفه وولى مكانه الأمير بن الرفعة فاضطرب شاور وخرج إلى طريق الواحات وجمع وقصد القاهرة، وجاء الخبر إلى رزيك فعجز عن لقائه، وخرج في جماعة من غلمانه بعدة أحمال من المال والثياب والجوهر، وانتهى إلى طفيحة، واعترضه ابن النضر وقبض عليه، وجاء به إلى شاور فاعتقله واعتقل معه أخاه، فأراد الهرب من محبسه فوشى به أخوه فقتل لسنة من ولايته ولتسع سنين من ولاية أبيه.

وزارة شاور ثم الضرغام من بعده

ودخل شاور القاهرة سنة ثمان وخمسين، ونزل بدار سعيد السعداء ومعه ولده طبن وشجاع والطازي، وولاه العاضد الوزارة ولقبه أمير الجيوش، وأمكنه من أموال بني رزيك فاستصفى معظمها، وزاد أهل الرواتب والجرايات عشرة أمثالها، واحتجب عن الناس، وكان الصالح بن رزيك قد أنشأ في لواتة أمراء

يسمون البرقية، وكان مقدمهم الضرغام، وكان صاحب الباب فنازع شاور في الوزارة لتسعة أشهر من ولايته، وثار عليه وأخرجه من القاهرة، فلحق بالشام وقتل ولده علياً وكثيراً من أمراء المصريين حتى ضعفت الدولة وخلت من الأعيان وأدى ذلك إلى خرابها.

مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى مصر مع شاور

ولما لحق شاور إلى الشام نزل على الملك العادل نور الدين بدمشق صريخاً، وشرط له ثلث الجباية على أن يقيم له العساكر.

وجهز نور الدين شيركوه وكان مقدماً في دولته ويذكر سبب اتصاله به في موضعه، فساروا في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين، وقد تقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه بأن يعيد شاور إلى وزارته وينتقم له ممن نازعه وسار نور الدين بعساكره إلى طرف بلاد الفرنج ليمنعهم من اعتراض أسد الدين إن هموا به، ولما وصل أسد الدين وشاور إلى بلبيس لقيهم ناصر الدين همام وفخر الدين همام أخو الضرغام في عساكر مصر فهزموه، ورجع إلى القاهرة وقتل رفقاؤه الأمراء البرقية الذين أغروه بشاور.

ودخل أسد الدين القاهرة ومعه أخو الضرغام أسيراً وفر الضرغام فقتل بالجسر عند مشهد السيدة نفيسة، وقتل أخواه وعاد شاور إلى وزارته وتمكن منها، ثم نكث عهده مع أسد الدين وسلطانه وصرفه إلى الشام.

فتنة أسد الدين مع شاور وحصاره

ولما رجع أسد الدين من مصر إلى الشام أقام بها في خدمة نور الدين.

ثم استأذن نور الدين العادل سنة اثنتين وستين في العود إلى مصر فأذن له، وجهزه في العساكر وسار إلى مصر ونازل بلاد الفرنج في طريقه.

ثم وصل إلى أطفيح من ديار مصر، وعبر النيل إلى الجانب الغربي ونزل الجيزة، وتصرف في البلاد الغربية نيفاً وخمسين، واستمد شاور الفرنج، وجاء بهم إلى مصر وخرج معهم للقاء أسد الدين شيركوه فأدركوه بالصعيد، فرجع للقائهم على رهب لكثرة عددهم وصدقهم القتال فهزمهم على قلة من معه، فإنهم لم يبلغوا ألفي فارس.

ثم سار إلى الإسكندرية وهو يجبي الأموال في طريقه إلى أن وصلها، فاستأمن أهلها وملكها، وولى عليها صلاح الدين يوسف بن أخيه نجم الدين أيوب، ورجع إلى جباية الصعيد.

واجتمعت عساكر مصر والفرنج على القاهرة وأزاحوا عليهم وساروا إلى الإسكندرية وحاصروا بها صلاح الدين فسار أسد الدين إليهم من الصعيد، ثم خذله بعض من معه من التركمان بمداخلة شاور، وبعثوا له إثر ذلك في الصلح فصالحهم ورد إليهم الإسكندرية، ورجع إلى دمشق فدخلها آخر ذي القعدة من سنة اثنتين وستين.

واستطال الفرنج على أهل مصر وشرطوا عليهم أن ينزلوا القاهرة وشحنة، وأن تكون أبوابها بأيديهم لئلا تدخل عساكر نور الدين، وقرر ضريبة يحملها كل سنة فأجابه إلى ذلك.

رجوع أسد الدين إلى مصر ومقتل شاور ووزارته

ثم طمع الإفرنج في مصر، واستطالوا على أهلها وملكوا بلبيس، واعتزموا على قصد القاهرة.

وأمر شاور بتخريب مصر خشية عليها منهم فحرقت ونهب أهلها، ونزل الفرنج على القاهرة، وأرسل العاضد إلى نور الدين يستنجده، وخشي شاور من اتفاق العاضد ونور الدين، فداخل الفرنج في الصلح على ألفي ألف دينار مصرية معجلة وعشرة آلاف أردب من الزرع، وحذرهم أمر القهر إلى ذلك وكان فيه السفير الجليس بن عبد القوي وكان الشيخ الموفق كاتب السر وكان العاضد قد أمرهم بالرجوع إلى رأيه وقال: هو رب الحرمة علينا وعلى آبائنا، وأهل النصيحة لنا.

فأمر الكامل شجاع بن شاور القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني أن يأتيه ويشاوره، فقال له: قل لمولانا -يعني العاضد-: إن تقرير الجزية للفرنج خير من دخول الغز للبلاد واطلاعهم على الأحوال.

ثم بعث نور الدين العساكر مع أسد الدين شيركوه مدداً للعاضد، كما سأل وبعث معه صلاح الدين ابن أخيه وجماعة الأمراء، فلما سمع الفرنج بوصولهم أفرجوا عن القاهرة ورجعوا إلى بلادهم.

وقال ابن الطويل -مؤرخ دولة العبيديين-: إنه هزمهم على القاهرة ونهب معسكرهم ودخل أسد الدين إلى القاهرة في جمادى

سنة أربع وستين وخلع عليه العاضد ورجع إلى معسكره، وفرضت له الجرايات.

وبقي شاور على ريبة وخوف وهو يماطله فما يعين له من الأموال، ودس العاضد إلى أسد الدين بقتل شاور وقال: هذا غلامنا، ولا خير لك في بقائه ولا لنا، فبعث عليه صلاح الدين ابن أخيه، وعز الدين خرديك.

وجاء شاور إلى أسد الدين على عادته فوجده عند قبر الإمام الشافعي فسار إليه هنالك فاعترضه صلاح الدين وخرديك فقتلاه، وبعثا برأسه إلى العاضد، ونهبت العامة دوره، واعتقل ابناه شجاع والطازي وجماعة من أصحابه بالقصر، وخلع عليه للوزارة، واستقر في الأمر، وغلب على الدولة، وأقطع البلاد لعساكره.

واستعد أصحابه في ولايتها ورد أهل مصر إلى بلدهم، وأنكر ما فعلوه في تخريبها.

ثم اجتمع بالعاضد مرة أخرى وقال له جوهر الأستاذ: يقول لك مولانا: لقد تيقنا أن الله ادخرك نصرة لنا على أعدائنا، فحلف له أسد للدين على النصيحة فقال له: الأمل فيك أعظم، وخلع عليه وحسن عنده موقع الجليس بن عبد القوي، وكان داعي الدعاة وقاضي القضاة فأبقاه على مراتبه.

وفاة أسد الدين وولاية صلاح الدين الوزارة

ثم توفي أسد الدين رحمه الله تعالى لشهرين في أيام قلائل من وزارته وقيل: لأحد عشر شهراً وأوصى أصحابه أن لا يفارقوا القاهرة.

ولما توفي كان معه جماعة من الأمراء النورية، منهم عين الدولة الفاروقي وقطب الدين نسال وعين الدين المشطوب الهكاوي، وشهاب الدين محمود الحازمي، فتنازعوا في طلب الرياسة وفي الوزارة، وجمع كل أصحابه للمغالبة.

ومال العاضد إلى صلاح الدين لصغره وضعفه عنهم، ووافقه أهل دولته على ذلك بعد أن ذهب كثير منهم إلى دفع الغز وعساكرهم إلى الشرقية، ويولي عليهم قراقوش.

ومال آخرون إلى وزارة صلاح الدين، ومال العاضد إلى ذلك لمكافأته عن خدمته السالفة، فاستدعاه وولاه الوزارة، واضطرب أصحابه وكان الفقيه عيسى الهكاري من خلصاء صلاح الدين فاستمالهم إليه إلا عين الدولة الفاروقي، فإنه سار إلى الشام

وقام صلاح الدين بوزارة مصر نائباً عن نور الدين يكاتبه بالأمير الأصفهسان ويشركه في الكتاب مع كافة الأمراء بالديار المصرية.

ثم استبد صلاح الدين بالأمور وضعف أمر العاضد وهدم دار المعرفة بمصر، وكانت حبساً، وبناها مدرسة للشافعية وبني دار الغزل كذلك للمالكية وعزل قضاة الشيعة وأقام قاضياً شافعياً في مصر، واستناب في جميع البلاد.

حصار الفرنج دمياط

ولما جاء أسد الدين وأصحابه إلى مصر وملكوها ودفعوهم عنها، ندموا على ما فرطوا فيها، وانقطع عنهم ما كان يصل إليهم وخشوا غائلة الغز على بيت المقدس، وكاتبوا الفرنج بصقلية والأندلس واستنجدوهم، وجاءهم المدد من كل ناحية فنازلوا دمياط سنة خمس وستين وبها شمس الخواص منكورسين فأمدها صلاح الدين بالعساكر والأموال مع بهاء الدين قراقوش وأمراء الغز، واستمد نور الدين واعتذر عن المسير إليها بشأن مصر والشيعة فبعث نور الدين العساكر إليها شيئاً فشيئاً، وسار بنفسه إلى بلاد الفرنج بسواحل الشام فضيق عليها، فأقلع الفرنج عن دمياط لخمسين يوماً من نزولها فوجدوا بلادهم خراباً، وأثنى العاضد على صلاح الدين في ذلك.

ثم بعث صلاح الدين غرابيه نجم الدين وأصحابه إلى مصر وركب العاضد للقائه تكرمة له.

واقعة الخصيان وعمارة

ولما استقام الأمر لصلاح الدين بمصر غص به الشيعة وأولياؤهم، واجتمع منهم العوريش، وقاضي القضاة ابن كامل والأمير المعروف والكاتب عبد الصمد، وكان فصيحاً، وعمارة اليمني الشاعر الزبيدي، وكان متولي كبرها فاتفقوا على استدعاء الفرنج لإخراج الغز من مصر، وجعلوا لهم نصيباً وافراً من ارتفاعها، وعمدوا إلى شيعي من خصيان القصر اسمه نجاح ولقبه مؤتمن الدولة، وكان قد ربى العاضد وصهره فأغروه بذلك، ورغبوا على أن يجمع رسول الفرنج بالعاضد فجمعه معه في بيته ملبساً بذلك، ولم يكن العاضد الذي حضر وأوهموه أنه عقد معه.

ثم اتصل الخبر بنجم الدين بن مضال من أولياء الشيعة، وكان نجم الدين قد اختصه صلاح الدين وولاه الإسكندرية، واستغضبه بهاء الدين قراقوش ببعض النزغات فظنوا أنه غضب

فاطلعوه على شأنهم، وأن يكون وزيراً وعمارة كاتب الدست وصاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات مكان الفاضل بن كامل قاضي القضاة داعي الدعاة، وعبد الصمد جابي الأموال والعوريش ناظراً عليه، فوافقهم ابن مضال ووشى بهم إلى صلاح الدين، فقبض عليهم وعلى رسول الفرنج، وقررهم في عدة مجالس.

واحضر زمام القصر وهو مختص بالغز ونكر عليه خروج العاضد إلى بيت نجاح فحلف على نفسه وعلى العاضد أن هذا لم يقع، وأخبر العاضد بطلب حضور نجاح مع مختص، فحضر واعترف بالحق أن العاضد لم يحضر، فتحقق صلاح الدين براءته.

وكان عمارة يجالس شمس الدولة تورنشاه فنقل لأخيه صلاح الدين أنه امتدحه بقصيدة يغريه فيها بالمضي إلى اليمن، ويحمله على الاستبداد وأنه تعرض فيها للجانب النبوي، يوجب استباحة دمه وهو قوله:

فاخلق لنفسك ملكاً لا تضاف به إلى سواك وأور النار في العلم
هذا ابن تومرت قد كانت ولايته كما يقول الورى لحماً على وضم
وكان أول هذا الدين من رجل سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

فجمعهم صلاح الدين وشنقهم في يوم واحد بين القصرين، وأخر ابن كامل عنهم عشرين يوماً ثم شنقه، ومر عمارة بباب القاضي الفاضل، فطلب لقاءه فمنع فقال: وهو سائر إلى المشنقة:

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص هو العجب

وفي كتاب ابن الأثير: أن صلاح الدين إنما اطلع على أمرهم من كتابهم الذي كتبوه إلى الفرنجة، عثر على حامله وقرىء الكتاب، وجيء به إلى صلاح الدين فقتل مؤتمن الخلافة لقرينة، وعزل جميع الخدام واستعمل على القصر بهاء الدين قراقوش، وكان خصياً أبيض، وغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة واجتمعوا في خمسين ألفاً وقاتلوا أجناد صلاح الدين بين القصرين، وخالفهم إلى بيوتهم فأضرمها ناراً، وأحرق أموالهم وأولادهم فانهزموا، وركبهم السيف.

ثم استأمنوا ونزلوا الجيزة وعبر إليهم شمس الدولة تورنشاه فاستلحمهم.

قطع الخطبة للعاضد وانقراض الدولة العلوية بمصر

كان نور الدين العادل يوم استقل صلاح الدين بملك مصر وضعف أمر العاضد بها، وتحكم في قصره يخاطبه في قطع دعوتهم من مصر والخطبة بها للمستضيء العباسي، وهو يماطل بذلك حذراً من استيلاء نور الدين عليه، ويعتذر بتوقع المخالفة من أهل مصر في ذلك فلا يقبل.

ثم ألزمه ذلك فاستأذن فيه أصحابه فأشاروا به، وأنه لا يمكن مخالفة نور الدين.

ووفد عليه من علماء العجم الفقيه الخبشاني، وكان يدعى بالأمير العالم، فلما رأى إحجامهم عن هذه الخطبة قال: أنا أخطبها فلما كان أول جمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة، صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستنصر فلم ينكر أحد عليه، فأمر صلاح الدين في الجمعة الثانية الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا خطبة العاضد ويخطبوا للمستضيء ففعلوا، وكتب بذلك إلى سائر أعمال مصر.

وكان العاضد في شدة من المرض فلم يعلمه أحد بذلك، وتوفي في عاشوراء من السنة، وجلس صلاح الدين للعزاء فيه واحتوى على قصر الخلافة بما فيه فحمله بهاء الدين قراقوش إليه، وكان في خزائنهم من الذخيرة ما لم يسمع بمثله من أصناف الجواهر واليواقيت والزمرد وحلي الذهب وآنية الفضة والذهب، ووجد ماعون القصر من الموائد والطسوت والأباريق والقدور والصحاف والخوان والبواقيل والمناير والطيافر والقباقب والأسورة، كل ذلك من الذهب.

ووجد من أنواع الطيوب واللباس والمذهبات والقرقبيات والمعلقات والوشي ما لا تقله الأوقار، ومن الكتب ما يناهز مائة وعشرين ألف سفر أعطاها للفاضل عبد الرحيم البيساني كاتبه وقاضيه، ومن الظهر والكراع والسلاح، ومن الخدم والوصائف خمسين ألفاً، ومن المال ما يملأ مائة بيت.

ثم حبس رجالهم ونساءهم حتى ماتوا، وكانت بالدولة عند عهد العزيز والحاكم قد خلا جوها من رجالات كتامة وتفرقوا في المشرق في سبيل ذلك الملك، وانقرضوا بانقراض أمر الشيعة وموت العاضد آخر خلفائهم، وأكلتهم الأقطار والوقائع شأن الدول كما ذكرناه من قبل.

ولما هلك العاضد وحول صلاح الدين الدعوة إلى العباسية، اجتمع قوم من الشيعة بمصر وبايعوا لداود بن العاضد، ونمي خبرهم إلى صلاح الدين فقبض عليهم وقتلهم، وأخرج داود من القصر وذلك سنة تسع وستين وخمسمائة.

ثم خرج بعد حين ابنه سليمان بن داود رضي اللّه تعالى عنه بالصعيد وحبس إلى أن هلك.

وظهر بعد حين بجهة فاس بالمغرب محمد بن عبد الله بن العاضد، ودعا هنالك وتسمى بالمهدي فقتل وصلب.

ولم يبق للعبيديين ذكر إلا في بلاد الحشيشة من العراق وهم دعاة الفداوية، وفي بلاد الإسماعيلية التي كانت فيها دعوتهم بالعراق.

وقام بها ابن الصباح في قلعة الموت وغيرها كما يذكر في أخبارهم، إلى أن انقرضت تلك الدعوة أجمع بانقطاع دعوة العباسيين ببغداد على يد هولاكو من ولد جنكزخان ملوك التتر سنة خمس وخمسين وستمائة، والأمر لله وحده.

هذه أخبار الفاطميين ملخصة من كتاب ابن الأثير ومن تاريخ دولتهم لابن الطوير وقليل من ابن المسبحي جمعت ما أمكنني منها ملخصاً والله ولي العون.

الخبر عن بني حمدون ملوك المسيلة والزاب بدعوة العبيديين ومآل أمرهم

كان علي بن حمدون أبوهم من أهل الأندلس وهو علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي يعرف بابن الأندلسي واتصل بعبيد الله وأبي القاسم بالمشرق قبل شأن الدعوة، وبعثوه من طرابلس إلى عبد الله الشيعي فأحسن اللقاء والانصراف، ولزمهم أيام اعتقالهم بسجلماسة، فلما استفحل ملكهم جذبوا أبا ضبيعة ورقوه إلى الرتب.

ولما رجع أبو القاسم من حركته إلى المغرب سنة خمس عشرة وثلاثمائة، واختط مدينة المسيلة، استعمل علي بن حمدون على بنائها وسماها المحمدية ولما تم بناؤها عقد له على الزاب وأنزله بها وشحنها بالأقوات التي كانت ميرة للعساكر عند محاصرة المنصور لأبي يزيد صاحب الحمار بجبل كتامة.

ولم يزل والياً على الزاب وربى ابنيه جعفراً ويحيى بدار أبي القاسم وكان جعفر سار إلى المعز.

ولما كانت فتنة أبي يزيد وأضرمت إفريقية ناراً وفتنة، وأهاب القائم بالأولياء من كل ناحية، كتب إلى ابن حمدون أن يجند قبائل البربر ويوافيه، فنهض إلى المهدية في عسكر ضخم بقسنطينة وهو يحتشد كل من مر به في طريقه حتى وصل إلى شق بنارية.

ثم قارب باجة وكان بها أيوب بن أبي يزيد في عسكر كبير من النكارية والبربر، فزحف إليهم وتناور الفريقان، ثم بيته أيوب فاستباح معسكره وتردى علي ابن حمدون من بعض الشواهق فهلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

ولما انقضت فتنة أبي يزيد عقد المنصور على المسيلة والزاب لجعفر بن علي بن حمدون، وأنزله بها وأخاه يحيى، واستجدوا بها سلطاناً ودولة، وبنوا القصور والمنتزهات، واستفحل بها ملكهم وقصدهم بها العلماء والشعراء، وكان فيمن قصدهم ابن هانئ شاعر الأندلس، وأمداحه فيهم معروفة مذكورة.

وكان بين جعفر هذا وبين زيري بن مناد عداوة جرتها المنافسة والمساماة في الدولة، فساء أثر زيري فيه عند صدمته للمغرب وفتكه بزناتة، وسعوا به إلى الخليفة وألقح له في جوانحه العداوة فكانت داعيته إلى زناتة.

وتولى محمد بن خزر أمير مغراوة.

ثم إن المعز لما اعتزم على الرحيل إلى القاهرة سنة اثنتين وثلاثمائة استقدم جعفرا فاستراب جعفر ومال بعسكره إلى زناتة قبل قدومه، وانقطعت الرسائل بينه وبين صنهاجة والخليفة المعز، وشملت عليه زناتة قبل قدومه واجتمعوا عليه، ودعا إلى نقض طاعة المعز والدعاء للحاكم المستنصر، فوجدهم أقدم إجابة لها، وناهضهم زيري الحرب قبل استكمال التعبية، فكانت عليه من أمراء زناتة فكبا بزيري فرسه فطاح، فقصوا رأسه وبعثوا به مع جماعة من زناتة إلى الحاكم المستنصر، فكرم الحاكم وفادتهم ونصب رأس زيري بسوق قرطبة، وأسنى جوائز الوفد ورفع منزلة يحيى بن علي وأذن لجعفر في اللحاق بسدته.

ولما علمت زناتة أن يوسف بن زيري يطالبهم بدم أبيه أظهروا الغدر به، ورأى أن يتجنب مجابهتهم لضيق ذات يده، وعجز رؤساؤهم عن الذب والدفاع عنها، وقبضت الأيدي عن تناوله لدنو الفتنة ومراس العصبية، فأوجس الخيفة في نفسه والطف الحيلة في الفرار رغبة بحيلته، وشحن السفن بما معه من المال والمتاع والرقيق، والحشم وذخيرة السلطان، وأجاز البحر ولحق بسدة الخلافة من قرطبة وأجاز معه عظماء الزناتيين معطين الصفقة على القيام بدعوته، والاحتطاب في جبل طاعته فكرم مثواهم وأجمل وفادتهم وأحسن منصرفهم وانقلبوا لحبته والتشيع له، ومناغاة الأدارسة للقيام في خدمته بالمغرب الأقصى، وبث دعوته، وتخلف عنهم أولاد علي بن حمدون بالحضرة وأقاموا بسدة الخلافة، ونظموا في طبقات الوزراء وأجريت عليهم سنيات الأرزاق والتحقوا على حديث عهدهم بالقوم من أولياء الدولة.

ثم كان بعد ذلك شأن اعتقالهم على طريق التأديب

لارتكابهم في منازعتهم أمراً خرقوا به حدود الآداب مع الخلافة، فاستدعوا إلى القصر واعتقلوا، ثم أطلقوا لأيام قلائل لما انغمس الحكم في علة الفالج، وركدت ريح المروانية بالمغرب، واحتاجت الدولة إلى رجالهم لسد الثغور ودفع العدو، واستدعي يحيى بن محمد بن هاشم من العدوة، وكان والياً على فاس والمغرب، وأداله الحاجب المصفحي لجعفر بن علي بن حمدون، وجمعوا بين الانتفاع في مقارعة زناتة بالعدوة والراحة مما يتوقع منه على الدولة عند من ولي الخلافة، لما كانوا صاروا إليه من النكبة وطروق المحنة فعقدوا له ولأخيه يحيى على المغرب، وخلعوا عليهما وأمكنوهما من مال وكسى فاخرة للخلع على ملوك العدوة، فنهض جعفر إلى المغرب سنة خمس وستين وضبطه، واجتمع إليه ملوك زناتة من بني يفرن ومغراوة وسجلماسة.

ولما هلك الحكم وولي هشام، وقام بأمره المنصور بن أبي عامر، اقتصر لأول قيامه على سبتة من بلاد العدوة فضبطها جند السلطان ورجال الدولة، وقلدها أرباب السيوف والأقلام من الأولياء والحاشية وعدل في ضبطه على ما وراء ذلك على ملوك زناتة ونقدهم بالجوائز والخلع وصار إلى إكرام وفودهم وإثبات من رغب الإثبات في ديوان السلطان منهم، فجدوا في ولاية الدولة وبث الدعوة، وفسد ما بين هذين الأميرين جعفر وأخيه، واقتطع يحيى مدينة البصرة لنفسه وذهب بأكثر الرجال، ثم كانت على جعفر النكبة التي نكبته بنو غواطة في غزاتة إياهم.

ثم استدعاه محمد بن أبي عامر لأول أمره لما رأى من الاستكانة إليه وشد أزره به ونقم عليه كراهته لما لقيه بالأندلس من الحكم، ثم أصحبه وتخلى لأخيه عن عمل المغرب، وأجاز البحر إلى ابن أبي عامر فحل منه بالمكان الأثير.

ولما زحف بلكين إلى المغرب سنة تسع وستين زحفته المشهورة خرج محمد بن أبي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمدافعته بنفسه، وأجاز جعفر بن علي إلى سبتة وعقد له على حرب بلكين وأمده بمائة حمل من المال، وانضمت إليه ملوك زناتة ورجع عنهم بلكين كما نذكره.

ولما رجع إلى ابن أبي عامر اغتاله في بعض ليالي معاقرتهم وأعد له رجالاً في طريقه من سمره إلى داره فقتلوه سنة ولحق يحيى بن علي بمصر ونزل بدار العزيز وتلقاه بالمبرة والتكريم، وطال به ثواؤه واستكفى به العظائم، ولما استصرخ فلفول بن خزرون بالحاكم في استرجاع طرابلس من يد صنهاجة المتغلبين عليه، دفع إليه العساكر وعقد عليها ليحيى بن علي، واعترضه بنو قرة من الهلاليين ببرقة ففلوه وفضوا جموعه ورجع إلى مصر ولم يزل بمصر إلى أن هلك هنالك، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن القرامطة واستبداد أمرهم وما استقر لهم من الدولة بالبحرين وأخبارها إلى حين انقراضها

هذه الدعوة لم يظهرها أحد من أهل نسب العلوية ولا الطالبيين، وإنما قام بها دعاة المهدي من أهل البيت على اختلاف منهم في تعيين هذا المهدي كما نذكره.

وكان مدار دعوتهم على رجلين أحدهما يسمى الفرج بن عثمان القاشاني من دعاة المهدي ويسمى أيضاً كرويه بن مهدويه وهو الذي انتهى إليه دعاتهم بسواد الكوفة، ثم بالعراق والشام، ولم يتم لهؤلاء دولة، والآخر يسمى أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، كانت دعوته بالبحرين واستقرت له هنالك دولة ولبنيه.

وانتسب بعض مزاعمهم إلى دعاة الإسماعيلية الذين كانوا بالقيروان كما نذكره.

ودعوى هؤلاء القرامطة في غاية الاضطراب مختلة العقائد والقواعد، منافية للشرائع والإسلام في الكثير من مزاعمهم، وأول من قام بها بسواد الكوفة سنة ثمان وسبعين ومائتين رجل أظهر الزهد والتقشف، وزعم أنه يدعو إلى المهدي وأن الصلوات المفروضة خمسون كل يوم، واستجاب له جمع كثير ولقب قرمط وأصلها بالكاف، وكان يأخذ من كل من يجيب دعوته ديناراً للإمام، وجعل عليهم نقباء وسماهم الحواريين، وشغل الناس بذلك عن شؤونهم وحبسه عامل الناحية ففر من محبسه ولم يوقف له على خبر، فازداد أتباعه فتنة فيه ثم زعم أنه الذي بشر به أحمد بن محمد بن الحنفية، وأن أحمد نبي.

وفشا هذا المذهب في السواد وقرأ بينهم كتاب زعموا أنه جاءهم من داعيه المهدي نصه بعد البسملة:

يقول الفرج بن عثمان: الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المنجد لأوليائه قل إن الأهلة مواقيت للناس، ظاهرها لتعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي اتقوني يا أولي الألباب، وأنا الذي لا أسأل عما أفعل، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأستخبر خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي وأخلدته في نعمتي، ومن زال عن أمري وكذب رسلي أخلدته مهاناً في عذابي

وأتممت أجلي وأظهرت على السنة رسـلي، فأنا الذي لا يتكبر علي جبار إلا وضعته، ولا عزيز إلا ذللته، فليس الذي أصر على أمره ودام على جهالته، وقال: لن نبرح عليه عاكفين وبه مؤمنين، أولئك هم الكافرون.

ثم يركع ويقول في ركوعه مرتين سبحان ربي ورب العزة تعالى عما يصف الظالمون، وفي سجوده: اللّه أعلى مرتين اللّه أعظم مرة، والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز والنبيذ حرام والخمر حلال، والغسل من الجنابة كالوضوء، ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخلب.

ومن خالف وحارب وجب قتله ومن لم يحارب أخذت منه الجزية انتهى.

إلى غير ذلك من دعاوي شنيعة متعارضة يهدم بعضها بعضاً. وتشهد عليهم بالكذب.

والذي حملهم على ذلك إنما هو ما اشتهر بين الشيعة من أمر المهدي مستندين فيه إلى الأحاديث التي خرجها بعضهم وقد أريناك عللها في مقدمة الكتاب في باب الفاطمي فلهجوا به، وبالدعوة إليه فمن الصادق فيمن يعينه وإن كان كاذباً في استحقاقه، ومنهم من بنى أمره على الكذب والانتحال، عساه يستولي بذلك على حظ من الدنيا ينال بها صفقة.

وقد يقال: إن ظهور هذا الرجل كان قبل مقتل صاحب الزنج وإنه سار على الأمان، وقال له: إن ورائي مائة ألف سيف فناظرني لعلنا نتفق ونتعاون.

ثم اختلفا وانصرف قرمط عنه، وكان يسمي نفسه القائم بالحق.

وزعم بعض الناس أنه كان يرى رأى الأزارقة من الخوارج.

ثم زحف إليه أحمد بن محمد الطائي صاحب الكوفة في العساكر فأوقع بهم وفتك بهم، وتتابعت العساكر في السواد في طلبهم وأبادوهم، وفر هو إلى أحياء العرب فلم يجبه أحد منهم، فاختفى في القفر في جب بناه واتخذه لذلك، وجعل عليه باب حديد واتخذ بجانبه تنوراً سحراً إن أرهقه الطلب فلا يفطن له.

ولما اختفى في الجب بعث أولاده في كلب بن دبرة بأنهم من ولد إسماعيل الإمام مستجيرون بهم.

ثم دعوا إلى دعوتهم أثناء ذلك وكانوا ثلاثة يحيى وحسين وعلي فلم يجبهم أحد إلى ذلك إلا بنو القليص بن ضمضم بن علي بن جناب، فبايعوا ليحيى على أنه يحيى بن عبد اللّه بن محمد بن إسماعيل الإمام وكنوه أبا القاسم ولقبوه الشيخ.

ثم حول اسمه وادعى أنه محمد بن عبد اللّه وأنه كان يكتم هذا الاسم، وأن ناقته التي يركبها مأمورة ومن تبعها منصور، فزحف إليه سبك مولى المعتضد في العساكر فهزمها، وقتل فسار إليه محمد بن أحمد الطائي في العساكر فانهزمت القرامطة وجيء ببعضهم أسيراً فاحتضره المعتضد وقال:

هل تزعمون أن روح اللّه وأنبيائه تحل فيكم فتعصمكم من الزلل، وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال له: يا هذا أرأيت لو حلت روح إبليس فما ينفعك فاترك ما لا يعنيك إلى ما يعنيك.

فقال له: قل فيما يعنيني! فقال له: قبض رسول اللّه ﷺ وأبوكم العباس حي فلم يطلب هذا الأمر ولا بايعه أحد، ثم قبض أبو بكر واستخلف عمر وهو يرى العباس ولم يعهد إليه عمر ولا جعله من أهل الشورى، وكانوا ستة وفيهم الأقرب والأبعد، وهذا إجماع منهم على دفع جدك عنها، فبماذا تستحقون أنتم الخلافة؟ فأمر المعتضد به فعذب وخلعت عظامه ثم قطع مرتين ثم قتل.

ثم زحف القرامطة إلى دمشق وعليها طغج مولى ابن طولون سنة تسعين، واستصرخ بابن سيده بمصر، فجاءت العساكر لإمداده فقاتلهم مرارا وقتل يحيى بن ذكرويه المسمى بالشيخ في خلق من أصحابه، واجتمع فلهم على أخيه الحسين وتسمى أحمد أبا العباس وكانت في وجهه شامة يزعم أنها مقدسة، فلقب صاحب الشامة المهدي أمير المؤمنين، وأتاه ابن عمه عيسى بن مهدي وهو عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن إسماعيل الإمام ولقبه المدثر، وعهد إليه، وزعم أنه المذكور في القرآن ولقب غلاماً من أهله المطوق.

ثم دعا الناس فأجابه كثير من أهل البوادي وسار إلى دمشق فحاصرها حتى صالحوه على مال ودفعوه له.

ثم سار إلى حمص وحماة والمعرة وبعلبك، فخطب له بها واستباحها جميعاً.

ثم إلى سلمية وبها جماعة من بني هاشم فاستلحمهم حتى الصبيان بالمكاتب والبهائم.

ثم خرج المكتفي إليه وقدم عساكره، فكبسهم ونجا فلهم إلى حلب، وانتهى المكتفي إلى الرقة، وقد سار بدر مولى ابن طولون في اتباع القرامطة فهزمهم وأثخن فيهم وبعث المكتفي العساكر مع يحيى بن سليمان الكاتب، وفيهم الحسين بن حمدان من بني تغلب ومعهم بنو شيبان فواقعوا القرامطة سنة إحدى وتسعين فهزموهم،

وقتل منهم خلق من أصحاب القرمطي ونجا ابنه أبو القاسم ببعض ذخيرته، وسار هو مستخفياً إلى ناحية الكوفة ومعه المدثر والمطوق وغلام له، وانتهوا إلى الرحبة فوشى بهم إلى العامل فقبض عليهم، وبعث بهم إلى المكتفي بالرقة ورجع إلى بغداد فقطعهم بعد أن ضرب صاحب الشامة مائتي سوط.

وأما علي بن ذكرويه ففر بعد مقتل أخيه يحيى على دمشق إلى ناحية الفرات، واجتمع إليه فل من القرامطة فاستباح طبرية.

ثم لما اتبعهم الحسين بن حمدان فر إلى اليمن، واجتمع إليه دعاتهم هنالك وتغلب على كثير من مدنه، وقصد صنعاء فهرب عنها ابن يعفر فاستباحها وتجافى عن صعدة لذمة العلوية بينه وبين بني الرسي، ونازل بني زياد بن بيد، ومات في نواحي اليمن، وفي خلال ذلك بعث أبوه ذكرويه إلى بني القليص بعد أن كانوا استكانوا وأقاموا بالسماوة، فبعث إليهم من أصحابه عبد اللّه بن سعيد ويسمى أبا غانم فجاءهم بكتابه سنة ثلاث وتسعين بأنه أوحى إليه بأن صاحب الشامة وأخاه الشيخ مقبلان، وأن إمامه يظهر من بعدهما ويملأ الأرض عدلاً، ويظهر وطاب أبو غانم على إحياء كلب فاجتمع إليه جماعة منهم، وقصد الشام فاستباح بصرى وأذرعات، ونازل دمشق وعاملها يومئذ أحمد بن كيغلغ وهو غائب بمصر في محاربة الجليجي الثائر من شيعة بني طولون على عساكر المكتفي، وقابله خلفاؤه فهزمهم وقتل بعضهم وسار إلى الأردن فقتل عاملها، ونهب طبرية وبعث المكتفي الحسين بن حمدان في العساكر ففر أبو غانم إلى السماوة وغور مياهها، واتبعته العساكر إلى أن جهدهم العطش.

ثم رجع الحسين بهم إلى الرحبة، وقيل: إنهم تقبضوا على أبي غانم وقتلوه، وافترق جمعهم وذلك سنة ثلاث وتسعين.

ظهور ذكرويه ومقتله

ثم اجتمع القرامطة إلى ذكرويه وأخرجوه من الجب الذي كان مختفياً فيه منذ عشرين سنة، وحضر عنده دعاتهم فاستخلف عليهم أحمد بن القاسم بن أحمد، وعرفهم بما له عليهم من المنة، وأن رشادهم في امتثال أمره، ورمز لهم في ذلك بآيات من القرآن حرف تأويلها، وسار وهو محتجب يدعونه السيد ولا يرونه، والقاسم يباشر الأمور ويتولاها، وبعث المكتفي عساكره فهزمهم القرامطة بالسواد، وغنموا معسكرهم، وساروا لاعتراض الحاج ومروا بالصوان، وحاصروا الواقصة فامتنعت عليهم، وطموا الآبار والمياه في تلك النواحي وبعث المكتفي محمد بن إسحاق بن كنداج الصهال ورجعوا.

ونهب القرامطة الحاج وقتلوهم بعد أن قاتلوهم ثلاثاً على غير ماء فاستسلموا، وغنم أموالهم وأموال التجار وأموال بني طولون كانوا نقلوها من مصر إلى مكة، ثم من مكة إلى بغداد عندما أجمعوا النقل إليها.

ثم حاصر القرامطة بقية الحاج في حمص، قبل فامتنعوا، وجهز المكتفي العساكر مع وصيف بن صوارتكين وجماعة من القواد، فساروا على طريق خفان، وأدركوا القرامطة فقاتلوهم يومين، ثم هزموهم وضرب ذكرويه على رأسه فانهشم وجيء به أسيراً وبخليفة القاسم وابنه وكاتبه وزوجته، ومات لخمس ليال فسيق شلوه إلى بغداد، وصلب وبعث برأسه إلى خراسان من أجل الحاج الذين نهبهم من أهلها، ونجا الفل من أصحابه إلى الشام، فأوقع بهم الحسين بن حمدان واستلحمهم، وتتبعوا بالقتل في نواحي الشام والعراق، وذلك سنة أربعين وتسعين وثلاثمائة.

خبر قرامطة البحرين ودولة بني الجنابي منها

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين جاء إلى القطيعي من البحرين رجل تسمى بيحيى بن المهدي وزعم أنه رسول من المهدي، وأنه قد قرب خروجه وقصد من أهل القطيف علي بن المعلى بن أحمد الدبادي، وكان متغالياً في التشيع فجمع الشيعة وأقرأهم كتاب المهدي، وشنع الخبر في سائر قرى البحرين فأجابوا كلهم، وفيهم أبو سعيد الجنابي واسمه الحسن بن بهرام وكان من عظمائهم.

ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ورجع بكتاب المهدي يشكرهم على إجابتهم ويأمرهم أن يدفعوا ليحيى ستة دنانير وثلاثين عن كل رجل فدفعوها.

ثم غاب وجاء بكتاب آخر يأمرهم أن يدفعوا إليه خمس أموالهم فدفعوا، وقام يتردد في قبائل قيس.

ثم أظهر أبو سعيد الجنابي الدعوة بالبحرين سنة ثلاث وثمانين، واجتمع إليه القرامطة والأعراب، وسار إلى القطيف طالباً البصرة وكان عليها أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي فأدار السور على البصرة، وبعث المعتمد علي بن عمر الغنوي، وكان على فارس فأقطعه اليمامة والبحرين، وضم إليه ألفين من المقاتلة وسيره إلى البصرة فاحتشد وخرج للقاء الجنابي ومن معه، ورجع

عنه عند اللقاء بنو ضبة فانهزم وأسره الجنابي واحتوى على معسكره وحرق الأسرى بالنار.

ثم من عليه وأطلقه فسار إلى الأبلة ومنها إلى بغداد، وسار أبو سعيد إلى هجر فملكها وأمنها، واضطربت البصرة للهزيمة وهمَّ أهلها بالارتحال، فمنعهم الواثقي.

ومن كتاب ابن سعيد في خبر قرامطة البحرين ملخصاً من كلام الطبري فلعله كما ذكره.

قال: كان ابتداء أمر القرامطة سنة ثمان وثلاثمائة فنقل الكلام: وكان أبو سعيد يمهد لابنه الأكبر سعيد فلم به وثار به أخوه الأصغر الظاهر سليمان فقتله، وقام بأمرهم وبايعه العقدانية وجاءه كتاب عبيد الله المهدي بالولاية.

وفي سنة ست وثمانين وصل أبو القاسم القائم إلى مصر، واستدعى أبا طاهر القرمطي وانتظره فأعجله مؤنس الخادم عن انتظاره وسار من قبل المقتدر فهزمه ورجع إلى المهدية.

ثم سار أبو الطاهر سنة سبع إلى البصرة فاستباحها ورجع واضطربت بغداد، وأمر المقتدر بإصلاح ما تثلم من سورها.

ثم زحف إليها أبو الطاهر سنة إحدى عشرة فاستباحها وخرب الجامع وتركها خربة.

ثم خرج سنة اثنتي عشرة لاعتراض الحاج فأوقع بهم وهزم قواد السلطان الذين كانوا معهم، وأسر أميرهم أبا النجاء بن حمدون واستصفى النساء والصبيان وترك الباقي بالبرية فهلكوا.

ثم خرج سنة أربع عشرة إلى العراق فعاث في السواد، ودخل الكوفة وفعل فيها أشد من البصرة.

وفي سنة أربع عشرة وقع بين العقدانية وأهل البحرين خلاف فخرج أبو الطاهر وبنى مدينة الأحساء وسماها المؤمنية فلم تعرف إلا به، وبنى قصره وأصحابه حوله.

وفي سنة خمس عشرة استولى على عمان وهرب واليها في البحر إلى فارس.

وزحف سنة ست عشرة إلى الفرات، وعاث في بلاده.

وبعث المقتدر عن يوسف بن أبي الساج من أذربيجان وولاه واسط، وبعثه لحربه فالتقوا بظاهر الكوفة وهزمه أبو طاهر وأسره.

وأرجف أهل بغداد، وسار أبو طاهر إلى الأنبار وخرجت العساكر من بغداد لدفاعه مع مؤنس المظفر وهارون بن غريب الحال فلم يطيقوا دفاعه، وتوافقوا ثم تحاجزوا، وعاد مؤنس إلى بغداد وسار هو إلى الرحبة واستباحها ودوخ بلاد الجزيرة بسراياه.

وسار إلى هشت والكوفة، وقاتل الرقة فامتنعت عليه، وفرض الأتاوة على أعراب الجزيرة يحملونها إلى هجر، ودخل في دعوته جماعة من بني سليم بن منصور وبني عامر بن صعصعة.

وخرج إليه هارون بن غريب الحال فانصرف أبو طاهر إلى البرية وظفر هارون بفريق منهم فقتلهم وعاد إلى بغداد.

وفي سنة سبع عشرة هجم على مكة وقتل كثيراً من الحاج ومن أهلها ونهب أموالهم جميعاً وقلع باب البيت والميزاب، وقسم كسوة البيت في أصحابه، واقتلع الحجر الأسود وانصرف به وأراد أن يجعل الحج عنده، وكتب إليه عبيد الله المهدي من القيروان يوبخه على ذلك، ويتهدده، فكتب إليه بالعجز عن رده من الناس ووعد برد الحجر، فرده سنة تسع وثلاثين بعد أن خاطبه منصور إسماعيل من القيروان في رده فردوه، وقد كان الحكم المتغلب على الدولة ببغداد أيام المستكفي بذل لهم خمسين ألفاً من الذهب على أن يردوه فأبوا، وزعموا أنهم إنما حملوه بأمر إمامهم عبيد الله، وإنما يردونه بأمره وأمر خليفته.

وأقام أبو طاهر بالبحرين وهو يتعاهد العراق والشام بالغزو حتى ضربت له الأتاوة ببغداد وبدمشق على بني طغج.

ثم هلك أبو طاهر سنة اثنتين وثلاثين لإحدى وثلاثين سنة من ملكه، ومات عن عشرة من الولد كبيرهم سابور، وولي أخوه الأكبر أحمد بن الحسن، واختلف بعض العقدانية عليه ومالوا إلى ولاية سابور بن أبي طاهر، وكاتبوا القائم في ذلك فجاء جوابه بولاية الأخ أحمد، وأن يكون الولد سابور ولي عهده، فاستقر أحمد في الولاية عليهم وكنوه أبا منصور، وهو الذي رد الحجر الأسود إلى مكانه كما قلناه.

ثم قبض سابور على عمه أبي منصور فاعتقله بموافقة إخوته له على ذلك وذلك سنة ثمان وخمسين.

ثم ثار بهم أخوه فأخرجه من الاعتقال وقتل سابور ونفى إخوته وأشياعهم إلى جزيرة أوال.

ثم هلك أبو منصور سنة تسع وخمسين يقال مسموماً على يد شيعة سابور، وولي ابنه أبو علي الحسن بن أحمد ويلقب الأعصم، وقيل: الأغنم فطالت مدته وعظمت وقائعه ونفى جمعاً كثيراً من ولد أبي طاهر، يقال: اجتمع منهم بجزيرة أوال نحو من ثلاثمائة، وحج هذا الأعصم بنفسه ولم يتعرض للحاج ولا أنكر الخطبة للمطيع.

فتنة القرامطة مع المعز العلوي

ولما استولى جوهر قائد المعز لدين الله على مصر وجعفر بن فلاح الكتامي على دمشق طالب الحسن بالضريبة التي كانت له على دمشق فمنعوه ونابذوه، وكتب له المعز وأغلظ عليه ودس لشيعة أبي طاهر وبنيه أن الأمر لولده، واطلع الحسن على ذلك فخلع المعز سنة اثنتين وثلاثماية وخطب للمطيع العباسي في منابره ولبس السواد.

ثم زحف إلى دمشق وخرج جعفر بن فلاح لحربه، فهزمه الأعصم وقتله، وملك دمشق وسار إلى مصر فحاصر جوهراً بها وضيق عليه.

ثم غدر به العرب وأجفلوا فأجفل معهم وعاد إلى الشام ونزل الرملة، وكتب إليه المعز سنة إحدى وستين بالنفي والتوبيخ، وعزله عن القرامطة وولى بني أبي طاهر فخرجوا من أوال ونهبوا الأحساء في غيبته، وكتب إليهم الطائع العباسي بالتزام الطاعة، وأن يصالحوا ابن عمهم ويقيموا بجزيرة أوال وبعث من أحكم بينهم الصلح.

ثم سار الأعصم إلى الشام وتخطاها دون صور فقاتلوه وراء الخنادق، وبذل جوهر المال للعرب فافترقوا عنه، وانهزم ونهب معسكره.

وجاء المعز من إفريقية ودخل القاهرة سنة ثلاث وستين وسرح العساكر إلى الشام فاستولوا عليه، فنهض الأعصم إليهم فأوقع بهم، وأثخن فيهم، وانتزع ما ملكوه من الشام، سار إلى مصر وبعث المعز لدين اللّه ابنه عبد اللّه فلقيهم على بلبيس وانهزم الأعصم وفشا القتل والأسر في أصحابه فكانوا نحواً من ثلاثة آلاف، ورجع الأعصم إلى الأحساء واستخلص المعز بني الجراح أمراء الشام من طيئ حتى استرجع بهم ما غلب عليه القرامطة من الشام بعد حروب وحصار.

ثم مات المعز سنة خمس وستين، وطمع الأعصم في بلاد الشام، وكان أفتكين التركي مولى معز الدولة بن بويه لما انتقض على أبيه بختيار وهزمه ببغداد، سار أفتكين منهزماً إلى دمشق، وكانوا مضطربين فخرجوا إليه وولوه عليهم، وصالح المعز إلى أن توفي فنابذ العزيز وبعث إليه جوهر في العساكر فحاصره، فكتب أفتكين إلى الأعصم واستدعاه فجاء إلى الشام سنة ست وستين.

وخرج معه أفتكين، ونازلوا الرملة فملكوها من يد جوهر، وزحف إليهم العزيز وهزمهم، وتقبض على أفتكين، ولحق الأعصم بطبرية منهزماً.

ثم ارتحل منها إلى الأحساء وأنكروا ما فعله الأعصم من البيعة لبني العباس، واتفقوا على إخراج الأمر عن ولد أبي سعيد الجنابي، وقدموا رجلين منهم: وهما جعفر وإسحاق وسار بنو أبي سعيد إلى جزيرة أوال.

وكان بنو أبي طاهر قبلهم فقتلوا كل من دخل إليهم من ولد أحمد بن أبي سعيد وأشياعه.

ثم قام بأمر القرامطة جعفر وإسحاق هذان ورجعوا إلى دعوة العلوية ومحاربة بني بويه، ورجعوا سنة أربع وستين إلى الكوفة فملكوها.

وبعث صمصام الدولة بن بويه العساكر إليهم فهزمهم على الفرات وقتل منهم خلق واتبعوهم إلى القادسية.

ثم اختلف جعفر وإسحاق وطمع كل منهما في الرياسة على صاحبه، وافترق أمرهم وتلاشت دعوتهم إلى أن استولى الأصغر بن أبي الحسن الثعلبي سنة ثمان وتسعين عليهم، وملك الأحساء من أيديهم وأذهب دولتهم وخطب للطائع واستقرت الدولة له ولبنيه.

ذكر المتغلبين بالبحرين من العرب بعد القرامطة

كان بأعمال البحرين خلق من العرب، وكان القرامطة يستنجدونهم على أعدائهم ويستعينون بهم في حروبهم، وربما يحاربونهم ويقاطعونهم في بعض الأوقات، وكان أعظم قبائلهم هنالك بنو ثعلب وبنو عقيل وبنو سليم، وأظهرهم في الكثرة والعزة بنو ثعلب.

ولما فشلت دولة القرامطة بالبحرين واستحكمت العداوة بينهم وبين بني بويه بعد انقراض ملك بني الجنابي، وعظم اختلافهم عند القائم بدعوة العباسية وكان خالصة للقرامطة ودعاه إلى إذهاب دولتهم فأجابه، وداخل بني مكرم رؤساء عمان في مثل ذلك فأجابوه، واستولى الأصغر على البحرين وأورثها بنيه، واستولى بنو مكرم على عمان ثم غص بنو ثعلب بسليم واستعانوا عليهم ببني عقيل وطردوهم من البحرين، فساروا إلى مصر ومنها كان دخولهم إلى إفريقية كما يأتي.

ثم اختلف بنو ثعلب وبنو عقيل بعد مدة وطردهم بنو ثعلب إلى العراق فملكوا الكوفة والبلاد العراقية، وامتد ملك

الأصغر وطالت أيامه، وتغلب على الجزيرة والموصل وحارب بني عقيل سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة برأس عين من بلاد الجزيرة، وغص بشأنه نصير الدولة بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر فقام له، وجمع له الملوك من كل ناحية فهزمه واعتقله، ثم أطلقه ومات وبقي الملك متوارثاً في بنيه بالبحرين إلى أن ضعفوا وتلاشوا، وانقرضت دولة بني عقيل بالجزيرة، وغلبهم عليها وعلى تلك البلاد أولياء الدولة السلجوقية، فتحولوا عنها إلى البحرين مواطنهم الأولى، ووجدوا بني ثعلب قد أدركهم الهرم، فغلبوا عليهم.

قال ابن سعيد: سألت أهل البحرين حين لقيتهم بالمدينة النبوية سنة إحدى وخمسين وستمائة عن البحرين، فقالوا: الملك فيها لبني عامر بن عوف بن عقيل وبنو ثعلب من جملة رعاياهم وبنو عصفور منهم أصحاب الأحساء.

و(لنذكر) هنا نبذة في التعريف بكاتب القرامطة وأمصار البحرين وعمان لما أن ذلك من توابع أخبارهم.

(الكاتب): كان كاتبهم أبو الفتح الحسين بن محمود ويعرف بكشاجم، كان من أعلام الشعراء، وذكره الثعالبي في اليتيمة والحصري في زهر الآداب، وهو بغدادي المولد واشتهر بخدمة القرامطة فيما ذكره البيهقي وكتب لهم بعده ابنه أبو الفتح نصر، ولقبه كشاجم مثل أبيه وكان كاتباً للأعصم.

(البحرين): إقليم يسمى باسم مدينته، ويقال: هجر باسم مدينة أخرى منه وكانت حضرية، فخربها القرامطة وبنو الأحساء وصارت حاضرة، وهذا الإقليم مسافة شهر على بحر فارس بين البصرة وعمان، شرقيها بحر فارس، وغربيها متصل باليمامة، وشماليها البصرة وجنوبها بعمان، كثيرة المياه بيطونها على القامة والقامتين، كثيرة البقل والفواكه، مفرطة الحر منهالة الكثبان، يغلب الرمل عليهم في منازلهم وهي من الإقليم الثاني، وبعضها في الثالث، كانت في الجاهلية لعبد القيس وبكر بن وائل من ربيعة، وملكها للفرس، وعاملها من قبلهم المنذر بن ساوى التميمي.

ثم صارت رياستها صدر الإسلام لبني الجارودي ولم يكن ولاة بني العباس ينزلون هجر إلى أن ملكها أبو سعيد القرمطي بعد حصار ثلاث سنين، واستباحها قتلاً وإحراقاً وتخريباً.

ثم بنى أبو طاهر مدينة الأحساء، وتوالت دولة القرامطة وغلب على البحرين بنو أبي الحسن بن ثعلب، وبعدهم بنو عامر بن عقيل.

قال ابن سعيد: والملك الآن فيهم في بني عصفور.

(الأحساء) بناها أبو طاهر القرمطي في المائة الثالثة، وسميت بذلك لما فيها من أحساء المياه في الرمال، ومراعي الإبل، وكانت للقرامطة بها دولة، وجالوا في أقطار الشام والعراق ومصر والحجاز وملكوا الشام وعمان.

(دارين) هي من بلاد البحرين ينسب إليها الطيب كما تنسب الرماح إلى الخط بجانبها فيقال: مسك دارين والرماح الخطية.

(عمان) وهي من ممالك جزيرة العرب المشتملة على اليمن والحجاز والشحر وحضرموت وعمان وهي خامسها، إقليم سلطاني منفرد على بحر فارس من غربيه مسافة شهر، شرقيها بحر فارس وجنوبها بحر الهند، وغربيها بلاد حضرموت، وشماليها البحرين، كثيرة النخل والفواكه وبها مغاص اللؤلؤ، سميت بعمان بن قحطان، أول من نزلها بولاية أخيه يعرب، وصارت بعد سيل العرم للأزد.

وجاء الإسلام وملوكها بنو الجلندي، والخوارج بها كثيرة.

وكانت لهم حروب مع عمال بني بويه وقاعدتهم تروى، وملك عمان من البحر ملوك فارس غير مرة، وهي في الإقليم الثاني، وبها مياه وبساتين وأسواق، وشجرها النخل.

وكانت بها في الإسلام دولة لبني شامة بن لؤي بن غالب.

وكثير من نسابة قريش يدفعونهم عن هذا النسب، أولهم بها محمد بن القاسم الشامي، بعثه المعتضد وأعانه ففتحها وطرد الخوارج إلى تروى قاعدة الجبال، وأقام الخطبة لبني العباس وتوارث ذلك بنوه، وأظهروا شعار السُنّة.

ثم اختلفوا سنة خمس وثلاثمائة وتحاربوا، ولحق بعضهم بالقرامطة، وأقاموا في فتنة إلى أن تغلب عليهم أبو طاهر القرمطي سنة سبع عشرة عند اقتلاعه الحجر وخطب بها لعبيد الله المهدي وترددت ولاة القرامطة عليها من سنة سبع عشرة إلى سنة خمس وسبعين.

فترهب واليها منهم، وزهد وملكها أهل تروى الخوارج وقتلوا من كان بها من القرامطة والروافض، وبقيت في أيديهم ورياستها للأزد منهم.

ثم سار بنو مكرم من وجوه عمان إلى بغداد، واستخدموا لبني بويه وأعانوهم بالمراكب من فارس، فملكوا مدينة عمان وطردوا الخوارج إلى جبالهم، وخطبوا لبني العباس.

ثم ضعفت دولة بني بويه ببغداد فاستبد بنو مكرم بعمان

وتوارثوا ملكها، وكان منهم مؤيد الدولة أبو القاسم علي بن ناصر الدولة الحسين بن مكرم، وكان ملكاً جواداً ممدوحاً.

قاله البيهقي: ومدحه مهيار الديلمي وغيره، ومات سنة ثمان وعشرين وأربعمائة بعد مدة طويلة في الملك.

وفي سنة اثنين وأربعين ضعف ملك بني مكرم وتغلب عليهم النساء والعبيد، فزحف إليها الخوارج وملكوها، وقتلوا بقيتهم وانقطع منها رسم الملك، وصار في حجار من مدر هذا الإقليم قلهاة هي عرصة عمان على بحر فارس من الإقليم الثاني ومما يلي الشحر وحجار في شماليها إلى البحرين بينهما سبع مراحل، وهي في جبال منيعة، فلم تحتج إلى سور، وكان ملكها سنة ثمان وأربعين زكريا بن عبد الملك الأزدي من ذرية رياسة.

وكان الخوارج بتروى مدينة الشراة يدينون لهم، ويرون أنهم من ولد الجلندي.

الخبر عن الإسماعيلية أهل الحصون بالعراق وفارس والشام وسائر أمورهم ومصائرهم

هذا المذهب هو مذهب القرامطة وهم غلاة الرافضة، وهو على ما رأيته من الاضطراب والاختلاف.

ولم يزل متناقلاً في أهله بأنحاء العراق وخراسان وفارس والشام.

واختلف بعضهم باختلاف الأعصار والأمصار، وكانوا يدعون أولاً قرامطة.

ثم قيل لهم بالعراق باطنية، ثم الإسماعيلية، ثم النزارية لما حدث من عهد المستضيء العلوي لابنه نزار، وقتله شيعتهم بمصر، ولم يبايعوا له، وكان عنده ابن الصباح من هؤلاء الإسماعيلية، ونفى الإمامة بعده عن أئمتهم بمصر فسموا أصحابه لذلك نزارية.

وكان هذا المذهب بعد موت ذكرويه وانحلال عقدتهم، بقي منبثاً في الأقطار ويتناوله أهله، ويدعون إليه ويكتمونه، ولذلك سموا الباطنية، وفشت أذيتهم بالأمصار بما كانوا يعتقدونه من استباحة الدماء، فكانوا يقاتلون الناس ويجتمع لذلك جموع منهم يكمنون في البيوت ويتوصلون إلى مقاصدهم من ذلك.

ثم عظمت أمورهم أيام السلطان ملك شاه عندما استمر الملك للعجم من الديلم والسلجوقية وعقل الخلفاء وعجزوا عن النظر في تحصين إمامتهم، وكف الغوائل عنها، فانتشروا في هذه العصور وربما اجتمع منهم جماعة بساوة بأنحاء همذان، فصلوا صلاة العيد بأنحائهم فحبسهم الشحنة، ثم أطلقهم.

ثم استولوا بعد ذلك على الحصون والقلاع فأول قلعة غلبوا عليها قلعة عند فارس كان صاحبها على مذهبهم، فأووا إليه واجتمعوا عنده، وصاروا يخطفون الناس من السابلة وعظم ضررهم بتلك النواحي.

ثم استولوا على قلعة أصفهان واسمها شاه در، كان السلطان ملك شاه بناها وأنزل بها عامله، فاتصل به أحمد بن غطاش، كان أبوه من مقدمي الباطنية وعنه أخذ ابن الصباح وغيره منهم، وكان أحمد هذا عظيماً فيهم لمكان أبيه ورسوخه في العلم بينهم، فعظموه لذلك وتوجوه وجمعوا له مالاً وقدموه عليهم، واتصل بصاحب القلعة فآثر مكانه وقلده الأمور حتى إذا توفي استولى أحمد بن غطاش على قلعة شاه در، وأطلق أيدي أصحابه في نواحيها يخيفون السابلة من كل ناحية.

ثم استولوا على قلعة الموت من نواحي قزوين وهي من بنيان الديلم، ومعنى هذا الاسم عندهم تميل العقاب، ويقال لتلك الناحية طالقان، وكانت في ضمان الجعفري، فاستتاب بها علوياً وكان بالري أبو مسلم صهر نظام الملك، واتصل به الحسن بن الصباح، وكان بينهم عالماً بالتعاليم والنجوم والسحر، وكان من جملة تلامذة ابن غطاش صاحب قلعة أصفهان، ثم اتهمه أبو مسلم بجماعة من دعاة المصريين عنده فهرب منه وجال في البلاد وانتهى إلى مصر فأكرمه المستنصر وأمره بدعاء الناس إلى إمامته، وقال له الحسن: من الإمام بعدك؟ فأشار إلى إبنه نزار، وعاد من مصر إلى الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد للروم، ورجع إلى خراسان بقلعة الموت فنزل على العلوي، فأكرمه واعتقد البركة فيه، وأقام بها وهو يحاول إحكام أمره في تملكها، فلما تم له من ذلك ما أراد أخرج العلوي منها وملكها.

واتصل الخبر بنظام الملك فبعث العسكر لحصارها فجهده الحصار، وبعث جماعة من الباطنية فقتلوا نظام الملك، ورجعت العساكر واستولوا أيضاً على قلعة طبس وما جاورها من قلاع قوهستان وهي زرون وقائد.

وكان رئيس قوهستان المنور من أعقاب بني سيجور أمراء خراسان للسامانية، فطلبه عامل قوهستان وأراد اغتصاب أخته، فاستدعى الإسماعيلية وملكهم هذه القلاع، واستولوا على قلعة خالنجان على خمسة فراسخ من أصفهان كانت لمؤيد الملك بن نظام الملك، وانتقلت إلى جاولي سقاور من أمراء الغز، وولي عليها بعض الترك فاتصل به بعض الباطنية وخدمه، وأهدى له حتى

صارت مفاتيح القلعة في يده، فدس لابن غطاش في قلعة شاه در فجاء في جمع من أصحابه ليلاً، وهرب التركي فملكها وقتل من كان بها وقوي بها على أهل أصفهان، وفرض عليهم القطائع.

ومن قلاعهم أسويا وندبين الرمل وآمد، ملكوها بعد ملك شاه غدراً، ومنها أزدهر ملكها أبو الفتوح ابن أخت الحسن بن الصباح.

ومنها كردكوه. ومنها قلعة الناظر بخوزستان وقلعة الطنبور قرب أرجان ملكها أبو حمزة الإسكاف من أهل أرجان، وقد كان سافر إلى مصر فأخذ بمذهبهم ورجع داعية لهم.

ومنها قلعة ملاوخان بين فارس وخوزستان امتنع بها المفسدون نحواً من مائتي سنة لقطع الطريق، حتى فتحها عضد الدولة بن بويه، وقتل من بها.

فلما ملك ملك شاه أقطعها للأمير أنز، فولى عليها من قبله وداخله الباطنية الذين من أرجان في بيعها منهم فأبى، فقالوا: نرسل إليك من يناظرك حتى نرى الحق في مذهبنا، وبعثوا إليهم رجالا منهم فاعتقلوا مملوكه حتى سلم لهم مفاتيح القلعة، وقبضوا على صاحبها وقويت شوكتهم.

وامتدت أيدي الناس إلى قتلهم واعتقدوا جهادهم وثاروا بهم في كل وجهة فقتلوهم وقتلتهم العامة بأصفهان، وكانوا قد ظهروا بها عند محاصرة السلطان بركيارق أصفهان وبها أخوه محمد وأمه خاتون الجلالية، وفشت فيها دعوتهم وكثر فيها الاغتيال من أتباعهم فثاروا بهم، وقتلوهم وحفروا الأخاديد وأوقدوها بالنيران، وجعلوا يأتون بالباطنية فيلقونهم فيها، وتجرد جاولي سقاور، وكان والياً بفارس للجهاد فيهم، وتحيل عليهم بجماعة من أصحابه أظهروا الهروب إليهم فوثقوهم وسار هو من بعد ذلك إلى همذان فأغزاهم.

ثم صار الباطنية من بعد ذلك إلى همذان لقتل أمراء السلجوقية غدراً فكان يقصد أحدهم أميراً من هؤلاء وقد استبطن خنجراً واستمات.

حملهم على ذلك السلطان بركيارق، واستعان بهم على أمر أخيه فكان أحدهم يعرض نفسه بين يدي الأمير حتى يتمكن من طعنه فيطعنه، ويهلك غالباً ويقتل الباطني لوقته، فقتلوا منهم كذلك جماعة، ولما ظهر بركيارق على أخيه محمد انتشروا في عسكره واستعانوا بطائفة منهم، وتهددوا بالقتل على ذلك حتى ارتاب أمراء العسكر بأنفسهم، وخافوا عاديتهم ولازموا حمل السلاح، وشكوا إلى بركيارق بذلك وبما يلقونه منهم ومن عسكر أخيه فيما يرمونهم به من الاتحاد بهؤلاء الباطنية فأذن في قتلهم، وركب والعسكر معه فتتبعوهم بالقتل، حتى إن الأمير محمداً من أعقاب علاء الدولة بن كاكويه، وكان صاحب مدينة يزد اتهم برأيهم فهرب وقتل.

وكتب إلى بغداد في أبي إبراهيم الاستراباذي وكان بركيارق بعثه رسولاً فأخذ هنالك وقتل، واستلحموا في كل جهة واستلحم المتهمون وانطلقت عليهم الأيدي في كل ناحية وذلك سنة ست وثمانين.

ولما استفحل أمر السلطان محمد بعد أخيه بركيارق زحف إلى قلعة شاه در التي بها أحمد بن غطاش لقربها من أصفهان سرير ملكه، فجمع العساكر والأمم وخرج في رجب من أول المائة السادسة، وأحاط بجبل القلعة ودووه أربعة فراسخ، ورتب الأمراء لقتالهم نوباً.

ولما اشتد الأمر بهم سألوا فتوى الفقهاء في أمرهم وكتبوا ما نصه: ما يقول السادة الفقهاء أئمة للدين في قوم يؤمنون بالله واليوم الاخر وكتبه ورسله، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق، وإنما يخالفون في الإمام هل يجوز للسلطان مساعدتهم ومراعاتهم وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى أم لا؟ فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف بعضهم وجمعوا للمناظرة، فقال السمنجاني من كبار الشافعية: يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين، فإنهم لا يرون مخالفة إمامهم إذا خالف أحكام الشرع، وبذلك تباح دماؤهم إجماعاً، وطالت المناظرة في ذلك.

ثم سألوا أن يأتيهم من العلماء من يناظرهم وعينوا أعياناً من أصفهان، وقصدوا بذلك المطاولة والتعلل، فبعثهم السلطان إليهم فعادوا من غير شيء، فاشتد السلطان إليهم في حصارهم واستأمنوا على أن يعوضوا عن قلعتهم بقلعة خالنجان على سبعة فراسخ من أصفهان، وأن يؤجلوا في الرحيل شهراً فأجابهم، وأقاموا في تلك المدة يجمعون ما يقدرون عليه من الأطعمة وثبوا على بعض الأمراء وسلم منهم فجدد السلطان حصارهم وطلبوا أن ينتقلوا إلى قلعة الناظر وطبس، ويبعث السلطان معهم من يوصلهم ويقيم الباقون بضرس من القلعة إلى أن يصل الأولون، ثم يبعث مع الأخرين من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة الموت فأجابهم إلى ذلك، وخرج الأولون إلى الناظر وطبس، وخرب السلطان القلعة، وتمسك ابن غطاش بالضرس الذي هو فيه، وعزم على الاعتصام به، وزحف إليه الناس عامة وهرب بعضهم إلى السلطان، فدله على عورة المكان، فصعدوا إليه وقتلوا من وجدوا

فيه، وكانوا ثمانين، وأخذ ابن غطاش أسيرا فسلخ وحشـي جلـده تبناً، وقتل ابنه وبعث برأسيهما إلى بغداد، وألقت زوجه نفسها من الشاهق فهلكت.

خبر الاسماعيلية بالشام

لما قتل أبو إبراهيم الاسترابادي ببغداد كما تقدم هرب بهرام ابن أخيه إلى الشام وأقام هنالك داعية متخفياً، واستجاب لـه مـن الشام خلق، وكان الناس يتبعونهم لكثرة ما اتصفوا بـه مـن القتـل غدراً.

وكان أبو الغازي بن أرتق بحلب يتوصل بهم إلى غرضـه في أعدائه، وأشار أبو الغازي على ابن طغتكين الأتابك بدمشـق بمثـل ذلك فقبل رأيه، ونقل إليه فأظهر حينئذ شـخصه، وأعلـن بدعوتـه وأعانه الوزير أبو علي ظاهر بن سـعد المزدغـاني، لمصلحتهـم فيـه فاستفحل أمره، وكثر تابعوه، وخاف من عامة دمشـق فطلـب مـن ابن طغتكين ووزيره أبي علـي حصناً يـأوي إليـه، فـأعطوه قلعـة بانياس سنة عشرين وخمسـمائة، وتـرك بدمشـق خليفـة لـه يدعـو الناس إلى مذهبة فكثروا وانتشـروا، وملـك هـو عـدة حصـون في الجبال منها القدموس وغيره.

وكان بوادي التيم من أعمال بعلبـك طوائـف مـن المجـوس والنصرانية والدرزية وأميرهـم يسمى الضحاك، فسار بهرام لقتـالهم سنة سنة اثنتين وعشرين، واستخلف على بانيـاس إسمـاعيل مـن أصحابه، ولقيهم الضحاك في ألف رجل وكبس عسـكره فهزمهـم وقتله وعاد فلهم إلى بانياس، فأقام بأمرهم إسماعيل وجمع شملهم وبث دعاته في البلاد، وعاضده المزدغاني وزير دمشق وانتصر لهذه الطائفة، وأقام بدمشق خليفة لبهرام اسمه أبو الوفاء فقـوي أمـره، وكثر أتباعه، واستبد على صاحبها تاج الملوك بن طغتكين.

ثم أن المزدغاني راسل الفرنـج أن يملكهـم دمشـق علـى أن يعطوه صور، وتواعدوا ليوم عينوه، ودس للإسماعيلية أن يكونـوا ذلك اليوم على أهبة، ونمي الخبر إلى إسماعيل فخاف أن يثـور بـه الناس فأعطى بانيـاس للفرنـج، وانتقـل إليهـم ومـات سنة أربـع وعشرين، وكان للإسماعيلية قلاع في تلك الجهات تتصل بعضهـا ببعض أعظمها قلعة مصياف فسار صلاح الديـن لمـا ملـك الشـام سنة اثنتين وسبعين إليها وحاصر مصياف وضيق حصارها، وبعث سنان مقدم الإسماعيلية إلى خال صلاح الدين بحماة، وهو شهاب الدين الحادي أن يسأل صلاح الدين في الصلح معهـم ويتهددونـه على ذلك سـراً، فسـار إلى صـلاح الديـن وأصلـح أمرهـم عنـده ورحل عنهم.

بقية الخبر عن قلاع الإسماعيلية بالعراق

ولم تزل قلاع هؤلاء الإسماعيلية بالعراق عشاً لهذه الغواية، وسفطاً لهؤلاء الخباث، منذ سار بها أحمد بن غطـاش والحسـن بـن الصباح، وكان لهذا الحسن مقالات في مذاهب الرافضـة عريقـة في الغلو داخلة من باب الكفر وتسميها الرافضة المقـالات الجديـدة، ولا يدين بقبولها إلا الغلاة منهم.

وقد ذكرها الشهرستاني في كتاب الملل والنحـل فعليـك بـه إن أردت معرفتها.

وبقي الملوك يقصدونهم بالجهاد لما اشتهر عنهم مـن الضـرر بالاغتيال.

ولما افترق أمر السلجوقية واستبد ايتغمش بالري وهمـذان، سـار إليهـم سـنة ثـلاث وسـتمائة إلى قلاعهـم المجاورة لقزويـن فحاصرها، وفتح منها خمس قلاع، واعتزم على حصار قلعة الموت فعرض له ما شـغله عـن ذلـك، ثـم زحـف إليهـم جـلال الديـن منكبري بن علاء الديـن وخـوارزم شاه عندمـا رجـع مـن الهنـد، وملك بلاد أذربيجان وأرمينية، فقتلـوا بعـض أمرائـه بمثـل قتلهـم فسار إلى بلادهم ودوخ نواحي الموت وقد مر ذكره.

وقلاعهم التي بخراسان خربها واستباحها قتلاً ونهبـاً وكـانوا منذ ظهر التتر قد شرهوا على الجهات فـأوقع بهـم جـلال الديـن هذه الواقعة سنة أربع وعشرين وستمائة، وكفحهم عما سموا إليه من ذلك.

ولما استفحل أمر التتر سار هولاكو عام الخمسين والستمائة من بغداد وخرب قلاعهم، وزحف الظاهر بعد ذلـك إلى قلاعهـم التي بالشام فخـرب كثـيراً منهـا وطـوع مـا بقـي منهـا، وصـارت مصياف وغيرها في طاعته وانقرض أمرهم إلا مغتـالين يسـتعملهم الملوك في قتل أعدائهم علـى البعـد غـدراً، ويسـمون الفداويـة أي الذيـن يـأخذون فديـة أنفسـهم علـى الاستماتة في مقاصد مـن يستعملهم.

والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن دولة بني الأخيضر باليمامة من بني حسن

كان موسى الجون بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط لما اختفى أخواه محمد وإبراهيم، طالبه أبو جعفر المنصور بإحضارهما فضمن له ذلك.

ثم اختفى وعثر عليه المنصور فضربه ألف سوط، فلما قتل أخوه محمد المهدي بالمدينة اختفى موسى الجون إلى أن هلك.

وكان من عقبه إسماعيل وأخوه محمد الأخيضر ابنا يوسف بن إبراهيم بن موسى، فخرج إسماعيل في أعراب الحجاز وتسمى السفاك سنة إحدى وخمسين ومائتين.

ثم قصد مكة فهرب عاملها جعفر بسباسات، وانتهب منزله ومنازل أصحاب السلطان، وقتل جماعة من الجند وأهل مكة وأخذ ما كان حمل للإصلاح من المال، وما في الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة، وأخذ كسوة الكعبة وأخذ من الناس نحواً من مائتي ألف دينار.

ثم نهبها وأحرق بعضها بعضاً، وأقام في ذلك خمسين يوماً.

ثم سار إلى المدينة فتوارى عاملها وحاصرها حتى مات أهلها جوعاً، ولم يصل أحد في مسجد رسول الله ﷺ، ووصل عساكر المعتز إلى المدينة فأفرج عنها ورجع إلى مكة وحاصرها حتى جهدها الحصار، ورحل بعد مقامه شهرين إلى جدة فأخذ أموال التجار ونهب ما في مراكبهم ورجع إلى مكة، وقد وصل إليها محمد بن عيسى بن المنصور وعيسى بن محمد المخزومي بعثهما المعتز لقتاله فتواقعوا بعرفة، واقتتلوا وقتل من الحاج نحو ألف، وسلبوا الناس وهربوا إلى مكة، وبطل الموقف إسماعيل وأصحابه وخطب لنفسه، ثم رجع إلى جدة واستباحوها ثانية.

ثم هلك لسنة من خروجه بالجدري آخر سنة اثنتين وخمسين أيام حرب المستعين والمعتز.

وكان يتردد بالحجاز مند اثنتين وعشرين سنة، ومات ولم يعقب، وولي مكانه أخوه محمد الأخيضر وكان أسن منه بعشرين سنة، ونهض إلى اليمامة فملكها، واتخذ قلعة الخضرمية، وكان له من الولد محمد وإبراهيم وعبد الله ويوسف.

وهلك فولي بعده ابنه يوسف، وأشرك ابنه إسماعيل معه في الأمر مدة حياته.

ثم هلك وانفرد إسماعيل بملك اليمامة وكان له من الأخوة الحسن وصالح ومحمد بنو يوسف.

فلما هلك إسماعيل ولي من بعده أخوه الحسن، وبعده ابنه أحمد بن الحسن.

ولم يزل ملكها فيهم إلى أن غلب عليهم القرامطة، وانقرض أمرهم والبقاء لله.

وكان بمدينة غانة من بلاد السودان بالمغرب مما يلي البحر المحيط ملك بني صالح، ذكرهم صاحب كتاب زجار في الجغرافيا، ولم نقف على نسب صالح هذا من خبر يعول عليه.

وقال بعض المؤرخين: إنه صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله الملقب أبا الكرام بن موسى الجون، وإنه خرج أيام المأمون بخراسان، وحمل إليه وحبسه وابنه محمد من بعده، ولحق بنوه بالمغرب فكان لهم ملك في بلد غانة.

ولم يذكر ابن حزم في أعقاب موسى الجون صالحاً هذا بهذا النسب، ولعله صالح الذي ذكرناه آنفاً في ولد يوسف بن محمد الأخيضر والله أعلم.

الخبر عن دولة السليمانيين من بني الحسن بمكة ثم بعدها باليمن ومبادئ أمورهم وتصاريف أحوالهم

مكة هذه أشهر من أن نعرف بها أو نصفها، إلا أنه لما انقرض سكانها من قريش بعد المائة الثانية بالفتن الواقعة بالحجاز من العلوية مرة بعد أخرى، فأقفرت من قريش ولم يبق بها إلا أتباع بني حسن أخلاط من الناس، ومعظمهم موال سود من الحبشة والديلم.

ولم يزل العمال عليها من قبل بني العباس وشيعتهم والخطبة لهم إلى أن اشتغلوا بالفتن أيام المستعين والمعتز وما بعدهما، فحدثت الرياسة فيها لبني سليمان بن داود بن حسن المثنى بن الحسن السبط.

وكان كبيرهم آخر المائة الثانية محمد بن سليمان وليس هو سليمان بن داود لأن ذلك ذكره ابن حزم أنه قام بالمدينة أيام المأمون، وبين العصرين نحو من مائة سنة، سنة إحدى وثلاثمائة أيام المقتدر، وخلع طاعة العباسية، وخطب في الموسم فقال: الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا بني أعمامه صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وكف عنا ببركته أسباب المعتدين، وجعلها

كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين، ثم أنشد:

لأطلبن بسيفي ما كان للحق دينا
وأسطون بقوم بغوا وجاروا علينا
يعدون كل بلاد من العراق علينا

وكان يلقب بالزيدي نسبة إلى نحلته من مذاهب الإمامية، وبقي ركب العراق يتعاهد مكة إلى أن اعترضه أبو طاهر القرمطي سنة اثني عشرة، وأسر أبا الهيجاء بن حمدان والد سيف الدولة وجماعة معه، وقتل الحجاج وترك النساء والصبيان بالقفر فهلكوا، وانقطع الحاج من العراق بسبب القرامطة.

ثم أنفذ المقتدر سنة سبع عشرة منصور الديلمي من مواليه فوافاه يوم التروية بمكة أبو طاهر القرمطي فنهب الحاج، وقتلهم حتى في الكعبة والحرم، وامتلأ زمزم بالقتل، والحجاج يصيحون: كيف يقتل جيران اللّه؟ فيقول: ليس بجار من خالف أوامر اللّه ونواهيه، ويتلو: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية.

وكان يخطب لعبيد اللّه المهدي صاحب إفريقية.

ثم قلع الحجر الأسود وحمله إلى الأحساء وقلع باب البيت وحمله، وطلع رجل يقلع الميزاب فسقط ومات، فقال: اتركوه فإنه محروس حتى يأتي صاحبه يعني المهدي، فكتب إليه ما نصه: والعجب من كتبك إلينا ممتناً علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم اللّه وجيرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها، وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذي هو يمين اللّه في الأرض يصافح بها عباده، وحملته إلى أرضك، ورجوت أن نشكرك فلعنك اللّه ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده، وفعل في يومه ما عمل فيه حساب غده انتهى.

فانحرفت القرامطة عن طاعة العبيديين لذلك.

ثم قتل المقتدر على يد مؤنس سنة عشرين وثلاثمائة وولي أخوه القاهر، وحج بالناس أميره تلك السنة.

وانقطع الحج من العراق بعدها إلى أن كاتب أبو علي يحيى الفاطمي سنة سبع وعشرين من العراق أبا طاهر القرمطي أن يطلق السبيل للحجاج على مكس يأخذه منهم، وكان أبو طاهر يعظمه لدينه ويؤمله فأجابه إلى ذلك، وأخذ المكس من الحجاج ولم يعهد مثله في الإسلام.

وخطب في هذه السنة بمكة للراضي بن المقتدر.

وفي سنة تسع وعشرين لأخيه المقتفي من بعده.

ولم يصل ركب العراق في هذه السنين من القرامطة.

ثم ولي المستكفي بن المكتفي سنة ثلاث وثلاثين على يد تورزو أمير الأمراء ببغداد فخرج الحاج في هذه السنة لمهادنة القرامطة بعد أبي طاهر.

ثم خطب للمطيع بن المقتدر بمكة مع معز الدولة سنة أربع وثلاثين عندما استولى معز الدولة ببغداد وقلع عين المستكفي واعتقله.

ثم تعطل الحاج بسبب القرامطة وردوا الحجر الأسود سنة تسع وثلاثين بأمر المنصور العلوي صاحب إفريقية وخطابه في ذلك لأميرهم أحمد بن أبي سعيد.

ثم جاء الحاج إلى مكة سنة اثنتين وأربعين مع أمير من العراق، وأمير من مصر، فوقعت الحرب بينهما على الخطبة لابن بويه ملك العراق، وابن الإخشيد صاحب مصر، فانهزم المصريون وخطب لابن بويه، واتصل ورود الحاج من يومئذ.

فلما كانت سنة ثمان وأربعين وجاء الحاج من بغداد ومصر كان أمير الحاج من العراق ومحمد بن عبيد اللّه فأجابه إلى ذلك.

ثم جاء إلى المنبر مستعداً وأمر بالخطبة لابن بويه فوجم الآخر، وتمت عليه الحيلة وعاقبه أميره كافور.

ويقال: قتله ووقع ابن بويه لمحمد بن عبيد اللّه باتصال إمارته على الحاج.

ولما كانت سنة ست وخمسين وصل بركب العراق أبو أحمد الموسوي نقيب الطالبيين، وهو والد الشريف الرضي ليحج بالناس، ونهب بنو سليم حاج مصر وقتل أميرهم.

وفي سنة ست وخمسين حج بالناس أبو أحمد المذكور وخطب بمكة لبختيار بعد موت أبيه معز الدولة والخليفة يومئذ المطيع، واتصل حج أبي أحمد بركب العراق.

وفي سنة ثلاث وخمسين خطب للقرمطي بمكة، فلما قتل أحمد وقعت الفتنة بين أبي الحسن القرمطي وخلع طاعة العبيديين وخطب للمطيع، وبعث إليه بالرايات السود، ونهض إلى دمشق فقتل جعفر بن فلاح قائد العلويين، وخطب للمطيع.

ثم وقعت الفتنة بين أبي الحسن وبين جعفر، وحصلت بينهم دماء، وبعث المعز العلوي من أصلح بينهم، وجعل دية القتلى الفاضلة في مال المعز، وهلك بمصر أبو الحسن فولي أخوه عيسى.

ثم ولي بعده أبو الفتوح الحسن بن جعفر سنة أربع وثمانين.

ثم جاءت عساكر عضد الدولة ففر الحسن بن جعفر إلى

المدينة.

ولما مات العزيز بالرملة وعاد بنو أبي طاهر وبنو أحمد بن أبي سعيد إلى الفتنة فجاء من قبل الطائع أمير علوي إلى مكة، وأقام له بها خطبة.

وفي سنة سبع وستين بعث العزيز من مصر باديس بن زيري الصنهاجي وهو أخو بلكين صاحب إفريقية أميراً على الحاج، فاستولى على الحرمين وأقام له الخطبة، وشغل عضد الدولة في العراق بفتنة بختيار ابن عمه فبطل ركب العراق.

ثم عاد في السنة بعدها وخطب لعضد الدولة أبو أحمد الموسوي، وانقطعت بعدها خطبة العباسين عن مكة، وعادت لخلفاء مصر العبيديين إلى حين من الدهر.

وعظم شأن أبي الفتوح واتصلت إمارته في مكة، وكتب إليه القادر سنة ست وتسعين في الإذن لحاج العراق فأجابه على أن الخطبة للحاكم صاحب مصر.

وبعث الحاكم إلى ابن الجراح أمير طيئ باعتراضهم، وكان على الحاج الشريف الرضي وأخوه المرتضى، فلاطفهم ابن الجراح وخلى سبيلهم على أن لا يعودوا.

ثم اعترض حاج العراق سنة أربع وتسعين الأصيغر الثعلبي عندما ملك الجزيرة فوعظه قارئان كانا في الركب.

ثم اعترضهم في السنة بعدها أعراب خفاجة ونهبوهم، وسار في طلبهم علي بن يزيد أمير بني أسد فأوقع بهم سنة اثنتين وأربعمائة.

ثم عادوا إلى مثل ذلك من السنة بعدها فعاد علي بن يزيد وأوقع بهم، وسما له بذلك ذكر، وكان سببا لملكه وملك قومه.

ثم كتب الحاكم سنة اثنتين وأربعين إلى عماله بالبراءة من أبي بكر وعمر، ونكر ذلك أبو الفتوح أمير مكة، وانتقض له وحمل الوزير أبو القاسم المغربي على طلب الأمر لنفسه.

وكان الحاكم قتل أباه وأعمامه فخطب أبو الفتوح لنفسه، وتلقب الراشد بالله، وسار إلى مدينة الرملة لاستدعاء ابن الجراح أمير طيئ لمغاضبة بينه وبين الحاكم.

ثم سرب الحاكم أمواله في بني الجراح فانتقضوا على أبي الفتوح وأسلموه، وفر الوزير المغربي إلى ديار بكر من أرض الموصل ومعه ابن سبابة، وفر التهامي إلى الري وكان معه.

وقطع الحاكم الميرة عن الحرمين، ثم راجع أبو الفتوح الطاعة فعفا عنه الحاكم وأعاده إلى إمارته بمكة.

ولم يحج من العراق في هذه السنين أحد.

وفي سنة اثنتي عشرة حج بأهل العراق أبو الحسن محمد بن الحسن الأفساسي فقيه الطالبيين، واعترضهم بنو نبهان من طيئ، وأميرهم حسان بن عدي، وقاتلوهم فهزموهم وقتل أميرهم حسان.

وخطب في هذه السنة للظاهر بن الحاكم بمكة ولما كان الموسم سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ضرب رجل من قوم مصر الحجر الأسود بدبوس فصدعه وثلمه، وهو يقول: كم تعبد؟ كم تقبل؟ فتبادر إليه الناس فقتلوه، وثار أهل العراق بأهل مصر فنهبوهم وفتكوا فيهم.

ثم حج بركب العراق سنة أربع عشرة النقيب بن الأفساسي وخشي من العرب، فعاد إلى دمشق الشام، وحج في السنة التي بعدها وبطل حج العراق.

ولما بويع القائم العباسي سنة اثنتين وعشرين رام أن يجهز الحاج فلم يقدر لاستيلاء العرب وانحلال أمر بني بويه.

ثم خطب بمكة للمستنصر بن الظاهر.

ثم توفي الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن محمد بن سليمان رئيس مكة وبني سليمان، سنة ثلاثين وأربعمائة لأربعين سنة من إمارته وولي بعده إمارة مكة ابنه شكر، وجرت له مع أهل المدينة خطوب ملك في أثنائها المدينة وجمع بين الحرمين وعليه انقرضت دولة بني سليمان سنة ثلاثين بمكة، وجاءت دولة الهواشم كما يذكر.

وشكر هذا هو الذي يزعم بنو هلال بن عامر أنه تزوج الجازية بنت سرحان من أمراء الأثبج منهم، وهو خبر مشهور بينهم في أقاصيصهم، وحكايات يتناقلونها ويطرزونها بأشعار من جنس لغتهم ويسمونه الشريف بن هاشم.

وقال ابن حزم: غلب جعفر بن أبي هاشم على مكة أيام الأخشيديين وولي بنوه من بعده عيسى بن جعفر، وأبو الفتوح وابنه شكر بن أبي الفتوح، وقد انقرض لأن شكراً لم يولد له، وصار أمر مكة إلى عبد كان له.

انتهى كلام ابن حزم وليس أبو هاشم الذي نسب جعفر إليه أبا الهواشم الذي يأتي ذكرهم لأن هذا كان أيام الأخشيديين وذلك أيام المستضيء العبيدي وبينهما نحو من مائة سنة.

الخبرعن دولة الهواشم بمكة من بني الحسن وتصاريف أحوالهم إلى انقراضها

هؤلاء الهواشم من ولد أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون ونسبه معروف وقد مر.

وكانت بين هؤلاء الهواشم وبين السليمانيين فتن متصلة، ولما مات شكر ذهبت الرياسة من بني سليمان لأنه لم يعقب.

وتقدم فيهم طراد بن أحمد، ولم يكن من بيت الإمارة وإنما كانوا يؤملونه لإقدامه وشجاعته.

وكان رئيس الهواشم يومئذ محمد بن جعفر بن محمد وهو أبو هاشم المذكور، وقد ساد في الهواشم، وعظم ذكره فاقتتلوا سنة أربع وخمسين بعد موت شكر فهزم الهواشم بني سليمان وطردوهم عن الحجاز، فساروا إلى اليمن، وكان لهم بها ملك كما يذكر.

واستقل بإمارة مكة الأمير محمد بن جعفر وخطب للمستنصر العبيدي.

ثم ابتدأ الحاج من العراق سنة ست وخمسين بنظر السلطان ألب أرسلان ابن داود ملك السلجوقية حين استولى على بغداد والخلافة، طلب منه القائم ذلك فبذل المال وأخذ رهائن العرب، وحج بالناس أبو الغنائم نور الدين المهدي الزيني نقيب الطالبيين.

ثم جاور في السنة بعدها واستمال الأمير محمد بن جعفر عن طاعة العبيديين فخطب لبني العباس سنة ثمان وخمسين، وانقطعت ميرة مصر عن مكة فعذله أهله على ما فعل فرد الخطبة للعبيديين.

ثم خاطبه القائم وعاتبه وبذل له أموالاً فخطب له سنة اثنتين وستين بالموسم فقط، وكتب إلى المستنصر بمصر معتذراً، ثم بعث القائم أبا الغنائم الزيني سنة ثلاث وستين أميراً على الركب العراقي، ومعه عسكر ضخم، ولأمير مكة من عند ألب أرسلان ثلاثون دينارا وتوقيعا بعشرة آلاف دينار.

واجتمعوا بالموسم وخطب الأمير محمد بن جعفر وقال: الحمد لله الذي هدانا إلى أهل بيته بالرأي المصيب، وعوض بيته بلبسة الشباب بعد لبسة المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة إمام الجماعة.

فانحرف المستنصر عن الهواشم ومال إلى السليمانيين.

وكتب إلى علي بن محمد الصبيحي صاحب دعوتهم باليمن أن يعينهم على استرجاع ملكهم، وينهض معهم إلى مكة، فنهض وانتهى إلى المهجم.

وكان سعيد بن نجاح الأحوال موتور بني الصبيحي قد جاء من الهند ودخل صنعاء، فثار بها واتبع الصبيحي في سبعين رجلاً، وهو في خمسة آلاف فبيته بالمهجم وقتله.

ثم جمع محمد بن جعفر أجناداً من الترك وزحف بها إلى المدينة فأخرج منها بني حسن، وملكها وجمع بين الحرمين.

ثم مات القائم العباسي وانقطع ما كان يصل إلى مكة فقطع محمد بن جعفر الخطبة للعباسيين.

ثم جاء الزيني من قابل بالأموال فأعادها.

ثم بعث المقتدي سنة سبعين منبراً إلى مكة صنيعاً استجيد خشبه، ونقش عليه بالذهب اسمه.

وبعث على الحاج ختلغ التركي وهو أول تركي تأمر على الحاج، وكان والياً بالكوفة.

وقهر العرب مع جماعته فبعثه المقتدي أميراً على الحاج فوقعت الفتنة بين الشيعة، وأهل السنة وكسر المنبر وأحرق وتم الحج.

ثم عاودوا الفتنة سنة ثلاث وسبعين وقطعت الخطبة للمستنصر وأعيدت للمقتدي، واتصلت إمارة ختلغ على الحاج وبعده خمارتكين إلى أن مات ملك شاه، ووزيره نظام الملك فانقطعت الخطبة للعباسيين وبطل الحاج من العراق باختلاف السلجوقية، وتغلب العرب.

ومات المقتدي خليفة بغداد وبويع ابنه المستظهر ومات المستنصر خليفة مصر وبويع ابنه المستعلي من إمارته، وهو الذي أظهر الخطبة العباسية بمكة، وبها ابتدىء أمره وكان يسقطها بعض الأحيان.

وولي بعده ابنه قاسم فكثر اضطرابه، ومهد بنو مزيد أصحاب الحلة طريق الحاج من العراق فاتصل حجهم.

وحج سنة اثنتي عشرة وخمسمائة نظر الخادم من قبل المسترشد بركب العراق، وأوصل الخلع والأموال إلى مكة، ثم توفي قاسم بن محمد سنة ثمان عشرة وخمسمائة لثلاثين سنة من إمارته، وكانت في اضطراب وتغلب، وولي بعده ابنه أبو قليبة بمكة، فافتتح بالخطبة العباسية وأحسن الثناء عليه بالعدل، ووصل نظر الخادم أميراً على الركب ومعه الأموال والخلع.

ثم مات أبو قليبة سنة سبع وعشرين لعشر سنين من

إمارته، والخطبة للعباسيين وإمارة الحاج لنظر الخادم.

ثم كانت واقعة المسترشد مع السلطان مسعود ومقتله وتعطل ركب الحاج.

ثم حج نظر الخادم في السنة بعدها.

ثم بعثت أسماء الصبيحية صاحبة اليمن لأمير مكة قاسم بن أبي قليبة فتوعدته على قطع خطبة الحافظ، وماتت فكفاه اللّه شرها، وانقطع الركب العراقي في هذه السنين للفتن والغلاء.

ثم حج سنة أربع وأربعين نظر الخادم، ومات في طريقه، فولي قيماز، واعترضه رهط من الأعراب فنهب الركب، واتصل حج قيماز والخطبة لبني العباس إلى سنة خمس وخمسين قبله.

وبويع المستنجد فخطب له كما كان لأبيه المقتفي.

ثم قتل قاسم بن أبي قليبة سنة ست وستين وبعث المستضيء بالركب طاتنكين التركي، وانقرضت دولة العبيديين بمصر، ووليها صلاح الدين بن أيوب، واستولى على مكة واليمن، وخطب له بالحرمين ثم مات المستضيء سنة خمس وسبعين وبويع ابنه الناصر، وخطب له بالحرمين، وحجت أمه بنفسها سنة خمس وثلاثين، وكانت له آثار عظيمة ورجعت فانهت إلى الناصر بن عيسى بن قاسم ما اطلعت عليه من أحواله فعزله عن إمارة مكة، وولى أخاه مكثر بن قاسم، وكان جليل القدر، ومات سنة تسع وثمانين السنة التي مات فيها صلاح الدين.

وضعف أمر الهواشم، وكان أبو عزيز بن قتادة يناسبهم من جهة النساء فورث أمرهم وملك مكة من أيديهم، وانقرضت دولتهم والبقاء لله.

الخبرعن بني قتادة أمراء مكة بعد الهواشم ثم عن بني أبي نمير منهم أمراؤها لهذا العهد

كان من ولد موسى الجون الذي مر ذكره في بني حسن عبد اللّه أبي الكرام، وكان له على ما نقل نسابتهم ثلاثة من الولد سليمان وزيد وأحمد.

ومنه تشعبت ولده. فأما زيد فولده اليوم بالصحراء بنهر الحسنية، وأما أحمد فولده بالدهناء، وأما سليمان فكان من ولده مطاعن بن عبد الكريم بن يوسف بن عيسى بن سليمان وكان لمطاعن إدريس وثعلب بالثعالبة بالحجاز.

فكان لإدريس ولدان قتادة النابغة وصرخة.

فأما صرخة فولده شبع يعرفون بالشكرة، وأما قتادة النابغة فكان يكنى أبا عزيز، وكان من ولده علي الأكبر وشقيقه حسن.

فمن ولد حسن إدريس وأحمد ومحمد وجماز، وإمارة ينبع في أعقابهم ومنهم لهذا العهد أميران يتداولان إمارتها من ولد إدريس بن حسن بن إدريس.

وأما أبو عزيز قتادة النابغة فمن ولد موالي عز أمراء مكة لهذا العهد.

وكان بنو حسن بن الحسن كلهم موطنين بنهر العلقمية من وادي ينبع لعهد إمارة الهواشم بمكة، وكانوا ظواعن بادية.

ولما نشأ فيهم قتادة هذا جمع قومه ذوي مطاعن، وأركبهم واستبد بإمارتهم، وكان بوادي ينبع بنو خراب من ولد عبد اللّه بن حسن بن الحسن، وبنو عيسى بن سليمان بن موسى الجون فحاربهم بنو مطاعن هؤلاء، وأميرهم أبو عزيز قتادة وأخرجهم، وملك ينبع والصفراء واستكثر من الجند والمماليك.

وكان على عهد المستنصر العباسي في أواسط المائة السادسة.

وكان الأمراء يومئذ بمكة الهواشم من ولد جعفر بن هاشم بن الحسن بن محمد بن موسى بن أبي الكرام عبد اللّه، وقد مر ذكرهم، وكان أخرجهم مكثر بن عيسى بن قاسم الذي بنى القلعة على جبل أبي قبيس، ومات سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

فسار قتادة إلى مكة وانتزعها من أيديهم وملكها، وخطب للناصر العباسي، وأقام في إمارتها نحواً من أربعين سنة.

واستفحل ملكه واتسع إلى نواحي اليمن وكان لقبه أبا عزيز.

وفي سنة ثلاث وستمائة حج بالركب وجه السبع التركي من مماليك الناصر وفر من طريقه إلى مصر فنهب الركب.

وفي سنة ثمان وستمائة وثب شخص من حاج العراق على شريف من قرابة قتادة فقتله، فاتهم الشرفاء به أمراء الركب، فثاروا بهم وقتلوا منهم خلقاً.

ثم بعث إليهم بالأموال من بغداد وبعث قتادة بعض أولاده يستعتب فأعتب.

وفي سنة خمس عشرة خطب بمكة للعادل بن أيوب بعد الناصر الخليفة وللكامل بن العادل بعدهما.

وفي سنة ست عشرة كان خروج التتر وكان قتادة عادلاً

وأمن الناس في أيامه، ولم يعد قط على أحد من الخلفاء ولا من الملوك، وكان يقول: أنا أحق بالخلافة، وكانت الأموال والخلع تحمل إليه، واستدعاه الناصر في بعض السنين فكتب إليه:

ولي كف ضرغام أذل ببسطها	وأشري بها عز الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها	وفي بطنها للمجدبين ربيع
أأجعلها تحت الرجا ثم ابتغي	خلاصا لها إني إذا لوضيع
وما أنا إلا المسك في كل بقعة	يضوع وأما عندكم فيضيع

واتسعت دولته فملك ملك مكة والينبع وأطراف اليمن، وبعض أعمال المدينة وبلاد نجد، وكان يستكثر من المماليك، وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة، ويقال: سمه ابنه حسن ويقال: داخل ابنه حسن جاريته فأدخلته ليلاً فخنق أباه، ثم قتلها وملك مكة وامتعض لذلك ابنه راجح بن أبي عزيز قتادة وشكاه إلى أمير حاج أقباش التركي عند وصوله فأشكاه، ووعده بالإنصاف منه، فأغلق حسن أبواب مكة وخرج بعض أصحابه إلى الأمير أقباش فلقوه عند باب المعلى فقتلوه وعلقوه بالمسعى.

ثم جاء المسعود بن الكامل سنة عشرين من اليمن إلى مكة، فحج وقاتله حسن ببطن المسعى فغلبه المسعود وملك مكة، ونصب رايته وأزال راية أمير الركب، وكتب الخليفة من بغداد يعاتب أباه على ذلك، وعلى ما فعله في مكة والتخلف فكتب إليه أبوه: برئت يا أقسى من ظهر العادل إن لم أقطع يمينك فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

فغرم ديات الشرفاء وأصابه شلل في يده ومضى حسن بن قتادة إلى بغداد صريخاً بعد أن بقي طريداً بالشام والجزيرة والعراق ثم جاء إلى بغداد دخيلا وهم الترك بقتله بأقباش أمير الركب فمنعوا منه.

ومات ببغداد سنة اثنتين وعشرين ودفن بمشهد الكاظم.

ثم مات المسعود بن الكامل بمكة سنة ست وعشرين ودفن بالمعلى وبقي على مكة قائده فخر الدين بن الشيخ، وعلى اليمن أمير الجيوش عمر بن علي بن رسول.

وقصد راجح بن قتادة مكة سنة تسع وعشرين مع عساكر عمر بن رسول فملكها سنة ثلاثين من يد فخر الدين بن الشيخ، ولحق فخر الدين بمصر، ثم جاءت عساكر مصر سنة اثنتين وثلاثين مع الأمير جبريل وملكوا مكة، وهرب راجح إلى اليمن.

ثم جاء عمر بن رسول معه بنفسه فهربت عساكر مصر، وملك راجح مكة وخطب لعمر بن رسول بعد المستنصر، ولما ملك التتر العراق سنه أربع وثلاثين وعظم أمرهم وانتهوا إلى إربل أبطل المستنصر الحج من أمر الجهاد وأفتاه العلماء بذلك.

ثم جهز المعتصم الحاج مع أمه سنة ثلاث وأربعين وشيعها إلى الكوفة، ولما حجت ضرب تركي في الموسم شريفاً وكتب راجح فيه إلى الخليفة فقطعت يده وبطل الحج بعد ذلك.

ثم قوي أمر الموطيئ إمام الزيدية باليمن، واعتزم على قطع الخطبة لبني العباس فضاق به المظفر بن عمر بن رسول، وكاتب المعتصم يحرضه على تجهيز الحاج بسبب ذلك.

ثم قوي أمر الموطيئ إمام الزيدية باليمن.

وسار جماز بن حسن بن قتادة سنة إحدى وخمسين إلى الناصر بن العزيز بن الظاهر بن أيوب بدمشق مستجيشاً على أبي سعيد، وسار إلى مكة فقتل أبا سعيد في الحرم، ونقض عهد الناصر، وخطب لصاحب اليمن.

قال ابن سعيد: وفي سنة ثلاث وخمسين بلغني وأنا بالمغرب أن راجح بن قتادة جاء إلى مكة وهو شيخ كبير السن وكان يسكن السدير على نحو اليمن فوصل إلى مكة، وأخرج منها جماز بن أبي عزيز فلحق بالينبع.

قال: وفي سنة اثنتين وستين وصل الخبر إلى المغرب بأن أمر مكة دائر بين أبي نمي بن أبي سعيد الذي قتل جماز به على إمارة مكة، وبين غالب بن راجح الذي أخرجه أبوه جماز إلى الينبع.

ثم استبد أبو نمي على أمر مكة ونفى قتلة أبيه أبي سعيد إلى الينبع.

وهم إدريس وجماز ومحمد، وقد كان إدريس منهم ولي أمر مكة قليلاً، فانطلقوا إلى الينبع وملكوه، وأعقابهم أمراؤه لهذا العهد، وأقام أبو نمي أميراً بمكة نحواً من خمسين سنة وهلك على رأس المائة السابعة أو بعدها بستين وخلف ثلاثين ولداً.

إمارة بني أبي نمي بمكة

ولما هلك أبو نمي قام من بعده بأمر مكة ابناه رميثة وحميضة ونازعهما عطيفة وأبو الغيث فاعتقلاهما، ووافق ذلك وصول بيبرس الجاشنكير كافل الملك الناصر بمصر، لأول ولايته فأطلقهما وولاهما، وبعث برميثة وحميضة إلى مصر، ثم ردهما السلطان إلى إمارتهما بمكة مع عسكره، وبعث إليه بعطيفة وأبي الغيث.

ثم طال تنازعهم وتعاقبهم في إمارة مكة مرة بعد أخرى.

وهلك أبوالغيث في بعض حروبهم ببطن مر.

ثم تنازع حميضة ورميثة، وسار رميثة إلى الملك الناصر سنة خمس عشرة، واستمد بأمرائه وعساكره، وهرب حميضة بعد أن استصفى أموال أهل مكة.

ثم رجع بعد رجوع العساكر إلى مكة ثم اصطلحوا وتوافقوا.

ثم خالف عطيفة سنة ثمان عشرة ووصل إلى السلطان، وجاء بالعسكر فملك مكة، وتقبض على رميثة فسجن أياماً ثم أطلق سنة عشرين عند مقدم السلطان من حجه، وأقام بمصر.

وبقي حميضة مشرداً إلى أن استأمن السلطان فأمنه، وكان معه جماعة من المماليك فروا إليه من مصر أيام انتقاضه، فشعروا بطاعته فخافوا على أنفسهم أن يحضروا معه فقتلوه وجاؤوا إلى السلطان يعتقدون ذلك وسيلة عنده فأقاد رميثة منهم بأخيه فقتل المباشر للقتل، وعفا عن الباقين.

وأطلق رميثة إلى مكة مشاركاً لأخيه عطيفة في إمارتها.

ثم هلك عطيفة سنة وأقام أخوه رميثة بعده مستقلاً بإمارة مكة إلى أن كبر وهرم، ثم هلك.

وكان ابناه ثقبة وعجلان قد اقتسما معه إمارة مكة برضاه.

ثم أراد الرجوع عن ذلك فلم يجيباه إلى شيء مما أراد، واستمرا على ولايتهما معه.

ثم تنازعا وخرج ثقبة وبقي عجلان بمكة.

ثم غلبه عليها ثقبة، ثم اجتمعا بمصر سنة ست وخمسين فولي صاحب الأمر بمصر عجلان منهما، وفر ثقبة إلى بلاد الحجاز فأقام هنالك، وعاقبه إلى مكة مراراً.

وجاء عجلان سنة اثنتين وستين بالمدد من عسكر القاهرة.

فكبسه ثقبة وقتل أخاه وبعضاً من العسكر ولم يزل عجلان على إمارته سالكا سبيل العدل والإنصاف في الرعية متجافياً عن الظلم عما كان عليه قومه من التعرض للتجار والمجاورين، وسعى في أيام إمارته في قطع ما كان لعبيدهم على الحاج من المكس.

وثبت لهم في ديوان السلطان عليها عطاء يتعاهدهم أيام الموسم وكانت من حسنات سلطان مصر.

وسعى هذا الأمير عجلان جزاه الله خيراً، وأقام على ذلك إلى أن هلك سنة سبع وسبعين، وولي ابنه أحمد بعده.

وقد كان فوض إليه في حياته وقاسمه في أمره، فقام أحمد بأمر مكة وجرى على سنن أبيه في إثبات مراسم العهد وإحياء معالمه، حتى شاع عنه ذلك في الآفاق كل ألسنة الحاج والمجاورين.

وولاه صاحب مصر لعهده الملك الظاهر أبو سعيد برقوق على ما كان أبوه، وسير إليه بالخلع والتفويض على عادتهم في ذلك.

وكان في محبس أحمد جماعة من قرابته منهم أخوه محمد ومحمد ابن أخيه ثقبة وعنان ابن عمه مغامس في آخرين.

فلما مات أحمد هربوا من محبسهم ولحقوا بهم فردوهم وأجلوا محمد بن عجلان منهم إلا عناناً فإنه لحق بمصر مستجيشاً على محمد وكبيش، فأنجده السلطان وبعثه مع أمير الركب ليطالع أحوالهم، واستصحب معه جماعة من الباطنية فتكوا بمحمد عند لقائه المحمل الذي عليه كسوة الكعبة بشارة الخليفة، وتقبيله الخف الذي يحمله على العادة في ذلك، وتركوه صريعاً في مكانه، ودخلوا إلى مكة فولي أمير الحاج عنان بن مغامس ولحق كبيش وشيعته بجدة، فلما انقضى الموسم ورجع الحاج جاء كبيش وأصحابه وحاصروا مكة، وكان بينهم وبين عنان حروب قتل كبيش في بعضها.

ثم لحق علي بن عجلان وأخوه حسن بالملك الظاهر صاحب مصر فرأى أن يحسم المادة بولايته، فولاه سنة تسع وثمانين مشاركاً لعنان بن مغامس في الإمارة، وسار مع أمير الركب فلما وصلوا لكومرد بكروا إلى مكة على العادة، وخرج عنان للقائهم، ثم نكص من بعض الطريق هارباً ودخل علي مكة واستقل بإمارتها، ولما انفض الموسم ورجع الحاج جاء عنان ومعه بنو عمه مبارك وجماعة الشرفاء فحاصروا مكة على علي ونازعوه الإمارة ثم أفرجوا، ثم رجعوا وحالهم على ذلك متصل لهذا العهد.

ووفدوا على السلطان بمصر سنة أربع وتسعين فأفرد علياً بالإمارة، وأفاض عليه العطاء وأكثف له الجند والمستخدمين وأبقى عنان بن مغامس عنده وأجرى عليه الرزق ونظمه في أهل دولته.

ثم نمي إلى السلطان أنه يروم الفرار إلى الحجاز لينازع أمير مكة علي بن عجلان فقبض عليه وحبسه، وقبض علي بن عجلان على الأشراف الذين كانوا هنالك شيعة له.

ثم من عليهم وأطلقهم فعادوا إلى منازعته والفتنة معه لهذا العهد والله متولي الأمور لا رب غيره.

الخبر عن بني مهنى أمراء المدينة النبوية من بني الحسن وذكر أوليتهم ومفتتح إمارتهم

كانت المدينة بلد الأنصار من الأوس والخزرج كما هو معروف.

ثم افترقوا على أقطار الأرض في الفتوحات وانقرضوا، ولم يبق بها أحد إلا بقايا من الطالبيين.

قال ابن الحصين في ذيله على الطبري: دخلت المائة الرابعة والخطبة بالمدينة للمقتدر.

قال: وترددت ولاية بني العباس عليها والرياسة فيها بين بني حسين وبني جعفر إلى أن أخرجهم بنو حسين فسكنوا بين مكة والمدينة.

ثم أجلاهم بنو حرب من زبيد إلى القرى والحصون، وأجازوهم إلى الصعيد فهم هنالك إلى اليوم.

وبقي بنو حسين بالمدينة إلى أن جاءهم ظاهر بن مسلم من مصر فملكوه عليهم.

وفي الخبر عن وصول ظاهر هذا أن مسلماً أباه اسمه محمد بن عبيد الله بن ظاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر، ويسمى عند الشيعة حجة الله بن عبيد الله بن الحسين الأصغر بن زين العابدين، وكان مسلم هذا صديقاً لكافور المتغلب على الأخشيدية بمصر، وكان يدبر أمره ولم يكن بمصر لعصره أوجه منه.

ولما ملك العبيديون مصر وجاء المعز لدين الله ونزل بالقاهرة التي اختطها وذلك سنة خمس وستين وثلاثمائة، خطب يومئذ من مسلم هذا كريمته لبعض بنيه فرده مسلم، فسخطه المعز ونكبه، واستصفى أمواله وأقام في اعتقاله إلى أن هلك.

ويقال: فر من محبسه فهلك في مفره، ولحق ابنه ظاهر بن محمد بعد ذلك بالمدينة فقدمه بنو حسين على أنفسهم، واستقل بإمارتها سنين.

ثم مات سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وولي مكانه ابنه الحسن.

وفي كتاب العتبي مؤرخ دولة ابن سبكتكين: أن الذي ولي بعده هو صهره وابن عمه داود بن القاسم بن عبيد الله بن ظاهر، وكنيته أبو علي، واستقل بها دون ابنه الحسن إلى أن هلك، وولي بعده ابنه هاني ثم ابنه مهنى.

ولحق الحسن بمحمود بن سبكتكين فأقام عنده بخراسان، وهذا غلط لأن المسبحي مؤرخ العبيديين ذكر وفاة ظاهر بن مسلم في سنتها كما قلناه، وولاية الحسن ابنه.

وقال: في سنة ثلاث وثمانين وعامل المدينة الحسن بن ظاهر ويلقب مهنى والمسبحي أقعد بأخبار المدينة ومصر من العتبي، إلا أن أمراء المدينة لهذا العهد ينتسبون إلى داود ويقولون: جاء من العراق فلعلهم لقنوا ذلك عمن لا يعرفه.

ومؤرخ حماة متى ينسب أحداً من أوليهم فإنما ينسبه إلى أبي داود والله أعلم.

وقال أبو سعيد: وفي سنة تسعين وثلاثمائة ملكها أبو الفتوح حسن بن جعفر أمير مكة من بني سليمان بأمر الحاكم العبيدي وأزال عنها إمارة بني مهنى من بني الحسين، وحاول نقل الجسد النبوي إلى مصر ليلاً فأصابتهم ريح عاصفة أظلم لها الجو، وكادت تقتلع البناء من أصله فردهم أبو الفتوح عن ذلك ورجع إلى مكة.

وعاد بنو مهنى إلى المدينة.

وذكر مؤرخ حماة من أمرائهم منصور بن عمارة، ولم ينسبه، وقال: مات سنة سبع وتسعين وأربعمائة وولي بعده ابنه.

قال: وهم من ولد مهنى، وذكر منهم أيضاً القاسم بن مهنى بن حسين بن مهنى بن داود وكنيته أبو قليتة، وأنه حضر مع صلاح الدين بن أيوب غزاة أنطاكية وفتحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وقال الزنجازي مؤرخ الحجاز فيما ذكر عنه ابن سعيد حين ذكر ملوك المدينة من ولد الحسين فقال: وأحقهم بالذكر لجلالة قدره قاسم بن جماز بن قاسم بن مهنى، ولاه المستضيء فأقام خمساً وعشرين سنة ومات سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وولي ابنه سالم بن قاسم وكان شاعراً، وهو الذي كانت بينه وبين أبي عزيز قتادة صاحب مكة وقعة المصارع، ببدر سنة إحدى وستمائة، زحف أبو عزيز من مكة وحاصره بالمدينة، واشتد في حصاره، ثم ارتحل وجاء المدد إلى سالم من بني لام إحدى بطون همذان فأدرك أبا عزيز ببدر واقتتلوا وهلك من الفريقين خلق، وانهزم أبو عزيز إلى مكة.

وفي سنة إحدى وستمائة جاء المعظم عيسى بن العادل فجدد المصانع والبرك، وكان معه سالم بن قاسم أمير المدينة جاء يشكو من قتادة فرجع معه، ومات في الطريق قبل وصوله إلى المدينة، وولي بعده ابنه شيخة، وكان سالم قد استخدم عسكراً من التركمان فمضى بهم جماز بن شيخة إلى قتادة وغلبه، وفر إلى

الينبع وتحصن بها، وفي سنة سبع وأربعين قتل صاحب المدينة شيخة وولي ابنه عيسى، ثم قبض عليه أخوه، جماز سنة تسع وأربعين وملك مكانه.

قال ابن سعيد: وفي سنة تسع وخمسين كان بالمدينة أبو الحسن بن شيخة بن سالم.

وقال غيره: كان بالمدينة سنة ثلاث وخمسين أبو مالك، منيف بن شيخة ومات سنة سبع وخمسين وولي أخوه جماز، وطال عمره ومات سنة أربع وسبعمائة، وولي ابنه منصور، ولحق أخوه مقبل بالشام، ووفد على بيبرس بمصر فأقطعه نصف أقطاع منصور، ثم أقبل إلى المدينة على حين غفلة من أخيه منصور وبها ابنه أبو كبيشة فملكها عليه، ولحق أبو كبيشة بأحياء العرب، ثم استجاشهم ورجع إلى المدينة سنة تسع فقتل عمه مقبلاً، وجاء منصور إلى محل إمارته وكان لمقبل ابن اسمه ماجد فأقطع بعض إقطاع أبيه، فأقام مع العرب يجلب على المدينة ويخالف منصوراً عمه إليها متى خرج عنها.

ووقع بين منصور وبين قتادة صاحب الينبع حرب سنة إحدى عشرة من أجله.

ثم جاء ماجد بن مقبل بالمدينة سنة سبع عشرة لقتال عمه منصور واستنجد منصور بالسلطان، فبعث إليه العساكر وحاصر ماجد بن مقبل بالمدينة، ثم قاتلهم وانهزم وبقي منصور على إمارته، وتوفي سنة خمس وعشرين وولي ابنه كبيش بن منصور على إمارته، وطالت أيامه ونازعه ودي بن جماز وحاصره وولي بعده طفيل، وقبض عليه جماز سنة إحدى وخمسين وولي عطية.

ثم توفي عطية سنة ثلاث وثمانين وولي بعده طفيل وقبض عليه فامتنع، وولي جماز بن هبة بن جماز بن منصور وملوك الترك بمصر يختارون لولايتها من هذين البيتين لا يعدلون عنهما إلى سواهما، وولايتها اليوم لجماز بن هبة بن جماز وابن عمه عطية بن محمد بن عطية ينازعه لما بينهما من المنازعة والمنافسة قديماً وحديثاً شأن العجليين في التثور، وهما جميعاً على مذهب الإمامية من الرافضة ويقولون بالأئمة الاثني عشر وبما يناسب ذلك من اعتقادات الإمامية.

والله يخلق ما يشاء ويختار.

هذا آخر الخبر عن أمراء المدينة، ولم أقف على أكثر منه، والله المقدر لجميع الأمور سبحانه لا إله إلا هو.

الخبر عن دولة بني الرسي أئمة الزيدية بصعدة وذكر أوليتهم ومصائر أحوالهم

قد ذكرنا فيما تقدم خبر محمد بن إبراهيم الملقب أبوه طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن الدعي، وظهوره أيام المأمون وقيام أبي السرايا ببيعته وشأنه كله.

ولما هلك وهلك أبو السرايا وانقرض أمرهم طلب المأمون أخاه القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا ففر إلى السند، ولم يزل به إلى أن هلك سنة خمس وأربعين ومائتين، ورجع ابنه الحسن إلى اليمن وكان من عقبه الأئمة بصعدة من بلاد اليمن أقاموا للزيدية بها دولة اتصلت آخر الأيام، وصعدة جبل في الشرق عن صنعاء، وفيه حصون كثيرة أشهرها صعدة وحصن تلا وجبل مطابة، وتعرف كلها ببني الرسي.

وأول من خرج بها منهم يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، دعا لنفسه بصعدة وتسمى بالهادي، وبويع بها سنة ثمان وثمانين في حياة أبيه الحسين، وجمع الجموع من شيعتهم وغيرها، وحارب إبراهيم بن يعفر.

وكان أسعد بن يعفر السادس من أعقاب التابعة لصنعاء وكملا فغلبه على صنعاء ونجران، فملكها وضرب السكة، ثم انتزعها بنو يعفر منه، ورجع إلى صعدة، وتوفي سنة ثمان وتسعين لعشر سنين من ولايته، هكذا قال ابن الحارث قال: وله مصنفات في الحلال والحرام.

وقال غيره: كان مجتهداً في الأحكام الشرعية، وله في الفقه آراء غريبة وتواليف بين الشيعة معروفة.

قال الصولي: وولي بعده ابنه محمد المرتضى، واضطرب الناس عليه وهلك سنة عشرين وثلاثمائة لست وعشرين سنة من ولايته.

وولي بعده أخوه الناصر أحمد واستقام ملكه، واطرد في بنيه بعده، فولي بعده ابنه حسين المنتجب، ومات سنة أربع وعشرين وولي بعده أخوه القاسم المختار إلى أن قتله أبو القاسم الضحاك الهمداني سنة أربع وأربعين.

وقال الصولي: من بني الناصر الرشيد والمنتجب ومات سنة أربع وعشرين.

وقال ابن حزم: لما ذكر ولد أبي القاسم الرسي فقال: ومنهم القائمون بصعدة من أرض اليمن، أولهم يحيى الهادي، له رأي في الفقه وقد رأيته، ولم يبعد فيه عن الجماعة كل البعد.

كان لأبيه أحمد الناصر بنون ولي منهم صعدة بعده جعفر الرشيد، وبعده أخوه القاسم المختار ثم الحسن المتجب ومحمد المهدي.

قال: وكان اليماني القائم بماردة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة يذكر أنه عبد الله بن أحمد الناصر أخو الرشيد والمختار والمنتجب والمهدي.

وقال ابن الحاجب: ولم تزل إمامتهم بصعدة، مطردة إلى أن وقع الخلاف بينهم، وجاء السليمانيون من مكة عندما أخرجهم الهواشم فغلبوا عليهم بصعدة، وانقرضت دولتهم بها في المائة السادسة.

قال ابن سعيد: وكان من بني سليمان حين خرجوا من مكة إلى اليمن أحمد بن حمزة بن سليمان، فاستدعاهم أهل زبيد لينصروهم على علي بن مهدي الخارجي حين حاصرهم، وبها فاتك بن محمد من بني نجاح، فأجابهم على أن يقتلوا فاتكاً، فقتلوه سنة ثلاث وخمسمائة وملكوا عليهم أحمد بن حمزة، فلم يطق مقاومة علي بن مهدي ففر عن زبيد وملكها ابن مهدي.

قال: وكان عيسى بن حمزة أخو أحمد في عشرة باليمن، ومنهم غانم بن يحيى.

ثم ذهب ملك بني سليمان من جميع التهائم والجبال واليمن على يد بني مهدي.

ثم ملكهم بنو أيوب وقهروهم، واستقر ملكهم آخراً في المنصور عبد الله بن أحمد بن حمزة.

قال ابن النديم: أخذ الملك بصعدة عن أبيه واشتدت يده مع الناصر العباسي، وكان يناظره ويبعث دعاته إلى الديلم وجيلان حتى خطب له هنالك وصار له فيها ولاة، وأنفق الناصر عليه أموالاً في العرب باليمن ولم يظفر به.

قال ابن الأثير: جمع المنصور عبد الله بن حمزة أيام الزيدية بصعدة سنة اثنتين وخمسمائة، وزحف إلى اليمن فخاف منه المعز بن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب.

ثم زحف إليه المعز فهزمه، ثم جمع ثانية سنة اثنتي عشرة وستمائة جموعاً من همذان وخولان، وارتجت له اليمن وخاف المسعود بن الكامل وهو يومئذ صاحب اليمن، ومعه الكرد والترك، وأشار أمير الجيوش عمر بن رسول بمعاجلته قبل أن يملك الحصون.

ثم اختلف أصحاب المنصور ولقيه المسعود فهزمه، وتوفي المنصور سنة ثلاثين وستمائة عن عمر مديد، وترك ابناً اسمه أحمد ولاه الزيدية، ولم يخطبوا له بالإمامة ينتظرون علو سنه، واستكمال شروطه، ولما كانت سنة خمس وأربعين بايع قوم من الزيدية لأحمد الموطىء من بقية الرسي، وهو أحمد بن الحسين من بني الهادي لأنهم لما أخرجهم بنو سليمان من كرسي إمامتهم بصعدة آووا إلى جبل قطابة بشرقي صعدة، فلم يزالوا هنالك، وفي كل عصر منهم إمام شائع بأن الأمر إليهم إلى أن بايع الزيدية الموطىء، وكان فقيهاً أديباً عالماً بمذهبهم، قواماً صواماً، بويع سنة خمس وأربعين وستمائة.

وأهم نور الدين عمر بن رسول شأنه فحاصره بحصن تلا سنة، وامتنع عليه فأفرج عنه، وحمل العساكر من الحصون المجاورة لحصاره.

ثم قتل عمر بن رسول وشغل ابنه المظفر بحصن الدملوة، فتمكن الموطىء، وملك عشرين حصناً وزحف إلى صعدة فغلب السليمانيين عليها، وقد كانوا بايعوا لأحمد ابن إمامهم عبد الله المنصور، ولقبوه المتوكل عندما بويع للموطىء بالإمامة في تلا لأنهم كانوا ينتظرون استكمال سنه، فلما بويع الموطىء بايعوه، ولما غلبهم على صعدة نزل أحمد المتوكل إمامهم وبايع له وأمنه وذلك سنة تسع وأربعين.

ثم حج سنة خمسين وبقي أمر الزيدية بصعدة في عقب الموطىء هذا وسمعت بصعدة أن الإمام بصعدة كان قبل الثمانين والسبعمائة علي بن محمد في أعقابهم، وتوفي قبل الثمانين والسبعمائة علي بن محمد من أعقابهم.

وولي ابنه صلاح، وبايعه الزيدية وكان بعضهم يقول: ليس هو بإمام لعدم شروط الإمامة، فيقول: هو أنا لكم ما شئتم إمام أو سلطان.

ثم مات صلاح آخر سنة ثلاث وتسعين وقام بعده ابنه نجاح، وامتنع الزيدية من بيعته فقال: أنا محتسب لله. هذا ما بلغنا عنهم بمصر أيام المقام فيها والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن نسب الطالبيين وذكر المشاهير من أعقابهم

وأما نسب هؤلاء الطالبيين فأكثرها راجع إلى الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب، من فاطمة رضي الله عنها، وهما سبطا الرسول ﷺ وإلى أخيهما محمد بن الحنفية، وإن كان

لعلي رضي الله عنه غيرهم من الولد إلا أن الذين طلبوا الحق في الخلافة وتعصبت لهم الشيعة، ودعوا لهم في الجهات إنما هم الثلاثة لا غيرهم، فأما الحسن فمن ولده الحسن المثنى وزيد، ومنهما العقب المشهود له في الدعوة والإمامة.

ومن ولد حسن المثنى عبد الله الكامل وحسن المثلث وإبراهيم العمر وعباس وداود.

فأما عبد الله الكامل وبنوه فقد مر ذكرهم وأنسابهم عند ذكر ابنه محمد المهدي، وأخبارهم مع أبي جعفر المنصور.

وكان منهم الملوك الأدارسة بالمغرب الأقصى بنو إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل.

ومن عقبهم بنو حمود ملوك الأندلس الدائلون بها من بني أمية آخر دولتهم.

ومنهم بنو حمود بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس، وسيأتي ذكر أخبارهم.

ومنهم بنو سليمان بن عبد الله الكامل.

كان من عقبه ملوك اليمامة بنو محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون، ومنهم بنو صالح بن موسى بن عبد الله الساقي، ويلقب بأبي الكرام بن موسى الجون، وهم الذين كانوا ملوكا بغانة من بلاد السودان بالمغرب الأقصى، وعقبهم هنالك معروفون.

ومن عقبه أيضاً الهواشم بنو أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر بن موسى الثاني بن عبد الله أبي الكرام، كانوا أمراء مكة لعهد العبيديين وقد مر ذكرهم.

ومن أعقابهم بنو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن موسى الجون، وملكوا مكة بعد الهواشم على يد قتادة أبيهم هذا.

فمنهم بنو نمي بن سعد بن علي بن قتادة أمراء مكة لعهدنا.

ومن عقب داود بن حسن المثنى السليمانيون الذين كانوا بمكة وهم بنو سليمان بن داود وغلبهم عليها الهواشم آخراً وصاروا إلى اليمن فقامت الزيدية بدعوتهم كما مر في أخبارهم.

ومن عقب حسن المثلث بن حسن المثنى حسين بن علي بن حسن المثلث الخارج على الهادي وقد مر ذكره.

ومن عقب إبراهيم العمر بن حسن المثنى بن طباطبا واسمه إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم كان منهم محمد بن طباطبا أبو الأئمة بصعدة الذين غلبهم عليها بنو سليمان بن داود بن حسن المثنى حين جاؤوا من مكة.

ثم غلبهم بنو الرسي عليها، ورجعوا إلى إمامهم بصعدة وهم بها لهذا العهد ومنهم بنو سليمان بن داود بن حسن المثنى وابنه محمد بن سليمان القائم بالمدينة أيام المأمون.

قال ابن حزم: وعقبه بالمدينة لأبي جعفر المنصور، ولا عقب لزيد إلا منه.

وكان من عقبه محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن زيد.

قام بالمدينة أيام المعتمد وجاهر بالمنكرات والقتل إلى أن تعطلت الجماعات.

ومن عقبه أيضاً القائم بطبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد وأخوه محمد القائم من بعده وقد مر خبرهما.

ومنهم الداعي الصغير بالري وطبرستان وهو الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد الطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد، وكانت بين هذا الداعي الصغير وبين الأطروش حروب، وقتل هذا الداعي سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

ومن عقبه أيضاً القاسم بن علي بن إسماعيل أحد قواد الحسن بن زيد.

وهم غيروا نعم أهل تلك الآفاق، وأذهبوا بمهجتهم وكانوا سبباً لتورد الديلم ببلاد الإسلام لما يستجيشونهم.

وخرج معهم ومع الأطروش الحسني ماكان بن كالي ملك الديلم.

وكان مرداويج وبنو بويه من بعض رجاله، وكان لهم من عشيرهم قواد ورجال تسموا باسم الديلم من أجل مرباهم بينهم والله يخلق ما يشاء.

وأما الحسين وهو القتيل بالطعن أيام يزيد بن معاوية، فمن ولده علي بن زين العابدين بن زيد الشهيد، ومحمد الباقر، وعبد الله الأرقط، وعمر والحسن الأعرج، فمن ولد الأرقط الحسين الكويكي ابن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الأرقط، كان من قواد الحسن الأطروش بن الحسن بن علي القائم بن علي بن عمر، قام بأرض الطالقان أيام المعتصم، ثم هرب من سفك الدماء واستتر إلى أن مات وكان معتزليا.

ومنهم الأطروش أسلم على يديه الديلم وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر، وكان فاضلاً حسن المذهب

عدلاً، ولي طبرستان وقتل سنة أربع وثلاثمائة، وقام بعده أخوه محمد ومات.

وقام الحسين ابن أخيه محمد بن علي وقتل بها سنة ست عشرة وثلاثمائة، قتله جيوش نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن نوح بن أسد الساماني صاحب خراسان.

ومن ولد الحسين المهرج بن زين العابدين بن عبد اللّه العقيقي بن الحسين، كان من ولده الحسين بن محمد بن جعفر بن عبد اللّه العقيقي قتله الحسن بن زيد صاحب طبرستان.

ومنهم جعفر بن عبيد اللّه بن الحسين الأعرج كان شيعته يسمونه حجة اللّه وكان من عقبه الملقب بمسلم الذي دبر أمر مصر أيام كافور، وهو محمد بن عبيد اللّه بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسين بن يعفر حجة اللّه، وابنه طاهر بن مسلم.

ومن عقب طاهر هذا أمراء المدينة لهذا العهد بنو جماز بن هبة بن جماز بن منصور بن جماز بن جماز بن شيخة بن هاشم بن القاسم بن مهنى، ومهنى بن مهنى بن داود بن القاسم أخي مسلم وعمر وطاهر.

وزعم ابن سعيد: أن بني جماز بن شيخة أمراء المدينة هؤلاء من ولد عيسى بن زيد الشهيد، وفيه نظر.

ومن ولد الحسين الحسن الأعرج وزيد هو القائم بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة إحدى وعشرين ومائة، وقتل وخرج ابنه يحيى سنة خمس وعشرين بخراسان وقتل، وقد انتمى صاحب الزنج في بعض أوقاته إليه.

وأخوه عيسى بن زيد الذي حارب المنصور أول خلافته من ولد الحسين الذي كان من عقبه يحيى بن عمر بن يحيى القائم بالكوفة أيام المستعين، وكان حسن المذهب في الصحابة وإليه ينسب العمريون الذين استولوا على الكوفة أيام الديلم من قبل السلطان ببغداد.

وعلي بن زيد بن الحسين بن زيد قام بالكوفة، ثم هرب إلى صاحب الزنج بالبصرة فقتله وأخذ جارية له كان سباها من البصرة.

ومن ولد محمد الباقر بن زين العابدين عبد اللّه الأفطح وجعفر الصادق، فكانت لعبد اللّه الأفطح شيعة يدعون إمامته: منهم زرارة بن أعين الكوفي.

ثم قام بالمدينة وسأله عن مسائل من الفقه فألفاه جاهلاً فرجع عن القول بإمامته فانقطعت الأفطحية.

وزعم ابن حزم أن بني عبيد ملوك مصر ينسبون إليه وليس ذلك بصحيح.

ومن ولد جعفر الصادق إسماعيل الإمام، وموسى الكاظم، ومحمد الديباجة، فأما محمد الديباجة فخرج بمكة أيام المأمون وبايع له أهل الحجاز بالخلافة وحمله المعتصم لما حج، وجاء به إلى المأمون فعفا عنه، ومات سنة ثلاث ومائتين.

وأما إسماعيل الإمام وموسى الكاظم فعليهما وعلى بنيهما مدار اختلاف الشيعة، وكان الكاظم على زي الأعراب مائلاً إلى السواد وكان الرشيد يؤثره ويتجافى عن السعاية فيه كما مر ثم حبسه.

ومن عقبه بقية الأئمة الاثني عشر عند الإمامية من لدن علي بن أبي طالب الوصي، ووفاته سنة خمس وأربعين، ثم أخوه الحسين ومقتله سنة إحدى وستين، ثم ابنه زين العابدين ووفاته ثم ابنه محمد الباقر ووفاته سنة إحدى وثمانين ومائة، ثم ابنه جعفر الصادق ووفاته سنة ثلاث وأربعين ومائة، ثم ابنه موسى الكاظم ووفاته سنة ثلاث وثمانين ومائة وهو سابع الأئمة عندهم.

ثم ابنه علي الرضا ووفاته سنة ثلاث ومائتين.

ثم ابنه محمد المقتفي ووفاته سنة عشرين ومائتين.

ثم ابنه علي الهادي ووفاته سنة أربع وخمسين ومائتين.

ثم ابنه حسن العسكري ووفاته سنة ستين ومائتين.

ثم ابنه محمد المهدي وهو الثاني عشر وهو عندهم حي منتظر وأخبارهم معروفة.

ومن عقب موسى الكاظم من غير الأئمة ابنه إبراهيم المرتضى، ولاه محمد بن طباطبا وأبو السرايا على اليمن، فذهب إليها ولم يزل بها أيام المأمون يسفك الدماء حتى لقبه الناس بالجزار، وأظهر الإمامة عندما عهد المأمون لأخيه الرضا.

ثم اتهم المأمون بقتله فجاهر وطلب لنفسه.

ثم عقد المأمون على حرب الفاطميين باليمن لمحمد بن زياد بن أبي سفيان لما بينهم من البغضاء فأوقع بهم مراراً، وقتل شيعتهم وفرق جماعتهم.

ومن عقبه موسى بن إبراهيم جد الشريف الرضي والمرتضى، واسم كل منهما علي بن الحسين بن محمد بن موسى بن إبراهيم.

ومن عقب موسى الكاظم ابنه زيد ولاه أبو السرايا على الأهواز، فسار إلى البصرة وملكها وأحرق دور العباسيين بها

فسمي زيد النار.

ومن عقبه زيد الجنة بن محمد بن زيد بن الحسن بن زيد النار من أفاضل هذا البيت وصلحائهم، حمل إلى بغداد في محنة الفاطميين أيام المتوكل، ودفع إلى ابن أبي دواد يمتحنه فشهد له وأطلقه.

ومن عقب موسى الكاظم ابنه إسماعيل ولاه أبو السرايا على فارس.

ومن عقب جعفر الصادق من غير الأئمة محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر، قاما بالمدينة سنة إحدى وسبعين ومائتين وسفكا الدماء وانتهبا الأموال، واستلحما آل جعفر بن أبي طالب وأقامت المدينة شهراً لا تقام فيها جمعة ولا جماعة.

ومن عقب إسماعيل الإمام العبيديون خلائف القيروان ومصر بنو عبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل وقد مر ذكرهم.

وما للناس من الخلاف في نسبهم وهو مطروح كله وهذا أصح ما فيه.

وقال ابن حزم: إنهم من بني حسن البغيض وهو عم المهدي وعنده أنها دعوى منهم.

وأما محمد بن الحنفية فكان من ولده عبد اللّه بن عباس، وأخوه علي بن محمد وابنه الحسن بن علي بن محمد، وكل ادعت الشيعة إمامته وخرج باليمن على المأمون ولد علي من غير هؤلاء عبد الرحمن بن أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن علي بن أبي طالب، ومن ولد جعفر بن أبي طالب عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب القائم بفارس، وبويع بالكوفة وأراد بعض شيعة العباسية تحويل الدعوة إليه فمنع أبو مسلم من ذلك وكانت له شيعة ينتظرونه، وساقوا الخلافة إليه من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بالوصية، وكان فاسقاً وكان معاوية ابنه نظير أبيه في الشر.

انتهى الكلام فى أنساب الطالبيين وأخبارهم، فلنرجع الآن إلى أخبار بني أمية بالأندلس المنازعين للدعوة العباسية.

ثم نرجع إلى دول القائمين بالدعوة العباسية المستبدين عليهم من العرب والترك واليمن والجزيرة والشام والعراق والمغرب، واللّه المستعان.

الخبر عن دولة بني أمية بالأندلس من هذه الطبقة المنازعين للدعوة العباسية وبداية أمرهم وأخبار ملوك الطوائف من بعدهم

كان هذا القطر الأندلسي من العدوة الشمالية عن عدوة البحر الرومي، وبالجانب الغربي منها يسمى عند العرب أندلوش، وتسكنه أمم من إفرنجة المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالقة.

وكان القوط قد تملكوها وغلبوا على أمره لمائتين من السنين قبل الإسلام بعد حروب، كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة.

ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط إلى الأندلس، فساروا إليها وملكوها.

ولما أخذ الروم واللطينيون لبلة النصرانية حملوا مَن وراءهم بالمغرب من أهل إفرنجة والقوط عليها، فدانوا بها وكان ملوك القوط ينزلون طليطلة وكانت دار ملكهم، وربما انتقلوا ما بينها، وبين قرطبة وماردة وأشبيلية وأقاموا كذلك لحو أربعمائة سنة إلى أن جاء اللّه بالإسلام والفتح وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لزريق وهو سمة لملوكهم كجرجير سمة ملوك صقلية ونسب القوط وخبر دولتهم قد تقدم.

وكانت له خطوة وراء البحر فى هذه العدوة الجنوبية خطوها من فرضة المجاز بطنجة، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر واستعبدوهم.

وكان ملك البرابرة بذلك القطر الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى بليان وكان يدين بطاعتهم وبملتهم، وموسى بن نصير أمير العرب إذ ذاك عامل على إفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك، ومنزله بالقيروان.

وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودوخ أقطاره وأوغل في جبال طنجة هذه حتى وصل خليج الزقاق، واستنزل بليان لطاعة الإسلام وخلف مولاه طارق بن زياد الليثي والياً بطنجة، وكان بليان ينقم على لزريق ملك القوط لعهده بالأندلس لفعله بابنته في داره كما زعموا، على عادتهم في بنات بطارقتهم، فغضب لذلك وأجاز إلى لزريق فأخذ ابنته منه.

ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط ودلهم على غرة فيهم أمكنت طارقاً الفرصة، فانتهزها لوقته وأجاز البحر سنة

اثنين وتسعين، من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب، وانتهب معهم من البربر زهاء عشرة آلاف فصيرهم عسكراً ونزل بهم جبل الفتح فسمي جبل طارق به، والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسمي به، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصين.

وبلغ الخبر لزريق فنهض إليهم يجر أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفاً فالتقوا بفحص شريش فهزمه إليه ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم.

وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم، فحركته الغيرة وكتب إلى طارق يتوعده بأنه يتوغل بغير إذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج معه حسين بن أبي عبد الله المهدي الفهري.

ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأندلس.

وتلقاه طارق وانقاد واتبع، وتمم موسى الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق، وأربونة في الجوف وصنم قادس في الغرب، ودوخ أقطارها وجمع غنائمها.

وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم مستلحماً لهم إلى أن يلحق دار الخلافة.

ونمى الخبر إلى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما همّ به موسى غرر بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف، وأسر إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع هو وكتب له بذلك عهده ففت ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها، واستعمل ابنه عبد العزيز لغزوها، وجهاد أعدائها، وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة، واحتل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين وارتحل إلى الشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر.

يقال: كان من جملتها ثلاثون ألف فارس من السبي.

وولى على إفريقية ابنه عبد الله، وقدم على سليمان فسخطه ونكبه.

وسارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لسنتين من ولايته، وكان خيّراً فاضلاً، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة.

وولي من بعده أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن أخت موسى بن نصير فتولى عليها ستة أشهر.

ثم تتابعت ولاة العرب على الأندلس فتارة من قبل الخليفة وتارة من قبل عامله على القيروان وأثخنوا في أمم الكفر وافتتحوا برشلونة من جهة الشرق وحصون قشتالة وبسائطها من جهة الجوف، وانقرضت أمم القوط وأرزا الجلالقة ومن بقي من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب، فتحصنوا بها وأجازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلوا بسائط وراءها، وتوغلوا في بلاد الفرنجة وعصف ريح الإسلام بأم الكفر من كل جهة، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجب للعدو بعض الكرة فرجع الفرنج ما كانوا غلبوهم عليه.

وكان محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير، بعث إلى الأندلس الحارث بن عبد الرحمن بن عثمان فقدم الأندلس وعزل أيوب بن حبيب وولي سنتين وثمانية أشهر.

ثم بعث عمر بن عبد العزيز على الأندلس السمح بن مالك الخولاني على رأس المائة من الهجرة وأمره أن يخمس أرض الأندلس فخمسها وبنى قنطرة قرطبة، واستشهد غازياً بأرض الفرنجة سنة اثنين ومائة، فقدم أهل الأندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي إلى أن قدم عنبسة بن شحيم الكلبي من قبل يزيد بن مسلم عامل إفريقية وكان أولهم يحيى بن سلمة الكلبي أنفذه حنظلة بن صفوان الكلبي والي إفريقية لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عنبسة فقدمها آخر سنة سبع وأقام في ولايتها سنتين ونصفاً ولم يغز ثم قدم إليها عثمان بن أبي والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب إفريقية، وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص العتبي فوافاها سنة عشر، وعزل قريباً يقال: لسنة من ولايته، واختلف هل تقدمه عثمان أم هو تقدم عثمان.

ثم ولي بعده الهيثم بن عبيد الكلابي من قبل عبيدة بن عبد الرحمن أيضاً قدم في المحرم سنة إحدى عشرة وغزا أرض مقرشة فافتتحها وأقام عشرة أشهر.

وتوفي سنة ثلاث عشرة لسنتين من ولايته، وقدم بعده محمد بن عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها سنة ثلاث عشرة وغزا إفرنجة، وكانت له فيهم وقائع وأجبّ عسكره في رمضان سنة أربع عشرة فولي سنتين.

وقال الواقدي: أربع سنين، وكان ظلوماً جائراً في حكومته وغزا أرض البشكنس سنة خمس عشرة ومائة، وأوقع بهم وغنم، ثم عزل في رمضان سنة ست عشرة وولي عتبة بن الحاج السلولي من قبل عبيد الله بن الحبحاب فقدم سنة سبع عشرة.

وأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهداً مظفراً حتى بلغ سكنى المسلمين أرمونة، وصار مساكنهم على نهر ودونة.

ثم قام عليه عبد الملك بن قطن الفهري سنة إحدى وعشرين فخلعه وقتله.

ويقال: أخرجه من الأندلس وولى مكانه إلى أن دخل بلخ بن بشر بأهل الشام سنة أربع وعشرين كما مر فغلب عليه، وولي الأندلس سنة أو نحوها.

وقال الرازي: ثار أهل الأندلس بعقبة بن الحجاج أميرهم في صفر من سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية فكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر.

وتوفي بسرقوسة في صفر سنة ثلاث وعشرين، واستقام الأمر لعبد الملك.

ثم دخل بلخ بن بشر من أهل الشام ناجياً من وقعة كلثوم بن عياض مع البربر فثار على عبد الملك وقتله، وانحاز الفهريون إلى جانب فامتنعوا عليه وكاشفوه واجتمع عليهم من نكر فعلته بابن قطن وقام بأمرهم قطن وأمية ابنا عبد الملك بن قطن، والتقوا فكانت الدبرة على الفهريين، وهلك بلخ من الجراح التي أصابته في حربهم وذلك سنة أربع وعشرين لسنة أو نحوها من إمارته، ثم ولي ثعلبة بن سلامة الجذامي، غلب على إمارة الأندلس بعد مهلك بلخ وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه، وولي سنين أظهر فيها العدل ودانت له الأندلس عشرة أشهر إلى أن ثار به العصبة اليمانية فعسر أمره، وهاجت الفتنة.

وقدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية، وركب إليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين فدانت له أهل الأندلس وأقبل إليه ثعلبة وابن أبي سعد، وابنا عبد الملك فلقيهم وأحسن إليهم واستقام أمره.

وكان شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم، وكثر أهل الشام عنده.

ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد، وأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق، وأنزل أهل حمص إشبيلية وسماها حمص لشبهها بها، وأهل قنسرين حسان وسماها قنسرين، وأهل الأردن رية وهي مالقة وسماها الأردن.

وأهل فلسطين شدونة وهي شريش وسماها فلسطين، وأهل مصر تدمير وسماها مصر.

وقفل ثعلبة إلى الشرق ولحق بمروان بن محمد وحضر حروبه وكان أبو الخطاب أعرابياً عصبياً أفرط عند ولايته في التعصب لقومه من اليمانية وتحامل على المضرية، وأسخط قيساً وأمر في بعض الأيام بالضميل بن حاكم كبير القيسية، وكان من طوالع بلخ وهو الضميل بن حاكم بن شمر بن ذي الجوشن، ورأس على الحصرية، فأمر به يوماً فأقيم من مجلسه وتقنع، فقال له بعض الحجاب وهو خارج من القصر: أقم عمامتك يا أبا الجوشن، فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها. فسار الضميل بن حاكم زعيمهم يومئذ، وألب عليه قومه، واستعان بالمنحرفين عنه من اليمنية فخلع أبا الخطاب سنة ثمان وعشرين لأربع سنين وتسعة أشهر من ولايته، وقدم مكانه ثوابة بن سلامة الجذامي وهاجت الحرب المشهورة.

وخاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية فكتب إلى ثوابة بعهده على الأندلس، منسلخ رجب سنة تسع وعشرين فضبط الأندلس، وقام بأمره الضميل واجتمع عليه الفريقان وهلك لسنتين من ولايته، ووقع الخلاف بإفريقية وتلاشت أمور بني أمية بالمشرق وشغلوا عن قاصية المغرب بكثرة الخوارج، وعظم أمر المسودة فبقي أهل الأندلس فوضى ونصبوا للأحكام خاصة عبد الرحمن بن كثير.

ثم اتفق جند الأندلس على اقتسام الإمارة بين المضرية واليمنية، وإدالتها بين الجندين سنة لكل دولة.

وقدم المضرية على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة تسع وعشرين، واستقر سنة ولايته بقرطبة دار الإمارة ثم وافقتهم اليمنية لميعاد ادالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم، فبيتهم يوسف بمكان نزلهم من شقندة من قرى قرطبة من الضميل بن حاتم والقيسية والمضرية فاستلحموهم، واستبد يوسف بما وراء البحرين عدوة الأندلس، وغلب اليمنية على أمرهم فاستكانوا للغلبة، وتربصوا بالدوائر إلى أن جاء عبد الرحمن الداخل، فكان يوسف بن عبد الرحمن قد ولى الضميل بن حاتم سرقسطه، فلما ظهر أمر المسودة بالمشرق ثار الحباب بن رواحة الزهري بالأندلس داعياً لهم وحاصر الضميل بسرقسطة، واستمد يوسف فلم يمده رجاء هلاكه بما كان يغص به وأمدته القيسية فأخرج عنه الحباب، وفارق الضميل سرقسطة فملكها الحباب وولى يوسف الضميل على طليطلة إلى أن كان من أمر عبد الرحمن الداخل ما نذكره.

مسير عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وتجديده الدولة بها

لما نزل ما نزل ببني أمية بالمشرق وغلبهم بنو العباس على الخلافة وأزالوهم عن كرسيها وقتل عبد الله بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة اثنتين وثلاثين ومائة وتتبع بنو مروان بالقتل، فطلبوا من بعدها بطن الأرض.

وكان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، وكان قومه يتحينون له ملكاً بالمغرب، ويرون فيه علامات لذلك يؤثرونها عن مسلمة بن عبد الملك، وكان هو قد سمعها منه مشافهة.

فكان يحدث نفسه بذلك فخلص إلى المغرب، ونزل على أخواله نفرة من برابرة طرابلس.

وشعر به عبد الرحمن بن حبيب وكان قتل ابني الوليد بن عبد الملك لما دخلا إفريقية من قبله، فلحق عبد الرحمن بمغيلة ويقال بمكناسة، ويقال: نزل على قوم من زناتة فأحسنوا قبوله واطمأن فيهم.

ثم لحق بمليلة وبعث بدراً مولاه، إلى من بالأندلس من موالي المروانيين وأشياعهم فاجتمع بهم، وبثوا له بالأندلس دعوة ونشروا له ذكراً.

ووافق ذلك ما قدمناه من الفتنة بين اليمنية والمضرية، فاجتمعت اليمنية على أمره، ورجع إليه بدر مولاه بالخبر فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين في خلافة أبي جعفر المنصور، ونزل بساحل السند وأتاه قوم من أهل إشبيلية فبايعوه.

ثم انتقل إلى كورة رحب فبايعه عاملها عيسى بن مسور، ثم رجع إلى شذونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي.

ثم أتى مورور فبايعه ابن الصباح ونهز إلى قرطبة واجتمعت عليه اليمنية.

ونمي خبره إلى والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان غازياً بجليقة فانفض عسكره وسار إلى قرطبة وأشار عليه وزيره الضميل بن حاتم بالتلطف له والمكر به، فلم يتم له مراده وارتحل عبد الرحمن من المنكب فاحتل بمالقة فبايعه جندها، ثم برندة فبايعه جندها، ثم بشريش كذلك، ثم بأشبيلية فتوافت عليه الأمداد والأمصار، وتسايلت المضرية إليه حتى إذا لم يبق مع يوسف بن عبد الرحمن غير الفهرية والقيسية لمكان الضميل منه، زحف إليه حينئذ عبد الرحمن بن معاوية وناجزهم الحرب بظاهر قرطبة فانكشف، ورجع إلى غرناطة فتحصن بها وأتبعه الأمير عبد الرحمن فنازله.

ثم رغب إليه يوسف في الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة وأقفله معه، ثم نقض يوسف عهده.

وخرج سنة إحدى وأربعين ولحق بطليطلة، واجتمع إليه زهاء عشرين ألفاً من البربر، وقدم الأمير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المرواني، كان وفد عليه من المشرق، وكان أبوه عمر بن مروان بن الحكم في كفالة أخيه عبد العزيز بمصر، فلما هلك سنة خمس عشرة بقي عبد الملك بمصر، فلما دخلت المسودة أرض مصر خرج عبد الملك يوم الأندلس في عشرة رجال من بيته مشهورين بالبأس والنجدة حتى نزل على عبد الرحمن سنة إحدى وأربعين، فعقد له على إشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور.

وسار يوسف إليهما وخرجا إليه فلقياه وتناجز الفريقان فكانت الدبرة على يوسف، وأبعد الغرّ واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة واحتز رأسه وتقدم به إلى الأمير عبد الرحمن فاستقام أمره واستقر بقرطبة وبنى القصر والمسجد الجامع، أنفق ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه.

وبنى مساجد ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق، وكان يدعو للمنصور، ثم قطعها لما تم له الملك بالأندلس، ومهد أمرها وخلد لبني مروان السلطان بها، وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها.

واستلحم الثوار في نواحيها وقطع دعوة العباسيين من منابرها وسد المذاهب منهم دونها.

وهلك سنة اثنتين وسبعين ومائة، وكان يعرف بعبد الرحمن الداخل لأن أول داخل من ملوك بني مروان هو، وكان أبو جعفر المنصور يسميه صقر بني أمية لما رأى ما فعل بالأندلس، وما ركب إليها من الأخطار، وأنه صمد إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا قوة ولا أنصار فغلب على أهلها وعلى أميرهم، وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم، ثم تملى واطيع وأورثه عقبه.

وكان عبد الرحمن هذا يلقب بالأمير وعليه جرى بنوه من بعده فلم يدع أحد منهم بأمير المؤمنين إذ بايع الخلافة بمقر الإسلام ومبتدأ العرب، حتى كان عبد الرحمن الناصر وهو الثامن منهم على ما نذكره فتسمى بأمير المؤمنين وتوارث ذلك بنوه واحداً بعد واحد.

وكان لبني عبد الرحمن الداخل بهذه العدوة الأندلسية ملك ضخم ودولة ممتعة اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة كما نذكر.

وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوي أمر الخلافة، واستفحل سلطانه وتجهز فرويلة بن الأدفونش ملكهم، سار إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم، ورد مديزلك وبريعال وسمورة وسلمنقة وقشتالة وسقونية، وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر رئيس الدولة كما نذكر في أخباره.

ثم استعادوها بعده من بلاد الأندلس واستولوا على جميعها.

وكان عبد الرحمن عندما تمهد له الأمر بالأندلس، ودعا للسفاح، ثم خلعه واستبد بأمره كما ذكرناه.

وجد هشام بن عبد ربه الفهري مخالفاً بطليطلة على يوسف من قبله، وبقي على خلافه، ثم أغزاه عبد الرحمن سنة تسع وأربعين بدراً مولاه وتمام بن علقمة فحاصراه - ومعه حيوة بن الوليد الحصبي، وحمزة بن عبد الله بن عمر - حتى غلباه، وجاءا بهم إلى قرطبة فصلبوا.

وسار من إفريقية سنة تسع وأربعين العلاء بن مغيث اليحصبي ونزل باجة من بلاد الأندلس، داعياً لأبي جعفر المنصور واجتمع إليه خلق فسار عبد الرحمن إليه، ولقيه بنواحي إشبيلية فقاتله أياماً.

ثم انهزم العلاء وقتل في سبعة آلاف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثيرة منهم إلى القيروان ومكة، فألقيت في أسواقها سراً ومعها اللواء الأسود.

وكاتب المنصور للعلاء ثم ثار سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بمدينة لبلة طالباً بثأر من قتل من اليمنية مع العلاء وملك إشبيلية، وسار إليه عبد الرحمن فامتنع ببعض الحصون فحاصره، وكان عتاب بن علقمة اللخمي بمدينة شدونة فأمد المطري، وبعث عبد الرحمن بدراً مولاه فحال دون المدد ودون المطري.

ثم طال عليه الحصار وقتل في بعض أيامه، وولي مكانه بالقلعة خليفة بن مروان.

ثم استأمن من بالقلعة إلى عبد الرحمن وأسلموا إليه الحصن فخربه وقتل عبد الرحمن خليفة ومن معه.

ثم سار إلى غياث فحاصره بشدونة حتى استأمنوا فأمنهم، وعاد إلى قرطبة فخرج عليه عبد الرحمن بن خراشة الأسدي بكورة جيان.

وبعث إليه العساكر فافترق جمعه واستأمن فأمنه، ثم خرج عليه سنة خمس غياث بن المستبد الأسدي، فجمع عامل باجة العساكر وسار إليه فهزمه وقتله، وبعث برأسه إلى عبد الرحمن بقرطبة.

وفي هذه السنة شرع عبد الرحمن في بناء السور على قرطبة، ثم ثار رجل بشرق الأندلس من بربر مكناسة يعرف بشقنا بن عبد الواحد، كان يعلم الصبيان وادعى أنه من ولد الحسين الشهيد، وتسمى بعبد الله بن محمد وسكن شنة برية واجتمع إليه خلق من البربر، فسار إليه عبد الرحمن فهرب في الجبال، واعتصم بها فرجع وولى على طليطلة حبيب بن عبد الملك، فولى حبيب شنة برية سليمان بن عثمان بن مروان بن عثمان بن أبان بن عثمان بن عفان، فسار إليه سليمان وقتله وغلب على ناحية فورية، فسار إليه عبد الرحمن سنة اثنتين وخمسين ومائة.

وأعياه أمره وصار يتنقل في البلاد ويهزم العساكر وكان سكن بحصن شيطران من جبال بلنسية فسار إليه عبد الرحمن سنة ست وخمسين واستخلف على قرطبة ابنه سليمان فأتاه الخبر بعصيان أهل إشبيلية وثورة عبد الغفار، وحيوة بن قلاقس مع اليمانية فرجع عن شقنا، وهاله أمر إشبيلية.

وقدم عبد الملك بن عمر لقتالهم فساروا إليه ولقيهم مستميتاً فهزمهم وأثخن فيهم.

ولحق بعبد الرحمن فشكرها له وجزاه خيراً ووصله بالصهر وولاه الوزارة، ونجا عبد الغفار وحيوة بن قلاقس إلى إشبيلية، فسار عبد الرحمن سنة سبع وخمسين إليها فقتلهم وقتل خلقاً ممن كان معهم، واستراب من يومئذ بالعرب فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي.

ولما كانت سنة إحدى وستين غدر بشقنا رجلان من أصحابه وجاءا برأسه إلى عبد الرحمن.

ثم سار عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالقلعي من إفريقية إلى الأندلس مظهراً للدعوة العباسية، ونزل بتدمير، واجتمع إليه البربر.

وكان سليمان بن يقظان عاملاً على برشلونة فكتب إليه يدعوه إلى أمره فلم يجبه فسار إليه في البربر، ولقيه سليمان فهزمه وعاد إلى تدمير وزحف إليه عبد الرحمن من قرطبة، فاعتصم بجبل بلنسية فبذل عبد الرحمن فيه الأموال فاغتاله رجل من أصحابه البربر، وحمل رأسه إلى عبد الرحمن وذلك سنة اثنتين وستين.

ورجع عبد الرحمن إلى قرطبة.

ثم خرج دحية الغساني في بعض حصون البيرة، فبعث إليه شهيد بن عيسى فقتله، وخالف البربر وعليهم بحرة بن البرانس، فبعث بدراً مولاه فقتله وفرق جموعهم.

وفر القائد السلمي من قرطبة إلى طليطلة وعصى بها فبعث حبيب بن عبد الملك، وحاصره فهلك في الحصار.

وزحف عبد الرحمن سنة أربع وستين إلى سرقسطة وبها سليمان بن يقظان والحسين بن عاصي، وقد حاصرهما ثعلبة بن عبيد من قواده فامتنعت عليه، وقبض سليمان على ثعلبة وبعث إلى ملك الفرنج فجاء وقد تنفس عنه الحصار فدفع إليه ثعلبة.

ثم غلب الحسين على سليمان وقتله، وانفرد فحاصره عبد الرحمن حتى صالحه وسار إلى بلاد الفرنج والبشكنس ومن وراءهم من الملوك، ورجع إلى وطنه وغدر الحسين بسرقسطة، فسار إليه عامله ابن علقمة فأسر أصحابه، ثم سار إليه عبد الرحمن سنة ست وستين وملكها عنوة وقتل الحسين وقتل أهل سرقسطة.

ثم خرج سنة ثمان وستين أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن فلقيه بقسطلونة وهزمه، وأثخن في أصحابه.

ثم لقيه ثانية سنة تسع وستين فهزمه، ثم هلك سنة سبعين في أعمال طليطلة وقام مكانه أخوه قاسم وغزاه عبد الرحمن فحاصره فجاء بغير أمان فقتله.

ثم توفي عبد الرحمن سنة اثنتين وسبعين ومائة لثلاثة وثلاثين سنة من إمارته.

وفاة عبد الرحمن الداخل وولاية ابنه هشام

ولما هلك عبد الرحمن كان ابنه الأكبر سليمان والياً على طليطلة، وكان ابنه هشام على ماردة، وكان قد عهد له بالأمر.

وكان ابنه عبد اللّه المسكين حاضراً بقرطبة فأخذ البيعة لأخيه هشام وبعث إليه بالخبر فسار إلى قرطبة، وقام بالدولة وغص بذلك أخوه سليمان فأظهر الخلاف بطليطلة، ولحق به أخوه عبد اللّه وبعث هشام في أثره فلم يلحق.

وسار هشام في العساكر فحاصرهم بطليطلة وخالفه سليمان إلى قرطبة فلم يظفر بشيء منها وبعث هشام بن عبد الملك في أثره فقصد ماردة فحاربه عامله وهزمه اللّه بغير أمان ودخل في طاعته فأكرمه.

ثم بعث سنة أربع وسبعين ابنه معاوية لحصار أخيه سليمان بتدمير فدوخ نواحيها، وهرب سليمان إلى جبال بلنسية فاعتصم بها، ورجع معاوية إلى أبيه بقرطبة.

ثم طلب سليمان العبور إلى عدوة البربر بأهله وولده فأجازه هشام وأعطاه ستين ألف دينار صلحاً على تركة أبيه.

وأقام بعدوة المغرب وسار معه أخوه عبد اللّه.

ثم خرج على هشام سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري بطرسوسة من شرق الأندلس وكان قد التجأ إليها حين قتل أبوه، ودعي إلى اليمانية فملكها، وأخرج عاملها يوسف العبسي فعارضه موسى بن فرقوق في المضرية بدعوة هشام، وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة برشلونة، وملك مدينة سرقسطة وواشقة، وكان هشام في شغل بأمر أخويه، فلما فرغ منهما بعث أبا عثمان عبيد اللّه بن عثمان بالعساكر إلى مطروح فحاصره بسرقسطة أياماً، ثم أفرج عنه ونزل بطرسوسة قريباً وأقام بتحيفة، ثم غدر بمطروح بعض أصحابه وجاء برأسه إلى أبي عثمان، فبعث به إلى هشام وسار إلى سرقسطة فملكها.

ثم دخل إلى دار الحرب غازياً، وقصد ألبة والقلاع فلقي العدو وظفر بهم، وفتح اللّه عليه وذلك سنة خمس وسبعين، وبعث هشام العساكر مع يوسف بن نخية إلى جليقة فلقي ملكها ابن مند وهزمه وأثخن في العدو.

وفي هذه السنة دخل أهل طليطلة في طاعة الأمير هشام بعد منصرف أخويه عنهم، فقبلهم وأمنهم وبعث عليها ابنه الحكم والياً فضبطها وأقام بها.

وفي سنة ست وسبعين بعث هشام وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو فبلغ ألبة والقلاع وأثخن في نواحيها.

ثم بعثه في العساكر إلى أربونة وجرندة فأثخن فيهما ووطىء أرض سلطانية، وتوغل في بلادهم ورجع بالغنائم التي لا تحصى واستمد الطاغية بالبشكنس وجيرانه من الملوك فهزمهم عبد الملك، ثم بعث بالعساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى بلاد جليقة فأثخنوا في بلاد العدو وغنموا ورجعوا.

وفي هذه السنة هاجت فتنة بتاكدنا وهي بلاد رندة من الأندلس، وخلع البربر هنالك الطاعة فبعث إليهم هشام بن عبد القادر بن أبان بن عبد اللّه مولى معاوية بن أبي سفيان فأبادهم، وخرب بلادهم وفر من بقي منهم فدخلوا في القبائل وبقيت تاكدنا قفراء خالية سبع سنين.

وفي سنة تسع وسبعين بعث هشام الحاجب عبد الملك بن

عبد الواحد بن مغيث في العساكر إلى جليقة فانتهى إلى ميورقة فجمع ملك الجلالقة واستمد بالملوك، ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه، وأتبعه عبد الملك وتوغل في بلادهم وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك وأثخنوا في البلاد واعترضهم عسكر الإفرنج فنالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا ظافرين سالمين.

وفاة هشام وولاية ابنه الحكم

ثم توفي هشام بن عبد الرحمن سنة ثمانين ومائة لسبع سنين من إمارته وقيل: ثمان سنين، وكان من أهل الخير والصلاح، وكان كثير الغزو والجهاد، وهو الذي أكمل بناء الجامع بقرطبة الذي كان أبوه شرع فيه، وأخرج المصرف لآخذي الصدقة على الكتاب والسنة.

ولما مات ولي ابنه الحكم بعده فاستكثر من المماليك وارتباط الخيل، واستفحل ملكه وباشر الأمور بنفسه.

ولأول ولايته أجاز ابنه عبد اللّه البلنسي من عدوة المغرب فملك بلنسية، ثم أخوه سليمان من طنجة فحاربهما الحكم سنة ثم ظفر بعمه سليمان فقتله سنة أربع وثمانين.

وأقام عبد اللّه ببلنسية وكف عن الفتنة وأرسل الحكم في الصلح على يد يحيى بن يحيى الفقيه وغيره فصالحه سنة ست وثمانين.

وفي خلال الفتنة مع عميه سليمان وعبد اللّه اغتنم الفرنج الفرصة واجتمعوا وقصدوا برشلونة فملكوها سنة خمس وثمانين، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها.

وبعث الحكم العساكر إلى برشلونة مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الجلالقة فأثخن فيها وخالفهم العدو إلى المضايق فرجع إلى التعبية وظفر بهم، ورجع إلى بلاد الإسلام ظافرا.

وفي سنة إحدى وثمانين ثارالبهلول بن مرزوق بناحية الثغر، وملك سرقسطة، وفيها جاء عبد اللّه البلنسي عم الحكم كما ذكرناه.

وفي هذه السنة خالف عبيدة بن عمير بطليطلة، وكان القائد عمروس بن يوسف من قواد الحكم بطلبيرة فكتب إلى هشام بحصارهم فحاصرهم.

ثم استمال بني مخشي من أهل طليلطلة فقتلوا عبيدة وبعثوا برأسه إلى عمروس فبعث به إلى الحكم، وأنزل بني مخشي عنده فقتلهم البربر بطلبيرة بثأر كاتب لهم، وقتل عمروس الباقين واستقامت تلك الناحية.

واستعمل عمروس ابنه يوسف على مدينة طليطلة ولحق بالفرنج سنة تسع وثمانين بعض أهل الحرابة، وأطمعوا الفرنج في ملك طليطلة فزحفوا إليها وملكوها وأسروا أميرها يوسف وحبسوه بصخرة قيسر، وسار عمروس من فوره إلى سرقسطة ليحميها من العدو، وبعث العساكر مع ابن عمه، فلقي العدو وهزمهم وسار إلى صخرة قيسر وقد وهن الفرنج من الهزيمة فافتتحها، وبعث عمروس نائبه وخلص يوسف وعظم صيته.

وقعة الربض

كان الحكم في صدر ولايته قد انهمك في لذاته، واجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي وطالوت الفقيه وغيرهما فثاروا به، وامتنع فخلعوه وبايعوا محمد بن القاسم من عمومة هشام.

وكان بالربض الغربي من قرطبة محلة متصلة بقصره، وحصروه سنة تسعين ومائة وقاتلهم فغلبهم وافترقوا، وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدوة، ولحقوا بالإسكندرية، ونزل بها منهم جمع وثاروا بها، فزحف إليهم عبد اللّه بن طاهر صاحب مصر وافتتحها وأجازهم إلى جزيرة أقريطش كما مر.

وكان مقدمهم أبا حفص عمر البلوطي، فلم يزل رئيساً عليهم وولده من بعده إلى أن ملكها الفرنج من أيديهم.

وقعة الحفرة بطليطلة

كان أهل طليطلة يكثرون الخلاف ونفوسهم قوية لحصانة بلدهم، فكانت طاعتهم ملتاثة فأعيا الحكم أمرهم واستقدم عمروس بن يوسف من الثغر، وكان أصله من أهل مدينة وشقة من المولدين، وكان عاملاً عليها فداخله في التدبير على أهل طليطلة، وكتب له بولايتها فأنسوا به واطمأنوا إليه.

ثم داخلهم في الخلع وأشار عليهم ببناء مدينة يعتزل فيها مع أصحاب السلطان فوافقوه، وأمضى رأيه في ذلك.

ثم بعث صاحب الأعلى إلى الحكم يستنجده على العدو فبعث العساكر مع ابنه عبد الرحمن والوزراء، ومروا بطليطلة ولم يعرض عبد الرحمن لدخولها.

ثم رجع العدو وكفى اللّه شره، فاعتزم عبد الرحمن على العود إلى قرطبة فأشار عمروس عند ذلك على أهل طليطلة بالخروج إلى عبد الرحمن فخرج إليه الوجوه وأكرمهم، ودس خادم الحكم كتابه إلى عمروس بالحيلة على أهل طليطلة، فأشار عليهم عمروس بأن يدخلوا عبد الرحمن البلد، وأنزله بداره واتخذ صنيعاً للناس واستعد له على موعد لذلك فكان يدخلهم من باب ويخرجهم من آخر خشية الزحام فيدخلون إلى حفرة في القصر وتضرب رقابهم عليها إلى أن قتل معظمهم وفطن الباقون فنفروا وحسنت طاعتهم من بعد ذلك إلى أيام الفتنة كما نذكر، ثم عصى أصبغ بن عبد اللّه بماردة وأخرج عامل الحكم فسار إليه الحكم وحاصره وجاءه الخبر بعصيان أهل قرطبة فرجع وقتلهم.

ثم استنزل أصبغ من بعد ذلك وأنزله قرطبة.

وفي سنة اثنتين وتسعين جمع لزريق بن قار له ملك الإفرنج وسار لحصار طرطوشة فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فهزمه وفتح اللّه على المسلمين.

ثم عاود أهل ماردة الخلاف عن الحكم سنة أربع وتسعين فسار إليهم وقاتلهم ثلاث سنين.

وكثر عيث الفرنج في الثغور فسار إليهم سنة ست وتسعين فافتتح الحصون، وخرب النواحي وأثخن في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافراً.

وفي سنة مائتين بعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج فسار فيها وخربها ونهبها وهدم عدة من حصونها، وأقبل إليه ملك الجلالقة في جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا عليه أياماً، ونال المسلمون منهم أعظم النيل، وأقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة، ثم كثرت الأمطار ومد النهر وقفل المسلمون ظافرين.

وفاة الحكم وولاية ابنه عبد الرحمن الأوسط

ثم توفي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته، وهو أول من جند بالأندلس الأجناد والمرتزقة، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والحواشي، وارتبط الخيول على بابه واتخذ المماليك، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم، وبلغت عدتهم خمسة آلاف، وكان يباشر الأمور بنفسه، وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس.

وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين، وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالأندلس.

ولما مات قام بأمره من بعده ابنه عبد الرحمن فخرج عليه لأول إمارته عبد اللّه البلنسي عم أبيه، وسار إلى تدمير يريد قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فخام عن اللقاء، ورجع إلى بلنسية ومات أثر ذلك فنقل عبد الرحمن ولده وأهله إلى قرطبة.

ثم غزا لأول ولايته إلى جليقة فأبعد وأطال الغيبة وأثخن في أمم النصرانية هنالك ورجع.

وقدم عليه سنة ست ومائتين من العراق زرآب المغني مولى المهدي ومعه إبراهيم الموصلي، واسمه علي بن نافع فركب لتلقيه وبالغ في إكرامه، وأقام عنده بخير حال، وأورث صناعة الغناء بالأندلس وخلف ولده مخلفة كبيرهم عبد الرحمن في صناعته وحظوته.

وفي سنة سبع كانت وقعة بالثغر كان الحكم قد قبض على عاملها ربيع، وصلبه حياً لما بلغه من ظلمه، وهلك الحكم أثر ذلك فتوافى المتظلمون من ربيع إلى قرطبة يطلبون ظلاماتهم، ومعظمهم جند البيرة ووقفوا بباب القصر وشغبوا، وبعث عبد الرحمن من يسكتهم فلم يقبلوا فركبت العساكر إليهم وأوقعوا بهم ولجأ الفل منهم إلى البيرة وبالشر، وتتبعهم عبد الرحمن.

وفي هذه السنة نشأت الفتنة بين المضرية واليمانية واقتتلوا، فهلك منهم نحو من ثلاثة آلاف وبعث عبد الرحمن إليهم يحيى بن عبد اللّه بن خالد في جيش كثيف ليكفهم عن الفتنة فكفوا عن القتال لما أحسوا بوصوله.

ثم عاودوا الحرب عند مغيبه، وأقاموا على ذلك سبع سنين.

وفي سنة ثمان ومائتين أغزا حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى ألبة والقلاع فخرب كثيراً من البلاد وانتسفها، وفتح كثيراً من حصونهم وصالح بعضاً على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين، وانصرف ظافراً وفي سنة ثلاث عشرة انتقض عليه أهل ماردة وقتلوا عامله فبعث إليهم العساكر فافتتحوها وعاودوا الطاعة وأخذوا رهائنهم وخربوا سورها، ورجعوا عنهم.

ثم أمر عبد الرحمن بنقل حجارة السور إلى النهر فعاودوا الخلاف وأسروا العامل وأصلحوا سورهم فسار إليهم عبد الرحمن سنة أربع عشرة ومائتين وحاصرهم فامتنعوا عليه.

ثم بعث العساكر سنة سبع عشرة فحاصرها فامتنعوا ثم

حاصرها سنة عشرين وافتتحها ونجا فلهم مع محمود بن عبد الجبار منهم إلى ملت شلوط فاعتصم بها سنة عشرين ومائتين، فبعث عبد الرحمن العساكر لحصاره فلحق بدار الحرب واستولى على حصن من حصونهم أقام به خمسة أعوام حتى حاصره أذفونش ملك الجلالقة، وافتتح الحصن وقتل محموداً وجميع أصحابه سنة خمس وعشرين.

وفي سنة خمس عشرة خرج بمدينة طليطلة هاشم الضراب من أهل واقعة الربض واشتدت شوكته واجتمعت له الخلق وأوقع بأهل شنت برية، فبعث عبد الرحمن العساكر لقتاله فلم يصيبوا منه، ثم بعث عساكر أخرى فقاتلوه بنواحي دورقة فهزموه وقتل هو وكثير من أصحابه واستمر أهل طليطلة على الخلاف.

وبعث عبد الرحمن ابنه أمية لحصارها فحاصرها مدة ثم أفرج عنها ونزل قلعة رياح وبعث عسكراً للإغارة عليها وكان أهل طليطلة قد خرجوا في اتباعه إلى قلعة رياح فكمن لهم فأوقعوا به فاغتم لذلك، وهلك لأيام قليلة.

وبعث عبد الرحمن العساكر لحصارها ثانياً فلم يظفروا، وكمن المغيرون عليها بقلعة رياح يعاودونها بالحصار كل حين.

ثم بعث عبد الرحمن أخاه الوليد في العساكر سنة اثنتين وعشرين لحصارها، وقد أشرفوا على الهلكة، وضعفوا عن المدافعة فاقتحمها عنوة وسكن أهلها وأقام إلى آخر ثلاث وعشرين ورجع.

وفي سنة أربع وعشرين بعث عبد الرحمن قريبه عبيد اللّه بن البلنسي في العساكر لغزو بلاد ألبة والقلاع، ولقي العدو فهزمهم وكثر السبي والقتل.

ثم خرج لزريق ملك الجلالقة وأغار على مدينة سالم بالثغر.

فسار إليه فرنون بن موسى وقاتله فهزمه، وأكثر القتل في العدو والأسر ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه.

ثم سار عبد الرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقة فدوخها وافتتح عدة حصون منها، وجال في أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم.

وفي سنة ست وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة، وانتهوا إلى أرض سرطانية، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو فصبروا حتى هزم اللّه عدوهم، وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود ووقعت بينه وبين بعض قواد عبد الرحمن ملاحاة، وأغلظ له القائد فكان ذلك سبباً لانتقاضه، فعصى على عبد الرحمن وبعث إليه الجيوش مع الحارث بن بزيغ فقاتله موسى وانهزم وقتل ابن عمه، ورجع الحارث إلى سرقسطة.

ثم زحف إلى تطيلة وحاصر بها موسى حتى نزل عنها على الصلح إلى أربط وأقام الحارث بتطيلة أياماً.

ثم سار لحصار موسى في أربط فاستنصر موسى بغرسية من ملوك الكفر فجاءه، وزحف الحارث وأكمنوا له فلقيهم على نهر بلبة، فخرجت عليه الكمائن بعد أن أجاز النهر وأوقعوا به وأسروه، وقد فقئت عينه، واستشاط عبد الرحمن لهذه الواقعة، وبعث ابنه محمداً في العساكر سنة تسع وعشرين.

وحاصر موسى بتطيلة حتى صالحه، وتقدم إلى ينبلونة فأوقع بالمشركين، عندها وقتل غرسية صاحبها الذي انجد موسى على الحارث، ثم عاود موسى الخلاف، فزحفت إليه العساكر فرجع إلى المسالمة ورهن ابنه عند عبد الرحمن على الطاعة، وقبله عبد الرحمن وولاه تطيلة، فسار إليها واستقرت في عمالته.

ثم كان في هذه السنة خروج المجوس في أطراف بلاد الأندلس ظهروا سنة ست وعشرين بساحل أشبونة، فكانت بينهم وبين أهلها الحرب ثلاثة عشر يوماً، ثم تقدموا إلى قادس، ثم إلى أشدونة، فكانت بينهم وبين المسلمين بها وقعة.

ثم قصدوا إشبيلية ونزلوا قريبا منها وقاتلوا أهلها منتصف المحرم من سنة ثمان وعشرين فهزمهم المسلمون وغنموا، ثم مضوا إلى باجة ثم إلى مدينة أشبونة، ثم أقلعوا من هنالك وانقطع خبرهم وسكنت البلاد وذلك سنة ثلاثين، وتقدم عبد الرحمن الأوسط بإصلاح ما خربوه من البلاد، وأكثف الحامية بها.

وذكر بعض المؤرخين حادثة المجوس هذه سنة ست وأربعين ومائتين ولعلها غيرها واللّه أعلم.

وفي سنة إحدى وثلاثين بعث عبد الرحمن العساكر إلى جليقة فدوخوها وحاصروا مدينة ليون ورموا سورها فلم يقدروا عليه، لأن عرضه سبعة عشر ذراعاً فثلموا فيه ثلمة ورجعوا.

ثم أغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم بن مغيث في العساكر إلى بلاد برشلونة فجاز في نواحيها، وأجاز الدروب التي تسمى السرب إلى بلاد الفرنجة فدوخها قتلاً وأسراً وسبياً، وحاصر مدينتهم العظمى وعاث في نواحيها وقفل، وقد كان ملك القسطنطينية توفلس بن نوفلس بن نوفيل، بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية ويطلب مواصلته فكافأه عبد الرحمن عن هديته، وبعث إليه يحيى الغزال من كبار الدولة، وكان

مشهوراً في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما المواصلة وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بني العباس.

وفي سنة ست وثلاثين هلك نصر الخفي القائم بدولة الأمير عبد الرحمن وكان يضغن على مولاه ويمالىء ابنه عبد الرحمن على ابنه الآخر ولي عهده بما كانت أم عبد اللّه قد اصطنعته، وكانت حظية عند السلطان ومنحرفة عن ابنه محمد ولي العهد، فداخلت نصراً هذا في أمرها، وداخل هو طبيب الدار في أن يسم محمداً ولي العهد، ودس الطبيب بذلك إلى الأمير مع قهرمانة داره وأن نصراً أكرهه على إذابة السم فيه، وباكر نصر القصر ودخل على السلطان يستفهمه عن شرب الدواء فوجده بين يديه، وقال له: إن نفسي قد بشعته فاشربه أنت فوجم، فأقسم عليه فلم يسعه خلافه فشربه وركب مسرعاً إلى داره فهلك لحينه، وحسم السلطان علة ابنه عبد اللّه وكان من بعدها مهلكه.

وفاة عبد الرحمن الأوسط وولاية ابنه محمد

ثم توفي عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين لإحدى وثلاثين سنة من إمارته، وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة، وكانت أيامه أيام هدوء وسكون، وكثرت الأموال عنده واتخذ القصور والمنتزهات وجلب إليها الماء، وجعل له مصنعاً اتخذه الناس شريعة.

وزاد في جامع قرطبة رواقين، ومات قبل أن يستتمه، فأتمه ابنه محمد بعده، وبني بالأندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة، واحتجب عن العامة.

ولما مات ولي مكانه ابنه محمد، فبعث لأول ولايته العساكر مع أخيه الحكم إلى قلعة رباح لإصلاح أسوارها، وكان أهل طليطلة خربوها فرمها وأصلح حالها، وتقدم إلى طليطلة فعاث في نواحيها.

ثم بعث الجيوش مع موسى بن موسى صاحب تطيلة فعاث في نواحي ألبة والقلاع، وفتح بعض حصونها ورجع، وبعث عساكر أخرى إلى نواحي برشلونة وما وراءها فعاثوا فيها، وفتحوا حصون برشلونة ورجعوا.

ثم سار محمد سنة أربعين في جيوشه إلى طليطلة فاستمدوا ملك جليقة وملك البشكنس فساروا لإنجادهم مع أهل طليطلة فلقيهم الأمير محمد على وادي سليط وقد أكمن لهم فأوقع بهم، وبلغ عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفاً.

ثم سار إليهم سنة ثلاث وأربعين فأوقع بهم ثانية وأثخن فيهم وخرب ضياعهم، فصالحوه ثم نكثوا.

وفي سنة خمس وأربعين ظهرت مراكب المجوس، ونزلوا بأشبيلية والجزيرة وأحرقوا مسجدها، ثم عادوا إلى تدمير ودخلوا قصر أريولة، وساروا إلى سواحل الفرنجة وعاثوا فيها، وانصرفوا فلقيهم مراكب الأمير محمد فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين، واستشهد جماعة من المسلمين.

ومضت مراكب المشركين إلى ينبلونة، وأسروا صاحبها غرسيه وفدى نفسه منهم بسبعين ألف دينار.

وفي سنة سبع وأربعين حاصر طليطلة ثلاثين يوماً.

ثم بعث الأمير محمد سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر في العساكر إلى نواحي ألبة والقلاع فعاثوا فيها، وجمع لزريق للقائهم فلقيهم وانهزم، وأثخن المسلمون في المشركين بالقتل والأسر، وكان فتحاً لا كفاء له.

ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى وخمسين بلاد الجلالقة فأثخن وخرب، وانتقض عليه عبد الرحمن بن مروان الجليقي فيمن معه من المولدين، وساروا إلى التخم، ووصل يده بأذفونش ملك جليقة فسار إلى الوزير هاشم بن عبد الرحمن في عساكر الأندلس سنة ثلاث وستين فهزمه عبد الرحمن وحصل هاشم في أسره.

ثم وقعت المراودة في الصلح على أن ينزل عبد الرحمن بطليوس ويطلق الوزير هاشماً فتم ذلك سنة خمس وستين، ونزل عبد الرحمن بطليوس وكانت خربة فشيدها وأطلق هاشماً بعد سنتين ونصف من أمره.

ثم تغير أذفونش لعبد الرحمن بن مروان وفارقه، وخرج من دار الحرب بعد أن قاتله ونزل مدينة أنطاكية بجهات ماردة وهي خراب فحصنها، وملك ما إليها من بلاد أليون وغيرها من بلاد الجلالقة، واستضافها إلى بطليوس، وكان مظفر بن موسى بن ذي النون الهواري عاملاً بشنتِ برية فانتقض وأغار على أهل طليطلة فخرجوا إليه في عشرين ألفا، ولقيهم فهزمهم وانهزم معهم مطرف بن عبد الرحمن، وقتل من أهل طليطلة خلق، وكان مطرف بن موسى فرداً في الشجاعة ومحلاً من النسب ولقي شنجة صاحب ينبلونة أمير البشكنس فهزمه شنجة وأسره، وفر من الأسر ورجع إلى شنت برية فلم يزل بها قويم الطاعة إلى أن مات آخر دولة الأمير محمد.

وفي سنة إحدى وستين انتقض أسد بن الحارث بن بديع بتاكرتا وهي رندة فبعث إليهم الأمير محمد العساكر وحاصروهم

حتى استقاموا على الطاعة.

وفي سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب وجعل طريقه على ماردة، وكان بها ابن مروان الجليقي، ومرت طائفة من عسكر المنذر بماردة فخرج عليهم ابن مروان ومعه جمع من المشركين استظهر بهم، فقتل تلك الطائفة عن آخرهم.

وفي سنة أربع وستين بعث ابنه المنذر ثانية إلى بلد ينبلونة، ومر بسرقسطة فقاتل أهلها، ثم تقدم إلى تطيلة وعاث في نواحيها وخرب بلاد بني موسى، ثم مضى لوجهه إلى ينبلونة فدوخها ورجع.

وفي سنة ست وستين أمر الأمير محمد بإنشاء المراكب بنهر قرطبة ليدخل بها إلى البحر المحيط، ويأتي جليقة من ورائها، فلما تم إنشاؤها وجرت في البحر، أصابها الريح وتقطعت فلم يسلم منها إلا القليل.

وفي سنة سبع وستين ومائتين انتقض عمر بن حفصون بحصن يشتر من جبال مالقة وزحف إليه عساكر تلك الناحية فهزمهم، وقوي أمره وجاءت عساكر الأمير محمد فصالحهم ابن حفصون واستقام أمر الناحية.

وفي سنة ثمان وستين بعث الأمير محمد ابنه المنذر لقتال أهل الخلاف فقصد سرقسطة وحاصرها وعاث في نواحيها، وفتح حصن ريطة، ثم تقدم إلى دير بروجة، وفيه محمد بن لب بن موسى.

ثم قصد مدينة لادرة وقرطاجنة، ثم دخل دار الحرب وعاث في نواحي ألبة والقلاع وفتح منها حصوناً ورجع.

وفي سنة سبعين سار هاشم بن عبد العزيز بالعساكر لحصار عمر بن حفصون بحصن يشتر واستنزله إلى قرطبة فأقام بها، وفيها شرع إسماعيل بن موسى ببناء مدينة لاردة، فجمع صاحب برشلونة لمنعه من ذلك، وسار إليه فهزمه إسماعيل وقتل أكثر رجاله.

وفي سنة إحدى وسبعين سار هاشم بن عبد العزيز في العساكر إلى سرقسطة فحاصرها هاشم وافتتحها، ونزلوا جميعاً على حكمه، وكان في عسكره عمر بن حفصون واستدعاه من الثغر فحضر معه هذه الغزاة فهرب ولحق بيشتر فامتنع به، وسار هاشم إلى عبد الرحمن بن مروان الجليقي وحاصره بحصن منت مولن، ثم رجع عنه فأغار ابن مروان على إشبيلية ولقنت.

ثم نزل منت شلوط فامتنع فيه، وصالح عليه الأمير محمداً، واستقام على طاعته إلى أن هلك الأمير محمد.

وكان ملك رومة والفرنجة لعهده اسمه فرلبيب بن لوزنيق.

وفاة الأمير محمد وولاية ابنه المنذر

ثم توفي الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل في شهر صفر من سنة ثلاث وسبعين ومائتين لخمس وثلاثين سنة من إمارته، وولي بعده ابنه المنذر فقتل لأول ولايته هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه، وسار في العساكر لحصار ابن حفصون فحاصره بحصن يشتر سنة أربع وسبعين، وافتتح جميع قلاعه وحصونه وكان منها رية وهي مالقة، وقبض على واليها من قبله عيشون فقتله، ولما اشتد الحصار على ابن حفصون سأل الصلح فأجابه وأفرج عنه، فنكث فرجع لحصاره وصالح ثم نكث مرتين فأقام المنذر على حصاره وهلك قريباً فانفرج عن ابن حفصون.

وفاة المنذر وولاية أخيه عبيدالله ابن الأمير محمد

ثم توفي المنذر محاصراً لابن حفصون بجبل يشتر سنة خمس وسبعين ومائتين لسنتين من إمارته فولي مكانه أخوه عبد الله ابن الأمير محمد، وقفل بالعساكر إلى قرطبة وقد اضطربت نواحي الأندلس بالثوار، ولما كثر الثوار قل الخراج لامتناع أهل النواحي من الأداء وكان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار، مائة ألف منها للجيوش، ومائة ألف للنفقة في النوائب وما يعرض، ومائة ألف ذخيرة ووفراً فأنفقوا الوفر في تلك السنين وقل الخراج.

أخبار الثوار وأولهم ابن مروان ببطليوس وأشبونة

قد تقدم لنا أن عبد الرحمن بن مروان انتقض على الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة خمس وخمسين في غزاته إلى بلاد الجلالقة، واجتمع إليه المولدون وصار إلى التخم، ووصل يده بأذفونش ملك الجلالقة فعرف لذلك بالجليقي.

وذكرنا كيف سار إليه هاشم بن عبد العزيز سنة ثلاثين في عساكر الأندلس فهزمه ابن مروان وأسره.

ثم وقع الصلح على إطلاق هاشم وأن ينزل ابن مروان

بطليوس، فتم ذلك سنة خمس وثلاثمائة ونزل عبد الرحمن بطليوس فشيدها وترس بالدولتين.

ثم تغير له أذفونش وقاتله ففارق دار الحرب، ونزل مدينة أنطاكية بجهات ماردة فحصنها وهي خراب، وملك ما إليها من بلد أليون وغيرها من بلاد الجلالقة، واستضافها إلى بطليوس، واستعجل له الأمير عبد اللّه على بطليوس، وكان معه بدار الحرب سعدون السرساقي، وكان من الأبطال الشجعان، وكان دليلاً للغزو وهو من الخارجين معه.

فلما نزل عبد ا لله بطليوس انتزى سعدون ببعض الحصون ما بين قلنيرة وباجة ثم ملك قلنيرة وترس بأهل الدولتين إلى أن قتله أذفونش في بعض حروبه معه.

ابن تاكيت بماردة

كان محمد بن تاكيت من مصمودة، وثار بناحية الثغر أيام الأمير محمد، وزحف إلى ماردة وبها يومئذ جند من العرب وكتامة، فأعمل الحيلة في إخراجهم منها، ونزلها هو وقومه مصمودة.

بقية خبر ابن مروان

ولما ملك ابن تاكيت ماردة زحفت إليه العساكر من قرطبة، وجاء عبد الرحمن بن مروان من بطليوس مدداً له فحاصروهم أشهراً ثم أقلعوا.

وكان بماردة جموع من العرب ومصمودة وكتامة، فتحيل محمد بن تاكيت على العرب وكتامة وأقاربهم فأخرجهم واستقل بماردة هو وقومه، وعظمت الفتنة بينه وبين عبد الرحمن بن مروان صاحب بطليوس بسبب مظاهرته عليه، وحاربه فهزمه ابن مروان مراراً كانت إحداها على لقنت، استلحم فيها مصمودة فقصت من جناح ابن تاكيت واستجاش بسعدون السرساقي صاحب قلنيرة فلم يغنه، وعلا كعب بن مروان عليهم وتوثق أمره، وطلبه ابن حفصون في الولاية فامتنع ثم هلك إثر ذلك سنة أيام الأمير عبد اللّه، وولي ابنه عبد الرحمن بن مروان وأثخن في البرابرة المجاورين له وهلك لشهرين من ولايته، فعقد الأمير عبد اللّه على بطليوس لأميرين من العرب، ولحق من بقي من ولد عبد الرحمن بحصن شونة، وكانا اثنين من أعقابه، وهما مروان وعبد اللّه ابنا إبنه محمد، وعمهما مروان.

ثم خرجا من حصن شونة ولحقا بآخر من أصحاب جدهما عبد الرحمن.

ثم اضطرب الأميران ببطليوس وتنازعا وقتل أحدهما الآخر، واستقل ببطليوس، ثم تسور عبد اللّه منها سنة ست وثماني فقتله وملك بطليوس، واستفحل أمره والمعجل له الأمير عبد اللّه عليها ونازل حصون البرابرة حتى طاعوا له، وحارب ابن تاكيت صاحب ماردة ثم اصطلحوا وأقاموا جميعاً طاعة الأمير عبد اللّه، ثم تحاربوا فاتصلت حروبهم إلى آخر دولته.

ثورة لب بن محمد بسرقسطة وتطيلة

ثم ثار لب بن محمد بن موسى بسرقسطة سنة ثمان وخمسين ومائتين أيام الأمير محمد فترددت إليه الغزوات حتى استقام وأسجل له الأمير محمد على سرقسطة وتطيلة وطرسونة فأحسن حمايتها، واستفحلت إمارته فيها، ونازله ملك الجلالقة أذفونش في بعض الأيام بطرسونة، فنزل إليه ورده على عقبه منهزماً وقتل نحواً من ثلاثة آلاف من قومه وانتقض على الأمير عبد اللّه وحاصر تطيلة.

ثورة مطرف بن موسى بن ذي النون الهواري بشنة برية

كان لمطرف صيت من الشجاعة ومحل من النسب والعصبية، فثار في شنت برية، وكانت بينه وبين صاحب ينبلونة سلطان البشكنس من الجلالقة حروب أسره العدو في بعضها ففر من الأسر ورجع إلى شنت برية، واستقامت طاعته إلى آخر دولة الأمير محمد.

ثورة الأمير ابن حفصون في يشتر ومالقة ورندة واليس

وهو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس هكذا نسبه ابن حيان أول ثائر كان بالأندلس، وهو الذي افتتح الخلاف بها وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن في سني السبعين والمائتين.

خرج بجبل يشتر من ناحية رية ومالقة، وانضم إليه الكثير من جند الأندلس ممن في قلبه مرض في الطاعة.

وابتنى قلعته المعروفة به هنالك، واستولى على غرب الأندلس إلى رندة وعلى السواحل من الثجة إلى البيرة، وزحف إليه هاشم بن عبد العزيز الوزير فحاصره واستنزله إلى قرطبة سنة سبعين.

ثم هرب ورجع إلى حصن يشتر، ولما توفي الأمير محمد تغلب على حصن الحامة ورية ورندة والثجة، وغزاه المنذر سنة أربع وسبعين فافتتح جميع قلاعه وقتل عامله برية، ثم سأل الصلح فعقد له المنذر.

ثم نكث ابن حفصون وعاد إلى الخلاف فحاصره المنذر إلى أن هلك محاصراً له فرجع عنه الأمير عبد اللّه، واستفحل أمر ابن حفصون والثوار وتوالت عليه الغزوات والحصار.

وكاتب ابن الأغلب صاحب إفريقية وهاداه وأظهر دعوة العباسية بالأندلس فيما إليه وتثاقل ابن الأغلب على إجابته لاضطراب إفريقية، فأمسك وأكثر الأجلاب على قرطبة وبنى حصن بلاية قريباً منها، وغزاه عبد اللّه وافتتح بلاية والثجة.

ثم قصده في حصنه فحاصره أياماً وانصرف عنه فاتبعه ابن حفصون فكر عليه الأمير عبد اللّه وهزمه وأثخن فيه، وافتتح البيرة من أعماله، ووالى عليه الحصار في كل سنة. فلما كانت وثمانين عمر بن حفصون وخالص ملك الجلالقة فنبذ إليه أمراؤه بالحصون عهده، وسار الوزير أحمد بن أبي عبيدة لحصاره في العساكر فاستنجد بإبراهيم بن حجاج الثائر بأشبيلية، ولقياه فهزمهما وراجع ابن حجاج الطاعة، وعقد له الأمير عبد اللّه على إشبيلية، وبعث ابن حفصون بطاعته للشيعة عندما تغلبوا على القيروان من يد الأغالبة، وأظهر بالأندلس، دعوة عبيد اللّه.

ثم راجع طاعة بني أمية عندما هيأ اللّه للناصر ما هياه من استفحال الملك، واستنزال الثوار، واستقام إلى أن هلك سنة ست وثلاثمائة لسبع وثلاثين سنة من ثورته، وقام مكانه ابنه جعفر فأقره الناصر على أعماله، ثم دس إليه أخوه سليمان بن عمر بعض رجالاتهم فقتله لسنتين أو ثلاثة من ولايته، وكان مع الناصر فسار إلى أهل يشتر وملكوه مكان أخيه، وذلك سنة ثمان وثلاثمائة، وخاطب الناصر فعقد له كما كان أخوه، ثم نكث وتحرر إنكاثه ورجوعه.

ثم بعث إليه الناصر وزيره عبد الحميد بن سبيل بالعساكر، ولقيه فهزمه وقتله وجيء برأسه إلى قرطبة.

وقدم المولدون أخاه حفص بن عمر فانتكث ومضى على العصيان، وغزاه الناصر وجهز العساكر لحصاره حتى استأمن له، ونزل إلى قرطبة بعد سنة من ولايته.

وخرج الناصر إلى يشتر فدخله وجال في أقطاره ورفع أشلاء عمر وابنه جعفر وسليمان فصلبهم بقرطبة، وخرب جميع الكنائس التي كانت في الحصون التي بنواحي رية وأعمال مالقة ثلاثين حصناً فأكثر، وانقرض أمر بني حفصون وذلك سنة خمس عشرة وثلثمائة والبقاء للّه.

ثوار إشبيلية المتعاقبون

ابن أبي عبيدة وابن خلدون وابن حجاج وابن مسلمة.

وأول الثواركان بإشبيلية أمية، ابن عبد اللّه الغافر بن أبي عبيدة، وكان جده أبو عبدة عاملاً عليها من قبل عبد الرحمن الداخل.

قال ابن سعيد -ونقله عن مؤرخي الأندلس: الحجازي ومحمد بن الأشعث، وابن حيان قال: لما اضطربت الأندلس بالفتن أيام الأمير عبد اللّه وسما رؤساء البلاد إلى التغلب، وكان رؤساء إشبيلية المرشحون لهذا الشأن أمية بن عبد الغافر، وكليب بن خلدون الحضرمي، وأخوه خالد وعبد اللّه بن حجاج.

وكان الأمير عبد اللّه قد بعث على إشبيلية ابنه محمداً، وهو أبو الناصر والنفر المذكورون يحومون على الاستبداد، فثاروا بمحمد ابن الأمير عبد اللّه، وحصروه في القصر مع أمه وانصرف ناجياً إلى أبيه.

ثم استبد أمية بولايتها على مداراتهم ودس على عبد اللّه بن حجاج من قتله، فقام أخوه إبراهيم مكانه فثاروا به وحاصروه في القصر، ولما أحيط به خرج إليهم مستميتاً بعد أن قتل أهله وأتلف موجوده فقتل، وعاثت العامة برأسه وذلك أعوام الثمانين والثلثمائة.

وكتب ابن خلدون وأصحابه بذلك إلى الأمير عبد اللّه، وأن أمية خلع وقتل فتقبل منهم للضرورة، وبعث عليهم عمه هشام بن عبد الرحمن، واستبدوا عليه وتولى كبر ذلك كريب بن خلدون، واستبد عليهم بالرياسة.

قال ابن حيان: ونسبهم في حضرموت وهم بإشبيلية نهاية في النباهة، مقتسمين الرياسة السلطانية والعلمية.

وقال ابن حزم: إنهم من ولد وائل بن حجر. ونسبهم في كتاب «الجمهرة»، وكذلك قال ابن حيان في بني حجاج.

قال الحجازي: ولما قتل عبد اللّه بن حجاج قام أخوه

إبراهيم مقامه، وظاهر بني خلدون، على قتل أمية وأنزل نفسه منهم منزلة الخديم واستبد كريب وعسف أهل إشبيلية، فنفر عنه الناس وتمكن لإبراهيم الغرض، وصار يظهر الرفق كلما أظهر كريب الغلظة، وينزل نفسه منزلة الشفيع والملاطف، ثم دس للأمير عبد الله بطلب الولاية ليشتد بكتابه على كريب بن خلدون، وكتب له بذلك عهده فأظهره للعامة وثاروا جميعاً بكريب فقتلوه.

واستقام إبراهيم بن حجاج على الطاعة للأمير عبد الله وحصن مدينة قرمونة، وجعل فيها مرتبط خيوله، وكان يتردد ما بينها وبين إشبيلية.

وهلك ابن حجاج واستبد ابن مسلمة بمكانه.

ثم استقرت إشبيلية آخراً بيد الحجاج بن مسلمة، وقرمونة بيد محمد بن إبراهيم بن حجاج، وعقد له الناصر، ثم انتقض وبعث له الناصر بالعساكر، وجاء ابن حفصون لمظاهرة ابن مسلمة فهزمته العساكر، وبعث له ابنه شفيعاً فلم يشفعه فبعث ابن مسلمة بعض أصحابه سراً، فداخل الناصر في المكر به وعقد له، وجاء بالعساكر وخرج ابن مسلمة للحديث معه فغدروا به وملكوا، عليه أمره، وحملوه إلى قرطبة، ونزل عامل السلطان إشبيلية، وكان من الثوار على الأمير عبد الله قريبه، وغدر به أصحابه فقتل.

مقتل الأمير محمد ابن الأمير عبد الله ثم مقتل أخيه المطرف

كان المطرف قد أكثر السعاية في أخيه محمد عند أبيهما، حتى إذا تمكنت سعايته وظهر سخطه على ابنه محمد لحق حينئذ ببلد ابن حفصون.

ثم استأمن ورجع وبالغ المطرف في السعاية إلى أن حبسه أبوه ببعض حجر القصر، وخرج لبعض غزواته واستخلف ابنه المطرف على قصره، فقتل أخاه في محبسه مفتاتاً بذلك على أبيه، وحزن الأمير عبد الله على ابنه محمد، وضم ابنه عبد الرحمن إلى قصره وهو ابن يوم فربي مع ولده.

ثم بعث الأمير عبد الله ابنه المطرف بالصائفة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ففتك المطرف بالوزير لعداوة بينهما، وسطا به أبوه الأمير عبد الله وقتله شر قتلة ثأر فيها منه بأخيه محمد وبالوزير، وعقد مكان الوزير لابنه أمية فسنح على الفقراء بأنفه، وترفع على الوزراء فمقتوه وسعوا فيه عند الأمير عبد الله بأنه بايع جماعة من سماسرة الشر لأخيه هشام بن محمد، ولفقت بذلك شهادات اعتمد القاضي حينئذ قبولها وأشار للساعين أن يجعلوا في الجماعة للمشهود عليهم بالبيعة بعض أعدائه فتمت الحيلة، وقتل هشام أمية الوزير وذلك سنة أربع وثمانين.

وفاة الأمير عبد الله بن محمد وولاية حافده عبد الرحمن الناصر بن محمد

ثم توفي الأمير عبد الله في شهر ربيع الأول من آخر المائة الثالثة لست وعشرين سنة من إمارته، وولي حافده عبد الرحمن ابن ابنه محمد قتيل أخيه المطرف، وكانت ولايته من الغريب لأنه كان شاباً وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى إليها وحازها دونهم، ووجد الأندلس مضطربة فسكنها، وقاتل المخالفين حتى أذعنوا واستنزل الثوار ومحا أثر ابن حفصون كبيرهم، وحمل أهل طليطلة على الطاعة، وكانوا معروفين بالخلاف والانتفاض، واستقامت الأندلس وسائر جهاتها في نيف وعشرين سنة من أيامه، ودامت أيامه نحواً من خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بتلك النواحي، وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين عندما تلاشى أمر الخلافة بالمشرق، واستبد موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع وعشرين وثلاثمائة فتلقب بألقاب الخلفاء، وكان كثير الجهاد بنفسه والغزو إلى دار الحرب إلى أن انهزم عام الخندي سنة ثلاث وعشرين وثلثماية ومحص الله المسلمين فقعد عن الغزو بنفسه، وصار يردد الصوائف في كل سنة، فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنج ما لم يطأه قبل في أيام سلفه، ومدت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا إليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاحتمال فيما يعن من مرضاته.

ووصل إلى سدنة ملوك الجلالقة من أهل جزيرة الأندلس المتاخين لبلاد المسلمين، كجهات قشتالة وينبلونة وما إليها من الثغور الجوفية، فقبلوا يده والتمسوا رضاه، واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه.

ثم سما إلى ملك العدوة فتناول سبتة من أيدي أهلها سنة سبع عشرة، وأطاعه بنو إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة السبربر، وأجاز إليه الكثير منهم كما نذكر في أخباره وبدأ أمره لأول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا، واستحجب موسى بن محمد بن يحيى.

واستوزر عبد الملك بن جهور بن عبد الملك بن جوهر،

وأحمد بن عبد الملك بن سعد وأهدى له هديته المشهورة المتعددة الأصناف، ذكرها ابن حيان وغيره، وهي مما نقل من ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها، وهي خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين، وأربعمائة رطل من التبر ومصارفه خمسة وأربعون ألف دينار، ومن سبائك الفضة مائتا بدرة واثنا عشر رطلاً من العود الهندي يختم عليه كالشمع، ومائة وثمانون رطلاً من العود الصمغي المتخير، ومائة رطل من العود الشبه المنقى، ومائة أوقية من المسك الذكي المفضل في جنسه، وخمسمائة أوقية من العنبر الأشهب المفضل في جنسه على خليقته من غير صناعة ومنها قطعة ملململة عجيبة الشكل، وزن مائة أوقية، وثلاثمائة أوقية من الكافور المترفع الذكاء.

ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب للباس الخلفاء، مختلفة الألوان والصنائع، وعشرة أفرية من عالي جلود الفنك الخراسانية، وستة من السرادقات العراقية، وثمان وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب، وثلاثون شقة الغريبون من الملاحف لسروج الهبات، وعشرة قناطير من السمور فيها مائة جلد، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول، وألف رطل من الحرير المنتقى للاستغزال، وثلاثون بساطاً من الصوف، وعشر مائة منقاة مختلفة، ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة، وخمسة عشر من نخاخ الخز المقطوع شطرها.

ومن السلاح والعدة ثمانمائة من تخافيف الزينة أيام البروز والمواكب، وألف ترس سلطانية، ومائة ألف سهم من النبال البارعة الصنعة، ومن الظهر خمسة عشر فرساً من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت، وعشرون من بغال الركاب مسرجة ملجمة بمراكب خلافية، ولجم بغال مجالس سروجها خز جعفري عراقي، ومائة فرس من عتاق الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات، ومن الرقيق أربعون وصيفاً، وعشرون جارية متخيرات بكسوتهن وزينتهن، ومن سائر الأصناف ومن الصخرسيات ما أنفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار، وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصلبه وأقدمه، قيمته خمسون ألف دينار، وعرضت الهدية على الناصر سنة سبع وعشرين فشكرها وحسن لديه موقعها.

سطوة الناصر بأخيه القاضي ابن محمد

كان محمد بن عبد الجبار ابن الأمير محمد، وعبد الجبار هو عم أبي الناصر قد سعى عنده في أخيه القاضي ابن محمد، وأنه يريد الخلاف والبيعة لنفسه.

وسعى القاضي في محمد بن عبد الجبار وأنه يروم الانتقاض، واستطلع على الجلي من أمرهما وتحقق نقضهما فقتلهما سنة ثمان وثلاثمائة.

سطوة الناصر ببني إسحاق المروانيين

وهو إسحاق بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن الوليد بن إبراهيم بن عبد الملك بن مروان، دخل جدهم أول الدولة ولن يزالو في إكرام وعز، واستقرت الرياسة في إسحاق، وسكن إشبيلية أيام الفتنة عند ابن حجاج.

ثم هلك ابن حجاج وولي ابن مسلمة فاتهمه، وقبض عليه وعلى ولده وصهره يحيى بن حكم بن هشام بن خالد بن أبان بن خالد بن عبد اللّه بن عبد الملك بن الحارث بن مروان فقتل الولد والصهر وكان عنده سفير لابن حفصون فشفع في الشيخ إسحاق وولده أحمد.

ثم ملك الناصر إشبيلية من يد ابن مسلمة، فرحل إسحاق إلى قرطبة واستوزره الناصر واستوزر بنيه أحمد وابنه ومحمد وعبد اللّه ففتحوا الفتوحات، وكفوا المهمات، وعلت مقاديرهم في الدولة وتوفي أبوهم إسحاق فورثوا مكانه في كل رفيعة، ثم هلك كبيرهم عبد اللّه وكان مقدمهم عند الناصر، واستوزره ثم اتهمه الناصر بالخلاف وكثرت فيهم السعايات، وصاروا في مجال الظنون فسطا بهم الناصر وغربهم في النواحي، فانزوى أمية منهم في تسترين سنة خمس وعشربن وثلاثمائة وخلع الطاعة وقصده الناصر في العساكر فدخل دار الحرب وأجاره رذمير ملك الجلالقة، ثم تغير له فجاء إلى الناصر من غير عهد وعفا عنه وبقي في غمار الناس إلى أن هلك.

وأما أحمد فعزل عن سرقسطة لما نكب أبوه وبقي خاملاً مغضياً، ثم تكاثرت السعاية فيه فقتل.

وأما أحمد فبقي في جملة الناصر حتى إذا تحرك إلى سرقسطة نمي عنه، ففر ولقي في مفره جماعة من أهل سرقسطة فقتلوه.

أخبار الناصر مع الثوار

كان أول فتحه أبيح له أسجه بعث إليها بدراً مولاه وحاجبه فافتتحها من يد ابن حفصون سنة ثلاثمائة، وغزا في أثرها بنفسه فافتتح أكثرمن ثلاثين حصناً من يد ابن حفصون منها البيرة،

ودوخ سائر أقطاره وضيق مخنقه بالحصار، واستنزل سعيد بن مزيل من حصن المتلون وحصن سمنان.

وفي سنة إحدى وثلاثمائة ملك إشبيلية من يد أحمد بن مسلمة كما ذكرناه.

ثم سار سنة اثنتين وثلاثمائة في العساكر فنازل حصون ابن حفصون وانتهى إلى الجزيرة الخضراء، وضبط البحر ونظر في أساطيله واستكثر منها، ومنع ابن حفصون من البحر، وسأله في الصلح على لسان يحيى بن إسحاق المرواني فعقد له.

ثم أغزى إسحاق بن محمد القرشي إلى الثوار بمرسية وبلنسية فأثخن في نواحيها، وفتح أريولة وأغزى بدراً مولاه إلى مدينة لبة، فاستنزل منها عثمان بن نصر الثائر بها وساقه مقيّداً إلى قرطبة، ثم أغزى إسحاق بن محمد سنة خمس وثلاثمائة مدينة قرمونة فملكها من يد حبيب بن سواره، كان ثائراً بها.

وفتح حصن ستمرية سنة ست، وحصن طرش سنة تسع.

وأطاعه أحمد بن أضحى الهمداني الثائر، بحصن الجامة، ورهن ابنه على الطاعة، وغزا ابن حفصون سنة أربع عشرة فردته العساكر المجمرة لحصاره، ورجع وبعث إليه حفص يستأمنه فأمنه، وجاء إلى قرطبة وملك الناصر يشتر كما مر.

ثم انتقض سنة خمس وعشرين أمية بن إسحاق في تسترين، وقد مر ذكر أوليته ومحمد بن هشام التجيبي في سرقسطة، ومطرف بن منذف التجيبي في قلعة أيوب فغزاهم الناصر بنفسه، وبدأ بقلعة أيوب فحاصرها وقتل مطرف في أول جولة عليها، وقتل معه يونس بن عبد العزيز، ولجأ أخوه إلى القصبة حتى استأمن وعفا عنه، وقتل من كان معهم من النصرانية أهل ألبة وافتتح ثلاثين من حصونهم، وبلغه انتقاض طوطة ملكة البشكنس فغزاها في ينبلونة، ودوخ أرضها واستباحها ورجع.

ثم غزا سنة سبع وعشرين وثلاثمائة غزوة الخندق إلى جليقة فانهزم، وأصيبت فيها المسلمون وأسر محمد بن هاشم التجيبي، وحاول الناصر إطلاقه فأطلق بعد سنتين وثلاثة أشهر.

وقعد الناصر بعدها عن الغزو بنفسه وصار يردد البعوث والصوائف.

وثار سنة ثلاث وأربعين بجهات ماردة ثائر وتوجهت إليه العساكر فجاؤوا به وبأصحابه ومثل بهم وقتلوا.

أخبار طليطلة ورجوعها إلى الطاعة

قال ابن حبان: اختطها ديرنيقيوش الجبار، وكان قواد رومة ينزلونها دار ملك، ثم ثار بها برباط من نجدانية فملكها، واختلف قواد رومة على حصاره.

ثم وثب به بعض أصحابه فقتله وملكها.

ثم قتل ورجعت إلى قواد رومة، ثم انتقض أهلها وولوا أميراً منهم اسمه أنيش.

ثم قتل ورجعت إلى قواد رومة، وقام أولهم شنتيلة، وأطاعه أهل الأندلس، وامتنع على ملوك رومة.

ثم غزاهم وحاصر رومة وفتح كثيراً من بلادها، ورجع إلى طليطلة، وثار عليه البشكنس فظهر عليهم وأوقع بهم، ولحقوا بالجبال، وهلك شنتيلة بعد تسع، وملك مكانه على الغوط بسيلة ست سنين، ولم يغن فيها.

ثم ولي منهم حندس، وغزا إفريقية، وولي بعده قتبان، وبنى الكنائس وبلغه خبر المبعث فقال له بليان، وكان من أكابر الغوط وأعاظمهم: وجدت في كتاب مطريوس العالم عن دانيال النبي أنهم يملكون الأندلس.

ثم هلك فتبادر وملك ابنه ست عشرة سنة، وكان سيِّئ السيرة.

وولي بعده لزريق ثم لم تزل طليطلة دار فتنة وعصبية ومنعة، أتعبت عبد الرحمن الداخل سبع سنين، وانتقضت على هشام والحكم وعلى عبد الرحمن الأوسط، إلى أن جاء الناصر فأدخلهم في الطاعة كرهاً لما أكمل فتح ماردة وبطليوس وتسترين، سار إليهم في العساكر وحاصرهم، وجاء الطاغية يظاهرهم فدافعه الناصر، وجثم عليها فخرج أميرهم ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث إلى الناصر فاستقال واستأمن فأمنه وعفا عنه، ودخلها الناصر وجال في أقطارها ورجع عنها، فلم يزالوا مستقيمين على الطاعة بعد.

أخبار الناصر مع أهل العدوة

ثم سما للناصر أمل في ملك عدوة البربر من بلاد المغرب، فافتتح أمره بملك سبتة من بني عصام ولاتها، واستدعى أمراء البربر بالعدوة، وبلغ الخبر إبراهيم بن محمد أمير بني إدريس فبادر إلى سبتة، وحاصرها أنفة من عبور الناصر إليهم، ثم استقال

وكاتب الناصر بالولاية.

وأما إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكوك من الأدارسة فبادر بولاية الناصر، وكاتبه وأهدى إليه، وتقبل أثره في ذلك محمد بن خزر أمير مغراوة، وموسى بن أبي العافية أمير مكناسة، وهو يومئذ صاحب المغرب بعد أن ملك قواعد المغرب الأوسط، وهي تنس ووهران وشرشال والبطحاء.

وأهدوا إلى الناصر فقبل وكافأهم وأحكم ولايتهم، وبادر جماعة من الأدارسة إلى مثل ذلك منهم: القاسم بن إبراهيم والحسن بن عيسى، وأهدى صاحب فاس هدية عظيمة وعقد له الناصر على أهل بيته.

ولما فشت دعوة الناصر في المغرب الأقصى بعث عبيد اللّه المهدي قائده أن يصل أمير مكناسة، وعامل تاهرت فزحف في العساكر إلى المغرب سنة إحدى وعشرين، وكتب موسى بن أبي العافية إلى الناصر يستنجده، فأخرج إليه قاسم بن طملس في العساكر، ومعه الأسطول فوصل إلى سبتة وبلغه الخبر بأن موسى بن أبي العافية هزم عساكر حميد فأقصر ورجع حسبما هو مذكور في أخبارهم.

أخبار الناصر مع الفرنجة والجلالقة

وكان في أول المائة الرابعة ملك على الجلالقة أردون بن رذمير بن برمند بن قريولة بن أذفونش بن بيطر.

وخرج سنة اثنتين وثلاثمائة إلى الثغر الجوفي لأول ولاية الناصر، وعاث في جهات ماردة، وأخذ حصن الحنش، وبعث الناصر وزيره أحمد بن عبدة في العساكر إلى بلاده فدوخها، ثم أغزاه ثانية سنة خمس فنكث وقتل.

ثم أغزى بدراً مولاه فدوخ ورجع.

ثم غزا بنفسه بلاد جليقة سنة ثمان واستنصر أردون بشانجة بن غرسية ملك البشكنس وصاحب بنبولة فهزمهم الناصر، ووطىء بلادهم وخربها، وفتح حصونهم وهدمها وردد الغزو بعد ذلك في بلد غرسية إلى أن هلك أذفونش وولي بعده ابنه فرويلة.

قال ابن حيان: لما ملك فرويلة بن أردون بن رذمير ملك الجلالقة سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ملك أخوه أذفونش ونازعه أخوه شانجة واستقل غرسية بليون من قواعد ملكهم، وظاهر أذفونش على أمره ابن أخيه وهو أذفونش بن فرويلة، وصهره شانجة فانهزموا وافترقت كلمتهم.

ثم اجتمعوا ثانية وخلعوا شانجة وأخرجوه عن مدينة ليون ففر إلى قاصية جليقة، وولى أخاه رذمير بن أردون على ملكه بغربي جليقة إلى قلنسرية، وهلك شانجة إثر ذلك ولم يعقب.

واستقل أذفونش وخرج على أخيه رذمير وملك مدينة سنت ماذكش.

ثم أكثروا عليه العذل في نزوعه عن الرهبانية فرجع إلى رهبانيته.

ثم خرج ثانياً وملك مدينة ليون وكان رذمير أخوه غازياً إلى سمورة، فرجع إليه وحاصره بها حتى اقتحمها عليه عنوة سنة عشرين وثلاثمائة فحبسه، ثم سمله في جماعة من ولد أبيه أردون خافهم على أمره وكان غرسية بن شانجة ملك البشكنس لما هلك قام بأمرهم بعده أخته طوطة وكفلت ولده.

ثم انقضت سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحي بليونة وردد عليها الغزوات.

وفي أثناء هذه الغزوات نازل محمد بن هشام التجيبي سرقسطة حتى أطاع كما مر، وكذا أمية بن إسحاق في تسترين، وكان الناصر سنة اثنتين وعشرين قد غزا إلى وحنشمة، واستدعى محمد بن هشام من سرقسطة فامتنع ورجع إليه، وافتتح حصونه وأخذ أخاه يحيى من حصن روطة.

ثم رحل إلى ينبلونة فجاءته طوطة بنت أنثير بطاعتها وعقد لابنها غرسية بن شانجة على ينبلونة.

ثم عدل إلى البلة وبسائطها فدوخها وخرب حصونها.

ثم اقتحم جليقة وملكها يومئذ رذمير بن أردون فخام عن اللقاء ودخل هو وحشمه فنازله الناصر فيها، وهدم برغث وكثيرا من معاقلهم، وهزمهم مراراً ورجع.

ثم كانت بعدها غزوة الخندق ولم يغز الناصر بعدها بنفسه.

وكان يردد الصوائف وهابته أمم النصرانية ووفدت عليه سنة ست وثلاثين رسل صاحب القسطنطينية وهديته وهو يومئذ قسطنطين بن ليون بن شل، واحتفل الناصر للقائهم في يوم مشهود، وكتب فيه العساكر بالسلاح في أكمل هيئة وزي، وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وجمل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة والأعمام والقرابة، ورتب الوزراء والخدمة في مواقفهم، ودخل الرسل فهالهم ما رأوا وقربوا حتى أدوا رسالتهم.

وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك المحفل، ويعظموا أمر الإسلام والخلافة، ويشكروا نعمة اللّه على ظهور دينه وإعزازه،

وذلة عدوه فاستعدوا لذلك.

ثم بهرهم هول المجلس فرجعوا وشرعوا في الغزل فارتج عليهم، وكان فيهم أبو علي القالي وافد العراق، كان في جملة الحكم ولي العهد، وندبه لذلك استئثاراً لفخره، فلما وجموا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطي من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد في ذلك بشيء فخطب واستخفر، وجلا في ذلك القصد، وأنشد آخره شعراً طويلاً ارتجله في ذلك الغرض ففاز بفخر ذلك المجلس، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع.

وأعجب الناصر به وولاه القضاء بعدها، وأصبح من رجالات العالم، وأخباره مشهورة وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره.

ثم انصرف هؤلاء الرسل وبعث الناصر معهم هشام بن كليب إلى الجاثليق ليجدد الهدنة، ويؤكد المودة، ويحسن الإجابة.

ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء، وجاءت معه رسل قسطنطين.

ثم جاء رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ هوتو، وآخر من ملك اللمان، وآخر من ملك الفرنجة وراء المغرب، وهو يومئذ أخوه وآخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق، وهو يومئذ كلدة.

واحتفل السلطان لقدومهم وبعث مع رسل الصقالبة ريفا الأسقف إلى ملكهم هوتو ورجعوا بعد سنتين.

وفي سنة أربع وأربعين جاء رسول أردون بن رذمير وأبوه رذمير وهو الذي سمل أخاه أذفونش وقد مر ذكره، بعث يخطب السلم فعقد له.

ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب إدخال فردلند بن عبد شلب قومس قشتيلية فردلند وقد مر ذكره، ومال إلى أردون بن رذمير كما ذكرناه.

وكان غرسية بن شانجة حافد الطوطة بنت أسنين ملكة البشكنس فامتعضت لحل حافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رذمير الملك، وأعانه حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه، وجاء ملك جليقة فرد عليه ملكه وخلع الجلالقة طاعة أردون، وبعث إلى الناصر يشكوه على فعلته، وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك، وبما ارتكبه فردلند قومس قشتيلة وعظيم قوامسه في نكثه، ووثوبه، ونفر بذلك عند الأمم ولم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك.

ولما وصل رسول كلدة ملك الإفرنجة بالمشرق كما تقدم، وصل معه رسول مغيرة بن شبير ملك برشلونة وطركونة، راغباً في الصلح فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يطلب المودة فأجيب.

سطوة الناصر بابنه عبد اللّه

كان الناصر قد وشحه ابنه الحكم وجعله ولي عهده وآثره على جميع ولده ودفع إليه كثيراً من التصرف في دولته وكان أخوه عبد اللّه يساميه في الرتبة فغص لذلك وأغراه الحسد بالنكثة فنكث وداخل من في قلبه مرض من أهل الدولة فأجابوه، وكان منهم ياسر الفتى وغيره.

ونمي الخبر بذلك إلى الناصر فاستكشف أمرهم حتى وقف على الجلي فيه، وقبض على ابنه عبد اللّه وعلى ياسر الفتى وعلى جميع من داخلهم وقتلهم أجميعين سنة ثلاث وتسعين.

مباني الناصر

ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره إلى تشييد المباني والقصور، وكان جده الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم قد اختلفوا في ذلك، وبنوا قصورهم على أكمل الاتفاق والضخامة، وكان منها المجلس الزاهر، والبهو الكامل والقصر المنيف فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم، وسماه دار الروضة، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية.

ثم أخذ في بناء المتنزهات فاتخذ مينا الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل على بعد المسافة.

ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها منزله وكرسياً لملكه، فأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما علا على مبانيهم الأولى واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياح ومسارح الطيور ومظللة بالشباك واتخذ فيها داراً لصناعة آلات من آلات السلاح للحرب والحلي للزينة وغير ذلك من المهن.

وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس.

وفاة الناصر وولاية ابنه الحكم المستنصر

ثم توفي الناصر سنة خمسين وثلاثمائة أعظم ما كان سلطانه، وأعز ما كان الإسلام بملكه.

وكان له قضاة أربعة: مسلم بن عبد العزيز وأحمد بن بقي بن مخلد، ومحمد بن عبد الله بن أبي عيسى ومنذر بن سعيد البلوطي.

ولما توفي الناصر ولي ابنه الحكم وتلقب المستنصر بالله، وولى على حجابته جعفر المصحفي، وأهدى له يوم ولايته هدية كان فيها من الأنصاف ما ذكره ابن حيان في «المقتبس» وهي مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة، كاملو الشكة والأسلحة من السيوف والرماح، والدرق والتراس والقلانس الهندوية، وثلاثمائة ونيف وعشرون درعاً مختلفة الأجناس، وثلاثمائة خوذة كذلك، ومائة بيضة هندية، وخمسون خوذة حبشية من حبشيات الإفرنجة غير الحبش التي يسمونها الطاشانية وثلاثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية الجنس، وعشرة جواشن نقية مذهبة، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس، ولأول وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور، فغزا الحكم بنفسه واستباحها، وقفل فبادروا إلى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه.

ثم أغزى غالباً مولاه بلاد جليقة، وسار إلى مدينة سالم قبل الدخول لدار الحرب فجمع له الجلالقة، ولقيهم على أشتة فهزمهم واستباحهم، وأوطأ العساكر بلاد فردلند القومس، ودوخها وكان شانجة بن رذمير ملك البشكنس قد انتقض، فأغزاه الحكم يحيى بن محمد التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر.

وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم، وامتنعوا في حصونها.

وعاث في نواحيها وأغزى الهذيل بن هاشم ومولاه غالباً، فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فتح قلهرة من بلاد البشكنس على يد غالب، فعمرها الحكم واعتنى بها.

ثم فتح قطربية على يد قائد وشقة، وغنم ما فيها من الأموال والسلاح والآلات والأقوات.

وغنم ما في بسيطة من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبي ما لا يحصى.

وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلاد ألبة ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون، فأخذ حصن غرماج، ودوخ بلادهم وانصرف.

وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير، وأفسدوا بسايط أحشبونة وناشبهم الناس القتال، فرجعوا إلى مراكبهم.

وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماجس بتعجيل حركة الأسطول.

ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل.

ثم كانت وفادة أردون بن أذفونش ملك الجلالقة، وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن رذمير وهو ابن عمه وهو الملك من قبل أردون وحمل النصرانية، واستظهر أردون بصهره فردلند قومس قشتيلية، ثم توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر، فبادر بالوفادة على الحكم مستجيراً به فاحتفل لقدومه، وكان يوما مشهوداً وصفه ابن حيان كما وصف أيام الوفادات قبله.

ووصل إلى الحكم وأجلسه ووعده بالنصر على عدوه، وخلع عليه لما جاء ملقياً بنفسه، وعاقده على موالاة الإسلام ومقاطعة فردلند القومس، وأعطى على ذلك صفقة يمينه، ورهن ولده غرسية، ودفعت الصلات والحملات له ولأصحابه، وانصرف معه وجوه نصارى الذمة بقرطبة وليدَ بن مغيث القاضي، وأصبغ بن عبد الله بن نبيل الجاثليق، وعبد الله بن قاسم مطران طليطلة ليوطئوا له الطاعة عند رسميته، ويقبضوا رهنه، وذلك سنة إحدى وخمسين.

وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن رذمير ببيعته وطاعته مع قولب من أهل جليقة وسمورة وأساقفهم يرغب في قبوله، ويبقى بما فعل أبوه الناصر معه فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين.

ثم بعث قومس الفرنجة برسل ومسيرة أثناء سير ملك برشلونة وطركونة وغيرها يسألان تجديد العهد، وإقرارهما على ما كانا عليه، وبعثا بهدية وهي عشرون صبياً من الخصيان الصقالبة، وعشرون قنطاراً من الصوف السمور، وخمسة قناطير من الفرصدس، وعشرة أذراع صقلية، ومائتا سيف إفرنجية، فقبل هديتهم وعقد لهم على أن يهدموا الحصون التي بقرب الثغور، وعلى أن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم وأن ينذروه بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين.

ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة ملك البشكنس في جماعة

من الأساقفة والقواميس يسألون الصلح، بعد أن كان توقف فعقد لهم الحكم ورجعوا.

وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة وردت أم لزريق بن بلاكش القومس بالقرب من جليقة، وهو القومس الأكبر، فأخرج الحكم لتلقيها، واحتفل لقدومها في يوم مشهود فوصلها وأسعفها، وعقد السلم لابنها كما رغبت وأحبت، ودفع لها مالاً تقسمه بين وفدها، وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلات لسفرها وانطلقت.

ثم أوطأ عساكره من أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة فبثوها في أعمالهم، وخطبوا بها على منابرهم، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم.

ووفد عليه ملوكهم من آل خزر وبني أبي العافية فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بني إدريس من ملكهم بالعدوة في ناحية الريف، وأجازهم البحر إلى قرطبة، ثم أجلاهم إلى الإسكندرية حسبما نشير إلى ذلك كله بعد.

وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جمّاعة للكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله.

قال ابن حزم: أخبرني بكية الخصي وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان، أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير، فأقام للعلم والعلماء سلطاناً نفقت فيها بضائعه من كل قطر.

ووفد عليه أبو علي القالي صاحب كتاب «الأمالي» من بغداد فأكرم مثواه وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس علمه، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه، وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويسرب إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه وبعث في كتاب «الأغاني» إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني، وكان نسبه في بني أمية، وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه، قبل أن يخرجه بالعراق.

وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، وأمثال ذلك وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلا مما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء.

ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، أمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة، واقتحامهم إياها عنوة كما نشير إليه بعد، واتصلت أيام الحكم المستنصر، وأوطأ العساكر أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقى دعوته ملوك زناتة ومغراوة ومكناسة فبثها في أعمالهم، وخطبوا بها على منابرهم، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما يليهم، ووفد عليه ملوكهم من آل خزر وبني أبي العافية، فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم.

وفاة الحكم المستنصر وبيعة ابنه هشام المؤيد

ثم أصابت الحكم العلة، فلزم الفراش إلى أن هلك سنة ست وستين وثلاثمائة لست عشرة سنة من خلافته، وولي من بعده ابنه هشام صغيراً مناهز الحلم، وكان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر، نقله من خطة القضاء إلى وزارته، وفوض إليه في أموره فاستقل وحسنت حاله عند الحكم، فما توفي الحكم بويع هشام ولقب المؤيد بعد أن قتل ليلتئذ أخو الحكم المرشح لأمره، تناول الفتك به محمد بن أبي عامر هذا بممالأة جعفر بن عثمان المصحفي حاجب أبيه، وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم، ومن خصيان القصر ورؤسائهم فائق وجودر، فقتل محمد بن أبي عامر المغيرة وبايع لهشام.

أخبار المنصور بن أبي عامر

ثم سما محمد بن أبي عامر المتغلب على هشام لمكانه في السن، وثاب له رأي في الاستبداد فمكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضها ببعض.

وكان من رجال اليمنية من مغافر واسمه محمد بن عبد اللّه بن أبي عامر بن محمد بن عبداللّه بن عامر بن محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المغافري، دخل جده عبد الملك مع طارق، وكان عظيماً في قومه، وكان له في الفتح أثر، فاستوزره الحكم لابنه هشام كما ذكرنا.

فلما مات الحكم حجبه محمد وغلب عليه ومنع الوزراء من

الوصول إليه إلا في النادر من الأيام يسلمون وينصرفون.

وأرخص للجند في العطاء وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع، وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين، ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضها ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل بهم وفرق جموعهم.

وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم، وبالغ في خدمته والتنصح له، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة.

ثم استعان على غالب بجعفر بن على بن حمدون صاحب المسيلة الفازع إلى الحكم أول الدولة بمن كان معه من زناتة والبربر.

ثم قتل جعفر عماله ابن عبد الودود وابن جوهر وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم.

ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنداً واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة، وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم، فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة، وملأ الدنيا وهو في جوف بيته مع تعظيم الخلافة والخضوع لها، ورد الأمور إليها وترديد الغزو والجهاد، وقدم رجال البرابرة زناتة، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر، وابتنى لنفسه مدينة فنزلها وسماها الزاهرة، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك وأمر أن يحيّا بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والأوامر والمخاطبات باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر، وكتب اسمه في السكة والطرز، وعمر ديوانه بما سوى ذلك.

وجند البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرغبة، وقهر من يطاول إليها من الغلبة فظفر من ذلك بما أراد وردد الغزو بنفسه إلى دار الحارث، فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم ينكسر له فيها راية، ولا فل له جيش، ولا أصيب له بعث، ولا هلكت سرية، وأجاز عساكره إلى العدوة، وضرب بين ملوك البرابرة بعضهم في بعض، فاستوثق ملكه بالمغرب وأذعنت له ملوك زناتة، وانقادوا لحكمه وأطاعوا لسلطانه، وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر لما سخط زيري بن عطية ملكهم لما بلغه من إعلانه بالنيل منه والغض من ملكهم، والتأنف لحجر الخليفة هشام، فأوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين، ونزل بفاس وملكها، وعقد للملوك زناتة على المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها على ما نشير إليه بعد، وشرد زيري بن عطية إلى تاهرت، وأبعد المفر، وهلك في مفره، ثم قفل عبد الملك إلى قرطبة واستعمل واضحاً على المغرب، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً وأشد استيلاء سنة أربع وسبعين وثلاثمائة بمدينة سالم منصرفه من بعض غزواته، ودفن هنالك وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه.

المظفر بن المنصور

ولما هلك المظفر قام بالأمر من بعده أخوه عبد الرحمن، وتلقب بالناصر لدين اللّه، وجرى على سنن أبيه وأخيه في حجر الخليفة هشام، والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه.

ثم ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده فأجابه، وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكان يوماً مشهوداً، وكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن برد بما نصه:

هذا ما عهد هشام المؤيد باللّه أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الذي عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمه ما جعل اللّه إليه من الإمامة ونصب إليه من أمر المؤمنين واتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه، ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوي إليه، وملجأ تنعطف إليه، أن يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطاً ساهياً عن أداء الحق إليها، واعتبر عند ذلك من أحياء قريش وغيرها من يستحق أن يستند هذا الأمر إليه، ويعول في القيام به عليه ممن يستوجبه بدينه وأمانته، وهديه وصيانته، بعد اطراح الهوى والتحري للحق والتزلف إلى اللّه عز وجل بما يرضيه، وبعد أن قطع الأقاصي وأسخط الأقارب فلم يجد أحداً يوليه عهده ويفوض إليه الخلافة بعده غيره لفضل نسبه، وكرم خيمه، وشرف مرتبته، وعلو منصبه، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه وتفاوته، المأمون العيب الناصح الحبيب أبي المظفر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، وفقه اللّه تعالى إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره فرآه مسارعاً في الخيرات، سابقاً إلى

الجليات، مستولياً علي الغايات، جامعاً للمأثرات، ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبل البرّ مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه.

مع أن أمير المؤمنين أيده اللّه بما طالع من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الغيب، رأى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد اللّه بن عمرو بن العاص، وأبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه»، فلما استوى له الاختيار وتقابلت عنده الآثار، ولم يجد عنه مذهباً ولا إلى غيره معدلاً خرج إليه من تدبير الأمور في حياته، وفوض إليه الخلافة بعد وفاته، طائعاً راضياً مجتهداً، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنفذه، ولم يشترط فيه ثنياً ولا خياراً، وأعطى علي الوفاء به في سره وجهره، وقوله وفعله، عهد اللّه وميثاقه وذمة نبيه ﷺ، وذمة الخلفاء الراشدين من آبائه، وذمة نفسه أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول.

وأشهد علي ذلك اللّه والملائكة وكفى باللّه شهيداً، وأشهد من أوقع اسمه في هذا، وهو جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المظفر عبد الرحمن بن المنصور، وفقه اللّه تعالى وقيد له ما قلده، وألزمه نفسه ما في الذمة.

وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة،وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهادتهم بخطوط أيديهم.

وتسمى بعدها بولي العهد.

ونقم أهل الدولة عليه ذلك فكان فيه حتفه، وانقراض دولته ودولة قومه واللّه وارث الأرض ومن عليها.

ثورة المهدي ومقتل عبد الرحمن المنصور وانقراض دولتهم

ولما حصل عبد الرحمن المنصور على ولاية العهد، ونقم ذلك الأمويون والقرشيون وغصوا بأمره واتفقوا على تحويل الأمر جملة من المضرية إلى اليمنية فاجتمعوا لشأنهم، وتمشت من بعض إلى بعض رجالاتهم، وأجمعوا أمرهم في غيبة من الحاجب الناصر ببلاد الجلالقة في غزاه من صوائف، ووثبوا بصاحب الشرطة ففتكوا به بمقعدة من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وخلعوا هشاماً المؤيد، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين اللّه من أعياص الملك، وأعقاب الخلفاء، ولقبوه المهدي وطار الخبر إلى الحاجب بمكانه من الثغر فانفض جمعه، وقفل إلى الحضرة مدلاً بمكانه زعيماً بنفسه، حتى إذا قرب من الحضرة تسلل عنه الجند ووجوه البربر، ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي القائم بالأمر، وأغروه بالناصر واعترضه منهم من تقبض عليه، واحتز رأسه وحمله إلى المهدي، وإلى الجماعة وذهبت دولة العامريين.

ثورة البربر وبيعة المستعين وفرار المهدي

كان الجند من البرابرة وزناتة قد ظاهروا المنصور على أمره وأصبحوا شيعة لبنيه من بعده، ورؤساؤهم يومئذ زاوى بن مناد الصنهاجي وبنو ماكير ابن أخيه زيري، ومحمد بن عبد اللّه البرزالي، ونصيل بن حميد المكناسي الفازع أبوه عن العبيديين إلى الناصر، وزيري بن غزانة المتيطي، وأبو زيد بن دوناس اليفرني، وعبد الرحمن بن عطاف اليفرني، وأبو نور بن أبي قرة اليفرني، وأبو الفتوح بن ناصر وحزرون بن محصن المغراوي، وبكساس بن سيد الناس، ومحمد بن ليلى المغراوي فيمن إليهم من عشائرهم، فلحقوا بمحمد بن هشام لما رأوا من انتقاض أمر عبد الرحمن وسوء تدبيره.

وكانت الأموية تعتد عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين، وتنسب إليهم تغلب المنصور وبنيه على أمرهم فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون، وتنفست بذلك صدور الغوغاء من أذيال الدولة، ولفظت به ألسنة الدهماء من المدينة.

وأمر محمد بن هشام أن لا يركبوا ولا يتسلحوا ووردوا في بعض الأيام من باب القصر، وانتهبت العامة يومئذ دورهم، ودخل زاوي وابن أخيه حساسة وأبو الفتوح بن ناصر على المهدي شاكين بما أصابهم، فاعتذر إليهم وقتل من آذاهم من العامة في أمرهم، وكان مع ذلك مظهراً لبغضهم مجاهراً بسوء الثناء عليهم.

وبلغهم أنه سره الفتك بهم فتشمت رجالاتهم، وأسروا نجواهم، واتفقوا علي بيعة هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر لدين اللّه، وفشا في الخاصة حديثهم، فعوجلوا عن أمرهم ذلك، وأغرى بهم السواد الأعظم، فثاروا بهم وأزعجوهم عن المدينة، وتقبض على هشام وأخيه أبي بكر، وأحضرا بين يدي المهدي فضرب عنقيهما، ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر وزناتة وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة وتآمروا فبايعوه ولقبوه المستعين باللّه، ونهضوا به إلى ثغر طليطلة فاستجاش بابن

أذفونش.

ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة، وبرز إليهم المهدي في كافة أهل البلد وخاصة الدولة، وكانت الدبرة عليهم، واستلحم منهم ما يزيد علي عشرين ألفاً، وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم.

ودخل المستعين قرطبة خاتم المائة الرابعة ولحق ابن عبد الجبار بطليطلة.

رجوع المهدي إلى ملكه بقرطبة

ولما استولى المستعين علي قرطبة خالفه محمد بن هشام المهدي إلى طليطلة واستجاش بابن أذفونش ثانية، فنهض معه إلى قرطبة وهزم المستعين والبرابرة بعقبة البقر من ظاهرها في آخر باب سبتة، ودخل المهدي قرطبة وملكها.

هزيمة المهدي وبيعته للمؤيد هشام ومقتله

ولما دخل المهدي إلى قرطبة خرج المستعين إلى البرابرة، وتفرقوا في البسائط والقرى فينهبون ويقتلون ولا يبقون على أحد، ثم ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء، فخرج المهدي وابن أذفونش واتبعهم المستعين والبرابرة أثناء ذلك يحاصرونهم، حتى خشي الناس من اقتحام البرابرة عليهم فأغروا أهل القصر وحاجبه المدبر بالمهدي، وأن الفتنة إنما جاءت من قبله، وتولى كبر ذلك واضح العامري فقتلوا المهدي محمد بن هشام، واجتمعت الكافة على تجديد البيعة لهشام المؤيد ليعتصموا به من معرة البرابرة، وما يسومونهم به ملوكهم من سوء العذاب، وعاد هشام إلى خلافته وأقام واضح العامري لحجابته، وهو من موالي المنصور بن أبي عامر.

حصار قرطبة واقتحامها عنوة ومقتل هشام

واستمر البرابرة على حصار قرطبة والمستعين بينهم، ولم يفر عن أهل قرطبة، تبعه هشام المؤيد والبرابرة يترددون إليها ذاهبين وجائين بأنواع النهب والفتك، إلى أن هلكت القرى والبسائط، وعدمت المرافق وصافت أحوال أهل قرطبة وجهدهم الحصار.

وبعث المستعين والبرابرة إلى ابن أذفونش يستقدمونه لمظاهرتهم، فبعث إليه هشام المؤيد وحاجبه واضحاً يكفونه عن ذلك، بأن نزلوا له عن ثغور قشتالة التي كان المنصور اقتحمها فسكن عزمه، وسكن عن مظاهرتهم، ثم اتصل الحصار بمخنق البلد، وصدق البرابرة القتال فاقتحموها عنوة سنة ثلاث وأربعمائة، وفتكوا بهشام المؤيد، ودخل المستعين ولحق بأهل قرطبة من البرابرة في نسائهم ورجالهم وبناتهم وأبنائهم ومنازلهم.

وظن المستعين أن قد استحكم أمره، وتوثبت البرابرة والعبيد على الأعمال فولوا المدن العظيمة، وتقلدوا الأعمال الواسعة مثل باديس بن حبوس في غرناطة ومحمد بن عبد اللّه البرزالي في قرمونة وأبو ثور بن أبي شبل بالأندلس، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة مثل ابن عباد بإشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس وابن ذي النون بطليطلة، وابن أبي عامر ببلنسية ومرسية، وابن هود بسرقسطة ومجاهد العامري بدانية والجزائر منذ عهد هذه الفتنة، كما نذكر في أخبارهم.

ثورة ابن حمود واستيلاؤه وقومه على ملك قرطبة

ولما افترق شمل جماعة قرطبة وتغلب البرابرة على الأمر، وكان علي بن حمود وأخوه قاسم من عقب إدريس قد أجازوا معهم من العدوة فدعوا لأنفسهم وتعصب معهم الكثير من البربر، وملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائة، وقتلوا المستعين ومحوا ملك بني أمية، واتصل ذلك في خلق منهم سبع سنين.

ثم رجع الملك في بني أمية وفي ولد الناصر نحواً من سبع سنين، ثم خرج عنهم وافترق الأمر في رؤساء الدولة من العرب والموالي والبربر، واقتسموا الأندلس ممالك ودولاً وتلقبوا بألقاب الخلفاء كما نذكر ذلك كله مستوفى في أخبارهم.

عود الملك إلى بني أمية وأولاد المستظهر

لما قطع أهل قرطبة دعوة الحموديين بعد سبع من ملكهم، وزحف إليهم قاسم بن حمود في جموع من البربر فهزمهم أهل قرطبة، ثم اجتمعوا واتفقوا على رد الأمر إلى بني أمية، واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي، وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة، ولقبوه المستظهر.

وقام بأمره المستكفي ثم ثار على المستظهر لشهرين من خلافته محمد بن عبد الرحمن بن عبيد اللّه بن الناصر أمير المؤمنين.

كان المنصور بن أبي عامر قتل أباه عبد الرحمن لسعيه في

الخلاف، فثار الآن محمد هذا وتبعه الغوغاء، وفتك بالمستظهر واستقل بأمر قرطبة وتلقب بالمستكفي.

عود الأمر إلى بني حمود

وبعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الأمر إلى يحيى بن علي بن حمود، وهو المعتلي كما يذكر في أخبارهم، وفر المستكفي إلى ناحية الثغر ومات في مفره.

المعتمد من بني أمية

ثم خلع أهل قرطبة المعتلي بن حمود ثانياً سنة سبع عشرة، وبايع الوزير أبو محمد جهور بن جهور عميد الجماعة، وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخي المرتضى، وكان بالثغر في لاردة عند ابن هود.

ولما بلغه خبر البيعة له انتقل إلى البرنت، واستقر عند التغلب عليها محمد بن عبد الله بن قاسم، وكانت البيعة له انتقل سنة ثمان عشرة وأربعمائة، وتلقب المعتمد بالله، وأقام متردداً في الثغر ثلاثة أعوام، واشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف واتفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة فاستقدمه ابن جهور والجماعة، ونزلها آخر سنة عشرين، وأقام يسيراً.

ثم خلعه الجند سنة اثنتين وعشرين، وفر إلى لاردة فهلك بها سنة ثمان وعشرين وانقطعت دولة الأموية والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة بني حمود التي أدالت من دولة بني أمية بالأندلس وأولية ملكهم وتصاريف أمورهم إلى آخرها

كان في جملة المستعين مع البربر والمغاربة أخوان من ولد عمر بن إدريس، وهما القاسم وعلي ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن عبيد الله بن عمر، كانوا في لفيف البرابرة في بلاد غمارة واستجدوا بها رياسة استمرت في بني محمد وبني عمر من ولد إدريس فكانت للبربر إليهم صاغية بسبب ذلك، وخلطة وبقي الفخر منهم بتازغدره من غمارة فأجازوا مع البربر، وصاروا في جملة المستعين مع أمراء العدوة من البربر فعقد لهما المستعين فيمن عقد له من المغاربة عقد لعلي منهما علي طنجة وعملها، وللقاسم وكان الأسن على الجزيرة الخضراء.

وكان في نفوس المغاربة والبرابرة تشيع لأولاد إدريس متوارث من دولتهم بالعدوة كما ذكرناه.

واستقام أمر علي بن حمود وتمكن سلطانه، واتصلت دولته عامين إلى أن قتله صقالبته بالحمام سنة ثمان وأربعمائة، فولي مكانه أخوه القاسم بن حمود وتلقب بالمأمون.

ونازعه في الأمر بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابن أخيه علي بسبتة، وكان أمير الغرب وولي عهد أبيه، فبعث إليه أشياعهم من البربر مالا مع جند الأندلس سنة عشر واحتل بمالقة، وكان أخوه إدريس بها منذ عهد أبيهما، فبعث إلى سبتة ووصل إلى يحيى بن علي زاوي بن زيري من غرناطة، وهو عميد البرابرة ثانية يومئذ، فزحف إلى قرطبة فملكها سنة اثنتي عشرة، وتلقب المعتلي واستوزر أبا بكر بن ذكوان، وفر المأمون إلى إشبيلية وبايع له القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد.

واستمال بعضاً من البرابرة ثانية، واستجاشهم على ابن أخيه ورجع إلى قرطبة سنة ثلاث عشرة.

ولحق المعتلي بمكانه من مالقة وتغلب على الجزيرة الخضراء عمل المأمون من لدن عهد المستعين، وتغلب أخوه إدريس على طنجة من وراء البحر، وكان المأمون يعتدها حصناً لنفسه وبنيه، ويستودع بها ذخيرته، وبلغ الخبر إلى قرطبة بتغلبه على قواعده وحصونه مع ما كان يتشدد على بني أمية، فاضطرب أمر المأمون وثار عليه أهل قرطبة ونقضوا طاعته، وبايعوا للمستظهر، ثم للمستكفي من بني أمية كما ذكرناه.

وتحيز المأمون وبرابرته إلى الأرباض فاعتصموا به، وقاتلوا دونه وحاصروا المدينة خمسين يوماً.

ثم صمم أهل قرطبة لمدافعتهم فأفرجوا عن الأرباض وانفضت جموعهم سنة أربع عشرة.

ولحق المأمون بإشبيلية وبها ابنه محمد، ومحمد بن زيري من رجالات البربر فأطمعه القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد في الملك وأن يمتنعوا من القاسم فمنعوه وأخرجوا إليه ابنه وضبطوا بلدهم.

ثم اشتد ابن عباد وأخرج محمد بن زيري، ولحق المأمون بشريش، ورجع عنه البربر إلى يحيى المعتلي ابن أخيه فبايعوه سنة خمس عشرة.

وزحف إلى عمه المأمون بشريش فتغلب عليه، ولم يزل عنده

أسيراً وعند أخيه إدريس من بعده بمالقة إلى أن هلك في محبسه سنة سبع وعشرين وأربعمائة، واستقل يحيى المعتلي بالأمور، واعتقل محمداً والحسن ابني عمه القاسم المأمون بالجزيرة، ووكل بهما أبا الحجاج من المغاربة، وأقاما كذلك.

ثم خلع أهل قرطبة المستكفي، وصاروا إلى طاعة المعتلي واستعمل عليهم عبد الرحمن بن عطاف اليفرني من رجالات البربر، وفر المستكفي إلى ناحية الثغر فهلك بمدينة سالم.

ثم نقض أهل قرطبة طاعة المعتلي سنة سبع عشرة وأربعمائة وصرفوا عامله عليهم ابن عطاف بايعوا للمعتمد أخي المرتضي، ثم خلعوه كما ذكرنا في خبره، واستبد بأمر قرطبة الوزير ابن جهور بن محمد كما نذكره في أخبار ملوك الطوائف.

وأقام يحيى بن المعتلي يتخيفهم ويردد العساكر لحصارهم إلى أن اتفقت الكافة على إسلام المدائن والحصون له، فعلا سلطانه، واشتد أمره، وظاهره محمد بن عبد الله البرزالي على أمره فنزل عنده بقرمونة يحاصر فيها ابن عباد بإشبيلية إلى أن هلك سنة ست وعشرين بمداخلة ابن عباد للبرزالي في اغتياله، فركب المعتلي لخيل أغارت على معسكره بقرمونة من جند ابن عباد، وقد أكمنوا له، فكبا به فرسه وقتل.

وتولى قتله محمد بن عبد الله البرزالي وانقطعت دولة بني حمود بقرطبة.

وكان أحمد بن موسى بن بقية والخادم نجى الصقلي وزيري دولة الحموديين عند أولها، فرجعا إلى مالقة دار ملكهم، واستدعوا أخاه إدريس بن علي بن حمود من سبتة وطنجة، وبايعوه على أن يولي سبتة حسن ابن أخيه يحيى فتم أمره بمالقة، وتلقب المتأيد بالله، وبايعه المرية وأعمالها ورندة والجزيرة، وعقد لحسن ابن أخيه يحيى على سبتة، ونهض معه نجى الخادم.

وكان له ظهور على ملوك الطوائف، وكان أبوه القاسم بن عباد قد استفحل ملكه لذلك العهد، ومد يده إلى انتزاع البلاد من أيدي الثوار، وملك أشبونة وأستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي، وبعث العساكر مع ابنه إسماعيل لحصار قرمونة فاستصرخ محمد بن عبد الله بالقائد هذا وبزاوي فجاء زاوي بنفسه، وبعث القائد هذا عساكره مع ابن بقية فكانت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة، هزم فيها ابن عباد وقتل وحمل رأسه إلى إدريس المتأيد، وهلك ليومين بعدها سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

واعتزم ابن بقية على بيعة ابنه يحيى الملقب حبون فأعجله عن ذلك نجي الخادم، وبادر إليه من سبتة ومعه حسن بن يحيى المعتلي فبايعه البربر، ولقب المستنصر، وقتل ابن بقية وفر يحيى بن إدريس إلى قمارش فهلك بها سنة أربع وثلاثين.

ويقال: بل قتله نجى، ورجع نجى إلى سبتة ليحفظ ثغرها، ومعه ولد حسن بن يحيى صبياً وترك السطيفي على وزارة حسن لثقته به، وبايعته غرناطة وجملة من بلاد الأندلس.

وهلك حسن مسموماً بيد ابنة عمه إدريس، ثأرت بأخيها حسن سنة ثمان وثلاثين، فاعتقل السطيفي أخاه إدريس بن يحيى، وكتب إلى نجي وابن حسن المستنصر الذي كان عنده بسبتة ليعقد له، واغتاله نجى وأجاز إلى مالقة، ودعى لنفسه، ووافقه البربر والجند.

ثم نهض إلى الجزيرة ليستأصل حسناً ومحمداً ابني قاسم بن حمود، ورجع خاسئاً فاغتاله في طريقه بعض عبيد القاسم وقتلوه.

وبلغ الخبر إلى مالقة فثارت العامة بالسطيفي، وقتل وأخرج إدريس بن يحيى المعتلي من معتقله، وبويع له سنة أربع وثلاثين، وأطاعته غرناطة وقرمونة وما بينهما ولقب العالي، وولى على سبتة سكوت ورزق الله من عبيد أبيه، ثم قتل محمداً وحسناً ابني عمه إدريس، فثار السودان بدعوة أخيهما محمد بمالقة، وامتنعوا بالقصبة، وكانت العامة مع إدريس، ثم أسلموه.

وبويع محمد بمالقة سنة ثمان وثلاثين وتلقب المهدي، وولى أخاه عهده ولقبه الساني، ثم نكر منه بعض النزعات ونفاه إلى العدوة فأقام بين غمارة، ولحق العالي بقمارش فامتنع بها وأقام يحاصر مالقة وزحف باديس من غرناطة منكراً على المهدي فعله فامتنع عليه، فبايع له وانصرف وأقام المهدي في ملكه بمالقة، وأطاعته غرناطة وحيان وأعمالها إلى أن مات بمالقة سنة أربع وأربعين.

وبويع إدريس المخلوع ابن يحيى المعتلي من مكانه بقمارش، وبويع له بمالقة وأطلق أيدي عبيده عليها لحقده عليهم، ففر كثير منهم إلى أن هلك سنة سبع وأربعين، وبويع محمد الأصغر ابن إدريس المتأيد وتلقبه، وخطب له بمالقة والمرية ورندة.

ثم سار إليه باديس فتغلب على مالقة سنه تسع وأربعين وأربعمائة، وسار محمد المستعلي إلى المرية مخلوعاً، واستدعاه أهل مليلة فأجاز إليهم وبايعوه سنة تسع وخمسين، وبايعه بنو ورقدى وقلوع جارة ونواحيها وهلك سنة...... وأربعمائة.

وأما محمد بن القاسم المعتقل بمالقة ففر هو من ذلك الاعتقال سنة أربع عشرة، ولحق بالجزيرة الخضراء فملكها وتلقب

المعتصم إلى أن مات سنة أربعين.

ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة خمسين، وصارت الجزيرة للمعتضد بن عباد وكان سكوت البرغواطي الحاجب مولى القاسم الواثق محمد بن المعتصم، ويقال: مولى يحيى المعتلي والياً على سبتة من قبلهم، فلما غلب ابن عباد على الجزيرة طلبه في الطاعة، وطلب هو ملك الجزيرة فامتنعت عليه واتصلت الفتنة بينهما إلى أن كان من أمر المرابطين وتغلبهم على سبتة على الأندلس ما سنذكره، والبقاء لله وحده سبحانه وتعالى.

الخبر عن ملوك الطوائف بالأندلس بعد الدولة الأموية

كان ابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم لما انتثر ملك الخلافة العربية بالأندلس، وافترق الجماعة بالجهات، وصار ملكها في طوائف من الموالي والوزراء وأعياص الخلافة وكبار العرب والبربر، واقتسموا خططها وقام كل واحد بأمر ناحية منها.

وتغلب بعض على بعض استقل أخيراً بأمرها ملوك منهم استفحل شأنهم، ولاذوا بالجزية للطاغية أو يظاهرون عليهم أو ينتزعونهم ملكهم، حتى أجاز إليهم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وغلبهم جميعاً على أمرهم فلنذكر أخبارهم واحداً بعد واحد.

الخبر عن بني عباد ملوك إشبيلية وغربي الأندلس وعمن تغلبوا عليه من أمراء الطوائف

كان أولهم القاضي أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمر بن أسلم بن عمر بن عطاف بن نعيم اللخمي، وعطاف هو الداخل إلى الأندلس في طوالع لخم وأصلهم من جند حمص ونزل عطاف إلى قرية طشانة بشرق إشبيلية ونسل بنيه بها.

وكان محمد بن إسماعيل بن قريش صاحب الصلاة بطشانة ثم ولي ابنه إسماعيل الوزارة بإشبيلية سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، وولي ابنه أبو القاسم القضاء بها والوزارة من سنة أربع عشرة وأربعمائة إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين.

وكان أصل رياسته أنه كان له اختصاص بالقاسم بن حمود، وهو الذي أحكم عقد ولايته، وكان محمد بن زيري من أقيال البرابرة والياً على إشبيلية، فلما فر القاسم من قرطبة وقصده داخل بن عباد محمد بن زيري في غرناطة ففعل وطردوا القاسم، وطردوا بعده ابن زيري وصار الأمر شورى بينه وبين أبي بكر الزبيدي معلم هشام، وصاحب «مختصر العين» في اللغة، ومحمد بن برمخ الألهاني، ثم استبد عليهم وجند الجند ولم يزل على القضاء.

ولما منع القاسم من إشبيلية عدل عنها إلى قرمونة ونزل على محمد بن عبد اللّه البرزالي، وكان ولي قرمونة أيام هشام والمهدي من بعده.

ثم استبد بها سنة أربع وأربعمائة أزمان الفتنة فداخله ابن عباد في خلع القاسم والاستبداد بها.

ثم تنصح للقاسم فتحول إلى شريش واستبد محمد بن البرزالي بقرمونة واستبد أبو القاسم إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين كما قلناه، وقام بأمره ابنه عباد وتلقب المعتضد، واستولى على سلطانه، واشتدت حروبه وأيامه.

وتناول طائفة من الممالك بعد بالأندلس، وانفسح أمده وأول ما افتتح أمره بمداخلة محمد بن عبد اللّه البرزالي صاحب قرمونة في إفساد ما بينه وبين القاسم بن حمود حتى تحول عنه إلى شريش.

ثم تحارب مع عبد اللّه بن الأفطس صاحب بطليوس وغزاه ابنه إسماعيل في عساكره، ومعه محمد بن عبد اللّه البرزالي فلقيه المظفر بن الأفطس فهزمهما وأسر المظفر بن البرزالي إلى أن أطلقه بعد حين.

ثم فسد ما بينه وبين البرزالي واتصلت الفتنة بينهما إلى أن قتله ابنه إسماعيل خرج إليه في سرية فأغار على قرمونة، وأكمن الكمائن، فركب محمد البرزالي في أصحابه، واستطرد له إسماعيل إلى أن بلغ به الكمين فخرجوا عليه فقتلوه، وذلك سنة أربع وثلاثين.

ثم خالف عليه ابنه إسماعيل وأغراه العبيد والبرابرة بالملك، فأخذ ما قدر عليه من المال والذخيرة، وفر إلى جهة الجزيرة للتوثب بها، وكان أبوه ليلتذ بحصن الفرج، فأنفذ الخيالة في طلبه، فمال إلى قلعة الورد فتقبض واليها عليه، وأنفذه إلى أبيه فقتله وقتل كاتبه، وكل من كان معه.

ثم رجع إلى مطالبة البربر المتزين بالثغور وأول من نذكر منهم صاحب قرمونة وكان بها المستظهر العزيز بن محمد بن عبد اللّه البرزالي، وليها بعد أبيه كما ذكرناه، وكانت له معها أستجة

والمروز، وكان نموز وروارك ش للوزير نوح الرموي من برابرة العدوة وشيعة المنصور، واستبد بها سنة أربع، ومات سنة ثلاث وثلاثين.

وولي ابنه عز الدولة الحاجب أبو مياد محمد بن نوح ومات سنة..... وكان يزيد أبو ثور بن أبي قرة اليفرني استبد بها أيام الفتنة سنة خمسين من يد عامر بن فتوح من صنائع العلويين، ولم يزل المعتضد يضايقه، واستدعاه بعض الأيام لولاية فحبسه، وكاده في ابنه بكتاب على لسان جاريته برندة، أنه ارتكب منها محرماً، ثم أطلقه فقتل ابنه وشعر بالمكيدة فمات أسفاً سنة خمسين، وولي ابنه أبو نصر إلى أن غدر به في الحصن بعض أجناده فسقط من السور، ومات سنة تسع وخمسين.

وكان بشريش خزرون بن عبدون ثار بها سنة اثنتين وأربعمائة فتقبض عليه ابن عباد وطالبهم وطاف على حصونهم وصار يهاديهم، وأسجل لهم بالبلاد التي بأيديهم، فأسجل لابن نوح بأركش، ولابن خزرون بشريش، ولابن أبي قرة برندة، وصاروا في حزبه ووثقوا به، ثم استدعاهم لوليمة وغدر بهم في حمام استعمله لهم على سبيل الكرامة وأطبقه عليهم فهلكوا جميعاً إلا ابن نوح فإنه سالمه من بينهم لليد التي كانت له عنده في مثلها، ثم بعث من تسلم معاقلهم وصارت في أعماله.

وخرج باديس لطلب ثأرهم منه، واجتمعت إليه عشائرهم فنازلوه مدة ثم انصرفوا، وأجازوا إلى العدوة فاحتلوا بسبتة وطردهم سكوت فهلكوا في المجاعة التي صادفوا، وأحلوا بالمغرب لذلك العهد.

واستقل ابن عباد وكان بأونبة وشلطليش عبد العزيز البكري، وكانت عساكر المعتضد ابن عباد تحاصره فشفع فيه ابن جهور للمعتضد فسالمه مدة.

ثم هلك ابن جهور فعاد إلى مطالبته إلى أن تخلى له عنها سنة ثلاث وأربعين، فولى عليها ابنه المعتمد.

ثم سار إلى شلب وبها المظفر أبو الأصبغ عيسى بن القاضي أبي بكر محمد بن سعد بن مزين ثار بها سنة تسع عشرة، ومات سنة اثنتين وأربعين فسار إليها المعتضد وملكها من يد ابنه، ونقل إليها المعتمد فنزلها واتخذها دار إمارة.

ثم سار إلى شنت برية وبها المعتصم محمد بن سعيد بن هارون، فانخلع له عنها سنة تسع وثلاثين، وأضافها للمعتمد.

وكان بلبلة تاج الدين أبو العباس أحمد بن يحيى التحصيني، ثار بها سنة أربع عشرة، وخطب له بأونبة وشلطليش، ومات سنة ثلاث وثلاثين، وأوصى إلى أخيه محمد وضايقه المعتضد فهرب إلى قرطبة واستبد بها ابن أخيه فتح بن خلف بن يحيى، وانخلع للمعتضد سنة خمس وأربعين وصارت هذه كلها من ممالك بني عباد.

وتملك المعتضد أيضاً مرسية وثار بها عليه ابن رشيق البناء، وتسمى خاصة الدولة، وبقي ثمان سنين، ثم ثاروا عليه سنة خمس وخمسين ورجعوا لابن عباد.

وتملك المعتضد مرتلة من يد ابن طيفور سنة ست وثلاثين وكان تملكها من يد عيسى بن نسب الجيش الثائر بها، وصارت هذه الممالك كلها في ملك ابن عباد وكانت بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة حروب إلى أن هلك سنة إحدى وستين، وولي من بعده ابنه المعتمد بن المعتضد بن إسماعيل أبو القاسم بن عباد وجرى على سنن أبيه، واستولى على دار الخلافة قرطبة من يد ابن جهور، وفرق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها، واستفحل ملكه بغرب الأندلس وعلت يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف، مثل ابن باديس بن حبوس بغرناطة وابن الأفطس ببطليوس وابن صمادح بالمرية وغيرهم.

وكانوا يطلبون سلمه ويعملون في مرضاته وكلهم يدارون الطاغية ويتقونه بالجزى إلى أن ظهر بالعدوة ملك المرابطين، واستفحل أمر يوسف بن تاشفين، وتعلقت آمال المسلمين في الأندلس بإعانته، وضايقهم الطاغية في طلب الجزية فقتل ابن عباد ثقته اليهودي الذي كان يتردد إليه لأخذ الجزية بسبب كلمة أَسَفَّ بها.

ثم أجاز البحر صريخاً إلى يوسف بن تاشفين، وكان من إجازته إليه ومظاهرته إياه ما يأتي ذكره في أخباره، ثم طلب الفقهاء بالأندلس من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف فأجازوه بالامتساك حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم، وهو خلال ذلك يردد العساكر للجهاد.

ثم أجاز إليهم وخلع جميعهم ونقلهم إلى العدوة، واستولى على الأندلس كما يأتي ذكره في أخباره، وصار ابن عباد في قبضة حكمه بعد حروب نذكرها، ونقله إلى أغمات قرية مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائة، واعتقله هنالك إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين.

وكانت بالأندلس ثغور أخرى دون هذه، ولم يستول عليها ابن عباد فمنها بلد السهلة، استبد بها هذيل بن خلف بن رزن

أول المائة الخامسة بدعوة هشام، تسمى مؤيد الدولة.

وهلك شهيداً سنة خمسين وأربعمائة وملك بعده أخوه حسام الدولة عبد الملك بن خلف، ولم يزل أميراً عليها إلى أن ملكها المرابطون من يده عند تغلبهم على الأندلس.

ومنها بلد البونت واللج تغلب عليها عبد اللّه بن قاسم الفهري أزمان الفتنة، وتسمى نظام الدولة وهو الذي كان المعتمد عنده عندما ولاه الجماعة بقرطبة ومن عنده جاء إليها، وهلك سنة إحدى وعشرين وولي ابنه محمد يمين الدولة، وكانت بينه وبين مجاهد حروب، وملك بعده ابنه أحمد عقد الدولة، وهلك سنة أربعين.

وملك أخوه عبد اللّه جناح الدولة إلى أن خلعه المرابطون سنة خمس وثمانين.

ولنرجع إلى ذكر بقية الملوك الأكابر من الطوائف واللّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أخبار ابن جهور

كان رئيس الجماعة أيام الفتنة بقرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبد اللّه بن محمد بن المعمر بن يحيى بن أبي المغافر بن أبي عبيدة الكلبي، هكذا نسبه ابن بشكوال وأبو عبيدة هو الداخل إلى الأندلس، وكانت لهم وزارة الدولة العامرية بقرطبة واستبد جهور هذا سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، لما خلع الجند المعتز آخر خلفاء بني أمية، ولم يدخل في أمور الفتنة، فاستولى على المملكة ورتب الأمور، ولم يتحول عن داره إلى قصر الخلافة.

وكان علي سنن أهل الفضل يعود المرضى، ويشهد الجنائز ويؤذن عند مسجدهم بالربض الشرقي، ويصلي التراويح ولا يحتجب عن الناس فأسندوا أمرهم إليه إلى أن يوجد خليفة إلى أن خاطبهم محمد بن إسماعيل بن عباد يعرفهم أن هشاماً المؤيد عنده بإشبيلية، وأكثر في ذلك فخطب له بقرطبة بعد مراوضات.

ثم أتي به إلى قرطبة فمنعوه الدخول وأضربوا عن ذكره في الخطبة وانفرد ابن جهور بأمرهم إلى أن هلك في محرم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ودفن بداره وولي ابنه أبو الوليد محمد بن جهور باتفاق من الكافة فجرى على سنن أبيه.

وكان قد قرأ على مكي بن أبي طالب المكي وغيره فكان مكرماً لأهله.

واستوزر ثقته إبراهيم بن يحيى فكفاه، وهلك كما هو معروف، ففوض التدبير إلى ابنه عبد الملك فأساء السيرة، وتكره إلى الناس.

وحاصره ابن ذي النون بقرطبة، فاستغاث بمحمد بن عباد فأمده بالجيش، ووصى عسكره بذلك فداخلوا أهل قرطبة وخلعوه سنة إحدى وستين وأخرجوه عن قرطبة.

واعتقل بشلطليش إلى أن هلك سنة اثنتين وسبعين.

وولى ابن عباد على قرطبة ابنه سراج الدولة، وقدمها من بلنسية ودخلها إلى أن قتل بها مسموماً، وحمل إلى طليطلة فدفن بها، وزحف المعتمد بن عباد بعد مهلكه إلى قرطبة فملكها سنة تسع وستين وقتل ابن عكاشة واستخلف ابنه المأمون الفتح بن محمد، وصار غرب الأندلس كله في ملكه إلى أن دخل المرابطون الأندلس، وغلبوا عليهم سنة أربع وثمانين وأربعمائة فقتل الفتح وحمل أباه المعتمد إلى آغمات كما ذكرناه ونذكره.

واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

أخبار ابن الأفطس صاحب بطليوس من غرب الاندلس ومصاير أمره

ملك بطليوس من غرب الأندلس عند الفتنة واهتياجها أبو محمد عبد اللّه بن مسلمة التجيبي المعروف بابن الأفطس، واستبد بها سنة إحدى وستين وأربعمائة فهلك، وولي من بعده ابنه المظفر أبو بكر، واستفحل ملكه، وكان من أعاظم ملوك الطوائف.

وكانت بينه وبين ابن ذي النون حروب مذكورة، وكذا مع ابن عباد بسبب ابن يحيى صاحب مليلة، أعانه ابن عباد عليه فاستولى بسبب ذلك على كثير من ثغوره ومعاقله.

واعتصم المظفر ببطليوس بعد هزيمتين هلك فيهما خلق كثيروذلك سنة ثلاث وأربعين.

ثم أصلح بينهما ابن جهور وهلك المظفر سنة ستين وأربعمائة، وتولى بعده ابنه المتوكل أبو حفص عمر بن محمد المعروف بساجة ولم يزل سلطاناً بها إلى أن قتله يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة تسع وثمانين وأربعمائة.

وقتل معه أولاده، أغراه به ابن عباد فلما تمكنت الاسترابة من المتوكل خاطب الطاغية واستراح إليه مما دهمه.

وشعر به ابن عباد فكاتب يوسف بن تاشفين واستحثه لمعاجلته قبل أن يتصل بالطاغية، ويتصل بالثغر فأغذ إليه السير

ووافاه سنة فقبض عليه وعلى بنيه وقتلهم يوم الأضحى حسبما نذكر في أخبارهم.

ورثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة وهي:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

عدد فيها أهل النكبات ومن عثر به الزمان بما يبكي الجماد، وسنذكر قصتهم في أخبار لمتونة وفتحهم الأندلس، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

أخبار باديس بن حسون ملك غرناطة والبيرة

كان عميد صنهاجة في الفتنة البربرية زاوي بن زيري بن مناد أجاز إلى الأندلس على عهد المنصور، فلما هاجت الفتنة البربرية، وانحل نظام الخلافة، كان فحل ذلك الشول وكبش تلك الكتائب، وعمد إلى البيرة، ونزل غرناطة واتخذها داراً لملكه، ولما بايع الموالي العامريون للمرتضى المرواني وتولى كبر ذلك مجاهد العامري ومنذر بن يحيى بن هاشم التجيبي وعمد إلى غرناطة فلقيهم زاوي بن زيري في جموع صنهاجة وهزمهم سنة عشرين وأربعمائة وقتل المرتضى، وأصاب زاوي من ذخائرهم وأموالهم وعددهم ما لم يقتنه ملك.

ثم وقع في نفسه سوء آثار البربر بالأندلس أيام هذه الفتنة وحذر مغبة ذلك فارتحل إلى سلطان قومه بالقيروان، واستخلف على غرناطة ابنه فدبر القبض على ابن رصين ومشيخة غرناطة إذا رجعوا عن أبيه، وشعروا بذلك فبعثوا إلى ابن أخيه ماكس بن زيري من بعض الحصون فوصل وملك غرناطة، واستبد بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة وولي ابنه باديس، وكانت بينه وبين ذي النون وابن عباد حروب.

واستولى على سلطانه كاتبه وكاتب أبيه إسماعيل بن نغزلة الذمي، ثم نكبه وقتله سنة تسع وخمسين، وقتل معه خلقاً من اليهود، وتوفي سنة سبع وستين وأربعمائة وولي حافده المظفر أبو محمد عبد الله بن بلكين بن باديس، وولى أخاه تميماً بمالقة بعهد جده.

وخلعهما المرابطون سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وحملا إلى أغمات ووريكة، واستقرا هنالك حسبما يذكر بعد في أخبارهم مع يوسف بن تاشفين والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني ذي النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفي وتصاريف أمورهم ومصائر أحوالهم

جدهم إسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذي النون أصله من قبائل هوارة ورأس سلفه في الدولة المروانية وكانت لهم رياسة في شنترية ثم تغلب على حصن أفلتين أزمان الفتنة سنة تسع وأربعمائة.

وكانت طليطلة ليعيش بن محمد بن يعيش، واليها منذ أول الفتنة، فلما هلك سنة سبع وعشرين استدعاه إسماعيل الظافر من حصن أفلنتين مع بعض أجناد طليطلة فمضى إليها وملكها.

وامتد ملكه إلى جنجالة من عمل مرسية ولم يزل أميراً بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين.

وولي ابنه المأمون أبو الحسن يحيى، واستفحل ملكه وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه، وكانت بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة.

وفي سنة خمس وثلاثين غزى بلنسية وغلب على صاحبها المظفر ذي السابقين من ولد المنصور بن أبي عامر.

ثم غلب على قرطبة وملكها من يد ابن عباد وقتل ابنه أبا عمر بعد أن كان ملكها، وهلك الظافر بها مسموماً سنة سبع وستين كما ذكرناه.

وولي بعده على طليطلة حافده القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن ذي النون، وكان الطاغية بن أذفونش قد استفحل أمره لما خلا الجو من مكان الدولة الخلافية، وخف ما كان على كاهله من أمر العرب، فالتهم البسائط وضايق ابن ذي النون حتى غلب على طليطلة فخرج له القادر عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وشرط عليه أن يظاهره على أخذ بلنسية، وعليها عثمان القاضي بن أبي بكر بن عبد العزيز من وزراء ابن أبي عامر فخلعه أهلها خوفاً من القادر أن يمكن منهم الفنش فدخلها القادر وأقام بها سنتين، وقتل سنة إحدى وثمانين على ما نذكر بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ابن أبي عامر صاحب شرق الأندلس من بني ملوك الطوائف وأخبار الموالي العامريين الذين كانوا قبله وابن صمادح قائده بالمرية وتصاريف أحوالهم ومصائرها

بويع للمنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر بن أبي عامر بشاطبة سنة إحدى عشرة وأربعمائة، أقامه الموالي العامريون عند الفتنة البربرية فاستبد بها.

ثم ثار عليه أهل شاطبة فأفلت ولحق ببلنسيه فملكها وفوض أمره للموالي.

وكان من وزرائه ابن عبد العزيز وكان خيران العامري من مواليهم، تغلب من قبل ذلك على أربولة سنة أربع، ثم ملك مرسية سنة سبع، ثم خيان ثم المرية سنة تسع، وبايعوا جميعاً للمنصور عبد العزيز.

ثم انتقض خيران على المنصور وسار من المرية إلى مرسية وأقام بها ابن عمه أبا عامر محمد بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر، خرج إليه من قرطبة من حجر القاسم بن حمود، وخلص إلى خيران بأموال جليلة، فجمع الموالي فأخذوا ماله وطردوه.

ثم ولاه خيران وسماه المؤتمن ثم المعتصم.

ثم تنكر عليه وأخرجه من مرسية ولحق بالمرية وأغرى به الموالي فأخذوا ماله وطردوه، ولحق بغرب الأندلس إلى أن مات.

ثم هلك خيران بالمرية سنة تسع عشرة، وقام بالأمر بعده الأمير عميد الدولة أبو القاسم زهير العامري، وزحف إلى غرناطة فبرز إليه باديس بن حبوس وهزمه، وقتل بظاهرها سنة تسع وعشرين فصار ملكه للمنصور عبد العزيز صاحب بلنسية، وملكها من يده سنة سبع وخمسين.

ولما هلك المأمون بن ذي النون وولي حافده القادر ولى على بلنسية أبا بكر بن عبد العزيز بقية وزراء ابن أبي عامر، فداخله ابن هود في الانتقاض على القادر ففعل واستبد بها، وضبطها سنة ثمان وستين حين تغلب المقتدر على دانية.

ثم هلك سنة ثمان وسبعين لعشر سنين من ولايته.

وولي ابنه القاضي عثمان، فلما سلم القادر بن ذي النون طليطلة زحف إلى بلنسية ومعه الفنش كما قلناه، وخلع أهل بلنسية عثمان بن أبي بكر وأمكنوا منها القادر خوفاً من استيلاء النصراني وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ثم ثار على القادر سنة ثلاث وثمانين القاضي جعفر بن عبد الله بن حجاب وقتله واستبد بها.

ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وثمانين وقتلوه.

ثم تغلب المرابطون على الأندلس وزحف ابن ذي النون قائدهم إلى بلنسية فاسترجعها من أيديهم سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

وأما معن بن صالح قائد الوزير ابن أبي عامر فأقام بالمرية لما ولاه المنصور سنة ثمان وثمانين، وتسمى ذا الوزارتين.

ثم خلعه وولى ابنه المعتصم أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح، واستبد بها أربعاً وأربعين سنة، وثار عليه صاحب لورقة ابن شبيب، وكان أبوه معزولاً عليها، فجهز إليه المعتصم جيشاً واستمد ابن شبيب المنصور بن أبي عامر صاحب بلنسية ومرسية بالعدو، واستمد المعتصم بباديس، ونهض عمه صمادح بن باديس بن صمادح فقاتلوا حصوناً من حصون لورقة واستولوا عليها، ورجعوا ولم يزل المعتصم أميراً بالمرية إلى أن هلك سنة ثمانين.

وولي ابنه وخلعه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة أربع وثمانين، وأجاز إلى العدوة ونزل على آل حماد بالقلعة، وبها مات ولده والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن بني هود ملوك سرقسطة من الطوائف صارت إليهم من بني هاشم وما كان من أوليتهم ومصائر أمورهم

كان منذر بن مطرف بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التجيبي صاحب الثغر الأعلى، وكان بين المنصور وعبد الرحمن منافسة على الإمارة والرياسة، وكانت دار إمارته سرقسطة، ولما بويع المهدي بن عبد الجبار وانقرض أمر العامريين، وجاءت فتنة البربر كان مع المستعين حتى قتل هشام مولاه، فامتعض لذلك وفارقه وبايع المرواني للمرتضى مع مجاهد ومن اجتمع إليه من الموالي والعامريين، وزحفوا إلى غرناطة فلقيهم زاوي بن زيري وهزمهم.

ثم ارتابوا بالمرتضى ووضعوا عليه من قتله مع خيران بالمرية، واستبد منذر هذا بسرقسطة والثغر وتلقب بالمنصور، وعقدها بين طاغية جليقة وبرشلونة وبنيه، وهلك سنة أربع عشرة،

وولي ابنه وتلقب المظفر وكان أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي من أهل نسبهم مستبداً بمدينة تطيلة، ولاها منذ أول الفتنة، وجدهم هود هو الداخل للأندلس ونسبه الأزد إلى سالم مولى أبي حذيفة.

قال هود بن عبد الله بن موسى بن سالم: وقيل هود من ولد روح بن زنباع، فتغلب سليمان على المظفر يحيى بن المنذر وقتله سنة إحدى وثلاثين، وملك سرقسطة والثغر الأعلى، وابنه يوسف المظفر لاردة.

ثم نشأت الفتنة بينهما وانتصر المقتدر بالإفرنج والبشكنس فجاؤوا لميعاده فوقعت الفتنة بين المسلمين وبينهم ثائرة، وانصرفوا إلى يوسف صاحب لاردة فحاصرهم بسرقسطة، وذلك سنة ثلاث وأربعين.

وهلك أحمد المقتدر سنة أربع وسبعين لتسع وثلاثين سنة من ملكه، فولي بعده ابنه يوسف المؤتمن، وكان قائماً على العلوم الرياضية، وله فيها تآليف مثل الاستهلال والمناظر ومات سنة ثمان وسبعين، وهي السنة التي استولى فيها النصارى على طليطلة من يد القادر بن ذي النون.

وولي بعده المستعين وعلى يده كانت وقعة وشقة، زحف سنة تسع وثمانين في آلاف لا تحصى من المسلمين، وهلك فيها خلق نحو عشرة آلاف، ولم يزل أميراً بسرقسطة إلى أن هلك شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة بظاهر سرقسطة في زحف الطاغية إليها.

وولي بعده ابنه عبد الملك وتلقب عماد الدولة، وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة اثنتي عشرة فنزل روطة من حصونها وأقام بها إلى أن هلك سنة ثلاث عشرة.

وولي ابنه أحمد وتلقب سيف الدولة والمستنصر، وبالغ النكاية في الطاغية، ثم سلم له روطة على أن يملكه بلاد الأندلس، فانتقل معه إلى طليطلة بحشمه وآلته، وهنالك هلك سنة ست وثلاثين وخمسمائة.

وكان من ممالك بني هود هؤلاء مدينة طرطوشة، وقد كان بقايا من الموالي العامريين فملكها سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

ثم هلك سنة خمس وأربعين وملكها بعده يعلى العامري ولم تطل مدته.

وملكها بعده شبيل إلى أن نزل عنها لعماد الدولة أحمد بن المستعين سنة ثلاث وخمسين، فلم تزل في يده وفي يد بنيه من بعده إلى أن غلب عليها العدو فيما غلب عليه من شرق الأندلس.

والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية وأخبار بنيه ومواليهم من بعدهم ومصائر أمورهم

كان فتح ميورقة سنة تسعين ومائتين على يد عصام الخولاني، وذلك أنه خرج حاجاً في سفينة اتخذها لنفسه فعصفت بهم الريح فأرسوا بجزيرة ميورقة، وطال مقامهم هنالك واختبروا من أحوالهم ما أطمعهم في فتحها، فلما رجع بعد فرضه أخبر الأمير بما رأى فيها، وكان من أهل الغناء عنده في مثلها، فبعث معه القطائع في البحر، ونفر الناس معه إلى الجهاد، فحاصرها أياماً وفتحوها حصناً حصناً إلى أن كمل فتحها.

وكتب عصام بالفتح إلى الأمير عبد الله، فكتب له بولايتها فوليها عشر سنين، وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات.

ولما هلك قدم أهل الجزيرة عليهم ابنه عبد الله، وكتب له الأمير بالولاية.

ثم زهد وترهب وركب إلى الشرق حاجاً وانقطع خبره، وذلك سنة خمسين وثلاثمائة.

وبعث الناصر المرواني إليها الموفق من الموالي فأنشأ الأساطيل وغزا بلاد الإفرنج، وهلك سنة تسع وخمسين أيام الحكم المستنصر، وولي بعده كوثر من مواليه فجرى على سنن الموفق في جهاده.

وهلك سنة تسع وثمانين أيام المنصور فولى عليها مقاتل من مواليه، وكان كثير الغزو والجهاد، وكان المنصور وابنه المؤيد يمدانه في جهاده، وهلك سنة ثلاث وأربعمائة أزمان الفتنة.

وكان مجاهد بن يوسف بن علي من فحول الموالي العامريين، وكان المنصور قد رباه وعلمه مع مواليه القراآت والحديث والعربية فكان مجيداً في ذلك، وخرج من قرطبة يوم قتل المهدي سنة أربعمائة، وبايع هو والموالي العامريين وكثير من جند الأندلس للمرتضى كما قدمناه، ولقيهم زاوي بفحص غرناطة فهزمهم وبدد شملهم.

ثم قتل المرتضى كما تقدم وسار مجاهد إلى طرطوشة فملكها، ثم تركها وانتقل إلى دانية واستقل بها، وملك ميورقة ومنورقة ويابسة واستبد سنة ثلاث عشرة.

ونصب العيطي كما مر فأراد الاستبداد، ومنع طاعة مجاهد ومنعه أهل ميورقة من ذلك، فبعث عنه مجاهد، وقدم على ميورقة عبد الله ابن أخيه فولي خمس عشرة سنة.

ثم هلك، وكان غزا سردانية في الأساطيل فاقتحمها، وأخرج النصارى منها وتقبضوا على ابنه أسيراً ففداه بعد حين، وولى مجاهد على ميورقة بعد ابن أخيه مولاه الأغلب سنة ثمان وعشرين، وكان بين مجاهد صاحب دانية وبين خيران صاحب مرسية وابن أبي عامر صاحب بلنسية حروب إلى أن هلك مجاهد سنة ست وثلاثين.

وولي ابنه علي وتسمى إقبال الدولة، وأصهر إلى المقتدر بن هود وأخرجه من دانية سنة ثمان وستين ونقله إلى سرقسطة، ولحق ابنه سراج الدولة بالإفرنجة، وأمدوه على شروط شرطها لهم، فتغلب على بعض حصونه.

ثم مات فيما زعموا مسموماً بحيلة من المقتدر سنة تسع.

ومات علي قريباً من وفاة المقتدر سنة أربع وسبعين. ويقال: بل فر أمام المقتدر إلى بجاية، ونزل على صاحبها يحيى بن حماد، ومات هنالك، وأما الأغلب مولى مجاهد صاحب ميورقة فكان صاحب غزو وجهاد في البحر.

ولما هلك مجاهد استأذن ابنه علياً في الزيارة فأذن له، وقدم على الجزيرة صهره ابن سليمان بن مشكيان نائباً عنه، وبعث على آل الأغلب فاستعفاه وأقام سليمان خمس سنين.

ثم مات فولى على مكانه مبشراً وتسمى ناصر الدولة، وكان أصله من شرق الأندلس أسر صغيراً وجبه العدو وأقام بدانية محبوباً بمجاهد في أسرى دانية وسردانية، واصطفاه فولاه بعد مهلك سليمان فولي خمس سنين، وانقرض ملك علي وتغلب عليه المقتدر بن هود فاستبد مبشر بميورقة، والفتنة يومئذ تموج بين ملوك الطوائف، وبعث إلى دانية في تسليم أهل سيده، فبعثوا إليه بهم وأولاهم جميلاً.

ولم يزل يردد الغزو إلى أرض العدو إلى أن جمع طاغية برشلونة الجموع ونازله بميورقة عشرة أشهر.

ثم افتتحها واستباحها سنة من ولايته.

وكان بعث بالصريخ إلى علي بن يوسف صاحب المغرب من لمتونة فلم يوافهم الأسطول بالمدد إلا بعد استيلاء العدو.

فلما وصل الأسطول دفعوا العدو عنها وولى علي بن يوسف من قبله أنور بن أبي بكر اللمتوني فعسف بهم وأرادهم على بناء مدينة أخرى بعيدة من البحر فثاروا به وصفدوه، وبعثوا إلى علي بن يوسف فردهم إلى ولاية محمد بن علي بن إسحاق بن غانية المستولي صاحب غرب الأندلس، فبعث إليها أخاه محمد بن علي من قرطبة، كان والياً عليها فوصل إلى ميورقة فصفد أنور وبعث به إلى مراكش، وأقام في ولايتها عشر سنين إلى أن هلك أخوه يحيى وسلطانهم علي بن يوسف.

واستقرت ميورقة في ملك بني غانية هؤلاء وسلطانهم.

وكانت لهم في زمن علي بن يوسف بها دولة، وخرج منها علي ويحيى إلى بجاية وملكوها من الموحدين، وكانت لهم معهم حروب بإفريقية كما نذكر في أخبارهم بعد أخبار لمتونة.

وملك الإفرنج ميورقة من أيدي الموحدين آخر دولتهم.

والبقاء لله والملك يؤتيه من يشاء وهو العزيز الحكيم.

الخبر عن ثوار الأندلس آخر الدولة اللمتونية واستبداد بني مردنيش ببلنسية ومزاحمتهم لدولة بني عبد المؤمن من أولها إلى آخرها ومصائر أحوالهم وتصاريفهم

لما شغل لمتونة بالعدو، وبحرب الموحدين بعد عليهم الأندلس، وعادت إلى الفرقة بعض الشيء فثار ببلنسية سنة سبع وثلاثين وخمسمائة القاضي مروان بن عبد الله بن مروان بن حصاب، وخلعوه لثلاثة أشهر من ملكه، ونزل بالمرية.

ثم حمل إلى ابن غانية بميورقة فسجن بها، وثار بمرسية أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن ظاهر.

ثم خلع وقتل لأربعة أشهر من ولايته، وولي حافد المستعين بن هود شهرين.

ثم ولي ابن عياض وبايع أهل بلنسية بعد ابن حصاب للأمير أبي محمد عبد الله بن سعيد بن مردنيش الجذامي.

وأقام مجاهداً إلى أن استشهد في بعض أيامه مع النصارى سنة أربع وخمسمائة، فبويع لعبد الله بن عياض كان ثائراً بمرسية كما قدمناه.

وهلك سنة اثنتين وأربعين فبويع إلى ابن أخيه محمد بن أحمد بن سعيد بن مردنيش، وملك شاطبة ومدينة شقر ومرسية.

وكان إبراهيم بن همشك من قواده فعبث في أقطار الأندلس وأغار على قرطبة وتملك بها.

ثم استرجعت منه ثم غدر بغرناطة وملكها من أيدي الموحدين وحصرهم بالقصبة هو وابن مردنيش.

ثم استخلصها عبد المؤمن من أيديهم بعد حروب شديدة دارت بينهم بفحص غرناطة، لقيه فيها ابن همشك وابن مردنيش، وجيوش من أمم النصرانية استعانوا بهم في المدافعة عن غرناطة، فهزمهم عبد المؤمن وقتلهم أبرح قتل، وحاصر يوسف بلنسية فخطب للخليفة العباسي المستنجد، وكاتبه فكتب له بالعهد والولاية.

ثم بايع للموحدين سنة ست وستين.

وكان المظفر عيسى بن المنصور بن عبد العزيز الناصر بن أبي عامر عندما انصرف إلى ملك شاطبة ومرسية تغلب على بلنسية مدة، ثم هلك سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ورجعت إلى ابن مردنيش.

وكان أحمد بن عيسى تغلب على حصن مزيلة ثائراً بالمرابطين من أتباعه فغلب منذر بن أبي وزير عليه، فأجاز سنة أربعين وخمسمائة إلى عبد المؤمن، ورغبه في ملك الأندلس فبعث معه البعوث وتغلبوا على بني غانية أمراء المرابطين بالأندلس.

وكان بميورقة أيضاً منذ اضطراب أمر لمتونة محمد بن علي بن غانية المستوفي، وليها سنة عشرين وخمسمائة، واستشهد بها.

ورحل عنها سنة سبع وثلاثين إلى زيارة أخيه يحيى ببلنسية واستخلف على ميورقة عبد اللّه بن تيما فلما مكث ثار عليه ثوار فرجع محمد بن غانية وأصلح شأنها إلى أن هلك سنة سبع وستين.

وولي ابنه إبراهيم أبو إسحاق وتوفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وولي بعده أخوه طلحة وبايع للموحدين سنة إحدى وثمانين، وأوفد عليهم أهل ميورقة، فبعثوا معهم علي بن الربرتبر، فلما وصل إلى ميورقة ثار على طلحة بنو أخيه أبي إسحاق وهم علي ويحيى ويعفر بن الربرتبر وخلعوا طلحة.

ثم بلغهم موت يوسف بن عبد المؤمن فخرجوا إلى إفريقية حسبما نذكر في أخبار دولتهم، فانقرضت دولة المرابطين بالمغرب والأندلس وأدال اللّه منهم بالموحدين وقتلوهم في كل وجه، واستفحل أمرهم بالأندلس واستعملوا فيها القرابة من بني عبد المؤمن وكانوا يسمونهم السادة، واقتسموا ولايتها بينهم.

وأجاز يعقوب المنصور منهم غازياً بعد أن استقر أهل العدوة كافة من زناتة، فأوقع العرب بابن أذفونش ملك الجلالقة بالأركه من نواحي بطليوس الوقعة المذكورة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وأجاز ابنه الناصر من بعده سنة تسع فمحص اللّه المسلمين واستشهد منهم عدة.

ثم تلاشت إمارة الموحدين من بعده وانتزى بالسادة بنواحي الأندلس في كل عمله، وضعف بمراكش فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بقص، واستسلام حصون المسلمين إليه في ذلك فسمت رجالات الأندلس وأعقاب العرب من دولة الأموية، وأجمعوا إخراجهم فثاروا بهم لحين وأخرجوهم.

وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي الثائر بالأندلس.

وقام ببلنسية زيان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد، من أعقاب دولة بني مردنيش وثوار آخرون.

ثم خرج علي بن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضاً، وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، وتلقب محمد هذا بالشيخ فحاربه أهل الجبل، وكانت لكل منهما دولة أورثها بنيه.

فأما زيد بن مردنيش فكان مع عشرة من بني مردنيش رؤساء بلنسية، واستظهر الموحدون على إمارتها.

ولما وليها السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن بعد مهلك المستنصر كما نذكر في أخبارهم، وذلك سنة عشرين وستمائة، كان زياد هذا بطانته وصاحب أمره.

ثم انتقض عليه سنة ست وعشرين عندما بويع ابن هود بمرسية وخرج إلى أبداه فخشيه السيد أبو زيد، وبعث إليه يلاطفه في الرجوع فامتنع، ولحق السيد أبو زيد بطاغية برشلونة ودخل في دين النصرانية أعاذنا اللّه من ذلك.

وملك زيان بلنسية واتصلت الفتنة بينه وبين ابن هود، وخالف عليه بنو عمه عزيز بن يوسف بن سعد في جزيرة شُقْر، وصاروا إلى طاعة ابن هود وزحف زيان للقائه على شريش فانهزم وتبعه ابن هود ونازله في بلنسية أياماً وامتنعت عليه فأقلع، وتكالب الطاغية على ثغور المسلمين، ونازل صاحب برشلونة أنيشة وملكها، وزحف زيان إليها بجميع من معه من المسلمين سنة أربع وثلاثين ونفر معه أهل شاطبة وجزيرة شقر فكانت عليهم الواقعة العظيمة التي استشهد فيها أبو الربيع سليمان، وأخذ الناس في الانتقال عن بلنسية، فبعث إليهم يحيى بن أبي زكريا صاحب إفريقية بالمدد من الأموال والأسلحة والطعام مع قريبه يحيى عندما نبذ دعوة بني عبد المؤمن وأوفد عليه أعيان بلنسية وهي محصورة

فرجع إلى دانية.

ثم أخذ الطاغية بلنسية سنة ست وثلاثين، وخرج زيان إلى جزيرة شقر وأقام بدعوة الأمير أبي زكريا، وبعث إليه بيعتها مع كاتبه الحافظ أبي عبد الله محمد بن الأنباري فوصل إلى تونس، وأنشده قصيدته المشهورة على روي السين بلغ فيها من الإجادة حيث شاء، وهي معروفة وسيأتي ذكرها في دولة بني حفص بإفريقية من الموحدين.

ثم هلك ابن هود وانتقض أهل مرسية على ابنه أبي بكر الواثق، وكان واليه بها أبو بكر بن خطاب، فبعثوا إلى زيان واستدعوه فدخلها وانتهب قصرها وحملهم على البيعة للأمير أبي زكريا على ولاية شرق الأندلس كله، وذلك سنة سبع وثلاثين.

ثم انتقض عليه ابن عصام بأريولة ولحق به قرابة زيان بمدينة لقنت فلم يزل بها إلى أن أخذها منه طاغية برشلونة سنة أربع وأربعين فأجاز إلى تونس، وبها مات سنة ثمان وستين.

وأما ابن هود فسيأتي الخبر عن دولته، وأما ابن الأحمر فلم تزل الدولة في أعقابه لهذا العهد.

ونحن ذاكرون أخبارهم لأنهم من بقايا دولة العرب والله خير الوارثين.

الخبر عن ثورة ابن هود على الموحدين بالأندلس ودولته وأولية أمره وتصاريف أحواله

هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن محمد بن هود ثار بالصخيرات من عمل مرسية مما يلي رقوط عند فشل دولة الموحدين، واختلاف السادة الذين كانوا أمراء ببلنسية، وذلك عندما هلك المستنصر سنة عشرين.

وبايع الموحدون بمراكش لعمه المخلوع عبد الواحد بن أمير المؤمنين يوسف.

ثار العادل ابن أخيه المنصور بمرسية ودخل في طاعة صاحب حيان أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وخالفهما في ذلك السيد أبو زيد أخوه ابن محمد بن أبي حفص.

وتفاقمت الفتنة واستظهر كل على أمره بالطاغية، ونزلوا له عن كثير من الثغور وقلقت من ذلك ضمائر أهل الأندلس، فتصدر ابن هود هذا للثورة، وهو من أعقاب بني هود من ملوك الطوائف، وكان يؤمل لها وربما امتحنه الموحدون لذلك مرات، فخرج في نفر من الأجناد سنة خمس وعشرين، وجهز إليه والي مرسية يومئذ السيد أبو العباس بن أبي عمران موسى بن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن عسكراً فهزمهم.

وزحف إلى مرسية فدخلها واعتقل السيد، وخطب للمستنصر صاحب بغداد لذلك العهد من بني العباس.

وزحف إليه السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن من شاطبة، وكان واليه بها فهزمه ابن هود ورجع إلى شاطبة.

واستجاش بالمأمون وهو يومئذ بإشبيلية بعد أخيه العادل فخرج في العساكر، ولقيه ابن هود فانهزم واتبعه إلى مرسية فحاصره مدة، وامتنعت عليه فأقلع عنه ورجع إلى إشبيلية.

ثم انتقض على السيد أبي زيد ببلنسية زيان بن أبي الحملات مدافع بن حجاج بن سعد بن مردنيش، وخرج عنه إلى أبدة وذلك سنة ست وعشرين.

وكان بنو مردنيش هؤلاء أهل عصابة وأولي بأس وقوة، فتوقع أبو زيد اختلال أمره، وبعث إليه ولاطفه في الرجوع فامتنع فخرج أبو زيد من بلنسية، ولحق بطاغية برشلونة ودخل في دين النصرانية، نعوذ بالله.

وبايعت أهل شاطبة لابن هود، ثم تابعه أهل جزيرة شَقْر حملهم عليها ولاتهم بنو عزيز بن يوسف عم زيان بن مردنيش، ثم بايعه أهل خيبان وأهل قرطبة، وتسمى بأمير المسلمين، وبايعه أهل إشبيلية عند رحيل المأمون عنها إلى مراكش، وولى عليهم أخاه.

ونازعه زيان بن مردنيش، وكانت بينهما ملاقاة انهزم فيها زيان سنة تسع وعشرين، وحاصره ابن هود ببلنسية.

ثم أقلع ولقي الطاغية على ماردة فانهزم ومحص الله المسلمين، وانهزم بعدها أخرى على الكوس.

ولم تزل غزواته مترددة في بلاد العدو كل سنة وحربه معهم سجالاً، والطاغية يلتقم الثغور والقواعد.

ثم استولى ابن هود على الجزيرة الخضراء وجبل الفتح فرضتي المجاز على سبتة من يد السيد أبي عمران موسى لما انتقض على أخيه المأمون، ونازله بسبتة فبايع هو لابن هود وأمكنه منها، ثم ثار بها الياناشتي على ما يذكر.

ثم بويع للسلطان محمد بن يوسف بن نصر سنة تسع وعشرين بأرجونة ودخلت قرطبة في طاعته، ثم قرمونة ثم انتقض أهل إشبيلية وأخرجوا سالم بن هود وبايعوا لابن مروان أحمد بن محمد الباجي وجهز عسكراً للقاء ابن الأحمر فانهزموا وأسر قائده.

ثم اتفق الباجي مع ابن الأحمر على فتنة ابن هود وصالح ابن هود الفنش على فعلتهم على ألف دينار في كل يوم.

ثم صارت قرطبة إلى ابن هود وزحف إلى الباجي وابن الأحمر فانهزم، ونزل ابن الأحمر ظاهر إشبيلية.

ثم غدر الباجي فقتله وتولى ذلك صهره وأشقيلولة، وزحف سالم بن هود إلى إشبيلية فنازلها وامتنعت عليه.

ووصل خطاب الخليفة المستنصر العباسي إلى ابن هود من بغداد سنة إحدى وثلاثين، وفد به أبو علي حسن بن علي بن حسن بن الحسين الكردي الملقب بالكمال، وجاء بالراية والخلع والعهد ولقبه المتوكل، وقدم عليه بذلك في غرناطة في يوم مشهود، وبايع له ابن الأحمر، وعندما غدر ابن الأحمر بالباجي فر من إشبيلية شعيب بن محمد إلى البلد فاعتصم بها، وتسمى المعتصم فحاصره ابن هود وأخذها من يده، ثم خرج العدو من كل جهة ونازلوا ثغور المسلمين وأحاطوا بهم، وانتهت محلاتهم على الثغور إلى سبع.

ثم حاصر الطاغية مدينة قرطبة وغلب عليها سنة ثلاث وثلاثين وبايع أهل إشبيلية للرشيد من بني عبد المؤمن، ثم زحف ابن الأحمر إلى غرناطة وملكها كما يذكر، وبويع للرشيد سنة سبع وثلاثين.

وكان عبد اللّه أبو محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عبد الملك الأموي الرميمي وزير ابن هود، وكان يدعوه ذا الوزارتين ولاه المرية من عمله، فلم يزل بها وقدم عليه المتوكل سنة خمس وثلاثين وستمائة فهلك بالحمام ودفن بمرسية.

ويقال: إنه قتله ثم استبد من بعده المؤيد، واستنزله عنها ابن الأحمر سنة ثلاث وأربعين.

ولما هلك المتوكل ولي من بعده بمرسية ابنه أبو بكر محمد بعهده إليه وتلقب بالواثق، وثار عليه عزيز بن عبد الملك بن خطاب سنة ست وثلاثين لأشهر من ولايته فاعتقله، وكان يلقب ضياء الدولة.

ثم تغلب زيان بن مردنيش على مرسية وقتل ابن خطاب لأشهر من ولايته، وأطلق الواثق بن هود من اعتقاله.

ثم ثار عليه بمدينة مرسية محمد بن هود عم المتوكل سنة ثمان وثلاثين، وأخرج منها زيان بن مردنيش، وتلقب بهاء الدولة، وهلك سنة سبع وخمسين وستمائة.

وولي ابنه الأمير أبو جعفر، ثم ثار عليه سنة اثنتين وستين أبو بكر الواثق الذي كان ابن خطاب خلعه، وهو المتوكل أمير المسلمين، وبقي بها أميراً إلى أن ضايقه الفنش والبرشلوني، فبعث إليه عبد اللّه بن علي بن إشقيلولة، وتسلم مرسية منه، وخطب بها لابن الأحمر.

ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر فأوقع به البصري في طريقه، ورجع الواثق إلى مرسية ثالثة فلم يزل بها إلى أن ملكها العدو من يده سنة ثمان وستين، وعوضه منها حصناً من عملها يسمى يس إلى أن هلك، واللّه خير الوارثين.

الخبر عن دولة بني الأحمر ملوك الأندلس لهذا العهد ومبدأ أمورهم وتصاريف أحوالهم

أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة ولهم فيها سلف في أبناء الجند ويعرفون ببني نصر، وينسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين محمد بن يوسف بن نصر، ويعرف بالشيخ وأخوه إسماعيل، وكانت لهم وجاهة في ناحيتهم.

ولما فشل ريح الموحدين وضعف أمرهم وكثر الثوار بالأندلس، وأعطى حصونها للطاغية، واستقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية، فأقام بدعوته العباسية، وتغلب على شرق الأندلس أجمع فتصدى محمد بن يوسف هذا للثورة على ابن هود وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة على الدعاء للأمير أبي زكريا صاحب إفريقية، وأطاعته حيان وشريش سنة ثلاثين بعدها، وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأبي دبوس.

واستظهر على أمره أولاً بقرابته من بني نصر وأصهاره بني إشقيلولة عبد اللّه وعلي، ثم بايع لابن هود سنة إحدى وثلاثين عندما وصله خطاب الخليفة من بغداد.

ثم ثار بإشبيلية أبو مروان الباجي عند خروج ابن هود عنها، ورجوعه إلى مرسية فداخله محمد بن الأحمر في الصلح على أن يزوجه ابنته فأطاعه، ودخل إشبيلية سنة اثنتين وثلاثين.

ثم فتك بابن الباجي وقتله، وتناول الفتك به علي بن

إشقيلولة.

ثم راجع أهل إشبيلية بعدها لشهر دعوة ابن هود، وأخرجوا ابن الأحمر.

ثم تغلب على غرناطة سنة خمس وثلاثين بمداخلة أهلها ثم ثار ابن أبي خالد بدعوته في لحيان ووصلته بيعتها، فقدم إليها أبا الحسن بن إشقيلولة.

ثم جاء على أثره ونزلها واستقر بها بعد مهلك ابن هود، وبايع للرشيد سنة تسع وثلاثين ثم تناول المؤيد من يد محمد بن الرميمي فخلعه أهل البلد سنة ثلاث وستين وبايعوا لابن الأحمر.

ثم ثار أبو عمرو بن الجدّ واسمه يحيى بن عبد الملك بن محمد الحافظ أبي بكر وملك إشبيلية، وبايع للأمير أبي زكريا بن حفص صاحب إفريقية سنة ثلاث وأربعين، وولي عليهم أبو زكريا أميراً، وقام بأمرهم القائد شغاف، والعدو أثناء ذلك يلتقم بلاد المسلمين وحصونهم من لدن عام عشرين أو قبله وصاحب برشلونة من ولد البطريق الذي استعمله الإفرنجة عليها لأول استرجاعهم لها من أيدي العرب فتغلب عليها، وبعد عن الفرنجة، وضعف لعهده سلطانهم.

ووصلوا وراء الدروب وعجزوا فكانوا عن برشلونة وجماعتها أعجز، فسما أهل طاغيتها منهم لذلك العهد واسمه حاقمة إلى التغلب على ثغور المسلمين واستولى على ماردة سنة ست وعشرين وستمائة.

ثم ميورقة سنة سبع وعشرين وستمائة، ثم أجاز إلى سرقسطة وشاطبة كان تملكها منذ مائة وخمسين من السنين قبلها.

ثم بلنسية سنة ست وثلاثين وستمائة بعد حصار طويل وطوى ما بين ذلك من الحصون والقرى حتى انتهى إلى المرية وحصونها، وابن أذفونش أيضاً ملك الجلالقة هو ابن الأدفونش الملقب بالحكيم وآباؤه من قبله يتقرى الفرستيرة حصناً حصناً، ومدينة مدينة إلى أن طواها واستعبد ابن الأحمر هذا لأول أمره بما كان بينه وبين الثوار بالأندلس من المنازعة فوصل يده بالطاغية في سبيل الاستظهار على أمره فوصله وشد عضده، وصار ابن الأحمر في جملته وأعطاه ابن هود ثلاثين من الحصون أو نحوها في كف غربه عن ابن الأحمر، وأن يعينه على ملك قرطبة فتسلمها، ثم تغلب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وأعاد إليها خيرة اللّه كلمة الكفر، ثم نازل إشبيلية سنة ست وأربعين وابن الأحمر معه مظهر الامتعاض لابن الجد وحاصرها سنتين ثم دخلها صلحاً، وانتظم معها حصونها وثغورها وأخذ طليطلة من يد ابن كماشة، وغلب بعد ذلك ابن محفوظ على شلب وطليرة سنة تسع وخمسين.

ثم ملك مرسية سنة خمس وستين ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك الأندلس كورة كورة وثغراً ثغراً إلى أن ألجأ المسلمين إلى سيف البحر ما بين رندة من الغرب وإلبيرة من شرق الأندلس، نحو عشر مراحل من الغرب إلى الشرق وفي مقدار مرحلة أو ما دونها في العرض ما بين البحر والجوف ثم سخط بعد ذلك الشيخ ابن الأحمر وطمع في الاستيلاء على كافة الجزيرة فامتنعت عليه وتلاحق بالأندلس غزاة من زناتة الثائرين يومئذ من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة وبني مرين، وكان أعلاهم كعباً في ذلك وأكثرهم غزي بنو مرين، فأجاز أولاً أولاد إدريس بن عبد الحق وأولاد رحو بن عبد اللّه بن عبد الحق أعياص الملك منهم سنة ستين أو نحوها، فتقبل ابن الأحمر إجازتهم ودفع بهم في نحر عدوه ورجعوا، ثم تهايلوا إليه من بعد ذلك من كل بيت من بيوت بني مرين ومعظمهم الأعياص من بني عبد الحق لما تزاحمهم مناكب السلطان في قومهم وتغص بهم الدولة فينزعون إلى الأندلس مغنين بها من باسهم وشوكتهم في المدافعة عن المسلمين، ويخلصون من ذلك على حظ من الدولة بمكان.

ولم يزل الشأن هذا إلى أن هلك محمد بن يوسف بن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة، وقام بأمره من بعده ابنه محمد وكان يعرف بالفقيه لما كان يقرأ الكتاب من بين أهل بيته، ويطالع كتب العلم.

وكان أبوه الشيخ أوصاه باستصراخ ملوك زناتة من بني مرين الدائلين بالمغرب من الموحدين وأن يوثق عهده بهم ويحكم أراضي سلطانه بمداخلتهم، فأجاز محمد الفقيه ابن الأحمر إلى يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين سنة اثنتين وسبعين وستمائة عندما تم استيلاؤه على بلاد المغرب، وتغلبه على مراكش، وافتقاده سرير ملك الموحدين بها فأجاب صريخه، وأجاز عساكر المسلمين من بني مرين وغيرهم إلى الجهاد مع ابنه منديل.

ثم جاء على أثرهم وأمكنه ابن هشام من الجزيرة الخضراء، كان ثائراً بها فتسلمها منه ونزل بها، وجعلها ركاباً لجهاده وينزل بها جيش الغزو.

ولما أجاز سنة اثنتين وسبعين كما قلناه هزم زعيم النصرانية، ثم حذره ابن الأحمر على ملكه فداخل الطاغية، ثم حذر الطاغية فراجعه وهو مع ذلك يده في نحره بشوكة الأعياص الذين نزعوا إليه من بني مرين بما شاركوا صاحب المغرب من نسب ملكه وقاسموه في يعسوبية قبيلته، فكان له بذلك مدفع عن نفسه

ومرض في طاعة قرابته من بني إشقيلولة، كان عبد الله منهم بمالقة وعلى بوادي آش وإبراهيم بحصن قمارش فالتاثوا عليه، وداخلوا يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين في المظاهرة عليه فكان له معهم فتنة، وأمكنوا يعقوب من الثغور التي بأيديهم مالقة ووادي آش حتى استخلصها هذا السلطان الفقيه من بعد ذلك، كما نذكره في أخبار بني مرين مع بني الأحمر.

وصار بنو إشقيلولة آخراً وقرابتهم بني الزرقاء إلى المغرب، ونزلوا على يعقوب بن عبد الحق وأكرم مثواهم وأقطعهم واستعملهم في كبير الخطط للدولة حسبما يذكر.

واستبد السلطان الفقيه ابن الأحمر بملك ما بقي من الأندلس وأورثه عقبه من غير قبيل ولا كثير عصبة، ولا استكثار من الحامية إلا من يأخذه الجلاء من فحول زناتة وأعياص الملك فينزلون بهم غزى، ولهم عليهم عزة وتغلب وسبب ذلك ما قدمناه في الكتاب الأول من إفقاد القبائل والعصائب بأرض الأندلس جملة فلا تحتاج الدولة هنالك إلى كبير عصبية، وكان للسلطان ابن الأحمر في أول أمره عصبية من قرابته بني نصر وأصهارهم بني إشقيلولة وبني المولى ومن تبعهم من الموالي والمصطنعين كانت كافية في الأمر من أوله مع معاضدة الطاغية على ابن هود وثوار الأندلس ومعاضدة ملك المغرب على الطاغية والاستظهار بالأعياص على ملك المغرب، فكان لهم بذلك كله أقدار على بلوغ أمرهم وتمهيده، وربما يفهم في مدافعة الطاغية اجتماع الخاصة والعامة في عداوته، والرهب منه بما هو عدو للدين فتستوي القلوب في مدافعته ومخافته فينزل ذلك بعض الشيء منزلة العصبية.

وكانت إجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق إليه أربع مرات، وأجاز ابنه يوسف إليهم بعد أبيه.

ثم شغلته الفتنة مع بني يغمراسن إلى أن هلك السلطان الفقيه سنة إحدى وسبعمائة، وهو الذي أعان الطاغية على منازلة طريف وأخذها، وكان يمير عسكره مدة حصاره إياها إلى أن فتحها سنة أربع وسبعمائة لما كانت ركاباً لصاحب المغرب، متى هم بالجواز لقرب مسافة الزقاق.

فلما ملكها الطاغية صارت عيناً على من يروم الجواز من الغزاة فصعّب أمره عليهم، وولي من بعده ابنه محمد المخلوع، واستبد عليه وزيره محمد بن محمد بن الحكم اللخمي، من مشيخة رندة ووزرائها فحجره واستولى على أمره، إلى أن ثار به أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد فقتل الوزير، واعتقل أخاه سنة ثمان وسبعمائة وكان أبوهما السلطان الفقيه استعمل على مالقة الرئيس أبا سعيد ابن عمه إسماعيل بن نصر، وطالت فيها إمارته، وهو الذي تملك سبتة وغدر بني الغرفي بها على عهد المخلوع وبدعوته كما يذكر في أخبار سبتة ودولة بني مرين.

وكان أصهر إليه في ابنته وكان له منها ابنه أبو الوليد إسماعيل، فلما تملك الجيوش نصر غرناطة واستولى على سلطانهم بها ساءت سيرته وسيرة وزيره ابن الحاج وأحقد الأعياص من بني مرين، واستظهر الرعية بالقهر والعسف.

وكان بنو إدريس بن عبد اللّه بن عبد الحق أمراء على الغزاة بمالقة، وكان كبيرهم عثمان بن أبي المعلى، فداخل أبا الوليد في الخروج على السلطان نصر، وتناول الأمر من يده لضعفه وسعفه بطانته وأقرباؤه فاعتزموا على ذلك، ولم يتم لهم إلا باعتقال أبيه أبي الجيوش فاعتقلوه، وبايعوا أبا الوليد.

وثار بمالقة سنة سبع عشرة الرئيس أبو سعيد وزحفوا إلى غرناطة فهزموا عساكر أبي الجيوش وثارت به الدهماء من أهل المدينة، وأحيط به.

وصالحهم على الخروج إلى وادي آش فلحق بها، وجدد بها ملكاً إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين، ودخل أبو الوليد إلى غرناطة فأصَّل بها لنفسه وبنيه ملكاً جديداً، وسلطاناً فسيحاً.

ونازله ملك النصارى الفنش بغرناطة سنة ثمان عشرة وأبلى فيها بني أبي العلا.

ثم كان من تكييف اللّه تعالى في قتله وقتل رديفه، واستلحام جيوش النصرانية بظاهر غرناطة ما ظهرت فيه معجزة من معجزات اللّه.

وتردد إلى أرض النصرانية بنفسه، غازياً مرات مع عساكر المسلمين من زناتة والأندلس، وكانت زناتة أعظم غناء في ذلك لقرب عهدهم بالتقشف والبداوة التي ليست للناس.

وبلغ أبو الوليد من العز والشوكة إلى أن غدر به بعض قرابته من بني نصر سنة سبع وعشرين وسبعمائة، طعنه غدراً عندما انفض مجلسه بباب داره فأنفذه وحمل إلى فراشه، ولحق القادر بدار عثمان بن أبي العلى فقتله لحينه وقتل الموالي المجاهدين، فخرج عليهم ولحق بانديس فتملكها واستدعى محمد ابن الرئيس أبي سعيد في معتقله بسلوباشة، ونصبه للملك فلم يتم له مراده من ذلك.

ورجعوا آخراً للمهادنة، وقتل السلطان محمد وزيره ابن المحروق بداره غدراً سنة تسع وعشرين، واستدعاه للحديث على

لسان عمته المتغلبة عليه مع ابن المحروق، وتناوله مع علوجه طعناً بالخناجر إلى أن مات.

وقام السلطان بأعباء ملكه، ورجع عثمان بن أبي العلى إلى مكانه من يعسوبية الغزاة وزناتة، حتى إذا هلك قدم عليهم مكانه ابنه أبا ثابت، وأجاز السلطان محمد إلى المغرب صريخاً للسلطان أبي الحسن على الطاغية فوجده مشغولاً بفتنة أخيه محمد.

ومع ذلك جهز له العساكر وعقد عليها سنة ثلاث وثلاثين.

واستراب بنو أبي العلى بمداخلة السلطان أبي الحسن، فتشاوروا في أمره وغدروا به يوم رحيله عن الجبل إلى غرناطة، فتقاصفوه بالرماح، وقدموا أخاه أبا الحجاج يوسف، فقام بالأمر وشمر عن ساعده في الأخذ بثأر أخيه، فنكب بني العلى وغربهم إلى تونس، وقدم على الغزاة مكان أبي ثابت بن عثمان قرثية من بني رحو بن عبد اللّه بن عبد الحق، وهو يحيى بن عمر بن رحو، فقام بأمرهم وطال أمر رياسته.

واستدعى السلطان أبو الحجاج السلطان أبا الحسن صاحب المغرب فأجاز ابنه عندما تم له الفتح بتلمسان، وعقد له على عساكر جمة من زناتة والمتطوعة فغزاهم، وغنم وقفل راجعاً.

وتلاحقت به جموع النصارى وبيتوه على حدود أرضهم، فاستشهد كثير من الغزاة، وأجاز السلطان أبو الحسن سنة إحدى وأربعين بكافة أهل المغرب من زناتة ومغراوة والمرتزقة والمتطوعة فنازل طريف، وزحف إليه الطاغية فلقيه بظاهرها فانكشف المسلمون، واستشهد الكثير منهم، وهلك فيها نساء السلطان وحريمه وفسطاطه من معسكره، وكان يوم ابتلاء وتمحيص.

وتغلب الطاغية أثرها على القلعة ثغر غرناطة، ونازل الجزيرة الخضراء وأخذها صلحاً سنة ثلاث وأربعين، ولم يزل أبو الحجاج في سلطانه إلى أن هلك يوم الفطر سنة خمس وخمسين، طعنه في سجوده من صلاة العيد وغد من صفاعفة البلد كان مجتمعاً.

وتولى ابنه واستبد عليه مولاهم رضوان حاجب أبيه وعمه فقام بأمره وغلبه عليه وحجبه.

وكان إسماعيل أخوه ببعض قصور الحمراء قلعة الملك، وكانت له ذمة وصهر من محمد بن عبد اللّه بن إسماعيل بن محمد ابن الرئيس أبي سعيد، بما كان أبوه أنكحه شقيقة إسماعيل هذا.

وكان أبو يحيى هذا يدعى بالرئيس وجده محمد هذا هو الذي قدمنا أن عثمان بن أبي العلى دعاه من مكان اعتقاله للملك فداخل محمد هذا الرئيس بعض الزعالقة من الغوغاء، وبيت حصن الحمراء، وتسوره وولج على الحاجب رضوان في داره فقتله، وأخرج صهره إسماعيل ونصبه للملك ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة ستين وسبعمائة.

وكان السلطان محمد هذا المخلوع بروضة خارج الحمراء، فلحق بوادي آش وأجاز منها إلى العدوة، ونزل على ملك المغرب السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن فرعى له ذمته، وأحمد نزوله وارتاب شيخ الغزاة يحيى بن عمرو بالدولة ففر إلى دار الحرب ولحق منها بالمغرب ونزل على السلطان أبي سالم فأحمد نزوله، وولي مكانه على الغزاة بغرناطة من جهة إدريس بن عثمان بن أبي العلى، فقام الرئيس بأمر إسماعيل أخيه ودبر ملكه.

ثم ترددت السعايات وأنذر الرئيس بالنكبة فغدر بإسماعيل، وقتله وإخوته جميعاً سنة إحدى وستين.

وقام بملك الأندلس ونبذ إلى الطاغية عهده ومنعه ما كان سلفه يعطونه من الجزية على بلاد المسلمين، فشمر الطاغية لحربه، وجهز العساكر إليه فأوقع المسلمون بهم بوادي آش وعليهم بعض الرؤساء من قرابة السلطان فعظمت النكاية.

وأرسل ملك المغرب إلى الطاغية في شأن محمد المخلوع ورده إلى ملكه، فأركب الأساطيل وأجازه إلى الطاغية فلقيه ووعده المظاهرة على أمره، وشرط له الاستئثار بما يفتح من حصون المسلمين.

ثم نقض فيما افتتح منها ففارقه السلطان وأوى إلى الثغر المغربي في ملكة بني مرين، وأمكن من ثغور رندة، فزحف منها إلى مالقة سنة خمس وستين فافتتحها، وفر الرئيس محمد بن إسماعيل من غرناطة ولحق بالطاغية وكان معه إدريس بن عثمان شيخ الغزاة بمحبسه إلى أن فر من محبسه بعد حين، كما يذكر في أخبارهم.

وزحف السلطان محمد فيمن معه وأتوه بحاجب الرئيس وقتله، واستلحم معه الرجال من الزعالقة الذين قتلوا الحاجب وتسوروا قصور الملك.

ودخل السلطان محمد غرناطة واستولى على ملكه، وقدم على الغزاة شيخهم يحيى بن عمر، واختص ابنه عثمان، ثم نكبهما لسنة وحبسهما بالمطبق بالمرية، ثم غربهما بعد أعوام وقدم على الغزاة قريبهما علي بن بدر الدين بن محمد بن رحو.

ثم مات فقدم مكانه عبد الرحمن بن أبي يغلوسن وترفع على السلطان أبي علي بن محمد ملك المغرب، وتملأ هذا السلطان محمد المخلوع أريكة ملكه بالحمراء ممتنعاً بالظهور والترف والعزة على الطاغية والجلالقة، وعلى ملوك المغرب بالعدوة بما نال

دولتهم جميعاً من الهرم الذي يلحق الدول.

وأما الجلالقة فانتقضوا على ملكهم بطرة بن أذفونش سنة ثمان وستين من لدن مهلك أبيهما، ووقعت بين بطرة وبين ملك برشلونة بسبب إجارته عليه فتن وحروب حجر منها الجلالقة، وكانت سبباً لانتقاضهم على بطرة واستدعائهم لأخيه الفنش فجاء وبايعوه، وانحرفوا إليه جميعاً عن بطرة، فتحيز إلى ناحية بلاد المسلمين واستدعى هذا السلطان محمداً صاحب غرناطة لنصره من عدوه، وأغزاه ببلاد ألفنش ففتح كثيراً من معاقلها وخربها مثل حيان وأبدة وأثر وغيرها، وعاث في بسائطها ونزل قرطبة وخرب نواحيها ورجع ظافراً غانماً، ولحق ببطرة سلطان الإفرنجة الأعظم في ناحية الشمال من وراء جزيرة الأندلس، وهو صاحب جزيرة أركبلطرة وتسمى بنسرغالس، وفد عليه صريخاً وزوجه ابنته، فبعث ابنه لنصره في أمم الإفرنج.

وانهزم الفنش أمامهم، وارتجع بطرة البلاد حتى إذا رجعت عساكر الإفرنجة، رجع الفنش فارتجع البلاد ثانياً وحاصر أخاه بطرة في بعض حصون جليقة حتى أخذه وقتله واستولى على ملكهم.

واغتنم السلطان صاحب غرناطة شغلهم بهذه الفتنة فأغار عليهم، ومنع الجزية التي كانوا يأخذونها من المسلمين منذ عهد سلفه فأقاموا من لدن سنة اثنين وسبعين لا يعطونهم شيئاً واستمر على ذلك وسما إلى مطالبتهم بنسرغالس ملك الفرنجة من ورائهم الذي جاء لنصر بطرة، وأنكحه بطرة إبنته، وولدت له ولداً فزعم أبوه هذا الملك أنه أحق بالملك من الفنش وغيره على عادة العجم في تمليك الأسباط من ولد البطن.

وطالت الحرب بينهما ونزل بالجلالقة من ذلك شغل شاغل، واقتطع الكثير من ثغورهم وبلادهم، فمنعهم ابن الأحمر الجزية واعتز عليهم كما ذكرناه، والحال على ذلك لهذا العهد.

وأما ملوك المغرب فإن السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن لما استبد بملكه واستفحل أمره، وكان عبد الرحمن بن أبي أبي يغلوسن مقدماً على الغزاة بالأندلس كما قلناه، وهو قسيمه في النسب ومرادفه في الترشيح للملك، فعثر السلطان عبد العزيز على مكاتبة بينه وبين أهل دولته، فارتاب وبعث إلى ابن الأحمر في حبسه فحبسه، وحبس معه الأمير مسعود بن ماسي لكثرة خوضه في الفتنة، ومكاتبته لأهل الدولة.

فلما توفي السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وبويع ابنه محمد السعيد يافعاً وكفله وزير أبيه أبو بكر بن غازي الثائر أطلق ابن الأحمر عبد الرحمن بن أبي يغلوسن من محبسه فنقم ذلك عليه الوزير أبو بكر كافل الدولة بالمغرب، واعتزم على بعث الرؤساء من قرابة ابن الأحمر إلى الأندلس لمنازعته، ومده بالمال والجيش.

وبلغ ذلك ابن الأحمر فعاجله عنه وسار في العساكر إلى فرضة المجاز، ونازل جبل الفتح، ومعه ابن أبي يغلوسن وابن ماسي، وأركبهما السفن فنزلوا ببلاد بطرة فاضطرب المغرب، واشتد الحصار على أهل جبل الفتح، واستأمنوا لابن الأحمر وأطاعوه.

وكان بسبتة محمد بن عثمان بن الكاس صهر أبي بكر بن غازي وقريبه بعثه لضبط المراسي عندما نزل ابن الأحمر على الجبل، وبطنجة يومئذ جماعة من ولد السلطان أبي الحسن المرشحين محبوسون منذ عهد عبد العزيز، فوقعت المراسلة من السلطان ابن الأحمر ومحمد بن عثمان، ونكر عليه مبايعتهم لولد صغير لم يراهق.

وأشار ببيعة واحد من أولئك المرشحين المحبوسين بطنجة، ووعده بالمظاهرة والمدد بالمال والجيش، ووقع اختيار محمد بن عثمان على السلطان أبي العباس أحمد، فأخرجه وبايع له.

وقد كان أولئك الفتية تعاهدوا في محبسهم أن من استولى منهم على الملك أطلق الباقين منهم، فوفى لهم السلطان أبو العباس لأول بيعته، وأطلقهم من المحبس، وبعثهم إلى الأندلس، ونزلوا على السلطان ابن الأحمر فأكرمهم وجعلهم لنظره.

وبعث بالأموال والعساكر للسلطان أبي العباس ولوزيره محمد بن عثمان، وكتب إلى عبد الرحمن ابن أبي يغلوسن بموافقتهما واجتماعهما على الأمر، فساروا جميعاً ونازلوا دار الملك بفاس حتى استأمن أبو بكر بن غازي للسلطان أبي العباس، وأمكنه من البلد الجديد دار الملك فدخلها في محرم سنة ست وسبعين.

وشيع عبد الرحمن بن أبي يغلوسن إلى مراكش وأعمالها وسوغ له ملكها كما كان الوفاق بينهما من قبل.

وبعث بالسعيد بن عبد العزيز المنصوب، واتصلت الموالاة والمهاداة بينه وبين ابن الأحمر، وانتقض ما بينه وبين عبد الرحمن صاحب مراكش، ونهض مراراً، وحاصره وابن الأحمر يمده تارة ويسعى بينهما في الصلح أخرى، إلى أن نهض إليه سنة أربع وثمانين وحاصره شهراً، واقتحم عليه حصنه عنوة وقتله ورجع إلى فاس ثم نهض، إلى تلمسان، وهرب صاحبها أبو أحمد سلطان بني عبد الواد، ودخل السلطان أبو العباس تلمسان.

وكان جماعة من سماسرة الفتن قد سعوا ما بينه وبين السلطان ابن الأحمر بالفساد حتى أوغروا صدره، وحملوه على نقض دولة السلطان أبي العباس ببعض الأعياص الذين عنده، فاختار من أولئك الفتية الذين نزلوا عليه من طنجة موسى ابن السلطان أبي عنان، واستوزر له مسعود بن ماسي، وركب السفن معه إلى سبتة فبادر أهلها بطاعة موسى، وأتوه ببيعتهم، وارتحل عنهم إلى فاس وملك السلطان ابن الأحمر سبتة، وصارت في دعوته، وعمد السلطان موسى إلى دار الملك بفاس فوقف عليها يوماً، واستأمنوا له آخر النهار فدخلها سنة ست وثمانين، وأصبح جالساً على سرير ملكه.

وطار الخبر إلى السلطان أبي العباس، وقد ارتحل من تلمسان لقصد أبي حمو وبني عبد الواد بمكانهم من دار الملك فكر راجعاً، وأغذ السير إلى فاس، فلما تجاوز تازي وتوسط ما بينهما وبين فاس، افترق عنه بنو مرين وسائر عساكره، وساروا على راياتهم إلى السلطان موسى، ونهب معسكره، ورجع هو إلى تازي فتوثق منه عاملها حتى جاء يريد السلطان من فاس فتقبض عليه، وحمله إلى فاس وأزعجه السلطان موسى إلى الأندلس ونزل على ابن الأحمر كما كان هو.

واستولى السلطان موسى على المغرب واستبد عليه وزيره مسعود، وطالب ابن الأحمر بالنزول على سبتة فامتنع، ونشأت بينهما الفتنة، ودس ابن ماسي لأهل بيته بالثورة على حامية السلطان ابن الأحمر عندهم فثاروا عليهم، وامتنعوا بالقصبة حتى جاءهم المدد في أساطيل ابن الأحمر، فسكن أهل بيته واطمأنت الحال، ونزع إلى السلطان ابن الأحمر جماعة من أهل الدولة، وسألوه أن يبعث لهم ملكاً من الأعياص الذين عنده، فبعث إليهم الواثق محمد بن الأمير أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن وشيعه في الأسطول إلى سبتة، وخرج إلى غمارة وبلغ الخبر إلى مسعود بن ماسي، فخرج إليه في العسكر وحاصره بتلك الجبال.

ثم جاءه الخبر بموت سلطانه موسى ابن السلطان أبي عنان بفاس فارتحل راجعاً.

ولما وصل إلى دار الملك نصب على الكرسي صبياً من ولد السلطان أبي العباس كان تركه بفاس، وجاء السلطان أبو عنان ابن الأمير أبي الفضل، ونزل بجبل زرهون قبالة فاس، وخرج ابن ماسي في العساكر فنزل قبالته، وكان متولي أمره أحمد بن يعقوب الصبيحي، وقد غص به أصحابه فذبوا عليه وقتلوه أمام خيمة السلطان.

وامتعض السلطان لذلك ووقعت المراسلة بينه وبين ابن ماسي على أن يبايع بشرط الاستبداد عليه، واتفقا على ذلك.

ولحق السلطان بابن ماسي ورجع به إلى دار الملك فبايع له وأخذ له البيعة من الناس وكانت معه حصة من جند السلطان ابن الأحمر مع مولى من مواليه فحبسهم جميعاً وامتعض لذلك السلطان فأركب أبا العباس البحر وجاء معه بنفسه إلى سبتة فدخلها وعساكر ابن ماسي عليها يحاصرونها، فبايعوا جميعاً للسلطان أبي العباس.

ورجع ابن الأحمر إلى غرناطة، وسار السلطان أبو العباس إلى فاس واعترضه ابن ماسي في العساكر فحاصره بالصفيحة من جبل غمارة، وتحدث أهل عسكره في اللحاق بالسلطان أبي العباس ففزعوا إليه، وهرب ابن ماسي وحاصره السلطان شهراً حتى نزلوا على حكمه فقطع ابن ماسي بعد أن قتله ومثل به، وقتل سلطانه، واستلحم سائر بني ماسي بالتنكيل والقتل والعذاب.

واستولى على المغرب واستبد بملكه وأفرج السلطان ابن الأحمر على سبتة وأعادها إليه. واتصلت الموالاة بينهما.

وأقام ابن الأحمر في اعتزازه ولم تطرقه نكبة ولا حادثة سائر أيامه إلا ما بلغنا أنه نمي له عن ابنه ولي عهده أبي الحجاج يوسف أنه يروم التوثب به، وكان على سفر في بعض نواحي الأندلس فقبض على ولده لحينه، ورجع إلى غرناطة، ثم استكشف حاله فظهرت براءته فأطلقه وأعاده إلى أحسن أحواله، وإلا ما بلغنا أيضا أنه لما سار من غرناطة إلى جبل الفتح شارياً لأحوال السلطان أبي العباس وهو بالصفيحة من جبال غمارة، وابن ماسي، يحاصره، فنمي إليه أن بعض حاشيته من أولاد الوزراء وهو ابن مسعود البلنسي، ابن الوزير أبي القاسم بن حكيم وقد اتفقوا على اغتياله، وأن ابن ماسي دس إليهم بذلك ونصبت له على ذلك العلامات التي عرفتها فقبض عليهم لحينه، ولم يمهلهم وقتلهم وجميع من داخلهم في ذلك، ورجع إلى غرناطة وأقام ممتنعاً بملكه إلى أن هلك سنة ثلاث وتسعين، فولي مكانه ابنه أبو الحجاج وبايعه الناس، وقام بأمره خالد مولى أبيه وتقبض على إخوته سعد ومحمد ونصر فهلكوا في محبسهم، ولم يوقف لهم على خبر.

ثم سعى عنده في خالد القائم بدولته أنه أعد السم لقتله، وأن يحيى بن الصائغ اليهودي طبيب دارهم داخله في ذلك ففتك بخالد، وقتل بين يديه صبراً بالسيوف لسنة أو نحوها من ملكه، وحبس الطبيب فذبح في محبسه.

ثم هلك سنة أربع وتسعين لسنتين أو نحوها من ملكه.

وبويع ابنه محمد وقام بأمره محمد الخصاصي القائد من صنائع أبيه، والحال على ذلك لهذا العهد والله غالب على أمره.

وقد انقضى ذكر الدولة الأموية المنازعين لبني العباس ومن تبعهم من الملوك بالأندلس، فلنذكر الآن شيئاً من أخبار ملوك النصرانية الذين يجاورون المسلمين بجزيرة الأندلس من سائر نواحيهم، ونلم بطرف من أنسابهم ودولهم.

الخبر عن ملوك بني أذفونش من الجلالقة ملوك الأندلس بعد الغوط ولعهد المسلمين وأخبار من جاورهم من الفرنجة والبشكنس والبرتغال والإلمام ببعض أخبارهم

والملوك لهذا العهد من النصرانية أربعة في أربعة من العمالات محيطة بعمالة المسلمين، قد ظهر إعجاز الملة في مقامهم معهم وراء البحر بعدما استرجعوا من أيديهم ما نظمه الفتح الإسلامي أول الأمر.

وأعظم هؤلاء الملوك الأربعة: قشتالة وعمالاته عظيمة متسعة مشتملة على أعمال جليقة كلها، مثل قشتالة وغليسية.

والقرنتيرة وهي بسيط قرطبة وإشبيلية وطليطلة وجيان، آخذة في جوف الجزيرة من المغرب إلى المشرق.

ويليه من جانب الغرب ملك البرتغال وعمالته صغيرة وهي أشبونة، ولا أدري نسبه فيمن هو من الأمم.

ويغلب على الظن أنه من أعقاب القوامس الذين تغلبُوا على عمالات بني أذفونش في العصور الماضية كما نذكر بعد، ولعله من أسباطهم وأولي نسبهم والله أعلم.

ويلي ملك قشتالة هذا من جهة الشرق ملك نبرة، وهو ملك البشكنس وعمالته صغيرة فاصلة بين عمالات قشتالة وعمالة ملك برشلونة، وقاعدة ملك نبرة وهي مدينة ينبلونة، وملك برشلونة وما وراءها.

ونحن الآن نذكر أخبار هذه الأمم من عهد الفتح بما يظهر لك منه تفصيل أخبارهم:

وذلك أن النصرانية لما تغلب عليهم المسلمون عند الفتح سنة تسعين من الهجرة، وقتلوا لزريق ملك الغوط وانساحوا في نواحي جزيرة الأندلس، وأجفلت أمم النصرانية كلها أمامهم إلى سيف البحر من جانب الجوف، وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة، واجتمعوا بجليقة وملكوا عليهم ثلاثة: ابن ناقله فأقام ملكاً تسع عشرة سنة، وهلك سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وولي ابنه قافلة سنتين، ثم هلك فولوا عليهم بعدهما أذفونش بن بطرة، وهو الذي اتصل ملكه في عقبه لهذا العهد، ونسبهم في الجلالقة من العجم كما تقدم.

ويزعم ابن حيان أنهم من أعقاب الغوط، وعندي أن ذلك ليس بصحيح فإن أمة الغوط قد دثرت وغبرت وهلكت، وقل أن يرجع أمر بعد إدباره وإنما هو ملك مستجد في أمة أخرى والله أعلم.

فجمعهم أذفونش بن بطرة على حماية ما بقي من أرضهم بعد أن ملك المسلمون عامتها، وانتهوا إلى جليقة وأقصروا عن الفتح بعدها حتى فشلت الدولة الإسلامية بالأندلس، وارتجع النصارى الكثير مما غلبوا عليه.

وكان مهلك أذفونش بن بطرة سنة اثنتين وأربعين ومائة لثمان عشرة سنة من ملكه، وولي بعده ابنه فرويلة إحدى عشرة سنة قوي فيها سلطانه، وقارنه فيها شغل عبد الرحمن الداخل بتمهيد أمره فاسترجع مدينة بك، وبرتغال وسمورة، وسلمنقة، وشقرنية، وقشتالة بعد أن كانت انتظمت للمسلمين في الفتح وهلك سنة ثمان وخمسين، وولي ابنه شيلون عشرة سنين.

وهلك سنة ثمان وستين، فولوا مكانه أذفونش منهم، ووثب عليه سمول ماط فقتله وملك مكانه سبع سنين، وعلى عقب ذلك استفحل ملك عبد الرحمن بالأندلس، وأغزى جيوشه أرض جليقة ففتح وغنم وأسر.

ثم ولي منهم أذفونش آخر سنة اثنتين وخمسين، وهلك سنة ثمان وستين فولوا مكانه أذفونش منهم، ووثب أحد ملوكهم المستبدين بأمرهم.

قال ابن حيان: كانت ولاية رذمير هذا عند ترهب أخيه أذفونش الملك قبله، وذلك سنة تسع عشرة وثلاثمائة على عهد الناصر، وتهيأ للناصر الظهور عليه إلى أن كان التمحيص على المسلمين في غزوة الخندق، وذلك سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، وكانت الواقعة بالخندق وقريباً من مدينة شنت ماكس كما ذكر في أخباره.

ثم هلك رذمير سنة تسع وثلاثين، وولي أخوه شانجة وكان تياهاً معجباً بطالاً فانتقض سلطانه، ووهن ملك قومه، وانتزى عليه قوامس دولته فلم يتم لبني أذفونش بعدها ملك مستبد في

الجلالقة إلا من بعد أزمان الطوائف وملوكهم كما ذكرناه.

وكان اضطراب ملكهم كما نقل ابن حيان على يد فردلند بن عبد شلب قومس ألبة والقلاع، فكان أعظم القوامس، وهم ولاة الأعمال من قبل الملك الأعظم فانتقض على شانجة ألبة وظاهرهم ملك البشكنس على شانجة، وورد شانجة على الناصر بقرطبة صريخاً فأمده، واستولى بذلك الإمداد على سمورة فملكها، وأنزل المسلمين بها واتصلت الحرب بين شانجة وبين فردلند إلى أن أسر فردلند في بعض أيام حروبهم، وحصل في أسر ملك البشكنس على أن ينفذ إليه أسيره فردلند بن عبد شلب قومس ألبة والقلاع فأبى من ذلك، وأطلقه.

ووفد على المنتصر أردون بن أذفونش المقارع لشانجة صريخاً سنة إحدى وخمسين فأجابه، وأنفذ غالباً مولاه في مدده.

ثم هلك شانجة ملك بني أذفونش ببطليوس، وقام بأمرهم بعده ابنه رذمير، وهلك أيضاً فردلند بن عبد شلب قومس ألبة، وولي بعده ابنه غرسية، ولقي رذمير المسلمين بالثغر في بعض صوائفهم وعظمت نكايته بعد مهلك الحكم المستنصر إلى أن قيض الله لهم المنصور بن أبي عامر حاجب ابنه هشام، فأثخن في عمل رذمير، وغزاه مراراً وحاصره في سمورة.

ثم في ليون بعد أن زحف إلى غرسية بن فردلند صاحب ألبة، وظاهر معه ملك البشكنس فغلبهما.

ثم ظاهروا مع رذمير وزحفوا جميعاً للقائه بشنت ماكس فهزمهم، واقتحمها عليهم وخربها.

وتشاءم الجلالقة برذمير وخرج عليهم عمه بزمند بن أرذون، وافترق أمرهم ثم رجع رذمير إلى طاعة المنصور سنة أربع وسبعين.

وهلك على أثرها فأطاعت أمه، واتفقت الجلالقة على بزمند بن أرذون، وعقد له المنصور على سمورة والعيون وما اتصل بهما من أعمال غليسية إلى البحر الأخضر واشترط عليه فقبل.

ثم امتعض بزمند لما نزل بالجلالقة عيث المنصور سنة ثمان وسبعين فافتتح حيون وحاصره في سمورة ففر عنها وأسلمها أهلها إلى المنصور فاستباحها ولم يبق لملك الجلالقة إلا حصون يسيرة بالجبل الحاجز بين بلدهم وبين البحر الأخضر.

ثم اختلف حال بزمند في الطاعة والانتقاض والمنصور يردد إليه الغزو حتى أذعن وأخفر ذمته الخارج على المنصور فأسلمه إليه سنة خمس وثمانين، وضرب عليه الجزية وأوطن المسلمين مدينة سمورة سنة تسع وثمانين، وولي عليها أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي.

ثم سار إلى غرسية بن فردلند صاحب ألبة، وكان أعان المخالفين على المنصور وكان فيمن أعان عليه حين خرج عليه فنازل المنصور مدينة أشبونة، قاعدة غليسية فملكها وخربها.

وهلك غرسية هذا فولي ابنه شانجة، وضرب المنصور عليهم الجزية وصار أهل جليقة جميعاً في طاعته، وكانوا كالعمال له إلا بزمند بن أرذون ومسد بن عبد شلب قومس غليسية فإنهما كانا أملك لأمرهما.

على أن مسداً بعث ابنته للمنصور سنة ثلاث وثمانين وصيرها جارية له فأعتقها وتزوجها.

ثم انتقض بزمند وغزاه المنصور فبلغ شنت ياقب موضع حج النصرانية ومدفن يعقوب الحواري من أقصى غليسية، وأصابها خالية فهدمها ونقل أبوابها إلى قرطبة فجعلها في سمت الزيادة التي أضافها إلى المسجد الأعظم.

ثم تطارح بزمند بن أرذون في السلم وأنفذ ابنه يلانة مع معن بن عبد العزيز صاحب جليقة فوصل به إلى قرطبة وعقد له السلم وانصرف إلى أبيه.

وألح المنصور على أرغومس من القوامس وكانوا في طرف جليقة بين سمورة وقشتالة، وقاعدتهم شنت برية فافتتحها سنة خمس وثمانين.

ثم هلك بزمند بن أرذون ملك بني أذفونش وولي ابنه أذفونش، وهو صاحب بسيط غرسية واحتكما إلى عبد الملك بن المنصور، فخرج أصبغ بن سلمة قاضي النصارى للفصل بينهما، فقضى به لمسد بن عبد شلب.

فلم يزل أذفونش بزمند في كفالته إلى أن قتل غيلة سنة ثمان، فاستبد أذفونش بأمره وطلب القواميس المقتدرين على أبيه وعلى من سلف من قومه برسوم الملك فحاز ذلك منهم لنفسه وبعث على نواحيهم من عنده، وأذعنوا له وسقط ذكرهم في وقته مثل بني أرغومس وبني فردلند الذين قدمنا ذكرهم، وقد كان قيامهم أيام شانجة بن رذمير من بني أذفونش كما قدمناه.

جمعهم أذفونش للقاء عبد الملك المظفر بن المنصور فظاهرهم ملك البشكنس ولقيهم بظاهر فلونية فهزمهم وافتتح الحصن صلحاً.

ثم انقرض أمر المنصور وبنيه وجاءت الفتنة البربرية على

رأس المائة الرابعة فانتهز الفرصة في المسلمين صاحب ألبة، وهو شانجة بن غرسية وصار يظاهر الفرقة الخارجة على الأخرى إلى أن أدرك بعض الأمل، وقتل ملك البشكنس سنة ست وأربعمائة وتغلب النصارى على ما كان عليه بقشتالة وجليقة، ولم يزل أذفونش ملكاً على جليقة وأعمالها، واتصل الملك في عقبه إلى أن كان شأن الطوائف.

وتغلب المرابطون ملوك المغرب من لمتونة على ملوك الطوائف، واستولوا على الأندلس وانقرض منها ملك العرب أجمع.

وفي تواريخ لمتونة وأخبارهم أن ملك قشتالة الذي ضرب الجزية على ملوك الطوائف سنة خمسين وأربعمائة هو البيطبيين، ويظهر أنه كان متغلباً على شانجة بن أبرك الملك يومئذ من بني أذفونش، وهو مذكور في أخبارهم، وأنه لما هلك قام بأمره بنوه فردلند وغرسية ورذمير، وولى أمرهم فردلند واحتوى على شنت برية وعلى كثير من عمل ابن الأفطس.

ثم هلك وخلف شانجة وغرسية والفنش فتنازعوا ثم خلص الملك لألفنش وعلى عهده مات الظاهر إسماعيل بن ذي النون سنة سبع وستين وأربعمائة، وهو المستولي على طليطلة سنة ثمان وسبعين وهو يومئذ اعتزاز النصرانية بجزيرة الأندلس، وكان من بطارقته وقواميس دولته البرهانس فكان يلقب الأنبنذور، ومعناه ملك الملوك، وهو الذي لقي يوسف بن تاشفين بالزلاقة، وكانت الدائرة عليه، وذلك سنة إحدى وثمانين.

وحاصر ابن هود في سرقسطة، وكان ابن عمه رذمير منازعاً له فزحف إلى طليطلة وحاصرها فامتنعت عليه، وحاصر القسريلية وغرسية المرية والبرهانس مرسية وقسطون شاطبة وسرقسطة.

ثم استولى على بلنسية سنة تسع وثمانين، وارتجعها المرابطون من يده بعد أن غلبوا ملوك الطوائف على أمرهم.

ثم مات الفنش سنة إحدى وخمسمائة، وقام بأمر الجلالقة زوجته، وتزوجت رذمير ثم فارقته وتزوجت بعده قمطاً من أقماطها، وجاءت منه بولد كانوا يسمونه السليطين، وأوقع ابن رذمير بابن هود سنة ثلاث وخمسمائة الواقعة المشهورة التي استشهد فيها.

وملك ابن رذمير سرقسطة، وفر عماد الدولة وابنه إلى روطة فأقام إلى أن استنزله السليطين، ونقله إلى قشتالة.

ثم كانت بين رذمير وأهل قشتالة حرب هلك فيها البرهانس سنة سبع وخمسمائة وذلك لآخر أيام المرابطون بلمتونة.

ثم انقرض أمرهم على يد الموحدين وكان أمر النصارى لعهد المنصور يعقوب ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن، كان دائراً بين ثلاثة من ملوكهم الفنش والبيبوح وابن الرنند وكبيرهم الفنش وهو أميرهم يوم الأرك الذي كان للمنصور عليهم سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، والبيبوح صاحب ليون هو الذي مكر بالناصر عام العقاب فداخله وقدم عليه وأظهر له التنصيح فبذل له أموالاً، ثم غدر به وكر عليه الهزيمة يوم العقاب، ثم هلك الناصر وولي المستنصر وفشل ريح بني عبد المؤمن واستولى الفنش على جميع ما افتتحه المسلمون من معاقل الأندلس وارتجعها.

ثم هلك الفنش وولي ابنه هراندة وكان أحول، وكان يلقب بذلك، وهو الذي ارتجع قرطبة وإشبيلية من أيدي بني هود، وعلى عهده زحف ملك أرغون فارتجع شرق الأندلس كله شاطبة ودانية وبلنسية وسرقسطة، وسائر الثغور والقواعد الشرقية، وانحاز المسلمون إلى سيف البحر وملكوا عليهم ابن الأحمر بعد ولاية ابن هود.

ثم هلك هراندة وولي ابنه ثم هلك ابنه وولي ابنه هراندة، وأجاز بنو مرين إلى الأندلس صريخاً لابن الأحمر وسلطانهم يومئذ يعقوب بن عبد الحق، فلقيته جموع النصرانية بوادلك وعليهم ذنبة من أقباط بني أذفونش وزعمائهم فهزمهم يعقوب بن عبد الحق، وبقيت فتن متصلة، ولم يلقه يعقوب، وإنما كان يغزو بلادهم ويكثر فيها العبث إلى أن ألقوه بالسلم، وخالف على هراندة ملك قشتالة هذا ابنه شانجة فوفد هراندة على يعقوب بن عبد الحق صريخاً، وقبل يده فقبل وفادته وأمده بالمال والجيش، ورهن في المال التاج المعروف من ذخائر سلفهم فلم يزل بدار بني عبد الحق من بني مرين لهذا العهد.

ثم هلك هراندة سنة ثلاث وثمانين واستقل ابنه شانجة بالملك ووفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مهلك أبيه يعقوب، وعقد معه السلم.

ثم انتقض وحاصر طريف وملكها وهلك سنة ثلاث وتسعين فولي ابنه هراندة.

ثم هلك سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، فولي ابنه بطرة صغيراً، وكفله عمه جران وكان نزلهما جميعاً على غرناطة عند زحفهما إليها سنة ثمان عشرة وسبعمائة، فولي ابنه الهنشة بن بطرة صغيراً، وكفله زعماء دولتهم.

ثم استبد بأمره وزحف إلى السلطان أبي الحسن، وهو

محاصر لطريف سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فهلك في الطاعون الجارف، وملك ابنه بطرة وقرابته القمط برشلونة فأجاره ملكها، وزحف إليه بطرة مراراً وتغلب على كثير من أعماله، وحاصر بلنسية مراراً.

ثم أتيح الغلب للقمط سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، فاستولى على بلاد قشتالة وزحفت إليه أمم النصرانية لما كانوا سئموا من عنف بطرة وسوء ملكته، ولحق بطرة بأمم الفرنجة الذين وراء قشتالة في الجوف بجهات الليمانية وفرطانية إلى سيف البحر الأخضر، وجزيرة قدوح شنت مزين ملكهم الأعظم، وهو البلنس غالس وجاء معه مدداً بأمم لا تحصى حتى ملك قشتالة والقرنتيرة ورجعوا عنه إلى بلادهم بعد أن أصابهم وباء هلك الكثير منهم.

ثم اتصلت الحرب بين بطرة وأخيه القمط إلى أن غلبه القمط، واعتصم منه بطرة ببعض الحصون ونازله القمط حتى إذا أشرف على أخذه، بعث بطرة إلى بعض الزعماء سراً لنيل النزول في جواره فأجابه، ووشى به لأخيه القمط فكبسه في بيت ذلك الزعيم وقتله سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة.

واستولى القمط على ملك بني أذفونش أجمع واستنزل ابن أخيه بطرة من قرمونة.

وقد كان اعتصم بها بعد مهلك أبيه مع وزيره مرتين لبس هو واستقام له ملك قشتالة ونازعه البلنس غالس ملك الإفرنجة بالابن الذي هو من بنت بطرة على عادة العجم في تمليك ابن البنت محتجاً بأن القمط لم يكن لرشدة، واتصلت الحرب بينهما وشغله، ذلك عن المسلمين فامتنعوا من الجزية التي كانت عليهم لمن قبله.

وهلك هذا القمط سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، فملك ابنه شانجة وفر ابنه الآخر غرمس إلى غرناطة، ثم رجع إلى نواحي قشتالة والأمر على ذلك لهذا العهد، وفتنتهم مع الفنش ملك الفرنج موصولة وعاديتهم لذلك عن المسلمين مرفوعة، والله من ورائهم محيط.

وأما ملك البرتغال بجهة أشبونة غرب الأندلس ومملكته صغيرة، وهي من أعمال جليقة، وصاحبها لهذا العهد متميز بسمته، وملكه مشارك لابن أذفونش في نسبه ولا أدري كيف يتصل نسبه معهم.

وأما ملك برشلونة بجهة شرق الأندلس فعمالتهم واسعة، ومملكتهم كبيرة تشتمل على برشلونة بجهة وارغون وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة ويابسة، ونسبهم في الفرنج، وسياق الخبر عن ملكهم ما نقل ابن حيان أن القوط الذين كانوا بالأندلس كانوا قديماً في ملك الفرنج، ثم اعتزموا عليهم وامتنعوا ونبذوا إليهم عهدهم.

وكانت برشلونة من ممالك الفرنج وعمالاتهم، فلما جاء الله بالإسلام وكان الفتح، قعد الفرنج عن نصر القوط لتلك العداوة، فلما انقضى أمر القوط زحف المسلمون إلى الفرنج فأزعجوهم عن برشلونة وملكوها.

ثم تجاوزوا الدروب من ورائها إلى البسائط بالبر الكبير فملكوا من قواعدها جزيرة أربونة وما إليها من تلك البسائط.

ثم كانت فترة عند انقراض الدولة الأموية بالمشرق وبداية الدولة العباسية افتتن فيها العرب بالأندلس، وانتهز الفرنج فرصتهم فارتجعوا بلادهم إلى برشلونة فملكوها لهذا العهد مائتين من الهجرة، وولوا عليهم من قبلهم، وصار أمرها راجعاً إلى ملك رومة من الفرنجة، وهو قارله الأكبر، وكان من الجبابرة.

ثم ركبهم من الخلاف والمنافسة في أوقات ضعفهم واختلاف إلى ملوكهم كالذي ركبه المسلمون من ضعفت يده من الملوك، فاقتطع الأمراء نواحيهم بكل جهة، فكان ملوك برشلونة هؤلاء ممن اقتطع عمله، وكان ملوك بني أمية لأول دولتهم يتراضون بمهادنة هؤلاء الملوك أهل برشلونة حذراً من مدد صاحب رومة، ثم صاحب القسطنطينية من ورائه.

فلما كانت دولة المنصور بن أبي عامر بين إقطاع برشلونة عن ملك الفرنج، شمر المنصور لغزوهم واستباح بلادهم وأثخن في أعمالهم، وافتتح برشلونة وخربها، وأنزل بهم النقمات وملكهم لعهده بردويل بن سير وكانت حالة الظهور عليه كحاله مع سائر الملوك النصارى.

ولما هلك بردويل ترك من الولد فلبة وريند وأومنقود.

ثم انتقض أومنقود على عبد الملك بن المنصور فغزاه وأخذه في بعض ثغوره صلحاً.

ثم كانت الفتنة البربرية وحضرها أومنقود فهلك في الوقعة مع البربر سنة أربعمائة، وانفرد بيمند بملك برشلونة إلى أن هلك بعد عشر وأربعمائة، وملك ابنه يلتنفير وكفلته أمه وحاربت يحيى بن منذر من ملوك الطوائف وهي التي تغلبت على ثغر طرشوشة، واتصل الملك في عقب بيمند.

وكان الملك منهم لآخر دولة الموحدين جامعة بن بطرة بن أذفونش بن ريند، وهو الذي ارتجع بلنسية وملكهم بهذا العهد

اسمه بطرة، ولم يبلغني كيف اتصال نسبه بقومه.

وملك بعد العشرين من هذه المائة وهو حي لهذا العهد، وابنه غالب عليه لكبر سنه.

واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

أخبار القائمين بالدولة العباسية من العرب المستبدين بالنواحي ونبدأ منهم ببني الأغلب ولاة إفريقية وأولية أمرهم ومصائر أحوالهم

قد ذكرنا في خلافة عثمان بن عفان رضي اللّه عنه شأن فتح إفريقية على يد عبد اللّه ابن أبي سرح، وكيف زحف إليها في عشرين ألفاً من الصحابة وكبار العرب، ففض جموع النصرانية الذين كانوا بها من الفرنجة والروم والبربر، وهدم سبيطلة قاعدة ملكهم وخربها، واستبيحت أموالهم وسبيت نساؤهم وبناتهم، وافترق أمرهم وساخت خيول العرب في جهات إفريقية، وأثخنوا بها في أهل الكفر قتلاً وأسراً حتى لقد طلب أهل إفريقية من ابن أبي سرح أن يرحل عنهم بالعرب إلى بلادهم، ويعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب ففعل وقفل إلى مصر سنة سبع وعشرين.

معاوية بن خديج

ثم أغزى معاوية بن أبي سفيان معاوية بن خديج السكوني، إفريقية سنة أربع وثلاثين، وكان عاملاً على مصر فغزاها ونازل جلولاء، وقاتل مدد الروم الذي جاءها، من قسطنطينية لقيهم بقصر الأحمر فغلبهم، وأقلعوا إلى بلادهم، وافتتح جلولاء وغنم وأثخن وقفل.

عقبة بن نافع

ثم ولى معاوية سنة خمس وأربعين عقبة بن نافع بن عبد اللّه بن قيس الفهري على إفريقية واقتطعها عن معاوية بن خديج، فبنى القيروان وقاتل البربر وتوغل في أرضهم.

أبو المهاجر

ثم استعمل معاوية على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد، فعزل عقبة عن إفريقية، وولى مولاه أبا المهاجر ديناراً سنة خمس وخمسين فغزا المغرب، وبلغ إلى تلمسان، وخرب قيروان عقبة وأساء عزله، وأسلم على يديه كسيلة الأوربي بعد حرب ظفر به فيها.

عقبة بن نافع ثانياً

ولما استقل يزيد بن معاوية بالخلافة، رجع عقبة بن نافع إلى إفريقية سنة اثنتين وستين فدخل إفريقية، وقد نشأت الردة في البرابرة فزحف إليهم، وجعل مقدمته زهير بن قيس البلوي وفر منه الروم والفرنجة فقاتلهم، وفتح حصونهم مثل لميس وباغاية، وفتح أذنة قاعدة الزاب بعد أن قاتله ملوكها من البربر فهزمهم، وأصاب من غنائمهم وحبس أبا المهاجر فلم يزل في اعتقاله.

ثم رحل إلى طنجة فأطاعه بلبان ملك غمارة، وصاحب طنجة وهاداه وأتحفه، ودله على بلاد البربر وراءه بالمغرب، مثل وليلى عند زرهون وبلاد المصامدة وبلاد السوس، وكانوا على دين المجوسية، ولم يدينوا بالنصرانية، فسار عقبة وفتح وغنم وسبى وأثخن فيهم وانتهى إلى السوس.

وقاتل مسوفة من أهل اللثام وراء السوس، ووقف على البحر المحيط وقفل راجعاً، وأذن لجيوشه في اللحاق بالقيروان.

وكان كسيلة ملك أروبة والبرانس من البربر قد اضطغن عليه بما كان يعامله به من الاحتصار، يقال: إنه كان يحاصره في كل يوم ويأمره بسلخ الغنم إذا ذبحت لمطبخه فانتهز فيه الفرصة، وأرسل البربر فاعترضوا له في تهودا وقتلوه في ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين، واستشهدوا كلهم وأسر في تلك الوقعة محمد بن أوس الأنصاري في نفر فخلصهم صاحب قفصة، وبعث بهم إلى القيروان مع من كان بها من المخلفين والذراري.

ورجع زهير بن قيس إلى القيروان واعتزم على القتال وخالفه حنش بن عبد اللّه الصنعاني وارتحل إلى مصر واتبعه الناس فاضطر زهير إلى الخروج معهم، وانتهى إلى برقة فأقام بها مرابطاً، واستأمن من كان بالقيروان إلى كسيلة فأمنهم ودخل القيروان وأقاموا في عهده.

زهير بن قيس البلوي

ولما ولي عبد الملك بن مروان بعث إلى زهير بن قيس بمكانه من برقة بالمدد، وولاه حرب البرابرة فزحف سنة سبع وستين

ودخل إفريقية ولقيه كسيلة على ميس من نواحي القيروان فهزمه زهير بعد حروب صعبة، وقتله واستلحم في الوقعة كثير من أشراف البربر ورجالاتهم.

ثم قفل زهير إلى المشرق زاهداً في الملك، وقال: إنما جئت للجهاد وأخاف أن نفسي تميل إلى الدنيا، وسار إلى مصر واعترضه بسواحل برقة أسطول صاحب قسطنطينية، جاؤوا لقتاله فقاتلهم واستشهد رحمه اللّه تعالى.

حسان بن النعمان الغساني

ثم أن عبد الملك بن مروان بعد أن قتل عبد اللّه بن الزبير وصفا له الأمر، أمر حسان بن النعمان الغساني بغزو إفريقية، وأمده بالعساكر، ودخل القيروان وافتتح قرطاجنة عنوة وخربها، وفر من كان بها من الروم والفرنجة إلى صقلية والأندلس.

ثم اجتمعوا في صطفورة وبنزرت وهزمهم ثانية، وانحاز الفل إلى باجة وبونة فتحصنوا بها.

ثم سار حسان إلى الكاهنة ملكة جرارة بجبل أوراس، وهي يومئذ أعظم ملوك البربر، فحاربها، وانهزم المسلمون وأسر منهم جماعة، وأطلقتهم الكاهنة سوى خالد بن يزيد القيسي فإنها أمسكته وأرضعته مع ولديها وصيرته أخاً لهما.

وأخرجت العرب من إفريقية وانتهى حسان إلى برقة، وجاءه كتاب عبد الملك بالمقام حتى يأتيه المدد.

ثم بعث إليه المدد سنة أربع وسبعين فسار إلى إفريقية ودس إلى خالد بن يزيد يستعمله فأطلعه على خبرهم، واستحثه فلقي الكاهنة وقتلها وملك جبل أوراس وما إليه، ودوخ نواحيه وانصرف إلى القيروان وأمن البربر.

وكتب الخراج عليهم وعلى من معهم من الروم والفرنج على أن يكون معه اثنا عشر ألفاً من البربر لا يفارقونه في مواطن جهاده ورجع إلى عبد الملك، واستخلف على إفريقية رجلاً اسمه صالح من جنده.

موسى بن نصير

ولما ولي الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمه عبد اللّه، وهو على مصر - ويقال عبد العزيز - أن يبعث بموسى بن نصير إلى إفريقية، وكان أبوه نصير من حرس معاوية فبعثه عبد اللّه، وقدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعقد له، ورأى البربر قد طمعوا، في البلاد فوجه البعوث في النواحي، وبعث ابنه عبد اللّه في البحر إلى جزيرة ميورقة فغنم منها وسبى وعاد، ثم بعثه إلى ناحية أخرى وابنه مروان كذلك، وتوجه هو إلى ناحية فغنم منها وسبى وعاد، وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من السبي.

ثم غزا طنجة وافتتح درعه وصحراء تافيلالت.

وأرسل ابنه إلى السوس وأذعن البربر لسلطانه ودولته وأخذ رهائن المصامدة وأنزلهم بطنجة، وذلك سنة ثمان وثمانين، وولى عليها طارق بن زياد الليثي.

ثم أجاز طارق إلى الأندلس دعاه إليها بلبان ملك غمارة فكان فتح الأندلس سنة تسعين.

وأجاز موسى بن نصير على أثره فكمل فتحها كما ذكرناه.

ثم قفل موسى إلى الشرق واستخلف على إفريقية ابنه عبد اللّه وعلى الأندلس عبد العزيز.

وهلك الوليد وولي سليمان سنة ست وتسعين فسخط موسى وحبسه.

محمد بن يزيد

لما ولي سليمان وحبس موسى بن نصير عن ابنه عبد اللّه عن إفريقية ولي مكانه محمد بن يزيد مولى قريش فلم يزل عليها حتى مات سليمان.

إسماعيل بن أبي المهاجر

ولما مات سليمان استعمل عمر بن عبد العزيز على إفريقية إسماعيل بن عبد اللّه بن أبي المهاجر وكان حسن السيرة وأسلم جميع البربر في أيامه.

يزيد بن أبي مسلم

ولما تولى يزيد بن عبد الملك، ولي على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم تأسياً بما فعله الحجاج بالعراق فقتله البربر لشهر من ولايته، ورجعوا إلى محمد بن يزيد مولى من الأنصار الذين كان عليهم قبل إسماعيل، وكتبوا إلى يزيد بالطاعة والعذر عن قتل ابن أبي مسلم فأجابهم بالرضا وأقر محمد بن أبي يزيد على عمله.

بشر بن صفوان الكلبي

ثم ولي يزيد على إفريقية بشر بن صفوان الكلبي فقدمها سنة ثلاث ومائة، فمهدها وسكّن أرجاءها، وغزا بنفسه صقلية سنة تسع ومائة وهلك مرجعه عنها.

عبيدة بن عبد الرحمن

ثم عزل هشام بن عبد الملك بشر بن صفوان عن إفريقية وولى مكانه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وهو ابن أخي أبي الأعور فقدمها سنة عشر ومائة.

عبيد الله بن الحبحاب

ثم عزل هشام عبيدة بن عبد الرحمن وولى مكانه عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول وكان والياً على مصر، فأمره أن يمضي إلى إفريقية، واستخلف على مصر ابنه أبا القاسم، وسار إلى إفريقية فقدمها سنة أربع عشرة، وبنى جامع تونس، واتخذ لها دار الصناعة لإنشاء المراكب البحرية.

وبعث إلى طنجة ابنه إسماعيل وجعل معه عمر بن عبيد الله المرادي وبعث على الأندلس عقبة بن حجاج القيسي.

وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان، وأصاب من مغانم الذهب والفضة والسبي كثيراً ودوخ بلاد المغرب وقبائل البربر ورجع.

ثم أغزاه ثانية في البحر إلى صقلية سنة اثنتين وعشرين، ومعه عبد الرحمن بن حبيب فنازل سرقوسة أعظم مدائن صقلية، وضرب عليهم الجزية وأثخن في سائر الجزيرة.

وكان محمد بن عبيد الله بطنجة قد أساء السيرة فى البربر، وأراد أن يخمس من أسلم منهم، وزعم أنه الفيء، فأجمعوا الانتقاض، وبلغهم مسير العساكر مع حبيب بن أبي عبيدة إلى صقلية فسار ميسرة المظفري بدعوة الصفرية من الخوارج، وزحف إلى طنجة فقتل عمر بن عبيد الله وملكها، واتبعه البربر وبايعوه بالخلافة، وخاطبوه بأمير المؤمنين، وفشت مقالته فى سائر القبائل بإفريقية وبعث ابن الحبحاب إليه خالد بن حبيب الفهري فيمن بقي معه من العساكر.

واستقدم حبيب بن أبي عبيدة من صقلية ومن معه من العساكر، وبعثه في أثر خالد، ولقيهم ميسرة والبربر بناحية طنجة فاقتتلا قتالاً شديداً، ثم تحاجزوا ورجع ميسرة إلى طنجة فكره البربر سوء سيرته فقتلوه، وولوا عليهم مكانه خالد بن حبيب الزناتي، واجتمع إليه البربر، ولقيه خالد بن حبيب في العرب وعساكر هشام فانهزموا، وقتل خالد بن حبيب وجماعة من العرب وسميت بهم غزوة الأشراف، وانتقضت إفريقية على ابن الحبحاب وبلغ الخبر إلى الأندلس فعزلوا عامله عقبة بن الحجاج، وولوا عبد الملك بن قَطَن كما مرّ.

كلثوم بن عياض

ولما انتهى الخبر إلى هشام بن عبد الملك بهزيمة العساكر بالمغرب استنقص ابن الحبحاب وكتب إليه يستقدمه، وولى على إفريقية سنة ثلاث وعشرين ومائة كلثوم بن عياض، وعلى مقدمته بلخ بن بشر القشيري، فأساء إلى أهل القيروان، فشكوا إلى حبيب بن أبي عبيدة وهو بتلمسان موافق للبربر، فكتب إلى كلثوم بن عياض ينهاه ويتهدده، فاعتذر وأغضى له عنها، ثم سار واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة، ومر على طريق سبيبة، وانتهى إلى تلمسان ولقي حبيب بن عبيدة واقتتلا، ثم اتفقا ورجعا جميعاً.

وزحف البرابرة إليهم على وادي طنجة، وهو وادي سوا فانهزم بلخ في الطلائع وانتهوا إلى كلثوم، فانكشف واشتد القتال وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة وكثير من الجند، وتحيز أهل الشام إلى سبتة مع بلخ بن بشر، فحاصرهم البرابرة وأرسلوا إلى عبد الملك بن قطن أمير الأندلس في أن يجيزوا إليه، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يقيموا سنة واحدة، وأخذ رهنهم على ذلك، وانقضت السنة وطالبهم بالشرط فقتلوه وملك بلخ الأندلس.

وكان عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع لما قتل أبوه حبيب مع كلثوم بن عياض، وأجاز بلخ إلى الأندلس فملكها، فأجاز عبد الرحمن إلى الأندلس يحاول ملكها.

فلما جاء أبو الخطار إلى الأندلس من قبل حنظلة أيس عبد الرحمن من أمرها، ورجع إلى تونس سنة ست وعشرين ومائة وقد توفي هشام وولي الوليد بن يزيد فدعا لنفسه، وسار إلى القيروان ومنع حنظلة من قتاله، وبعث إليه وجوه الجند فانتهز عبد الرحمن الفرصة فيهم وأوثقهم لئلا يقاتله أصحابهم، وأغذ السير إلى القيروان فرحل حنظلة من إفريقية وقفل إلى المشرق سنة سبع وعشرين، واستقل عبد الرحمن بملك إفريقية وولي مروان بن محمد، فكتب له بولايتها، ثم ثارت عليه الخوارج في كل جهة فكان عمر

بن عطاب الأزدي بطبنياش، وعروة بن الوليد الصفري بتونس، وثابت الصنهاجي بباجة، وعبد الجبار بن الحارث بطرابلس على رأي الأباضية، فزحف عبد الرحمن إليهما سنة إحدى وثلاثين فظفر بهما، وقتلهما، وسرح أخاه إلياس لابن عطاب فهزمه وقتله، ثم زحف إلى عروة بتونس فقتله، وانقطع أمر الخوارج.

وزحف سنة خمس وثلاثين إلى جموع من البربر بنواحي تلمسان فظفر بهم وقفل.

ثم بعث جيشاً في البحر إلى صقلية وآخر إلى سردانية فاثخنوا في أمم الفرنج حتى استقروا بالجزاء.

ثم دالت دولة بني العباس وبعث عبد الرحمن بطاعته إلى السفاح، ثم إلى أبي جعفر من بعده، ولحق كثير من بني أمية إلى إفريقية، وكان ممن قدم عليه القاضي، وعبد المؤمن إبنا الوليد بن يزيد ومعهما ابنة عم لهما، فزوجها عبد الرحمن من أخيه إلياس، ثم بلغ عبد الرحمن عنهما السعي في الخلافة فقتلهما، وامتعضت لذلك ابنة عمهما، فأغرت زوجها بأخيه عبد الرحمن واستفسدته.

وكان عبد الرحمن قد أرسل إلى أبي جعفر بهدية قليلة، وذهب يعتذر عنها فلم يحسن العذر، وأفحش في الخطاب فكتب إليه المنصور يتهدده، وبعث إليه بالخلعة فانتقض هو ومزق خلعته على المنبر فوجد أخوه إلياس بذلك السبيل إلى ما كان يحاول عليه، وداخل وجوهاً من الجند في الفتك بعبد الرحمن وإعادة الدعوة للمنصور، ومالأه في ذلك أخوه عبد الوارث، وفطن عبد الرحمن لهما فأمر إلياس بالمسير إلى تونس، وجاء ليودعه ومعه أخوه عبد الوارث فقتلاه في آخر سبع وثلاثين لعشر سنين من إمارته.

حبيب بن عبد الرحمن

ولما قتل عبد الرحمن نجا ابنه حبيب إلى تونس فلحق به بعد أن طلبوه وضبطوا أبواب القصر ليأخذوه فلم يظفروا به، وكان عمه عمران بن حبيب بتونس فلحق به، واتبعه الياس فاقتتلوا ملياً ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قفصة وقصطيلة ونغراوة، ولعمران تونس وصطغورة، وهي تبرزو والجزيرة، ولإلياس سائر إفريقية، وتم هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين.

وسار حبيب إلى عمله ببلاد الجريد، وسار الياس مع أخيه عمران إلى تونس فغدر بعمران وقتله وجماعة من الأشراف معه، وعاد إلى القيروان، وبعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي إفريقية.

ثم سار حبيب إلى تونس فملكها وجاءه عمه إلياس فقاتله، وخالفه حبيب إلى القيروان فدخلها وفتق السجون فرجع إلياس في طلبه، وفارقه أكثر أصحابه إلى حبيب، فلما تواقفا دعاه حبيب إلى البراز فتبارزا وقتله حبيب ودخل القيروان وملكها آخر سنة ثمان وثلاثين، ونجا عمه الآخر عبد الوارث إلى وربجومة من قبائل البربر، وكبيرهم يومئذ عاصم بن جميل، وكان كاهناً ويدعي النبوة فأجار عبد الوارث، وقاتلهم حبيب فهزموه إلى قابس واستفحل أمرهم وكتب من كان بالقيروان من العرب إلى عاصم بن جميل يدعونه للولاية عليهم، واستخلفوه على الحماية والدعاء للمنصور فلم يجب إلى ذلك، وقاتلهم فهزمهم، واستباح القيروان وخرب المساجد واستهانها.

ثم سار إلى حبيب بن عبد الرحمن بقابس فقاتله وهزمه، ولحق حبيب بجبل أوراس فأجاره أهله، وجاء عاصم فقاتلهم فهزموه، وقتل جماعة من أصحابه.

وقام بأمر وربجومة والقيروان من بعده عبد الملك، وقتله سنة أربعين ومائة.

وكانت إمارة الياس على إفريقية سنة ونصفاً، وإمارة حبيب ثلاث سنين.

عبد الملك بن أبي الجعد الوربجومي

ولما قتل عبد الملك بن أبي الجعد حبيب بن عبد الرحمن رجع في قبائل وربجومة إلى القيروان وملكها، واستولت وربجومة على إفريقية، وساروا في أهل القيروان بالعسف والظلم كما كان عاصم وأسوأ منه.

وافترق أهل القيروان بالنواحي فراراً بأنفسهم، وشاع خبرهم في الآفاق فخرج بنواحي طرابلس عبد الأعلى بن السمح المغافري الأباضي منكراً لذلك وقصد طرابلس وملكها.

عبد الأعلى بن السمح المغافري

ولما ملك عبد الأعلى مدينة طرابلس بعث عبد الملك بن أبي الجعد العساكر لقتاله سنة إحدى وأربعين، فلقيهم أبو الخطاب وهزمهم وأثخن فهم، واتبعهم إلى القيروان فملكها وأخرج وربجومة منها واستخلف عليها عبد الرحمن بن رستم، وسار إلى طرابلس للقاء العساكر القادمة من ناحية أبي جعفر.

محمد بن الأشعث الخزاعي

كان أبو جعفر المنصور لما وقع بإفريقية ما وقع من الفتنة وملك قبائل وربجومة القيروان، وفد عليه رجالات من جند إفريقية يشكون ما نزل بهم من وربجومة، ويستصرخونه فولى على مصر وإفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي فنزل مصر وبعث على إفريقية أبا الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي.

وسار في مقدمته فلقيه أبو الخطاب عبد الأعلى بسرت، ودهمه بالعساكر ومعهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة بن سوادة التميمي، فسار لذلك، ولقي أبا الخطاب بسرت ثانية، فانهزم أبو الخطاب وقتل عامة أصحابه وذلك سنة أربع وأربعين.

وبلغ الخبر إلى عبد الرحمن بن رستم بالقيروان ففر عنها إلى تاهرت وبنى هنالك مدينة ونزلها، وقام ابن الأشعث فافتتح طرابلس واستعمل عليها المخارق غفاراً الطائي، وقام بأمر إفريقية وضبطها.

وولى على طبنة والزاب الأغلب بن سالم.

ثم ثارت عليه المضرية وأخرجوه سنة ثمان وأربعين فقفل إلى المشرق الأغلب بن سالم.

ولما قفل ابن الأشعث إلى المشرق ولى على المضرية عيسى بن موسى الخراساني، فبعث أبو جعفر المنصور الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي بعده على إفريقية، وكان من أصحاب أبي مسلم بخراسان.

وقدم مع ابن الأشعث فولاه على الزاب وطبنة، فقدم القيروان وسكن الناس.

ثم خرج عليه أبو قرة اليفرني في جموع البربر فهرب وسكن أبو قرة اليفرني، فأبى عليه الجند وخلعوه، وكان الحسن بن حرب الكندي بقابس فكاتب الجند وثبطهم عن الأغلب فلحقوا به وأقبل بهم إلى القيروان فملكها ولحق الأغلب بقابس.

ثم رجع إلى إقبال الحسن بن حرب سنة خمسين فهزمه، وسار إلى القيروان فكر عليه الحسن دونها واقتتلوا، وأصاب الأغلب سهم فقتله، وقدم أصحابه عليهم المغافر بن غفار الطائي الذي كان على طرابلس، وحملوا على الحسن فانهزم أمامهم إلى تونس، ثم لحق بكتامة وخيل المخارق في اتباعه، ثم رجع إلى تونس بعد شهرين فقتله الجند، وقيل: أصحاب الأغلب قتلوه في الموقف الذي قتل فيه الأغلب.

وقام بأمر إفريقية المخارق بن غفار إلى أن كان ما نذكره.

عمر بن حفص هزارمرد

ولما بلغ أبا جعفر المنصور قتل الأغلب بن سالم بعث على إفريقية مكانه عمر بن حفص هزارمرد من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب، فقدمها سنة إحدى وخمسين فاستقامت أموره ثلاث سنين.

ثم سار لبناء السور على مدينة طبنة واستخلف على القيروان أبا حازم حبيب بن حبيب المهلبي، فلما توجه لذلك ثار البربر بإفريقية وغلبوا على من كان بها وزحفوا إلى القيروان وقاتلوا أبا حازم فقتلوه واجتمع البربر الإباضية بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب الإباضي مولى كندة، وكان على طرابلس الجنيد بن بشار الأسدي من قبل عمر بن حفص فأمده بالعساكر، وقاتلوا أبا حازم فهزمهم وحصرهم بقابس، وانقضَّت إفريقية من كل ناحية.

ثم ثاروا في عسكر إلى طبنة وحاصروا بها عمر بن حفص، فيهم أبو قرة اليعقوبي في أربعين ألفاً من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشرألفاً من الأباضية جاؤوا معه، والمسور الزناتي في عشرة آلاف من الأباضية وأمم من الخوارج من صنهاجة وزناتة وهوارة ما لا يحصى، فدافعهم عمر بن حفص بالأموال، وفرق كلمتهم، وبذل لأصحاب أبي قرة مالاً فانصرفوا.

واضطر أبو قرة لاتباعهم، فبعث عمر جيشاً إلى ابن رستم وهو بتهودا فانهزم إلى تاهرت وضعف الأباضية عن حصار طبنة فأفرجوا عنها، وسار أبو حاتم إلى القيروان وحاصرها ثمانية أشهر، واشتد حصارها وسار عمر بن حفص وجهز العساكر لطبنة فخالفه أبو قرة إلى طبنة فهزموه.

وبلغ أبا حاتم وأصحابه وهو على القيروان مسير عمر بن حفص إليهم فساروا للقائه، فمال هو من الأربس إلى تونس، ثم جاء إلى القيروان فدخلها واستعد للحصار واتبعه أبو حاتم والبربر فحاصروه إلى أن جهده الحصار، وخرج لقتالهم مستميتاً فقتل آخر سنة أربع وخمسين، وولي مكانه أخوه لأمه حميد بن صخر فوادع أبا حاتم على أن يقيم دعوة العباسية بالقيروان وخرج أكثر الجند إلى طبنة وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان وثلم سورها.

يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب

ولما بلغ المنصور انتقاض إفريقية على عمر بن حفص وحصاره بطبنة ثم بالقيروان، بعث إليه يزيد بن أبي حاتم بن

قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة في ستين ألف مقاتل.

وبلغ خبره عمر بن حفص فحمله ذلك على الاستماتة حتى قتل، وسار يزيد بن حاتم فقدم عليها وأبو حاتم يعقوب بن حبيب مستول عليها، فسار إلى طرابلس للقائه، واستخلف على القيروان عمر بن عثمان الفهري فانتقض وقتل أصحابه.

وخرج المخارق بن غفار، فرجع إليهما أبو حاتم ففرا من القيروان ولحقا بجيجل من سواحل كتامة فتركهما، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السبع المغافري، وسار للقاء يزيد.

وسار يزيد إلى طرابلس فلحق أبو حاتم بجبال نفوسة، واتبعته عساكر يزيد فهزمهم فسار إليه يزيد بنفسه، وقاتله قتالاً شديداً فانهزم البربر، وقتل أبو حاتم في ثلاثين ألفاً من أصحابه، وتتبعهم يزيد بالقتل بثأر عمر بن حفص.

ثم ارتحل إلى القيروان فدخلها منتصف سنة خمس وخمسين.

وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري مع أبي حاتم فلحق بكتامة، وبعث يزيد في طلبه فحاصروهم ثم ظفروا بهم.

وهرب عبد الرحمن وقتل جميع من كان معه وبعث يزيد المخارق بن غفار على الزاب، ونزل طبنة وأثخن في البربر في وقائع كثيرة مع وربجومة وغيرهم إلى أن هلك يزيد سنة سبعين ومائة في خلافة هارون الرشيد.

وقام بأمره ابنه داود فخرج عليه البربر، وأوقع بهم ورجع إلى القيروان إلى أن كان من أمره ما نذكره.

أخوه روح بن حاتم

ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم، وكان أخوه روح على فلسطين استقدمه وعزاه في أخيه وولاه على إفريقية فقدمها منتصف إحدى وسبعين، وسار داود ابن أخيه يزيد إلى الرشيد.

وكان يزيد قد أذل الخوارج ومهد البلاد فكانت ساكنة أيام روح، ورغب في موادعة عبد الوهاب بن رستم وكان من الوهبية فوادعه، ثم هلك روح في رمضان سنة أربع وسبعين، وكان الرشيد قد بعث بعهده سراً إلى نصر بن حبيب من قرابتهم، فقام بالأمر بعد روح إلى أن ولي الفضل.

ابنه الفضل بن روح

ولما توفي روح بن حاتم قام حبيب بن نصر مكانه، وسار ابنه الفضل إلى الرشيد فولاه على إفريقية مكان أبيه فعاد إلى القيروان في محرم سنة سبع وسبعين، واستعمل على تونس المغيرة ابن أخيه بشر بن روح، وكان غلاماً غراً فاستخف بالجند، واستوحشوا من الفضل لما أساء فيهم السيرة، وأخذهم بموالاة حبيب بن نصر فاستعفى أهل تونس من المغيرة فلم يعفهم، فانتقضوا وقدموا عليهم عبد الله بن الجارود، ويعرف بعبد ربه الأنباري، وبايعوه على الطاعة، وأخرجوا المغيرة، وكتبوا إلى الفضل أن يولي عليهم من أراد فولى عليهم ابن عمه عبد الله بن يزيد بن أبي حاتم، وسار إلى تونس، ولما قاربها بعث ابن الجارود جماعة لتلقيه، واستفهامه في أي شيء جاء فعدوا عليه وقتلوه افتئاتاً بذلك على ابن الجارود، واضطر إلى إظهار الخلاف، وتولى كبر ذلك محمد بن الفارسي من قواد الخراسانية، وكتب إلى القواد والعمال في النواحي، واستفسدهم على الفضل، وكثر جموع ابن الجارود، وخرج الفضل فانهزم واتبعه ابن الجارود، واقتحم عليه القيروان، ووكل به وبأهله من يوصلهم إلى قابس، ثم رده من طريقه وقتله منتصف ثمان وسبعين.

ورجع ابن الجارود إلى تونس، وامتعض لقتل الفضل جماعة من الجند وفي مقدمتهم مالك بن المنذر ووثبوا بالقيروان فملكوها، وسار إليهم ابن الجارود من تونس فقتلهم، وقتل مالك بن المنذر وجماعة من أعيانهم، ولحق فلهم بالأندلس، فقدموا عليهم الصلت بن سعيد، وعادوا إلى القيروان واضطربت إفريقية.

خزيمة بن أعين

ولما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح، وما وقع بإفريقية من الاضطراب، ولى مكانه خزيمة بن أعين، وبعث إلى ابن الجارود يحيى بن موسى لمحله عند أهل خراسان.

ويقال: يقطين يرغبه في الطاعة، فأجابه بشرط الفراغ من العلاء بن سعيد، وعلم يقطين أنه يغالطه فداخل صاحبه محمد بن الفارسي، واستماله فنزع عن ابن الجارود.

وخرج ابن الجارود من القيروان فراراً من العلاء في محرم سنة تسع وسبعين لسبعة أشهر من ولايته، وسار للقاء ابن الفارسي من القيروان، وتزاحفا للقتال فدعا ابن الجارود ابن الفارسي إلى خلوة، وقد دس رجلاً من أصحابه يغتاله في خلوتهما

فقتله، وانهزم أصحابه وسابق العلاء بن سعيد ويقطين إلى القيروان فسبق إليها العلاء وملكها وفتك في أصحاب ابن الجارود ولحق ابن الجارود بهرثمة فبعث به إلى الرشيد، وكتب إليه أن العلاء بن سعيد هو الذي أخرجه من القيروان فأمره بأن يبعث بالعلاء فبعث به مع يقطين، فاعتقل ابن الجارود وأحسن إلى العلاء إلى أن توفي بمصر.

وسار هرثمة إلى القيروان فقدمها سنة سبع وسبعين فأمن الناس وسكنهم، وبنى القصر الكبير بالمنستير لسنة من قدومه، وبنى السور على طرابلس مما يلي البحر.

وكان إبراهيم بن الأغلب عاملاً على الزاب وطبنة فهاداه، ولاطفه فعقد له على عمله فقام بأمره وحسن أثره.

ثم خرج عليه عياض بن وهب الهواري وكليب بن جميع الكلبي، وجمعا الجموع فسرح هرثمة إليهما يحيى بن موسى من قواد الخراسانية ففرق جموعهما، وقتل كثيراً من أصحابهما، ورجع إلى القيروان.

ولما رأى هرثمة كثرة الشوار والخلاف بإفريقية استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه، ورجع إلى العراق لسنتين ونصف من ولايته.

محمد بن مقاتل الكعبي

ثم بعث الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل الكعبي، وكان صنيعته،، فقدم القيروان في رمضان سنة إحدى وثمانين، فكان سيّئ السيرة، فاختلف عليه الجند وقدموا مخلد بن مرة الأزدي، فبعث إليه العساكر فهزم وقتل.

ثم خرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمي سنة ثلاث وثمانين، واجتمع إليه الناس، وسار إلى القيروان فخرج إليه محمد بن مقاتل ولقيه فانهزم أمامه ورجع إلى القيروان، وتمام في اتباعه إلى أن دخل عليه القيروان، وأمنه تمام على أن يخرج عن إفريقية، فسار محمد إلى طرابلس، وبلغ الخبر إلى إبراهيم بن الأغلب بمكانه من الزاب فانتقض لمحمد، وسار بجموعه إلى القيروان وهرب تمام بين يديه إلى تونس، وملك القيروان واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس، وأعاده إلى إمارته بالقيروان آخر ثلاث وثمانين، وزحف تمام لقتالهم فخرج إليه إبراهيم بن الأغلب بأصحابه فهزمه، وسار في اتباعه إلى تونس، واستأمن له تمام فأمنه وجاء به إلى القيروان وبعث به إلى بغداد فاعتقله الرشيد.

إبراهيم بن الأغلب

ولما استوثق الأمر لمحمد بن مقاتل كره أهل البلاد ولايته، وداخلوا إبراهيم بن الأغلب في أن يطلب من الرشيد الولاية عليهم، فكتب إبراهيم إلى الرشيد في ذلك على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت من مصر إلى إفريقية، وعلى أن يحمل هو من إفريقية أربعين ألفاً.

وبلغ الرشيد غناؤه في ذلك واستشار فيه أصحابه فأشار هرثمة بولايته، فكتب له بالعهد إلى إفريقية منتصف أربع وثمانين فقام إبراهيم بالولاية، وضبط الأمور وقفل ابن مقاتل إلى المشرق، وسكنت البلاد بولاية ابن الأغلب، وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان، وانتقل إليها بجملته.

وخرج عليه سنة ست وثمانين بتونس حمديس من رجالات العرب، ونزع السواد، فسرح إليه ابن الأغلب عمران بن مجالد في العساكر فقاتله وانهزم حمديس، وقتل من أصحابه نحو عشرة آلاف.

ثم صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى، وقد ظهر فيه دعوة العلوية بإدريس بن عبد اللّه، وتوفي ونصب البرابرة ابنه الأصغر، وقام مولاه راشد بكفالته، وكبر إدريس واستفحل أمره براشد، فلم يزل إبراهيم يدس إلى البربر ويسرب فيهم الأموال حتى قتل راشد وسيق رأسه إليه.

ثم قام بأمر إدريس بعده بهلول بن عبد الرحمن المظفر من رؤوس البربر فاستفحل أمره، فلم يزل إبراهيم يتلطفه ويستميله بالكتب والهدايا، إلى أن انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسية فصالحه إدريس، وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول اللّه ﷺ فكف عنه.

ثم خالف أهل طرابلس على إبراهيم بن الأغلب سنة تسع وثمانين، وثاروا بعاملهم سفيان بن المهاجر، وأخرجوه من داره إلى المسجد وقتلوا عامة أصحابه، ثم أمنوه على أن يخرج من طرابلس فخرج سفيان لشهر من ولايته، واستعملوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي، فبعث إليهم إبراهيم بن الأغلب العساكر وهزمهم، ودخل طرابلس عسكره.

ثم استحضر إبراهيم الذين تولوا كبر ذلك، فحضروا في ذي الحجة آخر السنة، وعفا عنهم وأعادهم إلى بلدهم.

ثم انتقض عمران بن مجالد الربعي سنة خمس وتسعين على ابن الأغلب، وكان بتونس، واجتمع معه على ذلك قريش بن

التونسي، وكثرت جموعهما، وسار عمران إلى القيروان فملكها، وقدم عليه قريش من تونس، وخندق إبراهيم على نفسه بالعباسية فحاصروه سنة كاملة، كانت بينه وبينهم حروب كان الظفر في آخرها لابن الأغلب.

وكان عمران يبعث إلى أسد بن الفرات القاضي في الخروج إليهم وامتنع.

ثم بعث الرشيد إلى إبراهيم بالمال فنادى في الناس بالعطاء، ولحق به أصحاب عمران، وانتقض أمره ولحق بالزاب، فأقام به إلى أن توفي ابن الأغلب.

ثم بعث إبراهيم على طرابلس ابنه عبد الله سنة ست وتسعين، فثار عليه الجند وحاصروه بداره.

ثم أمنوه على أن يخرج عنهم فخرج، واجتمع إليه الناس وبذل العطاء وأتاه البربر من كل ناحية، وزحف إلى طرابلس فهزم جندها ودخل المدينة.

ثم عزله أبوه وولى سفيان بن المضاء فثارت هوارة بطرابلس، وهجم الجند فلحقوا بإبراهيم بن الأغلب وأعاد معهم ابنه عبد الله في ثلاثة عشر ألفاً من العساكر ففتك بهوارة وأثخن فيهم، وجدد سور طرابلس.

وبلغ الخبر إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فجمع البربر وجاء إلى طرابلس فحاصرها وسد عبد الوهاب باب زناتة، وكان يقاتل من باب هوارة.

ثم جاءه الخبر بوفاة أبيه فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وأعمالها لعبد الوهاب، وسار إلى القيروان، وكانت وفاة إبراهيم في شوال سنة ست وتسعين.

ابنه أبو العباس عبد الله

ولما توفي إبراهيم بن الأغلب عهد لابنه عبد الله، وكان غائباً بطرابلس والبربر يحاصرونه كما ذكرناه، وأوصى ابنه الآخر زيادة الله أن يبايع له بالإمارة ففعل، وأخذ له البيعه على الناس بالقيروان.

وكتب إليه بذلك فقدم أبو العباس عبد الله في صفر سنة سبع وتسعين، ولم يرع حق أخيه فيما فعله.

وكان ينتقصه ولم يكن في أيامه فتنة بما مهد له أبوه الأمر.

وكان جائراً حتى قيل: إن مهلكه كان بدعوة حفص بن حميد من الأولياء الصالحين من أهل حمود ومهريك، وفد عليه في جماعة من الصالحين يشكو ظلامة.

فلم يصغ إليهم فخرج حفص يدعو عليه، وهم يؤمنون فأصابته قرحة في أذنه عن قريب هلك منها في ذي الحجة سنة إحدى ومائتين لخمس سنين من ولايته.

أخوه زيادة الله

ولما توفي أبو العباس ولي مكانه أخوه زيادة الله، وجاءه التقليد من قبل المأمون، وكتب إليه يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابره فغضب من ذلك، وبعث مع الرسول بدنانير من سكة الأدارسة يعرض له بتحويل الدعوة.

ثم استأذنه قرابته في الحج وهم أخوه الأغلب وأبناء أخيه أبي العباس محمد وأبو محمد بهر وإبراهيم أبو الأغلب، فأذن لهم وانطلقوا لقضاء فرضهم فقضوه، وأقاموا بمصر حتى وقعت بين زيادة الله وبين الجند الحروب فاستقدمهم، واستوزر أخاه الأغلب وهاجت الفتن، واستولى كل رئيس بناحية فملكوها عليه كلها وزحفوا إلى القيروان فحصروه، وكان فاتحة الخلاف زياد بن سهل بن الصقلية، خرج سنة سبع ومائتين وجمع وحاصر مدينة باجة فسرح إليه العساكر فهزموه وقتلوا أصحابه.

ثم انتقض منصور الترمذي بطبنة، وسار إلى تونس فملكها وكان العامل عليها إسماعيل بن سفيان، وسفيان أخو الأغلب فقتله لتستخلص له طاعة الجند.

وسرح زيادة الله العساكر من القيروان مع غلبون ابن عمه ووزيره اسمه الأغلب بن عبد الله بن الأغلب وتهددهم بالقتل إن انهزموا فهزمهم منصور، وخشوا على أنفسهم ففارقوا الوزير غلبون، وافترقوا على إفريقية، واستولوا على باجة والجزيرة وصطفورة والأربس وغيرها.

واضطربت إفريقية، ثم اجتمعوا إلى منصور، وسار بهم إلى القيروان فملكها، وحاصره في العباسية أربعين يوماً، وعمروا سور القيروان الذي خربه إبراهيم بن الأغلب.

ثم خرج إليه زيادة الله فقاتله فهزمه، ولحق بتونس وخرب زيادة الله سور القيروان، ولحق قواد الجند بالبلاد التي تغلبوا عليها، فلحق منهم عامر بن نافع الأزرق بسبيبة.

وسرح زيادة الله سنة تسع ومائتين عسكراً مع محمد بن عبد الله بن الأغلب فهزمهم عامر وعادوا، ورجع منصور إلى تونس ولم يبق على طاعة زيادة الله من إفريقية إلا تونس

والساحل طرابلس ونفزاوة.

وبعث الجند إلى زيادة الله بالأمان وأن يرتحل عن إفريقية، وبلغه أن عامر بن نافع يريد نفزاوة وأن برابرتها دعوه، فسرح إليهم مائتي مقاتل لمنع عامر بن نافع فرجّع عامراً عنها، وهزمه إلى قسطيلة ورجع، ثم هرب عنها واستولى سفيان على قسطيلة وضبطها، وذلك سنة تسع ومائتين، واسترجع زيادة الله قسطيلة والزاب وطرابلس واستقام أمره.

ثم وقعت الفتنة بين منصور الطبندي وبين عامر بن نافع، لأن منصوراً كان يحسده ويضغن عليه فاستمال عامراً الجند وحاصره بقصره بطبندة حتى استأمن إليه على أن يركب إلى الشرق، وأجابه إلى ذلك وخرج منصور من طبندة منهزماً، ثم رجع فحاصره عامر حتى استأمن إليه ثانية على يد عبد السلام بن المفرج من قواد الجند، وأخذ له الأمان من عامر على أن يركب البحر إلى المشرق فأجابه عامر وبعثه مع ثقاته إلى تونس وأوصى ابنه، وكان يغريه أن يقتله إذا مر به فقتله، وبعث برأسه ورأس ابنه، وأقام عامر بن نافع بمدينة تونس إلى أن توفي سنة أربع عشرة.

ورجع عبد السلام بن المفرج إلى باجة فأقام بها إلى أن انتقض فضل بن أبي العين بجزيرة شريك سنة ثمان عشرة ومائتين، فسار إليه عبد السلام بن المفرج الربعي، وجاءت عساكر زيادة الله فقاتلوهما، وقتل عبد السلام، وانهزم فضل إلى مدينة تونس وامتنع بها، وحاصرته العساكر حتى اقتحموها عليه، وقتلوا كثيراً من أهلها وهرب آخرون حتى أمنهم زيادة الله وعادوا.

وفي سنة تسع عشرة ومائتين فتح أسد بن الفرات صقلية، كانت صقلية من عمالات الروم وأمرها راجع إلى صاحب قسطنطينية، وولى عليها سنة إحدى عشرة ومائتين بطريقاً اسمه قسنطيل، واستعمل على الأسطول قائداً من الروم حازماً شجاعاً فغزا سواحل إفريقية وانتهبها.

ثم بعد مدة كتب ملك الروم إلى قسنطيل يأمره بالقبض على مقدم الأسطول وقتله.

ونمى الخبر إليه بذلك فانتقض، وتعصب له أصحابه، وسار إلى مدينة سرقوسة من بلاد صقلية فملكها، وقاتله قسنطيل فهزمه القائد ودخل مدينة نطانية فأتبعه جيشاً أخذوه وقتلوه، واستولى القائد على صقلية فملكها وخوطب بالملك.

وولى على ناحية من الجزيرة رجلاً اسمه بلاطة، وكان ميخاييل ابن عم بلاطة على مدينة بليرم، فانتقض هو وابن عمه على القائد، واستولى بلاطة على مدينة سرقوسة، وركب القائد في أساطيله إلى إفريقية مستنجداً بزيادة الله، فبعث معهم العساكر واستعمل عليهم أسد بن الفرات قاضي القيروان فخرجوا في ربيع سنة اثنتي عشرة فنزلوا بمدينة مازر، وساروا إلى بلاطة ولقيهم القائد وجميع الروم الذين بها استمدهم فهزموا بلاطة والروم الذين معه، وغنموا أموالهم.

وهرب بلاطة إلى قلونرة فقتل، واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ووصلوا إلى قلعة الكرات، وقد اجتمع بها خلق كثير فخادعوا القاضي أسد بن الفرات في المراودة على الصلح وأداء الجزية، حتى استعدوا للحصار، ثم امتنعوا عليه فحاصرهم وبعث السرايا في كل ناحية، وكثرت الغنائم وحاصروا سرقوسة براً وبحراً، وجاءه المدد من إفريقية وحاصروا بليرم.

وزحف الروم إلى المسلمين وهم يحاصرون سرقوسة قد بعثوهم، واشتد حصار المسلمين بسرقوسة، ثم أصاب معسكرهم الفناء وهلك كثير منهم، ومات أسد بن الفرات أميرهم ودفن بمدينة قصريانة، ومعهم القائد الذي جاء يستنجدهم فخادعه أهل قصريانة وقتلوه، وجاء المدد من القسطنطينية فتصافوا مع المسلمين وهزموهم، ودخل فلهم إلى قصريانة.

ثم توفي محمد بن الحواري أمير المسلمين، وولي بعده زهير بن عوف.

ثم محض الله المسلمين فهزمهم الروم مرات وحصروهم في معسكرهم حتى جهدهم الحصار، وخرج من كان في كبركيب من المسلمين بعد أن هدموها وساروا إلى مازر، وتعذر عليهم الوصول إلى إخوانهم وأقاموا كذلك إلى سنة أربع عشرة إلى أن أشرفوا على الهلاك، فوصلت مراكب إفريقية مدداً وأسطول من الأندلس خرجوا للجهاد، واجتمع منهم ثلاثمائة مركب فنزلوا الجزيرة، وأفرج الروم عن حصار المسلمين وفتح المسلمون مدينة بليرم بالأمان سنة سبع عشرة ومائتين، ثم ساروا سنة تسع عشرة إلى مدينة قصريانة وهزموا الروم عليها سنة عشرين ومائتين، ثم بعثوا إلى طرميس.

ثم بعث زيادة الله الفضل بن يعقوب في سرية إن سرقوسة فغنموا، ثم سارت سرية أخرى واعترضها بطريق صقلية فامتنعوا منه في وعر وخمل من الشعراء، حتى يئس منهم وانصرف على غير طائل فحمل عليهم أهل السرية وانهزموا، وسقط البطريق عن فرسه فطعن وجرح، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب ومتاع.

ثم جهز زيادة الله إلى صقلية إبراهيم بن عبد الله بن

الأغلب في العساكر، وولاه أميراً عليها فخرج منتصف رمضان، وبعث أسطولاً فلقي أسطولاً للروم فغنمه، وقتل من كان فيه.

وبعث أسطولاً آخر إلى قصوره فلقي أسطولاً فغنمه وسارت سرية إلى جبل النار والحصون التي في نواحيها، وكثر السبي بأيدي المسلمين.

وبعث الأغلب سنة إحدى وعشرين أسطولاً نحو الجزائر فغنموا وعادوا.

وبعث سرية إلى قطلبانة وأخرى إلى قصريانة كان فيهما التمحيص على المسلمين.

ثم كانت وقعة أخرى كان فيها الظفر للمسلمين.

وغنم المسلمون من أسطولهم تسع مراكب، ثم عثر بعض المسلمين على عورة من قصريانة فدل المسلمين عليها، ودخلوا منها البلد، وتحصن المشركون بحصنه حتى استأمنوا وفتحه اللّه، وغنم المسلمون غنائمه، وعادوا إلى بليرم إلى أن وصلهم الخبر بوفاة زيادة اللّه فوهنوا أولاً، ثم انشطوا وعادوا إلى الصبر والجهاد وكانت وفاة زيادة اللّه منتصف سنة ثلاث وعشرين ومائتين لإحدى وعشرين سنة ونصف من ولايته.

أخوهما أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

ولما توفي زيادة اللّه بن إبراهيم تولى أخوه الأغلب، ويكنى أبا عقال فأحسن إلى الجند، وأزال المظالم وزاد العمال في أرزاقهم وكفهم عن الرعية! وخرج عليه بقسطيلة خوارج زواغة ولواتة ومكناسة وقتلوا عاملها بها، وبعث إليهم العساكر فقتلهم واستأصلهم.

وبعث سنة أربع وعشرين سرية إلى صقلية فغنموا وعادوا ظافرين.

وفي سنة خمس وعشرين استأمن للمسلمين عدة حصون من صقلية فأمنوهم، وفتحوها صلحاً وسار أسطول المسلمين إلى قلورية ففتحوها، ولقوا أسطول القسطنطينية فهزموهم.

وفي سنة ست وعشرين سارت سرايا المسلمين بصقلية إلى قصريانة، ثم حصن القيروان وأثخنوا في نواحيها كما نذكره.

ثم توفي الأغلب بن إبراهيم في ربيع من سنة ست وعشرين ومائتين لسنتين وسبعة أشهر من إمارته.

ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم

ولما توفي أبو عقال الأغلب ولي بعده ابنه أبو العباس ودانت له إفريقية، وشيد مدينة بقرب تاهرت وسماها العباسية وذلك سنة سبع وعشرين، وأحرقها أفلح بن عبد الوهاب بن رستم، وكتب إلى صاحب الأندلس يتقرب إليه بذلك فبعث إليه بمائة ألف درهم.

وفي أيامه ولي سحنون القضاء سنة أربع وثلاثين ومائتين بعد عزل ابن الجواد، وضربه سحنون فمات.

ومات سحنون سنة أربعين ومائتين، وثار عليه أخوه أبو جعفر وغلبه، ثم اتفقا على أن يستوزره فاستبد عليه، وقتل وزراءه ومكث على ذلك.

ثم أقام أبو العباس محمد بأمره واستبد سنة ثلاث وأربعين بعد أن استعد لذلك رجالاً، وحارب أخوه أبو جعفر فغلبه محمد وانتقض عليه وأخرجه من إفريقية إلى مصر سنة ست وأربعين ومائتين لستة عشر شهراً من ولايته.

ابنه أبو إبراهيم أحمد بن أبي العباس محمد

لما توفي أبو العباس محمد بن أبي عقال سنة اثنتين وأربعين، ولي مكانه ابنه أبو إبراهيم أحمد فأحسن السيرة وأكثر العطاء للجند، وكان مولعاً بالعمارة فبنى بإفريقية نحواً من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد، واتخذ العبيد جنداً وخرج عليه بناحية طرابلس خوارج من البربر فغلبهم عاملها، وهو يومئذ أخوه عبد اللّه بن محمد بن الأغلب، سرح إليهم أخاهما زيادة اللّه يحاربهم، واستلحمهم وكتب إلى أخيه أبي إبراهيم بالفتح.

وفي أيامه افتتحت قصريانة من مدن صقلية في شوال سنة أربع وأربعين، وبعث بفتحها إلى المتوكل، وأهدى له من سبيها.

ثم توفي إبراهيم هذا سنة تسع وأربعين لثمان سنين من ولايته.

ابنه زيادة الله الأصغر بن أبي إبراهيم بن أحمد

ولما توفي أبو إبراهيم ولي مكانه ابنه زيادة الله، ويعرف بزيادة الله الأصغر فجرى على سنن سلفه، ولم تطل أيامه.

وتوفي سنة خمسين لحول من ولايته.

أخوه أبو الغرانيق بن أبي إبراهيم بن أحمد

ولما توفي زيادة الله كما قدمناه ولي مكانه أخوه محمد ويلقب بأبي الغرانيق فغلب عليه اللّهو والشراب، وكانت في أيامه حروب وفتن.

وفتح جزيرة مالطة سنة خمس وخمسين.

وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية، وبنى محمد حصوناً ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة المغرب وهي الآن معروفة.

ثم توفي أبو الغرانيق منتصف إحدى وستين لإحدى عشرة سنة من ولايته.

بقية أخبار صقلية

وفي سنة ثمان وعشرين سار الفضل بن جعفر الهمداني في البحر ونزل مرسى مسينة وحاصرها فامتنعت عليه، وبث السرايا في نواحيها فغنموا.

ثم بعث طائفة من عسكره وجاؤوا إلى البلد من وراء جبل مطل عليه، وهم مشغولون بقتاله فانهزموا، وأعطوا باليد ففتحها.

ثم حاصر سنة اثنتين وثلاثين مدينة لسى، وكاتب أهلها بطريق صقلية يستمدونه فأجابهم وأعطاهم العلامة بإيقاد النار على الجبل.

وبلغ ذلك الفضل بن جعفر فأوقد النار على الجبل، وأكمن لهم من ناحيته فخرجوا واستطرد لهم حتى جاوزوا الكمين، فخرجوا عليهم، فلم ينج منهم إلا القليل، وسلموا البلد على الأمان.

وفي سنة ثلاث وثلاثين أجاز المسلمون إلى أرض أنكبردة من البر الكبير، وملكوا منها مدينة وسكنوها، وفي سنة أربع وثلاثين صالح أهل رغوس، وسلموا المدينة للمسلمين فهدموها بعد أن حملوا جميع ما فيها.

وفي سنة ثلاث وثلاثين توفي أمير صقلية محمد بن عبد اللّه بن الأغلب، واجتمع المسلمون بعده على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب بعد موت أميرهم.

وكتب له محمد بن الأغلب بعهده على صقلية، وكان من قبل يغزو ويبعث السرايا، وتأتيه الغنائم، ولما جاءه كتاب الولاية خرج بنفسه، وعلى مقدمته عمه رياح فعاث في نواحي صقلية، وردد البعوث والسرايا إلى قطانية وسرقوسة وبوطيف ورغوس فغنموا وخربوا وحرقوا، وافتتح حصوناً جمة، وهزم أهل قصريانة، وهي مدينة ملك صقلية.

وكان الملك قبله يسكن سرقوسة فلما فتحها المسلمون كما ذكرناه انتقل الملك إلى قصريانة.

وأخبر أن العباس كان يردد الغزو إلى نواحي سرقوسة وقصريانة شاتية وصائفة فيصيب منهم، ويرجع بالغنائم والأسارى.

فلما كان في شاتية منها أصاب منهم أسارى، وقدمهم للقتل فقال له بعضهم -وكان له قدر وهيبة-: استبقني وأنا أملكك قصريانة، ودلهم على عورة البلد فجاؤوها ليلاً، ووقفهم على باب صغير فدخلوا منه، فلما توسطوا البلد وضعوا السيف، وفتحوا الأبواب ودخل العباس في العسكر فقتل المقاتلة وسبى بنات البطارقة، وأصاب فيها ما يعجز الوصف عنه، وذل الروم بصقلية من يومئذ.

وبعث ملك الروم عسكراً عظيماً مع بعض بطارقته، وركبوا البحر إلى مرسى سرقوسة فجاءهم العباس من بليرم فقاتلهم وهزمهم، وأقلع فلهم إلى بلادهم بعد أن غنم المسلمون من أسطولهم ثلاثة أو أكثر، وذلك سنة سبع وثلاثين.

وافتتح بعدها كثيراً من قلاع صقلية، وجاء مدد الروم من القسطنطينية وهو يحاصر قلعة الروم فنزلوا سرقوسة، وزحف إليهم العباس من مكانه وهزمهم، ورجع إلى قصريانة فحصنها وأنزل بها الحامية.

ثم سار سنة سبع وأربعين إلى سرقوسة فغنم ورجع، واعتل في طريقه فهلك منتصف سنته، ودفن في نواحي سرقوسة، وأحرق النصارى شلوه وذلك لإحدى عشرة سنة من إمارته.

واتصل الجهاد بصقلية والفتح، وأجاز المسلمون إلى عدوة الروم في الشمال وغزوا أرض قلورية وانكبرده، وفتحوا فيها حصوناً وسكن بها المسلمون.

ولما توفي العباس اجتمع الناس على ابنه عبد الله وكتبوا إلى صاحب إفريقية، وبعث عبد الله السرايا ففتح القلاع، وبعد خمسة أشهر من ولايته وصل خفاجة بن سفيان من إفريقية على صقلية في منتصف ثمان وأربعين، وأخرج ابنه محموداً في سرية إلى سرقوسة فعاث في نواحيها، وخرج إليهم الروم فقاتلهم وظفر ورجع.

ثم فتح مدينة نوطوس سنة خمس وخمسين وسار إلى سرقوسة، وجبل النار، واستأمن إليه أهل طرميس، ثم غدروا فسرح ابنه محمداً في العساكر وسبى أهلها.

ثم سار خفاجة إلى رغوس وافتتحها، وأصابه المرض فعاد إلى بليرم.

ثم سار سنة ثلاث وخمسين إلى سرقوسة وقطانية فخرب نواحيها، وأفسد زرعها، وبعث سراياه في أرض صقلية فامتلأت أيديهم من الغنائم.

وفي سنة أربع وخمسين وصل بطريق من القسطنطينية لأهل صقلية فقاتله جمع من المسلمين وهزموه، وعاث خفاجة في نواحي سرقوسة ورجع إلى بليرم.

وبعث سنة خمس وخمسين ابنه محمداً في العساكر إلى طرميس وقد دله بعض العيون على بعض عوراتها فدخلوها وشرعوا في النهب.

وجاء محمد بن خفاجة من ناحية أخرى فظنوه مدداً للعدو فأجفلوا، ورآهم محمد مجفلين فرجع.

ثم سار خفاجة إلى سرقوسة فحاصرها وعاث في نواحيها، ورجع فاغتاله بعض عسكره في طريقه وقتله، وذلك سنة خمس وخمسين، وولى الناس عليهم ابنه محمداً وكتبوا إلى محمد بن أحمد أمير إفريقية فأقره على الولاية وبعث إليه بعهده.

إبراهيم بن أحمد أخو أبي الغرانيق

ولما توفي أبو الغرانيق ولي أخوه إبراهيم، وقد كان عهد لابنه أبي عقال، واستحلف أخاه إبراهيم أن لا ينازعه ولا يعرض له، بل يكون نائباً عنه إلى أن يكبر، فلما مات عدا عليه أهل القيروان وحملوه على الولاية عليهم، لحسن سيرته وعدله فامتنع ثم أجاب وترك وصية أبي الغرانيق في ولده أبي عقال، وانتقل إلى قصر الإمارة وقام بالأمر أحسن قيام.

وكان عادلاً حازماً فقطع البغي والفساد وجلس لسماع شكوى المتظلمين، فأمنت البلاد وبنى الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للنذير بالعدو فيتصل إيقادها بالإسكندرية في الليلة الواحدة وبنى سور سوسة.

وفي أيامه كان مسير العباس بن أحمد بن طولون مخالفاً على أبيه صاحب مصر سنة خمس وستين ومائتين فملك برقة من يد محمد بن قهرب قائد ابن الأغلب ثم ملك لبدة، ثم حاصر طرابلس واستمد ابن قهرب بقوسة فأمدوه ولقي العباس بن طولون بقصر حاتم سنة سبع وستين فهزمه، ورجع إلى مصر.

ثم خالفت وزداجة ومنعوا الرهن، وفعلت مثل ذلك هوارة، ثم لواتة، وقتل ابن قهرب في حروبهم فسرح إبراهيم ابنه أبا العباس عبد الله إليهم في العساكر سنة تسع وستين فأثخن فيهم.

وفي سنة ثمانين كثر الخوارج وفرق العساكر إليهم فاستقاموا، واستركب العبيد السودان واستكثر منهم فبلغوا ثلاثة آلاف.

وفي سنة إحدى وثمانين انتقل إلى سكنى تونس واتخذ بها القصور، ثم تحرك إلى مصر سنة ثلاث وثمانين لمحاربة ابن طولون، واعترضته نفوسة فهزمهم وأثخن فيهم.

ثم انتهى إلى سرت فانفضت عنه الحشود فرجع، وبعث ابنه أبا العباس عبد الله على صقلية سنة سبع وثمانين فوصل إليها في مائة وستين مركباً.

وحصر طرابة وانتقض عليه بليرم وأهل كبركيت، وكانت بينهم فتنة فأغراه كل واحد منهم بالآخرين، ثم اجتمعوا لحربه وزحف إليه أهل بليرم في البحر فهزمهم واستباحهم، وبعث جماعة من وجوهها إلى أبيه، وفر آخرون من أعيانهم إلى القسطنطينية وآخرون إلى طرميس فاتبعهم وعاث في نواحيها.

ثم حاصر أهل قطانية فامتنعوا عليه فأعرض عن قتال المسلمين.

وتجهز سنة ثمان وثمانين للغزو فغزا دمقش، ثم مسيني.

ثم جاء في البحر إلى ربو ففتحها عنوة وشحن مراكبه بغنائمها، ورجع إلى مسيني فهدم سورها، وجاء مدد القسطنطينية في المراكب فهزمهم وأخذ لهم ثلاثين مركباً.

ثم أجاز إلى عدوة الروم وأوقع بأمم الفرنجة من وراء البحر. ورجع إلى صقلية.

وجاء في هذه السنة رسول المعتضد بعزل الأمير إبراهيم

لشكوى أهل تونس به، فاستقدم ابنه أبا العباس من صقلية وارتحل هو إليها مظهراً لغربة الانتجاع.

هكذا قال ابن الرقيق.

وذكر أنه كان جائراً ظلوماً سفاكاً للدماء، وأنه أصابه آخر عمره ماليخوليا أسرف بسببها في القتل، فقتل من خدمه ونسائه وبناته ما لا يحصى.

وقتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به.

وافتقد ذات يوم منديلاً لشرابه، فقتل بسببه ثلاثمائة خادم.

وأما ابن الأثير فأثنى عليه بالعقل والعدل وحسن السيرة، وذكر أن فتح سرقوسة كان في أيامه على يد جعفر بن محمد أمير صقلية، وأنه حاصرها تسعة أشهر، وجاءهم المدد من قسطنطينية في البحر فهزمهم. ثم فتح البلد واستباحها.

واتفقوا كلهم على أنه ركب البحر من إفريقية إلى صقلية فنزل طرابنة، ثم تحول عنها إلى بليرم ونزل على دمقش وحاصرها سبعة عشر يوماً.

ثم فتح مسيني وهدم سورها.

ثم فتح طرميس آخر شعبان من سنة تسع وثمانين، ووصل ملك الروم بالقسطنطينية ففتحها.

ثم بعث حافده زيادة الله ابن ابنه أبي العباس عبد الله إلى قلعة بيقش فافتتحها، وابنه أبو محرز إلى رمطة فأعطوه الجزية.

ثم عبر إلى عدوة البحر وسار في بر الفرنج ودخل قلورية عنوة فقتل وسبى، ورهب منه الفرنجة.

ثم رجع إلى صقلية ورغب منه النصارى في قبول الجزية فلم يجب إلى ذلك.

ثم سار إلى كنسة فحاصرها واستأمنوا إليه فلم يقبل.

ثم هلك وهو محاصر لها آخر تسع وثمانين لثمان وعشرين سنة من إمارته، فولى أهل العسكر عليهم حافده أبا مضر ليحفظ العساكر والأمور، إلى أن يصل ابنه أبو العباس، وهو يومئذ بإفريقية، فأمن أهل كنسة قبل أن يعلموا بموت جده، وقبل منهم الجزية، وأقام قليلاً حتى تلاحقت به السرايا من النواحي.

ثم ارتحل وحمل جده إبراهيم فدفنه في بليرم، وقال ابن الأثير: حمله إلى القيروان فدفنه بها.

ظهور الشيعي بكتامة

وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعي بكتامة يدعو للرضا من آل محمد ويبطن الدعوة لعبيد الله المهدي من أبناء إسماعيل الإمام، واتبعه كتامة.

وهو من الأسباب التي دعته للتوبة والإقلاع والخروج إلى صقلية.

وبعث إليه موسى بن عياش صاحب صلة بالخبر، وبعث إبراهيم رسوله إلى الشيعي بأنكجان يهدده ويحذره فلم يقبل، وأجابه بما يكره.

فلما قربت أمور أبي عبد الله وجاء كتاب المعتضد لإبراهيم كما قدمناه أظهر التوبة، ومضى إلى صقلية، وكانت بعده بإفريقية حروب أبي عبد الله الشيعي مع قبائل كتامة حتى استولى عليهم واتبعوه، وكان إبراهيم قد أسر لابنه أبي العباس في شأن الشيعي ونهاه عن محاربته، وأن يلحق به إلى صقلية إن ظهر عليه.

ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم أخي محمد أبي الغرانيق

ولما هلك إبراهيم سنة تسع وثمانين كما قدمناه، قدم حافده زيادة الله بالجيوش على أبيه أبي العباس عبد الله فقام بأمر إفريقية، وعظم غناؤه، وكتب إلى العمال كتاباً يقرأ على الناس بالوعد الجميل والعدل والرفق والجهاد، واعتقل ابنه زيادة الله هذا لما بلغه عنه من اعتكافه على اللذات واللهو، وأنه يروم التوثب عليه، وولى على صقلية مكانه محمد بن السرقوسي، وكان أبو العباس حسن السيرة عادلاً بصيراً بالحروب، وكانت أيامه صالحة، وكان نزوله بتونس.

ولما توفي استولى أبو عبد الله الشيعي على كتامة ودخلوا في أمره كافة، وزحف إلى ميلة فافتتحها، وقتل موسى بن عياش.

وكان فتح بن يحيى أمير مسالة من كتامة حارب أبا عبد الله طويلاً، ثم غلبه واستولى على قومه، فنزع فتح إلى أبي العباس وحرضه على قتال يكزاخول، وإنما كان يكر على جفنة إذا نظر، وزحف إليه من تونس سنة تسع وثمانين ومائتين ودخل سطيف ثم بلزمة، وقتل من دخل في دعوتهم ولقيه أبو عبد الله الشيعي فانهزم وهرب من تاوزرت إن أنكجان، وهدم أبو خول قصر الشيعي، ثم قاتلهم يوماً إلى الليل، فانهزم عسكر أبي خول ولحق

بتونس، ورجع بكتامة إلى مواضعهم.

ولما دخل أبو خول بأبيه جدد له العسكر وأعاده ثانية، وانتظمت إليه القبائل، وسار حتى نزل سطيف.

ثم ارتحل منها إلى لقائهم، وزحف إليه أبو عبد الله فهزمه، ورجع إلى سطيف.

ثم ارتحل منها إلى لقائهم، وفي أثناء ذلك صانع زيادة الله بعض الخدم على قتل أبيه أبي العباس فقتل نائماً في شعبان سنة تسعين ومائتين، وأطلق زيادة الله من اعتقاله.

ابنه أبو مضر زيادة الله

ولما أطلق زيادة الله من الاعتقال اجتمع أهل الدولة وبايعوا له، فقتل الخصيان الذين قتلوا أباه، وأقبل على اللذات واللهو ومعاشرة المضحكين والصفاعين، وأهمل أمور الملك واستقل وكتب إلى أخيه أبي خول على لسان أبيه يستقدمه، وقدم فقتله وقتل عمومته وإخوته.

وقوي أمر الشيعي، وانتقل زيادة الله إلى رقادة ليلاً لئلا يخالفه الشيعي إليها.

وفتح الشيعي مدينة سطيف فسرح زيادة الله العساكر لحربه، وعقد عليها لإبراهيم بن حبيش من صنائعه، فخرج في أربعين ألفاً، وأقام بقسطيلة ستة أشهر، فاجتمعت إليه مائة ألف، وزحف إلى كتامة، وتلقوه بأجانة فاخترمت عساكره وولت الهزيمة عليه.

وانتهى إلى باغاية، ثم انتقل إلى القيروان وافتتح أبو عبد الله مدينة طبنة، وقتل فتح بن يحيى المسالتي وكان بها.

ثم فتح بلزمة وهدم سورها.

ثم وصل عروبة بن يوسف من أمراء كتامة إلى باغاية، وأوقع بالعساكر التي كانت بها مجمرة لحربهم بنظر هارون بن الطبني.

وأرسل أبو عبد الله الشيعي إلى تيجسن فحاصرها، ثم افتتحها صلحاً، وكثر الأرجاف بالقيروان ففتح زيادة الله ديوان العطاء، واستلحق واستركب وأجمع الخروج فخرج إلى الأربس سنة خمس وتسعين، فلما انتهى إليها تخوف غائلة الشيعي، وأشار عليه أهل بيته بالرجوع فرجع إلى رقادة، وقدم على العساكر إبراهيم بن أبي الأغلب من وجوه أهل بيته.

ثم زحف أبو عبد الله إلى باغاية ففتحها صلحاً وهرب عاملها.

ثم سرّب أبو عبد الله الجيوش فبلغت مجانة، وأوقعوا بقبائل نفزة، واستولوا على تيفاش.

وزحف ابن أبي الأغلب إلى تيفاش فمنعه أهلها، وهزموا طلائعه فافتتحها، وقتل من كان بها.

ثم خرج أبو عبد الله الشيعي في عساكر كتامة إلى باغاية ثم إلى سكاية، ثم إلى سبيبة، ثم إلى حمودة فاستولى على جميعها، وأمن أهلها ورحل ابن أبي الأغلب من الأربس.

ثم سار أبو عبد الله إلى قسطيلة وقفصة فأمنهم، ودخلوا في دعوته، وانصرف إلى باغاية، ثم إلى أنكجان.

وزحف ابن أبي الأغلب إلى باغاية فقاتلها، وامتنعت عليه ورجع إلى الأربس.

ثم زحف أبو عبد الله إلى الأربس سنة ست وتسعين في جمادى، ومر بشق بنارية، وأمن أهلها إلى قمودة.

خروج زيادة الله إلى المشرق

ولما وصل الخبر إلى زيادة الله بوصول الشيعي إلى قمودة، حمل أمواله وأثقاله ولحق بطرابلس معتزماً على الشرق.

وأقبل الشيعي إلى إفريقية، وفي مقدمته عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير، ووصل إلى رقادة في رجب سنة ست وتسعين ومائتين وتلقاه أهل القيروان وبايعوا لعبيد الله المهدي كما ذكرناه في أخبارهم ودولتهم.

وأقام زيادة الله بطرابلس سبعة عشر يوماً، وانصرف ومعه إبراهيم بن الأغلب، وكان نمي عنه أنه أراد الاستبداد لنفسه بالقيروان بعد خروج زيادة الله فأعرض عنه، واطرحه، وبلغ مصر فمنعه عاملها عيسى البرشدي من الدخول إلا عن أمر الخليفة، وأنزله بظاهر البلد ثمانية أيام وانصرف إلى ابن الفرات وزير المقتدر يستأذن له في الدخول فأتاه كتابه بالمقام في الرقة حتى يأتيه رأي المقتدر فأقام بها سنة.

ثم جاءه كتاب المقتدر بالرجوع إلى إفريقية.

وأمر النوشزي بإمداده بالرجال والمال لاسترجاع الدعوة بإفريقية، ووصل إلى مصر فأصابته بها علة مزمنة، وسقط شعره.

ويقال إنه سم وخرج إلى بيت المقدس ومات بها.

وتفرق بنو الأغلب وانقطعت أيامهم والبقاء لله وحده.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

بقية أخبار صقلية ودولة بني أبي الحسن الكلبيين بها من العرب المستبدين بدعوة العبيديين وبداية أمرهم وتصاريف أحوالهم

ولما استولى عبيد الله المهدي على إفريقية ودانت له، وبعث العمال في نواحيها، بعث على جزيرة صقلية الحسن بن محمد بن أبي خنزير من رجالات كتامة، فوصل إلى مازر سنة سبع وتسعين ومائتين في العساكر، فولى أخاه على كبركيت، وولى على القضاء بصقلية إسحاق بن المنهال، ثم سار سنة ثمان وتسعين ومائتين فى العساكر إلى ومش، فعاث فى نواحيها ورجع.

ثم شكا أهل صقلية سوء سيرته وثاروا به وحبسوه، وكتبوا إلى المهدي معتذرين، فقبل عذرهم وولى عليهم أحمد بن قهرب.

وبعث سرية إلى أرض قلورية فدوخوها ورجعوا بالغنائم والسبي.

ثم أرسل سنة ثلاثمائة ابنه علياً إلى قلعة طرمين المحدثة ليتخذها حصناً لحاشيته وأمواله، حذراً من ثورة أهل صقلية، فحصرها ابنه ستة أشهر.

ثم اختلف عليه العسكر فأحرقوا خيامه، وأرادوا قتله فمنعه العرب، ودعا هو الناس إلى طاعة المقتدر فأجابوه.

وقطع خطبة المهدي وبعث الأسطول إلى إفريقية، ولقوا أسطول المهدي وقائده الحسن بن أبي خنزير فقتلوه، وأحرقوا الأسطول.

وسار أسطول بن قهرب إلى صفاقس فخربوها وانتهوا إلى طرابلس، وانتهى الخبر إلى القائم بن المهدي ثم وصلت الخلع والألوية من المقتدر إلى ابن قهرب، ثم بعث الجيش في الأسطول إلى قلورية فعاثوا في نواحيها ورجعوا، ثم بعث ثانية أسطولاً إلى إفريقية فظفر به أسطول المهدي فانتقض أمره، وعصى عليه أهل كبركيت، وكاتبوا المهدي.

ثم ثار الناس بابن قهرب آخر الثلاثمائة وحبسوه، وأرسلوه إلى المهدي فأمر بقتله على قبر ابن خنزير في جماعة من خاصته.

وولى على صقلية أبا سعيد بن أحمد، وبعث معه العساكر من كتامة فركب إليها البحر فنزل في طرابنة، وعصى عليه أهل صقلية بمن معه من العساكر فامتنعوا عليه، وقاتله أهل كبركيت وأهل طرابنة فهزمهم وقتلهم.

ثم استأمن إليه أهل طرابنة فأمنهم وهدم أبوابها، وأمره المهدي بالعفو عنهم.

ثم ولى المهدي على صقلية سالم بن راشد، وأمده سنة ثلاث عشرة بالعساكر فعبر البحر إلى أرض إنكبردة فدوخها، وفتحوا فيها حصوناً ورجعوا.

ثم عادوا إليها ثانية وحاصروا مدينة أدرنت أياماً ورحلوا عنها.

ولم يزل أهل صقلية يغيرون على ما بأيدي الروم من جزيرة صقلية وقلورية، ويعيثون في نواحيها.

وبعث المهدي سنة اثنتين وعشرين جيشاً في البحر مع يعقوب بن إسحاق، فعاث في نواحي جنوة ورجعوا.

ثم بعث جيشه من قابل ففتحوا مدينة جنوة، ومروا بسردانية فأحرقوا فيها مراكب وإنصرفوا.

ولما كانت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة انتقض أهل كبركيت على أميرهم سالم بن راشد وقاتلوا جيشه، وخرج إليهم سالم بنفسه فهزمهم وحصرهم ببلدهم.

واستمد القائم فأمده بالعساكر مع خليل بن إسحاق، فلما وصل إلى صقلية شكا إليه أهلها من سالم بن راشد واسترحمته النساء والصبيان.

وجاءه أهل كبركيت وغيرها من أهل صقلية بمثل ذلك فرق لشكواهم، ودس إليهم سالم بأن خليلاً إنما جاء للانتقام منهم بمن قتلوا من العسكر فعاودوا الخلاف، واختط خليل مدينة على مرسى المدينة، وسماها الخالصة.

وتحقق بذلك أهل كبركيت ما قال لهم سالم، واستعدوا للحرب، فسار إليهم خليل منتصف ست وعشرين وحصرهم ثمانية أشهر يغاديهم بالقتال ويراوحهم، حتى إذا جاء الشتاء رجع إلى الخالصة، واجتمع أهل صقلية على الخلاف، واستمدوا ملك القسطنطينية فأمدهم بالمقاتلة والطعام.

واستمد خليل القائم فأمده بالجيش فافتتح قلعة أبي ثور وقلعة البلوط، وحاصر قلعة بلاطنو إلى أن انقضت سنة سبع وعشرين فارتحل عنها وحاصر كبركيت.

ثم حبس عليها عسكراً للحصار مع أبي خلف بن هارون ورحل عنها، وطال حصارها إلى سنة تسع وعشرين فهرب كثير من أهل البلد إلى بلد الروم واستأمن الباقون فأمنهم على النزول

عن القلعة.

ثم غدر بهم فارتاع لذلك سائر القلاع وأطاعوا ورجع خليل إلى إفريقية آخر سنة تسع وعشرين وحمل معه وجوه أهل كبركيت في سفينة، وأمر بخرقها في لجة البحر فغرقوا أجمعين.

ثم ولى على صقلية عطاف الأزدي، ثم كانت فتنة أبي يزيد، وشغل القائم والمنصور بأمره، فلما انقضت فتنة أبي يزيد عقد المنصور على صقلية للحسن بن أبي الحسن الكلبي من صنائعهم ووجوه قواده وكنيته أبو الغنائم، وكان له في الدولة محل كبير وفي مدافعة أبي يزيد غناء عظيم.

وكان سبب ولايته أن أهل بليرم كانوا قد استضعفوا عطافاً واستضعفهم العدو لعجزه، فوثب به أهل المدينة يوم الفطر من سنة خمس وثلاثين، وتولى كبر ذلك بنو الطير منهم.

ونجا عطاف إلى الحصن وبعث للمنصور يعلمه ويستمده، فولى الحسن بن علي على صقلية وركب البحر إلى مازر، وأرسى بها فلم يلقه أحد منهم.

وأتاه في الليل جماعة من كتامة واعتذروا إليه عن الناس بالخوف من بني الطير.

وبعث بنو الطير عيونهم عليه واستضعفوه وواعدوه أن يعودوا إليه فسبق ميعادهم ودخل المدينة، ولقيه حاكم البلد وأصحاب الدواوين واضطر بنو الطير إلى لقائه، وخرج إليهم كبيرهم إسماعيل ولحق به من انحرف عن بني الطير، فكثر جمعه.

ودس إسماعيل بعض غلمانه، فاستغاث بالحسن من بعض عبيده أنه أكره امرأته على الفاحشة، يعتقد أن الحسن لا يعاقب مملوكه، فتخشن قلوب أهل البلد عليه.

وفطن الحسن لذلك فدعا الرجل واستحلفه على دعواه، وقتل عبده فسر الناس بذلك، ومالوا عن الطيري وأصحابه، وافترق جمعهم وضبط الحسن أمره، وخشي الروم بادرته فدفعوا إليه جزية ثلاث سنين.

وبعث ملك الروم بطريقاً في البحر في عسكر كبير إلى صقلية، واجتمع هو والسردغرس.

واستمد الحسن بن علي المنصور فأمده بسبعة الآف فارس وثلاثة الآف وخمسمائة راجل، وجمع الحسن من كان عنده وسار براً وبحراً.

وبعث السرايا في أرض قلورية، ونزل على أبراجه فحاصرها وزحف إليه الروم فصالحه على مال أخذه، وزحف إلى الروم ففروا من غير حرب.

ونزل الحسن على قلعة قيشانة فحاصرها شهراً وصالحهم على مال ورجع بالأسطول إلى مسينى فشتى بها.

وجاءه أمر المنصور بالرجوع إلى قلورية فعبر إلى خراجة فلقي الروم والسردغرس فهزمهم، وامتلأ من غنائمهم، وذلك يوم عرفة سنة أربعين وثلاثمائة.

ثم سار إلى خراجة فحاصرها حتى هادنه ملك الروم قسطنطين.

ثم عاد إلى ربو وبنى بها مسجداً وسط المدينة، وشرط على الروم أن لا يعرضوا له، وأن من دخله من الأسرى أمن.

ولما توفي المنصور وملك ابنه المعز سار إليه الحسن، واستخلف على صقلية ابنه أحمد، وأمره المعز بفتح القلاع التي بقيت للروم بصقلية فغزاها، وفتح طرمين وغيرها سنة إحدى وخمسين، وأعيته رمطة فحاصرها فجاءها من القسطنطينية أربعون ألفاً مدداً.

وبعث أحمد يستمد المعز فبعث إليه المدد بالعساكر والأموال مع أبيه الحسن.

وجاء مدد الروم فنزلوا بمرسى مسينة وزحفوا إلى رومطة، ومقدم الجيوش على حصارها الحسن بن عمار وابن أخي الحسن بن علي فأحاط الروم بهم.

وخرج أهل البلد إليهم وعظم الأمر على المسلمين فاستماتوا وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منويل فسقط عن فرسه، وقتل جماعة من البطارقة معه.

وانهزم الروم وتبعهم المسلمون بالقتل، وامتلأت أيديهم من الغنائم والأسرى والسبي.

ثم فتحوا رمطة عنوة وغنموا ما فيها، وركب فل الروم من صقلية وجزيرة رفق في الأسطول ناجين بأنفسهم، فأتبعهم الأمير أحمد في المراكب فحرقوا مراكبهم، وقتل كثير منهم، وتعرف هذه الوقعة بوقعة المجاز، وكانت سنة أربع وخمسين وأسر فيها ألف من عظمائهم ومائة بطريق.

وجاءت الغنائم والأسارى إلى مدينة بليرم، حاضرة صقلية، وخرج الحسن للقائهم، فأصابته الحمى من الفرح فمات، وحزن الناس عليه، وولي ابنه أحمد باتفاق أهل صقلية بعد أن ولى المعز عليهم يعيش مولى الحسن فلم ينهض بالأمر، ووقعت الفتنة بين كتامة والقبائل، وعجز عن تسكينها.

وبلغ الخبر إلى المعز فولى عليها أبا القاسم علي بن الحسن نيابة عن أخيه أحمد.

ثم توفي أحمد بطرابلس سنة تسع وخمسين واستبد بالإمارة أخوه أبو القاسم علي، وكان مدلاً محباً.

وسار إليه سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ملك الفرنج في جموع عظيمة، وحصر قلعة رمطة وملكها، وأصاب سرايا المسلمين.

وسار الأمير أبو القاسم في العساكر من بليرم يريدهم، فلما قاربهم خاف من اللقاء ورجع، وكان الفرنج في الأسطول يعاينونه فبعثوا بذلك للملك بردويل فسار في اتباعه وأدركه فاقتتلوا، وقتل أبو القاسم في الحرب.

وأهم المسلمين أمرهم فاستماتوا، وقاتلوا الفرنج فهزموهم أقبح هزيمة، ونجا بردويل إلى خيامه برأسه، وركب البحر إلى رومة.

وولى المسلمون عليهم بعد الأمير أبي القاسم ابنه جابر فرحل بالمسلمين لوقته راجعاً، ولم يعرج على الغنائم.

وكانت ولاية الأمير أبي القاسم اثنتي عشرة سنة ونصفاً. وكان عادلاً حسن السيرة.

ولما ولي ابن عمه جعفر بن محمد بن علي بن أبي الحسن، وكان من وزراء العزيز وندمائه استقامت الأمور، وحسنت الأحوال، وكان يحب أهل العلم ويجزل الهبات لهم.

وتوفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وولي أخوه عبد اللّه فاتبع سيرة أخيه إلى أن توفي سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وولي إبنه ثقة الدولة أبو الفتوح يوسف بن عبد اللّه بن محمد بن علي بن أبي الحسن، فأنسى بجلائله وفضائله من كان قبله منهم إلى أن أصابه الفالج، وعطل نصفه الأيسر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة.

وولي ابنه تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة يوسف، فضبط الأمور وقام بأحسن قيام وخالف عليه أخوه علي سنة خمس وأربعمائة مع البربر والعبيد، فزحف إليه جعفر فظفر به وقتله، ونفى البربر والعبيد، واستقامت أحواله.

ثم انقلبت حاله واختلت على يد كاتبه ووزيره حسن بن محمد الباغاني فثار عليه الناس بسببها، وجاؤوا حول القصر، وأخرج إليهم أبو الفتوح في محفة فتلطف بالناس، وسلم إليهم الباغاني فقتلوه، وقتلوا حافده أبا رافع، وخلع ابنه ابن جعفر، ورحل إلى مصر، وولى ابنه ابن جعفر سنة عشرة وأربعمائة ولقبه بأسد الدولة بن تاج الدولة.

ويعرف بالأكحل فسكن الاضطراب واستقامت الأحوال، وفوض الأمور إلى ابنه ابن جعفر وجعل مقاليد الأمور بيده فأساء ابن جعفر السيرة، وتحامل على صقلية ومال إلى أهل إفريقية.

وضج الناس وشكوا أمرهم إلى المعز صاحب القيروان، وأظهروا دعوته، فبعث الأسطول فيه ثلاثمائة فارس مع ولديه عبد اللّه وأيوب، واجتمع أهل صقلية وحصروا أميرهم الأكحل، وقتل وحمل رأسه إلى المعز سنة سبع عشرة وأربعمائة.

ثم ندم أهل صقلية على ما فعلوه وثاروا بأهل إفريقية، وقتلوا منهم نحواً من ثلاثمائة وأخرجوهم.

وولوا الصمصام أخا الأكحل فاضطربت الأمور، وغلب السفلة على الأشراف.

ثم ثار أهل بليرم على الصمصام وأخرجوه، وقدموا عليهم ابن الثمنة من رؤوس الأجناد، وتلقب القادر باللّه واستبد بمازر ابنه عبد اللّه قبل الصمصام، وغلب ابن الثمنة على ابن الأكحل فقتله واستقل بملك الجزيرة إلى أن أخذت من يده.

ولما استبد ابن الثمنة بصقلية تزوج ميمونة بنت الجراس، فتخيل له منها شيء فسقاها السم.

ثم تلافاها وأحضر الأطباء فأنعشوها، وأفاقت فندم واعتذر فأظهرت له القبول، واستأذنته في زيارة أخيها بقصريانة، وأخبرت أخاها فحلف أن لا يردها، ووقعت الفتنة.

وحشد ابن الثمنة فهزمه ابن جراس فانتصر ابن الثمنة بالروم.

وجاء القمص وجاز ابن ينقر بن خبرة ومعه سبعة من إخوته وجمع من الإفرنج ووعدهم بملك صقلية فداخل في بيع مية.

وقصد قصريانة وحكموا على مروا من المنازل، وخرج ابن جراس فهزمه ورجع إلى إفريقية عمر بن خلف بن مكي فنزل تونس، وولي قضاءها.

ولم يزل الروم يملكونها حتى لم يبق إلا المعاقل.

وخرج ابن الجراس بأهله وماله صلحاً سنة أربع وستين وأربعمائة.

وتملكها رجار كلها وانقطعت كلمة الإسلام منها ودولة الكلبيين وهم عشرة ومدتهم خمس وتسعون سنة.

ومات رجار في قلعة مليطو من أرض قلورية سنة أربع وتسعين، وولي ابنه رجار الثاني وطالت أيامه.

وله ألف الشريف أبو عبد اللّه الإدريسي كتاب «نزهة المشتاق في أخبار الآفاق» وسماه قصار رجار علماً عليه معروفاً به في الشهرة واللّه مقدر الليل والنهار.

الخبر عن جزيرة إقريطش وما كان بها للمسلمين من الملك على يد بني البلوطي إلى أن استرجعها العدو

هذه الجزيرة من جزر البحر الرومي ما بين صقلية وقبرس في مقابلة الإسكندرية على يد الجالية أهل الربض.

وذلك أن أهل الربض الغربي من قرطبة، وكان محلة متصلة بقصر الحكم بن هشام فنقموا عليه وثاروا به سنة اثنتين ومائتين، فأوقع بهم الوقعة المشهورة واستلحمهم، وهدم ديارهم ومساجدهم، وأجلى الفل منهم إلى العدوة، ونزلوا بفاس وغيرها.

وغرب آخرين إلى الإسكندرية فنزلوا وافترقوا في جوانبها.

وتلاحى رجل منهم مع جزار من سوقة الإسكندرية فنادوا بالثأر، واستلحموا كثيراً من أهل البلد وأخرجوا بقيتهم وامتنعوا بها، وولوا عليهم أبا حفص عمر بن شعيب البلوطي ويعرف بأبي الفيض من أهل قرية مطروح، من عمل فحص البلوط المجاور لقرطبة فقام برياستهم.

وكان على مصر يومئذ عبد اللّه بن طاهر فزحف إليهم، وحصرهم بالإسكندرية فاستأمنوا له فأمنهم وبعثهم إلى جزيرة أقريطش فعمروها وأميرهم أبو حفص البلوطي.

وتداولها بنوه من بعده مدة من مائة وأربعين سنة إلى أن ملكها أريانوس بن قسطنطين ملك القسطنطينية من يد عبد العزيز بن شعيب من أعقابه سنة خمس وثلاثمائة، وأخرجوا المسلمين منها واللّه يعيد الكرة ويذهب آثار الكفرة، واللّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أخبار اليمن والدول الاسلامية التي كانت فيه للعباسيين والعبيديين وسائر ملوك العرب وابتداء ذلك وتصاريفه على الجملة ثم تفصيل ذلك على مدنه وممالكه واحدة بعد واحدة

قد كنا قدمنا في أخبار السير النبوية كيف صار اليمن في ملكة الإسلام بدخول عامله في الدعوة الإسلامية، وهو باذان عامل كسرى، وأسلم معه أهل اليمن.

وأمرّه النبي ﷺ على جميع مخاليفها، وكان منزله صنعاء كرسي التبابعة.

ولما مات بعد حجة الوداع قسم النبي ﷺ اليمن على عمال من قبله، وجعل صنعاء لابنه شهربان بن باذان.

وذكرنا خبر الأسود العنسي، وكيف أخرج عمال النبي ﷺ من اليمن وزحف إلى صنعاء فملكها.

وقتل شهربان بن باذان وتزوج إمرأته واستولى على أكثر اليمن، وارتد أكثر أهله.

وكتب النبي ﷺ إلى أصحابه وعماله وإلى من ثبت على إسلامه فداخلوا زوجة شهربان بن باذان التي تزوجها في أمره، على يد ابن عمها فيروز.

وتولى كبر ذلك قيس بن عبد يغوث المرادي، فبيّته هو وفيروز وذاذويه بإذن زوجته فقتلوه.

ورجع عمال النبي ﷺ إلى أعمالهم، وذلك قبيل الوفاة.

واستبد قيس بصنعاء وجمع الفل من جند الأسود فولى أبو بكر على اليمن فيروز فيمن إليه من الأبناء، وأمر الناس بطاعته فقاتل قيس بن مكشوح وهزمه ثم ولى أبو بكر المهاجر بن أبي أمية فقاتل أهل الردة باليمن، وكذلك عكرمة بن أبي جهل، وأمره أن يبدأ بالمرتده ثم دعته عائشة، فسار معها وحضر حرب الجمل.

وولي على اليمن عبيد اللّه بن عباس، ثم أخاه عبد اللّه.

ثم ولى معاوية على صنعاء فيروز الديلمي، ومات سنة ثلاث وخمسين.

ثم جعل عبد الملك اليمن في ولاية الحجاج لما بعثه لحرب ابن الزبير سنة اثنتين وسبعين.

ولما جاءت دولة بني العباس، ولى السفاح على اليمن عمه داود بن علي حتى إذا توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة، ولى مكانه محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد الملك عبد الدار.

ثم تعاقب الولاة على اليمن، وكانوا يـنزلون صنعاء حتى انتهت الخلافة إلى المأمون، وظهرت دعاة الطالبيين بالنواحي، وبايع أبو السرايا من بني شيبان بالعراق لمحمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم أخو المهدي، النفس الزكية، محمد بن عبد الله بن حسن.

وكثر الهرج وفرق العمال في الجهات، ثم قتل وبويع محمد بن جعفر الصادق بالحجاز.

وظهر باليمن إبراهيم بن موسى الكاظم سنة مائتين، ولم يتم أمره، وكان يعرف بالجزار لسفكه الدماء وبعث المأمون عساكره إلى اليمن فدوخوا نواحيه وحملوا كثيراً من وجوه الناس فاستقام أمر اليمن كما نذكره.

دعوة زياد بالدعوة العباسية

ولما وفد وجوه أهل اليمن على المأمون، كان فيهم محمد زياد ولد عبد اللّه بن زياد بن أبي سفيان فاستعطف المأمون وضمن له حياطة اليمن من العلويين فوصله، وولاه على اليمن، وقدمها سنة ثلاث ومائتين.

وفتح تهامة اليمن وهي البلد التي على ساحل البحر الغربي، واختط بها مدينة زبيد، ونزلها وأصارها كرسياً لتلك المملكة، وولى على الجبال مولاه جعفراً، وفتح تهامة بعد حروب من العرب، واشترط على عرب تهامة أن لا يركبوا الخيل، واستولى على اليمن أجمع، ودخلت في طاعته أعمال حضرموت والشحر وديار كندة، وصار في مرتبة التبابعة.

وكان في صنعاء قاعدة اليمن بنو جعفر من حمير بقية الملوك التبابعة استبدوا بها مقيمين بالدعوة العباسية، ولهم مع صنعاء سحان ونجران وجرش.

وكان أخوهم أسعد بن يعفر، ثم أخوه قد دخلوا في طاعة ابن زياد، وولي بعده ابنه إبراهيم ثم ابنه زياد بن إبراهيم، ثم أخوه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم، وطالت مدته إلى أن أسن وبلغ الثمانين.

وقال عمارة: ملك ثمانين سنة باليمن وحضرموت والجزائر البحرية، ولما بلغه قتل المتوكل وخلع المستعين، واستبداد الموالي على الخلفاء مع ارتفاع اليمن ركب بالمظلة شأن سلاطين العجم المستبدين.

وفي أيامه خرج باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن طباطبا بدعوة الزيدية، جاء بها من السند، وكان جده القاسم قد فر إلى السند بعد خروج أخيه محمد مع أبي السرايا، ومهلكه كما مر فلحق القاسم بالسند.

وأعقب بها الحسين ثم ابنه يحيى باليمن سنة ثمان وثمانين، ونزل صعدة وأظهر دعوة الزيدية، وزحف إلى صنعاء فملكها من يد أسعد بن يعفر، ثم استردها منه بنو أسعد ورجع إلى صعدة.

وكان شيعته يسمونه الإمام، وعقبه الآن بها، وقد تقدم خبرهم.

وفي أيام أبي الجيش بن زياد أيضاً ظهرت دعوة العبيديين باليمن، فأقام بها محمد بن الفضل بعدن لاعة وجبال اليمن إلى جبال المديخرة سنة أربعين وثلاثمائة.

وبقي له باليمن من السرجة إلى عدن عشرون مرحلة، ومن مخلافة إلى صنعاء خمس مراحل.

ولما غلبه محمد بن الفضل بهذه الدعوة امتنع أصحاب الأطراف عليه، مثل بني أسعد بن يعفر بصنعاء، وسليمان بن طرف بعثر، والإمام الرسي بصعدة فسلك معهم طريق المهادنة.

ثم هلك أبو الجيش سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة بعد أن اتسعت جبايته وعظم ملكه.

قال ابن سعيد: رأيت مبلغ جبايته وهو ألف ألف مكررة مرتين، وثلاثمائة ألف وستة وستون ألفاً من الدنانير العشرية ما عدا ضرائبه على مراكب السند، وعلى العنبر الواصل بباب المندب وعدن أبين، وعلى مغائص اللؤلؤ، وعلى جزيرة دهلك، ومن بعضها وصائف.

وكانت ملوك الحبشة من وراء البحر يهادونه ويخطبون مواصلته.

ولما مات خلف صبياً صغيراً اسمه عبد اللّه، وقيل: إبراهيم وقيل: زياد، وكفلته أخته ومولاه رشيد الحبشي واستبد عليهم إلى أن انقرضت دولتهم سنة سبع وأربعمائة، ثم هلك هذا الطفل، فولوا طفلاً آخر من بني زياد أصغر منه.

وقال ابن سعيد: لم يعرف عمارة إسمه لتوالي الحجبة عليه، ويعني عمارة مؤرخ اليمن، وقيل: هذا الطفل الأخير اسمه إبراهيم، وكفلته عمته ومرجان من موالي الحسن بن سلامة.

واستبد بأمرهم ودولتهم، وكان له موليان اسم أحدهما قيس، والآخر نجاح، فجعل الطفل المملك في كفالته وأنزله معه بزبيد، وولى نجاحاً على سائر الأعمال خارج زبيد ومنها الكرارة واللجم.

كان يؤثر قيساً على نجاح، ووقع بينهما تنافر، ورفع لقيس أن عمة الطفل تميل إلى نجاح وتكاتبه دونه فقبض عليها بإذن مولاه مرجان ودفنها حية، واستبد وركب بالمظلة، وضرب السكة، وانتقض نجاح لذلك فزحف في العساكر وبرز قيس للقائه، فكانت بينهما حروب ووقائع، انهزم قيس في آخرها وقتل في خمسة آلاف من عسكره.

وملك نجاح زبيد سنة عشرة وأربعمائة ودفن قيساً ومولاه مرجاناً مكان الطفل والعمة، واستبد وضرب السكة باسمه، وكاتب ديوان الخلافة ببغداد فعقد له على اليمن.

ولم يزل مالكاً لتهامة قاهراً لأهل الجبال، وانتزع الجبال كلها من مولاه الحسن بن سلامة.

ولم تزل الملوك تتقي صولته إلى أن قتله علي الصليحي القائم بدعوة العبيديين على يد جارية بعث بها إليه سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة، فقام بالأمر بعده بزبيد مولاه كهلان.

ثم استولى الصليحي على زبيد وملكها من يده كما يذكر.

الخبر عن بني الصليحي القائمين بدعوة العبيديين باليمن

كان القاضي محمد بن علي الهمداني ثم الصليحي رئيس حران من بلاد همذان، وينتسب في بني يام، ونشأ له ولد اسمه علي، وكان صاحب الدعوة يومئذ عامر بن عبد الله الزوايي نسبة إلى زواية من قرى حران، ويقال: إنه كان عنده كتاب «الجعفر» من ذخائر أبيهم بزعمهم، فزعموا أن علي ابن القاضي محمد مذكور فيه، فقرأ على علي عامل الداعي، وأخذ عنه، ولما توسم فيه الأهلية أراه مكان إسمه في «الجفر» وأوصافه، وقال لأبيه القاضي: احتفظ بابنك فيملك جميع اليمن.

ونشأ فقيهاً صالحاً، وجعل يحج بالناس على طريق الطائف والسروات خمس عشرة سنة فطار ذكره، وعظمت شهرته، وألقى على ألسنة الناس أنه سلطان اليمن، ومات الداعي عامر الزوايي، فأوصى له بكتبه، وعهد إليه بالدعوة.

ثم حج بالناس سنة ثمان وعشرين وأربعمائة على عادته، واجتمع بجماعة من قومه همدان كانوا معه، فدعاهم إلى النصرة والقيام معه فأجابوه وبايعوه، وكانوا ستين رجلاً من رجالات قومهم، فلما عادوا قام في مسار وهو حصن بذروة جبل حمام، وحصن ذلك الحصن، ولم يزل أمره ينمى.

وكتب إلى المستنصر صاحب مصر يسأله الإذن في إظهار الدعوة فأذن له، وأظهرها وملك اليمن كله.

ونزل صنعاء واختط بها القصور وأسكن عنده ملوك اليمن الذين غلب عليهم، وهزم بني طرف ملوك عثرة وتهامة، وأعمل الحيلة في قتل نجاح مولى بني زياد ملك زبيد، حتى تم له ذلك على يد جارية أهداها إليه كما ذكرناه سنة اثنتين وخمسين.

ثم سار إلى مكة بأمر المستنصر صاحب مصر ليمحو منها الدعوة العباسية والأمارة الحسنية.

واستخلف على صنعاء ابنه المكرم أحمد، وحمل معه زوجته أسماء بنت شهاب، قد سباها سعيد بن نجاح ليلة البيات فكتبت إلى ابنها المكرم: إني حبلى من العبد الأحول فأدركني قبل أن أضع، وإلا فهو العار الذي لا يمحوه الدهر، فسار المكرم من صنعاء سنة خمس وسبعين في ثلاثة آلاف، ولقي الحبشة في عشرين ألفاً فهزمهم.

ولحق سعيد بن نجاح بجزيرة دهلك، ودخل المكرم إلى أمه وهي جالسة بالطاق الذي عنده رأس الصليحي وأخيه فأنزلهما ودفنهما ورفع السيف، وولى خاله أسعد بن شهاب على أعمال تهامة كما كان، وأنزله بزبيد منها، وارتحل بأمه إلى صنعاء وكانت تدبر ملكه.

ثم جمع أسعد بن شهاب أموال تهامة وبعث بها مع وزيره أحمد بن سالم ففرقتها أسماء على وفود العرب.

ثم هلكت أسماء سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وخرجت زبيد من يد المكرم، واستردها سعيد بن نجاح سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ثم انتقل المكرم إلى ذي جبلة سنة ثمانين وأربعمائة، وولى على صنعاء عمران بن الفضل الهمداني فاستبد بها، وتوارثها عقبه، وتسمّى ابنه أحمد باسم السلطان واشتهر به، وبعده ابنه حاتم بن أحمد، وليس بعده بصنعاء من له ذكر حتى ملكها بنو سليمان لما غلبهم الهواشم على مكة كما مر في أخبارهم.

ولما انتقل المكرم إلى ذي جبلة وهي مدينة اختطها عبد اللّه بن محمد الصليحي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وكان انتقاله بإشارة زوجه سيدة بنت أحمد التي صار إليها تدبير ملكه بعد أمه أسماء فنزلها، وبنى فيها دار العز، وتحيل على قتل سعيد بن نجاح

فتم له كما نذكر في أخبار ابن نجاح، وكان مشغولاً بلذاته محجوباً بزوجته.

ولما حضرته الوفاة سنة أربع وثمانين عهد إلى ابن عمه المنصور بن أحمد المظفر بن علي الصليحي صاحب معقل أشيح، وأقام بمعقله وسيدة بنت أحمد بذي جبلة، وخطبها المنصور سبا وامتنعت منه فحاصرها بذي جبلة، وجاءها أخوها لأمها سليمان بن عامر وأخبرها أن المستنصر زوجك منه، وأبلغها أمره بذلك، وتلا عليها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّـهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

وأن أمير المؤمنين زوجك من الداعي المنصور أبي حمير سبا بن أحمد بن المظفر على مائة ألف دينار، وخمسين ألفاً من أصناف التحف واللطائف فانعقد النكاح، وسار إليها من معقل أشيح إلى ذي جبلة، ودخل إليها بدار العز، ويقال: إنها شبهت بجارية من جواريها فقامت على رأسه ليلها كله، وهو لا يرفع الطرف إليها حتى أصبح فرجع إلى معقله، وأقامت هي بذي جبلة، وكان المتولي عليها المفضل بن أبي البركات من بني تام رهط الصليحي، واستدعى عشيرته جنيا، وأنزلهم عنده بذي جبلة فكان يسطو بهم، وكانت سيدة تأتي التعكر في الصيف، وبه ذخائرها وخزائنها، فإذا جاء الشتاء رجعت إلى ذي جبلة.

ثم انفرد المفضل لقتال نجاح فرتب في حصن التعكر فقيهاً يلقب بالجمل، مع جماعة من الفقهاء أحدهم إبراهيم بن زيد بن عمر عمارة الشاعر، فبايعوا الجمل على أن يمحو الدعوة الإمامية فرجع المفضل من طريقه وحاصرهم، وجاءت خولان لنصرتهم، وضايقهم المفضل وهلك في حصارهم سنة أربع وخمسمائة، فجاءت بعده الحرة سيدة وأنزلتهم على عهد فنزلوا، ووفت لهم به وكفلت عقب المفضل وولده، وصار معقل التعكر في يد عمران بن الذر الخولاني وأخيه سليمان، واستولى عمران على الحرة سيدة مكان المفضل.

ولما ماتت استبد عمران وأخوه بحصن التعكر، واستولى منصور بن المفضل بن أبي البركات على ذي جبلة حتى باعه من الداعي الذريعي صاحب عدن كما يأتي، واعتصم بمعقل أشيح الذي كان للداعي المنصور سبا بن أحمد، وذلك أن المنصور توفي سنة ست وثمانين وأربعمائة، واختلف أولاده من بعده، وغلب ابنه علي منهم على المعقل، وكان ينازع المفضل بن أبي البركات والحرة سيدة، وأعياهما أمره، فتحيل المفضل بسم أودعه سفرجلاً أهداه إليه فمات منه، واستولى بنو أبي البركات على بني المظفر في أشيح وحصونه، ثم باع حصن ذي جبلة من الداعي الزريعي صاحب عدن بمائة ألف دينار.

ولم يزل يبيع معاقله حصناً حصناً حتى لم يبق له غير معقل تعز، أخذه منه علي بن مهدي بعد أن ملك ثمانين سنة، وبلغ من العمر مائة سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الخبر عن دولة بني نجاح بزبيد موالي بني زياد ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم

ولما استولى الصليحي على زبيد من يد كهلان بعد أن أهلكه بالسم على يد الجارية التي بعثها إليه سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة كما مر.

وكان لنجاح ثلاثة من الولد معارك وسعيد وجياش: فقتل معارك نفسه، ولحق سعيد وجياش بجزيرة دهلك وأقاما هنالك يتعلمان القرآن والآداب.

ثم رجع سعيد إلى زبيد مغاضباً لأخيه جياش، واختفى بها في نفق احتفره تحت الأرض، ثم استقدم أخاه جياشاً فقدم وأقاما هنالك في الاختفاء.

ثم إن المستنصر العبيدي الخليفة بمصر قطع دعوته بمكة محمد بن جعفر أميرها من الهواشم، فكتب إلى الصليحي يأمره بقتاله وحمله على إقامة الدعوة العلوية بمكة، فسار علي الصليحي لذلك من صنعاء، وظهر سعيد وأخوه من الاختفاء وبلغ خبرهم الصليحي فبعث عسكراً نحواً من خمسة آلاف فارس، وأمرهم بقتلهما.

وقد كان سعيد وجياش خالفا العسكر وسارا في اتباع الصليحي وهو في عساكره فبيتوه في اللجم وهو متوجه إلى مكة فانتقض عسكره وقتل. وتولى قتله جياش بيده سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة.

ثم قتل عبد الله الصليحي أخا علي في مائة وسبعين من بني الصليحي، وأسر زوجته أسماء بنت عمه شهاب في مائة وخمس وثلاثين من ملوك القحطانيين الذين غلبوا باليمن.

وبعث إلى العسكر الذين ساروا لقتل سعيد وجياش فأمنهم واستخدمهم، ورحل إلى زبيد وعليها أسعد بن شهاب أخو زوجة الصليحي، ففر أسعد إلى صنعاء ودخل سعيد إلى زبيد، وأسماء زوجة الصليحي أمامه في هودج، ورأس الصليحي وأخيه عند هودجها، وأنزلها بدارها ونصب الرأسين قبالة طاقها في الدار، وامتلأت القلوب منه رعباً، وتلقب نصير الدولة، وتغلب ولاة

الحصون على ما بأيديهم.

ودس المكرم بن الصليحي بن سعيد بن نجاح بصنعاء على لسان بعض أهل الثغور، وضمن له الظفر، فجاء سعيد لذلك في عشرين ألفاً من الحبشة.

وسار إليه المكرم من صنعاء وهزمه وحال بينه وبين زبيد فهرب إلى جزيرة دهلك، ودخل المكرم زبيد وجاء إلى أمه وهي جالسة بالطاق وعندها رأس الصليحي وأخيه فأنزلهما ودفنهما. وولى على زبيد خاله أسعد سنة سبع وتسعين وأربعمائة.

وكتب المكرم إلى عبد اللّه بن يعفر صاحب حصن الشعر بأن يغري سعيداً بالمكرم، وانتزاع ذي جبلة من يده لاشتغاله بلذاته، واستيلاء زوجه سيدة بنت أحمد عليه.

وأنه بلُغَ فتمت الحيلة فسار سعيد في ثلاثين ألفاً من الحبشة وأكمن له المكرم تحت حصن الشعر فثاروا به هنالك، وانهزمت عساكره وقتل ونصب رأسه عند الطاق الذي كان فيها رأس الصليحي بزبيد، واستولى عليها المكرم وانقطع منها ملك الحبشة، وهرب جياش ومعه وزير أخيه خلف بن أبي الظاهر المرواني، ودخلا عدن متنكرين.

ثم لحقا بالهند وأقاما بها ستة أشهر، ولقيا هنالك كاهناً جاء من سمرقند فبشرهما بما يكون لهما فرجعا إلى اليمن، وتقدم خلف الوزير إلى زبيد، وأشاع موت جياش واستأمن لنفسه، ولحق جياش فأقاما هنالك مختفيين، وعلى زبيد يومئذ أسعد بن شهاب خال المكرم ومعه علي بن القم وزير المكرم، وكان حنقاً على المكرم ودولته، فداخله الوزير خلف ولاعب ابنه الحسين الشطرنج، ثم انتقل إلى ملاعبة أبيه فاغتبط به، وأطلعه على رأيه في الدولة، وكان يتشيع لآل نجاح.

وانتمى بعض الأيام وهو يلاعب، فسمعه علي بن القم واستكشف أمره، فكشف له القناع واستحلفه، وجياش أثناء ذلك يجمع أشياعه من الحبشة، وينفق فيهم الأموال حتى اجتمع له خمسة آلاف، فثار بهم في زبيد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ونزل دار الإمارة ومنَّ على أسعد بن شهاب وأطلقه لزمانة كانت به.

وبقي ملكاً على زبيد يخطب للعباسيين والصليحيون يخطبون للعبيديين، والمكرم يبعث العرب للغارة على زبيد كل حين إلى أن هلك جياش على رأس المائة الخامسة، وكانت كنيته ابن القطاي. وكان موصوفاً بالعدل.

وولي بعده ابنه الفاتك صبياً لم يحتلم، ودبروا ملكه.

وجاء عمه إبراهيم لقتاله، وبرزوا له فثار عبد الواحد بالبلد، وبعث منصور إلى الفضل بن أبي البركات صاحب التعكر فجاء لنصره مضمراً للغدر به.

ثم بلغه انتقاض أهل التعكر عليه فرجع، ولم يزل منصور في ملكه بزبيد إلى أن وزر له أبو منصور عبيد اللّه فقتله مسموماً سنة سبع عشرة وخمسمائة.

ونصب فاتكاً ابنه طفلاً صغيراً واستبد عليه، وقام بضبط الملك وهان عليه التعرض لآل نجاح حتى هربت منه أم فاتك هذا، وسكنت خارج المدينة، وكان قرماً شجاعاً، وله وقائع مع الأعداء.

وحاربه ابن نجيب داعي العلوية فامتنع عليه، وهو الذي شيد المدارس للفقهاء بزبيد واعتنى بالحاج.

ثم راود مفارك بنت جياش، ولم تجد بداً من إسعافه فأمكنته حتى إذا قضى وطره مسحت ذكره بمنديل مسموم فنثر لحمه. وذلك سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

وقام بأمر فاتك بعده زريق من موالي نجاح. قال عمارة: كان شجاعاً فاتكاً قرماً، وكان من موالي أم فاتك المخصتين بها.

قال عمارة: وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة توفي فاتك بن المنصور، وولي بعده ابن عمه وسميه فاتك بن محمد بن فاتك، وسرور قائم بوزارته وتدبير دولته ومحاربة أعدائه.

وكان يلازم المسجد إلى أن دس عليه علي بن مهدي الخارجي من قتله في المسجد وهو يصلي العصر يوم الجمعة ثاني عشر صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وثار السلطان بالقاتل فقتل جماعة من أهل المسجد، ثم قتل واضطرب موالي نجاح بالدولة وثار عليهم ابن مهدي الخارجي وحاربهم مراراً، وحاصرهم طويلاً واستعانوا بالشريف المنصور أحمد بن حمزة السليماني، كان يملك صعدة فأغاثهم على أن يملكوه ويقتلوا سيدهم فاتك بن محمد، فقتلوه سنة ثلاث وخمسين، وملكوا عليهم الشريف أحمد، فعجز عن مقاومة ابن مهدي، وفر تحت الليل، وملكها علي بن مهدي سنة أربع وخمسين وخمسمائة وانقرض أمر آل نجاح والملك لله.

الخبر عن دولة بني الزريع بعدن من دعاة العبيديين باليمن وأولية أمرهم ومصائرهم

وعدن هذه من أمنع مدائن اليمن، وهي على ضفة البحر الهندي.

وما زالت بلد تجارة من عهد التبابعة، وأكثر بنائهم

بالأخصاص، ولذلك يطرقها تجار الحرير كثيراً، وكانت صدر الإسلام دار ملك لبني معن ينتسبون إلى معن بن زائدة، ملكوها من أيام المأمون، وامتنعوا على بني زياد، وقنعوا منهم بالخطبة والسكة.

ولما استولى الداعي علي بن محمد الصليحي رعى لهم ذمام العروبية، وقرر عليهم ضريبة يعطونها ثم أخرجهم منها ابنه أحمد المكرم.

وولى عليها بني المكرم من عشيرة جسم بن يام من همدان، وكانوا أقرب عشائره إليه، فأقامت في ولايتهم زمناً.

ثم حدثت بينهم الفتنة وانقسموا إلى فتتين بني مسعود بن المكرم وبني الزريع بن العباس بن المكرم. وغلب بنو الزريع بعد حروب عظيمة.

قال ابن سعيد: وأول مذكور منهم الداعي بن أبي السعود بن الزريع، أول من اجتمع له الملك بعد بني الصليحي، وورثه عنه بنوه، وحاربه ابن عمه علي بن أبي الغارات بن مسعود بن المكرم صاحب الزعازع، فاستولى على عدن من يده بعد مقاساة ونفقات فى الأعراب.

ومات بعد فتحها بسبعة أشهر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

وولي ابنه الأغر وكان مقيماً بحصن الدملوة المعقل الذي لا يرام.

وامتنع عليه بعده ابن بلال بن الزريع من مواليه، وخشي محمد بن سبا على نفسه ففر إلى منصور بن المفضل من ملوك الجبال الصليحيين بذي جبلة.

ثم مات الأغر قريباً فبعث بلال بن محمد بن سبا فوصل إلى عدن، وكان التقليد جاء من مصر باسم الأغر، فكتب مكانه محمد بن سبا وكان نعوته الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين فوقعت كلها عليها.

وزوجه بلال بنته ومكنه من الأموال التي كانت في خزائنه.

ثم مات بلال عن مال عظيم، وورثه محمد بن سبا وأنفقه في سبيل الكرم والمروات.

واشترى حصن ذي جبلة من منصور بن المفضل بن أبي البركات كما ذكرناه.

واستولى عليه وهو دار ملك الصليحيين، وتزوج سيدة بنت عبد الله الصليحي، وتوفي سنة ثمان وأربعين.

وولي ابنه عمران بن محمد بن سبا.

وكان ياسر بن بلال يدبر دولته، وتوفي سنة ستين وخمسمائة، وترك ولدين صغيرين، وهما محمد وأبو السعود فحبسهما ياسر بن بلال في القصر، واستبد بالأمر وكان ياسر محمد كثير العطية للشعراء وممن وفد عليه ومدحه ابن قلاقس شاعر الإسكندرية ومن قصائده في مدحه:

سافر إذا حاولت قدرا ... سار الهلال فصار بدراً

وهو آخر ملوك الزريعيين. ولما دخل سيف الدولة أخو صلاح الدين إلى اليمن سنة ست وستين وستمائة، واستولى عليها جاء إلى عدن فملكها وقبض على ياسر بن بلال، وانقطعت دولة بني زريع.

وصار اليمن للمعز، وفيه ولاتهم بنو أيوب كما نذكر في أخبارهم.

وكانت مدينة الحديدة قرب عدن اختطفها ملوك الزريعيين، فلما جاءت دولة بني أيوب تركوها ونزلوا تعز من الجبال كما يأتي ذكره.

أخبار ابن مهدي الخارجي وبنيه وذكر دولتهم باليمن وبدايتها وانقراضها

هذا الرجل من أهل العثر من سواحل زبيد، وهو علي بن مهدي الحميري.

كان أبوه مهدي معروفاً بالصلاح والدين، ونشأ ابنه على طريقته فاعتزل ونسك، ثم حج ولقي علماء العراق وأخذ الوعظ من وعاظهم، وعاد إلى اليمن واعتزل ولزم الوعظ.

وكان حافظاً فصيحاً، ويخبر بحوادث أحواله فيصدق، فمال إليه الناس واغتبطوا به، وصار يتردد للحج سنة إحدى وستين، ويعظ الناس في البوادي.

فإذا حضر الموسم ركب على نجيب له ووعظ الناس ولما استولت أم فاتك على بني جياش أيام ابنها فاتك بن منصور، أحسنت فيه المعتقد وأطلقت له ولقرابته وأصهاره خرجهم فحسنت أحوالهم، وآثروا وركبوا الخيول.

وكان يقول في وعظه: دنا الوقت! يشير إلى وقت ظهوره.

واشتهر ذلك عنه، وكانت أم فاتك تصل أهل الدولة عنه، فلما ماتت سنة خمس وأربعين جاءه أهل الجبال وحالفوه على

النصرة.

وخرج من تهامة سنة ثمان وثلاثين وقصد الكودا فانهزم وعاد إلى الجبال، وأقام إلى سنة إحدى وأربعين.

ثم أعادته الحرة أم فاتك إلى وطنه، وماتت سنة خمس وأربعين فخرج إلى هوازن، ونزل ببطن منهم يقال له حيوان في حصن يسمى الشرف، وهو حصن صعب ليس يرتقى على مسيرة يوم من سفح الجبل، في طريقه أوعار في واد ضيق عقبة كؤود.

وأصحابه سماهم الأنصار، وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين.

وأمر للأنصار رجلا اسمه سبا وللمهاجرين آخر اسمه شيخ الإسلام، وإسمه النوبة واحتجب عمن سواهما.

وجعل يشن الغارات على أرض تهامة، وأعانه على ذلك خراب النواحي بزبيد فأخرب سابلتها ونواحيها، وانتهى إلى حصن الداثر على نصف مرحلة من زبيد، وأعمل الحيل في قتل مسرور مدبر الدولة فقتل كما مر، وأقام يخيف زبيد بالزحوف.

قال عمارة: زاحفها سبعين زحفاً، وحاصرها طويلاً، واستمدوا الشريف أحمد بن حمزة السليماني صاحب صعدة فأمدهم وشرط عليهم قتل سيدهم فاتك فقتلوه سنة ثلاث وخمسين. وملك عليهم الشريف ثم عجز وهرب عنهم.

واستولى علي بن مهدي عليها في رجب سنة أربع وخمسين، ومات لثلاثة أشهر من ولايته وكان يخطب له بالإمام المهدي أمير المؤمنين، وقامع الكفرة والملحدين، وكان على رأي الخوارج يتبرأ من علي وعثمان ويكفر بالذنوب، وله قواعد وقواميس في مذهبه يطول ذكرها وكان يقتل على شرب الخمر.

قال عمارة: كان يقتل من خالفه من أهل القبلة، ويبيح نساءهم وأولادهم، وكانوا يعتقدون فيه العصمة، وكانت أموالهم تحت يده ينفقها عليهم في مؤنهم ولا يملكون معه مالاً ولا فرساً ولا سلاحاً.

وكان يقتل المنهزم من أصحابه ويقتل الزاني وشارب الخمر وسامع الغناء، ويقتل من تأخر عن صلاة الجماعة ومن تأخر عن وعظه يوم الاثنين والخميس وكان حنفياً في الفروع.

ولما توفي تولى بعده ابنه عبد النبي، وخرج من زبيد واستولى على اليمن أجمع، وبه يومئذ خمس وعشرون دولة فاستولى على جميعها ولم يبق له سوى عدن ففرض عليها الجزية.

ولما دخل شمس الدولة تورشاه بن أيوب أخو صلاح الدين سنة ست وستين وخمسمائة، واستولى على الدولة التي كانت باليمن، فقبض على عبد النبي وامتحنه وأخذ منه أموالاً عظيمة، وحمله إلى عدن فاستولى عليها ثم نزل زبيد واتخذها كرسياً لملكه.

ثم استوخمها وسار في الجبال ومعه الأطباء يتخير مكاناً صحيح الهواء ليتخذ فيه سكناه، فوقع اختيارهم على مكان تعز، فاختط به المدينة ونزلها، وبقيت كرسياً لملكه وبنيه ومواليهم بني رسول كما نذكر في أخبارهم.

وبانقراض دولة بني المهدي انقرض ملك العرب من اليمن وصار للغز ومواليهم.

قواعد اليمن

ولنذكر الآن طرفاً من الكلام على قواعد اليمن ومدنه واحدة واحدة كما أشار إليه ابن سعيد:

(اليمن): من جزيرة العرب يشتمل على كراسي سبعة للملك تهامة والجبال، وفي تهامة مملكتان: مملكة زبيد ومملكة عدن.

ومعنى تهامة: ما انخفض من بلاد اليمن مع ساحل البحر من البرين من جهة الحجاز إلى آخر أعمال عدن دورة البحر الهندي.

قال ابن سعيد: وجزيرة العرب في الإقليم الأول ويحيط بها البحر الهندي من جنوبها، وبحر السويس من غربها، وبحر فارس من شرقها.

وكانت اليمن قديماً للتبابعة وهي أخصب من الحجاز، وأكثر أهلها القحطانية، وفيها من عرب وائل وملكها لهذا العهد لبني رسول موالي بني أيوب، ودار ملكهم تعز، بعد أن نزلوا الحرة أولاً، وبصعدة من اليمن أئمة الزيدية، وبزبيد وهي مملكة اليمن شمالها الحجاز وجنوبها البحر الهندي وغربها بحر السويس، اختطها محمد بن زياد أيام المأمون سنة أربع ومائتين، وهي مدينة مسورة تدخلها عين جارية، تحلها الملوك، وعليها غيطان يسكنونها أيام الغلة، وهي الآن من ممالك بني رسول، وبها كان ملك بني زياد ومواليهم، ثم غلب عليها بنو الصليحي وقد مر خبرهم.

(عثر وحلى والسرجة): من أعمال زبيد في شمالها، وتعرف بأعمال ابن طرف، مسيرة سبعة أيام في يومين من السرجة إلى حلى، ومكة ثمانية أيام.

وعثر هي منبر الملك وهي على البحر، وكان سليمان بن طرف ممتنعاً بها على أبي الجيش بن زياد.

وكان مبلغ ارتفاعه خمسمائة ألف دينار، ثم دخل في طاعته وخطب له وحمل المال.

ثم صارت هذه المملكة للسليمانيين من بني الحسن من أمراء مكة حين طردهم الهواشم عن مكة، وكان غالب بن يحيى منهم يؤدي الأتاوة لصاحب زبيد وبه استعان محمد مفلح الفاتكي من سرور، ثم هلك بعدها، ثم عيسى بن حمزة من بنيه.

ولما ملك الغز اليمن، أخذ يحيى أخو عيسى أسيراً وسيق إلى العراق فحاول عليه عيسى فتخلصه من الأسر، ورجع إلى اليمن فقتل أخاه عيسى وولي مكانه المهجم من أعمال زبيد على ثلاثة مراحل عليها، وعربها من العسيرة من حكم وجعفر قبيلتين منهم. ويجلب منها الزنجبيل.

(السرير): آخر أعمال تهامة من اليمن وهي على البحر دون سور، وبيوتها أخصاص وملكها راجح بن قتادة سلطان مكة أعوام الخمسين وستمائة، وله قلعة على نصف مرحلة منها.

(الزرائب): من الأعمال الشمالية من زبيد، وكانت لابن طرف واجتمع له فيها عشرون ألفاً من الحبشة الذين معه جميعاً.

وقال ابن سعيد: في أعمال زبيد والأعمال التي في الطريق الوسطى بين البحر والجبال.

وهي في خط زبيد في شمالها، وهي الجادة إلى مكة.

قال عمارة: هي الجادة السلطانية منها إلى البحر يوم أو دونه، وكذلك إلى الجبال، ويجتمع الطريقان الوسطى والساحلية في السرير ويفترقان.

(عدن): من ممالك اليمن في جوف زبيد وهي كرسي عملها، وهي على ضفة البحر الهندي.

وكانت بلد تجارة منذ أيام التبابعة، وبعدها عن خط الاستواء ثلاث عشرة درجة، ولا تنبت زرعاً ولا شجراً ومعاشهم السمك، وهي ركاب الهند من اليمن وأول ملكها لبني معن بن زائدة، استقاموا لبني زياد وأعطوهم الأتاوة، ولما ملك الصليحيون أقرهم الداعي، ثم أخرجهم ابنه أحمد المكرم وولاها بني المكرم من جشم بن يام رهطه بهمدان، وصفا الملك فيها لبني الزريع منهم، وقنع منهم بالأتاوة حتى ملكها من أيديهم شمس الدولة بن أيوب كما تقدم.

(عدن أبين): من بينات المدن وهي إلى جهة الشحر.

(الزعزاع): باودية ابن أيوب عدن، وكانت لبني مسعود بن المكرم المقارعين لبني الزريع.

(الجوة): اختطها ملوك الزريعيين قرب عدن، ونزلها بنو أيوب ثم انتقلوا إلى تعز.

(حصن ذي جبلة): من حصون مخلاف جعفر اختطه عبد اللّه الصليحي أخو الداعي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وانتقل إليه ابنه المكرم من حصن صنعاء، وزوجه سيدة بنت أحمد المستبدة عليه، وهي التي تحكمت سنة ثمانين.

ومات المكرم وقد فوض الأمر في الملك والدعوة إلى سبا بن أحمد بن المظفر الصليحي، وكان في معقل أشيح، وكانت تستظهر بقبيل جنب، وكانوا خاملين في الجاهلية فظهروا بمخلاف جعفر.

ثم وصل من مصر ابن نجيب الدولة داعياً ونزل مدينة جند، واعتضد بهمدان فحاربته السيدة بجنب وخولان إلى أن ركب البحر وغرق.

وكان يتولى أمورها المفضل بن أبي البركات بعد زوجها المكرم، واستولى عليها.

(التعكر): من مخلاف جعفر، كان لبني الصليحي، ثم لسيدة من بعدهم ثم طلبه منها المفضل بن أبي البركات فسلمته إليه، وأقام فيه إلى أن سار إلى زبيد وحاصر فيها بني نجاح، وطالت غيبته فثار بالتعكر جماعة من الفقهاء وقتلوا نائبه وبايعوا لإبراهيم بن زيدان منهم، وهو عمّ عمارة الشاعر.

واستظهروا بخولان فرجع المفضل وحاصرهم كما ذكرنا ذلك من قبل.

(حصن خدد): كان لعبد اللّه بن يعلى الصليحي وهو من مخلاف جعفر، وكان المفضل قد أدخل من خولان في حصون المخلاف عدداً كثيراً في بني بحر وبني منبه ورواح وشعب.

فلما مات المفضل وفي كفالته سيدة كما مر، وثب مسلم بن الذر من خولان في حصن خدد وملكه من يد عبد اللّه بن يعلى الصليحي، ولحق عبد اللّه بحصن مصدود ورشحته سيدة لمكان المفضل، واستخلصته الدولة من مدينة الجند ومن اليمن بأمرها.

(حصن مصدود): من حصون مخلاف جعفر وهي خمسة: ذو جبلة والتعكر وحصن خدد.

ولما غلبت خولان على حصن خدد من يد عبد اللّه الصليحي، ولحق بحصن مصدود واستولى عليه منهم زكريا بن شكير البحري، وكان بنو الكردي من حمير ملوكاً قبل بني الصليحي باليمن، وانتزع بنو الصليحي ملكهم، وكان لهم مخلاف بحصونة ومخلاف مغافر ومخلاف الجند، وحصن سمندان.

ثم استقرت لمنصور بن المفضل بن أبي البركات وباعها من بني الزريع كما مر.

(صنعاء): قاعدة التبابعة قبل الإسلام، وأول مدينة اختطت باليمن، وبنتها فيما يقال عاد، وكانت تسمى أوال من الأولية بلغتهم.

وقصر غمدان قريب منها أحد البيوت السبعة، بناه الضحاك باسم الزهرة، وحجت إليه الأمم، وهدمه عثمان.

وصنعاء أشهر حواضر اليمن، وهي فيما يقال معتدلة، وكان فيها أول المائة الرابعة بنو يعفر من التبابعة ودار ملكهم كحلان، ولم يكن لها نباهة في الملك إلى أن سكنها بنو الصليحي وغلب عليها الزيدية، ثم السليمانيون من بعد بني الصليحي.

(قلعة كحلان): من أعمال صنعاء لبني يعفر من التبابعة بناها قرب صنعاء إبراهيم وكانت له صعدة ونجران.

واعتصم بنو يعفر بقلعة كحلان، وقال البيهقي: سيد قلعة كحلان أسعد بن يعفر، وحارب بني الرسي وبني زياد أيام أبي الجيش.

(حصن الصمدان): من أعمال صنعاء كانت فيه خزائن بني الكردي الحميريين إلى أن ملكه علي الصليحي وورد عليهم المكرم بعض حصونهم إلى أن انقرض أمرهم على يد علي بن مهدي.

وكان لهم مخلاف جعفر الذي منه مدينة ذي جبلة، ومعقل التعكر وهو مخلاف الجند، ومخلاف معافر مقر ملكهم السمدان وهو أحصن من الدمولة.

(قلعة منهاب): من قلاع صنعاء بالجبال ملكها بنو زريع واستبد بها منهم الفضل بن علي بن راضي بن الداعي محمد بن سبا بن زريع، نعته صاحب الجزيرة بالسلطان، وقال: كانت له قلعة منهاب وكان حياً سنة ست وثمانين وخمسمائة، وصارت بعده لأخيه الأغر أبي علي.

(جبل الديجرة): وهو بقرب صنعاء وقد اختط جعفر مولى بني زياد سلطان اليمن مخلاف جعفر فنسب إليه.

(عدن لاعة): بجانب الديجرة، أول موضع ظهرت فيه دعوة الشيعة باليمن، ومنها محمد بن المفضل الداعي.

ووصل إليها أبو عبد الله الشيعي صاحب الدعوة بالمغرب، وفيها قرأ على علي بن محمد الصليحي صبياً وهي دار دعوة اليمن.

كان محمد بن المفضل داعياً على عهد أبي الجيش بن زياد وأسعد بن يعفر.

(بيجان): ذكرها عمارة في المخاليف الجبلية وملكها نستوان بن سعيد القحطاني.

(تعمر): من أجل معاقل الجبال المطلة على تهامة، مازال حصناً للملوك، وهو اليوم كرسي لبني رسول ومعدود في الأمصار، وكان به من ملوك اليمن منصور بن المفضل بن أبي البركات، وبنو المظفر، وورثها عنه ابنه منصور، ثم باعها حصناً حصناً من الداعي بن المظفر والداعي الزريعي، إلى أن بقي بيده حصن تعمر فأخذه منه ابن مهدي.

(معقل أشيح): من أعظم حصون الجبال وفيه خزائن بني المظفر من الصليحيين صارت له بعهد المكرم ابن عمه صاحب ذي جبلة، وقلده المستنصر الدعوة وتوفي سنة ست وثمانين وأربعمائة.

وغلب ابنه علي على معقل الملك أشيح، وأعيا المفضل أمره إلى أن تحيل عليه وقتله بالسم، وصارت حصون بني المظفر إلى بني أبي البركات.

ثم مات المفضل وخلف ابنه منصوراً، واستقل بملك أبيه بعد حين وباع جميع الحصون تباع ذا جبلة من الداعي الزريعي صاحب عدن بمائة ألف دينار، وحصن صنبر بعد أن كان حلف بالطلاق من زوجته أنه يستبقيه، وطلق زوجته الحرة وتزوجها الزريعي، وطال عمره.

ملك ابن عشرين وبقي في الملك ثمانين، وأخذ منه معقل علي بن مهدي.

(صعدة): مملكتها تلو مملكة صنعاء، وهي في شرقيها، وفي هذه المملكة ثلاثة قواعد: صعدة وجبل تطابة وحصن تلا وحصون أخرى، وتعرف كلها ببني الرسي، وقد تقدم ذكر خبره.

وأما حصن تلا فمنه كان ظهور الموطىء الذي أعاد إمامة الزيدية لبني الرضا، بعد أن استولى عليها بنو سليمان، فأوى إلى جبل قطابة، ثم بايعوا لأحمد الموطىء سنة خمس وأربعين وستمائة، وكان فقيهاً عابداً وحاصره نور الدين بن رسول في هذا الحصن سنة جمر عليه عسكراً للحصار.

ثم مات ابن رسول سنة ثمان وأربعين واشتغل ابنه المظفر بحصار حصن الدمولة، فتمكن الموطىء وملك حصون اليمن، وزحف إلى صعدة وبايعه السليمانيون وإمامهم أحمد المتوكل كما مر في أخبار بني الرسي، وأما قطابة فهو جبل شاهق مشرف على صعدة إلى أن كان ما ذكرناه.

(حران ومسار): أما حرّان فهو إقليم من بلاد همدان، وحران بطن من بطونهم، كان منهم الصليحي، وحصن مسار هو الذي ظهر فيه الصليحي وهو من إقليم حران.

قال البيهقي: بلادهم شرقية بجبال اليمن وتفرقوا في الإسلام ولم يبق لهم قبيلة وفرقة إلا في اليمن، وهو أعظم قبائل اليمن وبهم قام الموطىء، وملكوا جملة من حصون الجبال، ولهم بها إقليم بكيل وإقليم حاشد، وهما ابنا جشم بن حيوان وأنوف بن همدان قال ابن حزم: ومن بكيل وحاشد افترقت قبائل همذان انتهى.

ومن همدان بنو الزريع أصحاب السلطنة والدعوة في عدن والجوة، ومنهم بنو يام من قبائل همدان انتهى.

ومن همدان بنو الزريع سبعة وهم الآن في نهاية من التشيع ببلادهم وأكثرهم زيدية.

(بلاد خولان): قال البيهقي: هي شرقية من جبال اليمن، ومتصلة ببلاد همدان، وهي حصون خدد والتعكر وغيرهما وهم أعظم قبائل اليمن مع همدان ولهم بطون كثيرة.

وافترقوا على بلاد الإسلام ولم يبق منهم وبرية إلا باليمن.

(مخلاف بني أصبح): هو بوادي سحول وذو أصبح الذي ينسبون إليه قد تقدم ذكره في أنساب حمير من التبابعة والأقيال، ومخلاف يحصب مجاور له وهو أخو أصبح.

(مخلاف بني وائل): مدينة هذا المخلاف شاحط وصاحبها أسعد بن وائل وبنو وائل بطن من ذي الكلاع.

وذو الكلاع من سبا تغلبوا على هذه البلاد عند مهلك الحسن بن سلامة، حتى عادوا إلى الطاعة واختط مدينة الكدد على مخلاف سهام، ومدينة المعقل على وادي دوال، ومات سنة اثنتين وأربعمائة.

(بلاد كندة): وهي من جبال اليمن مما يلي حضرموت، وجبال الرمل وكان لهم بها ملوك وقاعدتهم دمون ذكرها امرؤ القيس في شعره.

(بلاد مذحج): موالي جهات الجند من الجبال وينزلها من مذحج عنس وزبيد ومراد.

ومن عنس بإفريقية فرقة وبرية مع ظواعن أهلها، ومن زبيد بالحجاز بنو حرب بين مكة والمدينة.

وبنو زبيد الذين بالشام والجزيرة فهم من طيىء وليسوا من هؤلاء.

(بلاد بني نهد): في أجواف السروات وتبالة والسروات بين تهامة والجبال ونجد من اليمن والحجاز كسوأة الفرس.

وبنو نهد من قضاعة سكنوا اليمن جوار خثعم وهم كالوحوش، والعامة تسميهم السرو، وأكثرهم أخلاط من جبلة وخثعم.

ومن بلادهم تبالة يسكنها قوم من نهر وائل ولهم بها صولة، وهي التي وليها الحجاج واستحقرها فتركها.

(البلاد المضافة إلى اليمن): أولها الثمامة.

قال البيهقي: هو بلد منقطع بعمله والتحقيق أنه من الحجاز كما هي نجران من اليمن.

وكذا قال ابن حوقل وهي دونها في المملكة، وأرضها تسمى العروض لاعتراضها بين الحجاز والبحرين.

وفي شرقيها البحرين وغربيها أطراف اليمن والحجاز، وجنوبها نجران، وشمالها نجد من الحجاز، وفي أطرافها عشرون مرحلة، وهي على أربعة أميال من مكة. وقاعدتها حجر بالفتح.

وبلد اليمامة كانت مقراً لملوك بني حنيفة. ثم اتخذ بنو حنيفة حجراً وبينهما يوم وليلة، وبظواهرها أحياء من بني يربوع من تميم، وأحياء من بني عجل.

قال البكري: واسمها جو، وسميت باسم زرقاء اليمامة، سمّاها بذلك تبع الآخر، وهي في الإقليم الثاني مع مكة، وبعدهما عن خط الاستواء واحد، منازلها توضيح وقرقرا.

وقال الطبري: إن رمل عالج من اليمامة والشحر وهي من أرض وبار.

وكانت اليمامة والطائف لبني مزان بن يعفر والسكسك، وغلبتهم عليها طسم وجديس.

ثم غلبتهم بنو مزان آخراً وملكوا اليمامة وطسم وجديس في تبعهم، وآخر ملوك بني طسم عمليق.

ثم غلبت جديس ومنهم باليمامة التي سميت مدينة جو بها، وأخبارها معروفة.

ثم استولى على اليمامة بعد طسم وجديس بنو حنيفة، وكان منهم هودّة بن علي ملك اليمامة وتتوج.

ويقال: إنما كانت خرزات هودة بن علي ملك اليمامة، على عهد النبوة، وأسر وأسلم وثبت عند الردة.

وكان منهم مسيلمة وأخباره معروفة، قال ابن سعيد:

وسألت عرب البحرين وبعض مذحج لمن اليمامة اليوم؟ فقالوا: لعرب من قيس عيلان، وليس لبني حنيفة بها ذكر.

(بلاد حضرموت): قال ابن حوقل: هي في شرقي عدن في بالبحر ومدينتها صغيرة، ولها أعمال عريضة، وبينها وبين عمان من الجهة الأخرى رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وكانت مواطن لعاد.

وبها قبر هود عليه السلام، وفي وسطها جبل بشام، وهي في الإقليم الأول، وبعدها عن خط الاستواء اثنتا عشرة درجة، وهي معدودة من اليمن، بلد نخل وشجر ومزارع، وأكثر أهلها يحكمون بأحكام علي وفاطمة، ويبغضون علياً للتحكيم.

وأكبر مدينة بها الآن قلعة بشام فهاَ خيل الملك، وكانت لعاد مع الشحر وعمان، وغلبهم عليها بنو يعرب بن قحطان ويقال: إن الذي دل عاداً على جزيرة العرب هو رقيم بن إرم، كان سبق إليها مع بني هود فرجع إلى عاد ودلهم عليها، وعلى دخولها بالجوار، فلما دخلوا غلبوا على من فيها.

ثم غلبهم بنو يعرب بن قحطان بعد ذلك، وولي على البلاد فكانت ولاية ابنه حضرموت على هذه البلاد، وبه سميت الشحر من ممالك جزيرة العرب مثل الحجاز واليمن.

وكان معقلاً عن حضرموت وعمان والذي يسمى الشحر قصبته، ولا زرع فيه ولا نخل، إنما أموالهم الإبل والمعز، ومعاشهم من اللحوم والألبان، ومن السمك الصغار، ويعلفونها للدواب.

وتسمى هذه البلاد أيضاً بلاد مهرة، وبها الإبل المهريَّة، وقد يضاف الشحر إلى عمان وهو ملاصق لحضرموت، وقيل: هو بسائطها.

وفي هذه البلاد يوجد اللبان، وفي ساحله العنبر الشحري وهو متصل في جهة الشرق، ومن غربيها ساحل البحر الهندي الذي عليه عدن، وفي شرقيها بلاد عمان وجنوبها بحر الهند مستطيلة عليه، وشمالها حضرموت كأنها ساحل لها، ويكونان معاً لملك واحد وهي في الإقليم الأول وأشد حراً من حضرموت.

وكانت في القديم لعاد وسكنها بعدهم مهرة من حضرموت أو من قضاعة، وهم كالوحوش في تلك الرمال ودينهم الخارجية على رأي الإباضية منهم.

وأول من نزل بالشحر من القحطانية مالك بن حمير، وخرج على أخيه مالك وهو ملك بقصر غمدان فحاربه طويلاً، ومات مالك فولي بعده ابنه قضاعة بن مالك فلم يزل السكسك يحاربه إلى أن قهره، واقتصر قضاعة على بلاد مهرة.

وملك بعده ابنه أطاب ثم مالك بن الحاف، وانتقل إلى عمان وبها كان سلطانه.

قال البيهقي: وملك مهرة بن حيدان بن الحاف بلاد قضاعة وحارب عمه مالك بن الحاف صاحب عمان حتى غلبهم عليها، وليس لهم اليوم في غير بلادهم ذكر.

وببلاد الشحر مدينة مرباط وضِفان على وزن نزال وضفان دار ملك التبابعة، ومرباط بساحل الشحر، وقد خربت هاتان المدينتان.

وكان أحمد بن محمد بن محمود الحميري، ولقبه الناخودة، وكان تاجراً كثير المال يعبر إلى صاحب مرباط بالتجارة، ثم استوزره ثم هلك فملك أحمد الناخودة، ثم خربها وخرب ضفان سنة تسع عشرة وستمائة، وبنى على ساحل مدينة ضفان بضم الضاد المعجمة وسماها الأحمدية باسمه، وخرب القديمة لأنها لم يكن لها مرسى.

(نجران): قال صاحب الكمائم: هي صقع منفرد عن اليمن، وقال غيره: هي من اليمن. قال البيهقي: مسافتها عشرون مرحلة وهي شرقي صنعاء وشماليها وتوالي الحجاز وفيها مدينتان: نجران وجرش، متقاربتان في القدر والعادية غالبة عليها، وسكانها كالأعراب، وبها كعبة نجران بنيت على هيئة عمدان كعبة اليمن، وكانت طائفة من العرب تحج إليها وتنهر عندها، وتسمى الدير. وبها قس بن ساعدة، كان يتعبد فيها.

ونزلها من القحطانية طائفة من جرهم ثم غلبهم عليها حمير. وصاروا ولاة للتبابعة.

وكان كل ملك منهم يسمى الأفعى. وكان منهم أفعى نجران واسمه القَلَمَّس بن عمرو بن همدان بن مالك بن شهاب بن زيد بن وائل بن حمير، وكان كاهناً، وهو الذي حكم بين أولاد نزار لما أتوه حسبما هو مذكور.

وكان والياً على نجران لبلقيس، فبعثته إلى سليمان عليه السلام، وآمن وبث دين اليهودية فى قومه وطال عمره.

ويقال: إن البحرين والمسلَّل كانتا له قال البيهقي: ثم نزل نجران بنو مذحج، واستولوا عليها ومنهم الحارث بنو كعب.

وقال غيره: لما خربت اليمانية في سيل العرم مروا بنجران فحاربهتم مذحج ومنها افترقوا.

قال ابن حزم: ونزل فى جوار مذحج بالصلح الحارث بن كعب بن عبد اللّه بن مالك بن نصر بن الأزد، ثم غلبوا عليها

مذحجاً وصارت لهم رياستها.

ودخلت النصرانية نجران من قيمون، وخبره معروف في كتب السير، وانتهت رياسة بني الحارث فيها إلى بني الريان ثم صارت إلى بني عبد المدان.

وكان يزيد منهم على عهد النبي ﷺ، وأسلم على يد خالد بن الوليد، ووفد مع قومه ولم يذكره ابن عبد المؤمن وهو مستدرك عليه، وابن أخيه زياد بن عبد الرحمن بن عبد المدان خال السفاح، ولاه نجران واليمامة، وخلف ابنيه محمداً ويحيى.

ودخلت المائة الرابعة والملك بها لبني أبي الجود بن عبد المدان، واتصل فيهم وكان بينهم وبين الفاطميين حروب وربما يغلبونهم بعض الأحيان على نجران وكان آخرهم عبد القيس الذي أخذ علي بن مهدي الملك من يده، ذكره عمارة وأثنى عليه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الخبر عن دولة بني حمدان المستبدين بالدعوة العباسية من العرب بالموصل والجزيرة والشام ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان بنو ثعلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار، ولهم محل في الكثرة والعدد، وكانت مواطنهم بالجزيرة في ديار ربيعة، وكانوا على دين النصرانية في الجاهلية، وصاغيتهم مع قيصر.

وحاربوا المسلمين مع غسان وهرقل أيام الفتوحات في نصارى العرب يومئذ من غسان وإياد وقضاعة وزابلة وسائر نصارى العرب، ثم ارتحلوا مع هرقل إلى بلاد الروم، ثم رجعوا إلى بلادهم، وفرض عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجزية.

فقالوا: يا أمير المؤمنين لا تذلنا بين العرب باسم الجزية، واجعلها صدقة مضاعفة ففعل.

وكان قائدهم يومئذ حنظلة بن قيس بن هرير من بني مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب وكان من رهطه عمرو بن بسطام صاحب السند أيام بني أمية.

ثم كان منهم بعد ذلك في الإسلام ثلاثة بيوت: آل عمر بن الخطاب العدوي، وآل هارون المغمر، وآل حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن أسد، ولم يذكر ابن حزم هؤلاء البيوت الثلاثة في بطون بني ثعلب في كتاب الجمهرة.

ووقفت على حاشية في هذا الموضع من كتابه فيها ذكر هؤلاء الثلاثة كالاستلحاق عليه، وقال في بني حمدان: وقيل إنهم موالي بني أسد. ثم قال: آخر الحاشية إنه من خط المصنف يعني ابن حزم.

ولما فشا دين الخارجية بالجزيرة أيام مروان بن الحكم، فرّق جموعه ومحا آثار تلك الدعوة.

ثم ظهر في الجزيرة بعد حين أثر من تلك الدعوة، وخرج مساور بن عبد الله بن مساور البجلي من السرات أيام الفتنة بعد مقتل المتوكل واستولى على أكثر أعمال الموصل، وجعل دار هجرته الحُديثة.

وكان على الموصل يومئذ عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي الذي ولى المنصور جده محمداً على إفريقية، وعليه خرج مساور.

ثم ولي على الموصل أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب الثعلبي سنة أربع وخمسين، واستخلف عليه ابنه الحسن فسار إلى مساور في جموع قومه، وفيهم حمدون بن الحارث فهزموا الخوارج وفرقوا جمعهم.

ثم ولي أيام المهتدي عبد الله بن سليمان بن عمران الأزدي فغلبه الخوارج، وملك مساور الموصل ورجع إلى الحديثة.

ثم انتقض أهل الموصل أيام المعتمد سنة تسع وخمسين، وأخرجوا العامل وهو ابن أساتكين الهيثم بن عبد الله بن المعتمد العدوي من بني ثعلب، فامتنعوا عليه وولوا مكانه إسحاق بن أيوب من آل الخطاب، فزحف ومعه حمدان بن حمدون وحاصرها مدة.

ثم كانت فتنة إسحاق بن كنداجق وانتقاضه على المعتمد، واجتمع لمدافعته علي بن داود صاحب الموصل، وحمدان بن حمدون وإسحاق بن أيوب فهزمهم إسحاق بن كنداجق، وافترقوا فاتبع إسحاق بن أيوب إلى نصيبين ثم إلى آمد.

واستجار فيها بعيسى بن الشيخ الشيباني وبعث إلى المعز موسى بن زرارة صاحب أرزن فامتنع بأنجادهما.

ثم ولى المعتمد ابن كنداجق على الموصل سنة سبع وستين فاجتمع لحربه إسحاق بن أيوب وعيسى بن الشيخ وأبو العز بن زرارة وحمدان بن حمدون في ربيعة وثعلب فهزمهم ابن كنداجق، وحاصره هو ولجؤوا إلى آمد عند عيسى بن الشيخ الشيباني،

وحاصرهم بها وتوالت عليهم الحروب وهلك مساور الخارجي أثناء هذه الفتن في حربه مع العساكر سنة ثلاث وستين.

واجتمع الخوارج بعده على هارون بن عبد الله البجلي واستولى على الموصل وكثر تابعه.

وخرج عليه محمد بن خرداذ من أصحابه فغلبه على الموصل، فقصد حمدان بن حمدون مستنجداً به، فسار معه ورده إلى الموصل ولحق محمد بالحديثة، ورجع أصحابه إلى هارون، ثم سار هارون من الموصل إلى محمد فأوقع به وقتله وعاث في الأكراد الجلالية أصحابه، وغلب على القرى والرساتيق، وجعل رجله يأخذ الزكاة والعشر.

ثم زحف بنو شيبان لقتاله سنة اثنتين وسبعين، فاستنجد بحمدان بن حمدون، وانهزم قبل وصوله إليه.

ثم كانت الفتنة بين إسحاق بن كنداجق ويوسف بن أبي الساج، وأخذ ابن أبي الساج بدعوة ابن طولون، وغلب على الجزيرة والموصل، ثم عاد وملكها لابن كنداجق وولى عليها هارون بن سيما سنة تسع وسبعين ومائتين، فطرده أهلها، واستنجد ببني شيبان فساروا معه إلى الموصل، واستمد أهلها الخوارج وبني ثعلب فسار لإمدادهم هارون الساري وحمدان فهزمهم بنو شيبان، وخاف أهل الموصل من ابن سيما فبعثوا إلى بغداد، وولى عليهم المعتمد علي بن داود الأزدي.

ولما بلغ المعتضد ممالأة حمدان بن حمدون لهارون الساري، وما فعله بنو شيبان، وقد كان خرج لإصلاح الجزيرة، وأعطاه بنو شيبان رهنهم على الطاعة، زحف إلى حمدان وهزمه فلحق بماردين وترك بها ابنه الحسين.

وهرب فسار مع وصيف ونصر القسوري، ومروا بدير الزعفران وبه الحسين بن حمدان فاستأمن لهم، وبعثوا به إلى المعتضد وأمر بهدم القلعة، ولقي وصيف حمدان فهزمه، وعبر إلى الجانب الغربي.

ثم سار إلى معسكر المعتضد، وكان إسحاق بن أيوب الثعلبي قد سبق إلى طاعة السلطان وهو في معسكره، فقصد خيمته ملقياً بنفسه عليه، فأحضره عند المعتضد فحبسه.

ثم سار نصر القسوري في أتباع هارون فهزم الخوارج، ولحق بأذربيجان، واستأمن آخرون إلى المعتضد ودخل هارون البرية.

ثم سار المعتضد سنة ثلاث وثمانين في طلب هارون وبعث في مقدمته وصيفاً وسرح معه الحسين بن حمدان بن يكرين، واشترط له إطلاق ابنه إن جاء بهارون.

فاتبعه وأسره وجاء به إلى المعتضد فخلع عليه وعلى إخوته وطوقه وفك القيود عن حمدان ووعده بإطلاقه.

ومات إسحاق بن أيوب العدوي وكان على ديار ربيعة، فولى المعتضد مكانه عبد الله بن الهيثم بن عبد الله بن المعتمد.

مبدأ لدولة وولاية أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان على الموصل

ولما ولي المكتفي عقد لأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان على الموصل وأعمالها، وكان الأكراد الهذبانية قد عاثوا في نواحيها ومقدمهم محمد بن سلال فقاتلهم وعبر وراءهم إلى الجانب الشرقي، وقاتلهم على الخازر، وقتل مولاه سيما ورجع.

ثم أمده الخليفة فسار في أثرهم سنة أربع وتسعين وقاتلهم على أذربيجان وهزم محمد بن سلال بأهله وولده، واستباحهم ابن حمدان.

ثم استأمن محمد وجاءه إلى الموصل، واستأمن سائر الأكراد الحميدية، واستقام أمر أبي الهيجاء.

ثم كانت فتنة الخلع ببغداد سنة ست وتسعين، وقتل الوزير العباس بن الحسن، وخلع المقتدر وبويع عبد الله بن المعتز يوماً أو بعض يوم، وعاد المقتدر كما مر ذلك كله في أخبار الدولة العباسية.

وكان الحسين بن حمدان على ديار ربيعة وكان ممن تولى كبر هذه الفتنة مع القواد، وباشر قتل الوزير مع من قتله فهرب، وطلبه المقتدر وبعث في طلبه القاسم بن سيما وجماعة من القواد فلم يظفروا به، فكتب إلى أبي الهيجاء وهو على الموصل فسار مع القاسم ولقيهم الحسين عند تكريت فانهزم واستأمن فأمّنه المقتدر، وخلع عليه وولاه أعمال قم وقاشان. ثم رده بعد ذلك إلى ديار ربيعة.

انتقاض أبي الهيجاء ثم الحسين بن حمدان

ولما كانت سنة تسع وتسعين ومائتين خالف أبو الهيجاء بالموصل إلى سنة اثنتين وثلاثمائة، وكان الحسين بن حمدان على ديار ربيعة كما قدمناه، فطالبه الوزير عيسى بن عيسى بحمل المال فدافعه، فأمره بتسليم البلاد إلى العمال فامتنع، فجهز إليه الجيش

فهزمهم.

فكتب إلى مؤنس العجلي، وهو بمصر يقاتل عساكر العلوية، بأن يسير إلى قتال الحسين بعد فراغه من أمره، فسار إليه سنة ثلاث وثلاثمائة، فارتحل بأهله إلى أرمينية وترك البلاد.

وبعث مؤنس العساكر في أثره فأدركوه، وقاتلوه فهزموه وأسر هو وابنه عبد الوهاب وأهله وأصحابه، وعاد به إلى بغداد فأدخل على جمل، وقبض المقتدر يومئذ على أبي الهيجاء وجميع بني حمدان فحبسهم جميعاً.

ثم أطلق أبا الهيجاء سنة خمس وثلاثمائة بعدها وقتل الحسين سنة ست، وولّى إبراهيم بن حمدان سنة سبع على ديار ربيعة، وولّى مكانه داود بن حمدان.

ولاية أبي الهيجاء ثانية على الموصل ثم مقتله

ثم ولى المقتدر أبا الهيجاء عبد اللّه بن حمدان على الموصل سنة أربع عشرة وثلاثمائة فبعث ابنه ناصر الدولة الحسين عليها، وأقام هو ببغداد.

ثم بلغه إفساد العرب والأكراد في نواحيها وفي نواحي عمله الآخر بخراسان، فبعث إلى أبيه ناصر الدولة فأوقع بالعرب في الجزيرة ونكل بهم.

وجاءه في العساكر إلى تكريت فخرج ورحل بهم إلى شهرزور، وأوقع بالأكراد الجلالية حتى استقاموا على الطاعة.

ثم كان خلع المقتدر سنة سبع عشرة وثلاثمائة بأخيه القاهر.

ثم عاد ثاني يوم وأحيط بالقاهر في قصره فتذمم بأبي الهيجاء، وكان عنده يومئذ، وأطال المقام يحاول على النجاة به فلم يتمكن من ذلك، وانقض الناس على القاهر ومضى أبو الهيجاء يفتش عن بعض المنافق في القصر يتخلص منه فاتبعه جماعة وفتكوا به وقتلوه منتصف المحرم من السنة.

وولى المقتدر مولاه تحريراً على الموصل.

ولاية سعيد ونصر بني حمدان على الموصل

ثم ان أبا العلاء سعيد بن حمدان ضمن الموصل وديار ربيعة، وما بيد ناصر الدولة فولاه الراضي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وسار إلى الموصل فخرج ناصر الدولة لتلقيه، وخالفه أبو العلاء إلى بيته وقعد ينتظره، فأنفذ ناصر الدولة جماعة من غلمانه فقتلوه.

وبلغ الخبر إلى الراضي فأعظم ذلك، وأمر الوزير ابن مقلة بالمسير إلى الموصل فسار إليها، وارتحل ناصر الدولة واتبعه الوزير إلى جبل السن، ورجع عنه، وأقام بالموصل.

واحتال بعض أصحاب ابن حمدان ببغداد على ابن الوزير وبذل له عشرة آلاف دينار على أن يستحث أباه ففعل، وكتب إليه بأمور أزعجته فاستعمل على الموصل من وثق به من أهل الدولة، ورجع إلى بغداد في منتصف شوال.

ورجع ناصر الدولة إلى الموصل فاستولى عليها وكتب إلى الراضي في الصفح، وأن يضمن البلاد فأجيب إلى ذلك واستقر في ولايته.

مسير الراضي إلى الموصل

وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة تأخر ضمان البلاد من ناصر الدولة فغضب الراضي، وسار ومدبر دولته تحكم.

وسار إلى الموصل، وتقدم تحكم إلى تكريت فخرج إليه ناصر الدولة فانهزم أصحابه، وسار إلى نصيبين، واتبعه تحكم فلحق به وكتب تحكم إلى الراضي بالفتح فسار في السفن يريد الموصل.

وكان ابن رائق مختفياً ببغداد منذ غلبه ابن البريدي على الدولة، فظهر عند ذلك واستولى على بغداد.

وبلغ الخبر إلى الراضي فأصعد من الماء إلى البر، واستقدم تحكم من نصيبين واستعاد ناصر الدولة ديار ربيعة وهو يعلم بخبر ابن رائق، وبعث في الصلح على تعجيل خمسمائة ألف درهم فأجابه إلى ذلك.

وسار الراضي وتحكم إلى بغداد، ولقيهم أبو جعفر محمد بن يحيى بن سريق رسولاً من ابن رائق في الصلح، وعلى أن يولي ديار مضر، وهي حران والرها والرقة.

وتضاف إليها قنسرين والعواصم فأجيب إلى ذلك وسار عن بغداد إلى ولايته ودخل الراضي وتحكم بغداد ورجع ناصر الدولة بن حمدان إلى الموصل.

مسير المتقي إلى الموصل وولاية ناصر الدولة إمارة الأمراء

كان ابن رائق بعد مسيره إلى ديار مضر والعواصم سار إلى الشام وملك دمشق من يد الإخشيد، ثم الرملة ثم لقيه الإخشيد على عريش مصر وهزمه، ورجع إلى دمشق ثم اصطلحا على أن يجعلا الرملة تخماً بين الشام ومصر وذلك سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

ثم توفي الراضي سنة تسع وعشرين، وولي المتقي وقتل تحكم وجاء البريدي إلى بغداد، وهرب الأتراك التحكمية إلى الموصل، وفيهم تورون وجحجح.

ثم لحقوا بأبي بكر محمد بن رائق واستحثوه إلى العراق، وغلب بعدهم على الخلافة الأتراك الديلمية، وجاء أبو الحسن البريدي من واسط فأقام ببغداد أربعة وعشرين يوماً أمير الأمراء.

ثم شغب عليه الجند فرجع إلى واسط وغلب كورتكين.

ثم حجر المتقي وكتب إلى ابن رائق يستدعيه فسار من دمشق في رمضان سنة تسع وعشرين، واستخلف عليها أبا الحسن أحمد بن علي بن حمدان على أن يحمل إليه مائة ألف دينار، وسار ابن رائق إلى بغداد، وغلب كورتكين والديلمية وحبس كورتكين بدار الخلافة.

ثم شغب عليه الجند وبعث أبو عبد الله البريدي أخاه أبا الحسن إلى بغداد في العساكر فغلبوا عليها، وهرب المتقي وابنه أبو منصور، وزاد في المبرة فنثر الدراهم على ابن الخليفة، وبالغ في مبرته حتى ركب للانصراف.

وأمسك ابن رائق للحديث معه فاستدعاه المتقي، وخلع عليه، ولقبه ناصر الدولة، وجعله أمير الأمراء، وخلع على أخيه أبي الحسن ولقبه سيف الدولة.

وكان قتل ابن رائق لتسع بقين من رجب، وولاية ناصر الدولة مستهل شعبان من سنة ثمانين، ثم سار الأخشيدي من مصر إلى دمشق فملكها من يد عامل ابن رائق، وسار ناصر الدولة مع المتقي إلى بغداد.

أخبار بني حمدان ببغداد

ولما قتل ابن رائق وأبو الحسن البريدي على بغداد، وقد سخطه العامة والخاصة فهرب جحجح إلى المتقي، وأجمع تورون وأصحابه إلى الموصل، واستحثوا المتقي وناصر الدولة فأنجدوهم إلى بغداد، وولي على الخراج والضياع بديار مضر وهي الرها وحران والرقة أبا الحسن علي بن خلف بن طياب، وكان عليها أبو الحسن علي بن أحمد بن مقاتل من قبل ابن رائق، فقاتله ابن طياب وقتله.

ولما قرب المتقي وناصر الدولة من بغداد هرب أبو الحسن بن البريدي إلى واسط بعد مقامه مائة يوم وعشرة أيام، ودخل المتقي بغداد ومعه بنو حمدان، وقلد تورون شرطة جانبي بغداد وذلك في شوال من السنة.

ثم سار بنو حمدان إلى واسط فنزل ناصر الدولة بالمدائن، وبعث أخاه سيف الدولة إلى قتال البريدي، وقد سار من واسط إليهم فقاتلوه تحت المدائن ومعهم تورون وجحجح والأتراك فانهزموا أولاً.

ثم أمدهم ناصر الدولة بمن كان معه من المدائن فانهزم البريدي إلى واسط، وعاد ناصر الدولة إلى بغداد منتصف ذي الحجة وبين يديه الأسرى من أصحاب البريدي.

وأقام سيف الدولة بموضع المعركة حتى اندملت جراحه وذهب وهنه.

ثم سار إلى واسط فلحق البريدي بالبصرة، واستولى على واسط فأقام بها معتزماً على اتباع البريدي إلى البصرة، واستمد أخاه ناصر الدولة في المال فلم يمده، وكان للأتراك عليه استطالة وخصوصاً تورون وجحجح ثم جاء أبو عبد الله الكوفي بالمال من قبل ناصر الدولة ليفرقه في الأتراك فاعترضه تورون وجحجح، وأراد البطش به فأخفاه سيف الدولة عنهما ورده إلى أخيه.

ثم ثار الأتراك بسيف الدولة سلخ شعبان فهرب من معسكره إلى بغداد ونهب سواده قتل جماعة من أصحابه وكان أبو عبد الله الكوفي لما وصل إلى ناصر الدولة وأخبره خبر أخيه، أراد أن يسير إلى الموصل فركب المتقي إليه واستمهله، وعاد إلى قصره فأغذ السير إلى الموصل بعد ثلاثة عشر شهراً من إمارته، وثار الديلم والأتراك ونهبوا داره.

ولما هرب سيف الدولة من معسكره بواسط عاد الأتراك إلى معسكرهم، وولوا تورون أميراً وجحجح صاحب جيش، ولحق سيف الدولة ببغداد منتصف رمضان بعد مسير أخيه، وبلغه خبر تورون.

ثم اختلف الأتراك وقبض تورون على جحجح وسمله، وسار سيف الدولة ولحق بأخيه بالموصل وولي تورون إمارة

الأمراء ببغداد.

خبر عدل التحكمي بالرحبة

كان عدل هذا مولى تحكم، ثم صار مع ابن رائق وأصعد معه إلى الموصل، ولما قتل ابن رائق صار في جملة ناصر الدولة بن حمدان فبعثه مع علي بن خلف بن طياب إلى ديار مضر فاستولى ابن طياب عليها، وقتل نائب ابن رائق وكان بالرحبة من ديار مضر رجل من قبل ابن رائق يقال له مسافر بن الحسين فامتنع بها، وجبى خراجها واستولى على تلك الناحية، فأرسل إليه ابن طياب عدلاً التحكمي فاستولى عليها، وفر مسافر عنها.

واجتمع التحكمية إلى عدل واستولى على طريق الفرات وبعض الخابور ثم استنصر مسافر بجمع من بني نمير وسار إلى قرقيسيا وملكها وارتجعها عدل من يده.

ثم اعتزم عدل على ملك الخابور وانتصر أهله ببني نمير فأعرض عدل عن ذلك حيناً حتى أمنوا.

ثم أسرى إلى فسيح سمصاب وهي من أعظم قرى خابور فقاتلها ونقب السور وملكها ثم ملك غيرها، وأقام في الخابور ستة أشهر وجبى الأموال وقوي جمعه واتسعت حاله.

ثم طمع في ملك بني حمدان، فسار يريد نصيبين لغيبة سيف الدولة عن الموصل وبلاد الجزيرة، ونكب عن الرحبة وحران لأن يأنس المؤنسي كان بها في عسكر، ومعه جمع من بني نمير فحاد عنها إلى رأس عين، ومنها إلى نصيبين، وبلغ الخبر إلى أبي عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان فجمع وسار إليه، فلما التقى الجمعان استأمن من أصحاب عدل إلى ابن حمدان، ولم يبقى معه إلا القليل فقبض عليه وسمله، وبعث به مع ابنه إلى بغداد في آخر شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

مسير المتقي إلى الموصل وعوده

ولما انصرف ناصر الدولة وسيف الدولة عن المتقي من بغداد جاء تورون من واسط واستولى على الدولة، ثم رجع إلى واسط ووقعت بينه وبين ابن البريدي بالبصرة مواصلة وصهر استوحش لها المتقي.

وكان بعض أصحاب تورون منافراً له، فأكثر فيه السعاية عند المتقي والوزير ابن مقلة، وخوفهما اتصال يده بابن البريدي.

وقارن ذلك اتصال ابن شيرزاده بتورون ومسيره إليه بواسط، فذكروا الخليفة بما فعل ابن البريدي معه في المرة الأخرى وخوفوه عاقبة أمرهم، فكتب إلى ابن حمدان أن ينفذ إليه عسكراً يسير صحبته إليهم فأنفذ مع ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان، ووصلوا إلى بغداد سنة اثنتين وثلاثين وخرج المتقي معهم بأهله وأعيان دولته، ومعه الوزير ابن مقلة، وانتهى إلى تكريت فلقيه سيف الدولة هنالك.

وجاء ناصر الدولة فأصعد المتقي إلى الموصل.

ولما بلغ الخبر إلى تورون سار نحو تكريت فلقيه سيف الدولة عندها فقاتله ثلاثة أيام، ثم هزمه تورون ونهب سواده وسواد أخيه، وسار سيف الدولة إلى الموصل وتوزون في اتباعه، فخرج ناصر الدولة والمتقي وجملته إلى نصيبين، ثم إلى الرقة، ولحقهم سيف الدولة إليها.

وملك تورون الموصل.

وبعث إليه المتقي يعاتبه على اتصاله بابن البريدي، وأنه إنما استوحش من ذلك فإن آثر رضاه واصل ابن حمدان فأجاب تورون إلى ذلك، وعقد الضمان لناصر الدولة على ما بيده من البلاد لثلاث سنين، كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف، وعاد تورون إلى بغداد وأقام المتقي بالرقة، ثم أحس من ابن حمدان ضجرا به، وبلغ سيف الدولة أن محمد بن نيال الترجمان أغرى المتقي بسيف الدولة، وهو الذي كان أفسد بين المتقي وتورون فقبض عليه سيف الدولة وقتله، وارتاب المتقي بذلك فكتب إلى تورون يستصلحه.

وكتب إلى الإخشيد محمد بن طغج صاحب مصر يستقدمه، فسار إليه الإخشيد.

ولما وصل إلى حلب وعليها من قبل سيف الدولة ابن عمهم أبو عبد اللّه سعيد بن حمدان فرحل عنها، وتخلف عنه ابن مقاتل الذي كان بدمشق مع ابن رائق.

ولما وصل الإخشيد إلى حلب لقيه ابن مقاتل فأكرمه واستعمله على خراج مصر.

ثم سار إلى المتقي بالرقة فلقيه منتصف ثلاث وثلاثين فبالغ المتقي في إكرامه وبالغ هو في الأدب معه، وحمل إليه الهدايا وإلى وزيره وحاشيته، وسأله المسير إلى مصر أو الشام فأبى، فأشار عليه أن لا يرجع إلى تورون فأبى.

وأشار على ابن مقلة أن يسير معه إلى مصر ليحكمه في دولته، وخوفه من تورون فلم يعمل، وجاءهم رسل تورون في

الصلح وأنهم استحلفوه للخليفة والوزير، فانحدر المتقي إلى بغداد آخر المحرم، وعاد الإخشيد إلى مصر.

ولما وصل المتقي إلى هيت لقيه تورون فقبل الأرض ورأى أنه تحلل عن يمينه بتلك الطاعة، ثم وكل به وسمل المتقي ورجع، إلى بغداد فبايع للمستكفي.

ولما ارتحل المتقي عن الرقة ولى عليها ناصر الدولة ابن عمه أبا عبد اللّه بن سعيد بن حمدان، وعلى طريق الفرات وديار مضر وقنسرين وجند والعواصم وحمص.

فلما وصل إلى الرقة طمع أهلها فيه فقاتلهم وظفر بهم ورجع إلى حلب وقد كان ولى على هذه البلاد قبله أبا بكر محمد بن علي بن مقاتل.

استيلاء سيف الدولة على حلب وحمص

ولما ارتحل المتقي من الرقة، وانصرف الإخشيد إلى الشام بقي يانس المؤنسي بحلب فقصده سيف الدولة وملكها من يده، ثم سار إلى حمص فلقيه بها كافور مولى الإخشيد فهزمه سيف الدولة وسار إلى دمشق فامتنعوا عليه فرجع، وجاء الإخشيد من مصر إلى الشام، وسار في اتباع سيف الدولة فاصطفا بقنسرين، ثم تحاجزوا ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة والإخشيد إلى دمشق.

ثم سار سيف الدولة إلى حلب فملكها وسارت عساكر الروم إليها فقاتلهم وظفر بهم.

ثم بلغ ناصر الدولة بن حمدان ما فعله تورون من سمل المتقي وبيعة المستكفي، فامتنع من حمل المال وهرب إليه غلمان تورون فاستخدمهم ونقض الشرط في ذلك.

وخرج تورون والمستكفي قاصدين الموصل، وترددت الرسل بينهما في الصلح، فتم ذلك آخر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وعاد المستكفي وتوزون إلى بغداد فتوفي تورون إثر عوده، وولي الأمور بعده ابن شيرزاده، واستعمل على واسط قائداً، وعلى تكريت آخر.

فأما الذي على واسط فكاتب معز الدولة ابن بويه، واستقدمه فقدم بغداد واستولى على الدولة، فخلع المستكفي وبايع للمطيع، وأما الذي على تكريت فسار إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل وسار معه وولاه عليها من قبله.

الفتنة بين ابن حمدان وابن بويه

ولما خلع معز الدولة بن بويه المستكفي عند استيلائه على بغداد امتعض ناصر الدولة بن حمدان لذلك وسار من الموصل إلى العراق، وبعث معز الدولة بن بويه قواده، فالتقى الجمعان بعكبرا، واقتتلوا وخرج معز الدولة مع المطيع إلى عكبرا وكان ابن شيرزاده ببغداد وأقام بها، ولحق بناصر الدولة بن حمدان، وجاء بعساكره إلى بغداد فنزلوا بالجانب الغربي، وناصر الدولة بالجانب الشرقي، ووقع الغلاء في معسكر معز الدولة، والخليفة لانقطاع الميرة، وبقي عسكر ابن حمدان في رخاء من العيش لاتصال الميرة من الموصل.

واستعان ابن شيرزاده بالعامة والعيارين على حرب معز الدولة والديلم، وضاق الأمر بمعز الدولة حتى اعتزم على الرجوع إلى الاهواز.

ثم أمر أصحابه بالعبور من قطربال بأعلى دجلة، وتسابق أصحاب ناصر الدولة إلى مدافعتهم ومنعهم، وبقي في خف من الناس، فأجاز إليه شجعان الديلم من أقرب الأماكن فهزموه، وملك معز الدولة الجانب الشرقي، وأعاد المطيع إلى داره في محرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

ورجع ناصر الدولة إلى عكبرا وأرسل في الصلح، فوقف الأتراك التورونية الذين معه على خبر رسالته فهموا بقتله، فأغذ السير إلى الموصل ومعه ابن شيرزاده وأحكم الصلح مع معز الدولة.

استيلاء سيف الدولة على دمشق

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة توفي الإخشيد أبو بكر محمد بن طغج صاحب مصر والشام، فنصب للأمر بعده ابنه أبو القاسم أنوجور، واستولى عليه كافور الأسود وخادم أبيه، وسار بهما إلى مصر.

وجاء سيف الدولة إلى دمشق فملكها، وارتاب به أهلها فاستدعوا كافوراً فجاءهم، وخرج سيف الدولة إلى حلب، ثم اتبعوه فعبر إلى الجزيرة وأقام أنوجور على حلب.

ثم اتفقوا واصطلحوا، وعاد أنوجور إلى مصر وسيف الدولة إلى حلب، وأقام كافور بدمشق قليلاً، ثم عاد إلى مصر واستعمل على دمشق بدراً الإخشيد ويعرف ببدير، ثم عزله بعد سنة وولى أبا المظفر طغج.

الفتنة بين ناصر الدولة بن حمدان وبين تكين والأتراك

كان مع ناصر الدولة جماعة من الأتراك أصحاب تورون فروا إليه كما قدمنا، فلما وقعت المراسلة بينه وبين معز الدولة في الصلح ثاروا به، وهرب منهم وعبر إلى الجانب الغربي ونزل الموصل واستجار القرامطة فأجاروه، وبعثوا معه إلى مأمنه، في جملته ابن شيرزاده فقبض ناصر الدولة عليه، واجتمع الأتراك بعده فقدموا عليهم تكين الشيرازي، وقبضوا على من تخلف من أصحاب ناصر الدولة واتبعوه إلى الموصل فسار عنها إلى نصيبين ودخل الأتراك الموصل.

وبعث ناصر الدولة إلى معز الدوله يستصرخه، فبعث إليه الجيوش مع وزيره أبي جعفر الصيمري وخرج الأتراك من الموصل في اتباع ناصر الدولة إلى نصيبين فمضى إلى سنجار ثم إلى الحديثة إلى السن، وهم في اتباعه، وبقي هنالك العساكر فقاتلوا الأتراك وهزموهم، وسيق قائدهم تكين إلى ناصر الدولة فسمله لوقته ثم حبسه.

وسار مع الصيمري إلى الموصل فأعطاه ابن شيرزاده وارتحل به إلى بغداد.

انتقاض جمان بالرحبة ومهلكه

كان جمان هذا من أصحاب تورون وسار إلى ناصر الدولة بن حمدان، فلما كان في محاربة معز الدولة ببغداد، استراب بمن معه من الديلم وجمعهم على جمان هذا، وأخرجه إلى الرحبة والياً فعظم أمره، وانتقض سنة ست وثلاثين وثلاثمائة على ناصر الدولة، وحدثته نفسه بالتغلب على ديار مضر، فسار إلى الرقة وحاصرها سبعة عشر يوماً، وانهزم عنها.

ووثب أهل الرحبة بأصحابه وعماله فقتلوهم لسوء سيرتهم، وجاء من الرقة فأثخن فيهم وبعث ناصر الدولة بن حمدان حاجبه باروخ مع عسكر فاقتتلوا على الفرات وانهزم جمان فغرق في الفرات واستأمن أصحابه إلى باروخ فأمنهم ورجع إلى ناصر الدولة.

فتنة ناصر الدولة مع معز الدولة

ثم وقعت الفتنة بين ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه وسار إليه معز الدولة من بغداد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فسار هو من الموصل إلى نصيبين وملك معز الدولة الموصل فظلم الرعايا وأخذ أموالهم، وأجمع الاستيلاء على بلاد ابن حمدان كلها، فجاءه الخبر بأن عساكر خراسان قصدت جرجان والري، وبعث أخوه ركن الدولة يستمده فصالح ناصر الدولة عن الموصل والجزيرة والشام على ثمانية آلاف ألف درهم كل سنة، وعلى أن يخطب له ولأخويه عماد الدولة وركن الدولة، وعاد إلى بغداد في ذي الحجة آخر سبع وثلاثين وثلاثمائة.

غزوات سيف الدولة

كان أمر الثغور راجعاً إلى سيف الدولة بن حمدان ووقع الفداء سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة في ألفين من الأسرى على يد نصر النملي، ودخل الروم سنة اثنتين وثلاثين مدينة واسرغين ونهبوها وسبوها وأقاموا بها ثلاثاً وهم في ثمانين ألفاً مع الدمستق ثم سار سيف الدولة سنة سبع وثلاثين غازياً إلى بلاد الروم فقاتلوه وهزموه.

ونزل الروم على مرعش فأخذوها وأوقعوا بأهل طرسوس.

ثم دخل سنة ثمان وثلاثين وتوغل في بلاد الروم وفتح حصوناً كثيرة وغنم وسبا.

ولما قفل أخذت الروم عليه المضايق وأثخنوا في المسلمين قتلاً وأسراً واستردوا ما غنموه، ونجا سيف الدولة في فل قليل ثم ملك الروم سنة إحدى وأربعين مدينة سروج واستباحوها.

ثم دخل سيف الدولة سنة ثلاث وأربعين إلى بلاد الروم فأثخن فيها وغنم وقتل قسطنطين بن الدمستق فيمن قتل، فجمع الدمستق عساكر الروم والروس وبلغار وقصد الثغور، فسار إليه سيف الدولة بن حمدان والتقوا عند الحارث فانهزم الروم واستباحهم المسلمون قتلاً وأسراً، وأسر صهر الدمستق، وبعض أسباطه وكثير من بطارقته ورجع سيف الدولة بالظفر والغنيمة.

ثم دخل بلاد الروم النصرانية ثم رجع إلى أذنة، وأقام بها حتى جاءه نائبه على طرسوس فخلع عليه، وعاد إلى حلب وامتعض الروم لذلك فرجعوا إلى بلادهم.

ثم غزا الروم طرسوس والرها وعاثوا في نواحيها سبياً وأسراً ورجعوا.

ثم غزا سيف الدولة بلاد الروم سنة ست وأربعين وأثخن فيها وفتح عدة حصون وامتلأت أيدي عسكره من الغنائم

والسبي، وانتهى إلى أسروشنة ورجع وقد أخذت الروم عليه المضايق، فقال له أهل طرسوس: ارجع معنا فإن الدروب التي دخلت منها قد ملكها الروم عليك فلم يرجع إليهم، وكان معجباً برأيه فظهر الروم عليه في الدرب واستردوا ما أخذوا منهم ونجا في فل قليل يناهزون الثلاثمائة ثم دخل سنة خمسين قائد من موالي سيف الدولة إلى بلاد الروم من ناحية ميافارقين فغنم وسبا وخرج سالماً.

الفتنة بين ناصر الدولة ومعز الدولة بن بويه

قد تقدم لنا ما وقع من الصلح بين ناصر الدولة وبين معز الدولة بن بويه، وطالبه في المال فانتقض.

وسار إليه معز الدولة إلى الموصل منتصف السنة وملكها، وفارقها ناصر الدولة إلى نصيبين وحمل نوابه ومن يعرف وجوه المال وحمايته، وأنزلهم في قلاعه مثل الزعفراني وكواشي ودس إلى العرب بقطع الميرة عن عسكر معز الدولة فضاقت عليهم الأقوات، فرحل معز الدولة إلى نصيبين لما بها من الغرت السلطانية، واستخلف سبكتكين الحاجب الكبير على الموصل، وبلغه في طريقه أن أبا الرجاء وعبد الله ابني ناصر الدولة مقيمان بسنجار فقصدهما فهربا، وخلفا أثقالهما وانتهب العسكر خيامهما.

ثم عادا إلى معسكر معزالدولة وهم غازون فنالوا منهم، ورجعوا إلى سنجار، وسار معز الدولة إلى نصيبين ففارقها ناصر الدولة إلى ميافارقين، واستأمن كثير من أصحابه إلى معز الدولة، فسار ناصر الدولة إلى أخيه سيف الدولة بحلب، فقام بخدمته وباشرها بنفسه، وأرسل إلى معز الدولة في الصلح بينه وبين أخيه، فامتنع معز الدولة من قبول ناصر الدولة لانتقاضه وإخلافه، فضمن سيف الدولة البلاد بألفي ألف وتسعمائة ألف درهم، وأطلق معز الدولة أسرى أصحابهم.

وتم ذلك في محرم سنة ثمان وأربعين ورجع معز الدولة إلى العراق وناصر الدولة إلى الموصل.

استيلاء الروم على عين زربة ثم على مدينة حلب

وفي المحرم من سنة إحدى وخمسين نزل الدمستق في جموع الروم على عين زربة وملك الجبل المطل عليها، وضيق عليها حصارها ونصب عليها المنجنيقات، وشرع في النقب فاستأمنوا ودخل المدينة، ثم ندم على تأمينهم لما رأى من اختلال أحوالهم، فنادى فيهم أن يخرجوا بجميع أهاليهم إلى المسجد فمات منهم في الأبواب بكض الزحام خلق، ومات آخرون في الطرقات، وقتل من وجدوا آخر النهار، واستولى الروم على أموالهم وأمتعتهم وهدموا سور المدينة، وفتحوا في نواحي عين زربة أربعة وخمسين حصناً.

ورحل الدمستق بعد عشرين يوماً بنية العود، وخلف بجيشه بقيسارية وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد قطع الخطبة لسيف الدولة بن حمدان، واعترضه الدمستق في بعض مذاهبه فأوقع به، وقتل أخاه وأعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة، وألقى ابن الزيات نفسه في النهر فغرق.

ثم رجع الدمستق إلى بلاد الثغور، وأغذ السير إلى مدينة حلب، وأعجل سيف الدولة عن الاحتشاد فقاتله في خف من أصحابه فانهزم سيف الدولة، واستلحم آل حمدان واستولى الدمستق على ما في داره خارج حلب من خزائن الأموال والسلاح وخرب الدار وحصر المدينة، وأحس أهل حلب مدافعته فتأخر إلى جبل حيوش.

ثم انطلقت أيدي الدعار بالبلد على النهب، وقاتلهم الناس على متاعهم، وخربت الأسوار لخلوُها من الحامية فجاء الروم ودخلوها عليهم وبادر الأسرى الذين كانوا في حلب وأثخنوا في الناس، وسبي من البلد بضعة عشر ألفاً ما بين صبي وصبية واحتمل الروم ما قدروا عليه وأحرقوا الباقي.

ولجأ المسلمون إلى قصبة البلد فامتنعوا بها، وتقدم ابن أخت الملك إلى القلعة يحاصرها فرُمي بحجر منجنيق فمات وقتل الدمستق به من كان معه من أسرى المسلمين وكانوا ألفاً ومائتين.

وارتحل الدمستق عنهم ولم يعرض لسواد حلب وأمرهم بالعمارة على أنه يعود ابن عمه عن قريب فخيب الله ظنه.

وأعاد سيف الدولة عين زربة وأصلح أسوارها وغزا حاجبه مع أهل طرسوس إلى بلاد الروم فأثخنوا فيها ورجعوا، فجاء الروم إلى حصن سبة فملكوه وملكوا أيضا حصن دلوكة وثلاثة حصون مجاورة لهم، ثم سار نجا غلام سيف الدولة إلى حصن زياد فلقيهم جمع من الروم فانهزم الروم وأسر منهم خمسمائة رجل.

وفي هذه السنة أسر أبو فراس بن سعيد بن حمدان وكان عاملاً على منبج وفيها سار جيش من الروم في البحر إلى جزيرة

إقريطش، وبعث إليهم المعز بالمدد فأسر الروم وانهزم من بقي منهم، ثم ثار الروم في اثنتين وخمسين بعدها بملكهم فقتلوه وملكوا غيره وصار ابن السميسرة دمستقاً.

انتقاض أهل حران

كان سيف الدولة قد ولى هبة الله ابن أخيه ناصر الدولة غيرها من ديار مضر، فساء أثره فيهم وطرح الأمتعة على التجار وبالغ في الظلم فانتظروا به غيبته عند عمه سيف الدولة وثاروا بعماله ونوابه فطردوهم، فسار هبة الله إليهم وحاصرهم شهرين وأفحش في القتل فيهم.

ثم سار سيف الدولة فراجعوا الطاعة وداخلوا هبة اللّه وأفحش في القتل واستقاموا.

انتقاض هبة اللّه

وفي هذه السنة بعث سيف الدولة الصوائف إلى بلاد الروم، فدخل أهل طرسوس من درب ومولاه نجا من درب، وأقام هو ببعض الدروب لأنه كان أصابه الفالج قبل ذلك بسنتين، فكان يعاني منه شدة إذا عاوده وجعه، وتوغل أهل طرسوس في غزوتهم وبلغوا قونية، وعادوا فعاد سيف الدولة إلى حلب واشتد وجعه، فأرجف الناس بموته فوثب هبة اللّه ابن أخيه، وقتل ابن دنجا النصراني من غلمان سيف الدولة ولما تيقن حياة عمه رحل إلى حران وامتنع بها، وبعث سيف الدولة غلامه فجاء إلى حران في طلبه، فلحق هبة اللّه بأبيه بالموصل ونزل نجا على حران آخر شوال من سنة اثنتين وخمسين، وصادر أهلها على ألف ألف درهم وأخذها منهم في خمسة أيام بالضرب والنكال، وباعوا فيها ذخائرهم حتى أملقوا، وصاروا إلى ميافارقين ونزلها شاغرة فتسلط العيارون على أهلها.

انتقاض نجا بميافارقين وأرمينية واستيلاء سيف الدولة عليها

ولما فعل نجا بأهل حران ما فعل، واستولى على أموالهم فقوي بها وبطر، وسار إلى ميافارقين، وقصد بلاد أرمينية، وكان قد استولى على أكثرها رجل من العراق يعرف بأبي الورد فغلبه نجا على ما ملك منها، وأخذ قلاعه وبلاده فملك خلاط وملاذكرد وأخذ كثيراً من أموال أبي الورد وقتله، ثم انتقض على سيف الدولة.

واتفق أن معز الدولة بن بويه استولى على الموصل ونصيبين فكاتبه نجا يعده المساعدة على بني حمدان، ثم صالحه ناصرالدولة، ورجع إلى بغداد فسار سيف الدولة إلى نجا فهرب منه بين يديه واستولى على جميع البلاد التي ملكها من أبي الورد واستأمن إليه نجا وأخوه وأصحابه، فأمنهم وأعاد نجا إلى مرتبته، ثم وثب عليه غلمانه وقتلوه في داره بميافارقين في ربيع سنة ثلاث وخمسين.

مسير معز الدولة إلى الموصل وحروبه مع ناصر الدولة

كان الصلح قد استقر بين ناصر الدولة ومعز الدولة على ألف ألف درهم في كل سنة.

ثم طلب ناصر الدولة دخول ولده أبي ثعلب المظفر في اليمن على زيادة بذلها، وامتنع سيف الدولة من ذلك وسار إلى الموصل منتصف سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ولحق ناصر الدولة بنصيبين وملك معز الدولة الموصل، وسار عنها في أتباع ناصر الدولة بعد أن استخلف على الموصل في الجباية والحرب فلم يثبت ناصر الدولة، وفارق نصيبين وملكها معز الدولة.

وخالفه أبو ثعلب إلى الموصل وعاث في نواحيها، وهزمه قواد معز الدولة بالموصل فسكنت نفس معز الدولة.

وأقام ببر قعيد يترقب أخباره، وخالف ناصر الدولة إلى الموصل فأوقع بأصحابه وقتلهم، وأسر قواده واستولى على مخلفه من المال والسلاح وحمل ذلك كله إلى قلعة كواشي.

وبلغ الخبر إلى معز الدولة فلحق بالنواب، وأعيا معز الدولة أمرهم.

ثم أرسلوا إليه في الصلح فأجاب، وعقد لناصر الدولة على الموصل وديار ربيعة، وجميع أعماله بمقرها المعلوم، وعلى أن يطلق الأسرى الذين عنده من أصحاب معز الدولة ورجع معز الدولة إلى بغداد.

حصار المصيصة وطرسوس واستيلاء الروم عليها

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة خرج الدمستق في جموع

الروم فنازل المصيصة، وشد حصارها وأحرق رساتيقها، وبلغ إلى نقب السور فدافعه أهلها أشد مدافعتهم.

ثم رحل إلى أذنة وطرسوس، وطال عيثه في نواحيها، وأكثر القتل في المسلمين، وغلت الأسعار في البلاد، وقلت الأقوات.

وعاود سيف الدولة مرضٌ فمنعه من النهوض إليهم، وجاء من خراسان خمسة آلاف رجل غزاة فبلغوا إلى سيف الدولة، فارتحل بسببهم للمدافعة فوجد الروم انصرفوا ففرق هؤلاء الغزاة في الثغور من أجل الغلاء، وكان الروم قد انصرفوا بعد خمسة عشر يوماً.

وبعث الدمستق إلى أهل المصيصة وأذنه وطرسوس يتهددهم بالعود، ويأمرهم بالرحيل من البلاد.

ثم عاد إليهم وحاصر طرسوس فقاتلهم أشد قتال وأسروا بطريقاً من بطارقته وسقط الدمستق إلى أهل المصيصة ورجعوا إلى بلادهم.

ثم سار نقفور ملك الروم من القسطنطينية سنة أربع وخمسين إلى الثغور، وبنى بقيسارية مدينة ونزلها، وجهز عليها العساكر وبعث أهل المصيصة وطرسوس في الصلح فامتنع، وسار بنفسه إلى المصيصة فدخلها عنوة واستباحها، ونقل أهلها إلى بلاد الروم وكانوا نحواً من مائتي ألف.

ثم سار إلى طرسوس واستنزل أهلها على الأمان، وعلى أن يحملوا من أموالهم وسلاحهم ما قدروا عليه، وبعث معهم حامية من الروم يبلغونهم أنطاكية، وأخذ في عمارة طرسوس وتحصينها وجلب الميرة إليها.

ثم عاد إلى القسطنطينية وأراد الدمستق بن شمسيق أن يقصد سيف الدولة في ميافارقين ومنعه الملك من ذلك.

انتقاض أهل أنطاكية وحمص

ولما استولى الروم على طرطوس لحق الرشيق النعيمي من قوادهم وأولي الرأي فيهم بأنطاكية في عدد وقوة، فاتصل به ابن أبي الأهوازي من الجباة بأنطاكية، وحسن له العصيان وأراه أن سيف الدولة بميافارقين عاجز عن العود إلى الشام بما هو فيه من الزمانة، وأعانه بما كان عنده من مال الجباة، فأجمع رشيق الانتقاض، وملك أنطاكية وسار إلى حلب وبها عرقوبة وجاء الخبر إلى سيف الدولة بأن رشيقاً أجمع الانتقاض، ونجا ابن الأهوازي إلى أنطاكية فأقام في إمارتها رجلاً من الديلم اسمه وزير ولقبه الأمير وأوهم أنه علوي وتسمى هو بالأشاد وأساء السيرة في أهل أنطاكية، وقصدهم عرقوبة من حلب فهزموه.

ثم جاء سيف الدولة من ميافارقين إلى حلب وخرج إلى أنطاكية، وقاتل وزيراً وابن الأهوازي أياماً.

وجيء بهما إليه أسيرين فقتل وزيراً وحبس ابن الأهوازي أياماً وقتله، وصلح أمر أنطاكية.

ثم ثار بحمص مروان القرمطي كان من متابعة القرامطة، وكان يتقلد السواحل لسيف الدولة، فلما تمكن ثار بحمص فملكها وملك غيرها في غيبة سيف الدولة بميافارقين، وبعث إليه عرقوبة مولاه بدراً بالعساكر فكانت بينهما عدة حروب أصيب فيها مروان بسهم فأثبت، وبقي أياماً يجود بنفسه والقتال بين أصحابه وبين بدر، وأسر بدر في بعض تلك الحروب فقتله مروان وعاش بعده أياماً ثم مات وصلح أمرهم.

خروج الروم إلى الثغور واستيلاؤهم على دارا

وفي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة خرجت جموع الروم إلى الثغور فحاصروا آمد ونالوا من أهلها قتلاً وأسراً فامتنعت عليهم فانصرفوا إلى دارا قريباً من ميافارقين فأخذوها، وهرب الناس إلى نصيبين وسيف الدولة يومئذ بها فهمّ بالهروب، وبعث عن العرب ليخرج معهم ثم انصرف الروم وأقام هو بمكانه، ساروا إلى أنطاكية فحاصروها مدة، وعاثوا في جهاتها فامتنعت فعاد الروم إلى طرسوس.

وفاة سيف الدولة ومحبس أخيه ناصر الدولة

وفي صفر من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة توفي سيف الدولة أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان بحلب، وحمل إلى ميافارقين فدفن بها وولي مكانه بعده ابنه أبو المعالي شريف.

ثم في جمادى الأولى منها حبس ناصر الدولة أخوه بقلعة الموصل، حبسه ابنه أبو تغلب فضل الله الغضنفر وكان كبير ولده، وكان سبب ذلك أنه كبر وساءت أخلاقه، وخالف أولاده وأصحابه في المصالح، وضيق عليهم فضجروا منه، ولما بلغهم معز

الدولة بن بويه اعتزم أولاده على قصد العراق فنهاهم ناصر الدولة، وقال لهم: اصبروا حتى ينفق بختيار ما خلف أبوه معز الدولة من الذخيرة فتظفروا به، وإلا استظهر عليكم وظفر بكم فلجوا في ذلك، ووثب به أبو ثعلب بموافقة البطانة، وحبسه بالقلعة، ووكل بخدمته، وخالفه بعض إخوته في ذلك واضطرب أمره، واضطر إلى مداراة بختيار بن معز الدولة، وأرسل له في تجديد الضمان ليحتج به على إخوته فضمنه بألفي ألف درهم في كل سنة.

ولاية أبي المعالي بن سيف الدولة بحلب ومقتل أبي فراس

ولما مات سيف الدولة كما ذكرناه ولي بعده ابنة أبو المعالي شريف، وكان سيف الدولة قد ولى أبا فراس بن أبي العلاء سعد بن حمدان عندما خلصه من الأسر الذي أسره الروم في منبج فاستفداه في الفداء الذي بينه وبين الروم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وولاه على حمص.

فلما مات سيف الدولة استوحش من أبي المعالي بعده ففارق حمص، ونزل في صدد قرية في طرف البرية قريباً من حمص، فجمع أبو المعالي الأعراب من بني كلاب وغيرهم، وبعثهم مع عرقوبة في طلبه فجاء إلى صدد، واستأمن له أصحاب أبي فراس، وكان في جملتهم فأمر به عرقوبة فقتل، واحتمل رأسه إلى أبي المعالي وكان أبو فراس خاله.

أخبار أبي ثعلب مع إخوته بالموصل

كان لناصر الدولة بن حمدان زوجة تسمى فاطمة بنت أحمد الكردية، وهي أم أبي ثعلب وهي التي دبرت مع ابنها أبي ثعلب على أبيه، فلما حبس ناصر الدولة، كاتب ابنه حمدان يستدعيه ليخلصه مما هو فيه.

وظفر أبو ثعلب بالكتاب، فنقل أباه إلى قلعة كواشي واتصل ذلك بحمدان، وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة من الرحبة إلى الرقة فملكها.

ولما اتصل به شأن الكتاب سار إلى نصيبين وجمع الجموع، وبعث إلى إخوته في الإفراج عن أبيهم فسار أبو ثعلب لحربه، وانهزم حمدان قبل اللقاء للرقة فحاصره أبو ثعلب أشهراً، ثم اصطلحا وعاد كل منهما إلى مكانه.

ثم مات ناصر الدولة في محبسه سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ودفن بالموصل.

وبعث أبو ثعلب أخاه أبا البركات إلى حمدان بالرحبة فافترق عنه أصحابه، وقصد العراق مستجيراً ببختيار، فدخل بغداد في شهر رمضان من سنته، وحمل إليه الهدايا.

وبعث بختيار إلى أبي ثعلب النقيب أبا أحمد والد الشريف الرضي في الصلح مع أخيه حمدان فصالحه، وعاد إلى الرحبة منتصف سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وفارقه أبو البركات، ثم استقدمه أبو ثعلب فامتنع من القدوم عليه، فبعث إليه أخاه أبا البركات ثانياً في العساكر، فخرج حمدان إلى البرية، وترك الرحبة فملكها أبو البركات واستعمل عليها، وسار إلى الرقة، ثم إلى عرابان.

وخالفه حمدان إلى الرحبة فكبسها وقتل أصحاب أبي ثعلب بها فرجع إليه أبو البركات، وتقاتلا فضرب أبا البركات على رأسه فشجه، ثم ألقاه إلى الأرض وأسره ومات من يومه.

وحمل إلى الموصل فدفن بها عند أبيه.

وجهز أبو ثعلب إلى حمدان وقدم أخاه أبا فراس محمداً إلى نصيبين، ثم عزله عنها لأنه داخل حمدان ومالأه عليه، فاستدعاه وقبض عليه وحبسه بقلعة ملاشي من بلاد الموصل فاستوحش أخوه إبراهيم والحسن، ولحقا بأخيهما حمدان في شهر رمضان، وساروا جميعاً إلى سنجار.

وسار أبو ثعلب من الموصل في أثرهم في شهر رمضان سنة ستين وثلاثمائة فخاموا عن لقائه، واستأمن إليه أخواه إبراهيم والحسن خديعة ومكراً فأمنهما، ولم يعلم، وتبعهما كثير من أصحاب حمدان، وعاد حمدان من سنجار إلى عرابان وأطلع أبو ثعلب على خديعة أخويه فهربا منه.

ثم استأمن الحسن ورجع إليه، وكان حمدان أقام نائباً بالرحبة غلامه نجا، فاستولى على أمواله وهرب بها إلى حران وبها سلامة البرقعيدي من قبل أبي ثعلب فرجع حمدان إلى الرحبة، وسار أبو ثعلب إلى قرقيسيا، وبعث العساكر إلى الرحبة فعبروا الفرات، واستولوا عليها، ونجا حمدان بنفسه، ولحق بسنجار مستجيراً به، ومعه أخوه إبراهيم فأكرمهما ووصلهما وأقاما عنده.

ورجع أبو ثعلب إلى الموصل وذلك كله آخر سنة ستين وثلاثمائة.

خروج الروم إلى الجزيرة والشام

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة دخل ملك الروم الشام فسار في نواحيها، ولم يجد من يدافعه فعاث في نواحي طرابلس، وكان أهلها قد أخرجوا عاملهم إلى عرقة لسوء سيرته فنهب الروم أمواله، ثم حاصر الروم عرقة فملكوها ونهبوها.

ثم قصدوا حمص وقد انتقل أهلها عنها فأحرقوها، ورجعوا إلى بلاد السواحل وملكوا منها ثمانية عشر بلداً، واستباحوا عامة القرى، وساروا في جميع نواحي الشام ولا مدافع لهم، إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم.

ثم رجع ملك الروم مجمعاً حصار حلب وأنطاكية، وبلغه استعدادهم فرحل عنهم إلى بلاده ومعه من السبي مائة ألف رأس.

وكان بحلب قرعوية مولى سيف الدولة فمانعهم، وبعث ملك الروم سراياه إلى الجزيرة فبلغوا كفرتوثا وعاثوا في نواحيها، ولم يكن من أبي ثعلب مدافعة لهم.

استبداد قرعويه بحلب

كان قرعويه غلام سيف الدولة، وهو الذي أخذ البيعة لابنه أبي المعالي بعد موته، فلما كان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة انتقض على أبي المعالي وأخرجه من حلب واستبد بملكها.

وسار أبو المعالي إلى حران فمنعه أهلها، فسار إلى والدته بميافارقين وهي بنت سعيد بن حمدان أخت أبي فراس.

ولحق أصحابه بأبي ثعلب، وبلغ أمه بميافارقين وهي بنت سعيد بن حمدان أخت أبي فراس أنه يريد القبض عليها فمنعته أياماً من الدخول، حتى استوثقت لنفسها وأذنت له ولمن رضيته، وأطلقت لهم الأرزاق ومنعت الباقين وسار أبو المعالي لقتال قرعويه بحلب فامتنع عليه، ثم لحق أبو المعالي بحماة، وأقام بها وبقيت الخطبة بحران له ولا والي عليهم من قبله، فقدموا عليهم من يحكم بينهم.

مسير أبي ثعلب من الموصل إلى ميافارقين

ولما سمع أبو ثعلب بخروج أبي المعالي من ميافارقين إلى حلب لقتال قرعويه، سار إليها وامتنعت زوجة سيف الدولة منه، واستقر الأمر بينهما على أن تحمل إليه مائتي ألف درهم.

ثم نمي إليها أنه يحاول على ملك البلد فكبسته ليلاً، ونالت من معسكره فبعث إليها يلاطفها فأعادت إليه بعض ما نهب، وحملت إليه مائة ألف درهم وأطلقت الأسارى فرجع عنها.

استيلاء الروم على أنطاكية ثم حلب ثم ملاذكرد

وفي سنة تسع وخمسين خرج الروم إلى أنطاكية فمروا بحصن الوفاء بقربها، وهم نصارى فحاصروهم، واتفقوا على أن يرحلوا إلى أنطاكية، فإذا نزل الروم عليها ثاروا من داخل.

وانتقل أهل الوفاء ونزلوا بجبل أنطاكية.

وجاء بعد شهرين أخو نقفور ملك الروم في أربعين ألفاً من جموع الروم، ونازل أنطاكية فأخلى له أهل الوفاء السور من ناحيتهم، وملكوا البلد وسبوا منها عشرين ألفاً.

ثم أنفذ ملك الروم جيشاً كثيفاً إلى حلب، وأبو المعالي بن سيف الدولة عليها يحاصرها ففارقها أبو المعالي، وقصد البرية وملك الروم حلب.

وتحصن قرعويه وأهل البلد بالقلعة فحاصروها مدة، ثم ضربوا الهدنة بينهم على مال يحمله قرعويه، وعلى أن الروم إذا أرادوا الميرة من قرى الفرات لا يمنعونهم منها.

ودخل في هذه الهدنة حمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وشيزر، وما بين ذلك من الحصون والقرى، وأعطاهم رهنهم على ذلك الروم، وأفرج الروم عن حلب.

وكان ملك الروم قد بعث جيشاً إلى ملاذكرد من أعمال أرمينية فحاصروها وفتحوها عنوة، ورعب أهل الثغور منهم في كل ناحية.

مقتل نقفور ملك الروم

كان نقفور ملكاً بالقسطنطينية، وهي البلاد التي بيد بني عثمان لهذا العهد، وكان من يليها يسمى الدمستق.

وكان نقفور هذا شديداً على المسلمين، وهو الذي أخذ حلب أيام سيف الدولة، وملك طرسوس والمسينة وعين زربه، وكان قتل الملك قبله وتزوج امرأته، وكان له منها ابنان فكفلهما نقفور وكان كثيراً ما يطرق بلاد المسلمين ويدوخها في ثغور الشام والجزيرة، حتى هابه المسلمون وخافوه على بلادهم.

ثم أراد أن يجب ربيبيه ليقطع نسلهما ففرقت أمهما من

ذلك، وأرسلت إلى الدمستق بن الشميشق وداخلته في قتله وكان شديد الخوف من نقفور.

وهذا كان أبوه مسلماً من أهل طرسوس يعرف بابن العفاش تنصر ولحق بالقسطنطينية، ولم يزل يترقى في الأطوار إلى أن نال من الملك ما ناله.

وهذه غلطة ينبغي للعقلاء أن يتنزهوا عنها، ولا ينال الملك من كان عريقاً في السوقة، وفقيداً للعصابة بالكلية وبعيداً عن نسب أهل الدولة، فقد تقدم من ذلك في مقدمة الكتاب ما فيه كفاية.

استيلاء أبي ثعلب على حران

وفي منتصف سنة تسع وخمسين وثلاثمائة سار أبو ثعلب إلى حران وحاصرها نحواً من شهر، ثم جنح أهلها إلى مصالحته واضطربوا في ذلك، ثم توافقوا عليه وخرجوا إلى أبي ثعلب وأعطوه الطاعة، ودخل في إخوانه وأصحابه فصلى الجمعة ورجع إلى معسكره.

واستعمل عليهم سلامة البرقعيدي، وكان من أكابر أصحاب بني حمدان.

وبلغه الخبر بأن نميراً عاثوا في بلاد الموصل وقتلوا العامل ببرقعيد فأسرع العود.

مصالحة قرعويه لأبي المعالي

قد تقدم لنا استبداد قرعويه بحلب سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وخروج أبي المعالي ابن سيف الدولة منها، وأنه لحق بأمه بميافارقين، ثم رجع لحصار قرعويه بحلب.

ثم رجع إلى حلب ونزل بها ثم وقع الاتفاق بينه وبين قرعويه على أن يخطب له بحلب ويخطبان جميعاً للمعز العلوي صاحب مصر.

مسير الروم إلى بلاد الجزيرة

وفي سنة إحدى وستين سار الدمستق في جموع الروم إلى الجزيرة فأغار على الرها ونواحيها، ثم تنقل في نواحي الجزيرة، ثم بلغ نصيبين واستباحها ودوخها، ثم سار في ديار بكر ففعل فيها مثل ذلك.

ولم يكن لأبي ثعلب في مدافعتهم أكثر من حمل المال إليهم، وسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين، وجلسوا إلى الناس في المساجد والمشاهد يصفون ما جرى على المسلمين، وخوفوهم عاقبة أمرهم فتقدمهم أهل بغداد إلى دار الطائع الخليفة، وأرادوا الهجوم عليه فأغلقت دونهم الأبواب فأعلنوا بشتمه، ولحق آخرون من أهل بغداد ببختيار وهو بنواحي الكوفة يستغيثونه من الروم، فوعدهم بالجهاد، وأرسل إلى الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهيز للغزو، وأن يستنفر العامة، وكتب إلى أبي ثعلب بن حمدان بإعداد الميرة والعلوفات والتجهيز، وأنه عازم على الغزو.

ووقعت بسبب ذلك فتنة في بغداد من قبل اشتغال العامة بذلك أدت إلى القتل والنهب بين عصائب الفتيان والعيارين.

أسر الدمستق وموته

ولما فعل الدمستق في ديار مضر والجزيرة ما فعل، قوي طمعه في فتح آمد فسار إليه أبو ثعلب، وقدم أخاه أبا القاسم هبة الله، واجتمعا على حرب الدمستق ولقياه في رمضان سنة اثنتين وستين.

وكانت الجولة في مضيق لا تتحرك فيه الخيل، وكان الروم على غير أهبة فانهزموا، وأخذ الدمستق أسيراً، فلم يزل محبوساً عند أبي ثعلب إلى أن مرض سنة ثلاث وستين وبالغ في علاجه وجمع له الأطباء فلم ينتفع بذلك ومات.

استيلاء بختيار بن معز الدولة على الموصل وماكان بينه وبين أبي ثعلب

قد تقدم لنا ما كان بين أبي ثعلب وأخويه حمدان وإبراهيم من الحروب، وأنهما سارا إلى بختيار بن معز الدولة صريخين فوعدهما بالنصرة، وشغل عن ذلك بما كان فيه فأبطأ عليهما أمره، وهرب إبراهيم ورجع إلى أخيه أبي ثعلب فتحرك عزم بختيار على قصد الموصل، وأغراه وزيره ابن بقية لتقصيره في خطابه فسار، ووصل إلى الموصل في ربيع سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ولحق أبو ثعلب بسنجار وأخلى الموصل من الميرة ومن الدواوين.

وخالف بختيار إلى بغداد، ولم يحدث فيها حدثاً من نهب ولا غيره، وإنما قاتل أهل بغداد فحدثت فيها الفتنة بسبب ذلك بين عامتها، واضطرب أمرهم وخصوصاً الجانب الغربي.

وسمع بختيار بذلك فبعث في أثره وزيره ابن بقية

وسبكتكين، فدخل ابن بقية بغداد وأقام سبكتكين في الضاحية، وتأخر أبو ثعلب عن بغداد وحاربه يسيراً، ثم داخله في الانتقاض واستيلاء سبكتكين على الأمر.

ثم أقصر سبكتكين عن ذلك وخرج إليه ابن بقية، وراسلوا أبا ثعلب في الصلح على مال يضمنه ويرد على أخيه حمدان إقطاعه ما سوى ماردين، وكتبوا بذلك إلى بختيار.

وارتحل أبو ثعلب إلى الموصل وأشار ابن بقية على سبكتكين باللحاق ببختيار فتقاعد، ثم سار.

وارتحل بختيار عن الموصل بعد أن جهد منه أهل البلد بما نالهم من ظلمه وعسفه، وطلب منه أبو ثعلب الإذن في لقب سلطاني وأن يحط عنه من الضمان فأجابه وسار.

ثم بلغه في طريقه أن أبا ثعلب نقض وقتل بعضاً من أصحاب بختيار عادوا إلى الموصل لنقل أهاليهم، فاستشاط بختيار واستدعى ابن بقية وسبكتكين في العساكر، وعادوا جميعاً إلى الموصل.

وفارقها أبو ثعلب وبعث أصحابه بالاعتذار والحلف على إنكار ما بلغه فقبل، وبعث الشريف أبا أحمد الموسوي لاستحلافه.

وتم الصلح ورجع بختيار إلى بغداد فجهز ابنته إلى أبي ثعلب وقد كان عقد له عليها من قبل.

عود أبي المعالي بن سيف الدولة إلى حلب

قد تقدم لنا أن قرعويه مولى أبيه سيف الدولة كان تغلب عليه، وأخرجه من حلب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، فسار إلى والدته بميافارقين، ثم إلى حماة فنزلها وكانت الروم قد أمنت حمص، وكثر أهلها.

وكان قرعوية قد استناب بحلب مولاه بكجور فقوي عليه وحبسه في قلعة حلب، وملكها سنين فكتب أصحاب قرعويه إلى أبي المعالي واستدعوه، فسار وحاصرها أربعة أشهر، وملكها وأصلح أحوالها، وازدادت عمارتها حتى انتقل إلى ولاية دمشق كما يذكر.

استيلاء عضد الدولة بن بويه على الموصل وسائر ملوك بني حمدان

ولما ملك عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بغداد، وهزم بختيار ابن عمه معز الدولة، سار بختيار في الفل إلى الشام ومعه حمدان بن ناصر الدولة أخو أبي ثعلب فحسن له قصد الموصل على الشام، وقد كان عضد الدولة عاهده أن لا يتعرض لأبي ثعلب لمودة بينهما فنكث وقصدها.

ولما انتهى إلى تكريت أتته رسل أبي ثعلب بالصلح، وأن يسير إليه بنفسه وعساكره، ويعيده على ملك بغداد على أن يسلم إليه أخاه حمدان فسلمه إلى رسل أبي ثعلب فحبسه، وسار بختيار إلى الحديثة ولقي أبا ثعلب وسار معه إلى العراق في عشرين ألف مقاتل.

وزحف نحوهما عضد الدولة، والتقوا بنواحي تكريت في شوال سنة ست وستين فهزمهما عضد الدولة، وقتل بختيار ونجا أبو ثعلب إلى الموصل فاتبعه عضد الدولة، وملك الموصل في ذي القعدة، وحمل معه الميرة والعلوفات للإقامة، وبث السرايا في طلب أبي ثعلب ومعه المرزبان بن بختيار وأخواله أبو إسحاق وظاهر ابنا معز الدولة ووالدتهم.

وسار لذلك أبو الوفاء ظاهر بن إسماعيل من أصحابه. وسار حاجبه أبو ظاهر طغان إلى جزيرة ابن عمر ولحق أبو ثعلب بنصيبين.

ثم انتقل إلى ميافارقين فأقام بها، وبلغه مسير أبي الوفاء إليه ففارقها إلى تفليس وجاء أبو الوفاء إلى ميافارقين فامتنعت عليه فتركها وطلب أبا ثعلب فخرج من أرزن الروم إلى الحسينية من أعمال الجزيرة، وصعد إلى قلعة كواشي وغيرها من قلاعه، ونقل منها ذخيرته، وعاد فعاد أبو الوفاء إلى ميافارقين وحاصرها.

واتصل بعضد الدولة مجيئه إلى القلاع، فسار إليه ولم يدركه، واستأمن إليه كثير من أصحابه.

وعاد إلى الموصل وبعث قائده طغان إلى تفليس فهرب منها أبو ثعلب واتصل بملكهم المعروف بورد الرومي، وكان منازعاً لملكهم الأعظم في الملك، فوصل ورد يده بيد أبي ثعلب، وصاهره ليستعين به واتبعه في مسيره عسكر عضد الدولة، وأدركوه فهزمهم وأثخن فيهم، ونجا فلهم إلى حصن زياد ويسمى خرت برت.

وأرسل إلى ورد يستمده فاعتذر بما هو فيه ووعده بالنصر.

ثم انهزم ورد أمام ملك الروم فأيس أبو ثعلب من نصره، وعاد إلى بلاد الإسلام ونزل بآمد حتى جاء خبر ميافارقين.

وكان أبو الوفاء لما رجع من طلب أبي ثعلب حاصر ميافارقين، والوالي عليها هزارمرد فضبط البلد ودافع أبا الوفاء ثلاثة أشهر.

ثم مات وولى أبوتغلب مكانه مؤنساً من موالي الحمدانية، ودس أبو الوفاء إلى بعض أعيان البلد فاستماله فبعث له في الناس رغبة.

وشعر بذلك مؤنس فلم يطق مخالفتهم فانقاد واستأمن، وملك أبو الوفاء البلد وكان في أيام حصاره قد افتتح سائر حصونه فاستولى على سائر ديار بكر وأمن أصحاب أبي ثعلب وأحسن إليهم ورجع إلى الموصل.

وبلغ الخبر إلى أبي ثعلب منقلبه من دار الحرب فقصد الرحبة، وبعث إلى عضد الدولة يستعطفه فشرط عليه المسير إليه فامتنع.

ثم استولى عضد الدولة على ديار مضر وكان عليها من قبل أبي ثعلب سلامة البرقعيدي من كبار أصحاب بني حمدان وكان أبو المعالي بن سيف الدولة بعث إليها جيشاً من حلب فحاربوها وامتنعت عليهم، وبعث أبو المعالي إلى عضد الدولة وعرض بنفسه عليه فبعث عضد الدولة النقيب أبا أحمد الموسوي إلى سلامة البرقعيدي، وتسلمها بعد حروب، وأخذ لنفسه منها الرقة، ورد باقيها على سعد الدولة فصارت له.

ثم استولى عضد الدولة على الرحبة، وتفرغ بعد ذلك لفتح قلاعه وحصونه.

واستولى على جميع أعماله واستخلف أبا الوفاء على الموصل، ورجع إلى بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وستين.

ثم بعث عضد الدولة جيشاً إلى الأكراد الهكارية من أعمال الموصل فحاصروهم حتى استقاموا وسلموا قلاعهم، ونزلوا إلى الموصل فحال الثلج بينهم وبين بلادهم فقتلهم قائد الجيش، وصلبهم على جانبي طريق الموصل.

مقتل أبي ثعلب بن حمدان

ولما أيس أبو ثعلب بن حمدان من إصلاح عضد الدولة، والرجوع إلى ملكه بالموصل سار إلى الشام، وكان على دمشق قسام داعية العزيز العلوي غلب عليها بعد أفتكين وقد تقدم ذلك، وكيف ولي أفتكين على دمشق، فخاف قسام من أبي ثعلب ومنعه من دخول البلد فأقام بظاهرها، وكاتب العزيز، وجاءه الخبر بأنه يستقدمه، فرحل إلى طبرية بعد مناوشة حرب بينه وبين قسام.

وجاء الفضل قائد العزيز لحصار قسام بدمشق، ومر بأبي ثعلب ووعده عن العزيز بكل جميل.

ثم حدثت الفتنة بين دغفل وقسام وأخرجهم، وانتصروا بأبي ثعلب فنزل بجوارهم مخافة دغفل والفضل القائد الذي يحاصر دمشق.

ثم ثار أبو ثعلب في بني عقيل إلى الرملة في محرم سنة تسع وتسعين، فاستراب به الفضل ودغفل وجمعوا لحربه ففر بنو عقيل عنه، وبقي في سبعمائة من غلمانه وغلمان أبيه، وولى منهزماً فلحقه الطلب فوقف يقاتل، فضرب وأسر وحمل إلى دغفل، وأراد الفضل حمله إلى العزيز فخاف دغفل أن يصطنعه كما فعل بأفتكين فقتله، وبعث الفضل بالرأس إلى مصر، وحمل بنو عقيل أخته جميلة وزوجته بنت سيف الدولة إلى أبي المعالي بحلب فبعث بجميلة إلى الموصل وبعث بها أبو الوفاء إلى عضد الدولة ببغداد فاعتقلها.

وصول ورد المنازع لملك الروم إلى ديار بكر مستجيراً

كان ملك الروم أرمانوس لما توفي خلف ولدين صغيرين وهما بسيل وقسطنطين، ونصب أحدهما للملك وعاد حينئذ الدمستق نقفور من بلاد الإسلام بعد أن عاث في نواحيها وبالغ في النكاية، فاجتمع إليه الروم ونصبوه للنيابة عن ابني أرمانوس فداخلت أمهما ابن الشميشق على الدمشقية، وقبض على لاوون أخي دمستق وعلى ابنه ورديس بن لاوون واعتقلهما في بعض القلاع.

وسار إلى بلاد الشام وأعظم فيها النكاية ومر بطرابلس فحاصرها، وكان لوالده الملك أخ خصي وهو يومئذ وزير، فوضع على ابن الشميشق من سقاه السم، وأحس به من نفسه فأغذ السير إلى القسطنطينية فمات في طريقه.

وكان ورد بن منير من عظماء البطارقة في الأمر، وصاهر أبا ثعلب بن حمدان واستجاش بالمسلمين من الثغور، وقصد الروم ووالى عليهم الهزائم فخافه الملكان، وأطلقا ورديس بن لاوون وبعثاه على الجيوش لقتال الورد فقاتله فانهزم إلى ديار بكر سنة تسع وستين وثلاثمائة، ونزل بظاهر ميافارقين، وبعث أخاه إلى عضد الدولة مستنصراً به.

وبعث ملكا الروم بالقسطنطينية إلى عضد الدولة فاستمالاه فرجح جانبهما، وأمر بالقبض على ورد وأصحابه فقبض عليه أبو علي التميمي عامل ديار بكر، وعلى ولده وأخيه وأصحابه وأودعهم السجن بميافارقين ثم بعثهم إلى بغداد فحبسوا بها إلى أن

أطلقهم بهاء الدولة بن عضد الدولة سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وشرط عليه إطلاق عدد من المسلمين وإسلام سبعة من الحصون برساتيقها، وأن لا يتعرض لبلاد المسلمين ما عاش وجهزه فسار وملك في طريقه ملطية وقوي بما فيه وصالحه ورديس بن لاوون على أن يكون قسطنطينية وجانب الشمال من الخليج له وحاصر قسطنطينية، وبها الملكان ابنا أرمانوس وهما بسيل وقسطنطين في ملكها، وأقرا ورداً على ما بيده قليلاً.

ثم مات وتقدم بسيل في الملك ودام عليه ملكه وحارب البلغار خمساً وثلاثين سنة، وظفر بهم وأجلاهما عن بلادهم وأسكنها الروم.

ولاية بكجور على دمشق

قدمنا ولاية بكجور على حمص لأبي المعالي بن سيف الدولة وأنه عمرها وكان أهل دمشق ينتقلون إليها لما نالهم من جور قسام، وما وقع بها من الغلاء والوباء، وكان بكجور يحمل الأقوات من حمص تقرباً إلى العزيز صاحب مصر، وكاتبه في ولايته فوعده بذلك.

ثم استوحش من أبي المعالي سنة ثلاث وسبعين، وأرسل إلى العزيز يستنجز وعده في ولاية دمشق فمنع الوزير بن كلس من ولايته ريبة به، وكان بدمشق من قبل العزيز القائد بلكين بعثه فمنع الوزير بعد قسام وساء أثر ابن كلس في الدولة، واجتمع الكتاميون بمصر على التوثب بابن كلس ودعته الضرورة لاستقدام بلكين من دمشق فأمر العزيز باستقدامه، وولى بكجور مكانه فدخلها في رجب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وأساء السيرة فيها وعاث في أصحاب الوزير بن كلس وأقام على ذلك ستاً.

وعجز أهل دمشق منه وجهزت العساكر من مصر مع القائد منير الخادم، وكوتب نزال والي طرابلس بمعاضدته فسار في العساكر، وجمع بكجور عسكراً من العرب وغيرهم، وخرج للقائه فهزمه منير واستأمن إليه بكجور على أن يرحل عن دمشق فأمنه، ورحل إلى الرقة واستولى عليها، وتسلم منير دمشق وأقام بكجور بالرقة واستولى على الرحبة وما يجاور الرقة، وراسل بهاء الدولة بن عضد الدولة بالطاعة وباد الكردي المتغلب على ديار بكر والموصل بالمسير إليه، وأبا المعالي سعد الدولة صاحب حلب بالعود إلى طاعته على أن يقطعه حمص، فلم يجبه أحد إلى شيء فأقام بالرقة يراسل موالي سعد الدولة أبي المعالي، ويستميلهم في الغدر به فأجابوه، وأخبروه أن أبا المعالي مشغول بلذاته فاستمد حينئذ العزيز، فكتب إلى نزال بطرابلس وغيره من ولاة الشام أن يمدوه ويكونوا في تصرفه.

ودس إليهم عيسى بن نسطورس النصراني وزير العزيز في المباعدة عنه لعداوته مع ابن كلس الوزير قبله، وتجديدها مع ابن منصور هذا فكتب نزال إلى بكجور يواعده بذلك في يوم معلوم، وأخلفه وسار بكجور من الرقة وبلغ خبر مسيره إلى أبي المعالي فسار من حلب ومعه لؤلؤ الكبير مولى أبيه، وكتب إلى بكجور يستميله ويذكره الحقوق، وأن يقطعه من الرقة إلى حمص فلم يقبل وكتب أبو المعالي إلى صاحب أنطاكية يستمده فأمده بجيش الروم، وكتب إلى العرب الذين مع بكجور يرغبهم في الأموال والإقطاع فوعدوه خذلان بكجور عند اللقاء.

فلما التقى العسكران وشغل الناس بالحرب، عطف العرب على سواد بكجور فنهبوه ولحقوا بأبي المعالي فاستمات بكجور وحمل على موقف أبي المعالي يريده، وقد أزاله لؤلؤ عن موقفه، ووقف مكانه خشية عليه، وحمل ذلك فلما انتهى بكجور لحملته برز إليه لؤلؤ وضربه فأثبته، وأحاط به أصحابه فولى منهزماً وجاء بعضهم إلى أبي المعالي فشارطه على تسليمه إليه فقبل شرطه، وأحضره فقتله وسار إلى الرقة، وبها سلامة الرشقي مولى بكجور وأولاده وأبو الحسن علي بن الحسين المغربي وزيره فاستأمنوا إليه فأمنهم ونزلوا عن الرقة فملكها واستكثر ما مع أولاد بكجور فقال له القاضي ابن أبي الحصين: هو مالك، وبكجور لا يملك شيئاً ولا حنث عليك.

فاستصفى مالهم أجمع وشفع فيهم العزيز فأساء عليه الرد، وهرب الوزير المغربي إلى مشهد علي.

خبر باد الكردي ومقتله على الموصل

كان من الأكراد الحميدية بنواحي الموصل ومن رؤسائهم رجل يعرف بباد، وقيل: باد لقب له، واسمه أبو عبد الله الحسين بن ذوشتك، وقيل باد اسمه وكنيته أبو شجاع ابن ذوشتك، وإنما أبو عبد الله الحسين أخوه.

وكان له بأس وشدة وكان يخيف السابلة، ويبذل ما تجمع له من النهب في عشائره فكثرت جموعه، ثم سار إلى مدينة أرمينية فملك مدينة أرجيش.

ثم رجع إلى ديار بكر، فلما ملك عضد الدولة الموصل حضر عنده في جملة الوفود وخافه على نفسه فعدا وأبعد في مذهبه، وبلغ عضد الدولة أمره فطلبه فلم يظفر به.

ولما هلك عضد الدولة سار باد إلى ديار بكر فملك آمد وميافارقين.

ثم ملك نصيبين فجهز صمصام الدولة العساكر إليه مع الحاجب أبي القاسم سعيد بن محمد فلقيه على خابور الحسينية من بلاد كواشي فانهزم الحاجب وعساكره، وقتل كثير من الديلم، ولحق الحاجب سعيد بالموصل وباد في اتباعه.

وثارت عامة الموصل بالحاجب لسوء سيرته فأخرجوه، ودخل باد الموصل سنة ثلاث وسبعين وقوي أمره وسما إلى طلب بغداد وأهم صمصام الدولة أمره ونظر مع وزيره ابن سعدان في توجيه العساكر إليه وأنفذ كبير القواد زياد بن شهرا كونه، فتجهز لحربه وبالغوا في مدده وإزاحة علله فلقيهم في صفر سنة أربع وسبعين.

وانهزم باد وقتل كثير من أصحابه وأسر آخرون، وطيف بهم في بغداد.

واستولى الديلم على الموصل، وأرسل زياد القائد عسكراً إلى نصيبين فاختلفوا على مقدمهم.

وكتب ابن سعدان وزير صمصام الدولة إلى أبي المعالي بن حمدان صاحب حلب يومئذ بولاية ديار بكر، وإدخالها في عمله، فسير إليه أبو المعالي عسكره إلى ديار بكر فلم يكن لهم طاقة بأصحاب باد، فحاصروا ميافارقين أياماً ورجعوا إلى حلب.

وبعث سعد الحاجب من يتولى غدر باد فدخل عليه رجل في خيمته وضربه بالسيف على ساقه يظنها رأسه فنجا من الهلكة ثم بعث باد إلى زياد القائد، وسعد الحاجب بالموصل بطلب الصلح فائتمروا بينهم على أن تكون ديار بكر لباد، والنصف من طور عبدين.

فخلصت ديار بكر لباد من يومئذ وانحدر زياد القائد إلى بغداد، وأقام سعد الحاجب بالموصل إلى أن توفي سنة سبع وسبعين، فطمع باد في الموصل، وبعث إليها شرف الدولة بن بويه أبا نصر خواشاده في العساكر، فزحف إليه باد وتأخر المدد عن أبي نصر فبعث عن العرب من بني عقيل وبني نمير لمدافعة باد، وأقطعهم البلاد.

واستولى باد على طور عبدين آخر الجبال ولم يضجر، وأرسل أخاه في عسكر لقتال العرب فقتل، وانهزم عسكره وأقام باد قبالة خواشاده حتى جاء الخبر بموت شرف الدولة بن بويه، فزحف خواشاده إلى الموصل وقامت العرب بالصحراء وباد بالجبال.

عود بني حمدان إلى الموصل ومقتل باد

كان أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد اللّه الحسن ابنا ناصر الدولة بن حمدان قد لحقا بعد مهلك أخيهما أبي ثعلب بالعراق، وكانا ببغداد، واستقرا في خدمة شرف الدولة بن عضد الدولة، فلما تولى شرف الدولة وخواشاده في الموصل بعثهما إليها، ثم أنكر ذلك عليه أصحابه فكتب إلى خواشاده عامل الموصل فمنعهما، فكتب إليهما بالرجوع عنه فلم يجيبا، وأغذا السير إلى الموصل حتى نزلا بظاهرها.

وثار أهل الموصل بالديلم والأتراك الذين عندهم وخرجوا إلى بني حمدان.

وزحف الديلم لقتالهم فانهزموا وقتل منهم خلق، وامتنع باقيهم بدار الإمارة. وأراد أهل الموصل استلحامهم فمنعهم بنو حمدان وأخرجوا خواشاده ومن معه على الأمان إلى بغداد، وملكوا الموصل، وتسايل إليهم العرب من كل ناحية، وأراد أهل الموصل استلحامهم فمنعهم بنو حمدان، وأخرجوا خواشاده ومن معه على الأمان إلى بغداد وملكوا الموصل، وتسايل إليهم العرب من كل ناحية وبلغ الخبر إلى باد وهو بديار بكر بملك الموصل، وجمع فاجتمع إليه الأكراد البشنوية أصحاب قلعة فنك، وكان جمعهم كثيراً.

واستمال أهل الموصل بكتبه فأجابه بعضهم، فسار ونزل على الموصل، وبعث أبو طاهر وأبو عبد اللّه ابنا حمدان إلى أبي عبد اللّه محمد بن المسيب أمير بني عقيل يستنصرانه، وشرط عليهما جزيرة ابن عمر ونصيبين فقبلا شرطه.

وسار أبو عبد اللّه صريخاً، وأقام أخوه أبو طاهر بالموصل وباد يحاصره.

وزحف أبو الراود في قومه مع أبي عبد اللّه بن حمدان، وعبروا دجلة عند بدر، وجاؤوا إلى باد من خلفه.

وخرج أبو طاهر والحمدانية من أمامه، والتحم القتال ونكب بباد فرسه فوقع طريحاً، ولم يطق الركوب وجهض العدو عنه أصحابه فتركوه فقتله بعض العرب، وحمل رأسه إلى بني حمدان ورجعوا ظافرين إلى الموصل وذلك سنة ثمانين وثلاثمائة.

مهلك أبي طاهر بن حمدان واستيلاء بني عقيل على الموصل

لما هلك باد طمع أبو طاهر وأبو عبد اللّه ابنا حمدان في استرجاع ديار بكر، وكان أبو علي بن مروان الكردي، وهو ابن أخت باد قد خلص من المعركة، ولحق بحصن كيفا، وبه أهل باد وماله، وهو من أمنع المعاقل فتزوج امرأة خاله، واستولى على ماله وعلى الحصن، وسار في ديار بكر فملك ما كان لخاله فيها تليداً.

وبينما هو يحاصر ميافارقين زحف إليه أبو طاهر وأبو عبد اللّه ابنا حمدان يحاربانه فهزمهما وأسر عبد اللّه منهما، ثم أطلقه ولحق بأخيه أبي طاهر وهو يحاصر آمد، فزحفا لقتال ابن مروان فهزمهما وأسر أبا عبد اللّه ثانية إلى أن شفع فيه خليفة مصر فأطلقه، واستعمله الخليفة على حلب إلى أن هلك.

وأما أبو طاهر فلحق بنصيبين في فل من أصحابه، وبها أبو الدرداء محمد ابن المسيب أمير بني عقيل وسار إلى الموصل فملكها وأعمالها، وبعث إلى بهاء الدولة أن ينفذ إليه عاملاً من قبله، فبعث إليها قائداً كان تصرفه عن أبي الدرداء، ولم يكن له من الأمر شيء إلى أن استبد أبو الدرداء واستغنى عن العامل، وانقرض ملك بني حمدان من الموصل والبقاء لله.

ملك سعد الدولة بن حمدان بحلب وولاية ابنه أبي الفضائل واستبداد لؤلؤ عليه

ولما هزم سعد الدولة مولاه بكجور، وقتله حين سار إليه من الرقة، رجع إلى حلب فأصابه فالج وهلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وكان مولاه لؤلؤ كبير دولته فنصب ابنه أبا الفضائل، وأخذ له العهد على الأجناد، وتراجعت إليهم العساكر.

وبلغ الخبر أبا الحسن المغربي وهو بمشهد علي فسار إلى العزيز بمصر، وأغراه بملك حلب واعتصم أبو الفضائل ولؤلؤ بالقلعة فبعث إليها قائده منجوتكين في العساكر وحاصرها، ثم ملك البلد، واعتصم أبو الفضائل ولؤلؤ بالقلعة، وبعث أبو الفضائل ولؤلؤ إلى ملك الروم يستنجدانه، وكان مشغولاً بقتال البلغار، فأرسل إلى نائبه بأنطاكية أن يسير إليهم، فسار في خمسين ألفاً ونزل جسر الحديد على وادي العاصي، فنفر إليه منجوتكين في عساكر المسلمين وهزم الروم إلى أنطاكية، وأتبعهم فنهب بلادها وقراها وأحرقها.

ونزل أبو الفضائل ولؤلؤ من القلعة إلى مدينة حلب فنقل ما فيها من الغلال، وأحرق الباقي وعاد منجوتكين إلى حصارهم بحلب.

وبعث لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي في الوساطة لهم في الصلح فصالحهم منجوتكين، ورحل إلى دمشق حجراً من الحرب وتعذر الأقوات، ولم يراجع العزيز في ذلك فغضب العزيز، وكتب إليه يوبخه ويأمره بالعودة لحصار حلب فعاد وأقام عليها ثلاثة عشر شهراً.

فبعث أبو الفضائل ولؤلؤ مراسلة لملك الروم وحرضوه على أنطاكية، وكان قد توسط بلاد البلغار فرجع عنها وأجفل في الحشد، ورجع إلى حلب.

وبلغ الخبر إلى منجوتكين فأجفل عنها بعد أن أحرق خيامه وهدم مبانيه، وجاء ملك الروم وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ فشكرا له ورجعا، ورحل ملك الروم إلى الشام ففتح حمص وشيزر ونهبهما، وحاصر طرابلس فامتنعت عليه فأقام بها أربعين ليلة، ثم رحل عائداً إلى بلده.

انقراض بني حمدان بحلب واستيلاء بني كلاب عليها

ثم إن أبا نصر لؤلؤاً مولى سيف الدولة عزل أبا الفضائل مولاه بحلب، وأخذ البلد منه ومحا دعوة العباسية، وخطب للحاكم العلوي بمصر ولقبه مرتضى الدولة.

ثم فسد حاله معه فطمع فيه بنو كلاب بن ربيعة وأميرهم يومئذ صالح بن مرداس وتقبض لؤلؤ على جماعة منهم دخلوا إلى حلب، كان فيهم صالح فاعتقله مدة وضيق عليه.

ثم فر من محبسه ونجا إلى أهله وزحف إلى حلب ولؤلؤ فيها وكانت بينه وبينهم حروب هزمه صالح آخرها، وأسره سنة ستين وأربعمائة.

وخلص أخوه نجا إلى حلب فحفظها وبعث إلى صالح في فدية أخيه وشرط له ما شاء فأطلقه، ورجع إلى حلب واتهم مولاه فتحاً، وكان نائبه على القلعة بالمداخلة في هزيمته فاجمع نكبته.

ونمي إليه الخبر، فكاتب الحاكم العلوي وأظهر دعوته، وانتقض على لؤلؤ فأقطعه الحاكم صيدا وبيروت، ولحق لؤلؤ بالروم في أنطاكية فأقام عندهم ولحق فتح بصيدا.

واستعمل الحاكم على حلب من قبله، وانقرض أمر بني

حمدان من الشام والجزيرة أجمع، وبقيت حلب في ملك العبيديين.

ثم غلب عليها صالح بن مرداس الكلابي، وكانت بها دولة له ولقومه، وورثها عنه بنوه كما يذكر في أخبارهم.

الخبر عن دولة بني عقيل بالموصل وابتداء أمرهم بأبي الدرداء وتصاريف أحوالهم

كان بنو عقيل وبنو كلاب وبنو نمير وبنو خفاجة، كلهم من عامر بن صعصعة وبنو طيئ من كهلان، قد انتشروا ما بين الجزيرة والشام في عدوة الفرات.

وكانوا كالرعايا لبني حمدان يؤدون إليهم الأتاوات وينفرون معهم في الحروب.

ثم استفحل أمرهم عند فشل دولة بني حمدان، وساروا إلى ملك البلاد.

ولما انهزم أبو طاهر بن حمدان أمام علي بن مروان بديار بكر كما قدمناه سنة ثمانين وثلاثمائة ولحق بنصيبين وقد استولى عليها أبو الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد بن جعفر بن عمر بن مهند أمير بني عقيل بن كعب بن ربيعه بن عامر، فقتل أبا طاهر وأصحابه وسار إلى الموصل فملكها.

وبعث إلى بهاء الدولة بن بويه المستبد على الخليفة بالعراق، في أن يبعث عاملاً على الموصل فبعث عاملاً من قبله، والحكم راجع لأبي الدرداء، وأقام على ذلك سنتين.

وبعث بهاء الدولة سنة اثنتين وثمانين عساكره إلى الموصل مع أبي جعفر الحجاج بن هرمز فغلب عليها أبا الدرداء، وملكها.

وزحف لحربه أبو الدرداء في قومه ومن اجتمع إليه من العرب فكانت بينهم حروب ووقائع، وكان الظفر فيها للديلم.

مهلك أبي الدرداء وولاية أخيه المقلد

ثم مات أبو الدرداء سنة ست وثمانين وولي إمارة بني عقيل مكانه أخوه علي بعد أن تطاول إليها أخوهما المقلد بن المسيب، وامتنع بنو عقيل لأن علياً كان أسن منه فصرف المقلد وجهه إلى ملك الموصل، واستمال الديلم الذين فيها مع أبي جعفر بن هرمز فمالوا إليه، وكتب إلى بهاء الدولة أن يضمنه الموصل بألفي ألف درهم كل سنة.

ثم أظهر لأخيه علي وقومه أن بهاء الدولة قد ولاه، واستمدهم فساروا معه ونزلوا على الموصل، وخرج إلى المقلد من كان استماله من الديلم واستأمن إليهم أبو جعفر قائد الديلم فأمنوه، وركب السفن إلى بغداد واتبعوه فلم يظفروا منه بشيء وتملك المقلد ملك الموصل.

فتنة المقلد مع بهاء الدولة بن بويه

كان المقلد يتولى حماية غربي الفرات وكان له ببغداد نائب فيه تهور وجرى بينه وبين أصحاب بهاء الدولة مشاجرة.

وكان بهاء الدولة مشغولاً بفتنة أخيه، فكتب نائب المقلد إليه يشكو من أصحاب بهاء الدولة، فجاء في العساكر، وأوقع بهم، ومد يده إلى جباية الأموال، وخرج نائب بهاء الدولة ببغداد، وهو أبو علي بن إسماعيل عن ضمان القصر وغيره فغالط بهاء الدولة، وانفذ أبا جعفر الحجاج بن هرمز للقبض على أبي علي بن إسماعيل ومصالحة المقلد بن المسيب، فصالحه على أن يحمل إلى بهاء الدولة عشرة آلاف دينار ويخطب له ولأبي جعفر بعده، ويأخذ من البلاد رسم الحماية، وأن يخلع على المقلد الخلع السلطانية ويلقب حسام الدولة، ويقطع الموصل والكوفة والقصر والجامعين وجلس له ولأبي جعفر القادر باللّه فاستولى على البلاد، وقصده الأعيان والأماثل، وعظم قدره وقبض أبو جعفر على أبي علي بن إسماعيل ثم هرب ولحق بمهذب الدولة.

القبض على علي بن المسيب

كان المقلد بن المسيب قد وقعت المشاجرة بين أصحابه وأصحاب أخيه في الموصل قبل مسيره إلى العراق، فلما عاد إلى الموصل أجمع الانتقام من أصحاب أخيه، ثم نوى أنه لا يمكنه ذلك مع أخيه، فأعمل الحيلة في قبض أخيه، وأحضر عسكره من الديلم والأكراد، وورى بقصر دقوقا واستحلفهم على الطاعة.

ثم نقب دار أخيه وكانت ملاصقة له، ودخل إليه فقبض عليه وحبسه، وبعث زوجته وولديه قرواش وبدران إلى تكريت.

واستدعى رؤساء العرب وخلع عليهم وأقام فيهم العطاء فاجتمعت له زهاء ألفي فارس، وخرجت زوجة أخيه بولديها إلى أخيها الحسن بن المسيب، وكانت أحياؤه قريباً من تكريت، فاستجاش العرب على المقلد وسار إليه في عشرة آلاف، فخرج المقلد عن الموصل واستشار الناس في محاربة أخيه فأشار رافع بن محمد بن معز بالحرب، وأشار أخوه غريب بن محمد بالموادعة

وصلة الرحم.

وبينما هو في ذلك إذ جاءت أخته رميلة بنت المسيب شافعة في أخيها علي فأطلقه، ورد عليه ماله وتوادع الناس، وعاد المقلد إلى الموصل وتجهز لقتال علي بن مزيد الأسدي بواسط، لأنه كان مغضباً لأخيه الحسن، فلما قصد الحلة خالفه علي إلى الموصل فدخلها وعاد إليه المقلد، وتقدمه أخوه الحسن مشفقاً عليه من كثرة جموع المقلد فأصلح ما بينهما، ودخل المقلد إلى الموصل وأخواه معه ثم خاف علي فهرب، ثم وقع الصلح بينهما على أن يكون أحدهما بالبلد.

ثم هرب علي فقصده المقلد ومعه بنو خفاجة فهرب إلى العراق، واتبعه المقلد فلم يدركه ورجع عنه.

ثم سار المقلد إلى بلد علي بن مزيد فدخله ثانية ولحق ابن مزيد بمهذب الدولة صاحب البطيحة فأصلح ما بينهما.

استيلاء المقلد على دقوقا

ولما فرغ المقلد من شان أخويه وابن مزيد، وسار إلى دقوقا فملكها، وكانت لنصرانيين قد استعبدا أهلها وملكها من أيديهما جبريل بن محمد من شجعان بغداد، أعانه عليها مهذب الدولة صاحب البطيحة، وكان مجاهداً يحب الغزو فملكها، وقبض على النصرانيين وعدل في البلد.

ثم ملكها المقلد من يده، وملكها بعده محمد بن نحبان، ثم بعده قرواش بن المقلد.

ثم انتقلت إلى فخر الملك أبي غالب فعاد جبريل واستجاش بموشك بن حكويه من أمراء الأكراد، وغلب عليها عمال فخر الدولة.

ثم جاء بدران بن المقلد فغلب جبريل وموشك عليها وملكها.

مقتل المقلد وولاية ابنه قرواش

كان للمقلد موال من الأتراك فهربوا منه، واتبعهم فظفر بهم، واتبعهم وقتل وقطع وأفحش في المثلة، فخاف إخوانهم منه، واغتنموا غفلته فقتلوه فيها بالأنبار سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

وكان قد عظم شأنه وطمع في ملك بغداد.

ولما قتل كان ولده الأكبر قرواش غائباً وكانت أمواله بالأنبار، فخاف نائبه فيها عبد اللّه بن إبراهيم بن شارويه بادرة عمه الحسن، وراسل أبا منصور بن قراد، وكان بالسندية، وقاسمه في مختلف المقلد على أن يدافع الحسن إن قصده، فأجابه إلى ذلك، وأرسل عبد اللّه إلى قرواش يستحثه فوصل، ووفى لابن قراد بما عاهده عليه نائبه عبد اللّه، وأقام ابن قراد عنده.

ثم إن الحسين بن المسيب جاء إلى مشايخ بني عقيل شاكياً مما فعله قرواش وابن قراد عنده، فسعوا بينهم في الصلح، واتفق الحسن وقراوش على الغدر بابن قراد، وأن يسير أحدهما إلى الآخر متحاربين، فإذا تلاقيا قبضا على ابن قراد ففعلا ذلك.

فلما تراءى الجمعان نمي الخبر إلى ابن قراد فهرب، واتبعه قرواش والحسن ولم يدركاه، ورجع قرواش إلى بيوته فأخذها بما فيها من الأموال، فوجه الأموال إلى أن أخذها أبو جعفر الحجاج بن هرمز.

فتنة قرواش مع بهاء الدولة بن بويه

ولما كانت سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة بعث قرواش بن المقلد جمعاً من بني عقيل إلى المدائن فحصروها، فبعث أبو جعفر بن الحجاج بن هرمز نائب بهاء الدولة ببغداد عسكراً إليهم فدفعوهم عنها، فاجتمعت عقيل وبنو أسد وأميرهم علي بن مزيد، وخرج أبو جعفر إليهم واستجاش بخفاجة، وأحضرهم من الشام فانهزم واستبيح عسكره، وقتل وأسر من الأتراك والديلم كثير.

ثم جمع العساكر ثانياً ولقيهم بنواحي الكوفة فهزمهم، وقتل وأسر وسار إلى أحياء بني مزيد، ونهب منها ما لا يقدر قدره.

ثم سار قرواش إلى الكوفة سنة سبع وتسعين، وكانت لأبي علي بن ثمال الخفاجي، وكان غائباً عنها فدخل قرواش الكوفة وصادرهم.

ثم قتل أبو علي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وكان الحاكم صاحب مصر قد ولاه الرحبة فسار إليها، وخرج إليه عيسى بن خلاط العقيلي فقتله وملكها.

ثم ملكها بعده غيره إلى أن ولي أمرها صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب.

قبض قرواش على وزرائه

كان معتمد الدولة قرواش بن المقلد قد استوزره أبا القاسم

الحسين بن علي بن الحسين المغربي، وكان من خبره أن أباه من أصحاب سيف الدولة بن حمدان فذهب عنه إلى مصر وولي بها الأعمال، وولد ابنه أبا القاسم ونشأ هنالك.

ثم قتله الحاكم فلحق أبو القاسم بحسان بن مفرج بن الجراح الطائي بالشام، وأغراه بالانتقاض والبيعة لأبي الفتوح الحسن بن جعفر صاحب مكة ففعل ذلك، ولم يتم أمر أبي الفتوح ورجع إلى مكة ولحق أبو القاسم المغربي بالعراق، واتصل بفخر الملك فارتاب به القادر لانتسابه إلى العلوية فأبعده فخر الملك، فقصد قرواش بالموصل فاستوزره، ثم قبض عليه سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وصادره على مال زعم أنه ببغداد والكوفة فأحضره، وترك سبيله فعاد إلى بغداد ووزر لشرف الدولة بن بويه بعد وزيره مؤيد الملك الرخجي، وكان مداخلاً لعنبر الخادم الملقب بالأثير المستولي على الدولة يومئذ.

ثم سخطه الأتراك وسخطوا الأبهر فأشار عليه بالخروج عن بغداد فخرج الوزير وأبو القاسم معه إلى السندية وبها قرواش فأنزلهم، وساروا إلى أوانا وبعث الأتراك إلى الأثير عنبر بالاستعتاب فاستعتب، ورجع وهرب أبو القاسم المغربي إلى قرواش سنة خمس عشرة وأربعمائة لعشرة أشهر من وزارته.

ثم وقعت فتنة بالكوفة كان منشؤها من صهره ابن أبي طالب، فأرسل الخليفة إلى قرواش في إبعاده عنه، فأبعده وسار إلى ابن مروان إلى ديار بكر، وهنالك يذكر بقية خبره.

ثم قبض معتمد الدولة قرواش على أبي القاسم سليمان بن فهر عامل الموصل له ولأبيه، وكان من خبره أنه كان يكتب في حداثته بين يدي أبي إسحاق الصابي، ثم اتصل بالمقلد بن المسيب، وأصعد معه إلى الموصل واقتنى بها الضياع.

ثم استعمله قرواش على الجبايات فظلم أهلها وصادرهم فحبسه، وطالبه بالمال فعجز وقتل.

حروب قرواش مع العرب وعساكر بغداد

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة اجتمع العرب على فتن قرواش، وسار إليه دبيس بن علي بن مزيد الأسدي وغريب بن معن، وجاءهم العسكر من بغداد فقاتلوه عند سر من رأى، ومعه رافع بن الحسين فانهزم ونهبت أثقاله وخزائنه، وحصل في أسرهم، وفتحوا تكريت عنوة من أعماله.

ورجعت عساكر بغداد إليها واستجار قرواش بغريب بن معن فأطلقه، ولحق بسلطان بن الحسن من عمال أمير خفاجه واتبعه عسكر من الترك وقاتلهم غربي الفرات، وانهزم هو وسلطان، وعاث العسكر في أعماله فبعث إلى بغداد بمراجعة الطاعة وقبل.

ثم كانت الفتنة بينه وبين أبي أسد وخفاجة سنة سبع عشرة وأربعمائة لأن خفاجه تعرضوا لأعماله بالسواد، فسار إليهم من الموصل وأميرهم أبو الفتيان منيع بن حسان، فاستجاش بدبيس بن علي بن مزيد فجاءه في قومه بني أسد، وعسكر من بغداد والتقوا بظاهر الكوفة، وهو يومئذ لقراوش، فخاف قرواش عن لقائهم وأجفل ليلاً للأنبار، واتبعوه فرحل عنها إلى حلله، واستولى القوم على الأنبار وملكوها، ثم فارقوها، وافترقوا فاستعادها قرواش.

ثم كانت الحرب بينه وبين بني عقيل في هذه السنة، وكان سببها أن الأثير عنبر الخادم حاكم دولة بني بويه انتقض عليه الجند، وخافهم على نفسه فلحق بقراوش فجاء قرواش وأخذ له أقطاعه وأملاكه بالقيروان، فجمع مجد الدولة بن قراد ورافع بن الحسين جمعاً كبيراً من بني عقيل وانضم إليهم بدران أخو قرواش وساروا لحربه وقد اجتمع هو وغريب بن معن والأثير عنبر، وأمدهم ابن مروان فكانوا في ثلاثة عشر ألفاً، والتقوا عند بلدهم فلما تصافوا والتحم القتال خرج بدران بن المقلد إلى أخيه قرواش فصالحه وسط المصاف، وفعل ثوران بن قراد كذلك مع غريب بن معن فتوادعوا جميعاً واصطلحوا، وأعاد قرواش إلى أخيه بدران مدينة الموصل.

ثم وقعت الحرب بين قرواش وبين خفاجه ثانياً.

وكان سببها أن منيع بن حسان أمير خفاجه وصاحب الكوفة سار إلى الجامعين بلد دبيس ونهبها فخرج دبيس في طلبه إلى الكوفة فقصد الأنبار، ونهبها هو وقومه، فسار قرواش إليهم ومعه غريب بن معن الأنبار.

ثم مضى في اتباعهم إلى القصر فخالفوه إلى الأنبار ونهبوها وأحرقوها واجتمع قرواش ودبيس في عشرة آلاف وخاموا عن لقاء خفاجة فلم يكن من قرواش إلا بناء السور على الأنبار.

ثم سار منيع بن حسان الخفاجي إلى الملك كليجار والتزم الطاعة وخطب له بالكوفة وأزال حكم بني عقيل عن سقي الفرات.

ثم سار بدران بن المقلد في جموع من العرب إلى نصيبين وحاصرها وهي لنصير الدولة بن مروان فجهز لهم الجند، وبعثهم إليها فقاتلوا بدران فانهزم أولاً، ثم عطف عليهم فانهزموا وأثخن

فيهم، وبلغه الخبر أن أخاه قرواش قد وصل إلى الموصل فأجفل خوفاً منه.

استيلاء الغز على الموصل

كان هؤلاء الغز من شعوب الترك بمفازة بخارى، وكثر فسادهم في جهاتها فأجاز إليهم محمود بن سبكتكين، وهرب صاحب بخارى وحضر عنده أميرهم أرسلان بن سلجوق فقبض عليه وحبسه بالهند، ونهب أحياءهم وقتل كثيراً منهم فهربوا إلى خراسان وأفسدوا ونهبوا فبعث إليهم العساكر فأثخنوا فيهم وأجلوهم عن خراسان.

ولحق كثير منهم بأصبهان وقاتلوا صاحبها وذلك سنة عشرين وأربعمائة.

ثم افترقوا فسارت طائفة منهم إلى جبل بكجار عند خوارزم ولحقت طائفة أخرى بأذربيجان وأميرها يومئذ وهشوذان فأكرمهم، ووصلهم ليكفوا عن فسادهم فلم يفعلوا.

وكان مقدموهم أربعة: توقا وكوكتاش ومنصور ودانا فدخلوا مراغة سنة تسع وعشرين وأربعمائة، ونهبوها وأثخنوا في الأكراد الهذبانية، وسارت طائفة منهم إلى الري فحاصروها وأميرها علاء الدين بن كاكويه واقتحموا عليه البلد وأفحشوا في النهب والقتل، وفعلوا كذلك في الكرخ وقزوين.

ثم ساروا إلى أرمينية وعاثوا في نواحيها وفي أكرادها، ثم عاثوا في الدينور سنة ثلاثين.

ثم أوقع وهشوذان صاحب تبريز لجماعة منهم في بلده وكانوا ثلاثين ومقدمهم، فضعف الباقون وأكثر فيهم القتل.

واجتمع الغز الذين بأرمينية، وساروا نحو بلاد الأكراد الهكارية من أعمال الموصل فأثخنوا فيهم، وعاثوا في البلاد.

ثم كر عليهم الأكراد فنالوا منهم وافترقوا في الجبال وتمزقوا.

وبلغهم مسير نيال أخي السلطان طغرلبك وهم في الري وكانوا شاردين منه فأجفلوا من الري، وقصدوا ديار بكر والموصل سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ونزلوا جزيرة ابن عمر، ونهبوا باقردى وبازندى والحسنية وغدر سليمان بن نصير الدولة بن مروان بأمير منهم، وهو منصور بن عزغنيل فقبض عليه وحبسه، وافترق أصحابه في كل جهة وبعث نصير الدولة بن مروان عسكراً في اتباعهم، وأمدهم قرواش صاحب الموصل بعسكر آخر، وانضم إليهم الأكراد البشنوية أصحاب فتك فأدركوهم فاستمات الغز وقاتلوهم، ثم تحاجزوا.

وتوجهت العرب إلى العراق للمشتى، وأخربت الغز ديار بكر، ودخل قرواش الموصل ليدفعهم عنها لما بلغه أن طائفة منهم قصدوا بلده.

فلما نزلوا برقعيد عزم على الإغارة عليهم، فتقدموا إليه فرجع إلى مصانعتهم بالمال على ما شرطوه.

وبينما هو يجمع لهم المال وصلوا إلى الموصل فخرج قرواش في عسكره وقاتلهم عامة يومه.

وعادوا للقتال من الغد فانهزمت العرب وأهل البلد، وركب قرواش سفينة في الفرات، وخلف جميع ماله.

ودخل الغز البلد ونهبوا ما لا يحصى من المال والجوهر والحلي والأثاث، ونجا قرواش إلى السند، وبعث إلى الملك جلال الدولة يستنجده، وإلى دبيس بن علي بن مزيد وأمراء العرب والأكراد يستمدهم وأفحش الغز في أهل الموصل قتلاً ونهباً وعيثاً في الحرم، وصانع بعض الدروب والمحال منها عن أنفسهم بمال ضمنوه فكفوا عنهم وسلموا.

وفرضوا على أهل المدينة عشرين ألف دينار فقبضوها، ثم فرضوا أربعة آلاف أخر وشرعوا في تحصيلها فثار بهم أهل الموصل، وقتلوا من وجدوا منهم في البلد.

ولما سمع إخوانهم اجتمعوا ودخلوا البلد عنوة منتصف سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ووضعوا السيف في الناس واستباحوها اثني عشر يوماً، وانسدت الطرق من كثرة القتلى حتى واروهم جماعات في الحفائر.

وطلبوا الخطبة للخليفة ثم لطغرلبك، وطال مقامهم بالبلد، فكتب الملك جلال الدولة بن بويه ونصير الدولة بن مروان إلى السلطان طغرلبك يشكون منهم، فكتب إلى جلال الدولة معتذراً بأنهم كانوا عبيداً وخدماً لنا فأفسدوا في جهات الري فخافوا على أنفسهم وشردوا، ويعده بأنه يبعث العساكر إليهم، وكتب إلى نصير الدولة بن مروان يقول له: بلغني أن عبيدنا قصدوا بلادك فصانعتهم بالمال، وأنت صاحب ثغور ينبغي أن تعطي ما تستعين به على الجهاد، ويعده أنه يرسل من يدفعهم عن بلاده.

ثم سار دبيس بن مزيد إلى قرواش مدداً، واجتمعت إليه بنو عقيل، وساروا من السن إلى الموصل فتأخر الغز إلى تل أعفر، وأرسلوا إلى أصحابهم بديار بكر ومقدمتهم ناصفلي وبوقا فوصلوا إليهم وتزاحفوا مع قرواش في رمضان سنة خمس وثلاثين

وأربعمائة فقاتلوهم إلى الظهر، وكشفوا العرب عن حللهم.

ثم استماتت العرب فانهزمت الغز وأخذهم السيف ونهب العرب أحياءهم، وبعثوا برؤوس القتلى إلى بغداد واتبعهم قرواش إلى نصيبين ورجع عنهم، وقصدوا ديار بكر فنهبوها، ثم أرزن الروم كذلك ثم أذربيجان، ورجع قرواش إلى الموصل.

استيلاء بدران بن المقلد على نصيبين

قد تقدم لنا محاصرة بدران نصيبين ورحيله عنها من أخيه قرواش.

ثم اصطلحا بعد ذلك واتفقا وتزوج نصير الدولة ابنة قرواش فلم يعدل بينها وبين نسائه، وشكت إلى أبيها فبعث عنها.

ثم هرب بعض عمال ابن مروان إلى قرواش وأطمعه في الجزيرة فتعلق عليه قرواش بصداق ابنته، وهو عشرون ألف دينار.

وطلب الجزيرة ونصيبين لأخيه بدران فامتنع ابن مروان من ذلك، فبعث قرواش جيشاً لحصار الجزيرة وآخر مع أخيه بدران لحصار نصيبين.

ثم جاء بنفسه وحاصرها مع أخيه، وامتنعت عليه وتسللت العرب والأكراد إلى نصير الدولة بن مروان بميافارقين.

وطلب منه نصيبين فسلمها إليه، وأعطى قرواش من صداق ابنته خمسة عشر ألف دينار.

وكان ملك ابن مروان في دقوقا، فزحف إليه أبو الشوك من أمراء الأكراد فحاصره بها، وأخذها من يده عنوة، وعفا عن أصحابه.

ثم توفي بدران سنة خمس وعشرين وأربعمائة وجاء ابنه عمر إلى قرواش فأقره على ولاية نصيبين، وكان بنو نمير قد طمعوا فيها وحاصروه، فسار إليهم ودافعهم عنها.

الفتنة بين قرواش وغريب بن معن

كانت تكريت لأبي المسيب رافع بن الحسين من بني عقيل، فجمع غريب جمعاً من العرب والأكراد، وأمده جلال الدولة بعسكر، وسار إلى تكريت فحاصرها وكان رافع بن الحسين عند قرواش بالموصل، فسار لنصره بالعساكر، ولقيه غريب في نواحي تكريت فانهزم، واتبعه قرواش ورافع، ولم يتعرضوا لحلته وماله ثم تراسلوا واصطلحوا.

فتنة قرواش وجلال الدولة وصلحهما

كان قرواش قد بعث عسكره سنة إحدى وثلاثين لحصار خميس بن ثعلب بتكريت، واستجار خميس بجلال الدولة فبعث إليه بالكف عنه فلم يفعل، فسار بنفسه يحاصره، وكتب إلى الأتراك ببغداد يستفسدهم عن جلال الدولة.

وسار جلال الدولة إلى الأنبار فامتنعت عليه، وسار قرواش للقائه وأعوزت عساكر جلال الدولة الأقوات.

ثم اختلفت عقيل على قرواش، وبعث إلى جلال الدولة بمعاودة الطاعة، فتحالفا وعاد كل إلى بلده.

أخبار ملوك القسطنطينية لهذه العصور

كان بسيل وقسطنطين قد تزوج أبوهما أمهما في يوم عيد، ركب إلى الكنيسة فرآها في النظارة فشغف بها.

وكان أبوها من أكابر الروم فخطبها منه، وتزوجها وولدت الولدين ومات أبوهما وهما صغيران، وتزوجت بعده بمدة نقفور، وملك وتصرف وأراد أن يجب ولديها، وأغرت الدمستق بقتله فقتله وتزوجت به، وأقامت معه سنة، ثم خافها وأخرجها بولديها إلى دير بعيد فأقامت فيه سنة أخرى.

ثم دست إلى بعض الرهبان ليقتل الدمستق، فأقام بكنيسة الملك يتحيل لذلك، حتى جاء الملك واستطعمه القربان في العيد من يده، فدس له معه سماً ومات.

وجاءت هي قبل العيد بليال إلى القسطنطينية فملك ولدها بسيل واستبدت عليه لصغره.

فلما كبر سار لقتال البلغار في بلادهم، وبلغه وهو هنالك وفاتها فأمر خادماً له بتدبير الأمر في غيبته بالقسطنطينية.

وأقام في قتال البلغار أربعين سنة، ثم انهزم وعاد إلى القسطنطينية وتجهز ثانية، وعاد إليهم فظفر بهم وقتل ملكهم وملك بلادهم، ونقل أهلها إلى بلاد الروم.

قال ابن الأثير: وهؤلاء البلغار الذين ملك بلادهم بسيل غير الطائفة المسلمة منهم، وهؤلاء أقرب من أولئك إلى بلاد الروم بشهرين، وكلاهما بلغار انتهى.

وكان بسيل عادلاً حسن السيرة، وملك على الروم نيفاً وسبعين سنة.

ولما مات الملك أخوه قسطنطين، ثم مات وخلف بناتٍ

ثلاثاً فملكت الكبرى وتزوجت بأرمانوس من بيت ملكهم، وهو الذي ملك الرها من المسلمين، وكان له من قبل الملك رجل يخدمه من السوقة الصيارفة اسمه ميخاييل فاستخلصه وحكمه في دولته، فمالت زوجة أرمانوس إليه، وأعملا الحيلة في قتل الملك أرمانوس فقتلاه خنقاً وتزوجته على كره من الروم.

ثم عرض لميخاييل هذا مرض شوه خلقته فعهد بالملك إلى ابن أخيه واسمه ميخاييل، فملك بعده وقبض على أخواله وإخوتهم وضرب الدنانير باسمه سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

ثم أحضر زوجته بنت الملك وحملها على الرهبانية والخروج له عن الملك، وضربها ونفاها إلى جزيرة في البحر.

ثم اعتزم على قتل البطرك للراحة من تحكمه، فأمره بالخروج إلى الدير لعمل وليمة يحضرها عنده، وأرسل جماعة من الروم وبلغار لقتله، فبذل لهم البطرك مالاً على الإبقاء، ورجع إلى بيعته، وحمل الروم على عزل ميخاييل، فأرسل إلى زوجته الملكة من الجزيرة التي نفاها إليها فلم تفعل، وأقبلت على رهبانيتها فخلعها البطرك من الملك، وملكت أختها الصغيرة بدرونة، وأقاموا من خدم أبيها من يدبر ملكها، وخلعوا ميخاييل، وقاتل أشياعه أشياع بدرونة فظفر بهم أشياع بدرونة ونهبوهم.

وفزع الروم إلى التماس ملك يدبرهم، وقارعوا بين المرشحين فخرجت القرعة على قسطنطين فملكوه وتزوجته الملكة الكبرى، ونزلت لها الصغيرة عن الملك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

ثم خرج خارجي من الروم اسمه ميناس وكثر جمعه وبلغ عشرين ألفاً، وجهز قسطنطين إليه العساكر فقتلوه وسيق رأسه إليه، وافترق أصحابه.

ثم ورد على القسطنطينية سنة خمس وثلاثين مراكب للروم ووقعت منها محاورات نكرها الروم فحاربوهم، وكانوا قد فارقوا مراكبهم إلى البر فأحرقوها وقتلوا الباقين.

الوحشة بين قرواش والأكراد

كان للأكراد عدة حصون تجاور الموصل، فمنها للحميدية قلعة العقر وما إليها، وصاحبها أبو الحسن بن عكشان؛ وللهدبانية قلعة إربل وأعمالها، وصاحبها أبو الحسن بن موشك، ونازعه أخوه أبو علي بن أربل فأخذها منه بإعانة ابن عكشان، وأسر أخاه أبا الحسن.

وكان قرواش وأخوه زعيم الدولة أبو كامل مشغولين بالعراق فنكرا ذلك لما بلغهما، ورجعا إلى الموصل، فطلب قرواش من الحميدي والهدباني النجدة على نصير الدولة بن مروان، فجاء الحميدي بنفسه، وبعث الهدباني أخاه، وأصلح قرواش ونصير الدولة، ثم قبض على عكشان وصالحه على إطلاق أبي الحسن بن موشك، وامتنع أخوه أبو علي وكان عكشان عوناً عليه، فأجاب ورهن في ذلك ولده.

ثم أرسل أبا علي في ذلك الأمر، وحضر بالموصل ليسلم أربل إلى أخيه أبي الحسن، وسلم قرواش إليه قلاعه.

وخرج ابن عكشان وأبو علي ليسلما إربل إلى أبي الحسن بن موشك، فغدرا به وقبضا على أصحابه، وهرب هو إلى الموصل وتأكدت الوحشة بينهما وبين قرواش.

خلع قرواش بأخيه أبي كامل ثم عوده

ثم وقعت الفتنة بين معتمد الدولة قرواش وأخيه زعيم الدولة أبي كامل، وكان سببها أن قريشاً ابن أخيهما بدران فتن عمه أبا كامل، وجمع عليه الجموع وأعانه عمه الآخر.

واستمد قرواش بنصير الدولة بن مروان فبعث إليه بابنه سليمان، وأمده الحسن بن عكشان وغيرهما من الأكراد وساروا إلى معلابا فنهبوها وأحرقوها.

ثم اقتتلوا في المحرم سنة إحدى وأربعين يوماً وثانياً، ووقفت الأكراد ناحية عن المصاف ولم يغشوا المجال.

وتسلل عن قرواش بعض جموعه من العرب إلى أخيه، وبلغه أن شيعة أخيه أبي كامل بالأنبار وثبوا فيها وملكوها فضعف أمره، وأحس من نفسه الظهور عليه ولم يبرح فركب أخوه أبو كامل وقصد حلته، فركب قرواش للقائه، وجاء به أبو كامل لحلته ثم بعث به إلى الموصل ووكل به.

وملك أبو كامل الموصل واشتط عليه العرب فخاف العجز والفضيحة أن يراجعوا طاعة أخيه فسبقهم إليها، وأعاده إلى ملكه وبايعه على الطاعة، ورجع قرواش إلى ملكه.

وكان أبو كامل قد أحدث الفتنة بين البساسيري كافل الخلافة ببغداد، وملك الأمراء بها لما فعله بنو عقيل في عراق العجم من التعرض لإقطاعه، فسار إليهم البساسيري، وجمع أبو كامل بني عقيل ولقيه فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم حاجزوا.

فلما رجع قرواش إلى ملكه نزع جماعة من أهل الأنبار إلى

البساسيري شاكرين شاكين سيرة قرواش، وطلبوا أن يبعث معهم عسكراً وعاملاً إلى بلدهم ففعل ذلك، وملكها من يد قرواش وأظهر فيهم العدل.

خلع قرواش ثانية واعتقاله

كان قرواش لما أطاعه أخوه أبو كامل بقي معه كالوزير يتصرف، إلا أن قرواش أنف من ذلك وأعمل الحيلة في التخلص منه، فخرج من الموصل سائراً إلى بغداد، وشق ذلك على أخيه أبي كامل فأرسل إليه أعيان قومه ليردوه طوعاً أو كرهاً فلاطفوه أولاً، وشعر منهم بالدخيلة فأجاب إلى العود وشرط سكنى دار الإمارة، فلما جاء إلى أبي كامل قام بمبرته وإكرامه ووكل به من يمنعه التصرف.

وفاة أبي كامل وولاية قريش بن بدران

لما ملك قريش بن بدران وحبس عمه بقلعة الجراحية، ارتحل يطلب العراق سنة أربع وأربعين وأربعمائة فانتقض عليه أخوه المقلد، وسار إلى نور الدولة دبيس بن مزيد فنهب قريش حلله، وعاد إلى الموصل، واختلف العرب عليه، ونهب عمال الملك الرحيم ما كان لقريش بنواحي العراق.

ثم استمال قريش العرب عليه، ونهب عمال الملك الرحيم ما كان لقريش بن المسيب صاحب الحظيرة مخالفاً عليه.

وبعث قريش بعض أصحابه فلقيهم، وأوقع بهم فسار إليه قريش، ولقيه فهزمه واتبعه إلى حلل بلاد ابن غريب ونهبها.

ودخل العراق وبعث إلى عمال الملك الرحيم بالطاعة وضمان ما كان عليه في أعماله فأجابوه إلى ذلك لشغل الملك الرحيم بخوزستان فاستقر أمره وقوي.

(وفاة قرواش) وفي سنة اربع وأربعين وأربعمائة هذه توفي معتمد الدولة أبو منيع قرواش بن المقلد بمحبسه في قلعة الجراحية وحمل إلى الموصل ودفن بها ببلد نينوى شرقيها، وكان من رجال العرب.

استيلاء قريش على الأنبار

وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة زحف قريش بن بدران من الموصل ففتح مدينة الأنبار وملكها من يد عمال البساسيري وسار البساسيري إلى الأنبار فاستعادها.

حرب قريش بن بدران والبساسيري ثم اتفاقهما وخطبة قريش لصاحب مصر

كان قريش بن بدران قد بعث بطاعته إلى طغرلبك وهو بالري، وخطب له بجميع أعماله، وقبض على الملك الرحيم.

وكان قريش معه فنهب معسكره واختفى، وسمع به السلطان فأمنه ووصل إليه فأكرمه ورده إلى عمله.

وكان البساسيري قد فارق الملك الرحيم عند مسيره من واسط إلى بغداد، ومسير طغرلبك من حلوان.

وقصد نور الدولة دبيس بن مزيد للمصاهرة بينهما.

وكان سبب مفارقة البساسيري للملك الرحيم كتاب القائم له بإبعاده لاطلاعه على كتابه إلى خليفة مصر، فلما وصل قريش بن بدران إلى بغداد وعظم استيلاء السلطان طغرلبك على الدولة، بعث جيشاً وزحف البساسيري للقائهم ومعه نور الدولة دبيس، فالتقوا بسنجار، فانهزم قريش وقطلمش وأصحابهما، وقتل كثير منهم وعاث أهل سنجار فيهم، وسار بهم إلى الموصل وخطب بها للمستنصر خليفة مصر، وقد كانوا بعثوا إليه بطاعتهم من قبل، فبعث إليهم بالخلع ولقريش جملتهم.

استيلاء طغرلبك على الموصل وولاية أخيه نيال عليها ومعاودة قريش الطاعة

كان السلطان طغرلبك لما طال مقامه ببغداد، ساء أثر عساكره في الرعايا، فبعث القائم وزيره رئيس الرؤساء أن يحضر عميد الملك الكندري وزير طغرلبك ويعظه في ذلك، ويهدده برحيل القائم عن بغداد فبلغه خلال ذلك شأن الموصل، فرحل إليها وحاصر تكريت ففتحها وقبل من صاحبها نصر بن عيسى من بني عقيل ما لا بد له منه.

ورحل عنه فمات نصر وولي بعده أبو الغنائم بن البحلبان فأصلح حاله مع رئيس الرؤساء، ورحل السلطان من البواريج وكان في انتظار أخيه ياقوتي بن تنكير.

ثم توجه السلطان إلى نصيبين وبعث هزارسب إلى البرية لقتال العرب وفيهم قريش ودبيس وأصحاب حران والرقة من نمير فأوقع بهم، ونال منهم وأسر جماعة فقتلهم.

وعاد إلى السلطان طغرلبك فبعث إليه قريش ودبيس بطاعتهما، وأن يتوسط لهما عند السلطان، فعفا السلطان عنهما، وقال للبساسيري: ردهما إلى الخليفة فيرى ما عندهما.

فرحل البساسيري عند ذلك إلى الرحبة وتبعه أتراك بغداد ومقبل بن المقلد وجماعة من بني عقيل، وبعث السلطان إلى قريش ودبيس هزارسب بن تنكير ليقضي ما عندهما ويحضرهما، وكان ذلك بطلبهما ثم خافا على أنفسهما، فبعث قريش أبا السيد هبة اللّه بن جعفر ودبيس ابنه بهاء الدولة منصوراً فقبلهما السلطان، وكتب لهما بأعمالهما، وكان لقريش من الأعمال: الموصل ونصيبين وتكريت وأوانا ونهر بيطر وهيت والأنبار وبادرونا ونهر الملك.

ثم قصد السلطان ديار بكر ووصل إليه أخوه إبراهيم نيال، وأرسل هزارسب إلى قريش ودبيس يحذرهما منه.

وسار لسنجار لأجل واقعته مع قريش ودبيس، فبعث العساكر إليها واستباحهم وقتل أميرها علي بن مرحا وخلق كثير من أهلها رجالاً ونساء، وشفع إبراهيم نيال في الباقين فكف عنهم، وأقطع سنجار والموصل وتلك الأعمال كلها لأخيه إبراهيم نيال، وعاد إلى بغداد فدخلها في ذي القعدة سنة تسع وأربعين وأربعمائة.

مقارنة نيال الموصل وما كان لقريش فيها وفي بغداد مع البساسيري وحبسهما القائم

وفي سنة خمسين وأربعمائة خرج إبراهيم نيال من الموصل إلى بلاد الروم، فخشي طغرلبك أن يكون منتقضاً، وبادر بكتابه وكتاب الخليفة إليه، فرجع وخرج الوزير الكندري للقائه.

وخالفه البساسيري وقريش إلى الموصل فملكها وحاصر القلعة حتى استأمن أهلها على يد ابن موسك وصاحب أربد فأمّناهم وهدما القلعة.

وسار السلطان طغرلبك من وقته إلى الموصل ففارقها، واتبعها إلى نصيبين ففارقه أخوه نيال في رمضان سنة خمسين وأربعمائة.

وسار السلطان طغرلبك في أثره وحاصره بهمذان، وجاء البساسيري إلى بغداد وكان هزارسب بواسط، ودبيس ببغداد قد استدعاه الخليفة للدفاع فسئم المقام، ورجع إلى بلده، وجاء البساسيري وقريش ووزير بني بويه أبو الحسن بن عبد الرحيم ونزلوا بجوانب بغداد، ونزل عميد العراق بالعسكر قبالة البساسيري ورئيس الرؤساء وزير الخليفة قبالة الآخرين.

وخطب البساسيري للمستنصر صاحب مصر بجوامع بغداد وأذن بـ «حيّ على خير العمل».

ثم استعجل رئيس الرؤساء الحرب فاستنجده القوم، ثم كروا عليه فهزموه واقتحموا حريم الخلافة، وملكوا القصور بما فيها، ونهب الخليفة فوجد عميد العراق قد استأمن إلى قريش بن بدران فاستأمن هو كذلك، وأمنهما قريش وأعادهما.

وعذله البساسيري في الانفراد بذلك دونه، وقد تعاهدا على خلاف ذلك فاستعتب له بالوزير رئيس الرؤساء، ودفعه إليه وأقام الخليفة والعميد عنه، فقتل البساسيري الوزير ابن عبد الرحيم، وبعث قريش بالخليفة القائم مع ابن عمه مهارش بن نجلى إلى حديثة عانة فأنزله بها مع أهله وحرمه وحاشيته، حتى إذا فرغ السلطان، طغرلبك من أمر أخيه نيال وقتله ورجع إلى بغداد بعث البساسيري وقريش في إعادة القائم إلى داره فامتنع، وأجفل عن بغداد في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

وشمل النهب مدينة بغداد وضواحيها من بني شيبان وغيرهم، وبعث السلطان طغرلبك الإمام أبا بكر محمد بن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على فعله بالخليفة وبابنة أخته زوجة الخليفة أرسلان خاتون، وأنه بعث ابن فورك لإحضارهما، وكتب قريش إلى مهارش ابن عمه بأن يلحق به هو والخليفة في البرية.

فأبى، وسار الخليفة إلى العراق وجعل طريقه على الري، ومر ببدر بن مهلهل فخدم القائم وخرج السلطان للقاء الخليفة، وقدم إليه الأموال والآلات، وعرضه أرباب الوظائف ولقيه بالنهروان، وجاء معه إلى قصره كما تقدم في أخباره.

وبعث السلطان خبارتكين الطغرائي في العساكر لاتباع البساسيري والعرب، وجاء إلى الكوفة واستصحب سرايا ابن منيع ببني خفاجة.

وسار السلطان في أثرهم وصبحت السرية البساسيري في حلة دبيس بن يزيد فنهبوها، وفر دبيس، وقاتل البساسيري وأصحابه فقتل في المعركة.

وفاة قريش بن بدران وولاية ابنه مسلم

ثم توفي قريش بن بدران سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ودفن بنصيبين، وجاء فخر الدولة أبو نصر بن محمد بن جهير من

دارا وجمع بني عقيل على ابنه أبي المكارم مسلم بن قريش فولوه عليهم، واستقام أمره وأقطعه السلطان سنة ثمان وخمسين الأنبار وهيت وحريم والسن والبواريح، ووصل إلى بغداد فركب الوزير ابن جهير في المركب للقائه.

ثم سار سنة ستين وأربعمائة إلى الرحبة فقاتل بها بني كلاب وهم في طاعة المستنصر العلوي فهزمهم وأخذ أسلابهم، وبعث بأشلائهم وعليها سمات العلوية فطيف بها منكسة ببغداد.

استيلاء مسلم بن قريش على حلب

وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة سار شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل إلى مدينة حلب فحاصرها، ثم أفرج عنها فحاصرها تتش بن ألب أرسلان، وقد كان ملك الشام سنة إحدى وسبعين قبلها فأقام عليها أياماً.

ثم أفرج عنها وملك بزاغة والبيرة، وبعث أهل حلب إلى مسلم بن قريش بأن يمكنوه من بلدهم ورئيسها يومئذ ابن الحسين العباسي، فلما قرب منهم امتنعوا من ذلك فترصد لهم بعض التركمان وهو صاحب حصن بنواحيها، وأقام كذلك أياماً حتى صادف ابن الحسين يتصيد في ضيعته فأسره، وبعث به إلى مسلم بن قريش فأطلقه على أن يسلموا له البلد، فلما عاد إلى البلد تمَّ له ذلك، وسلم له البلد.

فدخله سنة ثلاث وسبعين، وحصر القلعة واستنزل منها سابغاً ووثاباً ابني محمد بن مرداس، وبعث ابنه إبراهيم وهو ابن عمة السلطان إلى السلطان يخبره بملك حلب وسأل أن يقدر عليه ضمانه فأجابه السلطان إلى ذلك، وأقطع ابنه محمداً مدينة بالس.

ثم سار مسلم إلى حران وأخذها من بني وثاب النميريين وأطاعه صاحب الرها ونقش السكة باسمه.

حصار مسلم بن قريش دمشق وعصيان أهل حران عليه

وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة سار شرف الدولة إلى دمشق فحاصرها، وصاحبها تتش فخرج في عسكره وهزم مسلم بن قريش فارتحل عنها راجعاً إلى بلاده.

وقد كان استمد أهل مصر فلم يمدوه، وبلغه الخبر بأن أهل حران نقضوا الطاعة، وأن ابن عطية وقاضيها ابن حلية عازمان على تسليم البلد للترك، فبادر إلى حران وصالح في طريقه ابن ملاعب صاحب حمص، وأعطاه سليمة ورفسة، وحاصر حران وخرب أسوارها، واقتحمها عنوة وقتل القاضي وابنه.

حرب ابن جهير مع مسلم بن قريش واستيلاؤه على الموصل ثم عودها إليه

كان فخر الدولة أبو نصر محمد بن أحمد بن جهير من أهل الموصل، واتصل بخدمة بني المقلد ثم استوحش من قريش بن بدران واستجار ببعض رؤساء بني عقيل فأجاروه منه، ومضى إلى حلب فاستوزره معز الدولة أبو ثمال بن صالح، ثم فارقه إلى نصير الدولة بن مروان بديار بكر فاستوزره.

ولما عزل القائم وزيره أبا الفتح محمد بن منصور بن دارس استدعاه للوزارة، فتحيل في المسير إلى بغداد، واتبعه ابن مروان فلم يدركه.

ولما وصل إلى بغداد استوزره القائم سنة أربع وخمسين وأربعمائة وطغرلبك يومئذ هو السلطان المستبد على الخلفاء.

واستمرت وزارته وتخللها العزل في بعض المرات إلى أن مات القائم، وولي المقتدي، وصارت السلطنة إلى ملك شاه فعزله المقتدي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة بشكوى نظام الملك إلى الخليفة به، وسؤاله عزله فعزله، وسار ابنه عميد الدولة إلى نظام الملك بأصفهان واستصلحه وشفع فيه إلى المقتدي، فأعاد ابنه عميد الدولة، ثم عزله سنة ست وسبعين وأربعمائة فبعث السلطان ملك شاه ونظام الملك إلى المقتدي بتخلية سبيل بني جهير إليه فوفدوا عليه بأصفهان، ولقوا منه مبرةً وتكرمة.

وعقد السلطان ملك شاه لفخر الدولة على ديار بكر، وبعث معه العساكر وأمره أن يأخذ البلاد من ابن مروان، وأن يخطب لنفسه بعد السلطان وينقش اسمه على السكة كذلك فسار لذلك، وتوسط ديار بكر ثم أردفه السلطان سنة سبع وسبعين وأربعمائة بالعساكر مع الأمير أرتق جد الملوك بماردين لهذا العهد، وكان ابن مروان عندما أحس بمسير العساكر إليه، بعث إلى شرف الدولة مسلم بن قريش يستنجده على أن يعطيه آمد من أعماله.

فجاء إلى آمد وفخر الدولة بنواحيها، وقد ارتاب من اجتماع العرب على نصرة ابن مروان ففتر عزمه عن لقائهم، وسارت عساكر الترك الذين معه فصبحوا العرب في أحيائهم فانهزموا، وغنموا أموالهم ومواشيهم، ونجا شرف الدولة إلى آمد،

وحاصره فخر الدولة فيمن معه من العساكر.

وبعث مسلم بن قريش إلى الأمير أرتق يغضي عنه في الخروج من آمد على مال بذله له فأغضى له وخرج إلى الرقة.

وسار أحمد بن جهير إلى ميافارقين بلد ابن مروان لحصارها، ففارقه بهاء الدولة منصور بن مزيد وابنه سيف الدولة صدقة إلى العراق، وسار ابن جهير إلى خلاط وكان السلطان ملك شاه لما بلغه الحصار مسلم بن قريش بآمد، بعث عميد الدولة آقسنقر جد الملك العادل محمود في عساكر الترك، ولقيهم الأمير أرتق في طريقهم سائراً إلى العراق فعاد معهم وجاؤوا إلى الموصل فملكوها، وسار السلطان في عساكره إلى بلاد مسلم بن قريش وانتهى إلى البواريح، وقد خلص مسلم بن قريش من الحصار بآمد، ووصل إلى الرحبة، وقد ملكت عليه الموصل، وذهبت أمواله فراسل مؤيد الملك بن نظام الملك فتوسل به فتقبل وسيلته وأذن له في الوصول إلى السلطان بعد أن أعطاه من العهد ما رضي به وسار مسلم بن قريش من الرحبة فأحضره مؤيد الملك عند السلطان، وقدم هدية فاخرة من الخيل وغيرها، ومن جملتها فرسه الذي نجا عليه، وكان لا يجارى فوقع من السلطان موقعاً وصالحه وأقره على بلاده فرجع إلى الموصل وعاد السلطان إلى ما كان بسبيله.

مقتل مسلم بن قريش وولاية ابنه إبراهيم

قد قدمنا ذكر قطلمش قريب السلطان طغرلبك، وكان سار إلى بلاد الروم فملكها، واستولى على قونية وأقصراي، ومات فملك مكانه ابنه سليمان، وسار إلى أنطاكية سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وأخذها من يد الروم كما نذكر في أخباره.

وكان لشرف الدولة مسلم بن قريش، بأنطاكية جزية يؤديها إليه صاحبا القردروس من زعماء الروم، فلما ملكها سليمان بن قطلمش بعث إليه يطالبه بتلك الجزية، ويخوفه معصية السلطان فأجابه باني على طاعة السلطان وأمري فيها غير خفي، وأما الجزية فكانت مضروبة على قوم كفار يعطونها عن رؤوسهم، وقد أدال الله منهم بالمسلمين ولا جزية عليهم فسار شرف الدولة، ونهب جهات أنطاكية.

وسار سليمان فنهب جهات حلب وشكت عليه الرعايا فرد عليهم.

ثم جمع شرف الدولة جموع العرب وجموع التركمان مع أميرهم جق، وسار إلى أنطاكية فسار سليمان للقائه والتقيا في أعمال أنطاكية في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ولما التقوا مال الأمير جق بمن معه من التركمان إلى سليمان فاختل مصاف مسلم بن قريش، وانهزمت العرب عنه وثبت فقتل في أربعمائة من أصحابه، وكان ملكه قد اتسع من نهر عيسى وجميع ما كان لأبيه وعمه قرواش من البلاد.

وكانت أعماله في غاية الخصب والأمن، وكان حسن السياسة كثير العدل.

ولما قتل مسلم اجتمع بنو عقيل وأخرجوا أخاه إبراهيم من محبسه، بعد أن مكث فيه سنين مقيداً حتى أفسد القيد مشيته، فأطلقوه وولوه على أنفسهم مكان أخيه مسلم.

ولما قتل مسلم سار سليمان بن قطلمش إلى أنطاكية وحاصرها شهرين فامتنعت عليه ورجع.

وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة بعدها بعث عميد العراق عسكراً إلى الأنبار فملكها من يد بني عقيل.

وفيها أقطع السلطان ملك شاه مدينة الرحبة وأعمالها وحران وسروج والرقة والخابور لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش، وزوجه بأخته خاتون زليخة فتسلم جميع هذه البلاد، وامتنع محمد بن المشاطر من تسليم حران فأكرهه السلطان على تسليمها.

نكبة إبراهيم وتنازع محمد وعلي ابني مسلم بعده على ملك الموصل ثم استيلاء علي عليها

لم يزل إبراهيم بن قريش ملكاً بالموصل وأميراً على قومه بني عقيل، حتى استدعاه السلطان ملك شاه سنة اثنتين وثمانين فلما حضر اعتقله، وبعث فخر الدولة ابن جهير على البلاد فملك الموصل وغيرها، وأقطع السلطان عمته صفية مدينة بلد، وكانت زوجاً لمسلم بن قريش ولها منه ابنه علي، وتزوجت بعده بأخيه إبراهيم.

فلما مات ملك شاه ارتحلت صفية إلى الموصل ومعها ابنها علي بن مسلم، وجاءه أخوه محمد بن مسلم وتنازعا في ملك الموصل وانقسمت العرب عليهما، واقتتلوا على الموصل فانهزم محمد وملك علي ودخل الموصل وانتزعها من يد ابن جهير.

عود إبراهيم إلى ملك الموصل ومقتله

ولما مات ملك شاه واستبدت تركمان خاتون بعده بالأمور، وأطلقت إبراهيم من الاعتقال، فبادر إلى الموصل، فلما قاربها سمع أن علي ابن أخيه مسلم قد ملكها ومعه أمه صفية عمة ملك شاه فبعث إليها، وتلطف بها فدفعت إليه ملك الموصل فدخلها وكان تتش صاحب الشام أخو ملك شاه قد طمع في ملك العراق، واجتمع إليه الأمراء بالشام وجاء أقسنقر صاحب حلب، وسار إلى نصيبين فملكها وبعث إلى إبراهيم أن يخطب له ويسهل طريقه إلى بغداد، فامتنع إبراهيم من ذلك فسار تتش ومعه أقسنقر وجموع الترك، وخرج إبراهيم للقائه في ثلاثين ألفاً.

والتقى الفريقان بالمغيم فانهزم إبراهيم، وقتل وغنم الترك حللهم وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفاً من الفضيحة، واستولى تتش على الموصل.

ولاية علي بن مسلم على الموصل ثم استيلاء كربوقا وانتزاعه إياها من يده وانقراض أمر بني المسيب من الموصل

ولما قتل إبراهيم وملك تتش الموصل ولى عليها علي بن أخيه مسلم بن قريش فدخلها مع أمه صفية عند ملك شاه، واستقرت هي وأعمالها في ولايته.

وسار تتش إلى ديار بكر فملكها، ثم إلى أذربيجان فاستولى عليها.

وزحف إليه بركيارق وابن أخيه ملك شاه، وتقاتلا فانهزم تتش، وقام بمكانه ابنه رضوان، وملك حلب وأمره السلطان بركيارق بإطلاق كربوقا فأطلقه.

واجتمعت عليه رجال، وجاء إلى حران فملكها، وكاتبه محمد بن مسلم بن قريش وهو بنصيبين ومعه ثوران بن وهيب وأبو الهيجاء الكردي يستنصرونه على علي بن مسلم بن قريش بالموصل، فسار إليهم وقبض على محمد بن مسلم وسار به إلى نصيبين فملكها.

ثم سار إلى الموصل فامتنعت عليه ورجع مدينة بلد، وقتل بها محمد بن مسلم غريقاً، وعاد إلى حصار الموصل.

واستنجد علي بن مسلم بالأمير جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر فسار إليه منجداً له.

وبعث كربوقا إليه عسكراً مع أخيه التوتناش فرده مهزوماً إلى الجزيرة فتمسك بطاعة كربوقا، وجاء مدداً له على حصار الموصل.

واشتد الحصار بعلي بن مسلم فخرج من الموصل، ولحق بصدقة بن مزيد بالحلة، وملك كربوقا بلد الموصل بعد حصار تسعة أشهر.

وانقرض ملك بني المسيب من الموصل وأعمالها واستولى عليها ملوك الغز من السلجوقية أمراؤهم والبقاء لله وحده.

دولة بني صالح

الخبر عن دولة بني صالح بن مرداس بحلب وابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان ابتداء أمر صالح بن مرداس ملك الرحبة، وهو من بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ومجالاتهم بضواحي حلب.

وقال ابن حزم: إنه من ولد عمرو بن كلاب، وكانت مدينة الرحبة لأبي علي بن ثمال الخفاجي، فقتله عيسى بن خلاط العقيلي وملكها من يده، وبقيت له مدة، ثم أخذها منه بدران بن المقلد.

وزحف لؤلؤ الساري نائب الحاكم بدمشق فملك الرقة، ثم الرحبة من يد بدران، وعاد إلى دمشق، وكان رئيس الرحبة ابن مجلكان فاستبد بها، وبعث إلى صالح بن مرداس يستعين به على أمره فأقام عنده مدة، ثم فسد ما بينهما، وقاتله صالح، ثم اصطلحا، وزوجه ابن مجلكان ابنته ودخل البلد، ثم انتقل ابن مجلكان إلى عانة بأهله وماله بعد أن أطاعوه وأخذ رهنهم، ثم نقضوا وأخذوا ماله وسار إليهم ابن مجلكان مع صالح فوضع عليه صالح من قتله، وسار إلى الرحبة فملكها واستولى على أموال ابن مجلكان وأقام دعوة العلويين بمصر.

ابتداء أمر صالح في ملك حلب

قد قدمنا أن لؤلؤاً مولى أبي المعالي بن سيف الدولة استبد بحلب على ابنه أبي الفضائل، وأخذ البلد منه ومحا دعوة العباسية وخطب للحاكم العلوي بمصر، ثم فسد حاله معه وطمع صالح بن مرداس في ملك حلب.

وذكرنا هنالك ما كان بين صالح ولؤلؤ من الحروب، وأنه كان له مولى اسمه فتح وضعه في قلعة حلب حافظاً لها، فاستوحش وانتقض على لؤلؤ بممالأة صالح بن مرداس، وبايع للحاكم على أن يقطعه صيدا وبيروت، وسوغه ما كان في حلب من الأموال، ولحق لؤلؤ بأنطاكية وأقام عند الروم، وخرج فتح بحرم لؤلؤ وأمه وتركهن في منبج، وترك حلب وقلعتها إلى نواب الحاكم وتداولت في أيديهم حتى وليها بعض بني حمدان من قبل الحاكم يعرف بعزيز الملك، اصطنعه الحاكم وولاه حلب ثم عصى على ابنه الظاهر، وكانت عمته بنت الملك مدبرة لدولته، فوضعت على عزيز الملك من قتله، وولوا على حلب عبد الله بن علي بن جعفر الكتامي، ويعرف بابن شعبان الكتامي وعلى القلعة صفي الدولة موصوفاً الخادم.

استيلاء صالح بن مرداس على حلب

ولما ضعف أمر العبيديين بمصر من بعد المائة الرابعة وانقرض أمر بني حمدان من الشام والجزيرة، تطاولت العرب إلى الاستيلاء على البلاد فاستولى بنو عقيل على الجزيرة، واجتمع عرب الشام فتقاسموا البلاد على أن يكون لحسان بن مفرج بن دغفل وقومه طيىء من الرملة إلى مصر، ولصالح بن مرداس وقومه بني كلاب من حلب إلى عانة ولحسان بن عليان وقومه دمشق وأعمالها وكان العامل على هذه البلاد من قبل الظاهر خليفة مصر أنوشتكين إلى عسقلان، وملكها ونهبها حسان وسار صالح بن مرداس إلى حلب فملكها من يد ابن شعبان، وسلم له أهل البلد ودخلها.

وصعد ابن شعبان إلى القلعة فحصرهم صالح بالقلعة حتى جهدهم الحصار، واستأمنوا وملك القلعة وذلك سنة أربع وعشرين وأربعمائة، واتسع ملكه ما بين بعلبك وعانة.

مقتل صالح وولاية ابنه أبي كامل

ولم يزل صالح مالكاً لحلب إلى سنة عشرين وأربعمائة فجهز الظاهر العساكر من مصر إلى الشام لقتال صالح وحسان، وعليهم أنوشتكين الدريدي فسار لذلك، ولقيهما على الأردن بطبرية، وقاتلهما فانهزما، وقتل صالح وولده الأصغر، ونجا ولده الأكبر أبو كامل نصر بن صالح إلى حلب، وكان يلقب شبل الدولة.

ولما وقعت هذه الواقعة طمع الروم أهل أنطاكية في حلب فزحفوا إليها في عدد كثير.

مسير الروم إلى حلب وهزيمتهم

ثم سار ملك الروم إلى حلب في ثلاثمائة ألف مقاتل، ونزل قريباً من حلب ومعه ابن الدوقس من أكابر الروم، وكان منافراً له، فخالفه وفارقه في عشرة آلاف مقاتل، ونمي إليه أنه يروم الفتك به، وأنه دس عليه فكر راجعاً، وقبض على ابن الدوقس واضطرب الروم واتبعهم العرب وأهل السواد الأرمن، ونهبوا أثقال الملك أربعمائة حمل، وهلك أكثر عسكره عطشاً.

ثم أشرف بعض العرب على معسكره فهربوا وتركوا سوادهم وأموالهم وأكرم الله المسلمين بالفتح.

مقتل نصر بن صالح واستيلاء الوزيري على حلب

وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة زحف الوزيري من مصر في العساكر إلى حلب وخليفتهم يومئذ المستنصر، وبرز إليه نصر فالتقوا عند حماة، وانهزم نصر وقتل وملك الوزيري حلب في رمضان من هذه السنة.

مهلك الوزيري وولاية ثمال بن صالح

ولما ملك الوزيري حلب واستولى على الشام عظم أمره، واستكثر من الأتراك في الجند، ونمي عنه إلى المستنصر بمصر ووزيره الجرجاي أنه يروم الخلاف فدس الجرجاي إلى جانب الوزيري والجند بدمشق في الثورة به، وكشف لهم عن سوء رأي المستنصر فثاروا به، وعجز عن مدافعتهم فاحتمل أثقاله، وسار إلى حلب، ثم إلى حماة فمنع من دخولها فكاتب صاحب كفرطاب فسار إليه وتبعه إلى حلب ودخلها، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ولما توفي فسد أمر الشام وانحل النظام وتزايد طمع العرب.

وكان معز الدولة ثمال بن صالح بالرحبة منذ مهلك أبيه وأخيه فقصد حلب، وحاصرها فملك المدينة وامتنع أصحاب الوزيري بالقلعة واستمدوا أهل مصر وشغل الوالي بدمشق بعد الوزيري، وهو الحسين بن حمدان لحرب حسان بن مفرج صاحب

فلسطين، فاستأمن أصحاب الوزيري إلى ثمال بن صالح بعد حصاره إياها حولاً فأمنهم، وملكها في صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة فلم يزل مملكاً عليها إلى أن زحفت إليه العساكر من مصر مع أبي عبيدالله بن ناصر الدولة بن حمدان، وبلغت جموعهم خمسة آلاف مقاتل فخرج إليهم ثمال، وقاتلهم وأحسن دفاعهم، وأصابهم سيل كاد يذهب بهم فأفرجوا عن حلب، وعادوا إلى مصر.

ثم عادت العساكر ثانية من مصر سنة إحدى وأربعين مع رفق الخادم فقاتلهم ثمال وهزمهم، وأسر الخادم رفقاً ومات عنده.

رغبة ثمال عن حلب ورجوعها لصاحب مصر وولاية ابن ملهم عليها

لم تزل العساكر تتردد من مصر إلى حلب، وتضيق عليها حتى سئم ثمال بن صالح إمارتها، وعجز عن القيام بها، فبعث إلى المستنصر بمصر وصالحه على أن ينزل له عن حلب، فبعث عليها مكين الدولة أبا علي الحسن بن ملهم، فتسلمها آخر سنة تسع وأربعين.

وسار ثمال إلى مصر ولحق أخوه عطية بن صالح بالرحبة، واستولى ابن ملهم عليها.

ثورة أهل حلب بابن ملهم وولاية محمود بن نصر بن صالح

وأقام ابن ملهم بحلب سنتين أو نحوها، ثم بلغه عن أهل حلب انهم كاتبوا محمود بن نصر بن صالح فقبض عليه، فثار به أهل حلب وحصروه بالقلعة، وبعثوا إلى محمود فجاء منتصف اثنتين وخمسين وأربعمائة وحاصره معهم بالقلعة.

واجتمعت معه جموع العرب واستمد ابن ملهم المستنصر، فكتب إلى أبي محمد الحسن بن الحسين بن حمدان أن يسير إليه في العساكر، فسار إلى حلب وأجفل محمود عنها، ونزل ابن ملهم إلى البلد ودخلها ناصر الدولة ونهبتها عساكره، وابن ملهم.

ثم تواقع محمود وناصر الدولة بظاهر حلب فانهزم ناصر الدولة بن حمدان وأسر فرجع به محمود إلى البلد وملكها وملك القلعة في شعبان من هذه السنة، وأطلق أحمد بن حمدان وابن ملهم فعاد إلى مصر.

رجوع ثمال بن صالح إلى ملك حلب وفرار محمود بن نصر عنها

لما هزم محمود بن حمدان وأخذ القلعة من يد ابن ملهم.

وكان معز الدولة ثمال بن صالح بمصر منذ سلمها للمستنصر سنة تسع وأربعين فسرحه المستنصر الآن، وأذن له في ملك حلب من ابن أخيه، فحاصره في ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة واستنجد محمود بخاله منيع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران، فأمده بنفسه، وجاء لنصره فأفرج ثمال عن حلب وسار إلى البرية في محرم سنة ثلاث وخمسين، ثم عاد منيع إلى حران وملك ثمال حلب في ربيع سنة ثلاث وخمسين وغزا بلاد الروم فظفر وغنم.

وفاة ثمال وولاية أخيه عطية

ثم توفي ثمال بحلب قريباً من استيلائه، وذلك في ذي القعدة سنة أربع وخمسين وأربعمائة وعهد بحلب لأخيه عطية بن صالح وكان بالرحبة من لدن مسير ثمال إلى مصر فسار وملكها.

عود محمود إلى حلب وملكه إياها من يد عطية

ولما ملك عطية حلب وكان ذلك عند استيلاء السلجوقية على ممالك العراق والشام وافتراقهم على العمالات، ونزل به قوم منهم فاستخدمهم وقوي بهم.

ثم خشي أصحابه غائلتهم فأشاروا بقتلهم، فسلط أهل البلد عليهم فقتلوا منهم جماعة ونجا الباقون، فقصدوا محمود بن نصر بحران فاستنهضوه لملك حلب، وجاءهم فحاصرها وملكها في رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة واستقام أمره.

ولحق عطية عمه بالرقة، فملكها إلى أن أخذها منه شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ثلاث وستين وأربعمائة، فسار إلى بلد الروم سنة خمس وستين وأربعمائة واستقام أمر محمود بن نصر في حلب.

وبعث الترك الذين جاؤوا في خدمته مع أميرهم ابن خان سنة ستين وأربعمائة إلى بعض قلاع الروم فحاصروها وملكها.

وسار محمود إلى طرابلس فحاصرها وصالحوه على حال

فأخرج عنهم.

ثم سار إليه السلطان ألب أرسلان بعد فراغه من حصار ديار بكر وآمد والرها، ولم يظفر بشيء منها كما نذكر في أخبارهم.

وجاء إلى حلب وحاصرها وبها محمود بن نصر.

وجاءت رسالة الخليفة القائم بالرجوع إلى الدعوة العباسية فأعادها وسأل من الرسول أزهر أبو الفراس طراد الزيني أن يعفيه السلطان من الحضور عنده فأبى السلطان من ذلك، واشتد الحصار على محمود وأضربهم حجارة المجانيق، فخرج ليلاً ومعه والدته منيعة بنت وثاب متطارحين على السلطان، فخلع على محمود في حلب آخر ثمان وستين وأربعمائة وعهد لابنه شبيب إلى الترك الذين ملكوا أباه وهم بالحاضر، وقد بلغه عنهم العيث والفساد، فما دنا من حللهم تلقوه فلم يجبهم، وقاتلهم وأصيب بسهم في تلك الجولة ومات.

مهلك نصر بن محمود وولاية أخيه سابق

ولما هلك نصر ملك أخوه سابق.

قال ابن الأثير: وهو الذي أوصى له أبوه بالملك، فلم ينفذ عهده لصغره، فما ولي استدعى أحمد شاه مقدم التركمان الذين قتلوا أباه فخلع عليه، وأحسن إليه وبقي فيها ملكاً.

استيلاء مسلم بن قريش على حلب من يد سابق وانقراض دولة بني صالح بن مرداس

ولما كانت سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة زحف تتش بعد أن ملك دمشق إلى حلب فحاصرها أياماً ووجل أهل حلب من ولاية الترك فبعثوا إلى مسلم بن قريش ليملكوه ثم بدا لهم في أمره ورجع من طريقه، وكان مقدمهم يعرف بابن الحسين العباسي وخرج ولده متصيداً في ضيعة له فأرسل له بعض أهل القلاع بنواحي حلب من التركمان، وأسره وأرسله إلى مسلم بن قريش فعاهده على تمكينه من البلد، وعاد إلى أبيه فسلم البلد إلى مسلم بن قريش وملكها سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ولحق سابق بن محمود وأخوه وثاب إلى القلعة واستنزلهما بعد أيام على الأمان واستولى على نواحيها.

وبعث إلى السلطان ملك شاه بالفتح، وأن يضمن البلد على العادة فأجابه إلى ذلك، وصارت في ولاية مسلم بن قريش إلى أن ملكها السلطان من بعده.

استيلاء السلطان ملك شاه على حلب وولاية آقسنقر عليها

قد تقدم لنا أن مسلم بن قريش قتله سليمان بن قطلمش كما مر في أخبار مسلم، فلما قتله أرسل إليه ابن الحسين العباسي مقدم أهل حلب يطلب تسليمها إليه.

وكان تتش أيضاً قد حاصرها وضيق عليها يطلب ملكها فوعد كلاً منهما.

ونمي الخبر إلى تتش فسار إلى حلب، وجاءه سليمان بن قطلمش فاقتتلا، وقتل سليمان سنة تسع وسبعين وأربعمائة وبعث برأسه إلى ابن الحسين، فكتب أنه يشاور السلطان ملك شاه في ذلك، فغضب تتش وحاصره، وداخله بعض أهل البلد فغدر به وأدخله ليلاً فملك تتش مدينة حلب، وشفع الأمير أرتق بن أكسك من أمراء تتش في ابن الحثيثي وامتنع بالقلعة سالم بن مالك بن بدران ابن المقلد فحاصره تتش وكان ابن الحثيثي قد كاتب السلطان ملك شاه واستدعاه لملك حلب عندما خاف من أخيه تاج الدولة تتش، فسار إليها من أصفهان سنة تسع وأربعين وأربعمائة ومر بالموصل، ثم تسلم حران من يد ابن الشاطر، وأقطعها لمحمد بن قريش، ثم سار إلى الرها فملكها من يد الروم.

وكانوا اشتروها من ابن عطية، وسار إلى قلعة جعفر فملكها وقتل من بها من بني قشير وأخذ صاحبها جعفراً شيخاً أعمى وولدين له، وكانوا يفسدون السابلة ويرجعون إليها.

ثم سار إلى منبج فملكها وسار إلى حلب وأخوه تتش يحاصر القلعة سبعة عشر يوماً من حصارها، وعاد إلى دمشق وملك السلطان مدينة حلب وقاتل القلعة ساعة من نهار رشقاً بالسهام، فأذعن سالم بن مالك بن بدران بالطاعة والنزول عنها على أن يقطعه قلعة جعفر، فأقطعها له السلطان فلم تزل بيده ويد بنيه إلى أن ملكها منهم نور الدين الشهيد.

وبعث نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر بالطاعة، وولى على حلب قسيم الدولة آقسنقر جد العادل نور الدين الشهيد، وارتحل عائداً إلى العراق.

وسأله أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحثيثي فاستصلحه، وأرسله إلى ديار بكر فنزلها إلى أن توفي على حال شديدة من الفقر والإملاق.

والله مالك الأمور لا رب غيره.

الخبر عن دولة بني مزيد ملوك الحلة وابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان بنو مزيد هؤلاء من بني أسد، وكانت محلاتهم من بغداد إلى البصرة إلى نجد وهي معروفة.

وكانت لهم النعمانية، وكانت بنو دبيس من عشائرهم في نواحي خوزستان في جزائر معروفة بهم.

وكان كبير بني مزيد أبو الحسن علي بن مزيد وأخوه أبو الغنائم.

وسار أبو الغنائم إلى بني دبيس فأقام عندهم، وفر فلم يدركوه، ولحق بناحية أبي الحسن فسار إليهم أبو الحسن، واستمد عميد الجيوش فأمده بعسكر من الديلم في البحر، ولقيهم فانهزم أبو الحسن وقتل أبو الغنائم وذلك سنة إحدى وأربعمائة.

فلما كانت سنة خمس وأربعمائة جمع أبو الحسن وسار إليهم لإدراك الثأر بأخيه، وجمع بني دبيس وهم مضر وحسان ونبهان وطراد فاجتمع إليهم العرب ومن في نواحيهم من الأكراد الشاهجان والحادانية، وتزاحفوا ثم انهزم بنو دبيس، وقتل حسان ونبهان واستولى أبو الحسن بن مزيد على أموالهم وحللهم، ولحق الفل منهم بالجزيرة وقلده فخر الدولة أمر الجزيرة الدبيسية واستثنى منها الطيب وقرقوب، وأقام أبو الحسن هناك.

ثم جمع مضر بن دبيس جمعاً وكبسه فنجا في فل يسير ولحق ببلد النيل منهزماً، واستولى مضر على أمواله وعلى الجزيرة وملكها.

وفاة علي بن مزيد وولاية ابنه دبيس

ثم توفي أبو الحسن بن مزيد سنة ثمان وأربعمائة وقام الأمر مكانه ابنه نور الدولة أبو الأغر دبيس، وقد كان أبوه عهد لأخيه في حياته، وخلع عليه سلطان الدولة، وأذن في ولايته.

فلما ولي بعد أبيه نزع أخوه المقلد إلى بني عقيل فأقام بينهم، وكانت بسبب ذلك بين دبيس وقرواش أميري بني عقيل فتن وحروب.

وجمع دبيس عليه بني خفاجة، وملك الأنبار من يده سنة سبع عشرة وأربعمائة ثم انتقض خفاجة على دبيس وأميرهم منيع بن حسان وسار إلى الجامعين فنهبها وملك الكوفة.

وصار أمر دبيس وقرواش إلى الوفاق واستوى الأمر على ذلك ومنعت خفاجة بني عقيل من سقي الفرات.

استيلاء منصور بن الحسين على الجزيرة الدبيسية

كانت الجزيرة الدبيسية قد استقرت لطراد بن دبيس، وكان منصور بن الحسين من شعوب بني أسد تغلب عليها، وأخرج طراد بن دبيس عنها سنة ثمان عشرة وأربعمائة ثم مات طراد فسار ابنه أبو الحسن إلى جلال الدولة ببغداد، وكان منصور بن الحسين قد خطب للملك أبي كاليجار، وقطع الخطبة لجلال الدولة فسأل منه علي بن طراد أن يبعث معه عسكراً ليخرج منصوراً من الجزيرة، فأنفذ معه العسكر، وسار إلى واسط.

ثم أغذ السير وكان منصور جمع للقائه، وأعانه بعض أمراء الترك، وهو أبو صالح كركير.

وكان قد هرب من جلال الدولة إلى أبي كاليجار فأعان منصوراً على شأنه، ولقوا علي بن طراد فهزموه، وقتلوه وجماعة من الترك الذين بعثهم جلال الدولة لنصرته، واستقر ملك الجزيرة الدبيسية لمنصور بن الحسين.

فتنة دبيس مع جلال الدولة وحروبه مع قومه

كان المقلد أخو دبيس بن مزيد قد لحق ببني عقيل كما ذكرناه، وكانت بينه وبين نور الدولة دبيس عداوة، فسار إلى منيع بن حسان أمير خفاجة، واجتمعا على قتال دبيس وعلى خلافة جلال الدين، وخطب لأبي كليجار واستقدمه للعراق فجاء إلى واسط، وبها ابن جلال الدولة ففارقها وقصد النعمانية ففجر عليه البثوق من بلده.

وأرسل أبو كليجار إلى قرواش صاحب الموصل، والأثير عنبر الخادم أن ينحدروا إلى العراق فانحدروا إلى الكحيل.

ومات بها الأثير عنبر وجمع جلال الدولة عساكره واستنجد أبا الشوك صاحب بلاد الأكراد، فأنجده وانحدر إلى واسط، وأقام بها وتتابعت الأمطار والأوحال فسار جلال الدولة إلى الأهواز بلد أبي كليجار لينهبها.

وبعث أبو كليجار إليه بأن عساكر محمود بن سبكتكين قد قصدت العراق ليرده عن الأهواز فلم يلتفت إلى ذلك، وسار ونهب الأهواز، وبلغ الخبر إلى أبي كليجار فسار إلى مدافعته، وتخلف عنه دبيس خوفاً على حلله من خفاجة.

والتقى أبو كليجار وجلال الدولة فانهزم أبو كليجار وقتل من أصحابه كثير.

واستولى جلال الدولة على واسط وأعاد إليها ابنه عبد العزيز كما كان.

ولما فارق دبيس أبا كليجار وجد جماعة من عشيرته قد خالفوا عليه، وعاثوا في نواحي الجامعين فقاتلهم وظفر بهم، وأسر منهم جماعة منهم: أبو عبد الله الحسين ابن عمه أبي الغنائم، وشبيب وسرايا ووهب وبنو عمه حماد بن مزيد وحبسهم بالجوسق.

ثم جمع المقلد أخوه جوعاً من العرب واستمد جلال الدولة فأمده بعسكر، وقصدوا دبيس فانهزم وأسر جماعة من أصحابه، ونزل المعتقلون بالجوسق فنهبوا حلله.

ولحق دبيس بالشريد منهزماً فسار به إلى مجد الدولة، وضمن عنه المال المقرر في ولايته فأجيب إلى ذلك، وخلع عليه، واستقام حاله.

وذهب المقلد مع جماعة من خفاجة فنهبوا مطير أباد والنيل أقبح نهب، وعاثوا في منازلها، ولم تكن الحلة بنيت يومئذ، وعبر المقلد دجلة إلى أبي الشوك فأقام عنده حتى أصلح أمره.

الفتنة بين دبيس وأخيه ثابت

كان أبو قوام ثابت بن علي بن مزيد متصلاً بالبساسيري سنة أربع وعشرين وأربعمائة وتزحزح لهم دبيس عن البلاد وملك ثابت النيل وأعمال دبيس.

وبعث دبيس طائفة من أصحابه لقتال ثابت فانهزموا فسار دبيس عن البلاد، وتركها لثابت حتى رجع البساسيري إلى بغداد فسار في جموع بني أسد وخفاجة، ومعه أبو كامل منصور بن قراد وتركوا حللهم بين حصني خفان وجرى.

وساروا جريدة ولقيهم ثابت عند جرجرا، فاقتتلوا ملياً، ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يعود دبيس إلى أعماله، ويقطع أخاه ثابتاً بعض تلك الأعمال، وتحالفوا على ذلك وافترقوا وجاء البساسيري منجداً لثابت فبلغه الخبر بالنعمانية فرجع.

الفتنة بين دبيس وعسكر واسط

كان الملك الرحيم قد أقطع دبيس بن مزيد سنة إحدى وأربعين وأربعمائة حماية نهر الصلة ونهر الفضل، وهي من إقطاع جند واسط فسخطوا ذلك، واجتمعوا وبعثوا إليه بالتهديد فراجعهم إلى حكم الملك الرحيم، فغضبوا وزحفوا إليه فلقيهم وأكمن لهم فهزمهم وأثخن فيهم، وغنم أموالهم ودوابهم ورجعوا إلى واسط يستنجدون جند بغداد، ويرغبون من البساسيري في المدافعة عنهم ويعطوه نهر الصلة ونهر الفضل.

إيقاع دبيس بخفاجه

وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة قصد بنو خفاجة الجامعين من أعمال دبيس فعاثوا فيها من غربي الفرات، وكان دبيس في شرقيه فاستنجد البساسيري فجاء بنفسه، وعبر دبيس الفرات معه وقاتل خفاجة وأجلاهم عن الجامعين فسلكوا البرية، ورجع عنهم.

ثم عادوا للفساد فعاد إليهم فدخلوا البرية فاتبعهم إلى حصن خفان فأوقع بهم، وأثخن فيهم وحاصر خفان ثم اقتحمه، وأخرجهم ورجع إلى بغداد ومعه أسارى من خفاجة فصلبوا.

ثم سار إلى جرى فحاصرها ووضع عليهم سبعة آلاف دينار فالتزموها وأمنهم.

حرب دبيس مع الغز وخطبته للعلوي صاحب مصر ومعاودته الطاعة

ولما انقرض أمر بني بويه وغلب عليهم الغز، وصارت الدولة للسلطان طغرلبك سلطان السلجوقية، وجاء السلطان طغرلبك إلى بغداد، واستولى على الخليفة، وخطب له على منابر الإسلام، وقبض على الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه حسبما ذلك كله مذكور في أخبارهم.

وكان البساسيري قد فارق الملك الرحيم قبل مسيره من واسط إلى بغداد للقاء طغرلبك مجمعاً على الخلاف على الغز مع قطلمش ابن عم طغرلبك جد الملوك ببلاد الروم أولاد قليج أرسلان، ومعه متمم الدولة أبو الفتح عمر، وسار معهم قريش بن بدران صاحب الموصل فلقيهم دبيس والبساسيري على سنجار، وهزمهم ورجع قريش إلى دبيس جريحاً فخلع عليه، وسار معهم

وذهب بهم إلى الموصل.

وخرج دبيس وقريش والبساسيري إلى البرية، ومعهم جماعة من بني نمير أصحاب حران والرقة.

واتبعهم عساكر السلطان مع هزارسب من أمراء السلجوقية فأوقع بهم، ورجع بالغنائم والأسرى.

وأرسل دبيس وقريش إلى هزارسب أن يستعطف بهم السلطان ففعل.

وبعث دبيس ابنه بهاء الدولة مع وافد قريش فأكرمهما السلطان طغرلبك.

ثم انتقض عليه أخوه نيال بهمذان فسار لحربه، وترك بغداد وخالفه البساسيري إليها وبعث الخليفة القائم عن دبيس ليقيم عنده ببغداد، فاعتذر بأن العرب لا تقيم، وطلب الخليفة في الخروج إليه حتى يجتمع عليه هو وهزارسب، ويدافعوا عن بغداد.

وجاء البساسيري ودخل بغداد ومعه قريش بن بدران فملكها سنة خمسين وأربعمائة وخطب فيها للعلويين واستذم الخليفة القائم بقريش بن بدران فأذمه، وبعثه إلى عانة عند مهاوش العقيلي من بني عمه وفعل البساسيري وجموعه في بغداد الأفاعيل، وأطاعه دبيس بن علي بن مزيد وصدقة بن منصور بن الحسين صاحب الجزيرة الدبيسية، وكان ولي بعد أبيه وقد تقدم ذكر هذا كله.

ثم رجع السلطان من همذان بعد قتل أخيه، وقضى أشغاله فأجفل البساسيري وأصحابه من بغداد، ولحق ببلاد دبيس وفارقه صدقة بن منصور إلى هزارسب بواسط.

وأعاد طغرلبك الخليفة إلى داره، وسار السلطان في اتباعه وفي مقدمته خمارتكين الطغرائي في ألفي فارس، ومعه سرايا بن منيع الخفاجي فصبحت المقدمة دبيس بن مزيد والبساسيري، فهرب دبيس ووقف البساسيري فقتل وذلك سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ورجع السلطان إلى بغداد ثم انحدر إلى واسط.

وجاءه هزارسب بن تنكين فأصلح عنده حال دبيس بن مزيد وصدقة بن منصور بن الحسين، وحضرا عند السلطان وجاءا في ركابه إلى بغداد فخلع عليهما وردهما إلى عمالتهما.

وفاة دبيس وإمارة ابنه منصور

ولم يزل دبيس على أعماله إلى أن توفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة لسبع وخمسين سنة من إمارته، وكان ممدوحاً، ورثاه الشعراء بعد وفاته بأكثر مما مدحوه في حياته.

ولما مات ولي في أعماله وعلى بني أسد ابنه أبو كامل منصور، ولقب بهاء الدولة.

وسار إلى السلطان ملك شاه فأقره على أعماله وعاد في صفر سنة خمس وسبعين وأربعمائة فأحسن السيرة.

وفاة منصور بن دبيس وولاية ابنه صدقة

ثم توفي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دبيس بن علي بن مزيد صاحب الحلة والنيل وغيرهما في ربيع الأول سنة تسع وسبعين، فأرسل الخليفة نقيب العلويين أبا الغنائم إلى ابنه سيف الدولة صدقة يعزيه، وسار صدقة إلى السلطان ملك شاه فخلع عليه وولاه مكان أبيه.

انتقاض صدقة بن منصور بن دبيس على السلطان بركيارق

وكان السلطان بركيارق قد خرج عليه أخوه محمود بن ملك شاه ينازعه في الملك، وكانت بينهما عدة وقعات، ولم يزل صدقة بن منصور على طاعته ويحضر حروبه تارة بنفسه، وتارة يبعث إليه العساكر مع ابنه سنة أربع وتسعين وأربعمائة.

فبعث إليه وزير السلطان بركيارق وهو الأغر أبو المحاسن الدهستاني يطلبه فيما تخلف عنده من المال، وهو ألف ألف دينار، ويتهدده عليه فقطع صدقة الخطبة لبركيارق، وعاد إلى بغداد في هذه السنة منهزماً أمام أخويه محمد وسنجر، فبعث الأمير أياز من أكبر أصحابه، وطرد نائب السلطان عن الحكومة واستضافها إليه.

استيلاء صدقة على واسط وهيت

كان السلطان محمد في سنة ست وتسعين وأربعمائة مستولياً على بغداد والخطبة بها وشحنته فيها الغازي بن أرتق، وصدقة بن دبيس على طاعته ومظاهرته.

ثم ظهر في هذه السنة بركيارق على محمد، وحاصره بأصفهان فامتنع عليه فأخرج عنه إلى همذان، وبعث كمستكين القصيري شحنة إلى بغداد فاستدعى أبو الغازي أخاه سقمان بن أرتق من حصن كيفا يستعين به في مدافعة كمستكين.

وجاء كمستكين إلى بغداد وخطب بها لبركيارق وخرج أبو الغازي وسقمان إلى دجيل فأقاما به بجرى وجاء صدقة بن مزيد إلى صرصر بعد أن جاءه رسول الخليفة في طاعة أبي الغازي وسقمان فعادا وعاثت عساكرهما في نواحي دجيل، وتقدما إلى بغداد وبعث معهما صدقة ابنه دبيساً فخيموا بالرملة، وقاتلهم العامة وكثر الهرج، وبعث الخليفة إلى صدقة يعظم عليه الأمر فأشار بإخراج كمستكين القيصري من بغداد لتصلح الأحوال، فأخرج إلى النهروان في ربيع سنة ست وتسعين وأربعمائة وعاد صدقة إلى الحلة وأعيدت خطبة السلطان محمد ببغداد ولحق القيصري بواسط، وخطب بها لمحمد فسار إليه صدقة وأخرجه وجاء أبو الغازي واتبعوا القيصري واستأمن إلى صدقة فأكرمه وأعيدت خطبة السلطان محمد بواسط، وبعده لصدقة وأبي الغازي.

وولى كل واحد منهما ولده على واسط، وذهب أبو الغازي إلى بغداد وعاد صدقة إلى الحلة، وأرسل ابنه منصوراً مع أبي الغازي إلى المستنصر ليستظهر رضاه فرضي عنه.

ثم استولى صدقة على هيت، وكان بركيارق أقطعها لبهاء الدولة توران بن تهيبة وكان مقيماً في جماعة من بني عقيل عند صدقة.

ثم تشاجرا ومال بنو عقيل إلى صدقة، وحج عقب ذلك، ورجع فوكل به صدقة.

وبعث ابنه دبيس ليتسلم هيت فمنعه نائب توران بها، وهو محمد بن رافع بن رفاع بن منيعة بن مالك بن المقلد.

فلما أخذ صدقة واسطاً سار إلى هيت وبها منصور بن كثير نائباً عن عمه توران، فلقي صدقة وحاربه.

ثم انتقض جماعة من أهل البلد وفتحوا لصدقة فملكها، وخلع على منصور وأصحابه وعاد إلى الحلة، واستخلف على هيت ابن عمه ثابت بن كامل.

ثم اصطلح السلطان محمد وبركيارق وسار صدقة في شوال إلى واسط فملكها وأخرج الترك الذين كانوا بها وأحضر مهذب الدولة بن أبي الخير فضمنه البلد لثلاثة أشهر بقيت من السنة بخمسين ألف دينار وعاد إلى الحلة.

استيلاء صدقة بن مزيد على البصرة

كانت البصرة منذ سنين في ولاية إسماعيل بن أرسلان جق من السلجوقية، أقام فيها عشر سنين وعظم تمكنه للخلافة الواقع بين بركيارق ومحمد، وكان يظهر طاعة صدقة وموافقته.

فلما صفا الأمر لمحمد رغب إليه صدقة في إبقائه فأبقاه.

وبعث السلطان محمد عاملاً على خاصة البصرة فمنعه إسماعيل، فأمر السلطان صدقة بأخذ البصرة منه.

وأظهر منكبرس الخلاف فشغلوا عن البصرة، وبعث إليه صدقة بتسليم الشرطة إلى مهذب الدولة بن أبي الخير فمنع من ذلك، فسار صدقة إليه، وحصن إسماعيل القلاع التي استجدها حوالي البصرة، واعتقل وجوه البلد من العباسيين والعلويين، والقاضي والمدرس والأعيان، وحاصرها صدقة وخرج إسماعيل لقتاله، وخالفه طائفة من أصحاب صدقة إلى مكان آخر من البلد فاقتحموها، وانهزم إسماعيل إلى قلعة الجزيرة فامتنع بها، ونهبت البلد وانحدر المهذب بن أبي الخير في السفن فأخذ القلعة التي كانت لإسماعيل بمطارا، ثم استأمن إسماعيل إلى صدقة فأمنه.

وجاء صدقة فأمن أهل البصرة ورتب عندهم شحنة، وعاد إلى الحلة منتصف تسع وتسعين وأربعمائة لستة عشر يوماً من مقامه بالبصرة.

وسار إسماعيل نحو فارس فطرقه المرض في رامهرمز ومات وكان صدقة قد استعمل على البصرة مملوك جده دبيس، واسمه اليونشاش ورتب معه مائة وعشرين فارساً، فاجتمعت ربيعة والمتفق وقصدوا البصرة فدخلوها بالسيف، وأسروا اليونشاش وأقاموا بها شهراً ينهبون ويخربون، وبعث صدقة عسكراً فوصل بعد خروجهم من البلد فانتزع السلطان البصرة من صدقة وبعث إليها شحنةً وعميداً واستقام أمرها.

استيلاء صدقة على تكريت

كانت تكريت لبني معن من بني عقيل، وكانت إلى آخر سبع وعشرين وأربعمائة بيد رافع بن الحسين بن معن، فلما مات وليها ابن أخيه أبو منعة بن ثعلب بن حماد ووجد بها خمسمائة ألف دينار.

وتوفي سنة خمس وثلاثين، ووليها ابنه أبو غشام إلى سنة أربع وأربعين فوثب عليه أخوه عيسى فحبسه وملك القلعة والأموال.

فما اجتاز به طغرلبك سنة ثمان وأربعين صالحه على بعض المال فرحل عنه، ومات عيسى إثر ذلك وخافت زوجته من عود

أخيه أبي غشام إلى الملك فقتلته في محبسه.

وولت على القلعة أبا الغنائم بن الجلبان فسلمها إلى أصحاب طغرلبك، وسارت هي إلى الموصل فقتلها ابن أبي غشام بأبيه، وأخذ مسلم بن قريش مالها، وولى طغرلبك على قلعة تكريت أبا العباس الرازي، فمات لستة أشهر، فولي عليها المهرباط وهو أبو جعفر محمد بن أحمد بن غشام من بلد الثغر، فأقام بها إحدى وعشرين سنة، ومات فوليها ابنه سنتين، وأخذتها من تركمان خاتون وولت عليها كوهرايين الشحنة.

ثم مات ملك شاه فملكها قسيم الدولة آقسنقر صاحب حلب، فلما قتل صارت للأمير كمستكين الجاندار، فولى عليها رجلاً يعرف بأبي نصر المصارع، ثم عادت إلى كوهرايين إقطاعاً.

ثم أخذها منه محمد الملك الباسلاني فولى عليها لقا بن هزارسب الديلمي وأقام بها اثنتي عشرة سنة، فظلم أهلها، وأساء السيرة، فلما أجاز به سقمان بن ارتق سنة ست وتسعين وأربعمائة لنهبها، وكان كيقباذ ينهبها ليلاً وسقمان ينهبها نهاراً.

فلما استقر السلطان محمد بعد أخيه بركيارق أقطعها للأمير آقسنقر البرسقي شحنة بغداد، فسار إليها وحصرها مدة تزيد على سبعة أشهر حتى ضاق على كيقباذ الأمر، فراسل صدقة بن مزيد ليسلمها إليه، فسار إليها في صفر من هذه السنة، وتسلمها منه.

وانحدر البرسقي ولم يملكها ومات كيقباذ بعد نزوله من القلعة بثمانية أيام، وكان عمره ستين سنة، واستناب صدقة بها ورام بن أبي قريش بن ورام وكان كيقباذ ينسب إلى الباطنية.

الخلف بين صدقة وصاحب البطيحة

قد كنا قدمنا أن السلطان محمداً أقطع صدقة بن مزيد مدينة واسط، فضمنها صدقة لمهذب الدولة بن أبي الخير، وولى في أعمالها أولاده، فبذروا الأموال، وطالبه صدقة عند انقضاء السنة بالمال وحبسه، وسعى في خلاصه بدران بن صدقة، وكان صهراً لمهذب الدولة، وأعاده إلى البطيحة.

وضمن حماد والمختم محمد والد مهذب الدولة كانا أخوين وهما ابنا أبي الخير وكانت لهما رياسة قومهما وهلك المصطنع وقام ابنه أبو السيد المظفر والد حماد مقامه.

وهلك المختم محمد وقام ابنه مهذب الدولة مقامه، ونازعا إبراهيم صاحب البطيحة حتى غلبه مهذب الدولة وقبض عليه، وسلمه إلى كوهرايين، فحمله إلى أصفهان فهلك في الطريق.

وعظم أمر مهذب الدولة وصير كوهرايين أمير البطيحة، وصارت جماعته لحكمه.

وكان حماد شاباً، وكان مهذب الدولة يداريه بجهده، وهو يضمر نقضه، فلما مات كوهرايين انتقض حماد عن مهذب الدولة وأظهر ما في نفسه، واجتهد مهذب الدولة في استصلاحه، فلم يقدر وجمع ابنه القيسر وقصد حماداً فهرب إلى صدقة بالحلة، وبعث معه مدداً من العسكر، وحشد مهذب الدولة وسار في العساكر براً وبحراً، وأكمن حماد لهم وأصحابه واستطردوا بين أيديهم، ثم خرجت عليهم الكمائن فانهزموا.

وأرسل حماد يستمد صدقة فبعث إليه مقدم جيشه، وجمعوا السفن وكان مهذب الدولة جواداً، فبعث إلى مقدم الجيش بالإنعامات والصلات فمال إليه، وأشار عليه أن يبعث ابن النفيس إلى صدقة فرضي عنه وأصلح بينه وبين حماد ابن عمه، وذلك آخر المائة الخامسة.

مقتل صدقة وولاية ابنه دبيس

كان صدقة بن منصور بن مزيد شيعة للسلطان محمد بن ملك شاه على أخيه بركيارق، ومن أعظم أنصاره.

ولما هلك بركيارق واستبد السلطان محمد بالملك رعى وسائله في ذلك، وأقطعه واسطاً وأذن له في ملك البصرة، وأنزله منزل المصافاة حتى كان يجير عليه.

وسخط مرة على سرخاب بن كيخسرو وصاحب ساوة فلجأ إليه مستجيراً به فأجاره، وطلبه السلطان فمنعه.

وكان العميد أبو جعفر يستبدله السلطان لكثرة السعاية، ويغريه به وينكر دالته وتبسطه فتعين السلطان وسار إلى العراق وأرسل إلى صدقة فاستشار صدقة أصحابه فأشار ابنه دبيس بملاطفته واستعطافه بالهدايا، وأشار سعيد بن حميد صاحب جيشه بالمحاربة، فجنح إلى رأيه واستطال في الخطاب وجمع الجند وأفاض فيهم العطاء واعترضهم فكانوا عشرين ألف فارس وثلاثين ألف راجل.

وبعث إليه المستظهر مع علي بن طراد الزينبي نقيب النقباء يعظه في المخالفة، ويحضه على لقاء السلطان، فاعتذر بالخوف منه.

ثم بعث إليه السلطان قاضي القضاة أبا سعيد الهروي ليؤمنه، ويستنفره لجهاد الفرنج في جملته فامتنع، ووصل السلطان إلى بغداد في ربيع من سنة إحدى وخمسمائة، ومعه وزيره أحمد بن

نظام الملك، فقدم البرسقي شحنة بغداد في جماعة من الأمراء فنزلوا بصرصر مسلحة لقلة عسكر السلطان.

وإنه إنما جاء في ألفي فارس للإصلاح والاستلاف، فلما تبين له لجاج صدقة أرسل إلى الأمراء بأصفهان بأن يستجيشوا ويقدموا، فكتب صدقة إلى الخليفة بالمقاربة وموافقة السلطان.

ثم رجع صدقة عن رأيه، وقال: إذا رحل السلطان عن بغداد مددته بالأموال والرجال لجهاده.

وأما الآن وعساكره متصلة فلا وفاق عندي، وقد أرسل إلى جاولي سكاو، وصاحب الموصل وأبلغازي بن أرتق صاحب ماردين بالانتقاض على السلطان وأيس السلطان من استقامته.

ووصل إليه ببغداد قرواش شرف الدولة وكروباوى بن خراسان التركماني، وأبو عمران فضل بن ربيعة بن خادم بن الجرج الطائي، وكان آباؤه أصحاب البلقاء وبيت المقدس، ومنهم حسان بن مفرج، وطرده كفرتكين أتابك دمشق لما كان عليه من الأجلاب تارةً مع الفرنج، وتارة مع أهل مصر.

فلجأ إلى صدقة وقبله وأكرمه، وأجزل له العطاء سبعة آلاف دينار.

فلما كانت هذه الحادثة رغب عن صدقة وسار في طلائعه فهرب إلى السلطان فخلع عليه وعلى أصحابه، وسوغه دار صدقة عن الهروب، وأذن له فعبر من الأنبار وكان آخر العهد به.

ثم أنفذ السلطان في جمادى الأول إلى واسط الأمير محمد بن بوقا التركماني فملكها وأخرج منها أصحاب صدقة، وأنفذ خيله إلى بلد قوسان من أعمال صدقة، فنهبه وأقام أياماً، حتى بعث صدقة ابن عمه ثابت بن سلطان في عسكر، فخرج منها الأمير محمد وملكها ثابت.

وأقاموا على دجلة وخرج ثابت لقتالهم فهزموه واقتحموا البلد، ومنعهم الأمير محمد من النهب ونادى بالأمان، وأمر السلطان الأمير محمداً بنهب بلاد صدقة، فسار إليها وأقطع مدينة واسط لقسيم الدولة البرسقي. ثم سار السلطان من بغداد آخر رجب ولقيه صدقة واشتد القتال وتخاذلت عنه عبادة وخفاجة، ورفع صوته بالابتهال بالناشرة بالعرب، ورغب الأكراد بالمواعد، ثم غشيه الترك فحمل عليهم وهو ينادي: أنا ملك العرب أنا صدقة فأصابه سهم أثبته وتعلق به غلام تركي يسمى برغش فجذبه إلى الأرض، فقال: يا برغش إرفق فقتله وحمل رأسه إلى السلطان فأنفذه إلى بغداد، وأمر بدفن شلوه، وقتل من أصحابه ثلاثة آلاف أو يزيدون، ومن بني شيبان نحو مائة، وأسر ابنه دبيس، ونجا ابنه بدران إلى الحلة، ومنها إلى البطيحة عند صهره مهذب الدولة، وأسر سرجان بن كيخسرو والمستجير بصدقة على السلطان، وسعيد بن حميد العمدي صاحب الجيش.

وكان مقتل صدقة لإحدى وعشرين سنة من إمارته وهو الذي بنى الحلة بالعراق، وكان قد عظم شأنه وعلا قدره بين الملوك، وكان جواداً حليماً صدوقاً عادلاً في رعيته.

وكان يقرأ ولا يكتب، وكانت له خزانة كتب منسوبة الخط ألوف مجلدات، ورجع السلطان إلى بغداد من دون الحلة، وأرسل أماناً لزوج صدقة فجاءت إلى بغداد، وأمر السلطان الأمراء بتلقيها، وأطلق لها ولدها دبيساً، واعتذر لها من قتل صدقة، واستحلف دبيساً على الطاعة، وأن لا يحدث حدثاً، وأقام في ظله وأقطعه السلطان إقطاعاً كثيراً.

ولم يزل دبيس مقيماً عند السلطان محمد إلى أن توفي، وملك ابنه محمود سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فرغب دبيس من السلطان محمود أن يسرحه إلى بلده، فسرحه، وعاد إليها فملكها واجتمع عليه خلق كثير من العرب والأكراد واستقام أمره.

خبر دبيس مع البرسقي ومع الملك مسعود

لما توفي الخليفة المستظهر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وبويع ابنه المسترشد خاف ابنه الآخر من غائلة أخيه وانحدر في البحر إلى المدائن، وسار منها إلى الحلة فأبى أن يكرهه فتلطف علي بن طراد لأخي الخليفة فأجاب، وتكفل دبيس بما يطلبه، وبينما هو في خلال ذلك برز البرسقي من بغداد مجلباً على دبيس الجموع، وسار أخو الخليفة إلى واسط فملكها في صفر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقوي أمره وكثرت جموعه فبعث الخليفة إلى دبيس في شأنه، وأنه خرج عن جواره فلقي أمره بالطاعة، وبعث إليه وهو بواسط عسكراً من قبله فتلقاه وقبض عليه، وبعثه إلى أخيه المسترشد.

وكان مسعود أخو السلطان محمد بالموصل ومعه أتابكه حيوس بك، فاعتزما على قصد العراق لغيبة السلطان محمود عنه، فسار لذلك ومعه وزيره فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، وقسيم الدولة زنكي بن أقسنقر أبو المعالي أبو الملك العادل، وكروباوي بن خراسان التركماني صاحب البواريح وأبو الهيجاء صاحب أربل وصاحب سنجار، فلما قاربوا بغداد خاف البرسقي شأنهم وبعث إليه الملك مسعود وحيوس بك أنهم إنما جاؤوا نجدة على دبيس، وكان البرسقي إنما ارتاب من حيوس بك فصالحهم، ودخل مسعود بغداد ونزل دار المملكة.

وجاء منكبرس في العساكر فسار البرسقي عن بغداد لمحاربته ودفاعه فمال إلى النعمانية، وعبر دجلة واجتمع مع دبيس بن صدقة.

وكان دبيس قد صانع مسعوداً وصاحبه بالهدايا والألطاف مدافعة عن نفسه، فلما لقيه منكبرس اعتضد به، وسار الملك مسعود والبرسقي وجيوس بك إلى المدائن للقائهما.

ثم خاموا عن لقائهما لكثرة جموعهما، ونكبوا عن المدائن وعبروا نهر صرصر، وأكثروا النهب في تلك النواحي من الطائفتين.

وبعث إليهم المسترشد بالموعظة ويأمرهم بالموادعة والمصالحة فأجابو إلى ذلك.

ثم بلغهم أن دبيساً ومنكبرس قد بعثا العساكر مع منصور أخي دبيس وحسين بن أوزبك ربيب منكبرس ليخالفوهم إلى بغداد فخلوها من الحامية، فأغذ البرسقي السير إلى بغداد وترك ابنه عز الدين مسعود على العسكر وصحبه عماد الدين زنكي بن أقسنقر وانتهى إلى ديالى، ومنع العسكر من العبور.

ثم جاءه الخبر ليومين بصلح الفريقين كما أشار الخليفة ففتر نشاطه وعبر إلى الجانب الغربي من بغداد.

وجاء في أثره منصور أخو دبيس وحسين ربيب منكبرس فنزلا في الجانب الشرقي من بغداد.

وأغار البرسقي على نعم الملك مسعود فأخذها، وعاد فخيم بجانب آخر من بغداد، وخيم مسعود وجيوس بك من جانب آخر ودبيس ومنكبرس من جانب ومعهما عز الدولة بن البرسقي منفرداً عن أبيه.

وكان جيوس بك قد بعث إلى السلطان محمود بطلب الزيادة له وللملك مسعود فجاء كتاب مع رسوله يذكر بأن السلطان كان أقطعهم أذربيجان، حتى إذا بلغه مسيرهم إلى بغداد تثاقل عن ذلك، وقد جهز العساكر إلى الموصل.

ووقع الكتاب بيد منكبرس فبعث إلى جيوس بك وضمن له إصلاح الحال، وكان يؤثر مصلحته إذ كان متزوجاً بأمه فتم الصلح وافترق عن البرسقي أصحابه، وبطل ما كان يحدث به نفسه من الاستبداد بالعراق، وصار مع الملك مسعود واستقر منكبرس شحنة ببغداد، ورجع دبيس إلى الحلة.

فتنة دبيس مع السلطان محمود وإجلاؤه عن بغداد ثم معاودته الطاعة

كان دبيس بن صدقة كثيراً ما يكاتب جيوس بك أتابك الملك مسعود، ويغريه بطلب السلطنة ويعده بالمساعدة ليحصل له بذلك علو اليد كما كان لأبيه مع بركيارق ومحمد ابني ملك شاه.

وكان قسيم الدولة البرسقي شحنة بغداد قد سار للملك مسعود، وأقطعه مراغة مع الرحبة، وكانت بينه وبين دبيس عداوة مستحكمة فأغراهم دبيس بالقبض عليه، ففارقهم البرسقي إلى السلطان محمود فأكرمه.

ثم اتصل الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصفهاني بالملك مسعود، وكان ولده أبو المؤيد محمد يكاتب الطغرائي عن الملك مسعود.

فلما وصل أبوه عزل أبا علي بن عمار صاحب طرابلس واستوزره، وحسن لهم ما أشار به دبيس فعزموا عليه.

ونمي الخبر إلى السلطان محمود فكاتبهم بالوعيد فأظهروا أمرهم وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة، وضربوا له النوب الخمس.

وبلغهم أن عساكر محمود متفرقة فأغذوا السير لمحاربته، والتقوا عند عقبة استراباد في ربيع سنة أربع عشرة، وأبلى البرسقي وكان في مقدمته.

ثم انهزم مسعود وأضرّ كثير من أصحابه، وجيء بالوزير أبي إسماعيل الطغرائي فأمر بقتله لسنة من ولايته، وكان حسن الكتابة والشعر وله تصانيف في صنعة الكيمياء، وسار مسعود يطلب الموصل بعد أن استأمن البرسقي وأدركه فرده إلى أخيه، وعفا عنه وعطف عليه، ولحق جيوس بك بالموصل.

ثم بلغه فعل السلطان محمود ومعه ألف سفينة لعبوره، فبادر دبيس لطلب الأمان بعد أن أرسل حرمه إلى البطيحة، وسار بأمواله عن الحلة وأمر بنهبها، ولحق بأبلغازي بن أرتق بماردين، ووصل السلطان إلى الحلة فوجدها خاوية على عروشها فرجع عنها.

وأرسل دبيس أخاه منصوراً من قلعة صفد في عسكر إلى العراق فمر بالحلة والكوفة، وانحدر إلى البصرة وبعث إلى برتقش الزكوي في صلاح حالهما مع السلطان محمود فقبض على منصور أخي دبيس وولده، وحبسهما ببعض القلاع حذاء الكرخ.

ثم أذن دبيس لجماعة من أصحابه بالمسير إلى أقطاعهم بواسط فمنعهم أتراك واسط، فبعث إليهم عسكراً مع مهلهل بن أبي العسكر، وأمر مظفر بن أبي الخير فساعده، واستمد أهل واسط البرسقي فأمدهم بعسكر.

وسار مهلهل للقائهم قبل مجيء المظفر فهزم وأخذ أسيراً في جماعة من أصحابه، وأصعد المظفر من البطيحة ينهب ويفسد حتى قارب واسط، وسمع بالهزيمة فأسرع منحدراً ووقع على كتاب بخط دبيس إلى مهلهل يأمره بالقبض على مظفر بن أبي الخير، ومطالبته بالأموال، فبعثوا به إلى المظفر.

وسار معهم وبلغ دبيساً أن السلطان كحل أخاه فلبس السواد، ونهب البلاد، وأخذ للمسترشد بنهر الملك، وأجفل الناس إلى بغداد وسار عسكر واسط إلى النعمانية، فأوقعوا بمن هنالك من عساكر دبيس وأجلوهم عنها.

وكان دبيس قد أسر في واقعة البرسقي عفيفاً خادم الخليفة فأطلقه، وحمله إلى المسترشد عقاباً ووعيداً على كحل أخيه فغضب الخليفة، وتقدم إلى البرسقي بالخروج لحرب دبيس، وخرج بنفسه في رمضان سنة عشرة وخمسمائة وأتاه سليمان بن مهارش من الحديثة في جماعة من بني عقيل وقريش بن مسلم صاحب الموصل في كافة بني عقيل.

وأمر المسترشد باستنفار الجند كافة، وفرق فيهم الأموال والسلاح، وجاء دبيساً ما لم يكن يحتسبه فرجع إلى الاستعطاف وبرز الخليفة آخر ذي الحجة، وعبر دجلة وهو في أكمل زيه، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك ونقيب الطالبيين ونقيب النقباء علي بن طراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل.

وبلغ البرسقي مسير المسترشد فعاد إلى خدمته ونزل معه بالحديثة.

ثم سار إلى الموصل على سبيل التعبية والبرسقي في المقدمة، وعبى دبيس أصحابه صفاً واحداً وجعل الرجالة بين يدي الخيالة.

وقد كان وعد أصحابه بنهب بغداد وسبي حريمها، فالتقى الفريقان فانهزم عسكر دبيس وأسر جماعة من أصحابه فقتلوا صبراً وسبيت حرمه، ورجع المسترشد إلى بغداد يوم عاشوراء من سنة سبع عشرة وخمسمائة.

ونجا دبيس وعبر الفرات، وقصد غزنة من عرب نجد مستنصراً بهم فأبو ا عليه، فسار إلى المنتفق وحالفهم على أخذ البصرة فدخلوا ونهبوا أهلها، وقتل مقدم عسكرها.

وبعث المسترشد إلى البرسقي بالعتاب على إهمال أمر البصرة، فتجهز البرسقي للانحدار إليها ففارقها دبيس، ولحق بقلعة جعبر وصار مع الفرنج وأطمعهم في حلب وسار معهم لحصارها سنة ثمان عشرة وخمسمائة فامتنعت عليهم فعادوا عنها، ولحق هو بالملك طغرلبك ابن السلطان محمد فأغراه بالمسير إلى العراق كما نذكر.

مسير دبيس إلى الملك طغرل

لما سار دبيس من الشام إلى الملك طغرل بأذربيجان تلقاه بالمبرة والتكرمة، وأنظمه في خواصه ووزرائه، وأغراه دبيس بالعراق، وضمن له ملكه فسار معه لذلك، وانتهوا إلى دقوقا في عساكر كثيرة.

وكتب مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت إلى المسترشد بالخبر فتجهز لمدافعتهم، وجمع العساكر فبلغوا اثني عشر ألف فارس، وبرز من بغداد في صفر سنة تسع عشرة وخمسمائة وفي مقدمته برتقش الزكوي ونزل الخالص، وانتهى إلى طغرل خروج المسترشد فعدل إلى طريق خراسان ونزل جلولاء، وتفرق أصحابه للنهب.

وبرز إليه الوزير جلال الدين بن صدقة في عسكر كبير فنزل الدسكرة، ولحقه المسترشد وكان معه، ورحل طغرل ودبيس إلى الهارونية.

ثم سارا إلى تامرا ليقطعا جسر النهروان فحفظ دبيس المعابر، وتقدم طغرل إلى بغداد وتملكها ونهبها، ثم رحل دبيس من تامرا وأقام طغرل لحمى أصابته، وحالت بينهما الأمطار والسيول.

ثم أخذ دبيس ثقلاً جاء للخليفة فيه ملبوس وطعام كثير، وكان لحقه الجوع والتعب والبرد فأخذ من ذلك الملبوس ولبسه، وأكل من الطعام كثيراً، واستقبل الشمس فأخذه النوم ورقد.

وأما الخليفة لما بلغه الخبر بأخذ الثقل رجع إلى بغداد، ففي حال سيره عثر على دبيس وهو نائم فوقف وأيقظه، فحل عينيه ورأى الخليفة فبادر بتقبيل الأرض على العادة، وسأل العفو، فرق له الخليفة وثناه الوزير ابن صدقة عن ذلك، ووقف دبيس أزاء عسكر برتقش يحادثهم، ثم مدوا الجسر آخر النهار للعبور فتسلل دبيس عنهم، ولحق بالملك طغرل، وسار معه إلى عمه الملك سنجر، وعاثوا في أعمال همذان واتبعهم السلطان محمود فلم يظفر بهم.

مسير دبيس إلى السلطان سنجر

لما أيس طغرل من ملك العراق عندما سار إليه مع دبيس عاد منه، وسار هو ودبيس إلى السلطان سنجر، وهو يومئذ صاحب خراسان، والمتقدم على بني ملك شاه، فشكى إليه طغرل ودبيس من المسترشد، وبرتقش الشحنة، ووعدهم النصفة منهم، ثم داخله دبيس وأطعمه في ملك العراق، وخيل له أن المسترشد والسلطان محمود متفقان على مباعدته، ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى حرك حفيظته لذلك، وسار إلى العراق سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فوصل إلى الري، واستدعى السلطان محموداً من همذان يختبر ما خيل له دبيس، فجاء محمود مبادراً وأكذب دبيساً فيما خيل، وأمر السلطان سنجر العساكر بتلقي السلطان محمود، وأجلسه معه على التخت، وأقام عنده إلى آخر سنة اثنتين وعشرين ثم عاد إلى خراسان وأوصاه بإعادة دبيس إلى بلده، فرجع السلطان محمود إلى همذان ودبيس معه، ثم سار إلى بغداد في محرم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وأنزل دبيس بداره، واسترضى له الخليفة فرضي عنه، وامتنع من ولايته، وبذل دبيس مائة ألف دينار لذلك فلم يقبله، وعاد السلطان محمود إلى همذان منتصف السنة.

فتنة دبيس مع محمود وأسره

كانت زوجة السلطان محمود وهي ابنة عمه سنجر تعين بأمر دبيس، فماتت عند رحيل السلطان إلى همذان فانحل أمره.

ثم مرض السلطان فأخذ دبيس ابنه الصغير، وقصد العراق فجمع المسترشد لمدافعته.

وكان بهروز شحنة بغداد بالحلة فهرب عنها، وملكها دبيس في رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة.

وبلغ الخبر إلى السلطان محمود، فأحضر الأمير ابن قزل والأحمديلي، وكانا ضمنا دبيس فطالبهما بالضمان فسار الأحمديلي في أثره.

وجاء السلطان إلى العراق فبعث إليه دبيس بهدايا عظيمة كان فيها مائتا ألف دينار، وثلاثمائة فرس بسروج مثقلة بالذهب.

ثم جاء إلى البصرة ونهبها وأخذ ما في بيوت الأموال.

وبعث السلطان في أثره العساكر فدخل البرية، وجاءه عند مفارقته البصرة قاصداً من صرصر يستدعيه، وكان صاحبها خصياً فتوفي في هذه السنة، وخلف سرية له فاستولت على القلعة، وأرادت أن تتم أمرها برجل له قوة ونجدة فوصف لها دبيس، وحاله في العراق وكثرة عشيرته، فكتبت تستدعيه لتتزوج به، وتملكه القلعة بما فيها فلحقه الكتاب بعد مفارقته البصرة.

وقفل من العراق إلى الشام، ومعه الأدلاء ومر بدمشق فحبسه واليها عنده، وبعث فيه عماد الدين زنكي وكان عدوه.

وكان عنده ابن تاج الملوك مأسوراً في واقعة كانت بينهما، فطلب أن يبعث إليه دبيس، ويفادي به ابنه والأمراء الذين معه ففعل ذلك تاج الملوك، وحصل دبيس في يد زنكي، وقد أيقن بالهلاك فأطلقه زنكي وحمل له الأموال والدواب والسلاح وخزائن الأمتعة كما يفعل مع أكابر الملوك وبلغ المسترشد خبره فبعث سديد الدين بن الأنبار يطلبه من تاج الملوك فسار لذلك من جزيرة ابن عمر، وبلغه في طريقه أنه بعثه إلى زنكي وأنه فاته القصد منه.

مسير دبيس إلى بغداد مع زنكي وانهزامهما

لما توفي السلطان محمود سنة خمس وعشرين وخمسمائة وولي بعده داود، ونازعه عمومته مسعود وسلجوق، ثم استقرت السلطنة لمسعود، وكان أخوهما طغرل عند عمه سنجر بخراسان، وكان كبير بيت أهل السلجوقية، وله الحكم على ملوكهم فنكر على السلطان محمود لقتاله سلجوق وطغرل، وسار به إلى العراق، وانتهى إلى همذان.

وبعث إلى عماد الدين زنكي فولاه شحنة بغداد، وإلى دبيس بن صدقة وهو عند زنكي فأقطعه الحلة وتجهز السلطان محمود لقتال سنجر وطغرل، واستدعى الخليفة للحضور معه فخرج من بغداد وعاجلهم، ورجع المسترشد إلى بغداد وقد سمع بوصول زنكي ودبيس إليها ولقيهم بالعباسية فهزمهم، وقتل من معسكرهم ودخل بغداد وسار دبيس إلى بلاد الحلة، وكانت بيد أقبال خادم المسترشد فبعث إليها بالمدد فهزموا دبيساً ونجا من المعركة.

ثم جمع جمعاً وقصد واسط وانضم إليه عسكرها وابن أبي الخير صاحب البطيحة، وملكها إلى سنة سبع وعشرين وخمسمائة فبعث أقبال الخادم وبرتقش الشحنة العساكر إلى دبيس فلقيهم في عسكر واسط، وانهزم وسار إلى السلطان مسعود فأقام عنده.

مقتل دبيس وولاية ابنه صدقة

لم يزل دبيس مقيماً عند السلطان مسعود إلى أن حدثت الفتنة بينه وبين المسترشد، ومات أخوه طغرل كما هو مذكور في أخبارهم وسار مسعود إلى همذان بعد موت أخيه طغرل فملكها، وفارقه جماعة من أعيان أمرائه، ومعهم دبيس بن صدقة مستوحشين منه.

واستأمنوا للخليفة فحذر من دبيس، ولم يقبلهم فمضوا إلى خوزستان، واتفقوا مع برسق بن برسق.

ثم تدارك الخليفة رأيه وبعث إلى الأمراء الذين مع دبيس بالأمان، وكانوا لما ردهم الخليفة بسبب دبيس أجمعوا القبض عليه، وخدمة الخليفة به، وشعر بهم وهرب إلى السلطان مسعود.

وبرز الخليفة من بغداد في رجب من سنة تسع وعشرين وخمسمائة لقتال مسعود، وكتب إليه أكثر أهل الأعمال بالطاعة.

وأرسل إليه داود ابن السلطان محمود من أذربيجان بأن يقصد المسترشد الدينور ليحضر داود حربه فأبى، وسار على التعبية حتى بلغ واعرج فالتقوا هنالك.

وانهزمت عساكر المسترشد وأخذ أسيراً ومعه وزيره شرف الدين علي بن طراد، وقاضي القضاة، وابن الأنباري، وجماعة من أعيان الدولة، وغنم ما في عسكره وعاد السلطان إلى بغداد.

وبعث الأمير بكاية شحنة إلى بغداد، وكثر العويل والبكاء والضجيج ببغداد على الخليفة، وجعل الخليفة في خيمة ووكل به، وراسله السلطان مسعود في الصلح، وشرط عليه مالاً يؤديه، ولا يجمع العساكر ولا يخرج من داره ما بقي، وانعقد ذلك بينهما.

وبينما هما في ذلك وصل رسول السلطان سنجر فركب السلطان مسعود للقائه، وافترق المتوكلون بالمسترشد فدخل عليه خيمته آخر ذي القعدة من سنة تسع وعشرين وخمسمائة جماعة الباطنية، وقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه.

ولما قتل المسترشد اتهم السلطان مسعود أن دبيس بن صدقة دس أولئك النفر عليه فأمر بقتله، وقصده غلام فوقف على رأسه عند باب خيمته، وهو ينكث الأرض بإصبعه فأطار رأسه وهو لا يشعر.

وبلغ الخبر إلى ابنه صدقة وهو بالحلة، فاجتمعت إليه عساكر أبيه ومماليكه، واستأمن إليه الأمير قطلغ تكين وأمر السلطان مسعود الشحنة بك أبه بمعاجلته، وأخذ الحلة من يده إلى أن قدم السلطان بغداد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فقصده صدقة وأصلح حاله معه ولزم بابه.

مقتل صدقة وولاية ابنه محمد

ولما قتل المسترشد ولي ابنه الراشد بإشارة السلطان مسعود، ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان مسعود، وأغراه بها عماد الدين زنكي صاحب الموصل، ومعه الراشد.

وبايع السلطان مسعود للمقتفي سنة ثلاثين وخمسمائة وخلع الراشد ففارق الموصل، وسار الأمراء الذين كانوا مع داود إلى السلطان مسعود، ورضي عنهم، ورجع إلى همذان وأذن للعساكر في العود إلى بلادهم، وتمسك بصدقة بن دبيس وزوجه ابنته.

وسار الراشد من الموصل إلى أذربيجان قاصداً الملك، واجتمع إليه صاحب فارس وخوزستان وجماعة الأمراء، فسار إليهم السلطان مسعود وهزمهم، وأخذه صاحب فارس الأمير منكبرس فقتله صبراً.

وتسلل صاحب خوزستان وعبد الرحمن طغايرك صاحب خلخال إلى السلطان مسعود وهو في خف من الناس فحملوا عليه وهزموه، وقبضوا على جماعة من الأمراء الذين معه فقتله منكبرس: فيهم صدقة بن دبيس وعنبر بن أبي العسكر.

وذهب داود إلى همذان فملكها، واستقال السلطان مسعود من عثرته، وولى على الحلة محمد بن دبيس، وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا نمير بربرة، واستقام أمره بالحلة، وكان من شأن الراشد والسلجوقية ما نذكره في أخبارهم.

تغلب علي بن دبيس على الحلة وملكه إياها من أخيه محمد

ثم خرج على السلطان مسعود سنة ست وأربعين وخمسمائة بوزابة صاحب فارس وخوزستان وبايع للسلطان محمد ابن السلطان محمود، وسار معهم عباس صاحب الري، وملكوا كثيراً من البلاد، فسار السلطان مسعود إليهم من بغداد واستخلف بها الأمير مهلهل ابن أبي العسكر ونظر الخادم، وأشار مهلهل على السلطان مسعود عند رحيله من بغداد أن يحبس علي بن دبيس بقلعة تكريت.

ونمي إليه الخبر فهرب في نفر قليل، ومضى إلى بني أسد

فجمعهم فسار إلى الحلة فبرز إليه محمداً أخوه فهزمه علي، وملك الحلة واستهان السلطان أمره أولاً فاستفحل وضم إليه جمعاً من غلمانه وغلمان أبيه وأهل بيته وعساكرهم، وكثر جمعهم فسار إليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر، وضربوا عليه مصافاً وكسرهم، وعادوا منهزمين إلى بغداد.

وكان أهلها يتعصبون لعلي بن دبيس فكانوا يعيطون إذا ركب مهلهل أو بعض أصحابه: يا علي كله.

فكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب، ويد علي فوق كل يد في أوضاع الأمراء بالحلة وتصرف فيها وصار شحنة بغداد ومن فيها على وجل منه، ووضع الخليفة الحامية على الأسوار وأرسل إلى علي يحضه على الاستقامة فأجاب بالآمال والطاعة فسكن الناس.

أخذ السلطان الحلة من يد علي وعوده إليها

كان علي بن دبيس كثير العسف بالرعية والظلم لهم، وارتفعت شكوى الرعية به إلى السلطان مسعود سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فأشكاهم، وأقطع الحلة سلاركرد فسار إليها من همذان.

وجمع عسكراً من بغداد وقصد الحلة، واحتاط على أهل علي، وأقام بالحلة في مماليكه وأصحابه.

ورجعت عنه العساكر ولحق علي بن دبيس بالتقشكنجر وكان في أقطاعه باللحف متجنياً على السلطان مسعود، فاستنجده علي فأنجده، وسار معه إلى واسط، وسار معهما الطرنطاي صاحب واسط فانتزعوا الحلة من سلاركرد ورجع إلى بغداد آخر اثنتين وأربعين، واستولى علي على الحلة.

نكبة علي بن دبيس

ثم انتقض على السلطان مسعود سنة أربع وأربعين وخمسمائة جماعة من الأمراء منهم التقشكنجر والطرنطاي وعلي بن دبيس، وبايعوا ملك شاه ابن السلطان محمود، وساروا به إلى العراق، وراسلوا المقتفي في الخطبة له فامتنع، وجمع العساكر وحصن بغداد وأرسل إلى السلطان مسعود بالخبر فشغل عنهم بلقاء عمه السلطان سنجر، كان سار إليه بالري.

ولما علم التقشكنجر بذلك نهب النهروان وقبض على علي بن دبيس، وهرب الطرنطاي إلى النعمانية.

ثم وصل السلطان مسعود إلى بغداد فرحل التقشكنجر من النهروان وأطلق علي بن دبيس فسار إلى السلطان مسعود فلقيه ببغداد واستعطفه فرضي عنه.

وفاة علي بن دبيس وانقراض بني مزيد

ثم توفي علي بن دبيس صاحب الحلة عليلاً بسعدأباد، واتهم طبيبه محمد بن صالح بالادهان فيه فمات بعده بقليل.

ثم مات السلطان مسعود آخر ملوك السلجوقية الأعاظم، وبويع ملك شاه ابن أخيه محمود بعهده، واستبد المقتفي على ملوك السلجوقية بعده.

وبعث السلطان ملك شاه سلاركرد إلى الحلة فملكها، ولحق به مسعود بلال شحنة بغداد، وهرب منها عند موت السلطان مسعود، وأظهر لسلاركرد الوفاق.

ثم قبض عليه وغرقه، واستبد بالحلة، وبعث المقتفي إليه العساكر مع الوزير عون الدين بن هبيرة، فبرز مسعود بلال للقائهم، فانهزم وعاد إلى الحلة فمنعه أهلها من الدخول، فسار إلى تكريت، وملك ابن هبيرة الحلة، وبعث العساكر إلى الكوفة وواسط فملكوها.

ثم جاءت عساكر السلطان ملك شاه إلى واسط، وخرجت منها عساكر المقتفي إلى واسط فملكها، ثم إلى الحلة كذلك.

ثم عاد إلى بغداد آخر ذي القعدة سنة سبع وأربعين وخمسمائة، ثم قبض الأمراء على ملك شاه سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وبايعوا لأخيه محمد وطلب الخطبة من المقتفي فمنع منها، فسار السلطان محمد بن محمود إلى العراق سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

واضطرب الناس ببغداد واهتم المقتفي بالاحتشاد، وجاءته عساكر واسط، وبعث السلطان مهلهل بن أبي العسكر إلى الحلة فملكها، وحاصر السلطان محمد بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وامتنعت عليه فرجع، وتوفي المقتفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة وبويع ابنه المستنجد، واستبد بأمره كما كان أبوه.

ومنع خطبة السلجوقية من بغداد، وكان في نفسه شيء من بني أسد لإجلابهم على بغداد مع مهلهل بن أبي العسكر، أيام

حصار السلطان محمد لها، فأمر بردن بن قماج بقتالهم وإجلائهم، وكانوا منتشرين في البطائح، ولا يقدر عليهم، وجمع عساكره وبعث عن ابن معروف مقدم المنتفق من أرض البصرة فجاءه في جمع كبير، وحاصرهم حتى انحسر الماء عنهم.

وأبطأ أمرهم على المستنجد فبعث إلى بردن يعاتبه وينسبه إلى موافقتهم في التشيع فجهد هو وابن معروف في قتالهم، وسد مسالكهم في الماء، واستسلموا فقتل منهم أربعة آلاف، ونودي عليهم بالجلاء من الحلة فافترقوا في البلاد، ولم يبق منهم بالعراق من يعرف، وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى ابن معروف والمنتفق وانقرضت دوله بني مزيد والبقاء لله.

الخبر عن ملوك العجم القائمين بالدعوة العباسية في ممالك الإسلام والمستبدين على الخلفاء ونبدأ منهم أولاً بدولة ابن طولون بمصر وبداية أمرهم ومصاير أحوالهم

قد تقدم لنا عند ذكر الفتوحات فتح مصر على يد عمرو بن العاص سنة عشرين من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه بإذنه، وولاه عليها، وافتتح ما وراءها في المغرب إلى طرابلس وودان وغدامس حسبما ذلك مذكور هنالك، وأقام عمرو في ولايتها أيام عمر كلها وولى عثمان على الصعيد عبد اللّه بن أبي سرح، وأفردها بالولاية، وكان يعدو على عمرو فغضب عمرو، وأبى من الرجوع إلى ولاية مصر، فضمها عثمان لعبد اللّه بن أبي سرح وولاه عليها.

وكانت في أيامه غزوة الصواري، جاءت مراكب الروم من القسطنطينية في ألف مركب ونزلوا بسواحل الإسكندرية.

وانتقض أهل القرى، ورغب أهل الإسكندرية من عثمان أن يمدهم بعمرو بن العاص فبعثه، وزحف إليهم في العرب ومعه المقوقس في القبط، وخرجوا من البحر ومعهم من انتقض من أهل القرى، ففتح اللّه على المسلمين، وهزموا الروم إلى الإسكندرية.

وأمضى عمرو في قتلهم ورد على أهل القرى ما غنم المسلمون منهم، وعذرهم بالإكراه، ورجع إلى المدينة وأقام عبد اللّه في ولايتهم، وغزا إفريقية وافتتحها.

ثم غزا بلد النوبة، ووضع عليهم الجزية المعروفة الباقية على الأيام وذلك سنة إحدى وثلاثين.

ثم كان من بعد ذلك يبعث معاوية بن خديج فيفتح ويثخن إلى أن استملك فتح إفريقية.

ووفد على عثمان آخر أيامه عندما اهتاجت الفتنة، وكثر الطعن عليه من جماعة جند مصر يتعللون بالشكوى من ابن أبي سرح مع وفد من الجند شاكين من عمالهم بالأمصار.

وعزله عثمان يسترضيهم به فكانت قضية الكتاب المنسوب إلى مروان وحصارهم عثمان بداره.

وخرج عبد اللّه من مصر مدداً لعثمان فخالفه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة إلى مصر وانتزى بها.

ورجع عبد اللّه من طريقه فمنعه الدخول فسار إلى عسقلان، وأقام بها حتى قتل عثمان.

ثم سار إلى الرملة وكانت من مهماته فأقام بها هرباً من الفتنة حتى مات، ولم يبايع علياً ولا معاوية.

ثم قتل عمرو بن العاص محمد بن أبي حذيفة، وفي كيفية قتله إياه اضطراب.

ثم ولي علي على مصر قيس بن سعد بن عبادة، وكان ناصحاً له شديداً على عدوه، واستماله معاوية، فأساء في الرد عليه.

وأشاع معاوية خلاف ذلك عنه فعزله علي من أجل ذلك، وولى بعد ذلك الأشتر النخعي، واسمه مالك بن الحارث بن يغوث بن سلمة بن ربيعة بن الحارث بن خزيمة بن سعد بن مالك بن النخع.

وسار إليها فمات بالقلزم قريباً منها سنة سبع وثلاثين، فولى علي مكانه محمد بن أبي بكر، وكان نشأ في حجره.

ثم بعث معاوية إلى عمرو بن العاص وهو بفلسطين قد اعتزل الناس بعد مقتل عثمان، واستماله واجتمع معه على قتال علي وولاه مصر فسار إليها بعد انقضاء أمر صفين وأمر الحكمين.

وطلب معاوية الخلافة وقد اضطرب الأمر على محمد بن أبي بكر وخرج عليه معاوية بن خديج السكوني مع جماعة من العثمانية بنواحي مصر فكاتب عمرو العثمانية، وسرح الكتائب إلى مصر، وفي مقدمتها معاوية بن خديج فهزموا عساكر محمد، وافترق عنه أصحابه وقتل كما هو معروف في أخباره.

ودخل عمرو بن العاص الفسطاط، وملك مصر، إلى سنة ثلاث وأربعين ومائة فتوفي، وملك مكانه ابنه عبد اللّه.

ثم عزله معاوية وولى أخاه عتبة بن أبي سفيان، وتوفي سنة

أربع وأربعين وولى مكانه عقبة بن عامر الجهني، ثم عزله سنة سبع وأربعين ومائة وولى مكانه معاوية بن خديج.

ثم اقتطع عنه إفريقية سنة خمسين وولى عليها عقبة بن نافع.

ثم جمع مصر وإفريقية لمسلمة بن مخلد الأنصاري، فبعث مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر، وأساء عزل عقبة كما هو معروف.

ثم مات معاوية وولي ابنه يزيد، واضطربت الأمور، وبويع عبد الله بن الزبير بمكة، وانتشرت دعوته في الممالك الإسلامية فبعث على مصر عبد الرحمن بن جحدم القرشي، وهو عبد الرحمن بن عقبة بن أياس بن الحارث بن عبد بن أسد بن جحدم الفهري، ثم بويع مروان وانتقض ابن الزبير وسار مروان إلى مصر فأخرج منها عبد الرحمن بن جحدم وولى عليها عمر بن سعيد الأشدق.

ثم بعثه للقاء مصعب بالشام، وولى مكانه على مصر ابنه عبد العزيز بن مروان ثم هلك سنة خمس وكان مروان قد مات فولي مكانه ابنه عبد الله بن عبد الملك.

ثم عزله الوليد سنة تسع وثمانين وولى عليها مرة بن شريك بن مرثد بن الحارث العبسي، ومات سنة خمس وتسعين فولى الوليد مكانه عبد الله بن رفاعة سنة تسع وتسعين، وكان قد استخلفه عند موته ويقال: بل ولى قبله أسامة بن زيد التنوخي.

ثم عزل عمر بن عبد العزيز عبد الملك بن رفاعة سنة تسع وتسعين وولى مكانه أيوب بن شرحبيل بن أكرم بن أبرهة بن الصباح الأصبحي.

ثم عزله يزيد بن عبد الملك، وولى مكانه بشر بن صفوان، وأقره يزيد، ثم عزله هشام بن عبد الملك وولى عبد الملك بن رفاعة وتوفي بعد خمس عشرة ليلة.

واستخلف أخاه الوليد بن رفاعة، وأقره هشام فأقام سبعة أشهر، ثم عزله وولى حنظلة بن صفوان في المحرم سنة أربع وعشرين ومائة وأقره هشام.

ثم استعفى مروان بن محمد حين ولي فأعفاه، وولى مكانه حسان بن عتامة بن عبد الرحمن السجيني، وكان بالشام فاستخلف حير بن نعيم الحصري بمصر ثم قدم ورفض ولايتها، فولى مكانه حفص بن الوليد لستة عشر يوماً من ولايته.

وبقي حفص شهرين، ثم ولى مروان الحوثرة بن سهل بن العجلان الباهلي في محرم سنة ثمان وعشرين ومائة ثم صرف عنها في رجب سنة إحدى وثلاثين ومائة، وولي المغيرة بن عبد الله بن مسعود الفزاري، ثم مات في جمادى سنة ست وثلاثين، واستخلف ابنه الوليد.

وولى مروان بن عبد الملك موسى بن نصير فأمر باتخاذ المنابر في الكور، وإنما كانوا يخطبون على العصي.

ثم قدم مروان بن محمد إلى مصر، وكان فيها مهلكه كما هو معروف.

ثم جاءت الدولة العباسية فولى السفاح على مصر عمه صالح بن علي سنة أربع وثلاثين ومائة، وبقيت في ولايته يستخلف عليها، فاستخلف أولاً محصن بن فاني الكندي ثمانية أشهر.

ثم أبا عون عبد الملك بن يزيد مولى مناه ثمانية أشهر.

وولى داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة في محرم سنة أربع وسبعين، ثم عزله في محرم سنة خمس وسبعين لسنة من ولايته، وأعاد إليها موسى بن عيسى، ثم صرفه في ربيع سنة ست وسبعين وولى ابن عمه إبراهيم بن صالح وتوفي لثلاثة أشهر من ولايته، وقام بالأمر بعده ابنه صالح فولى الرشيد عبد الله بن المسيب بن زهير الضبي في رمضان سنة ستة وسبعين ومائة، ثم عزله بعد الحول، وولى هرثمة بن أعين، ثم أمره بالمسير إلى إفريقية لثلاثة أشهر من ولايته سلخ ثمان وسبعين ومائة، وولى أخاه عبيد الله بن المسيب.

ثم أعاد موسى بن عيسى في رمضان سنة تسع وسبعين ومائة فاستخلف ابنه يحيى.

ثم صرف موسى في منتصف سنة ثمانين لعشرة أشهر من ولايته، وأعيد عبيد الله بن المهدي.

ثم صرفه في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة وأعيد إسماعيل بن صالح بن علي من العمومة فاستخلف، ثم صرف في منتصف اثنتين وثمانين ومائة وأعيد لعشرة أشهر من ولايته.

وولي الليث بن الفضل من أهل أسبورد فوليها أربع سنين ونصفاً وعزل.

ثم ولي الرشيد من قرابته أحمد بن إسماعيل بن علي منتصف سبع وثمانين ومائة فبقي عليها سنتين وشهرين.

ثم ولي مكانه عبد الله بن محمد بن الإمام إبراهيم بن محمد ويعرف بابن زينب، وصرفه عنها آخر شعبان من سنة تسعين ومائة لسنة وشهرين من ولايته.

وولي حاتم بن هرثمة بن أعين، فقدم في شوال سنة أربع وتسعين ومائة، ثم صرفه الأمير منتصف خمس وتسعين ومائة لسنة وثلاثة أشهر من ولايته، وولي جابر بن الأشعث بن يحيى بن النعمان الطائي منتصف خمس وتسعين ومائة فأخرجه الجند منها سنة وست وتسعين ومائة لسنة من ولايته.

ثم ولى المأمون عليها عباد بن محمد بن حيان البلخي مولى كندة، ويكنى أبا نصر.

ثم عزله لسنة ونصف من ولايته في صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، وولى المطلب بن عبد اللّه بن مالك بن الهيثم الخزاعي، وقدمها من مكة في منتصف ربيع الأول.

ثم صرفه في شوال لثمانية أشهر من ولايته، وولى من عمومته العباس بن موسى بن عيسى فبعث عليها ابنه عبد اللّه، ومعه الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي اللّه تعالى عنه، فأقام عليها شهرين ونصفاً، فقتله الجند يوم النحر سنة ثمان وتسعين ومائة، وولوا عليهم المطلب بن عبد اللّه.

ثم جرت بينه وبين السدي وبين الحكم بن يوسف مولى بني ضبة من أهل بلخ من قوم يقال لهم الزط، وجرت بينه وبين أهل المطلب حروب، وخرج هارباً إلى مكة بعد سنة وثمانية أشهر من ولايتها ووليها السري بإجماع الجند في رمضان سنة مائتين.

ثم وثب به الجند بعد ستة أشهر وولوا سليمان بن غالب بن جبريل بن يحيى بن قرة العجلي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين.

وولي عبد اللّه بن طاهر بن الحسين مولى خزاعة فأقام عشرة.

ثم ولى المأمون عليها أخاه أبا إسحاق الملقب في خلافته بالمعتصم، فأقر عيسى الجلودي، وبعده عمير بن الوليد التميمي في صفر سنة أربع عشرة ومائتين ثم قتل بعد شهرين، واستخلف ابنه محمد بن عمير شهراً، ثم أعاد عيسى الجلودي.

ثم جاء أبو إسحاق المعتصم إلى الفسطاط، وعاد إلى الشام، واستخلف عبدويه بن جبلة في المحرم فاتح خمس عشرة فأقام سنة، وولي عيسى بن منصور بن موسى الخراساني الرافعي مولى بني نصر بن معاوية.

ثم قدم المأمون مصر لسنة من ولايته، فسخط على عيسى بن منصور، وعمر المقياس وجسراً آخر بالفسطاط، وولي كندر بن عبد اللّه بن نصر الصفدي، ويكنى أبا مالك، ورجع إلى العراق ومات كندر في ربيع سنة تسع عشرة ومائتين، واستخلف ابنه المظفر.

ولما صارت الخلافة للمعتصم ولى على مصر مولاه أشناس، ويكنى أبا جعفر في رجب سنة ثمان عشرة، فاستخلف عليها موسى بن أبي العباس ثابت من بني حنيفة من أهل الشاش في رمضان سنة تسع عشرة ومائتين، واستخلف ابنه المظفر فأقام مستلخفاً لأشناس أربع سنين ونصفاً.

ثم عزله بعد سنتين، واستخلف مالك بن كيد بن عبد اللّه الصفدي، فقدم في ربيع سنة أربع وعشرين ومائتين ثم عزله بعد سنتين واستخلف علي بن يحيى الأرمني، وقدم في ربيع سنة ست وعشرين ومائة.

ثم عزله بعد سنتين وثمانية أشهر، واستخلف عيسى بن منصور الذي كان مستخلفاً للمعتصم أيام المأمون، وسخطه المأمون عند قدومه مصر فقدم عيسى في محرم سنة تسع وعشرين ومائتين.

ثم مات أشناس بعد الثلاثين، وقد استخلف على مصر إتياخ مولى المعتصم وأقيم إتياخ مكان أشناس فأقر الواثق إتياخ على مصر، فأقر إتياخ عيسى بن منصور في ربيع سنة ست وثلاثين ومائتين فبقي أربعة أشهر.

ثم استخلف إتياخ هرثمة بن النضر الجبلي فقدم منتصف سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وأقام سنة، ثم مات سنة أربع وثلاثين ومائتين، وقام بأمره ابنه حاتم رضي اللّه تعالى عنه، فاستخلف إتياخ علي بني يحيى الأرمني في رمضان سنة أربع وثلاثين ومائتين.

ثم صرف إتياخ عن ولاية مصر في محرم سنة خمس وثلاثين ومائتين بعد وفاة المعتصم.

وولى المتوكل على مصر ابنه المستنصر فاستخلف عليها إسحاق بن يحيى بن معاذ الختلي، وقدم في ذي القعدة من سنته، وفي أيامه أخرج ولد علي من مصر إلى العراق، ثم صرف في ذي القعدة من سنة ست وثلاثين ومائتين، واستخلف المستنصر عليها عبد الرحمن بن يحيى بن منصور بن طلحة وريق، وهو ابن عم طاهر بن الحسين، وقدم في ذي القعدة سنة ست وثلاثين ومائتين.

ثم صرفه واستخلف عنبسة بن إسحاق بن عبس بن عبسة من أهل هراة.

ويكنى أبا حاتم في صفر سنة ثمان وثلاثين ومائتين.

وفي ولايته كبس الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين، واستخلف يزيد بن عبد اللّه بن دينار من مواليهم، ويكنى أبا خالد، وفي أيامه منع العلويون من ركوب

الخيل واقتناء العبيد.

ثم ولي المستنصر الخلافة في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين فأقر يزيد على ولاية مصر، ثم صرف عنها في ربيع سنة ثلاث وخمسين لعشر سنين من ولايته.

وولى المعتز مكانه مزاحم بن خاقان ابن عزطوج التركي في ربيع سنة أربع وخمسين، وعهد إلى أزجور بن أولغ طرخان التركي فأقام خمسة أشهر وخرج حاجاً في رمضان سنة أربع وخمسين.

وولي أحمد بن طولون، واستفحل بها أمره، وكانت له ولبنيه بها دولة كما نذكر الآن أخبارها.

الخبر عن دولة أحمد بن طولون بمصر وبنيه ومواليه بني طغج وابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم

قال ابن سعيد -ونقله من كتاب ابن الداية في أخبار بني طولون-: كان طولون أبو أحمد من الطغز، غزوهم التتر.

حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون في وظيفته من المال والرقيق والبراذين، وولد له أحمد سنة عشرين ومائتين من جارية اسمها ناسم.

وتوفي طولون سنة أربعين ومائتين، وكفله رفقاء أبيه بدار الملك حتى ثبتت مرتبته، وتصرف في خدمة السلطان، وانتشر له ذكر عند الأولياء فاق به على أهل طبقته، وشاع بين الترك صونه ودينه وأمانته على الأسرار والأموال والفروج.

وكان يستصغر عقول الأتراك، ويرى أنهم ليسوا بأهل للرتب، وكان يحب الجهاد.

وطلب من محمد بن أحمد بن خاقان أن يسأل من عبد اللّه الوزير أن يكتب لهما بأرزاقهما إلى الثغر، ويقيما هنالك مجاهدين.

وسار إلى طرسوس، وأعجبه ما عليه أهل الحق من تغيير المنكر وإقامة الحق فأنس، وعكف على طلب الحديث.

ثم رجع إلى بغداد وقد امتلأ علماً وديناً وسياسة.

ولما تنكر الأتراك للمستعين وبايعوا المعتز، وآل أمر المستعين إلى الخلع والتغريب إلى واسط، وكلوا به أحمد بن طولون فأحسن عشرته، ووسع عليه، وألزمه أحمد بن محمد الواسطي يومه، وكان حسن العشرة فكه المجالسة.

ولما اعتزموا على قتله بعثوا إلى أحمد بن طولون أن يمضي ذلك فتفادى منه، فبعثوا سعيداً الحاجب فسمله، ثم قتله، ودفنه ابن طولون وعظم محله بذلك عند أهل الدولة، انتهى كلام ابن سعيد.

وقال ابن عبد الظاهر: وقفت على سيرة للأخشيد قديمة عليها خط الفرغاني وفيها: أن أحمد هو ابن النج من الأتراك، كان طولون صديق أبيه ومن طبقته.

فلما مات النج رباه طولون وكفله، فلما بلغ من الحداثة مشى مع الحشوية وغزا، وتنقلت به الأحوال إلى أن صار معدوداً في الثقات، وولي مصر واستقر بها.

قال صدر الدين بن عبد الظاهر: ولم أر ذلك لغيره من المؤرخين انتهى.

ولما وقع اضطراب الترك ببغداد وقتل المستعين وولي المعتز واستبد عليه الأتراك وزعيمهم يومئذ باك باك وولاه المعتز مصر، ونظر فيمن يستخلفه عليها، فوقع اختياره على أحمد بن طولون فبعثه عليها، وسار معه أحمد بن محمد الواسطي، ويعقوب بن إسحاق، ودخلها في رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين وعلى الخوارج بها أحمد بن المدبر، وعلى البريد سفير مولى قبيحة فأهدى له ابن المدبر، ثم استوحش منه، وكاتب المعتز بأن ابن طولون يروم العصيان وكاتب صاحب البريد بمثل ذلك، فسطا بسفير صاحب البريد ومات من غده.

ثم قتل المعتز وولي المهتدي فقتل باك باك، ورتب مكانه يارجوج، وولاه مصر.

وكانت بينه وبين أحمد بن طولون مودة أكيدة، فاستخلفه على مصر، وأطلق يده على الإسكندرية والصعيد بعد أن كان مقتصراً على مصر فقط، وجعل إليه الخراج فسقطت رتبة ابن المدبر.

ثم أعاده المعتمد فلم ينهض إلى مساماة ابن طولون ولا منازعته.

ثم كتب إليه المعتمد بضبط عيسى بن شيخ الشيباني، وكان يتقلد فلسطين والأردن، وتغلب على دمشق، وطمع في مصر ومنع الحمل، واعترض حمل ابن المدبر، وكان خمسة وسبعين حملاً من الذهب فأخذها، فكتب إليه المعتمد يومئذ بولاية أعماله فادعى العجز، وأنكر مال الحمل ونزع السواد، وأنفذ أناجور من الحضرة في العساكر إلى دمشق سنة سبع وخمسين.

ثم خرج أحمد بن طولون إلى الإسكندرية ومعه أخوه موسى وكان يتجنى عليه، ويرى أنه لم يوف بحقه، وظهر ذلك منه

في خطابه فأوقع بــه ونفـاه، وحبس كاتبـه إسحاق بـن يعقـوب، واتهمه بأنه أفضى بسره إلى أخيه.

وخرج أخوه حاجاً، وسار من هنالك إلى العراق، ووصـف أخاه بالجميل فحظي بذلك عند الموفق.

واستفحل أمــر أحمـد واستكثر مـن الجند وخافـه أنـاجور بالشام.

وكتب الموفق يغريه بشأنه وأنه يخشى على الشام منه.

ثم كتب الموفق إلى ابن طولون بالشخوص إلى العراق لتدبير أمر السلطان، وأن يستخلف على مصر فشعر ابن طولون بـالمكيدة في ذلك، فبعث كاتبه أحمد بـن محمـد الواسـطي إلى يـارجوج وإلى الوزير، وحمل إليهما الأموال والهدايا.

وكان يارجوج متمكناً في الدولة فسعى في أمره، وأعفاه مـن الشخوص وأطلق ولده وحرمه، واشتدت وطأة ابن طولون وخافه أحمد بن المدبر، فكتب إلى أخيه إبراهيم أن يتلطف له في الانصراف عن مصر فورد الكتاب بتقليده خراج دمشـق وفلسطين والأردن، وصانع ابن طولون بضياعـه الـتي ملكهـا، وسـار إلى عملـه بمصـر وشيعه ابن طولون ورضي عنه وذلك سنة ثمان وخمسـين ومـائتين وولي الوزير على الخراج من قبله، وتقدم لابن طولون باسـتحثاثه، فتتابع حمل الأموال إلى المعتمد.

ثم كتب ابن طولون بأن تكون جبايـة الخـراج لـه فأسـعف بذلك، وأنفذ المعتمد نفيساً الخادم بتقليده خراج مصـر وضريبتهـا، وخراج الشام.

وبعث إليه نفيس الخادم ومعه صـالح بـن أحمـد بـن حنبـل قاضي الثغور، ومحمد بن أحمد الجزوعـي قـاضي واسـط شـاهدين بإعفائه ما زاد على الرسم من المال والطراز.

ومات يارجوج في رمضان سنة تسع وخمسين وكان صاحب مصر، ومن أقطاعه، ويدعى له قبل ابن طولون، فلما مات اسـتقل أحمد بمصر.

فتنة ابن طولون مع الموفق

لما استأمن الزنـج وتغلبوا علـى نواحي البصـرة، وهزمـوا العساكر بعث المعتمد إلى الموفق، وكان المهتدي نفاه إلى مكة، فعهد له المعتمد بعد ابنه المفوض، وقسم ممالك الإسلام بينهمـا، وجعـل الشرق للموفق ودفعه لحـرب الزنـج، وجعـل الغـرب للمفـوض، واستخلف عليه موسى بن بغا، واستكتب موسى بن عبيد الله بـن سليمان بن وهب، وأودع كتاب عهدهما في الكعبة.

وسار الموفق لحرب الزنج، واضطرب الشرق، وقعد الـولاة عن الحمل، وشكا الموفق الحاجة إلى المال.

وكان ابن طولون يبعث الأموال إلى المعتمد يصطنعه بذلك، فأنفذ الموفق نحريراً خادم المتوكل إلى أحمد بن طولون يستحثه لحمل الأموال والطراز والرقيق والخيل، ودس إليه أن يعتقله واطلع على الكتب، وقتل بعض القواد وعاتب آخرين وبعث مع نحريـر ألفـي ألف ومائتي ألف دينار ورقيقاً وطرزاً، وجمع الرسم وبعث معه من أسلمه إلى الثقة أناجور صاحب الشام.

ولما فعل ابن طولون بنحرير ما فعل، كتب الموفق إلى موسى بن بغا بصرف أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها أناجور.

فكتب إلى أناجور بتقليدها فعجز عن مناهضة أحمـد، فسـار موسى بن بغا ليسلم إليـه مصـر، ويبلـغ الرقـة واستحث أحمـد في الأموال، فتهيأ أحمد لحربه، وحصن الجزيرة معقلاً لحربه وذخيرته.

وأقام موسى بالرقة عشـرة أشـهر، واضطـرب عليـه الجند وشغبوا وطالبوه بالأرزاق واختفى كاتبه موسى بن عبيـد اللّـه بـن وهب، فرجع وتوفي سنة أربع وستين ومائتين ثم كتـب الموفـق إلى ابن طولون باستقلال ما حمله من المال، وعنفه وهـدده فأسـاء ابـن طولون جوابه، وأن العمل لجعفر بـن المعتمـد ليس لـك فـأحفظ ذلك الموفق، وسأل من المعتمد أن يولي على الثغـور مـن يحفظهـا، وأن ابن طولون لا يؤمن عليها لقلة اهتمامه بأمرها، فبعـث محمـد بن هارون التغلبي عـامل الموصـل، وركـب السـفن فألقتـه الريـح بشاطئ دجلة، فقتله الخوارج أصحاب مساو الساري.

ولاية أحمد بن طولون على الثغور

وكانت أمهات الثغور يومئذ أنطاكية وطرسـوس والمصيصـة وملطية، وكان على أنطاكية محمد بن علي بن يحيى الأرمني، وعلى طرسوس سيما الطويل وإليه أمر الثغور.

وجاء في بعض أيامه إلى أنطاكية فمنعه الأرمني من الدخـول فدس إلى أهل البلد بقتله فقتلوه، وأحفظ ذلك الموفـق فـولى علـى الثغور أرجون بن أولغ طرخان التركي، وأمره بالقبض على سـيما الطويل فقام بالثغور، وأساء التصرف، وحبس الأرزاق عن أهلها.

وكانت قلعة لؤلؤة من قلاع طرسوس في نحر العدو، وأهـم أهل طرسوس أمرها، فبعثوا إلى حاميتها خمسة آلاف دينار رزقاً من عندهم، فأخذها أرجون لنفسه، وضاعت حاميتها وافترقوا.

وكتب الموفق إلى أحمد بن طولون بتقليد الثغور، وأن يبعث عليها من قبله فبعث من قبله طخشي بن بكروان، وحسنت حالهم وطلب منه ملك الروم الهدنة، واستأذن في ذلك ابن طولون فمنعه، وقال: إنما حملهم على ذلك تخريبكم لقلاعهم وحصونهم فيكون في الصلح راحة لهم فحاش لله منه، وأمره برم الثغور وأرزاق الغزاة.

استيلاء أحمد بن طولون على الشام

قد تقدم لنا ولاية أناجور على دمشق سنة سبع وخمسين ومائتين وما وقع بينه وبين أحمد بن طولون.

ثم توفي أناجور في شعبان سنة أربع وستين ومائتين ونصب ابنه علي مكانه، وقام يدبر أمره أحمد بن بغا وعبيد اللّه بن يحيى بن وهب.

وسار إلى الشام مورياً بمشارفة الثغور، واستخلف ابنه العباس على مصر، وضم إليه أحمد بن محمد الواسطي، وعسكر في مينة الإصبع، وكتب إلى علي بن أناجور بإقامة الميرة للعساكر فأجاب الآمال.

وسار ابن طولون إلى الرملة، وبها محمد بن أبي رافع من قبل أناجور، ومدبر دولته أحمد بن هنالك منذ نفاه المهتدي فأكرمه.

ثم سار عن دمشق، واستخلف عليها أحمد بن دوغباش، ورحل إلى حمص وبها أكبر قواد أناجور فشكت الرعية منه فعزله، وولى يمنا التركي.

ثم سار إلى أنطاكية وقد امتنع بها سيما الطويل بعد أن كتب بالطاعة، وأن ينصرف عنه فأبى وحاصرها وشد حصارها.

وضجر أهلها من سيما فداخل بعضهم أحمد بن طولون ودلوه على بعض المسارب فدخلها منه في فاتحة خمس وستين وقتل سيما الطويل وقبض على أمرائه وكاتبه.

ثم سار إلى طرسوس فملكها، ودخلها في خلق كثير، وشرع في الدخول إلى بلاد الروم للغزو.

وبينما هو يروم ذلك جاءه الخبر بانتقاض ابنه العباس الذي استخلفه بمصر فرجع، وبعث عسكراً إلى الرقة وعسكراً إلى حران، وكانت لمحمد بن أناشر فأخرجوه عنها وهزموه.

وبلغ الخبر إلى أخيه موسى، فسار إلى حران وكان شجاعاً.

وكان مقدم العسكر بحران ابن جيعونه فأهمه أمرهم، فقال له أبو الأغر من العرب: أنا آتيك بموسى واختار عشرين فارساً من الشجعان وسار إلى معسكر موسى فأكمن بعضهم ودخل بالباقين بعض الخيام فعقدت، واهتاج العسكر، وهرب أبو الأغر واتبعوه فخرج عليهم الكمين فهزموهم وأسر موسى، وجاء به أبو الأغر إلى ابن جيعونة قائد ابن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر سنة ست وستين ومائتين.

الخبر عن انتقاض العباس بن أحمد بن طولون على أبيه

لما رحل أحمد بن طولون إلى الشام واستخلف ابنه العباس، وكان أحمد بن الواسطي محكماً في الدولة.

وكان للعباس بطانة يدارسونه الأدب والنحو، وأراد أن يولي بعضهم الوظائف، ولم يكونوا يصلحون لها، فمنع الواسطي من ذلك خشية الخلل في الأعمال، فحمل هؤلاء البطانة عليه عند العباس وأغروه به، وكتب هو إلى أحمد يشكوهم فأجابه بمداراة الأمور إلى حين وصوله.

وكان محمد بن رجاء كاتب أحمد مداخلاً لابنه العباس فكان يبعث إليه بكتب الواسطي يتنزل له، فاطلع على جواب أبيه عن كتبه بالمداراة، فازداد خوفاً وحمل ما كان هنالك من المال والسلاح، وهو ألف ألف دينار.

وتسلف من التجار مائتي ألف أخرى، واحتمل أحمد بن محمد الواسطي وأيمن الأسود مقيدين، وسار إلى برقة.

ورجع أحمد إلى مصر وبعث له جماعة فيهم القاضي أبو بكرة بكار بن قتيبة والصابوني القاضي وزياد المري مولى أشهب، فتلطفوا به بالموعظة حتى لان، ثم منعه بطانته وخوفوه فقال لبكار: ناشدتك اللّه هل تأمنه علي؟ فقال: هو قد حلف، وأنا لا أعلم فمضى على ريبته.

ورجع القوم إلى أبيه وسار هو إلى إفريقية يطلب ملكها، وسهل عليه أصحابه أمر إبراهيم بن أحمد بن الأغلب صاحبها، وكتب إليه بأن المعتمد قلده إفريقية، وأنه أقره عليها.

وانتهى إلى المدينة لبلة، فخرج عليه عامل ابن الأغلب فقبض عليه، ونهب البلد وقتل أهله، وفضح نساءهم فاستغاثوا بالياس بن منصور كبير نفوسة ورئيس الأباضية، وقد كان خاطبه يتهدده على الطاعة.

وبلغ الخبر إلى ابن الأغلب فبعث العساكر مع خادمه بلاغ، وكتب إلى محمد بن قهرب عامل طرابلس بأن يظاهر معه على

قتال العباس فسار ابن قهرب وناوشه القتال من غير مسارعة.

ثم صحبهم الياس في اثني عشر ألفاً من قومه.

وجاء بلاغ الخادم من خلفه فأجفل، واستبيح أمواله وذخائره، وقتل أكثر من كان معه، وأفلت بحاشيته، وانطلق أيمن الأسود من القيد ورجع إلى مصر.

وجاء العباس إلى برقة مهزوماً وكان قد أطلق أحمد الواسطي بعد أن ضمن حزب برقة إحضاره، فلما رجع أعاده إلى محبسه فهرب من الحبس، ولحق بالفسطاط ووجد أحمد بن طولون قد سار إلى الإسكندرية عازماً على الرحيل إلى برقة، فهون أمره، ومنعه من الرحيل بنفسه، وخرج طبارجي وأحمد الواسطي فجاؤوا به مقيداً على بغل، وذلك سنة سبع وستين ومائتين وقبض على كاتبه محمد بن رجاء وحبسه لما كان يطلع ابنه العباس على كتبه، ثم ضرب ابنه وهو باك عليه وحبسه.

خروج الصوفي والعمري بمصر

كان أبو عبد الرحمن العمري بمصر، وهو عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، مقيماً بالقاصية من الصعيد، وكان البجاة يغيرون في تلك الأعمال ويعيثون فيها.

وجاؤوا يوم عيد فنهبوا وقتلوا، فخرج هذا العمري غضباً لله، وأكمن لهم في طريقهم ففتك بهم، وسار في بلادهم حتى أعطوه الجزية، واشتدت شوكته.

وزحف العلوي للقائه فهزمه العمري، وذلك سنة ستين ومائتين.

وكان من خبر هذا العلوي أنه ظهر بالصعيد سنة سبع وخمسين ومائتين وذكر أن اسمه إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، ويعرف بالصوفي، فملك مدينة أسنا ونهبها، وعاث في تلك الناحية.

وبعث إليه ابن طولون جيشاً فهزمهم، وأسر مقدم الجيش فقطعه فأعاد إليه جيشاً آخر، وانهزم إلى الواحات.

ثم عاد إلى الصعيد سنة تسع وخمسين ومائتين وسار إلى الأشمونين.

ثم سار للقاء العمري وانهزم إلى أسوان، وعاث في جهاتها.

وبعث إليه ابن طولون العسكر فهرب إلى عيذاب، وعبر البحر إلى مكة فقبض عليه الوالي بمكة، وبعث به إلى ابن طولون فحبسه مدة، ثم أطلقه ومات بالمدينة.

ثم بعث ابن طولون العسكر إلى العمري فلقي قائدهم وقال: إني لم أخرج بالفساد ولا يؤذى مسلم ولا ذمي وإنما خرجت للجهاد فشاور أميرك فيَّ فأبى، وناجزه الحرب فانهزم العسكر، ورجعوا إلى ابن طولون فأخبروه بشأنه فقال: هلا كنتم شاورتموني فيه؟ فقد نصره الله عليكم ببغيكم.

ثم وثب عليه بعد مدة غلامان له فقتلاه وجاءا برأسه إلى أحمد بن طولون فقتلهما.

انتفاض برقة

وفي سنة إحدى وستين ومائتين وثب أهل برقة بعاملهم محمد بن فرج الفرغاني فأخرجوه، ونقضوا طاعة ابن طولون فبعث إليهم العساكر مع غلامه لؤلؤ، وأمره بالملاينة فحاصرهم أياماً وهو يلين لهم حتى طمعوا فيه، ونالوا من عسكره فبعث إلى أحمد بخبره فأمره بالاشتداد فشد حصارهم، ونصب عليهم المجانيق فاستأمنوا، ودخل البلد وقبض على جماعة من أعيانهم فضربهم وقطعهم، ورجع إلى مصر واستعمل عليهم مولى من مواليه، وذلك قبل خلاف العباس على أبيه.

انتقاض لؤلؤ على ابن طولون

كان ابن طولون قد ولى مولاه لؤلؤاً على حلب وحمص وقنسرين وديار مضر من الجزيرة، وأنزله الرقة، وكان يتصرف عن أمره.

ومتى وقع في مخالفته عاقب ابن سليمان كاتب لؤلؤ فسقط لؤلؤ في المال، وقطع الحمل عن أحمد بن طولون.

وخاف الكاتب مغبة ذلك، فحمل لؤلؤاً على الخلاف، وأرسل إلى الموفق بعد أن شرط على المعتمد شروطاً أجابه الموفق إليها، وسار إلى الرقة وبها ابن صفوان العقيلي، فحاربه وملكها منه وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق.

وسار إلى الموفق فوصل إليه بمكانه من حصار صاحب الزنج وأقبل عليه، واستعان به في تلك الحروب، وولاه على الموصل.

ثم قبض عليه سنة ثلاث وسبعين ومائتين وصادره على أربعمائة ألف دينار فافتقر وعاد إلى مصر آخر أيام هارون بن خمارويه فقيراً فريداً.

مسير المعتمد إلى ابن طولون وعوده عنه من الشام

كان ابن طولون يداخل المعتمد في السر ويكاتبه، ويشكو إليه المعتمد ما هو فيه من الحجر والتضييق عليه من أخيه الموفق، والموفق بسبب ذلك ينافر ابن طولون ويسعى في إزالته عن مصر.

ولما وقع خلاف إلى لؤلؤ على ابن طولون خاطب المعتمد وخوفه الموفق واستدعاه إلى مصر، وأن الجيوش عنده لقتال الفرنج.

فأجابه المعتمد إلى ذلك، وأراد لقاءه بجميع عساكره فمنعه أهل الرأي من أصحابه، وأشاروا عليه بالعدول عن المعتمد جملة، وأن أمره يؤول معه إلى أكثر من أمر الموفق، من أجل بطانته التي يؤثرها على كل أحد.

واتصلت الأخبار بأن الموفق شارف القبض على صاحب الزنج، فبعث ابن طولون بعض عساكره إلى الرقة لانتظار المعتمد، واغتنم المعتمد غيبة الموفق وسار في جمادى، سنة ثمان وستين ومائتين ومعه جماعة من قواده الذين معه فقبض عليهم وقيدهم.

وقد كان ساعد بن مخلد وزير الموفق خاطبه في ذلك عن الموفق فأظهر طاعتهم حين صاروا إلى عمله، وسار معهم إلى أول عمل أحمد بن طولون فلم يرحل معهم حين رحلوا.

ثم جلس معهم بين يدي المعتمد وعذلهم في المسير إلى ابن طولون ودخلوهم تحت حكمه وحجره.

ثم قام بهم عند المعتمد ليناظرهم في خلوة فلما دخلوا خيمته قبض عليهم.

ثم رجع إلى المعتمد فعذله في الخروج عن دار خلافته، وفراق أخيه وهو في قتال عدوه، ثم رجع بالمعتمد والذين معه حتى أدخلهم سر من رأى.

وبلغ الخبر إلى ابن طولون فقطع خطبة الموفق ومحا اسمه من الطرز، فتقدم الموفق إلى المعتمد بلعن ابن طولون في دار العامة، فأمر بلعنه على المنابر وعزله عن مصر وفوض إليه من باب الشاتية إلى إفريقية، وبعث إلى مكة بلعنه في المواسم فوقعت بين أصحاب ابن طولون وعامل مكة حرب، ووصل عسكر الموفق مع جعفر الباعردي، فانهزم فيها أصحاب ابن طولون وسلبوا وأمر جعفر المصريين وقرأوا الكتاب في المسجد بلعن ابن طولون.

اضطراب الثغور ووصول أحمد بن طولون إليها ووفاته

كان عامل أحمد بن طولون على الثغور طلخشي بن بلذدان، واسمه خلف، وكان نازلا بطرسوس.

وكان مازيار، الخادم مولى فتح بن خاقان معه بطرسوس وارتاب به طلخشي فحبسه فوثب جماعة من أهل طرسوس، واستقدموا مازيار من يده وولوه.

وهرب خلف وتركوا الدعاء لابن طولون فسار ابن طولون من مصر وانتهى إلى أذنة، وكاتب مازيار واستماله فامتنع، واعتصم بطرسوس فرجع ابن طولون إلى حمص ثم إلى دمشق فأقام بها.

ثم رجع وحاصره في فصل الشتاء بعد أن بعث إليه يدعوه وانساح على معسكر أحمد وخيمه، وكادوا يهلكون، فتأخر ابن طولون إلى أذنة، وخرج أهل طرسوس فنهبوا العسكر، وطال مقام أحمد بأذنة في طلب البرد.

ثم ثار إلى المصيصة فأقام بها ومرض هناك.

ثم تماسك إلى أنطاكية فاشتد وجعه ونهاه الطبيب عن كثرة الغذاء فتناوله سراً، فكثر عليه الاختلاف، لأن أصل علته هيضة من لبن الجواميس.

وثقل عليه الركوب فحملوه على العجلة فبلغ الفرما، وركب من ساحل الفسطاط إلى داره، وحضره طبيبه فسهل عليه الأمر وأشار بالحمية فلم يداوم عليها وكثر الإسهال وحميت كبده من سوء الفكر فساءت أفعاله.

وضرب بكار بن قتيبة القاضي، وأقامه للناس في الميدان، وخرق سواده وأوقع بابن هرثمة وأخذ ماله وحبسه، وقتل سعيد بن نوفل مضروباً بالسياط.

ثم جمع أولياءه وغلمانه وعهد إلى ابنه أبي الجيش خمارويه.

وأوصاهم بإنظاره وحسن النظر فسكنوا إلى ذلك لخوفهم من ابنه أبي العباس المعتقل.

ثم مات سنة ست وسبعين ومائتين لست وعشرين سنة من إمارته، وكان حازماً سائساً وبنى جامعه بمصر وأنفق فيه مائة وعشرين ألف دينار، وبنى قلعة يافا، وكان يميل إلى مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه.

وخلف من المال عشرة آلاف إلى ألف دينار، ومن الموالي

سبعة آلاف، ومن الغلمان أربعة آلاف، ومن الخيل المرتبطة مائة، ومن الدواب لركابه مائتين وثلاثين.

وكان خراج مصر لأيامه مع ما ينضاف إليها من ضياع الأمراء لحضرة السلطان أربعة آلاف إلى ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار، وعلى المارستان وأوقافه ستين ألف دينار، وعلى حصن الجزيرة والجزيرة وهي المسماة لهذا العهد بقلعة الروضة ثمانين ألف دينار، وخربت بعد موته وجددها الصالح نجم الدين بن أيوب.

ثم خربت ثانية، ولم يبق منها إلا أطلال داثرة، وكان يتصدق في كل شهر بألف دينار، ويجري على المسجونين خمسمائة دينار في كل شهر، وكانت نفقة مطابخه وعلوفته ألف دينار في كل يوم.

ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون

ولما توفي أحمد بن طولون اجتمع أهل الدولة وخواص الأولياء وكبيرهم أحمد بن محمد الواسطي والغالب على الدولة الحسن بن مهاجر، فاتفقوا على بيعة ابنه أبي الجيش خمارويه، وأحضروا ابنه العباس من محبسه وعزاه الواسطي وهم يبكون.

ثم قال: بايع لأخيك فأبى، فقام طبارجي وسعد الأيس من الموالي، وسحبوه إلى حجرة في القصر فاعتقلوه بها، وأخرج من الغد ميتاً، وأخرجوا أحمد إلى مدفنه وصلى عليه ابنه أبو الجيش، وواراه ورجع إلى القصر مقيماً لأمر سلطانه.

مسير خمارويه إلى الشام وواقعته مع ابن الموفق

ولما توفي أحمد بن طولون كان إسحاق بن كنداج عاملاً على الجزيرة والموصل، وابن أبي الساج على الكوفة، وقد ملك الرحبة من يد أحمد بن مالك فطمعا في ملك الشام، واستأذنا الموفق فأذن لهما ووعدهما بالمدد.

وسار إسحاق إلى الرقة والثغور والعواصم فملكها من يد ابن دعاس عامل ابن طولون.

واستولى إسحاق على حمص وحلب وأنطاكية، ثم على دمشق.

وبعث خمارويه العساكر إلى الشام فملكوا دمشق وهرب العامل الذي انتقض بها.

ثم سار العسكر إلى شيزر فأقام عليها قبالة إسحاق وابن أبي الساج، وهما ينتظران المدد من العراق.

ثم هجم الشتاء فتفرق عسكر خمارويه في دور شيزر ووصل العسكر من العراق مع أبي العباس أحمد بن الموفق الذي صارت إليه الخلافة ولقب المعتضد فكبسوا عسكر خمارويه في دور شيزر وفتكوا فيهم.

ونجا الفل إلى دمشق والمعتضد في اتباعهم فارتحلوا عنها، وملكها المعتضد في شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين.

ولحق عسكر خمارويه بالرملة فأقاموا بها وكتبوا إلى خمارويه بالخبر، وسار المعتضد نحوهم من دمشق، وبلغه وصول خمارويه وكثرة عساكره، فهم بالعود ومعه أصحاب خمارويه الذين خالفوا عليه، ولحقوا به وكان ابن كنداج وابن أبي الساج متوحشين من المعتضد لسوء معاملته لهما.

والتقى العسكران على الماء الذي عليه الطواحين بالرملة، فولى خمارويه منهزماً مع عصابة معه ليس لهم دربة بالحرب، ومضى إلى مصر بعد أن أكمن مولاه سعداً الأيس في عسكر.

وجاء المعتضد فملك خيام خمارويه وسواده وهو يظن الظفر، فخرج سعد الأيس من كمينه وقصد الخيام وظن المعتضد أن خمارويه قد رجع فركب وانهزم لا يلوي على شيء.

وجاء إلى دمشق فمنعوه الدخول فمضى إلى طرسوس، ولما افتقد سعد الأيس خمارويه نصب أخاه أبا العشائر لقيادة العساكر، ووضع العطاء، ووصلت البشائر إلى مصر فسر خمارويه بالظفر، وخجل من الهزيمة، وأكثر الصدقة وأكرم الأسرى وأطلقهم.

وسارت عساكره إلى الشام فارتجعوه كله من أصحابه فأخرجوهم، ولحقوا بالعراق وغزا بالصائفة هذه السنة مازيار صاحب الثغر، وغنم وعاد، ثم غزا كذلك سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

فتنة ابن كنداج وابن أبي الساج والخطبة لابن طولون بالجزيرة

كان ابن أبي الساج عاملاً على قنسرين وإسحاق على الجزيرة والموصل فتنافسوا في الأعمال واستظهر ابن أبي الساج بخمارويه، وخطب له بأعماله، وبعث ابنه رهينة إليه، فسار في عساكره بعد أن بعث إليه الأموال وانتهى إلى السن، وعبر ابن أبي

الساج الفرات ولقي إسحاق بن كنداج على الرقة فهزمه، وجاز خمارويه من بعده فعبر الفرات إلى الرافقية، ونجا إسحاق إلى ماردين، وحصره ابن أبي الساج.

ثم خرج وسار إلى الموصل فصده ابن أبي الساج عنها، وهزمه فعاد إلى ماردين.

واستولى ابن أبي الساج على الجزيرة والموصل، وخطب في أعمالها لخمارويه، ثم لنفسه بعده.

وبعث العساكر مع غلامه فتح لجباية نواحي الموصل فأوقع بالشراة اليعقوبية ومكر بهم.

وعلم أصحابهم بما فعل معهم فجاؤوا إليه، وهزموه واستلحموا أصحابه، ونجا ابن أبي الساج في فل قليل.

ثم انتقض ابن أبي الساج على خمارويه سنة خمس وسبعين ومائتين وذلك أن إسحاق بن كنداج سار إلى خمارويه بمصر وصار في جملته فانتقض ابن أبي الساج.

وسار خمارويه إليه فلقيه على دمشق في المحرم فانهزم ابن أبي الساج، واستبيح معسكره وكان وضع بحمص خزائنه، فبعث خمارويه عسكراً إلى حمص فمنعوه من دخولها، واستولوا على خزائنه.

ومضى ابن أبي الساج إلى حلب، ثم إلى الرقة وخمارويه في اتباعه.

ثم فارق الرقة إلى الموصل، وعبر خمارويه الفرات واحتل مدينة بلد، وأقام بها، وسار ابن أبي الساج إلى الحديثة.

وبعث خمارويه عساكره وقواده مع إسحاق بن كنداج في طلب ابن أبي الساج فعبر دجلة، وأقام بتكريت وإسحاق في عشرين ألفاً، وابن أبي الساج في ألفين، وأقاموا يترامون في العدوتين.

ثم جمع ابن كنداج السفن ليمد الجسر للعبور، فخالفهم ابن أبي الساج إلى الموصل ونزل بظاهرها فرحلوا في اتباعه فسار لقتالهم فانهزم إسحاق إلى الرقة وتبعه ابن أبي الساج.

وكتب إلى الموفق يستأذنه في عبور الفرات إلى الشام وأعمال خماويه فأجابه بالتربص وانتظار المدد.

ولما انهزم إسحاق سار إلى خمارويه وبعث معه العسكر، ورجع فنزل على حد الفرات من أرض الشام، وابن أبي الساج قبالته على حدود الرقة، فعبرت طائفة من عسكر ابن كنداج لم يشعروا بهم، وأوقعوا بجمع من عسكر ابن أبي الساج، فلما رأى أن لا مانع لهم من العبور سار إلى الرقة إلى بغداد، وقدم على الموفق سنة ست وسبعين فأقام عنده إلى أن ولاه أذربيجان في سنته واستولى ابن كنداج على ديار ربيعة وديار مضر، وأقام الخطبة فيها لخمارويه.

عود طرسوس إلى ايالة خمارويه

قد كنا قدمنا أن مازيار الخادم ثار بطرسوس سنة سبعين ومائتين وحاصره أحمد بن طولون فامتنع عليه، فلما ولي خمارويه وفرغ من شواغله، أنفذ إلى مازيار سنة سبع وسبعين ومائتين ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف، واصطنعه فرجع إلى طاعته وخطب له بالثغور.

ثم دخل بالطائفة سنة ثمان وسبعين ومائتين وحاصروا أسكند فأصابه منها حجر منجنيق رثه، ورجع إلى طرسوس فمات بها.

وقام بأمر طرسوس ابن عجيف، وكتب إلى خمارويه فأقره على ولايتها، ثم عزله واستعمل مكانه محمد ابن عمه موسى بن طولون، وكان من خبره أن أباه موسى لما ملك أحمد أخوه مصر تبسط عليه بدلالة القرابة وذوي الأرحام، فلم يحتمله له أحمد ورده عليه، وكسر جاهه فانحرف موسى وسخط دولته.

ثم خاطبه في بعض مجالسه بما لا يحتمله السلطان فضربه ونفاه إلى طرسوس، وبعث إليه بمال يتزوده فأبى من قبوله، وسار إلى العراق، ورجع إلى طرسوس فأقام بها إلى أن مات وترك ابنه محمداً.

وولاه خمارويه وبعث إلى أميرهم راغب فأكرمه خمارويه وأنس به، وطالت إقامته عنده وشاع بطرسوس أن خمارويه حبسه فاستعظم الناس ذلك، وثاروا بأميرهم محمد بن موسى وسجنوه رهينة في راغب.

وبلغ الخبر إلى خمارويه فسرحه إلى طرسوس، فلما وصلها أطلقوا أميرهم محمد بن موسى، وقد سخطهم، فسار عنهم إلى بيت المقدس.

وعاد ابن عجيف إلى ولايته بدعوة خمارويه.

وغزا سنة ثمانين ومائتين بالطائفة ودخل معه بدر الحمامي فظفروا وغنموا ورجعوا.

ثم دخل بالطائفة سنة إحدى وثمانين ومائتين من طرسوس طغج بن جف الفرغاني من قبل خمارويه في عساكره طرابزون

وفتح مكودية.

صهر المعتضد مع خمارويه

ولما ولي المعتضد الخلافة بعث إلى خمارويه خاطباً قطر الندى ابنته، وكانت أكمل نساء عصرها في الجمال والآداب.

وكان متولي خطبتها أمينه الخصي ابن عبد الله ابن الجصاص، فزوجه خمارويه بها، وبعثها مع ابن الجصاص، وبعث معها من الهدايا ما لا يوصف.

وقدمت سنة تسع وسبعين ومائتين فدخل بها، وتمتع بجمالها وآدابها، وتمكن سلطانه في مصر والشام والجزيرة إلى أن هلك.

مقتل خمارويه وولاية ابنه جيش

كان خمارويه قد سار سنة اثنتين وثمانين ومائتين إلى دمشق فأقام بها أياماً، وسعى إليه بعض أهل بيته بأن جواريه يتخذون الخصيان يفترشوهن، وأراد استعلام ذلك من بعضهن، فكتب إلى نائبه بمصر أن يقرر بعضهن، فلما وصله الكتاب قرر بعض الجواري وضربهن.

وخاف الخصيان ورجع خمارويه من الشام، وبات في مخدعه فأتاه بعضهم وذبحه على فراشه في ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين.

وهرب الذين تولوا ذلك، فاجتمع القواد صبيحة ذلك اليوم، وأجلسوا ابنه جيش بن خمارويه على كرسي سلطانه، وأفيض العطاء فيهم، وسيق الخدم الذين تولوا قتل خمارويه فقتل منهم نيف وعشرون.

مقتل جيش بن خمارويه وولاية أخيه هارون

ولما ولي جيش كان صبياً غراً فعكف على لذاته وقرب الأحداث والسفلة، وتنكر لكبار الدولة، وبسط فيهم القول، وصرح لهم بالوعيد، فأجمعوا على خلعه.

وكان طغج بن جف مولى أبيه من كبار الدولة، وكان عاملا لهم على دمشق فانتقض وخلع طاعته.

وسار آخرون من القواد إلى بغداد، منهم إسحاق بن كنداج وخاقان المفلجي، وبدر بن جف أبو طغج، وقدموا على المعتضد فخلع عليهم، وأقام سائر القواد بمصر على انتقاضهم وقتل قائداً منهم.

ثم وثبوا بجيش فقتلوه ونهبوا داره، ونهبوا مصر وحرقوه، وبايعوا لأخيه هارون وذلك لتسعة أشهر من ولايته.

فتنة طرسوس وانتقاضها

قد تقدم لنا أن راغباً مولى الموفق نزل طرسوس للجهاد فأقام بها، ثم غلب عليها بعد ابن عجيف.

ولما ولي هارون بن خمارويه سنة ثلاث وثمانين ومائتين ترك الدعاء له، ودعا لبدر مولى المعتضد، وقطع طرسوس والثغور من عمالة بني طولون.

ثم بعث هارون بن خمارويه إلى المعتضد أن يقاطعه على أعماله بمصر والشام بأربعمائة ألف وخمسين ألف دينار، ويسلم قنسرين والعواصم، وهي الثغور للمعتضد فأجابه إلى ذلك.

وسار من آمد وكان قد ملكها من يد محمد بن أحمد بن الشيخ، فاستخلف ابنه المكتفي عليها، وسار سنة ست وثمانين ومائتين فتسلم قنسرين والثغور من يد أصحاب هارون وجعلها مع الجزيرة في ولاية ابنه المكتفي.

ولاية طغج بن جف على دمشق

ولما ولي هارون بعد أخيه جيش على ما ولي عليه من اختلاف القواد وقوة أيديهم، خشي أهل الدولة من افتراق الكلمة ففوضوا أمرها إلى أبي جعفر بن إبان.

كان مقدماً عند أحمد وخمارويه فأصلح ما استطاع، وبقي يرتق الفتق ويجبر الصدع، ثم نظر إلى الجند الذين كانوا خالفوا بدمشق مع طغج بن جف فبعث إليهم بدراً الحمامي والحسين بن أحمد الماذراني فأصلحا مورد الشام وأفرد طغج بن جف بولاية دمشق، واستعملا في سائر الأعمال، ورجعا إلى مصر والأمور مضطربة والقواد طوائف لا ينقاد منهم أحد إلى أحد إلى أن وقع ما نذكر.

زحف القرامطة إلى دمشق

قد تقدم لنا ابتداء أمر القرامطة وما كان منهم بالعراق والشام، وأن ذكرويه بن مهداويه داعية القرامطة لما هزم بسواد الكوفة وأفنى أصحابه القتل، لحق ببني القليص بن كلب بن وبرة في السماوة فبايعوه، ولقبوه الشيخ وسموه يحيى، وكنوه أبا القاسم.

وزعم أنه محمد بن عبد الله بن المكتوم بن إسماعيل الإمام فلقبوه المدثر، وزعم أنه المشار إليه في القرآن، ولقب غلاماً من أهله المطوق.

وسار من حمص إلى حماة ومعرة النعمان إلى بعلبك، ثم إلى سلمية فقتل جميع من فيها حتى النساء والصبيان والبهائم، ونهب سائر القرى من كل النواحي.

وعجز طغج بن جف وسائر جيشه وصاحبه هارون عن دفاعهم.

وتوجه أهل الشام ومصر إلى المكتفي مستغيثين، فسار إلى أهل الشام سنة تسعين ومائتين ومر بالموصل، وقدم بين يديه أبا الأغر من بني حمدان في عشرة آلاف رجل، ونزل قريباً من حلب وكبسه القرمطي صاحب الشامة فقتل منهم جماعة ونجا أبو الأغر إلى حلب في فل من أصحابه، وحاصره القرمطي، ثم أفرج عنه، وانتهى المكتفي إلى الرقة.

وبعث محمد بن سليمان الكاتب في العساكر، ومعه الحسين من بني حمدان وبنو شيبان، فناهضه في المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين على حماة، وانهزم القرامطة، وأخذ صاحب الشامة أسيراً فبعث به إلى الرقة وبين يديه المدثر والمطوق، وتقدم المكتفي إلى بغداد ولحقه محمد بن سليمان بهم، فأمر المكتفي بضربهم وقطعهم، وضرب أعناقهم وحسم دائهم، حتى ظهر منهم من ظهر بالبحرين.

استيلاء المكتفي على الشام ومصر وقتل هارون وشيبان ابني خمارويه وانقراض دولة بني طولون

ونبدأ أولاً بخبر محمد بن سليمان المتولي بتحويل دولة بني طولون، كان أصله من ديار مضر من الرقة اصطنعه أحمد بن طولون وخدمه في مصر، ثم تنكر له وعامله في جاهه وأقاربه بما أحفظه، وخشي على نفسه فلحق ببغداد، ولقي بها مبرة وتكرمة.

واستخدمه الخلفاء وجعلوه كاتباً للجيش، فما زال يغريهم بملك مصر إلى أن ولي هارون بن خمارويه، وفشلت دولة بني طولون بالشام، وعاث القرامطة في نواحيه وعجز هارون عن مدافعتهم، ووصل صريخ أهل الشام إلى المكتفي فقام لدفع ضررهم عن المسلمين، ودفع محمد بن سليمان لذلك، وهو يومئذ من أعظم قواده، فسار في العساكر في مقدمته.

ثم أمره المكتفي باتباع القرامطة، وأقام بالرقة فسار حتى لقيهم وقاتلهم حتى هزمهم واستلحمهم، ودفع عن الشام ضررهم، ورجع بالقرمطي صاحب الشامة وأصحابه أسرى إلى المكتفي بالرقة فرجع إلى بغداد، وقتلهم هنالك وشفى نفسه ونفس المسلمين منهم.

وكان محمد بن سليمان لما تخلف عن المكتفي عند وصوله إلى بغداد فأمره بالعود، وبعث معه جماعة من القواد، وأمده بالأموال، وبعث دميانة غلام مازيار في الأسطول، وأمره بالمسير إلى سواحل مصر، ودخول نهر النيل، والقطع عن أهل مصر ففعل وضيق عليهم.

وسار محمد بن سليمان والعساكر واستولى على الشام وما وراءه، فلما قارب مصر كاتب القواد يستميلهم، فجاء إليه بدر الحمامي وكان رئيسهم فكسر ذلك من شوكتهم.

وتتابع إليه القواد مستأمنين، فبرز هارون لقتالهم فيمن معه من العساكر، وأقام قبالتهم واضطرب عسكره في بعض الأيام من فتنة وقعت بينهم.

واقتتلوا فركب هارون ليسكنهم فأصابته حربة من بعض المغاربة كان فيها حتفه، فقام عمه شيبان بن أحمد بن طولون بعده بالأمر، وبذل الأموال للجند من غير حسبان ولا تقدير، ثم أباح نهب ما بقي منه يصطنعهم بذلك، فنهبوه في ساعة واحدة، وتشوف إلى جمع المال فعجز عنه واضطرب، وفسد تدبيره، وتسايل إلى محمد بن سليمان جنده، وفاوض أعيان دولته في أمره، فاتفقوا على الاستئمان إلى محمد بن سليمان، فبعث إليه مستأمناً فسار إليه ثم تبعه قواده وأصحابه، فركب محمد إلى مصر واستولى عليها، وقيد بني طولون وحبسهم، وكانوا سبعة عشر رجلاً وكتب بالفتح فأمره المكتفي بإشخاص بني طولون جميعاً من مصر والشام إلى بغداد، فبعث بهم.

ثم أمر بإحراق القطائع التي بناها أحمد بن طولون على شرقي مصر، وكانت ميلاً في ميل فأحرقت ونهب الفسطاط.

ولاية عيسى النوشزي على مصر وثورة الخليجي

ولما اعتزم محمد بن سليمان على الرجوع إلى بغداد وكان المكتفي قد ولاه على مصر، فولى المكتفي عيسى بن محمد النوشزي، وقدم في منتصف سنة اثنتين وتسعين ومائتين ثم ثار

بنواحي مصر إبراهيم الخليجي، وكان من قواد بني طولون، وتخلف عن محمد بن سليمان.

وكتب إلى المكتفي عيسى النوشزي بالخبر وكثرت جموع الخليجي، وزحف إلى مصر، فخرج النوشزي هارباً إلى الإسكندرية وملك الخليجي مصر، وبعث المكتفي العساكر مع فاتك مولى أبيه المعتضد وبدر الحمامي، وعلى مقدمتهم أحمد بن كيغلغ في جماعة من القواد، ولقيهم الخليجي على العريش في صفر سنة ثلاث وتسعين ومائتين فهزمهم.

ثم تراجعوا وزحفوا إليه وكانت بينهم حروب فني فيها أكثر أصحاب الخليجي وانهزم الباقون، فظفر عسكر بغداد، ونجا الخليجي إلى الفسطاط واختفى به، ودخل قواد المكتفي المدينة وأخذوا الخليجي وحبسوه.

وكان المكتفي عندما بلغته هزيمة ابن كيغلغ، وسار ابن كيغلغ في ربيع وبرز المكتفي من ورائهم يسير إلى مصر، فجاءه كتاب فاتك بالخبر وبحبس الخليجي، فكتب المكتفي بحمله ومن معه إلى بغداد، وبرز من تكريت فبعث فاتك بهم، وحبسوا ببغداد.

ورجع عيسى النوشزي إلى مصر في منتصف ثلاث وتسعين ومائتين فلم يزل والياً عليها إلى أن توفي في شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين لخمس سنين من ولايته وشهرين، وقام بأمره ابنه محمد، وولى المقتدر على مصر أبا منصور تكين الخزري، فقدمها آخر شوال من سنة سبع وتسعين ومائتين، وقام والياً عليها، واستفحلت دولة العلويين بالمغرب.

وجهز عبيد اللّه المهدي العساكر مع ابنه أبي القاسم سنة إحدى وثلاثمائة، فملك برقة في ذي الحجة آخرها.

ثم سار إلى مصر وملك الإسكندرية والفيوم، وبلغ الخبر إلى المقتدر، فقلد ابنه أبا العباس مصر والمغرب وعمره يومئذ أربع سنين، وهو الذي ولي الخلافة بعد ذلك ولُقِّب الراضي.

ولما قلده مصر استخلف له عليها مؤنساً الخادم، وبعثه في العساكر إلى بصر وحاربهم فهزمهم.

ورجعوا إلى المغرب فأعاد عبيد اللّه العساكر سنة اثنتين مع قائده حامسة الكتامي.

وجاء في الأسطول فملك الإسكندرية، وسار منها إلى مصر، وجاءه مؤنس الخادم في العساكر فقاتله وهزمه.

ثم كانت بينهم وقعات، وانهزم أصحاب المهدي آخراً في منتصف اثنتين وثلاثمائة وقتل منهم نحواً من سبعة آلاف، ورجعوا إلى المغرب فقتل المهدي حامسة وعاد مؤنس إلى بغداد.

ولاية ذكاء الأعور

لم يزل تكين الخزري والياً على مصر استخلافاً إلى أن صرف آخر اثنتين وثلاثمائة، فولى المقتدر مكانه أبا الحسن ذكاء الأعور، وقدم منتصف صفر من سنة ثلاث فلم يزل والياً عليها إلى أن توفي سنة سبع وثلاثمائة لأربع سنين من ولايته.

ولاية تكين الخزري ثانية

لما صرف المقتدر ذكاء، ولى مكانه أبا منصور تكين الخزري ولاية ثانية، فقدم في شعبان سنة سبع وثلاثمائة وكان عبيد اللّه المهدي قد جهز العساكر مع ابنه أبي القاسم، ووصل إلى الإسكندرية في ربيع من سنة سبع وثلاثمائة وملكها.

ثم سار إلى مصر وملك الجزيرة والأشمونين من الصعيد وما إليه، وكتب أهل مكة بطاعته، وبعث المقتدر من بغداد مؤنساً الخادم في العساكر فواقع أبا القاسم عدة وقعات، وجاء الأسطول من إفريقية إلى الإسكندرية في ثمانين مركباً مدداً لأبي القاسم، وعليه سليمان بن الخادم، ويعقوب الكتامي، فسار إليهم في أسطول طرسوس في خمسة وعشرين مركباً، وفيها النفط والمدد، وعليها أبو اليمن، فالتقت العساكر في الأساطيل في مرسى رشيد، فظفر أسطول طرسوس بأسطول إفريقية وأسر كثير منهم.

وقتل بعضهم وأطلق البعض، وأسر سليمان الخادم فهلك في محبسه بمصر، وأسر يعقوب الكتامي وحمل إلى بغداد فهرب منها إلى إفريقية، واتصل الحرب بين أبي القاسم ومؤنس، وكان الظفر لمؤنس، ووقع الغلاء والوباء في عسكر أبي القاسم ففني كثير منهم بالموت.

ووقع الموتان في الخيل فعاد العسكر إلى المغرب، واتبعهم عساكر مصر حتى أبعدوا فرجعوا عنهم، ووصل أبو القاسم إلى القيروان منتصف السنة.

ورجع مؤنس إلى بغداد وقدم تكين إلى مصر كما مر، ولم يزل والياً عليها إلى أن صرف في ربيع من سنة تسع وثلاثمائة.

ولاية أحمد بن كيغلغ

ولاه المقتدر بعد هلال بن بدر، فقدم في جمادى وصرف

لخمسة أشهر من ولايته.

وأعيد تكين المرة الثالثة، فقدم في عاشوراء سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة، وأقام والياً عليها تسع سنين إلى أن توفي في منتصف ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

وفي أيامه جدد المقتدر عهده لابنه أبي العباس على بلاد المغرب ومصر والشام، واستخلف له مؤنساً، وذلك سنة ثمان عشرة وثلاثمائة.

وقال ابن الأثير: وفي سنة إحدى وعشرين توفي تكين الخزري بمصر فولي عليها مكانه ابنه محمد، وبعث له القاهر بالخلع وثار به الجند فظفر بهم انتهى.

ولاية أحمد بن كيغلغ الثانية

ولاه القاهر في شوال سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بعد أن كان ولى محمد بن طغج، وهو عامل دمشق وصرفه لشهر من ولايته قبل أن يتسلم العمل، ورده إلى أحمد بن كيغلغ كما قلناه، فقدم مصر في رجب سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ثم عزل آخر رمضان من سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وولي الراضي الخليفة بأن يدعى على المنبر باسمه ويزاد في ألقابه الإخشيد فقام بولاية مصر أحسن قيام ثم انتزع الشام من يده كما يذكر.

استيلاء ابن رائق على الشام من يد الأخشيد

كان محمد بن رائق أمير الأمراء ببغداد وقد مر ذكره، ثم نازعه مولاه تحكم وولى مكانه سنة ست وعشرين وثلاثمائة وهرب ابن رائق ثم استتر ببغداد، واستولى عليها، ورجع الخليفة من تكريت بعد أن كان قدم تحكم، ثم كتب إليه واسترده، وقد عقد الصلح مع ناصر الدولة بن حمدان من قبل أن يسمع بخبر ابن رائق.

ثم عادوا جميعاً إلى بغداد، وراسلهم ابن رائق مع أبي جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد في الصلح، فأجيب وقلده الراضي طريق الفرات وديار مضر التي هي حران والرها وما جاورها، وجند قنسرين والعواصم، فسار إليها واستقر بها.

ثم طمحت نفسه سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى ملك الشام، فسار إلى مدينة حمص فملكها، وكان على دمشق بدر بن عبد الله مولى الإخشيد ويلقب بتدبير فملكها ابن رائق من يده، وسار إلى الرملة يريد مصر.

وبرز الإخشيد من مصر فالتقوا بالعريش وأكمن له الإخشيد، ثم التقيا فانهزم الإخشيد أولاً، وملك أصحاب ابن رائق سواده ونزلوا في خيامهم، ثم خرج عليهم كمين الإخشيد فانهزموا، ونجا ابن رائق إلى دمشق في فل من أصحابه.

فبعث إليه الإخشيد أخاه أبا نصير بن طغج في العسكر، فبرز إليهم ابن رائق وهزمهم، وقتل أبو نصر في المعركة، فبعث ابن رائق شلوه إلى مصر مع ابنه مزاحم بن محمد بن رائق وكتب إليه بالعزاء والاعتذار، وأن مزاحماً في فدائه، فخلع عليه ورده إلى أبيه، وتم الصلح بينهما على أن تكون الشام لابن رائق ومصر للأخشيد، والتخم بينهما للرملة.

وحمل الإخشيد عنها مائة وأربعين ألفاً كل سنة، وخرج الشام عن حكم الإخشيد وبقي في عمالة ابن رائق إلى أن قتل تحكم والبريدي.

وعاد ابن رائق من الشام إلى بغداد، فاستدعاه المتقي وصار أمير الأمراء بها، فاستخلف على الشام أبا الحسن علي بن أحمد بن مقاتل.

ولما وصل إلى بغداد قاتله كورتكين القائم بالدولة فظفر به، وحبسه، وقاتل عنه أصحابه من الديلم.

وزحف إليهم البريدي من واسط سنة ثلاثين وثلاثمائة فانهزم المتقي وابن رائق، وسار إلى الموصل وكان المتقي قد استنجد ناصر الدولة بن حمدان، فبعث إليه أخاه سيف الدولة ولقيه المتقي بتكريت، ورجع معه إلى الموصل، وقتل ناصر الدولة بن حمدان محمد بن رائق، وولي إمارة الأمراء للمتقي.

فلما سمع الإخشيد بمقتل ابن رائق سار إلى دمشق، ثم استولى يوسف بعد ذلك عليها سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وولى ناصر الدولة بن حمدان في ربيع سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة على أعمال ابن رائق كلها، وهي طريق الفرات وديار مضر وجند قنسرين والعواصم وحمص أبا بكر محمد بن علي بن مقاتل، وأنفذه إليها من الموصل في جماعة من القواد.

ثم ولى بعده في رجب ابن عمه أبا عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان على تلك الأعمال، وامتنع أهل الكوفة من طاعته فظفر بهم وملكها.

وسار إلى حلب، وكان المتقي قد سار إلى الموصل سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة مغاضباً لأمير الأمراء تورون فأقام

بالموصل عند بني حمدان.

ثم سار إلى الرقة فأقام بها، وكتب إلى الإخشيد يشكو إليه ويستقدمه، فأتاهما النصر، ومر بحلب فخرج عنها الحسين بن سعيد بن حمدان، وتخلف عنه أبو بكر بن مقاتل للقاء الإخشيد فأكرمه، واستعمله على خراج مصر، وولى على حلب يأنس المؤنسي.

وسار الإخشيد من حلب إلى الرقة في محرم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وأهدى له ولوزيره الحسين بن مقلة وحاشيته، وأشار عليه بالمسير إلى مصر والشام ليقوم بخدمته فأبى فخوفه من تورون، وأن يلزم الرقة.

وكان قد أنفذ رسله إلى تورون في الصلح وجاؤوه بالإجابة فلم يعرج على شيء من إشارته.

وسار إلى بغداد وانصرف الإخشيد إلى مصر وكان سيف الدولة بالرقة معهم فسار إلى حلب وملكها.

ثم سار إلى حمص وبعث الإخشيد عساكره إليها مع كافور مولاه، فلقيهم سيف الدولة إلى قنسرين، والتقيا هنالك وتحاربا، ثم افترقا على منعة وعاد الإخشيد إلى دمشق وسيف الدولة إلى حلب، وذلك سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وسارت الروم إلى حلب وقاتلهم سيف الدولة فظفر بهم.

وفاة الإخشيد وولاية ابنه أنوجور واستبداد كافور عليه واستيلاء سيف الدولة على دمشق

ثم توفي الإخشيد أبو بكر بن طغج بدمشق سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقيل خمس وولى مكانه أبو القاسم أنوجور وكان صغيراً فاستبد عليه كافور، وسار من دمشق إلى مصر فخالفه سيف الدولة، فسار إلى حلب، وزحف أنوجور في العساكر إليه فعبر سيف الدولة إلى الجزيرة، وحاصر أنوجور حلب أياماً.

ثم وقع الصلح بينهما، وعاد سيف الدولة إلى حلب وانوجور إلى مصر، ومضى كافور إلى دمشق وولى عليها بدراً الأخشيدي المعروف بتدبير، فرجع إلى مصر فأقام يدبُر بها سنة، ثم عزل عنها وولي أبو المظفر طغج وقبض على تدبير.

وفاة أنوجور ووفاة أخيه علي واستبداد كافور عليه

ثم علت سن أبي القاسم أنوجور، ورام الاستبداد بأمره وإزالة كافور فشعر به وقتله فيما قيل مسموماً سنة ونصب أخاه علياً للأمر في كفالته، وتحت استبداده إلى أن هلك.

وفاة علي بن الإخشيد وولاية كافور

ثم توفي علي بن الإخشيد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة فأعلن كافور بالاستبداد بالأمر دون بني الإخشيد، وركب بالمظلة وكتب له المطيع بعهده على مصر والشام والحرمين وكناه العالي باللّه، فلم يقبل الكنية، واستوزر أبا الفضل جعفر بن الفرات، وكان من أعاظم الملوك جواداً ممدوحاً سيوساً كثير الخشية لله والخوف منه.

وكان يداري المعز صاحب المغرب ويهاديه، وصاحب بغداد وصاحب اليمن، وكان يجلس للمظالم في كل سبت إلى أن هلك.

وفاة كافور وولاية أحمد بن علي بن الأخشيد

ثم توفي كافور منتصف سبع وخمسين وثلاثمائة لعشرة سنين وثلاثة أشهر من استبداده منها سنتان وأربعة أشهر مستقلاً من قبل المطيع، وكان أسود شديد السواد واشتراه الإخشيد بثمانية عشر ديناراً، ولما هلك اجتمع أهل الدولة وولوا أحمد بن علي بن الإخشيد وكنيته أبو الفوارس، وقام بتدبير أمره الحسن بن عمه عبد اللّه بن طغج، وعلى العساكر شمول مولى جده، وعلى الأموال جعفر بن الفضل، واستوزر كاتبه جابر الرياحي، ثم أطلق ابن الفرات بشفاعة ابن مسلم الشريف، وفوض أمر مصر إلى ابن الرياحي.

مسير جوهر إلى مصر وانقراض دولة بني طغج

ولما فرغ المعز لدين اللّه من شواغل المغرب بعث قائده جوهر الصقلي الكاتب إلى مصر، وجهزه في العساكر، وأزاح

عللها.

وسار جوهر من القيروان إلى مصر، ومر ببرقة وبها أفلح مولى المعز فلقيه، وترجل له فملك الإسكندرية، ثم الجيزة.

ثم أجاز إلى مصر وحاصرها، وبها أحمد بن علي بن الإخشيد وأهل دولته.

ثم افتتحها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وقتل أبا الفوارس، وبعث بضائعهم وأموالهم إلى القيروان صحبة الوفد من مشيخة مصر وقضاتها وعلمائها، وانقرضت دولة بني طغج، وأذن سنة تسع وخمسين في جامع ابن طولون بـ «حيّ على خير العمل».

وتحولت الدعوة بمصر للعلوية، واختط جوهر مدينة القاهرة في موضع العسكر.

وسير جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام فغلب القرامطة عليه كما تقدم ذلك في أخبارهم.

الخبر عن دولة بني مروان بديار بكر بعد بني حمدان ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان حق هذه الدولة أن نصل ذكرها بدولة بني حمدان كما فعلنا في دولة بني المقلد بالموصل، وبني صالح بن مرداس بحلب، لأن هذه الدول الثلاث إنما نشأت وتفرعت عن دولتهم، إلا أن بني مروان هؤلاء ليسوا من العرب، وإنما هم من الأكراد فأخرنا دولتهم حتى ننسقها مع العجم.

ثم أخرناها عن دولة بني طولون لأن دولة بني طولون متقدمة عنها في الزمن بكثير.

فلنشرع الآن في الخبر عن دولة بني مروان وقد كان تقدم لنا خبر باد الكردي واسمه الحسين بن دوشك، وكنيته أبو عبد اللّه وقيل كنيته أبو شجاع، وأنه خال أبي علي بن مروان الكردي، وأنه تغلب على الموصل وعلى ديار بكر، ونازع فيها الديلم ثم غلبوه عليها وأقام بجبال الأكراد.

ثم مات عضد الدولة وشرف الدولة.

ثم جاء أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد اللّه الحسن إلى الموصل فملكاها.

ثم حدثت الفتنة بينهما وبين الديلم وطمع باد في ملك الموصل، وهو بديار بكر فسار إلى الموصل فغلبه ابنا ناصر الدولة، وقتل في المعركة، وقد مر الخبر عن ذلك كله.

فلما قتل خلص ابن اخته أبو علي بن مروان من المعركة، ولحق بحصن كيفا، وبه أهل باد وذخيرته، وهو من أمنع المعاقل فتحيل في دخوله بأن خاله أرسله، واستولى عليه وتزوج امرأة خاله.

ثم سار في ديار بكر فملك جميع ما كان لخاله باد، وزحف إليه ابنا حمدان وهو يحاصر ميافارقين فهزمهما.

ثم رجعا إليه وهو يحاصر آمد فهزمهما ثانياً، وانقرض أمرهما من الموصل، وملك أبو علي بن مروان ديار بكر وضبطها، واستطال عليه أهل ميافارقين، وكان شيخها أبو الأصغر فتركهم يوم العيد حتى أصحوا وكبسهم بالصحراء، وأخذ أبا الأصغر فألقاه من السور، ونهب الأكراد عامة البلد، وأغلق أبو علي الأبواب دونهم، ومنعهم من الدخول فذهبوا كل منهب، وذلك كله سنة ثمانين وثلاثمائة.

مقتل أبي علي بن مروان وولاية أخيه أبي منصور

كان أبو علي بن مروان قد تزوج بنت سعد الدولة بن سيف الدولة، وزفت إليه من حلب وأراد البناء بها بآمد فخاف شيخها أن يفعل به وبهم ما فعل في ميافارقين فحذر أصحابه منه، وأشار عليهم أن ينثروا الدنانير والدراهم إذا دخل، ويقصدوا بها وجهه فيضربوه فكان كذلك.

ثم اغفله وضرب رأسه واختلط أصحابه، فرمى برأسه إليهم، وكر الأكراد راجعين إلى ميافارقين فاستراب بهم مستحفظها أن يملكوها عليه، ومنعهم من الدخول.

ثم وصل مهد الدولة أبو منصور بن مروان ثم أخو أبي علي إلى ميافارقين فأمكنه المستحفظ من الدخول فملكه، ولم يكن له فيه إلا السكة والخطبة، ونازعه أخوه أبو نصر فأقام بها مضيقاً عليه فغلبه أبو منصور، وبعثه إلى قلعة أسعرد فأقام بها مضيقاً عليه وأما آمد فتغلب عليها عبد اللّه شيخهم أياماً، وزوج ابنته من ابن دمنة الذي تولى قتل أبي علي بن مروان فقتله ابن دمنة، وملك آمد وبنى لنفسه قصراً ملاصقاً للسور، وأصلح أمره مع مهد الدولة بالطاعة، وهادى ملك الروم وصاحب مصر وغيرهما من الملوك، وانتشر ذكره.

مقتل مهد الدولة بن مروان وولاية أخيه أبي نصر

ثم إن مهد الدولة أقام بميافارقين، وكان قائده شروة متحكماً في دولته، وكان له مولى قد ولاه الشرطة، وكان مهد الدولة يبغضه ويهم بقتله مراراً، ثم يتركه من أجل شروة، فاستفسد مولاه شروة على مهد الدولة لحضوره.

فلما حضر عنده قتله وذلك سنة اثنتين وأربعمائة ثم خرج على أصحابه وقرابته يقبض عليهم كأنه بأمر مهد الدولة ثم مضى إلى ميافارقين ففتحوا له يظنونه مهد الدولة فملكها، وكتب إلى أصحاب القلاع يستدعيهم على لسان مهد الدولة، وفيهم خواجا أبو القاسم صاحب أرزن الروم، فسار إلى ميافارقين، ولم يسلم القلعة لأحد.

وسمع في طريقه بقتل مهد الدولة فرجع من الطريق إلى أرزن الروم، وأحضر أبا نصر بن مروان من أسعرد، وجاء به إلى أبيهم مروان.

وكان قد أضر ولزم قبر ابنه أبي علي بأرزن هو وزوجته فأحضره خواجا عنده، واستحلفه عند أبيه وقبر أخيه، وملك أرزن.

وبعث شروة من ميافارقين إلى أسعرد عن أبي نصر بن مروان، ففاته إلى أرزن، فأيقن بانتقاض أمره.

ثم ملك أبو نصر سائر ديار بكر، ولقب نصير الدولة، ودامت أيامه، وأحسن السيرة وقصده العلماء من سائر الآفاق وكثروا عنده.

وكان ممن قصده أبو عبد الله الكازروني، وعنه انتشر مذهب الشافعي بديار بكر، وقصده الشعراء ومدحوه وأجزل جوائزهم، وأقامت الثغور معه آمنة، والرعية في أحسن ملكة إلى أن توفي.

استيلاء نصير الدولة بن مروان على الرها

كانت مدينة الرها بيد عطير، وكاتبوا أبا نصر بن مروان أن يملكوه فبعث نائبه بآمد ويسمى زنك فملكها، واستشفع عطير بصالح بن مرداس صاحب حلب إلى ابن مروان فأعطاه نصف البلد، ودخل إلى نصير الدولة بميافارقين فأكرمه، ومضى إلى الرها فأقام بها مع زنك.

وحضر بعض الأيام مع زنك في صنيع، وحضر ابن النائب الذي قتله فحمله زنك على الأخذ بثأره فاتبعه لما خرج، ونادى بالثأر واستنفر أهل السوق فقتلوه في ثلاثة نفر وكمن له بنو نمير خارج البلد وبعثوا من يغير منهم عليها، فخرج زنك في العسكر.

ولما جاوز الكمين خرجوا عليه وقاتلوه وأصابه حجر فمات من ذلك فاتح ثمان عشرة وأربعمائة وخلصت الرها لنصير الدولة.

ثم شفع صالح بن مرداس في ابن عطير وابن شبل فرد إليهما البلد إلى أن باعه ابن عطير من الروم كما يأتي.

حصار بدران بن مقلد نصيبين

كانت نصيبين لنصير الدولة بن نصر بن مروان، فسار إليها بدران بن المقلد في جموع بني عقيل، وحاصرها فظهر على العساكر الذين بها، وأمدهم نصير الدولة بعسكر آخر، فبعث بدران من اعترضهم في طريقهم وهزمهم، فاحتفل ابن مروان في الاحتشاد وبعث العساكر إلى نصيبين، فخرجوا عليه فهزموه أولاً.

ثم كر عليهم ففتك فيهم، وأقام يقاتلهم حتى سمع بأن أخاه قرواش وصل إلى الموصل فخشي منه وارتحل عنها.

دخول الغز إلى ديار بكر

هؤلاء الغز من طوائف الترك، وهم الشعب الذين منهم السلجوقية، وقد تقدم لنا كيف أجازوا إلى خراسان لما قبض محمد بن سبكتكين على أرسلان بن سلجق منهم فحبسه، وما ظهر من فسادهم في خراسان وكيف أوقع بهم مسعود بن سبكتكين من بعد أبيه محمود، ففروا إلى البرية يريدون أذربيجان واللحاق بمن تقدم منهم هنالك، ويسمون العراقية بعد أن عاثوا في همذان وقزوين وأرمينية.

وعاث الآخرون في أذربيجان وقتل وهشوذان صاحب تبريز منهم جماعة، ثم عاثوا في الأكراد واستباحوهم.

ثم جاءهم الخبر بأن نيال إبراهيم أخا السلطان طغرلبك سار إلى الري فأجفلوا منها سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ووصلوا أذربيجان واتصلت الأخبار بأن نيال في أثرهم، فأجفلوا ثانياً خوفاً منه، لأنهم كانوا له ولإخوته رعية.

ولما أجفلوا سلك بهم الدليل في الجبال على الزوزان،

وأسهلوا إلى جزيرة ابن عمر، فسار بعضهم إلى ديار بكر، ونهبوا قزوين ويازدي والحسنية، وبقي آخرون بالجانب الشرقي من الجزيرة، وسار آخرون إلى الموصل.

وكان سليمان بن نصير الدولة قيماً بها فراسلهم في الصلح على أن يسير معهم إلى الشام فقبلوا.

ثم صنع سليمان صنيعاً ودعا إليه ابن غزعلي وقبض عليه وحبسه.

وأجفل الغز في كل ناحية واتبعهم عساكر نصير الدولة وقرواش والأكراد البشنوية.

ثم قصدت العرب العراق للمشتى، وعاد الغز إلى جزيرة ابن عمر فحصروها، وخربوا ديار بكر نهباً وقتلاً.

وصانعهم نصير الدولة بإطلاق منصور بن غزعلي الذي حبسه سليمان فلم يكف إطلاقه من فسادهم، وساروا إلى نصيبين وسنجار والخابور، ودخل قرواش الموصل كما نبهنا، واتبعه طائفة منهم فكان من خبره معهم ما قدمناه في أخباره.

مسير الروم إلى بلد ابن مروان ثم فتح الرها

ولما كانت الدعوة العلوية قد انتشرت في الشام والجزيرة، وكان سبب ذلك أن وثاباً النميري صاحب حران والرقة يخطب لهم، فلما ولي الوزيري للعلويين على الشام، بعث إلى ابن مروان بالتهديد، وأنه يسير إلى بلاده، فاستمد ابن مروان قرواش صاحب الموصل وشبيب بن وثاب صاحب الرقة، ودعاهما إلى الموافقة، وقطع الدعوة العلوية، فأجابوه وخطبوا للقائم وقطعوا الخطبة للمستنصر، وذلك سنة ثلاثين وأربعمائة.

فقام الوزيري في ركائبه وتهددهم، وأعاد ابن وثاب خطبة العلوية بحران في ذي الحجة آخر السنة.

مقتل سليمان بن نصير الدولة

كان نصير الدولة قد ولى ابنه سليمان، ويكنى أبا حرب الأمور وكان يجاوره في الجزيرة بشرموشك بن المحلي زعيم الأكراد في حصون له هنالك منيعة، ووقعت بينهما منافرة.

ثم استماله سليمان ومكر به، وكان الأمير أبو طاهر البشنوي صاحب قلعة فنك وغيرها، وهو ابن أخت نصير الدولة، وكان صديقاً لسليمان فكان مما استماله به موشك أن زوجه بابنة أبي طاهر فاطمأن موشك إلى سليمان، وسار إلى غزو الروم بأرمينية.

وأمده نصير الدولة ابن مروان بالعساكر والهدايا، وقد كان خطب له من قبل ذلك، وأطاعه فشفع عنده في موشك فقتله سليمان، وقال لطغرلبك أنه مات.

وشكر له أبو طاهر حيث كان صهره واتخذها ذريعة إلى قتله، فخافه سليمان، وتبرأ إليه مما وقع فأظهر القبول، وولي الاجتماع ونزل من حصنه فنك لذلك.

وخرج سليمان إليه في قلة من أصحابه فقتله عبيد اللّه وأدرك من ثار أبيه وبلغ الخبر إلى نصير الدولة فبادر بابنه نصير، وبعث معه العساكر لحماية الجزيرة.

وسمع قريش بن بدران صاحب الموصل فطمع في ملك جزيرة ابن عمر فسار إليها، واستمال الأكراد الحسنية والبشنوية، واجتمعوا على قتال نصير بن مروان فأحسن المدافعة عن بلده، وقاتلهم وجرح قريش جراحاً عديدة، ورجع إلى الموصل وأقام نصير بن مروان بالجزيرة والأكراد على خلافه.

مسير طغرلبك إلى ديار بكر

ولما انصرف طغرلبك من الموصل وملكها وفر قريش عنها ثم عاود الطاعة وذلك سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، فسار طغرلبك بعدها إلى ديار بكر وحاصر جزيرة ابن عمر.

وكان ابن مروان في خدمته وهداياه مترادفة عليه في مسيره إلى الموصل وعوده، فبعث إليه بالمال مفاداة عن الجزيرة، ويذكر ما هو بصدده من الجهاد وحماية الثغر فأفرج عنه طغرلبك، وسار إلى سنجار كما ذكرناه في أخبار قريش.

وفاة نصير الدولة بن مروان وولاية ابنه نصر

وفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة توفي نصير الدولة أحمد بن مروان الكردي صاحب ديار بكر، وكان لقبه القادر باللّه، ومات لاثنتين وخمسين سنة من ولايته.

وكان قد عظم استيلاؤه، وتوفرت أمواله، وحسن في عمارة الثغور وضبطها أثره.

وكان يهادي السلطان طغرلبك بالهدايا العظيمة، ومنها حبل

الياقوت الذي كان لبني بويه، اشتراه من أبي منصور بن جلال الدولة، وأرسل معه مائة ألف دينار فحسنت حاله عنده وكان يناغي عظماء الملوك في الترف، فيشتري الجارية بخمسمائة دينار وأكثر، واجتمع عنده منهن للافتراش والاستخدام أزيد من ألف.

واقتنى من الأواني والآلات ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار.

وجمع في عصمته بنات الملوك، وأرسل طباخين إلى الديار المصرية، وأنفق عليهم جملة حتى تعلموا الطبخ هنالك.

ووفد عليه أبو القاسم بن المغربي من أهل الدولة العلوية بمصر، وفخر الدولة بن جهير من الدولة العباسية، فأقبل عليهما واستوزرهما.

ووفد عليه الشعراء فوصلهم، وقصده العلماء فحمدوا عنده مقامهم، ولما توفي في كان الظفر فيها لنصر واستقر بميافارقين ومضى أخوه سعيد إلى آمد فملكها واستقر الحال بينهما على ذلك.

وفاة نصر بن نصير الدولة وولاية ابنه منصور

ثم توفي نظام الدين نصر بن نصير الدولة في ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة وولي ابنه منصور، ودبر دولته ابن الأنباري، ولم يزل في ملكه إلى أن قدم ابن جهير وملك البلاد من يده.

مسير ابن جهير إلى ديار بكر

كان فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير من أهل الموصل، واستخدم لجارية قرواش ثم لأخيه بركة، وسار عنه بالعوائد إلى ملك الروم.

ثم استخدم لقريش بن بدران وأراد حبسه، فاستجار ببعض بني عقيل، ومضى إلى حلب فوزر لمعز الدولة أبي ثمال بن صالح.

ثم مضى إلى عطية ولحق منها بنصير الدولة بن مروان، واستوزره وأصلح حال دولته.

ولما توفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة دبر أمر ابنه نصر القائم بعده.

ثم هرب إلى بغداد سنة أربع وخمسين وأربعمائة استدعى منها للوزارة فوزر بعد محمد بن منصور بن دؤاد.

ثم تداول العزل والولاية مرات هو وابنه عميد الملك، واستخدم لنظام الملك والسلطان طغرلبك.

وكان شفع عند الخليفة، فلما عزل ابنه آخراً بعث عنه السلطان ونظام الملك وعن ابنه وجميع أقاربه، وسار إليه بأصفهان ولقاه مبرةً وتكريماً.

وبعثه في العساكر لفتح ديار بكر، وأخذها من يد بني مروان، وأعطاه الآلات وأذن له أن يخطب لنفسه بعد السلطان، وينقش اسمه على السكة فسار لذلك سنة ست وسبعين وأربعمائة.

استيلاء ابن جهير على آمد

قد ذكرنا مسير فخر الدولة بن جهير في العساكر إلى ديار بكر، ثم أمده السلطان سنة سبع وسبعين وأربعمائة بأرتق بن أكسك في العساكر.

واستنجد نصر بن مروان شرف الدولة مسلم بن قريش على أن يعطيه آمد فأنجده، وسار لمظاهرته فاقصر فخر الدولة بن جهير عن حربهم عصبة للعرب.

وخالفه أرتق وسار في الترك إليهم وهزمهم، ولحق مسلم بآمد وحاصره بها فبذل المال لأرتق.

وخلص من أمره، ولحق بالرقة وسار ابن جهير إلى ميافارقين فرجع عنه منصور بن مزيد وابنه صدقة ومن معهما من العرب.

وسار فخر الدولة المعروف بالقرم فنزل عليها، وشد حصارها ونزل يوماً بعض الحامية من السور، وأخلى مكانه فوقف فيه بعض العامة، ونادى بشعار السلطان، واتبعه سائر الحامية بالسور.

وبعثوا إلى زعيم الرؤساء ابن جهير فركب إليهم وملك البلد، وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ونصب أهل البلد بيوت النصارى الذين كانوا يستخدمون لبني مروان في الجبايات، وانتقموا منهم، والله أعلم.

استيلاء ابن جهير على ميافارقين وجزيرة ابن عمر وانقراض دولة بني مروان

كان فخر الدولة بن جهير لما بعث ابنه إلى آمد، سار هو إلى ميافارقين، وأقام على حصارها منذ سنة سبع وسبعين وأربعمائة وجاءه سعد الدولة كوهرايين مدداً واشتد الحصار، وانثلم السور في بعض الأيام فنادى أهلها بشعار ملك شاه.

ودخل فخر الدولة وملك البلد، واستولى على أموال بني مروان وذخائرهم، وبعثها إلى السلطان ملك شاه مع ابنه زعيم الرؤساء، فوصل أصفهان في شوال سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وسار فخر الدولة كوهرايين إلى بغداد، وكان قد بعث عسكراً لحصار جزيرة ابن عمر، فحصروها، وثار بها أهل بيت من أعيانها يعرفون ببني رهان، وفتحوا باباً صغيراً للبلد كان منفذاً للرجالة، وأدخلوا العسكر منه، وملكوه بدعوة السلطان ملك شاه.

وانقرضت دولة بني مروان ولحق منصور بن نظام الدين نصر بن نصير الدولة بالجزيرة، وأقام في إيالة الغز.

ثم قبض عليه جكرمش وحبسه بدار يهودي فمات بها سنة تسع وثمانين وأربعمائة والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة بني الصفار ملوك سجستان المتغلبين على خراسان ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان أهل هذه الدولة قوماً اجتمعوا بنواحي سجستان، ونسبوا لقتال الخوارج الشراة بتلك الناحية عندما اضطربت الدولة ببغداد لقتل المتوكل، وسموا أنفسهم المتطوعة.

وكان اجتماعهم على صالح بن نصير الكناني، ويقال له صالح المتطوعي وصحبه جماعة منهم درهم بن الحسن ويعقوب بن الليث الصفار وغلبوا على سجستان وملكوها.

ثم سار إليهم طاهر بن عبد الله أمير خراسان وغلبهم عليها وأخرجهم منها.

ثم هلك صالح إثر ذلك، وقام بأمره في المتطوعة درهم بن الحسن فكثر أتباعه.

وكان يعقوب بن الليث قائده، وكان درهم مضعفاً فتحيل صاحب خراسان عليه حتى ظفر به، وبعثه إلى بغداد فحبس بها، واجتمع المتطوعة على يعقوب بن الليث قائده، وكان درهم يكاتب المعتز يسأله ولايتها، وأن يقلده حرب الخوارج فكتب له بذلك، وأحسن الغناء في حرب الشراة، وتجاوزه إلى سائر أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم سار من سجستان إلى خراسان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وعلى الأنبار ابن أوس فجمع لمحاربة يعقوب.

وسار إليهم في التعبية، فاقتتلوا وانهزم ابن أوس، وملك يعقوب هراة وبوشنج، وعظم أمره، وهابه صاحب خراسان وغيرها من الأطراف.

استيلاء يعقوب الصفار على كرمان ثم على فارس وعودها

كان على فارس علي بن الحسين بن شبل، وكتب إلى المعتز يطلب كرمان، ويذكر عجز ابن طاهر عنها.

وكان قد أبطأ عن حرب الخوارج فكتب له المعتز بولاية كرمان، وكتب ليعقوب الصفار أيضاً بولايتها بقصد التضريب بينهما لتتمحص طاعتهما أو طاعة أحدهما.

فأرسل علي بن الحسين من فارس على كرمان طوق بن المفلس من أصحابه فسبق إليه يعقوب وملكها.

وجاء يعقوب فأقام قريباً منها شهرين يترقب خروج طوق إليه، ثم ارتحل إلى سجستان ووضع طوق أوزار الحرب، وأقبل على اللهو واتصل ذلك بيعقوب في طريقه فكر راجعاً، وأغذ السير ودخل كرمان، وحبس طوقاً.

وبلغ الخبر إلى علي بن الحسين وهو على شيراز فجمع عسكره ونزل مضيق شيراز.

وأقبل يعقوب حتى نزل قبالته، والمضيق متوعر بين جبل ونهر ضيق المسلك بينهما فاقتحم يعقوب النهر بأصحابه، وأجاز إلى علي بن الحسين وأصحابه فانهزموا.

وأخذ علي بن الحسين أسيراً، واستولى على سواده، ودخل شيراز وملكها وجبى الخراج وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين وقيل: قد وقع بينهما بعد عبور النهر حروب شديدة، وانهزم آخرها علي وكان عسكره نحواً من خمسة عشر ألفاً من الموالي والأكراد، فرجعوا منهزمين إلى شيراز آخر يومهم، وازدحموا في الأبواب، وبلغ القتلى منهم خمسة آلاف.

ثم افترقوا في نواحي فارس وانتهبوا الأموال.

ولما دخل يعقوب شيراز وملك فارس امتحن علياً وأخذ منه ألف بدرة ومن الفرش والسلاح والآلة ما لا يحصى، وكتب للخليفة بطاعته، وأهدى هدية جليلة منها عشرة بازات بيض، وباز أبلق صيني، ومائة نافجة من المسك، وغير ذلك من الطرف، ورجع إلى سجستان ومعه علي وطوق في اعتقاله، ولما فارق فارس بعث المعتز عماله إليها.

ولاية يعقوب الصفار على بلخ وهراة

ولما انصرف يعقوب عن فارس ولى عليها المعتز من قبله، والخلفاء بعده، وليها الحارث بن سيما، فوثب به محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي من رجال العرب، وأحمد بن الليث من الأكراد الذين بنواحيها فقتلاه، واستولى ابن واصل على فارس سنة ست وخمسين ومائتين وأظهر دعوة المعتمد، وبعث عليها المعتمد الحسين بن الفياض، فسار إليه يعقوب بن الليث سنة سبع وخمسين ومائتين، وكتب إليه المعتمد بالنكير على ذلك.

وبعث إليه الموفق بولاية بلخ وطخارستان فملكها، وخرب المباني التي بناها داود بن العباس بظاهر بلخ، وتسمى بأساديانج.

ثم سار إلى كابل واستولى عليها، وقبض على رتبيل، وبعث بالأصنام التي أخذها من كابل، وملك البلاد إلى المعتمد.

وأهدى إليه هدية جليلة المقدار، وعاد إلى بست معتزماً على العود إلى سجستان فأحفظه بعض قواده بالرحيل قبله فغضب، وأقام منه إلى سجستان، ثم سار إلى خراسان وملك هراة.

ثم إلى بوشنج فملكها وقبض على عاملها الحسين بن علي بن طاهر الكبير، وكان كبير بيتهم، وشفع له فيه محمد بن طاهر صاحب خراسان فأبى من إسعافه، وبقي في قلبه، وولى على هراة وبوشنج وباذغيس ورجع إلى سجستان.

استيلاء الصفار على خراسان وانقراض أمر بني طاهر

كان بسجستان عبد الله السجزي ينازع يعقوب بن الليث، فلما قوي يعقوب واستفحل، سار عبد الله إلى خراسان، وطمع في ملكها، وحاصر محمد بن طاهر في كرسي ولايته نيسابور.

ثم تردد الفقهاء بينهم في الصلح حتى تم بينهما، وولاه محمد الطبسين وقهستان.

ثم بعث يعقوب إلى محمد في طلبه فأجاره، وأحفظ ذلك يعقوب فسار إلى محمد بنيسابور، فخام محمد عن لقائه.

ونزل يعقوب بظاهر نيسابور، وخرج إليه قرابة محمد وعمومته وأهل بيته، ودخل نيسابور واستعمل عليها، وذلك سنة تسع وخمسين ومائتين، وكتب إلى المعتمد بأن أهل خراسان استدعوه لعجز ابن طاهر وتفريطه في أمره.

وغلبه العلوي على طبرستان فكتب إليه المعتمد بالنكير والاقتصار على ما بيده، وإلا سلك به سبيل المخالفين.

وقيل في ملكه نيسابور غير ذلك: وهو أن محمد بن طاهر لما أصاب دولته العجز والإدبار، كاتب بعض قرابته يعقوب بن الليث الصفار، واستدعوه فكتب يعقوب إلى محمد بن طاهر بمجيئه إلى ناحيته مورياً بقصد الحسن بن زيد في طبرستان.

وأن المعتمد أمره بذلك، وأنه لا يعرض لشيء من أمر خراسان، وبعث بعض قواده عيناً عليه، وعنفه على الإهمال والعجز، وقبض على جميع أهل بيته نحواً من مائة وستين رجلاً وحملهم جميعاً إلى سجستان وذلك لإحدى عشرة سنة من ولاية محمد.

واستولى يعقوب على خراسان وهرب منازعه عبد الله السجزي إلى الحسين بن يزيد صاحب طبرستان، وقد كان ملكها من لدن سنة إحدى وخمسين ومائتين، فأجاره الحسين وسار إليه يعقوب سنة ستين ومائتين، وحاربه فانهزم الحسين إلى أرض الديلم، واعتصم بجبال طبرستان وملك يعقوب سارية وآمد ورجع في طلب السجزي إلى الري وتهدد العامل على دفعه إليه فبعث به وقتله يعقوب.

استيلاء الصفار على فارس

تقدم لنا تغلب محمد بن واصل على فارس سنة ست وخمسين ومائتين ومسير الصفار إليه سنة سبع وثلاثمائة ورجوعه عنها، وأنه أعاضه عنها ببلخ وطخارستان.

ثم إن المعتمد أضاف فارس إلى موسى بن بغا مع الأهواز والبصرة والبحرين واليمامة، وما بيده من الأعمال، فولي موسى على فارس من قبله عبد الرحمن بن مفلح وبعثه إلى الأهواز وأمده بطاشتمر.

وزحفوا إلى ابن واصل وسار لحرب موسى بن بغا بواسط،

فولى على الأهواز مكانه أبا الساج وأمره بمحاربة الزنج فبعث صهره عبد الرحمن لذلك، فلقيه علي بن أبان قائد الزنج، وهزمه وقتل.

وملك الزنج الأهواز وعاثوا فيها وأديل من أبي الساج بإبراهيم بن سيما، وسار لحرب ابن واصل، واضطربت الناحية على موسى بن بغا فاستعفى من ولايتها، وأعفاه المعتمد وطمع يعقوب الصفار في ملك فارس، فسار من سجستان ممداً، ورجع ابن واصل من الأهواز إليه، وترك محاربة ابن سيما، وأغذ السير ليفجأه عليّ بغتة، ففطن له الصفار وسار إليهم وقد أعيوا وتعبوا من شدة السير والعطش، ولما تراءى الجمعان تخاذل أصحاب ابن واصل وانهزموا من غير قتال، وغنم الصفار في معسكره وما كانوا أصابوا لابن مفلح، واستولى على بلاد فارس ورتب بها العمال وأوقع بأهل ذم لإعانتهم ابن واصل، وطمع في الاستيلاء على الأهواز وغيرها.

حروب الصفار مع الموفق

ولما ملك الصفار خراسان من يد ابن طاهر وقبض عليه وملك فارس من يد ابن واصل، وكان المعتمد نهاه عن تلك، فلم ينته، صرح المعتمد بأنه لم يوله، ولا فعل ما فعل بإذنه، وأحضر حاج خراسان وطبرستان والري، وخاطبهم بذلك فسار الصفار إلى الأهواز سنة اثنتين أصحابه الذين أسروا بخراسان، فأبى إلا العزم على الوصول إلى الخليفة ولقائه، وبعث حاجبه درهماً يطلب ولاية طبرستان وخراسان وجرجان والري وجارس والشرطة ببغداد، فولاه المعتمد ذلك كله مضافاً إلى سجستان وكرمان، وأعاد حاجبه بذلك، ومعه عمرو بن سيما فكتب يقول: لا بد من الحضور بباب المعتمد، وارتحل من عسكر مكرم جائياً.

وخرج أبو الساج من الأهواز لتلقيه لدخول الأهواز في أعماله، فأكرمه ووصله.

وسار إلى بغداد ونهض المعتمد من بغداد فعسكر بالزعفرانية، ووافاه مسرور البلخي من مكانه من مواجهة الزنج، وجاء يعقوب إلى واسط فملكها، ثم سار منها إلى دير العاقول.

وبعث المعتمد أخاه الموفق لمحاربته وعلى ميمنته موسى بن بغا، وعلى ميسرته موسى البلخي، فقاتله منتصف رجب وانهزمت ميسرة الموفق وقتل فيها إبراهيم بن سيما وغيره من القواد ثم تزاحفوا واشتدت الحرب وجاء للموفق محمد بن أوس والدواني مدداً من المعتمد، وفشل أصحاب الصفار، ولما رأوا مدد الخليفة انهزموا، وخرج الصفار، واتبعهم أصحاب الموفق، وغنموا من عسكره نحواً من عشرة آلاف من الظهر، ومن الأموال والمسك ما يؤود حمله.

وكان محمد بن طاهر معتقلاً في العسكر منذ قبض عليه بخراسان، فتخلص ذلك اليوم، وجاء إلى الموفق، وخلع عليه وولاه الشرطة ببغداد.

وسار الصفار إلى خوزستان فنزل جند نيسابور، وراسله صاحب الزنج على الرجوع، ويعده المساعدة فكتب له ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ السورة.

وكان ابن واصل قد خالف الصفار إلى فارس وملكها، فكتب إليه المعتمد بولايتها، وبعث إليه الصفار جيشاً مع عمر بن السري من قواده، فأخرجه عنها وولى على الأهواز محمد بن عبيد الله بن هزارمرد الكردي.

ثم رجع المعتمد إلى سامرا والموفق إلى واسط، واعتزم الموفق على اتباع الصفار فقعد به المرض عن ذلك.

وعاد إلى بغداد ومعه مسرور البلخي، وأقطعه ما لأبي الساج من الضياع والمنازل، وقدم معه محمد بن طاهر فقام بولاية الشرطة ببغداد.

انتقاض الخجستاني بخراسان على يعقوب الصفار وقيامه بدعوة بني طاهر

كان من أصحاب محمد بن طاهر ورجالاته أحمد بن عبد الله بن خجستان، وكان متولياً على وهي من جبال سراة وأعمال باذغيس.

فلما استولى الصفار على نيسابور وخراسان، انضم أحمد هذا إلى أبيه علي بن الليث، وكان شركب الحمال قد تغلب على مرو ونواحيها سنة تسع وخمسين ومائتين وتغلب على نيسابور سنة ثلاث وستين ومائتين وأخرج منها الحسين بن طاهر، وكان لشركب ثلاثة من الولد: إبراهيم وهو أكبرهم، وأبو حفص يعمر، وأبو طلحة منصور، وكان إبراهيم قد أبلى في واقعة المغار مع الحسن بن زيد بجرجان، فقدمه الصفار، وحسده أحمد الخجستاني فخوفه عادية الصفار، وزين له الهرب.

وكان يعمر أخوه محاصراً لبعض بلاد بلخ، فاتفق إبراهيم وأحمد الخجستاني في الخروج إلى يعمر، وسبقه إبراهيم إلى الموعد ولم يلقه فسار إلى سرخس.

ولما عاد الصفار إلى سجستان سنة إحدى وستين ومائتين ولي على هراة أخاه عمرو بن الليث فاستخلف عليها طاهر بن حفص الباذغيسي، وجاء الخجستاني إلى علي بن الليث وزين له أن يقيم بخراسان نائباً عنه في أموره وأقطاعه، فطلب ذلك من أخيه يعقوب فأذن له.

فلما ارتحلوا عن خراسان جمع أحمد الخجستاني وأخرج علي بن الليث من بلده سنة إحدى وستين ومائتين وملك تونس وأعاد دعوة بني طاهر، وملك نيسابور سنة اثنتين وستين واستقدم رافع بن هرثمة من رجالات بني طاهر فجعله صاحب جيشه وسار إلى هراة فملكها من يد طاهر بن حفص وقتله، ثم قتل يعمر بن شركب، واستولى على بلاد خراسان ومحا منها دعوة يعقوب بن الليث.

ثم جاء الحسن بن طاهر أخو محمد بأصفهان ليخطب له، فأبى فخطب له أبو طلحة بن شركب بنيسابور، وانتقض الخجستاني واضطربت خراسان فتنة، وزحف إليها الحسن بن زيد فقاتلوه وهزموه.

ثم ملك نيسابور من يد عمرو بن الليث، وترك الخطبة لمحمد بن طاهر، وخطب للمعتمد ولنفسه من بعده كما هو مشروح في أخبار الخجستاني.

استيلاء الصفار على الأهواز

قد تقدم لنا استيلاء الصفار على فارس بعد خراسان.

ثم سار منها إلى الأهواز وكان أحمد بن لسوقة قائد مسرور البلخي على الأهواز قد نزل تستر، فرحل عنها ونزل يعقوب جنديسابور وفرت عساكر السلطان من تلك النواحي.

وبعث يعقوب بالخضر بن العين إلى الأهواز وعلي بن أبان والزنج يحاصرونها، فتأخروا عنها إلى نهر السدرة، ودخل الخضر الأهواز وملكها بدعوة الصفار، وكان عسكره وعسكر الزنج يغير بعضهم على بعض.

ثم أوقع الزنج بعسكره ولحق الخضر بعسكر مكرم، واستخرج ابن أبان ما كان في الأهواز، ورجع إلى نهر السدرة، وبعث يعقوب الإمداد إلى الخضر، وأمره بالكف عن قتال الزنج والمقام بالأهواز فوادع الزنج، وشحن الأهواز بالأقوات وأقام.

وفاة يعقوب الصفار وولاية عمرو أخيه

ثم توفي يعقوب الصفار في شوال سنة خمس وستين بعد أن افتتح الزنج، وقتل ملكها وأسلم أهلها على يده، وكانت مملكة واسعة الحدود.

وافتتح زابلستان وهي غزنة وأعمالها، وكان المعتمد قد استماله وولاه على سجستان والسند، ثم تغلب على كرمان وخراسان وفارس، وولاه المعتمد على جميعها.

ولما مات قام مكانه أخوه عمرو بن الليث، وكتب إلى المعتمد بطاعته، فولاه الموفق من قبل أعمال أخيه، وهي خراسان وأصفهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد.

وبعث إليه بالخلع، فولى عمرو بن الليث على الشرطة ببغداد وسر من رأى من قبله عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر.

وخلع عليه الموفق وعمرو بن الليث وولى على أصفهان من قبله أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وولى على طريق مكة والحرمين محمد بن أبي الساج.

مسير عمرو بن الليث إلى خراسان لقتال الخجستاني

قد تقدم ذكر الخجستاني وتغلبه على نيسابور وهراة بدعوة بني طاهر سنة اثنتين وستين ومائتين فلما توفي يعقوب سار عمرو إلى خراسان سنة خمس وستين ومائتين واستولى على هراة.

وسار الخجستاني بنيسابور فقاتله فانهزم عمرو، ورجع إلى هراة.

وكان الفقهاء بنيسابور يشيعون لعمور لولاية الخليفة إياه، فأوقع الخجستاني الفتنة بينهم بالميل إلى بعضهم، وتكرمتهم عن بعض ليشغلهم بها.

ثم سار إلى هراة سنة سبع وستين ومائتين، وحاصر عمرو بن الليث فلم يظفر بشيء فتركه، وخالفه إلى سجستان.

ووثب أهل نيسابور بنائبه عليهم، وأمدهم عمرو بن الليث بجنده فقبضوا على نائب الخجستاني وأقاموا بها، ورجع الخجستاني من سجستان فأخرجهم وملكها.

وكان أبو منصور طلحة بن شركب محاصراً لبلخ من قبل ابن طاهر، وكاتبه عمرو بن الليث واستقدمه، وأعطاه أموالاً

واستخلفه على خراسان، ورجع إلى سجستان.

وبقي أبو طلحة بخراسان والخجستاني يقاتله إلى أن قتل الخجستاني سنة ثماني وستين ومائتين قتله بعض مواليه كما مر في أخباره مع رافع بخراسان.

كان رافع بن هرثمة من قواد بني طاهر بخراسان، فلما ملكها يعقوب سار إليه واستقر في منزله بتامين من قرى باذغيس.

فلما قتل الخجستاني اجتمع الجيش على رافع وهو بهراة فأقروه عليهم.

وكان أبو طلحة بن شركب قد سار من جرجان إلى نيسابور، فسار إليه رافع وحاصرها، وخرج عنها أبو طلحة إلى مرو، وخطب بها وبهراة لمحمد بن طاهر، وولى على هراة من قبله.

ثم زحف إليه عمرو بن الليث فغلبه عليها، وولى عليها محمد بن سهل بن هاشم.

ورجع وبعث أبو طلحة إلى إسماعيل بن أحمد يستنجده فأنجده بعسكر سار بهم إلى مرو، وأخرج منها محمد بن سهل وخطب لعمرو بن الليث وذلك في شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين.

ثم عزل المعتمد عمرو بن الليث عن سائر أعمال خراسان وقلدها الموفق محمد بن طاهر، وهو مقيم ببغداد، فاستخلف محمد عليها رافع بن هرثمة، وأقر نصر بن محمد أحمد الساماني على ما وراء النهر، فسار رافع إلى إسماعيل يستنجده على أبي طلحة فجاءه في أربعة آلاف مدداً.

واستقدم رافع أيضاً علي بن الحسين المروروذي، وساروا جميعاً إلى أبي طلحة وهو بمرو سنة اثنتين وسبعين ومائتين وغلبوه عليها ولحق بهراة، وعاد إسماعيل إلى خوارزم فجبى أموالها ورجع إلى نيسابور.

حروب عمرو مع عساكر المعتمد ومع الموفق

ولما عزل المعتمد عمرو بن الليث عن خراسان أمر بلعنه على المنابر، وأعلم حاج خراسان بذلك، وقلد محمد بن طاهر أعمالها فاستخلف عليها رافع بن الليث، وكتب المعتمد إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف بعزله عن أصفهان والري.

وبعث إليه العساكر لقتاله سنة إحدى وسبعين ومائتين فزحف إليه عمرو في خمسة عشر ألفاً من المقاتلة فهزمه أحمد بن عبد العزيز والعساكر واستباحوا معسكره، ودفعوه عن أصفهان والري.

وكان المعتمد لما عزله ولعنه بعث صاعد بن مخلد في العساكر إلى فارس لقتال عمرو بن الليث وإخراجه من فارس، فسار لذلك ولم يظفر، ورجع سنة اثنتين وسبعين ومائتين.

ثم سار الموفق سنة أربع وسبعين ومائتين إلى فارس لحرب عمرو بن الليث، فسير عمرو قائده عباس بن إسحاق إلى شيراز، وابنه محمد بن عمرو إلى أرجان وبعث على مقدمته أبا طلحة بن شركب صاحب جيشه، فاستأمن أبو طلحة إلى الموفق وفت ذلك في عضد عمرو، وخام عن لقائه.

وسار الموفق إلى شيراز وارتاب بأبي طلحة فقبض عليه، وملك الموفق فارس، وعاد عمرو إلى كرمان فسار الموفق في طلبه، فلحق بسجستان على المفازة، وتوفي ابنه محمد بن عمرو بها.

وامتنعت كرمان وسجستان على الموفق فعاد إلى بغداد.

وارتاب عمرو بن الليث بأخيه علي فحبسه بكرمان، وحبس معه ابنه المعدل والليث فهربوا من محبسهم، ولحقوا برافع بن الليث عندما ملك طبرستان وجرجان من محمد بن زيد العلوي سنة سبع وسبعين ومائتين فأقاموا عنده، وهلك علي بن الليث وبقي ولداه عنده.

ثم رضي المعتمد عن عمرو بن الليث وولاه الشرطة ببغداد، وكتب اسمه على الأعلام والترسة سنة ست وسبعين ومائتين واستخلف في الشرطة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، ثم سخطه لسنة ومحا اسمه من الأعلام.

ولاية عمرو بن الليث على خراسان ثانياً ومقتل رافع بن الليث

ثم سخط المعتمد رافع بن الليث لامتناعه عن تخلية قرى السلطان بالري بعد أن أمره بذلك، فكتب إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف يأمره بمحاربة رافع وإخراجه عن الري وكتب إلى عمرو بن الليث بولاية خراسان.

وحارب أحمد بن عبد العزيز سنة ثمانين ومائتين فقاتله أخويه عمر وبكراً ابني عبد العزيز فهزمهما إلى أصفهان، وأقام بالري باقي سنته.

ثم سار إلى أصفهان فملكها سنة إحدى وثمانين ومائتين

وعاد إلى جرجان، ووافى عمرو بن الليث خراسان والياً عليها بجموعه.

وتورط رافع بن ا لليث ورجع إلى مصالحة محمد بن زيد، على أن يعيد إليه طبرستان فصالح محمد بن زيد، وخطب له بطبرستان سنة اثنتين وثمانين ومائتين على أن يمده بأربعة آلاف من الديلم.

وسار عن طبرستان إلى نيسابور سنة ثلاث وثمانين ومائتين فحاربه عمرو وهزمه إلى أبيورد، وأخذ منه المعدل والليث ابني أخيه.

ثم أراد رافع المسير إلى هراة فأخذ عليه عمرو الطريق لسرخس وسرب رافع في المضايق ونكب عن جمهور الطريق فدخل نيسابور وحاصره فيها عمرو بن الليث.

ثم برز للقائه واستأمن بعض قواد رافع إلى عمرو، فانهزم رافع وأصحابه، وبعث إلى محمد بن وهب يستمده كما شرط له.

وكان عمرو قد حذر محمد بن زيد من إمداده فأقصر من ذلك، وتفرق عن رافع أصحابه وغلمانه، وكانوا أربعة آلاف غلام.

وفارقه محمد بن هارون إلى أحمد بن إسماعيل بن سمان ببخارى، وخرج رافع منهزماً إلى خوارزم في فل من العسكر، وحمل بقية المال والآلة، وذلك في رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائتين.

فلما رآه صاحب خوارزم أبو سعيد الغرغاني في قلة من العسكر، غدر به وقتله في أول شوال، وحمل رأسه إلى عمرو بن الليث بنيسابور فأنفذه عمرو إلى بغداد.

فكتب إليه المعتضد بولاية الري مضافة إلى خراسان، وأنفذ له الألوية والخلع سنة أربع وثمانين ومائتين.

استيلاء بني سامان على خراسان وهزيمة عمرو بن الليث وحبسه ثم مقتله

لما بعث عمرو بن الليث برأس رافع بن هرثمة إلى المعتضد، طلب ولاية ما وراء النهر فولاه وبعث إليه بالخلع واللواء، فسرح عمرو الجيوش من نيسابور مع قائده محمد بن بشير وغيره من قواده لمحاربة إسماعيل بن أحمد، وانتهوا إلى آمد فعبر إسماعيل جيحون وهزمهم، وقتل محمد بن بشير وغيره من قواده، ورجع الفل إلى عمرو بنيسابور.

وعاد إسماعيل إلى بخارى وتجهز للسير إلى إسماعيل، وسار إلى بلخ.

وبعث إليه إسماعيل: إنك قد حزت الدنيا العريضة فاتركني في هذا الثغر فأبى.

وعبر إسماعيل وأخذ عليه الجهات فصار محصوراً، وندم وطلب المحاجزة فأبى إسماعيل، وقاتله فانهزم عمرو ونكب عن طريق العسكر إلى مضيق ينفرد فيه وتوارى في أجمة فوحلت به دابته، ولم يتفطن له أصحابه، فأخذ أسيراً وبعث به إسماعيل إلى المعتضد، بعد أن خيره فاختار المسير إليه، ووصل إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائتين وأدخل على جمل وحبس.

وبعث المعتضد إلى إسماعيل بولايته خراسان إلى أن توفي المعتضد.

وجاء المكتفي إلى بغداد، وكان في نفسه إصطناعه، وكره ذلك الوزير القاسم بن عبيد الله فوضع عليه من قتله سنة تسع وثمانين ومائتين.

ولاية طاهر بن محمد بن عمرو على سجستان وكرمان ثم على فارس

ولما أسر عمرو وسار إلى محبسه، قام مكانه بسجستان وكرمان حافده طاهر بن محمد بن عمرو، وهو الذي مات أبوه محمد بمفازة سجستان عندما هرب عمرو أمام الموفق من فارس، ثم سار طاهر إلى فارس، وسار إليها في الجيوش سنة ثمان وثمانين ومائتين واعترضه بدر، فعاد طاهر إلى سجستان، وملك بدر فارس وجبى أموالها.

ثم بعث طاهر بن محمد سنة تسع وثمانين ومائتين يطلب المقاطعة على فارس بمال يحمله، وكان المعتضد قد توفي، فعقد له المكتفي عليها، وتشاغل طاهر بالصيد واللّهو، ومضى إلى سجستان فغلب على الأمر بفارس الليث ابن عمه علي بن الليث، وسيكري مولى جده عمرو، وكان معهما أبو قابوس قائد طاهر، فلحق بالخليفة المكتفي وكتب طاهر رده بما جباه من المال، ويحتسب له من جملته فلم يجب إلى ذلك.

استيلاء الليث على فارس ثم مقتله واستيلاء سيكري

ولما تغلب سيكري على فارس لحق الليث بن علي بطاهر ابن عمه وزحف طاهر إلى فارس فهزمه السيكري وأسره، وبعث به وبأخيه يعقوب إلى المقتدر سنة سبع وتسعين ومائتين وضمن فارس بالحمل الذي كان قرره فولاه على فارس.

ثم زحف إليه الليث بن علي بن الليث فملك فارس الليث للقائهم وجاءه الخبر بأن الحسين ابن حمدان صار من قم مدداً لمؤنس، فركب لاعتراضه، وتاه الدليل عن الطريق فأصبح على معسكر مؤنس فثاروا واقتتلوا وانهزم عسكر الليث، وأخذ أسيراً، وأشار أصحاب مؤنس بأن يقبض على سيكري معه، ويملك بلاد فارس، ويقره الخليفة فوعدهم بذلك، ودس إلى سيكري بأن يهرب إلى شيراز.

وأصبح يلوم أصحابه على ظهور الخبر من جهتهم، وعاد بالليث إلى بغداد واستولى سيكري على فارس، واستبد كاتبه عبد الرحمن بن جعفر على أموره، فسعى فيه أصحابه عند سيكري حتى قبض عليه، وحملوه على العصيان فمنع الحمل، فكتب هو من محبسه إلى الوزير ابن الفرات يعرفه بأمرهم وكتب ابن الفرات إلى مؤنس وهو بواسط يأمره بالعود إلى فارس ويعاتبه حيث لم يقبض على سيكري فسار مؤنس إلى الأهواز، وراسله سيكري وهاداه.

وعلم ابن الفرات بميل مؤنس إليه فأنفذ وصيفاً وجماعة من القواد ومعهم محمد بن جعفر وأمرهم بالتعويل عليه في فتح فارس وكتب إلى مؤنس باستصحاب الليث إلى بغداد ففعل، وسار محمد بن جعفر إلى فارس ودافعَ سيكري على شيراز فهزمه، وحاصره بها وحاربه ثانية فهزمه ونهب أمواله، ودخل سيكري مفازة خراسان فظفرت به جيوش خراسان وأسروه، وبعثوا به إلى بغداد.

وولي على فارس فتح خادم الأفشين.

انقراض ملك بني الليث من سجستان وكرمان

وفي سنة ثمان وتسعين ومائتين توفي فتح صاحب فارس، فولى المقتدر مكانه عبد اللّه بن إبراهيم المسمعي وأضاف إليه كرمان من أعمال بني الليث.

وسار أحمد بن إسماعيل بن سامان إلى الري فبعث منها جيوشه إلى سجستان سنة ثمان وتسعين ومائتين مع جماعة من قواده وعليهم الحسن بن علي المرووذي.

وكانت سجستان لما أسر طاهر سنة سبع وتسعين ومائتين ولي بها بعده الليث بن علي بن الليث.

فلما أسر الليث كما تقدم ولي بعده أخوه المعدل بن علي بن الليث، فلما بلغه مسير هذه العساكر إليه من قبل أحمد بن إسماعيل بعث أخاه أبا علي بن الليث محمد بن علي بن الليث إلى بست والرخج ليجبيهما، ويبعث منهما إلى سجستان بالميرة، فسار إليه أحمد بن إسماعيل بن سامان، وعلى سجستان أبو صالح منصور ابن عمه إسحاق بن أحمد بن إسماعيل بن سامان لما بلغه مسير سيكرى من فارس إلى سجستان في المفازة، فبعث إليه جيشاً فأخذه، وكتب الأمير أحمد إلى المتقدر بالخبر وبالفتح، فأمره بحمل سيكري والليث، فبعث بهما إلى بغداد وحبسهما.

ثورة أهل سجستان بأصحاب ابن سامان ودعوتهم إلى بني عمرو بن الليث بن الصفار ثم عودهم إلى طاعة أحمد بن إسماعيل بن سامان

كان محمد بن هرمز ويعرف بالمولى الصندلي خارجياً وهو من أهل سجستان.

خرج أيام بني سامان وأقام ببخارى، وسخط بعض الأعيان بها فسار إلى سجستان، واستمال جماعة من الخوارج رئيسهم ابن الحفار فخرجوا، وقبضوا على منصور بن إسحاق عاملهم من بني سامان وحبسوه، وولوا عليهم عمرو بن يعقوب بن محمد بن الليث، وخطبوا له، فبعث أحمد بن إسماعيل الجيوش ثانياً مع الحسين بن علي سنة ثلاثمائة، وحاصرها ستة أشهر، ومات الصندلي فاستأمن عمرو بن يعقوب الصفار وابن الحفار إلى الحسين بن علي، وخرج منصور بن إسحاق من محبسه.

واستعمل أحمد بن إسماعيل على سجستان سيمجور الدواني، ورجع الحسين بالجيوش إلى الأمير أحمد ومعه يعقوب وابن الحفار في ذي الحجة سنة ثلاثمائة.

استيلاء خلف بن أحمد بن علي على سجستان ثم انتقاضهم عليه

كان خلف بن أحمد من ذرية عمرو بن الليث الصفار، وهو بسطة برسمه بانوا ولما فشل أمر بني سامان استولى على سجستان وكان من أهل العلم ويجالسهم.

ثم حج سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، واستخلف على أعماله طاهر بن الحسين من أصحابه.

فلما عاد من الحج انتقض عليه طاهر بن الحسين من أصحابه، فسار خلف إلى بخارى مستجيشاً بالأمير منصور بن سامان، فبعث معه العساكر وملك سجستان، وكثرت أمواله وجنوده.

وقطع ما كان يحمله إلى بخارى، فسارت العساكر إليه ومقدمهم وحاصروا خلف بن أحمد في حصن أوال من أمنع الحصون وأعلاها.

ولما اشتد به الحصار وفنيت الأموال والآلات، كتب إلى نوح بن منصور صاحب بخارى بأن يستأمنه، ويرجع إلى دفع الحمل، فكتب نوح بن منصور إلى أبي الحسن بن سيمجور عامله على خراسان وقد عزل بالمسير إلى حصار خلف، فسار من قهستان إلى سجستان وحاصر خلف، وكانت بينهما مودة، فأشار عليه سيمجور بتسليم حصن أرك للحسن لتتفرق الجيوش عنه إلى بخارى، ويرجع هو إلى شأنه مع صاحبه، فقبل خلف مشورته.

ودخل سيمجور إلى حصن أرك وخطب فيه للأمير نوح.

ثم سلمه للحسن بن طاهر وانصرف إلى بخارى، وكان هذا أول وهن دخل على بني سامان من سوء طاعة أصحابهم.

استيلاء خلف بن أحمد على كرمان ثم انتزاع الديلم لها

ولما استفحل أمر خلف بسجستان حدث نفسه بملك كرمان، وكانت في أيدي بني بويه وملكهم يومئذ عضد الدولة، فلما وهن أمرهم، ووقع الخلف بين صمصام الدولة وبهاء الدولة ابني عضد الدولة، جهز العساكر إلى كرمان وعليهم عمرو ابنه وقائدهم يومئذ تمرتاش من الديلم.

فلما قاربها عمرو هرب تمرتاش إلى بردشير وحمل ما أمكنه، وغنم عمرو الباقي وملك كرمان وجبى الأموال.

وكان صمصام الدولة صاحب فارس، فبعث العساكر إلى تمرتاش مع أبي جعفر وأمره بالقبض عليه لاتهامه بالميل إلى أخيه بهاء الدولة، فسار وقبض عليه، وحمله إلى شيراز.

وسار بالعساكر إلى عمرو بن خلف فقاتله عمرو بدار زين وانهزم الديلم وعادوا على طريق جيرفت، وبعث صمصام الدولة عسكراً آخر مع العباس بن أحمد من أصحابه، فلقوا عمرو بن خلف بالسيرجان في المحرم سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة فهزموه وعاد إلى أبيه بسجستان مهزوماً، ووبخه ثم قتله.

ثم عزل صمصام الدولة العباس عن كرمان فأشاع خلف بأن أستاذ هرمز سمه، واستنفر الناس لغزو كرمان، وبعثهم مع ابنه طاهر، فانتهوا إلى برماشير وملكوها من الديلم، ولحق الديلم بجيرفت واجتمعوا بها، وبعثوا بها إلى بردشير حامية من العسكر، وهو أصل بلاد كرمان ومصرها فحصرها طاهر ثلاثة أشهر، وضيق على أهلها، وكتبوا إلى أستاذ هرمز يستمدونه قبل أن يغلبهم عليها طاهر، فخاطر بنفسه، وكتب إليهم المضايق والأوعار حتى دخلها، وعاد طاهر إلى سجستان واستنفر الناس لغزو الديلم بجيرفت، واجتمعوا بها وبعثوا إلى بردشير حامية من العسكر، وهو أصل بلاد كرمان، وذلك سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

استيلاء طاهر بن خلف على كرمان وعوده عنها ومقتله

كان طاهر بن خلف من العقوق لأبيه على عظيم وانتقض عليه وجرت بينهما وقائع كان الظفر بها لخلف، ففارق طاهر سجستان وسار إلى كرمان، وبها الديلم عسكر بهاء الدولة فصعد إلى جبالها، واحتمى بقوم هنالك كانوا عصاة، ونزل على جيرفت فملكها، ولقيه الديلم فهزمهم، واستولى على الكثير مما بأيديهم فبعث بهاء الدولة عسكراً مع أبي جعفر بن أستاذ هرمز، فغلب طاهراً على كرمان فعاد إلى سجستان، وقاتل أباه فهزمه، وملك البلاد وامتنع أبوه خلف ببعض حصونه، وكان الناس قد سئموا منه لسوء سيرته، فرجع إلى مخادعة ابنه، فتواعد اللقاء تحت القلعة، وأكمن له بالقرب كميناً، فلما لقيه الكمين واستمكن منه أبوه خلف فقتله أبوه.

استيلاء محمود بن سبكتكين على سجستان ومحو آثار بني الصفار منها

كان خلف بن أحمد قد بعث ابنه طاهراً إلى قهستان فملكها.

ثم إلى بوشنج كذلك وكانت هي وهراة لبغراجق عم محمود، وكان محمود مشتغلا بالفتنة مع قراد بني سامان، فلما فرغ منها استأذنه عمه في إخراج طاهر بن خلف فأذن له.

وسار إليه سنة تسعين وثلاثمائة ولقيه بنواحي بوشنج فهزمه، ولج في طلبه فكر عليه طاهر وقتله، فساء ذلك محموداً وجمع عساكره وسار إلى خلف بن أحمد، وحاصره بحصن أصبهيل، وضيق عليه حتى بذل له أموالاً جليلة، وأعطاه الرهن عليها فأفرج عنه.

ثم عهد خلف بملكه إلى ابنه، وعكف على العبادة والعلم خوفاً من محمود بن سبكتكين فلما استولى طاهر على الملك عق أباه وكان من أمره ما تقدم.

ولما قتل طاهر تغيرت نيات عساكره، وساءت فيه ظنونهم، واستدعوا محمود بن سبكتكين وملكوه مدينتهم.

وقعد خلف في حصنه وهو حصن الطاق، له سبعة أسوار محكمة، وعليها خندق عتيق له جسر يرفع ويحط عند الحاجة، فحاصره محمود سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وطم الخندق بالأعواد والتراب في يوم واحد، وزحف لقتاله بالفيول.

وتقدم عظيمها فاقتلع باب الحصن بنابه وألقاه، وملك محمود السور الأول ودفع عنه أصحاب خلف إلى السور الثاني، ثم إلى الثالث كذلك فخرج خلف واستأمن، وحضر عنده محمود وخيره في المقام حيث شاء من البلاد فاختار الجوزجان، وأقام بها أربع سنين.

ثم نقل عنه الخوض في الفتنة، وأنه راسل أيلكخان يغريه بمحمود، فنقله إلى جردين وحبسه هنالك إلى أن هلك سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وورثه ابنه أبو حفص.

ولما ملك محمود سجستان واستنزل خلف من حصن الطاق، ولى على سجستان أحمد الفتحي من قواد أبيه.

ثم انتقض أهل سجستان فسار إليهم محمود سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة في ذي الحجة، وحصرهم في حصن أرك واقتحمه عليهم عنوة وقتل أكثرهم وسبى باقيهم حتى خلت سجستان منهم، وصفا ملكها له فاقطعها أخاه نصراً مضافة إلى نيسابور، وانقرض ملك بني الصفار وذويهم من سجستان والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة بني سامان ملوك ما وراء النهر المقيمين بها الدولة العباسية وأولية ذلك ومصادره

أصل بني سامان هؤلاء من العجم، كان جدهم أسد بن سامان من أهل خراسان وبيوتها، وينتسبون في الفرس إلى بهرام حشيش الذي ولاه كسرى أنوشروان مرزبان أذربيجان.

وبهرام حشيش من أهل الري ونسبهم إليه هكذا أسد بن سامان خذاه بن جثمان بن طغان بن نوشردين بن بهرام نجرين بن بهرام حشيش، ولا وثوق لنا بضبط هذه الأسماء.

وكان لأسد أربعة من الولد: نوح وأحمد ويحيى والياس، وأصل دولتهم هذه فيما وراء النهر أن المأمون لما ولي خراسان اصطنع بني أسد هؤلاء، وعرف لهم حق سلفهم واستعملهم.

فلما انصرف إلى العراق ولى على خراسان غسان بن عباد من قرابة الفضل بن طاهر، مكان ابنه إسحاق ومحمد بن الياس.

ثم مات أحمد بن أسد بفرغانة سنة إحدى وستين، وكان له من الولد سبعة: نصر ويعقوب ويحيى وإسماعيل وإسحاق وأسد، وكنيته أبو الأشعث، وحميد وكنيته أبو غانم.

ولما توفي أحمد وكانت سمرقند من أعماله، استخلف عليها ابنه نصراً، وأقام في ولايتها أيام بني طاهر وبعدهم.

وكان يلي أعماله من قبل ولاة خراسان إلى حين انقراض أمر بني طاهر واستولى الصفار على خراسان.

ولاية نصر بن أحمد على ما وراء النهر

ولما استولى الصفار على خراسان، وانقرض أمر بني طاهر، عقد المعتمد لنصر بن أحمد على أعمال ما وراء النهر، فبعث جيوشه إلى شط جيحون مسلحة من عبور الصفار فقتل مقدمهم، ورجعوا إلى بخارى، وخشيهم واليها على نفسه ففر عنها، وولوا عليهم ثم عزلوا، ثم ولوا ثم عزلوا، فبعث نصر أخاه إسماعيل على شط بخارى، وكان يعظم محله ويقف في خدمته.

ثم ولى على غزنة أبا إسحاق بن التكين.

ثم ولي على خراسان من بعد ذلك رافع بن هرثمة بولاية بني طاهر وأخرج عنها الصفار.

وحصلت بينه وبين إسماعيل أعمال خوارزم فولاه إياها، وفسد ما بين إسماعيل وأخيه نصر، وزحف إليه سنة اثنتين وسبعين فأرسل قائده حمويه بن علي إلى رافع يستنجده، فسار إليه بنفسه منها، وأصلح بينهما ورجع إلى خراسان.

ثم انتقض ما بينهما وتحاربا سنة خمس وسبعين، وظفر إسماعيل بنصر.

ولما حضر عنده ترجل له إسماعيل وقبل يده ورده إلى كرسي إمارته بسمرقند، وأقام نائباً عنه ببخارى، وكان إسماعيل خيراً مكرماً لأهل العلم والدين.

وفاة نصر بن أحمد وولاية أخيه إسماعيل على ما وراء النهر

ثم توفي نصر سنة تسع وسبعين ومائتين، وقام مكانه في سلطان ما وراء النهر أخوه إسماعيل وولاه المعتضد، ثم ولاه خراسان سنة سبع وثمانين ومائتين.

وكان سبب ولايته على خراسان أن عمرو بن الليث كان المعتضد ولاه خراسان، وأمره بحرب رافع بن هرثمة فحاربه وقتله، وبعث برأسه إلى المعتضد، وطلب منه ولاية ما وراء النهر، فولاه وسير العساكر لمحاربة إسماعيل بن أحمد مع محمد بن بشير من خواصه، فانتهوا إلى آمد بشط جيحون.

وعبر إليهم إسماعيل فهزمهم وقتل محمد بن بشير، ورجع إلى بخارى فسار عمرو بن الليث من نيسابور إلى بلخ يريد العبور إلى ما وراء النهر، فبعث إليه إسماعيل يستعطفه بأن الدنيا العريضة في يدك وإنما لي هذا الثغر فأبى ولج، وعبر إسماعيل النهر وأحاط به، وهو على نجد فصار محصوراً وسأل المحاجزة فأبى إسماعيل، وقاتله فهزمه، وأخذه بعض العسكر أسيراً، وبعث به إلى سمرقند، ثم خيره في إنفاذه إلى المعتضد فاختاره، فبعث به إليه، ووصل إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائتين وأدخل على جمل وحبس وأرسل المعتضد إلى إسماعيل بولاية خراسان كما كانت لهم فاستولى عليها، وصارت بيده.

ولما قتل عمرو بن الليث طمع محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان والديلم في ملك خراسان، فسار إليها وهو يظن أن إسماعيل بن أحمد لا يريدها ولا يتجاوز عمله، فلما سار إلى جرجان وقد وصل كتاب المعتضد إلى إسماعيل بولاية خراسان، فكتب إليه ينهاه عن المسير إليها فأبى، فسرح إليه محمد بن هارون قائد رافع، وكان قد فارقه عند هزيمته ومقتله.

ولحق بإسماعيل فسرحه في العساكر لقتال محمد بن زيد العلوي ولقيه على بجرجان فانهزم محمد بن زيد وغنم ابن هارون عسكره، وأصابت محمد بن زيد جراحات هلك لأيام منها، وأسر ابنه زيد فأنزله إسماعيل بخارى وأجرى عليه، وسار محمد بن هارون إلى طبرستان فملكها، وخطب فيها لإسماعيل وولاه إسماعيل عليها.

استيلاء إسماعيل على الري

كان محمد بن هارون قد انتقض في طبرستان على إسماعيل وخلع دعوة العباسية وكان الوالي على أهل الري من قبل المكتفي أغرتمش التركي، وكان سيِّئ السيرة فيهم فاستدعوا محمد بن هارون من طبرستان فسار إليها، وحارب أغرتمش فقتله، وقتل ابنين له وأخاه كيغلغ من قواد المكتفي، واستولى على الري فكتب المكتفي إلى إسماعيل بولاية الري، وسار إليها فخرج محمد بن هارون عنها إلى قزوين وزنجان وعاد إلى طبرستان، واستعمل إسماعيل بولاية الذين على جرجان فارس الكبير وألزمه بإحضار محمد بن هارون، فكاتبه فارس، وضمن له إصلاح حاله، فقبل قوله وانصرف عن حسان الديلمي إلى بخارى في شعبان سنة تسعين ومائتين، ثم قبض في طريقه وأدخل إلى بخارى مقيداً، فحبس بها ومات لشهرين.

وفاة إسماعيل بن أحمد وولاية ابنه أحمد

ثم توفي إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان وما وراء النهر في منتصف سنة خمس وتسعين ومائتين، وكان يلقب بعد موته بالماضي، وولي بعده أبو نصر أحمد، وبعث إليه المكتفي بالولاية، وعقد له لواءً بيده، وكان إسماعيل عادلاً حسن السيرة حليماً.

وخرجت الترك في أيامه سنة إحدى وتسعين ومائتين إلى ما وراء النهر في عدد لا يحصى، يقال كان معهم سبعمائة قبة، وهي لا تكون إلا للرؤساء، فاستنفر لهم إسماعيل الناس، وخرج من الجند والمتطوعة خلق كثير.

وخرجوا إلى الترك وهم غارون فكبسوهم مصبحين، وقتلوا منهم ما لا يحصى وانهزم الباقون، واستبيح عسكرهم.

ولما مات ولي ابنه أبو نصر أحمد واستوثق أمره ببخارى بعث عن عمه إسحاق بن أحمد من سمرقند فقبض عليه وحبسه.

ثم عبر إلى خراسان ونزل نيسابور، وكان فارس الكبير مولى أبيه عاملاً على جرجان.

وكان ظهر له أن أباه عزله عن جرجان بفارس هذا، وكان فارس قد ولي الري وطبرستان، وبعث إلى إسماعيل بن أحمد بثمانين حملاً من المال، فلما سمع بوفاة إسماعيل استردها من الطريق، وحقد له أبو نصر ذلك كله، فخافه فارس.

فلما نزل أبو نصر نيسابور كتب فارس إلى المكتفي يستأذنه في المسير إليه، وسار في أربعة آلاف فارس، واتبعه أبو نصر فلم يدركه.

وتحصن منه عامل أبي نصر بالري، ووصل إلى بغداد فوجد المقتدر قد ولي بعد المكتفي، وقد وقعت حادثة ابن المعين فولاه المقتدر ديار ربيعة، وبعثه في طلب بني حمدان، وخشي أصحاب المقتدر أن يتقدم عليهم فوضعوا عليه غلاماً له فسمه ومات بالموصل، وتزوج الغلام امرأته.

استيلاء أحمد بن إسماعيل على سجستان

كانت سجستان في ولاية الليث بن علي بن الليث، وخرج إلى طلب فارس فأسره مؤنس الخادم، وحبس ببغداد وولي على سجستان أخوه المعدل، ثم سار أبو نصر أحمد بن إسماعيل سنة سبع وتسعين من بخارى إلى الري، ثم إلى هراة وطمع في ملك سجستان، فبعث إليه العسكر في محرم سنة ثمان وتسعين مع أعيان قواده: أحمد بن سهل ومحمد بن المظفر وسيمجور الدواتي والحسين بن علي المروروذي.

فلما بلغ الخبر إلى المعدل بعث أخاه محمد بن علي إلى بست والزنج فحاصرته العساكر بسجستان وسار أحمد بن إسماعيل إلى بست فملكها، وأسر محمد بن علي، وبلغ الخبر إلى المعدل فاستأمن إلى الحسين فملكها، وحمل المعدل معه إلى بخارى.

وولى الأمير على سجستان أبا صالح منصور بن عمه إسحاق بن أحمد، وكان قد قبض على إسحاق لأول ولايته، ثم أطلقه الآن وأعاده إلى سمرقند وفرغانة.

وقد كان سيكري هزمته عساكر المقتدر بفارس، وخرج إلى مفازة سجستان فبعث الحسين عسكراً لاعتراضه، وأخذ أسيراً، وبعثوا به وبمحمد بن علي إلى بغداد، وبعث المقتدر إلى أحمد بالخلع والهدايا.

ثم انتقض أهل سجستان على سيجور الدواني وولوا منصور ابن عمه إسحاق على نيسابور.

مقتل أبي نصر أحمد بن إسماعيل وولاية ابنه نصر

ثم قتل أبو نصر أحمد صاحب خراسان وما وراء النهر آخر جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة، وكان مولعاً بالصيد، فخرج إلى بربر متصيداً، وكان له أسد يربط كل ليلة على باب خيمته فأغفل ليلة، فعدا عليه بعض غلمانه وذبحوه على سريره، وحمل إلى بخارى فدفن بها ولقب الشهيد، وقتل من وجد من أولئك الغلمان.

وولى الأمير مكانه ابنه أبا الحسن نصر بن أحمد، وهو ابن ثمان سنين، ولقب السعيد.

وتولى الأمور له أصحاب أبيه ببخارى، وحمله على عاتقه أحمد بن الليث مستولي الأمور، وانتقض عليه أهل سجستان، وعم أبيه إسحاق بن أحمد بسمرقند.

وابناه منصور والياس ومحمد بن الحسين ونصر بن محمد وأبو الحسين بن يوسف والحسن بن علي المروروذي وأحمد بن سهل وليلى بن النعمان من الديلم صاحب العلويين بطبرستان، ومعه سيمجور وأبو الحسين بن الناصر الأطروش وقراتكين، وخرج عليه إخوته يحيى ومنصور وإبراهيم بنو أبيه، وجعفر بن داود ومحمد بن الياس، ومرداويج ووشمكير ابنا زياد من أمراء الديلم، وكان السعيد نصر مظفراً على جميعهم.

انتقاض سجستان

ولما قتل أحمد بن إسماعيل انتقض أهل سجستان وبايعوا للمقتدر، وبعثوا إليه وأخرجوا سيجور الدواني، فأضافها المقتدر إلى بدر الكبير، وأنفذ إليها الفضل بن حميد وأبا يزيد من قبل السعيد نصر وسعيد الطالقاني بغزنة كذلك فقصدها الفضل وخالد واستوليا على غزنة وبستة وقبضا على سعيد الطالقاني وبعثا به إلى بغداد وهرب عبيد الله الجهستاني ثم اعتل الفضل وانفرد خالد بالأمور.

ثم انتقض فأنفذ إليه المقتدر أخا طغج الطولوني فهزمه

خالد، وسار إلى كرمان، فأنفذ إليه بدر الجيش فأخذ أسيراً ومات، وحمل إلى بغداد.

انتقاض إسحاق العم وابنه الياس

كان إسحاق بن أحمد عم الأمير أحمد بن إسماعيل والياً على سمرقند، فما بلغه مقتل الأمير أحمد، وولاية ابنه السعيد نصر، دعا لنفسه بسمرقند، وتابعه ابنه الياس على ذلك.

وساروا إلى بخارى فبرز إليهم القائد حمويه بن علي فهزمهم إلى سمرقند.

ثم جمعوا وعادوا فهزمهم ثانية، وملك سمرقند من أيديهم عنوة.

واختفى إسحاق وجد حمويه في طلبه فضاق به مكانه، واستأمن إلى حمويه وحمله إلى بخارى وأقام بها إلى أن هلك، ولحق الياس بفرغانة فأقام بها إلى أن خرج ثانية كما يأتي.

ظهور الأطروش واستيلاؤه على طبرستان

قد تقدم لنا في أخبار العلوية شأن دولة الأطروش وبنيه بطبرستان، وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمرو بن علي بن الحسن السبط، وأنه استعمل الأمير أحمد، على طبرستان مكانه أبا العباس أحمد عبد الله بن محمد بن نوح فأحسن السيرة، وعدل في الرعية وأكرم العلوية وبالغ في الإكرام والإحسان إليهم.

واستمال رؤساء الديلم وهاداهم، وكان الحسن الأطروش قد دخل إليهم بعد قتل محمد بن زيد وأقام فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، ويقتصر منهم على العشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسان، فأسلم منهم خلق كثير، واجتمعوا إليه، وبنى في بلادهم المساجد، ودعاهم للمسير معه إلى طبرستان فلم يجيبوه إلى ذلك.

ثم عزل أبو العباس، وتولى سلام فلم يحسن سياسة الديلم فخرجوا عليه، وقاتلوه فهزمهم، واستعان بالأمير أحمد السعيد، فأعاد الأمير أحمد إليها ابن نوح، فاستعمل عليها أبا العباس محمد بن إبراهيم صعلوك، ففسد ما بينه وبين الديلم بإساءة السيرة وعدم السياسة.

فطلبهم الأطروش في الخروج معه فخرجوا، ولقيهم ابن صعلوك على مرحلة من سالوس وهي ثغر طبرستان فانهزم وقتل من أصحابه أربعة آلاف، وحصر الأطروش الباقين.

ثم أمنهم وعاد إلى آمد وسار إليهم الحسن بن القاسم العلوي الداعي صهر الأطروش فقتلهم متعللاً عليهم بأنه لم يحضر لعهدهم.

واستولى الأطروش على طبرستان سنة إحدى وثلاثمائة أيام السعيد نصر، وخرج صعلوك إلى الري متعللاً عليهم، ومنها إلى بغداد.

وكان الذين أسلموا على يد الأطروش الديلم من وراء أسفيجاب إلى آمد، فيهم شيعة زيدية.

وكان الأطروش زيدياً، وخرجت طبرستان يومئذ من ملك بني سامان.

انتقاض منصور بن إسحاق العم والحسين والمروروذي

كان الأمير أحمد بن إسماعيل لما افتتح سجستان ولى عليها منصور ابن عمه إسحاق، وكان الحسين بن علي هو الذي تولى فتحها وطمع في ولايتها.

ثم افتتحها ثانياً كما ذكرنا فوليا سيجور الدواني، فاستوحش الحسين لذلك، وداخل منصور بن إسحاق في الانتقاض، على أن تكون إمارة خراسان لمنصور والحسين بن علي خليفته على أعماله.

فلما قتل الأمير أحمد انتقض الحسين بهراة، وسار إلى منصور بنيسابور فانتفض أيضاً، وخطب لنفسه سنة اثنتين وثلاثمائة وسار القائد حمويه بن علي من بخارى في العساكر لمحاربتهما، ومات منصور قبل وصوله.

فلما قارب حمويه نيسابور سار الحسين عنها إلى هراة، وأقام بها، وكان محمد بن جند على شرطته من مدة طويلة، وبعث من بخارى بالنكير، فخشي على نفسه، وعدل عن الطريق إلى هراة فسار الحسين بن علي من هراة إلى نيسابور، بعد أن استخلف عليها أخاه منصوراً فملك نيسابور، فسار إلى محاربته من بخارى أحمد بن سهل فحاصر هراة وملكها من منصور على الأمان.

ثم سار إلى نيسابور فحاصر بها الحسين وملكها عنوة، وأسر الحسين سنة اثنتين وثلاثمائة.

وأقام أحمد بن سهل بنيسابور وجاءه ابن جيد مزمر وقبض

عليه وسيره والحسين بن علي إلى بخارى فأما ابن جيد مزمر فسير إلى خوارزم ومات بها، وأما الحسين فحبس.

ثم خلصه أبو عبد اللّه الجهاني مدبر الدولة، وعاد إلى خدمة السعيد نصر.

انتقاض أحمد بن سهل بنيسابور وفتحها

كان الأمير أحمد بن سهل من قواد إسماعيل، ثم ابنه أحمد، ثم ابنه نصر بن أحمد.

قال ابن الأثير: وهو أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن جبلة بن كامكان بن يزدجرد بن شهربان الملك.

قال: وكان كامكان دهقان بنواحي مرو.

قال: وكان لأحمد إخوة ثلاثة وهم: محمد والفضل والحسين قتلوا في عصبية العرب والعجم وكان خليفة عمرو بن الليث على مرو فسخطه وحسبه بسجستان.

ثم فر من محبسه ولحق بمرو فملكها واستأمن إلى أحمد بن إسماعيل، وقام بدعوته فاستدعاه إلى بخارى وأكرمه ورفع منزلته، ونظمه في طبقة القواد وبقي في خدمته وخدمة بنيه، فلما انتقض الحسين بن علي بنيسابور على السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل سنة اثنتين وثلاثمائة، سار إليه أحمد بن سهل في العساكر وظفر به كما مر، وولى السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل على نيسابور قراتكين مولاهم.

مقتل ليلى بن النعمان ومهلكه

كان ليلى بن النعمان من كبار الديلم، ومن قواد الأطروش، وكان الحسن بن القاسم الداعي قد ولاه على جرجان سنة ثلاث وثلاثمائة، وكان أولاد الأطروش يحلونه في كتابهم بالمؤيد لدين اللّه المنتصر لأولاد رسول اللّه ﷺ، وكان كريماً شجاعاً.

ولما ولي جرجان سار إليه قراتكين وقاتله على عشرة فراسخ من جرجان، فانهزم قراتكين، واستأمن غلامه فارس إلى ليلى في ألف رجل من أصحابه، فأمنه وأكرمه وزوجه أخته، واستأمن إليه أبو القاسم بن حفص ابن أخت سهل، وحرضه على المسير إلى نيسابور وبها قراتكين، وكان أجناده قد كثروا وضاقت عليهم الأموال فاستأذن الداعي في المسير إلى نيسابور، فأذن له، وسار إليها في ذي الحجة سنة ثمان وثلاثمائة فملكها، وأقام بها الخطبة للداعي الحسين بن القاسم، وأنفذ السعيد نصر العساكر من بخارى مع حمويه بن علي ومحمد بن عبيد اللّه البلغمي وأبي جعفر صعلوك، وخوارزم شاه وسيجور الدواني، فانهزم أكثر أصحاب حمويه وثبت القواد، وجالت العساكر جولة فانهزم ليلى ودخل آمد.

ولحقه بقراخان ملك الترك جاء مع العساكر مدداً فقبض على ليلى في آمد، وبعث إلى حمويه بذلك، فبعث إليه من قطع رأس ليلى في ربيع سنة تسع وثلاثمائة.

وبعث به إلى بخارى وطلب قواد الديلم الذين كانوا مع ليلى الأمان فأمنوهم بعد أن أشار حمويه بقتلهم والراحة منهم، فلم يوافقوه.

وهؤلاء القواد هم الذين خرجوا بعد ذلك على الجهات وملكوها مثل: أسفار ومرداويج وأنوشنكين وبني بويه وستأتي أخبارهم وبقي فارس غلام قراتكين بجرجان والياً عليها.

ثم جاءه قراتكين واستأمن إليه غلامه فارس فأمنه، ثم قتله سنة ست عشرة وثلثمائة وانصرف عن جرجان.

حرب سيجور مع ابن الأطروش

ولما قتل قراتكين غلامه سنة ست عشرة وثلاثمائة وانصرف عن جرجان سار إليها أبو الحسن بن ناصر الأطروش من أستراباذ فملكها.

وأنفذ السعيد لحربه سيجور الدواني في أربعة آلاف فارس فنزل على فرسخين من جرجان، وخرج إليه أبو الحسن في ثمانية آلاف راجل من الديلم فاقتتلا، وكان سيجور قد أكمن لهم وأبطأ عليه الكمين فانهزم واتبعه سرخاب، وشغل عسكر أبي الحسن بالنهب.

ثم خرج عليهم الكمين بعد ساعة فانهزم أبو الحسن وقتل من عسكره نحو من أربعة آلاف، وركب البحر إلى أستراباذ واجتمع إليه فل من أصحابه، وجاءه سرخاب بعد أن رجع عن سيجور، وجمع عيال أصحابه ومخلفهم وقدم بهم وأقام سيجور بجرجان.

ثم مات سرخاب ورجع ابن الأطروش إلى سارية بعد أن استخلف ماكان بن كالي على أستراباذ، واجتمع إليه الديلم وأمروه.

ثم سار إلى أستراباذ ومعه محمد ليظهر غناءهم فخرج من سارية، وولوا عليها بقراخان، ووصلوا إلى جرجان ثم إلى نيسابور ورجع ماكان إلى أستراباذ مع جرجان ولحق بقراخان بنيسابور.

وهذا كان مبتدأ أمر ماكان بن كالي وستأتي أخباره.

خروج الياس بن إسحق

قد تقدم لنا انتقاض إسحاق وابنه الياس بسمرقند سنة إحدى وثلاثمائة، وكيف غلبهم القائد حمويه، وسار بإسحاق إلى بخارى ومات بها.

ولحق ابنه الياس بفرغانة فأقام بها إلى سنة ست عشرة وثلاثمائة، وأجمع المسير إلى سمرقند واستظهر بمحمد بن الحسين برمت من قواد بني سامان، واستمد أهل فرغانة من الترك فأمدوه، واجتمع إليه ثلاثون ألف فارس، وقصد سمرقند وبعث السعيد للمدافعة عنها أبا عمرو ومحمد بن أسد وغيره في ألفين وخمسمائة راجل.

فلما ورد الياس كمنوا له بين الشجر حتى إذا اشتغلت عساكره بضرب الأبنية خرجوا عليه، فانهزم الحسن بن ست ولحق بأسفيجاب ومنها إلى ناحية طراز وكريت فلقيه دهقان الناحية فقتله، وأنفذ رأسه إلى بخارى.

ثم استمد الياس صاحب الشاش، وهو أبو الفضل بن أبي يوسف فأمده بنفسه وبعث إليه اليسع بالمدد، وعاود محاربة الوالي بسمرقند، فانهزم إلى كاشغر، وأسر أبو الفضل وحمل إلى بخارى فمات بها.

وسار الياس إلى كاشغر وصاحبها طغاتكين من ملوك الترك فصاهره بابنته وأقام معه.

استيلاء السعيد على الري

كان المقتدر قد عقد على الري ليوسف بن أبي الساج، وسار إليه سنة إحدى عشرة وثلاثمائة فملكه من يد أحمد بن علي أخي صعلوك، وقد كان فارق أخاه صعلوكاً وسار إلى المقتدر فولاه على الري.

ثم انتقض على المقتدر ووصل يده بماكان بن كالي قائد الديلم وأولاد الأطروش وهم بطبرستان وجرجان.

وفارق طاعة المقتدر، فسار إليه يوسف بن أبي الساج وحاربه فقتله، واستولى على الري ثم استدعاه المقتدر سنة أربع عشرة وثلاثمائة إلى واسط لقتال القرامطة، وكتب إلى السعيد نصر بن أحمد بولاية الري فاستخلف عليها وأمره بالمسير إليها، وأخذها فاتك مولى يوسف بن أبي الساج فسار نصر السعيد لذلك أول سنة أربع عشرة وأربعمائة فلما وصل إلى جبل قارن منعه أبو نصر الطبري من الاجتياز به، فبذل له ثلاثين ألف دينار واسترضاه.

وسار إلى الري فخرج عنها فاتك، واستولى عليها السعيد منتصف السنة، وأقام بها شهرين.

ثم عاد عنها إلى بخارى واستعمل عليها محمد بن علي الملقب صعلوك، فأقام بها إلى شعبان سنة ست عشرة، ومرض فكاتب الداعي وماكان بن كالي في القدوم ليسلم لهم الري.

فقدموا واستولوا على الري وسار صعلوك عنها فمات في طريقه، وأقام الحسن الداعي بالري مالكاً لها، واستولى معها على قزوين وزنجان وأبهر وقم ومعه ماكان.

وكان أسفار قد استولى على طبرستان، فسار الداعي وماكان إليه، والتقوا على سارية فانهزم، وقتل الداعي كما مر في أخبار العلوية بطبرستان.

ولاية أسفار على جرجان والري

كان أسفار بن شيرويه من أعيان الديلم وكان من أصحاب ماكان بن كالي.

وقد تقدم لنا أن أبا الحسن بن الأطروش ولى ماكان على أستراباذ وأن الديلم اجتمعوا إليه وأمروه، وأنه ملك جرجان واستولى بعدها على طبرستان، وولى أخاه أبا الحسن بن كالي على جرجان.

وكان أسفار بن شيرويه من قواده، فانصرف مغاضباً عنه سنة خمس عشرة وثلاثمائة إلى بكر بن محمد بن اليسع بنيسابور فبعثه بكر إلى جرجان ليفتحها، واضطرب أمر جرجان لأن ماكان ابن كالي اعتقل بها أبا علي الأطروش بنظر أخيه ابن كالي، فوثب الأطروش على أخيه أبي الحسن وقتله وملك جرجان.

واستقدم أسفار بن شيرويه فقدم وضبط أمره، وسار إليهم ماكان من طبرستان في جيوشه فهزموه، واتبعوه إلى طبرستان فملكوها، وأقاموا بها.

وهلك أبو علي بن الأطروش بطبرستان، فعاد ماكان بن كالي وأخرج أسفار بن شيرويه من طبرستان.

ثم زحف أسفار إلى الداعي وماكان والتقوا على السيارية فانهزم الداعي وماكان وقتل الداعي.

واستولى أسفار على طبرستان وجرجان والري وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرخ.

ودعا للسعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان واستعمل على آمد هارون بن بهرام يريد استخلاصه لنفسه، لأن هارون كان يخطب لأبي جعفر من ولد الأطروش فولاه آمد وزوجه ببعض نساء الأعيان فبنى بها.

وحضر عرسه أبو جعفر وغيره من العلويين، فهجم عليه أسفار يوم العرس فقبض على أبي جعفر والعلويين وحملهم إلى بخارى فاعتقلوا بها، واستفحل أمر أسفار وانتقض على السعيد صاحب خراسان وعلى الخليفة المقتدر.

وسار السعيد من بخارى إلى نيسابور لمحاربته وأشار عليه وزيره محمد بن مطرف الجرجاني بطاعة السعيد، وخوفه منه، فقبل إشارته ورجع إلى طاعة السعيد، وقبل شروطه من حمل المال وغيره ثم انتقض عليه مرداويج واستدعى ماكان من طبرستان وهزم أسفار وقتله، وملك ما بيده من الأعمال كما يذكر في أخبار الديلم.

ثم ملك طبرستان وجرجان من يد ماكان، فاستمد ماكان السعيد فأمده بأبي علي بن محمد المظفر فهزمها مرداويج، وعاد أبو علي إلى نيسابور وماكان إلى خراسان.

خروج أولاد الأمير أحمد بن إسماعيل على أخيهم السعيد

كان السعيد نصر بن أحمد لما ولي استراب بإخوته، وكانوا ثلاثة: أبو زكريا يحيى وأبو صالح منصور وأبو إسحاق إبراهيم أولاد الأمير أحمد بن إسماعيل، فحبسهم في القندهان ببخارى ووكل بهم.

فلما سار السعيد إلى نيسابور سنة خمس عشرة فتقوا السجن وخرجوا منه على يد رجل خباز من أصفهان يسمى أبا بكر، داخلهم في محبسهم بتسهيل نفقتهم التي كانت على يده.

وجاء إلى القندهان قبل يوم الجمعة الذي كان ميقاتاً لفتحه، وأقام عندهم مظهراً للزهد والدين، وبذل للبواب دنانير على أن يخرجه ليلحق الصلاة في الجماعة، ففتح له الباب وقد أعدهم جماعة للوثوب، فحبسوا البواب، وأخرجوا أولاد الأمير أحمد ومن معهم في الحبس من العلويين والديلم والعيارين.

واجتمع إليهم من كان وافقهم من العسكر والقواد ورأسهم شروين الجبلي، وبايعوا يحيى ابن الأمير أحمد، ونهبوا خزائن السعيد وقصوره.

وقدم يحيى أبا بكر الخباز، وبلغ الخبر إلى السعيد فعاد من نيسابور إلى بخارى.

وكان أبو بكر محمد بن المظفر بن محتاج صاحب خراسان مقيماً بجرجان، فاستدعى ماكان بن كالي وصاهره، وولاه نيسابور فسار إليها.

ولما جاء السعيد إلى بخارى اعترضه أبو بكر الخباز عند النهر فهزمه السعيد، وأسره ودخل بخارى فعذبه وأحرقه في تنوره الذي كان يخبز فيه.

ولحق يحيى بسمرقند ثم مر بنواحي الصغانيان، وبها أبو علي بن أحمد بن أبي بكر بن المظفر بن محتاج صاحب خراسان مقيماً بجرجان، فاستدعى ماكان بن كالي إلى جرجان، ولقوا بها محمد بن الياس، وقوي أمره، فلما جاء يحيى إلى نيسابور خطب له وأظهر دعوته.

ثم قصدهم السعيد فافترقوا، ولحق ابن الياس بكرمان، ولحق يحيى وقراتكين ببست والرخج، ووصل السعيد إلى نيسابور سنة عشرين وثلاثمائة واصطلح قراتكين وأمنه وولاه بلخ، وذهبت الفتنة.

وأقام السعيد بنيسابور إلى أن استأمن إليه أخواه يحيى ومنصور وحضرا عنده وهلكا، وفر إبراهيم إلى بغداد، ومنها إلى الموصل، وهلك قراتكين ببست، وصلحت أمور الدولة.

وكان جعفر بن أبي جعفر بن داود والياً لبني سامان على كل الختل، فاستراب به السعيد، وكتب إلى أبي علي أحمد بن أبي بكر محمد بن المظفر وهو بالصغانيان أن يسير إليه، فسار إليه وحاربه وكسره، وجاء به إلى بخارى فحبس بها، فلما فتق السجن خرج مع يحيى وصحبهم.

ثم لما رأى تلاشي أموره استأذنه في المسير إلى الختل فأذن له فسار إليها، وأقام بها، ورجع إلى طاعة السعيد سنة ثمان عشرة وصلح حاله.

(والختل بخاء معجمة مضمومة وتاء مثناة فوقانية مشددة مفتوحة).

ولاية ابن المظفر على خراسان

كان أبو بكر محمد بن المظفر والياً للسعيد نصر على جرجان.

ولما استفحل أمر مرداويج بالري كما يأتي في أخبار الديلم، خرج عنها ابن المظفر ولحق بالسعيد نصر في نيسابور وهو مقيم بها، فسار السعيد في عساكره نحو جرجان، ووقعت المكاتبة بين محمد بن عبيد الله البلغمي مدبر دولته، وبين مطرف بن محمد، واستماله محمد فمال إليه مطرف وقتله سلطانه مرداويج.

ثم بعث محمد ينتصح لمرداويج ويذكره نعمة السعيد عنده في اصطناعه وتوليته، وتطوق العار في ذلك المطرف الوزير الهالك ويهول عليه أمر السعيد ويخوفه ويشير عليه بمسالمة جرجان إليه، وصالحه السعيد عليها.

ولما فرغ السعيد من أمر جرجان وأحكمه استعمل محمد بن المظفر بن محتاج على جيوش خراسان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ورد إليه تدبير الأمور بجميع نواحيها، وسار إلى كرسي ملكه ببخارى واستقر بها.

استيلاء السعيد على كرمان

كان محمد بن الياس من أصحاب السعيد، ثم سخطه وحبسه، وشفع فيه محمد بن عبيد الله البلغمي فأطلقه، وسيره محمد بن المظفر إلى جرجان.

ثم سار إلى يحيى واخوته عندما توثبوا ببخارى فكان معه في الفتنة، وخطب له بنيسابور كما مر.

فلما زحف السعيد إليهم فارق يحيى ولحق بكرمان، واستولى عليها.

ثم خرج إلى بلاد فارس وبها ياقوت مولى الخلفاء فوصل إليه بأصطخر يريد أن يستأمن له، وأطلع ياقوت على مكره، فرجع كرمان ثم بعث السعيد ماكان بن كالي في العساكر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وقاتل ابن الياس وهزمه وملك كرمان بدعوة السعيد نصر بن أحمد وسار الياس إلى الدينور.

ثم رجع ماكان عن كرمان على ما نذكره بعد، فرجع إليها ابن الياس، وسبب خروج ماكان أن السعيد بعد قتل مرداويج كتب إليه وإلى محمد بن المظفر صاحب خراسان أن يقصد جرجان والري وبها وشمكير أخو مرداويج، فجاء ماكان على المفازة ووصل إلى نيسابور بعد أن كان محمد بن المظفر قد استولى عليها، بعث إليه مدداً فهزمتهم عساكر وشمكير فأقصر ماكان عن حربهم، وأقام بنيسابور وجعلت ولايتها له، وذلك أول سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ثم صفت كرمان لمحمد بن الياس بعد حروب مع جيش نصر كان له الظفر فيها آخراً.

استيلاء ماكان على كرمان وانتقاضه

لما ملك مانحين جرجان وأقام ماكان بنيسابور وجعلت ولايتها له وهلك مانحين لأيام من دخوله جرجان، استنفر محمد المظفر ماكان للمسير إلى جرجان فاعتل بالخروج بجميع أصحابه وسار إلى أسفرايين، فأنفذ عسكراً إلى جرجان واستولى عليها.

ثم انتقض وسار إلى نيسابور وبها محمد بن المظفر وكان غير مستعد للحرب فسار نحو سرخس، ودخل ماكان نيسابور سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ثم رجع عنها خوفاً من اجتماع العساكر.

ولاية علي بن محمد على خراسان وفتحه جرجان

كان أبو بكر محمد بن المظفر بن محتاج صاحب خراسان من ولاة السعيد عليها سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة فلما كانت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة اعتل أبو بكر وطال به مرضه، وقصد السعيد راحته فاستقدم ابنه أبا علي من الصغانيان، وبعثه أميراً على خراسان واستدعى أباه أبا بكر فلقي ابنه أبا علي على ثلاث مراحل من نيسابور فوصاه وحمله حملاً من سياسته.

وسار إلى بخارى ودخل ابنه أبو علي نيسابور من السنة فأقام بها أياماً.

ثم سار في محرم سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى جرجان وبها ماكان بن كالي مستنقضاً على السعيد، وقد غوروا المياه في طريقه فسلك إليهم غمرة حتى نزل على فرسخ من جرجان، وحاصرها وضيق عليها وقطع الميرة عنها حتى جهدهم الحصار.

وبعث ماكان بن كالي إلى وشمكير وهو بالري، فأمده بقائد من قواده فلما وصل إلى جرجان شرع في الصلح بينهما لينجو فيه ماكان فتم ذلك، وهرب ماكان إلى طبرستان واستولى أبو علي على جرجان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة واستخلف عليها إبراهيم بن سيجور الدواني.

استيلاء أبي علي على الري وقتل ماكان بن كالي

ولما ملك أبو علي جرجان أصلح أمورها.

ثم استخلف عليها إبراهيم بن سيجور وسار إلى الري في ربيع سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وبها وشمكير بن زياد أخو مرداويج قد تغلب عليها من بعد أخيه.

وكان عماد الدولة وركن الدولة ابنا بويه يكاتبان أبا علي صاحب خراسان، ويستحثانه لقصد الري بأن أبا علي لا يقيم بها لسعة ولايته فتصفو لهما.

فلما سار أبو علي لذلك بعث وشمكير إلى ماكان بن كالي يستنجده، فسار إليه من طبرستان وسار أبو علي، وجاءه مدد ركن الدولة بن بويه والتقوا بنواحي الري فانهزم وشمكير وماكان.

ثم ثبت ماكان، ووقف مستميتاً فأصابه سهم فقتله، وهرب وشمكير إلى طبرستان فأقام بها واستولى أبو علي على الري سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وأنفذ رأس ماكان والأسرى معه إلى بخارى فأقاموا حتى دخل وشمكير في طاعة بني سامان.

وسار إلى خراسان سنة ثلاثين وثلاثمائة واستوهبهم الأسرى فأطلقوا له وبقي الرأس ببخارى ولم يحمل إلى بغداد.

استيلاء أبي علي على بلد الجبل

ولما ملك أبو علي بن محتاج صاحب خراسان بلد الري والجبل من يد وشمكير، وأقام بها، دعوة السعيد نصر بعث العساكر إلى بلد الجبل ففتحها، واستولى على زنجان وأبهر وقزوين وقم وكرخ وهمذان ونهاوند والدينور إلى حدود حلوان، ورتب فيها العمال وجبى الأموال.

وكان الحسن بن الفيرزان بسارية وهو ابن عم ماكان بن كالي وكان وشمكير يطمع في طاعته له وهو يتمنع، فقصده وشمكير وحاصره بسارية وملكها عليه.

واستنجد الحسن أبا علي بن محتاج فسار معه لحصار وشمكير بسارية سنة ثلاثين وثلاثمائة، وضيق عليه حتى سأل الموادعة، فصالحه أبو عليّ على طاعة السعيد نصر، وأخذ رهنه، ورحل عنه إلى جرجان سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

ثم بلغه موت السعيد فعاد أبو علي إلى خراسان فملكها وراسله الحسن بن الفيرزان يستميله ورد عليه ابنه سلار الرهينة ليستعين به على الخراسانية، فوعده وأطمعه.

ولما ملك وشكمير الري طمع فيه بنو بويه لأنه كان قد اختل أمره بمحادثته مع أبي علي، فسار الحسن بن الفيرزان إلى الري، وقاتل وشمكير فهزمه، واستأمن إليه الكثير من جنده.

وسار وشمكير إلى الري فاعترضه الحسن بن الفيرزان من جرجان وهزمه إلى خراسان، وراسل الحسن ركن الدولة وتزوج بنته واتصل ما بينهما.

وفاة السعيد نصر وولاية ابنه نوح

ثم أصاب السعيد نصراً صاحب خراسان وما وراء النهر مرض السل، فاعتل ثلاثة عشرة شهراً ومات في شعبان سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة لثلاثين سنة من ولايته.

وكان يؤثر عنه الكرم والحلم، وأخلص في مرضه التوبة إلى أن توفي.

ولما مات ولي مكانه ابنه نوح، وكان يؤثر الكرم والحلم عنه، وبايعه الناس ولقب الحميد، وقام بتدبير ملكه أبو الفضل أحمد بن حويه وهو من أكابر أصحاب أبيه، كان أبوه السعيد ولى ابنه إسماعيل بخارى في كفالة أبي الفضل وولايته، فأساء السيرة مع نوح وحقد له ذلك.

وتوفي إسماعيل في حياة أبيه، وكان يؤثر أبا الفضل فحذره من ابنه نوح.

فلما ولي نوح سار أبو الفضل من بخارى وعبر جيحون إلى آمد.

وكان بينه وبين أبي علي بن محتاج صهر، فبعث إليه يخبره بقدومه فنهاه عن القدوم عليه.

ثم كتب له نوح بالأمان وولاه سمرقند وكان على الحاكم صاحب الدولة ولا يلتفت إليه، والآخر يحقد عليه ويعرض عنه.

ثم انتقض عبد الله بن أشكام بخوارزم على الأمير نوح فسار من بخارى إلى مرو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وبعث إليه جيشاً مع إبراهيم بن فارس فمات في الطريق.

واستجار ابن أشكام بملك الترك، وكان ابنه محبوساً ببخارى فبعث إليه نوح بإطلاق ابنه على أن يقبض على ابن أشكام، وأجابه ملك الترك لذلك.

ولما علم بذلك ابن أشكام عاد إلى طاعة نوح وعفا عنه

وأكرمه.

استيلاء أبي علي على الري ودخول جرجان في طاعة نوح

ثم إن الأمير نوحاً سار إلى مرو وأمر أبا علي بن محتاج أن يسير بعساكر خراسان إلى الري وينزعها من يد ركن الدولة بن بويه فسار لذلك، ولقي في طريقه وشمكير وافداً على الأمير نوح فبعثه إليه.

وسار أبو علي إلى بسطام فاضطرب جنوده، وعاد عنه منصور بن قراتكين من أكابر أصحاب نوح، فقصدوا جرجان وصدهم الحسن بن الفيرزان فانصرفوا إلى نيسابور، وسار إلى الأمير نوح بمرو فأعاده وأمده بالعساكر.

وسار من نيسابور في منتصف ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وعلم ركن الدولة بكثرة جموعه، فخرج من الري واستولى أبو علي عليها، وعلى سائر أعمال الجبال، وأنفذ نوابه إلى الأعمال وذلك في رمضان من سنته.

ثم سار الأمير نوح من مرو إلى نيسابور، وأقام بها، ووضع جماعة من الغوغاء والعامة يستغيثون من أبي علي ويشكون سوء السيرة منه ومن نوابه، فولى على نيسابور إبراهيم بن سيجور وعاد عنها وقصد أن يقيم أبو علي بالري لحسن دفاعه عنها وينقطع طمعه عن خراسان، فاستوحش أبو علي للعزل وشق عليه.

وبعث أخاه أبا العباس الفضل بن محمد إلى كور الجبال، وولاه همذان، وخلافة العساكر، فقصد الفضل نهاوند والدينور، واستولى عليها واستأمن إليه رؤساء الأكراد بتلك النواحي، وأعطوا رهنهم على الطاعة وكان وشمكير لما وفد على الأمير نوح بمرو كما قدمناه استمده على جرجان، فأمده بعسكر، وبعث إلى أبي علي بمساعدته، فلقي أبا علي منصرفه في المرة الأولى من الري إلى نيسابور، فبعث معه جميع من بقي من العسكر، وسار وشمكير إلى جرجان وقاتل الحسن بن الفيرزان فهزمه واستولى على جرجان بدعوة نوح بن السعيد وذلك في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

انتقاض أبي علي وولاية منصور بن قراتكين على خراسان

قد تقدم لنا أن الأمير نوحاً عزل أبا علي بن محتاج عن خراسان، وكان من قبلها عزله عن ديوان الجند وهو لنظره، وبعث من يستعرض الجند فمحا وأثبت وزاد في العطاء ونقص فاستوحش لذلك كله، واستوحش الجند من التعرض إليهم بالإسقاط، ولأرزاقهم بالنقصان.

وخلص بعضهم إلى بعض بالشكوى، واتفقوا في سيرهم إلى الري وهم بهمذان على استقدام إبراهيم بن أحمد أخي السعيد الذي كان قد هرب أمامه إلى الموصل كما تقدم.

وظهر أبو علي على شأنهم، فنكر عليهم فتهددوه، وكاتبوا إبراهيم واستدعوه، وجاء إليهم بهمذان في رمضان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وكاتبه أبو علي، وكتب أخوه الفضل سراً إلى الأمير نوح بذلك، ونمي خبر كتابه إلى أخيه أبي علي فقبض عليه، وعلى متولي الديوان.

وسار إلى نيسابور، واستخلف على الري والجبل، وبلغ الخبر إلى الأمير نوح، فنهض إلى مرو واضطرب الناس عليه، وشكوا من محمد بن أحمد الحاكم مدبر ملكه، ورأوا أنه الذي أوحش أبا علي وأفسد الدولة، فنقموا ذلك عليه، واعتلوا عليه فدفع إليهم الحاكم فقتلوه منتصف خمس وثلاثين وثلاثمائة.

ووصل أبو علي إلى نيسابور وبها إبراهيم بن سيجور ومنصور بن قراتكين وغيرهما من القواد فاستمالهم، وساروا معه، ودخلها في محرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ثم ارتاب بمنصور بن قراتكين فحبسه، وسار من نيسابور ومعه العم إبراهيم إلى مرو، وهرب أخوه الفضل في طريقه من محبسه، ولحق بقهستان.

ولما قاربوا مرو اضطرب عسكر الأمير نوح، وجاء إليهم أكثرهم، واستولى عليها وعلى طخارستان، وبعث نوح العساكر من بخارى مع الفضل أبي علي إلى الصغانيان فأقام بها، ودس إليهم أبو عليّ فقبضوا على الفضل وبعثوا به إلى بخارى وعاد أبو علي من طخارستان إلى الصغانيان فأقاموا بها في ربيع سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وقاتل العساكر فغلبوه، ورجع إلى الصغانيان، ثم تجاوزها وأقام قريباً منها، ودخلتها العساكر فخربوا قصوره ومساكنه، وخرجوا في اتباعه، فرجع وأخذ عليهم المسالك، فضاقت أحوالهم، وجنحوا إلى الصلح معه على أن يبعث بابنه أبي المظفر عبد الله إلى الأمير نوح رهينة، فانعقد ذلك منتصف سنة

سبع وثلاثين وثلاثمائة، وبعث بابنه إلى بخارى فأمر نوح بلقائه، وخلع عليه وخلطه بندمائه، وسكنت الفتنة.

قال ابن الأثير: هذا الذي ذكره مؤرخو خراسان في هذه القصة، وأما أهل العراق فقالوا: إن أبا علي لما سار نحو الري استمد ركن الدولة بن بويه أخاه عماد الدولة فكتب يشير عليه بالخروج عن الري وملكها أبو علي، وكتب عماد الدولة إلى نوح سراً يبذل له في الري في كل سنة مائة ألف دينار وزيادة على ضمان أبي علي، ويعجل له ضمان سنة وسجله عليه.

ثم دس عماد الدولة إلى نوح في القبض على أبي علي وخوفه منه، فأجاب الأمير نوح إلى ذلك، وبعث تقرير الضمان، وأخذ المال، ودس ركن الدولة إلى أبي علي بهمذان ورجع به على خراسان.

وعاد ركن الدولة إلى الري واضطربت خراسان، ومنع عماد الدولة مال الضمان خوفاً عليه في طريقه من أبي علي، وبعث إلى أبي علي يحرضه على اللقاء ويعده بالمدد.

وفسد ما بينه وبين إبراهيم، وانقبض عنه، وأن الأمير نوحاً سار إلى بخارى عند مفارقتها أبي علي.

وحارب إبراهيم العم ففارقه القواد إلى الأمير نوح فأخذ أسيراً وسمله الأمير نوح وجماعة من أهل بيته والله أعلم.

انتقاض ابن عبد الرزاق بخراسان

كان محمد بن عبد الرزاق عاملاً بطوس وأعمالها وكان أبو علي استخلفه بنيسابور عندما زحف منها إلى الأمير نوح، فلما راجع الأمير نوح ملكه انتقض ابن عبد الرزاق بخراسان وولى الأمير نوح على خراسان محمد بن عبد الرزاق واتفق وصول وشمكير منهزماً من جرجان أمام الحسن بن فيرزان، واستمد الأمير نوحاً فأخرج معه منصوراً في العساكر وأمرهما بمعاجلة ابن عبد الرزاق، فخرج سنة ست وثلاثين وثلاثمائة إلى استراباذ ومنصور في اتباعه فلحق بجرجان واستأمن إلى ركن الدولة بن بويه ومضى إلى الري.

وسار منصور بن قراتكين إلى طوس، وحاصر رافع إلى قلعة أخرى فحاصره منصور بها حتى استأمن إليه، وجمع ما معه فانبه أصحابه.

وخرج معم فافترقوا في الجبال واحتوى منصور على ما وجد بالحصن وحمل عيال محمد بن عبد الرزاق وأمه إلى بخارى فاعتقلوا بها.

ولما وصل محمد بن عبد الرزاق إلى ركن الدولة بن بويه أفاض عليه العطاء وسرحه إلى محاربة المرزبان بأذربيجان كما يأتي.

استيلاء ركن الدولة بن بويه على طبرستان وجرجان ومسير العساكر إلى جرجان والصلح مع الحسن بن الفيرزان

ولما وقع من الاضطراب ما وقع بخراسان، اجتمع ركن الدولة بن بويه والحسن بن الفيرزان، وقصدوا بلاد وشمكير فهزموه، وملك ركن الدولة طبرستان.

وسار إلى جرجان فملكها، وأقام بها الحسن بن الفيرزان.

واستأمن قواد وشمكير إليهم فأمنوهم وسار وشمكير إلى خراسان مستنجداً بصاحب خراسان، فسار معه منصور بن قراتكين في عساكر خراسان إلى جرجان، وبها الحسن بن الفيرزان.

واسترهن ابنه، ثم أبلغه عن الأمير نوح ما أقلعه فأعاد على الحسن ابنه وعاد إلى نيسابور وأقام وشمكير بأرزن.

مسير ابن قراتكين إلى الري وعوده إليه

ثم سار منصور بن قراتكين سنة تسع وثمانين وثلاثمائة إلى الري بأمر الأمير نوح لغيبة ركن الدولة بن بويه في نواحي فارس، فوصل إلى الري، واستولى عليها وعلى الجبل إلى قرميسين فكبس الذين بها من العسكر وهم غازون وأسروا مقدمهم محكماً وحبس ببغداد، ورجع الباقون إلى همذان.

فسار سبكتكين نحوهم، وجاء ركن الدولة إثر الانهزام، وشاور وزيره أبا الفضل بن العميد فأشار عليه بالثبات.

ثم أجفل عسكر خراسان إلى الري لانقطاع الميرة عنهم، وكان ذلك سواء بين الفريقين، إلا أن الديلم كانوا أقرب إلى البداوة، فكانوا أصبر على الجوع والشظف، فركب ركن الدولة واحتوى على ما خلفه عسكر خراسان.

وفاة ابن قراتكين ورجوع أبي علي بن محتاج إلى ولاية خراسان

ثم توفي منصور بن قراتكين صاحب خراسان بالري بعد عوده من أصفهان في ربيع سنة أربعين، وحملت جنازته إلى أسفيجاب فدفن بها عند والده، فولى الأمير نوح على خراسان أبا علي بن محتاج، وأعاده إلى نيسابور.

وقد كان منصور يستقيل من ولاية خراسان لما يلقى بها من جندها، ويستعفي نوحاً المرة بعد المرة، وكان نوح يعد أبا علي بعوده إلى ولايته.

فلما توفي منصور بعث إليه بالخلع واللواء، وأمره بالمسير وأقطعه الري وأمره بالمسير إليها فسار عن الصغانيان في رمضان سنة أربعين وثلاثمائة واستخلف مكانه ابنه أبي منصور وانتهى إلى مرو فأقام إلى أن أصلح أمر خوارزم وكانت شاغرة.

ثم سار إلى نيسابور فأقام بها.

ولما كانت سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة كتب وشمكير إلى الأمير نوح بأمر أبا علي بن محتاج بالمسير معه في عساكر خراسان، فساروا في ربيع من السنة، وخام ركن الدولة عن لقائهم، فامتنع بطزل وأقام عليه أبو علي عدة شهور يقاتله حتى سئم العسكر، وعجفت دوابهم فمال إلى الصلح، وسعى بينهما فيه محمد بن عبد الرزاق المقدم ذكره، فتصالحا على مائتي ألف دينار ضريبة يعطيها ركن الدولة في كل سنة، ورجع أبو علي إلى خراسان وكتب وشمكير إلى الأمير نوح بأن أبا علي لم ينصح في الحرب، وأن بينه وبين ركن الدولة مداخلة.

وسار ركن الدولة بعد انصراف إلى أبي علي نحو وشمكير فانهزم إلى أسفرايين، واستولى ركن الدولة على طبرستان.

عزل الأمير أبي علي عن خراسان ومسيره إلى ركن الدولة وولاية بكر بن مالك مكانه

ولما تمكنت سعاية وشمكير من أبي علي عند الأمير نوح، كتب إليه بالعزل عن خراسان سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، وكتب إلى القواد بمثل ذلك.

واستعمل على الجيوش مكانه أبا سعيد بكر بن مالك الفرغاني، وبعث أبو علي يعتذر فلم يقبل.

وأرسل جماعة من أعيان نيسابور يسألون إبقاءه فلم يجيبوا، فانتقض أبو علي وخطب لنفسه بنيسابور وكتب نوح إلى وشمكير والحسن بن الفيرزان بأن يتفقا ويتعاضدا على أولياء ركن الدولة حيث كانوا ففعلا ذلك، فارتاب أبو علي بأمره ولم يمكنه العود إلى الصغانيان، ولا المقام بخراسان، فصرف وجهه إلى ركن الدولة واستأذنه في المسير إليه فأذن.

وسار أبو علي إلى الري سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة فأكرمه ركن الدولة وأنزله معه واستولى بكر على خراسان.

وفاة الأمير نوح وولاية ابنه عبد الملك

ثم توفي الأمير نوح بن نصر ولقبه الحميد في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة لاثنتي عشرة سنة من ولايته، وولي بعده ابنه عبد الملك.

وقام بأمره بكر بن مالك الفرغاني فلما قرر أمر دولته، وثبت ملكه، أمر بكراً بالمسير إلى خراسان فكان من شأنه مع أبي علي ما قدمناه.

مسير العساكر من خراسان إلى الري وأصفهان

ثم زحفت عساكر خراسان إلى الري سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وبها ركن الدولة بن بويه قدم إليها من جرجان، واستمد أخاه معز الدولة ببغداد، فأمده بالحاجب سبكتكين.

وبعث بكر عسكراً آخر من خراسان مع محمد بن ماكان على طريق المفازة إلى أصفهان.

وكان بأصفهان أبو منصور علي بن بويه بن ركن الدولة فخرج عنها بحرم أبيه وفي خزائنه.

وانتهى إلى خالنجان، ودخل محمد بن ماكان أصفهان وخرج في اتباع ابن بويه، وأدرك الخزائن فأخذها وسار فأدركه.

ووافق وصول أبي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة في تلك الساعة فقاتله ابن ماكان وهزم أصحابه، وثبت ابن العميد، وشغل عسكر ابن ماكان بالنهب، فاجتمع على ابن العميد لمة من العسكر فاستمات، وحمل على عسكر ابن ماكان فهزمهم وأسر ابن ماكان.

وسار ابن العميد إلى أصفهان فملكها، وأعاد حرم ركن الدولة وأولاده إلى حيث كانوا من أصفهان.

ثم بعث ركن الدولة إلى بكر بن مالك صاحب الجيوش بخراسان وقرر معه الصلح على مال يحمله ركن الدولة إليه على الري وبلد الجبل، فتقرر ذلك بينهما، وبعث إليه من عند أخيه ببغداد بالخلع واللواء بولاية خراسان، فوصلت إليه في ذي القعدة سنة أربع وأربعين وثلاثمائة.

وفاة عبد الملك بن نوح صاحب ما وراء النهر وولاية أخيه منصور

ثم توفي الأمير عبد الملك لإحدى عشرة خلت من شوال سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، لسبع سنين من ولايته.

وولي بعده أخوه أبو الحارث منصور بن نوح، واستولى ركن الدولة لأول أيامه على طبرستان وجرجان فملكهما، وسار وشمكير عنها فدخل بلاد الجبل.

مسير العساكر من خراسان إلى الري ووفاة وشمكير

قد ذكرنا من قبل أن وشمكير كان يقدح في عمال بني سامان بأنهم لا ينصحون لهم، ويداخلون عدوهم من الديلم.

ووفد أبو علي بن الياس صاحب كرمان على الأمير أبي الحارث منصور مستجيشاً به على بني بويه، فحرضه على قصد الري وحذره من الاستمالة في ذلك إلى عماله كما أخبره وشمكير، وبعث إلى الحسن بن الفيرزان بالنفير مع عساكره.

ثم أمر صاحب جيوش خراسان أبا الحسن بن محمد بن سيجور الدواني بالمسير إلى الري وأوصاه بالرجوع إلى رأي وشمكير.

وبلغ الخبر إلى ركن الدولة، فاضطرب وبعث بأهله وولده إلى أصفهان.

واستمد ابنه عضد الدولة بفارس، وبختيار ابن أخيه عز الدولة ببغداد، فبادر عضد الدولة إلى إمداده وبعث العساكر على طريق خراسان يريد قصدها لخلوها من العسكر، فأجفلت عساكر خراسان، وانتهوا إلى الدامغان، فأقاموا، وبرز ركن الدولة نحوهم في عساكره من الري، وبينما هم في ذلك ركب وشمكير يوماً ليتصيد فاعترضه خنزير، فأجفل فرسه وسقط إلى الأرض وانهشم ومات، وذلك في المحرم سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وانتقض ما كانوا فيه، وقام بسنون بن وشمكير مقام أبيه، وراسل ركن الدولة وصالحه، فأمده ركن الدولة بالمال والرجال.

خبر ابن الياس بكرمان

كان أبو علي بن الياس قد ملك كرمان بدعوة بني سامان، واستبد بها وأصابه فالج وأزمن به.

وكان له ثلاثة من الولد: اليسع والياس وسليمان فعهد إلى اليسع وبعده الياس وأمر سليمان بالعود إلى أرضهم ببلاد الصغد، يقيم بها فيما لهم هنالك من الأموال لعداوة كانت بين سليمان واليسع فخرج سليمان لذلك، واستولى على السيرجان، فأنفذ إليه أبوه أبو علي ابنه الآخر في عسكر، وأمره بإجلائه عن البلاد، ولا يمكنه من قصد الصغد إلى طلبها، فسار وحاصره.

ولما ضاق الحصار على سليمان جمع أمواله ولحق بخراسان.

وملك اليسع السيرجان وسار إلى خراسان.

ثم لحق أبو علي ببخارى ومعه ابنه سليمان فأكرمه الأمير أبو الحارث وقربه.

وأغزاه أبو علي بالري، وتجهيز العساكر إليه كما ذكرناه، وأقام عنده إلى أن توفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة كما نذكر في أخباره.

ولحق اليسع ببخارى فأقام بها، ثم سعى سليمان عند الأمير أبي الحارث منصور في المسير إلى كرمان وأطمعه في ملكها، وأن أهلها في طاعته، فبعث معه عسكراً.

ولما وصل أطاعه أهل نواحيها من القمص والبولص وجميع المتقضين على عضد الدولة، واستفحل أمره فسار إليه كورتكين عامل عضد الدولة بكرمان، وحاربه ونزعت عساكره عنه، فانهزم وقتل معه ابنا أخيه اليسع وهما بكر والحسين وكثير من القواد وصارت كرمان للديلم.

انعقاد الصلح بين منصور بن نوح وبين بني بويه

ثم انعقد الصلح بين الأمير أبي الحارث منصور بن نوح صاحب خراسان وما وراء النهر، وبين ركن الدولة وزوجه ابنته،

وحمل إليه الهدايا والتحف ما لم يحمل مثله.

وكتب بينهم كتاب الصلح، شهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق، وتم ذلك على يد أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور صاحب الجيوش بخراسان من جهة الأمير أبي الحارث في سنة إحدى وستين وثلاثمائة.

وفاة منصور بن نوح وولاية ابنه نوح

ثم توفي الأمير أبو الحارث منصور ببخارى منتصف سنة ست وستين وثلاثمائة، وولي بعده ابنه أبو القاسم نوح صبياً لم يبلغ الحلم، فاستوزر أبا الحسن العتبي، وجعل على حجابة بابه مولاه أبا العباس قاسماً، وكان من موالي أبي الحسن العتبي فأهداه إلى الأمير أبي صالح وشركهما في أمر الدولة أبو الحسن فائق، وأقر على خراسان أبا الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور واطردت أمور الدولة على استقامتها.

عزل ابن سيجور عن خراسان وولاية أبي العباس تاش

قد تقدم لنا شأن خلف بن أحمد الليثي صاحب سجستان وانتصاره بالأمير منصور بن فرج على قريبه طاهر بن خلف بن أحمد بن الحسين المنتقض عليه لسنة أربع وخمسين وثلاثمائة وأنه مده بالعسكر ورده إلى ملكه.

ثم انتقض طاهر ثانياً بعد انصراف العسكر عن خلف، وبعث مستجيشاً فأمده ثانياً.

وقد هلك طاهر وولي ابنه الحسين فحاصره خلف، وأرهقه الحصار فنزل لخلف عن سجستان ولحق بالسعيد نوح بن منصور.

وأقام خلف دعوة نوح في سجستان وحمل المال متقرراً عليه كل سنة.

ثم قصر في الطاعة والخدمة، وصار يتلقى الأوامر بالإعراض والإهمال فرمي بالحسين بن طاهر في جيوش خراسان وحاصره بقلعة أرك وطال انحصاره وأمده العتبي الوزير بجماعة القواد كالحسن بن مالك وبكتاش فأقاموا عليه سبع سنين حتى فنيت الرجال والأموال.

وكان ابن سيجور بخراسان وكانت أيامه قد طالت بها فلا يطيع السلطان إلا فيما يراه. وكان خلف بن أحمد صاحبه فلم يغن عليه، وعوتب في ذلك، وعزل عن خراسان بأبي العباس تاش فكتب يتعذر ورحل إلى قهستان ينتظر جواب كتابه، فجاءه كتاب الأمير نوح بالمسير إلى سجستان فسار، واستنزل خلفاً من معقله للحسين بن طاهر، وسار خلف إلى حصن الطاق، وداخله ابن سيجور وأقام خطبة لرضا نوح به وانصرف.

ولما ولى الأمير نوح الحاجب أبا العباس تاش قيادة خراسان سار إليها سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة فلقي هنالك فخر الدولة ابن ركن الدولة، وشمس المعالي قابوس بن وشمكير ناجين من جرجان، وكان من خبرهما أن عضد الدولة لما استولى على بلاد أخيه فخر الدولة وهزمه، ولحق فخر الدولة بقابوس، وبعث عضد الدولة في طلبه ترغيباً وترهيباً فأجاره قابوس، وبعث عضد الدولة في طلبه أخاه مؤيد الدولة في العساكر إليهم، ولقيهم قابوس فهزموه فسار إلى بعض قلاعه، واحتمل منها ذخائره ولحق بنيسابور.

ولحق به فخر الدولة ناجياً من المعركة فأكرمهم أبو العباس تاش، وأنزلهم خير منزل، وأقاموا عنده واستولى مؤيد الدولة على جرجان وطبرستان.

مسير أبي العباس في عساكر خراسان إلى جرجان ثم مسيره إلى بخارى

ولما وصل قابوس بن وشمكير وفخر الدولة بن ركن الدولة إلى أبي العباس تاش مستجيرين بالأمير نوح على استرجاع جرجان وطبرستان من يد مؤيد الدولة، كتب بذلك إلى الأمير نوح ببخارى فأمره بالمسير معهما، وإعادتهما إلى ملكهما، فسار معهما لذلك في العساكر، ونازلوا جرجان شهرين حتى ضاق عليهم الحصار، وداخل مؤيد الدولة فائقاً من قواد خراسان ورغبه فوعده بالانهزام.

ثم خرج مؤيد الدولة من جرجان في عساكره مستميتاً فهزمهم، ورجعوا إلى نيسابور وكتبوا إلى بخارى بالخبر فأجابهم الأمير نوح بالوعد.

واستنفر العساكر من جميع الجهات إلى نيسابور للمسير مع قابوس وفخر الدولة، فاجتمعوا هنالك.

ثم جاء الخبر بقتل الوزير أبي الحسن العتبي، وكان زمام الدولة بيده، فيقال: إن أبا الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور وضع عليه من قتله، وذلك سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ولما قتل

كتب الأمير نوح بن منصور إلى الحاجب أبي العباس تاش يستدعيه لتدبير دولته ببخارى، فسار عن نيسابور إليها وقتل من ظفر به من قتلة أبي الحسن.

رد أبي العباس إلى خراسان ثم عزله وولاية ابن سيجور

ولما سار أبو العباس إلى بخارى وكان أبو الحسن بن سيجور من حين سار إلى سجستان كما مر مقيماً بها، ثم رجع آخراً إلى قهستان.

فلما سار أبو العباس تاش إلى بخارى، وكتب ابن سيجور إلى فائق يطلب مظاهرته على ملك خراسان، أجابه إلى ذلك، واجتمعا بنيسابور واستوليا على خراسان، وسار إليهما أبو العباس تاش في العساكر.

ثم تراسلوا كلهم واتفقوا على أن يكون بنيسابور، وقيادة العساكر لأبي العباس تاش، وبلخ لفائق، وهراة لأبي الحسن بن سيجور، وانصرف كل واحد إلى ولايته.

وكان فخر الدولة بن بويه خلال ذلك معهما بنيسابور ينتظر النجدة إلى أن هلك أخوه مؤيد الدولة بجرجان في شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

واستدعاه أهل دولته للملك فكاتبه الصاحب ابن عباد وغيره فسار إليهم، واستولى على ملك أخيه بجرجان وطبرستان، وكان الأمير نوح لما سار أبو العباس من بخارى إلى نيسابور استوزر مكانه عبد الله بن عزيز، وكانت بينه وبين أبي الحسن العتبي منافسة وعداوة.

ثم لما ولي الوزارة تقدم على عزل أبي العباس عن خراسان وكتب إلى أبي الحسن محمد بن إبراهيم بخراسان بولاية نيسابور.

انتقاض أبي العباس وخروجه مع ابن سيجور ومهلكه

ولما عزل أبو العباس تاش عن خراسان كتب إلى الأمير نوح يستعطفه فلم يجبه، فانتقض.

وكتب إلى فخر الدولة يستمده على ابن سيجور فأمده بالأموال والعسكر مع أبي محمد عبد الله بن عبد الرزاق، وسار إلى نيسابور في عساكره وعساكر الديلم، وتحصن ابن سيجور بنيسابور، وجاءه مدد آخر من فخر الدولة وبرز ابن سيجور للقائهم فهزموه وغنموا منه.

واستولى أبو العباس على نيسابور، وكتب إلى الأمير نوح يستعطفه، ولج ابن عزيز في عزله، ثم ثاب لابن سيجور رأيه، وعادت إليه قوته، وجاءه الأمراء من بخارى مدداً.

وكاتب شرف الدولة أبا الفوارس بن عضد الدولة بفارس يستمده فأمده بألفي فارس مراغمة لعمه فخر الدولة.

فلما كثف جمعه زحف إلى أبي العباس وقاتله فهزمه، ولحق بفخر الدولة ابن بويه بجرجان فأكرمه وعظمه، وترك له جرجان ودهستان وأستراباذ إقطاعاً.

وسار عنها إلى الري، وبعث إليه من الأموال والآلات ما يخرج عن الحد، وأقام أبو العباس بجرجان، ثم جمع العساكر وسار إلى خراسان، فلم يقدر على الوصول إليها وعاد إلى جرجان وأقام بها ثلاث سنين، ومات سنة سبع وسبعين وثلاثمائة.

وقام أهل جرجان بأصحابه لما كانوا يحقدون عليهم من سوء السيرة فقاتلهم أصحابه، واستباحوهم حتى استأمنوا وكفوا عنهم.

ثم افترق أصحابه وسار أكثرهم وهم كبار الخواص والغلمان إلى خراسان، وقد كان صاحبها أبو الحسن سيجور مات فجأة، وقام بأمرها مكانه ابنه أبو علي، وأطاعه إخوته وكبيرهم أبو القاسم، ونازعه فائق الولاية فلحق به أصحاب أبي العباس واستكثر بهم لشأنه.

ولاية أبي علي بن سيجورعلى خراسان

قد تقدم اتفاق أبي الحسن بن سيجور وأبي العباس تاش وفائق على أن تكون نيسابور وقيادة خراسان لتاش، وبلخ لفائق، وهراة لأبي علي بن أبي الحسن سيجور.

ثم عزل تاش بسعاية الوزير ابن عزيز وولى أبو الحسن وكانت بينهما، الحرب التي مر ذكرها.

وانهزم تاش إلى جرجان فاستقر أبو علي بهراة وفائق ببلخ، وكان ابن عزيز يستحث الحسن لقصد جرجان.

ثم عزل ابن عزيز ونفي إلى خوارزم، وقام مكانه أبو علي محمد بن عيسى الدامغاني.

ثم عجز لما نزل بالدولة من قلة الخراج وكثرة المصاريف، فصرف عن الوزارة بأبي نصر بن أحمد بن محمد بن أبي يزيد، ثم

عزل وأعيد أبو علي الدامغاني، وهلك أبو الحسن بن سيجور خلال ذلك، وقام ابنه أبو علي مقامه.

وكاتب الأمير نوح بن منصور يطلب أن يعقد له الولاية كما كانت لأبيه فأجيب إلى ذلك ظاهراً، وكتب لفائق بولاية خراسان، وبعث إليه بالخلع والألوية.

وكان أبو علي يظن أنها له، فلما بدا له من ذلك ما لم يحتسب، جمع عسكره وأغذ السير، وأوقع بفائق ما بين هراة وبوشنج، فانهزم فائق إلى مرو الروذ، وملك أبو علي مرو، ووصله عهد الأمير نوح بقيادة الجيوش وولاية نيسابور وهراة وقهستان ولقبه عماد الدولة، ثم رقاه الأمير نوح.

واستولى على سائر خراسان، واستبد بها على السلطان حتى طلبه نوح في بعض أعمالها لنفقته فمنعه، وأقام مظهراً لطاعته، وخشي غائلة السلطان من طلبة نوح فكاتب بقراخان ملك الترك ببلاد كاشغر وشاغور يغريه ويستحثه لملك بخارى وما وراء النهر على أن يستقر هو بخراسان.

خبر فائق

وأقام بعد انهزامه أمام أبي علي بمرو الروذ حتى اندملت جراحه، واجتمع إليه أصحابه، وسار إلى بخارى قبل أن يستأذن، فارتاب به الأمير نوح فسرح إليه العساكر مع أخي الحاجب، وبكثرزون فانهزم وعبر النهر إلى بلخ، فأقام بها أياماً، وسار إلى ترمذ وكاتب بقراخان يستحثه.

وكتب الأمير نوح إلى والي الجوزجان أبي الحارث أحمد بن محمد الفيرقوني بقصد فائق، فقصده في جموعه، وسرح فائق إليه بعض عسكره فهزمه وعاد إلى بلخ.

وكان طاهر بن الفضل قد ملك الصغانيان على أبي المظفر محمد بن أحمد، وهو واحد خراسان فانقطع أبو المظفر إلى فائق صريخاً، فأمده وسار إلى طاهر بعسكر فائق، واقتتلوا فانهزم طاهر وقتل، وصارت الصغانيان لفائق.

استيلاء الترك على بخارى

ولما خرج الأمير نوح عن بخارى عبر النهر واستقر بآمل الشط، وكاتب أبا علي بن سيجور يستحثه للنصرة، وكاتب فائقاً أيضاً يستصرخه فلم يصرخه أحد منهما.

ويلغه مسير بقراخان عن بخارى فأغذ السير إليها، وعاود الجلوس على كرسي ملكه، وتباشر الناس بقدومه.

ثم بلغه مهلك بقراخان فتزايد سرورهم، ولما عاد الأمير نوح إلى بخارى ندم أبو علي على ما فرط فيه من نصرته، وأجمع الاستظهار بفائق، فأزاحوه عن ملكه وملكوها، ولحق فائق بأبي علي بن سيجور، وتظاهرا على الأمير نوح وذلك سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

عزل أبي علي بن سيجور عن خراسان وولاية سبكتكين

ولما اجتمع أبو علي بن سيجور وفائق على منافرة الأمير نوح وعصيانه، كتب الأمير نوح إلى سبكتكين، وكان أميراً على غزنة ونواحيها يستقدمه لنصره منهما، وإنجاده عليهما، وولاه خراسان.

وكان سبكتكين في شغل عن أمرهم بما هو فيه من الجهاد مع كفار الهند.

فلما جاءه كتاب نوح ورسوله بادر إليه، وتلقى أمره في ذلك، وعاد إلى غزنة فجمع العساكر، وبلغ الخبر أبا علي وفائقاً، فبعثا إلى فخر الدولة بن بويه يستنجدانه، واستعانا في ذلك بوزيره الصاحب بن عباد، فبعث إليهما مدداً من العساكر.

ثم سار سبكتكين وابنه محمود نحو خراسان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

وسار الأمير نوح واجتمعوا ولقوا أبا علي وفائقاً بنواحي هراة، وكان معهما دارا بن قابوس بن وشمكير، فنزع إلى الأمير نوح، وانهزم أصحاب أبي علي وفائق وفتك فيهم أصحاب سبكتكين واتبعوهم إلى نيسابور، فلحقا بجرجان، وتلقاهما فجر الدولة بالهدايا والتحف والأموال، وأنزلهما بجرجان.

واستولى نوح على نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقبه سيف الدولة، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة، وعاد نوح إلى بخارى وترك سبكتكين بهراة ومحمود بنيسابور.

عود ابن سيجور إلى خراسان

لما افترق نوح وسبكتكين طمع أبو علي وفائق في خراسان،

فسار عن جرجان إلى نيسابور في ربيع سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وبرز محمود للقائهما بظاهر نيسابور، وأعجلوه عن وصول المدد من أبيه سبكتكين، وكان في قلة، وانهزم إلى أبيه، وغنموا سواده.

وأقام أبو علي بنيسابور وكان الأمير نوح يستميله ويتلطف في العذر مما كان سبكتكين فلم يجيباه إلى ما طلب.

ظهور سبكتكين وابنه محمود على أبي علي وفائق ومقتل أبي علي

ولما دخل أبو علي نيسابور، وانهزم عنها محمود، جمع سبكتكين العساكر وسار إليه، فالتقوا بطوس، وجاء محمود على أثره مدداً، فانهزم هو وفائق إلى أبيورد، فاتبعهما سبكتكين بعد أن استخلف ابنه محموداً بنيسابور فلحقا بمرو، ثم آمل الشط، وكتبا إلى الأمير نوح يستعطفانه، فشرط على أبي علي أن ينزل بالجرجانية ويفارق فائقاً ففعل.

ونزل قريباً من خوارزم بالجرجانية، فأكرمه أبو عبد الله خوارزم شاه وسكن إليه، وبعث من ليلته من جاء به واعتقله وأعيان أصحابه.

وبلغ الخبر إلى مأمون بن محمد صاحب الجرجانية فاستعظم ذلك، وسار بعساكره إلى خوارزم شاه وافتتح مدينته وتسمى كاش عنوة، وخلص أبا علي من محبسه، وعاد إلى الجرجانية واستخلف بعض أصحابه على بلاد خوارزم.

ولما عاد إلى الجرجانية أخرج خوارزم شاه وقتله بين يدي أبي علي بن سيجور، وكتب إلى الأمير نوح يشفع في أبي علي فشفعه.

واستدعى أبا علي إلى بخارى فسار إليها وأمر الأمراء والعساكر بتلقيه، فلما دخل عليه أمر بحبسه، وشفع سبكتكين فيه فهرب ولحق بفخر الدولة، وأقام عنده.

وأما فائق فلما فارقه أبو علي كما شرط عليه الأمير نوح سار إلى إيلك خان ملك الترك بكاشغر، فأكرمه وكتب إلى نوح يشفع فيه فقبل شفاعته وولاه عليها وأقام بها.

وفاة الأمير نوح وولاية ابنه منصور وولاية بكثرزون على خراسان

ثم توفي الأمير نوح بن منصور منتصف سبع وثمانين وثلاثمائة لإحدى وعشرين سنة من ملكه، وانتقض بموته ملك بني سامان وصار إلى الانحلال.

ولما توفي قام بالملك بعده ابنه أبو الحارث منصور، وتابعه أهل الدولة واتفقوا على طاعته، وقام بتدبير دولته بكثرزون.

واستوزر أبا طاهر محمد بن إبراهيم، وبلغ خبر وفاة نوح إلى إيلك خان، فطمع في ملكهم، وسار إلى سمرقند، وبعث من هنالك فائقاً والخاصة إلى بخارى فاضطرب منصور وهرب عن بخارى وقطع النهر.

ودخل فائق بخارى وأعلم الناس أنه إنما جاء لخدمة الأمير منصور، فبعث مشايخ بخارى بذلك إلى منصور ودخل.

واستقدموه بعد أن أخذوا له مواثيق العهود من فائق، فاطمأن وعاد إلى بخارى، وأقام فائق بتدبير أمره وتحكم في دولته وأبعد بكثرزون إلى خراسان أميراً، وقد كان سبكتكين توفي في شعبان من هذه السنة، ووقعت الفتنة بين ابنيه إسماعيل ومحمود فقدم بكثرزون أيام فتنتهما واستولى على خراسان.

عود أبي القاسم بن سيجور إلى خراسان وخيبته

قد ذكرنا مسير بكثرزون إلى خراسان عند مفره أيام محمود بن سبكتكين من خراسان وأقام عند فخر الدولة، وعند أبيه مجد الدولة واجتمع عنده أصحاب أبيه، وكتب إليه فائق من بخارى يغريه ببكثرزون ويأمره بقصد خراسان ويخرج بكثرزون منها فسار عن جرجان إلى نيسابور، وبعث جيشاً إلى أسفرايين فملكوها من يد أصحاب بكثرزون، ثم تردد السفراء بينهما، ووقع الصلح والصهر وعاد بكثرزون إلى نيسابور.

انتقاض محمود بن سبكتكين وملكه نيسابور ثم خروجه عنها

لما فرغ محمود بن سبكتكين من أمر الفتنة بينه وبين أخيه إسماعيل، واستولى على ملك غزنة، وعاد إلى بلخ وجد بكثرزون

والياً على خراسان كما ذكرناه فبعث إلى الأمير منصور بن نوح يذكر وسائله في الطاعة والمحاباة، ويطلب ولاية خراسان، فاعتذر له عنها وولاه ترمذ وبلخ وما وراءهما من أعمال بست، فلم يرض ذلك، وأعاد الطلب فلم يجب، فسار إلى نيسابور وهرب منها بكثرزون وملكها محمود سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فسار الأمير منصور من بخارى إليه فخرج عنها إلى مروالروذ وأقام بها.

خلع الأمير منصور وولاية أخيه عبد الملك

ولما سار الأمير منصور عن بخارى إلى خراسان لمدافعة محمود بن سبكتكين عن نيسابور، سار بكثرزون للقائه فلقيه بسرخس، ثم لم يلق من قبوله ما كان يؤمله، فشكا ذلك إلى فائق فألفاه واجداً مثل ذلك فخلصا في نجواهما، واتفقا على خلعه وإقامة أخيه عبد الملك مقامه، ووافقهما على ذلك جماعة من أعيان العسكر، ثم قبضوا عليه وسملوه أول سنة تسعين لعشرين شهراً من ولايته، وولي مكانه أخوه عبد الملك.

وبعث محمود إلى فائق وبكثرزون يقبح عليهما فعلهما، وسار نحوهما طامعاً في الاستيلاء على الملك.

استيلاء محمود بن سبكتكين على خراسان

ثم سار محمود بن سبكتكين إلى فائق وبكثرزون ومعهما عبد الملك الصبي الذي نصبوه فساروا إليه، والتقوا بمرو سنة تسعين وثلاثمائة وقاتلهم فهزمهم وافترقوا.

ولحق عبد الملك ببخارى ومعه فائق، ولحق بكثرزون بنيسابور، ولحق أبو القاسم بن سيجور بقهستان وقصد محمود نيسابور، وانتهى إلى طرسوس فقرب بكثرزون إلى جرجان، وبعث في إثره أرسلان الحاجب إلى أن وصل جرجان، ورجع فاستخلفه محمود على طرسوس، وسار إلى هراة فخالفه بكثرزون إلى نيسابور وملكها.

ورجع إليها محمود فأجفل عنها، ومر بمرو فنهبها ولحق ببخارى واستقر محمود بخراسان وأزال عنها ملك بني سامان، وخطب فيها للقادر العباسي، واستدعى الولاية من قبله فبعث إليه بالعهد عليها والخلع لبني سيجور، وأنزله نيسابور وسار هو إلى بلخ كرسي أبيه فافتقده واتفق أصحاب الأطراف بخراسان على طاعته مثل آل أفريقون بالجوزجان والشاه صاحب غرسيان وبني مأمون بخوارزم.

استيلاء ايلك خان على بخارى وانقراض دولة بني سامان

ولما ملك محمود خراسان ولحق عبد الملك ببخارى اجتمع إليه فائق وبكثرزون وغيرهما من الأمراء، وأخذوا في جمع العساكر لمناهضة محمود بخراسان.

ثم مات فائق في شعبان من هذه السنة فاضطربوا ووهنوا لأنه كان المقدم فيهم، وكان خصياً من موالي نوح بن نصر فطمع ايلك خان في الاستيلاء على ملكهم، كما ملكه بقراخان قبله، فسار في جموع الترك يظهر المدافعة لعبد الملك عنه فاطمأنوا لذلك، وخرج بكثرزون وغيره من الأمراء والقواد للقائه فقبض عليهم جميعاً، ودخل بخارى عاشر ذي القعدة، ونزل دار الأمارة واختفى عبد الملك فبعث العيون عليه حتى ظفر به وأودعه السجن في أرزكند فمات.

وحبس معه أخاه أبا الحارث منصوراً المخلوع وإخوته الآخرين أبا إبراهيم إسماعيل وأبا يعقوب، وأعمامه أبا زكريا وأبا سليمان وأبا صالح القاري وغيرهم من بني سامان.

وانقرضت دولتهم بعد أن كانت انتشرت في الآفاق ما بين حلوان وبلاد الترك، ووراء النهر، وكانت من أعظم الدول وأحسنها سياسة.

خروج إسماعيل بن نوح بخراسان

ثم هرب أبو إبراهيم إسماعيل بن نوح من محبسه في زي امرأة كانت تتعاهد خدمته فاختفى ببخارى.

ثم لحق بخوارزم وتلقب المنتصر، واجتمع إليه بقايا القواد والأجناد، وبعث قابوس عسكراً مع ابنيه منوجهر ودارا.

ووصل إسماعيل إلى نيسابور في شوال سنة إحدى وتسعين، وجبى أموالها، وبعث إليه محمود مع التوتناش الحاجب الكبير صاحب هراة، فلقيهم فانهزم المنتصر إلى أبيورد وقصد جرجان فمنعه قابوس منها فقصد سرخس وجبى أموالها وسكنها في ربيع سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة.

فأرسل إليها محمود العساكر مع منصور، والتقوا فانهزم إسماعيل وأسر أبو القاسم بن سيجور في جماعة من أعيان العسكر، فبعث بهم منصور إلى غزنة، وسار إسماعيل حائراً فوافى أحياء الغز بنواحي بخارى فتعصبوا عليه، وسار بهم إلى

إيلك خان في شوال سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة فلقيه بنواحي سمرقند.

وانهزم إيلك واستولى الغز على سواده وأمواله، وأسرى من قواده ورجعوا إلى أحيائهم وتفاوضوا في إطلاق الأسرى من أصحاب ايلك خان، وشعر بهم إسماعيل فسار عنهم خائفاً وعبر النهر إلى آمل الشط، وبعث إلى مرو ونسا وخوارزم فلم يقبلوه، وعاودوا العبور إلى بخارى وقاتله واليها فانهزم إلى دبوسية وجمع بها، ثم عاد فانهزم من عساكر بخارى وقاتله واليها.

وجاءه جماعة من فتيان سمرقند فصاروا في جملته.

وبعث إليه أهله بأموال وسلاح ودواب، وسار إليه ايلك خان بعد أن استوعب في الحشد ولقيه بنواحي سمرقند في شعبان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة وظاهر الغز إسماعيل فكانت الدبرة على ايلك خان، وعاد إلى بلاد الترك فاحتشد، ورجع إلى إسماعيل وقد افترقت عنه أحياء الغز إلى أوطانهم، وخف جمعه، فقاتلهم بنواحي مروسية فهزموه وفتك الترك في أصحابه.

وعبر إسماعيل النهر إلى جوزجان فنهبها، وسار إلى مرو وركب المفازة إلى قنطرة راغول، ثم إلى بسطام، وعساكر محمود في اتباعه مع أرسلان الحاجب صاحب طوس، وأرسل إليه قابوس عسكراً مع الأكراد الشاهجانية فأزعجوه عن بسطام، فرجع إلى ما وراء النهر وأدرك أصحابه الكلل والملال ففارقه الكثير منهم، وأخبروا أصحاب ايلك خان وأعلموهم بمكانه فكبسه الجند فطاردهم ساعة، ثم دخل في حي من أحياء العرب بالفلاة من طاعة محمود بن سبكتكين يعرف أميرهم بابن بهيج، وقد تقدم إليهم محمود في طلبه فأنزله عندهم حتى إذا جن الليل وثبوا عليه وقتلوه وذلك سنة خمس وتسعين وثلاثمائة وانقرض أمر بني سامان وانمحت آثار دولتهم.

والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة بني سبكتكين ملوك غزنة وما ورثوه من الملك بخراسان وما وراء النهر عن مواليهم وما فتحوه من بلاد الهند وأول أمرهم ومصائر أحوالهم

هذه الدولة من فروع دولة بني سامان وناشئة عنها، وبلغت من الاستطالة والعز المبالغ العظيمة، واستولت على ما كانت دولة بني سامان عليه في عدوتي جيحون وما وراء النهر، وخراسان، وعراق العجم، وبلاد الترك، وزيادة بلاد الهند، وكان مبدأ أمرهم عن غزنة، وذلك أن سبكتكين من موالي بني التيكين، وكان التيكين من موالي بني سامان، وكان في جملته، وولاه حجابته، وورد بخارى أيام السعيد منصور بن نوح وهو إذ ذاك حاجبه، ثم تفوي التيكين هذا وعقد له السعيد منصور بن نوح سنة خمس وستين وثلاثمائة، وولى ابنه نوح ويكنى أبا القاسم واستوزر أبا الحسن العتبي، وولى على نيسابور أبا الحسن محمد بن سيجور، وكان سبكتكين شديد الطاعة له، والقيام بحاجاته.

وطرقت دولة بني سامان النكبة من الترك، واستولى بقراخان على بخارى من يد الأمير نوح.

ثم رجع إليها، ومات أبو الحسن بن سيجور وولي مكانه بخراسان ابنه أبو علي، واستبد على الأمير نوح في الاستيلاء على خراسان عند نكبة الترك.

فلما عاد الأمير نوح إلى كرسيه وثبت في الملك قدمه، كاشفه أبو علي في خراسان بالانتقاض، واستدعى أبا منصور سبكتكين يستمده على أبي علي ويستعين به في أحوال الدولة فبادر لذلك، وكان له المقام المحمود فيه، وولاه الأمير نوح خراسان، فدفع عنها أبا علي.

ثم استبد بعد ذلك على بني سامان بها.

ثم غلبهم على بخارى وما وراء النهر، ومحا أثر دولتهم وخلفهم أحسن خلف، وأورث ذلك بنيه، واتصلت دولتهم في تلك الأعمال إلى أن ظهر الغز، وملك الشرق والغرب بنو سلجوق منهم فغلبوهم على أمرهم، وملكوا تلك الأعمال جميعاً من أيديهم حسبما يذكر ذلك كله.

ولنبدأ الآن بسبكتكين من الجهاد في بلاد الهند قبل ولايته خراسان. ثم نأتي بأخبارهم.

فتح بست

كانت بست هذه من أعمال سجستان وفي ولايتها ولما فسد نظام تلك الولاية بانقراض دولة بني الصفار واخترقت تلك العمالات طوائف فانفرد ببست أمير اسمه طغان.

ثم غلبه عليها آخر اسمه كان، يكنى بأبي ثور فاستصرخ طغان سبكتكين على مال ضمنه على الطاعة والخدمة، فسار سبكتكين إلى بست وفتحها، وأخذ الوزير أبا الفتح علي بن محمد

البستي الشاعر المشهور فأحضره واستكتبه، وكتب لابنه محمود من بعده.

ثم استخلف سبكتكين وسار إلى قصدار من ورائها فملكها وتقبض على صاحبها، أعاده إلى ملكه على مال يؤديه وطاعة يبذلها له.

غزو الهند

ثم سار سبكتكين بعدما فتح بست وقصد غازياً بلاد الهند، وتوغل فيها حتى افتتح بلاداً لم يدخلها أحد من بلاد الإسلام.

ولما سمع به ملك الهند سار إليه في جيوشه وقد عبى العساكر والفيلة على عادتهم في ذلك بالتعبية المعروفة بينهم، وانتهى إلى لمغان من ثغورة وتجاوزه، وزحف إليه سبكتكين من غزنة في جموع المسلمين، والتقى الجمعان ونصر اللّه المسلمين، وأسر ملك الهند وفدى نفسه على ألف ألف درهم، وخمسين فيلاً ورهن في ذلك من قومه، وبعث معه رجالاً لقبض ذلك فغدر بهم في طريقه، وتقبض عليهم، فسار سبكتكين في تعبيته إلى الهند، فقبض كل من لقيه من جموعهم، وأثخن فيهم، وفتح لمغان وهدمها وهي ثغر الهند مما يلي غزنة، فاهتز لذلك جيبال واحتشد، وسار إلى سبكتكين، فكانت بينهم حرب شديدة، وانهزم جيبال وجموع الكفر، وخمدت شوكتهم، ولم يقم لملوك الهند بعدها معه قائمة.

ثم صرف وجهه إلى إعانة سلطانه الأمير نوح كما نذكر.

ولاية سبكتكين على خراسان

قد قدمنا أن الأمير نوح بن منصور لما طرقته النكبة ببخارى من الترك، وملكها عليه بقراخان عبر النهر إلى آمل الشط، واستصرخ ابن سيجور صاحب خراسان وفائقاً صاحب بلخ، فلم يصرخاه، وبلغه مسير بقراخان عن بخارى فأغذ السير إليها، وارتجع ملكه كما كان.

وهلك بقراخان فثبت قدمه في سلطانه.

وارتاب أبو علي وفائق بأمرهم عنده، وغلط فائق بالمبادرة إلى بخارى للتهنئة والتقدم في الدولة من غير إذن في ذلك، فسرح الأمير نوح غلمانه ومواليه فحاربوه، وملكوا بلخاً من يده، ولحق بأبي علي بن سيجور، فاستظهر به على فتنة الأمير نوح وذلك سنة أربع وثمانين، فكتب الأمير نوح عند ذلك إلى سبكتكين يستدعيه للنصرة عليهما، وعقد له على خراسان وأعمالها، وكان في شغل شاغل من الجهاد بالهند كما ذكرناه فبادر بذلك، وسار إلى نوح فلقيه واتفق معه، ثم رجع إلى غزنة واحتشد وسار هو وابنه محمود ولقيا الأمير نوحاً بخراسان في الموضع الذي تواعد معه، ولقيهم أبو علي بن سيجور وفائق فهزمهما.

وفتك فيهم أصحاب سبكتكين واتبعوهم إلى نيسابور، ثم صدوهم عنها إلى جرجان واستولى نوح على نيسابور واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين وأنزله بها، ولقبه سيف الدولة، وأنزل أباه سبكتكين بهراة ولقبه ناصر الدولة ورجع إلى بخارى.

الفتنة بين سيجور وفائق بخراسان وظهور سبكتكين وابنه محمود عليهم

ولما رجع نوح إلى بخارى وطمع أبو علي بن سيجور وفائق في انتزاع خراسان من يد سبكتكين وابنه.

وبادروا إلى محمود بن سبكتكين بنيسابور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وأعجلوه عن وصول المدد إليه من ابنه سبكتكين.

وكان في قلة فانهزم إلى أبيه بهراة، وملك أبو علي نيسابور، وسار إليه سبكتكين في العساكر، والتقوا بطوس، فانهزم أبو علي وفائق حتى انتهيا إلى آمل الشط.

واستعطف أبو علي الأمير نوحاً فاستدعاه وحبسه.

ثم بعث به إلى سبكتكين وحبسه عنده، ولحق فائق بملك الترك ايلك خان في كاشغر، وشفع فيه إلى الأمير نوح فولاه سمرقند كما مر ذلك كله في أخبارهم.

وكان أبو القاسم أخو أبي علي قد نزع إلى سبكتكين يوم اللقاء فأقام عنده مدة مديدة.

ثم انتقض وزحف إلى نيسابور فجاء محمود بن سبكتكين فهرب ولحق بفخر الدولة بن بويه فأقام عنده، واستولى سبكتكين على خراسان.

مزاحفة سبكتكين وايلك خان

كان ايلك خان ولي بعد بقراخان على كاشغر وشاغور، وعلى أم الترك وطمع في أعمال الأمير نوح كما طمع أبوه، ومد يده إليها شيئاً فشيئاً.

ثم اعتزم على الزحف إليه فكتب الأمير نوح إلى سبكتكين بخراسان يستجيشه على ايلك خان، فاحتشد وعبر النهر وأقام بين نسف وكشف حتى لحقه ابنه محمود بالحشود من كل جهة، وهنالك وصله أبو علي بن سيجور مقيداً، بعث به إليه الأمير نوح فأبى من ذلك، وجمع ايلك خان أمم الترك من سائر النواحي.

وبعث سبكتكين إلى الأمير نوح يستحثه فخام عن اللقاء، وبعث قواده وجميع عساكره، وجعلهم لنظره وفي تصريفه فألح عليه سبكتكين، وبعث أخاه بغراجق وابنه محموداً لاستحثاثه فهرب الوزير ابن عزيز خوفاً منهم، وتفادى نوح من اللقاء فتركوه، وفت ذلك في عزم سبكتكين، وبعث ايلك خان في الصلح فبادر سبكتكين وبعث أبا القاسم.

ثم ارتاب به عند عبوره إلى ايلك خان، فحبسه مع أبي علي وأصحابه حتى رجع سبكتكين من طوس إلى بلخ، فبلغ الخبر بمقتلهم، ووصل نعي مأمون بن محمد صاحب الجرجانية بخوارزم غدر به صاحب جيشه في صنيع أعده له وقتله، ووصل خبر الأمير نوح أثرهما وانه هلك منتصف رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

أخبار سبكتكين مع فخر الدولة بن بويه

كان أبو علي بن سيجور وفائق لما هزمهما سبكتكين لحقا بجرجان عند فخر الدولة بن بويه، ثم لما أجلب أبو القاسم على خراسان، وسار إليه محمود بن سبكتكين، وعمه بغراجق وكان معه أبو نصر بن محمود الحاجب فهربا إلى فخر الدولة وأقاما في نزله وتحت حرابه بقومس والدامغان وجرجان وأناخ سبكتكين على طوس.

ثم وقعت المهاداة بينه وبين فخر الدولة بن بويه صاحب الري، وكان آخر هدية من سبكتكين جاء بها عبد اللّٰه الكاتب من ثغابة.

ونمي إلى فخر الدولة أنه يتجسس عدد الجند، وغوامض الطرق، فبعث إلى سبكتكين بالعتاب في ذلك.

ثم ضعف الحال بينهما، واتصل ما بين فخر الدولة والأمير نوح على يد سبكتكين.

وفاة سبكتكين وولاية ابنه إسماعيل

ولما فرغ سبكتكين من أمر ايلك خان ورجع إلى بلخ، وأقام بها قليلاً طرقه المرض، فبادر به إلى غزنة، وهلك في طريقه في شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة لعشرين سنة من ملكه في غزنة وخراسان، ودفن بغزنة.

وكان عادلاً خيراً حسن العهد محافظاً على الوفاء كثير الجهاد.

ولما هلك بايع الجند لابنه إسماعيل بعهده إليه، وكان أصغر من محمود فأفاض فيهم العطاء وانعقد أمره بغزنة.

استيلاء محمود بن سبكتكين على ملك أبيه وظفره بأخيه إسماعيل

ولما ولي إسماعيل بغزنة استضعفه الجند واستولوا عليه، واشتطوا عليه في الطلب حتى أنفد خزائن أبيه، وكان أخوه محمود بنيسابور فبعث إليه أن يكتب له بالأعمال التي لنظره مثل بلخ فأبى، وسعى أبو الحرب والي الجوزجان في الإصلاح بينهما فامتنع إسماعيل، فسار محمود إلى هراة معتزماً عليه، وتحيز معه عمه بغراجق.

ثم سار إلى بست وبها أخوه نصر فاستماله، وساروا جميعاً إلى غزنة، وقد كتب إليه الأمراء الذين مع إسماعيل واستدعوه ووعدوه بالطاعة.

وأغذ السير ولقيه إسماعيل بظاهر غزنة فاقتتلوا قتالاً شديداً.

وانهزم إسماعيل واعتصم بقلعة غزنة، واستولى محمود على الملك وحاصر أخاه إسماعيل حتى استنزله على الأمان فأكرمه وأشركه في سلطانه، وذلك لسبعة أشهر من ولاية إسماعيل، واستقامت الممالك لمحمود ولقب بالسلطان، ولم يلقب به أحد قبله.

ثم سار إلى بلخ.

استيلاء محمود على خراسان

لما ولي أبو الحارث منصور بعد نوح استوزر محمد بن إبراهيم، وفوض أمره إلى فائق كفالة وتدبيراً لصغره.

وكان عبد اللّٰه بن عزيز قد هرب من بخارى عند قدوم محمد إليها في استحثاث الأمير نوح للقاء ايلك خان كما مر، فلما مات الأمير نوح وولي ابنه منصور أطمع عزيز أبا منصور محمد بن الحسين الأسبيجابي في قيادة الجيش بخراسان وحمله على الانحدار

به إلى بخارى مستغيثاً بايلك خان على غرضه، فنهض ايلك خان لمصاحبتهما وسار بهما كأنه يريد سمرقند.

ثم قبض على أبي منصور وابن عزيز، وأحضر فائقاً وأمره بالمسير على مقدمته إلى بخارى، فهرب أبو الحارث وملك فائق بخارى ورجع ايلك خان.

واستدعى فائق أبا الحارث فاطمأن، وبعث من مكانه بكثرزون الحاجب الأكبر على خراسان ولقبه بستان الدولة، ورجع إلى بخارى فتلقاه فائق، وقام بتدبير دولته.

وكانت بينه وبين بكثرزون ضغن فأصلح أبو الحارث بينهما، وأقام بكثرزون وجبى الأموال، وزحف إليه أبو القاسم بن سيجور، وكانت بينهما الفتنة التي مر ذكرها.

وجاء محمود إلى بلخ بعد فراغه من فتنة أخيه إسماعيل، فبعث إلى أبي الحارث منصور رسله وهداياه، فعقد له على بلخ وترمذ وهراة وبست.

واعتذر عن نيسابور فراجعه مع ثقته أبي الحسن الحمولي فاستخلصه أبو الحارث لوزارته، وقعد عن رسالة صاحبه فأقبل محمود إلى نيسابور، وهرب عنها بكثرزون فنهض أبو الحارث إلى نيسابور، فخرج محمود عنها إلى مرو الروذ، وجمع أبو الحارث وكحلة بكثرزون، وبايعوا لأخيه عبد الملك بن نوح.

وبعث محمود إلى فائق وبكثرزون بالعتاب على صنيعهما بالسلطان، وزحف إليهما فبرزا من مرو للقائه، ثم سألوه الإبقاء فأجاب وارتحل عنهم، وبعض أوباشهم في أعقابه فرجع إليهم.

وحشدوا الناس للقائه فهزمهم وافترقوا، فسار عبد الملك إلى بخارى وبكثرزون إلى نيسابور وكان معهم أبو القاسم بن سيجور، ولحق بقهستان واستولى محمود على خراسان وذلك سنة تسع وثمانين وثلاثمائة.

ثم سار إلى طوس وهرب بكثرزون إلى جرجان، وبعث محمود أرسلان الحاجب في أثره فأخرجه من نواحي خراسان، فولى أرسلان على طوس وسار إلى هراة لمطالعة أحوالها، فخالفه بكثرزون إلى نيسابور وملكها، ورجع فطرده عنها أبو القاسم بن سيجور وملكها.

وولى محمود أخاه نصر بن سبكتكين قيادة الجيوش بخراسان وأنزله بنيسابور، ثم سار إلى بلخ فأنزل بها سريره.

ثم استراب بأخيه إسماعيل فاعتقله ببعض القلاع موسعاً عليه، وكتب بالبيعة للقادر الخليفة من بني العباس، فبعث إليه بالخلع والألوية على العادة.

وقام بين يديه السماطان واستوثق له ملك خراسان وبقي يردد الغزو إلى الهند كل سنة.

استيلاء محمود على سجستان

كان خلف بن أحمد صاحب سجستان في طاعة بني سامان ولما شغل عنه بالفتن استفحل أمره، وشغل للاستبداد.

فلما سار سبكتكين للقاء ملك الهند كما مر، اغتنم الفرصة من بست وبعث إليها عسكراً فملكوها وجبوها.

ولما رجع سبكتكين من الهند ظافراً تلقاه بالمعاذير والتعزية والهدايا والطاعة فقبل وأعرض عنه، وارتهن عنده على طاعته، وسار معه الحارث أبو علي بن سيجور بخراسان فملأ يده ويد عسكره بالعطاء، وبتقدمه لقتال ايلك خان بما وراء النهر كما مر، فدس إلى ايلك خان يغريه بسبكتكين.

واعتزم سبكتكين على غزو سجستان، ثم أدركه الموت فاغتنم خلف الفرصة وبعث طاهراً إلى قهستان وبوشنج فملكها، وكاتب البغراجق أخا سبكتكين.

فلما فرغ محمود من شأن خراسان بعث لبغراجق عمه بانتزاع قهستان وبوشنج، فسار إلى طاهر فهزمه واتبعه، وكر عليه طاهر فقتله وانهزم الفريقان، وزحف محمود إلى خلف سنة تسعين وثلاثمائة، فامتنع في أحصن بلد وهي قلعة عالية منيعة، وحاصره بها حتى لاذ بالطاعة.

وبذل مائة ألف دينار فأفرج عنه وسار إلى الهند فتوغل فيها، وانتهى في اثني عشر ألف فارس وثلاثين ألف راجل، فاختار محمود من عساكره خمسة عشر ألفاً، وسار لقتال جيبال فهزمه وأسره في بنيه وحفدته وكثير من قرابته.

ووجد في سلبه مقلد من فصوص يساوي مائة ألف دينار وأمثال ذلك، فوزعها على أصحابه، وكان الأسرى والسبي خمسمائة ألف رأس وذلك سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وفتح من بلاد الهند بلاداً أوسع من بلاد خراسان.

ثم فادى جيبال ملك الهند نفسه بخمسين رأساً من الفيلة ارتهن فيها ابنه وحافده وخرج إلى بلده، فبعث إلى ابنه أندبال وشاهينة وراء سيجور فأعطوه تلك الفيلة، وسار لا يعود له ملك، وسار السلطان محمود إلى ويهند فحاصرها وافتتحها، وبعث العساكر لتدويخ نواحيها فأثخنوا في القتل في أوباش كانوا مجتمعين

للفساد مستترين بخمر الغياض فاستلحموهم.

ورجع السلطان محمود إلى غزنة وكان خلف بن أحمد عند منصرف السلطان عنه أظهر النسك، وولى ابنه طاهراً على سجستان، فما طالت غيبة السلطان أراد الرجوع إلى ملكه فلم يمكنه ابنه، فتمارض وبعث إليه بالحضور للوصية والاطلاع على خبايا الذخيرة، فلما حضر اعتقله ثم قتله كما مر.

وجزعت نفوس وبلغت ضمائر قواده لذلك، وخافوه، وبعثوا للسلطان محمود بطاعتهم ما بقيت له الدعوة في سجستان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وسار السلطان محمود إلى خلف فامتنع منه في معقله بحصن الطاق، وهو في رأس شاهق تحيط به سبعة أسوار عالية، ويحيط به خندق بعيد المهوى، وطريقه واحدة على جسر، فجثم عليه أشهراً.

ثم فرض على أهل العسكر قطع الشجر التي تليه وطم بها الخندق، وزحف إليه وقدم الفيول بين يديه على تعبيتها فحطم الفيل الأعظم على باب الحصن فقلعه ورمى به، وفشا القتل في أصحاب خلف وتماسكوا داخل الباب يتناضلون بأحجار المجانيق والسهام والحراب، فرأى خلف هول المطلع فأناب واستأمن، وخرج إلى السلطان وأعطاه كثيراً من الذخيرة، فرفع من قدره وخيره في مقاماته فاختار الجوزجان فأذن له في المسير إليها على ما بينه وبين ايلك خان من المداخلة.

ثم هلك خلف سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وأبقى السلطان على ولده عمر، وكان خلف كثير الغاشية من الوافدين والعلماء، وكان محسناً لهم، ألف تفسيراً جمع له العلماء من أهل إيالته، وأنفق عليهم عشرين ألف دينار، ووضعه في مدرسة الصابوني بنيسابور، ونسخه يستغرق عمر الكاتب، إلا أن يستغرق في النسخ.

واستخلف السلطان على سجستان أحمد الفتحي من قواد أبيه ورجع إلى غزنة.

ثم بلغه انتقاض أحمد بسجستان فسار إليهم في عشرة آلاف، ومعه أخوه صاحب الجيش أبي المظفر نصر والتونتاش الحاجب، وزعيم العرب أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي فحاصرهم، وفتحها ثانية، وولى عليها أخاه صاحب الجيش نصر بن سبكتكين مضافة إلى نيسابور فاستخلف عليها وزيره أبا منصور نصر بن إسحاق.

وعاد السلطان محمود إلى بلخ مضمراً غزو الهند.

هكذا مساق خبر السلطان محمود مع خلف بن أحمد وخبر سجستان عند العيني.

وأما عند ابن الأثير فعلى ما وقع في أخبار دولة بني الصفار.

غزوة بهاطية والملتان وكوكبر

ولما فرغ السلطان محمود من سجستان اعتزم على غزو بهاطية من أعمال الهند، وهي وراء الملتان، مدينة حصينة عليها نطاق من الأصبوان وآخر من الخنادق، بعيدة المهوى.

وكانت مشحونة بالمقاتلة والعدة، واسم صاحبها بجير، فعبر السلطان إليها جيحون وبرز إليه بجير فاقتتلوا بظاهر بهاطية ثلاثة أيام.

ثم انهزم بجير وأصحابه في الرابع وتبعهم المسلمون إلى باب البلد فملكوه عليهم، وأخذتهم السيوف من أمامهم ومن ورائهم فبلغ القتل والسبي والسلب والنهب فيهم مبالغه.

وسار بجير في رؤوس الجبال فستر في شعابها وبعث السلطان سرية في طلبه فأحاطوا به، وقتلوا من أصحابه.

ولما أيقن بالهلكة قتل نفسه بخنجر معه.

وأقام السلطان محمود في بهاطية حتى أصلح أمورها، واستخلف عليها من يعلم أهلها قواعد الإسلام، ورجع إلى غزنة فلقي في طريقه شدة من الأمطار في الوحل وزيادة المدد في الأنهار، وغرق كثير من عسكره.

ثم بلغه عن أبي الفتوح والي الملتان أنه ملحد، وأنه يدعو أهل ولايته إلى مذهبه فاعتزم على جهاده، وسار كذلك ومنعه سيجور من العبور لكثرة المدد، فبعث السلطان إلى أندبال ملك الهند في أن يبيح له العبور إلى بلاده لغزو الملتان فأبى، فبدأ بجهاده، وسار في بلاده ودوخها وفر أندبال بين يديه، وهو في طلبه إلى أن بلغ كشمير.

ونقل أبو الفتوح أمواله على الفيول إلى سرنديب، وترك الملتان فقصدها السلطان، وامتنع أهلها فحاصرهم حتى افتتحها عنوة، وأغرمهم عشرين ألف ألف درهم عقوبة لهم على عصيانهم.

ثم سار إلى كوكبر واسم صاحبها بيدا، وكان بها ستمائة صنم فافتتحها وأحرق أصنامها.

وهرب صاحبها إلى قلعته وهي كاليجار وهو حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة وعشرون ألف راية، وهو مشحون بالأقوات والمسالك إليه متعذرة بخمر الشجر، وملتف

الغياض، فأمر بقطع الأشجار حتى اتضحت المسالك.

واعترضه دون الحصن واد بعيد المهوى، فطم منه عشرين ذراعاً بالأجربة المحشوة بالتراب، وصيره جسراً، ومضى منه إلى القلعة، وحاصرها ثلاثة وأربعين يوماً حتى جنح صاحبها إلى السلم.

وبلغ السلطان أن ايلك خان مجمع غزو خراسان، فصالح ملك الهند على خمسين فيلاً، وثلاثة آلاف من الفضة، وخلع عليه السلطان فلبس خلعته وشد منطقته.

ثم قطع خلعته وأنفذها إلى السلطان، وتبعه بما عقد معه وعاد السلطان إلى خراسان بعد أن كان عازماً على التوغل في بلاد الهند.

مسير ايلك خان إلى خراسان وهزيمته

كان السلطان محمود لما ملك ايلك خان بخارى كما مر، وكتب إليه مهنياً، وتردد السفراء بينهما في الوصلة، وأوفد عليه سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي إمام الحديث، ومعه طغان جق والي سرخس في خطبة كريمته بهدية فاخرة من سبائك العقيان واليواقيت والدر والمرجان والوشي والحمر، وصواني الذهب مملوءة بالعنبر والكافور والعود والنصول، وأمامه الفيول تحت الخروج المغشاة، فقوبلت الهدية بالقبول، والوافد بالتعظيم له ولمن أرسله، وزفت المخطوبة بالهدايا والألطاف، واتحدت الحال بين السلطانين.

ولم يزل السعاة يغرون ما بينهما حتى فسد ما بينهما، فلما سار السلطان محمود إلى الملتان اغتنم ايلك خان الفرصة، وبعث سباسي تكين قريبه وقائد جيشه إلى خراسان، وبعث معه أخاه جعفرتكين وذلك سنة تسعين وثلاثمائة فملك بلخاً وأنزل بها جعفر تكين، وكان أرسلان الحاجب بهراة أنزله السلطان بها، وأمره إذا دهمه أن ينحاز إلى غزنة.

وقصد سباسي هراة وسكنها، وندب الحسين بن نصر إلى نيسابور فملكها، ورتب العمال، واستخرج الأموال.

وطار الخبر إلى السلطان بالهند، وقصد بلخ فهرب جعفر تكين إلى ترمذ، واستقر السلطان ببلخ، وسرح أرسلان الحاجب في عشرة آلاف من العساكر إلى سباسي تكين بهراة فسار سباسي إلى مرو، واعترضه التركمان، وقاتلهم فهزمهم وأثخن فيهم.

ثم سار إلى أبيورد، ثم إلى نسا وأرسلان في اتباعه حتى انتهى إلى جرجان فصد عنها، وركب قلل الجبال والغياض، وتسلط الكراكلة على أثقاله ورجاله، واستأمن طوائف من أصحابه إلى قابوس لعدم الظهر.

ثم عاد إلى نسا وأصدر ما معه إلى خوارزم شاه أبي الحسن علي ابن مأمون، وديعة لايلك خان، واقتحم المفازة إلى مرو، فسار السلطان لاعتراضه ورماه محمد بن سبع بمائة من القواد حملوا إلى غزنة.

ونجا سباسي تكين في فل من أصحابه، فعبر النهر إلى ايلك خان، وقد كان ايلك خان بعث أخاه جعفر تكين في ستة آلاف راجل إلى بلخ ليفتر من عزيمة السلطان عن قصد سباسي تكين فلم يفتر ذلك من عزمه، حتى أخرج سباسي من خراسان.

ثم قصدهم فانهزموا أمامه، وتبعهم أخوه نصر بن سبكتكين صاحب جيش خراسان إلى ساحل جيحون، فقطع دابرهم.

ولما بلغ الخبر إلى ايلك خان قام في ركائبه وبعث بالصريخ إلى ملك الختل وهو قدرخان بن بقراخان لقرابة بينهما وصهر، فجاءه بنفسه ونفر معه، واستجاش أحياء الترك ودهاقين ما وراء النهر، وعبر النهر في خمسين ألفاً، وانتهى إلى السلطان خبره وهو بطخارستان فقدم إلى بلخ، واستعد للحرب، واستنفر جموع الترك والجند والخلنجية والأفقانية والفربوية.

وعسكر على أربعة فراسخ من بلخ، وتزاحفوا على التعبئة، فجعل السلطان في القلب أخاه نصراً صاحب الجيش بخراسان، وأبا نصر بن أحمد الفريغوني صاحب الجوزجان، وأبا عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطائي في كماة الأكراد والعرب والهنود، وفي الميمنة حاجبه الكبير أبا سعيد التمرتاشي، وفي الميسرة أرسلان الحاجب، وحصن الصفوف بخمسمائة من الفيلة.

وجعل ايلك خان على ميمنته قدرخان ملك الختل وعلى ميسرته أخاه جعفرتكين، وهو في القلب.

وطالت الحرب، واستمات الفريقان ونزل السلطان وعفر خده بالأرض متضرعاً.

ثم ركب وحمل في فيلته على القلب فأزاله عن مكانه، وانهزم الترك، واتبعوهم يقتلون ويأسرون إلى أن عبروا بهم النهر.

وأكثر الشعراء تهنئة السلطان بهذا الفتح وذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.

ولما فرغ السلطان من هذه الحرب سار للهند للإيقاع بنواسه شاه أحد أولاد الملوك، كان أسلم على يده واستخلفه على بعض

المعاقل التي افتتحها، فارتد ونبذ الإسلام، فأغذ السير إليه ففر أمامه، واحتوى على المعاقل التي كانت في يده من أصحابه، وانقلب إلى غزنة ظافراً وذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.

فتح بهيم نقرا

ثم سار السلطان سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة في ربيع منها غازياً إلى الهند فانتهى إلى سبط وبهند، فلقيه هنالك ابن هزبال ملك الهند في جيوش لا تحصى، فصدقهم السلطان القتال فهزمهم، واتبعهم إلى قلعة بهيم نقرا وهي حصن على حصن عالية اتخذها أهل الهند خزانة للصنم، ويودعون به أنواع الذخائر والجواهر التي يتقرب بها للصنم، فدافع عنه خزنته أياماً.

ثم استأمنوا وأمكنوا السلطان من القلعة، فبعث عليه أبا نصر الفريغوني وحاجبه الكبير ابن التمرتاش، وواسع تكين، وكلفهما بنقل ما في الخزائن، فكان مبلغ المنقول من الوزن سبعين ألف ألف شامية، ومن الذهبيات والفضيات موزونة، والديباج السوسي ما لا عهد بمثله، ووجد في جملتها بيت من الفضة الخالصة طوله ثلاثون ذراعاً في خمسة عشر، صفائح مضروبة ومعالق للطي والنشر، وشراع من ديباج طوله أربعون ذراعاً في عرض عشرين بقائمتين من ذهب، وقائمتين من فضة، فوكلهما بحفظ ذلك.

ومضوا إلى غزنة فأمر بساحة داره ففرشت بتلك الجواهر، واجتمعت وفود الأطراف لمشاهدتها، وفيهم رسول طغان أخي ايلك خان.

خبرالفريغون واستيلاء السلطان على الجوزجان

وكان بنو فريغون هؤلاء ولاة على الجوزجان أيام بني سامان يتوارثونها، وكان لهم شهرة مكارم.

وكان أبو الحارث أحمد بن محمد غرتهم.

وكان سبكتكين خطب كريمته لابنه محمود وانكح كريمته أخت محمود لابنه أبي نصر فالتحم بينهما.

وهلك أبو الحارث فأقر السلطان محمود ابنه أبا نصر على ولايته إلى أن مات سنة إحدى وأربعمائة، وكان أبو الفضل احمد بن الحسين الهمذاني المعروف بالبديع يؤلف له التآليف ويجعلها باسمه، ونال عنده بذلك فوق ما أمل.

غزوة بارين

ثم سار السلطان محمود على رأس المائة الرابعة لغزو بلاد الهند فدوخها واستباحها، وأوقع بملكها، ورجع إلى غزنة فبعث إليه ملك الهند في الصلح على جزية مفروضة، وعسكر مقرر عليه، وعلى تعجيل مال عظيم، وهدية فيها خمسون فيلاً، وتقرر الصلح بينهما على ذلك.

غزوة الغور وقصران

بلاد الغور هذه تجاور بلاد غزنة، وكانوا يفسدون السابلة ويمتنعون بجبالهم وهي وعرة وضيقة، وأقاموا على ذلك متمردين على كفرهم وفسادهم، فامتعض السلطان محمود، وسار لحسم عللهم سنة إحدى وأربعمائة وفي مقدمته التونتاش الحاجب والي هراة وأرسلان الحاجب والي طوس.

وانتهوا إلى مضيق الجبل وقد شحنوه بالمقاتلة فنازلتهم الحرب ودهمهم السلطان فارتدوا على أعقابهم، ودخل عليهم لبلادهم وللكها.

ودخل حصناً في عشرة آلاف واستطرد لهم السلطان إلى فسيح من الأرض.

ثم كر عليهم فهزمهم وأثخن فيهم وأسر ابن سوري وقرابته وخواصه، وملك قلعتهم وغنم جميع أموالهم، وكانت لا يعبر عنها.

وأسف ابن سوري على نفسه فتناول سماً كان معه ومات.

ثم سار السلطان سنة اثنتين وأربعمائة لغزو قصران وكان صاحبها يحمل ضمانه كل سنة، فقطع الحمل وامتنع بموالاة ايلك خان، وسار إليه فبادر باللقاء وتنصل واعتذر، وأهدى عشرين فيلاً والزمه السلطان خمسة عشر ألف درهم، ووكل بقبضها ورجع إلى غزنة.

خبر اليشار واستيلاء السلطان على غرشتان

كان اسم أليشار عند الأعاجم لقباً على ملك غرشتان، كما

أن كسرى على ملك الفرس وقيصر على ملك الروم ومعناه الملك الجليل.

وكان أليشار أبو نصر محمد بن إسماعيل بن أسد ملكها إلى أن بلغ ولده محمد سن النجابة فغلب على أبيه، وانقطع أبو نصر للنظر في العلوم لشغفه بها، وصاحب خراسان يومئذ أبوعلي بن سيجور.

ولما انتقض على الرضى نوح خطبهم لطاعته وولايته فأبوا من ذلك لانتقاضه على سلطانه، فبعث العساكر إليهم وحاصرهم زماناً.

ثم نهض سبكتكين إلى أبي علي بن سيجور، وانضاف إلى أليشار إلى سبكتكين في تلك الفتنة كلها، فلما ملك السلطان محمود خراسان وأذعن له ولاة الأطراف والأعمال بعث إليهم في الخطبة فأجابوه.

ثم استنفر محمد بن أبي نصر في بعض غزواته فقعد عن النفير، فلما رجع السلطان من غزوته بعث حاجبه الكبير أبا سعيد التوتناش في العساكر وأردفه بأرسلان الحاجب والي طوس لمناهضة أليشار ملك غرشتان.

واستصحبا معهما أبا الحسن المنيعي الزعيم بمرو والروذ لعلمه بمخادع تلك البلاد، فأما أبو نصر فاستأمن إلى الحاجب، وجاء به إلى هراة مرفهاً محتاطاً عليه.

وأما ابنه محمد فتحصن بالقلعة التي بناها أيام ابن سيجور فحاصروها طويلاً، واقتحموها عنوة وأخذ أسيراً، فبعث به إلى غزنة، واستصفيت أمواله وصودرت حاشيته.

واستخلف الحاجب على الحصن ورجع إلى غزنة فامتحن الولد بالسياط، واعتقله مرفهاً واستقدم أباه أبا نصر من هراة فأقام عنده في كرامة إلى أن هلك سنة ست وأربعمائة.

وفاة ايلك خان وصلح أخيه طغان خان مع السلطان

كان ايلك خان بعد هزيمته بخراسان يواصل الأسف، وكان أخوه طغان يكبر عليه على فعلته، ونقضه العهد مع السلطان.

وبعث إلى السلطان يتبرأ ويعتذر فنافره ايلك خان بسبب ذلك وزحف إليه ثم تصالحا.

ثم هلك ايلك خان سنة ثلاثة وأربعمائة وولي مكانه أخوه طغان خان فراسل السلطان محمود وصالحه.

وقال له: اشتغل أنت بغزو الهند، وأنا بغزو الترك فأجابه إلى ذلك.

وانقطعت الفتنة بينهما وصلحت الأحوال، ثم خرجت طوائف الترك فأجابه إلى ذلك، وانقطعت الفتنة بينهما وصلحت الأحوال.

ثم خرجت طوائف الترك من جانب الصين في مائة ألف خركاة وقصدوا بلاد طغان، فهال المسلمين أمرهم فاستنفر طغان من الترك أزيد من مائة ألف، واستقبل جموع الكفرة فهزمهم وقتل نحواً من مائة ألف وأسر مثلها، ورجع الباقون منهزمين.

وهلك طغان إثر ذلك، وملك بعده أخوه أرسلان خان سنة ثمان وأربعمائة، وخلص ما بينه وبين السلطان محمود، وخطب بعض كرائمه للسلطان مسعود ولده فأجابه.

وعقد السلطان لابنه على هراة فسار إليها سنة ثمان وأربعمائة.

فتح بارين

ثم سار السلطان سنة ثمان وأربعمائة عندما فصل الشتاء غازياً إلى الهند، وتوغل فيها مسيرة شهرين، وامتنع عظيم الهند في جبل صعب المرتقى ومنع القتال، واستدعى الهنود وملك عليهم الفيلة وفتح الله بارين وكثرت الأسرى والغنائم ووجد به في بيت البدجي حجر منقوش، قال التراجمة كتابته إنه مبني منذ أربعين ألف سنة.

ثم عاد إلى غزنة وبعث إلى القادر يطلب عهد خراسان وما بيده من الممالك.

غزوة تنيشرة

كان صاحب تنيشرة عالياً في الكفر والطغيان، وانتهى الخبر إلى السلطان في ناحيته من الفيلة فيلة من الفيتلمان الموصوفة في الحروب، فاعتزم السلطان على غزوه، وسار إليه في مسالك صعبة وعرة بين أودية وقفارات حتى انتهى إلى نهر طام قليل المخاضة وقد استندوا من ورائه إلى سفح جبل، فسرب إليهم جماعة من الكماة خاضوا النهر وشغلوهم بالقتال حتى تعدت بقية العسكر.

ثم قاتلوهم وانهزموا، واستباحهم المسلمون وعادوا إلى

غزنة ظافرين ظاهرين.

ثم غزا السلطان على عادته فضلَّ الأدلاء طريقهم فوقع السلطان في مخاضات من المياه غرق فيها كثير من العسكر، وخاض الماء بنفسه أياماً حتى تخلص ورجع إلى خراسان.

استيلاء السلطان على خوارزم

كان مأمون بن محمد صاحب الجرجانية من خوارزم، وكان مخلصاً في طاعة الرضى نوح أيام مقامه في آمد كما مر، فأضاف نسا إلى عمله فلم يقبلها لمودّةٍ بينه وبين أبي علي ابن سيجور.

وكان من خبره مع ابن سيجور واستنقاذه إياه من أسر خوارزم شاه سنة ست وثمانين وثلاثمائة ما مر ذكره، وصارت خوارزم كلها له.

ثم هلك وملك مكانه أبو الحسن علي.

ثم هلك وملك مكانه ابنه مأمون، وخطب إلى السلطان محمود بعض كرائمه فزوجه أخته.

واتحد الحال بينهما إلى أن هلك، وولي مكانه أبو العباس مأمون، ونكح أخته كما نكحها أخوه من قبله.

ثم دعاه إلى الدخول في طاعته، والخطبة له، كما دعا الناس، فمنعه أصحابه وأتباعه، وتوجس الخيفة من السلطان في ذلك، فرجعوا إلى الفتك به، فقتلوه وبايعوا ابنه داود.

وازداد خوفهم من السلطان في ذلك، فتعاهدوا على الامتناع ومقدمهم التكين البخاري.

وسار إليهم السلطان في العساكر حتى أناخ عليهم وبيتوا محمد بن إبراهيم الطائي، وكان في مقدمة السلطان فقاتلهم إلى أن وصل السلطان فهزمهم، وأثخن فيهم بالقتل والأسر، وركب التكين السفن ناجياً فغدره الملاحون وجاؤوا به إلى السلطان فقتله في جماعة من القواد الذين قتلوا مأموناً على قبره.

وبعث بالباقين إلى غزنة، فأخرجوا في البعوث إلى الهند وأنزلوا هنالك في حامية الثغور وأجريت لهم الأرزاق، واستخلف على خوارزم الحاجب التونتاش ورجع إلى بلاده.

فتح كشمير وقنوج

ولما فرغ السلطان من أمر خوارزم، وانضافت إلى مملكته، عدل إلى بست، وأصلح أحوالها ورجع إلى غزنة.

ثم اعتزم على غزو الهند سنة تسع وأربعمائة، وكان قد دوخ بلادها كلها، ولم يبق عليه إلا كشمير ومن دونها الفيافي والمصاعب، فاستنفر الناس من جميع الجهات من المرتزقة والمتطوعة.

وسار تسعين مرحلة وعبر نهر جيحون وحيلم وخيالا، هو وامراؤه، وبث عساكره في أودية لا يعبر عن شدة جريها وبعد أعماقها، وانتهى إلى كشمير.

وكانت ملوك الهند في تلك الممالك تبعث إليه بالخدمة والطاعة، وجاءه صاحب درب كشمير وهو جنكي بن شاهي وشهي فأقر بالطاعة، وضمن دلالة الطريق، وسار أمام العسكر إلى حصن مأمون لعشرين من رجب، وهو خلال ذلك يفتتح القلاع إلى أن دخل في ولاية هردت، أحد ملوك الهند فجاء طائعاً مسلماً.

ثم سار السلطان إلى قلعة كلنجد من أعيان ملوكهم، فبرز للقائه، وانهزم، واعترضهم أنهار عميقة سقطوا فيها وهلكوا قتلاً وغرقاً، يقال: هلك منهم خمسون ألفاً.

وغنم السلطان منهم مائة فيل وخمسة إلى غير ذلك مما جل عن الوصف ثم عطف إلى سقطالتقيذ وهو بيت مبني بالصخور الصم يشرع منها بابان إلى الماء المحيط، موضوعة أبنيته فوق التلال، وعن جنبيه ألف قصر مشتملة على بيوت الأصنام.

وفي صدر البلد بيت أصنام منها خمسة من الذهب الأحمر مضروبة على خمسة أذرع في الهواء قد جعلت عينا كل واحدة منهما ياقوتتين تساويان خمسين ألف دينار، وعين الآخر قطعة ياقوت أزرق تزن أربعمائة وخمسين مثقالاً، وفي وزن قدمي الصنم الواحد أربعة آلاف وأربعمائة مثقال، وجملة ما في الأشخاص من الذهب ثمانية وتسعون ألف مثقال.

وزادت شخوص الفضة على شخوص الذهب في الوزن، فهدمت تلك الأصنام كلها، وخربت.

وسار السلطان طالباً قنوج، وخرب سائر القلاع في طريقه، ووصل إليها في شعبان سنة تسع وأربعمائة وقد فارقها نزوجبال حين سمع بقدومه، وعبر نهر كنك الذي تغرق الهنود فيه أنفسهم ويذرون فيه رماد المحرقين منهم.

وكان أهل الهند واثقين بقنوج وهي سبع قلاع موضوعة على ذلك الماء، فيها عشرة آلاف بيت للأصنام، تزعم الهنود أن تاريخها منذ مائتي ألف سنة، أو ثلاثمائة ألف سنة، وأنها لم تزل متعبداً لهم.

فلما وصلها السلطان ألفاها خالية قد هرب أهلها، ففتحها

كلها في يوم واحد، واستباحها أهل عسكره.

ثم أخذ في السير منها إلى قلعة لنج، وتعرف بقلعة البراهمة، فقاتلوا ساعة، ثم تساقطوا من أعاليها على سنا الرماح وضياء الصفاح.

ثم سار إلى قلعة أسا وملكها جندبال فهرب وتركها، وأمر السلطان بتخريبها.

ثم عطف على جندراي من أكابر الهنود في قلعة منيعة.

وكان جيبال ملك الهند من قبل ذلك يطلبه للطاعة والألفة فيمتنع عليه.

ولحق جيبال بنهوجد أحد المغرورين بحصانة المعقل، فنجا بنفسه.

ورام جندراي المدافعة وثوقاً بامتناع قلعته، ثم تنصح له بجيبال ومنعه من ذلك، فهرب إليه أمواله وأنصاره إلى جبال وراء القلعة، وافتتحها السلطان وحصل منها على غنائم.

وسار في أتباع جندراي وأثخن فيهم قتلاً ونهباً، وغنم منهم أموالاً وفيولاً، وبلغت الغنائم ثلاثة آلاف ألف درهم ذهباً وفضة، ويواقيت والسبي كثير، وبيع بدرهمين إلى عشرة، وكانت الفيول تسمى عندهم جنداي داد.

ثم قضى السلطان جهاده ورجع إلى غزنة فابتنى مسجدها الجامع وجلب إليه جذوع الرخام من الهند، وفرشه بالمرمر، وأعالي جدرانه بالأصباغ وصباب الذهب المفرغة من تلك الأصنام، واحتضر بناء المسجد بنفسه، ونقل إليه الرخام من نيسابور، وجعل أمام البيت مقصورة تسع ثلاثة آلاف غلام، وبنى بأزاء المسجد مدرسة احتوت فيها الكتب من علوم الأولين والآخرين، وأجريت بها الأرزاق، واختصت لنفسه يفضي منه إليه في أمن من العيون، وأمر القواد والحجاب وسائر الخدام فبنوا بجانب المسجد من الدور ما لا يحصى.

وكانت غزنة تحتوي على مربط ألف فيل يحتاج كل واحد منها لسياسته ومائدته خطة واسعة.

غزوة الأفقانية

لما رجع السلطان إلى غزنة راسل بيدو والي قنوج واسمه راجبان بدلحه وطال بينهما العتاب وآل إلى القتال فقتل والي قنوج، واستلحمت جنوده.

وطغى بيدو، وغلب على الملوك الذين معه، وصاروا في جملته، ووعدهم برد ما غلبهم عليه السلطان محمود، ونمي الخبر بذلك إليه فامتعض، وسار إلى بيدو فغلبه على ملكه.

وكان ابتداؤه في طريقه بالأفقانية طوائف من كفار الهند معتصمون بقلل الجبال، ويفسدون السابلة، فسار في بلادهم ودوخها، وعبر نهر كنك، وهو واد عميق، وإذا جيبال من ورائه، فعبر إليه على عسر العبور فانهزم جيبال، وأسر كثير من أصحابه، وخلص جريحاً واستأمن إلى السلطان فلم يؤمنه إلا أن يسلم، فسار ليلحق ببيدو، فغدر به بعض الهنود وقتله.

فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم إلى السلطان في الطاعة على الأتاوة، وسار إلى مدينة باري من أحصن بلاد الهند فألفاها خالية، فأمر بتخريبها وعشر قلاع مجاورة لها، وقتل من أهلها خلقاً وسار في طلب بيدو، وقد تحصن بنهر أدار ماءه عليه من جميع جوانبه، ومعه ستة وخمسون ألف فارس وثمانون ألف راجل وسبعمائة وخمسون فيلاً، فقاتلهم هنالك يوماً، وحجز بينهم الليل فأجفل بيدو، وأصبحت، دياره بلاقع، وترك خزائن الأموال والسلاح فغنمها المسلمون وتتبعوا آثارهم فوجدوهم في الغياض والآكام، فأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا بيدو بدماء نفسه، ورجع السلطان إلى غزنة ظافراً.

فتح سومنات

كان للهند صنم يسمونه سومنات، وهو أعظم أصنامهم في حصن حصين على ساحل البحر بحيث تلتقفه أمواجه والصنم مبني في بيته على ستة وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص، وهو من حجر طوله خمسة أذرع، منها ذراعان غائصان في البناء وليس له صورة مشخصة.

والبيت مظلم يضيء بقناديل الجوهر الفائق، وعنده سلسلة ذهب بجرس وزنها مائة من تحرك بأدوار معلومة من الليل فيقوم عباد البرهميين لعبادتهم بصوت الجرس.

وعنده خزانة فيها عدد كثير من الأصنام ذهباً وفضة، عليها ستور معلقة بالجوهر منسوجة بالذهب، تزيد قيمتها على عشرين ألف ألف دينار.

وكانوا يحجون إلى هذا الصنم ليلة خسوف القمر فتجتمع إليه عوالم لا تحصى.

وتزعم الهنود أن الأرواح بعد المفارقة تجتمع إليه فيبثها فيمن شاء بناء على التناسخ، والمد والجزر عندهم هو عبادة البحر.

وكانوا يقربون إليه كل نفيس، وذخائرهم كلها عنده ويعطون سدنته الأموال الجليلة.

وكان له أوقاف تزيد على عشرة آلاف ضيعة، وكان نهرهم المسمى كنك الذي يزعمون أن مصبه في الجنة، ويلقون فيه عظام الموتى من كبرائهم، وبينه وبين سومنات مائتا فرسخ، وكان يحمل من مائه كل يوم لغسل هذا الصنم، وكان يقوم عند الصنم من عباد البرهميين ألف رجل في كل يوم للعبادة، وثلاثمائة لحلق رؤوس الزوار ولحاهم، وثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون، ولهم على ذلك الجرايات الوافرة، وكان كلما فتح محمود بن سبكتكين من الهند فتحاً أو كسر صنماً، يقول أهل الهند: إن سومنات ساخط عليهم، ولو كان راضياً عنهم لأهلك محموداً دونه.

فاعتزم محمود بن سبكتكين إلى غزوه، وتكذيب دعاويهم في شأنه، فسار من غزنة في شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة في ثلاثين ألف فارس سوى المتطوعة، وقطع القفر إلى الملتان وتزود له من القوت والماء قدر الكفاية، وزيادة عشرين ألف حمل.

وخرج من المفازة إلى حصون مشحونة بالرجال قد غوروا آبارهم مخافة الحصار، فقذف اللّه الرعب في قلوبهم، وفتحها وقتل سكانها وكسر أصنامها، واستقى منها الماء.

وسار إلى انهلوارن وأجفل عنها صاحبها بهيم، وسار إلى بعض حصونه، وملك السلطان المدينة، ومر إلى سومنات ووجد في طريقه حصوناً كثيرة فيها أصنام وضعوها كالنقباء والخدمة لسومنات، ففتحها وخربها وكسر الأصنام.

ثم سار في قفر معطش، واجتمع من سكانه عشرون ألفاً لدفاعه، فقاتلهم سراياه، وغنموا أموالهم، وانتهوا إلى دبلواه على مرحلتين من سومنات، فاستولى عليها وقتل رجالها.

ووصل إلى سومنات منتصف ذي القعدة، فوجد أهلها مختفين في أسوارهم، وأعلنوا بكلمة الإسلام فوقها، فاشتد القتال حتى حجز بينهم الليل.

ثم أصبحوا إلى القتال وأثخنوا في الهنود، وكانوا يدخلون إلى الصنم فيعنفونه ويبكون ويتضرعون إليه، ويرجعون إلى القتال.

ثم انهزموا بعد أن أفناهم القتل، وركب فلهم السفن فأدركوا، وانقسموا بين النهب والقتل والغرق، وقتل منهم نحو من خمسين ألفاً، واستولى السلطان على جميع ما في البيت.

ثم بلغه أن بهيم صاحب أنهلوارن اعتصم بقلعة له تسمى كندهة في جزيرة على أربعين فرسخاً من البر، فرام خوض البحر إليها، ثم رجع عنها وقصد المنصورة، وكان صاحبها ارتد عن الإسلام، ففارقها وتسرب في غياض هناك، فأحاطت عساكر السلطان بها، وتتبعوهم بالقتل، فأفنوهم.

ثم سار إلى بهاطية فدان أهلها بالطاعة ورجع إلى غزنة في صفر سنة سبع عشرة وأربعمائة.

دخول قابوس صاحب جرجان وطبرستان في ولاية السلطان محمود

قد قدمنا وفادة قابوس على الأمير نوح بن منصور بن سامان، وعامله بخراسان أبي العباس تاش مستصرخاً على بني بويه عندما ملكوا طبرستان وجرجان من يده سنة إحدى وسبعين، وأقام بخراسان ثماني عشرة سنة وهم يعدونه بالنصرة والمدد حتى يئس منهم.

ولما جاء سبكتكين ووعده بمثل ذلك.

ثم شغله شغل بني سيجور، ثم وعده السلطان محمود وشغلته فتنة أخيه، واستولى أبو القاسم بن سيجور على جرجان بعد مهلك فخر الدولة بن بويه.

ثم أمر من بخارى بالمسير إلى خراسان، فسار إلى أسفرايين واستمد قابوس رجال الديلم والجبل، فأمدوه وظاهروه على أمره حتى غلب على طبرستان وجرجان، وملكها كما يذكر في أخبار الديلم والجبل.

وكان نصر بن الحسن بن الفيرزان وهو ابن عم ماكان بن كالي ينازعه فيهما، فآل الحال بنصر إلى أن اعتقله بنو بويه بالري، واستقل قابوس بولاية جرجان وطبرستان وديار الديلم كلها من ممالك محمود.

استيلاء السلطان محمود على الري والجبل

كان مجد الدولة بن فخر الدولة صاحب الري، وكان قد ضعف أمره وأدبرت دولته، وكان يتشاغل بالنساء والكتاب نسخاً ومطالعة.

وكانت أمه تدبر ملكه، فلما توفيت انتقضت أحواله وطمع فيه جنده، وكتب إلى محمود يشكو ذلك ويستدعي نصرته، فبعث إليه جيشاً عليهم حاجبه، وأمره أن يقبض على مجد الدولة فقبض عليه وعلى ابنه أبي دلف عند وصوله.

وطير بالخبر إلى السلطان، فسار في ربيع من سنة عشرين وأربعمائة ودخل الري وأخذ أموال مجد الدولة، وكانت ألف ألف دينار، ومن الجواري قيمة خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ستة آلاف ثوب، ومن الآلات ما لا يحصى.

ووجد له خمسين زوجة ولدن نيفاً وثلاثين ولداً، فسئل عن ذلك فقال: هذه عادة.

وأحضر مجد الدولة وعنفه، وعرض له بتسفيه رأيه في الانتصار عن جندراي منه، وبعثه إلى خراسان فحبس بها.

ثم ملك السلطان قزوين وقلاعها، ومدينة ساوه وآوه، وصلب أصحاب مجد الدولة من الباطنية ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجوم، وأخذ مما سوى ذلك من الكتب مائة حمل.

وتحصن منه منوجهر بن قابوس ملك الجبل بالجبال الوعرة فقصده فيها، ولم تصعب عليه فهرب منوجهر وتحصن بالغياض، وبعث له بخمسمائة ألف ديناراً استصلاحاً فقبله ورجع عنه إلى نيسابور.

وتوفي منوجهر عقب ذلك، وولي بعده ابنه أنوشروان فأقره السلطان على ولايته، وقرر عليه مائة ألف دينار ضريبة.

وخطب للسلطان محمود في بلاد الجبل إلى أرمينية.

وافتتح ابنه مسعود زنجان وأبهر من يد إبراهيم السيلار بن المرزبان من عقب شوذان بن محمد بن مسافر الديلمي، وجميع قلاعه، ولم يبق بيده إلا شهرزان، قرر عليه فيها ضريبة، كما يأتي في أخبار الديلم.

ثم أطاعه علاء الدولة بن كاكويه بأصفهان، وخطب له، وعاد السلطان إلى خراسان، واستخلف بالري ابنه مسعوداً فقصد أصفهان وملكها من علاء الدولة، واستخلف مسعود عليها بعض أصحابه وعاد عنها فثار أهلها بعامله وقتلوه، فرجع إليهم واستباحهم، ثم عاد إلى الري فأقام بها.

استيلاء السلطان محمود على بخارى ثم عوده عنها

كان ايلك خان ملك الترك وصاحب تركستان لما ملك بخارى من يد بني سامان سنة تسعين وثلاثمائة، ولي عليها ورجع إلى بلاده كما مر، وكان الغز أحياء بادية بضواحي بخارى وزعيمهم أرسلان بن سلجوق عم السلطان طغرليك.

وكان بينه وبين ايلك خان وأخيه بقراخان حروب وفتن بسبب استظهار بني سامان بهم.

فلما ملك ايلك خان بخارى عرف لأرسلان بن سيجور حقه ورفع محله، وهو مع ذلك مستوحش.

وكان على تكين أخو ايلك خان، وحبس أرسلان ولحق ببخارى فاستولى عليها، وطلب موالاة أرسلان بن سيجور فوالاه، واستفحل أمرهما، ونهض إليهما ايلك خان وقاتلهما فهزماه.

واستوثق أمر تكين في بخارى وكان يسيء جوار السلطان محمود بن سبكتكين في أعماله، ويعترض رسله المترددين إلى ملوك الترك فأحفظ ذلك السلطان، وأجمع المسير إليه، فنهض من بلخ سنة عشرين وأربعمائة، وعبر النهر وقصد بخارى، فهرب منها إلى تكين ولحق بايلك خان، ودخل السلطان بخارى وملك سائر أعمالها، وأخذ الجزية من سمرقند، وأجفلت أحياء الغز وأرسلان بن سلجوق، وتلطف في استدعائه.

فلما حضر عنده تقبض عليه، وبعثه إلى بعض قلاع الهند وحبسه بها، وسار إلى أحياء الغز فنهبهم، وأثخن فيهم قتلاً وأسراً، ورجع إلى خراسان.

خبر السلطان محمود مع الغز بخراسان

لما حبس السلطان أرسلان بن سلجوق، ونهب أحياءهم، أجلاهم عن ضواحي بخارى، فعبروا نهر جيحون إلى خراسان، وامتدت فيهم أيدي العمال بالظلم والتعدي في أموالهم وأولادهم فتفرقوا، وجاءت منهم طائفة في أكثرمن ألفي خركاة إلى كرمان، ثم إلى أصفهان، وكان يسمون العراقية، وطائفة إلى جبل بكجان عند خوارزم القديمة، وعاث كل منهم فيما سار فيه من البلاد.

وبعث السلطان إلى علاء الدولة بأصفهان لرد الذين ساروا إليه إلى الري وقبلهم، وحاول ذلك بالغدر فلم يستطع، وحاربهم فهزموه وساروا عنه إلى أذربيجان، وأفسدوا ما ساروا عليه وصانعهم وهشوذان صاحب أذربيجان وآنسهم، وكان مقدموهم: بوقا وكوكتاش ومنصور ودانا، وأما الذين ساروا إلى خوارزم القديمة فكثر عيثهم في تلك النواحي.

وأمر السلطان محمود صاحب طوس أرسلان الحاجب أن يسير في طلبهم فاتبعهم سنتين.

ثم جاء السلطان على أثره فشردهم على نواحي خراسان، واستخدم بعضهم، وكان أمراؤهم: كوكتاش وبوقا وقزل ويغمر

وتاصفلي.

ولما مات السلطان محمود استخدمهم ابنه مسعود أيضاً، وساروا معه من غزنة إلى خراسان فسألوه فيمن بقي منهم بجبل بكجان عند خوارزم فأذن لهم أن يسهلوا إلى البسائط على شرط الطاعة.

ثم انتقض أحمد نيال عامل الهند فسار مسعود إليه، وولى على خراسان تاش، وكثر عيث هؤلاء الغز في البلاد فأوقع بهم تاش، وقتل أميرهم يغمر.

وبعث السلطان مسعود من إجلائهم عن البلاد، ومثل بهم بالقتل والقطع والصلب.

فساروا إلى الري طالبين أذربيجان للحاق بالعراقية منهم كما مر ذكرهم فملكوا الدامغان ونهبوها، ثم سمنان.

ونهبوا جوار الري وإيجاباذ ومشكوبة من أعمال الري، وخربوا كل ما مروا عليه من القرى والضياع فاجتمع لحربهم تاش وأبو سهل الحمدوني صاحب الري.

وسار إليهم تاش في العساكر والفيلة على التعبئة، ولقوه مستميتين، وسبق إليه أحياؤهم فهزموه وقتلوه.

ثم ساروا الى الري فهزموا أبا سهل الحمدوني وعسكره، ولحق بقلعة طبول، ونهبوا الري واستباحوا أموالها، وجاء عسكر من جرجان فاعترضوه وكبسوه، وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، ومضوا إلى أذربيجان ليجتمعوا بالعراقية.

ثم رجع علاء الدولة بن كاكويه إلى أصفهان بعد مسيرهم من الري، وطلبوا مولاه أبا سهل على طاعة مسعود فلم يتم وعاث الغز في أذربيجان وأوقع بهم وهشوذان وقتل منهم وجمع عليهم أهل أذربيجان وأوقع بهم ففارقوها إشفاقاً من نيال وأخيه طغرلبك، وافترقوا بين الموصل وديار بكر فملكوها ونهبوها وعاثوا في نواحيها كما مر ذكره في أخبار قرواش صاحب الموصل وابن مروان صاحب ديار بكر.

هذه أخبار أرسلان بن سلجوق مفصلة إلا ما اختصر منها بالري وأذربيجان فإنه يأتي في مواضعه من دولة الديلم.

وأما طغرلبك وإخوته داود، وبيقو وأخوه لأمه نيال المسمى بعد الإسلام إبراهيم فانهزموا وأقاموا بعد سلجوق ببلاد ما وراء النهر.

وكان بينهم وبين علي تكين صاحب بخارى حروب ظهر عليهم فيها فعبروا جيحون إلى خوارزم وخراسان، وكان من أخبارهم فيها ومآل أمرهم إلى الملك والدولة ما يأتي ذكره.

افتتاح نرسي من الهند

كان السلطان محمود قد استخلف على الهند من مواليه أحمد نيال تكين، فغزا سنة إحدى وعشرين مدينة نرسي من أعظم مدن الهند في مائة ألف مقاتل، فنهب وخرب الأعمال واستباحها.

وجاء إلى المدينة فدخلها من أحد جوانبها، واستباحها يوماً ولم يستوعبها حتى خرجوا فباتوا بظاهرها خوفاً على أنفسهم من أهل البلد، وقسموا الأموال كيلاً، وأرادوا العود من الغد فدافعهم أهلها، ورجع أحمد نيال بعساكره إلى بلده.

وفاة السلطان محمود وولاية ابنه محمد

ثم توفي السلطان محمود في ربيع سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، وكان ملكاً عظيماً استولى على كثير من الممالك الإسلامية، وكان يعظم العلماء ويكرمهم، وقصدوه من أقطارالبلاد، وكان عادلاً في رعيته رفيقاً بهم محسناً إليهم، وكان كثير الغزو والجهاد، وفتوحاته مشهورة.

ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لابنه محمد وهو ببلخ، وكان أصغر من مسعود إلا أنه كان مقبلاً عليه ومعرضاً عن مسعود.

فلما توفي بعث أعيان الدولة إلى محمد بخبر الوصية واستحثوه، وخطب له في أقاصي الهند إلى نيسابور، وسار إلى غزنة فوصلها لأربعين يوماً، واجتمعت العساكر على طاعته وقسم فيها الأعطيات.

خلع السطان محمد ابن السلطان محمود وولاية ابنه الآخر مسعود الأكبر

لما توفي السلطان محمود كان ابنه مسعود بأصفهان، فسار إلى خراسان، واستخلف على أصفهان، فثار أهلها بخليفته وعسكره فقتلوهم، فعاد إليهم مسعود وحصرها وافتتحها عنوة واستباحها.

ثم استخلف عليها وسار إلى الري ومنها إلى نيسابور، وكتب إلى أخيه محمد بالخبر وأنه لا ينازعه، ويقتصر على فتحه من طبرستان وبلد الجبل وأصفهان، ويطلب تقديمه على محمد في الخطبة فأحفظه ذلك، واستحلف العساكر.

وسار إلى مسعود، وكان أكثر العساكر يميلون إلى مسعود لقوته وشجاعته وعلو سنه.

وأرسل التونتاش صاحب خوارزم، وكان من أصحاب السلطان محمود يشير على محمد بترك الخلاف فلم يسمع، وسار فانتهى إلى بكياباد أول رمضان من سنته، وأقام، وكان مشتغلاً باللعب عن تدبير الملك، فتفاوض جنده في خلعه والإدالة منه بأخيه مسعود.

وتولى كبر ذلك عمه يوسف بن سبكتكين، وعلي خشاوند صاحب أبيه.

وحبسوا محمداً بقلعة بكياباد وكتبوا بالخبر إلى مسعود، وارتحلوا إليه بالعساكر فلقوه بهراة فقبض على عمه وعلى صاحب أبيه، وعلى جماعة من القواد.

واستقر في ملك أبيه شهر ذي القعدة من سنته، وأخرج الوزير أبا القاسم أحمد بن الحسن السيمندي من محبسه وفوض إليه الوزارة وأمور المملكة.

وكان أبوه قبض عليه سنة ست عشرة وأربعمائة وصادره على خمسة آلاف دينار، ثم سار إلى غزنة فوصلها منتصف اثنتين وعشرين وأربعمائة ووفدت عليه رسل جميع الملوك من جميع الآفاق، واجتمع له ملك خراسان وغزنة والهند والسند وسجستان وكرمان ومكران والري وأصفهان والجبل، وعظم سلطانه.

عود أصفهان إلى علاء الدولة بن كاكويه ثم رجوعها للسلطان مسعود

كان قناخر مجد الدولة بن بويه صاحب أصفهان، وملكها السلطان محمود من يده فهرب عنها، وامتنع بحصن قصران.

وأنزل السلطان محمود ابنه مسعود بأصفهان، وأنزل معه علاء الدولة بن كاكويه فاستقل بها، وسار عنه مسعود، ثم زحف إليه وملكها من يده.

ولحق علاء الدولة بخوزستان يستنجد أبا كاليجار بن سلطان الدولة.

وسار عنه إلى تستر ليستمد له من أخيه جلال الدولة العساكر لمعاودة أصفهان.

وكان ذلك عقب فتنة وحرب بين أبي كاليجار وأخيه جلال الدولة فوعده أبوه بذلك إذا اصطلحا، وأقام عنده إلى أن توفي السلطان محمود.

ولما توفي السلطان محمود جمع قناخر جمعاً من الديلم والأكراد، وقصد الري وقاتله نائبه مسعود فهزمه، ودفعه عن الري وفتك في عسكره قتلاً وأسراً.

وعاد قناخر إلى بلده، وبلغ الخبر إلى علاء الدولة بموت السلطان محمود وهو عند أبي كاليجار بخوزستان، وقد أيس من النصر، فبادر إلى أصفهان فملكها، ثم همذان.

وقصد الري فقاتله نائب مسعود، ورجع إلى أصفهان.

ثم اقتحموا عليه البلد عنوة ونجا علاء الدولة إلى قلعة قردخان على خمسة عشر فرسخاً من همذان، وخطب لمسعود بالري وجرجان وطبرستان.

فتح التيز ومكران وكرمان ثم عود كرمان لأبي كاليجار

كان صاحب التيز ومكران لما توفي خلّف ولدين أبا العساكر وعيسى، واستبد عيسى منهما بالملك فسار أبو العساكر إلى خراسان مستنجداً بمسعود فبعث معه عسكراً ودعوا عيسى إلى الطاعة فامتنع، وقاتلوه فاستأمن كثير من أصحابه إلى أبي العساكر فانهزم عيسى وقتل في المعركة.

واستولى أبو العساكر على البلاد وملكها، وخطب فيها للسلطان مسعود، وذلك سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وفي هذه السنة ملك السلطان مسعود كرمان وكانت للملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة فبعث إليها السلطان مسعود عساكر خراسان فحاصروا مدينة بردسير، وشدوا في حصارها، واستبد إلى أطراف إلى البلاد، ثم وصل عسكر أبي كاليجار إلى جيرفت واتبعوا الخراسانية بأطراف البلاد فعاود هزيمتهم، ودخلوا المفازة إلى خراسان وعادت العساكر الى فارس.

فتنة عساكر السلطان مسعود مع علاء الدولة بن كاكويه وهزيمته

قد تقدم لنا هزيمة علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه من الري ونجاته إلى قلعة قردخان.

ثم سار منها إلى يزدجرد ومعه فرهاد بن مرداويج مدداً له.

ويعث صاحب الجيوش بخراسان عسكراً مع ابن عمران

الديلمي لاعتراضهما، فلما قاربهما العسكر فر فرهاد إلى قلعة شكمين، ومضى علاء الدولة إلى سابور خرات، وملك علي بن عمران يزدجرد.

ثم أرسل فرهاد إلى الأكراد الذين مع علي بن عمران وداخلهم في الفتك به، وشعر بذلك فسار إلى همذان، ولحقه فرهاد فاعتصم بقلعة في طريقه منيعة، وكادوا يأخذونه لولا عوائق الثلج والمطر في ذلك اليوم، وكانوا ضاحين من الخيام فتركوه ورجعوا عنه.

وبعث ابن عمران إلى تاش فرواش صاحب جيوش خراسان يستمده في العسكر إلى همذان، وبعث علاء الدولة يستدعي أبا منصور ابن أخيه من أصفهان بالسلاح والأموال ففعل.

وسار علي بن عمران من همذان لاعتراضه، فكبسه بجر باذقان وغنم ما معه وقتل كثيراً من عسكره وأسره، وبعث به إلى تاش فرواش صاحب جيوش خراسان.

وسار إلى همذان وزحف إليه علاء الدولة وفرهاد، فانقسموا عليه وجاؤوه من ناحيتين، فانهزم علاء الدولة ونجا إلى أصفهان وفر هارباً إلى لقلعة شكين فتحصن بها.

مسير السلطان مسعود إلى غزنة والفتن بالري والجبل

لما استولى السلطان على أمره سار من غزنة إلى خراسان لتمهيد أمورها، وكان عامله وعامل أبيه على الهند أحمد نيال تكين قد استفحل فيها أمره وحدثته نفسه بالاستبداد فمنع الحمل وأظهر الانتقاض.

فسار السلطان إلى الهند ورجع أحمد نيال إلى الطاعة، وقام علاء الدولة بأصفهان وأظهر الانتقاض، ومعه فرهاد بن مرادويج، فزحف إليهم أبو سهل وهزمهم، وقتل فرهاد ونجا علاء الدولة إلى جبال أصفهان وجرباذقان فامتنع بها، وسار أبو سهل إلى أصفهان فملكها سنة خمس وعشرين وأربعمائة ونهب خزائن علاء الدولة وحمل كتبه إلى غزنة وأحرقها الحسين الغوري بعد ذلك

عود أحمد نيال تكين إلى العصيان

ولما عاد السلطان إلى خراسان لقتال الغز، عاد أحمد نيال تكين إلى العصيان بالهند، وجمع الجموع فبعث السلطان سنة ست وعشرين وأربعمائة إليه جيشاً كثيفاً، وكتب إلى ملوك الهند بأخذ المذاهب عليه.

فلما قاتله الجيوش انهزم ومضى هارباً إلى ملتان، وقصد منها بهاطية وهو في جمع فلم يقدر ملك بهاطية على منعه.

وأراد عبور نهرالسند في السفن، فهيأ له الملك ليعبر إلى جزيرة وسط النهر ظنها متصلة بالبر، وأوصى الملك الملاحين أن ينزلوه بها ويرجعوا عنه.

وعلموا أنها منقطعة، فضعفت نفوسهم وأقاموا بها سبعة أيام، ففنيت أزوادهم وأكلوا دوابهم، وأوهنهم الجوع.

وأجاز إليهم ملك بهاطية فاستوعبهم بالقتل والغرق والأسر وقتل أحمد نفسه.

فتح جرجان وطبرستان

كانت جرجان وطبرستان وأعمالهما لدارا بن منوجهر بن قابوس، وكان السلطان مسعود قد أقره عليها، فلما سار السلطان إلى الهند وانتشر الغز في خراسان منع الحمل، ودخل علاء الدولة بن كاكويه وفرهاد بن ماكان في العصيان.

فلما عاد مسعود من الهند وأجلى الغز عن خراسان سار إلى جرجان سنة ست وعشرين وأربعمائة فملكها ثم سار إلى آمد فملكها وفارقها أصحابها، وافترقوا في الغياض فتبعهم، وقتل منهم وأسر.

ثم راسله دارا في الصلح وتقرير البلاد عليه، وحمل ما بقي عليه، فأجابه السلطان إلى ذلك ورجع إلى خراسان.

مسيرعلاء الدولة إلى أصفهان وهزيمته

كان أبو سهل الحمدوني قد أنزله السلطان بأصفهان ودلهم على النواحي القريبة من علاء الدولة فأوقع بهم وغنم ما معهم، وقوي طمعه بذلك في أصفهان، فجمع الجموع، وسار إليها، فخرج إليهم أبو سهل وقاتلهم.

وتحيز من كان مع علاء الدولة من الأتراك إلى أبي سهل، فانهزم علاء الدولة، ونهب سواده، وسار إلى بروجرد، ثم إلى الطرم فلم يقبله ابن السلار صاحبها.

استيلاء طغرلبك على خراسان

كان طغرلبك وأخواه بيقو وجقربيك، واسم طغرلبك محمد، ولما أسر السلطان محمود أرسلان بن سلجوق وحبسه كما مر وأجاز أحياء من الغز إلى خراسان فكان من أخبارهم ما قدمناه، وأقام طغرلبك وإخوته في أحيائهم بنواحي بخارى.

ثم حدثت الفتنة بينهم وبين علي تكين صاحب بخارى، وكانت بينهم حروب ووقائع، وأوقعوا بعساكره مراراً فجمع أهل البلاد عليهم، وأوقع بهم واستلحمهم واستباحهم، فانحازوا إلى خراسان سنة ست وعشرين وأربعمائة، واستخدموا لصاحب خوارزم وهو هارون بن التونتاش.

وغدر بهم، فساروا عنه إلى مفازة نسا، ثم قصدوا مرو وطلبوا الأمان من السلطان مسعود على أن يضمنهم أمان السابلة، فقبض على الرسل ولم يجبهم على ما سألوا.

وبعث العساكر فأوقعوا بهم على نسا، ثم طار شررهم في البلاد وعم ضررهم.

وسار السلطان ألب أرسلان إلى نيسابور ففارقها أبو سهل الحمدوني فيمن معه، واستولى عليها داود.

وجاء أخوه طغرلبك على أثره ولقيهم رسل الخليفة إليهم وإلى العراقية الذين قتلهم بالري وهمذان، يعنفهم وينهاهم عن الفساد ويطمعهم، فتلقوا الرسل بالإعظام والتكرمة.

ثم امتدت عين داود إلى نهب نيسابور فمنعه طغرلبك، وعرض له بشهر رمضان، ووصية الخليفة، فلج فقوي طغرلبك في المنع وقال: والله لئن نهبت لأقتلن نفسي، فكف داود عن ذلك.

وقسطوا على أهل نيسابور ثلاثين ألف دينار، فرقوها في أصحابهم.

وجلس طغرلبك على سرير ملك مسعود بدار الملك، وصار يقعد للمظالم يومين في الأسبوع على عادة ولاة خراسان، وكانوا يخطبون للملك مسعود مغالطة وإيهاماً.

مسير السلطان مسعود من غزنة إلى خراسان واجلاء السلجوقية عنها

ولما بلغ الخبر إلى السلطان مسعود باستيلاء طغرلبك والسلجوقية على نيسابور، جمع عساكره من غزنة وسار إلى خراسان فنزل بلخ في صفر سنة ثلاثين وأربعمائة وأصهر إلى بعض ملوك الخانية دفعاً لشره، وأقطع خوارزم ولحق إسماعيل بطغرلبك.

ثم أراح السلطان مسعود وفرغ من خوارزم والخانية، فبعث السلطان سباشي، فسار إليهم في العساكر فلم يشف نفسه، ونزل سرخس، وعدلوا عن لقائه، ودخلوا المفازة التي بين مرو وخوارزم، واتبعهم السلطان مسعود وواقعهم في شعبان من هذه السنة، فهزمهم فما بعدوا حتى عادوا في نواحيه، فأوقع بهم أخرى، وكان القتلى فيها منهم ألفاً وخمسمائة، وهربوا إلى المفازة، وثار أهل نيسابور بمن عندهم وقتلوهم، ولحق فلهم بأصحابهم في المفازة.

وعدل السلطان إلى هراة ليجهز العساكر ليطلبهم، فبلغه الخبر بأن طغرلبك سار إلى أستراباذ، وأقام بها في فصل الشتاء يظن أن الثلج يمنعهم عنه، فسار السلطان إليه هنالك، ففارقها طغرلبك وعدل عن طوس إلى جبال الري التي كان فيها طغرلبك وأصحابه، وقد امتنعوا بجبالهم خوفاً من السلطان لما كان منهم من موالاة السلجوقية، فأغذ إليهم السير، وصبحهم فتركوا أهلهم وأموالهم واعتصموا بوعر الجبل، وغنمت عساكره جميع ما استولوا عليه.

ثم صعد إليهم بنفسه وعساكره وهلك كثير من العسكر بالثلج في شعاب الجبل ثم ظفروا بهم في قنة الجبل واستلحموهم، وسار مسعود إلى نيسابور في جمادى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ليريح ويخرج في فصل الربيع لطلبهم في المفاوز.

ثم عاد طغرلبك وأصحابه من المفازة وبعث إليهم السلطان بالوعيد، فيقال: إن طغرلبك قال لكاتبه أكتب إليه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ الآية، ولا تزده عليها.

ولما ورد الكتاب على السلطان مسعود، كتب إليه وآنسه بالمواعيد وبعث إليه بالخلع، وأمره بالرحيل إلى آمل الشط على جيحون، وأقطع نسا لطغرلبك ودهستان لداود وبدارة لبيقو، وسمى كل واحد منهما بالدهقان، فلم يقبلوا شيئاً من ذلك ولا وثقوا به.

وأكثروا من العيث والفساد.

ثم كفوا عن ذلك، وبعثوا إلى السلطان مسعود يخادعونه بالطاعة ببلخ، ورغبوه في أن يسرح إليهم أخاهم أرسلان المحبوس بالهند، فبعث إليه السلطان مسعود وجاؤوا بأرسلان من الهند، ولما لم يتم بينهم أمر بإعادته إلى محبسه.

هزيمة السلطان مسعود واستيلاء طغرلبك على مدائن خراسان وأعمالها

ولما تغلبت السلجوقية على نواحي خراسان، وفضوا عساكر السلطان وهزموا الحاجب سباسي، اهتز السلطان لذلك، وأجمع لخراسان الحشد وبث العطاء، وأزاح العلل، وسار من غزنة في الجيوش الكثيفة والفيلة العديدة على التعبية المألوفة، ووصل إلى بلخ، ونزل بظاهرها، وجاء داود بأحيائه فنزل قريباً منه، وأغار يوماً على معسكره فساق من باب الملك مسعود عدة من الجنائب المقربات، معها الفيل الأعظم، وارتاع الملك لذلك، وارتحل مسعود من بلخ في رمضان سنة تسع وعشرين وأربعمائة ومعه مائة ألف مقاتل.

ومر بالجوزجان فصلب الوالي الذي كان بها للسلجوقية، وانتهى إلى مرو الشاهجان.

ومضى داود إلى سرخس واجتمع معه أخوه طغرلبك وبيقو، وبعث إليهم السلطان في الصلح، فوفد عليه بيقو فأكرمه السلطان وخلع عليه، وأجابه هو عن أصحابه بالامتناع من الصلح للخوف من السلطان.

وسار من عند السلطان فسقط في يده وسار في اتباعهم من هراة إلى نيسابور، ثم سرخس، كلما تبعهم إلى مكان هربوا منه إلى آخر، حتى أظلهم فصل الشتاء فأقاموا بنيسابور ينتظرون انسلاخه فانسلخ، والسلطان عاكف على لهوه غافل عن شأنه حتى انقضى زمن الربيع.

واجتمع وزراؤه وأهل دولته وعذلوه في إهمال أمر عدوه، فسار من نيسابور إلى مرو في طلبهم فدخلوا المفازة، فدخل وراءهم مرحلتين وقد ضجر العسكر من طول السفر وعنائه.

وكانوا منذ ثلاث سنين منقلبين فيه منذ سفرهم مع سباسي فنزل بعض الأيام في منزلة على قليل من الماء، وازدحم الناس على الورود واستأثر به أهل الدولة والحاشية، فقاتلهم عليه الجمهور، ووقعت في العساكر لذلك هيعة، وخالفهم الدعرة إلى الخيام ينهبون ويتخطفون.

وكان داود وأحياؤه متابعاً للعسكر على قرب يتخطف الناس من حولهم، فشعر بتلك الهيعة فركب في قومه وصدم العساكر وهم في تلك الحال فولوا منهزمين، والسلطان والوزير ثابتان في موقفهما يحرضان الناس على الثبات، فلم يثبت أحد، فانصرفا مع المنهزمين في فل واتبعهم داود وأثخن فيهم بالقتل.

ثم رجع إلى العسكر وقد غنمه أصحابه فآثرهم بالغنائم، وقسم فيهم ما حصل له وقعد على كرسي السلطان، وأقام عسكره ثلاثة أيام ولياليها خشية من كر العساكر السلطانية عليهم.

ونجا السلطان إلى غزنة فدخلها في شوال سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وقبض على سباسي وغيره من الأمراء، وسار طغرلبك إلى نيسابور فملكها آخر إحدى وثلاثين وأربعمائة، ونهب عسكره أهلها، وكان بها هرج عظيم من الدعرة، وكانوا ينالون من الناس بالنهب والزنا والقتل فارتدعوا لذلك لهيبة طغرلبك، وسكن الناس.

وملك السلجوقية البلاد فسار بيقو إلى هراة فملكها وسار داود إلى بلخ وبها الحاجب التونتاش فاستخلفه السلطان عليها، فأرسل إليه داود في الطاعة فسجن الرسل، وحاصره داود.

وبعث السلطان مسعود جيشاً كثيفاً لإمداده، ودفع السلجوقية عن البلاد، فسار فريق منهم إلى الرخج، فدفعوا من كان بها من السلجوقية وهزموهم، وأفحشوا في قتلهم وأسرهم.

وسار فريق منهم إلى بيقو في هراة فقاتلوه ودفعوه عنها ثم بعث السلطان ابنه مودود بعساكر أخرى، وجعل معه وزيره أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد يدبره، فسار عن غزنة سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة فلما قارب بلخ وداود يحاصرها، بعث داود جماعة من عسكره فلقوا طلائع مودود فهزمهم، فلما وصلت منهزمة تأخر مودود عن نهايته، وأقام وسمع التونتاش بإحجام مودود عنه فأطاع داود وخرج إليه.

خلع السلطان مسعود ومقتله وولاية أخيه محمد مكانه

ولما بعث السلطان ولده مودود إلى خراسان لمدافعة السلجوقية عنها، وأقام بعده سبعة أيام، وخرج من غزنة في ربيع سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة يريد الهند للمشتى به على عادة أبيه، ويستنفر الهنود لقتال السلجوقية، واستصحب أخاه محمداً المسمول معه.

وكان أهل الدولة قد ضجروا منه فتفاوضوا في خلعه وولاية أخيه محمد، وأجمعوا ذلك.

فلما عبروا نهر سيحون وتقدم بعض الخزائن فتخلف أنوش تكين البلخي في جماعة من الغلمان الفداوية، ونهبوا بقية الخزائن، وبايعوا لمحمد المسمول وذلك في منتصف ربيع الآخر من

السنة.

وافترق العسكر واقتتلوا وعظم الخطب وانهزم السلطان مسعود، وحاصروه في رباط هناك.

ثم استنزلوه على الأمان وخيره أخوه محمد في السكنى فاختار مسعود قلعة كيدي فبعث إليها، وأمر بإكرامه، ورجع محمد بالعساكر إلى غزنة.

وفوض إلى ابنه أحمد أمر دولته وكان أهوج فاعتزم على قتل عمه مسعود، وداخل في ذلك عمه يوسف، وعلي خشاوند فوافقوه عليه، وحرضوه فطلب من أبيه خاتمه ليختم به بعض خزائنهم، وبعث بهم إلى القلعة مع بعض خدمه ليؤدي رسالة مسعود، وهو بخراسان يعتذر بأن أولاد أحمد نيال تكين قتلوا السلطان مسعود قصاصاً بأبيهم، فكتب إليه يتوعده.

ثم طمع الجند في السلطان محمد ومدوا أيديهم إلى الرعايا ونهبوها، وخربت البلاد وارتحل عنها محمد.

وكان السلطان مسعود شجاعاً كريماً غزير الفضل حسن الخط، سخياً محباً للعلماء مقرباً لهم محسناً إليهم وإلى غيرهم من ذوي الحاجات، كثير الصلات والعطاء والجوائز للشعراء، حليت تصانيف العلوم باسمه، وكثرت المساجد في البلاد بعمارته.

وكان ملكه فسيحاً، ملك أصفهان وهمذان والري وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وبلاد الداورن وكرمان وسجستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور، وأطاعه أهل البر والبحر وقد صنف في أخباره ومناقبه.

مقتل السلطان محمد وولاية مودود ابن أخيه مسعود

لما بلغ الخبر بمقتل السلطان مسعود إلى ابنه مودود بخراسان سار مجداً في عساكره إلى غزنة فلقيه عمه محمد في شعبان سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وانهزم محمد وقبض عليه وعلى ابنيه أحمد وعبد الرحمن، وعلى أنوش تكين البلخي الخصي، وعلى علي خشاوند وقتلهم أجمعين، إلا عبد الرحمن لرفقه بأبيه مسعود عند القبض عليه.

وقتل كل من داخل في قبض أبيه وخلعه، وسار سيرة جده محمود، وبلغ الخبر إلى أهل خراسان فثار أهل هراة بمن عندهم من السلجوقية فأخرجوهم، وتشوف أهل خراسان للنصر على الغز من قبل مودود، وكان أبوه السلطان مسعود قد بعث ابنه الآخر إلى الهند أميراً عليها سنة ست وعشرين وأربعمائة فلما بلغه موت أبيه بايع لنفسه وقفل إلى لهاور والملتان فملكهما، وأخذ الأموال وجمع العساكر وأظهر الخلاف على أخيه مودود.

وحضر عيد الأضحى فأصبح ثالثه ميتاً بلهاور، بعد أن كان مودود يجهز العساكر من غزنة لقتاله، وهو في شغل شاغل من أمره، ففرغ عن الشواغل ورسخت قدمه في ملكه، وخالفه السلجوقية بخراسان وخاطبه خان الترك من وراء النهر بالانقياد والمتابعة.

استيلاء طغرلبك على خوارزم

كانت خوارزم من ممالك محمود بن سبكتكين وابنه مسعود من بعده، وكان عليها التونتاش حاجب محمود من أكابر أمرائه، ووليها لهما معاً، ولما شغل مسعود بفتنة أخيه محمد عند مهلك أبيهما أغار على تكين صاحب بخارى من أطراف البلاد وغيرهما.

فلما فرغ مسعود من مراجعة محمد واستقل بالملك بعث إلى التونتاش بالمسير إلى أعمال علي وانتزاع بخارى وسمرقند منه، وأمده بالعساكر فعبر جيحون سنة أربع وعشرين وأربعمائة وأخذ من بلاد تكين كثيراً فأقام بها، وهرب تكين بين يديه.

ثم دعته الحاجة إلى الأموال للعساكر، ولم يكن في جبايته تلك البلاد.

وجاء بها فاستأذن في العود إلى خوارزم، وعاد واتبعه على تكين وكبسه على غرة، فثبت وانهزم علي تكين ونجا إلى قلعة دبوسية.

وحاصره التونتاش وضيق عليه فبعث إليه واستعطفه فأفرج عنه، وعاد إلى خوارزم، وكانت به جراحة من هذه الوقعة، فانتقض عليه ومات وترك من الولد ثلاثة وهم: هارون ورشيد وإسماعيل، وضبط وزيره أحمد بن عبد الصمد البلد والخزائن حتى جاء هارون الأكبر من الولد من عند السلطان بعهده على خوارزم، ثم توفي المتميدي وزير السلطان مسعود، وبعث على أبي نصر لوزارته، واستناب أبو نصر عند هارون بخوارزم ابنه عبد الجبار.

ثم استوحش من هارون وسخطه وأظهر العصيان في رمضان سنة خمس وعشرين وأربعمائة فاختفى عبد الجبار خوفاً من غائلته، وسعى عند السلطان مسعود.

وكتب مسعود إلى شاه ملك بن علي أحد ملوك الأطراف

بنواحي خوارزم بالمسير لقتال إسماعيل فسار وملك البلد فهزمهما، وهرب إسماعيل وشكر إلى طغرلبك وداود صريخين، فسار داود إلى خوارزم فلقيهما شاه ملك وهزمهما.

ثم قتل مسعود وملك ابنه مودود فدخل شاه ملك بأمواله وذخائره في المفاوز إلى دهستان ثم إلى طبس، ثم إلى نواحي كرمان ثم إلى أعمال البتر ومكران.

وقصد أرتاش أخا إبراهيم نيال وهو ابن عم طغرلبك في أربعة آلاف فارس، فأسره وسلمه إلى داود واستأثر هو بما غنم من أمواله.

ثم أعاد أرتاش إلى باذغيس، وأقام على محاصرة هراة على طاعة مودود بن مسعود فامتنعوا منه خوفاً من معرة هجومه عليهم.

مسير العساكر من غزنة إلى خراسان

ولما ملك الغز خراسان واستولوا على سائر أملاكها وأعمالها.

واستولى طغرلبك على جرجان وطبرستان وخوارزم، وإبراهيم نيال على همذان وعلى الري والجبل، وولى على خراسان وأعمالها داود بن ميكايل، وبعث السلطان أبو الفتح مودود عساكره مع بعض حجابه إلى خراسان سنة خمس وثلاثين، فسرح إليهم داود ابنه ألب أرسلان في العساكر فاقتتلوا، وكان الغلب لألب أرسلان.

وعاد عسكر غزنة مهزوماً، وسار عسكر من الغز إلى نواحي بست، وعاثوا وأفسدوا، فبعث أبو الفتح مودود إليهم عسكراً فقاتلهم، وانهزموا وظفر عسكر مودود بهم وأثخنوا فيهم.

مسير الهنود لحصار لهاور وامتناعها وفتح حصون أخرى من بلادهم

وفي سنة خمس وثلاثين اجتمع ثلاثة من ملوك الهند على لهاور، فجمع مقدم العساكر الإسلامية هناك عسكره وبعثهم للدفاع عنها.

وبعث إلى السلطان مودود وحاصرها الثلاثة ملوك، ثم أفرج الآخران وعادا إلى بلادهما.

وسارت عساكر الإسلام في اتباع أحدهما وهو دوبالي هربابة فانهزم منهم، وامتنع بقلعة له هو وعساكره، وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل، وحاصرهم المسلمون، حتى استأمنوا وسلموا ذلك الحصن وجميع الحصون التي من أعمال الملك، وغنموا أموالهم، وأطلقوا من كان في الحصون من أسرى المسلمين بعد أن أعطوهم خمسة آلاف، ثم ساروا إلى ولاية الملك الآخر واسمه باس الري فقاتلوه وهزموه، وقتل في المعركة هو وخمسة آلاف من قومه، وأسر الباقون، وغنم المسلمون ما معهم، وأذعن ملوك الهند بعدها بالطاعة، وحملوا الأموال وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم فأجيبوا

وفاة مودود وولاية عمه عبد الرشيد

ثم توفي أبو الفتح مودود بن مسعود بن محمود بغزنة لعشر سنين من ولايته في رجب سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وقد كان كاتب فأجابوه وجمع أبو كاليجار صاحب أصفهان العساكر، وسار في المفازة لنصره فمرض في طريقه ورجع.

وسار خاقان إلى ترمذ لنصره، وطائفة أخرى مما وراء النهر إلى خوارزم.

وسار مودود من غزنة فعرض له بعد رحيله من غزنة مرض القولنج، فعاد إلى غزنة، وبعث إلى وزيره أبي الفتح عبد الرزاق بن أحمد المتميدي في العساكر إلى سجستان لانتزاعها من الغز.

ثم اشتد وجعه فمات ونصب ابنه للأمر خمسة أيام.

ثم عدل الناس عنه إلى عمه علي بن مسعود، وكان مسعود لأول ولايته قبض على عمه عبد الرشيد أخي محمود وحبسه بقلعة بطريق بست.

فلما قاربها الوزير أبو الفتح وبلغه وفاة مودود، نزل عبد الرشيد إلى العسكر فبايعوا له ورجعوا به إلى غزنة فهرب علي بن مسعود، واستقر الأمر لعبد الرشيد، ولقب سيف الدولة وقيل جمال الدولة، واستقام أمر السلجوقية بخراسان، واندفعت العوائق عنهم.

مقتل عبد الرشيد وولاية فرخزاد

كان لمودود صاحب اسمه طغرل، وجعله حاجباً ببابه،

وكان السلجوقية قد ملكوا سجستان وصارت في قسم بيقو أخي طغرلبك، وولي عليها أبا الفضل من قبله، فأشار طغرلبك على عبد الرشيد بانتزاعها منهم، وألح عليهم في ذلك، فبعث إليها، طغرل في ألف فارس، فحاصر حصن الطاق أربعين يوماً.

وكتب أبو الفضل من سجستان يستنجده، وسار طغرل، ولما سمع أصوات البوقات والدبادب، وأخبر أنه بيقو، فتحاجزوا، وعلم أنه تورط ولقيهم مستميتاً فهزمهم وسار إلى هراة.

واتبعهم طغرل فرسخين وعاد إلى سجستان فملكها، وكتب إلى عبد الرشيد بالخبر، واستمده لغزو خراسان فأمده بالعساكر.

ثم حدثته نفسه بالملك، فأغذ السير إلى غزنة حتى كان على خمسة فراسخ منها، كتب إلى عبد الرشيد باستيجاش العسكر وطلبهم الزيادة في العطاء، فشاور أصحابه فكشفوا له وجه المكيدة في ذلك وحذروه من طغرل، فصعد إلى قلعة غزنة وتحصن بها.

وجاء طغرل من الغد فنزل في دار الإمارة، وأرسل أهل القلعة في عبد الرشيد فأسلموه إليه فقتله واستولى على ملكهم، وتزوج ابنة السلطان عبد الرشيد ويحضهم على الأخذ بثأره فأجابوا.

ودخلوا عليه في مجلسه، وقتلوه وجاء خرخيز الحاجب لخمسة أيام من قتله، وجمع وجوه القواد وأعيان البلد، وبايع فرخاد ابن السلطان مسعود، وقام بتدبير دولته وقتل الساعين في إلى غزنة ولقي الغز وهزمهم.

ودخل غزنة فملكها من أيديهم. ثم سار من غزنة إلى كرمان وسوران فملكها وكرمان هذه بين غزنة والهند، وليست كرمان المعروفة.

ثم سار غياث الدين إلى نهر السند ليعبر إلى لهاور كرسي خسرو شاه بن بهرام شاه، فبادر خسرو شاه ومنعه العبور فرجع وملك ما يليه من جبال الهند وأعمال الأنبار.

وولى على غزنة أخاه شهاب الدين ورجع إلى بيروزكوه.

استيلاء الغورية على لهاور ومقتل خسرو شاه وانقراض دولة بني سبكتكين

ولما ولي شهاب الدين الغوري غزنة أحسن السيرة فيهم، وافتتح جبال الهند مما يليه فاستفحل ملكه، وتطاول إلى ملك لهاور قاعدة الهند من يد خسرو شاه، فسار سنة تسع وسبعين وأربعمائة في عسكر غزنة والغور، وعبر إليها وحاصرها، وبذل الأمان لخسرو شاه وأنكحه ابنته وسوغه ما يريد من الإقطاع على أن يخرج إليه ويخطب لأخيه فأبى من ذلك.

وأقام شهاب الدين يحاصره حتى ضاق مخنقه، وخذله أهل البلد، فبعث القاضي والخطيب يستأمنان له فأمنه ودخل شهاب الدين، وبقي خسرو شاه عنده مكرماً، وبقي شهرين ينتظر المعونة من يد غياث الدين، فأنفذ خسرو شاه إليه فارتاب من ذلك، وأمنه شهاب الدين وحلف له، وبعث به وبأهله وولده مع جيش يحفظونهم.

فلما وصلوا بلد الغور حبسهم غياث الدين ببعض قلاعه، فكان آخر العهد به.

وانقرضت دولة بني سبكتكين بموته، وكان مبدؤها سنة ست وستين وثلاثمائة، فتكون مدة الدولة مائتين وثلاث عشرة سنة.

دولة الترك الخبر عن دولة الترك في كاشغر وأعمال تركستان وما كان لهم من الملك في الملة الإسلامية بتلك البلاد وأولية أمرهم ومصائر أحوالهم

كان هؤلاء الترك ملوك تركستان، ولا أدري أولية أمرهم بها إلا أن أول من أسلم منهم سبق قراخان، وتسمى عبد الملك، وكانت له تركستان وقاعدتها كاشغر، وساغون وخيمو وما يتصل بها إلى أوان المفازة المتصلة بالصين في ناحية الشمال عنهم، أعمال طراز والشاش وهي للترك أيضاً.

إلا أن ملوك تركستان أعظم ملكاً منهم بكثير.

وفي المغرب عنهم بلاد ما وراء النهر التي كان ملكها لبني سامان وكرسيهم بخارى.

ولما أسلم ملكهم عبد الكريم سبق أقام على ملكه بتلك الناحية، وكان يطيع بني سامان هو وعقبه يستنفرونهم في حروبهم إلى أن ملك عهد الأمير نوح بن منصور في عشر التسعين والثلاثمائة على حين اضطراب دولة بني سامان، وانتقاض عمالهم بخراسان.

وانتقض أبو علي بن سيجور فراسل بقراخان وأطمعه في ملك بخارى فطمع بقراخان في البلاد ثم قصد أعمال بني سامان وملكها شيئاً فشيئاً.

وبعث الأمير نوح إليه العساكر مع قائده أنج فلقيهم بقراخان وهزمهم وأسر أنج وجماعة من القواد.

وسار فائق إلى بقراخان واختص به، وصار في جملته، ورجع الأمير نوح إلى بخارى كما مر من قبل، وهلك بقراخان في طريقه.

وفاة بقراخان وملك أخيه ايلك خان سليمان

ولما ارتحل بقراخان من بخارى وهو على ما به من المرض، أدركه الموت في طريقه، فمات سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة.

وكان ديناً عادلاً حسن السيرة، محباً للعلماء وأهل الدين مكرماً لهم، متشيعاً سنياً.

وكان موالياً لآل رسول الله ﷺ، ولما مات ولي بعده أخوه ايلك خان سليمان، ولقبه شهير الدولة، واستوثق ملكه، بتركستان وأعمالها، ووفد عليه فائق بعد حروبه بخراسان مع جيوش الأمير نوح، وسبكتكين وابنه محمود، ولحق به مستصرخاً فأكرمه ووعده، وكتب إلى الأمير نوح يشفع في فائق وأن يوليه سمرقند فولاه عليها وأقام بها.

استيلاء ايلك خان على ما وراء النهر

لما عاد بقراخان على بخارى وعاد إليها الأمير نوح، وقد كان من أبي علي بن سيجور وإجلائه عن خراسان ما كان، استدعى الأمير نوح مولاه سبكتكين بعد ذلك، واختلف ابناه بكثرزون ومنصور كما تقدم ذلك سنة خمس وثمانين وأربعمائة، ثم هلك سبكتكين كما تقدم ذلك كله قبل.

ثم استوحش بكثرزون من منصور واتفق مع فائق على خلعه، فخلعه وسمله بخراسان سنة تسع وثمانين وأربعمائة وكان فائق خصياً من موالي نوح بن منصور.

وهذه الأخبار كلها مستوفاة في دولة بني سامان.

ثم بلغ الخبر إلى ايلك خان، فطمع في ملك بخارى وأعمالها، وسار في جموع الترك إلى بخارى مورياً بالمحاماة عن عبد الملك والنصرة له، وخرج بكثرزون والأمراء والقواد للقائه، فقبض عليهم، وسار فدخل بخارى عاشر ذي القعدة من سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ونزل دار الإمارة، وظفر بعبد الملك فحبسه فانكدر حتى مات، وحبس معه أخاه المخلوع أبا الحارث منصور، وأخويه الآخرين إسماعيل ويوسف ابني نوح، وأعمامه محموداً وداود وغيرهم، وانقرضت دولة بني سامان والبقاء لله.

ثورة إسماعيل إلى بخارى ورجوعه عنها

قد تقدم لنا أن إسماعيل فر من محبسه ولحق بخوارزم، واجتمع إليه قوادهم وبايعوه، ولقبوه المستنصر.

وبعث قائداً من أصحابه إلى بخارى ففر من كان بها من عساكر ايلك خان فهزمهم، وقتل منهم وحبس.

وكان النائب بها جعفر تكين أخي ايلك خان فحبسه، واتبع المنهزمين إلى سمرقند، ولحق إسماعيل بأحياء الغز، وجاء ايلك خان في جيوشه، والتقوا فانهزم ايلك خان وأسروا قواده، وغنموا سواده، ورجعوا إلى بلادهم، وتشاوروا في الأسرى فارتاب بهم إسماعيل، وعبر النهر وانضمت إليه فتيان سمرقند.

واتصل الخبر بايلك خان فجمع والتقى هو وإسماعيل وهزمه بنواحي أسروشنة، وعبر النهر إلى نواحي الجوزجان، ثم إلى مرو، وبعث محمود العساكر في أثره من خراسان، وكذلك قابوس من جرجان فعاد إلى ما وراء النهر وقد ضجر أصحابه، ونزل بحي من العرب فأمهلوه الليل وقتلوه.

واستقرت بخارى في ملك إيلك خان، وولى عليها أخوه علي تكين.

عبور ايلك خان إلى خراسان

قد تقدم لنا ما كان انعقد بين ايلك خان ومحمود من المواصلة، ثم دبت عقارب السعاية بينهما، وأكثر محمود من غزو بلاد الهند.

ولما سار إلى الملتان اغتنم ايلك خان الفرصة في خراسان وبعث سباسي تكين صاحب جيشه وأخاه جعفر تكين إلى بلخ في عدة من الأمراء وأرسلان الحاجب.

فسار أرسلان إلى غزنة وملك سباسي هراة وأقام بها، وبعث إلى نيسابور عسكراً فاستولى عليها وبادر محمود بالرجوع من الهند، وفرق العطايا وأزاح العلل واستنفر الأتراك الخلنجية.

وسار إلى جعفر تكين ببلخ ففارقها إلى ترمذ، وبعث العساكر إلى سباسي بهراة، ففارقها إلى مرو ليعبر النهر، فاعترضه التركمان فأوقع بهم، وسار إلى أبيورد والعساكر في اتباعه.

ثم سار إلى خراسان فاعترضه محمود وهزمه، وأسر أخاه وجماعة من قواده، وعبر النهر إلى ايلك، وأجلى عساكره وأصحابه عن خراسان، فبعث ايلك خان إلى قراخان ملك الختل، فاستنفر الترك الغزية والخلنجية والهنود، وعسكر على فرسخين من بلخ، وتقدم ايلك وقراخان في عساكرهما، ونزلوا قبالته، واقتتلوا يوماً إلى الليل، ومن الغد اشتدت الحرب ونزل الصبر.

ثم حمل محمود في الفيلة على ايلك خان في القلب، فاختل المصاف، وانهزم الترك، واتبعهم عساكر محمود وأثخنوا فيهم القتل والأسر إلى أن عبر النهر، وانقلب ظافراً غانماً وذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.

وفاة ايلك خان وولاية أخيه طغان خان

ثم هلك ايلك خان سنة ثلاث وأربعمائة وكان موالياً للسلطان محمود ومظاهراً له على أخيه طغان خان.

فلما ولي تجدد ما بينه وبين السلطان من الولاية، وصلحت الأحوال وانمحت آثار الفتنة في خراسان وما وراء النهر.

وفاة طغان خان وولاية أخيه أرسلان خان

ثم توفي طغان خان ملك الترك سنة ثمان وأربعمائة بعد أن كان له جهاد مع أمم من الترك خرجوا من الصين في زهاء ثلاثمائة ألف وقصدوا بلاده في ساغون وهال المسلمين أمرهم فاستنفر طغان طوائف المسلمين وغيرهم، واستقبلهم فهزمهم، وقتل منهم نحو مائة ألف وأسر مثلها، ورجع الباقون منهزمين.

ومات طغان إثر ذلك، وولي بعده أخوه أرسلان وكان من الغريب الدال على قصد إيمان طغان، أنه كان عند خروج الترك إلى بلاد ساغون عليلا، فلما بلغه الخبر تضرع لله أن يعافيه حتى ينتقم من هؤلاء الكفرة ويدفعهم عن البلاد، فاستجاب الله دعاءه.

وكان محباً لأهل العلم والدين.

ولما توفي واصل أرسلان خان الولاية مع السلطان محمود، وأصهر إلى ابنه مسعود في بعض كرائمه فاستحكم الاتصال بينهما.

انتقاض قراخان على أرسلان وصلحه

كان أرسلان خان قد ولي على سمرقند قراخان يوسف بن بقراخان هارون الذي ملك بخارى، فانتقض عليه سنة تسع وأربعمائة وكاتب السلطان محمود صاحب خراسان يستظهر به على أرسلان خان فعقد السلطان على جيحون جسراً من السفن محكمة الربط بسلاسل الحديد وعبر إليه.

ثم خام عن لقائه فعاد إلى خراسان، وانقطعت الموالاة بينه وبين أرسلان خان، وتصالح مع قراخان واتفقا على محاربة السلطان محمود، والمسير إلى بلاده، فسار إلى بلخ، وقاتلهما السلطان قتالاً شديداً حتى انهزم الترك، وعبروا النهر إلى بلادهم، وكان من غرق أكثر ممن نجا وعبر السلطان في أثرهم ثم رجع عنهم.

أخبار قراخان

الذي يظهر من كلام ابن الأثير: أن قراخان ولي بلاد الترك بتركستان وساغون، فإنه ذكره عقب هذا الخبر بالعدل وحسن السيرة وكثرة الجهاد.

ثم قال عقب كلامه: فمن فتوحاته ختن بين الصين وتركستان وهي كثيرة العلماء والفضلاء.

ثم قال: وبقي كذلك إلى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة فتوفي فيها.

ولما توفي خلف ثلاثة بنين: أرسلان خان وكنيته أبو شجاع ولقبه شرف الدولة، وبقراخان، ولم يذكر الثالث والظاهر أنه شرف الدولة.

قال: وكان لأرسلان كاشغر وختن وساغون، وخطب له على منابرها، وكان عادلاً مكرماً للعلماء وأهل الدين، محسناً لهم، وقصده كثير منهم فأكرمهم.

قال: وكان لبقراخان طراز وأسفيجاب، ووقعت الفتنة بين بقراخان وأرسلان فغلبه بقراخان وحبسه وملك بلاده.

وقال في موضع آخر: كان يقنع من إخوته وأقاربه بالطاعة فقسم البلاد بينهم، وأعطى أخاه أرسلان تكين كثيراً من بلاد الترك، وأعطى أخاه طراز وأسفيجاب، وأعطى عمه طغان خان فرغانة بأسرها، وأعطى ابنه علي تكين بخارى وسمرقند وغيرهما، وقنع هو ببلاد ساغون وكاشغر.

قال: وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أسلم كثير من كفار الترك الذين كانوا يطرقون بلاد الإسلام بنواحي ساغون وكاشغر، ويعيثون فيها ويصيفون ببلاد بلغار فأسلموا وافترقوا في البلاد، وبقي من لم يسلم، التتر والخطا في نواحي الصين انتهى.

ورجع إلى بقراخان الأول وقال فيه: حبس أخاه أرسلان خان وملك بلاده، ثم عهد بالملك لولده الأكبر واسمه حسين جعفر تكين، وكان له ولد آخر أصغر من حسين اسمه إبراهيم، فغارت أمه لذلك، وقتلت بقراخان بالسم، وخنقت أخاه أرسلان في محبسه.

ثم استلحمت وجوه أصحابه وأمرائه، وملكت ابنها إبراهيم سنة تسع وثلاثين وأربعمائة وبعثته في العساكر إلى برسخان، مدينة بنواحي تركستان، وكان صاحبها يسمى نيال تكين.

فانهزم إبراهيم وظفر به نيال تكين وقتله واختلف أولاد بقراخان وفسد أمرهم، وقصدهم طقفاج خان صاحب سمرقند وفرغانة، فأخذ من أولاد بقراخان الملك من أيديهم.

الخبر عن طقفاج خان وولده

كان بسمرقند وفرغانة أيام بني بقراخان وإخوته ملك من الترك الخانية اسمه نصر ايلك، ويلقب عماد الدولة ويكنى أبا المظفر.

ثم فلج سنة اثنين وأربعمائة ومات، وقد عهد بملكه لابنه شمس الدولة نصر، فقصده أخوه طغان خان ابن طقفاج وحاصره بسمرقند وبينه شمس الدولة فهزمه وظفر به، وكان ذلك في حياة أبيهما.

ثم جاء بعد مماته إلى محاربة شمس الدولة بقراخان هارون بن قدرخان يوسف وطغرك خان، وكان طقفاج قد استولى على ممالكه وحاصره بسمرقند، ولم يظفروا به ورجعوا عنه، وصارت أعمال الخانية كلها في أيديهما، والأعمال المتاخمة لسبحون لشمس الدولة، والتخم بينهما خجندة.

وكان السلطان ألب أرسلان قد تزوج بابنة قدرخان، وكانت قبله زوجاً لمسعود بن محمود بن سبكتكين.

وتزوج شمس الدولة بابنة ألب أرسلان شمس الملك، وذلك سنة خمس وستين وأربعمائة وملكها ونقل ذخائرها إلى سمرقند.

وخاف أهل بلخ منه فاستأمنوا إليه وخطبوا له فيها، لأن أرباس ألب أرسلان سار إلى الجوزجان، وجاء إليها التكين، وولي عليها وعاد إلى ترمذ فثار أهل بلخ بأصحابه وقتلوهم فرجع إليهم، وأمر بإحراق المدينة ثم عفا عنهم وصادر التجار، وبلغ الخبر إلى ألب أرسلان فعاد من الجوزجان وسار في العساكر إلى ترمذ في منتصف سنة خمس وستين وأربعمائة فلقيه التكين وهزمه وغرق كثير من أصحابه في النهر.

ثم استقامت الأمور للسلطان ملك شاه فسار إلى ترمذ سنة ست وستين وأربعمائة وحاصرها ورماها بالمنجنيق، وطم خندقها حتى استأمن أهلها واعتصم بقلعتها أخو التكين، ثم استأمن وأطلقه السلطان إلى أخيه.

ثم سار ملك شاه إلى سمرقند ففارقها، وبعث أخوه السلطان في الصلح فأجابه ورده إلى سمرقند ورجع السلطان إلى خراسان انتهى.

قال ابن الأثير: ثم مات شمس الدولة وولي بعده أخوه خضرخان.

ثم مات خضرخان فولي بعده ابنه أحمد خان.

وكان أحمد هذا أسره ملك شاه في سمرقند لما فتحها، ووكل به جماعة من الديلم، فلقن عنهم معتقدات الإباحة والزندقة.

فلما ولي أظهر الانحلال، فاعتزم جنده على قتله، وتفاوضوا في ذلك مع نائبه بقلعة قاشان، فأظهر العصيان عليه، فسار في العساكر وحاصر القلعة، وتمكن جنده منه فقبضوا عليه ورجعوا به إلى سمرقند فدفعوه إلى القضاة وقتلوه بالزندقة، وولوا مكانه مسعود خان ابن عمه.

قال ابن الأثير: وكان جده من ملوكهم وكان أصم.

وقصده طغان خان بن قراخان صاحب طراز فقتله واستولى على الملك، وولى على سمرقند أبا المعالي محمد بن محمد بن زيد العلوي فوليها ثلاث سنين، ثم عصى عليه فحاصره وأخذه فقتله.

ثم خرج طغان خان إلى ترمذ فلقيه السلطان سنجر وظفر به وقتله، وأخذها منه عمرخان وملك سمرقند ثم هرب من جنده إلى خوارزم فظفر به السلطان أحمد.

وولي سمرقند محمد خان، وولي بخارى محمد تكين.

وقال ابن الأثير في ذكر كاشغر وتركستان: إنها كانت لأرسلان خان بن يوسف قدرخان كما ذكرنا.

ثم صارت لمحمود نوراخان صاحب طراز والشاش فملكها سنة وثلاثة أشهر، ثم مات، فولي بعده طغراخان بن يوسف قدرخان، وملك بلاد ساغون وأقام ست عشرة سنة، ثم توفي فملك ابنه طغرل تكين شهرين.

ثم جاء هارون بقراخان بن طقفاج نوراخان وهو أخو يوسف طغرل خان فملك كاشغر، وقبض على هارون واستولى

على ختن، وما يتصل به إلى ساغون، وأقام عشرين سنة، وتوفي سنة ست وتسعين وأربعمائة، فولي بعده أحمد بن أرسلان خان، وبعث إليه المستظهر بالخلع، ولقبه نور الدولة.

مقتل قدرخان صاحب سمرقند

قال ابن الأثير سنة خمس وتسعين وأربعمائة: ولما سار سنجر إلى بغداد مع أخيه السلطان محمد، طمع قدرخان جبريل بن عمر صاحب سمرقند في خراسان، فخالف إليها سنجر بعد رجوعه إليها، وقد عظم الخلاف بين بركيارق وأخيه محمد وكان بعض أمراء سنجر اسمه كنذعري يكاتب قدرخان ويغريه ويستحثه إلى البلاد، فسار قدرخان إلى بلخ سنة سبع وتسعين وأربعمائة في مائة ألف.

وبادر سنجر إليها في ستة آلاف، فلما تقاربا لحق كنذعري بقدرخان، فبعثه إلى ترمذ وملكها وجاء الخبر إلى سنجر بأن قدرخان نزل قريباً من بلخ، وأنه خرج متصيداً في ثلاثمائة فارس، فجرد إليه عسكراً مع أميره برغش فهزمهم، وجاء بكنذعري وقدرخان أسيرين.

وقيل: إنه وقع بينهما مصاف، وانهزم قدرخان وأسر فقتله سنجر، وسار إلى ترمذ فحاصرها حتى استأمن إليه كنذعري فأمنه، ولحق بغزنة وكان محمد أرسلان خان بن سليمان بن داود بقراخان نازلاً بمرو فبعث عنه السلطان سنجر، وولاه على سمرقند وهو من نسل الخانية مما وراء النهر، وأمه بنت السلطان سنجر، وولي ملك شاه دفع عن ملك آبائه فقصد مرو، وأقام بها، فلما قتل قدرخان ولاه سنجر أعماله، وبعث معه العساكر الكثيرة فاستولى عليها، واستفحل ملكه، ثم انتقض عليه من أمراء الترك تيمورلنك، وجمع وسار إلى محمد خان بسمرقند وغيرها، فاستنجد محمد خان بالسلطان سنجر فأنجده بالعساكر، وسار إلى تيمورلنك فهزمه، وفض جموعه، ورجعت العساكر إليه.

انتقاض محمد خان عن سنجر

ثم بلغ السلطان سنجر سوء سيره محمد في رعيته وإهماله لأوامر السلطان، فسار إليه سنة سبع وخمسمائة فخاف محمد خان غائلته، وبعث إلى الأمير قماج أعظم أمراء سنجر يعتذر ويسأله الصلح، فشرط عليه الحضور عند السلطان، فاعتذر بالخوف، وأنه يقف من وراء جيحون ويقبل الأرض من هنالك فأجيب إلى ذلك، ووقفوا بعدوة النهر حتى وافى محمد خان بشرطه وسكنت الفتنة.

استيلاء السلطان سنجر على سمرقند

كان السلطان سنجر لما ملك سمرقند ولى عليها أرسلان خان بن سليمان بقراخان داود، فأصابه الفالج، واستناب ابنه نصر خان فوثب به أهل سمرقند وقتلوه.

وتولى كبر ذلك اثنان منهم أحدهما علوي، وكان أبوه محمد المفلوج غائباً فعظم عليه، وبعث عن ابنه الآخر من تركستان فجاء وقتل العلوي وصاحبه.

وكان والد أرسلان خان قد بعث إلى السلطان سنجر يستحثه قبل قدوم ابنه الآخر فسار سنجر لذلك.

فلما قدم إلى أبيه أرسلان وقتل قاتلي أخيه، بعث أرسلان إلى السلطان سنجر يعرفه، ويسأله العود إلى بلده فغضب لذلك، وأقام أياماً ثم جيء إليه بأشخاص واعترفوا بأن محمداً، خان بعثهم لقتله فغضب، وسار إلى سمرقند فملكها عنوة، وتحصن محمد خان ببعض الحصون حتى استنزله سنجر بالأمان بعد مدة وأكرمه، وكانت بنته تحبه، فبعثه إليها وأقام عندها.

وولى على سمرقند حسين تكين، ورجع إلى خراسان.

ومات حسين تكين فولي بعده عليها محمود بن محمد خان أخا زوجته.

استيلاء الخطا على تركستان وبلاد ما وراء النهر وانقراض دولة الخانية

نقل ابن الأثير هذا الخبر عن اضطراب عنده فيه، على أن أخبار هذه الدولة الخانية في كتابه ليست جلية ولا متضحة، وأرجو إن مد الله في العمر أن أحقق أخبارها بالوقوف عليها في مظان الصحة وألخصها مرتبة، فإني لم أوفها حقها من الترتيب، لعدم وضوحها في نقله.

وحاصل ما قرر في هذا الخبر من أحد طرقه أنه قال: إن بلاد تركستان وهي كاشغر وبلاد ساغون وختن وطراز وغيرها مما بجوارها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد الملوك الخانية من الترك، وهم من نسل فراسياب ملكهم الأول المنازع للملوك اليكنية من الفرس، وأسلم جدهم الأول سبق قراخان.

ويقال: سبب إسلامه أنه رأى في منامه رجلاً نزل من السماء، فقال له باللسان التركي ما معناه: أسلم تسلم في الدنيا والآخرة فأسلم في منامه، وأصبح مظهراً لإسلامه.

ولما مات قام مقامه ابنه موسى واتصل الملك في عقبه إلى أرسلان خان بن محمد بن سليمان سبق فخرج عليه قدرخان في ملكه سنة أربع وتسعين وأربعمائة.

واجتمع الترك عليه وكانوا طوائف فكان منهم القارغلية، وبقية الغز الذين عبروا إلى خراسان ونهبوها على ما مر.

وكان لأرسلان ابن اسمه نصرخان، وفي صحابته شريف علوي اسمه الأشرف محمد بن أبي شجاع السمرقندي، فحسن له طلب الملك من أبيه وأطمعه فيه فقتلهما أرسلان.

ثم وقعت بينه وبين القارغلية من الترك وحشة دعتهم إلى الانتقاض والعصيان، واستنجد بالسلطان سنجر فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ووصل إلى سمرقند وهرب القارغلية بين يديه.

ثم عثر على رجالة استراب بهم فقبض عليهم، وتهددهم فذكروا أن أرسلان خان وضعهم على قتله فرجع إلى سمرقند، وملك القلعة وبعث أرسلان أميراً إلى بلخ فمات بها.

وقيل: إنه اختراع منه، ووضع هذه الحكاية وسيلة لذلك.

ثم ولى السلطان سنجر على سمرقند فلج طمغاج، وهو أبو المعالي الحسن بن علي المعروف بحسين تكين، كان من أعيان بيت الخانية فلم تطل أيامه، ومات فولي سنجر مكانه محمود ابن أخته، وهو ابن السلطان أرسلان. فأقام ملكاً عليها.

وكان ملك الصين كوخان قد وصل إلى كاشغر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة في جيوش كثيفة.

ومعنى كو بلسان أهل الصين: أعظم، وخان سمة ملوك الترك.

وكان أعور وكان يلبس لبسة ملوك الترك، وهو مانوي المذهب.

ولما خرج من الصين إلى تركستان انضاف إليه طوائف الخطا من الترك، وكانوا قد خرجوا قبله من الصين، وأقاموا في خدمة الخانية أصحاب تركستان فانضافوا إلى كو ملك الصين وكثف جمعه بهم.

وزحف إليه صاحب كاشغر، وهو الخان أحمد بن الحسين بجموعه فهزمه، وأقامت طوائف الخطا معه في تلك البلاد.

وكان سبب خروجهم من الصين ونزولهم ساغون، أن أرسلان محمد كان يستنجد بهم ويجري عليهم الأرزاق والإقطاعات، وينزلهم مسالح في ثغوره.

ثم استوحشوا منه ونفروا وطلبوا الرحلة إلى غير بلده، وارتادوا البلاد واختاروا منها بلد الساغون فساروا إليها وردد عليهم أرسلان الغزو.

ولما جاء كوخان ملك الصين صاروا في جملته حتى إذا رجع زحفوا إلى بلاد تركستان فملكوها بلداً بلداً.

وكانوا إذا ملكوا المدينة يأخذون ديناراً من كل بيت ولا يزيدون عليه، ويكلفون من يطيعهم من الملوك أن يعلق في منطقته لوحاً من فضة علامة على الطاعة.

ثم ساروا إلى بلاد ما رواء النهر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

ولقيهم محمود خان بن أرسلان خان فهزموه إلى سمرقند وبخارى، واستنجد بالسلطان سنجر ودعاه لنصر المسلمين، فجمع العساكر واستنجد صاحب سجستان ابن خلف والغوري صاحب غزنة، وملوك ما وراء النهر وغيرهم.

وسار للقائهم وعبر النهر في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة.

وشكا إليه محمود من القارغلية، فأراد أخذهم فهربوا إلى كوخان، وسألوه أن يشفع لهم عند السلطان سنجر، وكتب إليه يشفع لهم فلم يشفعه.

وكتب إليه يدعوه إلى الإسلام ويتهدده. ولما بلغ الكتاب إلى كوخان عاقب الرسول، وسار للقاء سنجر في أمم الترك والخطا والقارغلية، فلقيه السلطان سنجر أول صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة وعلى ميمنته قماج وعلى ميسرته صاحب سجستان، وأبلى ذلك اليوم وساء أثر القارغلية في تلك الحرب، وانهزم السلطان سنجر والمسلمون، واستمر القتل فيهم.

وأسر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان ابنة أرسلان خان محمد، وأطلقهم الكفار.

ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه ولا أفحش قتلاً.

واستقرت الدولة فيما وراء النهر للخطا والترك، وهم يومئذ على دين الكفر، وانقرضت دولة الخانية المسلمين الذين كانوا فيها.

ثم هلك كوخان منتصف سبع وثلاثين وكان جميلاً حسن الصوت، ويلبس الحرير الصيني، وكان له هيبة على أصحابه ولا

يقطع أحداً منهم خوفاً على الرعية من العسف، ولا يقدم أميراً على فوق مائة فارس خشية أن تحدثه نفسه بالعصيان، وينهى عن الظلم وعن السكر ويعاقب عليه، ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه.

ولما مات ملكت بعده ابنته وماتت قريباً فملكت بعدها أمها زوجة كوخان، وبقي ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن غلبهم عليه علاء الدين محمد بن خوارزم شاه صاحب دولة الخوارزمية سنة اثنتي عشرة وستمائة على ما يأتي في أخبار دولتهم.

إجلاء القارغلية من وراء النهر

لما ملك ما وراء النهر سمرقند وبخارى جقري خان بن حسين تكين من بيت الخانية، وأمره سنة تسع وخمسين وخمسمائة بإجلاء الترك القارغلية من أعمال بخارى وسمرقند إلى كاشغر، وإلزامهم الفلاحة ومجانبة حمل السلاح فامتنعوا من ذلك.

وألح عليهم جقري خان فامتنعوا واجتمعوا لحربه.

وسار إلى بخارى فبعث إليهم بالوعظ في ذلك والوعد الجميل بخلال ما جمع بقراخان، وكبسهم على بخارى فانهزموا، وأثخن فيهم وقطع دابرهم وأجلاهم عن نواحي سمرقند، وصلحت تلك النواحي والله أعلم.

الخبر عن دولة الغورية القائمين بالدولة العباسية بعد بني سبكتكين وما كان لهم من السلطان والدولة وابتداء أمرهم ومصائر أحوالهم

كان بنو الحسين أيام سبكتكين ملوكاً على بلاد الغور لبني سبكتكين وكانت لهم شدة وشوكة.

وكان منهم لآخر دولة بني سبكتكين أربعة أمراء قد اشتهروا واستفحل ملكهم: وهم محمد وشوري والحسين شاه وسام بنو الحسين، ولا أدري إلى من ينسب الحسين وأظنهم إلى بهرام شاه آخر ملوك بني سبكتكين، والتحم به فعظم شأنه.

ثم كانت الفتنة بين بهرام وأخيه أرسلان فمال محمد إلى أرسلان، وارتاب به بهرام لذلك.

ثم انقضى أمر أرسلان، وسار محمد بن الحسين في جموعه إلى غزنة سنة ثلاث وأربعين وخمسماية، مورياً بالزيارة وهو يريد الغدر به، وشعر بذلك بهرام فحبسه ثم قتله، واستوحش الغورية لذلك.

مقتل محمد بن الحسين الغوري وولاية أخيه الحسين شاه ثم أخيه شوري

ولما قتل محمد ولي من بعده أخوه شاه بن الحسين، ثم كانت الوقعة.

وملك بعده أخوه شوري بن الحسين، واجمع الأخذ بثأر أخيه من بهرام شاه فجمع له، وسار إلى غزنة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فملكها، وفارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند فجمع عسكره التي هناك، ورجع إلى غزنة وعلى مقدمته السلار بن الحسين، وأمير هندوخان إبراهيم العلوي.

وسار شوري للقائه فانفض عنه عسكر غزنة إلى بهرام شاه فانهزم وأسره بهرام، ودخل غزنة في محرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وصلب شوري على باب غزنة واستقر في ملكه.

مقتل شوري بن الحسين وولاية أخيه علاء الدين ابن الحسين واستيلاؤه على غزنة وانتزاعها منه

لما هلك شوري بن الحسين ملك الغور من بعده أخوه الحسين، ويلقب علاء الدولة واستولى على جبال الغور ومدينة بيروزكوه المجاورة لأعمال غزنة من بلاد الهند، وهي تقارب في اتساعها بلاد خراسان فاستفحل ملكه، وطمع في ملك خراسان وسار إلى هراة باستدعاء أهلها، فحاصرها ثلاثاً ثم ملكها بالأمان وخطب فيها للسلطان سنجر.

وسار إلى بلخ وبها الأمير قماج من قبل السلطان سنجر، فغدر به أصحابه، فملك علاء الدولة بلخ، وسار إلى السلطان سنجر وقاتله وظفر به فأسره ثم خلع عليه ورده إلى بيروزكوه.

ثم سار علاء الدين يريد غزنة سنة سبع وأربعين وخمسمائة ففارقها صاحبها بهرام شاه، وملكها علاء الدولة، وأحسن السيرة واستخلف عليهم أخاه سيف الدولة، وعاد إلى بلاد الغور، فلما جاء فصل الشتاء وسد الثلج المسالك، كتب أهل غزنة إلى بهرام شاه واستدعوه، فلما وصل وثبوا بسيف الدولة وصلبوه، وبايعوا لبهرام شاه وملكوه عليهم كما كان.

انتقاض شهاب الدين وغياث الدين على عمهما علاء الدولة

لما استفحل أمر علاء الدولة واستفحل ملكه استعمل على البلاد العمال وكان فيمن ولاه بلاد الغور ابنا أخيه سالم بن الحسين، وهما غياث الدين وشهاب الدين، فأحسنا السيرة في عملهما، ومال إليهما الناس، وكثرت السعاية فيهما عند عمهما بأنهما يريدان الوثوب فبعث عنهما فامتنعا، فجهز إليهما العساكر فهزماها وأظهرا عصيانه، وقطعا خطبته فسار إليهما فقاتلاه قتالاً شديداً حتى انهزم فاستأمن إليهما فأجلساه على التخت، وقاما بخدمته.

وزوج غياث الدين أحدهما بنتاً له، وبقي مستبداً على عمه علاء الدولة، ثم عهد إليه بالأمر من بعده ومات.

وفاة علاء الدولة وولاية غياث الدين ابن أخيه من بعده وتغلب الغز على غزنة

ثم توفي علاء الدولة ملك الغورية سنة ست وخمسين، وقام بالأمر من بعده ببيروزكوه غياث الدين أبو الفتح ابن أخيه سالم، وطمع الغز بموته في ملك غزنة فملكوها من يده، وبقي غياث الدين في كرسيه ببيروزكوه وأعمالها، وابنه سيف الدين محمد في بلاد الغور.

ثم أساء السيرة الغز في غزنة بعد مقامهم فيها خمس عشرة سنة، واستفحل أمر غياث الدين فسار إلى غزنة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة في عساكر الغورية والخلج والخراسانية ولقي الغز فهزمهم وملك غزنة من أيديهم، وسار إلى كرمان وشنوران فملكهما، وكرمان هذه بين غزنة والهند، ليست كرمان المعروفة.

ثم سار غياث الدين إلى لهاور ليملكها من يد خسروشاه بن بهرام، فبادر خسروشاه إلى نهر المد ومنعه العبور منه، فرجع وملك ما يليه من جبال الهند وأعماله الأثغار، وولى غزنة أخاه شهاب الدين ورجع إلى بيروزكوه.

استيلاء شهاب الدين الغوري على لهاور ومقتل خسروشاه صاحبها

ولما ولي شهاب الدين الغوري غزنة أحسن السيرة فيهم، وافتتح جبال الهند مما يليه فاستفحل ملكه، وتطاول إلى ملك لهاور قاعدة الهند من يد خسروشاه، فسار سنة تسع وسبعين وخمسمائة في عساكر خراسان والغور وعبر إليها وحاصرها، وبذل الأمان لخسروشاه وأنكحه ابنته وسوغه ما يريد من الأقطاع على أن يخرج إليه ويخطب لأخيه فأبى من ذلك، وبقي شهاب الدين يحاصره حتى ضاق مخنقه بالحصار وخذله أهل البلد، فبعث بالقاضي والخطيب يستأمنان له فأمنه ودخل شهاب الدين البلد، وبقي خسروشاه عنده مكرماً، وبعد شهرين وصل الأمر من غياث الدين بإنقاذ خسروشاه إليه، فارتاب من ذلك فأمنه شهاب الدين، وحلف له وبعث به وبأهله وولده مع جيش يحفظونهم، فلما وصلوا بلاد الغور حبسهم غياث الدين ببعض قلاعه، فكان آخر العهد به وبابنه.

استيلاء غياث الدين على هوارة وغيرها من خراسان

ولما استقر ملك غياث الدين بلهاور كتب إلى أخيه شهاب الدين الذي تولى فتحها أن يقيم الخطبة له، ويلقبه بألقاب السلطان، فلقبه غياث الدنيا والدين معين الإسلام والمسلمين، قسيم أمير المؤمنين، ولقب أخاه شهاب الدين بعز الدين.

ثم لما فرغ شهاب الدين من أمور لهاور وسار إلى أخيه غياث الدين ببيروزكوه واتفق رأيهما على المسير إلى هراة من خراسان سار في العساكر فحاصرها، وبها عسكر السلطان سنجر وأمراؤه فاستأمنوا إليهما، وملكا هراة.

وسار إلى بوشنج فملكها، ثم إلى باذغيس كذلك.

وولى غياث الدين على ذلك وعاد إلى بيروزكوه وشهاب الدين إلى غزنة ظافرين غانمين.

فتح أجرة على يد شهاب الدين

لما عاد شهاب الدين إلى غزنة راح بها أياماً حتى استراحت عساكره.

ثم سار غازياً إلى بلاد الهند سنة سبع وأربعين وخمسمائة وحاصر مدينة أجرة وبها ملك من ملوكهم فلم يظفر منه بطائل، فراسل امرأة الملك في أنه يتزوجها إذا ملك البلد، فأجابت بالعذر، ورغبت في ابنتها فأجاب فقتلت زوجها بالسم وملكته البلد، فأخذ الصبية وأسلمت، وحملها إلى غزنة ووسع عليها الجراية، ووكل بها

من يعلمها القرآن حتى توفيت والدتها، وتوفيت هي من بعدها لعشر سنين، ولما ملك البلد سار في نواحي الهند فدوخها، وفتح الكثير منها، وبلغ منها ما لم يبلغه أحد قبله.

حروب شهاب الدين مع الهنود وفتح دهلي وولاية قطب الدين أيبك عليها

ولما اشتدت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند، تراسل ملوكهم وتلاوموا بينهم وتظاهروا على المسلمين، وحشدوا عساكرهم من كل جهة، وجاؤوا بقضهم وقضيضهم في حكم امرأة ملكت عليهم، وسار هو في عساكره من الغورية والخلخ والخلنجية والخراسانية وغيرهم، والتقوا فمحص اللّه المسلمين وأثخن فيهم الكفرة بالقتل.

وضرب شهاب الدين في يده اليسرى فشلت، وعلى رأسه فسقط عن فرسه، وحجز بينهم الليل وحمله جماعة من غلمانه إلى منجاته ببلده.

وسمع الناس بنجاته فتباشروا ووفدوا عليه من كل جهة، وبعث إليه أخوه غياث الدين بالعساكر، وعذله في عجلته.

ثم ثارت الملكة ثانياً إلى بلاد شهاب الدين بالعساكر، وبعثت إلى شهاب الدين بالخروج عن أرض الهند إلى غزنة، فأجاب إلى ذلك بعد أن يستأذن أخاه غياث الدين وينظر جوابه.

وأقاموا على ذلك وقد حفظ الهنود مخاضات النهر بينهم وهو يحاول العبور فلا يجد، وبينما هو كذلك جاءه بعض الهنود، فدله على مخاضة فاستراب به حتى عرفه قوم من أهل أجرة والملتان.

وبعث الأمير الحسن بن حرميد الغوري في عسكر كثيف، وعبر تلك المخاضة ووضع السيف في الهنود فأجفل الموكلون بالمخاضات.

وعبر شهاب الدين وباقي العساكر وأحاطوا بالهنود، ونادوا بشعار الإسلام فلم ينج منهم إلا الأقل، وقتلت ملكتهم وأسروا منهم أمماً.

وتمكن شهاب الدين بعدها من بلاد الهند وحملوا له الأموال وضربت عليهم الجزية فصالحوه وأعطوه الرهن عليها.

وأقطع قطب الدين أيبك مدينة دهلي، وهي كرسي الممالك التي فتحها، وأرسل عسكراً من الخلخ مختارين ففتحوا من بلاد الهند ما لم يفتحه أحد، حتى قاربوا حدود الصين من جهة الشرق، وذلك كله سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

مقتل ملك الغور محمد بن علاء الدين

قد تقدم لنا أن محمد بن علاء الدين ملك الغور بعد أبيه، وأقام مملكاً عليها.

ثم سار سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بعد أن احتفل في الاحتشاد وجمع العساكر، وقصد بلخ وهي يومئذ للغز فزحفوا إليه.

وجاءهم بعض العيون بأنه خرج من معسكره لبعض الوجوه في خف من الجند، فركبوا لاعتراضه، ولقوه فقتلوه في نفر من أصحابه، وأسروا منهم آخرين، ونجا الباقون إلى المعسكر فارتحلوا هاربين إلى بلادهم، وتركوا معسكرهم بما فيه فغنمه الغز وانقلبوا إلى بلخ ومروا ظافرين غانمين.

الفتنة بين الغورية وبين خوارزم شاه على ما ملكوه من بلاد خراسان

قد تقدم لنا أن غياث الدين وشهاب الدين ابني أبي الفتح سام بن الحسين الغوري رجعا إلى خراسان سنة سبع وأربعين وخمسمائة فملكا هراة وبوشنج وباذغيس وغيرها، وذلك عند انهزام سنجر أمام الغز، وافترق ملكه بين أمرائه ومواليه فصاروا طوائف، وأظهرهم خوارزم شاه بن أنس بن محمد بن أنوشرتكين صاحب خوارزم.

فلما كان سنة خمس وسبعين وخمسمائة قام بأمره ابنه سلطان شاه، ونازعه أخوه علاء الدين تكش فغلبه على خوارزم، وخرج سلطان شاه إلى مرو فملكها من يد الغز، ثم أخرجوه منها فاستجاش بالخطا وأخرجهم من مرو وسرخس ونسا وأبيورد، وملكها جميعاً، وصرف الخطا إلى بلادهم.

وكتب إلى غياث الدين أن ينزل له عن هراة وبوشنج وباذغيس وما ملكه من خراسان وهدده على ذلك فراجعه بإقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من خراسان، فامتعض لذلك سلطان شاه وسار إلى بوشنج فحاصرها وعاث في نواحيها.

وجهز غياث الدين عساكره مع صاحب سجستان وابن أخته بهاء الدين سام بن باميان لغيبة أخيه شهاب الدين في الهند، فساروا إلى خراسان، وكان سلطان شاه يحاصر هراة فخام عن

لقائهم ورجع إلى مرو، وعاث في البلاد في طريقه، وأعاد الكتاب إلى غياث الدين بالتهديد فاستقدم أخاه شهاب الدين من الهند، فرجع مسرعاً، وساروا إلى خراسان.

وجمع سلطان شاه جموعاً ونزل الطالقان، وترددت الرسل بين سلطان شاه وغياث الدين حتى جنح إلى الصلح بالنزول له عن بوشنج وبادغيس، وشهاب الدين يجنح إلى الحرب، وغياث الدين يكفهم.

وجاء رسول سلطان شاه لإتمام العقد، فقام شهاب الدين العلوي وقال: لا يكون هذا أبداً، ولا تصالحوه، وقام شهاب الدين ونادى في عسكره بالحرب، والتقدم إلى مرو الروذ.

وتواقع الفريقان فانهزم سلطان شاه ودخل إلى مرو في عشرين فارساً، وبلغ الخبر إلى أخيه فسار لتعرضه عن جيحون وسمع سلطان شاه بتعرض أخيه له فرجع عن جيحون، وقصد غياث الدين فأكرمه وأكرم أصحابه، وكتب أخوه علاء الدين في رده إليه، وكتب إلى نائب هراة يتهدده، فامتعض غياث الدين لذلك، وكتب إلى خوارزم شاه بأنه مجير وشفيع له، ويطلب بلاده وميراثه من أبيه، ويضمن له الصلح مع أخيه سلطان شاه.

وطلب منه مع ذلك أن يخطب له بخوارزم، ويزوج أخته من شهاب الدين فامتعض علاء الدين لذلك، وكتب بالتهديد فسرح غياث الدين جميع عساكره مع سلطان شاه إلى خوارزم شاه، وكتب إلى المؤيد أبيه صاحب نيسابور يستنجده، فجمع عساكره وقام في انتظارهم، وسمع بذلك علاء الدين تكش، وهو زاحف للقاء أخيه سلطان شاه، وعساكر الغورية، فخشي أن يخالفوه إلى خوارزم وكر إليها راجعاً.

واحتمل أمواله وعبر إلى الخطا وقدم فقهاء خوارزم في الصلح والصهر، ووعظه الفقهاء وشكوا إليه بأن علاء الدين يستجيش بالخطا، فإما أن تتخذ مرو كرسياً لك فتمنعنا منهم، أو تصالحه، فأجاب إلى الصلح، وترك معاوضة البلاد ورجع إلى كرسيه.

غزوة شهاب الدين إلى الهند وهزيمة المسلمين بعد الفتح ثم غزوته الثانية وهزيمة الهنود وقتل ملكهم وفتح أجمير

كان شهاب الدين قد سار سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة إلى الهند، وقصد بلاد أجمير وتعرف بولاية السواك، واسم ملكهم كوكه، فملك عليهم مدينة تبرندة ومدينة أسرستي وكوه رام، فامتعض الملك وسار للقاء المسلمين ومعه أربعة عشر فيلاً ولقيهم شهاب الدين في عساكر المسلمين، فانهزمت ميمنته وميسرته، وحمل على الفيلة فطعن منها واحداً، ورمي بحربة في ساعده فسقط عن فرسه، وقاتل أصحابه عليه، فخلصوه وانهزموا، ووقف الهنود بمكانهم ولما أبعد شهاب الدين عن المعركة نزف من جرحه الدم فأصابه الغشي، وحمله القوم على أكتافهم في محفة اتخذوها من اللبود ووصلوا به إلى لهاور، ثم سار منها إلى غزنة فأقام إلى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

وخرج من غزنة غازياً لطلب الثأر من ملك الهند، ووصل إلى برساور وكان وجوه عسكره في سخطة منه منذ انهزموا عنه في النوبة الأولى، فحضروا عنده واعتذروا ووعدوا من أنفسهم الثبات، وتضرعوا في الصفح فقبل منهم، وصفح عنهم، وسار حتى انتهى إلى موضع المصاف الأول وتجاوزه بأربع مراحل، وفتح في طريقه بلاداً وجمع ملك الهند وسار للقائه فكر راجعاً إلى أن قارب بلاد الإسلام بثلاث مراحل، ولحقه الهنود قريباً من بربر فبعث شهاب الدين سبعين ألفاً من عسكره ليأتوا العدو، من ورائهم، وواعدهم هو الصباح، وأسرى هو ليلة فصابحهم فذهلوا، وركب الملك فرسه للهروب فتمسك به أصحابه، فركب الفيل واستماتت قومه عنده، وكثر فيهم القتل، وخلص إليه المسلمون فأخذوه أسيراً، وأحضروه عند شهاب الدين.

فوقف بين يديه وجذبوا بلحيته حتى قبل الأرض، ثم أمر به فقتل ولم ينج من الهنود إلا الأقل، وغنم المسلمون جميع ما معهم وكان في جملة الغنائم الفيول.

ثم سار شهاب الدين إلى حصنهم الأعظم وهو أجمير ففتحه عنوة، وملك جميع البلاد التي تقاربه، وأقطعها كلها لمملوكه أيبك نائبه في دلهي وعاد إلى غزنة.

غزوة بناوس ومقتل ملك الهند ثم فتح بهنكر

كان شهاب الدين ملك غزنة قد أمر مملوكه قطب الدين أيبك خليفته على دلهي أن يغزو بلاد الهند من ناحيته، فسار فيها ودوخها وعاث في نواحيها.

وسمع ملك بناوس وهو أكبر ملوك الهند، وولايته من تخوم الصين إلى بلاد ملاوا طولاً، ومن البحر الأخضر إلى عشرة

أيام من لهاور عرضاً وأهل تلك البلاد من أيام السلطان محمود مقيمون على إسلامهم، فاستنفر معه مسلمون كانوا في تلك البلاد، فسار إلى شهاب الدين سنة تسعين وخمسمائة والتقوا على ماحون نهر كبير يقارب دجلة فاقتتلوا، ونزل الصبر.

ثم نصر اللّه المسلمين واستلحم الهنود، وقتل ملكهم، وكثر السبي في جواريهم والأسرى من أبنائهم، وغنموا منهم تسعين فيلاً، وهرب بقية الفيول وقتل بعضها.

ودخل شهاب الدين بلاد بناوس، وحمل من خزائنها ألفاً وأربعمائة حمل، وعاد إلى غزنة.

ثم سار سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة إلى بلاد الهند وحاصر قلعة بهنكر حتى تسلمها على الأمان، ورتب فيها الحامية.

وسار إلى قلعة كواكير، وبينهما خمس مراحل يعترضها نهر كبير فحاصرها شهراً حتى صالحوه على مال يحملونه، فحملوا إليه حمل فيل من الذهب، فرحل عنهم إلى بلاد أبي رسود فأغار ونهب وسبى وأسر، وعاد إلى غزنة ظافراً.

استيلاء الغورية على بلخ وفتنتهم مع الخطا بخراسان

كان الخطا قد غلبوا على مدينة بلخ وكان صاحبها تركياً اسمه ازبة يحمل إليهم الخراج كل سنة وراء النهر، فتوفي أزبة سنة أربع وتسعين وخمسمائة وكان بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود صاحب باميان من قبل خاله غياث الدين فسار إلى بلخ، وقطع الحمل للخطا، وخطب لغياث الدين وصارت من جملة بلاد الإسلام بعد أن كانت في طاعة الكفار، فامتعض الخطا لذلك، واعتزموا على فتنة الغورية.

واتفق أن علاء الدين تكش صاحب خوارزم بعث إليهم يغريهم ببلاد غياث الدين.

وكان سبب ذلك أنه ملك الري وهمذان وأصفهان وما بينهما، وتعرض لعساكر الخليفة، وطلب الخطبة والسلطنة ببغداد مكان ملوك السلجوقية، فبعث الخليفة يشكوه إلى غياث الدين يقبح فعله وينهاه عن قصد العراق، ويتهدده بسلطان شاه وأخذ بلاده، فأنف من ذلك وبعث إلى الخطا يغريهم ببلاده، فجهز ملك الخطا جيشاً كثيفاً مع مقدم عساكره وعبروا النهر إلى بلاد الغور.

وسار علاء الدين تكش إلى طوس لحصارها، لأن غياث الدين عاجز عن الحركة بعلة النقرس، فعاثوا في بلاده ما شاء اللّه وحاصر الخطا بهاء الدين فاشتدت الحرب وثبت المسلمون.

وجاء المدد من عند غياث الدين، ثم حملوا جميعاً على الخطا فهزموهم إلى جيحون وألقى الكثير منهم أنفسهم في الماء، فهلك منهم نحو اثني عشر ألفاً، وعظم الأمر على ملك الخطا، وبعث إلى علاء الدين تكش صاحب خوارزم يطوقه الذنب ويطالبه بدية القتلى من أصحابه، وألزمه الحضور عنده، فبعث علاء الدين تكش يشكو ذلك إلى غياث الدين فرد جوابه باللوم على عصيان الخليفة، ودعا ذلك علاء الدين إلى الفتنة مع الخطا وانتزاعه بخارى من أيديهم كما يأتي في أخبارهم.

استيلاء الغورية على ملك خوارزم شاه بخراسان

ثم توفي علاء الدين تكش صاحب خوارزم وكان قد ملك بعض خراسان وبلاد الري والبلاد الجبالية، فولي بعده ابنه قطب الدين، ولقب علاء الدين بلقب أبيه، وولي علاء الدين أخاه علي شاه خراسان، وأقطعه نيسابور.

وكان هندوخان ابن أخيهما ملك شاه فخاف عمه فلحق بمرو، وجمع الجموع وبعث إليه عمه محمد العسكر مع جنقر التركي فهرب هندوخان، ولحق بغياث الدين مستنجداً به على عمه فأكرمه ووعده.

ودخل جنقر إلى مرو، وحمل منها ولدخان وأمه مكرمين إلى خوارزم وأرسل غياث الدين إلى صاحب الطالقان محمد بن خربك بأن يتهدد جنقر، فسار من الطالقان واستولى على مرو الروذ وبعث إلى جنقر يأمره بالخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارقها، فأساء الجواب ظاهراً، واستأمن إلى غياث الدين سراً، ولما علم غياث الدين بذلك قوي طمعه في البلاد، وكتب إلى أخيه شهاب الدين بالمسير إلى خراسان، فسار من غزنة في عساكره في منتصف سنة ست وتسعين وخمسمائة ولما انتهى إلى الطالقان استحثه جنقر صاحب مرو للبلد، وأخبره بطاعته حتى إذا وصل إليه خرج في العساكر فقاتله، وهزمه شهاب الدين، وزحف بالفيلة إلى السور فاستأمن من جنقر وخرج إليه، وملك شهاب الدين مرو وبعث بالفتح إلى غياث الدين فجاء إلى مرو، وبعث جنقر إلى هراة مكرماً، وسلم مرو إلى هندوخان ابن ملك شاه المستنجد به، وأوصاه بالإحسان إلى أهلها.

وسار إلى سرخس فحاصرها ثلاثاً وملكها على الأمان،

وأرسل إلى علي شاه نائب علاء الدين محمد بن بنيسابور، وينذره الحرب إن امتنع من الطاعة فاستعد للحصار، وخربوا العمائر بظاهرها وقطعوا الأشجار، وحمل محمود بن غياث الدين فضايق البلد، وملك جانبها ورفع راية أبيه على السور.

وحمل شهاب الدين من الناحية الأخرى، فسقط السور بين يديه وملك البلد ونهب الجند عامتها.

ثم نادوا بالأمان ورفع النهب، واعتصم الخوارزميون بالجامع فأخرجهم أهل البلد إلى غياث الدين.

ثم سار إلى قهستان، فذكر له عن قرية في نواحيها أن أهلها إسماعيلية فدخلها وقتل المقاتلة وسبى الذرية، وخرب القرية، ثم سار إلى مدينة أخرى، ذكر له عنها مثل ذلك، وأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين يستغيثون من شهاب الدين ويذكرونه العهد، فأرسل غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بالرجوع عنهم طوعاً أو كرهاً، ووصل الرسول بذلك فامتنع، فقطع طنب خيمته ورحل العسكر فرحل شهاب الدين كرهاً ورجع إلى غزنة.

فتح نهر واكد من الهند

لما رجع شهاب الدين من خراسان غاضباً من فعل أخيه، لم يعرج على غزنة، ودخل بلاد الهند غازياً سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وبعث في مقدمته مملوكه قطب الدين أيبك، ولقيه عساكر الهند دون نهر واكد فهزمهم أيبك، واستباحهم وتقدم إلى نهر واكد فملكها عنوة، وفارقها ملكها وجمع، ورأى شهاب الدين أنه لا يقوم بحمايتها إلا مقامه فيها؛ فصالح ملكها على مال يؤديه إليه عنها، ورجع إلى غزنة.

إعادة علاء الدين محمد صاحب خوارزم ما أخذه الغورية من خراسان

لما فصل الغورية عن خراسان وملكوا ما ملكوه منها، وسار شهاب الدين إلى الهند غازياً، بعث علاء الدين محمد صاحب خوارزم إلى غياث الدين يعاتبه على ما فعل في خراسان، ويطلب إعادة بلده، ويهدده باستدعاء عساكر الخطا، فصانعه في الخطا حتى قدم شهاب الدين فطمع بالمصانعة.

وبعث إلى نائبهم بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور، ويتهدده، فكتب إلى غياث الدين بذلك، وبميل أهل نيسابور إلى عدوهم، فوعده النصر.

وسار إليه علاء الدين صاحب خوارزم آخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

فلما انتهى إلى نسا وأبيورد هرب هندوخان ابن أخيه، ولحق بغياث الدين في فيروزكوه وملك علاء الدين مدينة مرو وسار إلى نيسابور وحاصرها شهرين، فلما أبطأ عن نائبها المدد من غياث الدين استأمن لصاحب خورازم، وخرج إليه هو وأصحابه فأحسن إليهم، وطلب علاء الدين أن يسعى في الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه، فوعده بذلك، وسار إلى هراة فأقام بها ولم يمض إلى غياث الدين سخطه لتأخر المدد عنه.

واختص صاحب خوارزم الحسن بن حرميل من أعيان الغورية، واستحلفه أن يكون معه عند غياث الدين.

ثم سار إلى سرخس وبها الأمير زنكي، فحاصره أربعين يوماً، وتعددت بينهما حروب.

ثم بعث ابنه زنكي بأن يتأخر عن البلد قليلاً حتى يخرج هو وأصحابه، فتأخر بأصحابه، وخرج زنكي فشحن البلد بالأقوات والحطب، وأخرج من ضاق به الحصار، وتحصن فندم صاحب خوارزم على تأخره، وجهز عسكراً لحصاره ورجع.

فلما بعد سار محمد بن خربك من الطالقان، وأرسل إلى زنكي بأن يكبس العسكر الذي عليه.

وندر بذلك أهل العسكر، فأفرجوا عن سرخس وخرج زنكي ولقي محمد بن خربك في مرو، وجبوا خراج تلك الناحية، وبعث إليهم صاحب خوارزم عسكراً من الثلاثة آلاف فارس فلقيهم محمد بن خربك في تسعمائة فهزمهم، وغنم معسكرهم، وعاد صاحب خوارزم إلى بلده وأرسل إلى غياث الدين في الصلح.

فأجابه مع أمير من أكابر الغورية اسمه الحسن بن محمد المرغني فقبض عليه صاحب خوارزم وحبسه.

ومرغن من قرى الغور.

حصار هراة

لما بعث صاحب خوارزم إلى غياث الدين في الصلح وجاء عند الحسن المرغني تبين عنه المغالطة فحبسه، وسار إلى هراة وحاصرها، وكان بها أخوان من خدمة السلطان شاه تكش، فكتبا إلى صاحب خوارزم ووعداه بالثورة له في البلد، وكانا يليان مفاتح الأبواب وأمور الحصار من داخل، فأطلع الأمير الحسن المرغني

المحبوس عند صاحب خوارزم على أمرهما، فبعث بذلك إلى أخيه بذلك عمر صاحب هراة فاعتقلهما.

وبعث غياث الدين العساكر مدداً لهراة مع ابن أخته ألب غازي فنزل على خمسة فراسخ منها، ومنع الميرة عن عسكر صاحب خوارزم فبعث صاحب خوارزم عسكراً إلى الطالقان للغارة عليها، فقاتلهم الحسن بن خربك فظفر بهم، ولم يفلت منهم أحد.

ثم سار غياث الدين في عساكره ونزل قريباً من هراة، فاعتزم صاحب خوارزم على الرحيل بعد حصار أربعين يوماً لهزيمة أصحابه بالطالقان، ومسير العساكر مع ألب غازي، ثم مسير غياث الدين، ثم توقعه عود شهاب الدين من الهند.

وكان قد وصل إلى غزنة منتصف ثمان وتسعين وخمسمائة فراسل أمير هراة وصالحه على مال حمله إليه، وارتحل عن البلد وبلغ الخبر شهاب الدين، وجاء إلى طوس وشتى بها عازماً على حصار خوارزم، فجاء الخبر بوفاة أخيه غياث الدين، فأثنى عزمه وسار إلى هراة.

وفاة غياث الدين وانفراد شهاب الدين بالملك

ثم توفي غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام صاحب غزنة وبعض خراسان وفيروزكوه ولهاور ودهلي من الهند وكان أخوه شهاب الدين بطوس كما ذكرنا فسار إلى هراة، وأظهر وفاة أخيه، وجلس للعزاء، وخلف غياث الدين ابناً اسمه محمود، فلقب غياث الدين.

ولما سار شهاب الدين عن طوس استخلف بمرو الأمير محمد بن خربك، وبعث إليه صاحب خوارزم العساكر، فبيتهم ولم ينج منهم إلا القليل، وأنفذ بالأساري والرؤوس إلى هراة وأعاد إليه صاحب خوارزم الجيوش مع منصور التركي، فلقيهم على عشرة فراسخ من مرو فهزموه وحاصروه خمسة عشر يوماً حتى استأمن إليهم وخرج فقتلوه.

وترددت الرسل بين شهاب الدين وصاحب خوارزم في الصلح فلم يتفق بينهما أمر.

ولما اعتزم شهاب الدين على العود إلى غزنة ولى على هراة ابن أخته ألب غازي وقلد علاء الدين محمد الغوري مدينة فيروزكوه وبلد الغور، وجعل إليه حرب خراسان وأمور المملكة

وجاءه محمود ابن أخيه غياث الدين فولاه على بست وأسفرايين وتلك الناحية وأبعده عن الملك جملة.

وكانت لغياث الدين زوجة مغنية شغف بها وتزوجها، فقبض عليها شهاب الدين وضربها ضرباً مبرحاً وضرب ولدها غياث الدين وزوج أختها واستصفاهم وغربهم إلى بلاد الهند، وكانت بنت مدرسة ودفنت فيها أباها، فخربها ونبش قبورهم ورمى بعظامهم.

وكان غياث الدين ملكاً عظيماً مظفراً على قلة حروبه، فإنه كان قليل المباشرة للحروب، وكان ذا هيبة جواداً حسن العقيدة، كثير الصدقة، بنى بخراسان وغيرها المساجد والمدارس للشافعية، وبنى الخوانك في الطرق، وبنى على ذلك الأوقاف الكثيرة، وأسقط المكوس، وكان لا يتعرض إلى مال أحد، ومن مات ووارثه غائب دفعه إلى أمناء التجار من أهل بلده ليوصلوه إلى ورثته، فإن لم يجد تاجراً ختم عليه القاضي إلى أن يصل مستحقه، وإن كان لا وارث له تصدق عنه بماله.

وكان يحسن إلى أهل البلد إذا ملكها، ويفرض الأعطيات للفقهاء كل سنة من خزائنه، ويفرق الأموال على الفقراء، ويصل العلوية والشعراء.

وكان أديباً بليغاً بارع الخط ينسخ المصاحف ويفرقها في المدارس التي بناها.

وكان شافعي المذهب من غير تعصب لهم، ويقول: التعصب في المذاهب هلاك.

فتنة الغورية مع محمد بن تكش صاحب خوارزم وحصار هراة ثم حصارهم خوارزم وحروب شهاب الدين مع الخطا

لما هلك غياث الدين ملك أخوه شهاب الدين بعده، فطمع محمد بن تكش صاحب خوارزم في ارتجاع هراة.

وكان قد راسل شهاب الدين في الصلح فلم يتم وسار شهاب الدين عن غزنة إلى لهاور غازياً، فسار حينئذ محمد بن تكش إلى هراة منتصف سنة ستمائة، وحاصرها وكان بها ألب غازي ابن أخت شهاب الدين.

وطال حصارها إلى سلخ شعبان، وقتل بين الفريقين خلق: منهم رئيس خراسان المقيم يومئذ بمشهد طوس.

وكان الحسين بن حرميل من أعيان الغورية بجوربان وهو، فمكر بصاحب خوارزم، وأظهر له الموالاة وأشار بأن يبعث إليه فوارس يعطيهم بعض الفيلة.

وقعد لهم هو والحسين بن محمد المرغني بالمراصد، فاستلحموهم.

ثم مات ألب غازي وضجر صاحب خوارزم محمد من الحصار فارتحل إلى سرخس وحاصرها، وبلغت هذه الأخبار شهاب الدين ببلاد الهند، فكر راجعاً وقصد مدينة خوارزم، فأغذ محمد بن تكش السير من سرخس، ونزل أثقاله وسبقه إليها وقاتله الخوارزمية قتالاً شديداً وفتكوا فيه.

وهلك من الغورية جماعة: منهم الحسين بن محمد المرغني وأسر جماعة من الخوارزمية فأمر شهاب الدين بقتلهم.

ثم بعث خوارزم شاه إلى الخطا يستنجدهم أن يخالفوا شهاب الدين إلى بلاد الغورية فساروا إليها.

ولما سمع شهاب الدين كر راجعاً إلى البلاد، فلقي مقدمة عسكرهم بصحراء أيدخوي في صفر سنة إحدى وستمائة، فأوقع بهم وأثخن فيهم، وجاءت ساقتهم على أثر ذلك، فلم يكن لشهاب الدين بهم قبلٌ فانهزم، ونهبت أثقاله، وقتل الكثير من أصحابه، ونجا في الفل إلى أيدخوي وحاصروه حتى أعطاهم بعض الفيلة وخلص وكثر الإرجاف في بلاد الغور بمهلكه، ووصل إلى الطالقان في سبعة نفر، وقد لحق بها نائبها الحسين بن حرميل ناجياً من الوقعة، فاستكثر له من الزاد والعلوفة وكفاه مهمه.

وكان مستوحشاً مع من استوحش من الأمراء بسبب انهزامهم عن شهاب الدين، فحمله شهاب الدين إلى غزنة تأنيساً له، واستحجبه، ولما وقع الإرجاف بموت شهاب الدين جمع مولاه تاج الدين العسكر وجاء إلى غزنة طامعاً في ملكها، فمنعه مستحفظها فرجع إلى إقطاعه، وأعلن بالفساد، وأغرى بالخلج من الترك فكثر عيثهم.

وكان له مولى آخر اسمه أيبك فلحق بالهند عند نجاته من المعركة، وأرجف بموت السلطان واستولى على المتان، وأساء فيها السيرة.

فلما وصل خبر شهاب الدين جمع تاج الدين الذر - وهو مملوك اشتراه شهاب الدين - الناس من سائر النواحي ثم جمع شهاب الدين لغزو الخطا والثأر منهم.

حروب شهاب الدين مع بني كوكر والتراهية

كان بنو كوكر هؤلاء موطَّنين في الجبال بين لهاور والملتان معتصمين بها لمنعتها، وكانوا في طاعة شهاب الدين، يحملون إليه الخراج، فلما وقع الإرجاف بموته، انتقضوا وداخلوا صاحب جبل الجودي وغيره من أهل الجبال في ذلك وجاهروا بالعيث والفساد وقطع السابلة ما بين غزنة ولهاور وغيرها.

وبعث شهاب الدين إلى محمد بن أبي علي بلهاور والملتان يأمره بحمل المال بعد أن قتل مملوكه أيبك.

قال: ومهد البلاد فاعتذر بنو كوكر فبعث شهاب الدين مملوكه أيبك إلى بني كوكر يتهددهم على الطاعة، فقال كبيرهم: لو كان شهاب الدين حياً لكان هو المرسل إلينا، واستخفوا أمر أيبك، فعاد الرسول بذلك، فأمر شهاب الدين بتجهيز العساكر في قرى سابور.

ثم عاد إلى غزنة في شعبان سنة إحدى وستمائة ونادى بالمسير إلى الخطا.

ورجع بنو كوكر إلى حالهم من إخافة السابلة ودخل معهم كثير من الهنود في ذلك وخشي على انتقاض البلاد فأثنى عزمه عن الخطا وسار إلى غزنة، وزحف إلى جبال بني كوكر في ربيع الأول سنة اثنتين وستمائة ولما انتهى إلى قرى سابور أغذ السير وكبس بني كوكر في محالهم، وقد نزلوا من الجبال إلى البسيط يرومون اللقاء، فقاتلوه يوماً إلى الليل، وإذا بقطب الدين أيبك في عساكره منادين بشعار الإسلام فحملوا عليهم، وانهزموا وقتلوا بكل مكان.

واستنجوا بأجمة فاضرمت عليهم ناراً، وغنم المسلمون أهاليهم وأموالهم حتى بيع المماليك خمسة بدينار.

وقتل كبير بني كوكر الذي كان مملكاً عليهم، وقصد دانيال صاحب الجند الجودي، وسار إليها فأقام بها منتصف رجب، وهو يستنفر الناس.

ثم عاد نحو غزنة وأرسل بهاء الدين سام صاحب باميان بالنفير إلى سمرقند، وأن يتخذ الجسر لعبور العساكر.

وكان أيضاً ممن دعاه هذا الإرجاف إلى الانتقاض التراهية وهم قوم من أهل الهند بنواحي قرى سابور، دينهم المجوسية ويقتلون بناتهم بعد النداء عليهن للتزويج، فإذا لم يتزوجها أحد

قتلوها، وتزوج المرأة عندهم بعدة أزواج.

وكانوا يفسدون في نواحي قرى سابور، ويكثرون الغارة عليها، وأسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغوري.

ثم انتقضوا عند هذا الإرجاف وخرجوا إلى حدود سوران ومكران، وشنوا الغارة على المسلمين فسار إليهم الخلخي نائب تاج الدين الذي بتلك الجهة، فأوقع بهم وأثخن فيهم وبعث برؤوس الأعيان منهم فعلقت ببلاد الإسلام وصلح أمر البلاد.

مقتل شهاب الدين الغوري وافتراق المملكة بعده

لما قضى شهاب الدين شأنه من بلاد الغور وأصلح ما كان بها من الفساد، ارتحل من لهاور عائداً إلى غزنة عازماً على قصد الخطا بعد أن استنفر أهل الهند وأهل خراسان، فلما نزل بدميل قريباً من لهاور طرق خيمته جماعة من الدعار فقتلوا بعض الحرس، وثار بهم الناس وذهل باقي الحرس بالهيعة فدخل منهم البعض على شهاب الدين وضربوه في مصلاه وقتلوه ساجداً، وقتلوا عن آخرهم أول شعبان سنة اثنتين وستمائة.

فيقال إن هذه الجماعة من الكوكرية الذين أحفظهم ما فعل بهم، ويقال من الإسماعيلية لأنهم كانوا غلوا منه، وكانت عساكره تحاصر قلاعهم.

ولما قتل اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الدين خواجا سحتا، واتفقوا على حفظ المال إلى أن يقوم بالأمر من يتولاه من أهله، وتقدم الوزير إلى أمير العسكر بضبط العسكر، وحملت جنازة شهاب الدين في المحفة، وحملوا خزائنه، وكانت ألفين ومائتي حمل.

وتطاول الموالي مثل صونج صهر الذر وغيره إلى نهب المال، فمنعهم الأمراء الكبار، وصرفوا الجند الذين أقطاعهم عند قطب الدين أيبك ببلاد الهند أن يعودوا إليه، وساروا إلى غزنة متوقعين البيعة على الملك بين غياث الدين محمود ابن السلطان غياث الدين، وبين بهاء الدين سام صاحب باميان ابن أخت شهاب الدين فيملك الخزانة والأتراك يريدون طريق سوران ليقربوا من فارس.

وكان هوى الوزير مؤيد الملك مع الأتراك، فلم يزل بالغورية حتى إذا وصلوا طريق كرمان ساروا عليها، ولقوا بها مشقة من غارات التراهية واقعان وغيرهم.

ولما وصلوا إلى كرمان استقبلهم تاج الدين الذر ونزل عن فرسه، وقبل الأرض بين يدي المحفة.

ثم كشف عن وجهه فمزق ثيابه وأجد بالبكاء حتى رحمه الناس.

وكان شهاب الدين شجاعاً قرماً عادلاً كثير الجهاد، وكان القاضي بغزنة يحضر داره أربعة أيام في كل أسبوع، فيحكم بين الناس وأمراء الدولة ينفذون أحكامه، وإن رافع أحد خصمه إلى السلطان سمع كلامه ورده إلى القاضي، وكان شافعي المذهب.

قيام الذر بدعوة غياث الدين محمود ابن السلطان غياث الدين

كان تاج الدين الذر من موالي شهاب الدين وأخصهم به، فلما قتل طمع في ملك غزنة وأظهر القيام بدعوة غياث الدين محمود ابن السلطان غياث الدين، وأنه كتب إليه بالنيابة عنه بغزنة لشغله بأمر خران.

وتسلم الخزائن من الوزير وسار إلى غزنة فدفن شهاب الدين بتربته في المدرسة التي أنشأها، وذلك في شعبان من سنة اثنتين وستمائة وأقام بغزنة.

مسير بهاء الدين سام إلى غزنة وموته وملك بهاء الدين ابنه بعده غزنة

كان بهاء الدين قد أقطع باميان ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود عندما ملكها، وأنكحه أخته فولدت ابناً هو سام، وكان له ابن آخر من امرأة تركية اسمه عباس، فلما مات ملك ابنه الأكبر عباس، فغضب غياث الدين وشهاب الدين لابن أختهما، وعزلوا عباساً وولوه مكانه على باميان، فعظم شأنه، وجمع الأموال، وترشح للملك بعد أخواله لميل أمراء الغز إليه بعد أخواله.

فلما قتل شهاب الدين كان في قلعة غزنة نائب اسمه أميردان فبعث ابنه إلى بهاء الدين محمود ابن السلطان غياث الدين، وابن حرميل عامل هراة بحفظ أعمالها، وإقامة الخطبة له بها والغورية والأتراك على ما ذكرناه من الاختلاف فسار في عساكره إلى غزنة ومعه ابنا علاء الدين وأمرهما جميعاً بالمسير إلى غزنة، وبلاد الهند.

فلما مات ثار ابناه في غزنة وخرج أمراء الغورية لغياث

الدين وتلقوهما والأتراك معهم مغلبين فملكوا البلد، ونزلوا دار السلطنة مستهل رمضان، من سنة اثنتين وستمائة، واعتزم الأتراك على منعهم، وعاد لهم الأمير مؤيد الملك لاشتغال غياث الدين منهم بابن حرميل عامل هراة فلم يرجعوا، ونبذوا إلى علاء الدين وأخيه العهد وآذنوهما بالحرب إن لم يرجعا، فبعثا إلى تاج الدين الذر، وهو بإقطاعه يستدعيانه ويرغبانه بالأموال والمراتب السلطانية والترغيب في الدولة.

استيلاء الذر على غزنة

كان الذر بكرمان لما بلغه مقتل شهاب الدين، تسلم الأموال والخزائن من الوزير، وأظهر دعوة غياث الدين ابن مولاه السلطان غياث الدين، وسار بهاء الدين سام من باميان كما ذكرنا، ومات في طريقه، وملك ابنه علاء الدين غزنة كما ذكرنا، واستعطف الأتراك وبعث إلى الذر يرغبه ويسترضيه فأبى من طاعته، وأساء الرد عليه.

وسار عن كرمان في عساكر كثيفة من الترك والخلخ والغز وغيرهم، وبعث إلى علاء الدين وأخيه بالنذير، فأرسل علاء الدين وزيره ووزير ابنه صلة إلى باميان وبلخ وترمذ ليحتشد العساكر، وبعث الذر إلى الأتراك الذين بغزنة بأن مولاهم غياث الدين.

واجتمعت جماعة الغورية والأتراك فالتقوا في رمضان، ونزع الأتراك إلى الذر فانهزم محمد بن حدورون وأسر.

ودخل عسكر الذر المدينة فنهبوا بيوت الغورية والباميانية.

واعتصم علاء الدين بالقلعة، وخرج جلال الدين في عشرين فارساً إلى باميان، وحاصر الذر القلعة حتى استأمن علاء الدين في المسير من غزنة إلى باميان ولما نزل من القلعة تعرض له بعض الأتراك فأرجلوه عن فرسه وسلبوه، فبعث إليه الذر بالمال والمركب والثياب، فوصل إلى باميان، فشرع في الاحتشاد.

وأقام الذر بغزنة يظهر طاعة غياث الدين، ويترحم على شهاب الدين، ولم يخطب له ولا لأحد.

وقبض على داود والي القلعة بغزنة، وأحضر القضاة والفقهاء، وكان رسول الخليفة مجد الدين أبو علي بن الربيع الشافعي مدرس النظامية ببغداد وفد على شهاب الدين رسولاً من قبل الخليفة، وأحضره الذر ذلك اليوم، وشاورهم بالجلوس على التخت والمخاطبة بالألقاب السلطانية، وأمضى ذلك.

واستوحش الترك حتى بكى الكثير منهم، وكان هناك جماعة من ولد ملوك الغور وسمرقند فأنفوا من خدمته، وانصرفوا إلى علاء الدين وأخيه في باميان، وأرسل غياث الدين محمود أن يصهر إليه في بنته بابنه فأبى من ذلك.

ثم جاء في عسكر من الغوريين من باميان، وأرسل غياث الدين وفرق في أهلها الأموال، واستوزر مؤيد الملك فوزر له على كره.

أخبار غياث الدين بعد مقتل عمه

لما قتل السلطان شهاب الدين، كان غياث الدين محمود ابن أخيه السلطان غياث الدين في أقطاعه ببست.

وكان شهاب الدين قد ولى على بلاد الغور علاء الدين محمد بن أبي علي من أكابر بيوت الغورية، وكان إمامياً غالياً، فسار إلى بيروزكوه يسابق إليها غياث الدين.

وكان الأمراء الغورية أميل إلى غياث الدين، وكذا أهل بيروزكوه، فلما دخل خوارزم دعا محمد المرغني ومحمد بن عثمان من أكابر الغورية، واستحلفهم على قتال محمد بن تكش صاحب خوارزم.

وأقام غياث الدين بمدينة بست ينتظر مآل الأمر لصاحب باميان لأنهما كان بينهما العهد من أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين، وغزنة والهند لبهاء الدين صاحب باميان بعد موت شهاب الدين، فلما بلغه موت شهاب الدين دعا لنفسه، وجلس على الكرسي في رمضان سنة ثلاث وستمائة، واستخلف الأمراء الذين في أثره فأدركوه وجاؤوا به، وملك بيروزكوه وقبض على جماعة من أصحاب علاء الدين، ولما دخل بيروزكوه جاء إلى الجامع فصلى فيه.

ثم ركب إلى دار أبيه فسكنها وأعاد الرسوم، وقدم عليه عبد الجبار محمد بن العشير إلى وزير أبيه فاستوزره، واقتفى بأبيه في العدل والإحسان.

ثم كاتب ابن حرميل بهراة ولاطفه في الطاعة، وكان ابن حرميل لما بلغه مقتل السلطان بهراة خشي عادية خوارزم شاه، فجمع أعيان البلد وغيرهم، واستحلفهم على الإنجاد والمساعدة.

وقال القاضي وابن زياد: يحلف كل الناس إلا ابن غياث الدين، وينتظر عسكر خوارزم شاه، وشعر غياث الدين بذلك من بعض عيونه، فاعتزم على المسير إلى هراة.

واستشار ابن حرميل القاضي وابن زياد، فأشارا عليه بطاعة

غياث الدين على مكر ابن حرميل، وميله إلى خوارزم شاه، وحثه على قصد هراة ليكون ذلك حجة عليه ففعل، وبعث به مع ابن زياد.

ثم كاتب غياث الدين صاحب الطالقان وصاحب مرو يستدعيهما فتوقفوا عن إجابته.

فقال أهل مرو لصاحبها: إن لم تسلم البلد إلى غياث الدين وتتوجه وإلا سلمناك وقيدناك وأرسلناك إليه فاضطر إلى المجيء إلى فيروزكوه.

فخلع عليه غياث الدين ووفر له الإقطاع، وأقطع الطالقان لسونج مولى أبيه المعروف بأمير شكار.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان

كان الحسن بن حرميل نائب الغورية بهراة منتقضاً عليهم كما ذكرنا، ومداخلاً لخوارزم شاه في الباطن، واستدعى العساكر من عنده، وبعث ابن زياد يستوثق له من غياث الدين، وأقام يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

ووصل ابن زياد بالولاية والخلع، فلم يثنه ذلك عما هو فيه من المكاذبة لهم.

ثم وصل عسكر خوارزم شاه فتلقاهم وأكرمهم.

وبلغه أن خوارزم شاه في أثرهم على أربع فراسخ من بلخ، فندم في أمره ورد إليه عسكره، وبلغ غياث الدين عسكر خوارزم شاه ووصولهم إلى هراة، فاستدعى ابن حرميل فقبض على أملاكه، ونكب أصحابه، ورد أقطاعه فاعتزم أهل هراة على القبض عليه، وكتب القاضي وابن زياد بذلك إلى غياث الدين.

ونمي الخبر إلى ابن حرميل فخشي على نفسه منهم، وأوهمهم أنه يكاتب غياث الدين وطلبهم في الكتاب مع رسوله، وأوصى الرسول أن يعدل إلى طريق خوارزم شاه.

ولحق بهم فردهم وأصبحوا على البلد لرابعة يوم من سفر الرسول فأدخلهم ابن حرميل البلد، وأمكنهم من أبوابها.

وقبض على ابن زياد وسمله، وأخرج القاضي فلحق بغياث الدين في بيروزكوه، ونمي الخبر بذلك إلى غياث الدين فاعتزم على المسير بنفسه، فبلغه سير علاء الدين صاحب باميان إلى غزنة فاقتصر عن ذلك وأقام ينتظر شأنه مع الذر.

وأما بلخ فإن خوارزم شاه لما بلغه مقتل شهاب الدين أطلق أسرى الغوريين الذين كانوا عنده، وخلع عليهم واستألفهم، وبعث أخاه علي شاه في العساكر إلى بلخ فقاتله عمر بن الحسين الغوري نائبها، ونزل منها على أربعة فراسخ.

وجاءه خوارزم شاه مدداً بنفسه آخر سنة اثنتين وستمائة فحاصرها، فاستمد عمر بن الحسين علاء الدين وجلال الدين من باميان، وشغلوا عنه بغزنة، فأقام خوارزم شاه محاصراً له أربعين يوماً، وكان عنده محمد بن علي بن بشير، وأطلقه في أسرى الغورية وأقطعه، فبعثه إلى عمر بن الحسين صاحب بلخ في الطاعة فأبى من ذلك، واعتزم خوارزم شاه على المسير إلى هراة، ثم بلغه ما وقع بين الذر وبين علاء الدين وجلال الدين، وأن الذر أسرهما، وأن عمر بن الحسين صاحب بلخ أبى ذلك، فأعاد عليه ابن بشير، فلم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى أطاع صاحب خوارزم، وخطب له، وخرج إليه فخلع عليه وأعاده إلى بلده في سلخ ربيع سنة ثلاث وستمائة ثم سار إلى جورقان ليحاصرها، وبها علي بن أبي علي فوقعت المراوضة بينهما.

ثم انصرف عن جورقان وتركها لابن حرميل، واستدعى عمر بن الحسين الغوري وصاحب بلخ فقبض عليه، وبعثه إلى خوارزم، ومضى إلى بلخ فملكها، وولى عليها جعفراً التركي ورجع إلى خوارزم.

استيلاء علاء الدين ثانياً على غزنة ثم انتزاع الذر إياها من يده

قد تقدم لنا استيلاء الذر على غزنة وإخراجه علاء الدين وجلال الدين منها إلى باميان، فأقاما بها شهرين، ولحق كثير من الجند بعلاء الدين صاحبهم، وأقام الذر بغزنة متوقفاً عن الخطبة لغياث الدين يروم الاستبداد، وهو يعلل الأتراك برجوع رسوله من عند غياث الدين مخافة أن ينفضوا عنه.

فلما ظفر بعلاء الدين وملك القلعة أظهر الاستبداد وجلس على الكرسي وجمع علاء الدين وجلال الدين العساكر وساروا من باميان إلى غزنة، وسرح الذر عساكره للقائهما فهزماها وأثخناها.

وهرب الذر إلى بلد كرمان واتبعه بعض العسكر فقاتلهم ودفعهم.

وسار علاء الدين وأخوه إلى غزنة وملكوها، وأخذوا خزانة

شهاب الدين التي كان الذر أخذها من يد الوزير مؤيد الدين عند مقدمه بجنازة شهاب الدين إلى كرمان كما مر.

ثم اعتزم علاء الدين وأخوه على العود إلى غزنة وأهلها متوقعون النهب من عسكرهم والفيء. وكان بينهم رسول الخليفة مجد الدين بن الربيع مدرس النظامية، جاء إلى شهاب الدين فقتل وهو عنده.

وأقام بغزنة فقصده أهل غزنة أن يشفع فيهم، فشفع وسكن الناس وعاد علاء الدين وأخوه إلى غزنة.

ثم وقع بينهما تشاجر على اقتسام الخزانة، وعلى وزارة مؤيد الملك فندم الناس على طاعتهما.

وسار جلال الدين ومعه عباس إلى باميان، وبقي علاء الدولة بغزنة، وأساء وزيره السيرة في الجند والرعية، ونهب الأموال حتى باعوا أمهات أولادهم.

ويشكون فلا يشكيهم أحد، فسار الذر في جموع الأتراك والغز والغورية، فكبسهم إيدكن الشرفي مولى شهاب الدين في ألفين وملك كرمان.

وجاء الذر إثر ذلك وأنكر على إيدكن وملك كرمان، وأحسن إلى أهلها.

وبلغ الخبر إلى علاء الدين بغزنة، فبعث وزيره إلى أخيه جلال الدين في باميان، وكانت عساكر الغورية قد فارقوه ولحقوا بغياث الدين، ووصل الذر آخر سنة اثنتين وستمائة إلى غزنة فملكها، وامتنع علاء الدين بالقلعة، فسكن الذر الناس وأمنهم، وحاصروا القلعة.

وجاء الخبر إلى الذر بأن جلال الدين قادم عليك بعساكره، ولحق سليمان بن بشير بغياث الدين بيروزكوه فأكرمه، وجعله أمير داره، وذلك في صفر سنة ثلاث وستمائة وسار الذر فلقي جلال الدين وهزمه، وسيق أسيراً إليه، ورجع إلى غزنة وتهدد علاء الدين بقتل الأسرى إن لم يسلم القلعة.

وقتل منهم أربعمائة أسير فبعث علاء الدين يستأمنه، فأمنه.

ولما خرج قبض على وزيره عماد الملك وقتله، وبعث إلى غياث الدين بالفتح.

انتقاض عباس في باميان ثم رجوعه إلى الطاعة

لما أسر علاء الدين وجلال الدين كما قلناه في غزنة وصل الخبر إلى عمهما عباس في باميان ومعه وزير أبيهما.

وسار الوزير إلى خوارزم شاه يستنجده على الذر ليخلص صاحبيه، فاغتنم عباس غيبته وملك القلعة، وكان مطاعاً، وأخرج أصحاب علاء الدين وجلال الدين، فرجع الوزير من طريقه فحاصره بالقلعة، وكان مطاعاً في تلك الممالك من لدن بهاء الدين ومن بعده.

فلما خلص جلال الدين من أسر الذر، وصل إلى مدينة باميان واجتمع مع الوزير، وبعثوا إلى عباس ولاطفوه حتى نزل عما كان استولى عليه من القلاع، وقال: إنما أردت حفظها من خوارزم شاه.

استيلاء خوارزم شاه على ترمذ ثم الطالقان من يد الغورية

كان خوارزم شاه لما ملك بلخ من يد عمر بن الحسين الغوري سار منها إلى ترمذ وبها ابنه.

وقدم إليه محمد بن بشير بما كان من نزول أبيه عن بلخ، وأنه انتظم في أهل دولته.

وبعثه إلى خوارزم مكرماً، ورغبه بالإقطاع والمواعيد، وكان قد ضاق ذرعه من الخطا ووهن من أسر الذر أصحابه بغزنة، فأطاع واستأمن وملك خوارزم شاه ترمذ ورأى أن يسلمها للخطا ليتمكن بذلك من خراسان، ثم يعود عليهم فينتزعها منهم.

ولما فرغ من ذلك سار إلى الطالقان وبها سونج نائباً عن غياث الدين محمود، وأرسل من يستميله، فلج وسار لحربه حتى إذا التقيا نزل عن فرسه وسأل العفو فذمه بذلك، وأخذ ما كان بالطالقان بعض أصحابه، وسار إلى قلاع كاكوين وسوار، فخرج إليه حسام الدين علي بن أبي علي صاحب كاكوين وقاتله، وطالبه في تسليم البلاد فأبى، وسار خوارزم شاه إلى هراة ونزل بظاهرها وابن حرميل في طاعته، فكف عساكره عن أهل هراة، ولقيه هنالك رسول غياث الدين بالهدايا.

ثم سار ابن حرميل إلى أسفرايين في صفر، وقد كان صاحبها سار إلى غياث الدين فحاصرها حتى استأمن إليه وملك

البلد.

ثم أرسل إلى صاحب سجستان بطاعة خوارزم والخطبة له، فأجاب إلى ذلك بعد أن طلبه في ذلك غياث الدين فامتنع.

وعند مقام خوارزم شاه على هراة عاد إليها القاضي صاعد بن الفضل الذي كان ابن حرميل أخرجه منها فلحق بشهاب الدين، ثم رجع من عنده إلى خوارزم شاه فسعى به ابن حرميل عنده حتى سجنه بقلعة زوزن، وولى على القضاء بهراة الصفي أبا بكر محمد بن السرخسي.

خبر غياث الدين مع الذر وأيبك مولى أبيه

لما ملك الذر غزنة وأسر علاء الدين وأخاه جلال الدين كتب إليه غياث الدين يأمره بالخطبة، وطاول في ذلك فبعث إليه يستحثه بأمر الخطيب بالترحم على شهاب الدين والخطبة لنفسه، فاستراب الأتراك به، وبعث هو يشترط على غياث الدين العتق فأجابه إلى ذلك بعد توقف.

وكان عزمه على أن يصالح خوارزم شاه ويستمده على الذر، فلما طلب العتق أعتقه، وأعتق قطب الدين أيبك مملوك عمه شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند.

وأرسل إلى كل منهما هدية ورد الخبر واستمر الذر على مراوغته وأيبك على طاعته، فاستمد غياث الدين خوارزم شاه على الذر فأمده على أن يرد ابن حرميل صاحب هراة إلى طاعته، وأن يقسم الغنيمة أثلاثاً بينهما وبين العسكر.

وبلغ الخبر إلى الذر فسار إلى بكتاباد فملكها، ثم إلى بست وأعمالها كذلك، وقطع خطبة غياث الدين منها، وأرسل إلى صاحب سجستان بقطع خطبة خوارزم شاه، وإلى ابن حرميل كذلك ويتهددهما، وأطلق جلال الدين صاحب باميان وزوجه بنته، وبعث معه خمسة آلاف فارس مع إيدكين مملوك شهاب الدين ليعيدوا جلال الدين إلى ملكه بباميان، وينزلوا ابن عمه.

فلما سار معه إيدكين أغراه بالعود إلى غزنة وأعلمه أن الأتراك مجمعون على خلاف الذر، فلم يجبه جلال الدين إلى ذلك فرجع عنه إيدكين إلى إقطاعه بكابل، ولقيه رسول من قطب الدين أيبك إلى الذر يتهدده على عصيانه على غياث الدين، ويأمره بالخطبة له، ووصل معه الهدايا والألطاف إلى غياث الدين.

وأشار عليه أيبك بإجابة خوارزم إلى جميع ما طلب حتى يفرغ من أمر غزنة.

وكتب إلى أيبك يستأذنه في المسير إلى غزنة ومحاربة الذر فاذن له بمحاربته، ووصل إيدكين في رجب سنة ثلاث وستمائة وخطب لغياث الدين بغزنة، وامتنعت عليه القلعة فنهب البلد، ووصل الخبر إلى الذر بشأن ايدكين في غزنة ومراسلة أيبك له ففت ذلك في عضده، وخطب لغياث الدين في بكتاباد وأسقط اسمه ورحل إلى غزنة فرحل ايدكين عنها إلى بلد الغور، وأقام في تمواز، وكتب إلى غياث الدين بالخبر وأنفذ إليه أموالاً، فبعث إليه غياث الدين بالخلع وأعتقه وخاطبه بملك الأمراء.

وسار غياث الدين إلى بست وأعمالها فاستردها وأحسن إلى أهلها وأقام الذر بغزنة.

مقتل ابن حرميل واستيلاء خوارزم شاه على هراة

كان ابن حرميل كما قدمناه استدعى عسكر خوارزم شاه إلى هراة وأنزلهم معه بهراة، فساء أمرهم في الناس وكثر عيثهم فحبسهم، وبعث إلى خوارزم شاه بصنيعهم ويعدده، وكان مشتغلاً بقتال الخطا، فكتب إليه يحسن فعله ويستدعي الجند الذين حبسهم.

وبعث إلى عز الدين خلدك أن يحتال في القبض على ابن حرميل، فسار في ألفي فارس، وكان خلدك أيام السلطان سنجر والياً على هراة، فلما قدم خرج ابن حرميل لتلقيه، فنزل كل واحد منهما إلى صاحبه، وأمر خلدك أصحابه بالقبض على ابن حرميل فقبضوا عليه، وانفض عنه أصحابه إلى المدينة، فأمر الوزير خواجه الصاحب بغلق الأبواب والاستعداد للحصار، ونادى بشعار غياث الدين محمود فحاصره خلدك وبذل له الأمان وتهدده بقتل ابن حرميل، وخاطبه بذلك ابن حرميل ففعل، وكتب بالخبر إلى خوارزم شاه فبعث ولاته بخراسان يأمرهم بحصار هراة، فساروا في عشرة آلاف وامتنعت هراة عليهم.

وكان ابن حرميل قد حصنها بأربعة أسوار محكمة وخندق، وشحنها بالميرة، وصار يعدهم إلى حضور خوارزم شاه، وأسروه أياماً حتى فادى نفسه ورجع إلى خوارزم كما يذكر في أخبار دولته، وأرجف بموته في خراسان فطمع أخوه علي في طبرستان، وكزل خان في نيسابور إلى الاستبداد بالملك، فلما وصل خوارزم شاه هرب أخوه علي شاه ولحق بشهاب الدين في بيروزكوه، فتلقاه وأكرمه، وسار خوارزم شاه إلى نيسابور وأصلح أمرها واستعمل عليها، وسار إلى هراة وعسكره على حصارها، وقيل للوزير قد

وصل خوارزم شاه لما وعدته.

وتحدث في ذلك جماعة من أهل البلد فقبض عليهم، ووقعت بذلك هيعة وشعر بها خوارزم شاه فزحف إلى السور وخرب برجين منه، ودخل البلد فملكه وقتل الوزير وولى على هراة من قبله، وذلك سنة خمس وستمائة ورجع إلى قتال الخطا.

مقتل غياث الدين محمود

لما ملك خوارزم شاه مدينة هراة وولى عليها خاله أمير ملك، وأمره أن يسير إلى بيروزكوه ويقبض على صاحبها غياث الدين محمود بن غياث الدين الغوري، وعلى أخيه علي شاه بن خوارزم شاه، فسار أمير ملك واستأمن له محمود فأمنه وخرج إليه هو وعلي شاه فقبض عليهما أمير ملك وقتلهما، ودخل بيروزكوه سنة خمس وستمائة وصارت خراسان كلها لخوارزم شاه.

استيلاء خوارزم شاه على غزنة وأعمالها

ولما استولى خوارزم شاه على عامة خراسان وملك باميان وغيرها أرسل إلى تاج الدين الذر صاحب غزنة في الخطبة والسكة وأن يقرر الصلح على غزنة بذلك فشاور أهل دولته، وفيهم قطلوتكين من موالي شهاب الدين، وهو النائب عن الذر بغزنة، فأشار عليه بطاعته، وأعاد الرسول بالإجابة، وخطب له وسار عن غزنة متصدياً، وبعث قطلوتكين إلى خوارزم شاه سراً أن يبعث إليه من يسلمه غزنة، فجاء بنفسه وملك غزنة، وهرب الذر إلى لهاور.

ثم أحضر خوارزم شاه قطلوتكين وقتله بعد أن استصفاه وحصل منه على أموال جمة، وولى على غزنة ابنه جلال الدين، وذلك سنة ثلاث عشرة وستمائة ورجع إلى بلده.

استيلاء الذر على لهاور ومقتله

لما هرب الذر من غزنة أمام خوارزم شاه لحق بلهاور، وكان صاحبها ناصر الدين قباجة من موالي شهاب الدين وله معها ملتان وآمد والديبل إلى ساحل البحر، وله من العسكر خمسة عشر ألف فارس، وجاءه الذر في ألف وخمسمائة فقاتله على التعبئة ومعه الفيلة، فانهزم الذر أولا، وأخذت فيوله.

ثم كانت له الكرة وحمل فيل له على علم قباجة بإغراء الفيال، وصدق هو الحملة فانهزم قباجة وعسكره، وملك الذر مدينة لهاور، ثم سار إلى الهند ليملك مدينة دلهي وغيرها من بلاد المسلمين، وكان قطب الدين أيبك صاحبها قد مات، ووليها بعده مولاه شمس الدين فسار إليه، والتقيا عند مدينة سمابا. واقتتلا، فانهزم الذر وعسكره وأسر فقتل.

وكان محمود السيرة في ولايته كثير العدل والإحسان إلى الرعية لاسيما التجار والغرباء.

وكان بملكه انقراض دولة الغورية والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة الديلم وما كان لهم من الملك والسلطان في ملة الإسلام ودولة بني بويه منهم المتغلبين على الخلفاء على العباسيين ببغداد وأولية ذلك ومصائره

قد تقدم لنا نسب الديلم في أنساب الأمم وأنهم من نسل ماذاي بن يافث، وماذاي معدود في التوراة من ولد يافث.

وذكر ابن سعيد ولا أدري عمن نقله: أنهم من ولد سام بن باسل بن آشور بن سام، وآشور مذكور في التوراة من ولد سام.

وقال: إن الموصل من جرموق بن آشور، والفرس والكرد والخزر من إيران بن آشور، والنبط والسوريان من نبيط بن آشور. وهكذا ذكر ابن سعيد والله أعلم.

والجيل عند كافة النسابين إخوانهم على كل قول من هذه الأقوال، وهم أهل جيلان جميعاً عصبية واحدة من سائر أحوالهم.

ومواطن هؤلاء الديلم والجيل بجبال طبرستان وجرجان إلى جبال الري وكيلان وحفافي البحيرة المعروفة ببحيرة طبرستان من لدن أيام الفرس وما قبلها، ولم يكن لهم ملك فيما قبل الإسلام.

ولما جاء الله بالإسلام وانقرضت دولة الأكاسرة واستفحلت دولة العرب وافتتحوا الأقاليم بالمشرق والمغرب والجنوب والشمال كما مر في الفتوحات، وكان من لم يدخل من الأمم في دينهم دان لهم بالجزية، وكان هؤلاء الديلم والجيل على دين المجوسية، ولم تفتح أرضهم أيام الفتوحات، وإنما كانوا يؤدون الجزية.

وكان سعيد بن العاص قد صالحهم على مائة ألف في السنة، وكانوا يعطونها وربما يمنعونها، ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد، وكانوا يمنعون الطريق من العراق إلى خراسان على قومس.

ولما ولي يزيد بن المهلب خراسان سنة ست وثمانين

للهجرة، ولم يفتح طبرستان ولا جرجان، وكان يزيد بن المهلب يعيره بذلك إذا قصت عليه أخباره في فتوحات بلاد الترك ويقول: ليست هذه الفتوح بشيء، والشأن في جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت قومس ونيسابور، فلما ولاه سليمان بن عبد الملك خراسان سنة تسع وتسعين، أجمع على غزوها ولم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما هي جبال ومحاصر، يقوم الرجل على باب منها فيمنعه، وكانت طبرستان مدينة وصاحبها الأصبهبد.

ثم سار إلى جرجان مولاه فراسة، وسار الهادي إليهما وحاصرهما حتى استقاما على الطاعة.

ثم بعث المهدي سنة ثمان وتسعين يحيى الحرشي في أربعين ألفاً من العساكر فنزل طبرستان وأذعن الديلم.

ثم لحق بهم أيام الرشيد يحيى بن عبد الله بن حسن المثنى فأجاروه، وسرح الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي لحربهم، فسار إليهم سنة خمس وتسعين ومائة فأجابوه إلى التمكين منه على مال شرطوه وعلى أن يجيء بخط الرشيد وشهادة أهل الدولة من كبار الشيعة وغيرهم، فبذل لهم المال، وكتب الكتاب.

وجاء الفضل بيحيى فحبسه عند أخيه جعفر حسبما هو مذكور في أخباره.

وفي سنة تسع وثمانين ومائة كتب الرشيد وهو بالري كتاب الأمان لسروين بن أبي قارن وونداهرمز بارخشان صاحب الديلم، وبعث بالكتاب مع حسن الخادم إلى طبرستان فقدم بارخشان وونداهرمز وأكرمهما الرشيد وأحسن إليهما، وضمن ونداهرمز الطاعة والخراج عن سروين بن أبي قارن.

ثم مات سروين وقام مكانه ابنه شهريار، ثم زحف سنة إحدى وثمانين ومائة عبد الله بن أبي خرداذبه وهو عامل طبرستان إلى البلاد والسيزر من بلاد الديلم، فافتتحها وافتتح سائر بلاد طبرستان، وأنزل شهريار بن سروين عنها.

وأشخص مازيار بن قارن وونداهرمز إلى المأمون وأسر أبا ليلى ثم مات شهريار بن سروين سنة عشر ومائتين وقام مكانه ابنه سابور، فحاربه مازيار بن قارن بن ونداهرمز وأسره، ثم قتله.

ثم انتقض مازيار على المعتصم وحمل الديلم وأهل تلك الأعمال على بيعته كرهاً، وأخذ رهنهم وجبى خراجهم، وخرب أسوار آمل وسارية، ونقل أهلها إلى الجبال وبنى على حدود جرجان سوراً من طميس إلى البحر مسافة ثلاثة أميال وحصنه بخندق، وكانت الأكاسرة بنته سداً على طبرستان من الترك.

وقد نقل أهل جرجان إلى نيسابور وأملى له في انتقاضه الأفشين مولى المعتصم وكبير دولته، طمعه في ولاية خراسان بما كان يضطغن ابن طاهر صاحب خراسان، فدس إليه بذلك كتاباً ورسالة حتى امتعض.

وجهز عبد الله بن طاهر العساكر لحربه مع عمه الحسن ومولاه حيان بن جبلة.

وسرح المعتصم العساكر يردف بعضها بعضاً حتى أحاطوا بجباله من كل ناحية، وكان قارن بن شهريار أخو مازيار على سارية فدس إلى قواد ابن طاهر بالرجوع من كل ناحية، وكان قارن قد أتى إلى الطاعة والنزول لهم عن سارية على أن يملكوه جبال آبائه، وأسجل له ابن طاهر بذلك، فقبض على عمه قارن في جماعة من قواد مازيار، وبعث بهم فدخل قواد ابن طاهر جبال قارن وملكوا سارية.

ثم استأمن إليهم قوهيار أخو مازيار ووعدهم بالقبض على أخيه على أن يولوه مكانه، فأسجل له ابن طاهر بذلك، فقبض على أخيه مازيار، وبعث به إلى المعتصم ببغداد فصلبه، واطلع منه على دسيسة الأفشين مولاه فنكبه وقتله.

ووثب مماليك مازيار بقوهيار فثاروا منه بأخيه وفروا إلى الديلم، فاعترضتهم العساكر وأخذوا جميعاً، ويقال: إن الذي كان غدر بمازيار هو ابن عمه، كان يضطغن عليه عزله عن بعض جبال طبرستان، وكان مولاه ورأيه عن رأيه.

ثم تلاشت الدعوة العباسية بعد المتوكل وتقلص ظلها.

واستبد أهل الأطراف بأعمالهم وظهرت دعاة العلوية في النواحي إلى أن ظهر بطبرستان أيام المستعين الحسن بن زيد الداعي العلوي من الزيدية، وقد مر ذكره.

وكان على خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، وقد ولى على طبرستان عمه سليمان بن عبد الله بن طاهر فكان محمد بن أوس ينوب عنه مستبداً عليه فأساء السيرة، وانتقض لذلك بعض عمال أهل الأعمال ودعوا جيرانهم الديلم إلى الانتقاض.

وكان محمد بن أوس قد دخل بلادهم أيام السلم وأثخن فيها بالقتل والسبي، فلما استنجدهم أولئك الثوار لحرب سليمان ونائبه محمد بن أوس نزعوا لإجابتهم واستدعوا الحسن بن زيد من مكانه، وبايعوه جميعاً وزحفوا به إلى آمل فملكوها.

ثم ساروا إلى سارية فهزموا عليها سليمان وملكوها.

ثم استولى الحسن الداعي على طبرستان وكانت له ولأخيه

بعده الدولة المعروفة، كما هو معروف في أخبارهم، أقامت قريباً من أربعين سنة، ثم انقرضت بقتل محمد بن زيد.

ودخل الديلم الحسن الأطروش من ولد عمر بن زين العابدين وكان زيدي المذهب فنزل فيما وراء السعيد دوى إلى آمل، ولبث في الديلم ثلاث عشرة سنة وملكهم يومئذ حسان بن وهشوذان وكان يدعوهم إلى الإسلام ويأخذ منهم العشر ويدافع عنهم ملكهم ما استطاع، فأسلم على يديه منهم خلق كثير، وبنى لهم المساجد، وزحف بهم إلى قزوين فملكها، وسالوس من ثغور المسلمين فأطاعوه، وملك آمل ودعاهم إلى غزو طبرستان وهي في طاعة ابن سامان فأجابوه وساروا إليها سنة إحدى وثلاثمائة.

وبرز إليها عاملها ابن صعلوك فهزمه الأطروش واستلحم سائر أصحابه، ولحق ابن صعلوك بالري، ثم سار إلى بغداد، واستولى الأطروش على طبرستان وأعمالها، وقد ذكرنا دولته وأخبارها في دول العلوية، وكان استظهاره على أمره بالديلم وقواده في حروبه وولاته على أعماله منهم.

ثم قتله جيوش السعيد بن سامان سنة أربع وثلاثمائة، ودال الأمر بين عقبه قواد الديلم كما هو مذكور في أخبارهم.

الخبر عن دولة الديلم وتغلبهم على أعمال الخلفاء بفارس والعراقين

كان للديلم جماعة من القواد بهم استظهر الأطروش وبنوه على أمرهم: منهم سرخاب بن وهشوذان أخو حسان، وهو معدود في ملوكهم، وكان صاحب جيش أبي الحسين بن الأطروش.

ثم أخوه علي، ولاه المقتدر على أصفهان.

ثم ليلى بن النعمان من ملوكهم أيضاً وكان قائداً للأطروش وولاه بعده صهره الحسن المعروف بالداعي الصغير على جرجان.

ثم ماكان بن كالي، وهو ابن عم سرخاب وحسان ابني وهشوذان، وولاه أبو الحسين بن الأطروش مدينة أستراباذ وأعمالها.

ثم كان دون هؤلاء جماعة أخرى من القواد فمنهم من أصحاب ماكان بن كالي أسفار بن شيرويه ومرداويج بن زيار بن بادر وأخوه وشمكير ولشكري.

ومن أصحاب مرداويج بنو بويه الملوك الأعاظم ببغداد والعراقين وفارس.

ولما تلاشت دولة العلوية واستفحل هؤلاء القواد بالاستبداد على أعقابهم في طبرستان وجرجان، وكانت خراسان عند تقلص الدولة العباسية على الأطراف قد غلب عليها الصفار وملكها من يد بني طاهر.

ثم نازعه فيها بنو سامان والداعي العلوي فأصبحت مشاعاً بينهم، ثم انفرد بها ابن سامان كل منهم يعطي طاعة معروفة للخلفاء، ومركز ابن سامان وراء النهر وخراسان في أطراف مملكتهم.

وزاد تقلص الخلافة عما وراءها، فتطاول ملوك الديلم هؤلاء قواد الدولة العلوية بطبرستان إلى ممالك البلاد، وتجافوا عن أعمال ابن سامان لقوة سورته واستفحال ملكه.

وساروا في الأرض يرومون الملك وانتشروا في النواحي، وتغلب كل منهم على ما دفع إليه من البلاد.

وربما تنازعوا بعضها فكانت لهم دون طبرستان وجرجان بلاد الري، وظفر بنو بويه منهم بملك فارس والعراقين، وحجر الخلفاء ببغداد فذهبوا بفضل القديم والحديث، وكانت لهم الدولة العظيمة التي باهى الإسلام بها سائر الأمم حسبما نذكر ذلك كله في أخبار دولتهم.

أخبار ليلى بن النعمان ومقتله

كان ليلى بن النعمان من قواد الديلم وكان أولاد الأطروش ينعتونه في كتابهم إليه المؤيد لدين اللّه المنتصر لأولاد رسول اللّه ﷺ.

وكان كريماً شجاعاً قد ولاه الحسن بن القاسم الداعي الصغير على جرجان بعد الأطروش سنة ثمان وثلاثمائة، فسار من جرجان إلى الدامغان وهي في طاعة ابن سامان، وعليها مولاه قراتكين، فبرزوا إليه وقاتلوه فهزمهم وأثخن فيهم، وعاد إلى جرجان، فابتنى أهل الدامغان حصناً يمتنعون به.

وسار قراتكين إلى ليلى فبرز إليه من جرجان وقاتله على عشرة فراسخ فانهزم قراتكين وأثخن في عسكره، وسار إليه فارس مولى قراتكين فأكرمه وزوجه أخته وكثرت أجناده، وضاقت أمواله فأغراه أبو حفص القاسم بن حفص بنيسابور، وأمره الحسن الداعي بالمسير إليها فسار وملكها آخر ثمان وثلاثمائة وخطب بها للداعي.

وأنفذ السعيد نصر بن سامان عساكره من بخارى مع قواده حمويه بن علي ومحمد بن عبد الله البلغمي وأبو حفص بنيسابور وأبو الحسن صعلوك وسيجور الدواني، فقاتلوا ليلى بن النعمان عن طوس وهزموه، فلحق بآمل واختفى فيها، وجاءه بقراخان وأخرجه من الاختفاء وأنفذ بالخبر إلى حمويه، فأمره بقتله وتأمين أصحابه، فقتل وحمل رأسه إلى بغداد، وذلك في ربيع سنة تسع وثلاثمائة، وبقي فارس غلام قراتكين بجرجان، وعاد قراتكين إلى جرجان فاستأمن إليه مولاه فارس فقتله قراتكين وانصرف عن جرجان.

أخبار سرخاب بن وهشوذان ومهلكه وقيام ماكان بن كالي بمكانه

كان سرخاب بن وهشوذان الديلمي من قواد الأطروش وبنيه، وبايع لأبي الحسن بن الأطروش الناصر بعد مهلك أبيه بطبرستان وأستراباذ وكان صاحب جيشه، ولما انصرف قراتكين عن جرجان بعد مهلك ليلى بن النعمان، سار إليها أبو الحسن بن الأطروش وسرخاب فملكوها، وأنفذ السعيد نصر بن سامان سنة عشر سيجور الدواني في أربعة آلاف فارس لقتاله، ونزل على فرسخين من جرجان وحاصرها أشهراً، ثم برزوا إليه، وأكمن لهم سيجور كميناً فتباطأ الكمين وانهزم سيجور واتبعه سرخاب.

ثم خرج الكمين بعد حين وانهزم أبو الحسن إلى أستراباذ وترك جرجان، واتبعه سرخاب في الفل بمخلفه ومخلف أصحابه ورجع سيجور إلى جرجان فملكها.

ثم مات سرخاب ولحق ابن الأطروش بسارية فأقام بها واستخلف ماكان بن كالي وهو ابن عم سرخاب، فسار محمد بن عبيد الله البلغمي وسيجور لحصاره وأقاموا عليه طويلاً.

ثم بذلوا له مالاً على أن يخرج لهم عنها فتقوم لهم بذلك حجة عند ابن سامان ثم يعود ففعل ذلك، وخرج إلى سارية ثم نزل إلى الشمانية عن أستراباذ، وولوا عليها بقراخان فعاد إليها ماكان وملكها ولحق بقراخان بأصحابه في نيسابور.

بداية أسفار بن شيرويه وتغلبه على جرجان ثم طبرستان

كان أسفار هذا من الديلم من أصحاب ماكان بن كالي، وكان سيئ الخلق صعب العشرة وأخرجه ماكان من عسكره فاتصل ببكر بن محمد بن اليسع في نيسابور وهو عامل عليها من قبل ابن سامان فأكرمه واختصه في العساكر سنة خمس عشرة وثلاثمائة لفتح جرجان وكان ما كان بن كالي يومئذ بطبرستان، وولى على جرجان أبا الحسن بن كالي، واستراب بأبي علي بن الأطروش فحبسه بجرجان فجعله عنده في البيت، وقام ليلة إليه ليقتله فأظفر الله العلوي به وقتله، وتسرب من الدار وأرسل من الغد إلى جماعة من القواد فجاؤوا إليه وبايعوه وألبسوه القلنسوة، وولى على جيشه علي بن خرشية وكاتبوا أسفار بن شيرويه بذلك وهو في طريقه إليهم، واستدعوه فاستأذن بكر بن محمد وسار إليهم، وسار علي بن خرشية في القيام بأمر جرجان بدعوة العلوي الذي معهم وضبط ناحيتها.

وسار إليهم ما كان بن كالي في العساكر من طبرستان وقاتلوه فهزموه واتبعوه إلى طبرستان فملكوها من يده وقاموا بها.

ثم هلك أبو علي الأطروش وعلي بن خرشية صاحب الجيش وانفرد أسفار بطبرستان وسار بكر بن محمد بن اليسع إلى جرجان فملكها وأقام فيها دعوة نصر بن سامان.

ثم رجع ماكان إلى طبرستان وبها أسفار فحاربه وغلبه، وملك طبرستان من يده ولحق أسفار بجرجان فأقام بها عند بكر بن اليسع إلى أن توفي بكر، فولاه السعيد على جرجان سنة خمس عشرة وثلاثمائة ثم ملك نصر بن سامان الري بولاية المقتدر وولى عليها محمد بن علي بن صعلوك فطرقه المرض في شعبان سنة ست عشرة وثلاثمائة.

وكاتب الحسن الداعي أسفار ملك جرجان بولاية نصر بن سامان، فاستدعى مرداويج بن زيار من ملوك الجبل وجعله أمير جيشه وسار إلى طبرستان فملكها.

استيلاء أسفار على الري واستفحال أمره

لما استولى أسفار على طبرستان ومرداويج معه، وكان يومئذ على الري وملكها من يد صعلوك كما ذكرناه.

واستولى على قزوين وزنجان وأبهر وقم والكرخ ومعه الحسن بن القاسم الداعي الصغير وهو قائم بدعوته.

فلما خالفه أسفار إلى طبرستان وملكها واستضافها إلى جرجان سار إليه ماكان والداعي والتقوا بسارية واقتتلوا، وانهزم ماكان وقتل الداعي، وكانت هزيمته بتخاذل الديلم عنه فإن الحسن

كان يشتد عليهم في النهي عن المنكر فنكروه، واستقدموا خال مرداويج من الجبل واسمه هزرسندان وكان مع أحمد الطويل بالدامغان، فمكروا بالداعي واستقدامه للاستظهار به، وهم يضمرون تقديمه عوض ماكان، ونصب أبي الحسن بن الأطروش عوض الحسن الداعي، ودس إليه بذلك أحمد الطويل صاحب الدامغان بعد موت صعلوك، فحذرهم حتى إذا قدم هزرسندان أدخله مع قواد الديلم إلى قصره بجرجان، ثم قبض عليهم وقتلهم جميعاً، وأمر أصحابه بنهب أموالهم، فامتعض لذلك سائر الديلم وأقاموا على مضض حتى إذا كان يوم لقائه أسفار خذلوه فقتل.

وفر ماكان واستولى أسفار على ما كان لهم من الري وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرخ واستضافها إلى طبرستان وجرجان، وأقام فيها دعوة السعيد بن سامان.

ونزل سارية واستعمل على الري هارون بن بهرام صاحب جناح، وكان يخطب فيها لأبي جعفر العلوي، فاستدعاه إليه وزوجه من آمل.

وجاء أبو جعفر لوليمته مع جماعة من العلويين فكبسهم أسفار وبعث بهم إلى بخارى فحبسهم بها إلى أن خلصوا مع يحيى أخي السعيد، وكانوا في فتية حسبما ذكرناه.

ولما فرغ أسفار من الري تطاول إلى قلعة الموت ليحصن بها عياله وذخيرته، وكانت لسياه جشم بن مالك الديلمي ومعناه الأسود العين، فاستقدمه أسفار وولاه قزوين، وساله في ذلك فأجابه فنقل عياله إليها وسرب الرجال إليهم لخدمتم حتى كملوا مائة.

ثم استدعاه فقبض عليه، وثار أولئك بالقلعة فملكوها، وكان في طريقه إلى الري استأمن إليه صاحب جبلي نهاوند وقم ابن أمير كان فملكها، ومر بسمنان فامتنع منه صاحبها محمد بن جعفر، وبعث إليه من الري بعض أصحابه فاستأمن إليه وخدعه حتى قتله وتدلى من ظهر القلعة.

ثم استفحل أمر أسفار وانتقض على السعيد بن سامان، وأراد أن يتتوج ويجلس على سرير الذهب، واعتزم على حرب ابن سامان والخليفة، فبعث المقتدر العساكر إلى قزوين مع هارون بن غريب الحال فقاتله أسفار وهزمه.

ثم سار بن سامان إلى نيسابور لحربه، فأشار على أسفار وزيره مطرف بن محمد الجرجاني بمسالمته وطاعته، وبذل الأموال له فقبل إشارته.

وبعث بذلك إلى ابن سامان وتلطف أصحابه في رجوعه إلى ذلك فرجع وشرط عليه الخطبة والطاعة فقبل، وانتظم الحال بينهما ورجع إلى السطوة بأهل الري.

ولما كانوا عابوا عليه عسكر القتال ففرض عليهم الأموال وعسف بهم، وخص أهل قزوين بالنهب لما تولوا من ذلك، وسلط عليهم الديلم فضاقت بهم الأرض.

مقتل أسفار وملك مرداويج

كان مرداويج بن زيار من قواد أسفار وكان قد سئم عسفه وطغيانه كما سئمه الناس، وبعثه أسفار إلى صاحب سميران الطرم الذي ملك أذربيجان بعد ذلك يدعوه إلى طاعته، ففاوضه في أمر أسفار وسوء سيرته في الناس، واتفقا على الوثوب عليه به فأجابوه وفيهم مطرف بن محمد وزيره فسار هو وسلار إليه، وبلغه الخبر فثار به الجند فهرب إلى الري، وكتب إلى ماكان بن كالي بطبرستان يستألفه على أسفار فسار إليه ماكان فهرب أسفار من بيهق إلى بست، ثم دخل مفازة الري قاصداً قلعة الموت التي حصن بها أهله وذخيرته.

وتخلف عنه بعض أصحابه في المفازة، وجاء إلى مرداويج يخبره، فسار إليه وتقدم بين يديه بعض القواد فلقي أسفار وساله عن قواده، فأخبره أن مرداويج قتلهم فسر بذلك.

ثم حمله القائد إلى مرداويج فأراد أن يحبسه بالري فحذره بعض أصحابه غائلته، فأمر بقتله ورجع إلى الري ولما قتل أسفار تنقل مرداويج في البلاد يملكها، فملك قزوين، ثم الري، ثم همذان، ثم كنكور، ثم الدينور، ثم دجرد، ثم قم، ثم قاشان، ثم أصفهان، ثم جرباد، واستفحل ملكه وعتا وتكبر، وجلس على سرير الذهب، وأجلس أكابر قواده على سرير الفضة، وتقدم لعسكره بالوقوف على البعد منه، ونودي بالخطاب بينهم وبين حاجبه.

استيلاء مرداويج على طبرستان وجرجان

قد ذكرنا أن الألفة الواقعة بين مرداويج وماكان وتظاهرهما على أسفار حتى قتل وثبت مرداويج في الملك، واستفحل أمره فتطاول إلى ملك طبرستان وجرجان.

وسار إليهما سنة ست عشرة وثلاثمائة فانهزم ماكان أمامه واستولى مرداويج على طبرستان، وولى عليها اسفهسلان، وأمر على عسكره أبا القاسم، وكان حازماً شجاعاً.

ثم سار إلى جرجان فهرب عامل ماكان عنها وملكها مرداويج، وولى عليها صهره أبا القاسم المذكور خليفة عنه، ورجع إلى أصفهان ولحق أبو القاسم وهزمه، فرجع السائر إلى الديلم ولحق ماكان بنيسابور، واستمد أبا علي بن المظفر صاحب جيوش ابن سامان، فسار معه في عساكره إلى جرجان فهزمهما أبو القاسم ورجعا إلى نيسابور.

ثم سار ماكان إلى الدامغان فدفعه عنها أبو القاسم فعاد إلى خراسان.

استيلاء مرداويج على همذان والجبل وحروبه مع عساكر المقتدر

لما ملك مرداويج بلاد الري أقبلت الديلم إليه، فأفاض فيهم العطاء، وعظمت عساكره فلم تكفه جباية أعماله، وامتدت عينه إلى الأعمال التي تجاوره، فبعث إلى همذان سنة تسع عشرة جيشاً كثيفاً مع ابن أخته،، وبها محمد بن خلف وعسكر المقتدر، فاقتتلوا وأعان على همذان عسكر الخليفة فظفروا بعسكر مرداويج، وقتلوا ابن أخته، فسار إليهم مرداويج من الري وهرب عسكر الخليفة من همذان ودخلها عنوة، فأثخن فيهم واستلحمهم وسباهم، ثم أمنهم، وزحفت إليه عساكر المقتدر مع هارون بن غريب الخال فهزمهم بنواحي همذان، وملك بلاد الجبل وما وراء همذان، وبعث قائداً من أصحابه إلى الدينور ففتحها عنوة، وبلغت عساكره نحو حلوان، وامتلأت أيديهم من الذهب والسبي ورجعوا.

خبر لشكري في أصفهان

كان لشكري من الديلم ومن أصحاب أسفار، واستأمن بعد قتله إلى المقتدر، وصار في جند هارون بن غريب الخال.

ولما انهزم هارون أمام مرداويج سنة تسع عشرة وثلاثمائة، أقام في قرقلين ينتظر مدد المقتدر، وبعث لشكري هذا إلى نهاوند يجبيه بمال منها، فتغلب عليها وجمع بها جنداً، ثم مضى إلى أصفهان في منتصف السنة وبها أحمد بن كيغلغ فحاربه وهزمه، وملك أصفهان، ودخل إليها عسكره، وأقام هو بظاهرها، فرأى لشكري فقصده يظنه من بعض جنده أي أحمد، فلما تراءى دافع أحمد بن كيغلغ عن نفسه فقتل وهرب أصحابه ورجع ابن كيغلغ إلى أصفهان.

استيلاء مرداويج على أصفهان

ثم بعث مرداويج عسكراً آخر إلى أصفهان سنة تسع عشرة فملكوها وجددوا له مساكن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف فنزلها وعكسره يومئذ أربعون أو خمسون ألفاً، ثم بعث عسكراً إلى الأهواز وخوزستان فملكوها وجبوا أعمالها، وبعث إلى المقتدر وضمن هذه البلاد بمائتي ألف دينار في كل سنة فقررت عليه، وأقطعه المقتدر همذان وماه الكوفة.

قدوم وشمكير على أخيه مرداويج

وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة بعث مرداويج رسوله من الجند ليأتيه بأخيه وشمكير، فبعث إليه وأبلغه رسالة أخيه وأعلمه بمقامه في الملك، فاستبعد ذلك، ثم استغربه ونكر على أخيه مشايعته للمسودة، لأن الديلم والجيل كانوا شيعة للعلوية بطبرستان، فلم يزل الرسول به حتى سار به إلى أخيه، فخرج به إلى قزوين وألبسه السواد بعد مراوضة.

وقدم على أخيه بدوياً حافياً مستوحشاً فلم يكن إلا أن رهف الملك أعطافه فأصبح أرق الناس حاشية وأكثر الناس معرفة بالسياسة.

خبر مرداويج مع ابن سامان على جرجان

كان أبو بكر المظفر صاحب جيوش ابن سامان بخراسان قد غلب على جرجان وانتزعها من ملكه مرداويج، فلما فرغ مرداويج من أمر خوزستان والأهواز رجع إلى الري وسار منها إلى جرجان، فخرج ابن المظفر عن جرجان إلى نيسابور وبها يومئذ السعيد نصر بن سامان، فسار لمدافعة مرداويج عن جرجان، وكاتب محمد بن عبد الله البلغمي من قواد ابن سامان مطرف بن محمد وزير مرداويج واستماله.

وشعر بذلك فقتل وزيره وبعث إليه البلغمي يعذله في قصد جرجان، ويطوق ذلك بالوزير مطرف، ويذكره حقوق السعيد بن سامان قبله وقصور قدرته عنه، ويشير عليه بالنزول له عن جرجان وتقرير المال عليه بالري، فقبل مرداويج إشارته وعاد عن جرجان وانتظم الحال بينهما.

بداية أمر بني بويه

وكانوا إخوة ثلاثة أكبرهم عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة الحسن، ومعز الدولة أبو الحسن أحمد.

لقبهم بهذه الألقاب الخلفاء عندما ملكوا الأعمال، وقلدوهم إياها على ما نذكر بعد، وهم الذين تولوا حجر الخلفاء بعد ذلك ببغداد كما يأتي.

وأبوهم أبو شجاع بويه بن فناخسر وللناس في نسبهم خلاف: فأبو نصر بن ماكولا ينسبهم إلى كوهي بن شيرزيك الأصغر ابن شيركوه بن شيرزيك الأكبر ابن سران شاه بن سيرقند بن سيسانشاه بن سير بن فيروز بن شروزيل بن سنساد بن هراهم جور، وبقية النسب مذكور في ملوك الفرس.

وابن مسكويه قال: يزعمون أنهم من ولد يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس.

والحق أن هذا النسب مصنوع تقرب إليهم به من لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود، ولو كان نسبهم ذا خلل في الديلم لم تكن لهم تلك الرياسة عليهم، وإن كانت الأنساب قد تتغير وتخفى وتنتقل من شعب إلى شعب ومن قوم إلى قوم فإنما هو بطول الأعصار وتناقل الأجيال واندراس الأزمان والأحقاب.

وأما هؤلاء فلم يكن بينهم وبين يزدجرد وانقطاع الملك من الفرس إلا ثلاثمائة سنة، فيها سبعة أجيال أو ثمانية أجيال ميزت فيها أنسابهم وأحصيت أعقابهم فكيف يدرك مثل هذه الأنساب الخفاء في مثل هذه الأعصار.

وإن قلنا كان نسبهم إلى الفرس ظاهراً منع ذلك من رياستهم على الديلم فلا شك في هذه التقادير في ضعة هذا النسب والله أعلم.

وأما بدايتهم فإنهم كانوا من أوسط الديلم نسباً وحالا.

وفي اخبارهم أن اباهم أبا شجاع كان فقيراً، وانه راى في منامه أنه يبول فخرج من ذكره نار عظيمة فاستضاءت الدنيا بها، فاستطالت وارتفعت إلى السماء، ثم افترقت ثلاث شعب ومن كل شعب عدة شعب فاستضاءت الدنيا بها والناس خاضعون لتلك النيران.

وإن عابراً عبر له الرؤيا بأنه يكون له ثلاثة أولاد يملكون الأرض، ويعلو ذكرهم في الآفاق كما علت النار، ويولد لهم ملوك بقدر الشعب.

وأن أبا شجاع استبعد ذلك واستنكره لما كانوا عليه من توسط الحال في المعيشة، فرجع المعبر إلى السؤال عن وقت مواليدهم فأخبروه بها، وكان منجماً فعدل طوالعهم وقضى لهم جميعاً فوعدوه وانصرف.

ولما خرج قواد الديلم لملك البلاد وانتشروا في الأعمال مثل ليلى وماكان وأسفار ومرداويج خرج مع كل واحد منهم جموع من الديلم رؤوس وأتباع، وخرج بنو أبي شجاع هؤلاء في جملة قواد ماكان، فلما اضطرب أمره وغلبه مرداويج عن طبرستان وجرجان مرة بعد مرة لحق آخراً بنيسابور مهزوماً فاعتزم بنو بويه على فراقه واستأذنوه في ذلك، وقالوا إنما نفارقك تخفيفاً عليك فإذا صلح أمرك عدنا إليك.

وساروا إلى مرداويج، وتبعتهم جماعة من قواد ماكان فقبلهم مرداويج، وقلد كل واحد منهم ناحية من نواحي الجبل، وقلد علي بن بويه كرمس وكتب لهم العهود بذلك.

وساروا إلى الري وبها يومئذ أخوه وشمكير ومعه وزيره الحسين بن محمد العميد والد أبي الفضل.

ثم بدا لمرداويج في ولاية هؤلاء القواد المستأمنة فكتب إلى أخيه وشمكير ووزيره العميد بردهم عن تلك الأعمال.

وكان علي بن بويه قد أسلف عند العميد يداً في بغلة فارهة عرضها للبيع، واستأمنها العميد فوهبها له فرعى له العميد هذه الوسيلة.

فلما قرأ كتاب مرداويج دس إلى ابن بويه بأن يغذ السير إلى عمله فسار من حينه.

وغدا وشمكير على بقية القواد، فاستعاد العهود من أيديهم، وأمر ابن بويه فأشار عليه أصحابه بترك ذلك لما فيه من الفتنة فتركه.

ولاية عماد الدولة بن بويه على كرج وأصفهان

ولما وصل عماد الدولة إلى كرج ضبط أمورها وأحسن السياسة في أهلها وأعمالها، وقتل جماعة من الخرمية كانوا فيها وفتح قلاعهم، وأصاب فيها ذخائر كثيرة فأنفقها في جنده فشاع ذكره وحمدت سيرته، وكتب أهل الناحية إلى مرداويج بالنبأ فغص، وجاء من طبرستان إلى الري وأطلق مالاً لجماعة من قواده على كرج فاستمالهم عماد الدولة وأحسن إليهم، فأقاموا عنده.

واستراب مرداويج فكتب إلى عماد الدولة في استدعائهم، فدافعه وحذرهم منه فحذروا.

ثم استأمن إليه سيراذ من أعيان قواد مرداويج، فكشف به جمعه وسار إلى أصفهان وبها المظفر بن ياقوت من قبل القاهر، في عشرة آلاف مقاتل، وعلى خراجها أبو علي بن رستم، فاستأذنهما في الانحياز إليهما، والدخول في طاعة الخليفة، فأعرضا عنه، ومات خلال ذلك ابن رستم وبرز ابن ياقوت من أصفهان لمدافعته، واستأمن إليه من كان مع ابن ياقوت من الجيل والديلم، ثم لقيه عماد الدولة في تسعمائة فهزمه وملك أصفهان.

استيلاء ابن بويه على أرجان وأخواتها ثم على شيراز وبلاد فارس

ولما بلغ خبر أصفهان إلى مرداويج اضطرب، وكتب إلى عماد الدولة بن بويه يعاتبه ويستميله، ويطلب منه إظهار طاعته، ويمده بالعساكر في البلاد والأعمال، ويخطب له فيها.

وجهز له أخاه وشمكير في جيش كثيف ليكبسه وهو مطمئن إلى تلك الرسالة، وشعر ابن بويه بالمكيدة فرحل عن أصفهان بعد أن جباها شهرين، وسار إلى أرجان وكان أبو بكر بن ياقوت من أصفهان والياً عليها، ففصل عنها.

ولما ملك ابن بويه أرجان كاتبه أهل شيراز يستدعونه إليهم، وعليهم يومئذ ياقوت عامل الخليفة، وثقلت وطأته عليهم وكثر ظلمه، فاستدعوا ابن بويه وخام عن المسير إليهم، فأعادوا إليه الكتاب بالحث على ذلك، وأن مرداويج طلب الصلح من ياقوت فعاجل الأمر قبل أن يجتمعا، فسار إلى النوبندجان في ربيع سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وسبقته إليها مقدمة ياقوت في ألفين من شجعان قومه.

فلما وافاهم ابن بويه انهزموا إلى كرمان وجاءهم ياقوت هنالك في جميع أصحابه.

وأقام عماد الدولة بالنوبندجان، وبعث أخاه ركن الدولة الحسن إلى كازرون وغيرها من أعمال فارس، فلقي هنالك عسكراً لياقوت فهزمهم وجبى تلك الأعمال ورجع إلى أخيه بالأموال.

ثم وقعت المراسلة بين مرداويج وياقوت في الصلح وسار وشمكير إليه عن أخيه فخشيهما عماد الدولة وسار من نوبندجان إلى اصطخر، ثم إلى البيضاء وياقوت في اتباعه.

وسبقه ياقوت إلى قنطرة على طريق كرمان فصده عن عبوره، واضطره للحرب، فتحاربوا واستأمن جماعة من أصحاب ابن بويه إلى ياقوت فقتلهم، فخشيه الباقون واستماتوا.

وقدم ياقوت أمام عسكره رجاله بقوار النفط، فلما أشعلوها وقذفت أعادتها الريح عليهم فعلقت بهم فاضطربوا، وخالطهم أصحاب ابن بويه في موقفهم وكانت الدبرة على ياقوت.

ثم صعد إلى ربوة ونادى في أصحابه بالرجوع، فاجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارس، وأراد الحملة عليهم لاشتغالهم بالنهب ففطنوا له، وتركوا النهب وقصدوه فانهزم واتبعوهم فأثخنوا فيهم.

وكان معز الدولة أحمد بن بويه من أشد الناس بلاء في هذه الحرب، ابن تسع عشرة سنة لم يطر شاربه.

ثم رجعوا إلى السواد فنهبوه وأسروا جماعة منهم، فأطلقهم ابن بويه وخيرهم، فاختاروا المقام عنده فأحسن إليهم، ثم سار إلى شيراز فأمنها ونادى بالمنع من الظلم، واستولى على سائر البلاد وعرفوه بذخائر في دار الإمارة وغيرها من ودائع ياقوت وذخائر بني الصفار، فنادى في الجند بالعطاء وأزاح عللهم، وامتلأت خزائنه، وكتب إلى الراضي وقد أفضت إليه الخلافة، وإلى وزيره أبي علي بن مقلة تقرير البلاد عليه بألف ألف درهم فأجيب إلى ذلك، وبعثوا إليه بالخلع واللواء، وكان محمد بن ياقوت قد فارق أصفهان عند خلع القاهر وولاية الراضي، وبقيت عشرين يوماً دون أمير، فجاء إليها وشمكير وملكها، فلما وصل الخبر إلى مرداويج باستيلاء ابن بويه على فارس سار إلى أصفهان للتدبير عليه، وبعث أخاه وشمكير إلى الري.

استيلاء ماكان بن كالي على الري

قد ذكرنا في دولة بني سامان أن أبا علي محمد بن الياس كان سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة بكرمان منتقضاً على السعيد، فبعث إليه في هذه السنة جيشاً كثيفاً فاستولى على كرمان، وأقام فيها الدعوة لابن سامان، وكان أصل محمد بن الياس من أصحاب السعيد فسخطه وحبسه ثم أطلقه بشفاعة البلغمي.

وبعث مع صاحب خراسان محمد بن المظفر إلى جرجان حتى إذا خرج أخوه السعيد من محبسهم، وبايعوا ليحيى منهم، كان محمد بن الياس معهم حتى تلاشى أمرهم، ففارقه ابن الياس من نيسابور إلى كرمان فاستولى عليها إلى هذه الغاية فأزاله عنها ماكان ولحق بالدينور وأقام ماكان والياً بكرمان بدعوة بني سامان.

مقتل مرداويج وملك أخيه وشمكير من بعده

لما استفحل أمر مرداويج كما قلنا عتا وتجبر وتتوج بتاج مرصع على هيئة تاج كسرى، وجلس على كرسي الذهب وأجلس أكابر قواده على كراسي الفضة، واعتزم على قصد العراق، وبنى المدائن وقصور كسرى وأن يدعى بشاه.

وكان له جند من الأتراك، كان كثير الإساءة إليهم، ويسميهم الشياطين والمردة فثقلت وطأته على الناس، وخرج ليلة الميلاد من سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، إلى جبال أصفهان وكانوا يسمونها ليلة الوقود لما يضرم فيها من النيران.

فأمر بجمع الحطب على الجبل من أوله إلى آخره أمثال الجبال والتلال، وجمع ألفي طائر من الغربان والحدآت، وجعل النفط في أرجلها ليضرم الجبل ناراً حتى يضيء الليل.

واستكثر من أمثال هذا اللعب، ثم عمل سماطاً للأكل بين يديه فيه مائة فرس ومائتا بقرة وثلاثة آلاف كبش وعشرة آلاف من الدجاج وأنواع الطير، وما لا يحصى من أنواع الحلوى، وهيأ ذلك كله ليأكل الناس، ثم يقوموا إلى مجلس الشرب والندمان فتشتعل النيران.

ثم ركب آخر النهار ليطوف على ذلك كله بنفسه، فاحتقره وسخط من تولى ترتيبه، ودخل خيمته مغضباً ونام، فأرجف القواد بموته فدخل إليه وزيره العميد وأيقظه، وعرفه بما الناس فيه، فخرج وجلس على السماط وتناول لقمتين ثم ذهب، وعاد إلى مكانه، فقام في معسكره بظاهر أصفهان ثلاثاً لا يظهر للناس.

ثم قام في اليوم الرابع ليعود إلى قصره بأصفهان فاجتمعت العساكر ببابه، وكثر صهيل الخيل ومراحها فاستيقظ لكثرة الضجيج، فازداد غضبه وسأل عن أصحاب الدواب، فقيل إنها للأتراك نزلوا للخدمة وتركوها بين يدي الغلمان، فأمر أن تحل عنها السروج، وتجعل على ظهور الأتراك ويقودونهم إلى اصطبلات الخيل، ومن امتنع من ذلك ضرب، فأمسكوا ذلك على أقبح الهيئات، واصطنعوا ا ذلك عليه، واتفقوا على الفتك به في الحمام.

وكان كورتكين يحرسه في خلواته وحمامه، فسخطه ذلك اليوم وطرده، فلم يتقدم إلى الحرس لمراعاته وداخلوا الخادم الذي يتولى خدمته في الحمام في أن يفقده سلاحه، وكان يحمل خنجراً فكسر حديد الخنجر وترك النصاب لمرداويج، فلم يجد له حداً فأغلق باب الحمام ودعمه من ورائه بسرير الخشب الذي كان صاعداً عليه، فصعدوا إلى السطح وكسروا الجامات ورموه بالسهام فانحجر في زوايا الحمام وكسروا الباب عليه وقتلوه.

وكان الذي تولى كبر ذلك جماعة من الأتراك، وهم تورون الذي صار بعد ذلك أمير الأمراء ببغداد، ويارق بن بقراخان ومحمود بن نيال الترجمان ويحكم الذي ولي إمارة الأمراء قبل تورون.

ولما قتلوه خرجوا إلى أصحابهم فركبوا ونهبوا قصر مرداويج وهربوا.

وكان الديلم والجيل بالمدينة فركبوا في أثرهم فلم يدركوا منهم إلا من وقفت دابته فقتلوهم، وعادوا لنهب الخزائن، فوجدوا العميد قد أضرمها ناراً.

ثم اجتمع الديلم والجيل وبايعوا أخاه وشمكير بن زيار وهم بالري، وحملوا معهم جنازة مرداويج، فخرج وشمكير وأصحابه لتلقيهما على أربع فراسخ حفاة، ورجع العسكر الذي كان بالأهواز إلى وشمكير واجتمعوا عليه، وتركوا الأهواز لياقوت فملكها، وقام وشمكير بملك أخيه مرداويج في الديلم والجيل، وأقام بالري، وجرجان في ملكه.

وكتب السعيد بن سامان إلى محمد بن المظفر صاحب خراسان، وإلى ماكان بن كالي صاحب كرمان بالمسير إلى جرجان والري، فسار ابن المظفر إلى قومس ثم إلى بسطام، وسار ماكان على المفازة إلى الدامغان واعترضه الديلم من أصحاب وشمكير في جيش كثيف فهزموهم ولحق بنيسابور آخر ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وجعلت ولايتها لماكان بن كالي فأقام بها.

وسار أبو علي بن الياس إلى كرمان بعد انصراف ماكان عنها فملكها وصفت له بعد حروب شديدة طويلة مع جيوش السعيد بن سامان، وكان له الظفر آخراً.

وأما الأتراك الذين قتلوا مرداويج فافترقوا في هزيمتهم فرقتين، فسارت فرقة إلى عماد الدولة بن بويه وهم الأقل، وفرقة إلى الجيل مع يحكم وهم الأكثر فجبوا خراج الدينور وغيره.

ثم ساروا إلى النهروان وكاتبوا الراضي في المسير إلى بغداد فأذن لهم واستراب الحجرية بهم، فردهم الوزير ابن مقلة إلى بلد الجيل وأطلق لهم مالاً فلم يرضوا به، فكاتبهم ابن رائق وهو يومئذ صاحب واسط والبصرة فلحقوا به، وقدم عليهم يحكم، فكاتب الأتراك من أصحاب مرداويج فقدم عليه منهم عدة وافرة، واختص يحكم وتولاه ونعته بالرائقي نسبة إليه، وأمره أن يرسمها

في كتابه.

مسير معز الدولة بن بويه إلى كرمان وهزيمته

لما ملك عماد الدولة بن بويه وأخوه ركن الدولة بلاد فارس والجبل، بعثا أخاهما الأصغر معز الدولة إلى كرمان خالصة له، فسار في العسكر إليها سنة أربع وعشرين وثلاثمائة واستولى على السيرجان وكان إبراهيم بن سيجور الدواني قائد ابن سامان يحاصر محمد بن الياس بن اليسع في قلعته هنالك.

فلما بلغه خبر معز الدولة سار من كرمان إلى خراسان، وخرج محمد بن الياس من القلعة التي كان محاصراً بها إلى مدينة قم على طرف المفازة بين كرمان وسجستان فسار إلى جيرفت وهي قصبة كرمان. وجاء رسول علي بن أبي الزنجي المعروف بعلي بن كلونة أمير القفص والبلوص، كان هو وسلفه متغلبين على تلك الناحية ويعطون طاعتهم للأمراء والخلفاء على البعد ويحملون إليهم المال.

فلما جاء رسوله بالمال امتنع معز الدولة من قبوله إلا بعد دخول جيرفت، فلما دخل جيرفت صالحه وأخذ رهنه على الخطبة له.

وكان علي بن كلونة قد نزل بمكان صعب المسلك على عشرة فراسخ من جيرفت، فأشار على معز الدولة بعض أصحابه أن يغدر به ويكبسه ففعل ذلك، وأتى لعلي بن كلونة عيونه بالخبر، فأرصد جماعة لمعز الدولة بمضيق في طريقه، فلما مر بهم سارياً ثاروا به من جوانبه وقتلوا من أصحابه وأسروا وأصابته جراح كثيرة، وقطعت يده اليسرى من نصف الذراع، وأصابع يده اليمنى وسقط بين القتلى، وبلغ الخبر إلى جيرفت فهرب أصحابه منها، وجاء علي بن كلونة فحمله من بين القتلى إلى جيرفت وأحضر الأطباء لعلاجه، وكتب إلى أخيه عماد الدولة يعتذر ويبذل الطاعة فأجابه وأصلحه، وسار محمد بن الياس من سجستان إلى بلد خبابة فتوجه إليه معز الدولة وهزمه وعاد ظافراً، ومر بابن كلونة فقاتله وهزمه وأثخن في أصحابه، وكتب إلى أخيه عماد الدولة يخبره مع ابن الياس وابن كلونة، فبعث قائداً من قواده واستقدمه إليه بفارس فأقام عنده باصطخر إلى أن قدم عليهم أبو عبد الله البريدي منهزماً من ابن رائق ويحكم المتغلبين على الخلافة ببغداد، فبعث عماد الدولة أخاه معز الدولة وجعل له ملك العراق عوضاً عن ملك كرمان كما يذكر بعد.

استيلاء ماكان على جرجان وانتقاضه على ابن سامان

قد ذكرنا انهزام ماكان على جرجان أيام بانجين الديلمي ورجوعه إلى نيسابور، فأقام بها ثم بلغ الخبر بمهلك بانجين بجرجان فاستأذن ماكان محمد بن المظفر في الخروج لاتباع بعض أصحابه هرب عنه وطالبه به عارض الجيش فأذن له، وسار إلى أسفرايين وبعث معه جماعة من عسكره إلى جرجان فاستولى عليها.

ثم أظهر لوقته الانتقاض على ابن المظفر وسار إليه بنيسابور، فتخاذل أصحابه وهرب عنها إلى سرخس، وعاد عنها ماكان خوفاً من اجتماع العساكر عليه.

وذلك في رمضان سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

الخبر عن دولة بني بويه من الديلم المتغلبين على العراقين وفارس والمستبدين على الخلفاء ببغداد من خلافة المستكفي إلى أن صاروا في كفالتهم وتحت حجرهم إلى انقراض دولتهم وأولية ذلك ومصائره

قد تقدم لنا التعريف ببني بويه وذكر نسبهم وهم من قواد الديلم الذين تطاولوا للاستيلاء على أعمال الخلفاء العباسيين، ولما لم يروا عنها مدافعاً ولا لها حامية فتنقلوا في نواحيها، وملك كل واحد منهم أعمالاً منها.

واستولى بنو بويه على أصفهان والري، ثم انعطفوا على بلاد فارس فملكوا أرجان وما إليها.

ثم استولوا على شيراز وأعمالها وأحاطوا بأعمال الخلافة بنواحي بغداد من شرقها وشمالها، وكانت الخلافة قد طرقها الإعلال، وغلب عليها الموالي والصنائع، وقد كان أبو بكر محمد بن رائق عاملاً بواسط، واضطرب حال الراضي ببغداد فاستقدمه وقلده إمارة الجيوش، ونعته أمير الأمراء.

وكان بنو البريدي في خوزستان والأهواز فغصوا به، ووقعت الوحشة بينه وبينهم فبعث ابن رائق بدراً الخرشني ويحكم الذي نزع إليه أتراك مرداويج، فساروا في العسكر لقتال ابن البريدي، واستولوا على الأهواز سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ولحق ابن البريدي بعماد الدولة بن بويه لما ملك العراق، وسهل

عليه أمره.

وذلك عند رجوع أخيه معز الدولة من كرمان وامتناعها عليه كما ذكرناه فبعث معه العساكر.

استيلاء معز الدولة بن بويه على الأهواز

لما لحق أبو عبد الله البريدي بعماد الدولة ناجياً من الأهواز، مستنجداً له، بعث أخاه معز الدولة في العساكر بعد أن أخذ منه ابنيه أبا الحسن محمداً وأبا جعفر الفياض رهناً.

وسار معز الدولة سنة ست وعشرين وثلاثمائة فانتهى إلى أرجان ويحكم جاء للقائهم، وانهزم أمامهم إلى الأهواز فأقام بها، وأنزل بها بعض عسكره في عسكر مكرم، فقاتلوا معز الدولة ثلاثة عشر يوماً ثم انهزموا إلى تستر، فرحل معز الدولة إلى عسكر مكرم، وأنفذ ابن البريدي خليفته إلى الأهواز.

ثم بعث إلى معز الدولة بأن ينتقل إلى السوس، ويبعد عنه فيؤمن له الأهواز فعزله وزيره أبو جعفر الصيمري، وغيره من أصحابه، وأروه أن البريدي يخادعه، فامتنع معز الدولة من ذلك، وبلغ اختلافهم إلى يحكم، فبعث عسكراً من قبله فاستولى على الناس وجند نيسابور وبقية الأهواز بيد ابن البريدي وعسكر مكرم بيد معز الدولة.

وضاق حال جنده وتحدثوا في الرجوع إلى فارس فواعدهم لشهر، وكتب إلى أخيه عماد الدولة بالخبر، فبعث إليه مدداً من العسكر، فعادوا واستولوا على الأهواز.

وسار يحكم من واسط فاستولى على بغداد وقلده الراضي إمارة الأمراء، وهرب ابن رائق فاختفى ببغداد.

انتزاع وشمكير أصفهان من يد ركن الدولة ومسيره إلى واسط ثم استرجاعه أصفهان

قد ذكرنا أن وشمكير المستولي بعد أخيه مرداويج على الري، وكان عماد الدولة استولى على أصفهان ودفعها إلى أخيه ركن الدولة فبعث إليها وشمكير سنة سبع وعشرين وثلاثمائة جيشاً كثيفاً من الري فملكوها من يده وخطبوا فيها لوشمكير.

ثم سار وشمكير إلى قلعة الموت فملكها، ورجع فلحق ركن الدولة بإصطخر، وجاءه هنالك رسول أخيه معز الدولة من الأهواز بأن ابن البريدي أنفذ جيشاً إلى السوس وقتل قائدها من الديلم، وأن الوزير أبا جعفر الصيمري كان على خراجها محتصراً بقلعة السوس، فسار ركن الدولة إلى السوس وهرب عساكر ابن البريدي بين يديه.

ثم سار إلى واسط ليستولي عليها لأنه قد خرج عن أصفهان وليس له ملك يستقل به، فنزل بالجانب الشرقي وسار الراضي ويحكم من بغداد لحربه، فاضطرب أصحابه، واستأمن جماعة منهم لابن البريدي فخام ركن الدولة عن اللقاء، ورجع إلى الأهواز فسار إلى أصفهان، وهزم عسكر وشمكير بها وملكها.

وكان هو وأخوه عماد الدولة بعثا لابن محتاج صاحب خراسان يحرضانه على ماكان ووشمكير، واتصلت بينهم مودة.

مسير معز الدولة إلى واسط والبصرة

كان ابن البريدي بالبصرة وواسط قد صالح يحكم أمير الأمراء ببغداد، وحرضه على المسير إلى الجبل ليرجعها من يد ركن الدولة بن بويه، ويسير هو إلى الأهواز فيرتجعها من يد معز الدولة.

واستمد يحكم فأمده بخمسمائة رجل، وسار إلى حلوان في انتظاره.

وأقام ابن البريدي يتربص به، وينتظر أن يبعد عن بغداد فيهجم هو عليها، وعلم يحكم بذلك فرجع إلى بغداد، ثم سار إلى واسط فانتزعها من يد ابن البريدي، وذلك لسنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وولي الخلافة المتقي، وكان ظل الدولة العباسية قد تقلص حتى قارب التلاشي والاضمحلال وتحكم على الدولة بعد مولاه ابن رائق وابن البريدي الذي كان يزاحمه في التغلب على الدولة، فبعث عساكره من البصرة إلى واسط، فسرح إليه يحكم العساكر مع مولاه تورون فهزمهم، وجاء يحكم على أثره، ولقيه خبر هزيمتهم، فاستقام أمره، وطفق يتصدى في تلك النواحي إلى أن عرض له بعض الأكراد ممن له عنده ثأر وهو منفرد عن عسكره فقتله، وافترق أصحابه فلحق جماعة من الأتراك بالشام، ومقدمهم تورون.

وولي الباقون عليهم يكسك مولى يحكم.

وكان الديلم عند مقتله قد ولوا عليهم باسوار بن ملك بن مسافر بن سلار وسلار جده صاحب شميران الطرم الذي داخل مرداويج في قتل أسفار وملك ابنه محمد بن مسافر بن سلار أذربيجان، فكانت له ولولده بها دولة.

ووقعت الفتنة بين الديلم والأتراك فقتله الأتراك، وولى الديلم مكانه كورتكين، ولحقوا بابن البريدي فزحف بهم إلى بغداد.

ثم تنكروا واتفقوا مع الأتراك على طرده فلحقوا بواسط، واستفحل الديلم وغلبوا الأتراك وقتل كورتكين كثيراً من الديلم، واستبد بإمرة الأمراء ببغداد.

ثم جاء تورون من الشام بابن رائق وهزم كورتكين الديلم وقتل أكثرهم، وانفرد ابن رائق بإمرة الأمراء ببغداد سنة اثنتين وثلاثمائة.

وكان ابن البريدي في هذه الفترة بعد بحكم قد استولى على واسط، فبعث إليه ابن رائق واستوزره ففعل على أن يقيم بمكانه ويستخلف ابن شيرزاد ببغداد، ثم سار إليهم إلى واسط فهرب ابن رائق والمقتفي إلى الموصل، وتخلف عنهم تورون، وعاث أصحاب ابن البريدي في بغداد، فشكا له الناس.

ولما وصل المقتفي ولى ابن حمدان إمرة الأمراء بمكانه، وقصدوا بغداد فهرب، وخالفه تورون إلى المقتفي وابن حمدان وملكوا بغداد.

وسار سيف الدولة أمام ابن البريدي وخرج ناصر الدولة في اتباعه، فنزل المدائن وانكشف سيف الدولة أمام ابن البريدي حتى انتهوا إلى أخيه ناصر الدولة بالمدائن، فأمده ورجع فهزم ابن البريدي وغلبه على واسط فملكها، ولحق ابن البريدي بالبصرة وأقام سيف الدولة بواسط ينتظر المدد ليسير إلى البصرة. وجاءه أبو عبد اللّه الكوفي بالأموال، فشغب عليه الأتراك في طلب المال وثاروا به، ومقدمهم تورون، فهرب إلى بغداد وهم في اتباعه، وكان أخوه قد انصرف إلى بغداد، ثم إلى الموصل فلحق به، ودخل تورون بغداد وولي الأمر بها.

ثم استوحش من المقتفي وتربص مسيره إلى واسط لقتال ابن البريدي، وسار إلى الموصل سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ومعز الدولة بن بويه في أثناء هذا كله مقيم بالأهواز، مطل على بغداد وأعمال الخليفة يروم التغلب عليها، وأخوه عماد الدولة بفارس، وركن الدولة بأصفهان والري، فلما سار المقتفي من الرقة إلى تورون خلعه وسمله ونصب المكتفي.

وقد قدمنا هذه الأخبار كلها مستوعبة في أخبار الدولة العباسية وإنما أعدناها توطئة لاستيلاء بني بويه على بغداد واستبدادهم على الجلالقة.

ثم عاد معز الدولة إلى واسط سنة ثلاث وثلاثين فسار تورون والمستكفي لدفاعه، ففارقها وعاد إلى الأهواز.

استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد واندراج أحكام الخلافة في سلطانه

ثم إن تورون في فاتح سنة أربع وثلاثين عقد الأتراك الرياسة عليهم لابن شيرزاد، وولاه المستكفي إمرة الأمراء في الأرزاق، فضاقت الجبايات على العمال والكتاب والتجار، وامتدت الأيدي إلى أموال الرعايا، وفشا الظلم وظهرت اللصوص، وكبسوا المنازل وأخذ الناس في الجلاء عن بغداد.

ثم استعمل ابن شيرزاد على واصل نيال كوشه، وعلى تكريت الفتح اليشكري فانتقضا، وسار الفتح لابن حمدان فولاه على تكريت من قبله وبدعوته، وبعث نيال كوشه إلى معز الدولة وقام بدعوته.

واستدعاه للملك بغداد فزحف إليها في عساكر الديلم، ولقيه ابن شيرزاد والأكراد فهزمهم، ولحقوا بالموصل وأخفى المستكفي وقدم معز الدولة كاتبه الحسن بن محمد المهلبي إلى بغداد فدخلها، وظهر الخليفة من الاختفاء، وحضر عند المهلبي فبايع له عن معز الدولة أحمد بن بويه، وعن أخويه عماد الدولة وركن الدولة الحسن وولاهم المستكفي على أعمالهم ولقبهم بهذه الألقاب ورسمها على سكته.

ثم جاء معز الدولة إلى بغداد فملكها وصرف الخليفة في حكمه، واختص باسم السلطان، وبعث إليه أبو القاسم البريدي صاحب البصرة فضمن واسط وأعمالها وعقد له عليها.

خلع المستكفي وبيعة المطيع وما حدث في الجباية والإقطاع

وبعد أشهر قلائل من استيلاء معز الدولة على بغداد نمي إليه أن المستكفي يريد الإدالة منه فتنكر له، وأجلسه في يوم مشهود للقاء وافد من أصحاب خراسان، وحضر معز الدولة في قومه وعشيرته، وأمر رجلين من نقباء الديلم بالفتك بالخليفة، فتقدما ووصلاه ليقبلا يد المستكفي، ثم جذباه عن سريره وقاداه ماشياً واعتقلاه بداره، وذلك في منتصف أربع وثلاثين وثلاثمائة فاضطرب الناس وعظم النهب، ونهبت دار الخلافة.

وبايع معز الدولة للفضل بن المقتدر ولقبه المطيع لله،

وأحضر المستكفي فأشهد على نفسه بالخلع، وسلم على المطيع بالخلافة، وسلب الخليفة من معاني الأمر والنهي وصيرت الوزارة إلى معز الدولة يولى فيها من يرى.

وصار وزير الخليفة مقصور النظر على إقطاعه ومقتات داره، وتسلم عمال معز الدولة وجنده من الديلم وغيرهم أعمال العراق وأراضيه ولايةً وإقطاعاً حتى كان الخليفة يتناول الإقطاع بمراسم معز الدولة، وإنما ينفرد بالسرير والمنبر والسكة والختم على الرسائل والصكوك، والجلوس للوفد وإجلال التحية والخطاب.

ويقومون مع ذلك بأوضاع القائم على الدولة وترتيبه.

وكان القائم منهم على الدولة تفرد في دولة بني بويه والسلجوقية بلقب السلطان ولا يشاركه فيه غيره، ومعاني الملك من القدرة والأبهة والعز وتصريف الأمر والنهي حاصل للسلطان دون الخليفة.

وكانت الخلافة حاصلة للعباسي المنصوب لفظاً مسلوبة عنه معنى.

ثم طلب الجند أرزاقهم بأكثر من العادة لتجدد الدولة فاضطر إلى ضرب المكوس، ومد الأيدي إلى أموال الناس، وأقطعت جميع القرى والضياع للجند، فارتفعت أيدي العمال وبطلت الدواوين لأن ما كان منها بأيدي الرؤساء لا يقدرون على النظر فيها، وما كان بأيدي الأتباع خرب بالظلم والمصادرات والحيف في الجباية وإهمال النظر في إصلاح القناطر وتعديل المشارب، وما خرب منها عوض صاحبه عنه بآخر، فيخربه كما يخرب الآخر.

ثم إن معز الدولة أفرد جمعها من المكوس والظلامات وعجز السلطان عن ذخيرة يعدها لنوائبه، ثم استكثر من الموالي ليعتز بهم على قومه، وفرض لهم الأرزاق والأقطاع فحدثت غيرة قومه من ذلك، وآل الأمر إلى المنافرة كما هو الشأن في الدول.

مسير ابن حمدان إلى بغداد وانهزامه أمام معز الدولة

ولما بلغ استيلاء معز الدولة على بغداد، وخلعه المستكفي إلى ناصر الدولة بن حمدان امتعض لذلك وسار من الموصل إلى بغداد في شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فقدم معز الدولة عساكره فأوقع بها ابن حمدان بعكبرا.

ثم سار معز الدولة ومعه المطيع إلى مدافعته ولحق به ابن شيرزاد فاستحثه إلى بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وخالفه معز الدولة إلى تكريت ونهبها، وتسابقوا جميعاً إلى بغداد، فنزل معز الدولة والمطيع بالجانب الشرقي وابن حمدان بالجانب الغربي، فقطع الميرة عن معسكر معز الدولة فغلت الأسعار وعزت الأقوات، ونهب عسكره مراراً فضاق به الأمر واعتزم على العود إلى الاهواز فأمر وزيره أبا جعفر الصيمري بالعبور في العساكر لقتال ابن حمدان فظفر به الصيمري وغنم الديلم أموالهم وظهرهم.

ثم أمن معز الدولة الناس وأعاد المطيع إلى داره في محرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ورجع ابن حمدان إلى عكبرا، وأرسل في الصلح سراً فنكر عليه الأتراك التورونية وهموا بقتله، وفر إلى الموصل ومعه ابن شيرزاد، ثم صالحه معز الدولة كما طلب.

ولما فر عن الأتراك التورونية أعلمهم تكين الشيرازي فقبضوا على من تخلف من أصحابه، وساروا في اتباعه وقبض هو في طريقه على ابن شيرزاد، وتجاوز الموصل إلى نصيبين فملكها تكين، وسار في اتباعه إلى السند، فلحقه هنالك عسكر من معز الدولة كما طلب، وأمده به مع وزيره أبي جعفر الصيمري، وقاتل الأتراك فهزمهم، وسار إلى الموصل هو والصيمري فدفع ابن شيرزاد إلى الصيمري وحمله إلى معز الدولة، وذلك سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

استيلاء معز الدولة على البصرة والموصل وصلحه مع ابن حمدان

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة انتقض أبو القاسم بن البريدي بالبصرة، فجهز معز الدولة الجيش إلى واسط ولقيهم جيش ابن البريدي في الماء وعلى الظهر، فانهزموا إلى البصرة وأسروا من أعيانهم جماعة.

ثم سار معز الدولة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة إلى البصرة ومعه المطيع كارهاً من قتال أبي القاسم البريدي، وسلكوا إليها البرية وبعث القرامطة يعذلون في ذلك معز الدولة، فكتب يتهددهم، ولما قارب البصرة استأمنت، إليه عساكر أبي القاسم، وهرب هو إلى القرامطة فأجاروه وملك معز الدولة البصرة ثم سار هو منها إلى الأهواز ليلقى أخاه عماد الدولة، وترك المطيع وأبا جعفر الصيمري بالبصرة، وانتقض على معز الدولة كوكير من أكابر الديلم، فقاتله الصيمري وهزمه وأسره، وحبسه معز الدولة بقلعة رامهرمز.

ثم لقي أخاه معز الدولة بأرجان في شعبان من السنة، وسلك في تعظيمه وإجلاله من وراء الغاية، وكان عماد الدولة يأمره بالجلوس في مجلسه فلا يفعل.

ثم عاد معز الدولة والمطيع إلى بغداد، ونودي بالمسير إلى الموصل فترددت الرسل من ابن حمدان في الصلح وحمل المال.

ثم سار إليه سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة في شهر رمضان واستولى على الموصل، وأراد الإثخان في بلاد ابن حمدان فجاءه الخبر عن أخيه ركن الدولة بأن عساكر خراسان قصدت جرجان، واضطر إلى الصلح، واستقر الصلح بينهما على أن يعطي ابن حمدان عن الموصل، والجزيرة والشام ثمانية آلاف ألف درهم كل سنة، ويخطب لعماد الدولة ومعز الدولة في بلاده، وعاد إلى بغداد.

استيلاء ركن الدولة على الري ثم طبرستان وجرجان ومسير عساكر ابن سامان إليها

قد تقدم لنا استيلاء ركن الدولة على أصفهان من يد وشمكير حين بعث عساكره مدداً لماكان بن كالي، وكان ركن الدولة وأخوه عماد الدولة بعثا إلى أبي علي بن محتاج قائد بني سامان يحرضانه على ماكان ووشمكير، ويعدانه المظاهرة عليهما، فسار أبو علي إلى وشمكير بالري ولقيه ركن الدولة بنفسه.

واستمد وشمكير ماكان فجاءه في عساكره والتقوا فانهزم وشمكير ولحق بطبرستان، ثم سار بعساكره إلى بلد الجبل فافتتحها واستولى على زنجان وأبهر وقزوين وقم وكرج وهمذان ونهاوند والدينور إلى حدود حلوان، ورتب فيها العمال وجبى أموالها.

ثم وقع خلاف بين وشمكير والحسن بن الفيرزان ابن عم ماكان، واستنجد الحسن بأبي علي بن محتاج فأنجده حتى وقع بينهما صلح، وعاد أبو علي إلى خراسان وصحبه الحسن بن الفيرزان، ولقيه في طريقه رسل السعيد بن سامان، وأمر أبا علي بن محتاج سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بغدر الحسن بأبي علي ونهب سواده وعاد إلى جرجان فملكها وملك معها الدامغان وسمنان، وسار وشمكير من طبرستان إلى الري فاستولى عليها أجمع، وكان في قل من العسكر لفناء رجاله في حروبه مع أبي علي بن محتاج والحسن بن الفيرزان، فتطاول حينئذ ركن الدولة إلى الاستيلاء على الري، وسار إلى الري وقاتل وشمكير فهزمه، فلحق بطبرستان واستولى ركن الدولة على الري، وأجمع مخالصة الحسن بن الفيرزان وزوجه ابنته، وتمسك بمواصلته ومودته واستفحل بذلك ملك بني بويه وامتنع وصارت لهم أعمال الري والجبل وفارس والأهواز والعراق، ويحمل إليهم ضمان الموصل وديار بكر، ثم سار ركن الدولة بن بويه إلى بلاد وشمكير سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومعه الحسن بن الفيرزان مدداً، ولقيهما وشمكير فانهزم أمامهما، ولحق بخراسان مستنجداً بابن سامان، وملك ركن الدولة طبرستان وسار منها إلى جرجان فأطاعه الحسن بن الفيرزان وولاه ركن الدولة عليها، واستأمن إليه قواد وشمكير ورجع إلى أصفهان.

بداية بني شاهين ملوك البطيحة أيام بني بويه

كان عمران بن شاهين من أهل الجامدة وكان يتصرف في الجباية، وحصل منها بيده مال فصرفه وهرب إلى البطيحة ممتنعاً من الدولة.

وأقام هنالك بين القصب والآجام يقتات بسمك الماء وطيره، ويأخذ الرفاق التي تمر به، واجتمع إليه لصوص الصيادين فقوي وامتنع على السلطان وتمسك بطاعة أبي القاسم بن البريدي بالبصرة فقلده حماية الجامدة وحماية البطائح ونواحيها، فعز جانبه وكثر جمعه وسلاحه، واتخذ معاقل على التلال بالبطيحة وغلب على تلك النواحي.

وأهم معز الدولة أمره وبعث وزيره أبا جعفر الصيمري في العساكر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وحصره، وأيقن بالهلاك وما نفس عن مخنقه إلا وصول الخبر بوفاة عماد الدولة بن بويه، ومبادرة الوزير الصيمري إلى شيراز، فعاد عمران إلى حاله وقوي أمره كما يأتي في أخبار دولته.

وفاة عماد الدولة بن بويه وولاية عضد الدولة ابن أخيه على بلاد فارس مكانه

ثم توفي عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه بمدينة شيراز كرسي مملكة فارس في منتصف سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بعد أن كان طلب من أخيه ركن الدولة أن ينفذ إليه ابنه عضد الدولة، فتأخر ليوليه عهده إذ لم يكن له ولد ذكر، فأنفذه إليه ركن الدولة في جماعة من أصحابه لسنة بقيت من حياته.

وركب عماد الدولة للقائه ودخل به إلى داره في يوم مشهود، وأجلسه على السرير وأمر الناس أن يحيوه بتحية الملك.

وكان في قواد عماد الدولة جماعة أكابر لا يستكينون لعماد الدولة فضلاً عن عضد الدولة مكانه بفارس، واختلف عليه أصحابه، فجاء إليه ركن الدولة أبوه من الري بعد أن استخلف عليها علي بن كتامة، وكتب معز الدولة إلى وزيره الصيمري بأن يترك محاربة ابن شاهين ويسير إلى شيراز مدداً لعضد الدولة.

وأقام ركن الدولة في شيراز تسعة أشهر، وبعث إلى أخيه معز الدولة بهدية من الأموال والسلاح، وكان عماد الدولة هو أمير الأمراء وإنما كان معز الدولة نائباً عنه في كفالة الأموال وولاية أعمال العراق، فلما مات عماد الدولة انقلبت إمرة الأمراء إلى ركن الدولة، وبقي معز الدولة نائباً عنه كما كان عن عماد الدولة لأنه كان أصغر منهما.

وفاة الصيمري ووزارة المهلبي

كان أبو جعفر أحمد الصيمري وزير معز الدولة قد عاد من فارس إلى أعمال الجامدة، وأقام يحاصر عمران بن شاهين إلى أن هلك منتصف تسع وثلاثين وثلاثمائة وكان يستخلف بحضرة معز الدولة في وزارته أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي، فباشره معز الدولة وعرف كفايته واضطلاعه، فاستوزره مكان الصيمري فحسن أثره في جمع الأموال وكشف الظلامات وتقريب أهل العلم والأدب والإحسان إليهم.

مسير عساكر ابن سامان إلى الري ورجوعها

لما سار ركن الدولة إلى بلاد فارس بعث الأمير نوح بن سامان إلى منصور بن قراتكين صاحب جيوشه بخراسان أن يسير إلى الري، فسار إليها سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وكان بها علي بن كتامة خليفة ركن الدولة ففارقها إلى أصفهان وملك منصور الري، وبث العساكر في البلاد فملكوا الجبل إلى قرميس، واستولوا على همذان، وبعث ركن الدولة من فارس إلى أخيه معز الدولة بإنفاذ العساكر إلى مدافعتهم، فبعث سبكتكين الحاجب في جيش كثيف من الديلم وغيرهم، فكبسهم وأسر مقدمهم فأعادوا إلى همذان.

ثم سار إليهم ففارقوها، وملكها وورد عليه ركن الدولة بهمذان، فعدل منصور بن قراتكين إلى أصفهان فملكها، وسار إليها ركن الدولة وسبكتكين في مقدمته، وشغب عليه بعض الأتراك فأوقع بهم وترددوا في تلك الناحية.

وكتب معز الدولة إلى ابن أبي الشوك الكردي يتبعهم فقتل منهم وأسر، ونجا بعض إلى الموصل.

وترك ركن الدولة قريباً من أصفهان، وجرت بينه وبين منصور حروب، وضاقت الميرة على الفريقين إلا أن الديلم كانوا أصبر على الجوع وشظف العيش من أهل خراسان لقرب عهدهم بالبداوة.

ومع ذلك فهم ركن الدولة بالفرار لولا وزيره ابن العميد كان يثبته ويريه أنه لا يغني عنه، وأن الاستماتة أولى به فصبر، وشغب على منصور بن قراتكين جنده وانفضوا جميعاً إلى الري وتركوا مخلفهم بأصفهان، فاحتوى عليه ركن الدولة، وذلك فاتح سنة أربعين وثلاثمائة ومات منصور بن قراتكين بالري في ربيع الأول من السنة، ورجعت العساكر إلى نيسابور.

استيلاء ركن الدولة ثانياً على طبرستان وجرجان

قد كنا قدمنا استيلاء ركن الدولة على طبرستان وجرجان سنة ست وثلاثين، وثلاثمائة وأنه استخلف على جرجان الحسن بن الفيرزان.

وسار وشمكير إلى خراسان مستنجداً بابن سامان، فسار معه صاحب جيوش خراسان منصور بن قراتكين، وحاصر جرجان، فصالحه الحسن بن الفيرزان بغير رضاً من وشمكير لانحرافه عنه وعن الأمير نوح.

ورجع إلى نيسابور وأقام وشمكير بجرجان والحسن بزوزن.

ثم سار ركن الدولة سنة أربعين وثلاثمائة من الري إلى طبرستان وجرجان ففارقها وشمكير إلى نيسابور، واستولى ركن الدولة عليها، واستخلف بجرجان الحسن بن الفيرزان وعلي بن كتامة، وعاد إلى الري فقصدهما وشمكير وانهزما منه، واسترد البلاد من ركن الدولة، وكتب الأمير نوح يستنجده على ركن الدولة، فأمر أبا علي بن محتاج بالمسير معه في جيوش خراسان، فسار في ربيع سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وامتنع ركن الدولة ببعض معاقله، وحاربه أبو علي بن محتاج في جيوش خراسان حتى ضجرت عساكره وأظلهم فصل الشتاء، فراسل ركن الدولة في

الصلح على أن يعطيهم ركن الدولة مائتي ألف دينار في كل سنة، وعاد إلى خراسان وكتب وشمكير إلى الأمير نوح بأن ابن محتاج لم ينصح في أمر ركن الدولة، وأنه ممالئ، فسخطه من أجل ذلك وعزله عن خراسان.

ولما عاد ابن محتاج عن ركن الدولة سار هو إلى وشمكير فانهزم وشمكير إلى أسفرايين، واستولى ركن الدولة على طبرستان.

إقامة الدعوة لبني بويه بخراسان

ولما عزل الأمير نوح أبا علي بن محتاج عن خراسان استعمل مكانه أبا سعيد بكر بن مالك الفرغاني، فانتقض حينئذ وخطب لنفسه بنيسابور، وتحيز عنه ابن الفيرزان مع وشمكير إلى الأمير نوح، فخام ابن محتاج عن عداوتهم، واستأذن ركن الدولة في المسير إليه.

ثم سار سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة فتلقاه بأنواع الكرامات وسأل منه ابن محتاج أن يقتضي له عهد الخليفة، بولاية خراسان، فبعث ركن الدولة في ذلك إلى أخيه معز الدولة ببغداد، وجاءه العهد والمدد، فسار إلى خراسان فخطب بها للخليفة وركن الدولة.

ثم مات نوح خلال ذلك وولي ابنه عبد الملك فبعث بكر بن مالك من بخارى إلى خراسان لإخراج ابن محتاج منها، فسار إليه وهرب ابن محتاج إلى الري فآواه ركن الدولة وأقام عنده، واستولى بكر بن مالك على خراسان.

ثم سار ركن الدولة إلى جرجان ومعه ابن محتاج فتركها وملكها، ولحق وشمكير بخراسان.

مسير عساكر ابن سامان إلى الري وأصفهان

ولما فرغ بكر بن مالك من أمر خراسان وأخرج منها ابن محتاج، وسار منها سنة أربع وأربعين وثلاثمائة في أتباعه إلى الري وأصفهان، وكان ركن الدولة غائباً بجرجان فملكها ورجع إلى الري في المحرم من السنة، وكتب إلى أخيه معز الدولة يستمده فأمده بالعساكر مع ابن سبكتكين، وجاء مقدمة العساكر من خراسان إلى أصفهان من طريق المفازة وبها الأمير منصور بن بويه بن ركن الدولة، ومقدم العساكر محمد بن ماكان فملك أصفهان وخرج في طلب ابن بويه، واتفق وصول الوزير أبي الفضل بن العميد فلقيه محمد بن ماكان فهزمه، وعاد أولاد ركن الدولة وحرمه إلى أصفهان.

وراسل ركن الدولة بكر بن مالك صاحب العساكر بخراسان في الصلح على مال يحمله إليه، وتكون الري وبلد الجبل في ضمانه، فأجابه بكر بن مالك إلى ذلك وصالحه عليه، وكتب ركن الدولة إلى أخيه معز الدولة بأن يبعث إلى بكر بن مالك خلعاً ولواء بولاية خراسان فبعث بها في ذي القعدة من السنة.

خروج روزبهان على معز الدولة وميل الديلم إليه

كان روزبهان ونداد خرشيد من كبار قواد الديلم، وكان معز الدولة قد رفعه ونوه بذكره، فخرج سنة خمس وأربعين بالأهواز ومعه أخوه أسفار، وخرج أخوه بلكا بشيراز.

ولما خرج روزبهان زحف إليه الوزير المهلبي لقتاله فنزع الكثير من أصحابه إلى روزبهان فانحاز عنه، وبعث بالخبر إلى معز الدولة فسار إليهم واختلف عليه الديلم ومالوا مع روزبهان وفصل معز الدولة من بغداد خامس شعبان من السنة قاصداً لحربه، وبلغ الخبر إلى ناصر الدولة بن حمدان، فبعث ابنه أبا الرجال في العساكر للاستيلاء على بغداد، فخرج الخليفة عنها منحدراً، وأعاد معز الدولة سبكتكين الحاجب وغيره لمدافعة ابن حمدان عن بغداد.

وسار إلى أن قارب الأهواز والديلم في شغب عليه وعلى عزم اللحاق بروزبهان إلا نفراً يسيراً من الديلم كانوا خالصة، فكان يعتمد عليهم وعلى الأتراك، وكان يفيض العطاء في الديلم فيمسكون عما يهمون به.

ثم ناجز روزبهان الحرب سلخ رمضان فانهزم وأخذ أسيراً، وعاد إلى بغداد إلى أبي الرجال بن حمدان، وكان بعكبرا فلم يجده لأنه بلغه خبر روزبهان فأسرع العود إلى الموصل ودخل معز الدولة بغداد وغرق روزبهان وكان أخوه بلكا الخارج بشيراز أزعج عنها عضد الدولة، وسار إليه أبو الفضل بن العميد وقاتله فظفر به، وعاد عضد الدولة إلى ملكه وانمحى أثر روزبهان وإخوته، وقبض معز الدولة على جماعة منهم ممن ارتاب بهم، واصطنع الأتراك وقدمهم وأقطع لهم فاعتزوا وامتدت أيديهم.

استيلاء معز الدولة على الموصل ثم عودها

كان ناصر الدولة بن حمدان قد صالح معز الدولة على ألفي ألف درهم كل سنة، ثم لم يحمل، فسار إليه معز الدولة سبع وأربعين وثلاثمائة ففارق الموصل إلى نصيبين، وحمل معه سائر أهل دولته من الوكلاء والكتاب ومن يعرف وجوه المال، وأنزلهم في قلاعه: كقلعة كواشي والزعفران وغيرهما.

وقطع الميرة عن عسكر معز الدولة فضاقت عليهم الأقوات، فسار معز الدولة إلى نصيبين للميرة، وبلغه أن أبا الرجاء وهبة اللّه في عسكر سنجار، فبعث إليهم بعض عساكره وكبسوهم فهربوا، واستولى العسكر على مخلفهم، ونزلوا في خيامهم، وكر عليهم أولاد ناصر الدولة وهم غارون فأثخنوا فيهم وأقاموا بسنجار.

وسار معز الدولة إلى نصيبين فلحق ناصر الدولة بميافارقين، واستأمن الكثير من أصحابه إلى معز الدولة فلحق بأخيه سيف الدولة بحلب، فبالغ في تكرمته وخدمته، وتوسط في الصلح بينه وبين معز الدولة بثلاثة آلاف ألف فأجابه معز الدولة وتم ذلك بينهما، ورجع معز الدولة إلى العراق في محرم سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

العهد لبختيار

وفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة طرق معز الدولة مرض استكان له وخشي على نفسه، فأراد العهد لابنه بختيار، وعهد إليه بالأمر وسلم له الأموال، وكان بين الحاجب سبكتكين والوزير المهلبي منافرة فأصلح بينهما ووصاهما بابنه بختيار، وعهد إليه بالأمور واعتزم على العود إلى الأهواز مستوحشاً هواء بغداد، فلما بلغ كلواذا اجتمع به أصحابه وسفهوا رأيه في الانتقال من بغداد على ملكه، وأشاروا عليه بالعود إليها وأن يستطيب الهواء في بعض جوانبها المرتفعة ويبني بها دوراً لسكنه ففعل، وأنفق فيها ألف ألف دينار وصادر فيها جماعة من أصحابه.

استيلاء ركن الدولة على طبرستان وجرجان

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة سار ركن الدولة إلى طبرستان وبها وشمكير فحاصره بمدينة سارية وملكها، ولحق وشمكير بجرجان وترك طبرستان فملكها ركن الدولة وأصلح أمرها، ثم سار إلى جرجان فخرج عنها وشمكير واستولى عليها ركن الدولة، واستأمن إليه من عسكر وشمكير ثلاثة آلاف رجل فازداد بهم قوة، ودخل وشمكير بلاد الجبل مسلوباً واهناً.

ظهور البدعة ببغداد

وفي هذه السنة كتب الشيعة على المساجد بأمر معز الدولة لعن معاوية بن أبي سفيان صريحاً، ولعن من غصب فاطمة فدك، ومن منع أن يدفن الحسن عند جده، ومن نفى أبا ذر الغفاري ومن أخرج العباس من الشورى، ونسب ذلك كله لمعز الدولة لعجز الخليفة.

ثم أصبح ممحواً وأراد معز الدولة إعادته، فأشار عليه الوزير المهلبي بأن يكتب مكانه لعن اللّه الظالمين لآل رسول اللّه ﷺ، ولا يذكر أحداً باللعن إلا معاوية رضي اللّه عنه.

وفاة الوزير المهلبي

وفي سنة اثنتين وخمسين سار المهلبي وزير معز الدولة إلى عمان ليفتحها، فلما ركب البحر طرقه المرض فعاد إلى بغداد، ومات في طريقه في شعبان من السنة، ودفن ببغداد.

وقبض معز الدولة أمواله وذخائره وقبض على حواشيه وحبسهم، ونظر في الأمور بعده أبو الفضل بن العباس بن الحسن الشيرازي وأبو الفرج محمد بن العباس بن فسانجس، ولم يتسموا باسم الوزارة.

استيلاء معز الدولة ثالثاً على الموصل

كان ناصر الدولة بن حمدان قد ضمن الموصل كما تقدم، وأجابه معز الدولة إلى ضمانه، فبذل له ناصر الدولة زيادة على أن يدخل معه في الضمان أبو ثعلب فضل اللّه الغضنفر، ويحلف لهما معز الدولة فأبى من ذلك، وسار إلى الموصل منتصف ثلاث وخمسين وثلاثمائة ففارقها ابن حمدان إلى نصيبين وملكها معز الدولة.

ثم خرج إلى طلب ابن حمدان منتصف شعبان واستخلف على الموصل بكتورون وسبكتكين العجمي وسار ابن حمدان عن نصيبين وملكها معز الدولة، وخالفه ابن حمدان إلى الموصل

وحارب عسكر معز الدولة فيها فهزموه، وجاء الخبر إلى معز الدولة، فظفر أصحابه بابن حمدان، وسار ونزل جزيرة ابن عمر، فسار في اتباعه، فوصل سادس رمضان فوجده قد جمع أولاده وعساكره إلى الموصل، فأوقع بأصحاب معز الدولة وأسر الأميرين اللذين خلفا بها، واستولى على ما خلفوه من مال وسلاح، وحمل الجميع مع الأسرى إلى قلعة كواشي، فأعيا معز الدولة أمره وهو من مكان إلى مكان في اتباعه، فأجابه إلى الصلح وعقد عليه ضمان الموصل وديار ربيعة والرحبة بمال قرره، فاستقر الصلح على ذلك، وأطلق ابن حمدان الأسرى، ورجع معز الدولة إلى بغداد.

استيلاء معز الدولة على عمان

قد تقدم لنا أن عمان كانت ليوسف بن وجيه وأنه حارب بني البريدي بالبصرة حتى قارب أخذها حتى عملوا الحيلة في إضرام النار في سفنه فولى هارباً في محرم سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وأنه ثار عليه مولاه في هذه السنة فغلبه على البلد وملكها من يده.

ولما استوحش معز الدولة من القرامطة، كتب إليهم ابن وجيه صاحب عمان يطمعهم في البصرة، واستمدهم في البر وسار هو في البحر سنة إحدى وأربعين، وسابقه الوزير المهلبي من الأهواز إليها، وأمده معز الدولة بالعساكر والمال فاقتتلوا أياماً، ثم ظفر المهلبي بمراكبه وما فيها من سلاح وعدة.

ولم يزل القرامطة يناورونها حتى غلبوا عليها سنة أربع وخمسين وثلاثمائة واستولوا عليها وهرب رافع عنها.

وكان له كاتب يعرف بعلي بن أحمد ينظر في أمور البلد، والقرامطة بمكانهم من هجر، فاتفق قاضي البلد وكان ذا مشير وعصابة على أن ينصبوا للنظر في أمورهم أحد قوادهم، فقدموا لذلك ابن طغان ففتك بجميع القواد الذين معه، وثأر منه بعض قرابتهم فقتلوه، فاجتمع الناس على تقديم عبد الوهاب بن أحمد بن مروان من قرابة القاضي مكانه فولوه، واستكتب علي بن أحمد كاتب القرامطة قبله من الجند فامتعضوا لذلك فدعاهم إلى بيعته فأجابوه وساواهم في العطاء مع البيض فسخط البيض ذلك، ودارت بهم حرب سكنوا آخرها واتفقوا وأخرجوا عبد الوهاب من البلد، واستقر علي بن أحمد الكاتب أميراً فيها.

ثم سار معز الدولة إلى واسط سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وقدم إليه نافع مولى ابن أخيه الذي كان ملكها بعد مولاه، فأحسن إليه وأقام عنده حتى فرغ من أمر عمران بن شاهين، وانحدر إلى الأبلة في رمضان من السنة، وجهز المراكب إلى عمان مائة قطعة، وبعث فيها الجيوش بنظر أبي الفرج محمد بن العباس، وتقدم إلى عضد الدولة بفارس أن يمدهم بالعساكر من عنده فوافاهم المدد بسيراف وساروا إلى عمان فملكوها يوم الجمعة يوم عرفة من السنة، وفتكوا فيها بالقتل، وأحرقوا لهم تسعين مركباً، وخطب لمعز الدولة وصارت من أعماله.

وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار

كان معز الدولة قد سار سنة خمس وخمسين وثلاثمائة إلى واسط لمحاربة عمران بن شاهين فطرقه المرض سنة ست وخمسين وثلاثمائة فسار إلى بغداد، وخلف أصحابه بواسط على أن يعود إليهم فاشتد مرضه ببغداد، وجدد العهد لابنه بختيار.

ثم مات منتصف ربيع الآخر من السنة فقام ابنه عز الدولة بختيار مكانه، وكتب إلى العساكر بمصالحة عمران بن شاهين ففعلوا وعادوا.

وكان فيما أوصى به معز الدولة ابنه بختيار طاعة عمه ركن الدولة والوقوف عند إشارته وابن عمه عضد الدولة لعلو سنه عليه وتقدمه في معرفة السياسة، وأن يحفظ كاتبيه أبا الفضل العباس بن الحسن وأبا الفرج بن العباس والحاجب سبكتكين، فخالف جميع وصاياه وعكف على اللّهو وعشرة النساء والمغنين والصفاعين، فأوحش الكاتبين والحاجب، فانقطع الحاجب عن حضور داره.

ثم طرد كبار الديلم عن مملكته طمعاً في أقطاعاتهم، فشغب عليه الصغار واقتدى بهم الأتراك في ذلك، وطلبوا الزيادات، وركب الديلم إلى الصحراء وطلبوا إعادة من أسقط من كبارهم.

، ولم يجد بداً من إجازتهم لانحراف سبكتكين عنه، فاضطربت أموره وكان الكاتب أبو الفرج العباس في عمان منذ ملكها، فلما بلغه موت معز الدولة خشي أن ينفرد عنه صاحبه أبو الفضل العباس بن الحسن بالدولة، فسلم عمان لعضد الدولة، وبادر إلى بغداد فوجد أبا الفضل قد انفرد بالوزارة ولم يحصل على شيء.

مسير عساكر ابن سامان إلى الري ومهلك وشمكير

كان أبو علي بن الياس قد سار من كرمان إلى بخارى

مستنجداً بالأمير منصور بن نوح بن سامان، فتلقاه بالتكرمة فأغراه ابن الياس بممالك بني بويه وأشار له قواده في أمرهم فصدق ذلك عندما كان يذكر وشمكير عنهم، وتقدم إلى وشمكير والحسن بن الفيرزان بالمسير مع عساكره إلى الري.

ثم جهز العساكر مع صاحب خراسان أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور الدواني وأمره بطاعة وشمكير وقبول إشارته فسار لذلك سنة ست وخمسين وثلاثمائة وأنزل ركن الدولة أهله بأصفهان، وكتب إلى ابنه عضد الدولة بفارس وإلى ابن أخيه عز الدين بختيار ببغداد يستنجدهما، فأنفذ عضد الدولة العساكر على طريق خراسان ليخالفهم إليها، فأحجموا وتوقفوا وساروا إلى الدامغان، وقصدهم ركن الدولة في عساكره من الري، وبينما هم كذلك هلك وشمكير، عندما استعرض خيلاً واختار منها واحداً وركب للصيد، واعترضه خنزير فرماه بحربة، وحمل الخنزير عليه فضرب الفرس فسقط إلى الأرض وسقط وشمكير ميتاً وانتقض جميع ما كانوا فيه ورجعوا إلى خراسان.

استيلاء عضد الدولة على كرمان

كان أبو علي بن الياس قد ملك كرمان بدعوة بني سامان، واستبد بها كما مر في أخبارهم، ثم أصابه فالج وأزمن به وعهد إلى ابنه اليسع ثم لاليأس من بعده، وأمرهما بإجلاء أخيهما سليمان إلى أرضهم ببلاد الروم يقيم لهم ما هنالك من الأموال، لعداوة كانت بين سليمان واليسع فلم يرض سليمان ذلك، وخرج فوثب على السيرجان فملكها، فسار إليه أخوه اليسع فحبسه.

وهرب من محبسه واجتمع إليه العسكر وأطاعوه، ومالوا إليه مع أبيه.

ثم إن أبا علي هم أن يلحق بخراسان فلحق، ثم سار إلى الأمير أبي الحارث ببخارى وأغراه بالري كما مر، وتوفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة وصفت كرمان لاليسع.

وكان عضد الدولة مزاحماً لاليسع في بعض حدود عمله، مدلاً بجهل الشباب، فاستحكمت القطيعة بينهما وهرب بعض أصحاب عضد الدولة إليه، فزحف إليه واستأمن إليه أصحابه، وبقي في قل من أصحابه فاحتمل أهله وأمواله، ولحق ببخارى.

وسار عضد الدولة إلى كرمان فملكها وأقطعها ولده أبا الفوارس الذي ملك العراق بعد، ولقب شرف الدولة، واستخلف عليها كورتكين بن خشتان وعاد إلى فارس وبعث إليه صاحب سجستان الطاعة وخطب له.

ولما وصل اليسع إلى بخارى أنذر بني سامان على تقاعدهم عن نصره فوثبوا عليه فنفوه إلى خوارزم، وكان قد خلف أثقاله بنواحي خراسان فاستولى عليها أبو علي بن سيجور، وأصاب اليسع رمد اشتد به بخوارزم فضجر منه وقطع عرقه بيده.

وكان ذلك سبب هلاكه، ولم يعد لبني الياس بكرمان بعده ملك.

مسير ابن العميد إلى حسنويه ووفاته

كان حسنويه بن الحسين الكردي من رجالات الكرد، واستولى عن نواحي الدينور واستفحل أمره، وكان يأخذ الخفارة من القوافل التي تمر به ويخيف السابلة، إلا أنه كان فئة للديلم على عساكر خراسان متى قصدتهم.

وكان ركن الدولة يرعى له ذلك ويغضي عن إساءته.

ثم وقعت بينه وبين سلار بن مسافر بن سلار، فتنة وحرب فهزمه حسنويه وحصره وأصحابه من الديلم في مكان، ثم جمع الشوك وطرحه بقربهم وأضرمه ناراً حتى نزلوا على حكمه فأخذهم، وقتل كثيراً منهم، فلحقت ركن الدولة الغيرة لعصبية الديلم، وأمر وزيره أبا الفضل بن العميد بالمسير إليه فسار في محرم سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وقعد ابنه أبو الفتح، وكان شاباً مليحاً قد أبطره العز والدالة على أبيه، وكان يتعرض كثيراً لما يغضبه.

وكانت بأبي الفضل علة النقرس فتزايدت عليه وأفحشت عليه، ولما وصل إلى همذان توفي بها لأربع وعشرين سنة من وزارته، وأقام ابنه أبا الفتح مقامه وصالح حسنويه على مال أخذه منه، وعاد إلى الري إلى مكانه من خدمة ركن الدولة.

وكان أبو الفضل بن العميد كاتباً بليغاً، وعالماً في عدة فنون مجيداً فيها ومطلعاً على علوم الأوائل، وقائماً بسياسة الملك مع حسن الخلق ولين العشرة، والشجاعة المعروفة بتدبير الحروب، ومنه تعلم عضد الدولة السياسية وبه تأدب.

انتقاض كرمان على عضد الدولة

ولما ملك عضد الدولة كرمان كما قلناه اجتمع القفص والبلوص وفيهم أبو سعيد وأولاده واتفقوا على الانتقاض والخلاف.

واستمد عضد الدولة كورتكين بن حسان بعابد بن علي،

فسارا في العساكر إلى جيرفت وحاربوا أولئك الخوارج فهزموهم وأثخنوا فيهم وقتلوا من شجعانهم، وفيهم ابن لأبي سعد.

ثم سار عابد بن علي في طلبهم وأوقع بهم عدة وقائع وأثخن فيهم، وانتهى إلى هرمز فملكها واستولى على بلاد التيز ومكران وأسر منهم ألف أسير حتى استقاموا على الطاعة وإقامة حدود الإسلام.

ثم سار عائداً إلى طائفة أخرى يعرفون بالحرومية والجاسكية يخيفون السبيل براً وبحراً، وكانت قد تقدمت لهم إعانة سليمان بن أبي علي بن إلياس، فلما أوقع بهم أثخن فيهم حتى استقاموا على الطاعة وصلحت تلك البلاد مدة.

ثم عاد البلوص إلى ما كانوا عليه من إخافة السبيل بها، فسار عضد الدولة إلى كرمان في ذي القعدة سنة اثنتين وانتهى إلى السيرجان وسرح عابد بن علي في العساكر لاتباعهم، فأوغلوا في الهرب ودخلوا إلى مضايق يحسبونها تمنعهم، فلما زاحمتهم العساكر بها آخر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وثلاثمائة صابروا يوما، ثم انهزموا آخره فقتلت مقاتلتهم وسبيت ذراريهم ونساؤهم، ولم ينج منهم إلا القليل.

ثم استأمنوا فأمنوا ونقلوا من تلك الجبال، وأنزل عضد الدولة في تلك البلاد أكرة وفلاحين، ثم شملوا الأرض بالعمل وتتبع العابد أثر تلك الطوائف حتى بدد شملهم، ومحا ما كان من الفساد منهم.

عزل أبي الفضل ووزارة ابن بقية

كان أبو الفضل العباس بن الحسن وزيراً لمعز الدولة ولابنه بختيار من بعده، وكان سيء التصرف وأحرق في بعض أيامه الكرخ ببغداد فاحترق فيه عشرون ألف إنسان وثلاثمائة دكان وثلاثة وثلاثون مسجداً، ومن الأموال ما لا يحصى، وكان الكرخ معروفاً بسكنى الشيعة، وكان هو يزعم أنه يتعصب لأهل السنة، وكان كثير الظلم للرعية غصاباً للأموال مفرطاً في أمر دينه، وكان محمد بن بقية وضيعاً في نفسه من الفلاحين في أوانا من ضياع بغداد، واتصل ببختيار وكان يتولى الطعام، بين يديه، ويتولى الطبخ ومنديل الخوان على كتفه: فلما ضاقت الأحوال على الوزير أبي الفضل وكثرت مطالبته بالأرزاق والنفقات عزله بختيار وصادره وسائر أصحابه على أموال عظيمة أخذت منهم، واستوزر محمد بن بقية فاستقامت أموره ونمت أحواله بتلك الأموال، فلما، نفدت عاد إلى الظلم، ففسدت الأحوال وخربت تلك النواحي، وظهر العيارون وتزايد شرهم وفسادهم.

وعظم الاختلاف بين بختيار والأتراك، ومقدمهم يومئذ سبكتكين، وتزايدت نفرته ثم سعى ابن بقية في إصلاحه وجاء به إلى بختيار ومعه الأتراك فصالحه بختيار، ثم قام غلام ديلمي فرمى وتينه بحربة في يده فأثبته، فصاح سبكتكين بغلمانه فأخذوه ويظن أنه وضع قتله، وقرره فلم يعترف، فبعث إلى بختيار فأمر به فقتل، فعظم ارتيابه وأنه إنما قتل حذراً من إفشاء سره، فعظمت الفتنة، وقصد الديلم قتل سبكتكين، ثم أرضاهم بختيار بالمال فسكنوا.

استيلاء بختيار على الموصل ثم رجوعه عنها

فلما قبض أبو ثعلب بن ناصر الدولة بن حمدان على أبيه وحبسه، واستقل بملك الموصل وعصى عليه إخوته من سائر النواحي غلبهم، ولحق أخوه أحمد وإبراهيم ببختيار فاستصرخاه فوعدهما بالمسير معهما، وأن يضمن حمدان البلاد.

ثم أبطأ عليهما فرجع إبراهيم إلى أخيه أبي ثعلب، وقارن ذلك وزارة ابن بقية، وقصر أبو ثعلب في خطابه فاغرى به بختيار فسار إليه، ونزل الموصل، وفارقها أبو ثعلب إلى سنجار وأخلاها من الميرة والكتاب والدواوين.

ثم سار من سنجار إلى بغداد فحاربها، ولم يحدث في سوادها حدثاً، وبعث بختيار إثره العساكر مع ابن بقية والحاجب سبكتكين، فدخل ابن بقية بغداد، وأقام سبكتكين بحِدى.

وثار العيارون واضطربت الفتنة بين أهل السنة والشيعة، وضربوا الأمثال لتشتد على الوزير بحرب الجمل، وهذا كله في الجانب الغربي.

ونزل أبو ثعلب حذاء سبكتكين بحِدى واتفقا في سر على خلع الخليفة ونصب غيره والقبض على الوزير وعلى بختيار وتكون الدولة لسبكتكين ويعود أبو ثعلب إلى الموصل ليتمكن من بختيار.

ثم قصر سبكتكين عن ذلك وخشي سوء المغبة، واجتمع به الوزير بن بقية وصالحوا أبا ثعلب على ضمان أعماله كما كانت، وزيادة ثلاثة آلاف كر من الغلة لبختيار، وأن يرد على أخيه حمدان أملاكه وأقطاعه إلا ماردين، وأرسلوا إلى بختيار بذلك.

ودخل أبو ثعلب إلى الموصل، فلما نزل الموصل وبختيار بالجانب الآخر فغضب أهل الموصل لأبي ثعلب لما نالهم من عسف بختيار، فتراسلوا في الصلح ثانياً، وسأل أبو ثعلب لقباً

سلطانياً وتسليم زوجته ابنة بختيار فأبى ذلك، ورحل عنه إلى بغداد.

وبلغه في طريقه أن أبا ثعلب قتل مخلفين من أصحاب بختيار، فأقام بالكحيل وبعث بالوزير وابن بقية وسبكتكين فجاؤوه في العساكر، ورجع إلى الموصل وفارقها أبو ثعلب، وبعث إلى الوزير كاتبه ابن عرس وصاحبه ابن حوقل معتذراً وحلفا عنه عن العلم بما وقع، فاستحكم بينهم صلح آخر.

وانصرف كل منهم إلى بلده، وبعث بختيار إليه زوجته واستقر أمرهما على ذلك.

الفتنة بين الديلم والاتراك وانتقاض سبكتكين

كان جند بختيار وأبيه معز الدولة طائفتين من الديلم عشيرتهم والأتراك المستنجدين عندهم، وعظمت الدولة وكثرت عطاياها وأرزاق الجند حتى ضاقت عنها الجباية وكثر شغب الجند، وساروا إلى الموصل لسد ذلك فلم يقع لهم ما يسده، فتوجهوا إلى الأهواز صحبة بختيار ليظفروا من ذلك بشيء، واستخلف سبكتكين على بغداد، فلما وصلوا إلى الأهواز صحبة بختيار حمل إليه حملين من الأموال والهدايا ملْ عينه، وهو مع ذلك يتجنى عليه.

ثم تلاحى خلال ذلك عاملان ديلمي وتركي، وتضاربا ونادى كل منهما بقومه فركبوا في السلاح بعضهم على بعض، وسالت بينهما الدماء، وصاروا إلى النزاع، واجتهدوا في تسكين الناس فلم يقدروا.

وأشار عليه الديلم بالقبض على الأتراك، فأحضر رؤساءهم واعتقلهم، وانطلقت أيدي الديلم على الأتراك فافترقوا، ونودي في البصرة بإباحة دمائهم، واستولى بختيار على إقطاع سبكتكين، ودس بأن يرجفوا بموته، فإذا جاء سبكتكين للعزاء قبضوا عليه.

وقيل كان وطاهم على ذلك قبل سفره، وجعل موعده قبضه على الأتراك، فلما أرجفوا بموته ارتاب سبكتكين بالخبر، وعلم أنها مكيدة ودعاه الأتراك للأمر عليهم فأبى، ودعا ابن معز الدولة أبا إسحاق إليها فمنعته أمه، فركب سبكتكين في الأتراك وحاصروا بختيار يومين.

ثم أحرقها وبعث لأبي إسحاق وأبي طاهر ابني معز الدولة، وسار بهما إلى واسط فاستولى على ما كان لبختيار، وأنزل الأتراك في دور الديلم، وثار العامة بنصر سبكتكين وأوقعوا بالشيعة وقتلوهم وأحرقوا الكرخ.

مسير بختيار لقتال سبكتكين وخروج سبكتكين إلى واسط ومقتله

ولما انتقض سبكتكين انتقض الأتراك في كل جهة حتى اضطرب على بختيار غلمانه الذين بداره، وعاتبه مشايخ الأتراك على فعلته، وعذله الديلم أصحابه وقالوا: لا بد لنا من الأتراك ينصحون عنا، فأطلق المعتقلين منهم ورجع؛ وجعل أردويه صاحب الجيش مكان سبكتكين، وكتب إلى عمه ركن الدولة وابنه عضد الدولة يستنجدهما، وإلى أبي ثعلب بن حمدان يستمده بنفسه، ويسقط عنه مال الضمان، وإلى عمران بن شاهين بأن يمده بعسكر، فبعث عمه ركن الدولة العساكر مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وأمر ابنه عضد الدولة بالمسير معهم، فتربص به ابن العميد.

وأنفذ أبو ثعلب بن حمدان أخاه أبا عبد اللّه الحسين بن حمدان إلى تكريت، وأقام ينتظر خروج سبكتكين والأتراك عن بغداد فيملكها: وانحدر سبكتكين ومعه الأتراك إلى واسط وحمل معه الخليفة الطائع الذي نصبه وأباه المطيع مكانه أفتكين وساروا إلى بختيار ونازلوه بواسط خمسين يوماً والحرب بينهم متصلة والظفر للأتراك في كلها، وهو يتابع الرسل إلى عضد الدولة ويستحثه.

استيلاء عضد الدولة على العراق واعتقال بختيار ثم عوده إلى ملكه

ولما بلغ عضد الدولة ما فعله الأتراك مع بختيار اعتزم على المسير إليه بعد أن كان يتربص به فسار في عساكر فارس وسار معه أبو القاسم بن العميد وزير أبيه من الأهواز في عساكر الري وقصدوا واسط ورجع أفتكين والأتراك إلى بغداد وكان أبو ثعلب عليها فأجفل، وكتب بختيار إلى طبة الأسدي صاحب عين التمر، وإلى بني شيبان بمنع الميرة عن بغداد وإفساد سابلتها، فعدمت الأقوات وسار عضد الدولة إلى بغداد، ونزل في الجانب الشرقي وبختيار في الجانب الغربي.

وخرج أفتكين والأتراك لعضد الدولة فلقيهم بين دباني والمدائن منتصف جمادى سنة أربع وستين وثلاثمائة فهزمهم وغرق

كثير منهم.

وساروا إلى تكريت، ودخل عضد الدولة بغداد ونزل دار الملك، واسترد الخليفة الطائع من أفتكين والأتراك، وكانوا أكرهوه على الخروج معهم، وخرج للقائه في دجلة وأنزله بدار الخلافة وحدثته نفسه بملك العراق، واستضعف بختيار ووضع عليه الجند يطالبونه بأرزاقهم، ولم يكن عنده في خزانته شيء.

وأشار عليه بالزهد في إمارتهم يتنصح له بذلك سراً، والرسل تتردد إلى بختيار والجند فلا يقبل عضد الدولة تقربهم.

ثم تقبض عليه آخراً ووكل به، وجمع الجند ووعدهم بالإحسان والنظر في أمورهم فسكنوا، وبعث عضد الدولة عسكره إلى ابن بقية ومعه عسكر ابن شاهين فهزموا عسكر عضد الدولة، وكاتبوا ركن الدولة، فكتب إليه بالثبات على شأنهم.

فلما علم أهل النواحي بأفعال عضد الدولة اضطربوا عليه وانقطعت عنه مواد فارس، وطمع فيه الناس حتى عامة بغداد، فحمَّل الوزير أبا الفتح بن العميد إلى أبيه ركن الدولة الرسالة بما وقع، وبضعف بختيار وأنه إن عاد إلى الأمر خرجت المملكة والخلافة عنه، وأنه يضمن أعمال العراق بثلاثين ألف ألف درهم في كل سنة، ويبعث إليه بختيار بالري وإلا قتلت بختيار وأخويه وجميع شيعتهم وتركت البلاد، فخشي ابن العميد من هذه الرسالة، وأشار بأن يبعث بها غيره ويمضي هو إلى ركن الدولة فيحاول على مقاصد عضد الدولة، فمضى الرسول إلى ركن الدولة فحجبه أولاً، ثم أحضره وذكر له الرسالة فهم بقتله، ثم رده وحمله من الإساءة في الخطاب فوق ما أراد.

وجاء ابن العميد، فحجبه ركن الدولة وأنفذ إليه بالوعيد، وشفع إليه أصحابه واعتذر بأنه إنما جعل رسالة عضد الدولة طريقا إلى الخلاص منه فأحضره، وضمن له ابن العميد إطلاق بختيار.

ثم سار إلى عضد الدولة وعرفه بغضب أبيه فأطلق بختيار من محبسه ورده إلى ملكه على أن يكون نائباً عنه ويخطب له، ويجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش لضعفه عن الملك.

وخلف أبا الفتح بن العميد لقضاء شؤونه فتشاغل هو مع بختيار فيما كان فيه من اللذات عن ركن الدولة، وجاء ابن بقية فأكد الوحشة بين بختيار وعضد الدولة وجبى الأموال واختزنها، وأساء التصرف واحترز من بختيار.

أخبار عضد الدولة في ملك عمان

لما توفي معز الدولة كان أبو الفرج بعمان، فسار عنها لبغداد وبعث إلى عضد الدولة بأن يتسلمها فوليها عمر بن نبهان الطائي بدعوة عضد الدولة، ثم قتلته الزنج وملكوا البلد.

وبعث عضد الدولة إليها جيشاً من كرمان مع قائده أبي حرب طغان، وساروا في البحر وأرسوا على صحار وهي قصبة عمان، ونزلوا إلى البر فقاتلوا الزنج وظفروا بهم، واستولى طغان على صحار سنة اثنتين وستين وثلاثمائة.

ثم اجتمع الزنج إلى مدين رستاق على مرحلتين من صحار، فأوقع بهم طغان واستلحمهم وسكنت البلاد، ثم خرج بجبال عمان طوائف الشراة مع ورد بن زياد منهم، وبايعوا لحفص بن راشد، واشتدت شوكتهم، وبعث عضد الدولة المظفر بن عبد اللّه في البحر فنزل في أعمال عمان وأوقع بأهل خرخان.

ثم سار إلى دما على أربع مراحل، وقاتل الشراة فهزمهم وهرب أميرهم ورد بن حفص إلى يزوا، وهي حصن تلك الجبال، ولحق حفص باليمن فصار فيه معلماً، واستقامت البلاد ودانت لطاعة عضد الدولة.

اضطراب كرمان على عضد الدولة

كان ظاهر بن الصنمد من الحرومية، وهي البلاد الحارة، قد ضمن من عضد الدولة ضمانات واجتمعت عليه أموال.

ولما سار عضد الدولة إلى العراق وبعث وزيره المظهر بن عبد اللّه إلى عمان خلت كرمان من العساكر، فطمع فيها ظاهر وجمع الرجال الحرومية.

وكان بعض موالي بني سامان من الأتراك واسمه مؤتمر استوحش من ابن سيجور صاحب خراسان فكاتبه ظاهر وأطمعه في أعمال كرمان، فسار إليه وجعله ظاهر أميراً.

ثم شغب عليه بعض أصحاب ظاهر، فارتاب به مؤتمر وقاتله فظفر به وبأصحابه، وبلغ الخبر إلى الحسين بن علي بن الياس بخراسان فطمع في البلاد وسار إليها، واجتمعت عليه جموع وكتب عضد الدولة إلى المظهر بن عبد اللّه وقد فرغ من أمر عمان بالمسير إلى كرمان، فسار إليه سنة أربع وستين وثلاثمائة ودوخ البلاد في طريقه وكبس مؤتمراً بنواحي مدينة قم فلحق بالمدينة وحصره فيها حتى استأمن، وخرج إليه ومعه ظاهر فقتله المظهر

وحبس مؤتمراً ببعض القلاع، وكان آخر العهد به.

ثم سار إلى ابن إلياس وقاتله على باب جيرفت وأخذه أسيراً وضاع بعد ذلك خبره، ورجع المظهر ظافراً وصلحت كرمان لعضد الدولة.

وفاة ركن الدولة وملك ابنه عضد الدولة

كان ركن الدولة ساخطاً على ابنه عضد الدولة كما قدمناه وكان ركن الدولة بالري فطرقه المرض سنة خمس وستين وثلاثمائة فسار إلى أصفهان، وتلطف الوزير أبو الفتح بن العميد إليه في الرضا عن ابنه عضد الدولة، وأن يحضره ويعهد إليه،، فأحضره من فارس وجمع سائر ولده.

وكان ركن الدولة قد خف من مرضه فعمل الوزير ابن العميد بداره صنيعاً وأحضرهم جميعاً، فلما قضوا شأن الطعام خاطب ركن الدولة أحد أولاده بولاية أصفهان وأعمالها نيابة عن أخيه عضد الدولة، وخلع عضد الدولة في ذلك اليوم على سائر الناس الأقبية والأكسية بزي الديلم.

وحياه إخوته والقواد بتحية الملك المعتاد لهم، وأوصاهم أبوهم بالاتفاق وخلع عليهم من الخاص، وسار عن أصفهان في رجب من السنة.

ثم اشتد به المرض في الري فتوفي في محرم سنة ست وستين وثلاثمائة لأربع وأربعين سنة من ولايته.

وكان حليماً كريماً واسع المعروف حسن السياسة لجنده ورعيته، عادلاً فيهم، متحرياً من الظلم عفيفاً عن الدماء، بعيد الهمة عظيم الجد والسعادة، محسناً لأهل البيوتات، معظماً للمساجد متفقداً لها في المواسم، متفقداً أهل البيت بالبر والصلات، عظيم الهيبة لين الجانب مقرباً للعلماء محسناً إليهم، معتقداً للصلحاء براً بهم رحمه الله تعالى.

مسير عضد الدولة إلى العراق وهزيمة بختيار

ولما توفي ركن الدولة ملك عضد الدولة بعده، وكان بختيار وابن بقية يكاتبان أصحاب القاصية مثل فخر الدولة أخيه وحسنويه الكردي وغيرهم للتظافر على عضد الدولة، فحركه ذلك لطلب العراق، فسار لذلك وانحدر بختيار إلى واسط لمدافعته، وأشار عليه ابن بقية بالتقدم إلى الأهواز، واقتتلوا في ذي القعدة من سنة ست وستين وثلاثمائة ونزع بعض عساكر بختيار إلى عضد الدولة فانهزم بختيار ولحق بواسط، ونهب سواده ومخلفه، وبعث إليه ابن شاهين بأموال وسلاح وهاداه وأتحفه، فسار إليه إلى البطيحة وأصعد منها إلى واسط، واختلف أهل البصرة فمالت مضر إلى عضد الدولة وربيعة مع بختيار، ضربت مضر عند انهزامه، وكاتبوا عضد الدولة فبعث إليهم عسكراً واستولوا على البصرة، وأقام بختيار بواسط، وقبض الوزير ابن بقية لاستبداده واحتجازه الأموال، وليرضي عضد الدولة بذلك.

وترددت الرسل بينهم في الصلح، وتردد بختيار في إمضائه.

ثم وصله ابنا حسنويه الكردي في ألف فارس مدداً فاعتزم على محاربة عضد الدولة، ثم بدا له وسار إلى بغداد فأقام بها، ورجع ابنا حسنويه إلى أبيهما، وسار عضد الدولة إلى البصرة فأصلح بين ربيعة ومضر بعد اختلافهما مائة وعشرين سنة.

نكبة أبي الفتح بن العميد

كان عضد الدولة يحقد على أبي الفتح بن العميد مقامه عند بختيار ببغداد ومخالطته له، وما عقده معه من وزارته بعد ركن الدولة.

وكان ابن العميد يكاتب بختيار بأحواله وأحوال أبيه، وكان لعضد الدولة عين على بختيار يكاتبه بذلك ويغريه.

فلما ملك عضد الدولة بعد أبيه كتب إلى أخيه فخر الدولة بالري بالقبض على ابن العميد وعلى أهله وأصحابه، واستصفيت أموالهم ومحيت آثارهم، وكان أبو الفضل بن العميد ينذرهم بذلك لما يرى من مخايل أبي الفتح وإنكاره عليه.

استيلاء عضد الدولة على العراق ومقتل بختيار وابن بقية

ولما دخلت سنة سبع وستين سار عضد الدولة إلى بغداد، وأرسل إلى بختيار يدعوه إلى طاعته، وأن يسير عن العراق إلى أي جهة أراد فيمده بما يحتاج إليه من مال وسلاح، فضعفت نفسه فقلع عينه وبعثها إليه، وخرج بختيار عن بغداد متوجهاً إلى الشام.

ودخل عضد الدولة بغداد وخطب له بها، ولم يكن خطب لأحد قبله، وضرب على بابه ثلاث نوبات ولم يكن لمن تقدمه، وأمر أن يلقى ابن بقية بين أرجل الفيلة فضربته حتى مات وصلب على رأس الجسر في شوال سنة سبع وستين وثلاثمائة، ولما انتهى

بختيار إلى عكبرا وكان معه حمدان بن ناصر الدولة بن حمدان فزين له قصد الموصل، واستماله إليه عن الشام، وقد كان عقد معه عضد الدولة أن لا يقصد الموصل لموالاة بينه وبين أبي ثعلب، فسار هو إلى الموصل ونقض عهده، وانتهى إلى تكريت فبعث إليه أبو ثعلب يعده المسير معه لقتال عضد الدولة، وإعادة ملكه على أن يسلم إليه أخاه حمدان، فقبض بختيار عليه وسلمه إلى سفرائه وحبسه أبو ثعلب، وسار بختيار إلى الحديثة، ولقيه أبو ثعلب في عشرين ألف مقاتل، ورجع معه إلى العراق ولقيهما عضد الدولة بنواحي تكريت فهزمهما، وجيء ببختيار أسيراً، فأشار أبو الوفاء طاهر بن إسماعيل كبير أصحاب عضد الدولة بقتله فقتل لاثنتي عشرة سنة من ملكه.

واستلحم كثير من أصحابه، وانهزم أبو ثعلب بن حمدان إلى الموصل.

استيلاء عضد الدولة على أعمال بني حمدان

ولما انهزم أبو ثعلب سار عضد الدولة في أثره فملك الموصل منتصف ذي القعدة سنة ست وستين وثلاثمائة وكان حمل معه الميرة والعلوفات خوفاً أن يقع به مثل ما وقع بسلفه، فأقام بالموصل مطمئناً وبث السرايا في طلب أبي ثعلب، ولحق بنصيبين ثم بميافارقين، فبعث عضد الدولة في أثره سرية عليها أبو ظاهر بن محمد إلى سنجار، وأخرى عليها الحاجب أبو حرب طغان إلى جزيرة ابن عمر، فترك أبو ثعلب أهله بميافارقين وسار إلى تدلس ووصل أبو الوفاء في العساكر إلى ميافارقين فامتنعت عليه، فسار في اتباع أبي ثعلب إلى أرزن الروم ثم إلى الحسنية من أعمال الجزيرة، وصعد أبو ثعلب إلى قلعة كواشي فأخذ أمواله منها وعاد أبو الوفاء وحاصره بميافارقين، وسار عضد الدولة وقد افتتح سائر ديار بكر.

وسار أبو ثعلب إلى الرحبة ورجع أصحابه إلى أبي الوفاء فأمنهم وعاد إلى الموصل، فتسلم ديار مضر من يده.

وكان سعد الدولة على الرحبة وتقرى أعمال أبي ثعلب وحصونه، مثل هوا والملاسي وفرقى والسفياني وكواشي بما فيها من خزائنه وأمواله، واستخلف أبو الوفاء على الموصل وجميع أعمال بني ثعلب وعاد إلى بغداد، وسار أبو ثعلب إلى الشام فكان فيه مهلكه كما مر في أخباره.

إيقاع العساكر ببني شيبان

كان بنو شيبان قد طال إفسادهم للسابلة، وعجز الملوك عن طلبهم، وكانوا يمتنعون بجبال شهرزور لما بينهم وبين أكرادها من المواصلة، فبعث عضد الدولة العساكر سنة تسع وستين وثلاثمائة فنازلوا شهرزور واستولوا عليها وعلى ملكها رئيس بني شيبان، فذهبوا في البسيط، وسار العسكر في طلبهم فأوقعوا بهم واستباحوا أموالهم ونساءهم، وجيء منهم إلى بغداد بثلاثمائة أسير، ثم عاودوا الطاعة وانحسمت علتهم.

وصول ورد بن منير البطريق الخارج على ملك الروم إلى ديار بكر والقبض عليه

كان أرمانوس ملك الروم لما توفي خلف ولدين صغيرين ملكا بعده، وكان نقفور وهو يومئذ الدمستق غائباً ببلاد الشام، وكان نكاء فيها، فلما عاد حمله الجند وأهل الدولة على النيابة عن الولدين فامتنع.

ثم أجاب وأقام بدولة الولدين وتزوج أمهما ولبس التاج، ثم استوحشت منه فراسلت ابن الشمسيق في قتله، وبيته في عشرة من أصحابه فقتلوا نقفور واستولى ابن الشمسيق على الأمر، واستولى على الأولاد وعلى ابنه ورديس واعتقلهم في بعض القلاع، وسار في أعمال الشام فعاث فيها وحاصر طرابلس فامتنعت عليه.

وكان لوالد الملك أخ خصي وهو الوزير يومئذ فوضع عليه من سقاه السم، وأحس به فأسرع العود إلى القسطنطينية ومات في طريقه، وكان ورد بن منير من عظماء البطارقة فطمع في الملك، وكاتب أبا ثعلب بن حمدان عند خروجه بين يدي عضد الدولة وظاهره، واستجاش بالمسلمين بالثغور وساروا إليه وقصد القسطنطينية، وبرزت إليه عساكر الملكين فهزمهم مرة بعد أخرى، فأطلق الملكان ورديس بن لاون وبعثاه في العساكر لقتال ورد فهزمهم بعد حروب صعبة، ولحق ورد ببلاد الإسلام ونزل ميافارقين، وبعث أخاه إلى عضد الدولة يبذل الطاعة ويطلب النصرة.

وبعث إليه ملك الروم واستمالاه فجنح إليهما، وكتب إلى عامله بميافارقين بالقبض على ورد وأصحابه، فيئسوا منه، وتسللوا عنه، فبعث أبو علي الغنمي عنه إلى داره للحديث معه، ثم قبض عليه وعلى ولده وأخيه وجماعة من أصحابه، واعتقلهم بميافارقين،

ثم بعث بهم إلى بغداد فحبسوا بها.

دخول بني حسنويه في الطاعة وبداية أمرهم

كان حسنويه بن حسن الكردي من جنس البرز فكان من الأكراد من طائفة منهم يسمون الذولنية وكان أميراً على البرز مكان خاله ونداد، وكان ابنا أحمد بن علي من طائفة أخرى من البرز، فكانوا يسمون العيشانية وغلبا على أطراف الدينور وهمذان ونهاوند والدامغان وبعض أطراف أذربيجان إلى حد شهرزور، وبقيت في أيديهم خمسين سنة، وكانت تجتمع عليها من الأكراد جموع عظيمة، ثم توفي عام ست وخمسين وثلاثمائة.

وكانت له قلعة بسنان وغانم أباد وغيرها، فملكها بعده ابنه أبو سالم إلى أن غلبه الوزير أبو الفتح بن العميد.

وتوفي ونداد سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وقام ابنه عبد الوهاب أبو الغنائم مقامه، وأراد الساذنجان، وأسلمه إلى حسنويه فاستولى على أملاكه وقلاعه.

وكان حسنويه عظيم السياسة حسن السيرة، وبنى أصحابه حصن التلصص، وهي قلعة سرماج بالصخور المهندسة، وبنى بالدينور جامعاً كذلك، وكان كثير الصدقة بالحرمين.

ثم توفي سنة تسع وستين وثلاثمائة وافترق أولاده من بعده، فبعضهم صار إلى طاعة فخر الدولة صاحب همذان وأعمال الجبل، والآخرون صاروا إلى عضد الدولة وكان بختيار منهم بقلعة سرماج ومعه الأموال والذخائر، فكاتب عضد الدولة بالطاعة، ثم انتقض.

فبعث عضد الدولة عسكراً فحاصروه وملكوا القلعة من يده والقلاع الأخرى من إخوته.

واستولى عضد الدولة على أعمالهم واصطنع من بينهم أبا النجم بن حسنويه، وأمده بالعسكر فضبط تلك النواحي، وكف عادية الأكراد بها واستقام أمرها.

استيلاء عضد الدولة على همذان والري من يد أخيه فخر الدولة وولاية أخيهما مؤيد الدولة عليها

قد تقدم أن ركن الدولة عهد إلى ابنه فخر الدولة، وكان يكاتب بختيار، وعلم بذلك عضد الدولة فأغضى، فلما فرغ من شأن بختيار وابن حمدان وحسنويه، وعظم استيلاؤه أراد إصلاح الأمر بينه وبين أخيه وقابوس بن وشمكير، فكاتب مؤيد الدولة وفخر الدولة يعاتبه ويستميله، وكان الرسول خواشادة من أكبر أصحاب عضد الدولة، فاستمال أصحاب فخر الدولة وضمن لهم الإقطاعات، وأخذ عليهم العهود، واعتزم عضد الدولة على المسير إلى الري وهمذان، وسرب العساكر إليها مسالمة، فأبو الوفاء طاهر في عسكر، وخواشادة في عسكر، وأبو الفتح المظفر بن أحمد في عسكر.

ثم سار عضد الدولة في أثرهم من بغداد، ولما أطلت عساكره استأمن قواد فخر الدولة وبنو حسنويه ووزيره أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن حمدويه، ولحق فخر الدولة ببلاد الديلم، ثم بجرجان، ونزل على شمس المعالي قابوس بن وشمكير مستجيراً، فأمنه وآواه وحمل إليه فوق ما أمله، وشاركه فيما بيده من الملك وغيره.

وملك عضد الدولة همذان والري وما بينهما من الأعمال، وأضافها إلى أخيه مؤيد الدولة بن بويه صاحب أصفهان وأعمالها.

ثم عطف على ولاية حسنويه الكردي وفتح نهاوند والدينور وسرماج، وأخذ ما كان فيها لبني حسنويه، وفتح عدة من قلاعهم، وخلع على بدر بن حسنويه وأحسن إليه وولاه رعاية الأكراد، وقبض على إخوته عبد الرزاق وأبي العلاء وأبي عدنان.

ولما لحق فخر الدولة بجرجان وأجاره قابوس بعث إليه أخوه عضد الدولة في طلبه، فأجاره وامتنع من إسلامه.

فجهز إليه عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة صاحب أصفهان بالعساكر والأموال والسلاح، فسار إلى جرجان، وبرز قابوس للقائه، والتقوا بنواحي أستراباذ في منتصف إحدى وسبعين وثلاثمائة فانهزم قابوس ومر ببعض قلاعه فاحتمل منها ذخيرته ولحق بنيسابور.

وجاء فخر الدولة منهزماً على أثره، وكان ذلك لأول ولاية حسام الدولة تاش خراسان من قبل أبي القاسم بن منصور من بني سامان، فكتب بخبرهما إلى الأمير نوح ووزيره العتبي أبي العباس تاش، فجاءه الجواب بنصرهما، فجمع عساكر خراسان وسار معهما إلى جرجان فحاصروا بها مؤيد الدولة شهرين حتى ضاقت أحوال مؤيد الدولة، واعتزم هو وأصحابه على الخروج والاستماتة بعد أن كاتب فائقاً الخاصة الساماني، ورغبه، فوعده بالانهزام عند اللقاء.

وخرج مؤيد الدولة، وانهزم فائق وتبعه العسكر وثبت تاش

وفخر الدولة وقابوس إلى آخر النهار، ثم انهزموا ولحقوا بنيسابور، وبعثوا بالخبر إلى الأمير نوح، فبعث إليهم بالعساكر ليعود إلى جرجان، ثم قتل الوزير العتبي كما تقدم في أخبار دولتهم وانتقض ذلك الرأي.

استيلاء عضد الدولة على بلاد الهكارية وقلعة سندة

كان عضد الدولة قد بعث عساكره إلى بلاد الأكراد الهكارية من أعمال الموصل، فحاصر قلاعهم وضيق عليهم، وكانوا يؤملون نزول الثلج فترحل عنهم العساكر، وتأخر نزوله فاستأمنوا ونزلوا من قلاعهم إلى الموصل، واستولت عليها العساكر وغدر بهم مقدم الجيش فقتلهم جميعا، وكانت قلعة بنواحي الجبل لأبي عبد الله المري مع قلاع أخرى، وله فيها مساكن نفيسة، وكان من بيت قديم، فقبض عليه عضد الدولة وعلى أولاده واعتقلهم وملك القلاع.

ثم أطلقهم الصاحب بن عباد فيما بعد واستخدم أبا طاهر من ولده واستكتبه وكان حسن الخط واللفظ.

وفاة عضد الدولة وولاية ابنه صمصام الدولة

ثم توفي عضد الدولة ثامن شوال سنة اثنتين وسبعين لخمس سنين ونصف من ولايته العراق، وجلس ابنه صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان للعزاء، فجاءه الطائع معزياً، وكان عضد الدولة بعيد الهمة شديد الهيبة حسن السياسة ثاقب الرأي محباً للفضائل وأهلها، وكان كثير الصدقة والمعروف ويدفع المال لذلك إلى القضاة ليصرفوه في وجوهه.

وكان محبا للعلم وأهله مقربا لهم محسنا إليهم، ويجلس معهم ويناظرهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد، وصنفت الكتب باسمه كالإيضاح في النحو والحجة في القراءات والملكي في الطب والتاجي في التواريخ وعمل البيمارستانات وبنى القناطر.

وفي أيامه حدثت المكوس على المبيعات، ومنع من الاحتراف ببعضها، وجعلت متجراً للدولة.

ولما توفي عضد الدولة اجتمع القواد والأمراء على ابنه أبي كاليجار المرزبان وولوه الملك مكانه، ولقبوه صمصام الدولة، فخلع على أخيه أبي الحسن أحمد وأبي طاهر فيروز شاه وأقطعهما فارس وبعثهما إليها.

استيلاء شرف الدولة بن عضد الدولة على فارس واقتطاعها من أخيه صمصام الدولة

كان شرف الدولة أبو الفوارس شرزيك قد ولاه أبوه عضد الدولة قبل موته كرمان وبعث إليه، فلما بلغه وفاة أبيه سار إلى فارس فملكها وقتل نصر بن هارون النصراني وزير أبيه لأنه كان يسيء عشرته، وأطلق الشريف أبا الحسن محمد بن عمر العلوي، كان أبوه حبسه بما قال عنه وزيره المظهر بن عبد اللّه عند قتله نفسه على البطيحة.

وأطلق النقيب أبا أحمد والد الشريف الرضي والقاضي أبا محمد بن معروف وأبا نصر خواشادة، وكان أبوه حبسهم وقطع خطبة أخيه صمصام الدولة وخطب لنفسه، وتلقب بأخي الدولة ووصل أخوه أبو الحسن أحمد وأبو طاهر فيروزشاه اللذان أقطعهما صمصام الدولة بشيراز فبلغهما خبر شرف الدولة بشيراز فعدا إلى الأهواز، وجمع شرف الدولة وفرق الأموال، وملك البصرة وولى عليها أخاه أبا الحسين.

ثم بعث صمصام الدولة العساكر مع ابن تتش حاجب أبيه، وأنفذ مشرف الدولة مع أبي الأغر دبيس بن عفيف الأسدي، والتقيا بظاهر عقرقوف، وانهزم عسكر صمصام الدولة وأسر ابن تتش الحاجب واستولى حينئذ الحسين بن عضد الدولة على الأهواز ورامهرمز وطمع في الملك.

وفاة مؤيد الدولة صاحب أصفهان والري وجرجان وعود فخر الدولة إلى ملكه

ثم توفي مؤيد الدولة يوسف بن بويه بن ركن الدولة صاحب أصفهان والري بجرجان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة واجتمع أهله للشورى فيمن يولوه، فأشار الصاحب إسماعيل بن عباد بإعادة فخر الدولة إلى ملكه لكبر سنه.

وتقدم إمارته بجرجان وطبرستان، فاستدعوه من نيسابور، وبعث ابن عباد من استخلفه لنفسه، وتقدم إلى جرجان فتلقاه العسكر بالطاعة وجلس على كرسيه وتفادى ابن عباس من الوزارة فمنعه واستوزره، والتزم الرجوع إلى إشارته في القليل

والكثير، وأرسل صمصام الدولة وعاهده على الاتحاد والمظاهرة.

ثم عزل الأمير نوح أبا العباس تاش عن خراسان، وولى عليها ابن سيجور، فانتقض تاش ولقيه ابن سيجور فهزمه فلحق بجرجان،فكافأه فخر الدولة وترك له جرجان ودهستان وأستراباذ وسار عنها إلى الري وأمده بالأموال والآلات، وطلب خراسان فلم يظفر بها فأقام بجرجان ثلاث سنين.

ثم مات سنة سبع وتسعين وثلاثمائة كما ذكرنا في أخبار بني سامان.

انتقاض محمد بن غانم على فخر الدولة

قد تقدم لنا ذكر غانم البرزيكاني خال حسنويه، وأنهم كانوا رؤساء الأكراد، وأنه مات سنة خمسين وثلاثمائة وكان ابنه دلسيم مكانه في قلاعه فستتان وغانم أبا، وملكها منه أبو الفتح بن العميد.

ولما كانت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة انتقض محمد بن غانم بناحية كردون من أعمال قم على فخر الدولة، ونهبت غلات السلطان وامتنع بحصن الفهجان واجتمع إليه البرزيكاني.

وسارت العساكر لقتاله في شوال فهزمها مرة بعد أخرى إلى أن بعث فخر الدولة إلى أبي النجم بدر بن حسنويه بالنكير في ذلك، فصالحه أول أربع وسبعين وثلاثمائة ثم سارت إليه العساكر سنة خمس وسبعين وثلاثمائة فقاتلها وأصيب بطعنة، ثم أخذ أسيراً ومات بطعنته.

تغلب باد الكردي على الموصل من يد الديلم ثم رجوعها إليهم

قد تقدم لنا استيلاء عضد الدولة على الموصل وأعمالها، وتقدم لنا ذكر باد الكردي خال بني مروان، وكيف خان عضد الدولة لما ملك الموصل، وطلبه فصار يخيف ديار بكر ويغير عليها حتى استفحل أمره وملك ميافارقين كما ذكرنا ذلك كله في أخبار بني مروان، وأن صمصام الدولة جهز إليه العساكر مع أبي سعيد بهرام بن أردشير، فهزمه باد وأسر أصحابه، فأعاد صمصام الدولة إليه العساكر مع أبي سعيد الحاجب، وفتك باد في الديلم بالقتل والأسر.

ثم اتبع سعيد خانور الحسينية من بلد كواشي فانهزم سعيد الحاجب إلى الموصل وثارت العامة بالديلم.

وملك باد سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة الموصل، وحدث نفسه بملك بغداد، وأخرج الديلم عنها.

واهتم صمصام الدولة بأمره، وبعث زياد بن شهراكونه من أكبر قواد الديلم لقتاله، واستكثر له من الرجال والعدد والمال، وسار إلى باد فلقيه في صفر سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وانهزم باد وأسر أكثر أصحابه، ودخل زياد بن شهراكونه الموصل، وبعث سعيد الحاجب في طلب باد فقصد جزيرة ابن عمر وعسكر آخراً في نصيبين.

وجمع باد الجموع بديار بكر، وكتب صمصام الدولة إلى سعد الدولة بن سيف الدولة بتسليم ديار بكر له، فبعث إليها عساكره من حلب وحاصروا ميافارقين وخاموا عن لقاء باد فرجعوا عن حلب، ووضع سعيد الحاجب رجلاً لقتل باد،فدخل عليه وضربه في خيمته فأصابه وأشرف على الموت منها، فطلب الصلح على أن يكون له ديار بكر والنصف من طور عبدين، فأجابه الديلم إلى ذلك، وانحدروا إلى بغداد وأقام سعيد الحاجب بالموصل إلى أن توفي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة أيام مشرف الدولة فتجرد الكردي وطمع في الموصل، وولى مشرف الدولة عليها أبا نصر خواشاده، وجهزه بالعساكر، ولما زحف إليه باد الكردي كتب إلى مشرف الدولة يستمد العساكر والأموال، فأبطأ عليه المدد، فاستدعى العرب من بني عقيل وبني نمير وأقطعهم البلاد ليدافعوا عنها، وانحدر باد واستولى على طور عبدين ولم يقدر على النزول على الصحراء، وبعث أخاه في عسكر لقتال العرب فهزموه وقتلوه.

ثم أتاهم الخبر بموت مشرف الدولة، فعاد خواشاده إلى الموصل وأقامت العرب بالصحراء يمنعون باد من النزول وينتظرون خروج خواشاده لمدافعة باد وحربه، وبينما هم في ذلك جاء إبراهيم وأبو الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان فملكا الموصل كما ذكرنا في أخبار دولتهم.

استيلاء صمصام الدولة على عمان ورجوعها لمشرف الدولة

كان مشرف الدولة استولى على فارس وخطب له بعمان، وولى عليها أستاذ هرمز فانتقض عليه وصار مع صمصام الدولة، وخطب له بعمان فبعث مشرف الدولة إليه عسكراً فهزموا أستاذ هرمز وأسروه، وحبس ببعض القلاع وطولب بالأموال، وعادت عمان إلى مشرف الدولة.

خروج أبي نصر بن عضد الدولة على أخيه صمصام الدولة وانهزامه وأسره

كان أسفار بن كردويه من أكابر قواد الديلم واستوحش من صمصام الدولة فمال عن طاعته إلى أخيه مشرف الدولة وهو بفارس، وداخل رجال الديلم في صمصام الدولة وأن ينصبوا بهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة نائباً عن أخيه مشرف الدولة حتى يقدم من فارس، وتمكن أسفار من الخوض في ذلك، فمرض صمصام الدولة وتأخر عن حضور الدار وراسله صمصام الدولة أنه لا ذنب له لأنه كان صبياً، فاعتقله مكرماً، وسعى إليه بابن سعدان وزيره أوهواه كان معهم فعزله وقتله ومضى أسفار إلى أبي الحسن بن عضد الدولة بالأهواز ومضى بقية العسكر إلى مشرف الدولة بفارس.

استيلاء القرامطة على الكوفة بدعوة مشرف الدولة ثم انتزاعها منهم

كان للقرامطة محل من البأس والهيبة عند أهل الدول، وكانوا يدافعونهم في أكثر الأوقات بالمال، وأقطعهم معز الدولة وابنه بختيار ببغداد وأعمالها، وكان يأتيهم ببغداد أبو بكر بن ساهويه يحتكم بحكم الوزراء، فقبض عليه صمصام الدولة وكان على القرامطة في هجر ونيسابور مشتركان في إمارتهما، وهما إسحاق وجعفر.

فلما بلغهما الخبر سارا إلى الكوفة فملكاها وخطبا لمشرف الدولة، وكاتبهما صمصام الدولة بالعتب فذكرا أمرهما ببغداد، وانتشر القرامطة في البلاد وجبوا الأموال، ووصل أبو قيس الحسن بن المنذر من أكابرهم إلى الجامعين فسرح صمصام الدولة العسكر ومعهم العرب، فعبروا الفرات وقاتلوه فهزموه وأسروه، وقتلوا جماعة من قواد القرامطة.

ثم عاودوا عسكراً آخر ولقيتهم عساكر صمصام الدولة بالجامعين فانهزم القرامطة وقتل مقدمهم وغيره، وأسروا منهم العساكر وساروا في اتباعهم إلى القادسية فلم يدركوهم.

استيلاء مشرف الدولة على الأهواز ثم على بغداد واعتقال صمصام الدولة

ثم سار مشرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة من فارس لطلب الأهواز، وقد كان أخوه أبو الحسين تغلب عليها عند انهزام عساكر صمصام الدولة سنة اثنتين وسبعين، وكان صمصام الدولة عندما ملك بعث أبا الحسين وأبا ظاهر أخويه على فارس كما قدمناه، فوجدا أخاهما مشرف الدولة قد سبقهما إلى ملكها.

وعندما ملك فارس والبصرة ولاهما على البصرة، فلما انهزمت عساكر صمصام الدولة أمام عسكر مشرف الدولة بعث أبا الحسين على الأهواز فملكها وأقام بها، واستخلف على البصرة أخاه أبا ظاهر، فلما سار مشرف الدولة هذه السنة إلى الأهواز قدم إليه الكتاب بأن يسير إلى العراق، وأنه يقره على عمله، فشق ذلك على أبي الحسين، وتجهز للمدافعة، فعاجله مشرف الدولة عن ذلك.

وأغذ السير إلى أرجان فملكها، ثم رامهرمز، وانتقض أجناده ونادوا بشعار مشرف الدولة، فهرب إلى عمه فخر الدولة بالري، وأنزله بأصفهان ووعده بالنصر، وأبطأ عليه فثار في أصفهان بدعوة أخيه مشرف الدولة فقبض عليه جندها وبعثوا به إلى الري، فحبسه فخر الدولة إلى أن مرض واشتد مرضه فأرسل من قتله في محبسه.

ولما هرب أبو الحسين من الأهواز سار إليها مشرف الدولة، وأرسل إلى البصرة قائداً فملكها، وقبض على أخيه أبي ظاهر وبعث إليه صمصام الدولة في الصلح، وأن يخطب له ببغداد، وسارت إليه الخلع والألقاب من الطائع، وجاء من قبل صمصام الدولة من يستخلفه، وكان معه الشريف أبو الحسن محمد بن عمر الكوفي، فكان يستحثه إلى بغداد.

وفي خلال ذلك جاءته كتب القواد من بغداد بالطاعة، وبعث أهل واسط بطاعتهم فامتنع من إتمام الصلح، وسار إلى واسط فملكها وأرسل صمصام الدولة أخاه أبا نصر يستعطفه بالسلافة فلم يعطف عليه.

وشغب الجند على صمصام الدولة فاستشار صمصام الدولة أصحابه في طاعة أخيه فنهوه.

وقال بعضهم: نصعد إلى عكبرا ونتبين الأمر، وإن دهمنا ما لا نقوى عليه سرنا إلى الموصل وننتصر بالديلم، وقال آخرون: نقصد فخر الدولة بأصفهان، ثم نخالفه إلى فارس فنحتوي على

خزائن مشرف الدولة وذخائره فيصالح كرهاً فأعرض عنهم، وركب صمصام الدولة إلى أخيه مشرف الدولة في خواصه فتلقاه بالمبرة، ثم قبض عليه وسار إلى بغداد فدخلها في رمضان سنة ست وسبعين وثلاثمائة وأخوه صمصام الدولة في اعتقاله بعد أربع سنين من إمارته بالعراق.

أخبار مشرف الدولة في بغداد مع جنده ووزرائه

لما دخل مشرف الدولة بغداد كان الديلم معه في قوة وعدد، تنتهي عدتهم إلى خمسة عشر ألفاً، والأتراك لا يزيدون على ثلاثة آلاف.

فاستطال الديلم بذلك وجرت بين اتباعهم لأول دخولهم بغداد مصاولة آلت إلى الحرب بين الفريقين، فاستظهر الديلم على الترك وتنادوا بإعادة صمصام الدولة إلى ملكه، فارتاب بهم مشرف الدولة ووكل بصمصام الدولة من يقتله إن هموا بذلك.

ثم أتيحت الكرة للأتراك على الديلم وفتكوا فيهم، وافترقوا واعتصم بعضهم بمشرف الدولة.

ثم دخل من الغد إلى بغداد فتقبله الطائع وهنأه بالسلامة.

ثم أصلح بين الطائفتين واستحلفهم جميعاً، وحمل صمصام الدولة إلى قلعة ورد بفارس فاعتقل بها، وكان نحرير الخادم يشير بقتله فلا يجيبه أحد، واعتقل سنة تسع وسبعين وثلاثمائة وأشرف على الهلاك، ثم أشار نحرير في قتله أو سمله، فبعث لذلك من يثق به فلم يقدم على سمله حتى استشار أبا القاسم بن الحسن الناظر هناك فأشار به فسمله.

وكان صمصام الدولة يقول: إنما أعماني العلاء لأنه في معنى حكم سلطان ميت.

ولما فرغ مشرف الدولة من فتنة الجند صرف نظره إلى تهذيب ملكه، فرد على الشريف محمد بن عمر الكوفي جميع أملاكه، وكانت تغل في كل سنة ألفي ألف وخمسمائة ألف درهم، ورد على النقيب أبي أحمد والد الرضي جميع أملاكه.

وأقر الناس على مراتبهم، وكان قبض على وزيره أبي محمد بن فسانجس وأفرج عن أبي منصور الصاحب، واستوزره فأقره على وزارته ببغداد.

وكان قراتكين قد أفرط في الدولة والضرب على أيدي الحكام فرأى أن يخرجه إلى بعض الوجوه، وكان حنقاً على بدر بن حسنويه لميله مع عمه فخر الدولة، فبعثه إليه في العساكر سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فهزمه بدر بوادي قرمسين بعد أن هزمه قراتكين أولاً.

ونزل العسكر فكر عليهم بدر فهزمهم وأثخن فيهم ونجا قراتكين في الفل إلى جسر النهروان حتى اجتمع إليه المنهزمون، ودخل بغداد واستولى بدر على أعمال الجبل.

ولما رجع قراتكين أغرى الجند بالشغب على الوزير أبي منصور بن صالحان، فأصلح مشرف الدولة بينه وبين قراتكين.

وحقدها له فقبض عليه بعد أيام وعلى جماعة من أصحابه، واستصفى أموالهم وشغب الجند من أجله فقتله، وقدم عليهم مكانه طغان الحاجب.

ثم قبض سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة على شكر الخادم خالصة أبيه عضد الدولة وخالصته، وكان يحقد عليه من أيام أبيه من سعاياته فيه منها إخراجه من بغداد إلى كرمان تقرباً إلى أخيه صمصام الدولة بإخراجه.

فلما ملك مشرف الدولة بغداد اختفى شكر فلم يعثر عليه، وكان معه في اختفائه جارية حسناء فعلقت بغيره، وفطن لها فضربها فخرجت مغاضبة له.

وجاءت إلى مشرف الدولة فدلت عليه فأحضره وهم بقتله، وشفع فيه نحرير الخادم حتى وهبه له.

ثم استأذن في الحج وسار من مكة إلى مصر فاختصه خلفاء الشيعة وأنزلوه عندهم بالمنزلة الرفيعة.

وفاة مشرف الدولة وولاية أخيه بهاء الدولة

ثم توفي مشرف الدولة أبو الفوارس سرديك بن عضد الدولة ملك العراق في منتصف تسع وسبعين وثلاثمائة لثمانية أشهر وسنتين من ملكه، ودفن بمشهد علي.

ولما اشتدت علته بعث ابنه أبا علي إلى بلاد فارس بالخزائن والعدد مع أمه وجواريه في جماعة عظيمة من الأتراك، وسأله أصحابه إن يعهد فقال: أنا في شغل عن ذلك، فسألوه نيابة أخيه بهاء الدولة ليسكن الناس إلى أن يستفيق من مرضه، فولاه نيابته.

ولما جلس بهاء الدولة في دست الملك، ركب إليه الطائع فعزاه وخلع عليه خلع السلطنة، وأقر بهاء الدولة أبا منصور بن

صالحان على وزارته.

وثوب صمصام الدولة بفارس وأخباره مع أبي علي ابن أخيه مشرف الدولة

قد تقدم لنا أن صمصام الدولة اعتقله أخوه مشرف الدولة بقلعة ورد قرب شيراز من أعمال فارس عندما ملك بغداد سنة ست وسبعين وثلاثمائة.

فلما مات مشرف الدولة وكان قد بعث ابنه أبا علي إلى فارس، ولحقه موت أبيه بالبصرة فبعث ما معه في البحر إلى أرجان، وسار إليها في البر مخفاً.

والتف عليه الجند الذين بها، وكاتبه العلاء بن الحسن من شيراز بخبر صمصام الدولة، فسار إلى شيراز واختلف عليه الجند، وهمَّ الديلم بإسلامه إلى صمصام الدولة، فتحرك الأتراك وقاتل الديلم أياماً، ثم سار إلى نسا والأتراك معه، فأخذوا ما بها من المال وقتلوا الديلم ونهبوا أموالهم وسلاحهم.

وسار أبو علي إلى أرجان، وبعث الأتراك إلى شيراز فقاتلوا صمصام الدولة والديلم ونهبوا البلد، وعادوا إليه بأرجان.

وجاءه رسول عمه بهاء الدولة من بغداد بالمواعيد الجميلة، ودس مع رسوله إلى الأتراك، واستمالهم فحسنوا لأبي علي المسير إلى عمه بهاء الدولة، فسار إليه ولقيه بواسط منتصف ثمانين وثلاثمائة وقد أعد له الكرامة والنزول، ثم قبض عليه لأيام وقتله، وتجهز للمسير إلى فارس.

مسير فخر الدولة صاحب الري وأصفهان وهمذان إلى العراق وعوده

كان الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بن ركن الدولة يحب العراق ويريد بغداد، لما كان بها من الحضارة واستثار الفضائل.

فلما توفي مشرف الدولة سلطان بغداد رأى أن الفرصة قد تمكنت فدس إلى فخر الدولة من يغريه بملك بغداد، حتى استشاره في ذلك، فتلطف في الجواب بأن أحاله على سعادته فقبل إشارته، وسار إلى حمدان ووفد عليه بدر بن حسنويه ودبيس بن عفيف الأسدي، وشاوروا في المسير فسار الصاحب بن عباد وبدر في المقدمة على الجادة، وفخر الدولة على خوزستان.

ثم ارتاب فخر الدولة بالصاحب بن عباد خشية من ميله مع أولاد عضد الدولة فاستعاده، وساروا جميعاً إلى الأهواز فملكها فخر الدولة وأساء السيرة في جندها وجنده، وحبس عنهم العطاء فتخاذلوا وكان الصاحب منذ اتهمه ورده عن طريقه معرضاً عن الأمور ساكتاً، فلم تستقم الأمور بإعراضه.

ثم بعث بهاء الدولة عساكره إلى الأهواز فقاتلوهم وزادت دجلة إلى الأهواز، وانفتقت أنهارها فتوهم الجند وحسبوها مكيدة فانهزموا، وأشار عليه الصاحب بإطلاق الأموال فلم يفعل، فانفضت عنه عساكر الأهواز، وعاد إلى الري وقبض في طريقه على جماعة من قواد الديلم والري، وعادت الأهواز إلى دعوة بهاء الدولة.

مسير بهاء الدولة إلى أخيه صمصام الدولة بفارس

ثم سار بهاء الدولة سنة ثمانين وثلاثمائة إلى خوزستان عازماً على قصد فارس، وخلف ببغداد أبا نصر خواشاده من كبار قواد الديلم، ومر بالبصرة فدخلها، وسار منها إلى خوزستان، وأتاه نعي أخيه أبي ظاهر فجلس لعزائه، ودخل أرجان وأخذ جميع ما فيها من الأموال، وكانت ألف ألف دينار وثمانية آلاف ألف درهم، وهرعت إليه الجنود وتفرقت فيهم تلك الأموال كلها.

ثم بعث مقدمته أبا العلاء بن الفضل إلى النوبندجان فهزموا بها عسكر صمصام الدولة، فأعاد صمصام الدولة العساكر مع فولاد بن ماندان فهزموا أبا العلاء بمراسلة وخديعة من فولاد، كبسه في أثرها، فعاد إلى أرجان مهزوماً.

ولحق صمصام الدولة من شيراز بفولاد.

ثم ترددت الرسل في الصلح على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ولبهاء الدولة خوزستان والعراق، ويكون لكل منهما إقطاع في بلد صاحبه، فتم ذلك بينهما وتحالفا عليه، وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز، وبلغه ما وقع ببغداد من العيارين وبين الشيعة وأهل السنة وكيف نهبت الأموال وخرجت المساكين فأعاد السير إلى بغداد وصلحت الأحوال.

القبض على الطائع ونصب القادر للخلافة

قد ذكرنا أن بهاء الدولة وقد شغب الجند عليه لقلة الأموال، وقبض وزيره فلم يغن عنه.

وكان أبو الحسن بن المعلم غالباً على هواه، فأطمعه في مال الطائع، وزين له القبض عليه.

فأرسل إليه بهاء الدولة في الحضور عنده، فجلس على العادة، ودخل بهاء الدولة في جمع كبير وجلس على كرسيه، وأهوى بعض الديلم إلى يد الطائع ليقبلها، ثم جذبه عن سريره، وهو يستغيث ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، واستصفيت خزائن دار الخلافة فمشى بها الحال أياماً ونهب الناس بعضهم بعضاً.

ثم أشهد على الطائع بالخلع ونصبوا للخلافة عمه القادر أبا العباس أحمد المقتدر، استدعوه من البطيحة وكان فر إليها أيام الطائع كما تقدم في أخبار الخلفاء، وهذا كله سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة.

رجوع الموصل إلى بهاء الدولة

كان أبو الرواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل قتل أبا طاهر بن حمدان آخر ملوك بني حمدان بالموصل وغلب عليها، وأقام بها طاعة معروفة لبهاء الدولة، وذلك سنة ثمانين وثلاثمائة كما مر في أخبار بني حمدان وبني المسيب.

ثم بعث بهاء الدولة أبا جعفر الحجاج بن هرمز من قواد الديلم في عسكر كبير إلى الموصل فملكها آخر إحدى وثمانين فاجتمعت عقيل مع أبي الرواد على حربه وجرت بينهم عدة وقائع، وحسن فيها بلاء أبي جعفر بالقبض عليه، فخشي اختلاف أمره هناك وراجع في أمره، وكان بإغراء ابن المعلم وسعايته.

ولما شعر الوزير بذلك صالح أبا الرواد وأخذ رهنه، وأعاده إلى بغداد فوجد بهاء الدولة قد نكب ابن المعلم.

أخبار ابن المعلم

هو أبو الحسن بن المعلم قد غلب على هوى بهاء الدولة وتحكم في دولته، وصدر كثير من عظائم الأمور بإشارته، فمنها نكبة أبي الحسن محمد بن عمر العلوي، وكان قد عظم شأنه مع مشرف الدولة وكثرت أملاكه.

فلما ولي بهاء الدولة سعى به عنده وأطمعه في ماله، فقبض عليه واستصفى سائر أملاكه، ثم حمله على نكبة وزيره أبي منصور بن صالحان سنة ثمان واستوزر أبا النصر سابور بن أردشير قبل مسيره إلى خوزستان، ثم حمله على خلع الطائع واستصفى أمواله وحمل ذخائر الخلافة إلى داره، ثم حمله على نكبة وزيره أبي نصر سابور واستوزر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، وبعد مرجعه من خوزستان قبض على أبي خواشاده وأبي عبد اللّه بن ظاهر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة لأنهما لم يوصلا لابن المعلم هداياهما، فحمل بهاء الدولة على نكبتهما.

ولما استطال على الناس وكثر الضجر منه شغب الجند على بهاء الدولة وطالبوه بإسلامه إليهم، وراجعهم فلم يقبلوا، فقبض عليه وعلى سائر أصحابه ليسترضيهم بذلك فلم يرضوا إلا به، فأسلمه إليهم وقتلوه.

ثم اتهم الوزير أبا القاسم بمداخلة الجند في الشغب على الوزير، فقبض عليه واستوزر مكانه أبا نصر سابور وأبا نصر بن الوزير الأولين وأقاما شريكين في الوزارة.

خروج أولاد بختيار وقتلهم

كان عضد الدولة قد حبس أولاد بختيار فأقاموا معتقلين مدة أيامه وأيام صمصام الدولة من بعده.

ثم أطلقهم مشرف الدولة وأحسن إليهم وأنزلهم بشيراز وأقطعهم.

فلما مات مشرف الدولة حبسوا في قلعة ببلاد فارس، فاستمالوا الموكل الذي عليهم والجند الذي معه من الديلم، فأفرجوا عنهم وذلك سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة. واجتمع إليهم أهل تلك النواحي وأكثرهم رجالة، وبلغ الخبر إلى صمصام الدولة فبعث أبا علي بن أستاذ هرمز في عسكر، فافترقت تلك الجموع وتحصن بنو بختيار ومن معهم من الديلم، وحاصرهم أبو علي، وأرسل أحد الديلم معهم فأصعدهم سراً وملكوا القلعة وقتلوا أولاد بختيار.

استيلاء صمصام الدولة على الأهواز ورجوعها منه

ثم انتقض الصلح سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة بين بهاء الدولة صاحب بغداد وأخيه صمصام الدولة صاحب خوزستان، وذلك أن بهاء الدولة بعث أبا العلاء عبد اللّه بن الفضل إلى الأهواز، وأسر إليه أن يبعث العساكر متفرقة، فإذا اجتمعوا عنده صدم بهم بلاد فارس.

فسار أبو العلاء، وتشاغل بهاء الدولة عن ذلك، وظهر الخبر فجهز صمصام الدولة عسكره إلى خوزستان، واستمد أبو العلاء بهاء الدولة فتوافت عساكره، والتقى العسكران وانهزم أبو العلاء وأخذ أسيراً، فأطلقته أم صمصام الدولة.

وقلق بهاء الدولة لذلك، وافتقد الأموال فأرسل وزيره أبا نصر سابور إلى واسط، وأعطاه جواهر وأعلاقاً يسترهنها عند مهذب الدولة صاحب البطيحة فاسترهنها، ولما هرب الوزير أبو نصر استعفى ابن الصالحان من الانفراد بالوزارة فأعفي.

واستوزر بهاء الدولة أبا القاسم علي بن أحمد، ثم عجز وهرب.

وعاد أبو نصر سابور إلى الوزارة بعد أن أصلح الديلم.

ثم بعث بهاء الدولة طغان التركي إلى الأهواز في سبعمائة من المقاتلة فملكوا السوس، ورحل أصحاب صمصام الدولة عن الأهواز، وانتشرت عساكر طغان في أعمال خوزستان، وكان أكثرهم من الترك، فغص الديلم بهم الذين في عسكر طغان، فضلّ الدليل وأصبح على بعد منهم، ورآهم الأتراك فركبوا إليهم وأكمن ألوفاً، واستأمن كثير منهم وأمنهم طغان حتى نزلوا، بأمر الأتراك فقتلوهم كلهم، وانتهى الخبر إلى بهاء الدولة بواسط، وسار إلى الأهواز وسار صمصام الدولة إلى شيراز وذلك سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وأمر صمصام الدولة بقتل الأتراك في جميع بلاد فارس سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، فقتل منم جماعة وهرب الباقون، فعاثوا في البلاد ولحقوا بكرمان، ثم ببلاد السند حتى توسطهم الأتراك فأطبقوا عليهم واستلحموهم.

استيلاء صمصام الدولة على الأهواز ثم على البصرة

ثم بعث صمصام الدولة عساكره الديلم سنة خمس وثمانين وثلاثمائة إلى الأهواز، وكان نائب بهاء الدولة قد توفي وعزم الأتراك على العود إلى بغداد، فبعث بهاء الدولة مكانه أبا كاليجار المرزبان بن سفهيعون، وأنفذ أبا محمد الحسن بن مكرم إلى رامهرمز مدداً لنائبها لفتكين، وقد انهزم إليها أمام عسكر صمصام الدولة، فترك أبا محمد بن مكرم بها، ومضى إلى الأهواز وسار إلى خوزستان، فكاتبه العلاء بن الحسن يخادعه، ثم سار إلى رامهرمز وحارب ابن مكرم ولفتكين وبعث بهاء الدولة ثمانين من الأتراك يأتون من خلف الديلم، فشعروا بهم وقتلوهم أجمعين، وخام بهاء الدولة عن اللقاء، فرجع إلى الأهواز، ثم سار إلى البصرة ونزل بها، وانتهى خبره إلى ابن مكرم، فعاد إلى عسكر مكرم واتبعه العلاء والديلم فأجلوه عنها إلى قرب تستر.

وتكررت الوقائع بين الفريقين، فكان بيد الأتراك من تستر إلى رامهرمز، وبيد الديلم من رامهرمز، ورجع الأتراك واتبعهم العلاء فوجدهم قد سلكوا طريق واسط فرجع عنهم، وأقام بعسكر مكرم.

ورجع بهاء الدولة إلى بغداد، وكان مع العلاء قائد من قواد الديلم اسمه شكراستان، فاستأمن إليه من الديلم الذين مع بهاء الدولة نحو من أربعمائة رجل فاستكثر بهم، وسار إلى البصرة وحاصرها، ومال إليهم أبو الحسن بن جعفر العلوي من أهل البصرة، وكانوا يحملون الميرة.

وعلم بهاء الدولة فأنفذ من يقبض عليهم فهربوا إلى ذلك القائد وقوي بهم، وجمعوا له السفن فركبها إلى البصرة، وقاتل أصحاب بهاء الدولة وهزمهم وملك البصرة واستباحها.

وكتب بهاء الدولة إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة بأن يرتجعها من يد الديلم ويتولاها، فأمده عبد اللّه بن مرزوق، وأجلى الديلم عنها، ثم رجع للقاء شكراستان، وهجم عليها في السفن فملكها وكاتب بهاء الدولة بالطاعة والضمان فأجابه وأخذ ابنه رهينة، وكان يظهر طاعة بهاء الدولة وصمصام الدولة.

وفاة الصاحب بن عباد

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة توفي أبو القاسم إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالري، وكان أوحد زمانه علماً وفضلاً ورياسةً ورأياً وكرماً وعرفاً بأنواع العلوم، عارفاً بالكتابة ورسائله مشهورة مدونة.

وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد حتى يقال: كانت تنقل في أربعمائة حمل.

ووزر بعده لفخر الدولة أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبي الملقب بالكافي.

ولما توفي استصفى فخر الدولة أمواله بعد أن أوصاه عند الموت، فلم ينفذ وصيته.

وكان الصاحب قد أحسن إلى القاضي عبد الجبار المعتزلي وقدمه وولاه قضاء الري وأعمالها.

فلما مات قال عبد الجبار: لا أرى الترحم عليه لأنه مات

على غير توبة ظهرت منه، فنسب إليه قلة الوفاء بهذه المقالة.

ثم صادر فخر الدولة عبد الجبار فباع في المصادرة ألف طيلسان وألف ثوب من الصوف الرفيع.

ثم تتبع فخر الدولة آثار ابن عباد وأبطل ما كان عنده من المسامحات، وقبض على أصحابه والبقاء لله وحده.

وفاة فخر الدولة صاحب الري وملك ابنه مجد الدولة

ثم توفي فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه صاحب الري وأصفهان وهمذان في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة بقلعة طبرك، ونصب للملك من بعده ابنه مجد الدولة أبو طالب رستم وعمره أربع سنين، نصبه الأمراء وجعلوا أخاه شمس الدولة بهمذان وقرميس إلى حدود العراق.

وكان زمام الدولة بيد أم رستم مجد الدولة وإليها تدبير ملكه، وبين يديها في مباشرة الأعمال أبو ظاهر صاحب فخر الدولة، وأبو العباس الضبي الكافي.

وفاة العلاء بن الحسن صاحب خوزستان

ثم توفي العلاء بن الحسن عامل خوزستان لصمصام الدولة بعسكر مكرم، فبعث صمصام الدولة أبا علي بن أستاذ هرمز بالمال ففرقه في الديلم، ودفع أصحاب بهاء الدولة عن جند نيسابور بعد وقائع كان الظفر فيها له، ثم دفعهم عن خوزستان إلى واسط واستمال بعضهم فنزعوا إليه، ورتب العمال في البلاد وجبى الأموال سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

ثم سار أبو محمد بن مكرم من واسط مع الأتراك فدافعهم، وكانت بينه وبينهم وقائع.

ثم سار بهاء الدولة في أثرهم من واسط، وكان لحق بهم في واسط أبو علي بن إسماعيل الذي كان نائباً ببغداد عند مسيره إلى الأهواز سنة ست وثمانين وثلاثمائة وجاء المقلد بن المسيب من الموصل للعيث في جهات بغداد، فبرز أبو علي لقتاله، فنكر ذلك بهاء الدولة مغالطة، وبعث من يصالحه ويقبض على أبي علي، فهرب أبو علي إلى البطيحة، ثم لحق ببهاء الدولة وهو بواسط فوزر له وزير أمره وأشار عليه بالمسير لإنجاد أبي محمد بن مكرم في قتال أبي علي بن أستاذ هرمز بخوزستان، فسار بهاء الدولة ونزل القنطرة البيضاء، وجرت بينه وبين أبي علي بن أستاذ هرمز وقائع، وانقطعت الميرة عن عسكر بهاء الدولة، فاستمد بدر بن حسنويه فأمده ببعض الشيء، وكثرت سعاية الأعداء في أبي علي بن إسماعيل فكاد ينكبهم، وبينما هم على ذلك بلغهم مقتل صمصام الدولة فصلحت الأحوال واجتمعت الكلمة.

مقتل صمصام الدولة

كان أبو القاسم وأبو نصر ابنا بختيار محبوسين كما تقدم، فخدعا المتوكلين بهما في القلعة، وخرجا فاجتمع إليهما لفيف من الأكراد، وكان صمصام الدولة قد عرض جنده وأسقط منهم نحواً من ألف لم يثبت عنده نسبهم في الديلم فبادروا إلى ابني بختيار والتقوا عليهما في أرجان.

وكان أبو جعفر أستاذ هرمز مقيماً، فثار به الجند ونهبوا داره فاختفى، ثم انتقضوا على صمصام الدولة ونهبوه، وهرب إلى الرودمان على مرحلتين من شيراز فقبض عليه صاحبها، وجاء أبو نصر بن بختيار فأخذه منه وقتله في ذي الحجة سنة ثمان لتسع سنين من إمارته بفارس، وأسلمت أمه إلى بعض قواد الديلم فقتلها ودفنها بداره حتى ملك بهاء الدولة فارس، فنقلها إلى تربة بني بويه.

استيلاء بهاء الدولة على فارس وخوزستان

ولما قتل صمصام الدولة وملك ابنا بختيار فارس بعثا إلى أبي علي بن أستاذ هرمز يستميلانه، ويأمرانه بأخذ العهد لهما على الذين معه من الديلم، ومحاربة بهاء الدولة.

وكتب إليه بهاء الدولة يستميله ويؤمنه ويؤمن الديلم الذين معه ويرغبهم، واضطرب رأي أبي علي لخوفه من ابني بختيار لما أسلف من قتل إخوتهما وحبسهما فمال عنهما، ومال الديلم عن بهاء الدولة خوفاً من الأتراك الذين معه، فما زال أبو علي بهم حتى بعثوا جماعة من أعيانهم إلى بهاء الدولة، واستوثقوا يمينه ونزلوا إلى خدمته، وساروا إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز وأرجان.

واستولى بهاء الدولة على سائر بلاد خوزستان وبعث وزيره أبا علي بن إسماعيل إلى فارس، فنزل بظاهر شيراز وبها ابنا بختيار فحاربهما، ومال بعض أصحابهما إليه.

ثم انفضوا عنهما إلى أبي علي وأطاعوه، واستولى على شيراز ولحق أبو نصر بن بختيار ببلاد الديلم وأخوه أبو القاسم

بدر بن حسنويه ثم بالبطيحة.

وكتب الوزير أبو علي إلى بهاء الدولة بالفتح، فسار إلى شيراز وأمر بنهب قرية الرودمان فملكها، وأقام بهاء الدولة بالأهواز، واستخلف ببغداد أبا علي بن جعفر المعروف بأستاذ هرمز ولقبه عميد العراق.

وبقي ملوك الديلم بعد ذلك يقيمون بفارس والأهواز ويستخلفون على العراق مدة طويلة.

مقتل ابن بختيار بكرمان واستيلاء بهاء الدولة عليها

لما استقر أبو نصر بن بختيار ببلاد الديلم كاتب جند الديلم بفارس وكرمان واستمالهم، فاستدعوه إلى فارس، فاجتمع إليه كثير من الربض والديلم والأكراد.

ثم سار إلى كرمان وبها أبو جعفر بن السيرجان، ومضى ابن بختيار إلى جيرفت فملكها وملك أكثر كرمان، فبعث بهاء الدولة وزيره الموفق أبا علي بن إسماعيل في العساكر، ولما وصل جيرفت استأمن إليه أهلها وملكها، وهرب ابن بختيار فاختار الوزير من أصحابه ثلاثمائة رجل وسار في أتباعه، وترك باقي العسكر بجيرفت.

ولما أدركه أوقع به وغدر بابن بختيار بعض أصحابه فقتله، وجاء برأسه إلى الموفق، واستلحم الباقين، وذلك سنة تسعين وثلاثمائة.

واستولى الموفق على كرمان، وولى عليها أبا موسى سياه جشم، وعاد إلى بهاء الدولة فقبض عليه واستصفاه، وكتب إلى وزيره سابور بالقبض على أنسابه وأصحابه، فدس إليهم سابور بذلك وهربوا.

ثم قتل بهاء الدولة الموفق سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، ثم استعمل بهاء الدولة على خوزستان وأعمالها أبا علي الحسن بن أستاذ هرمز، ولقبه عميد الجيوش، وعزل عنها أبا جعفر الحجاج بن هرمز لسوء سيرته، وفساد أحوالها بولايته، وبكثرة مصادراته، فصلحت حالها بولاية أبي علي، وحصل إلى بهاء الدولة منها الأموال مع كثرة العدل.

مسير ظاهر بن خلف إلى كرمان واستيلاؤه عليها ثم ارتجاعها

قد تقدم لنا أن ظاهر بن خلف خرج عن طاعة أبيه خلف بن أحمد السجستاني، وحاربه فظفر به أبوه، فسار إلى كرمان يروم التوثب عليها، وتكاسل عاملها عن أمره، فكثر جمعه واجتمع إليه بحيالها كثير من المخالفين، فنزل بهم إلى جيرفت فملكها وملك غيرها سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة.

وكان بكرمان أبو موسى سياه جشم، فسار إليه بمن معه من الديلم فهزمه ظاهر وأخذ ما بقي بيده، فبعث بهاء الدولة أبا جعفر أستاذ هرمز في العساكر إلى كرمان فهزم ظاهراً إلى سجستان وملك كرمان وعادت الديلم.

حروب عساكر بهاء الدولة مع بني عقيل

كان قرواش بن المقلد قد بعث جمعاً من بني عقيل سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة فحاصروا المدائن، وبعث أبو جعفر الحجاج بن هرمز وهو ببغداد نائب لبهاء الدولة عساكره فدفعوهم عنها، فاجتمع بنو عقيل وأبو الحسن بن مزيد من بني أسد، وبرز إليهم الحجاج، واستدعى خفاجة من الشام وقاتلهم فانهزم واستبيح عسكره، وانهزم ثانياً، وبرز إليهم فالتقوا بنواحي الكوفة فهزمهم وأثخن فيهم ونهب من حلل بني يزيد ما لا يعبر عنه من العين والمصاغ والثياب.

الفتنة بين أبي علي وأبي جعفر

لما غاب أبو جعفر الحاج عن بغداد قام بها العيارون واشتد فسادهم وكثر القتل والنهب، فبعث بهاء الدولة أبا علي بن جعفر المعروف بأستاذ هرمز لحفظ العراق، فانهزم أبو جعفر بنواحي الكوفة مغضباً.

ثم جمعوا الجموع من الديلم والأتراك والعرب، فانهزم أبو جعفر وأمن أبو علي جانبه، فسار إلى خوزستان وبلغ السوس. فأتاه الخبر بأن أبا جعفر عاد إلى الكوفة فكر راجعاً، وعادت الحرب بينهم، وبينما هم على ذلك أرسل بهاء الدولة إلى أبي علي يستدعيه سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة لحرب ابن واصل بالبصرة فسار إليه، وكانت الحرب بينه وبين ابن واصل كما يأتي في أخبار ملوك البطيحة، ورجع إلى بغداد ونزل أبو جعفر على فلح حامي

طريق خراسان وأقام هنالك، وكان فلح مبايناً لعميد الجيوش أبي علي، وتوفي سلخ سنة سبع وتسعين وثلاثمائة فولى أبو علي مكانه أبا الفضل بن عنان، وكان بهاء الدولة في محاربة ابن واصل بالبصرة، فأتاهم الخبر بظهور بهاء الدولة عليه، فأوهن ذلك منهم وافترقوا ولحق ابن مزيد ببلده، وسار أبو جعفر وابن عيسى إلى حلوان.

وأرسل أبو جعفر في إصلاح حاله عند بهاء الدولة فأجابه إلى ذلك، وحضر عنده بتستر، فأعرض عنه خوفاً أن يستوحش أبو علي.

وحقد بهاء الدولة لبدر بن حسنويه فسار إليه، وبعث إليه بدراً في المصالحة فقبله وانصرف، وتوفي أبو جعفر الحجاج بن هرمز بالأهواز سنة إحدى وأربعمائة.

الفتنة بين مجد الدولة صاحب الري وبين أمه واستيلاء ابن خالها علاء الدين بن كاكويه على أصفهان

قد تقدم لنا ولاية مجد الدولة أبي طالب رستم بن فخر الدولة على همذان قرميسين إلى حدود العراق، وتدبير الدولتين لأمه وهي متحكمة عليهما، فلما وزر لمجد الدولة الخطير أبو علي بن علي بن القاسم استمال الأمراء عنها وخوف مجد الدولة منها، فاسترابت وخرجت من الري إلى القلعة، فوضع عليها من يحفظها فأعملت الحيلة حتى لحقت ببدر بن حسنويه مستنجدة به.

وجاءها ابنها شمس الدولة في عساكر همذان وسار معهما بدر، وذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمائة فحاصروا أصفهان وملكوها عنوة.

وعاد إليها الأمر فاعتقلت مجد الدولة ونصبت شمس الدولة للملك، ورجع بدر إلى بلده ثم بعد سنة استرابت بشمس الدولة، فأعادت مجد الدولة إلى ملكه.

وسار شمس الدولة إلى همذان، وانتقض بدر بن حسنويه لذلك، وكان في شغل بفتنة ولده هلال.

واستمد شمس الدولة فأمده بعسكر وحاصر قم فاستصعبت عليه، وكان علاء الدين أبو حفص بن كاكويه ابن خال هذه المرأة، وكاكويه هو الخال بالفارسية، فلذلك قيل له ابن كاكويه، وكانت قد استعملته على أصفهان، فلما فارق أمرها فسد حاله، فسار هو إلى بهاء الدولة بالعراق، وأقام عنده.

فلما عادت إلى حالها هرب أبو حفص إليها من العراق، فأعادته إلى أصفهان، ورسخ فيها ملكه وملك بنيه كما يأتي في أخبارهم.

وفاة عميد العراق وولاية فخر الملك

كان أبو جعفر أستاذ هرمز من حجاب عضد الدولة وخواصه، وصير ابنه أبا علي في خدمة ابنه صمصام الدولة، فلما قتل صمصام الدولة رجع إلى بهاء الدولة، وبلغه ما وقع ببغداد في مغيبه من الهرج وظهور العيارين، فبعث بهاء الدولة مكانه على العراق فخر الملك أبا غالب، وأصعد إلى بغداد فلقيه الكتاب والقواد والأعيان في ذي الحجة من السنة، وبعث العساكر من بغداد لقتال أبي الشوك حتى استقام.

وكانت الفتنة قد وقعت بين بدر بن حسنويه وابنه هلال، واستنجد بدر بهاء الدولة فأنجده من يده وأخذ ما فيها من الأموال، وفتح دير العاقول، وجاء سلطان وعلوان ورجب بنو ثمال الخفاجي في أعيان قومهم، وضمنوا حماية سقي الفرات من بني عقيل، وساروا معه إلى بغداد فبعثهم مع ذي السعادتين الحسن بن منصور للأنبار فعاثوا في نواحيها، وحبس ذو السعادتين نفراً منهم.

ثم أطلقهم فهموا بقبضه، وشعر بهم فحاول عليهم حتى قبض على سلطان منهم وحبسهم ببغداد.

ثم شفع فيهم أبو الحسن بن مزيد فأطلقهم، فاعترضوا الحاج سنة اثنتين وأربعمائة ونهبوهم فبعث فخر الملك إلى أبي الحسن بن مزيد بالانتقام منهم، فلحقهم بالبصرة فأوقع بهم وأثخن فيهم، واسترد من أموال الحاج ما وجد وبعث به وبالأسرى إلى فخر الملك.

ثم اعترضوا الحاج مرة أخرى ونهبوا سواد الكوفة فأوقع بهم أبو الحسن بن مزيد مثل ذلك، وبعث بأسراهم إلى بغداد.

وفاة بهاء الدولة وولاية ابنه سلطان الدولة

ثم توفي بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة بن بويه هلك بالعراق منتصف ثلاث وأربعمائة بأرجان، وحمل إلى تربة أبيه بمشهد علي فدفن بها لأربع وعشرين سنة من ملكه، وملك بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع، وسار من أرجان إلى شيراز، وولى أخاه جلال الدولة أبا ظاهر على البصرة وأخاه أبا الفوارس على

كرمان.

استيلاء شمس الدولة على الري من يد أخيه مجد الدولة ورجوعه عنها

قد تقدم لنا أن شمس الدولة بن فخر الدولة كان ملك همذان وأخوه مجد الدولة ملك الري بنظر أمه، وكان بدر بن حسنويه أمير الأكراد وبينه وبين ولده هلال فتنة وحروب نذكرها في أخبارهم.

واستولى شمس الدولة على كثير من بلادهم وأخذ ما فيها من الأموال كما يذكر في أخبارهم.

ثم سار إلى الري يروم ملكها ففارقها أخوه مجد الدولة ومعه أمه إلى دنباوند واستولى شمس الدولة على الري وسار في طلب أخيه وأمه فشغب الجند عليه وطالبوه بأرزاقهم، فعاد إلى همذان وعاد أخوه مجد الدولة وأمه إلى الري.

مقتل فخر الملك ووزارة ابن سهلان

ثم قبض سلطان الدولة على نائبه بالعراق ووزيره فخر الملك أبي غالب وقتله في سلخ ربيع الأول سنة ست وأربعمائة لخمس سنين ونصف من ولايته، واستصفى أمواله، وكانت ألف ألف دينار سوى العروض وما نهب.

وولى مكانه بالعراق أبا محمد الحسن بن سهلان ولقبه عميد الجيوش، واستوزر مكانه الرجحي بعد أن كان ابن سهلان هرب إلى قرواش فأقامه عنده بهيت، وولى سلطان الدولة مكانه في الوزارة أبا القاسم جعفر بن فسانجس.

ثم رجع ابن سهلان إلى سلطان الدولة.

فلما قتل فخر الملك ولاه مكانه، فسار إلى العراق في محرم سنة تسع وأربعمائة، ومر في طريقه ببني أسد فرأى أن يثار منهم من مضر بن دبيس بما كان قد قبض عليه قديماً بأمر فخر الملك، فأسرى إليه وإلى أخيه مهارش، وفي جملته أخوهم طراد، واتبعهما حتى أدركهما، وقاتله رجال الحي فقتل جماعة من الديلم والأتراك.

ثم انهزموا ونهب ابن سهلان أموالهم وسبى حريمهم، وبذل الأمان لمضر ومهارش وأشرك بينهما وبين طراد في الجزيرة.

ونكر عليه سلطان الدولة ذلك، ورحل هو إلى واسط والفتن بها فقتل جماعة منهم وأصلحها، وبلغه ما ببغداد من الفتنة فسار إليها ودخلها في ربيع من السنة، وهرب منه العيارون ونفى جماعة من العباسيين وأبا عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، وأنزل الديلم بأطراف البلد فكثر فسادهم وفساد الأتراك، وساروا إلى سلطان الدولة بواسط شاكين من ابن سهلان فوعدهم وأمسكهم، وبعث عن ابن سهلان فارتاب وهرب إلى بني خفاجة، ثم إلى الموصل، ثم استقر بالبطيحة.

وبعث سلطان الدولة العساكر في طلبه فأجاره واليها الشرابي وهزم العساكر وكان ابن سهلان سار إلى جلال الدولة بالبصرة ثم أصلح الرجحي حاله مع سلطان الدولة ورجع إليه. وضعف أمر الديلم في هذه السنة ببغداد وواسط، وثارت لهم العامة فلم يطيقوا مدافعتهم.

ثم قبض سلطان الدولة على وزيره فسانجس وأخويه، واستوزر أبا غالب ذا السعادتين الحسن بن منصور، وقبض جلال الدولة صاحب البصرة على وزيره أبي سعد عبد الواحد علي بن ماكولا.

انتقاض أبي الفوارس على أخيه سلطان الدولة

كان سلطان الدولة قد ولى أخاه أبا الفوارس على كرمان فاجتمع إليه بعض الديلم وداخلوه في الانتقاض فانتقض، وسار إلى شيراز فملكها سنة سبع وأربعمائة.

وسار سلطان الدولة فهزمه إلى كرمان، وسار في اتباعه فلحق بمحمود بن سبكتكين ببست ووعده بالنصرة، وبعث معه أبا سعيد الطائي في العساكر إلى كرمان، وقد انصرف عنها سلطان الدولة إلى بغداد فملكها أبو الفوارس وسار إلى بلاد فارس فملكها، ودخل إلى شيراز فسار سلطان الدولة إليه فهزمه فعاد إلى كرمان سنة ثمان وأربعمائة.

وبعث سلطان الدولة في أثره فملكوا عليه كرمان، ولحق بشمس الدولة صاحب همذان لأنه كان أساء معاملة أبي سعيد الطائي، فلم يرجع إلى محمود بن سبكتكين.

ثم فارق شمس الدولة إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة فبالغ في تكرمته وأنزله بداره، وأنفذ إليه أخوه جلال الدولة مالاً، وعرض عليه المسير إليه فأبى، ثم ترددت الرسل بينه وبين أخيه سلطان الدولة فعاد إلى كرمان وبعث إليه التقليد والخلع.

وثوب مشرف الدولة على أخيه سلطان الدولة ببغداد واستبداده آخراً بالملك

ثم شغب الجند على سلطان الدولة ببغداد سنة إحدى عشرة وأربعمائة، ونادوا بولاية مشرف الدولة أخيه فهم بالقبض عليه فلم يتمكن من ذلك، ثم أراد الانحدار إلى واسط لبعض شؤون الدولة فطلب الجند أن يستخلف فيهم أخاه مشرف الدولة فاستخلفه، ورجع من واسط إلى بغداد.

ثم اعتزم على قصد الأهواز فاستخلف أخاه مشرف الدولة ثانياً على العراق بعد أن كانا تحالفا أن لا يستخلف أحد منهما ابن سهلان.

فلما بلغ سلطان الدولة تستر استوزر ابن سهلان فاستوحش من مشرف الدولة.

ثم بعث سلطان الدولة إلى الأهواز فنهبوها، فدافعهم الأتراك الذين بها، وأعلنوا بدعوة مشرف الدولة، فانصرف سلطان الدولة عنهم.

ثم طلب الديلم من مشرف الدولة المسير إلى بيوتهم بخوزستان فأذن لهم وبعث معهم وزيره أبا غالب، ولحق الأتراك الذين كانوا معه بطراد بن دبيس الأسدي بجزيرة بني دبيس وذلك لسنة ونصف من ولايته الوزارة، وصودر ابنه أبو العباس على ثلاثين ألف دينار وسر سلطان الدولة بقتل أبي غالب، وبعث أبا كاليجار إلى الأهواز فملكها.

ثم تراسل سلطان الدولة ومشرف الدولة في الصلح، وسعى فيه بينهما أبو محمد بن مكرم صاحب سلطان الدولة ومؤيد الملك الرجحي وزير مشرف الدولة، على أن يكون العراق لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة، وتم ذلك بينهما سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.

استيلاء ابن كاكويه على همذان

كان شمس الدولة بن بويه صاحب همذان قد توفي وولي مكانه ابنه سماء الدولة، وكان فرهاد بن مرداويج مقطع يزدجرد، فسار إليها سماء الدولة وحاصره، فاستنجد بعلاء الدولة بن كاكويه، فأنجده بالعساكر، ودفع سماء الدولة عن فرهاد.

ثم سار علاء الدولة وفرهاد إلى همذان وحاصراها، وخرجت عساكر همذان مع عساكر تاج الملك الفوهي قائد سماء الدولة فدفعهم، ولحق علاء الدولة بجرباذقان فهلك الكثير من عسكر ه بالبرد وسار تاج الملك الفوهي إلى جرباذقان فحاصر بها علاء الدولة حتى استمال بها قوماً من الأتراك الذين مع تاج الملك.

وخلص من الحصار وعاود المسير إلى همذان، فهزم عساكرها وهرب القائد تاج الملك، واستولى علاء الدولة على سماء الدولة فأبقى عليه رسم الملك، وحمل إليه المال، وسار فحاصر تاج الملك في حصنه حتى استأمن إليه فأمنه وسار به وبسماء الدولة إلى همذان فملكها، وملك سائر أعمالها، وقبض على جماعة من أمراء الديلم فحبسهم وقتل آخرين وضبط الملك، وقصد أبا الشوك الكردي فشفع فيه مشرف الدولة فشفعه وعاد عنه، وذلك سنة أربع عشرة وأربعمائة.

وزارة أبي القاسم المغربي لمشرف الدولة ثم عزله

كان عنبر الخادم مستولياً على دولة مشرف الدولة بما كان حظيَّ أبيه وجده، وكان يلقب بالأثير، وكان حاكماً في دولة بني بويه مسموع الكلمة عند الجند.

وعقد الوزير مؤيد الملك الرجحي على بعض اليهود من حواشيه مائة ألف دينار، فسعى الأثير الخادم وعزله في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة واستوزر لناصر الدولة بن حمدان، ونزع عنه إلى خلفاء العبيديين، وولاه الحاكم بمصر.

وولد له بها ابنه أبو القاسم الحسين، ثم قتله الحاكم فهرب ابنه أبو القاسم إلى مفرج بن الجراح أمير طيىء بالشام، وداخله في الانتقاض على العبيديين بأبي الفتوح أمير مكة فاستقدمه وبايع له بالرملة.

ثم صونع من مصر بالمال فانحل ذلك الأمر ورجع أبو الفتوح إلى مكة، وقصد أبو القاسم العراق واتصل بالعميد فخر الملك أبي غالب، فأمره القادر بإبعاده، فقصد الموصل واستوزره صاحبها، ثم نكبه وعاد إلى العراق، وتقلب به الحال إلى أن وزر بعد مؤيد الملك الرجحي، فساء تصرفه في الجند وشغب الأتراك عليه وعلى الأثير عنبر بسببه، فخرجا إلى السندية، وخرج معهما مشرف الدولة فأنزلهم قرواش.

ثم ساروا إلى أوانا، وندم الأتراك فبعثوا المرتضى وأبا الحسن الزيني يسألون الإقالة، وكتب إليهم أبو القاسم المغربي بأن

أرزاقكم عند الوزير مكراً به.

وشعر بذلك فهرب إلى قرواش لعشرة أشهر من وزارته، وجاء الأتراك إلى، مشرف الدولة والأثير عنبر فردهما إلى بغداد.

وفاة سلطان الدولة بفارس وملك ابنه أبي كاليجار وقتل ابن مكرم

ثم توفي سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة صاحب فارس بشيراز، وكان محمد بن مكرم صاحب دولته، وكان هواه مع ابنه أبي كاليجار، وهو يومئذ أمير على الأهواز، فاستقدمه للملك بعد أبيه وكان هوى الأتراك مع عمه أبي الفوارس صاحب كرمان فاستقدموه.

وخشي محمد بن مكرم جانبه وفر عنه أبو المكارم إلى البصرة، وسار العادل أبو منصور بن مافنة إلى كرمان لاستقدام أبي الفوارس وكان صديقاً لابن مكرم فحسن أمره عند أبي الفوارس، وأحال الأجناد بحق البيعة على ابن مكرم فضجر وماطلهم، فقبض عليه أبو الفوارس وقتله.

ولحق ابنه القاسم بأبي كاليجار بالأهواز فتجهز إلى فارس، وقام بتربيته بابن مزاحم صندل الخادم.

وسار في العساكر إلى فارس ولقيهم أبو منصور الحسن بن علي النسوي وزير أبي، الفوارس فهزموه وغنموا معسكره وهرب أبو الفوارس إلى كرمان وملك أبو كاليجار شيراز واستولى على بلاد فارس، وتنكر للديلم الذين بها، فبعثوا إلى من كان منهم بمدينة نسا فتمسكوا بطاعة أبي الفوارس.

ثم شغب عسكر أبي كاليجار عليه، وطالبوه بالمال فظاهرهم الديلم، فسلم إلى النوبندجان ثم إلى شعب بوان، وكاتب الديلم بشيراز أبا الفوارس يستحثونه، ثم أصلحوا بينهما على أن تكون لأبي الفوارس كرمان، ويعود أبو كاليجار لفارس لما فارقه بها من نعمته.

وكان الديلم يطيعونه فساروا في العساكر وهزموا أبا الفوارس، فلحق بدارابجرد واستولى أبو كاليجار على فارس.

ثم زحف إليه أبو الفوارس في عشرة آلاف من الأكراد فاقتتلوا بين البيضاء وإصطخر، فانهزم أبو الفوارس ولحق بكرمان، واستولى أبو كاليجار على فارس واستقر ملكه بها سنة سبع عشرة وأربعمائة.

وفاة مشرف الدولة وملك أخيه جلال الدولة

ثم توفي مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة بن بويه سلطان بغداد في ربيع الأول سنة ست عشرة وأربعمائة، لخمس سنين من ملكه.

ولما توفي خطب ببغداد لأخيه جلال الدولة وهو بالبصرة، واستقدم فلم يقدم، وانتهى إلى واسط فأقام بها فخطب لأبي كاليجار ابن أخيه سلطان الدولة، وهو يومئذ بخوزستان مشغول بحرب عمه أبي الفوارس كما قدمناه.

فحينئذ أسرع جلال الدولة من واسط إلى بغداد، فسار الجند ولقوه بالنهروان وردوه كرهاً بعد أن نهبوا بعض خزائنه، وقبض على وزيره أبي سعيد بن ماكولا واستوزر ابن عمه أبا علي، واستحث الجند أبا كاليجار فعللهم بالوعد وشغل بالحرب، وكثر الهرج ببغداد من العيارين، وانطلقت أيديهم وأحرقوا الكرخ، ونهاهم الأمير عنبر عن ذلك فلم ينتهوا، فخافهم على نفسه، فلحق بقرواش في الموصل وعظمت الفتن ببغداد.

استيلاء جلال الدولة على ملك بغداد

ولما عظم الهرج ببغداد ورأى الأتراك أن البلاد تخرب وأن العرب والأكراد والعامة قد طمعوا فيهم، ساروا جميعاً إلى دار الخلافة مستعتبين ومعتذرين عما صدر منهم من الانفراد باستقدام جلال الدولة ثم رده واستقدام أبي كاليجار مع أن ذلك ليس لنا وإنما هو للخليفة، ويرغبون في استدعاء جلال الدولة لتجتمع الكلمة ويسكن الهرج، ويسألون أن يستخلف فأجابهم الخليفة القادر، وبعث إلى جلال الدولة، فسار من البصرة، فبعث الخليفة القاضي أبا جعفر السمناني لتلقيه، ويستخلفه لنفسه، فسار ودخل بغداد سنة ثمان عشرة وأربعمائة وركب الخليفة لتلقيه، ثم سار إلى مشهد الكاظم ورجع، ودخل دار الملك وأمر بضرب النوب الخمس، فراسله القادر في قطعها فقطعها غضباً، ثم أذن له في إعادتها، وبعث جلال الدولة مؤيد الملك أبا علي الرجحي إلى الأثير عنبر الخادم عند قرواش بالتأنيس والمحبة والعذر عن فعل الجند.

أخبار ابن كاكويه صاحب أصفهان مع الأكراد ومع الأصبهبد

كان علاء الدولة بن كاكويه قد استعمل أبا جعفر علياً ابن عمه على نيسابور خوست ونواحيها، وضم إليه الأكراد الجودرقان ومقدمهم أبو الفرج البابوني.

فجرت بين أبي جعفر وأبي الفرج البابوني مشاجرة، وترافعا إليه فأصلح بينهما علاء الدولة وأعادهما.

ثم قتل أبو جعفر أبا الفرج فانتقض الجودرقان وعظم فسادهم، فبعث علاء الدولة عسكراً وأقاموا أربعة أيام ثم فقدوا الميرة، وجاء علاء الدولة وأعطاهم المال فافترقوا واتبعهم.

وجاء إليه بعض الجودرقان وانتهى في اتباعهم إلى وفد وقاتلوه عندها فهزمهم وقتل ابني ولكين في المعركة، ونجا هو في الفل إلى جرجان، وأسر الأصبهبد وابنان له ووزيره، وهلك في الأسر منتصف سنة تسع عشرة وأربعمائة وتحصن علي بن عمران بقلعة كنكور فحاصره بهاء الدولة، وصار ولكين إلى صهره منوجهر قابوس وأطمعه في الدخكت.

وكان ابنه صهر علاء الدولة على ابنته وأقطعه مدينة قم فعصى عليه وبعث إلى أبيه ولكين.

فسار بعساكره وعساكر منوجهر ونازلوا مجد الدولة بن بويه بالري وجرت بينهم وقائع فصالح علاء الدولة علي بن عمران ليسير إليهم فارتحلوا عن الري.

وجاء علاء الدولة إليها وأرسل إلى منوجهر يوبخه ويتهدده فسار منوجهر وتحصن بكنكور وقتل الذين قتلوا أبا جعفر ابن عمه وقبل الشرط، وخرج إلى علاء الدولة فأقطعه الدينور عوضاً عن كنكور، وأرسل منوجهر إلى علاء الدولة في الصلح فصالحه.

دخول خفاجة في طاعة أبي كليجار

كان هؤلاء خفاجة وهم من بني عمرو بن عقيل موطنين بضواحي العراق، ما بين بغداد والكوفة وواسط والبصرة.

وأميرهم بهذه العصور منيع بن حسان، وكانت بينه وبين صاحب الموصل منافسات جرتها المناهضة والجوار، فترددت الرسل بين السلم والحرب.

وسار منيع بن حسان سنة سبع عشرة وأربعمائة إلى الجامعين من أعمال دبيس فنهبها، وسار دبيس في طلبه ففارق الكوفة وقصد الأنبار من أعمال قرواش فحاصرها أيام، ثم افتتحها وأحرقها، وجاء قرواش لمدافعته ومعه عريب بن معن فلم يجدوه فمضوا إلى القصر فخالفهم منيع إلى الأنبار فعاث فيها ثانية.

فسار قرواش إلى الجامعين واستنجد دبيس بن صدقة فسار معه في بني أسد، ثم خاموا عن لقاء منيع فافترقوا ورجع قرواش إلى الأنبار فأصلحها، ورم أسوارها.

وكان دبيس وقرواش في طاعة جلال الدولة، فسار منيع بن حسان إلى أبي كاليجار بالأهواز فأطاعه وخلع عليه ورجع إلى بلده يخطب له بها.

شغب الأتراك على جلال الدولة

ولما استقل جلال الدولة بملك بغداد وكثر جنده من الأتراك واتسعت أرزاقهم من الديوان، وكان الوزير أبو علي بن ماكولا فطالبوه بأرزاقهم فعجز عنها، وأخرج جلال الدولة صياغات وباعها وفرقها في الجند.

ثم ثاروا عليه وطالبوه بأرزاقهم وحصروه في داره حتى فقد القوت والماء وسأل الإنزال إلى البصرة وخرج بأهله ليركب السفن إلى البصرة وقد ضرب سرادقاً على طريقهم ما بين داره والسفن، فقصد الأتراك السرادق فامتعض جلال الدولة لحريمه، ثم نادى في الناس وخرج الجند ونادوا بشعاره ثم شغبوا عليه بعد أيام قلائل في طلب أرزاقهم، واضطر جلال الدولة إلى بيع ملبوسه وفرشه وخيامه، وفرق أثمانها فيهم.

وعزل جلال الدولة وزيره أبا علي واستوزر أبا طاهر، ثم عزله بعد أربعين يوماً وولى سعيد بن عبد الرحيم وذلك سنة تسع عشرة وأربعمائة.

استيلاء أبي كاليجار على البصرة ثم على كرمان

ولما أصعد جلال الدولة إلى بغداد استخلف على البصرة ابنه الملك العزيز أبا منصور، وكان بين الأتراك وبين الديلم من الفتنة ما ذكرناه، فتجددت بينهم الفتنة فغلب الأتراك، وأخرجوا الديلم إلى الأبلة مع بختيار بن علي، فسار إليهم الملك العزيز ليرجعهم فحاربوه ونادوا بشعار أبي كاليجار بن سلطان الدولة وهو بالأهواز فعاد منهزماً.

ونهب الديلم الأبلة ونهب الأتراك البصرة. وبلغ الخبر إلى أبي كاليجار فبعث من الأهواز عسكراً إلى بختيار والبصرة والديلم، فقاتلوا الملك العزيز وأخرجوه، فلحق بواسط وملكوا البصرة ونهبوا أسواقها سنة تسع عشرة وأربعمائة وهمَّ جلال الدولة بالمسير إليهم وطلب المال للجند وشغل بمصادرة أرباب الأموال، وبلغ خبر استيلاء أبي كاليجار على البصرة إلى كرمان وكان بها عمه قوام الدولة أبو الفوارس، وقد تجهز لقصد بلاد فارس فأدركه أجله فمات، فنادى أصحابه بشعار أبي كاليجار واستدعوه، فسار ملك بلاد كرمان، وكان أبو الفوارس سيئ السيرة في رعيته وأصحابه.

قيام بني دبيس بدعوة أبي كاليجار

كانت جزيرة بني دبيس بنواحي خوزستان لطراد بن دبيس، وغلب عليه فيها منصور وخطب فيها لأبي كاليجار، ومات طراد فسار إلى منصور ابنه علي، واستنجد جلال الدولة عليه فأمده بعسكر من الأتراك وسار عجلاً.

واتفق أن أبا صالح كوكين هرب من جلال الدولة إلى أبي كاليجار فأراد أن يفتتح طاعته باعتراض أصحاب جلال الدولة فسار إلى منصور بالجزيرة.

وخرجوا لقتال علي بن طراد ولقوه بمبرود فهزموه وقتلوه، واستقر منصور الجزيرة على طاعة أبي كاليجار.

استيلاء أبي كاليجار على واسط ثم انهزامه وعودها لجلال الدولة

ثم إن نور الدولة دبيس على صاحب حلب والنيل، خطب لأبي كاليجار في أعماله لما بلغه أن ابن عمه المقلد بن الحسن ومنيع بن حسان أمير خفاجة سارا مع عساكر بغداد إليه، فخطب هو لأبي كاليجار واستدعاه فسار من الأهواز إلى واسط، وقد كان لحق بها الملك العزيز بن جلال الدولة ومعه جماعة من الأتراك.

فلما وصل أبو كاليجار فارقها الملك العزيز إلى النعمانية، واستولى أبو كاليجار على واسط.

ووفد عليه دبيس وبعث إلى قرواش صاحب الموصل والأثير عنبر عنده، وأمرهما أن ينحدرا إلى العراق فانحدرا، ومات الأثير عنبر بالكحيل.

ورجع قرواش وجمع جلال الدولة العساكر واستنجد أبا الشوك وغيره وسار إلى واسط، وضاقت عليه الأمور لقلة المال.

وأشار عليه أصحابه بمخالفة أبي كاليجار إلى الأهواز لأخذ أمواله، وأشار أصحاب أبي كاليجار بمخالفة جلال الدولة إلى العراق.

وبينما هم في ذلك جاءهم الخبر من أبي الشوك بمسير عساكر محمود بن سبكتكين إلى العراق.

ويشير بإجماع الكلمة. وبعث أبو كاليجار بكتابه إلى جلال الدولة فلم يعرج عليه، وسار إلى الأهواز ونهبها وأخذ من دار الإمارة خاصة مائتي ألف دينار سوى أموال الناس، وأخذت والدة أبي كاليجار وبناته وعياله وحملن إلى بغداد.

وسار جلال الدولة لاعتراضه وتخلف عنه دبيس بن مزيد خشية على أحيائه من خفاجة، والتقى أبو كاليجار وجلال الدولة في ربيع سنة إحدى وعشرين وأربعمائة فاقتتلوا ثلاثاً، ثم انهزم أبو كاليجار وقتل من أصحابه نحو من ألفين ورجع إلى الأهواز.

وأتاه العادل بن مافنة بمال أنفقه في جنده ورجع جلال الدولة إلى واسط واستولى عليها وأنزل ابنه العزيز بها ورجع.

استيلاء محمود بن سبكتكين صاحب خراسان على بلاد الري والجبل وأصفهان

كان مجد الدولة بن فخر الدولة متشاغلاً بالنساء والعلم، وتدبير ملكه لأمه، وتوفيت سنة تسع عشرة وأربعمائة فاختلفت أحواله وطمع فيه جنده، فكتب إلى محمود بن سبكتكين يشكو إليه، فبعث إليه عسكراً مع حاجبه، وأمره بالقبض عليه، فركب مجد الدولة لتلقيه فقبض عليه وعلى ابنه أبي دلف وطير بالخبر إلى محمود فجاء إلى الري ودخلها في ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة وأخذ منها مال مجد الدولة ألف ألف دينار، ومن الجواهر قيمة خمسمائة ألف دينار وستة آلاف ثوب، ومن الحرير والآلات ما لا يحصى، وبعث بمجد الدولة إلى خراسان فاعتقل بها.

ثم ملك قزوين وقلاعها ومدينة ساوة وآوة ويافث وقبض على صاحبها ولكين وبعث به إلى خراسان، وقتل من الباطنية خلقاً ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجامة، وملك حدود أرمينية وخطب له علاء الدولة بن كاكويه بأصفهان، واستخلف على الري ابنه مسعوداً فافتتح زنجان وأبهر،

ثم ملك أصفهان من يد علاء الدولة، واستخلف عليها بعض أصحابه فثار به أهل أصفهان وقتلوه، فسار إليها وفتك فيهم، ويقال: قتل منهم خمسة آلاف قتيل وعاد إلى الري فأقام بها.

أخبار الغز بالري وأصفهان وأعمالها وعودهما إلى علاء الدولة

قد تقدم لنا في غير موضع بداية هؤلاء الغز، وأنهم كانوا بمفازة بخارى وكانوا فريقين: أصحاب أرسلان بن سلجوق وأصحاب بني أخيه ميكائيل بن سلجوق، وأن يمين الدولة محمود بن سبكتكين لما ملك بخاري وما وراء النهر قبض على أرسلان بن سلجوق، وسجنه بالهند ونهب أحياءه.

ثم نهض إلى خراسان ولحق بعضهم بأصفهان، وبعث محمود في طلبهم إلى علاء الدولة بن كاكويه فحاول على أخذهم، وشعروا ففروا إلى نواحي خراسان، وكثر عيثهم فأوقع بهم تاش الفوارس قائد مسعود بن سبكتكين فساروا إلى الري قاصدين أذربيجان، وكانوا يسمون العراقية، وكان أمراء هذه الطائفة كوكتاش ويرفأ وقزل ويعمر وناصفلي، فلما انتهوا إلى الدامغان خرج إليهم عسكرها فلم يطيقوا دفاعهم فتحصنوا بالجبل.

ودخل الغز البلد ونهبوه، ثم فعلوا في سمنان مثل ذلك، ثم في جوار الري وفي إسحاق أباذ وما جاورها من القرى، ثم ساروا إلى مسكويه من أعمال الري فنهبوها.

وكان تاش الفوارس قائد بني سبكتكين بخراسان ومعه أبو سهل الحمدوني من قوادهم فاستنجدوا مسعود بن سبكتكين وصاحب جرجان وطبرستان فأنجداهم وقاتلا الغز فانهزما وقتل تاش الفوارس.

وسار إلى الري أبو سهل الحمدوني فهزموه وتحصن بقلعة طبرك، ودخل الغز الري ونهبوه.

ثم قاتلوه ثانياً فأسر منهم ابن أخت لعمر من قوادهم فبذلوا فيه ثلاثين ألف دينار وإعادة ما أخذوا من عسكر تاش من المال والأسرى فأبى أبو سهل من إطلاقه، وخرج الغز من الري ووصل عسكر جرجان وقاتلوا الغز عندما قاربوا الري وأسروا قائدهم وألفين معه، وساروا إلى أذربيجان وذلك، سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

ولما سار الغز إلى أذربيجان سار علاء الدولة إلى الري فدخلها بدعوة مسعود بن سبكتكين، وأرسل إلى أبي سهل الحمدوني أن يضمنه على البلد مالاً فأبى فأرسل علاء الدولة يستدعي الغز فرجع إليه بعضهم وأقام عنده.

ثم استوحشوا منه وعادوا إلى العيث بنواحي البلاد، فكرر علاء الدولة مراسلة أبي سهل في الضمان ليكون في طاعة مسعود بن سبكتكين.

وكان أبو سهل بطبرستان فأجابه وسار إلى نيسابور وملك علاء الدولة الري.

ثم اجتمع أهل أذربيجان لمدافعة الغز الذين طرقوا بلادهم وانتقموا من الغز، فافترقوا فسارت طائفة إلى الري ومقدمهم يرفأ وطائفة إلى همذان ومقدمهم منصور وكوكتاش فحاصروا بها أبا كاليجار بن علاء الدولة، وأنجده أهل البلاد على دفاعهم وطال حصارهم لهمذان حتى صالحهم أبو كاليجار وصاهر كوكتاش.

وأما الذين قصدوا الري فحاصروا بها علاء الدولة بن كاكويه وانضم إليهم فناخسرو بن مجد الدولة وكامد صاحب ساوه، فطال حصارهم وفارق البلد في رجب ليلاً إلى أصفهان، وأجفل أهل البلد وتمزقوا ودخلها الغز من الليل واستباحوها.

واتبع علاء الدولة جماعة منهم فلم يدركوه فعدلوا إلى كرج ونهبوها، ومضى ناصفلي منهم إلى قزوين فقاتلهم حتى صالحوه على سبعة آلاف دينار وصاروا إلى طاعته.

ولما ملكوا الري رجعوا إلى حصار همذان ففارقها أبو كاليجار وصحبه الوجوه والأعيان وتحصنوا بكنكور وملك الغز همذان ومقدمهم كوكتاش ومنصور ومعهم فناخسرو بن مجد الدولة في عدد من الديلم فاستباحوها، وبلغت سراياهم إلى أستراباذ وقرى الدينور وقاتلهم صاحبها أبو الفتح ابن أبي الشوك فهزمهم وأسر منهم حتى صالحوه على إطلاقهم فأطلقهم.

ثم راسلوا أبا كاليجار بن علاء الدولة في التقدم عليهم يدبر ملكهم بهمذان، فلما جاءهم وثبوا به فنهبوا ماله وانهزم وخرج علاء الدولة من أصفهان فوقع في طريقه بطائفة من الغز فظفر بهم ورجع إلى أصفهان منصوراً.

ولما أجاز الفريق الثاني من الغز السلجوقية من وراء النهر، وهم أصحاب طغرلبك وداود وجفر بيك وبيقوا وأخوهم إبراهيم نيال في العسكر لاتباع هؤلاء الذين بالري وهمذان وساروا إلى أذربيجان وديار بكر والموصل، وافترقوا عليها وفعلوا فيها الأفاعيل كما تقدم في أخبار قرواش صاحب الموصل وابن مروان صاحب ديار بكر، وكما يأتي في أخبار ابن وهشودان.

استيلاء مسعود بن سبكتكين على همذان وأصفهان والري ثم عودها إلى علاء الدولة بن كاكويه

ولما فارق الغز همذان بعث إليها مسعود بن سبكتكين عسكراً فملكوها وسار هو إلى أصفهان فهرب عنها علاء الدولة واستولى على ما كان بها من الذخائر، ولحق علاء الدولة إلى أبي كاليجار بتستر يستنجده عقب انهزامه أمام جلال الدولة سنة إحدى وعشرين وأربعمائة كما قدمنا فوعده بالنصر إذا اصطلح مع عمه جلال الدولة.

ثم توفي محمود بن سبكتكين ورجع مسعود من خراسان، وكان فناخسرو بن مجد الدولة معتصماً بعمران، فطمع في الري وجمع جمعاً من الديلم والأكراد وقصدها فهزمه نائب مسعود بها.

وقتل جماعة من عسكره وعاد إلى حصنه.

وعاد علاء الدولة من عند أبي كاليجار، وقد كان خائفاً من مسعود أن يسير إليهم ولا طاقة لهم به، فجاء بعد موت محمود، وملك أصفهان وهمذان والري وتجاوز إلى أعمال أنوشروان وسروا إليه بالري واشتد القتال وغلبوه على الري ونهبوها ونجا علاء الدولة جريحاً إلى قلعة فردخان على خمسة عشر فرسخاً من همذان فاعتصم بها، وخطب بالري وأعمال أنوشروان لمسعود بن سبكتكين، وولى عليها تاش الفوارس فأساء السيرة فولى علاء الدولة.

استيلاء جلال الدولة على البصرة ثم عودها لأبي كاليجار

كنا قدمنا أن جلال الدولة خالف أبا كاليجار إلى الأهواز واتبعه أبوكاليجار من واسط فهزمه جلال الدولة، ورجع إلى واسط فارتجعها.

وبعث أبو منصور بختيار بن علي نائباً لأبي كاليجار فبعث أربعمائة سفينة للقائهم مع عبد اللّه السراني الركازي صاحب البطيحة فانهزموا وعزم بختيار على الهرب، ثم ثبت وأعاد السفن لقتالهم والعسكر في البر، وجاء الوزير أبو علي لحربهم في سفينة، فلما وصل نهر أبي الخصيب وبه عساكر بختيار رجع مهزوماً، وتبعه أصحاب بختيار، ثم ركب بختيار بنفسه وأخذوا سفن أبي علي كلها وأخذوه أسيرا وبعثه بختيار إلى أبي كاليجار فقتله بعض غلمانه اطلع له على ريبة وخشيه فقتله.

وكان قد أحدث في ولايته رسوماً جائرة من المكوس، ويعين فيها، ولما بلغ خبره إلى جلال الدولة استوزر مكانه ابن عمه أبا سعد عبد الرحيم، وبعث الأجناد لنصرة الذين كانوا معه فملكوا البصرة في شعبان سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ولحق بختيار بالأبلة في عساكره واستمد أبا كاليجار فبعث إليه العساكر مع وزيره ذي السعادات أبي الفرج بن فسانجس فقاتلوا عساكر جلال الدولة بالبصرة، فانهزم بختيار أولاً وأُخذ كثير من سفنه.

ثم اختلف أصحاب جلال الدولة بالبصرة وتنازعوا وافترقوا واستأمن بعضهم إلى ذي السعادات فركبوا إلى البصرة وملكوها، وعادت لأبي كاليجار كما كانت.

وفاة القادر ونصب القائم للخلافة

وفي ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة توفي الخليفة القادر لإحدى وأربعين سنة من خلافته، وكان مهيباً عند الديلم والأتراك.

ولما مات نصب جلال الدولة للخلافة ابنه القائم بأمر اللّه أبا جعفر عبد اللّه بعد أبيه ولقبه القائم، وبعث القاضي أبا الحسن الماوردي إلى أبي كاليجار في الطاعة، فبايع وخطب له في بلاده وأرسل إليه بهدايا جليلة وأموال، ووقعت الفتنة ببغداد في تلك الأيام بين السنة والشيعة، ونُهبت دور اليهود وأحرقت من بغداد أسواق، وقتل بعض جباة المكس، وثار العيارون.

ثم همّ الجند بالوثوب على جلال الدولة وقطع خطبته، ففرق فيهم الأموال فسكتوا، ثم عاودوا، فلزم جلال الدولة الأصاغر فشكا من قواده الأكابر وهما بارسطغان وبلدوك، وأنهما استأثرا بالأموال فاستوحشا لذلك، وطالبهما الغلمان بعلوفتهم وجراياتهم فسارا إن المدائن، وندم الأتراك على ذلك.

وبعث جلال الدولة مؤيد الملك الرجحي فاسترضاهما ورجعا.

وزاد شغب الجند عليه ونهبوا دوابه وفرشه، وركب إلى دار الخليفة مغضباً من ذلك وهو سكران، فلاطفه ورده إلى بيته.

ثم زاد شغبهم وطالبوه في الدواب لركوبهم فضجر وأطلق ما كان في اسطبله من الدواب، وكانت خمس عشرة وتركها عائرة، وصرف حواشيه وأتباعه لانقطاع خزائنه فعوتب بتلك الفتنة، وعزل وزيره عميد الملك، ووزر بعده أبو الفتح محمد بن الفضل

أياماً ولم يستقم أمره فعزله، ووزر بعده أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسين السهيلي وزير مأمون صاحب خوارزم وهرب لخمسة وعشرين يوماً.

وثوب الأتراك ببغداد بجلال الدولة بدعوة أبي كاليجار ثم رجوعهم إلى جلال الدولة

ثم تجددت الفتنة بين الأتراك وجلال الدولة سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة في ربيع الأول فاغلق بابه، ونهب الأتراك داره وسلبوا الكتاب وأصحاب الدواوين، وهرب الوزير أبو إسحاق السهيلي إلى حي غريب بن محمد بن معن.

وخرج جلال الدولة إلى عكبرا وخطبوا لأبي كاليجار واستدعوه من الأهواز فمنعه العادل بن مافنه إلى أن يحضره بين قوادهم فعادوا إلى جلال الدولة وتطارحوا عليه، فعاد لثلاث وأربعين يوماً من مغيبه.

واستوزر أبا القاسم بن ماكولا ثم عزله لفتنة الأتراك به، وإطلاق بعض المصادرين من يده.

استيلاء جلال الدولة على البصرة ثانياً ثم عودها لأبي كاليجار

ثم توفي أبو منصور بختيار بن علي نائب أبي كاليجار بالبصرة منتصف أربع وعشرين وأربعمائة فقام مكانه صهره أبو القاسم لاضطلاعه وكفايته، واستبد بها ونكر أبو كاليجار استبداده، وبعث بعزله فامتنع وخطب لجلال الدولة، وبعث لابنه يستدعيه من واسط فجاء وملك البصرة وطرد عساكر أبي كاليجار.

ثم فسد ما بين أبي القاسم والعزيز واستجار منه بعض الديلم بالعزيز، وشكوا منه فأخرجه العزيز عن البصرة وأقام بالأبلة، ثم عاد إلى محاربة العزيز حتى أخرجه عن البصرة ورجع أبو القاسم إلى طاعة أبي كاليجار.

إخراج جلال الدولة من دار الملك ثم عوده

وفي رمضان من سنة أربع وعشرين وأربعمائة استقدم جلال الدولة الوزير أبا القاسم فاستوحش الجند، واتهموه بالتعرض لأموالهم فهجموا عليه في دار الملك وأخرجوه إلى مسجد في داره، فاحتمل جلال الدولة الوزير أبا القاسم وانتقل إلى الكرخ، وأرسل إليه الجند بأن ينحدر عنهم إلى واسط على رسمه، ويقيم لإمارتهم بعض ولده الأصاغر فأجاب، وبعث إليهم واستمالهم فرجعوا عن ذلك واستردوه إلى داره، وحلفوا له على المناصحة.

واستوزر عميد الدولة أبا سعد سنة خمس وعشرين وأربعمائة عوضاً من ابن ماكولا فاستوحش ابن ماكولا، وسار إلى عكبرا فرده إلى وزارته، وعزل أبا سعد فبقي أياماً، ثم فارقها إلى أوانا فأعاد أبا سعد عبد الرحيم إلى وزارته.

ثم خرج أبو سعد هارباً من الوزارة ولحق بأبي الشوك، ووزر بعده أبو القاسم فكثرت مطالبات الجند له وهرب لشهرين فحمل إلى دار الخلافة مكشوف الرأس، وأعيد أبو سعد إلى الوزارة، وعظم فساد العيارين ببغداد وعجز عنهم النواب، فولي جلال الدولة البساسيري من قواد الديلم حماية الجانب الغربي ببغداد فحسن فيه غناؤه، وانحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد حتى أغار الأكراد والجند على بستان الخليفة، ونهبوا ثمرته وطلب أولئك الجند جلال الدولة فعجز عن الانتصاف منهم أو إسلامهم للخليفة، فتقدم الخليفة إلى القضاة والشهود والفقهاء بتعطيل رسومهم فوجم جلال الدولة، وحمل أولئك الجند بعد غيبتهم أياماً إلى دار الخليفة فاعترضهم أصحابهم وأطلقوهم، وعجز النواب عن إقامة الأحكام في العيارين ببغداد، وانتشر العرب في ضواحي بغداد وعاثوا فيها حتى سلبوا النساء في المقابر عند جامع المنصور، وشغب الجند سنة سبع وعشرين وأربعمائة بجلال الدولة فخرج متنكراً في سيما بدوي إلى دار المرتضى بالكرخ، ولحق منها برافع بن الحسين بن معن بتكريت، ونهب الأتراك داره وخربوها، ثم أصلح القائم أمر الجند وأعاده.

فتنة بادسطفان ومقتله

قد قدمنا ذكر بادسطفان هذا وأنه من أكابر قواد الديلم ويلقب حاجب الحجاب، وكان جلال الدولة ينسبه لفساد الأتراك والأتراك ينسبونه إلى إحجاز الأموال فاستوحش واستجار بالخليفة منتصف سبع وعشرين وأربعمائة فأجاره وكان يراسل أبا كاليجار ويستدعيه، فبعث أبو كاليجار عسكراً إلى واسط وثار معهم العسكر الذين بها وأخرجوا العزيز بن جلال الدولة إلى بغداد،

وكشف بادسطفان القناع في الدعاء لأبي كاليجار وحمل الخطباء على الخطبة لامتناع الخليفة منها، وجرت بينه وبين جلال الدولة حرب.

وسار إلى الأنبار وفارقه قرواش إلى الموصل، وقبض بادسطفان على ابن فسانجس، فعاد منصور بن الحسين إلى بلده.

ثم جاء الخبر بأن أبا كاليجار سار إلى فارس فانتقض عن بادسطفان الديلم الذين كانوا معه، وترك ماله وخدمه وما معه بدار الخليفة القائم وانحدر إلى واسط، وعاد جلال الدولة إلى بغداد وبعث البساسيري وبني خفاجة في طلب بادسطفان وسار هو ودبيس في اتباعهم فلحقوه بالخيزرانية فقاتلوه وهزموه، وجاؤوا به أسيراً إلى جلال الدولة ببغداد، وطلب من القائم أن يخطب له ملك الملوك فوقف عن ذلك إلا أن يكون بفتوى الفقهاء فأفتاه القضاة أبو الطيب الطبري وأبو عبد اللّه الصيمري وأبو القاسم الكرخي بالجواز ومنع أبو الحسن الماوردي، وجرت بينهم مناظرات حتى رجحت فتواهم وخطب له بملك الملوك.

وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة فخجل وانقطع عنه ثلاثة أشهر، ثم استدعاه وشكر له إيثار الحق وأعاده إلى مقامه.

مصالحه جلال الدولة وأبي كاليجار

ثم ترددت الرسل بين جلال الدولة وأبي كاليجار ابن أخيه، وتولى ذلك القاضي أبو الحسن الماوردي وأبو عبد اللّه المردوسي، فانعقد بينهما الصلح والصهر لأبي منصور بن أبي كاليجار على ابنة جلال الدولة، وأرسل القائم إلى أبي كاليجار بالخلع النفيسة.

عزل الظهير أبي القاسم عن البصرة واستقلال أبي كاليجار بها

قد قدمنا حال الظهير أبي القاسم في ملك البصرة بعد صهره أبي منصور بختيار، وأنه عصى على أبي كاليجار بدعوة جلال الدولة، ثم عاد إلى طاعته واستبد بالبصرة، وكان ابن أبي القاسم بن مكرم صاحب عمان يكاتب أبا الجيش وأبا كاليجار بزيادة ثلاثين ألف دينار في ضمان البصرة فأجيب إلى ذلك، وجهز له أبو كاليجار العساكر مع العادل أبي منصور بن مافنه وجاء أبا الجيش بعساكره في البحر من عمان وحاصروا البصرة براً وبحراً وملكوها، وقبض على الظهير واستصفيت أمواله، وصودر على تسعين ألفاً فحملها في عشرة أيام، ثم على مائة ألف وعشرة آلاف فحملها كذلك، ووصل الملك أبو كاليجار إلى البصرة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وأنزل بها ابنه عز الملوك والأمير أبا الفرج بن فسانجس وعاد إلى الأهواز ومعه الظهير أبو القاسم.

أخبار عمان وابن مكرم

قد قدمنا خبر أبي محمد بن مكرم وأنه كان مدبر دولة بهاء الدولة وقبله ابنه أبو الفوارس، وأن ابنه أبا القاسم كان أميراً بعمان منذ سنة خمس عشرة وأربعمائة ثم توفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وخلف بنين أربعة وهم: أبو الجيش والمهذب وأبو محمد وآخر صغير لم يذكر اسمه.

وكان علي بن هطال صاحب جيش أبي القاسم فأقره أبو الجيش وبالغ في تعظيمه حتى كان يقوم له إذا دخل عليه في مجلسه فنكر ذلك المهذب على أخيه، وحقدها له ابن هطال فعمل دعوة واستأذن أبا الجيش في إحضار أخيه المهذب لها، وأحضره وبالغ في خدمته حتى إذا طعموا وشربوا وانتشوا فاوضه ابن هطال في التوثب بأخيه أبي الجيش واستكتبه بما يوليه من المراتب ويعطيه من الإقطاع على مناصحته في ذلك.

ثم وقَّف أبا الجيش على خطة أخبره أنه لم يوافقه ثم قال له: وبسبب ذلك كان نكيره عليك في شأني، فقبض أبو الجيش على أخيه واعتقله ثم خنقه.

ثم توفي أبو الجيش بعد ذلك بيسير وهمَّ ابن هطال بتولية أخيه محمد فأخفته أمه حذراً عليه، ورفعت الأمر إلى ابن هطال فولي عمان وأساء السيرة وصادر التجار، وبلغ ذلك إلى أبي كاليجار فأمر العادل أبا منصور بن مافنه أن يكاتب المرتضى نائب أبي القاسم بن مكرم بجبال عمان، ويأمره بقصد ابن هطال في عمان، وبعث إليه العساكر من البصرة، فسار إلى عمان وحاصرها واستولى على أكثر أعمالها.

ثم دس إلى خادم كان لابن مكرم وصار لابن هطال وأمره باغتياله فاغتاله وقتله.

ومات العادل أبو منصور بهرام بن مافنّة وزير أبي كاليجار سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ووزر بعده مهذب الدولة وبعث لمدافعتهم عنها، وكانوا يحاصرون جيرفت فأجفلوا عنها، ولم يزل في اتباعهم حتى دخلوا المفازة ورجع مهذب الدولة إلى كرمان فأصلح فسادهم.

وفاة جلال الدولة سلطان بغداد وولاية أبي كاليجار

ثم توفي جلال الدولة ببغداد في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة لسبع عشرة سنة من ملكه، وقد كان بلغ في الضعف وشغب الجند عليه واستبداد الأمراء والنواب فوق الغاية.

ولما توفي انخذل الوزير كمال الملك عبد الرحيم وأصحاب السلطان الأكابر إلى حريم دار الخلافة خوفاً من الأتراك والعامة، واجتمع قواد العسكر فمنعوهم من النهب.

وكان ابنه الأكبر الملك العزيز أبو منصور بواسط فكاتبه الجند بالطاعة، وشرطوا عليه تعجيل حق البيعة فأبطأ عنهم، وبادر أبو كاليجار صاحب الأهواز فكاتبهم ورغبهم في المال وتعجيله فعدلوا عن الملك العزيز إليه.

وأصعد بعد ذلك من الأهواز فلما انتهى إلى النعمانية غدر به أصحابه فرجع إلى واسط، وخطب الجند ببغداد لأبي كاليجار.

وسار العزيز إلى دبيس بن مزيد، ثم إلى قرواش بن المقلد بالموصل، ثم فارقه إلى أبي الشوك لصهر بينهما فغدر به، وألزمه على طلاق بنته، فسار إلى إبراهيم نيال أخي طغرلبك، ثم قدم بغداد مختفياً يروم الثورة بقتل بعض أصحابه ففر ولحق بنصير الدولة بن مروان فتوفي عنده بميافارقين، وقدم أبو كاليجار بغداد في صفر سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وخطب له بها واستقر سلطانه فيها بعد أن بعث بأموال فرقت على الجند ببغداد وبعشرة آلاف دينار وهدايا كثيرة للخليفة، وخطب له فيها أبو الشوك ودبيس بن مزيد كل بأعماله، ولقبه الخليفة بمحيي الدولة، وجاء في قلة من عساكره خوفاً أن يستريب به الأتراك فدخل بغداد في شهر رمضان ومعه وزيره أبو السعادات أبو الفرج محمد بن جعفر بن فسانجس، واستعفى القائم من الركوب للقائه، وتقدم بإخراج عميه من بغداد، فمضيا إلى تكريت وخلع على أصحاب الجيوش وهم البساسيري والساري والهمام أبو اللقاء وثبت قدمه في الملك.

أخبار ابن كاكويه مع عساكر مسعود وولايته على أصفهان ثم ارتجاعه منها

قد تقدم انهزام علاء الدولة بن كاكويه من الري ومسيره جريحاً ومعه فرهاد بن مرداويج الذي جاءه إلى قلعة فردخان مدداً وساروا منها إلى يزدجرد، واتبعهم علي بن عمران قائد تاش قرواش.

وافترقوا من يزدجرد فمضى أبو جعفر إلى نيسابور عند الأكراد الجردقان وصعد فرهاد إلى قلعة سمكيس واستمال الأكراد الذين مع علي بن عمران وحملهم على الفتك به، فشعر علي وسار إلى همذان، واتبعه فرهاد والأكراد فحصروه في قرية بطريقه فامتنع عليهم بكثرة الأمطار ورجعوا عنه، وبعث علي بن عمران إلى الأمير تاش يستمده وعلاء الدولة إلى ابن أخيه بأصفهان يستمد المال والسلاح فاعترضه علي بن عمران من همذان وكبسه بجردقان وغنم ما معه وأسره، وخالفه علاء الدولة وأقرّه على أصفهان على ضمان معلوم وكذلك قابوس في جرجان وطبرستان وولى على الري أبا سهل الحمدوني وأمر تاش قرواش صاحب خراسان بطلب شهربوس بن ولكين صاحب ساوة، وكان يفسد السابلة ويعترض الحاج، وسار إلى الري وحاصرها بعد موت محمود، فبعث تاش العساكر في أثره وحاصروه ببعض قلاع قم واخذوه أسيراً فأمر بصلبه على ساوة، ثم اجتمع علاء الدولة بن كاكويه وفرهاد بن مرداويج على قتال أبي سهل الحمدوني وقد زحف في العساكر من خراسان فقاتلاه وقتل فرهاد وانهزم علاء الدولة إلى جبل بين أصفهان وجرجان فاعتصم به.

ثم لحق بأيدج وهي للملك أبي كاليجار، واستولى أبو سهل على أصفهان ونهب خزائن علاء الدولة وحملت كتبه إلى غزنة إلى أن احرقها الحسين بن الحسين الغوري، وذلك سنة خمس وعشرين وأربعمائة ثم سار علاء الدولة سنة سبع وعشرين وأربعمائة وحاصر أبا سهل في أصفهان وغدرته الأتراك فخرج إلى يزدجرد ومنها إلى الطرم فلم يقبله ابن السلار خوفاً من ابن سبكتكين، فسار عنه، ثم غلبه طغرلبك على خراسان سنة تسع وعشرين وأربعمائة وارتجعها مسعود سنة ثلاثين وأربعمائة كما ذكرناه ونذكره.

وفاة علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه

ثم توفي علاء الدولة شهربان بن كاكويه في محرم سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائه وقد كان عاد إلى أصفهان عند شغل بن سبكتكين بفتنة طغرلبك فملكها.

ولما توفي قام مكانه بأصفهان ابنه الأكبر ظهير الدين أبو منصور قرامرد.

وسار ولده الآخر أبو كاليجار كرشاسف إلى نهاوند فملكها، وضبط البلد وأعمال الجبل.

وبعث أبو منصور قرامرد إلى مستحفظ قلعة نظيرا التي كان فها ذخائر أبيه وأمواله فامتنع بها وعصى، وسار أبو منصور لحصاره ومعه أخوه أبو حرب فلحق أبو حرب بالمستحفظ، ورجع أبو منصور إلى أصفهان.

وبعث أبو حرب إلى السلجوقية بالري يستنجدهم، فسارت طائفة منهم إلى جرجان فنهبوها وسلموها لأبي حرب.

فسير أبو منصور العساكر وارتجعها، فجمع أبو حرب فهزموه، وحاصروا أبا حرب بالقلعة فأسرى من القلعة ولحق بالملك أبي كاليجار صاحب فارس، واستنجده على أخيه أبي منصور فأنجده بالعساكر وحاصروا أبا منصور وأوقعوه عدة وقائع، ثم اصطلحوا آخراً على مال يحمله أبو منصور إلى أبي كاليجار، وعاد أبو حرب إلى قلعة نظير واشتد الحصار عليه.

ثم صالح أخاه أبا منصور على أن يعطيه بعض ما في القلعة وتبقى له فاتفقا على ذلك. ثم سار إبراهيم نيال إلى الري وطلب الموادعة من أبي منصور فلم يجبه، فسار إلى همذان ويزدجرد فملكهما وسعى الحسن الكيا في اتفاقه مع أخيه أبي حرب فاتفقا، وخطب أبوحرب لأخيه أبي منصور في بلاده، وأقطعه أبو منصور همذان.

ثم ملك طغرلبك البلاد من يد ابن سبكتكين واستولى على خوارزم وجرجان وطبرستان.

وكان إبراهيم نيال عندما استولى طغرلبك على خراسان وهو أخوه لأمه تقدم في عساكر السلجوقية إلى الري فاستولى عليها.

ثم ملك يزدجرد، ثم قصد همذان سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ففارقها صاحبها ابن علاء الدولة إلى نيسابور، وجاء إبراهيم إلى همذان بطلب طاعتهم فشرطوا عليه استيلاءه على عساكر كرشاسف، فسار إليها وتحصن في سابور خواست وملك عليه البلاد وعاث في نواحيها، وتحصن هو بالقلعة وعاد هو إلى الري.

وقد صمم طغرلبك على قصدها، فسار إليه وترك همذان ورجع كرشاسف وملك طغرلبك الري من يد إبراهيم.

وبعث إلى سجستان وأمر بعمارة ما خرب من الري، ووجد بدار الإمارة مراكب ذهب مرصعة بالجواهر، وبرنيتين من النحاس مملوءتين جواهر وذخائر مما سوى ذلك وأموالاً كثيرة.

ثم ملك قلعة طبرك من يد مجد الدولة بن بويه، وأقام عنده مكرماً وملك قزوين فصالحه صاحبها بثمانين ألف دينار وصار في طاعته.

ثم بعث إلى كركتاش وموقا من الغز العراقية الذين تقدموا إلى الري واستدعاهم من نواحي جرجان فارتابوا وشردوا خوفاً منه.

ثم بعث إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة ويطلب منه المال، فأجاب وحمل، وبعث إلى سلار الطرم بمثل ذلك فأجاب وحمل مائتي ألف دينار وقرر عليه ضماناً معلوماً.

ثم بعث السرايا إلى أصفهان وخرج من الري في اتباعها فصانعه قرامرد بالمال فرجع عنه.

وسار إلى همذان فملكها، وقد كان سار إليه كرشاسف بن علاء الدولة وهو بالري فأطاعه، وسار معه إلى أبهروزنجان فملكهما، وأخذ منه همذان وتفرق عنه أصحابه.

وطلب منه طغرلبك قلعة كشكور فأرسل إلى مستحفظها بنزولهم عنها فامتنعوا، واتبعه طغرلبك إلى الري واستخلف على همذان ناصر الدين العلوي، وكان كرشاسف قد قبض عليه فأخرجه طغرلبك وجعله رديفاً للذي ولاه البلد من السلجوقية، ثم نزل كرشاسف على كشكور سنة ست وثلاثين وأربعمائة وجاء إلى همذان فملكها وطرد عنها عمال طغرلبك وخطب للملك أبي كاليجار فبعث طغرلبك أخاه إبراهيم نيال سنة سبع وثلاثين وأربعمائة إلى همذان، ولحق كرشاسف بشهاب الدولة أبي الفوارس منصور بن الحسين صاحب جزيرة بني دبيس، وارتاع الناس بالعراق لوصول إبراهيم نيال إلى حلوان، وبلغ الخبر إلى أبي كاليجار فأراد التجمع لإبراهيم نيال فمنعه قلة الظهر.

وحدثت فتنة بين طغرلبك وأخيه إبراهيم نيال وأخذ الري وبلاد الجبل من يده.

ثم سار إلى أصفهان فحاصرها في محرم سنة اثنين وأربعين، وبعث السرايا فبلغت البيضاء، وأقام يحاصرها حولاً كاملاً حتى جهدهم الحصار، وعدموا الأقوات وحرقوا السقف لقوادهم حتى سقف الجامع، ثم استأمنوا وخرجوا إليه وملك أصفهان سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة وأقطع صاحبها أبا منصور وأجناده في بلاد الجبل ونقل أمواله وسلاحه من الري إليها وجعلها كرسياً لملكه، وانقرضت دولة فخر الدولة بن بويه من الري وأصفهان وهمذان، وبقي منهم بالعراق وفارس أبو كاليجار والبقاء لله وحده.

موت أبي كاليجار

ولما رأى أبو كاليجار استيلاء طغرلبك على البلاد، وأخذه الري وأصفهان وهمذان والجبل من قومه، وإزالة ملكهم راسله في الصهر والصلح، بأن يزوجه ابنته، وزوج داود أخو طغرلبك ابنته من أبي منصور بن أبي كاليجار، وانعقد ذلك بينهما في منتصف تسع وثلاثين وأربعمائة وكتب طغرلبك إلى أخيه إبراهيم نيال عن العراق وأعماله ابن سكرستان من الديلم، وقرر عليه مالاً فطاول في حمله، ورافع فشكر له أبو كاليجار، وانتزع من يده قلعة يزدشير وهي تعلقه ثم استمال أجناده فقتلهم بهرام، واستوحش فسار إليه أبو كاليجار، وانتهى إلى قصر مجامع من خراسان فطرقه المرض وضعف عن الركوب فرجعوا به إلى مدينة خبايا وتوفي بها في جمادى الأولى سنة أربعين وأربعمائة، لأربع سنين وثلاثة أشهر من ملكه العراق.

ولما توفي نهب الأتراك خزائنه وسلاحه ودوابه وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى مخيم الوزير أبي منصور وكانت منفردة عن العسكر فأقام عنده، واختلف الأتراك والديلم وأراد الأتراك نهب الأمير والوزير فمنعهم الديلم، واختلفوا إلى شيراز فملكها الأمير أبو منصور وامتنع الوزير بقلعة حزقه، وبلغ وفاة أبي كاليجار إلى بغداد وبها ابنه أبو نصر، فاستخلف الجند وأمر القائم بالخطبة على عادة قومه.

وسأل أن يلقب بالرحيم فمنع الخليفة من ذلك أدباً ولقبه به أصحابه واستقر بالعراق وخوزستان والبصرة. وكان بالبصرة أخوه أبو علي فأقره عليها.

ثم بعث أخاه أبا سعد في العساكر في شوال من السنة إلى شيراز فملكها وخطبوا له بها وقبضوا على أخيه أبي منصور وأمه وجاؤوا بهما إليه.

وكان الملك العزيز بن جلال الدولة عند إبراهيم نيال لحق به بعد مهلك أبيه.

فلما مات أبو كاليجار زحف إلى البصرة طامعاً في ملكها فدافعه الجند الذين بها، وبلغه استقامة الملك ببغداد للرحيم فأقطع وذهب إلى ابن مروان فهلك عنده كما مر.

ملك الملك الرحيم بن أبي كاليجار ومواقعه

قد تقدم لنا أن أبا منصور فلاستون بن أبي كاليجار، سار إلى فارس بعد موت أبيه فملكها، وأنه بعث أخاه أبا سعيد بالعساكر فقبضوا عليه وعلى أمه، ثم انطلق ولحق بقلعة إصطخر ببلاد فارس، فسار الملك الرحيم من الأهواز في اتباعه سنة إحدى وأربعين وأطاعه أهل شيراز وجندها، ونزل قريباً منها.

ثم وقع الخلاف بين جند شيراز وبين جند بغداد، وعادوا إلى العراق فعاد معهم الملك الرحيم لارتيابه بجند شيراز، وبعث الجند والديلم جميعاً ببلاد فارس، إلى أخيه فلاستون ولما عاد استخلف العساكر وسار إلى أرجان عازماً على قصد الأهواز.

وعاد الملك الرحيم للقائه من الأهواز في ذي القعدة من السنة واقتتلوا وانهزم الملك الرحيم، وعاد إلى واسط منهزماً.

وسار بعض إلى الملك الرحيم يستجيشون به للرجوع إلى فارس، فأرسل إلى بغداد واستنفر الجند وسار إلى الأهواز فبلغه طاعة أهل فارس وأنهم منتظرون قدومه، فأقام بالأهواز ينتظر عساكر بغداد.

ثم سار إلى عسكر مكرم فملكها سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

ثم اجتمع جمع من العرب والأكراد مقدمهم طراد بن منصور ومذكور بن نزار فقصدوا سرف فنهبوها ونهبوا درق.

وبعث الملك الرحيم بعساكره في محرم سنة ثلاث وأربعين فهزموا العرب والأكراد وقتل مطارد وأسر ابنه واسترد النهب.

وبلغ الخبر إلى الملك الرحيم وهو بعسكر مكرم فتقدم إلى قنطرة أربق ومعه دبيس بن مزيد والبساسيري وغيرهما.

ثم سار هزارسب بن تنكر ومنصور بن الحسين الأسدي بمن معهما من الديلم والأتراك من أرجان إلى تستر، فسابقهم الملك الرحيم فكان الظفر له.

ثم زحف في عسكر إلى رامهرمز وبها أصحاب هزارسب فهزموهم وأثخنوا فيهم، وتحيزوا إلى رامهرمز في طاعة الملك الرحيم.

ثم قبض هزارسب عليهم وأرسل إلى الملك الرحيم بطاعته، فبعث أخاه أبا سعيد إليه فملك إصطخر، وخدمه أبو نصر بعسكره وماله، وأطاعته جموع من عساكر فارس من الديلم والترك

والعرب والأكراد وحاصروا قلعة بهندر فخالفه هزارسب ومنصور بن الحسين الأسدي إلى الملك الرحيم فهزموه.

وفارق الأهواز إلى واسط وعاد إلى سعد بشيراز فقاتلهم وهزمهم.

ثم عاودوا القتال فهزمهم وأثخن فيهم واستأمن إليه كثير منهم، وصعد فلاستون إلى قلعة بهندر فامتنع بها، وأعيدت الخطبة للملك الرحيم بالأهواز.

ثم مضى فلاستون وهزارسب إلى إيدج وبعثوا بطاعتهم إلى السلطان طغرلبك واستمدوه، وبعث إليهم العساكر والملك الرحيم بعسكر مكرم وقد انصرف عنه البساسيري إلى العراق، ودبيس بن مزيد والعرب والأكراد، وبقي معه ديلم الأهواز، وأنزل بغداد فسار من عسكر مكرم إلى الأهواز وحاصروه بها فبعث أخاه أبا سعد صاحب فارس حين طلبه صاحب إصطخر ليفتّ في عضد فلاستون وهزارسب ويرجعوا عنه.

فلم يهجهم ذلك وساروا إلى الأهواز وقاتلوه فهزموه، ولحق في الفل بواسط ونهبت الأهواز، وفقد في الوقعة الوزير كمال الملك أبو المعالي بن عبد الرحيم وكانت السلجوقية قد ساروا إلى فارس، فاستولى ألب أرسلان ابن أخي طغرلبك على مدينة نسا وعاثوا فيها وذلك سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

ثم ساروا سنة أربع وأربعين وأربعمائة إلى شيراز ومعهم العادل بن مافنه وزير فلاستون فقبضوا عليه وملكوا منه ثلاث قلاع وسلموها إلى أبي سعد أخي الملك الرحيم، واجتمعت عساكر شيراز فهزموا الغز الذين ساروا إليها وأسروا بعض مقدمهم.

ثم ساروا إلى نسا وقد كان تغلب عليها بعض السلجوقية فأخرجوهم عنها وملكوها.

الفتنة بين البساسيري وبني عقيل واستيلاؤه على الأنبار

لما سار الملك الرحيم إلى شيراز سنة إحدى وأربعين ثار بعض بني عقيل بأردوفا فنهبوها وعاثوا فيها وكانت من أقطاع البساسيري، فلمّا عاد من فارس سار إليهم من بغداد فأوقع بأبي كامل بن المقلد، واقتتلوا قتالا شديداً.

ثم تحاجزوا ورفع إلى البساسيري إن قرواش أساء السيرة في أهل الأنبار، وجاء أهلها متظلمين منه، فبعث معهم عسكراً فملكوها، وجاء على أثرهم فأصلح أحوالها.

وزحف قريش إليها سنة ست وأربعين فملكها وخطب فيها لطغرلبك، ونهب ما كان فيها للبساسيري، ونهب حلل أصحابه بالمخاص، وجمع البساسيري وقصد الأنبار وخوي فاستعادها من يد قريش ورجع إلى بغداد.

استيلاء الخوارج على عمان

كان أبو المظفر بن أبي كاليجار أميراً على عمان، وكان له خادم مستبد عليه فأساء السيرة في الناس ومد يده إلى الأموال فنفروا منه، وعلم بذلك الخوارج في جبالها فجمعهم ابن رشد منهم وسار إلى المدينة فبرز إليه أبو المظفر وظفر بالخوارج.

ثم جمع ثانية وعاد لقتال أبي المظفر والديلم وأعانه عليهم أهل البلد لسوء سيرتهم فهزمهم ابن رشد وملك البلد، وقتل الخادم وكثيراً من الديلم والعمال، وأخرب دار الإمارة وأسقط المكوس، واقتصر على ربع العشر من أموال التجار والواردين، وأظهر العدل ولبس الصوف وبنى مسجداً لصلاته، وخطب لنفسه وتلقب الراشد بالله.

وقد كان أبو القاسم بن مكرم بعث إليه قبل ذلك من حاصره في جبله وأزال طمعه.

الفتنة بين العامة ببغداد

وفي صفر من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة تجددت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعة وعظمت، وتظاهر الشيعة بمذاهبهم وكتبوا بعض عقائدهم في الأبواب، وأنكر ذلك أهل السنة، واقتتلوا وأرسل القائم نقيبي العباسية والعلوية لكشف الحال فشهدوا للشيعة، ودام القتال وقتل رجل من الهاشمية من أهل السنة، فقصدوا مشهد باب النصر ونهبوا ما فيه وأحرقوا ضريح موسى الكاظم وحافده محمد المتقي وضرائح بني بويه وبعض خلفاء بنى العباس، وهموا بنقل شلو الكاظم إلى مقبرة أحمد بن حنبل، فحال دون ذلك جهلهم بعين الجدث.

وجاء نقيب العباسية فمنع من ذلك، وقتل أهل الكرخ من الشيعة أبا سعيد السرخسي مدرس الحنفية.

وأحرقوا محال الفقهاء ودورهم، وتعدت الفتنة إلى الجانب الشرقي، وبلغ إحراق المشهد إلى دبيس فعظم عليه، وقطع خطبة القائم لأنه وأهل ناحيته كانوا شيعة، وعوتب في ذلك فاعتذر بأن

أهل الناحية تغري القائم بأهل السنة، وأعاد الخطبة بحالها.

ثم عظمت الفتنة سنة خمس وأربعين وأربعمائة واطرحوا مراقبة السلطان ودخل معهم طوائف من الأتراك وقتل بعض العلوية فصرخ النساء بثأره، واجتمع السواد الأعظم، وركب القواد لتسكين الفتنة فقاتلهم أهل الكرخ قتالاً شديداً، وحرقت أسواق الكرخ ثم منع الأتراك من الدخول بينهم فسكنوا قليلاً.

استيلاء الملك الرحيم على البصرة

قد كنا قدمنا أن الملك الرحيم لما تولى بغداد بعد أبيه أقر أخاه أبا علي على إمارة البصرة، ثم بدا منه العصيان، فبعث إليه العساكر مع البساسيري القائم بدولته، فزحف أخاه إلى البصرة وبرزوا إليه في الماء فقاتلهم عدة أيام ثم هزمهم وملك عليهم الأنهار، وصارت العساكر في البر إلى البصرة، واستأمنت ربيعة ومضر فأمنهم وملك البصرة، وجاءته رسل الديلم بخوزستان يعتذرون، ومضى أبو علي فتحصن بشط عثمان وخندق عليه فمضى الملك الرحيم إليه وملكه، ومضى أبو علي وابنه إلى عبادان ولحق منها إلى جرجان متوجهاً إلى السلطان طغرلبك.

فلما وصل إليه بأصفهان لاقاه بالتكرمة وأنزله بعض قلاع جرباذقان، وأقطع له في أعمالها وأقام الملك الرحيم بالبصرة أياماً واستبدل من أجناد أخيه أبي علي بها، واستخلف عليها البساسيري، وسار إلى الأهواز وترددت الرسل بينه وبين منصور بن الحسين وهزارسب فدخلوا في طاعته، وصارت تستر إليه، وأنزل بأرجان فولاد بن خسرو الديلمي، فسار في أعمالها وحمل المتغلبين هناك على طاعة الملك الرحيم حتى أذعنوا.

استيلاء فلاستون على شيراز بدعوة طغرلبك

قد قدمنا أنه كان بقلعة إصطخر أبو نصر بن خسرو مستولياً عليها، وأنه أرسل بطاعته سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة إلى الملك الرحيم عندما ملك رامهرمز، واستدعى منه أخاه أبا سعيد ليملكه بلاد فارس، فسار إليه بالعساكر وملك البلاد، ونزل شيراز، وكان معه عميد الدولة أبو نصر الظهير قد استبد في دولته، وساءت سيرته في جنده، وأوحش أبا نصر مستدعيهم للملك فانتقض عليهم، وداخل الجند في الانتقاض فشغبوا وقبضوا على عميد الدولة، ونادوا بدعوة أبي منصور فلاستون، واستدعوه وأخرجوا أبا سعيد عنهم إلى الأهواز، ودخل أبو منصور إلى الأهواز فملكها وخطب لطغرلبك وللملك الرحيم ثم لنفسه بعدهما.

وقائع البساسيري مع الأعراب والأكراد لطغرلبك

لما استولى طغرلبك على النواحي وأحاط بأعمال بغداد من جهاتها، وأطاعه أكثر الأكراد إلى حلوان وكثر فسادهم وعيثهم، والتفت عليهم الأعراب وأهمَّ الدولة شأنهم فسار إليهم البساسيري واتبعهم إلى البوازيج فظفر بهم وقتل وغنم، وعبروا الزاب، وجاء الديلم فتمكن من العبور إليهم وذلك سنة خمس وأربعين وأربعمائة ثم دعاه دبيس صاحب الحلة إلى قتال خفاجة، وقد عاثوا في بلاده، فاستنجد به وسار إليهم فأجلاهم عن الجامعين، ودخلوا المفازة واتبعهم فأدركهم بخفان فأوقع بهم وغنم أموالهم وأنعامهم، وحاصر حصن خفان وفتحه وخربه، وأراد تخريب القائم الذي به، وهو بناء في غاية الارتفاع كالعلم يهتدى به.

قيل: إنه وضع لهداية السفن لما كان البحر إلى النجف، فصانع عنه ربيعة بن مطاعم بالمال وترك له، وعاد إلى بغداد فصلب من كان معه من أسرى العرب.

ثم سار إلى خوي فحصرها وقرر عليها سبعة آلاف دينار.

فتنة الأتراك واستيلاء عساكر طغرلبك على النواحي

كان الأتراك من جند بغداد قد استفحل أمرهم على الدولة، واشتطوا وتطاولوا إلى الفتنة عندما هبت ريحها بظهور طغرلبك واستيلائه على النواحي، فطالبوا الوزير في محرم سنة ست وأربعين وأربعمائة بمبلغ كبير من أرزاقهم ورسومهم وأرهقوه، واختفى في دار الخلافة فاتبعوه وطلبوه من أهل الدار فجحدوه فشغبوا على الديوان، وتعدوا إلى الشكوى من الخليفة، وساء الخطاب بينهم وبين أهل الديوان وانصرفوا، وشاع بين الناس أنهم محاصرون دار الخلافة فانزعجوا، وركب البساسيري وهو النائب يومئذ ببغداد إلى دار الخلافة، وطلب الوزير وكبس الدور من أجله، فلم يوقف له على خبر.

وشغب الجند ونهبوا دار الروم وأحرقوا البيع، وكبسوا دار

ابن عبيد وزير البساسيري، ووقف أهل الدروب لمنع بيوتهم من الأتراك فنهبوا الواردين، وعدمت الأقوات، والبساسيري في خلال ذلك مقيم بدار الخلافة إلى أن ظهر الوزير، وقام بهم بما عليهم من أثمان دوابه وقماشه.

واتصل الهرج وعاد الأعراب والأكراد إلى العيث والإغارة والنهب والقتل، وجاءت أصحاب قريش صاحب الموصل فكبسوا حلل كامل ابن عمه بالبردوان، ونهبوا منها دواب وجمالاً من البخاتي، كانت هناك للبساسيري فتضاعف الهرج وانحل نظام الملك.

ووصل عساكر الغز إلى الدسكرة مع إبراهيم بن إسحاق من أمراء طغرلبك ورستبارد فاستباحوها.

ثم تقدموا إلى قلعة البردوان وقد عصى صاحبها سعدي على طغرلبك فامتنعت عليهم، فعاثوا في نواحيها وخربت تلك الأعمال وانجلى أهلها. وسارت طائفة أخرى إلى الأهواز فخربوا نواحيها، وقوي طمع السلجوقية في البلاد وخافت الديلم ومن معهم من الأتراك وضعفت نفوسهم، ثم بعث طغرلبك أبا علي بن أبي كاليجار الذي كان صاحب البصرة في عساكر السلجوقية إلى خوزستان، فانتهى إلى سابور خواست وكاتب الديلم بالوعد والوعيد فنزع إليه أكثرهم واستولى على الأهواز، ونهبها عساكر السلجوقية وصادروا أهلها وهرب أهلها منهم.

الوحشة بين القائم والبساسيري

قد قدمنا ما وقع من قريش بن بدران في نهب حلل البساسيري أصحابه سنة ست وأربعين وأربعمائة ثم وصل إلى بغداد أبو الغنائم وأبو سعد ابنا المجلبان صاحب قريش ودخلا في خفية، فهمَّ البساسيري بأخذهما، فأجارهما الوزير رئيس الرؤساء عليه، فغضب وسار إلى خوي والأنبار فملكهما ورجع ولم يعرج على دار الخلافة وأسقط مشاهرات القائم والوزير وحواشي الدار من دار الضرب، ونسب إلى الوزير مكاتبته طغرلبك.

ثم سار في ذي الحجة من سنة ست وأربعين وأربعمائة إلى الأنبار وبها أبو الغنائم بن المجلبان، ونصب عليها المجانيق ودخلها عنوة وأسر أبا الغنائم في خمسمائة من أهلها، ونهب البلاد وعاد إلى بغداد وقد شهر أبا الغنائم وهم بصلبه، فشفع فيه دبيس بن صدقة، وكان قد جاء مدداً له على حصار الأنبار فشفعه وصلب جماعة من الأسرى.

وثوب الأتراك بالبساسيري ونهب داره

كان هذا البساسيري مملوكاً لبعض تجار بسا من مدائن فارس فنسب إليهم، ثم صار لبهاء الدولة بن عضد الدولة، ونشأ في دولته وأخذت النجابة بضبعه، وتصرف في خدمة بيته إلى أن صار في خدمة الملك الرحيم، وكان يبعثه في المهمات ومدافعة هذه الفتن.

فدافع الأكراد من جهة حلوان، ودافع قريش بن بدران من الجانب الغربي وهما قائمان بدعوة طغرلبك.

ثم سار إلى الملك الرحيم بواسط وقد تأكدت الوحشة بينه وبين الوزير رئيس الرؤساء كما تقدم.

وبعث إليه وزيره أبو سعد النصراني بجرار خمر، فدس عليها الوزير قوماً ببغداد كانوا يقومون في تغيير المنكر فكسروها، وأراقوا خمرها فتأكدت الوحشة بذلك، واستفتى البساسيري الفقهاء الحنفية في ذلك فأفتوه باحترام مال النصراني، ولا يجوز كسرها عليه ويغرم من أتلفها.

وتأكدت الوحشة بين الوزير وبين البساسيري وكانت الوحشة بينه وبين الأتراك كما مر.

فدس الوزير بالشغب على البساسيري فشغبوا، واستأذنوا في نهب دوره، فأذن لهم من دار الخلافة فانطلقت أيدي النهب عليها، وأشاع رئيس الرؤساء أنه كاتب المستنصر العلوي صاحب مصر، واتسع الخرق، وكاتب القائم الملك الرحيم بإبعاد البساسيري، وأنه خلع الطاعة وكاتب المستنصر العلوي فأبعده الملك الرحيم.

استيلاء طغرلبك على بغداد والخليفة ونكبة الملك الرحيم وانقراض دولة بني بويه

كان طغرلبك قد سار غازياً إلى بلاد الروم فأثخن فيها، ثم رجع إلى الري فأصلح فسادها، ثم وصل همذان في المحرم سنة سبع وأربعين وأربعمائة عاملاً على الحج، وأن يمر بالشام ويزيل دولة العلوية بمصر.

وتقدم إلى أهل الدينور وقرميس وغيرهما بإعداد العلوفات والزاد في طريقه، وعظم الإرجاف بذلك في بغداد وكثر شغب الأتراك، وقصدوا ديوان الخلافة يطلبون القائم في الخروج معهم للمدافعة، وعسكروا بظاهر البلد.

فوصل طغرلبك إلى حلوان وانتشر أصحابه في طريق خراسان وأجفل الناس إلى غربي بغداد، وأصعد الملك الرحيم من واسط بعد أن طرد عنه البساسيري بأمر القائم، فلحق بدبيس بن صدقة صاحب الحلة لصهر بينهما.

وبعث طغرلبك إلى القائم بطاعته وإلى الأتراك بالمواعيد الجميلة، فرد الأتراك كتابه وسألوا من القائم رده عنهم فأعرض، وجاء الملك الرحيم يعرض نفسه فيما يختاره فأمر بتقويض الأتراك خيامهم، وأن يبعثوا بالطاعة لطغرلبك ففعلوا وأمر القائم الخطباء بالخطبة لطغرلبك، فبعث إلى طريقهم الوزير أبا نصر الكندري، وأمر الأجناد ثم دخل طغرلبك بغداد يوم الخميس ليومين من رمضان، ونزل بباب الشماسية، ووصل قريش صاحب الموصل وكان في طاعته قبل ذلك.

ثم انتشرت عساكر طغرلبك في البلد وأسواقها فوقعت الهيعة، وظن الناس أن الملك الرحيم أذن بقتال طغرلبك فأقبلوا من كل ناحية، وقتلوا الغز في الطرقات إلا أهل الكرخ فأنهم أمنوهم، وأجاروهم وشكر الخليفة لهم ذلك، وتمادى العامة في ثورتهم وخرجوا إلى معسكر طغرلبك.

ودخل الملك الرحيم بأعيان أصحابه إلى دار الخلافة تفادياً من الظنة به، وركبت عساكر طغرلبك فهزموا العامة وكسروهم، ونهبوا بعض الدروب ودورب الخلفاء والرصافة ودرب الدروب.

وكانت هذه الدروب قد نقل الناس إليها أموالهم ثقة باحترامها، وفشا النهب واتسع الخرق، وأرسل طغرلبك من الغد إلى القائم بالعتب على ما وقع، ونسبه إلى الملك الرحيم ويطلب حضوره وأعيان أصحابه فيكون براءة لهم، فأمرهم الخليفة بالركوب إليه، وبعث معهم رسوله ليبرئهم فساروا في ذمامه، وأمر طغرلبك بالقبض عليهم ساعة وصولهم.

ثم حمل الملك الرحيم إلى قلعة السيروان فحبس بها وذلك لست سنين من ولايته، وانقرض أمر بني بويه ونهب في الهيعة حلة قريش صاحب الموصل.

ونجا سليمان إلى خيمة بدر بن مهلهل فأجاره، ثم خلع عليه طغرلبك ورده إلى حلله.

ونقم القائم على طغرلبك ما وقع، وبعث في إطلاق المحبوسين فاتهم في ذمامه، وهدده بالرحيل عن بغداد فأطلق بعضهم ومحا عسكر الرحيم من الدواوين، وأذن لهم في السعي في معاشهم، فلحق كثير منهم بالبساسيري فكثر جمعه.

واستصفى طغرلبك أموال الأتراك ببغداد من أجله، وبعث إلى دبيس بإبعاده، فلحق بالرحبة وكاتب المستنصر صاحب مصر بالطاعة.

وخطب دبيس لطغرلبك في بلاده وانتشر الغز في سواد بغداد فنهبوه، وفشا الخراب فيه، وانجلى أهله، وولى طغرلبك البصرة والأهواز هزارسب فخطب لنفسه بالأهواز فقط، وأقطع الأمير أبا علي ابن الملك أبي كاليجار قرميسين وأعمالها، وأمر أهل الكرخ أن يؤذنوا في مساجدهم في نداء الصبح: الصلاة خير من النوم، وأمر بعمارة دار الملك فعمرت على ما اقترحه، وانتقل إليها في شوال سنة سبع وأربعين وأربعمائة واستقرت قدمه في الملك والسلطان، وكانت له الدولة التي ورثها بنوه وقومه السلجوقية ولم يكن للإسلام في العجم أعظم منها، والملك لله يؤتيه من يشاء.

الخبر عن دولة وشمكير وبنيه من الجيل إخوة الديلم وما كان لهم من الملك والسلطان بجرجان وطبرستان وأولية ذلك ومصائره

قد تقدم لنا ذكر مرداويج بن زيار، وأنه كان من قواد الديلم للأطروش، وأنه من الجيل إخوة الديلم، وكانت حالهم واحدة.

وكان منهم قواد للعلوية استظهروا بهم على أمرهم حتى إذا انقرضت دولة الأطروش وبنيه على حين فشل الدولة العباسية، ومحي أعمالها من السلطان، ساروا في النواحي لطلب الملك متفرقين فلما فملكوا الري وأصفهان وجرجان وطبرستان والعراقين وفارس وكرمان، وكل منهم في ناحية وتغلب بنو بويه على الخليفة وحجروه إلى آخر أيامهم.

وذكرنا أن مرداويج عندما استفحل ملكه بعث عن أخيه وشمكير من بلاد كيلان سنة عشرين وأربعمائة فاستظهر به على أمره، وولاه على الأعمال الجليلة، وكان قد استولى على أصفهان والري وأصبح من أعظم الملوك، وكان له أموال من الأتراك تنكروا له لشدته عليهم فاغتالوه، وقتلوه في محرم سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، فاجتمعت العساكر بعده على أخيه وشمكير بالري، وبعث إلى ماكان بن كالي وهو بكرمان بعدما ملكها من أبي علي بن إلياس بالمسير إليه بالري مع ابن محتاج.

وسار ماكان على المفازة إلى الدامغان وبعث وشمكير قائده

تاتجيز الديلمي مع جيش كثيف لاعتراضه، ومع ماكان عسكر ابن مظفر مدداً له، فتقاتلوا وهزمهم تاتجيز فعادوا إلى نيسابور، وجعلت ولايتها لماكان وقد مر ذكر ذلك كله.

ثم سار تاتجيز إلى جرجان وأقام بها، ثم هلك آخر السنة من سقطة عن فرسه، فاستولى عليها ماكان وحاصره ابن محتاج سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة فملكها وسار ماكان إلى طبرستان فأقام بها.

وكان ركن الدولة بن بويه غلب على أصفهان فبعث وشمكير عساكره إلى ماكان مدداً له في حروبه مع ابن محتاج، فاغتنم ركن الدولة خلو وشمكير من العساكر فسار إلى أصفهان فملكها، واتصل ما بينه وبين صاحب خراسان وانفرد وشمكير بملك الري.

استيلاء عساكر خراسان على الري والجيل وملك وشمكير طبرستان

لما ملك ركن الدولة أصفهان وصل يده بأبي علي بن محتاج صاحب خراسان، هو وأخوه عماد الدولة صاحب فارس، وحرضاه على أخذ الري من وشمكير رجاء أن يكون طرفاً لعمله فيتمكن به من ملكها، فسار أبو علي لذلك، واستمد وشمكير ماكان للمدافعة فجاء بنفسه.

وبعث ركن الدولة مدداً لابن محتاج فلقوه بإسحاقآباد وتقاتلوا فانهزم وشمكير ولحق بطبرستان فملكها، وقتل من كان بالمعركة واستولى أبو علي على الري.

ثم بعث أبو علي العساكر إلى بلد الجيل فاستولى على زنكان وأبهر وقزوين وكرج وهمذان ونهاوند والدينور إلى حلوان.

استيلاء الحسن بن الفيرزان على جرجان

كان الحسن بن الفيرزان ابن عم ماكان، وكان مناهضه في الصرامة، فلما قتل ماكان وملك وشمكير طبرستان بعث إليه بالدخول في طاعته فأبى، ونسبه إلى المواطأة على قتل ماكان فقصده وشمكير ففارق سارية وسار إلى ابن محتاج صاحب خراسان.

واستنجده فسار معه ابن محتاج وحاصر وشمكير بسارية حولاً كاملاً حتى رجع إلى طاعة ابن سامان، وأعطى ابنه سلار رهينة بذلك ورجع هو والحسن إلى خراسان وهو مكابده للصلح، ولقيهما موت سعيد بن سامان فثار الحسن بأبي علي بن محتاج ونهب سواده وأخذ ابن وشمكير الذي كان عنده، ورجع فملكها من يد إبراهيم بن سيجور الدواني ولحق ابن سيجور بنيسابور فعصى أبا علي بن محتاج كما مر في أخبارهم.

رجوع الري لوشمكير واستيلاء ابن بويه عليها

لما انصرف أبو علي إلى خراسان وفعل به الحسن ما ذكرناه، سار وشمكير إلى الري فملكها وراسله ابن الفيرزان يستميله، ورد عليه ابنه سلار فصانعه ولم يبالغ محافظة على عهد ابن محتاج.

ثم طمع ركن الدولة بن بويه في ملك الري لخلو يده وقلة عسكره فسار إليه وهزمه، واستأمن كثير من عسكره إليه وملك الري، ورجع وشمكير إلى طبرستان فاعترضه الحسن وهزمه فلحق بخراسان، وراسل ابن الفيرزان ركن الدولة بن بويه وواصله.

استيلاء وشمكير على جرجان

لما ملك ابن بويه الري من يد وشمكير ولحق طبرستان واعترضه ابن الفيرزان وهزمه، ولحق بخراسان سار إلى نوح بن سامان مستنجداً به، وبعث معه عسكراً، وأرسل إلى ابن محتاج صاحب خراسان بمظاهرته، فبعثه فيمن معه إلى جرجان وبها الحسن بن الفيرزان فهزمه وشمكير وملك جرجان.

استيلاء ركن الدولة على طبرستان وجرجان

لما ملك وشمكير جرجان من يد الحسن بن الفيرزان سار إلى ركن الدولة بن بويه، وأقام عنده بالري ثم سار سنة ست وثلاثين وثلاثمائة إلى بلاد وشمكير ولقيهم فهزموه وملك ركن الدولة طبرستان، وسار منها إلى جرجان، واستأمن إليه قواد وشمكير وولى الحسن بن الفيرزان على جرجان ورجع إلى الري وسار وشمكير إلى خراسان مستنجداً بابن سامان، فأمر منصور بن قراتكين صاحب خراسان أن يستوفد العساكر لإنجاده فسار معه، وكان مصطنعاً عليه، وكتب وشمكير إلى ابن سامان يشكو من ابن قراتكين، ثم كتب لأمير نوح إن أبي علي بن محتاج أن يسير معه

إلى الري فسار معه وقاتلوا ركن الدولة فلم يظفروا به حتى صالحهم كما تقدم، ورجع إلى وشمكير فانهزم أمامه إلى أسفرايين، وملك ابن بويه طبرستان وحاصر سارية وملكها، ولحق وشمكير بجرجان وسار إلى جرجان في طلب وشمكير إلى بلد الجيل واستولى ابن بويه عليها.

وفاة وشمكير وولاية ابنه بهستون

لما غلب بنو بويه على كرمان من يد أبي علي بن إلياس لحق وشمكير بالأمير منصور بن نوح ببخارى مستنصراً به، وأطمعه في ممالك بني بويه.

وأسرَّ إليه أن قواده بخراسان لا يناصحونه في شأنه فكتب إلى أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور صاحب خراسان بالمسير إلى الري بطاعة وشمكير والتصرف عن رأيه، واستعد ركن الدولة للقائهم واستنجد ابنه عضد الدولة وخالفهم إلى خراسان وبلغهم الخبر فتوقفوا بالدامغان يستطلعون الأخبار وركب وشمكير للصيد فاعترضه خنزير فرماه بحربة من يده فحمل عليه الخنزير فشب الفرس وسقط وشمكير إلى الأرض ومات من سقطته في محرم سنة سبع وخمسين وأربعمائة وانتقض جميع من كانوا معه، ولما مات وشمكير قام ابنه بهستون مقامه، وراسل ركن الدولة وصالحه فأمده بالعساكر والأموال.

وفاة بهستون وولاية أخيه قابوس

ثم توفي بهستون بن وشمكير بجرجان سنة ست وستين وثلاثمائة لسبع سنين من ولايته، وكان أخوه قابوس عند خاله رستم بجبل شهريار، وترك بهستون ابناً صغيراً بطبرستان في كفالة جده لأمه فطمع له جده في الملك وبادر به إلى جرجان وقبض على من كان عنده ميل إلى قابوس من القواد، وفي خلال ذلك وصل قابوس فخرج الجيش إليه واجتمعوا عليه وملكوه، وهرب أصحاب ابن منصور فكفله عمه قابوس وجعله أسوة بنيه، وقام بملك جرجان وطبرستان.

استيلاء عضد الدولة على جرجان وطبرستان

لما توفي ركن الدولة سنة ست وستين وثلاثمائة وعهد لابنه عضد الدولة وولى ابنه فخر الدولة على همذان وأعمال الجبل، وابنه مؤيد الدولة على أصفهان، وكان بختيار بن معز الدولة ببغداد فاستولى عليه.

ثم سار إلى أخيه فخر الدولة بهمذان فهرب إلى قابوس ونزل عضد الدولة الري، وبعث إلى قابوس في طلب أخيه فخر الدولة فأبى، فأمر أخاه مؤيد الدولة بخراسان أن يسير إليه، وأمده بالأموال والعساكر.

وسار إلى جرجان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ولقيه فخر الدولة بخراسان عندما وليها حسام الدولة أبو العباس تاش من قبل الأمير أبي القاسم بن نوح، وكتب إلى العباس تاش يأمره بإنجاد قابوس بن وشمكير وفخر الدولة على مؤيد الدولة، وإعادة قابوس إلى بلده، فزحف في العساكر إلى جرجان وحاصرها شهرين حتى ضاقت أحوالهم. وكاتب مؤيد الدولة فائقاً الخاصة من قواد خراسان واستماله فوعده أن ينهزم بمن معه يوم اللقاء.

وخرج مؤيد الدولة فقاتلهم وانهزم فائق بمن معه كما وعد، ووقف حسام الدولة وفخر الدولة قليلاً، ثم اتبعوه منهزمين إلى خراسان.

ثم استدعى تاش لتدبير الدولة ببخارى بعد قتل الوزير العتبي، فسار إليه سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة مؤيد الدولة وكان من خبر وفاته ما قدمناه.

وقعت الفتنة بين تاش وابن سيجور وانهزم تاش إلى جرجان، وقابله فخر الدولة بكثير من الكرامة والنصرة بما لم يعهد مثله حسبما مر في أخبارهم.

ولما ملك فخر الدولة جرجان وطبرستان والري اعتزم على رد جرجان وطبرستان إلى قابوس رغباً لما كان بينهما كما بدار الغربة، وأنه الذي جر على قابوس الخروج عن ملكه فشاور عن ذلك وزيره الصاحب ابن عباد فلم يوافقه، وبقي مقيماً بخراسان، وأنجده بنو سامان بالعساكر المرة بعد المرة فلم يقدر له الظفر حتى كان استيلاء سبكتكين.

عودة قابوس إلى جرجان وطبرستان

ولما ولي سبكتكين خراسان وعد قابوس برده إلى ملكه جرجان وطبرستان، ثم مضى إلى بلخ فمات سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فأقام قابوس إلى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فبعث الأصبهبد إلى جبل شهريار وعليه رستم بن المرزبان خال مجد

الدولة، وجمع له فقاتله وانهزم رستم واستولى أصبهبذ على الجبل، وخطب فيه لشمس المعالي قابوس.

وكان نائب ابن سعيد بناحية الاستنداوية وكان يميل إلى شمس المعالي فسار إلى آمد وطرد عنها عسكر مجد الدولة واستولى عليها، وخطب فيها لقابوس وكتب إليه بذلك.

ثم كتب أهل جرجان إلى قابوس يستدعونه فسار إليهم من نيسابور، وسار أصبهبذ، ويأتي ابن سعيد إليها من مكانهما فخرج إليهما عساكر جرجان فقاتلوهما فانهزم العسكر، ورجعوا إلى جرجان فلقوا مقدمة قابوس عندها فانهزموا ثانية إلى الري.

ودخل شمس المعالي قابوس جرجان في شعبان سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة وجاءت العساكر من الري لحصاره فأقاموا ودخل فصل الشتاء وتوالت عليهم الأمطار وعدمت الأقوات فارتحلوا وتبعهم قابوس وقاتلهم فهزمهم وأسر جماعة من أعيانهم، وملك ما بين جرجان وأستراباذ.

ثم أن الأصبهبد حدث نفسه بالملك، واغتر بما اجتمع له من الأموال والذخائر فسارت إليه العساكر من الري مع المرزبان خال مجد الدولة فهزموه وأسروه، وأظهروا دعوة شمس المعالي بالجبل لأن المرزبان كان مستوحشاً من مجد الدولة، فانضافت مملكة الجبل جميعاً إلى مملكة جرجان وطبرستان، وولى عليها قابوس ابنه منوجهر ففتح الري وايات وشالوش وقارن ذلك استيلاء محمود بن سبكتكين على خراسان، فراسله قابوس وهاداه وصالحه على سائر أعماله.

مقتل قابوس وولاية ابنه منوجهر

كان شمس المعالي قابوس قد استفحل ملكه، وكان شديد السطوة مرهف الحد فعظمت هيبته على أصحابه وتزايدت حتى انقلبت إلى العتو، فأجمعوا على خلعه، وكان ببعض القلاع فساروا إليه ليمسكوه بها فامتنع عليهم فانتبهوا موجوده، ورجعوا إلى جرجان وجاهروا بالخلعان، واستدعوا ابنه من طبرستان فأسرع إليهم مخافة أن يولوا غيره، واتفقوا على طاعته بأن يخلع أباه فأجاب إلى ذلك كرهاً.

وسار قابوس من حصنه إلى بسطام يقيم بها حتى تضمحل الفتنة فساروا إليه، وأكرهوا منوجهر على المسير معهم وينفرد هو للعبادة بقلعة أبخيا وأذن له أبوه بالقيام بالملك حذراً من خروجه عنهم، وبقي المتولون لكبر تلك الفتنة من الجند مرتابين من قابوس، وكتبوا من جرجان إلى منوجهر يستأذنونه في قتله، ولم ينتظروا رد الجواب وساروا إليه فدخلوا عليه البيت وجردوه من ثيابه، فما زال يستغيث حتى مات من شدة البرد، وذلك سنة ثلاث وأربعمائة لخمس عشرة سنة من استيلائه، وقام بالملك ابنه منوجهر وخطب له على منابره ولم يزل في التدبير على الرهط الذين قتلوا أباه حتى أباد كثيراً منهم وشرد الباقين.

وفاة منوجهر وولاية ابنه أنوشروان

ولما سار محمود بن سبكتكين سنة عشرين وأربعمائة عندما قبض حاجبه على مجد الدولة، وملك الري بدعوة محمود، وسار إليه محمود فهرب منوجهر بن قابوس من جرجان، وبعث إليه بأربعمائة ألف دينار ليصلحه، وتحصن منه بجبال وعرة.

ثم أبعد المذهب ودخل في الغياض الملتفة، وأجابه محمود فبعث إليه منوجهر بالمال ونكب عنه في رجوعه إلى نيسابور.

ثم توفي منوجهر إثر ذلك سنة ست وعشرين وأربعمائة وولي بعده ابنه أنوشروان، فأقره محمود على ولايته وقرر عليه خمسمائة ألف أميري، وخطب لمحمود في بلاد الجبل إلى حدود أرمينية.

ثم استولى مسعود بن محمود أعوام الثلاثين على جرجان وطبرستان، ومحا دولة بني قابوس كأن لم تكن والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة مسافر من الديلم باذربيجان ومصائره

كانت أذربيجان عند ظهور الديلم وانتشارهم في البلاد واستيلائهم على الأعمال أعوام الثلاثين والثلاثمائة بيد رستم بن إبراهيم الكردي من أصحاب يوسف بن أبي الساج. وكان من خبره أن أباه إبراهيم من الخوارج من أصحاب هارون الشاري الخارج بالموصل هرب بعد مقتله إلى أذربيجان.

وأصهر في الأكراد إلى بعض رؤسائهم، فولد له ابنه رستم ونشأ في أذربيجان ولما كبر استضافه ابن أبي الساج، وتنقل في الأطوار إلى أن استولى على أذربيجان بعد يوسف بن أبي الساج، وكان معظم جيوشه الأكراد.

ولما استولى الديلم على البلاد وملك وشمكير الري ولى أعمال الجبل لشكري وجمع الأموال والرجال، وسار لشكري إلى أذربيجان ليملكها سنة ست وعشرين وثلاثمائة، وحاربه دسيم في

بعض جهات أذربيجان، واستولى لشكري على سائر بلاد أذربيجان إلا أردبيل، فإن أهلها امتنعوا ثقة بحصن بلادهم.

وراسلهم فلم يجيبوه وحاصرها وشد حصارها، وثلم سورها وملكها أياماً يدخل نهاراً ويخرج إلى عساكره ليلاً، ثم سدوا ثلم السور وامتنعوا وعادوا إلى الحصار.

واستدعوا دسيماً فجاء لقتال لشكري من ورائه، وناشبته أهل أردبيل القتال من أمامه فانهزم وقتل عامة أصحابه، وتحيزوا إلى موقان.

واستنجد أصبهبذ بن دوالة فجمعوا وساروا إلى دسيم فانهزم أمامهم، وعبر نهر أرس، وقصد وشمكير في الري واستنجده، وضمن له مالاً كل سنة، فبعث معه عسكراً واستمال عسكر لشكري فداخلوه وكاتبوا وشمكير بالطاعة.

وعلم بذلك لشكري فتأخر إلى الزوزن عازماً على الموصل أن يملكها، ومر بأرمينية فنهب وسبى، ولما انتهى إلى الزوزن لقيه بعض الرؤساء من الأرمن وصانعه بالمال على بلده حتى كف عنها وأكمن له في مضيق بطريقه، ودس لبعض الأرمن أن ينهبوا شيئاً من ثقله، ويسلكوا المضيق، وكتب لشكري في أثرهم فقتله الكمين ومن معه، وقدم أهل العسكر عليهم ابنه الشكرستان، ورجعوا إلى بلد الطرم الأرميني ليثأروا من الأرمن بصاحبهم.

وكان أكثر بلده مضايق فقاتلهم الأرمن عليها وفتكوا فيهم، ولحق العسكر والشكرستان في الفل بالموصل فأقام بها عند ناصر الدولة بن حمدان، وكانت له معادن أذربيجان وولى عليها ابن عمه أبا عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان، وبعث معه الشكرستان وأصحابه فقاتلهم دسيم على المعادن، وغلبهم عليها ورجعوا واستولى دسيم على أذربيجان.

استيلاء المرزبان بن محمد بن مسافر على أذربيجان

كان محمد بن مسافر من كبار الديلم وكان صاحب الطرم وكان له أولاد كثيرون منهم سلار ومنهم صعلوك ومنهم وهشودان والمرزبان أمه بنت حسان ووهشودان ملك الديلم وقد مر خبره، وكان دسيم بن إبراهيم الكردي بعد مدافعة لشكري وابنه عن أذربيجان أقام عنده بعض الديلم من عسكر وشمكير الذين انجدوه على شانه، ثم إن قومه من الأكراد استبدوا عليه بأطراف أعماله، وملكوا بعض القلاع فاستظهر عليهم بأولئك

الديلم وغلبهم، واستدعى صعلوك بن محمد من قلعة أبيه الطرم فجاء إليه جماعة من الديلم وسار بهم إلى التي تغلب عليها الأكراد فانتزعها منهم، وقبض على جماعة منهم.

ثم استوحش منه وزيره أبو القاسم علي بن جعفر من أهل أذربيجان فهرب إلى الطرم ونزل على محمد بن مسافر عندما استوحش منه ابناه وهشودان والمرزبان، وغلبا على بعض قلاعه.

ثم قبضا عليه وانتزعا منه أمواله وذخائره فتقرب الوزير علي بن جعفر إلى المرزبان وكان يشاركه في دين الباطنية، وأطمعه في أذربيجان فاستوزره المرزبان، وكانت الديلم الذين عند دسيم وغيره من جنده واستمالهم فأجابوه، وسار المرزبان إلى أذربيجان وبرز دسيم للقائه فنزع الديلم إلى المرزبان، واستأمن إليه كثير من الأكراد، وهرب دسيم إلى أرمينية ونزل على صاحبها حاجيق بن الديراني.

وملك المرزبان أذربيجان سنة ثلاثين وثلاثمائة، وأساء وزيره علي بن جعفر السيرة مع أصحابه فتظافروا عليه وشرعوا في السعاية فيه، فأطمع المرزبان في أموال بتبريز يضمنها له. وسار إليها في عسكر من الديلم وأسرَّ لأهلها أنه جاء لمصادرتهم، فوثبوا بمن معه من الديلم وقتلوهم، واستدعوا دسيم بن إبراهيم فجاء إلى تبريز وملكوه، ولحق به الأكراد الذين استأمنوا إلى المرزبان، فسار المرزبان في عساكره وحاصرهم دسيم بتبريز، وكاتب علي بن جعفر وحلف له على الوفاء بما يرومه منه فطلب منه السلامة، وترك العمل وأجابه واشتد الحصار على دسيم فهرب من تبريز إلى أردبيل، وخرج الوزير إليه فوفى له المرزبان.

ثم طلب دسيم أن ينزله بأهله بقلعة من قلاع الطرم ففعل وأقام المرزبان فيها.

استيلاء الروس على مدينة بردعة وظفر المرزبان بهم

هؤلاء الروس من طوائف الترك ويجاورون الروم في مواطنهم وأخذوا بدين النصرانية معهم منذ أزمان متطاولة وبلادهم تجاور بلاد أذربيجان فركبت طائفة منهم البحر سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، ثم صعدوا من البحر في نهر اللكنهر، وانتهوا إلى مدينة بردعة من بلاد أذربيجان وبها المرزبان فخرج إليهم في نحو خمسة آلاف مقاتل من الديلم وغيرهم فهزمهم الروس، وقتلوا الديلم وتبعوهم إلى البلد فملكوه ونادوا بالأمان، وأحسنوا السيرة،

وجاءت العساكر الإسلامية من كل ناحية فلم يقدر عليهم.

وظاهرهم العوام والرعاع، فلما انصرفت العساكر غدرت الروسية بهم فقتلوهم، ونهبوا أموالهم واستعبدوهم.

وأحزن المسلمين ذلك واستنفر المرزبان الناس وسار لهم وأكمن لهم كميناً، وزحف إليهم، وخرجوا إليه واستطرد لهم حتى جاوزوا موضع الكمين، فاستمر أصحابه على الهزيمة ورجع هو مع أخيه وصاحب له مستميتين، وخرج الكمين من ورائهم واستلحم الروسية وأميرهم، ونجا فلهم إلى البلد فاعتصموا بحصنه، وكانوا قد نقلوا إليه السبي والأموال، وحاصرهم المرزبان وصابروه.

ثم إن ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل بعث إلى ابن عمه الحسين بن سعد بن حمدان في هذه السنة إلى أذربيجان ليملكها، فبلغ الخبر إلى المرزبان بأنه انتهى إلى سلماس، فجهز عسكراً إلى الروس وسار لقتال ابن حمدان، فقاتله أياماً ثم استدعاه ابن عمه ناصر الدولة من الموصل وأخبره بموت تورون وأنه سائر إلى بغداد، وأمره بالرجوع فرجع.

وأما الروس فحاصرهم العسكر أياماً واشتد فيهم الوباء فانقضوا من الحصن ليلاً وحملوا ما قدروا عليه من الأموال ولحقوا باللكن فركبوا سفنهم ومضوا إلى بلادهم، وطهر الله البلاد منهم.

مسير المرزبان إلى الري وهزيمته وحبسه

ولما سارت عساكر خراسان إلى الري وظن المرزبان أن ذلك يشغل ركن الدولة بن بويه عنه، وكان قد بعث رسوله إلى معز الدولة ببغداد فصرفه مذموماً مدحوراً، فاعتزم على غزو الري، وطمع في ملكه واستأمن إليه بعض قواد الري وأغراه بذلك.

وراسله ناصر الدولة بن حمدان يستحثه لذلك، ويشير عليه ببغداد قبل الري، وكتب ركن الدولة إلى أخويه عماد الدولة ومعز الدولة يستنجدهما، فبعثوا إليه بالعساكر، وسار بها من بغداد سبكتكين الحاجب.

ولما انتهى إلى الدينور انتقض عليه الديلم ووثبوا به، فركب في الأتراك فتخاذل الديلم وأعطوه الطاعة.

وكان المرزبان قبل وصول العساكر زحف إلى الري وهزمه ركن الدولة وحبسه، ورجع الفل إلى أذربيجان ومعهم محمد بن عبد الرزاق.

واجتمع أصحاب المرزبان على أبيه محمد بن مسافر، وأساء السيرة فهموا بقتله، وكان ابنه وهشودان قد هرب منه واعتصم بحصن له فلحق به أبوه محمد فقبض عليه وهشودان وضيق عليه حتى مات.

ثم استدعى دسيم الكردي من مكانه بقلعة الطرم حيث أنزله المرزبان عند ظفره به، وبعثه إلى محمد بن عبد الرزاق، وأقام بنواحي أذربيجان، ثم رجع إلى الري سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة واستعتب إلى سلطانه نوح بن سامان فأعتبه وعاد إلى طوس.

واستولى دسيم على أذربيجان لوالي القلعة حتى تمكنوا من قتله فقتله المرزبان، ولحق بأخيه وهشودان سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة.

وكان علي بن منكلي من قواد ركن الدولة قد لحق بوهشودان، وأغراه بدسيم، فبعثه وهشودان في العساكر، وكاتب الديلم واستمالهم، وسار إليه دسيم وخلف وزيره أبا عبد الله النعيمي بأردبيل فجمع مالاً كان صادره عليه، وهرب بما معه من المال إلى علي بن منكلي.

وبلغ الخبر إلى دسيم عند أذربيجان، فعاد إلى أردبيل، وشغب عليه الديلم ففرق فيهم ما كان معه من المال، وسار للقاء علي بن منكلي فالتقيا، وهرب الديلم الذين معه إلى علي بن منكلي، وانهزم هو إلى أرمينية.

ثم جاءه الخبر بأن المرزبان تخلص من محبسه بقلعة سيرم وملك أردبيل، واستولى على أذربيجان.

وأنفذ العساكر في طلبه فهزم دسيم إلى بغداد فأكرمه معز الدولة وأقام عنده.

ثم استدعاه شيعته بأذربيجان سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة فسار إليهم وطلب من معز الدولة المدد لأن أخاه ركن الدولة كان قد صالح المرزبان، فسار دسيم إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، واستنجد به فلم ينجده، فسار إلى سيف الدولة، فأقام عنده بالشام.

فلما كان سنة أربع وأربعين خرج على المرزبان خارج باب الأبواب فسار إليه، وخالفه دسيم إلى أذربيجان فاستدعاه مقدم من الأكراد وملك سلماس فبعث إليه المرزبان قائداً من قواده فهزمه دسيم.

ولما فرغ المرزبان من أمر الخارج وعاد إلى أذربيجان هرب دسيم إلى أرمينية واستجاش بابن الديراني، وكتب إليه المرزبان بحمل دسيم إليه، فسلمه وحبسه حتى إذا توفي المرزبان قتله بعض أصحابه حذراً من فتنته.

وفاة المرزبان وولاية ابنه خستان

ثم توفي المرزبان صاحب أذربيجان سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وعهد بالملك إلى أخيه وهشودان وبعده لابنه خستان، وكان قد أوصى نوابه بالقلاع أن يسلموها لابنه خستان، ثم لأخويه إبراهيم وناصر، ثم إلى أخيه وهشودان عندما عهد بالعهد الثاني إلى أخيه عرفه بإمارات بينه وبين نوابه يرجعون إليها في ذلك.

وبعث إلى النواب عبد الله النعيمي وهرب وهشودان من أردبيل فلحق بالطرم وجاء قواد المرزبان إلى خستان بن شرمول فإنه كان مقيماً على أرمينية فانتقض بها.

مقتل خستان وإخوته واستيلاء عمهم وهشودان على أذربيجان

ولما ولي خستان بن المرزبان انغمس في لذاتة وعكف على اللّهو، وقبض على وزيره أبي عبد اللّه النعيمي، وكان خستان بن برسموه منتقضاً بأرمينية وقد ملكها، وكان وزيره أبو الحسن عبد اللّه بن محمد بن حمدويه صهراً للوزير النعيمي فاستوحش لنكبته، وحمل صاحبه ابن سرمدان على مكاتبة إبراهيم بن المرزبان، فأطمعه في الملك وسار به إلى مراغة فملكها فراسله أخوه خستان، وسار إلى موقان وكان بأذربيجان رجل من ولد المكتفي متنكراً يدعو للرضا من آل محمد ويأمر بالعدل، ويلقب بالمجير، وكثرت جموعه، فبعث إليه النعيمي من موقان وأطمعه في الخلافة، وأن يملكه أذربيجان على أن يقصد بغداد ويترك لهم أذربيجان، فسارا إليه خستان وإبراهيم ابنا المرزبان فهزماه وقتلاه فلما رأى وهشودان الخلاف بين بني أخيه المرزبان استمال إبراهيم، وسار ناصر إلى موقان وطمع الجند في المال فساروا إلى ناصر وملكوا بهم أردبيل.

وطالبه الجند بالمال فعجز وقعد عمه وهشودان عن نصره وتبين له أنه كان يخادعه، فاجتمع مع أخيه خستان واضطربت عليهما الأمور وانتقضت أصحاب الأطراف فاضطرهما الحال إلى طاعة عمهما وهشودان وراسلاه في ذلك، واستحلفاه وقدما عليه مع أمهما، فغدر وقبض عليهم، وعقد الإمارة على أذربيجان لابنه إسماعيل، وسلم له أكثر قلاعه.

ولحق إبراهيم بن المرزبان بمراغة، وجمع لإستنقاذ أخويه ومنازعة إسماعيل فقتل وهشودان أخويه وأمهما، وأمر خستان بن سرمدان بقتال إبراهيم بمراغة وبعث إليه بالمدد.

وانضم إبراهيم إلى نواحي أرمينية سنة تسع وأربعين فاستولى ابن سرمدن على مراغة واستضافها إلى أرمينية، وجمع إبراهيم. وكانت ملوك أرمينية من الأرمن والأكراد، وأصلح خستان بن سرمدن.

ثم جاء الخبر بوفاة إسماعيل ابن عمه فسار إلى أردبيل فملكها، وانصرف ابن منكلي إلى وهشودان، وزحف إليهما إبراهيم وهزمهما، فلحقا ببلاد الديلم، واستولى إبراهيم على أعمال وهشودان.

ثم جمع وهشودان وعاد إلى قلعته بالطرم، وبعث أبو القاسم بن منكلي العساكر لقتال إبراهيم فهزموه، ونجا إلى الري مستنجداً بركن الدولة لصهر بينهما.

استيلاء إبراهيم بن المرزبان ثانياً على أذربيجان

قد تقدم هزيمة إبراهيم بن المرزبان أمام عساكر ابن منكلي، وأنه لحق بركن الدولة مستنجداً به، فبعث معه الأستاذ أبا الفضل بن العميد في العساكر فاستولى على أذربيجان، وحمل أهلها على طاعة إبراهيم، وقاد له خستان بن سرمدن وطوائف الأكراد فتمكن من البلاد وكتب ابن العميد إلى ركن الدولة أن يعطيه ملكها.

ولعله يعوض إبراهيم عنها لكثرة جبايتها وقلة معرفة إبراهيم بالجباية، وأن يشهد فيها بالخروج عن ملكه فأبى من ذلك، وقال: لا أفعل ذلك بمن استجار بي فسلم له ابن العميد البلاد ورجع.

(تنبيه): أخبار بني مسافر المعروفين ببني السلار ملوك أذربيجان نقلتها من كتاب ابن الأثير وإلى هنا انتهى في أخبارهم وأحال على ما بعده فقال بعد ذلك: وكان الأمير كما ذكر ابن العميد قد أخذ إبراهيم وحبسه على ما ذكره، ولم نقف على ذكر شيء من أخبار إبراهيم بعد ذلك ولا من خبر قومه.

وذكر أن محمود بن سبكتكين بعد خبر استيلائه على الري سنة عشرين وأربعمائة أنه بعث إلى المرزبان بن الحسين بن حرابيل من أولاد ملوك الديلم، والتجأ إلى محمود فبعثه إلى بلاد السلار، وهو إبراهيم بن المرزبان بن إسماعيل بن وهشودان بن محمد بن مسافر الديلمي، وكان له من البلاد شهرخان وزنجان وشهرزور

وغيرها فقصدها واستمال الديلم.

وعاد محمود إلى خراسان فسار السلار إبراهيم إلى قزوين فملكها وقتل من عساكر محمود الذين بها وتحصن بقلعة الري، وكان بينهما وقائع ظهر فيها السلار، ثم استمال مسعود بن محمود طوائف من عسكره وجاؤوا إليه ودلوه على عورة الحصن الذي فيه السلار وسلكوا بعسكره من طرق غامضة.

وبعث إليه العسكر في رمضان سنة ست وعشرين وأربعمائة فانهزم، وقبض عليه مسعود وحمله إلى سرجهار وبها ولده، وطالب أن يسلم إليه القلعة فأبى، وعاود عنه، وتسلم بقية قلاعه، وأخذ أمواله وقرر على ابنه بسرجهار مالاً وعلى الأكراد الذين في جواره، وعاد إلى الري، وهذا السلار الذي ذكر غير السلار الأول، ولم يتصل الخبر بالخبر المتقدم.

ثم ذكر أخبار الغز الذين تقدموا بين يدي السلجوقية وانتشروا في بلاد الري وملكوها كثير من بلادها، ووصلت طائفة منهم إلى أذربيجان الذين كان مقدمهم بوقا وكوكتاش ومنصور ودانا.

دخول الغز أذربيجان

يقال: دخل هؤلاء الغز إلى أذربيجان وسمى صاحبها يومئذ وهشوذان بن غلاك، فأكرمهم وصاهرهم يدافع شرهم بذلك، ويستميلهم لنصرته فلم يحصل من ذلك بطائل.

وعاثوا في البلاد أشد العيث ودخلوا مراغة سنة تسع وعشرين وأربعمائة فقتلوا أهلها وحرقوا مساجدها.

وفعلوا كذلك بالأكراد الهمذانية، فاتفق أهل البلاد على مدافعتهم.

وأصلح أبو الهيجاء ابن ربيب الدولة ووهشوذان صاحبا أذربيجان، واتفقت كلمتهما واجتمع معهما أهل همذان فانصرفت تلك الطائفة عن أذربيجان، وافترقوا على الري كما تقدم في اخبارهم.

وبقي الغز الذين تقدموا قبلهم، فقاسى منهم أهل أذربيجان شدة، وفتك فيهم وهشوذان بتبريز سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة فتكة أوهنت منهم.

ودعا منهم جمعاً كثيراً إلى صنيع، وقبض على ثلاثين من مقدميهم فقتلهم، وفر الباقون من أرمينية إلى بلاد الهكارية من أعمال الموصل، وكانت بينهم وبين الأكراد وقائع ذكرناها في أخبار الغز بالموصل، ولم يعد ابن الأثير لبني المرزبان ملوك أذربيجان ذكراً إلى أن ذكر استيلاء طغرلبك على البلاد، والمفهوم من فحوى الأخبار أن الأكراد استولوا عليها بعد بني المرزبان والله أعلم.

استيلاء طغرلبك على أذربيجان

قال ابن الأثير: وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة سار طغرلبك إلى أذربيجان وقصد تبريز، وصاحبها الأمير منصور بن وهشوذان بن محمد الروادي فأطاعه وخطب له وحمل إليه، ورهن عنده ولده، فسار طغرلبك عنه إلى الأمير أبي الأسوار صاحب جنزة فأطاع وخطب، وكذلك سائر النواحي أرسلوا إليه يبذلون الطاعة والخطبة، وانقاد العساكر إليه فأبقى عليهم بلادهم، وأخذ رهنهم وسار إلى أرمينية كذلك، وقصد ملاذكرد وهي للنصرانية، فعاث في بلادها وخرب أعمالها، وغزا من هنالك بلاد الروم وانتهى إلى أرزن الروم فأثخن في بلادهم ودوخها، وعاد ابن السلار إلى العراق وذكر ابن الأثير خلال هذا غزوة فضلون الكردي إلى الخزر من التركمان على ما مر أول الكتاب فقال: كان بيد فضلون الكردي قطعة كبيرة من أذربيجان فغزا إلى الخزر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ودوخ البلاد وقفل، فجاؤوا في أثره وكبسوه وقتلوا أيضاً بخطط ملك الإنجاز إلى مدينة تفليس فقال: وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة زحف ملك الإنجاز إلى أذربيجان ليتعرف المسلمين على حين وصول الغز إلى أذربيجان وما فعلوه فيها، وسمع الأنجاز بأخبارهم فأجفلوا عن مخلفهم، ووصل وهشوذان صاحب أذربيجان وصرف نظره إلى ملاطفة الغز ومصاهرتهم ليستعين بهم كما مر.

هذا آخر ما وجدناه من أخبار ملوك أذربيجان، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني شاهين ملوك البطيحة ومن ملكها من بعدهم من قرابتهم وغيرهم وابتداء ذلك ومصائره

كان عمران بن شاهين من المصامدة، وكان يتصرف في الجباية، وحصل بيده منها مال فتخوف وألح عليه الطلب فهرب إلى البطيحة ممتنعاً من الدولة.

وكان له نجدة وبأس وصبر على الشظف فأقام هنالك بين القصب والآجام يقتات بسمك الماء والطير، ويتعرض للرفاق التي

تمر بالطريق فيأخذها.

واجتمع إليه لصوص الصيادين فقسوي وامتنع على السلطان، وتمسك بخدمة أبي القاسم بن البريدي صاحب البصرة فأمنه، ووصل حبل الطاعة بيده وقلده حماية تلك النواحي إلى الجامدة دفعاً لضرره عن السابلة، فعز جانبه وكثر جمعه وسلاحه، واتخذ معاقل على التلال بالبطائح وغلب على تلك النواحي، ولما استولى معز الدولة على بغداد، وقام بكفالة الخلافة والنظر في أمورها، أهمه شأن عمران هذا وامتناعه في معاقله في نواحي بغداد، فجهز إليه وزيره أبا جعفر الصيمري في العساكر، وسار إليه سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وتعددت بينهما الحروب والوقائع، ثم هزمه الصيمري.

ثم أتاه الخبر بمسيره إلى شيراز كما تقدم في أخبار دولتهم.

مسير العساكر إلى عمران بن شاهين وانهزامها

ولما انصرف الصيمري عن عمران عاد إلى حاله فبعث معز الدولة لقتاله روزبهان من أعيان الديلم في العساكر، فتحصن منه في مضايق البطائح، فطاوله فضجر روزبهان واستعجل قتاله فهزمه عمران وغنم ما معهم، فاستفحل وقوي وأفسد السابلة.

وكان أصحابه يطلبون الخفارة من جند السلطان إذا مروا بهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة، فبعث معز الدولة بالعساكر مع المهلبي، وزحف إلى البطائح سنة أربعين وثلاثمائة ودخل عمران في مضائقه، وأشاروا عليه بالهجوم فلم يفعل، فكتب إليه معز الدولة بذلك بإشارة روزبهان فدخل المهلبي المضائق بجميع عسكره، وقد أكمن لهم عمران، فخرج عليهم الكمين وتقسموا بين القتل والغرق والأسر، ونجا المهلبي سابحاً في الماء.

وكان روزبهان متأخراً في الزحف فسلم، وأسر عمران كثيراً من قوادهم الأكابر ففاداه معز الدولة بمن في أسره من أهله وأصحابه، وقلده ولاية البطائح فاستفحل أمره.

ثم انتقض سنة أربع وأربعين وثلاثمائة لخبر بلغه عن مرض طرق معز الدولة، وأرجف أهل بغداد بموته، ومر به مال من الأموال يحمل إلى معز الدولة ومعه جماعة من التجار فكبسهم وأخذ جميع ما معهم.

ثم رد ذلك بعد إبلال معز الدولة من مرضه، وفسد ما بينهما من الصلح. ثم سار معز الدولة إلى واسط سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، فبعث العساكر من هنالك لقتال عمران مع أبي الفضل العباس بن الحسن، وقدم عليه نافع مولى ابن وجيه صاحب عمان يستنجده عليها، فانحدر إلى الأبلة، وبعث معه المراكب إلى عمان، وسارت عساكره إلى البطائح، فنزلوا الجامدة وسدوا الأنهار التي نصب إليها.

ثم رجع معز الدولة من الأبلة وطرقه المرض فجهز العساكر لقتال عمران، وعاد إلى بغداد فهلك، وولي بعده ابنه عز الدولة بختيار فأعاد العساكر المجمرة على عمران، وعقد معه الصلح فاستمر حاله.

ثم زحف بختيار إليه سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وأقام بواسط يتصيد شهراً، ثم بعث وزيره إلى الجامدة وطرق البطيحة فسد مجاري المياه وقلبها إلى أنهارها، وهي الجسور إلى العراق، ثم جاء المد من دجلة وخرب جميع ذلك.

ثم انتقل عمران إلى معقل آخر ونقل ماله إليه حتى إذا حسر المياه وانتهجت الطرق فقدوا عمران من مكانه، وطال عليهم الأمر وشغب الجند على الوزير فأمر بختيار بمصالحته على ألف ألف درهم، ولما رحل العسكر عنه ثار أصحابه في أطراف الناس فنهبوا كثيراً من العساكر ووصلوا إلى بغداد سنة إحدى وستين وثلاثمائة.

وفاة عمران بن شاهين وقيام ابنه الحسن مقامه ومحاربته عساكر عضد الدولة

ثم توفي عمران بن شاهين فجأة في محرم سنة تسع وستين وثلاثمائة لأربعين سنة من ثورته بعد أن طلبه الملوك والخلفاء ورددوا عليه العساكر فلم يقدروا عليه.

ولما هلك قام بعده ابنه الحسن فطمع عضد الدولة فيه، وجهز العساكر مع وزيره وسدوا عليه المياه وأنفق فيها أموالاً وجاء المد فأزالها، وبقوا كلما سدوا فوهة فتق الحسن أخرى وفتح الماء أمثالاً لها، ثم وافقهم في الماء فاستظهر عسكر الحسن وكان معه المظفر أبو الحسن ومحمد بن عمر العلوي الكوفي، فاتهمه بمراسلة الحسن وإفشاء سره إليه، وخاف أن تنقص منزلته عند عضد الدولة فطعن نفسه فمات، وأدرك بآخر رمق فقال: محمد بن عمر حملني على هذا، وحمل إلى ولده بكازرون فدفن هنالك، وأرسل عضد الدولة إلى العسكر من رجعه إليه وصالح الحسن بن عمران على مال يحمله وأخذ رهنه بذلك.

مقتل الحسن بن عمران وولاية أخيه أبي الفرج

كان الحسن بن عمران آسفاً على أخيه أبي الفرج وحنقاً عليه، ولم يزل يتحيل عليه إلى أن دعاه إلى عيادة أخت لهما مرضت، وأكمن في بيتها جماعة أعدها لقتله، فدخل الحسن منفرداً عن أصحابه، فأغلقوا الباب دونهم وقتلوه، وصعد أبو الفرج إلى السطح فأعلمهم بقتله ووعدهم فسكنوا.

ثم بذل لهم المال فأقروه، وكتب إلى بغداد بالطاعة، فكتب له بالولاية، وذلك لثلاث سنين من ولاية الحسن.

مقتل أبي الفرج وولاية أبي المعالي بن الحسن

ثم إن أبا الفرج لما قتل أخاه الحسن قدم الجماعة الذين قتلوه على أكابر القواد، وكان الحاجب المظفر بن علي كبير قواد عمران والحسن، فاجتمع إليه القواد وشكوا إليه فسكنهم فلم يرضوا وحملوه على قتل أبي الفرج فقتله، ونصب أبا المعالي ابن أخيه الحسن مكانه لأشهر من ولايته.

ثم تولى تدبيره بنفسه لصغره، وقتل من كان يخافه من القواد واستولى على أموره كلها.

استيلاء المظفر وخلع أبي المعالي

ثم إن المظفر بن علي الحاجب القائم بأمر أبي المعالي طمع في الاستقلال بأمر البطيحة فصنع كتاباً على لسان صمصام الدولة سلطان بغداد بولايته، وجاء به ركابي عليه أثر السفر وهو بدست إمارته فقرأه بحضرتهم، وتلقاه بالطاعة وعزل أبا المعالي وأخرجه مع أمه إلى واسط وكان يصلهما بالنفقة.

وأحسن السيرة بالناس، وانقرض بيت عمران بن شاهين، ثم عهد إلى ابن أخته علي بن نصر ويكنى أبا الحسن، وتلقب بالأمير المختار، وبعده إلى ابن أخته الأخرى ويكنى أبا الحسن ويسمى علي بن جعفر.

وفاة المظفر وولاية مهذب الدولة

ثم توفي الحاجب المظفر صاحب البطيحة سنة ست وسبعين وثلاثمائة لثلاث سنين من ولايته، وولي بعده ابن أخيه أبو الحسن علي بن نصر بعهده إليه كما مر.

وكتب إلى شرف الدولة سلطان بغداد بالطاعة، فقلده ولقبه مهذب الدولة، فأحسن السيرة وبذل المعروف وأجار الخائف، فقصده الناس وأصبحت البطيحة معقلاً، واتخذها الأكابر وطناً، وبنوا فيها الدور والقصور.

وكاتب ملوك الأطراف وصاهره بهاء الدولة بابنته، وعظم شأنه واستجار به القادر عندما خاف من الطائع، وهرب إليه فأجاره، ولم يزل عنده بالبطيحة ثلاث سنين إلى أن استدعي منها للخلافة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة.

بعث ابن واصل على البطيحة وعزل مهذب الدولة

كان من خبر أبي العباس بن واصل هذا أنه كان ينوب عن رزبوك الحاجب، وارتفع معه ثم استوحش منه ففارقه وسار إلى شيراز، واتصل بخدمة فولاد وتقدم عنده، ثم قبض على فولاد فعاد إلى الأهواز.

ثم أصعد إلى بغداد، ثم خرج منها وخدم أبا محمد بن مكرم، ثم انتقل إلى خدمة مهذب الدولة بالبطيحة وتقدم عنده.

ولما استولى السكرستان على البصرة بعثه مهذب الدولة في العساكر لحربه فقتله وغلبه، ومضى إلى شيراز فأخذ سفن محمد بن مكرم وأمواله، ورجع إلى أسافل دجلة فتغلب عليها، وخلع طاعة مهذب الدولة، فأرسل إليه مائة سميرية مشحونة بالمقاتلة فغرق بعضها وأخذ ابن واصل الباقي وعاد إلى الأبلة فبعث إليه أبا سعيد بن ماكولا فهزمه ثانية، واستولى على ما معه وأصعد إلى البطيحة وخرج مهذب الدولة إلى شجاع بن مروان وابنه صدقة فغدروا به، وأخذوا أمواله، ولحق بواسط، واستولى ابن واصل على البطيحة وعلى أموال مهذب الدولة، وجمع ما كان لزوجه ابنة بهاء الدولة، وبعث به إلى أبيها وكانت قد لحقت ببغداد.

ثم اضطرب عليه أهل البطائح وبعث سبعمائة فارس إلى البلاد المجاورة فقاتلهم أهلها وظفروا بهم، وخشي ابن واصل على نفسه فعاد إلى البصرة وترك البطائح فوضى، ونزل البصرة في قوة

واستفحال.

وخشي أهل النواحي عاديته فسار بهاء الدولة من فارس إلى الأهواز ليتلافى أمره، واستدعى عميد الجيوش من بغداد وسيره في العساكر إليه فجاء إلى واسط، واستكثر من السفن وسار إلى البطائح وسار إليه ابن واصل من البصرة فهزمه وغنم ثقله وخيامه ورجع ابن واصل مفلولاً.

عود مهذب الدولة إلى البطيحة

ولما انهزم عميد الجيوش أقام بواسط فجمع عساكره لمعاودة ابن واصل، ثم بلغه أن نائب بن واسط بالبطائح قد خرج منها مجفلاً، فبعث إلى بغداد وبعث بالعساكر، وهمّ بالانتقاض فاستدعى عميد الجيوش مهذب الدولة من بغداد، وبعثه بالعساكر في السفن إلى البطيحة سنة خمس وستين وثلاثمائة فاستولى عليها.

واجتمع عليه أهل الولايات وأطاعوه، وقرر عليها بهاء الدولة خمسين ألف دينار في كل سنة، وشغل عن ابن واصل بتجهيز العساكر إلى خوزستان وطمع في الملك واجتمع عنده كثير من الديلم وأصناف الأجناد.

وسار إلى الأهواز وسير بهاء الدولة عسكراً للقائه فهزمهم، ودخل دار الملك وأخذ ما كان فيها، وبعث إلى بهاء الدولة في الصلح فصالحه وزاد في أقطاعه.

ثم بعث بهاء الدولة العساكر للقائه وسار إلى الأهواز وزحف إليها ابن واصل ومعه بدر بن حسنوية، فبعث بهاء الدولة الوزير بالبطيحة فهزمه الوزير ثانية، فمضى مع حسان بن محال الخفاجي الكوفي وملك إلى الكوفة، وملك البصرة.

وسار ابن واصل إلى دجلة قاصداً بدر بن حسنوية فبلغ جامعين فأنزله أصحاب بدر، وكان أصحاب أبي الفتح بن عنان قريباً منه فكبسه، وجاء به إلى بغداد فبعثه عميد الجيوش إلى بهاء الدولة فقتله سنة ست وتسعين وثلاثمائة كما مر في أخبار الدولة.

وفاة مهذب الدولة وولاية ابن اخته عبد الله بن نسى

ثم توفي مهذب الدولة عبد الله بن علي بن نصر في جمادى سنة ثمان وأربعمائة، وكان ابن أخته أبو عبد الله محمد بن نسى قائماً بأموره ومرشحاً للولاية مكانه، وقد اجتمع عليه الجند واستحلفهم لنفسه.

وبلغه قبل وفاة خاله أن ابنه أبا الحسن أحمد داخل بعض الجند في البيعة له بعد أبيه فاستدعاه، وحمله إليه الجند فقبض عليه، ودخلت إليه أمه فخبرته الخبر فلم يزد على الأسف له.

وتوفي مهذب الدولة من الغد، وولي أبو محمد بن نسى مكانه وقتل أبو الحسين ابن خاله لثلاث من وفاة أبيه.

وفاة ابن نسى وولاية السراني

ثم توفي أبو عبد الله محمد بن نسى لثلاثة أشهر من ولايته، واتفق الجند على ولاية أبي محمد الحسين بن بكر السراني من خواص مهذب الدولة فولوه عليهم، وبذل لسلطان الدولة ملك بغداد مالاً فأقره على ولايته.

نكبة السراني وولاية صدقة المازياري

وأقام أبو محمد السراني على البطيحة إلى سنة عشر وأربعمائة، وبعث سلطان الدولة صدقة بن فارس المازياري فنكبه وملك البطيحة، وبقي عنده أسيراً إلى أن توفي صدقة وخلص على ما يذكر.

وفاة صدقة وولاية سابور بن المرزبان

ثم توفي صدقة بن فارس المازياري في محرم لاثنتي عشرة سنة من ولايته، وكان سابور بن المرزبان بن مردان قائد جيشه.

وكان أبو الهيجاء محمد بن عمران بن شاهين قد تنقل بعد موت أبيه في البلاد بمصر، وعند بدر بن حسنويه حتى استقر عند الوزير أبي غالب، ونفق عنده بما كان لديه من الأدب.

عزل سابور وولاية أبي نصر

ثم إن أبا نصر بن مردان زاد في المقاطعة ولم يبلغها سابور، وتخلى عن الولاية وفارق البطيحة إلى جزيرة بني دبيس، واستقر أبو نصر في ولايتها. ثم عادت إلى أبي عبد الله الحسين بن بكر السراني.

عصيان أهل البطيحة على أبي كاليجار

وبعث أبو كاليجار سنة ثمان عشرة وأربعمائة وزيره أبا محمد بن نابهشاد إلى البطيحة، ومقدمها يومئذ أبو عبد الله الحسين بن بكر السراني فعسف بالناس في أموالهم، وقسط عليهم مقادير تؤخذ منهم فانجلوا إلى البلاد.

وعزم الباقون على قتل السراني، ونما الخبر إلى السراني فجاء إليهم واعتذر إليهم، وأوعدهم بالمساعدة وأشار عليه الوزير بإصلاح السفن حتى زحزحها بحيث لا يتمكن منها.

ثم وثبوا به فأخرجوه، وكان عندهم جماعة من عسكر جلال الدولة محبوسين فأخرجوهم، واستعانوا بهم وعادوا إلى الامتناع الذي كانوا عليه أيام مهذب الدولة فتم لهم ذلك.

ثم جاء ابن العبراني فغلب على البطيحة وأخرج منها السراني فلحق بيزيد بن مزيد، وأقام بها ابن العبراني سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة فزحف إليه أبو نصر بن الهيثم فغلبه عليه ونهبها واستقر في ملكها على مال يؤديه لجلال الدولة.

استيلاء أبي كاليجار على البطيحة

ولما كانت سنة تسع وثلاثين وأربعمائة بعث أبو كاليجار أبا الغنائم أبا السعادات الوزير في عسكر لحصار البطيحة فحاصرها، وبها أبو منصور بن الهيثم حتى جنح إلى الصلح، واستأمن نفر من أصحابه إلى أبي الغنائم وأخبروه بضعفه وعزمه على الهرب، فحفظ عليه الطرق ولما كان شهر صفر من السنة واقعهم أبو الغنائم فظفر بهم، وقتل من أهل البطيحة خلقاً كثيراً وغرقت منهم سفن متعددة وتفرقوا في الآجام، وركب ابن الهيثم السفن ناجياً بنفسه وأحرقت داره ونهب ما فيها.

ولاية مهذب الدولة بن أبي الخير على البطيحة

ثم كان بعد ذلك لبني أبي الخير ولاية على البطيحة فيما قبل المائة الخامسة وما بعدها ولا أدري ممن هؤلاء بنو أبي الخير، إلا أن ابن الأثير قال: كان إسماعيل ولقبه المصطنع، ومحمد ولقبه المختص، هما ابنا أبي الخير، ولهما رياسة قومهما، وهلك المختص وقام مكانه ابنه مهذب الدولة.

ونازع ابن الهيثم صاحب البطيحة إلى أن غلبه مهذب الدولة أيام كوهرايين الشحنة ببغداد، وكان بنو عمه وعشيرته تحت حكمه.

وأقطع السلطان محمد سنة خمس وتسعين وخمسمائة مدينة واسط لصدقة بن مزيد صاحب البطيحة والحلة فضمنها منه مهذب الدولة أحمد بن أبي الخير صاحب البطيحة، وفرق أولاده في الأعمال وطالبه صدقة بالأموال وحبسه وضمن حماد ابن عمه واسط.

وكان مهذب الدولة يصانع حماد ابن عمه إسماعيل ويداريه، وحماد يطمح إلى رياسته، فلما هلك كوهرايين نازع حماد مهذب الدولة ابن عمه، واجتهد مهذب الدولة في إصلاحه فلم يقدر، فجمع النفيس بن مهذب الدولة فهرب حماد إلى صدقة مستجيشاً به، فعاد بالجيش وحاربه مهذب الدولة وزاده صدقة المدد، فانهزم مهذب الدولة وهلك أكثر عسكره وقوي طمع حماد.

واستمد صدقة فأمده بالعساكر مع مقدم جيشه حميد بن سعيد.

وبعث مهذب الدولة لصاحب الجيش بالإقامات والصلات فمال إليه، وأصلح ما بينه وبين صدقة.

وبعث مهذب الدولة ابنه النفيس إلى صدقة فأصلح بينهم وبين حماد ابن عمهم، وكان ذلك أعوام الثلاثين.

ولاية نصر بن النفيس والمظفر بن حماد من بعده على البطيحة

ثم كان انتقاض دبيس بن صدقة أيام المسترشد والسلطان محمود، وكان البرسقي شحنة ببغداد فانتزع السلطان البطيحة من يد دبيس وأقطعها إلى سحان الخادم مولاه، فولى عليها نصر بن النفيس بن مهذب الدولة أحمد بن محمد بن أبي الخير.

وأمر السلطان محمود البرسقي بالمسير لقتال دبيس فاحتشد وسار لذلك ومعه نصر بن النفيس صاحب البطيحة، وابن عمه المظفر بن حماد بن إسماعيل بن أبي الخير، وبينهما من العداوة المتوارثة ما كان بين سلفهما.

والتقى البرسقي ودبيس وهزمه دبيس وجاءت العساكر منهزمة، وبقي نصر بن النفيس وابن عمه حماد عند ساباط النهر فقتله، ولحق بالبطيحة فملكها، وبعث إلى دبيس بطاعته، وبعث دبيس إلى الخليفة يصانعه بالطاعة على البعد، وبلغ الخبر إلى السلطان محمود فقبض على منصور بن صدقة أخي دبيس وولده

فكحلهما فاستشاط دبيس وساء أثره في البلاد، وبعث إلى أحيائه بواسط فمنعهم الأتراك الذين بها، فبعث مهلهل بن أبي العسكر مقدم عساكره في جيش، وكتب إلى المظفر بن حماد صاحب البطيحة بمعاضدته على قتال واسط فتجهز وأصعد، وعاجل مهلهل الحرب قبل وصوله فهزمه أهل واسط وغنموا ما معه، وكان في جملتها بخط دبيس وصار معهم، وساءت آثار دبيس في البلاد، ولم يزل حال البطيحة على ذلك.

ثم صار أمرها لبني معروف وأجلاهم الخلفاء عنها.

إجلاء بني معروف من البطيحة

كان بنو معروف هؤلاء أمراء بالبطيحة في آخر المائة السادسة، ولا أدري ممن هم.

فلما استجمع للخلفاء أمرهم وخرجوا عن استبداد ملوك السلجوقية واقتطعوا الأعمال من أيديهم شيئاً فشيئاً فصار لهم الحلة والكوفة وواسط والبصرة وتكريت وهيت والأنبار والحديثة.

وجاءت دولة الناصر وبنو معروف على البطيحة وكبيرهم معلى.

قال ابن الأثير: وهم قوم من ربيعة، كانت بيوتهم غربي الفرات تحت سورا وما يتصل بها من البطائح، وكثرت أذياتهم وإفسادهم في النواحي.

وبلغت الشكوى بهم إلى الديوان فأمر الخليفة الناصر معداً الشريف متولي بلاد واسط أن يسير إلى قتالهم فاستعد لذلك، وجمع من سائر تلك الأعمال، فسار إليهم سنة ست عشرة وستمائة بالعير من بلاد البطيحة وفشا القتل بينهم.

ثم انهزم بنو معروف، وتفرقوا بين القتل والأسر والغرق، واستبيحت أموالهم وانتظمت البطيحة في أعمال الناصر، ولم يبق بها ملك ولا دولة.

الخبر عن دولة بني حسنويه من الأكراد القائمين بالدعوة العباسية بالدينور والصامغان ومبدأ أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان حسنويه بن الحسين الكردي من طائفة الأكراد يعرفون بالريزنكاس، وعشيرة منهم يسمون الدويلتية، وكان مالكاً قلعة سرياج وأميراً على البررفكان.

وورث الملك عن خاليه ونداد وغانم ابني أحمد بن علي، وكان صنفهما من الأكراد يسمون العبابية وغلبا على أطراف الدينور وهمذان ونهاوند والصامغان، وبعض نواحي أذربيجان إلى حدود شهرزور فملكاها نحواً من خمسين سنة، ولكل واحد منهما ألوف من العساكر، وتوفي ونداد بن أحمد سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وقام مقامه ابنه أبو الغنائم عبد الوهاب إلى أن أسره الشادنجان من طوائف الأكراد، وسلموه إلى حسنويه فأخذ قلاعه وأملاكه.

وتوفي غانم سنة خمسين وثلاثمائة فقام ابنه أبو سالم دسيم مكانه بقلعة فتنان إلى أن أزاله أبو الفتح بن العميد، واستصفى قلاعه المسماة بستان وغانم أفاق وغيرهما.

وكان حسنويه حسن السيرة ضابطاً لأمره، وبنى قلعة سرماج بالصخور المهندسة وبنى بالدينور جامعاً كذلك، وكان كثير الصدقة للحرمين.

ولما ملك بنو بويه البلاد واختص ركن الدولة بالري وما يليه كان شيعة ومدداً على عدوه فكان يرعى ذلك، ويغضي عن أموره إلى أن وقعت بين ابن مسافر من قواد الديلم وكبارهم وقعة هزمه فيها حسنويه، وتحصن بمكان فحاصره فيه وأضرمه عليه ناراً فكاد يهلك.

ثم استأمن له فغدر به وامتعض لذلك ركن الدولة وأدركته نعرة العصبية، وبعث وزيره أبا الفضل بن العميد في العساكر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة فنزل همذان وضيق على حسنويه، ثم مات أبو الفضل فصالحه ابنه أبو الفتح على مال ورجع عنه.

وفاة حسنويه وولاية ابنه بدر

ثم توفي حسنويه سنة تسع وستين وثلاثمائة وافترق ولده على عضد الدولة لقتال أخويه محمد وفخر الدولة، وكانوا جماعة أبو العلاء وعبد الرزاق وأبو النجم بدر وعاصم وأبو عدنان وبختيار وعبد الملك.

وكان بختيار بقلعة سرماج ومعه الأموال والذخائر فكاتب عضد الدولة ورغب في طاعته، ثم رغب عنه فسير إليه عضد الدولة جيشاً وملك قلعته وغيرها من قلاعهم.

ولما سار عضد الدولة لقتال أخيه فخر الدولة وملك همذان

والري وأضافهما إلى أخيه مؤيد الدولة، ولحق فخر الدولة بقابوس بن وشمكير عرج عضد الدولة إلى ولاية حسنويه الكردي فافتتح نهاوند والدينور وسرماج وأخذ ما فيها من ذخائره، وكانت جليلة المقدار وملك معها عدة من قلاع حسنويه ووفد عليه أولاد حسنويه فقبض على عبد الرزاق وأبي العلاء وأبي عدنان، واصطنع من بينهم أبا النجم بدر بن حسنويه وخلع عليه وولاه على الأكراد وقواه بالرجال فضبط ملك النواحي وكف عادية الأكراد بها.

واستقام أمره فحسده أخواه، وأظهر عاصم وعبد الملك منهم العصيان، وجمعا الأكراد المخالفين وبعث عضد الدولة العساكر فاوقعوا بعاصم وهزموه وجاؤوا به أسيراً إلى همذان، ولم يوقف له بعد ذلك على خبر، وذلك سنة سبعين وثلاثمائة وقتل جميع أولاد حسنويه وأقر بدراً على عمله.

حروب بدر بن حسنويه وعساكر مشرف الدولة

ولما توفي عضد الدولة وملك ابنه صمصام الدولة ثار عليه أخوه مشرف الدولة بفارس، ثم ملك بغداد، وكان فخر الدولة بن ركن الدولة قد عاد من خراسان إلى مملكة أصفهان والري بعد وفاة أخيه مؤيد الدولة، وأوقع بينه وبين مشرف الدولة فكان مشرف الدولة يحقد عليه.

فلما استقر ببغداد وانتزعها من يد صمصام الدولة، وكان قائده قراتكين الجهشاري مدلاً عليه متحكماً في دولته، وكان ذلك يثقل على مشرف الدولة، جهزه في العساكر لقتال بدر بن حسنويه يروم إحدى الراحتين، فسار إلى بدر سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ولقيه على وادي قرميسين، وانهزم بدر حتى تواري ولم يتلقوه ونزلوا في خيامه، ثم كر بدر فأعجلهم عن الركوب، وفتك فيهم واحتوى على ما معهم.

ونجا قراتكين في فل إلى جسر النهروان فلحق به المنهزمون، ودخل بغداد واستولى بدر على أعمال الجبل وقويت شوكته واستفحل أمره.

ولم يزل ظاهراً عزيزاً وقلد من ديوان الخلافة سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة أيام السلطان بهاء الدولة ولقب ناصر الدولة.

وكان كثير الصدقات بالحرمين، وكثير الطعام للعرب بالحجاز لخفارة الحاج، وكف أصحابه من الأكراد عن إفساد السابلة فعظم محله وسار ذكره.

مسير ابن حسنويه لحصار بغداد مع أبي جعفر بن هرمز

كان أبو جعفر الحجاج بن هرمز نائباً بالعراق عن بهاء الدولة، ثم عزله فدال منه بأبي علي بن أبي جعفر أستاذ هرمز، وتلقب عميد الجيوش فأقام أبو جعفر بنواحي الكوفة، وقاتل عميد الجيوش فهزمه العميد.

ثم جرت بينهما حروب سنة ثلاث ستين وثلاثمائة وأقاما على الفتنة والاستنجاد بالعرب من بني عقيل وخفاجة وبني أسد، وبهاء الدولة مشتغل بحرب ابن واصل في البصرة.

واتصل ذلك إلى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وكان ابن واصل قد قصد صاحب طريق خراسان وهو قلج، ونزل عليه واجتمعا على فتنة عميد الجيوش.

وتوفي قلج هذه السنة فولى عميد الجيوش مكانه أبا الفتح محمد بن قلج عنان عدو بدر بن حسنويه.

وفحل الأكراد المسامي لبدر في الشؤون وهو من الشادنجان من طوائف الأكراد، وكانت حلوان له فغضب لذلك بدر ومال إلى أبي جعفر، وجمع له الجموع من الأكراد مثل الأمير هندي بن سعدي، وأبي عيسى سادي بن محمد وورام بن محمد وغيرهم، واجتمع له معهم علي بن مزيد الأسدي، وزحفوا جميعاً إلى بغداد ونزلوا على فرسخ منها.

ولحق أبو الفتح بن عنان بعميد الجيوش، وأقام معه ببغداد حامياً ومدافعاً إلى أن وصل الخبر بهزيمة ابن واصل وظهور بهاء الدولة عليه، فأجفلوا عن بغداد.

وسار أبو جعفر إلى حلوان ومعه أبو عيسى، وراسل بهاء الدولة، ثم سار ابن حسنويه إلى ولاية رافع بن معن من بني عقيل يجتمع مع بني المسيب في المقلد، وعاث فيها لأنه كان آوى أبا الفتح بن عنان حين أخرجه بدر من حلوان وقرميسين، واستولى عليها فارسل بدر جيشاً إلى أعمال رافع بالجناب ونهبوها وأحرقوها.

وسار أبو الفتح بن عنان إلى عميد الجيوش ببغداد فوعده النصر حتى إذا فرغ بهاء الدولة من شأن ابن واصل وقتله، أمر عميد الجيوش بالمسير إلى بدر بن حسنويه لإعانته على بغداد وإمداده ابن واصل فسار لذلك، ونزل جنديسابور وبعث إليه بدر في الصلح على أن يعطيه ما أنفق على العساكر فحمل إليه ورجع

عنه.

انتقاض هلال بن بدر بن حسنويه على أبيه وحروبهما

كانت أم هلال هذا من الشادنجان رهط أبي الفتح بن عنان وأبي الشوك بن مهلهل، واعتزلها أبوه لأول ولادته فنشأ مبعداً عن أبيه، واصطفى بدر ابنه الآخر أبا عيسى وأقطع هلالاً الصامغان، فأساء مجاورة ابن المضاضي صاحب شهرزور وكان صديقاً لبدر فنهاه عن ذلك فلم ينته وبعث ابن المضاضي يتهدده فبعث إليه أبوه بالوعيد فجمع وقصد ابن المضاضي وحاصره في قلعة شهرزور حتى فتحها، وقتل ابن المضاضي واستباح بيته.

فاتسع الخرق بينه وبين أبيه، واستمال أصحاب أبيه بدر، وكان بدر نسيكاً فاجتمعوا إلى هلال وزحف لحرب أبيه والتقيا على الدينور، وانهزم بدر وحمل أسيراً إلى ابنه هلال فرده في قلعته للعبادة، وأعطاه كفايته بعد أن ملك الحصن الذي تملكه بما فيه.

فلما استقر بدر بالقلعة حصنها وأرسل إلى أبي الفتح بن عنان وإلى أبي عيسى سادي بن محمد بأستراباذ وأغراهما بأعمال هلال، فسار أبو الفتح إلى قرميسين وملكها، وأساء الديلم فاتبعه هلال إليها ووضع السيف في الديلم.

وأمكنه ابن رافع من أبي عيسى فعفا عنه وأخذه معه، وأرسل بدر من قلعته يستنجد بهاء الدولة فبعث إليه الوزير فخر الملك في العساكر، وانتهى إلى سابورخواست.

واستشار هلال أبا عيسى بن سادي فأشار عليه بطاعة بهاء الدولة وإلا فالمطاولة وعدم العجلة باللقاء فاتهمه وسار العسكر ليلاً فكبسه.

وركب فخر الملك في العسكر وثبت، فبعث إليه هلال بأني إنما جئت للطاعة.

ولما عاين بدر رسوله طرده وأخبر الوزير أنها خديعة فسر بذلك، وانتفت عنه الظنة ببدر، وأمر العساكر بالزحف فلم يكن بأسرع من مجيء هلال أسيراً فطلب منه تسليم القلعة لبدر فأجاب على أن لا يمكّن أبوه منه، واستأمنت أمه ومن معها بالقلعة فأمنهم الوزير وملك القلعة، وأخذ ما فيها من الأموال يقال أربعون ألف بدرة دنانير، وأربعمائة ألف بدرة دراهم سوى الجواهر والثياب والسلاح، وسلم الوزير فخر الملك القلعة لبدر وعاد إلى بغداد.

استيلاء ظاهر بن هلال على شهرزور

كان بدر بن حسنويه قد نزل عن شهرزور لعميد الجيوش ببغداد، وأنزل بها نوبة، فلما كانت سنة أربع وأربعمائة، وكان هلال بن بدر معتقلاً سار ابنه ظاهر إلى شهرزور، وقاتل عساكر فخر الملك متصف السنة وملكها من أيديهم.

وأرسل إليه الوزير يعاتبه ويأمره بإطلاق من أسر من أصحابه ففعل، وبقيت شهرزور بيده.

مقتل بدر بن حسنويه وابنه هلال

ثم سار بدر بن حسنويه أمير الجبل إلى الحسن بن مسعود الكردي ليملك عليه بلاده، وحاصره بحصن كوسجة، وأطال حصاره فغدر أصحاب بدر وأجمعوا قتله.

وتولى ذلك الجورقان من طوائف الأكراد فقتلوه وأجفلوا فدخلوا في طاعة شمس الدولة بن فخر الدولة صاحب همذان وتولى الحسين بن مسعود تكفين بدر ومواراته في مشهد علي.

ولما بلغ ظاهر بن هلال مقتل جده وكان هارباً منه بنواحي شهرزور، وجاء لطلب ملكه، فقاتله شمس الدولة فهزمه وأسره وحبسه بهمذان، واستولى على بلاده، وصار الكرية والشاذنجان من الأكراد في طاعة أبي الشوك.

وكان أبوه هلال بن بدر محبوساً عند سلطان الدولة ببغداد فأطلقه وجهز معه العساكر ليستعيد بلاده من شمس الدولة، فسار ولقيه شمس الدولة فهزمه وأسره وقتله، ورجعت العساكر منهزمة إلى بغداد.

وكان في ملك بدر سابور خواست والدينور وبروجرد ونهاوند وأستراباذ وقطعة من أعمال الأهواز وما بين ذلك من القلاع والولايات، وكان عادلاً كثير المعروف عظيم الهمة.

ولما هلك هو وابنه هلال بقي حافده ظاهر محبوساً عند شمس الدولة بهمذان.

مقتل ظاهر بن هلال واستيلاء أبي الشوك على بلادهم ورياستهم

كان أبو الفتح محمد بن عنان أمير الشادنجان من الأكراد، وكانت بيده حلوان وأقام عليها أميراً وعلى قومه عشرين سنة.

وكان يزاحم بدر بن حسنويه وبنيه في الولايات والأعمال بالجبل.

وهلك سنة إحدى وأربعمائة وقام مكانه ابنه أبو الشوك، وطلبته العساكر من بغداد فقاتلهم وهزموه، فامتنع بحلوان إلى أن أصلح حاله مع الوزير فخر الملك لما قدم العراق بعد عميد الجيوش من قبل بهاء الدولة.

ثم إن شمس الدولة ابن فخر الدولة بن بويه أطلق ظاهر بن هلال بن بدر من محبسه بعد أن استحلفه على الطاعة، وولاه على قومه وعلى بلاده بالجبل، وأبو الشوك صاحب حلوان والسهل، وبينهما المنافسة القديمة، فجمع ظاهر وحارب أبا الشوك فهزمه وقتل سعدي بن محمد أخاه.

ثم جمع ثانية فانهزم أبو الشوك أيضاً وامتنع بحلوان وملك ظاهر عامة البسيط، وأقام بالنهروان.

ثم تصالحا وتزوج ظاهر أخت أبي الشوك فلما أمنه ظاهر وثب عليه أبو الشوك فقتله بثأر أخيه سعدي ودفنه أصحابه بمقابر بغداد، وملك سائر الأعمال ونزل الدينور.

ولما استولى علاء الدولة بن كاكويه على همذان سنة أربع عشرة وأربعمائة عندما هزم عساكر شمس الدولة بن بويه واستبد عليه، سار إلى الدينور فملكها من يد أبي الشوك، ثم إلى سابورخواست وسائر تلك الأعمال.

وسار في طلب أبي الشوك فأرسل إليه مشرف الدولة سلطان بغداد وشفع فيه فعاد عنه علاء الدولة.

ولما زحف الغز إلى بلاد الري سنة عشرين وأربعمائة وملكوا همذان وعاثوا في نواحيها إلى أستراباذ وقرى الدينور، خرج إليهم أبو الفتح بن أبي الشوك وقاتلهم فهزمهم وأسر منهم جماعة، ثم عقد الصلح معهم على إطلاق أسراهم ورجعوا عنه.

ثم استولى أبو الشوك سنة ثلاثين وأربعمائة على قرميسين من أعمال الجبل، وقبض على صاحبها من الأكراد الترهية وسار أخوه إلى قلعة أرمينية فاعتصم بها من أبي الشوك، وكانت لهم مدينة خولنجان، فبعث إليها عسكراً فلم يظفروا وعادوا عنها.

ثم جهز آخر وبعثهم ليومهم يسابقون جندهم، ومروا بأرمينية فنهبوا ربضها، وقاتلوا من ظفروا به، وانتهوا إلى خولنجان فكبسوها على حين غفلة واستأمن إليهم أهلها وتحصن الحامية بقلعة وسط البلد فحاصروها وملكوها عليهم في ذي القعدة من السنة.

الفتنة بين أبي الفتح بن أبي الشوك وعمه مهلهل

كان أبو الفتح بن أبي الشوك نائباً عن أبيه بالدينور، واستفحل بها وملك قلاعاً عدة، وحمى أعماله من الغز فأعجب بنفسه ورأى التفوق على أبيه.

وسار في شعبان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة إلى قلعة بكورا من قلاع الأكراد وصاحبها غائب وبها زوجته فراسلت مهلهلاً لتسلم له القلعة نكاية لأبي الفتح، وكانت حلة مهلهل في نواحي الصامغان فانتظر حتى عاد أبو الفتح عن القلعة وجمع العساكر لحصارها، وسار إليها أبو الفتح فورى له عن قصده، ورجع فأتبعه أبو الفتح فقاتله عمه مهلهل، ثم ظفر به وأسره وحبسه، وجمع أبو الشوك وقصد شهرزور وحاصرها.

ثم قصد بلاد مهلهل وطال الأمر ولج مهلهل في شأنه وأغرى علاء الدولة بن كاكويه ببلد أبي الفتح فملك عليه الدينور وقرميسين سنة اثنتين وثلاثين.

ثم سار أبو الشوك إلى دقوقا وقدم إليها ابنه سعدي فحاصرها وجاء على أثره فنقبوا سورها وملكها عنوة، ونهب بعض البلد وأخذت أسلحة الأكراد وثيابهم، وأقام أبو الشوك بها ليلة.

ثم بلغه أن أخاه سرخاب بن محمد قد أغار على مواضع من ولايته فخاف على البندنجين.

ورجع وبعث إلى جلال الدولة سلطان بغداد يستنجده، فبعث إليه العساكر وأقاموا عنده، وسار مهلهل إلى علاء الدولة بن كاكويه يستصرخه على أخيه أبي الشوك على الاعتصام بقلعة السيروان.

ثم بعث إلى علاء الدولة يعرض له بالرجوع إلى جلال الدولة صاحب بغداد فصالحه على أن يكون الدينور لعلاء الدولة ورجع عنه.

ثم سار أبو الشوك إلى شهرزور فحاصرها وعاث في سوادها، وحصر قلعة بيزازشاه فدافعه أبو القاسم بن عياض عنها، ووعده بخلاص ابنه أبي الفتح من أخيه مهلهل، فسار من شهرزور إلى نواحي سند من أعمال أبي الشوك، ولما بعث إليه ابن عياض بالصلح مع أخيه أبي الشوك امتنع فسار أبو الشوك من حلوان إلى الصامغان.

ونهب ولاية مهلهل كلها وأجفل مهلهل بين يديه.

ثم تردد الناس بينهما في الصلح وعاد عنه أبو الشوك.

استيلاء نيال أخي طغرلبك على ولاية أبي الشوك

ثم سار إبراهيم نيال بأمر أخيه طغرلبك من كرمان إلى همذان فملكها، ولحق كرساشف بن علاء الدولة بالأكراد الجورقان وكان أبو الشوك حينئذ بالدينور ففارقها إلى قرميسين وملكها نيال.

وسار في اتباعه إلى قرميسين ففارقها إلى حلوان وترك كل من في عسكره من الديلم والأكراد الشادنجان.

وسار إليها نيال وملكها عليهم عنوة واستباحها وفتك في العسكر ولحق فلهم بأبي الشوك في حلوان فقدم أهله وذخيرته إلى قلعة السيروان وأقام.

ثم سار نيال إلى الصيمرة فملكها ونهبها، وأوقع بالأكراد المجاورين لها في الجورقان فانهزموا.

وكان عندهم كرساشف بن علاء الدولة فلحق ببلد شهاب الدولة وشرد أهلها في البلاد، ووصل إليها نيال آخر شعبان فملكها وأحرقها، وأحرق دار أبي الشوك.

وسارت طائفة من الغز في أثر جماعة منهم فأدركوهم بخانقين فغنموا ما معهم، وانتشر الغز في تلك النواحي.

وتراسل أبو الشوك وأخوه مهلهل وكان ابنه أبو الفتح قد مات في سجن مهلهل، فبعث مهلهل ابنه وحلف له أنه لم يقتله، وإن ثبت فاقتل أبا الغنائم بثأره فقبل ورضي، واصطلحا على دفاع نيال عن أنفسهما.

وكان أبو الشوك قد أخذ ممتلكات سرخاب أخيه ما عدا قلعة دوربلونه، وتقاطعا لذلك، فسار سرخاب إلى البندنجين وبها سعدي بن أبي الشوك، ففارقها سعدي إلى أبلة ونهبها سرخاب.

وفاة أبي الشوك وقيام أخيه مهلهل مقامه

ثم توفي أبو الشوك فارس بن محمد سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بقلعة السيروان من حلوان وقام مقامه أخوه مهلهل واجتمع إليه الأكراد مائلين إليه عن ابن أخيه سعدي بن أبي الشوك فلحق سعدي بنيال أخي طغرلبك يستدعيه لملك البلاد.

ولما استولى مهلهل بعد موت أخيه أبي الشوك وكان نيال عندما غدا من حلوان ولى على قرميسين بدر بن ظاهر بن هلال بن بدر بن حسنويه، فسار إليها مهلهل سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، فهرب بدر عنها وملكها وبعث ابنه محمداً إلى الدينور وبها عساكر نيال فهزمهم وملكها.

استيلاء سعدي بن أبي الشوك على أعمالهم بدعوة السلجوقية

ولما ملك مهلهل بعد أخيه أبي الشوك تزوج بأم سعدي وأهله وأساء معاملة الأكراد الشادنجان فراسل سعدي نيال.

وسار إليه بالشادنجان فبعث معهم عسكراً من الغز سنة تسع وثلاثين وأربعمائة فملك حلوان وخطب فيها لإبراهيم نيال.

ورجع إلى مابدشت، فخالفه عمه مهلهل إلى حلوان فملكها، وقطع منها خطبة نيال فعاد سعدي إلى عمه سرخاب فكبسه ونهب حلله وسير إلى البندنجين جمعاً فقبضوا على نائب سرخاب ونهبوها، وصعد سرخاب إلى قلعة دوربلونة، وعاد سعدي إلى قرميسين، وبعث مهلهل ابنه بدراً إلى حلوان فملكها، فجمع سعدي وأكثر من الغز، وسار فملك حلوان، وتقدم إلى عمه مهلهل فلحق بتيرازشاه من قلاع شهرزور واستباح الغز سائر تلك النواحي.

وحاصر سعدي تيرازشاه ومعه أحمد بن ظاهر قائد نيال، ونهب الغز حلوان وأراد مهلهل أن يسير إلى ابن أخيه فتكاسلوا، ثم قطع سعدي البندنجين لأبي الفتح بن دارم على أن يحاصر معه عمه سرخاب بقلعة دوربلونة، فساروا إليها وكانت ضيقة المسلك، فدخلوا المضيق فلم يخلصوا، وأسر سعدي وأبو الفتح وغيرهما من الأعيان، ورجع الغز عن تلك النواحي بعد أن كانوا ملكوها.

نكبة سرخاب واستيلاء نيال على أعمالهم كلها

ثم إن سرخاب لما قبض سعدي ابن أخيه أبي الشوك غاضبه ابنه أبو العسكر واعتزله، وكان سرخاب قد أساء السيرة في الأكراد فاجتمعوا وقبضوا عليه وحملوه إلى نيال، فاقتلع عينه وطالبه بإطلاق سعدي بن أبي الشوك فأطلقه أبو العسكر ابنه واستحلفه على السعي في خلاص أبيه سرخاب، فانطلق سعدي،

واجتمع عليه كثير من الأكراد، وسار إلى نيال فاستوحش منه، وسار إلى الدسكرة وكاتب أبا كاليجار بالطاعة.

ثم سار إبراهيم نيال إلى قلعة كلجان وامتنعت عليهم، ثم حاصروا قلعة دوربلونة فتقدمت طائفة إلى البندنجين فنهبوها، وسار إبراهيم فيها بالنهب والقتل والعقوبة في المصادرة حتى يموتوا.

وتقدمت طائفة إلى الفتح فهرب وترك حلله، فعرجوا عليها واتبعوه فقاتلهم وظفر بهم، وبعث مستنجداً فلم ينجدوه، فعبر وأمر بنزول حلله إلى جانب الغز.

وكان سعدي بن أبي الشوك نازلاً على فرسخين من باجس فكبسه الغز فهرب وترك حلله وغنمها الغز ونهبوا تلك الأعمال والدسكرة والهارونية وقصر سابور، وتقسم أهلها بين القتل والغرق والهلاك بالبرد.

ووصل سعدي إلى دبال ولحق منها بأبي الأغر دبيس بن مزيد، فأقام عنده وحاصر نيال قلعة السيروان وضيق عليها وضربت سراياه في البلاد وانتهت إلى قرب تكريت.

ثم استأمن أهل قلعة السيروان إلى نيال فملكها وأخذ منها ذخيرة سعدي، وولى عليها من أصحابه.

ثم مات صاحب قلعة السيروان وبعث وزيره إلى شهرزور فملكها، وهرب مهلهل وأبعد في الهرب، وحاصر عسكر نيال قلعة هوازشاه.

ثم راسل مهلهل أهل شهرزور بالتوثب بالغز الذين عندهم فقتلوهم ورجع قائد نيال ففتك فيهم.

ثم سار الغز المقيمون بالبندنجين إلى نهر سليلي، وقاتلوا أبا دلف القاسم بن محمد الجاواني فهزمهم وظفر بهم وغنم ما معهم.

وسار في ذي الحجة جمع من الغز إلى بلد علي بن القاسم فعاثوا فيها، فأخذ عليهم المضيق فأوقع بهم واسترد ما غنموه.

ولم يزل أحمد بن ظاهر قائد نيال محاصراً قلعة تيرازشاه في شهرزور إلى أن دخلت سنة أربعين وأربعمائه، ووقع الموتان في عسكره واستمد نيال فلم يمده، فرحل عنها إلى مايدشير، وبلغ ذلك مهلهلاً فبعث أحد أولاده إلى شهرزور فملكها، وأجفل الغز من السيروان، وسارت عساكر بغداد إلى حلوان وحاصروا قلعتها ولم يظفروا فنهبوا مخلف الغز وخربوا الأعمال، وسار مهلهل إلى بغداد فأنزل أهله وأمواله بها، وأنزل حلله على ستة فراسخ منها، فسار عسكر من بغداد إلى البندنجين وقاتلوا الغز الذين بها فهزمهم الغز وقتلوهم جميعاً.

بقية أخبار مهلهل وابن أبي الشوك وانقراض أمرهم

ثم سار مهلهل أخو أبي الشوك إلى السلطان طغرلبك سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة فأحسن إليه وأقره على أقطاعه السيروان ودقوقا وشهرزور والصامغان، وسعى في أخيه سرخاب وكان محبوساً عنده فأطلقه وسوغه قلعة الماهكي، وكانت له فسار إليها، وأقطع سعدي بن أبي الشوك الراذندبين ثم بعثه سنة ست وأربعين في عسكر من الغز إلى نواحي العراق، فنزل بمابدشت وسار منها إلى أبي دلف الجاواني، فهرب بين يديه وأدركه فنهب أمواله وفلت بنفسه.

وكان خالد ابن عمه مع الوزير ومطر ابني علي بن معن العقيلي، فوفد أولادهم على سعدي يشكون مهلهلاً فوعدهم النصر، ورجعهم من عنده فاعترضهم أصحاب مهلهل فأسرهم بنو عقيل ففداهم مهلهل وأوقع بهم على تل عكبرا ونهبهم، فساروا إلى سعدي وهو بسامراء، واتبع عمه مهلهلاً وظفر به وأسره وأسر مالكاً ابنه، ورد غنائم بني عقيل ورجع إلى حلوان.

واضطربت بغداد واجتمعت عساكر الملك الرحيم ومعهم أبو الأغر دبيس بن مزيد يسعى عند سعدي في أبيه.

وكان ابن سعدي عند السلطان طغرلبك رهينة فرده على أبيه عوضاً عن مهلهل، وأمره بإطلاق مهلهل، فامتعض لذلك سعدي وعصى على طغرلبك.

وسار إلى حلوان فامتنعت عليه، وأقام يتردد بين رشقباد والبردان.

وأظهر مخالفة طغرلبك، ورجع إلى طاعة الملك الرحيم، فبعث طغرلبك العساكر مع بدران بن مهلهل إلى شهرزور، ووجد إبراهيم بن إسحاق من قواده فأوقعوا به، ومضى إلى قلعة رشقباد.

وسار بدر بن مهلهل إلى شهرزور ورجع إبراهيم بن إسحاق إلى حلوان فأقام بها، ثم نهض سنة ست وأربعين إلى الدسكرة فنهبها واستباحها، وسار إلى رشقباد وهي قعلة سعدي وفيها ذخيرته، وفي القلعة البردان فامتنعت عليه فخرب أعماله ووهن الديلم في كل ناحية.

وبعث طغرلبك أبا علي بن أبي كاليجار صاحب البصرة في عسكر من الغز إلى الأهواز فملكها، ونهبها الغز ولقي الناس منهم

عيثاً بالنهب والمصادرة، وأحاطت دعوة طغرلبك ببغداد من كل ناحية، وانقرض الأكراد من أعمالهم واندرجوا في جملة السلطان طغرلبك، تلك الأيام نداولها بين الناس والله يؤتي ملكه من يشاء والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا راد لأمره.

الخبر عن الدولة السلجوقية من الترك

المستولين على ممالك الإسلام ودوله بالمشرق كلها إلى حدود مصر مستبدين على الخليفة ببغداد من خلافة القائم إلى هذا الزمان وما كان لهم من الملك والسلطان في أقطار العالم وكيف فعلوا بالعلماء وحجروهم وما تفرع عن دولتهم من الدول

قد تقدم لنا ذكر أنساب الأمم والكلام في أنساب الترك وأنهم من ولد كومر بن يافث أحد السبعة المذكورين من بني يافث في التوراة وهم ماواق وماذاي وماغوغ وقطوبال وماشخ وطيراش.

وعد ابن إسحاق منهم ستة ولم يذكر ماذاي.

وفي التوراة أيضاً: أن ولد كومر ثلاثة: توغرما واشكان وريعات.

ووقع في الإسرائيليات أن الإفرنج من ريعات والصقالبة من أشكال والخزر من توغرما والصحيح عند نسابة الإسرائيليين أن الخزر هم التركمان، وشعوب الترك كلهم من ولد كومر ولم يذكر من أي ولده الثلاثة والظاهر أنهم من توغرما.

وزعم بعض النسابة أنهم من طيراش بن يافث.

ونسبهم ابن سعيد إلى ترك بن غامور بن سويل والظاهر أنه غلط وأن غامور تصحيف كما مر وأما سويل فلم يذكر أحد أنه من بني يافث وقد مر ذكر ذلك كله.

والترك أجناس كثيرة وشعوب فمنهم الروس والإعلان ويقال: إيلان والخفشاخ وهم القفجق والهياطلة والخلج والغز الذين منهم السلجوقية والخطا وكانوا بأرض طمغاج ويمك والقور وتزكس واركس والططر ويقال: الطغرغر وأنكر وهم مجاورون للروم.

واعلم أن هؤلاء الترك أعظم أمم العالم وليس في أجناس البشر أكثر منهم ومن العرب في جنوب المعمور وهؤلاء في شماله قد ملكوا عامة الأقاليم الثلاثة من الخامس والسادس والسابع في نصف طوله مما يلي المشرق فأول مواطنهم من الشرق على البحر بلاد الصين وما فوقها جنوباً إلى الهند وما تحتها شمالاً إلى سد يأجوج ومأجوج.

وقد قيل: إنهم من شعوب الترك وآخر مواطنهم من جهة الغرب بلاد الصقالبة المجاورين للإفرنج مما يلي رومة إلى خليج القسطنطينية وأول مواطنهم من جهة الجنوب بلاد القور المجاورة للنهر ثم خراسان وأذربيجان وخليج القسطنطينية وآخرها من الشمال بلاد فرغانة والشاش وما وراءها من البلاد الشمالية المجهولة لبعدها.

وما بين هذه الحدود من بلاد غزنة ونهر جيحون وما بحفافيه من البلاد وخوارزم ومفاوز الصين وبلاد القفجق والروس حفافي خليج القسطنطينية من جهة الشمال الغربي قد اغتمر لهذه البسائط منهم أمم لا يحصيهم إلا خالقهم رحالة متنقلون فيها مستنجعين مساقط الغيث في نواحيه يسكنون الخيام المتخذة من اللبود لشدة البرد في بلادهم فقروا عليها.

ومر بديار بكر وخرج إليه صاحبها نصر بن مروان وحمل مائة ألف دينار لنفقته فلما سمع أنه قبضها من الرعايا ردها عليه ثم مر بناهرو وأمنها وأطاف على السور وجعل يمسحه بيده ويمر بها على خدوده تبركاً بثغر المسلمين ثم مر بالرها وحاصرها فامتنعت عليه.

ثم سار إلى حلب فبعث إليه صاحبها محمود ريغول القائد الذي عنده يخبر بطاعته وخطبته ويستعفيه من الخروج اليه منكراً منه الأذى وبـ « حيّ على خير العمل» فقال: لابد من خروجه.

واشتد الحصار فخرج محمود ليلاً مع أمه بنت وثاي الهنى متطارحاً على السلطان فأكرم مقدمها وخلع عليه وأعاده إلى بلده.

غزاة السلطان ألب أرسلان إلى خلاط وأسر ملك الروم

كان ملك الروم بالقسطنطينية لهذا العهد اسمه أرمانوس وكان كثيراً ما يخيف ثغور المسلمين.

وتوجه في سنة اثنتين وستين في عساكر كثيرة إلى الشام ونزل على مدينة منبج واستباحها، وجمع له محمود بن صالح بن مرداس الكلابي وابن حسان الطائي قومهما ومن إليهم من العرب فهزمتهم الروم.

ثم رجع أرمانوس إلى القسطنطينية واحتشد الروم والفرنج والروس والكرج ومن يليهم من العرب والطوائف وخرج إلى بلاد كرد من أعمال خلاط.

وكان السلطان ألب أرسلان بمدينة حوف من أذربيجان منقلباً من حلب فبعث بأهله وأثقاله إلى همذان مع وزيره نظام الملك وسار هو في خمسة عشر ألف مقاتل وتوجه نحوهم متهيأ، ولقيت مقدمته الروس فهزموهم وجاؤوا بملكهم أسيراً إلى السلطان فجدعه وبعث إسلابهم إلى نظام الملك.

ثم توجه إلى سمرقند ففارقها ألتكير وأرسل في الصلح ويعتذر عن تومق فصالحه ملك شاه وأقطع بلخ وطخارستان لأخيه شهاب الدين مكين إلى خراسان ثم إلى الري.

فتنة قاروت بك صاحب كرمان ومقتله

كان بكرمان قاروت بك أخو السلطان ألب أرسلان أميراً عليها فلما بلغه وفاة أخيه سار إلى الري لطلب الملك فسبقه إليها السلطان ملك شاه ونظام الملك ومعهما مسلم بن قريش ومنصور بن دبيس وأمراء الأكراد، والتقوا على نهرمان فانهزم قاروت بك وجيء به إلى أمام سعد الدولة كوهراس فقتله خنقاً، وأمر كرمان بسير بنيه وبعث إليهم بالخلع وأقطع العرب والأكراد مجازاة لما أبلوا في الحرب.

وقد كان السلطان ألب أرسلان شافعاً فيه على الخليفة فلقيهم خبر وفاة ألب أرسلان في طريقهم فمروا إلى ملك شاه وسبق إليه مسلم بطاعته.

وأما بهاء الدولة منصور بن دبيس فإن أباه أرسله بالمال إلى ملك شاه فلقيه سائراً للحرب فشهدها معه.

ثم توفي أياز أخو السلطان ملك شاه ببلخ سنة خمس وستين فكفله ابنه ملك شاه إلى سنة سبع وستين.

وتوفي القائم منتصف شعبان منها لخمس وأربعين سنة من خلافته ولم يكن له يومئذ ولد وإنما كان له حافد وهو المقتدي عبد اللّه بن محمد، وكان أبوه محمد بن القائم ولي عهده وكان يلقب ذخيرة الدين ويكنى أبا العباس.

وتوفي سنة وعهد القائم لحافده فلما توفي اجتمع أهل الدولة وحضر مؤيد الملك بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن جهير وابنه عميد الدولة والشيخ أبو إسحاق الشيرازي ونقيب النقباء طراد وقاضي القضاة الدامغاني فبايعوه بالخلافة لعهد جده إليه بذلك، وأقر فخر الدولة بن جهير على الوزارة وبعث ابنه عميد الدولة إلى السلطان ملك شاه لأخذ بيعته واللّه الموفق للصواب.

استيلاء السلجوقية على دمشق وحصارهم مصر ثم استيلاء تتش ابن السلطان ألب أرسلان على دمشق

قد تقدم لنا ملك انسز الرملة وبيت المقدس وحصاره دمشق سنة إحدى وستين ثم عاد عنها وجعل يتعاهد نواحيها بالعيث والإفساد كل سنة.

ثم سار إليها في رمضان سنة سبع وستين وحاصرها ثم عاد عنها وهرب منها أميرها من قبل المستنصر العلوي صاحب مصر المعلى بن حيدرة لأنه كثر عسفه بالجند والرعية وظلمه فثاروا به فهرب إلى بانياس ثم إلى صور ثم إلى مصر فحبس ومات بها محبوساً.

واجتمعت المصامدة بدمشق وولي عليهم أنصار بن يحيى المصمودي ويلقب نصير الدولة.

وغلت الأقوات عندهم واضطربوا فعاد إليها أتسز في شعبان سنة ثمان وستين فاستأمنوا إليه وعوض انتصاراً منها بقلعة بانياس ومدينة يافا من الساحل ودخلها في ذي القعدة وخطب بها للمقتدي ومنع من النداء بحيّ على خير العمل وتغلب على كثير من مدن الشام.

ثم سار سنة تسع وستين إلى مصر وحاصرها وضيق عليها، واستنجد المستنصر بالبوادي من نواحيها فوعدوه بالنصر.

وخرج بدر الجمالي في العساكر التي كانت بالقاهرة وجاء أهل البلاد لميعادهم فانهزم أتسز وعساكره ونجا إلى بيت المقدس فوجدهم قد بمخلفه فتحصنوا منه بالمعاقل فافتتحها عليهم عنوة واستباحها حتى قتلهم في المسجد، وقد تقدم ضبط هذا الاسم وأنه عند أهل الشام أنسيس والصحيح أتسز وهو اسم تركي.

ثم إن السلطان ملك شاه أقطع أخاه تتش بن ألب أرسلان بلاد الشأم وما يفتحه من تلك النواحي سنة سبعين وأربعمائة فقصد حلب أولاً وحاصرها ومعه جموع من التركمان.

وكان بدر الجمالي المستولي على مصر قد بعث العساكر لحصار دمشق وبها أتسز فبعث إلى تتش وهو على حلب يستنجده فسار إليه وأخرت عساكر مصر عنه منهزمين.

ولما وصل إلى دمشق قعد اتسز على لقائه وانتظر قدومه فلقيه عند السور وعاتبه على ذلك فتساهل في العذر فقتله لوقته وملك البلد واستولى على الشام أجمع كما سيأتي وكان يلقب تاج

الدولة.

ثم سار في سنة اثنتين وسبعين إلى حلب فحاصرها أياماً وأفرج عنها وملك مراغة والبيرة وعاد إلى دمشق.

وخالفه مسلم بن قريش إلى حلب فملكها كما تقدم في أخباره وضمنها للسلطان ملك شاه فولاه إياها.

وسار مسلم بن قريش فحاصرها آخر سنة أربع وسبعين، ثم أفرج عنها فخرج تتش وقصد طرسوس من الساحل فافتتحها ورجع، ثم حاصرها مسلم ثانية سنة تسع وسبعين، وبلغه أن تاج الدولة تتش سار إلى بلاد الروم غازياً فخالفه إلى دمشق وحاصرها معه العرب والأكراد، وبعث إليه العلوي صاحب مصر بعده بالمدد.

وبلغ الخبر إلى تتش فكر راجعاً وسبقه إلى دمشق فحاصرها أياماً، ثم خرج إليه تتش في جموعه فهزمه واضطرب أمره ووصله الخبر بانتقاض أهل حران فرحل من مرج الصفر راجعاً إلى بلاده.

ثم سار أمير الجيوش من مصر في العساكر إلى دمشق سنة ثمان وسبعين وحاصرها فامتنعت عليه ورجع، فلحقوا بأخيه تكش في فقوي به وأظهر العصيان واستولى على مرو الروذ ومرو الساهجان وغيرهما وسار إلى نيسابور طامعاً في ملك خراسان.

وبلغ الخبر إلى السلطان فسبقه إلى نيسابور فرجع تتش وتحصن بترمذ، وحاصره السلطان حتى سأل الصلح وأطلق من كان في أسره من عسكر السلطان ونزل عن ترمذ وخرج إليه فأكرمه، ثم عاود العصيان سنة سبع وسبعين وملك مرو الروذ ووصل قريباً من سرخس وحاصر قلعة هناك لمسعود ابن الأمير فاخر.

وتحيل أبو الفتوح الطوسي صاحب نظام وهو بنيسابور على ملطفة وضعوها على شبه خط نظام الملك يخاطب فيها صاحب القلعة بأنه واصل في ركاب السلطان ملك شاه وأنه مصالح للقلعة.

وتعرض حاملها لأهل المعسكر حتى أخذوا كتابه بعد الضرب والعرض على القتل، وحدثهم بمثل ما في الصحيفة وأن السلطان وعساكره في الري فأجفلوا لوقتهم إلى قلعة ربح، وخرج أهل الحصن فأخذوا ما في العسكر وجاء السلطان بعد ثلاثة أشهر فحاصره في قلعته حتى افتتحها وحده ودفعه إلى ابنه أحمد فتسلمه وحبسه فخرجا من يمينه معه.

سفارة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي عن الخليفة

كان الخليفة المقتدي وكان عميد العراق أبو الفتح بن أبي الليث يسيء معاملة الخليفة فبعث المقتدي الشيخ أبا إسحاق الشيرازي إلى السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك بأصفهان شاكياً من العميد.

فسار الشيخ لذلك ومعه الإمام أبو بكر الشاشي وغيره من الأعيان، ورأى الناس عجباً في البلاد التي يمر بها من إقبال الخلق عليه وازدحامهم على محفته يتمسحون بها ويلثمون أذيالها وينشرون موجودهم عليها من الدراهم والدنانير لأهلها والمصنوعات لأهل الصنائع والبضائع للتجار والشيخ في ذلك يبكي وينتحب.

ولما حضر عند السلطان أظهر الحرمة وأجابه إلى جميع ما طلبه، ورفعت يد العميد عن كل ما يتعلق بالخليفة، وحضر الشيخ مجلس نظام الملك فجرت بينه وبين إمام الحرمين مناظرة خبرها معروف.

اتصال بني جهير بالسلطان ملك شاه ومسير فخر الدولة لفتح ديار بكر

كان فخر الدولة أبو نصر بن جهير وزير المقتدي قد عزل سنة إحدى وسبعين على يد نظام الملك ولحق به ابنه عميد الدولة واسترضاه فرضي نظام الملك وشفع إلى الخليفة فاعتمد عميد الدولة دون أبيه كما تقدم في أخبار الخلفاء.

ثم أرسل المقتدي سنة أربع وسبعين فخر الدولة إلى ملك شاه يخطب له ابنته فسار إليها أصفهان وعقد له نكاحها على خمسين ألف دينار معجلة وعاد إلى بغداد.

ثم عزل المقتدي ابنه عميد الدولة عن الوزارة سنة ست وسبعين وكانوا قد علقوا بخطة من نظام الملك فبعث عن نفسه وعن ملك شاه يطلب حضور بني جهير عندهم فساروا بأهليهم فعظمت حظوظهم عند السلطان، وعقد لفخر الدولة على ديار بكر وبعث معه العساكر لفتحها من يد بني مروان وأذن له اتخاذ الآلة وأن يخطب لنفسه ويكتب اسمه على السكة فسار في العساكر السلطانية.

استيلاء ابن جهير على الموصل

ولما سار فخر الدولة ابن جهير لفتح ديار بكر استنجد ابن مروان مسلم بن قريش وشرط له أمراً وتحالفا على ذلك واجتمعا لحرب ابن جهير.

وبعث السلطان الأمير أرتق بن أكسك في العساكر مدداً لابن جهير فجنح ابن جهير إلى الصلح وبادر أرتق إلى القتال فهزم العرب والأكراد وغنم معسكرهم.

ونجا مسلم بن قريش إلى آمد وأحاطت به العسكر فلما اشتد مخنقه راسل الأمير أرتق في الخروج على مال بذله له فقبله وكانت له حراسة الطريق فخرج إلى الرقة، وسار ابن جهير إلى ميافارقين وفارقه منصور بن مزيد وابنه صدقة فعاد منها إلى خلاط.

ولما بلغ السلطان انحصار مسلم في آمد بعث عميد الدولة في جيش كثيف إلى الموصل ومعه أقسنقر قسيم الدولة الذي أقطعه بعد ذلك حلب.

وساروا إلى الموصل فلقيهم أرتق ورجع معهم، ولما نزلوا على الموصل بعث عميد الدولة إلى أهلها بالترغيب والترهيب فأذعنوا واستولى عليها وجاء السلطان في عساكره إلى بلاد مسلم بن قريش وقد خلص من الحصار وهو مقيم قبالة الرحبة فبعث إليه مؤيد الكتاب ولاطف السلطان واسترضاه ووفد إليه بالقوارح ورده السلطان إلى أعماله وعاد لحرب أخيه تتش الذي ذكرناه آنفاً.

فتح سليمان بن قطلمش أنطاكية والخبر عن مقتله ومقتل مسلم بن قريش واستيلاء تتش على حلب

كان سليمان بن قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق قد ملك قرسة وأقصروا وأعمالها من بلاد الروم إلى الشام.

وكانت أنطاكية بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، وكان ملكها لعهده الفردروس فأساء السيرة إلى جنده ورعاياه وتنكر لابنه وحبسه فداخل الشحنة في تمكين سلمان من البلد فاستدعوه سنة سبع وسبعين فركب إليها البحر وخرج إلى البر في أقرب السواحل إليها في ثلثمائة ألف فارس ورجل كثير، وسار في جبال وأوعار فلما انتهى إلى السور وأمكنه الشحنة من تسنم السور دخل البلد وقاتل أهلها فهزمهم وقتل كثيراً منهم، ثم عفا عنهم وملك القلعة وغنم من أموالهم ما لا يحصى، وأحسن إلى أهلها وأمر لهم بعمارة ما خرب وأرسل إلى السلطان ملك شاه بالفتح.

ثم بعث إليه مسلم بن قريش يطلب منه ما كان يحمل إليه الفردروس ملك أنطاكية من المال ويخوفه معصية السلطان فأجابه بتقرير الطاعة للسلطان وبأن الجزية لا يعطيها مسلم فسار مسلم ونهب نواحي أنطاكية فنهب سليمان نواحي حلب.

ثم جمع سليمان العرب والتركمان وسار لنواحي أنطاكية ومعه جماهير التركمان، وجمع سليمان كذلك والتقيا آخر صفر سنة ثمان وسبعين وانحاز جقّ إلى سليمان فانهزمت العرب وقتل مسلم وسار سليمان بن قطلمش إلى حلب وحاصرها فامتنعت عليه وأرسل إليه ابن الحثيثي العباسي كبير حلب بالأموال وطالبه أن يمهل حتى يكاتب السلطان ملك شاه ودس إلى تاج الدولة تتش صاحب دمشق يستدعيه لملكها فجاء لذلك ومعه أرسوس أكسك وكان خائفاً على نفسه من السلطان ملك شاه لفعلته في أمر فاستجار بتتش وأقطعه المورس وسار معه لهذه الحرب، وبادر سليمان بن قطلمش إلى اعتراضهم وهم على تعبية.

وأبلى أرتق في هذه الحروب وانهزم سليمان وطعن نفسه بخنجر فمات وغنم تتش معسكره وبعث إلى ابن الحثيثي العباسي فيما استدعاه إليه فاستهمله إلى مشورة السلطان ملك شاه وأغلظ في القول فغضب تتش وداخله بعض أهل البلد فتسورها وملكها، واستجار ابن الحثيثي بالأمير أرتق فأجاره وسمع له.

استيلاء ابن جهير على ديار بكر

ثم بعث ابن جهير سنة ثمان وسبعين ابنه زعيم الرؤساء أبا القاسم إلى حصار آمد ومعه جناح الدولة أسلار فحاصرها واقتلع شجرها وضيق عليها حتى جهدهم الجوع وغدر بعض العامة في ناحية من سورها ونادى بشعار السلطان واجتمع إليه العامة لما كانوا يلقون من عسف العمال النصارى فبادر زعيم الرؤساء إلى البلد وملكها وذلك في المحرم وكان أبوه فخر الدولة محاصراً لميافارقين ووصل إليه سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد بمدد العساكر فاشتد الحصار وسقطت من السور ثلمه في سادس جمادى فنادوا بشعار السلطان ومنعوا ابن جهير من البلد واستولى على أموال بني مروان وبعثها مع ابنه زعيم الرؤساء إلى السلطان فسار مع كوهرائين إلى بغداد، ثم فارقه إلى السلطان بأصبهان.

ولما انقضى أمر ميافارقين بعث فخر الدولة جيشاً إلى جزيرة

ابن عمر فحاصرها وقام بعض أهلها بدعوة السلطان وفتحوا مما يليهم باباً قريباً دخل منه العسكر فملكوا البلد، وانقرضت دولة بني مروان من ديار بكر والبقاء لله.

ثم أخذ السلطان ديار بكر من فخر الدولة بن جهير وسار إلى الموصل فأقام بها إلى أن توفي سنة ثلاث وثمانين.

استيلاء السلطان ملك شاه على حلب وولاية أقسنقر عليها

لما ملك تاج الدولة تتش مدينة حلب وكان بها سالم بن ملك بن مروان ابن عم مسلم بن قريش وامتنع بالقلعة وحاصره تتش سبعة عشر يوماً حتى وصل الخبر بمقدم أخيه السلطان ملك شاه وقد كان ابن الحتيتي كتب إليه يستدعيه لما خاف من تتش فسار من أصفهان منتصف تسع وسبعين وفي مقدمته برشق وبدران وغيرهما من الأمراء، ومر بالموصل في رجب.

ثم سار إلى هراة وبها ابن الشاطىء فملكها وأقطعها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش وأقطعه معها مدينة الرحبة وأعمالها، وحران وسروج والرقة وخابور وزوجه أخته زليخا خاتون.

ثم سار إلى الرها وافتتحها من الروم وكانوا اشتروها من ابن عطية كما مر، وسار إلى قلعة جعفر فملكها وقتل من كان بها من بني قشير وكان صاحبها جعفر أعمى وكان يخيف السابلة هو وولده فأزال ضررهم.

ثم ملك منبج وعبر الفرات إلى حلب فأجفل تتش عن المدينة ودخل ومعه الأمير أرتق، ورجع إلى دمشق فلما وصل السلطان إلى حلب ملكها ثم إلى القلعة فملكها من سالم بن ملك على أن يعطيه قلعة جعفر فلم تزل بيد عقبة إلى أن ملكها منهم نور الدين الشهيد.

ثم بعث إليه نصر بن علي بن منقذ الكناني بالطاعة فأقره على شيراز وتسلم منه اللاذقية وبعرطاف وأفامية ورجع.

ثم رجع السلطان بعد أن ولى على حلب قسيم الدولة أقسنقر.

ورغب إليه أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحتيتي فأخرجه عنهم إلى ديار بكر وتوفي بها.

ثم رجع السلطان إلى بغداد فدخلها في ذي الحجة من سنته ونزل بدار المملكة وأهدى للخليفة هدايا كثيرة، واجتمع بالخليفة ليلاً، ثم دخل إليه في مجلسه نهاراً وأفيضت عليه الخلع، وسلم أمراء السلجوقية على الخليفة ونظام الملك قائم يقربهم واحداً واحداً ويعرف بهم، ثم صرح المقتدي للسلطان ملك شاه بالتفويض وأوصاه بالعدل فقبل يده ووضعها على عينيه وخلع الخليفة على نظام الملك وجاء إلى مدرسته التي فيها الحديث وأملى.

خبر الزفاف

قد قدمنا أن السلطان ملك شاه زوج ابنته من الخليفة المقتدي سنة أربع وسبعين بخطبة الوزير بن جهير فلما كان سنة ثمانين في المحرم نقل جهازها للزفاف إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي أكثرها ذهب وفضة ومعه ثلاث عماريات ومعها أربع وسبعون بغلاً مجللة بأنواع الديباج المكي وقلائدها الذهب وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة مملوءة بالحلي والجواهر ومهد عظيم من ذهب.

وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوهرائين والأمير أرتق وغيرهما من الأمراء والناس ينثرون عليهم الدنانير والثياب.

وبعث الخليفة وزيره أبا شجاع إلى زوجة السلطان تركمان خاتون ومعه خادمه ظفر بمحفة لم ير مثلها ومعهم ثلثمائة من الشمع الموكب ومثلها مشاعل، وأوقدت الشموع في دكاكين الحريم الخلافي، وقال الوزير لخاتون: سيدنا أمير المؤمنين يقول: إنّ اللّه يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره فقالت: سمعاً وطاعةً، ومشى بين يديها أعيان الدولة مع كل واحد الشمع والمشاعل يحملها الفرسان، ثم جاءت المأمون من بعدهم في محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر ما لا يحد ويحيط بالمحفة مائتا جارية من الأتراك على مراكب رائعة، وأولم الخليفة وليمة لم يسمع بمثلها، ثم أطلع للناس من الغد سماط مائدة عليها أربعون ألفاً من السكر وخلع على أعيان العسكر وعلى جميع الحواشي.

استيلاء السلطان ملك شاه على ما وراء النهر

كان صاحب سمرقند لهذا العهد من الخانية أحمد خان بن خضر خان أخي شمس الملك الذي كان أميراً عليها وعمته خاتون زوجة ملك شاه، وكان رديء السيرة فبعثوا إلى السلطان يسألونه

الرجوع إلى إيالته.

وجاء بذلك مفتي سمرقند أبو طاهر الشافعي قدم حاجاً وأسرَّ ذلك إلى السلطان فسار من أصفهان سنة اثنتين وثمانين ومعه رسول الروم بالخراج المقدر عليهم فاستعجم وأحضر للفتح.

ولما انتهى إلى خراسان جمع العساكر وعبر النهر بجيوش لا تحصى وأخذ ما في طريقه من البلاد، ثم انتهى إلى بخارى فملكها وما جاورها.

ثم سار إلى سمرقند فحاصرها وأخذ بهجتها ثم رماها بالمنجنيق وثلم سورها ودخل من الثلمة وملك البلد.

واختفى أحمد خان ثم جيء به أسيراً فأطلقه وبعث به إلى أصفهان وولى على سمرقند أبا طاهر عميد خوارزم وسار إلى كاشغر فبلغ إلى نور وكمن وبعث إلى كاشغر بالخطبة وضرب السكة فأطاع وحضر عند السلطان فأكرمه وخلع عليه وأعاده إلى بلده، ورجع السلطان إلى خراسان، وكان بسمرقند عساكر يعرفون بالحكلية فأرادوا الوثوب بالعميد نائب السلطان فلاطفهم ولحق ببلده خوارزم.

عصيان سمرقند وفتحها ثانياً

كان مقدم الحكلية بسمرقند اسمه عين الدولة وخاف السلطان لهذه الحادثة فكاتب يعقوب تكين أخا ملك كاشغر وكانت مملكته تعرف بارياسي فاستحضره وملكه.

ثم شكر له يعقوب وحمل أعداءه من الرعية على طلب الثأر منه وقتله بفتاوي الفقهاء واستبد بسمرقند وسار السلطان ملك شاه إليها سنة اثنتين وثمانين.

فلما انتهى إلى بخارى هرب يعقوب إلى فرغانة ولحق بولايته، وجاء بعسكره مستأمنين إلى السلطان فلقوه بالطواويس من قرى بخارى ووصل السلطان إلى سمرقند وولى عليها الأمير أنز وأرسل العساكر في طلب يعقوب وأرسل إلى ملك كاشغر بالجد في طلبه، وشعب على يعقوب عساكره ونهبوا خزائنه ودخل على أخيه كاشغر مستجيراً به، وبعث السلطان في طلبه منه فتردد بين المخافة والأنفة.

ثم غلب عليه الخوف فقبض على أخيه يعقوب وبعثه مع ابنه وأصحابه إلى السلطان وأمرهم أن يسملوه في طريقه فإن قنع السلطان بذلك وإلا أسلموه إليه فلما قربوا على السلطان وعزموا على سلمه بلغهم الخبر بأن طغرل بن نيال أسرى من ثمانين فرسخاً بعساكر لا تحصى فكبس ملك كاشغر وأسره فأطلقوا يعقوب، ثم خشي السلطان شأن طغرل بن نيال وكثرة عساكره فرجع على البلد ودس تاج الملك في استصلاح يعقوب فشفع له ورده إلى كاشغر ورد الطغرل ورجع هو إلى خراسان.

ثم قدم إلى بغداد سنة أربع وثمانين العزمة الثانية ووجد عليه أخوه تاج الدولة تتش صاحب الشام وقسيم الدولة أقسنقر صاحب حلب وبوران صاحب الرها عمال الأطراف وأقام صنيع الميلاد ببغداد وتأنق بما لم يعهد مثله وأمر وزيره نظام الملك وأمراءه ببناء الدور ببغداد لنزلهم ورجع إلى أصفهان.

استيلاء تتش على حمص وغيرها من سواحل الشام

لما قدم السلطان سنة أربع وثمانين وفد عليه أمراء الشام كما قدمنا فلما انصرفوا من عنده أمر أخاه تاج الدولة تتش أن يذهب دولة العلويين من ساحل الشام ويفتح بلادهم، وأمر أقسنقر وبوران أن يسيرا لانجاده.

فلما رجعوا إلى دمشق سار إلى حمص وبها صاحبها ابن ملاعب وقد عظم ضرره وضرر ولده على الناس فحاصرها وملكها.

ثم سار إلى قلعة عرفة فملكها عنوة ثم إلى قلعة أفامية فاستأمن إليه خادم كان بها فأرسل إلى أمراء تتش في إصلاح حاله فسدوا عليه المذاهب فأرسل إلى وزير أقسنقر يسعى له عند صاحبه وعمل له على ثلاثين ألف دينار ومثلها عروضاً فجنح إلى مصالحته واختلف مع تتش على ذلك وأغلظ كل منهما لصاحبه في القول فرحل أقسنقر مغاضباً واضطر الباقون إلى الرحيل وانتقض أمرهم.

ملك اليمن

كان فيمن حضر عند السلطان ببغداد كما قدمناه عثمان جق أمير التركمان صاحب قرمسيس وغيرها فأمره السلطان أن يسير في جموع التركمان للحجاز واليمن فيظهر أمرهم هناك، وفوض إلى سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد فولى عليهم أمير اسمه ترشك.

وسار إلى الحجاز فاستولى عليه وأساء السيرة فيه حتى جاء أمير الحجاز محمد بن هاشم مستغيثاً منهم.

ثم ساروا سنة خمس وثمانين إلى اليمن وعاثوا في نواحيه وملكوا عدن وأساؤوا السيرة في أهلها وأهلكوا ترشك سابع دخولها وأعاده أصحابه إلى بغداد فدفنوه بها.

مقتل الوزير نظام الملك

ثم ارتحل السلطان ملك شاه إلى بغداد سنة خمس وثمانين فانتهى إلى أصفهان في رمضان وخرج نظام الملك من بيته بعد الإفطار عامداً إلى خيمته فاعترضه بعض الباطنية في صورة متظلم فلما استدناه لسماع شكواه طعنه بخنجر فأشواه، وعثر الباطني في أطناب الخيام ودخل نظام الملك الخيمة فمات لثلاثين سنة من وزارته.

واهتاج عسكره فركب إليه السلطان وسكن الناس، ويقال: إن السلطان ملك شاه وضع الباطني على قتله لما وقع منه ومن بنيه من الدالة والتحكم في الدولة.

وقد كان السلطان دس على ابنه جمال الدين من قتله سنة خمس وسبعين.

كان بعض حواشي السلطان سعى به فسطا به جمال الدين وقتله فأحقد السلطان بذلك وأخذ عميد خراسان فقتله خنقاً فدس لخادم من خدم جمال الدين بذلك وأنهم إذا تولوا قتله بأنفسهم كان أحفظ لنعمتهم فسقاه الخادم سماً ومات.

وجاء السلطان إلى نظام الملك وأغراه به، وما زال بطانة السلطان يغضون منه ويحاولون السعاية فيه إلى أن ولي حافده عثمان بن جمال الملك على مرو وبعث السلطان إليها كردن من أكابر المماليك والأمراء شحنة، ووقعت بينه وبين عثمان منازعة في بعض الأيام فأهانه وحبسه ثم أطلقه، وجاء إلى السلطان شاكياً فاستشاط غضباً وبعث فخر الملك ألب أرسلان إلى نظام الملك وأغراه به وما زال يقول: إن كنت تابعاً فقف عند حدك وإن كنت شريكي في سلطاني فافعل ما بدا لك.

وقرر عليه فعل حافده وسائر بنيه في ولايتهم وأرسل معه نكبرذ من خواصه ثقة على ما يؤديه من القول ويجيبه الآخر فانبسط لسان نظام الملك يعدد الوسائل منه والمدافعة عن السلطان وجمع الكلمة وفتح الأمصار في كلام طويل حملته عليه الدالة.

وقال في آخره: إن شاء فله مؤيد مروآتي ومتى أطعت هذه زالت تلك فليأخذ حذره.

ثم زاد في انبساطه وقال: قولوا عني ما أردتم فإن توبيخكم نتأ في عضدي.

ومضى نكبرد فصدق السلطان الخبر وجاء الآخرون وحاولوا الكتمان فلم يسعهم لما وشي نكبرد بجلية القول فصدقوه كما صدقه.

ومات نظام الملك بعدها بقليل ومات السلطان بعده بنحو شهر وكان أصل نظام الملك من طوس من أبناء الدهاقين اسمه أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق ذهبت نعمة آبائه وماتوا فنشأ يتيماً ثم تعلم وحذق في العلوم والصنائع وعلق بالخدم السلطانية في بلاد خراسان وغزنة وبلخ، ثم لازم خدمة أبي علي بن شاذان وزير ألب أرسلان، ومات ابن شاذان فأوصى به السلطان ألب أرسلان، وعرفه كفايته فاستخدمه فقام بالأمور أحسن قيام فاستوزره، ثم هلك السلطان ألب أرسلان وهو في وزارته.

ثم استوزره ملك شاه بعد أبيه وكان عالماً جواداً صفوحاً مكرماً للعلماء وأهل الدين ملازماً لهم في مجلسه، شيد المدارس وأجرى فيها الجرايات الكثيرة.

وكان يملي الحديث وكان ملازماً للصلوات محافظاً على أوقاتها، وأسقط في أيامه كثيراً من المكوس والضرائب وأزال لعن الأشعرية من المنابر بعد أن فعله الكندري من قبله وحمل عليه السلطان طغرليك وأجراهم مجرى الرافضة وفارق إمام الحرمين وأبو القاسم القشيري البلاد من أجل ذلك فلما ولي ألب أرسلان حمله نظام الملك على إزالة ذلك ورجع العلماء إلى أوطانهم.

ومناقبه كثيرة وحسبك من عكوف العلماء على مجلسه وتدوينهم الدواوين باسمه، فعل ذلك إمام الحرمين وأشباهه.

وأما مدارسه فقد بنى النظامية ببغداد وناهيك بها ورتب الشيخ أبا إسحاق الشيرازي للتدريس بها.

وتوفي سنة ست وسبعين فرتب ابنه مؤيد الملك مكانه أبا سعيد المتولي فلم يرضه نظام الملك وولى فيها الإمام أبا نصر الصباغ صاحب الشامل ومات أبو نصر في شعبان من تلك السنة فولى أبو سعيد من سنة ثمان وسبعين ومات فدرس بعده الشريف العلوي أبو القاسم الدبوسي وتوفي سنة اثنتين وثمانين وولى تدريسه بعدها أبو عبد اللّه الطبري والقاضي عبد الوهاب الشيرازي بالنوبة يوماً بيوم.

ثم ولي تدريسها الإمام أبو حامد الغزالي سنة أربع وثمانين واتصل حكمها على ذلك، وفي أيامه عكف الناس على العلم واعتنوا به لما كان من حسن أثره في ذلك واللّه أعلم.

وفاة السلطان ملك شاه وولاية ابنه محمود

ثم لما سار السلطان بعد مقتل نظام الملك إلى بغداد ودخلها آخر رمضان وكان معه في الدولة أبو الفضل الهروستماني وزير زوجته الخاتون الجلالية من الملوك الخانية فيما وراء النهر وكان من أشد الناس سعاية في نظام الملك وعزم السلطان أن يستوزره لأول دخوله بغداد فعاقت المنية عن ذلك وطرقه المرض ثالث الفطر وهلك منتصف شوال سنة خمس وثمانين.

وكانت زوجته تركمان خاتون الجلالية عنده في بغداد وابنها محمود غائباً في أصفهان فكتمت موته وسارت بشلوه إلى أصفهان وتاج الملك في خدمتها وقدمت بين يديها قوام الدين كربوقا الذي ولي الموصل من بعد وأرسلته بخاتم السلطان إلى مستحفظ القلعة فملكها وجاءت على أثره وقد أفاضت الأموال في الأمراء والعساكر ودعتهم إلى بيعة ولدها محمود وهو ابن أربع سنين فأجابوا إلى ذلك وبايعوه وأرسلت إلى المقتدر في الخطبة له فأجابها على أن يكون الأمير أنز قائماً بتدبير الملك ومجد الملك مشيراً وله النظر في الأعمال والجباية فنكرت ذلك أمه خاتون وكان السفير أبا حامد الغزالي فقال لها إن الشرع لا يجيز ولاية ابنك. فقبلت الشرط وخطب له آخر شوال سنة خمس وثلاثين وأرسلت تركمان خاتون إلى أصفهان في القبض على بركيارق فحبس بأصفهان.

وكان السلطان ملك شاه من أعظم ملوك السلجوقية ملك من الصين إلى الشام ومن أقصى الشام إلى اليمن وحمل إليه ملوك الروم الجزية ومناقبه عظيمة مشهورة.

منازعة بركيارق لأخيه محمود وانتظام سلطانه

كان بركيارق أكبر أولاد السلطان ملك شاه وكانت أمه زبيدة بنت ياقوتي بن داود وياقوتي عم ملك شاه.

ولما حبس بركيارق وخافت عليه أمه زبيدة دست لمماليك نظام الملك فتعصبوا له وكانت خاتون غائبة ببغداد مع ابنها محمود لفقد سلطانه فوثب المماليك النظامية على سلاح لنظام الملك بأصفهان.

وأخرجوا بركيارق من محبسه وخطبوا له وبلغ الخبر إلى خاتون فسارت من بغداد.

وطلب العسكر تاج الملك في عطائهم فهرب إلى قلعة بوجين لينزل منها الأموال وامتنع فيها ونهب العسكر خزائنه وساروا إلى أصفهان وقد سار بركيارق والنظامية إلى الري فأطاعه أرغش النظامي في عساكره وفتحوا قلعة طغرل عنوة وبعثت خاتون العساكر لقتال بركيارق فنزع إليه سبكرد وكمستكن الجاندار وغيرهما من أمراء عساكره ولقيهم بركيارق فهزمهم وسار في أثرهم إلى أصفهان فحاصرهم بها وكان عز الملك بأصفهان، وكان والياً على خوارزم فحضر عند السلطان قبل مقتل أبيه وبقي هناك بعد وفاة السلطان فخرج إلى بركيارق ومعه جماعة من إخوانه فاستوزره بركيارق وفوض إليه الأمور كما كان أبوه.

مقتل تاج الملك

وهو أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز كان وزيراً لخاتون وابنها، ولما هرب إلى قلعة بوجين خوفاً من العسكر كما قدمنا وملكت خاتون أصفهان عاد إليها واعتذر بأن صاحب القلعة حبسه فقبلت عذره وبعثته مع العساكر لقتال بركيارق.

فلما انهزموا حمل أسيراً عنده وكان يعرف كفاءته فأراد أن يستوزره وكان النظامية ينافرونه ويتهمونه بقتل نظام الملك وبذل فيهم أموالاً فلم يغنه ووشوا به فقتلوه في المحرم سنة ست وثمانين.

وكان كثير الفضائل جم المناقب وإنما غطى على محاسنه ممالأته على قتل نظام الملك، وهو الذي بنى تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي والمدرسة بإزائها ورتب بها أبا بكر الشاشي مدرساً.

مهلك محمود

ثم هلك السلطان محمود وهو محاصر بأصفهان لسنة من ولايته، واستقل بركيارق بالملك.

منازعة تتش ألب أرسلان وأخباره إلى حين انهزامه

كان تاج الدولة تتش أخو السلطان ملك شاه صاحب الشام وسار إلى لقاء أخيه ملك شاه ببغداد قبيل موته فلقيه خبر موته بهيت فاستولى عليها وعاد إلى دمشق فجمع العساكر وبذل الأموال وأخذ في طلب الملك فبدأ بحلب ورأى صاحبها قسيم الدولة أقسنقر اختلاف ولد ملك شاه وحقرهم فأطاع تاج الدولة

تتش وتبعه في طاعته.

وبعث إلى باغي يسار صاحب أنطاكية وإلى مران صاحب الرها وحران يشير عليهما بمثل ذلك فأجاباه وخطبوا لتاج الدولة تتش في بلادهم وساروا معه إلى الرحبة فملكها ثم إلى نصيبين فملكها واستباحها وسلمها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش.

وساروا إلى الموصل وقدم عليه الكافي بن فخر الدولة بن جهير من جزيرة ابن عمر فاستوزره وكانت الموصل قد ملكها علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش وأمه صفية عمة ملك شاه وأطلقت تركمان خاتون عمه إبراهيم فجاء وملك الموصل من يده كما تقدم في أخبار بني المقلد فبعث اليه تتش في الخطبة وأن يهيىء له الطريق إلى بغداد فامتنع وزحف لحربه فانهزم العرب وسيق إبراهيم أسيراً إلى تتش في جماعة من أمراء العرب فقتلوا صبراً ونهبت أموالهم واستولى تتش على الموصل وغيرها، واستناب عليها علي بن مسلم وهو ابن صفية عمة أبيه.

وبعث إلى بغداد في الخطبة ووافقه كوهرائن الشحنة وحرر الجواب بانتظار الرسل من العسكر فسار تتش إلى ديار بكر فملكها.

ثم سار إلى أذربيجان وزحف بركيارق يعتذر من سعيه مع تتش فعزله بركيارق بسعاية كمستكن الجاندار بقسيم الدولة وأقام عوضه شحنة ببغداد الأمير مكرد وأعطاه أقطاعه وسار إلى بغداد، ثم رده من دقوقا لكلام بلغه عنه وقتله وولى على شحنة بغداد فتكين حب.

مقتل إسماعيل بن ياقوتي

كان إسماعيل بن ياقوتي بن داود بن عم ملك شاه وخال بركيارق أميراً على أذربيجان فبعث تركمان خاتون إليه فأطمعته في الملك وأنها تتزوج به فجمع جموعاً من التركمان وغيرهم وسار لحرب بركيارق فلقيه عند كرخ ونزع عنه مكرد إلى بركيارق فانهزم إسماعيل إلى أصفهان فخطبت له خاتون وضربت اسمه على الدنانير بعد ابنها محمود، وأرادت العقد معه فمنعها الأمير أنز مدبر الدولة وصاحب العسكر وخوفهم وفارقهم، ثم أرسل أخته زبيدة أم بركيارق فأصلحت حاله مع ابنها وقدم عليه فأكرمه.

واجتمع به رجال الدولة كمستكن الجاندار وأقسنقر وبوران وكشفوا سره في طلب الملك، ثم قتلوه وأعلموا بركيارق فأهدر دمه.

كان توران شاه بن قاروت بك صاحب فارس وأرسلت خاتون الجلالية الأمير أنز لفتح فارس سنة سبع وثمانين فهزمه أولاً، ثم أساء السيرة مع الجند فلحقوا بتوران شاه وزحف إلى أنز فهزمه واسترد البلد من يده وأصاب توران شاه في المعركة بسهم هلك معه بعد شهرين.

وفاة المقتدي وخلافة المستظهر وخطبته لبركيارق

ثم توفي المقتدي منتصف محرم سنة سبع وثمانين وكان بركيارق قد قدم بغداد بعد هزيمة عمه تتش فخطب له وحملت إليه الخلع فلبسها وعرض التقليد على المقتدي فقرأه وتدبره وعلم فيه وتوفي فجأة وبويع لابنه المستظهر بالخلافة فأرسل الخلع والتقليد إلى بركيارق وأخذت عليه البيعة للمستظهر.

استيلاء تتش على البلاد بعد مقتل أقسنقر ثم هزيمة بركيارق

لما عاد تتش منهزماً من أذربيجان جمع العساكر واحتشد الأمم وسار من دمشق إلى حلب سنة سبع وثمانين واجتمع قسيم الدولة أقسنقر وبوران وجاء كربوقا مدداً من عند بركيارق وساروا لحرب تتش ولقوه على ستة فراسخ من حلب فهزمهم وأخذ أقسنقر أسيراً فقتله ولحق كربوقا وبوران بحلب واتبعهما تتش فحاصرهما وملك حلب وأخذهما أسيرين وبعث إلى حران والرها في الطاعة فامتنعوا فبعث إليهم برأس بوران وملك البلدين وبعث بكربوقا إلى حمص فحبسه بها.

وسار إلى الجزيرة فملكها ثم إلى ديار بكر وخلاط فملكها ثم إلى أذربيجان.

ثم سار إلى همذان ووجد بها فخر الدولة ابن نظام الملك جاء من خراسان إلى بركيارق فلقيه الأمير قماج من عسكر محمود بأصفهان فنهب ماله ونجا إلى همذان فصادف بها تتش فأراد قتله وشفع فيه باغي يسار وأشار بوزارته لميل الناس إلى بيته واستوزره.

وكان بركيارق قد سار إلى أقسيس فخالفه تتش إلى أذربيجان وهمذان فسار بركيارق من نصيبين وعبر دجلة من فوق الموصل إلى إربل.

فلما تقارب العسكران أشرف الأمير يعقوب بن أنق من

عسكر تتش فكبس بركياق وهزمه ونهب سواده ولم يبق معه إلا برسق وكمستكن الجاندار والبارق من أكابر الأمراء فلجأوا إلى أصفهان وكانت خاتون أم محمود قد ماتت فمنعه محمود وأصحابه من الدخول، ثم خرج إليه محمود وأدخله إلى أصفهان واحتاطوا عليه وأرادوا أن يسلموه فرفض محمود فأبقوه.

مقتل تتش واستقلال بركيارق بالسلطان

ثم مات محمود منسلخ شوال سنة سبع وثمانين واستولى بركيارق على أصفهان.

وجاء مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره عوض أخيه عز الملك وكان قد توفي بنصيبين فكاتب مؤيد الملك الأمراء واستمالهم فرجعوا إلى بركيارق وكشف جمعه.

وبعث تاج الملك تتش بعد هزيمة بركيارق يوسف بن أنق التركماني شحنة إلى بغداد في جمع التركمان فمنع من دخول بغداد.

وزحف إليه صدقة بن مزيد صاحب الحلة فقاتله في يعقوب وانهزم صدقة إلى الحله ودخل يوسف بن أنق بغداد وأقام بها.

وكان تتش لما هزم بركيارق سار إلى همذان وقد تحصن بها بعض الأمراء فاستأمن إليه واستولى على همذان وسار في نواحي أصفهان وإلى مرو.

وراسل الأمراء بأصفهان يستميلهم فأجابوه بالمقاربة والوعد وبركيارق مريض، فلما أفاق من مرضه خرج إلى جرباذقان واجتمع إليه من العسكر ثلاثون ألفاً ولقيه تتش فهزمه بركيارق وقتله بعض أصحاب أقسنقر بثأر صاحبه.

وكان فخر الملك بن نظام الملك أسيراً عنده فانطلق عند هزيمته واستقامت أمور بركيارق وبلغ الخبر إلى يوسف.

استيلاء كربوقا على الموصل

قد كنا قدمنا أن تاج الدولة تتش أسر قوام أبا سعيد كربوقا وحبسه بعدما قتل أقسنقر بوزان فأقام محبوساً بحلب إلى أن قتل تتش واستولى رضوان ابنه على حلب فأمره السلطان بركيارق بإطلاقه لأنه كان من جهة الأمير أنز فأطلقه رضوان وأطلق أخاه التوسطاش فاجتمعت عليهما العساكر وكان بالموصل علي بن شرف الدولة مسلم منذ ولاه عليها تتش بعد وقعة المضيع.

وكان بنصيبين أخوه محمد بن مسلم ومعه مروان بن وهب وأبو الهيجاء الكردي وهو يريد الزحف إلى الموصل فكاتب كربوقا واستدعاه للنصرة ولقيه على مرحلتين من نصيبين فقبض عليه كربوقا وسار إلى نصيبين وحاصرها أربعين يوماً وملكها ثم سار إلى الموصل فامتنعت عليه فتحوّل عنها إلى بلد وقتل بها محمد بن شرف الدولة تغريقاً وعاد إلى حصار الموصل ونزل منها على فرسخ واستنجد علي بن مسلم بالأمير مكرس صاحب جزيرة ابن عمر فجاء لإنجاده واعترضه التوسطاش فهزمه ثم سار إلى طاعة كربوقا وأعانه على حصار الموصل ولما اشتدّ بصاحبه علي بن مسلم الحصار بعد تسعة أشهر هرب عنها ولحق بصدقة بن مزيد.

ودخل كربوقا إلى الموصل وعاث التوسطاش في أهل البلد ومصادرتهم واستطال على كربوقا فأمر بقتله ثالثة دخوله سنة تسع وثمانين وسار كربوقا إلى الرحبة فملكها وعاد فأحسن السيرة في أهل الموصل ورضوا عنه، واستقامت أموره.

استيلاء أرسلان أرغون أخي السلطان ملك شاه على خراسان ومقتله

كان أرسلان أرغون مقيماً عند أخيه السلطان ملك شاه ببغداد فلما مات وبويع ابنه محمود سار إلى خراسان في سبعة من مواليه واجتمعت عليه جماعة وقصد نيسابور فامتنعت عليه فعاد إلى مرو وكان بها شحنة الأمير قودر من موالي السلطان ملك شاه وكان أحد الساعين في قتل نظام الملك فمال إلى طاعة أرغون وملّكه البلد وسار إلى بلخ وكان بها فخر الدين بن نظام الملك ففرّ عنها ووصل إلى همذان ووزر لتاج الدولة تتش كما مرّ.

وملك أرسلان أرغون بلخ وترمذ ونيسابور وسائر خراسان وأرسل إلى السلطان بركيارق وزيره مؤيد الملك في تقرير خراسان عليه بالضمان كما كانت لجدّه داود ما عدا نيسابور فأعرض عنه بركيارق لاشتغاله بأخيه محمود وعمه تتش ثم عزل بركيارق مؤيد الملك عن الوزارة بأخيه فخر الملك.

واستولى فخر الملك ألب أرسلان على الأمور فقطع أرسلان مراسلة بركيارق فبعث حينئذ عمه بورسوس في العساكر لقتاله فانهزم أرسلان إلى بلخ وأقام بورسوس بهراة وسار أرسلان إلى مرو وفتحها عنوة وخرّبها واستباحها وسار إليه بورسوس من هراة سنة ثمان وثمانين وكان معه مسعود بن تاخر الذي كان أبو مقدّم عساكر داود ومعه ملك شاه من أعاظم الأمراء فبعث اليه أرسلان واستمالة فمال إليه ووثب لمسعود بن تاخر وابنه فقتلهما

في خيمته فضعف أمر بورسوس وانفض الناس عنه وجيء به أسيراً إلى أخيه أيلتلان أرغون فحبسه بترمذ ثم قتله في محبسه بعد سنة وقتل أكابر خراسان وخرب أسوارها: مثل سودان ومرو الشاهجان وقلعة سرخس ونهاوند ونيسابور وصادر وزيره عماد الملك بن نظام الملك على ثلثمائة ألف دينار ثم قتله واستبدّ بخراسان وكان مرهف الحدّ كثير العقوبة لمواليه وأنكر على بعضهم يوماً بعض فعلاته وهو خلوة وضربه فطعنه الغلام بخنجر معه فقتله وذلك في المحرّم من سنة تسعين.

ولاية سنجر على خراسان

ولما قتل أرسلان أرغون ملك أصحابه من بعده صبياً صغيراً من ولده وكان السلطان بركيارق قد جهز العساكر لخراسان للقتال ومعه الأتابك قماج ووزيره علي بن الحسن الطغرائي وانتهى إليه مقتل أرسلان بالدامغان فأقاموا حتى لحقهم السلطان بركيارق وساروا إلى نيسابور فملكها في جمادى سنة تسعين وأربعمائة وملك سائر خراسان وسار إلى بلخ وكان أصحاب أرسلان قد هربوا بابنه الذي نصبوه للملك إلى جبل طخارستان وبعثوا يستأمنون له ولهم فأمنهم السلطان وجاؤوا بالصبيّ في آلاف من العساكر فأكرمه السلطان وأقطعه ما كان لأبيه أيّام ملك شاه وانفضّ عنه العسكر الذين كانوا معه وافترقوا على أمراء السلطان وأفردوه فضمته أم السلطان إليها وأقامت من يتولى رتبته وسار السلطان إلى ترمذ فملكها وخطب له بسمرقند ودانت له البلاد وأقام على بلخ سبعة أشهر ثم رجع وترك أخاه سنجر نائباً بخراسان.

ظهور المخالفين بخراسان

لما كان السلطان بخراسان خالف عليه محمود بن سليمان من قرابته ويعرف بأمير أميران وسار إلى بلخ واستمد صاحب غزنة من بني سبكتكين فأمدّه بالعساكر والفيول على أن يخطب له فيما يفتح من خراسان فقويت شوكته فسار إليه الملك سنجر وكسبه فانهزم وجيء به أسيراً فسلمه ولما انصرف السلطان عن خراسان سار نائب خوارزم واسمه أكنجي في اتباعه وسبق إلى مرو فتشاغل بلذّاته وكان بها الأمير تورد قد تشاغل عن السلطان واعتذر بالمرض فداخل بارقطاش من الأمراء في قتل أكنجي صاحب خوارزم فكبسه في طائفة من أصحابه وقتلوه وساروا إلى خوارزم فملكوها مظهرين أن السلطان ولّاهما عليها وبلغ الخبر إلى السلطان وكان قد بلغه في طريقه خروج الأمير أنز بفارس عن طاعته فمضى إلى العراق وأعاد داود الحبشي بن التونطاق في العساكر لقتالهما فسار إلى العراق من هراة وأقام في انتظار العسكر فعاجلاه فهرب أمامهما وهرب جيحون وتقدّم بارقطاش قبل تودن وقاتله فهزمه داود وأسره وبلغ الخبر إلى تودن فثار به عسكره ونهبوا أثقاله ولحق بسنجر فقبض عليه صاحبها ثم أطلقه فلحق بالملك سنجر ببلخ فقتله سنجر وأفرغ هو طاعته في نظمه وجمع العساكر على طاعته، ثم مات قريباً وبقي بارقطاش أسيراً عند داود إلى أن قتل.

بداية دولة بني خوارزم شاه

كان أبو شكين مملوكاً لبعض أمراء السلجوقية واشتراه من بعض أهل غرشقان فدعى أبا شكين غرشه ونشأ على حال مرضيَّة وكان مقدّماً وولد له ابنه محمد فأحسن تأديبه وتقدّم هو بنفسه ولما سار الأمير داود الحبشي إلى خراسان كما مرّ سار محمد في جملته فلما مهد خراسان وأزال الخوارج نظر فيمن يولّيه خوارزم وكان نائبها أكنجي قد قتله كما مرّ فوقع اختياره على محمد بن أبي شكين فولاه ولقبه خوارزم شاه فحسنت سيرته وارتفع محله وأقرّه السلطان سنجر وزاده عناية بقدر كفايته واضطلاعه وغاب في بعض الأيام عن خوارزم فقصدها بعض ملوك الأتراك وكان طغرلتكين محمد الذي كان أبوه أكنجي نائباً بخوارزم وبادر محمد بن أبي شكين إلى خوارزم بعد أن استمدّ السلطان سنجر وسار بالعساكر مدداً له وتقدم محمد بن أبي شكين فتأخّر الأتراك إلى منقشلاع ورحل طغرلتكين إلى جرجان وازداد محمد بذلك عناية عند سنجر ولما توفي ولي ابنه بعده أقسز وأحسن السيرة وكان قد قاد الجيوش أيّام أبيه وباشر الحروب فملك مدينة منقشلاع ولما توفي اختصه السلطان سنجر وكان يصاحبه في أسفاره وحروبه واتصل الملك في بني محمد بن أبي شكين خوارزم شاه وكانت لهم الدولة وتمت دولة بني ملك شاه وعليها كان ظهور الططر بعد المائة السادسة ومنهم أخذوا الملك كما سيأتي في أخبارهم.

استيلاء الإفرنج على أنطاكية وغيرها من سواحل الشّام

كان الإفرنج قد ظهر أمرهم في هذه السنين وتغلبوا على

صقليّة واعتزموا على قصد الشام وملك بيت المقدس وأرادوا المسير إليها في البرّ فراسلوا ملك الروم بالقسطنطينية أن يسهّل لهم الطريق إلى الشام فأجابهم على أن يعطوه أنطاكية فعبروا خليج القسطنطينيّة سنة تسعين وأربعمائة.

وسار أرسلان بن سليمان بن قطلمش صاحب مرقيّة وبلاد الروم لمدافعتهم فهزموه.

ثم مرّوا ببلاد ابن ليون الأرمني ووصلوا الى أنطاكية فحاصروها تسعة أشهر وصاحبها يومئذ باغي سياه فأحسن الدفاع عنها ثم تبوّؤا البلد بمداخلة بعض الحامية أصعدهم السور بعد أن رغبوه بالأموال والأقطاع وجاؤوا إلى السور فدلّهم على بعض المخادع ودخلوا منه ونفخوا البوق فخرج باغي سياه هارباً حتى إذا كان على أربعة فراسخ راجع نفسه وندم فسقط مغشيا عليه ومرّ به أرمني فحمل رأسه إلى أنطاكية وذلك سنة إحدى وتسعين وأربعمائة.

واجتمعت عساكر المسلمين وزحفوا إلى أنطاكية من كل ناحية ليرتجعوها من الإفرنج وجاء قوام الدين كربوقا إلى الشام واجتمعت عليه العساكر بمرج دابق فكان معه دقاق بن تتش وطغرلتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجر وسقمان بن أرتق وغيرهم وساروا إلى أنطاكية فنازلوها واستوحش الأمراء من كربوقا وأنفوا من ترفعه عليهم وضاق الحصار بالإفرنج لعدم الأقوات لأنّ المسلمين عاجلوهم عن الاستعداد فاستأمنوا كربوقا فمنعهم الأمان وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكمدمري والقمص صاحب الرُها وسمند صاحب أنطاكية وهو مقدّم العساكر فخرجوا مستأمنين وضربوا مصاف وتخاذل الناس لما في قلوبهم من الأضغان لكربوقا فتمت الهزيمة عليهم وآخر من انهزم سقمان بن أرتق واستشهد منهم العرب وغنم العدوّ سوادهم بما فيه وساروا إلى معرة النعمان فملكوها وأفحشوا في استباحتها ثم ساروا إلى غزة فحاصروها أربعة أشهر وامتنعت عليهم وصالحهم ابن منقذ على بلده شيراز وحاصروا حمص فصالحهم صاحبها جناح الدولة ثم ساروا إلى عكا فامتنعت عليهم وكان هذا بداية الإفرنج بسواحل الشام ويقال: إنّ المصريين استنابوا رجلاً يعرف بافتخار الدولة من خلفاء العميد بن نصر لما خشوا من السلجوقية عند استيلائهم على الشام إلى غزة وزحف الاقسيس من أمرائهم إلى مصر وحاصرها وراسلوا الإفرنج واستدعوهم لملك الشام لينشلوهم عن أنفسهم ويحولوا بينهم وبين مصر والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض الأمير أنز وقتله

لما سار السلطان بركيارق إلى خراسان ولّى على بلاد فارس الأمير أنز وكانت قد تغلبت الشوانكار واستظهروا بإيران شاه بن قاروت بك صاحب كرمان فلما سار إليهم أنز قاتلوه فهزموه ورجع إلى أصفهان فاستأذن السلطان فأمره بالمقام هناك وولاه إمارة العراق وكانت العساكر في جواره بطاعته وجاء مؤيد الملك بن نظام الملك من بغداد على الحلّة فأغراه بالخلاف وخوّفه غائله بركيارق وأشار عليه بمكاتبة محمد بن ملك شاه وهو في كنجة وشاع عنه ذلك فازداد خوفه وجمع العساكر وسار من أصفهان إلى الريّ وجاهر السلطان بالخلاف وطلب منه أن يسلم إليه فخر الملك ألب أرسلان وبينما هو في ذلك إذ هجم عليه ثلاثة نفر من الأتراك المولّدين بخوارزم من جنده فطعنوه فقتلوه واهتاج عسكره فنهبوا خزائنه وحمل شلوه إلى أصفهان فدفن بها واشتهر خبر قتله وحُمل إلى السلطان في أحواز الريّ وهو سائر لقتاله فسر بذلك هو وفخر الملك ألب أرسلان وذلك في سنة اثنتين وتسعين وكان محمود المذاهب كبير المناقب ولما قتل هرب اصهنرصبار إلى دمشق فأقام بها مدّة ثم قدم على السلطان محمد سنة إحدى وخمسمائة فأكرمه وأقطعه رحبة مالك بن طوق.

استيلاء الفرنج على بيت المقدس

كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش وأقطعه الأمير سقمان بن أرتق التركماني وكان تتش ملكه من يد العلويّين أهل مصر فلما وهن الاتراك بواقعة أنطاكية طمع المصريون في ارتجاعه وسار صاحب دولتهم الأفضل بن بدر الجماليّ وحاصر الأمير سقمان وأخاه ابلغاري وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سونج ونصب المجانيق فثلموا سوره ثم ملكوه بالأمان لأربعين يوماً من حصاره في شعبان سنة تسع وثمانين وأحسن الأفضل إلى سقمان وابلغاري ومن معهما وأطلقهم فأقام سقمان ببلد الرُها وسار ابلغاري إلى العراق وولّى الأفضل على بيت المقدس افتخار الدولة من أمرائهم ورجع إلى مصر فلما رجع الإفرنج من عكا وجاؤوا إلى بيت المقدس فحاصروه أربعين يوماً واقتحموه من جهة الشمال آخر شعبان من سنة اثنتين وتسعين وعاثوا في أهله واعتصم فلّهم بمحراب داود عليه السلام ثلاثاً حتى استأمنوا وخرجوا ليلاً إلى عسقلان.

وقتل بالمسجد سبعون ألفاً أو يزيدون من المجاورين فيهم

العلماء والزهّاد والعبّاد وأخذوا نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة زنة كل واحد ثلاثة آلاف وستمائة درهم ومائة وخمسين قنديلاً من الصفّار وتنوراً من الفضّة زنته أربعون رطلاً بالشامي وغير ذلك مما لا يحصى ووصل الصريخ إلى بغداد مستغيثين فأمر المقتدي أن يسير إلى السلطان بركيارق أبو محمد الدامغاني وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني وأبو الوفاء بن عقيد وأبو سعد الحلواني وأبو الحسين بن السمّاك فساروا إلى بركيارق يستصرخونه للمسلمين فانتهوا إلى حلوان وبلغهم مقتل مجد الملك ألب أرسلان وفتنة بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا وتمكن الإفرنج من البلاد ونحن عازمون على إفراد أخبارهم بالشام وما كان لهم فيه من الدولة على حكم أخبار الدول في كتابنا.

ظهور السلطان محمد بن ملك شاه والخطبة له ببغداد وحروبه مع أخيه بركيارق

كان محمد وسنجر شقيقين وكان بركيارق استعمل سنجر على خراسان ثم لحق به محمد بأصفهان وهو يحاصرها سنة ثمان وثمانين فاقطعه كنجة وأعمالها وأنزل معه الأمير قطلغ تكين أتابك وكانت كنجة من أعمال أرّان وكانت لفضلون فانتزعها ملك شاه وأقطعه استراباذ وولى على اران: سرهناسا وتكين الخادم ثم ضمن فضلون بلاده وأعيد إليها فلما قوي رجع إلى العصيان فسرح إليه ملك شاه الأمير بوزان فغلبه على البلاد وأسره ومات ببغداد سنة أربع وثمانين وأقطع ملك شاه بلاد أرّان لأصحاب باغي سياه صاحب أنطاكية ولما مات باغي سيان رجع ابنه إلى ولاية أبيه ثم أقطع السلطان بركيارق كنجة وأعمالها لمحمد كما قلناه سنة ست وثمانين ولما اشتدوا واستفحل قتل أتابك قطلغ تكين واستولى على بلاد أرّان كلها ولحق مؤيد الملك عبد الله بن نظام الملك بعد مقتل صاحبه أنز فاستخلصه وقربه وأشار عليه مؤيد الملك فطلب الأمر لنفسه فخطب له بأعماله واستوزر مؤيد الملك وقارن ذلك مقتل مجد الملك البارسلاني المتغلب في دولة بركيارق فاستوحش أصحابه لذلك ونزعوا إلى محمد وساروا جميعاً إلى الري وكان بركيارق قد سبقهم إليها واجتمع إليه الأمير نيال بن أبي شكين الحامي من أكابر الأمراء وعز الملك بن نظام الملك ولما بلغه مسير أخيه محمد إليه رجع إلى أصفهان فمنعوه من الدخول فسار إلى خوزستان وملك محمد الري في ذي القعدة سنة اثنتين وتسعين ووجد بها زُبيدة أم بركيارق قد تخلفت عن ابنها فحبسها مؤيد الملك وصادرها ثم قتلها خنقاً بعد أن تنصح له أصحابه في شأنها فلم يقبل وكان سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد قد استوحش من بركيارق فاتفق هو وكربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وسرخاب بن بدر صاحب كنكسون وساروا إلى السلطان محمد بقم فخلع عليهم ورد كوهرائين إلى بغداد في شأن الخطبة فخطب له بالخليفة ولقبه حياة الدين والدنيا وسار كربوقا وجكرمش مع السلطان محمد إلى أصفهان والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل البارسلاني

كان أبو الفضل سعد البارسلاني ويلقب مجد الملك متحكماً عند السلطان بركيارق ومتحكماً في دولته ولما فشا القتل في أمرائه من الباطنية استوحشوا ونسبوا ذلك للبارسلاني وكان من أعظم من قتل منهم الأمير برسق فاتهم ابنه زنكي وأقبورني البارسلاني في قتله ونزعوا عن بركيارق إلى السلطان محمد فاجتمع الأمراء ومقدّمهم أمير الحيرة لكابك وطغايرك من الزور وبعثوا إلى بني برسق يستدعونهم للطلب بثار أبيهم فجاؤوا واجتمعوا قريباً من همذان ووافقهم العسكر جميعاً على ذلك وبعثوا إلى بركيارق يطلبون البارسلاني فامتنع وأشار عليه البارسلاني بإجابتهم لئلا يفعلوا ذلك بغير رأي السلطان فيكون وهناً على الدولة فاستحلفهم السلطان فذفعه إليهم فقتله الغلمان قبل أن يتصل بهم وسكنت الفتنة وحمل رأسه إلى مؤيد الملك واستوحش الأمراء لذلك من بركيارق وأشاروا عليه بالعودة إلى الريّ ويكفونه قتال أخيه محمد فعاد متشاغلاً ونهبوا سرادقه وساروا إلى أخيه محمد ولحق بأصفهان ثم لحق رستاق كما تقدّم.

إعادة الخطبة ببغداد لبركيارق

ولما سار بركيارق إلى خوزستان ومعه نيال بن أبي شكين الحسامي مع عسكره سار من هنالك إلى واسط ولقيه صدقة بن مزيد صاحب الحلّة ثم سار إلى بغداد وكان سعد الدولة كوهرائين الشحنة على طاعة محمد فخرج عن بغداد ومعه أبو الغازي بن أرتق وغيره وخطب لبركيارق ببغداد منتصف صفر سنة ثلاث وتسعين بعد أن فارقها كوهرائين وأصحابه وبعثوا إلى السلطان محمد ومؤيد الملك يستحثونهما فأرسلا إليهم كربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر يستكثرون بهم في المدافعة. وطلب جكرمش من كوهرائين السير لبلده خشية عليها فأذن له ثم يئس كوهرائين وأصحابه من محمد فبعثوا إلى بركيارق

بطاعتهم فخرج إليهم واسترضاهم ورجع إلى بغداد وقبض على عميد الدولة بن جهير وزير الخليفة وطالبه بما أخذ هو وأبوه من الموصل وديار بكر أيام ولايتهم عليها فصادرهم على مائة وستين ألف دينار واستوزر الأغرّ أبا المحاسن عبد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني وخلع الخليفة على بركيارق.

المصاف الأول بين بركيارق ومحمد ومقتل كوهرائين وهزيمة بركيارق والخطبة لمحمد

ثم سار بركيارق من بغداد لحرب أخيه محمد ومر بشهرزور فاجتمع إليه عسكر كثير من التركمان وكاتب رئيس همذان يستحثه فركب وسار للقاء أخيه على فراسخ من همذان في أوّل رجب من سنة ثلاث وتسعين وفي ميمنته كوهرائين وعز الدولة بن صدقة بن مزيد وسرخاب بن بدر وفي ميسرته كربوقا وفي ميمنة محمد بن اضر وابنه أياز وفي ميسرته مؤيد الملك والنظامية ومعه في القلب أمير سرخو شحنة أصفهان

فحمل كوهرائين من الميمنة على مؤيد الملك والنظاميّة فهزمهم وانتهى إلى خيامهم فنهبها وحملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارق فانهزموا وحمل محمد على بركيارق فهزمه ووقف محمد مكانه وعاد كوهرائين من طلب المنهزمين فكبا به فرسه فقتل

وجيء بالأغرّ أبي المحاسن يوسف وزير بركيارق أسيراً فأكرمه مؤيد الملك ونصب له خيمة وبعثه إلى بغداد في الخطبة لمحمد فخطب له منتصف رجب من السنة وكانت أوّلية سعد الدولة كوهرائين انه كان خادماً للملك أبي كاليجار بن بويه وجعله في خدمة ابنه أبي نصر ولما حبسه طغرلبك مضى معه إلى قلعة طغرل فلما مات انتقل إلى خدمة السلطان ألب أرسلان وترقّى عنده وأقطعه واسط وجعله شحنة بغداد وحضر يوم قتله فوقاه بنفسه ثم أرسله مالك شاه إلى بغداد في الخطبة وجاء بالخلع والتقليد وحصل له من نفوذ الأمر واتباع الناس ما لم يحصل لغيره إلى أن قتل في هذه المعركة وولى شحنة بغداد بعده أبلغازي بن أرتق.

مسير بركيارق إلى خراسان وانهزامه من أخيه سنجر ومقتل الأمير داود حبشي أمير خراسان

لما انهزم بركيارق من أخيه محمد خلص في الفلّ إلى الريّ واجتمع له جموع من شيعته فسار إلى خراسان وانتهى إلى اسفراين وكتب الأمير داود حبشي إلى التونطاق يستدعيه من الدامغان وكان أميراً على معظم خراسان وعلى طبرستان وجرجان فأشار عليه بالمقام بنيسابور فقصدها وقبض على عميدها أبي محمد وأبي القاسم بن إمام الحرمين ومات أبو القاسم في محبسه مسموماً ثم زحف سنجر إلى الأمير داود فبعث إلى بركيارق يستدعيه لنجدته فسار إليه والتقى الفريقان بظاهر بوشنج وفي ميمنة سنجر الأمير برغش وفي ميسرته الأمير كوكر ومعه في القلب الأمير رستم فحمل بركيارق على رستم فقتله وانقضّ الناس على سنجر وكاد ينهزم وأخذ بركيارق أمّ سنجر أسيرة وشغل أصحاب بركيارق بالنهب فحمل عليهم برغش وكوكر فانهزموا واستمرّت الهزيمة على بركيارق وهرب الأمير داود فجيء به إلى برغش أسيراً فقتله.

وسار بركيارق إلى جرجان ثم إلى الدامغان ودخل البريّة ثم استدعاه أهل أصفهان وجاءه جماعة من الأمراء منهم جاولي صبّاوو وسبقه محمد إلى أصفهان فعدل عنها إلى عسكر مكرم.

المصاف الثاني بين بركيارق ومحمد وهزيمة محمد وقتل وزيره مؤيد الملك والخطبة لبركيارق

لما انهزم بركيارق أمام سنجر سنة ثلاث وتسعين وسار إلى أصفهان فوجد أخاه محمداً قد سبقه إليها فعدل عنها إلى خوزستان ونزل إلى عسكر مكرم.

وقدم عليه هناك الأميران زنكي والبكي ابنا برسق سنة أربع وتسعين وساروا معه إلى همذان وهرب إليه الأمير أياز في خمسة آلاف من عسكر محمد لأنّ أميراً آخر مات في تلك الأيام وظنّوا أن مؤيد الملك دسّ عليه وزيره فسمّه وكان أياز في جملة أمير أضر فقتل الوزير المتهم ولحق بركيارق ثم وصل إليه سرخاب بن كنجر وصاحباه فاجتمع له نحو من خمسين ألف فارس ولقيه محمد في خمسة عشر ألفاً واستأمن أكثرهم إلى بركيارق يوم المصاف أوّل جمادى الأخيرة سنة أربع وتسعين واستولت الهزيمة على محمد

وجيء بمؤيد الملك أسيراً فوبخه ثم قتله بيده لأنه كان سيّئ السيرة مع الأمراء كثير الحيل في تدبير الملك ثم بعث الاغرّ أبو المحاسن وزير بركيارق أبا إبراهيم الاسترابادي لاستقصاء أموال مؤيد الملك وذخائره ببغداد فحمل منها ما لا يسعه الوصف يقال: إنّه وجد في ذخائره ببلاد العجم قطعة بلخش زنتها أربعون مثقالاً واستوزر محمد بعده خطيب الملك أبا منصور محمد بن الحسين.

ثم سار السلطان بركيارق إلى الريّ ووفد عليه هنالك كربوقا صاحب الموصل ودبيس بن صدقة وأبوه يومئذ صاحب الحلّة وسار السلطان قافلاً إلى جرجان وبعث إلى أخيه سنجر يستجديه فبعث إليه ما أقامه ثم طلبه في المدد فسار إليه سنجر من خراسان ثم سارا جميعاً إلى الدامغان فخرّباها وسار إلى الريّ واجتمعت عليه النظاميّة وغيرهم فكثرت جموعهم وكان بركيارق بعد الظفر قد فرق عساكره لضيق الميرة ورجع دبيس بن صدقة إلى أبيه وخرج بأذربيجان داود بن إسماعيل بن ياقوتي فبعث لقتاله قوام الدولة كربوقا في عشرة آلاف واستأذنه أياز في المسير إلى ولايته بهمذان ويعود بعد الفطر فبقي في قلّة من العساكر فلما بلغه قرب أخيه محمد وسنجر اضطرب حاله وسار إلى همذان ليجتمع مع أياز فبلغه أنه قد راسل أخاه محمدا وأطاعه فعاد إلى خوزستان.

ولمّا انتهى إلى تستر استدعى ابن برسق وكان من جملة أياز فلم يحضر وتأخر فأمّنه فسار نحو العراق فلمّا بلغ حلوان لحق به أياز وكان راسل محمداً فلم يقبله.

وبعث عساكره إلى همذان فلحق بهمدان أياز وأخذ محمد محلة أياز بهمدان وكانت كثيراً من كل صنف وصودر أصحابه بهمذان بمائة ألف دينار.

وسار بركيارق وأياز إلى بغداد فدخلها منتصف ذي العقدة من سنة أربع وتسعين وطلب من الخليفة المال للنفقة فبعث إليه بعد المراجعة بخمسين ألف دينار وعاث أصحاب بركيارق في أموال الناس وضجروا منه ووفد عليه أبو محمد عبد اللّه بن منصور المعروف بابن المصلحيّة قاضي جبلة من سواحل الشام منهزماً من الإفرنج بأموال جليلة المقدار فأخذها بركيارق منه وقد تقدّم خبر ابن المصلحيّة في دولة العباسيين ثم بعث وزير بركيارق الأغرّ بالمحاسن إلى صدقة بن مزيد صاحب الحلّة في ألف ألف دينار يزعم أنها تخلّفت عنده من ضمان البلاد وتهدّده عليها فخرج عن طاعة بركيارق وخطب لمحمد أخيه وبعث بركيارق في الحضور والتجاوز عن ذلك وضمن له أياز جميع مطالبه فأبى إلا أن يدفع الوزير واستمرّ على عصيانه وطرد عامل بركيارق عن الكوفة واستضافها إليه.

مسير بركيارق عن بغداد ودخول محمد وسنجر إليها

ولما استولى السلطان محمد وأخوه سنجر على همذان سار في اتباع بركيارق إلى حلوان فقدم عليه هنالك أبو الغازي ابن أرتق في عساكره وخدمه وكثرت جموعه فسار إلى بغداد وبركيارق عليل بها فاضطرب أصحابه وعبروا به إلى الجانب الغربي ووصل محمد إلى بغداد آخر سنة أربع وتسعين وتراءى الجمعان بشاطىء دجلة وجرت بينهم المراماة والنشّاب وكان عسكر محمد ينادون عسكر بركيارق يا باطنيّة ثم سار بركيارق إلى واسط ونهب عسكره جميع ما مرّوا عليه ودخل محمد إلى دار المملكة ببغداد وجاءه توقيع المستظهر بالاستبشار بقدومه وخطب له ونزل الملك سنجر بدار كوهرائين ووفد على السلطان محمد ببغداد صدقة صاحب الحلّة في محرّم سنة خمس وسبعين.

قتل بركيارق الباطنيّة

كان هؤلاء الباطنيّة قد ظهروا بالعراق وفارس وخراسان وهم القرامطة والدعوة بعينها دعوتهم إلا أنهم سموا في هذه الأجيال بالباطنيّة والإسماعيلية والملاحدة والفداويّة وكل اسم منها باعتبار: فالباطنيّة لأنهم يبطنون دعوتهم والإسماعيليّة لانتساب دعوتهم في أصلها لإسماعيل الإمام جعفر الصادق والملاحدة لأنّ بدعتهم كلها إلحاد والفداويّة لأنهم يفادون أنفسهم بالمال على قتل من يسلطون. والقرامطة نسبة إلى قرمط منشىء دعوتهم وكان أصلهم من البحرين في المائة الثالثة وما بعدها ثم نشأ هؤلاء بالمشرق أيّام ملك شاه فأوّل ما ظهروا بأصفهان واشتدّ في حصار بركيارق وأخيه محمود وأمّه خاتون فيها ثم ثارت عامة أصفهان بهم بإشارة القضاة وأهل الفتيا فقتلوهم في كل جهة وحرقوهم بالنار.

ثم انتشروا واستولوا على القلاع ببلاد العجم كما تقدّم في أخبارهم ثم أخذ بمذهبهم نيران شاه بن بدران شاه بن قاروت بك صاحب كرمان حمله عليه كاتب من أهل خوزستان يسمّى أبا زرعة وكان بكرمان فقيه من الحنفيّة يسمى أحمد بن الحسين البلخي مطاعاً في الناس فخشي من نكيره فقتله فهرب عنه صاحب جيشه وكان شحنة البلد ولحق بالسلطان محمد ومؤيد

الملك بأصفهان وثار الجند بعده بنيران شاه فسار إلى مدينة كرمان فمنعه أهلها ونهبوه فقصد قلعة سهدم واستجار بصاحبها محمد بهستون وبعث أرسلان شاه عساكر لحصارها فطرده بهستون وبعث مقدّم العساكر في طلبه فجيء به أسيراً وبأبي زرعة الكاتب معه فقتلهما أرسلان شاه واستولى على بلاد كرمان.

وكان بركيارق كثيراً ما يسلطهم على من يريد قتله من الأمراء مثل أنز شحنة أصفهان وأرغش وغيرهم فأمنوا جانبه وانتشروا في عسكره وأغروا الناس ببدعتهم وتجاوزوا إلى التهديد عليها حتى خافهم أعيان العسكر وصار بركيارق يصرفهم على أعدائه والناس يتهمونه بالميل إليهم فاجتمع أهل الدولة وعذلوا بركيارق في ذلك فقبل نصيحتهم وأمر بقتل الباطنيّة حيث كانوا فقتلوا وشرّدوا كل مشرد وبعث إلى بغداد بقتل أبي إبراهيم الاستراباذي الذي بعثه أبو الأغر لاستقصاء أموال مؤيد الملك وكان يتهم بمذهبهم فقتل وقتل بالعسكر الأمير محمد من ولد علاء الدين بن كاكويه وهو صاحب مدينة تيرد وكان يتهم بمذهبهم وسعى بالكيا الهراسي مدرّس النظاميّة أنه باطني فأمر السلطان محمد بالقبض عليه حتى شهد المستظهر ببراءته وعلّو درجته في العلم فأطلقه وحسمت علّة الباطنيّة بين الجمهور وبقي أمرهم في القلاع التي ملكوها إلى أن انقرضوا كما تقدّم في أخبارهم مستوفى.

المصاف الثالث بين بركيارق ومحمد والصلح بينهما

ولما رحل بركيارق عن بغداد إلى واسط ودخل إليها السلطان محمد أقام بها إلى منتصف المحرم من سنة خمس وتسعين ثم رحل إلى همذان وصحبه السلطان سنجر لقصد خراسان موضع إمارته وجاءت الأخبار إلى المستظهر باعتزام بركيارق على المسير إلى بغداد ونقل له عنه قبائح من أقواله وأفعاله فاستدعى السلطان محمداً من همذان وقال: أنا أسير معك لقتاله فقال محمد: أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين.

ورجع ورتب ببغداد أبا المعالي شحنة وكان بركيارق لما سار من بغداد إلى واسط هرب أهلها منه إلى الزُبيدية ونزل هو بواسط عليلاً فلما أفاق أراد العبور إلى الجانب الشرقيّ فلم يجد سفناً ولانواتية وجاءه القاضي أبو علي الفارسي إلى العسكر واجتمع بالأمير أياز والوزير فاستعطفهما لأهل واسط وطلب إقامة الشحنة بينهم فبعثاه وطلبا من القاضي من يعبر فأحضر لهم رجالاً عبروا بهم فلما صاروا في الجانب الشرقي نهب العسكر البلد فجاء القاضي واستعطفهم فمنعوا النهب واستأمن إليهم عسكر واسط فأمنوهم.

وسار بركيارق إلى بلاد نج برسق في الأهواز وساروا معه ثم بلغه مسير أخيه محمد عن بغداد فسار في اتباعه إلى نهاوند إلى أن أدركه وتصافوا ولم يقتتلوا لشدّة البرد ثم عاودوا في اليوم الثاني كذلك وكان الرجل يخرج لقريبه من الصف الآخر فيتصافحان ويتساءلان ويفترقان ثم جاء الأمير بكراج وعبر من عسكر محمد إلى الأمير أياز والوزير الأغر فاجتمعوا وعقدوا الصلح بين الفريقين على أن السلطان بركيارق لا يعترض أخاه محمداً في الطبل، وتكون المكاتبة بينهما من الوزيرين ولا يعارض أحد من العسكر في قصد أيّهما شاء.

والملك محمد يضرب له ثلاث نوب ويكون له من البلاد حرّة وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل ويمده بركيارق بالعساكر على من يمتنع عليه منها وتحالفا على ذلك وافترقا وكان العقد في ربيع الأوّل سنة خمس وتسعين وسار بركيارق إلى ساوة ومحمد إلى استراباذ وكل أمير على أقطاعه واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض الصلح والمصاف الرابع بين السلطانين وحصار محمد بأصفهان

لما انصرف السلطان محمد إلى استراباذ وكان اتهم الأمراء الذين سعوا في الصلح بالخديعة فسار إلى قزوين ودسّ إلى رئيسها لأن يصنع صنيعاً ويدعوه إليه مع الأمراء ففعل وجاء السلطان إلى الدعوة وقد تقدّم إلى أصحابه بحمل السلاح ومعه يشمك وأفتكين من أمرائه فقبض عليهما وقتل يشمك وسمل أفتكين وورد عليه الأمير نيال بن انشوكس الحسامي نازعاً عن أخيه بركيارق.

ولما التقى الفريقان حمل سرخاب بن كيخسرو الديلمي صاحب ساوة على نيال الحسامي فهزمه واتبعه عامّة العسكر واستولت الهزيمة على عسكر محمد ومضى بعضهم إلى طبرستان وبعضهم إلى قزوين وذلك في جمادى من سنة خمس وتسعين لأربعة أشهر من المصاف قبله ولحق محمد في الفلّ بأصفهان ومعه نيال الحسامي وأصفهان في حكمه فحصّنها وسدّ ما ثلم من سورها وأعمق الخندق وفرّق الأمراء في الأسوار وعلى الأبواب ونصب المجانيق وجاء بركيارق في خمسة عشر ألف مقاتل فأقام محاصراً للبلد حتى اشتدّ الحصار وعدمت الأقوات واستقرض

محمد المال للجند من أعيان البلدة مرّة بعد أخرى فلما جهده الحصار خرج من البلد ومعه الأمير نيال وترك باقي الأمراء.

وبعث بركيارق الأمير أياز في عسكر لطلبه فلم يدركه وقيل: بل أدركه وذكّره العهد فرجع عنه بعد أن أخذ رايته وجشره وثلاثة أحمال من المال ولما خرج محمد عن أصفهان طمع المفسدون والسواديّة في نهبها فاجتمع منهم ما يزيد على مائة ألف وزحفوا بالسلالم والذبابات وطمُّوا الخندق وصعدوا في السلالم بإشارة أهل البلد وجدّوا في دفاعهم وعادوا خائبين.

ورحل بركيارق آخر ذي القعدة من سنة خمس وتسعين واستخلف على البلاد القديم الذي يقال له شهرستان مرشد الهراس في ألف فارس مع ابنه ملك شاه وسار إلى همذان وفي الحصار قتل وزير بركيارق الأغرّ أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني عرض له يوماً بعض الباطنيّة عندما ركب من خيمته لباب السلطان طعنه طعنات وتركه بآخر رمق وقتل غلام من غلمان بعض المكوس للوزير ثار فيه بمولاه.

وكان كريماً واسع الصدر وولي الوزارة على حين فساد القوانين وقلّة الجباية فكان يضطرّ لأخذ أموال الناس بالإخافة فنفرت الصفوة منه ولما مات استوزر بركيارق بعده الخطير أبا منصور الميبذي كان وزيراً لمحمد وقد وكله في الحصار ببعض الأبواب فبعث إليه محمد نيال بن أبي شكين يطالبه بالأموال لإقامة العسكر فخرج من الباب ليلاً ولحق ببلده وامتنع بقلعتها فأرسل السلطان بركيارق إليها عساكر وحاصروها حتى استأمن وجاء عند قتل وزيره الأغر فاستوزره بركيارق مكانه والله تعالى أعلم بغيبه.

مسير صاحب البصرة إلى واسط

كان صاحب البصرة لهذا العهد إسماعيل بن أرسلان حين كان السلطان ملك شاه شحنة بالريّ وولاه عليها عندما اضطر أهلها وعجز الولاة عنهم فحسنت كفايته وأثخن فيهم وأصلح أمورها ثم عزل عنها وأقطع السلطان بركيارق البصرة للأمير قماج وكان ممن لا يفارقه فاختار إسماعيل لولاية البصرة ثم نزع قماج عن بركيارق وانتقل إلى خراسان فحدّثت إسماعيل نفسه بالاستبداد بالبصرة وانتقض وزحف إليه مهذّب الدولة بن أبي الخير من البطيحة ومعقل بن صدقة بن منصور بن الحسين الأسدي من الجزيزة في العساكر والسفن فقاتلوه في مطاري وقتل معقل بسهم أصابه فعاد ابن أبي الخير إلى البطيحة فأخذ إسماعيل السفن وذلك سنة إحدى وتسعين أسرهما واستفحل أمره بالبصرة وبنى قلعة بالأبلّة وقلعة بالشاطىء قبالة مطاري وأسقط كثيراً من المكوس واتّسعت إمارته لشغل السلاطين بالفتنة وملك المسبار أضافها إلى ما بيده.

ولما كان سنة خمس وتسعين طمع في واسط وداخل بعض أهلها وركب إليها السفن إلى نعما جار وخيّم عليها بالجانب الشرقيّ أيّاماً ودافعوه فارتحل راجعاً حتى ظن خلاء البلد من الحامية فدسّ إليها من يضرم النار بها ليرجعوا فرجع عنهم فلما دخل أصحابه البلد فتك أهل البلد فيهم وعاد إلى البصرة منهزماً فوجد الأمير أبا سعيد محمد بن نصر بن محمود صاحب الأعمال لعمان وجنايا وشيراز وجزيرة بني نفيس محاصراً للبصرة وكان أبو سعيد قد استبدّ بهذه الأعمال منذ سنين وطمع إسماعيل في الاستيلاء على أعماله وبعث إليها السفن في البحر فرجعوا خائبين فبعث أبو سعيد خمسين من سفنه في البحر فظفروا بأصحاب إسماعيل واتفقوا معهم على الصلح ولم يقع منه وفاء به فسار أبو سعيد بنفسه في مائة سفينة وأرسى بفوهة نهر الأبلة ووافق دخول إسماعيل من واسط فتزاحفوا برّاً وبحراً فلما رأى إسماعيل عجزه عن المقاومة كتب إلى ديوان الخليفة بضمان البلد ثم تصالحا ووقعت بينهما المهادنة وأقام إسماعيل مستبدّاً بالبصرة إلى أن ملكها من يده صدقة بن مزيد في المائة الخامسة كما مرّ في أخباره وهلك برامهرمز.

وفاة كربوقا صاحب الموصل واستيلاء جكرمش عليها واستيلاء سقمان بن أرتق على حصن كيفا

كان السلطان بركيارق أرسل كربوقا إلى أذربيجان لقتال مودود بن إسماعيل بن ياقوتي الخارج بها سنة أربع وتسعين فاستولى على أكثر أذربيجان من يده ثم توفي منتصف ذي القعدة سنة خمس وتسعين وكان معه أصبهبد صباوو بن خمارتكين وسنقرجه من بعده وأوصى الترك بطاعته فسار سنقرجه إلى الموصل واستولى عليها.

وكان أهل الموصل لما بلغهم وفاة كربوقا قد استدعوا موسى التركماني من موضع نيابته عن كربوقا بحصن كيفا للولاية عليهم فبادر إليهم وخرج سنقرجه للقائه فظنّ أنه جاء إليه وجرت بينهما محاورات وردّ سنقرجه الأمر إلى السلطان فآل الأمر بينهما إلى المطاعنة وكان مع موسى منصور بن مروان بقية أمراء ديار بكر

وضرب سنقرجه فأبان رأسه وملك موسى البلد ثم زحف جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر إلى نصيبين فملكها وخالفه موسى إلى الجزيرة فبادر إليه جكرمش وهزمه واتبعه إلى الموصل فحاصره بها فبعث موسى إلى سقمان بن أرتق بديار بكر يستنجده على أن يعطيه حصن كيفا فسار سقمان إليه وأفرج عنه جكرمش.

وخرج موسى للقاء سقمان فقتله مواليه ورجع سقمان إلى كيفا وجاء جكرمش إلى الموصل فحاصرها وملكها صلحاً واستلحم قتلة موسى ثم استولى بعد ذلك على الخابور وأطاعه العرب والأكراد وأيما سقمان بن أرتق فسار بعد مقتل موسى إلى حصن كيفا واستمرّ بيده.

قال ابن الأثير: وصاحبها الآن في سنة خمس وعشرين وستمائة محمود بن محمد بن الفراء.

وكان صاحبها سنة عشرين وستمائة غازي بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق والله تعالى أعلم.

أخبار نيال بالعراق

كان نيال بن أبي شتكين الحسامي مع السلطان محمد بأصفهان لما حاصرها بركيارق بعد المصاف الرابع سنة خمس وتسعين فلمّا خرج محمد من الحصار إلى أذربيجان ومعه نيال استأذنه في قصد الريّ ليقيم بها دعوتهم وسار هو وأخوه عليّ وعسف بأهل الريّ وصادرهم وبعث السلطان بركيارق الأمير برسق بن برسق في ربيع من سنة ست وتسعين فقاتله وهزمه واستولى برسق على الريّ وأعاده على ولاية بقزوين وسلك نيال على الجبال وهلك كثير من أصحابه وخلص إلى بغداد فأكرمه المستظهر وأظهر طاعة السلطان محمد وتحالف هو وأبو الغازي وسقمان بن أرتق على مناصحة السلطان محمد وساروا إلى صدقة بن مزيد بالحلّة فاستحلفوه على ذلك.

ثم إنّ نيال بن أبي شتكين عسف بأهل بغداد وتسلّط عليهم وصادر العمال فاجتمع الناس إلى أبي الغازي بن أرتق وكان نيال صهره على أخته التي كانت زوجاً لتتش وطلبوا منه أن يشفع لهم عنده وبعث المستظهر إليه قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني بالنهي عمّا يرتكبه فأجاب وحلف ثم نكث فأرسل المستظهر إلى صدقة بن مزيد يستدعيه فوصل في شوّال من السنة واتفق مع نيال على الرحيل من بغداد ورجع إلى حلّته وترك ولده دبيساً يزعج نيال للخروج فسار نيال إلى أوان، وعاث في السابلة وأقطع القرى لأصحابه وبعث إلى صدقة فأرسل إليه العساكر وخرج فيها أبو الغازي بن أرتق وأصحاب المستظهر فسار نيال إلى أذربيجان ورجعوا عنه.

ولاية كمستكين النصيري شحنة بغداد وفتنته مع أبي الغازي وحربه

كان أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد ولاه عليها السلطان محمد عند مقتل كوهرائين ولما ظهر الآن بركيارق على محمد وحاصره بأصفهان ونزل بركيارق همذان وأرسل إلى بغداد كمستكين النصيري في ربيع سنة ست وتسعين وسمع أبو الغازي بمقدمه فاستدعى أخاه سقمان بن أرتق من حصن كيفا يستنجده وسار إلى صدقة بن مزيد فحالفه على النصرة والمدافعة ورجع إلى بغداد ووصل إليه أخوه سقمان بعد أن نهب في طريقه ووصل كمستكين إلى قرقيسيا ولقيه شيعة بركيارق وخرج أبو الغازي وسقمان عن بغداد ونهب قرى دجيل واتبعتهما العساكر ثم رفعت عنهما وأرسل كمستكين إلى صدقة صاحب الحلّة فامتنع من طاعة بركيارق وسار من الحلّة إلى صرصر وقطع خطبة بركيارق وعبر بغداد واقتصر على الدعاء للخليفة وبعث صدقة إلى أبي الغازي وسقمان يعرفهما بوصوله وهما بالحرني وجاء إلى دجيل

ونهب القرى واشتدّ فسادهم وأضرّ ذلك بحال بغداد في غلاء الأسعار وجاء أبو الغازي وسقمان ومعهما دبيس بن صدقة فخيموا بالرملة وقاتلهم العامّة ففتكوا فيهم.

وبعث المستظهر قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني وتاج الرؤساء بن الرحلات إلى صدقة بن مزيد بمراجعة الطاعة فشرط خروج كمستكين عن بغداد فأخرجه المستظهر إلى النهروان وعاد صدقة إلى الحلّة وأعيدت خطبة السلطان محمد ببغداد.

ثم سار كمستكين النّصيري إلى واسط وخطب فيها لبركيارق ونهب عسكره سوادها فسار صدقة وأبو الغازي إليه وأخرجاه من واسط وتحصّن بدجلة فقصده صدقة فانفضّ عنه أصحابه ورجع إلى صدقة بالأمان فأكرمه وعاد إلى بركيارق وأعيدت خطبة السلطان محمد بواسط وبعده لصدقة وأبي الغازي وولّى كل واحد فيها ولده وعاد أبو الغازي إلى بغداد وعاد صدقة إلى الحلّة وبعث ابنه منصوراً مع أبي الغازي يطلب الرضا من المستظهر لأنه كان سخطه من أجل هذه الحادثة.

المصاف الخامس بين بركيارق ومحمد

كان السلطان محمد لما سار عن كنجة وبلاد أران استخلف بها الأمير غزغلي وأقام بها في طائفة من عسكره مقيماً خطبة السلطان محمد في جميع أعماله إلى زنجان من آخر أذربيجان فلما انحصر محمد بأصفهان سار غزغلي لإنجاده ومعه منصور بن نظام الملك ومحمد ابن أخيه مؤيد الملك فانتهوا إلى الريّ وملكوها آخر خمس وتسعين ولقوا السلطان محمداً بهمذان عندما خرج من أصفهان ومعه نيال بن أبي شتكين وأخوه علي وأقاموا معه بهمذان ثم جاء الخبر بمسير بركيارق إليهم فتوجه السلطان محمد قاصداً شروان وانتهى إلى أذربيجان فبعث إليه مودود بن إسماعيل بن ياقوتي الذي كان بركيارق قتل أباه إسماعيل وكانت أخت مودود هذا تحت محمد وكان له طائفة من أعمال أذربيجان فاستدعى محمداً ليظاهره على بركيارق فسار إليه وانتهى إلى سقمان وتوفي مودود في ربيع سنة ست وتسعين واجتمع عساكره على السلطان محمد وفيهم سقمان القطبي ومحمد بن ياغي سياه، الذي كان أبوه صاحب أنطاكية.

ونزل أرسلان بن السبع الأحمر فسار إليهم بركيارق وقاتلهم على خراسان وسار أياز من عسكر بركيارق وجاء من خلف السلطان محمد فانهزم محمد وأصحابه ولحق بارقيش من أعمال خلاط ولقيه الأمير علي صاحب أرزن الروم فمضى إلى أصفهان وصاحبها منوجهر أخو فضلون الروادي ثم سار إلى هرمز وأمّا محمد بن مؤيد الملك بن نظام الملك فنجا من الوقعة إلى ديار بكر ثم إلى جزيرة ابن عمر ثم إلى بغداد وكان أيام أبيه مقيماً ببغداد في جوار المدرسة النظاميّة فشكى إلى أبيه وخاطب كوهرائين بالقبض عليه فاستجار بدار الخلافة ولحق سنة اثنتين وتسعين بمجد الملك البارسلاني وأبوه بكنجة عند السلطان محمد فلمّا خطب السلطان محمد لنفسه واستوزر أباه مؤيد الملك ولحق محمد هذا بأبيه ثم قتل أبوه وبقي في جملة السلطان محمد.

استيلاء ملك بن بهرام على مدينة عانة

كان ملك بن بهرام بن أرتق ابن أخي أبي الغازي بن أرتق مالكاً مدينة سروج فملكها الفرنج من يده فسار عنها إلى عانة وغلب عليها بني العيش بن عيسى من خلاط وكانت لهم فقصدوا صدقة بن مزيد مستنجدين به فأنجدهم وجاء معهم فرحل ملك بن بهرام والتركمان عنها ودخلها بنو العيش وأخذ صدقة رهائنهم وعاد إلى الحلّة فرجع ملك إليها في ألفي رجل من التركمان وحاربها قليلاً ثم عبر المخاضة وملكها واستباح أهلها ومضى إلى هيت ورجع عنها.

الصلح بين السلطان بركيارق ومحمد

ثم استقر الأمر آخراً بالسلطان بركيارق في الريّ وكان له الجبال وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين ولمحمد أذربيجان وبلاد أران وأرمينية وأصفهان والعراق جميعاً غير تكريت والبطائح بعضها وبعضها والبصرة لهما جميعاً وخراسان لسنجر من جرجان إلى ما وراء النهر يخطب فيها لأخيه محمد وله من بعده والعساكر كلهم يتحكمون عليهم بسبب الفتنة بينهما وقد تطاول الفساد وعمّ الضرر واختلفت قواعد الملك فأرسل بركيارق إلى أخيه محمد في الصلح مع فقيهين من أماثل الناس ورغباه في ذلك وأعاد معهما رسلاً آخرين وتقرّر الأمر بينهما أن يستقر محمد على ما بيده سلطانا ولا يعارضه بركيارق في الطبل ولا يذكر اسمه في أعمال محمد وأنّ المكاتبة تكون بين الوزيرين والعساكر بالخيار في خدمة من شاؤوا منهما ويكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأستراداباذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام والعراق بلاد صدقة بن مزيد وبقية الممالك الإسلامية لبركيارق.

وتحالفا على ذلك وانتظم الأمر وأرسل السلطان محمد إلى أصحابه بأصفهان بالخروج عنها لأخيه بركيارق واستدعاهم إليه فأبوا وجنحوا إلى خدمة بركيارق وساروا إليه بحريم السلطان محمد الذي كانوا معهم فأكرمهم بركيارق ودلّهم إلى صاحبهم.

وحضر أبو الغازي بالديوان ببغداد وسار المستظهر في الخطبة لبركيارق فخطب له سنة سبع وتسعين وكذلك بواسط وكان أبو الغازي قبل ذلك في طاعة محمد فأرسل صدقة إلى المستظهر يعذله في شأنه ويخبره بالمسير لإخراجه من بغداد ثم سار صدقة ونزل عند الفجاج وخرج أبو الغازي إلى عقرقوبا وبعث لصدقة بأنه إنما عدل عن طاعة محمد للصلح الواقع بينه وبين أخيه وأنهما تراضيا على أن بغداد لبركيارق وأنا شحنة بها واقطاعي حلوان فلا يمكنني التحوُّل عن طاعة بركيارق فقبل منه ورجع إلى الحلّة وبعث المستظهر في ذي القعدة سنة سبع وتسعين بالخلع للسلطان بركيارق والأمير أياز والوزير الخطير واستحلفهم جميعاً وعاد إلى بغداد والله سبحانه وليّ التوفيق.

حرب سقمان وجكرمس الإفرنج

قد تقدّم لنا استيلاء الإفرنج على معظم بلاد الشام وشغل الناس عنهم بالفتنة وكانت حرّان لقراجا من مماليك ملك شاه وكان غشوماً فخرج منها لبعض مذاهبه وولّى عليها الأصفهاني من أصحابه فعصى فيها وطرد أصحاب قراجا منها ما عدا غلاماً تركياً اسمه جاولي جعله مقدّم العسكر وأيس به فقرّره وتركه وملك حرّان وسار الإفرنج إليها وحاصروها وكان بين جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وسقمان صاحب كيفا حروب وسقمان يطالبه بقتل ابن أخيه فانتدبا لنصر المسلمين واجتمعا على الخابور وتحالفا وسار سقمان في سبعة آلاف من التركمان وجكرمش في ثلاثة آلف من الترك والعرب والأكراد والتقوا بالإفرنج على نهر بلخ فاستطرد لهم المسلمون نحو فرسخين ثم كرّوا عليهم فغنموا فيهم وقتلوا سوادهم.

وأخذ القمص بردويل صاحب الرها أسره تركماني من أصحاب سقمان في نهر بلخ وكان بيمند صاحب أنطاكية من الإفرنج وطنكري صاحب الساحل منهم قد كمنا وراء الجبل ليأتيا المسلمين من ورائهم عند المعركة

فلما عاينوا الهزيمة كمنوا يومهم ثم هربوا فاتبعهم المسلمون واستلحموهم وأسروا منهم كثيراً وفلت بيمند وطنكري بدماء أنفسهم ولما حصل الظفر للمسلمين عصى أصحاب جكرمش باختصاص سقمان وشق ذلك عليه وأراد أصحابه فأبى حذراً من افتراق المسلمين ورحل وفتح في طريقه عدّة حصون وسار جرمكش إلى حرّان ففتحها ثم سار إلى الرُها فحاصرها خمس عشرة ليلة وعاد إلى الموصل وقاد من القمص بخمسة وثلاثين ألف ديناراً ومائة وستين أسيراً من المسلمين.

وفاة بركيارق وولاية ابنه ملك شاه

ثم توفي السلطان بركيارق بن ملك شاه بنزدجرد في أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين لاثنتي عشرة سنة ونصف من ملكه جاء إليها عليلاً من أصفهان واشتدّ مرضه بنزدجرد فولّى عهده لابنه ملك شاه وعمره نحو من خمس سنين وخلع عليه وجعل الأمير أياز كافله وأوصى أهل الدولة بالطاعة والمساعدة وبعثهم إلى بغداد فأدركهم خبر وفاته بالطريق ورجع أياز حتى دفنه بأصفهان وجمع السرادقات والخيام والجتر والشمسية لابنه ملك شاه وكان بركيارق قد لقي في ملكه من الرخاء والشدّة والحرب والسلم ما لم يلقه أحد فلما استقرّ واستقامت سعادته أدركته المنية ولما توفي خطب لابنه ملك شاه ببغداد وكان أبو الغازي قد سار من بغداد إليه وهو بأصفهان يستحثّه إلى بغداد وجاء معه فلما مات سار مع ابنه ملك شاه والأمير أياز إلى بغداد وركب الوزير أبو القاسم عليّ بن جهير فلقيهم به مالي وحضر أبو الغازي والأمير طغايرك بالديوان وطلبا الخطبة لملك شاه فخطب له ولقب بألقاب جده ملك شاه.

حصار السلطان محمد الموصل

لما انعقد الصلح بين بركيارق ومحمد واختص كل منهما أعماله وكانت أذربيجان في قسمة محمد رجع محمد إلى أذربيجان ولحق به سعد الملك أبو المحاسن الذي كان نائباً بأصفهان بعد أن أبلى في المدافعة عنها ثم سلمها بعد الصلح إلى نواب بركيارق واستوزره فأقام محمد إلى صفر من سنة ثمان وتسعين ثم سار يريد الموصل على طريق مراغة ورحل وبلغ الخبر إلى جكرمش فاستعدّ للحصار وأدخل أهل الضاحية إلى البلد وحاصره محمد ثم بعث له يذكره ما استقرّ عليه بينه وبين أخيه وأنّ الموصل والجزيرة له وعرض عليه خط بركيارق بذلك وبأيمانه عليه ووعده أن يقرّها في عمالته فقال له جكرمش: إنّ السلطان كتب إليّ بعد الصلح بخلاف ذلك فاشتدّ في حصاره واشتدّ أهل البلد في المدافعة ونفّس الله عنهم برخص الأسعار وكان عسكر جكرمش مجتمعين قريباً من الموصل وكانوا يغزون على أطراف العسكر ويمنعون عنهم الميرة ثم وصل الخبر عاشر جمادى الأولى بوفاة السلطان بركيارق فاستشار جكرمش أهل البلد فردّوا النظر إليه واستشار الجند فأشاروا بطاعة السلطان محمد فأرسل إليه بذلك واستدعى وزيره سعد الملك فدخل عليه وأشار عليه بلقاء السلطان فخرج إليه على كره من أهل البلد فتلقاه السلطان بالكرامة وأعاده سريعاً إلى البلد ليطمئن الناس.

استيلاء السلطان محمد على بغداد وخلع ملك شاه ابن أخيه ومقتل أياز

قد كنا قدّمنا صلح بركيارق وأخيه محمد من أنه يستقل بركيارق بالسلطنة وينفرد محمد بالأعمال التي ذكرنا وموت بركيارق أثر ذلك وتقديم ابنه ملك شاه ببغداد.

فوصل الخبر بذلك إلى محمد وهو يحاصر الموصل فأطاعه

جكرمش وسار محمد إلى بغداد ومعه جكرمش وسقمان القطبي مولى قطب الدولة إسماعيل بن ياقوتي عمّ ملك شاه ومحمد وغيرهما من الأمراء وجمع صدقة صاحب الحلّة العساكر وبعث ابنه بدران ودبيساً إلى محمد يستحثانه وجاء السلطان محمد إلى بغداد فاعتزم الأمير أياز أتابك ملك شاه على دفاعه وخيم خارج بغداد وأشار عليه بذلك أصحابه وخالفهم وزيره أبو المحاسن الضبعي وأبلغ في النصيحة له بطاعة السلطان فأقام متردّداً ونزل محمد بالجانب الغربي وخطب له هنالك منفرداً ولهما معاً في بعض الجوامع واقتصر على السلطان العالم في بعضها.

ورجع أياز إلى استحلاف الأمراء ثانياً فوقف بعضهم وقال: لا فائدة في إعادة اليمين وارتاب أياز عندها وبعث وزيره الضبعي أبا المحاسن لعقد الصلح مع السلطان واستحلافه فقرأ على وزيره سعد الملك أبي المحاسن سعد بن محمد فدخل معه إلى السلطان وأجابه إلى ما طلب وجاء معه من الغد قاضي القضاة والمفتيان واستحلفاه لأياز وللأمراء فحلف إلا أن ينال الحسامي ووقال: أمّا ملك شاه فهو ابني وأنا أبوه. وجاء أياز من الغد وقارن وصول صدقة بن مزيد فأنزلهما واحتفى بهما وذلك آخر جمادى الأولى من سنة ثمان وتسعين.

ثم احتفل أياز بعدها في عمل صنيع للسلطان في بيته وهي دار كوهرائين وأهدى إليه تحفاً من جملتها حبل البلخش الذي أخذه من تركة نظام الملك بن مؤيد الملك واتفق أن أياز تقدم لمواليه بلبس السلاح ليعرضهم على السلطان وكان عندهم مصفعان فألبسوه درعاً تحت ثيابه وتناولوه بالنخس فهرب عنهم ودخل في حاشية السلطان مذعوراً فلمسوه فإذا الدرع تحت ثيابه فارتابوا ونهض السلطان إلى داره ثم دعا الأمراء بعد ذلك بأيام فاستشارهم في بعث يبعثهم إلى ديار بكر أنّ أرسلان بن سليمان بن قطلمش قصدها فاتفقوا على الإشارة بمسير أياز وطلب هو أن يكون معه صدقة بن مزيد فأسعفه السلطان بذلك واستدعاهما لإنفاذ ذلك وقد أرصد في بعض المخادع بطريقهم جماعة لقتل أياز فلما مرّ بهم تعاورته سيوفهم وقطع رأسه وهرب صدقة وأغمي على الوزير وهرب عسكر أياز فنهبوا داره وأرسل السلطان من دفعهم عنها وسار السلطان من بغداد إلى أصفهان وهذا أياز من موالي السلطان ملك شاه ثم سار في جملة ملك آخر فساء وأمّا الضبعي وزير أياز فاختفى أشهراً ثم حمل إلى الوزير سعد الملك في رمضان فلما وصل كان ذلك سبب رياسته بهمذان.

استيلاء سقمان بن أرتق على ماردين لا موته

كان هذا الحصن في ديار بكر أقطعه السلطان بركيارق لمغنٍّ كان عنده وكان حواليها خلق كثير من الأكراد يغيرون عليها ويخيفون سابلتها.

واتفق أنّ كربوقا خرج من الموصل لحصار آمد وكانت لبعض التركمان فاستنجد بسقمان فسار لإنجاده ولقيه كربوقا ومعه زنكي بن أقسنقر وأصحابه وأبلوا ذلك اليوم بلاء شديداً فانهزم وأسر ابن أخيه ياقوتي بن أرتق فحبسه بقلعة ماردين عند المغني فبقي مدّة محبوساً وكثر خروج الأكراد بنواحي ماردين فبعث ياقوتي إلى المغني يسأله أن يطلقه ويقيم عنده بالريف لدفاع الأكراد ففعل وصار يغير عليهم في سائر النواحي إلى خلاط وصار بعض أجناد القلعة يخرجون للإغارة فلا يهيجهم ثم حدّثته نفسه بالتوثّب على القلعة فقبض عليهم بعض الأيام بعد مرجعه من الإغارة ودنا من القلعة وعرّضهم للقتل إن لم يفتحها أهلوهم ففتحوها وملكها وجمع الجموع وسار إلى نصيبين وإلى جزيرة ابن عمر وهي لجكرمش فكبسه جكرمش وأصحابه، وأصابه في الحرب سهم فقتله وبكاه جكرمش وكانت تحت ياقوتي بنت عمه سقمان فمضت إلى أبيها وجمعت التركمان وجاء بهم إلى نصيبين لطلب الثار فبعث إليه جكرمش ما أرضاه من المال في ديته فرجع وأقام بماردين بعد ياقوتي أخوه على طاعة جكرمش وخرج منها لبعض المذاهب وكتب نائبه بها إلى عمه سقمان بأنه تملك ماردين على جكرمش فبادر إليها سقمان واستولى عليها وعوّض عنها ابن أخيه جبل جور وأقامت ماردين في حكمه مع حصن كيفا واستضاف إليها نصيبين ثم بعث إليها فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس يستنجده على الإفرنج وكان استبدّ بها على الخلفاء العبيديّين أهل مصر وثار له الإفرنج عندما ملكوا سواحل الشام فبعث بالصريخ إلى سقمان بن أرتق سنة ثمان وتسعين فأجابه وبينما هو يتجهز للمسير وافاه كتاب طغتكين صاحب دمشق المستبدّ بها من موالي بني تتش يستدعيه لحضور وفاته خوفاً على دمشق من الفرنج فأسرع السير معتزماً على قصد طرابلس وبعدها فانتهى إلى القريتين وندم طغتكين على استدعائه وجعل يدبّر الرأي مع أصحابه في صرفه ومات هو بالقريتين فكفاهم الله تعالى أمره وقد كان أصحابه عندما أيقن بالموت أشاروا عليه بالعودة إلى كيفا فامتنع وقال: هذا جهاد وإن مت كان لي ثواب شهيد.

خروج منكبرس على السلطان محمد ونكبته

كان منكبرس بن بورس بن ألب أرسلان مقيماً بأصفهان وانقطعت عنه المواد من السلطان فخرج إلى نهاوند ودعا لنفسه وكاتب الأمراء بني برسق بخوزستان وبعثوا به إلى طاعته وكان أخوهم زنكي عند السلطان محمد فقبض عليه وكاتب إخوته في التدبير على منكبرس فأرسلوا إليه بالطاعة حتى جاءهم فقبضوا عليه بخوزستان وبعثوا به إلى أصفهان فاعتقل مع ابن تتش وأطلق زنكي بن برسق وأعيد إلى مرتبته وكانت اقطاع بني برسق الأسير وسابور وخوزستان وغيرهما ما بين الأهواز وهمذان فعوضهم عنها بالدينور وأخرجهم من تلك الناحية والله تعالى أعلم.

مقتل فخر الملك بن نظام الملك

قد ذكرنا قبل أنّ فخر الملك بن نظام الملك كان وزيراً لتتش ثم حبسه ولما هزمه بركيارق وجده في محبسه أطلقه وكان أخوه مؤيد الملك وزيراً له فمال إليه فخر الدولة بسعاية مجد الملك البارسلاني واستوزره سنة ثمان وثمانين ثم فارق وزارته ولحق بسنجر بن ملك شاه بخراسان فاستوزره فلما كان في آخر المائة الخامسة جاء باطني يتظلّم إلى باب داره فأدخله يسمع شكواه فطعنه بخنجر فقتله وأمر السلطان سنجر بضربه فأقرّ على جماعة من الناس وقتل.

ولاية جاولي سكاوو على الموصل وموت جكرمش

كان جاولي سكاوو قد استولى على ما بين خوزستان وفارس فعمّر قلاعها وحصنها وأساء السيرة في أهلها فلمّا استقلّ السلطان محمد بالملك خافه جاولي وأرسل السلطان إليه الأمير مودود بن أنوتكين فتحصّن منه جاولي وحاصره مودود ثمانية أشهر ودسّ جاولي إلى السلطان بطلب غيره فأرسل إليه خاتمه مع أمير آخر فسار إليه بأصفهان وجهّزه في العساكر لجهاد الإفرنج بالشام واسترجاع البلاد منهم وكان جكرمش صاحب الموصل قد قطع الحمل فأقطع السلطان الموصل وديار بكر والجزيرة لجاولي فسار إلى الموصل وجعل طريقه على البواريج فاستباحها أياماً ثم سار إلى إربل وكان صاحبها أبو الهيجاء بن برشك الكردي الهرباني إلى جكرمش يستحثه فسار في عسكر الموصل والتقوا قريباً من إربل فانهزم أصحاب جكرمش وكان يحمل في المحفة فقاتل عنده غلمانه وأحمد بن قاروت بك فخرج وانهزم إلى الموصل ومات وجيء بجكرمش فحبسه ووصل من الغد إلى الموصل فولوا أزنكين بن جكرمش.

وأقام بالجزيرة وقام بأمره غزغلي مولى مولى أبيه وفرّق الأموال والخيول وكتب إلى قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وكان قد شيّد الموصل وبنى أسوارها وحصنّها بالخندق وبينما هو كذلك سار إليه قليج أرسلان من بلاد الروم باستدعاء غزغلي كما تقدّم.

وانتهى إلى نصيبين فرحل جاولي عن الموصل ثم جاء البرسقي شحنة بغداد ونزل عن الموصل وخاطبهم فلم يجيبوه فرجع من يومه وسار قليج أرسلان من نصيبين إلى الموصل وتأخر عنها جاولي إلى سنجر واجتمع أبو الغازي بن أرتق وجماعة من عسكر جكرمش وجاء صريخ رضوان بن تتش من الشام على الإفرنج فسار إلى الرحبة وبعث أهل الموصل وعسكر جكرمش إلى قليج أرسلان بنصيبين واستحلفوا فحلف وجاء إلى الموصل فملكها في منتصف ختام المائة الخامسة وخلع على ابن جكرمش وخطب لنفسه بعد الخليفة وقطع خطبة السلطان محمد وأحسن إلى العسكر وأخذ القلعة من غزغلي فولّى جكرمش وأقرّ القاضي أبا محمد عبد الله بن القاسم الشهرزوري على القضاء وجعل الرئاسة لأبي البركات محمد بن خميس وكان في جملة فلّهم أرسلان إبراهيم بن نيال التركماني صاحب آمد ومحمد بن حموا صاحب خرتبرت كان إبراهيم بن نيال ولاّه تتش على آمد فبقيت بيده وكان ابن حموا ملك خرتبرت من يد القلادروس ترجمان الروم كانت له الرُها وأنطاكية فملك سليمان قطلمش أنطاكية وبقيت له الرها وخرتبرت وأسلم القلادروس الرها.

فلما ولي فخر الدولة بن جهير ديار بكر ضعف القلادروس عن الرُها على يد ملك شاه وأمره عليها ولما سار جاولي إلى الرحبة قاصداً صريخ رضوان بن تتش نزل عليها آخر رمضان من السنة وحاصرها وبها محمد بن السبّاق من بني شيبان ولاه عليها دقاق فاستبدّ بها وخطب لقليج أرسلان فحاصره جاولي وكتب إلى رضوان يستدعيه ويعده بالمسير معه للدفاع فجاء رضوان وحاصر معه الرحبة ثم دسّ إلى جاولي جماعة من حامية الأسوار فوثبوا بها ودخلوا وملك البلد وأبقى على محمد الشيباني وسار معه.

ثم أنّ قليج أرسلان لما فرغ من أمر الموصل ولّى عليها ابنه ملك شاه في عسكر ومعه أمير يدبره وسار إلى قتال جاولي ورجع عنه إبراهيم بن نيال إلى بلده آمد من الخابور فبعث إلى بلده في

الحشد فعاجله جاولي بالحرب والتقوا في آخر ذي القعدة من السنة وانهزم أصحاب قليج أرسلان على دفاعه وأعاد الخطبة للسلطان واستصفى أصحاب جكرمش ثم سار إلى الجزيزة وبها حبيس بن جكرمش ومعه غزغلي من موالي أبيه فحاصره مدّة ثم صالحه على ستة آلاف دينار ورجع إلى الموصل وأرسل ملك شاه من قليج أرسلان إلى السلطان محمد والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل صدقة بن مزيد

ولما استوحش صدقة بن مزيد صاحب الحلّة من السلطان محمد سار إليه السلطان وملك أعماله ولقيه صدقة فهزمه السلطان وقتل في المعركة كما ذكرنا ذلك في أخبار صدقة في دولة ملوك الحلّة والله سبحانه وتعالى أعلم.

قدوم ابن عمّار صاحب طرابلس على السلطان محمد

كان فخر الدولة أبو علي بن عمّار صاحب طرابلس استبد بها على العبيدين فلما ملك الإفرنج سواحل الشام ردّدوا عليها الحصار فضافت أحوالها فلما انتظم الأمر للسلطان محمد واستقام ملكه قصده فخر الملك بن عمّار صريخاً للمسلمين بعد أن استخلف على طرابلس ابن عمه ذا المناقب وفرق في الجند عطاءهم لستة أشهر ورتّب الجامكية في مقاعدهم للقتال وسار إلى دمشق فلقيه طغتكين أتابك وخيم بظاهرها أيّاماً ورحل إلى بغداد فأركب السلطان الأمراء لتلقيه ولم يدخر عنه براً ولا كرامة وكذلك الخليفة وأتحف السلطان بهدايا وذخائر نفيسة وطلب النجدة وضمن النفقة على العسكر فوعده بالنصر وأقام ثم لقي الأمير حسين بن أتابك طغتكين ليسير بالعساكر إلى الموصل مع الأمير مودود لقتال صدقة جاولي ثم يسير حسين معه إلى الشام ثم رحل السلطان عن بغداد سنة إحدى وخمسمائة لقتال صدقة واستدعى ابن عمّار وهو بالنهروان فودعه وسار معه الأمير حسين إلى دمشق وكان ابن عمّار لما سار عن طرابلس استخلف عليها ابن عمه ذا المناقب فانتقض واجتمع مع أهل طرابلس على إعادة الدولة العلويّة وبعثوا إلى الأفضل ابن أمير الجيوش المستبدّ على الدولة بمصر بطاعتهم ويسألون الميرة فبعث إليهم شرف الدولة بن أبي الطّيّب والياً ومعه الزاد من الأقوات والسلام فدخل البلد وقبض على أهل ابن عمّار وأصحابه واستصفى ذخائرهم وحمل الجميع إلى مصر في البحر.

استيلاء مودود بن أبي شتكين على الموصل من يد جاولي

قد تقدّم لنا استيلاء جاولي على الموصل من يد قليج بن أرسلان وابن جكرمش وهلاكهما على يده واستفحل ملكه بالموصل وجعل السلطان محمد بن ألبّة ولاية ما يفتحه من البلاد له فقطع الحمل عن السلطان واستنفره لحرب صدقة فلم ينفر معه وداخل صدقة بأنه معه فلمّا فرغ السلطان من أمر صدقة بعث مودود بن أبي شتكين في العساكر وولاه الموصل وبعث معه الأمراء ابن برسق وسقمان القطبي وأقسنقر البرسقي ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي وأبو الهيجاء صاحب إربل مدداً فوصلوا الموصل وخيّموا عليها فوجدوا جاولي قد استعدّ للحصار وحبس الأعيان وخرج عن البلد وترك بها زوجته هي وابنه برسق في الف وخمسمائة مقاتل فأحسن في مصادرة الناس واشتدّ عليهم الحصار فلما كان المحرّم سنة اثنتين خرج بعض الحامية من فرجة من السور وأدخلوا منها مودود والعساكر وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية أيام ثم استأمنت وخرجت إلى أخيها يوسف بن برسق بأموالها واستولى مودود على الموصل وأعمالها.

وأمّا جاولي فلما سار عن الموصل وحمل معه القمص الذي كان أسره بنعمان وأخذه منه جكرمش وسار به إلى نصيبين وسأل من صاحبها أبو الغازي بن أرتق المظاهرة على السلطان فلم يجبه إلى ذلك ورحل عن نصيبين إلى ماردين بعد أن ترك ابنه مقيماً مع الحامية فتبعه جاولي ودخل عليه وحده بالقلعة متطارحاً عليه فأجابه وسار معه إلى نصيبين ثم إلى سنجر وحاصراها فامتنعت عليهما ثم هرب أبو الغازي ليلاً إلى نصيبين وتركه فسار جاولي إلى الرحبة وأطلق القمص بردويل لخمس سنين من الصرّة على مال قرّره عليه وأسرى من المسلمين يطلقهم وعلى النصرة مهما طلبه وأرسله إلى سالم بن مالك بقلعة جعفر حتى جاء ابن خالته جوسكر صاحب تل باشر من زعماء الفرنج وكان أسر مع القمص فافتدى بعشرين ألف دينار وأقام جوسكر رهينة وسار القمص إلى أنطاكية.

ثم أطلق جاولي جوسكر وأخذ رهناً عنه صهره وصهر القمص وبعثه في إتمام ما ضمن ولما وصل إلى أنطاكية أعطاه شكري صاحبها ثلاثين ألف دينار وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك وكانت الرُّها وسروج بيد القمص ولما أسر ملك جكرمش الرها

من أصحابه طلبها منه الآن فلم يجبه فخرج القمص مغاضباً له ولحق بتل باشر وقدم عليه جوسكر عندما أطلقه جاولي ثم سار إليهما شكري يعاجلهما قبل اجتماع أمرهما فحاصرهما أياماً ورجع القمص وجوسكر على حصون أنطاكية واستمدّ أبو سيل الأرمني صاحب رعيان وكيسوم والقلاع شمالي حلب فأنجدهم بألف فارس وسار إليهم شكري وحضر البترك وشهد جماعة من القسيسين والبطارقة أنّ أسمند خال شكري قال له عندما ركب البحر إلى بلاده: أعد الرُّها إلى القمص إذا خلص من الأسر. فحكم البترك بإعادتها فأعادها تاسع صفر من السنة وعبر القمص الفرات ليرفع إلى جاولي المال والأسرى كما شرط له.

وكان جاولي لما أطلق القمص سار إلى الرحبة ولقيه أبو النجم بدران وأبو كامل منصور وكانا مقيمين بعد قتل أبيهما عند سالم بن مالك فاستنجداه ووعداه أن يسير معهما إلى الحلّة واتفقوا على تقديم أبي الغازي تكين ثم قدم عليهم أصبهبد صباوو وقد أقطعه السلطان الرحبة فأشار على جاولي بقصد الشام لخلوها عن العساكر والتجنب عن العراق وطريق السلطان فقبل إشارته وأحصر على الرحبة ثم وفد عليه صريخ سالم بن مالك صاحب جعفر يستغيث به من بني نمير وكان حيوش البصري قد نزل على ابن سالم بالرَّقّة وملكها وسار إليه رضوان من حلب فصالحه بنو نمير بالمال ورجع عليهم فاستنجد سالم الآن جاولي فجاء وحاصر بني نمير بالرقّة سبعين يوماً فأعطوه مالاً وخيلاً ورحل عنهم واعتذر لسالم.

ثم وصل جاولي إلى الأمير حسين بن أتابك قطلغ تكين كان أبوه أتابك السلطان محمد بكنجة فقتلته وتقدّم ولده هذا عند السلطان وبعثه مع ابن عمّار ليصلح أمر جاولي وتسير العساكر كلها إلى الجهاد مع ابن عمّار فأجاب جاولي لذلك وقال لحسين: سر إلى الموصل ورحّل العساكر عنها وأنا أعطيك ولدي رهينة وتكون الجباية لوالٍ من قبل السلطان فجاء حسين إلى العساكر قبل أن يفتحوها فكلهم أجاب إلا الأمير مودود فإنه امتنع من الرحيل إلا بإذن من السلطان وأقام محاصراً لها حتى افتتحها وعاد ابن قطلغ إلى السلطان فأحسن الاعتذار عن جاولي وسار جاولي إلى بالس فملكها من أصحاب رضوان بن تتش وقتل جماعة من أهلها فيهم القاضي محمد بن عبد العزيز بن إلياس وكان فقيهاً صالحاً.

ثم سار رضوان بن دقاق لحرب جاولي واستمدّ شكري صاحب أنطاكية فأمدّه بنفسه وبعث إلى القمص بالرُّها يستمدّه وترك له مال المفاداة فباء إليه بنفسه ولحقه بمنبج وجاء الخبر إلى جاولي باستيلاء مودود وعساكر السلطان على الموصل وعلى خزائنه فاضطرب أمره وانفض عنه كثير من أصحابه منهم زنكي بن أقسنقر وبكتاش وبقي معه أصبهبذ صباوو وبدران بن صدقة وابن جكرمش وانضمّ إليه كثير من المتطوّعة ونزل تل باشر وأتى عسكر رضوان وشكري وكاد أن يهزمهم لولا أنّ أصحابه ساروا عنه وسار في اتباعهم فأبوا عليه فمضى منهزماً وقصد اصبهبذ الشام وبدران بن صدقة قلعة جعفر وابن جكرمش جزيرة ابن عمر وقتل من المسلمين خلق ونهب صاحب أنطاكية سوادهم وهرب القمص وجوسكر إلى تل باشر وكان المنهزمون من المسلمين يمرون بهم فيكرمونهم ويجيزونهم إلى بلادهم ولحق جاولي بالرحبة فلقي بها سرايا مودود صاحب الموصل وخفي عنهم فارتاب في أمره ولم ير الخير له من قصد السلطان محمد ثقة بما ألقى إليه حسين بن قطلغ تكين في شأنه فأوغر في السير ولحق بالسلطان قريباً من أصفهان ونزل حسين بن قطلغ فدخل به إلى السلطان فأكرمه وطلب منه بكتاش ابن عمه تتش واعتقله بأصفهان.

مقتل مودود بن أنوتكين صاحب الموصل في حرب الإفرنج وولاية البرسقي مكانه

كان السلطان محمد قد أمر مودوداً صاحب الموصل سنة خمس وخمسمائة بالمسير لقتال الإفرنج وأمدّه بسمقان القطبي صاحب ديار بكر وأرمينية وأياكي وزنكي ابني برسق أمراء همذان وما جاورها والأمير أحمد بك أمير مراغة وأبو الهيجاء صاحب إربل والأمير أبو الغازي صاحب ماردين وبعث إليه أياز مكانه فسار إلى سنجر وفتحوا حصوناً للإفرنج وحاصروا مدينة الرُّها فامتنعت عليهم وأقام الإفرنج على الفرات بعد أن طرقوا أعمال حلب فعاثوا فيها ثم حاصر العساكر الإسلاميّة قلعة باشر فامتنعت ودخلوا إلى حلب فامتنع رضوان من لقائهم فعادوا ومات سقمان القطبي في دلاس فحمله أصحابه في تابوت إلى بلاده واعترضهم أبو الغازي بن أرتق ليأخذهم فهزموه.

ثم افترقت العساكر بمرض ابن برسق ومسير أحمد بن صاحب مراغة إلى السلطان لطلب بلاد سقمان القطبي واجتمع قطلغتكين صاحب دمشق بمودود ونزل معه على نهر القاضي وسمع الإفرنج بافتراق العساكر فساروا إلى ماميا.

وجاء السلطان ابن منقذ صاحب شيزر إلى مودود وقطلغتكين وحصرهما على الجهاد ونزلوا جميعاً على شيزر ونزل الفرنج قبالتهم ثم رأوا قوّة المسلمين فعادوا إلى أفامية ثم سار

مودود سنة ست إلى الرُّها وسروج فعاث في نواحيها فكبسه جوسكر صاحب تلك باشر في الإفرنج ونال منه.

ثم اجتمع المسلمون سنة سبع للجهاد باستنجاد قطلغتكين صاحب دمشق لمودود فاجتمع معه بمنزل صاحب سنجر وأياز بن أبي الغازي وعبروا الفرات إلى قطلغتكين وقصدوا القدس فسار إليهم صاحبها بقزوين ومعه جوسكر ومعه تل باشر على جيشه ونزلوا الأردن واقتتلوا قريباً من طبرية فانهزم الإفرنج وقتل كثير منهم وغرق كثير في بحيرة طبرية ونهر الأردن وغنم المسلمون سوادهم ثم لقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية من الفرنج فاستعانوا بهم وعاودوا الحرب ونزلوا في جبل طبرية فحاصرهم فيه المسلمون ثم ساروا فعاثوا في بلاد الإفرنج ما بين عكا إلى القدس.

ثم نزلوا دمشق وفرق مودود عساكره ووعدهم العود من قابل للجهاد ودخل دمشق ليستريح عند قطلغتكين فصلى الجمعة في الجامع فطعنه باطنيّ فأتواه وهلك لآخر يومه واتهم قطلغتكين به وقتل الباطني من يومه ولما بلغ الخبر السلطان بقتل مودود ولّى على الموصل وأعمالها أقسنقر البرسقي سنة ثماني وخمسمائة وبعث معه ابنه الملك مسعود في جيش كثيف وأمره بجهاد الإفرنج وكتب إلى الأمراء بطاعته فوصل إلى الموصل واجتمعت إليه عساكر النواحي فيهم عماد الدين زنكي بن أقسنقر ونمير صاحب سنجر وسار البرسقي إلى جزيرة ابن عمر فأطاعه نائب مودود بها ثم سار إلى ماردين فأطاعه أبو الغازي صاحبها وبعث معه ابنه أياز فسار إلى الرُّها فحاصرها شهرين ثم ضاقت الميرة على عسكره.

ثم رحل إلى سميساط بعد أن خرب نواحي الرُّها وسروج وسميساط وكانت مرعش للإفرنج هي وكيسوم ورعيان وكان صاحبها كراسك واتفقت وفاته وملكت زوجته بعده فراسلت البرسقي بالطاعة وبعث إليها رسوله فأكرمته ورجعته إلى البرسقي بالهدايا والطاعة وفرّ عنها كثير من الإفرنج إلى أنطاكية ثم قبض البرسقي على أياز بن أبي الغازي لاتهامه إيّاه في الطاعة فسار إليه أبو الغازي في العساكر وهزمه واستنقذ ابنه أياز من أسره كما ترى في أخبار دولة أبي الغازي وبنيه وبعث السلطان يهدّده فوصل يده بقطلغتكين صاحب دمشق والفرنج وتحالفوا على التظاهر ورجع أبو الغازي إلى ديار بكر فسار إليه قزجان بن مراجا صاحب حمص وقد تفرّق عنه أصحابه فظفر به وأسره وجاء قطلغتكين في عساكره وبعث إلى قزجان في إطلاقه فامتنع وهمّ بقتله فعاد عنه قطلغتكين إلى دمشق وكان قزجان قد بعث إلى السلطان بخبره وانتظر من يصل في قتله فأبطأ عليه فأطلق أبا الغازي بعد أن توثق منه بالحلف وأعطاه ابنه أياز رهينة ولما خرج سار إلى حلب وجمع التركمان وحاصر قزجان في طلب ابنه إلى أن جاءت عساكر السلطان.

مسير العساكر لقتال أبي الغازي وقطلغتكين والجهاد بعدهما

ولما كان ما ذكرناه من عصيان أبي الغازي وقطلغتكين على السلطان محمد وقوّة الفرنج على المسلمين جهز السلطان جيشاً كثيراً مقدّمهم الأمير برسق صاحب همذان ومعه الأمير حيُوس بك والأمير كشغرة وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم بقتال أبي الغازي وقطلغتكين فإذا فرغوا منهما ساروا إلى الفرنج فارتجعوا البلاد من أيديهم فساروا لذلك في رمضان من سنة ثمان وعبروا الفرات عند الرقّة وجاؤوا إلى حلب وطلبوا من صاحبها لؤلؤ الخادم ومن مقدّم العسكر المعروف بشمس الخواص تسليم حلب بكتاب السلطان في ذلك فتعلل عليهم وبعث إلى أبي الغازي وقطلغتكين بالخبر واستنجدهما فسار إليه في ألفين وامتنعت حلب على عساكر السلطان فسار برسق بالعساكر إلى حماة وهي لقطلغتكين فملكها عنوة وسلمها إلى قرجان صاحب حمص بعهد السلطان له بذلك في كل ما يفتحونه من البلاد فثقل ذلك على الأمراء وتخاذلوا وتسلم قرجان حماة من برسق وأعطاه ابن أبي الغازي ابنه رهينة عنده.

ثم سار أبو الغازي وقطلغتكين وشمس الخواص إلى أنطاكية مستنجدين بصاحبها بردويل وجاءهم بعد ذلك بغدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من الإفرنج واتفقوا على تأخير الحرب إلى انصرام الشتاء واجتمعوا بقلعة أفامية وأقاموا شهرين وانصرم الشتاء والمسلمون مقيمون فوهنت عزائم الإفرنج وعادوا إلى بلادهم وعاد أبو الغازي إلى ماردين وقطلغتكين إلى دمشق وسار المسلمون إلى كفرطاب من بلاد الإفرنج فحاصروه وملكوه عنوة وأسروا صاحبه واستلحموا من فيه ثم ساروا إلى قلعة أفامية فامتنعت عليهم فعادوا إلى المعرة وفارقهم حيُوس بك إلى مراغة فملكه.

وسارت العساكر من المعرّة إلى حلب وقدموا أثقالهم وخيامهم فصادفهم بردويل صاحب أنطاكية في خمسمائة فارس وألفي راجل صريخاً لأهل كفرطاب وصادف مخيم العسكر ففتك فيه وفعل الأفاعيل وهم متلاحقون وجاء الأمير برسق وعاين مصارعهم وأشار عليه إخوته بالنجاء بنفسه فنجا بنفسه واتبعهم

الإفرنج ورجعوا عنهم على فرسخ وعاثوا في المسلمين في كل ناحية وقتل أياز بن أبي الغازي قتله الموكلون به وجاء أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين ما لم يحتسبوه ويئسوا من النصرة ورجعت العساكر منهزمة إلى بلادها وتوفي برسق زنكي سنة عشر بعدها.

ولاية حيّوس بك ومسعود ابن السلطان محمد علي الموصل

ثم أقطع السلطان الموصل وما كان بيد أقسنقر البرسقي للأمير حيُوس بك وبعث معه ابنه مسعوداً وأقام البرسقي بالرحبة وهي إقطاعه إلى أن توفي السلطان محمد.

ولاية جاولي سكاو على فارس وأخباره فيها ووفاته

كان جاولي سكاو لما رجع إلى السلطان محمد ورضي عنه ولاه فارس وأعمالها وبعث معه ابنه جعفري بك طفلاً كما فصل من الرضاع وعهد إليه بإصلاحها فسار إليها ومرّ بالأمير بلداجي في بلاده كليل وسرماة وقلعة إصطخر وكان من مماليك السلطان ملك شاه فاستدعاه للقاء جعفري بك وتقدّم إليه بأمر يأمر بالقبض عليه فقبض عليه ونهبت أمواله وكان أهله وذخائره في قلعة إصطخر وقد استناب فيها وزيره الخيمي ولم يمكنه إلا من بعض أهله فلما وصل جاولي إلى فارس ملكها منه وجعل فيها ذخائره ثم أرسل إلى خسرو وهو الحسين بن مبارز صاحب نسا وأمير الشوامكار من الأكراد فاستدعاه للقاء جعفري بك من السلطان خشية مما وقع لبلداجي فأعرض عنه وأظهر الرجوع إلى السلطان ومضى رسول بخبره فبشر بانصرافه عن فارس فما أدّى إليه الخبر إلا وجاولي قد خالطهم رجع من طريقه وأوعز في السير إليهم.

ثم هرب خسرو إلى عدالج وفتك جاولي في أصحابه وماله ثم سار جاولي إلى مدينة نسا فملكها ونهب جهرم وغيرها وسار إلى خسرو فامتنع عليه بحصنه فرجع إلى شيراز وأقام بها ثم سار إلى كازرون فملكها وحاصر أبا سعيد بن محمد في قلعته مدّة عامين وراسله في الصلح فقتل الرسول مرّتين ثم اشتدّ عليه الحصار واستأمن فأمّنه وملك الحصن ثم استوحش من جاولي فهرب وقبض على ولده وجيء به أسيراً فقتل

ثم سار جاولي إلى دارابجرد فهرب صاحبها إلى كرمان وصاحبها أرسلان شاه كرمان شاه ابن أرسلان بك بن قاروت بك فسار جاولي إلى حصار درابجرد فامتنعت عليه فخرج إلى البرية ثم جاءهم من طريق كرمان كأنة مدد لهم من صاحب كرمان فأدخلوه فملك البلد واستلحم أهله.

ثم سار إلىكرمان وبعث إلى خسرو مقدّم الشوذكان يستدعيه للمسير معه فلم يجد بدّاً من موافقته وجاء وصاحبه إلى كرمان وبعث إلى ملك كرمان بإعادة الشواذكان الذين عنده فبعث بالشفاعة فيهم فاستخلص السلطان الرسول بالإحسان وحثه على صاحبه ووعده بأن يردّ العساكر عن وجهه ويخذلهم عنه ما استطاع وانقلب عنه إلى صاحبها في عساكر كرمان مع وزيره بالسيرجان فتراءى لهم أنّ جاولي عازم على مواصلتهم وأنه مستوحش من اجتماع العساكر بالسيرجان وأشار عليه بالرجوع فرجعوا وسار جاولي في أثر الرسول وحاصر حصناً بطرف كرمان فارتاب ملك كرمان بخبر الرسول ثم اطلع عليه من غير جامعة فقتله ونهب أمواله وبعث العساكر لقتاله

واجتمع معهم صاحب الحصن المحاصر وسلك بهم غير الجادّة وسمع جاولي بخبرهم فارسل بعض الأمراء ليأتيه بالخبر فلم يجد أحداً فرجع وأخبره أن عسكر كرمان قد رجع فاطمأنّ ولم يكن إلا قليل حتى بيّته عساكر كرمان في شوّال سنة ثمان وخمسمائة فانهزم وفتكوا فيه قتلاً وأسراً وأدركه خسرو بن أبي سعد الذي كان قتل أباه فلما رآهما خاف منهما فآنساه وأبلغاه إلى مأمنه بمدينة نسا ولحقه عساكره وأطلق ملك كرمان الأسرى وجهزهم إليه وبينما هو يجهز العساكر لكرمان لأخذ ثأره توفي جعفري بك ابن السلطان في ذي الحجة من تسع لخمس سنين من عمره فقطعه ذلك عن معاداة كرمان ثم بعث ملك كرمان إلى السلطان ببغداد في منع جاولي عنه فقال: لا بدّ أن تسلّم الحصن إلى حاصره جاولي في حدّ كرمان وانهزم عليه وهو حصن فرح ثم توفي جاولي في ربيع سنة عشر فأمنوا إعادته واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود

ثم توفي السلطان محمد بن ملك شاه آخر ذي الحجة سنة اثنتي عشرة من ملكه بعد أن أجلس ولده محموداً على الكرسي قبل وفاته بعشر ليال وفوّض إليه أمور الملك فلما توفي نفذت وصيته لابنه محمود فأمره فيها بالعدل والإحسان وخطب له ببغداد

وكان مناهز الحلم وكان السلطان محمد شجاعاً عادلاً حسن السيرة وله آثار جميلة في قتال الباطنيّة وقد مرّ ذكرها في أخبارهم ولما ولي قام بتدبير دولته الوزير أبو منصور وأرسل إلى المستظهر في طلب الخطبة ببغداد له في منتصف المحرم من سنة اثنتي عشرة وأقر طهارون شحنة على بغداد وقد كان السلطان محمد ولاه عليها سنة اثنتين وخمسمائة ثم عاد البرسقي وقاتله وانهزم إلى عسكر السلطان محمود على الحلّة دبيس بن صدقة وقد كان عند السلطان محمد منذ قتل أبوه صدقة وأحسن إليه وأقطعه وولّى على الحلّة سعيد بن حميد العمري صاحب جيش صدقة فلما توفي رغب من ابنه السلطان محمود بالعودة إلى الحلّة فأعاده واجتمع عليه العرب والأكراد.

وفاة المستظهر وخلافة ابنه المسترشد

ثم توفي المستظهر بن المقتدي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة منتصف ربيع الآخر ونصب للخلافة ابنه المسترشد واسمه الفضل وقد تقدّم ذلك في أخبار الخلفاء.

خروج مسعود ابن السلطان محمد على أخيه محمود

تقدّم لنا أنّ السلطان ولّى على الموصل ابنه مسعوداً ومعه حيُوس بك وأن السلطان محموداً ودبيس بن صدقة سارا إلى الحلّة فلما توفي السلطان محمد وولي ابنه محمود سار مسعود من الموصل مع أتابك حيُوس بك ووزيره فخر الملك عليّ بن عمّار وقسيم الدولة وزنكي بن أقسنقر صاحب سنجر وأبي الهيجاء صاحب إربل وكرباوي بن خراسان صاحب البوازيج وقصدوا الحلّة فدافعهم دبيس فرجعوا إلى بغداد وسار البرسقي إلى قتالهم فبعث إليه حيُوس بك بأنهم إنما جاؤوا لطلب الصريخ على دبيس صاحب الحلّة فاتفقوا وتعاهدوا ونزل مسعود بدار الملك ببغداد وجاء الخبر بوصول عماد الدين منكبرس الشحنة وقد كان البرسقي هزم ابنه حسيناً كما مر فسار بالعساكر إلى البرسقي فلما علم بدخول مسعود إلى بغداد عبر دجلة من النعمانيّة إلى دبيس بن صدقة فاستنجده وخرج مسعود وحيُوس بك والبرسقي ومن معهم للقائهم وانتهوا إلى المدائن فأتتهم الأخبار بكثرة جموع منكبرس ودبيس فرجعوا وأجازوا نهر صرصر ونهبوا السواد من كل ناحية.

وبعث المسترشد إلى مسعود والبرسقي والحث على الموادعة والصلح وجاءهم الخبر بأنّ منكبرس ودبيس بعثا مع منصور أخي دبيس وحسين بن ارز وبني منكبرس عسكراً لحماية بغداد فرجع البرسقي إلى بغداد ليلاً ومعه زنكي بن أقسنقر وترك ابنه عز الدين مسعوداً على العسكر بصرصر فالتقى ومنع عسكر منكبرس من العبور وأقام يومين ثم وافاه كتاب ابنه بأنّ الصلح تمّ بين الفريقين بعده ففشل وعبر إلى الجانب الغربي ومنصور وحسين في أثره ونزلا عند جامع السلطان وخيم البرسقي عند القنطرة القبلية وخيم مسعود وحيُوس بك عند المارستان ودبيس ومنكبرس تحت الرقة وعز الدين مسعود بن البرسقي عند منكبرس منفرداً عن أبيه.

وكان سبب انعقاد الصلح أن حيُوس بك أرسل إلى السلطان محمود يطلب الزيارة له وللملك مسعود فأقطعهما أذربيجان ثم وصل الخبر بمسيرهما إلى بغداد فاستشعر منهما العصيان وجهز العساكر إلى الموصل فكتب إليه رسوله بذلك ووقع الكتاب بيد منكبرس الشحنة فبعث إليه وضمن له إصلاح الحال له وللسلطان مسعود وكان منكبرس متزوّجاً بأم السلطان مسعود واسمها سرجهان فكان يؤثر مصلحته فاستقرّ الصلح واتفقوا على إخراج البرسقي من بغداد إلى الملك وأقام عنده واستقر منكبرس شحنة بغداد وساء أثره في الرعية وتعرض لأموال الناس وحرمهم وبلغ الخبر إلى السلطان محمود فاستدعاه إليه فبقي يدافع ثم سار خوفاً من عامة بغداد والله سبحانه وتعالى أعلم.

خروج الملك طغرل على أخيه السلطان محمود

كان الملك طغرل بن السلطان محمد عند وفاة أبيه مقيماً بقلعة سرجهان وكان أبوه أقطعه سنة أربع سماوة وآوه وزنجان وجعل أتابكه الأمير شيركير الذي حاصر قلاع الإسماعيليّة كما مرّ في أخبارهم وكان عمره يومئذ عشراً فأرسل السلطان محمد الأمير كسعدي أتابكاً له وأعجله إليه وكان كسعدي حاقداً عليه فحمل طغرل على العصيان ومنعه من المجيء إلى أخيه وانتهى ذلك إلى محمود فأرسل إلى أخيه بتحف وخلع وثلاثين الف دينار ومواعد جميلة فلم يصيخوا إليها وأجابه كسعدي: إننا في الطاعة ومعترضون لمراسم الملك فسار إليهم السلطان مغذاً ليكبسهم وجعل طريقه على قلعة شهران التي فيها ذخائر طغرل وأمواله

ونمي الخبر إلى طغرل وكسعدي فخرجا من العسكر في خفية قاصدين شهران وأخلى الطريق عنها لما سبق من اللطف فوقعا على قلعة سرجهان وجاء السلطان إلى العسكر فأخذ خزائن أخيه طغرل وفيها ثلاثمائة ألف دينار ثم أقام بزنجان أياماً ولحق منها بالريّ ولحق طغرل وكسعدي بكنجة واجتمع إليه أصحابه وتمكنت الوحشة بينه وبين أخيه.

فتنة السلطان محمود مع عمه سنجر

ولما توفي السلطان محمود بلغ الخبر إلى أخيه سنجر بخراسان أظهر من الجزع والحزن ما لم يسمع بمثله حتى جلس للعزاء على الرماد وأغلق بابه سبعاً ثم سمع بولاية ابنه محمود فنكر ذلك وعزم على قصد بلاد الجبل والعراق وطلب السلطنة لنفسه مكان أخيه وكان قد سار إلى غزنة سنة ثمان وخمسين وفتحها وتنكر لوزيره أبي جعفر محمد بن فخر الملك أبي المظفر بن نظام الملك لما بلغه أنّه أخذ عليه الرشوة من صاحب غزنة ليثنيه عن قصده إليه وفعل مثل ذلك بما وراء النهر وامتحن أهل غزنة بعد فتحها وأخذ منها أموالاً عظيمة وشكا إليه الأمراء إهانته أيّاهم فلما عاد إلى بلخ قبض عليه وقتله واستصفى أمواله وكانت لا يعبر عنها كان فيها من العين وحده ألف دينار مرتين واستوزر بعده شهاب الإسلام عبد الرزاق ابن أخي نظام الملك وكان يعرف بابن الفقير فلما مات أخوه السلطان محمد عزم على طلب الأمر لنفسه وعاوده الندم على قتل وزيره أبي جعفر لما يعلم من اضطجاعه بمثلها.

ثم انّ السلطان محموداً بعث إليه يصطنعه بالهدايا والتحف وضمن له ما يزيد عن مائتي ألف دينار كل سنة وبعث في ذلك شرف الدين أنو شروان بن خالد وفخر الدين طغرل فقال لهما سنجر: ان ابن أخي صغير وقد تحكم عليه وزيره وعلى ابن عمر الحاجب فلا بدّ من المسير وبعث في مقدّمته الأمير أنز.

وسار السلطان محمود وبعث في مقدّمته الحاجب علي بن محمد وكان حاجب أبيه قبله فلما تقاربت المقدّمتان بعث الحاجب علي بن عمر إلى الأمير أنز وهو بجرجان بالعتاب ونوع من الوعيد فتأخر عن جرجان فلحقته بعض العساكر ونالوا منه ورجع الحاجب إلى السلطان محمود بالريّ فشكر له فعله وأقاموا بالريّ ثم ساروا إلى كرمان وجاءته الأمداد من العراق مع منكبرس ومنصور بن صدقة أخي دبيس وأمراء فسار إلى همذان وتوفي وزيره الربيب فاستوزر أبا طالب الشهيري.

ثم سار السلطان في عشرين ألفاً وثمانية عشر فيلاً ومعه ابن الأمير أبي الفضل صاحب سجستان وخوارزم شاه محمد والأمير أنز والأمير قماج وكرشاسف بن ضرام بن كاكويه صاحب برد وهو صهره على أخته وكان خصيصاً بالسلطان محمد فاستدعاه بعد موته سنجر وتأخر عنه وأقطع بلده لقراجا السامر فبادر إليه وتراجعوا بقرب ساوة في جمادي ثالث عشرة فسبقت عساكر السلطان محمود إلى الماء من أجل المسافة التي بين ساوة وخراسان وكانت عساكر السلطان ثلاثين ألفاً ومعه الحاجب علي بن عمر ومنكبرس وأتابك غزغلي وبنو برسق وأقسنقر البخاري وقراجاً الساني ومعه سبعمائة حمل من السلاح فعندما اصطفوا جلى الحرب انهزم عساكر السلطان سنجر ميمنة وميسرة وثبت هو في القلب والسلطان محمود قبالته.

وحمل السلطان سنجر في الفيلة فانهزمت عساكر السلطان محمود وأسر أتابك غزغلي وكان يكاتب السلطان سنجر بأنه يحمل إليه ابن أخيه فعاتبه على ذلك ثم قتله ونزل سنجر في خيام محمود واجتمع إليه أصحابه ونجا محمود من الواقعة وأرسل دبيس بن صدقة للمسترشد في الخطبة لسنجر فخطب له أواخر جمادى الأولى من السنة وقطعت خطبة محمود ثم إنّ السلطان سنجر رأى قلة أصحابه وكثرة أصحاب محمود فراسله في الصلح وكانت تحضه على ذلك والدته فامتنع ولحق البرسقي بسنجر وكان عند الملك مسعود بأذربيجان من يوم خروجه من بغداد فسار سنجر من همذان إلى الكرخ وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح ووعده بولاية عهده فأجاب وتحالفا على ذلك.

وسار محمود إلى عمه سنجر في شعبان بهدية حافلة ونزل على جدّته فتقبّل منه سنجر وقدّم له خمسة أفراس عربيّة وكتب لعماله بالخطبة لمحمود بعده في جميع ولايته وإلى بغداد بمثل ذلك وأعاد عليه جميع ما أخذه من بلاده سوى الريّ وصار محمود في طاعة عمه سنجر ثم سار منكبرس عن السلطان محمود إلى بغداد وبعث دبيس بن صدقة من منعه من دخولها فعاد ووجه الصلح بين الملكين قد أسفر فقصد السلطان سنجر مستجيراً به من الاستبداد عليه ومسيره لشحنة بغداد من غير إذنه ثم إنّ الحاجب علي بن عمر ارتفعت منزلته في دولته وكثرت سعاية الأمراء عنه فأضمر السلطان نكبته فاستوحش وهرب إلى قلعة له كان ينزل بها أهله وأمواله وسار منها إلى خوزستان وكانت بنو برسق أسوري وابن أخويه أرغوي بن ملتكي وهدد بن زنكي بعثوا عسكراً يصدّونه عن بلادهم ولقوه قريباً من تستر فهزموه وجاؤوا به أسيراً وكاتبوا السلطان محموداً بأمرهم فأمرهم بقتله وحمل رأسه

إليه ثم أمر السلطان سنجر بإعادة مجاهد الدّين تهـدّدوا إلى شحنة بغداد فعاد إليها وعزل نائب دبيس بن صدقة.

استبداد علي بن سكمان بالبصرة

كان السلطان محمد قد أقطع البصرة للأمير اقسنقر البخاري واستخلف عليها سنقر الشامي فأحسن السيرة فلما توفي السلطان محمد وثب عليه غزغلي مقـدّم الأتـراك الإسماعيلية وكـان يحج بالناس منذ سنين وسنقر ألباً وملكا البصرة من يده وحبساه وذلك سنة إحدى عشرة.

وهم سنقر ألباً بقتلـه فعارضـه غزغلـي فلـم يرجـع وقتلـه. فقتله غزغلي به وسكن الناس وكان بـالبلد أمـير اسمـه علـي بـن سكمان حج بالناس وغاب عن هـذه الواقعـة فغـصّ بـه غزغلـي لتمام الحج على يده وخشي أن يثأر منهم بسنقر ألبا لتقدّمه عليهم فأوغر إلى عرب البريّة فنهب الحـاج وانثنـى علـي بـن سـكمان في الدفاع عنهم إلى أن قارب البصـرة والعـرب يقاتلونـه فبعـث إليـه غزغلي بالمنع من البصرة فقصد القرى أسفل دجلة وصدق الحملة على العرب فهزمهم ثم سـار إليـه غزغلـي وقاتلـه فاصابـه سـهم فمات وسار علي بن سكمان إلى البصرة وملكهـا وكاتبـه أقسـنقر البخاري وصاحب عمان بالطاعة وأقرّ نوابـه علـى أعمالـه وكـان عند السلطان وطلبـه أن يوليـه البصـرة فـأبى وبقـي ابـن سـكمان مستبداً بالبصرة إلى أن بعث السلطان أقسنقر البخـاري إلى البصـرة سنة أربع عشرة فملكها من علي بن سكمان.

استيلاء الكرج على تفليس

كان الكرج قديماً يغيرون على أذربيجان وبلاد أرّان.

قال ابن الأثير: والكرج هم الخزر.

وقد بينا الصحيح من ذلك عند ذكـر الأنسـاب وأنّ الخـزر هم التركمان إلا أن يكون الكرج من بعض شعوبهم فيمكـن ولمـا استفحل ملك السّلجوقيّة أمسكوا عن الإغارة على البلاد المجـاورة لهم فلما توفي السلطان محمد رجعـوا إلى الغـارة فكـانت سـراياهم وسرايا القفجاق تغير على البلاد ثم اجتمعـوا وكـانت بلـد الملـك طغرك وهي أرّان ونقجوان إلى أوس مجـاورة لهـم فكـانوا يغـيرون عليها إلى العراق لملك بغداد ونزل على دبيس بن صدقة فسار هـو وأتابك كبغري ودبيس بن صدقة وأبي الغازي بن أرتق.

وسـار في ثلاثين ألفـاً إلى الكـرج والقفجـاق فـاضطرب المسلمون وانهزموا وقتل منهم خلق وتبعهم الكفار عشـرة فراسـخ وعادوا عنهم وحاصروا مدينة تفليس وأقاموا عليها سنة وملكوهـا عنوة سنة خمـس عشـرة ووصـل صريخهـم سـنة سـت عشـرة إلى السلطان محمود بهمذان فسار لصريخهم وأقام بمدينـة تـبريز وأنفـذ عساكره إلى الكرج فكان من أمرها ما يذكر إن شاء اللّه تعالى.

الحرب بين السلطان محمود وأخيه مسعود

قد تقدّم مسير مسعود إلى العراق وموت أبيه السلطان محمد ومـا تقـرّر بينهمـا مـن الصلـح ورجوعـه إلى الموصـل بلـده وأن السلطان محموداً زاده أذربيجان ولحـق بـه قسـيم الدولـة البرسـقي عندما طرده عن شحنة بغـداد فأقطعـه مسـعود مراغـة مضافـة إلى الرحبة وكاتب دبيس حيُّوس بك أتابك مسعود يحرّضه على نكبـة البرسقي وأنه يباطن السلطان محموداً ووعده على ذلـك بـالأموال وحرضهم على طلب الأمر لمسعود ليقـع الاختـلاف فيحصـل لـه علو الكلمـة كمـا حصـل لأبيـه في فتنـة بركيـارق ومحمـد وشـعر البرسقي بسعاية دبيس فخشي على نفسه ولحق بالسـلطان محمـود فقبله وأعلى محلّه.

ثم اتصل بالملك مسعود الأستاذ أبو إسمـاعيل الحسـين بـن علي الأصفهاني الطغرائي وكان ابنه أبو الوليد بن أبـي إسمـاعيل يكتب الطغراء للملك مسعود فلما وصـل أبـوه اسـتوزره مسـعود وعزل أبا علـيّ بـن عمّـار صـاحب طرابلـس سـنة ثـلاث عشـرة فاغرى مسعوداً بالخلاف على أخيه السلطان محمود فكتـب إليهـم السلطان بالـترغيب والـترهيب فـأظهروا أمرهـم وخـاطبوا الملـك مسعوداً بالسلطان وضربوا له النوب الخمـس وأغـذّوا إليـه السـير وهو في خف من العسـكر فسار إليهـم في خمسـة عشـر ألفـاً وفي مقدّمته البرسقي ولقيهم بعقبة أستراباز منتصـف ربيـع الأوّل سـنة أربع عشرة فانهزم الملك مسعود وأصحابه وأسر جماعة من أعيانهم منهم الأستاذ أبو إسمـاعيل الطغرائـي وزيـر الملـك مسـعود فـأمر السلطان محمود بقتله وقال: ثبت عندي فساد عقيدتـه وكـان قتلـه لسنة من وزارته وكان كاتباً شاعراً يميـل إلى صناعـة الكيميـاء ولـه فيها تصانيف معدودة.

ولما انهزم الملك مسعود لحق ببعض الجبال على اثـني عشـر فرسخاً من المعركة فاختفى فيه مع غلمان صغار وبعث يستأمن إلى أخيه فأرسل إليه اقسنقر البرسقي يؤمنه ويجيء به إليه وخالفه إليـه بعض الأمراء فحرّضه على اللحاق بالموصل وأذربيجـان ومكاتبـة دبيس ومعاودة الحرب فسار معه لذلك وجاء البرسـقي إلى مكانـه

الأوّل فلم يجده فاتبعه إلى أن أدركه على ثلاثين فرسخاً وأعلمه حال أخيه من الرضا عنه وأعاده فرجع ولقيه العساكر بأمر السلطان محمود وأنزله عند أمه ثم أحضره وهشّ له وبكى وخلطه بنفسه وذلك لثمانية وعشرين يوماً من الخطبة بأذربيجان. وأما حيُوس بك الأتابك فافترق عن السلطان من المعركة وسار إلى الموصل وجمع الغلال من سوادها واجتمعت إليه العساكر وبلغه فعل السلطان مع أخيه فسار إلى الزاب مورياً بالصيد ثم أجدّ السير إلى السلطان بهمذان فأمنه وأحسن إليه وبلغ الخبر بالهزيمة إلى دبيس وهو بالعراق فنهب البلاد وأخربها وبعث إليه السلطان فلم يصغ إلى كتابه.

ولاية أقسنقر البرسقي على الموصل ثم على واسط وشحنة العراق

ولما وصل حيُوس بك إلى السلطان محمود بعثه إلى أخيه طغرل وأتابك كبغري فسار إلى كنجة وبقي أهل الموصل فوضى من غير وال وكان أقسنقر البرسقي قد أبلى في خدمة السلطان محمود وردّ إليه أخاه مسعوداً يوم الهزيمة فعرف له حقّ نصحه وحسن أثره فأقطعه الموصل وأعمالها وما يضاف إليها كسنجر والجزيرة فسار إليها سنة خمس عشرة وتقدّم إلى سائر الأمراء بطاعته وأمره بمجاهدة الإفرنج واسترجاع البلاد منهم فوصل إلى الموصل وقام بتدبيرها وإصلاح أحوالها ثم أقطعه سنة ست عشرة بعدها مدينة واسط وأعمالها مضافة إلى الموصل وجعله شحنة بالعراق فاستخلف عماد الدين زنكي بن أقسنقر وبعثه إليها فسار إليها في شعبان من السنة.

مقتل حيوس بك والوزير الشهيرمي

ثم إنّ السلطان بعد وصول حيُوس بك بعثه لحرب أخيه طغرل كما قلناه وأقطعه أذربيجان فتنكر له الأمراء وأغروا به السلطان فقتله على باب هرمز في رمضان سنة عشر وأصله تركي من موالي السلطان محمد وكان عادلاً حسن السيرة ولما ولي الموصل والجزيرة وكان الأكراد بتلك الأعمال انتشروا وكثرت قلاعهم وعظم فسادهم فقصدهم وفتح كثيراً من قلاعهم كبلد الهكارية وبلد الزوزن وبلد النكوسة وبلد التخشية وهربوا منه في الجبال والشعاب والمضايق وصلحت السابلة وأمن الناس.

وأما الوزير الكمال أبو طالب الشهيرمي فإنه برز مع السلطان دبيس إلى همذان وخرج في موكبه وضاق الطريق فتقدّم الموكب بين يديه فوثب عليه باطني وطعنه بسكين فأنفذه واتبعه الغلمان فوثب عليه آخر فجذبه عن سرجه وطعنه طعنات وشردهم الناس عنه فوثب آخر فجذبه وذلك لأربع سنين من وزارته وكان سيّئ السيرة ظلوماً غشوماً كثير المصادرات ولما قتل رفع السلطان ما كان أحدث من المكوس.

رجوع طغرل إلى طاعة أخيه السلطان محمود

قد ذكرنا عصيان طغرل على أخيه السلطان محمود بالريّ سنة ثلاث عشرة وأنّ السلطان محمود سار إليه وكبسه فلحق برجهان ثم لحق منها بكنجة وبلاد أرّان ومعه أتابك كبغري فاشتدّت شوكته وقصد التغلب على بلاد أذربيجان وهلك كبغري في شوّال سنة خمس عشرة ولحق بأقسنقر الأرمني صاحب مراغة ليقيم له الأتابكية وحرّضه على قتال السلطان محمود فسار معه إلى مراغة ومروا بأردبيل فامتنعت عليهم فساروا إلى هرمز وجاءهم الخبر هنالك بأن السلطان محمود بعث الأمير حيُوس بك إلى أذربيجان وأقطعه البلاد وأنه وصل إلى مراغة في عسكر كثيف فساروا عن هرمز إلى خونج وانتقض عليهم وراسلوا الأمير شيركير الذي كان أتابك طغرل أيام أبيه يستنجد به وكان كبغري الأتابك قبض عليه بعد السلطان محمد ثم أطلقه السلطان سنجر وعاد إلى أبهر وزنجان وكانت أقطاعه فأجاب داعيهم وسار أمامهم إلى أبهر ولم يتم أمرهم فراسلوا السلطان في الطاعة وعاد طغرل إلى أخيه وانتظم أمرهم.

مقتل وزير السلطان محمود

وكان وزير السلطان محمود شمس الملك بن نظام الملك وكان حظيّاً عنده فكثرت سعاية أصحابه فيه وكان ابن عمّه الشهاب أبو المحاسن وزير السلطان سنجر فتوفي واستوزر سنجر بعده أبا طاهر القمّي عدوّاً لبني نظام الملك فأغرى السلطان سنجر حتى أمر السلطان محمود بنكبته فقبض عليه ودفعه إلى طغرل فحبسه بقلعة جلجلال ثم قتله بعد ذلك وكان أخوه نظام الدين أحمد قد استوزره المسترشد وعزل به جلال الدين أبا علي بن صدقة فلما بلغه نكبة شمس الملك ومقتله عزل أخاه نظام الدين وأعاد ابن صدقة إلى وزارته والله سبحانه وتعالى أعلم.

ظفر السلطان بالكرج

ثم وفد سنة سبع عشرة على السلطان محمود جماعة من أهل دنباوند وشروان يستصرخونه على الكرج ويشكون ما يلقون منهم فسار لصريخهم ولما تقارب الفئتان همّ السلطان بالرجوع وأشار به وزيره شمس وتطارح عليه أهل شروان فأقام وباتوا على وجل ثم وقع الاختلاف بين الكرج وقفجاق واقتتلوا ليلتهم ورحلوا منهزمين وعاد السلطان إلى همذان والله تعالى أعلم.

عزل البرسقي عن شحنة العراق وولاية برتقش الزكوي

كان الخليفة المسترشد قد وقعت بينه وبين دبيس بن صدقة حروب شديدة بنواحي المباركة من أطراف عانة وكان البرسقي معه وانهزم دبيس فيها هزيمة شنيعة كما مرّ في أخباره وقصد غزنة صريخاً فلم يصرخوه فقصد المنتفق وسار بهم إلى البصرة فدخلوها واستباحوها وقتلوا سلمان نائبها فأرسل الخليفة إلى البرسقي بالنكير على إهمال أمر دبيس حتى فتك في البصرة فسار البرسقي إليه وهرب دبيس فلحق بالإفرنج وجاء معهم لحصار حلب فامتنعت فلحق بطغرل بن السلطان محمد يستحثه لقصد العراق كما مرّ ذلك في أخبار دبيس وبقيت في نفس المسترشد عليه ولحق بها أمثالها فتنكر له وبعث إلى السلطان محمود في عزله فعزله وأمره بالعود إلى الموصل لجهاد الإفرنج ووصل نائب برتقش إلى بغداد وأقام بها الشحنة وبعث السلطان ابناً له صغيراً ليكون معه على الموصل وسار البرسقي به ووصل الموصل وقام بولايتها.

بداية أمر بني أقسنقر وولاية عماد الدين زنكي على البصرة

كان عماد الدين زنكي في جملة البرسقي ولما أقطعه السلطان واسط بعث عليها زنكي فأقام فيها أياماً ثم كان مسير البرسقي إلى البصرة في أتباع دبيس فلما هرب دبيس عنها بعث البرسقي إليها عماد الدين زنكي فأقام بحمايتها ودفع العرب عنها ثم استدعاه البرسقي عندما سار إلى الموصل فضجر من تلون الأحوال عليه واختار اللحاق بأصفهان فقدم عليه بأصفهان فأكرمه السلطان وأقطعه البصرة وعاد إليها سنة ثمان عشرة والله تعالى أعلم.

استيلاء البرسقي على حلب

لما سار دبيس إلى الإفرنج حرّضه على حلب وأن ينوب فيها عنهم ووجدهم قد ملكوا مدينة صور وطمعوا في بلاد المسلمين وساروا مع دبيس إلى حلب فحاصروها حتى جهد أهلها الحصار وبها يومئذ تاس بن ابن أرتق فاستنجد بالبرسقي صاحب الموصل وشرط عليهم أن يمكنوه من القلعة ويسلموها إلى نوابه وسار إلى إنجادهم فأجفل عنهم الإفرنج ودخل إلى حلب فأصلح أمورها ثم سار إلى كفرطاب فملكها من الإفرنج ثم سار إلى قلعة إعزاز من أعمال حلب وصاحبها جوسكين فحاصرها وسارت إليه عساكر الإفرنج فانهزم وعاد إلى حلب فخلف فيها ابنه مسعوداً وعبر الفرات إلى الموصل.

مسير طغرل ودبيس إلى العراق

ولما ارتحل الإفرنج عن حلب فارقهم دبيس ولحق بالملك طغرل فتلقاه بالكرامة والمبرة وأغراه بالعراق وضمن له ملكه فساروا لذلك سنة تسع عشرة وانتهوا إلى دقوقا فكتب مجاهد الدين بهروز من تكريت إلى المسترشد يخبرهم فتجهز للقائهم وأمر برتقش الزكوي أن يتجهز معه خامس صفر وانتهى إلى الخالص وعدل طغرل ودبيس إلى طريق خراسان ثم نزلوا رباط جلولاء ونزل الخليفة بالدسكرة وفي مقدّمته الوزير جلال الدين بن صدقة وسار دبيس إلى جسر النهروان لحفظ المقابر وقد كان رأيه مع طغرل أن يسير طغرل إلى بغداد فيملكها وتقدّم دبيس في انتظاره فقعد به المرض عن لحاقه وغشيتهم أمطار أثقلتهم عن الحركات وجاء دبيس إلى النهروان طريحاً من التعب والبرد والجوع.

واعترضوا ثلاثين حملاً للخليفة جاءت من بغداد بالملبوس والمأكول فطعموا وأكلوا وناموا في دفء الشمس وإذا بالمسترشد قد طلع عليهم في عساكره بلغه الخبر بأنّ دبيساً وطغرل خالفوه إلى بغداد فاضطرب عسكره وأجفلوا راجعين إلى بغداد فلقوا في طريقهم دبيساً كما ذكرنا على ديالي غرب النهروان وقف الخليفة عليه فقبّل دبيس الأرض واستعطف حتى همّ الخليفة بالعفو عنه ثم وصل الوزير ابن صدقة فثناه عن رأيه ووقف دبيس مع برتقش الزكوي يحادثه ثم شغل الوزير بمدّ الجسر للعبور فتسلل دبيس ولحق بطغرل وعاد المسترشد إلى بغداد ولحق طغرل ودبيس بهمذان فعاثوا في أعمالها وصادروا أهلها وخرج إليهم السلطان محمود فانهزموا بين يديه ولحقوا بالسلطان سنجر بخراسان شاكين

من المسترشد وبرتقش الشحنة والله أعلم بغيبه وأحكم.

مقتل البرسقي وولاية ابنه عز الدين على الموصل

ثم إن المسترشد تنكر للشحنة برتقش وتهدده فلحق بالسلطان محمود في رجب سنة عشرين فأغراه بالمسترشد وخوّفه غائلته وأنه تعوّد الحروب وركب العيث ويوشك أن يمتنع عنك ويستصعب عليك فاعتزم السلطان على قصد العراق وبعث إليه الخليفة يلاطفه في الرد لغلاء البلاد وخرابها ويؤخره إلى حين صلاحها فصدق عنده حديث الزكوي وسار مجدًا فعبر المسترشد بأهله وولده وأولاد الخلفاء إلى الجانب الغربي في ذي القعدة راحلاً عن بغداد والناس باكون لفراقه وبلغ ذلك إلى السلطان فشق عليه وأرسل يستعطفه في العودة إلى داره فشرط عليه الرجوع عن العراق في القوت كما شرط أوّلا فغضب السلطان وسار نحو بغداد والخليفة بالجانب الغربي ثم أرسل خادمه عفيفاً إلى واسط يمنع عنها نواب السلطان فسار إليه عماد الدين زنكي من البصرة وهزمه وفتك في عسكره قتلاً وأسراً وجمع المسترشد السفن إليه وسد أبواب قصره ووكل حاجب الباب ابن الصاحب بدار الخلافة.

ووصل السلطان إلى بغداد في العاشر من ذي الحجة ونزل باب الشماسية

وأرسل المسترشد في العود والصلح وهو يمتنع وجرت بين العسكرين مناوشة ودخل جماعة من عسكر السلطان إلى دار الخليفة ونهبوا التاج أوّل المحرّم سنة إحدى وعشرين وخمسمائة فضج العامة لذلك ونادوا بالجهاد وخرج المسترشد من سرادقة ينادي بأعلى صوته وضربت الطبول ونفخت البوقات ونصب الجسر وعبر الناس دفعة وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب في دور الخلافة والأمراء وكان في دار الخلافة ألف رجل كامنون في السرداب فخرجوا عند ذلك ونالوا من عسكر السلطان وأسروا جماعة من أمرائه ونهب العامة دور وزير السلطان وأمرائه وحاشيته وقتل منهم خلق.

وعبر المسترشد إلى الجانب الشرقي في ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد ودفع السلطان وعسكره عن بغداد وحفر عليها الخنادق واعتزموا على كبس السلطان فأخافهم أبو الهيجاء الكردي صاحب اربل ركب للقتال فلحق بالسلطان ووصل عماد الدين زنكي من البصرة في جيش عظيم في البرّ والبحر أذهل الناس برؤيته فخام المسترشد عن اللقاء وتردّد الرسل بينهما فأجاب إلى الصلح وعفا السلطان عن أهل بغداد وأقام بها إلى عاشر ربيع الآخر وأهدى إليه المسترشد سلاحاً وخيلاً وأموالاً ورحل إلى همذان.

وولّى زنكي بن أقسنقر شحنة بغداد ثقة بكفايته واستقامت أحواله مع الخليفة وأشار به أصحابه ورأوا أنه يرفع الخرق ويصلح الأمر فولاه على ذلك مضافاً إلى ما بيده من البصرة وواسط وسار إلى همذان وقبض في طريقه على وزيره أبي القاسم علي بن الناصر الشادي اتهمه بممالأة المسترشد لكثرة سعيه في الصلح فقبض عليه واستدعى شرف الدولة أنو شروان بن خالد من بغداد فلحقه بأصفهان في شعبان واستوزره عشرة أشهر ثم عزله ورجع إلى بغداد وبقي أبو القاسم محبوساً إلى أن جاء السلطان سنجر إلى الريّ فأطلقه وأعاده إلى وزارة السلطان محمود آخر اثنتين وعشرين.

وفاة عز الدين بن البرسقي وولاية عماد الدين زنكي على الموصل وأعمالها ثم استيلاؤه على حلب

ولما استولى عز الدين على الموصل وأعمالها واستفحل أمره طمحت همته إلى الشام فاستأذن السلطان في المسير إليه وسار إلى دمشق ومرّ بالرحبة فحاصرها وملكها ثم مات إثر ذلك وهو عليها وافترقت عساكره وشغلوا عن دفنه ثم دفن بعد ذلك ورجعت العساكر إلى الموصل وقام بالأمر مملوكه جاولي ونصب أخاه الأصغر وأرسل إلى السلطان يطلب تقرير الولاية له وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي الشهرزوري وصلاح الدين محمد الباغسياني أمير حاجب البرسقي واجتمعا بنصير الدين جعفر مولى عماد الدين زنكي وكان بينه وبين صلاح الدين سر فخوفهما جعفر بن جاولي وحملهما على طلب عماد الدين زنكي وضمن لهما عنه الولايات والاقطاع فأجابوه وجاء بهما إلى الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد فقالا له: إنّ الجزيرة والشام قد تمكن منهما الإفرنج من حدود ماردين إلى عريش مصر، وكان البرسقي يكفهم وقد قتل وولده صغير ولابد للبلد ممن يضطلع بأمرها ويدفع عنها وقد خرجنا عن النصيحة إليكم. فبلغ الوزير مقالتهما إلى السلطان فأحضرهما واستشارهما فذكرا جماعة منهم عماد الدين زنكي وبذلا عنه مقرباً إلى خزانة السلطان مالاً جزيلا فولاه السلطان لما يعلم من كفايته وولّى

مكانه شحنة العراق مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت.

وسار عماد الدين زنكي فبدأ بالبواريح وملكها ثم سار إلى الموصل وتلقاه جاولي مطيعاً وعاد إلى الموصل في خدمته فدخلها في رمضان وأقطع جاولي الرحبة وبعثه إليها وولّى نصير الدين جعفراً قلعة الموصل وسائر القلاع وجعل صلاح الدين محمد الباغسياني أمير صاحب وولى بهاء الدين الشهرزوري قضاء بلاده جميعا وزاده أملاكاً وإقطاعاً وشركه في رأيه.

ثم سار إلى جزيرة ابن عمر وقد امتنع بها مماليك البرسقي فجدّ في قتالهم وكانت دجلة تحول بينه وبين البلد فعبر بعسكره الماء سبحاً واستولى على المسافة التي بين دجلة والبلد وهزم من كان فيها من الحامية حتى أحجزهم بالبلد وضيّق حصارهم فاستأمنوا وأمنهم ثم سار إلى نصيبين وهي لحسام الدين تمرتاش ابن أبي الغازي صاحب ماردين فحاصرها واستنجد حسام الدين ابن عمه ركن الدولة داود بن سكمان بن أرتق صاحب كيفا فأنجده بنفسه وأخذ في جمع العساكر وبعث تمرتاش ماردين إلى نصيبين يعرّف العساكر بالخبر وأنّ العساكر واصلة إليهم عن خمسة أيّام وكتبه في رقعة وعلقها في جناح طائر فاعترضه عسكر زنجي وصادره وقرأ زنكي الرقعة وعوّض الخمسة أيّام بعشرين يوماً وأطلق الطائر بها إلى البلد فقرؤوا الكتاب وأسقط في أيديهم واستطالوا العشرين واستأمنوا لعماد الدين زنكي فأمنهم وملك نصيبين وسار عنها إلى سنجر فملكها صلحاً وبعث العساكر إلى الخابور فملكها.

ثم سار إلى حرّان وخرج إليه أهل البلد بطاعتهم وكانت الرُها وسروج والميرة ونواحيها للإفرنج وعليها جرسكين صاحب الرُها فكاتب زنكي وهادنه ليتفرّغ للجهاد بعد ثم عبر الفرات إلى حلب في المحرّم سنة اثنتين وعشرين وقد كان عز الدين مسعود بن أقسنقر البرسقي لما سار عنها إلى الموصل بعد قتل أبيه استخلف عليها قرمان من أمرائه ثم عزله بآخر اسمه قطلغ أبه وكتب له إلى قرمان فمنعه إلا أن يرى العلامة التي بينه وبين عز الدين بن البرسقي فعاد قطلغ إلى مسعود ليجيء بالعلامة فوجده قد مات بالرحبة فعاد إلى حلب وأطاعه رئيسها فضائل بن بديع والمقدّمون بها واستنزلوا قرمان من القلعة على ألف دينار وأعطوه إيّاها وملك قطلغ القلعة منتصف إحدى وعشرين ثم ساءت سيرته وظهر ظلمه وجوره.

وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبّار بن أرتق وكان ملكها قبل وخُلع عنها فدعاه الناس إلى البيعة وثاروا بقطلغ فامتنع بالقلعة فحاصروه وجاء مهيار صاحب منبج وحسن صاحب مراغة لإصلاح أمرهم فلم يتفق وطمع الإفرنج في ملكها وتقدّم جوسكين بعسكره إليها فدافعوه بالمال ثم وصل صاحب أنطاكية فحاصرهم إلى آخر السنة وهم محاصرون القلعة فلما ملك عماد الدين زنكي الموصل والجزيرة والشام فأطاعوا وسار عبد الجبار وقطلغ إلى عماد الدين بالموصل وأقام أحد الأميرين بحلب حتى بعث عماد الدين زنكي صاحبه صلاح الدين محمد الباغسياني في عسكر فملك القلعة ورتّب الأمور وولّى عليها وجاء عماد الدين بعساكره في أثره وملك في طريقه منبج ومراغة ثم دخل حلب وأقطع أعمالها الأجناد والأمراء وقبض على قطلغ ابه وسلّمه لابن بديع فكحله فمات واستوحش ابن بديع فهرب إلى قلعة جعفر وأقام عماد الدين مكانه في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق.

قدوم السلطان سنجر إلى الريّ
ثم قدوم السلطان محمود إلى بغداد

الموصل طغرل ودبيس إلى السلطان سنجر بخراسان حرّضه دبيس على العراق والسلطان محمود قد اتفقا على الامتناع منه فسار سنجر وأخبر السلطان محمود باستدعائه فوافاه لأقرب وقت وأمر العساكر بتلقيه وأجلسه معه على التخت وأقام السلطان محمود عنده إلى آخر اثنتين وعشرين ثم رجع سنجر إلى خراسان بعد أن أوصى محمود بدبيس وأعاده إلى بلده ورجع محمود إلى همذان ثم سار إلى العراق وخرج الوزير للقائه ودخل بغداد في تاسوعاء سنة ثلاث وعشرين ثم لحقه دبيس بمائة ألف دينار في ولاية الموصل وسمع بذلك زنكي وجاء إلى السلطان وحمل المائة ألف مع هدايا جليلة فخلع عليه وأعاده وسار منتصف السنة عن بغداد إلى همذان بعد أن ولّى الحلّة مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد.

وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود

ثم توفي السلطان محمود بهمذان في شوّال سنة خمس وعشرين لثلاث عشرة سنة من ملكه بعد أن كان قبض على جماعة من أمرائه وأعيان دولته منهم عزيز الدولة أبو نصر أحمد بن حامد المستوفي وأبو شتكين المعروف بشيركين بن حاجب وابنه عمر خافهم الوزير أبو القاسم الشابادي فأغرى بهم السلطان فنكبهم وقتلهم ولما توفي اجتمع الوزير أبو القاسم والأتابك أقسنقر الأحمديلي وبايعوا لابنه داود وخطبوا له في جميع بلاد الجبل

وأذربيجان ووقعت الفتنة بهمذان وسائر بلاد الجبل ثم سكنت وهرب الوزير إلى الري مستجيراً بالسلطان فأمّر بها.

منازعة السلطان مسعود لداود ابن أخيه واستيلاؤه على السلطان بهمذان

لما هلك السلطان محمود سار أخوه مسعود من جرجان إلى تبريز فملكها فسار داود من همذان في ذي القعدة سنة خمس وعشرين وحاصره بتبريز في محرّم سنة ست وعشرين ثم اصطلحوا وتأخّر داود عن الأمر لعمّه مسعود فسار مسعود من تبريز إلى همذان وكاتب عماد الدين زنكي صاحب الموصل يستنجده فوعده بالنصر وأرسل إلى المسترشد في طلب الخطبة ببغداد وكان داود قد أرسل في ذلك قبله وردّ المسترشد الأمر في الخطبة إلى السلطان سنجر ودسّ إليه أن لا يأذن لواحد منهما وأن تكون الخطبة له فقط وحَسُن موقع ذلك عنده وسار السلطان مسعود إلى بغداد وسبقه إليها أخوه سلجوق شاه مع أتابك قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان ونزل في دار السلطان واستخلفه الخليفة لنفسه.

ولما سار السلطان مسعود أوعز إلى عماد الدين زنكي أن يسير إلى بغداد فسار من الموصل إليها وانتهى السلطان مسعود إلى عبّاسة الخالص وبرزت إليه عساكر المسترشد وسلجوق شاه وسار قراجا الساقي إلى مدافعة زنكي فدافعه على المعشوق فهزمه وأسر كثيرا من أصحابه ومرّ منهزماً إلى تكريت وبها يومئذ نجم الدين أيّوب أبو الأملاك الأيُوبيّة فهيّأ لـه المعابر وعبر دجلة إلى بلاده وسار السلطان مسعود من العبّاسة وقاتلت طلائعه طلائع أخيه سلجوق وبعث سلجوق يستحث قراجا بعد انهزام زنكي فعاد سريعاً وتأخّر السلطان مسعود بعد هزيمة زنكي وأرسل إلى المسترشد بأنّ عمه سنجار وصل إلى الريّ عازماً على بغداد ويشير بمدافعته عن العراق وتكون العراق لوكيل الخليفة ثم تراسل القوم واتفقوا على ذلك وتحالفوا عليه وأن يكون مسعود السلطان وليّ العهد ودخلوا إلى بغداد فنزل مسعود ديار السلطان وسلجوق دار الشحنة والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

هزيمة السلطان مسعود وملك طغرل أخيه

لما توفي السلطان محمود سار السلطان سنجار من خراسان إلى بلاد الجبال ومع طغرل ابن أخيه محمد وانتهى إلى الريّ ثم سار إلى همذان فسار مسعود لقتاله ومعه قراجا الساقي وسلجوق شاه وقد كان الخليفة عزم أن لا يتجهّز معهم فأبطأ فبعثوا إليه قراجا فسار إلى خانقين وأقام وقطعت خطبة سنجار من العراق وخالفهم إلى بغداد دبيس وزنكي وقد سمّى إقطاعه لسنجار الحلّة وزنكي ولاه شحنة بغداد فرجع المسترشد إلى بغداد لموافقتهما وسار السلطان وأخوه سلجوق شاه للقاء سنجار ثم سمعا بكثرة عساكره فتأخرا فسار في طلبهم يوماً وليلة ثم تراجعوا عند الدينور وكان مسعود يماطل باللقاء انتظاراً للمسترشد فلم يجد بدّاً من اللقاء فالتقوا على النقيبة وحمل قراجا عليهم وتورّط في المعركة وأصيب بجراحات ثم التفُوا عليه وأسروه وانهزم من أصحاب مسعود قزل وقد كان واطأهم على الهزيمة فانهزم السلطان مسعود عند ذلك منتصف سنة وعشرين وقتل كثير من أكابر الأمراء ونزل سنجار في خيامهم وأحضر قراجا فقتله وجيء إليه بالسلطان مسعود فأكرمه وأعاده إلى كنجة وخطب للملك طغرل ابن أخيه في السلطنة وخطب لـه في جميع البلاد واستوزر لـه أبا القاسم الساباذي وزير السلطان محمود وعاد إلى نيسابور آخر رمضان سنة ست وعشرين وخمسمائة.

هزيمة السلطان داود واستيلاء طغرل بن محمد على الملك

لما ولي طغرل همذان وولّى عنه السلطان سنجار إلى خراسان وبلغه أن صاحب ما وراء النهر المرْخان قد انتقض عليه فسار لإصلاحه وشغل بذلك فقام الملك داود بأذربيجان وبلاد كنجة وطلب الأمر لنفسه وجمع العساكر وسار إلى همذان ومعه برتقش الزّكوي وأتابك أقسنقر الأحمديلي ومعه طغرل بن برسق ونزل وقد استقرّ ثم اضطرب عسكر داود وأحسوا من برتقش الزكوي بالفشل فنهب التركمان خيامه وهرب أقسنقر أتابك وانهزم في رمضان سنة ست وعشرين ثم قدم بغداد في ذي القعدة ومعه أتابك أقسنقر فأكرمه الخليفة وأنزله بدار السلطان.

عود السلطان مسعود إلى الملك وهزيمة طغرل

قد تقدّم لنا هزيمة السلطان مسعود من عمه سنجار وعوده إلى كنجة وولاية طغرل السلطان ثم محاربة داود ابن أخيه لـه

وانهزام داود ثم رجوع داود إلى بغداد فلما بلغ الخبر إلى مسعود جاء إلى بغداد ولقيه داود قريباً منها وترجّل له عن فرسه ودخلا بغداد في صفر سنة سبع وعشرين ونزل مسعود بدار السلطان وخطب له ولداود بعده وطلبا من السلطان عسكراً ليسير معهما إلى أذربيجان فبعث معهما العساكر إلى أذربيجان ولقيهم أقسنقر الأحمديلي في مراغة بالإقامة والأموال وملك مسعود بلاد أذربيجان وهرب بين يديه من كان بها من الأمراء وامتنعوا بمدينة أذربيجان فحاصرهم بها وملكها عليهم وقتل منهم جماعة وهرب الباقون.

ثم سار إلى همذان لمحاربة أخيه طغرل فهزمه وملك همذان في شعبان من السنة ولحق طغرل بالريّ وعاد إلى أصفهان ثم قتل أقسنقر الأحمديلي بهمذان غيلة ويقال: إنّ السلطان مسعوداً دسّ عليه من قتله ثم سار إلى حصار طغرل بأصفهان ففارقها طغرل إلى فارس وملكها مسعود وسار في أثر طغرل إلى البيضاء فاستأمن إليه بعض أمراء طغرل فأمنه وخشي طغرل أن يستأمنوا إليه فقصد الريّ وقتل في طريقه وزيره أبا القاسم الساباذي في شوّال من السنة ومثل به غلمان الأمير شيركين الذي سعى في قتله كما مرّ ثم سار الأمير مسعود يتبعه إلى أن تراجعا ودارت بينهما حرب شديدة وانهزم طغرل وأسر من أمرائه الحاجب تنكي وأتى بقرا وأطلقهما السلطان مسعود وعاد إلى همذان والله تعالى أعلم.

عود الملك طغرل إلى الجبل وهزيمة السلطان مسعود

ولما عاد مسعود من حرب أخيه طغرل بلغه انتقاض داود ابن أخيه محمود بأذربيجان فسار إليه وحاصره بقلعة فحصر جمع طغرل العساكر وتغلب على بلاده وسار إليه واستعمل بعض قوّاده فسار مسعود للقائه ولقيه عند قزوين وفارق مسعود الأمراء الذين استمالهم طغرل ولحقوا به فانهزم مسعود في رمضان سنة ثمان وعشرين وبعث إلى المسترشد يستأذنه في دخول بغداد فأذن له وكان أخوه سلجوق بأصفهان مع نائبه فيها البقش السلاحي فلما سمع بانهزامه سبقه إلى بغداد وأنزله المسترشد بدار السلطان وأحسن إليه بالأموال ووصل مسعود وأكثر أصحابه رجلاً فوسع عليه الخليفة بالإنفاق والمراكب والظهر واللباس والآلة ودخل دار السلطان منتصف شوّال وأقام طغرل بهمذان.

وفاة طغرل واستيلاء مسعود على الملك

ولما وصل مسعود إلى بغداد حمل إليه المسترشد ما يحتاج إليه وأمره بالمسير إلى همذان لمدافعة طغرل ووعده بالمسير معه بنفسه فتبطأ مسعود عن المسير واتصل جماعة من أمرائه بخدمة الخليفة ثم أطلع على مداخلة بعضهم لطغرل فقبض عليه ونهب ماله وارتاب الآخرون فهربوا عن السلطان مسعود وبعث المسترشد في إعادتهم إليه فدافعه ووقعت لذلك بينهما وحشة فقعد المسترشد عن نصره بنفسه وبينما هم في ذلك وصل الخبر بوفاة أخيه طغرل في المحرّم سنة تسع وعشرين فسار مسعود إلى همذان واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد حمله من بغداد وأقبلت إليه العساكر فاستولى على همذان وبلاد الجبل.

فتنة المسترشد مع السلطان مسعود ومقتله وخلافة ابنه الراشد

قد تقدّم لنا أنّ الوحشة وقعت عندما كان ببغداد بسبب أمرائه الذين اتصلوا بخدمة المسترشد ثم هربوا عنه إلى السلطان مسعود فلما سار السلطان مسعود إلى همذان بعد موت أخيه طغرل وملكها استوحش منه جماعة من أعيان أمرائه منهم برتقش وقزل وقرا سنقر الخمارتكين والي همذان وعبد الرحمن بن طغرلبك ودبيس بن صدقة وساروا إلى خوزستان ووافقهم صاحبها برسق بن برسق واستأمنوا إلى الخليفة فارتاب من دبيس وبعث إلى الآخرين بالأمان مع سديد الدولة بن الأنباري وارتاب دبيس منهم أن يقبضوا عليه فرجع إلى السلطان مسعود وسار الآخرون إلى بغداد فاستحثوا المسترشد للمسير إلى قتال مسعود فأجابهم وبالغ في تكرمتهم.

وبرز آخر رجب من سنة تسع وعشرين وهرب صاحب البصرة إليها وبعث إليه بالأمان فأبى فتكاسل عن المسير فاستحثّوه وسهلوا له الأمر فسار في شعبان ولحق به برسق بن برسق وبلغ عدّة عسكره سبعة آلاف وتخلف بالعراق مع خادمه إقبال ثلاثة آلاف وكاتبه أصحاب الأطراف بالطاعة وأبطأ في مسيره فاستعجلهم مسعود وزحفوا إليه فكان عسكره خمسة عشر ألفاً.

وتسلل عن المسترشد جماعة من عسكره، وأرسل إليه داود ابن محمود من أذربيجان يشير بقصد الدينور والمقام بها حتى يصل في عسكره فأبى واستمرّ في مسيره.

وبعث زنكي من الموصل عسكراً فلم يصل حتى تواقعوا

وسار السلطان محمود إليهم مجدّاً فوافاهم عاشر رمضان ومالت مسيرة المسترشد إليه وانهزمت ميمنته وهو ثابت لم يتحرّك حتى أخذ أسيراً ومعه الوزير والقاضي وصاحب المخزن وابن الأنباري والخطباء والفقهاء والشهود فأنزل في خيمة ونهب مخيمه وحمل الجماعة أصحابه إلى قلعة ترجمعان ورجع بقية الناس إلى بغداد ورجع السلطان إلى همذان وبعث الأمير بك أبه إلى بغداد شحنة فوصلها سلخ رمضان ومعه عميد وقبضوا أملاك المسترشد وغلاتها وكانت بينهم وبين العامّة فتنة قتل فيها خلق من العامّة وسار السلطان في شوال إلى مراغة وقد ترددت الرسل بينهما في الصلح على مال يؤدّيه المسترشد وأن لا يجمع العساكر ولا يخرج من داره لحرب ما عاش وأجابه السلطان وأذن له في الركوب وحمل الغاشية وفارق المسترشد بعض الموكلين به فهجم عليه جماعة من الباطنيّة فألحموه جراحا وقتلوه ومثلوا به جدعاً وصلباً وتركوه سليباً في نفر من أصحابه قتلوهم معه وتبع الباطنيّة فقتلوا وكان ذلك منتصف ذي القعدة سنة ستة وعشرين لثمان عشرة سنة من خلافته وكان كاتباً بليغاً شجاعاً قرماً ولما قتل بمراغة كتب السلطان مسعود إلى بك أبه شحنة بغداد بأن يبايع لابنه فبويع ابنه الراشد أبو جعفر منصور بعهده إليه لثمانية أيام من مقتله وحضر بيعته جماعة من أولاد الخلفاء وأبو النجيب الواعظ وأمّا إقبال خادم المسترشد فلما بلغه خبر الواقعة وكان مقيما ببغداد كما قدّمناه عبر إلى الجانب الغربيّ ولحق بتكريت ونزل على مجاهد الدين بهروز.

فتنة الراشد مع السلطان مسعود

لّما بويع الراشد بعث إليه السلطان مسعود برتقش الزكوي يطالبه بما استقرّ عليه الصلح مع أبيه المسترشد وهو أربعمائة ألف دينار فأنكر الراشد أن يكون له مال وإنما مال الخلافة كان مع المسترشد فنهب ثم جمع الراشد العساكر وقدّم عليهم كجراية وشرع في عمارة السور واتفق برتقش مع بك أبه على هجوم دار الخلافة وركبوا لذلك في العساكر فقاتلهم عساكر الراشد والعامّة وأخرجوهم عن البلد إلى طريق خراسان وسار بك أبه إلى واسط وبرتقش إلى سرخس ولما علم داود بن محمود فتنة عمه مسعود مع الراشد سار من أذربيجان إلى بغداد في صفر سنة ثلاثين ونزل بدار السلطان ووصل بعده عماد الدين زنكي من الموصل وصدقة بن دبيس من الحلّة ومعه عش بن أبي العسكر يدبر أمره ويديره وكان أبوه دبيس قد قتل بعد مقتل المسترشد بأذربيجان وملك هو الحلّة.

ثم وصل جماعة من أمراء مسعود منهم برتقش بازدار صاحب فروق والبقش الكبير صاحب أصفهان وابن برسق وابن الأحمديلي وخرج للقائهم كجراية والطرنطاي وكان إقبال خادم المسترشد قد قدم من تكريت فقبض عليه الراشد وعلى ناصر الدولة أبي عبد اللّه الحسن بن جهير فاستوحش أهل الدولة وركب الوزير جلال الدين بن صدقة إلى لقاء عماد الدين زنكي فأقام عنده مستجيراً حتى أصلح حاله مع الراشد واستجار به قاضي القضاة الزينبي ولم يزل معه إلى الموصل وشفع في إقبال فأطلق وسار إليه ثم جدّ الراشد في عمارة السور وسار الملك داود لقتال مسعود استخلفه الراشد واستخلفه عماد الدين زنكي وقطعت خطبة مسعود من بغداد وولّى داود شحنة بغداد برتقش بازدار.

ثم وصل الخبر بأنّ سلجوق شاه أخا الأمير مسعود ملك واسط وقبض على الأمير بك أبه فسار الأمير زنكي لدفاعه فصالحه ورجع وعبر إلى طريق خراسان للحاق داود واحتشد العساكر ثم سار السلطان مسعود لقتالهم وفارق زنكي داود ليسير إلى مراغة ويخالف السلطان مسعود إلى همذان وبرز الراشد من بغداد أوّل رمضان وسار إلى طريق خراسان وعاد بعد ثلاث وعزم على الحصار ببغداد واستدعى داود الأمراء ليكونوا معه عنده فجاؤوا لذلك ووصلت رسل السلطان مسعود بطاعة الراشد والتعريض بالوعيد للأمراء المجتمعين عنده فلم يقبل طاعة من أجلهم واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

حصار بغداد ومسير الراشد إلى الموصل وخلعه وخلافة المقتفي

ثم إنّ السلطان مسعوداً أجمع المسير إلى بغداد وانتهى إلى الملكية فسار زين الدين علي من أصحاب زنكي حتى شارف معسكره وقاتلهم ورجع ونزل السلطان على بغداد والعيّارون أفسدوا سائر المحال ببغداد وانطلقت أيديهم وأيدي العساكر في النهب ودام الحصار نيفاً وخمسين يوماً تأخر السلطان مسعود إلى النهروان عازماً على العود إلى أصفهان فوصله طرنطاي صاحب واسط في سفن كثيرة فركب إلى غربيّ بغداد فاضطرب الأمراء وافترقوا وعادوا إلى أذربيجان وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الراشد وسار معه إلى الموصل ودخل السلطان مسعود بغداد منتصف ذي القعدة فسكن الناس وجمع القضاة والفقهاء وأوقفهم على يمين الراشد التي كتبها بخطه: إني متى جمعت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من

الأمر. فأفتوا بخلعه واتفق أرباب الدولة ممن كان ببغداد ومن أسر مع المسترشد وبقي من عند السلطان مسعود كلهم على ذمّه وعدم أهليته على ما مرّ في أخباره بين أخبار الخلفاء.

وبويع محمد بن المستظهر ولقب المقتفي وقد قدّمت هذه الأخبار بأوسع من ذلك.

ثم بعث السلطان العساكر مع قراسنقر لطلب داود فأدركته عند مراغة وقاتله فهزمه وملك أذربيجان ومضى داود إلى خوزستان واجتمع عليه عساكر من التركمان وغيرهم فحاصر تستر وكان عمه سلجوق بواسط فسار إليه بعد أن أمره أخوه مسعود بالعساكر ولقي داود على تستر فهزمه داود ثم عزل السلطان وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد واستوزر كمال الدين أبا البركات بن سلامة من أهل خراسان ثم بلغه أنّ الراشد قد فارق الموصل فأذن للعساكر التي عنده ببغداد في العودة إلى بلادهم وصرف فيهم صدقة بن دبيس صاحب الحلّة بعد أن أصهر إليه في ابنته وقدم عليه جماعة من الأمراء الذين كانوا مع داود منهم البقش السلامي وبرسق بن برسق وصاحب تستر وسنقر الخمارتكين شحنة همذان فرضي عنهم وأمّنهم وعاد إلى همذان سنة إحدى وثلاثين.

الفتنة بين السلطان مسعود وبين داود الراشد وهزيمة مسعود ومقتل الراشد

كان الأمير بوزابة صاحب خوزستان والأمير عبد الرّحمن طغرلبك صاحب خلخال والملك داود ابن السلطان محمود خائفين من السلطان فاجتمعوا عند الأمير منكبرس صاحب فارس وبلغهم مسير الراشد من الموصل إلى مراغة فراسلوه في أن يجتمعوا عليه ويردّوه إلى خلافته فأجابهم وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود فسار إليهم في شعبان سنة اثنتين وثلاثين وأوقع بهم وأخذ منكبرس أسيراً فقتله وافترقت عساكره للنهب فانفرد بوزابة وطغرلبك وصدقا الحملة عليه فانهزم وقبض على جماعة من الأمراء مثل صدقة بن دبيس صاحب الحلّة وكافله عنتر بن أبي العساكر وابن أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وحبسهم بوزابة حتى تحقق قتل منكبرس.

ولحق السلطان مسعود بأذربيجان منهزما وسار داود إلى همذان فملكها ووصل اليه الراشد هنالك وأشار بوزابة وكان كبير القوم بالمسير إلى فارس فساروا معه واستولى عليها وملكها ولما علم سلجوق شاه وهو بواسط أنّ أخاه السلطان مسعود أمضى إلى أذربيجان سار هو إلى بغداد ليملكها ودافعه البقش النحت ونظم الخادم أمير الحاج وثار العيّارون بالبلدان وأفحشوا في النهب فلما رجع الشحنة استأصل شأفتهم وأخذ المستورين بجناياتهم فجلا الناس عن بغداد إلى الموصل وغيرها. ولما قتل صدقة بن دبيس أقرّ السلطان مسعود أخاه محمدا على الحلّة ومعه مهلهل بن أبي العساكر أخو عش المقتول كما مرّ في أخباره.

ثم لما ملك بوزابة فارس رجع مع الراشد والملك داود ومعهما خوارزم شاه إلى خوزستان وخرّبوا الجزيرة فسار إليهم مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود إلى فارس وخوارزم شاه إلى بلده وسار الراشد إلى أصفهان فثار به نفر من الخراسانية كانوا في خدمته فقتلوه عند القائلة في خامس عشر رمضان من السنة ودفن بظاهر أصفهان ثم قبض السلطان آخر السنة على وزيره أبي البركات بن سلامة الدركريني واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الخازن وكان نبيهاً حسن السيرة فرفع المظالم وأزال المكوس وأقام وظائف السلطان وجمع له الأموال وضرب على أيدي العمّال وكشف خيانتهم فثقل عليهم وأوقعوا بينه وبين الأمراء فبالغوا في السعاية فيه عند السلطان وتولى كبرها قراسنقر صاحب أذربيجان فإنه بعث إلى السلطان يتهدّده بالخروج عن طاعته فأشار على السلطان خواصه بقتله خشية الفتنة فقتله على كره وبعث برأسه إلى قراسنقر فرضي.

وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة لسبعة أشهر من وزارته واستوزر بعده أبا العزّ طاهر بن محمد اليزدجردي وزير قراسنقر ولقب عزّ الملك وضاقت الأمور على السلطان وأقطع البلاد للأمراء ثم قتل السلطان البقش السلاحيُّ الشحنة بما ظهر منه من الظلم والعسف فقبض عليه وحبسه بتكريت عند مجاهد الدين بهروز ثم أمر بقتله فلما قرب للقتل ألقى نفسه في دجلة فمات وبعث برأسه إلى السلطان فقدّم مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فحسن أثره ثم عزله السلطان سنة ست وثلاثين وولى فيها قرلي أميراً آخراً من موالي السلطان محمود وكانت له يزدجرد والبصرة فأضيف له إليهما والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

فتنة السلطان سنجار مع خوارزم شاه

وهو أوّل بداية بني خوارزم قد تقدّم لنا ذكر أوّليّة محمد خوارزم شاه وهو محمد بن أبي شتتكين وأنّ خوارزم شاه لقب له وأنّ الأمير داود حبشي لما ولاه بركيارق خراسان وقتله إكنجي ولى محمد بن أبي شتتكين وولي بعده ابنه أتسز فظهرت كفاءته

وقرّبه السلطان سنجار واستخلصه واستظهر به في حروبه فزاده ذلك تقدماً ورفعة واستفحل ملكه في خوارزم وغمي للسلطان سنجار أنه يريد الاستبداد فسار إليه سنة ثلاث وثلاثين وبرز أتسز ولقيه في التعبئة فلم يثبت وانهزم وقتل من عسكره خلق وقتل له ابن فحزن عليه حزناً شديداً وملك سنجار خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ابن أخيه محمد ورتّب له وزيراً وأتابك وحاجباً وعاد إلى مرو منتصف السنة فخالفه أتسز إلى خوارزم وهرب سليمان شاه ومن معه إلى سنجار واستولى أتسز على خوارزم وكان من أمره ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى.

استيلاء قراسنقر صاحب أذربيجان على بلاد فارس

ثم جمع أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وبرز طالباً ثأر أبيه الذي قتله بوزابة في المصاف كما مرّ.

وأرسل السلطان مسعود في قتل وزيره الكمال فقتله كما مرّ فانصرف عنه إلى بلاد فارس وتحصن عنه بوزابة في القلعة البيضاء ووطىء قراسنقر البلاد وملكها ولم يمكنه مقام فسلمها لسجلوق شاه ابن السلطان محمود وهو أخو السلطان مسعود وعاد إلى أذربيجان فنزل بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين وهزم سلجوق شاه وأسره وحبسه ببعض قلاعه واستولى على البلاد ثم هلك قراسنقر صاحب أذربيجان وأران بمدينة أردبيل وكان من مماليك طغرل وولي مكانه جاولي الطغرلي والله سبحانه وليّ التوفيق.

مسير جهان دانكي إلى فارس

ثم أمر السلطان سنة خمس وثلاثين الأمير إسماعيل جهان دانكي فسار إليها ومنعها مجاهد الدين بهروز من الوصول واستعدّ لذلك بخسف المعابر وتغريقها فقصد الحلّة فمنعها أيضاً فقصد واسط فقاتله طرنطاي وانهزم ودخل واسط ونهبها ونهب النعمانيّة وما إليها واتبعهم طرنطاي إلى البطيحة ثم فارقه عسكره إلى طرنطاي فلحق بتستر وكتب إسماعيل إلى السلطان فعفا عنه.

هزيمة السلطان سنجار أمام الخطا واستيلاؤهم على ما وراء النهر

وتلخيص هذا الخبر من كتاب ابن الأثير: أن أتسز بن محمد ملك خوارزم واستقرّ بها فبعث إلى الخطا وهم أعظم الترك فيما وراء النهر وأغراهم بمملكة السلطان سنجار واستحثّهم لها فساروا في ثلثمائة ألف فارس وسار سنجار في جميع عساكره وعبر إليهم النهر ولقيهم سنة ست وثلاثين واقتتلوا أشدّ قتال ثم انهزم سنجار وعساكره وقتل منهم مائة ألف فيهم أربعة آلاف امرأة وأسرت زوجة السلطان سنجار ولحق سنجار بترمذ وسار منها إلى بلخ وقصد أتسز مدينة مرو فدخلها مراغماً للسلطان وفتك فيها وقبض على جماعة من الفقهاء والأعيان وبعث السلطان سنجار إلى السلطان مسعود يأذن له في النصر وفي الريّ ليدعوه إن احتاج إليه فجاء عباس صاحب الريّ بذلك إلى بغداد وسار السلطان مسعود إلى الريّ امتثالا لأمر عمه سنجار.

قال ابن الأثير: وقيل إنّ بلاد تركستان وهي كاشغر وبلاد سامسون وجبّى وطراز وغيرها مما وراء النهر كانت بيد الخانيّة وهم مسلمون من نسل مراسيان ملك الترك المعروف خبره مع ملوك الكينيّة وأسلم جدّهم الأول سبق قراخان لأنه رأى في منامه أن رجلاً نزل من السماء وقال له بالتركيّة ما معناه أسلم تسلم في الدنيا والآخرة. وأسلم في منامه ثم أسلم في يقظته. ولما مات ملك مكانه موسى بن سبق ولم يزل الملك في عقبه إلى أرسلان خان بن سليمان بن داود بن بقرخان بن إبرهيم طغاج خان بن ايلك نصر بن أرسلان بن علي بن موسى بن سبق فخرج عليه قردخان وانتزع الملك منه ثم نصر سنجار وقتل قردخان وخرج بعد ذلك خوارزم ونصره السلطان سنجار منهم وأعاده إلى ملكه وكان في جنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغليّة والأتراك الغزّية الذين نهبوا خراسان على ما نذكره بعد وهم صنفان: صنف يقال لهم: حق وأميرهم طوطي بن داديك وصنف يقال لهم: برق وأميرهم برغوث بن عبد الحميد.

وكان لأرسلان نصر خان شريف يصحبه من أهل سمرقند وهو الأشرف بن محمد بن أبي شجاع العلوي فحمل ابن أرسلان نصر خان وطلبوا انتزاع الملك منه فاستصرخ السلطان سنجار فعبر إليه في عساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وانتهى إلى سمرقند فهرب القارغليّة أمامه وعاد إلى سمرقند فقبض على أرسلان خان وحبسه ببلخ فمات بها وولى على سمرقند مكانه قليج طمغاج أبا المعالي الحسن بن علي بن عبد المؤمن ويعرف بحسن تكر من أعيان بيت الخانية إلا أنّ أرسلان خان أطرحه فولاه سنجار ولم تطل أيامه فولى بعده محمود ابن أرسلان خان وأبوه هو الذي ملك سمرقند من يده وهو ابن أخت سنجار.

وكان في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد خرج كوهرخان

من الصين إلى حدود كاشغر في جموع عظيمة وكوهر الأعظم بلسانهم وخان السلطان فمنعاه أعظم ملك ولقيه صاحب كاشغر أحمد بن الحسن الخان فهزمه وقد كان خرج قبله من الصين أتراك الخطا وكانوا في خدمة الخانيّة أصحاب تركسان وكان أرسلان خان محمد بن سليمان ينزلهم على الدروب بينه وبين الصين مسالح ولهم على ذلك جرايات وإقطاعات وسخط عليهم بعض السنين وعاقبهم بما عظم عليهم فطلبوا فسيحا من البلاد يأمنون فيه من أرسلان خان لكثرة ما كان يغزوهم ووصفت لهم بلاد ساسون فساروا إليها.

ولما خرج كونان من الصين ساروا إليه واجتمعوا عليه ثم ساروا جميعاً إلى بلاد ما وراء النهر ولقيهما الخان محمود بن أرسلان خان محمد في حدود بلاده في رمضان سنة إحدى وثلاثين فهزموه وعاد إلى سمرقند وعظم الخطب على أهلها وأهل بخارى واستمدّ محمود السلطان سنجار وذكر ما لقي السلطان من العنت واجتمع عنده ملوك خراسان وملك سجستان من بني خلف وملك غزنة من الغوريين وملك مازندران وعبر النهر للقاء الترك في أكثر من ألف وذلك لآخر خمس وثلاثين وخمسمائة.

وشكا إليه محمود خان من القارغليّة فقصدهم واستجاروا بكوهرخان ملك الصين فكتب إلى سنجار بالشفاعة فيهم فلم يشفعه وكتب إليه يدعوه للإسلام ويتهدّده بكثرة العساكر فأهان الرسول وزحف للقاء سنجار والتقى الجمعان بموضع يسمّى قطران خامس صفر سنة ست وثلاثين وأبلى القارغليّة من الترك وصاحب سجستان من المسلمين ثم انهزم المسلمون فقتل كثير منهم وأسر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان سنجار فأطلقهم كوخان ومضى السلطان سنجار منهزماً وملك الترك الكفّار والخطا بلاد ما وراء النهر إلى أن مات كوخان ملكهم سنة سبع وثلاثين ووليت بعده ابنته ثم ماتت قريباً وملكت أمّها من بعدها وهي زوجة كوخان وابنه محمد وصار ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن غلبهم عليه عماد الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستمائة.

أخبار خوارزم شاه بخراسان وصلحه مع سنجار

ولما عاد السلطان منهزماً سار خوارزم شاه إلى سرخس في ربيع سنة ست وثلاثين فأطاعته ثم إلى مرو الشاهجان فشفع فيهم الإمام أحمد الباخرزي ونزل بظاهرها وبينما هو قد استدعى أبا الفضل الكرماني وأعيان أهلها للشورى ثار عامّة البلد وقتلوا من كان عندهم من جنده وامتنعوا فطاولها ودخلها عنوة وقتل كثيراً من علمائها ثم رجع في شوّال من السنة إلى نيسابور وخرج إليه علماؤها وزهّادها يسألون معافاتها مما نزل بأهل مرو فأعفاهم واستصفى أصحاب السلطان وقطع خطبة سنجار وبعث عسكراً إلى أعمال صغد فقاتلوهم أياماً ولم يطق سنجار مقاومته لمكان الخطا وجوارهم له.

ثم سار السلطان سنجار سنة ثمان وثلاثين لقتال خوارزم وحاصرها أياماً وكاد يملكها واقتحمها بعض أمرائه يوماً فدافعه أتسز بعد حروب شديدة ثم أرسل أتسز إلى سنجار بالطاعة والعود إلى ما كان عليه فقبله وعاد سنة ثمان وثلاثين.

صلح زنكي مع السلطان مسعود

ثم وصل السلطان مسعود سنة ثمان وثلاثين إلى بغداد عادته فتجهّز لقصد الموصل وكان يحمل لزنكي جميع ما وقع من الفتن فبعث إليه زنكي يستعطفه مع أبي عبد اللّه بن الأنباري وحمل معه عشرين ألف دينار وضمن مائة ألف على أن يرجع عنه فرجع وانعقد الصلح بينهما وكان مما رغب السلطان في صلحه أنّ ابنه غازي بن زنكي هرب من عند السلطان خوفا من أبيه فردّه إلى السلطان ولم يجتمع به فوقع ذلك من السلطان أحسن موقع واللّه تعالى أعلم.

انتقاض صاحب فارس وصاحب الريّ

كان بوزابة صاحب فارس وخوزستان كما قدّمنا فاستوحش من السلطان مسعود فانتقض سنة أربعين وخمسمائة وبايع لمحمد بن محمود وهو ابن أخي السلطان مسعود وسار إلى مامشون واجتمع بالأمير عبّاس صاحب الريّ ووافقه على شأنه واتصل به سليمان شاه أخو السلطان مسعود وتغلبوا على كثير من بلاده فسار إليهم من بغداد في رمضان من السنة ومعه الأمير طغابرك حاجبه وكان له التحكم في الدولة والميل إلى القوم واستخلفه وسار فلما تقاربوا للحرب نزع السلطان شاه عنهم إلى أخيه مسعود وسعى عبد الرّحمن في الصلح فانعقد بينهما على ما أحبه القوم وأضيف إلى عبد الرّحمن ولاية أذربيجان وأران إلى خلخال عوضاص من جاولي الطغرلي واستوزر أبا الفتح بن دارست وزير بوزابة وقد كان السلطان سنة تسع وثلاثين قبض

على وزيره اليزدجردي واستوزر مكانه المرزبان بن عبد الله بن نصر الأصفهاني وسلم إليه اليزدجردي واستصفى أمواله فلما كان هذه السنة وفعل بوزابة في صلح القوم ما فعل اعتضد بهم على مقامه عند السلطان وتحكم عليه وعزل وزيره واستوزر له أبا الفتح هذا.

مقتل طغابرك وعباس

قد قدمنا أن طغابرك وعبد الرحمن تحكّما على السلطان واستبدّا عليه ثم آل أمره إلى أن منعا بك أرسلان المعروف بابن خاص بك بن بنكري من مباشرة السلطان وكان تربته وخاصاً به ونجيّ خلوته وتجهز طغابرك لبعض الوجوه فحمله في جملته فأسرّ السلطان إلى أرسلان الفتك بطغابرك وداخل رجال العسكر في ذلك فأجاب منهم زنكي جاندار أن يباشر قتله بيده ووافق بك أرسلان جماعة من الأمراء واعترضوا له في موكبه فضربه الجاندار فصرعه عن فرسه وأجهز عليه ابن خاص بك ووقف الأمراء الذين واطؤوه على ذلك دون الجاندار فمنعوه وكان ذلك بظاهر صهوة وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود ببغداد ومعه عباس صاحب الريّ في جيش كثيف فامتعض لذلك ونكره فداراه السلطان حتى سكن وداخل بعض الأمراء في قتله فأجابوه وتولى كبر ذلك البقش حروسوس اللحف وأحضر السلطان عباساً وأدخله في داره وهذان الأميران عنده وقد أكمنوا له في بعض المخادع رجالاً وعدلوا به إلى مكانهم فقتلوه ونهبت خيامه وأصاخت البلاد لذلك ثم سكنت وكان عباس من موالي السلطان محمود وكان عادلاً حسن السيرة وله مقامات حسان في جهاد الباطنيّة وقتل في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين ثم حبس السلطان أخاه سليمان شاه في قلعة تكريت وسار عن بغداد إلى أصفهان والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق.

مقتل بوازبة صاحب فارس

قد تقدم لنا أن طغابرك كان مستظهراً على السلطان بعباس صاحب الري وبوزابة صاحب فارس وخوزستان فلما قتل طغابرك وامتعض له عباس قتل إثره وانتهى الخبر إلى بوزابة فجمع العساكر وسار إلى أصفهان سنة اثنتين وأربعين فحاصرها وبعث عسكراً آخر لحصار همذان وآخراً إلى قلعة الماهكي من بلاد اللحف من قلاع البقش كون خر فسار إليها ودفعهم عنها ثم سار بوزابة عن أصفهان لطلب السلطان مسعود فامتنع وتراجفا بمرج مزاتكن واشتد القتال بينهما وكبا الفرس ببوزابة وسيق إلى السلطان فقتل بين يديه وقيل: أصابه سهم فسقط ميتاً وانهزمت عساكره وكان هذا الحرب من أعظم الحروب بين السلجوقية.

انتقاض الأمراء على السلطان

ولما قتل طغابرك وعباس وبوزابة اختص بالسلطان ابن خاص بك ليله إليه وأطرح بقية الأمراء فاستوحشوا وارتابوا بأنفسهم أن يقع بهم ما وقع بالآخرين ففارقوه وساروا نحو العراق أبو ركن المسعودي صاحب كنجة وأران والبقش كون خر صاحب الجبل والحاجب خريطاي المحمودي شحنة واسط وابن طغابرك والركن وقرقوب ومعهم ابن أخي السلطان وهو محمد بن محمود وانتهوا إلى حران فاضطرب الناس ببغداد وغلت الأسعار وبعث إليهم المقتفي بالرجوع فلم يرجعوا ووصلوا إلى بغداد في ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين ونزلوا بالجانب الشرقي وهرب أجناد مسعود شحنة بغداد إلى تكريت ووصل إليهم علي بن دبيس صاحب الحلة ونزل بالجانب الغربي وجمع الخليفة العساكر ثم قاتل العامة عساكر الأمراء فاستطردوا لهم ثم كروا عليهم فملؤوا الأرض بالقتلى ثم جاست خيولهم خلال الديار فنهبوا وسبوا ثم جاؤوا مقابل التاج يعتذرون ورددوا الرسل إلى الخليفة سائر يومهم ثم ارتحلوا من الغد إلى النهروان فعاثوا وعاد مسعود من بلاد تكريت إلى بغداد ثم افترق الأمراء وفارقوا العراق ثم عاد البقش كون خر والطرنطاي وابن دبيس سنة أربع وأربعين ومعهم ملك شاه بن محمود وهو ابن أخي السلطان وطلبوا من الخليفة الخطبة لملك شاه فأبى وجمع العساكر وشغل بما كان فيه من أمر عم السلطان سنجار وذلك أن السلطان سنجار بعث إليه يلومه في تقديم ابن خاص بك ويأمره بإبعاده وتهدده فغالطه ولم يفعل فسار إلى الري فبادر إليه مسعود وترضاه فرضي عنه ولما علم البقش كون خر مراسلة المقتفي لمسعود نهب النهروان وقبض على علي بن دبيس وسار السلطان بعد لقاء عمه إلى بغداد فوصلها منتصف شوال سنة أربع وأربعين فهرب الطرنطاي إلى النعمانية ورحل البقش إلى النهروان بعد أن أطلق علي بن دبيس فجاء إلى السلطان واعتذر فرضي عنه.

وفاة السلطان مسعود وولاية ملك شاه ابن أخيه محمود ثم أخيه محمد من بعده

ثم توفي السلطان مسعود بهمذان في رجب منتصف سبع وأربعين لاثنتين وعشرين سنة من طلبه الملك وبه كمل استفحال ملك السلجوقية وركب الخمول دولتهم بعده وكان عهد إلى ملك شاه بن أخيه محمود فلما توفي بايع له الأمير ابن خاص بك وأطاعه العسكر وانتهى خبر موته إلى بغداد فهرب الشحنة بلاك إلى تكريت وأمر المقتفي بالحوطة على داره ودور أصحاب السلطان مسعود ثم بعث السلطان ملك شاه عسكراً إلى الحلة مع ملاذ كرد من أمرائه فملكها وسار إليه بلاك الشحنة فخادعه حتى استمكن منه فقبض عليه وغرقه واستبد بلاك الشحنة بالحلة وجهز المقتفي العساكر مع الوزير عون الدين بن هبيرة إلى الحِلّة وبعث عساكر إلى الكوفة وواسط فملكها ووصلت عساكر السلطان ملك شاه فملكوها وسار إليها الخليفة بنفسه فارتجعها منهم وسار منها إلى الحِلّة ثم إلى بغداد آخر ذي القعدة من السنة.

ثم إن ابن خاص بك طمع في الانفراد بالأمر فاستدعى محمد بن محمود من خوزستان فأطمعه في الملك ليقبض عليه وعلى أخيه ملك شاه فقبض على ملك شاه أولاً لستة أشهر من ولايته ووصل محمد في صفر من سنة ثمان وأربعين فاجلسه على التخت وخطب له بالسلطنة وحمل إليه الهدايا وقد سعى للسلطان محمد بما انطوى عليه ابن خاص بك فلما باكره صبيحة وصوله فتك به وقتله وقتل معه زنكي الجاندار قاتل طغابرك وأخذ من أموال ابن خاص بك كثيراً وكان صبيّاً كما بينا اتصل بالسلطان مسعود وتنصح له فقدمه على سائر العساكر والأمراء وكان أنوغري التركي المعروف بشملة في جملة ابن خاص بك ومن أصحابه ونهاه عن الدخول إلى السلطان محمد فلما قتل ابن خاص بك نجا شملة إلى خوزستان وكان له بها بعد ذلك ملك والله أعلم بغيبه وأحكم.

تغلب الغز على خراسان وهزيمة السلطان سنجار وأسره

كان هؤلاء الغز فيما وراء النهر وهم شعب من شعوب الترك ومنهم كان السلجوقية أصحاب هذه الدولة وبقوا هنالك بعد عبورهم وكانوا مسلمين فلما استولى الخطا على ملك الصين وعلى ما وراء النهر هاجر هؤلاء الغز إلى خراسان وأقاموا بنواحي بلخ وكان لهم من الأمراء محمود ودينار وبختيار وطوطي وأرسلان ومعز وكان صاحب بلخ الأمير قماج فتقدم إليهم أن يبعدوا عن بلخ فصانعوه فتركهم وكانوا يعطون الزكاة ويؤمنون السابلة ثم عاد إليهم في الانتقال فامتنعوا وجمعوا فخرج إليهم في العساكر وبذلوا له مالاً فلم يقبل وقاتلوه فهزموه وقتلوا العسكر والرعايا والفقهاء وسبوا العيال ونجا قماج إلى مرو وبها السلطان سنجار فبعث إليهم يتهددهم ويأمرهم بمفارقة بلاده فلاطفوه وبذلوا له فلم يقبل وسار إليهم في مائة ألف فهزموه وأثخنوا في عسكره وقتل علاء الدين قماج وأسروا السلطان سنجار ومعه جماعة من الأمراء فقتلوا الأمراء واستبقوا السلطان سنجار وبايعوه ودخلوا معه إلى مرو فطلب منه بختيار إقطاعها فقال: هي كرسي خراسان. فسخروا منه.

ثم دخل سنجار خانقاه فقسط على الناس وأطرهم وعسفهم وعلق في الأسواق ثلاث غرائر وطالبهم بملئها ذهباً فقتله العامة ودخل الغز نيسابور ودمروها تدميراً وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء في كل بلد ولم يسلم من خراسان غير هراة وسبستان لحصانتهما.

وقال ابن الأثير عن بعض مؤرخي العجم: إن هؤلاء الغز انتقلوا من نواحي التغرغر من أقاصي الترك إلى ما وراء النهر أيام المقتفي وأسلموا واستظهر بهم المقنع الكندي على مخارقه وشعوذته حتى تم أمره فلما سارت إليه العساكر خذلوه وأسلموه وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخانية ثم طردهم الأتراك القارغلية عن أقطاعهم فاستدعاهم الأمير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طخارستان وأنزلهم بلاده واستظهر بهم على قماج صاحب بلخ وسار بهم لمحاربته فخذلوه لأن قماج كان استمالهم فانهزم زنكي وأسر هو وابنه وقتلهما قماج وأقطع الغز في بلاده.

فلما سار الحسين بن الحسين الغوري إلى بلخ برز إليه قماج ومعه هؤلاء الغز فخذلوه ونزعوا عنه إلى الغوري حتى ملك بلخ فسار السلطان سنجار إلى بلخ وهزم الغوري واستردها وبقي الغز بنواحي طخارستان وفي نفس قماج حقد عليهم فأمرهم بالانتقال عن بلاده فتألفوا وتجمعوا في طوائف من الترك وقدموا عليهم أرسلان بوقاء التركي ولقيهم قماج فهزموه وأسروه وابنه أبا بكر وقتلوهما واستولوا على نواحي بلخ وعاثوا فيها وجمع السلطان سنجار وفي مقدمته محمد بن أبي بكر بن قماج المقتول والمؤيد ابنه في محرم سنة ثمان وأربعين وجاء السلطان سنجار على أثره وبعثوا إليه بالطاعة والأموال فلم يقبل منهم وقاتلهم فهزموه إلى بلخ ثم عاود قتالهم فهزموه إلى مرو واتبعوه فهرب هو وعسكره من مرو

رعباً منهم ودخلوا البلد وأفشحوا فيه قتلاً ونهباً وقتلوا القضاة والأئمة والعلماء ولما خرج سنجار من مرو وأسروه أجلسوه على التخت على عادته وآتوه طاعتهم ثم عاودوا الغارة على مرو فمنعهم أهلها وقاتلوهم ثم عجزوا واستسلموا فاستباحوها أعظم من الأولى ولما أسر سنجار فارقه جميع أمراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ووصلوا إلى نيسابور واستدعوا سليمان شاه بن السلطان محمود وخطبوا له بالسلطان في منتصف السنة واجتمعت عليه عساكر خراسان وساروا لطلب الغز فبارزوهم على مرو وانهزمت العساكر رعباً منهم وقصدوا نيسابور والغز في اتباعهم ومروا بطوس فاستباحوها وقتلوا حتى العلماء والزهاد وخربوا حتى المساجد.

ثم ساروا إلى نيسابور في شوال سنة تسع وأربعين ففعلوا فيها أفحش من طوس حتى ملأوا البلاد من القتلى وتحصن طائفة بالجامع الأعظم من العلماء والصالحين فقتلوهم عن آخرهم وأحرقوا خزائن الكتب وفعلوا مثل ذلك في جوين وأسفراين فحاصروهما واقتحموهما مثل ما فعلوا في البلاد الأخرى وكانت أفعال الغز في هذه البلاد أعظم وأقبح من أفعال الغز في غيرها ثم إن السلطان سليمان شاه توفي وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك في شوال سنة ثمان وأربعين فاستوزر ابنه نظام الملك وانحل أمره وعجز عن القيام بالملك فعاد إلى جرجان في صفر سنة تسع وأربعين فاجتمع الأمراء وخطبوا للخان محمود بن محمد بن بقراخان وهو ابن أخت سنجار واستدعوه فملكوه في شوال من السنة وساروا معه لقتال الغز وهم محاصرون هراة فكانت حروبه معهم سجالاً وأكثر الظفر للغز ثم رحلوا عن هراة إلى مرو منتصف خمسين وأعادوا مصادرة أهلها وسار الخان محمد إلى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد كما يذكر فراسل الغز في الصلح فصالحوه في رجب.

استيلاء المؤيد على نيسابور وغيرها

هذا المؤيد من موالي سنجار واسمه..... وكان من أكابر أوليائه ومطاعاً فيهم ولما كانت هذه الفتنة وافترق أمر الناس بخراسان تقدم..... فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وان ورد وشهرستان والدامغان وحصنها ودافع الغز عنها ودانت له الرعية لحسن سيرته فعظم شأنه وكثرت جموعه واستبد بهذه الناحية وطالبه الخان محمود عندما ملكوه بالحضور عنده وتسليم البلاد فامتنع وترددت الرسل بينهما على مال يحمله للخان محمود فضمنه المؤيد وكف عنه محمود واستقر الحال على ذلك والله سبحانه تعالى أعلم.

استيلاء ايتاخ على الري

كان ايتاخ من موالي السلطان سنجار وكانت الري أيضاً من أعمال سنجار فلما كانت فتنة الغز لحق بالري واستولى عليها وصانع السلطان محمد شاه ابن محمود صاحب همذان وأصبهان وغيرهما وبذل له الطاعة فأقره فلما مات السلطان محمد مد يده إلى أعمال تجاوزته وملكها فعظم أمره وبلغت عساكره عشرة آلاف فلما ملك سليمان شاه همذان على ما نذكره وقد كان أنس به عند ولاية سليمان على خراسان سار إليه وقام بخدمته وبقي مستبداً بتلك البلاد والله سبحانه وتعالى أعلم.

الخبر عن سليمان شاه وحبسه بالموصل

كان سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملك شاه عند عمه السلطان سنجار وجعله ولي عهده وخطب له على منابر خراسان فلما وقعت فتنة الغز وأسر سنجار قدمه أمراء خراسان على أنفسهم ثم عجز ومضى إلى خوارزم شاه فزوجه ابنة أخيه ثم سعى به عنده فأخرجه من بلده وجاء إلى أصفهان فمنعه الشحنة من الدخول فمضى إلى قاشان فبعث السلطان محمد شاه ابن أخيه محمود عسكراً ليدفعه عنها فسار إلى خوزستان فمنعه ملك شاه منها فقصد اللحف ونزل وأرسل المقتفي في أثره فطلبه في زوجته رهينة ببغداد فبعث بها مع جواريها وأتباعها فأكرمهم المقتفي وأذن له في القدوم وخرج الوزير ابن هبيرة وقاضي القضاة والفتيان لتلقيه وخلع عليه المقتفي وأقام ببغداد حتى إذا دخلت سنة إحدى وخمسين أحضر بدار الخلافة وحضر قاضي القضاة والأعيان واستحلف على الطاعة والتجافي للخليفة عن العراق وخطب له ببغداد ولقب ألقاب أبيه وأمده بثلاثة آلاف من العسكر وجعل معه الأمير دوران أمير حاجب صاحب الحلة.

وسار إلى بلاد الجبل في ربيع الأول من السنة وسار المقتفي إلى حلوان وبعث إلى ملك شاه بن السلطان محمود يدعوه إلى موافقة عمه سليمان شاه وأن يكون ولي عهده فقدم في ألفي فارس وتحالفا وأمدهما المقتفي بالمال والأسلحة واجتمع معهم ايلدكز صاحب كنجة وأرانية وساروا لقتال السلطان محمد فلما بلغه خبرهم أرسل إلى قطب الدين مودود بن زنكي ونائبه زين الدين

على كوجك في المساعدة والاتفاق فأجابه وسارا للقاء عمه سليمان شاه ومن معه واقتتلوا في جمادى الأولى فهزمهما السلطان محمد وافترقوا وتوجه سليمان شاه إلى بغداد على شهرزور وكانت لصاحب الموصل وبها الأمير بوران من جهة علي كوجك نائب الموصل فاعترضه هنالك كوجك وبوران فاحتمله كوجك إلى الموصل فحبسه بها وبعث إلى السلطان محمد بالخبر وأنه على الطاعة والمساعدة فقبل منه وشكر له.

فرار سنجار من أسر الغز

قد تقدم لنا ما كان من أسر السلطان سنجار بيد الغز وافتراق خراسان واجتماع الأمراء بنيسابور وما إليها على الخان محمود بن محمد وامتنعوا من الغز وامتنع أتسز بن محمد أنوشكين بخوارزم وانقسمت خراسان بينهم وكانت الحرب بين الغز وبينهما سجالاً ثم هرب سنجار من أسر الغز وجماعة من الأمراء كانوا معه في رمضان سنة إحدى وخمسين ولحق بترمذ ثم عبر جيحون إلى دار ملكه بمرو فكانت مدة أسره من جمادى سنة ثمان وأربعين ثلاث سنين وأربعة أشهر ولم يتفق فراره من الأسر إلا بعد موت علي بك مقدم القارغلية لأنه كان أشد شيء عليه فلما توفي انقطعت القارغلية إليه وغيرهم ووجد فسحة في أمره والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار السلطان محمد بغداد

كان السلطان محمد بن محمود لأول ولايته الملك بعد عمه مسعود بعث إلى المقتفي في الخطبة له ببغداد والعراق على عادتهم فمنعه لما رجا من ذهاب دولتهم استفحالهم واستبدادهم فسار السلطان من همذان في العساكر نحو العراق ووعده صاحب الموصل ونائبه بمدد العساكر فقدم آخر إحدى وخمسين وبعث المقتفي في الحشد فجاء خطا وفرس في عسكر واسط وخالفهم مهلهل إلى الحلة فملكها واهتم المقتفي وابن هبيرة بالحصار وقطع الجسر وجمع السفن تحت التاج ونودي في الجانب الغربي بالعبور فعبروا في محرم سنة اثنتين وخمسين وخرب المقتفي ما وراء الخرسة صلاحاً في استبداده وكذلك السلطان محمد من الجهة الأخرى ونصبت المنجنيقات والعرادات وفرق المقتفي السلاح على الجند والعامة.

وجاء زين الدين كجك في عسكر الموصل ولقي السلطان علي أوان واتصلت الحرب واشتد الحصار وفقدت الأقوات وانقطعت المواد عن أهل بغداد وفتر كجك وعسكره في القتال أدباً مع المقتفي وقيل: أوصاه بذلك نور الدين محمود بن زنكي أخو قطب الدين الأكبر ثم جاء الخبر بأن ملك شاه أخا السلطان محمد وايلدكز صاحب أران وربيبه أرسلان بن طغرل قصدوا همذان فسار عن بغداد مسرعاً إلى همذان آخر ربيع الأول وعاد زين الدين إلى الموصل ولما وصل ملك شاه وايلدكز وربيبه أرسلان إلى همذان أقاموا بها قليلاً وسمعوا بمجيء السلطان فأجفلوا وساروا إلى الري فقاتلهم الشحنة انبانج فهزموه وحاصروه وأمده السلطان محمد بعسكر بن سقمس بن قماز فوجدهم قد أفرجوا عنه وقصدوا بغداد فقاتلهم فهزموه ونهبوا عسكره فسار السلطان محمد ليسابقهم إلى بغداد فلما انتهى إلى حلوان بلغه أن ايلدكز بالدينور ثم وافاه رسول انبانج بأنه ملك همذان وخطب له فيها وان شملة صاحب خراسان هرب عن ايلدكز وملك شاه إلى بلاده فعاد إلى أران ورجع السلطان إلى همذان قاصداً للتجهز إلى بلاد ايلدكز بأران.

وفاة سنجار

ثم توفي السلطان سنجار صاحب خراسان في ربيع سنة اثنتين وخمسين وقد كان ولي خراسان منذ أيام أخيه بركيارق وعهد له أخوه محمد فلما مات محمد خوطب بالسلطنة وكان الملوك كلهم بعدها في طاعته نحو أربعين سنة وخطب له قبلها بالملك عشرين سنة وأسره الغز ثلاث سنين ونصف ومات بعد خلاصه من الأسر وقطعت خطبته ببغداد والعراق ولما احتضر استخلف على خراسان ابن أخته محمد بن محمود بن بقراخان فأقام بجرجان وملك الغز مرو وخراسان وملك به المؤيد نيسابور وناحيته من خراسان وبقي الأمر على هذا الخلاف سنة أربع وخمسين وبعث الغز إلى محمود الخان ليحضر عندهم فيملكوه فخافهم على نفسه وبعث ابنه إليهم فأطاعوه مدة ثم لحق هو بهم كما نذكر بعد.

منازعة ايتاق للمؤيد

كان إيتاق هذا من موالي السلطان سنجار فلما كانت الفتنة وافترق الشمل ومات السلطان سنجار وملك المؤيد نيسابور وحصل له التقدم بذلك على عساكر خراسان حسده جماعة من الأمراء وانحرف عنه إيتاق هذا فتارة يكون معه وتارة يكون في مازندران فلما كان سنة اثنتين وخمسين سار من مازندران في عشرة

آلاف فارس من المنحرفين عن المؤيد وقصد نسا وأبيورد وأقام بها المؤيد إيتاق فسار إليه وكبسه وغنم معسكره ومضى إيتاق منهزماً إلى مازندران وكان بين ملكها رستم وبين أخيه منازعة علي فتقرب إيتاق إلى رستم بقتال أخيه علي فوجد لذلك غلبة ودفعه عنه وسار يتردد في نواحي خراسان بالعيث والفساد وألح على إسفراين فخربها وراسله السلطان محمود الخان والمؤيد في الطاعة والاستقامة فامتنع فساروا إليه في العساكر في صفر سنة ثلاث وخمسين فهرب إلى طبرستان وبعث رستم شاه مازندران إلى محمود والمؤيد بطاعته بأموال جليلة وهدية فقبلوا منه وبعث إيتاق ابنه رهناً على الطاعة فرجعوا عنه واستقر بجرجان ودستان وأعمالها.

منازعة سنقر العزيزي للمؤيد ومقتله

كان سنقر العزيزي من أمراء السلطان سنجار وكان في نفسه من المؤيد ما عند الباقين فلما شغل المؤيد بحرب إيتاق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد إلى هراة فملكها واشترط عليه أن يستظهر بملك الغورية الحسين فأبى وطمع في الاستبداد لما رأى من استبداد الأمراء على السلطان محمود بن محمد فحاصره المؤيد بهراة واستمال الأتراك الذين كانوا معه فأطاعوه وقتلوا سنقر العزيزي غيلة وملك السلطان محمد هراة ولحق الفل من عسكر سنقر بإيتاق وتسلطوا على طوس وقراها واستولى الخراب على البلاد والله تعالى أعلم.

فتنة الغز الثانية بخراسان وخراب نيسابور على يد المؤيد

كان الغز بعد فتنتهم الأولى أوطنوا بلخ ونزعوا عن النهب والقتل بخراسان واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان محمود بن محمد الخان وكان القائم بدولته المؤيد أي أبه فلما كان سنة ثلاث وخمسين في شعبان سار الغز إلى مرو فزحف المؤيد إليهم وأوقع طائفة منهم وتبعهم إلى مرو وعاد إلى سرخس وخرج معه الخان محمود لحربهم فالتقوا خامس شوال وتواقعوا مراراً ثلاثاً انهزم فيها الغز على مرو وأحسنوا السيرة وأكرموا العلماء والأئمة ثم أغاروا على سرخس وطوس واستباحوهما وخربوهما وعادوا إلى مرو وأما الخان محمود بن محمد فسار إلى جرجان ينتظر مآل أمرهم وبعث إليه الغز سنة أربع يستدعونه ليملكوه فاعتذر لهم خشية على نفسه فطلبوا منه جلال الدين عمر فتوثق منهم بالحلف وبعثه إليهم فعظموه وملكوه في ربيع الآخر من سنة أربع.

ثم سار أبوه محمود إلى خراسان وتخلف عنه المؤيد أي أبه وانتهى إلى حدود نسا وأبيورد فولى عليهم الأمير عمر بن حمزة النسوي فقام في حمايتهما المقام المحمود بظاهر نسا ثم سار الغز من نيسابور إلى طوس لامتناع أهلها من طاعتهم فملكوها واستباحوها وعادوا إلى نيسابور فساروا مع جلال الدين عمر بن محمود الخان إلى حصار سارورا وبها النقيب عماد الدين محمد بن يحيى العلوي الحسيني فحاصروه وامتنعت عليهم فرجعوا إلى نسا وأبيورد للقاء الخان محمود بجرجان كما قدمناه فخرج منها سائراً إلى خراسان واعترضه الغز ببعض القرى في طريقه فهرب منه وأسر بعضهم ثم هرب منه ولحق بنيسابور فلما جاء الخان محمود إليها مع الغز فارقها منتصف شعبان ودخلها الغز وأحسنوا السيرة وساروا إلى سرخس ومرو فعاد المؤيد في عساكره إلى نيسابور وامتنع أهلها عليه فحاصرها وافتتحها عنوة وخربها ورحل عنها إلى سبق في شوال سنة أربع وخمسين.

استيلاء ملك شاه بن محمود على خوزستان

ولما رجع السلطان ملك شاه محمد بن محمود من حصار بغداد وامتنع الخليفة من الخطبة له أقام بهمذان عليلاً وسار أخوه ملك شاه إلى قم وقاشان فأفحش في نهبها ومصادرة أهلها وراسله أخوه السلطان محمد في الكف عن ذلك فلم يفعل وسار إلى أصفهان وبعث إلى ابن الجمقري وأعيان البلد في طاعته فاعتذروا بطاعة أخيه فعاث في قراها ونواحيها فسار السلطان إليه من همذان وفي مقدمته كرجان الخادم فافترقت جموع ملك شاه ولحق ببغداد فلما انتهى إلى قوس لقيه موبدان وسنقر الهمذاني فأشارا عليه بقصد خوزستان من بغداد فسار إلى واسط ونزل بالجانب الشرقي وسار أثر عسكره في النواحي ففتحوا عليهم البثوق وغرق كثير منهم ورجع ملك شاه إلى خوزستان فمنعه شملة من العبور فطلب الجوار في بلده إلى أخيه السلطان فمنعه فنزل على الأكراد الذين هنالك فاجتمعوا عليه من الجبال والبسائط وحارب شملة ومع ملك شاه سنقر الهمذاني وموبدان وغيرهما من الأمراء فانهزم شملة وقتل عامة أصحابه واستولى ملك شاه على البلاد وسار إلى فارس والله هو المؤيد بنصره.

وفاة السلطان محمد وولاية عمه سليمان شاه

ثم توفي السلطان محمد بن محمود بن ملك شاه آخر سنة أربع وخمسين وهو الذي حاصر بغداد يطلب الخطبة له من الخليفة ومنعه فتوفي آخر هذه السنة لسبع سنين ونصف من ولايته وكان له ولد صغير فسلمه إلى سنقر الأحمديلي وقال: هو وديعة عندك فاوصل به إلى بلادك فإن العساكر لا تطيعه. فوصل به إلى مراغة واتفق معظم الجند على البيعة لعمه سليمان شاه وبعث أكابر الأمراء بهمذان إلى أتابك زين الدين مودود أتابك ووزير مودود وزيره فأطلقه مودود وجهزه بما يحتاج إليه في سلطانه وسار معه زين الدين علي كجك في عساكر الموصل فلما انتهى إلى بلاد الجبل وأقبلت العساكر للقاء سليمان شاه ذكر معاملتهم مع السلطان ودالتهم عليه فخشي على نفسه وعاد إلى الموصل ودخل سليمان شاه همذان وبايعوا له والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة المقتفي وخلافة المستنجد

ثم توفي المقتفي لأمر الله في ربيع الأول سنة خمس وخمسين لأربع وعشرين سنة من خلافته وقد كان استبد في خلافته وخرج من حجر السلجوقية عند افتراق أمرهم بعد السلطان مسعود كما ذكرناه في أخبار الخلفاء ولما توفي بويع بعده بالخلافة لابنه المستنجد فجرى على سنن أبيه في الاستبداد واستولى على بلاد الماهلي ونزل اللحف وولى عليها من قبله كما كانت لأبيه وقد تقدم ذكر ذلك في أخبارهما انتهى.

اتفاق المؤيد مع محمود الخان

قد كنا قدمنا أن الغز لما تغلبوا استدعوا محمود الخان ليملكوه فبعث إليهم بابنه عمر فملكوه ثم سار محمود من جرجان إلى نسا وجاء الغز فساروا به إلى نيسابور فهرب عنها المؤيد ودخلها محمود والغز ثم ساروا عنها فعاد إليها المؤيد فحاصرها وملكها عنوة وخربها في شوال سنة أربع وخمسين ورحل عنها إلى سرخس فعاد اليها المؤيد فحاصرها وملكها عنوة ورحل عنها إلى بيهق ثم رجع إليها سنة خمس وخمسين وعمر خرابها وبالغ في الإحسان إليها ثم سار لإصلاح أعمالها ومحو آثار المفسدين والثوار من نواحيها ففتح حصن أشقيل وقتل الثوار الزيدية وخربه وفتح حصن خسروجور من أعمال بيهق وهو من بناء كنجرو ملك الفرس أيام حربه مع جراسياق وملكه ورتب فيه الحامية وعاد إلى نيسابور ثم قصد مدينة كندر من أعمال طرسا وفيها متغلب اسمه خرسده يفسد السابلة ويخرب الأعمال ويكثر الفتك وكان البلاء به عظيماً في خراسان فحاصره ثم ملك عليه الحصن عنوة وقتله وأراح البلاد منه ثم قصد في رمضان من السنة مدينة بيهق وكانوا قد عصوا عليه فراجعوا الطاعة وقبلهم واستفحل أمره فأرسل إليه الخان محمود بن محمد وهو مع الغز بالولاية على نيسابور وطوس وما إليها فاتصلت يده به واستحكم الصلح بينه وبين الغز وذهبت الفتن.

الحرب بين عسكر خوارزم شاه والأتراك البرزية

كان هؤلاء الأتراك البرزية من شعوب الترك بخراسان وأميرهم بقراخان بن داود فأغار عليهم جمع من عساكر خوارزم شاه وأوقعوا بهم وفتكوا فيهم ونجا بقراخان في الفل منهم إلى السلطان محمود بخراسان ومن معه من الغز مستصرخاً بهم وهو يظن أن إيتاق هو الذي هيج عليهم فسار الغز معه على طريق نسا وأبيورد وقصدوا إيتاق فلم يكن له بهم قوة فاستنصر.... شاه مازندان فسار لنصره واحتشد في أعماله من الأكراد والديلم والتركمان وقاتلوا الغز والبرزية بنواحي دهستان فهزمهم خمساً وكان إيتاق في ميمنة شاه مازندان وأفحش الغز في قتل عسكرهم ولحق شاه مازندان بسارية وإيتاق شهرزور وخوارزم ثم ساروا إلى دهستان فنهبوها وخربوها سنة ست وخمسين وخربوا جرجان كذلك وافترق أهلها في البلاد ثم سار إيتاق إلى بقراتكن المتغلب على أعمال قزوين فانهزم من بين يديه ولحق بالمؤيد وصار في جملته واكتسح إيتاق سائر أعماله ونهب أمواله فقوي بها.

وفاة ملك شاه بن محمود

قد قدمنا أن ملك شاه بن محمود سار بعد أخيه السلطان محمد من خوزستان إلى أصفهان ومعه شملة التركماني ودكلا صاحب فارس فأطاعه ابن الخجندي رئيس أصفهان وسائر أهلها وجمع له الأموال وأرسل ملك شاه إلى أهل الدولة بأصفهان يدعوهم إلى طاعته وكان هواهم مع عمه سليمان فلم يجيبوه إلى ذلك وبعثوا عن سليمان من الموصل وملكوه وانفرد ملك شاه

بأصفهان واستفحل أمره وبعث إلى المستنجد في الخطبة له ببغداد مكان عمه سليمان شاه وأن تعاد الأمور إلى ما كانت ويتهددهم فوعد الوزير عميد الدين بن هبيرة جارية جاعلها على سمه فسمته في الطعام وفطن المطبب بأنه مسموم وأخبر بذلك شملة ودكلا فأحضروا الجارية وأقرت ومات ملك شاه وأخرج أهل أصفهان أصحابه وخطبوا لسليمان شاه وعاد شملة إلى خراسان فارتجع ما كان ملك شاه تغلب عليه منها.

قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان

كان سليمان لما ملك أقبل على اللّهو ومعاقرة الخمر حتى في نهار رمضان وكان يعاشر الصفاعين والمساخر وعكف على ذلك مع ما كان فيه من الخرق والتهور فقعد الأمراء عن غشيان بابه وشكوا إلى شرف الدين كردبازه الخادم وكان مدبر مملكته وكان حسن التربية والدين فدخل عليه يوماً يعذله على شأنه وهو مع ندمائه بظاهر همذان فأشار إليهم أن يعبثوا بكردبازة فخرج مغضباً واعتذر إليه عندما صحا فأظهر له القبول وقعد عن غشيان مجلسه وكتب سليمان شاه إلى انبانج صاحب الري يدعوه إلى الحضور فوعده بذلك إذا أفاق من مرضه وزاد كردبازه استيحاشاً فاستحلف الأمراء على خلع سليمان وبدأ بقتل جميع الصفاعين الذين كانوا ينادمونه وقال: إنما فعلته صوناً للملك ثم عمل دعوة في داره فحضر سليمان شاه والأمراء وقبض على سليمان شاه ووزيره أبي القاسم محمود بن عبد العزيز الخاقدي وعلى خواصه وذلك في شوال سنة خمس وخمسين وقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه قليلاً ثم قتله.

ثم أرسل إلى ايلدكز صاحب أران وأذربيجان يستقدم ربيبه أرسلان بن طغرل ليبايع له بالسلطنة وبلغ الخبر إلى انبانج صاحب الري فسار إلى همذان ولقيه كردبازه وخطب له بالسلطنة بجميع تلك البلاد وكان ايلدكز قد تزوج بأم أرسلان وولدت له ابنه البهلوان محمد ومزد أرسلان عثمان فكان ايلدكز أتابك وابنه البهلوان حاجباً وهو أخو أرسلان لأمه وايلدكز هذا من موالي السلطان مسعود ولما ملك أقطعه أران وبعض أذربيجان وحدثت الفتن والحروب فاعتصم هو بأران ولم يحضر عند أحد من ملوكهم وجاء إليه أرسلان شاه من تلك الفتن فأقام عنده إلى أن ملك ولما خطب له بهمذان بعث ايلدكز أتابك إلى انبانج صاحب الري ولاطفه وصاهره في ابنته لابنه البهلوان وتحالفا على الاتفاق.

وبعث إلى المستنجد بطلب الخطبة لأرسلان في العراق وإعادة الأمور إلى عادتها أيام السلطان مسعود فطرد رسوله بعد الإهانة ثم أرسل ايلدكز إلى أقسنقر الأحمديلي يدعوه إلى طاعة السلطان أرسلان فامتنع وكان عنده ابن السلطان شاه بن محمود المدني أسلمه إليه عند موته فتهدده بالبيعة له وكان الوزير ابن هبيرة يكاتبه من بغداد ويقمعه في الخطبة لذلك الصبي قصداً للنصر من بينهم فجهز ايلدكز العساكر مع البهلوان إلى أقسنقر واستمد أقسنقر شاهر بن سقمان القطبي صاحب خلاط وواصله فمده بالعساكر وسار نحو البهلوان وقاتله فظفر به ورجع البهلوان إلى همذان مهزوماً واللّه تعالى أعلم.

الحرب بين ايلدكز وإينانج

لما مات ملك شاه بن محمود بأصبهان كما قلناه لحق طائفة من أصحابه ببلاد فارس ومعهم ابنه محمود فانتزعه منهم صاحب فارس زنكي بن دكلا السلقدي وأنزله في قلعة إصطخر فلما ملك ايلدكز السلطان أرسلان وطلب الخطبة ببغداد وأخذ الوزير ابن هبيرة في استفساد الأطراف عليهم وبعث لابن أقسنقر في الخطبة لابن السلطان محمد شاه الذي عنده وكاتب صاحب فارس أيضاً يشير عليه بالبيعة للسلطان محمد بن السلطان ملك شاه الذي عنده ويعده بالخطبة له إن ظفر بايلدكز فبايع له ابن دكلا وخطب له بفارس وضرب النوب الخمس على بابه وجمع العساكر وبلغ إلى ايلدكز فجمع وسار في أربعين ألفاً إلى أصفهان يريد فارس فأرسل إلى زنكي في الخطبة لأرسلان شاه فأبى فقال له ايلدكز: إن المستنجد أقطعني بلادك وأنا سائر إليها. وتقدمت طائفة إلى نواحي أرجان فلقيتها سرية لأرسلان بوقا صاحب أرجان فأوقعوا بطائفته وقتلوا منهم وبعثوا بالخبر إلى انبانج فنزل من الري في عشرة آلاف وأمده أقسنقر الأحمديلي بخمسة آلاف فقصد وهرب صاحب ابن البازدان وابن طغايرك وغيرهما من أولياء ايلدكز للقاء انبانج ورد عسكر المدافعة زنكي عن شهيرم وغيرها من البلاد فهزمهم زنكي بن دكلا ورجعوا إليه فاستدعى عساكره من أذربيجان وجاء هبيس بن مزد أرسلان واستمد انبانج وقتل أصحابه ونهب سواده ودخل الري وتحصن في قلعة طبرك ثم ترددت الرسل بينه وبين ايلدكز في الصلح وأقطعه حربادفان وغيرها وعاد ايلدكز إلى همذان واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

الفتنة بنيسابور وتخريبها

وفي ربيع سنة ست وخمسين قبض المؤيد على أحياء نيسابور

وحبسهم وفيهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسني وآخذهم على ما فعله آباؤهم بأهل البلد من النهب والاعتداء على الناس في أموالهم وأعراضهم فأخذ هؤلاء الأعيان ينهونهم كأنهم لم يضربوا على أيديهم وقتل جماعة من أهل الفساد فخرب البلد وامتدت الأيدي إلى المساجد والمدارس وخزائن الكتب وأحرق بعضَها ونهب بعضها وانتقل المؤيد إلى الشاذياخ فأصلح سوره وسد ثلمه وسكنه وخرب نيسابور بالكلية وكان الذي اختط هذا الشاذياخ عبد الله بن طاهر أيام ولايته على خراسان ينفرد بسكناه هو وحشمه عن البلد تجافياً عن مزاحمتهم ثم خربت وجددها ألب أرسلان ثم خربت فجددها الآن المؤيد وخربت نيسابور بالكلية ثم زحف الغز والخان محمود معهم وهو ملك خراسان لذلك العهد فحاصروا المؤيد بالشاذياخ شهرين ثم هرب الخان عنهم إلى شهرستان كأنه يريد الحمام وأقام بها وبقي الغز إلى آخر شوال ثم رجعوا فنهبوا البلاد ونهبوا طوس ولما دخل الخان إلى نيسابور أمهله المؤيد إلى رمضان سنة سبع وخمسين ثم قبض عليه وسمله وأخذ ما كان معه من الذخائر وحبسه وحبس معه جلال محمد فماتا في محبسهما وخطب المؤيد لنفسه بعد المستنجد ثم زحف المؤيد إلى شهرستان وقرب نيسابور فحاصرها حتى نزلوا على حكمه في شعبان سنة تسع وخمسين ونهبها عسكره ثم رفع الأيدي عنها واستقامت في ملكه والله أعلم.

فتح المؤيد طوس وغيرها

ثم زحف المؤيد إلى قلعة دسكرة من طوس وكان بها أبو بكر جاندار ممتنعاً فحاصره بها شهراً وأعانه أهل طوس لسوء سيرته فيهم ثم جهده الحصار فاستأمن ونزل فحبسه وسار إلى كرمان فأطاعوه وبعث عسكراً إلى إسفراين فتحصن بها رئيسها عبد الرحمن بن محمد بالقلعة فحاصره واستنزله وحمله مقيداً إلى الشاذياخ فحبس ثم قتل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين ثم ملك المؤيد قهندر ونيسابور واستفحل ملكه وعاد إلى ما كان عليه وعمر الشاذياخ وخرب المدينة العتيقة ثم بعث عسكراً إلى بوشنج وهراة وهي في ولاية محمد بن الحسين ملك الغور فحاصرها وبعث الملك محمد عسكراً لمدافعته فأفرجوا عنها وصفت ولاية هراة للغورية.

الحرب بين المسلمين والكرج

كان الكرج قد ملكوا مدينة أنى من بلاد أران في شعبان سنة ست وخمسين واستباحوها قتلاً وأسراً وجمع لهم شاه أرمن بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط جموعاً من الجند والمتطوعة وسار إليهم فقاتلوه وهزموه وأُسر كثير من المسلمين ثم جمع الكرج في شعبان سنة سبع وخمسين ثلاثين ألف مقاتل وملكوا دوس من أذربيجان والجبل وأصبهان فسار إليهم ايلدكز وسار معه شاه أرمن بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط وأقسنقر صاحب مراغة في خمسين ألفاً ودخلوا بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين فاستباحوها وأسروا الرجال وسبوا النساء والولدان وأسلم بعض أمراء الكرج ودخل مع المسلمين وكمن بهم في بعض الشعاب حتى زحف الكرج وقاتلوا المسلمين شهراً أو نحوه ثم خرج الكمين من ورائهم فانهزموا واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وعادوا ظافرين.

ملك المؤيد أعمال قومس والخطبة للسلطان أرسلان بخراسان

ثم سار المؤيد أي أبه صاحب نيسابور إلى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان وولى بسطام مولاه تنكز فجرى بينه وبين شاه مازندان اختلاف أدى إلى الحرب واقتتلوا في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ولما ملك المؤيد قومس بعث إليه السلطان أرسلان بن طغرل بالخلع والأولية لما كان بين المؤيد ايلدكز من المودة وأذن له في ولاية ما يفتحه من خراسان ويخطب له فيها فخطب له في أعمال قومس وطوس وسائر أعمال نيسابور ويخطب لنفسه بعد أرسلان وكانت الخطب في جرجان ودهستان لخوارزم شاه أرسلان بن أتسز وبعده للامير إيتاق والخطبة في مرو وبلخ وسرخس وهي بيد الغز وهراة وهي بيد الأمير أتيكين وهو مسالم للغز - للسلطان سنجار يقولون: اللّهم اغفر للسلطان السعيد سنجار وبعده لأمير تلك المدينة والله تعالى ولي التوفيق.

إجلاء القارغلية من وراء النهر

كان خان خاقان الصيني ولى على سمرقند وبخارى الخان جغرا بن حسين تكين وهو من بيت قديم في الملك ثم بعث إليه سنة سبعة وخمسين بإجلاء القارغلية من أعماله إلى كاشغر ويشتغلون بالمعاش من الزراعة وغيرها فامتنعوا فألح عليهم فاجتمعوا وساروا إلى بخارى فدس أهل بخارى إلى جغراخان وهو بسمرقند ووعدوا القارغلية بالمصانعة وطاوعوهم إلى أن صبحهم

جغرا في عساكره فأوقع بهم وقطع دابرهم والله تعالى أعلم.

استيلاء سنقر على الطالقان وغرستان

وفي سنة تسع وخمسين استولى الأمير صلاح الدين سنقر من موالي السلطان سنجار على بلاد الطالقان وأغار على غرستان حتى ملكها وصارت في حكمه بحصونها وقلاعها وصالح أمراء الغز وحمل لهم الأتاوة.

قتل صاحب هراة

كان صاحب هراة الأمير أتيكين وبينه وبين الغز مهادنة فلما قتل الغز ملك الغور محمد بن الحسين كما مر في أخباره طمع أتيكين في بلاده فجمع جموعه وسار إليها في رمضان سنة تسع وخمسين وتوغل في بلاد الغور فقاتله أهلها وهزموه وقتل في المعركة وقصد الغز هراة وقد اجتمع أهلها على أثير الدين منهم فاتهموه بالميل للغز وقتلوه واجتمعوا على أبي الفتوح بن علي بن فضل الله الطغرائي ثم بعثوا إلى المؤيد بطاعتهم فبعث إليهم مملوكه سيف الدين تنكز فقام بأمرهم وبعث جيشاً إلى سرخس ومرو وأغاروا على دواب الغز فأفرجوا عن هراة ورجعوا لطاعته والله تعالى أعلم.

ملك شاه مازندران قومس وبسطام ووفاته

قد ذكرنا استيلاء المؤيد على قومس وبسطام وولاية مولاه تنكز عليها ثم إن شاه مازندران وهو رستم بن علي بن هربار بن قاروت جهز إليها عسكرا مع سابق الدين القزويني من أمرائه فملك دامغان وسار إليه تنكز فيمن معه من العسكر فكبسهم القزويني وهزمهم واستولى على البلاد وعاد تنكز إلى المؤيد بنيسابور وجعل يغير على بسطام وقومس ثم توفي شاه مازندران في ربيع سنة ستين فكتم ابنه علاء الدين موته حتى استولى على حصونه وبلاده ثم أظهره وملك مكانه ونازعه إتياق صاحب جرجان ودهستان ولم يرع ما كان بينه وبين أبيه فلم يظفر بشيء والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصر عسكر المؤيد نسا

ثم بعث المؤيد عساكره في جمادى سنة ستين لحصار مدينة نسا فبعث خوارزم شاه بك أرسلان بن أتسز في عساكره إليها فأجفلت عنها عساكر المؤيد ورجعوا إلى نيسابور وصارت نسا في طاعة خوارزم شاه وخطب له فيها ثم سار عسكر خوارزم إلى دهستان وغلبوه عليها وأقام فيها بطاعته والله أعلم.

الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة

ثم بعث أقسنقر الأحمديلي صاحب مراغة سنة ثلاث وستين إلى بغداد في الخطبة للملك الذي عنده وهو ابن السلطان محمد شاه على أن يتجافى عن العراق ولا يطلب الخطبة منه إلا إذا أسعف بها فأجيب بالوعد الجميل وبلغ الخبر إلى ايلدكز صاحب البلاد فبعث ابنه البهلوان في العساكر لحرب أقسنقر فحاربه وهزمه وتحصن بمراغة فنازله البهلوان وضيق عليه وتردد بينهما الرسل واصطلحوا وعاد البهلوان إلى أبيه بهمذان.

ملك شملة فارس وإخراجه عنها

كان زنكي بن دكلا قد أساء السيرة في جنده فأرسلوا إلى شملة صاحب خوزستان واستدعوه ليملّكوه فسار ولقي زنكي وهزمه ونجا إلى الأكراد الشوابكار وملك شملة بلاد فارس فأساء السيرة في أهلها ونهب ابن أخيه خرسنكا البلاد فنفر أهل فارس عنه ولحق بزنكي بعض عساكره فزحف إلى فارس وفارقها شملة إلى بلاده خوزستان وذلك كله سنة أربع وستين وخمسمائة.

ملك إيلدكز الري

كان اينانج قد استولى على الري واستقر فيها بعد حروبه مع ايلدكز على جزية يؤديها إليه ثم منع الضريبة واعتذر بنفقات الجند فسار إليه إيلدكز سنة أربع وستين وحاربه اينانج فهزمه ايلدكز وحاصره بقلعة طبرك وراسل بعض مماليكه ورغبهم فغدروا به وقتلوه واستولى ايلدكز على طبرك وعلى الري وولى عليها علي بن عمر باغ ورجع إلى همذان وشكر لموالي اينانج الذين قتلوه ولم يف لهم بالوعد فافترقوا عنه وسار الذي تولى قتله إلى خوارزم شاه فصلبه لما كان بينه وبين إينانج من الوصلة والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده

ثم توفي سنة خمس وستين الملك طغرل بن قاروت بك صاحب كرمان وولي ابنه أرسلان شاه مكانه ونازعه أخوه الأصغر بهرام شاه فحاربه أرسلان وهزمه فلحق بالمؤيد في نيسابور فأنجده بالعساكر وسار إلى أخيه أرسلان فهزمه وملك كرمان ولحق أرسلان بأصبهان مستنجداً بألدكز فأنجده بالعساكر وارتجع كرمان ولحق بهرام بالمؤيد وأقام عنده ثم هلك أرسلان فسار بهرام إلى كرمان وملكها ثم توفي المستنجد وولي ابنه المستضيء ولم نترجم لوفاة الخلفاء ههنا لأنها مذكورة في أخبارهم وإنما ذكرناها قبل هؤلاء لأنهم كانوا في كفالة السلجوقية وبني بويه قبلهم فوفاتهم من جملة أخبار الدولتين وهؤلاء من لدن المقتفي قد استبدوا بأمرهم وخلافتهم من بعد ضعف السلجوقية بوفاة السلطان مسعود وافترقت دولتهم في نواحي المشرق والمغرب واستبد بها الخلفاء ببغداد ونواحيها ونازعوا من قبلهم أنهم كانوا يخطبون لهم في أعمالهم ونازعهم فيها مع ذلك حرصاً على الملك الذي سلبوه وأصبحوا في ملك منفرد عن أولئك المنفردين مضافاً إلى الخلافة التي هي شعارهم وتداول أمرهم إلى أن انقرضوا بهلك المستعصم على يد هلاكو.

وفاة خوارزم شاه وولاية ابنه سلطان شاه ومنازعته مع أخيه الأكبر علاء الدين تكش

لما انهزم خوارزم شاه أرسلان أمام الخطا رجع إلى خوارزم فمات سنة ثمان وستين وولي ابنه سلطان شاه فنازعه أخوه الأكبر علاء الدين تكش واستنجد بالخطا وسار إلى خوارزم فملكها ولحق سلطان شاه بالمؤيد صريخاً فسار معه بجيوشه ولقيهم تكش فانهزم المؤيد وجيء به أسيراً إلى تكش فقتل بين يديه صبراً وعاد أصحابه إلى نيسابور فولوا ابنه طغان شاه أبو بكر ابن المؤيد وكان من أخبار طغان شاه وتكش ما نذكره في أخبار دولتهم وفي كيفية قتله خبر آخر نذكره هنالك ثم سار خوارزم شاه سنة تسع وستين إلى نيسابور وحاصرها مرتين ثم هزم في الثانية طغان شاه بن المؤيد وأخذه أسيراً وحمله إلى خوارزم وملك نيسابور وأعمالها وجميع ما كان لبني المؤيد بخراسان وانقرض أمرهم والبقاء لله وحده والله تعالى أعلم.

وفاة الأتابك شمس الدين إيلدكز وولاية ابنه محمد البهلوان

ثم توفي الأتابك شمس الدين إيلدكز أتابك أرسلان شاه بن طغرل صاحب همذان وأصبهان والري وأذربيجان وكان أصله مملوك الكمال الشهير ابن وزير السلطان محمود ولما قتل الكمال صار السلطان وترقى في كتب الولاية فلما ولي السلطان مسعود ولاه أرانية فاستولى عليها وبقيت طاعته للملوك على البعد واستولى على أكثر أذربيجان ثم ملك همذان وأصبهان والري وخطب لربيبه أرسلان بن طغرل وبقي أتابك وبلغ عسكره خمسين ألفاً واتسع ملكه من تفليس إلى مكران وكان متحكماً على أرسلان وليس له من الدولة إلا جراية تتصل إليه.

ولما هلك إيلدكز قام بالأمر بعده ابنه محمد البهلوان وهو أخو السلطان أرسلان لأمه فسار أول ملكه لإصلاح أذربيجان وخالفه ابن سنكي وهو ابن أخي شملة صاحب خوزستان إلى بلد نهاوند فحاصرها ثم تأخر ابن سنكي من تستر وصحبهم من ناحية أذربيجان يوهمهم أنه مدد البهلوان ففتحوا له البلد ودخل فطلب القاضي والأعيان ونصبهم وتوجه نحو ماسبذان قاصداً العراق ورجع إلى خوزستان ثم سار شملة سنة سبعين وقصد بعض التركمان فاستنجدوا البهلوان بن إيلدكز فأنجدهم وقاتلوه فهزموه وأسر شملة جريحاً وولده وابن أخيه وتوفي بعد يومين وهو من التركمان الأتسزية وملك ابنه من بعده وسار البهلوان سنة سبعين إلى مدينة تبريز وكان صاحبها أقسنقر الأحمديلي قد هلك وعهد بالملك بعده لابنه ملك الدين فسار إلى بلاده وحاصر مراغة وبعث أخاه فنزل وعاد عن مراغة إلى همذان والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة السلطان أرسلان بن طغرل

ثم توفي السلطان أرسلان بن طغرل مكفول البهلوان بن إيلدكز وأخوه لأمه بهمذان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وخطب بعده لابنه طغرل.

وفاة البهلوان محمد بن إيلدكز وملك أخيه قزل

ثم توفي البهلوان محمد بن إيلدكز أول سنة اثنتين وخمسمائة

وكانت البلاد والرعايا في غاية الطمأنينة فوقع عقب موته بأصبهان بين الحنفية والشافعية وبالري بين أهل السنة والشيعة فتن وحروب آلت إلى الخراب وملك البلاد بعد البهلوان أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان وكان البهلوان كافلاً للسلطان طغرل وحاكماً عليه ولما هلك قزل لم يرض طغرل بتحكمه عليه وفارق همذان ولحق به جماعة من الأمراء والجند وجرت بينه وبين قزل حروب ثم غلبه طغرل إلى الخليفة فأمره بعمارة دار السلطان فطرد رسوله وهدمت دار السلطنة وألحقت بالأرض وبعث الخليفة الناصر لدين الله سنة أربع وثمانين عسكراً مع وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس لإنجاده قزل على طغرل قبل همذان وهزمهم ونهب جميع ما معهم وأسر الوزير ابن يونس.

قتل قزل أرسلان قطلغ وولاية أخيه

قد تقدم لنا ما كان بين السلطان طغرل وبين قزل بن إيلدكز من الحروب ثم إن قزل غلبه واعتقله في بعض القلاع ودانت له البلاد وأطاعه ابن دكلا صاحب فارس وخوزستان وعادا إلى أصفهان والفتن بها متصلة فأخذ جماعة من أعيان الشافعية وصلبهم وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة سنة سبعة وثمانين ثم قتل غيلة على فراشه ولم يعرف قاتله وأخذ جماعة من غلمانه بالظنة وكان كريماً حليماً يحب العدل ويؤثره ولما هلك ولي من بعده قطلغ بن أخيه البهلوان واستولى على الممالك التي كانت بيده.

قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الري ووفاة أخيه سلطان شاه

ولما توفي قزل وولي قطلغ بن أخيه البهلوان كما قلناه أخرج السلطان طغرل من محبسه بالقلعة التي كان بها واجتمع إليه العساكر وسار إلى همذان فلقيه قطلغ بن البهلوان فانهزم بين يديه ولحق بالري وبعث إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش ليستنجده فسار إليه سنة ثمان وثمانين وندم قطلغ على استدعائه فتحصن ببعض قلاعه وملك خوارزم شاه الري وملك قلعة طبرك وصالح السلطان طغرل وولى على الري وعاد إلى خوارزم سنة تسعين فأحدث أحدوثة السلطان شاه نذكره في أخبارهم وسار السلطان طغرل إلى الري فأغار عليها وفر منه قطلغ بن البهلوان وبعث إلى خوارزم شاه يستنجده ووافق ذلك وصول منشور من الخليفة إليه بإقطاعه البلاد فسار من نيسابور إلى الري وأطاعه قتلغ وسار معه إلى همذان وخرج طغرل للقائهم قبل أن يجمع العساكر ولقيهم قريباً من الري في ربيع الأول فحمل عليهم وتورط بينهم فصرع عن فرسه وقتل وملك خوارزم شاه همذان وتلك البلاد جميعاً وانقرضت مملكة بني ملك شاه وولي خوارزم شاه على همذان وملك الأعمال فبلغ إينانج بن البهلوان وأقطع كثيراً منها مماليكه وقدم عليهم مساحق منهم ثم استولى وزير الخليفة ابن العطاف على همذان وأصبهان والري من يد مواليه وانتزعها منهم خوارزم كما ذكرناه في أخبار الخلفاء وجاءت العساكر من قبل الخليفة إلى همذان مع أبي الهيجاء الشمس من أمراء الأيوبية وكان أميراً على القدس فعزلوه عنها وسار إلى بغداد فبعثه الناصر سنة ثلاث وتسعين بالعساكر إلى همذان ولقي عندها أزبك بن البهلوان مطيعاً فقبض عليه وأنكر الخليفة ذلك وبعث بإطلاقه وخلع عليه وعاد إلى بلاد أذربيجان.

ملك الكرج الدويرة

كان أزبك بن البهلوان قد استولى على أذربيجان بعد موته وكان مشغولاً بلذاته فسار الكرج إلى مدينة دويرة وحاصروها وبعث أهلها إليه بالصريخ فلم يصرخهم حتى ملكها الكرج عنوة واستباحوها والله تعالى أعلم.

قتل كوجه ببلاد الجبل وملك ايدغمش

كان كوجه من موالي البهلوان قد تغلب على الري وهمذان وبلاد الجبل واصطنع صاحبه ايدغمش ووثق به فنازعه الأمر وحاربه فقتله واستولى ايدغمش على البلاد وبقي أزبك بن البهلوان مغلباً ليس له من الحكم شيء.

قصد صاحب مراغة وصاحب إربل أذربيجان

قد ذكرنا أن أزبك كان مشغولاً بلذاته مهملاً لملكه ثم حدثت بينه وبين صاحب إربل وهو مظفر الدين كوكبري سنة اثنتين وستمائة فتنة حملت مظفر الدين على قصده فسار إلى مراغة واستنجد صاحبها علاء الدين بن قراسنقر الأحمديلي فسار معه لحصار تبريز وبعث أزبك الصريخ إلى إيدغمش بمكانه من بلاد

الجبل فسار إليه وأرسل مظفر الدين بالفتن والتهديد فعاد إلى بلده علاء الدين بن قراسنقر إلى بلاد مراغة فسار ايدغمش وأزبك وحاصروه بمراغة حتى سلم قلعة من قلاعه ورجعوا عنه والله تعالى أعلم.

وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده

ثم توفي حسام الدين أزدشير صاحب مازندان وولي ابنه الأكبر وأخرج أخاه الأوسط عن البلاد فلحق بجرجان وبها علي شاه برتكش نائباً عن أخيه خوارزم فاستنجده على شرط الطاعة له وأمره أخوه تكش بالمسير معه فساروا من جرجان وبلغهم في طريقهم مهلك صاحب مازندران المتولي بعد أبيه وأن أخاه الأصغر استولى على الكراع والأموال فساروا إليه وملكوا البلاد ونهبوها مثل سارية وآمد وغيرها وخطب لخوارزم شاه فيها وعاد علي شاه إلى خراسان وأقام ابن صاحب مازندران وهو الأوسط الذي استصرخ به وقد امتنع أخوه الأصغر بقلعة كوري ومعه الأموال والذخائر وأخوه الأوسط فراسله واستعطف وقد ملك البلاد جميعاً والله ولي التوفيق.

ملك ابن البهلوان مراغة

ثم توفي سنة أربع وستمائة علاء الدين بن قراسنقر الأحمديلي صاحب مراغة وأقام بأمرها من بعده خادمه ونصب ابنه طفلاً صغيراً وعصى عليه بعض الأمراء وبعث العسكر لقتاله فانهزموا أولاً ثم استقر ملك الطفل ثم توفي سنة خمس وستمائة وانقرض أهل بيته فسار أزبك بن البهلوان من تبريز إلى مراغة واستولى على مملكة آل قراسنقر ما عدا القلعة التي اعتصم بها الخادم وعنده الخزائن والذخائر.

استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها وهرب إيدغمش وقتله

لما تمكن إيدغمش في بلاد الجبل بهمذان وأصبهان والري وما إليها عظم شأنه حتى طلب الأمر لنفسه وسار لحصار أزبك بن مولاه الذي نصبه للأمر وكان بأذربيجان فخرج عليه مولى من موالي البهلوان اسمه منكلي وكثر جمعه واستولى على البلاد وقدم إيدغمش إلى بغداد واحتفل الخليفة لقدومه وتلقاه وذلك سنة ثمان وأقام بها كان ايدغمش قد وفد سنة ثمان وستمائة إلى بغداد وشرفه الخليفة بالخلع والألوية وولاه على ما كان بيده ورجع إلى همذان ووعده الخليفة بمسير العساكر فأقام ينتظرها عند سليمان بن مرحم أمير الإيوانية من التركمان فدس إلى منكلي بخبره ثم قتل إيدغمش وحمل أصحابه إلى منكلي وافترق أصحابه واستولى منكلي وبعث إليه الخليفة بالنكير فلم يلتفت إليه فبعث إلى مولاه أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان يحرضه عليه وإلى جلال الدين الإسماعيلي صاحب قلعة لموت لمساعدته على أن يكون للخليفة بعض البلاد ولأزبك بعضها ولجلال الدين بعضها وبعث الخليفة العساكر مع مولاه سنقر الملقب بوجه السبع وأمره بطاعة مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي كجك صاحب إربل وشهرزور وهو مقدم العساكر جميعاً فسار لذلك وهرب منكلي وتعلق بالجبل ونزلوا بسفحه قريباً من كوج فناوشهم الحرب فانهزم أزبك ثم عاد ثم أسرى من ليلته منهزماً وأصبحوا فاقتسموا البلاد على الشريطة وولي أزبك فيما أخذ منها مولى أخيه فاستولى عليها ومضى منكلي إلى ساوة وبها شحنة كان صديقاً له فقتله وبعث برأسه إلى أزبك واستقر في بلاد الجبل حتى قتله الباطنية سنة أربع عشرة وستمائة وجاء خوارزم شاه فملكها كما نذكر في أخباره ودخل أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران في طاعته وخطب له على منابر أعماله وانقرض أمر بني ملك شاه ومواليهم من العراقين وخراسان وفارس وجميع ممالك المشرق وبقي أوزبك ببلاد أذربيجان ثم استولى التتر على أعمال محمد بن تكش فيما وراء النهر وخراسان وعراق العجم سنة ثماني عشرة وستمائة وموالي الهند وسار جنكزخان فأطاعه أزبك بن البهلوان سنة إحدى وعشرين وأمره بقتل من عنده من الخوارزمية ففعل ورجع عنه إلى خراسان ثم جاء جلال الدين بن محمد بن تكش من الهند سنة اثنتين وعشرين فاستولى على عراق العجم وفارس وسار إلى أذربيجان فملكها ومر من أزبك إلى كنجة من بلاد أران ثم ملك كنجة وبلاد أران ومر أزبك إلى بعض القلاع هنالك ثم هلك وملك جلال الدين على جميع البلاد وانقرض أمر بني أزبك واستولى التتر على البلاد وقتلوا جلال الدين سنة ثمان وعشرين كما يأتي في أخبارهم جميعاً.

وانتهى الكلام في دولة السلجوقية فلنرجع إلى أخبار الدول المتشعبة عنها واحدة بعد واحدة والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

بنو أنوشتكين

كان أنوشتكين جدهم تركياً مملوكاً لرجل من غرشتان ولذلك يقال له: أنوشتكين غرشة ثم صار لرجل من أمراء السلجوقية وعظمائهم اسمه ملكابك وكان مقدماً عنده لنجابته وشجاعته ونشأ ابنه محمد على مثل حاله من النجابة والشجاعة وتحلى بالأدب والمعارف واختلط بأمراء السلجوقية وولي لهم الأعمال واشتهر فيهم بالكفاية وحسن التدبير.

ولما ولي بركيارق ابن السلطان ملك شاه وانتقض عليه عمه أرسلان أرغون واستولى على خراسان بعث وإليه العساكر سنة تسعين وأربعمائة مع أخيه سنجار وسار في أثره ولقيهم في طريقهم خبر مقتل أرغون عمهم وأن بعض مواليه خلفه فعدا عليه فقتله كما مر قبل فسار بركيارق في نواحي خراسان وما وراء النهر حتى دوخها وولي عليها أخاه سنجار وانتقض عليه أمير أميران من قرابته اسمه محمد بن سليمان فسار إليه سنجار وظفر به وسمله وعاد بركيارق إلى العراق بعد أن ولى على خوارزم إكنجي شاه ومعنى شاه بلسانهم: السلطان فأضيف إلى خوارزم على عادتهم في تقديم المضاف إليه على المضاف

ولما انصرف بركيارق إلى العراق تأخر من أمرائه قودز وبارقطاش وانتقضا على السلطان ووثبا بالأمير أكنجي صاحب خوارزم وهو بمرو ذاهباً إلى السلطان شاه فقتلاه وبلغ الخبر إلى السلطان وقد انتقض عليه بالعراق الأمير أنزو مؤيد الملك بن نظام الملك فمضى لحربهما وأعاد الأمير داود حبشي بن إيتاق في عسكر إلى خراسان لقتالهما فسار إلى هراة وعاجلاه قبل اجتماع عساكره فعبر جيحون وسبق إليه بارقطاش فهزمه داود وأسره وبلغ الخبر إلى قودز فثار به عسكره وفر إلى بخارى فقبض عليه نائبها ثم أطلقه ولحق بالملك سنجار فقبله وأقام بارقطاش أسيراً عند الأمير داود وصفت خراسان من الفتنة والثوار واستقام أمرها للأمير داود حبشي فاختار لولاية خوارزم محمد بن أنوشتكين فولاه وظهرت كفايته وكان محباً لأهل الدين والعلم مقرباً لهم عادلاً في رعيته فحُسن ذكره وارتفع محله ثم استولى الملك سنجار على خراسان فأقر محمد بن أنوشتكين وزاده تقديماً وجمع بعض ملوك الترك وقصد خوارزم وكان محمد غائباً عنها ولحق بالترك محمد بن أكنجي الذي كان أبوه أميراً على خوارزم واسمه طغرل تكين محمد فحرض الترك على خوارزم وبلغ الخبر إلى محمد بن أنوشتكين فبعث إلى سنجار بنيسابور يستمده وسبق إلى خوارزم فافترق الترك وطغرل تكين محمد وسار كل منهما إلى ناحية ودخل محمد بن أنوشتكين إلى خوارزم فازداد بذلك عند سنجار ظهوراً والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق لا رب سواه.

وفاة محمد بن أنوشتكين وولاية ابنه أتسز

ثم هلك محمد بن أنوشتكين خوارزم ولي بعده ابنه أتسز وسار بسيرة أبيه وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه وحارب الأعداء فلما ولي افتتح أمره بالاستيلاء على مدينة مقشلاع وظهرت كفايته في شأنها فاستدعاه السلطان سنجار فاختصه وكان يصاحبه في أسفاره وحروبه وكلما مر يزيد تقدُّماً عنده والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

الحرب بين السلطان سنجار وأتسز خوارزم شاه

ثم كثرت السعاية عند السلطان سنجار في أتسز خوارزم شاه وإنه يحدث نفسه بالامتناع فسار سنجار إليه لينتزع خوارزم من يده فتجهز أتسز للقائه واقتتلوا فانهزم أتسز وقتل ابنه وخلق كثير من أصحابه واستولى سنجار على خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ابن أخيه محمداً ورتب له وزيراً وأتابك وحاجباً وعاد إلى مرو منتصف ثلاث وثلاثين وكان أهل خوارزم يستغيثون لأتسز فعاد إليهم بعد سنجار فأدخلوه البلد ورجع سليمان شاه إلى عمه سنجار واستبد أتسز بخوارزم والله أعلم.

انهزام السلطان سنجار من الأتراك الخطا وملكهم ما وراء النهر

ثم سار سنجار سنة ست وثلاثين لقتال الخطا من الترك فيما وراء النهر لما رجعوا لملك تلك البلاد فيقال: إن أتسز أغراهم بذلك ليشغل السلطان سنجار عن بلده وأعماله ويقال: إن محمود بن محمد بن سليمان بن داود بقراخان ملك الخانية في كاشغر وتركستان وهو ابن أخت سنجار زحفت إليه أمم الخطا من الترك ليتملكوا بلاده فسار إليهم وقاتلهم فهزموه وعاد إلى سمرقند وبعث بالصريخ إلى خاله سنجار فعبر النهر إليه في عساكر المسلمين وملوك خراسان والتقوا في أول صفر سنة ست وثلاثين فانهزم سنجار والمسلمون وفشا القتل فيهم يقال: كان القتلى مائة ألف رجل وأربعة آلاف امرأة وأسرت زوجة السلطان سنجار

وعاد منهزماً وملك الخطا ما وراء النهر وخرجت عن ملك الإسلام وقد تقدم ذكر هذه الواقعة مستوفى في أخبار السلطان سنجار.

ولما انهزم السلطان سنجار قصد أتسز خوارزم شاه خراسان فملك سرخس ولقي الإمام أبا محمد الزيادي وكان يجمع بين العلم والزهد فأكرمه وقبل قوله ثم قصد مرو الشاهجان فخرج إليه الإمام أحمد الباخوري وشفع في أهل مرو وأن لا يدخل لهم أحد من العسكر فشفعه وأقام بظاهر البلد فثار عامة مرو وأخرجوا أصحابه وقتلوا بعضهم وامتنعوا فقاتلهم اتسز وملكها عليهم غلاباً أول ربيع من سنة ست وثلاثين وقتل الكثير من أهلها وكان فيهم جماعة من أكابر العلماء وأخرج كثيراً من علمائها إلى خوارزم منهم: أبو بكر الكرماني ثم سار في شوال إلى نيسابور وخرج إليه جماعة من العلماء والفقهاء متطارحين أن يعفيهم مما وقع بأهل مرو فأعفاهم واستصفى أموال أصحاب السلطان وقطع الخطبة لسنجار وخطب لنفسه ولما صرح باسمه على المنبر همَّ أهل نيسابور بالثورة ثم ردهم خوف العواقب فأقصروا وبعث جيشاً إلى أعمال بيهق فحاصرها خمساً ثم ساروا في البلاد ينهبون ويكتسحون والسلطان سنجار خلال ذلك متغافل عنه فيما يفعله في خراسان لما وراءه من مدد الخطا وقوتهم.

ثم أوقع الغز سنة ثمان وأربعين بالسلطان سنجار واستولوا على خراسان وكان هؤلاء الغز مقيمين بما وراء النهر منذ فارقهم ملوك السلجوقية وكانوا يدينون بالإسلام فلما استولى الخطا على ما وراء النهر أخرجوهم منها فأقاموا بنواحي بلخ وأكثروا فيها العيث والفساد وجمع لهم سنجار وقاتلهم فظفروا به وهزموه وأسروه وانتثر سلك دولته فلم يعد انتظامه وافترقت أعمالها على جماعة من مواليه واستقل حينئذ أتسز بملك خوارزم وأعماله وأورثها بنيه ثم استولوا على خراسان والعراق عندما ركدت ريح السلجوقية وكانت لهم بعد ذلك دولة عظيمة نذكر أخبارها مفصلة عند دول أهلها والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

وفاة أتسز وملك ولده أرسلان

ثم توفي أتسز بن محمد بن أنوشتكين في منتصف إحدى وخمسين وخمسمائة لستين سنة من ولايته وكان عادلاً في رعيته حسن السيرة فيهم ولما توفي ملك بعده أرسلان بن أتسز فقتل جماعة من عماله وسمل أخاه ثم بعث بطاعته للسلطان سنجار عندما هرب من أسر الغز فكتب له بولاية خوارزم وقصد الخطا خوارزم وجمع أرسلان للقائهم وسار غير بعيد ثم طرقه المرض فرجع وأرسل الجيوش لنظر أمير من أمرائه فقاتله الخطا وهزموه وأسروه ورجع إلى ما وراء النهر والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة خوارزم شاه أرسلان وملك ولده سلطان شاه وبعده ولده الآخر تكش وملك طغان شاه بن المؤيد ثم موته وملك ابنه سنجار شاه

ثم توفي خوارزم شاه أرسلان بن أتسز من مرضه الذي قعد به عن لقاء الخطا وملك بعده ابنه الأصغر سلطان شاه محمود في تدبير أمه وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيماً في إقطاعه بالجند فاستنكف من ولاية أخيه الأصغر وسار إلى ملك الخطا مستنجداً ورغبه في أموال خوارزم وذخائرها فأنجده بجيش كثيف وجاء إلى خوارزم ولحق سلطان شاه وأمه بالمؤيد أنه صاحب نيسابور والمتغلب عليها بعد سنجار وأهدى له ورغبه في الأموال والذخائر فجمع وسار معه إذا كان على عشرين فرسخاً من خوارزم سار إليه تكش وهزمه وجيء بالمؤيد أسيراً إلى تكش فأمر بقتله وقتل بين يديه صبراً ولحق أخوه سلطان شاه بدهستان وتبعه تكش فملكها عنوة وهرب سلطان شاه وأخذت أمه فقتلها تكش وعاد إلى خوارزم ولحق سلطان شاه بنيسابور وقد ملكوا طغان شاه أبا بكر بن ملكهم المؤيد

ثم سار سلطان شاه من عنده إلى غياث الدين ملك الغورية فأقام عنده وعظم تحكم الخطا على علاء الدين تكش صاحب خوارزم واشتطوا عليه وبعثوا يطلبونه في المال فأنزلهم متفرقين على أهل خوارزم ودس إليهم فبيتوهم ولم ينج منهم أحد ونبذ إلى ملك الخطا عهده وسمع ذلك أخوه سلطان شاه فسار من غزنة إلى ملك الخطا يستنجده على أخيه تكش وادعى أن أهل خوارزم يميلون إليه فبعث معه جيشاً كثيفاً من الخطا وحاصروا خوارزم فامتنعت وأمر تكش بإجراء ماء النهر عليهم فكادوا يغرقون وأفرجوا عن البلاد ولاموا سلطان شاه فيما غرهم فقال لقائدهم: ابعث معي الجيش لمرو لأنتزعها من دينار الغزي الذي استولى عليها من حين فتنتهم مع سنجار فبعث معه الجيش وسار إلى سرخس واقتحمها على الغز الذين بها وأفحش في قتلهم واستباحهم ولجأ دينار إلى القلعة فتحصن بها ثم سار سلطان شاه إلى مرو وملكها وأقام بها ورجع الخطا إلى ما وراء النهر وأقام

سلطان شاه بخراسان يقاتل الغز فيصيب منهم كثيراً وعجز دينار ملك الغز عن سرخس فسلمها لطغان شاه بن المؤيد صاحب نيسابور فولى عليها مراموش من أمرائه.

ولحق دينار بنيسابور فحاصر دينار سلطان شاه وعاد إلى نيسابور ولحق به مراموش وترك قلعة سرخس ثم ملك نطوش والتم وضاقت الأمور على طغان شاه بنيسابور إلى أن مات في محرم سنة اثنتين وثمانين وملك ابنه سنجار شاه واستبد عليه منكلي تكين مملوك جده المؤيد وأنف أهل الدولة من استبداده وتحكمه فلحق أكثرهم بسلطان شاه في سرخس وسار الملك دينار من نيسابور في جموع الغز إلى كرمان فملكها ثم أساء منكلي تكين السيرة بنيسابور في الرعية بالظلم وفي أهل الدولة بالقتل فسار إليه خوارزم شاه علاء الدين تكش في ربيع سنة اثنتين وثمانين فحاصره بنيسابور شهرين فامتنعت عليه فعاد إلى خوارزم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين فحاصرها وملكها على الأمان وقتل منكلي تكين وحمل سنجار شاه إلى خوارزم فانزله بها وأكرمه ثم بلغه أنه يكاتب أهل نيسابور فسلمه وبقي عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين

قال ابن الأثير: ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي في كتاب «مسارب التجارب» وذكر غيره أن تكش بن أرسلان لما أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم وقصد سلطان شاه إلى مرو فملكها من يد الغز ثم ارتجعوها منه ونالوا من عساكره فعبر إلى الخطا واستنجدهم وضمن لهم المال وجاء بجيوشهم فملك مرو وسرخس ونسا وأبيورد من يد الغز وصرف الخطا فعادوا إلى بلادهم ثم كاتب غياث الدين الغوري وله هراة وبوشنج وباذغيس وأعمالها من خراسان يطلب الخطبة له ويتوعده فأجابه غياث الدين بطلب الخطبة منه بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان

ثم ساءت سيرة سلطان شاه في خراسان وصادر رعاياها فجهز غياث الدين العساكر مع صاحب سجتسان وأمر ابن أخته بهاء الدين صاحب باميان بالمسير معه فساروا إلى هراة وخاف سلطان شاه من لقائهم فرجع من هراة إلى مرو حتى انصرم فصل الشتاء ثم أعاد مراسلة غياث الدين فامتعض وكتب إلى أخيه شهاب الدين بالخبر وكان بالهند فرجع مسرعاً إليه وساروا إلى خراسان واجتمعوا بعسكرهم الأول على الطالقان وجمع سلطان شاه جموعه من الغز وأهل الفساد ونزل بجموع الطالقان وتواقفوا كذلك شهرين وترددت الرسل بين سلطان شاه وغياث الدين حتى جنح غياث الدين إلى النزول عن بوشنج وباذغيس وشهاب الدين ابن أخته وصاحب سجستان يجنحان إلى الحرب وغياث الدين يكفهم حتى حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين لإتمام العقد والملوك جميعاً حاضرون فقام الدين العلوي الهودي وكان يختصه وهو يدل عليه فوقف في وسط المجمع ونادى بفساد الصلح وصرخ ومزق ثيابه وحثى التراب على رأسه وأفحش لرسول سلطان شاه وأقبل على غياث الدين وقال: كيف تعمد إلى ما ملكناه بأسيافنا من الغز والأتراك والسنجارية فتعطيه هذا الطريد إذ لا يقنع منا أخوه وهو الملك بخوارزم ولا بغزنة والهند فأطرق غياث الدين ساكتا فنادى في عسكره بالحرب والتقدم إلى مرو الروذ وتواقع الفريقان فانهزم سلطان شاه وأخذ أكثر أصحابه أسرى ودخل إلى مرو في عشرين فارساً

ولحق الفل من عسكره وبلغ الخبر إلى أخيه تكش فسار من خوارزم لاعتراضه وقدم العساكر إلى جيحون يمنعون إلى الخطا وسمع أخوه سلطان شاه بذلك فرجع عن جيحون وقصد غياث الدين ولما قدم عليه أمر يتلقيه وأنزله معه في بيته وأنزل أصحابه عند نظرائهم من أهل دولته وأقام إلى انصرام الشتاء وكتب أخوه علاء الدين خوارزم إلى غياث الدين في رده إليه ويعدد فعلاته في بلاده وكتب مع ذلك إلى نائب غياث الدين بهراة يتهدده فامتعض غياث الدين لذلك وكتب إلى خوارزم شاه بأنه مجير له وشفيع في التجافي عن بلاده وإنصافه من وراثة أبيه ويطلب مع ذلك الخطبة له بخوارزم والصهر مع أخيه شهاب الدين فامتعض خوارزم شاه وكتب إليه يتهدده ببعض بلاده فجهز غياث الدين إليه العساكر مع ابن أخته أبو غازي إلى بهاء الدين سامي صاحب سجستان وبعثهما مع سلطان شاه إلى خوارزم وكتب إلى المؤيد أبيه صاحب نيسابور يستنجده وكانت ابنته تحت غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وخيم بظاهر نيسابور.

وكان خوارزم شاه عزم على لقاء أخيه والغورية وسار عن خوارزم فلما سمع خبر المؤيد عاد إلى خوارزم واحتمل أمواله وذخائره وعبر جيجون إلى الخطا وترك خوارزم وسار أعيانها إلى أخيه سلطان شاه والبوغازي ابن اخت غياث الدين فأتوا طاعتهم وطلبوا الوالي عليهم وتوفي سلطان شاه منسلخ رمضان سنة تسع وعاد البوغازي إلى خاله غياث الدين ومعه أصحاب سلطان شاه فاستخدمهم غياث الدين وأقطعهم وبلغ وفاة سلطان شاه إلى أخيه خوارزم تكش فعاد إلى خوارزم وعاد الشحنة إلى بلاد سرخس ومرو فجهز إليهم نائب الغورية بمرو عمر المرغني عسكراً ومنعهم منها حتى يستأذن غياث الدين وأرسل خوارزم شاه إلى غياث في الصلح والصهر في وفد من فقهاء خراسان والعلوية يعظمونه

ويستجيرون به من خوارزم شاه أن يجيز إليهم الخطا ويستحثهم ولا يحسم ذلك إلا صلحه أو سكناه بمرو فأجابهم إلى الصلح وعقدوه ورد على خوارزم تكش بلاد أخيه وطمع الغز فيها فعاثوا في نواحيها وجاء خوارزم شاه إليها ودخل مرو وسرخس فسار البورد وتطرق إلى طوس وهي للمؤيد ابنه فجمع وسار إليها وعاد خوارزم شاه إلى بلده وأفسد الماء في طريقه واتبعه المؤيد فلم يجد ماء ثم كر عليه خوارزم شاه وقد جهد عسكره العطش فأوقع بهم وجيء إليه بالمؤيد أسيراً فقتله وعاد إلى خوارزم وقام بنيسابور بعد المؤيد ابنه طغان شان ورجع إليه خوارزم شاه من قابل فحاصره بنيسابور وبرز إليه فأسره وملك نيسابور واحتمل طغان شاه وعياله وقرابته فأنزلهم بخوارزم قال ابن الأثير: هذه الرواية مخالفة للأولى وإنما أوردتها ليتأمل الناظر ويستكشف أيهما أوضح فيعتمدها والله تعالى أعلم.

وفاة ايلدكز وملك ابنه محمد البهلوان

قد تقدم لنا في أخبار الدولة السلجوقية ولاية أرسلان شاه بن طغرل في كفالة ايلدكز وابنه محمد البهلوان من بعده ثم أخيه أزبك أرسلان بن ايلدكز وأنه اعتقل السلطان طغرل ثم توفي فولى مكانه قطلغ ابن أخيه البهلوان فخرج السلطان من محبسه وجمع لقتاله سنة ثمان وثمانين فهزمه ولحق قطلغ بالري وبعث إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش فسار إليه وندم قطلغ على استدعائه فتحصن منه ببعض قلاعه وملك خوارزم شاه الري وقلعة طبرك ورتب فيها الحامية وعاد إلى خوارزم لما بلغه أن أخاه سلطان شاه خالفه إليها ولما كان ببعض الطريق لقيه الخبر بأن أهل خوارزم منعوا سلطان شاه وعاد خائباً فتمادى إلى خوارزم وأقام إلى انسلاخ فصل الشتاء ثم سار إلى أخيه سلطان شاه بمرو سنة تسع وثمانين وترددت الرسل بينهما في الصلح ثم استأمن إليه نائب أخيه بقلعة سرخس فسار إليها ومات أخوه سلطان شاه سنة تسع فسار خوارزم شاه إلى مرو وملكها وملك أبيورد ونسا وطوس وسائر مملكه أخيه واستولى على خزائنه وبعث على ابنه علاء الدين محمد فولاه مرو وولي ابنه الكبير ملك شاه نيسابور وذلك آخر تسع وثمانين.

ثم بلغه أن السلطان طغرل أغار على أصحابه بالري قطلغ اينانج فبعث إليه بابنه يستنجده ووصل إليه رسول الخليفة يشكو من طغرل وأقطعه أعماله فسار من نيسابور إلى الري وتلقاه قطلغ اينانج بطاعته وسار معه ولقيهم السلطان طغرل قبل استكمال تعبيته وحمل عليهم بنفسه وأحيط به فقتل في ربيع سنة تسعين وبعث خوارزم شاه برأسه إلى بغداد وملك همذان وبلاد الجبل أجمع وكان الوزير مؤيد الدين بن القصاب قد بعثه الخليفة الناصر مدداً لخوارزم شاه في أمره فرحل إليه واستوحش ابن القصاب فامتنع ببعض الجبال هنالك وعاد خوارزم شاه إلى همذان وسلمها وأعمالها إلى قطلغ اينانج وأقطع كثيراً منها مماليكه وقدم عليهم مناجي وأنزل معه ابنه وعاد إلى خوارزم ثم اختلف مناجي وقطلغ اينانج واقتتلوا سنة إحدى وتسعين فانهزم قطلغ.

وكان الوزير ابن القصاب قد سار إلى خوزستان فملكها وكثيراً من بلاد فارس وقبض على بني شملة وأمرائها وبعث بهم إلى بغداد وأقام هو يمهد البلاد فلحق به قطلغ أينانج هنالك مهزوماً سليباً واستنجده على الري فأزاح علله وسار معه إلى همذان فخرج مناجي وابن خوارزم شاه إلى الري وملك ابن القصاب همذان في سنة إحدى وتسعين وسار إلى الري فأجفل الخوارزميون أمامهم وبعث الوزير العساكر في اثرهم حتى لحقوهم بالدامغان وبسطام وجرجان ورجعوا عنهم واستولى الوزير على الري ثم انتقض قطلغ اينانج على الوزير وامتنع بالري فحاصره الوزير وغلبه عليها ولحق اينانج بمدينة ساوة ورحل الوزير في اتباعه حتى لحقه على دربنكرخ فهزمه ونجا أينانج بنفسه.

وسار الوزير إلى همذان فأقام بظاهرها ثلاثة أشهر وبعث إليه خوارزم شاه بالنكير على ما فعل ويطلب إعادة البلاد فلم يجب إلى ذلك وسار خوارزم إليه وتوفي قبل وصوله فقاتل العساكر بعده في شعبان سنة اثنتين وتسعين فهزمهم وأثخن فيهم وأخرج الوزير من قبره فقطع رأسه وبعث به إلى خوارزم لأنه كان قتل في المعركة واستولى على همذان وبعث عسكره إلى أصفهان فملكها وأنزل بها ابنه وعاد إلى خوارزم وجاءت عساكر الناصر اثر ذلك مع سيف الدين طغرل فقطع بلاد اللحف من العراق فاستدعاه أهل أصفهان فملكوا البلد ولحق عسكر خوارزم شاه بصاحبهم ثم اجتمع مماليك البهلوان وهم أصحاب قطلغ وقدموا على أنفسهم كركجة من أعيانهم وساروا إلى الري فملكوها ثم إلى أصفهان كذلك وأرسل كركجة إلى الديوان ببغداد يطلب أن يكون الري له مع جوار الري وساوة وقم وقاشان وما ينضاف إليها وتكون أصفهان وهمذان وزنجان ومرو من الديوان فكتب له بذلك والله أعلم.

وفاة ملك شاه بن خوارزم شاه تكش

قد تقدم لنا أن خوارزم شاه تكش ولى ابنه ملك شاه على نيسابور سنة تسع وثمانين وأضاف إليه خراسان وجعله ولي عهده في الملك فأقام بها إلى سنة ثلاث وتسعين ثم هلك في ربيع منها وخلف ابناً اسمه هندوخان وولى خوارزم شاه على نيسابور ابنه الآخر قطب الدين الذي كان ولاه بمرو الخطا.

انهزام الخطا من الغورية

كان خوارزم شاه تكش لما ملك الري وهمذان وأصبهان وهزم ابن القصاب وعساكر الخليفة بعث إلى الناصر يطلب الخطبة ببغداد فامتعض الناصر لذلك وأرسل إلى غياث الدين ملك غزنة والغور فقصد بلاد خوارزم شاه فكتب إليه غياث الدين يتهدده بذلك فبعث خوارزم شاه إلى الخطا يستنجدهم على غياث الدين ويحذرهم أن يملك البلاد كما ملك بلخ فسار الخطا في عساكرهم ووصلوا بلاد الغور وراسلوا بهاء الدين سام ملك باميان وهو ببلخ يأمرونه بالخروج عنها وعاثوا في البلاد وخوارزم شاه قد قصد هراة وانتهى إلى طوس واجتمع أمراء الغورية بخراسان مثل محمد بن بك مقطع الطالقان والحسين بن مرميل وحروس وجمعوا عساكرهم وكبسوا الخطا وهزموهم وألحقوهم بجيحون فتقسموا بين القتل والغرق وبعث ملك الخطا إلى خوارزم شاه يتجنى عليه في ذلك ويطلب الدية على القتلى من قومه ويجعله السبب في قتلهم فراجع غياث الدين واستعطفه ووافقه على طاعة الخليفة وإعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام وأجاب ملك الخطا بأن قومه إنما جاؤوا لانتزاع بلخ من يد الغورية ولم يأتوا لنصرتي وأنا قد دخلت في طاعة غياث الدين فجهز ملك الخطا عساكره إليه وحاصروه فامتنع فرجعوا عنه بعد أن فني أكثرهم بالقتل وسار في أثرهم وحاصر بخارى وأخذ بمخنقها حتى ملكها سنة أربع وتسعين فأقام بها مدة وعاد إلى خوارزم والله تعالى ولي التوفيق.

ملك خوارزم شاه تكين الري وبلاد الجبل

ثم سار خوارزم شاه تكين لارتجاع الري وبلاد الجبل من يد مناجق والبهلوانية الذين انتقضوا عليه فهرب مناجق عن البلاد وتركها وملكها خوارزم شاه واستدعاه فامتنع من الحضور وابتعه فاستأمن أكثر أصحابه ورجعوا عنه ولحق هو بقلعة من أعمال مازندران فامتنع بها فبعث خوارزم شاه إلى الخليفة الناصر فبعث بالخلع له ولولده قطب الدين وكتب له تقليداً بالأعمال التي بيده ثم سار خوارزم شاه لقتال الملاحدة فافتتح قلعة لهم قريبة من قزوين وانتقل إلى حصار قلعة الموت من قلاعهم فقتل عليها رئيس الشافعية بالري صدر الدين محمد بن الوزان وكان مقدماً عنده ولازمه ثم عاد إلى خوارزم فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن علي فقتلوه فجهز ابنه قطب الدين لقتالهم فسار إلى قلعة ترشيش من قلاعهم فحاصرها حتى سألوه في الصلح على مائة ألف دينار يعطونها فامتنع أولاً ثم بلغه مرض أبيه فأجابهم وأخذ منهم المال المذكور وعاد والله أعلم.

وفاة خوارزم شاه

ثم توفي خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان بن أتسز بن محمد أنوشتكين صاحب خوارزم بعد أن استولى على الكثير من خراسان وعلى الري وهمذان وغيرها من بلاد الجبل وكان قد سار من خوارزم إلى نيسابور فمات في طريقه إليها في رمضان سنة ست وتسعين وخمسمائة وكان عندما اشتد مرضه بعث لابنه قطب الدين محمد يخبره بحاله ويستدعيه فوصل بعد موته فبايع له أصحابه بالملك ولقبوه علاء الدين لقب أبيه وحمل شلو أبيه إلى خوارزم فدفنه بالمدرسة التي بناها هنالك وكان تكش عادلاً عارفاً بالأصول والفقه على مذهب أبي حنيفة ولما توفي ابنه علاء الدين محمد كان ولده الآخر علي شاه بأصبهان فاستدعاه أخوه محمد فسار إليه ونهب أهل أصفهان فخلعه وولاه أخوه على خراسان فقصد نيسابور وبها هندوخان ابن أخيهما ملك شاه منذ ولاه جده تكش عليها بعد أبيه ملك شاه وكان هندوخان يخاف عمه محمداً لعداوة بينه وبين أبيه ملك شاه ولما مات جده تكش نهب الكثير من خزائنه ولحق بمرو وبلغ وفاة تكش إلى غياث الدين ملك غزنة فجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة إعظاماً لقدره ثم جمع هندوخان جموعاً وسار إلى خراسان فبعث علاء الدين محمد بن تكش العساكر لدفاعه مع جنقر التركي فخام هندوخان عن لقائه ولحق بغياث الدين مستنجداً فأكرمه ووعده النصر ودخل جنقر مدينة مرو وبعث بام هندوخان وولده إلى خوارزم مكرمين فأرسل غياث الدين صاحب غزنة إلى محمد بن خربك نائبه بالطالقان أن ينبذ إلى جنقر العهد ففعل وسار من الطالقان إلى مرو الروذ فملكها وبعث إلى جنقر يأمره بالخطبة في مرو لغياث الدين أو يفارقها فبعث إليه جنقر يتهدده ظاهراً ويسأله سراً أن يستأمن له غياث الدين فقوي طمعه في البلاد بذلك وأمر أخاه شهاب الدين بالمسير إلى خراسان والله أعلم.

استيلاء ملوك الغورية على أعمال خوارزم شاه محمد تكش بخراسان وارتجاعه إياها منهم ثم حصاره هراة من أعمالهم

ولما استأمن جنقر نائب مرو إلى غياث الدين طمع في أعمال خوارزم شاه بخراسان كما قلناه واستدعاه أخوه شهاب الدين للمسير إليها فسار إلى غزنة واستشار غياث الدين نائبه بهراة عمر بن محمد المرغني في المسير إلى خراسان فنهاه عن ذلك ووصل أخوه شهاب الدين في عساكر غزنة والغور وسجستان وساروا منتصف سبع وتسعين ووصل كتاب جنقر نائب مرو إلى شهاب الدين وهو بقرب الطالقان يحثه للوصول وأذن له غياث الدين فسار إلى مرو وقاتل العساكر الذين بها من الخوارزمية فغلبهم وأحجرهم بالبلد وسار بالفيلة إلى السور فاستأمن من أهل البلد وأطاعوا وخرج جنقر إلى شهاب الدين ثم جاء غياث الدين بعد الفتح إلى هراة مكرماً وسلم مرو إلى هندوخان بن ملك شاه كما وعده ثم سار إلى سرخس فملكها صلحاً وولى عليها زنكي بن مسعود من بني عمه وأقطعه معها نسا وأبيورد ثم سار إلى طوس وحاصرها ثلاثا واستأمن إليه أهلها فملكها وبعث إلى علي شاه علاء الدين محمد بن تكش بنيسابور في الطاعة فامتنع فسار إليه وقاتل نيسابور من جانب وأخوه شهاب الدين من الجانب الآخر إليه سقوطه ودخلوا نيسابور وملكوها ونادوا بالأمان وجيء بعلي شاه من خوارزم إلى غياث الدين فأمنه وأكرمه وبعثه بالأمراء الخوارزمية إلى هراة وولى على خراسان ابن عمه وصهره على ابنته ضياء الدين محمد بن علي الغوري ولقبه علاء الدين وأنزله نيسابور في جمع من وجوه الغورية وأحسن إلى أهل نيسابور وسلم علي شاه إلى أخيه شهاب الدين ورحل إلى هراة ثم سار شهاب الدين إلى قهستان وقيل له عن قرية من قراها أنهم إسماعيلية فأمر بقتلهم وسبى ذراريهم ونهب أموالهم وخرب القرية ثم سار إلى حصن من أعمال قهستان وهم إسماعيلية فملكه بالأمان بعد الحصار وولى عليه بعض الغورية فأقام بها الصواب وشعار الإسلام وبعث صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو من أخيه شهاب الدين ويقول: إن هذا نقض العهد الذي بيني وبينكم فما راعه إلا نزول أخيه شهاب الدين على حصن آخر للإسماعيلية من أعمال دهستان فحاصره فبعث بعض ثقاته إلى شهاب الدين يأمره بالرحيل فامتنع فقطع أطناب سرادقه ورحل مراغماً وقصد الهند مغاضباً لأخيه.

ولما اتصل بعلاء الدين محمد بن تكش مسيرهما عن خراسان كتب إلى غياث الدين يعاتبه عن أخذه بلاده ويطلب إعادتها ويتوعده باستنجاد الخطا عليه فماطله بالجواب إلى خروج أخيه شهاب الدين من الهند لعجزه عن الحركة لاستيلاء مرض النقرس عليه فكتب خوارزم شاه إلى علاء الدين الغوري نائب غياث الدين بنيسابور يأمره بالخروج عنها فكتب بذلك إلى غياث الدين فأجابه يعده بالنصر وسار اليه خوارزم شاه محمد بن تكش آخر سنة سبع وتسعين وخمسمائة فلما قرب أبيورد هرب هندوخان من موالي غياث الدين وملك محمد بن تكش مدينة مرو ونسا وأبيورد وسار إلى نيسابور وبها علاء الدين الغوري فحاصرها وأطال حصارها حتى استأمنوا إليه واستحلفوه وخرجوا إليه فأحسن إليهم وسأل من علاء الدين الغوري السعي في الإصلاح بينه وبين غياث الدين فضمن ذلك وسار إلى هراة وبها أقطاعه وغضب على غياث الدين لقعوده عن إنجاده، فلم يسر إليه.

وبالغ محمد بن تكش في الإحسان إلى الحسن بن حرميل من أمراء الغورية ثم سار إلى سرخس وبها الأمير زنكي من قرابة غياث الدين فحاصرها أربعين يوماً وضيق مخنقها بالحرب وقطع الميرة ثم سأله زنكي الافراج ليخرج عن الأمان فأفرج عنه قليلاً ثم ملأ البلد من الميرة بما احتاج إليه وأخرج العاجزين عن الحصار وعاد إلى شأنه فندم محمد بن تكش ورحل عنها وجهز عسكراً لحصارها وجاء نائب الطالقان مدداً لمحمد بن خربك واحس بعد أن أرسل إليه بأنه عساكر الخوارزمية المجمرة عليه وأشاع ذلك فأفرجوا عنه وجاء إليه زنكي من الطالقان فخرج معه ابن خربك إلى مرو الروذ وجبي خراجها وما يجاورها وبعث إليه محمد بن تكش عسكراً نحواً من ثلاثة آلاف مع خاله فلقيهم محمد بن خربك في تسعمائة فارس فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وأسراً وغنم سوادهم وعاد خوارزم شاه محمد بن تكش إلى خوارزم.

وأرسل إلى غياث الدين في الصلح فأجابه مع الحسن بن محمد المرغني من كبراء الغورية وغالطه في القول ولما وصل الحسن المرغني إلى خوارزم شاه وأطلع على أمره قبض على الحسن وسار إلى هراة فحاصرها وكتب الحسن إلى أخيه عمر بن محمد المرغني أمير هراة بالخبر فاستعد للحصار وقد كان لحق بغياث الدين أخوان من حاشية سلطان شاه عم محمد بن تكش المتوفى في سرخس فأكرمهما غياث الدين وأنزلهما بهراة فكاتبا محمد بن تكش وداخلاه في تمليكه هراة فسار لذلك وحاصر البلد وأميرها عمر المرغني مر إلى الاخوين وعندهما مفاتيح البلد وأطلع أخوه

الحسن في محبسه على شأن الأخوين في مداخلة محمد بن تكش فبعث إلى أخيه عمر بذلك فلم يسعفه فبعث إليه بخط أحدهما فقبض عليهما وعلى أصحابهما واعتقلهم.

وبعث محمد بن تكش عسكراً إلى الطالقان للغارة عليها فظفر بهم ابن خربك ولم يفلت منهم أحد ثم بعث غياث الدين ابن أخته البوغاني في عسكر من الغورية فنزلوا قريباً من عسكر خوارزم شاه محمد بن تكش وقطع عنهم الميرة ثم جاء غياث الدين في عسكر قليل لأن أكثرها مع أخيه شهاب الدين بالهند وغزنة فنزل قريباً من هراة ولم يقدم على خوارزم فلما بلغ الحصار أربعين يوماً وانهزم أصحاب خوارزم شاه بالطالقان ونزل غياث الدين وابن أخته البوغاني قريباً منه وبلغه وصول أخيه شهاب الدين من الهند إلى غزنة أجمع الرحيل عن هراة وصالح عمر المرغني على مال حمله إليه وارتحل إلى مرو منتصف ثمان وتسعين.

وسار شهاب الدين من غزنة إلى بلخ ثم إلى باميان معتزماً على محاربة خوارزم شاه والتقت طلائعها فقتل بين الفريقين خلق ثم ارتحل خوارزم شاه عن مرو فجفلا إلى خوارزم وقتل الأمير سنجار صاحب نيسابور لاتهامه بالمخادعة وسار شهاب الدين إلى طوس وأقام بها إلى انسلاخ الشتاء معتزماً على السير لحصار خوارزم فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فرجع إلى هراة واستخلف بمرو محمد بن خربك فسار إليه جماعة من أمراء خوارزم شاه سنة تسع وتسعين ابن خربك ولم ينج منهم إلا القليل فبعث خوارزم شاه الجيوش مع منصور التركي لقتال ابن خربك ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو وقاتلهم فهزموه ودخل مرو منهزماً فحاصروه خمسة عشر يوماً ثم استأمن إليهم وخرج فقتلوه وأسف ذلك شهاب الدين وترددت الرسل بينه وبين خوارزم شاه في الصلح فلم يتم وأراد العود إلى غزنة فاستعمل على هراة ابن اخته البوغاني وملك علاء الدين بن أبي علي الغوري مدينة مرو وزكورة وبلد الغور وأعمال خراسان وفوض إليه في مملكته وعاد غزنة سنة تسع وتسعين وخمسمائة ثم عاد خوارزم شاه إلى هراة منتصف سنة ستمائة وبها البوغاني ابن أخت شهاب الدين الغوري وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة إلى لهاوون غازياً فحصر خوارزم شاه هراة إلى منسلخ شعبان وهلك في الحصار بين الفريقين خلق وكان الحسن بن حرميل مقيماً بخوزستان وهي إقطاعه فأرسل إلى خوارزم شاه يخادعه ويطلب منه عسكراً يستلمون الفيلة وخزانة شهاب الدين فبعث إليه ألف فارس فاعترضهم هو والحسن بن محمد المرغني فلم ينج منهم إلا القليل فندم خوارزم شاه على إنفاذ العسكر وبعث إلى البوغاني أن يظهر بعض طاعته ويفرج عنه الحصار فامتنع ثم أدركه المرض فخشي أن يشغله المرض عن حماية البلد فيملكها عليه خوارزم شاه فرجع إلى إجابته واستحلفة وأهدى وخرج له ليلقاه ويعطيه بعض الخدمة فمات في طريقه وارتحل خوارزم شاه عن البلد وأحرق المجانيق وسار إلى سرخس فأقام بها.

حصار شهاب الدين خوارزم شاه وانهزامه أمام الخطا

ولما بلغ شهاب الدين بغزنة ما فعل خوارزم شاه بهراة وموت نائبه بها البوغاني ابن أخته وكان غازياً إلى الهند فانثنى عزمه وسار إلى خوارزم وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس وأقام بظاهر مرو فلما بلغه خبر مسيره أجفل راجعاً إلى خوارزم فسبق الدين إليها وأجرى الماء في السبخة حواليها وجاء شهاب الدين فأقام أربعين يوماً يطرق المسالك حتى أمكنه الوصول ثم التقوا واقتتلوا وقتل بين الفريقين خلق كان منهم الحسن المرغني من الغورية وأسر جماعة من الخوارزمية فقتلهم شهاب الدين صبراً وبعث خوارزم شاه إلى الخطا فيما وراء النهر يستنجدهم على شهاب الدين فجمعوا وساروا إلى بلاد الغور وبلغ ذلك شهاب الدين فسار اليهم فلقيهم بالمفازة فهزموه وحصروه في أيدحوى حتى صالحهم وخلص إلى الطالقان وقد كثر الإرجاف بموته فتلقاه الحسن بن حرميل صاحب الطالقان وأزاح علله.

ثم سار إلى غزنة واحتمل ابن حرميل معه خشية من شدة جزعه أن يلحق بخوارزم شاه ويطيعه فولاه حجابته وسار معه ووجد الخلاف قد وقع بين أمرائه لما بلغهم من الإرجاف بموته حسبما مر في أخبار الغورية فأصلح من غزنة ومن الهند وتأهب للرجوع لخوارزم شاه وقد وقع في خبر هزيمته أمام الخطا بالمفازة وجه آخر ذكرناه هنالك وهو أنه فرق عساكره في المفازة لقلة الماء فأوقع بهم الخطا منفردين وجاء في الساقة فقاتلهم أربعة أيام مصابراً وبعث اليه صاحب سمرقند من عسكر الخطا وكان مسلماً وأشار عليه بالتهويل عليهم فبعث عسكراً من الليل وجاؤوا من الغد متسائلين وخوفهم صاحب سمرقند بوصول المدد لشهاب الدين فرجعوا إلى الصلح وخلص هو من تلك الواقعة وذلك سنة إحدى وستمائة ومات شهاب الدين أثر ذلك.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان

كان نائب الغورية بهراة من خراسان الحسن بن حرميل ولما قتل شهاب الدين الغوري في رمضان سنة اثنتين وستمائة قام بأمرهم غياث الدين محمود ابن أخيه غياث الدين واستولى على الغور من يد علاء الدين محمد بن أبي علي سروركاه ولما بلغ وفاة شهاب الدين إلى الحسن بن حرميل نائب هراة جمع أعيان البلد وقاضيهم واستحلفهم على الامتناع من خوارزم شاه ظاهراً ودس إلى خوارزم شاه بالطاعة ويطلب عسكراً يمتنع به من الغورية وبعث ابنه رهينة في ذلك فأنفذ إليه عسكراً من نيسابور وأمرهم بطاعة ابن حرميل وغياث الدين خلال ذلك يكاتب ابن حرميل ويطلبه في الطاعة فيراوغه بالمواعدة وبلغه خبره مع خوارزم شاه فاعتزم على النهوض إليه واستشار ابن حرميل بهراة أعيان البلد يختبر ما عندهم فقال: له علي بن عبد الخالق مدرس أمية وناظر الأوقاف: الرأي صدق الطاعة لغياث الدين فقال إن ما أخشاه فسر إليه وتوثق لي منه ففعل وسار إلى غياث الدين فأطلعه عن الجلي من أمر ابن حرميل ووعده الثورة به.

وكتب غياث الدين إلى نائبه بمرو يستدعيه فتوقف وحمله أهل مرو على المسير فسار فخلع عليه غياث الدين وأقطعه واستدعى غياث الدين أيضاً نائبه بالطالقان أميران قطر فتوقف فأقطع الطالقان سونج مملوك ابنه المعروف بأمير شكار وبعث إلى ابن حرميل مع ابن زياد بالخلع ووصل معه رسوله يستنجز خطبته له فمطله أياماً حتى وصل عسكر خوارزم شاه من نيسابور ووصل في أثرهم خوارزم شاه وانتهى إلى بلخ على أربعة فراسخ فندم ابن حرميل عندما عاين مصدوقة الطاعة وعرف عسكر خوارزم شاه بأن صاحبهم قد صالح غياث الدين وترك له البلاد فانصرفوا إلى صاحبهم وبعث إليه معهم بالهدايا ولما سمع غياث الدين بوصول عسكر خوارزم شاه إلى هراة أخذ اقطاع ابن حرميل وقبض على أصحابه واستصفى أمواله وما كان له من الذخيرة في حروبان وتبين ابن حرميل في أهل هراة الميل إلى غياث الدين والانحراف عنه وخشي من ثورتهم به فأظهر طاعة غياث الدين وجمع أهل البلد على مكاتبته بذلك فكتبوا جميعاً وأخرج الرسول بالكتاب ودس إليه بأن يلحق عسكر شاه خوارزم فيردهم إليه فوصل الرسول بهم لرابع يومه ولقيهم ابن حرميل وأدخلهم البلد وسمل ابن زياد الفقيه وأخرج صاعداً القاضي وشيع الغورية فلحقوا بغياث الدين وسلم البلد لعسكر خوارزم شاه.

وبعث غياث الدين عسكره مع علي بن أبي علي وسار معه أميران صاحب الطالقان وكان منحرفاً عن غياث الدين بسبب عزله فدس إلى ابن حرميل بأن يكبسه وواعده الهزيمة وحلف له على ذلك فكبسه ابن حرميل فانهزم عسكر غياث الدين وأسر كثير من أمرائه وشن ابن حرميل الغارة على بلاد باذغيس وغيرها من البلاد واعتزم غياث الدين على المسير بنفسه إلى هراة ثم شغل عن ذلك بأمر غزنة ومسير صاحب باميان إلى الدوس فأقصر واستظهر خوارزم شاه إلى بلخ وقد كان عند مقتل شهاب الدين أطلق الغورية الذين كان أسرهم في المصاف على خوارزم وخيرهم في المقام عنده أو اللحاق بقومهم واستصفى من أكابرهم محمد بن بشير وأقطعه فلما قصد الآن بلخ قدم إليها أخوه علي شاه في العساكر وبرز إليه عمر بن الحسن أميرها فدافعه عنها ونزل على أربعة فراسخ وأرسل إلى أخيه خوارزم شاه بذلك فسار إليه في ذي القعدة من السنة ونزل على بلخ وحاصرها وهم ينتظرون المدد من صاحبهم باميان بن بهاء الدين وقد شغلوا بغزنة فحاصرها خوارزم شاه أربعين يوماً ولم يظفر فبعث محمد بن بشير الغوري إلى عماد الدين عمر بن الحسن نائبها يستنزله فامتنع فاعتزم خوارزم شاه على المسير إلى هراة.

ثم بلغه أن أولاد بهاء الدين أمراء باميان ساروا إلى غزنة وأسرهم تاج الدين الذر فأعاد محمد بن بشير إلى عمر بن الحسين فأجاب إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له وخرج إليه فأعاده إلى بلده وذلك في ربيع سنة ثلاث وستمائة ثم سار خوارزم شاه إلى جوزجان وبها علي بن علي فنزل له عنها وسلمها خوارزم شاه إلى ابن حرميل لأنها كانت من أقطاعه وبعث إلى غياث الدين عمر بن الحسين من بلخ يستدعيه ثم قبض عليه وبعث به إلى خوارزم شاه وسار إلى بلخ فاستولى عليها واستخلف عليها جغري التركي وعاد إلى بلاده.

استيلاء خوارزم شاه على ترمذ وتسليمها للخطا

ولما أخذ خوارزم شاه بلخ سار عنها إلى ترمذ وبها عماد الدين عمر بن الحسين الذي كان صاحب بلخ وقدم إليه محمد بن علي بن بشير بالعذر عن شأن أبيه وأنه إنما بعثه لخوارزم مكرماً وهو أعظم خواصه ويعده بالاطلاع فاتهم على صاحبها أمره واجتمع عليه خوارزم شاه والخطا من جميع جوانبه وأسر أصحابه ملوك باميان بغزنة فاستأمن إلى خوارزم شاه وملك منه البلد ثم

سلمها إلى الخطا وهم على كفرهم ليسالموه حتى يملك وينتزعها منهم فكان كما قدره والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء خوارزم شاه على الطالقان

ولما ملك خوارزم شاه ترمذ سار إلى الطالقان وبها سونج واستناب على الطالقان أمير شكار نائب غياث الدين محمود وبعث إليه يستميله، فامتنع وبرز للحرب حتى تراءى الجمعان فنزل عن فرسه ونبذ سلاحه وجاء متطارحاً في العفو عنه فأغرض عنه وملك الطالقان واستولى على ما فيها وبعث إليه سونج واستناب الطالقان على بعض أصحابه وسار إلى قلاع كالومين ومهوار وبها حسام الدين علي بن علي فقاتله ودفعه على ناحيته وسار إلى هراة وخيم بظاهرها وجاء رسول غياث الدين بالهدايا والتحف ثم جاء ابن حرميل في جمع من عساكر خوارزم شاه إلى أسفراين فملكها على الأمان في صفر من السنة وبعث إلى صاحب سجستان وهو حرب بن محمد بن إبراهيم من عقب خلف الذي كان ملكها منذ عهد ابن سبكتكين في الطاعة لخوارزم والخطبة له فامتنع وقصد خوارزم شاه وهو على هراة القاضي صاعد بن الفضل الذي أخرجه ابن حرميل ولحق بغياث الدين فلما جاء إلى خوارزم شاه رماه ابن حرميل بالميل إلى الغورية فحبسه بقلعة زوزن وولي القضاء بهراة الصفي أبا بكر بن محمد السرخسي وكان ينوب عن صاعد وابنه في القضاء.

استيلاء خوارزم شاه على مازندران وأعمالها

ثم توفي صاحب مازندران حسام الدين أزدشير وولي ابنه الأكبر وطرد أخاه الأوسط فقصد جرجان وبها الملك علي شاه ينوب عن أخيه خوارزم شاه محمد بن تكش واستنجده فاستأذن أخاه وسار معه من جرجان سنة ثلاث وستمائة ومات الأخ الذي ولي على مازندران وولي مكانه أخوهما الأصغر ووصل علي شاه ومعه أخو صاحب مازندران فعاثوا في البلاد وامتنع الملك بالقلاع مثل سارية وآمد فملكوها من يده وخطب فيها لخوارزم شاه وعاد علي شاه إلى جرجان وترك ابن صاحب مازندران الذي استجار به ملكا في تلك البلاد وأخوه بقلعة كورة.

استيلاء خوارزم شاه على ما وراء النهر وقتاله مع الخطا وأسره وخلاصه

قد تقدم لنا كيف تغلب الخطا على ما وراء النهر منذ هزموا سنجار بن ملك شاه وكانوا أمة بادية يسكنون الخيام التي يسمونها الخركاوات وهم على دين المجوسية كما كانوا وكانوا موطنين بنواحي أوزكندة وبلاد ساغون وكاشغر وكان سلطان سمرقند وبخارى من ملوك الخانية الأقدمين عريقاً في الإسلام والبيت والملك ويلقب خان خاقان بمعنى سلطان السلاطين وكان الخطا وضعوا الجزية على بلاد المسلمين فيما وراء النهر وكثر عيثهم وثقلت وطأتهم فأنف صاحب بخارى من تحكمهم وبعث إلى خوارزم شاه يستصرخه لمحاربتهم على أن يحمل اليه ما يحملونه للخطا وتكون له الخطبة والسكة وبعث في ذلك وجوه بخارى وسمرقند فحلفوا له ووضعوا رهائنهم عنده فتجهز لذلك وولى أخاه علي شاه على طبرستان مع جرجان وولى على نيسابور الأمير كزلك خان من أخواله وأعيان دولته وندب معه عسكراً وولى على قلعة زوزن أمين الدين أبا بكر وكان أصله حمالاً فارتفع وترقى في الرتب إلى ملك كرمان وولى على مدينة الجام الأمير جلدك وأقر على هراة الحسن بن حرميل وأنزل معه ألفاً من المقاتلة واستناب في مرو وسرخس وغيرهما وصالح غياث الدين محموداً على ما بيده من بلاد الغور وكرمسين وجمع عساكر وسار إلى خوارزم فتجهز منها وعبر جيحون واجتمع بسلطان بخارى وسمرقند وزحف إليه الخطا فتواقعوا معه مرات وبقيت الحرب بينهم سجالاً.

ثم انهزم المسلمون وأسر خوارزم شاه ورجعت العساكر إلى خوارزم معلولة وقد أرجف بموت السلطان وكان كزلك خان نائب نيسابور محاصراً لهراة ومعه صاحب زوزن فرجعا إلى بلادهما وأصلح كزلك خان سور نيسابور واستكثر من الجند والأقوات وحدثته نفسه بالاستبداد وبلغ خبر الإرجاف إلى أخيه علي شاه بطبرستان فدعا لنفسه وقطع خطبة أخيه وكان مع خوارزم شاه حين أسر أمير من أمرائه يعرف بابن مسعود فتحيل للسلطان بأن أظهر نفسه في صورته واتفقا على دعائه باسم السلطان وأوهما صاحبهما الذي أسرهما أن ابن مسعود هو السلطان وأن خوارزم شاه خديمه فأوجب ذلك الخطائي حقه وعظمه لاعتقاده أنه السلطان وطلب منعبعد أيام أن يبعث ذلك الخديم لأهله وهو خوارزم شاه في الحقيقة ليعرف أهله بخبره ويأتيه بالمال فيدفعه إليه فاذن له الخطائي في ذلك وأطلقه بكتابه ولحق بخوارزم ودخل إليها

في يوم مشهود وعلم بما فعله أخوه علي شاه بطبرستان وكزلك خان بنيسابور وبلغهما خبر خلاصه فهرب كزلك خان إلى العراق ولحق علي شاه بغياث الدين محمود فأكرمه وأنزله وسار خوارزم شاه إلى نيسابور فأصلح أمورها وولى عليها وسار إلى هراة فنزل عليها وعسكره محاصر دونها وذلك سنة أربع وستمائة والله أعلم.

مقتل ابن حرميل ثم استيلاء خوارزم شاه على هراة

كان ابن حرميل قد تنكر لعسكر خوارزم شاه الذين كانوا عنده بهراة لسوء سيرتهم فلما عبر خوارزم شاه جيحون واشتغل بقتال الخطا قبض ابن حرميل على العسكر وحبسهم وبعث إلى خوارزم شاه يعتذر ويشكو من فعلهم فكتب إليه يستحسن فعله ويأمره بإنفاذ ذلك العسكر إليه ينتفع بهم في قتال الخطا وكتب إلى جلدك بن طغرل صاحب الجام أن يسير إليه بهراة ثقة بفعله وحسن سريرته وأعلم ابن حرميل بذلك ودس إلى جلدك بالتحيل على ابن حرميل بكل وجه والقبض عليه فسار في ألفي مقاتل وكان يهوى ولاية هراة لأن أباه طغرل كان والياً بها لسنجار فلما قارب هراة أمر ابن حرميل الناس بالخروج لتلقيه وخرج هو في أثرهم بعد أن أشار عليه وزيره خواجا الصاحب فلم يقبل فلما التقى جلدك وابن حرميل ترجلا عن فرسيهما للسلام وأحاط أصحاب جلدك بابن حرميل وقبضوا عليه وانهزم أصحابه إلى المدينة فأغلق الوزير خواجا الأبواب واستعد للحصار وأظهر دعوة غياث الدين محمود.

وجاء جلدك فناداه من السور وتهدده بقتل ابن حرميل وجاء بابن حرميل حتى أمره بتسليم البلد لجلدك فأبى وأساء الرد عليه وعلى جلدك فقتل ابن حرميل وكتب إلى خوارزم شاه بالخبر فبعث خوارزم شاه إلى كزلك خان نائب نيسابور وإلى أمين الدين أبي بكر نائب زوزن بالمسير إلى جلدك وحصار هراة معه فسار لذلك في عشرة آلاف فارس وحاصروها فامتنعت وكان خلال ذلك ما قدمناه من انهزام خوارزم شاه أمام الخطا وأسرهم إياه ثم تخلص ولحق بخوارزم ثم جاء إلى نيسابور ولحق بالعساكر الذين يحاصرون هراة فأحسن إلى أمرائهم لصبرهم وبعث إلى الوزير خواجا في تسليم البلد لأنه كان يعد عسكره بذلك حين وصوله فامتنع وأساء الرد فشد خوارزم في حصاره وضجر أهل المدينة وجهدهم الحصار وتحدثوا في الثورة فبعث جماعة من الجند للقبض عليه فثاروا بالبلد وشعر جماعة العسكر من خارج بذلك فرجعوا إلى السور واقتحموه وملك البلد عنوة وجيء بالوزير أسيراً إلى خوارزم شاه فأمر بقتله فقتل وكان ذلك سنة خمس وستمائة وولى على هراة خاله أمير ملك وعاد وقد استقر له أمر خراسان.

استيلاء خوارزم شاه على بيروزكوه وسائر بلاد خراسان

لما ملك خوارزم شاه هراة وولى عليها خاله أمير ملك وعاد إلى خوارزم بعث إلى أمير ملك يأمره بيروزكوه وكان بها غياث الدين محمود بن غياث الدين وقد لحق به أخوه علي شاه وأقام عنده فسار أمير ملك وبعث إليه محمود بطاعته ونزل إليه فقبض عليه أمير ملك وعلى علي شاه أخي خوارزم شاه وقتلهما جميعاً سنة خمس وستمائة وصارت خراسان كلها لخوارزم شاه محمد بن تكش وانقرض أمر الغورية وكانت دولتهم من أعظم الدول وأحسنها والله تعالى ولي التوفيق.

هزيمة الخطا

ولما استقر أمر خراسان لخوارزم شاه واستنفر وعبر نهير جيحون وسار إليه الخطا وقد احتفلوا للقائه وملكهم يومئذ طانيكوه ابن مائة سنة ونحوها وكان مظفراً مجرباً بصيراً بالحرب واجتمع خوارزم شاه وصاحب سمرقند وبخارى وتراجعوا سنة ست وستمائة ووقعت بينهم حروب لم يعهد مثلها ثم انهزم الخطا وأخذ فيهم القتل كل مأخذ وأسر ملكهم طانيكوه فأكرمه خوارزم شاه وأجلسه معه على سريره وبعث به إلى خوارزم وسار هو إلى ما وراء النهر وملكها مدينة مدينة إلى أوركند وأنزل نوابه فيها وعاد إلى خوارزم ومعه صاحب سمرقند فأصهر إليه خوارزم شاه بأخته ورده إلى سمرقند وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان أيام الخطا والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

انتقاض صاحب سمرقند

ولما عاد صاحب سمرقند إلى بلده أقام شحنة خوارزم شاه وعسكره معه نحواً من سنة ثم استقبح سيرتهم وتنكر لهم وأمر أهل البلاد فثاروا بهم وقتلوهم في كل مذهب وهم بقتل زوجته أخت خوارزم شاه فغلقت الأبواب دونه واسترحمته فتركها وبعث إلى ملك الخطا بالطاعة وبلغ الخبر إلى خوارزم شاه فامتعض وهمّ

بقتل من في بلده من أهل سمرقند ثم انثنى عن ذلك وأمر عساكره بالتوجه إلى ما وراء النهر فخرجوا أرسالاً وهو في أثرهم وعبر بهم النهر ونزل على سمرقند وحاصرها ونصب عليها الآلات وملكها عنوة واستباحها ثلاثاً وقتل فيها نحواً من مائتي ألف واعتصم صاحبها بالقلعة ثم حاصرها وملكها عنوة وقتل صاحبها صبراً في جماعة من أقرانه ومحا آثار الخانية وأنزل في سائر البلاد وراء النهر نوابه وعاد إلى خوارزم والله تعالى ولي النصر بمنه وفضله.

استلحام الخطا

قد تقدم لنا وصول طائفة من أمم الترك إلى بلاد تركستان وكاشغر وانتشارهم فيما وراء النهر واستخدموا للملوك الخانية أصحاب تركستان وكان أرسلان خان محمد بن سليمان ينزلهم مسالح على الريف فيما بينه وبين الصين ولهم على ذلك الإقطاعات والجرايات وكان يعاقبهم على ما يقع منهم من الفساد والعيث في البلاد ويوقع بهم ففروا من بلاده وابتغوا عنه فسيحاً من الأرض ونزلوا بلاد ساغون ثم خرج كوخان ملك الترك الأعظم من الصين سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فسارت إليه أمم الخطا ولقيهم الخان محمود بن محمد بن سليمان بن داود بقراخان وهو ابن أخت السلطان سنجار فهزموه وبعث بالصريخ إلى خاله سنجار فاستنفر ملوك خراسان وعساكر المسلمين وعبر جيحون للقائهم في صفر سنة ست وثلاثين ولقيه أمم الترك والخطا فهزموه وأثخنوا في المسلمين وأسرت زوجة السلطان سنجار ثم أطلقها كوخان بعد ذلك وملك الترك بلاد ما وراء النهر.

ثم مات كوخان ملكهم سنة سبع وثلاثين ووليت بعده ابنته وماتت قريباً وملكت من بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد ثم انقرض ملكهم واستولى الخطا على ما وراء النهر إلى أن غلبهم عليه خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش كما قدمنا وكانت قد خرجت قبل ذلك خارجة عظيمة من الترك يعرفون بالتتر ونزلوا في حدود الصين وراء تركستان وكان ملكهم كشلي يخان ووقع بينه وبين الخطا من العداوة والحروب ما يقع بين الأمم المتجاورة فلما بلغهم ما فعله خوارزم شاه بالخطا أرادوا الانتقام منهم وزحف كشلي في أمم التتر إلى الخطا لينتهز الفرصة فيهم فبعث الخطا إلى خوارزم شاه يتلطفون له ويسألونه النصر من عدوهم قبل أن يستحكم أمرهم وتضيق عنه قدرته وقدرتهم وبعث إليه كشلي يغريه بهم وأن يتركه وإياهم ويحلف له على مسالمة بلاده فسار خوارزم شاه يوهم كل واحد من الفريقين أنه له وأقام منتبذاً عنهما حتى تواقعوا وانهزم الخطا فمال التتر عليهم واستلحموهم في كل وجه ولم ينج منهم إلا القليل فتحصنوا بين جبال في نواحي تركستان وقليل آخرون لحقوا بخوارزم شاه كانوا معه.

وبعث خوارزم شاه إلى كشلي خان ملك التتر يعتد عليه بهزيمة الخطا وإنها إنما كانت بمظاهرته فأظهر له الاعتراف وشكره ثم نازعه في بلادهم وأملاكهم وسار لحربهم ثم علم أنه لا طاقة له بهم فمكث يراوغهم على اللقاء كشلي خان يعذله في ذلك وهو يغالطه واستولى وكشلي خان خلال ذلك على كاشغر وبلاد تركستان وساغون ثم عمد خوارزم شاه إلى الشاش وفرغانة واسحان وكاشان وما حولها من المدن التي لم يكن في بلاد الله منها أنزه منها ولا أحسن عمارة فجلا أهلها إلى بلاد الإسلام وخرب جميعها خوفاً أن يملكها التتر ثم اختلف التتر بعد ذلك وخرج على كشلي طائفة أخرى منهم يعرفون بالمغل وملكهم جنكزخان فشغل كشلي خان بحربهم عن خوارزم شاه فعبر النهر إلى خراسان وترك خوارزم شاه إلى أن كان من أمره ما نذكره والله تعالى أعلم.

استيلاء خوارزم شاه على كرمان ومكران والسند

وقد تقدم لنا أنه كان من جملة أمراء خوارزم شاه تكش تاج الدين أبو بكر وأنه كان كرياً للدواب ثم ترقت به الأحوال إلى أن صار "سروان" لتكش والسروان: مقدم الجهاد ثم تقدم عنده لجلده واستماتته وصار أميراً وولاه قلعة زوزن ثم تقدم عند علاء الدين محمد بن تكش واختصه فأشار عليه بطلب بلاد كرمان لما كانت مجاورة لوطنه فبعث معه عسكراً وسار إلى كرمان سنة اثنتي عشرة وصاحبها يومئذ محمد بن حرب أبي الفضل الذي كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجار فغلبه على بلاده وملكها ثم سار إلى كرمان وملكها كلها إلى السند من نواحي كابل وسار إلى هرمز من مدن فارس بساحل البحر واسم صاحبها مكيك فأطاعه وخطب لخوارزم شاه وضمن مالاً يحمله وخطب له بقلعات وبعض عمان من وراء النهر لأنهم كانوا يتقربون إلى صاحب هرمز بالطاعة وتسير سفنهم بالتجار إلى هرمز لأنه المرسى العظيم الذي تسافر إليه التجار من الهند والصين وكان بين صاحب هرمز وصاحب كيش مغاورات وفتن وكل واحد منهما ينهى مراكب بلاده أن ترسي ببلاد الآخر وكان خوارزم شاه يطيف بنواحي سمرقند خشية أن يقصد التتر أصحاب كشلي خان بلاده.

استيلاء خوارزم شاه على غزنة وأعمالها

ولما استولى خوارزم شاه محمد بن تكش على بلاد خراسان وملك باميان وغيرها وبعث تاج الدين ألمرز صاحب غزنة وقد تغلب عليها بعد ملوك الغورية وقد تقدم في أخبار دولتهم فبعث إليه في الخطبة له وأشار عليه كبير دولته قطلغ تكين مولى شهاب الدين الغوري وسائر أصحابه بالإجابة إلى ذلك فخطب له ونقش السكة باسمه وسار قنصيراً وترك قطلغ تكين بغزنة نائباً عنه فبعث قطلغ تكين لخوارزم شاه يستدعيه فأغذ له السير وملك غزنة وقلعتها وقتل الغورية الذين وجدوا بها خصوصاً الأتراك وبلغ الخبر المرز فهرب إلى أساون ثم أحضر خوارزم شاه قطلغ ووبخه على قلة وفائه لصاحبه وصادره على ثلاثين حملاً من أصناف الأموال والأمتعة وأربعمائة مملوك ثم قتله وعاد إلى خوارزم وذلك سنة ثلاث عشرة وستمائة وقيل: سنة اثنتي عشرة بعد أن استخلف عليها ابنه جلال الدين منكبرس والله أعلم بغيبه وأحكم.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الجبل

كان خوارزم شاه محمد بن تكش قد ملك الرها وهمذان وبلاد الجبل كلها أعوام تسعين وخمسمائة من يد قطلغ أبنايخ بقية أمراء السلجوقية ونازعه فيها ابن القصاب وزير الخليفة الناصر فغلبه خوارزم شاه وقتله كما مر في أخباره ثم شغل عنها تكش إلى أن توفي وذلك سنة سبع وتسعين وصار ملكه لابنه علاء الدين محمد بن تكش وتغلب موالي البهلوان على بلاد الجبل واحداً بعد واحد ونصبوا أزبك بن مولاهم البهلوان ثم انتقضوا عليه وخطبوا لخوارزم شاه وكان آخر من ولي منهم أغمش وأقام بها مدة يخطب لعلاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه ثم وثب عليه بعض الباطنية وطمع أزبك بن محمد البهلوان بقية الدولة السلجوقية بأذربيجان وأران في الاستيلاء على أعمال أصفهان والري وهمذان وسائر بلاد الجبل وطمع سعد بن زنكي صاحب فارس ويقال: سعد بن دكلاء في الاستيلاء عليها أيضاً كذلك وسار في العساكر فملك أزبك أصفهان بممالأة أهلها وملك سعد الري وقزوين وسمنان وطار الخبر إلى خوارزم شاه بأصبهان وسمرقند فسار في العساكر سنة أربع عشرة وستمائة في مائة ألف بعد أن جهز العساكر فيما وراء النهر وبثغور الترك وانتهى إلى قومس ففارق العساكر وسار متجرداً في اثني عشر ألفاً فلما ظفرت مقدمته بأهل الري وسعد مخيم بظاهرها ركب للقتال يظن أنه السلطان ثم تبين الآلة والمركب واستيقن أنه السلطان فولت عساكره منهزمة وحصل في أسر السلطان.

وبلغ الخبر إلى أزبك بأصبهان فسار إلى همذان ثم عدل عن الطريق في خواصه وركب الأوعار إلى أذربيجان وبعث وزيره أبا القاسم بن علي بالاعتذار فبعث إليه في الطاعة فأجابه وحمله الضريبة فاعتذر بقتال الكرج وأما سعد صاحب فارس فبلغ الخبر بأسره إلى ابنه نصرة الدين أبي بكر فهاج بخلعان أبيه وأطلق السلطان سعداً على أن يعطيه قلعة اصطخر ويحمل إليه ثلث الخراج وزوجه بعض قرابته وبعث معه من رجال الدولة من يقبض اصطخر فلما وصل إلى شيراز ودخل على ابنه واستولى على ملكه وخطب لخوارزم شاه واستولى خوارزم شاه على شاور وقزوين وجرجان وأبهر وهمذان وأصبهان وقم وقاشان وسائر بلاد الجبل واستولى عليها كلها من أصحابها واختص الأمير طايين بهمذان وولى ابنه ركن الدولة ياورشاه عليهم جميعاً وجعل معه جمال الدين محمد بن سابق الشاوي وزيراً.

طلب الخطبة وامتناع الخليفة منها

ثم بعد ذلك بعث خوارزم شاه محمد بن تكش إلى بغداد يطلب الخطبة بها من الخليفة كما كانت لبني سلجوق وذلك سنة أربع عشرة وذلك لما رأى من استفحال أمره واتساع ملكه فامتنع الخليفة من ذلك وبعث في الاعتذار عنه الشيخ شهاب الدين السهروردي فأكبر السلطان مقدمه وقام لتلقيه وأول ما بدأ به الكلام على حديث الخطبة ببغداد وجلس على ركبتيه لاستماعه ثم تكلم وأطال وأجاد وعرض بالموعظة في معاملة النبي ﷺ في بني العباس وغيرهم والتعرض لإذايتهم فقال السلطان: حاشا لله من ذلك وأنا ما آذيت أحداً منهم وأمير المؤمنين كان أولى مني بموعظة الشيخ فقد بلغني أن في محبسه جماعة من بني العباس مخلدين يتناسلون فقال الشيخ: الخليفة إذا حبس أحداً للإصلاح لا يعترض عليه فيه فما بويع إلا للنظر في المصالح ثم ودعه السلطان ورجع إلى بغداد وكان ذلك قبل أن يسير إلى العراق فلما استولى على بلاد الجبل وفرغ من أمرها سار إلى بغداد وانتهى إلى عقبة سراباد وأصابه هنالك ثلج عظيم أهلك الحيوانات وعفن أيدي الرجال وأرجلهم حتى قطعوها ووصله هنالك شهاب الدين السهروردي ووعظه فندم ورجع عن قصده فدخل إلى خوارزم سنة خمس عشرة والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

قسمة السلطان خوارزم شاه الملك بين ولده

ولما استكمل السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش ملكه بالاستيلاء على الري وبلاد الجبل قسم أعمال ملكه بين ولده فجعل خوارزم وخراسان ومازندران لولي عهده قطب الدين أولاغ شاه وإنما كان ولى عهده دون ابنه الأكبر جلال الدين منكبرس لأن أم قطب الدين وأم السلطان وهي تركمان خاتون من قبيلة واحدة وهم: فياروت من شعوب يمك إحدى بطون الخطا فكانت تركمان خاتون متحكمة في ابنها السلطان محمد بن تكش وجعل غزنة وباميان والغور وبست ومكسا مادومان من الهند لابنه جلال الدين منكبرس وكرمان وكيش ومكرمان لابنه غياث الدين يترشاه وبلاد الجبل لابنه ركن الدين غورشاه كما قدمناه وأذن لهم في ضرب النوب الخمس له وهي: دبادب صغار تقرع عقب الصلوات الخمس واختص هو بنوبة سماها نوبة ذي القرنين سبع وعشرين دبدابة كانت مصنوعة من الذهب والفضة مرصعة بالجواهر هكذا ذكر الوزير محمد بن أحمد النسوي المنشىء كاتب جلال الدين منكبرس في أخباره وأخبار أبيه علاء الدين محمد بن تكش وعلى كتابه اعتمدت دون غيره لأنه أعرف بأخبارهما.

وكانت كرمان ومكرمان وكيش لمؤيد الملك قوام الدين وهلك منصرف السلطان من العراق فأقطعها لابنه غياث الدين كما قلناه وكان الملك هذا سوقة فأصبح ملكاً واصل خبره أن امه كانت داية في دار نصرة الدين محمد بن أنز صاحب زوزن ونشأ في بيته واستخدمه وسفر عنه للسلطان فسعى به أنه من الباطنية ثم رجع فخوفه من السلطان بذلك فانقطع نصرة الدين إلى الإسماعيلية وتحصن ببعض قلاع زوزن وكتب قوام الدين بذلك إلى السلطان فجعل إليه وزارة زوزن وولاية جبايتها ولم يزل يخادع صاحبه نصرة الدين إلى أن رجع فتمكن من السلطان وسمله ثم طمع قوام الدين في ملك كرمان وكان بها أمير من بقية الملك دينار وأمده السلطان بعسكر من خراسان فملك كرمان وحسن موقع ذلك من السلطان فلقبه مؤيد الملك وجعلها في أقطاعه ولما رجع السلطان من العراق وقد نفقت جماله بعث إليه بأربعة آلاف بختي وتوفي أثر ذلك فرد السلطان أعماله إلى ابنه غياث الدين كما قلناه وحمل من تركته إلى السلطان سبعون حملاً من الذهب خلا الأصناف.

أخبار تركمان خاتون أم السلطان محمد بن تكش

كانت تركمان خاتون أم السلطان محمد بن تكش من قبيلة بياروت من شعوب الترك يمك من الخطا وهي بنت خان حبكشن من ملوكهم تزوجها السلطان خوارزم شاه تكش فولدت له السلطان محمداً فلما ملك لحق بها طوائف يمك ومن جاورهم من الترك واستظهرت بهم وتحكمت في الدولة فلم يملك السلطان معها أمره.

وكانت تولي في النواحي من جهتها كما يولي السلطان وتحكم بين الناس وتنصف من الظلامات وتقدم على الفتك والقتل وتقيم معاهد الخير والصدقة في البلاد وكان لها سبعة من الموقعين يكتبون عنها وإذا عارض توقيعها لتوقيع السلطان عمل بالمتأخر منهما وكان لقبها: خداوندجهان أي: صاحبة العالم وتوقيعها في الكتاب عصمة الدنيا والدين أولاغ تركمان ملك نساء العالمين وعلامتها: اعتصمت باللّه وحده تكتبها بقلم غليظ وتجود كتابتها أن تزور عليها واستوزرت للسلطان وزيره نظام الملك وكان مستخدماً لها فلما عزل السلطان وزيره أشارت عليه بوزارة نظام الملك هذا فوزر له على كره من السلطان وتحكم في الدولة بتحكمها ثم تنكر له السلطان لأمور بلغته عنه وعزله فاستمر على وزارتها وكان شأنه في الدولة أكبر وشكاه إليه بعض الولاة بنواحي خوارزم أنه صادرة فأمره بعض خواصه بقتله فمنعه تركمان من ذلك وبقي على حاله وعجز السلطان عن إنفاذ أمره فيه واللّه يؤيد بنصره من يشاء.

خروج التتر وغلبهم على ما وراء النهر وفرار السلطان أمامهم من خراسان

ولما عاد السلطان من العراق سنة خمس عشرة كما قدمناه واستقر بنيسابور وفدت عليه رسل جنكزخان بهدية من المعدنين ونوافج المسك وحجر اليشم والثياب الطائية التي تنسج من وبر الإبل البيض ويخبر أنه ملك الصين وما يليها من بلاد الترك ويسأل الموادعة والأذن للتجار من الجانبين في التردد في متاجرهم وكان في خطابه إطراء السلطان بأنه مثل أعز أولاده فاستنكف السلطان من ذلك واستدعى محموداً الخوارزمي من الرسل واصطنعه ليكون عيناً له على جنكزخان واستخبره على ما قاله في كتابه من ملكه الصين واستيلائه على مدينة طوغاج فصدق ذلك

وانكر عليه الخطاب بالولد.

وسأله عن مقدار العساكر فغشه وقللها وصرفهم السلطان بما طلبوه من الموادعة والإذن للتجار فوصل بعض التجار من بلادهم إلى إنزار وبها نيال خان ابن خان السلطان في عشرين ألفاً من العساكر فشره إلى أموالهم وخاطب السلطان بأنهم عيون وليسوا بتجار فأمره بالاحتياط عليهم فقتلهم خفية وأخذ أموالهم وفشا الخبر إلى جنكزخان فبعث بالنكير إلى السلطان في نقض العهد وإن كان فعل نيال إفتياتاً فبعث إليه يتهدده على ذلك فقتل السلطان الرسل وبلغ الخبر إلى جنكزخان فسار في العساكر واعتزم السلطان أن يحصن سمرقند بالأسوار فجبى لذلك خراج سنتين وجبى ثالثة استخدم بها الفرسان وسار إلى أحياء جنكزخان فكبسهم وهو غائب عنها في محاربة كشلي خان فغنم ورجع وأتبعهم ابن جنكزخان فكانت بينهم واقعة عظيمة هلك فيها كثير من الفريقين.

ولجأ خوارزم شاه إلى جيحون فأقام عليه ينتظر شأن التتر ثم عاجله جنكزخان فأجفل وتركها وفرق عساكره في مدن ما وراء النهر: إنزار وبخارى وسمرقند وترمذ وجند وأنزل أبنايخ من كبراء أمرائه وحجاب دولته في بخارى وجاء جنكزخان إلى إنزار فحاصرها وملكها غلاباً وأسر أميرها نيال خان الذي قتل التجار وأذاب الفضة في أذنيه وعينيه ثم حاصر بخارى وملكها على الأمان وقاتلوا معه القلعة حتى ملكوها ثم غدر بهم وقتلهم وسلبهم وخربها ورحل جنكزخان إلى سمرقند ففعلوا فيها مثل ذلك سنة تسع عشرة وستمائة ثم كتب كتباً على لسان الأمراء قرابة أم السلطان يستدعون جنكزخان ويعدها بزيادة خراسان إلى خوارزم وبعث من يستخلفه على ذلك وبعث الكتب مع من يتعرض بها السلطان فلما قرأها ارتاب بأمه وبقرابتها.

إجفال السلطان خوارزم شاه إلى خراسان ثم إلى طبرستان ومهلكه

ولما بلغ السلطان استيلاء جنكزخان على إنزار وبخارى وسمرقند وجاءه نائب بخارى ناجياً في الفل أجفل حينئذ وعبر جيحون ورجع عنه طوائف الخطا الذين كانوا معه وعلاء الدين صاحب قيدر وتخاذل الناس وسرح جنكزخان العساكر في أثره نحواً من عشرين ألفاً يسميهم التتر المغربة لسيرهم نحو غرب خراسان فتوغلوا في البلاد وانتهوا إلى بلاد بيجور واكتسحوا كل ما مروا عليه ووصل السلطان إلى نيسابور فلم يثبت بها ودخل إلى ناحية العراق بعد أن أودع أمواله قال المنشىء في كتابه: حدثني الأمير تاج الدين البسطامي قال: لما انتهى خوارزم شاه في مسيره إلى العراق استحضرني وبين يديه عشرة صناديق مملوءة لآلىء لا تعرف قيمتها وقال في اثنين منها فيهما من الجواهر ما يساوي خراج الأرض بأسرها وأمرني بحملها إلى قلعة أردهن من أحصن قلاع الأرض وأخذت خط يد الموالي بوصولها ثم أخذها التتر بعد ذلك حين ملكوا العراق انتهى.

ولما ارتحل خوارزم شاه من نيسابور قصد مازندران والتتر في أثره ثم انتهى إلى أعمال همذان فكبسوه هناك ونجا إلى بلاد الجبل وقتل وزيره عماد الملك محمد بن نظام الملك وأقام هو بساحل البحر بقرية عند الفريضة يصلي ويقرأ ويعاهد اللّه على حسن السيرة ثم كبسه التتر أخرى فركب البحر وخاضوا في أثره فغلبهم الماء ورجعوا ووصلوا إلى جزيرة في بحر طبرستان فأقام بها وطرقه المرض فكان جماعة من أهل مازندران يمرضونه ويحمل إليه كثيراً من حاجته فيوقع لحاملها بالولايات والإقطاع وأمضى ابنه جلال الدين بعد ذلك جميعها ثم هلك سنة سبع عشرة وستمائة ودفن بتلك الجزيرة لإحدى وعشرين سنة من ملكه بعد أن عهد لابنه جلال الدين منكبرس وخلع ابنه الأصغر قطب الدين أولاغ شاه.

ولما بلغ خبر إجفاله إلى أمه تركمان خاتون بخوارزم خرجت هاربة بعد أن قتلت نحواً من عشرين من الملوك والأكابر المحبوسين هنالك ولحقت بقلعة إيلان من قلاع مازندران فلما رجع التتر المغربة عن السلطان خوارزم شاه بعد أن خاض بحر طبرستان إلى الجزيرة التي مات بها فقصدوا مازندران وملكوا قلاعها على ما فيها من الامتناع ولقد كان فتحها تأخر إلى سنة تسعين أيام سليمان بن عبد الملك فملكوها واحدة واحدة وحاصروا تركمان خاتون في قلعة إيلان إلى أن ملكوا القلعة صلحاً وأسروها وقال ابن الأثير: إنهم لقوها في طريقها إلى مازندران فأحاطوا بها وأسروها ومن كان معها من بنات السلطان وتزوجهن التتر وتزوج دوش خان بن جنكزخان بإحداهن وبقيت تركمان خاتون أسيرة عندهن في خمول وذل وكانت تحضر سماط جنكزخان كإحداهن وتحمل قوتها منه وكان نظام الملك وزير السلطان مع أمه تركمان خاتون فحصل في قبضة جنكزخان وكان عندهم معظماً لما بلغهم من تنكر السلطان له وكانوا يشاورونه في أمر الجباية فلما استولى دوش خان على خوارزم وجاء بحرم السلطان الذين كانوا بها وفيهن مغنيات فوهب إحداهن لبعض خدمه فمنعت نفسها منه ولجأت للوزير نظام الملك فشكاه ذلك الخادم

لجنكزخان ورماه بالجارية فأحضره جنكزخان وعدد عليه خيانة أستاذه وقتله.

مسير التتر بعد مهلك خوارزم شاه من العراق إلى أذربيجان وما وراءها من البلاد هنالك

ولما وصل التتر إلى الري في طلب خوارزم شاه محمد بن تكش سنة سبع عشرة وستمائة ولم يجدوه عادوا إلى همذان واكتسحوا ما مروا عليه وأخرج إليهم أهل همذان ما حضرهم من الأموال والثياب والدواب فأمنوهم ثم ساروا إلى زنجان ففعلوا كذلك ثم إلى قزوين فامتنعوا منهم فحاصروها وملكوها عنوة واستباحوها ويقال إن القتلى بقزوين زادوا على أربعين ألفاً ثم هجم غلبهم الشتاء فساروا إلى أذربيجان على شأنهم من القتل والاكتساح وصاحبها يومئذ أزبك بن البهلوان مقيم بتبريز عاكف على لذاته فراسلهم وصانعهم وانصرفوا إلى بوقان ليشتوا بالسواحل ومروا إلى بلاد الكرج فجمعوا لقتالهم فهزمهم التتر وأثخنوا فيهم فبعثوا إلى أزبك صاحب أذربيجان وإلى الأشرف بن العادل بن أيوب صاحب خلاط والجزيرة يطلبون اتصال أيديهم على مدافعة التتر وإنصاف إلى التتر أقوش من موالي أزبك وإليه جموع من التركمان والأكراد وسار مع التتر إلى الكرج واكتسحوا بلادهم وانتهوا إلى بلقين وسار إليهم الكرج فلقيهم أقوش أولاً ثم لقيهم التتر فانهزم الكرج وقتل منهم ما لا يحصى وذلك في ذي القعدة من سنة سبع عشرة.

ثم عاد التتر إلى مراغة ومروا بتبريز فصانعهم صاحبها كعادته وانتهوا إلى مراغة فقاتلوها أياماً وبها امرأة تملكها ثم ملكوها في صفر سنة ثماني عشرة واستباحوها ثم رحلوا عنها إلى مدينة إربل وبها مظفر الدين فاستمد بدر الدين صاحب الموصل فأمده بالعساكر ثم هنم بالخروج لحفظ الدروب على بلاده فجاءت كتب الخليفة الناصر إليهم جميعاً بالمسير إلى دقوقا ليقيموا بها مع عساكره ويدافع عن العراق وبعث معهم بشتمر كبير أمرائه وجعل المقدم على الجميع مظفر الدين صاحب إربل فخاموا عن لقاء التتر وخام التتر عن لقائهم وساروا إلى همذان وكان لهم بها شحنة منذ ملكوها أولاً فطالبوه بفرض المال على أهلها وكان رئيس همذان شريفاً علوياً قديم الرياسة بها فحضهم على ذلك فضجروا وأساؤوا الرد عليه وأخرجوا الشحنة وقاتلوا التتر وغضب العلوي فتسلل عنهم إلى قلعة بقربها فامتنع وزحف التتر إلى البلد فملكوه عنوة واستباحوه واستحملوا أهله.

ثم عادوا إلى أذربيجان فملكوا أردبيل واستباحوها وخربوها وساروا إلى تبريز وقد فارقها أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران وقصد لقجوان وبعث بأهله وحرمه إلى خوي فراراً من التتر لعجزه وانهماكه فقام بأمر تبريز شمس الدين الطغرائي وجمع أهل البلد واستعد للحصار فأرسل اليه التتر في المصانعة فصانعهم وساروا إلى مدينة سوى فاستباحوها وخربوها وساروا إلى بيلقان فحاصروها وبعثوا إلى أهل البلد رجلاً من أكابرهم يقرر معهم في المصانعة والصلح فقتلوه فأسرى التتر في حصارهم وملكوا البلد عنوة في رمضان سنة ثمان وعشرة واستلحموا أهلها وأفحشوا في القتل والمثلة حتى بقروا البطون على الأجنة واستباحوا جميع الضاحية قتلاً ونهباً وتخريباً ثم ساروا إلى قاعدة أران وهي كنجة ورأوا امتناعها فطلبوا المصانعة من أهلها فصانعوهم ولما فرغوا من أعمال أذربيجان وأران ساروا إلى بلاد الكرج وكانوا قد جمعوا لهم واستعدوا ووقعوا في حدود بلادهم فقاتلهم التتر فهزموهم إلى بلقين قاعدة ملكهم فجمعوا هنالك ثم خاموا عن لقائهم لما رأوا من اقتحامهم المضائق والجبال فعادوا إلى بلقين واستولى التتر على نواحيها فخربوها كيف شاؤوا ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة الأوعار والدوسرات فعادوا عنها ثم قصدوا درنبر شروان وحاصروا مدينة سماهي وفتكوا في أهلها ووصلوا إلى السور فعالوه باشلاء القتلى حتى ساموه واقتحموا البلد فأهلكوا كل من فيه ثم قصدوا الدرنبر فلم يطيقوا عبوره فأرسلوا إلى شروان في الصلح فبعث إليهم رجالاً من أصحابه فقتلوا بعضهم واتخذوا الباقين أذلاء فسلكوا بهم درنبر شروان وخرجوا إلى الأرض الفسيحة وبها أمم القفجاق واللان واللكن وطوائف من الترك مسلمون وكفار فأوقعوا بتلك الطوائف واكتسحوا عامة البسائط وقاتلهم قفجاق واللان ودافعوهم ولم يطق التتر مغالبتهم ورجعوا وبعثوا إلى القفجاق وهم واثقون بمسالمتهم فأوقعوا بهم وجر من كان بعيداً منهم إلى بلاد الروس واعتصم آخرون بالجبال والغياض واستولى التتر على بلادهم وانتهوا إلى مدينتهم الكبرى سراي على بحر نيطش المتصل بخليج القسطنطينية وهي مادتهم وفيها تجارتهم فملكها التتر وافترق أهلها في الجبال وركب بعضهم إلى بلاد الروم في إيالة بني قليج أرسلان ثم سار التتر سنة عشر وستمائة من بلاد قفجاق إلى بلاد الروس المجاورة لها وهي بلاد فسيحة وأهلها يدينون بالنصرانية فساروا إلى مدافعتهم في تخوم بلادهم ومعهم جموع من القفجاق سافروا إليهم فاستطرد لهم التتر مراحل ثم كروا عليهم وهم غارون فطاردهم القفجاق والروم أياماً ثم

انهزموا وأثخن التتر فيهم قتلاً وسبياً ونهباً وركبوا السفن هاربين إلى بلاد المسلمين وتركوا بلادهم فاكتسحها التتر ثم عادوا إليها وقصدوا بلغار أواخر السنة واجتمع أهلها وساروا للقائهم بعد أن أكمنوا لهم ثم استطردوا أمامهم وخرج عليهم الكمناء من خلفهم فلم ينج منهم إلا القليل وارتحلوا عائدين إلى جنكزخان بأرض الطالقان ورجع القفجاق إلى بلادهم واستقروا فيها واللّه تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

أخبار خراسان بعد مهلك خوارزم شاه

قد كنا قدمنا مهلك خوارزم شاه ومسير هؤلاء التتر المغربة في طلبه ثم انتهائهم بعد مهلكه إلى النواحي التي ذكرناها وكان جنكزخان بعد إجفال خوارزم شاه من جيحون وهو بسمرقند قد بعث عسكراً إلى ترمذ فساروا منها إلى كلات من أحصن القلاع إلى جانب جيحون فاستولوا عليها وأوسعوها نهباً وسير عسكراً آخر إلى فرغانة وكذلك عسكراً آخر إلى خوارزم وعسكراً آخر إلى خوزستان فعبر عسكر خراسان إلى بلخ وملكوها عل الأمان سنة سبع وستمائة ولم يعرضوا لها بعيث وأنزلوا شحنتهم بها ثم ساروا إلى زوزن وايدخوي وفاراب فملكوها وولوا عليها ولم يعرضوا لأهلها بأذى وإنما استنفروهم لقتال البلد معهم.

ثم ساروا إلى الطالقان وهي ولاية متسعة فقصدوا قلعة صوركوه من أمنع بلادها فحاصروها ستة أشهر وامتنعت عليهم فسار إليهم جنكزخان بنفسه وحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى إذا رأى امتناعها أمر بنقل الخشب والتراب حتى اجتمع منه تل مشرف على البلد واستيقن أهل البلد الهلكة واجتمعوا وفتحوا الباب وصدقوا الحملة فنجا الخيالة وتفرقوا في الجبال والشعاب وقتل الرجالة ودخل التتر البلد فاستباحوها ثم بعث جنكزخان صهره قفجاق قوين إلى خراسان ومرواسا وقاتلوها فامتنعت عليهم وقتل قفجاق قوين فأقاموا على حصارها وملكوها عنوة واستباحوها وخربوها ويقال: قتل فيها أزيد من سبعين ألفاً وجمع من الجثث عدداً كبيراً فكان كالتلال العظيمة وكان رؤساؤها بني حمزة بخوارزم منذ ملكها خوارزم شاه تكش فعاد إليها اختيار الدين جنكي بن عمر بن حمزة وبنو عمه وضبطوها.

ثم بعث جنكزخان ابنه في العساكر إلى مدينة مرو واستنفر أهل البلاد التي ملكوها من قبل مثل بلخ وأخواتها وكان الناجون من هذه الوقائع كلها قد لحقوا بمرو واجتمع بها ما يزيد على مائتي ألف وعسكروا بظاهرها لا يشكون في الغلب فلما قاتلهم التتر صابروهم فوجدوا في مصابرتهم ما لم يحتسبوه فولوا منهزمين وأثخن التتر فيهم ثم حاصروا البلد خمسة أيام وبعثوا إلى أميرها يستميلونه للنزول عنها فاستأمن إليهم وخرج فأكرموه أولاً ثم أمروا بإحضار جنده للعرض حتى استكملوا وقبضوا عليهم.

ثم استكتبوا رؤساء البلد وتجاره وصناعه على طبقاتهم وخرج أهل البلد جميعاً وجلس لهم جنكزخان على كرسي من ذهب فقتل الجند في صعيد واحد وقسم العامة رجالاً وأطفالاً ونساء بين الجند فاقتسموهم وأخذوا أموالهم وامتحنوهم في طلب المال ونبشوا القبور في طلبه ثم أحرقوا البلد وتربة السلطان سنجار ثم استلحم في اليوم الرابع أهل البلد جميعاً يقال: كانوا سبعمائة ثم ساروا إلى نيسابور وحاصروها خمساً ثم اقتحموها عنوة وفعلوا فيها فعلهم في مرو أو أشد ثم بعثوا عسكراً إلى طوس وفعلوا فيها مثل ذلك وخربوها وخربوا مشهد علي بن موسى الرضا ثم ساروا إلى هراة وهي من أمنع البلاد فحاصروها عشراً وملكوها وأمنوا من بقي من أهلها وأنزلوا عندهم شحنة وساروا لقتال جلال الدين بن خوارزم شاه كما يذكر بعد فوثب أهل هراة على الشحنة وقتلوه فلما رجع التتر منهزمين اقتحموا البلد واستباحوه وخربوه وأحرقوه ونهبوا نواحيه أجمع وعادوا إلى جنكزخان بالطالقان وهو يرسل السرايا في نواحي خراسان حتى أتوا عليها تخريباً وكان ذلك كله سنة سبع عشرة وبقيت خراسان خراباً وتراجع أهلها بعض الشيء فكانوا فوضى واستبد آخرون في بعض مدنها كما نذكر ذلك في أماكنه واللّه أعلم.

أخبار السلطان جلال الدين منكبرس مع التتر بعد مهلك خوارزم شاه واستقراره بغزنة

ولما توفي السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش بجزيرة بحر طبرستان ركب ولده البحر إلى خوارزم يقدمهم كبيرهم جلال الدين منكبرس وقد كان وثب بها بعد منصرف تركمان خاتون أم خوارزم شاه رجل من العيارين فضبطها وأساء السيرة وانطلقت إليها أيدي العيارين ووصل بعض نواب الديوان فأشاعوا موت السلطان ففر العيارون ثم جاء جلال الدين وإخوته واجتمع الناس إليهم فكانوا معهم سبعة آلاف من العساكر أكثرهم اليارونية قرابة أم خوارزم شاه فمالوا إلى أولاغ شاه وكان ابن أختهم كما مر وشاوروا في الوثوب بجلال الدين وخلعه ونمي الخبر إليه فسار إلى خراسان في ثلثمائة فارس وسلك المفازة إلى بلد نسا فلقي هناك

رصداً من التتر فهزمهم ولجأ فلهم إلى نسا وكان بها الأمير اختيار زنكي بن محمد بن عمر بن حمزة قد رجع إليها من خوارزم كما قدمناه وضبطها فاستلحم فل التتر وبلغ وبعث إلى جلال الدين بالمدد فسار إلى نيسابور ثم وصلت عساكر التتر إلى خوارزم بعد ثلاث من مسير جلال الدين فأجفل أولاغ وإخوته وساروا في اتباعه ومروا بنسا فسار معه اختيار الدين صاحبها واتبعتهم عساكر التتر فأدركوهم بنواحي خراسان وكبسوهم فقتل أولاغ شاه وأخوه انشاه واستولى التتر على ما كان معهم من الأموال والذخائر وافترقت في أيدي الجند والفلاحين فبيعت بأبخس الأثمان.

ورجع اختيار الدين زنكي إلى نسا فاستبد بها ولم يسم إلى مراسم الملك وكتب له جلال الدين بولايتها فراجع أحوال الملك ثم بلغ الخبر إلى جلال الدين بزحف التتر إلى نيسابور وأن جنكزخان بالطالقان فسار إلى نيسابور ومن نيسابور إلى بست واتبعه نائب هراة الأمير ملك ابن خال السلطان خوارزم شاه في عشرة آلاف فارس هارباً أمام التتر وقصد سجستان فامتنعت عليه فرجع واستدعاه جلال الدين فسار إليه واجتمعوا فكبسوا التتر وهم محاصرون قلعة قندهار فاستلحموهم ولم يفلت منهم أحد فرجع جلال الدين إلى غزنة وكانت قد استولى عليها اختيار الدين قربوشت صاحب الغور عندما ساروا إليها وعندما قدم جلال الدين صريخاً عن أمير ملك خان من سجستان فخالفه قربوشت إليها وملكها فثار به صلاح الدين النسائي والي قلعتها وقتله ملك غزنة، وكان بها رضا الملك شرف الدين بن أمير ملك خان ففتك به رضا الملك واستبد بغزنة فلما ظفر جلال الدين بالتتر على قندهار رجع إلى غزنة فقتله وأوطنها وذلك سنة ثمان عشرة.

استيلاء التتر على مدينة خوارزم وتخريبها

قد كنا قدمنا أن جنكزخان بعدما أجفل خوارزم شاه من جيحون بعث عساكره إلى النواحي وبعث إلى مدينة خوارزم عسكراً عظيماً لعظمها لأنها كرسي الملك وموضع العساكر فسارت عساكر التتر إليها مع ابنه جنطاي وأركطاي فحاصروها خمسة أشهر ونصبوا عليها الآلات فامتنعت فاستمدوا عليها جنكزخان فامدهم بالعساكر متلاحقة فزحفوا إليها وملكوا جانباً منها وما زالوا يملكونها ناحية ناحية إلى أن استوعبوها ثم فتحوا السد الذي يمنع ماء جيحون عنها فسار إليها جيحون فغرقها وانقسم أهلها بين السيف والغرق هكذا قال ابن الأثير وقال النسائي الكاتب إن دوشن خان بن جنكزخان عرض عليهم الأمان فخرجوا إليه فقتلهم أجمعين وذلك في محرم سنة سبع عشرة ولما فرغ التتر من خراسان وخورازم رجعوا إلى ملكهم جنكزخان بالطالقان.

خبر آبنايخ نائب بخارى وتغلبه على خراسان ثم فراره أمام التتر إلى الري

كان آبنايخ أمير الأمراء والحجاب أيام خوارزم شاه وولاه ثانياً بخارى فلما ملكها التتر عليه كما قلناه أجفل إلى المفازة وخرج منها إلى نواحي نسا وراسله اختيار الدين صاحبها يعرضها عليه للدخول عنده فأبى فوصله وأمده وكان رئيس بشخوان من قرى نسا أبو الفتح فداخل التتر فكتب إلى شحنة خوارزم بمكان آبنايخ فجرد إليهم عسكرا فهزمه آبنايخ وأثخن فيهم وساروا إلى بشخوان فحاصروها وملكوها عنوة وهلك أبو الفتح أيام الحصار ثم ارتحل آبنايخ إلى أبيورد وقد تغلب تاج الدين عمر بن مسعود على أبيورد وما بينها وبين مرو فجبى خراجها واجتمع عليه جماعة من أكابر الأمراء وعاد إلى نسا وقد توفي نائبها اختيار الدين زنكي وملك بعده ابن عمه عمدة الدين حمزة بن محمد بن حمزة فطلب منه آبنايخ خراج سنة ثمان عشرة وسار إلى شروان وقد تغلب عليها ايكجي بهلوان فهزمه وانتزعها من يده ولحق بهلوان بجلال الدين في الهند واستولى آبنايخ خان على عامة خراسان وكان تكين بن بهلوان متغلبا بمرو فعبر جيحون وكبس شحنة التتر ببخارى فهزموه سنة سبع ورجع إلى شروان وهم باتباعه ولحقوا بآبنايخ خان على جرجان فهزموه ونجا إلى غياث الدين يترشاه بن خوارزم شاه بالري فأقام عنده إلى أن هلك كما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

خبر ركن الدين غورشاه صاحب العراق من ولد خوارزم شاه

قد كان تقدم لنا أن السلطان لما قسم ممالكه بين أولاده جعل العراق في قسمة غورشاه منهم ولما أجفل السلطان من ناحية الري لقيه ابنه غور شاه ثم سار إلى الري إلى كرمان فملكها تسعة أشهر ثم بلغه أن جلال الدين محمد بن أبه القزويني وكان بهمذان أراد أن يملك العراق واجتمع إليه بعض الأمراء وأن مسعود بن صاعد قاضي أصفهان مائل إليه فعاجله ركن الدولة واستولى على

أصفهان وهرب القاضي إلى الأتابك سعد بن زنكي صاحب فارس فأجاره وبعث ركن الدين العساكر لقتال همذان فتخاذلوا ورجعوا دون قتال ثم مضى إلى الري ووجد بها قوما من الإسماعيلية يحاولون إظهار دعوتهم ثم زحف التتر إلى ركن الدولة فحاصروه بقلعة راوند واقتحموها فقاتلوه واستأمن إليهم ابن أبه صاحب همذان فأمنوه ودخلوا همذان فولوا عليها علاء الدين الشريف الحسيني عوضا من ابن أبه.

خبر غياث الدين تيرشاه صاحب كرمان من ولد السلطان خوارزم شاه

قد كنا قدمنا أن السلطان خوارزم شاه ولى ابنه غياث الدين تيرشاه كرمان وكيش ولم ينفذ إليها أيام أبيه ولما كانت الكبسة على قزوين خلص إلى قلعة ماروت من نواحي أصفهان وأقام عند صاحبها ثم رجع إلى أصفهان ومر به التتر ذاهبين إلى أذربيجان فحاصروه وامتنع عليهم وأقام بها إلى آخر سنة عشرين وستمائة فلما جاء أخوه ركن الدين غورشاه من كرمان إلى أصفهان لقيه هنالك وحرضه غياث الدين على كرمان فنهض إليها وملكها فلما قتل ركن الدين كما قلناه سار غياث الدين إلى العراق وكان ركن لما ولاه أبوه العراق جعل معه الأمير بقاطابستي أتابكاً فاستبد عليه فشكاه إلى أبيه وأذن له في حبسه فحبسه ركن الدين بقلعة سرجهان فلما قتل ركن الدين كما قلناه أطلقه نائب القلعة أسد الدين حولي فاجتمع عليه الناس وكثير من الأمراء واستماله غياث الدين وأصهر إليه بأخته وماطله في الزفاف يستبرىء ذهاب الوحشة بينهما

وكانت أصفهان بعد مقتل ركن الدين غلب عليها أزبك خان واجتمعت عليه العساكر وزحف إليه الأمير بقاطابستي فاستنجد أزبك غياث الدين فأنجده بعسكر مع الأمير دولة ملك وعاجله بقاطابستي فهزمه بظاهر أصفهان وقتله وملكها ورجع دولة ملك إلى غياث الدين فزحف غياث الدين إلى أصفهان وأطاعه القاضي والرئيس صدر الدين وبادر بقاطابستي إلى طاعته ورضي عنه غياث الدين وزف إليه أخته واستولى غياث الدين على العراق ومازندان وخراسان وأقطع مازندان وأعمالها دولة ملك وبقاطابستي همذان وأعمالها

ثم زحف غياث الدين إلى أذربيجان وشن الغارة على مراغة وترددت رسل صاحب أذربيجان أزبك بن البهلوان في المهادنة فهادنه وتزوج بأخته صاحب بقجوان وقويت شوكته وعظم فكان بقاطابستي في دولته وتحكم فيها ثم حدثته نفسه بالاستبداد وانتقض وقصد أذربيجان وبها مملوكان منتقضان على أزبك بن البهلوان فاجتمعا معه وزحف إليهم غياث الدين فهزمهم ورجعوا مغلوبين إلى أذربيجان ويقال: إن الخليفة دس بذلك إلى بقاطابستي وأغراه بالخلاف على غياث الدين ثم لحق بغياث الدين آبنايخ خان نائب بخارى مفلتاً من واقعته مع التتر بجرجان فأكرمه وقدمه ونافسه خال السلطان دولة ملك وأخوه وسعوا إليها فزجرهما عنه فذهبا مغاضبين ووقع دولة ملك في عساكر التتر بمرو وزنجان فقتل وهرب ابنه بركة خان إلى أزبك بأذربيجان ثم أوقع عساكر التتر بقاطابستي وهزموه ونجا إلى الكرم وخلص الفل إلى غياث الدين وعاد التتر إلى ما وراء جيجون ثم تذكر صاحب فارس سعد الدين بن زنكي وكاتبته أهل أصفهان حين كانوا منهزمين فسار إليه وحاصره في قلعة اصطخر وملكها ثم سار إلى شيراز وملكها عليه عنوة ثم سار إلى قلعة حرة فحاصرها حتى استأمنوا وتوفي عليها آبنايخ خان ودفن هنالك بشعب سلمان وبعث عسكراً إلى كازرون فملكها عنوة واستباحها ثم سار إلى ناحية بغداد وجمع الناس الجموع من إربل وبلاد الجزيرة ثم راسل غياث الدين في الصلح فصالحه ورجع إلى العراق.

أخبار السلطان جلال الدين منكبرس وهزيمته أمام التتر ثم عوده إلى الهند

قد كان تقدم لنا أن أباه خوارزم شاه لما قسم البلاد بين ولديه جعل في قسمه غزنة وباميان والغور وبست وهيكاباد وما يليها من الهند واستناب عليها أمير ملك وأنزله غزنة فلما انهزم السلطان خوارزم شاه أمام التتر زحف إليه حربوشة والي الغور فملكها من يده وكان من أمره ما قدمناه إلى أن استقر بها رضا الملك شرف الدين ولما أجفل السلطان جلال الدين من نيسابور إلى غزنة واستولى التتر على بلاد خراسان وهرب أمراؤها فلحقوا بجلال الدين فقتل نائب هراة أمين الملك خال السلطان وقد قدمنا محاصرته بسجستان ثم مراجعته طاعة السلطان جلال الدين ولحق به أيضاً سيف الدين بقراق الخلخي وأعظم ملك من بلخ ومظهر ملك والحسن فزحف كل منهم في ثلاثين ألفاً ومع جلال الدين من عسكره مثلها فاجتمعوا وكبسوا التتر المملوكة محاصرين قلعة قندهار كما قلنا واستلحموهم ولحق فلهم بجنكزخان فبعث ابنه طولي خان في العساكر فساروا إلى جلال الدين فلقيهم بشروان

وهزمهم وقتل طولي خان بن جنكز في المعركة وذهب التتر منهزمين.

واختلف عسكر السلطان جلال الدين على الغنائم وتنازع سيف الدين بقراق مع أمين الملك نائب هراة وتحيز إلى العراق وأعظم ملك ومظهر ملك وقاتلوا أمين الملك فقتل أخ لبقراق وانصرف مغاضباً إلى الهند وتبعه أصحابه ولاطفهم جلال الدين ووعظهم فلم يرجعوا وبلغ خبر الهزيمة إلى جنكزخان فسار في أمم التتر وسار جلال الدين فلقي مقدمة عساكره فلم يفلت من التتر إلا القليل ورجع فنزل على نهر السند وبعث بالصريخ إلى الأمراء المنحرفين عنه وعاجله جنكزخان قبل رجوعه فهزمه بعد القتال والمصابرة ثلاثاً وقتل أمين الملك قريب أبيه واعترض المنهزمين نهر السند فغرق أكثرهم وأسر ابن جلال الدين فقتل وهو ابن سبع سنين ولما وقف جلال الدين على النهر والتتر في اتباعه فقتل أهله وحرمه جميعاً واقتحم النهر بفرسه فخلص إلى عدوته وتخلص من عسكره ثلاثمائة فارس وأربعة آلاف راجل وبعض أمرائه ولقوه بعد ثلاث وتخلص بعض خواصه بمركب مشحون بالأقوات والملابس فسد من حاجتهم وتحصن أعظم ملك ببعض القلاع وحاصره جنكزخان وملكها عنوة وقتله ومن معه ثم عاد التتر إلى غزنة فملكوها واستباحوها وأحرقوها وخربوها واكتسحوا سائر نواحيها وكان ذلك كله سنة تسع عشرة ولما سمع صاحب جبل جردي من بلاد الهند بجلال الدين جمع للقائه وخام جلال الدين وأصحابه عن اللقاء لما نهكتهم الحرب فرجعوا أدراجهم وأدركهم صاحب جلال الدين صوري فقاتلهم وهزموه وملكوا أمرهم وبعث إليهم نائب ملك الهند فلاطفهم وهاداهم واللّه تعالى ولي التوفيق.

أخبار جلال الدين بالهند

كان جماعة من أصحاب جلال الدين وأهل عسكره لما عبروا إليهم حصلوا عند قباجة ملك الهند منهم بنت أمين الملك خلصت إلى مدينة أرجاء من عمله ومنهم شمس الملك وزير جلال الدين حياة أبيه ومنهم قزل خان بن أمين الملك خلص إلى مدينة كلور فقتله عاملها وقتل قباجة شمس الملك الوزير لخبر جلال الدين بأموره وبعث أمين الملك ولحق بجلال الدين جماعة من أمراء أخيه غياث الدين فقوي بهم وحاصر مدينة كلور وافتتحها وافتتح مدينة ترنوخ كذلك فجمع قباجة للقائه وسار إليه جلال الدين فخام عن اللقاء وهرب وترك معسكره فغنمه جلال الدين بما فيه وسار إلى لهاوون وفيها ابن قباجة ممتنعاً عليه فصالحه على مال يحمله ورحل إلى تشتشان وبها فخر الدين السلاوي نائب قباجة فتلقاه بالطاعة ثم سار إلى أوجا وحاصرها فصالحوه على المال ثم سار إلى جانس وهي لشمس الدين اليتمشي من ملوك الهند ومن موالي شهاب الدين الغوري فأطاعه أهلها وأقام بها وزحف إليه ايتش في ثلاثين ألف فارس ومائة ألف راجل وثلاثمائة فيل وزحف جلال الدين في عساكره وفي مقدمته جرجان بهلوان أزبك واختلفت المقدمتان فلم يمكن اللقاء وبعث ايتش في الصلح فجنح إليه جلال الدين ثم اجتمع قباجة وايتش وسائر ملوك الهند فخام عن لقائهم ورجع لطلب العراق واستخلف جهان بهلوان الملك على ما ملك من الهند وعبر النهر إلى غزنة فولى عليها وعلى الغور الأمير وفاملك واسمه الحسن فزلف وسار إلى العراق وذلك سنة إحدى وعشرين بعد مقدمه لها بسنتين.

أحوال العراق وخراسان في إيالة غياث الدين

كان غياث الدين بعد مسير جلال الدين إلى الهند اجتمع إليه شراد العساكر بكرمان وسار بهم إلى العراق فملك خراسان ومازندران كما تقدم وأقام منهمكاً في لذاته واستبد الأمراء بالنواحي فاستولى قائم الدين على نيسابور وتغلب يقز بن ايلجي بهلوان على شروان وتملك ينال خطا بهاتر ونظام اسفراين ونصرة الدين بن محمد مستبد بنسا كما مر واستولى تاج الدين عمر بن مسعود التركماني على أبيورد وغياث الدين مع ذلك منهمك في لذاته وسارت إليه عساكر التتر فخرج لهم عن العراق إلى بلاد الجبل واكتسحوا سائر جهاته واشتط عليه الجند وزادهم في الإقطاع والإحسان فلم يشبعهم وأظهروا الفساد وعاثوا في الرعايا وتحكمت أم السلطان غياث الدين في الدولة لإغفاله أمرها واقتفت طريقة تركمان خاتون أم السلطان خوارزم شاه وتلقبت بلقبها خداوندجهان إلى أن جاء السلطان جلال الدين فغلب عليه كما قلناه.

وصول جلال الدين من الهند إلى كرمان وأخباره بفارس والعراق مع أخيه غياث الدين

ولما فارق جلال الدين الهند كما قلناه سنة إحدى وعشرين وسار إلى المفازة وخلص منها إلى كرمان بعد أن لقي بها من المتاعب والمشاق مالا يعبر عنه وخرج معه أربعة آلاف راكب على الحمير والبقر ووجد بكرمان براق الحاجب نائب أخيه غياث الدين وكان من خبر براق هذا أنه كان حاجباً لكوخان ملك الخطا وسفر عنه إلى خوارزم شاه فأقام عنده ثم ظفر خوارزم شاه بالخطا وولاه حجابته ثم صار إلى خدمة ابنه غياث الدين ترشه بمكران فأكرمه ولما سار جلال الدين إلى الهند ورجع عنه التتر سار غياث الدين لطلب العراق فاستناب براق في كرمان فلما جاء جلال الدين من الهند اتهمه وهمّ بالقبض عليه فنهاه عن ذلك وزيره شرف الملك فخر الدين علي بن أبي القاسم الجندي خواجها جهان أن يستوحش الناس لذلك.

ثم سار جلال الدين إلى شيراز وأطاعه صاحبها برد الأتابك وأهدى له وكان أتابك فارس سعد بن زنكي قد استوحش من غياث الدين فاصطلحه جلال الدين وأصهر إليه في ابنته ثم سار إلى أصفهان فأطاعه القاضي ركن الدين مسعود بن صاعد وبلغ خبره إلى أخيه غياث الدين وهو بالري فجمع لحربه، وبعث جلال الدين يستعطفه وأهدى له سلب طولي خان بن جنكزخان الذي قتل في حرب بزوان كما مر وفرسه وسيفه ودس إلى الأمراء الذين معه بالاستمالة فمالوا إليه ووعدوه بالمظاهرة ونمي الخبر إلى غياث الدين فقبض على بعضهم ولحق الآخرون بجلال الدين فجاؤوا به إلى المخيم فمال إليه أصحاب غياث الدين وعساكره واستولى على مخيمه وذخائره وأمه ولحق غياث الدين بقلعة سلوقان وعاتب جلال الدين أمه في فراره فاستدعته وأصلحت بينهما ووقف غياث الدين موقف الخدمة لأخيه السلطان جلال الدين وجاء المتغلبون بخراسان والعراق وأذعنوا إلى الطاعة وكانوا من قبل مستبدين على غياث الدين فاختبر السلطان طاعتهم وعمل على شاكلتها والله أعلم.

استيلاء ابن آبنايخ على نسا

كان نصرة الدين بن محمد قد استولى على نسا بعد ابن عمه اختيار الدين كما مر واستناب في أموره محمد بن أحمد النسائي المنشىء صاحب التاريخ المعتمد عليه في نقل أخبار خوارزم شاه وبنيه، فأقام فيها تسع عشرة سنة مستبداً على غياث الدين ثم انتقض عليه وقطع الخطبة له فسرح إليه غياث الدين العساكر مع طوطي بن آبنايخ وأنجده بأرسلان وكاتب المتغلبين بمساعدته فراجع نصرة الدين محمد بن حمزة نفسه وبعث نائبه محمد بن أحمد المنشىء إلى غياث الدين بمال صالحه عليه فبلغه الخبر في طريقه بوصول جلال الدين واستيلائه على غياث الدين فأقام بأصفهان ينتظر صلاح السابلة وزوال الثلج ثم سار إلى همذان فوجد السلطان غائبا في غزو الأتابك بقطابستي وكان من خبره أنه صهر إلى غياث الدين على أخته كما قدمنا فهرب بعد خلعه إلى أذربيجان واتفق هو والأتابك سعد وسار إليهما جلال الدين فخالفه الأمير ايغان طائسي إلى همذان وسار إلى جلال الدين وكبسه هنالك فأخذه ثم أمنه وعاد إلى مخيمه ولقيه وافد نصرة الدين على بلاد نسا وما يتاخمها وبعث إلى ابن آبنايخ بالإفراج عن نسا ثم بلغ الخبر بعد يومين بهلاك نصرة الدين واستيلاء ابن آبنايخ على نسا.

مسير السلطان جلال الدين إلى خوزستان ونواحي بغداد

ولما استولى السلطان جلال الدين على أخيه غياث الدين واستقامت أموره سار إلى خوزستان شاتياً وحاصر قاعدتها وبها مظفر الدين وجه السبع مولى الخليفة الناصر وانتهت سراياه في الجهات إلى بادرايا وإلى البصرة فأوقع بهم تلكين نائب البصرة وجاءت عساكر الناصر مع مولاه جلال الدين قشتمر وخاموا عن اللقاء وأوفد ضياء الملك علاء الدين محمد بن مودود السوي العارض على الخليفة ببغداد عاتباً وكان في مقدمته جهان بهلوان فلقي في طريقه جمعاً من العرب وعساكر الخليفة فرجع وأوقع بهم ورجعوا إلى بغداد وجيء بأسرى منهم إلى السلطان فأطلقهم واستعد أهل بغداد للحصار وسار السلطان إلى بعقوبا على سبع فراسخ من بغداد ثم إلى دقوقا فملكها عنوة وخربها وقاتلت بعوثه عسكر تكريت وترددت الرسل بينه وبين مظفر الدين صاحب إربل حتى اصطلحوا واضطربت البلد بسبب ذلك وأفسد العرب السابلة وأقام ضياء الملك ببغداد إلى أن ملك السلطان مراغة والله تعالى أعلم.

أولية الوزير شرف الدين

هذا الوزير هو فخر الدين علي بن القاسم خواجة جهان ويلقب شرف الملك أصله من أصفهان وكان أول أمره ينوب عن صاحب الديوان بها وكان نجيب الدين الشهرستاني وزير السلطان وابنه بهاء الملك وزير الجند وفخر الدين هذا يخدمه بها ثم تمكن من منصب الإفتاء وطمع إلى مغالبة نجيب الدين على الوزارة وسعى عند السلطان بأنه تناول من جبايتها مائتي ألف دينار فسامحه بها السلطان ولم يعرض له ثم سعى بفخر الدين ثانية فولي وزارة الجند وأقام بها أربع سنين حتى عبر السلطان إلى بخارى فكثرت به الشكايات فأمر بالقبض عليه فاختفى ولحق بالطالقان إلى أن اتصل بجلال الدين حين كان بغزنة بعد مهلك ابنه فرتبه في الحجابة إلى أن أجاز بحر السند وكان وزيره شهاب الدين الهروي فقتله قباجة ملك الهند كما مر واستوزر جلال الدين مكانة فخر الدين هذا ولقبه شرف الملك ورفع رتبته على الوزراء وموقفه وسائر آدابه وأحواله.

عودة التتر إلى الري وهمذان وبلاد الجبل

وبعد رجوع التتر المغربة من أذربيجان وبلاد قفجاق وسروان كما قدمناه وخراسان يومئذ فوضى ليس بها ولاة إلا متغلبون من بعض أهلها بعد الخراب الأول والنهب فعمروها فبعث جنكزخان عسكراً آخر من التتر إليها فنهبوها ثانياً وخربوها وفعلوا في ساوة وقاشان وقم مثل ذلك ولم يكن التتر أولاً أصابوا منها ثم ساروا إلى همذان فأجفل أهلها وأوسعوها نهباً وتخريباً وساروا في اتباع أهلها إلى أذربيجان وكبسوهم في حدودها فأجفلوا وبعضهم قصد تبريز فسار التتر في اتباعهم وراسلوا صاحبها أزبك بن البهلوان في إسلام من عنده فبعث بهم بعد أن قتل جماعة منهم وبعث برؤوسهم وصانعهم بما أرضاهم فرجعوا عن بلاده والله تعالى أعلم.

وقائع أذربيجان قبل مسير جلال الدين إليها

لما رجع التتر من بلاد قفجاق والروس وكانت طائفة من قفجاق لما افترقوا وفروا أمام التتر ساروا إلى دربند شروان واسم ملكه يومئذ رشيد وسألوه المقام في بلاده وأعطوه الرهن على الطاعة فلم يجبهم ريبة بهم فسألوه الميرة فأذن لهم فيها فكانوا يأتون إليها زرافات وتنصح له بعضهم بأنهم يرومون الغدر به وطلب منه الإنجاد بعسكره وسار في أثرهم فأوقع بهم وهم باخلون بالطاعة فرجع ذلك القفجاقي بالعسكر ثم بلغه أنهم رحلوا من مواضعهم فاتبعهم ثانياً بالعساكر حتى أوقع بهم ورجع إلى رشيد ومعه جماعة منهم مستأمنين وقد اختفى فيهم كبير من مقدميهم وتلاحق به جماعة منهم فاعتزموا على الوثوب فهرب خائفاً ولحق ببلاد شروان واستولت طائفة القفجاق على القلعة وعلى مخلف رشيد فيها من المال والسلاح واستدعوا أصحابهم فلحقوا بهم واعتزموا وقصدوا قلعة الكرج فحاصروها وخالفهم رشيد إلى القلعة فملكها وقتل من وجد بها منهم فعادوا من حصار تلك المدينة إلى دربند وامتنعت عليهم القلعة فرجعوا إلى تلك المدينة فاكتسحوا نواحيها وساروا إلى كنجة من بلاد أران وفيها مولى لأزبك صاحب أذربيجان فراسلوه بطاعة أزبك فلم يجبهم إليها وعدد عليهم ما بدر منهم في الغدر ونهب البلاد واعتذروا بأنهم إنما غدروا شروان لأنه منعهم الجواز إلى صاحب أذربيجان وعرضوا عليه الرهن فجاءهم بنفسه ولقوه في عدد قليل فعدا عن محال التهمة فبعث بطاعتهم إلى سلطانه وبعث بذلك إلى أزبك وجاء بهم إلى كنجة فأفاض فيهم الخلع والأموال وأصهر إليهم وأنزلهم بجبل كيكلون.

وجمع لهم الكرج فآواهم إلى كنجة ثم سار إليهم أمير من أمراء قفجاق ونال منهم فرجعوا إلى جبل كيكون وسار القفجاق الذين كبسوهم إلى بلاد الكرج فاكتسحوها وعادوا فاتبعهم الكرج واستنقذوا الغنائم منهم وقتلوا ونهبوا فرحل القفجاق إلى بردعة وبعثوا إلى أمير كنجة في المدد على الكرج فلم يجبهم فطلبوا رهنهم فلم يعطهم فمدوا أيديهم في المسلمين واسترهنوا أضعاف رهنهم وثار بهم المسلمون من كل جانب فلحقوا بشروان وتحفظهم المسلمون والكرج وغيرهم فأفنوهم وبيع سبيهم وأسراهم بأبخس ثمن وذلك كله سنة تسع عشرة وكانت مدينة بيلقان من بلاد أران فأخربها التتر كما قدمناه وساروا عنها إلى بلاد قفجاق فعاد إليها أهلها وعمروها وسار الكرج في رمضان من هذه السنة إليها فملكوها وقتلوا أهلها وخربوها واستفحل الكرج ثم كانت بينهم وبين صاحب خلاط غازي بن العادل بن أيوب واقعة هزمهم فيها وأثخن فيهم كما يأتي في دولة بني أيوب ثم انتقض على شروان شاه ابنه وملك البلاد من يده فسار إلى الكرج واستصرخ بهم وساروا معه فبرز ابنه إليهم فهزمهم وأثخن فيهم فتشاءم الكرج بشروان شاه فطردوه عن بلادهم واستقر ابنه في الملك واغتبط

الناس بولايته وذلك سنة اثنتين وعشرين ثم سار الكرج من تفليس إلى أذربيجان وأتوها من الأوعار والمضائق يظنون صعوبتها على المسلمين فسار المسلمون وولجوا المضائق إليهم فركب بعضهم بعضاً منهزمين ونال المسلمون منهم أعظم النيل وبينما هم يتجهزون لأخذهم الثأر من المسلمين وصلهم الخبر بوصول جلال الدين إلى مراغة فرجعوا إلى مراسلة أزبك صاحب أذربيجان في الاتفاق على مدافعته وعاجلهم جلال الدين عن ذلك كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

استيلاء جلال الدين على أذربيجان وغزو الكرج

قد تقدم لنا مسير جلال الدين في نواحي بغداد وما ملك منها وما وقع بينه وبين صاحب إربل من الموافقة والصلح ولما فرغ من ذلك سار إلى أذربيجان سنة اثنتين وعشرين وقصد مراغة أولاً فملكها وأقام بها وأخذ في عمارتها وكان بغان طابش خال أخيه غياث الدين مقيماً بأذربيجان كما مر فجمع عساكره ونهب البلد وسار إلى ساحل أران فشتى هنالك ولما عاث جلال الدين في نواحي بغداد كما قدمناه بعث الخليفة الناصر إلى بغان طابس وأغراه بجلال الدين وأمره بقصد همذان وأقطعه إياها وما يفتحه من البلاد فعاجله جلال الدين وصبحه بنواحي همذان على غرة وعاين الجند فسقط في يده وأرسل زوجته أخت السلطان جلال الدين فاستأمنت له فأمّنه وجرد العساكر عنه وعاد إلى مراغة وكان أزبك بن البهلوان قد فارق تبريز كرسي ملكه إلى كنجة فأرسل جلال الدين إلى أهل تبريز يأمرهم بميرة عسكره فأجابوا إلى ذلك وترددت عساكره إليها فتجمع الناس وشكا أهل تبريز إلى جلال الدين ذلك فأرسل إليهم شحنة يقيم عندهم للنصفة بين الناس.

وكانت زوجة أزبك بنت السلطان طغرلبك بن أرسلان وقد تقدم ذكرها في أخبار سلفها مقيمة بتبريز حاكمة في دولة زوجها أزبك ثم ضجر أهل تبريز من الشحنة فسار جلال الدين إليها وحاصرها خمساً واشتد القتال وعابهم بما كان من إسلام أصحابه إلى التتر فاعتذروا بأن الأمر في ذلك لغيرهم والذنب لهم ثم استأمنوا فأمّنهم وأمر ببنت السلطان طغرل وأبقى لها مدينة طغرل إلى خوي كما كانت وجمع ما كان لها من المال والأقطاع وملك تبريز منتصف رجب سنة اثنتين وعشرين وبعث بنت السلطان طغرل إلى خوي مع خادميه فليح وهلال وولى على تبريز ربيبها نظام الدين ابن أخي شمس الدين الطغرائي وكان هو الذي داخله في فتحها وأفاض العدل في أهلها وأوصلهم إليها وبالغ في الإحسان إليهم ثم بلغه إيثار الكرج في أذربيجان وأران وأرمينية ودربند شروان وما فعلوه بالمسلمين فاعتزم على غزوهم وبلغه اجتماعهم برون فسار إليهم وعلى مقدمته جهان بهلوان الكنجي فلما تراءى الجمعان وكان الكرج على جبل لم يستهلوه فتسنمت إليهم العساكر الأوعار فانهزموا وقتل منهم أربعة آلاف أو يزيدون وأسر بعض ملوكهم واعتصم ملك آخر منهم ببعض قلاعهم فجهز جلال الدين عليها عسكراً لحصارها وبعث عساكره في البلاد فعاثوا فيها واستباحوها.

فتح السلطان مدينة كنجة ونكاحه زوجة أزبك

لما فرغ السلطان من أمر الكرج واستولى على بلادهم وكان قد ترك وزيره شرف الدين بتبريز للنظر في المصالح وولى عليها نظام الملك الطغرائي فقصد الوزير الوشاية به وكتب إلى السلطان بأنه وعمه شمس الدين داخلوا أهل البلد في الانتقاض وإعادة أزبك لشغل السلطان بالكرج فلما بلغ ذلك إلى السلطان أسره حتى فرغ من أمر الكرج وترك أخاه غياث الدين نائباً على ما ملك منها وأمره بتدويخ بلادهم وتخريبها وعاد إلى تبريز فقبض على نظام الملك الطغرائي وأصحابه فقتلهم وصادر شمس الدين على مائة ألف وحبسه بمراغة ففر منها إلى أزبك ثم لحق ببغداد وحج سنة خمس وعشرين وبلغ السلطان تنصله في المطاف ودعاؤه على نفسه إن كان فعل شيئاً من ذلك فأعاده إلى تبريز ورد عليه أملاكه ثم بعثت إليه زوجة أزبك في الخطبة وأن أزبك حنث فيها بالطلاق فحكم قاضي تبريز عز الدين القزويني بحلها للنكاح فتزوجها السلطان جلال الدين وسار إليها فدخل في خوي ومات أزبك لما لحقه من الغم بذلك.

ثم عاد السلطان إلى تبريز فأقام بها مدة ثم بعث العساكر مع أرخان إلى كنجة من أعمال نقجوان وكان بها أزبك ففارقها وترك بها جلال الدين القمي نائباً فملكها عليه أرخان واستولى على أعمالها مثل وشمكور وبردعة وشنة وانطلقت أيدي عساكره في النهب فشكا أزبك إلى جلال الدين فكتب إلى أرخان بالمنع من ذلك وكان مع أرخان نائب الوزير إلى السلطان فعزل أرخان وذهب مغاضباً إلى أن قتلته الإسماعيلية وفي آخر رمضان من سنة اثنتين وعشرين توفي الخليفة الناصر لسبع وأربعين سنة من خلافته واستخلف بعده ابنه الظاهر أبو نصر محمد بعهده إليه بذلك كما

مر في أخبار الخلفاء.

استيلاء جلال الدين على تفليس من الكرج بعد هزيمته إياهم

كان هؤلاء الكرج أخوة الأرمن وقد تقدم نسبة الأرمن إلى إبراهيم عليه السلام وكان لهم استطالة بعد الدولة السلجوقية وكانوا من أهل دين النصرانية فكان صاحب أرمن الروم يخشاهم ويدين لهم ببعض الشيء حتى إن ملك الكرج كان يخلع عليه فيلبس خلعته وكان شروان صاحب الدربند يخشاهم وكذلك ملكوا مدينة أرجيش من بلاد أرمينية ومدينة فارس وغيرها وحاصروا مدينة خلاط قاعدتها فأسر بها مقدمهم أيواي وفادوه بالرحيل عنهم بعد ان اشترطوا عليه متابعته لهم في قلعة خلاط فبنوها وكذلك هزموا ركن الدولة فليحا أرسلان صاحب بلاد الروم لما زحف لأخيه طغرل شاه بأرزن الروم استنجدهم طغرل فأنجدوه وهزموا ركن الدين أعظم ما كان ملكاً واستفحالاً وكانوا يجوسون خلال أذربيجان ويعيشون في نواحيها.

وكان ثغر تفليس من أعظم الثغور طرزاً على من يجاوره منذ عهد الفرس وملكه الكرج سنة خمس عشرة وخمسمائة أيام محمود بن محمود بن ملك شاه ودولة السلجوقية يومئذ أفحل ما كانت وأوسع إيالة وأعمالاً فلم يطق ارتجاعه من أيديهم واستولى ايلدكز بعد ذلك وابنه البهلوان على بلاد الجبل والري وأذربيجان وأران وأرمينية وخلاط وجاورهم بكرسيه ومع ذلك لم يطلق ارتجاعه منهم فلما جاء السلطان جلال الدين إلى أذربيجان وملكها زحف إلى الكرج وهزمهم سنة اثنتين وعشرين وعاد إلى تبريز في مهمه كما قدمناه فلما فرغ من مهمة ذلك وكان قد ترك العساكر ببلاد الكرج مع أخيه غياث الدين ووزيره شرف الدين فأغذ السير إليه غازياً من تبريز وقد جمع الكرج واحتشدوا وأمدهم القفجاق وللكز وساروا للقاء فلما التقى الفريقان انهزم الكرج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب ولم يبقوا على أحد حتى استلحموهم وأفنوهم.

ثم قصد جلال الدين تفليس في ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين ونزل قريباً منها وركب يوماً لاستكشاف أحوالها وترتيب مقاعد القتال عليها وأكمن الكمائن حولها واطلع عليهم في خف من العسكر فطمعوا فيه وخرجوا فاستطرد لهم حتى تورطوا والتفت عليهم الكمائن فهربوا إلى البلد والقوم في اتباعهم ونادى المسلمون من داخلها بشعار الإسلام وهتفوا باسم جلال الدين فألقى الكرج بأيديهم وملك المسلمون البلد وقتلوا كل من فيها إلا من اعتصم بالإسلام واستباحوا البلد وامتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى والسبايا وكان ذلك من أعظم الفتوحات هذه سياقة ابن الأثير في فتح تفليس وقال النسائي الكاتب: إن السلطان جلال الدين سار نحو الكرج فلما وصل نهر أرس مرض واشتد الثلج ومر بتفليس فبرز أهلها للقتال فهزمهم العساكر وأعجلوهم عن دخولها فملكوها واستباحوها وقتلوا من كان فيها من الكرج والأرمن واعتصم أهلها بالقلعة حتى صالحوا على أموال عظيمة فحملوها وتركوهم.

انتقاض صاحب كرمان ومسير السلطان إليه

ولما اشتغل السلطان جلال الدين بشأن الكرج وتفليس طمع براق الحاجب في الانتقاض بكرمان والاستيلاء على البلاد وقد كنا قدمنا خبره وأن غياث الدين استخلفه على كرمان عند مسيره إلى العراق وأن جلال الدين لما رجع من الهند ارتاب به وهمَّ بالقبض عليه ثم تركه وأقره على كرمان فلما انتقض الآن وبلغ خبره إلى السلطان وهو معتزم على قصد خلاط فتركها وأغذّ السير إليه واستصحب أخاه غياث الدين ووعده بكرمان وترك مخلفة بكيكلون وترك وزيره شرف الدين بتفليس وأمره باكتساح بلاد الكرج وقدم إلى صاحب كرمان بالخلع والمقاربة والوعد فارتاب بذلك ولم يطمئن وقصد بعض قلاعه فاعتصم بها ورجع الرسول إلى جلال الدين فلما علم أن المكيدة لم تتم عليه أقام بأصبهان وبعث إليه وأقره على ولايته وعاد وكان الوزير شرف الدين بتفليس كما قلناه وضاف الحل به من الكرج وأرجف عند الأمراء بكيكلون أن الكرج حاصروه بتفليس فسار أرخان منهم في العساكر إلى تفليس ثم وصل البشير من نفجوان برجوع السلطان من العراق فأعطاه الوزير أربعة آلاف دينار ثم افترقت العساكر في بلاد الكرج وبها ايواني مقدمهم مع بعض أعيانهم وبعث عسكراً آخر إلى مدينة فرس واشتد عليها الحصار ثم جر العساكر عليها وعاد إلى تفليس.

مسير جلال الدين إلى حصار خلاط

كانت خلاط في ولاية الأشرف بن العادل بن أيوب وكان نائبه بها حسام الدين علي الموصلي وكان الوزير شرف الدين حين

أقام بتفليس عند مسير جلال الدين إلى كرمان ضاقت على عساكره الميرة فبعث عسكراً منهم إلى أعمال أرزن الروم فاكتسحوا نواحيها ورجعوا فمروا بخلاط فخرج نائبها حسام الدين واعترضهم واستنقذ ما معهم من الغنائم وكتب الوزير شرف الدين بذلك إلى جلال الدين وهو بكرمان فلما عاد جلال الدين من كرمان وحاصر مدينة أنى استقر حسام الدين نائب خلاط للامتناع منه فارتحل هو إلى بلاد أنحاز ليأتيه على غرة ورحل جلال الدين من أنحاز فسار إلى خلاط وحاصر مدينة ملاذكرد في ذي القعدة من السنة وانتقل منها إلى مدينة خلاط وحاصرها وضيق مخنقها وقاتلها مراراً واشتد أهل البلد في مدافعته لما يعلمون من سيرة الخوارزمية الألوائية وكانوا متغلبين على الكثير من بسائط أرمينية وأذربيجان فبلغه أنهم أفسدوا البلاد وقطعوا السابلة وأخذوا الضريبة من أهل خوي وخربوا سائر النواحي وكتب إليه بذلك نوابه وبنت السلطان طغرل زوجته فلما رحل عن خلاط قصدهم على غرة قبل أن يصعدوا إلى حصونهم بجبالهم الشاهقة فأحاطت بهم العساكر واستباحوهم واقتسموهم بين القتل والغنيمة وعاد إلى تبريز.

دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها

ولما عاد السلطان من خلاط وغزو التركمان فرق عساكره للمشتى وكان الأمراء أساؤوا السيرة في تفليس وهرب العسكر الذين بها واستلحموا بقيتهم وخربوا البلاد وحرقوها لعجزهم عن حمايتها من جلال الدين وذلك في ربيع سنة أربع وعشرين وستمائة وعند النسائي الكاتب ان استيلاء الفرنج على تفليس وإحراقهم إياها كان والسلطان جلال الدين على خلاط وأنه لما بلغه ذلك رجع وأغار على التركمان في طريقه لما بلغه من إفسادهم فنهب أموالهم وساق مواشيهم إلى موقان وكان خمسها ثلاثين ألفاً ثم سار إلى خوي لملاقاة بنت طغرل ثم سار إلى كنجة فبلغه الخبر بانصراف الكرج عن تفليس بعد إحراقها قال: ولما وصل كنجة قدم عليه هنالك خاموش بن الأتابك أزبك بن البهلوان مؤدياً منطقة بلخش قدر الكف مصنوعاً عليه منقوشاً اسم كيكاوس وجماعة من ملوك الفرس فغير السلطان صناعتها ونقشها على اسمه وكان يلبس تلك المنطقة في الأعياد وأخذها التتر يوم كبسوه وحملت إلى الخان الأعظم ابن جنكزخان بقراقدوم وأقام خاموش في خدمة السلطان إلى أن صرعه الفقر ولحق بعلاء الملك ملك الإسماعيلية فتوفي عنده انتهى كلام النسائي.

أخبار السلطان جلال الدين مع الإسماعيلية

كان السلطان جلال الدين بعد وصوله من الهند ولى أرخان على نيسابور وأعمالها وكان وعده بذلك بالهند فاستخلف عليها وأقام مع السلطان وكان نائبه بها يتعرض لبلاد الإسماعيلية المتاخمة له بهستان وغيرها بالنهب والقتل فأوفدوا على السلطان وهو بخوي - وقد أمنهم - يشكون من نائب أرخان وأساء عليهم أرخان في المجاورة ولما عاد السلطان إلى كنجة وكان قد أقطعها وأعمالها لأرخان فلما خيم بظاهرها وثب ثلاثة من الباطنية ويسمون الفداوية لأنهم يقتلون من أمرهم أميرهم بقتله ويأخذون ديتهم منه وقد فرغوا عن أنفسهم فوثبوا به فقتلوه وقتلتهم العامة وكانت الإسماعيلية قد استولوا على الدامغان أيام الفتنة ووصل رسولهم بعد هذه الواقعة إلى السلطان وهو ببيلقان فطالبهم بالنزول على الدامغان فطلبوا ضمانها بثلاثين ألف دينار وقررت عليهم وكان رسول الوافد في خدمة الوزير وهم راجعون إلى أذربيجان فاستخفه الطرب ليلة وأحضر له خمسة من الفداوية معه بالعسكر وبلغ خبرهم السلطان فأمره بإحراقهم انتهى كلام النسائي وقال ابن الأثير: إن السلطان بعد مقتل أرخان سار في العساكر إلى بلاد الإسماعيلية من ألموت إلى كردكوه فاكتسحها وخربها وانتقم منهم وكانوا بعد واقعته قد طمعوا في بلاد الإسلام فكف عاديتهم وقطع أطماعهم وعاد فبلغه أن طائفة من التتر بلغوا الدامغان قريبا من الري فسار إليهم وهزمهم وأثخن فيهم ثم جاء الخبر بأن التتر متلاحقة لحربه فأقام في انتظارهم في الري انتهى.

استيلاء حسام الدين نائب خلاط على مدينة خوي

قد تقدم لنا أن بنت السلطان طغرل زوجة أزبك بن البهلوان لما ملك السلطان جلال الدين تبريز من يدها أقطعها مدينة خوي ثم تزوجها بعد ذلك كما قدمناه وتركها لما هو فيه من أشغال ملكه فوجدت لذلك ما فقدته من العز والتحكم قال النسائي الكاتب: وأضاف لها السلطان مدينتي سلماس وأرمينية وعين رجلاً لقبض أقطاعها فتنكر لها وأغرى بها الوزير فكاتب السلطان بأنها تداخل الأتابك أزبك وتكاتبه ثم وصل الوزير إلى خوي فنزل بدارها واستصفى وكانت مقيمة بقلعة طلع فحاصرها وسألت المضي إلى السلطان فأبى إلا نزولها على حكمه انتهى.

وكان أهل خوي مع ذلك قد ضجروا من ملكة جلال

الدين وجوره وتسلط عساكره فاتفقت الملكة معهم وكاتبوا حسام الدين الحاجب النائب عن الاشرف بخلاط فسار إليهم في مغيب السلطان جلال الدين بالعراق واستولى على مدينة خوى وأعمالها وما يجاورها من الحصون وكاتبه أهل نقجوان وسلموها له وعاد إلى خلاط واحتمل الملكة بنت طغرل زوجة جلال الدين إلى خلاط إلى أن كان ما نذكره.

واقعة السلطان مع التتر على أصفهان

ثم بلغ الخبر إلى السلطان بأن التتر زحفوا من بلادهم فيما وراء النهر إلى العراق فسار من تبريز للقائهم وجرد أربعة آلاف فارس إلى الري والدامغان طليعة فرجعوا وأخبروه بوصولهم إلى أصفهان فنهض للقائهم واستخلف العساكر على الاستماتة وأمر القاضي بأصفهان باستنفار العامة وبعث التتر عسكراً إلى الري فبعث السلطان عسكراً لاعتراضهم فأوقعوا بالتتر فنالوا منهم ثم التقى الفريقان في رمضان سنة خمس وعشرين لرابعة وصولهم إلى أصفهان وانتقض عنه أخوه غياث الدين وجهان بهلوان الكجي في طائفة من العسكر وانهزمت ميسرة التتر والسلطان في اتباعهم وكاناو قد أكمنوا له فخرجوا من ورائه وثبت واستشهد جماعة من الأمراء وأسر آخرون وفيهم علاء الدولة صاحب يزد.

ثم صدق السلطان عليهم الحملة فأفرجوا له وسار على وجهه وانهزمت العساكر فبلغوا فارس وكرمان ورجعت ميمنة السلطان من قاشان فوجدوه قد انهزم فتفرقوا أشتاتاً وفقد السلطان ثمانية من فرقه وكان بقطابستي مقيماً بأصفهان فاعتزم أهل أصفهان على بيعته ثم وصل السلطان فاقصروا عن ذلك وتراجع بعض العسكر وسار السلطان فيهم إلى الري وكان التتر قد حاصروا أصفهان بعد الهزيمة فلما وصل السلطان خرج معه أهل أصفهان فقاتلوا التتر وهزموهم وسار السلطان في اتباعهم إلى الري وبعث العساكر وراءهم إلى خراسان وعند ابن الأثير أن صاحب بلاد فارس وهو ابن الأتابك سعد الذي ملك بعد أبيه حضر مع السلطان في هذه الواقعة وأن التتر انهزموا أولاً فاتبعهم صاحب فارس حتى إذا أبعدوا انفرد عن العسكر ورجع عنهم فوجد جلال الدين قد انهزم لانحراف أخيه غياث الدين وأمرائه عنه ومضى إلى شهرم تلك الأيام ثم عاد إلى أصفهان كما ذكرناه.

الوحشة بين السلطان جلال الدين وأخيه غياث الدين

كان ابتداؤها أن الحسن بن حرميل نائب الغوية بهراة لما قتلته عساكر خوارزم شاه محمد بن تتش وحاصروا وزيره الممتنع بها حتى اقتحموها عليه عنوة وقتلوه، هرب محمد بن الحسن بن حرميل إلى بلاد الهند فلما ملك السلطان جلال الدين وحظي لديه أقامه شحنة بأصبهان فلما سار السلطان إلى أصفهان للقاء التتر انحرف جماعة من غلمان غياث الدين عنه فصاروا إلى نصرة الدين بن حرميل واسترجعهم منه غياث الدين في بيته وطعنه فأشواه ومات للبال وأحفظ ذلك السلطان وأقام غياث الدين مستوحشاً فلما كان يوم اللقاء انحرف عن أخيه ولحق بخوزستان وخاطب الخليفة فبعث إليه بثلاثين ألف دينار وسار من هنالك إلى قلعة ألموت عند صلاح الدين شيخ الإسماعيلية فلما رجع السلطان من وقعة التتر إلى الري سار إلى قلعة ألموت وحاصرها فاستأمن علاء الدين إلى السلطان غياث الدين فأمنه وبعث من يأتيه به فامتنع غياث الدين وفارق القلعة واعترضه عساكر السلطان بنواحي همذان وأوقعوا به وأسروا جماعة من أصحابه ونجا إلى براق الحاجب بكرمان فتزوج بأمه كرهاً ونمي إليه أنها تحاول سمه فقتلها وقتل معها جهان بهلوان الكجي وحبس غياث الدين ببعض القلاع ثم قتله بمحبسه ويقال: بل هرب من محبسه ولحق بأصفهان وقتل بأمر السلطان قال النسائي: وقفت على كتاب براق الحاجب إلى الوزير شرف الملك والسلطان بتبريز وهو يعدد سوابقه فعد منها قتله أعدى عدو السلطان والله تعالى ولي التوفيق.

انتقاض البهلوانية

لما ارتحل السلطان والوزير شرف الملك معه وانتهى إلى همذان بلغه أن الأمراء البهلوانية اجتمعوا بظاهر تبريز يرومون الانتقاض واتبعه خاموش بن الأتابك أزبك من قلعة قوطور وكان مقيماً بها فرجع السلطان إليهم وقدم بين يديه الوزير شرف الملك فلقيهم قريباً من تبريز وهزمهم وقبض على الذين تولوا كبر الفتنة منهم ودخل تبريز قصبتهم وقبض على القاضي المعزول فصادمه قوام الدين الحرادي ابن أخت الطغرائي وصادره وسار السلطان للقاء التتر وأقام الوزير نائباً للبلاد.

إيقاع نائب خلاط بالوزير

ولما كان ما ذكرناه من مسير حسام الدين نائب خلاط إلى أذربيجان واحتماله زوجة السلطان جلال الدين إلى خلاط امتعض الوزير لذلك فسار إلى موقان من بلاد أران وجمع التركمان وفرق العمال للجبايه وطلب الحمل من شروان شاه وهو خمسون ألف دينار فتوقف وأغار على بلاده فلم يظفر بشيء ورجع إلى أذربيجان وكانت بنت الأتابك بهلوان في بقجان فارقها مولاها إيدغمش وجاء إلى الوزير فأطمعه فيها وصار الوزير مضمراً الغدر بها وامتنعت عليه ونزل بالمرج فأكرمته وقربته ورحل إلى حورس من أعمالها وكانت للأشرف صاحب خلاط أيام أزبك فانتشرت أيدي العسكر في تلك الضياع وقاتلها الوزير وجاء الحاجب صاحب خلاط في عساكره فانهزم الوزير وترك أثقاله وذلك سنة أربع وعشرين وكان مع الحاجب فخر الدين سام صاحب حلب وهشام الدين خضر صاحب تبريزبرم وكان الوزير وتكاليفه فظفر الآن بمخلفه وخلص الوزير إلى أران وسار الحاجب علي في اتباعه ثم عاد إلى تبريز ومر بخوي فنهبها ثم سار إلى بقجان فملكها ثم تدمر كذلك وأقام الوزير بتبريز وكان بها الأتابك أزبك متنسكاً منعه أهل تبريز من الدخول وحملوا إليه النفقة ثم جاء الخبر برجوع السلطان إلى أصفهان بعد الهزيمة كما مر فسار الوزير إلى أذربيجان ولقي ثلاثة من الأمراء جاؤوا مدداً له من عند السلطان وأمره بحصار خوي فسار إليها وبها نائب الحاجب حسام الدين صاحب خلاط وهو بدر الدين بن صرهنك والحاجب حسام الدين علي منوشهر فنهض إليه الوزير من خوي فتأخر إلى تركري والتقيا هنالك فانهزم الحاجب ودخل تركري فاعتصم بها وحاصره الوزير وطلب الصلح فلم يسعفه ورجع الذين كانوا معه بعساكرهم إلى أذربيجان وأفرج الوزير عن حصار تركري ومر بخوي وقد فارقها ابن صرهنك إلى قلعة قوطور واستأمن للسلطان من بعد ذلك ودخل الوزير مدينة خوى وصادر أهلها وسار إلى ترمذ ونقجوان ففعل فيهما مثل ذلك وانقطعت إيالة الحاجب صاحب خلاط والله أعلم.

فتوحات الوزير بأذربيجان وأران

ولما تخلف الوزير عن السلطان صرف همته إلى تمهيد البلاد ومدافعة صاحب خلاط وارتجاع البلاد التي ملك من أذربيجان وأران وفتح القلاع العاصية فكان بينه وبين الحاجب حسام الدين صاحب خلاط ما ذكرناه وهو خلال ذلك يستميل أصحاب القلاع ويفيض فيهم الأموال والخلع حتى أجاب أكثرهم ثم قبض على ناصر الدين محمد من أمراء البهلوانية وكان معتزلاً عند نصرة الدين بن سبكتكين فصادره على مال وتسلم من نائبه قلعة كانت بيده ثم مات نائب السلطان بكنجة أقسنقر الأتابكي فنهض إليها وقبض على نائبه شمس الدين كرشاسف وصادره وتسلم منه قلعة هردوجار برد من أعمال أران ثم جهز العساكر لحصار قلعة زونين وبها زوجة السلطان خاموش فأطال حصارها وعرضت عليه نكاحها فأبى ولما رجع السلطان من العراق تزوجها وولى خادمه سعد الدين على القلعة فأساء إليها وانتزع أملاكها فأخرجوه وعادوا إلى الانتقاض ولما خلص الوزير من واقعته مع الحاجب نائب خلاط قصد أران فجبى الأموال وجمع واحتشد وقصد قلعة مردانقين وكانت لصهر الوزير ركبة الدين فصانعه بأربعة آلاف دينار حملها إليه ثم سار إلى قلعة حاجين وبها جلال الدولة ابن أخت أبواني أمير الكرج فصالحه على عشرين ألف دينار وسبعمائة أسير من المسلمين ثم كانت فتنة البهلوانية فسكنها وسرح الجند عنها وشرح الخبر عنها أن بعض مماليك أتابك أزبك كان قد أفحش في قتل الخوارزمية بأذربيجان عند زحفهم إليها أيام فرارهم من التتر فلما ملك السلطان جلال الدين أذربيجان ومحا ملك البهلوانية منها لحق الأمير مقدي هذا بالأشرف بن العادل بن أيوب صاحب الشام وأقام عنده فلما بلغه انهزام الوزير شرف الملك أمام الحاجب حسام الدين نائب الأشرف بخلاط فر من الشام إلى أذربيجان ليقيم مع الأتابكية ومر بالحاجب في خوي فاتبعه وعبر النهر وخاطب من عدوته معتذراً فرجع عنه ودخل مقدي بلاد قبار وفيها قلاع استولى عليها المتقضون والعصاة فراسلهم في إقامة الدعوة الأتابكية والبيعة لابن خاموش بن أزبك يستدعونه من قلعة قوطور واتصل ذلك بالوزير فأقلقه ثم جاء خبر هزيمة السلطان بأصفهان فازداد قلقاً وسار الأمير مقدي إلى نصرة الدين محمد بن سبكتكين يدعوه لذلك فلاطفه في القول وكتب للوزير بالخبر فأجابه بأن يضمن لمقدي ما أحب في مراجعة الطاعة ففعل وجاء به إلى الوزير فأكرمه وخلع عليه وعلى من جاء معه وعاهده على العفو عن دماء الخوارزمية وجاء الخبر برجوع السلطان من أصفهان فارتحل الوزير للقائه ومعه الأمير مقدي وابن سبكتكين وأكرمهما السلطان.

أخبار الوزير بخراسان

كان صفي الدين محمد الطغرائي وزيراً بخراسان وأصل خبره انه كان من قرية كلاجرد وأبوه رئيسها وكان هو حسن الخط

ورتبة الأطوار ثم لحق بالسلطان في الهند وخدم الوزير شرف الملك فلما عادوا إلى العراق ولاه الطغراء ولما ملك السلطان تفليس من يد الكرج ولى عليها أقسنقر مملوك الأتابك أزبك وأقام صفي الدين في وزارتها فلما حاصرها الكرج هرب أقسنقر وأقام صفي الدين فحاصروه أياماً ثم أفرجوا ووقع ذلك من السلطان أحسن المواقع وولاه وزارة خراسان فأقام بها سنة وضجر منه أهلها فلما جاء السلطان إلى الري وأقام بها كثرت به الشكايات ونكبه السلطان واستصفى أمواله وقبض على مواليه وحاشيته وقيدت خيله إلى مرابط السلطان وكانت ثلثمائة وخلص من مواليه علي الكرماني إلى قلعة كان حصنها فامتنع بها واستوزر السلطان مكانه تاج الدين البلخي المستوفي وسلم إليه الصفي ليستصفيه ويقلع القلعة من مولاه وشدد في امتحانه وكان عدوه فلم يظفر منه بشيء وكان لما نكب طالبه خاتون السلطان باختصار الجواهر وما ساقه لخدمة الوزير وغيره فأحضر أربعة آلاف دينار وسبعين فصاً من ياقوت وبلخش واستأثر الخازن بها لظنه أنه مقتول.

ثم كاتب الصفي أرباب الدولة ووعدهم بالأموال فشفعوا فيه وخلصوه وكتب السلطان بخطه بسراحه فجاء واستخلص ماله من الخازن إلا الفصوص فإنه تعذر عليه ردها وولى السلطان على وزارة نسا محمد بن مودود النسوي العارض من بيت رئاسة بها ورمت به الحادثة إلى غزنة فلما جاء السلطان من الهند ولاه الإنشاء والحبس وعظم أمره وغص به الوزير شرف الملك فلما ورد أحمد بن محمد المنشيء الكاتب رسولاً عن نصرة الدين محمد بن حمزة صاحب نسا كما مر ولاه السلطان الإنشاء فارتمض لذلك ضياء الدين وطلب وزارة نسا فولاه السلطان إياها وأقطع له عشرة آلاف دينار في السنة زيادة على أرزاق الوزارة وذهب إليها لإقامة وظيفته واستناب في ديوان العرض مجد الملك النيسابوري ثم قطع الحمل فعزله السلطان وولى مكانه الكاتب أحمد بن محمد المنشيء وتعرض للسعاية فيه فطرده السلطان وهلك في طرده.

خبر بلبان صاحب خلخال

كان من أتابكية أزبك ولما كانت فتنة التتر وخلاء خراسان واستيلاء السلطان جلال الدين على أذربيجان لحق بمدينة خلخال فاستولى عليها وعلى قلاعها وشغل عنه السلطان بأمر العراق وصاحب خلاط فلما انصرف المسلمون من واقعة التتر بالعراق حاصروه بقلعة فيروز أباد حتى استأمن وملكها السلطان وولى عليها حسام الدين بكتاش مولى سعد أتابك فارس ثم خلف السلطان أثقاله بموقان وتجرد لخلاط وعاقه البرد بأرجيش فنهب بعض قلاع وكان عز الدين الخلخالي في كفرطاب قريباً من أرجيش فلحق بخلاط وجهزه الحاجب إلى أذربيجان يشغلهم بإثارة الفتنة فيها فلم يتم قصده من ذلك فلحق بجبال زنجان وأقام يخيف السابلة وكتب له السلطان بالأمان ونزل إلى أصفهان فبعث نائبها شرف الدولة برأسه إلى السلطان ثم رجع السلطان من كفرطاب إلى خرت برت فنهبها وخربها ووصله خلال ذلك الخبر بوفاة الخليفة الظاهر منتصف ثلاث وعشرين وولاية ابنه المنتصر وجاء كتابه بأخذ البيعة وأن يبعث إليه بالخلع والله تعالى ولي التوفيق لا رب غيره.

تنكر السلطان للوزير شرف الدين

لما رجعت العساكر إلى موقان وأقام السلطان بخوي شكا إليه أهلها بكثرة مصادرة الوزير لهم واطلع على إساءته للملكة بنت طغرل واستصفائه مالها مع براءتها مما نسب إليها ثم جاء إلى تبريز فبلغه عنه أكثر من ذلك وهو بقرية كورتان من أعمالها فافتقد رئيسها وكان يخدمه فقيل: إن الوزير صادره على ألف دينار لمملوكين فلما وصل إلى تبريز حبس من أخذها حتى ردها على صاحبها وأسقط عن أهل تبريز خراج ثلاث سنين وكتب لهم بذلك وكثرت الشناعات على الوزير بما فعله في مغيب السلطان هذا مع ما كان منه في محاربة الإسماعيلية بأن السلطان كاتبه من بغداد بأن يفتش فلول الشام من أجل رسول من عند التتر بعثوه إلى الشام وقصد بذلك معاتبة الخليفة إن عثر على الرسول فمر به فل من الإسماعيلية فقتلهم واستولى على أموالهم فلما عاد السلطان إلى أذربيجان وصله رسول علاء الدين ملك الإسماعيلية يعاتبه على ذلك ويطلب المال فنكر السلطان على الوزير ما فعله ووكل به أميرين حتى رد ما أخذ من أموالهم وكانت ثلاثين ألف دينار وعشرة أفراس فانطوى السلطان للوزير من ذلك كله على سخط وأعرض عن خطابه وكان يكاتب فلا يجاب وعجزت تبريز عن علوفة السلطان فأمر بفتح أهراء الوزير والتصرف فيها ورجع السلطان إلى موقان فلم يغير عليه شيئاً ووقع له بتناول عشر الخاص فكان يأخذ من عشر العراق سبعين ألف دينار في كل سنة والله أعلم.

وصول القفجاق لخدمة السلطان

كان للقفجاق على قديم العهد هوى مع قوم هذا السلطان وأهل بيته وكانوا يصهارون إليهم غالباً بناتهم ومن أجل ذلك استأصلهم جنكزخان واشتد في طلبهم فلما عاد السلطان من واقعة أصفهان وقد هاله أمر التتر رأى أن يستظهر عليهم بقبائل قفجاق وكان في جملته سبيرجنكش منهم فبعثه إليهم يدعوهم لذلك ويرغبهم فيه فأجابوا وجاءت قبائلهم أرسالاً وركب البحر كوركان من ملوكهم في ثلثمائة من قرابته ووصل إلى الوزير بموقان فشتى بها ثم جاء السلطان فخلع عليه ورده بوعد جميل في فتح دربند وهو باب الأبواب ثم أرسل السلطان لصاحب درنبد وكان طفلاً وأتابكه يلقب بالأسد يدبر أمره فقدم على السلطان فخلع عليه وأقطع له وملكه العمل على أن يفتح له الدرنبد وجهز عساكر وأمراء فلما فصلوا من عنده قبضوا على الأسد وشنوا الغارة على نواحي الباب وأعمل الأسد الحيلة وتخلف من أيديهم وتعذر عليهم ما أرادوه.

استيلاء السلطان على أعمال كستاسفي

كان علم الوزير يشكر أن السلطان أراد أن ينتصح له ببعض مذاهب الخدمة فسار في العساكر وعبر نهر أزس فاستولى على أعمال كستاسفي من يد شروان شاه فلما عاد السلطان إلى موقان أقطعها لجلال الدين سلطان شاه بن شروان شاه وكان أسيراً عند الكرج أسلمه أبوه إليهم على أن يزوجوه بنت الملك رسودان بنت تاماد فلما فتح السلطان بلاد الكرج استخلصه من الأسر ورباه وبقي عنده وأقطعه الآن كستاسفي وكان أيضاً عند الكرج ابن صاحب أرزن الروم وكان تنصر فزوجوه رسودان بنت تاماد فأخرجه السلطان لما فتح بلاد الكرج ثم رجع إلى ردنة ولحق بالكرج فوجد رسودان قد تزوجت.

قدوم شروان شاه

كان السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان لما ملك أران أطلق الغارة على بلاد شروان فوفد عليه ملكها أفريدون بن فرتبريز وضمن حمل مائة ألف دينار في السنة فلما ملك السلطان جلال الدين أران سنة اثنتين وعشرين وستمائة طلب شروان شاه افريدون بالحمل فاعتل بتغلب الكرج وضعف البلاد فأسقط عنه نصف الحمل فلما عاد الآن قدم عليه شروان شاه وأهدى له خمسمائة فرس وللوزير خمسين فاستقلها وأشار على السلطان بحبسه فلم يقبل إشارته ورده بالخلع والتشريف وأسقط عنه من الحمل عشرين ألفاً فبقي ثلاثون: قال النسائي الكاتب: وأعطاني في التوقيع ألف دينار والله تعالى أعلم.

مسير السلطان إلى بلاد الكرج وحصاره قلاع بهرام

لما كان السلطان مقيماً بموقان منصرفه من أذربيجان بعث عساكره مع ايلك خان فأغار على بلاد الكرج واكتسحها ومر ببحيرة بتاج فكبسه الكرج وأوقعوا به وفقد اريطاني وامتعض السلطان لما وقع بعسكره وارتحل لوقته وقد جمع له الكرج فهزمت مقدمتهم وجيء بالأسرى منهم فقتلهم وسار في اتباعهم ونازل كوري وطالبهم بإطلاق أسرى البحيرة فأطلقوهم وأخبر أن اريطاني خلص تلك الليلة إلى أذربيجان ثم وجده السلطان في نقجوان ثم سار إلى بهران الكرجي وقد كان أغار على نواحي كنجة فعاث في أعماله وحاصر قلعة سكان ففتحها عنوة وكذلك قلعة كاك وبعث الوزير لحصار كوزاني فحاصرها ثلاثة أشهر حتى طلبوا الصلح على مال حملوه فرحل عنهم إلى خلاط والله أعلم.

مسير السلطان إلى خلاط وحصارها

ولما فرغ السلطان من شأن الكرج قدم أثقاله إلى خلاط على طريق قاقروان وسار هو إلى نفجوان وصبح الكرج واستاق مواشيهم ثم أقام أياماً وقضى أشغال أهل خراسان والعراق ليفرغ لحصار خلاط قال النسائي الكاتب: وحصل لي منهم تلك الأيام ألف دينار ثم ارتحل إلى خلاط ولحق بعساكره ولقيه رسول من عز الدين أيبك نائب الأشرف بخلاط وقد كان الأشرف بعثه وأمره بالقبض على نائبها حسام الدين علي بن حماد فقبض عليه ثم قتله غيلة وبعث إلى السلطان يستخدم إليه بذلك وأن سلطانه الأشرف أمره بطاعة السلطان جلال الدين وبالغ في الملاطفة فأبى السلطان إلا إمضاء ما عزم عليه وقال إن كان هذا حقاً فابعث إلي بالحاجب فلما سمع هذا الجواب قتله وسار السلطان إلى خلاط ونزل عليها بعد عيد الفطر من سنة ست وعشرين.

وجاءه ركن الدين جهان بن طغرل صاحب أرزن الروم فكان معه وحاصرها ونصب عليها المجانيق وأخذ بمخنقها حتى فر أهلها عنها من الجوع وتفرقوا في البلاد ثم داخله بعض أهلها في

أن يمكنهم من بقيتها على أن يؤمنوه ويقطعوه في أذربيجان فاقطعه السلطان سلماس وعدة ضياع هنالك وأصعد الرجال ليلاً إلى الأسوار فقاتلوا الجند بالمدينة وهزموهم وملكوها وأسروا من كان بها وأسروا النصارى وأسد بن عبد الله وتحصن النائب عز الدين أيبك بالقلعة فأمنه وحبسه بقلعة درقان فلما وقعت المراسلة في الصلح قفل لئلا يشترط وقال ابن الاثير: إن مولى من موالي حسام الدين كان هرب إلى السلطان فلما ملك خلاط طلب أن يثأر منه بمولاه فدفعه إليه وقتله ونهب البلد ثلاثاً وسرح السلطان صاحب أرزن وهرب القمهري من محبسه فقتل أسد بن عبد الله المهراني بجزيرته وأقطع السلطان خلاط للأمراء وعاد والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة السلطان جلال الدين مع الأشرف وكيقباد وانهزامه أمامهما

ولما استولى السلطان جلال الدين على خلاط تجهز الأشرف من دمشق وقد كان ملكها وسار لقتال السلطان جلال الدين في عساكر الجزيرة والشام وذلك في سنة تسع وعشرين ولقيه علاء الدين كيقباد صاحب بلاد الروم على سيراس وكان كيقباد قد خشي من اتصال جهان شاه ابن عمه طغرل صاحب أرزن الروم بالسلطان جلال الدين لما بينهما من العداوة فسار الأشرف وكيقباد من سيراس وفي مقدمة الأشرف عز الدين عمر بن علي من أمراء حلب من الأكراد الهكارية وله صيت في الشجاعة وجاء السلطان علاء الدين للقائهم فلما تراءى الجمعان حمل عز الدين صاحب المقدمة عليهم فهزمهم وعاد السلطان إلى خلاط.

وكان الوزير على ملاذكرد يحاصرها فلحق به وارتحلوا جميعاً إلى أذربيجان وأسر ركن الدين جهان شاه بن طغرل وجيء به إلى ابن عمه علاء الدين كيقباد فجاء به إلى أرزن فسلمها وسائر أعمالها ووصل الأشرف إلى خلاط فوجدها خاوية ولما رجع السلطان إلى أذربيجان ترك العساكر مع الوزير سكمان وأقام بخوي وخلص الترك في الهزيمة إلى موقان وتردد شمس الدين التكريتي رسول الأشرف بينه وبين السلطان جلال الدين في الصلح بينهم ودخل فيه علاء الدين صاحب الروم وانعقد بينهم جميعاً وسلم لهم السلطان سر من رأى مع خلاط والله تعالى أعلم.

الحوادث أيام حصار خلاط

منها وفادة نصر الدين أصبهبذ صاحب الجبل مع أرخا من أمراء السلطان يصهره على أخيه فقبض السلطان عليه إلى أن عاد من بلاد الروم منهزماً فأقطعه وأعاده إلى بلاده ومنها رسالة أخت السلطان وكانت عند دوشي خان أخذها من العيال الذين جاؤوا معه وتركمان خاتون من خوارزم وأولدها وكانت تكاتب أخاها بالأخبار فبعثت إليه الآن في الصلح مع خاقان والمصاهرة وأن يسلم له فيما وراء جيحون فلم يجبها ومنها وفادة ركن الدين شاه بن طغرل صاحب أرزن الروم وكان في طاعة الأشرف ومظاهراً للحاجب نائب خلاط على عداوة السلطان منافرة لابن عمه علاء الدين كيقباد بن كنخسرو صاحب الروم وكان قتل رسول السلطان منقلباً من الروم ومنع الميرة عن العسكر فلما طال حصار السلطان بخلاط استأمن وقدم عليه السلطان فاحتفل لقدومه وأركب الوزير للقائه ثم خلع عليه ورده إلى بلاده واستدعى منه آلات الحصار فبعث بها ثم حضر بعد ذلك واقعة الأشرف مع السلطان كما مر.

ومنها وصول سعد الدين الحاجب برسالة الخليفة إلى السلطان بالخطبة في أعمالها وأن لا يتعرض لمظفر الدين كوكبرون صاحب إربل ولا للولد صاحب الموصل ولا لشهاب الدين سليمان شاه ملك ولا لعماد الدين بهلوان بن هراست ملك الجبال ويعدهم في أولياء الديوان فامتثل مراسله وبعث نائب العراق شرف الدين علي بأن ملك العراق لا يتم إلا بطاعة ملك الجبال عماد الدين بهلوان وملك سليمان شاه فبعث إليهما السلطان من لاطفهما حتى كانت طاعتهما اختياراً منهما.

وبعث السلطان الحاجب بدر الدين طوطو بن أبنايخ خان فأحسن في تأدية رسالته وجاء بهدية حافلة من عند الخليفة خلعتان للسلطان إحداهما جبة وعمامة وسيف هندي مرصع الحلية والأخرى قنع وكمة وفرجية وسيف محلى بالذهب وقلادة مرصعة ثمينة وفرسان رائعان بعدتين كاملتين ونعال لكل واحدة من أربعمائة دينار وترس ذهب مرصع بالجوهر وفيه أحد وأربعون فصاً من الياقوت وبندخستاني في وسطه فيروزجة كبيرة وثلاثون فرساً عربية مجللة بالأطلس الرومي المبطن بالأطلس البغدادي بمقاود الحرير ونعال الذهب لكل واحدة منها ستون ديناراً وعشرون مملوكاً بالعدة والمركوب وعشرة فهود بجلال الأطلس وقلائد الذهب وعشرة صقور بالأكمام المكللة ومائة وخمسون بقجة في كل واحدة عشرة ثياب وخمس أكر من العنبر مضلعة

بالذهب وشجرة من العود الهندي طولها خمسة أذرع وأربع عشرة خلعة نسوانية للخانات من خوالص الذهب وكنائس للخيل تفليسية.

وللأمراء ثلثمائة خلعة لكل أمير خلعة قباء وكمة وللوزير عمامة سوداء وقباء وفرجية وسيف هندي وأكرتان من العنبر وخمسون ثوبا وبغلة ولأصحاب الديوان عشرون خلعة في كل خلعة جبة وعمامة وعشرون ثوباً أكثرها أطلس رومي وبغدادي وعشرون بغلة شهباء ورفعت للسلطان خباء فدخلها ولبس الخلعتين وشفع الرسول في أهل خلاط فاعتذر له السلطان.

ومنها وصول هدية من صاحب الروم ثلاثون بغلاً مجللة بثياب الأطلس الخطائي وفرو القندسي والسمور وثلاثون مملوكاً بالخيل والعدة ومائة فرس وخمسون بغلاً ولما مروا بأذربيجان اعترضهم ركن الدين جهان شاه بن طغرل صاحب أرزن وكان في طاعة الأشرف فأمسك الهدية عنده إلى أن وفد على السلطان بطاعته فأحضرها.

ومنها أسار وزير المورخا جاء إلى الجبل المطل على قزوين لحصاد الحشيش على عادته وكان السلطان قد تغير على علاء الدين صاحبهم بسبب أخيه غياث الدين ولحاقه بهم في ألموت فسار مقطع سارة إلى ذلك الجبل وأكمن لهم الوزير وبعث به إلى السلطان وهو يحاصر خلاط فحبسه بقلعة رزمان وهلك لأشهر قلائل ثم بعث السلطان كاتبه محمد بن أحمد النسائي إلى علاء الدين صاحب قلعة ألموت بطلب الخوارج وطلب الخطبة فامتنع منها أولاً واحتج عليه بأن أباه جلال الدين الحسن خطب لخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش والد السلطان فأنكر والتزم أن يبعث إلى الديوان مائة ألف في كل سنة.

وصول جهان بهلوان أزبك من الهند

كان السلطان لما فصل من الهند بقصد العراق واستخلف على البلاد التي ملكها هنالك جهان بهلوان أزبك فأقام هنالك إلى أن قصده عسكر شمس الدين ايتماش صاحب لهاوون ففارق مكانه وسار إلى بلاد قشمير فزاحموه وطردوه عن البلاد فقصد العراق وتخلف عنه أصحابه وعادوا إلى ايتماش وفيهم الحسن برلق الملقب رجاملك وكاتب جهان عليها ملك العراق بوصوله في سبعمائة فارس فأجاب الحسن رأي السلطان فيه وبعث إليه بعشرة آلاف دينار للنفقة ووصل توقيع السلطان بأن تحمل إليه عشرون ألفاً وأن يشتي بالعراق يستريح بها من التعب فصادف عود السلطان من بلاد الروم وزحف السلطان إلى أذربيجان فحال قدر الله بينه وبين مرامه وقتل هناك سنة ثمان وعشرين.

وصول التتر إلى أذربيجان

كان التتر عندما ملكوا ما وراء النهر وزحفوا إلى خراسان فضعضعوا ملك بني خوارزم شاه وانتهوا إلى قاصية البلاد وخربوا ما مروا عليه واكتسحوا ونهبوا وقتلوا ثم استقر ملكهم بما وراء النهر وعمروا تلك البلاد واختطوا قرب خوارزم مدينة عظيمة تعوض منها وبقيت خراسان خالية واستبد بالمدن فيها أمراء شبه الملوك يعطون الطاعة للسلطان جلال الدين لما جاء من الهند وانفرد جلال الدين بملك العراق وفارس وكرمان وأذربيجان وأران وما وراء ذلك وبقيت خراسان مجالات لغارات التتر وحروبهم ثم سارت طائفة منهم سنة خمس وعشرين فكان بينهم وبين جلال الدين لما جاء من الهند المواقعة على أصفهان كما مر ثم كان بين جلال الدين وبين الأشرف صاحب الشام وعلاء الدين كيقباد صاحب الروم المواقعة سنة سبع وعشرين كما مر وأوهنت من جلال الدين وحلت عرى ملكه.

وكان علاء الدين مقدم الإسماعيلية في قلعة ألموت فعاد جلال الدين لما أثخن في بلاده وقرر عليه وظائف الأموال فبعث إلى التتر يخبرهم بالهزيمة الكائنة عليه وأنها أوهنته ويحثهم على قصده فساروا إلى أذربيجان أول سنة ثمان وعشرين وبلغ الخبر إلى السلطان بمسيرهم فبعث بوغر من أمرائه طليعة لاستكشاف خبرهم فلقي مقدمتهم فانهزم ولم ينج من أصحابه غيره وجاء بالخبر فرحل من تبريز إلى موقان وخلف عياله بتبريز لنظر الوزير وأعجله الحال عن أن يبعثهم إلى بعض الحصون.

ثم ورد كتاب من حدود زنجان بأن المقدمة التي لقيها بوغر باهر أقاموا بمرج الخان وأنهم سبعمائة فارس فظن السلطان أنهم لا يجاوزونها فسري عنه ورحل إلى موقان فأقام بها وبعث في أحشاد العساكر الأميرين بغان شحنة خراسان وأوسمان بهلوان شحنة مازندران وشغل بالصيد وبينما هو كذلك كبسه التتر بمكانه ونهبوا معسكره وخلص إلى نهر أوس.

ثم ورى بقصد كنجة وعطف إلى أذربيجان فتنكر لماهان وكان عز الدين صاحب قلعة شاهن غاضبا منذ سنين لإغارة الوزير على بلده فلما نزل السلطان ماهان كان يخدمه بالميرة وبأخبار التتر ثم أنذره آخر الشتاء بمسير التتر إليه من أرجان وأشار عليه بالعود إلى أران لكثرة ما فيها من العساكر وأجناد

التركمان متحصنين بها فلما فارقها وكان الوزير فوق بيوت السلطان وخزائنه في قلاع حسام الدين منهم: أرسلان كبير أمراء التركمان بأران وكان قد عمر هنالك قلعة سنك سراخ من أحصن القلاع فأنزل عياله بها وكان مستوحشاً من السلطان فجاهر بالعصيان.

وكانت وحشته من السلطان لأمور منها: تبذير أمواله في العطاء والنفقة، ومنها: أنه ظن أن السلطان مجفل إلى الهند فكاتب الأشرف صاحب الشام وكيقباد صاحب الروم فوعدهم من نفسه الطاعة وهما عدوا السلطان ومنها: أنه كاتب قليج أرسلان التركماني فأمره بحفظ حرم السلطان وخزائنه ولا يسلمها إليه وبعث في الكتاب له والكباس قبله ليغزو الروم فلما مر السلطان بقلعته بعث إليه يستدعيه فوصل وحمل كفنه في يده فلاطفه السلطان وكايده فظنها مخالصة فاطمأن والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء التتر على تبريز وكنجة

ولما أجفل السلطان بعد الكبسة من موقان إلى أران بلغ الخبر إلى أهل تبريز فثاروا بالخوارزمية وأرادوا قتلهم ووافقهم بهاء الدين محمد بن بشير فأربك الوزير بعد الطغرياني وكان الطغرياني رئيس البلد كما مر فمنعهم من ذلك وعدوا على واحد من الخوارزمية وقتلوه فقتل به اثنين من العامة واجتهد في تحصين تبريز وحراستها وشحنها بالرجال ولم تنقطع كتبه عن السلطان ثم هلك فسلمها العوام إلى التتر ثم ثار أهل كنجة وسلموا بلدهم للتتر وكذا أهل بيلغازة والله أعلم.

نكبة الوزير ومقتله

لما وصل السلطان إلى قلعة جاربرد بلغه استيحاش الوزير وخشي أن يفر إلى بعض الجهات فركب إلى القلعة موريا بالنظر في أحوالها والوزير معه وأسر إلى والي القلعة أن يمسك الوزير ويقيده هنالك ففعل ونزل السلطان فجمع مماليك الوزير وكبيرهم الناصر قشتمر وضمهم إلى أوترخان ثم نمي إلى والي القلعة أن السلطان مستبدل منه فاستوحش وبعث بخاتم الوزير إلى قشتمر كبير المماليك يقول: نحن وصاحبكم متوازرون فمن أحب خدمته فليأت القلعة فسقط في يد السلطان وكان ابن الوالي في جملته وحاشيته فأمره السلطان أن يكاتب أباه ويعاتبه ففعل وأجابه بالتنصل من ذلك فقال له السلطان: فليبعث إليّ برأس الوزير فبعث به. وكان الوزير مكرماً للعلماء والأدباء مواصلا لهم كثير الخشية والبكاء متواضعاً منبسطاً في العطاء حتى استغرق أموال الديوان لولا أن السلطان جذب من عنانه وكان فصيحاً في لغة الترك وكانت عمالته على التواقيع السلطانية: "الحمد لله العظيم" وعلى التواقيع الديوانية: "يعتمد ذلك" وعلى تواقيعه إلى بلاده: "أبو المكارم علي بن أبي القاسم خالصة أمير المؤمنين".

ارتجاع السلطان كنجة

لما ثار أهل كنجة بالخوارزمية كان القائم بأمرهم رجل منهم اسمه بندار وبعث السلطان إليهم رسوله يدعوهم إلى الطاعة فوصلوا قريباً منه وأقاموا وخرج إليهم الرئيس جمال الدين القمي بأولاده وامتنع الباقون ثم وصل السلطان وردد إليهم فلم تغن وبرزوا بعض الأيام للقتال ورموا على خيمته فركب وحمل عليهم فانهزموا وازدحموا في الباب فمنعهم الزحام من إغلاقه فاقتحم السلطان المدينة وقبض على ثلاثين من أهل الفتنة فقتلهم وجيء ببندار وكان بالغاً في الفساد وكسر سرير الملك الذي نصبه بها محمد بن ملك شاه فمثل به وفصل أعضاءه بين يديه وأقام السلطان بكنجة نحواً من شهر ثم سار إلى خلاط مستمداً للأشرف فارتحل الأشرف إلى مصر وعلل بالمواعيد ووصل السلطان في وجهته إلى قلعة شمس وبها أراك بن إيوان الكرجي فخرج وقبل الأرض على البعد ثم بعث إلى السلطان ما أمر به وبعث السلطان إلى جيرانه من الملوك مثل صاحب حلب وآمد وماردين يستنجدهم بعد يأسه من الأشرف وجرد عسكراً إلى خرت برت وملطية وأذربيجان فأغاروا في تلك النواحي واستاقوا نعمها لما بين ملكها كيقباد وبين الأشرف من الموالاة فاستوحش جميعهم من ذلك وقعدوا عن نصرته والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة التتر على السلطان بآمد ومهلكه

كان السلطان بلغه وهو بخلاط أن التتر ساروا إليه فبعث السلطان الأمير أترخان في أربعة آلاف فارس طليعة فرجع وأخبر أن التتر رجعوا من حدود ملاذكرد وكان الأمراء أشاروا على السلطان الانتقال بديار بكر وينجرون إلى أصفهان ثم جاءه رسول صاحب آمد وزين له قصد الروم وأطعمه في الاستيلاء عليها ليتصل بالقفجاق ويستظهر بهم على التتر وأنه يمده بنفسه في أربعة آلاف فارس وكان صاحب آمد يروم الانتقام من صاحب الروم بما ملك من قلاعه فجنح السلطان إلى كلامه وعدل عن أصفهان

إلى آمد فنزل بها وبعث إليه التركمان بالنذير وأنهم رأوا نيران التتر بالمنزل الذي كانوا به أمس فاتهم خبرهم وصبحه التتر على آمد وأحاطوا بخيمته قبل أن يركب فحمل عليهم أوترخان حتى كشفهم عن الحركات.

وركب السلطان وركض وأسلم زوجته بنت الأتابك سعد إلى أميرين يحملانها إلى حيث تنتهي الحفلة ثم رد أوترخان والعساكر عنه ليتوارى بانفراده عن عين العدو وسار أوترخان في أربعة آلاف فارس فخلص إلى أصفهان واستولى عليها إلى أن ملكها التتر عليه سنة تسعة وثلاثين وذهب السلطان مستخفياً إلى باشورة آمد والناس يظنون أن عسكره غدروا به فوقفوا يردونهم فذهب إلى حدود الدربندات وقد ملئت المضايق بالمفسدين فأشار عليه أوترخان بالرجوع فرجع وانتهى إلى قرية من قرى ميافارقين فنزل في بيدرها وفارقه أوترخان إلى شهاب الدين غازي صاحب حلب لمكاتبات كانت بينهما فحبسه.

ثم طلبه الكامل فبعث إليه محبوساً ثم سقط من سطح فمات وهجم التتر على السلطان بالبيدر فهرب وقتل الذين كانوا معه وأخبر التتر أنه السلطان فاتبعوه وأدركه اثنان منهم فقتلهما ويئس منه الباقون فرجعوا عنه وصعد جبل الأكراد فوجدهم مترصدين في الطرق للنهب فسلبوه وهموا بقتله وأسر إلى بعضهم أنه السلطان فمضى به إلى بيته ليخلصه إلى بعض النواحي ودخل البيت في غيبه بعض سفلتهم وبيده حربة وهو يطلب الثأر من الخوارزمية بأخ له قتل بخلاط فقتله ولم يغن عنه البيت وكانت الوقعة منتصف شوال سنة ثمان وعشرين هذه سياقة الخبر من كتاب النسائي كاتب السلطان جلال الدين وأما ابن الاثير فذكر الواقعة وأنه فقد فيها وبقوا أياما في انتظار خبره ولم يذكر مقتله وانتهى به التأليف ولم يزد على ذلك.

قال النسائي: وكان السلطان جلال الدين أسمر قصيراً تركياً شجاعاً حليماً وقوراً لا يضحك إلا تبسماً ولا يكثر الكلام مؤثراً للعدل إلا أنه مغلوب من أجل الفتنة وكان يكتب للخليفة والوحشة قائمة بينهما كما كان أبوه يكتب خادمه المطواع فلان فلما بعث إليه بالخلع عن خلاط كما مر كتب إليه عبده فلان والخطاب بعد ذلك سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وإمام المسلمين وخليفة رب العالمين قدوة المشارق والمغارب المنيف على الذروة العليا ابن لؤي بن غالب ويكتب لملوك الروم ومصر والشام السلطان فلان بن فلان ليس معها أخوة ولا محبة وعلامته على تواقيعه: النصرة من اللّه وحده وعلامته لصاحب الموصل بأحسن خط وشق القلم شقين ليغلظ.

ولما وصل من الهند كاتبه الخليفة الجناب الرفيع الخاقاني فطلب الخطاب بالسلطان فأجيب بأنه لم تجر به عادة مع أكابر الملوك فألح في ذلك حين حملت له الخلع فخوطب بالجناب العالي الشاهنشاهي ثم انتشر التتر بعد هذه الواقعة في سواد آمد وأرزن وميافارقين وسائر ديار بكر فاكتسحوها وخربوها وملكوا مدينة اسعرد عنوة فاستباحوها بعد حصار خمسة أيام ومروا بماردين فامتنعت ثم وصلوا إلى نصيبين فاكتسحوا نواحيها ثم إلى سنجار وجبالها والخابور ثم ساروا إلى تدليس فأحرقوها ثم إلى أعمال خلاط فاستباحوا أباكري وارتجيس.

وجاءت طائفة أخرى من أذربيجان إلى أعمال إربل ومروا في طريقهم بالتركمان الأموامية والأكراد الجوزقان فنهبوا وقتلوا وخرج مظفر الدين صاحب إربل بعد ان استمد صاحب الموصل فلم يدركهم وعادوا وبقيت البلاد قاعاً صفصفاً واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وافترق عسكر جلال الدين منكبرس وساروا إلى كيقباد ملك الروم فأثبتهم في ديوانه واستخدمهم ثم هلك سنة أربع وثلاثين وولي ابنه غياث الدين كنخسرو فارتاب بهم وقبض على كبيرهم وفر الباقون واكتسحوا ما مروا به وأقاموا مستبدين بأطراف البلاد ثم استمالهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وكان نائباً لأبيه بالبلاد الشرقية حران وكيفا وآمد واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له كما يأتي في أخباره واللّه سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله.

الخبر عن دولة بني تتش بن ألب أرسلان ببلاد الشام دمشق وحلب وأعمالهما وكيف تناوبوا فيها القيام بالدعوة العباسية والدعوة العلوية حين انقراض أمرهم

قد تقدم لنا استيلاء السلجوقية على الشام لأول دولتهم وكيف سار أتسز بن أرتق الخوارزمي من أمراء السلطان ملك شاه إلى فلسطين ففتح الرملة وبيت المقدس وأقام فيهما الدعوة العباسية ومحا الدعوة العلوية ثم حاصر دمشق وذلك سنة ثلاث وستين وأربعمائة ثم أقام يردد الحصار على دمشق حتى ملكها سنة ثمان وستين وسار إلى مصر سنة تسع وستين وحاصروها وعاد عنها وولي السلطان ملك شاه بعد أبيه ألب أرسلان سنة خمس وستين فأقطع أخاه تتش بلاد الشام وما يفتحه من تلك

النواحي سنة سبعين وأربعمائة فسار إلى حلب وحاصرها وكان أمير الجيوش بدر الجمالي قد بعث العساكر لحصار دمشق وبها أتسز فبعث بالصريخ إلى تاج الدولة تتش فسار لنصرته وأجفلت عساكر مصر وخرج أتسز لتلقيه فتعلل عليه ببطنه عن تلقيه وقتله واستولى على دمشق وقد تقدم ذلك كله.

ثم استولى سليمان بن قطلمش على أنطاكية وقتل مسلم بن قريش وسار إلى حلب فملكها وسمع بذلك تتش فسار إليها واقتتلا سنة تسع وسبعين وقتل سليمان بن قطلمش في الحرب وسار السلطان ملك شاه إلى حلب فملكها وولى عليها قسيم الدولة أقسنقر جد نور الدين العادل ثم جاء السلطان إلى بغداد سنة أربع وثمانين وسار إليه أخوه تاج الدين تتش من دمشق وقسيم الدولة أقسنقر صاحب حلب وبوزان صاحب الرها وحضروا معه صنيع المولد النبوي ببغداد فلما وعدوه العود إلى بلادهم أمر قسيم الدولة وبوزان بأن يسيرا بعسكرهما مع تاج الدولة تتش لفتح البلاد بساحل الشام وفتح مصر من يد المستنصر العلوي ومحو الدولة العلوية منها فساروا لذلك.

وملك تتش حمص من يد ابن ملاعب وغزة عنوة وأماسية من يد خادم العلوي بالأمان وحاصر طرابلس وبها جلال الدين بن عمار فداخل قسيم الدولة أقسنقر وصانعه بالمال في أن يشفع له عند تتش فلم يشفعه فرحل مغاضباً وأجفلوا إلى جبلة وانتقض أمرهم وهلك السلطان ملك شاه سنة خمس وثمانين ببغداد وقد كان سار إلى بغداد وسار تتش أخوه من دمشق للقائه وبلغه في طريقه خبر وفاته وتنازع ولده محمود وبركيارق الملك فاعتزم على طلب الأمر لنفسه ورجع إلى دمشق فجمع العساكر وقسم العطاء وسار إلى حلب فأعطاه أقسنقر الطاعة لصغر أولاده ملك شاه والتنازع الذي بينهم وحمل صاحب أنطاكية وبوزان صاحب الرها وحران على طاعته.

وساروا جميعاً في محرم سنة ست وثمانين فحاصروا الرحبة وملكوها وخطب فيها تتش لنفسه ثم ملك نصيبين عنوة واستباحها واقطعها لمحمد بن مسلم بن قريش ثم سار إلى الموصل وبها إبراهيم بن قريش بن بدران وبعث إليه في الخطبة على منابره فامتنع وبرز للقائه في ثلاثين ألفاً وكان تتش في عشرة آلاف والتقوا بالمضيع من نواحي الموصل فانهزم إبراهيم وقتل واستبيحت أحياء العرب وقتل أمراؤهم وأرسل إلى بغداد في طلب الخطبة فلم يسعف إلا بالوعد ثم سار إلى ديار بكر فملكها في ربيع الآخر وسار منه إلى أذربيجان وكان بركيارق بن ملك شاه قد استولى على الري وهمذان وكثير من بلاد الجبل فسار في العساكر لمدافعته فلما تقاربا نزع أقسنقر وبوزان إلى بركيارق.

وعاد تتش منهزماً إلى الشام وجمع العساكر واستوعب في الحشد وسار إلى أقسنقر في حلب فبرز إليه ومعه بوزان صاحب الرها وكربوقا الذي ملك الموصل فيما بعد ولقيهم تتش على ستة فراسخ من حلب فانهزموا وجيء بأقسنقر أسيراً فقتله صبراً ولحق كربوقا وبوزان بحلب فحاصرها تتش وملكها وأخذهما أسيرين وبعث إلى حران والرها في الطاعة فامتنعوا فقتل بوزان وملكهما وحبس كربوقا بحمص ثم سار إلى الجزيرة فملكها جميعاً ثم إلى ديار بكر وخلاط ثم أذربيجان ثم همذان وبعث إلى بغداد في الخطبة وكان بركيارق يومئذ بنصيبين فعبر دجلة إلى إربل ثم منها إلى بلد سرخاب بن بدر وسار الأمير يعقوب بن أرتق من عسكر تتش فكبسه وهزمه ونجا إلى أصفهان فكان من خبره ما تقدم وبعث تتش يوسف بن أرتق التركماني شحنة إلى بغداد فمنع منها فعاث في نواحيها ثم بلغه مهلك تتش فعاد إلى حلب وهذه الأخبار كلها قد تقدمت في أول دولة السلجوقية وإنما ذكرناها هنا توطئة لدولة بني تتش بدمشق وحلب والله أعلم.

مقتل تتش

ولما انهزم بركيارق أمام عمه تتش لحق بأصبهان وبها محمود وأهل دولته فأدخلوه وتشاوروا في قتله ثم أبقوه إلى إبلال محمود من مرضه فقدر هلاك محمود وبايعوا لبركيارق فبادر إلى أصفهان وقدم أميراً آخر بين يديه لإعداد الزاد والعلوفة وسار هو إلى أصفهان ورجع تتش إلى الري وأرسل إلى الأمراء بأصفهان يدعوهم ويرغبهم فأجابوه باستبراء أمر بركيارق ثم أبل بركيارق من مرضه وسار في العساكر إلى الري فانهزم تتش وانهزم عسكره وثبت هو فقتله بعض أصحاب أقسنقر بثأر صاحبه واستقام الأمر لبركيارق والله تعالى أعلم.

استيلاء رضوان بن تتش على حلب

كان تتش لما انفصل من حلب استخلف عليها أبا القاسم الحسن بن علي الخوارزمي وأمكنه من القلعة ثم أوصى أصحابه قبل المصاف بطاعة ابنه رضوان وكتب إليه بالمسير إلى بغداد ونزول دار السلطنة فسار لذلك وسار معه أبو الغازي بن أرتق وكان أبوه تتش تركه عنده وسار معه ومعه محمد بن صالح بن مرداس وغيرهما وبلغه مقتل أبيه عند هيت فعاد إلى حلب ومعه الأميران

الصغيران أبو طالب وبهرام وأمه وزوجها جناح الدولة الحسن بن أفتكين ولحق بهم من المعركة فلما انتهوا إلى حلب امتنع أبو القاسم بالقلعة ومعه جماعة من المغاربة وهم أكثر جندها فاستمالهم جناح الدولة فثاروا بالقلعة من الليل ونادوا بشعار الملك رضوان واحتاطوا على أبي القاسم فبعث إليه رضوان بالأمان وخطب له على منابر حلب وأعمالها وقام بتدبير دولته جناح الدولة وأحسن السيرة.

وخالف عليهم الأمير باغيسيان بن محمد بن أبه التركماني صاحب أنطاكية ثم أطاع وأشار على رضوان بقصد ديار بكر وسار معه لذلك وجاءهم أمراء الأطراف الذين كان تتش رأسهم فيها وقصدوا سروج فسبقهم إليها سلمان بن أرتق وملكها فساروا إلى الرها وبها الفارقليط من الروم كان يضمن البلاد من بوزان فتحصن بالقلعة ودافعهم ثم غلبوه عليها وملكها رضوان وطلبها منه باغيسيان وخشي جناح الدولة على نفسه فلحق بحلب ورجع رضوان والأمراء على أثره فسار باغيسيان فأقطعها له ثم سار إلى حران وأميرها قراجا فدس إليهم بعض أهلها بالطاعة واتهم قراجا بذلك ابن المعني من أعيانها كان تتش يعتمد عليه في حفظ البلد فقتله وقتل بني أخيه ثم فسد ما بين جناح الدولة وباغيسيان وخشي جناح الدولة على نفسه فلحق بحلب ورجع رضوان والأمراء على أثره فسار باغيسيان إلى بلده أنطاكية وسار معه أبو القاسم الخوارزمي ودخل رضوان إلى حلب دار ملكه وكان من أهل دولته يوسف بن أرتق الخوارزمي الذي بعثه تتش إلى بغداد شحنة وكان من الفتيان بحلب وكان متبوعاً وكان يعادي يوسف بن أرتق فجاء إلى جناح الدولة القائم بأمر رضوان ورمى يوسف بن أرتق عنده بأنه يكاتب باغيسيان ويداخله في الثورة واستأذنه في قتله فأذن له وأمده بجماعة من الجند وكبس يوسف في داره فقتله ونهب فيها واستطال على الدولة وطمع في الاستبداد على رضوان ودس لجناح الدولة أن رضوان أمره بقتله فهرب إلى حمص وكانت أقطاعاً له واستبد على رضوان ثم تنكر له رضوان سنة تسع وثمانين وأمر بالقبض عليه فاختفى ونهبت دوره وأمواله ودوابه ثم قبض عليه فامتحن وقتل هو وأولاده.

استيلاء دقاق بن تتش على دمشق

كان تتش قد بعث ابنه دقاقا إلى أخيه السلطان ملك شاه ببغداد فأقام هنالك إلى أن توفي ملك شاه فسار معه ابنه محمود وأمه خاتون الجلالية إلى أصفهان ثم ذهب عنهم سرّاً إلى بركيارق ثم لحق بأبيه وحضر معه الواقعة التي قتل فيها ولما قتل تتش أبوه سار به مولاه تكين إلى حلب فأقام عند أخيه رضوان وكان بقلعة من قلاعها ساوتكين الخادم من موالي تتش ولاه عليها قبل موته فبعث إلى دقاق يستدعيه للملك فسار إليه وبعث رضوان في طلبه فلم يدركه ووصل دمشق وكتب إليه باغيسيان صاحب أنطاكية يشير عليه بالاستبداد بدمشق على أخيه رضوان ووصل معتمد الدولة طغتكين مع جماعة من خواص تتش وكان قد حضر المعركة وأسر فخلص الآن من الأسار وجاء إلى دمشق فلقيه دقاق ومال إليه وحكمه في أمره وداخله في مثل ساوتكين الخادم فقتلوه ووفد عليهم باغيسيان من أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي فأكرمهما واستوزر الخوارزمي وحكمه في دولته.

الفتنة بين دقاق وأخيه رضوان

ثم سار رضوان إلى دمشق سنة تسعين وأربعمائة قاصداً انتزاعها من يد دقاق فامتنعت عليه فعاد إلى مالس وقصد الورس فامتنعت عليه فعاد إلى حلب وفارقه باغيسيان صاحب أنطاكية إلى أخيه دقاق وحض على المسير إلى أخيه بحلب فسار لذلك واستنجد رضوان سكمان من سروج في أمم من التركمان ثم كان اللقاء بقنسرين فانهزمت عساكر دقاق ونهب سوادهم وعاد رضوان إلى حلب ثم سعى بينهما في الصلح على أن يخطب لرضوان بدمشق وأنطاكية قبل دقاق فانعقد ذلك بينهما ثم لحق جناح الدولة بحمص عندما عظمت فيه سعاية الجن كما ذكرناه وكان باغيسيان منافراً له فلما فصل من حلب جاء باغيسيان إلى رضوان وصالحه ثم بعث إلى رضوان المستعلي خليفة العلويين بمصر يعده بالإمداد على أخيه على أن يخطب له على منابره وزين له بعض أصحابه صحة مذهبهم فخطب له في جميع أعماله سوى أنطاكية والمعرة وقلعة حلب ثم وفد عليه بعد شهرين من هذه الخطبة سكمان بن أرتق صاحب سروج وباغيسيان صاحب أنطاكية فلم يقم بها غير ثلاث حتى وصل الفرنج فحاصروه وغلبوه على أنطاكية وقتلوه كما مر في خبره.

استيلاء دقاق على الرحبة

كانت الرحبة بيد كربوقا صاحب الموصل فلما قتل كما مر في خبره استولى عليها قايمار من موالي السلطان ألب أرسلان فسار دقاق بن تتش ملك دمشق وأتابكه طغركين إليها سنة خمس وتسعين وحاصروها فامتنعت عليهم فعادوا عنها وتوفي قايمار

صاحبها في صفر سنة ست وتسعين وقام بأمرها حسن من موالي الأتراك فطمع في الاستبداد وقتل جماعة من أعيان البلد وحبس آخرين واستخدم جماعة من الجند وطرد آخرين وخطب لنفسه فسار دقاق إليه وحاصره في القلعة حتى استأمن وخرج إليه وأقطعه بالشام اقطاعات كثيرة وملك الرحبة وأحسن إلى أهلها وولى عليهم ورجع إلى دمشق والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق لا رب غيره.

وفاة دقاق وولاية أخيه تلتاش ثم خلعه

ثم توفي دقاق صاحب دمشق سنة سبع وتسعين واستقل أتابكه طغركين بالملك وخطب لنفسه سنة ثم قطع خطبته وخطب لتلتاش أخي دقاق صبيا مراهقا وخوفته أمه من طغركين بزواجه أم دقاق وأنه يميل إلى ابن دقاق من أجل جدته فاستوحش وفارق دمشق إلى بعلبك في صفر سنة ثمان وتسعين ولحقه أيتكين الحلبي صاحب بصرى وكان ممن حسّن له لذلك فعاث في نواحي خوارزم ولحق به أهل الفساد وراسلا هدويل ملك الفرنج فأجابهما بالوعد ولم يوف لهما فسار إلى الرحبة واستولى عليها تلتاش وقيل: إن تلتاش لما استوحش منه طغركين من دخول البلد مضى إلى حصون له وأقام بها ونصب طغركين الطفل ابن دقاق وخطب له واستبد عليه وأحسن إلى الناس واستقام أمره والله تعالى ولي التوفيق وهو نعم الرفيق.

الحرب بين طغركين والفرنج أشهراً

كان قمص من قمامصة الفرنج على مرحلتين من دمشق فلج بالغارات على دمشق فجمع طغركين العساكر وسار إليه وجاء معرون ملك القدس وعكا من الفرنج بإنجاد القمص فأظهر الغنية عليه وعاد إلى عكا وقاتل طغركين القمص فهزمه وأحجزه بحصنه ثم حاصره حتى ملك الحصن عنوة وقتل أهله وأسر جماعته وعاد إلى دمشق ظافراً غانماً ثم سار إلى حصن رمسة من حصون الشام وقد ملكه الفرنج وبه ابن أخت سميل المقيم على طرابلس يحاصرها فحاصر طغركين حصن رمسة حتى ملكه وقتل أهله من الفرنج وخربه والله أعلم.

مسير رضوان صاحب حلب لحصار نصيبين

ثم إن رضوان صاحب حلب اعتزم على غزو الفرنج واستدعى الأمراء من النواحي لذلك فجاءه أبو الغازي بن أرتق الذي كان شحنة ببغداد وأصبهان وصباوو وألبي بن أرسلان ماش صاحب سنجار وهو صهر جكرمش صاحب الموصل وأشار أبو الغازي بالمسير إلى بلاد جكرمش للاستكثار بعسكرها وأموالها ووافقه ألبي وساروا إلى نصيبين في رمضان سنة تسع وتسعين وأربعمائة فحاصرهما وفيها أميران من قبل جكرمش واشتد الحصار وجرح ألبي بن أرسلان بسهم أصابه فعاد إلى سنجار وأجفل أهل السواد إلى الموصل وعسكر جكرمش بظاهرها معتزماص على الحرب ثم كاتب أعيان العسكر وحثهم على رضوان وأمر أصحابه بنصيبين بإظهار طاعته وطلب الصلح معه وبعث إلى رضوان بذلك والإمداد بما يشاؤه على أن يقبض على أبي الغازي فخبره فمال إلى ذلك واستدعى أبا الغازي أن المصلحة في صلح جكرمش ليستعينوا به في غزو الفرنج وجمع شمل المسلمين فجاوبه أبو الغازي بالمنع من ذلك

ثم قبض عليه وقيده فانتقض التركمان ولجأوا إلى سور المدينة وقاتلوا رضوان وبعث رضوان بأبي الغازي إلى نصيبين فخرجت منها العساكر لإمداده فافترق منها التركمان ونهبوا ما قدروا عليه ورحل رضوان من وقته إلى حلب وانتهى الخبر إلى جكرمش بتل أعفد وهو قاصد حرب القوم فرحل عند ذلك إلى سنجار وبعث إليه رضوان في الوفاء بما وعده من النجدة فلم يف له ونازل صهره ألبي بن أرسلان بسنجار وهو جريح من السهم الذي أصابه على نصيبين فخرج إليه ألبي محمولاً واعتذر إليه فأعتبه وأعاده إلى بلده فمات وامتنع أصحابه بسنجار رمضان وشوّالاً ثم خرج إليه عم ألبي وصالح جكرمش وعاد إلى الموصل والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه.

استيلاء الفرنج على أفامية

كان خلف بن ملاعب الكلابي في حمص وملكها منه تاج الدولة تتش فسار إلى مصر وأقام ثم بعث صاحب أفامية من جهة رضوان بن تتش بطاعته إلى صاحب مصر العلوي فبعث إليها ابن ملاعب وملكها وخلع طاعة العلوية وأقام يخيف السبيل كما كان في حمص فلما ملك الإفرنج سرمين لحق به قاضيها وكان على مذهب الرافضة فكتب إلى ابن الطاهر الصانع من أكابر الغلاة ومن أصحاب رضوان وداخلهم في الفتك بابن ملاعب ونمي الخبر إليه من أولاده فحلف له القاضي بما اطمأن إليه وتحيل مع ابن الصانع في جند من قبلهم يستأمنون إلى ابن ملاعب ويعطونه

خيلهم وسلاحهم ويقيمون للجهاد معه ففعلوا وأنزلهم بربض أفامية ثم بيته القاضي ليلاً بمن معه من أهل سرمين ورفع أولئك الجند من الربض بالحبال وقتلوا ابن ملاعب في بيته وقتلوا معه ابنه وفر الآخر إلى أبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر.

وجاء الصانع من حلب إلى القاضي فطرده واستبد بأفامية وكان بعض أولاد ابن ملاعب عند طغركين وولاه حماية بعض الحصون فعظم ضرره فطلب طغركين فهرب إلى الإفرنج وأغراهم بأفامية ودلهم على عورتها وعدم الأقوات فيها فحاصروها شهراً وملكوها عنوة وقتلوا القاضي والصانع وذلك سنة تسع وتسعين وقد ذكرنا قبل أن الصانع قتله ابن بديع أيام تتش صاحب حلب إثر مهلك رضوان فالله أعلم أيهما الصحيح ثم ملك صاحب أنطاكية من الإفرنج حصن الإمارة بعد حصار طويل فملكه عنوة واستلحم أهله وفعل في ذريته مثل ذلك ورحل أهل منبج وبالس وتركوهما خاويين وملكوا حيد بالأمان وطلب الفرنج من أهل الحصون الإسلامية الجزية فأعطوهم ذلك على ضريبة فرضوها عليهم فكان على رضوان في حلب وأعمالها ثلاثون ألف دينار وعلى صور سبعة آلاف وعلي ابن منقذ في شيزر أربعة آلاف وعلى حماة ألفاً دينار وذلك سنة خمس وخمسمائة.

استيلاء طغركين على بصرى

قد تقدم لنا سنة سبع وتسعين حال تلتاش بن تتش والخطبة له بعد أخيه دقاق وخروجه من دمشق واستنجاده الفرنج وأن الذي تولى كبر ذلك كله أسكين الحملي صاحب بصرى فسار طغركين آخر المائة الخامسة إلى بصرى وحاصرها حتى أذعنوا وضربوا له أجلاً للفرنج فعاد إلى دمشق حتى انقضى الأجل فأتوه طاعتهم وملك البلد وأحسن إليهم والله تعالى ولي التوفيق لا رب غيره.

غزو طغركين وهزيمته

ثم سار طغركين سنة اثنتين وخمسمائة إلى طبرية ووصل إليها ابن أخت بغدوين ملك القدس من الفرنج فاقتتلوا فانهزم المسلمون أولاً فنزل طغركين ونادى بالمسلمين فكروا وانهزم الفرنج وأسر ابن أخت بغدوين وعرض طغركين عليه الإسلام فامتنع فقتله بيده وبعث بالأسرى إلى بغداد ثم انعقد الصلح بين طغركين وبغدوين بعد أربع سنين وسار بعدها طغركين إلى حصن غزة في شعبان من السنة وكان نيدغ مولى القاضي فخر الملك ثم علي بن عمار صاحب طرابلس فعصى عليه وحاصره الإفرنج وانقطعت عنه الميرة فأرسل إلى طغركين صاحب دمشق أن يمكنه من الحصن فأرسل إليه إسرائيل من أصحابه فملك الحصن وقتل صاحبه مولى بن عمار غيلة ليستأثر بمخلفه فانتظر طغركين دخول الشتاء وسار إلى الحصن لينظر في أمره وكان السرداني من الإفرنج يحاصر طرابلس فلما سمع بوصول طغركين حصن الأكمة أغذ السير إليه فهزمه وغنم سواده ولحق طغركين بحمص ونازل السرداني غزة فاستأمنوا إليه وملكها وقبض على إسرائيل فادى به أسيرا كان لهم بدمشق منذ سبع سنين ووصل طغركين إلى دمشق ثم قصد ملك الإفرنج رمسة من أعمال دمشق فملكها وشحنها بالأقوات والحامية فقصدها طغركين بعد أن نمي إليه الخبر بضعف الحامية الذين بها فكبسها عنوة وأسر الإفرنج الذين بها والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض طغركين على السلطان محمد

كان السلطان محمد بن ملك شاه قد أمر مودود بن بوشكين صاحب الموصل بالمسير لغزو الإفرنج لأن ملك القدس تابع الغارات على دمشق سنة ست وخمسمائة واستصرخ طغركين بمودود فجمع العساكر وسار سنة تسع ولقيه طغركين بسهلة وقصدوا القدس وانتهوا إلى الانحوانة على الأردن وجاء بغدوين فنزل قبالتهما على النهر ومعه جوسكين صاحب جيشه واقتتلوا منتصف محرم سنة عشر على بحيرة طبرية فانهزم الإفرنج وقتل منهم كثير وغرق كثير في بحيرة طبرية ونهر الأردن ولقيتهم عساكر طرابلس وأنطاكية فاشتدوا وأقاموا بجبل قرب طبرية وحاصرهم المسلمون فيه ثم يئسوا من الظفر به فساحوا في بلادهم واكتسحوها وخربوها ونزلوا مرج الصفر وأذن مودود للعساكر في العود والراحة ليتهيأوا للغزو.

وسلخ الشتاء ودخل دمشق آخر ربيع من سنة.... ليقيم عند طغركين تلك المدة وصلى معه أول جمعة ووثب عليه باطني بعد الصلاة فطعنه ومات آخر يومه.

واتهم طغركين بقتله وولى السلطان مكانه على الموصل أقسنقر البرسقي فقبض على أياز بن أبي الغازي وأبيه صاحب حصن كيفا فسار بنو أرتق إلى البرسقي وهزموه وتخلص أياز من أسره فلحق أبو الغازي أبوه بطغركين صاحب دمشق وأقام عنده وكان مستوحشاً من السلطان محمد لاتهامه بقتل مودود فبعث إلى

صاحب أنطاكية من الفرنج وتحالفوا على المظاهرة وقصد أبو الغازي ديار بكر فظفر به قيرجان بن قراجا صاحب حمص وأسره وجاء طغركين لاستنفاذه فحلف قيرجان ليقتلنه إن لم يرجع طغركين إلى بلاده وانتظر وصول العساكر من بغداد تحمله فأبطأت فأجاب طغركين إلى إطلاقه.

ثم بعث السلطان محمد بالعساكر لجهاد الإفرنج والبداءة بقتال طغركين وأبي الغازي فساروا في رمضان سنة ثمان وخمسمائة ومقدمتهم برسق بن برسق صاحب همذان وانتهوا إلى حلب وبعثوا إلى متوليها لؤلؤ الخادم ومقدم عسكرها شمس الخواص يأمرونهما بالنزول عنها وعرضوا عليهما كتب السلطان بذلك فدافعا بالوعد واستحثا طغركين وأبا الغازي في الوصول فوصلا في العساكر وامتنعت حلب على العساكر وأظهروا العصيان فسار برسق إلى حماة وهي لطغركين فملكها عنوة ونهبها ثلاثاً وسألهما الأمير قيرجان صاحب حمص الصلح وكان جميع ما يفتحه من البلاد له بأمر السلطان فانتقض الأمراء من ذلك وكسلوا عن الغزو وسار أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص إلى أنطاكية يستنجدون صاحبها دجيل من الإفرنج ثم توادعوا إلى انصرام الشتاء ورجع أبو الغازي إلى ماردين وطغركين إلى دمشق ثم كان في أثر ذلك هزيمة المسلمين واستشهد برسق وأخوه زنكي وقد تقدم خبر هذه الهزيمة في أخبار البرسقي ثم قدم السلطان محمد بغداد فوفد عليه أتابك طغركين صاحب دمشق في ذي القعدة من سنة تسع مستعيناً فأعانه وأعاده إلى بلده والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة رضوان بن تتش صاحب حلب وولاية ابنه ألب أرسلان

ثم توفي رضوان بن تتش صاحب حلب سنة تسع وخمسمائة وقد كان قتل أخويه أبا طالب وبهرام وكان يستعين بالباطنية في أموره ويداخلهم ولما توفي بايع مولاه لؤلؤ الخادم لابنه ألب أرسلان صبياً مغتلماً وكانت في لسانه حبسة فكان يلقب الأخرس وكان لؤلؤ مستبداً عليه ولأول ملكه قتل أخويه وكل ملك شاه منهما شقيقه وكانت الباطنية كثيراً في حلب في أيام رضوان حتى خافهم ابن بديع وأعيانها فلما توفي أذن لهم ألب أرسلان في الإيقاع بهم فقبضوا على مقدمهم ابن طاهر الصائغ وجماعة من أصحابهم فقتلوهم وافترق الباقون.

مهلك لؤلؤ الخادم واستيلاء أبي الغازي ثم مقتل ألب أرسلان وولاية أخيه سلطان شاه

كان لؤلؤ الخادم قد استولى على قلعة حلب وولي أتابكية ألب أرسلان ابن مولاه رضوان ثم تنكر له فقتله لؤلؤ ونصب في الملك أخاه سلطان شاه واستبد عليه فلما كان سنة إحدى عشرة سار إلى قلعة جعفر للاجتماع بصاحبها سالم بن مالك فغدر به مماليكه الأتراك وقتلوه عند خرتبرت وأخذوا خزائنه واعترضهم أهل حلب فاستعادوا منهم ما أخذوه وولي أتابكية سلطان شاه بن رضوان شمس الخواص بارقياس وعزل لشهر وولي بعده أبو المعالي بن الملحي الدمشقي ثم عزل وصودر واضطربت الدولة وخاف أهل حلب من الإفرنج فاستدعوا أبا الغازي بن أرتق وحكموه على أنفسهم ولم يجد فيها مالاً فصادر جماعة الخدم وصانع بمالهم الإفرنج حتى صار إلى ماردين بنية العود إلى حمايتها واستخلف عليها ابنه حسام الدين تمرتاش وانقرض ملك رضوان بن تتش من حلب والله سبحانه وتعالى أعلم.

هزيمة طغركين أمام الإفرنج

كان ملك الإفرنج بغدوين صاحب القدس قد توفي سنة اثنتي عشرة وقام بملكهم بعده القمص صاحب الرها الذي كان أسره جكرمس وأطلقه جاولي كما تقدم في أخبارهم وبعث إلى طغركين في المهادنة وكان قد سار من دمشق لغزوهم فأبى من إجابته وسار إلى طبرية فنهبها واجتمع بقواد المصريين في عسقلان وقد أمرهم صاحبهم بالرجوع إلى رأي طغركين ثم عاد إلى دمشق وقصد الإفرنج حصناً من أعماله فاستأمن إليهم أهله وملكوه ثم قصدوا أذرعات فبعث طغركين ابنه بوري لمدافعتهم فتنحوا عن أذرعات إلى جبل هناك وحاصرهم بوري وجاء إليه أبو طغركين فراسلوه ليفرج عنهم فأبى طمعاً في أخذهم فاستماتوا وحملوا على المسلمين حملة صادقة فهزموهم ونالوا منهم ورجع الفل إلى دمشق وسار طغركين إلى أبي الغازي بحلب يستنجده فوعده بالنجدة وسار إلى ماردين للحشد ورجع طغركين إلى دمشق كذلك وتواعدوا للجبال وسبق الإفرنج إلى حلب وكان بينه وبين أبي الغازي ما تذكره في موضعه من دولة بني أرتق والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق لا رب غيره.

منازلة الإفرنج دمشق

ثم اجتمع الإفرنج سنة عشرين وخمسمائة ملوكهم وقمامصتهم وساروا إلى دمشق ونزلوا مرج الصفر وبعث أتابك طغركين بالصريخ إلى تركمان بديار بكر وغيرها وخيم قبالة الإفرنج واستحلف ابنه بوري على دمشق ثم ناجزهم الحرب آخر السنة فاشتد القتال وصرع طغركين عن فرسه فانهزم المسلمون وركب طغركين واتبعهم ومضت خيالة الإفرنج في اتباعهم وبقي رجالة التركمان في المعركة فلما خلص إليهم رجالة الإفرنج اجتمعوا واستماتوا وحملوا على رجالة الإفرنج فقتلوهم ونهبوا معسكرهم وعادوا غانمين ظافرين إلى دمشق ورجعت خيالة الإفرنج من اتباعهم منهزمين فوجدوا معسكرهم منهوباً ورجالهم قتلى وكان ذلك من الصنع الغريب.

وفاة طغركين وولاية ابنه بوري

ثم توفي أتابك طغركين صاحب دمشق في صفر سنة اثنتين وعشرين وكان من موالي تاج الدولة تتش وكان حسن السيرة مؤثراً للعدل محباً في الجهاد ولقبه ظهير الدين ولما توفي ملك بعده ابنه تاج الدولة بوري أكبر أولاده بعهده إليه بذلك وأقر وزير أبيه أبي علي طاهر بن سعد المزدغاني على وزارته وكان المزدغاني يرى رأي الرافضية الإسماعيلية وكان بهرام ابن أخي إبراهيم الاستراباذي لما قتل عمه إبراهيم ببغداد على هذا المذهب لحق بالشام وملك قلعة بانياس ثم سار إلى دمشق وأقام بها خليفة يدعو إلى مذهبه ثم فارقها وملك القدموس وغيره من حصون الجبال وقابل البصرية والدرزة بوادي التيم من أعمال بعلبك سنة اثنتين وعشرين وغلبهم الضحاك وقتل بهرام.

وكان المزدغاني قد أقام له خليفة بدمشق يسمى أبا الوفاء فكثر أتباعه وتحكم في البلد وجاء الخبر إلى بوري بأن وزيره المزدغاني والإسماعيلية قد راسلوا الإفرنج بأن يملكوهم دمشق فجاء إليها وقتل المزدغاني ونادى بقتل الإسماعيلية وبلغ الخبر إلى الإفرنج فاجتمع صاحب القدس وصاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وسائر ملوك الإفرنج وساروا لحصار دمشق واستصرخ تاج الملك بالعرب والتركمان وجاء الإفرنج في ذي الحجة من السنة وبثوا سراياهم للنهب والإغارة ومضت منها سرية إلى خوارزم فبعث تاج الدولة بوري سرية من المسلمين مع شمس الخواص من أمرائه لمدافعتهم فلقوهم وظفروا بهم واستلحموهم وبلغ الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا منهزمين وأحرقوا مخلفهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون والله تعالى ولي التوفيق.

أسر تاج الملك لدبيس بن صدقة وتمكين عماد الدين زنكي منه

كان بصرخد من أرض الشام أميراً عليها فتوفي سنة خمس وعشرين وخلف سريته واستولت على القلعة وعلمت أنه لا يتم لها واستيلاؤها إلا بتزويج رجل من أهل العصابة فوصف لها دبيس فكتبت إليه تستدعيه وهو على البصرة منابذاً للسلطان عندما رجع من عند سنجار فاتخذ الأدلاء وسار إلى صرخد فضل به الدليل بنواحي دمشق ونزل على قوم من بني كلاب شرقي الغوطة فحملوه إلى تاج الملك فحبسه وبعث به إلى عماد الدين زنكي يستدعيه ويتهدده على منعه وأطلق سريج بن تاج الملوك والأمراء الذين كانوا مأسورين معه فبعث تاج الملك بدبيس إليه وأشفق على نفسه فلما وصل إلى زنكي خالف ظنه وأحسن إليه وسد خلته وبسط أمله وبعث فيه المسترشد أيضاً يطلبه وجاء ثابت الأنباري وسمع في طريقه بإحسان زنكي إليه فرجع ثم أرسل المسترشد يشفع فيه فأطلق.

وفاة تاج الملوك بوري صاحب دمشق وولاية ابنه شمس الملوك إسماعيل

كان تاج الملوك بوري قد ثار به جماعة من الباطنية سنة خمس وعشرين وطعنوه فأصابته جراحة واندملت ثم انتقضت عليه في رجب من سنة ست وعشرين لأربع سنين ونصف من إمارته وولي بعده ابنه شمس الملوك إسماعيل بعهده إليه بذلك وكان عهد بمدينة بعلبك وأعمالها لابنه الآخر شمس الدولة وقام بتدبير أمره الحاجب يوسف بن فيروز شحنة دمشق وأحسن إلى الرعية وبسط العدل فيهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء شمس الملوك على الحصون

ولما تولى شمس الملوك إسماعيل وسار أخوه محمد إلى بعلبك خرج إليها وحاصر أخاه محمداً بها وملك البلد واعتصم محمد بالحصن وسأل الإبقاء فأبقى عليه ورجع إلى دمشق ثم سار إلى باشاش وقد كان الإفرنج الذين بها نقضوا الصلح وأخذوا

جماعة من تجار دمشق في بيروت فسار إليها طاويا وجه مذهبه حتى وصلها في صفر سنة سبع وعشرين وقاتلها ونقب أسوارها وملكها عنوة ومثل بالإفرنج الذين بها واعتصم فلهم بالقلعة حتى استأمنوا وملكها ورجع إلى دمشق ثم بلغه ان المسترشد زحف إلى الموصل فطمع هو في حماة وسار آخر رمضان وملكها يوم الفطر من غده فاستأمنوا إليهم وملكها واستولى على ما فيها ثم سار إلى قلعة شيرز وبها صاحبها من بني منقذ فحاصرها وصانعه صاحبها بمال حمله إليه فأفرج عنه وسار إلى دمشق في ذي القعدة من السنة.

ثم سار في محرم سنة ثمان وعشرين إلى حصن شقيق في الجبل المطل على بيروت وصيدا وبه الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به وتحاماه المسلمون والإفرنج يحتمي من كل طائفة بالأخرى فسار إليه وملكه من وقته وعظم ذلك على الإفرنج فساروا إلى جوران وعاثوا في نواحيها فاحتشد هو واستنجد بالتركمان وسار حتى نزل قبالتهم وجهز العسكر هنالك وخرج في البر وأناخ على طبرية وعكا فاكتسح نواحيها وامتلأت أيدي عسكره بالغنائم والسبي وانتهى الخبر إلى الإفرنج بمكانهم من بلاد حوران فأجفلوا إلى بلادهم وعاد هو إلى دمشق وراسله الإفرنج في تجديد الهدنة فهادنهم.

مقتل شمس الملوك وولاية أخيه شهاب الدين محمود

كان شمس الملوك سيئ السيرة كثير الظلم والعدوان على رعيته مرهف الحد لأهله وأصحابه حتى أنه وثب عليه بعض مماليك جده سنة سبع وعشرين وعلاه بالسيف ليقتله فأخذ وضرب وأقر على جماعة داخلوه فقتلهم وقتل معهم أخاه سونج فتنكر الناس له وأشيع عنه بأنه كاتب عماد الدين زنكي ليملكه دمشق واستحثه في الوصول لئلا يسلم البلد إلى الإفرنج فسار زنكي فصدق الناس الإشاعة وانتقض أصحاب أبيه لذلك وشكوا لأمه فأشفقت ثم تقدمت إلى غلمانه بقتله في ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وقيل: أنه اتهم أمه بالحاجب يوسف بن فيروز فاعتزم على قتلها فهرب يوسف وقتلته أمه ولما قتل ولي أخوه شهاب الدين محمود من بعده ووصل أتابك زنكي بعد مقتله فحاصر دمشق من ميدان الحصار وجدوا في مدافعته والامتناع عليه وقام في ذلك معين الدين أنز مملوك جده طغركين مقاماً محموداً وجلى في المدافعة والحصار ثم وصل رسول المسترشد أبو بكر بن بهشر الجزري إلى أتابك زنكي يأمره بمسالمة صاحب دمشق الملك ألب أرسلان شهاب الدين محمود وصلحه معه فرحل عن دمشق منتصف السنة.

استيلاء شهاب الدين محمود على حمص

كانت حمص لقيرجان بن قراجا ولولده من بعده والموالي بها من قبلهما وطالبهم عماد الدين زنكي في تسليمها وضايقهم في نواحيها فراسلوا شهاب الدين صاحب دمشق في أن يملكها ويعوضهم عنها بتدمر فأجاب واستولى على حمص وسار إليها سنة ثلاثين وأقطعها لمملوك جده معين الدين أنز وأنزل معه حامية من عسكره ورجع إلى دمشق واستأذنه الحاجب يوسف بن فيروز في العود من تدمر إلى دمشق وقد كان هرب إليها كما قدمناه وكان جماعة من الموالي منحرفين عنه بسبب ما تقدم في مقتل سونج فنكروا ذلك فلاطفهم ابن فيروز واسترضاهم وحلف لهم أنه لا يتولى شيئاً من الأمور ولما دخل رجع إلى حاله فوثبوا عليه وقتلوه وخيموا بظاهر دمشق واشتطوا في الطلب فلم يسعفوا بكلمة فلحقوا بشمس الدولة محمد بن تاج الملوك في بعلبك وبثوا السرايا إلى دمشق فعاثت في نواحيها حتى أسعفهم شهاب الدين بكل ما طلبوه فرجعوا إلى ظاهر دمشق وخرج لهم شهاب الدين وتحالفوا ودخلوا إلى البلد وولى مرواش كبيرهم على العساكر وجعل إليه الحل والعقد في دولته والله أعلم.

استيلاء عماد الدين زنكي على حمص وغيرها من أعمال دمشق

ثم سار أتابك زنكي إلى حمص في شعبان سنة إحدى وثلاثين وقدم إليه حاجبه صلاح الدين الباغيسياني وهو أكبر أمرائه مخاطباً واليها معين الدين أنز في تسليمها فلم يفعل وحاصرها فامتنعت عليه فرحل عنها آخر شوال من السنة ثم سار سنة اثنتين وثلاثين إلى نواحي بعلبك فملك حصن المحولي على الأمان وهو لصاحب دمشق ثم سار إلى حمص وحاصرها وعاد ملك الروم إلى حلب فاستدعى الفرنج وملك كثيراً من الحصون مثل عين زربة وتل حمدون وحصر أنطاكية ثم رجع وأفرج أتابك زنكي خلال ذلك عن حمص ثم عاود منازلتها بعد مسير الروم وبعث إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب إليه أمه مرد خاتون ابنة جاولي طمعاً في الاستيلاء على دمشق فزوجها له ولم يظفر بما أمله من دمشق وسلموا له حمص وقلعتها وحملت إليه خاتون في

رمضان من السنة والله أعلم.

مقتل شهاب الدين محمود وولاية أخيه محمد

لما قتل شهاب الدين محمود في شوال سنة ثلاث وثلاثين اغتاله ثلاث من مواليه في مضجعه بخلوته وهربوا فنجا واحد منهم وأصيب الآخران كتب معين الدين أنز إلى أخيه شمس الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك بالخبر فسارع ودخل دمشق وتبعه الجند والأعيان وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنز مملوك جده وأقطعه بعلبك واستقامت أموره.

استيلاء زنكي على بعلبك وحصاره دمشق

ولما قتل شهاب الدين محمود وبلغ خبره إلى أمه خاتون زوجة أتابك زنكي بحلب عظم جزعها عليه وأرسلت إلى زنكي بالخبر وكان بالجزيرة وسألت منه الطلب بثأر ابنها فسار إلى دمشق واستعدوا للحصار فعدل إلى بعلبك وكانت لمعين الدين أنز كما قلناه وكان أتابك زنكي دس إليه الأموال ليمكنه من دمشق فلم يفعل فسار إلى بلده بعلبك وجد في حربها ونصب عليها المجانيق حتى استأمنوا إليه وملكها في ذي الحجة آخر سنة ثلاث وثلاثين واعتصم جماعة من الجند بقلعتها ثم استأمنوا فقتلهم وأرهب الناس بهم ثم سار إلى دمشق وبعث إلى صاحبها في تسليمها والنزوك عنها على أن يعوضه عنها فلم يجب إلى ذلك فزحف إليها ونزل داريا منتصف ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وبرزت إليه عساكر دمشق فظفر بهم وهزمهم ونزل المصلى وقاتلهم فهزمهم ثانياً ثم أمسك عن قتالهم عشرة أيام وتابع الرسل إليه بأن يعوضه عن دمشق ببعلبك أو حمص أو ما يختاره فمنعه أصحابه فعاد زنكي إلى القتال واشتد في الحصار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

وفاة جمال الدين محمد بن بوري وولاية ابنه مجير الدين أنز

ثم توفي جمال الدين محمد بن بوري صاحب دمشق رابع شعبان سنة أربع وثلاثين وزنكي محاصر به وهو معه في مراوضة الصلح وجمع زنكي فيما عساه أن يقع بين الأمراء من الخلاف فاشتد في الزحف فما وهنوا لذلك وولوا من بعد جمال الدين محمداً ابنه مجير الدين أنز وأقام بتربيته وتدبير دولته معين الدين أنز مدبر دولته.

وأرسل إلى الإفرنج يستنجدهم على مدافعة زنكي على أن يحاصر قاشاش فإذا فتحها أعطاهم إياها فأجابوا إلى ذلك حذراً من استطالة زنكي بملك دمشق فسار زنكي للقائهم قبل اتصالهم بعسكر دمشق ونزل حوران في رمضان من السنة فخام الإفرنج عن لقائه وأقاموا ببلادهم فعاد زنكي إلى حصار دمشق في شوال من السنة ثم أحرق قرى المرج والغوطة ورحل عائداً إلى بلده ثم وصل الإفرنج إلى دمشق بعد رحيله فسار معهم معين الدين أنز إلى قاشاش من ولاية زنكي ليفتحها ويعطيها للافرنج كما عاهدهم عليه وقد كان واليها أغار على مدينة صور ولقيه في طريقه صاحب أنطاكية وهو قاصد إلى دمشق لإنجاد صاحبها على زنكي فقتل الوالي ومن معه من العسكر ولجأ الباقون إلى قاشاش وجاء معين الدين أنز أثر ذلك في العساكر فملكها وسلمها للافرنج وبلغ الخبر إلى أتابك زنكي فسار إلى دمشق بعد أن فرق سراياه وبعوثه على حوران وأعمال دمشق وسار هو متجرداً إليها فصبحها وخرج العسكر لقتاله فقاتلهم عامة يومه ثم تأخر إلى مرج راهط وانتظر بعوثه حتى وصلوا إليه وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ورحل عائداً إلى بلده.

مسير الإفرنج لحصار دمشق

كان الإفرنج منذ ملكوا سواحل الشام ومدنه تسير إليهم أمم الإفرنج من كل ناحية من بلادهم مدداً لهم على المسلمين لما يرونه من تفرد هؤلاء بالشام بين عدوهم وسار في سنة ثلاث وأربعين ملك الالمان من أمراء الإفرنج من بلاده في جموع عظيمة قاصدا بلاد الإسلام لا يشك في الغلب والاستيلاء لكثرة عساكره وتوفر عدده وأمواله فلما وصل الشام اجتمع عليه عساكر الإفرنج الذين له ممتثلين أمره فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق فساروا لذلك سنة ثلاث وأربعين وحاصروها فقام معين الدين أنز في مدافعتهم المقام المحمود ثم قاتلهم الإفرنج سادس ربيع الأول من السنة فنالوا من المسلمين بعد الشدة والمصابرة واستشهد ذلك اليوم الفقيه حجة الدين يوسف العندلاوي المغربي وكان عالماً زاهداً وسأله معين الدين يومئذ في الرجوع لضعفه وسنه فقال له: «قد بعت واشترى مني فلا أقيل ولا أستقيل يشير إلى آية الجهاد وتقدم حتى استشهد عند أسرت على نصف فرسخ من دمشق.

واستشهد معه خلق وقوي الإفرنج ونزل ملك الألمان الميدان الأخضر وكان عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة إحدى وأربعين وولي ابنه سيف الدين غازي الموصل وابنه نور الدين محمود حلب فبعث معين الدين أنز إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده فجاء لإنجاده ومعه أخوه نور الدين وانتهوا إلى مدينة حمص وبعث إلى الإفرنج يتهددهم فاضطروا إلى قتاله وانقسمت مؤنتهم بين الفريقين وأرسل معين الدين إلى الألمان يتهددهم بتسليم البلد إلى ملك المشرق يعني صاحب الموصل وأرسل إلى فرنج الشام يحذرهم من استيلاء ملك الألمان على دمشق فإنه لا يبقى لكم معه مقام في الشام ووعدهم بحصن قاشاش فاجتمعوا إلى ملك الألمان وخوفوه من صاحب الموصل أن يملك دمشق فرحل عن البلد وأعطاهم معين الدين قلعة قاشاش وعاد ملك الألمان إلى بلاده على البحر المحيط في أقصى الشمال والمغرب ثم توفي معين الدين أنز مدبر دولة أرتق والمتغلب عليه سنة أربع وأربعين لسنة من حصار ملك الألمان والله أعلم.

استيلاء نوري الدين محمود العادل على دمشق وانقراض بني تتش من الشام

كان سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة أربع وأربعين وملك أخوه قطب الدين وانفرد أخوه الآخر نور الدين محمود بحلب وما يليها وتجرد لطلب دمشق ولجهاد الإفرنج واتفق أن الإفرنج سنة ثمان وأربعين ملكوا عسقلان من يد خلفاء العلوية لضعفهم كما مر في أخبار دولتهم ولم يجد نور الدين سبيلاً إلى ارتجاعها منهم لاعتراض دمشق بينه وبينهم ثم طمعوا في ملك دمشق بعد عسقلان وكان أهل دمشق يؤدون إليهم الضريبة فيدخلون لقبضها ويتحكمون فيهم ويطلقون من أسرى الإفرنج الذين بها كل من أراد الرجوع إلى أهله فخشي نور الدين عليها من الإفرنج ورأى أنه إن قصدها استنصر صاحبها عليه بالإفرنج فراسل صاحبها مجير الدين واستمالة بالهدايا حتى وثق به فكان يغريه بأمرائه الذين يجد بهم القوة على المدافعة واحداً واحداً ويقول له: إن فلاناً كاتبني بتسليم دمشق. فيقتله مجير الدين حتى كان آخرهم عطاء بن حافظ السلمي الخادم وكان شديداً في مدافعة نور الدين فأرسل إلى مجير الدين بمثلها فيه فقبض عليه وقتله فسار حينئذ نور الدين إلى دمشق بعد أن كاتب الأحداث الذين بها واستمالهم فوعدوه وأرسل مجير الدين إلى الإفرنج يستنجده من نور الدين على أن يعطيهم بعلبك فأجابوه وشرعوا في الحشد وسبقهم نور الدين إلى دمشق فثار الأحداث الذين كاتبهم وفتحوا له الباب الشرقي فدخل منه وملكها واعتصم مجير الدين بالقلعة فراسله في النزول عنها وعوضه مدينة حمص فسار إليها ثم عوضه عن حمص بألس فلم يرضها وسار إلى بغداد واختط بها داراً قرب النظامية وتوفي بها واستولى نور الدين على دمشق وأعمالها واستضافها إلى ملكه حتى حلب وانقرض ملك بني تتش من الشام والبلاد الفارسية أجمع والبقاء لله وحده والله مالك الملك لا رب غيره سبحانه وتعالى.

الخبر عن دولة قطلمش وبنيه ملوك قونية وبلاد الروم من السلجوقية ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان قطلمش هذا من عظماء أهل هذا البيت ونسبه فيهم فقيل مختلف قطلمش بن بيقو وابن الأثير تارة يقول قطلمش ابن عم طغرلبك وتارة يقول قطلمش بن إسرائيل من سلجوق ولعله بيان ذلك الإجمال ولما انتشر السلجوقية في البلاد طالبين للملك دخل قطلمش بهذا إلى بلاد الروم وملك قونية وأقصرا ونواحيهما وبعثه السلطان طغرلبك بالعساكر مع قريش بن بدران صاحب الموصل في طلب دبيس بن مزيد عندما أظهر الدولة العلوية في الحلة وأعمالها فهزمهم دبيس والبساسيري كما تقدم في أخبارهم ثم عصى على السلطان ألب أرسلان بعد طغرلبك وقصد الري ليملكه وقاتله ألب أرسلان سنة ست وخمسين فانهزم عسكر قطلمش ووجد بين القتلى فتجمع له ألب أرسلان وقعد للعزاء فيه كما تقدم في أخبارهم وقام بأمره ابنه سليمان وملك قونية وأقصرا وغيرهما من الولاية التي كانت بيد أبيه وافتتح أنطاكية من يد الروم سنة سبع وسبعين وأربعمائة وقد كانوا ملكوها منذ خمس وخمسين وأربعمائة فأخذها منهم وأضافها إلى ملكه.

وقد تقدم خبر ملكه إياها في دولتهم وكان لمسلم بن قريش صاحب الموصل ضريبة على الروم بأنطاكية فطالب بها سليمان بن قطلمش فامتعض لذلك وأنف منه فجمع مسلم العرب والتركمان لحصار أنطاكية ومعه جق أمير التركمان والتقيا سنة ثمان وسبعين وانحاز جق إلى سليمان فانهزم العرب وسار سليمان بن قطلمش لحصار حلب فامتنعت عليه وسألوه الإمهال حتى يكاتب السلطان ملك شاه ودسوا إلى تاج الدولة تتش صاحب دمشق يستدعونه فأغذ السير واعترضه سليمان بن قطلمش على غير تعبئة فانهزم وطعن نفسه بخنجر فمات وغنم تتش معسكره.

وملك بعده ابنه قليج أرسلان وأقام في سلطانه ولما زحف الإفرنج إلى سواحل الشام سنة تسعين وأربعمائة جعلوا طريقهم على القسطنطينية فمنعهم من ذلك ملك الروم حتى شرط عليهم أن يعطوه أنطاكية إذا ملكوها فأجابوا لذلك وعبروا خليج القسطنطينية ومروا ببلاد قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش فلقيهم في جموعه قريباً من قونية فهزموه وانتهوا إلى بلاد ابن ليون الأرمني فمروا منها إلى أنطاكية وبها باغيسيان من أمراء السلجوقية فاستعد للحصار وأمر بحفر الخندق فعمل فيه المسلمون يوماً ثم عمل فيه النصارى الذين كانوا بالبلد من الغد فلما جاؤوا للدخول منعهم وقال: أنا لكم في مخلفكم حتى ينصرف هؤلاء الإفرنج وزحفوا إليه فحاصروه تسعة أشهر.

ثم عدا بعض الحامية من سور البلد عليهم فأدخلوهم من بعض مسارب الوادي وأصبحوا في البلد فاستباحوه وركب باغيسيان للصلح فهرب ولقيه حطاب من الأرمن فجاء برأسه إلى الإفرنج وولي عليها بيشمند من زعماء الإفرنج وكان صاحب حلب وصاحب دمشق قد عزما على النفير إلى أنطاكية لمدافعتهم فكاتبهم الإفرنج بالمسالمة وانهم لا يعرضون لغير أنطاكية فأوهن ذلك من عزائمهم وأقصروا عن إنجاد باغيسيان وكان التركمان قد انتشروا في نواحي العراق وكان كمستكين بن طبلق المعروف أبوه بالوانشمند ومعناه المعلم عندهم قد ملك سيواس من بلاد الروم مما يلي أنطاكية.

وكان بملطية مما يجاورها متغلب آخر من التركمان وبينه وبين الوانشمند حروب فاستنجد صاحب ملطية عليه الإفرنج وجاء بيفل من أنطاكية سنة ثلاث وتسعين في خمسة آلاف فلقيه ابن الوانشمند وهزمه وأخذه أسيراً وجاء الإفرنج لتخليصه فنازلوا قلعة أنكورية وهي أنقرة فأخذوها عنوة ثم ساروا إلى أخرى فيها إسماعيل بن الوانشمند وحاصروها فجمع ابن الوانشمند وقاتلهم وأكمن لهم وكانوا في عدد كثير فلما قاتلهم استطرد لهم حتى خرج عليهم الكمين وكر عليهم فلم يفلت منهم أحد وسار إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها وجاءه الإفرنج من أنطاكية فهزمهم.

استيلاء قليج أرسلان على الموصل

كانت الموصل وديار بكر والجزيرة بيد جكرمش من قواد السلجوقية فمنع الحمل وهم بالانتقاض فأقطع السلطان الموصل وما معها لجاولي سكاوو والكل من قوادهم وأمرهم بالمسير لقتال الإفرنج فسار جاولي وبلغ الخبر لجكرمش فسار من الموصل إلى إربل وتعاقد مع أبي الهيجاء بن موشك الكردي الهدباي صاحب أربل وانتهى إلى البوازيج فعبر إليه جكرمش دجلة وقاتله فانهزمت عساكر جكرمش وبقي جكرمش واقفاً لفالج كان به فأسره جاولي ولحق الفل بالموصل فنصبوا مكانه ابنه زنكي صبياً صغيراً وأقام بأمره غزغلي مولى أبيه وكانت القلعة بيده وفرق الأموال والخيول.

واستعد لمدافعة جاولي وكاتب صدقة بن مزيد والبرسقي شحنة بغداد وقليج أرسلان صاحب بلاد الروم يستنجدهم ويعد كلاً منهم بملك الموصل إذا دافعوا عنه جاولي فأعرض صدقة عنه ولم يحتفل بذلك ثم سار جاولي إلى الموصل وحاصرها وعرض جكرمش للقتل أو يسلموا إليه فامتنعوا وأصبح جكرمش في بعض أيام حصارها وسمع جاولي بأن قليج أرسلان سار في عساكره إلى نصيبين فأفرج عن الموصل وسار إلى سنجار وسبق البرسقي إليها بعد رحيل جاولي وأرسل إلى أهلها فلم يجيبوه بشيء وعاد إلى بغداد واستدعى رضوان صاحب دمشق جاولي سقاوو لمدافعة الإفرنج عنه فساروا إليه وخرج من الموصل عسكر جكرمش إلى قليج أرسلان بنصيبين فتحالفوا معه وجاؤوا به إلى الموصل فملكها آخر رجب من سنة خمسمائة.

وخرج إليه ابن جكرمش وأصحابه وملك القلعة من غزغلي وجلس على التخت وخطب لنفسه بعد الخليفة وأحسن إلى العسكر وسار في الناس بالعدل وكان في جملته إبراهيم بن ينال التركماني صاحب آمد ومحمد بن جق التركماني صاحب حصن زياد وهو خرت برت وكان إبراهيم بن ينال قد ولي تتش على آمد حين ولي ديار بكر وكانت بيده وأما خرت برت فكانت بيد القلادروس ترجمان الروم والرها وأنطاكية من أعماله فملك سليمان بن قطلمش أنطاكية وملك فخر الدولة بن جهير ديار بكر فضعف القلادروس وملك جق خرت برت من يده وأسلم القلادروس على يد السلطان ملك شاه وأمره على الرها فأقام بها حتى مات وملكها جق هي وما جاورها من الحصون أورثها ابنه محمدا بعد موته والله تعالى ولي التوفيق.

الحرب بين قليج أرسلان وبين الإفرنج

كان سمند صاحب أنطاكية من الإفرنج قد وقعت بينه وبين ملك الروم بالقسطنطينية وحشة واستحكمت وسار سمند فنهب بلاد الروم وعزم على قصد أنطاكية فاستنجد ملك الروم بقليج أرسلان فأمده بعساكره وسار مع ذلك الروم فهزموا الإفرنج وأسروهم ورجع الفل إلى بلادهم بالشام فاعتزموا على قصد قليج

أرسلان بالجزيرة فأتاهم خبر مقتله فأقصروا واللّه تعالى ولي التوفيق.

مقتل قليج أرسلان وولاية ابنه مسعود

قد تقدم لنا استيلاء قليج أرسلان على الموصل وديار بكر وأعمالها وجلوسه على التخت وأن جاولي سكاوو سار إلى سنجار ثم سار منها إلى الرحبة وكان قليج أرسلان خب له بها صاحبها محمد بن السباق من بني شيبان بعد مهلك دقاق وانتقاضه على أبيه فلما حاصرها جاولي بعث إليه رضوان بن تتش صاحب حلب في النجدة على الإفرنج لما ساروا إلى بلاده فوعده لانقضاء الحصار وجاء رضوان فحضر عنده واشتد الحصار على أهل الرحبة وغدر بعضهم فأدخل أصحاب جاولي ليلاً ونهبوها إلى الظهر وخرج إليه صاحبها محمد الشيباني فأطاعه ورجع عنه.

وبلغ الخبر إلى قليج أرسلان فسار من الموصل لحرب جاولي واستخلف عليها ابنه ملك شاه صبياً صغيراً مع أمير يدبره فلما انتهى إلى الخابور هرب عنه إبراهيم بن نيال صاحب آمد ولحق ببلده واعتزم قليج أرسلان على المطاولة واستدعى عسكره الذين أنجدهم ملك الروم على الإفرنج فجاؤوا إليه واغتنم جاولي قلة عسكره فلقيه آخر ذي القعدة من السنة واشتدت الحرب وحمل قليج أرسلان على جاولي بنفسه وصرع صاحب الراية وضرب جاولي بسيفه ثم حمل أصحاب جاولي عليه فهزموه وألقى نفسه في الخابور فغرق وسار جاولي إلى الموصل فملكها وأعاد خطبة السلطان محمد وبعث إليه ملك شاه بن قليج أرسلان وولى مكان قليج أرسلان في قونية وأقصرا وسائر بلاد الروم ابنه مسعود واستقام له ملكها.

استيلاء مسعود بن قليج أرسلان على ملطية وأعمالها

كانت ملطية وأعمالها وسيواس لابن الوانشمند من التركمان كما مر وكانت بينه وبينهم حروب وهلك كمستكين بن الوانشمند وولي مكانه ابنه محمد واتصلت حروبه مع الإفرنج كما كان أبوه معهم ثم هلك سنة سبع وثلاثين فاستولى مسعود بن قليج أرسلان على الكثير منها وبقي الباقي بيد أخيه باغي أرسلان بن محمد.

وفاة مسعود بن قليج وولاية ابنه قليج أرسلان الان قرسن

ثم توفي مسعود بن قليج أرسلان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وملك مكانه ابنه قليج أرسلان فكانت بينه وبين باغي أرسلان بن الوانشمند وصاحب ملطية وما جاورها من ملك الروم حروب بسبب ان قليج أرسلان تزوج بنت الملك طليق بن علي بن أبي القاسم فزوجها إليه بجهاز عظيم وأغار عليه باغي أرسلان صاحب ملطية فأخذها بما معها وزوجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بن الوانشمند أشار عليها بالردة لينفسخ النكاح ثم عادت إلى الإسلام وزوجها بابن أخيه فجمع قليج أرسلان عساكره وسار إلى باغي أرسلان بن الوانشمند فهزمه باغي أرسلان واستنجد ملك الروم فأمده بعسكر وسار باغي أرسلان خلال ذلك.

وولي إبراهيم ابن أخيه محمد وملك قليج أرسلان بعض بلاده واستولى أخوه ذو النون بن محمد الوانشمند على قيسارية وانفرد شاه بن مسعود أخو قليج أرسلان بمدينة أنكوريه وهي أنقرة واستقرت الحال على ذلك ثم وقعت الفتنة بين قليج أرسلان وبين نور الدين محمود بن زنكي وتراجعوا للحرب وكتب الصالح بن رزيك المتغلب على العلوي بمصر إلى قليج أرسلان ينهاه عن ذلك ثم هلك إبراهيم بن محمد الوانشمند وملك مكانه أخوه ذو النون وانتقض قليج أرسلان عليه وملك ملطية من يده واللّه تعالى أعلم.

مسير نور الدين العادل إلى بلاد قليج أرسلان

ثم سار نور الدين محمود بن زنكي سنة ثمان وستين إلى ولاية أرسلان بن مسعود ببلاد الروم وهي ملطية وسيواس وأقصرا فجاءه قليج أرسلان متنصلاً معتذراً فأكرمه وثنى عزمه عن قصد بلاده ثم أرسل إليه شفيعاً في ذي النون بن الوانشمند يرد عليه بلاده فلم يشفعه فسار إليه وملك مرعش ونهسنا وما بينهما في ذي القعدة من السنة وبعث عسكراً إلى سيواس فملكوها فمال قليج أرسلان إلى الصلح وبعث إلى نور الدين يستعطفه وقد بلغه عن الفرنج ما أزعجه فأجابه على أن يمده بالعساكر للغزو وعلى أن يبقي سيواس بيد نواب نور الدين وهي لذي النون بن الوانشمند ثم جاءه كتاب الخليفة بإقطاع البلاد ومن جملتها بلاد

قليج أرسلان وخلاط وديار بكر ولما مات نور الدين عادت سيواس لقليج أرسلان وطرد عنها نواب ذي النون.

مسير صلاح الدين لحرب قليج أرسلان

كان قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم قد زوج بنته من نور الدين محمود بن قليج أرسلان بن داود بن سقمان صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر وأعطاه عدة حصون فلم يحسن عشرتها وتزوج عليها وهجر مضجعها وامتعض أبوها قليج أرسلان لذلك واعتزم على غزو نور الدين في ديار بكر وأخذ بلاده فاستجار نور الدين بصلاح الدين بن أيوب واستشفع به فلم يشفعه وتعلل بطلب البلاد التي أعطاه عند المصاهرة فامتعض صلاح الدين لذلك وكان يحارب الإفرنج بالشام فصالحهم وسار في عسكره إلى بلاد الروم وكان الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بالشام فعدل عنه ومر على تل باشر إلى زغبان ولقي بها نور الدين محمود صاحب كيفا وبعث إليه قليج أرسلان رسولاً يقرر غدره بابنته فاغتاظ على الرسول وتوعده بأخذ بلادهم فتلطف له الرسول وخلص معه نجياً فقبح له ما ارتكبه من أجل هذه المرأة من ترك الغزو ومصالحة العدو وجمع العساكر وخسارة وأن بنت قليج أرسلان لو بعثت إليه بعد وفاة أبيها تسأل منه النصفة بينها وبين زوجها لكان أحق ما تقصده فامتنعت وعلم أن على نفسه الحق فأمر الرسول أن يصلح بينهم ويكون هو عوناً له على ذلك فداخلهم ذلك الرسول في الصلح على أن يطلق هذه المرأة بعد سنة ويعقد بينهم ذلك ورجع كل إلى بلده ووفى نور الدين بما عقد على نفسه والله سبحانه وتعالى أعلم.

قسمة قليج أرسلان أعماله بين ولده وتغلبهم عليه

ثم قسم قليج أرسلان سنة سبع وثمانين أعماله بين ولده فأعطى قونية بأعمالها لغياث الدين كسنجار وأقصرا وسيواس لقطب الدين ودوقاط لركن الدين سليمان وأنقرة وهي أنكورية لمحي الدين وملطية لعز الدين قيصر شاه ولمغيث الدين وقيسارية لنور الدين محمود وأعطى تكسار وأماسا لابني أخيه وتغلب عليه ابنه قطب الدين وحمله على انتزاع ملطية من يد قيصر شاه فانتزعها ولحق قيصر شاه بصلاح الدين بن أيوب مستشفعاً به فأكرمه وزوجه ابنة أخيه العادل وشفع له عند أبيه وأخيه فشفعوه وردوا عليه ملطية ثم زاد تغلب ركن الدين وحجر عليه وقتل دائبه في مدينته وهو اختيار الدين حسن فخرج سائر بنيه عن طاعته وأخذ قطب الدين أباه وسار به إلى قيسارية ليملكها من أخيه فهرب قليج أرسلان ودخل قيسارية وعاد قطب الدين إلى قونية وأقصرا فملكهما وبقي قليج أرسلان يتنقل بين ولده من واحد إلى آخر وهم معرضون عنه حتى استنجد بغياث الدين كسنجار صاحب منهم فأنجده وسار معه إلى قونية فملكها ثم سار إلى أقصرا وحاصرها ثم مرض قليج أرسلان وعاد إلى قونية فتوفي فيها وقيل: إنما اختلف ولده عليه لأنه ندم على قسمة أعماله بينهم وأراد إيثار ابنه قطب الدين بجميعها وانتقضوا عليه لذلك وخرجوا عن طاعته وبقي يتردد بينهم وقصد كسنجار وصاحب قونية فأطاعه وخرج معه بالعساكر لحصار محمود أخيه في قيسارية وتوفي قليج أرسلان وهو محاصر لقيسارية ورجع غياث الدين إلى قونية.

وفاة قليج أرسلان وولاية ابنه غياث الدين

ثم توفي قليج أرسلان بمدينة قونية أو على قيسارية كما مر من الخلاف منتصف ثمان وثمانين لسبع وعشرين سنة من ملكه وكان مهيباً عادلاً حسن السياسة كثير الجهاد ولما توفي واستقل ابنه غياث الدين كسنجار بقونية وما إليها وكان قطب الدين أخوه صاحب أقصرا وسيواس وكان كلما سار من إحداهما إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود يتلقاه بظاهرها حتى استنام إليه مدة فغدر به وقتله وامتنع أصحابه بقيسارية وكان كبيرهم حسن فقتله مع أخيه ثم أطاعوه وأمكنوه من البلد ومات قطب الدين إثر ذلك.

استيلاء ركن الدين سليمان على قونية وأكثر بلاد الروم وفرار غياث الدين

ولما توفي قليج أرسلان وولي بعده في قونية ابنه غياث الدين كسنجار وبنوه يومئذ على حالتهم في ولايتهم التي قسمها بينهم أبوهم وملك قطب الدين منهم قيسارية بعد أن غدر بأخيه محمود صاحبها ومات قطب الدين أثر ذلك فسار ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى التغلب على أعمال سلفه ببلاد الروم فسار إلى سيواس وأقصرا وقيسارية أعمال قطب الدين فملكها ثم سار إلى قونية فحاصر بها غياث الدين وملكها ولحق غياث الدين بالشام

كما يأتي خبره ثم سار إلى نكسار وأماسا فملكهما وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين فملكها من يد معز الدين قيصر شاه ولحق معز الدين بالعادل أبي بكر بن أيوب ثم سار إلى أرزن الروم وكانت لولد الملك محمد بن حليق من بيت ملك قديم وخرج إليه صاحبها ليقرر معه صلحاً فقبض عليه وملك البلد فاجتمع لركن الدين سائر أعمال إخوته ما عدا أنقرة لحصانتها فجمر عليها الكتائب وحاصرها ثلاثاً ثم دس من قتل أخاه وملك البلد سنة إحدى وستمائة وتوفي هو عقب ذلك والله تعالى أعلم.

وفاة ركن الدين وولاية ابنه قليج أرسلان

ثم توفي ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان أوائل ذي القعدة من تمام سنة إحدى وستمائة وولي بعده ابنه قليج أرسلان فلم تطل مدته وكان ركن الدين ملكاً حازماً شديداً على الأعداء إلا أنه ينسب إلى التزين بالفلسفة والله تعالى أعلم.

استيلاء غياث الدين كسنجار على بلاد الروم من أخيه ركن الدين

كان غياث الدين كسنجار بن قليج أرسلان لما ملك أخوه ركن الدين قونية من يده لحق بحلب وفيها الظاهر غازي بن صلاح الدين فلم يجد عنده قبولاً فسار إلى القسطنطينية وأكرمه ملك الروم وأصهر إليه بعض البطارقة في ابنته وكانت له قرية حصينة في أعمال قسطنطينية فلما استولى الإفرنج على القسطنطينية سنة ستمائة لحق غياث الدين بقلعة صهره البطريق وبلغ إليه خبر أخيه تلك السنة وبعث إليه بعض الأمراء من قونية يستدعيه للملك فسار إليه واجتمعوا على حصار قونية وخرجت إليهم العساكر منها فهزموه ولحق ببعض البلاد فتحصن بها ثم قام أهل أقصرا بدعوته وطردوا واليهم وبلغ الخبر إلى أهل قونية فثاروا بقليج أرسلان بن ركن الدين وقبضوا عليه واستدعوا غياث الدين فملكوه وأمكنوه من ابن أخيه وكان أخوه قيصر شاه قد لحق بصهره العادل أبي بكر بن أيوب فاستنصر به على أخيه ركن الدين عندما ملك ملطية من يده فأمر له بالرها واستفحل ملك غياث الدين وقصده علي بن يوسف صاحب شميشاط ونظام الدين بن أرسلان صاحب خرت برت وغيرهما وعظم شأنه إلى أن قتله أشكر صاحب قسطنطينية سنة سبع وستمائة والله تعالى ولي التوفيق.

مقتل غياث الدين كسنجار وولاية ابنه كيكاوس

ولما قتل غياث الدين كسنجار وولي بعده ابنه كيكاوس ولقبوه الغالب بالله وكان عمه طغرل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم طلب الأمر لنفسه وسار إلى قتال كيكاوس ابن أخيه وحاصره في سيواس وقصد أخوه كيقباد بن كسنجار بلد أنكوريه من أعماله فاستولى عليها وبعث كيكاوس صريخه إلى الملك العادل صاحب دمشق فأنفذ إليه العساكر وأفرج طغرل عن سيواس قبل وصلوهم فسار كيكاوس إلى انكورية وملكها من يد أخيه كيغباد وحبسه وقتل امراءه وسار إلى عمه طغرل في أرزن الروم فظفر به سنة عشر وقتله وملك بلاده.

مسير كيكاوس إلى حلب واستيلاؤه على بعض أعمالها ثم هزيمته وارتجاع البلد من يده

كان الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب قد توفي وملك بعده ابنه طفلاً صغيراً وكان بعض أهل حلب قد لحق بكيكاوس فراراً من الظاهر وأغراه بملك حلب وهون عليه أمرها وملك ما بعدها ولما مات الظاهر قوي عزمه وطمعه في ذلك واستدعى الأفضل بن صلاح الدين بن شميشاط للمسير معه على أن تكون الخطبة لكيكاوس والولاية للأفضل في جميع ما يفتحونه من حلب وأعمالها فإذا فتحوا بلاد الجزيرة مثل حران والرها من يد الأشرف تكون ولايتها لكيكاوس وتعاقدوا على ذلك وساروا سنة خمس عشرة فملكوا قلعة زغبان وتسلمها الأفضل على الشرط ثم ملكوا قلعة تل باشر فاستأثر بها كيكاوس وارتاب الأفضل ثم بعث ابن الظاهر صاحب حلب إلى الأشرف بن العادل صاحب الجزيرة وخلاط يستنجده على أن يخطب له بحلب وينقش اسمه على السكة فسار لإنجاده ومعه احياء طيئ من العرب فنزل بظاهر حلب وسار كيكاوس والأفضل إلى منبج ولقيت طليعتهم طليعة الظاهر فاقتتلوا وعاد عسكر كيكاوس منهزمين إليه فأجفل وسار الأشرف إلى زغبان وتل ناشر وبهما أصحاب كيكاوس فغلبهم عليهما وأطلقهم إلى صاحبهم فأحرقهم بالنار وسلم الأشرف الحصنين إلى شهاب الدين بن الظاهر صاحب حلب وبلغه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل بمصر فرجع عن قصد بلاد الروم.

وفاة كيكاوس وملك أخيه كيغباد

كان كيكاوس بعد الواقعة بينه وبين الأشرف قد اعتزم على قصد بلاد الأشرف بالجزيرة واتفق مع صاحب آمد وصاحب أربل على ذلك وكانا يخطبان له ثم سار إلى ملطية يشغل الأشرف عن الموصل حتى ينال منها صاحب إربل ومرض في طريقه فعاد ومات سنة ست عشرة وخلف بنيه صغاراً وكان أخوه كيغباد محبوساً منذ أخذه من أنكورية فأخرجه الجند من محبسه وملكوه وقيل: بل أخرجه هو من محبسه وعهد إليه ولما ملك خالف عليه عمه صاحب أرزن الروم فوصل يده بالأشرف وعقد معه صلحاً.

الفتنة بين كيغباد وصاحب آمد من بني أرتق وفتح عدة من حصونه

كانت الفتنة قد حدثت بين الأشرف صاحب الجزيرة والمعظم صاحب دمشق وجاء جلال الدين خوارزم من الهند سنة ثلاث وعشرين بعد هروبه أمام التتر فملك أذربيجان واعتضد به المعظم صاحب دمشق على الأشرف وظاهرهما الملك مسعود صاحب آمد من بني أرتق فأرسل الأشرف إلى كيغباد ملك الروم يستنجده على صاحب آمد والأشرف يومئذ محاصر لماردين فسار كيغباد وأقام على ملطية وجهز العساكر من هناك إلى آمد ففتح حصوناً عدة وعاد صاحب آمد إلى موافقة الأشرف فكتب إلى كيغباد أن يرد عليه ما أخذه فامتنع فبعث عساكره إلى صاحب آمد مدداً على كيغباد وكان محاصرا لقلعة الكحنا فلقيهم وهزمهم وأثخن فيهم وعاد ففتح القلعة والله أعلم.

استيلاء كيغباد على مدينة أرزنكان

كان صاحب أرزنكان هذه بهرام شاه من بني الأحدب بيت قديم في الملك وملكها ستين سنة ولم يزل في طاعة قليج أرسلان وولده وتوفي فملك بعده ابنه علاء الدين داود شاه وأرسل عنه كيغباد سنة خمس وعشرين ليعسكر معه إليه وقبض عليه وملك مدينة أرزنكان وكان من حصونه كماح فامتنع نائبه فيه وتهدد داود شاه فبعث إلى نائبه فسلم له الحصن ثم قصد أرزن الروم وبها ابن عمر طغرل شاه بن قليج أرسلان فبعث بن طغرل شاه بطاعته للأشرف واستنجد نائبه بخلاط حسام الدين علي فسار إليه فخام كيغباد عن لقائه وعاد من أرزنكان إلى بلاده فوجد العدو من الإفرنج قد ملك قلعة منها تسمى صنوبا مطلة على بحر الخزر فحاصرها براً وبحراً وارتجعها المسلمون والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

فتنة كيغباد مع جلال الدين

كان صاحب أرزن الروم وهو ابن عم كيغباد صار إلى طاعة جلال الدين خوارزم شاه وحاصر معه خلاط وفيها أيبك مولى الأشرف فملكها جلال الدين وقتل أيبك كما يأتي في أخباره فخافهما كيغباد صاحب الروم فاستنجد الملك الكامل وهو بحران فأمده بأخيه الأشرف من دمشق فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار إلى كيغباد فلقيه بسيواس واجتمعوا في خمسة وعشرين ألفاً وساروا من سيواس إلى خلاط فلقيهم جلال الدين في نواحي أرزنكان فهاله منظرهم ومضى منهزماً إلى خلاط ثم سار منها إلى أذربيجان فنزلوا عند خوي وسار الأشرف إلى خلاط فوجد جلال الدين قد خربها فعادوا إلى بلادهم وترددت الرسل في الصلح فاصطلحوا.

مسير ابن أيوب إلى كيغباد وهزيمتهم

كان علاء الدين كيغباد قد استفحل ملكه ببلاد الروم ومد يده إلى ما يجاوره من البلاد فملك خلاط بعد أن دافع عنها مع الأشرف بن العادل جلال الدين خوارزم شاه فنازعه الأشرف في ذلك واستصرخ بأخيه الكامل فسار في العساكر من مصر سنة إحدى وثلاثين وسار معه الملوك من أهل بيته وانتهى إلى النهر الأزرق من تخوم الروم وبعث في مقدمته المظفر صاحب حماة من أهل بيته فلقيه كيغباد وهزمه وحصره في خرت برت وكانت لبني أرتق ورجع الكامل بالعساكر إلى مصر سنة اثنتين وثلاثين وكيغباد في اتباعهم ثم سار إلى حران والرها فملكها من يد نواب الكامل وولى عليهما من قبله وسار الكامل سنة ثلاث وثلاثين فارتجعهما.

وفاة كيغباد وملك ابنه كنخسرو

ثم توفي علاء الدين كيغباد سنة أربع وثلاثين وستمائة وملك بعده ابنه غياث الدين كنخسرو وقارن ذلك انقراض الدولة السلجوقية من ممالك الإسلام واختلال دولة بني خوارزم شاه وخروج التتر من مفازة الترك وراء النهر واستيلاء جنكزخان سلطانهم على الممالك وانتزاعها من يد بني خوارزم شاه وفر

جلال الدين آخرهم إلى الهند ثم رجع واستولى على أذربيجان وعراق العجم وكان بنو أيوب يومئذ بممالك الشام وأرمينية كما نذكر ذلك كله في أماكنه إن شاء الله تعالى.

وانتشر التتر في سائر النواحي وعاثوا فيها وتغلبوا عليها واستفحل ملكهم فسارت منهم طوائف إلى بلاد الروم سنة إحدى وأربعين فبعث غياث الدين كنخسرو بالصريخ إلى بني أيوب وغيرهم من الترك في جواره وجاء المدد من كل جانب فسار للقائهم ولقيتهم المقدمة على قشمير زنجان فانهزمت المقدمة ووصلوا إليه فانهزم ونجا بعياله وذخيرته إلى مدينة على مسيرة شهر من المعترك ونهبوا سواده ومخلفه وانتشروا في نواحي بلاد الروم وعاثوا فيها وتحصن غياث الدين بهذه المدينة واستولى التتر على خلاط وآمد ثم استأمن لهم غياث الدين ودخل في طاعتهم واستقامت أموره معهم إلى أن مات قريباً من رجوعه وملك التتر قيسارية والله أعلم.

وفاة غياث الدين وولاية ابنه كيغباد

ثم توفي غياث الدين كنخسرو سنة أربع وخمسين وترك ثلاثاً من الولد أكبرهم علاء الدين كيغباد وعز الدين كيكاوس وركن الدين قليج أرسلان وولى علاء الدين كيغباد بعهده إليه وكان يخطب لهم جميعاً وأمرهم واحد وكان جنكزخان ملك التتر قد هلك وكان كرسي سلطانهم بقراقروم وولي مكانه ابنه طلوخان وجلس على كرسيه وهو الخان الأعظم عندهم وحكمه ماض في ملوك الشمال والعراق من أهل بيته وسائر عشيرته ثم هلك طلوخان وولي مكانه في كرسيه ابنه منكوخان فبعث أخاه هلاكو لفتح العراق وبلاد الإسماعيلية سنة خمسين وستمائة فسار لذلك وملك العراقين وبغداد ثم جرد الخان الأعظم منكوخان إلى بلاد الروم سنة أربع وخمسين أميراً من أمراء المغل اسمه بيكو في العساكر فسار إلى أرزن الروم وبها سنان الدين ياقوت مولى السلطان علاء الدين فحاصرها شهرين ونصب عليها المجانيق ثم ملكها عنوة وأسر ياقوت واستلحم الجند بأسرهم واستبقى الباعة والصناع ثم سار إلى بلاد الروم فملك قيسارية ومسيرة شهر معها ورجع ثم عاد سنة خمس وخمسين وعاث في البلاد واستولى على أكثر من الأولى والله تعالى أعلم.

وفاة كيغباد وملك أخيه كيكاوس

ولما كثر عيث التتر الذين مع بيكو في مملكة علاء الدين كيغباد واعتزم على المسير إلى الخان الأعظم منكوخان يؤكد الدخول في طاعته ويقتضي مراسمه إلى بيكو ومن معه من المغل بالكف عن البلاد سار من قونية سنة خمس وخمسين ومعه سيف الدين طرنطاي من موالي أبيه واحتمل معه الأموال والهدايا وسار ووثب أخوه عز الدين كيكاوس على أخيه الآخر قليج أرسلان فاعتقله بقونية واستولى على الملك وكتب في إثر أخيه إلى سيف الدين طرنطاي مع بعض الأكابر من أصحابه أن يمكنوه من الهدايا التي معهم يتوجه بها إلى الخان ويردوا علاء الدين فلم يدركوه حتى دخل بلاد الخان ونزل على بعض أمرائه.

فسعى ذلك الرسول في علاء الدين وطرنطاي بأن معهم سمّاً فكبسهم الأمير فوجد شيئاً من المجمودة فعرض عليهم أكلها فامتنعوا فتخيل تحقيق السعاية فسألوه إحضار الأطباء فأزالوا عنه الشك وبعث بهم إلى الخان ومات علاء الدين أثناء طريقه ولما اجتمعوا عند الخان اتفقوا على ولاية عز الدين كيكاوس وأنه أكبر وعقدوا له الصلح مع الخان فكتب له وخلع عليهم ثم كتب بيكو إلى الخان بأن أهل بلاد الروم قاتلوه ومنعوه العبور فأحضر الرسل وعرفهم الخبر فقالوا: إذا بلغناهم كتاب السلطان أذعنوا. فكتب الخان بتشريك الأميرين عز الدين كيكاوس وأخيه ركن الدين قليج أرسلان على أن تكون البلاد قسمة بينهما فمن سيواس إلى القسطنطينية غرباً لعز الدين ومن سيواس إلى أرزن الروم شرقاً المتصلة ببلاد التتر ركن الدين وعلى الطاعة وحمل الأتاوة لمنكوخان ملكهم صاحب الكرسي بقراقروم ورجعوا إلى بلاد الروم وحملوا معه شلو قيقباد إلى أن دفنوه.

استيلاء التتر على قونية

ثم سار بيكو في عساكر المغل إلى بلاد الروم ثالثة فبعث عز الدين كيكاوس العساكر للقائه مع أرسلان ايدغمش من أمرائه فهزمه بيكو وجاء في اتباعه إلى قونية فهرب عز الدين كيكاوس إلى العلايا بساحل البحر فنزل بيكو على قونية وحاصرها حتى استأمنوا إليه على يد خطيبهم ولما حضر إليه أكرمه ورفع منزلته وأسلمت امرأته على يده وأمن أهل البلد ثم سار هلاكو إلى بغداد سنة خمس وستين وبعث عن بيكو وعساكره من بلاد الروم بالحضور معه فاعتذر بالأكراد الذين في طريقه من الغراسلية

والياروقية فبعث إليهم هلاكو العساكر فأجفلوا وانتهت العساكر إلى أذربيجان وقد أجفل أهلها أمام الأكراد فاستولوا عليها ورجعوا صحبة بيكو إلى هلاكو فحضر معه فتح بغداد وقد مر خبرها في أخبار الخلفاء.

ويأتي في أخبار هلاكو ونيال أن بيكو لما بعث عنه هلاكو لم يحضر معه فتح بغداد واستمر على غدره فلما انقضى أمر بغداد بعث إليه هلاكو من سقاه السم فمات لأنه اتهمه بالاستبداد ثم سار هلاكو بعد فتح بغداد إلى الشام سنة ثمان وخمسين وحاصر حلب وبعث عن عز الدين كيكاوس وركن الدين قليج أرسلان وعن معين الدين سليمان البرنواه صاحب دولتهم. وكان من خبره أن أباه مهذب الدين علي من الديلم وطلب العلم ونبغ فيه ثم تعرض للوزير سعد الدين المستوفي أيام علاء الدين كيغباد يسأله إجراء رزقه وكان وصافاً فاستحسنه وزوجه ابنته فولدت سليمان ونشأ في الدولة ومات سعد الدين المستوفي فرقى السلطان مهذب الدين إلى الوزارة وألقى إليه بالمقاليد وتوفي مهذب الدين وترقى ابنه سليمان مهذب الدولة وكان يلقب معين الدين وترقى في الرتب إلى أن ولي الحجابة وكان يدعي البرنواه ومعناه الحاجب بلغتهم وكان مختصاً بركن الدين فلما حضر معهما عند هلاكو كما قلناه حلا بعينه وقال لركن الدين: لا يأتيني في أموركم إلا هذا. فرقت حاله إلى أن ملك بلاد الروم أجمع.

الفتنة بين عز الدين كيكاوس وأخيه قليج أرسلان واستيلاء قليج أرسلان على الملك

ثم وقعت الفتنة سنة تسع وخمسين بين عز الدين كيكاوس وأخيه ركن الدين قليج أرسلان وسار ركن الدين ومعه البرنواه إلى هلاكو يستمده على أخيه فأمده بالعساكر وحارب أخاه فهزمه عز الدين أولاً ثم أمده هلاكو فانهزم عز الدين ولحق بالقسطنطينية واستولى ركن الدين على سائر الأعمال وهرب التركمان إلى أطراف الجبال والثغور والسواحل وبعثوا إلى هلاكو يطلبون الولاية منه على أحيائهم فولاهم وأذن لهم في اتخاذ الآلة فصاروا ملوكاً من حينئذ وكان محمد بك أميرهم وأخوه علي بك رديفه فاستدعى هلاكو محمد بك فلم يأته فأمر قليج أرسلان وعساكر التتر الذين معه بقتاله فساروا وقاتلوه فانهزم ثم استأمن إلى السلطان ركن الدين فأمنه وجاء به إلى قونية فقتله واستقر علي بك أميراً على التركمان وأورثها بنيه واستولى التتر على البلاد إلى ان كان ما سنذكره إن شاء الله.

خبر عز الدين كيكاوس

ولما انهزم عز الدين كيكاوس ولحق بالقسطنطينية أحسن إليه مخاييل الشكري صاحب قسطنطينية وأجرى عليه الرزق وكان معه جماعة من الروم أخواله فحدثتهم أنفسهم بالثورة وتملك القسطنطينية ونمي ذلك عنهم فقبض الشكري عليه وعلى من معه واعتقله ببعض القلاع ثم وقعت بين الشكري وبين منكوتمر بن طغان ملك الشمال من بني دوشي خان بن جنكزخان فتنة وغزا منكوتمر القسطنطينية وعاث في نواحيها فهرب إليه كيكاوس من محبسه فمضى معه إلى كرسيه بصراي فمات هنالك سنة سبع وسبعين وخلف ابنه مسعوداً وخطب منكوتمر ملك صراي أمه فمنعها وهرب عنه ولحق بابغا بن هلاكو ملك العراق فأحسن إليه وأقطعه سيواس وأرزن الروم وأرزنكان فاستقر بها.

مقتل ركن الدين قليج أرسلان وولاية ابنه كنخسرو

كان معين الدين سليمان البرنواه قد استبد على ركن الدين قليج أرسلان ثم تنكر له ركن الدين فخاف سليمان البرنواه على مكان أخيه عز الدين كيكاوس بالقسطنطينية أن يحدث فيه أمراً فلما بلغه خبر كيكاوس واعتقاله بالقسطنطينية أحكم تدبيره في ركن الدولة فقتله غيلة ونصب للملك ابنه غياث الدين في كفالته وتحت حجره واستقل بملك بلاد الروم واستقامت أموره والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء الظاهر ملك مصر على قيسارية ومقتل البرنواه

كان هلاكو قد زحف إلى الشام سنة ثمان وخمسين مراراً وزحف ابنه إبقا كذلك وقاتلهم الملك الظاهر صاحب مصر والشام وكان كثيراً ما يخالفهم إلى بلادهم فدخل سنة خمس وسبعين إلى بلاد الروم وأميرها يومئذ من التتر طغا وأمده أبقا بأميرين من التتر وهما كداون وترقوا لحماية بلاد الروم من الظاهر فزحفوا إلى الشام وسار إليهم الظاهر من مصر في مقدمته سقر الأسقر فلقيت مقدمته مقدمتهم على كوكصو فانهزم التتر وتبعهم الظاهر والتقى الجمعان على إبليش فانهزموا ثانية وأثخن فيهم الظاهر بالقتل والأسر إلى قيسارية فملكها وكان البرنواه قد دس

إليه واستحثه للوصول إلى بلاده فأقام الظاهر على قيسارية ينتظره وبلغ ملك التتر إبقا خبر الواقعة فزحف في جموع المغل إلى قيسارية بعد منصرف الظاهر إلى بلاده فلما وقف على مصارع قومه وجد على البرنواه وصدقت عنه السعاية فيه وأنه الذي استحث الظاهر لأنه لم ير في المعركة مصرع أحد من بلاد الروم ورجع إلى معسكره ومعه سليمان البرنواه واستبد بملكه والله تعالى ولي التوفيق وهو نعم الرفيق لا رب سواه ولا معبود إلا إياه سبحانه.

خلع كنخسرو ثم مقتله وولاية مسعود ابن عمه كيكاوس

كان قنطغرطاي بن هلاكو مقيماً ببلاد الروم مع غياث الدين كنخسرو وملك بلاد الروم وصار أمير المغل بها منذ عهد أبقا ولما ولي أحمد تكرار بن هلاكو بعد أخيه أبقا بعث عن أخيه قنطغرطاي فامتنع من الوصول إليه خشية على نفسه ثم حمله غياث الدين على إجابة أخيه وسار معه فقتل تكرار أخاه قنطغرطاي واتهم المغل غياث الدين بأنه علم برأي تكرار فيه واعتمد فلما ولي أرغون بن إبقا بعد تكرار عزل غياث الدين عن بلاد الروم وحبسه بأرزنكاي وولى مكانه على المغل ببلاد الروم هولاكو وذلك سنة اثنتين وثمانين وأقام مسعود ملكاً ببلاد الروم سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأصابه الفقر وانحل أمره وبقي الملك بها للتتر ثم فشل أمرهم واضمحلت دولتهم إلا بقايا بسيواس من بني أرتا مملوك دمرداش بن جومان واستولى التركمان على تلك البلاد أجمع وأصبح ملكها لهم والله غالب على أمره يؤتي الملك من يشاء وهو العزيز الحكيم.

ملوك قونية من بلاد الروم وملكها من أيديهم التتر

الخبر عن بني سكمان موالي السلجوقية ملوك خلاط وبلاد أرمينية ومصير الملك إلى مواليهم من بعدهم ومبادي أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان صاحب مزيد من أذربيجان إسماعيل بن ياقوتي بن داود أخو ألب أرسلان وداود أخو طغرلبك كما مر ولقب إسماعيل قطب الدولة وكان له مولى تركي اسمه سكمان بالكاف والقاف وكان ينسب إليه فيقال: سكمان القطبي وكان شهماً عادلاً في أحكامه وكانت خلاط وأرمينية لبني مروان ملوك ديار بكر وكانوا في آخر دولتهم قد اشتد عسفهم وظلمهم وساء حال أهل البلد معهم فاجتمع أهل خلاط وكاتبوا سكمان واستدعوه ليملكوه عليهم فسار إليهم سنة اثنتين وخمسمائة إلى ميافارقين من ديار بكر فحاصرها حتى استأمنوا إليه وملكها.

ثم أمر السلطان محمد شاه بن ملك شاه الأمير مودود بن مزيد بن صدقة صاحب الموصل بغزو الإفرنج وانتزاع البلاد من أيديهم وأمر أمراء الثغور بالمسير معه فسار معه برسق صاحب همذان وأحمد بك صاحب مراغة وأبو الهيجاء صاحب إربل وأبو الغازي صاحب ماردين وسقمان القطبي صاحب ديار بكر فساروا لذلك وفتحوا عدة حصون وحاصروا الرها فامتنعت عليهم ثم تل باشر كذلك واستدعاهم رضوان بن تتش صاحب حلب فلما ساروا إليه امتنع من لقائهم ومرض سكمان القطبي هنالك فرجع عنهم وتوفي في طريقه ببالس وافترقت العساكر وملك خلاط وبلاد أرمينية بعد مهلكه ابنه ظهير الدين إبراهيم وسار فيهم بسيرة أبيه إلى أن هلك سنة إحدى وعشرين وملك بعده أخوه أحمد بن سكمان عشرة أشهر ثم توفي فنصب أصحابه للملك بأرمينية وخلاط شاه أرمن سكمان ابن أخيه إبراهيم بن سكمان صبيّاً دارجا واستبدت عليه جدته أم إبراهيم ثم أزمعت قتله فقتلها أهل الدولة وعمد سنة ثمان وعشرين واستبد شاه أرمن وكانت بينه وبين الكرج وقائع وساروا سنة ست وخمسمائة إلى مدينة أنى من أعمال أران فاستباحوها وسار إليهم في العساكر فهزموه ونالوا منه وكانت عنده أخت طليق بن علي صاحب أرزن الروم ووقعت بينه وبين الكرج حرب فانهزم طليق وأسر وبعث شاه أرمن إلى ملك الكرج وفادى طليقاً ورده إلى ملكه بأرزن.

ثم استولى صلاح الدين بن أيوب على مصر والشام واستفحل ملكه وكاتبه مظفر الدين كوكبري وأغراه بملك الجزيرة ووعده بخمسين ألف دينار وسار صلاح الدين إلى سنجار فحاصرها وهو مجمع المسير إلى الموصل وبها يومئذ عز الدين مودود بن زنكي فاستنجد بشاه أرمن صاحب خلاط فبعث شاه أرمن مولاه مكتمر إلى صلاح الدين شفيعاً في صاحب الموصل ووفد عليه وهو محاصر لسنجار ولم يشفعه صلاح الدين فرجع عنه مغاضباً وسار شاه أرمن لقتاله واستدعى قطب الدين نجم الدين إلى صاحب ماردين وهو ابن أخيه وابن خال عز الدين وحضر

معه دولة شاه بن طغرل شاه بن قليج أرسلان صاحب.

وسار سنة ثمان وسبعين وقد ملك صلاح الدين سنجار وافترقت العساكر فلما بلغه مسيرهم بعث عن تقي الدين ابن أخيه شاه من حماة فوافاه سريعاً ورحل إلى رأس عين الموصل وافترقت جموعهم وسار صلاح الدين إلى ماردين فعاث في نواحيها ورجع ثم سار إلى الموصل آخر إحدى وثلاثين وعبر إلى الجزيرة وانتهى إلى حران ولقيه مظفر الدين كوكبري بن زين الدين ولم يف له بالخمسين ألفاً التي وعده بها وأخذ منه حران والرها ثم أطلقه بما نفذه من مكاتبته وأعاد عليه بلدته وسار من حران فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ولقيه سنجار شاه صاحب الجزيرة ابن أخي عز الدين مودود مفارقاً لطاعة عمه وسار معه إلى الموصل.

ولما انتهى إلى مدينة الأبله بعث إليه عز الدين ابن عمه نور الدين محمود وجماعة من أعيان الدولة راغبين في الصلح فأكرمهم واستشار أصحابه من أعيان الدولة فأشار علي بن أحمد المشطوب كبير الهكارية بالامتناع من ذلك فردهم صلاح الدين واعتذر وسار فنزل على فرسخين من الموصل واشتدوا في مدافعته فامتنعوا عليه فندم على عدم الصلح ورجع على علي المشطوب ومن وافقه باللائمة وخاطبه القاضي الفاضل البيساني من مصر وعزله في ذلك وجاء زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل وأخوه مظفر الدين كوكبري فتلقاهما بالتكرمة وأنزلهما مع الحشود الوافدة بالجانب الشرقي وبعث علي بن أحمد المشطوب الهكاري إلى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فحاصرها واجتمع عليه الأكراد ولم يزل محاصراً لها حتى عاد صلاح الدين من الموصل وأقام صلاح الدين على حصارها مدة وبلغ عز الدين أن نائبه بالقلعة يكاتبه فمنعه من الصعود إليها وكان يقتدي برأي مجاهد الدين وبعثه في الصلح فسعى فيه إلى أن تحمله ووصل صلاح الدين إلى ميافارقين.

وفاة شاه أرمن سكمان وولاية مكتمر مولى أبيه

ثم توفي شاه أرمن سكمان بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط سنة ست وسبعين وكان مكتمر مولى أبيه بميافارمين فأسرع الوصول بمن معه من المماليك واستولى على كرسي بني سكمان وولى على ميافارقين أسد الدين برتقش من موالي شاه أرمن وكان البهلوان بن إيلدكز صاحب أذربيجان وهمذان مر بقائد ملوك السلجوقية وقد زوج ابنته من شاه أرمن طمعاً في ملك خلاط فلما توفي شاه أرمن سار إليها في عساكره فكاتب أهل خلاط صلاح الدين بن أيوب ودافعوا كلاً منهما بالآخر وسار صلاح الدين في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما ونزلوا قريباً من خلاط فتردد الرسل من صلاح الدين ومن شمس الدين البهلوان إلى أهل خلاط وهم يدافعون الفريقين وكان قد بلغه وفاة صاحبها قطب الدين وان برتقش نصب ابنه طفلاً صغيراً واستبد عليه فسار صلاح الدين إليها وحاصرها حتى تسلمها على الأمان وأقام مكتمر أميراً بخلاط وطالت مدته وجرت بينه وبين صلاح الدين فتن وحروب إلى أن توفي صلاح الدين سنة تسع وثمانين فأظهر الشماتة به وتسمى عبد العزيز وتلقب سيف الدين وتوفي أثر ذلك والله تعالى أعلم.

وفاة مكتمر وولاية أقسنقر

كان مكتمر لأول ولايته قد اختص أقسنقر من موالي شاه أرمن وتلقب هزارديناري وزوجه ابنته وجعله أتابكه فأقام على ذلك مدة ثم استوحش من مكتمر وتربص به حتى إذا توفي صلاح الدين تجهز مكتمر من ميافارقين فامكنته فيه الفرصة لعشر سنين من ولايته وذلك بعد وفاة صلاح الدين بشهرين واستبد بملك خلاط وأرمينية واعتقل ابن مكتمر وأمه في بعض القلاع والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة أقسنقر وولاية محمد بن مكتمر

ثم هلك أقسنقر صاحب خلاط وأرمينية سنة أربع وتسعين لخمس سنين من ملكه وقام بملك خلاط بعده حجر اشتد قطلغ الأرمني ولم يرضه خلاط فوثبوا به لسبعة أيام من ولايته وقتلوه واستدعوا محمد بن مكتمر من محبسه وملكوه ولقبوه الملك المنصور وقام بدولته شجاع الدين قطلغ القفجاقي دوادار شاه أرمن وأقام تحت استبداده إلى سنة ثلاث وستمائة ثم دبر الدوادار وقبض عليه وكان حسن السيرة فاستوحش لذلك الجند والعامة وعكف بعد نكبة الدوادار على لذاته فاجتمع أهل خلاط والجند وكبيرهم بلبان مملوك شاه أرمن وكتبوا إلى أرتق بن أبي الغازي بن ألبي صاحب ماردين يستدعونه للملك بما كان ابن أخت شاه أرمن وجاهر بلبان بالعصيان إلى ملاذكرد واجتمع الجند عليه.

نكبة ابن مكتمر واستيلاء بلبان على خلاط وأعمالها

ولما ملك بلبان مدينة ملاذكرد وأعمالها واجتمع عليه الجند وسار يريد خلاط ووصل أرتق بن أبي الغازي صاحب ماردين لموعدهم ونزل قريباً من خلاط فبعث إليه بلبان أن الجند والرعية اتهموني فيك فارجع وإذا ملكت البلد سلمته إليك فتنح قليلا فبعث إليه يتوعده على مقالته وبطنه فعاد إلى ماردين وكان الأشرف موسى بن العادل بن أيوب صاحب الجزيرة وحران لما سمع بمسير أرتق إلى خلاط طمع فيها لنفسه وخشي أن يزداد بملكها قوة عليهم فخالفه إلى ماردين وأقام بتدليس وجبى ديار بكر حتى استوعبها وعاد إلى حران.

ثم جمع بلبان العساكر وسار إلى خلاط فحاصرها وبرز ابن مكتمر فيمن عنده فانهزم بلبان وعاد إلى ولايته بملاذكرد وأرجيش وغيرها ثم جمع ورجع إلى خلاط فحاصرها وضيق عليها وابن مكتمر عاكف على لذاته فلما جهدهم الحصار ثاروا به وقبضوه ومكنوا بلبان منه ودخل إلى خلاط واستولى عليها وعلى سائر أعمالها وحبس ابن مكتمر في قلعة هناك واستبد بملكها وكان الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل بن أيوب قد ولي على ميافارقين من قبل أبيه إلى خلاط سنة أربع وستمائة وقصد مدينة سوس وحاصرها وملك ما يجاورها وعجز بلبان عنه ثم ملك سوس وقصد خلاط فبرز له بلبان وهزمه فعاد إلى ميافارقين وجمع واستمد أباه العادل فأمده بالعساكر ونهض إلى خلاط فبرز له بلبان ثانية وهزمه الأوحد وحاصره في خلاط فبعث بلبان إلى طغرل يستنجده فانهزم الأوحد أمامهما وسار بلبان مع طغرك إلى مراش فحاصرها وغدر به طغرل وقتله وسار إلى خلاط فمنعه أهلها فسار إلى ملاذكرد فمنعوه كذلك فعاد إلى أرزن.

وأرسل خلاط بطاعتهم إلى الأوحد نجم الدين فجاء وملك خلاط واستولى على أعمالها وزحف الكرج فأغاروا على خلاط وعاثوا في نواحيها والأوحد مقيم بخلاط لم يفارقها وانتقض عليه جماعة من العسكر بحصن رام وساروا إلى مدينة أرجيش فملكوها واجتمع إليهم المفسدون وبعث نجم الدين إلى أبيه العادل يستنجده فأمده بابنه الآخر شرف الدين موسى فحاصر حصن رام حتى استأمن إليه من كان به من الجند ورجع الأشرف إلى عمله بحران والرها واستقر نجم الدين بخلاط ثم سار إلى ملاذكرد ليطالع أمورها ويمهدها فثار أهل خلاط بعسكره فأخرجوهم وحصروا أصحاب نجم الدين بالقلعة ونادوا بشعار شاه أرمن وقومه فرجع الأوحد ولاقاه عسكر الجزيرة وحاصر خلاط ثم اختلف أهلها فدخلها عليهم عنوة واستباحها ونقل جماعة من أعيانها إلى ميافارقين وقتل كثيراً منهم هنالك واستكان أهل خلاط بعدها وانمحى منها حكم المماليك بعد أن كانوا مستحكمين فيها يولون ملوكها ويخلعونهم وانقرضت دولة بني سكمان من خلاط وصارت لبني أيوب والبقاء لله وحده والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وإليه المرجع.

آخر دولة السلجوقية بخلاط وأرمينية وقد وملكها منهم بنو أيوب.

أخبار الإفرنج فيما ملكوه من سواحل الشام وثغوره وكيف تغلبوا عليه وبداية أمرهم في ذلك ومصائره

قد تقدم لنا أول الكتاب الكلام في أنساب هذه الأمة عند ذكر أنساب الأمم وأنهم من ولد يافث بن نوح ثم من ولد ريفات بن كومر بن يافث إخوة الصقالبة والخزر والترك.

وقال هروشيوش: إنهم من عصر ابن غومر.

وأما مواطنهم من بلاد المعمور فإنهم من شمالي البحر الرومي من خليج رومة إلى ما وراء النهر غرباً وشمالاً وكانوا أولاً يدينون لليونان والروم بالطاعة عند استفحال أمرهم فلما انقرضت دولة أولئك استقل هؤلاء الإفرنج بملكهم وافترقوا دولاً مثل دولة القوط بالأندلس والجلالقة بعدهم وملك اللمانين -بالتفخيم- من جزيرة انكلطرة بالبحر المحيط الغربي الشمالي وما يحاذيه ويقابله من المعمور ومثل ملوك إفرنسة وهو عندهم اسم إفرنجة بعينه والجيم ينطقون بها سيناً وهم ما وراء خليج رومة غرباً إلى الثنايا المفضية إلى جزيرة الأندلس في الجبل المحيط من شرقيها وتسمى تلك الثنايا البردت وكانت دولة هؤلاء الإفرنس منهم من أعظم دولهم واستفحل أمرهم بعد الروم وصدراً من دولة الإسلام العربية فسموا إلى ملك بلاد المشرق من ناحيتها وتغلبوا على جزر البحر الرومي في آخر المائة الخامسة وكان ملكهم لذلك العهد بردويل فبعث رجالاً من ملوكهم إلى صقلية وملكها من يد المسلمين سنة ثمانين وأربعمائة ثم سموا إلى ملك ما وراء النهر من إفريقية وبلاد الشام والاستيلاء على بيت المقدس وطال ترددهم في ذلك.

ثم استحثهم وحرضهم عليه فيما يقال خلفاء العبيديين بمصر لما استفحل ملك السلجوقية وانتزعوا الشام من أيديهم وحاصروهم في مصر فيقال: إن المستنصر منهم دس إلى الإفرنج بالخروج وتسهيل أمرهم عليه ليحولوا بين السلجوقية وبين مرامهم فتجهز الإفرنج لذلك وجعلوا طريقهم في البر على القسطنطينية ومنعهم ملك الروم من العبور عليه من الخليج حتى شرط عليهم أن يسلموا له أنطاكية لكون المسلمين كانوا أخذوها من مماليكهم فقبلوا شرطه وسهل لهم العبور في خليجه فأجازوا سنة تسعين وأربعمائة في العدد والعدة.

وانتهوا إلى بلاد قليج أرسلان وجمع للقائهم فهزموه وفر بلاد ابن اليون الأرمني ووصلوا أنطاكية وبها باغيسيان من أمراء السلجوقية فحاصروه بها وخذلوا صاحب حلب ودمشق على صريخه بأن لا يقصدوا غير أنطاكية فأسلموه حتى ضاق به الحصار وغدر به بعض الحامية فملك الإفرنج البلاد وهرب باغيسيان فقتل وحمل إليهم رأسه وكان ملوكهم الحاضرون لذلك خمسة: بردويل وصنجيل وكبريري والقمص وأسمند وهو مقدم العساكر فردوا إليه أمر أنطاكية وبلغ الخبر إلى المسلمين فسافروا إليهم شرقاً وغرباً.

وسار قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل وجمع عساكر الشام وسار إلى دمشق فخرج إليهم دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان صاحب سنجار وسكمان أرتق وغيرهم من الأمراء وزحفوا إلى أنطاكية فحاصروها ثلاثة عشر يوماً ووهن الإفرنج واشتد عليهم الحصار لما جاءهم على غير استعداد وطلبوا الخروج على الأمان فلم يسعفوا ثم اضطرب أمر عساكر المسلمين وأساء كربوقا السيرة فيهم وأزمعوا من استكثاره عليهم فخرج الإفرنج إليهم واستماتوا فتخاذل المسلمون وانهزموا من غير قتال حتى ظنها الإفرنج مكيدة فتقاعدوا عن اتباعهم واستشهد من المسلمين ألوف والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على معرة النعمان ثم على بيت المقدس

ولما حصلت للإفرنج هذه النكاية في المسلمين طمعوا في البلد وساروا إلى معرة النعمان وحاصروها واشتد القتال في أسوارها حتى داخل أهلها الجزع فتحصنوا بالدور وتركوا السور فملكه الإفرنج ودخلوا عليهم فاستباحوها ثلاثاً وأقاموا بها أربعين يوماً ثم ساروا إلى غزة وحاصروها أربعة أشهر وامتنعت عليهم فصالحهم ابن منقذ عليها وساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم عليها جناح الدولة وساروا إلى عكا فامتنعت عليهم وكان بيت المقدس قد ملكه السلجوقية وصار لتاج الدولة تتش وأقطعه لسكمان بن أرتق من التركمان فلما كانت واقعة الإفرنج بأنطاكية طمع أهل مصر فيهم وسار الأفضل بن بدر الجمال المستولي العلويين بمصر إلى بيت المقدس وبها سكمان وأبو الغازي ابنا أرتق وابن عمهما سوع وابن أخيهما ياقوتي فحاصروه نيفاً وأربعين يوماً ونصبوا عليه نيفاً وأربعين منجنيقاً وملكوه بالأمان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وأحسن الأفضل إلى سكمان وأبي الغازي وأصحابهما وسرحهم إلى دمشق وعبروا الفرات.

وأقام سكمان بالرها وسار أبو الغازي إلى العراق واستناب الأفضل عليها افتخار الدولة الذي كان بدمشق فقصده الإفرنج بعد أن حاصروا عكا وامتنعت عليهم فحاصروه أربعين ليلة وافترقوا على جوانب البلد فملكوها من الجانب الشمالي آخر شعبان من السنة واستباحوها وأقاموا فيها أسبوعاً واعتصم بعض المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثاً حتى استأمنوا ولحقوا بعسقلان وأحصى القتلى من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد المجاورين بالمسجد فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون وأخذ من المناور المعلقة عند الصخرة أربعون قنديلاً من الفضة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمائة وستون درهماً من الفضة زنته أربعون رطلاً بالشامي ومائة وخمسون قنديلاً من الصغار وما لا يحصى من غير ذلك.

وجاء الصريخ إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي ووصف في الديوان صورة الواقعة فكثر البكاء والأسف ووسم الخليفة بمسير جماعة من الأعيان والعلماء فيهم القاضي أبو محمد الدامغاني وأبو بكر الشاشي وأبو الوفاء بن عقيل إلى السلطان بركيارق يستصرخونه للإسلام فساروا إلى حلوان وبلغهم اضطراب الدولة السلجوقية وقتل محمد الملك ألب أرسلان المتحكم في الدولة واختلاف السلاطين فعادوا وتمكن الإفرنج من البلاد وولوا على بيت المقدس كندفري من ملوكهم.

عساكر مصر وحرب الإفرنج مسير العساكر من مصر لحرب الإفرنج

لما بلغ خبر الواقعة إلى مصر جمع الأفضل الجيوش والعساكر واحتشد وسار إلى عسقلان وأرسل إلى الإفرنج بالنكير والتهديد فأعادوا الجواب ورحلوا مسرعين فكبسوه بعسقلان على

غير أهبة فهزموه واستلحموا المسلمين ونهبوا سوادهم ودخل الأفضل عسقلان وافترق المنهزمون واستبدوا بنحر الحمير ووصل الأفضل من عسقلان إلى مصر ونازلها الإفرنج حتى صانع أهلها الإفرنج بعشرين ألف دينار وعادوا إلى القدس.

إيقاع ابن الدانشمند بالإفرنج

كان كمستكين بن الدانشمند من التركمان ويعرف بطابوا ومعنى الدانشمند المعلم كان أبوه يعلم التركمان وتقلبت به الأحوال حتى ملك سيواس وغيرها وكان صاحب ملطية يعاديه فاستنجد عليه اسمند صاحب أنطاكية فجاءه في خمسة آلاف وسار إليه ابن الدانشمند وأسره ثم جاء الإفرنج إلى قلعة أنكوريه فملكوها وقتلوا من بها من المسلمين ثم حاصروا إسماعيل بن الدانشمند فلقيهم كمستكين وهزمهم واستلحمهم وكانوا ثلثمائة ألف ثم ساروا إلى ملطية فملكوها وأسروا صاحبها وزحف إليه أسمند من أنطاكية في الإفرنج فهمّ بهم ابن الدانشمند فأتاح اللّه للمسلمين على يده هذا الظهور في مدد متقاربة حتى خلص إسمند من الأسر وجاء إلى أنطاكية والإفرنج بها وبعث إلى قيس العواصم وما جاورها يطلب الإمارة فامتعض المسلمون لذلك وقلدوه بعد العهد الذي التزمه.

حصار الإفرنج قلعة جبلة

كانت جبلة من أعمال طرابلس وكان الروم قد ملكوها وولوا على المسلمين بها ابن رئيسهم منصور بن صليحة يحكم بينهم فلما صارت للمسلمين رجع أمرها لجمال الملك أبي الحسن علي بن عمار المستبد بطرابلس وبقي منصور بن صليحة على عادته فيها ثم توفي منصور فقام إليه أبو محمد عبد اللّه مقامه وأظهر الشماتة فارتاب به ابن عمار وأراد القبض عليه فعصى هو في جبلة وأقام بها الخطبة العباسية واستنجد عليه ابن عمار دقاق بن تتش فجاءه أتابك طغركين فامتنع عليهم ورجعوا ثم جاء الإفرنج فحاصروها فامتنعت عليهم أيضاً وشاع أن بركيارق جاء إلى الشام فرحلوا ثم عادوا وأظهروا أن المصريين جاؤوا لإنجاده فرحلوا ثم عادوا فتقدم للنصارى الذين عنده أن يداخلوا الإفرنج في نقب البلد من بعض أسواره فجهزوا إليهم ثلثمائة من أعيانهم فرفعهم بالحبال واحداً بعد واحد وهو قاعد على السور حتى قتلهم أجمعين فرحلوا عنه.

ثم عادوا إليه فهزمهم وأسر ملكهم كبرانيطل وفادى نفسه منه بمال عظيم ثم ابن صليحة وجهده الحصار فأرسل إلى طغركين صاحب دمشق وبعث ابن عمار في طلبه إلى الملك دقاق على أن يدفعه إليه بنفسه دون ماله ويعطيه ثلاثين ألف دينار فلم يفعل وسار ابن صليحة إلى بغداد فوعده إلى وصول رحلة من الأنبار فبعث الوزير من استولى عليها فوجد فيها ما لا يحصى من الملابس والعمائم والمتاع وانتزع ذلك كله ولما ملك تاج الملوك جبلة أساء فيها السيرة فراسلوا فخر الملك أبا علي بن عمار صاحب طرابلس واستدعوه لملكها فبعث إليهم عسكراً وقاتلوا تاج الملك ومن معه فهزموه وأخذوه أسيراً وملكوا جبلة بدعوة ابن عمار وحملوا تاج الملك إلى ابن عمار فأحسن إليه وبعث إلى أبيه بدمشق واعتذر له بأنه خاف على جبلة من الإفرنج.

استيلاء الإفرنج على سروج وقيسارية وغيرهما

ثم سار كبريري ملك الإفرنج من بيت المقدس سنة أربع وتسعين لحصارها فأصابه منهم سهم فقتله فسار أخوه بقدوين في خمسمائة فارس إلى القدس ونهض دقاق صاحب دمشق ومعه جناح الدولة صاحب حمص لاعتراضه فهزموا الإفرنج وأثخنوا فيهم ثم كاتب أهل مدينة الإفرنج وكان أكبرهم ودخل في طاعتهم وكان سقمان بن أرتق صاحب سروج جمع جموعه من التركمان وسار إلى الرها فلقيه الإفرنج وهزموه في ربيع سنة أربع وتسعين وساروا إلى سروج فحاصروهم حتى ملكوها عنوة واستباحوها ثم ملكوا حصن كيفا بقرب عكا عنوة وملكوا أرسوف بالأمان ثم ساروا في رجب إلى قيسارية فملكوها عنوة واستباحوها واللّه تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

حصار الإفرنج طرابلس وغيرها

كان صنجيل من ملوك الإفرنج المذكورين قبل قد لازم حصار طرابلس وزحف إليه قليج أرسلان صاحب بلاد الروم فظفر به وعاد صنجيل مهزوماً فأرسل الدولة بن عمار صاحب طرابلس إلى أمير آخر نائب جناح الدولة بحمص إلى دقاق بن تتش يدعوه إلى معالجته فجاء تاج الدولة بنفسه وجاء العسكر مدداً من عند دقاق واجتمعوا على طرابلس وفرق صنجيل الفل الذين معه على قتالهم فانهزموا كلهم وفتك هو في أهل طرابلس وشد

حصارها وأعانه أهل الجبل والنصارى من أهل سوادها ثم صالحوه على مال وخيل ورحل عنهم إلى طرسوس من أعمال طرابلس فحاصرها عنوة واستباحها إلى حصن الطومار ومقدمه ابن العريض فامتنع عليهم وقاتلهم صنجيل فهزموا عسكره وأسروا زعيماً من زعماء الإفرنج بدل صنجيل فيه عشرة آلاف دينار وألف أسير ولم يعاوده وذلك كله سنة خمس وتسعين وأربعمائة ثم سار صنجيل إلى حصن الأكراد وحاصره جناح الدولة لغزوه فوثب عليه باطني بالمسجد وقتله ويقال: إن رضوان بن تتش وضعه عليه فسار صنجيل إلى حمص وحاصرها وملك أعمالها ثم نزل القمص على عكا في جمادى الأخيرة من السنة فنفر المسلمون من جميع السواحل لقتاله وهزموه وأحرقوا أهله والمنجنيقات التي نصبت للحرب ثم سار القمص صاحب الرها إلى سروج وحاصرها فامتنعت عليه وزحف عساكر مصر إلى عسقلان للمدافعة عن سواحلهم فزحف إليهم بردويل صاحب القدس فهزمه المسلمون ونجا إلى الرملة وهمَّ في اتباعه فحاصروه وخلص إلى يافا وفشا القتل والأسر في الإفرنج والله تعالى ولي التوفيق.

حصار الإفرنج عسقلان وحروبهم مع عساكر مصر

لما طمع الإفرنج في عسقلان واستفحل أمرهم بالشام جهز الأفضل أمير الجيوش عساكره من مصر لحربهم سنة ست وتسعين مع سعد الدولة القواسي مولى أبيه وزحف بقدوين ملك الإفرنج من القدس فلقيهم بين الرملة ويافا وهزمهم ومات سعد الدولة مترقباً عن فرسه واستولى الإفرنج على سواده وبعث الأفضل بعده ابنه شرف المعالي فلقيهم في العساكر على بازور قرب الرملة فهزمهم ونال منهم ونجا كثير من أعيانهم إلى بعض الحصون هنالك فحاصرهم شرف المعالي خمس عشرة ليلة وملك الحصن فقتل وأسر ونجا بقدوين إلى يافا ثم إلى القدس فصادف وصول جمع كثير من الإفرنج لزيارة القدس فندبهم للغزو فساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالي فامتنعت ورجعوا.

وبعث شرف المعالي إلى أبيه فبعث العساكر في البر مع تاج العجم مولى أبيه والأسطول في البحر لحصار يافا مع القاضي ابن دقاوس فلما وصل الأسطول إلى يافا بعث عن تاج العجم ليأتيه بالعساكر فامتنع فأرسل الأفضل من قبض عليه وولى على العساكر وعلى عسقلان جمال الملك من مواليهم فانصرمت السنة وبيد الإفرنج بيت المقدس غير عسقلان ولهم أيضاً من الشام يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية والأردن واللاذقية وأنطاكية ولهم بالجزيرة الرها وسروج وصنجيل محاصر فخر الملك بن عمار بمدينة طرابلس وهو يرسل أسطوله للإغارة على بلاد الإفرنج في كل ناحية ثم دخلت سنة سبع وتسعين فخرج الإفرنج الذين بالرها فأغاروا على الرقة وقلعة جبر واكتسحوا نواحيها وكانت لسالم بن مالك بن بدران بن المقلد منذ ملكه السلطان ملك شاه إياها سنة تسع وسبعين كما مر والله أعلم.

استيلاء الإفرنج على جبيل وعكا

وفي سنة سبع وتسعين وصلت مراكب من بلاد الإفرنج تحمل خلقاً كثيراً من التجار والحجاج فاستعان بهم صنجيل على حصار طرابلس فحاصرها حتى يئسوا منها فارتحلوا إلى جبيل وملكوها بالأمان ثم غدروا بأهلها وأفحشوا في استباحتها ثم استنجدهم بقدوين ملك القدس على حصار عكا فحاصروها براً وبحراً وفيها بهاء الدولة الجيوشي من قبل ملك الجيوش الأفضل صاحب مصر فدافعهم حتى عجزوا وهرب عنها إلى دمشق وملك الإفرنج عكا عنوة وأفحشوا في استباحتها والله تعالى أعلم.

غزو أمراء السلجوقية بالجزيرة الإفرنج

كان المسلمون أيام تغلب الإفرنج على الشام في فتنة واختلاف تمكن بها الإفرنج واستطالوا وكانت حران وحمص لمولى من موالي ملك شاه اسمه قراجا والموصل لجكرمش وحصن كيفا لسقمان بن أرتق وعصى في حران على قراجا بامته فيها فاغتاله جاولي مولى من موالي الترك وقتله فطمع الإفرنج في حران وحاصروها وكان بين جكرمش وسقمان فتنة وحرب فوضعوا أوزارها لتلافي حران واجتمعا على الخابور وتحالفا ومع سقمان سبعة آلاف من قومه التركمان ومع جكرمش ثلاثة آلاف من قومه الترك ومن العرب والأكراد وسار إليهم الإفرنج من حران فاقتتلوا واستطردهم المسلمون بعيدا ثم كروا عليهم فأثخنوا فيهم واستباحوا أموالهم.

وكان اسمند صاحب أنطاكية وشكري صاحب الساحل قد أكمنوا للمسلمين وراء الجبل فلم يظهر لهم أنهم أصحابهم وأقاموا هنالك إلى الليل ثم هربوا وشعر بهم المسلمون فاتبعوهم وأثخنوا فيهم وأسر في تلك الواقعة القمص بردويل صاحب الرها أسره

بعض التركمان من أصحاب سقمان فشق ذلك على أصحاب جكرمش لكثرة ما امتاز به التركمان من الغنائم وحسنوا له أخذ القمص من سقمان فأخذه وأراد التركمان محاربة جكرمش وأصحابه عليه فمنعهم سقمان حذراً من اختلاف المسلمين وسار مفارقاً لهم وكان يمر بحصون الإفرنج فيخرجون إليه ظناً بنصر أصحابهم فملكها عليهم وسار جكرمش إلى حران فملكها وولى عليها من قبله ثم سار إلى الرها وحاصرها أياماً وعاد إلى الموصل وفادى القمص بردويل بخمسة وثلاثين ألف دينار ومائة وستين أسيراً والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

حرب الإفرنج مع رضوان بن تتش صاحب حلب

ثم سار سكري صاحب أنطاكية من الإفرنج سنة ثمان وتسعين إلى حصن أريام من حصون رضوان صاحب حلب فضاقت حالهم واستنجدوا برضوان فسار إليهم وخرج الإفرنج للقائه ثم طلب الصلح من رضوان فمنعه أصبهبد وصباوو من أمراء السلجوقية كان نزع إليه بعد قتل صاحبه أياز ولقيهم الإفرنج فانهزموا أولاً ثم استماتوا وكروا على المسلمين فهزموهم وأفحشوا في قتلهم وقتل الرجالة الذين دخلوا عسكرهم في الحملة الأولى ونجا رضوان وأصحابه إلى حلب ولحق صباوو بطغركين أتابك دمشق ورجع الإفرنج إلى حصار الحصن فهرب أهله إلى حلب وملكه الإفرنج والله تعالى ولي التوفيق.

حرب الإفرنج مع عساكر مصر

كان الأفضل صاحب مصر قد بعث سنة ثمان وتسعين ابنه شرف المعالي في العساكر إلى الرملة فملكها وقهر الإفرنج ثم اختلف العسكر في ادعاء الظفر وكادوا يقتتلون وأغار عليهم الإفرنج فعاد شرف المعالي إلى مصر فبعث الأفضل ابنه الآخر سناء الملك حسيناً مكانه في العساكر وخرج معه جمال الدين صاحب عسقلان واستمدوا طغركين أتابك دمشق فجهز إليهم اصبهبذ صباوو من أمراء السلجوقية وقصدهم بغدوين صاحب القدس وعكا فاقتتلوا وكثرت بينهم القتلى واستشهد جمال الملك نائب عسقلان وتحاجزوا وعاد كل إلى بلده وكان مع الإفرنج جماعة من المسلمين منهم بكباش بن تتش ذهب مغاضباً عن دمشق لما عدل عنه طغركين الأتابك بالملك إلى ابن أخيه دقاق وأقام عند الإفرنج والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه.

حرب الإفرنج مع طغركين

كان قمص من قمامصة الإفرنج بالقرب من دمشق وكان كثيراً ما يغير عليها ويحارب عساكرها فسار إليه طغركين في العساكر وجاء بقدوين ملك القدس لإنجاده على المسلمين فرده ذلك القمص ثقة بكفاءته فرجع إلى عكا وسار طغركين إلى الإفرنج فقاتلهم وحجزهم في حصنهم ثم خرب الحصن وألقى حجارته في الوادي وأسر الحامية الذين به وقتل من سواهم من أهله وعاد إلى دمشق ظاهراً ثم سار بعد أسبوع إلى وبه ابن أخت صنجيل فملكه وقتل حاميته.

استيلاء الإفرنج على حصن أفامية

كان خلف بن ملاعب الكلابي متغلباً على حمص وملكها منه تتش كما مر وانتقلت الأحوال إلى مصر ثم إن رضوان صاحب حلب انتقض عليه واليه بحصن أفامية وكان من الرافضة فبعث بطاعته إلى صاحب مصر واستدعى منهم والياً فبعثوا خلف بن ملاعب لإيثاره الجهاد وأخذوا رهنه فعبى في أفامية واستبد بها واجتمع عليه المفسدون ثم ملك من أعمال حلب وأهله رافضة ولحق قاضيها بابن ملاعب في أفامية ثم أعمل التدبير عليه وبعث إلى أبي طاهر الصائغ من أصحاب رضوان وأعيان الرافضة ودعاتهم وداخله في الفتك بابن ملاعب وتسليم الحصن إلى رضوان وشعر بذلك ابنا ابن ملاعب وحذرا أباهما من تدبير القاضي عليه.

وجاء القاضي فحلف له على كذبه وصدقه وعاد القاضي إلى مداخله أبي طاهر ورضوان في ذلك التدبير وبعثوا جماعة من أهل سرمين بخيول وسلاح يقصدون الخدمة عند ابن ملاعب فأنزلهم بربض أفامية حتى تم التدبير وأصعدهم القاضي وأصحابه ليلا إلى القلعة فملكوها وقتلوا ابن ملاعب وهرب ابناه فلحق أحدهما بأبي الحسن بن منقذ صاحب شيرز وقتل الآخر وجاء أبو طاهر الصائغ إلى القاضي يعتقد أن الحصن له فلم يمكنه القاضي وأقام عنده وكان بعض بني خلف بن ملاعب عند طغركين بدمشق مغاضباً لأبيه فولاه حصناً من حصونه فأظهر الفساد والعيث فطلبه طغركين فهرب إلى الإفرنج واستحثهم لملك أفامية فحاصروه حتى جهد أهله الجوع وقتلوا القاضي المتغلب فيه

والصائغ وذلك سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

خبر الإفرنج في حصار طرابلس

كان صنجيل من ملوك الإفرنج ملازماً لحصار طرابلس وملك جبلة من يد ابن أبي صليحة وبنى على طرابلس حصناً وأقام عليها ثم هلك وحمل إلى القدس ودفن وأمر ملك الروم أهل اللاذقية أن يحملوا الميرة إلى الإفرنج المحاصرين طرابلس فحملوها في السفن وظفر أصحاب ابن عمار ببعضها فقتلوا وأسروا واستمر الحصن خمس سنين فعدمت الأقوات واستنفد أهل الثروة مكسوبهم في الإنفاق وضاقت أحوالهم وجاءتهم سنة خمسمائة ميرة في البحر من جزيرة قبرص وأنطاكية وجزائر البنادقة فحفظت أرماقهم ثم بلغ ابن عمار انتظام الأمر للسلطان محمد بن ملك شاه بعد أخيه بركيارق فارتحل إليه صريخاً واستخلف على طرابلس ابن عمه ذا المناقب في طرابلس وخيم ابن عمار على دمشق وأكرمه طغركين ثم سار إلى بغداد فأكرمه السلطان محمد وأمر بتبليغه والاحتفال لقدومه ووعده بالأنجاد ولما رحل عن بغداد أحضره عنده بالنهروان وأمر الأمير حسين بن أتابك قطلغتكين بالمسير معه وأن يستصحب العساكر التي بعثها مع الأمير مودود إلى الموصل لقتال جاولي سكاوو وأمره بإصلاح جاولي والمسير مع ابن عمار حسبما مر في أخبارهم ثم وقعت الحرب بين السلطان محمد وبين صدقة بن مزيد واصطلحوا وودعه ابن عمار بعد أن خلع عليه وسار معه الأمير حسين فلم يصل إلى قصده من عساكر الموصل مودود والانتقاض فعاد فخر الدين بن عمار إلى دمشق في محرم سنة اثنتين وخمسمائة وسار منها إلى فملكها وبعث أهل طرابلس إلى الأفضل أمير الجيوش بمصر يستمدونه ويسألون الوالي عليهم فبعث إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب بالمدد والأقوات والسلاح وعدة الحصار واستولى على ذخائر ابن عمار وقبض على جماعة من أهله وحمل الجميع في البحر إلى مصر.

خبر القمص صاحب الرها مع جاولي ومع صاحب أنطاكية

كان جاولي قد ملك الموصل من يد أصحاب جكرمش ثم انتقض فبعث السلطان إليه مودود في العساكر فسار جاولي عن الموصل وحمل معه القمص بردويل صاحب الرها الذي كان أسره سقمان وأخذه منه جكرمش وأصحابه وترك الموصل ثم أطلق جاولي هذا القمص في سنة ثلاث وخمسمائة بعد خمس سنين من أسره على مال قرره عليه وأسرى من المسلمين عنده يطلقهم وعلى أن يمده بنفسه وعساكره وماله متى احتاج إلى ذلك.

ولما انبرم العقد بينهما بعث يوالي سالم بن مالك بقلعة جعبر حتى جاءه هناك ابن خاله جوسكين تل ناشر فأقام رهينة مكانه ثم أطلقه جاولي ورهن مكانه أخا زوجته وزوجة القمص فلما وصل جوسكين إلى منبج أغار عليها ونهبها وسبى جماعة من أصحاب جاولي وسئل فاعتذر بأن هذه البلاد ليست لكم.

ولما أطلق القمص سار إلى أنطاكية ليسترد الرها من يد لشكري لأنه أخذها بعد أسره فلم يردها وأعطاه ثلاثين ألف دينار ثم سار القمص إلى تل ناشر وقدم عليه أخوه جوسكين الذي وضعه رهينة عند جاولي وسار لشكري صاحب أنطاكية لحربهما قبل ان يستفحل أمرهما وينجدهما جاولي فقاتلوه ورجع إلى أنطاكية وأطلق القمص مائة وستين من أسرى المسلمين.

ثم سار القمص وأخوه جوسكين وأغاروا على حصون أنطاكية وأمدهم صاحب زغبان وكيسوم وغيرهما من القلاع شمال حلب وهو من الأرمن بألف فارس وألفي راجل وخرج إليهم لشكري وتراجعوا للحرب.

ثم حملهم الترك على الصلح وحكم على لشكري برد الرها على القمص صاحبها بعد أن شهد عنده جماعة من البطارقة والأساقفة بأن اسمندخال لشكري لما انصرف إلى بلاده أوصاه برد الرها على صاحبها إذا خلص من الأسر فردها لشكري على القمص في صفر سنة ثلاث ووفى القمص لجاولي بما كان بينهما ثم قصد جاولي الشام ليملكه وتنقل في نواحيه كما مر في أخباره وكتب رضوان صاحب حلب إلى لشكري صاحب أنطاكية يحذره من جاولي ويستنجده عليه فأجابه وبرز من أنطاكية وبعث إليه رضوان بالعساكر.

واستنجد جاولي القمص صاحب الرها فأنجده بنفسه ولحق به على منبج وجاءه الخبر هنالك باستيلاء عسكر السلطان على بلده الموصل وعلى خزائنه بها وفارقه كثير من أصحابه منهم زنكي بن أقسنقر فنزل جاولي تل ناشر وتزاحف مع لشكري هنالك واشتد القتال واستمر أصحاب أنطاكية فتخاذل أصحاب جاولي وانهزموا وذهب الإفرنج بسوادهم فجاء القمص وجوسكين إلى تل ناشر والله تعالى أعلم.

حروب الإفرنج مع طغركين

كان طغركين قد سار إلى طبرية سنة اثنتين وخمسمائة فسار إليه ابن أخت بقدوين ملك القدس واقتتلوا فانكشف المسلمون ثم استماتوا وهزموا الإفرنج وأسروا ابن أخت الملك فقتله طغركين بيده بعد أن فادى نفسه بثلاثين ألف دينار وخمسمائة أسير فلم يقبل منه إلا الإسلام أو القتل.

ثم اصطلح طغركين وبقدوين لمدة أربع سنين وكان حصن غزية من أعمال طرابلس بيد مولى ابن عمار فعصى عليه وانقطعت عنه الميرة بعيث الإفرنج في نواحيه فأرسل إلى طغركين بطاعته فبعث إسرائيل من أصحابه ليمتلك الحصن ونزل منه مولى ابن عمار فرماه إسرائيل في الزحام بسهم فقتله حذراً أن يطلع الأتابك على مخلفه.

وقصد طغركين الحصن لمشارفة أحواله فمنعه نزول الثلج حتى إذا انقشع وانجلى سار في أربعة آلاف فارس وفتح حصوناً للإفرنج منها حصن الأكمة وكان السرداني من الإفرنج يحاصر طرابلس فسار للقائه فلما أشرف عليه انهزم طغركين وأصحابه إلى حمص وملك السرداني حصن غزية بالأمان ووصل طغركين إلى دمشق فبعث إليه بقدوين من القدس بالبقاء على الصلح وذلك في شعبان سنة اثنتين.

استيلاء الإفرنج على طرابلس وبيروت وصيدا وجبيل وبانياس

ولما عادت طرابلس إلى صاحب مصر من يد ابن عمار وولي عليها نائبه والإفرنج يحاصرونها وزعيمهم السرداني ابن أخت صنجيل فلما كانت سنة ثلاث وخمسمائة في شعبان ووصل القمص والد صنجيل وليس صنجيل الأول وإنما هو قمص آخر بمراكب عديدة مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وجرت بينه وبين السرداني فتنة واقتتلوا.

وجاء لشكري صاحب أنطاكية مددا للسرداني ثم جاء بقدوين ملك القدس وأصلح بينهم وحاصروا طرابلس ونصبوا عليها الأبراج فاشتد بهم الحصار وعدموا القوت لتأخر الأسطول المصري بالميرة ثم زحفوا إلى قتالها بالأبراج وملكوها عنوة ثاني الأضحى واستباحوها وأثخنوا فيها وكان النائب بها قد استأمن إلى الإفرنج قبل ذلك بليال وملكها بالأمان ونزل على مدينة جبيل وبها فخر الملك بن عمار فاستأمنوا إلى لشكري وملكها.

ولحق ابن عمار بشيزر فنزل على صاحبها سلطان بن علي بن منقذ الكناني ولحق منها بدمشق فأكرمه طغركين وأقطعه الزبداني من أعمال دمشق في محرم سنة أربع ووصل أسطول مصر بالميرة بعد أخذ طرابلس بثمانية أيام فأرسى بساحل صور وفرقت الغلال في جهاتها في صور وصيدا وبيروت.

ثم استولى الإفرنج على صيدا في ربيع الآخر سنة أربع وخمسمائة وذلك أنه وصل أسطول للإفرنج من ستين مركباً مشحونة بالرجال والذخائر وبها ملوكهم بقصد الحج والغزو فاجتمعوا مع بقدوين صاحب القدس ونازلوا صيدا براً وبحراً وأسطول مصر يعجز عن إنجادهم ثم زحفوا إلى صور في أبراج الخشب المصفحة فضعفت نفوسهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت فاستأمنوا فأمنهم الإفرنج في جمادى الأولى ولحقوا بدمشق بعد سبعة وأربعين يوماً من الحصار وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان وعاد بقدوين إلى القدس.

استيلاء أهل مصر على عسقلان

كانت عسقلان للخلفاء العلوية بمصر وقد ذكرنا حروب الإفرنج مع عساكرهم عليها وآخر من استشهد منهم جمال الملك نائبها كما مر آنفاً وولي عليها شمس الخلافة فراسل بقدوين ملك القدس وهاداه ليمتنع به من الخليفة بمصر وبعث الأفضل ابن أمير الجيوش العساكر إليه سنة أربع وخمسمائة مع قائد من قوادهم مورياً بالغزو وأسر إليه بالقبض على شمس الخلافة والولاية مكانه بعسقلان.

وشعر شمس الخلافة بذلك فجاهر بالعصيان فخشي أن يملكها الإفرنج فراسله وأقره على عمله وعزل شمس الخلافة جند عسقلان واستنجد جماعة من الأرمن فاستوحش منه أهل البلد ووثبوا به فقتلوه وبعثوا إلى الأمير الأفضل صاحب مصر المستولي عليها بطاعتهم فجاءهم الوالي من قبله واستقامت أمورهم.

استيلاء الإفرنج على حصن الأثارب وغيره

ثم جمع شكري صاحب أنطاكية واحتشد وسار إلى حصن الأقارب على ثلاثة فراسخ من حلب فحاصره وملكه عنوة وأثخن فيهم بالقتل والسبي ثم سار إلى حصن وزدناد ففعل فيه مثل ذلك وهرب أهله منه ومارس على بلديهما.

ثم سار عسكر من الإفرنج إلى مدينة صيدا فملكوها على

الأمان وأشفق المسلمون من استيلاء الإفرنج على الشام وراسلوهم في الهدنة فامتنعوا إلا على الضريبة فصالحهم رضوان حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وعدة من الخيول والثياب وصاحب صور على سبعة آلاف دينار وابن منقذ صاحب شيرز على أربعة آلاف دينار وعلي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار ومدة الهدنة إلى حصاد الشعير.

ثم اعترضت مراكب الإفرنج التجار من مصر فأخذوها وأسروهم.

وسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد للنفير فدخلوها مستغيثين ومعهم خلق من الفقهاء والغوغاء وقصدوا جامع السلطان يوم الجمعة فمنعوا الناس من الصلاة بضجيجهم وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بإنفاذ العساكر للجهاد وبعث من دار الخلافة منبراً للجامع.

ثم قصدوا في الجمعة الثانية جامع القصر في مثل جمعهم ومنعهم صاحب الباب فدفعوا ودخلوا الجامع وكسروا شبابيك المقصورة والمنبر وبطلت الجمعة وأرسل الخليفة إلى السلطان في رفع هذا الحزن فأمر الأمراء بالتجهيز للجهاد وأرسل ابنه الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل ليلحق به الأمراء ويسيروا جميعاً إلى قتال الإفرنج.

مسير الأمراء السلجوقية إلى قتال الإفرنج

ولما سار مسعود بن السلطان مع الأمير مودود إلى الموصل اجتمع معهم الأمراء سقمان القطبي صاحب ديار بكر وابنا برسق ابلتكي وزنكي أصحاب همذان والأمير أحمد بك صاحب مراغة وأبو الهيجاء صاحب إربل وإياز بن أبي الغازي بعثه أخوه صاحب ماردين وساروا جميعا إلى سنجار وفتحوا عدة حصون للإفرنج ونزلوا على مدينة الرها وحاصروا واجتمعوا مع الإفرنج على الفرات.

وخام الطائفتان عن اللقاء وتأخر المسلمون إلى حران يستطردون للإفرنج لعلهم يعبرون الفرات فخالفهم الإفرنج إلى الرها وشحنوها أقواتاً وعدة وأخرجوا الضعفاء منها ثم عبروا الفرات إلى نواحي حلب لأن الملك رضوان صاحبها لما عبروا إلى الجزيرة ارتجع بعض الحصون التي كان الإفرنج أخذوها بأعمال حلب فطرقوها الآن فاكتسحوا نواحيها.

وجاءت عساكر السلطان إلى الرها وقاتلوها فامتنعت عليهم فعبروا الفرات وحاصروا قلعة تل ناشر شهراً ونصفاً فامتنعت فرحلوا إلى حلب فعقد الملك رضوان عن لقائهم ومرض هنالك سقمان القطبي ورجعوا فتوفي في بالس وحمل شلوه إلى بلده ونزلت العساكر السلطانية على معرة النعمان فخرج طغركين صاحب دمشق إلى مودود ونزل عليه ثم ارتاب لما رأى من الأمراء في حقه فدس للإفرنج بالمهادنة.

ثم افترقت العساكر كما ذكرنا في أخبارهم وبقي مودود مع طغركين على نهر العاصي وطمع الإفرنج بافتراقهم فساروا إلى أفامية وخرج سلطان بن منقذ صاحب شيرز إلى مودود طغركين فرحل بهم إلى شيرز وهون عليهم أمر الإفرنج وضاقت الميرة على الإفرنج فرحلوا واتبعهم المسلمون يتخطفون من أعقابهم حتى أُبعدوا والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج مدينة صور

ولما افترقت العساكر السلطانية خرج بقدوين ملك القدس وجمع الإفرنج ونزلوا على مدينة صور في جمادى الأولى من سنة خمس وهي للأمير الأفضل صاحب مصر ونائبه بها عز الملك الأغر ونصبوا عليها الأبراج والمجانيق وانتدب بعض الشجعان من أهل طرابلس كان عندهم في ألف رجل وصدقوا الحملة حتى وصلوا البرج المتصل بالسور فأحرقوه ورموا الآخرين بالنفط فأحرقوهم واشتد القتال بينهم وبعث أهل صور إلى طغركين صاحب دمشق يستنجدونه على أن يمكنوه من البلد فجاء إلى بانياس وبعث إليهم بمائتي فرس واشتد القتال وبعث نائب البلد إلى طغركين بالاستحثاث للوصول ليمكنه من البلد وكان طغركين يغير على أعمال الإفرنج في نواحيها وملك لهم حصنا من أعمال دمشق وقطع الميرة عنهم فساروا يحملونها في البحر ثم سار إلى صيدا وأغار عليها ونال منها ثم أزهت الثمرة وخشي الإفرنج من طغركين على بلادهم فأفرجوا عن صور إلى عكا وجاء طغركين إلى صور فأعطى الأموال واشتغلوا بإصلاح سورهم وخندقهم والله أعلم.

أخبار مودود مع الإفرنج ومقتله ووفاة صاحب أنطاكية

ثم سار الأمير مودود صاحب الموصل سنة ست إلى سروج وعاث في نواحيها فخرج جكرمش صاحب تل ناشر وأغار على دوابهم فاستاقها من راعيها وقتل كثيراً من العسكر ورجع ثم توفي

الأمير الأرمني صاحب الدروب ببلاد ابن كاور فسار شكري صاحب أنطاكية من الإفرنج إلى بلاده ليملكها فمرض وعاد إلى أنطاكية ومات منتصف سنة ست وملكها بعده ابن أخته سرجان واستقام أمره.

ثم جمع الأمير مودود صاحب الموصل العساكر واحتشد وجاءه تميرك صاحب سنجار وأياز بن أبي الغازي صاحب ماردين وطغركين صاحب دمشق ودخلوا في محرم سنة سبع إلى بلاد الإفرنج.

وخرج بقدوين ملك القدس وجوسكين صاحب القدس يغير على دمشق فعبروا الفرات وقصدوا القدس ونزلوا على الأردن والإفرنج عدوتهم واقتتلوا منتصف المحرم فانهزم الإفرنج وهلك منهم كثير في بحيرة طبرية والأردن وغنم المسلمون سوادهم وساروا منهزمين فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية فشردوا معهم وأقاموا على جبل طبرية وحاصرهم المسلمون نحوا من شهر فلم يظفروا بهم فتركوهم وانساحوا في بلاد الإفرنج ما بين عكا والقدس واكتسحوها.

ثم انقطعت المواد عنهم للبعد عن بلادهم فعادوا إلى مرج الصفر على نية العود للغزاة في فصل الربيع وأذنوا للعساكر في الانطلاق ودخل مودود إلى دمشق يقيم بها إلى أوان اجتماعهم فطعنه باطني في الجامع حين منصرفه من صلاة الجمعة آخر ربيع الأول من السنة ومات من يومه واتهم طغركين بقتله والله تعالى أعلم.

أخبار البرسقي مع الإفرنج

ولما قتل مودود بعث السلطان محمد مكانه أقسنقر البرسقي ومعه ابنه السلطان مسعود في العساكر لقتال الإفرنج وبعث إلى الأمراء بطاعته فجاءه عماد الدين زنكي بن أقسنقر وتميرك صاحب سنجار وسار إلى جزيرة ابن عمر وملكها من يد نائب مودود ثم سار إلى ماردين فحاصرها إلى أن أذعن أبو الغازي صاحبها وبعث معه ابنه أيازا في العساكر فساروا إلى الرها وحاصروها في ذي الحجة سنة ثمان مدة سبعين يوماً فامتنعت وضاقت الميرة على المسلمين فرحلوا إلى شمشاط وسروج وعاثوا في تلك النواحي وهلك في خلال ذلك بكواسيل صاحب مرعش وكيسوم وزغبان من الإفرنج وملكت زوجته بعده وامتنعت من الإفرنج وأرسلت إلى البرسقي على الرها بطاعته فبعث إليها صاحب الخابور فردته بالأموال والهدايا وبطاعتها فعاد من كان عندها من الإفرنج إلى أنطاكية والله أعلم.

الحرب بين العساكر السلطانية والفرنج

كان السلطان محمد قد تنكر لطغركين صاحب دمشق لاتهامه إياه بقتل مودود فعصى وأظهر الخلاف وتابعه أبو الغازي صاحب ماردين لما كان بينه وبين البرسقي فأهمَّ السلطان شأنهما وشأن الإفرنج وقوتهم وجهز العساكر مع الأمير برسق صاحب همذان وبعث معه الأمير حيوس بك والأمير كسكري وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم بغزو الإفرنج بعد الفراغ من شأن أبي الغازي وطغركين فساروا في رمضان سنة ثمان وعبروا الفرات عند الرميلة.

وجاؤوا إلى حلب وبها لؤلؤ الخادم بعد رضوان ومقدم العساكر شمس الخواص وعرضوا عليهما كتب السلطان بتسليم البلد فدافعا بالجواب واستنجدا أبا الغازي وطغركين فوصلا إليهما في ألفي فارس وامتنعا بها على العسكر فسار الأمير برسق إلى حماة من أعمال طغركين فملكها عنوة ونهبها ثلاثاً وسلمها للأمير قرجان صاحب حمص بأمر السلطان بذلك في كل بلد يفتحونه فنفس عليه الأمراء ذلك وفسدت ضمائرهم.

وكان أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص قد ساروا إلى أنطاكية مستنجدين بصاحبها روميل على مدافعتهم عن حماة فبلغهم فتحها ووصل إليهم بأنطاكية بقدوين ملك القدس وطرابلس وغيره من شياطين الإفرنج واجتمعوا على أفامية واتفقوا على مطاولة المسلمين إلى فصل الشتاء ليتفرقوا فلما أطل الشتاء والمسلمون مقيمون عاد أبو الغازي إلى ماردين وطغركين إلى دمشق والإفرنج إلى بلادهم وقصد المسلمون كفر طاب وكانت هي وافامية للافرنج فملكوها عنوة وفتكوا بالإفرنج فيها وأسروا صاحبها ثم ساروا إلى قلعة أفامية فاستعصت عليهم فعادوا إلى المعرة وهي للإفرنج وفارقهم الأمير حيوس بك إلى وادي مراغة فملكه وسارت العساكر من المعرة إلى حلب وأثقالهم ودوابهم وهم متلاصقون فوصلت مقدمتهم إلى الشام وخربوا الأبنية.

وكان روميل صاحب أنطاكية قد سار في خمسمائة فارس وألفي راجل للمدافعة عن كفرطاب وأطل على خيام المسلمين قبل وصولهم فقتل من وجد بها من السوقة والغلمان وأقام الإفرنج بين الخيام يقتلون كل من لحق بها حتى وصل الأمير برسق وأخوه زنكي فصعدا ربوة هناك وأحاط الفل من المسلمين به وعزم برسق على الاستمامة ثم غلبه أخوه زنكي على النجاة

فنجا فيمن معه واتبعهم الإفرنج فرسخاً ورجعوا عنه وافترقت العساكر الإسلامية منهزمة إلى بلادها.

وأشفق أهل حلب وغيرها من بلاد الشام من الإفرنج بعد هذه الواقعة وسار الإفرنج إلى رميلة من أعمال دمشق فملكوها وبالغوا في تحصينها واعتزم طغركين على تخريب بلاد الإفرنج ثم بلغه الخبر عن خلو رميلة من الحامية فبادر إليها سنة تسع وملكها عنوة وقاتل وأسر وغنم وعاد إلى دمشق ولم تزل رميلة بيد المسلمين إلى أن حاصرها الإفرنج سنة عشرين وخمسمائة وملكوها والله أعلم.

وفاة ملك الإفرنج وأخبارهم بعده مع المسلمين

ثم توفي بقدوين ملك الإفرنج بالقدس آخر سنة إحدى عشرة وخمسمائة وكان قد زحف إلى ديار بكر طامعاً في ملكها فانتهى إلى تنيس وشج في الليل فانتقض عليه جرحه وعاد إلى القدس فمات وعاد القمص صاحب الرها الذي كان أسره جكرمش وأطلقه جاولي وكان حاضراً عنده لزيارة قمامة.

وكان أتابك طغركين قد سار لقتال الإفرنج ونزل اليرموك فبعث إليه قمص في المهادنة فاشترط طغركين ترك المناصفة من جبل عردة إلى الغور فلم يقبل القمص فسار طغركين إلى طبرية ونهب نواحيها وسار منها إلى عسقلان ولقي سبعة آلاف من عساكر مصر قد جاؤوا في أثر بقدوين عندما ارتحل عن ديار بكر فأُعلموا أن صاحبهم تقدم إليهم بالوقوف عند أمر طغركين فشكر لهم ذلك وعاد إلى دمشق وأتاه الخبر بأن الإفرنج قصدوا أذرعات ونهبوها بعد أن ملكوا حصنا من أعماله فأرسل إليهم تاج الملك بوري في أثرهم فحاصرهم في جبل هناك حتى يئسوا من أنفسهم وصدقوا الحملة عليهم فهزموهم وأفحشوا في القتل وعاد الفل إلى دمشق وسار طغركين إلى حلب يستنجد أبا الغازي فوعده بالمسير معه ثم جاء الخبر بأن الإفرنج قصدوا أعمال دمشق فنهبوا حوران واكتسحوها فرجع طغركين إلى دمشق وأبو الغازي إلى ماردين إلى حشد العساكر وقصدوا الاجتماع على حرب الإفرنج ثم سار الإفرنج سنة ثلاثة عشر إلى نواحي حلب فملكوا مراغة ونازلوا المدينة فصانعهم أهلها بمقاسمتهم أملاكهم وزحف أبو الغازي من ماردين في عشرين ألفا من العساكر والمتطوعة ومعه أسامة بن مالك بن شيرز الكناني والأمير طغان أرسلان بن أفتكين بن جناح صاحب أرزن.

وسار الإفرنج إلى صنبيل عرمس قرب الأثارب فنزلوا به في موضع منقطع المسالك وعزموا على المطاولة فناجزهم أبو الغازي وسار إليهم ودخل عليهم في مجتمعهم وقاتلوه أشد القتال فلم يقاوموه وفتك بهم فتكة شنعاء وقتل فيهم سرحان صاحب أنطاكية وأسر سبعون من زعمائهم وذلك منتصف ربيع من السنة ثم اجتمع فل الإفرنج وعاودوا الحرب فهزمهم أبو الغازي وملك عليهم حصن الأثارب رزدنا وجاء إلى حلب فأصلح أحوالها وعاد إلى ماردين ثم سار جوسكين صاحب تل ناشر في مائتين من الإفرنج ليكبس حلة مسن احياء طيِّئ يعرفون ببني خالد فأغار عليهم وغنم أموالهم ودلوه على بقية قومهم من بني ربيعة فيما بين دمشق وطبرية فبعث أصحابه إليهم وسار هو من طريق آخر فضلّ عن الطريق ووصل أصحابه إليهم وأميرهم وعدة من ربيعة فقاتلهم وغلبهم وقتل منهم سبعين وأسر اثني عشر ففاداهم بمال جزيل من الأسرى وبلغ إلى جوسكين في طريقه فعاد إلى طرابلس وجمع جمعاً وأغار على عسقلان فهزمه المسلمون وعاد مفلولاً والله أعلم.

ارتجاع الرها من الإفرنج

ثم سار بهرام أخو أبي الغازي إلى مدينة الرها وحاصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها ولقيه النذير بأن جوسكين صاحب الرها وسروج قد سار لاعتراضه وقد تفرق عن مالك أصحابه فاستجاب لما وصل إليه الإفرنج ودفعهم لأرض سبخة فوصلت فيها خيولهم فلم يفلت منهم أحد وأسر جوسكين وخاط عليه جلد جمل وفادى نفسه بأموال جليلة فأبى مالك من فديته إلا أن يسلم حصن الرها فلم يفعل وحبسه في خرت برت ومعه كلمام ابن خالته وكان من شياطينهم وجماعة من زعمائهم والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

استيلاء الإفرنج على خرت برت وارتجاعها منهم

كان مالك بن بهرام صاحب خرت برت وكان في جواره الإفرنج في قلعة كوكر فحاصرهم بها وسار بقدوين إليه في جموعه فلقيه في صفر سنة سبعة عشر فهزم الإفرنج وأسر ملكهم وجماعة من زعمائهم وحبسهم مالك في قلعة خرت برت مع جوسكين صاحب الرها وأصحابه وسار مالك إلى حران في ربيع الأول

وملكها ولما غاب من خرت برت تحيل الإفرنج وخرجوا من محبسهم بمداخلة بعض الجند وسار بقدوين إلى بلده وملك الآخرون القلعة فعاد مالك إليهم وحاصرها وارتجعها من أيديهم ورتب فيها الحامية والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء الإفرنج على مدينة صور

كانت مدينة صور لخلفاء العلوية بمصر وكان بها عز الملك من قبل الأفضل بن أمير الجيوش المستبد على الأمر بمصر وتجهز الإفرنج لحصارها سنة ست فاستمدوا طغركين صاحب دمشق فأمدهم بعسكر ومال مع وال من قبله اسمه مسعود فجاء إليها ولم يغير دعوة العلوية بها في خطبة ولا سكة وكتب إلى الأفضل بذلك وسأله تردد الأسطول إليه بالمدد فأجابه وشكره ثم قتل الأفضل وجاء الأسطول إليها من مصر على عادته وقد أمر مقدمه أن يعمل الحيلة في القبض على مسعود الوالي بصور من قبل طغركين لشكوى أهل مصر منه فقبض عليه مقدم الأسطول وحمله إلى مصر وبعثوا به إلى دمشق.

وأقام الوالي من قبل أهل مصر في مدينة صور وكتب إلى طغركين بالعذر عن القبض على مسعود واليه وكان ذلك سنة ستة عشر ولما بلغ الإفرنج انصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها وتجهزوا لحصارها وبعث الوالي الأمير بذلك وبعجزه عن مقاومة حصارهم لها.

وسار طغركين إلى بانياس ليكون قريباً من صريخها وبعث إلى أهل مصر يستنجدهم فراسل الإفرنج في تسليم البلد وخروج من فيها فدخلها الإفرنج آخر جمادى الأولى من السنة بعد أن حمل أهلها ما أطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح البرسقي كفر طاب وإنهزامه من الإفرنج

ثم جمع البرسقي عساكره وسار سنة تسعة عشر إلى كفر طاب وحاصرها فملكها من الإفرنج ثم سار إلى قلعة إعزاز شمالي حلب وبها جوسكين فحاصرها واجتمع الإفرنج وساروا لمدافعته فلقيهم وقاتلهم شديداً فمحّص الله المسلمين وانهزموا وفتك النصارى فيهم ولحق البرسقي بحلب فاستخلف فيها ابنه مسعوداً وعبر الفرات إلى الموصل ليستمد العساكر ويعود لغزوهم فقضى الله بمقتله وولي ابنه عز الدين بعده قليلاً.

ثم مات سنة إحدى وعشرين وولي السلطان محمود عماد الدين زنكي بن أقسنقر مكانه على الموصل والجزيرة وديار بكر كما مر في أخبار دولة السلجوقية ثم استولى منها على الشام وأورث ملكها بنيه فكانت لهم دولة عظيمة بهذه الأعمال نذكرها إن شاء الله تعالى ونشأت عن دولتهم دولة بني أيوب وتفرعت منها كما نذكره.

ونحن الآن نترك من أخبار الإفرنج هنا جميع ما يتعلق بدولة بني زنكي وبني أيوب حتى نوردها في أخبار تينك الدولتين لئلا تتكرر الأخبار ونذكر في هذا الموضع من أخبار الإفرنج ما ليس له تعلق بالدولتين فإذا طالعه المتأمل علم كيف يرد كل خبر إلى مكانه بجودة قريحته وحسن تأنيه.

الحرب بين طغركين والإفرنج

ثم اجتمعت الإفرنج سنة عشرين وخمسمائة وساروا إلى دمشق ونزلوا مرج الصفر واستنجد طغركين صاحبها أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها فجاؤوا إليه وكان هو قد سار إلى جهة الإفرنج آخر سنة عشرين وقاتلهم وسقط في المعترك فظن أصحابه أنه قتل فانهزموا وركب فرسه وسار معهم منهزماً والإفرنج في اتباعهم وقد أثخنوا في رجاله التركمان فلما اتبعوا المنهزمين خالف الرجالة إلى معسكرهم فنهبوا سوادهم وقتلوا من وجدوا فيه ولحقوا بدمشق ورجع الإفرنج من المنهزمين فوجدوا خيامهم منهوبة فساروا منهزمين.

ثم كان سنة ثلاث وعشرين واقعة المزدغاني والإسماعيلية بدمشق بعد أن طمع الإفرنج في ملكها فأسف ملوك الإفرنج على قتله وسار صاحب القدس وصاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم من القمامصة ومن وصل في البحر للتجارة أو الزيارة وساروا إلى دمشق في ألفي فارس ومن الرجال ما لا يحصى.

وجمع طغركين من العرب والتركمان ثمانية آلاف فارس وجاء الإفرنج آخر السنة ونازلوا دمشق وبثوا سراياهم للإغارة بالنواحي وجمع الميرة وسمع تاج الملك بسرية في حوران فبعث شمس الخواص من أمرائه ولقوا سرية الإفرنج وظفروا بهم وغنموا ما معهم وجاؤوا إلى دمشق وبلغ الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا عن دمشق بعد أن أحرقوا ما تعذر عليهم حمله وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثم إن اسمند صاحب أنطاكية سار إلى حصن القدموس وملكه والله تعالى يؤيد من يشاء.

هزيمة صاحب طرابلس

ثم اجتمع سنة سبع وعشرين جمع كبير من تركمان الجزيرة وأغاروا على بلاد طرابلس وقتلوا وغنموا فخرج إليهم القمص صاحبها فاستطردوا له ثم كروا عليه فهزموه ونالوا منه ونجا إلى قلعة بقوين فتحصن بها وحاصره التركمان فيها فخرج من القلعة ليلاً في عشرين من أعيان أصحابه ونجا إلى طرابلس واستصرخ الإفرنج من كل ناحية وسار بهم إلى بقوين لمدافعة التركمان فقاتلهم حتى أشرف الإفرنج على الهزيمة ثم تحيزوا إلى أرمينية وتعذر على التركمان اتباعهم فرجعوا عنهم انتهى.

فتح صاحب دمشق بانياس

كان بوري بن طغركين صاحب دمشق لما توفي سنة ست وعشرين وخمسمائة وولي مكانه ابنه شمس الملوك إسماعيل فاستضعفه الإفرنج وتعرضوا لنقض الهدنة ودخل بعض تجار المسلمين إلى سروب فأخذوا أموالهم وراسلهم شمس الملوك في ردها عليهم فلم يفعلوا فتجهز وسار إلى بانياس في صفر سنة سبع وعشرين فنازلها وشدد حصارها ونقب المسلمون سورها وملكوها عنوة واستلحموا الإفرنج بها واعتصم فلهم بالقلعة حتى استأمنوا بعد يومين وكان الإفرنج قد جمعوا لمدافعة شمس الملوك فجاءهم خبر فتحها فأقصروا.

استيلاء شمس الملوك على الشقيف

ثم سار شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق إلى شقيف بيروت وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم وهو ممتنع به وقد تحاماه المسلمون والإفرنج وهو يحتمي من كل منهما بالآخر فسار إليه شمس الملوك وملكه في المحرم سنة ثمان وعشرين وعظم ذلك على الإفرنج وخافوا شمس الملوك فساروا إلى بلد حوران وعاثوا في جهاتها ونهض شمس الملوك ببعض عساكره وجمر الباقي قبالة الإفرنج وقصد طبرية والناصرة وعكا فاكتسح نواحيها وجاء الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا إلى بلادهم وعظم عليهم خرابها وراسلوا شمس الملوك في تجديد الهدنة فجددها لهم انتهى والله أعلم.

استيلاء الإفرنج على جزيرة جربة من أفريقية

كانت جزيرة جربة من أعمال أفريقية ما بين طرابلس وقابس وكان أهلها من قبائل البربر قد استبدوا بجزيرتهم عندما دخل العرب الهلاليون أفريقية ومزقوا ملك صنهاجة بها وقارن ذلك استفحال ملك الإفرنج بروما وما إليها من البلاد الشمالية وتطاولوا إلى ملك بلاد المسلمين فسار ملكهم بردويل فيمن معه من زعمائهم وأقماصهم إلى الشام فملكوا مدنه وحصونه كما ذكرناه آنفاً وكان من ملوكهم القمص رجار بن نيغر بن خميرة وكان كرسيه مدينة ميلكوا مقابل جزيرة صقلية ولما ضعف أمر المسلمين بها وانقرضت دولة بني أبي الحسين الكلبي منها سما رجار هذا إلى ملكها وأغراه المتغلبون بها على بعض نواحيها فأجاز إليها عساكره في الأسطول في سبيل التضريب بينهم.

ثم ملكها من أيديهم معقلاً معقلاً إلى أن كان آخرها فتخاطر ابنه وما زرعه من يد عبد الله بن الجواس أحد الثوار بها فملكها من يده صلحاً سنة أربع وستين وأربعمائة وانقطعت كلمة الإسلام بها ثم مات رجار سنة أربع وتسعين فولي ابنه رجار مكانه وطالت أيامه واستفحل ملكه وذلك عندما هبت ريح الإفرنج بالشام وجاسوا خلالها وصاروا يتغلبون على ما يقدرون عليه من بلاد المسلمين وكان رجار بن رجار يتعاهد سواحل أفريقية بالغزو فبعث سنة ثلاث وخمسين أسطول صقلية إلى جزيرة جربة وقد تقلص عنها ظل الدولة الصنهاجية فأحاطوا بها واشتد القتال ثم اقتحموا الجزيرة عليهم عنوة وغنموا وسبوا واستأمن من الباقون وأقرهم الإفرنج في جزيرتهم على جزية وملكوا عليهم أمرهم والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

فتح صاحب دمشق بعض حصون الإفرنج

ثم بعث شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق عساكره مع الأمير خزواش سنة إحدى وثلاثين إلى طرابلس الشام ومعه جمع كثير من التركمان والمتطوعة وسار إليه القمص صاحب طرابلس فقاتلوه وهزموه وأثخنوا في عساكره وأحجزه بطرابلس وعاثوا في أعماله وفتحوا حصن وادي ابن الأحمر من حصونه عنوة واستباحوه واستلحموا من فيه من الإفرنج ثم سار الإفرنج سنة خمس وثلاثين إلى عسقلان وأغاروا في نواحيها وخرج إليهم عسكر مصر الذين بها فهزموا الإفرنج وظفروا بهم وعادوا

منهزمين وكفى الله شرهم بمنه وكرمه.

استيلاء الإفرنج على طرابلس الغرب

كان أهل طرابلس الغرب لما انحل نظام الدولة الصنهاجية بأفريقية وتقلص ظلها عنهم قد استبدوا بأنفسهم وكان بالمهدية آخر الملوك من بني باديس وهو الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز فاستبد لعهده في طرابلس أبو يحيى بن مطروح ورفضوا دعوة الحسن وقومه وذلك عندما تكالب الإفرنج على الجهات فطمع رجار في ملكها وبعث أسطوله في البحر فنازلها آخر سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فنقبوا سورها واستنجد أهلها بالعرب فأنجدوهم وخرجوا إلى الإفرنج فهزموهم وغنموا أسلحتهم ودوابهم ورجع الإفرنج إلى صقلية فتجهزوا إلى المغرب وطرقوا جيجيل من سواحل بجاية وهرب أهلها إلى الجبل ودخلوها فنهبوها وخربوا القصر الذي بناه بها يحيى بن العزيز بن حماد ويسمى النزهة ورجعوا إلى بلادهم ثم بعث رجار أسطوله إلى طرابلس سنة إحدى وأربعين فأرسى عليها ونزل المقاتلة وأحاطوا بها براً وبحراً وقاتلوها ثلاثاً وكان أهل البلد قد اختلفوا قبل وصول الإفرنج وأخرجوا بني مطروح وولوا عليهم رجلاً من أمراء لمتونة قام حاجّاً في قومه فولوه أمرهم فلما شغل أهل البلد بقتال الإفرنج اجتمعت شيعة بني مطروح وأدخلوهم البلد ووقع بينهم القتال فلما شعر الإفرنج بأمرهم بادروا إلى الأسوار فنصبوا عليها السلالم وتسنموها وفتحوا البلد عنوة وأفحشوا في القتل والسبي والنهب ونجا كثير من أهلها إلى البربر والعرب في نواحيها ثم رفعوا السيف ونادوا بالأمان فتراجع المسلمون إلى البلد وأقروهم على الجزية وأقاموا بها ستة أشهر حتى أصلحوا أسوارها وفنادقها وولوا عليها ابن مطروح وأخذوا رهنه على الطاعة ونادوا في صقلية بالمسير إلى طرابلس فسار إليها الناس وحسنت عمارتها.

استيلاء الإفرنج على المهدية

كانت قابس عندما اختل نظام الدولة الصنهاجية واستبد بها ابن كامل بن جامع من قبائل رياح إحدى بطون هلال الذين بعثهم الجرجرائي وزير المستنصر بمصر على المعز بن باديس وقومه فاضرعوا الدولة وأفسدوا نظامها وملكوا بعض أعمالها واستبد آخرون من أهل البلاد بمواضعهم فكانت قابس هذه في قسمة بني دهمان هؤلاء وكان لهذا العهد رشيد أميراً بها كما ذكرنا ذلك في أخبار الدلوة الصنهاجية من أخبار البربر وتوفي رشيد سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ونصب مولاه يوسف ابنه الصغير محمد بن رشيد وأخرج ابنه الكبير معمراً واستبد على محمد وتعرض لحرمه سراً وكان فيهن امرأة رشيد وساروا إلى التمحض بصاحب المهدية يشكون فعله.

وكاتبه الحسن في ذلك فلم يجبه وتهدده بإدخال الإفرنج إلى قابس فجهز إليه العساكر وبعث يوسف إلى رجار صاحب صرابلس بطاعته وأن يوليه على قابس كما ولى ابن مطروح على طرابلس وشعر أهل البلد بمداخلته للإفرنج فلما وصل عساكر الحسن ثاروا به معهم وتحصن يوسف بالقصر فملكوه عنوة وأخذ يوسف أسيراً وملك معمر قابس مكان أخيه محمد وامتحن يوسف بأنواع العذاب إلى أن هلك وأخذ بنو قرة أختهم ولحق عيسى أخو يوسف وولد يوسف برجار صاحب صقلية واستجاروا به وكان الغلاء قد اشتد بإفريقية سنة سبع وثلاثين.

ولحق أكثر أهلها بصقلية وأكل بعضهم بعضاً وكثر الموتان فاغتنم رجار الفرصة ونقض الصلح الذي كان بينه وبين الحسن بن علي صاحب المهدية لسنين وجهز أسطوله مائتين وخمسين من الشواني وشحنها بالمقاتلة والسلاح ومقدم الأسطول جرجي بن ميخاييل أصله من المتنصرة وقد ذكرنا خبره في أخبار صنهاجة والموحدين فقصد قوصرة وصادف بها مركباً من المهدية فغنمه ووجد عندهم حمام البطاقة فبعث الخبر إلى المهدية على أجنحتها بأن أسطول الإفرنج أقلع إلى القسطنطينية ثم أقلع فأصبح قريباً من المرسى في ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين وقد بعث الله الريح فعاقتهم عن دخول المرسى ففاته غرضه.

وكتب إلى الحسن بأنه باق على الصلح وإنما جاء طالباً بثأر محمد بن رشيد ورده إلى بلده قابس فجمع الحسن الناس واستشارهم فأشاروا بالقتال فخام عنه واعتذر بقلة الأقوات وارتحل من البلد وقد حمل ما خف حمله وخرج الناس بأهاليهم وما خف من أموالهم واختفى كثير من المسلمين في الكنائس ثم ساعد الريح أسطول الإفرنج ووصلوا إلى المرسى ونزلوا إلى البلد من غير مدافع ودخل جرجي القصر فوجده على حاله مملوءاً بالذخائر النفيسة التي يعز وجود مثلها وبعث بالأمان إلى كل من شرد أهلها فرجعوا وأقرهم على الجزية وسار الحسن بأهله وولده إلى المعلقة وبها محرز بن زياد من أمراء الهلاليين ولقيه في طريقه حسن بن ثعلب من أمراء الهلاليين بمال انكسر له في ديوانه فأخذ ابنه يحيى رهينة به.

ولما وصل محرز بن زياد أكرم لقاءه وبر مقدمه جزاء بما كان

يؤثره على العرب ويرفع محله وأقام عنده شهراً ثم عزم على المسير إلى مصر وبها يومئذ الحافظ فأرصد له جرجي الشواني في البحر فرجع عن ذلك واعتزم على قصد عبد المؤمن من ملوك الموحدين بالمغرب وفي طريقه يحيى بن عبد العزيز ببجاية من بني عمه حماد فأرسل إليه أبناءه يحيى وتميماً وعلياً يستأذنه في الوصول فأذن له وبعث إليه من أوصله إلى جزائر بني مذغنة ووكل به وبولده حتى ملك عبد المؤمن بجاية سنة أربع وأربعين وخبرهم مشروح هنالك.

ثم جهز جرجي أسطولاً آخر إلى صفاقس وجاء العرب لإنجادهم فلما توافوا للقتال استطرد لهم الإفرنج غير بعيد فهزموهم ومضى العرب عنهم وملك الإفرنج المدينة عنوة ثالث عشر صفر وفتكوا فيها ثم أمنوهم وفادوا أسراهم وأقروهم على الجزية وكذا أهل سوسة وكتب رجار صاحب صقلية إلى أهل سواحل إ؟فريقية بالأمان والمواعيد ثم سار جرجي إلى اقليبية من سواحل تونس واجتمع إليها العرب فقاتلوا الإفرنج وهزموهم ورجعوا خائبين إلى المهدية وحدثت الفتنة بين رجار صاحب صقلية وبين ملك الروم بالقسطنطينية فشغل رجار بها عن إفريقية وكان متولي كبرها جرجي بن ميخاييل صاحب المهدية ثم مات سنة ست وأربعين فسكنت تلك الفتنة ولم يقم لرجار بعده أحد مقامه والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على بونة ووفاة رجار صاحب صقلية وملك ابنه غليالم

ثم سار أسطول رجار من صقلية سنة ثمان وأربعين إلى مدينة بونة وقائد الأسطول بها وقتات المهدوي فحاصرها واستعان عليها بالعرب فملكها واستباحها وأغضى عن جماعة من أهل العلم والدين فخرجوا بأموالهم وأهاليهم إلى القرى وأقام بها عشراً ورجع إلى المهدية ثم إلى صقلية فنكر عليه رجار رفقه بالمسلمين في بونة وحبسه ثم اتهم في دينه فاجتمع الأساقفة والقسوس وأحرقوه ومات رجار آخر هذه السنة لعشرين سنة من ملكه وولي ابنه غليالم مكانه وكان حسن السيرة واستوزر مائق البرقياني فأساء التدبير واختلف عليه حصون من صقلية وبلاد قلورية وتعدى الأمراء على أفريقية على ما سيأتي إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على عسقلان

كانت عسقلان في طاعة الظافر العلوي ومن جملة ممالكه وكان الإفرنج يتعاهدونها بالحصار مرة بعد مرة وكان الوزراء يمدونها بالأموال والرجال والأسلحة وكان لهم التحكم في الدولة على الخلفاء العلوية فلما قتل ابن السلار سنة ثمان وأربعين اضطرب الحال بمصر حتى ولي عباس الوزارة فسار الإفرنج خلال ذلك من بلادهم بالشام وحاصروا عسقلان وامتنعت عليهم ثم اختلف أهل البلد وآل أمرهم إلى القتال فاغتنم الإفرنج الفرصة وملكوا البلد وعاثوا فيها والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

ثورة المسلمين بسواحل إفريقية على الإفرنج المتغلبين فيها

قد تقدم لنا وفاة رجار وملك ابنه غليالم وأنه ساء تدبير وزيره فاختلف عليه الناس وبلغ ذلك المسلمين الذين تغلبوا عليهم بإفريقية وكان رجار قد ولى على المسلمين بمدينة صفاقس لما تغلب عليها أبو الحسين الغرياني منهم وكان من أهل العلم والدين ثم عجز عن ذلك وطلب ولاية ابنه عمر فولاه رجار وحمل أبا الحسين إلى صقلية رهينة وأوصى ابنه عمرو وقال: يا بني أنا كبير السن وقد قرب أجلي فمتى أمكنتك الفرصة في إنقاذ المسلمين من ملكة العدو فافعل ولا تخش علي واحسبني قد مت فلما اختل أمر غليالم دعا عمر أهل صفاقس إلى الثورة بالإفرنج فثاروا بهم وقتلوهم سنة إحدى وخمسين واتبعه أبو يحيى بن مطروح بطرابلس ومحمد بن رشيد بقابس وسار عسكر عبد المؤمن إلى بونة فملكها وذهب حكم الإفرنج عن إفريقية ما عدا المهدية وسوسة.

وأرسل عمر الفرياني إلى زويلة قريباً من المهدية يغريهم بالوثوب على الإفرنج الذين معهم فوثبوا وأعانهم أهل ضاحيتهم وقاتلوا الإفرنج بالمهدية وقطعوا الميرة عنهم وبلغ الخبر إلى غليالم فبعث إلى عمر الفرياني بصفاقس وأعذر إليه في أبيه فأظهر للرسول جنازة ودفنها وقال: هذا قد دفنته فلما رجع الرسول بذلك صلب أبا الحسين ومات شهيداً رحمه الله تعالى وسار أهل صفاقس والعرب إلى زويلة واجتمعوا مع أهلها على حصار المهدية وأمدهم غليالم بالأقوات والأسلحة وصانعوا العرب بالمال على أن يخذلوا أصحابهم ثم خرجوا للقتال فانهزم العرب وركب أهل صفاقس البحر إلى بلدهم أيضاً واتبعهم الإفرنج فعاجلوهم

عن زويلة وقتلوهم ثم اقتحموا البلد فقتلوا مخلفهم بها واستباحوهم.

ارتجاع عبد المؤمن المهدية من يد الإفرنج

ولما وقع بأهل زويلة من الإفرنج ما وقع لحقوا بعبد المؤمن ملك المغرب يستصرخونه فأجاب صريخهم ووعدهم وأقاموا في نزله وكرامته وتجهز للمسير وتقدم إلى ولاته وعماله بتحصيل الغلات وحفر الآبار ثم سار في صفر سنة أربع وخمسين في مائة ألف مقاتل وفي مقدمته الحسن بن علي صاحب المهدية ونازل تونس منتصف السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان من بقية دولة صنهاجة وجاء أسطول عبد المؤمن فحاصرها من البحر ثم نزل إليه من سورها عشرة رجال من أعيانها في السلام مستأمنين لأهل البلد ولأنفسهم فأمنهم على مقاسمتهم في أموالهم وعلى أن يخرج إليه ابن خراسان فتم ذلك كله وسار عنها إلى المهدية وأسطوله محاذيه في البحر فوصلها منتصف رجب من السنة وبها أولاد الملوك والزعماء من الإفرنج وقد أخلوا زويلة وهي على غلوة من المهدية فعمرها عبد المؤمن لوقتها وامتلأ فضاء المهدية بالعساكر وحاصرها أياماً وضاق موضع القتال من البر لاستدارة البحر عليها لأنها صورة يد في البحر وذراعها في البر وأحاط الأسطول بها في البحر.

وركب عبد المؤمن البحر في الشواني ومعه الحسن بن علي فرأى حصانتها في البحر وأخذ في المطاولة وجمع الأقوات حتى كانت في ساحة معسكره كالتلال وبعث إليه أهل صفاقس وطرابلس وجبال نفوسة بطاعتهم وبعث عسكراً إلى قابس فملكها عنوة وبعث ابنه عبد الله ففتح كثيراً من البلاد ثم وفد عليه يحيى بن تميم بن المقر بن الرند صاحب قفصة في جماعة من أعيانها فبذل طاعته ووصله عبد المؤمن بألف دينار.

ولما كان آخر شعبان وصل أسطول صقلية في مائة وخمسين من الشواني غير الطرائد كان في جزيرة يابسة فاستباحها وبعث إليه صاحب صقلية بقصد المهدية فلما أشرفوا على المرسى قذفت إليهم أساطيل عبد المؤمن ووقف عسكره على جانب البر وعبد المؤمن ساجد يعفر وجهه بالتراب ويجأر بالدعاء فانهزم أسطول الإفرنج وأقلعوا إلى بلادهم وعاد أسطول المسلمين ظافراً وأيس أهل المهدية من الإنجاد ثم صابروا إلى آخر السنة حتى جهدهم الحصار ثم استأمنوا إلى عبد المؤمن فعرض عليهم الإسلام فأبوا ولم يزالوا يخضعون له بالقول حتى أمنهم وأعطاهم السفن فركبوا فيها وكان فصل شتاء فمال عليهم البحر وغرقوا ولم يفلت منهم إلا الأقل.

ودخل عبد المؤمن المهدية في محرم سنة خمس وخمسين لاثنتي عشرة سنة من ملك الإفرنج وأقام بها عشرين يوماً فأصلح أمورها وشحنها بالحامية والأقوات واستعمل عليها بعض أصحابه وأنزل معه الحسن بن علي وأقطعه بأرضها له ولأولاده وأمر الوالي أن يقتدي برأيه ورجع إلى المغرب والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج أسد الدين شيركوه في بلبيس

كان أسد الدين شيركوه بن شادي عم صلاح الدين قد بعثه نور الدين العادل سنة تسع وخمسمائة منجداً لشاور وزير العاضد صاحب مصر على قريعه الضرغام كما سيأتي في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

وسار نور الدين من دمشق في عساكره إلى بلاد الإفرنج ليشغلهم عن أسد الدين شيركوه وخرج ناصر الدين أخو الضرغام في عساكر مصر فهزمه أسد الدين على تنيس واتبعه إلى القاهرة ونزلها إلى منتصف السنة وأعاد شاور إلى الوزراة ونقض ما بينه وبين أسد الدين وتأخر إلى تنيس وخشي منه ودس إلى الإفرنج يغريهم به وبذل لهم المال فطمعوا بذلك في ملك الديار المصرية وسار ملك القدس في عساكر الإفرنج واجتمعت معه عساكر المسلمين وساروا إلى أسد الدين فحاصروه في بلبيس ثلاثة ولم يظفروا منه بشيء ثم جاءهم الخبر بأن نور الدين العادل هزم أصحابهم على خارد وفتحها.

ثم سار إلى بانياس فسقط في أيديهم وطلبوا الصلح من أسد الدين ليعودوا إلى بلادهم لذلك وخرج من بلبيس سائراً إلى الشام ثم عاد إلى مصر سنة اثنتين وستين وعبر النيل من اطفيح ونزل الجزيرة واستمد شاور الإفرنج فساروا إليه بجموعهم وكان أسد الدين قد سار إلى الصعيد وانتهى إلى فسار الإفرنج والعساكر المصرية في أثره فأدركوه منتصف السنة واستشار أصحابه فاتفقوا على القتال وأدركته عساكر الإفرنج ومصر وهو تعبيته وقد أقام مقامه في القلب راشد حذراً من حملة الإفرنج وانحاز فيمن يثق به من شجعان أصحابه إلى الميمنة فحمل الإفرنج على القلب فهزموهم واتبعوهم.

وخالفهم أسد الدين إلى من تركوا وراءهم من العساكر

فهزمهم وأثخن فيهم ورجع الإفرنج من أثناء القلب فانهزموا وانهزم أصحابهم ولحقوا بمصر ولحق أسد الدين بالإسكندرية فملكها صلحاً وأنزل بها صلاح الدين ابن أخيه وحاصرته عساكر الإفرنج ومصر وزحف إليهم عمه أسد الدين من الصعيد فبعثوا إليه في الصلح فأجابهم على خمسين ألف دينار يعطونها إياه ولا يقيم في البلد أحد من الإفرنج ولا يملكون منها شيئاً فقبلوا ذلك وعادوا إلى الشام وملك أهل مصر الإسكندرية واستقر بينهم وبين الإفرنج أن ينزلوا بالقاهرة شحنة وأن يكون أبوابها في علقها وفتحها بأيديهم وأن لهم من خراج مصر مائة ألف دينار في كل سنة ولم ذلك منه وعاد الإفرنج إلى بلادهم بالسواحل الشامية والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج القاهرة

ثم كان مسير أسد الدين إلى مصر وقتله شاور سنة أربع وستين باستدعاء العاضد لما رأى من تغلب الإفرنج كما نذكر في أخبار أسد الدين وأرسل إلى الإفرنج أصحابهم الذين بالقاهرة يستدعونهم لملكها ويهونونها عليهم وملك الإفرنج يومئذ بالشام مرى ولم يكن ظهر فيهم مثله شجاعة ورأياً فأشار بأن جبايتها لنا خير من ملكها وقد يضطرون فيملكون نور الدين منها وإن ملكها قبلنا احتاج إلى مصانعتنا فأبوا عليه وقالوا: إنما نزداد بها قوة فرجع إلى رأيهم وساروا جميعاً إلى مصر وانتهوا إلى تنيس في صفر سنة أربع وستين فملكوها عنوة واستباحوها.

ثم ساروا إلى القاهرة وحاصروها وأمر شاور بإحراق مصر وانتقال أهلها إلى القاهرة فنهبت المدينة ونهب أموال أهلها وبغتهم قبل نزول الإفرنج عليهم بيوم فلم تخمد النار مدة شهرين وبعث العاضد بالصريخ إلى نور الدين واشتد عليه الحصار وبعث شاور إلى ملك الإفرنج يشير بالصلح على ألف ألف دينار مصرية ويهدده بعساكر نور الدين فأجابوا إلى ذلك.

ودفع إليهم مائة ألف ألف دينار وتأخروا قريباً حتى يصل إليهم بقية المال وعجز عن تحصيله والإفرنج يستحثونه فبعثوا خلال ذلك إلى نور الدين يستنجدونه على الإفرنج بأن يرسل إليهم أسد الدين شيركوه في عسكر يقيمون عندهم على أن لنور الدين ثلث بلاد مصر ولأسد الدين اقطاعه وعطاء العساكر فاستدعى أسد الدين من حمص وكانت اقطاعه وأمره بالتجهز إلى مصر وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الدواب والأسلحة وحكمه في العساكر والخزائن وما يحتاج إليه.

وسار في ستة آلاف وأزاح علل جنده وأعانهم أسد الدين بعشرين ديناراً لكل فارس وبعث معه جماعة من الأمراء منهم خرديك مولاه وعز الدين قليج وشرف الدين بن بخش وعين الدولة الباروقي وقطب الدين نيال بن حسان وصلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب وسار إلى مصر فلما قاربها ارتحل الإفرنج راجعين إلى بلادهم ودخل هو إليها منتصف السنة وخلع عليه العاضد وأجرى عليه وعلى عسكره الجرايات الوافرة.

ثم شرع شاور في مماطلة أسد الدين بما وقع أتفاقهم معه عليه وحدث نفسه بالقبض عليه واستخدام جنده لمدافعة الإفرنج ولم يتم له ذلك وشعر به أسد الدين فاعترضه صلاح الدين ابن أخيه وعز الدين خرديك مولاه عند قبر الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وقتلاه وفوض العاضد أمور دولته إلى أسد الدين وتقاصر الإفرنج عنها ومات أسد الدين واستولى صلاح الدين بعد ذلك على البلاد وارتجع البلاد الإسلامية من يد الإفرنج كما نذكر في أخبار دولته والله أعلم.

حصار الإفرنج دمياط

ولما ملك أسد الدين شيركوه مصر خشيه الإفرنج على ما بأيديهم من مدن الشام وسواحله وكاتبوا أهل ملتهم ونسبتهم بصقلية وإفرنسة يستنجدونهم على مصر ليملكوها وبعثوا الأقسة والرهبان من بيت المقدس يستنفرونهم لحمايتها وواعدوهم بدمياط طمعاً في أن يملكوها ويتخذوها ركاباً للاستيلاء على مصر فاجتمعوا عليها وحاصروها لأول أيام صلاح الدين وأمدهم صلاح الدين بالعساكر والأموال وجاء بنفسه وبعث إلى نور الدين يستنجده ويخوفه على مصر فتابع إليه الأمداد وسار بنفسه إلى بلاد الإفرنج بالشام واكتسحها وخربها فعاد الفرنج إلى دمياط بعد حصار خمسين يوماً نفس الله عليهم ومن هذه القصة بقية أخبار الإفرنج متعلقة بالدولتين دولة بني زنكي بالشام ودولة بني أيوب بمصر فأخرت بقية أخبارهم إلى أن نسردها في الدولتين على مواقعها في مواضعها حسبما تراه ولم يبق إلا استيلاؤهم على القسطنطينية من يد الروم فأوردناه ههنا.

استيلاء الإفرنج على القسطنطينية

كان هؤلاء الإفرنج بعد ما ملكوه من بلاد الشام اختلفت أحوالهم في الفتنة والمهادنة مع الروم بالقسطنطينية لاستيلائهم على

الثغور من بلاد المسلمين التي تجاور الروم التي كانت بأيديهم من قبل وظاهرهم الروم على المسلمين في بعض المرات ثم غلبوا عليهم آخراً وملكوا القسطنطينية من أيديهم فأقامت في أيديهم مدة ثم ارتجعها الروم على يد لشكري من بطارقتهم وكيفية الخبر عن ذلك: أن ملوك الروم أصهروا إلى ملوك الإفرنج وتزوجوا منهم بنتاً لملك الروم فولدت ذكراً خاله الإفرنسيس وثب عليه أخوه فانتزع الملك من يده وحبسه ولحق الولد بملك الإفرنج خاله مستصرخاً به فوصل إليه وقد تجهز الإفرنج لاستنقاذ القدس من يد المسلمين وكان صلاح الدين قد ارتجعها منهم كما يأتي في أخباره إن شاء الله تعالى.

وانتدب لذلك ثلاثة من ملوكهم دوقص البنادقة وهو صاحب الأسطول الذي ركبوا فيه وكان شيخا أعمى لا يركب ولا يمشي إلا بقائد ومقدم الفرنسيس ويسمى المركيش والثالث يسمى كبداقليد وهو أكثرهم عدداً فجعل الملك ابن أخته معهم وأوصاهم بمظاهرته على ملكه بالقسطنطينية ووصلوا إليها في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فخرج عم الصبي وقاتلهم وأضرم شيعة الصبي النار في نواحي البلاد فاضطرب العسكر ورجعوا وفتح شيعة الصبي باب المدينة وأدخلوا الإفرنج وخرج عمه هارباً ونصب الإفرنج الصبي في الملك وأطلقوا أباه من السجن واستبدوا بالحكم وصادروا الناس وأخذوا مال البيع وما على الصلبان من الذهب وما على تماثيل المسيح والحواريين وما على الإنجيل فعظم ذلك على الروم ووثبوا بالصبي فقتلوه وأخرجوا الإفرنج من البلد وذلك منتصف سنة ستمائة.

وأقام الإفرنج بظاهرها محاصرين لهم وبعث الروم صريخاً إلى صاحب قونية ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان ينهض لذلك وكان بالمدينة متخلفون من الإفرنج يناهزون ثلاثين ألفاً فثاروا بالبلد عند شغل الروم بقتال أصحابهم وأضرموا النار ثانياً فاقتحم الإفرنج وأفحشوا في النهب والقتل ونجا كثير من الروم إلى الكنائس وأعظمها كنيسة سوميا فلم تغن عنهم وخرج القسيسون والأساقفة في أيديهم الإنجيل والصلبان فقتلوهم ثم تنازع الملوك الثلاثة على الملك بها وتقارعوا فخرجت القرعة على كبداقليد فملكها على أن يكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية اقريطش ورودس وغيرهما ويكون لمركيش الإفرنسيس شرقي الخليج ولم يحصل أحد منهم شيئاً إلا ملك القسطنطينية كبداقليد وتغلب على شرقي الخليج بطريق من بطارقة الروم اسمه لشكري فلم يزل بيده إلى أن مات ثم غلب بعد ذلك على القسطنطينية وملكها من يد الإفرنج والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة بني أرتق وملكهم لماردين وديار بكر ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان أرتق بن أكسك ويقال: اكست والأول أصح كلمة أولها همزة ثم كافان الأولى ساكنة بينهما سين من مماليك السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان ملك السلجوقية وله مقام محمود في دولتهم وكان على حلوان وما إليها من أعمال العراق ولما بعث السلطان ملك شاه عساكره إلى حصار الموصل مع فخر الدولة بن جهير سنة سبع وسبعين وأربعمائة أردفه بعسكر آخر مع أرتق فهزمه مسلم بن قريش فحاصره بآمد ثم داخله في الخروج من هذا الحصار على مال اشترطه ونجا إلى الرقة ثم خشي أرتق من فعلته تلك فلحق بتتش حتى سار إلى حلب طامعاً في ملكها فلقيه تتش وهزمه وكان لأرتق في تلك الواقعة المقام المحمود ثم سار تتش إلى حلب وملكها واستجار مقدمها ابن الحسين بأرتق فأجاره من السلطان تتش ثم هلك أرتق سنة ثلاث وثمانين بالقدس وملكه من بعده أرتق ابناه أبو الغازي وسقمان وكان لهما معه الرها وسروج ولما ملك الإفرنج أنطاكية سنة إحدى وتسعين وأربعمائة اجتمعت الأمراء بالشام والجزيرة وديار بكر وحاصروها وكان لسقمان في ذلك المقام المحمود ثم تخاذلوا وافترقوا وطمع أهل مصر في ارتجاع القدس منهم وسار إليها الملك الأفضل المستولي على دولتهم فحاصرها أربعين يوماً وملكها بالأمان وخرج سقمان وأبو الغازي ابنا أرتق وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سونج وأحسن إليهم الأفضل وولى على بيت المقدس ورجع إلى مصر وجاء الإفرنج فملكوها كما تقدم في أخبار الدولة السلجوقية ولحق أبو الغازي بالعراق فولي شحنة بغداد وسار سقمان إلى الرها فأقام بها وكان بينه وبين كربوقا صاحب الموصل فتن وحروب أسر في بعضها ياقوتي ابن أخيه.

ثم توفي كربوقا سنة خمس وتسعين وولي الموصل بعده موسى التركماني وكان نائباً بحصن كيفا فزحف إليه جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وحاصره بالموصل واستنجد موسى سقمان على أن يعطيه حصن كيفا فأنجده وسار إليه وأفرج عنه جكرمس وخرج موسى للقاء سقمان فقتله مواليه غدراً ورجع سقمان إلى حصن كيفا فملكه ثم كانت الفتنة بين أبي الغازي وكمستكين القيصري لما بعثه بركيارق شحنة على بغداد وكان هو شحنة من قبل السلطان محمد فمنع القيصري من الدخول

واستنجد أخاه سقمان فجاء إليه من حصن كيفا في عساكره ونهب تكريت وخرج إليها أبو الغازي واجتمع معهم صدقة بن مزيد صاحب الحلة وعاثوا في نواحي بغداد وفتكوا بنفر من أهل البلد.

وبعث إليهم الخليفة في الصلح على أن يسير القيصري إلى واسط فسار إليه ودخل أبو الغازي بغداد ورجع سقمان إلى بلده وقد مر ذلك في أخبارهم ثم استولى مالك بن بهرام أخي سقمان على عامة الخرمية سنة سبع وتسعين وكان له مدينة سروج فملكها منه الإفرنج وسار إلى غانة فملكها من بني يعيش بن عيسى بن خلاط واستصرخوا بصدقة بن مزيد وارتجعها لهم منه وعاد إلى الحلة فعاد مالك فملكها واستقرت في ملكه ثم اجتمع سقمان وجكرمش صاحب الموصل على جهاد الإفرنج سنة سبع وتسعين وهم محاصرون حران فتركوا المنافسة بينهم وقصدوهم وسقمان في سبعة آلاف من التركمان فهزموا الإفرنج وأسروا القمص بردويل صاحب الرها أسره أصحاب سقمان فتغلب عليهم أصحاب جكرمش وأخذوه وافترقوا بسبب ذلك وعادوا إلى ما كان بينهم من الفتن والله أعلم.

استيلاء سقمان بن أرتق على ماردين

كان هذا الحصن ماردين من ديار بكر وأقطعه السلطان بركيارق بجميع أعماله لمغنٍّ كان عنده وكان في ولاية الموصل وكان ينجر إليه خلق كثير من الأكراد يفسدون السابلة واتفق أن كربوقا صاحب الموصل سار لحصار آمد وهي لبعض التركمان فاستنجد صاحبها بسقمان فسار لإنجاده وقاتل كربوقا قتالاً شديداً ثم هزمه وأسر ابن أخيه ياقوتي بن أرتق وحبسه بقلعة ماردين عند المغني فبقي محبوساً مدة طويلة وكثر ضرر الأكراد فبعث ياقوتي إلى المغني صاحب الحصون في أن يطلقه ويقيم عنده بالربض لدفاع الأكراد ففعل وصار يغير عليهم في سائر النواحي إلى خلاط وصار بعض أجناد القلعة يخرجون للإغارة معه فلا يهيجهم.

ثم حدثته نفسه بالتوثب على القلعة فقبض عليهم بعض الأيام مرجعه من الإغارة ودنا من القلعة وعرضهم على القتل إن لم يفتحوا له ففتحها أهلوهم وملكها وجمع الجموع وسار إلى نصيبين وأغار على جزيرة ابن عمر وهي لجكرمش فكبسه جكرمش وأصحابه في الحرب بينهم فقتله وبكاه جكرمش وكان تحت ياقوتي ابنة عمه سقمان فمضت إلى أبيها وجمعت التركمان وجاء سقمان بهم إلى نصيبين فترك طلب الثأر فبعث إليه جكرمش ما أرضاه من المال في ديته ورجع وقدم بماردين بعد ياقوتي أخوه علي بطاعة جكرمش وخرج منها لبعض المذاهب وكتب نائبه بها إلى عمه سقمان بأنه يملك ماردين لجكرمس فسار إليها سقمان وعوض عليا ابن أخته جبل جور وأقامت ماردين في ملكه مع حصن كيفا واستضاف إليهما نصيبين والله أعلم.

وفاة سقمان بن أرتق وولاية أخيه أبي الغازي مكانه بماردين

ثم بعث فخر الدين بن عمار صاحب طرابلس يستنجد سقمان بن أرتق على الإفرنج وكان استبد بها على الخلفاء العلويين أهل مصر ونازله الإفرنج عندما ملكوا سواحل الشام فبعث بالصريخ إلى سقمان بن أرتق سنة ثمان وتسعين وأجابه وبينما هو يتجهز للمسير وافاه كتاب طغركين صاحب دمشق المستبد بها من موالي بني تتش يستدعيه لحضور وفاته خوفاً على دمشق من الإفرنج فأسرع المسير إليه معتزماً على قصد طرابلس وبعدها دمشق فانتهى إلى القريتين وندم طغركين على استدعائه وجعل يدبر الرأي مع أصحابه في صرفه ومات هو بالقدس فكفاهم الله أمره وقد كان أصحابه عندما أشفى على الموت أشاروا عليه بالرجوع إلى كيفا فامتنع وقال: هذا جهاد وإن مت كان لي ثواب شهيد فلما مات حمله ابنه إبراهيم إلى حصن كيفا فدفنه بها.

وكان أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد كما قدمناه ولاه السلطان محمد أيام الفتنة بينه وبين أخيه بركيارق فلما اصطلح بركيارق وأخوه سنة تسع وتسعين على أن تكون بغداد له وممالك أخرى من الممالك الإسلامية ومن جملتها حلوان وهي اقطاع أبي الغازي فبادر وخطب لبركيارق ببغداد فنكر عليه ذلك صدقة بن مزيد وكان من شيعة السلطان محمد فجاء إلى بغداد ليزعج أبا الغازي عنها ففارقها إلى يعقوب وبعث إلى صدقة يعتذر بأنه صار في ولاية بركيارق ويحكم الصلح في اقطاعه وولايته فلم يمكنه غير ذلك.

ومات بركيارق على أثر ذلك فخطب أبو الغازي لابنه ملك شاه فنكر ذلك السلطان محمد منه فلما استولى على الأمر عزله عن شحنة بغداد فلحق بالشام وحمل رضوان بن تتش صاحب حلب على حصار نصيبين من بلاد جكرمش فحاصروها وبعث جكرمش إلى رضوان وأغراه بأبي الغازي ففسد ما بينهما ورحلوا مفترقين على نصيبين وسار أبو الغازي إلى ماردين وقد مات أخوه سقمان كما قلناه فاستولى عليها والله تعالى أعلم.

ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين على عكار وكان أول من وصل منهم الملك فيليب ملك إفرنسيس وهو من أشرف ملوكهم نسباً وإن كان ملكه ليس بالكثير. وكان وصوله إليها ثاني عشر رقبيع الأول ولم يكن في الكثرة التي ظنوها وإنما كان معه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوس من على عكا منهم ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها وكان صلاح الدين بشفرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد. وأرسل إلى الأمير أسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك إنكلترا الفرنج وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرص ليملكها فاقتتلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وكتب أيضاً صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا وأما لفرنج الذين على عكا فإنهم لازموا قتال من بها عليها سبع منجيقات رابع جمادى الأولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعود عنهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد. ثم وصل ملك إنكلترا ثالث عشر جمادى الأول وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم، فإنه لمّا وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعاً فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج.

فلما فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج فوصل إليهم في خمس وعشرين قطعة كباراً مملوءة رجالاً وأموالاً فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها.

ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بسطة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والأقوات فتجهزت وسيرت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل: فلقيها ملك إنكلترا مصادفة: فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص ونزل مقدم من بها إلى أسفلها وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع ما فيها وكانت عكا محتاجة إلى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم ثم إن الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج ان ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيراً من التراب مستطيلاً وما زالوا يقربونه إلى البلد ويقاتلوان من وراءه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار عى نصف علوه فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها. فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع.

ذكر ملك الفرنج عكا:

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم اللّه على مدينة عكا وكان أول وهن من البلد أن الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج إلى ملك إفرنسيس وبذل تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يجبه إلى ذلك فعاد علي بن أحمد إلى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم. ثم إن أمراء ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب والفرنج لم يجيبوا إلى التسليم، اتخذوا الليل جملاً وركبوا في شيء صغير وخرجوا سراً من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم: عز الدين أرسل الأسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الوشاقي ومعهم غيرهم فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهناً على وهنهم وضعفاً على ضعفهم وأيقنوا بالعطب. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين في معنى تسليم البلد فأجابهم إلى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فأرسل إلى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يداً واحدة ويتركوا البلد بما فيه، ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فلما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما زعموا عليه لظهوره. فلما عجز الناس من حفظ البلد زحف إليهم الفرنج بحدهم وحديدهم فظهروا من البلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون وكانت هي العلامة إذا اخترمهم أمر.

فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا

على الفرنج من جميع جهاتهم طلباً منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم. وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضراً خرج إلى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين، وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه، وأن يكون مدة تحصيل المال والأسرى إلى شهرين. فلما حلفوا له سلم البلد إليهم ودخلوه سلماً فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم. وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم، وراسلوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال وكان هو الأمان له إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول.

فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه وأن يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية: لا نحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر عندنا. وقال ملوكهم: إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل إليهم شيئاً وأعاد الرسالة إليهم وقال: نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهناً بالباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا: لا نحلف. إنما نرسل المائة ألف دينار التي حصلت والأسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان إلى ذلك، فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون إليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم وإذ أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم، ومن لا مال له. فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الأسرى والصليب إلى دمشق.

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها

لما فرغ الفرنج لعنهم اللّه من إصلاح أمر عكا برزوا منها في الثامن والعشرين من رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر لا يفارقونه فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك ذلك اليوم الملك الأفضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين أياز كوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان فضايقوا الفرنج في مسيرهم، وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة. وأرسل الأفضل إلى والده يستمده ويعرفه الحال، فأمر العساكر بالمسير إليه فاعتذروا بأنهم ما ركبوا بأهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير. فبطل المدد وعاد ملك الانكلتار إلى ساقة الفرنج، فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقيمون- قرية بالقرب منهم-، واحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعوض ما هلك من الخيل. ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه فيقتلونهم لأن صلاح الدين كان قد قسم أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتلهم بمن قتلوا ممن كان بعكا فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلاً كثيراً.

ونزل الفرنج بها وبات المسلمون قريباً منهم، فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم فأوقع المسلمون الذين كانوا في اليزك فقتلوا منهم وأسروا منهم. ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق.

فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد. وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج أنها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون. لكن كان بالقرب من

المسلمين شعرى كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق وقتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم، وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه إياز الطويل وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل المسلمون واعنة خيلهم بأيديهم ثم سار الفرنج إلى يافا فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ولما كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة ما ذكرناه سار صلاح الدين عنهم إلى الرملة واجتمع بأثقاله بها وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له: قد رأيت ما منا بالأمس، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان، ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلونا لننزاح عنها وينزلون عليها فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا لأن العدو وقد قوي بأخذ عكات وما فيها من الأسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها فلم نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد إلى ذلك. وقالوا: إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا فلما رأى الأمر كذلك سار إلى وأمر بتخريبها تاسع عشر شعبان والقيت حجارتها في البحر وهلك فيها الأموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع. ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها. وكان المركيس لعنه الله لما أخذ الفرنج عكا قد أحسن من ملك انكلتار بالغدر به فهرب من عنده إلى صور وهي له بيده وكان رجل الفرنج رأياً وشجاعة. وكل هذه الحروب هو أثارها فلما خربت عسقلان أرسل إلى ملك انكلتار يقول له: مثلك لا ينبغي أن يكون ويتقدم على الجيوش تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنت سرت إليه مجداً فرحلته وملكتها صفواً عفواً بغير قتال ولا حصار فإنه ما خربها إلى وهو عاجز عن حفظها. وحق المسيح لو أنني معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد!

فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان ومضى إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد. وفي مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج ثم سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر، وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج إليه، وعاد إلى المخيم ثامن رمضان. وفي هذه الأيام خرج ملك إنكلتار من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالاً شديداً وكاد ملك إنكلتار يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها أيضاً كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون.

اضطراب أبي الغازي في طاعته وأسره ثم خلاصه

لما ولى السلطان محمد على الموصل والجزيرة وديار بكر سنة اثنتين وخمسمائة مودود بن أفتكين مكان جاولي سكاوو الذي ملكها من يد جكرمش كما مر في أخبارهم فوصل مودود إلى الموصل وسار جاولي إلى نصيبين وهي يومئذ لأبي الغازي وراسله في المظاهرة والإنجاد فوصل إليه بماردين على حين غفلة مستنجداً به فلم يسعه إلا إسعافه وسار معه إلى سنجار والرحبة وحاصرهما وشدد عليهما فلما نزل الخابور هرب أبو الغازي راجعاً إلى نصيبين ثم إلى بلده وبقي مضطرباً ثم بعث السلطان محمد سنة خمس وخمسمائة إلى الأمير مودود بالمسير إلى قتال الإفرنج وأن يسير الأمراء معه من كل جهة مثل سقمان القطبي صاحب ديار بكر وأحمد بك صاحب مراغة وأبي الهيجاء صاحب إربل وأبي الغازي صاحب ماردين فحضروا كلهم إلا أبا الغازي فإنه بعث ولده أياز في عسكر فسارت العساكر إلى الرها وحاصروها وامتنعت عليهم ثم ساروا سنة ست وخمسمائة إلى سروج كذلك.

ثم ساروا سنة سبع إلى بلاد الإفرنج فهزموهم على طبرية ودوخوا بلادهم وعاد مودود إلى دمشق وافترقت العساكر ودخل دمشق ليشتي بها عند طغركين صاحبها فقتل غيلة بها واتهم طغركين في أمره وبعث السلطان مكانه على العساكر والموصل أقسنقر البرسقي وأمره بقصد الإفرنج وقتالهم وكتب إلى الأمراء بطاعته وبعث ابنه الملك مسعودا في عسكر كثيف ليكونوا معه فسار أقسنقر سنة ثمان وخمسمائة وفر أبو الغازي وحاصره بماردين حتى استقام وبعث معه ابنه أياز في عسكر فحاصروا الرها وعاثوا في نواحيها ثم سروج وشمشاط وأطاعه صاحب مرعش وكيسوم ورجع فقبض على أياز بن أبي الغازي ونهب سواد ماردين فسار أبو الغازي من وقته إلى ركن الدولة داود ابن أخيه سقمان وهو بحصن كيفا مستنجداً به فأنجده وساروا إلى البرسقي آخر ثمان وخمسمائة فهزموهم وخلصوا ابنه أياز من الأسر وأرسل السلطان إلى أبي الغازي يتهدده فلحق بطغركين صاحب دمشق صريخاً

وكان طغركين مستوحشاً لاتهامه بأمر مودود فاتفقا على الاستنجاد وبعثا بذلك إلى صاحب أنطاكية فجاء إليهما قرب حمص وتحالفا وعاد إلى أنطاكية وسار أبو الغازي إلى ديار بكر في خف من أصحابه فاعترضه قيرجان صاحب حمص فظفر به وأسره وبعث إلى السلطان بخبره وأبطأ عليه وصول جوابه فيه وجاء طغركين إلى حمص فدخل على قيرجان وألح عليه بقتل أبي الغازي ثم أطلقه قيرجان وأخذ عليه.

وسار أبو الغازي إلى حلب وبعث السلطان العساكر مع يوسف بن برسق صاحب همذان وغيره من الأمراء لقتال أبي الغازي وقتال الإفرنج بعده فساروا إلى حلب وبها لؤلؤ الخادم مولى رضوان بن تتش كفل ابنه ألب أرسلان بعد موته ومعه مقدم العساكر شمس الخواص فطالبوهما بتسليم حلب بكتاب السلطان إليهما في ذلك وبادر أبو الغازي وطغركين فدخلا إليهما فامتنعت عليهما فساروا إلى حماة من أعمال طغركين وبها ذخائره ففتحوها عنوة ونهبوها وسلموها إلى الأمير قيرجان صاحب حمص فأعطاهم أياز بن أبي الغازي وكان أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص ساروا إلى روجيل صاحب أنطاكية يستنجدونه على حفظ حماة وجاءهم هنالك بغدوين صاحب القدس والقمص صاحب طرابلس وغيرهما واتفقوا على مطاولة العساكر ليتفرقوا عند هجوم الشتاء واجتمعوا عند قلعة أفامية فلم تبرح العساكر مكانها فافترقوا طغركين وعاد إلى دمشق وأبو الغازي إلى ماردين والإفرنج إلى بلادهم ثم كان أثر ذلك فتح كفرطاب على المسلمين واعتزموا على معاودة حلب فاعترضهم روجيل صاحب أنطاكية وقد جاء في خمسمائة فارس مدداً للافرنج في كفر طاب فانهزم المسلمون وكان تمحيصهم ورجع برسق أمير العساكر وأخوه منهزمين إلى بلادهم وكان أياز بن أبي الغازي أسيراً عندهم فقتله الموكلون به يوم المعركة سنة تسع وخمسمائة والله تعالى أعلم.

استيلاء أبي الغازي على حلب

كان رضوان بن تتش صاحب حلب لما توفي سنة سبع وخمسمائة قام بأمر دولته لؤلؤ الخادم ونصب ابنه ألب أرسلان في ملكه ثم استوحش منه ونصب مكانه أخاه سلطان شاه واستبد عليه ثم سار لؤلؤ الخادم إلى قلعة جعبر سنة إحدى عشرة بينه وبين مالك بن سالم بن بدران فغدر به مماليك الأتراك وقتلوه عند خرت برت واستولوا على خزائنه واعترضهم أهل حلب واستنقذوا منهم ما أخذوه وولي شمس الخواص أتابك مكان لؤلؤ ثم عزل لشهر وولي أبو المعالي بن الملحي الدمشقي ثم عزل وصودر واضطربت الدولة وخشي أهل حلب على بلدهم من الإفرنج فاستدعوا أبا الغازي بن أرتق من ماردين وسلموا له البلد وانقرض ملك آل رضوان بن تتش منها فلم يملكها بعد واحد منهم ولما ملكها لم يجد فيها مالاً فصادر جماعة من الخدم وصانع الإفرنج بمالهم ثم سار إلى ماردين بغية العودة إلى حمايتها واستخلف عليها ابنه حسام الدين تمرتاش.

واقعة أبي الغازي مع الإفرنج

ولما استولى أبو الغازي على حلب وسار عنها طمع في الإفرنج وساروا إليها فملكوا مراغة وغيرها من أعمالها وحاصروها فلم يكن لأهلها بد من مدافعتهم بقتال أو بمال فقاسموهم أملاكهم التي بضاحيتها في سبيل المصانعة وبعثوا إلى بغداد يستغيثون فلم يغاثوا وجمع أبو الغازي من العساكر والمتطوعة نحواً من عشرين ألفاً وسار بهم إلى الشام سنة ثلاثة عشرة ومعه أسامة بن مبارك بن منقذ الكناني وطغان أرسلان بن اسكين بن جناح صاحب أرزن الروم ونزل الإفرنج قريباً من حصون الأماري في ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل ونزلوا في تل عفرين حيث كان مقتل مسلم بن قريش وتحصنوا بالجبال من كل جهة إلا ثلاث مسارب فقصدهم أبو الغازي ودخل عليهم من تلك المسارب وهم غارون فركبوا وصدقوا الحملة فلقوا عساكر المسلمين متابعة فولوا منهزمين وأخذهم السيف من كل جهة فلم يفلت إلا القليل وأسر من زعمائهم سبعون فاداهم أهل حلب بثلثمائة ألف دينار وقتل سرجان صاحب أنطاكية.

ونجا فلهم من المعركة فاجتمع جماعة من الإفرنج وعاودوا اللقاء فهزمهم أبو الغازي وفتح حصن الأثارن ورزدنا وعاد إلى حلب فأصلح أمورها وعبر الفرات إلى ماردين وولى على حلب ابنه سليمان ثم وصل دبيس بن صدقة إلى أبي الغازي مستجيراً به فكتب إليه المسترشد مع سرير الدولة عند أبي الغازي بإبعاد دبيس ثم وقع بينه وبين السلطان محمود الاتفاق ورهن ولده على الطاعة ورجع وسار أبو الغازي إلى الإفرنج عقب ذلك سنة أربع عشرة فقاتلهم بأعمال حلب وظفر بهم ثم سار هو وطغركين صاحب دمشق فحاصروا الإفرنج بالمثيرة وخشوا من استماتتهم فأفرج لهم أبو الغازي حتى خرجوا من الحصن وكان لا يطيل المقام بدار الحرب لأن أكثر الغزاة معه التركمان يأتون بجراب دقيق وقديد شاه فيستعجل العود إن فنيت أزوادهم والله أعلم.

انتقاض سليمان بن أبي الغازي بحلب

كان أبو الغازي قد ولى على حلب ابنه سليمان فحمله بطانته على الخلاف على أبيه وسار إليه أبوه تلقاه ابنه سليمان بالمعاذير فأمسك عنه وقبض على بطانته الذين داخلوه في ذلك وكان متولي كبرها أمير كان لقيطاً لأبيه ونشأ في بيته فسمله وقطع لسانه وكان منهم آخر من أهل حماة قدمه أبو الغازي على أهل حلب فقطعه وسمله فمات وأراد قتل ابنه ثم ثنته الشفقة عليه وهرب إلى دمشق وشفع فيه طغركين فلم يشفعه ثم استخلف على حلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار ولقبه بدر الدولة وعاد إلى ماردين وذلك سنة خمس عشرة ثم ابنه حسام الدين تمرتاش مع القاضي بهاء الدولة أبي الحسن الشهرزوري شافعاً في دبيس وضامناً في طاعته فلم يتم ذلك فلما انصرف تمرتاش إلى أبيه اقطع السلطان أباه أبا الغازي مدينة ميافارقين وكانت لسقمان القطبي صاحب خلاط فتسلمها أبو الغازي ولم تزل في يده إلى أن ملكها صلاح الدين بن أيوب سنة ثمانين وخمسمائة والله تعالى أعلم.

واقعة مالك بن بهرام مع جوسكين صاحب الرها

قد تقدم لنا أن جوسكين من الإفرنج كان صاحب الرها وسروج وأن مالك بن بهرام كان قد ملك مدينة غانة فسار سنة خمس عشرة إلى الرها وحاصرها أياما فامتنعت عليه وسار جوسكين في اتباعه بعد أن جمع الإفرنج وقد تفرق عن مالك أصحابه ولم يبق معه إلا أربعمائة فلحقوه في أرض رخوة قد نضب عنها الماء فوحلت فيها خيولهم ولم يقدروا على التخلص فظفر بهم أصحاب مالك وأسروهم وجعل جوسكين في إهاب جمل وخيط عليه وطلبوا منه تسليم الرها فلم يفعل وحبسه في خرت برت بعد أن بذل في فديته أموالاً فلم يفادوه والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

وفاة أبي الغازي وملك بنيه من بعده

ثم توفي أبو الغازي بن أرتق صاحب ماردين في رمضان سنة ست عشرة وخمسمائة فولي بعده بماردين ابنه حسام الدين تمرتاش وملك سليمان ميافارقين وكان بحلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار فاستولى عليها ثم سار مالك بن بهرام بن أرتق إلى مدينة حران فحاصرها وملكها وبلغه أن سليمان ابن عمه عبد الجبار صاحب حلب قد عجز عن مدافعة الإفرنج وأعطاهم حصن الاماري فطمع في ملك بلاده وسار إليها في ربيع سنة عشرة وملكها من يده على الأمان ثم سار سنة ثمان عشرة إلى منبج وحاصرها وملك المدينة وحبس صاحبها حسان التغلبي وامتنع أهلها بالقلعة فحاصرها وسمع الإفرنج بذلك فساروا إليه فترك على القلعة من يحاصرها ونهض إليهم فهزمهم وأثخن فيهم وعاد إلى منبج فحاصرها وأصابه بعض الأيام سهم غرب فقتله فاضطرب العسكر وافترقوا وخلص حسان من محبسه وكان تمرتاش بن أبي الغازي صاحب ماردين معه على منبج فلما قتل حمل شلوه إلى حلب ودفنه بها واستولى عليها ثم استخلف عليها وعاد إلى ماردين وجاء الإفرنج إلى مدينة صور فملكوها وطمعوا في غيرها من بلاد المسلمين ولحق بهم دبيس بن صدقة ناجياً من واقعته مع المسترشد فأطمعهم في ملك حلب وساروا معه فحاصروها وبنوا عليها المساكن وطال الحصار وقلت الأقوات واضطرب أهل البلد وظهر لهم العجز من صاحبهم ولم يكن في الوقت أظهر من البرسقي صاحب الموصل ولا أكثر قوة وجمعاً منه فاستدعوه ليدافع عنهم ويملكوه وشرط عليهم أن يمكنوه من القلعة قبل وصوله ونزل فيها بوابه وسار فلما أشرف على الإفرنج ارتحلوا عائدين إلى بلادهم وخرج أهل حلب فتلقوا البرسقي فدخل واستولى على حلب وأعمالها ولم تزل بيده إلى أن هلك وملكها ابنه عز الدين ثم هلك فولي السلطان محمود عليها أتابك زنكي حسبما يأتي في أخبار دولته ورجع تمرتاش إلى ماردين واستمر ملكه بها وكان مستولياً على كثير من قلاع ديار بكر استولى سنة اثنتين وثلاثين على قلعة الساج من ديار بكر وكانت بيد بعض بني مروان من بقايا ملوك الأولين وكان هذا آخرهم بهذه القلعة وكان ملك ميافارقين قد سار لحسام الدين تمرتاش وملكها من يد أخيه سليمان ولم يزل تمرتاش ملكاً بماردين إلى أن هلك سنة سبع وأربعين وخمسمائة لإحدى وثلاثين سنة من ملكه والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة تمرتاش وولاية ابنه ألبي بعده

ثم توفي حسام الدين تمرتاش سنة سبع وأربعين وخمسمائة كما قلنا، فملك بعده ابنه بماردين ألبي بن تمرتاش وبقي ملكاً عليها إلى أن مات وولي بعده ابنه أبو الغازي بن ألبي إلى أن مات ولم يذكر ابن الأثير تاريخ وفاتهما وقال مؤرخ حماة: لم يقع إلي تاريخ وفاتهما.

ولاية حسام الدين بولق أرسلان بن أبي الغازي بن ألبي

ولما توفي أبو الغازي بن ألبي قام بأمر ملكه نظام الملك البقش ونصب للملك مكانه ابنه بولق أرسلان طفلاً واستبد عليه وكان البقش غالباً على هواه حيث صار أمر الطفل في يده ولم تزل حالهم على ذلك إلى أن هلك حسام الدين في سنة خمس وتسعين وخمسمائة على عهد بولق هذا وكناه ابن الأثير حسام الدين ناصراً الملك قصد العادل أبو بكر بن أيوب ماردين وخشيت ملوك الجزيرة ولم يقدروا على منعه ثم توفي العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر وولي أخوه الأفضل فاستنفر العادل أهل مصر ودمشق وأهل سنجار وبعثهم مع ابنه الكامل وحاصروا ماردين فبعث إليه النقش المستولي على بولق بالطاعة وتسليم القلعة لأجل معلوم على أن يدخل إليهم الأقوات ووضع العادل ابنه على بابها أن لا يدخلها زائد على القوت فصانعوا الولد بالمال وشحنوها بالأقوات وبينما هم في ذلك جاء نور الدين صاحب الموصل لإنجادهم وقاتلهم فانهزمت عساكر العادل وخرج أهل القلعة فأوقعوا بعسكر الكامل ابنه فرحلوا جميعاً منهزمين ونزل حسام الدين بولق إلى نور الدين ولقيه وشكر وعاد ونزل نور الدين على دبيس ثم رحل عنها قاصداً حوران كما نذكره في أخبار دولته إن شاء الله تعالى والله أعلم.

وفاة بولق وولاية أخيه أرتق

ولما هلك بولق أرسلان نصب لؤلؤ الخادم بعده للملك أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق أرسلان بن قطب الدين أبي الغازي ولم يذكر ابن الأثير خبر وفاته أيضاً وبقي مملكا في كفالة البقش إلى سنة إحدى وستمائة والله أعلم.

مقتل البقش واستبداد أرتق المنصور واتصال الملك في عقبه

ثم استنكف أرتق من الحجر ومرض البقش سنة إحدى وستمائة فجاء أرتق لعيادته وقتل لؤلؤاً خادمه في بعض زوايا بيته ورجع إلى البقش فقتله في فراشه واستقل بملك ماردين وتلقب المنصور وتوفي سنة ست وثلاثين وثلثمائة وملك بعده ابنه السعيد نجم الدين غازي بن أرتق وتوفي سنة ثمان أو ثلاث وخمسين وملك بعده أخوه المظفر قرا أرسلان بن أرتق فأقام سنة أو بعضها ثم هلك سنة ثلاث وتسعين وستمائة وملك بعده أخوه المنصور نجم الدين غازي بن قرا أرسلان إلى أن توفي سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لأربع وخمسين سنة من ولايته وملك بعده ابنه المنصور أحمد إلى أن توفي سنة تسع وستين لثلاث سنين من ولايته ثم ملك بعده ابنه الصالح محمود أربعة أشهر وخلعه عمه المظفر فخر الدين داود المنصور أحمد إلى أن توفي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وملك بعده ابنه مجد الدين عيسى وهو السلطان بماردين لهذا العهد والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

ولما ملك هلاكوبن طلوخان بن جنكزخان مدينة بغداد وأعمالها أعطاه المظفر قرا أرسلان طاعته وخطب له في أعماله ولم يزالوا يدينون بطاعة بنيه إلى أن هلك أبو سعيد بن خربهر آخر ملوك التتر ببغداد سنة سبع وثلاثين فقطعوا الخطبة لهم واستبد أحمد المنصور منهم وهو الثاني عشر من لدن أبي الغازي جدهم الأول.

وأما داود بن سقمان فإنه ملك حصن كيفا من بعد سقمان أبيه وإبراهيم أخيه ولم أقف على خبر وفاته.

وملك بعده ابنه فخر الدين قرا أرسلان بن داود وملك أكثر ديار بكر مع حصن كيفا وتوفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة.

وملك بعده ابنه نور الدين محمد بعهده إليه بذلك وكانت بينه وبين صلاح الدين مواصلة ومظاهرة ظاهر صلاح الدين على الموصل على أن يظاهره على آمد فظاهره صلاح الدين وحاصرها من صاحبها ابن سنان سنة تسع وستين وصارت من أعمال نور الدين كما نذكر في دولة صلاح الدين ثم توفي نور الدين محمد سنة إحدى وثمانين وخلف ولدين فملك الأكبر منهما قطب الدين سقمان وأقام بتدبير دولته العوام بن سماق الأسعد وزير أبيه وكان عماد الدين أخو نور الدين هو المرشح للإمارة إلا أنه سار في العساكر مدداً لصلاح الدين على حصار الموصل فلما بلغه الخبر بوفاة أخيه سار لملك البلد لصغر أولاد أخيه نور الدين فلم يظفر واستولى على خرت برت فانتزعها منهم وملكهم وأورثها بنيه فلما أفرج صلاح الدين عن الموصل لقيه قطب الدين سقمان وأقره على ملك أبيه بكيفا وأبقى بيده آمد التي كان ملكها لأبيه وشرط عليه مراجعته في أحواله والوقوف عند أوامره وأقام أميراً من أصحاب ابنه قرا أرسلان اسمه صلاح الدين فقام بأمور دولته واستقر ملكه بكيفا وآمد وما إليهما إلى أن توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة تردى من جوسق له بحصن كيفا فمات وكان أخوه محمود مرشحاً لمكانه إلا أن قطب الدين سقمان كان شديد

البغضاء له وأشخصه إلى حصن منصور من آخر عملهم واصطفى مملوكه اياساً وزوجه بأخته وجعله ولي عهده.

ولما توفي ملك بعده مملوكه وشخص أهل الدولة فدسوا إلى محمود فسار إلى آمد وسبقه إياس إليها ليدافعه فلم يطق وملك محمود آمد واستولى على البلد كلها وحبس إياساً إلى أن أطلقه بشفاعة صاحب بلاد الروم ولحق به وانتظم في أمرائه واستقل محمود بملك كيفا وآمد وأعمالهما ولقب ناصر الدين وكان ظالماً قبيح السيرة وكان ينتحل العلوم الفلسفية وتوفي سنة تسعة عشر وستمائة وولي مكانه المسعود وحدثت بينه وبين الأفضل بن عادل فتنة واستنجد عليه أخاه الكامل فسار في العساكر من مصر ومعه داود صاحب الكرك والمظفر صاحب حماة فحاصروه بآمد إلى أن نزل عنها وجاء إلى الكامل فاعتقله فلم يزل عنده حبيساً إلى أن مات الكامل فذهب إلى التتر فمات عندهم.

وأما عماد الدين بن قرا أرسلان الذي ملك خرت برت من يد قطب الدين سقمان ابن أخيه نور الدين فلم تزل في يده إلى أن توفي سنة إحدى وستمائة لعشرين سنة من ملكه إياها.

وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر وكانت بينه وبين ناصر الدين محمود ابن عمه نور الدين صاحب آمد وكيفا عداوة ودخل محمود في طاعة العادل بن أيوب وحضر مع ابنه الأشرف في حصار الموصل على أن يسير معه بعدها إلى خرت برت فيملكها له وكان نظام الدين مستنجداً به الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم فمات وسار الأشرف مع محمود بعساكره وحاصروا خرت برت في شعبان سن إحدى وستين وملكوا اربضها وبعثوا غياث الدين صاحب الروم إلى نظام الدين المدد بالعساكر مع الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط فلما انتهوا إلى ملطية أفرج الأشرف ومحمود عن خرت برت إلى بعض حصون نظام الدين بالصحراء ببحيرة سهنين وفتحت في ذي الحجة سنة إحدى وستين فلما وصل الأفضل بعساكر غياث الدين ووصل الأشرف عن البحيرة راجعاً جاء نظام الدين بالعساكر إلى الحصن فامتنع عليه وبقي لصاحب آمد ثم ملك كيقباد صاحب الروم حصن خرت برت من أيديهم سنة إحدى وثلاثين وانقرض منها ملك بني سقمان والله وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

دولة بني زنكي بن أقسنقر الخبر عن دولة بني زنكي بن أقسنقر من موالي السلجوقية بالجزيرة والشام ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدم لنا ذكر أقسنقر مولى السلطان ملك شاه وأنه كان يلقب قسيم الدولة وأن السلطان ملك شاه لما بعث الوزير فخر الدولة بن جهير سنة سبع وسبعين وأربعمائة بفتح ديار بكر من يد بن مروان واستنجد ابن مروان صاحب الموصل شرف الدولة مسلم بن عقيل وهزمته العساكر وانحصر بآمد فبعث السلطان عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير ليخالف شرف الدولة إلى السلطان فلقيه في الرحبة وأهدى له فرضي عنه ورده إلى بلده الموصل واستولى بنو جهير بعد ذلك على ديار بكر كما مر في موضعه من دولة بني مروان ثم كان بعد ذلك شأن حلب واستبد بها أهلها بعد انقراض دولة بني صالح بن مرداس الكلابي وطمع فيها شرف الدولة مسلم بن قريش وسليمان بن قطلمش صاحب بلاد الروم وتتش ابن السلطان ألب أرسلان.

وقتل سليمان بن قطلمش مسلم بن قريش ثم قتل تتش سليمان بن قطلمش وجاء إلى حلب فملكها وامتنعت عليه القلعة فحاصرها وقد كانوا بعثوا إلى السلطان ملك شاه واستدعوا لملكها فوصل إليهم سنة تسع وسبعين: ورحل تتش عن القلعة ودخل البرية واستولى السلطان على حلب وولى عليها قسيم الدولة أقسنقر وعاد إلى العراق فعمرها أقسنقر وأحسن السيرة فيها وسار معه تتش حين عهد له أخوه السلطان ملك شاه بفتح بلاد العلوية بمصر والشام ففتح الكثير منها وهو معه كما مر وزحف قبل ذلك سنة ثمانين إلى بني منقذ بشيرز فحاصره وضيق عليه ثم رجع عنه عن صلح وأقام بحلب ولم يزل والياً عليها إلى أن هلك السلطان سنة خمس وثمانين.

واختلف ولده من بعده وكان أخوه تتش قد استولى على الشام منذ سنة إحدى وسبعين فلما هلك أخوه طمع في ملك السلجوقية من بعده فجمع العساكر وسار لاقتضاء الطاعة من الأمراء معه بالشام وقصد حلب فأطاعه قسيم الدولة أقسنقر وحمل باغيسيان صاحب أنطاكية وتيران صاحب الرها وحران على طاعته حتى يظهر مآل الأمر في ولد سيدهم ملك شاه وساروا مع تتش إلى الرحبة فملكها وخطب لنفسه فيها ثم إلى نصيبين ففتحها عنوة ثم إلى الموصل فهزم صاحبها إبراهيم بن قريش بن بدران

وتولى كبر هزيمته أقسنقر وقتل قريش بن إبراهيم وملك الموصل من يده وولى تتش عليها ابن عمته علي بن مسلم بن قريش وسار إلى ديار بكر فملكها ثم إلى أذربيجان.

وكان بركيارق بن مالك شاه قد استولى على الري وهمذان وكثير من البلاد فسار لمدافعته وجنح قسيم الدولة أقسنقر وبوزان صاحب الرها إلى بركيارق ابن سيدهم فلحقوا به وتركوا تتش فانقلب عائداً إلى الشام ساخطاً على أقسنقر وبوزان ما فعلاه فجمع العساكر وسار إلى حلب سنة سبع وثمانين لقتال قسيم الدولة وأمده بركيارق بالأمير كربوقا في العساكر فبرزوا إلى لقائهم والتقوا على ست فراسخ من حلب ونزع بعض عساكر أقسنقر إلى تتش فاختل مصافه وتمت الهزيمة عليه وجيء به أسيراً إلى تتش فقتله صبراً.

ولحق كربوقا وبوزان بحلب وتبعهما فحاصرهما وملكها وأخذهما أسيرين كما مر في أخبار الدولة وكان قسيم الدولة حسن السياسة كثير العدل وكانت بلاده آمنة ولما مات نشأ ولده في ظل الدولة السلجوقية وكان أكبرهم زنكي فنشأ مرموقاً بعين التجلة ولما ولي كربوقا الموصل من قبل بركيارق أيام الفتنة بين بركيارق وأخيه محمد كان زنكي في جملته لأنه كان صاحب أبيه وسار كربوقا أيام ولايته لحصار آمد وصاحبها يومئذ بعض أمراء التركمان وأنجده سقمان بن أرتق وكان زنكي بن أقسنقر يومئذ صبياً وهو في جملة رجال كربوقا ومعه جماعة من أصحاب أبيه فجلا في تلك الحرب.

وانهزم سقمان وظهر كربوقا. وفي هذه الحرب أسر بن ياقوتي بن أرتق وسجنه كربوقا بقلعة ماردين فكان ذلك سبباً لملك بني أرتق فيها كما مر في أخبار دولتهم ثم تتابعت الولاة على الموصل فوليها جكرمش بعد كربوقا وبعده جاولي سكاوو وبعده مودود بن ايتكين وبعده أقسنقر البرسقي كما تقدم في أخبار السلجوقية وولاه السلطان محمد بن ملك شاه سنة ثمان وخمسين وبعث معه ابنه مسعوداً وكتب إلى سائر الأمراء هناك بطاعته ومنهم يومئذ عماد الدين زنكي بن أقسنقر فاختص به.

ولما ملك السلطان محمود بعد أبيه محمد سنة إحدى عشرة كان أخوه مسعود بالموصل كما تقدم أتابكه حيوس بك ونقل البرسقي من الموصل إلى شحنة بغداد وانتقض دبيس بن صدقة صاحب الحلة على المسترشد والسلطان محمود وجمع البرسقي العساكر وقصد الحلة فكاتب دبيس السلطان مسعود وأتابكه حيوس بك بالموصل وأغراهما بالمسير إلى بغداد فسار لذلك مع السلطان مسعود وزيره فخر الملك وأبو علي بن عمار صاحب طرابلس وزنكي بن قسيم الدولة أقسنقر وجماعة من أمراء الجزيرة ووصلوا إلى بغداد وصالحهم البرسقي وسار معهم.

ودخل مسعود إلى بغداد وجاء منكبرس إلى بغداد ونزع إليه دبيس بن صدقة ووقعت الحرب بينهما على بغداد كما تقدم في أخبار الدولة وأقام منكبرس ببغداد ثم كان له في خدمة السلطان محمود عند حربه مع أخيه مسعود مقامات جليلة وغلب السلطان أخاه مسعوداً وأخذه عنده واستنزل أتابكه حيوس بك من الموصل وأعاد إليها البرسقي سنة خمسة عشر فعاد زنكي إلى الاختصاص به كما مر ثم أضاف إليه السلطان محمود شحنة بغداد وولاية واسط مضافة إلى ولاية الموصل سنة ستة عشر فولى عليها عماد الدين زنكي فحسن أثره في ولايتهما.

ولما كانت الحرب بين دبيس بن صدقة وبين الخليفة المسترشد وبرز المسترشد لقتاله من بغداد وحضر البرسقي من الموصل وعماد الدين زنكي فانهزم دبيس عماد الدين في ذلك المقام ثم ذهب دبيس إلى البصرة وجمع المنتفق من بني عقيل فدخلوا البصرة ونهبوها وقتلوا أميرها وبعث المسترشد إلى البرسقي فعذله في إهماله أمر دبيس حتى فعل في البصرة ما فعل فبادر إلى قصره وهرب دبيس واستولى على البصرة وولى عليها عماد الدين زنكي بن أقسنقر فأحسن حمايتها والدفاع عنها وكبس العرب في حللهم بضواحيها وأجفلوا ثم عزل البرسقي سنة ثمان عشرة عن شحنة بغداد وعاد إلى الموصل فاستدعى عماد الدين زنكي من البصرة فضجر من ذلك وقال: كل يوم للموصل جديد يستنجدنا. وسار إلى السلطان ليكون في جملته فلما قدم عليه بأصفهان أقطعه البصرة وأعاده عليها من قبله.

ثم ملك البرسقي مدينة حلب سنة ثمان عشرة وقتل بها سنة تسع عشرة وكان ابنه عز الدين مسعود بحلب فبادر إلى الموصل وأقام ملك أبيه بها ووقع الخلاف بين المسترشد والسلطان محمود وبعث الخليفة عفيفاً الخادم إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان محمود فسار إليه عماد الدين زنكي من البصرة وقاتله فهزمه ونمى عفيف إلى المسترشد وأقام عماد الدين في واسط وأمره أن يحضر بالعساكر في السفن وفي البر فجمع السفن من البصرة وشحنها بالمقاتلة شاكي السلاح وأصعد في البر وقدم على السلطان وقد تسلحت العساكر فهاله منظرهم ووهن المسترشد لما رأى فأجابه إلى الصلح.

ولاية زنكي شحنة بغداد والعراق

ولما ظهر من عماد الدين زنكي من الكفاءة والغناء في ولاية البصرة وواسط ما ظهر ثم كان له المقام المحمود مع السلطان محمود على بغداد كما مر ولاه شحنة بغداد والعراق لما رأى أنه يستقيم إليه في أمور الخليفة بعد أن شاور أصحابه فأشاروا به وذلك سنة إحدى وعشرين وسار عن بغداد بعد أن ولاه على كرسي ملكه بأصفهان والله تعالى أعلم.

ولاية عماد الدين زنكي على الموصل وأعمالها

قد قدمنا أن عز الدين مسعود بن البرسقي لما قتل الباطنية أباه بالموصل وكان نائبه بحلب فبادر إلى الموصل وضبط أمورها وخاطب السلطان محمودا فولاه مكان أبيه وكان شجاعاً قرماً فطمع في ملك الشام فسار وبدأ بالرحبة فحاصرها حتى استأمن إليه أهل القلعة وطرقه مرض فمات وتفرقت عساكره ونهب بعضهم بعضاً حتى شغلوا عن دفنه وكان جاولي مولى أبيه مقدم العساكر عنده فنصب مكانه أخاه الأصغر وكاتب السلطان في تقرير ولايته وأرسل في ذلك الحاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني والقاضي أبا الحسن علي بن القاسم الشهرزوري فأوصى صلاح الدين صهره جقري فيما جاء فيه وكان شيعة لعماد الدين زنكي فخوف الحاجب وحذره مغبة حاله معه، وأشار عليه وعلى القاضي بطلب عماد الدين زنكي وضمن لهما عنده الولايات والإقطاع.

وركب القاضي مع الحاجب إلى الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد وذكر له حال الجزيرة والشام واستيلاء الإفرنج على أكثرها من ماردين إلى العريش وأنها تحتاج إلى من يكف طغيانهم وابن البرسقي المنصوب بالموصل صغير لا يقوى على مدافعتهم وحماية البلاد منهم ونحن قد خرجنا عن العهدة وأنهينا الأمر إليكم فرفع الوزير قولهما إلى السلطان فشكرهما واستدعاهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية فذكرا جماعة وأدرجا فيهم عماد الدين زنكي وبذلا عنه مالاً جزيلاً لخزانة السلطان فأجابهما إليه لما يعلم من كفايته وولاه البلاد كلها وكتب منشوره بها وشافهه بالولاية وسار إلى ولايته فبدأ بالفوارع وملكها ثم سار إلى الموصل وخرج جاولي والعساكر للقائه.

ودخل الموصل في رمضان سنة إحدى وعشرين وبعث جاولي والياً على الرحبة وولى على القلعة نصير الدين جقري وولى على حجابته صلاح الدين الباغيسياني وعلى القضاء ببلاده جميعاً بهاء الدين الشهرزوري وزاد في إقطاعه وكان لا يصدر إلا عن رأيه ثم خرج إلى جزيرة ابن عمر وبها موالي البرسقي فامتنعوا عليه وحاصرهم وكان بينه وبين البلد دجلة فعبرها وبين دجلة والبلد فسيح من الأرض فعبر دجلة وقاتلهم في ذلك الفسيح وهزمهم فتحصنوا بالأسوار، ثم استأمنوا فدخل البلد وملكه وسار لنصيبين وكانت لحسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي صاحب ماردين فاستنجد عليه ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب كيفا فوعده بالنجدة وبعث حسام الدين بذلك إلى أهل نصيبين يأمرهم بالمصابرة عشرين يوماً إلى حين وصوله فسقط في أيديهم لعجزهم عن ذلك واستأمنوا لعماد الدين فأمنهم وملكها وسار عنها لسنجار فامتنعوا عليه أولاً ثم استأمنوا وملكها وبعث منها إلى الخابور فملك جميعه ثم سار إلى حران وكانت الرها وسروج والبيرة في جوارها للافرنج وكانوا معهم في ضيقة فبادر أهل حران إلى طاعته وأرسل إلى جوسكين وهادنه حتى يتفرغ له فاستقر بينهما الصلح والله تعالى أعلم.

استيلاء الأتابك زنكي على مدينة حلب

كان البرسقي قد ملك حلب وقلعتها سنة ثماني عشرة واستخلف عليها ابنه مسعود ثم قتل الباطنية البرسقي بالموصل فبادر ابنه مسعود إلى الموصل واستخلف على حلب الأمير قرمان ثم عزله وبعث بولايتها إلى الأمير قطلغ آبه فمنعه قرمان وقال: بيني وبينه علامة لم أرها في التوقيع. فرجع إلى مسعود فوجده قد الرحبة فعاد إلى حلب مسرعاً ومال إليه أهل البلد ورئيسها مضال بن ربيع وأدخلوه وملكوه واستنزلوا قرمان من القلعة وأعطوه ألف دينار وبلغوه مأمنه.

وملك قطلغ القلعة والبلد منتصف إحدى وعشرين ثم ساءت سيرته وفحش ظلمه واشتمل عليه أشرار فاستوحش الناس منه وثاروا به في عيد الفطر من السنة وقبضوا على أصحابه وولوا عليهم بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق الذي كان ملكها من قبل وحاصروا قطلغ بالقلعة ووصل حسان صاحب منبج وحسن صاحب مراغة لإصلاح الأمر فلم يتم وزحف جوسكين صاحب الرها من الإفرنج إلى حلب فصانعوه بالمال ورجع فزحف صاحب أنطاكية وحاصر البلد وهم يحاصرون القلعة إلى منتصف ذي القعدة من آخر السنة.

وانتهى عماد الدين زنكي إلى صاحب حران كما ذكرناه فبعث إلى أهل حلب أميرين من أصحابه بتوقيع السلطان له بالموصل والجزيرة والشام فبادروا إلى الطاعة وسار إليه بدر الدولة ابن عبد الجبار وقطلغ آبه وأقام أحد الأميرين بحلب ولما وصلا إلى عماد الدين أصلح بينهما وأقاما عنده وبعث الحاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني في عسكر إليهما فملك القلعة ورتب الأمور وولى ثم وصل عماد الدين بعده في محرم سنة اثنتين وعشرين وملك في طريقه منبج من يد حسان ومراغة من يد حسن وتلقاه أهل حلب فاستولى واقطع أعمالها للأمراء والأجناد ثم قبض على قطلغ أبه وأسلمه إلى ابن بديع فكحله ومات واستوحش ابن بديع فلحق بقلعة جعبر مستنجداً بصاحبها وأقام عماد الدين مكانه في رياسة حلب علي بن عبد الرازق وعاد إلى الموصل والله أعلم.

استيلاء الأتابك زنكي على مدينة حماة

ثم سار عماد الدين زنكي لجهاد الإفرنج وعبر الفرات إلى الشام واستنجد تاج الملوك بوري بن طغركين صاحب دمشق فأنجده بعد التوثق باستحلافه وبعث عسكره من دمشق إلى ابنه سونج وأمره بالمسير إلى زنكي فلما وصلوا إليه أكرمهم ثم غدر بهم بعد أيام وقبض على سونج والأمراء الذين معه فاعتقلهم بحلب ونهب خيامهم وبادر إلى حماة وهي خلو من الحامية فملكها وسار عنها إلى حمص وصاحبها قيرجان بن قراجا معه في عساكره وهو الذي أشار بحبس سونج وأصحابه فقبض عليه يظن أن أهل حمص يسلمون بلادهم إليه فامتنعوا وبعث إليهم قيرجان بذلك فلحق إليها فحاصرها مدة وامتنعت عليه فعاد إلى الموصل ومعه سونج بن بوري والله أعلم.

فتح عماد الدين حصن الأتارب وهزيمة الإفرنج

ولما عاد عماد الدين إلى الموصل أراح عساكره أياماً ثم تجهز سنة أربع وعشرين إلى الغزو وعاد إلى الشام وقصد حلب واعتزم على قصد حصن الأتارب وهو على ثلاثة فراسخ من حلب وكان الإفرنج الذين به قد ضيقوا على حلب فسار إليه وحاصره وجاء الإفرنج من أنطاكية لدفاعه واستفرغوا فتبعهم وترك الحصن وسار إليهم واستمات المسلمون فانهزم الإفرنج وأسر كثير من زعمائهم وقتل كثير حتى بقيت عظامهم ماثلة بذلك الموضع أكثر من ستين سنة ثم عاد إلى حصن الأتارب فملكه عنوة وخربه وتقسم جميع من فيه بين القتل والأسر وسار إلى قلعة حارم قرب أنطاكية وهي للافرنج فحاصرها حتى صالحوه على نصف خراجها فرجع عنها وملىء الإفرنج رعبا منه ومن استبداد المسلمين به وذهب ما كان عندهم من الطمع.

واقعة عماد الدين مع بني أرتق

ولما فرغ عماد الدين من غزو الإفرنج وفتح الأتارب وقلعة حارم عاد إلى الجزيرة وحاصر مدينة سرخس وهي لصاحب ماردين بينها وبين نصيبين فاجتمع حسام الدين صاحب ماردين وركن الدولة صاحب آمد وهما لأبي الغازي صاحب ماردين بن حسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي وصاحب كيفا ركن الدولة داود بن سقمان وتمرتاش بن أرتق وجمعوا من التركمان نحواً من عشرين ألفاً وساروا لمدافعة زنكي فهزمهم وملك سرخس وسار ركن الدولة إلى جزيرة ابن عمر لينهبها فاتبعه عماد الدين.فرجع إلى بلده فعاد عنه لضيق مسالكه وملك من قلاعه همرد ورجع إلى الموصل إلى آخره.

حصول دبيس بن صدقة في أسر الأتابك زنكي

قد تقدم لنا أن دبيس بن صدقة لما فارق البصرة سار إلى سرخد من قلاع الشام سنة خمس وعشرين باستدعاء الجارية التي خلفها الحسن هنالك ليتزوج بها وأنه مر في الغوطة بحي من أحياء كلب فأسروه وحملوه إلى تاج الملوك صاحب دمشق وبلغ الخبر إلى الأتابك زنكي وكان عدواً له فبعث فيه إلى تاج الملوك بوري وفادى من ابنه سونج والأمراء الذين معه عنده فأطلقهم وبعث بوري إليه بدبيس وهو مستيقن الهلاك فلما وصله أكرمه وأحسن إليه وأزاح علله وبعث المسترشد فيه إلى بوري بن طغركين صاحب دمشق فوجده قد فات بتسليمه إلى زنكي فذم الرسل زنكي فيما فعله فأرصد لهم في طريقهم وسيقوا إليه وهم سديد الدولة بن الأنباري وأبو بكر بن بشر الجزري فحبسهما حتى شفع فيهما المسترشد وبقي دبيس عنده حتى انحدر معه إلى العراق.

مسير الأتابك زنكي إلى العراق لمظاهرة السلطان مسعود وانهزامه

ولما توفي السلطان محمود سنة خمس وعشرين واختلف ولده داود وأخوه مسعود وسار داود إلى مسعود وحاصره بتبريز في محرم سنة ست وعشرين ثم صالحه وخرج مسعود من تبريز واجتمعت عليه العساكر وسار إلى همذان وبعث يطلب الخطبة من المسترشد فمنعه وكتب الأتابك عماد الدين زنكي يستنجده وسار إلى بغداد فحاصرها وكان قد سبق إليها أخوه سلجوق شاه صاحب فارس وخوزستان مع أتابك قراجا الشامي في عسكر كثير وأنزله المسترشد بدار السلطان فلما جاء مسعود ونزل عباسة وبرز عسكر المسترشد وعسكر سلجوق شاه وقراجا الشامي لمحاربة مسعود أتاهم الخبر بوصول عماد الدين زنكي من ورائهم وأنه وصل إلى المعشوب فرجع قراجا الشامي إلى محاربته وسار سلجوق شاه بالعساكر إلى محاربة أخيه مسعود وأغذ قراجا السير وصبح عماد الدين بعد يوم وليلة على المعشوب وقاتله وهزمه وأسر كثيرا من أصحابه وسار زنكي منهزماً إلى والنائب بها نجم الدين أيوب بن شادي والد السلطان صلاح الدين فتأخر ثم اصطلح مع الخليفة على أن يكون العراق له والسلطنة لمسعود وولاية العهد لسلجوق شاه وذلك منتصف سنة ست وعشرين.

مسير الأتابك عماد الدين إلى بغداد بابنه وانهزامه

قد قدمنا ما كان بعد وفاة السلطان محمود من الخلاف بين ابنه داود وأخويه مسعود وسلجوق شاه ثم استقرار مسعود في السلطنة وصلحه مع أخيه سلجوق على أن يكون ولي عهده ثم إن السلطان سنجار سار من خراسان يطلب السلطنة لطغرل ابن أخيه السلطان محمود وكان عنده مقيماً فبلغ همذان وخرج السلطان مسعود وسلجوق شاه للقائه وساروا متباطئين ينتظرون لحاق المسترشد بهم وخرج المسترشد إلى فجاءته الأخبار بوصول الأتابك زنكي ودبيس بن صدقة إلى بغداد فذكر دبيس أن السلطان سنجار أقطعه الحلة وبعث يسترضي فلم يشفعه وذكر الأتابك زنكي أن السلطان سنجار ولاه شحنة بغداد واستمر السلطان مسعود وأخوه سلجوق على المسير للقاء سنجار وكانت الهزيمة على مسعود كما مر فعاد المسترشد إلى بغداد ونزل العباسية من الجانب الغربي ولقي الأتابك زنكي ودبيس على حصن البرامكة فهزمهما آخر رجب سنة ست وعشرين ولحق الأتابك بالموصل.

واقعة الإفرنج على أهل حلب

وفي غيبة الأتابك زنكي سار ملك الإفرنج من القدس إلى حلب فخرج نائبها عن الأتابك زنكي وهو الأمير أسوار وجمع التركمان مع عساكره وقاتل الإفرنج عند قنسرين وصابرهم ومحص الله المسلمين وانهزموا إلى حلب وسار ملك الإفرنج في أعمال حلب ظافراً ثم سار بعض الإفرنج من الرها للغارة في أعمال حلب فخرج إليهم الأمير أسوار ومعه حسان التغلبي الذي كان صاحب منبج فأوقعوا بهم واستلحموهم وأسروا من بقي منهم وعادوا ظافرين.

حصار المسترشد الموصل

ولما وقع ما قدمناه من وصول زنكي إلى بغداد وانهزامه أمام المسترشد حقد عليه المسترشد ذلك وأقام يتربص ثم كثر الخلاف بين سلاطين السلجوقية واعتزلهم جماعة من أمرائهم فراراً من الفتنة ولحقوا بالخليفة وأقاموا في ظله فأراد الخليفة المسترشد أن ينتصف بهم من الأتابك زنكي فقدم إليه بهاء الدين أبا الفتوح الإسفرايني الواعظ وحمله عتاباً أغلظ فيه وزاده الواعظ غلظة حفظاً على ناموس الخلافة في معتقده فامتعض الأتابك لما شافهه به وأهانه وحبسه وأرسل المسترشد إلى السلطان مسعود على قصد الموصل وحاصرها لما وقع من زنكي ثم سار في شعبان سنة سبع وعشرين إلى الموصل في ثلاثين ألف مقاتل فلما قارب الموصل فارقها الأتابك زنكي إلى سنجار وترك نائبه بها نصر الدين جقري وجاء المسترشد فحاصرها والأتابك زنكي قد قطع الميرة عن معسكره فتعذرت الأقوات وضاقت عليهم الأحوال وأرادت جماعة من أهل البلد الوثوب بها وسعى بهم فأخذوا وصلبوا ودام الحصار ثلاثة أشهر وامتنعت عليه فأفرج عنها وعاد إلى بغداد وقيل: إن مطراً الخادم جاءه من بغداد وأخبره أن السلطان مسعوداً عازم على قصد العراق فعاد مسرعاً.

ارتجاع صاحب دمشق مدينة حماة

قد كنا قدمنا أن الأتابك زنكي تغلب على حماة من يد تاج الملوك بوري بن طغركين صاحب دمشق سنة ثلاث وعشرين وأقامت في ملكه أربع سنين وتوفي تاج الملوك بوري في رجب سنة

ست وعشرين وولي بعده ابنه شمس الملوك إسماعيل وملك بانياس من الإفرنج في صفر سنة سبع وعشرين ثم بلغه أن المسترشد بالله حاصر الموصل فسار هو إلى حماة وحاصرها وقاتلها يوم الفطر ويومين بعده فملكها عنوة واستأمنوا فأمنهم ثم حصر الوالي ومن معه بالقلعة فاستأمنوا أيضاً واستولى على ما فيها من الذخائر والسلاح وسار منها إلى قلعة شيزر فحاصرها ابن منقذ فحمل إليه مالاً صانعه به وعاد إلى دمشق في ذي الحجة من السنة.

حصار الأتابك زنكي قلعة آمد واستيلاؤه على قلعة النسور ثم حصار قلاع الحميدية

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة اجتمع الأتابك زنكي صاحب الموصل وصاحب ماردين على حصار آمد واستنجد صاحبها بداود بن سقمان صاحب كيفا فجمع العساكر وسار إليهما ليدافعهما عنه وقاتلاه فهزماه وقتل كثير من عسكره وأطالا حصار آمد وقطعا شجرها وكرومها وامتنعت عليهما فرحلا عنها وسار زنكي إلى قلعة النسور من ديار بكر فحاصرها وملكها منتصف رجب من السنة ووفد عليه ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتوثي فاستوزره الأتابك وكان حسن الطريقة عظيم الرئاسة والكفاية محبباً في الجند وتوفي سنة ست وثلاثين بعدها.

ثم استولى الأتابك على سائر قلاع الأكراد الحميدية مثل قلعة العقر وقلعة سوس وغيرهما وكان لما ملك الموصل أمر صاحب هذه القلاع الأمير عيسى الحميري على ولايتها فلما حاصر المسترشد الموصل قام في خدمته أحسن القيام وجمع له الأكراد فلما عاد المسترشد إلى بغداد من قتال الأتابك زنكي حاصر قلاعهم وحاصرتها العساكر وقاتلوها قتالاً شديداً حتى ملكوها في هذه السنة ورفع الله شرهم عن أهل السواد المحاربين لهم فقد كانوا منهم في ضيقة من كثرة عيثهم في البلاد وتخريبهم والله تعالى أعلم.

استيلاء الأتابك على قلاع الهكارية وقلعة كواشي

حدث ابن الأثير عن الجنيبي: أن الأتابك زنكي لما ملك قلاع الحميدية وأجلاهم عنها خاف أبو الهيجاء بن عبد الله على قلعة أشب والجزيرة وكواشي فاستأمن الأتابك واستحلفه وحمل له مالاً ثم وفد عليه بالموصل بعد أن أخرج ابنه أحمد من أشب خشية أن يغلب عليها وأعطاه قلعة كواشي وولى على أشب رجلاً من الكرد واسمه باد الأرمني وابنه أحمد هذا هو أبو علي بن أحمد المشطوب من أمراء السلطان صلاح الدين ولما مات أبو الهيجاء واسمه موسى وسار أحمد إلى أشب ليملكها فامتنع عليه باد وأراد حفظها لعلي الصغير من بني أبي الهيجاء فسار الأتابك زنكي في عساكره ونزل على أشب وبرز أهلها لقتاله واستجرهم حتى ابعدوا ثم كر عليهم فأفناهم قتلاً وأسراً وملك القلعة في الحال وسيق إليه باد في جماعة من مقدمي الأكراد وقتلهم وعاد إلى الموصل ثم سار غازياً في بعض مذاهبه فبعث نائبه نصر الدين جقري عسكرا وخلى كنجا ورسى في قلعة العمادية وحاصروا قلعة الشغبان وفرح وكواشي والزعفراني والغي وسرف وسفروه وهي حصون الهكارية فحاربها وملكها جميعاً واستقام أمر الجبل والزوزان.

وأمنت الرعية من الأكراد وأما باقي قلاع الهكارية وهي حلا وصورا وهزور والملايسي ويامرما ومانرحا وباكرا ونسر فإن قراجا صاحب العمادية فتحها بعد قتل زنكي بمدة طويلة كان أميراً على تلك الحصون الهكارية من قبل زين الدين علي على ما قال ابن الأثير ولم أعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرته هنا.

قال وحدثني بخلاف هذا الحديث بعض فضلاء الأكراد: أن أبا بكر زنكي لما فتح قلعة أسب وحرساني وقلعة العمادية ولم يبق في الهكارية إلا صاحب جبل صورا وصاحب هزور، ولم يكن لهما شوكة يخشى منهما ثم عاد إلى الموصل وخافه أهل القلاع الجبلية ثم توفي عبد الله بن عيسى بن إبراهيم صاحب الربية والغي وفرح وملكها بعده ابنه علي وكانت أمه خديجة ابنة الحسن أخت إبراهيم وعيسى وهما من الأمراء مع زنكي بالموصل فأرسلها ابنها علي إلى أخويها المذكورين وهما خالاه ليستأمنا له من الأتابك فاستحلفاه وقدم عليه فأقره على قلاعه واستقل بفتح قلاع الهكارية وكان الشغبان هذا الأمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فأخذه منه وخربه لكبره وقلة أعماله وكان نصر الدين جقري يكره علياً صاحب الربية والغي وفرح فسعى عند الأتابك في حبسه فأمره بحبسه ثم ندم وكتب إليه أن يطلقه فوجده قد مات فاتهم نصر الدين بقتله ثم بعث العساكر إلى قلعة الرحبية فنازلوها بغتة وملكوها عنوة وأسروا ولد علي وإخوته ونجت أمه خديجة لمغيبها وجاء البشير إلى الأتابك بفتح الربية فسره ذلك وبعث العساكر إلى ما بقي من قلاع علي فأبى إلا أن يزيدوه قلعة كواشي فمضت خديجة أم علي إلى صاحب كواشي من المهرانية واسمه جرك راهروا وسألته النزول عن كواشي لإطلاق أسراهم ففعل

ذلك وتسلم زنكي القلاع وأطلق الأسرى واستقامت له جبال الأكراد والله تعالى أعلم.

حصار الأتابك زنكي مدينة دمشق

كان شمس الملوك إسماعيل بن بوري قد انحل أمره وضعفت دولته واستطال عليه الإفرنج وخشي عاقبه أمرهم فاستدعى الأتابك زنكي سراً ليملكه دمشق ويريح نفسه وشعر بذلك أهل دولته فشكوا إلى أمه فوعدتهم الراحة منه ثم اغتالته فقتلته وجاء الأتابك زنكي فقدم رسله من الفرات فألفوا شمس الملوك قد مات وولي مكانه أخوه محمود واشتمل أهل الدولة عليه ورجعوا الخبر إلى الأتابك فلم يحفل به وسار حتى نزل بظاهر دمشق واشتد أهل الدولة على مدافعته ومقدمهم معين الدين أبربوه أتابك طغركين ثم بعث المسترشد أبا بكر بن بشر الجزري إلى الأتابك زنكي فأمره بصلح صاحب دمشق فصالحه ورحل عنه منتصف السنة والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتنة الراشد مع السلطان مسعود ومسيره إلى الموصل وخلعه

كان كثير من أمراء السلجوقية قد اجتمعوا على الانتقاض على السلطان مسعود والخروج عليه ولحق داود ابن السلطان محمود من أذربيجان ببغداد في صفر سنة اثنتين وثلاثين فأنزل بدار السلطنة وراسله أولئك الأمراء وقدم عليه بعضهم مثل صاحب قزوين وصاحب أصفهان وصاحب الأهواز وصاحب الأبلة وصاحب الموصل الأتابك زنكي وخرجت إليهم العساكر من بغداد وولي داود شحنة بغداد وخرج موكب الخليفة مع الوزير جلال الدين الرضي وكان الخليفة قد تغير عليه وعلى قاضي القضاة الزينبي فسمع بهم الأتابك ثم وقعت العزيمة من الراشد والسلطان داود والأتابك زنكي وحلف كل منهم لصاحبه وبعث الراشد إلى الأتابك بمائتي ألف دينار ووصل سلجوق شاه إلى واسط وقبض على الأمير بك أبه ونهب ماله فانحدر الأتابك زنكي لمدافعته فاصطلحا وعاد زنكي إلى بغداد ومر على جميع العساكر لقتال السلطان مسعود.

وخرج على طريق خراسان وبلغهم أن السلطان مسعوداً سار إلى بغداد فعاد إليها ثم عاد الملك داود وجاء السلطان مسعود فنزل على بغداد وحاصرهم نيفاً وخمسين يوماً وارتحل إلى النهروان ثم قدم عليه طرنطاي صاحب واسط بالسفن فرجع إلى بغداد وعبر إلى الجانب الغربي ثم اختلف العسكر ببغداد ورجع الملك داود إلى ولايته بأذربيجان وافترق الأمراء الذين معه ولحق الراشد بالأتابك زنكي في نفر من أصحابه وهو بالجانب الغربي وسار معه إلى الموصل ودخل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين واستقر بها وسكن الناس وجمع القضاة واثقفها وعرض عليهم يمين الراشد بخطه بأنه متى جمع أو خرج لحرب السلطان فقد خلع نفسه فأفتوا بخلعه.

ثم وقعت الشهادات من أهل الدولة وغيرهم إلى الراشد بموجبات العزل وكتبت وأفتى الفقهاء عقبها باستحقاق العزل وحكم به القاضي المعين حينئذ لغيبة قاضي القضاة بالموصل مع الراشد ونصب للخلافة ابن المستظهر وجاء رسول الأتابك زنكي إلى بغداد وهو القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري وبايع بعد أن ثبت عنده الخلع وانصرف إلى الأتابك بإقطاع من خاص الخليفة ولم يكن ذلك لأحد قبله وعاد كمال الدين إلى الأتابك وحمل كتب الخلع فحكم بها قاضي القضاة بالموصل وانصرف الراشد عن الموصل إلى أذربيجان كما مر في أخبار الخلفاء والسلجوقية والله تعالى ولي التوفيق.

غزاة عساكر حلب إلى الإفرنج

ثم اجتمعت عساكر حلب مع الأمير أسوار نائب الأتابك زنكي بحلب في شعبان سنة ثلاثين وساروا غازين إلى بلاد الإفرنج وقصدوا اللاذقية على غرة فنالوا منها وانساحوا في بسائطها واكتسحوها وامتلأت أيديهم من الغنائم وخربوا بلاد اللاذقية وما جاورها وخرجوا على شيزر وملؤوا الشام بالأتراك والظهر ووهن الإفرنج لذلك والله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

حصار الأتابك زنكي مدينة حمص واستيلاؤه على بغدوين وهزيمة الإفرنج واستيلاؤه على حمص

ثم سار الأتابك في العساكر في شعبان سنة إحدى وثلاثين إلى مدينة حمص وبها يومئذ معين الدين بن القائم بدولة صاحب دمشق وحمص من أقطاعه فقدم إليه صاحبه صلاح الدين الباغيساني في تسليمها فاعتذر بأن ذلك ليس من الإصابة

فحاصرها والرسل تردد بينهما وامتنعت عليه فرحل عنها إلى بغدوين من حصون الإفرنج في شوال من السنة فجمع الإفرنج وأوعبوا وزحفوا إليه واشتد القتال بينهم ثم هزم الله العدو ونجا المسلمين منهم ودخل ملوكهم إلى حصن بغدوين فامتنعوا به وشد الأتابك حصاره وذهب القسوس والرهبان إلى بلاد النصرانية من الروم والإفرنج يستنجدونهم على المسلمين ويخوفونهم استيلاء الأتابك على قلعة بغدوين وما يخشى بعد ذلك من ارتجاعهم بيت المقدس.

وجد الأتابك بعد ذلك في حصارها والتضييق عليها حتى جهدهم الحصار ومنع عنهم الأخبار ثم استأمنوا على أن يحملوا إليه خمسين ألف دينار فأجابهم وملك القلعة ثم سمعوا بمسير الروم والإفرنج لإنجادهم وكان الأتابك خلال الحصار قد فتح المعرة وكفر طاب في الولايات التي بين حلب وحماة ووهن الإفرنج ثم سار الأتابك زنكي في محرم سنة اثنتين وثلاثين إلى بعلبك وملك حصن المعدل من أعمال صاحب دمشق وبعث إليه نائب بانياس بالطاعة كذلك ثم كانت حادثة ملك الروم ومنازلته حلب كما نذكره فسار إلى سلمية ولما انجلت حادثة الروم رجع إلى حصار حمص وبعث إلى محمود صاحب دمشق في خطبة أمه مردخان بنت جاولي التي قتلت ابنها فتزوجها وملك حمص وقلعتها وحملت الخاتون إليه في رمضان وظن أنه يملك دمشق بزواجها فلم يحصل على شيء من ذلك والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

مسير الروم إلى الشام وملكهم مراغة

ولما استنجد الإفرنج ببغدوين ملك أمم النصرانية كما مر جمع ملك الروم بالقسطنطينية وركب البحر سنة إحدى وثلاثين ولحقته أساطيله وسار إلى مدينة قيليقية فحاصرها وصالحوه بالمال وسار عنها إلى أدنة والمصيصة وهما لابن ليون الأرمني صاحب قلاع الدروب فحاصرهما وملكهما وسار إلى عين زربة فملكها عنوة وملك تل حمدون ونقل أهله إلى جزيرة قبرص ثم ملك مدينة أنطاكية في ذي القعدة من السنة وبها ريمند من ملوك الإفرنج فصالحه ورجع إلى بغراس ودخل منها إلى بلاد ابن ليون فصالحه بالأموال ودخل في طاعته ثم خرج إلى الشام أول سنة اثنتين وثلاثين وحاصر مراغة على ستة فراسخ من حلب وبعثوا بالصريخ إلى الأتابك زنكي فبعث بالعساكر إلى حلب لحمايتها وقاتل ملك الروم مراغة فملكها بالأمان منتصف السنة.

ثم غدر بهم واستباحهم ورحل إلى حلب فنزل بدابق ومعه الإفرنج ورجعوا من الغد إلى حلب وحاصروها ثلاثاً فامتنعت عليهم وقتل عليها بطريق كبير منهم ورحل عنها إلى قلعة الاثارب في شعبان من السنة فهرب عنها أهلها ووضع الروم بها الأسرى والسبي وأنزلوا بها حامية وبعث إليهم أسوار نائب حلب عسكراً فقتلوا الحامية وخلصوا الأسرى والسبي ورحل الأتابك من حصن الأثارب بعد فتحه إلى سلمية وقطع الفرات إلى الرقة واتبع الروم فقطع عنهم الميرة وقصد الروم قلعة شيزر وبها سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني فحاصروها ونصبوا المجانيق عليها واستصرخ صاحبها بالأتابك زنكي فسار إليه ونزل نهر العاصي بين شيزر وحماة وبعث السرايا تختطف من حول معسكر الروم.

وبعث إلى الروم يدعوهم إلى المناجزة والنزول إلى البسيط فخاموا عن ذلك فرجع إلى التضريب بين الروم والإفرنج يحذر أحد الفريقين من الآخر حتى استراب كل بصاحبه فرحل ملك الروم في رمضان من السنة بعد حصار شيزر أربعين يوماً وأتبعه الأتابك فلحقهم واستلحمهم واستباحهم ثم أرسل القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري إلى السلطان مسعود يستنجده على العدو ويحذره الروم واستيلاءهم على حلب وينحدرون من الفرات إلى بغداد فوضع القاضي كمال الدين في جامع القصر من ينادي بصريخ المسلمين والخطيب على المنبر وكذا في جامع السلطان فعظم الصراخ والبكاء وتسايلت العوام من كل جانب وجاؤوا إلى دار السلطان في تلك الحالة وقد وقع العويل والصراخ فعظم الهول على السلطان مسعود وجهز عسكراً عظيماً وخاف القاضي كمال الدين غائلته ثم وصل الخبر برحيل ملك الروم فأخبر القاضي السلطان مسعود بذلك ومن مسير العسكر والله تعالى أعلم.

استيلاء الأتابك زنكي على بعلبك

ثم قتل محمود صاحب دمشق سنة ثلاث وثلاثين في شوال كما مر في أخبار دولتهم وكانت أمه زمردخان متزوجة بالأتابك كما مر فبعثت إليه وهو بالجزيرة تعرفه بالخبر وتطلب منه أن يسير إلى دمشق ويثأر بولدها من أهل دولته فسار لذلك واستعد أهل دمشق للحصار ثم قصد الأتابك مدينة بعلبك ونزلها وكان ابن القائم بالدولة قد نصب كمال الدين محمد بن بوري بدمشق وتزوج أمه وبعث بجاريته إلى بعلبك فلما سار الأتابك إلى دمشق

قدم رسله إلى أنز في تسليم البلد على أن يبذل له ما يريد فأبى من ذلك وسار الأتابك إلى بعلبك فنازلها آخر ذي الحجة من السنة ونصب عليها المجانيق وشدد حصارها حتى استأمنوا فملكها واعتصم الحامية بالقلعة حتى يئسوا من أنز فاستأمنوا إلى الأتابك فلما ملكها قبض عليهم وصلبهم وتزوج جارية أنز ونقلها إلى حلب إلى أن بعثها ابنه نور الدين محمود إلى صاحبها بعد موت الأتابك والله تعالى أعلم.

حصار الأتابك زنكي مدينة دمشق

ثم سار الأتابك زنكي إلى حصار دمشق في ربيع الأول من سنة أربع وثلاثين بعد الفراغ من بعلبك فنزل بالبقاع وأرسل إلى جمال الدين محمد صاحبها في أن يسلمها إليه ويعوضه عنها بما شاء فلم يجب إلى ذلك فزحف إليه ونزل داريا والتقت الطلائع فكان الظفر لأصحاب الأتابك ثم تقدم إلى المصلي فنزل بها وقاتله أهل دمشق بالغوطة فظفر بهم وأثخن فيهم ثم أمسك عن القتال عشراً يراود فيها صاحب دمشق ويبذل له بعلبك وحمص وما يختاره من البلاد فجنح إلى ذلك ولم يوافقه أصحابه فعادت الحرب ثم توفي صاحب دمشق جمال الدين محمد في شعبان من السنة ونصب معين الدين أنز مكانه ابنه محي الدين أنز وقام بأمره.

وطمع زنكي في ملك البلد فامتنعت عليه وبعث معز الدين أنز إلى الإفرنج يستدعيهم إلى النصر على الأتابك ويبذل لهم ويخوفهم غائلته ويشترط لهم إعانتهم على بانياس حتى يملكوها فأجاب الإفرنج لذلك وأجفل زنكي إلى حوران خامس رمضان من السنة معتزماً على لقائهم فلم يصلوا فعاد إلى حصار دمشق وأحرق قراها وارتحل إلى بلاده ثم وصل الإفرنج وارتحل معين الدين أنز في عساكر دمشق إلى بانياس وهي للأتابك زنكي ليوفي للافرنج بشرطه لهم فيها وقد كان نائبها سار للإغارة على مدينة صور ولقيه في طريقه صاحب أنطاكية ذاهباً إلى دمشق منجداً فهزم عسكر بانياس وقتلوا ولحق فلهم بالبلد وقد وهنوا وحاصرهم معين الدين أنز والإفرنج وملكها عنوة وسلمها للافرنج وأحفظه ذلك وفرق العسكر في حوران وأعمال دمشق وسار هو فصابح دمشق ولم يعلموا بمكانه فبرزوا إليه وقاتلوه وقتل منهم جماعة ثم أحجم عنهم لقلة من معه وارتحل إلى مرج راهط في انتظار عساكره فلما توافوا عنده عاد إلى بلاده.

استيلاء الأتابك على شهرزور وأعمالها

كان شهرزور بيد قفجاق بن أرسلان شاه أمير التركمان وصالحهم وكانت الملوك تتجافى عن أعماله لامتناعها ومضايقها فعظم شأنه واشتمل عليه التركمان وسار إليه الأتابك زنكي سنة أربع وثلاثين فجمع ولقيه فظفر به الأتابك واستباح معسكره وسار في اتباعه فحاصر قلاعه وحصونه وملك جميعها واستأمن إليه قفجاق فأمنه وسار في خدمته وخدمة بنيه بعده إلى آخر المائة.

ثم كان في سنة خمس وثلاثين بين الأتابك زنكي وبين داود بن سقمان صاحب كيفا فتنة وحروب وانهزم داود وملك الأتابك من بلاده قلعة همرد وأدركه فعاد إلى الموصل ثم سار الأتابك إلى مدينة الحرمية فملكها سنة ست وثلاثين ونقل آل مهارش الذين كانوا بها إلى الموصل ورتب أصحابه مكانهم ثم خطب له صاحب آمد وصار في طاعته بعد أن كان مع داود عليه ثم بعث الأتابك لسنة سبع وثلاثين عسكراً إلى قلعة أشهب وهي من أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها وفيها أهلوهم وذخائرهم فحاصرها وملكها وأمره الأتابك بتخريبها وبنى قلعة العمادية عوضاً عنها وكانت خربت قبل ذلك لاتساعها وعجزهم عن حمايتها فأعيدت الآن وكان نصير الدين نائب الموصل قد فتح أكثر القلاع الحربية والله تعالى أعلم.

صلح الأتابك مع السلطان مسعود واستيلاؤه على أكثر ديار بكر

كان السلطان مسعود ملك السلجوقية قد حقد على الأتابك زنكي شأن الخارجين على طاعته من أهل الأطراف وينسب ذلك إليه وكان يفعل ذلك مشغلة للسلطان عنه فلما فرغ السلطان مسعود من شواغله سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة سار إلى بغداد عازماً على قصد الأتابك وحصار الموصل فأرسل الأتابك يستعطفه ويستميله على أن يدفع إليه مائة ألف دينار ويعود عنه فشرع في ذلك وحمل منها عشرين ألفاً ثم حدثت الفتنة على السلطان فاحتاج إلى مداراته وترك له الباقي وبالغ هو في مخالصة السلطان بحيث إن ابنه غازي كان عند السلطان فهرب إلى الموصل فبعث إلى نائبه نصير الدين جقري يمنعه من دخولها وبعث إلى ابنه بالرجوع إلى خدمة السلطان.

وكتب إلى السلطان بأن ابني هرب للخوف من تغير السلطان عليه وقد أعدته إلى الخدمة ولم ألقه وأنا مملوكك والبلاد

لك فوقع ذلك من السلطان أحسن المواقع ثم سار الأتابك إلى ديار بكر ففتح طره وأسعرد وحران وحصن الرزق وحصن تطليت وحصن ياسنه وحصن ذي القرنين وغير هذه وملك أيضاً من بلاد ماردين الإفرنج حملين والمودن وتل موزر وغيرها من بلاد حصون سجستان وأنزل بها الحامية وقصد آمد فحصرها وسير عسكراً إلى مدينة غانة من أعمال الفرات فملكها والله تعالى أعلم.

فتح الرها وغيرها من أعمال الإفرنج

كان الإفرنج بالرها وسروج والبيرة قد أضروا بالمسلمين جوارهم مثل آمد ونصيبين ورأس العين والرقة وكان زعيمهم ومقدمهم بتلك البلاد جوسكين الزعيم ورأى الأتابك أنه يوري عن قصدهم بغيره لئلا يجمعوا له فوري بغزو ديار بكر كما قلناه وجوسكين وعبر الفرات من الرها إلى غزنة وجاء الخبر بذلك إلى الأتابك فارتحل منتصف جمادى الأخيرة سنة تسع وثلاثين وحرض المسلمين وحثهم على عدوهم ووصل إلى الرها وجوسكين غائب عنها فانحجز الإفرنج بالبلد وحاصرهم شهراً وشد في حصارهم وقتالهم ولج في ذلك قبل اجتماع الإفرنج ومسيرهم إليه ثم ضعف سورها فسقطت ثلمة منه وملك البلد عنوة ثم حاصر القلعة وملكها كذلك ثم رد على أهل البلد ما أخذ منهم وأنزل فيه حامية وسار إلى سروج وجميع البلاد التي بيد الإفرنج شرقياً فملكها جميعا إلا البيرة لامتناعها فأقام يحاصرها حتى امتنعت ورحل عنها والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل نصير الدين جقري نائب الموصل وولاية زين الدين علي كجك مكانه بالقلعة

كان استقر عند الأتابك زنكي بالموصل الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمد ويلقب الخفاجي وكان شبيهاً به وتوهم السلطان أن البلاد له وأنه نائبه وينتظر وفاة السلطان مسعود فيخطب له ويملك البلد باسمه وكان يتردد له ويسعى في خدمته فداخله بعض المفسدين في غيبة الأتابك وزين له قتل نصير الدين النائب والاستيلاء على الموصل فلما دخل إليه أغرى به أجناد الأتابك ومواليه فوثبوا به وقتلوه في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين ثم ألقوا برأسه إلى أصحابه يحسبون أنهم يفترقون فاعصوصبوا واقتحموا عليه الدار ودخل عليه القاضي تاج الدين يحيى بن الشهرزوري فأوهمه بطاعته وأشار عليه بالصعود إلى القلعة ليستولي على المال والسلاح فركب وصعد معه وتقدم إلى حافظ القلعة وأشار عليه بأن يمكنه من الدخول ثم يقبض عليه فدخل ودخل معه الذين قتلوا نصير الدين فحبسهم والي القلعة وعاد القاضي إلى البلد وطار الخبر إلى الأتابك زنكي بحصار البيرة فخشي اختلاف البلد وعاد إلى الموصل وقدم زين الدين علي بن كجك وولاه القلعة مكان نصير الدين وأقام ينتظر الخبر وخاف الإفرنج الذين بالبيرة من دعوته إليهم فبعثوا إلى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها له فملكها المسلمون.

حصار زنكي حصن جعبر وفنك

ثم سار الأتابك زنكي سنة إحدى وأربعين في المحرم إلى حصن جعبر ويسمى دوس وهو مطل على الفرات وكان لسالم بن مالك العقيلي أقطعه السلطان ملك شاه لأبيه حين أخذ منه حلب وبعث جيشاً إلى قلعة فنك على فرسخين من جزيرة ابن عمر فحاصروها وصاحبها يومئذ حسام الدين الكردي فحاصر قلعة جعبر حتى توسط الحال بينهما حسان المنبجي ورغبه ورهبه وقال في كلامه: من يمنعك منه فقال الذي منعك أنت من مالك بن بهرام وقد حاصر حسان منبج فأصابه في بعض الأيام سهم فقتله وأفرج عن حسان وقدر قتل الأتابك كذلك والله تعالى أعلم.

مقتل الأتابك عماد الدين زنكي

كان الأتابك عماد الدين زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل والشام محاصراً لقلعة جعبر كما ذكرنا واجتمع جماعة من مواليه واغتالوه ليلاً وقتلوه على فراشه ولحقوا بجعبر وأخبروا أهلها فنادوا من السور بقتله فدخل أصحابه إليه وألفوه يجود بنفسه وكان قتله لخمس من ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين عن ستين سنة من عمره ودفن بالرقة وكان يوم قتل أبوه ابن سبع سنين ولما قتل دفن بالرقة وكان حسن السياسة كثير العدل مهيباً عند جنده عمر البلاد وأمنها وأنصف المظلوم من الظالم وكان شجاعاً شديد الغيرة كثير الجهاد ولما قتل رحل العسكر عن قلعة فنك وصاحبها غفار.

قال ابن الأثير: سمعتهم يزعمون أن لهم فيها نحو ثلثمائة سنة وفيهم رفادة وعصبية ويجيرون كل من يلجأ إليهم والله أعلم.

استيلاء ابنه غازي على الموصل وابنه الآخر محمود على حلب

ولما قتل الأتابك زنكي نزع ابنه نور الدين محمود خاتمه من يده وسار به إلى حلب فاستولى عليها وخرج الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود واجتمعت عليه العساكر وطمع في الاستقلال بملك الموصل وحضر ابنه جمال الدين محمد بن علي بن متولي الديوان وصلاح الدين بن محمد الباغيسياني الحاجب وقد اتفقا فيما بينهما على حفظ الدولة لأصحابهما وحسنا لألب أرسلان ما هو فيه من الاشتغال بلذاته وأدخلاه الرقة فانغمس بها وهما يأخذان العهود على الأمراء لسيف الدين غازي ويبعثانهم إلى الموصل.

وكان سيف الدين غازي في مدينة شهرزور وهي أقطاعه وبعث إليه زين الدين علي كوجك نائب القلعة بالموصل يستدعيه ليحضر عنده وسار ألب أرسلان إلى سنجار والحاجب وصاحبه معه ودسوا إلى نائبها بأن يعتذر للملك ألب أرسلان بتأخره حتى يملك الموصل فساروا إلى الموصل ومروا بمدينة سنجار وقد وقف العسكر فأشاروا على ألب أرسلان بعبور دجلة إلى الشرق وبعثوا إلى سيف الدين غازي بخبره وقلة عسكره فأرسل إليه عسكراً فقبضوا وجاؤوا به فحبسه بقلعة الموصل واستولى سيف الدين غازي على الموصل والجزيرة وأخوه نور الدين محمود على حلب ولحق به صلاح الدين الباغيسياني فقام بدولته والله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

عصيان الرها

ولما قتل الأتابك زنكي ملك الرها جوسكين. كان جوسكين مقيماً في ولايته بتل باشر وما جاورها فراسل أهل الرها وعامتهم من الأرمن وحملهم على العصيان على المسلمين وتسليم البلد له فأجابوه وواعدوه ليوم عينوه فسار في عساكره وملك البلد وامتنعت القلعة وبلغ الخبر إلى نور الدين محمود وهو بحلب فأغذ السير إليها وأجفل جوسكين إلى بلده ونهب نور الدين المدينة وسبى أهلها وارتحلوا عنها وبعث سيف الدين غازي العساكر إليها فبلغهم في طريقهم ما فعله نور الدين فعادوا وذلك سنة إحدى وأربعين.

ثم قصد صاحب دمشق بعد قتل الأتابك حصن بعلبك وبه نجم الدين أيوب بن شادي نائب الأتابك فأبطأ عليه انجاد بنيه فصالح صاحب دمشق وسلم له بعلبك على إقطاع ومال أعطاه إياه وعشر قرى من بلاد دمشق وانتقل معه إلى دمشق فسكنها وأقام بها ثم سار نور الدين محمود سنة اثنتين وأربعين من حلب إلى الإفرنج ففتح مدينة أرتاج عنوة وحاصر حصوناً أخرى وكان الإفرنج بعد قتل الأتابك يظنون أنهم يستردون ما أخذه منهم فبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون ولما قتل الأتابك زنكي طمع صاحب ماردين وصاحب كيفا أن يستردوا ما أخذ من بلادهم فلما تمكن سيف الدين غازي سار إلى أعمال ديار بكر فملك دارا وغيرها وتقدم إلى ماردين وحاصرها وعاث في نواحيها حتى ترحم صاحبها حسام الدين تمرتاش على الأتابك مع عداوته ثم أرسل إلى سيف الدين غازي وصالحه وزوجه بنته فعاد إلى الموصل وزفت إليه وهو مريض فهلك قبل زفافها وتزوجها أخوه قطب الدين من بعده والله أعلم.

مصاهرة سيف الدين غازي لصاحب دمشق وهزيمة نور الدين محمود للإفرنج

كان تقدم لنا في دولة بني طغركين موالي دقاق بن تتش أن ملك اللمان من الإفرنج سار سنة ثلاث وأربعين وحاصر دمشق بجموع الإفرنج وبها مجير الدين أرتق بن بوري بن محمد بن طغركين في كفالة معين الدين أنز مولي.

فبعث معين الدين إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي بالموصل يدعوه إلى نصرة المسلمين فجمع عساكره وسار إلى الشام واستدعى أخاه نور الدين من حلب ونزلوا على حمص فأخذوا بحجز الإفرنج عن الحصار وقوي المسلمون بدمشق عليهم وبعث معين الدين إلى طائفتي الإفرنج من سكان الشام واللمان الواردين فلم يزل يضرب بينهم وجعل لإفرنج الشام حصن بانياس طعمة على أن يرحلوا بملك اللمانيين ففتلوا له في الذروة والغارب حتى رحل عن دمشق ورجع إلى بلاده وراء قسطنطينية بالشمال.

وحسن أمر سيف الدين غازي وأخيه في الدفاع عن المسلمين وكان مع ملك اللمان حين خرج إلى الشام ابن أدفونش ملك الجلالقة بالأندلس وكان جده هو الذي ملك طرابلس الشام من المسلمين حين خروج الإفرنج إلى الشأم فلما جاء الآن مع ملك اللمان ملك حصن العريمة وأخذ في منازلة طرابلس ليملكها من القمص فأرسل القمص إلى نور الدين محمود ومعين الدين أنز وهما مجتمعان ببعلبك بعد رحيل ملك اللمانيين عن دمشق وأغراهما بابن أدفونش ملك الجلالقة واستخلاص حصن العريمة

من يده فسارا لذلك سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

وبعث إلى سيف الدين وهو بحمص فأمدهما بعسكر مع الأمير عز الدين أبي بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر وحاصروا حصن العريمة أياماً ثم نقضوا سوره وملكوه على الإفرنج وأسروا من كان به من الإفرنج ومعهم ابن أدفونش وعاد إلى سيف الدين عسكره ثم بلغ نور الدين ان الإفرنج تجمعوا في بيقو من أرض الشام للإغارة على أعمال حلب فسار إليهم وقتلهم وهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وأسراً وبعث من غنائمهم وأسراهم إلى أخيه سيف الدين غازي وإلى المقتفي الخليفة انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة سيف الدين غازي وملك أخيه قطب الدين مودود

ثم توفي سيف الدين غازي بن الأتابك زنكي صاحب الموصل منتصف أربع وأربعين وخمسمائة لثلاث سنين وشهرين من ولايته وخلف ولداً صغيراً ربي عند عمه نور الدين محمود وهلك صغيرا فانقرض عقبه وكان كريماً شجاعاً متسع المائدة يطعم بكرة وعشية مائة رأس من الغنم في كل نوبة وهو أول من حمل الصنجق على رأسه وأمر بتعليق السيوف بالمناطق وترك التوشح بها وحمل الدبوس في حلقة السرج وبنى المدارس للفقهاء والربط للفقراء ولما أنشده حيص بيص الشاعر يمدحه

إلام يراك المجد في زي شاعر وقد نحلت شوقاً إليك المنابر

فوصله بألف مثقال سوى الخلع وغيرها.

ولما توفي سيف الدين غازي انتقض الوزير جمال الدين وأمير الجيوش زين الدين علي وجاؤوا بقطب الدين مودود بادروا إلى تمليكه واستخلفوه وحلفوا له وركب إلى دار السلطنة وزين الدين في ركابه فبايعوا له وأطاعه جميع من في أعمال أخيه بالموصل والجزيرة وتزوج الخاتون بنت حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين التي هلك أخوه قبل زفافها فكان ولده كلهم منها والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء السلطان محمود على سنجار

ولما ملك قطب الدين مودود الموصل وكان أخوه نور الدين محمود بالشام وكان أكبر منه وله حلب وحماة كاتبه جماعة من الأمراء بعد أخيه غازي وفيمن كاتبه نائب سنجار المقدم عبد الملك فبادر إليه في سبعين فارساً من أمرائه وسبق أصحابه في يوم مطير إلى مساكن ودخل البلد ولم يعرفوا منه إلا أنه أمير من جند التركمان ثم دخل على الشحنة بيته فقبّل يده وأطاعه ولحق به أصحابه وساروا جميعاً إلى سنجار وأغذ السير فقطع عنه أصحابه ووصل إلى سنجار في فارسين ونزل بظاهر البلد وبعث إلى المقدم فوصله وكان قد سار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين محمداً بالقلعة فبعث في أثر أبيه وعاد من طريقه وسلم سنجار إلى نور الدين محمود فملكها.

واستدعى فخر الدين قرى أرسلان صاحب كيفا لمودة بينهما فوصل في عساكره وبلغ الخبر إلى قطب الدين صاحب الموصل ووزيره جمال الدين وأمير جيشه زين الدين فساروا إلى سنجار للقاء نور الدين محمود وانتهوا إلى تل اعفر ثم خاموا عن لقائه وأشار الوزير جمال الدين بمصالحته وسار إليه بنفسه فعقد معه الصلح وأعاد سنجار على أخيه قطب الدين وسلم له أخوه مدينة حمص والرحبة والشام فانفرد بملك الشام وانفرد أخوه قطب الدين بالجزيرة واتفقا وعاد نور الدين إلى حلب وحمل ما كان لأبيهم الأتابك زنكي من الذخيرة لسنجار وكان لا يعبر عنها والله تعالى أعلم.

غزو نور الدين إلى أنطاكية وقتل صاحبها وفتح أفاميا

ثم غزا نور الدين سنة أربع وأربعين إلى أنطاكية فعاث فيها وخرب كثيراً من حصونها وبينما هو يحاصر بعض الحصون اجتمع الإفرنج وزحفوا إليه فلقيهم وحاربهم وأبلى في ذلك الموقف فهزم الإفرنج وقتل البرنس صاحب أنطاكية وكان من عتاة الإفرنج وملك بعده ابنه سمند طفلاً وتزوجت امه برنس آخر يكفل ولدها ويدبر ملكها فغزاه نور الدين ولقوه فهزمهم وأسر ذلك البرنس الثاني وتمكن الطفل سمند من ملكه بأنطاكية ثم سار نور الدين سنة خمس وأربعين إلى حصن أفاميا بين شيرز وحماة وهو من أحسن القلاع فحاصروه وملكه وشحنه حامية وسلاحاً وأقواتاً ولم يفرغ من أمره إلا والإفرنج الذين بالشام جمعوا وزحفوا إليه وبلغهم الخبر فخاموا عن اللقاء وصالحوه في المهادنة فعقد لهم انتهى.

هزيمة نور الدين جوسكين وأسر جوسكين

ثم جمع نور الدين بعد ذلك وسار غازياً إلى بلاد زعيم الإفرنج وهي تل باشر وعنتاب وعذار وغيرها من حصون شمالي حلب فجمع جوسكين لمدافعته عنها ولقيه فاقتتلوا ومحص الله المسلمين واستشهد كثير منهم وأسر آخرون وفيهم صاحب صلاح نور الدين فبعثه جوسكين إلى الملك مسعود بن قليج أرسلان يعيره به لمكان صهره نور الدين على ابنته فعظم ذلك عليه وأعمل الحيلة في جوسكين وبذل المال لإحياء التركمان البادين بضواحيه أن يحتالوا في القبض عليه ففعلوا وظفر به بعضهم فشاركهم في إطلاقه على مال وبعث من يأتي به وشعر بذلك والي حلب أبو بكر بن الرامة فبعث عسكراً ليسوا من ذلك الحي جاؤوا بجوسكين أسيراً إلى حلب وسار نور الدين إلى القلاع فملكها وهي تل باشر وعنتاب وعذار وتل خالد وقورص وداونذار ومرج الرصاص وحصن النادة وكفرشود وكفرلات ودلوكا ومرعش ونهر الجود وشحنها بالأقوات وزحف إليه الإفرنج ليدافعوه فلقيهم على حصن جلدك وانهزم الإفرنج وأثخن المسلمون فيهم بالقتل والاسر ورجع نور الدين إلى دلوكا ففتحها وتأخر فتح تل باشر منها إلى أن ملك نور الدين دمشق واستأمنوا إليه وبعث إليهم حسان المنبجي فتسلمها منهم وحصنها وذلك في سنة تسع وأربعين وخمسمائة والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على دمشق

كان الإفرنج سنة ثمان وأربعين قد ملكوا عسقلان من يد العلوية خلفاء مصر واعترضت دمشق بين نور الدين وبينهما فلم يجد سبيلاً إلى المدافعة عنها واستطال الإفرنج على دمشق بعد ملكهم عسقلان ووضعوا عليها الجزية واشترطوا عليهم تخيير الأسرى الذين بأيديهم في الرجوع إلى وطنهم وكان بها يومئذ مجير الدين أنز بن محمد بن بوري بن طغركين الأتابك واهن القوى مستضعف القوة فخشي نور الدين عليها من الإفرنج وربما ضايق مجير الدين بعض الملوك من جيرانه فيفرغ إلى الإفرنج فيغلبون عليه وأمعن النظر في ذلك وبدأ أمره بمواصلة مجير الدين وملاطفته حتى استحكمت المودة بينهما حتى صار يداخله في أهل دولته ويرميهم عنده أنهم كاتبوه فيوقع الآخر بهم حتى هدم أركان دولته ولم يبق من أمرائه إلا الخادم عطاء بن حفاظ وكان هو القائم بدولته فغص به نور الدين وحال بينه وبين دمشق فأغرى به صاحبه مجير الدين حتى نكبه وقتله.

وخلت دمشق من الحامية فسار حينئذ نور الدين مجاهراً بعداوة مجير الدولة ومتجنياً عليه واستنجد بالإفرنج على أن يعطيهم الأموال ويسلم لهم بعلبك فجمعوا واحتشدوا وفي خلال ذلك عمد نور الدين إلى دمشق سنة سبع وأربعين وكاتب جماعة من أحداثها ووعدهم من أنفسهم فلما وصل ثاروا بمجير الدين ولجأ إلى القلعة وملك نور الدين المدينة وحاصره بالقلعة وبذل له أقطاعاً منها مدينة حمص فسار إليها مجير الدين وملك نور الدين القلعة ثم عوضه عن حمص ببالس فلم يرضها ولحق ببغداد وابتنى بها داراً وأقام إلى أن توفي والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على تل باشر وحصاره قلعة حارم

ولما فرغ نور الدين من أمر دمشق بعث إليه الإفرنج الذين في تل باشر في شمالي حلب واستأمنوا إليه ومكنوه من حصنهم فتسلمه حسان المنبجي من كبراء أمراء نور الدين سنة تسع وأربعين ثم سار سنة إحدى وخمسين إلى قلعة بهرام بالقرب من أنطاكية وهي لسمند أمير أنطاكية من الإفرنج فحاصرها واجتمع الإفرنج لمدافعته ثم خاموا عن لقائه وصالحوه على نصف أعمال حارم فقبل صلحهم ورحل عنها والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

استيلاء نور الدين على شيزر

شيزر هذه حصن قريب من حماة على نصف مرحلة منها على جبل منيع عال لا يسلك إليه إلى من طريق واحدة وكانت لبني منقذ الكنانيين يتوارثون ذلك من أيام صالح بن مرداس صاحب حلب من أعوام عشرين وأربعمائة إلى أن انتهى ملكه إلى المرهف نصر بن علي بن نصير بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن علي فلما حضره الموت سنة تسعين وأربعمائة عهد لأخيه أبي سلمة بن مرشد وكان عالماً بالقراءات والأدب وولى مرشد أخاه الأصغر سلطان بن علي وكان بينهما من الاتفاق والملاءمة ما لم يكن بين اثنين ونشأ لمرشد بنون كثيرون وفي السؤدد منهم عز الدولة أبو الحسن علي ومؤيد الدولة أسامة وولده علي وتعدد ولده ونافسوا بني عمهم وفشت بينهم السعايات فتماسكوا لمكان مرشد والتمامه بأخيه فلما مات مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة تنكر أخوه سلطان لولده وأخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد بعضهم نور

الدين فامتعض لهم وكان مشتغلاً عنهم بالإفرنج.

ثم توفي السلطان وقام بأمر شيزر أولاده وراسلوا الإفرنج فحنق نور الدين عليهم لذلك.

ثم وقعت الزلازل بالشام وخرب أكثر مدنه مثل حماة وحمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وحصن الأكراد وعرقة ولاذقية وطرابلس وانطاكية هذه سقطت جميعها وتهدمت سنة اثنتين وخمسين وما سقط بعضه وتهدمت أسواره فأكثر بلاد الشام وخشي نور الدين عليها من الإفرنج فوقف بعساكره في أطراف البلاد حتى رم ما تثلم من أسوارها.

وكان بنو منقذ أمراء شيزر قد اجتمعوا عند صاحبها منهم في دعوة فأصابتهم الزلزلة مجتمعين فسقطت عليهم القلعة ولم ينج منهم أحد وكان بالقرب منها بعض أمراء نور الدين فبادر وصعد إليها وملكها منه نور الدين ورم ما تثلم من أسوارها وجدد بناءها فعادت كما كانت هكذا قال ابن الأثير.

وقال ابن خلكان: وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة استولى بنو منقذ على شيزر من يد الروم والذي تولى فتحها منهم علي بن منقذ بن نصر بن سعد وكتب إلى بغداد بشرح الحال ما نصه:

كتابي من حصن شيزر حماه اللّه وقد رزقني اللّه من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم ما لم يتأت لمخلوق في هذا الزمان وإذا عرف الأمر على حقيقته علم أني هزبر هذه الأمة وسليمان الجن والمردة وأنا أفرق بين المرء وزوجه وأستنزل القمر من محله أنا أبو النجم وشعري شعري نظرت إلى هذا الحصن فرأيت أمراً يذهل الألباب يسع ثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال وتمسكه خمس نسوة فعمدت إلى تل بينه وبين حصن الروم يعرف بالحواص ويسمى هذا التل بالحصن فعمرته حصناً وجمعت فيه أهلي وعشيرتي ونفرت نفرة على حصن الحواص فأخذته بالسيف من الروم ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت إليهم وأكرمتهم ومزجتهم بأهلي وعشيرتي وخلطت خنازيرهم بغنمي ونواقيسهم بصوت الأذان ورأى أهل شيزر فعلي ذلك فأنسوا بي ووصل إليّ منهم قريب من نصفهم فبالغت في إكرامهم ووصل إليهم مسلم بن قريش العقيلي فقتل من أهل شيزر نحو عشرين رجلاً فلما انصرف مسلم عنهم سلموا إلي الحصن.

انتهى كتاب علي بن منقذ وبين هذا الذي ذكره ابن خلكان والذي ذكره ابن الأثير نحو خمسين سنة وما ذكره ابن الأثير أولى لأن الإفرنج لم يملكوا من الشام شيئاً في أوائل المائة الخامسة واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على بعلبك

كانت بعلبك في يد الضحاك البقاعي نسبة إلى بقاعة والآن عليها صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك ببعلبك وشغل نور الدين عنه بالإفرنج فلما كانت سنة اثنتين وخمسين استنزله نور الدين عنها وملكها واللّه أعلم.

استيلاء أخي نور الدين على حران ثم ارتجاعها

كان نور الدين سنة أربع وخمسين وخمسمائة بحلب ومعه أخوه الأصغر أمير أميران فمرض نور الدين بالقلعة واشتد مرضه فجمع أخوه وحاصر قلعة حلب وكان شيركوه بن شادي أكبر أمرائه بحمص فلما بلغه الأزحاف سار إلى دمشق ليملكها وعليها أخوه نجم الدين أيوب فنكر وأمره بالمسير إلى حلب حتى يتبين حياة نور الدين من موته فأغذ السير إلى حلب وصعد القلعة وأظهر نور الدين للناس من سطح مشرف فافترقوا عن أخيه أمير أميران فسار إلى حران فملكها فلما أفاق نور الدين سلمها إلى زين الدين علي كجك نائب أخيه قطب الدين بالموصل وسار إلى الرقة فحاصرها واللّه تعالى ولي التوفيق.

خبر سليمان شاه وحبسه بالموصل ثم مسيره منها إلى السلطنة بهمذان

كان الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملك شاه عند عمه السلطان سنجار بخراسان وقد عهد له بملكه وخطب باسمه على منابر خراسان فلما حصل سنجار في أسر العدو سنة ثمان وأربعين وخمسمائة كما مر في أخبار دولتهم واجتمعت العساكر على سليمان شاه هذا وقدموه فلم يطق مقاومة العدو فمضى إلى خوارزم شاه وزوجه ابنة أخيه ثم بلغه عنه ما ارتاب له فأخرجه من خوارزم وقصد أصفهان فمنعه الشحنة من الدخول فقصد قاشان فبعث إليه محمد شاه ابن أخيه محمود عسكراً دافعوه عنها فسار إلى خراسان فمنعه ملك شاه منها فقصد النجف ونزل وأرسل للخليفة المستنصر وبعث أهله وولده رهناً بالطاعة واستأذن في دخول بغداد فأكرمهم الخليفة وأذن له وخرج ابن الوزير ابن هبيرة لتلقيه في الموكب وفيه قاضي القضاة والتقيا ودخل بغداد وخلع عليه آخر سنة خمسين.

وبعد أيام أحضر بالقصر واستخلف بحضرة قاضي القضاة والأعيان وخطب له ببغداد ولقب ألقاب أبيه وأمر بثلاثة آلاف فارس وسار نحو بلاد الجبل في ربيع سنة إحدى وخمسين ونزل الخليفة حلوان واستنفر له ابن أخيه ملك شاه صاحب همذان فقدم إليه في ألفي فارس وجعله سليمان شاه ولي عهده وأمدهما الخليفة بالمال والسلاح ولحق بهما ايلدكز صاحب الري فكثرت جموعهم وبعث السلطان محمد إلى قطب الدين مودود صاحب الموصل وزين الدين علي كجك نائبه في المظاهرة والإنجاد وسار إلى لقاء سليمان شاه فانهزم وتمزق عسكره وفارقه ايلدكز فذهب إلى بغداد على طريق شهرزوز وبلغ خبر الهزيمة إلى زين الدين علي كجك فخرج في جماعة من عسكر الموصل وقعد له بشهرزور ومعه الأمير إيراق حتى مر بهم سليمان شاه فقبض عليه زين الدين وحمله إلى الموصل فحبسه بها مكرماً وطير إلى السلطان محمود بالخبر.

فلما هلك السلطان محمود بن محمد سنة خمس وخمسين أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى قطب الدين أتابك وزيره يطلبون تولية الملك سليمان شاه ويكون جمال الدين وزير قطب الدين وزيراً له وتعاهدوا على ذلك وجهزه قطب الدين جهاز الملك وسار معه زين الدين علي كجك في عسكر الموصل إلى همذان فلما قاربوا بلاد الجبل تتابعت العساكر والأمداد للقائهم إرسالاً واجتمعوا على سليمان شاه وجروا معه على مذاهب الدولة فخشيهم زين الدين على نفسه وفارقهم إلى الموصل وسار سليمان شاه إلى همذان فكان من أمرهم ما تقدم في أخبار الدولة السلجوقية.

حصار قلعة حارم وانهزام نور الدين أمام الإفرنج ثم هزيمتهم وفتحها

ثم جمع نور الدين محمود عساكر حلب وحاصر الإفرنج بقلعة حارم وجمعوا لمدافعته ثم خاموا عن لقائه ولم يناجزوه وطال عليه أمرها فعاد عنها ثم جمع عساكره وسار سنة ثمان وخمسين معتزماً على غزو طرابلس وانتهى إلى البقيعة تحت حصن الأكراد فكبسهم الإفرنج هنالك وأثخنوا فيهم ونجا نور الدين في الفل إلى بحيرة قطينه قريباً من حمص ولحق به المنهزمون وبعث إلى دمشق وحلب في الأموال والخيام والظهر وأزاح علل العسكر وعلم الإفرنج بمكان نور الدين من حمص فنكبوا عن قصدها وسألوه الصلح فامتنع فأنزلوا حاميتهم بحصن الأكراد ورجعوا وفي هذه الغزاة عزل نور الدين رجلاً يعرف بابن نصري تنصح له بكثرة خرجه بصلاته وصدقاته على الفقراء والفقهاء والصوفية والقراء إلى مصارف الجهاد فغضب وقال: واللّه لا أرجو النصر إلا بأولئك فإنهم يقاتلون عني بسهام الدعاء في الليل وكيف أصرفها عنهم وهي من حقوقهم في بيت المال ذلك شيء لا يحل لي.

ثم أخذ في الاستعداد للأخذ بثأره من الإفرنج وسار بعضهم إلى ملك مصر فأراد أن يخالفهم إلى بلادهم فبعث إلى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وإلى فخر الدين قرا أرسلان صاحب كيفا وإلى نجم الدين ولي صاحب ماردين بالنجدة فسار من بينهم أخوه قطب الدين وفي مقدمته زين الدين علي كجك صاحب جيشه ثم تبعه صاحب كيفا وبعث نجم الدين عسكره فلما توافت الأمداد سار نور الدين نحو حارم سنة تسع وخمسين فحاصرها ونصب عليها المجانيق واجتمع من بقي بالساحل من ملوك الإفرنج ومقدمهم البرنس سمند صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وابن جوسكين واستنفر لهم أمم النصرانية وقصدوه فأفرج عن حارم إلى ارتاج.

ثم خاموا عن لقائه وعادوا إلى حصن حارم وسار في اتباعهم وناوشهم الحرب فحملوا على عساكر حلب وصاحب كيفا في ميمنة المسلمين فهزموها ومروا في أتباعهم وحمل زين الدين في عساكر الموصل على الصف فلقيه الرجل فأثخن فيهم واستلحمهم وعاد الإفرنج من اتباع الميمنة فسقط في أيديهم ودارت رحا الحرب على الإفرنج فانهزموا ورجع المسلمون من القتل إلى الأسر فأسروا منهم أمماً فيهم سمند صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وبعث السرايا في تلك الأعمال بقصد أنطاكية لخلوها من الحامية فأبى وقال: أخشى أن يسلمها أصحابها لملك الروم فإن سمند ابن أخته ومجاورته أحق إلي من مجاورة ملك الروم ثم عاج على قلعة حارم فحاصرها وافتتحها ورجع مظفراً واللّه يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

فتح نور الدين قلعة بانياس

ولما افتتح نور الدين قلعة حارم أذن لعسكر الموصل وحصن كيفا بالانطلاق إلى بلادهم وعزم على منازلة بانياس وكانت بيد الإفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ثم ورى عنها بقصد طبرية فصرف الإفرنج همتهم إلى حمايتها وخالف هو إلى بانياس لقلة حاميتها فحاصرها وضيق عليها في ذي الحجة من سنة تسع وخمسين وكان معه أخوه نصير الدين أمير أميران

فأصيب بسهم في إحدى عينيه وأخذ الإفرنج في الجمع لمدافعته فلم يستكملوا أمرهم حتى فتحها وشحن قلعتها بالمقاتلة والسلاح وخافه الإفرنج فشاطروه في أعمال طبرية وضرب عليهم الجزية في الباقي ووصل الخبر بفتح حارم وبانياس إلى ملوكهم الذين ساروا إلى مصر فسبقهم بالفتح وعاد إلى دمشق ثم سار سنة إحدى وستين متجرداً إلى حصن المنيطرة فنازلهم على غرة وملكه عنوة ولم يجتمع الإفرنج إلا وقد ملكه فافترقوا ويئسوا من ارتجاعه والله تعالى أعلم.

وفادة شاور وزير العاضد بمصر على نور الدين العادل صريخاً وإنجاده بالعسكر مع أسد الدين شيركوه

كانت دولة العلويين بمصر قد أخذت في التلاشي وصارت إلى استبداد وزرائها على خلفائها وكان من آخر المسلمين بها شاور السعدي استعمله الصالح بن رزيك على قوص وندم فلما هلك الصالح بن رزيك وكان مستبداً على الدولة قام ابنه رزيك مقامه فعزل شاور عن قوص فلم يرض بعزله وجمع وزحف إلى القاهرة فملكها وقتل رزيك واستبد على العاضد ولقبه أمير الجيوش وكانت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ثم نازعه الضرغام وكان صاحب الباب ومقدم البرقية فثار عليه لسبعة أشهر من وزارته وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام وقصد نور الدين محمود بن زنكي مستنجداً به على أن يكون له ثلث الجباية بمصر ويقيم عسكر نور الدين بها مدداً له فاختار من أمرائه لذلك أسد الدين شيركوه بن شادي الكردي وكان بحمص وجهزه بالعساكر فسار لذلك في جمادى سنة تسع وخمسين واتبعه نور الدين إلى أطراف بلاد الإفرنج فشغلهم عن التعرض للعساكر.

وسار أسد الدين مع شاور وسار معه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب وانتهوا إلى بلبيس فلقيهم ناصر الدين أخو الضرغام في عساكر مصر فانهزم ورجع إلى القاهرة وأتبعه أسد الدين فقتله عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله تعالى عنها وقتل أخوه وعاد شاور إلى وزارته وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر الوفاء بالعهد من شاور بما عاهد عليه نور الدين فنكث شاور العهد وبعث إليه بالرجوع إلى بلده فلج في طلب ضريبته ورحل إلى بلبيس والبلاد الشرقية فاستولى عليها واستمد شاور عليه بالإفرنج فبادروا إلى ذلك لما كان في نفوسهم من تخوف غائلته وطمعوا في ملك مصر.

وسار نور الدين من دمشق ليأخذ بحجزتهم عن المسير فلم يثنهم ذلك وتركوا ببلادهم حامية فلما قاربوا مصر فارقها أسد الدين واجتمع الإفرنج وعساكر مصر فحاصروه ثلاثة أشهر يغاديهم القتال ويراوحهم وجاءهم الخبر بهزيمة الإفرنج على حارم وما هيأ الله لنور الدين في ذلك فراسلوا أسد الدين شيركوه في الصلح وطووا عنه الخبر فصالحهم وخرج ولحق بالشام ووضع له الإفرنج المراصد بالطريق فعدل عنها ثم أعاده نور الدين إلى مصر سنة اثنتين وستين فسار بالعساكر في ربيع ونزل اطفيح وعبر النيل.

وجاء إلى القاهرة من جانبها الغربي ونزل الجيزة في عدوة النيل وحاصرها خمسين يوماً واستمد شاور بالإفرنج وعبر إلى أسد الدين فتأخر إلى الصعيد ولقيهم منتصف السنة فهزمهم وسار إلى ثغر الإسكندرية فملكها وولى عليها صلاح الدين ابن أخيه ورجع فدوخ بلاد الصعيد وسارت عساكره مصر والإفرنج إلى الاسكندرية وحاصروا بها صلاح الدين فسار إليه أسد الدين فتلقوه بطلب الصلح فتم ذلك بينهم وعاد إلى الشام وترك لهم الإسكندرية.

وكاتب شجاع بن شاور نور الدين بالطاعة عنه وعن طائفة من الأمراء ثم استطال الإفرنج على أهل مصر وفرضوا عليهم الجزية وأنزلوا بالقاهرة الشحنة وتسلموا أبوابها واستدعوا ملكهم بالشام إلى الاستيلاء عليها فبادر نور الدين وأعاد أسد الدين في العساكر إليها في ربيع سنة أربع وستين فملكها وقتل شاور وطرد الإفرنج عنها وقدمه العاضد لوزارته والاستبداد عليه كما كان من قبله.

ثم هلك أسد الدين وقام صلاح الدين ابن أخيه مكانه وهو مع ذلك في طاعة نور الدين محمود وهلك العاضد فكتب نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بإقامة الدعوة العباسية بمصر والخطبة للمستضيء ويقال: إنه كتب له بذلك في حياة العاضد وبين يدي وفاته وهلك لخمسين يوماً أو نحوها فخطب للمستضيء العباسي وانقرضت الدولة العلوية بمصر وذلك سنة سبع وستين كما نأتي على شرحه وتفصيله في دولة بني أيوب إن شاء الله تعالى.

ووقعت خلال ذلك فتنة بين نور الدين محمود وبين صاحب الروم قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان سنة ستين وخمسمائة وكتب الصالح بن رزيك إلى قليج أرسلان ينهاه عن الفتنة والله تعالى ولي التوفيق.

فتح نور الدين صافيتا وعريمة ومنبج وجعبر

ثم جمع نور الدين عساكره سنة اثنتين وستين واستدعى أخاه قطب الدين من الموصل فقدم عليه بحمص ودخلوا جميعاً بلاد الإفرنج ومروا بحصن الأكراد واكتسحوا نواحيه ثم حاصروا عرقة وخرجوا جكة وفتحوا العريمة وصافيتا وبعثوا سراياهم فعاثت في البلاد ورجعوا إلى حمص فأقاموا بها إلى رمضان وانتقلوا إلى بانياس وقصدوا حصن حموص فهرب عنه الإفرنج فهدم نور الدين سوره وأحرقه واعتزم على بيروت فرجع عنه أخوه قطب الدين إلى الموصل وأعطاه نور الدين من عمله الرقة على الفرات.

ثم انتقض بمدينة منبج غازي بن حسان وبعث إليها العساكر فملكها عنوة وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وبقيت بيده إلى أن أخذها منه صلاح الدين بن أيوب ثم قبض بنو كلاب على شهاب الدين ملك بن علي بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر وكانت تسمى دوس ثم سميت باسم جعبر بانيها.

وكان السلطان ملك شاه أعطاه لجده عندما ملك حلب كما مر في أخباره ولم تزل بيده ويد عقبه إلى أن هلك هذا فخرج يتصيد سنة ثلاث وستين وقد أرصد له بنو كلاب فأسروه وحملوه إلى نور الدين محمود صاحب دمشق فاعتقله مكرماً وحاوله في النزول عن جعبر بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى فأبى وبعث بالعساكر مع الأمير فخر الدين محمود بن أبي علي الزعفراني وحاصرها مدة فامتنعت فبعث عسكراً آخر وقدم على الجميع الأمير فخر الدين أبا بكر ابن الداية رضيعه وأكبر أمرائه فحاصرها فامتنعت ورجع إلى ملاطفة صاحبها فأجاب وعوضه نور الدين عنها سروج وأعمالها وساحة حلب ومراغة وعشرين ألف دينار وملك قلعة جعبر سنة أربع وستين وانقرض أمر بني مالك منها والبقاء لله وحده.

رحلة زين الدين نائب الموصل إلى إربل واستبداد قطب الدين بملكه

قد كان تقدم لنا أن نصير الدين جقري كان نائب الأتابك زنكي بالموصل وقتل ألب أرسلان ابن السلطان محمود آخر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة طمعاً في الملك لغيبة الأتابك فرجع من غيبته في حصار البيرة وقدم مكانه زين الدين علي بن كمستكين بقلعة الموصل فلم يزل بها بقية أيام الأتابك وأيام ابنه غازي وابنه الآخر قطب الدين سنة ثمان وخمسين على وزيرهم جمال الدين محمد بن علي بن منصور الأصفهاني فاعتقله وهلك لسنة من الاعتقال وحمل إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم فدفن بها في رباط هناك أعده لذلك وكانت وفاته أيام سيف الدين غازي بن قطب الدين فولى مكانه جلال أبا الحسن ابنه وكان زين الدين علي بن كمستكين ويعرف بكجك قد استبد في دولة قطب الدين واستقل بحكم الدولة.

وصارت بيده أكثر البلاد أقطاعاً مثل أربل وشهرزور والقلاع التي في تلك البلاد الهكارية منها العمادية وغيرها والحميدية وتكريت وسنجار وقد كان نقل أهله وولده وذخائره إلى إربل وأقام بمحل نيابته من قلعة الموصل فأصابه الكبر وطرقه العمى والصمم فعزم على مفارقة الموصل إلى كسر بيته بإربل فسلم جميع البلاد التي بيده إلى قطب الدين ما عدا إربل وسار إليها سنة أربع وستين وأقام قطب الدين مكانه فخر الدين عبد المسيح خصياً من موالي جده الأتابك زنكي وحكمه في دولته فنزل بالقلعة وعمّرها وكان الخراب قد لحقها بإهمال زين الدين أمر البناء والله تعالى أعلم.

حصار نور الدين قلعة الكرك

ثم بعث صلاح الدين سنة خمس وستين إلى نور الدين محمود يطلب إنفاذ أبيه نجم الدين أيوب إليه فبعثه في عسكر واجتمع إليه خلق من التجار ومن أصحاب صلاح الدين وخشي عليهم نور الدين في طريقهم من الإفرنج فسارت العساكر إلى الكرك وهو حصن اختطه من الإفرنج البرنس أرقاط واختط له قلعة فحاصره نور الدين وجمع له الإفرنج فرحل إلى مقدمتهم قبل أن يتلاحقوا فخاموا عن لقائه ونكصوا على أعقابهم وسار في بلادهم فاكتسحها وخرب ما مر من القلاع وانتهى إلى بلاد المسلمين حتى نزل حوشب وبعث نجم الدين من هنالك إلى مصر فوصلها منتصف خمس وستين وركب العاضد للقائه.

ولما كان نور الدين بعشيرا سار للقاء شهاب الدين محمد بن الياس بن أبي الغازي بن أرتق صاحب قلعة أكبره فلما انتهى إلى نواحي بعلبك لقي سرية من الإفرنج فقاتلهم وهزمهم واستلحمهم وجاء بالأسرى ورؤس القتلى إلى نور الدين وعرف الرؤس مقدم الاستبان صاحب حصن الأكراد وكان شجى في قلوب المسلمين وبلغه وهو بهذا المنزل خبر الزلازل التي عمت البلاد بالشام والموصل والجزيرة والعراق وخربت أكثر البلاد بعمله فسار إليها وشغل في إصلاحها من واحدة إلى أخرى حتى أكملها

بمبلغ جهده واشتغل الإفرنج بعمارة بلادهم أيضاً خوفاً من غائلته والله تعالى أعلم.

وفاة قطب الدين صاحب الموصل وملك ابنه سيف الدين غازي

ثم توفي قطب الدين مودود بن الأتابك زنكي صاحب الموصل في ذي الحجة سنة خمس وستين لإحدى وعشرين سنة ونصف من ملكه وعهد لابنه الأكبر عماد الدين بالملك وكان القائم بدولته فخر الدين عبد المسيح وكان شديد الطواعية لنور الدين محمود ويعلم ميله عن عماد الدين زنكي بن مودود فعدل عنه إلى أخيه سيف الدين غازي بن مودود بموافقة أمه خاتون بنت حسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي ولحق عماد الدين بعمه نور الدين منتصراً به وقام فخر الدين عبد المسيح بتدبير الدولة بالموصل واستبد بها والله تعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على الموصل وإقراره ابن أخيه سيف الدين عليها

ولما ولي سيف الدين غازي بالموصل بعد أبيه قطب الدين واستبد عليه فخر الدين عبد المسيح كما تقدم وبلغ الخبر إلى نور الدين باستبداده أنف من ذلك وسار في خف من العسكر وعبر الفرات عند جعبر أول سنة ست وستين وقصد الرقة فملكها ثم الخابور فملك جميعه ثم نصيبين وكلها من أعمال الموصل وجاءه هناك نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان صاحب كيفا مدداً ثم سار إلى سنجار فحاصرها وملكها وسلمها لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين ثم جاءته كتب الأمراء بالموصل فاستحثوه فأغذ السير إلى مدينة كلك ثم عبر الدجلة ونزل شرقي الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل وسقطت ذلك اليوم ثلمة كبيرة من سور الموصل وكان سيف الدين غازي قد بعث أخاه عز الدين مسعود إلى الأتابك شمس الدين صاحب همذان وبلاد الجبل وأذربيجان وأصفهان والري يستنجده على عمه نور الدين فأرسل أيلدكز إلى نور الدين ينهاه عن الموصل فأساء جوابه وتوعده وأقام يحاصر الموصل ثم اجتمع أمراؤها على طلعة نور الدين ولما استحث فخر الدين عبد المسيح استأمن إلى نور الدين على أن يبقى سيف الدين ابن أخيه على ملكها فأجابه على أن يخرج هو عنه ويكون معه بالشام وتم ذلك بينهما وملك نور الدين منتصف جمادى الأولى من سنة ست وستين ودخل المدينة واستتاب بالقلعة خصياً اسمه كمستكين ولقبه سعد الدين فأقر سيف الدين ابن أخيه على ملكه وخلع عليه وردت عليه من الخليفة المستضيء وهو يحاصرها وأمر ببناء جامع بالموصل فبني وشهر باسمه وأمر سيف الدين أن يشاور كمستكين في جميع أموره وأقطع مدينة سنجار لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين وعاد إلى الشام والله تعالى أعلم.

الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين

ثم سار صلاح الدين في صفر سنة تسع وستين من مصر إلى بلاد الإفرنج غازياً ونازل حصن الشوبك من أعمال واستأمن إليه أهله على أن يمهلهم عشرة أيام فأجابهم وسمع نور الدين بذلك فسار من دمشق غازياً أيضاً بلاد الإفرنج من جانب آخر وتنصح لصلاح الدين أصحابه بأنك إن ظاهرته على الإفرنج اضمحل أمرهم فاستطال عليك نور الدين ولا تقدر على الامتناع منه فترك الشوبك وكر راجعاً إلى مصر وكتب لنور الدين يعتذر له بأنه بلغه عن بعض سفلة العلويين بمصر أنهم معتزمون على الوثوب فلم يقبل نور الدين عذره في ذلك واعتزم على عزله عن مصر فاستشار صلاح الدين أباه وخاله شهاب الدين الحارمي وقرابتهم فأشار عليه تقي الدين عمر بن أخيه بالامتناع والعصيان فنكر عليه نجم الدين أبوه وقال له: ليس منا من يقوم بعصيان نور الدين لو حصر أو بعث وأشار عليه بأن يكاتبه بالطاعة وأنه إن عزم على أخذ البلاد منك فسلمها ويصل بنفسه وافترق المجلس فخلا به أبوه وقال: مالك توجد بهذا الكلام السبيل للأمراء في استطالتهم عليك ولو فعلتم ما فعلتم كنت أول الممتنعين عليه ولكن ملاطفته أولى. وكتب صلاح الدين إلى نور الدين بما أشار به أبوه من الملاطفة فتركهم نور الدين وأعرض عن قصدهم ثم توفي واشتغل صلاح الدين بملك البلاد.

ثم جمع نور الدين العساكر وسار لغزو الإفرنج بسبب ما أخذوه لأهل البلاد من مراكب التجار ونكثوا فيها العهد مغالطين بأنها تكسرت فلم يقبل مغالطتهم وسار إليهم وبث السرايا في بلادهم نحو أنطاكية وطرابلس وحاصر هو حصن عرقة وخرب ربضه وأرسل عسكراً إلى حصن صافيتا وعريمة ففتحهما عنوة وخربهما ثم سار من عرقة إلى طرابلس واكتسح كل ما مر عليه حتى رجع الإفرنج إلى الإنصاف من أنفسهم وردوا ما أخذوا من المكرمين الأعزين وسألوا تجديد الهدنة فأجابهم بعد أن خربت

بلادهم وقتلت رجالهم وغنمت أموالهم.

ثم اتخذ نور الدين في هذه السنة الحمام بالشام تطير إلى أوعارها من لاتساع بلاده ووصول الأخبار بسرعة فبادر إلى القيام بواجبه وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها لتصل الكتب في أجنحتها ثم أغار الإفرنج على حوران من أعمال دمشق وكان نور الدين ينزل الكسوة فرحل إليهم ورحلوا أمامه إلى السواد وتبعهم المسلمون ونالوا منهم ونزل نور الدين على عشير وبعث منها سرية إلى أعمال طبرية فاكتسحها وسار الإفرنج لمدافعتهم فرجعوا عنها وأتبعهم الإفرنج فعبروا النهر وطمعوا في استنقاذ غنائمهم فقاتلهم المسلمون دونها أشد قتال إلى أن استنقذت وتحاجزوا ورجع الإفرنج خائبين والله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين بمنه وكرمه.

واقعة ابن ليون ملك الأرمن بالروم

كان مليح بن ليون صاحب دروب حلب أطاع نور الدين محمود بن زنكي وأمره على الحمالة وأقطعه ببلاد الشام وكان يسير في خدمته ويشهد حروبه مع الإفرنج أهل ملته وكان الأرمني أيضاً يستظهر به على أعدائه وكانت ادنة والمصيصة وطرسوس مجاورة لابن ليون وهي بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فتغلب عليها ابن ليون وملكها وبعث صاحب القسطنطينية منتصف سنة ثمان وستين وخمسمائة جيشاً كثيفاً مع عظيم من بطارقته فلقيه ابن ليون بعد أن استنجد نور الدين فأنجده بالعساكر وقاتلهم فهزمهم وبعث بغنائمهم وأسراهم إلى نور الدين وقويت شوكة ابن ليون ويئس الروم من تلك البلاد والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين إلى بلاد الروم

كان ذو النون بن محمد بن الدانشمند صاحب ملطية وسيواس وأخصرى وقيسارية ملكها بعد عمه باغي أرسلان وأخيه إبراهيم بن محمد فلم يزل قليج أرسلان بن محمد بن قليج أرسلان يتخيف بلاده إلى أن استولى عليها ولحق ذو النون بنور الدين صريخاً وأرسل إلى قليج أرسلان بالشفاعة في رد بلاده فلم يشفعه فسار إليه وملك من بلاده بكسور ومهنسا ومرعش ومرزبان وما بينهما في ذي القعدة سنة ثمان وستين ثم بعث عسكراً إلى سيواس فملكوها ثم أرسل قليج أرسلان إلى نور الدين يستعطفه وقد كان يجيز أمامه إلى قاصية بلاده فأجابه نور الدين إلى الصلح على أن ينجده بعسكر الإفرنج ويبقي سيواس بيد ذي النون وعسكر نور الدين الذي معه فيها ورجع نور الدين إلى بلاده وبقيت سيواس بيد ذي النون حتى مات نور الدين وعاد قليج أرسلان ثم وصل رسول نور الدين من بغداد كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري ومعه منشور من الخليفة المستضيء لنور الدين بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد الروم وديار مصر والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى الكرك ورجوعه

ولما كانت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين كما قدمناه واعتزم نور الدين على عزله عن مصر واستعطفه صلاح الدين وكان فيما تقرر بينهما أنهما يجتمعان على الكرك وأيهما سبق انتظر صاحبه فسار صلاح الدين من مصر في شوال سنة ثمان وستين وسبق إلى الكرك وحاصره وخرج نور الدين بعد أن بلغه مسير صلاح الدين من مصر وأزاح علل العساكر وانتهى إلى الرقيم على مرحلتين من الكرك فخافه صلاح الدين على نفسه وخشي أن يعذله عند لقائه وكان استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر فبلغه أنه طرقه مرض شديد فوجد فيه عذراً لنور الدين وكر راجعاً إلى مصر وبعث الفقيه عيسى بذلك العذر وإن حفظه مصر أهمّ عليه فلما وصل مصر وجد أباه قد توفي من سقطة سقطها عن مركوبه هزه المرح فرماه وحمل إلى بيته وقيذاً ومات لأيام قريبة آخر ذي الحجة من السنة ورجع نور الدين إلى دمشق وكان قد بعث رسوله كمال الدين الشهرزوري القاضي ببلاده وصاحب الوقوف والديوان لطلب التقليد للبلاد التي بيده مثل مصر والشام والجزيرة والموصل والتي دخلت في طاعته كديار بكر وخلاط وبلاد الروم وأن يعاد له ما كان لأبيه زنكي من الإقطاع بالعراق وهي صريفين ودرب هارون وأن يسوغ قطعة أرض على شاطىء دجلة بظاهر الموصل يبني فيها مدرسة للشافعية فأسعف بذلك كله.

وفاة نور الدين محمود وولاية ابنه إسماعيل الصالح

ثم توفي نور الدين محمود بن الأتابك زنكي حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة لسبع عشرة سنة من ولايته وكان قد شرع في التجهز لأخذ مصر من صلاح الدين بن أيوب

واستنفر سيف الدين ابن أخيه في العساكر مورياً بغزو الإفرنج وكان قد اتسع ملكه وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما ملكها سيف الدولة بن أيوب وكان معتنياً بمصالح المسلمين مواظباً على الصلاة والجهاد وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة ومتحرّياً للعدل ومتجافياً عن أخذ المكوس في جميع أعماله وهو الذي حصن قلاع الشام وبنى الأسوار على مدنها مثل: دمشق وحمص وحماة وشيزر وبعلبك وحلب وبنى مدارس كثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النوري بالموصل والمارستانات والخانات في الطريق والخوانق للصوفية في البلاد واستكثر من الأوقاف عليها يقال: بلغ ريع أوقافه في كل شهر تسعة آلاف دينار صوري وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويتمثل لهم قائماً ويؤنسهم في المجالسة ولا يرد لهم قولا وكان متواضعاً مهيباً وقوراً ولما توفي اجتمع الأمراء والمقدمون وأهل الدولة بدمشق وبايعوا ابنه الملك الصالح إسماعيل وهو ابن إحدى عشرة سنة وحلفوا له وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له هنالك وضرب السكة باسمه وقام بكفالته وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وأشار عليه القاضي كمال الدين الشهرزوري بأن يرجعوا في جميع أمورهم إلى صلاح الدين لئلا ينبذ طاعتهم فأعرضوا عن ذلك والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء سيف الدين غازي على بلاد الجزيرة

قد كنا قدمنا أن نور الدين استولى على بلاد الجزيرة وأقر سيف الدين ابن أخيه قطب الدين على الموصل واحتمل معه فخر الدين عبد المسيح الذي ولى سيف الدين واستبد عليه بأمره وولى على قلعة الموصل سعد الدين كمستكين ولما استنفرهم نور الدين بين يدي موته سار إليه سيف الدين غازي وكمستكين الخادم في العساكر وبلغهم في طريقهم خبر وفاته وكان كمستكين في المقدمة فهرب إلى حلب واستولى سيف الدين على مخلفه وسواده وعاد إلى نصيبين فملكها وبعث العساكر إلى الخابور فاستولى عليها وعلى أقطاعها ثم سار إلى حران وبها قايماز الحراني مولى نور الدين فحاصرها أياماً ثم استنزله على أن يقطعه حران فلما نزل قبض عليه وملكها ثم سار إلى الرها وبها خادم لنور الدين افتسلمها وعوضه عنها قلعة الزعفراني من جزيرة ابن عمر وانتزعها منه بعد ذلك.

ثم سار إلى الرقة وسروج فملكها واستوعب بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر لامتناعها وسوى رأس عين كانت لقطب الدين صاحب ماردين وهو ابن خاله وكان شمس الدين علي بن الداية بحلب وهو من أكبر أمراء نور الدين ومعه العساكر ولم يقدر على مدافعة سيف الدين فخر الدين عبد المسيح وكان نور الدين تركه قبل موته بسيواس مع ذي النون بن الدانشمند فلما مات نور الدين رجع إلى صاحبه سيف الدين غازي وهو الذي كان ملكه فوجده بالجزيرة وقد ملكها فأشار عليه بالعبور إلى الشام وعارضه آخر من أكبر الأمراء في ذلك فرجع سيف الدين إلى قوله وعاد إلى الموصل وأرشد صلاح الدين إلى الملك الصالح وأهل دولته يعاتبهم حيث لم يستدعوه لمدافعة سيف الدين عن الجزيرة ويتهدد ابن المقدم وأهل الدولة على انفرادهم بأمر الملك الصالح دونه وعلى قعودهم عن مدافعة سيف الدين غازي ثم أرسل شمس الدين ابن الداية إلى الملك الصالح يستدعيه من دمشق إلى حلب ليدافع شمس الدين ابن عمه قطب الدين عن الجزيرة فمنعه أمراؤه عن ذلك مخافة أن يستولي عليه ابن الداية والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

حصار الإفرنج بانياس

ولما مات نور الدين محمود اجتمع الإفرنج وحاصروا قلعة بانياس من أعمال دمشق وجمع شمس الدين بن المقدم العساكر وسار عن دمشق وراسل الإفرنج وتهددهم بسيف الدين صاحب الموصل وصلاح الدين صاحب مصر فصالحوه على مال يبعثه إليهم واشترى من الإفرنج وأطلعهم وتقررت الهدنة وبلغ ذلك صلاح الدين فنكره واستعظمه وكتب إلى الصالح وأهل دولته بقبح مرتكبهم ويعدهم بغزوة الإفرنج وقصده إنما هو طريقه إلى الشام ليتملك البلاد وإنما صالح ابن المقدم الإفرنج خوفاً منه ومن سيف الدين والله تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على دمشق

ولما كان ما ذكرناه من استيلاء سيف الدين غازي على بلاد الجزيرة خاف شمس الدين ابن الداية منه على حلب وكان سعد الدين كمستكين قد هرب من سيف الدين غازي إليه فأرسله إلى دمشق ليستدعي الملك الصالح للمدافعة فلما قارب دمشق أنفذ ابن المقدم إليه عسكراً فنهبوه وعاد إلى حلب ثم رأى ابن المقدم وأهل الدولة بدمشق أن مسير الصالح إلى حلب أصلح فبعثوا إلى كمستكين وبعثوا معه الملك الصالح فلما وصل إلى حلب قبض

كمستكين على ابن الداية وإخوته وعلى رئيس حلب ابن الخشاب وعلى مقدم الأحداث بها واستبد بأمر الصالح وخشي ابن المقدم وأمراؤه بدمشق غائلته فكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل أن يملكوه فأحجم عن المسير إليهم وظنها مكيدة وبعث بخبرهم إلى كمستكين وصالحه على مال أخذه من البلاد فكثر ارتياب القوم في دمشق فكاتبوا صلاح الدين بن أيوب فطار إليهم ونكب عن الإفرنج في طريقه وقصد بصرى وأطاعه صاحبها ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج إليه أهل الدولة بقدمهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم وهو الذي كان أبوه سلم سنجار لنور الدين سنة أربع وأربعين كما مر ودخل صلاح الدين دمشق آخر ربيع سنة سبعين ونزل دار أبيه المعروفة بدار العفيفي وكان في القلعة ريحان خديم نور الدين فبعث إليه صلاح الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بأنه على طاعة الصالح والخطبة له في بلاده وأنه إنما جاء ليرتجع البلاد التي أخذت له فسلم إليه ريحان القلعة واستولى على ما فيها من الأموال وهو في ذلك كله يظهر طاعة الملك الصالح ويخطب له وينقش السكة باسمه. انتهى والله أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حمص وحماة ثم حصاره حلب ثم ملكه بعلبك

ولما ملك صلاح الدين دمشق من إيالة الملك الصالح استخلف عليها أخاه سيف الدين الإسلام طغركين بن أيوب وكان حمص وحماة وقلعة مرعش وسليمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في إقطاع فخر الدين مسعود الزعفراني من أمراء نور الدين ما عدا القلاع منها ولما مات نور الدين أجفل الزعفراني عنها لسوء سيرته ولما ملك صلاح الدين دمشق سار إلى حمص فملك البلد وامتنعت القلعة بالوالي الذي بها فجهز عسكر لحصارها وسار إلى حماة فنازلها منتصف شعبان وبقلعتها الأمير خرديك فبعث إليه صلاح الدين بأنه في طاعة الملك الصالح وإنما جاء لمدافعة الإفرنج عنه وارتجاع بلاده بالجزيرة من ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل واستخلفه على ذلك عز الدين ثم بعثه صلاح الدين إلى الملك الصالح بحلب في الاتفاق وإطلاق شمس الدين علي حسن وعثمان تقي الدين من الاعتقال فسار عز الدين لذلك واستخلف بالقلعة أخاه ولما وصل إلى حلب قبض عليه كمستكين وحبسه فسلم أخوه قلعة حماة لصلاح الدين وملكها ثم سار صلاح الدين من وقته إلى حلب وحاصرها وركب الملك الصالح وهو صبي مناهز فسار في البلد واستعان بالناس وذكر حقوق أبيه فبكى الناس رحمة له واستماتوا دونه وخرجوا فدافعوا عسكر صلاح الدين ودس كمستكين إلى مقدم الإسماعيلية في الفتك بصلاح الدين فبعث لذلك فداوية منهم وشعر بذلك بعض أصحاب صلاح الدين وجماعة منهم معه وقتلوا عن آخرهم.

وأقام صلاح الدين محاصراً لحلب وبعث كمستكين إلى الإفرنج يستنجدهم على منازلة بلاد صلاح الدين ليرحل عنهم وكان القمص عند السنجيلي صاحب طرابلس أسره نور الدين في حارم سنة تسع وخمسين وبقي معتقلاً بحلب فأطلقه الآن كمستكين بمائة وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير وكان متغلباً على ابن مري ملك الإفرنج لكونه مجذوماً لا يصدر إلا عن رأيه فسار بجموع الإفرنج إلى حصن الرستن سابع رجب وصالحهم صلاح الدين من الغد فأجفلوا وحاصر هو القلعة وملكها آخر شعبان واستولى على أكثر الشام ثم سار إلى بعلبك وبها يمن الخادم من موالي نور الدين فحاصرها حتى استأمنوا إليه فملكها منتصف رمضان من السنة وأقطعها شمس الدين محمد ابن عبد الملك المقدم بما تولى له من إظهار طاعته بدمشق وتسليمها له والله تعالى أعلم.

حروب صلاح الدين مع سيف الدين غازي صاحب الموصل وغلبه إياه واستيلائه على بغدوين وغيرها من أعمال الملك الصالح ثم مصالحته على حلب

لما ملك صلاح الدين حمص وحماة وحاصر حلب كاتب الملك الصالح إسماعيل من حلب إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده فجمع عساكره واستنجد أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار فلم يجبه لما كان بينه وبين صلاح الدين وأنه ولاه سنجار ويطمعه في الملك فبعث سيف الدين غازي بالعساكر لمدافعة صلاح الدين عن الشام في رمضان سنة سبعين وخمسمائة مع أخيه عز الدين مسعود وأمير جيوش عز الدين القندار وجعل التدبير إليه وسار هو إلى سنجار فحاصر بها أخاه عماد الدين وامتنع عليه وبينما هو يحاصره جاءه الخبر بأن صلاح الدين هزم أخاه عز الدين وعساكره فصالح عماد الدين على سنجار وعاد إلى الموصل ثم جهز أخاه عز الدين في العساكر

ثانية ومعه القندار وساروا إلى حلب فانضمت إليهم عساكره وساروا جميعاً إلى صلاح الدين فأرسل إلى عماد الدين بالموصل في الصلح بينه وبين الملك الصالح على أن يرد عليه حمص وحماة ويسوغه الصالح دمشق فأبى إلا ارتجاع جميع بلاد الشام واقتصاره على مصر فسار صلاح الدين إلى عساكرهم ولقيها قريباً من حماة فانهزمت وثبت عز الدين قليلاً ثم صدق عليه صلاح الدين الحملة فانهزم وغنم سوادهم ومخلفهم واتبع عساكر حلب حتى أخرجهم منها وحاصرها وقطع خطبة الملك الصالح وبعث بالخطبة للسلطان في جميع بلاده ولما طال عليهم الحصار صالحوه على إقراره على جميع ما ملك من الشام ورحل عن حلب عاشر شوال من السنة وعاد إلى حماة ثم سار منها إلى بغدوين وكانت لفخر الدين مسعود بن الزعفراني من أمراء نور الدين وكان قد اتصل بالسلطان صلاح الدين واستخدم له ثم فارقه حيث لم يحصل على غرضه عنده فلحق ببغدوين وبها نائب الزعفراني فحاصرها حتى استأمنوا إليه وأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي وأقطع حمص ناصر الدين ابن عمه شيركوه وعاد إلى دمشق آخر سنة سبعين.

وكان سيف الدين غازي صاحب الموصل بعد هزيمة أخيه وعساكره عاد من حصار أخيه بسنجار كما قلناه إلى الموصل فجمع العساكر وفرق الأموال واستنجد صاحب كيفا وصاحب ماردين وسار في ستة آلاف فارس وانتهى إلى نصيبين في ربيع سنة إحدى وسبعين فأقام إلى انسلاخ فصل الشتاء وسار إلى حلب فبرز إليه سعد الدين كمستكين الخادم مدبر الصالح في عساكر حلب وبعث صلاح الدين عن عساكره من مصر وقد كان أذن لهم في الانطلاق فجاؤوا إليه وسار من دمشق إلى سيف الدين وكمستكين فلقيهم بتل الفحول وانهزموا راجعين إلى حلب وترك سيف الدين أخاه عز الدين بها في جمع من العساكر وعبر الفرات إلى الموصل يظن أن صلاح الدين في اتباعه وشاور الصالح وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز في مفارقة الموصل إلى قلعة الحميدية فعارضه في ذلك ثم عزل القندار عن إمارة الجيوش لأنه كان جر الهزيمة برأيه ومفارقته وولى مكانه مجاهد الدين قايماز ولما إنهزمت العساكر أمام صلاح الدين وغنم مخلفها سار إلى مراغة وملكها وولي عليها ثم سار إلى منبج وبها صاحبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي وكان شديد العداوة لصلاح الدين فملك المدينة وحاصره بالقلعة وضيق مخنقه ثم نقب أسوارها وملكها عليه عنوة وأسره ثم أطلقه سليباً فلحق بالموصل وأقطعه سيف الدين الرقة.

ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار إلى قلعة عزاز وهي في غاية المنعة فحاصرها أربعين يوماً حتى استأمنوا إليه فتسلمها في الأضحى ثم رحل إلى حلب فحاصرها وبها الملك الصالح واشتد أهلها في قتاله فعدل إلى المطاولة ثم سعى بينهما في الصلح وعلى أن يدخل فيه سيف الدين صاحب الموصل وصاحب كيفا وصاحب ماردين فاستقر الأمر على ذلك وخرجت أخت الملك الصالح إلى صلاح الدين فأكرمها وأفاض عليها العطاء وطلبت منه قلعة عزاز فأعطاها إياها ورحل إلى بلاد الإسماعيلية والله سبحانه وتعالى أعلم.

عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين صاحب الموصل ورجوعه

كان مجاهد الدين قايماز متولي مدينة إربل وكان بينه وبين شهاب الدين محمد بن بدران صاحب شهرزور عداوة فلما ولى سيف الدين مجاهد الدين قايماز نيابة الموصل خاف شهاب الدين غائلته عن تعاهد الخدمة بالموصل وأظهر الامتناع وذلك سنة اثنتين وسبعين فخاطبه جلال الدين الوزير في ذلك مخاطبة بليغة وحذره ورغبه فعاود الطاعة وبادر إلى الحضور بالموصل والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

نكبة كمستكين الخادم ومقتله

كان سعد الدين كمستكين الخادم قائماً بدولة الملك الصالح في حلب وكان يناهضه فيها أبو صالح العجمي فقدم عند نور الدين وعند ابن الملك الصالح وتجاوز مراتب الوزير فعدا عليه بعض الباطنية فقتله وخلا الجو لكمستكين وانفرد بالاستبداد على الصالح وكثرت السعاية فيه بحجر السلطان والاستبداد عليه وأنه قتل وزيره فقبض عليه وامتحنه وكان قد أقطعه قلعة حارم فامتنع بها أصحابه وأرادهم الصالح على تسليمها فامتنعوا وهلك كمستكين في المحنة وطمع فيها وساروا إليها وحاصروها وصانعهم الصالح بالمال فرجعوا عنها وبعث هو عساكره إليها وقد جهدهم الحصار فسلموها له وولي عليها والله تعالى أعلم.

وفاة الصالح إسماعيل واستيلاء ابن عمه عز الدين مسعود على حلب

ثم توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود

صاحب حلب في منتصف سنة سبع وسبعين لثمان سنين من ولايته وعهد بملكه لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل واستخلف أهل دولته على ذلك بعضهم بعماد الدين صاحب سنجار أخي عز الدين الأكبر لمكان صهره على أخت الصالح وأن أباه نور الدين كان يميل إليه فأبى وقال عز الدين: أنا أقدر على مدافعة صلاح الدين عن حلب فلما قضى نحبه أرسل الأمراء بحلب إلى عز الدين مسعود يستدعونه هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات ولقي هنالك أمراء حلب وجاؤوا معه فدخلها آخر شعبان من السنة وصلاح الدين يومئذ بمصر بعيداً عنهم وتقي الدين عمر ابن أخيه في منبج فلما أحسن بهم فارقها إلى حماة وثار به أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين وأشار أهل حلب عليه بقصد دمشق وبلاد الشام وأطمعوه فيها فأبى من أجل العهد الذي بينه وبين صلاح الدين ثم أقام بحلب شهوراً وسار عنها إلى الرقة والله تعالى أعلم.

استيلاء عماد الدين على حلب ونزوله عن سنجار لأخيه عز الدين

ولما انتهى عز الدين إلى الرقة منقلباً من حلب وافقه هنالك رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب منه أن يملكه مدينة سنجار وينزل هو له عن حلب فلم يجبه إلى ذلك فبعث عماد الدين إليه بأنه يسلم سنجار إلى صلاح الدين فحمل الأمراء حينئذ على معارضته على سنجار وتحمسهم له ولم يكن لعز الدين مخالفاً لتمكنه في الدولة وكثرة بلاده وعساكره فأخذ سنجار من أخيه عماد الدين وأعطاه حلب وسار إليها عماد الدين وملكها وسهل أمره على صلاح الدين بعد أن كان متخوفا من عز الدين على دمشق والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد الجزيرة وحصاره الموصل واستيلاؤه على كثير من بلادها ثم على سنجار

كان عز الدين صاحب الموصل قد أقطع مظفر الدين كوجنكري بن زين الدين كجك مدينة حران وقلعتها ولما سار صلاح الدين لحصار البيرة جنح إليه مظفر الدين ووعده النصر واستحثه للقدوم على الجزيرة فسار إلى الفرات مورياً بقصد وعبر إليه مظفر الدين فلقيه وجاء معه إلى البيرة وهي قلعة منيعة على الفرات من عدوة الجزيرة وكان صاحبها من بني أرتق أهل ماردين قد أطاع صلاح الدين فعبر من جسرها وعز الدين صاحب الموصل يومئذ قد سار ومعه مجاهد الدين إلى نصيبين لمدافعة صلاح الدين عن حلب فلما بلغهما عبوره الفرات عادا إلى الموصل وبعثا حامية إلى الرها وكاتب صلاح الدين ملوك النواحي بالنجدة والوعد على ذلك وكان تقدم العهد بينه وبين نور الدين محمد بن قرى أرسلان صاحب كيفا على أن صلاح الدين يفتح آمد ويسلمها إليه فلما كاتبهم الآن كان صاحب كيفا أول مجيب وسار صلاح الدين إلى الرها فحاصرها في جمادى سنة ثمان وسبعين وبها يومئذ فخر الدين مسعود الزعفراني فلما اشتد به الحصار استأمن إلى صلاح الدين وحاصر معه القلعة حتى سلمها نائبها على مال أخذه وأقطعها صلاح الدين مظفر الدين كوكبري صاحب حران وسار عنها إلى الرقة وبها نائبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي فأجفل عنها إلى الموصل وملكها صلاح الدين وسار إلى الخابور وهو قرقيسيا وماكسين وعرمان فاستولى على جميعها وسار إلى نصيبين فملكها لوقتها وحاصر القلعة أياماً وملكها وأقطعها أبا الهيجاء السمين من أكبر أمرائه وسار عنها وملكها ومعه صاحب كيفا وجاءه الخبر بأن الإفرنج أغاروا على أعمال دمشق ووصلوا داريا فلم يحفل بخبرهم واستمر على شأنه وأغراه مظفر الدين كوكبري وناصر الدين محمد بن شيركوه بالموصل ورجحا قصدها على سنجار وجزيرة ابن عمر كما أشار عليهما فسار صلاح الدين وصاحبها عز الدين ونائبه مجاهد الدين وقد جمعوا العساكر وأفاضوا العطاء وشحنوا البلاد التي بأيديهم كالجزيرة وسنجار والموصل وإربل وسار صلاح الدين حتى قاربها وسار هو ومظفر الدين وابن شيركوه في أعيان دولته إلى السور فأراه مخايل الامتناع وقال لمظفر الدين ولناصر الدين ابن عمه: قد أغررتماني. ثم صبح البلد وناشبه وركب أصحابه في المقاعد للقتال ونصب منجنيقا فلم يغن ونصب إليه من البلد تسعة ثم خرج إليه جماعة من البلد وأخذوه وكانوا يخرجون ليلاً من البلد بالمشاعل يوهمون الحركة فخشي صلاح الدين من البيات وتأخر عن القصد وكان صدر الدين شيخ الشيوخ قد وصل من قبل الخليفة الناصر مع بشير الخادم من خواصه في الصلح بين الفريقين على إعادة صلاح الدين بلاد الجزيرة فأجاب على إعادة الآخرين حلب فامتنعوا ثم رجع عن شرط حلب إلى ترك مظاهرة صاحبها فاعتذروا عن ذلك ووصلت رسل صاحب أذربيجان قرا أرسلان وأرسل صاحب خلاط شاهرين فلم ينتظم بينهما أمر.

ورحل صلاح الدين عن الموصل إلى سنجار فحاصرها وبها أمير أميران وأخوه عز الدين صاحب الموصل في عسكر ولقيه

شرف الدين وجاءها المدد من الموصل فحال بينهم وبينها وداخله بعض أمراء الأكراد من الدوادية من داخلها فكبسها صلاح الدين من ناحيته واستأمن شرف الدين لوقته فأمنه صلاح الدين ولحق بالموصل وملك صلاح الدين سنجار وصارت سياجاً على جميع ما ملكه بالجزيرة وولى عليها سعد الدين بن معين الدين أنز الذي كان متغلباً بدمشق على آخر طغركين وعاد فمر بنصيبين وشكا إليه أهلها من أبي الهيجاء السمين فعزله وسار إلى حران بلدة مظفر الدين كوكبري فوصلها في القعدة من سنة سبع وثمانين فأراح بها وأذن لعساكره في الانطلاق وكان عز الدين قد بعث إلى شاهرين صاحب خلاط يستنجده وأرسل شاهرين إلى صلاح الدين بالشفاعة في ذلك رسلاً عديدة آخرهم مولاه سكرجاه وهو على سنجار فلم يشفعه أخاه من ذلك وفارقه مغاضباً وسار شاهرين إلى قطب الدين صاحب ماردين وهو ابن أخته وابن خال عز الدين وصهره على بنته فاستنجده وسار معه وجاءهم عز الدين من الموصل في عساكره واعتزموا على قصد صلاح الدين وبلغه الخبر وهو مريح بحران فبعث عن تقي الدين ابن أخيه صاحب حمص وحماة وارتحل للقائهم ونزل رأس عين فخاموا عن لقائه ولحق كل ببلده وسار صلاح الدين إلى ماردين فأقام عليها أياماً ورجع والله تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حلب وأعمالها

ولما ارتحل صلاح الدين عن ماردين قصد آمد فحاصرها سنة تسع وسبعين وملكها وسلمها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان كما كان العهد بينهما وقد أشرنا إليه ثم سار إلى الشام فحاصر تل خالد من أعمال حلب حتى استأمنوا إليه وملكها في محرم سنة تسع وسبعين وسار منها إلى عينتاب وبها ناصر الدين أخو الشيخ إسماعيل خازن نور الدين محمود وصاحبه ولاه عليها نور الدين فلم يزل بها فاستأمن من إلى صلاح الدين على أن يقره على الحصن ويكون في خدمته فأقره وأعلمه ورحل صلاح الدين إلى حلب وبها عماد الدين زنكي بن مودود ونزل عليها بالميلان الأخضر أياماً ثم انتقل إلى جبل حوشن أياماً أخرى وأظهر أنه أبنى عليها وعجز عماد الدين عن عطاء الجند فراسل صلاح الدين أن يعوضه عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج فأجاب إلى ذلك وأعطاه عنها تلك البلاد وملكها وكان في شرط صلاح الدين عليه أنه يبادر إلى الخدمة متى دعاه إليها وسار عماد الدين إلى بلاده تلك ودخل صلاح الدين حلب في آخر سنة تسع وسبعين ومات عليها أخوه الأصغر تاج الملوك يوري بضربة في ركبته تصدعت لها ومات بعد فتح حلب.

ثم ارتحل صلاح الدين إلى قلعة حارم وبها سرجك من موالي نور الدين ولاه عليها عماد الدين فلما سلم حلب لصلاح الدين امتنع سرجك في قلعة حارم فحاصره صلاح الدين وترددت الرسل بينهما وقد دس إلى الإفرنج ودعاهم وخشي الجند الذين معه أن يسلمها إليهم فحبسوه واستأمنوا إلى صلاح الدين فملكها وولى عليها بعض خواصه وعلى تل خالد الأمير داروم الياروقي صاحب تل باشر وأقطع قلعة إعزاز الأمير سليمان بن جندر فعمرها بعد أن كان عماد الدين خربها وأقطع صلاح الدين أعمال حلب لأمرائه وعساكره والله تعالى أعلم.

نكبة مجاهد الدين قايماز

كان مجاهد الدين قايماز قائماً بدولة الموصل ومتحكماً فيها كما قلناه وكان عز الدين محمود الملقب بالقنداز صاحب الجيش وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان صاحب العراق كانا من أكابر الأمراء عند السلطان عز الدين مسعود صاحب الموصل وكانا يغريانه بمجاهد الدين ويكثران السعاية عنده فيه حتى اعتزم على نكبته ولم يقدر على ذلك في مجلسه لاستبداد مجاهد الدين وقوة شوكته فانقطع في بيته لعارض مرض وكان مجاهد الدين خصياً لا يحتجب منه النساء فدخل عليه يعوده فقبض عليه وركب إلى القلعة فاحتوى على أمواله وذخائره وولى بها لقنداز نائباً وجعل ابن صاحب العراق أمير حاجباً وحكمهما في دولته.

وكان في يد مجاهد الدين إربل وأعمالها فيها زين الدين يوسف ابن زين الدين علي كجك صبياً صغيراً تحت استبداده وبيده أيضاً جزيرة ابن عمر لمعز الدين سنجار شاه بن سيف الدين غازي وهو صبي تحت استبداده وبيده أيضا شهرزور وأعمالها ودقوقا وقلعة عقر الحميدية ونوابه في جميعها ولم يكن لعز الدين مسعود بعد استيلاء صلاح الدين على الجزيرة سوى الموصل وقلعتها لمجاهد الدين وهو الملك في الحقيقة فلما قبض عز الدين عليه امتنع صاحب إربل واستبد بنفسه وكان صاحب جزيرة ابن عمر وبعث بطاعته إلى صلاح الدين وبعث الخليفة الناصر شيخ الشيوخ وبشير الخادم بالصلح بين عز الدين وصلاح الدين على أن تكون الجزيرة وإربل من أعماله وامتنع عز الدين وقال هما من أعمالي وطمع صلاح الدين في الموصل فتنكر عز الدين لقنداز ولابن صاحب العراق لما حملاه عليه من الفساد لنكبة مجاهد الدين فبدأ أولاً بعزل صاحب أذربيجان فقال له: أنا أكفيكه. وجهز له

عسكرا نحو ثلاثة آلاف فارس وساروا نحو إربل فاكتسحوا البلد وخربوها وسار إليهم زين الدين يوسف بإربل فوجدهم مفترقين في النهب فهزمهم وما كان معهم وعاد مظفراً ولحق العجم ببلادهم وعاد مجاهد الدين إلى الموصل واللّه سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

حصار صلاح الدين الموصل وصلحه مع عز الدين صاحبها

ثم سار صلاح الدين من دمشق في ذي القعدة سنة إحدى وثمانين فلما انتهى إلى حران قبض على صاحبها مظفر الدين كوكبري لأنه كان لذلك وعده بخمسين ألف دينار حتى إذا وصل لم يف له بها فقبض عليه لانحراف أهل الجزيرة عنه فأطلقه ورد عليه عمله بحران والرها وسار عن حران وجاء معه عساكر كيفا وداري وعساكر جزيرة ابن عمر مع صاحبها معز الدين سنجار شاه ابن أخي عز الدين صاحب الموصل وقد استبد بأمره وفارق طاعة عمه بعد نكبة مجاهد الدين كما قلنا فساروا مع صلاح الدين إلى الموصل ولما انتهوا إلى مدينة الأبله وفدت عليه أم عز الدين وابن عمه نور الدين محمود وجماعة من أعيان الدولة ظنّاً بانه لا يردهم وأشار عليه الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب بردهم ورحل إلى الموصل فقاتلها وامتنعت عليه وندم على ردّ الوفد وجاءه كتاب القاضي الفاضل باللائمة ثم قدم عليه زين الدين يوسف صاحب إربل فأنزله مع أخيه مظفر الدين كوكبري وغيره من الأمراء ثم بعث الأمير علي بن أحمد المشطوب إلى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فاجتمع عليه الأكراد الهكارية وأقام يحاصرها وكاتب نائب القلعة القنداز ونمي خبر مكاتبته إلى عز الدين فمنعه وأطرحه من المشورة وعدل إلى مجاهد الدين قايماز وكان يقتدي برأيه فضبط الأمور وأصلحها ثم بلغه في آخر ربيع من سنة إثنين وثمانين وقد ضجر من حصار الموصل أن شاهرين صاحب خلاط توفي تاسع ربيع واستولى عليها مولاه بكتمر فرحل عن الموصل وملك ميافارقين كما يأتي في أخبار دولته ولما فرغ منها عاد إلى الموصل ومر بنصيبين ونزل الموصل في رمضان سنة اثنتين وثمانين وترددت الرسل بينهما في الصلح على أن يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وما وراء الزاب ويخطب له على منابرها وينقش اسمه على سكته ومرض صلاح الدين أثناء ذلك ووصل إلى حران ولحقته الرسل بالإجابة إلى الصلح وتحالفا عليه وبعث من يسلم البلاد وأقام ممرضاً بحران عند أخوه العادل وناصر الدولة ابن عمه شيركوه وأمنت بلاد الموصل ثم حدثت بعد ذلك فتنة بين التركمان والأكراد بالجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان وقتل فيها ما لا يحصى من الأمم واتصلت أعواماً وسببها أن عروساً من التركمان أهديت إلى زوجها ومروا بقلعة الزوزان والأكراد وطلبوا منهم الوليمة على عادة الفتيان فأغلظوا في الرد فقتل صاحب القلعة الزوج وثار التركمان بجماعة من الأكراد فقتلوهم ثم أصلح مجاهد الدين بينهم وأفاض فيهم العطاء فعادوا إلى الوفاق وذهبت بينهم الفتنة واللّه تعالى أعلم.

وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل وولاية أخيه مظفر الدين اقتهي

كان زين الدين يوسف بن علي كجك قد صار في طاعة صلاح الدين كما ذكرناه قبل وإربل من أعماله ووقع الصلح على ذلك بينه وبين عز الدين صاحب الموصل سنة ست وثمانين للعسكر معه فمات عنده أخريات رمضان من السنة واستولى أخوه على موجوده وقبض على جماعة من أمرائه مثل بلداحي صاحب قلعة حقبير كان وغيره وطلب من صلاح الدين أن يقطعه إربل مكان أخيه وينزل عن حران والرها فأقطعه إربل وأضاف إليها شهرزور وأعمالها ودوقبر قرابلي وبني قفجاق وراسل أهل إربل مجاهد الدين قايماز واستدعوه ليملكوه وهو بالموصل فلم يتطاول لذلك خوفاً من صلاح الدين ولأن عز الدين لما كان ولاه نيابته بعد أن أطلقه من الاعتقال لم يمكنه كما كان أول مرة وجعل معه رديفاً في الحكم كان من بعض غلمانه فكان أسفاً لذلك فلما راسله أهل إربل قال: واللّه لا أفعل لئلا يحكم معي فيها فلان وسار مظفر الدين إليها وملكها.

حصار عز الدين صاحب الموصل جزيرة ابن عمر

كان سنجار شاه بن سيف الدين غازي بن مودود قد ملك جزيرة ابن عمر بوصية أبيه وخرج عن طاعة عمه عز الدين عند نكبة مجاهد الدين كما قلناه وصار عيناً على عمه يكاتب صلاح الدين بأخباره ويغريه به ويسعى في القطيعة بينهما ثم حاصر صلاح الدين قلعة عكا سنة ست وثمانين واستنفر لها أصحاب الأطراف المتشبثين بدعوته مثل عز الدين صاحب الموصل وأخيه

عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين وسنجار شاه هذا ابن عمه وصاحب كيفا وغيرهم واجتمعوا عنده على عكا وجاء جماعة من جزيرة ابن عمر يتظلمون من سنجار شاه فخاف واستأذن في الانطلاق فاعتذر صلاح الدين بأن في ذلك افتراق هذه العساكر فالح عليه في ذلك وغدا عليه يوم الفطر مسلماً فوعده وانصرف وكان تقي الدين عمر بن شاه أخي صلاح الدين مقبلاً من حماة في عسكر فأرسل إليه صلاح الدين باعتراضه ورده طوعاً أو كرهاً فلقيه بقلعة فنك ورده كرهاً وكتب صلاح الدين إلى عز الدين صاحب الموصل بحصار جزيرة ابن عمر يظنها مكيدة فتلقاها بالمراجعة وطلب إقطاع الجزيرة فأسعفه وسار إليها وحاصرها أربعة أشهر فامتنعت عليه ثم صالحه على نصف أعماله ورجع الموصل والله تعالى أعلم.

مسير عز الدين صاحب الموصل إلى بلاد العادل بالجزيرة ورجوعه عنها

كان صلاح الدين قد ملك من بلاد الجزيرة حران والرها وسميساط وميافارقين وكانت بيد ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاه ثم توفي تقي الدين فأقطعها أخاه العادل أبا بكر بن أيوب ثم توفي صلاح الدين سنة تسع وثمانين فطمع عز الدين صاحب الموصل في ارتجاعها واستشار أصحابه فأشار عليه بعضهم بمعاجلتها وأن يستنفر أصحاب الأطراف لها مثل صاحب إربل وصاحب جزيرة ابن عمر وصاحب سنجار ونصيبين ومن امتنع يعاجله حرباً ويعاجل البلد قبل أن يستعد أهله للمدافعة.

وأشار مجاهد الدين قايماز بمشاورة هؤلاء الملوك والعمل بإشارتهم فقبل من مجاهد الدين وكاتبهم فأشاروا بانتظار أولاد صلاح الدين وأن البلد في طاعته وأنه القائم بدولته وأنه بلغه أن صاحب ماردين تعرض لبعض بلاده فجهز جيشاً كثيفاً لقصد ماردين فوجموا الكتابة وتركوا الحركة ثم بلغهم أنه بظاهر حران في خف من العسكر فتجهز للحركة عليه ولما وقع الاتفاق مع صاحب سنجار جاءت عساكر الشام إلى العادل من الأفضل فامتنع وسار عز الدين في عساكره من الموصل إلى نصيبين واجتمع بأخيه عماد الدين وساروا إلى الرها وقد عسكر العادل قريباً منهم بمرج الريحان وخافهم فأقاموا أياماً كذلك ثم طرق عز الدين المرض فترك العساكر مع أخيه عماد الدين وساروا إلى الموصل والله تعالى أعلم.

وفاة عز الدين صاحب الموصل وولاية ابنه نور الدين

ولما رجع عز الدين إلى الموصل أقام بها مدة شهرين واشتد مرضه فتوفي آخر شعبان سنة تسع وثمانين وولى ابنه نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن الأتابك زنكي وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايماز مدبر دولة أبيه والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة عماد الدين صاحب سنجار وولاية ابنه قطب الدين

ثم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن الأتابك زنكي صاحب سنجار والخابور ونصيبين والرقة وسروج وهي التي عوضه صلاح الدين عن حلب لما أخذها منه توفي في محرم سنة أربع وتسعين وملك بعده ابنه قطب الدين وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برتقش مولى أبيه وكان ديناً خيراً عادلاً متواضعاً محباً لأهل العلم والدين معظماً لهم وكان متعصباً على الشافعية حتى إنه بنى مدرسة للحنفية بسنجار وكان حسن السيرة والله تعالى أعلم.

استيلاء نور الدين صاحب الموصل على نصيبين

كان عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين قد امتدت أيدي نوابه بنصيبين إلى قرى من أعمال الموصل تجاورهم وبعث إليه في ذلك مجاهد الدين قايماز صاحب دولة الموصل يشكو إليه نوابه سرّاً من سلطانه نور الدين فلجّ عماد الدين في ادعاء أنها من أعماله وأساء الرد فأعاد نور الدين الرسالة إليه مع بعض مشايخ دولته وقد طرقه المرض فأجاب مثل الأول فنصح الرسول وكان من بقية الأتابك زنكي وعاد إلى فأغلظ له في القول واعتزم نور الدين على المسير إلى نصيبين ووصل الخبر اثر ذلك بوفاة عماد الدين وولاية ابنه قطب الدين فقوي طمع نور الدين في نصيبين وتجهز لها في جمادى سنة أربع وتسعين وسار قطب الدين بن سنجار في عسكره فسبقه نور الدين إلى نصيبين فلما وصل لقيه فهزمه نور الدين ودخل إلى قلعة نصيبين مهزوماً ثم أسرى منها إلى حران ومعه نائبه مجاهد الدين برتقش وكاتبوا العادل أبا بكر بن

أيوب يستحثونه من دمشق وأقام نور الدين بنصيبين حتى وصل العادل إلى الجزيرة ففارقها إلى الموصل في رمضان من السنة وعاد قطب الدين إليها وكان الموتان قد وقع في عسكر نور الدين فمات كثير من أمراء الموصل ومات مجاهد الدين قايماز القائم بالدولة ولما عاد نور الدين إلى الموصل وعاد قطب الدين إلى نصيبين سار العادل إلى ماردين فحاصرها أياماً وضيق عليها ثم انصرف والله تعالى أعلم.

هزيمة الكامل بن العادل على ماردين أمام نور الدين صاحب الموصل وبني عمه ملوك الجزيرة

لما رحل العادل عن ماردين كما قدمناه جمر العساكر عليها للحصار مع ابنه الكامل وعظم ذلك على ملوك الجزيرة وديار بكر وخافوا إن ملكها يغلبهم على أمرهم ولم يكن سار من سار معه منهم عند اشتغاله بحرب نور الدين إلا تقية لكثرة عساكره فلما رجع إلى دمشق وبقي الكامل على ماردين استهانوا بأمره وطمعوا في مدافعته وأغراهم بذلك الظاهر والأفضل ابنا صلاح الدين لفتنتهم مع عمهم العادل فتجهز نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وسار أول شعبان سنة خمس وتسعين وانتهى إلى دبيس فأقام بها ولحق به ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار وابن عمه الآخر سنجار شاه بن غازي صاحب جزيرة ابن عمر حتى إذا انقضى عيد الفطر ارتحلوا وتقدموا إلى مزاحمة الكامل على ماردين وكان أهل ماردين خلال ذلك قد ضاق مخنقهم وجهدهم الحصار وبعث النظام المستولي على دولة صاحبها إلى الكامل يراوده في الصلح وتسليم القلعة له إلى أجل سماه على أن يبيع لهم ما يقوتهم من الميرة فأسعفهم بذلك وبينما هم في ذلك جاءهم خبر العساكر فامتنعوا وزحف الكامل مهزوماً إلى معسكره بالربض فخرج أهل القلعة إليهم وقاتلوهم إلى المساء ثم أجفل الكامل من ليلته منتصف شوال وعاد إلى بلاده ونهبت أهل القلعة مخلفه وخرج صاحب ماردين وهو بولو أرسلان ابن أبي الغازي فلقي نور الدين وشكره وعاد إلى حصنه ورجع نور الدين وأصحابه إلى تستر ثم سار منها إلى رأس عين فقدم عليها هنالك رسول الظاهر بن صلاح الدين من حلب يطلب له منه السكة والخطبة فوجم لذلك وثنى عزمه عن مظاهرتهم ثم طرقه المرض فبعث إليهم بالعذر وعاد إلى الموصل في ذي الحجة آخر السنة والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين صاحب الموصل إلى بلاد العادل بالجزيرة

ثم إن الملك العادل ملك مصر سنة ست وتسعين من يد الأفضل ابن أخيه فخشيه الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين وراسلوا نور الدين صاحب الموصل في الاتفاق وأن يسير إلى بلاد العادل بالجزيرة حران والرها والرقة وسنجار فسار نور الدين لملكها في شعبان سنة سبع وتسعين وسار معه ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار وحسام الدين صاحب ماردين وانتهوا إلى رأس العين وكان بحران الفائز بن العادل في عسكر فأرسل إلى نور الدين في الصلح فبادر إلى الإجابة لما وقع في عسكره من الموتان واستحلفهم وحلف لهم وبعثوا إلى العادل فحلف وعاد نور الدين إلى الموصل في ذي القعدة من السنة والله تعالى أعلم.

هزيمة نور الدين صاحب الموصل أمام معسكر العادل

لم يزل الملك العادل يراسل قطب الدين صاحب سنجار ويستميله إلى أن خطب له في أعماله سنة ستمائة فسار نور الدين صاحب الموصل إلى نصيبين من أعمال قطب الدين فحاصرها وملك المدينة وأقام يحاصر القلعة فبينما هو قد قارب فتحها بلغه الخبر من نائبه بالموصل بأن مظفر الدين كوكبري صاحب إربل من أعمال الموصل فرحل عن نصيبين معتزما على قصد إربل فلم يجد كل الخبر صحيحاً فسار إلى تل أعفر من أعمال سنجار فحاصرها وملكها وكان الأشرف موسى بن العادل قد سار من حران إلى رأس العين نجدة لصاحب سنجار وقد اتفق معه على ذلك مظفر الدين صاحب إربل وصاحب كيفا وآمد وصاحب جزيرة ابن عمر وتراسلوا وتواعدوا للاجتماع فلما ارتحل نور الدين عن نصيبين اجتمعوا عليها وجاءهم أخو الأشرف نجم الدين صاحب ميافارقين وساروا إلى البقعا من تل أعفر إلى كفر رقان وقصده المطاولة حتى جاءه بعض عيونه فقللهم في عينه وأطمعه فيهم وكان من مواليه فوثق بقوله ورحل إلى نوشري قريباً منهم وتراءى الجمعان فالتقوا وانهزم نور الدين ونجا في فل قليل ونزلت العساكر كفررقان ونهبوا مدينة فيد وما إليها وأقاموا هنالك وترددت الرسل في الصلح على أن يعيد نور الدين تل أعفر لقطب الدين صاحب سنجار فأعادها واصطلحوا سنة إحدى وستمائة ورجع كل إلى بلده والله تعالى ولي التوفيق.

مقتل سنجار شاه صاحب جزيرة ابن عمر وولاية ابنه محمود بعده

كان سنجار شاه بن غازي بن مودود ابن الأتابك زنكي صاحب جزيرة ابن عمر وأعمالها أوصى له بها أبوه عند وفاته كما مر وكان سيئ السيرة غشوماً ظلوماً مرهف الحد على رعيته وجنده وحرمه وولده كثير القهر لهم والانتقام منهم فاقد الشفقة على بنيه حتى غرب ابنيه محموداً ومودوداً إلى قلعة فرح من بلاد الزوزان لتوهم توهمه فيهما وأخرج ابنه غازي إلى دار بالمدينة ووكل به فساءت حاله وكانت الدار كثيرة الخشاش فضجر من حاله وتناول حية وبعثها إلى أبيه فلم يعطف عليه فتسلل من الدار واستخفى في المدينة وبعث إلى نور الدين صاحب الموصل من أوهمه بوصوله إليه فبعث إليه بنفقة ورده خوفاً من أبيه وترك أبوه طلبه لما شاع أنه بالشام فلم يزل غازي يعمل الحيلة حتى دخل دار أبيه واختفى عند بعض حظاياه وطرق عليه الخلاء في بعض الليالي وهو سكران فطعنه أربع عشرة طعنة ثم ذبحه وأقام مع الحرم وعلم أستاذ الدولة من خارج بالخبر فأحضر أعيان الدولة وأغلق أبواب القصر وبايع الناس لمحمود بن سنجار شاه واستدعاه وأخاه مودوداً من قلعة فرح ثم دخلوا إلى غازي وقتلوه ووصل محمود فملكوه ولقبوه معز الدين لقب أبيه وعمد إلى الجواري التي واطأت على قتل أبيه فغرقهن في الدجلة والله تعالى أعلم.

استيلاء العادل على الخابور ونصيبين من أعمال صاحب سنجار وحصاره إياه

كان بين قطب الدين محمود بن زنكي بن مودود وبين ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة قد مر كثير من أخبارها ولما كانت سنة خمس وستمائة أصهر العادل بن أيوب صاحب مصر والشام إلى نور الدين في ابنته فزوجها نور الدين من ابنه واستكثر به وطمح إلى الاستيلاء على جزيرة ابن عمر فأغرى العادل بأن يظاهره على ولاية ابن عمه قطب الدين سنجار وتكون ولاية قطب الدين وهي سنجار ونصيبين والخابور للعادل وتكون ولاية غازي بن سنجار شاه لنور الدين صاحب الموصل فأجاب إلى ذلك العادل وأطمع نور الدين في أنه يقطع ولاية قطب الدين إذا ملكها لابنه الذي هو صهره على ابنته وتحالفا على ذلك وسار العادل سنة ست وستمائة من دمشق لملك الخابور.

وراجع نور الدين رأيه فإذا هو قد تورط وأنه يملك البلاد كما يجب دونه إن وفى له وسار نور الدين إلى الجزيرة فربما حال بنو العادل بينه وبين الموصل وأن انتقض نور الدين عليه سار إليه فاضطرب في أمره وملك العادل الخابور ونصيبين واعتزم قطب الدين على أن يعتاض منه عن سنجار ببعض البلاد فمنعه من ذلك أحمد بن برتقش مولى أبيه وجهز نور الدين عسكراً مع ابنه القاهر مددا للعادل كما اتفقا عليه وفي خلال ذلك بعث قطب الدين سنجار ابنه إلى مظفر الدين صاحب إربل يستنجده فأرسل إلى العادل شافعاً في أمره فلم يشفعه لمظاهرة نور الدين إياه فغضب مظفر الدين وأرسل إلى نور الدين في المساعدة على دفاع العدو فأجاب نور الدين إلى ذلك ورجع عن مظاهرة العادل.

وأرسل هو ومظفر الدين إلى الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب والي كسنجار بن قليج أرسلان صاحب الروم يستنجدانهما فأجاباهما وتداعوا إلى قصد بلاد العادل إن لم يرحل عن سنجار وبعث الخليفة الناصر أستاذ الدار أبا نصر هبة الله بن المبارك بن الضحاك والأمير اقناش من خواص مواليه في الإفرنج عن سنجار وتخاذل أصحابه عن مضايقة سنجار معه وسيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فإنه جاهر بخلافه في ذلك فأجاب العادل في الصلح على أن تكون نصيبين والخابور اللذان ملكهما له وتبقى سنجار لقطب الدين وتحالفوا على ذلك ورجع العادل إلى حران ومظفر الدين إلى إربل والله تعالى أعلم.

وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية ابنه القاهر

ثم توفي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن الأتابك زنكي منتصف سنة سبع وستمائة لثمان عشرة سنة من ولايته وكان شهماً شجاعاً مهيباً عند أصحابه حسن السياسة لرعيته وجدد ملك آبائه بعد أن أشفى على الذهاب ولما احتضر عهد بالملك لابنه عز الدين مسعود وهو ابن عشرين سنة وأوصاه أن يتولى تدبير ملكه مولاه بدر الدين لؤلؤ لما فيه من حسن السياسة وكان قائماً بأمره منذ توفي مجاهد الدين قايماز وأوصى لولده الأصغر عماد الدين بقلعة عقر الحميدية وقلعة شوش وولايتها ولفته إلى العقر فلما توفي نور الدين بايع الناس ابنه عز الدين مسعوداً ولقبوه القاهر واستقر ملك الموصل وأعمالها له وقام بدر الدين لؤلؤ بتدبير دولته والبقاء لله وحده.

وفاة القاهر وولاية ابنه نور الدين أرسلان شاه في كفالة بدر الدين لؤلؤ

لما توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن الأتابك زنكي صاحب الموصل آخر ربيع الأول سنة خمس عشرة وخمسمائة لثمان سنين من ولايته بعد أن عهد بالملك لابنه الأكبر نور الدين أرسلان شاه وعمره عشرون سنة وجعل الوصي عليه والمدبر لدولته لؤلؤاً كما كان في دولة القاهر وابنه نور الدين فبايع له وقام بملكه وأرسل إلى الخليفة في التقليد والخلع على العادة فوصلت وبعث إلى الملوك في الأطراف في تجديد العهد كما كان بينهم وبين سلفه وضبط أموره وكان عمه نور الدين زنكي أرسلان شاه بقلعة عقر الحميدية لا يشك في مصير السلطان له فدفعه عن ذلك واستقامت أموره وأحسن السيرة وسمع شكوى المتظلمين وأنصفهم ووصل في تقليد الخليفة لنور الدين إسناد التتر في أموره لبدر الدين لؤلؤ والله أعلم.

استيلاء عماد الدين صاحب عقر على قلاع الهكارية والزوزان

كان عماد الدين زنكي قد ولاه أبوه قلعتي العقر والشوش قريباً من الموصل وأوصى له بهما وعهد بالملك لابنه الأكبر القاهر فلما توفي القاهر كما ذكرنا طمح زنكي إلى الملك وكان يحدث به نفسه فلم يحصل له وكان بالعمادية نائب من موالي جده مسعود فداخله في الطاعة له وشعر بذلك بدر الدين لؤلؤ فعزل ذلك النائب وبعث إليها أميراً أنزله بها وجعل فيها نائباً من قبله واستبد بالنواب في غيرها وكان نور الدين بن القاهر لا يزال عليلاً لضعف مزاجه وتوالي الأمراض عليه فبقي محتجباً طول المدة فأرسل زنكي إلى نور الدين بالعمادية يشيع موته ويقول: أنا أحق بملك سلفي فتوهموا صدقه وقبضوا على نائب لؤلؤ ومن معه وسلموا البلد لعماد الدين زنكي منتصف رمضان سنة خمس عشرة.

وجهز لؤلؤ العساكر وحاصروه بالعمادية في فصل الشتاء وكلب البرد وتراكم الثلج ولم يتمكنوا من قتاله وظاهره مظفر الدين صاحب إربل على شأنه وذكر لؤلؤا بالعهد الذي بينهما أن لا يتعرض لأعمال الموصل والنص فيها على قلاع الهكارية والزوزان وأنه مظاهر لهم على من يتعرض لها فلجّ في مظاهرته واعتمد نقض العهد وأقام العسكر محاصراً لزنكي بالعمادية وتقدموا بعض الليالي وركبو الأوعار إليه فبرز إليهم أهل العمادية وهزموهم في المضايق والشعاب فعادوا إلى الموصل وراسل عماد الدين قلاع الهكارية والزوزان في الطاعة له فأجابوه وملكها وولى عليها والله أعلم.

مظاهرة الأشرف بن العادل للؤلؤ صاحب الموصل

ولما استولى عماد الدين زنكي على قلاع الهكارية والزوزان وظاهره مظفر الدين صاحب إربل خاف لؤلؤ غائلته فبعث بطاعته إلى الأشرف موسى بن العادل وقد ملك أكثر بلاد الجزيرة وخلاط وأعمالها ويسأله المعاضدة فأجابه وكان يومئذ بحلب في مدافعة كيكاوس صاحب بلاد الروم عن أعمالها فأرسل إلى مظفر الدين بالنكير عليه فيما فعل من نقضه العهد الذي كان بينهم جميعاً كما مر ويعزم عليه في إعادة ما أخذ من بلاد الموصل ويتوعده إن أصر على مظاهرة زنكي بقصد بلاده فلم يجب مظفر الدين إلى ذلك واستألف على أمره صاحب ماردين وناصر الدين محموداً صاحب كيفا وآمد فوافقوه وفارقوا طاعة الأشرف في ذلك فبعث الأشرف عساكره إلى نصيبين لإنجاد لؤلؤ متى احتاج إليه والله تعالى أعلم.

واقعة عساكر لؤلؤ بعماد الدين

ولما عاد عسكر الموصل عن حصار العمادية خرج زنكي إلى قلعة العقر ليتمكن من أعمال الموصل الصحراوية إذ كان قد فرغ من أعمالها الجبلية وأمده مظفر الدين صاحب إربل بالعساكر وعسكر جند الموصل على أربع فراسخ من البلد من ناحية العقر ثم اتفقوا على المسير إلى زنكي وصبحوه آخر المحرم سنة ست عشرة وستمائة وهزموه فلحق بإربل وعاد العسكر إلى مكانهم ووصل رسل الخليفة الناصر والأشرف ابن العادل في الصلح بينهما فاصطلحوا وتحالفوا والله تعالى أعلم.

وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية أخيه ناصر الدين

لما توفي نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر كما قدمناه من سوء مزاجه واختلاف الأسقام عليه فتوفي قبل كمال الحول ونصب لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين محمد بن القاهر في سن

الثلاث واستحلف له الجند وأركبه في الموكب فرضي به الناس لما أبلوا من عجز أخيه عن الركوب لمرضه والله تعالى ولي التوفيق.

هزيمة لؤلؤ صاحب الموصل من مظفر الدين صاحب إربل

ولما توفي نور الدين ونصب لؤلؤ أخاه ناصر الدين محمداً على صغر سنه تجدد الطمع لعماد الدين عمه ولمظفر الدين صاحب إربل في الاستيلاء على الموصل وتجهزوا لذلك وعاثت سراياه في نواحي الموصل وكذا لؤلؤ قد بعث ابنه الأكبر في العساكر نجدة للملك الاشرف وهو يقصد بلاد الإفرنج بالسواحل ليأخذ بحجزتهم عن إمداد اخوانهم بدمياط عن أبيه الكامل بمصر فبادر لؤلؤ إلى عسكر الأشرف الذين بنصيبين واستدعاهم فجاؤوا إلى الموصل منتصف سنة عشر وستمائة وعليهم أيبك مولى الأشرف فاستقلهم لؤلؤ ورآهم مثل عسكره الذين بالشام أودونهم وألح أيبك على عبور دجلة إلى إربل فمنعه أياماً فلما أصر عبر لؤلؤ معه ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقي دجلة وجمع مظفر الدين زنكي وعبروا الزاب وتقدم إليهم أيبك في عسكره وأصحاب لؤلؤ وسار منتصف الليل من رجب وأشار عليه لؤلؤ بانتظار الصباح فلم يفعل ولقيهم بالليل وحمل أيبك على زنكي في الميسرة فهزمه وانهزمت ميسرة لؤلؤ فبقي في نفر قليل فتقدم إليه مظفر الدين فهزمه وعبر دجلة إلى الموصل وظهر مظفر الدين على تبريز ثلاثاً ثم بلغه أن لؤلؤا يريد تبييته فأجفل راجعاً وترددت الرسل بينهما فاصطلحا على أن يبقى لكلٍ ما بيده والله أعلم.

وفاة صاحب سنجار وولاية ابنه ثم مقتله وولاية أخيه

ثم توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن الأتابك زنكي صاحب سنجار في ثامن صفر سنة ست عشرة وستمائة وكان حسن السيرة مسلماً إلى نوابه وملك بعده ابنه عماد الدين شاهين شاه واشتمل الناس عليه شهوراً ثم سار إلى تل أعفر فاغتاله أخوه عمر ودخل إليه في جماعة فقتلوه وملك بعده وبقي مدة إلى أن تسلم منها الأشرف بن العادل مدينة سنجار في جمادى سنة سبع عشرة وستمائة والله أعلم.

استيلاء عماد الدين على قلعة كواشي ولؤلؤ على تل أعفر والأشرف على سنجار

كانت كواشي من أحسن قلاع الموصل وأمنعه وأعلاه ولما رأى الجند الذين بها بعد أهل العمادية واستبدادهم بأنفسهم طمعوا في مثل ذلك وأخرجوا نواب لؤلؤ عنهم وتمسكوا بإظهار الطاعة على البعد خوفاً على رهائنهم بالموصل ثم استدعوا عماد الدين زنكي وسلموا له القلعة وأقام عندهم وبعث لؤلؤ إلى مظفر الدين يذكره العهود التي لم يجز ثلمها بعد فأعرض وأرسل إلى الأشرف بحلب يستنجده فسار وعبر الفرات إلى حران وكان مظفر الدين صاحب إربل يراسل الملوك بالأطراف ويغريهم بالأشرف ويخوفهم غائلته ولما كان بين كيكاوس بن كنخسرو وصاحب الروم من الفتنة ما نذكره في أخباره وسار كيكاوس إلى حلب دعا مظفر الدين الملوك بناحيته إلى وفاق كيكاوس مثل صاحب كيفا وآمد صاحب ماردين فأطاعوه وخطبوا له في أعمالهم.

ومات كيكاوس وفي نفس الأشرف منه ومن مظفر الدين ما في نفسه ولما سار الأشرف إلى حران لمظاهرة لؤلؤ وأرسل مظفر الدين جماعة من أمرائه مثل أحمد بن علي المشطوب وعز الدين محمد بن بدر الحميدي وغيرهما واستمالهم ففارقوا الأشرف ونازلوا دبيس تحت ماردين ليجتمعوا مع ملوك الأطراف لمدافعة الأشرف واستمال الأشرف صاحب آمد وأعطاه مدينة حالي وجبل حودي ووعده بدارا إذا ملكها فأجاب وفارقهم إليه واضطر آخرون منهم إلى طاعة الأشرف فانحل أمرهم وانفرد ابن المشطوب بمشاقة الأشرف فقصد إربل ومر بنصيبين فقاتله شيخ بها فانهزم إلى سنجار فأسره صاحبها وكان هواه مع الأشرف ولؤلؤ فصده ابن المشطوب عن رأيه فيهم حتى أجمع خلافه وأطلقه فجمع المفسدين وقصد البقعا من أعمال الموصل فاكتسح نواحيها وعاد ثم سار من سنجار ثانية إلى الموصل وأرصد له لؤلؤ عسكراً فاعترضوه فهزمه واجتاز بتل أعفر من أعمال صاحب سنجار فأقاموا عليها وبعثوا إلى لؤلؤ فسار وحاصرها وملكها في ربيع سنة سبع عشرة وستمائة وأسر ابن المشطوب وجاء به إلى الموصل ثم بعث به إلى الأشرف فحبسه بحران سنين وهلك في محبسه ولما أطاع صاحب آمد الأشرف رحل من حرّان إلى ماردين ونزل دبيس وحاصر ماردين ومعه صاحب آمد وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين على أن يرد عليه رأس العين وكان الأشرف قد أقطعها له على أن يحمل إليه ثلاثين ألف دينار وأن يعطي لصاحب آمد الورزني بلد وانعقد الصلح بينهما وارتحل الأشرف

من دبيس إلى نصيبين يريد الموصل فلقيه رسل صاحب سنجار يطلب من يتسلمها منه على أن يعوضه الأشرف منها بالرقة بما أدركه من الخوف عند استيلاء لؤلؤ على تل أعفر ونفرة أهل دولته عنه لقتله أخاه كما ذكرناه فأجابه الأشرف وأعطاه الرقة وملك سنجار في جمادى سنة سبع عشرة وستمائة ورحل عنها بأهله وعشيرته وانقرض أمر بني زنكي منها بعد أربع وتسعين سنة والبقاء لله وحده.

صلح الأشرف مع مظفر الدين

ولما ملك الأشرف سنجار سار إلى الموصل ووافاه بها رسل الخليفة الناظر ومظفر الدين صاحب إربل في الصلح ورد القلاع المأخوذة من إيالة الموصل على صاحبها لؤلؤ ما عدا العمادية فتبقى بيد زنكي وتردد الحديث في ذلك شهرين ولم يتم فرحل الأشرف بقصد إربل حتى قارب نهر الزاب وكان العسكر قد ضجروا سوء صاحب آمد مع مظفر الدين فأشار بإجابته إلى ما سأل ووافق على ذلك أصحاب الأشرف فانعقد الصلح وساق زنكي إلى الأشرف رهينة على ذلك وسلمت قلعة العقر وشوش لنواب الأشرف وهما لزنكي رهناً أيضاً وعاد الأشرف إلى سنجار في رمضان سنة سبع عشرة وبعثوا إلى القلاع فلم يسلمها جندها وامتنعوا بها واستجار عماد الدين زنكي بشهاب ابن العادل فاستعطف له أخاه الأشرف فأطلقه ورد عليه قلعتي العقر وشوش وصرف نوابه عنهما وسمع لؤلؤ الأشرف يميل إلى قلعة تل أعفر وأنها لم تزل لسنجار قديماً فبعث إليه بتسليمهما والله تعالى أعلم.

رجوع قلاع الهكارية والزوزان إلى طاعة صاحب الموصل

لما رأى زنكي أنه ملك قلاع الهكارية والزوزان وساوة فلم يروا عنده ما ظنوه من حسن السيرة كما يفعله لؤلؤ وطلبوه في الإقطاع فأجابهم واستأذن الأشرف فلم يأذن له وجاء زنكي من عند الأشرف فحاصر العمادية ولم يبلغ منها غرضاً فأعادوا مراسلة لؤلؤ فاستأذن الأشرف وأعطاه قلعة جديدة ونصيبين وولاية ما بين النهرين وأذن له في تملك القلاع وأرسل نوابه إليها ووفى لهم بما عاهدهم عليه وتبعهم بقية القلاع من أعمال الموصل فدخلوا كلهم في طاعة لؤلؤ وانتظم له ملكها والله تعالى أعلم.

استيلاء صاحب الموصل على قلعة سوس

كانت قلعة سوس وقلعة العقر متجاورتين على اثني عشر فرسخاً من الموصل وكانتا لعماد الدين زنكي بن نور الدين أرسلان شاه بوصية أبيه كما مر وملك معها قلاع الهكارية والزوزان ورجعت إلى الموصل وسار هو سنة تسعة عشر إلى أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان من بقية السلجوقية فسار معه وأقطع له الإقطاعات وأقام عنده فسار لؤلؤ من الموصل إلى قلعة سوس فحاصرها وضيق عليها وامتنعت عليه فجمر العساكر لحصارها وعاد إلى الموصل ثم اشتد الحصار بأهلها وانقطعت عنهم الأسباب فاستأمنوا إلى لؤلؤ ونزلوا له عنها على شروط اشترطوها وقبلها وبعث نوابه عليها والله تعالى أعلم.

حصار مظفر الدين الموصل

كان الأشرف بن العادل بن أيوب قد استولى على الموصل ودخل لؤلؤ في طاعته واستولى على خلاط وسائر أرمينية وأقطعها أخاه شهاب الدين غازي ثم جعله ولي عهده في سائر أعماله ثم نشأت الفتنة بينهما فاستظهر غازي بأخيه المعظم صاحب دمشق وبمظفر الدين كوكبري وتداعوا لحصار الموصل فجمع أخوهما الكامل عساكره وسار إلى خلاط فحاصرها بعد أن بعث إلى المعظم صاحب دمشق وتهدده فأقصر عن مظاهرة أخيه واستنجد غازي مظفر الدين كوكبري صاحب إربل فسار إلى الموصل وحاصرها ليأخذ بحجزة الأشرف عن خلاط ونهض المعظم صاحب دمشق لإنجاد أخيه غازي وكان لؤلؤ صاحب الموصل قد استعد للحصار فأقام عليها مظفر الدين عشراً ثم رحل منتصف إحدى وعشرين لامتناعها عليه ولقيه الخبر بأن الأشرف قد ملك خلاط من يد أخيه فندم على ما كان منه.

انتقاض أهل العمادية على لؤلؤ ثم استيلاؤه عليها

قد تقدم لنا انتقاض أهل قلعة العمادية من أعمال الموصل سنة خمس عشرة ورجوعه إلى عماد الدين زنكي ثم عودهم إلى طاعة لؤلؤ فأقاموا على ذلك مدة ثم عادوا إلى ديدنهم من التمريض في الطاعة وتجنوا على لؤلؤ بعزل نوابه فعزلهم مرة بعد أخرى ثم استبد بها أولاد خواجا إبراهيم وأخوه فيمن تبعهم

وأخرجوا من خالفهم وأظهروا العصيان على لؤلؤ فسار إليهم سنة اثنتين وعشرين وحاصرهم وقطع الميرة عنهم وبعث عسكر إلى قلعة هزوران وقد كانوا تبعوا أهل العمادية في العصيان فحاصرهم حتى استأمنوا وملكها ثم جهز العساكر إلى العمادية مع نائبه أمين الدين وعاد إلى الموصل واستمر الحصار إلى ذي القعدة من السنة ثم راسلوا أمين الدين في الصلح على مال وأقطاع وعوض عن القلعة وأجاب لؤلؤ إلى ذلك وكان أمين الدين قد وليها قبل ذلك فكان له فيها بطانة مستمدون على عهده ومكاتبته وسخط كثير من أهل البلد فعل أولاد خواجا إبراهيم واستئثارهم بالصلح دونهم فوجد أولئك البطانة سبيلاً إلى التسلط عليهم ودسوا لأمين الدين أن يبيت البلد ويصالحهما فصالحهم فوثبوا بأولاد خواجا ونادوا بشعار لؤلؤ فصعد العسكر القلعة وملكها أمين الدين وبعث بالخبر إلى لؤلؤ قبل أن ينعقد اليمين مع وفد أولاد خواجا والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

مسير مظفر الدين صاحب إربل إلى أعمال الموصل وعوده منها

كان جلال الدين شكري بن خوارزم شاه قد غلبه التتر أول خروجهم سنة سبع عشرة وستمائة على خوارزم وخراسان وغزنة وفر أمامهم إلى الهند ثم رجع عنها سنة اثنتين وعشرين واستولى على العراق ثم على أذربيجان وجاور الأشرف بن العادل في ولايته بخلاط والجزيرة وحدثت بينهما الفتنة وراسله أعيان الأشرف في الأغراء به مثل مظفر الدين صاحب إربل ومسعود صاحب آمد وأخيه المعظم صاحب دمشق واتفقوا على ذلك وسار جلال الدين إلى خلاط وسار مظفر الدين إلى الموصل وانتهى إلى الزاب ينتظر الخبر عن جلال الدين وسار المعظم صاحب دمشق إلى حمص وحماة وبعث لؤلؤ من الموصل يستنجد الأشرف فسار إلى حران ثم إلى دبيس فاكتسح أعمال ماردين وكان جلال الدين قد بلغه انتقاض نائبه بكرمان فأغذ السير إليه وترك خلاط بعد أن عاث في أعمالها وفت ذلك في أعضاد الآخرين وعظمت سطوة الأشرف بهم وبعث إليه أخوه المعظم وقد نازل حمص وحماة يتوعده بمحاصرتهما ومحاصرة مظفر الدين الموصل فرجع عن ماردين ورجع الآخران عن حمص وحماة والموصل ولحق كل ببلده والله تعالى أعلم.

مسير التتر في بلاد الموصل وإربل

ولما أوقع بجلال الدين خوارزم شاه على آمد سنة ثمان وعشرين وقتلوه ولم يبق لهم مدافع من الملوك ولا ممانع انساحوا في البلاد طولاً وعرضاً ودخلوا ديار بكر واكتسحوا سواد آمد وأرزن وميافارقين وحاصروا وملكوها بالأمان ثم استباحوها وساروا إلى ماردين فعاثوا في نواحيها ثم دخلوا الجزيرة واكتسحوا أعمال نصيبين ثم مرّوا إلى سنجار فنهبوها ودخلوا الخابور واستباحوه وسارت طائفة منهم إلى الموصل فاستباحوا أعمالها ثم أعمال إربل وأفحشوا فيها وبرز مظفر الدين في عساكره واستمد عساكر الموصل فبعث بها لؤلؤ إليه ثم عاد التتر عنهم إلى أذربيجان فعاد كل إلى بلاده والله أعلم.

وفاة مظفر الدين صاحب إربل وعودها إلى الخليفة

ثم توفي مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كجك صاحب إربل سنة تسع وعشرين لأربع وأربعين سنة من ولايته عليها أيام صلاح الدين بعد أخيه يوسف ولم يكن له ولد فأوصى بإربل للخليفة المستنصر فبعث إليها نوابه واستولى عليها وصارت من أعماله والله تعالى أعلم.

بقية أخبار لؤلؤ صاحب الموصل

كان عسكر خوارزم شاه بعد مهلكه سنة ثمان وعشرين على آمد لحقوا بصاحب الروم كيقباد فاستنجدهم وهلك سنة أربع وثلاثين وستمائة وولي ابنه كنخسرو فقبض على أميرهم ومر الباقون وانتبذوا بأطراف البلاد وكان الصالح نجم الدين أيوب في حران وكيفا وآمد نائباً عن أبيه الملك العادل فرأى المصلحة في استضافتهم إليه فاستمالهم واستخدمهم بعد أن أذن أبوه له في ذلك فلما مات أبوه سنة خمس انتقضوا ولحقوا بالموصل واشتمل عليهم لؤلؤ وسار معهم فحاصر الصالح بسنجار إلى الخوارزمية واستمالهم فرجعوا إلى طاعته على أن يعطيهم حران والرها ينزلون بها فأعطاهما إياهم وملكوهما ثم ملكوا نصيبين من أعمال لؤلؤ وبنو أيوب يومئذ متفرقون على كراسي الشام وبينهم من الأنفة والفرقة ما نتلو عليك قصصه في دولتهم ثم استقر ملك سنجار للجواد يونس منهم وهو ابن مودود بن العادل أخذها من الصالح

نجم الدين أيوب عوضاً عن دمشق واستولى لؤلؤ على سنجار من يده سنة سبع وثلاثين ثم حدثت بين صاحب حلب وبين الخوارزمية فتنة ولجأوا يومئذ لصفيتهم خاتون بنت العادل فبعثت العساكر إليهم مع المعظم بوران شاه بن صلاح الدين فهزموا عساكره وأسروا ابن أخيه الأفضل ودخلوا حلب واستباحوها ثم فتحوا منبج وعاثوا فيها وقطعوا الفرات من الرقة وهم يذهبون وتبعهم عسكر دمشق وحمص فهزموهم وأثخنوا فيهم ولحقوا ببلدهم حران فسارت إليهم عساكر حلب واستولوا على حران ولحق الخوارزمية بغانة وبادر لؤلؤ صاحب الموصل إلى نصيبين فملكها من أيديهم.

ثم توفيت صفية بنت العادل سنة أربعين في حلب وكانت ولايتها بعد وفاة أبيها العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين فولي بعدها ابنه الناصر يوسف ابن العزيز في كفالة مولاه حيال الخاتوني فلما كانت سنة ثمان وأربعين وستمائة وقع بين عسكره وبين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل حرب انهزم فيها لؤلؤ وملك الناصر نصيبين وقرقيسيا ولحق لؤلؤ بحلب ثم زحف هلاكو ملك التتر إلى بغداد سنة وملكها وقتل الخليفة المستعصم واستلحم العلية من بغداد كما مر في أخبار الخلفاء ويأتي في أخبار التتر وتخطى منها إلى أذربيجان فبادر لؤلؤ ووصل إليه بأذربيجان وآتاه طاعته وعاد إلى الموصل والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

وفاة صاحب الموصل وولاية ابنه الصالح

ثم توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سنة سبع وخمسين وستمائة وكان يلقب الملك الرحيم وملك بعده على الموصل ابنه الصالح إسماعيل وعلى سنجار ابنه المظفر علاء الدين علي وعلى جزيرة ابن عمر ابنه المجاهد إسحاق وأبقاهم هلاكو عليها مدة ثم أخذها منهم ولحقوا بمصر فنزلوا على الملك الظاهر بيبرس كما نذكر في أخباره وسار هلاكو إلى الشام فملكها وانقرضت دولة الأتابك زنكي وبنيه ومواليه من الشام والجزيرة أجمع كأن لم تكن والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين والبقاء لله تعالى وحده والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة بني أيوب القائمين بالدولة العباسية وما كان لهم من الملك بمصر والشام واليمن والمغرب وأولية ذلك ومصائره

هذه الدولة من فروع دولة بني زنكي كما تراه وجدهم هو أيوب بن شادي بن مروان بن علي بن عشرة بن الحسن بن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمر بن مرة بن عوف الحميري الدوسي هكذا نسبه بعض المؤرخين لدولتهم.

قال ابن الأثير: إنهم من الأكراد الروادية.

وقال ابن خلكان شادي أبوهم من أعيان درين وكان صاحبه بها بهروز فأصابه خصي من بعض أمرائه وفر حياء من المثلة فلحق بدولة السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه وتعلق بخدمة داية بنيه حتى إذا هلك الداية أقامه السلطان لبنيه مقامه فظهرت كفايته وعلا في الدولة محله فيعث شادي بن مروان صاحبه لما بينهما من الألفة وأكيد الصحبة فقدم عليه.

ثم ولى السلطان بهروز شحنة بغداد فسار إليها واستصحب شادي معه ثم أقطعه السلطان قلعة تكريت فولى عليها شادي فهلك وهو وال عليها وولى بهروز مكانه ابنه نجم الدين أيوب وهو أكبر من أسد الدين شيركوه فلم يزل والياً عليها ولما زحف عماد الدين زنكي صاحب الموصل لمظاهرة مسعود على الخليفة المسترشد سنة عشرين وخمسمائة وانهزم الأتابك وانكفأ راجعاً إلى الموصل ومر بتكريت قام نجم الدين بعلوفته وأزواده وعقد له الجسور على دجلة وسهل له عبورها ثم إن شيركوه أصاب دماً في تكريت ولم يفده منه أخوه أيوب فعزله بهروز وأخرجهما من تكريت فلحقا بعماد الدين بالموصل فأحسن إليهما وأقطعهما ثم ملك بعلبك سنة اثنتين وثلاثين وجعله نائباً بها ولم يزل بها أيوب ولما مات عماد الدين زنكي سنة إحدى وأربعين زحف صاحب دمشق فخر الدين طغركين إلى بعلبك وحاصرها واستنزل أيوب منها على ما شرط لنفسه من الإقطاع وأقام معه بدمشق وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بن زنكي وأقطعه حمص والرحبة لاستطلاعه وكفايته وجعله مقدم عساكره ولما صرف نظره إلى الاستيلاء على دمشق واعتزم على مداخلة أهلها كان ذلك على يد شيركوه وبمكاتبته لأخيه أيوب وهو بدمشق فتم ذلك على أيديهما وبمحاولتهما وملكها سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكانت

دولة العلويين بمصر قد أخلقت جدتها وذهب استفحالها واستبد وزراؤها على خلفائها فلم يكن الخلفاء يملكون معهم وطمع الإفرنج في سواحلهم وأمصارهم لما نالهم من الهرم والوهن فمالوا عليهم وانتزعوا البلاد من أيديهم وكانوا يردون عليهم كرسي خلافتهم بالقاهرة ووضعوا عليهم الجزية وهم يتجرعون المصاب من ذلك ويتحملونه مع بقاء أمرهم كاد الأتابك زنكي وقومه السلجوقية من قبله أن يمحو دعوتهم ويذهبوا بدولتهم وأقاموا من ذلك على مضض وقلق وجاء اللّه بدعوة العاضد آخرهم.

وتغلب عليه بعد الصالح بن رزيك شاور السعدي وقتل رزيك بن صالح سنة ثمان وخمسين واستبد على العاضد ثم نازعه الضرغام لتسعة أشهر من ولايته وغلبه وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام ولحق بنور الدين صريخاً سنة تسع وخمسين وشرط له على نفسه ثلث الجباية بأعمال مصر على أن يبعث معه عسكراً يقيمون بها فأجابه إلى ذلك وبعث أسد الدين شيركوه في العساكر فقتل الضرغام ورد شاور إلى رتبته وآل أمرهم إلى محو الدولة العلوية وانتظام مصر وأعمالها في ملكة ابن أيوب بدعوة نور الدين محمود بن زنكي ويخطب للخلفاء العباسيين لما هلك نور الدين محمود واستبد صلاح الدين بأمره في مصر ثم غلب على بني نور الدين محمود وملك الشام من أيديهم وكثر عيث ابن عمهم مودود واستفحل ملكه وعظمت دولة بنيه من بعده إلى أن انقرضوا والبقاء للّه وحده.

مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر وإعادة شاور إلى وزارته

لما اعتزم نور الدين محمود صاحب الشام على صريخ شاور وإرسال العساكر معه واختار لذلك أسد الدين شيركوه بن شادي وكان من أكبر أمرائه فاستدعاه من حمص وكان أميراً عليها وهي أقطاعه وجمع له العساكر وأزاح عللهم وفصل بهم شيركوه من دمشق في جمادى سنة تسع وخمسين وسار نور الدين بالعساكر إلى بلاد الإفرنج ليأخذ بحجزتهم عن اعتراضه أو صده لما كان بينهم وبين صاحب مصر من الألفة والتظاهر ولما وصل أسد الدين بلبيس لقيه هنالك ناصر الدين أخو الضرغام وقاتله فانهزم وعاد إلى القاهرة مهزوماً وخرج الضرغام منسلخ جمادى الأخيرة فقتل عند مشهد السيدة نفيسة رضي اللّه عنها وقتل أخوه وأعاد شاور إلى وزارته وتمكن فيها وصرف أسد الدين إلى بلده وأعرض عما كان بينهما فطالبه أسد الدين بالوفاء فلم يجب إليه فتغلب أسد الدين على بلبيس والبلاد الشرقية وبعث شاور إلى الإفرنج يستنجدهم ويعدهم فبادروا إلى إجابته وسار بهم ملكهم مرى لخوفهم أن يملك أسد الدين مصر واستعانوا بجمع من الإفرنج جاؤوا لزيارة القدس.

وسار نور الدين إليهم ليشغلهم فلم يثنهم ذلك وطمعوا لعزمهم ورزأ أسد الدين إلى بلبيس واجتمعت العساكر المصرية والإفرنج عليه وحاصروه ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم وامتنع عليهم وقصاراهم منع الأخبار عنه واستنفر نور الدين ملوك الجزيرة وديار بكر وقصر حارم وسار الإفرنج لمدافعته فهزمهم وأثخن فيهم وأسر صاحب أنطاكية وطرابلس وفتح حارم قريباً من حلب ثم سار إلى بانياس قريباً من دمشق ففتحها كما مر في أخبار نور الدين وبلغ الخبر بذلك إلى الإفرنج وهم محاصرون أسد الدين في بلبيس ففت في عزائمهم وطووا الخبر عنه وراسلوه في الصلح على أن يعود إلى الشام فصالحهم وعاد إلى الشام في ذي الحجة من السنة واللّه تعالى أعلم.

مسير أسد الدين ثانياً إلى مصر وملكه الإسكندرية ثم صلحه عليها وعوده

ولما رجع أسد الدين إلى الشام لم يزل في نفسه ما كان من غدر شاور وبقي يشحن لغزوهم إلى سنة اثنين وستين فجمع العساكر وبعث معه نور الدين جماعة من الأمراء وأكثف له العسكر خوفاً على حامية الإسلام وسار أسد الدين إلى مصر وانتهى إلى أطفيح وعبر منها إلى العدوة الغربية ونزل الجيزة وأقام نحواً من خمسين يوماً وبعث شاور إلى الإفرنج يستمدهم على العادة وعلى ما لهم من التخوف من استفحال ملك نور الدين وشيركوه فسارعوا إلى مصر وعبروا مع عساكره إلى الجيزة وقد ارتحل عنها أسد الدين إلى الصعيد وانتهى منها إلى وأتبعوه وأدركوه بها منتصف اثنتين وستين.

ولما رأى كثرة عددهم واستعدادهم مع تخاذل أصحابه فاستشارهم فأشار بعضهم بعبور النيل إلى العدوة الشرقية والعود إلى الشام وأبى زعماؤهم إلا الاستماتة سيما مع خشية العتب من نور الدين وتقدم صلاح الدين بذلك وأدركهم القوم على تعبية وجعل صلاح الدين في القلب وأوصاه أن يندفع أمامهم ووقف هو في الميمنة مع من وثق باستماتته وحمل القوم على صلاح الدين فسار بين أيديهم على تعبيته وخالفهم أسد الدين إلى مخلفهم فوضع السيف فيهم وأثخن قتلاً وأسراً ورجعوا عن صلاح الدين

يظنون أنهم ساروا منهزمين فوجدوا أسد الدين قد استولى على مخلفهم واستباحه فانهزموا إلى مصر.

وسار أسد الدين إلى الإسكندرية فتلقاه أهلها بالطاعة واستخلف بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فاستولى عليه وفرق العمال على جباية أمواله ووصلت عساكر مصر والإفرنج إلى القاهرة وأزاحوا عللهم وساروا إلى الإسكندرية فحاصروا بها صلاح الدين وجهده الحصار وسار أسد الدين من الصعيد لإمداده وقد انتقض عليه طائفة من التركمان من عسكره وبينما هو في ذلك جاءته رسل القوم في الصلح على أن يرد عليهم الإسكندرية ويعطوه خمسين ألف دينار سوى ما جباه من أموال الصعيد فأجابهم إلى ذلك على أن يرجع الإفرنج إلى بلادهم ولا يملكوا من البلاد قرية فانعقد ذلك بينهم منتصف شوال.

وعاد أسد الدين وأصحابه إلى الشام منتصف ذي القعدة ثم شرط الإفرنج على شاور أن ينزلوا بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بأيديهم ليتمكنوا من مدافعة نور الدين فضربوا عليه مائة ألف دينار في كل سنة جزية فقبل ذلك وعاد الإفرنج إلى بلادهم بسواحل الشام وتركوا بمصر جماعة من زعمائهم وبعث الكامل أبا شجاع شاور إلى نور الدين بطاعته وأن يبث بمصر دعوته وقرر على نفسه مالاً يحمل كل سنة إلى نور الدين فأجابه إلى ذلك وبقي شيعة له بمصر والله تعالى أعلم.

استيلاء أسد الدين على مصر ومقتل شاور

ولما ضرب الإفرنج الجزية على القاهرة ومصر وأنزلوا بها الشحنة وملكوا أبوابها تمكنوا من البلاد وأقاموا فيها جماعة من زعمائهم فتحكموا واطلعوا على عورات الدولة فطمعوا فيما وراء ذلك من الاستيلاء وراسلوا بذلك ملكهم بالشام واسمه مري ولم يكن ظهر بالشام من الإفرنج مثله فاستدعوه لذلك وأغروه فلم يجبهم واستحثه أصحابه لملكها وما زالوا يفتلون له في الذروة والغارب ويوهمونه القوة بتملكها على نور الدين ويريهم هو أن ذلك يؤول إلى خروج أصحابها عنها لنور الدين فبقي بها إلى أن غلبوا عليه فرجع إلى رأيهم وتجهز وبلغ الخبر نور الدين فجمع عساكره واستنفر من في ثغوره وسار الإفرنج إلى مصر مفتتح أربع وستين فملكوا بلبيس عنوة في صفر واستباحوها وكاتبهم جماعة من أعداء شاور فأنسوا مكاتبتهم وساروا إلى مصر ونازلوا القاهرة.

وأمر شاور بإحراق مدينة مصر لينتقل أهلها إلى القاهرة فيضبط الحصار فانتقلوا وأخذهم الحريق وامتدت الأيدي وانتهبت أموالهم واتصل الحريق فيها شهرين وبعث العاضد إلى نور الدين يستغيث به فأجاب وأخذ في تجهيز العساكر فاشتد الحصار على القاهرة وضاق الأمر بشاور فبعث إلى ملك الإفرنج يذكره بقديمه وأن هواه معه دون العاضد ونور الدين ويسأل في الصلح على المال لنفور المسلمين مما سوى ذلك فأجابه ملك الإفرنج على ألف ألف دينار لما رأى من امتناع القاهرة وبعث إليهم شاور بمائة ألف منها وسألهم في الإفرنج فارتحلوا.

وشرع في جمع المال فعجز الناس عنه ورسل العاضد خلال ذلك تردد إلى نور الدين في أن يكون أسد الدين وعساكره حامية عنده وعطاؤهم عليه وثلث الجباية خالصة لنور الدين فاستدعى نور الدين أسد الدين من حمص وأعطاه مائتي ألف دينار وجهزه بما يحتاجه من الثياب والدواب والأسلحة وحكّمه في العساكر والخزائن ونقد العسكر عشرين ديناراً لكل فارس وبعث معه من أمرائه مولاه عز الدين خردك وعز الدين قليج وشرف الدين مرعش وعز الدولة الباروقي وقطب الدين نيال بن حسان المنبجي وأمد صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عمه أسد الدين فتعلل عليه واعتزم عليه فأجاب وسار أسد الدين منتصف ربيع فلما قارب مصر رجع الإفرنج إلى بلادهم فسر بذلك نور الدين وأقام عليه البشائر في الشام.

ووصل أسد الدين القاهرة ودخلها منتصف جمادى الأخيرة ونزل بظاهرها ولقي العاضد وخلع عليه وأجرى عليه وعلى عساكره الجرايات والأتاوات وأقام أسد الدين ينتظر شرطهم وشاور يماطله ويعلله بالمواعيد ثم فاوض أصحابه في القبض على أسد الدين واستخدام جنده فمنعه ابنه الكامل من ذلك فاقصر ثم أشرف أصحاب أسد الدين على اليأس من شاور وتفاوض أمراؤه في ذلك فاتفق صلاح الدين مع ابن أخيه وعز الدين خردك على قتل شاور وأسد الدين ينهاهم وغدا شاور يوماً على أسد الدين في خيامه فالقاه قد ركب لزيارة تربة الإمام الشافعي رضي اللّه تعالى عنه فتلقاه صلاح الدين وخردك وركبوا معه لقصد أسد الدين فقبضوا عليه في طريقهم وطيروا بالخبر إلى أسد الدين وبعث العاضد لوقته يحرضهم على قتله فبعثوا إليه برأسه وأمر العاضد بنهب دوره فنهبها العامة وجاء أسد الدين لقصر العاضد فخلع عليه الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش وخرج له من القصر منشور من إنشاء القاضي الفاضل البيساني وعليه مكتوب بخط الخليفة ما نصه:

هذا عهد لا عهد لوزير بمثله فتقلد ما رآك اللّه وأمير

المؤمنين أهلاً لحمله وعليك الحجة من اللّه فيما أوضح لك من مراشد سبله فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم اللّه عليكم كفيلاً.

ثم ركب أسد الدين إلى دار الوزارة التي كان فيها شاور وجلس مجلس الأمر والنهي وولى على الأعمال وأقطع البلاد للعساكر وأمن أهل مصر بالرجوع إلى بلادهم ورمُّها وعمارتها وكاتب نور الدين بالواقع مفصلاً وانتصب للأمور ثم دخل للعاضد وخطب الأستاذ جوهر الخصي عنه وهو يومئذ أكبر الأساتيذ فقال: يقول لك مولانا نؤثر مقامك عندنا من أول قدومك وأنت تعلم الواقع من ذلك وقد تيقنا أن اللّه عز وجل ادخرك لنا نصرة على أعدائنا. فحلف له أسد الدين على النصيحة وإظهار الدولة فقال الأستاذ عن العاضد: الأمر بيدك هذا وأكثر. ثم جددت الخلع واستخلص أسد الدين الجليس عبد القوي وكان قاضي القضاة وداعي الدعاة واستحسنه واختصه وأما الكامل بن شاور فدخل القصر مع أخوته معتصمين به وكان آخر العهد به وأسف أسد الدين عليه لما كان منه في رد أبيه وذهب كل بما كسب واللّه تعالى أعلم.

وفاة أسد الدين وولاية ابن أخيه صلاح الدين

ثم توفي أسد الدين شيركوه آخر جمادي الأخيرة من سنة أربع وستين لشهرين من وزارته ولما احتضر أوصى حواشيه بهاء الدين قراقوش فقال له: «الحمد لله الذي بلغنا من هذه الديار ما أردنا وصار أهلها راضين عنا فلا تفارقوا سور القاهرة ولا تفرطوا في الأسطول».

ولما توفي تشوف الأمراء الذين معه إلى رتبة الوزارة مكانه مثل عز الدولة الباروقي وشرف الدين المشطوب الهكاري وقطب الدين نيال بن حسان المنبجي وشهاب الدين الحارمي وهو خال صلاح الدين وجمع كلٌّ لمغالبة صاحبه وكان أهل القصر وخواص الدولة قد تشاوروا فأشار جوهر بإخلاء رتبة الوزارة وإصطفاء ثلاثة آلاف من عسكر الغز يقودهم قراقوش ويعطي لهم الشرقية إقطاعاً ينزلون بها حشداً دون الإفرنج من يستبد على الخليفة بل يقيم واسطة بينه وبين الناس على العادة وأشار آخرون بإقامة صلاح الدين مقام عمه والناس تبع له. ومال القاضي لذلك حياء من صلاح الدين وجنوحاً إلى صغر سنه وأنه لا يتوهم فيه من الاستبداد ما يتوهم في غيره من أصحابه وأنهم في سعة من رأيهم مع ولايته فاستدعاه وخلع عليه ولقبه الملك الناصر.

واختلف عليه أصحابه فلم يطيعوه وكان عيسى الهكاري شيعة له واستمالهم إليه إلا الباروقي فإنه امتنع وعاد إلى نور الدين بالشام وثبتت قدم صلاح الدين في مصر وكان نائباً عن نور الدين ونور الدين يكاتبه بالأمير الأسفهسار ويجمعه في الخطاب مع كافة الأمراء بالديار المصرية وما زال صلاح الدين يحسن المباشرة ويستميل الناس ويفيض العطاء حتى غلب على أفئدة الناس وضعف أمر العاضد ثم أرسل يطلب أخوته وأهله من نور الدين فبعث بهم إليه من الشام واستقامت أموره واطردت سعادته واللّه تعالى ولي التوفيق.

واقعة السودان بمصر

كان بقصر العاضد خصيٌّ حاكم على أهل القصر يدعى مؤتمن الخلافة فلما غص أهل الدولة بوزارة صلاح الدين داخل جماعة منهم وكاتب الإفرنج يستدعيهم ليبرز صلاح الدين لمدافعتهم فيثوروا بمخلفه ثم يتبعونه وقد ناشب الإفرنج فيأتون عليه وبعثوا الكتاب مع ذي طمرين حمله في نعاله فاعترضه بعض التركمان واستلبه ورأوا النعال جديدة فاسترابوا بها فجاؤوا به إلى صلاح الدين فقرأ الكتاب ودخل على كاتبه فأخبره بحقيقة الأمر فطوى ذلك وانتظر مؤتمن الخلافة حتى خرج إلى بعض قراه متنزهاً وبعث من جاء برأسه ومنع الخصيان بالقصر عن ولاية أموره وقدم عليهم بهاء الدين قراقوش خصياً أبيض من خدمه وجعل إليه جميع الأمور بالقصر وامتعض السودان بمصر لمؤتمن الخلافة واجتمعوا لحرب صلاح الدين وبلغوا خمسة آلاف وناجزوا عسكره من القصر في ذي القعدة من السنة وبعث إلى محلتهم بالمنصورة من أحرقها على أهليهم وأولادهم فلما سمعوا بذلك انهزموا وأخذهم السيف في السكك فاستأمنوا وعبروا إلى الجيزة فسار إليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين في طائفة من العسكر فاستلحمهم وأبادهم واللّه أعلم.

منازلة الإفرنج دمياط وفتح إيلة

ولما استولى صلاح الدين على دولة مصر وقد كان الإفرنج أسفوا على ما فاتهم من صده وصد عمه عن مصر وتواقعوا الهلاك من استطالة نور الدين عليهم بملك مصر فبعثوا الرهبان

والأقسة إلى بلاد القرانية يدعونهم إلى المدافعة عن بيت المقدس وكاتبوا الإفرنج بصقلية والأندلس يستنجدونهم فنفروا واستعدوا لإمدادهم واجتمع الذين بسواحل الشام في فاتح خمس وستين وثلثمائة وركبوا في ألف من الأساطيل وأرسلوا لدمياط ليملكوها ويقربوا من مصر وكان صلاح الدين قد ولاها شمس الخواص منكبرس فبعث إليه بالخبر فجهز إليها بهاء الدين قراقوش وأمراء الغز في البر متتابعين وواصل المراكب بالأسلحة والإتاوات وخاطب نور الدين يستمده لدمياط لأنه لا يقدر على المسير إليها خشية من أهل الدولة بمصر فبعث نور الدين إليها العساكر أرسالاً ثم سار بنفسه وخالف الإفرنج إلى بلادهم بسواحل الشام فاستباحها وخربها.

وبلغهم الخبر بذلك على دمياط وقد امتنعت عليهم ووقع فيهم الموتان فاقلعوا عنها لخمسين يوماً من حصارها ورجع أهل سواحل الشام لبلادهم فوجدوها خراباً وكان جملة ما بعثه نور الدين في المدد لصلاح الدين في شأن دمياط هذه ألف ألف دينار سوى الثياب والأسلحة وغيرها ثم أرسل صلاح الدين إلى نور الدين في منتصف السنة يستدعي منه أباه نجم الدين أيوب فجهزه إليه مع عسكر واجتمع معهم من التجار جماعة وخشي عليهم نور الدين في طريقهم من الإفرنج الذين بالكرك فسار إلى الكرك وحاصرهم بها.

وجمع الإفرنج الآخرون فصمد للقائهم فخاموا عنه وسار في وسط بلادهم وسار إلى عشيرا ووصل نجم الدين أيوب إلى مصر وركب العاضد لتلقيه ثم سار صلاح الدين سنة ست وستين لغزو بلاد الإفرنج وأغار على أعمال عسقلان والرملة ونهب ربط غزة ولقي ملك الإفرنج فهزمه وعاد إلى مصر ثم أنشأ مراكب وحملها مفصلة عل الجمال إلى أيلة فألفها وألقاها في البحر وحاصر أيلة براً وبحراً وفتحها عنوة في شهر ربيع من السنة واستباحها وعاد إلى مصر فعزل قضاة الشيعة وأقام قاضياً شافعياً فيها وولى في جميع البلاد كذلك ثم بعث أخاه شمس الدولة توران شاه إلى الصعيد فأغار على العرب وكانوا قد عاثوا وأفسدوا فكفهم عن ذلك والله تعالى أعلم.

الخطبة العباسية بمصر

ثم كتب نور الدين بإقامة الخطبة للمستضيء العباسي وترك الخطبة للعاضد بمصر فاعتذر عن ذلك بميل أهل مصر للعلويين وفي باطن الأمر خشي من نور الدين فلم يقبل نور الدين عذره في ذلك ولم تسعه مخالفته وأحجم عن القيام بذلك ورد على صلاح الدين شخص من علماء الأعاجم يعرف بالخبشاني ويلقب بالأمير العالم فلما رآهم محجمين عن ذلك صعد المنبر يوم الجمعة قبل الخطيب ودعى للمستضيء فلما كانت الجمعة القابلة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد والخطبة للمستضيء فتراسلوا بذلك ثاني جمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة.

وكان المستضيء قد ولي الخلافة بعد أبيه المستنجد في ربيع من السنة قبلها ولما خطب له بمصر كان العاضد مريضاً فلم يشعروه بذلك وتوفي يوم عاشوراء من السنة ولما خطب له على منابر مصر جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره ووكل به بهاء الدين قراقوش وكان فيه من الذخائر ما يعز وجوده مثل حبل الياقوت الذي وزن كل حصاة منه سبعة عشر مثقالا ومصاف الزمرد الذي طوله أربعة أصابع طولا في عرض ومثل طبل القولنج الذي يضربه ضاربه فيعافى بذلك من داء القولنج وكسروه لما وجدوا ذلك منه فلما ذكرت لهم منفعته ندموا عليه ووجدوا من الكتب النفيسة ما لا يعد.

ونقل أهل العاضد إلى بعض حجر القصر ووكل بهم وإخراج الأماء والعبيد وقسمهم بين البيع والهبة والعتق وكان العاضد لما اشتد مرضه استدعاه فلم يجب داعيه وظنها خديعة فلما توفي ندم وكان يصفه بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه والانقياد ولما وصل الخبر إلى بغداد بالخطبة للمستضيء ضربت البشائر وزينت بغداد أياماً وبعثت الخلع لنور الدين وصلاح الدين مع صندل الخادم من خواص المقتفي فوصل إلى نور الدين وبعث بخلعة صلاح الدين وخلع الخطباء بمصر والأعلام السود والله تعالى أعلم.

الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين

قد كان تقدم لنا ذكر هذه الوحشة في أخبار نور الدين مستوفاة وأن صلاح الدين غزا بلاد الإفرنج سنة سبع وستين وحاصر حصن الشوبك على مرحلة من الكرك حتى استأمنوا إليه فبلغ ذلك نور الدين فاعتزم على قصد بلاد الإفرنج من ناحية أخرى فارتاب صلاح الدين في أمره وفي لقاء نور الدين وإظهار طاعته وما ينشأ عن ذلك من تحكمه فيه فأسرع العود إلى مصر واعتذر لنور الدين بشيء بلغه عن شيعة العلويين ليعتزله نور الدين وأخذ في الاستعداد لعزله وبلغ ذلك صلاح الدين وأصحابه

فتفاوضوا في مدافعته ونهاهم أبوه نجم الدين أيوب وأشار بمكاتبته والتلطف له مخافة أن يبلغه غير ذلك فيقوي عزمه على العمل به ففعل ذلك صلاح الدين فسالمه نور الدين وعادت المخالطة بينهما كما كانت واتفقا على اجتماعهما لحصار الكرك فسار صلاح الدين لذلك سنة ثمان وستين وخرج نور الدين من دمشق بعد أن تجهز فلما انتهى إلى الرقيم على مرحلتين من الكرك وبلغ صلاح الدين خبره ارتابه ثانياً وجاءه الخبر بمرض نجم الدين أبيه بمصر فكرّ راجعاً وأرسل إلى نور الدين الفقيه عيسى الهكاري بما وقع من حديث المرض بأبيه وأنه رجع من أجله فأظهر نور الدين القبول وعاد إلى دمشق والله تعالى أعلم.

وفاة نجم الدين أيوب

كان نجم الدين أيوب بعد انصراف ابنه صلاح الدين إلى مصر أقام بدمشق عند نور الدين ثم بعث عنه ابنه صلاح الدين عندما استوثق له ملك مصر فجهزه نور الدين سنة خمس وستين في عسكره وسار لحصار الكرك ليشغل الإفرنج عن اعتراضه كما مر ذكره ووصل إلى مصر وخرج العاضد لتلقيه وأقام مكرماً ثم سار صلاح الدين إلى الكرك سنة ثمان وستين المرة الثانية في مواعدة نور الدين وأقام نجم الدين بمصر وركب يوماً في مركب وسار ظاهر البلد والفرس في غلواء مراحه وملاعبة ظله فسقط عنه وحمل وقيذاً إلى بيته فهلك لأيام منها آخر ذي الحجة من السنة وكان خيراً جواداً محسناً للعلماء والفقراء وقد تقدم ذكر أوليته والله ولي التوفيق.

استيلاء قراقوش على طرابلس الغرب

كان قراقوش من موالي تقي الدين عمر بن شاه بن نجم الدين أيوب وهو ابن أخي صلاح الدين فغضب مولاه في بعض النزعات وذهب مغاضباً إلى المغرب ولحق بجبل نفوسة من ضواحي طرابلس الغرب وأقام هنالك دعوة مواليه وكان في بسائط تلك الجبال مسعود بن زمام المعروف بالبلط في أحيائه من رياح من عرب هلال بن عامر وكان منحرفاً عن طاعة عبد المؤمن شيخ الموحدين وخليفة المهدي فيهم فانتبذ مسعود بقومه عن المغرب وأفريقية إلى تلك القاصية فدعاه قراقوش إلى إظهار دعوة مواليه بني أيوب فأجابه ونزل معه بأحيائه على طرابلس فحاصرها قراقوش وافتتحها ونزل بأهله وعياله في قصرها.

ثم استولى على قابس من ورائها وعلى توزر ونفطة وبلاد ونفزاوة من أفريقية وجمع أموالاً جمة وجعل ذخيرته بمدينة قابس وخربت تلك البلاد أثناء ذلك باستيلاء العرب عليها ولم يكن لهم قدرة على منعهم ثم طمع في الاستيلاء على جميع أفريقية ووصل يده بيحيى بن غانية اللمتوني الثائر بتلك الناحية بدعوة لمتونة من بقية الأمراء في دولتهم فكانت لهما بتلك الناحية آثار مذكورة في أخبار دولة الموحدين إلى أن غلبه ابن غانية على ما ملك من تلك البلاد وقتله كما هو مذكور في أخبارهم والله أعلم.

استيلاء نور الدين توران شاه بن أيوب على بلاد النوبة ثم على بلاد اليمن

كان صلاح الدين وقومه على كثرة ارتيابهم من نور الدين وظنهم به الظنون يحاولون ملك القاصية عن مصر ليمتنعوا بها إن طرقهم منه حادث أو عزم على المسير إليهم في مصر فصرفوا عزمهم في ذلك إلى بلاد النوبة أو بلاد اليمن وتجهز شمس الدولة توران شاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الأكبر إلى ملك النوبة وسار إليها في العساكر سنة ثمان وستين وحاصر قلعة من ثغورهم ففتحها واختبرها فلم يجد فيها خرجاً ولا في البلاد بأسرها جباية وأقواتهم الذرة وهم في شظف من العيش ومعاناة للفتن فاقتصر على ما فتحه من ثغورهم وعاد في غنيته بالعبيد والجواري فلما وصل إلى مصر أقام بها قليلاً وبعثه صلاح الدين إلى اليمن وقد كان غلب عليه علي بن مهدي الخارجي سنة أربع وخمسين وصار أمره إلى ابنه عبد النبي وكرسي ملكه زبيد منها وفي عدد ياسر بن بلال بقية ملوك بني الربيع.

وكان عمارة اليمنى شاعر العبيدي وصاحب بني رزيك من أمرائهم وكان أصله من اليمن وكان في خدمة شمس الدولة ويغريه به فسار إليه شمس الدولة بعد أن تجهز وأزاح العلل واستعد للمال والعيال وسار من مصر منتصف سنة تسع وستين ومر بمكة وانتهى إلى زبيد وبها ملك اليمن عبد النبي بن علي بن مهدي فبرز إليه وقاتله فانهزم وانحجر بالبلد وزحفت عساكر شمس الدولة فتسنموا أسوارها وملكوها عنوةً واستباحوها وأسروا عبد النبي وزوجته وولى شمس الدولة على زبيد مبارك بن كامل بن منقذ من أمراء شيزر كان في جملته ودفع إليه عبد النبي ليستخلص منه الأموال فاستخرج من قربته دفائن كانت فيها أموال جليلة ودلتهم زوجته الحرة على ودائع استولوا منها على أموال جمة.

وأقيمت الخطبة العباسية في زبيد وسار شمس الدولة توران شاه إلى عدن وبها ياسر بن بلال كان أبوه بلال بن جرير مستبداً بها على مواليه بني الزريع وورثها عنه ابنه ياسر فسار ياسر للقائه فهزمه شمس الدولة وسارت عساكره إلى البلد فملكوها وجاؤوا بياسر أسيراً إلى شمس الدولة فدخل عدن وعبد النبي معه في الاعتقال واستولى على نواحيها وعاد إلى زبيد ثم سار إلى حصون الجبال فملك تعز وهي من أحصن القلاع وحصن التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون وولى على عدن عز الدولة عثمان بن الزنجبيلي واتخذ زبيد سبباً لملكه ثم استوخمها وسار في الجبال ومعه الأطباء يتخير مكاناً صحيح الهواء للسكنى فوقع اختيارهم على تعز فاختط هنالك مدينةً واتخذها كرسياً لملكه وبقيت لبنيه ومواليهم بني رسول كما نذكره في أخبارهم واللّه تعالى ولي التوفيق.

واقعة عمارة ومقتله

كان جماعة من شيعة العلويين بمصر منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويدس وابن كامل وداعي الدعاة وجماعة من الجند وحاشية القصر اتفقوا على استدعاء الإفرنج من صقلية وسواحل الشام وبذلوا لهم الأموال على أن يقصدوا مصر، فإن خرج صلاح الدين للقائهم بالعساكر ثار هؤلاء بالقاهرة وأعادوا الدولة العبيدية وإلا فلا بد له إن أقام من بعث عساكره لمدافعة الإفرنج فينفردون به ويقبضون عليه وواطأهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين وتحينوا لذلك غيبة أخيه توران شاه باليمن وثقوا بأنفسهم وصدقوا توهماتهم ورتبوا وظائف الدولة وخططها وتنازع في الوزارة بنو رزيك وبنو شاور وكان على بن نجي الواعظ ممن داخلهم في ذلك فأطلع صلاح الدين هو في الباطن إليهم ونمي الخبر إلى صلاح الدين من عيونه ببلاد الإفرنج فوضع على رسول اللّه عنده عيوناً جاؤه بجلية خبره فقبض حينئذ عليهم وقيل: إن علي بن نجي أنمى خبرهم إلى القاضي فأوصله إلى صلاح الدين ولما قبض عليهم صلاح الدين أمر بصلبهم ومر عمارة ببيت القاضي وطلب لقاءه فلم يسعفه وأنشد البيت المشهور

عبد الرحيم قد احتجب ... أن الخلاص هو العجب

ثم صلبوا جميعاً ونودي في شيعة العلويين بالخروج من ديار مصر إلى الصعيد واحتيط على سلالة العاضد بالقصر وجاء الإفرنج بعد ذلك من صقلية إلى الإسكندرية كما يأتي خبره إن شاء اللّه تعالى واللّه أعلم.

وصول الإفرنج من صقلية إلى الإسكندرية

لما وصلت رسل هؤلاء الشيعة إلى الإفرنج بصقلية تجهزوا وبعثوا مراكبهم مائتي أسطول للمقاتلة فيها خمسون ألف رجل وألفان وخمسمائة فارس وثلاثون مركباً للخيول وستة مراكب لآلة الحرب وأربعون للأزواد وتقدم عليهم ابن عم الملك صاحب صقلية ووصلوا إلى ساحل الإسكندرية سنة سبعين وركب أهل البلد الأسوار وقاتلهم الإفرنج ونصبوا الآلات عليها وطار الخبر إلى صلاح الدين بمصر ووصلت الأمراء إلى الإسكندرية من كل جانب من نواحيها وخرجوا في اليوم الثالث فقاتلوا الإفرنج فظفروا عليهم ثم جاءهم البشير آخر النهار بمجيء صلاح الدين فاهتاجوا للحرب وخرجوا عند اختلاط الظلام فكبسوا الإفرنج في خيامهم بالسواحل وتبادروا إلى ركوب البحر فتقسموا بين القتل والغرق ولم ينج إلا القليل واعتصم منهم نحو من ثلثمائة برأس رابية هنالك إلى أن أصبحوا فقتل بعضهم وأسر الباقون وأقلعوا بأساطيلهم راجعين واللّه تعالى أعلم.

واقعة كنز الدولة بالصعيد

كان أمير العرب بنواحي أسوان يلقب كنز الدولة وكان شيعة للعلوية بمصر وطالت أيامه واشتهر ولما ملك صلاح الدين قسم الصعيد أقطاعاً بين أمرائه وكان أخو أبي الهيجاء السمين من أمرائه وأقطاعه في نواحيهم فعصى كنز الدولة سنة سبعين واجتمع إليه العرب والسودان وهجم على أخي أبي الهيجاء السمين في أقطاعه فقتله وكان أبو الهيجاء من أكبر الأمراء فبعثه صلاح الدين لقتال الكنز وبعث معه جماعة من الأمراء والتف له الجند فساروا إلى أسوان ومروا بالصعيد، فحاصروا بها جماعة وظفروا بهم فاستلحموهم ثم ساروا إلى الكنز فقاتلوه وهزموه وقتل واستلحم جميع أصحابه وأمنت بلاد أسوان والصعيد واللّه تعالى ولي التوفيق.

استيلاء صلاح الدين على قواعد الشام بعد وفاة العادل نور الدين

كان صلاح الدين كما قدمناه قائماً في مصر بطاعة العادل

نور الدين محمود بن زنكي ولما توفي سنة تسع وستين ونصب ابنه الصالح إسماعيل في كفالة شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم وبعث إليه صلاح الدين بطاعته ونقم عليهم أنهم لم يردوا الأمر إليه وسار غازي صاحب الموصل بن قطب الدين مودود بن زنكي إلى بلاد نور الدين التي بالجزيرة وهي نصيبين والخابور وحران والرها والرقة فملكها ونقم عليه صلاح الدين أنهم لم يخبروه حتى يدافعه عن بلادهم وكان الخادم سعد الدين كمستكين الذي ولاه نور الدين قلعة الموصل وأمر سيف الدين غازي بمطالعته بأموره قد لحق عند وفاة نور الدين بحلب وأقام بها عند شمس الدين علي ابن الداية المستبد بها بعد نور الدين فبعثه ابن الداية إلى دمشق في عسكر ليجيء بالملك الصالح إلى حلب لمدافعة سيف الدين غازي فنكروه أولاً وطردوه ثم رجعوا إلى هذا الرأي وبعثوا عنه فسار مع الملك الصالح إلى حلب ولحين دخوله قبض على ابن الداية وعلى مقدمي حلب واستبد بكفالة الصالح وخاف الأمراء بدمشق وبعثوا إلى سيف الدين غازي ليملكوه فظنها مكيدة من ابن عمه وامتنع عليهم وصالح ابن عمه على ما أخذ من البلاد فبعث أمراء دمشق إلى صلاح الدين وتولى كبر ذلك ابن المقدم فبادر إلى الشام وملك بصرى ثم سار إلى دمشق فدخلها في منسلخ ربيع سنة سبعين وخمسمائة ونزل دار أبيه المعروفة بالعفيفي وبعث القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري إلى ريحان الخادم بالقلعة أنه على طاعة الملك الصالح وفي خدمته وما جاء إلا لنصرته فسلم إليه القلعة وملكها واستخلف على دمشق أخاه سيف الإسلام طغركين وسار إلى حمص وبها وال من قبل الأمير مسعود الزعفراني وكانت من أعماله فقاتلها وملكها وجمر عسكراً لقتال قلعتها وسار إلى حماة مظهراً لطاعة الملك لصالح وارتجاع ما أخذ من بلاده بالجزيرة وبعث بذلك إلى صاحب قلعتها خرديك واستخلفه وسار إلى الملك الصالح ليجمع الكلمة ويطلق أولاد الداية واستخلف على قلعة حماة أخاه ولما وصل إلى حلب حبسه كمستكين الخادم ووصل الخبر إلى أخيه بقلعة حماة فسلمها لصلاح الدين وسار إلى حلب فحاصرها ثالث جمادي الأخيرة واستمات أهلها في المدافعة عن الصالح وكان بحلب سمند صاحب طرابلس من الإفرنج محبوساً منذ أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين فأطلقه كمستكين على مال وأسرى ببلده.

وتوفي نور الدين أول السنة وخلف ابنا مجذوماً فكفله سمند واستولى على ملكهم فلما حاصر صلاح الدين حلب بعث كمستكين إلى سمند يستنجده فسار إلى حمص ونازلها فسار إليه صلاح الدين وترك حلب وسمع الإفرنج بمسيره فرحلوا عن حمص ووصل هو إليها عاشر رجب فحاصر قلعتها وملكها آخر شعبان من السنة ثم سار إلى بعلبك وبها يمن الخادم من أيام نور الدين فحاصره حتى استأمن إليه وملكها رابع رمضان من السنة وصار بيده من الشام دمشق وحماة وبعلبك ولما استولى صلاح الدين على هذه البلاد من أعمال الملك الصالح كتب الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فأنجده بعساكره مع أخيه عز الدين مسعود وصاحب جيشه عز الدين زلقندار وسارت معهم عساكر حلب وساروا جميعاً لمحاربة صلاح الدين وبعث صلاح الدين إلى سيف الدين غازي أن يسلم لهم حمص وحماة ويبقى بدمشق نائباً عن الصالح فأبى إلا رد جميعها فسار صلاح الدين إلى العساكر ولقيهم آخر رمضان بنواحي حماة فهزمهم وغنم ما معهم واتبعهم إلى حلب وحاصرها وقطع خطبة الصالح ثم صالحوه على ما بيده من الشام فأجابهم ورحل عن حلب لعشرين من شوال وعاد إلى حماة وكان فخر الدين مسعود بن الزعفراني من الأمراء النورية وكانت ماردين من أعماله مع حمص وحماة وسلمية وتل خالد والرها فلما ملك أقطاعه هذه اتصل به فلم ير نفسه عنده كما ظن ففارقه فلما عاد صلاح الدين من حصار حلب إلى حماة سار إلى بعلبك واستأمن إليه وإليها فملكها وعاد إلى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود وأقطع حمص ناصر الدولة بن شيركوه وأقطع بعلبك شمس الدين ابن المقدم ودمشق إلى عماد والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

واقعة صلاح الدين مع الملك الصالح وصاحب الموصل وما ملك من الشام بعد انهزامهما

ثم سار سيف الدين غازي صاحب الموصل في سنة إحدى وسبعين بعد انهزام أخيه وعساكره واستقدم صاحب كيفا وصاحب ماردين وسار في ستة آلاف فارس وانتهى إلى نصيبين في ربيع من السنة فشتى بها حتى ضجرت العساكر من طول المقام وسار إلى حلب فخرجت إليه عساكر الملك الصالح مع كمستكين الخادم وسار صلاح الدين من دمشق للقائهم فلقيهم قبل السلطان فهزمهم واتبعهم إلى حلب وعبر سيف الدين الفرات منهزماً إلى الموصل وترك أخاه عز الدين بحلب واستولى صلاح على مخلفهم وسار إلى مراغة فملكها وولى عليها ثم إلى منبج وبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي وكان حنقاً عليه لقبح آثاره في عداوته

فلحق بالموصل وولاه غازي مدينة الرقة.

ثم سار صلاح الدين إلى قلعة إعزاز فحاصرها أوائل ذي القعدة من السنة أربعين يوماً وشد حصارها فاستأمنوا إليه فملكها ثاني الأضحى من السنة وثب عليه في بعض أيام حصارها باطني من الفداوية فضربه وكان مسلحاً فأمسك يد الفداوي حتى قتل وقتل جماعة كانوا معه لذلك ورحل صلاح الدين بعد الاستيلاء على قلعة إعزاز إلى حلب فحاصرها وبها الملك الصالح واعصوصب عليه أهل البلد واستماتوا في المدافعة عنه.

ثم ترددت الرسل في الصلح بينهما وبين صاحب الموصل وكيفا وصاحب ماردين فانعقد بينهم في محرم سنة اثنتين وتسعين وعاد صلاح الدين إلى دمشق بعد أن رد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح بوسيلة أخته الصغيرة خرجت إلى صلاح الدين ثائرة فاستوهبته قلعة إعزاز فوهبها لها والله تعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد الإسماعيلية

ولما رحل صلاح الدين عن حلب وقد وقع من الإسماعيلية على حصن إعزاز ما وقع قصد بلادهم في محرم سنة اثنتين وتسعين ونهبها وخربها وحاصر قلعة مصياف ونصب عليها المجانيق وبعث سنان مقدم الإسماعيلية بالشام إلى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين بحماة يسأله الشفاعة فيهم ويتوعده بالقتل فشفع فيهم وأرحل العساكر عنهم وقدم عليه أخوه توران شاه من اليمن بعد فتحه وإظهار دعوتهم فيه وولى على مدنه وأمصاره فاستخلفه صلاح الدين على دمشق وسار إلى مصر لطول عهده بها أبو الحسن بن سنان بن سقمان بن محمد ولما وصل إليها أمر بإدارة سور على مصر القاهرة والقلعة التي بالجبل دورة تسعة وعشرون ألف ذراع بالهاشمي واتصل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين وكان متولي النظر فيه مولاه قراقوش والله تعالى ولي التوفيق بمنه.

غزوات بين المسلمين والإفرنج

كان شمس الدين محمد ابن المقدم صاحب بعلبك وأغار جمع من الإفرنج على البقاع من أعمال حلب فسار إليهم وأكمن لهم في الغياض حتى نال منهم وفتك فيهم وبعث إلى صلاح الدين بمائتي أسير منهم وقارن ذلك وصول شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن فبلغه أن جمعاً من الإفرنج أغاروا على أعمال دمشق فسار إليهم ولقيهم بالمروج فلم يثبت وهزموه وأسر سيف الدين أبو بكر بن السلار من أعيان الجند بدمشق وتجاسر الإفرنج على تلك الولاية ثم اعتزم صلاح الدين على غزو بلاد الإفرنج فبعثوا في الهدنة وأجابهم إليها وعقد لهم والله تعالى ولي التوفيق.

هزيمة صلاح الدين بالرملة أمام الإفرنج

ثم سار صلاح من مصر في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين إلى ساحل الشام لغزو بلاد الإفرنج وانتهى إلى عسقلان فاكتسح أعمالها ولم يروا للإفرنج خبراً فانساحوا في البلاد وانقلبوا إلى الرملة فما راعهم إلا الإفرنج مقبلين في جموعهم وأبطالهم وقد افترق أصحاب صلاح الدين في السرايا فثبت في موقفه واشتد القتال وأبلى يومئذ محمد ابن أخيه في المدافعة عنه وقتل من أصحابه جماعة وكان لتقي الدين بن شاه ابن اسمه أحمد متكامل الخلال لم يطر شاربه فأبلى يومئذ واستشهد وتمت الهزيمة على المسلمين وكان بعض الإفرنج تخلصوا إلى صلاح الدين فقتل بين يديه وعاد منهزماً وأسر الفقيه عيسى الهكاري بعد أن أبلى يومئذ بلاء شديداً.

وسار صلاح الدين حتى غشيه الليل ثم دخل البرية في فل قليل إلى مصر ولحقهم الجهد والعطش ودخل إلى القاهرة منتصف جمادي الأخيرة.

قال ابن الأثير: ورأيت كتابه إلى أخيه توران شاه بدمشق يذكر الواقعة

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد فتكت فينا المثقفة السمر

ومن فصوله: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر انتهى.

وأما السرايا التي دخلت بلاد الإفرنج فتقسمهم القتل والأسر وأما الفقيه عيسى الهكاري فلما ولى منهزما ومعه أخوه الظهير ضل عن الطريق ومعهما جماعة من أصحابهما فأسروا وفداه صلاح الدين بعد ذلك بستين ألف دينار والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج مدينة حماة

ثم وصل في جمادى الأولى إلى ساحل الشام زعيم من طواغيت الإفرنج وقارن وصوله هزيمة صلاح الدين وعاد إلى دمشق يومئذ توران شاه بن أيوب في قلة من العسكر وهو مع ذلك منهمك في ملذاته فسار ذلك الزعيم بعد أن جمع فرنج الشام

وبذل لهم العطاء فحاصر مدينة حماة وبها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين مريضاً وشد حصارها وقتالها حتى أشرف على أخذها وهجموا يوماً على البلد وملكوا ناحية منه فدافعهم المسلمون وأخرجوهم ومنعوا حماة منهم فأفرجوا عنها بعد أربعة أيام وساروا إلى حارم فحاصروها ولما رحلوا عن حماة مات شهاب الدين الحارمي ولم يزل الإفرنج على حارم يحاصرونها وأطمعهم فيها ما كان من نكبة الصالح صاحب حلب لكمستكين الخادم كافل دولته ثم صانعهم بالمال فرحلوا عنها ثم عاد الإفرنج إلى مدينة حماة في ربيع سنة أربع وسبعين فعاثوا في نواحيها واكتسحوا أعمالها وخرج العسكر حامية البلد إليهم فهزموهم واستردوا ما أخذوا من السواد وبعثوا بالرؤوس والأسرى إلى صلاح الدين وهو بظاهر حمص منقلباً من الشام فأمر بقتل الأسرى والله تعالى ولي التوفيق.

انتقاض ابن المقدم ببعلبك وفتحها

كان صلاح الدين لما ملك بعلبك استخلف فيها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم جزاء بما فعله في تسليم دمشق وكان شمس الدولة محمد أخو صلاح الدين ناشئاً في ظل أخيه وكفالته فكان يميل إليه وطلب منه أقطاع بعلبك فأمر ابن المقدم بتمكينه منها فأبى وذكره عهده في أمر دمشق فسار ابن المقدم إلى بعلبك وامتنع فيها ونازلته العساكر فامتنع وطاولوه حتى بعث إلى صلاح الدين يطلب العوض فعوضه عنها وسار أخوه شمس الدين إليها فملكها والله تعالى ولي التوفيق.

وقائع مع الإفرنج

وفي سنة أربع وسبعين سار ملك الإفرنج في عسكر عظيم فأغار على أعمال دمشق واكتسحها وأثخن فيها قتلاً وسبياً وأرسل صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه في العسكر لمدافعته فسار يطلبهم ولقيهم على غير استعداد فقاتل أشد القتال ونصر الله المسلمين وقتل جماعة من زعماء الإفرنج منهم هنغري وكان يضرب به المثل ثم أغار البرنس صاحب أنطاكية واللاذقية على صرح المسلمين بشيزر وكان صلاح الدين على بانياس لتخريب حصن الإفرنج بمخاضة الإضرار فبعث تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه وناصر الدين محمد إلى حمص لحماية البلد من العدو كما نذكره إن شاء الله تعالى.

تخريب حصن الإفرنج

كان الإفرنج قد اتخذوا حصناً منيعاً بقرب بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام ويسمي مكانه مخاضة الأضرار فسار صلاح الدين من دمشق إلى بانياس سنة خمس وسبعين وأقام بها وبث فيها الغارات على بلادهم ثم سار إلى الحصن فحاصره ليختبره وعاد عنه إلى اجتماع العساكر وبث السرايا في بلاد الإفرنج للغارة وجاء ملك الإفرنج للغارة على سريته ومعه جماعة من عساكره فبعثوا إلى صلاح الدين بالخبر فوافاهم وهم يقتتلون فهزم الإفرنج وأثخن فيهم ونجا ملكهم في فل وأسر صاحب الرملة ونابلس منهم وكان رديف ملكهم وأسر أخوه صاحب جبيل وطبرية ومقدم الفداوية ومقدم الأسبتارية وغيرهم من طواغيتهم وفادى صاحب الرملة نفسه وهو ارتيرزان بمائة وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير من المسلمين.

وأبلى في هذا اليوم عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين بلاء حسناً ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس وبث السرايا في بلاد الإفرنج وسار لحصار الحصن فقاتله قتالاً شديداً وتسنم المسلمون سوره حتى ملكوا برجاً منه، وكان مدد الإفرنج بطبرية والمسلمون يرتقبون وصولهم فأصبحوا من الغد ونقبوا السور وأضرموا فيه النار فسقط وملك المسلمون الحصن عنوة آخر ربيع سنة خمس وسبعين وأسروا كل من فيه وأمر صلاح الدين بهدم الحصن فألحق بالأرض وبلغ الخبر إلى الإفرنج وهم مجتمعون بطبرية لإمداده فافترقوا وانهزم الإفرنج والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفتنة بين صلاح الدين وقليج أرسلان صاحب الروم

كان صاحب حصن زغبان من شمالي حلب قد ملكه نور الدين العادل بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وهو بيد شمس الدين ابن المقدم فلما انقطع حصن رعبان عن ايالة صلاح الدين وراء حلب طمع قليج أرسلان في استرجاعه فبعث إليه عسكراً يحاصرونه وبعث صلاح الدين تقي الدين ابن أخيه في عسكر لمدافعتهم فلقيهم وهزمهم وعاد إلى عمه صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الإضرار وكان نور الدين محمود بن قليج أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وآمد وغيرهما من ديار بكر قد فسد ما بينه وبين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم بسبب إضراره ببنته وزواجه عليها واعتزم قليج أرسلان على حربه وأخذ

بلاده فاستنجد نور الدين بصلاح الدين وبعث إلى قليج أرسلان يشفع في شانه فطلب استرجاع حصونه التي أعطاها لنور الدين عند المصاهرة ولجَّ في ذلك صلاح الدين على قليج وسار إلى زغبان ومر بحلب فتركها ذات الشمال وسلك على تل باشر.

ولما انتهى إلى زغبان جاءه نور الدين محمود وأقام عنده وراسل إليه قليج أرسلان يصف فعل نور الدين وإضراره ببنته فلما أدى الرسول رسالته امتعض صلاح الدين وتوعدهم بالمسير إلى بلده فتركه الرسول حتى سكن وغدا عليه فطلب الخلوة وتلطف له في فسخ ما هو فيه من ترك الغزو ونفقة الأموال في هذا الغرض الحقير وإن بنت قليج أرسلان يجب على مثلك من الملوك الامتعاض لها ولا تترك المضارة من دونها فعلم صلاح الدين الحق فيما قاله وقال للرسول: إن نور الدين استند إلى فعلك فأصلح الأمر بينهما وأنا معين على ما تحبونه جميعاً ففعل الرسول ذلك وأصلح بينهما وعاد صلاح الدين إلى الشام ونور الدين محمود إلى ديار بكر وطلق ضرة بنت قليج أرسلان بالأجل الذي أجله للرسول والله تعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد ابن اليون

كان قليج بن اليون من ملوك الأرض صاحب الدروب المجاورة لحلب وكان نور الدين محمود قد استخدمه وأقطع له في الشام وكان يعسكر معه وكان جرئياً على صاحب القسطنطينية وملك وادقة والمصيصة وطرسوس من يد الروم وكانت بينهما من أجل ذلك حروب ولما توفي نور الدين وانتقضت دولته أقام ابن اليون في بلاده وكان التركمان يحتاجون إلى رعي مواشيهم بأرضه على حصانتها وصعوبة مضايقها وكان يأذن لهم فيدخلونها وغدر بهم في بعض السنين واستباحهم واستاق مواشيهم وبلغ الخبر إلى صلاح الدين منصرفه من زغبان فقصد بلده ونزل النهر الأسود وبث الغارات في بلادهم واكتسحها وكان لابن اليون حصن وفيه ذخيرته فخشي عليه فقصد تخريبه وسابقه إليه صلاح الدين فغنم ما فيه وبعث إليه ابن اليون برد ما أخذ من التركمان وإطلاق أسراهم على الصلح والرجوع عنه فأجابه إلى ذلك وعاد عنه في منتصف سنة خمس وسبعين والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

غزوة صلاح الدين إلى الكرك

كان البرنس أرناط صاحب الكرك من مردة الإفرنج وشياطينهم وهو الذي اختط مدينة الكرك وقلعتها ولم تكن هنالك واعتزم على غزو المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام وسمع عز الدين فرخشاه بذلك وهو بدمشق فجمع وسار إلى الكرك سنة سبع سبعين واكتسح نواحيه وأقام ليشغله عن ذلك الغرض حتى انقطع أمله وعاد إلى الكرك فعاد فرخشاه إلى دمشق والله تعالى أعلم بغيبه.

مسير سيف الإسلام طغركين بن أيوب إلى اليمن والياً عليها

قد كان تقدم لنا فتح شمس الدولة توران شاه لليمن واستيلاؤه عليه سنة ثمان وستين وأنه ولى على زبيد مبارك بن كامل بن منقذ من أمراء شيزر وعلى عدن عز الدولة عثمان الزنجيلي واختط مدينة تعز في بلاد اليمن واتخذها كرسياً لملكه ثم عاد إلى أخيه سنة اثنتين وسبعين وأدركه منصرفاً من حصار حلب فولاه على دمشق وسار إلى مصر ثم ولاه أخوه صلاح الدين بعد ذلك مدينة الإسكندرية وأقطعه إياها مضافة إلى أعمال اليمن وكانت الأموال تحمل إليه من زبيد وعدن وسائر ولايات اليمن ومع ذلك فكان عليه دين قريب من مائتي ألف دينار مصرية وتوفي سنة ست وسبعين فقضاها عنه صلاح الدين ولما بلغه خبر وفاته سار إلى مصر واستخلف على دمشق عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه وكان سيف الدين مبارك بن كامل بن منقذ الكناني نائبه بزبيد قد تغلب في ولايته وتحكم في الأموال فنزع إلى وطنه واستأذن شمس الدولة قبل موته فأذن له في المجيء واستأذن أخاه عطاف بن زبيد وأقام مع شمس الدولة حتى إذا مات بقي في خدمة صلاح الدين وكان محشداً فسعى فيه عنده أنه احتجز أموال اليمن ولم يعرض له فتحيل اعداؤه عليه وكان ينزل بالعدوية قرب مصر فصنع في بعض الأيام صنيعاً دعي إليه أعيان الدولة واختلف مواليه وخدامه إلى مصر في شراء حاجتهم فتحيلوا لصلاح الدين أنه هارب إلى اليمن فتمت حيلتهم فقبض عليه ثم ضاق عليه الحال وصابره على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ما أعطى لأهل الدولة فأطلقه وأعاده إلى منزلته فلما بلغ شمس الدين إلى اليمن اختلف نوابه بها حطان بن منقذ وعثمان بن الزنجبيلي.

وخشي صلاح الدين أن تخرج اليمن عن طاعته فجهز

جماعة من امرائه إلى اليمن مع صارم الدين قطلغ أبه والي مصر من أمرائه فساروا لذلك سنة سبع وسبعين واستولى قطلغ أبه على زبيد من حطان بن منقذ ثم مات قريباً فعاد حطان إلى زبيد وأطاعه الناس وقوي على عثمان الزنجبيلي فكتب عثمان إلى صلاح الدين أن يبعث بعض قرابته فجهز صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغركين فسار إلى اليمن وخرج حطان بن منقذ من زبيد وتحصن في بعض القلاع ونزل سيف الإسلام زبيد وبعث إلى حطان بالأمان فنزل إليه وأولاه الإحسان ثم طلب اللحاق بالشام فمنعه ثم الح عليه فأذن له حتى إذا خرج واحتمل رواحله وجاء ليودعه قبض عليه واستولى على ما معه ثم حبسه في بعض القلاع فكان آخر العهد به ويقال: كان فيما أخذه سبعون حملاً من الذهب ولما سمع عثمان الزنجبيلي خبر حطان خشي على نفسه وحمل أمواله في البحر ولحق بالشام وبقيت مراكبه مراكب لسيف الإسلام فاستولى عليها ولم يخلص إلا بما كان معه في طريقه وصفا اليمن لسيف الإسلام والله تعالى أعلم.

دخول قلعة البيرة في ايالة صلاح الدين وغزوه الإفرنج وفتح بعض حصونهم مثل الشقيف والغرر وبيروت

كانت قلعة البيرة من قلاع العراق لشهاب الدين بن أرتق وهو ابن عم قطب الدين أبي الغازي بن أرتق صاحب ماردين وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام ثم مات وملك البيرة بعده ابنه ومات نور الدين فصار إلى طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم وقع بين صاحب ماردين وصاحب الموصل من المخالصة والاتفاق ما وقع وطلب من عز الدين أن يأذن له في أخذ البيرة فأذن له فسار قطب الدين في عسكره إلى قلعة سميساط وأقام بها وبعث العسكر إلى البيرة وحاصرها وبعث صاحبها يستنجد صلاح الدين ويكون له كما كان أبوه لنور الدين فشفع صلاح الدين إلى قطب الدين صاحب ماردين ولم يشفعه وشغل عنه بأمر الإفرنج ورحلت عساكر قطب الدين عنها فرجع صاحبها إلى صلاح الدين وأعطاه طاعته وعاد في إيالته ثم خرج صلاح الدين من مصر في محرم سنة ثمان وسبعين قاصداً الشام ومر بأيلة وجمع الإفرنج لاعتراضه فبعث أثقاله مع أخيه تاج الملوك إلى دمشق ومال على بلادهم فاكتسح نواحي الكرك والشوبك وعاد إلى دمشق منتصف صفر وكان الإفرنج لما اجتمعوا على الكرك دخلوا بلادهم من نواحي الشام فخالفهم عز الدين فرخشاه نائب دمشق إليها واكتسح نواحيها وخرب قراها وأثخن فيهم قتلاً وسبياً وفتح الشقيف من حصونهم عنوة وكان له نكاية في المسلمين فبعث إلى صلاح الدين بفتحه فسر بذلك.

ثم راح صلاح الدين بدمشق أياما وسار في ربيع الأول من السنة وقصد طبرية وخيم بالأردن واجتمعت الإفرنج على طبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه إلى بيسان فملكها عنوة واستباحها وأغار على الغور فأثخن فيها قتلاً وسبياً وسار الإفرنج من طبرية إلى جبل كوكب وتقدم صلاح الدين إليهم بعساكره فتحصنوا بالجبل فأمر ابني أخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه ابني شاهنشاه فقاتلوا الإفرنج قتالاً شديداً ثم تحاجزوا وعاد صلاح الدين إلى دمشق ثم سار إلى بيروت فاكتسح نواحيها وكان قد استدعى الأسطول من مصر لحصارها فوافاه بها وحاصرها أياماً ثم بلغه أن البحر قد قذف بدمياط مركباً للإفرنج فيه جماعة منهم جاؤوا لزيارة القدس فألقتهم الريح بدمياط وأسر منهم ألف وستمائة أسير ثم ارتحل عن بيروت إلى الجزيرة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

مسير صلاح الدين إلى الجزيرة واستيلاؤه على حران والرها والرقة والخابور ونصيبين وسنجار وحصار الموصل

كان مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كجك الذي كان أبوه نائب القلعة بالموصل مستولياً في دولة مودود وبنيه وانتقل آخراً إلى إربل ومات بها وأقطعه عز الدين صاحب الموصل ابنه مظفر الدين وكان هواه مع صلاح الدين ويؤمله ملكه بلاد الجزيرة فراسله وهو محاصر لبيروت وأطمعه في البلاد واستحثه للوصول فسار صلاح الدين عن بيروت مورياً بحلب وقصد الفرات ولقيه مظفر الدين وساروا إلى البيرة وقد دخل طاعة عز الدين وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما مسير صلاح الدين إلى الشام ظنوا أنه يريد حلب فساروا لمدافعته فلما عبر الفرات عادوا إلى الموصل وبعثوا حامية إلى الرها وكاتب صلاح الدين ملوك الأطراف بديار بكر وغيرها بالوعد والمقاربة.

ووعد نور الدين محموداً صاحب كيفا أنه يملكه آمد ووصل إليه فساروا إلى مدينة الرها فحاصروها وبها يومئذ الأمير فخر الدين بن مسعود الزعفراني واشتد عليه القتال فاستأمن إلى صلاح الدين وملكه المدينة وحاصر معه القلعة حتى سلمها النائب الذي

بها على مال شرطه فأضافها صلاح الدين إلى مظفر الدين مع حران وساروا إلى الرقة وبها نائبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي ففارقها إلى الموصل وملكها صلاح الدين ثم سار إلى قرقيسيا وماسكين وعربان وهي بلاد الخابور فاستولى على جميعها وسار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها وحاصر القلعة أياماً ثم ملكها وأقطعها للأمير أبي الهيجاء السمين ثم رحل عنها ونور الدين صاحب كيفا معه معتزماً على قصد الموصل وجاءه الخبر بأن الإفرنج أغاروا على نواحي دمشق واكتسحوا قراها وأرادوا تخريب جامع داريا فتوعدهم نائب دمشق بتخريب بيعهم وكنائسهم فتركوه فلم يثن ذلك من عزمه وقصد الموصل وقد جمع صاحبها العساكر واستعد للحصار وخلى نائبه في الاستعداد.

وبعث إلى سنجار وإربل وجزيرة ابن عمر فشحنها بالامداد من الرجال والسلاح والأموال وأنزل صاحب الدار عساكره بقربها وتقدم هو ومظفر الدين وابن شيركوه فهالهم استعداد صاحب البلد وأيقنوا بامتناعه وعذل صاحبيه هذين فإنهما كانا أشارا بالبداءة بالموصل ثم أصبح صلاح الدين من الغد في عسكره ونزل عليه أول رجب على باب كندة وأنزل صاحب الحصن باب الجسر وأخاه تاج الملوك بالباب العمادي وقاتلهم فلم يظفر وخرج بعض الرجال فنالوا منه ونصب منجنيقاً فنصبوا عليه من البلد تسعة ثم خرجوا إليه من البلد فأخذوه بعد قتال كثير وخشي صلاح الدين من البيات فتأخر لأنه رآهم في بعض الليالي يخرجون من باب الجسر بالمشاعل ويرجعون.

وكان صدر الدين شيخ الشيوخ ومشير الخادم قد وصلا من عند الخليفة الناصر في الصلح وترددت الرسل بينهم فطلب عز الدين من صلاح الدين رد ما أخذه من بلادهم فأجاب على أن يمكنوه من حلب فامتنع فرجع إلى ترك مظاهرة صاحبها فامتنع أيضاً ثم وصلت أيضاً رسل صاحب أذربيجان ورسل شاهرين صاحب خلاط في الصلح فلم يتم وسار أهل سنجار يعترضون من يقصده من عساكره وأصحابه فأفرج عن الموصل وسار إليها وبها شرف الدين أمير أميران هند وأخو عز الدين صاحب الموصل في عسكر وبعث إليه مجاهد الدين النائب بعسكر آخر مدداً وحاصرها صلاح الدين وضيق عليها واستمال بعض أمراء الأكراد الذين بها من الزواوية فواعده من ناحيته.

وطرقه صلاح الدين فملكه البرج الذي في ناحيته فاستأمن أمير أميران وخرج وعسكره معه إلى الموصل وملك صلاح الدين سنجار وولى عليها سعد الدين بن معين الدين الذي كان أبوه كامل بن طغركين بدمشق وصارت سنجار من سائر البلاد التي ملكها من الجزيرة وسار صلاح الدين إلى نصيبين فشكا إليه أهلها من أبي الهيجاء السمين فعزله عنهم واستصحبه معه وسار إلى حران في ذي القعدة من سنة ثمان وسبعين وفرق عساكره ليستريحوا وأقام في خواصه وكبار أصحابه والله أعلم.

مسير شاهرين صاحب خلاط الدين لنجدة صاحب الموصل

كان عز الدين قد أرسل إلى شاهرين يستنجده على صلاح الدين فبعث إليه عدة رسل شافعاً في أمره فلم يشفعه وغالطه فبعث إليه مولاه آخراً سيف الدين بكتمر وهو على سنجار يسأله في الإفراج عنها فلم يجبه إلى ذلك وسوفه رجاء أن يفوتها فأبلغه بكتمر الوعيد عن مولاه وفارقه مغاضباً ولم يقبل صلته وأغراه بصلاح الدين فسار شاهرين من مخيمه بظاهر خلاط إلى ماردين وصاحبها يومئذ ابن أخته وابن خال عز الدين وصهره على بنته وهو قطب الدين ابن نجم الدين وسار إليهم أتابك عز الدين صاحب الموصل وكان صلاح الدين في حران منصرفه من سنجار وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم استدعى تقي الدين ابن أخيه شاهنشاه من حماة ورحل إلى رأس عين فافترق القوم وعاد كل إلى بلده وقصد صلاح الدين ماردين فأقام عليها عدة أيام ورجع والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

واقعة الإفرنج في بحر السويس

كان البرنس أرناط صاحب الكرك قد أنشأ أسطولاً مفصلاً وحمل أجزاءه إلى صاحب أيلة وركبه على ما تقتضيه صناعة النشابة وقذفه في السويس وشحنه بالمقاتلة وأقلعوا في البحر ففرقة أقاموا على حصن أيلة يحاصرونه وفرقة ساروا نحو عيذاب وأغاروا على سواحل الحجاز وأخذوا ما وجدوا بها من مراكب التجار وطرق الناس منهم بلية لم يعرفونها لأنه لم يعهد ببحر السويس إفرنجي محارب ولا تاجر وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائباً عن أخيه صلاح الدين فعمر أسطولاً وشحنه بالمقاتلة وسار به حسام الدين لؤلؤ الحاجب قائد الأساطيل بديار مصر فبدأ بأسطول الإفرنج الذي يحاصر أيلة فمزقهم كل ممزق.

وبعد الظفر بهم أقلع في طلب الآخرين وانتهى إلى عيذاب فلم يجدهم فرجع إلى رابغ وأدركهم بساحل الحوراء وكانوا عازمين على طروق الحرمين واليمن والإغارة على الحاج فلما

أظل عليهم لؤلؤ بالأسطول أيقنوا بالتغلب وترامـوا علـى الحـوراء وأسنموا إليها واعتصموا بشعابها ونزل لؤلؤ من مراكبه وجمع خيل الأعراب هنالك وقاتلهم فظفر بهـم وقتـل أكثرهم وأسـر البـاقين فأرسل بعضهم إلى منى فقتلوا بهـا أيـام النحـر وعـاد بالبـاقين إلى مصر والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

وفاة فرخشاه

ثم توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه أخو صـلاح الديـن النائب عنه بدمشق وكان خليفته في أهله ووثوقه به أكثر من جميـع أصحابه وخرج من دمشـق غازيـاً الإفرنـج وطرقـه المـرض وعـاد فتوفي في جمادي سنة ثمان وسبعين وبلغ خبره صلاح الديـن وقـد عبر الفرات إلى الجزيرة والموصل فأعاد شمـس الديـن محمـد ابـن المقدم إلى دمشق وجعله نائباً فيها واستمر لشأنه والله تعالى يـورث الملك لمن يشاء من عباده.

استيلاء صلاح الدين على آمد وتسليمها لصاحب كيفا

قد تقدم لنا مسير صلاح الديـن إلى مـاردين وإقامتـه عليهـا أياماً من نواحيها ثم ارتحل عنها إلى آمد كما كان العهد بينـه وبـين نور الدين صاحب كيفا فنازلها منتصف ذي الحجة وبها بهاء الدين بن بيسان فحاصرها وكانت غاية في المنعة وأساء ابن بيسان التدبـير وقبض يده عن العطاء وكان أهلها قد ضجروا منـه لسـوء سـيرته وتضييقه عليهم في مكاسبهم وكتب إليهم صلاح الدين بالـترغيب والترهيب فتخاذلوا عن ابن بيسان وتركوا القتال معه ونقب السور من خارج بيت ابن بيسـان وأخـرج نسـاءه مـع القـاضي الفـاضل يستميل إليه صلاح الدين ويؤجله ثلاثة أيام للرحلة فأجابه صلاح الدين وملك البلد في عاشوراء سنة تسع وسبعين.

وبنى خيمة بظاهر البلد ينقل إليها ذخيرته فلم يلتفت الناس إليه وتعذر عليه أمره فبعث إلى صلاح الدين يسأله الإعانة فأمر له بالدواب والرجال فنقل في الأيام الثلاثة كثيراً مـن موجـوده ومنـع بعد انقضاء الأجل عن نقل ما بقي ولما ملكها صلاح الدين سلمها لنور الدين صاحب كيفا وأخبر صلاح الدين بما فيها مـن الذخـائر لينقلها لنفسه فأبى وقال: ما كنت لأعطي الأصل وأبخل بالفرع.

ودخل نور الديـن البلـد ودعـا صـلاح الديـن وأمراءه إلى صنيع صنعه لهم وقدم لهم من التحف والهدايا ما يليق بهـم وعـاد بهم صلاح الدين والله تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على تل خالد وعنتاب

ولما فـرغ صـلاح الديـن مـن آمـد سـار إلى أعمـال حلـب فحاصر تل خالد ونصب عليه المجانيق حتى تسلمه بالأمان في محرم سنة تسع وسبعين ثم سار إلى عنتاب فحاصرها وبها نـاصر الديـن محمد أخو الشيخ إسماعيل الذي كـان خـازن نـور الديـن العـادل وصاحبه وهو الذي ولاه عليها فطلب من صلاح الدين أن يقرهـا بيده ويكون في طاعته فأجابه إلى ذلك وحلف له وسار في خدمتـه وغنم المسلمون خلال ذلك مغانم.

فمنها في البحر سار أسطول مصر فلقي في البحر مركباً فيـه نحو ستمائة مـن الإفرنـج بالسـلاح والأمـوال قـاصدون الإفرنـج بالشام فظفروا بهم وغنموا ما معهم وعادوا إلى مصر سالمين.

ومنها في البر أغـار الـداورن جماعـة مـن الإفرنـج ولحقهـم المسلمون بأيلة واتبعوهم إلى العسيلة وعطش المسلمون فأنزل اللـه تعالى عليهم المطر حتى رووا وقاتلوا الإفرنج فظفروا بهـم هنـالك واستلحموهم واستقاموا معهـم وعـادوا سـالمين إلى مصـر واللـه أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حلب وقلعة حارم

كان الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين العادل صـاحب حلب لم يبق له من الشام غيرها وهو يدافـع صـلاح الديـن عنهـا فتوفي منتصف سنة سـبع وسـبعين وعهـد لابـن عمـه عـز الديـن صاحب الموصل وسار عز الدين صاحب الموصل مع نائبـه مجـاهد الدين قايماز إليها فملكها. طلبها منه أخـوه عمـاد الديـن صـاحب سنجار على أن يأخذ عنها سنجار فأجابه إلى ذلك وأخذ عز الدين سنجار وعاد إلى الموصـل وسـار عمـاد الديـن إلى حلـب فملكهـا وعظم ذلك على صلاح الدين وخشي أن يسـير منهـا إلى دمشـق وكان بمصر فسار إلى الشام وسار منها إلى الجزيرة وملك مـا ملـك منها وحاصر الموصل ثم حاصر آمد وملكهـا ثـم سـار إلى أعمـال حلب كما ذكرناه فملـك تـل خـالد وعنتـاب ثـم سـار إلى حلـب وحاصرها في محرم سنة تسع وسبعين ونزل الميـدان الأخضـر أيامـاً ثم انتقل إلى جبل جوشق وأظهر البقاء عليها وهو يغاديهـا القتـال

ويراوحها وطلب عماد الدين جنده في العطاء وضايقوه في تسليم حلب لصلاح الدين وأرسل إليه في ذلك الأمر طومان الباروقي وكان يميل إلى صلاح الدين فشارطه على سنجار ونصيبين والرقة والخابور وينزل له عن حلب وتحالفوا على ذلك وخرج عنها عماد الدين ثامن عشر صفر من السنة إلى هذه البلاد ودخل صلاح الدين حلب بعد أن شرط على عماد الدين أن يعسكر معه متى عاد.

ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين صنع له دعوة احتفل فيها وانصرف وكان فيمن هلك في حصار حلب تاج الملوك نور الدين أخو صلاح الدين الأصغر أصابته جراحة فمات منها بعد الصلح وقبل أن يدخل صلاح الدين البلد ولما ملك صلاح الدين حلب سار إلى قلعة حارم وبها الأمير طرخك من موالي نور الدين العادل وكان عليها ابنه الملك الصالح فحاصره صلاح الدين ووعده وترددت الرسل بينهم وهو يمتنع وقد أرسل إلى الإفرنج يدعوهم للإنجاد وسمع بذلك الجند الذين معه فوثبوا به وحبسوه واستأمنوا إلى صلاح الدين فملك الحصن وولى عليه بعض خواصه وقطع تل خالد الباروقي صاحب تل باشر وأما قلعة اعزاز فإن عماد الدين إسماعيل كان خربها فأقطعها صلاح الدين سليمان بن جسار وأقام بحلب إلى أن قضى جميع أشغالها وأقطع أعمالها وسار إلى دمشق والله تعالى أعلم.

غزوة بيسان

ولما فرغ صلاح الدين من أمر حلب ولى عليها ابنه الظاهر غازي ومعه الأمير سيف الدين تاوكج كافلاً له لصغره وهو أكبر الأمراء الأسدية وسار إلى دمشق فتجهز للغزو وجمع عساكر الشام والجزيرة وديار بكر وقصد بلاد الإفرنج فعبر الأردن منتصف سبع وسبعين وأجفل أهل تلك الأعمال أمامه فقصد بيسان وخربها وأحرقها وأغار على نواحيها واجتمع الإفرنج له فلما رأوه خاموا عن لقائه واستندوا إلى جبل وخندقوا عليهم وأقام يحاصرهم خمسة أيام ويستدرجهم للنزول فلم يفعلوا فرجع المسلمون عنهم وأغاروا على تلك النواحي وامتلأت أيديهم بالغنائم وعادوا إلى بلادهم والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

غزو الكرك وولاية العادل على حلب

ولما عاد صلاح الدين من غزوة بيسان تجهز لغزو الكرك وسار في العساكر واستدعى أخاه العادل أبا بكر بن أيوب من مصر وهو نائبها ليلحق به على الكرك وكان قد سأله في ولاية حلب وقلعتها فأجابه إلى ذلك وأمره أن يجيء بأهله وماله فوافاه على الكرك وحاصروه أياماً وملكوا أرباضه ونصبوا عليها المجانيق ولم يكن بالغ في الاستعداد لحصاره لظنه أن الإفرنج يدافعون عنه فأفرج عنه منتصف شعبان وبعث تقي الدين ابن أخيه شاه على نيابة مصر مكان أخيه العادل واستصحب العادل معه إلى دمشق فولاه مدينة حلب ومدينة منبج وما إليها وبعثه بذلك في شهر رمضان من السنة واستدعى ولده الظاهر غازي من حلب إلى دمشق.

ثم سار في ربيع الآخر من سنة ثمانين لحصار الكرك بعد أن جمع العساكر واستدعى نور الدين صاحب كيفا وعساكر مصر واستعد لحصاره ونصب المجانيق على ربضه فملكه المسلمون وبقي الحصن وراء خندق بينه وبين الربض عمقه ستون ذراعاً وراموا طمه فنضحوهم بالسهام ورموهم بالحجارة فأمر برفع السقف ليمشي المقاتلة تحتها إلى الخندق وأرسل أهل الحصن إلى ملكهم يستمدونه ويخبرونه بما نزل بهم فاجتمع الإفرنج وأوعبوا وساروا إليهم فرحل صلاح الدين للقائهم حتى انتهى إلى حزونة الأرض فأقام ينتظر خروجهم إلى البسيط فخاموا عن ذلك فتأخر عنهم فراسخ ومروا إلى الكرك وعلم صلاح الدين أن الكرك قد امتنع بهؤلاء فتركه وسار إلى نابلس فخربها وحرقها وسار إلى سنطية وبها مشهد زكرياء عليه السلام فاستنقذ من وجد بها من أسارى المسلمين ورحل إلى جينين فنهبها وخربها وسار إلى دمشق بعد أن بث السرايا في كل ناحية ونهب كل ما مر به وامتلأت الأيدي من الغنائم وعاد إلى دمشق مظفراً والله تعالى أعلم.

حصار صلاح الدين الموصل

ثم سار صلاح الدين من دمشق إلى الجزيرة في ذي القعدة من سنة ثمان وعبر الفرات وكان مظفر الدين كوكبري علي كجك يستحثه للمسير إلى الموصل في كل وقت وربما وعده بخمسين ألف دينار إذا وصل فلما وصل إلى حران لم يف له فقبض عليه ثم خشي معيرة أهل الجزيرة فأطلقه وأعاد عليهم حران والرها وسار في ربيع الأول ولقيه نور الدين صاحب كيفا ومعز الدين سنجار شاه صاحب جزيرة ابن عمر وقد انحرف عن عمه عز الدين صاحب الموصل بعد نكبة مجاهد الدين نائبه وساروا كلهم مع صلاح الدين إلى الموصل وانتهوا إلى مدينة بلد فلقيه

هنالك أم عز الدين وابنة عمه نور الدين وجماعة من أهل بيته يسألونه الصلح ظناً بأنه لا يردهن وسيما بنت نور الدين.

واستشار صلاح الدين أصحابه فأشار الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب بردهن وساروا إلى الموصل وقاتلوها واستمات أهلها وامتعضوا لرد النساء فامتنعت عليهم وعاد على أصحابه باللوم في إشارتهم وجاء زين الدين يوسف صاحب إربل وأخوه مظفر الدين كوكبري فأنزلهما بالجانب الشرقي وبعث علي بن أحمد المشطوب الهكاري إلى قلعة الجزيرة ليحاصرها فاجتمع عليه الأكراد الهكارية إلى أن عاد صلاح الدين عن الموصل وبلغ عز الدين أنّ نائبه بالقلعة زلقندار يكاتب صلاح الدين فمنعه منها وانحرف عنه إلى الاقتداء برأي مجاهد الدين وتصدر عنه.

ثم بلغه خبر وفاة شاهرين صاحب خلاط فطمع صلاح الدين في ملكها وأنه يستعين بها على أموره ثم جاءته كتب أهلها يستدعونه فسار عن الموصل إليها وكان أهل خلاط إنما كاتبوه مكراً لأن شمس الدين البهلوان ابن إيلدكز صاحب أذربيجان وهمذان قصده تملكهم بعد أن كان زوج ابنته من شاهرين على كبره وجعل ذلك ذريعة إلى ملك خلاط فلما سار إليهم كاتبوا صلاح الدين ودافعوا كلاً منهما بالآخر فسار صلاح الدين وفي مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين صاحب إربل وغيرهما وتقدموا إلى خلاط وتقدم صاحب أذربيجان فنزل قريباً من خلاط وترددت رسل أهل خلاط بينه وبين البهلوان ثم خطبوا للبهلوان والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء صلاح الدين على ميافارقين

ولما خطب أهل خلاط للبهلوان وصلاح الدين على ميافارقين وكانت لقطب الدين صاحب ماردين فتوفي وملك ابنه طفلاً صغيراً بعده ورد أمرها إلى شاهرين صاحب خلاط وأنزل بها عسكره فطمع فيها صلاح الدين بعد وفاة شاهرين وحاصرها من أول جمادى سنة إحدى وثمانين وعلى أجنادها الأمير أسد الدين برنيقش فأحسن الدفاع وكان بالبلد زوجة قطب الدين المتوفي ومعها بناتها منه وهي أخت نور الدين صاحب كيفا فراسلها صلاح الدين بأن برنيقش قد مال إليها في تسليم البلد ونحن ندعي حق أخيك نور الدين فأزوج بناتك من أبنائي وتكون البلد لنا ووضع على برنيقش من أخبره بأن الخاتون مالت إلى صلاح الدين وأن أهل خلاط كاتبوه.

وكان خبر أهل خلاط صحيحاً فسقط في يده وبعث في التسليم على شروط اشترطها من أقطاع ومال وسلم البلد فملكها صلاح الدين وعقد النكاح لبعض ولده على بعض بنات خاتون وأنزلها وبناتها بقلعة هقناج وعاد إلى الموصل ومر بنصيبين وانتهى إلى كفر أرمان واعتزم على أن يشتو به ويقطع جميع ضياع الموصل ويجبي أعمالها ويكتسح غلاتها وجنح مجاهد الدين إلى مصالحته وترددت الرسل في ذلك على أن يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية الغرابلي وما وراء الزاب من الأعمال.

ثم طرقه المرض فعاد إلى حران وأدركه الرسل بالإجابة إلى ما طلب فانعقد هنالك وتحالفوا وتسلم البلاد وطال مرضه بحران وكان عنده أخوه العادل وبيده حلب وبها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين واشتد به المرض فقسم البلاد بين أولاده وأوصى أخاه العادل على الجميع وعاد إلى دمشق في محرم سنة اثنتين وثمانين وكان عنده بحران ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه ومن أقطاعه حمص والرحبة فعاد قبله إلى حمص ومر بحلب وصانع جماعة من أمرائها على أن يقوموا بدعوته إن حدث بصلاح الدين أمر وبلغ إلى حمص فبعث إلى أهل دمشق بمثل ذلك وأفاق صلاح الدين من مرضه ومات ناصر الدين ليلة الأضحى ويقال: دس عليه مَنْ سمَّه وورث أعماله ابنه شيركوه وهو ابن اثنتي عشرة سنة والله تعالى أعلم.

قسمة صلاح الدين الأعمال بين ولده وأخيه

كان ابنه العزيز عثمان بحلب في كفالة أخيه العادل وابنه الأكبر الأفضل علي بمصر في كفالة تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه بعثه إليها عندما استدعى العادل منها كما مر فلما مرض بحران أسف على كونه لم يول أحداً من ولده استقلالاً وسعى إليه بذلك بطانته فبعث ابنه عثمان العزيز إلى مصر في كفالة أخيه العادل كما كان بحلب ثم أقطع العادل حران والرها وميافارقين من بلاد الجزيرة وترك عثمان ابنه بمصر ثم بعث عن ابنه الأفضل وتقي الدين ابن أخيه فامتنع تقي الدين من الحضور واعتزم على المسير إلى المغرب واللحاق بمولاه قراقوش في ولايته التي حصلت له بطرابلس والجريد من إفريقية فراسله صلاح الدين ولاطفه ولما وصل أقطعه حماة ومنبج والمعرة وكفرطاب وجبل جوز وسائر أعمالها.

وقيل: إن تقي الدين لما أرجف بمرض صلاح الدين وموته تحرك في طلب الأمر لنفسه وبلغ ذلك صلاح الدين فأرسل الفقيه

عيسى الهكاري وكان مطاعاً فيهم وأمره بإخراج تقي الدين من مصر والمقام بها فسار ودخلها على حين غفلة وأمر تقي الدين بالخروج فأقام خارج البلد وتجهز للمغرب فراسله صلاح الدين إلى آخر الخبر والله تعالى أعلم.

اتفاق القمص صاحب طرابلس مع صلاح الدين ومنابذة البرنس صاحب الكرك له وحصاره إياه والإغارة على عكا

كان القمص صاحب طرابلس وهو ريمند بن ريمند بن صنجيل تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل إليها فأقام عندها ومات ملك الإفرنج بالشام وكان مجذوماً كما مر وأوصى بالملك لابن أخيه صغيراً فكفله هذا القمص وقام بتدبير ملكه لعظمه فيهم وطمع أن تكون كفالته ذريعة إلى الملك ثم مات الصغير فانتقل الملك إلى أبيه ويئس القمص عندها مما كان يحدث به نفسه ثم إن الملكة تزوجت ابن غتم من الإفرنج القادمين من المغرب وتوجته وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاستبارية والداوية والبارونية وأشهدتهم وخروجها له عن الملك.

ثم طولب القمص بالجباية أيام كفالته الصبي فأنف وغضب وجاهر بالشقاق لهم وراسل صلاح الدين وسار إلى ولايته وخلف له على مصره من أهل ملته وأطلق له صلاح الدين جماعة من زعماء النصارى كانوا أسارى عنده فازداد غبطة بمظاهرته وكان ذلك ذريعة لفتح بلادهم وارتجاع القدس منهم وبث صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية في سائر بلاد الإفرنج فاكتسحوها وعادوا غانمين وذلك كله سنة اثنتين وثمانين وكان البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الإفرنج مكراً وأشدهم ضرراً وكان صلاح الدين قد سلط الغارة والحصار على بلده حتى سأل في الصلح فصالحه فصلحت السابلة بين الأمتين.

ثم مرّت في هذه السنة قافلة كثيرة التجار والجند فغدر بهم وأسر وأخذ ما معهم وبعث إليه صلاح الدين فأصر على غدرته فنذر أنه يقتله إن ظفر به واستنفر الناس للجهاد من سائر الأعمال من الموصل والجزيرة وإربل ومصر والشام وخرج من دمشق في محرم سنة ثلاث وثمانين وانتهى إلى رأس الماء وبلغه أن البرنس أرناط صاحب الكرك يريد أن يتعرض للحاج من الشام وكان معهم ابن أخيه محمد بن لاجين وغيره فترك من العساكر مع ابنه الأفضل علي وسار إلى بصرى وسمع البرنس بمسيره فأحجم عن الخروج ووصل الحاج سالمين.

وسار صلاح الدين إلى الكرك وبث السرايا في أعمالها وأعمال الشوبك فاكتسحوهما والبرنس محصور بالكرك وقد عجز الإفرنج عن إمداده لمكان العساكر مع الأفضل بن صلاح الدين ثم بعث صلاح الدين إلى ابنه الأفضل فأمره بإرسال بعث إلى عكا ليكتسحوا نواحيها فبعث مظفر الدين كوكبري صاحب حران والرها وقايماز النجمي وداروم الياروقي وساروا في آخر صفر فصبحوا صفورية وبها جمع من الفداوية والاسبتارية فبرزوا إليهم وكانت بينهم حروب شديدة تولى الله النصر فيها للمسلمين وانهزم الإفرنج وقتل مقدمهم وامتلأت أيدي المسلمين من الغنائم وانقلبوا ظافرين ومروا بطبرية وبها القمص فلم يهجهم لما تقدم بينه وبين صلاح الدين من الولاية وعظم هذا الفتح وسار البشير به في البلاد والله تعالى أعلم.

هزيمة الإفرنج وفتح طبرية ثم عكا

ولما انهزم الفداوية والاستبارية بصفورية ومر المسلمون بالغنائم على القمص ريمند بطبرية ووصلت البشائر بذلك إلى صلاح الدين عاد إلى معسكره الذي مع ابنه ومر بالكرك واعتزم على غزو بلاد الإفرنج فاعترض عساكره وبلغه أن القمص ريمند قد راجع أهل ملته ونقض عهده معه وأن البطرك والقسيس والرهبان أنكروا عليه مظاهرته للمسلمين ومرور عساكرهم به بأسرى النصارى وغنائمهم ولم يعترضهم مع إيقاعهم بالفداوية والاستبارية أعيان الملة وتهددوه بإلحاق كلمة الكفر به فتنصل وراجع رأيه واعتذر إليهم فقبلوا عذره وخلص لكفره وطواغيته فجددوا الحلف والاجتماع وساروا من عكا إلى صفورية وبلغ الخبر إلى صلاح الدين وشاور أصحابه فمنهم من أشار بترك اللقاء وشن الغارات عليهم حتى يضعفوا ومنهم من أشار باللقاء لنزول عكا واستيفاء ما فعلوه في المسلمين بالجزيرة فاستصوبه صلاح الدين واستعجل لقاءهم.

ثم رحل من الأقحوانة أواخر رمضان فسار حتى خلف طبرية وتقدم إلى معسكر الإفرنج فلم يفارقوا خيامهم فلما كان الليل أقام طائفة من العسكر فسار إلى طبرية فملكها من ليلته عنوة ونهبها وأحرقها وامتنع أهلها بالقلعة ومعهم الملكة وأولادها فبلغ الخبر إلى الإفرنج فضج القمص وعمد إلى الصلح وأطال القول في تعظيم الخطب وكثرة المسلمين فنكر عليه البرنس صاحب الكرك واتهمه ببقائه على ولاية صلاح الدين واعتزموا على اللقاء

ووصلوا من مكانهم لقصد المعسكر وعاد صلاح الدين إلى معسكره وبعدت المياه من حوالي الإفرنج وعطشوا ولم يتمكنوا من الرجوع فركبهم صلاح الدين دون قصدهم واشتدت الحرب وصلاح الدين يجول بين الصفوف يتفقد أحوال المسلمين ثم حمل القمص على ناحية تقي الدين عمر بن شاه حملة استمات فيها هو وأصحابه فأفرج له الصف وخلص من تلك الناحية إلى منجاته واختل مصاف الإفرنج وتابعوا الحملات وكان بالأرض هشيم أصابه شرر فاضطرم ناراً فجهدهم لفحها ومات جلهم من العطش فوهنوا وأحاط بهم المسلمون من كل ناحية فارتفعوا إلى تل بناحية حطين لينصبوا خيامهم به فلم يتمكنوا إلا من خيمة الملك فقط والسيف يجول فيهم مجاله حتى فني أكثرهم ولم يبق إلا نحو المائة والخمسين من خلاصة زعمائهم مع ملكهم والمسلمون يكرون عليهم مرة بعد أخرى حتى ألقوا ما بأيديهم وأسروا الملك وأخاه البرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الفداوية وجماعة من الفداوية والاسبتارية ولم يصابوا منذ ملكوا هذه البلاد أعوام التسعين والأربعمائة بمثل هذه الوقعة.

ثم جلس صلاح الدين في خيمته وأحضر هؤلاء الأسرى فقرع الملك ووبخه بعد أن أجلسه إلى جانبه وفاء بمنصب الملك وقام إلى البرنس فتولى قتله بيده حرصاً على الوفاء بنذره بعد أن عرفه بغدرته وبجسارته على ما كان يرومه في الحرمين وحبس الباقين وأما القمص صاحب طرابلس فنجا كما ذكرناه إلى بلده ثم مات لأيام قلائل أسفاً ولما فرغ صلاح الدين من هزيمتهم نهض إلى طبرية فنازلها واستأمنت إليه الملكة بها فأمنها في ولدها وأصحابها ومالها وخرجت إليه فوفى لها وبعث الملك وأعيان الأسرى إلى دمشق فحبسوا بها وجمع أسرى الفداوية والاسبتارية بعد أن بذل لمن يجده منهم من المقاتلة خمسين ديناراً مصرية لكل واحد وقتلهم أجمعين.

قال ابن الأثير: ولقد اجتزت بمكان الوقعة بعد سنة فرأيت عظامهم ماثلة على البعد أجحفتها السيول ومزقتها السباع.

ولما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها إلى عكا فنازلها واعتصم الإفرنج الذين بها بالأسوار وشادوا بالاستئمان فأمنهم وخيرهم فاختاروا الرحيل فحملوا ما أقلته رحالهم ودخلها صلاح الدين غرة جمادى سنة ثلاث وثمانين وصلوا في جامعها القديم الجمعة يوم دخولهم فكانت أول جمعة أقيمت بساحل الشام بعد استيلاء الإفرنج عليه وأقطع صلاح الدين بلد عكا لابنه الأفضل وجميع ما كان فيه للفداوية من أقطاع وضياع ووهب للفقيه عيسى الهكاري كثيراً مما عجز الإفرنج عن حمله وقسم الباقي على أصحابه ثم قسم الأفضل ما بقي في أصحابه بعد مسير صلاح الدين ثم أقام صلاح الدين أياماً حتى أصلح أحوالها ورحل عنها والله تعالى أعلم.

فتح يافا وصيدا وجبيل وبيروت وحصون عكا

لما هزم صلاح الدين الإفرنج كتب إلى أخيه العادل بمصر يسيره ويأمره بالمسير إلى جهات الإفرنج من جهات مصر فنازل حصن مجدل وفتحه وغنم ما فيه ثم سار إلى مدينة يافا ففتحها عنوة واستباحها وكان صلاح الدين أيام مقامه بعكا بعث بعوثه إلى قيسارية وحيفا وسطورية وبعلبك وشقيف وغيرها في نواحي عكا فملكوها واستباحوها وامتلأت أيديهم من غنائمها وبعث حسام الدين عمر بن الأصعن في عسكر إلى نابلس فملك سبسطية مدينة الأسباط وبها قبر زكريا عليه السلام ثم سار إلى مدينة نابلس فملكها واعتصم الإفرنج الذين بها بالقلعة فأقرهم على أموالهم.

وبعث تقي الدين عمر بن شاهنشاه إلى تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور فوصل إليها وحاصرها وضيق عليها حتى استأمنوا فأمنهم وملكها ومر إلى صيدا ومر في طريقه بصرخد فملكها بعد قتال وجاء الخبر بفرار صاحب صيدا فسار وملكها آخر جمادى الأولى من السنة ثم سار من يومه إلى بيروت وقاتلها من أحد جوانبها فتوهموا أن المسلمين دخلوا عليهم من الجانب الآخر فاهتاجوا لذلك فلم يستقروا ولا قدروا على تسكين الهيعة لكثرة ما معهم من أخلاط السواد فاستأمنوا إليه وملكها آخر يوم من جمادى لثمانية أيام من حصارها وكان صاحب جبيل أسير بدمشق فضمن لنائبها تسليم جبيل لصلاح الدين على أن يطلقه فاستدعاه وهو محاصر لبيروت وسلم الحصن وأطلقه وكان من أعيان الإفرنج وأولي الرأي منهم والله تعالى أعلم.

وصول المركيش إلى صور وامتناعه بها

كان القمص صاحب طرابلس لما نجا من هزيمة لحق بمدينة صور وأقام بها يريد حمايتها ومنعها من المسلمين فلما ملك صلاح الدين نسيس وصيدا وبيروت ضعف عزمه عن ذلك ولحق ببلده طرابلس وبقيت صيدا وصور بدون حامية وجاء المركيش من تجار الإفرنج من المغرب في كثرة وقوة فارسى بعكا ولم يشعر بفتحها وخرج إليه الرائد فأخبره بمكان الأفضل بن صلاح الدين فيها وأن

صور وعسقلان باقية للإفرنج فلم يطق الإقلاع إليهما لركود الريح فشغلهم بطلب الأمان ليدخل المرسى ثم طابت ريحه وجرت به إلى صور وأمر الأفضل بخروج الشواني في طلبه فلم يدركوه حتى دخل مرسى صور فوجد بها أخلاطاً كثيرة من فل الحصون المفتتحة فجاؤوا إليه وضمن لهم حفظ المدينة وبذل أمواله في الإنفاق عليها على أن تكون هي وأعمالها له دون غيره واستحلفهم على ذلك ثم قام بتدبير أحوالها وشرع في تحصينها فحفر الخنادق ورم الأسوار واستبد بها والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح عسقلان وما جاورها

ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وتلك الحصون صرف همّته إلى عسقلان والقدس لعظم شأن القدس ولأن عسقلان مقطع بين الشام ومصر فسار عن بيروت إلى عسقلان ولحق به أخوه العادل في عساكر مصر ونازلها أوائل جمادى الأخيرة واستدعى ملك الإفرنج ومقدم الراية وكانا أسيرين بدمشق فأحضرهما وأمرهما بالإذن للإفرنج بعسقلان في تسليمها فلم يجيبوا إلى ذلك وأساؤوا الرد عليهما فاشتد في قتالهم ونصب المجانيق عليهم، وملكهم يردد الرسائل إليهم في التسليم عساه ينطلق ويأخذ بالثأر من المسلمين فلم يجيبوه.

ثم جهدهم الحصار وبعد عليهم الصريخ فاستأمنوا إلى صلاح الدين على شروط اشترطوها كان أهمها عندهم أن يمنعهم من المهرانية بما قتلوا أميرهم في الحصار فأجابهم إلى جميع ما اشترطوه وملك المدينة منتصف السنة لأربعة عشر يوماً من حصارها وخرجوا بأهليهم وأموالهم وأولادهم إلى القدس ثم بعث السرايا في تلك الأعمال ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومدن الخليل وبيت لحم والنطرون وكل ما كان للفداوية وكان أيام حصار عسقلان قد بعث عن أسطول مصر فجاء به حسام الدين لؤلؤ الحاجب وأقام يغير على مرسى عسقلان والقدس ويغنم جميع ما يقصده من النواحي والله سبحانه وتعالى يؤيد من يشاء بنصره.

فتح القدس

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها سار إلى بيت المقدس وبها البطرك الأعظم ويليان بن نيزران صاحب الرملة وربيسة قريبة الملك ومن نجا من زعمائهم من حطين وأهل البلد المفتتحة عليهم وقد اجتمعوا كلهم بالقدس واستماتوا للدين وبعد الصريخ وأكثروا الاستعداد ونصبوا المجانيق من داخله وتقدم إليه أمير من المسلمين فخرج إليه الإفرنج فأوقعوا به وقتلوه في جماعة ممن معه وفجع المسلمون بقتله وساروا فنزلوا على القدس منتصف رجب وهالهم كثرة حاميته وطاف بهم صلاح الدين خمسة أيام فتحيز متبوأ عليه للقتال حتى اختار جهة الشمال نحو باب العمود وكنيسة صهيون فتحوّل إليه ونصب المجانيق عليها واشتد القتال وكان كل يوم يقتل بين الفريقين خلق وكان ممن استشهد عز الدين عيسى بن مالك من أكابر أمراء بني بدران وأبوه صاحب قلعة جعبر فأسف المسلمون لقتله وحملوا عليهم حتى أزالوهم عن مواقفهم وأحجروهم بالبلد وملكوا عليهم الخندق ونقبوا السور فوهن الإفرنج واستأمنوا لصلاح الدين فأبى إلا العنوة كما ملكه الإفرنج أول الأمر سنة إحدى وسبعين وأربعمائة فاستأمن له بالباب ابن نيزران صاحب الرملة وخرج إليه وشافهه بالاستئمان واستعطفه فأصر على الامتناع فتهدده بالاستماتة وقتل النساء والأبناء وحرق الأمتعة وتخريب المشاعر المعظمة واستلحام أسرى المسلمين وكانوا خمسة آلاف أسير واستهلاك جميع الحيوانات الداجنة بالقدس من الظهر وغيره.

فحينئذ استشار صلاح الدين أصحابه فجنحوا إلى تأمينهم فشارطهم على عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة ودينارين للولد صبي أو صبية وعلى أجل أربعين يوماً فمن تأخر أداؤه عنها فهو أسير وبذل يليان ابن نيزران عن فقراء أهل ملته ثلاثين ألف دينار وملك صلاح الدين المدينة يوم الجمعة لتسع وعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره وكان يوماً مشهوداً ورتب على أبواب القدس الأمناء لقبض هذا المال ولم يبن الأمر فيه على المشاحة فذهب أكثرهم دون شيء وعجز آخر الأمر ستة عشر ألف نسمة فأخذوا أسارى وكان فيه على التحقيق ستون ألف مقاتل غير النساء والولدان فإن الإفرنج أرزوا إليه من كل جانب لما افتتحت عليهم حصونهم وقلاعهم.

ومن الدليل على مقاربة هذا العدد أن يليان صاحب الرملة أعطى ثلاثين ألف دينار على ثمانية عشر ألفاً وعجز منهم ستة عشر ألفاً وأخرج جميع الأمراء خلقاً لا تحصى في زي المسلمين بعد أن يشارطوهم على بعض القطيعة واستوهب آخرون جموعاً منهم يأخذون قطيعتهم فوهبهم إياهم وأطلق بعض نساء الملوك من الروم كانوا مترهبات فأطلقهم بعبيدهم وحشمهم وأموالهم وكذا ملكة القدس التي أسر صلاح الدين زوجها ملك الإفرنج بسببها وكان محبوساً بقلعة نابلس فأطلقها بجميع ما معها ولم يحصل من

القطيعة على خراج.

وخرج البطرك الأعظم بما معه من ماله وأموال البيع ولم يتعرض له وجاءته امرأة البرنس صاحب الكرك الذي قتله يوم حطين تشفع في ولدها وكان أسيراً فبعثها إلى الكرك لتأذن الإفرنج في النزول عنه للمسلمين وكان على رأسه قبة خضراء لها صليب عظيم مذهب وتسلق جماعة من المسلمين إليه واقتلعوه وارتجت الأرض بالتكبير والعويل ولما خلا القدس من العدو أمر صلاح الدين برد مشاعره إلى أوضاعها القديمة وكانوا قد غيروها فأعيدت إلى حالها الأول وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار فطهرا ثم صلى المسلمون الجمعة الأخرى في قبة الصخرة وخطب محيي الدين بن زنكي قاضي دمشق بأمر صلاح الدين وأتى في خطبته بعجائب من البلاغة في وصف الحال وعظمة الإسلام اقشعرت لها الجلود وتناقلها الرواة وتحدثت بها السمار أحوالاً ثم أقام صلاح الدين بالمسجد للصلوات الخمس إماماً وخطيباً وأمر بعمل المنبر له فتحدثوا عنده بأن نور الدين محموداً اتخذ له منبراً منذ عشرين سنة وجمع الصناع بحلب فأحسنوا صنعته في عدد سنين فأمر بحمله ونصبه بالمسجد الأقصى ثم أمر بعمارة المسجد واقتلاع الرخام الذي فوق الصخرة لأن القسيسين كانوا يبيعون الحجر من الصخرة ينحتونها نحتاً ويبيعونها بالذهب وزناً بوزن فتنافس الإفرنج فيها التماس البركة منها ويدعونها في الكنائس فخشي ملوكهم أن تفنى الصخرة فعالوا عليها بفرش الرخام فأمر صلاح الدين بقلعه.

ثم استكثر في المسجد من المصاحف ورتب فيه القراء ووفر لهم الجرايات وتقدم ببناء الربط والمدارس فكانت من مكارمه رحمه اللّه تعالى وارتحل الإفرنج بعد أن باعوا جميع ما يملكونه من العقار بأرخص ثمن واشتراه أهل العسكر ونصارى القدس الأقدمون بعد أن ضربت عليهم الجزية كما كانوا واللّه تعالى أعلم.

حصار صور ثم صفد وكوكب والكرك

لما فتح صلاح الدين القدس أقام بظاهره إلى آخر شعبان من السنة حتى فرغ من جميع أشغاله ثم رحل إلى مدينة صور وقد اجتمع فيها من الإفرنج عوالم وقد نزل بها المركيش وضبطها ولما انتهى صلاح الدين إلى عكا أقام بها أياماً فبالغ المركيش في الاستعداد وتعميق الخنادق وإصلاح الأسوار وكان البحر يحيط بها من ثلاث جهاتها فوصل جانب اليمين بالشمال وصارت كالجزيرة وسار إليها فنزل عليها لتسع بقين من رمضان على تل يشرف منه على مكان القتال وجعل القتال على أقيال عسكره نوباً بين ابنه الأفضل وابنه الظاهر وأخيه العادل وابن أخيه تقي الدين ونصب عليها المجانيق والعرادات.

وكان الإفرنج يركبون في الشواني والحراقات ويأتون المسلمين من ورائهم فيرمون عليهم من البحر ويقاتلونهم ويمنعونهم من الدنو إلى السور فبعث صلاح الدين عن أسطول مصر من مرسى عكا فجاء ودافع الإفرنج وتمكن المسلمون من قتال الأسوار وحاصروها براً وبحراً ثم كبس أسطول الإفرنج خمسة من أساطيل المسلمين ففتكوا بهم ورد صلاح الدين الباقي إلى بيروت لقلتها فاتبعها أساطيل الإفرنج فلما أرهقوهم في الطلب ألقوا بأنفسهم إلى الساحل وتركوها فحكمها صلاح الدين ونقضها وجد في حصار صور فلم يفد وامتنعت عليه لما كان فيها من كثرة الإفرنج الذين أمنهم بعكا وعسقلان والقدس فنزلوا إليها بأموالهم وأمدوا صاحبها واستدعوها الإفرنج وراء البحر فوعدوهم بالنصر وأقاموا في انتظارهم ولما رأى صلاح الدين امتناعها شاور أصحابه في الرحيل فترددوا وتخاذلوا في القتال فرحل آخر شوال إلى عكا وأذن للعساكر في المشي إلى أوطانهم إلى فصل الربيع وعادت عساكر الشرق والشام ومصر وأقام بقلعة عكا في خواصه ورد أحكام البلد إلى خرديك من أمراء نور الدين وكان صلاح الدين عندما اشتغل بحصار عسقلان بعث عسكراً لحصار صور فشددوا حصارها وقطعوا عنها الميرة وبعثوا إلى صلاح الدين وهو يحاصر صور فاستأمنوا له ونزلوا عنها فملكها.

وكان أيضاً صلاح الدين لما سار إلى عسقلان جهز عسكراً لحصار قلعة كوكب يحرسون السابلة في طريقها من الإفرنج الذين فيها وهي مطلّة على الأردن وهي للإسبتارية وجهز عسكراً لحصار صفد وهي للفداوية مطلة على طبرية ولجأ إلى هذين الحصنين من سلم من وقعة حطين وامتنعوا بهما فلما جهز العساكر إليهما صلحت الطريق وارتفع منها الفساد فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الموكلون بالحصار على قلعة كوكب وكانت ليلة شاتية باردة فكبسهم الإفرنج ونهبوا ما عندهم من طعام وسلاح وعادوا إلى قلعتهم وبلغ ذلك صلاح الدين وهو يعتزم على الرحيل عن صور فشحذ من عزيمته ثم جهز عسكراً على صور مع الأمير قايماز النجمي وارتحل إلى عكا فلما انصرم فصل الشتاء سار من عكا في محرم سنة أربع وثمانين إلى قلعة كوكب فحاصرها وامتنعت عليه ولم يكن بقي في البلاد الساحلية من عكا إلى الجنوب غيرها وغير صفد والكرك فلما امتنعت عليه جهز العسكر لحصارها مع قايماز النجمي ورحل عنها في ربيع الأول إلى

دمشق ووافته رسل أرسلان وفرح الناس بقدومه والله تعالى ولي التوفيق.

غزو صلاح الدين إلى سواحل الشام وما فتحه من حصونها وصلحه آخراً مع صاحب أنطاكية

لما رجع صلاح الدين من فتح القدس وحاصر صور وصفد وكوكب عاد إلى دمشق ثم تجهز للغزو إلى سواحل الشام وأعمال أنطاكية وسار عن دمشق في ربيع سنة أربع وثمانين فنزل على حمص واستدعى عساكر الجزيرة وملوك الأطراف فاجتمعوا إليه وسار إلى حصن الأكراد فضرب عسكره هنالك ودخل متجرداً إلى القلاع بنواحي أنطاكية فنقض طرفها وأغار على ولايتها إلى طرابلس حتى شفى نفسه من ارتيادها وعاد إلى معسكره فجرت الأرض بالغنائم فأقام عند حصن الأكراد ووفد عليه هنالك منصور بن نبيل صاحب جبلة.

وكان من يوم استيلاء الإفرنج على جبلة عند صاحب أنطاكية حاكماً على جميع المسلمين فيها ومتولياً أمور سمند فلما هبت ريح الإسلام بصلاح الدين وظهوره نزل إليه ليكشف الغماء ودله على عورة جبلة واللاذقية واستحثه لهما فسار أول جمادى ونزل بطرطوس وقد اعتصم الإفرنج منها ببرجين حصينين واخلوا المدينة فخربوها واستباحوها وكان أحد الحصنين للفداوية وفيه مقدمتهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف وأطلقه عند فتح القدس واستأمن إليه أهل البرج الآخر ونزلوا له عنه فخربه صلاح الدين وألقى حجارته في البحر وامتنع عليه برج الفداوية فسار إلى المرقب وهو للاسبتارية ولا يرم لعلوه وارتفاعه وامتناعه والطريق في الجبل إلى جبلة عليه فهو عن يمين الطريق والبحر عن يساره في مسلك ضيق إنما يمر به الواحد تلو الواحد.

فتح جبلة

وكان وصل أسطول من صاحب صقلية مدداً للإفرنج في تلك السواحل في ستين قطعة فأرسوا بطرابلس فلما سمعوا بصلاح الدين أقلعوا إلى المغرب ووقفوا قبالتها ينضحون بسهامهم المارة بتلك الطريق فضرب صلاح الدين على ذلك الطريق سوراً من جهة البحر من المتارس ووقف وراءه الرماة حتى سلك العسكر المضيق إلى جبلة ووصلها آخر جمادى وسبق إليها القاضي وملكها صلاح الدين لحينه ورفع أعلام الإسلام على سورها ونفى حاميتها إلى القلعة فاستنزلهم القاضي على الأمان واستمر منهم جماعة في رهن القاضي والمسلمين عند صاحب أنطاكية حتى أطلقهم وجاء رؤساء أهل البلد إلى طاعة صلاح الدين وهو بجبل ما بين جبلة وحماة وكان الطريق عليه بينهم صعباً ففتحه صلاح الدين من ذلك الوقت واستناب بجبلة سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها للاذقية والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

فتح اللاذقية

ولما فرغ صلاح الدين من أمر جبلة سار إلى اللاذقية فوصلها آخر جمادى الأولى وامتنع حاميتها بحصنين لها في أعلى الجبل وملك المسلمون المدينة وحصروا الإفرنج في القلعتين وحفروا تحت الأسوار وأيقن الإفرنج بالهلكة ودخل إليهم قاضي جبلة ثالث نزولها فأستأمنوا معه وأمنهم صلاح الدين ورفعوا أعلام الإسلام في الحصنين وخرب المسلمون المدينة وكانت مبانيها في غاية الوثاقة والضخامة وأقطعها لتقي الدين ابن أخيه فأعادها إلى أحسن ما كانت من العمارة والتحصين وكان عظيم الهمة في ذلك وكان أسطول صقلية في مرسى اللاذقية وسخطوا ما فعله أهلها ومنعوهم من الخروج منها وجاء مقدمهم إلى صلاح الدين فرغب منه إقامتهم على الجزية وعرض في كلامه بالتهديد بإمداد الإفرنج من وراء البحر فأجابه صلاح الدين باستهانة أمر الإفرنج وهدده فانصرف إلى أصحابه ورحل صلاح الدين إلى صهيون والله تعالى أعلم.

فتح صهيون

ولما فرغ صلاح الدين من فتح اللاذقية سار إلى قلعة صهيون وهي على جبل صعبة المرتقي بعيدة المهوى يحيط بجبلها واد عميق ضيق ويتصل بالجبل من جهة الشمال وعليها خمسة أسوار وخندق عميق فنزل صلاح الدين على الجبل لضيقها وقدم ولده الظاهر صاحب حلب فنزل مضيق الوادي ونصب المنجنيقات هنالك فرمى بها على الحصن ونضحهم بالسهام من سائر أصناف القسي وصابروا قليلاً.

ثم زحف المسلمون ثاني جمادى الأخرى وسلكوا بين الصخور حتى ملكوا أحد أسوارها وقاتلوهم منه فملكوا عليهم سورين آخرين وغنموا جميع ما كان في البلد من الدواب والبقر

والذخائر ولجأ الحامية إلى القلعة وقاتلهم المسلمون عليها فنادوا بالأمان فشرط عليهم مثل قطيعة القدس وملك المسلمون الحصن وولي عليه ناصر الدين بن كورس صاحب قلعة بوفلس فحصنه وافترق المسلمون في تلك النواحي فوجدوا الإفرنج قد فروا من حصونها فملكوها جميعاً وهيؤوا إليها طريقاً على عقبة صعبة لعفاء طريقها السهلة بالإفرنج والإسماعيلية والله تعالى أعلم.

فتح بكاس والشغر

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى إلى قلعة بكاس وقد فارقها الإفرنج وتحصنوا بقلعة شغر فملك بكاس وحاصر قلعة الشغر والطريق منها مسلوك إلى اللاذقية وجبلة وصهيون فقاتلهم ونصب المنجنيقات عليها فقصرت حجارتها عن الوصول وكانوا تمنعوا وبعثوا خلال ذلك إلى صاحب أنطاكية وكان الحصن من إيالته فاستمدوه وإلا أعطوا الحصن بما قذف الله في قلوبهم من الرعب فلما قعد عن نصرهم استأمنوا إلى صلاح الدين وسألوه إنظار ثلاث للفتح فأنظرهم وأخذ رهنهم ثم سلموه بعد الثلاث في منتصف جمادى من السنة والله تعالى أعلم.

فتح سرمين

كان صلاح الدين عند اشتغاله بفتح هذه الحصون بعث ابنه الظاهر غازياً صاحب حلب إلى سرمين وحاصرها واستنزل الإفرنج الذين بها على قطيعة أعطوها وهدم الحصن وكان فتحه آخر جمادى الأخيرة فانطلق جماعة من الأسارى كانوا بهذا الحصن وكانت هذه الفتوحات كلها في مقدار شهر وجميعها من أعمال أنطاكية والله تعالى أعلم.

فتح برزية

ولما فرغ صلاح الدين من قلعة الشغر إلى قلعة برزية قبالة أفامية وتقاسمها في أعمالها وبينهما بحيرة من ماء العاصي والعيون التي تجري وكانوا أشد شيء في الأذى للمسلمين فنازلها في الرابع والعشرين من جمادى الأخيرة وهي متعذرة المصعد من الشمال والجنوب وصعبته من الشرق وبجهة الغرب مسلك إليها فنزل هنالك صلاح الدين ونصب المجانيق فلم تصل حجارتها لبعد القلعة وعلوها فرجع إلى المزاحفة وقسم عساكره على أمرائها وجعل القتال بينهم نوباً فقاتلهم أولاً عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وأصعدهم إلى قلعتهم حتى صعب المرتقى على المسلمين وبلغوا مواقع سهامهم وحجارتهم من الحصن وكانوا يدحرجون الحجارة على المقاتلة فلا يقوم لها شيء فلما تعب أهل هذه النوبة عادوا وصعد خاصة صلاح الدين فقاتلوا قتالاً شديداً وصلاح الدين وتقي الدين ابن أخيه يحرضانهم حتى أعيوا وهموا بالرجوع فصاح فيهم صلاح الدين وفي أهل النوبة الثانية فتلاحقوا بهم وجاء أهل نوبة عماد الدين على أثرهم وحمي الوطيس ورد الإفرنج على أعقابهم إلى حصنهم فدخلوه ودخل المسلمون معه.

وكان بقية المسلمين في الخيام شرقي الحصن وقد أهمله الإفرنج فعمد أهل الخيام من تلك الناحية واجتمعوا مع المسلمين في أعقاب الإفرنج عند الحصن فملكوه عنوة وجاء الإفرنج إلى قبة الحصن ومعهم جماعة من أسارى المسلمين في القيود فلما سمعوا تكبير إخوانهم خارج القبة كبروا فدهش الإفرنج وظنوا أن المسلمين خالطوهم فألقوا باليد وأسرهم المسلمون واستباحوهم وأحرقوا البلد وأسروا صاحبها وأهله وولده وافترقوا في أسراهم فجمعهم صلاح الدين حتى إذا قارب أنطاكية بعثهم إليها لأن زوجة صاحب أنطاكية كانت تراسل صلاح الدين بالأخبار وتهاديه فرعى لها ذلك والله تعالى ولي التوفيق.

فتح دربساك

ولما فرغ صلاح الدين من حصن برزية دخل من الغد إلى الجسر الجديد على نهر العاصي قرب أنطاكية فأقام عليه فلحق به فخلف العسكر ثم سار إلى قلعة دربساك ونزل عليها في رجب من السنة وهي معاقل الفداوية التي يلجأون إلى الاعتصام بها ونصب عليها المجانيق حتى هدم من سورها ثم هجمها بالمزاحفة وكشف المقاتلة عن سورها ونقبوا منها برجاً من أسفله فسقط ثم باكروا الزحف من الغد وصابرهم الإفرنج ينتظرون المدد من صاحبهم سمند صاحب أنطاكية فلما تبينوا عجزه استأمنوا صلاح الدين فأمنهم في أنفسهم فقط وخرجوا إلى أنطاكية وملك الحصن في عشرين من رجب من السنة والله تعالى أعلم.

فتح بغراس

ثم سار عماد الدين عن دربساك إلى قلعة بغراس على تعددها وقربها من أنطاكية فيحتاج مع قتالها إلى رده من العسكر بينه وبين أنطاكية فحاصرها ونصب عليها المجانيق فقصرت عنها

لعلوها وشق عليهم حمل الماء إلى أعلى الجبل وبينما هم في ذلك إذا جاء رسولهم يستأمن لهم فأمنهم في أنفسهم فقط كما أمن أهل ذربساك وتسلم القلعة بما فيها وخربها فجددها ابن اليون صاحب الأرمن وحصنها وصارت في أياالته والله أعلم.

صلح أنطاكية

ولما فتح حصن بغراس خاف سمند صاحب أنطاكية وأرسل إلى صلاح الدين في الصلح على أن يطلق أسرى المسلمين الذين عنده وتحامل عليه أصحابه في ذلك ليريح الناس ويستعدوا فأجابه صلاح الدين إلى ذلك لثمانية أشهر من يوم عقد الهدنة وبعث إليه من استخلفه وأطلق الأسرى وكان سمند في هذا الوقت عظيم الإفرنج متسع المملكة وطرابلس وأعمالها قد صارت إليه بعد القمص واستخلف فيها ابنه الأكبر وعاد صلاح الدين إلى حلب فدخلها ثالث شعبان من السنة وانطلق ملوك الأطراف بالجزيرة وغيرها إلى بلادهم ثم رحل إلى دمشق وكان معه أبو فليتة قاسم بن مهنا أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم قد عسكر معه وشهد فتوحه وكان يتيمن بصحبته ويتبرك برؤيته ويجتهد في تأنيسه وتكرمته ويرجع إلى مشورته ودخل دمشق أول رمضان من السنة وأشير عليه بتفريق العساكر فأبى وقال: هذه الحصون كوكب وصفد والكرك في وسط بلاد الإسلام فلا بد من البدار إلى فتحها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح الكرك

كان صلاح الدين قد جهز العساكر على الكرك مع أخيه العادل حتى سار إلى دربساك وبغراس وأبعد في تلك الناحية فشد العادل حصارها حتى جهدوا وفنيت أقواتهم فراسلوه في الأمان فأجابهم وسلموا القلعة فملكها وملك الحصون التي حواليها وأعظمها الشوبك وأمنت تلك الناحية واتصلت إيالة المسلمين من مصر إلى القدس والله تعالى أعلم.

فتح صفد

لما عاد صلاح الدين إلى دمشق أقام بها نصف رمضان ثم تجهز لحصار صفد فنزل عليها ونصب المجانيق وكانت أقواتهم قد تسلط عليها الحصار الأوّل فخافوا من نفاذها فاستأمنوا فأمنهم وملكها ولحقوا بمدينة صور والله تعالى أعلم.

فتح كوكب

لما كان صلاح الدين على صفد خافه الإفرنج على حصن كوكب فبعثوا إليه نجدة وكان قايماز النجمي يحاصره فشعر بتلك النجدة وركب إليهم وهم مختفون ببعض الشعاب فكبسهم ولم يفلت منهم أحد وكان فيهم مقدمان من الاسبتارية فحملهما إلى صلاح الدين على صفد فأحضرهما للقتل على عادته في الفداوية والاسبتارية فاستعطفه واحد منهما فعفا عنهما وحبسهما ولما فتح صفد سار إلى كوكب وحاصره وأرسل إليهم بالأمان فاصروا على الامتناع عليه فنصب عليهم المجانيق وتابع المزاحفة ثم عاقه المطر عن القتال وطال مقامه فلما انقضى المطر عاود المزاحفة وضايقهم بالسور ونقب منه برجاً فسقط فارتاعوا واستأمنوا وملك الحصن منتصف ذي القعدة من السنة ولحق الإفرنج بصور واجتمع الزعماء وتابعوا الرسل إلى إخوانهم وراء البحر في حوزة يستصرخونهم فتابعوا إليهم المدد واتصل المسلمون في الساحل من أيلة إلى بيروت لا يفصل بينهم إلا مدينة صور ولما فرغ صلاح الدين من صفد وكوكب سار إلى القدس فقضى فيه نسك الأضحى ثم سار إلى عكا قام بها إلى انسلاخ الشتاء والله تعالى أعلم.

فتح الشقيف

ثم سار صلاح الدين في ربيع سنة خمس وثمانين إلى محاصرة الشقيف وكان لأرناط صاحب صيدا وهو من أعظم الناس مكراً ودهاء فلما نزل صلاح الدين بمرج العيون جاء إليه وأظهر له المحبة والميل وطلب المهلة إلى جمادى الأخيرة ليتخلّص أهله وولده من المركيش بصور ويسلم له حصن الشقيف فأقام صلاح الدين هنالك لوعده وانقضت مدة الهدنة بينه وبين سمند صاحب أنطاكية فبعث تقي الدين ابن أخيه مسلحة في العساكر إلى البلاد التي قرب أنطاكية ثم بلغه اجتماع الإفرنج بصور عند المركيش وأن الأمداد وافتهم من أهل ملتهم وراء البحر وأن ملك الإفرنج بالشام الذي أطلقه صلاح الدين بعد فتح القدس قد اتفق مع المركيش ووصل يده به واجتمعوا في أمم لا تحصى وخشي أن يتقدم إليهم ويترك الشقيف وراءه فتنقطع عنه الميرة فأقام بمكانه.

فلما انقضى الأجل تقدم إلى الشقيف واستدعى أرناط فجاء واعتذر بأن المركيش لم يمكنه من أهله وولده وطلب الإمهال مرة أخرى فتبين صلاح الدين مكره فحبسه وأمره أن يبعث إلى أهل

الشقيف بالتسليم فلم يجب فبعث به إلى دمشق فحبس بها وتقدم إلى الشقيف فحاصره بعد أن أقام مسلحة قبالة الإفرنج الذين بظاهر صور فجاءه الخبر بأنهم فارقوا صور لحصار صيدا فلقيتهم المسلحة وقاتلوهم فغلبوهم وأسروا سبعة من فرسانهم وقتلوا آخرين وقتل مولى لصلاح الدين من أشجع الناس وردوهم على أعقابهم إلى معسكرهم بظاهر صور وجاء صلاح الدين بعد انقضاء الواقعة فأقام في المسلحة رجاء أن يصادف أحداً من الإفرنج فينتقم منهم وركب في بعض الأيام ليشارف معسكر الإفرنج فظن عسكره أنه يريد القتال فنجعوا وأوغلوا إلى العدو.

وبعث صلاح الدين الأمراء في أثرهم يردونهم فلم يرجعوا ورآهم الإفرنج فظنوا أن وراءهم كميناً فأرسلوا من يكشف خبرهم فوجدوهم منقطعين فحملوا عليهم وأناموهم جميعاً وذلك تاسع جمادي الأولى من السنة، ثم انحدر إليهم صلاح الدين في عساكره من الجبل فهزمهم إلى الجسر وغرق منهم في البحر نحو من مائة دارع سوى من قتل وعزم السلطان على حصارهم واجتمع إليه الناس ثم عاد الإفرنج إلى صور وعاد السلطان إلى بليس ليشارف عكا ويرجع إلى مخيمه.

ولما وصل إلى المعسكر جاء الخبر بأن الإفرنج يتعدون عن صدور مذاهبهم لحاجاتهم فكتب إلى المعسكر بعكا ووعدهم ثامن جمادى الأخيرة يوافونه من ناحيتهم للإغارة عليهم وأكمن لهم في الأودية والشعاب من سائر النواحي واختار جماعة من فرسان عسكره وتقدّم إليهم بأن يتعرضوا للإفرنج ثم يستطردوا لهم إلى مواضع الكمناء ففعلوا وناشبوا الإفرنج وأنفوا من الاستطراد وطال على الكمناء الانتظار فخرجوا خشية على أصحابهم فوافوهم في شدة الحرب فانهزم المسلمون ووقع التمحيص وكان أربعة في الكمين من أمراء طيىء فعدلوا عن طريق أصحابهم وسلكوا الوادي وتبعهم بعض العسكر من موالي صلاح الدين ورآهم الإفرنج في الوادي فعلموا أنهم أضلوا الطريق فاتبعوهم وقتلوهم والله تعالى أعلم.

محاصرة الإفرنج أهل صور لعكا والحروب عليها

كانت صور كما قدمنا ضبطها المركيش من الإفرنج الواصل من وراء البحر وقام بها وكان كلما فتح صلاح الدين مدينة أو حصناً على الأمان لحق أهلها بصور فاجتمع بها عدد عظيم من الإفرنج وأموال جمة ولما فتح القدس لبس كثير من رهبانهم وقسيسيهم وزعمائهم السواد حزناً على البيت المقدس وارتحل بطرك من القدس وهم معه يستصرخون أهل الملة النصرانية من وراء البحر للأخذ بثأر القدس فخرجوا للجهاد من كل بلد حتى النساء اللواتي يجدن القوة على الحرب ومن لم يستطع الخروج استأجر مكانه وبذلوا الأموال لهم وجاء الإفرنج من كل مكان ونزلوا بصور ومدد الرجال والأقوات والأسلحة متداركة لهم في كل وقت واتفقوا على الرحيل إلى عكا ومحاصرتها فخرجوا ثامن رجب من سنة خمس وثمانين وسلكوا على الطريق الساحل وأساطيلهم تحاذيهم في البحر ومسلحة المسلمين تتخطفهم من جوانبهم حتى وصلوا إلى عكا منتصف رجب وكان رأي صلاح الدين أن يحاذيهم في مسيرهم لينال منهم فخالفه أصحابه واعتذروا بضيق الطريق ووعره فسلك طريقاً آخر ووافاهم على عكا وقد نزلوا عليها وأحاطوا بها من البحر إلى البحر فليس للمسلمين إليها طريق.

ونزل صلاح الدين قبالتهم وبعث إلى الأطراف يستنفر الناس فجاءت عساكر الموصل وديار بكر وسنجار وسائر بلاد الجزيرة وجاء تقي الدين ابن أخيه من حماة ومظفر الدين كوكبري من حران والرها وكانت أمداد المسلمين تصل في البر وأمداد الإفرنج في البحر وهم محصورون في صور وكانت بينهم أيام مذكورة ووقائع مشهورة وأقام السلطان بقية رجب لم يقاتلهم فلما استهل شعبان قاتلهم يوماً بكماله وبات الناس على تعبية ثم صبحهم بالقتال ونزل بالصبر وحمل عليهم تقي الدين ابن أخيه منتصف النهار من الميمنة حملة أزالتهم عن مواقفهم وملك مكانهم واتصل بالبلد فدخلها المسلمون وشحنها صلاح الدين بالمدد من كل شيء وبعث إليهم الأمير حسام الدين أبا الهيجاء السمين من أكابر أمرائه من الأكراد الخطية من إربل ثم نهض المسلمون من الغد فوجدوا الإفرنج قد أداروا عليهم خندقاً يمتنعون به ومنعوهم القتال يومهم وأقاموا كذلك ومع السلطان أحياء من العرب فكمنوا في معاطف النهر من ناحية الإفرنج على الساحل للخطف منهم وكبسوهم منتصف شعبان وقتلوهم وجاؤوا برؤوسهم إلى صلاح الدين فأحسن إليهم والله تعالى أعلم.

الواقعة على عكا

كان صلاح الدين قد بعث عن عسكر مصر وبلغ الخبر الإفرنج فأرادوا معاجلته قبل وصولهم وكانت عساكره متفرقة في المسالح على الجهات فمسلحة تقابل أنطاكية وملكها سمند في

البلاد التي من أعمال حلب ومسلحة بحمص تحفظها من أهل طرابلس ومسلحة تقابل صور ومسلحة بدمياط والإسكندرية واعتزم الإفرنج على مهاجمتهم بالقتال ولم يشعروا بهم وصحبوهم لعشرين من شعبان وركب صلاح الدين وعبى عساكره وقصدوا الميمنة وعليها تقي الدين ابن أخيه فتزحزح بعض الشيء وأمده صلاح الدين بالرجال من عنده فحطوا على صلاح الدين في القلب فتضعضع واستشهد جماعة منهم الأمير علي بن مردان والظهير أخو الفقيه عيسى والي القدس والحاجب خليل الهكاري وغيرهم.

وقصدوا خيمة صلاح الدين فقتلوا من وزرائه ونهبوا واستشهد جمال الدين بن رواحة من العلماء ووضعوا السيف في المسلمين وانهزم الذين كانوا حوالي الخيمة ولم تسقط وانقطع الذين ولوها من الإفرنج عن أصحابهم وراءهم وحملت ميسرة المسلمين عليهم فأحجموا إلى وراء الخنادق وعادوا إلى خيمة صلاح الدين فقتلوا كل من وجدوا عندها من الإفرنج وصلاح الدين قد عاد من اتباع أصحابه يردهم للقتال وقد اجتمعوا عليهم فلم يفلت منهم أحد وأسروا مقدم الفداوية فأمر بقتله وكان أطلقه مرة أخرى وبلغت عدة القتلى عشرة آلاف فألقوا في النهر وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية ومنهم من جاوز الأردن ورجع ومنهم من بلغ دمشق واتصل قتال المسلمين للإفرنج وكادوا يلجون عليهم معسكرهم ثم جاءهم الصريخ بنهب أموالهم وكان المنهزمون قد حملوا أثقالهم فامتدت إليها أيدي الأوباش ونهبوها فكان ذلك مما شغل المسلمين عن استئصال الإفرنج وأقاموا في ذلك يوماً وليلة يستردون النهب من أيدي المسلمين ونفس بذلك عن الإفرنج بعض الشيء والله تعالى أعلم.

رحيل صلاح الدين عن الإفرنج بعكا

ولما انقضت هذه الوقعة وامتلأت الأرض من جيف الإفرنج تغير الهواء وأنتن وحدث بصلاح الدين قولنج كان يعاوده فأشار عليه أصحابه بالانتقال عسى الإفرنج ينتقلون وأن أقاموا عدنا إليهم وحمله الأطباء على ذلك فرحل رابع رمضان من السنة وتقدم إلى عكا بحياطتها وأعلمهم سبب رحيله فلما ارتحل اشتد الإفرنج في حصار عكا وأحاطوا بها دائرة مع أسطولهم في البحر وحفروا خندقاً على معسكرهم وأداروا عليهم سوراً من ترابه حصناً من صلاح الدين أن يعود إليهم ومسلحة المسلمين قبالتهم يناوشوهم القتال فلا يقاتلونهم وبلغ ذلك صلاح الدين وأشار أصحابه بإرسال العساكر ليمنع من التحصين فامتنع من ذلك لمرضه فتم للإفرنج ما أرادوه وأهل عكا يخرجون إليهم في كل يوم ويقاتلونهم والله تعالى أعلم.

معاودة صلاح الدين حصار الإفرنج على عكا

ثم وصل العادل أبو بكر بن أيوب منتصف شوال في عساكر مصر ومعه الجم الغفير من المقاتلة والأصناف الكثيرة من آلات الحصار ووصل على أثره أسطول مصر مع الأمير لؤلؤ وكبس مركباً فغنم ما فيه ودخل به إلى عكا وبرىء صلاح الدين من مرضه وأقام بمكانه بالجزيرة إلى انسلاخ الشتاء وسمع الإفرنج أن صلاح الدين سار إليهم واستقلوا مسلحة المسلمين عندهم فزحفوا إليهم في صفر سنة ست وثمانين واستمات المسلمون وقتل بين الفريقين خلق وبلغ الخبر بذلك صلاح الدين وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماة فتقدم من الجزيرة إلى تل كيسان وتابع القتال على الإفرنج يشغلهم عن المسلمين فكانوا يقاتلون الفريقين.

وكان الإفرنج مدة مقامهم على عكا قد صنعوا ثلاثة أبراج من الخشب ارتفاع كل برج ستون ذراعاً وفيه خمس طبقات وغشوها بالجلود وطلوها بالأدوية التي لا تعلق النار بها وشحنوها بالمقاتلة وأدنوها إلى البلد من ثلاث جهات في العشرين من ربيع الأول سنة ست وثمانين وأشرفوا بها على السور فكشف من عليه من المقاتلة وشرع الإفرنج في طم الخندق وبعث أهل عكا سابحاً في البحر يصف لهم حالهم فركب في عساكره واشتد في قتال الإفرنج فخف على أهل البلد ما كانوا فيه وأقاموا كذلك ثلاثة أيام يقاتلون الجهتين وعجزوا عن دفع الأبراج ورموها بالنفط فلم يؤثر فيها وكان عندهم رجل من أهل دمشق يعاني أحوال النفط فأخذ عقاقير وصنعها وحضر عند قراقوش حاكم البلد وأعطاه دواء وقال: ارم بهذا في المنجنيق المقابل لإحدى الأبراج فيحترق فجرد عليه ثم وافق ورمي به في قدر ثم رمي بعده بقدر أخرى مملوءة ناراً فاضطرمت النار واحترق البرج بمن فيه ثم فعل بالثاني والثالث كذلك.

وفرح أهل البلد وتخلصوا من تلك الورطة فأمر صلاح الدين بالإحسان إلى ذلك الرجل فلم يقبل وقال: إنما فعلته لله ولا أريد الجزاء إلا منه ثم بعث صلاح الدين إلى ملوك الأطراف ليستنفرهم فجاء عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ثم

علاء الدين بن طالب صاحب الموصل ثم عز الدين مسعود بن مودود وبعثه أبوه بالعساكر ثم زين الدين صاحب إربل وكان كل واحد منهم إذا وصل يتقدم بعسكره فيقاتلون الإفرنج ثم يضربون أبنيتهم وجاء الخبر بوصول الأسطول من مصر فجهز الإفرنج أسطولاً لقتاله وشغلهم صلاح الدين بالقتال ليتمكن الأسطول من دخول عكا فلم يشغلوا عنه وقاتلوا الفريقين براً وبحراً ودخل الأسطول إلى مرسى عكا سالماً والله تعالى أعلم بغيبه.

وصول ملك الألمان إلى الشام ومهلكه

هؤلاء الألمان شعب من شعوب الإفرنج كثير العدد موصوف بالبأس والشدة وهم موطنون بجزيرة انكلطيرة في الجهة الشمالية الغربية من البحر المحيط وهم حديثو عهد بالنصرانية ولما سار القسس والرهبان بخبر بيت المقدس واستنفار النصرانية لها قام ملكهم لها وقعد وجمع عساكره وسار للجهاد بزعمه وفسح النصارى له الطريق وقصد القسطنطينية فعجز ملك الروم عن منعه بعد أن كان يعد بذلك نفسه وكتب بها إلى صلاح الدين لكنه منع عنهم الميرة فضافت عليهم الأقوات وعبروا خليج القسطنطينية ومروا بمملكة قليج أرسلان وتبعهم التركمان يحفون بهم ويتخطفون منهم وكان الفصل شتاء والبلاد باردة فهلك أكثرهم من البرد والجوع.

ومروا بقونية وبها قطب الدين ملك شاه بن قليج أرسلان قد غلب عليه أولاده وافترقوا في النواحي فخرج ليصدهم فلم يطق ذلك ورجع فساروا في أثره إلى قونية وبعثوا إليه بهدية على أن يأذن لهم في الميرة فأذن لهم واسترهنوا عشرين من أمرائه وتكاثر عليهم اللصوص فقيدوا أولئك الأمراء وحبسوهم وساروا إلى بلاد الأرمن وصاحبها كاقولي بن خطفاي بن اليون فأمدهم بالأزواد والعلوفات وأظهر طاعتهم وسار إلى أنطاكية ودخل ملكهم ليغتسل في نهر هنالك فغرق وملك بعده ابنه ولما بلغوا أنطاكية اختلفوا فبعضهم مال إلى تمليك أخيه وبعضهم مال إلى العود فعادوا كلهم.

وسار ابن الملك فيمن ثبت معه يزيدون على أربعين ألفاً وأصابهم الموتان وحسن إليهم صاحب أنطاكية المسير إلى الإفرنج على عكا فساروا على جبلة اللاذقية ومروا بحلب وتخطف أهلها منهم خلقاً وبلغوا طرابلس وقد أفناهم الموتان ولم يبق منهم إلا نحو ألف رجل فركبوا البحر إلى عكا ثم رأوا ما هم فيه من الوهن والخلاف فركبوا البحر إلى بلدهم وغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ويعده بمنعهم من العبور عليه فلما عبروا اعتذر بالعجز عنهم وافتراق أولاده واستبدادهم.

وأما صلاح الدين فإنه استشار أصحابه عند وصول خبرهم فأشار بعضهم إلى لقائهم في طريقهم ومحاربتهم وأشار آخرون بالمقام لئلا يأخذ الإفرنج عكا ومال صلاح الدين إلى هذا الرأي وبعث العساكر من جبلة واللاذقية وشيزر إلى حلب ليحفظوها من عاديتهم والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة المسلمين مع الإفرنج على عكا

ثم زحف الإفرنج على عكا في عشر من جمادى الأخيرة من سنة ست وثمانين وخرجوا من خنادقهم إلى عساكر صلاح الدين وقصد العادل أبو بكر بن أيوب في عساكر مصر فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كشفهم الإفرنج عن الخيام وملكوها ثم كر عليهم المصريون فكشفوهم عن خيامهم وخالفهم بعض عساكر مصر إلى الخنادق فقطعوا عنهم بعض مدد أصحابهم فأخذتهم السيوف وقتل منهم ما يزيد على عشرين ألفاً.

وكانت عساكر الموصل قريباً من عسكر مصر ومقدمهم علاء الدين خوارزم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فعدمت ميرتهم وأمر صلاح الدين بمناجزتهم على هذا الحال وبلغه الخبر بموت ملك الألمان وما أصاب قومه من الشتات فسر المسلمون بذلك وظنوا وهن الإفرنج به ثم بعد يومين لحقت بالإفرنج إمداد في البحر مع كند من الكنود يقال له الكندهري ابن أخي الإفرنسيس لأبيه وابن أخي ملك إنكلطيرة لأمه ففرق في الإفرنج أموالاً وجند لهم أجناداً ووعدهم بوصول الأمداد على أثره فاعتزموا على الخروج لقتال المسلمين فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخزونة لثلاث بقين من جمادى الأخيرة لضيق المجال ونتن المكان من جيف القتلى ثم نصب الكندهري على عكا مجانيق وذبابات فأخذها أهل عكا وقتلوا عندها جموعاً من الإفرنج فلم يتمكن من متابعة ذلك ولا من إقامة الستائر عليها لأن أهل البلاد كانوا يصيبونها فعمل تلاً عالياً من التراب ونصب المجانيق من ورائه وضاقت الأحوال وقلت الميرة.

وأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية ببعث الأقوات في المراكب إلى عكا وبعث إلى بيروت بمثل ذلك فبعثوا مركباً ونصبوا فيها الصلبان يوهمون أنه للإفرنج حتى دخلوا إلى المرسى وجاءت بعد الميرة من الإسكندرية ثم جاءت ملكة من الإفرنج من وراء

البحر في نحو ألف مقاتل للجهاد بزعمها فأخذت ببحر الإسكندرية هي وجميع ما معها ثم كتب البابا كبير الملة النصرانية من كنيسة برومة يأمرهم بالصبر والجهاد ويخبرهم بوصول الإمداد وأنه راسل ملوك الإفرنج يحثهم على إمدادهم فأزدادوا بذلك قوة واعتزموا على مناجزة المسلمين وجمروا عسكراً لحصار عكا وارتحلوا حادي عشر شوال من السنة فنقل صلاح الدين أثقال العسكر إلى على ثلاثة فراسخ من عكا ولقي الإفرنج على التعبية.

وكان أولاده الأفضل علي والظافر غازي والظاهر خضر في القلب وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة بعساكر مصر ومن انضم إليهم وعماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجار شاه صاحب جزيرة ابن عمر في الميسرة وصلاح الدين في خيمة صغيرة على تل مشرف نصب له من أجل موضعه فلما وصل الإفرنج وعاينوا كثرة المسلمين ندموا على مفارقة خنادقهم وباتوا ليلتهم وعادوا من الغد إلى معسكرهم فأتبعوهم أهل المقدمة وتخطفوهم من كل ناحية وأحجروهم وراء خنادقهم.

ثم ناوشوهم القتال في الثالث والعشرين من شوال بعد أن أكمنوا لهم عسكراً فخرج لهم الإفرنج في نحو أربعمائة فارس واستطرد لهم المسلمون إلى أن وصلوا كمينهم فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الإفرنج وبلغت الغرارة مائة دينار صوري مع ما كان يحمل إليهم من البلدان من بيروت على يد صاحبها أسامة ومن صيدا على يد نائبها سيف الدين علي بن أحمد المشطوب ومن عسقلان وغيرها ثم اشتد الحال عليهم عند هيجان البحر وانقطاع المراكب في فصل الشتاء.

ثم هجم الشتاء وأرسى الإفرنج مراكبهم بصور خوفاً عليها على عادتهم في صور في فصل الشتاء ووجد الطريق إلى عكا في البحر فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون ما نزل بهم وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين فشكى من ضجره بطول المقام والحرب فأمر صلاح الدين بإنفاذ نائب وعسكر إليها بدلاً منهم وأمر أخاه العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر عند جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وبعث العساكر إليها شيئاً فشيئاً كلما دخلت طائفة خرج بدلها فدخل عشرون أميراً بدلا من ستين كانوا وأهملوا أهل الرجل وتعينت دواوين صاحب صلاح الدين وكانوا نصارى على الجند في إثباتهم وإطلاق نفقاتهم فبلغ الحامية بعكا وضعفت وعادت مراكب الإفرنج بعد انحسار الشتاء فانقطعت الأخبار عن عكا وعنها وكأن من الأمراء الذين دخلوا عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسلان مقدم الأسدية وابن جاولي وغيرهم وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة زين الدين صاحب إربل وولاية أخيه كوكبري

كان زين الدين يوسف بن زين الدين قد دخل في طاعة صلاح الدين وكانت له إربل كما مر لأيام أبيه وحران والرها لأخيه مظفر الدين كوكبري وكان يعسكر مع صلاح الدين في غزواته وحضر عنده على عكا فأصابه المرض وتوفي في ثامن عشر رمضان سنة أربع وثمانين فقبض أخوه مظفر الدين كوكبري على بلد أمير من أمرائه وبعث إلى صلاح الدين يطلب إربل وينزل عن حران والرها فأجابه وأقطعه إياهما وأضاف إليهما شهرزور وأعمالها ودار بند العرابلي وهي قفجاق وكاتب أهل إربل مجاهد الدين صاحب الموصل خوفاً من صلاح الدين مع أن مجاهد الدين كان عز الدين قد حبسه كما مر ثم أطلقه وولاه نائبه وجعل بعض غلمانه عيناً فكان يناقضه في كثير من الأحوال فقصد مجاهد الدين أن يفعل معه مثل ذلك في إربل فامتنع منها وولاها مظفر الدين واستفحل أمره فيها.

ولما نزل مظفر الدين عن حران والرها ولاها صلاح الدين لابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه مضافة إلى ميافرقين بديار بكر وحماة وأعمالها بالشام وتقدم له أن يقطع أعمالها للجند فيتقوى بهم على الإفرنج فسار تقي الدين إليها وقرر أمورها ثم انتهى إلى ميافارقين وتجدد له طمع فيما يجاورها من البلاد فقصد مدينة حال من ديار بكر وسار إليه سيف الدين بكتمر صاحب خلاط في عساكره وقاتله فهزمه تقي الدين ووطىء بلاده وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رستق وزير سلطان شاكرين وحبسه في قلعة هنالك فلما انهزم كتب إلى والي القلعة بقتله فوافاه الكتاب وتقي الدين محاصر له فلما ملك القلعة أطلق ابن رستق وسار إلى خلاط وحاصرها فامتنعت عليه فعاد عنها إلى ملاذكرد فضيق عليها حتى استأمنوا له وضرب لهم أجلاً في تسليم البلد ثم مرض ومات قبل ذلك الأجل بيومين وحمله ابنه إلى ميافارقين فدفنه بها واستفلحت دولة بكتمر في خلاط والله تعالى أعلم.

وصول إمداد الإفرنج من الغرب إلى عكا

ثم تتابعت إمداد الإفرنج من وراء البحر لإخوانهم

المحاصرين لعكا وأول من وصل منهم الملك ملك إفرنسة وهو ذو نصب فيهم وملكه ليس بالقوي هكذا قال ابن الأثير: وعنى أنه كان مستفحلاً في ذلك العصر لأنه في الحقيقة ملك الإفرنج وهو في ذلك العصر أشد من كانوا قوة واستفحالاً فوصل ثاني عشر ربيع الأول سنة أربع وثمانين في ستة مراكب عظيمة مشحونة بالمقاتلة والسلاح فقوي الإفرنج على عكا بمكانه وولي حرب المسلمين فيها وكان صلاح الدين على معمر عمر قريباً من معسكر الإفرنج فكان يصابحهم كل يوم عن مزاحفة البلد وتقدم إلى أسامة في بيروت بتجهيز ما عنده من المراكب والشواني إلى مرسى عكا ليشغل الإفرنج أيضاً فبعثها ولقيت خمسة مراكب في البحر وكان ملك الإنكلطيرة أقدمها وأقام على جزيرة قبرص طامعاً في ملكها فغنم أسطول المسلمين الخمسة مراكب بما فيها ونفذت كلمة صلاح الدين إلى سائر النواب بأعماله بمثل ذلك فجهزوا الشواني وملأوا بها مرسى عكا وواصل الإفرنج قتال البلد ونصبوا عليها المنجنيقات رابع جمادي وتحول صلاح الدين لمعسكره قريباً منهم ليشغلهم عن البلد فخف قتالهم عن أهل البلد ثم فرغ ملك إنكلطيرة من جزيرة قبرص وملكها وعزل صاحبها وبلغ إلى عكا في خمس وعشرين مركباً مشحونة بالرجال والأموال ووصل منتصف رجب ولقي في طريقه مركباً جهز من بيروت إلى عكا وفيه سبعمائة مقاتل فقاتله فلما يئس المسلمون الذين به من الخلاص نزل مقدمهم وهو يعقوب الحلبي غلام ابن شفنين فحرق المركب خوفاً من أن يظفر الإفرنج برجاله وذخائره فغرق ثم عمل الإفرنج ذبابات وكباشاً وزحفوا بها فأحرق المسلمون بعضها وأخذوا بعضها فرجع الإفرنج إلى نصب التلال من التراب يقاتلون من ورائها فامتنعت من نفوذ الحيلة فيها وضاق حال أهل عكا.

استيلاء الإفرنج على عكا

ولما جهد المسلمين بعكا الحصار خرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب من أكبر أمرائها إلى ملك إفرنسة يستأمنه لأهل عكا فلم يجبه وضعفت نفوس أهل البلد لذلك ووهنوا ثم هرب من الأمراء عز الدين أرسل الأسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الأرجاني في جماعة منهم ولحقوا بالعساكر فازداد أهل عكا وهناً وبعث الإفرنج إلى صلاح الدين في تسليمها فأجاب على أن يؤمنوا أهل البلد ويطلق لهم من أسراهم بعدد أهل البلد ويعطيهم الصليب الذي أخذه من القدس فلم يرضوا بما فعل فبعث إلى المسلمين بعكا أن يخرجوا بجمعهم ويتركوا البلد ويسيروا مع البحر ويحملوا على العدو حملة مستميتين ويجيء المسلمون من وراء العدو فعساهم يخلصون بذلك فلما أصبحوا زحف الإفرنج إلى البلد ورفع المسلمون أعلامهم وأرسل المشطوب من البلد إلى الإفرنج فصالحهم على الأمان على أن يعطيهم مائتي ألف دينار ويطلق لهم خمسمائة أسير ويعيد لهم الصليب ويعطي للمركيش صاحب صور أربعة عشر ألف دينار فأجابوا إلى ذلك وضربوا المدة للمال والأسرى شهرين وسلموا لهم البلد فلما ملكوها غدروا بهم وحبسوهم رهناً بزعمهم في المال والأسرى والصليب.

ولم يكن لصلاح الدين ذخيرة من المال لكثرة إنفاقه في المصالح فشرع في جمع المال حتى اجتمع مائة ألف دينار وبعث نائباً يستحلفهم على أن يضمن الفداوية من الخلف والضمان خوفاً من غدر أصحابه وقال ملوكهم: إذا سلمتم المال والأسرى والصليب تعطونا رهناً في بقية المال ونطلق أصحابكم وطلب صلاح الدين أن يضمن الفداوية الرهن ويحلفوا فامتنعوا أيضاً وقالوا: ترسلون المائة ألف دينار والأسرى والصليب فنطلق من نراه ونبقي الباقي إلى مجيء بقية المال فتبين المسلمون غدرهم وأنهم يطلقون من لا يعبأ به ويمسكون الأمراء والأعيان حتى يفادوهم فلم يجبهم صلاح الدين إلى شيء.

ولما كان آخر رجب ركب الإفرنج إلى ظاهر البلد في احتفال وركب المسلمون فشدوا عليهم وكشفوهم عن مواقفهم فإذا المسلمون الذين كانوا عندهم قتلى بين الصفين قد استلحموا ضعفاءهم وتمسكوا بالأعيان للمفاداة فسقط في يد صلاح الدين وتمسك بالمال الذي جمعه لغيرها من المصالح والله تعالى أعلم.

تخريب صلاح الدين عسقلان

ولما استولى الإفرنج على عكا استوحش المركيش صاحب صور من ملك إنكلطيرة وأحس منه بالغدر فلحق ببلده صور ثم سار الإفرنج مستهل شعبان لقصد عسقلان وساروا مع ساحل البحر لا يفارقونه ونادى صلاح الدين باتباعهم مع ابنه الأفضل وسيف الدين أبي زكوش وعز الدين خرديك فاتبعوهم يقاتلونهم ويتخطفونهم من كل ناحية ففتكوا فيهم بالقتل والأسر وبعث الأفضل إلى أبيه يستمده فلم يجد العساكر مستعدة وسار ملك إنكلطيرة في ساقة الإفرنج فحملهم وانتهوا إلى يافا فأقاموا بها والمسلمون قبالتهم مقيمون ولحق بهم من عكا من احتاجوا إليه ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يتبعونهم ويقتلون من ظفروا به منهم

وزاحموهم عند قيسارية فنالوا منهم وباتوا بها مشاورين واختطف المسلمون منهم بالليل فقتلوا وأسروا.

وساروا من الغد إلى أرسوف وسبقهم المسلمون إليها لضيق الطريق فحملوا عليهم عندها حتى اضطروهم إلى البحر فحينئذ استمات الإفرنج وحملوا على المسلمين فهزموهم واثخنوا في تابعهم وألحقوهم بالقلب وفيه صلاح الدين وتستر المسلمون المنهزمون بخمر الشعراء فرجع الإفرنج عنهم وانفرج ما كانوا فيه من الضيق المذكور وساروا إلى يافا فوجدوها خالية وملكوها وكان صلاح الدين قد سار من مكان الهزيمة إلى الرملة وجمع مخلفه وأثقاله واعتزم على مسابقة الإفرنج إلى عسقلان فمنعه أصحابه وقالواك نخشى أن يزاحمنا الإفرنج عليها ويغلبونا على حصارها كما غلبونا على حصار عكا ويملكوها آخراً ويقووا بما فيها من الذخائر والأسلحة. فندبهم إلى المسير إليها وحمايتها من الإفرنج فلجوا في الامتناع من ذلك فسار وترك العساكر مع أخيه العادل قبالة الإفرنج ووصل إلى عسقلان وخربها تاسع عشر شعبان وألقيت حجارتها في البحر وبقي أثرها وهلك فيها من الأموال والذخائر ما لا يحصى فلما بلغ الإفرنج ذلك أقاموا بيافا.

وبعث المركيش إلى ملك إنكلطيرة يعذله حيث لم يناجز صلاح الدين على عسقلان ثاني رمضان إلى الرملة فخرب حصنها ثم سار إلى القدس من شدة البرد والمطر لينظر في مصالح القدس وترتبهم في الاستعداد للحصار وأذن للعساكر في العود إلى بلادهم للإراحة وعاد إلى مخيمه ثامن رمضان وأقام الإفرنج بيافا وشرعوا في عمارتها فرحل صلاح الدين إلى نطرون وخيم به منتصف رمضان وتردد الرسل بين ملك انكلطيرة وبين العادل على أن يزوجه ملك انكلطيرة أخته ويكون القدس وبلاد المسلمين بالساحل للعادل وعكا وبلاد الإفرنج بالساحل لها إلى مملكتها وراء البحر بشرط رضا الفداوية وأجاب صلاح الدين إلى ذلك ومنع الأقسة والرهبان أخت ملك انكلطيرة من ذلك ونكروا عليها فلم يتم وإنما كان ملك انكلطيرة يخادع بذلك ثم اعتزم الإفرنج على القدس ورحلوا من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة وسار صلاح الدين إلى القدس وقد ترك عليه عساكر مصر مع أبي الهيجاء فقويت به نفوس المسلمين وسار الإفرنج من الرملة إلى النطرون ثالث ذي الحجة والمسلمون يحاذونهم وكانت بينهم وقعات أسروا في واحدة منها نيفاً وخمسين من مقاتلة الإفرنج واهتم صلاح الدين بعمارة أسوار القدس ورم ما ثلم منها وضبط المكان الذي ملك القدس منه وسد فروجه وأمر بحفر الخندق خارج الفصيل.

وقسم ولاية هذه الأعمال بين ولده وأصحابه وقلت الحجارة للبنيان وكان صلاح الدين يركب إلى الأماكن البعيدة وينقلها على مركوبه فيقتدي به العسكر ثم إن الإفرنج ضاقت أحوالهم بالنطرون وقطع المسلمون عنهم الميرة من ساحلهم فلم يكن كما عهدوه بالرملة وسأل ملك انكلطيرة عن صورة القدس ليعلم كيفية ترتيب حصارها فصورت له ورأى الوادي محيطاً بها إلا قليلاً من جهة الشمال مع عمقه ووعرة مسالكه فقال: هذه لا يمكن حصارها لأنا إذا اجتمعنا عليها من جانب بقيت الجوانب الأخرى وأن افترقنا على جانب الوادي والجانب الآخر كبس المسلمون إحدى الطائفتين ولم تصل الأخرى لإنجادهم خوفاً من المسلمين على معسكرهم وإن تركوه من أصحابه حامية المعسكر فالمدى بعيد لا يصلون للإنجاد إلا بعد الوفاة هذا إلى ما يلحقنا من تعذر القوت بانقطاع الميرة فعلموا صدقه وارتحلوا عائدين إلى الرملة ثم ارتحلوا في محرم سنة ثمان وثمانين إلى عسقلان وشرعوا في عمارتها وسار ملك انكلطيرة إلى مسلحة المسلمين فواقعوهم وجرت بينهم حروب شديدة وصلاح الدين يبعث سراياه من القدس إلى الإفرنج للإغارة وقطع الميرة فيغنمون ويعودون والله تعالى أعلم.

مقتل المركيش وملك الكندهري مكانه

ثم ارتحل صلاح الدين إلى سنان مقدم الإسماعيلية بالشام في قتل ملك انكلطيرة والمركيش وجعل له على ذلك عشرة آلف دينار فلم يمكنهم قتل ملك انكلطيرة لما رأوه من المصلحة لئلا يتفرغ لهم صلاح الدين وبعث رجلين لقتل المركيش في زي الرهبان فاتصلا بصاحب صيدا وابن بازران صاحب وأقاما عندهما بصور ستة أشهر مقبلين على رهبانيتهما حتى أنس بهما المركيش ثم دعاه الأسقف بصور دعوى فوثبا عليه فجرحاه ولجأ أحدهما إلى كنيسة واختفى فيها وحمل إليها المركيش لشدة جراحه فأجهز عليه ذلك الباطني وقتله ونسب ذلك إلى ملك انكلطيرة رجاء أن ينفرد بملك الإفرنج بالشام.

ولما قتل المركيش ملك المدينة زعيم من الإفرنج الواردين من وراء البحر يعرف بالكندهري ابن أخت ملك أفرنسة وابن أخي ملك انكلطيرة من أبيه وتزوج بالملكة في ليلته وبنى بها وملك عكا وسائر البلاد بعد عود ملك انكلطيرة وعاش إلى سنة أربع وتسعين وسقط من سطح ولما رحل ملك انكلطيرة إلى بلاده أرسل هذا الكندهري إلى صلاح الدين واستماله للصلح والتمس

منه الخلعة فبعث إليه بها ولبسها بعكا والله تعالى أعلم.

مسير الإفرنج إلى القدس

ولما قدم صلاح الدين إلى القدس وكان قد بلغه مهلك تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه وأن ابنه ناصر الدين استولى على أعماله بالجزيرة وهي: حران والرها وسميساط وميافارقين وأرجان وبعث إلى صلاح الدين يسأل إبقاءها في يده مضافة إلى ما كان لأبيه من الأعمال بالشام فاستقصره صلاح الدين لصغره وطلب منه ابنه الأفضل أن يعطيها له وينزل عن دمشق فأجابه إلى ذلك وأمره أن يسير إليها وكاتب ملوك البلاد الشرقية بالموصل وسنجار والجزيرة وإربل وسار لإنجاده بالعساكر وعلم ناصر الدين أنه لا قبل له بذلك فبعث للملك العادل يستشفع له عند صلاح الدين على أن يبقى بيده له ما كان لأبيه بالشام فقط وينزل عن بلاد الجزيرة فأقطعها صلاح الدين أخاه الملك العادل وبعثه يتسلمها ويرد ابنه الأفضل فلحق بالأفضل بحلب وأعاده وعبر الفرات وتسلم البلاد من ناصر الدين بن تقي الدين وأنزل بها عماله واستصحبه وساير العساكر الجزرية إلى صلاح الدين بالقدس.

ولما بلغ الإفرنج أن صلاح الدين بعث ابنه الافضل وأخاه العادل وفرق العساكر عليهما ولم يبق معه بالقدس إلا بعض الخاصة طمعوا فيه وأغاروا على عسكر مصر وهو قاصد إليه ومقدمهم سليمان أخو العادل لأمه فأخذوه بنواحي الخليل وقتلوا وغنموا ونجا فلهم إلى جبل الخليل وساروا إلى الداروم فخربوه ثم ساروا إلى القدس وانتهوا إلى بيت فوجه على فرسخين من القدس تاسع جمادى الأولى من سنة ثمان وثمانين واستعد صلاح الدين للحصار وفرق أبراج السور على أمرائه وسلط السرايا والبعوث عليهم فرأوا ما لا قبل لهم به فتأخروا عن منازلتهم بيافا واصبحت بقولهم وميرتهم غنائم للمسلمين وبلغهم أن العساكر الشرقية التي مع العادل والأفضل عادت إلى دمشق فعادوا إلى عكا وعزموا على محاصرة بيروت فأمر صلاح الدين ابنه الأفضل أن يسير في العساكر الشرقية إليها فسار وانتهى إلى مرج العيون فلم يبرح الإفرنج من عكا.

واجتمع عند صلاح الدين خلال ذلك العساكر من حلب وغيرها فسار إلى يافا فحاصرها وملكها عنوةً في العاشر من رجب من السنة ثم حاصر القلعة بقية يومه وأشرفوا على فتحها وكانوا ينتظرون المدد من عكا فشغلوا المسلمين بطلب الأمان إلى الغد فأجابوهم إليه وجاءهم ملك انكلطيرة ليلاً وتبعه مدد عكا وبرز من الغد فلم يتقدم إليه أحد من المسلمين ثم نزل بين السماطين وجلس للأكل وأمر صلاح الدين بالحملة عليهم فتقدم أخ المشطوب وكان يلقب بالجناح وقال لصلاح الدين: نحن نتقدم للقتال ومماليكك للغنيمة. فغضب صلاح الدين وعاد عن الإفرنج إلى خيامه حتى جاء ابنه الأفضل وأخوه العادل فرحل إلى الرملة ينتظر مآل أمره مع الإفرنج وأقاموا بيافا والله تعالى أعلم.

الصلح بين صلاح الدين والإفرنج ومسير ملك انكلطيرة إلى بلاده

كان ملك انكلطيرة إلى هذه المدة قد طال مغيبه عن بلاده ويئس من بلاد الساحل لأن المسلمين استولوا عليه فأرسل إلى صلاح الدين يسأله في الصلح وظن صلاح الدين أن ذلك مكر فلم يجبه وطلب الحرب فألح ملك انكلطيرة في السؤال وظهر صدق ذلك منه فترك ما كان فيه من عمارة عسقلان وغزة والداروم والرملة وبعث إلى الملك العادل بأن يتوسط في ذلك فأشار على صلاح الدين بالإجابة هو وسائر الأمراء لما حدث عند العسكر من الضجر ونفاد النفقات وهلاك الدواب والأسلحة وما بلغهم أن ملك انكلطيرة عائد إلى بلاده وإن لم تقع الإجابة آخر فصل الشتاء امتنع ركوب البحر فيقيم إلى قابل فلما وعي ذلك صلاح الدين وعلم صحته أجاب إلى الصلح وعقد الهدنة مع رسل الإفرنج في عشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين لمدة أربعة وأربعين شهراً فتحالفوا على ذلك وأذن صلاح الدين للإفرنج في زيارة القدس.

وارتحل ملك انكلطيرة في البحر عائداً إلى بلده وأقام الكندهري صاحب صور بعد المركيش ملكاً على الإفرنج بسواحل الشام وتزوج الملكة التي كانت تملكهم قبله وقبل صلاح الدين كما مر وسار صلاح الدين إلى القدس فأصلح أسواره وأدخل كنيسة صهيون في البلد وكانت خارج السور واختط المدارس والربط والمارستان ووقف عليها الأوقاف واعتزم على الإحرام منه للحج فاعترضته القواطع دون ذلك فسار إلى دمشق خامس شوال واستخلف عليه الأمير جرديك من موالي نور الدين ومر بكفور المسلمين نابلس وطبرية وصفد وبيروت ولما انتهى إلى بيروت أتاه بها سمند صاحب أنطاكية وطرابلس وأعمالها فالتزم طاعة صلاح الدين وعاد ودخل صلاح الدين دمشق في الخامس والعشرين من شوال وسر الناس بقدومه ووهن العدو والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة صلاح الدين وحال ولده وأخيه من بعده

ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق وقد خف من شواغل الإفرنج بوهنهم وما عقد من الهدنة فأراح قليلاً ثم اعتزم على إحداث الغزو فاستشار ابنه الأفضل وأخاه العادل في مذهبه فأشار العادل بخلاط لأنه كان وعده أن يقطعه إياها إذا ملكها وأشار الأفضل ببلاد الروم إيالة بني قليج أرسلان لسهولة أمرها واعتراض الإفرنج فيها إذا قصدوا الشام لأنها طريقهم فقال لأخيه: تذهب أنت لخلاط في بعض ولدي وبعض العساكر وأذهب أنا إلى بلاد الروم فإذا فرغت منها لحقت بكم فسرنا إلى أذربيجان ثم إلى بلاد العجم. وأمره بالمسير إلى الكرك وهي من أقطاعه ليتجهز منها ويعود لشأنه فسار إلى الكرك ومرض صلاح الدين بعده ومات في صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة لخمس وعشرين سنة من ملكه مصر رحمه الله تعالى.

وكان معه بدمشق ابنه الأفضل نور الدين والعساكر عنده فملك دمشق والساحل وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وشوش وجميع الأعمال إلى الداروم وكان بمصر ابنه العزيز عثمان فاستولى عليها وكان بحلب ابنه الظاهر غازي فاستولى عليها وعلى أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزية ودربساك وغيرها وأطاعه صاحب حماة ناصر الدين محمد بن تقي الدين بن شيركوه وله مع حماة سلمية والمعرة ومنبج وابن محمد بن شيركوه وله مع الرحبة حمص وتدمر وببعلبك بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ولقبه الأمجد وببصرى الظافر بن صلاح الدين ولقبه الأمجد مع أخيه الأفضل وفي شيزر سابق الدين عثمان ابن الداية وبالكرك والشوبك الملك العادل وبلغ الخبر إلى العادل فأقام بالكرك واستدعاه الأفضل من دمشق فلم يجبه فخوفه ابن أخيه العزيز صاحب مصر من عز الدين صاحب الموصل وقد كان سار من الموصل إلى بلاد العادل بالجزيرة فوعده بالنصر منه وأوهمه الرسول إن لم يسر إلى الأفضل بدمشق أنه متوجه إلى العزيز بمصر ليحالفه عليه فحينئذ ارتاب العادل وسار إلى الأفضل بدمشق فتلقاه بالمبرة وجهز له العساكر لمدافعة عز الدين صاحب الموصل عن بلاد الجزيرة.

وأرسل إلى صاحب حمص وصاحب حماة يحضهم على إنفاذ العساكر معه وعبر بها الفرات وأقام بنواحي الرها وكان عز الدين مسعود ابن مودود صاحب الموصل لما بلغه وفاة صلاح الدين اعتزم على المسير إلى بلاد العادل بالجزيرة وحران والرها وسائرها ليرتجعها من يده ومجاهد الدين قايماز أتابك دولته يثنيه عن ذلك ويعذله فيه فتبين حال العادل مع ابن أخيه وبينما هو في ذلك إذ جاءت الأخبار بأن العادل بحران ثم وافاهم كتابه بأن الأفضل ملك بعد أبيه صلاح الدين وأطاعه الناس فكاتب عز الدين جيرانه من الملوك مثل صاحب سنجار وصاحب ماردين يستنجدهم وجاء إليه أخوه على نصيبن وسار معه إلى الرها فأصابه المرض في طريقه ورجع إلى الموصل فمات أول رجب من السنة واستقرت إيالة العادل في ملكه من الجزيرة فلم يهجه منها أحد والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مسير العزيز من مصر إلى حصار الأفضل بدمشق وما استقر بينهم في الولايات

كان العزيز عثمان بن صلاح الدين قد استقر بمصر كما ذكرناه وكان موالي أبيه منحرفين عن الأفضل ورؤساؤهم يومئذ جهاركس وقراجا وقد استقر بهم عدو الأفضل والأكراد وموالي شيركوه شيعة له فكان العدو يعدون العزيز بهؤلاء الشيع ويخوفونه من أخيه الأفضل ويغرونه بانتزاع دمشق من يده فسار لذلك سنة تسعين وخمسمائة ونزل على دمشق واستنزل الأفضل وهو بأعماله بالجزيرة وسار لعمه العادل بنفسه وسار معه الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة وشيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص وعساكر الموصل من قبل عز الدين مسعود بن مودود وساروا كلهم إلى الأفضل بدمشق لإنجاده فامتنع على العزيز مرامه وتراسلوا في الصلح على أن يكون القدس وأعمال فلسطين للعزيز وجبلة واللاذقية للظاهر صاحب حلب وتبقى دمشق وطبرية والغور للأفضل وأن يستقر العادل بمصر مدبراً دولة العزيز على أقطاعه الأول وانعقد الصلح على ذلك ورجع العزيز إلى مصر وعاد كل إلى بلده والله تعالى أعلم.

حصار العزيز ثانياً دمشق وهزيمته

ولما عاد العزيز إلى مصر عاد موالي صلاح الدين إلى إغرائه بأخيه الأفضل فتجهز لحصاره بدمشق سنة إحدى وتسعين وسار الأفضل من دمشق إلى عمه العادل بقلعة جعبر ثم إلى أخيه الظاهر غازي بحلب مستنجداً لهما وعاد إلى دمشق فوجد العادل قد سبقه إليها واتفقا على أن تكون مصر للأفضل ودمشق للعادل ووصل

العزيز إلى قرب دمشق وكان الأكراد وموالي شيركوه منحرفين عنه كما قدمناه وشيعة للأفضل ومقدمهم سيف الدين أبو ركوش من الموالي وأبو الهيجاء السمين من الأكراد فدلسا للأفضل بالخروج إلى العزيز وواعداه الهزيمة عنه فخرجا في العساكر وانحاز إليهما الموالي والأكراد وانهزم العزيز إلى مصر.

وبعث الأفضل العادل إلى القدس فتسلمه من نائب العزيز وساروا في اتباعه إلى مصر والعساكر ملتفة على الأفضل فارتاب العادل وخشي أن لا يفي له الأفضل بما اتفقا عليه ولا يمكنه من دمشق فراسل العزيز بالثبات وأن ينزل حامية ووعد من نفسه المظاهرة على أخيه وتكفل له منعه من مقاتلته ببلبيس فترك العزيز بها فخر الدين جهاركس في عسكر من موالي أبيه وأراد الأفضل مناجزتهم فمنعه العادل فأراد الرحيل إلى مصر فمنعه أيضاً وقال له: إن أخذت مصر عنوة انخرقت الهيبة وطمع فيها الأعداء والمطاولة أولى. ودس إلى العزيز بإرسال القاضي الفاضل وكان مطاعاً فيهم لمنزلته عند صلاح الدين فجاء إليهما وعقد الصلح بينهم على أن يكون للأفضل القدس وفلسطين وطبرية والأردن مضافة إلى دمشق ويكون للعادل كما كان القديم ويقيم بمصر عند العزيز يدبر أمره وتحالفوا على ذلك وعاد الأفضل إلى دمشق وأقام العادل عند العزيز بمصر انتهى والله أعلم.

استيلاء العادل على دمشق

ثم إن العزيز استمال العادل وأطمعه في دمشق أن يأخذها من أخيه ويسلمها إليه وكان الظاهر صاحب حلب يعذل الأفضل في موالاة عمه العادل ويحرضه على إبعاده فيلجُّ في ذلك ثم إن العادل والعزيز سارا من مصر وحاصروا دمشق واستمالا من أمراء الأفضل أبا غالب الحمصي على وثوق الأفضل به وإحسانه إليه ففتح لهما الباب الشرقي عشي السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين فدخل العادل منه إلى دمشق ووقف العزيز بالميدان الأخضر وخرج إليه أخوه الأفضل ثم دخل الأفضل دار شيركوه واظهروا مصالحة الأفضل خشية من جموعه وأعادوه إلى القلعة وأقاموا بظاهر البلد والأفضل يغاديهم كل يوم ويراوحهم حتى استفحل أمرهم فأمروه بالخروج من دمشق وتسليم أعمالها وأعطوه قلعة صرخد وملك العزيز القلعة ونقل للعادل أن العزيز يريد أن يتردد إلى دمشق فجاء إليه وحمله على تسليم القلعة فسلمها وخرج الأفضل إلى رستاق له خارج البلد فأقام به وسار منه إلى صرخد وعاد العزيز إلى مصر وأقام العادل بدمشق والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه وأحكم.

فتح العادل يافا من الإفرنج واستيلاء الإفرنج على بيروت وحصارهم تبنين

ولما توفي صلاح الدين وملك أولاده بعده جدد العزيز الهدنة مع الكندهري ملك الإفرنج كما عقد أبوه معه وكان الأمير أسامة يقطع بيروت فكان يبعث الشواني للإغارة على الإفرنج وشكوا ذلك إلى العادل بدمشق والعزيز بمصر فلم يشكياهم فأرسلوا إلى ملوكهم وراء البحر يستنجدونهم فأمدوهم بالعساكر وأكثرهم من الألمان ونزلوا بعكا واستنجد العادل بالعزيز فبعث إليه بالعساكر وجاءته عساكر الجزيرة والموصل واجتمعوا بعين جالوت وأقاموا رمضان وبعض شوال من سنة اثنتين وتسعين ثم ساروا إلى يافا فملكوا المدينة أولاً وخربوها وامتنع الحامية بالقلعة فحاصروها وفتحوها عنوة واستباحوها.

وجاء الإفرنج من عكا لصريخ إخوانهم وانتهوا إلى قيسارية فبلغهم خبر وفادتهم وخبر وفادة الكندهري ملكهم بعكا فرجعوا ثم اعتزموا على قصد بيروت فسار العادل لتخريبها حذراً عليها من الإفرنج فتكفل له أسامة عاملها بحمايتها وعاد ووصل إليها الإفرنج يوم عرفة من السنة وهرب منها أسامة وملكوها وفرق العادل العساكر فخربوا ما كان بقي من صيدا بعد تخريب صلاح الدين وعاثوا في نواحي صور فعاد الإفرنج إلى صور ونزل المسلمون على قلعة هونين ثم نازل الإفرنج حصن تبنين في صفر سنة أربع وتسعين وبعث العادل عسكراً لحمايته فلم يغنوا عنه ونقب الإفرنج أسواره فبعث العادل بالصريخ إلى العزيز صاحب مصر فأغذ السير بعساكره وانتهى إلى عسقلان في ربيع من السنة.

وكان المسلمون في تبنين قد بعثوا إلى الإفرنج من يستأمن لهم ويسلمون لهم فأنذرهم بعض الإفرنج بأنهم يغدرون بهم فعادوا إلى حصنهم وأصروا على الامتناع حتى وصل العزيز إلى عسقلان فاضطرب الإفرنج لوصوله ولم يكن لهم ملك وإنما كان معهم الجنصكير القسيس من أصحاب ملك الألمان والمرأة زوجة الكندهري فاستدعوا ملك قبرص واسمه هنري وهو أخ الملك الذي أسر بحطين فجاءهم وزوجوه بملكتهم فلما جاء العزيز وسار من عسقلان إلى جبل الخليل وأطل على الإفرنج وناوشهم القتال رجع الإفرنج إلى صور ثم إلى عكا ونزلت عساكر المسلمين بالبحور فاضطرب أمراء العزيز واجتمع جماعة منهم وهم: ميمون القصري وقراسنقر والحجاب وابن المشطوب على الغدر بالعزيز

ومدبر دولته فخر الدين جهاركس فأغذ السير إلى مصر وتراسل العادل والإفرنج في الصلح وانعقد بينهم في شعبان من السنة ورجع العادل إلى دمشق وسار منها إلى ماردين كما يأتي خبره والله تعالى أعلم.

وفاة طغتكين بن أيوب باليمن وملك ابنه إسماعيل ثم سليمان بن تقي الدين شاهنشاه

وقد كان قد تقدم لنا أن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سار إلى المدينة سنة ثمان وسبعين بعد وفاة أخيه شمس الدولة توران شاه واختلاف نوابه باليمن واستولى عليها ونزل زبيد وأقام بها إلى أن توفي في شوال سنة ثلاث وتسعين وكان سيِّئ السيرة كثير الظلم للرعية جماعاً للأموال ولما استفحل بها أراد الاستيلاء على مكة فبعث الخليفة الناصر إلى أخيه صلاح الدين يمنعه من ذلك فمنعه ولما توفي ملك مكانه ابنه إسماعيل وبلغ المعز وكان أهوج فانتسب في بني أمية وادعى الخلافة وتلقب بالهادي ولبس الخضرة وبعث إليه عمه العادل بالملامة والتوبيخ فلم يقبل وأساء السيرة في رعيته وأهل دولته فوثبوا به وقتلوه.

وتولى ذلك سيف الدين سنقر مولى أبيه ونصب أخاه الناصر سنة ثمان وتسعين فأقام بأمره ثم هلك سنقر لأربع سنين من دولته وقام مكانه غازي بن جبريل من أمرائهم وتزوج أم الناصر ثم قتل الناصر مسموماً وثار العرب منه بغازي المذكور وبقي أهل اليمن فوضى واستولى على طغان وبلاد حضرموت محمد بن محمد الحميري واستبدت أم الناصر وملكت زبيد وبعثت في طلب أحد من بني أيوب تملكه على اليمن وكان للمظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه وقيل لابنه سعد الدين شاهنشاه ابن اسمه سليمان ترهب ولبس المسوح ولقيه بالموسم بعض غلمانها وجاءته فتزوجته وملكته اليمن والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير العادل إلى الجزيرة وحصاره ماردين

كان نور الدين أرسلان شاه مسعود صاحب الموصل قد وقع بينه وبين قطب الدين محمد ابن عمه عماد الدين زنكي صاحب نصيبين والخابور والرقة وبين أبيه عماد الدين قبله فتنة بسبب الحدود في تخوم أعمالهم فسار نور الدين إليه في عساكره وملك منه نصيبين ولحق قطب الدين بحران والرها إيالة العادل بن أيوب وبعث إليه بالصريخ وهو بدمشق وبذل له الأموال في إنجاده فسار العادل إلى حران وارتحل نور الدين من نصيبين إلى الموصل وسار قطب الدين إليها فملكها وسار العادل إلى ماردين في رمضان من السنة فحاصرها وكان صاحبها حسام الدين بولو أرسلان بن أبي الغازي بن ألبا بن تمرتاش أبي الغازي بن أرتق وهو صبي وكافله مولى النظام برتقش مولى أبيه والحكم له ودام حصاره عليها وملك الربض وقطع الميرة عنها ثم رحل عنها في العام القابل كما تقدم في أخبار دولة زنكي والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

وفاة العزيز صاحب مصر وولاية أخيه الأفضل

ثم توفي العزيز عثمان بن صلاح الدين آخر محرم سنة خمس وتسعين وكان فخر الدين أياس جهاركس مولى أبيه مستبداً عليه فأرسل العادل بمكانه من حصار ماردين يستدعيه للملك وكان جهاركس هذا مقدم موالي صلاح الدين وكانوا منحرفين عن الأفضل وكان موالي صلاح الدين شيركوه: والأكراد شيعة له وجمعهم جهاركس لينظر في الولاية وأشار بتولية ابن العزيز فقال له سيف الدين أيازكوش مقدم موالي شيركوه لا يصلح لذلك لصغره إلا أن يكفله أحد من ولد صلاح الدين لأن رياسة العساكر صنعة. واتفقوا على الأفضل ثم مضوا إلى القاضي الفاضل فأشار بذلك أيضاً وأرسل أياز كوس يستدعيه من صرخد فسار آخر صفر من السنة.

ولقيه الخبر في طريقه بطاعة القدس له وخرج أمراء مصر فلقوه ببلبيس وأضافه أخوه المؤيد مسعود وفخر الدين جهاركس مدبر دولة العزيز فقدم أخاه وارتاب جهاركس واستأذنه في المسير ليصلح بين طائفتين من العرب اقتتلا فأذنه فسار فخر الدين إلى القدس وتملكه ولحقه جماعة من موالي صلاح الدين منهم: قراجا الذكرمس وقراسنقر وجاءهم ميمون القصري فقويت شوكتهم به واتفقوا على عصيان الأفضل وأرسلوا إلى الملك العادل يستدعونه فلم يعجل لإجابتهم لطمعه في أخذ ماردين وارتاب الأفضل بموالي صلاح الدين وهم: شقيرة وأنبك مطيش وألبكي ولحق جماعة منهم بأصحابهم بالقدس وأرسل الأفضل إليهم في العود على ما يختارونه فامتنعوا وأقام هو بالقاهرة وقرر دولته وقدم فيها سيف الدين أياز كوش والملك لابن أخيه العزيز عثمان وهو كافل له لصغره وانتظمت أمورهم على ذلك انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار الأفضل دمشق وعودته عنها

ولما انتظمت الأمور للأفضل بعث إليه الظاهر غازي صاحب حلب وابن عمه شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يغريانه بملك دمشق لغيبة العادل عنها في حصار ماردين ويعدانه المظاهرة فسار من منتصف السنة ووصل إلى دمشق منتصف شعبان وسبقه العادل إليها وترك العساكر مع ابنه الكامل على ماردين ولما نزل الأفضل على دمشق وكان معه الأمير مجد الدين أخو عيسى الهكاري فداخل قوماً من الأجناد في دمشق في أن يفتحوا له باب السلامة ودخل منه هو والأفضل سراً وانتهوا إلى باب البريد ففطن عسكر العادل لقلتهم وانقطاع مددهم فتراجعوا وأخرجوهم ونزل الأفضل بميدان الحصار وضعف أمره واعصوصب الأكراد من عساكره فارتاب بهم الآخرون وانحازوا عنهم في المعسكر ووصل شيركوه صاحب حمص ثم الظاهر صاحب حلب آخر شعبان وأول رمضان لمظاهرة الأفضل وأرسل العادل إلى موالي صلاح الدين بالقدس فساروا إليه وقوي بهم ويئس الأفضل وأصحابه وخرج عساكر دمشق ليبيتوهم فوجدوهم حذرين فرجعوا وجاء الخبر إلى العادل بوصول ابنه محمد الكامل إلى حران فاستدعاه ووصل منتصف صفر سنة ست وتسعين فعند ذلك رحلت العساكر عن دمشق وعاد كل منهم إلى بلاده انتهى والله أعلم.

إفراج الكامل عن ماردين

قد كان تقدم لنا مسير العادل إلى ماردين وسار معه صاحب الموصل وغيره من ملوك الجزيرة وديار بكر وفي نفوسهم غصص من تغلب العادل على ماردين وغلبهم فلما عاد العادل إلى دمشق لمدافعة الأفضل وترك ابنه الكامل على حصار ماردين واجتمع ملوك الجزيرة وديار بكر على مدافعته عنها وسار نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار وابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار وابن عمه قطب الدين سنجار شاه بن غازي صاحب جزيرة ابن عمر واجتمعوا كلهم ببدليس حتى قضوا عيد الفطر وارتحلوا سادس شوال وقاربوا جبل ماردين وكان أهل ماردين قد اشتد عليهم الحصار وبعث النظام برتقش صاحبها إلى الكامل بتسليم القلعة على شروط اشترطها إلى أجل ضربه وأذن لهم الكامل في إدخال الأقوات في تلك المدة.

ثم جاءه الخبر بوصول صاحب الموصل ومن معه فنزل القائم للقائهم وترك عسكراً بالربض وبعث قطب الدين صاحب سنجار إلى الكامل ووعده بالانهزام فلم يغن ولما التقى الفريقان حمل صاحب الموصل عليهم مستميتاً فانهزم الكامل وصعد إلى الربض فوجد أهل ماردين قد غلبوا عسكره الذين هنالك ونهبوا مخلفهم فارتحل الكامل منتصف شوال مجفلاً ولحق بميافارقين وانتهب أهل ماردين مخلفه ونزل صاحبها فلقي صاحب الموصل وعاد إلى قلعته وارتحل صاحب الموصل إلى رأس عين لقصد حلوان والرها وبلاد الجزيرة من بلاد العادل فلقيه هنالك رسول الظاهر صاحب حلب يطلبه في السكة والخطبة فارتاب لذلك وكان عازماً على نصرتهم فقعد عنهم وعاد إلى الموصل وأرسل إلى الأفضل والظاهر يعتذر بمرض طرقه وهم يومئذ على دمشق ووصل الكامل من ميافارقين إلى حران فاستدعاه أبوه من دمشق وسار إليه في العساكر فأفرج عنه الأفضل والظاهر والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء العادل على مصر

ولما رحل الأفضل والظاهر إلى بلادهم تجهز العادل إلى مصر وأغراه موالي صلاح الدين بذلك واستحلفوه على أن يكون ابن العزيز ملكاً وهو كافله وبلغت الأخبار بذلك إلى الأفضل وهو في بلبيس فسار منها ولقيهم فانهزم لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ست وتسعين ودخل القاهرة ليلاً وحضر الصلاة على القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني توفي تلك الليلة وسار العادل لحصار القاهرة وتخاذل أصحاب الأفضل عنه فأرسل إلى عمه في الصلح وتسليم الديار المصرية له على أن يعوضه دمشق أو بلاد الجزيرة وهي: حران والرها وسروج فلم يجبه وعوضه ميافارقين وجبال نور وتحالفوا على ذلك وخرج الأفضل من القاهرة ثامن عشر ربيع واجتمع بالعادل وسار إلى بلده صرخد.

ودخل العادل القاهرة من يومه ولما وصل الأفضل صرخد بعث من يتسلم البلاد التي عوضه العادل وكان بها ابنه نجم الدين أيوب فامتنع من تسليم ميافارقين وسلم ما عداها وردد الأفضل رسله في ذلك إلى العادل فزعم أن ابنه عصاه فعلم الأفضل أنه أمره واستفحل العادل في مصر وقطع خطبة المنصور بن العزيز وخطب لنفسه واعترض الجند ومحصهم بالمحو والإثبات فاستوحشوا لذلك وبعث العادل فخر الدين جهاركس مقدم موالي صلاح الدين في عسكر إلى بانياس ليحاصرها ويملكها لنفسه

ففصل من مصر للشام في جماعة الموالي الصلاحية وكان بها الأمير بشارة من أمراء الترك ارتاب العادل بطاعته فبعث العساكر إليه مع جهاركس والله تعالى أعلم.

مسير الظاهر والأفضل إلى حصار دمشق

ولما قطع العادل خطبة المنصور بن العزيز بمصر استوحش الأمراء لذلك ولما كان منه في اعتراض الجند فراسلوا الظاهر بحلب والأفضل بصرخد أن يحاصرا دمشق فيسير إليهما الملك العادل فيتأخرون عنه بمصر ويقومون بدعوتهما ونمي الخبر إلى العادل وكتب به إليه الأمير عز الدين أسامة جاء من الحج ومر بصرخد فلقيه الأفضل ودعاه إلى أمرهم وأطلعه على ما عنده فكتب به إلى العادل وأرسل العادل إلى ابنه المعظم عيسى بدمشق يأمره بحصار الأفضل بصرخد وكتب إلى جهاركس بمكانه من حصار بانياس وإلى ميمون القصري صاحب بانياس بالمسير معه إلى صرخد ففر منها الأفضل إلى أخيه الظاهر بحلب فوجده يتجهز لأنه بعث أميراً من أمرائه إلى العادل فرده من طريقه فسار إلى منبج فملكها ثم قلعة نجم كذلك وذلك سلخ رجب من سنة سبع وتسعين.

وسار المعظم بقصد صرخد وانتهى إلى بصرى وبعث عن جهاركس والذين معه على بانياس فغالطوه ولم يجيبوه فعاد إلى دمشق وبعث إليهم الأمير أسامة يستحثهم فأغلظوا له في القول وتناوله البكاء منهم وثاروا به جميعاً فتذمم لميمون القصري منهم فأمنه وعاد إلى دمشق ثم ساروا إلى الظاهر حضر به صلاح الدين وأنزله من صرخد واستحثوا الظاهر والأفضل للوصول فتباطأ الظاهر عنهم وسار من منبج إلى حماة فحاصرها حتى صالحه صاحبها ناصر الدين محمد على ثلاثين ألف دينار صورية فارتحل عنها تاسع رمضان إلى حمص ومعه أخوه الأفضل ومنها إلى بعلبك وإلى دمشق ووافاه هنالك الموالي الصلاحية مع الظاهر خضر بن مولاهم وكان الوفاق بينهم إذا فتحوا دمشق أن تكون بيد الأفضل فإذا ملكوا مصر سار إليها وبقيت للظاهر وأقطع الأفضل صرخد لمولى أبيه زين الدين قراجا وأخرجا أهله منها إلى حمص عند شيركوه بن محمد شيركوه وكان العادل قد سار من مصر إلى الشام فانتهى إلى نابلس وبعث عسكراً إلى دمشق ووصلوا قبل وصول هذه العساكر فلما وصلوها قاتلوها يوماً وثانية منتصف ذي القعدة وأشرفوا على أخذها فبعث الظاهر إلى الأفضل بأن دمشق تكون له فاعتذر بأن أهله في غير مستقر ولعلهم يأوون إلى دمشق في خلال ما يملك مصر فلجّ الظاهر في ذلك وكان الموالي الصلاحية مشتملين على الأفضل وشيعة له فخيرهم بين المقام والانصراف ولحق فخر الدين جهاركس وقراجا بدمشق فامتنعت عليهم وعادوا إلى تجديد الصلح مع العادل على أن يكون للظاهر منبج وأفامية وكفر طاب وبعض قرى المعرّة والأفضل له سميساط وسروج ورأس عين وحملين فتم ذلك بينهم ورحلوا عن دمشق في محرم سنة ثمان وتسعين.

وسار الظاهر إلى حلب والأفضل إلى حمص فأقام بها عند أهله ووصل العادل إلى دمشق في تاسوعاء وجاء الأفضل فلقيه بظاهر دمشق وعاد إلى بلاده فتسلمها وكان الظاهر والأفضل لما فصلا من منبج إلى دمشق بعثا إلى نور الدين صاحب الموصل أن يقصد بلاد العادل بالجزيرة وكانت بينه وبينهما وبين صاحب ماردين يمين واتفاق على العادل منذ ملك مصر مخافة أن يطرق أعمالهم فسار نور الدين عن الموصل في شعبان ومعه ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار وعسكر ماردين ونزلوا رأس عين وكان بحران الفائز بن العادل في عسكر يحفظ أعمالهم بالجزيرة فبعث إلى نور الدين في الصلح ووصل الخبر بصلح العادل مع الظاهر والأفضل فأجابهم نور الدين إلى الصلح واستخلفوا وبعث أرسلان من عنده إلى العادل فاستحلفوه أيضاً وصحت الحال والله تعالى ولي التوفيق.

حصار ماردين ثم الصلح بين العادل والأشرف

ثم بعث الملك العادل ابنه الأشرف موسى في العساكر لحصار ماردين فسار إليها ومعه عساكر الموصل وسنجار ونزلوا بالحريم تحت ماردين وسار عسكر من قلعة البازغية من أعمال ماردين لقطع الميرة عن عسكر الأشرف فلقيهم جماعة من عسكر الأشرف وهزموهم وأفسد التركمان السابلة في تلك النواحي وامتنع على الأشرف قصده فتوسط الظاهر غازي في الإصلاح بينهم على أن يحمل صاحب ماردين للعادل مائة وخمسين ألف دينار والدينار أحد عشر قيراطاً من الأميري ويخطب له ببلاده ويضرب السكة باسمه وتعسكر طائفة من جنده متى دعاهم لذلك فأجاب العادل وتم الصلح بينهما ورحل الأشرف عن ماردين والله أعلم.

أخذ البلاد من يد الأفضل

قد كان تقدم أن الظاهر والأفضل لما صالحا العادل سنة سبع وتسعين أخذ الأفضل سميساط وسروج ورأس عين وحملين وكانت بيده معها قلعة نجم التي ملكها الظاهر بين يدي الحصار قبل الصلح ثم استرد العادل البلاد من يد الأفضل سنة تسع وتسعين وأبقى له سميساط وقلعة نجم فطلب الظاهر قلعة نجم على أن يشفع له عند العادل في رد ما أخذ منه فلم يجب فتهدده ولم تزل الرسل تتردد بينهما حتى سلمها إليه في شعبان من السنة وبعث الأفضل أمه إلى العادل في رد سروج ورأس عين عليهم فلم يشفعها فبعث الأفضل إلى ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم بطاعته وأن يخطب له فبعث إليه بالخلعة وخطب له الأفضل في سميساط سنة ستمائة وسار من جملة نوابه في أعماله وفي سنة تسع وتسعين هذه خاف على مصر محمود بن العزيز صاحب مصر بعث العساكر إلى الرها لأنه لما قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين خاف على مصر من شيعة أبيه فأخرجه سنة ثمان وتسعين إلى دمشق ثم نقله في هذه السنة إلى الرها ومعه إخوته وأمه وأهله فأقاموا بها والله أعلم.

واقعة الأشرف مع صاحب الموصل

كانت الفتنة متصلة بين نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وبين ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار واستمال العادل بن أيوب قطب الدين فخطب له بأعماله وسار إليه نور الدين غيرة من ذلك فحاصر نصيبين في شعبان من سنة ستمائة وبعث قطب الدين يستمد الأشرف موسى بن العادل وهو بحران فسار إلى رأس عين لإمداده ومدافعة نور الدين عنه بعد أن اتفق على ذلك مع مظفر الدين صاحب أربل وصاحب جزيرة ابن عمر وصاحب كيفا وآمد ففارق نور الدين نصيبين وسار إليها الأشرف وجاءه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب كيفا وصاحب الجزيرة وساروا جميعاً إلى بلد البقعا ونور الدين صاحب الموصل قد انصرف من تل أعفر وقد ملكها إلى كفر رمان معتزماً على مطاولتهم إلى أن يفترقوا ثم أغراه بعض مواليه كان بعثه عيناً عليهم فقلّلهم في عينه وحرضه على معاجلتهم باللقاء فسار إلى نوشرا ونزل قريباً منهم ثم ركب لقتالهم واقتتلوا فانهزم نور الدين ولحق بالموصل ونزل الأشرف وأصحابه كفر رمان وعاثوا في البلاد واكتسحوها وترددت الرسل بينهم في الصلح على أن يعيد نور الدين على قطب الدين قلعة تل أعفر التي أخذها له فتم ذلك سنة إحدى وستمائة وعاد إلى بلده والله تعالى أعلم.

وصول الإفرنج إلى الشام والصلح معهم

ولما ملك الإفرنج القسطنطينية من يد الروم سنة إحدى وستمائة تكالبوا على البلاد ووصل جمع منهم إلى الشام وأرسوا بعكا عازمين على ارتجاع القدس من المسلمين ثم ساروا في نواحي الأردن فاكتسحوها وكان العادل بدمشق استنفر العساكر من الشام ومصر وسار فنزل بالطور قريباً من عكا لمدافعتهم وهم قبالته بمرج عكا وساروا إلى كفركنا فاستباحوه.

ثم انقضت سنة إحدى وستمائة وتراسلوا في المهادنة على أن ينزل لهم العادل عن كثير من مناصف الرملة وغيرها ويعطيهم وتم ذلك بينهم وسار العادل إلى مصر فقصد الإفرنج حماة وقاتلهم صاحبها ناصر الدين محمد فهزموه وأقاموا أياماً عليها ثم رجعوا والله تعالى أعلم.

غارة ابن ليون على أعمال حلب

قد تقدم لنا ذكر ابن ليون ملك الأرمن وصاحب الدروب فأغار سنة اثنتين وستمائة على أعمال حلب واكتسحها واتصل ذلك منه فجمع الظاهر غازي صاحب حلب ونزل على خمسة فراسخ من حلب وفي مقدمته ميمون القصري من موالي أبيه منسوباً إلى قصر الخلفاء بمصر ومنه كان أبوه وكان الطريق إلى بلاد الأرمن متعذراً من حلب لتوعر الجبال وصعوبة المضايق وكان ابن ليون قد نزل في طرف بلاده لما يلي حلب ومن ثغورها قلعة دربساك فخشي الظاهر عليها منه وبعث إليها مدداً وأمر ميمون القصري أن يشيعه بطائفة من عسكره ففعل وبقي في خف الجند ووصل خبره إلى ابن ليون فكبس القصري ونال منه ومن المسلمين وانهزموا أمامه فظفر بمخلفهم ورجع فلقي في طريقه المدد الذي بعث إلى دربساك فهزمهم وظفر بما كان معهم وعاد الأرمن إلى بلادهم فاعتصموا بحصونهم والله تعالى أعلم.

استيلاء نجم الدين بن العادل على خلاط

كان العادل قد استولى على ميافارقين وأنزل بها ابنه الأوحد نجم الدين ثم استولى نجم الدين على حصون من أعمال خلاط وزحف إليها سنة ثلاث وستمائة وقد استولى عليها بليان مولى شاهرين فقاتله وهزمه وعاد إلى ميافارقين فهزمهم.

ثم دخلت سنة أربع وستمائة وملك مدينة سوس وغيرها وأمده أبوه العادل بالعساكر فقصد خلاط وسار إليه يليان فهزمه نجم الدين وحاصره بخلاط وبعث يليان إلى مغيث الدين طغرل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم يستنجده فجاء في عساكره واجتمع مع يليان وانهزم نجم الدين ونزلا على مدينة تلبوس فحاصراها ثم غدر طغرل شاه بيليان وقتله وسار إلى خلاط ليملكها فطرده أهلها فسار إلى ملاذكرد فامتنعت عليه فعاد إلى بلاده.

وأرسل أهل خلاط إلى نجم الدين فملكوه خلاط وأعمالها وخافه الملوك المجاورون له وملك الكرك وتابعوا الغارات على بلاده فلم يخرج إليهم خشية علي خلاط واعتزل جماعة من عسكر خلاط فاستولوا على حصن وإن من أعظم الحصون وأمنعها فعصوا على نجم الدين واجتمع إليهم جمع كثير وملكوا مدينة أرجيش واستمد نجم الدين على خلاط وأعمالها وعاد أخوه الأشرف إلى أعماله بحران والرها ثم سار الأوحد نجم الدين إلى ملاذكرد ليرتب أحوالها فوثب أهل خلاط على عسكره فأخرجوهم وحصروا أصحابه بالقلعة ونادوا بشعار بني شاهرين وعاد نجم الدين إليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوي بهم وحاصر خلاط واختلف أهلها فملكها واستلحم أهلها وحبس كثيراً من أعيانها كانوا فارين وذل أهل خلاط لبني أيوب بعد هذه الوقعة إلى آخر الدولة والله تعالى أعلم.

غارات الإفرنج بالشام

كان الإفرنج بالشام قد أكثروا الغارات سنة أربع وستمائة بحشد ثان ثم ملكوا القسطنطينية واستفحل ملكهم فيها فأغار أهل طرابلس وحصن الأكراد منهم على حمص وأعمالها وعجز صاحبها شيركوه بن محمد شيركوه عن دفاعهم واستنجد عليهم فانجده الظاهر صاحب حلب بعسكر أقاموا عنده للمدافعة عنه وأغار أهل قبرص في البحر على أسطول مصر فظفروا منه بعدة قطع وأسروا من وجدوا فيها وبعث العادل إلى صاحب عكا يحتج عليه بالصلح فاعتذر بأن أهل قبرص في طاعة الإفرنج الذين بالقسطنطينية وأنه لا حكم له عليهم فخرج العادل في العساكر إلى عكا حتى صالحه صاحبها على إطلاق أسرى من المسلمين ثم سار إلى حمص ونازل القلعتين عند بحيرة قدس ففتحه وأطلق صاحبه وغنم ما فيه وخربه وتقدم إلى طرابلس فاكتسح نواحيها اثني عشر يوماً وعاد إلى بحيرة قدس وراسله الإفرنج في الصلح فلم يجبهم وأظله الشتاء فأذن لعساكر الجزيرة في العود إلى بلادهم وترك عند صاحب حمص عسكراً أنجده بهم وعاد إلى دمشق فشتى بها والله أعلم.

غارات الكرج على خلاط وأعمالها وملكهم أرجيش

ولما ملك الأوحد نجم الدين خلاط كما مر ردد الكرج الغارات على أعمالها وعاثوا فيها ثم ساروا سنة خمس وستمائة إلى مدينة أرجيش فحاصروها وملكوها عنوة واستباحوها وخربوها وخام نجم الدين عن لقائهم ومدافعتهم إلى أن انتقض عليه أهل خلاط لما فارقها ووقع بينه وبينهم ما مر ثم سار الكرج سنة تسع إلى خلاط وحاصروها وحاربهم الأوحد وهزمهم وأسر ملكهم ثم فاداه بمائة ألف دينار وخمسة آلاف أسير وعلى الهدنة مع المسلمين وأن يزوج بنته من الأوحد فانعقد ذلك والله تعالى أعلم بغيبه.

استيلاء العادل على الخابور ونصيبين من عمل سنجار وحصارها

قد تقدم لنا أن قطب الدين زنكي بن محمود بن مودود صاحب سنجار والخابور ونصيبين وما إليها كانت بينه وبين ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وفتنة متصلة وزوج نور الدين صاحب الموصل بنته من ابن العادل بن أيوب سنة خمس وستمائة واتصل بهما لذلك فزين له وزراؤه وأهل دولته أن يستنجد بالعادل على جزيرة ابن عمر وأعمالها التي لابن عمه سنجار شاه بن غازي بن مودود فتكون الجزيرة بكمالها مضافة إلى الموصل وملك العادل سنجار وما إليها وهي ولاية قطب الدين فتكون له فأجاب العادل إلى ذلك ورآه ذريعة إلى ملك الموصل وأطمع نور الدين في إيالة قطب الدين إذا ملكها تكون لابنه الذي هو صهره على ابنته وتكون عنده بالموصل.

وسار العادل بعساكره سنة ست وستمائة وقصد الخابور فملكه فتبين لنور الدين صاحب الموصل حينئذ انه لا مانع منه وندم على ما فرط في رأيه من وفادته ورجع إلى الاستعداد للحصار وخوفه الوزراء والحاشية أن ينتقض على العادل فيبدأ به وسار العادل من الخابور إلى نصيبين فملكها وقام بمدافعته عن قطب الدين وحماية البلد من الأمير أحمد بن برتقش مولى أبيه

وشرع نور الدين صاحب سنجار ابنه مظفر الدين يستشفع به إلى العادل لمكانه منه وأثره في موالاته فشفع ولم يشفعه العادل فراسل نور الدين صاحب الموصل في الاتفاق على العادل فأجابه.

وسار بعساكره من الموصل واجتمع مع نور الدين بظاهرها واستنجد بصاحب حلب الظاهر وصاحب بلاد الروم كنخسرو وتداعوا على الحركة إلى بلاد العادل إن امتنع من الصلح والإبقاء على صاحب سنجار وبعثوا إلى الخليفة الناصر أن يأمر العادل فبعث إليه أستاذ داره أبا نصر هبة اللّه بن المبارك بن الضحاك والأمير أقباش من خواص مواليه فأجاب إلى ذلك ثم غالطهم وذهب إلى المطاولة ثم صالحهم على سنجار فقط وله ما أخذ وتحالفوا على ذلك وعاد كل إلى بلده ثم قبض المعظم عيسى سنة عشر وستمائة على الأمير أسامة بأمر أبيه العادل وأخذ منه حصن كوكب وعجلون وكانا من أعماله فخرّ بهما وحصن أردن بالكوكب وبني مكانه حصناً قرب عكا على جبل الطور وشحنه بالرجال والأقوات واللّه تعالى أعلم.

وفاة الظاهر صاحب حلب وولاية ابنه العزيز

لما توفي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين بن أيوب صاحب حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام في جمادى الأخيرة سنة ثلاث عشرة وكان مرهف الحد ضابطاً جمّاعة للأموال شديد الانتقام محسناً للقضاة وعهد بالملك لابنه الصغير محمد بن الظاهر وهو ابن ثلاث سنين وعدل عن الكبير لأن أمه بنت عمه العادل ولقبه العزيز غياث الدين وجعل أتابكه وكافله وخادمه طغرلبك ولقبه شهاب الدين وكان خيراً صاحب إحسان ومعروف فأحسن كفالة الولد وعدل في سيرته وضبط الإيالة بجميل نظره واللّه أعلم.

ولاية مسعود بن الكامل على اليمن

ولما ملك سليمان بن المظفر على اليمن سنة تسع وتسعين وخمسمائة أساء إلى زوجته أم الناصر التي ملكته وضارها وأعرض عنها واستبد بملكه وملأ الدنيا ظلماً وأقام على ذلك ثلاث عشرة سنة ثم انتقض على العادل وأساء معاملته وكتب إليه بعض الأحيان:أنه من سليمان وأنه بسم اللّه الرحمن الرحيم فكتب العادل إلى ابنه الكامل أن يبعث العساكر إلى اليمن مع وال من قبله فبعث ابنه المسعود يوسف واسمه بالتركي أقسنس في العساكر سنة اثنتي عشرة وستمائة فملك اليمن وقبض على سليمان شاه وبعث به معتقلاً إلى مصر فلم يزل بها إلى أن استشهد في حروب دمياط مع الإفرنج أعوام تسع وأربعين.

وطالت أيام مسعود باليمن وحج سنة تسع عشرة وقدم أعلام أبيه على أعلام الخليفة الناصر فكتب الناصر يشكوه إلى أبيه فكتب إليه أبوه الكامل: برئت من العادل يا أخس إن لم أقطع يمينك فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك ولا حول ولا قوة إلا باللّه. فاستعتب إلى أبيه وأعتبه ثم غلب سنة ست وعشرين على مكة من يد الحسن بن قتادة سيد بني أدريس بن مطاعن من بني حسن وولى عليها وعاد إلى اليمن فهلك بقية السنة وغلب على أمر اليمن بعده علي بن رسول أستاذ داره ونصب للملك ابنه الأشرف موسى وكفله ثم هلك موسى واستبد ابن رسول باليمن وأورثه بنيه فكانت لهم دولة اتصلت لهذا العهد كما نذكره في أخبارها إن شاء اللّه تعالى.

وصول الإفرنج من وراء البحر إلى سواحل الشام ومسيرهم إلى دمياط وحصارها واستيلاؤهم عليها

كان صاحب رومة أعظم ملوك الإفرنج بالعدوة الشمالية من البحر الرومي وكانوا كلهم يدينون بطاعته وبلغه اختلاف أحوال الإفرنج بساحل الشام وظهور المسلمين عليهم فانتدب إلى إمدادهم وجهز إليهم العساكر فامتثلوا أمره من إيالته وتقدم إلى ملوك الإفرنج أن يسيروا بأنفسهم أو يرسلوا العساكر فامتثلوا أمره وتوافت الأمداد إلى عكا من سواحل الشام سنة أربع عشرة وسار العادل من مصر إلى الرملة وبرز الإفرنج من عكا ليصدوه فسار إلى نابلس يسابقهم إلى أطراف البلاد ويدافعُهم عنها فسبقوه ونزل هو على بيسان من الأردن وزحف الإفرنج لحربه في شعبان من السنة وكان في خف من العساكر فخام عن لقائهم ورجع إلى دمشق ونزل مرج الصفر واستدعى العساكر ليجمعها وانتهب الفرنج مخلفه في بيسان واكتسحوا ما بينها وبين بانياس ونزلوا بانياس ثلاثاً ثم عادوا إلى مرج عكا بعد أن خربوا تلك الأعمال وامتلأت أيديهم من نهبها وسباياها ثم ساروا إلى صور ونهبوا صيدا والشقيف على فرسخين من بانياس وعادوا إلى عكا بعد عيد الفطر ثم حاصروا حصن الطور على جبل قريب من عكا كان العادل اختطها فحاصروها سبعة عشر يوماً وقتل عليها بعض

ملوكهم فرجعوا عنها وبعث العادل ابنه المعظم عيسى إلى حصن الطور فخربها لئلا يملكها الإفرنج ثم سار الإفرنج من عكا في البحر إلى دمياط وأرسوا بسواحلها في صفر والنيل بينهم وبينها وكان على النيل برج حصين تمر منه إلى سور دمياط سلاسل من حديد محكمة تمنع السفن من البحر الملح أن تصعد في النيل إلى مصر فلما نزل الإفرنج بذلك الساحل خندقوا عليهم وبنوا سوراً بينهم وبين الخندق وشرعوا في حصار دمياط واستكثروا من آلات الحصار.

وبعث العادل إلى ابنه الكامل بمصر أن يخرج في العساكر ويقف قبالتهم ففعل وخرج من مصر في عساكر المسلمين فنزل قريباً من دمياط بالعادلية وألح الإفرنج على قتال ذلك البرج أربعة أشهر حتى ملكوه ووجدوا السبيل إلى دخول النيل ليتمكنوا من النزول على دمياط فبنى الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً يمانع الداخلين إلى النيل فقاتلوا عليه قتالاً شديداً حتى قطعوه فأمر الكامل بمراكب مملوءة بالحجارة وخرقوها وراء الجسر تمنع المراكب من الدخول إلى النيل فعدل الإفرنج إلى الخليج الأزرق وكان النيل يجري فيه قديماً فحفروه فوق الجسر وأجروا فيه الماء إلى البحر وأصعدوا مراكبهم إلى قبالة معسكر المسلمين ليتمكنوا من قتالهم لأن دمياط كانت حاجزة بينهم فاقتتلوا معهم وهم في مراكبهم فلم يظفروا والميرة والإمداد متصلة إلى دمياط والنيل حاجز بينهم وبين الإفرنج فلا يحصل لهم من الحصار ضيق.

ثم بلغ الخبر بموت العادل فاختلف العسكر وسعى مقدم الأمراء عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن المشطوب الهكاري في خلع الكامل وولاية أخيه الأصغر الفائز ونمي الخبر إلى الكامل فأسرى من ليلته إلى أشمون طناح وتفقده المسلمون من الغد فأجفلوا ولحقوا بالكامل وخلفوا سوادهم بما فيه فاستولى عليه الإفرنج وعبروا النيل إلى البر المتصل بدمياط وجالوا بينها وبين أرض مصر وفسدت السابلة بالأعراب وانقطعت الميرة عن دمياط واشتد الإفرنج في قتالها وهي في قلة من الحامية لإجفال المسلمين عنها بغتة ولما جهدهم الحصار وتعذر عليهم القوت استأمنوا إلى الإفرنج فملكوها آخر شعبان سنة ست عشرة وبنوا سراياهم فيما جاورها فأقفروه ورجعوا إلى عمارة دمياط وتحصينها وأقام الكامل قريباً منهم لحماية البلاد وبنى المنصورة بقرب مصر عند مفترق البحر من جهة دمياط والله تعالى أعلم.

وفاة العادل واقتسام الملك بين بنيه

قد ذكرنا خبر العادل مع الإفرنج الذين جاؤوا من وراء البحر إلى سواحل الشام سنة أربع عشرة وما وقع بينه وبينهم بعكا وبيسان وأنه عاد إلى مرج الصفر قريباً من دمشق فأقام به فلما سار الإفرنج إلى دمياط انتقل هو إلى خانقين فأقام بها ثم مرض وتوفي سابع جمادى الأخيرة سنة خمس عشرة وستمائة لثلاث وعشرين سنة من ملكه دمشق وخمس وسبعين من عمره وكان ابنه المعظم عيسى بنابلس فجاء ودفنه بدمشق وقام بملكها واستأثر بمخلفه من المال والسلاح وكان لا يعبر عنه يقال: كان المال العين في سترته سبعمائة ألف دينار وكان ملكاً حليماً صبوراً مسدداً صاحب إفادة وخديعة منجمة في أحواله وكان قد قسم البلاد في حياته بين بنيه: فمصر للكامل ودمشق والقدس وطبرية والكرك وما إليها للمعظم عيسى وخلاط وما إليها وبلاد الجزيرة غير الرها ونصيبين وميافارقين للأشرف موسى والرها وميافارقين لشهاب الدين غازي وقلعة جعبر للخضر أرسلان شاه.

فلما توفي استقل كل منهم بعمله وبلغ الخبر بذلك إلى الملك الكامل بمكانه قبالة الإفرنج بدمياط فاضطرب عسكره وسعى المشطوب كما تقدم في ولاية أخيه الفائز ووصل الخبر بذلك إلى المعظم عيسى فأغذ السير من دمشق إليه بمصر وأخرج المشطوب إلى الشام فلحق بأخيهما الأشرف وصار في جملته واستقام للكامل ملكه بمصر ورجع المعظم من مصر فقصد القدس في ذي القعدة من السنة وخرب أسواره حذراً عليه من الإفرنج وملك الإفرنج دمياط كما ذكرناه وأقام الكامل قبالتهم والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

وفاة المنصوب صاحب حماة وولاية ابنه الناصر

قد تقدم لنا: أن صلاح الدين كان قد أقطع تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه مدينة حماة وأعمالها ثم بعثه إلى الجزيرة سنة سبع وثمانين فملك حران والرها وسروج وميافارقين وما إليها من بلاد الجزيرة فأقطعه إياها صلاح الدين ثم سار إلى بلاد أرمينية وقصد بكتمر صاحب خلاط وحاصرها ثم انتقل إلى حصار ملاذكرد وهلك عليها تلك السنة وتولى ابنه ناصر الدين محمد ويلقب المنصور على أعماله ثم انتزع صلاح الدين منه بلاد الجزيرة وأقطعها أخاه العادل وأبقى حماة وأعمالها بيد ناصر الدين

محمد المذكور فلم تزل بيده إلى أن توفي سنة سبع عشرة وستمائة لثمان وعشرين سنة من ولايته عليها بعد مهلك عم أبيه صلاح الدين والعادل وكان ابنه ولي عهده المظفر عند العادل بمصر وابنه الآخر قليج أرسلان عند خاله المعظم عيسى بمكانه من حصاره فاستدعاه أهل دولته بحماة واشترط المعظم عليه ما لا يحمله وأطلقه إليهم فملك حماة وتلقب الناصر وجاءه أخوه ولي العهد من مصر فدافعه أهل حماة فرجع إلى دمشق عند المعظم وكاتبهم واستمالهم فلم يجيبوه ورجع إلى مصر والله تعالى أعلم.

مسير صاحب بلاد الروم إلى حلب وانهزامه ودخولها في طاعة الأشرف

قد كنا قدمنا وفاة الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ومنبج سنة ثلاث عشرة وولاية ابنه الأصغر محمد العزيز غياث الدين في كفالة طغرل الخادم مولى أبيه الظاهر وأن شهاب الدين هذا الكامل أحسن السيرة وأفاض العدل وعف عن أموال الرعية وورد السعاية فيهم بعضهم على بعض وكان بحلب رجلان من الأشرار يكثران السعاية عند الظاهر ويغريانه بالناس ولقي الناس منهما شدة فأبعدهما شهاب الدين فيمن أبعد من أهل الشر وورد عليهما السعاية فكسدت سوقهما وتناولهما الناس بالألسنة والوعيد فلحقا ببلاد الروم وأطمعا صاحبها كيكاوس في ملك حلب وما بعدها ثم رأى أن ذلك لا يتم إلا أن يكون معه بعض بني أيوب لينقاد أهل البلاد إليه.

وكان الأفضل بن صلاح الدين بسميساط وقد دخل في طاعة كيكاوس غضباً من أخيه الظاهر وعمه العادل بما انتزعا من أعماله فاستدعاه كيكاوس وطلبه في المسير على أن يكون ما يفتحه من حلب وأعمالها للأفضل والخطبة والسكة لكيكاوس ثم يقصدون بلاد الأشرف بالجزيرة: حران والرها وما إليهما على هذا الحكم وتحالفوا على ذلك وجمعوا العساكر وساروا سنة خمس عشرة فملكوا قلعة رعبان فتسلمها الأفضل ثم قلعة باشر من صاحبها ابن بدر الدين أرزم الباروقي بعد أن كانوا حاصروها وضيقوا عليها وملكها كيكاوس لنفسه فاستوحش الأفضل وأهل البلد أن يفعل مثل ذلك في حلب.

وكان شهاب الدين كافل العزيز بن الظاهر مقيماً بقلعة حلب لا يفارقها خشية عليها فطير الخبر إلى الملك الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط لتكون طاعتهم وخطبتهم له والسكة باسمه ويأخذ من أعمال حلب ما اختار فجمع العساكر وسار إليهم سنة خمس عشرة ومعه وأميرهم نافع من خدمه وغيرهم من العرب ونزل بظاهر حلب وتوجه كيكاوس والأفضل من تل باشر إلى منبج وسار الأشرف نحوهم وفي مقدمته العرب فلقوا مقدمة كيكاوس فهزموها فلما عادوا إلى كيكاوس منهزمين أجفل إلى بلاده وسار الأشرف فملك رعبان وتل باشر وأخذ من كان بها عساكر كيكاوس وأطلقهم فلحقوا بكيكاوس فجمعهم في دار وأحرقها عليهم فهلكوا وسلم الأشرف ما ملكه من قلاع حلب لشهاب الدين الخادم كافل العزيز بحلب واعتزم على اتباع كيكاوس إلى بلاده فأدركه الخبر بوفاة أبيه العادل فرجع انتهى والله تعالى أعلم.

دخول الموصل في طاعة الأشرف وملكه سنجار

قد ذكرنا في دولة بني زنكي أن القاهر عز الدين مسعود صاحب الموصل توفي في ربيع سنة خمس عشرة وستمائة وولى ابنه نور الدين أرسلان شاه في كفالة مولى أبيه نور الدين لؤلؤ مولاه ومدبر دولته وكان أخوه عماد الدين زنكي في قلعة الصغد والسوس من أعمال الموصل بوصية أبيهما إليه بذلك وأنه بعد وفاة أخيه عز الدين طلب الأمر لنفسه وملك العمادية وظاهره مظفر الدين كوكبري صاحب إربل على شأنه فبعث نور الدين لؤلؤ إلى الأشرف موسى بن العادل والجزيرة كلها وخلاط وأعمالها في طاعته فأرسل إليه بالطاعته وكان على حلب مدافعاً لكيكاوس صاحب بلاد الروم كما نذكره بعد فأجابه الأشرف بالقبول ووعده النصر على أعدائه.

وكتب إلى مظفر الدين يقبح عليه ما وقع من نكث العهد في اليمين التي كانت بينهم جميعاً ويأمره بإعادة عماد الدين زنكي ما أخذه من بلاد الموصل وإلا فيسير بنفسه ويسترجعها ممن أخذها ويدعوه إلى ترك الفتنة والاشتغال معه بما هو فيه من جهاد الإفرنج فصمم مظفر الدين عن ندبته ووافقه صاحب ماردين وصاحب كيفا وآمد يجهز إلى الأشرف عسكراً إلى نصيبين للؤلؤ صاحب الموصل ثم جهز لؤلؤ العساكر إلى عماد الدين فهزموه ولحق بإربل عند المظفر وجاءت الرسل من الخليفة الناصر والملك الأشرف فأصلحوا بينهما وتحالفا.

ثم وثب عماد الدين زنكي إلى قلعة كواشي فملكها وبعث لؤلؤ إلى الأشرف وهو على حلب يستنجده فعبر الفرات إلى حران واستمال مظفر الدين ملوك الأطراف وحملهم على طاعة كيكاوس

والخطبة له وكان عدو الأشرف ومنازعاً له في منبج كما نذكره وبعث أيضاً إلى الأمراء الذين مع الأشرف واستمالهم فأجابه منهم أحمد بن علي المشطوب صاحب الفعلة مع الكامل على دمياط وعز الدين محمد بن نور الدين الحميدي وفارقوا الأشرف إلى دبيس تحت ماردين ليجتمعوا على منع الأشرف من العبور إلى الموصل.

ثم استمال الأشرف صاحب كيفا وآمد وأعطاه مدينة جانين وجبل الجودي ووعده بدارا إذا ملكها ولحق به صاحب كيفا وفارق أصحابه الملوك واقتدى به بعضهم في طاعة الأشرف والنزوع إليه فافترق ذلك الجمع وسار كل ملك إلى عمله وسار ابن المشطوب إلى إربل ومر بنصيبين فقاتله عساكرها وهزموه وافترق جمعه ومضى منهزماً واجتاز بسنجار وبها فروخ شاه عمر بن زنكي بن مودود فبعث إليه عسكراً فجاؤوا به أسيراً وكان في طاعة الأشرف فحبس له ابن المشطوب ثم رجاه فأطلقه وسار في جماعة من المفسدين إلى البقعاء من أعمال الموصل فاكتسحها وعاد إلى سنجار.

ثم سار ثانياً للإغارة على أعمال الموصل فأرصد له لؤلؤ عسكراً بتل أعفر من أعمال سنجار فلما مر بهم قاتلوه وصعد إلى تل أعفر منهزماً وجاء لؤلؤ من الموصل فحاصره بها شهراً أو بعضه وملكها منتصف ربيع الآخر من سنة سبع عشرة وحبس ابن المشطوب بالموصل ثم بعث به إلى الأشرف فحبسه بحران إلى أن توفي في ربيع الآخر من سنة سبع عشرة ولما افترق جمع الملوك سار الأشرف من حران محاصراً لماردين.

ثم صالحه على أن يرد عليه رأس عين وكان الأشرف أقطعه له وعلى أن يأخذ منه ثلاثين ألف دينار وعلى أن يعطي صاحب كيفا وآمد قلعة المورو من بلده ورجع الأشرف من دبيس إلى نصيبين يريد الموصل وكان عمر صاحب سنجار لما أخذ منه لؤلؤ تل أعفر تخاذل عنه أصحابه وساءت ظنونهم بنفسه لما ساء فعله في أخيه وفي غيره فاعتزم على الإلقاء باليد للأشراف وتسليم سنجار له والاعتياض عنها بالرقه وبعث رسله إليه بذلك فلحقوه في طريقه من دبيس إلى نصيبين فأجاب إلى ذلك وسلم إليه الرقة وسلم سنجار في مستهل جمادى الأولى سنة سبعة عشر وفارقها عمر فروخ شاه وإخوته بأهليهم وأموالهم.

وسار الأشرف من سنجار إلى الموصل فوصلها تاسع عشر جمادى الأولى من السنة وجاءته رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح ورد ما أخذه عماد الدين من قلاع الموصل إلى لؤلؤ ما عدا العمادية وطال الحديث في ذلك ورحل الأشرف يريد إربل ثم شفع عنده صاحب كيفا وغيره من بطانته وأنهوا إليه العساكر فأجاب إلى هذا الصلح وفسح لهم في تسليم القلاع إلى مدة ضربوها وسار عماد الدين مع الأشرف حتى يتم تسليم الباقي ورحل الأشرف عن الموصل ثاني رمضان وبعث لؤلؤ نوابه إلى القلاع فامتنع جندها من تسليمها إليهم وانقضى الأجل واستمال عماد الدين زنكي شهاب الدين غازي أخا الأشرف فاستعطف له أخاه فأطلقه ورد عليه قلعة العقروسوس وسلم لؤلؤ قلعة تل أعفر كما كانت من أعمال سنجار والله تعالى أعلم.

ارتجاع دمياط من يد الإفرنج

ولما ملك الإفرنج دمياط أقبلوا على تحصينها ورجع الكامل إلى مصر وعسكر بأطراف الديار المصرية مسلحة عليها منهم وبنى المنصورة بعد المنزلة وأقام كذلك سنين وبلغ الإفرنج وراء البحر فتحها واستيلاء إخوانهم عليها فلجوا بذلك وتوالت إمدادهم في كل وقت إليها والكامل مقيم بمكانه وتواترت الأخبار بظهور التتر ووصولهم إلى أذربيجان وأران وأصبح المسلمون بمصر والشام على تخوف من سائر جهاتهم واستنجد الكامل بأخيه المعظم صاحب دمشق وأخيه الأشرف صاحب الجزيرة وأرمينية وسار المعظم إلى الأشرف يستحثه للوصول فوجده في شغل بالفتنة التي ذكرناها فعاد عنه إلى أن انقضت تلك الفتنة.

ثم تقدم الإفرنج من دمياط بعساكرهم إلى جهة مصر وأعاد الكامل خطابه إليهما سنة ثماني عشرة يستنجدهما وسار المعظم إلى الأشرف يستحثه فجاء معه إلى دمشق وسار منها إلى مصر ومعه عساكر حلب والناصر صاحب حماة وشيركوه صاحب حمص والأمجد صاحب بعلبك فوجدوا الكامل على بحر أشمون وقد سار الإفرنج من دمياط بجموعهم ونزلوا قبالته بعدوة النيل وهم يرمون على معسكره بالمجانيق والناس قد أشفقوا من الإفرنج على الديار المصرية فسار الكامل وبقي أخوه الأشرف بمصر.

وجاء المعظم بعد الأشرف وقصد دمياط يسابق الإفرنج ونزل الكامل والأشرف وظفرت شواني المسلمين بثلاث قطع من شواني الإفرنج فغنموها بما فيها ثم ترددت الرسل بينهم في تسليم دمياط على أن يأخذوا القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين غير الكرك فاشتطوا واشترطوا إعادة الكرك والشوبك وزيادة ثلثمائة ألف دينار لرم أسوار القدس التي خربها المعظم والكامل فرجع المسلمون إلى قتالهم وافتقد الإفرنج الأقوات لأنهم لم يحملوها من دمياط ظنّاً

بأنهم غالبون على السواد وميرته بأيديهم فبدا لهم ما لم يحتسبوا.

ثم فجر المسلمون النيل إلى العدوة التي كانوا عليها فركبها الماء ولم يبق لهم إلا مسلك ضيق ونصب الكامل الجسور عند أشمون فعبرت العساكر عليها وملكوا ذلك المسلك وحالوا بين الإفرنج وبين دمياط ووصل إليهم مركب مشحون بالمدد من الميرة والسلاح ومعه حراقات فخرجت عليها شواني المسلمين وهي في تلك الحال فغنموها بما فيها واشتد الحال عليهم في معسكرهم وأحاطت بهم عساكر المسلمين وهم في تلك الحال يقاتلونهم ويتخطفونهم من كل جانب فأحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأرادوا الاستماتة في العود فرأوا ما حال بينهم وبينها من الرجل فاستأمنوا إلى الكامل والأشرف على تسليم دمياط من غير عوض وبينما هم في ذلك وصل المعظم صاحب دمشق من جهة دمياط كما مر فازدادوا وهناً وخذلاناً وسلموا دمياط منتصف سنة ثمان عشرة وأعطوا عشرين ملكاً منهم رهناً عليها وأرسلوا الأقسة والرهبان منهم إلى دمياط فسلموها للمسلمين وكان يوماً مشهوداً ووصلهم بعد تسليمها مدد من وراء البحر فلم يغن عنهم ودخلها المسلمون وقد حصنها الإفرنج فأصبحت من أمنع حصون الإسلام والله تعالى أعلم.

وفاة الأوحد نجم الدين بن العادل صاحب خلاط وولاية أخيه الظاهر غازي عليها

قد تقدم لنا أن الأوحد نجم الدين بن العادل ملك ميافارقين وبعدها خلاط وأرمينية سنة ثلاث وستمائة ثم توفي سنة سبع فأقطع العادل ما كان بيده من الأعمال لأخيه الأشرف ثم أقطع العادل ابنه الظاهر غازي سنة ست عشرة سروج والرها وما إليها ولما توفي العادل واستقل ولده الأشرف بالبلاد الشرقية عقد لأخيه غازي على خلاط وميافارقين مضافاً إلى ولايته من أبيه العادل وهو سروج والرها وجعله ولي عهده لأنه كان عاقراً لا يولد له وأقام على ذلك إلى أن انتقض على الأشرف عندما حدثت الفتنة بين بني العادل فانتزع أكثر الأعمال منه كما نذكره إن شاء الله تعالى.

فتنة المعظم مع أخويه الكامل والأشرف وما دعت إليه من الأحوال

كان بنو العادل الكامل والأشرف والمعظم لما توفي أبوهم قد اشتغل كل واحد منهم بأعماله التي عهد له أبوه وكان الأشرف والمعظم يرجعان إلى الكامل وفي طاعته ثم تغلب المعظم عيسى على صاحب حماة الناصر بن المنصور بن المظفر وزحف سنة تسع عشرة إلى حماة فحاصرها وامتنعت عليه فسار إلى سلمية والمعرة من أعمالها فملكها وبعث إليه الكامل صاحب مصر بالنكير والإفراج عن البلد فامتثل وأضغن ذلك عليه وأقطع الكامل سلمية لنزيله المظفر بن المنصور أخي صاحب حماة وكشف المعظم قناعه في فتنة أخويه الكامل والأشرف وأرسل إلى ملوك الشرق يدعوهم إلى المظاهرة عليهما وكان جلال الدين منكبري بن علاء الدين خوارزم شاه قد رجع من الهند بعدما غلبه التتر على خوارزم وخراسان وغزنة وعراق العجم وأجاز إلى الهند.

ثم رجع سنة إحدى وعشرين وستمائة فاستولى على فارس وغزنة وعراق العجم وأذربيجان ونزل توريز وجاور بني أيوب في أعمالهم فراسله المعظم صاحب دمشق وصالحه واستنجده على أخويه فأجابه ودعا المعظم الظاهر أخا الأشرف وعامله على خلاط والمظفر كوكبري صاحب إربل إلى ذلك فأجابوه كلهم وانتقض الظاهر غازي على أخيه الأشرف في خلاط وأرمينية وأظهر عصيانه في ولايته التي بيده فسار إليه الأشرف سنة إحدى وعشرين وغلبه على خلاط فملكها وولى عليها حسام الدين أبا علي الموصلي كان أصله من الموصل واستخدم للأشرف وترقى في خدمته إلى أن ولاه خلاط وعفا الأشرف عن أخيه الظاهر غازي وأقره على ميافارقين.

وسار المظفر صاحب إربل ولؤلؤ صاحبها في طاعة الأشرف فحاصرها وامتنعت عليه ورجع عنها وسار المعظم بنفسه من دمشق إلى حمص وصاحبها شيركوه بن محمد بن شيركوه في طاعة الكامل فحاصرها وامتنعت عليه ورجع إلى دمشق ثم سار الأشرف إلى المعظم طالباً للصلح فأمسكه عنده على أن ينحرف عن طاعة الكامل وانطلق إلى بلده فاستمر على شأنه ثم زحف جلال الدين صاحب أذربيجان سنة أربع وعشرين إلى خلاط فحاصرها مرة بعد مرة وأفرج عنها فسار حسام الدين نائبها إلى بلاد جلال الدين وملك حصونها واضطرب الحال بينهم وخشي الكامل مغبة الأمر مع المعظم بممالأته لجلال الدين والخوارزمية فاستنجد هو بالإفرنج وكاتب الإمبراطور ملكهم من وراء البحر يستحثه للقدوم على عكا في صريخه على أن ينزل له عن القدس وبلغ ذلك إلى المعظم فخشي العواقب وأقصر عن فتنته وكتب إليه يستعطفه والله تعالى أعلم.

وفاة المعظم صاحب دمشق وولاية ابنه الناصر ثم استيلاء الأشرف عليها واعتياض الناصر بالكرك

ثم توفي المعظم بن العادل صاحب دمشق سنة أربع وعشرين وولي مكانه ابنه داود ولقب بالناصر وقام بتدبير ملكه عز الدين أتابك خادم أبيه وجرى على سنن المعظم أولاً في طاعة الكامل والخطبة ثم انتقض سنة خمس وعشرين عندما طالبه الكامل بالنزول له عن حصن الشوبك فامتنع وانتقض وسار الكامل إليه في العساكر فانتهى إلى غزة وانتزع القدس ونابلس من أيديهم وولى عليها من قبله واستنجد الناصر عمه الأشرف فجاءه إلى دمشق وخرج منها إلى نابلس ثم تقدّم منها إلى الكامل ليصلح أمر الناصر معه فدعاه الكامل إلى انتزاع دمشق من الناصر له وأقطعه إياها فلم يجب الناصر إلى ذلك وعاد إلى دمشق فحاصره الأشرف.

ثم صالح الكامل ملك الإفرنج ليفرغ لأمر دمشق عن الشواغل وأمكنهم من القدس على أن يخرب سورها فاستولوا عليها كذلك وزحف الكامل إلى دمشق سنة ست وعشرين فحاصرها مع الأشرف وخاف الحصار بالناصر فنزل لهما عنها على أن يستقل بالكرك والشوبك والبلقاء فسلموا له في ذلك وسار إليها واستولى الأشرف على دمشق ونزل الكامل عن أعماله وهي حران والرها وما إليهما وبمكانهما من حصار دمشق ووصل الخبر إلى الكامل بوفاة ابنه المسعود صاحب اليمن وقد مرّ خبره والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

استيلاء المظفر بن المنصور على حماة من يد أخيه الناصر

ولما ملك الكامل دمشق شرع في إنجاد نزيله المظفر محمود بن المنصور صاحب حماة وبها أخوه الناصر وقد كاتبه بعض أهل البلد يستدعونه لملكها فجهزه بالعساكر وسار إليها فحاصرها ودسّ لمن كاتبه من أهلها فأجابوه وواعدوه ليلاً فطرقها وتسوّرها وملكها وكتب إليه الكامل أن يقطع الناصر قلعة ماردين فأقطعه إياها وانتزع الكامل منه سلميّة وأقطعها لصاحب حمص شيركوه بن محمد بن شيركوه واستقل المظفر محمود بملك حماة وفوض أمور دولته إلى حسام الدين علي بن أبي علي الهدباني فقام بها ثم استوحش منه فلحق بأبيه نجم الدين أيوب ولم تزل ماردين بيد الناصر أخي المظفر إلى سنة ثلاثين فهمّ الناصر بأن يملكها للإفرنج وشكا المظفر بذلك للكامل فأمره بانتزاعها منه ثم اعتقله الكامل إلى أن هلك سنة خمس وثلاثين انتهى والله أعلم.

استيلاء الأشرف على بعلبك من يد الأمجد وإقطاعها لأخيه إسماعيل بن العادل

كان السلطان صلاح الدين قد أقطع الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه أخي تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب قلعة بعلبك وكانت بصرى لخضر ثم صارت بعد وفاة العادل لابنه الأشرف وعليها أخوه إسماعيل بن العادل فجهزه سنة ست وعشرين إلى بعلبك وحاصر بها الأمجد حتى تسلمها منه على إقطاع أقطعه إياه وسار إسماعيل إلى دمشق فنزلها إلى أن قتله مواليه والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتنة جلال الدين خوارزم شاه مع الأشرف واستيلاؤه على خلاط

قد كنا قدمنا أن جلال الدين خوارزم شاه ملك أذربيجان وجاور أعمال بني أيوب وكان الأشرف قد ولّى على خلاط لما انتزعها من يد أخيه غازي سنة اثنتين وعشرين حسام الدين أبا علي الموصلي ثم صالح المعظم جلال الدين خوارزم شاه ودعاه إلى الفتنة مع أخويه كما قدمناه فزحف جلال الدين خوارزم شاه إلى خلاط وحاصرها مرتين ورجع عنها فسار حسام الدين إلى بلده وملك بعض حصونه وداخل زوجته التي كانت زوجة أزبك بن البهلوان وكانت مقيمة بخوي وهجرها جلال الدين وقطع عنها ما كانت تعتاده من التحكم في الدولة مع زوجها قبله فدست إلى حسام الدين نائب خلاط واستدعته هي وأهل خوي ليملكوه البلاد فسار وملك خوي وما فيها من الحصون ومدينة قرند.

وكاتبه أهل بقجوان وملكوه بلدهم وعاد إلى خلاط ونقل معه زوجة جلال الدين وهي بنت السلطان طغرل فامتعض جلال الدين لذلك ثم ارتاب الأشرف بحسام الدين نائب خلاط وأرسل أكبر أمرائه عز الدين أيبك فقبض على حسام الدين وكان عدواً له وقتله غيلة وهرب مولاه فلحق بجلال الدين ثم زحف جلال الدين في شوال سنة ست وعشرين إلى خلاط فحاصرها ونصب عليها المجانيق وقطع عنها الميرة مدة ثمانية أشهر ثم ألح عليها

بالقتال وملكها عنوة آخر جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين وامتنع أيبك وحاميتها بالقلعة واستماتوا واستباح جلال الدين مدينة خلاط وعاث فيها بما لم يسمع بمثله ثم تغلب على القلعة وأسر أيبك نائب خلاط فدفعه إلى مولى حسام الدين نائبها قبله فقتله بيده والله تعالى أعلم.

مسير الكامل في إنجاد الأشرف وهزيمة جلال الدين أمام الأشرف

ولما استولى جلال الدين على خلاط سار الأشرف من دمشق إلى أخيه الكامل بمصر يستنجده فسار معه وولى على مصر ابنه العادل ولقيه في طريقه صاحب الكرك الناصر بن المعظم وصاحب حماة المظفر بن المنصور وسائر بني أيوب وانتهى إلى سلمية وكلهم في طاعته ثم سار إلى آمد فملكها من يد مسعود بن محمد ابن الصالح بن محمد بن أرسلان بن سقمان بن أرتق وكان صلاح الدين أقطعه إياها عندما ملكها من ابن نعشان فلما نزل إليه اعتقله وملك آمد ثم انطلق بعد وفاة الكامل من الاعتقال ولحق بالتتر ثم استولى الكامل على البلاد الشرقية التي نزل له عنها الأشرف عوضاً عن دمشق وهي حران والرها وما إليهما.

ولما تسلمها ولى عليها ابنه الصالح نجم الدين أيوب وكان جلال الدين لما ملك خلاط حضر معه صاحب أرزن الروم فاغتنم لذلك علاء الدين كيقباد ملك بلاد الروم لما بينه وبين صاحب أرزن من العداوة والقرابة وخشيهما على ملكه فبعث إلى الكامل والأشرف بحران يستنجدهما ويستحث الأشرف للوصول فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار إلى علاء الدين فاجتمع معه بسيواس وسار نحو خلاط وسار جلال الدين للقائهما والتقوا بأعمال أرزنكان وتقدم عسكر حلب للقتال ومقدمهم عز الدين عمر بن علي الهكاري من أعظم الشجعان فلم يثبت لهم مصاف جلال الدين وانهزم الى خلاط فأخرج حاميته منها ولحق بأذربيجان ووقف الأشرف على خلاط وهي خاوية وكان صاحب أرزن الروم مع جلال الدين فجيء به أسيراً إلى ابن عمه علاء الدين صاحب بلاد الروم فسار به إلى أرزن وسلمها له وما يتبعها من القلاع.

ثم ترددت الرسل بينهم وبين جلال الدين في الصلح فاصطلحوا كل على ما بيده وتحالفوا وعاد الأشرف إلى سنجار وسار أخوه غازي صاحب ميافارقين فحاصر مدينة أرزن من ديار بكر وكان حاضراً مع الأشرف في هذه الحروب وأسره جلال الدين ثم أطلقه بعد أن أخذ عليه العهد في طاعته فسار إليه شهاب الدين غازي وحاصره وملك منه أرزن صلحاً وأعطاه عنها مدينة جاني من ديار بكر وكان اسمه حسام الدين وكان من بيت عريق في الملك يعرفون ببني الأحدب أقطعها لهم السلطان ملك شاه والله تعالى أعلم.

استيلاء العزيز صاحب حلب على شيزر ثم وفاته وولاية ابنه الناصر بعده

كان سابق الدين عثمان ابن الداية من أمراء الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي واعتقله ابنه الصالح إسماعيل فنكر عليه صلاح الدين ذلك وسار ببنيه إلى دمشق فملكها وأقطع سابق الدين شيزر فلم تزل له ولبنيه إلى أن استقرت لشهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين فسار إليه صاحب حلب محمد بن العزيز بن الغازي الظاهر بأمر الكامل سنة ثلاثين وستمائة وملكها من يده ثم هلك سنة أربع وثلاثين وملك في حلب مكانه ابنه الناصر يوسف في كفالة جدته لأبيه صفية خاتون بنت العادل واستولى على الدولة شمس الدين لؤلؤ الأرمني وعز الدين المجلي وإقبال الخاتوني وكلهم في تصريفها والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

فتنة كيقباد صاحب بلاد الروم واستيلاؤه على خلاط

كان كيقباد بن كيكاوس صاحب بلاد الروم قد استفحل ملكه بها ومدّ يده إلى ما يجاورها من البلاد فملك خلاط بعد أن دفع عنها مع الأشرف جلال الدين شاه كما قدمناه ونازعه الأشرف في ذلك واستنجد بأخيه الكامل فسار بالعساكر من مصر سنة إحدى وثلاثين وسار معه الملوك من أهل بيته وانتهى إلى النهر الأزرق من تخوم الروم وبعث في مقدمته المظفر صاحب حماة من أهل بيته فلقيه كيقباد وهزمه وحصره في خرت برت وتخاذل عن الحرب ثم استأمن المظفر صاحب حماة إلى كيقباد فأمنه وملك خرت برت وكان لبني أرتق ورجع الكامل بالعساكر إلى مصر سنة اثنين وثلاثين وكيقباد في أتباعهم ثم سار إلى حران والرها فملكها من يد نواب الكامل وولى عليها من قبله وسار الكامل سنة ثلاث وثلاثين والله أعلم.

وفاة الأشرف بن العادل واستيلاء الكامل على ممالكه

كان الأشرف سنة أربع وثلاثين قد استوحش من أخيه الكامل ونقض طاعته ومالأه على ذلك أهل حلب وكنخسرو وصاحب بلاد الروم وجميع ملوك الشام من قرابتهما غير الناصر بن المعظم صاحب الكرك فإنه أقام على طاعة الكامل وسار إليه بمصر فتلقاه بالمبرة والتكرمة ثم هلك الأشرف خلال ذلك سنة خمس وثلاثين وعهد بملك دمشق لأخيه الصالح إسماعيل صاحب بصرى فسار إليها وملكها وبقي الملوك في وفاقه على الكامل كما كانوا على عهد الأشرف إلا المظفر صاحب حماة فإنه عدل عنهم إلى الكامل وسار الكامل إلى دمشق فحاصرها وضيق عليها حتى تسلمها صلحاً من الصالح وعوضه عنها بعلبك واستولى على سائر أعمال الأشرف ودخل سائر بني أيوب في طاعته والله أعلم.

وفاة الكامل وولاية ابنه العادل بمصر واستيلاء ابنه الآخر نجم الدين أيوب على دمشق

ثم توفي الكامل بن العادل صاحب دمشق ومصر والجزيرة سنة خمس وثلاثين بدمشق لستة أشهر من وفاة أخيه الأشرف فانفض الملوك راجعين كل إلى بلاده المظفر إلى حماة والناصر إلى الكرك وبويع بمصر ابنه العادل أبو بكر فنصب العساكر بدمشق الجواد يونس ابن عمه مودود بن العادل نائباً عنه وسار الناصر داود إلى دمشق ليملكها فبرز إليه الجواد يونس وهزمه وتمكن في ملك دمشق وخلع طاعة العادل بن الكامل وراسل الصالح أيوب في أن يملكه دمشق وينزل له الصالح عن البلاد الشرقية التي ولاه أبوه عليها فسار الصالح لذلك سنة ست وثلاثين وملك دمشق وسار يونس إلى البلاد الشرقية فاستولى عليها ولم تزل بيده إلى أن زحف إليه لؤلؤ صاحب الموصل وغلبه عليها واستقرت دمشق في يد الصالح ولما أخذ لؤلؤ البلاد من يونس الجواد سار عن القفر إلى غزة فمنعه الصالح من الدخول إليها فدخل إلى الإفرنج بعكا وباعوه من الصالح إسماعيل صاحب دمشق فاعتقله وقتله انتهى والله أعلم.

أخبار الخوارزمية

ثم زحف التتر إلى أذربيجان واستولوا على جلال الدين وقتلوه سنة ثمان وعشرين وانفض أصحابه وذهبوا في كل ناحية وسار جمهورهم إلى بلاد الروم فنزلوا على علاء الدين كيقباد ملكها حتى إذا مات وملك ابنه كنخسرو ارتاب بهم وقبض على أمرائهم وانفض الباقون عنه وعاثوا في الجهات فاستأذن الصالح أيوب صاحب سنجار وما إليها أباه الكامل صاحب مصر في استخدامهم ليحسم عن بلاد ضررهم فاجتمعوا عنده وأفاض فيهم الأرزاق ولما توفي الكامل سنة خمس وثلاثين انتقضوا عن الصلح وخرجوا فاكتسحوا النواحي وسار لؤلؤ إلى سنجار فحاصر الصالح فبعث الصالح الخوارزمية فاستمالهم وأقطعهم حران والرها ولقي بهم لؤلؤاً فهزمه وغنم معسكره والله تعالى أعلم.

مسير الصالح إلى مصر واعتقال الناصر له بالكرك

لما ملك العادل بمصر بعد أبيه اضطرب عليه أهل الدولة وبلغهم استيلاء أخيه الصالح على دمشق فاستدعوه ليملكوه فبعث عن عمه الصالح إسماعيل من بعلبك ليسير معه فاعتذر عن الوصول وسار الصالح أيوب وولى دمشق ابنه المغيث فتح الدين عمر ولما فصل عن دمشق خالفه إليها عمه الصالح إسماعيل فملكها ومعه شيركوه صاحب حمص وقبض على المغيث فتح الدين بن الصالح أيوب وبلغ الخبر إليه وهو بنابلس فانفضت عنه العساكر ودخل نابلس وجاءه الناصر داود من الكرك فقبض عليه واعتقله وبعث فيه أخوه العادل فامتنع من تسليمه إليه ثم قصد داود القدس فملكها من يد الإفرنج وخرب القلعة والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة شيركوه صاحب مصر وولاية ابنه إبراهيم المنصور

ثم توفي المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص سنة ست وثلاثين وكانت ولايته أول المائة السابعة وولي من بعده ابنه إبراهيم ويلقب بالمنصور والله أعلم.

خلع العادل واعتقاله واستيلاء أخيه الصالح أيوب على مصر

ولما رجع الناصر داود من فتح القدس أطلق الصالح نجم الدين أيوب من الاعتقال فاجتمعت إليه مواليه واتصل اضطراب أهل الدولة بمصر على أخيه العادل فكاتبوا الصالح واستدعوه ليملكوه فسار معه الناصر داود وانتهى إلى غزة وبرز العادل إلى بلبيس وكتب إلى عمه الصالح بدمشق يستنجده على أخيه أيوب فسار من دمشق وانتهى إلى الغور ثم وثب بالعادل في معسكره مواليه ومقدمهم أيبك الأسمر وقبضوا عليه وبعثوا إلى الملك الصالح فجاء ومعه الناصر داود صاحب الكرك فدخل القلعة سنة سبع وثلاثين واستقر في ملكه وارتاب منه الناصر داود فلحق بالكرك واستوحش من الأمراء الذين وثبوا بأخيه فاعتقلهم وفيهم أيبك الأسمر وذلك سنة ثمان وثلاثين وحبس أخاه العادل إلى أن هلك في محبسه سنة خمس وأربعين ثم اختط قلعة بين سعي النيل إزاء المقياس واتخذها مسكناً وأنزل بها حامية من مواليه فكانوا يعرفون بالبحرية آخر أيامهم انتهى والله أعلم.

فتنة الخوارزمية

ثم كثر عيث الخوارزمية بالبلاد المشرقية وعبروا الفرات وقصدوا حلب فبرزت إليهم عساكرها مع المعظم تورانشاه بن صلاح الدين فهزموه وأسروه وقتلوا الصالح بن الأفضل صاحب سميساط وكان في جملته وملكوا منبج عنوةً ورجعوا ثم ساروا من حران وعبروا من ناحية الرقة وعاثوا في البلاد وجمع أهل حلب العساكر وأمدهم الصالح إسماعيل من دمشق بعسكر مع المنصور إبراهيم صاحب حمص وقصدوا الخوارزمية فانقلبوا إلى حران ثم تواقعوا مع العساكر فانهزموا واستولى عسكر حلب على حران والرها وسروج والرقة ورأس عين وما إليها وخلص المعظم تورانشاه فبعث به لؤلؤ صاحب الموصل إلى عسكر حلب ثم سار عسكر حلب إلى آمد وحاصروا المعظم تورانشاه وغلبوه على آمد وأقام بحصن كيفا إلى أن هلك أبوه بمصر واستُدعي هو لملكها فسار لذلك وولى ابنه الموحد عبد الله بكيفا إلى أن غلب التتر على بلاد الشام ثم سار الخوارزمية سنة أربعين مع المظفر غازي صاحب ميافارقين من أقتال صاحب حلب ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص فانهزموا وغنمت العساكر سوادهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

أخبار حلب

قد كان تقدم لنا ولاية الظاهر غازي على حلب بعد وفاة أبيه ثم توفي سنة أربع وثلاثين ونصب أهل الدولة ابنه الناصر يوسف في كفالة جدته أم العزيز صفية خاتون بنت العادل ولؤلؤ الأرمني وإقبال الخاتوني وعز الدين بن مجلي قائمون بالدولة في تصريفها وما زالت تجهز العساكر لدفاع الخوارزمية وتفتح البلاد إلى أن توفيت سنة أربعين واستقل الناصر بتدبير ملكه وصرف النظر في أموره لجمال الدين وإقبال الخاتوني والله أعلم.

فتنة الصالح أيوب مع عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستيلاء أيوب آخراً عليها

قد كان تقدم لنا أن الصالح إسماعيل بن العادل خالف الصالح أيوب على دمشق عند مسيره إلى مصر فملك دمشق سنة ست وثلاثين وكان بعد ذلك اعتقال الصالح بالكرك ثم استيلاؤه على مصر سنة سبع وثلاثين وبقيت الفتنة متصلة بينهما وطلب الصالح إسماعيل صاحب دمشق من الإفرنج المظاهرة على أيوب صاحب مصر على أن يعطيهم حصن الشقيف وصفد فأمضى ذلك ونكره مشيخة العلماء بعصره وخرج من دمشق عز الدين بن عبد السلام الشافعي ولحق بمصر فولاه الصالح خطة القضاء بها ثم خرج بعده جمال الدين بن الحاجب المالكي إلى الكرك ولحق بالإسكندرية فمات بها.

ثم تداعى ملوك الشام لفتنة الصالح أيوب واتفق عليها اسماعيل الصالح صاحب دمشق والناصر يوسف صاحب حلب وجدته صفيه خاتون وإبراهيم المنصور بن شيركوه صاحب حمص وخالفهم المظفر صاحب حماة وجنح إلى ولاية نجم الدين أيوب وأقام حالهم في الفتنة على ذلك ثم جنحوا إلى الصلح إلى أن يطلق صاحب دمشق فتح الدين عمر بن نجم الدين أيوب الذي اعتقله بدمشق فلم يجب إلى ذلك واستجدت الفتنة وسار الناصر داود صاحب الكرك مع إسماعيل الصالح صاحب دمشق واستظهروا بالإفرنج وأعطاهم إسماعيل القدس على ذلك واستنجد بالخوارزمية أيضاً فأجابوه واجتمعوا بغزة.

وبعث نجم الدين العساكر مع مولاه بيبرس وكانت له ذمة باعتقاله معه فتلاقوا مع الخوارزمية وجاءت عساكر مصر مع المنصور إبراهيم بن شيركوه ولاقوا الإفرنج من عكا فكان الظفر لعساكر مصر والخوارزمية واتبعوهم إلى دمشق وحاصروا بها

الصالح إسماعيل إلى أن جهده الحصار وسأل في الصلح على أن يعوض عن دمشق ببعلبك وبصرى والسواد فأجابه أيوب إلى ذلك وخرج إسماعيل من دمشق إلى بعلبك سنة ثمان وأربعين وبعث نجم الدين إلى حسام الدين علي بن أبي علي الهدباني وكان معتقلاً عند إسماعيل بدمشق فشرط نجم الدين إطلاقه في الصلح الأول فأطلقه وبعث إليه بالنيابة عنه بدمشق فقام بها وانصرف إبراهيم المنصور إلى حمص وانتزع صاحب حماة منه سلمية فملكها.

واشتط الخوارزمية على الهدباني في دمشق في الولايات والإقطاعات وامتعضوا لذلك فسار بهم الصالح إسماعيل إلى دمشق موصلاً الكرة ومعه الناصر صاحب الكرك فقام الهدباني في دفاعهم أحسن قيام وبعث نجم الدين من مصر إلى يوسف الناصر يستنجده على دفع الخوارزمية عن دمشق فسار في عساكره ومعه إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص فهزموا الخوارزمية على دمشق سنة أربع وأربعين وقتل مقدمهم حسام الدين بركت خان وذهب بقيتهم مع مقدمهم الآخر كشلوخان فلحقوا بالتتر واندرجوا في جملتهم وذهب أثرهم من الشام واستجار إسماعيل الصالح وكان معهم بالناصر صاحب حلب فأجاره من نجم الدين أيوب وسار حسام الدين الهدباني بعساكر دمشق إلى بعلبك وتسلمها بالأمان وبعث بأولاد إسماعيل ووزيره ناصر الدين يغمور إلى نجم الدين أيوب فاعتقلهم بمصر وسارت عساكر الناصر يوسف صاحب حلب إلى الجزيرة فتواقعوا مع لؤلؤ صاحب الموصل فانهزم لؤلؤ وملك الناصر نصيبين ودارا وقرقيساً وعاد عسكره إلى حلب والله تعالى أعلم.

مسير الصالح أيوب إلى دمشق أولاً وثانيا وحصار حمص وما كان مع ذلك من الأحداث

ثم بعث الصالح عن حسام الدين الهدباني من دمشق وولى مكانه جمال الدين بن مطروح ثم سار إلى دمشق سنة خمس وأربعين واستخلف الهدباني على مصر ولما وصل إلى دمشق جهز فخر الدين بن الشيخ بالعساكر إلى عسقلان وطبرية فحاصرهما مدة وفتحهما من يد الإفرنج ووفد على الصالح بدمشق المنصور صاحب حماة وكان أبوه المظفر توفي سنة ثلاث وأربعين وولى المنصور ابنه هذا واسمه محمد ووفد أيضاً الأشرف موسى صاحب حمص وقد كان أبوه إبراهيم المنصور توفي سنة أربع وأربعين قبلها بدمشق وهو ذاهب إلى مصر وافداً على الصالح أيوب وأقام بحمص ابنه مظفر الدين موسى ولقب الأشرف وجاءت عساكر حلب سنة ست وأربعين مع لؤلؤ الأرمني وحصروا مصر شهرين وملكوها من يد موسى الأشرف وأعاضوه عنها تل باشر من قلاع حلب مضافةً إلى الرّحبة وتدمر وكانتا بيده مع حمص وغضب لذلك الصالح فسار من مصر إلى دمشق وجهز العساكر إلى حصار حمص مع حسام الدين الهدباني وفخر الدين بن الشيخ فحاصروا مصر مدّة وجاء رسول الخليفة المستعصم إلى الصالح أيوب شافعاً فأفرج العساكر عنها وولى على دمشق جمال الدين يغمور وعزل ابن مطروح والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على دمياط

كانت إفرنسة أمة عظيمة من الإفرنج والظاهر أنهم أصل الإفرنج وأن إفرنسة هي إفرنجة انقلبت السين بها جيماً عندما عربتها العرب وكان ملكها من أعظم ملوكهم لذلك العصر ويسمونه ري الإفرنس ومعنى ري في لغتهم: ملك إفرنس فاعتزم هذا الملك على سواحل الشام وسار لذلك كما سار من قبله من ملوكهم وكان ملكه قد استفحل فركب البحر إلى قبرص في خمسين ألف مقاتل وشتى بها ثم عبر سنة سبع وأربعين إلى دمياط وبها بنو كنانة أنزلهم الصالح بها حامية فلما رأوا ما لا قبل لهم به أجفلوا عنها فملكها ري إفرنس وبلغ الخبر إلى الصالح وهو بدمشق وعساكره نازلة بحمص فكر راجعاً إلى مصر وقدم فخر الدين ابن الشيخ أتابك عساكره ووصل بعده فنزل المنصورة وقد أصابه بالطريق وعك واشتد عليه والله تعالى أعلم.

استيلاء الصالح على الكرك

كان بين الصالح أيوب وبين الناصر داود ابن عمه المعظم من العداوة ما تقدم وقد ذكرنا اعتقال الناصر له بالكرك فلما ملك الصالح دمشق بعث العساكر مع أتابكة فخر الدين يوسف ابن الشيخ لحصار الكرك وكان أخوه العادل اعتقله وأطلقه الصالح وألزمه بيته ثم جهزه لحصار الكرك فسار إليها سنة أربع وأربعين وحاصرها وملك سائر أعمالها وخرب نواحيها وسار الناصر من الكرك إلى الناصر يوسف صاحب حلب مستجيراً به بعد أن بعث بذخيرته إلى المستعصم وكتب له خطه بوصولها وكان قد استخلف على الكرك عندما سار إلى حلب ابنه الأصغر عيسى ولقبه المعظم فغضب أخواه الأكبران الأمجد حسن والظاهر شادي فقبضا على أخيهما عيسى ووفدا على الصالح سنة ست وأربعين وهو

بالمنصورة قبالة الإفرنج فملك الكرك والشوبك منهما وولى عليهما بدراً الصواي وأقطعهما بالديار المصرية والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الصالح أيوب صاحب مصر والشام وسيد ملوك الترك بمصر وولاية ابنه تورانشاه وهزيمة الإفرنج وأسر ملكهم

ثم توفي الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل سنة سبع وأربعين بمكانه من المنصورة قبالة الإفرنج وخشي أهل الدولة من الإفرنج فكتموا موته وقامت أم ولده شجرة الدر بالأمر وجمعت الأمراء وسيروا بالخبر إلى حسام الدين الهدباني بمصر فجمع الأمراء وقوى جاشهم واستحلفهم وأرسل الأتابك فخر الدين بن الشيخ بالخبر إلى المعظم تورانشاه بن الصالح واستدعاه من مكان إمارته بحصن كيفا ثم انتشر خبر الوفاة وبلغ الإفرنج فشرهوا إلى قتال المسلمين ودلفوا إلى المعسكر فانكشف المسلمون وقتل الأتابك فخر الدين ثم أتاح الله الكرة للمسلمين وانهزم الإفرنج ووصل المعظم تورانشاه من مكانه بحصن كيفا لثلاثة أشهر أو تزيد فبايعه المسلمون واجتمعوا عليه واشتدوا في قتال الإفرنج وغلبت أساطيلهم أساطيل العدو وسأل الإفرنج في الإفراج عن دمياط على أن يعاضوا بالقدس فلم يجبهم المسلمون إلى ذلك وسارت سرايا المسلمين من حولهم وفيما بين معسكرهم وبين دمياط فرحلوا راجعين إليها وأتبعهم المسلمون فأدركهم الدهش وانهزموا وأسر ملكهم ري إفرنس وهو المعروف بالفرنسيس وقتل منهم أكثر من ثلاثين ألفاً واعتقل الفرنسيس بالدار المعروفة بفخر الدين بن لقمان ووكل به الخادم صبيح المعظمي ثم رحل المعظم بعساكر المسلمين راجعاً إلى مصر والله تعالى أعلم.

مقتل المعظم تورانشاه وولاية شجرة الدر وفداء الفرنسيس بدمياط

ولما بويع المعظم تورانشاه وكانت له بطانة من المماليك جاء بهم من كيفا فتسلطوا على موالي أبيه وتقسموهم بين النكبة والإهمال وكان للصالح جماعة من الموالي وهم البحرية الذين كان ينزلهم بالدار التي بناها إزاء المقياس وكانوا بطانته وخالصته وكان كبيرهم بيبرس وهو الذي كان الصالح بعثه بالعساكر لقتال الخوارزمية عندما زحفوا مع عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق وقد مر ذكر ذلك فصارت طاغيته معهم استمالهم الصالح فصاروا معه وزحفوا مع عساكره إلى عساكر دمشق والإفرنج فهزموهم وحاصروا دمشق وملكوها بدعوة الصالح كما مر واستوحش بيبرس حتى بعث إليه الصالح بالأمان سنة أربع وأربعين ولحقه بمصر فحبسه على ما كان منه ثم أطلقه.

وكان من خواص الصالح أيضاً قلاوون الصالحي كان من موالي علاء الدين قراسنقر مملوك العادل وتوفي سنة خمس وأربعين وورثه الصالح بحكم الولاء ومنهم أقطاي الجامدار وأيبك التركماني وغيرهم فأنفوا من استعلاء بطانة المعظم تورانشاه عليهم وتحكمهم فيهم فاعصوصبوا واعتزموا على الفتك بالمعظم ورحل من المنصورة بعد هزيمة الإفرنج راجعاً إلى مصر فلما قربت له الحراقة عند البرج ليركب البحر كبسوه بمجلسه وتناوله بيبرس بالسيف فهرب إلى البرج فأضرموه ناراً فهرب إلى البحر فرموه بالسهام فألقى نفسه في الماء وهلك بين السيف والماء لشهرين من وصوله وملكه.

ثم اجتمع هؤلاء الأمراء المتولون قتل تورنشاه ونصبوا للملك أم خليل شجرة الدر زوجة الصالح وأم ولده خليل المتوفى في حياته وبه كانت تلقب وخطب لها المنابر وضربت السكة باسمها ووضعت علامتها على المراسم وكان نص علامتها أم خليل وقدم أتابك على العساكر عز الدين الجاشنكير أيبك التركماني فلما استقرت الدولة طلبهم الفرنسيس في الفداء على تسليم دمياط للمسلمين فاستولوا عليها سنة ثمان وأربعين وركب الفرنسيس البحر إلى عكا وعظم الفتح وأنشد الشعراء في ذلك وتساجلوا ولجمال الدين بن مطروح نائب دمشق أبيات في الواقعة يتداولها الناس لهذا العصر والله تعالى ولي التوفيق وهي:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق عن قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق بهم في ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بسوء تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها	لعلنا من شركم نستريح
إن كان باباكم بذا راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح
أوصيكم خيراً به إنه	لطف من الله إليكم أتيح
لو كان ذا رشد على زعمكم	ما كان يستحسن هذا القبيح
فقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثار أو لقصد قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

والطواشي في لغة أهل المشرق: هو الخصي ويسمونه الخادم أيضاً والله أعلم.

استيلاء الناصر صاحب حلب على دمشق وبيعة الترك بمصر لموسى الأشرف بن أطسز بن المسعود صاحب اليمن وتراجعهما ثم صلحهما

ولما قتل المعظم تورانشاه ونصب الأمراء بعده شجرة الدر زوجة الصالح امتعض لذلك أمراء بني أيوب بالشام وكان بدر الصوابي بالكرك والشوبك ولاه الصالح عليهما وحبس عنده فتح الدين عمر ابن أخيه العادل فأطلقه من محبسه وبايع له وقام بتدبير دولته جمال الدين بن يغمور بدمشق واجتمع مع الأمراء القصرية بها على استدعاء الناصر صاحب حلب وتمليكه فسار وملك دمشق واعتقل جماعة من موالي الصالح وبلغ الخبر إلى مصر فخلعوا شجرة الدر ونصبوا موسى الأشرف بن مسعود أخي الصالح بن الكامل وهو الذي ملك أخوه أطسز واسمه يوسف باليمن بعد أبيهما مسعود وبايعوا له وأجلسوه على التخت وجعلوا أيبك أتابكه.

ثم انتقض الترك بغزة ونادوا بطاعة المغيث صاحب الكرك فنادى الترك بمصر بطاعة المستعصم وجددوا البيعة للأشرف وأتابكه ثم سار الناصر يوسف بعسكره من دمشق إلى مصر فجهز الأمراء العساكر إلى الشام مع أقطاي الجامدار كبير البحرية ويلقب فارس الدين فأجفلت عساكر الشام بين يديه ثم قبض الناصر يوسف صاحب دمشق على الناصر داود لشيء بلغه عنه وحبسه بحمص وبعث عن ملوك بني أيوب فجاءه موسى الأشرف صاحب حمص والرحبة وتدمر والصالح إسماعيل بن العادل من بعلبك والمعظم تورانشاه وأخوه نصر الدين ابنا صلاح الدين والأمجد حسام الدين والظاهر شادي ابنا الناصر وداود صاحب الكرك وتقي الدين عباس بن العادل واجتمعوا بدمشق.

وبعث في مقدمته مولاه لؤلؤ الأرمني وخرج أيبك التركماني في العساكر من مصر للقائهم وأفرج عن ولدي الصالح إسماعيل المعتقلين منذ أخذهم الهدباني من بعلبك ليتهم الناس أباهم ويستريبوا به والتقى الجمعان في العباسية فانكشفت عساكر مصر وسارت عساكر الشام في اتباعهم وثبت أيبك وهرب إليه جماعة من عساكر الناصر ثم صدق أيبك الحملة على الناصر فتفرقت عساكره وسار منهزماً وجيء لأيبك بلؤلؤ الأرمني أسيراً فقتله وأسر إسماعيل الصالح وموسى الأشرف وتورانشاه المعظم وأخوه ولحق المنهزمون من عسكر مصر بالبلد وشعر المتبعون لهم من عساكر الشام بهزيمة الناصر وراءهم فرجعوا ودخل أيبك إلى القاهرة وحبس بني أيوب بالقلعة.

ثم قتل يغمور وزير الصالح إسماعيل المعتقل ببعلبك مع بنيه وقتل الصالح إسماعيل في محبسه ثم جهز الناصر العساكر من دمشق إلى غزة فتواقعوا مع فارس الدين أقطاي مقدم عساكر مصر فهزموهم واستولوا عليها وترددت الرسل بين الناصر وبين الأمراء بمصر واصطلحوا سنة خمسين وجعلوا التخم بينهم نهر الأردن ثم أطلق أيبك حسام الدين الهذباني فسار إلى دمشق وسار في خدمة الناصر وجاءت إلى الناصر شفاعة المستعصم في الناصر داود صاحب الكرك الذي حبسه بحمص فأفرج عنه ولحق ببغداد ومعه ابناه الأمجد والظاهر فمنعه الخليفة من دخولها فطلب وديعته فلم يسعف بها وأقام في أحياء عرية ثم رجع إلى دمشق بشفاعة من المستعصم للناصر وسكن عنده والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

خلع الأشرف بن أطسز واستبداد أيبك وأمراء الترك بمصر

قد تقدم لنا آنفاً بيعة أمراء التركمان بمصر للأشرف موسى بن يوسف أتسز بن الكامل وأنهم خطبوا له وأجلسوه على التخت بعد أن نصبوا للملك أيبك وكان طموحاً إلى الاستبداد وكان أقطاي الجامدار من أمراء البحرية يدافعه عن ذلك ويغض من عنانه منافسة وغيرة فأرصد له أيبك ثلاثة من المماليك اغتالوه في بعض سكك القصر وقتلوه سنة اثنتين وخمسين وكانت جماعة البحرية ملتفة عليه فانفضوا ولحقوا بالناصر في دمشق واستبد أيبك بمصر وخلع الأشرف وقطع الخطبة له فكان آخر أمراء بني أيوب بمصر وخطب أيبك لنفسه ثم تزوج شجرة الدر أم خليل الملكة قبله فلما وصل البحرية إلى الناصر بدمشق أطمعوه في ملك مصر واستحثوه فتجهز وسار إلى غزة وبرز أيبك بعساكره إلى العباسية فنزل بها.

وانتقض عليه.... فتوهموا بالثورة به فارتاب بهم ولحقوا بالناصر ثم ترددت الرسل بين الناصر وأيبك فاصطلحوا على أن يكون التخم بينهم العريش وبعث الناصر إلى المستعصم مع وزيره كمال الدين بن العديم في طلب الخلعة وكان أيبك قد بعث بالهدية

والطاعة إلى المستعصم فمطل المستعصم الناصر بالخلعة حتى بعثها إليه سنة خمس وخمسين ثم قتل المعز أيبك قتلته شجرة الدر غيلة في الحمام سنة خمس وخمسين غيرة من خطبته بنت لؤلؤ صاحب الموصل فنصبوا مكانه ابنه علياً ولقبوه المنصور وثاروا به من شجرة الدر كما نذكره في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

مسير المغيث بن العادل صاحب الكرك مع البحرية إلى مصر وانهزامهم

كان البحرية منذ لحقوا بالناصر بعد مقتل أقطاي الجامدار مقيمين عنده ثم ارتاب بهم وطردهم آخر سنة خمس وخمسين فلحقوا بغزة وكاتبوا المغيث فتح الدين عمر بن العادل بالكرك وقد كنا ذكرنا أن بدراً الصوافي أخرجه من محبسه بالكرك بعد مقتل تورانشاه بمصر وولاه الملك وقام بتدبير دولته وبعث إليه الآن بيبرس البندقداري مقدم البحرية من غزة يدعوه إلى الملك وبلغ الخبر إلى الناصر بدمشق فجهز العساكر إلى غزة فقاتلوهم وانهزموا إلى الكرك فتلقاهم المغيث وقسم فيهم الأموال واستحثوه لملك مصر فسار معهم وبرزت عساكر مصر لقتالهم مع قطز مولى أيبك المعز ومواليه فالتقى الفريقان بالعباسية فانهزم المغيث والبحرية إلى الكرك ورجعت العساكر إلى مصر.

وفي خلال ذلك أخرج الناصر داود بن المعظم من دمشق حاجاً ونادى في الموسم بتوسله إلى المستعصم في وديعته وانصرف مع الحاج إلى العراق فأكرهه المستعصم على براءته من وديعته فكتب وأشهد ولحق بالبرية وبعث إلى الناصر يوسف يستعطفه فأذن له وسكن دمشق ثم رجع مع رسول المستعصم الذي جاء معه إلى الناصر بالخلعة والتقليد فأقام بقرقيسيا حتى يستأذن له الرسول فلم يأذن له فأقام عنده بأحياء العرب في التيه فقربوا في تقلبهم من الكرك فقبض عليه المغيث صاحب الكرك وحبسه حتى إذا زحف التتر لبغداد بعث عنه المستعصم ليبعثه مع العساكر لمدافعتهم وقد استولى التتر على بغداد فرجع ومات ببعض قرى دمشق بالطاعون سنة ست وخمسين انتهى والله تعالى أعلم.

زحف الناصر صاحب دمشق إلى الكرك وحصارها والقبض على البحرية

ولما كان من المغيث والبحرية ما قدمناه ورجعوا منهزمين إلى الكرك بعث الناصر عساكره من دمشق إلى البحرية فالتقوه بغزة وانهزمت عساكر الناصر وظفرت البحرية بهم واستفحل أمرهم بالكرك فسار الناصر بنفسه إليهم بالعساكر من دمشق سنة سبع وخمسين وسار معه صاحب حماه المنصور بن المظفر محمود فنزلوا على الكرك وحاصروها وأرسل المغيث إلى الناصر في الصلح فشرط عليه أن يحبس البحرية فأجاب ونمي الخبر إلى بيبرس أميرهم البندقداري فهرب في جماعة منهم ولحق بالناصر وقبض المغيث على الباقين وبعث بهم إلى الناصر في القيود ورجع الكرك ثم بعث إلى الأمراء بمصر وزيره كمال الدين بن العديم يدعوهم إلى الاتفاق إلى مدافعة التتر وفي أيام مقدم ابن العديم مصر خلع الأمراء على ابن المعز أيبك وقبض عليه أتابك عسكره وموالي أبيه وجلس على التخت وخطب لنفسه وقبض على الأمراء الذين يرتاب منازعتهم كما نذكره في أخبارهم وأعاد ابن العديم إلى مرسله صاحب دمشق بالإجابة والوعد بالمظاهرة والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء التتر على الشام وانقراض ملك بني أيوب وهلاك من هلك منهم

ثم زحف التتر وسلطانهم هلاكو إلى بغداد واستولى على كرسي الخلافة وقتلوا المستعصم وطمسوا معالم الملة وكادت تكون من أشراط الساعة وقد شرحناها في أخبار الخلفاء ونذكرها في أخبار التتر فبادر الناصر صاحب دمشق بمصانعته وبعث ابنه العزيز محمداً إلى السلطان هلاكو بالهدايا والألطاف فلم يغن ورده بالوعد.

ثم بعث هلاكو عساكره إلى ميافارقين وبها الكامل محمد بن المظفر شهاب الدين غازي بن العادل الكبير فحاصروها سنتين ثم ملكوها عنوة سنة ثمان وخمسين وقتلوه وبعث العساكر إلى إربل فحاصروها ستة أشهر وفتحوها وسار ملوك بلاد الروم كيكاوس وقليج أرسلان ابنا كنخسرو إلى هلاكو أثر ما ملك بغداد فدخلوا في طاعته ورجعوا إلى بلادهم وسار هلاكو إلى بلاد أذربيجان ووفد عليه هنالك لؤلؤ صاحب الموصل سنة سبع وخمسين ودخل في طاعته ورده إلى بلده وهلك أثر ذلك وملك الموصل مكانه ابنه الصالح وسنجار ابنه علاء الدين.

ثم أوفد الناصر ابنه على هلاكو بالهدايا والتحف على سبيل المصانعة واعتذر عن لقائه بالتخوف على سواحل الشام من الإفرنج فتلقى ولده بالقبول وعذره وأرجعه إلى بلده بالمهادنة والمواعدة الجميلة ثم سار هلاكو إلى حرّان وبعث ابنه في العساكر

إلى حلب وبها المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين نائباً عن الناصر يوسف فخرج لقتالهم في العساكر وأكمن له التتر واستجروهم ثم كروا عليهم فأثخنوا فيهم ورحلوا إلى أعزاز فملكوها صلحاً وبلغ الخبر إلى الناصر وهو بدمشق معسكر من ثورة سنة ثمان وخمسين وجاء الناصر بن المظفر صاحب حماة فأقام معه ينتظر أمرهم ثم بلغه أن جماعة من مواليه اعتزموا على الثورة به فكر راجعاً الى دمشق ولحق أولئك الموالي بغزة ثم اطلع على خبثهم وإن قصدهم تمليك أخيه الظاهر فاستوحش منهم ولحق الظاهر بهم فنصبوه للأمر واعصوصبوا عليه وكان معهم بيبرس البندقداري وشعر بتلاشي أحوالهم فكاتب المظفر صاحب مصر واستأمن إليه فأمنه.

وسار إلى مصر فتلقي بالكرامة وأنزل بدار الوزارة وأقطعه السلطان قطز قليوب بأعماله ثم هرب هلاكو إلى الفرات فملك وكان بها إسماعيل أخو الناصر معتقلاً فأطلقه وسرحه إلى عمله بالصبينة وبانياس وولاه عليهما وقدم صاحب أرزن إلى تورانشاه نائب حلب يدعوه إلى الطاعة فامتنع فسار إليها وملكها عنوة وأمنها واعتصم تورانشاه والحامية بالقلعة وبعث أهل حماة بطاعتهم إلى هلاكو وأن يبعث عليهم نائباً من قبله ويسمى برطانتهم الشحنة فأرسل إليهم قائداً يسمى خسروشاه وينسب في العرب إلى خالد بن الوليد رضي اللّه عنه وبلغ الناصر أخذ حلب فأجفل عن دمشق واستخلف عليها وسار إلى غزة واجتمع عليه مواليه وأخوه وسار التتر إلى نابلس فملكوها وقتلوا من كان بها من العسكر وسار الناصر من غزة إلى العريش وقدم رسله إلى قطز تسأله النصر من عدوهم واجتماع الأيدي على المدافعة ثم تقدموا إلى....

واستراب الناصر بأهل مصر فسار هو وأخوه الظاهر ومعهما الصالح بن الأشرف موسى بن شيركوه إلى التيه فدخلوا إليه وفارقهم المنصور صاحب حماة والعساكر إلى مصر فتلقاهم السلطان قطز بالصالحية وآنسهم ورجع بهم إلى مصر واستولى التتر على دمشق وسائر بلاد الشام إلى غزة وولوا على جميعها أمراءهم ثم افتتحت قلعة حلب وكان بها جماعة من البحرية معتقلين منهم سنقر الأشقر فدفعهم هلاكو إلى السلطان جق من أكابر أمرائه وولى على حلب عماد الدين القزويني ووفد عليه بحلب الأشرف موسى بن منصور بن إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص وكان الناصر قد أخذها منه كما قدمناه فأعادها عليه هلاكو ورد جميع ولايته بالشام إلى رأيه.

وسار إلى قلعة حارم فملكها واستباحها وأمر بتخريب أسوار حلب وقلعتها وكذلك حماة وحمص وحاصروا قلعة دمشق طويلاً ثم تسلموها بالأمان ثم ملكوا بعلبك وهدموا قلعتها وساروا إلى الصبينة وبها السعيد بن العزيز بن العادل فملكوها منه على الأمان وسار معهم ووفد على هلاكو فخر الدين بن الزكي من أهل دمشق فولاه القضاة بها ثم اعتزم هلاكو على الرجوع إلى العراق فعبروا الفرات وولى على الشام أجع أميراً اسمه كتبغا من أكابر أمرائه واحتمل عماد الدين القزويني من حلب وولى مكانه آخر.

وأما الناصر فلما دخل في التيه هاله أمره وحسن له أصحابه قصد هلاكو فوصل إلى كتبغا نائب الشام يستأذنه ثم وصل فقبض عليه وسار به إلى حتى سلمها إليه أهلها، وبعث به إلى هلاكو فمر بدمشق ثم بحماة وبها الأشرف صاحب حمص وخسرو شاه نائبها فخرجا لتلقيه ثم مر بحلب ووصل إلى هلاكو فأقبل عليه ووعده برده إلى ملكه ثم ثار المسلمون بدمشق بالنصارى أهل الذمة وخربوا كنيسة مريم من كنائسهم وكانت من أعظم الكنائس في الجانب الذي فتحه خالد بن الوليد رحمه اللّه وكانت لهم أخرى في الجانب الذي فتحه أبو عبيدة بالأمان ولما ولي طالبهم في هذه الكنيسة ليدخلها في جامع البلد وأعلى لهم في السوم فامتنعوا فهدمها وزادها في الجامع لأنها كانت لصقه فلما ولي عمر بن عبد العزيز استعاضوه فعوضهم بالكنيسة التي ملكها المسلمون بالعنوة مع خالد بن الوليد رحمه اللّه وقد تقدم ذكر هذه القصة فلما ثار المسلمون الآن بالنصارى أهل الذمة خربوا كنيسة مريم هذه ولم يبقوا لها أثر.

ثم إن العساكر الإسلامية اجتمعت بمصر وساروا إلى الشام لقتال التتر صحبة السلطان قطز صاحب ومعه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل فسار إليه كتبغا نائب الشام ومعه الأشرف صاحب حمص والسعيد صاحب الضبينة ابن العزيز ابن العادل، والتقوا على عين جالوت بالغور، فانهزم التتر، وقُتل أميرهم النائب كتبغا وأسر السعيد صاحب الضبينة فقتله قطز واستولى على الشام أجع وأقر المنصور صاحب حماة على بلده ورجع إلى مصر فهلك في طريقه قتله بيبرس البندقداري وجلس على التخت مكانه وتلقب بالظاهر حسبما يذكر ذلك كله في دولة الترك.

ثم جاءت عساكر التتر إلى الشام وشغل هلاكو عنهم بالفتنة مع قومه وأسف على قتل كتبغا نائبه وهزيمة عساكر فأحضر الناصر ولامه على ما كان منه من تسهيله عليه أمر الشام وتجنى عليه بأنه غره بذلك فاعتذر له الناصر فلم يقبل فرماه بسهم فأنفذه ثم أتبعه بأخيه الظاهر وبالصالح بن الأشرف موسى صاحب

حمص وشفعت زوجة هلاكو في العزيز بن الناصر وكان مع ذلك يحبه فاستبقاه وانقرض ملك بني أيوب من الشام كما انقرض قبلها من مصر واجتمعت مصر والشام في مملكة الترك ولم يبق لبني أيوب بهما ملك إلا للمنصور بن المظفر صاحب حماة فإن قطز أقره عليها والظاهر بيبرس من بعده وبقي في إمارته هو وبنوه مدة من دولة الترك وطاعتهم حتى أذن الله بانقراضهم وولى عليها غيرهم من أمرائهم كما نذكر في أخبار دولتهم والله وارث الأرض ومن عليها والعاقبة للمتقين.

الخبر عن دولة الترك القائمين بالدولة العباسية بمصر والشام من بعد بني أيوب ولهذا العهد ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدم لنا ذكر الترك وأنسابهم أول الكتاب عند ذكر أمم العالم ثم في أخبار الأمم السلجوقية وإنهم من ولد يافث بن نوح باتفاق من أهل الخليقة فعند نسابة العرب أنهم من عامور بن سويل بن يافث وعند نسابة الروم أنهم من طيراش بن يافث هكذا وقع في التوراة.

والظاهر أن ما وقع لنسابة العرب غلط وان عامور هو مصحف كومر لأن كافه تنقلب عند التعريب غيناً معجمة فربما تصحفت عيناً مهملة أو بقيت بحالها وأما سويل فغلط بالزيادة وأما ما وقع للروم من نسبتهم إلى طيراش فهو منقول في الإسرائيليات وهو رأي مرجوح عندهم لمخالفته لما في التوراة.

وأما شعوبهم وأجناسهم فكثيرة وقد عددنا منهم أول الكتاب التغرغز وهم التتر والخطا وكانوا بأرض طغماج وهي بلاد ملوكهم في الإسلام تركستان وكاشغر.

وعددنا منهم أيضاً الخزلخية والغز الذين كان منهم السلجوقية والهياطلة الذين منهم الخلج وبلادهم الصغد قريباً من سمرقند ويسمون بها أيضاً وعددنا منهم أيضاً الغور والخزر والقفجاق ويقال: الخفشاخ ويمك والعلان ويقال: اللان وشركس وأركش.

وقال صاحب كتاب زجار في الكلام على الجغرافيا أجناس من الترك كلهم وراء النهر إلى البحر المظلم وهي العيسة والتغرغزية والخرخيرية والكيماكية والخزلخية والخزر والخاسان وتركش وأركش وخفشاخ والخلخ والغزية وبلغار وخجاكت ويمناك وبرطاس وسنجارت وخرجان وأنكر وذكر في موضع آخر أنكر من شعوب الترك وأنهم في بلاد البنادقة من أرض الروم.

وأما مواطنهم فإنهم ملكوا الجانب الشمالي من المعمور في النصف الشرقي منه قبالة الهند والعراق في ثلاثة أقاليم: هي السادس والسابع والخامس كما ملك العرب الجانب الجنوبي من المعمور أيضاً في جزيرة العرب وما إليها من أطراف الشام والعراق وهم رجّالة مثلهم وأهل حرب وافتراس ومعاش من التغلب والنهب إلا في الأقل وقد ذكرنا أنهم عند الفتح لم يذعنوا إلا بعد طول حرب وممارسة أيام سائر دولة بني أمية وصدراً من دولة بني العباس وامتلأت أيدي العرب يومئذ من سبيهم فاتخذوهم خولاً في المهن والصنائع ونساءهم فرشاً للولادة كما فعلوه في سبي الفرس والروم وسائر الأمم الذين قاتلوهم على الدين وكان شأنهم أن لا يستعينوا برقيقهم في شيء مما يعانونه من الغزو والفتوح ومحاربة الأمم ومن أسلم منهم تركوه لسبيله التي هو عليها من أمر معاشه على طاغية هواه.

لأن عصبية العرب كانت مستفحلة يومئذ وشوكتهم قائمة مرهفة ويدهم ويد سلطانهم في الأمر جميعاً ومرماهم إلى العز والمجد واحد وكانوا كأسنان المشط لتزاحم الأنساب وغضاضة الدين حتى إذا أرهف الملك حده ونهج إلى الاستبداد طريقه واحتاج السلطان في القيام بأمره إلى الاستظهار على المنازعين فيه من قومه بالعصبية المدافعة دونه والشوكة المعترض شباها في أذياله حتى تجذع أنوفهم عن التطاول إلى رتبته وتغض أعنتهم عن السير في مضماره اتخذ بنو العباس من لدن المهدي والرشيد بطانة اصطنعوهم من موالي الترك والروم والبربر ملأوا منهم المواكب في الأعياد والمشاهد والحروب والصوائف والحراسة على السلطان وزينة في أيام السلم وإكثافاً لعصابة الملك حتى لقد اتخذ المعتصم مدينة سامرا لنزلهم تحرجاً من أضرار الرعية باصطدام مراكبهم وتراكم القتال بجوهم وضيق السكك على المارين بزحامهم.

وكان اسم الترك غالباً على جميعهم فكانوا تبعاً لهم ومندرجين فيهم وكانت حروب المسلمين لذلك العهد في القاصية وخصوصاً مع الترك متصلة والفتوح فيهم متعاقبة وأمواج السبي من كل وجه متداركة وربما رام الخلفاء عند استكمال بغيتهم واستجماع عصابتهم اصطفاء علية منهم للمخالصة وقواد العساكر ورؤساء المراكب فكانوا يأخذون في تدريجهم لذلك بمذاهب

الترشيح فينتقون من أجود السبي الغلمان كالدنانير والجوار كاللآلىء ويسلمونهم إلى قهارمة القصور وقرمة الدواوين يأخذونهم بحدود الإسلام والشريعة وآداب الملك والسياسة ومراس الثقافة في المران على المناضلة بالسهام والمسالحة بالسيوف والمطاعنة بالرماح والبصر بأمور الحرب والفروسية ومعاناة الخيول والسلاح والوقوف على معاني السياسة.

حتى إذا تنازعوا في الترشيح وانسلخوا من جلدة الخشونة إلى رقة الحاشية وملكة التهذيب اصطنعوا منهم للمخالصة ورقوهم في المراتب واختاروا منهم لقيادة العساكر في الحروب ورئاسة المواكب أيام الزينة ورتق الفتوق الحادثة وسد الثغور القاصية كل على شاكلة غنائه وسابق اصطناعه فلم يزل هذا دأب الخلفاء في اصطناعهم ودعامة سرير الملك بعمدهم وتمهيد الخلافة بمقاماتهم حتى سموا في درج الملك وامتلأت جوانحهم من الغزو وطمحت أبصارهم إلى الاستبداد فتغلبوا على الدولة وحجروا الخلفاء وقعدوا بدست الملك ومدرج النهي والأمر وقادوا الدولة بزمامهم وأضافوا اسم السلطان إلى مراتبهم.

وكان مبدأ ذلك واقعة المتوكل وما حصل بعدها من تغلب الموالي واستبدادهم بالدولة والسلطان ونهج السلف منهم في ذلك السبيل للخلف واقتدى الآخر بالأول فكانت لهم دول في الإسلام متعددة تعقب غالباً دولة أهل العصبية وشوكة النسب: كمثل دولة بني سامان وراء النهر وبني سبكتكين بعدهم وبني طولون بمصر وبني طغج وما كان بعد الدولة السلجوقية من دولتهم مثل: بني خوارزم شاه بما وراء النهر وبني طغرلتكين بدمشق وبني أرتق بماردين وبني زنكي بالموصل والشام وغير ذلك من دولهم التي قصصناها عليك في تصانيف الكتاب.

حتى إذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف ولبست أثواب البلاء والعجز ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسي الخلافة وطمسوا رونق البلاد وأدالوا بالكفر من الإيمان بما أخذ أهلها عند الاستغراق في التنعم والتشاغل في اللذات والاسترسال في الترف من تكاسل الهمم والقعود عن المناصرة والانسلاخ من جلدة اليأس وشعار الرجولية فكان من لطف اللّه سبحانه أن تدارك الإيمان بإحياء رمقه وتلاقي شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها الغزيرة المتوافرة أمراء حامية وأنصاراً متوافية يجلبون من دار الحرب إلى دار الإسلام في مقادة الرق الذي كمن اللطف في طيه وتعرفوا العزّ لخير في مغبته وتعرضوا للعناية الربانية بتلافيه يدخلون في الدين بعزائم إيمانية وأخلاق بدوية لم يدنسها لؤم الطباع ولا خالطتها أقذار اللذات ولا دنستها عوائد الحضارة ولا كسر من سورتها غزارة الترف.

ثم يخرج بهم التجار إلى مصر أرسالاً كالقطا نحو الموارد فيستعرضهم أهل الملك منهم ويتنافسون في أثمانهم بما يخرج عن القيمة لا لقصد الاستعباد إنما هو إكثاف للعصبية وتغليظ للشوكة ونزوع إلى العصبية الحامية يصطفون من كل منهم بما يؤنسونه من شيم قومهم وعشائرهم ثم ينزلونهم في غرف الملك ويأخذونهم بالمخالصة ومعاهده التربية ومدارسة القرآن وممارسة التعليم حتى يشتدوا في ذلك ثم يعرضونهم على الرمي والثقافة وركض الخيل في الميادين والمطاعنة بالرماح والمماصعة بالسيوف حتى تشتد منهم السواعد وتستحكم الملكات ويستيقنوا منهم المدافعة عنهم والاستماتة دونهم.

فإذا بلغوا إلى هذا الحد ضاعفوا أرزاقهم ووفروا من إقطاعهم وفرضوا عليهم استجادة السلاح وارتباط الخيل والاستكثار من أجناسهم لمثل هذا القصد وربما عمروا بهم خطط الملك ودرجوهم في مراتب الدولة فيسترشح من يسترشح منهم لاقتعاد كرسي السلطان والقيام بأمور المسلمين عناية من اللّه تعالى سابقة ولطائف في خلقه سارية فلا يزال نشوء منهم يردف نشوءاً وجيل يعقب جيلاً والإسلام يبتهج بما يحصل به من الغناء والدولة ترف أغصانها من نضرة الشباب.

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام وأخوه العادل أبو بكر من بعده ثم بنوهم من بعدهم قد تناغوا في ذلك بما فوق الغاية واختص الصالح نجم الدين أيوب آخر ملوكهم بالمبالغة في ذلك والإمعان فيه فكان عامة عسكره منهم فلما انفض عشيره وخذله أنصاره وقعد عنه أولياؤه وجنوده لم يدع سبباً في استجلابهم إلا أتاه من استجادة المترددين إلى ناحيتهم ومراضاة التجار في أثمانهم بأضعاف ثمنهم وكان رقيقهم قد بلغ الغاية من الكثرة لما كان التتر قد دوخوا الجانب الغربي من ناحية الشمال وأوقعوا بسكانه من الترك وهم شعوب القفجاق والروس والعلان والمولات وما جاورهم من قبائل جركس وكان ملك التتر بالشمال يومئذ دوشي خان بن جنسكزخان قد أصابهم بالقتل والسبي فامتلأت أيدي أهل تلك النواحي برقيقهم وصاروا عند التجار من أنفس بضائعهم واللّه تعالى أعلم.

ذكر بيبرس البندقداري

في تاريخه حكاية غريبة عن سبب دخول التتر لبلادهم بعد

أن عد شعوبهم فقال: ومن قبائلهم -يعني القفجاق- قبيلة طغصبا وستا وبرج أغلا والبولى وقنعرا على وأوغلي ودورت وقلابا أعلى وجرثان وقد كابركلي وكنن.

هذه إحدى عشرة قبيلة وليس فيها ذكر الشعوب العشرة القديمة الذكر التي عدّها النسابة كما قدمناه أوّل الترجمة وهذه - والله أعلم- بطون متفرعة من القفجاق فقط وهي التي في ناحية الغرب من بلادهم الشمالية فإن سياق كلامه إنما هو في الترك المجلوبين من تلك الناحية لا من ناحية خوارزم ولا ما وراء النهر.

قال بيبرس: ولما استولى التتر على بلادهم سنة ست وعشرين والملك يومئذ بكرس جنكزخان لولده دوشي خان واتفق أن شخصاً من قبيلة دورت يسمى منقوش بن كتمر خرج متصيداً فلقيه آخر من قبيلة طغصبا اسمه آقاكبك -وبين القبيلتين عداوة- مستحكمة فقتله وأبطأ خبره عن أهله فبعثوا طليعة لاستكشاف أمره اسمه جلنقر فرجع إليهم وأخبرهم بأنه قتل وسمى لهم قاتله فجمعوا للحرب وتزاحفت القبيلتان فانهزمت قبيلة طغصبا وخرج آقاكبك القاتل وتفرق جمعه فأرسل أخاه أقصر إلى ملكهم دوشي يستعلم ما على ذوي قبيلة دورت القفجاقية وذكره ما فعل كتمر وقومه بأخيه وأغراه بهم وسهل له الشأن فيهم وبعث دوشي خان جاسوسه لاستكشاف حالهم واختيار مراسلهم وشكيمتهم فعاد إليه بتسهيل المرام فيهم.

وقال: إن رأيت كلاباً مكبين على فريستهم متى طردتهم عنها تمكنت منها فأطمعه ذلك في بلاد القفجاق واستحثه أقصر الذي جاء صريخاً وقال له ما معناه: نحن ألف راس تجر ذنباً واحداً وأنتم رأس واحد تجر ألف ذنب فزاده ذلك إغراء ونهض بجموع التتر فأوقع بالقفجاق وأثخن فيهم قتلاً وسبياً وأسراً وفرقهم في البقاع وامتلأت أيدي التجار وجلبوهم إلى مصر فعوضه الله بالدخول في الإيمان والاستيلاء على الملك والسلطان. انتهى كلام بيبرس.

ومساق القصة يدل على أن قبيلة دورت من القفجاق وان قبيلة طغصباً من التتر فيقتضي ذلك أن هذه البطون التي عددت ليست من بطن واحد وكذلك يدل مساقها على أن أكثر هؤلاء الترك الذين بديار مصر من القفجاق والله تعالى أعلم.

الخبر عن استبداد الترك بمصر وانفرادهم بها عن بني أيوب ودولة المعز أيبك أول ملوكهم

قد تقدم لنا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل قد استكثر من المماليك الترك ومن في معناهم من التركمان والأرمن والروم وجركس وغيرهم إلا أن اسم الترك غالب على جميعهم لكثرتهم ومزيتهم وكانوا طوائف متميزين بسمات من ينسبون إليه من نسب أو سلطان: فمنهم العزيزية نسبة إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين ومنهم الصالحية نسبة إلى هذا الصالح أيوب ومنهم البحرية نسبة إلى القلعة التي بناها الصالح بين شعبتي النيل إزاء المقياس بما كانوا حاميتها وكان هؤلاء البحرية شوكة دولته وعصابة سلطانه وخواص داره وكان من كبرائهم عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني ورديفه فارس الدين أقطاي الجامدار وركن الدين بيبرس البندقداري.

ولما كان ما قدمناه ووفاة الصالح بالمنصورة في محاصرة الإفرنج بدمياط في سنة سبع وأربعين وكتمانهم موته ورجوعهم في تدبير أمورهم إلى شجرة الدر زوجة الصالح وأم ولده خليل وبعثهم إلى ابنه المعظم تورانشاه وانتظاره وأن الإفرنج شعروا بموت الصالح فدلفوا إلى معسكر المسلمين على حين غفلة فانكشف أوائل العسكر وقتل فخر الدين الأتابك ثم أفرغ الله الصبر وثبت أقدامهم وأبلى أمراء الترك في ذلك اليوم بلاء حسناً ووقفوا مع شجرة الدر زوج السلطان تحت الرايات ينوهون بمكانها فكانت لهم الكرة وهزم الله العدو.

وثم وصل المعظم تورانشاه من كيفا فبايعوا له وأعطوه الصفقة وانتظم الحال واستطال المسلمون على الإفرنج براً وبحراً فكان ما قدمناه من هزيمتهم والفتك بهم وأسر ملكهم الفرنسيس.

ثم رحل المعظم إثر هذا الفتح إلى مصر لشهرين من وصوله ونزل بفارس كور يريد مصر وكانت بطانته قد استطالوا على موالي أبيه وتقسموهم بين النكبة والإهمال فاتفق كبراء البحرية على قتله وهم: أيبك وإقطاي وبيبرس فقتلوه كما مر ونصبوا للملك شجرة الدر أم الخليل وخطب لها على المنابر ونقش اسمها على السكة ووضعت علامتها على المراسم ونصها أم خليل. وقام أيبك التركماني بأتابكية العسكر ثم نودي الفرنسيس بالنزول عن دمياط وملكها المسلمون سنة ثمان وأربعين وسرحوه في البحر إلى بلاده بعد أن توثقوا منه باليمين أن لا

يتعرض لبلاد المسلمين ما بقي.

واستقلت الدولة بمصر للترك وانقرضت منها دولة بني أيوب بقتل المعظم وولاية المرأة وما اكتنف ذلك فامتعضوا له وكان فتح الدين عمر بن العادل قد حبسه عمه الصالح أيوب بالكرك لنظر بدر الصوابي خادمه الذي ولاه على الكرك والشوبك لما ملكها كما مر فأطلق بدر الدين من محبسه وبايع له وقام بأمره ولقبه المغيث واتصل الخبر بمصر وعلموا أن الناس قد نقموا عليهم ولاية المرأة فاتفقوا على ولاية زعيمهم أيبك لتقدمه عند الصالح وأخيه العادل قبله فبايعوا له وخلعوا أم خليل ولقبوه بالمعز فقام بالأمر وانفرد بملك مصر وولى مولاه سيف الدين قطز نائباً وعمر المراتب والوظائف بأمراء الترك والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

نهوض الناصر صاحب دمشق من بني أيوب إلى مصر وولاية الأشرف موسى مكان أيبك

كان الملك الصالح أيوب قبل موته قد استخلف جمال الدين بن يغمور على دمشق مكان ابن مطروح وأمراء الدولة الأيوبية بها متوافرون فلما بلغهم استبداد الترك بمصر وولاية أيبك وبيعة المغيث بالكرك أمعنوا النظر في تلافي أمورهم وكبراء بني أيوب يومئذ بالشام الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وحمص وما إليها فاستدعوه وبايعوا له بدمشق وأغروه بطلب مصر واتصل الخبر للترك في مصر فاعتزموا على أن ينصبوا بعض بني أيوب فيكفوا به ألسنة النكير عنهم فبايعوا لموسى الذي كان أبوه يوسف صاحب اليمن وهو يوسف أطسز بن المسعود بن الكامل وهو يومئذ ابن ست سنين ولقبوه الأشرف وتزحزح له أيبك عن كرسي السلطان إلى رتبة الأتابكية واستمر الناصر على غلوائه في النهوض إلى مصر.

واستدعى ملوك الشام من بني أيوب فأقبل إليه موسى الأشرف الذي كان صاحب حمص وإسماعيل الصالح بن العادل صاحب بعلبك والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين وأخوه نصر الدين وابنا داود الناصر صاحب الكرك وهما الأمجد حسن والظاهر شادي وارتحل من دمشق سنة ثمان وأربعين وفي مقدمته أتابكه لؤلؤ الأرمني وبلغ الخبر إلى مصر فاضطرب الأمر ونادوا بشعار الخلافة والدعاء للمستعصم وجددوا البيعة على ذلك للأشرف وجهزوا العساكر وخرجوا للقائهم وسار في المقدمة أقطاي الجامدار وجمهور البحرية وتبعهم أيبك ساقة في العساكر والتقى الجمعان بالعباسية فانكشف عسكر مصر أولاً وتبعهم أهل الشام وثبت المعز في القلب ودارت عليه رحى الحرب.

وهرب إليه جماعة من عسكر الناصر فيهم أمراء العزيزية مثل جمال الدين لا يدعون وشمس الدين أتسز البرلي وشمس الدين أتسز الحسامي غضبوا من رياسة لؤلؤ عليهم فهربوا وبقي لؤلؤ في المعركة صامداً ثم حمل المعز على الناصر وأصحابه فانهزموا وانفض عسكره وجيء بلؤلؤ الأتابكي أسيراً فقتله صبراً وبأمراء بني أيوب فحبسهم ورجع أيبك من الوقعة فوجد عساكر الناصر مجتمعين بالعباسية يظنون الغلب لهم فعدل إلى بلبيس ثم إلى القلعة ورجعت عساكر الشام من أتباع المنهزمين لما شعروا بهزيمة صاحبهم فلحقوا بالناصر بدمشق ودخل أيبك إلى القاهرة وحبس بني أيوب بالقلعة ثم قتل منهم إسماعيل الصالح ووزيره ابن يغمور الذي كان معتقلاً من قبل.

ولما وصل الناصر إلى دمشق أزاح علل عساكره وعجل الكرة إلى مصر ونزل غزة سنة خمسين وبرزت عساكر مصر للقائه فتوافقوا ملياً ثم وصل نجم الدين البادراني إلى رسول المستعصم فأصلح بين الطائفتين على أن يكون القدس والساحل إلى نابلس للمعز والتخم بين المملكتين نهر الأردن وانعقد الأمر على ذلك ورجع كل إلى بلده وأخرج المعز عن أمراء بني أيوب الذين حبسهم يوم الوقعة والله سبحانه وتعالى أعلم.

واقعة العرب بالصعيد مع أقطاي

لما شغل الصالح بالإفرنج وما بعدهم عظم فساد العرب بالصعيد واجتمعوا على الشريف خضر الدين أبي ثعلب بن نجم الدين عمر بن فخر الدين إسماعيل بن حصن الدين ثعلب الجعفري من ولد جعفر بن أبي طالب الذين أجازوا من الحجاز لما غلبهم بنو عمهم بنواحي المدينة في الحروب التي كانت بينهم واطاعه أعراب الصعيد كافة ولم يقدر على كفهم عن الراية واتصل ذلك وهلك الصالح واستبد الترك بمصر وشغلوا عنهم بما كان من مطالبة بني أيوب لهم فلما فرغ المعز أيبك من أمر الناصر وعقد الصلح معه بعث لحربهم فارس الدين أقطاي وعز الدين أيبك الأقرم أمير البحرية فساروا إليهم ولقوهم بنواحي أخميم فهزموهم وفر الشريف ناجياً بنفسه ثم قبض عليه بعد ذلك وقتل ورجعت العساكر إلى القاهرة والله تعالى أعلم.

مقتل أقطاي الجامدار وفرار البحرية إلى الناصر ورجوع أيبك إلى كرسيه

كان أقطاي الجامدار من أمراء البحرية وعظمائهم ويلقب فارس الدين وكان رديفاً للمعز أيبك في سلطانه وأتابكه وكان يغض من عنانه عن الطموح إلى الكرسي وكان يخفض من جناحه للبحرية يتألفهم بذلك فيميلون له عن أيبك فاعتز في الدولة واستفحل أمره وأخذ من المعز الاسكندرية إقطاعاً وتصرف في بيت المال وبعث فخر الدين محمد بن بهاء الدين بن حياء إلى المظفر صاحب حماة في خطبة ابنته فتزوجها وأطلق يده في العطاء والإقطاع فعم الناس وكثر تابعه وغص به المعز أيبك وأجمع قتله فاستدعاه بعض الأيام للقصر للشورى سنة اثنتين وخمسين وقد اكمن له ثلاثة من مواليه في ممره بقاعة الأعمدة وهم قطز وبهادل وسنجار فوثبوا عليه عند مروره بهم وبادروه بالسيوف وقتلوه لحينه واتصلت الهيئة بالبحرية فركبوا وطافوا بالقلعة فرمى إليهم برأسه فانفضوا.

واستراب أمراؤهم فاجتمع ركن الدين بيبرس البندقداري وسيف الدين قلاوون الصالحي وسيف الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بنسر الشمسي وسيف الدين بلبان الرشيدي وسيف الدين تنكر وأخوه سيف الدين موافق ولحقوا بالشام فيمن انضم إليهم من البحرية واختفى من تخلف منهم واستصفيت أموالهم وذخائرهم وارتجع ما أخذه أقطاي من بيت المال ورد ثغر الاسكندرية إلى أعمال السلطان وانفرد المعز أيبك بتدبير الدولة وخلع موسى الأشرف وقطع خطبته وخطب لنفسه وتزوج شجرة الدر زوجة الصالح التي كانوا ملكوها من قبل واستخلص علاء الدين أيدغدي العزيزي وجماعة العزيزية وأقطعه دمياط.

ولما وصل البحرية وأمراؤهم إلى غزة كاتبوا الناصر يستأذنونه في القدوم وساروا إليه فاحتفل في مبرتهم وأغروه بملك مصر فأجابهم وجهز العساكر وكتب المعز فيهم إلى الناصر وطلبوا منه القدس والبلاد الساحلية فأقطعها لهم ثم سار الناصر إلى الغور وبرز إلى القاهرة في العزيزية ومن إليهم ونزل العباسية وتوافق الفريقان مدة ثم اصطلحوا ورجع كل إلى بلده سنة أربع وخمسين وبعث أيبك رسوله إلى المستعصم بطاعته وطلب الألوية والتقليد ولما رجع إلى مصر قبض على علاء الدين أيدغدي لاسترابته به وأعاد دمياط إلى أعمال السلطان واتصلت أحواله إلى أن هلك في الدولة والله تعالى أعلم.

فرار الأفرم إلى الناصر بدمشق

كان عز الدين أيبك الأفرم الصالحي والياً على قوص وأخميم وأعمالها فقوي أمره وهمَّ بالاستبداد وأراد المعز عزله فامتنع عليه فبعث بعض الخوارزمية مددا له ودس إليهم الفتك به فلما وصلوا إليه استخدمهم وخلطهم بنفسه فاغتالوه وقبضوا عليه وتراموا إليه للحين فبطشوا بهم وقتلوهم وخلعوه ثم عزله بعد ذلك عز الدين الصيمري عن خدمته واستدعاه إلى مصر فأقام عنده ثم بعثه مع أقطاي إلى مكانه من الدولة وأوعز المعز أيبك إلى الأفرم بالمقام لتمهيد بلاد الصعيد وأن يكون الصيمري في خدمته وبلغه وهو هناك أن المعز عدا على أقطاي وقتله وأن أصحابه البحرية فروا إلى الشام فاستوحش وأظهر العصيان واستدعى الشريف أبا ثعلب وتظاهر معه على الفساد وجمعوا الأعراب من كل ناحية.

ثم بعث المعز سنة ثلاث وخمسين شمس الدين البرلي في العساكر فهزمهم واعتقل الشريف فلم يزل في محبسه إلى أن قتله الظاهر ونجا الأفرم في فل من مواليه إلى الواحات ثم اعتزم على قصد الشام فرجع إلى الصعيد مع جماعة من أعراب جذام مروا به على السويس والطور ورجع عنه مواليه إلى مصر ولما انتهى إلى غزة تولع به الناصر فأذنه بالقدوم عليه بدمشق وركب يوم وصوله فتلقاه بالكسوة وأعطاه خمسة آلاف دينار ولم يزل عنده بدمشق إلى أن هرب البحرية من الكرك إلى مصر كما يذكر فخشي أن يأخذه الناصر وكاتب الأتابك قطز بمصر وسار إليه فقبله أولاً ثم قبض عليه بعد ذلك واعتقله بالإسكندرية وكان الصيمري قد بقي بعد الأفرم في ولاية الصعيد واستفحل فيه فسولت له نفسه الاستبداد ولم يتم له فهرب إلى الناصر سنة أربع وخمسين انتهى والله تعالى أعلم.

مقتل المعز أيبك وولاية ابنه علي المنصور

كان المعز أيبك عندما استفحل أمره ومهد سلطانه ودفع الأعداء عن حوزته طمحت نفسه إلى مظاهرة المنصور صاحب حماة ولؤلؤ صاحب الموصل ليصل يده بهما وأرسل إليهما في الخطبة وأثار ذلك غيرة من زوجته شجرة الدر وأغرت به جماعة من الخصيان منهم محسن الخزري وخصي العزيزي ويقال: سنجار الخادمان فبيتوه في الحمام بقصره وقتلوه سنة خمس وخمسين لثلاث سنين من ولايته وسمع مواليه الناعية من جوف الليل فجاؤوا مع

سيف الدين قطز وسنجار الغتمي وبهادر فدخلوا القصر وقبضوا على الجوجري فقتلوه وفر سنجار العزيزي إلى الشام وهموا بقتل شجرة الدر وقام الموالي الصالحية دونها فاعتقلوها ونصبوا للملك علي بن المعز أيبك ولقبوه المنصور وكان أتابكه علم الدين سنجار الحلي واشتمل موالي المعز على ابنه المنصور فكبسوا علم الدين سنجار واعتقلوه وولوا مكانه أقطاي المعزي الصالحي مولى العزيز على الدولة في نقضها وإبرامها سنة ست وخمسين وأغرته أم المنصور بالصاحب شرف الدين الغازي لأن المعز كان يستودعه سراياه عنده فاستصفاه وقتله.

وفي هذه السنة توفي زهير بن علي المهلي وكان يكتب عن الصالح ويلازمه في سجنه بالكرك ثم صحبه إلى مصر والله تعالى أعلم.

نهوض البحرية بالمغيث صاحب الكرك وانهزامهم

قد ذكرنا فرار البحرية إلى الناصر ونهوضهم به إلى مصر وخروج أيبك إلى العباسة وما كان بينهما من الصلح فلما انعقد الصلح ورجع الناصر إلى دمشق ورجعوا عنه إلى قلعة ولم يرضوا الصلح فاستراب بهم الناصر وصرفهم عنه فلحقوا بغزة ونابلس وبعثوا إلى المغيث صاحب الكرك بطاعتهم فأرسل الناصر عساكره للإيقاع بهم فهزموهم فسار إليهم بنفسه فهزموه إلى البلقاء ولحقوا بالكرك وأطمعوا المغيث في مصر واستمدوه لها فأمدهم بعسكره وقصدوا مصر وكبراؤهم بيبرس البندقداري وقلاوون الصالحي ويليان الرشيدي وبرز الأمير سيف الدين قطز بعساكر مصر إلى الصالحية فهزمهم وقتل بلغار الأشرف وأسر قلاوون الصالحي ويليان الرشيدي وأطلق قلاوون الصالحي بعد أيام في كفالة أستاذ الدار فاختفى ثم لحق بأصحابه واستحثوا المغيث إلى مصر فنهض في عساكره سنة ست وخمسين ونزل الصالحة وقدم إليه عز الدين الرومي والكافوري والهواشر ممن كان يكاتبه من أمراء مصر وبرز سيف الدين قطز في عساكر مصر والتقى الجمعان فانهزم المغيث ولحق في الفل بالكرك وفرت البحرية إلى الغور فوجدوا هنالك أحياء من الأكراد فروا من جبال شهرزور أمام التتر فاجتمعوا بهم والتحموا بالصهر معهم وخشي الناصر غائلة اجتماعهم فجهز العساكر من دمشق إليهم والتقوا بالغور فانهزمت عساكره فتجهز ثانياً بنفسه وسار إليهم فخاموا عن لقائه وافترقوا فلحق الأكراد بمصر واعترضهم التركمان في طريقهم بالعريش فأوقعوا بهم وخلصوا إلى مصر ولحق البحرية بالكرك مع عسكر المغيث ووعدهم بالنصر وأرسل إليه من دمشق في إسلامهم إليه وتوعده أنفسهم واضطربوا ففر بيبرس وقلاوون إلى الصحراء وأقاموا بها ثم لحقوا بمصر وأكرمهم الأتابك قطز وأقطعهم وأقاموا عنده ولما فر بيبرس وقلاوون من المغيث قبض على بقية أمراء البحرية سنقر الأشقر وشكر وبرابق وبعث بهم إلى الناصر فحبسهم بقلعة حلب إلى أن استولى التتر عليها ونقلهم هلاكو إلى بلاده والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع المنصور علي بن أيبك واستبداد قطز بالملك

ثم كان ما ذكرناه ونذكره من زحف هلاكو إلى بغداد واستيلائه عليها وما بعدها إلى الفرات وفتحه ميافارقين وإربل ومسير لؤلؤ صاحب الموصل إليه ودخوله في طاعته ووفادة ابن الناصر صاحب دمشق إليه رسولاً عن أبيه بالهدايا والتحف على سبيل المصانعة والعذر عن الوصول بنفسه خوفاً على سواحل الشام من الإفرنج فارتاب الأمراء بشأنهم واستصغروا سلطانهم المنصور علي بن المعز أيبك عن مدافعة هذا العدو لعدم ممارسته للحروب وقلة دربته بالوقاع واتفقوا على البيعة لسيف الدين قطز المعزي وكان معروفاً بالصرامة والإقدام فبايعوا له وأجلسوه على الكرسي سنة ست وخمسين ولقبوه المظفر وخلعوا المنصور لسنتين من ولايته وحبسوه وأخويه بدمياط ثم غربهما الظاهر بعد ذلك إلى القسطنطينية وكان المتولون لذلك الصالحية والعزيزية ومن يرجع إلى قطز من المعزية وكان بهادر وسنجار الغتمي غائبين فلما قدما استراب بهما قطز وخشي من نكيرهما ومزاحمتهما فقبض عليهما وحبسهما وأخذ في تمهيد الدولة فاستوسقت له وكان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية يقال إنه ابن أخت خوارزم شاه واسمه محمود بن مودود أسره التتر عند الحادثة عليهم وبيع واشتراه ابن الزعيم حكاه النووي عن جماعة من المؤرخين والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء التتر على الشام وانقراض أمر بني أيوب ثم مسير قطز بالعساكر وارتجاعه الشام من أيدي التتر وهزيمتهم وحصول الشام في ملك الترك

ثم عبر هلاكو الفرات سنة ثمان وخمسين وفر الناصر وأخوه الظاهر إلى التيه ولحق بمصر المنصور صاحب حماة وجماعة البحرية الذين كانوا بأحياء العرب في القفر وملك هلاكو بلاد الشام واحدة واحدة وهدم أسوارها وولى عليها وأطلق المعتقلين من البحرية بحلب مثل سنقر الأشقر وشكر وبرانق واستخدمهم ثم قفل إلى العراق لاختلاف بين أخوته واستخلف على الشام كتبغا من أكبر أمرائه في اثني عشر ألفاً من العساكر وتقدم إليه بمطالعة الأشرف إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص بعد أن ولاه على مدينة دمشق وسائر مدن الشام واحتمل معه الناصر وابنه العزيز بعد أن استشاره في تجهيز العساكر بالشام لمدافعة أهل مصر عنها فهون عليه الأمر وقللهم في عينه فجهز كتبغا ومن معه ولما فصل سار كتبغا إلى قلعة دمشق وهي ممتنعة بعد فحاصرها وافتتحها عنوة وقتل نائبها بدر الدين بربدك وخيم بمرج دمشق وجاءه من ملوك الإفرنج بالساحل.

ووفد عليه الظاهر أخو الناصر صاحب صرخد فرده إلى عمله وأوفد عليه المغيث صاحب الكرك ابنه العزيز بطاعته فقبله ورده إلى أبيه واجتمعت عساكر مصر واحتشد المظفر العرب والتركمان وبعث إليهم بالعطايا وأزاح العلل وبعث كتبغا إلى المظفر قطز بأن يقيم طاعة هلاكو بمصر فضرب أعناق الرسل ونهض إلى الشام مصمماً للقاء العدو ومعه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل وزحف كتبغا وعساكر التتر ومعه الأشرف صاحب حمص والسعيد صاحب الضبينة ابن العزيز بن العادل وبعث إليهما قطز يستميلهما فوعده الأشرف بالانهزام يوم اللقاء وأساء العزيز الرد على رسوله وأوقع به والتقى الفريقان بالغور على عين جالوت وتحيز الأشرف عندما تناشبوا فانهزم التتر وقتل أميرهم كتبغا في المعركة وجيء بالسعيد صاحب الضبينة أسيراً فوبخه ثم قتله.

وجيء بالعزيز بن المغيث وأسر يومئذ الذي ملك مصر بعد ذلك ولقي العادل بيبرس المنهزمين في عسكر من الترك فأثخن فيهم وانتهى إلى حمص فلقي مدداً من التتر جاء لكتبغا فاستأصلهم ورجع إليه الأشرف صاحب حمص من عسكر التتر فأقره على بلده وبعث المنصور على بلده حماة وأقره عليها ورد إليه المعرة وانتزع منه سلمية فأقطعها لأمير العرب مهنا بن مانع بن جديلة وسار إلى دمشق فهرب من كان بها من التتر وقتل من وجد بها من بقاياهم ورتب العساكر في البلاد وولى على دمشق علم الدين سنجار الحلبي الصالحي وهو الذي كان أتابك علي بن أيبك ونجم الدين أبا الهيجاء ابن خشترين الكردي.

وولى على حلب السعيد ويقال المظفر علاء الدين بن لؤلؤ صاحب الموصل وكان وصل إلى الناصر بمصر هارباً أمام التتر وسار معه فلما دخل الناصر منها لحق هو بمصر وأحسن إليه قطز ثم ولاه الناصر على حلب الآن ليتوصل إلى أخبار التتر من أخيه الصالح بالموصل وولى على ونابلس وغزة والسواحل شمس الدين دانشير البرلي من أمراء العزيز محمد وهو أبو الناصر وكان هرب منه عند نهوضه إلى مصر في جماعة من العزيزية ولحق بأتابك ثم ارتاب بهم وقبض على بعضهم ورجع البرلي في الباقين إلى الناصر فاعتقله بقلعة حلب حتى سار إلى التتر فلما دخل إليها سار البرلي مع العساكر إلى مصر فأكرمه المظفر وولاه الآن على السواحل وغزة وأقام المظفر بدمشق عشرين ليلة وأقبل إلى مصر ولما بلغ إلى هلاكو ما وقع بقومه في الشام واستيلاء الترك عليه اتهم صاحب دمشق بأنه خدعه في إشارته وقتله كما مر وانقرض ملك بني أيوب من الشام أجمع وصار لملوك مصر من الترك والله يرث الأرض من عليها وهو خير الوارثين.

مقتل المظفر وولاية الظاهر بيبرس

كان البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاي الجامدار يتحينون لأخذ ثأره وكان قطز هو الذي تولى قتله فكان مستريباً بهم ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله فأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت وأبلغوا فيها والمقدمون فيهم يومئذ: بيبرس البندقداري وأنز الأصبهاني وبليان الرشيدي وبكتون الجوكندراي وبندوغز التركي فلما انهزم التتر من الشام واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثار أقطاي.

فلما قفل قطز من دمشق سنة ثمان وخمسين أجمعوا أن يبرزوا به في طريقهم فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه يتصيد

وسارت الرواحل على الطريق فاتبعوه وتقدم إليه أنز شفيعاً في بعض أصحابه فشفعه فأهوى يقبل يده فامسكها وعلاه بيبرس بالسيف فخر صريعاً لليدين والفم ورشقه الآخرون بالسهام فقتلوه وتبادروا إلى المخيم وقام دون فارس الدين أقطاي على ابن المعز أيبك وسأل: من تولى قتله منكم؟ فقالوا: بيبرس فبايع له وأتبعه أهل المعسكر ولقبوه الظاهر وبعثوا أيدمر الحلبي بالخبر إلى القلعة بمصر فأخذ له البيعة على من هناك ووصل الظاهر منتصف ذي القعدة من السنة فجلس على كرسيه واستخلف الناس على طبقاتهم وكتب إلى الأقطار بذلك ورتب الوظائف وولى الأمراء وولى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الوزارة مع القضاء واقتدى بآثار أستاذه الصالح نجم الدين.

ومبدأ أمر هذا الظاهر بيبرس أنه كان من موالي علاء الدين أيدكين البندقداري مولى الصالح فسخط عليه واعتقله وانتزع ماله ومواليه وكان منهم بيبرس فصيره مع الجامدارية وما زال يترقى في المراتب إلى أن تقدم في الحروب ورياسة المراكب ثم كان خبره بعد الصالح ما قصصناه انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض سنجار الحلبي بدمشق ثم أقوش البرلي بحلب

ولما بلغ علم الدين سنجار بدمشق مقتل قطز وولاية الظاهر بيبرس انتقض ودعا لنفسه وجلس على التخت بدمشق وتلقب المجاهد وخطب لنفسه وضرب السكة باسمه وتمسك المنصور صاحب حماة بدعوة الظاهر وجاءت عساكر التتر إلى الشام فلما شارفوا البيرة جرد إليهم السعيد بن لؤلؤ من حلب عسكراً فهزمهم التتر وقتلوهم واتهم الأمراء العزيزية والناصرية ابن لؤلؤ في ذلك فاعتقلوه وقدموا عليهم حسام الدين الجوكنداري وأقره الظاهر وزحف التتر إلى حلب فملكوها وهرب حسام الدين إلى حماة ثم زحف إليها التتر فلحق صاحبها المنصور وأخوه علي الأفضل إلى حمص وبها الأشرف بن شيركوه واجتمعت إليه العزيزية والناصرية وقصدوا التتر سنة تسع وخمسين فهزموهم بعد هزيمتهم ونازلوا حماة.

وسار المنصور والأشرف صاحب حمص إلى سنجار الحلبي بدمشق ولم يدخلا في طاعته لضعفه وسار التتر من حماة إلى أفامية فحاصروها يوماً وعبروا الفرات إلى بلادهم وبعث بيبرس الظاهر صاحب مصر أستاذه علاء الدين البندقداري في العساكر لقتال سنجار الحلبي بدمشق وقاتلهم فهزموه ولجأ إلى القلعة ثم خرج منها ليلاً إلى بعلبك وأتبعوه فقبضوا عليه وبعثوه إلى الظاهر فاعتقله واستقر أيدكين بدمشق ورجع صاحب حمص وحماة إلى بلديهما وبعث الظاهر إلى أيديكن بالقبض على بهاء الدين بقري وشمس الدين أقوش البرلي وغيرهما من العزيزية فقبض على بقري وفر العزيزية والناصرية مع أقوش البرلي وطالبوا صاحب حمص وصاحب حماة في الانتقاض فلم يجيباهم إلى ذلك فقال لفخر الدين: أطلب لي الظاهر المقدم معك في خدمتك. وبينما هو يسير لذلك خالفه البرلي إلى حلب وثار بها وجمع العرب والتركمان ونصب للحرب فجاءت العساكر من مصر فقاتلوه وغلبوه عليها ولحق بالبيرة فملكها واستقر بها حتى إذا جهز الظاهر عساكره سنة ستين إلى حلب مع سنقر الرومي سار معه صاحب حماة وصاحب حمص للإغارة على أنطاكية ولقيهم البرلي وأعطاهم طاعته وأقره الظاهر على البيرة ثم ارتاب به بعد ذلك واعتقله ثم علاء الدين أيدكين البندقداري مولى السلطان بدمشق وولى عليها بيبرس الوزير ورجع والله ينصر من يشاء من عباده انتهى.

البيعة للخليفة بمصر ثم مقتله بالحديثة وغانة على يد التتر والبيعة للآخر الذي استقرت الخلافة في عقبه بمصر

لما قتل الخليفة عبد الله المستعصم ببغداد بقي رسم الخلافة الإسلامية عطلاً بأقطار الأرض والظاهر متشوف إلى تجديده وعمارة دسته ووصل إلى مصر سنة تسع وخمسين عم المستعصم وهو أبو العباس أحمد بن الظاهر كان بقصورهم ببغداد وخلص يوم البيعة وأقام يتردد في الأحياء إلى أن لحق بمصر فسر الظاهر بقدومه وركب للقائه ودعا الناس على طبقاتهم إلى أبواب السلطان بالقلعة وأفرد بالمجلس أدباً معه وحضر القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز فحكم باتصال نسبه بالشجرة الكريمة بشهادة العرب الواصلين به والخدم الناجعين من قصورهم ثم بايع له الظاهر والناس على طبقاتهم وكتب إلى النواحي بأخذ البيعة والخطبة على المنابر ونقش اسمه في السكة ولقب المستنصر وأشهد هو حينئذ الملأ بتفويض الأمر للظاهر والخروج له عن العهد وكتب بذلك سجله وأنشأه فخر الدين بن لقمان كاتب الترسيل.

ثم ركب السلطان والناس كافة إلى خيمة بنيت خارج المدينة فقرىء التقليد على الناس وخلع على أهل المراتب والخواص ونادى السلطان بمظاهرته وإعادته إلى دار خلافته ثم خطب هذا

الخليفة يوم الجمعة وخشع في منبره فأبكى الناس وصلى وانصرفوا إلى منازلهم ووصل على أثره الصالح إسماعيل بن لؤلؤ صاحب الموصل وأخوه إسحاق صاحب الجزيرة وقد كان أبوهما لؤلؤ استخدم لهلاكو كما مر وأقره على الموصل وما إليها وتوفي سنة سبع وخمسين وقد ولي ابنه إسماعيل على الموصل وابنه المجاهد على جزيرة ابن عمر وابنه السعيد على سنجار وأقرهم هلاكو على أعمالهم ولحق السعيد بالناصر صاحب دمشق وسار معه إلى مصر وصار مع قطز وولاه حلب كما مر ثم اعتقل.

ثم ارتاب هلاكو بالأخوين فأجفلا ولحقا بمصر وبالغ الظاهر في إكرامهم وسألوه في إطلاق أخيهم المعتقل فأطلقه وكتب لهم بالولاية على أعمالهم وأعطاهم الألوية وشرع في تجهيز الخليفة إلى كرسيه ببغداد فاستخدم له العساكر وأقام له الفساطيط والخيام ورتب له الوظائف وأزاح علل الجميع يقال: أنفق في تلك النوبة نحوا من ألف ألف دينار ثم سار من مصر في شوال من السنة إلى دمشق ليبعث من هناك الخليفة وابني لؤلؤ إلى ممالكهم ووصل إلى دمشق ونزل بالقلعة وبعث يليان الرشيدي وشمس الدين سنقر إلى الفرات وصمم الخليفة لقصده وفارقهم وسار الصالح إسماعيل وأخواه إلى الموصل وبلغ الخبر إلى هلاكو فجرد العساكر إلى الخليفة وكبسوه بغانة والحديثة فصابرهم قليلاً ثم استشهد وبعث العساكر إلى الموصل فحاصروها تسعة أشهر حتى جهدهم الحصار واستسلموا فملكها التتر وقتلوا الصالح إسماعيل والظاهر خلال ذلك مقيم بدمشق.

وقد وفد عليه بنو أيوب من نواحي الشام وأعطوه طاعتهم: المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص فأكرم ووصلهما وولاهما على أعمالهما وأذن لهما في اتخاذ الآلة وبسط حكمهما على بلاد الإسماعيلية وإلى المنصور تل باشر الذي اعتاضه عن حمص لما آخذها منه الناصر صاحب حلب ووفد على الظاهر أيضاً بدمشق الزاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص وصاحب بعلبك والمنصور والسعيد ابنا الصالح إسماعيل بن العادل والأمجد بن الناصر داود الأشرف بن مسعود والظاهر بن المعظم فأكرم وفادتهم وقابل بالإحسان والقبول طاعتهم وفرض لهم الأرزاق وقرر الجرايات ثم قفل إلى مصر وأفرج عن العزيز بن المغيث الذي كان اعتقله قطز وأطلقه يوم الموقعة بالكرك.

وولى على أحياء العرب بالشام عيسى بن مهنا بن مانع بن جريلة من رجالاتهم ووفر لهم الإقطاع على حفظ السابلة إلى حدود العراق ورجع إلى مصر فقدم عليه رجل من عقب المسترشد من خلفاء بني العباس ببغداد اسمه أحمد فأثبت نسبه ابن بنت الأعز كالأول وجمع الظاهر الناس على مراتبهم وبايع له وفوض إليه هو الأمور وخرج إليه عن التدبير وكانت هذه البيعة سنة ستين ونسبه عند العباسيين في أدراج نسبهم الثابت أحمد بن أبي بكر علي بن أبي بكر بن أحمد ابن الإمام المسترشد وعند نسابة مصر أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الأمير أبي علي القتبي ابن الأمير حسن ابن الإمام الراشد ابن الإمام المسترشد هكذا قال صاحب حماة في تاريخه وهو الذي استقرت الخلافة في عقبه بمصر لهذا العهد انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

فرار التركمان من الشام إلى بلاد الروم

كان التركمان عند دخول التتر إلى بلاد الشام كلهم قد أجفلوا إلى الساحل واجتمعت أحياؤهم بالجوكان قريباً من صفد وكان الظاهر لما نهض إلى الشام اعترضه رسل الإفرنج من يافا وبيروت وصفد يسألونه في الصلح على ما كان لعهد صلاح الدين فأجابهم وكتب به إلى الانبردور ملكهم ببلاد إفرنسة وراء البحر فكانوا في ذمة من الظاهر وعهد ووقعت بين الإفرنج بصفد وبين أحياء التركمان واقعة يقال: أغار فيها أهل صفد عليهم فأوقع بهم التركمان وأسروا عدة من رؤسائهم وفادوهم بالمال ثم خشوا عاقبة ذلك من الظاهر فارتحلوا إلى بلاد الروم وأقفر الشام منهم والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

انتقاض الأشرفية والعزيزية واستيلاء البرلي على البيرة

كان هؤلاء العزيزية والأشرفية من أعظم جموع هؤلاء الموالي وكان مقدم الأشرفية بهاء الدين بقري ومقدم العزيزية شمس الدين أقوش وكان المظفر قطز قد أقطعه نابلس وغزة وسواحل الشام ولما ولي الظاهر انتقض عليه سنجار الحلبي بدمشق وجهز أستاذه علاء الدين البندقداري في العساكر لقتاله وكان الأشرفية والعزيزية بحلب وقد انتقضوا على نائبها السعيد بن لؤلؤ كما مر فتقدم البندقداري باستدعائهم معه إلى دمشق ثم أضاف الظاهر بيسان للبرلي زيادة على ما بيده فسار وملك دمشق ثم أوعز الظاهر إلى البندقداري بالقبض على العزيزية والأشرفية فلم يتمكن إلا من بقري مقدم الأشرفية وفارقه الباقون وانتقضوا واستولى شرف الدين البرلي على البيرة وأقام بها وشن الغارات على التتر شرقي الفرات فنال منهم ثم جهز عساكره إليه مع جمال الدين

بامو الحموي فهزمهم وأطلقهم وأقام الظاهر على استمالته بالترغيب والترهيب حتى جنح إلى الطاعة واستأذن في القدوم وسار بكباس الفخري للقائه فلقيه بدمشق سنة إحدى وستين ثم وصل فأوسعه السلطان يداً وعطاءً والواصلين معه على مراتبهم واختصه بمراكبته ومشورته وسأله النزول عن البيرة فنزل عنها فقبلها الظاهر وأعاضه عنها والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء الظاهر على الكرك من يد المغيث وعلى حمص بعد وفاة صاحبها

لما قفل السلطان من الشام سنة ستين كما قدمناه جرد عسكراً إلى الشوبك مع بدر الدين أيدمري فملكها وولى عليها بدر الدين بلبان الخصي ورجع إلى مصر وكان عند المغيث بالكرك جماعة من الأكراد الذين اجفلوا من شهرزور أمام التتر إلى الشام وكان قد اتخذهم جنداً لعسكرته فسرحهم للإغارة على الشوبك ونواحيه فاعتزم السلطان على الحركة إلى الكرك مخافة المغيث وبعث بالطاعة واستأمن الأكراد فقبلهم الظاهر وأمن الأكراد فوصلوا إليه ثم سار سنة إحدى وستين إلى الكرك واستخلف على مصر سنجار الحلي واستخلف على غزة فلقي هنالك أم المغيث تستعطفه وتستأمن منه لحضور ابنها فأجابها وسار إلى بيسان فسار المغيث للقائه فلما وصل قبض عليه وبعثه من حينه إلى القاهرة مع أقسنقر الفارقاني وقتل بعد ذلك بمصر.

وولى على الكرك عز الدين أيدمر وأرسل نور الدين بيسري الشمسي ليؤمن أهل الكرك ويرتب الأمور بها وأقام بالطور في انتظاره فأبلغ بيسري القصد من ذلك ورجع إليه فارتحل إلى القدس وأمر بعمارة مسجده ورجع إلى مصر وبلغه وفاة صاحب حمص موسى الأشرف بن إبراهيم المنصور شيركوه المجاهد بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه وكانت وراثة له من آبائه أقطعه نور الدين العادل لجده أسد الدين ولم تزل بأيديهم وأخذها الناصر يوسف صاحب حلب سنة ست وأربعين وعوضه عنها تل باشر وأعادها عليه هلاكو وأقره الظاهر توفي سنة إحدى وستين وصارت للظاهر وانقرض منها ملك بني أيوب والله سبحانه وتعالى أعلم.

هزيمة التتر على البيرة وفتح قيسارية وأرسوف بعدها

ثم رجعت عساكر التتر إلى البيرة مع ردمانة من أمراء المغل سنة ثلاث وستين فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق فجهز السلطان العساكر مع لوغان من أمراء الترك فساروا في ربيع من السنة وسار السلطان في أثرهم وانتهى إلى غزة ولما وصلت العساكر إلى البيرة وأشرفوا عليها والعدو يحاصرها أجفلها عساكر التتر وساروا منهزمين وخلفوا سوادهم وأثقالهم فنهبتها العساكر وارتحل السلطان من غزة وقصد قيسارية وهي للإفرنج فنزل عليها عاشر جمادى من السنة فنصب المجانيق ودعا أهلها للحرب واقتحمها عليهم فهربوا إلى القلعة فحاصرها خمساً وملكها عنوة وفر الإفرنج منها ثم رحل في خض من العساكر إلى عملها فشن عليها الغارة وسرح عسكراً إلى حيفا فملكها عنوة وخربوها وقلعتها في يوم أو بعض يوم ثم ارتحل إلى أرسوف فنازلها مستهل جمادى الأخيرة فحاصرها وفتحها عنوة وأسر الإفرنج الذين بها وبعث بهم إلى الكرك وقسم أسوارها على الأمراء فرموها وعمد إلى ما ملك في هذه الغزاة من القرى والضياع والأرضين فقسمها على الأمراء الذين كانوا معه وكانوا اثنين وخمسين وكتب لهم بذلك وقفل إلى مصر وبلغه الخبر بوفاة هلاكو ملك التتر في ربيع من السنة وولاية ابنه ابغا مكانه وما وقع بينه وبين بركة صاحب الشمال من الفتنة ولأول دخوله لمصر قبض على شمس الدين سنقر الرومي وحبسه وكانت الفتنة قبل غزاته بين عيسى بن مهنا ولحق زامل بعد ذلك بهلاكو ثم استأمن إلى الظاهر فأمنه وعاد إلى إحيائه والله تعالى أعلم.

غزو طرابلس وفتح صفد

كانت طرابلس للإفرنج وبها سمند بن البرنس الأشتر وله معها أنطاكية وبلغ السلطان أنه قد تجهز للقتال فلقيه النائب بها علم الدين سنجار الباشقر وانهزم المسلمون واستشهد كثير منهم فتجهز السلطان للغزو وسار من مصر في شعبان سنة أربع وستين وترك ابنه السعيد علياً بالقلعة في كفالة عز الدين ايدمر الحلي وقد كان عهد لابنه السعيد بالملك سنة اثنتين وستين ولما انتهى إلى غزة بعث العساكر صحبة سيف الدين قلاوون ايدغدي العزيزي فنازل القليعات وحلب وعرقا من حصون طرابلس فاستأمنوا إليه وزحفت العساكر وسار السلطان إلى صفد فحاصرها عشراً ثم

اقتحمها عليهم في عشرين من رمضان السنة وجمع الإفرنج الذين بها فاستلحمهم أجمعين وأنزل بها الحامية وفرض أرزاقهم في ديوان العطاء ورجع إلى دمشق والله تعالى أعلم.

مسير العساكر لغزو الأرمن

هؤلاء الأرمن من ولد أخي إبراهيم عليه السلام من بني قوميل بن ناحور وناحور بن تارح وعبر عنه في التنزيل بآزر وناحور أخو إبراهيم عليه السلام ويقال: إن الكرج إخوة الأرمن وأرمينية منسوبة إليهم وآخر مواطنهم الدروب المجاورة لحلب وقاعدتها سيس ويلقب ملكهم النكفور وكان ملكهم صاحب هذه الدروب لعهد الملك الكامل وصلاح الدين من بعده اسمه قليج بن اليون واستنجد به العادل وأقطع له وكان يعسكر معه وصالحه صلاح الدين على بلاده ثم كان ملكهم لعهد هلاكو والتتر هيثوم بن قسطنطين ولعله من أعقاب قليج أو قرابته ولما ملك هلاكو العراق والشام دخل هيثوم في طاعته فاقره على سلطانه ثم أمره بالإغارة على بلاد الشام وأمده صاحب بلاد الروم من التتر.

وسار سنة اثنتين وستين ومعه بنو كلاب من أعراب حلب وانتهوا إلى سيس وجهز الظاهر عساكر حماة وحمص فساروا إليهم وهزموهم ورجعوا إلى بلادهم فلما رجع السلطان من غزاة طرابلس سنة أربع وستين سرح العساكر لغزو سيس وبلاد الأرمن وعليهم سيف الدين قلاوون والمنصور صاحب حماة فساروا لذلك وكان هيثوم ملكهم قد ترهب ونصب للملك ابنه كيقومن فجمع كيقومن الأرمن وسار للقائهم ومعه أخوه وعمه وأوقع بهم المسلمون قتلاً وأسراً وقتل أخوه وعمه في جماعة من الأرمن واكتسحت عساكر المسلمين بلادهم واقتحموا مدينة سيس وخربوها ورجعوا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والسبي وتلقاهم الظاهر من دمشق عند قارا فلما رآهم ازداد سروراً بما حصل لهم، وشكا إليه هنالك الرعية ما لحقهم من عدوان الأحياء الرحالة وأنهم ينهبون موجودهم ويبيعون ما يتخطفونه منهم من الإفرنج بعكا فأمر باستباحهم وأصبحوا نهباً في أيدي العساكر بين القتل والأسر والسبي ثم سار إلى مصر وأطلق كيقومن من ملك الأرمن وصالحه على بلده ولم يزل مقيماً إلى أن بعث أبوه في فدائه وبذل فيه الأموال والقلاع فأبى الظاهر من ذلك وشرط عليه خلاص الأمراء الذين أخذهم هلاكو من سجن حلب وهم سنقر الأشقر وأصحابه فبعث فيهم نكفور إلى هلاكو فبعث بهم إليه وبعث الظاهر بابنه منتصف شوال وتسلم القلاع التي بذلت في فدائه وكانت من أعظم القلاع وأحصنها منها مرزبان ورعبان وقدم سنقر الأشقر على الظاهر بدمشق وأصبح معه في الموكب ولم يكن أحد علم بأمره وأعظم إليه السلطان النعمة ورفع الرتبة ورعى له السابقة والصحبة وتوفي هيثوم سنة ستين بعدها والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مسير الظاهر لغزو حصون الإفرنج بالشام وفتح يافا والشقيف ثم أنطاكية

كان الظاهر عندما رجع من غزاة طرابلس إلى مصر أمر بتجديد الجامع الأزهر وإقامة الخطبة به وكان معطلاً منها منذ مائة سنة وهو أول مسجد أسسه الشيعة بالقاهرة حين اختطوها ثم خرج إلى دمشق لخبر بلغه عن التتر ولم يثبت فسار من هنالك إلى صفد وكان أمر عند مسيره بعمارتها وبلغه إغارة أهل الشقيف على الثغور فقصدها وشن الغارة على عكا واكتسح بسائطها حتى سأل الإفرنج منه الصلح على ما يرضيه فشرط المقاسمة في صيدا أو هدم الشقيف وإطلاق تجار من المسلمين كانوا أسروهم ودية بعض القتلى الذين أصابوا دمه وعقد الصلح لعشر سنين ولم يوفوا بما شرط عليهم فنهض لغزوهم ونزل فلسطين في جمادى سنة ست وستين وسرح العساكر لحصار الشقيف ثم بلغه مهلك صاحب يافا من الإفرنج وملك ابنه مكانه وجاءت رسله إليه في طلب الموادعة فحبسهم وصبح البلد فاقتحمها ولجأ أهلها إلى القلعة فاستنزلهم بالأمان وهدمها.

وكان أول من اختط مدينة يافا هذه صنكل من ملوك الإفرنج عند ما ملكوا سواحل الشام سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة ثم مدنها وأتم عمارتها ريد إفرنس المأسور على دمياط عندما خلص من محبسه بدار ابن لقمان ثم رجع إلى حصن الشقيف فحاصره وافتتحه بالأمان وبث العساكر في نواحي طرابلس فاكتسحوها وخربوا عمرانها وكنائسها وبادر صاحب طرطوس بطاعة السلطان وبعث إلى العساكر بالميرة وأطلق الأسرى الذين عنده ثلثمائة أو يزيدون ثم ارتحل السلطان إلى حمص وحماة يريد أنطاكية وقدم سيف الدين قلاوون في العساكر فنازل أنطاكية في شعبان فسار المنصور صاحب حماة وجماعة البحرية الذين كانوا بأحياء العرب في القفر.

وكان صاحب إنطاكية سمند بن تيمند وكانت قاعدة ملك الروم قبل الإسلام اختطها انطيخس من ملوك اليونانيين وإليه تنسب ثم صارت للروم وملكها المسلمون عند الفتح ثم ملكها

الإفرنج عندما ساروا إلى ساحل الشام أعوام التسعين والأربعمائة ثم استطردها صلاح الدين من البرنس أرناط الذي قتله في واقعة حطين كما مر ثم ارتجعها الإفرنج بعد ذلك على يد البرنس الأشتر وأظنه صنكل ثم صارت لابنه تيمند ثم لابنه سمند وكان عندما حاصرها الظاهر بطرابلس وكان بها كنداصطبل عم يغمور ملك الأرمن أفلت من الواقعة عليه بالدرابند واستقر بأنطاكية عند سمند فخرج في جموعه لقتال الظاهر فانهزم أصحابه وأسر كنداصطبل على أن يحمل أهل أنطاكية على الطاعة فلم يوافقوه ثم جهدهم الحصار واقتحمها المسلمون عنوة وأثخنوا فيهم ونجا فلهم إلى القلعة فاستنزلوا على الأمان وكتب الظاهر إلى ملكهم سمند وهو بطرابلس وأطلق كنداصطبل وأقاربه إلى ملكهم هيثوم بسيس ثم جمع الغنائم وقسمها وخرب قلعة إنطاكية وأضرمها ناراً واستأمن صاحب بغراس فبعث إليه سنقر الفارقي أستاذ داره فملكها وأرسل صاحب عكا إلى الظاهر في الصلح وهو ابن أخت صاحب قبرس فعقد له السلطان الصلح لعشر سنين ثم عاد إلى مصر فدخلها ثالث أيام التشريق من السنة والله تعالى أعلم.

الصلح مع التتر

ثم نهض السلطان من مصر سنة سبع وستين لغزو الإفرنج بسواحل الشام وخلف على مصر عز الدين ايدمر الحلي مع ابنه السعيد ولي عهده وانتهى إلى أرسوف فبلغه أن رسلاً جاؤوا من عند ابغا بن هلاكو ومروا بنقفور ملك الروم فبعث بهم إلى فبعث أميراً من حلب لإحضارهم وقرأ كتاب ابغا نفقور في الصلح ويحتال فيما أذاعه من رسالته فأعاد رسله بجوابهم وأذن للأمراء في الانطلاق إلى مصر ورجع إلى دمشق ثم سار منها في خف من العسكر إلى القلاع وبلغه وفاة ايدمر الحلي بمصر فخيم بخربة اللصوص وأغذ السير إلى مصر متنكراً منتصف شعبان في خف من التركمان وقد طوى خبره عن معسكره وأوهمهم القعود في خيمته عليلاً ووصل إلى القلعة ليلة الثلاثاء رابعة سفره فتنكر له الحراس وطولع مقدم الطواشية فطلب منهم أمارة على صدقهم فأعطوها ثم دخل فعرفوه وباكر الميدان يوم الخميس فسر به الناس ثم قضى حاجة نفسه وخرج ليلة الاثنين عائداً إلى الشام كما جاء فوصل إلى مخيمه ليلة الجمعة تاسع عشر شعبان وفرح الأمراء بقدومه ثم فرق البعوث في الجهات وأغاروا على صور وملكوا إحدى الضياع وساحوا في بسيط كركو فاكتسحوها وامتلأت أيديهم بالغنائم ورجعوا والله تعالى أعلم.

استيلاء الظاهر على صهيون

كان صلاح الدين بن أيوب قد أقطعها يوم فتحها وهي سنة أربع وثمانين وخمسمائة لناصر الدين منكبرس فلم تزل بيده إلى أن هلك وولي فيها بعده ابنه مظفر الدين عثمان وبعده ابنه سيف الدين بن عثمان واستبد الترك بمصر وبعث سيف الدين أخاه عماد الدين سنة ستين بالهدايا إلى الملك الظاهر بيبرس فقبلها وأحسن إليه ثم مات سيف الدين سنة تسع وستين وكان أوصى أولاده بالنزول للظاهر عن صهيون فوفد ابناه سابق الدين وفخر الدين على السلطان بمصر فأكرمهما وأقطعهما وولى سابق الدين منهما أميراً وولى على صهيون من قبله ولم يزل كذلك إلى أن غلب عليها سنقر الأشقر عندما انتقض بدمشق أيام المنصور والله تعالى أعلم.

نهوض الظاهر إلى الحج

ثم بلغ الظاهر أن أبا نمي بن أبي سعد بن قتادة غلب عمه إدريس بن قتادة على مكة واستبد بها وخطب للظاهر فكتب له بالإمارة على مكة واعتزم على النهوض إلى الحج وتجهز لذلك سنة سبع وستين وأزاح علل أصحابه وشيع العساكر مع اقسنقر الفارقاني أستاذ داره إلى دمشق وسار إلى الكرك مورياً بالصيد وانتهى إلى الشوبك ورحل منه لإحدى عشرة ليلة من ذي القعدة ومر بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم فأحرم من ميقاتها وقدم مكة لخمس من ذي الحجة وغسل الكعبة بيده وحمل لها الماء على كتفه وأباح للمسلمين دخولها وأقام على بابها يأخذ بأيديهم ثم قضى حجه ومناسكه وولى نائباً على مكة شمس الدين مروان وأحسن إلى الأمير أبي نمي والي صاحب ينبع وخليص وسائر شرفاء الحجاز وكتب إلى صاحب اليمن:

إني بمكة وقد وصلتها في سبع عشرة خطوة. ثم فصل من مكة ثالث عشر ذي الحجة فوصل المدينة على سبعة أيام ووصل إلى الكرك منسلخ السنة ثم وصل دمشق غرة ثمان وستين وسار إلى زيارة القدس وقدم العساكر مع الأمير أقسنقر إلى مصر وعاد من الزيارة فأدركهم بتل العجول ووصل القلعة ثالث صفر من السنة والله تعالى أعلم.

إغارة الإفرنج والتتر على حلب ونهوض السلطان إليهم

كان صمغان من أمراء التتر مقيماً ببلاد الروم وأميراً عليها فوقعت المراسلة بينه وبين الإفرنج في الإغارة على بلاد الشام وجاء صمغان في عسكره لموعدهم فأغار على أحياء العرب بنواحي حلب وبلغ الخبر إلى الظاهر سنة ثمان وستين وهو يتصيد بنواحي الإسكندرية فنهض من وقته إلى غزة ثم إلى دمشق ورجع التتر على أعقابهم ثم سار إلى عكا فاكتسح نواحيها وأثخن فيها وفعل كذلك بحصن الأكراد ورجع إلى دمشق آخر رجب ثم إلى مصر ومر بعسقلان فخربها وطمس آثارها وجاءه الخبر بمصر بأن الفرنسيس لويس بن لويس وملك انكلترة وملك اسكوسنا وملك نودل وملك برشلونة وهو ربدراكون وجماعة ملوك الإفرنج جاؤوا في الأساطيل إلى صقلية وشرعوا في الاستكثار من الشواني وآلة الحرب ولم يعرف وجه مذهبهم فاهتم الظاهر بحفظ الثغور والسواحل واستكثر من الشواني والمراكب ثم جاء الخبر الصحيح بأنهم قاصدون تونس فكان من خبرهم ما نذكره في دولة السلطان بها من بني أبي حفص والله تعالى أعلم.

فتح حصن الأكراد وعكا وحصون صور

ثم سار السلطان سنة تسع وستين لغزو بلاد الإفرنج وسرح ابنه السعيد في العساكر إلى المرقب لنظر الأمير قلاوون وبعلبك الخزندار وسار هو إلى طرابلس فاكتسحوا سائر تلك النواحي وتوافوا لحصن الأكراد عاشر شعبان من السنة فحاصره السلطان عشراً ثم اقتحمت أرباضه وانحجر الإفرنج في قلعته واستأمنوا وخرجوا إلى بلادهم وملك الظاهر الحصون وكتب إلى صاحب الاسبتار بالفتح وهو بطرطوس وأجاب بطلب الصلح فعقد له على طرسوس والمرقب وارتحل السلطان عن حصن الأكراد بعد أن شحنه بالأقوات والحامية ونازل حصن عكا واشتد في حصاره واستأمن من أهله إليه وملكه ثم ارتحل بعد الفطر إلى طرابلس واشتد في قتالها وسأل صاحبها البرنس الصلح فعقد له على ذلك لعشر سنين ورجع إلى دمشق ثم خرج آخر شوال إلى العليقه وملك قلعتها بالأمان على أن يتركوا الأموال والسلاح واستولى عليه وهدمه وسار إلى اللجون وبعث إليه صاحب صور في الصلح على أن ينزل له عن خمس من قلاعه فعقد له الصلح لعشر سنين وملكها ثم كتب إلى نائبه بمصر أن يجهز عشرة من الشواني إلى قبرس فجهزها ووصلت ليلاً إلى قبرس والله أعلم.

استيلاء الظاهر على حصون الإسماعيلية بالشام

كان الإسماعيلية في حصون من الشام قد ملكوها وهي مصياف والعليقة والكهف والمينقة والقدموس وكان كبيرهم لعهد الظاهر نجم الدين الشعراني وكان قد جعل له الظاهر ولايتها ثم تأخر عن لقائه في بعض الأوقات فعزله وولى عليها خادم الدين بن الرضا على أن ينزل له عن حصن مصياف وأرسل معه العساكر فتسلموه منه ثم قدم عليه سنة ثمان وستين وهو على حصن الأكراد وكان نجم الدين الشعراني قد أسن وهرم فاستعتب وأعتبه الظاهر وعطف عليه وقسم الولاية بينه وبين ابن الرضا وفرض عليهما مائة وعشرين ألف درهم يحملانها في كل سنة.

ولما رجع سنة تسع وستين وفتح حصن الأكراد مر بحصن العليقة من حصونهم فملكه من يد ابن الرضى منتصف شوال من السنة وأنزل به حامية ثم سار لقتال التتر على البيرة كما يذكر ورجع إلى مصر فوجد الإسماعيلية قد نزلوا على الحصون التي بقيت بأيديهم وسلموها لنواب الظاهر فملكوها وانتظمت قلاع الإسماعيلية في ملكة الظاهر وانقرضت منها دعوتهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار التتر البيرة وهزيمتهم عليها

ثم بعث ابغا بن هلاكو العساكر إلى البيرة سنة إحدى وسبعين مع درباي من مقدمي أمرائه فحاصرها ونصب عليها المجانيق وكان السلطان بدمشق فجمع العساكر من مصر والشام وزحف إلى الفرات وقد جهز العساكر على قاصيته فتقدم الأمير قلاوون وخالط التتر عليها في مخيمهم فجالوا معه ثم انهزموا وقتل مقدمهم وخاض السلطان بعساكره بحر الفرات إليهم فأجفلوا وتركوا خيامهم بما فيها وخرج أهل البيرة فنهبوا سوادهم وأحرقوا آلات الحصار ووقف السلطان بساحتها قليلاً وخلع على النائب بها..... ولحق درباري بسلطانه ابغا مفلولاً فسخطه ولم يعتبه والله تعالى ولي التوفيق.

غزوة سيس وتخريبها

ثم نهض الظاهر من مصر لغزو سيس في شعبان سنة ثلاث وسبعين وانتهى إلى دمشق في رمضان وسار منها وعلى مقدمته الأمير قلاوون وبدر الدين بيليك الخازندار فوصلوا إلى المصيصة وافتتحوها عنوة وجاء السلطان على أثرهم وسار بجميع العساكر إلى سيس بعد أن كنف الحامية بالبيرة خوفاً عليها من التتر وبعث حسام الدين العنتابي ومهنا بن عيسى أمير العرب بالشام للإغارة على بلاد التتر من ناحيتها وسار إلى سيس فخربها وبث السرايا في نواحيها فانتهوا إلى بانياس وأدنة واكتسحوا سائر الجهات ووصل إلى دربند الروم وعاد إلى المصيصة في التعبية فأحرقها ثم انتهى إلى إنطاكية فأقام عليها حتى قسم الغنائم ثم رحل إلى القصر وكان للإفرنج خالصاً لتبركهم به إذ أمر ببنائه رئيسهم برومة الذي يسمونه البابا فافتتحه ولقيه هنالك حسام الدين العنتابي ومهنا بن عيسى راجعين من إغارتهم وراء الفرات ثم بلغه مهلك البرنس سمند بن تيمند صاحب طرابلس فبعث الظاهر بليان الدوادار ليقرر الصلح مع بنيه فقرره على عشرين ألف دينار وعشرين أسيراً كل سنة وحضر لذلك صاحب قبرس وكان جاء معزياً لبني البرنس ورجع الدوادار إلى الظاهر فقفل إلى دمشق منتصف ذي الحجة والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

إيقاع الظاهر بالتتر في بلاد الروم ومقتل البرواناة بمداخلته في ذلك

كان علاء الدين البرواناة متغلباً على غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم من بني قليج أرسلان وقد غلب التتر على جميع ممالك بلاد الروم وأبقوا على كنخسرو اسم الملك في كفالة البرواناة وأقاموا أميراً من أمرائهم ومعه عسكر التتر حامية بالبلاد ويسمونه بالشحنة وكان أول أمير من التتر ببلاد الروم بيكو وهو الذي افتتحها وبعده صمغان وبعده توقوو وتدوان شريكين في أمرهما لعهد الملك الظاهر وكان البرواناة يتأفف من التتر لاستطالتهم عليه وسوء ملكهم ولما استفحل أمر الظاهر بمصر والشام أمل البرواناة الظهور على التتر والكرة لبني قليج أرسلان بممالأة الظاهر فداخله في ذلك وكاتبه وزحف ابغا ملك التتر إلى البيرة سنة أربع وسبعين وخرج الظاهر بالعساكر من دمشق وكاتبه البرواناة يستدعيه وأقام الظاهر على حمص وأرسل إليه البرواناة يستحثه للقاء التتر وعزم ابغا على البرواناة في الوصول فاعتذر ثم رحل متثاقلاً.

وكتب إليه الأمراء بعده بأن الظاهر قد نهض إلى بلاد الروم بوصيته إليه بذلك فبعث إلى ابغا واستمده فأمده بعساكر المغل وأمره بالرجوع لمدافعة الظاهر فرجع واستحثوه للقدوم فسقط في أيديهم وحيل بينهم وبين مرامهم ورجع إلى مصر في رجب من السنة وأقام بها حولاً.

ثم لقي توقوو وتدوان أمير التتر ببلاد الروم وسار إلى الثغور بالشام وبلغ السلطان خبرهما فسار من مصر في رمضان سنة خمس وسبعين وقصد بلاد الروم وانتهى إلى النهر الأزرق فبعث شمس الدين سنقر الأشقر فلقي مقدمه التتر فهزمهم.

ورجع إلى السلطان وساروا جميعاً فلقوا التتر على البلنشين ومعهم علاء الدين البرواناة في عساكره فهزمهم وقتل الأمير توقوو وتدوان وفر البرواناة وسلطانه كنخسرو لما كان منفرداً عنهم وأسر كثير من المغل منهم سلار بن طغرل ومنهم قفجاق وجاورصى وأسر علاء الدين بن معين الدين البرواناة وقتل كثيراً منهم ثم رحل السلطان إلى قيسارية فملكها وأقام عليها ينتظر البرواناة لموعد كان بينهما وأبطأ عليه وقفل راجعاً ورجع خبر الهزيمة إلى ابغا ملك التتر واطلع من بعض عيونه على ما كان بين البرواناة والظاهر من المداخلة فتنكر للبرواناة وجاء لوقته حتى وقف على موضع المعركة وارتاب لكثرة القتلى من المغل وأن عسكر الروم لم يصب منهم أحد فرجع على بلادهم بالقتل والتخريب والاكتساح وامتنع كثير من القلاع ثم أمنهم ورجع وسار معه البرواناة وهمّ بقتله أولاً ثم رجع لتخليته لحفظ البلاد فأعول نساء القتلى من المغل عند بابه فرحم بكاءهن وبعث أميراً من المغل فقتله في بعض الطريق والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه وأحكم.

وفاة الظاهر وولاية ابنه السعيد

ولما رجع السلطان من واقعته بالتتر على البلستين وقيسارية طرقه المرض في محرم سنة ست وسبعين وهلك من آخره وكان بيليك الخزندار مستولياً على دولته فكتم موته ودفنه ورجع بالعساكر إلى مصر فلما وصل القلعة جمع الناس وبايع لبركة بن الملك الظاهر ولقبه السعيد وهلك بيليك إثر ذلك فقام بتدبير الدولة أستاذ داره شمس الدين الفارقاني وكان نائب مصر أيام مغيب الظاهر بالشام واستقامت أموره ثم قبض على شمس الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بيسري من أمراء الظاهر بسعاية بطانته

الذين جمعهم عليه لأول ولايته وكانوا من أوغاد الموالي وكان يرجع إليهم لمساعدتهم له على هواه وصارت شبيبته ولما قبض على هذين الأميرين نكر ذلك عليه خاله محمد بن بركة خان فاعتقله معهما فاستوحشت أمه لذلك فأطلق الجميع فارتاب الأمراء وأجمعوا على معاتبته فاستعتب واستحلفوه ثم أغراه بطانته بشمس الدين الفارقاني مدبر دولته فقبض عليه وإعتقله وهلك لأيام من اعتقاله وولى مكانه شمس الدين سنقر الالفي ثم سعى أولئك البطانة به فعزله وولى مكانه سيف الدولة كونك الساقي صهر الأمير سيف الدين قلاوون على أخت زوجته بنت كرمون كان أبوها من أمراء التتر قد خرج إلى الظاهر واستقر عنده وزوج بنته من الأمير قلاوون وبنته الأخرى من كوزبك ثم حضر عند السعيد لاشين الربعي من حاشيته وغلب على هراة واستمال أهل الدولة بقضاء حاجاتهم واستمر معروفه لهم واستمر الحال على ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع السعيد وولاية أخيه شلامس

ولما استقر السعيد بملكه في مصر أجمع المسير إلى الشام للنظر في مصالحه فسار لذلك سنة سبع وسبعين فاستقر بدمشق وبعث العساكر إلى الجهات وسار قلاوون الصالحي وبدر الدين بيسري إلى سيس زين له ذلك لاشين الربعي والبطانة الذين معه وأغروه بالقبض عليهم عند مرجعهم ثم حدث بين هؤلاء البطانة وبين النائب سيف الدين كونك وحشة وآسفوه بما يلقون فيه عند السلطان فغضب لذلك وسارت العساكر فأغاروا على سيس واكتسحوا نواحيها ورجعوا فلقيهم النائب كونك وأسرَّ إليهم ما أضمر لهم السلطان فخيموا بالمرج وقعدوا عن لقاء السلطان وبعثوا إليه بالعذل في بطانته وأن ينصف نائبه منهم فأعرض عنهم ودس لموالي أبيه أن يعاودوهم إليه فأطلعوهم على كتابه فزادهم ضغناً وصرحوا بالانتقاض فبعث إليهم سنقر الأشقر وسنقر التركيتي أستاذ داره بالاستعطاف فردوهما فبعث أمه بنت بركة خان فلم يقبلوها وارتحلوا إلى القاهرة فوصلوها في محرم سنة ثمان وسبعين وبالقلعة عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جندار وعلاء الدين اقطوان الساقي وسيف الدين يليان أستاذ داره فضبطوا أبواب القاهرة ومنعوهم من الدخول.

وترددت المراسة بينهم وخرج أيبك الأفرام واقطوان ولاشين التركماني للحديث فتقبضوا عليهم ودخلوا إلى بيوتهم ثم باكروا القلعة بالحصار ومنعوا عنها الماء وكان السعيد بعد منصرفهم من دمشق سار في بقية العساكر واستنفر الأعراب وبث العطاء وانتهى إلى غزة فتفرقت عنه الأعراب واتبعهم الناس ثم انتهى إلى بلبيس ورأى قلة العساكر فرد عن الشام مع عز الدين ايدمر الظاهري إلى دمشق والنائب بها يومئذ أقوش فقبض عليه وبعث به إلى الأمراء بمصر ولما رحل السعيد من بلبيس إلى القلعة اعتزل عنه سنقر الأشقر وسار الأمراء في العساكر لاعتراضه دون القلعة وألقى الله عليه حجاباً من الغيوم المتراكمة فلم يهتدوا إلى طريقه وخلص إلى القلعة وأطلق علم الدين سنجار الحنفي من محبسه ليستعين به.

ثم اختلف عليه بطانته وفارقه بعضهم فرجع إلى مصانعة الأمراء بأن يترك لهم الشام أجمع فأبوا إلا حبسه فسألهم أن يعطوه الكرك فأجابوه وحلفهم على الأمان وحلف لهم أن لا ينتقض عليهم ولا يداخل أحداً من العساكر ولا يستميله فبعثوه من حينه إلى الكرك وكتبوا إلى النائب بها علاء الدين ايدكز الفخري أن يمكنه منها ففعل واستمر السعيد بالكرك وقام بدولته ايدكز الفخري واجتمع الأمراء بمصر وعرضوا الملك على الأمير قلاوون وكان أحق به فلم يقبل وأشار إلى شلامش بن الظاهر وهو ابن ثمان سنين فنصبوه للملك في ربيع سنة ثمان وسبعين ولقبوه بدر الدين.

وولى الأمير قلاوون أتابك الجيوش وبعث مكان جمال الدين أقوش نائب دمشق بتسلمها منه وسار أقوش إلى حلب نائباً وولى قلاوون في الوزارة برهان الحصري السنحاوي وجمع المماليك الصالحية ووفر إقطاعاتهم وعمر بهم مراتب الدولة وأبعد الظاهرية وأودعهم السجون ومنع الفساد ولم يقطع عنهم رزقاً إلى أن بلغ العقاب فيهم أجله فأطلقهم تباعاً واستقام أمره والله تعالى أعلم.

خلع شلامش وولاية المنصور قلاوون

أصل هذا السلطان قلاوون من القفجاق ثم من قبيلة منهم يعرفون برج أعلى وقد مر ذكرهم وكان مولى لعلاء الدين أقسنقر الكابلي موالي الصالح نجم الدين أيوب فلما مات علاء الدين صار من موالي الصالح وكان من نفرتهم واستقامتهم ما قدمناه ثم قدم إلى مصر في دولة المظفر قطز مع الظاهر بيبرس ولما ملك الظاهر قربه واختصه وأصهر إليه ثم بايع لابنه السعيد من بعده.

ولما استوحش الأمراء من السعيد وخلعوه رغبوا من الأمير قلاوون في الولاية عليهم كما قدمناه ونصب أخاه شلامش بن الظاهر فوافقه الأمراء على ذلك طواعية له واتصلت رغبتهم في

ولايته مدة شهرين حتى أجابهم إلى ذلك فبايعوه في جمادى سنة ثمان وسبعين فقام بالأمر ورفع كثيراً من المكوس والظلامات وقسم الوظائف بين الأمراء وولى جماعة من مماليكه إمرة الألوف وزادهم في الاقطاعات وأفرج لوقته عن عز الدين أيبك الأفرم الصالحي وولاه نائبا بمصر ثم استبقاه فأعفاه وولى مملوكه حسام الدين طرنطاي مكانه ومملوكه علم الدين سنجار الشجاعي رئاسة الدواوين وأقر الصاحب برهان الدين السنجاري في الوزارة ثم عزله بفخر الدين إبراهيم بن لقمان وبعث عز الدين ايدمر الظاهري الذي كان اعتقله جمال الدين أقوش حين رجع بعساكر الشام عن السعيد بن الظاهر من بلبيس فجيء به مقيداً واعتقله والله تعالى ولي التوفيق.

انتفاض السعيد بن الظاهر بالكرك ووفاته وولاية أخيه خسرو مكانه

ولما ملك السلطان قلاوون شرع السعيد بالكرك وكاتب الأمراء بمصر والشام في الانتقاض وخاطبه السلطان بالعتاب على نقض العهد فلم يستعتب وبعث عساكره مع حسام الدين لاشين الجامدار إلى الشوبك فاستولى عليها فبعث السلطان نور الدين بليك الإيدمري في العساكر فارتدها في ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وقارن ذلك وفاة السعيد بالكرك واجتمع الأمراء الذين بها ومقدمهم نائبه إيدكين الفخري وقال إيدكين: إن نائبه كان ايدغري الحراني فنصبوا أخاه خسرو ولقبوه المسعود نجم الدين واستولى الموالي على رأيه وأفاضوا المال من غير تقدير ولا حساب حتى أنفقوا ما كان بالكرك من الذخيرة التي ادخرها الملك الظاهر وبعض أمراء الشام في الخلاف.

وبعثوا العساكر فاستولوا على الصليب وحاصروا صرخد فامتنعت وكاتبوا سنقر الأشقر المتظاهر على الخلاف فبعث السلطان أيبك الأفرم في العساكر لحصار الكرك فحاصرها وضيق عليها ثم سأل المسعود في الصلح على ما كان الناصر داود بن المعظم فأجابه السلطان قلاوون وعقد له ذلك ثم انتقض ثانية ونزع عنه نائبه علاء الدين ايدغري الحراني ونزع عنه إلى السلطان فصدق ما نقل عنه من ذلك ثم بعث السلطان سنة خمس وثمانين نائبه حسام الدين طرنطاي في العساكر لحصار الكرك فحاصروها واستنزل المسعود وأخاه شلامش منها على الأمان وملكها وجاء بهما إلى السلطان قلاوون فأكرمهما وخلطهما بولده إلى أن توفي فغرّ بهما الأشرف إلى القسطنطينية.

انتفاض سنقر الأشقر بدمشق هزيمته ثم امتناعه بصهيون

كان شمس الدين سنقر الأشقر لما استقر في نيابة دمشق أجمع الانتقاض والاستبداد وتسلم القلاع من الظاهرية وولى فيها وطالب المنصور قلاوون دخول الشام بأسرها من العريش إلى الفرات في ولايته وزعم أنه عاهده على ذلك وولى السلطان على قلعة دمشق مولاه حسام الدين لاشين الصغير سلحداراً في ذي الحجة سنة ثمان وسبعين فنكر سنقر وانتقض ودعا لنفسه ثم بلغه خبر قلاوون وجلوسه على التخت فدعا الأمراء وأشاع أن قلاوون قتل واستحلفهم على منعته وحبس من امتنع من اليمين وتلقب الكامل وذلك في ذي الحجة من السنة وقبض على لاشين نائب القلعة وجهز سيف الدين إلى الممالك الشامية والقلاع للاستحلاف وولى في وزارة الشام مجد الدين إسماعيل بن كسيرات وسكن سنقر بالقلعة.

ثم بعث السلطان أيبك الأفرم بالعساكر إلى الكرك لما توفي السعيد صاحبها وانتهى إلى غزة واجتمع إليه بيليك الايدمري منقلباً من الشوبك بعد فتحه فحذرهم سنقر الأشقر وخاطب الأفرم يتجنى على السلطان بأنه لم يفرده بولاية الشام وولى في قلعة دمشق وفي حلب وبعث الأفرم بالكتاب إلى السلطان قلاوون فأجابه وتقدم إلى الأفرم أن يكاتبه بالعزل فيما فعله وارتكبه فلم يرجع عن شأنه وجمع العساكر من عمالات الشام واحتشد العربان وبعثهم مع قراسنقر المقري إلى غزة فلقيهم الأفرم وأصحابه وهزموهم وأسروا جماعة من أمرائهم وبعثوا بهم إلى السلطان قلاوون فأطلقهم وخلع عليهم.

ولما وصلت العساكر مفلولة إلى دمشق عسكر سنقر الأشقر بالمرج وكاتب الأمراء بغزة يستميلهم وبعث السلطان العساكر بمصر مع علم الدين سنجار لاشين المنصوري وبدر الدين بكتاش الفخري السلحدار فساروا إلى دمشق فلقيهم الأشقر على الجسر بالكسرة فهزموه في صفر سنة تسع وسبعين وتقدموا إلى دمشق فملكوها وأطلق علم الدين سنجار لاشين المنصوري من الاعتقال وولاه نيابة دمشق وولى على القلعة سيف الدين سنجار المنصوري وكتب إلى السلطان بالفتح وسار سنقر إلى الرحبة فامتنع عليه نائبها فسار إلى عيسى بن مهنا ورجع عنه إلى الفل وكاتبوا ابغا ملك التتر واستحثوه لملك الشام يستميلونه فلم يجب وبعث إليه العساكر فأجفلوا إلى صهيون وملكها سنقر وملك معها شيزر.

وبعث السلطان العساكر لحصار شيزر مع عز الدين الأفرم فحاصرها وجاءت الأخبار بزحف ابغا ملك التتر إلى الشام في مواعدة سنقر وابن مهنا واستدعى صغار صاحب بلاد الروم فيمن معه من المغل وأنه بعث بيدو ابن أخيه طرخان صاحب ماردين وصاحب سيس من ناحية أذربيجان وجاء هو على طريق الشام وفي مقدمته أخوه منوكتمر فلما تواترت الأخبار بذلك أفرج الأفرم عن حصار شيزر ودعا الأشقر إلى مدافعة عدو المسلمين فأجابه ورفع عن موالاة ابغا وسار من صهيون للاجتماع بعساكر المسلمين.

وجمع السلطان العساكر بمصر وسار إلى الشام واستخلف على مصر ابنه أبا الفتح علياً بعد أن ولاه عهده وقرأ كتابه بذلك على الناس وخرج لجمع العساكر في جمادى سنة تسع وسبعين وانتهى إلى غزة ووصل التتر إلى حلب وقد أجفل عنها أهلها وأقفرت منازلها فأضرموا النار في بيوتها ومساجدها وتولى كبر ذلك صاحب سيس والأرمن وبلغهم وصول السلطان إلى غزة فأجفلوا راجعين إلى بلادهم وعاد السلطان إلى مصر بعد أن جرد العساكر إلى حمص وبلاد السواحل بحمايتها من الإفرنج ورجع سنقر الأشقر إلى صهيون وفارقه كثير من عسكره فلحقوا بالشام وأقام معه سنجار الدوادار وعز الدين أردين والأمراء الذين مكنوه من قلاع الشام عند انتقاضه والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير السلطان لحصار المرقب ثم الصلح معهم ومع سنقر الأشقر بصهيون ومع بني الظاهر بالكرك

كان الإفرنج الذين بحصن المرقب عندما بلغهم هجوم التتر على الشام شنوا الغارات في بلاد المسلمين من سائر النواحي فلما رجع التتر عن الشام استأذنه يليان الطباخي صاحب حصن الأكراد في غزوهم وسار إليهم في حامية الحصون بنواحيه وجمع التركمان وبلغ الحصن المرقب ووقف أسفله واستطرد له أهل الحصن حتى تورط في أوعار الجبل ثم هجموا عليه دفعة فانهزم ونالوا من المسلمين وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من مصر لغزوهم آخر سنة تسع وسبعين واستخلف ابنه مكانه وانتهى إلى الروحاء فوصله هنالك رسل الإفرنج في تقرير الهدنة مع أهل المرقب على أن يطلقوا من أسروه من المسلمين في واقعة يليان فعقد لهم في المحرم سنة ثمانين وعقد لصاحب بيت الاسبتار وابنه ولصاحب طرابلس سمند بن تيمند ولصاحب عكا على بلادهم وعلى قلاع الإسماعيلية وعلى جميع البلاد المستجدة الفتح وما سيفتحه على أن يسكن عمال المسلمين باللاذقية وأن لا يستنجدوا أسير قلعة ولا غيرها ولا يداخلوا التتر في فتنة ولايمروا عليهم إلى بلاد المسلمين إن أطاقوا ذلك وعقد معهم ذلك لإحدى عشرة سنة.

وبعث السلطان من أمرائه من يستحلف الإفرنج على ذلك وبلغه الخبر بأن جماعة من أمرائه أجمعوا الفتك به وداخلوا الإفرنج في ذلك وكان كبيرهم كوندك فلما وصل إلى بيسان قبض عليه وعليهم وقتلهم واستراب من داخلهم في ذلك ولحقوا بسنقر في صهيون ودخل السلطان دمشق وبعث العساكر لحصار شيزر ثم ترددت الرسل بينه وبين الأشقر في الصلح على أن ينزل عن شيزر ويتعوض عنها بالشعر وبكاس وعلى أن يقتصر في حامية الحصون التي لقطره على ستمائة من الفرسان فقط ويطرد عنه الأمراء الذين لحقوا به فتم الصلح على ذلك وكتب له التقليد بتلك الأعمال ورجع من عنده سنجار الدوادار فأحسن إليه السلطان وولى على نيابة شيزر يليان الطباخي وكان بنو الظاهر بالكرك يسألون السلطان في الصلح بالزيادة على الكرك كما كان السلطان داود فلما تم الصلح مع سنقر رجعوا إلى القنوع بالكرك وبعث إليهم السلطان بأقاربهم من القاهرة وأتم لهم العقد على ذلك وبعث الأمير سلحدار والقاضي تاج الدين بن الأثير لاستحلافهم والله تعالى أعلم.

واقعة التتر بحمص ومهلك ابغا سلطانهم بإثرها

ثم زحف التتر سنة ثمانين إلى الشام من كل ناحية متظاهرين فسار أبغا في عساكر المغل وجموع التتر وانتهى إلى الرحبة فحاصرها ومعه صاحب ماردين وقدم أخوه منكوتمر في العساكر إلى الشام وجاء صاحب الشمال منكوتمر من بني دوشي خان من كرسيهم بصراي مظاهراً لأبغا بن هلاكو على الشام فمر بالقسطنطينية ثم نزل بين قيسارية وتفليس ثم سار إلى منكوتمر بن هلاكو وتقدم معه إلى الشام وخرج السلطان من دمشق في عساكر المسلمين وسابقهم إلى حمص ولقيه هناك سنقر الأشقر فيمن معه من أمراء الظاهرية وزحف التتر ومن معهم من عساكر الروم والإفرنج والأرمن والكرج ثمانون ألفاً أو يزيدون والتقى الفريقان على حمص.

وجعل السلطان في ميمنته صاحب حماة محمد بن المظفر

ونائب دمشق لاشين السلحدار وعيسى بن مهنا فيمن إليه من العرب وفي الميسرة سنقر الأشقر في الظاهرية مع جموع التركمان ومن إليهم جماعة من أمرائه وفي القلب نائبه حسام الدين طرنطاى والحاجب ركن الدين أياحي وجمهور العساكر والمماليك ووقف السلطان تحت الرايات في مواليه وحاشيته ووقفت عساكر التتر كراديس وذلك منتصف رجب سنة ثمانين واقتتلوا ونزل الصبر ثم انفضت ميسرة المسلمين واتبعهم التتر وانفضت ميسرة التتر ورجعوا على ملكهم منكوتمر في القلب فانهزم ورجع التتر من اتباع ميسرة المسلمين فمروا بالسلطان وهو ثابت في مقامه لم يبرح ورجع أهل الميرة.

ونزل السلطان في خيامه ورحل من الغد في اتباع العدو وأوعز إلى الحصون التي في ناحية الفرات باعتراضهم على المقابر فعدلوا عنها وخاضوا الفرات في المجاهل فغرقوا ومر بعضهم ببر سلمية فهلكوا وانتهى الخبر إلى أبغا وهو على الرحبة فأجفل إلى بغداد وصرف السلطان العساكر إلى أماكنهم وسار سنقر الأشقر إلى مكانه بصهيون وتخلف عنه كثير من الظاهرية عند السلطان وعاد السلطان إلى دمشق ثم إلى مصر آخر شعبان من السنة فبلغه الخبر بمهلك منكوتمر بن هلاكو بهمذان ومنكوتمر صاحب الشمال بصراي فكان ذلك تماماً للفتح.

ثم هلك أبغا بن هلاكو سنة إحدى وثمانين وكان سبب مهلكه فيما يقال أنه اتهم شمس الدين الجريض وزيره باغتيال أخيه منكوتمر منصرفه من واقعة حمص فقبض عليه وامتحنه واستصفاه فدس له الجويني من سمه ومات وكان أبغا اتهم بأخيه أيضا أميراً من المغل كان شحنة بالجزيرة ففر منها وأقام مشركاً وبعث السلطان قلاوون بعثا إلى ناحية الموصل للإغارة عليها وانتهوا إلى سنجار فصادفوا هذا الأمير وجاؤوا به إلى السلطان فحبسه ثم أطلقه وأثبت اسمه في الديوان وكان يحدث بكثيرمن أخبار التتر وكتب بعضها عنه.

وبعث السلطان في هذه السنة بعوثاً أخرى إلى نواحي سيس من بلاد الروم جزاء بما كان من الأرمن في حلب ومساجدها فاكتسحوا تلك النواحي ولقيهم بعض أمراء التتر بمكان هنالك فهزموه ووصلوا إلى جبال بلغار ورجعوا غانمين وبعث السلطان شمس الدين قراسنقر المنصوري إلى حلب لإصلاح ما خرب التتر من قلعتها وجامعها فأعاد ذلك إلى أحسن ما كان عليه.

ثم أسلم ملوك التتر فبعث أولاً بكدار بن هلاكو صاحب العراق بإسلامه وأنه تسمى أحمد وجاءت رسله بذلك إلى السلطان وهم شمس الدين أتابك ومسعود بن كيكاوس صاحب بلاد الروم وقطب الدين محمود الشيرازي قاضي سيواس وشمس الدين محمد بن الصاحب من حاشية صاحب ماردين وكان كتابه مؤرخاً بجمادى سنة إحدى وثمانين وحملوا على الكرامة وأجيب سلطانهم بما يناسبه ثم وصل رسول قودان بن طقان المتولي بكرسي الشمال بعد أخيه منكوتمر سنة اثنتين وثمانين بخبر ولايته ودخوله في دين الإسلام ويطلب تقليد الخليفة واللقب منه والراية للجهاد فيمن يليه من الكفار فأسعف بذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء السلطان قلاوون على الكرك وعلى صهيون ووفاة صاحب حماة

ثم توفي المنصور محمد بن المظفر صاحب حماة في شوال سنة اثنتين وثمانين وولي السلطان ابنه المظفر وبعث بالخلع له ولأقاربه وسار السلطان قلاوون إلى الشام في ربيع سنة ثلاث وثمانين لمحاصرة المرقب بما فعلوه من ممالأة العدو فحاصره حتى استأمنوا إليه وملك الحصن من أيديهم وانتظر وصول سنقر الأشقر من صهيون فلم يصل فرجع إلى مصر وجهز النائب حسام الدين طرنطاي في العساكر لحصار الكرك بما وقع من شلامش وخسرو من الانتقاض فسار سنة خمس وثمانين وحاصرهم حتى استأمنوا وجاء بهم إلى السلطان فركب للقائهم وبالغ في إكرامهم ثم ساءت سيرتهم فاستراب بهم واعتقلهم وغربهم إلى القسطنطينية وولى على الكرك عز الدين المنصوري وبعده بيبرس الدويدار مؤلف أخبار الترك ثم جهز السلطان ثانياً النائب طرنطاي بالعساكر لحصار سنقر الأشقر بصهيون لانتقاضه وإغارته على بلاد السلطان فسار لذلك سنة ست وثمانين وحاصره حتى استأمن هو ومن معه وجاء به إلى السلطان وأنزله بالقلعة ولم يزل عنده إلى أن هلك السلطان فقبض عليه وتولى ابنه الأشرف من بعده كما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفاة ميخائيل ملك القسطنطينية

قد تقدم لنا كيف تغلب الإفرنج على القسطنطينية من يد الروم سنة ستمائة وكان ميخائيل هذا من بطارقتهم أقام في بعض الحصون بنواحيها فلما أمكنته الفرصة بيتها وقتل من كان بها من الإفرنج وفر الباقون في مراكبهم واجتمع الروم إلى ميخائيل هذا وملكوه عليهم وقتل الملك الذي قبله وكان بينه وبين صاحب

مصر والناصر قلاوون من بعده اتصال ومهاداة ونزل بنو الظاهر عليه عندما غربوا من مصر ثم مات ميخائيل سنة إحدى وثمانين وولى ابنه ماندر ويلقب الراونس وميخائيل هذا يعرف بالأشكري وبنوه من بعده بنو الأشكري وهم ملوك القسطنطينية إلى هذا العهد والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

أخبار النوبة

كان الملك الظاهر وفد عليه أعوام سنة خمس وسبعين ملك النوبة من تشكيل مستنجداً به على ابن أخيه داود لما كان تغلب عليه وانتزع الملك من يده فوعده السلطان وأقام ينتظر واستفحل ملك داود وتجاوز حدود مملكته إلى قرب اسوان من آخر الصعيد فجهز السلطان العساكر إليه مع أقسنقر الفارقاني وأيبك الأفرم أستاذ داره وأطلق معهم مرتشكين ملك النوبة فساروا لذلك واستنفروا العرب وانتهوا إلى رأس الجنادل واستولوا على تلك البلاد وأمنوا أهلها وساروا في البلاد فلقيهم داود الملك فهزموه وأثخنوا في عساكره وأسروا أخاه وأخته وأمه وسار إلى مملكة السودان بالأبواب ورآه فقاتله ملكها وهزمه وأسره وبعث به مقيداً إلى السلطان فاعتقل بالقلعة إلى أن مات واستقر مرتشكين في سلطان النوبة على جراية مفروضة وهدايا معلومة في كل سنة وعلى أن تكون الحصون المجاورة لأسوان خالصة للسلطان وعلى أن يمكن ابن أخيه داود وجميع أصحابه من كل مالهم في بلادهم فوفى بذلك.

ثم مات الظاهر وانقرضت دولته ودولة بنيه وانتقل الملك إلى المنصور قلاوون فبعث سنة ست وثمانين العساكر إلى النوبة مع علم الدين سنجار الخياط وعز الدين الكوراني وسار معهم نائب قوص عز الدين إيدمر السيفي بعد أن استنفر العربان أولاد أبي بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان وأولاد كنز الدولة وجماعة من الغرب وبني هلال وساروا على العدوة الغربية والشرقية في دنقلة وملكهم بيتمامون هكذا سماه النووي وأظنه أخا مرتشكين وبرزوا للعساكر فهزمتهم واتبعتهم خمسة عشر يوماً وراء دنقلة.

ورتب ابن أخت بيتمامون في الملك ورجعت العساكر إلى مصر فجاء بيتمامون إلى دنقلة فاستولى على البلاد ولحق ابن أخته بمصر صريخاً بالسلطان فبعث معه عز الدين أيبك الأفرم في العساكر ومعه ثلاثة من الأمراء وعز الدين نائب قوص وذلك سنة ثمان وثمانين وبعثوا المراكب في البحر بالأزودة والسلاح ومات ملك النوبة بأسوان ودفن بها وجاء نائبه صريخاً إلى السلطان فبعث معه داود ابن أخي مرتشكين الذي كان أسيراً بالقلعة وتقدم جريس بين يدي العساكر فهرب بيتمامون وامتنع بجزيرة وسط النيل على خمس عشرة مرحلة وراء دنقلة ووقف العساكر على ساحل البحر وتعذر وصول المراكب إلى الجزيرة من كثرة الحجر وخرج بيتمامون منها فلحق بالأبواب ورجع عنه أصحابه ورجعت العساكر إلى دنقلة فملكوا داود ورجعوا إلى مصر سنة تسع وثمانين لتسعة أشهر من مسيرهم، بعد أن تركوا أميراً منهم مع الملك داود، ورجعوا إلى مصر ورجع بيتمامون إلى دنقلة وقتل داود وبعث الأمير الذي كان معهم إلى السلطان وحمله رغبة في الصلح على أن يؤدي الضريبة المعلومة فأسعف لذلك واستقر في ملكه انتهى والله تعالى أعلم.

فتح طرابلس

كان الإفرنج الذين بها قد نقضوا الصلح وأغاروا على الجهات فاستنفر السلطان العساكر من مصر والشام وأزاح عللهم وجهز آلات الحصار وسار إليها في محرم سنة ثمان وثمانين فحاصرها ونصب عليها المجانيق وفتحها عنوة لأربعة وثلاثين يوماً من حصارها واستباحها وركب بعضهم الشواني للنجاة فردتهم الريح إلى السواحل فقتلوا وأسروا وأمر السلطان بتخريبها فخربت وأحرقت وفتح السلطان ما إليها من الحصون والمعاقل وأنزل حاميتها وعاملها بحصن الأكراد ثم اتخذ حصناً آخر لترك النائب والحامية في العمل وسمي باسم المدينة وهو الموجود لهذا العهد وكان من خبر هذه المدينة من لدن الفتح أن معاوية أيام ولايته الشام لعهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بعث إليها سفيان بن مخنف الأزدي فحاصرها وبنى عليها حصناً حتى جهد أهلها الحصار وهربوا منها في البحر وكتب سفيان إلى معاوية بالفتح وكان يبعث العساكر كل سنة للمرابطة بها.

ثم جاء إلى عبد الملك بن مروان بطريق من الروم وسأله في عمارتها والنزول بها مجمعاً على أن يعطيه الخراج فأجابه وأقام قليلاً ثم غدر بمن عنده من المسلمين وذهب إلى بلاد الروم فتخطفته شواني المسلمين في البحر وقتله عبد الملك ويقال: الوليد وملكها المسلمون وبقي الولاة يملكونها من دمشق إلى أن جاءت دولة العبيديين فأفردوها بالولاية ووليها رمان الخادم ثم سر الدولة ثم أبو السعادة علي بن عبد الرحمن بن جبارة ثم نزال ثم مختار الدولة بن نزال وهؤلاء كلهم من أهل دولته ثم تغلب قاضيها

أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار وتوفي سنة أربع وستين وأربعمائة وكان من فقهاء الشيعة وهو الذي صنف الكتاب الملقب بخراب الدولة ابن منقذ بن كمود فقام بولاية أخيه أبي الحسن بن محمد بن عمار ولقبه جلال الدين.

وتوفى سنة اثنتين وتسعين صنجيل من ملوكهم واسمه ميمنت ومعناه ميمون وصنجيل: اسم مدينة عرف بها وأقام صنجيل يحاصرها طويلاً وعجز ابن عمار عن دفاعه ثم قصد سلطان السلجوقية بالعراق محمد بن ملكشاه مستنجداً به واستخلف بالمناقب ابن عمه على طرابلس ومعه سعد الدولة فتيان بن الأغر فقتله أبو المناقب ودعا للأفضل ابن أمير الجيوش المستبد على خلفاء العبيديين بمصر لذلك العهد ثم هلك صنجيل وهو محاصر لها وولي مكانه السرداني من زعمائهم وبعث الأفضل قائداً إلى طرابلس فأقام بها وشغل عن مدافعة العدو بجمع الأموال.

ونمي عنه إلى الأفضل أنه يروم الاستبداد فبعث آخر مكانه ونافر أهل البلد لسوء سيرته فتبين وصول المراكب من مصر بالمدد وقبض على أعيانهم وعلى مخلف فخر الملك بن عمار من أهله وولده وبعث بهم إلى مصر وجاء فخر الملك بن عمار بعد أن قطع حبل الرجاء في يده من إنجاد السلجوقية لما كانوا فيه من الشغل بالفتنة ورما علله بعضهم بولاية الوزارة له ثم رجع إلى دمشق سنة اثنتين وخمسمائة ونزل على طغتكين الأتابك.

ثم ملكها السرداني سنة ثلاث وخمسمائة بعد حصارها سبع سنين وجاء ابن صنجيل من بلاد الإفرنج فملكها منه وأقامت في مملكته نحواً من ثلاثين سنة ثم ثار عليه بعض الزعماء وقتله بطرس الأعور واستخلف في طرابلس القوش بطرار ثم كانت الواقعة بين صاحب القدس ملك الإفرنج وبين زنكي الأتابك صاحب الموصل وانهزم الإفرنج وأسر القوش في تلك الوقعة ونجا ملك الإفرنج إلى تغريب فتحصن بها وحصره زنكي حتى اصطلحا على أن يعطي تغريب ويطلق زنكي الأسرى في الواقعة فانطلق القوش إلى طرابلس فأقام بها مدة ووثب الإسماعيلية به فقتلوه وولي بعده رهند صبياً وحضر مع الإفرنج سنة سبع وخمسين وقعة حارم التي هزمهم فيها العادل وأسر رهند يومئذ وبقي في اعتقاله إلى أن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب فأطلقه سنة سبعين وخمسمائة ولحق بطرابلس ولم تزل في ملكه وملك ولده إلى أن فتحها المنصور سنة ثمان وثمانين كما مر والله تعالى أعلم.

إنشاء المدرسة والمارستان بمصر

كان المنصور قلاوون قد اعتزم على إنشاء المارستان بالقاهرة ونظر له الأماكن حتى وقف نظره على الدار القطبية من قصور العبيديين وما يجاورها من القصرين واعتمد إنشاءه هنالك وجعل الدار أصل المارستان وبنى بإزائه مدرسة لتدريس العلم وقبة لدفنه وجعل النظر في ذلك لعلم الدين الشجاعي فقام بإنشاء ذلك لأقرب وقت وكملت العمارة سنة اثنتين وثمانين وستمائة ووقف عليها أملاكاً وضياعاً بمصر والشام وجلس بالمارستان في يوم مشهود وتناول قدحاً من الأشربة الطبية وقال وقفت هذا المارستان على مثلي فمن دوني من أصناف الخلق فكان ذلك من صالح آثاره والله أعلم.

وفاة المنصور قلاوون وولاية ابنه خليل الأشرف

كان المنصور قلاوون قد عهد لابنه علاء الدين ولقبه الصالح وتوفي سنة سبع وثمانين فولي العهد مكانه ابنه الآخر خليل ثم انتقض الإفرنج بعكا وأغاروا على النواحي ومرت بهم رفقة من التجار برقيق من الروم والترك جلبوهم للسلطان فنهبوهم وأسروهم فأجمع السلطان غزوهم وخرج في العساكر بعد الفطر من سنة تسع وثمانين واستخلف ابنه خليلاً على القاهرة ومعه زين الدين سيف وعلم الدين الشجاعي الوزير وعسكر بظاهر البلد فطرقه المرض ورجع إلى قصره فمرض وتوفي في ذي القعدة من السنة فبويع ابنه خليل ولقب الأشرف وكان حسام الدين طرنطاي نائب المنصور إليه فأقره وأشرك معه زين الدين سيف في نيابة العتبة وأقر علم الدين الشجاعي على الوزارة وبدر الدين بيدو أستاذ داره وعز الدين أيبك خزندار.

وكان حسام الدين لاشين السلحدار نائباً بدمشق وشمس الدين قراسنقر الجوكندار نائباً بحلب فأقرهما وجمع ما كان بالشام من ولاة أبيه ثم قبض على النائب حسام الدين طرنطاي لأيام قلائل وقتله واستولى على مخلفه وكان لا يعبر عنه كان الناض منها ستمائة ألف دينار وحملت كلها لخزانته واستقل بدر الدين بالنيابة وبعث إلى محمد بن عثمان بن السلعوس من الحجاز فولاه الوزارة وكان تاجراً من تجار الشام وتقرب له أيام أبيه واستخدم له فاستعمله في بعض إقطاعه بالشام ووفر جبايتها فولاه ديوانه بمصر فأسرف في الظلم وأنهى أمره إلى طرنطاي النائب فصادره المنصور

وامتحنه ونفاه عن الشام.

وحج في هذه السنة وولي الأشرف فكان أول أعماله البحث عنه وولاه الوزارة فبلغ المبالغ في الظهور وعلو الكلمة واستخدم الخواص له وترفع عن الناس واستقل الرتب وقبض الأشرف على شمس الدين سنقر وحبسه وكان قد قبض مع طرنطاي النائب على عز الدين سيف لما بلغه أنه يدبر عليه مع طرنطاي ثم ثبتت عنده براءته فأطلقه والله تعالى أعلم.

فتح عكا وتخريبها

ثم سار الأشرف أول سنة تسعين وستمائة لحصار عكا متماً عزم أبيه فيها فجهز العساكر واستنفر أهل الشام وخرج من القاهرة فأغذ السير إلى عكا ووافاه بها أمراء الشام والمظفر بن المنصور صاحب حماة فحاصرها ورماها بالمجانيق فهدم كثير من أبراجها وتلاها المقاتلة لاقتحامها فرشقوهم بالسهام فأمن اللبود وزحفوا في كنها وردموا الخندق بالتراب فحمل كل واحد منهم ما قدر عليه حتى طموه وانتهوا إلى الأبراج المتهدمة فألصقوها بالأرض واقتحموا البلد من ناحيتها واستلحموا من كان فيها وأكثروا القتل والنهب ونجا الفل من العدو إلى أبراجها الكبار التي بقيت ماثلة فحاصرها عشرا آخراً ثم اقتحمها عليهم فاستوعبهم السيف وكان الفتح منتصف جمادى سنة سبعين لمائة وثلاث سنين من ارتجاع الكفار لها من يد صلاح الدين سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

وأمر الأشرف بتخريبها فخربت وبلغ الخبر إلى الإفرنج بصور وصيدا وعتلية وحيفا فأجفلوا عنها وتركوها خاوية ومر السلطان بها وأمر بهدمها فهدمت جميعاً وانكفأ راجعاً إلى دمشق وتقبض في طريقه على لاشين نائب دمشق لأن بعض الشياطين أوحى إليه أن السلطان يروم الفتك به فركب للفرار واتبعه علم الدين سنجار الشجاعي وسار إلى بيروت ففتحها ومر السلطان بالكرك فاستعفى نائبها ركن الدين بيبرس الدوادار وهو المؤرخ فولى مكانه جمال الدين أتسز الأشرفي ورجع السلطان إلى القاهرة فبعث شلامش وخسروا ابني الظاهر من محبسهما بالإسكندرية إلى القسطنطينية ومات شلامش هنالك وأفرج عن شمس الدين سنقر الأشقر وحسام الدين لاشين المنصوري اللذين اعتقلهما كما قدمناه وقبض على علم الدين سنجار نائب دمشق وسيق إلى مصر معتقلا وأمر السلطان ببناء الرفوف بالقلعة على أوسع ما يكون وأرفعه وبني القبة بإزائه لجلوس السلطان أيام الزينة والفرح فبنيت مشرفة على سوق الخيل والميدان والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح قلعة الروم

ثم سار السلطان سنة إحدى وتسعين في عساكره إلى الشام بعد أن أفرج عن حسام الدين لاشين ورده إلى إمارته وانتهى إلى دمشق ثم سار إلى حلب ثم دخل منها إلى قلعة الروم فحاصرها في جمادى من السنة وملكها عنوة بعد ثلاثين يوماً من الحصار وقاتل المقاتلة الذريعة وخرب القلعة وأخذ فيها بطرك الأرمن أسيراً وانكفأ السلطان راجعاً إلى حلب فأقام بها شعبان وولى عليها سيف الدين الطباقي نائباً مكان قراسنقر الظاهري لأنه ولاه مقدم المماليك.

ورحل إلى دمشق فقضى بها عيد الفطر واستراب لاشين النائب فهرب ليلة الفطر وأركب السلطان في طلبه وتقبض عليه بعض العرب في حيه وجاء به إلى السلطان فبعثه مقيداً إلى القاهرة وولى على نيابة دمشق عز الدين أيبك الحميدي عوضاً عن علم الدين سنجار الشجاعي ورجع إلى مصر فأفرج عن علم الدين سنجار الشجاعي وتوفي لسنة بعد إطلاقه ثم قبض على سنقر الأشقر وقتله وسمع نائبه بيدو ببراءة لاشين فأطلقه وتوفي ابن الأثير بعد شهر فولى مكانه ابنه عماد الدين أيوب وكان أيوب قد اعتقله المنصور لأول ولايته فأطلقه الأشرف هذه السنة لثلاث عشرة سنة من اعتقاله واستخلصه للمجالسة والشورى.

وتوفي القاضي فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء وله التقدم عنده وعند أبيه فولى مكانه فتح الدين أحمد بن الأثير الحلبي وترك ابن عبد الظاهر ابنه علاء الدين علياً فألقى عليه النعمة منتظماً في جملة الكتاب ثم سار السلطان إلى الصعيد يتصيد واستخلف بيدو النائب على دار ملكه وانتهى إلى قوص وكان ابن السلعوس قد دس إليه بأن بيدو احتجن بالصعيد من الزرع ما لا يحصى فوقف هنالك على مخازنها واستكثرها وارتاب بيدو لذلك ولما رجع الأشرف إلى مصر ارتجع منه بعض إقطاعه وبقي بيدو مرتاباً من ذلك وأتحف السلطان بالهدايا من الخيام والهجن وغيرهما والله تعالى أعلم.

مسير السلطان إلى الشام وصلح الأرمن ومكثه في مصياف وهدم الشوبك

ثم تجهز السلطان سنة اثنتين وتسعين إلى الشام وقدم بيدو

النائب بالعساكر وعاج على الكرك على الهجن فوقف عليها وأصلح من أمورها ورجع ووصل إلى الشام فوافاه رسول صاحب سيس ملك الأرمن راغباً في الصلح على أن يعطي تهسنا ومرعش وتل حمدون فعقد لهم على ذلك وملك هذه القلاع وهي في فم الدرب من ضياع حلب وكانت تهسنا للمسلمين ولما ملك هلاكو حلب باعها النائب من ملك الأرمن سيس ثم سار السلطان إلى حمص ووصل إليها في رجب من السنة ومعه المظفر صاحب حماة ونزل سلمية ولقيه مهنا بن عيسى أمير العرب فقبض عليه وعلى أخويه محمد وفضل وابنه موسى وبعثهم معتقلين مع لاشين إلى دمشق ومن هناك إلى مصر فحبسوا بها وولى على العرب مكانهم محمد بن أبي بكر بن علي ابن جديلة وأوعز وهو بحمص إلى نائب الكرك بهدم قلعة الشوبك فهدمت وانكفأ راجعاً إلى مصر وقدم العساكر مع بيدو وجاء في الساقة على الهجن مع خواصه ولما دخل علي مصر أفرج عن لاشين المنصوري والله تعالى أعلم.

مقتل الأشرف وولاية أخيه محمد الناصر في كفالة كتبغا

كان النائب بيدو مستولياً على الأشرف والأشرف مستريب به حتى كأنه مستبد وكان مستوحشاً من الأشرف واعتزم الأشرف سنة ثلاث وتسعين على الصيد في البحيرة فخرج إليها وبعث وزيره ابن السلعوس للإسكندرية لتحصيل الأموال والأقمشة فوجد بيدو قد سبقوا إليها واستصفوا ما هنالك فكاتب السلطان بذلك فغضب واستدعى بيدو فوبخه وتوعده ولم يزل هو يلاطفه حتى كسر من سورة غضبه ثم خلص إلى أصحابه وداخلهم في التوثب به وتولى كبر ذلك منهم لاشين المنصوري نائب دمشق وقراسنقر المنصوري نائب حلب وكان الأمراء كلهم حاقدين على الأشرف لتقديمه حاشيته عليهم ولما كتب إليه السلعوس بقلة المال صرف مواليه إلى القلعة تخفيفاً من النفقة وبقي في القليل.

وركب بعض أيامه يتصيد وهو مقيم على فرجة فاتبعوه وأدركوه في صيده فأوجس في نفسه الشر منهم فعاجلوه وعلوه بالسيوف ضربه أولاً بيدو وثنى عليه لاشين وتركوه مجندلاً بمصرعه منتصف محرم من السنة ورجعوا إلى المخيم وقد أبرموا أن يولوا بيدو فولوه ولقبوه القاهر وتقبض على بيسري الشمسي وسيف الدين بكتمر السلحدار واحتملوهما وساروا إلى قلعة الملك وكان زين الدين سيف قد ركب للصيد فبلغه الخبر في صيده فسار في اتباعهم ومعه سوس الجاشنكير وحسام الدين أستاذ دار وركن الدين سوس وطقجي في طائفة من الجاشنكيرية وادركوا القوم على الطرانة ولما عاينهم بيدو وبيسري وبكتمر المعتقلين في المخيم رجعوا إلى كتبغا وأصحابه وفرّ عن بيدو من كان معه من العربان والجند وقاتل قليلاً ثم قتل ورجع برأسه على القناة وافترق أصحابه قراسنقر ولاشين بالقاهرة.

ويقال: إن لاشين كان مختفياً في مأذنة جامع ابن طولون ووصل كتبغا وأصحابه إلى القلعة وبها علم الدين الشجاعي واستدعوا محمد بن قلاوون أخا الأشرف وبايعوه ولقبوه الناصر وقام بالنيابة كتبغا وبالأتابكية حسام الدين وبالوزارة علم الدين سنجار وبالأستاذ دارية ركن الدين سوس الجاشنكير واستبدوا بالدولة فلم يكن الناصر يملك معهم شيئاً من أمره وجدوا في طلب الأمراء الذين داخلوا بيدو في قتل الأشرف فاستوعبوهم بالقتل والصلب والقطع وكان بهادر رأس نوبة وأقوش الموصلي فقتلا وأحرقت أشلاؤهما وشفع كتبغا في لاشين وقراسنقر المتوليين كبر ذلك فظهرا من الاختفاء وعادا إلى محلهما من الدولة ثم تقبض على الوزير محمد بن السلعوس عند وصوله من الإسكندرية وصادره الوزير الشجاعي وامتحنه فمات تحت الامتحان وأفرج عن عز الدين أيبك الصالحي وكان الأشرف اعتقله سنة اثنتين وتسعين والله سبحانه وتعالى أعلم

وحشة كتبغا ومقتل الشجاعي

ثم إن الشجاعي لطف محله من الناصر واختصه بالمداخلة وأشار عليه بالقبض على جماعة من الأمراء فاعتقلهم وفيهم سيف الدين كرجي وسيف الدين طونجي وطوى ذلك عن كتبغا وبلغه الخبر وهو في موكب بساحة القلعة وكان الأمراء يركبون في خدمته فاستوحش وارتاب بالشجاعي وبالناصر ثم جاء بعض مماليك الشجاعي إلى كتبغا في الموكب وجرد سيفه لقتله فقتله مماليكه وتأخر هو ومن كان معه من الأمراء عن دخول القلعة وتقبضوا على سوس الجاشنكير أستاذ دار وبعثوا به إلى الإسكندرية ونادوا في العسكر فاجتمعوا وحاصروا القلعة وبعث إليهم السلطان أميراً فشرطوا عليه أن يمكنهم من الشجاعي فامتنع وحاصروه سبعاً واشتد القتال.

وفر من كان بقي في القلعة من العسكر إلى كتبغا وخرج الشجاعي لمدافعتهم فلم يغن شيئاً ورجع السلطان وقد خامره الرعب فطلب أن يحبس نفسه فمضى به المماليك إلى السجن

وقتلوه في طريقهم وبلغ الخبر إلى كتبغا ومن كان معه فذهبت عنهم الهواجس واستأمنوا للسلطان فأمنهم واستحلفوه فحلف لهم ودخلوا إلى القلعة وأفاض كتبغا العطاء في الناس وأخرج من كان في الطباق من المماليك بمداخلة الشجاعي فأنزلهم إلى البلد بمقاصر الكسر ودار الوزارة والجوار وكانوا نحوا من تسعة آلاف فأقاموا بها.

ولما كان المحرم فاتح سنة أربع وتسعين استعدوا ليلة وركبوا فيها جميعاً وأخرجوا من كان في السجون ونهبوا بيوت الأمراء وأعجلهم الصبح عن تمام قصدهم وباكرهم الحاجب بهادر ببعض العساكر فهزمهم وافترقوا وتقبض على كثير منهم فأخذ منهم العقاب مأخذه قتلاً وضرباً وعزلاً وأفرج عن عز الدين أيبك الأفرم وأعيد إلى وظيفته أمير جندار ثم هلك قريباً واستحكم أمر السلطان ونائبه كتبغا وهو مستبد عليه واستمر الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى واللّه تعالى ولي التوفيق.

خلع الناصر وولاية كتبغا العادل

ولما وقعت الوحشة بين كتبغا والشجاعي وتلتها هذه الفتنة استوحش كتبغا في ظاهر أمره وانقطع عن دار النيابة متمارضاً وتردد السلطان لعيادته ثم حمل بطانته على الاستبداد بالملك والجلوس على التخت وكان طموحاً لذلك من أول أمره فجمع الأمراء ودعاهم إلى بيعته فبايعوه وخلع الناصر وركب إلى دار السلطان فجلس على التخت وتلقب بالعادل وأخرج السلطان من قصور الملك وكان مع أمه ببعض الحجر وولى حسام الدين لاشين نائباً والصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز الخليلي أستاذ الدار وزيراً نقله إليها من النظر في الديوان لعلاء الدين ولي العهد ابن قلاوون وعز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جندار وبهادر الحلبي أمير حاجب وسيف الدين منماص أستاذ دار وقسم إمارة الدولة بين مماليكه.

وكتب إلى نواب الشام بأخذ البيعة فأجابوا بالسمع والطاعة وقبض على عز الدين أيبك الخازندار نائب طرابلس وولى مكانه فخر الدين أيبك الموصلي وكان الخازندار ينزل حصن الأكراد ونزل الموصلي بطرابلس وعادت دار إمارة ثم وفد سنة خمس وتسعين على العادل كتبغا طائفة من التتر يعرفون بالأربدانية ومقدمهم طرنطاي كان مداخلاً لبدولي كنجاب ابن عمه ملك التتر فلما سار الملك إلى غازان خافه طرنطاي وكانت أحياؤه بين غازان والموصل.

وأوعز غازان إلى التتر الذين من مارتكن فأخذ الطرق عليهم وبعث قطقرا من أمرائه للقبض على طرنطاي ومن معه من أكابر قبيله فسار لذلك في ثمانين فارساً فقتله طرنطاي وأصحابه وعبروا الفرات إلى الشام واتبعهم التتر من ديار بكر فكروا عليهم فهزموهم وأمر العادل سنجار الدوادار أن يتلقاهم بالرحب واحتفل نائب دمشق لقدومهم ثم ساروا إلى مصر فتلقاهم شمس الدين قراسنقر وكانوا يجلسون مع الأمراء بباب القلعة فأنفوا لذلك وكان سبباً لخلع العادل كما نذكر ووصل على أثرهم بقية قومهم بعد أن مات منهم كثير ثم رسخوا في الدولة وخلطهم الترك بأنفسهم وأسلموا واستخدموا أولادهم وخلطوهم بالصهر والولاء واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

خلع العادل كتبغا وولاية لاشين المنصور

كان أهل الدولة نقموا على السلطان كتبغا العادل تقديم مماليكه عليهم ومساواة الأربدانية سمن التتر بهم فتفاوضوا على خلعه وسار إلى الشام في شوال سنة خمس وتسعين فعزل عز الدين أيبك الحموي نائب دمشق واستصفاه وولى مكانه سيف الدين عزّلو من مواليه ثم سار إلى حمص متصيداً ولقيه المظفر صاحب حماة فأكرمه ورده إلى بلده وسار إلى مصر والأمراء مجمعون خلعه والفتك بمماليكه وانتهى إلى العوجاء من أرض فلسطين وبلغه عن بيسري الشمسي أنه كاتب التتر فنكر عليه وأغلظ له في الوعيد وارتاب الأمراء من ذلك وتمشت رجالاتهم واتفقوا وركب حسام الدين لاشين وبدر الدين بيسري وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين قفجاق وبهادر الحلبي الحاجب وبكتاش الفخري وبيليك الخازندار وأقوش الموصلي وبكتمر السلحدار وسلار وطغجي وكرجي ومعطاي ومن انضاف إليهم بعد أن بايعوا لاشين وقصدوا مخيم بكتوت الأزرق فقتلوه وجاءهم ميحاص فقتلوه أيضاً وركب السلطان كتبغا في لفيفه فحملوا عليه فانهزم إلى دمشق وبايع القوم لاشين ولقبوه المنصور وشرطوا عليه أن لا ينفرد عنهم برأي فقبل وسار إلى مصر ودخل القلعة.

ولما وصل كتبغا إلى دمشق لقيه نائبه سيف الدين عزّلو وأدخله القلعة واحتاط على حواصل لاشين والأمراء الذين معه وأمّن جماعة من مواليه ووصلت العساكر التي كانت مجردة بالرحبة ومقدمهم جاغان وكانوا قد داخلوا لاشين في شأنه ونزلوا ظاهر دمشق واتفقوا على بيعة لاشين وأعلنوا بدعوته وانحل أمر العادل وسأل ولاية صرخد وألقى بيده فحبس بالقلعة لسنتين من ولايته

وبعث الأمراء بيعتهم للاشين ودخل سيف الدين جاغان إلى القلعة ثم وصل كتاب لاشين ببعثه إلى مصر وبعث إلى كتبغا بولاية صرخد كما سأل ووصل قفجق المنصوري نائبا عن دمشق وأفرج لاشين بمصر عن ركن الدين بيبرس الجاشنكير وغيره من المماليك وولى قراسنقر نائباً وسيف الدين سلار أستاذ دار وسيف الدين بكتمر السلحدار أمير جاندار وبهادر الحلبي صاحب وأقر فخر الدين الخليلي على وزارته ثم عزله وولى مكانه شمس الدين سنقر الأشقر وقبض على قراسنقر النائب وسيف الدين سلار أستاذ دار آخر سنة ست وتسعين وولى مكانه سيف الدين منكوتمر الحسامي مولاه واستعمل سيف الدين قفجق المنصوري نائباً.

ثم أمر بتجديد عمارة جامع ابن طولون وندب لذلك علم الدين سنجار الدوادار وأخرج للنفقة فيه من خالص ماله عشرين ألف دينار ووقف عليه أملاكاً وضياعاً ثم بعث سنة تسع وسبعين بالناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك مع سيف الدين سلار أستاذ دار وقال لزين الدين بن مخلوف فقيه بيته: هو ابن أستاذي وأنا نائبه في الأمر ولو علمت أنه يقوم بالأمر لأقمته وقد خشيت عليه في الوقت فبعثته إلى الكرك فوصلها في ربيع.

وقال النووي: إنه بعث معه جمال الدين بن أقوش.

ثم قبض السلطان في هذه السنة على بدر الدين بيسري الشمسي بسعاية منكوتمر نائبه لان لاشين أراد أن يعهد إليه بالأمر فرده بيسري عن ذلك وقبحه عليه فدس منكوتمر بعض مماليك بيسري وأنهوا إلى السلطان أنه يريد الثورة فقبض عليه آخر ربيع الثاني من السنة وأودعه السجن فمات في محبسه.

وقبض في هذه السنة على بهادر الحلبي وعلى عز الدين أيبك الحموي ثم أمر في هذه السنة برد الأقطاعات في النواحي وبعث الأمراء والكتاب لذلك وتولى ذلك عبد الرحمن الطويل مستوفي الدولة.

وقال مؤرخ حماة المؤيد كانت مصر منقسمة على أربعة وعشرين قيراطاً أربعة منها للسلطان والكلف والرواتب وعشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات وعشرة للأجناد الحلقة فصيروها عشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات والأجناد وأربعة عشر للسلطان فضعف الجيش.

وقال النووي: قرر للخاص في الروك الجيزة واطفيح ودمياط ومنفلوط والكوم الأحمر وحولت السنة الخراجية من سنة ست وتسعين وهذا في العدد إنما هو بعد انقضاء ثلاثة وثلاثين سنة واحدة هي تفاوت ما بين السنين الشمسية والقمرية وهو حجة ديوان الجيش في انقضاء التفاوت الجيشي وهو تحويل بالأقلام فقط وليس فيه نقص شيء ثم أقطعت البلاد بعد الروك واستثنيت المراتب الجسرية والرزق الأحباسية انتهى كلام النووي رحمه اللّه واللّه تعالى أعلم.

فتح حصون سيس

ولما ولي سيف الدين منكوتمر النيابة وكانت مختصاً بالسطان استولى على الدولة وطلب من السلطان أن يعهد له بالملك فنكر ذلك الأمراء وثنوا عنه السلطان فتنكر لهم منكوتمر وأكثر السعاية فيهم حتى قبض على بعضهم وتفرق الآخرون في النواحي وبعث السلطان جماعة منهم سنة سبع وتسعين لغزو سيس وبلاد الأرمن كان منهم بكتاش أمير سلاح وقراسنقر وبكتمر السلحدار وتدلار وتمراز ومعهم الألفي نائب صفد في العساكر ونائب طرابلس ونائب حماة ثم أردفهم بعلم الدين سنجار الدوادار وجاءت رسل صاحب سيس وأغاروا عليها ثلاثة أيام واكتسحوها ثم مروا ببغراس ثم بمرج إنطاكية وأقاموا بها ثلاثاً ومروا بجسر الحديد ببلاد الروم ثم قصدوا تل حمدون فوجدوها خاوية وقد انتقل الأرمن الذين بها إلى قلعة النجيمة وفتحوا قلعة مرعش وحاصروا قلعة النجيمة أربعين يوماً وافتتحوها صلحاً وأخذوا أحد عشر حصناً منها المصيصة وحموم وغيرهما.

واضطرب أهلها من الخوف فأعطوا طاعتهم ورجع العساكر إلى حلب وبلغ السلطان لاشين أن التتر قاصدون الشام فجهز العساكر إلى دمشق مع جمال الدين أقوش الأفرم وأمره أن يخرج العساكر من دمشق إلى حلب مع قفجق النائب فسار إلى حمص وأقام بها ثم بلغهم الخبر برجوع التتر ووصل أمر السلطان إلى سيف الدين الطباخي نائب حلب بالقبض على بكتمر السلحدار والألفي نائب صفد وجماعة من الأمراء بحلب بسعاية بكتمر وحاول الطباخي ذلك فتعذر عليه وبرز تدلار إلى بسار فتوفي بها وأقام الآخرون وشعروا بذلك فلحقوا بقفجق النائب على حمص فأمنهم وكتب إلى السلطان يشفع فيهم فأبطأ جوابه.

وعزله سيف الدين كرجي وعلاء الدين إيدغري من إجارتهم فاستراب وولى السلطان مكانه على دمشق جاغان فكتب إلى قفجق بطلبهم فنفروا وافترق عسكره وعبر الفرات إلى العراق ومعه أصحابه بعد أن قبضوا على نائب حمص واحتملوه ولحقهم الخبر بقتل السلطان لاشين وقد تورطوا في بلاد العدو فلم يمكنهم الرجوع ووفدوا على غازان بنواحي واسط وكان قفجق من جند

التتر وأبوه من جند غازان خصوصاً ولما وقعت الفتنة بين لاشين وغازان وكان فيروز أتابك غازان مستوحشاً من سلطانه فكاتب لاشين في اللحاق به واطلع سلطانه على كتبه فأرسل إلى قطلو شاه نائب حران فقبض على فيروز وقتله وقتل غازان أخويه في بغداد والله تعالى أعلم.

مقتل لاشين وعود الناصر محمد بن قلاوون إلى ملكه

كان السلطان لاشين قد فوض أمر دولته إلى مولاه منكوتمر فاستطال وطمع في الاستبداد ونكره الأمراء كما قدمناه فأغرى السلطان بهم وشردهم كل مشرد بالنكبة والإبعاد وكان سيف الدين كرجي من الجاشنكير ومقدماً عليهم كما كان قراسنقر مع الأشرف وكان جماعة المماليك معصوصبين عليه وسعى منكوتمر في نيابته على القلاع التي افتتحت من الأرمن ببلاد سيس فاستعفى من ذلك وأسرها في نفسه وأخذ في السعاية على منكوتمر وظاهره على أمره قفجي من كبار الجاشنكيرية وكان لطقجي صهر من كبار الجاشنكيرية اسمه طنطاي أغلظ له منكوتمر يوماً في المخاطبة فامتعض وفزع إلى كرجي وطقجي فاتفقوا على اغتيال السلطان.

وقصدوه ليلاً وهو يلعب بالشطرنج وعنده حسام الدين قاضي الحنفية فأخبره كرجي بغلق الأبواب على المماليك فنكره ولم يزل يتصرف أمامه حتى ستر سيفه بمنديل طرحه عليه فلما قام السلطان لصلاة العتمة نحاها عنه وعلاه بالسيف وافتقد السلطان سيفه فتعاوروه بسيوفهم حتى قتلوه وهمّوا بقتل القاضي ثم تركوه وخرج كرجي إلى طقجي بمكان انتظاره وقصدوا منكوتمر وهو بدار النيابة فاستجار بطقجي فأجاره وحبسه بالجب ثم راجعوا رأيهم واتفقوا على قتله فقتلوه وكان مقتل لاشين في ربيع سنة ثمان وتسعين وكان من موالي علي بن المعز أيبك فلما غرب للقسطنطينية تركه بالقاهرة واشتراه المنصور قلاوون من القاضي بحكم البيع على الغائب بألف درهم وكان يعرف بلاشين الصغير لأنه كان هناك لاشين آخر أكبر منه وكان نائباً بحمص.

ولما قتل اجتمع الأمراء وفيهم ركن الدين بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار أستاذ دار وحسام الدين لاشين الرومي وقد وصل على البريد من بلاد سيس جمال الدين أقوش الأفرم وقد عاد من دمشق بعد أن أخرج النائب والعساكر إلى حمص وعز الدين أيبك الخزندار وبدر الدين السلحدار فضبطوا القلعة وبعثوا إلى الناصر محمد بن قلاوون بالكرك يستدعونه للملك فاعتزم طقجي على الجلوس على التخت واتفق وصول الأمراء الذين كانوا بحلب منصرفين من غزاة سيس وفيهم سيف الدين كرجي وشمس الدين سرقنشاه ومقدمهم بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح فأشار الأمراء على طقجي بالركوب للقائهم فأنف أولاً ثم ركب ولقيهم وسألوه عن السلطان فقال: قتل فقتلوه.

وكان كرجي عند القلعة فركب هارباً وأدرك عند القرافة وقتل ودخل بكتاش والأمراء القلعة لحول من غزاة سيس ثم اجتمعوا بمصر وكان الأمر دائراً بين سلار وبيبرس وأيبك الجامدار وأقوش الأفرم وبكتمر أمير جندار وكرت الحاجب وهم ينتظرون وصول الناصر من الكرك وكتبوا إلى الأمراء بدمشق بما فعلوه فوافقوا عليه ثم قبضوا على نائبها جاغان الحسامي وتولى ذلك بهاء الدين قرا أرسلان السيفي فاعتقل ومات لأيام قلائل فبعث الأمراء بمصر مكانه سيف الدين قطلوبك المنصوري.

ثم وصل الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر في جمادى سنة ثمان وتسعين فبايعوا له وولى سلار نائباً وبيبرس أستاذ دار وبكتمر الجوكندار أمير جندار وشمس الدين الأعسر وزيراً وعزل فخر الدين بن الخليلي بعد أن كان أقره وبعث على دمشق جمال الدين أقوش الأفرم عوضاً عن سيف الدين قطلوبك واستدعاه إلى مصر فولاه حاجباً وبعث على طرابلس سيف الدين كرت وعلى الحصون سيف الدين كراي وأقر يليان الطباخي على حلب وأفرج عن قراسنقر المنصوري وبعثه على الضبينة ثم نقله إلى حماة عندما وصله وفاة صاحبها المظفر آخر السنة وخلع على الأمراء وبث العطايا والأرزاق واستقر في ملكه وبيبرس وسلار مستوليان عليه والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

الفتنة مع التتر

قد كنا قدمنا ما كان من فرار قفجق نائب دمشق إلى غازان وحدوث الوحشة بين المملكتين فشرع غازان في تجهيز العساكر إلى الشام وبعث شلامش بن أمال بن بكو في خمسة وعشرين ألفاً في عساكر المغل ومعه أخوه قطقطو وأمره بالمسير من جهة سيس فسار لذلك ثم حدثته نفسه بالملك فخاضع وطلب الملك لنفسه وكاتب ابن قزمان أمير التركمان فسار إليه في عشرة آلاف فارس وسار في ستين ألف فارس وسار إلى سيواس فامتنعت عليه وكتب إلى صاحب مصر مع مخلص الرومي يستنجده فبعث إلى نائب دمشق بإنجاده وبلغ الخبر غازان فبعث لقتاله مولاي من أمراء التتر في خمسة وثلاثين ألف فارس ولحقه إلى سيواس فانتقض عليه

العسكر ورجع التتر إلى مولاي ولحق التركمان بالجبال ولحق هو بسيس في فل من العسكر وسار إلى دمشق ثم إلى مصر وسأل من السلطان لاشين أن يمده بعسكر ينقل به عياله إلى الشام فأمر السلطان نائب حلب أن ينجده على ذلك فبعث معه عسكراً عليهم بكتمر الحلبي وساروا إلى سيواس فاعترضهم التتر وهزموهم وقتل الحلبي ونجا شلامش إلى بعض القلاع فاستنزله غازان وقتله واستقر أخوه قطقطو وتخلص بمصر وأقطع لهما وانتظما في عسكر مصر والله تعالى أعلم.

واقعة التتر على الناصر واستيلاء غازان على الشام ثم ارتجاعه منه

قد كنا قدمنا ما حدث من الوحشة بين التتر وبين الترك بمصر وقدمنا من أسبابها ما قدمناه فلما بويع الناصر بلغه أن غازان زاحف إلى الشام فتجهز وقدم العساكر مع قطلبك الكبير وسيف الدين غزار، وسار على أثرهم آخر سنة ثمان وسبعين وانتهى إلى غزة فنمي إليه أن بعض المماليك مجمعون للتوثب عليه وأن الأربدانية الذين وفدوا من التتر على كتبغا داخلوهم في ذلك وبينما هو يستكشف الخبر إذ بمملوك من أولئك قد شهر سيفه واخترق صفوف العسكر وهم مصطفون بظاهر غزة فقتل لحينه وتتبع أمرهم من هذه البادرة حتى ظهرت حليتها فسبق الأربدانية ومقدمهم طرنطاي وقتل بعض المماليك وحبس الباقين بالكرك.

ورحل السلطان إلى عسقلان ثم إلى دمشق ثم سار ولقي غازان ما بين سلمية وحمص بمجمع المروج ومعه الكرج والأرمن في مقدمته أمراء الترك الذين هربوا من الشام وهم: قفجق المنصوري وبكتمر السلحدار وفارس الدين البكي وسيف الدين غزار فكانت الجولة منتصف ربيع فانهزمت ميمنة التتر وثبت غازان ثم حمل على القلب فانهزم الناصر واستشهد كثير من الأمراء وفقد حسام الدين قاضي الحنفية وعماد الدين إسماعيل ابن الأمير وسار غازان إلى حمص فاستولى على الذخائر السلطانية.

وطار الخبر إلى دمشق فاضطربت العامة وثار الغوغاء وخرج المشيخة إلى غازان يقدمهم بدر الدين بن جماعة وتقي الدين بن تيمية وجلال الدين القزويني وبقي البلد فوضى وخاطب المشيخة غازان في الأمان فقال: قد خالفكم إلى بلدكم كتاب الأمان ووصل جماعة من أمرائه فيهم إسماعيل ابن الأمير والشريف الرضي وقرأ كتاب الأمان ويسمونه بلغاتهم الفرمان وترجل الأمراء بالبساتين خارج البلد وامتنع علم الدين سلحدار بالقلعة فبعث إليه إسماعيل يستنزله بالأمان فامتنع فبعث إليه المشيخة من أهل دمشق فزاد امتناعاً ودس إليه الناصر بالتحفظ وأن المدد على غزة ووصل قفجق بكتمر فنزلوا الميدان وبعثوا إلى سنجار صاحب القلعة في الطاعة فأساء جوابهم وقال لهم: إن السلطان وصل وهزم عساكر التتر التي اتبعته.

ودخل قفجق إلى دمشق فقرأ عهد غازان له بولاية دمشق والشام جميعاً وجعل إليه ولاية القضاء وخطب لغازان في الجامع وانطلقت أيدي العساكر في البلد بأنواع جميع العيث وكذا في الصالحية والقرى التي بها والمزة وداريا.

وركب ابن تيمية إلى شيخ الشيوخ نظام الدين محمود الشيباني وكان نزل بالعادلية فأركبه معه إلى الصالحية وطردوا منها أهل العيث وركب المشيخة إلى غازان شاكين فمنعوا من لقائه حذراً من سطوته بالتتر فيقع الخلاف ويقع وبال ذلك على أهل البلد فرجعوا إلى الوزير سعد الدين ورشد الدين فأطلقوا لهم الأسرى والسبي وشاع في الناس أن غازان أذن للمغل في البلد وما فيه ففزع الناس إلى شيخ الشيوخ وفرضوا على أنفسهم أربعمائة ألف درهم مصانعة له على ذلك وأكرهوا على غرمها بالضرب والحبس حتى كملت ونزل التتر بالمدرسة العادلية فأحرقها أرجواش نائب القلعة ونصب المنجنيق على القلعة بسطح جامع بني أمية فأحرقوه فأعيد عمله وكان المغل يحرسونه فانتهكوا حرمة المسجد بكل محرم من غير استثناء وهجم أهل القلعة فقتلوا النجار الذي كان يصنع المنجنيق وهدم نائب القلعة أرجواش ما كان حولها من المساكن والمدارس والأبنية ودار السعادة وطلبوا مالا يقدرون عليه وامتهن القضاة والخطباء وعطلت الجماعات والجمعة وفحش القتل والسبي وهدمت دار الحديث وكثير من المدارس.

ثم قفل إلى بلده بعد أن ولى على دمشق والشام قفجق وعلى حماة وحمص بكتمر السلحدار وعلى صفد وطرابلس والساحل فارس الدين ألبكي وخلف نائبه قطلوشاه في ستين ألفاً حامية للشام واستصحب وزيره بدر الدين بن فضل الله وشرف الدين ابن الأمير وعلاء الدين بن القلانسي وحاصر قطلوشاه القلعة فامتنعت عليه فاعتزم على الرحيل وجمع له قفجق الأوغاد في جمادى من السنة وبقي قفجق منفرداً بأمره فأمن الناس بعض الشيء وأمر مماليكه ورجعت عساكر التتر من اتباع الترك بعد أن وصلوا إلى القدس وغزة والرملة واستباحوا ونهبوا وقائدهم يومئذ مولاي من أمراء التتر فخرج إليه ابن تيمية واستوهبه بعض الأسرى فأطلقهم.

وكان الملك الناصر لما وصل إلى القلعة ووصل معه كتبغا

العادل وكان حضر معه المعركة من محل نيابته بصرخد فلما وقعت الهزيمة سار مع السلطان إلى مصر وبقي في خدمة النائب سلار وجرد السلطان العساكر وبث النفقات وسار إلى الصالحية وبلغه رحيل غازان من الشام ووصل إليه يليان الطباخي نائب حلب على طريق طرابلس وجمال الدين الأفرم نائب دمشق وسيف الدين كراي نائب طرابلس واتفق السلطان في عساكرهم وبلغه أن قطلوشاه نائب غازان رحل من الشام على أثر غازان فتقدم بيبرس وسار في العساكر ووقعت المراسلة بينه وبين قفجق وبكتمر والبكي فأذعنوا للطاعة ووصلوا إلى بيبرس وسلار فبعثوا بهم إلى السلطان وهو في الصالحية في شعبان من السنة فركب للقائهم وبالغ في تكرمتهم والإقطاع لهم وولى قفجق على الشوبك ورحل عائداً إلى مصر ودخل بيبرس وسلار إلى مصر وقرروا في ولايتها جمال الدين أقوش الأفرم بدمشق وفي نيابة حلب قرا سنقر المنصوري الجوكندار لاستعفاء يليان الطباخي عنها وفي طرابلس سيف الدين قطلبك وفي حماة كتبغاالعادل وفي قضاء دمشق بدر الدين بن جماعة لوفاة إمام الدين بن سعد الدين القزويني وعاد بيبرس وسلار إلى مصر منتصف شوال وعاقب الأفرم كل من استخدم للتتر من أهل دمشق وأغزى عساكره جبل كسروان والدرزية لما نالوا من العسكر عند الهزيمة وألزم أهل دمشق بالرماية وحمل السلاح وفرضت على أهل دمشق ومصر الأموال عن بعث الخيالة والمساكن لأربعة أشهر وضمان للقرى وكثر الأرجاف سنة سبعمائة بحركة التتر فتوجه السلطان إلى الشام بعد أن فرض على الرعية أموالاً واستخرجها لتقوية عساكره وأقام بظاهر غزة أياماً يؤلف فيها الأمصار ثم بعث ألفي فارس إلى دمشق وعاد إلى مصر منسلخ ربيع الآخر وجاء غازان بعساكره وأجفلت الرعايا أمامه حتى ضاقت بهم السبل والجهات فنزل ما بين حلب ومرس ونازلها واكتسح البلاد إلى أنطاكية وجبل السمر وأصابهم هجوم البرد وكثرة الأمطار والوحل وانقطعت الميرة عنهم وعدمت الأقوات وصوعت المراعي من كثرة الثلج وارتحلوا إلى بلادهم وكان السلطان قد جهز العساكر كما قلنا إلى الشام صحبة بكتمر السلحدار نائب صفد وولى مكانه سيف الدين فنحاص المنصوري ثم وقعت المراسلة بين السلطان الناصر وبين غازان وجاءت كتبه وبعث الناصر كتبه ورسله وولى السلطان على حمص فارس الدين ألبكي والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الخليفة الحاكم وولاية ابنه المستكفي والغزاة إلى العرب بالصعيد

ثم توفي الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد وهو الذي ولاه الظاهر وبايع له سنة ستين فتوفي سنة إحدى وسبعمائة لإحدى وأربعين سنة من خلافته وقد عهد لابنه أبي الربيع سليمان فبايع له الناصر ولقبه المستكفي وارتفعت شكوى الرعايا في الصعيد من الأعراب وكثر عيثهم فجهز السلطان العساكر مع شمس الدين قرا سنقر فاكتسحهم وراجعوا الطاعة وقرر عليهم مالاً حملوه ألف ألف وخمسمائة ألف درهم وألف فرس واحداً وألفي جمل اثنين وعشرة آلاف رأس من الغنم وأظهروا الاستكانة ثم أظهروا النفاق فسار إليهم كافل المملكة سلار وبيبرس في العساكر فاستلحموهم وأبادوهم وأصابوا أموالهم ونعمهم ورجعوا واستأذن بيبرس في قضاء فرضه فخرج حاجاً وكان أبو نُمَيّ أمير مكة قد توفي وقام بأمره في مكة ابناه رميثة وخميصة واعتقلا أخويهما عطيفة وأبا الغيث فنقبا السجن وجاءا إلى بيبرس مستعدين على أخويهما فقبض عليهما بيبرس وجاء بهما إلى القاهرة.

وفي سنة ستين وسبعمائة بعدها خرجت الشواني مشحونة بالمقاتلة إلى جزيرة أرواد في بحر طرطوس وبها جماعة من الإفرنج قد حصنوها وسكنوها فملكوها وأسروا أهلها وخربوها وأذهبوا آثارها والله تعالى ولي التوفيق.

تقرير العهد لأهل الذمة

حضر في سنة سبعمائة وزير من المغرب في غرض الرسالة فرأى حال أهل الذمة وترفهم وتصرفهم في أهل الدولة فنكره وقبح ذلك واتصل بالسلطان نكيره فأمر بجمع الفقهاء للنظر في الحدود التي تقف عندها أهل الذمة بمقتضى عهود المسلمين لهم عند الفتح وأجمع الملاء فيهم على ما نذكر وهو أن يميز بين أهل الذمة بشعار يخصهم فالنصارى بالعمائم السود واليهود بالصفر والنساء منهن بعلامات تناسبهن وأن لا يركبوا فرساً ولا يحملوا سلاحاً وإذا ركبوا الحمير يركبونها عرضاً ويتنحون وسط الطريق ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت المسلمين ولا يعلوا بناءهم على بناء المسلمين ولا يظهروا شعائرهم ولا يضربوا بالنواقيس ولا ينصِّروا مسلماً ولا يهودوه ولا يشتروا من الرقيق مسلماً ولا من سباه مسلم ولا من جرت عليه سهام المسلمين ومن دخل منهم

الحمام يجعل في عنقه جرساً يتميز به ولا ينقشوا فص الخاتم بالعربي ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يخدموا في أعمالهم الشاقة مسلماً ولا يرفعوا النيران ومن زنا منهم بمسلمة قتل.

وقال البترك بحضرة العدول حرمت على أهل ملتي وأصحابي مخالفة ذلك والعدول عنه.

وقال رئيس اليهود: أوقعت الكلمة على أهل ملتي وطائفتي وكتب بذلك إلى الأعمال.

ولنذكر في هذا الموضع نسخة كتاب عمر بالعهد لأهل الذمة بعد كتاب نصارى الشام ومصر إليه ونصه: هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى أهل الشام ومصر لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا عليّة ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان في خطط وأن نوسع أبوابنا للمارة ولبني السبيل وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتم عيباً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحد من ذي قرابتنا الدخول في دين الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتسمى بأسمائهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب السروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية وأن نجز مقدم رؤوسنا ونكرم نزيلنا حيث كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ولا نفتح كتفنا في طريق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب بنواقيسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانيننا ولا طواغيتنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ولا نطلع في منازلهم ولا نعلي منازلنا.

فلما أتى عمر بالكتاب زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خلفنا في شيء مما شرطنا لكم علينا وضمناه على أنفسنا وأهل ملتنا فلا ذمة لنا عليكم وقد حل بنا ما حل بغيرنا من أهل المعاندة والشقاق.

فكتب عمر رضي الله عنه: امض ما سألوه والحق فيه حرفاً اشترطه عليهم مع ما اشترطوه: من ضرب مسلماً عمدا فقد خلع عهده.

وعلى أحكام هذا الكتاب جرت فتاوى الفقهاء في أهل الذمة نصاً وقياساً.

وأما كنائسهم فقال أبو هريرة: أمر عمر بهدم كل كنيسة استحدثت بعد الهجرة ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام وسير عروة بن محمد فهدم الكنائس بصنعاء وصالح القبط على كنائسهم وهدم بعضها ولم يبق من الكنائس إلا ما كان قبل الهجرة وفي إباحة رمها وإصلاحها لهم خلاف معروف بين الفقهاء والله تعالى ولي التوفيق.

إيقاع الناصر بالتتر على شقحب

ثم تواترت الأخبار سنة اثنتين وسبعمائة بحركة التتر وأن قطلوشاه وصل إلى جهة الفرات وأنه قدم كتابه إلى نائب حلب بأن بلادهم محلة وأنهم يرتادون المراعي بنواحي الفرات فخادع بذلك عن قصده ويوهم الرعية أن يجفلوا من البسائط ثم وصلت الأخبار بإجازتهم الفرات فأجفل الناس أمامهم كل ناحية ونزل التتر مرعش وبعث العساكر من مصر مدداً لأهل الشام فوصلوا إلى دمشق وبلغهم هنالك أن السلطان قازان وصل في جيوش التتر إلى مدينة الرحبة ونازلها فقدم نائبها قرى وعلوفة واعتذر له بأنه في طاعته إلى أن يرد الشام فإن ظفر به فالرحبة أهون شيء وأعطاه ولده رهينة على ذلك فأمسك عنه ولم يلبث أن عبر الفرات راجعاً إلى بلاده.

وكتب إلى أهل الشام كتاباً مطولاً ينذرهم فيه أن يستمدوا عسكر السلطان أو يستجيشوه ويخادعهم بلين القول وملاطفته وتقدم قطلوشاه وجوبان إلى الشام بعساكر التتر يقال: في تسعين ألفاً أو يزيدون.

وبلغ الخبر إلى السلطان فقدم العساكر من مصر وتقدم بيبرس كافل المملكة إلى الشام والسلطان وسلار على إثره ومعهم الخليفة أبو الربيع وساروا في التعبية ودخل بيبرس دمشق وكان النائب بحلب قرا سنقر المنصوري وقد اجتمع إليه كتبغا العادل نائب حماة وأسد الدين كرجي نائب طرابلس بمن معهم من العساكر فأغار التتر على القريتين وبها أحياء من التركمان كانوا أجفلوا أمامهم من الفرات فاستاقوا أحياءهم بما فيها واتبعهم العساكر من حلب فأوقعوا بهم واستخلصوا أحياء التركمان من أيديهم وزحف قطلوشاه وجوبان بجموعهما إلى دمشق يظنان أن السلطان لم يخرج من مصر والعساكر والمسلمون مقيمون بمرج

الصفر وهو المسمى بشقحب مع ركن الدين بيبرس ونائب دمشق أقوش الأفرم ينتظرون وصول السلطان فارتابوا لزحف التتر وتأخروا عن مراكزهم قليلاً وارتاعت الرعايا من تأخرهم فأجفلوا إلى نواحي مصر وبينما هم كذلك إذ وصل السلطان في عساكره وجموعه غرة رمضان من السنة فرتب مصافه وخرج لقصدهم فالتقى الجمعان بمرج الصفر وحمل التتر على ميمنة السلطان فثبت اللّه أقدامهم وصابروهم إلى أن غشيهم الليل واستشهد جماعة في الجولة.

ثم انهزم التتر ولجأوا إلى الجبل يعتصمون به واتبعهم السلطان فأحاط بالجبل إلى أن أظل الصباح وشعر المسلمون باستماتتهم فأفرجوا لهم من بعض الجوانب وتسلل معظمهم مع قطلوشاه وجوبان وحملت العساكر الشامية على من بقي منهم فاستلحموهم وأبادوهم واتبعت الخيول آثار المنهزمين وقد اعترضتهم الأوحال بما كان السلطان قدم إلى أهل الأنهار بين أيديهم فبثقوها ووحلت خيولهم فيها فاستوعبوهم قتلاً وأسراً وكتب السلطان إلى قازان بما يجدد عليه الحسرة ويملأ قلبه رعباً وبعث البشائر إلى مصر.

ثم دخل إلى دمشق وأقام بها عيد الفطر وخرج لثالثه منها إلى مصر فدخلها آخر شوال في موكب حفل ومشهد عظيم وقر الإسلام بنصره وتيمن بنقيب نوابه وأنشده الشعراء في ذلك.

وفي هذه السنة توفي كتبغا العادل نائب حماة وهو الذي كان ولي الملك بمصر كما تقدم ذكره فدفن بدمشق.

وتوفي أيضا يليان الجوكندار نائب حمص.

وتوفي أيضاً القاضي تقي الدين بن دقيق العيد بمصر لولايته ست سنين بها وولي مكانه بدر الدين بن جماعة وهلك قازان ملك التتر يقال أصابته حمى حادة للهزيمة التي بلغته فهلك وولى أخوه خربندا.

وفيها أفرج السلطان عن رميثة وخميصة ولدى الشريف أبي نمي وولاهما بدلا من أخويهما عطيفة وأبي الغيث واللّه تعالى أعلم.

أخبار الأرمن وغزو بلادهم وادعاؤهم الصلح ثم مقتل ملكهم صاحب سيس على يد التتر

قد كان تقدم لنا ذكر هؤلاء الأرمن وأنهم وإخوتهم الكرج من ولد قويل بن ناحور بن آرز وناحور أخو إبراهيم عليه السلام وكانوا أخذوا بدين النصرانية قبل الملة وكانت مواطنهم أرمينية وهي منسوبة إليهم وقاعدتها خلاط وهي كرسي ملكهم ويسمى ملكهم النكفور ثم ملك المسلمون بلادهم وضربوا الجزية على من بقي منهم واختلف عليهم الولاة ونزلت بهم الفتن وخربت خلاط فانتقل ملكهم إلى سيس عند الدروب المجاورة لحلب وانزووا إليها وكانوا يؤدون الضريبة للمسلمين وكان ملكهم لعهد نور الدين العادل قليج بن اليون وهو صاحب ملك الدروب واستخدم للعادل وأقطع له ملك المصيصة وأردن وطرسوس من يد الروم وأبقاه صلاح الدين بعد العادل نور الدين على ما كان عليه من الخدمة.

وغدر في بعض السنين بالتركمان فغزاهم صلاح الدين وأخنى عليهم حتى أذعنوا ورجع إلى حاله من أداء الجزية والطاعة وحسن الجوار بثغور حلب ثم ملكهم لعهد الظاهر هيثوم بن قسطنطين ابن يانس ويظهر أنه من أعقاب قليج أو من أهل بيته ولما ملك هلاكو العراق والشام دخل هيثوم في طاعته وأقره على سلطانه وأجلب مع التتر في غزواتهم على الشام وغزا سنة اثنتين وستين صاحب بلاد الروم من التتر واستنفر معه بني كلاب من أعراب حلب وعاثوا في نواحي عنتاب ثم ترهب هيثوم بن قسطنطين ونصب ابنه للملك.

وبعث الظاهر العساكر سنة أربع وستين ومعه قلاوون المنصور صاحب حماة إلى بلادهم فلقيهم ليون في جموعه قبل الدربند فانهزم وأسر وخرب العساكر مدينة سيس وبذل هيثوم الأموال والقلاع في فداء ابنه ليون فشرط عليه الظاهر أن يستوهب سنقر الأشقر وأصحابه من أبغا بن هلاكو وكان هلاكو أخذهم من سجن حلب فاستوهبهم وبعث بهم وأعطى خمساً من القلاع منها رغبان ومرزبان لما توفي هيثوم سنة تسع وستين وملك بعده ابنه ليون وبقي الملك في عقبه وكان بينهم وبين الترك نفرة واستقامة لقرب جوارهم من حلب والترك يرددون العساكر إلى بلادهم حتى أجابوا بالصلح على الطاعة والجزية وشحنة التتر مقيم عندهم بالعساكر من قبل شحنة بلاد الروم.

ولما توفي ليون ملك بعده ابنه هيثوم ووثب عليه أخوه سنباط فخلعه وحبسه بعد أن سمل عينه الواحدة وقتل أخاهما الأصغر يروس ونازلت عساكر الترك لعهده قلعة حموض من قبل العادل كتبغا فاستضعف الأرمن سنباط وهموا به فلحق بالقسطنطينية وقدموا عليهم أخاه رنديـن فصالح المسلمين وأعطاهم مرعش وجميع القلاع على جيحان وجعلوها تخماً

ورجعت العساكر عنهم ثم أفرج رنديـن عن أخيـه هيثـوم الأعـور سنة تسع وستين فأقـام معـه قليـلاً ثـم وثـب برنديـن ففـر إلى القسطنطينية وأقام هيثوم بسيس في ملك الأرمن وقـدم ابـن أخيـه تروس معسول أتابكاً واستقامت دولته فيهم.

وسار مع قازان في وقعته مع الملك الناصر فعاث الأرمن في البلاد واستردوا بعـض قلاعهـم وخربـوا تـل حمـدون فلمـا هـزم الناصر التـتر سنة اثنتين وسبعمائة بعـث العسـاكر إلى بلادهـم فاسترجعوا القلاع وملكوا حمص واكتسحوا بسائط سيس وما إليها ومنع الضريبة المقررة عليهم فأنفذ نائب حلب قراسنقر المنصوري سنة سبع وستمائة العساكر إليهم مع أربعة مـن الأمـراء فعـاثوا في بلادهم واعترضهم شحنة التـتر بسـيس فهزموهـم وقتـل أمـيرهم وأسر الباقون وجهز العساكر من مصر مع بكتـاش الفخـري أمـير سلاح من بقية البحرية وانتهوا إلى غزة وخشي هيثـوم مغبـة هـذه الحادثة فبعث إلى نائب حلب بالجزية التي عليهم لسنة خمس وقبلها وتوسل بشفاعته إلى السلطان فشفعه وأمنه وكان شحنة التتر بـبلاد الروم لهذا العهد أرفلي وكان قد أسلم لما أسلم أبغا وبنـى مدرسـة بأذنة وشيد فيها مئذنة ثم حدث بينه وبين هيثـوم صـاحب سـيس وحشة فسعى فيه هيثوم عند خربندا ملك التتر بأنه مداخـل لأهـل الشام وقد واطأهم علـى ملـك سـيس ومـا إليهمـا واستشـهد لـه بالمدرسة والمئذنة وكتب بذلك إلى أرفلي بعـض قرابتـه فأسرّها في نفسه واغتاله في صنيع دعاه إليـه وقبـض علـى وافـد مـن ممـاليك الترك كان عند هيثوم من قبل نائب حلـب يطلـب الجزيـة المقـررة عليه وهو أيدغدي الشهرزوري ولم يزل في سجن التـتر إلى أن فـر من محبسه بتوريز سنة عشر وسبعمائة ونصب لملك سـيس أوشـي بن ليون وسار أرفلي إلى خربندا فسابقه ألتاق أخـو هيثـوم بنسـائه وولده مستعدين عليه فتفجع لهم خربندا وسط أرفلي وقتلـه وأقـر أوشين أخاه في ملكه لسيس فبادر إلى مراسلة الناصر بمصر وتقريـر الجزية عليه كما كانت وما زال يبعثهـا مـع الأحيـان، واللّـه تعـالى أعلم.

مراسلة ملك المغرب ومهاداته

كان ملك المغرب الأقصى من بني مرين المتولـين أمـره مـن بعد الموحدين وهو يوسف بن يعقوب بن عبد الحق قـد بعـث إلى السلطان الناصر سنة أربع وسبعمائة رسوله علاء الديـن أيدغـدي الشهرزوري من الشهرزورية المقربين هنـالك أيـام الظـاهر بيـبرس ومعه هدية حافلة من الخيـل والبغـال والإبـل وكثـير مـن مـاعون المغرب وسائر طرفه وجملة من الذهب العين في ركب عظيـم مـن المغاربـة ذاهبـين لقضـاء فرضهـم فقـابلهم السـلطان بـأبلغ وجـوه التكرمة وبعث معهم أمـيراً لإكرامهـم وقراهـم في طريقهـم حتـى قضوا فرضهم وعاد الرسول أيدغدي المذكور من حجه سنة خمس فبعث السلطان معه مكافأة هديتهم بما يليق بها من النفاسـة وعـين لذلك أميرين من بابه أيدغدي البابلي وأيدغـدي الخوارزمـي كـل منهما لقبه علاء الدين فانتهوا إلى يوسف بـن يعقـوب بمكانـه مـن حصار تلمسان كما هو في ربيع الآخر سنة ست قـابلهم بمـا يجـب لهم ولمرسلهم وأوسع لهـم في الكرامـة والحبـاء وبعثهـم إلى ممالكـه بفاس ومراكش ليتطوفا بها ويعاينا مسرتها.

وهلـك يوسـف بـن يعقـوب بمكانـه مـن حصـار تلمسـان وانطلق الرسولان المذكوران من فـاس راجعـين مـن رسـالتهما في رجب سنة سبع في ركب عظيم من أهل المغرب اجتمعـوا عليهـم لقصد الحج ولقوا السلطان أبا ثابت البزولي مـن بعـد يوسـف بـن يعقوب في طريقهم فبالغ في التكرمة والإحسـان إليهـم وبعـث إلى مراسلهم الملك الناصر بهدية أخرى من الخيل والبغال والإبـل ثـم مروا بتلمسان وبها أبو زيان وأبو حمو ابنا عثمان بن يغمراس فلـم يصرفا إليهما وجهاً من القبـول وطلبـا منهمـا خفـير يخفرهمـا إلى تخوم بلادهما لما كانت نواحي تلمسان قـد اضطربـت بعـد مهلـك يوسف بن يعقوب وما كان من شأنه فبعث معهما بعـض العـرب فلم يغن عنهم واعترضهم في طريقهـم أشـرار حصـن مـن زغبـة بنواحي المرية فبالغوا في الدفاع فلم يغن عنهم.

واستولى الأشرار على الركب بما فيه ونهبـوا جميـع الحجـاج ورسل الملك الناصر معهم وخلصوا برؤوسهم إلى الشيخ بكر بـن زغلي بني يزيد بن زغبة بوطن حمـزة بنواحـي بجايـة فـأوصلهم إلى السلطان ببجاية أبي البقاء خالد من ولد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفـص ملـوك أفريقيـة فكسـاهم وحملهـم إلى حضرة تونس وبها السلطان أبو عصيدة محمد بن يحيى الواثق مـن بني عمه فبالغ في تكرمتهم وسافر معهم إبراهيم بن عيسى من بـني وسنار أحد أمراء بني مرين كان أميراً على الغزاة بالأندلس وخرج لقضاء فرضه فمر بتونس واستنهضه سلطانها على الإفرنج بجزيـرة جربة فسار إليها بقومه ومعه عبد الحق بن عمر بن رحو من أعيان بني مرين وكان الشيخ أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحيـاني يحاصرهـا في عسكر تونس فأقام معهم مدة ثم استوحش أبو يحيـى اللحيـاني من سلطانه بتونس فلحق بطرابلس وساروا جميعاً إلى مصر وتقـدم السلطان بإكرامهم حتى قضوا فرضهم وعادوا إلى المغرب واستمد أبو يحيى اللحياني السلطان الناصر فأمده بالأموال والمماليك وكان

سبباً لاستيلائه على الملك بتونس كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

وحشة الناصر من كافليه بيبرس وسلار ولحاقه بالكرك وخلعه والبيعة لبيبرس

ثم عرضت وحشة بين السلطان الناصر وبين كافليه بيبرس وسلار سنة سبع فامتنع من العلامة على المراسم وترددت بينه وبينهم السعاة بالعتاب وركب بعض الأمراء في ساحة القلعة من جوف الليل ودافعتهم الحامية في جوف الليل وافترقوا وامتعض السلطان لذلك وازداد وحشة ثم سعى بكتمر الجوكندار في إصلاح الحال وحمل السلطان على تغريب بعض الخواص من مماليكه إلى القدس وكان بيبرس ينسب إليهم هذه الفتنة ونشأتها من أجلهم ففر بهم السلطان وأعتب الأميرين ثم أعيد الموالي من القدس إلى محلهم من خدمتهم واتهم السلطان الجوكندار في سعايته فسخطه وأبعده وبعثه نائباً عن صفد.

ثم غص بما هو فيه من الحجر والاستبداد وطلب الحج فهجره بيبرس وسلار وسار على الكرك سنة ثمان وودعه الأمراء واستصحب بعضاً منهم فلما مر بالكرك دخل القلعة وأخرج النائب جمال الدين أقوش الأشرف إلى مصر وبعث عن أهله وولده كانوا مع المحمل الحجازي فعادوا إليه من العقبة وصرف الأمراء الذين توجهوا معه وأظهر الانقطاع بالكرك للعبادة وأذن لهم في إقامة من يصلح لأمرهم فاجتمعوا بدار النيابة وتشاوروا واتفقوا على أن يكون بيبرس سلطاناً عليهم وسلار على نيابته وبايعوا بيبرس في شوال سنة ثمان ولقبوه المظفر وقلده الخليفة أبو الربيع وكتب للناصر بنيابة الكرك وعنيت له إقطاع يختص بها وقام سيف الدين سلار بالنيابة على عادة من قبله وأقر أهل الوظائف والرتب على مراتبهم وبعث أهل الشام بطاعتهم واستقر بيبرس في سلطانه والله تعالى أعلم.

انتقاض الأمير بيبرس وعود الناصر إلى ملكه

ولما دخلت سنة تسع هرب بعض موالي الناصر فلحقوا بالكرك وقلق الظاهر بيبرس المظفر وبعث في أثرهم فلم يدركوهم واتهم آخرون فقبض عليهم ونشأت الوحشة لذلك واتصلت المكاتبة من الأمراء الذين بالشام إلى السلطان بالكرك وخرج من مكانه يريد النهوض إليهم ثم رجع ووصل كتاب نائب دمشق أقوش الأفرم فسكن الحال وبعث الجاشنكير بيبرس إلى السلطان برسالة مع الأمير علاء الدين مغلطاي أيدغلي وقطلوبغا تتضمن الأرجاف فثارت لها حفائظه وعاقب الرسولين وكاتب أمراء الشام يتظلم من بيبرس وأصحابه بمصر ويقول: سلمت لهم في الملك ورضيت بالضنك رجاء الراحة فلم يرجعوا عني وبعثوا إلي بالوعيد وأنهم فعلوا ما فعلوا بأولاد المعز أيبك وبيبرس الظاهر. ومثل ذلك من القول ويستنجدهم ويمت إليهم بوسائل التربية والعتق في دفاع هؤلاء عنه وإلا لحقت ببلاد التتر.

وبعث بهذه الرسالة مع بعض الجند كان مستخدماً بالكرك من عهد أقوش الأشرفي وأقام هنالك وكان مولعاً بالصيد فاتصل بالسلطان في مصايده وبث إليه ذات يوم شكواه فقال: أنا أكون رسولك إلى أمراء الشام! فبعث إليهم بهذه الرسالة فامتعضوا وأجابوه بالطاعة كما يجب منهم وسار السلطان إلى البلقاء وأرسل جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق إلى مصر فأخبر الجاشنكير بيبرس بالحال واستمده بالعساكر للدفاع فبعث إليه بأربعة آلاف من العساكر مع كبار الأمراء وأزاح عللهم وأنفق في سائر العساكر بمصر وكثر الأرجاف وشغبت العامة وتعين مماليك السلطان للخروج إلى النواحي استرابة بمكانهم ووصل الخبر برجوع السلطان من البلقاء إلى الكرك لرأي رآه واستراب لرجعته سائر أصحابه وحاشيته وخاف أن يهجمهم عساكر مصر بما كان يشاع عندهم من اعتزام بيبرس على ذلك.

ثم دس السلطان إلى مماليكه وشيع إليهم فأجابوه وأعاد الكتاب إلى نواب الشام مثل شمس الدين أقسنقر نائب حلب وسيف الدين نائب حمص فأجابوه بالسمع والطاعة وبعث نائب حلب ولده إليه واستنهضوه للوصول فخرج من الكرك في شعبان سنة تسع ولحق به طائفة من أمراء دمشق وبعث النائب أقوش أميرين لحفظ الطرقات فلحقا بالسلطان وكتب بيبرس الجاشنكير إلى نواب الشام بالوقوف مع جمال الدين أقوش نائب دمشق والاجتماع على السلطان الناصر عن دمشق فأعرضوا ولحقوا بالسلطان وسار أقوش إلى البقاع والشقيف واستأمن إلى السلطان فبعث إليه بالأمان مع أميرين من أكابر أمرائه.

وسار إلى دمشق فدخلها وهي خالصة يومئذ لسيف الدين بكتمر أمير جامدار جاءه من صفد وهاجر إلى خدمته فتلقاه وجازاه أحسن الجزاء ثم وصل أقوش الأفرم فتلقاه السلطان بالمبرة والتكرمة وأقره على نيابه دمشق واضطربت أمور الجاشنكير بمصر وخرجت طائفة من مماليك السلطان هاربين إلى الشام فسرح في

أثرهم العساكر فأدركوهم ونال الهاربون منهم قتلا وجراحة ورجعوا وثاب العامة والغوغاء وأحاطوا بالقلعة وجاهروا بالخلعان وقبض على بعضهم وعوقب فلم يزدهم إلا عتواً وتحاملاً وارتاب الجاشنكير لحاله واجتمع الناس للحلف وحضر الخليفة وجدد عليه وعليهم الحلف وبعث نسخة البيعة لتقرأ بالجامع يوم الجمعة فصاح الناس بهم وهموا أن يحصبوهم على المنابر فرجع إلى النفقة وبذل المال واعتزم على المسير إلى الشام.

وقدم أكابر الأمراء فلحقوا بالسلطان، وزاد اضطراب بيبرس وخرج السلطان من دمشق منتصف رمضان وقدم بين يديه أميرين من أمراء غزة فوصلاها واجتمعت إليه العرب والتركمان وبلغ الخبر إلى الجاشنكير فجمع إليه شمس الدين سلار وبدر الدين بكتوت الجوكندار وسيف الدين السلحدار وفاوضهم في الأمر فرأوا أن الخرق قد اتسع ولم يبق إلا البدار بالرغبة إلى السلطان أن يقطعه الكرك أو حماة أو صهيون ويتسلم السلطان ملكه فأجمعوا على ذلك وبعثوا بيبرس الدوادار وسيف الدين بهادر بعد أن أشهد الجاشنكير بالخلع وخرج من القلعة إلى أطفيح بمماليكه فلم يستقر بها وتقدم قاصداً أسوان واحتمل ما شاء من المال والذخيرة وخيول الإصطبل.

وقام بحفظ القلعة صاحبه سيف الدين سلار وكاتب السلطان يطالعه بذلك وخطب للسلطان على المنابر ودعي باسمه على المآذن وهتف باسمه العامة في الطرقات وجهز سلار سائر شعار السلطنة ووصلت رسل الجاشنكير إلى السلطان بما طلب فأسعفه بصهيون وردهم إليه بالأمان والولاية ووافى السلطان عيد الفطر بالبركة ولقيه هنالك سيف الدين سلار وأعطاه الطاعة ودخل السلطان إلى القلعة وجلس باقي العيد بالإيوان جلوساً فخماً واستخلف الناس عامة وسأله سلار في الخروج إلى إقطاعه فأذن له بعد أن خلع عليه فخرج ثالث شوال وأقام ولده بباب السلطان.

ثم بعث السلطان الأمراء إلى أخميم فانتزعوا من الجاشنكير ما كان احتمله من المال والذخيرة وأوصلوها إلى الخزائن ووصل معهم جماعة من مماليكه كانوا أمراء واختاروا الرجوع إلى السلطان وولى السلطان سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جاندار نائباً بمصر وقراسنقر المنصوري نائباً بدمشق وبعث نائبها الأفرم نائباً بصرخد وسيف الدين قفجق نائباً بحلب وسيف الدين بهادر نائباً بطرابلس وخرجوا جميعاً إلى الشام.

وقبض السلطان على جماعة من الأمراء ارتاب بهم وولى على وزارته فخر الدين عمر بن الخليلي عوضاً عن ضياء الدين أبي بكر ثم انصرف بيبرس الجاشنكير متوجهاً إلى صهيون وبها بهادر بها الأشجعي موكل به إلى حيث قصد ورجع عنه الأمراء الذين كانوا عنده إلى السلطان فاستضاف بعضهم إلى مماليكه واعتقل بعضهم ثم بدا للسلطان في أمره وبعث إلى قراسنقر وبهادر وهما مقيمان بغزة ولم ينفصلا إلى الشام أن يقبضا عليه فقبضا عليه وبعثا به إلى القلعة آخر ذي القعدة فاعتقل ومات هنالك والله تعالى ولي التوفيق.

خبر سلار ومآل أمره

لما انتقل السلطان الناصر إلى ملكه بمصر وكان لسلار من السعي في أمره وتمكين سلطانه ما ذكرناه وكانت له سوء بال عند السلطان يعتني برعيها له وكانت الشوبك من أقطاعه فرغب إلى السلطان في المسير إليها والتخلي فيها فأذن له وخلع عليه وزاده في أقطاعه وأقطاع مماليكه واتبعه مائة من الطواشية بأقطاعهم وسار من مصر إلى الشوبك في شوال سنة ثمان وسبعمائة ثم بعث له داود المقسور بالكرك مضافاً إلى الشوبك وباللواء وبخلعة مذهبة ومركب ثقيل ومنطقة مجوهرة وأقام هنالك فلما كانت سنة عشر بعدها نمي إلى السلطان عن جماعة من الأمراء أنهم معتزمون على الثورة وفيهم أخو سلار فقبض عليهم جميعاً وعلى شيع سلار وحاشيته الذين بمصر وبعث علم الدين الجوالي لاستقدامه من الكرك تأنيساً له وتسكيناً فقدم في ربيع من السنة واعتقل إلى أن هلك في معتقله واستصفيت أمواله وذخائره بمصر والكرك وكانت شيئاً لا يعبر عنه من الأموال والفصوص واللآلئ والأقمصة والدروع والكراع والإبل ويقال: إنه كان يغل كل يوم من أقطاعه وضياعه ألف دينار وأما أوليته فإنه لما خلص من أسر التتر صار مولى لعلاء الدين علي بن المنصور قلاوون ولما مات صار لأبيه قلاوون ثم لابنه الأشرف ثم لأخيه محمد بن الناصر وظهر في دولهم كلها وكان بينه وبين لاشين مودة فاستخدم له وعظم في دولته متقرباً في المراكب متحرياً لمحبة السلطان إلى أن انقرض أمره ويقال: إنه لما احتضر في محبسه قيل له: قد رضي عنك السلطان فوثب قائماً ومشى خطوات ثم مات والله أعلم.

انتقاض النواب بالشام ومسيرهم إلى التتر وولاية تنكز على الشام

كان قفجق نائب حلب قد توفي بعد أن ولاه السلطان فنقل

مكانه إلى حلب الكرجي من حماة سنة عشر فتظلم الناس منه فقبض عليه ونقل إليها قراسنقر المنصوري من نيابة دمشق وولى مكانه بدمشق سيف الدين كراي المنصوري سنة إحدى عشرة ثم سخطه واعتقله وولى مكانه بدمشق جمال الدين أقوش الأشرفي نقله إليها من الكرك وتوفي بها محمد نائب طرابلس فنقل إليها أقوش الأفرم من صرخد ثم قبض على بكتمر الجوكندار نائب مصر وحبسه بالكرك وجعل مكانه في الثانية بيبرس الدوادار ثم ارتاب قراسنقر نائب حلب فهرب إلى البرية واجتمع مع مهنا بن عيسى ويقال: إنه استأذن السلطان في الحج فأذن له فلما توسط البرية استوعرها فرجع فمنعه الأمراء الذين بحلب من دخولها إلا بإذن السلطان فرجع إلى الفرات وبعث مهنا بن عيسى شافعاً له عند السلطان فقبله ورده إلى نيابة حلب.

ثم بلغ السلطان أن خربندا ملك التتر زاحف إلى الشام فجهز العساكر من مصر وتقدم إلى عساكر الشام بأن يجتمعوا معهم بحمص فارتاب قراسنقر وخرج من حلب وعبر الفرات ثم راجع نفسه واستأمن السلطان على أن يقيم بالفرات فأقطعه السلطان الشوبك يقيم بها فلم يفعل وبقي بمكان من الفرات مع مهنا بن عيسى ثم ارتاب جماعة من الأمراء فلحقوا به وفيهم أقوش الأفرم نائب طرابلس وأمضوا عزمهم عل اللحاق بخربندا فوصلوا إلى ماردين فتلقاهم صاحبها بالكرامة وحمل إليهم تسعين ألف درهم ورتب لهم الأتاوات ثم ساروا إلى خلاط إلى أن جاءهم إذن خربندا فساروا إليه واستحثوه للشام.

وبلغ الخبر إلى السلطان فاتهم الأمراء الذين في خدمته بالشام بمداخلة قراسنقر وأصحابه فاستدعاهم وبعث على حلب سيف الدين مكان قراسنقر وعلى طرابلس بكتمر الساقي مكان أقوش وبعث على العرب فضل بن عيسى مكان أخيه مهنا ووصل الأمراء إلى مصر فقبض عليهم جميعاً وعلى أقوش الأشرفي نائب دمشق وولى مكانه تنكز الناصري سنة اثنتي عشرة وجعل له الولاية على سائر الممالك الإسلامية وقبض على نائبه بمصر بيبرس الدوادار وحبسه بالكرك وولى مكانه أرغون الدوادار وعسكر بظاهر القلعة وارتحل بعد عيد الفطر من السنة فلقيه الخبر أثناء طريقه بأن خربندا وصل إلى الرحبة ونازلها وانصرف عنها راجعاً فانكفأ السلطان إلى دمشق وفرق العساكر بالشام ثم سار إلى الكرك واعتزم على قضاء فرضه تلك السنة وخرج حاجّاً من الكرك ورجع سنة ثلاث عشرة إلى الشام وبعث إلى مهنا بن عيسى يستميله وعاد الرسول بامتناعه ثم لحق سنة ست عشرة بخرابندا وأقطعه بالعراق وأقام هنالك فلم يرجع إلا بعد مهلك خربندا والله سبحانه وتعالى أعلم.

رجوع حماة إلى بني المظفر شاهنشاه بن أيوب ثم لبني الأفضل منهم وانقراض أمرهم

قد كان تقدم لنا أن حماة كانت من أقطاع تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب أقطعه إياها عمه صلاح الدين بن أيوب سنة أربع وسبعين وخمسمائة فلم تزل بيده إلى أن توفي سنة سبع وثمانين وخمسمائة فأقطعها ابنه ناصر الدين محمداً ولقبه المنصور وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة بعد عمه صلاح الدين والعادل فوليها ابنه قليج أرسلان ويلقب الناصر سنة ست وعشرين وكان أخوه المظفر ولي عهد أبيه عند الكامل بن العادل فجهزه بالعساكر من دمشق وملكها من يد أخيه وأقام بها إلى أن هلك سنة ثلاث وأربعين وولي ابنه محمد ويلقب المنصور ولم يزل في ولايتها إلى أن سار يوسف بن العزيز ملك الشام من بني أيوب هارباً إلى مصر أيام التتر فسار معه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل.

ثم خشي من الترك بمصر فرجع إلى هلاكو واستمر المنصور إلى مصر فأقام بها وملك هلاكو الشام وقتل الناصر وسائر بني أيوب كما مر ثم سار قطز إلى الشام عندما رجع هلاكو عنه عندما شغل عنه بفتنة قومه فارتجعه من ملكة التتر وولى على قواعده وأمصاره ورد المنصور إلى حماة فلم يزل والياً عليها وحضر واقعة قلاوون على التتر بحمص سنة ثلاثين وكان يتردد إلى مصر سائر أيامه ويخرج مع البعوث إلى بلاد الأرمن وغيرها ويعسكر مع ملوك مصر متى طلبوه لذلك ثم توفي سنة ثلاث وثمانين وأقر قلاوون ابنه المظفر على ما كان أبوه وجرى هو معهم على سننه إلى أن توفي سنة ثمان وتسعين عندما بويع الناصر محمد بن قلاوون بعد لاشين، وانقطع عقب المنصور فولى السلطان عليها قراسنقر من أمراء الترك نقله إليها من الضبينة وأمره باستقرار بني أيوب وسائر الناس على أقطاعاتهم.

ثم كان استيلاء قازان على الشام ورجوعه سنة تسع وتسعين ومسير بيبرس وسلار وانتزاع الشام من التتر وكان كتبغا العادل الذي ملك مصر وخلعه لاشين نائباً بصرخد فجلا في هذه الوقائع وتنصح لبيبرس وسلار وحضر معهم بدمشق فولوه على حماة وغزا بالعساكر بلاد الأرمن وحضر هزيمة التتر مع الناصر سنة اثنتين وسبعمائة فرجع إلى حماة فمات بها وولى السلطان بعده

سيف الدين قفجق استدعاه إليها من أقطاعه بالشوبك وكان الأفضل علاء الدين أخو المنصور صاحب حماة توفي أيام أخيه المنصور وخلف ولداً اسمه إسماعيل ولقبه عماد الدين ونشأ في دولتهم عاكفاً على العلم والأدب حتى توفر منهما حظه وله كتاب في التاريخ مشهور.

ولما رجع السلطان الناصر من الكرك إلى كرسيه وسطا ببيبرس وسلار راجع نظره في الإحسان إلى أهل هذا البيت واختار منهم عماد الدين إسماعيل هذا وولاه على حماة مكان قومه ست عشرة وسبعمائة وكان عند رجوعه إلى ملكه قد ولى نيابة حلب سيف الدين قفجق وجعل مكانه بحماة أيدمر الكرجي وتوفي قفجق فنقل أيدمر من حماة إلى حلب مكانه وولى إسماعيل على حماة كما قلنا ولقبه المؤيد ولم يزل عليها إلى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين وولى الناصر ابنه الأفضل محمد برغبة أبيه إلى السلطان في ذلك ثم مات الملك الناصر في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وقام بعده بالأمر مولاه قوص ونصب ابنه أبا بكر محمداً فكان أول شيء أحدثه عزل الأفضل من حماة وبعث عليها مكانه صقر دمول النائب وسار الأفضل إلى دمشق فمات بها سنة اثنتين وأربعين وانقرضت إيالة بني أيوب من حماة والبقاء لله وحده لا ربّ غيره ولا معبود سواه.

غزو العرب بالصعيد وفتح ملطية وآمد

ثم خرج السلطان سنة ثلاث عشرة فعسكر بالأهرام موريـاً بالنزهة وقد بلغه ما نزل بالصعيد من عيث العرب وفسادهم في نواحيه وإضرارهم بالسابلة فسرح العساكر في كل ناحية منه وأخذ الهلاك منهم مأخذه إلى أن تغلب عليهم واستباحهم من كل ناحية وشرد بهم من خلفهم ثم سرح العساكر سنة أربع عشرة بعدها إلى ملطية وهي للأرمن وملكها عنوة.

وسار لذلك تنكز نائب دمشق بعساكر الشام وستة من أمراء مصر ونازلوها في محرم سنة خمس عشرة وبها جموع من نصارى الأرمن والعربان وقليل من المسلمين تحت الجزية فقاتلوهم حتى ألقوا باليد واقتحموها عنوة واستباحوها وجاؤوا بملكها مع الأسرى فأبقاه السلطان وأنعم عليه ثم نمي عنه أنه يكاتب ملوك العراق فحبسه ثم بعث السلطان العساكر من حلب سنة خمس عشرة إلى عرقية من أعمال آمد ففتحوها وجاءت العساكر سنة سبع عشرة ثانية إلى آمد ففتحوها واستباحوها وغنموا منها أموالاً جمة والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

الولايات

وفي سنة خمس عشرة سخط السلطان سيف الدين بكتمر نائب طرابلس الذي وليها بعد أقوش الأفرم وأمده به وسيق معتقلا إلى مصر وولي مكانه سيف الدين كستاي ثم هلك فولى مكانه شهاب الدين قرطاي نقله إليها من نيابة حمص سيف الدين أقطاي ثم قبض سنة ثمان عشرة على طغاي الحسامي من الجاشنكيرية وصرف نائباً إلى صفد مكان بكتمر الحاجب ثم سخطه فأحضره معتقلاً وحبسه بالإسكندرية وبعث على صفد سيف الدين أقطاي نقله إليها من حمص وبعث على حمص بدر الدين بكتوت القرماني والله تعالى أعلم.

العمائر

ابتدأ السلطان سنة إحدى عشرة وسبعمائة ببناء الجامع الجديد بمصر وأكمله ووقف عليه الأوقاف المغلة ثم أمر سنة أربع عشرة ببناء القصر الأبلق من قصور الملك فجاء من أفخر المصانع الملوكية.

وفي سنة ثمان عشرة أمر بتوسعة جامع القلعة فهدم ما حوله من المساكن وزيد فيه إلى الحد الذي هو عليه بهذا العهد.

ثم أمر في سنة ثلاث وعشرين بعمارة القصور لمنازله بسرياقوس وبنى بإزائها الخانقاه الكبيرة المنسوبة إليه.

وفي سنة ثلاث وثلاثين أمر بعمارة الأيوان الضخم بالقلعة وجعله مجلس ملكه وبيت كرسيه ودعاه دار العدل والله تعالى أعلم.

حجّات السلطان

وحج الملك الناصر محمد بن قلاوون في أيام دولته ثلاث حجات.

أولا سنة ثلاث عشرة عند ما انقرض قراسنقر نائب حلب وأقوش الأفرم نائب طرابلس ومهنا بن عيسى أمير العرب وجاء خربندا إلى الشام ورجع من الرحبة فسار السلطان من مصر إلى الشام وبلغه رجوع خربندا فسار من هناك حاجّاً وقضى فرضه سنة ثلاث عشرة ورجع إلى الشام.

ثم حج الثانية سنة تسع عشرة ركب إليها من مصر في أواخر ذي القعدة ومعه المؤيد صاحب حماة والأمير محمد ابن

أخت علاء الدين ملك الهند صاحب دلي ولما قضى حجه انطلق الأمير محمد ابن أخت علاء الدين ملك الهند صاحب دلي من هناك إلى اليمن ورجع إلى مصر فأفرج عن رميثة أمير مكة من بني حسن وعن المعتقلين بمحبسه ووصله ووصلهم.

ثم حج الثالثة سنة اثنتين وثلاثين ومعه الأفضل بن المؤيد صاحب حماة على عادة أبيه في مراكبة السلطان وقفل من حجه سنة ثلاث وثلاثين فأمر بعمل باب الكعبة مصفحاً بالفضة أنفق فية خمسة وثلاثين ألف درهم وفي منصرفه من هذه الحجة مات بكتمر الساقي من أعظم أمرائه وخواصه ويقال: إنه سمه وهو من مماليك بيبرس الجاشنكير وانتقل إلى الناصر فجعله أمير السقاة وعظمت منزلته عنده ولطفت خلته حتى كانا لا يفترقان إما في بيت السلطان وإما في بيته وكان حسن السياسة في الغاية وخلف بعد وفاته من الأموال والجواهر والذخائر ما يفوت الحصر والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

أخبار النوبة وإسلامهم

قد تقدم لنا غزو الترك إلى النوبة أيام الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون لما كان عليهم من الجزية التي فرضها عمرو بن العاص عليهم وقررها الملوك بعد ذلك وربما كانوا يماطلون بها أو يمتنعون من أدائها فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يستقيموا وكان ملكهم بدنقلة أيام سارت العساكر من عند قلاوون إليها سنة ثمنين وستمائة واسمه سمامون ثم كان ملكهم لهذا العهد اسمه آي لا أدري أكان معاقباً لسمامون أو توسط بينهما متوسط وتوفي آي سنة ست عشرة وسبعمائة وملك بعده في دنقلة أخوه كربيس ثم نزع من بيت ملوكهم رجل إلى مصر اسمه نشلي وأسلم فحسن إسلامه وأجرى له رزقاً وأقام عنده فلما كانت سنة ست عشرة امتنع كربيس من أداء الجزية فجهز السلطان إليه العساكر وبعث معها عبد الله نشلي المهاجر إلى الإسلام من بيت ملكهم فخام كربيس عن لقائهم وفر إلى بلد الأبواب ورجعت العساكر إلى مصر واستقر نشلي في ملك النوبة على حاله من الإسلام.

وبعث السلطان إلى ملك الأبواب في كربيس فبعث به إليه وأقام بباب السلطان ثم إن أهل النوبة اجتمعوا على نشلي وقتلوه بمالأة جماعة من العرب سنة تسع وبحثوا عن كربيس ببلد الأبواب فألفوه بمصر وبلغ الخبر إلى السلطان فبعثه إلى النوبة فملكها وانقطعت الجزية بإسلامهم ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملكوها وملؤوها عيثاً وفساداً وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعاً لهذا العهد ولم يبق لبلادهم رسم للملك وإنما هم الآن رجالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادي الأعراب ولم يبق في بلادهم رسم للملك لما أحالته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والالتحام والله غالب على أمره والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

بقية أخبار الأرمن إلى الفتح أياس ثم فتح سيس وانقراض أمرهم

قد كنا قدمنا أخبار الأرمن إلى قتل ملكهم هيثوم على يد أيدغدي شحنة التتر ببلاد الروم سنة سبع واستقرار الملك بسيس لأخيه أوسير بن ليون وكان بينه وبين قرمان ملك التركمان مصاف سنة تسع عشرة فهزمه قرمان ولم يزل أوسير بن ليون ملكاً عليهم إلى سنة اثنتين وسبعين فهلك ونصبوا للملك بعده ابنه ليون صغيراً ابن اثنتي عشرة سنة وكان الناصر قد طلب أوسير أن ينزل له عن القلاع التي تلي الشام فاتسع وجهز إليه عساكر الشام فاكتسحوا بلاده وخربوها وهلك أوسير على أثر ذلك ثم أمر الناصر كتبغا نائب حلب بغزو سيس فدخل إليها بالعساكر سنة ست وثلاثين واكتسح جهاتها وحصر قلعة النقير وافتتحها وأسر من الأرمن عدة يقال بلغوا ثلثمائة وبلغ خبرهم إلى النصارى بأياس فثاروا بمن عندهم من المسلمين وأحرقوهم غضباً للأرمن لمشاركتهم في دين النصرانية.

ولم يثبت أن بعث إلى السلطان دمرداش بن جوبان شحنة المغل ببلاد الروم يعرفه بدخوله في الإسلام ويستنفر عساكره لجهاد نصارى الأرمن فأسعفه بذلك وجهز إليه عساكر الشام من دمشق وحلب وحماة سنة سبع وثلاثين ونازلوا مدينة أياس ففتحوها وخربوها ونجا فلهم إلى الجبال فاتبعتهم عساكر حلب وعادوا إلى بلادهم ثم سار سنة إحدى وستين بندمر الخوارزمي نائب حلب لغزو سيس ففتح أذنة وطرسوس والمصيصة ثم قلعتي كلال والجرايدة وسنباط كلا وتمرور وولى نائبين في أذنة وطرسوس وعاد إلى حلب وولى بعده على حلب عشقيم النصارى فسار سنة ست

وسبعين وحصر سيس وقلعتها شهرين إلى أن نفدت أقواتهم وجهدهم الحصار فاستأمنوا ونزلوا على حكمه فخرج ملكهم النكفور وأمراؤه وعساكره إلى عشقيم فبعث بهم إلى مصر واستولى المسلمون على سيس وسائر قلاعها وانقرضت منها دولة الأرمن والبقاء لله وحده انتهى.

الصلح مع ملوك التتر وصهر الناصر مع ملوك الشمال منهم

كان للتتر دولتان مستفحلتان إحداهما دولة بني هلاكو آخذ بغداد والمستولي على كرسي الإسلام بالعراق وأصارها هو وبنوه كرسياً لهم ولهم مع ذلك عراق العجم وفارس وخراسان وما وراء النهر ودولة بني دوشي خان بن جنكزخان بالشمال متصلة إلى خوارزم بالمشرق إلى القرم وحدود القسطنطينية بالجنوب وإلى أرض بلغار بالمغرب وكان بين الدولتين فتن وحروب كما تحدث بين الدول المتجاورة وكانت دولة الترك بمصر والشام مجاورة لدولة بني هلاكو وكان يطمعون في ملك الشام ويرددون الغزو إليه مرة بعد أخرى ويستميلون أولياءهم وأشياعهم من العرب والتركمان فيستظهرون بهم عليهم كما رأيت ذلك في أخبارهم وكانت بين ملوكهم من الجانبين وقائع متعددة وحروبهم فيها سجال وربما غلبوا من الفتنة بين دولة بني دوشي وبين بني هلاكو ولبعدهم عن فتنة بني دوشي خان لتوسط الممالك بين مملكتهم ومملكة مصر والشام فتقع لهم الصاغية إليهم وتتجدد بينهم المراسلة والمهاداة في كل وقت ويستحث ملك الترك ملك صراي من بني دوشي خان لفتنة بني هلاكو والأجلاب عليهم في خراسان وما إليها من حدود مملكتهم ليشغلوهم عن الشام ويأخذوا بحجزتهم عن النهوض إليه.

وما زال ذلك دأبهم من أول دولة الترك وكانت رغبة بني دوشي خان في ذلك أعظم يفتخرون به على بني هلاكو ولما ولي صراي أنبك من بني دوشي خان سنة ثلاث عشرة وكان نائباً ببلاد الروم قطلغمير وفدت عليه الرسل من مصر على العادة فعرض لهم قطلغمير بالصهر مع السلطان الناصر ببعض نساء ذلك البيت على شرطية الرغبة من السلطان في ظاهر الأمر والتمهل منهم في إمضاء ذلك.

وزعموا أن هذه عادة الملوك منهم ففعل السلطان ذلك وردد الرسل والهدايا أعواماً ستة إلى أن استحكم ذلك بينهم وبعثوا إليه بمخطوبته طلبناش بنت طغاجي بن هند وابن بكر بن دوشي سنة عشرين مع كبير المغل وكان مقلداً يحمل على الأعناق ومعهم جماعة من أمرائهم وبرهان الدين أمام أزبك ومروا بالقسطنطينية فبالغ لشكري في كرامتهم يقال: أنه أنفق عليهم ستين ألف دينار وركبوا البحر من هناك إلى الإسكندرية.

ثم ساروا بها إلى مصر محمولة على عجلة وراء ستور من الذهب والحرير يجرها كديش يقوده اثنان من مواليها في مظهر عظيم من الوقار والتجلة ولما قاربوا مصر ركب للقائهم النائبان أرغون وبكتمر الساقي في العساكر وكريم الدين وكيل السلطان وأدخلت الخاتون إلى القصر واستدعى ثالث وصولها القضاة والفقهاء وسائر الناس على طبقاتهم إلى الجامع بالقلعة وحضر الرسل الوافدون عندهم بعد أن خلع عليهم وانعقد النكاح بين وكيل السلطان ووكيل أزبك وانفض ذلك الجمع وكان يوماً مشهوداً.

ووصلت رسل أبي سعيد صاحب بغداد والعراق سنة اثنتين وعشرين وفيهم قاضي توزير يسألون الصلح وانتظام الكلمة واجتماع اليد على إقامة معالم الإسلام من الحج وإصلاح السابلة وجهاد العدو فأجاب السلطان إلى ذلك وبعث سيف الدين أيتمش المحمدي لأحكام العقد معهم وامتضاء إيمانهم فتوجهه لذلك بهدية سنية وعاد سنة ثلاث وعشرين ومعه رسل أبي سعيد ومعه جوبان لمثل ذلك فتم ذلك وانعقد بينهم وقد كانت قبل ذلك تجددت الفتنة بين أبي سعيد وصاحب صراي نفرة من أزبك صاحب صراي من تغلب جوبان على أبي سعيد وفتكه في المغل.

وكانت بين جوبان وبين سبول صاحب خوارزم وما وراء النهر فتنة ظهر فيها أزبك وأمده بالعساكر فاستولى أزبك على أكثر بلاد خراسان وطلب من الناصر بعد الالتحام بالصهر المظاهرة على أبي سعيد وجوبان فأجابه إلى ذلك ثم بعث إليه أبو سعيد في الصلح كما قلناه فآثره وعقد له وبلغ الخبر إلى أزبك ورسل الناصر عنده فأغلظ في القول وبعث بالعتاب واعتذر له الناصر بأنهم إنما دعوه لإقامة شعائر الإسلام ولا يسع التخلف عن ذلك فقبل ثم وقعت بينه وبين أبي سعيد مراوضة في الصلح بعد أن استرد جوبان ما ملكه أزبك من خراسان فتوادع كل هؤلاء الملوك واصطلحوا ووضعوا أوزار الحرب حيناً من الدهر إلى أن تقلبت الأحوال وتبدلت الأمور والله مقلب الليل والنهار.

مقتل أولاد بني نمي أمراء مكة من بني حسن

قد تقدم لنا استيلاء قتادة على مكة والحجاز من يد الهواشم واستقرارها لبنيه إلى أن استولى منهم أبو نمي وهو محمد بن أبي سعيد علي بن قتادة ثم توفي سنة اثنتين وسبعمائة وولي مكانه ابناه رميثة وخميصة واعتقلا أخويهما عطيفة وأبا الغيث ولما حج الأميران كافلا المملكة بيبرس وسلار هربا إليهما من مكان اعتقالهما وشكيا ما نالهما من رميثة وخميصة فأشكاهما الأميران واعتقلا رميثة وخميصة وأوصلاهما إلى مصر ووليا عطيفة وأبا الغيث وبعثا بهما إلى السلطان صحبة الأمير أيدمر الكوكبي الذي جاء بالعساكر معهما ثم رضي السلطان عنهما وولاهما مكان رميثة وخميصة وبعث معهما العساكر ثانياً سنة ثلاث عشرة وفر رميثة وخميصة عن البلاد ورجع العسكر.

وأقام أبو الغيث وعطيفة فرجع إليهما رميثة وخميصة وتلاقوا فانهزم أبو الغيث وعطيفة فسارا إلى المدينة في جوار منصور بن حماد فأمدهما ببني عقبة وبني مهدي ورجع إلى حرب رميثة وخميصة فاقتتلوا ثانياً ببطن مرو فانهزم أبو الغيث وقتل واستمر رميثة وخميصة ولحق بهما أخوهما عطيفة وسار معهما ثم تشاجروا سنة خمس عشر ولحق رميثة بالسلطان مستعدياً على أخويه فبعث معه العساكر ففر خميصة بعد أن استصفى أهل مكة وهرب إلى السبعة مدن ولحقته العساكر فاستلحق أهل تلك المدن ولقيهم فانهزموا ونجا خميصة بنفسه.

ثم رجعت العساكر فرجع وبعث رميثة يستنجد السلطان فبعث إليه العساكر ففر خميصة ثم رجع واتفق مع أخويه رميثة وعطيفة ثم لحق عطيفة بالسلطان سنة ثمان عشرة وبعث معه العساكر فتقبضوا على رميثة وأوصلوه معتقلاً فسجن بالقلعة واستقر عطيفة بمكة وبقي خميصة مشرداً ثم لحق بملك التتر ملك العراق خربندا واستنجده على ملك الحجاز فأنجده بالعساكر وشاع بين الناس أنه داخل الروافض الذين عند خربندا في إخراج الشيخين من قبريهما وعظم ذلك على الناس ولقبه محمد بن عيسى أخو مهنا حسبة وامتعاضاً للدين وكان عند خربندا فاتبعه واعترضه وهزمه ويقال: أنه أخذ منه المعاول والفؤوس التي أعدوها لذلك وكان سبباً لرضا السلطان عنه.

وجاء خميصة إلى مكة سنة ثماني عشرة وبعث الناصر العساكر إليه فهرب وتركها ثم أطلق رميثة سنة تسع عشرة فهرب إلى الحجاز ومعه وزيره علي بن هنجس فرد من طريقه واعتقل وأفرج عنه السلطان بعد مرجعه من الحج سنة عشرين ثم أن خميصة استأمن السلطان سنة عشرين وكان معه جماعة من المماليك هربوا إليه فخاموا أن يحضروا معه إلى السلطان فاغتالوه وحضروا وكان السلطان قد أطلق رميثة من الاعتقال فأمكنه منهم فثأر من المباشر قتل أخيه وعفا عن الباقين ثم صرف السلطان رميثة إلى مكة وولاه مع أخيه عطيفة واستمرت حالهما ووفد عطيفة سنة إحدى وعشرين على الأبواب ومعه قتادة صاحب الينبع يطلب الصريخ على ابن عمه عقيل قاتل ولده فأجابه السلطان وجهز العساكر لصريخه وقوبل كل منهما بالأكراد وانصرفوا.

وفي سنة إحدى وثلاثين وقعت الفتنة بمكة وقتل العبيد جماعة من الأمراء والترك فبعث السلطان أيدغمش ومعه العساكر فهرب الشرفاء والعبيد وحضر رميثة وبذل الطاعة وحلف متبرئاً مما وقع فقبل منه السلطان وعفا له عنها واستمرت حاله على ذلك إلى أن هلك سنة..... وتداولت الإمارة بين ابنيه عجلان وبقية ثم استبد عجلان كما نذكره في أخبارهم وورثها بنوه لهذا العهد كما نذكره مرتباً في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

حج ملك التكرور

كان ملك السودان بصحراء المغرب في الإقليم الأول والثاني منقسماً بين أمم من السودان أولهم مما يلي البحر المحيط أمة صوصو وكانوا مستولين على غانة ودخلوا في الإسلام أيام الفتح وذكر صاحب كتاب رجار في الجغرافيا أن بني صالح من بني عبد الله بن حسن بن الحسن كانت لهم بها دولة وملك عظيم ولم يقع لنا في تحقيق هذا الخبر أكثر من هذا وصالح من بني حسن مجهول وأهل غانة منكرون أن يكون عليهم ملك لأحد غير صوصو ثم يلي أمة صوصو أمة مالي من شرقهم وكرسي ملكهم بمدينة بني ثم من بعدهم شرقاً عنهم أمة كوكو ثم التكرور بعدهم وفيما بينهم وبين النوبة أمة كانم وغيرها وتحولت الأحوال باستمرار العصور فاستولى أهل مالي على ما وراءهم وبين أيديهم من بلاد صوصو وكوكو وآخر ما استولوا عليه بلاد التكرور واستفحل ملكهم إلى الغاية وأصبحت مدينتهم بني حاضرة بلاد السودان بالمغرب ودخلوا في دين الإسلام منذ حين من السنين.

وحج جماعة من ملوكهم وأول من حج منهم برمندار وسمعت في ضبطه من بعض فضلائهم برمندانه وسبيله في الحج هي التي اقتفاها ملوكهم من بعده ثم حج منهم منساولي بن ماري

بن ماري جاطة أيام الظاهر بيبرس وحج بعده منهم مولاهم صاكوره وكان تغلب على ملكهم وهو الذي افتتح مدينة كوكو ثم حج أيام الناصر وحج من بعده منهم منسا موسى حسبما ذلك مذكور في أخبارهم عند دول البربر عند ذكر صنهاجة ودولة لمتونة من شعوبهم.

ولما خرج منسا موسى من بلاد المغرب للحج سلك على طريق الصحراء وخرج عند الأهرام بمصر وأهدى إلى الناصر هدية حفيلة يقال أن فيها خمسين ألف دينار وأنزله بقصر عند القرافة الكبرى وأقطعه إياها ولقيه السلطان بمجلسه وحدثه ووصله وزوده وقرب إليه الخيل والهجن وبعث معه الأمراء يقومون بخدمته إلى أن قضى فرضه سنة أربع وعشرين ورجع فأصابته في طريقه بالحجاز نكبة تخلصه منها أجله وذلك أنه ضل في الطريق عن المحمل والركب وانفرد بقومه عن العرب وهي كلها مجاهل لهم فلم يهتدوا إلى عمران ولا وقفوا على مورد وساروا على السمت إلى أن نفذوا عند السويس وهم يأكلون لحم الحيتان إذا وجدوها والأعراب تتخطفهم من أطرافهم إلى أن خلصوا.

ثم جدد السلطان له الكرامة ووسع له في الحباء وكان أعد لنفقته من بلاده فيما يقال مائة حمل من التبر في كل حمل ثلاثة قناطير فنفذت كلها وأعجزته النفقة فاقترض من أعيان التجار وكان في صحبته منهم بنو الكويك فاقرضوه خمسين ألف دينار وابتاع منهم القصر الذي أقطعه السلطان وأمضى له ذلك وبعث سراج الدين بن الكويك معه وزيره يرد له منه ما أقرضه من المال فهلك هنالك وأتبعه سراج الدين آخراً بابنه فمات هنالك وجاء ابنه فخر الدين أبو جعفر بالبعض وهلك منسا موسى قبل وفاته فلم يظفروا منه بشيء انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

أنجاد المجاهد ملك اليمن

قد تقدم لنا استبداد علي بن رسول فملك بعد مهلك سيده يوسف أتسز بن الكامل بن العادل بن أيوب ويلقب المسعود وكان علي بن رسول أستاذ داره ومستولياً على دولته فلما هلك سنة ست وعشرين وستمائة نصب ابن رسول ابنه موسى الأشرف لملكه وكفله قريباً واستولى ابن رسول وأورث ملكه باليمن لبنيه لهذا العهد وانتقل الأمر للمجاهد منهم علي بن داود والمؤيد بن يوسف المظفر بن عمر بن المنصور بن علي بن رسول سنة إحدى وعشرين وانتقض عليه جلال الدين ابن عمه الأشرف فظهر عليه المجاهد واعتقله ثم انتقض عليه عمه المنصور سنة ثلاث وعشرين وحبسه وأطلق من محبسه واعتقل عمه المنصور وكان عبد الله الظاهر بن المنصور قائماً بأمر أبيه ومنازلة المجاهد سنة أربع وعشرين فبعث بالصريخ إلى الناصر سليمان الترك بمصر وكان هو وقومه يعطونهم الطاعة ويبعثون إليهم الأتاوة من الأموال والهدايا وطرف اليمن وماعونه فجهزهم الناصر صحبة بيبرس الحاجب وطبنال من أعظم أمرائه فساروا إلى اليمن ولقيهم المجاهد بعدن فأصلحوا بين الفريقين على أن تكون ويستقر المجاهد في سلطانه باليمن ومالوا على كل من كان سبباً في الفتنة فقتلوهم ودوخوا اليمن وحملوا أهله على طاعة المجاهد ورجعوا إلى محلهم من الأبواب السلطانية والله تعالى ولي التوفيق.

ولاية أحمد ابن الملك الناصر على الكرك

ولما استفحل ملك السلطان الناصر واستمر وكثر ولده طمحت نفسه إلى ترشيح ولده لتقر عينه بملكهم فبعث كبيرهم أحمد إلى قلعة الكرك سنة ست وعشرين ورتب الأمراء المقيمين بوظائف السلطان فسار إلى الكرك وأقام بها أربع سنين ممتعاً بالملك والدولة وأبوه قرير العين بإمارته في حياته ثم استقدمه سنة ثلاثين وأقام فيه سنة الختان واحتفل في الصنيع به وختن معه من أبناء الأمراء والخواص جماعة انتقاهم ووقع اختياره عليهم ثم صرفه إلى مكان إمارته بالكرك فأقام بها إلى أن توفي الملك الناصر وكان ما نذكره والله تعالى أعلم.

وفاة مرداش بن جوبان شحنة بلاد الروم ومقتله

كان جوبان نائب مملكة التتر مستولياً على سلطانه أبي سعيد بن خربندا لصغره وكانت حاله مع أبيه خربندا قريباً من الاستيلاء فولى على مملكة بلاد الروم دمراش ثم وقعت الفتنة بينهم وبين ملك الشمال أزبك من بني دوشي خان على خراسان وسار جوبان من بغداد سنة تسع وعشرين لمدافعته كما يأتي في أخبارهم وترك عند السلطان أبي سعيد ببغداد ابنه خواجا دمشق فسعى به أعداؤه وأنهوا عنه قبائح من الأفعال لم يحتملها له فسطا به وقتله وبلغ الخبر إلى أبيه جوبان فانتقض وعاجله أبو سعيد بالمسير إلى خراسان فتفرقت عنه أصحابه وفر فأدرك بهراة وقتل وأذن السلطان أبو سعيد لأهله أن ينقلوه إلى التربة التي اختطها بالمدينة النبوية لدفنه فاحتملوه ولم يتوقفوا على إذن صاحب مصر

فمنعهم صاحب المدينة ودفنوه بالبقيع.

ولما بلغ الخبر بمقتله إلى ابنه دمراش في إمارته ببلاد الروم خشي على نفسه فهرب إلى مصر وترك مولاه أرتق مقيماً لأمر البلد وأنزله بسيواس ولما وصل إلى دمشق وركب النائب لتلقيه وسار معه إلى مصر فاقبل عليه السلطان وأحله محل الكرامة وكان معه سبعة من الأمراء ومن العسكر نحو ألف فارس فأكرمهم السلطان وأجرى عليهم الأرزاق وأقاموا عنده.

وجاءت على أثره رسل السلطان أبي سعيد وطلبه بذمة الصلح الذي عقده مع الملك الناصر وأوضحوا العلم السلطان من فساد طويته وطوية أبيه جوبان وسعيهم في الأرض بالفساد ما أوجب إعطاءه باليد وشرط السلطان عليهم إمضاء حكم الله تعالى في قراسنقر نائب حلب الذي كان فر سنة اثنتي عشرة مع أقوش الأفرم إلى خربندا وأغروه بملك الشام ولم يتم ذلك وأقاموا عند خربندا وولى أقوش الأفرم على همذان فمات بها سنة ست عشرة فولي صاحبه قراسنقر مكانه بهمذان فلما شرط عليهم السلطان قتله كما قتل دمراش أمضوا فيه حكم الله تعالى وقتلوه جزاء بما كان عليه من الفساد في الأرض والله متولي جزائهم ثم وصل على أثر ذلك ابن السلطان أبي سعيد ومعه جماعة من قومه في تأكيد الصلح والإصهار من السلطان فقوبلوا بالكرامة التي تليق بهم واتصلت المراسلة والمهاداة بين هذين السلطانين إلى أن توفيا والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وفاة مهنا بن عيسى أمير العرب بالشأم وأخبار قومه

هذا الحي من العرب يعرفون بآل فضل رحالة ما بين الشام والجزيرة وتربة نجد من أرض الحجاز يتقلبون بينها في الرحلتين وينتسبون في طيئ ومعهم أياء من زبيد وكلب وهذيل ومذحج أحلاف لهم ويناهضهم في الغلب والعدد آل مراد يزعمون أن فضلاً ومراداً أبناء ربيعة ويزعمون أيضاً أن فضلاً ينقسم ولده بين آل مهنا وآل علي وأن آل فضل كلهم بأرض حوران فغلبهم عليها آل مراد وأخرجوهم منها فنزلوا حمص ونواحيها وأقامت زبيد من أحلافهم بحوران فهم بها حتى الآن لا يفارقونها:

قالوا: ثم اتصل آل فضل بالدول السلطانية وولوهم على أحياء العرب وأقطعوهم على إصلاح السابلة بين الشام والعراق فاستظهروا برياستهم على آل مراد وغلبوهم على المشاتي فصار عامة رحلتهم في حدود الشام قريباً من التلول والقرى لا ينجعون إلى البرية إلا في الأقل وكانت معهم أحياء من أفاريق العرب مندرجون في لفيفهم وحلفهم من مذحج وعامر وزبيد كما كان آل فضل إلا أن أكثر من كان مع آل مراد من أولئك الأحياء وأوفرهم عدةً بنو حارثة بن سنبس إحدى شعوب طيئ هكذا ذكر لي الثقة عندي من رجالتهم وبنو حارثة هؤلاء متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها إلى العمران ورياسة آل فضل لهذا العهد لبني مهنا وينسبونه هكذا: مهنا بن مانع بن جديلة بن فضل بن بدر بن ربيعة بن علي بن مفرج بن بدر بن سالم بن جصة بن بدر بن سميع ويقفون عند سميع.

ويقول رعاؤهم إن سمعياً هذا هو الذي ولدته العباسة أخت الرشيد من جعفر بن يحيى البرمكي. وحاشى لله من هذه المقالة في الرشيد وأخته وفي انتساب كبراء العرب من طيء إلى موالي العجم من بني برمك وأنسابهم ثم إن الوجدان يحيل رياسة هؤلاء على هذا الحي إن لم يكونوا من نسبتهم وقد تقدم مثل ذلك في مقدمة الكتاب. وكان مبدأ رياستهم من أول دولة بني أيوب.

قال العماد الأصبهاني في كتاب «البرق السامي» نزل العادل بمرج دمشق ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة شيخ الأعراب في جموع كثيرة انتهى وكانت الرياسة قبلهم لعهد الفاطميين لبني جراح من طيء وكان كبيرهم مفرج بن دغفل ابن جراح وكان من إقطاعه الرملة وهو الذي قبض على أفتكين مولى بني بويه لما انهزم مع مولاه بختيار بالعراق وجاء به إلى المعز فأكرمه ورقاه في دولته.

ولم يزل شأن مفرج هكذا وتوفي سنة أربع وأربعمائة وكان من ولده حسان ومحمود وعلي وجران وولي حسان بعده وعظم صيته وكان بينه وبين خلفاء الفاطميين نفرة واستجاشة وهو الذي هدم الرملة وهزم قائدهم هاروق التركي وقتله وسبى نساءه وهو الذي مدحه التهامي.

وقد ذكر المسبحي وغيره من مؤرخي دولة العبيديين في قرابة حسان بن مفرج فضل بن ربيعة بن حازم بن جراح وأخاه بدر بن ربيعة ولعل فضلاً هذا هو جد آل فضل.

وقال ابن الأثير: وفضل بن ربيعة بن حازم كان آباؤه أصحاب البلقاء والبيت المقدس وكان فضل تارة مع الإفرنج وتارة مع خلفاء مصر ونكره لذلك طغركين أتابك دمشق وكافل بني تتش وطرده من الشام فنزل على صدقة بن مزيد وحالفه ووصله حين قدم من دمشق بتسعة آلاف دينار فلما خالف صدقة بن مزيد على السلطان محمد بن ملك شاه سنة خمسمائة وما بعدها ووقعت

بينهما الفتنة اجتمع فضل هذا وقرواش بن شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل وبعض أمراء التركمان كانوا أولياء صدقة فساروا في الطلائع بين يدي الحرب وهربوا إلى السلطان فأكرمهم وخلع عليهم وأنزل فضل بن ربيعة بدار صدقة بن مزيد ببغداد حتى إذا سار السلطان لقتال صدقة استأذنه في الخروج إلى البرية ليأخذ بحجزة صدقة فأذن له وعبر إلى الأنبار ولم يرجع للسلطان بعدها انتهى كلام ابن الأثير.

ويظهر من كلامه وكلام المسبحي أن فضلاً هذا وبدراً من آل جراح من غير شك ويظهر من سياقة هؤلاء نسبهم أن فضلا هذا هو جدهم لأنهم ينسبونه فضل بن علي بن مفرج وهو عند الآخرين فضل بن علي بن جراح فلعل هؤلاء نسبوا ربيعة إلى مفرج الذي هو كبير بني الجراح لطول العهد وقلة المحافظة على مثل هذا من البادية الغفل.

وأما نسبة هذا الحي في طيئ فبعضهم يقول إن الرياسة في طيئ كانت لأياس بن قبيصة من بني سنبس بن عمر وبن الغوث بن طيئ وإياس هو الذي ملكه كسرى على الحيرة بعد آل المنذر عندما قتل النعمان بن المنذر وهو الذي صالح خالد بن الوليد على الحيرة ولم تزل الرياسة على طيئ في بني قبيصة هؤلاء صدراً من دولة الإسلام فلعل آل فضل هؤلاء وآل الجراح من أعقابهم وإن كان انقرض أعقابهم فهم من أقرب الحي إليه لأن الرياسة في الأحياء والشعوب إنما تتصل في أهل العصبية والنسب كما مر أول الكتاب.

وقال ابن حزم عند ما ذكر أنساب طيئ: أنهم لما خرجوا من اليمن نزلوا أجا وسلمى وأوطنوهما وما بينهما ونزل بنو أسد ما بينهما وبين العراق وفضل كثير منهم وهم بنو خارجة بن سعد بن عبادة من طيئ ويقال لهم جديلة نسبة إلى أمهم بنت تيم اللّه وحبيش والأسعد إخوتهم رحلوا عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بحلب وحاضر طيئ وأوطنوا تلك البلاد إلاّ بني رمان بن جندب بن خارجة بن سعد فإنهم أقاموا بالجبلين فكان يقال لأهل الجبلين: الجبليون ولأهل حلب وحاضر طيئ من بني خارجة السهليون انتهى.

فلعل هذه أحياء الذين بالشام من بني الجراح وآل فضل من بني خارجة هؤلاء الذين ذكر ابن حزم أنهم انتقلوا إلى حلب وحاضر طيئ لأن هذا الموطن أقرب إلى مواطنهم لهذا العهد من مواطن بني الجراح بفلسطين من جبل أجا وسلمى اللذين هما موطن الآخرين واللّه أعلم أي ذلك يصح من أنسابهم.

ولنرجع الآن إلى سرد الخبر عن رياسة آل فضل أهل هذا البيت منذ دولة بني أيوب فنقول:

كان الأمير منهم لعهد بني أيوب عيسى بن محمد بن ربيعة أيام العادل كما قلناه ونقلناه عن العماد الأصبهاني الكاتب ثم كان بعده حسام الدين مانع بن خدينة بن غصينة بن فضل وتوفي سنة ثلاثين وستمائة وولي عليهم بعده ابنه مهنا.

ولما ارتجع قطز ثالث ملوك الترك بمصر وملك الشام من يد التتر وهزم عسكرهم بعين جالوت أقطع سلمية لمهنا بن مانع وانتزعها من عمل المنصور بن المظفر بن شاهنشاه صاحب حماة ولم أقف على تاريخ وفاة مهنا ثم ولي الظاهر على أحياء العرب بالشام عندما استفحل أمر الترك وسار إلى دمشق لتشييع الخليفة الحاكم عم المستعصم لبغداد فولى على العرب عيسى بن مهنا بن مانع ووفر له الإقطاعات على حفظ السابلة وحبس ابن عمه زامل بن علي بن ربيعة من آل علي لإعناته وإعراضه ولم يزل أميراً على أحياء العرب وصلحوا في أيامه لأنه خالف أباه في الشدة عليهم وهرب إليه سنقر الأشقر سنة تسع وتسعين وكاتبوا أبغا واستحثوه لملك الشام.

وتوفي عيسى بن مهنا سنة أربع وثمانين فولى المنصور قلاوون بعده ابنه مهنا ثم سار الأشرف بن قلاوون إلى الشام ونزل حمص ووفد عليه مهنا بن عيسى في جماعة من قومه فقبض عليه وعلى ابنه موسى وأخويه محمد وفضل ابني عيسى بن مهنا وبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها حتى أفرج عنهم العادل كتبغا عندما جلس على التخت سنة أربع وتسعين ورجع إلى إمارته ثم كان له في أيام الناصر نفرة واستجاشة وميل إلى ملوك التتر بالعراق ولم يحضر شيئاً من وقائع غازان ولما انتقض سنقر وأقوش الأفرم وأصحابهما سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لحقوا به وساروا من عنده إلى خربندا واستوحش هو من السلطان وأقام في أحيائه منقبضاً عن الوفادة.

ووفد أخوه فضل سنة اثنتي عشرة فرعى له حق وفادته وولاه على العرب مكان أخيه مهنا وبقي مهنا مشرداً ثم لحق سنة ست عشرة بخربندا ملك التتر فأكرمه وأقطعه بالعراق وهلك خربندا في تلك السنة فرجع إلى أحيائه وأوفدا ابنيه أحمد وموسى وأخاه محمد بن عيسى مستعتبين للناصر ومتطارحين عليه فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر الأبلق وشملهم بالإحسان وأعتب مهنا ورده على إمارته وإقطاعه وذلك سنة سبع عشرة وحج هذه السنة ابنه عيسى وأخوه محمد وجماعة من آل فضل اثنا عشر ألف راحلة ثم رجع مهنا إلى ديدنه في ممالأة التتر والإجلاب على الشام

واتصل ذلك منه فنقم السلطان عليه وسخطه قومه أجمع وكتب إلى نواب الشام سنة عشرين بعد مرجعه من الحج فطرد آل فضل عن البلاد وأدال منهم آل علي عديدة نسبهم.

وولى منهم على أحياء العرب محمد بن أبي بكر وصرف إقطاع مهنا وولده إلى محمد وولده فأقام مهنا على ذلك مدة ثم وفد سنة إحدى وثلاثين مع الأفضل بن المؤيد صاحب حماة متوسلاً به ومتطارحاً على السلطان فأقبل عليه ورد عليه إقطاعه وإمارته.

وذكر لي بعض أكابر الأمراء بمصر ممن أدرك وفادته أو حدث عنها: أنه تجافى في هذه الوفادة عن قبول شيء من السلطان حتى أنه ساق من النياق المحلوبة واستقاها وأنه لم يغش باب أحد من أرباب الدولة ولا سألهم شيئاً من حاجته.

ثم رجع إلى أحيائه وتوفي سنة أربع وثلاثين فولي ابنه مظفر الدين موسى وتوفي سنة اثنتين وأربعين عقب مهلك الناصر وولي مكانه أخوه سليمان ثم هلك سليمان سنة ثلاث وأربعين فولي مكانه شرف الدين عيسى ابن عمه فضل بن عيسى ثم توفي سنة أربع وأربعين بالقدس ودفن عند قبر خالد بن الوليد رضي اللّه عنه وولي مكانه أخوه سيف بن فضل.

ثم عزله السلطان بمصر الكامل بن الناصر سنة ست وأربعين، وولي مكانه مهنا بن عيسى ثم جمع سيف بن مهنا ولقيه فياض بن مهنا فانهزم سيف ثم ولى السلطان حسين بن الناصر في دولته الأولى وهو في كفالة بيقاروس أحمد بن مهنا فسكنت الفتنة بينهم ثم توفي سنة تسع وأربعين فولي مكانه أخوه فياض وهلك سنة اثنتين وستين فولي مكانه أخوه خيار بن مهنا ولاه حسين بن الناصر في دولته الثانية ثم انتقض سنة خمس وستين وأقام سنين بالقفر ضاحياً إلى أن شفع نائب حماة فأعيد إلى إمارته.

ثم انتقض سنة سبعين فولى السلطان الأشرف مكانه ابن عمه زامل بن موسى بن عيسى وجاء إلى نواحي حلب واجتمع إليه بنو كلاب وغيرهم وعاثوا في البلاد وعلى حلب يومئذ قشتمر المنصوري فبرز إليهم وانتهى إلى مخيمهم واستاق نعمهم وتخطى إلى الخيام فاستماتوا دونها وهزموا عساكره وقتل قشتمر وابنه في المعركة وتولى ذلك زامل بيده وذهب إلى القفر منتقضاً فولى مكانه معيقيل بن فضل بن عيسى ثم بعث معيقيل صاحبه سنة إحدى وسبعين يستأمن لخيار فأمنه ثم وفد خيار بن مهنا سنة خمس وسبعين فرضي عنه السلطان فأعاده إلى إمارته ثم توفي سنة سبع وسبعين فولي أخوه قارة إلى أن توفي سنة إحدى وثمانين فولي مكانه معيقيل بن فضل بن عيسى وزامل بن موسى بن مهنا شريكين في إمارتهما ثم عزلا لسنة من ولايتهما وولي بصير بن جبار بن مهنا واسمه محمد وهو لهذا العهد أمير على آل فضل وجميع أحياء طيئ واللّه تعالى أعلم.

وفاة أبي سعيد ملك العراق وانقراض أمر بني هلاكو

ثم توفي أبو سعيد ملك العراق من التتر ابن خربندا بن بغو بن أبغا بن هلاكو بن طولي خان بن جنكزخان سنة ست وثلاثين وسبعمائة لعشرين سنة من ملكه ولم يعقب فانقرض بموته ملك بني هلاكو وصار الأمر بالعراق لسواهم وافترق ملك التتر في سائر ممالكهم كما نذكر في أخبارهم. ولما استبد ببغداد الشيخ حسن من أسباطهم كثر عليه المنازعون فبعث رسله إلى الناصر قبل وفاته يستنجده على أن يسلم له بغداد ويعطي الرهن في العساكر حتى يقضي بها في أعدائه فأجابه الناصر إلى ذلك ثم توفي قريباً فلم يتم والأمر لله وحده.

وصول هدية ملك المغرب الأقصى مع رسله وكريمته صحبة الحاج

كان ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد استفحل لهذه العصور وصار للسلطان أبي الحسن علي بن السلطان أبي سعيد عثمان بن السلطان أبي يوسف بن يعقوب بن عبد الحق جد ملوكهم وأسف إلى ملك جيرانهم من الدول فزحف إلى المغرب الأوسط وهو في ملكة بني عبد الواد أعداء قومه من زناتة وملكهم أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى بن أبي سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان جد ملوكهم أيضاً وكرسيه تلمسان سبعة وعشرين شهراً ونصب عليها المجانيق وأدار بالأسوار سياجاً لمنع وصول الميرة والأقوات إليها وتقرى أعمالها بلداً بلداً فملك جميعها ثم افتتحها عنوة آخر رمضان سنة سبع وثلاثين ففض جموعها وقتل سلطانها عند باب قصره كما نذكره في أخبارهم.

ثم كتب للملك الناصر صاحب مصر يخبره بفتحها وزوال العائق عن وفادة الحاج وأنه ناظر في ذلك بما يسهل سبيلهم ويزيل عللهم وكانت كريمة من كرائم أبيه السلطان أبي سعيد ومن أهل فراشه قد اقتضت منه الوعد بالحج عندما ملك تلمسان فلما فتحها وأذهب عدوه منها جهز تلك المرأة للحج بما يناسب قرابتها

منه وجهز معها للملك الناصر صاحب مصر هدية فخمة مشتملة على خمسمائة من الجياد المغربيات بعدتها وعدة فرسانها من السروج واللجم والسيوف وطرف المغرب وماعونه من شتى أصنافه ومن ثياب الحرير والصوف والكتان وصنائع الجلد حتى ليزعموا أنه كان فيها من أواني الخزف وأصناف الدر والياقوت وما يشبههما في سبيل التودد.

وعرض أحوال المغرب على سلطان المشرق ولعظم قدر هذه الوافدة عند الناصر أوفد معها من عظماء قومه ووزرائه وأهل مجلسه فوفدوا على الناصر سنة ثمان وثلاثين وأحلهم بأشرف محل من التكرمة وبعث من اصطبلاته ثلاثين خطلاً من البغال يحملون الهدية من بحر النيل سوى ما تبعها من البخاتي والجمال وجلس لهم في يوم مشهود ودخلوا عليه وعرضوا الهدية فعم بها أهل دولته إحساناً في ذلك المجلس واستأثر منها على ما زعموا بالدر والياقوت فقط ثم فرقهم في منازله وأنزلهم دار كرامته وقد هيئت بالفرش والماعون ووفر لهم الجرايات واستكثر لهم من الأزودة.

وبعث أمراء في خدمتهم إلى الحجاز حتى قضوا فرضهم في تلك السنة وانقلبوا إلى سلطانهم فجهز الناصر معهم هدية إلى ملك المغرب تشتمل على ثياب الحرير المصنوعة بالإسكندرية وعين منها الحمل المتعارف في كل سنة الخزانة السلطان وقيمته لذلك العهد خمسون ألف دينار وعلى خيمة من خيم السلطان المصنوعة بالشام فيها أمثال البيوت والقباب والكفات مرساة أطرافها في الأرض بأوتاد الحديد والخشب كأنها قباب مائلة وعلى خيمة مؤزر باطنها من ثياب الحرير العراقية وظاهرها من ثياب القطن الصرافية مستجادة الصنعة بين الحدل والأوتاد أحسن ما يراه من البيوت وعلى صوان من الحرير مربع الشكل يقام بالحدل الحافظ ظله من الشمس وعلى عشرة من الجياد المقربات الملوكية بسروج ولجم ملوكية مصنوعة من الذهب والفضة مرصعة باللآلئ والفصوص وبعث مع تلك الجياد خدماً يقومون بنبائها المتعارف فيها ووصلت الهدية إلى سلطان المغرب فوقعت منه أحسن المواقع وأعاد الكتب والرسل بالشكر واستحكمت المودة بين هذين السلطانين واتصلت المهاداة إلى أن مضيا لسبيلهما واللّه تعالى ولي التوفيق.

وفاة الخليفة أبي الربيع وولاية ابنه

قد ذكرنا أيام الظاهر وأنه أقام خليفة بمصر من ولد الراشد وصل يومئذ من بغداد واسمه أحمد بن محمد وذكرنا نسبه هنالك إلى الراشد وأنه بويع له بالخلافة سنة ستين وستمائة ولقبه الحاكم فلم يزل في خلافته إلى أن توفي سنة إحدى وسبعمائة وقد عهد لابنه سليمان فبايع له أهل دولة الناصر الكافلون لها ولقبوه المستكفي فبقي خليفة سائر أيام الناصر ثم تنكر له السلطان سنة ست وثلاثين لشيء نمي له عن بنيه فأسكنه بالقلعة ومنعه من لقاء الناس فبقي حولاً كذلك ثم ترك سبيله ونزل إلى بيته ثم كثرت السعاية في بنيه فغربه سنة ثمان وثلاثين إلى قوص هو وبنيه وسائر أقاربه وأقام هنالك إلى أن هلك سنة أربعين قبل مهلك الناصر وقد عهد بالخلافة لابنه أحمد ولقبه الحاكم فلم يمض الناصر عهده في ذلك لأن أكثر السعاية المشار إليها كانت فيه فنصب للخلافة بعد المستكفي ابن عمه إبراهيم بن محمد ولقبه الواثق وهلك لأشهر قريبة فاتفق الأمراء بعده على إمضاء عهد المستكفي في ابنه أحمد فبايعوه سنة إحدى وأربعين وأقام في الخلافة إلى سنة ثلاث وخمسين فتوفي وولي أخوه أبو بكر ولقب المعتضد ثم هلك سنة ثلاث وستين لعشرة أشهر من خلافته ونصب بعده ابنه محمد ولقب المتوكل ونورد من أخباره في أماكنها ما يحضرنا ذكره واللّه سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

نكبة تنكز ومقتله

كان تنكز مولى من موالي لاشين اصطفاه الناصر وقربه وشهد معه وقائع التتر وسار معه إلى الكرك وأقام في خدمته مدة خلعه ولما رجع إلى كرسيه ومهد أمور ملكه ورتب الولاية لمن يرضاه من أمرائه بعث تنكز إلى الشام وجعله نائباً بدمشق ومشارفاً لسائر بلاد الروم ففتح ملطية ودوخ بلاد الأرمن وكان يتردد بالوفادة على السلطان يشاوره وربما استدعاه للمفاوضة في المهمات واستفحل في دفاع التتر وكيادهم ولما توفي أبو سعيد وانقرض ملك بني هلاكو وافترق أمر بغداد وتورين وكانا معاً يجاورانه ويستنجدانه وسخطه بعضهم فراسل السلطان بغشه وادهانه في طاعته وممالأة أعدائه وشرع السلطان في استكشاف حاله وكان قد عقد له على بنته فبعث داوداره بإجار يستقدمه للأعراس بها وكان عدواً له للمنافسة والغيرة فأشار على تنكز بالمقام وتخليه عن السلطان وغشه في النصيحة وحذر السلطان منه فبعث الملك الناصر إلى طشتمر نائب صفد أن يتوجه إلى دمشق ويقبض عليه فقبض عليه سنة أربعين لثمان وعشرين سنة لولايته بدمشق وبعث الملك الناصر مولاه لشمك إلى دمشق في العساكر فأحاط على موجوده وكان شيئاً لا يعبر عنه من أصناف الممتلكات وجاء به مقيداً فاعتقل بالإسكندرية ثم قتل في محبسه

والله تعالى أعلم.

وفاة الملك الناصر وابنه أنوك قبله وولاية ابنه أبي بكر ثم كجك

ثم توفي الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون أمجد ما كان ملكاً وأعظم استبداداً توفي على فراشه في ذي الحجة آخر إحدى وأربعين وسبعمائة بعد أن توفي قبله بقليل ابنه أنوك فاحتسبه وكانت وفاته لثمان وأربعين سنة من ولايته الأولى في كفالة طنبغا ولاثنتين وثلاثين من حين استبداده بأمره بعد بيبرس وصفا الملك له وولي النيابة في هذه ثلاثة من أمرائه: بيبرس الدوادار المؤرخ ثم بكتمر الجوكندار ثم أرغون الدوادار ولم يول أحد النيابة بعده وبقيت الوظيفة عطلاً آخر أيامه.

وأما دواداريته فأيدمر ثم سلار ثم الحلبي ثم يوسف بن الأسعد ثم بغا ثم طاجارو كتب عنه شرف الدين بن فضل الله ثم علاء الدين بن الأمير ثم محيي الدين بن فضل الله ثم ابنه شهاب الدين ثم ابنه الآخر علاء الدين وولي القضاة في دولته تقي الدين بن دقيق العيد ثم بدر الدين بن جماعة.

وإنما ذكرت هذه الوظائف وإن كان ذلك ليس من شرط الكتاب لعظم دولة الناصر وطول أمدها واستفحال دولة الترك عندها وقدمت الكتاب على القضاة وإن كانوا أحق بالتقديم لأن الكتاب أمسّ بالدولة فإنهم من أعوان الملك.

ولما اشتد المرض بالسلطان وكان قوصون أحظى عظيم من أمرائه فبادر القصر في مماليكه متسلحين وكان بشتك يضاهيه فارتاب وسلح أصحابه وبدا بينهما التنافس ودس بشتك الشكوى إلى السلطان فاستدعاهما وأصلح بينهما وأراد أن يعهد بالملك إلى قوصون فامتنع فعهد لابنه أبي بكر ومات فمال من عماله بشتك إلى ولاية أحمد صاحب الكرك وأبى قوصون إلا الوفاء بعهد السلطان.

ثم رجع إليه بشتك بعد مراوضة فبويع أبو بكر ولقب المنصور وقام بأمر الدولة قوصون وردفه قطلوبغا الفخري فولوا على نيابة السلطان طقرمرد وبعثوا على حلب طشتمر وعلى حمص أخضر عوضاً عن طغراي وأقروا كتبغا الصالحي على دمشق ثم استوحش بشتك من استبداد قوصون وقطلوبغا دونه فطلب نيابة دمشق وكان يعجب بها من يوم دخلها للحوطة على تنكز فاستعفوه فلما جاء للوداع قبض عليه قطلوبغا الفخري وبعث به إلى الإسكندرية فاعتقل بها.

ثم أقبل السلطان أبو بكر على لذاته ونزع عن الملك وصار يمشي في سكك المدينة في الليل متنكراً مخالطاً للسوقة فنكر ذلك الأمراء وخلعه قوصون وقطلوبغا لسبعة وخمسين يوماً من بيعته وبعثوا به إلى قوص فحبس بها وولوا أخاه كجك ولقبوه الأشرف وعزلوا طقرمرد عن النيابة وقام بها قوصون وبعثوا طقرمرد نائباً على حماة وأدالوا به من الأفضل بن المؤيد فكان آخر من وليها من بني المظفر وقبضوا على طاجار الدويدار وبعثوا به إلى الإسكندرية فغرق في البحر وبعثوا بقتل بشتك في محبسه بالإسكندرية والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مقتل قوصون ودولة أحمد بن الملك الناصر

لما بلغ الخبر إلى الأمراء بالشام باستبداد قوصون على الدولة غصوا من مكانه واعتزموا على البيعة لأحمد بن الملك الناصر وكان يومئذ بالكرك مقيماً منذ ولاه أبوه إمارتها كما قدمناه فكاتبه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب واستدعاه إلى الملك وبلغ الخبر إلى مصر فخرج قطلوبغا في العساكر لحصار الكرك وبعثوا إلى طنبغا الصالحي نائب دمشق فسار في العساكر إلى حلب للقبض على طشتمر نائب حمص وأخضر وكان قطلوبغا الفخري قد استوحش من صاحبه قوصون وغص باستبداده عليه فلما فصل بالجند من مصر بعث بيعته إلى أحمد بن الملك الناصر بالكرك وسار إلى الشام فأقام دعوته في دمشق ودعا إليها طقرمرد نائب حماة فأجابه وقدم عليه وانتهى الخبر إلى طنبغا نائب دمشق وهو يحاصر حلب فافرج عنها ودعاه قطلوبغا إلى بيعة أحمد فأبى فانتقض عليه أصحابه وسار إلى مصر واستولى قطلوبغا الفخري على الشام أجمع بدعوة أحمد وبعث إلى الأمراء بمصر فأجابوا إليها.

واجتمع أيدغمش وأقسنقر السلاري وغازي ومن تبعهم من الأمراء على البيعة لأحمد واستراب بهم قوصون كافل المملكة وهمّ بالقبض عليهم وشاور طنبغا اليحياوي من عنده من أصحابه في ذلك فغشوه وخذلوه وركب القوم ليلاً وكان أيدغمش عنده بالاصطبل وهو أمير الماصورية وهمّ قوصون بالركوب فخذله وثنى عزمه ثم ركب معهم واتصلت الهيعة ونادى في الغوغاء بنهب بيوت قوصون فنهبوها وخربوها وخربوا الحمامات التي بناها بالقرافة تحت القلعة ونهب شيخها شمس الدين الأصفهاني فسلبوه ثيابه وانطلقت أيدي الغوغاء في البلد ولحقت الناس منهم مضرات في بيوتهم واقتحموا بيت حسام الدين الغوري قاضي

الحنفية فنهبوه وسبوا عياله وقادهم إليه بعض من كان يحنق عليه من الخصوم فجرت عليه معرة من ذلك.

ثم اقتحم أيدغمش وأصحابه القلعة وتقبضوا على قوصون وبعثوا به إلى الإسكندرية فمات في محبسه وكان قوصون قد أخرج جماعة من الأمراء للقاء طنبغا الصالحي فسار قراسنقر السلاري في أثرهم وتقبض عليهم وعلى الصالحي وبعث بهم جميعاً إلى الإسكندرية فيما بعد سنة خمس وأربعين وبعث لأحمد بن الملك الناصر وطير إليه بالخبر وتقبض على جماعة من الأمراء واعتقلهم ثم قدم السلطان أحمد من الكرك في رمضان سنة اثنتين وأربعين ومعه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب وقطلوبغا الفخر فولى طشتمر نائباً بمصر وقطلوبغا الفخري بعثه إلى دمشق نائباً ثم قبض على أخضر لشهر أو نحوه وقبض على أيدغمش واقسنقر السلاري ثم ولى أيدغمش على حلب وبلغ الخبر إلى قطلوبغا الفخري قبل وصوله إلى دمشق فعدل إلى حلب واتبعته العساكر فلم يدركوه وتقبض على أيدغمش بحلب وبعث به إلى مصر فاعتقل مع طشتمر وارتاب الأمراء بأنفسهم واستوحش السلطان منهم انتهى والله أعلم.

مسير السلطان أحمد إلى الكرك واتفاق الأمراء على خلعه والبيعة لأخيه الصالح

ولما استوحش الأمراء من السلطان وارتاب بهم ارتحل إلى الكرك لثلاثة أشهر من بيعته واحتمل معه طشتمر وأيدغمش معتقلين واستصحب الخليفة الحاكم واستوحش نائب صفد بيبرس الأحمدي وسار إلى دمشق وهي يومئذ فوضى فتلقاه العسكر وأنزلوه وبعث السلطان في القبض عليه فأبى من إعطاء يده وقال: إنما الطاعة لسلطان مصر وأما صاحب الكرك فلا وطالت غيبة السلطان أحمد بالكرك واضطرب الشام فبعث إليه الأمراء بمصر في الرجوع إلى دار ملكه فامتنع وقال: هذه مملكتي أنزل من بلادها حيث شئت وعمد إلى طشتمر وأيدغمش الفخري فقتلهما فاجتمع الأمراء بمصر وكبيرهم بيبرس العلائي وأرغون الكاملي وخلعوه وبايعوا لأخيه إسماعيل في محرم سنة ثلاث وأربعين ولقبوه الصالح فولى أقسنقر السلاري ونقل أيدغمش الناصري من نيابة حلب إلى نيابة دمشق وولى مكانه بحلب طقرمرد ثم عزل أيدغمش من دمشق ونقل إليها طقرمرد وولى بحلب طنبغا المارداني ثم هلك المارداني فولى مكانه طنبغا اليحياوي واستقامت أموره والله تعالى ولي التوفيق.

ثورة رمضان بن الناصر ومقتله وحصار الكرك ومقتل السلطان أحمد

ثم إن بعض المماليك داخل رمضان بن الملك الناصر في الثورة بأخيه وواعدوه قبة النصر فركب إليهم وأخلفوه فوقف في مماليكه ساعة يهتفون بدعوته ثم استمر هارباً إلى الكرك واتبعه العسكر مجدين السير في الطريق وجاؤوا به فقتل بمصر وارتاب السلطان بالكثير من الأمراء وتقبض على نائبه أقسنقر السلاري وبعث به إلى الإسكندرية فقتل هنالك وولى مكانه إنجاح الملك ثم سرح العساكر سنة أربع وأربعين لحصار الكرك مترادفة ونزع بعض العساكر عن السلطان أحمد من الكرك فلحقوا بمصر وكان آخر من سار من الأمراء لحصار الكرك قماري ومساري سنة خمس وأربعين فأخذوا بمخنقه ثم اقتحموا عليه وملكوه وقتلوه فكان لبث بالملك في مصر ثلاثة أشهر وأياماً وانتقل إلى الكرك في محرم سنة ثلاث وأربعين إلى أن حوصر ومثل به وتوفي في أيامه طنبغا المارداني نائب حلب فولي مكانه طنبغا اليحياوي وسيف الدين طراي الجاشنكير نائب طرابلس فولي مكانه أقسنقر الناصري والله تعالى أعلم.

وفاة الصالح بن الناصر وولاية أخيه الكامل

ثم توفي الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر حتف أنفه سنة ست وأربعين لثلاث سنين وثلاثة أشهر من ولايته وبويع بعده أخوه زين الدين شعبان ولقب الكامل وقام بأمره أرغوالعلاوي وولي نيابة مصر وعرض إنجاح الملك إلى صفد ثم رده من طريقه معتقلاً إلى دمشق وبعث إلى القماري الكبير فبعثه إلى حبس الإسكندرية واستدعى طقرمرد نائب دمشق وكجك الأشرف المخلوع بن الناصر الذي ولاه قوصون وهلك إنجاح الملك الجوكندار في محبسه بدمشق انتهى والله أعلم.

مقتل الكامل وبيعة أخيه المظفر حاجي

كان السلطان الكامل قد أرهف حده في الإستبداد على أهل دولته فراراً مما يتوهم فيهم من الحجر عليه فتراسل الأمراء بمصر والشام وأجمعوا الإدالة منهم وانتقض طنبغا اليحياوي ومن معه بدمشق سنة سبع وأربعين وبرز في العساكر يريد مصر وبعث الكامل منجو اليوسفي يستطلع أخبارهم فحبسه اليحياوي واتصل

الخبر بالكامل فجرد العساكر إلى الشام واعتقل حاجي وأمير حسين بالقلعة واجتمع الأمراء بمصر للثورة وركبوا إلى قبة النصر مع أيدمر الحجازي وأقسنقر الناصري وأرغون شاه فركب إليهم الكامل في مواليه ومعه أرغون العلاوي نائبه فكانت بينهما جولة هلك فيها أرغون العلاوي.

ورجع الكامل إلى القلعة منهزماً ودخل من باب السر مختفياً وقصد محبس أخويه ليقتلهما فحال الخدام دونهما وغلقوا الأبواب وجمع الذخيرة ليحملها فعاجلوه عنها ودخلوا القلعة وقصدوا حاجي بن الناصر فأخرجوه من معتقله وجاؤوا به فبايعوه ولقبوه المظفر وافتقدوا الكامل وتهددوا جواريه بالقتل فدلوا عليه واعتقل مكان حاجي بالدهشة وقتل في اليوم الثاني وأطلق حسين وقام بأمر المظفر حاجي أرغوشاه الحجازي وولوا طقتمر الأحمدي نائباً بحلب والصلاحي نائباً بحمص وحبس جميع موالي الكامل وأخرج صندوق من بيت الكامل قيل: إن فيه السحر فأحرق بمحضر الأمراء ونزع المظفر حاجي إلى الاستبداد كما نزع أخوه فقبض على الحجازي والناصري وقتلهما لأربعين يوماً من ولايته وعلى أرغون شاه وبعثه نائباً إلى صفد.

وجعل مكان طقتمر الأحمدي في حلب تدمر البدري وولى على نيابته الحاج أرطاي وأرهف حده في الاستبداد وارتاب الأمراء بمصر والشام وانتقض اليحياوي بدمشق سنة ثمان وأربعين وداخله نواب الشام في الخلاف ووصل الخبر إلى مصر فاجتمع الأمراء وتواعدوا للوثوب ونمي الخبر إلى المظفر فأركب مواليه من جوف الليل وطافوا بالقلعة وتداعى الأمراء إلى الركوب واستدعاهم من الغد إلى القصر وقبض على كل من اتهمه منهم بالخلاف وهرب بعضهم فأدرك بساحة البلد واعتقلوا جميعاً وقتلوا من تلك الليلة وبعث بعضهم إلى الشام فقتلوا بالطريق وولى من الغد مكانهم خمسة عشر أميراً ووصل الخبر إلى دمشق فلاذ اليحياوي بالمغالطة يخادع بها وقبض على جماعة من الأمراء وكان السلطان المظفر قد بعث الأمير الجبقا من خاصته إلى الشام عندما بلغه انتقاض طنبغا اليحياوي يستطلع أخباره فحمل الناس على طاعة المظفر وأغراهم باليحياوي حتى قتلوه وبعثوا برأسه إلى مصر وسكنت الفتنة واستوسق الملك للمظفر والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل المظفر حاجي بن الناصر وبيعة أخيه حسن الناصر ودولته الأولى

قد كنا قدمنا أن السلطان بعث جبقا إلى الشام حتى مهده ومحا أثر الخلاف منه ورجع إلى السلطان سنة ثمان وأربعين وقد استوسق أمره فوجد الأمراء مستوحشين من السلطان ومنكرين عليه اللعب بالحمام فتنصح له بذلك يريد إقلاعه عنه فسخط ذلك منه وأمر بالحمام فذبحت كلها وقال لجبقا: أنا أذبح خياركم كما ذبحت هذه. فاستوحش جبقا وغدا على الأمراء والنائب بيقاروس وثاروا بالسلطان وخرجوا إلى قبة النصر وركب المظفر في مواليه والأمراء الذين معه قد داخلوا الآخرين في الثورة ورأيهم واحد في خلعه فبعث إليهم الأمير شيخو يتلطف لهم فأبوا إلا خلعه فجاءهم بالخبر.

ثم رجع إليهم وزحف معهم ولحق بهم الأمراء الذين مع المظفر عندما تورط في اللقاء وحمل عليه بيقاروس فأسلمه أصحابه وأمسكه باليد فذبحه في تربة أمه خارج القلعة ودفن هناك ودخلوا القلعة في رمضان من السنة وأقاموا عامة يومهم يتشاورون فيمن يولونه حتى همَّ أكثر الموالي بالثورة والركوب إلى قبة النصر فحينئذ بايعوا حسن بن الملك الناصر ولقبوه الناصر بلقب أبيه فوكل بأخيه حسين ومواليه لنفسه ونقل المال الذي بالحوش فوضعه بالخزانة وقام بالدولة ستة من الأمراء وهم شيخوا وطاز والجبقا وأحمد شادي والشرنخاناه وأرغون الإسماعيلي والمستبد عليهم جميعاً بيقاروس ويعرف بالقاسمي فقتل الحجازي وأقسنقر القائمين بدولة المظفر بمحبسهما بالقلعة وولي بيقاروس نائباً بمصر فكان أرقطاي وأرغون شاه نائباً بحلب مكان تدمر البدري ثم نقله إلى دمشق منذ مقتل اليحياوي وولى مكانه بحلب أياس الناصر ثم تقبض بيقاروس على رفيقه أحمد شادي الشرنخاناه وغربه إلى صفد وأبعد الجبقا من رفقته وبعثه نائباً على طرابلس وبعث أرغون الإسماعيلي منهم نائباً على حلب.

وفي هذه السنة وقعت الفتنة بينه وبين مهنا بن عيسى ولقيه فهزمه ووفد أحمد أخوه على السلطان فولاه إمارة العرب وهدأت الفتنة بينهم ثم هلك سنة تسع وأربعين بعدها وولى أخوه فياض كما مر في أخبارهم والله تعالى أعلم.

مقتل أرغون شاه نائب دمشق

كان خبر هذه الواقعة الغريبة أن الجبقا بعثوه نائباً على طرابلس وسار صحبة أياس الحاجب نائباً على حلب سنة خمسين وانتهوا إلى دمشق ونما إلى الجبقا عن أرغون شاه أنه تعرض لبعض حرمه بصنيع جمع فيه نسوان أهل الدولة بدمشق فكتب إليه ليلاً وطرقه في بيته فلما خرج إليه قبض عليه وذبحه في ربيع وصنع

مرسوماً سلطانياً دافع به الناس والأمراء واستصفى أمواله ولحق بطرابلس وجاء الأمر من مصر باتباعه وإنكار المرسوم الذي أظهروه فزحفت العساكر من دمشق وقبضوا على الجبقا وأياس الحاجب بطربلس وجاؤوا بهما إلى مصر فقتلا وولي الشمس الناصري نيابة دمشق مع أرغون شاه وصلب أرغون الكافلي وذلك في جمادى سنة خمسين وأصل أرغوشاه من بلاد الصين جلب إلى السلطان أبي سعيد ملك التتر ببغداد فأعطاه للأمير خواجا نائب جوبان وأهداه خواجا للملك الناصر فحظي عنده وقدمه رأس نوبة وزوجه بنت عبد الواحد ثم ولاه الكامل أستاذ دار ثم عظمت مرتبته أيام المظفر وجعل نائباً في صفد ثم حلب.

ولما حبس طنبغا اليحياوي على دمشق بسعاية الجبقا كما مر ولي أرغون شاه بدمشق والله سبحانه وتعالى أعلم.

نكبة بيقاروس

ثم إن السلطان حسن شرع في الاستبداد وقبض على منجك اليوسفي أستاذ داره وعلى السلحدار واعتقلهما من غير مشورة بيقاروس وأصحابه وكان لمنجك اختصاص ببيقاروس وأخوه معه فارتاب واستأذن السلطان في الحج هو وطاز فأذن لهما ودس إلى طاز بالقبض على بيقاروس وسارا لشأنهما فلما نزلا بالينبع قبض طاز على بيقاروس فخرج ورغب إليه في أن يتركه يحج مقيداً فتركه فلما قضى نسكه ورجعوا حبسه طاز بالكرك بأمر السلطان وأفرج عنه بعد ذلك وولي نيابة حلب وانتقض بها كما نذكر بعد إن شاء الله تعالى وبلغ خبر اعتقاله إلى أحمد شادي الشرنخاناه بصفد فانتقض وجهز السلطان إليه العساكر فقبض عليه وجيء به إلى مصر فاعتقل بالإسكندرية وقام بالدولة مغلطاي من أمرائها والله تعالى أعلم.

واقعة الظاهر ملك اليمن بمكة واعتقاله ثم إطلاقه

كان ملك اليمن وهو المجاهد علي بن داود المؤيد قد جاء إلى مكة حاجاً سنة إحدى وخمسين وهي السنة التي حج فيها طاز وشاع في الناس عنه أنه يروم كسوة الكعبة فتنكر وفد المصريين لوفد اليمنيين ووقعت في بعض الأيام هيعة في ركب الحاج فتحاربوا وانهزم المجاهد وكان بيقاروس مقيداً فأطلقه وأركبه ليستعين به فجلا في تلك الهيعة وأعيد إلى اعتقاله ونهب حاج اليمن وقيد المجاهد إلى مصر فاعتقل بها حتى أطلق في دولة الصالح سنة اثنتين وخمسين وتوجه معه قشتمر المنصوري ليعيده إلى بلاده فلما انتهى إلى الينبع أشيع عنه أنه هم بالهرب فقبض عليه قشتمر المنصوري وحبسه بالكرك ثم أطلق بعد ذلك وأعيد إلى ملكه والله أعلم.

خلع حسن الناصر وولاية أخيه الصالح

لما قبض السلطان حسن على بيقاروس وحبسه وتنكر لأهل دولته ورفع عليهم مغلطاي واختصه واستوحشوا لذلك وتفاوضوا وداخل طاز وهو كبيرهم جماعة من الأمراء في الثورة وأجابه إلى ذلك بيقو الشمسي في آخرين واجتمعوا لخلعه وركبوا في جمادى سنة اثنتين وخمسين فلم يمانعهم أحد وملكوا أمرهم ودخلوا القلعة وقبض طاز على حسن الناصر واعتقله وأخرج أخاه حسيناً من اعتقاله فبايعه ولقبه الصالح وقام بحمل الدولة وأخرج بيقو الشمسي إلى دمشق وبيقر إلى حلب أسيرين وانفرد بالأمر ثم نافسه أهل الدولة واجتمعوا على الثورة وتولى كبر ذلك مغلطاي ومنكلي وبيبقا القمري وركبوا فيمن اجتمع إليهم إلى قبة النصر للحرب فركب طاز وسلطانه الصالح في جموعه وحمل عليهم ففض جمعهم وأثخن فيهم وقبض على مغلطاي ومنكلي فحبسهما بالإسكندرية وأفرج عن منجك وعن شيخو وجعله أتابكه على العساكر وأشركه في سلطانه وولى سيف الدين ملاي نيابته واختص سرغتمش ورقاه في الدولة وقبض على الشمسي المحمدي نائب دمشق ونقل إليها لمكانة أرغون الكاملي من حلب وأفرج عن بيقاروس بالكرك وبعثه مكانه إلى حلب ثم تغير منجك واختفى بالقاهرة والله تعالى أعلم.

انتقاض بيقاروس واستيلاؤه على الشام ومسير السلطان إليه ومقتله

قد تقدم لنا ذكر بيقاروس وقيامه بدولة حسن الأولى ونكبته في طريقه إلى الحج بالكرك ولما أطلقه طاز وولاه على حلب أدركته المنافسة والغيرة من طاز واستبداده بالدولة فحدثته نفسه بالخلاف وداخل نواب الشام ووافقه في ذلك بالكمش نائب طرابلس وأحمد شادي الشرنخاناه نائب صفد وخالفه أرغون الكاملي نائب دمشق وتمسك بالطاعة وتعاقد هؤلاء على الخلاف مع شيخو وسرغتمش في رجب سنة ثلاث وخمسين ثم دعا

بيقاروس العرب والتركمان إلى الموافقة فأجابه جبار بن مهنا من العرب وقراجا بن العادل من التركمان في جموعهما وبرز من حلب بقصد دمشق فأجفل عنها أرغون النائب إلى غزة واستخلف عليها الجبقا العادلي ووصل بيقاروس فملكها وامتنعت القلعة فحاصرها وكثر العيث من عساكره في القرى وسار السلطان الصالح وأمراء الدولة من مصر العساكر في شعبان من السنة وأخرج معه الخليفة المعتضد أبا الفتح أبا بكر بن المستكفي وعثر بين يدي خروجه على منجك ببعض البيوت لسنة من اختفائه فبعث به سرغتمش إلى الإسكندرية وبلغ بيقاروس خروج السلطان من مصر فأجفل عن دمشق وثار العوام بالتركمان فأثخنوا فيهم.

ووصل السلطان إلى دمشق ونزل بالقلعة وجهز العساكر في اتباع بيقاروس فجاؤوا بجماعة من الأمراء الذين كانوا معه فقتل السلطان بعضهم ثالث الفطر وحبس الباقين وولى على دمشق الأمير علياً المارداني ونقل منها أرغون الكاملي إلى حلب وسرح العساكر في طلب بيقاروس مع مغلطاي الدوادار وعاد إلى مصر فدخلها في ذي القعدة من السنة وسار مغلطاي في طلب بيقاروس وأصحابه فأوقع بهم وتقبض على بيقاروس وأحمد وقطلمش وقتلهم وبعث برؤوسهم إلى مصر أوائل سنة أربع وخمسين وأوعز السلطان إلى أرغون الكاملي نائب حلب بأن يخرج في العساكر لطلب قراجا بن العادل مقدم التركمان فسار إلى بلده البلسين فوجدها مقفرة وقد أجفل عنها فهدمها أرغون واتبعه إلى بلاد الروم فلما أحس بهم أجفل ولحق بابن أرشا قائد المغل في سيواس ونهب العساكر أحياءه واستاقوا مواشيه ثم قبض عليه ابن أرشا قائد المغل وبعث به إلى مصر فقتل بها وسكنت الفتنة وأطلق المعتقلون بالإسكندرية وتأخر منهم مغلطاي ومنجك أياماً ثم أطلقا وغربا إلى الشام والله تعالى أعلم.

واقعة العرب بالصعيد

وفي أثناء هذه الفتن كثر فساد العرب بالصعيد وعيثهم وانتهبوا الزروع والأموال وتولى كبر ذلك الأحدب وكثرت جموعه فخرج السلطان في العساكر سنة أربع وخمسين ومعه طاز وسار شيخو في المقدمة فهزم العرب واستلحم جموعهم وامتلأت أيدي العساكر بغنائمهم وخلص السلطان من الظهر والسلاح ما لا يعبر عنه وأسر جماعة منهم فقتلوا وهرب الأحدب حتى استأمن بعد رجوع السلطان فأمنه على أن يمتنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح ويقبلوا على الفلاحة والله تعالى أعلم.

خلع الصالح وولاية حسن الناصر الثانية

كان شيخو أتابك العساكر قد ارتاب بصاحبه طاز فداخل الأمراء بالثورة بالدولة وتربص بها إلى أن خرج طاز سنة خمس وخمسين إلى البحيرة متصيداً وركب إلى القلعة فخلع الصالح ابن بنت تنكز وقبض عليه وألزمه بيته لثلاث سنين كوامل من دولته وبايع لحسن الناصر أخيه وأعاده إلى كرسيه وقبض على طاز فاستدعاه من البحيرة فبعثه إلى حلب نائباً وعزل أرغون الكاملي فلحق بدمشق حتى تقبض عليه سنة ست وخمسين وسيق إلى الإسكندرية فحبس بها وبلغ الخبر بوفاة الشمسي الأحمدي نائب طرابلس وولى مكانه منجك واستبد شيخو بالدولة وتصرف بالأمر والنهي وولى على مكة عجلان بن رميثة وأفرده بإمارتها وكانت له الولاية والعزل والحل والعقد سائر أيامه واعتمده الملوك من النواحي شرقاً وغرباً بالمخاطبات وكان رديفه في حمل الدولة سرغتمش من موالي السلطان والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده بمنه.

مهلك شيخو ثم سرغتمش بعده واستبداد السلطان بأمره

لم يزل شيخو مستبداً بالدولة وكافلاً للسلطان حتى وثب عليه يوماً بعض الموالي بمجلس السلطان في دار العدل في شعبان سنة ثمان وخمسين واعتمده في دخوله من باب الإيوان وضربه بالسيف ثلاثاً أصاب بها وجهه ورأسه وذراعيه فخر لليدين ودخل السلطان بيته وانفض المجلس واتصلت الهيعة بالعسكر خارج القلعة فاضطربوا واقتحم موالي شيخو القلعة إلى الإيوان يقدمهم خليل بن قوصون وكان ربيبه لأن شيخو تزوج بأمه فاحتمل شيخو إلى منزله وأمر الناصر بقتل المملوك الذي ضربه فقتل ليومه وعاده الناصر من الغد وتوجل من الوثبة أن تكون بأمره وأقام شيخو عليلاً إلى أن هلك في ذي القعدة من السنة وهو أول من سمي الأمير الكبير بمصر واستقل سرغتمش رديفه بحمل الدولة وبعث عن طاز فأمسكه بحلب وحبسه بالإسكندرية وولى مكانه الأمير علياً المارداني نقله إليها من دمشق وولى مكانه بدمشق منجك اليوسفي.

ثم تقبض السلطان على سرغتمش في رمضان سنة تسع

وخمسين وعلى جماعة من الأمراء معه مثل مغلطاي الدوادار وطشتمر القاسمي الحاجب وطنبغا الماجاري وخليل بن قوصون ومحا السلحدار وغيرهم وركب مواليه وقاتلوا مماليك السلطان في ساحة القلعة صدر نهار ثم انهزموا وقتلوا واعتقل سرغتمش وجماعته المنكوبون بالإسكندرية وقتل بمحبسه لسبعين يوماً من اعتقاله وتخطت النكبة إلى شيعته وأصحابه من الأمراء والقضاة والعمال وكان الذي تولى نكبة هؤلاء كلهم بأمر السلطان منكلي بيبقا الشمسي.

ثم استبد السلطان بملكه واستولى على أمره وقدم مملوكه بيبقا القمري وجعله أمير ألف وأقام في الحجابة الجاي اليوسفي ثم بعثه إلى دمشق نائباص واستقدم منجك نائب دمشق فلما وصل إلى غزة استتر واختفى فولى الناصر مكانه بدمشق الأمير علياً المارداني نقله من حلب وولى على حلب سيف الدين بكتمر المؤمني ثم أدال من علي المارداني في دمشق باستدمر ومن المؤمني في حلب بمندمر الحوراني وأمره السلطان سنة إحدى وستين بغزو سيس وفتح أذنة وطرسوس والمصيصة في حصون أخرى وولى عليها ورجع فولاه السلطان نيابة دمشق مكان استدمر وولى على حلب أحمد بن القتمري ثم عثر بدمشق سنة إحدى وستين على منجك بعد أن نال العقاب بسببه جماعة من الناس فلما حضر عفا عنه السلطان وأمده وخيره في النزول حيث شاء من بلاد الشام وأقام السلطان بقية دولته مستبداً على رجال دولته وكان يأنس بالعلماء والقضاة ويجمعهم في بيته متبذلاً ويفاوضهم في مسائل العلم ويصلهم ويحسن إليهم ويخالطهم أكثر ممن سواهم إلى أن انقرضت دولته والبقاء لله وحده.

ثورة بيبقا ومقتل السلطان حسن وولاية منصور ابن المعظم حاجي في كفالة بيبقا

كان بيبقا هذا من موالي السلطان حسن وأعلاهم منزلة عنده وكان يعرف بالخاصكي نسبة إلى خواص السلطان وكان الناصر قد رقاه في مراتب الدولة وولاه الإمارة ثم رفعه إلى الأتابكية وكان لجنوحه إلى الاستبداد كثيراً ما يبوح بشكاية مثل ذلك فأحضره بعض الليالي بين حرمه وصرفه في جملة من الخدمة لبعض مواليه وقادها فأسرها بيبقا في نفسه واستوحش وخرج السلطان سنة اثنتين وستين إلى كوم برى وضرب بها خيامه وأذن للخاصكي في مخيمه قريباً منه ثم نمي عنه خبر الانتقاض فأجمع القبض عليه واستدعاه فامتنع من الوصول وربما أشعره داعيه بالاسترابة فركب إليه الناصر بنفسه فيمن حضره من مماليكه وخواص أمرائه تاسع جمادى من السنة وبرز إليه بيبقا وقد أنذر به واعتدله فصدقه القتال في ساحة مخيمه.

وانهزم أصحاب السلطان عنه ومضى إلى القلعة وبيبقا في اتباعه فامتنع الحراس بالقلعة من إخافة طارقة جوف الليل فتسرب في المدينة واختفى في بيت الأمير ابن الأزكشي بالحسينية وركب الأمراء من القاهرة مثل ناصر الدين الحسيني وقشتمر المنصوري وغيرهما لمدافعة بيبقا فلقيهم ببولاق وهزمهم واجتمع ثانية وثالثة وهزمهم وتنكر الناصر مع أيدمر الدوادار يحاولان النجاة إلى الشام واطلع عليهما بعض المماليك فوشى بهما إلى بيبقا فبعث من أحضره فكان آخر العهد به ويقال: إنه امتحنه قبل القتل فدله على أموال السلطان وذخائره وذلك لست سنين ونصف من تملكه.

ثم نصب بيبقا للملك محمد بن المظفر حاجي ولقبه المنصور وقام بكفالته وتدبير دولته وجعل طنبغا الطويل رديفه وولى قشتمر المنصوري نائباً وغشتمر أمير مجلس وموسى الأزكشي أستاذ دار وأفرج عن القاسمي وبعثه نائباً بالكرك وأفرج عن طاز وقد كان عمي فبعثه إلى القدس بسؤاله ثم إلى دمشق ومات بها في السنة بعدها وأقر عجلان في ولاية مكة وولى على عرب الشام جبار بن مهنا وأمسك جماعة من الأمراء فحبسهم والله تعالى أعلم.

انتقاض استدمر بدمشق

ولما اتصل بالشام ما فعله بيبقا وأنه استبد بالدولة وكان استدمر نائباً بدمشق كما قدمناه امتعض لذلك وأجمع الانتقاض وداخله في ذلك مندمر والبري ومنجك اليوسفي واستولى على قلعة دمشق وسار في العساكر ومعه السلطان المنصور ووصل إلى دمشق واعتصم القوم بالقلعة وترددت بينهما القضاة بالشام حتى نزلوا على الأمان بعد أن حلف بيبقا فلما نزلوا إليه بعث بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها وولى الأمير المارداني نائباً بدمشق وقطلوبغا الأحمدي نائباً بحلب مكان أحمد بن القتمري بصفد وعاد السلطان المنصور وبيبقا إلى مصر والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الخليفة المعتضد بن المستكفي وولاية ابنه المتوكل

قد تقدم لنا أن الخليفة المستكفي لما توفي قبل وفاة الملك الناصر عهد لابنه أحمد ولقبه الحاكم وأن الناصر عدل عنه إلى

إبراهيم بن محمد عم المستكفي ولقبه الواثق فلما توفي الناصر آخر سنة إحدى وأربعين وأغار الأمراء القائمون بالدولة والأمير أحمد الحاكم بن المستكفي ولي عهده فلم يزل في خلافته إلى أن هلك سنة ثلاث وخمسين لأول دولة الصالح سبط تنكز وولي بعده أخوه أبو بكر بن المستكفي ولقب المعتضد ثم توفي سنة ثلاث وستين لعشرة أعوام من خلافته وعهد إلى ابنه أحمد فولي مكانه ولقب المستكفي والله تعالى أعلم.

خلع المنصور وولاية الأشرف

ثم بدا البيبقا الخاصكي في أمر المنصور محمد بن حاجي فخلعه استرابة به في شعبان سنة أربع وستين لسبعة وعشرين شهراً من ولايته ونصب مكانه شعبان بن الناصر حسن بن الملك الناصر وكان أبوه قد توفي في ربيع الآخر من تلك السنة وكان آخر بني الملك الناصر فمات فولي ابنه شعبان ابن عشر سنين ولقبه الأشرف وتولى كفالته وفي سنة خمس وستين عزل المارداني من دمشق وولى مكانه منكلي بغا نقله من حلب وولى مكانه قطلوبغا الأحمدي وتوفي قطلوبغا فولى مكانه غشقتمر المارداني. ثم عزل غشقتمر سنة ست وستين فولى مكانه سيف الدين فرجي وأوعز إليه سنة سبع وستين أن يسير في العساكر لطلب خليل بن قراجا بن العادل أمير التركمان فيحضره معتقلاً فسار إليه وامتنع في خرت برت فحاصره أربعة أشهر واستأمن خليل بعدها وجاء إلى مصر فأمنه السلطان وخلع عليه وولاه ورجع إلى بلده وقومه والله تعالى أعلم.

واقعة الإسكندرية

كان أهل جزيرة قبرص من أمم النصرانية وهم من بقايا الروم وإنما ينتسبون لهذا العهد إلى الإفرنج لظهور الإفرنج على سائر أمم النصرانية وإلا فقد نسبهم هروشيوش إلى كيتم وهم الروم عندهم ونسب أهل رودس إلى دوداتم وجعلهم إخوة كيتم ونسبهما معاً إلى رومان وكانت على أهل قبرص جزية معلومة يؤدونها لصاحب مصر وما زالت مقررة عليهم من لدن فتحها على يد معاوية أمير الشام أيام عمر وكانوا إذا منعوا الجزية يسلط صاحب الشام عليهم أساطيل المسلمين فيفسدون مراسيها ويعيثون في سواحلها حتى يستقيموا لأداء الجزية وتقدم لنا آنفاً في دولة الترك أن الظاهر بيبرس بعث إليها سنة تسع وستين وستمائة أسطولاً من الشواني وطرقت مرساها ليلاً فتكسرت لكثرة الحجارة المحيطة بها في كل ناحية.

ثم غلب لهذه العصور أهل جنوة من الإفرنج على جزيرة رودس حازتها من يد لشكري صاحب القسطنطينية سنة ثمان وسبعمائة وأخذوا بمخنقها وأقام أهل قبرص معهم بين فتنة وصلح وسلم وحرب آخر أيامهم وجزيرة قبرص هذه على مسافة يوم وليلة في البحر قبالة طرابلس منصوبة على سواحل الشام ومصر واطلعوا بعض الأيام على غرة في الإسكندرية وأخبروا حاجبهم وعزم على انتهاز الفرصة فيها فنهض في أساطيله واستنفر من سائر الإفرنج ووافى مرساها سابع عشر من المحرم سنة سبع وستين في أسطول عظيم يقال: بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدة وبالعدد ومعه الفرسان المقاتلة بخيولهم.

فلما أرسى بها قدمهم إلى السواحل وعبى صفوفه وزحف وقد غص الساحل بالنظارة برزوا من البلد على سبيل النزهة لا يلقون بالاً لما هو فيه ولا ينظرون مغبة أمره لبعد عهدهم بالحرب وحاميتهم يومئذ قليلة وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية ونائبها القائم بمصالحها في الحرب والسلم وهو يومئذ خليل بن عوام غائب في قضاء فرضه فما هو إلا أن رجعت تلك الصفوف على التعبية ونضحوا العوام بالنبل فأجفلوا متسابقين إلى المدينة وأغلقوا أبوابها وصعدوا إلى الأسوار ينظرون ووصل القوم إلى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة واضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض ثم أجفلوا إلى جهة البر بما أمكنهم من عيالهم وولدهم وما اقتدروا عليه من أموالهم وسالت بهم الطرق والأباطح ذاهبين في غير وجه حيرة ودهشة وشعر بهم الأعراب أهل الضاحية فتخطفوا الكثير منهم وتوسط الإفرنج المدينة ونهبوا ما مروا عليه من الدور وأسواق البر ودكاكين الصيارفة ومودعات التجار وملأوا سفنهم من المتاع والبضائع والذخيرة والصامت واحتملوا ما استولوا عليه من السبي والأسرى وأكثر ما فيهم الصبيان والنساء ثم تسايل إليهم الصريخ من العرب وغيرهم فانكفأ الإفرنج إلى أساطيلهم وانكمشوا فيها بقية يومهم وأقلعوا من الغد.

وطار الخبر إلى كافل الدولة بمصر الأمير بيبقا فقام في ركائبه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعه ابن عوام نائب الإسكندرية منصرفه من الحج وفي مقدمته خليل بن قوصون وقطلوبغا الفخري من أمرائه وعزائمهم مرهفة ونياتهم في الجهاد صادقة حتى بلغهم الخبر في طريقهم بإقلاع العدو فلم يثنه ذلك واستمر إلى الإسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرة الخراب وآثار الفساد فأمر بهدم ذلك وإصلاحه ورجع أدراجه إلى دار الملك وقد

امتلأت جوانحه غيظاً وحنقاً على أهل قبرص فأمر بإنشاء مائة أسطول من الأساطيل التي يسمونها القربان معتزماً على غزو قبرص فيها بجميع من معه من عساكر المسلمين بالديار المصرية واحتفل في الاستعداد لذلك واستكثر من السلاح وآلات الحصار وكمل غرضه من ذلك كله في رمضان من السنة لثمانية أشهر من الشروع فيه فلم يقدر على تمام غرضه من الجهاد لما وقع من العوائق كما نقصُّه واللّه تعالى ولي التوفيق.

ثورة الطويل ونكبته

كان طنبغا الطويل من موالي السلطان حسن وكانت وظيفته في الدولة أمير سلاح وهو مع ذلك رديف بيبقا في أمره وكان يؤمل الاستبداد ثم حدثت له المنافسة والغيرة من بيبقا كما حدثت لسائر أهل الدولة عندما استكمل أمره واستفحل سلطانه وداخلوا الطويل في الثورة وكان دوادار السلطان أرغون الأشقري وأستاذ دار المحمدي وبينا هم في ذلك خرج الطويل للسرحة بالعباسية في جمادى سنة سبع وستين وفشا الأمر بين أهل الدولة فنمي إلى بيبقا واعتزم على إخراج الطويل إلى بلاد الشام وأصدر له المرسوم السلطاني بنيابة دمشق وبعث به إليه وبالخلعة على العادة مع أرغون الأشقري الدوادار وروس المحمدي أستاذ دار من المداخلين له ومعه أرغون الأرقي وطنبغا العلائي من أصحاب بيبقا فردهم الطويل وأساء إليهم وواعد بيبقا قبة النصر فهزمهم وقبض على الطويل والأشقري والمحمدي وحبسوا بالإسكندرية.

ثم شفع للسلطان في الطويل في شهر شعبان من السنة وبعثه إلى القدس ثم أطلق الأشقري والمحمدي وبعث بهما إلى الشام وولى مكان الطويل طيدمر الباسلي ومكان الأشقري في الدويدارية طنبغا الأبي بكري ثم عزله بيبقا العلائي وولى مكانه روس العادل المحمدي وكان جماعة من الأمراء أهل وظائف في الدولة قد خرجوا مع الطويل وحبسوا فولى في وظائفهم أمراء آخرين ممن لم تكن له وظيفة واستدعى عن منكلي بيبقا الشمسي نائب دمشق إلى مصر يطلبه فقدم نائبا بحلب مكان سيف الدين برجي وآذن له في الاستكثار من العساكر وجعلت رتبته فوق نائب دمشق وولى مكانه بدمشق اقطمر عبد العزيز انتهى واللّه تعالى أعلم.

ثورة المماليك ببيبقا ومقتله واستبداد استدمر

كان طنبقا قد طال استبداده على السلطان وثقلت وطأته على الأمراء وأهل الدولة وخصوصاً على مماليكه وكان قد استكثر من المماليك وأرهف حده لهم في التأديب وتجاوز الضرب فيهم بالعصا إلى جدع الأنوف واصطلام الآذان فكتموا الأمر في نفوسهم وضمائرهم لذلك وطووا على الغش وكان كبير خواصه استدمر واقتفان الأحمدي ووقع في بعض الأيام بمثل هذه العقوبة في أخي استدمر فاستوحش له وارتاب وداخل سائر الأمراء في الثورة يرون فيها نجاتهم منهم وخلصوا النجوى مع السلطان فيه واقتضوا منه الإذن وسرح السلطان بيبقا إلى البحيرة في عام ثمان وسبعين وانعقد هؤلاء المماليك المتفاضون في الثورة بمنزل الطرانة وبيتوا له فيها ونمي إليه خبرهم ورأى العلامات التي قد أعطيها من أمرهم فركب مركباً في بعض خواصه وخاض النيل إلى القاهرة وتقدم إلى نواتية البحر أن يرسوا سفنهم عند العدوة الشرقية ويمنعوا العبور كل من يرومه من العدوة الغربية.

وخالفه استدمر واقتفان إلى السلطان في ليلتهم وبايعوه على مقاطعة بيبقا ونكبته ولما وصل بيبقا إلى القاهرة جمع من كان بها من الأمراء والحجاب من مماليكه وغيرهم وكان بها أيبك البدري أمير ماخورية فاجتمعوا عليه وكان يقتمر النظامي وأرغون ططن بالعباسية سارحين فاجتمعوا إليه فخلع الأشرف ونصب أخاه أنوك ولقبه المنصور وأحضر الخليفة فولاه واستعد للحرب وضرب مخيمه بالجزيرة الوسطى على عدوة البحر ولحق به من كانت له معه صاغية من الأمراء الذين مع السلطان بصحابة أو أمر أو ولاية مثل بيبقا العلائي الدوادار ويونس الرمام وكمشيقا الحموي وخليل بن قوصون ويعقوب شاه وقرابقا البدري وابتغا الجوهري ووصل السلطان الأشرف من الطرانة صبيحة ذلك اليوم على التعبية قاصداً دار ملكه وانتهى إلى عدوة البحر فوجدها مقفرة من السفن فخيم هنالك وأقام ثلاثاً وبيبقا وأصحابه قبالتهم بالجزيرة الوسطى ينضحونهم بالنبل ويرسلون عليهم الحجارة من المجانيق وصواعق الأنفاط وعوالم النظارة في السفن إلى أن تتوسط فيركبونها ويحركونها بالمجاذيف إلى ناحية السلطان حتى كملت منها عدة وأكثرها من القربان التي أنشأها بيبقا وأجاز فيها السلطان وأصحابه إلى جزيرة الفيل وسار على التعبية وقد ملأت عساكره وتابعه بسيط الأرض وتراكم القتام بالجو وغشيت سحابه موكب بيبقا وأصحابه فتقدموا للدفاع وصدقتهم عساكر السلطان القتال

فانفضوا عن بيبغا وتركوه أوحش من وتد في قلاع فولى منهزماً ومر بالميدان فصلى ركعتين عند بابه واستمر إلى بيته والعوام ترجمه بطريقه.

وسار السلطان في تعبيته إلى القلعة ودخل قصره وبعث عن بيبغا فجيء به واعتقل بحبس القلعة سائر يومه فلم غشي الليل ارتاب المماليك بحياته وجاؤوا إلى السلطان يطلبونه وقد أضمروا الفتك به وأحضره السلطان وبينما هو مقبل على التضرع للسلطان ضربه بعضهم فأبان رأسه وارتاب من كان منهم خارج القصر في قتله فطلبوا معاينته ولم يزالوا يناولون رأسه من واحد إلى واحد حتى رماه آخرهم في مشعل كان بإزائه ثم دفن وفرغ من أمره وقام بأمر الدولة استدمر الناصري ورديفه بيبغا الأحمدي ومعهما بجماس الطازي وقرابغا السرغتمشي وتغري بردي المتولون كبر هذه الفعلة وتقبضوا على الأمراء الذين عدلوا عنهم إلى بيبغا فحبسوهم بالإسكندرية وقد مر ذكرهم وعزل خليل بن قوصون وألزم بيته وولوا أمراء مكان المحبوسين وأهل وظائف من كانت له واستقر أمر الدولة على ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

واقعة الاجلاب ثم نكبتهم ومهلك استدمر وذهاب دولته

ثم تنافس هؤلاء القائمون بالدولة وحبسوا قرابغا السرغتمشي صاحبهم وامتعض له تغري بردي وداخل بعض الأمراء في الثورة ووافقه أيبك البدري وجماعة معه وركب منتصف رجب سنة ثمان وستين للحرب فركب له استدمر وأصحابه فتقبضوا عليهم وحبسوهم بالإسكندرية وعظم طغيان هؤلاء الإجلاب وكثر عيثهم في البلد وتجاوزهم حدود الشريعة والملك وفاوض السلطان أمراءه في شأنهم فأشاروا بمعاجلتهم وحسم دائهم فنبذ السلطان إليهم العهد وجلس على كرسيه بالأساطيل وتقدم إلى الأمراء بالركوب فركب الجائي اليوسفي وطغتمر النظامي وسائر أمراء السلطان ومن استخدموه من مماليك بيبغا وتحيز إليهم ايبقا الجلب وبجماس الطازي عن صاحبهما استدمر وركب لقتالهم استدمر وأصحابه وسائر الإجلاب وحاصروا القلعة إلى أن خرج عند الطلحساه السلطانية فاختل مركز الأمراء وفارقهم المستخدمون عندهم من مماليك بيبغا فانفض جمعهم وانهزموا وثبت الجائي اليوسفي وأرغون التتر في سبعين من مماليكهم فوقفوا قليلاً ثم انهزموا إلى قبة النصر وقتل دروط ابن أخي الحاج الملك وقبض على أيبقا الجلب جريحاً وعلى طغتمر النظامي وعلى بجماس الطازي والجائي اليوسفي وأرغون التتر وكثير من أمراء الألوف ومن دونهم واستولى استدمر وأصحابه الأجلاب على السلطان كما كانوا وولى مكان المحبوسين من الأمراء وأهل الوظائف وعاد خليل بن قوصون على امرته وعزل قشتمر عن طرابلس وحبس بالإسكندرية واستبدل بكثير من أمراء الشام واستمر الحال على ذلك بقية السنة والإجلاب على حالهم في الاستهتار بالسلطان والرعية فلما كان محرم سنة تسع وستين عادوا إلى الإجلاب على الدولة فركب أمراء السلطان إلى استدمر يشكونهم ويعاتبونهم في شأنهم فقبض على جماعة منهم كسر بهم الفتنة وذلك يوم الأربعاء سادس صفر فلما كان يوم السبت وعاودوا الركوب ونادوا بخلع السلطان فركب السلطان في مماليكه ونحو المائتين والتف عليهم العوام وقد حنقوا على الأجلاب بشراشرهم فيهم.

وركب استدمر في الإجلاب على التعبية وهم ألف وخمسمائة وجاؤوا من وراء القلعة على عادتهم حتى شارفوا القوم فأحجموا ووقفوا وأدلفتهم الحجارة من أيدي العوام بالمقاليع وحملت عليهم العساكر فانهزموا وقبض على أبقا السرغتمشي وجماعة معه فحبسوا بالخزانة ثم جيء باستدمر أسيراً وشفع فيه الأمراء فشفعهم السلطان وأطلقه باقيا على أتابكيته ونزل إلى بيته بقبض الكيس وكان خليل بن قوصون تولى أتابكاً في تلك الفترة فأمره السلطان أن يباكر به لحبسه من الغد فركب خليل إلى بيته وحمله على الانتقاض على أن يكون الكرسي لخليل بعلاقة نسبته إلى الملك الناصر من أمه فاجتمع منهم جماعة من الأجلاب وركبوا بالرميلة فركب إليهم السلطان والأمراء في العساكر فانهزموا وقتل كثير منهم وبعثوا بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها وقتل كثير ممن أسر في تلك الواقعة منهم وطيف بهم على الجمال وفي أقطار المدينة ثم تتبع بقية الأجلاب بالقتل والحبس بالثغور القاصية وكان ممن حبس منهم بالكرك برقوق العثماني الذي ولي الملك بعد ذلك بمصر وبركة الجولاني وطنبغا الجوباني وجركس الخليلي ونعنع وأقاموا كلهم متلفين بين السجن والنفي إلى أن اجتمع شملهم بعد ذلك كما نذكره واستبد السلطان بأمره بعض الشيء وأفرج عن الجائي اليوسفي وطغتمر النظامي وجماعة من المسجونين من أمرائه وولى الجائي أمير سلاح وولى بيبغا المنصوري وبكتمر المحمدي من أمراء الإجلاب في الأتابكية شريكين ثم نمي عنهما أنهما يرومان الثورة وإطلاق المسجونين من الأجلاب والاستبداد على السلطان فقبض عليهما وبعث عن منكلي بغا الشمسي من حلب وأقامه في الأتابكية واستدعى أمير علي المارداني من دمشق وولاه النيابة

وولى في جميع الوظائف استبدالاً وإنشاء بنظره واختياره.

وكان منهم مولاه أرغون الأشرفي ومازال يرقيه في الوظائف إلى أن جعله أتابك دولته وكان خالصته كما سنذكر وولى على حلب مكان منكلي بغا طنبغا الطويل وعلى دمشق مكان المارداني بندمر الخوارزمي ثم اعتقله وصادره على مائة ألف دينار ونفاه إلى طرسوس وولى مكانه منجك اليوسفي نقله إليها من طرابلس وأعاد إليها غشقتمر المارداني كما كان قبله ثم توفي طنبغا الطويل بحلب آخر سنة تسع وستين بعد أن كان يروم الانتقاض فولى مكانه استبغا الأبو بكري ثم عزله سنة سبعين وولى مكانه قشتمر المنصوري والله تعالى ولي التوفيق بمنه وفضله.

مقتل قشتمر المنصوري بحلب في واقعة العرب

كان جماز بن مهنا أمير العرب من آل فضل قد انتقض وولى السلطان مكانه ابن عمه نزال بن موسى بن عيسى واستمر جماز على خلافه ووطىء بلاد حلب أيام المصيف واجتمع إليه بنو كلاب وامتدت أيديهم على السابلة فخرج إليهم نائب حلب قشتمر المنصوري في عساكره فأغار على أحيائه واستاق نعمهم ومواشيهم وشره إلى اصطلامهم فتذامروا دون أحيائهم وكانت بينه وبينهم جولة أجلت عن قشتمر المنصوري وابنه محمد قتيلين ويقال: قتلهما يعبر بن جماز ورجعت عساكر الترك منهزمين إلى حلب وذهب جماز إلى القفر ناجياً به وولى السلطان على العرب معيقيل بن فضل ثم استأمن له جماز بن مهنا وعاود الطاعة فأعاده السلطان إلى إمارته والله تعالى أعلم.

استبداد الجائي اليوسفي ثم انتقاضه ومقتله

لما أذهب السلطان الأشرف أثر الأجلاب من دولته وقام بعض الشيء بأمره فاستدعى منكلي بغا من حلب وجعله أتابكاً وأمير علي المارداني من دمشق وجعله نائباً وولى الجائي اليوسفي أمير سلاح وولى أصبغا عبد الله دوادار بعد أن كان الأجلاب ولوا في الدوادارية منهم واحداً بعد واحد ثم سخطه وولى مكانه أقطمر الصباحي وعمر سائر الخطط السلطانية بمن وقع عليه اختياره ورقى مولاه أرغون شاه في المراتب من واحدة إلى أخرى إلى أن أربى به على الأتابكية كما يأتي وولى بهادر الجمالي أستاذ دار ثم أمير الماخورية تردد بينهما ثم استقر آخراً في الماخورية وولى محمد بن اسقلاص أستاذ دار وولى بيبقا الناصري الحجابة بعد وظائف أخرى نقله منها وزوج أمه الجائي اليوسفي فعلت رتبته بذلك في الدولة واستغلظ أمره وأغلظ له الدوادار يوماً في القول فنفي وولى مكانه منكوتمر عبد الغني ثم عزل سنة اثنتين وسبعين لسنة من ولايته وولى السلطان مكانه طشتمر العلائي الذي كان دوادار البيقا واستقرت الدولة على هذا النمط والجائي اليوسفي مستبد فيها.

ووصل وفود منجك من الشام سنة أربع وسبعين بمالا يعبر عنه اشتمل على الخيل والبخاتي المجللة والجمال والهجن والقماش والحلاوات والحلي والطرف والمواعين حتى كان فيها من الكلاب الصائدة والسباع والإبل ما لم ير مثله في أصنافه ثم وصل وفود قشتمر المارداني من حلب على نسبة ذلك والله تعالى أعلم.

انتقاض الجائي اليوسفي ومهلكه واستبداد الأشرف بملكه من بعده

لم تزل الدولة مستقرة على ما وصفناه إلى أن هلك الأمير منكلي بغا بالأتابك منتصف سنة أربع وسبعين واستضاف الجائي اليوسفي الأتابكية إلى ما كان بيده ورتبته أشد من ذلك كله وهو القائم المستبد بها ثم توفيت أم السلطان وهي في عصمته فاستحق منها ميراثاً دعاه لؤم الأخلاق فيه إلى المماحكة في المخلف وتجافى السلطان له عن ذلك إلا أنه كان ضيق الصدر شرس الأخلاق فكان يغلظ القول بما يخشن الصدور فأظلم الجو بينه وبين السلطان وتمكنت فيه السعاية وذكرت بهذه انتقاضه الأول وذلك أنه كان سخط في بعض النزعات على بعض العوام من البلد فأمر بالركوب إلى العامة وقتلهم فقتل منهم كثير ونمي الخبر إلى السلطان على ألسنة أهل البصائر من دولته وعذلوه عنده فاستشاط السلطان وزجره وأغلظ له فغضب وركب إلى قبة النصر منتقضاً وذهب السلطان في مداراة أمره إلى الملاطفة واللين.

وكان الأتابك منكلي بغا يوم ذاك حياً فأوعز السلطان إليه فرجع وخلع عليه وأعاده إلى أحسن ما كان فلما بدرت هذه الثانية حذر السلطان بطانته من شأنه وخرج هو منتقضاً وركب في مماليكه بساحة القلعة وجلس السلطان وترددت الرسل بينهما بالملاطفة فأصر واستكبر ثم أذن السلطان لمماليكه في قتاله وكان أكثرهم من الأجلاب مماليك بيبقا وقد جمعهم السلطان واستخدمهم في جملة ابنه أمير علي ولي عهده فقاتلوه في محرم سنة خمس وتسعين وكان موقفه في ذلك المعترك إلى حائط الميدان

المتصل بالأساطيل فنفذت له المقاتلة من داخل الأساطيل ونضحوه بالسهام فتنحى عن الحائط حتى إذا حل مركزه ركبوا خيولهم وخرجوا من باب الأساطيل.

وصدقوا عليه الحملة فانهزم إلى بركة الحبش ورجع من وراء الجبل إلى قبة النصر فأقام بها ثلاثاً والسلطان يراوضه وهو يشتط وشيعه يتسللون عنه ثم بعث إليه السلطان لمة من العسكر ففر أمامهم إلى قليوب واتبعوه فخاض البحر وكان آخر العهد به ثم أخرج شلوه ودفن وأسف السلطان لمهلكه ونقل أولاده إلى قصره ورتب لهم ولحاشيته الأرزاق في ديوانه وقبض على من اتهمه بمداخلته وأرباب وظائفه فصودروا كلهم وعزلوا وغربوا إلى الشام واستبد السلطان بأمره واستدعى القري الدوادار وكان نائباً بطرابلس فولاه أتابكاً مكان الجائي ورفع رتبته وولى أرغون شاه وجعله أمير مجلس وولى سرغتمش من مواليه أمير سلاح واختص بالسلطان طشتمر الدوادار وناصر الدين محمد بن اسقلاص أستاذ دار فكانت أمور الدولة منقسمة بينهما وتصاريفها تجري بسياستهما إلى أن كان ما نذكره والله تعالى ولي التوفيق.

استقدام منجك للنيابة

كان أمير علي المارداني قد توفي سنة اثنتين وسبعين وبقيت وظيفته خلواً لمكان الجائي اليوسفي وأحكامه ولما هلك سنة خمس وسبعين ولى السلطان أقطمر عبد الغني نائباً ثم بدا له أن يولي في النيابة منجك اليوسفي لما رآه فيه من الأهلية لذلك والقيام به ولتقلبه في الإمارة منذ عهد الناصر حسن وأنه كان من مواليه أخاً لبيبقا روس وطاز وسرغتمش فهو بقية المناجب فلما وقع نظره عليه بعث في استقدامه بيبقا الناصري من أمراء دولته وولى مكانه بندمر الخوارزمي وأعاد عشقتمر إلى حلب مكانه ووصل منجك إلى مصر آخر سنة خمس وسبعين ومعه مماليكه وحاشيته وصهر إلى روس المحمدي فاحتفل السلطان في تكرمته وأمر أهل الدولة بالركوب لتلقيه فتلقاه الأمراء والعساكر وأرباب الوظائف من القضاة والدواوين وأذن له في أخولدل من باب السر راكباً وخاصة السلطان مشاة بين يديه حتى نزل عند مقاعد الطواشية بباب القصر حيث يجلس مقدم المماليك.

ثم استدعي إلى السلطان فدخل وأقبل عليه السلطان وشافهه بالنيابة المطلقة وفوض إليه الولاية والعزل في سائر المراتب السلطانية من الوزراء والخواص والقضاة والأوقاف وغيرها وخلع عليه وخرج ثم قرر تقليده بذلك في الإيوان ثاني يوم وصوله فكان يوماً مشهوداً وولى الأشرف في ذلك اليوم بيبقا الناصري الذي قدم به حاجباً ثم سافر عشقتمر نائب حلب آخر سنة ست وسبعين بعدها بالعساكر إلى بلاد الأرمن ففتح سائر أعمالها واستولى على ملكها النكفور بالأمان فوصل بأهله وولده إلى الأبواب السلطانية ورتب لهم الأرزاق وولى السلطان على سيس وانقرض منها ملك الأرمن وتوفي منجك آخر هذه السنة فولى السلطان اقتمر الصاحي المعروف بالحلي ثم عزله ورفع مجلسه وولى مكانه اقتمر الألقني ثم توفي جبار بن مهنا أمير العرب بالشام فولى السلطان ابنه يعبرا مكانه ثم توفي أمير مكة من بني حسن فولى الأشرف مكانه واستقرت الأمور على ذلك والله أعلم.

الخبر عن مماليك بيبقا وترشيحهم في الدولة

كان السلطان الأشرف بعد أن سطا بمماليك بيبقا تلك السطوة وقسمهم بين القتل والنفي وأسكنهم السجون وأذهب أثرهم من الدولة بالجملة أرجع جملة منهم بعد ذلك وعاتبه منكلي أبغا في شأنهم وأن في إتلافهم قص جناح الدولة وأنهم ناشئة من الجند يحتاج الملك لمثلهم فندم على من قتل منهم وأطلق من بقي من المحبوسين بعد خمس من السنين وسرحهم إلى الشام يستخدمون عند الأمراء وكان فيمن أطلق الجماعة الذين بحبس الكرك وهم برقوق العثماني وبركة الجوباني وطنبقا الجوباني وجركس الخليلي ونعنع فأطلقوا إلى الشام ودعا منجك صاحب الشام كبراءهم إلى تعليم المماليك ثقافة الرمح وكانوا بصراء بها فأقاموا عنده مدة أخبرني بذلك الطنبقا الجوباني أيام اتصالي به قال: وأقمنا عند منجك إلى أن استدعاه السلطان الأشرف وكتب إليه الجائي اليوسفي بمثل ذلك فاضطرب في أيهما يجيبه فيها ثم أراد أن يخرج من العهدة فرد الأمر إلينا فأبينا إلا امتثال أمره فتحير ثم اهتدى إلى أن يبعث إلى الجائي اليوسفي ودس إلى قرطاي كافل الأمير علي ابن السلطان وكان صديقه بطلبنا من الجائي بخدمة ولي العهد وصانع الجهتين بذلك قال: وصرنا إلى ولي العهد فعرضنا على السلطان أبيه واختصنا عنده بتعليم الثقافة لمماليكه إلى أن دعانا السلطان يوم واقعة الجائي وهو جالس بالإسطبل فندبنا لحربه وذكرنا حقوقه وأزاح عللنا بالجياد والأسلحة فجلبنا في قتله إلى أن انهزم وما زال السلطان بعدها يرعى لنا ذلك ويقدمنا. انتهى خبر الجوباني.

وكان طشتمر الدوادار قد لطف محله عند الأشرف وخلا له وجهه وكان هواه في اجتماع مماليك بيبقا في الدولة يستكثر بهم

فيما يؤمله من الاستبداد على السلطان فكان يشير في كل وقت على الأشرف باستقدامهم من كل ناحية واجتماعهم عصابة للدولة يخادع بذلك عن قصده وكان محمد بن اسقلاص أستاذ دار يساميه في الدولة ويزاحمه في مخالصة الأشرف ولطف المحل عنده ينهى السلطان عن ذلك ويحذره مغبة اجتماعهم فغص طشتمر بذلك.

وكان عند السلطان مماليك دونه من مماليكه الخاصكية شباباً قد اصطفاهم وهذبهم وخالصهم بالمحبة والصهر ورشحهم للمراتب وولى بعضهم وكان الأكابر من أهل الدولة يفضون إليهم بحاجاتهم ويتوسلون بمساعيهم فصرف طشتمر إليهم وجه السعاية وغشي مجالسهم وأغراهم بابن اسقلاص وأنه يصد السلطان أكثر الأوقات عن أغراضهم منه ويبعد أبواب الإنعام والصلات منه وصدق ذلك عندهم كثرة حاجاتهم في وظيفته وتقرر الكثير منها عليهم عنده فوغرت صدورهم منه وأغروا به السلطان بأطباق إغراء طشتمر طاهراً حتى تمت عليهم نكبته وجمعت الكلمة وقبض عليه منتصف جمادى سنة سبع وثمانين ونفاه إلى القدس فخلا لطشتمر وجه السلطان وانفرد بالتدبير واجتمع المماليك البيبقاوية من كل ناحية حتى كثروا أهل الدولة وعمروا مراتبها ووظائفها واحتاروا من جوانبها إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

حج السلطان الأشرف وانتقاض المماليك عليه بالعقبة وما كان مع ذلك من ثورة قرطاي بالقاهرة وبيعة الأمير علي ولي العهد ومقتل السلطان إثر ذلك

لما استقر السلطان في دولته على أكمل حالات الاستبداد والظهور وأذعن الناس لطاعته في كل ناحية وأكمل الله له الإمتاع بملكه ودنياه سمت نفسه إلى قضاء فرضه فأجمع الحج سنة ثمان وسبعين وتجهز لذلك واستكثر من الرواحل المستجادة والأزودة المثقلة من سائر الأصناف واستعد للسفر واحتفل في الأبهة بما لم يعهد مثله واستخلف ابنه ولي العهد في ملكه وأوصى النائب اكتمر عبد النبي بمباكرة بابه والانتهاء إلى مراسمه وأخرج بني الملك الناصر المحجوبين بالقلعة مع سرد الشيخوني إلى الكرك يقيمون به إلى منصرفه وتجهز الخليفة العباسي محمد المتوكل بن المعتضد والقضاة للحج معه وجهز جماعة من الأمراء أهل دولته وأزاح عللهم وملأ بمعروفه حقائبهم وخرج ثاني عشر شوال في المراكب والقطارات يروق الناظرين كثرة ومخافة وزينة والخليفة والقضاة والأمراء حفا فيه.

وبرز النظارة حتى العواتق من خدورهن وتجللت بمركبهم البسيطة وماجت الأرض بهم موجاً وخيم بالبركة منزل الحاج وأقام بها أياماً حتى فرغ الناس من حاجاتهم وارتحل فما زال يتنقل في المنازل إلى العقبة ثم أقام فيها على عادة الحاج وكان في نفوس المماليك وخصوصاً البيبقاوية وهم الأكثر شجى يتشوقون به إلى الاستبداد من الدولة فتنكروا واشتطوا في اقتضاء أرزاقهم والمباشرون يعللونهم وانتهى أمرهم إلى الفساد ثم طلبوا العلوفة المستقبلة إلى دار الأزلم فاعتذر المباشرون بأن الأقوات حملت إلى الأمام فلم يقبلوا وكشفوا القناع في الأنقاض وباتوا ليلتهم على تعبية واستدعى الأشرف طشتمر الدوادار وكان كبيرهم ففاوضه في الأمر ليفل من عزمهم فأجمل العذر عنهم وخرج إليهم فخرجوا ثم ركبوا من الغد واصطفوا وأركبوا طشتمر معهم ومنعوه من معاودة السلطان وتولى كبر ذلك منهم مبارك الطازي وسراي تمر المحمدي وبطلقمر العلائي وركب السلطان في خاصته يظن أنهم يرعوون أو يجنح إليه بعضهم فأبوا إلا الإحفاف على قتاله.

ونضحوا موكبه بالنبل لما عاينوه فرجع إلى خيامه منهزماً ثم ركب البحر في لفيف من خواصه ومعه أرغون شاه الأتابك وبيبقا الناصري ومحمد بن عيسى صاحب الدرك من لفائف الأعراب أهل الضاحية وفي ركابه جماعة الشباب الذين أنشأهم في مخالصته ورشحهم للوظائف في دولته كما مر وخام الفل إلى القاهرة وقد كان السلطان عندما سافر عن القاهرة ترك بها جماعة من الأمراء والمماليك مقيمين في وظائفهم كان منهم قرطاي الطازي كافل أمير علي ولي العهد واقتمر الخليلي وقشتمر واستدمر السرغتمشي وأيبك البدري وكان شيطان من المتمردة قد أوحى إلى قرطاي بأنه يكون صاحب الدولة بمصر فكان يتشوف لذلك ويترصد له وربما وقع بينه وبين وزير الدولة منازعة في جراية مماليك مكفوله ولي العهد وعلوفاتهم وأغلظ له فيها الوزير فوجم وأخذ في أسباب الانتقاض وداخل في ذلك بعض أصحابه وواعدهم ثالث ذي القعدة وتقدم إلى داية ولي العهد ليلة ذلك اليوم بأن يصلح من شأنه ويفرغ عليه ملابس السلطان ويهيئه لجلوس التخت وركب هو صبيحة ذلك اليوم ووقف بالرميلة عند مصلى العيد وتناول قطعة من ثوب فنصبها لواء وكان صبيان المدينة قد شرعوا في اتخاذ الدبادب والطبيلات فأمر بتناول بعضها منهم وهرعت بين يديه وتسايل الناس إليه من كل أوب ونزل من كان بطباق القصر

وغرفه وبالقاهرة من المماليك واجتمعوا إليه حتى كظ ذلك الفضاء وجاؤوا تعادي بهم الخيل فاستغلظ لفيفهم ثم اقتحم القلعة في جمعه من باب الإصطبل إلى بيت مكفوله ولي العهد أمير علي عند باب الستارة يطلبونه وقبضوا على زمام الذود وكانوا عدة حتى أحضروا ولي العهد وجاؤوا به على الأكتاف إلى الإيوان فأجلسوه على التخت وأحضروا أيدمر نائب القلعة فبايع له ثم أنزلوه إلى باب الإصطبل وأجلسوه هناك على الكرسي واستدعى الأمراء القائمين بالقاهرة فبايعوه وحبس بعضهم بالقلعة وبعث أكتمر الحلبي إلى الصعيد يستكشف أحواله واختص منهم أيبك فجعله رديفاً في دولته وباتوا كذلك وأصبحوا يسائلون الركبان ويستكشفون خبر السلطان.

وكان السلطان لما انهزم من العقبة سار ليلتين وجاء إلى البركة آخر الثانية وجاءه الخبر بواقعة القاهرة وما فعله قرطاي وتشاوروا فأشار محمد بن عيسى بقصد الشام وأشار آخرون بالوصول إلى القاهرة وسار السلطان إليها واستمروا إلى قبة النصر وتهافتوا عن رواحلهم بإطلاح وقد أنهكهم التعب وأضناهم السير فما هو إلا أن وقعوا لمناكبهم وجنوبهم وغشيهم النعاس.

وجاء الناصري إلى السلطان الأشرف من بينهم فتنصح له بأن يتسلل من أصحابه ويتسرب في بعض البيوت بالقاهرة حتى يتبين له وجه مذهبه وانطلق بين يديه فقصد بعض النساء ممن كان يتاب قصده واختفى فظن النجاة في ذلك وفارقه الناصري يطلب نفقاً في الأرض وقد كانوا بعثوا من قبة النصر بعض المماليك عنهم روائد يستوضحون الخبر فأصبحوا بالرميلة أمام القلعة وتعرف الناس أنه من الحاج فرفعوه إلى صاحب الدولة وعرض عليه العذاب حتى أخبره عن السلطان وأنه وأصحابه بقبة النصر مصرعين من غشي النوم فطار إليهم شراد العسكر مع استدمر السرغتمشي والجمهور في ساقتهم حتى وقفوا عليهم في مضاجعهم.

وافتقدوا السلطان من بينهم وقتلوهم جميعاً وجاؤوا برؤوسهم ووجموا لافتقاد السلطان ونادوا بطلبه وعرضوا العذاب والقتل على محمد بن عيسى صاحب الدرك فتبرأ وحبس رهينة من ثقاته ثم جاءت امرأة إلى أيبك فدلته عليه في بيت جارتها فاستخرجوه من ذلك البيت ودفعوه إلى أيبك فامتحنه حتى دلهم على الذخيرة والأموال ثم قتلوه خنقاً وجددوا البيعة لابنه الأمير علي ولقبوه المنصور واستقل بدولته كافله من قبل الأمير قرطاي ورديفه أيبك البدري واستقر الأمر على ذلك.

مجيء طشتمر من العقبة وانهزامه ثم مسيره إلى الشام وتجديد البيعة للمنصور بإذن الخليفة وتقديمه

لما انهزم السلطان من العقبة ومضى إلى القاهرة اجتمع أهل الثورة على قشتمر وألقوا إليه القياد ودعوا الخليفة إلى البيعة له فتفادى من ذلك ومضى الحاج من مكة مع أمير المحمل بهادر الجمالي على العادة ورجع القضاة والفقهاء إلى القدس وتوجه طشتمر والأمراء إلى مصر لتلافي السلطان أو تلفه فلقيهم خبر مهلكه بعجرود وما كان من بيعة ابنه واستقلال قرطاي بالملك فثاب لهم رأي آخر في حرب أهل الدولة وساروا على التعبية وبعثوا في مقدمتهم قطلقتمر ولقي طلائع مصر فهزمهم وسار في اتباعهم إلى ساحة القلعة فلم يشعر إلا وقد تورط في جمهور العسكر فتقبضوا عليه وكان قرطاي قد بعث عن اقتمر الصاحبي الحنبلي من الصعيد ويرجع في العساكر لحرب قشتمر وأصحابه فبرز إليهم والتقوا في ساحة القلعة وانهزم قشتمر إلى الكيمان بناحية مصر ثم استأمن فأمنوه واعتقلوه ثم جمع الناس ليوم مشهود وحضر الخليفة والأمراء والقضاة والعلماء وعقد الخليفة للمنصور بن الأشرف وفوض إليه وقام قرطاي بالدولة وقسم الوظائف فولى قشتمر اللفاف واستأمر السرغتشمي أمير سلاح، وقلطوبغا البدري أمير مجلس وقرطاي الطازي رأس نوبة وإياس السرغتمشي دوادار وأيبك البدري أمير الماخورية وسردون جركس أستاذ دار واقتمر الحنبلي نائباً وجعل له الإقطاع للأجناد والأمراء والنواب وأفرج عن طشتمر العلائي الدوادار وأقطعه الإسكندرية وأحضر بني الملك الناصر من الكرك مع حافظهم سردون الشيخوني وولاه حاجباً وكذلك قلوط السرغتمشي. وأصاب الناس في آخر السنة طاعون إلى أول سنة تسع وسبعين فهلك طشتمر اللفاق الأتابك وولي مكانه قرطاي الطازي في وظيفته واستدعى بيبقا الناصري من الشام فاختصه الأمير الكبير قرطاي بالمخالصة والمشاورة.

نكبة قرطاي واستقلال أيبك بالدولة ثم مهلكه

كان أيبك الغزي هذا قد ردف قرطاي في حمل الدولة من أول ثورتهم وقيامهم على السلطان فخالصه وخلطه بنفسه في

الإصهار إليه وكان أيبك يروم الاستبداد بشأن أصحابه وكان يعرف من قرطاي عكوفه على لذاته وانقسامه مع ندمائه فعمل قرطاي في صفر سنة تسع وسبعين ضيافة في بيته وجمع ندماءه مثل سودون جركس ومبارك الطازي وغيرهم وأهدى له أيبك نبيذاً أذيب فيه بعض المرقدات فباتوا يتعاطونه حتى غلبهم السكر على أنفسهم ولم يفيقوا فركب أيبك من ليلته وأركب السلطان المنصور معه واختار الأمر لنفسه واجتمع إليه الناس وأفاق قرطاي بعد ثلاث وقد انحلت عنه العقدة واجتمع الناس على أيبك فبعث إليه قرطاي يستأمن فأمنه ثم قبض عليه فسيره إلى صفد واستقل أيبك بالملك والدولة.

ثم بلغه منتصف صفر من السنة انتقاض طشتمر بالشام وانتقاض الأمراء هنالك في سائر الممالك على الخلاف معه فنادى في الناس بالمسير إلى الشام فتجهزوا وسرح المقدمة آخر صفر مع ابنه أحمد وأخيه قطلوفجا وفيها من مماليكه ومماليك السلطان جماعة من الأمراء كان منهم الأميران برقوق وبركة المستبدان بعد ذلك ثم خرج أيبك ثاني ربيع في الساقة بالسلطان والأمراء والعساكر وانتهوا إلى بلبيس وثار الأمراء الذين كانوا مع أخيه في المقدمة ورجع إليه منهزماً فأجفل راجعاً إلى القلعة بالسلطان والعساكر.

وخرج عليه ساعة وصوله يوم الاثنين جماعة من الأمراء وهم قطلتمر العلائي الطويل والطنبقا السلطاني والنعناع وواعدوه قبة النصر فسرح إليهم العساكر مع أخيه قطلوفجا فأوقعوا به وقبضوا عليه وبلغ الخبر إلى أيبك فسرح من حضره من الأمراء للقائهم وهم أيدمر الشمسي وأقطمر عبد الغني وبهادر الجمالي ومبارك الطازي في آخرين ولما تواروا عنه ركب هو هارباً إلى كيمان مصر واتبعه أيدمر القنائي فلم يقف له على خبر ودخل الأمراء من قبة النصر إلى الاسطبل وأمضوا الأمراء إلى قطلتمر العلائي وهم يحاذونه وأشير عليه بخلع المنصور والبيعة لمن يقوم على هذا الأمر من أبناء السلطان فأبى.

ثم وصل صبيحة الثلاثاء الأمراء الذين ثاروا فجاء أخو أيبك في مقدمة العسكر وفيهم بيبقا الناظري ودمرداش اليوسفي وبلاط من أمراء الألوف وبرقوق وبركة وغيرهما من الطلخانات فنازعوهم الأمر وغلبوهم عليه وبعثوا بهم إلى الإسكندرية معتقلين وفوض الأمراء إلى بيبقا الناظري فقام بأمرهم وهو شعاع وآراؤهم مختلفة ثم حضر يوم الأحد التاسع من ربيع أيبك صاحب الدولة وظهر من الاختفاء وجاء إلى بلاط منهم وأحضره عند بيبقا الناظري فبعث به إلى الإسكندرية فحبسه بها وكان بيبقا الناظري يختص برقوق وبركة بالمفاوضة استرابة بالآخرين فاتفق رأيهم على أن يستدعي طشتمر من الشام وينصبوه للإمارة فبعثوا إليه بذلك وانتظروه.

استبداد الأميرين أبي سعيد برقوق وبركة بالدولة من بعد أيبك ووصول طشتمر من الشأم وقيامه بالدولة ثم نكبته

لما تغلب هؤلاء الأمراء على الدولة ونصبوا بيبقا الناظري ولم يمضوا له بالطاعة بقي أمرهم مضطرباً وآراؤهم مختلفة وكان برقوق وبركة أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير وكان الناظري يخالصهما كما مر فتفاوضوا في القبض على هؤلاء المتصدين للمنازعة وكبح شكائمهم وهم دمرداش اليوسفي وترباي الحسيني وافتقلاص السلجوقي واستدمر ابن العثماني في آخرين من نظرائهم وركبوا منتصف صفر وقبضوا عليهم أجمعين وبعثوا بهم إلى الإسكندرية فحبسوهم بها واصطفوا بلاطاً منهم وولوه الإمارة وخلطوه بأنفسهم وأبقوا بيبقا الناظري على أتابكيته كما كان وأنزلوه من القلعة فسكن بيت شيخو قبالته وولي برقوق أمير الماخورية ونزل باب الاصطبل وولي بركة الجوباني أمير مجلس واستقرت الدولة على ذلك.

وكان طشتمر نائب الشام قد انتقض واستبد بأمره وجمع عساكر الشام وأمراءه واستنفر العرب والتركمان وخيم بظاهر دمشق يريد السير إلى مصر وبرز أيبك من مصر بالسلطان والعسكر يريد الشام لمحاربته فكان ما قدمناه من نكبته وخروج الأمراء عليه ومصيرهم إلى جماعة البيبقاوية الظافرين بأيبك ومقدمهم بيبقا الناظري ثم تفاوض بيبقا الناظري مع برقوق وبركة في استدعاء طشتمر فوافقاه ونظراه رأياً وفيه طلب الصلح من الذين معه وحسم الداء منه بكونهم في مصر فكتبوا إليه بالوصول إلى مصر للأتابكية وتدبير الدولة وأنه شيخ البيبقاوية وكبيرهم فسكنت نفسه لذلك ووضع أوزار الفتنة وسار إلى مصر فلما وصلها اختلفوا في أمره وتعظيمه.

وأركبوا السلطان إلى الزيدانية لتلقيه ودفعوا الأمراء إليه وأشاروا له إلى الأتابكية ووضعوا زمام الدولة في يده فصار إليه التولية والعزل والحل والعقد وولى بيبقا الناظري أمير سلاح مكان سباطا وبعثوا بلاطاً إلى الكرك لاستقلال طمشتر بمكانه وولي بندمر الخوارزمي نائباً بدمشق على سائر وظائف الدولة وممالك الشام كما اقتضاه نظره ووافق عليه أستاذ دار برقوق وبركة وولي أيبك

اليوسفي فرتب برقوق رأس نوبه مكـان النـاظري واستمر الحـال على ذلك وبرقوق وبركة أثناء هذه الأمور يستكثران من المماليك استغلاظا لشوكتهما واكتنافاً لعصبيتهما أن يمتد الأمير إلى مراتبهما فيبذلان الجاه لتابعهما ويوفران الإقطاع لمن يستخدم لهما ويخصان بالإمرة من يجنح من أهل الدولة إليهما وإلى أبوابهما وانصرفت الوجوه عن سواهما.

وارتاب طشتمر بنفسه في ذلك وأغراه أصحابه بالتوثب بهذين الأميرين فلما كان ذو الحجة سنة تسع وسبعين استعجل أصحابه على غير روية وبعثوا إليه فأحجم وقعد عن الركوب واجتمع برقوق وبركة بالاصطبل فركن إليه وقاتل مماليك طشتمر بالرميلة ساعة من نهار وانهزموا وافترقوا واستأمن طشتمر فأمنوه واستدعوه إلى القلعة فقبضوا عليه وعلى جماعة من أصحابه منهم أطلمش الأرغوني ومدلان الناظري وأمير حاج بن مغلطاي ودواداره أرغون وبعث بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها وبعث معهم بيبقا الناصري كذلك.

ثم أفرج عنه لأيام وبعثه نائباص عن طرابلس ثم أفرج عن طشتمر بعد ذلك إلى دمياط ثم إلى القدس إلى أن مات سنة سبع وثمانين واستقامت الدولة للأميرين بعد اعتقالهما وخلت لهما من المنازعين وولى الأمير برقوق أتابكاً وولى الماخورية الجابي الشمسي وولى قريبه أنيال أمير سلاح مكان الناصري وولى اقتمر العثماني دوادار مكان أطلمش الأرغوني وولى الطنبقا الجوباني رأس نوبة ثانياً ودمرداش أمير مجلس وتوفي بيبقا النظامي نائب حلب فولى مكانه عشقتمر المارداني ثم استأذن عشقتمر فأذن له وحبس بالإسكندرية وولى مكانه بحلب تمرتاش الحسيني الدمرداشي ثم أفرج عنه وأقام بالقدس قليلاً ثم استدعاه بركة وأكرم نزله وبعثه نائباً إلى حلب.

ثورة أنيال ونكبته

كان أنيال هذا أمير سلاح وكان له مقام في الدولة وهو قريب الأمير برقوق وكان شديد الانحراف على الأمير بركة ويحمل قريبه على منافرته ولا يجيبه إلى ذلك فاعتزم على الثورة وتحين لها سفر الأمير بركة إلى البحيرة يتصيد فركب الأمير برقوق في بعض تلك الأيام متصيداً بساحة البلد فرأى أن قد خلا له الجو فركب وعمد إلى باب الاصطبل فملكه ومعه جماعة من مماليكه ومماليك الأمير برقوق وتقبضوا على أمير الماخورية جركس الخليلي واستدعوا السلطان المنصور ليظهروه للناس فمنعه المقدمون من باب الستارة وجاء الأمير برقوق من صيده ومعه الأتابك الشمسي فوصلوا إلى منزله خارج القلعة وأفرغوا السلاح على سائر مماليكهم وركبوا إلى ساحة الاصطبل ثم قصدوا إلى الباب فأحرقوه وتسلق الأمير قرطاي المنصوري من جهة باب السر وفتحه لهم فدخلوا منه ودافعوا أنيال وانتقض عليه المماليك الذين كانوا معه من مماليك الأمير برقوق ورموه بالسهام فانهزم ونزل إلى بيته جريحاً وأحضر إلى الأمير برقوق فاعتذر له بأنه لم يقصد بفعلته إلا التغلب على بركة فبعث به إلى الإسكندرية معتقلاً وأعاد بيبقا الناصري أمير سلاح كما كان واستدعي لها من نيابة طرابلس ووصل الخبر إلى بركة فأسرع الكر من البحيرة وانتظم الحال ونظروا في الوظائف التي خلت في هذه الفتنة فعمروها بمن يقوم بها واختصوا بها من حسن غناؤه في هذه الواقعة مثل قردم وقرط وذلك سنة إحدى وثمانين.

واقام أنيال معتقلاً بالإسكندرية ثم أفرج عنه في صفر سنة اثنتين وثمانين وولاه على طرابلس ثم توفي منكلي بقا الأحمدي نائب حلب فولى أنيال مكانه ثم تقبض عليه آخر السنة وحبس بالكرك وولى مكانه بيبقا الأحمدي فولى مكانه بندمر الخوارزمي ثم توفي سنة إحدى وثمانين جبار بن المهنا أمير العرب بالشام فولي مكانه معيقل بن فضل بن عيسى وزامل بن موسى بن عيسى شريكين ثم عزلا وولي يعبر بن جبار.

ثورة بركة ونكبته واستقلال الأمير برقوق بالدولة

كان هذا الأمير بركة يعادل الأمير برقوق في حمل الدولة كما ذكرناه وكان أصحابه يفوضون إليه الاستبداد في الأموال وكان الأمير برقوق كثير التثبت في الأمور والميل إلى المصالح فيعارضهم في الغالب ويضرب على أيديهم في الكثير من الأحوال فغصوا بمكانه وأغروا بركة بالتوثب والاستقلال بالأمر وسعوا عنده بأشمس من كبار أصحاب الأمير برقوق وأنه يحمل برقوق على مقاطعة بركة ويفسد ذات بينهما وأنه يطلب الأمر لنفسه وقد اعتزم على الوثوب عليهما فجاء بركة بذلك إلى الأمير برقوق وأراد القبض على أشمس فمنعه الأمير برقوق ودفع عنه وعظم انحراف بركة على أشمس ثم عن الأمير برقوق وسعى في الإصلاح بينهما الأكابر حتى كمال الدين شيخ التكية والخلدي شيخ الصوفية من أهل خراسان وجاؤوا بأشمس إلى بركة مستعتباً فأعتبه وخلع عليه.

ثم عاود انحرافه ثانية فمسح أعطافه وسكن وهو مجمع الثورة والفتك ثم عاود حاله تلك ثالثة واتفق أن صنع في بيت الأمير برقوق لسروره وليمة في بعض أيام الجمعة في شهر ربيع سنة اثنتين وثمانين وحضر عنده أصحاب بركة كلهم وأهل شوكته وقد جاءه النصيح بأن بركة قد أجمع الثورة غداة يومه فقبض الأمير برقوق على من كان عنده من أصحاب بركة ليقص جناحه منهم وأركب حاشيته للقبض عليه وأصعد بدلان الناصري على مأذنة مدرسة حسن فنضحه بالنبل في اصطبله وركب بركة إلى قبة النصر وخيم بها ونودي في العامة بنهب بيوته فنهبوها للوقت وخربوها وتحيز إليه بيبقا الناصري فخرج معه وجلس الأمير برقوق بباب القلعة من ناحية الاصطبل وسرح الفرسان للقتال واقتتلوا عامة يومهم فزحف بركة على تعبيتين إحداهما لبيبقا الناصري

وخرج الأق الشعباني للقائه وأشمس للقاء بيبقا الناصري فانهزم أصحاب بركة ورجع إلى قبة النصر وقد أثخنوا بالجراح وتسلل أكثرهم إلى بيته وأقام الليل ثم دخل إلى جامع البلدة وبات به ونمي إلى الأمير برقوق خبره فأركب إليه الطنبقا الجوباني وجاء به إلى القلعة وبعث به الأمير برقوق إلى الإسكندرية فحبس بها إلى أن قتله النائب بها صلاح الدين بن عزام وقتل به في خبر يأتي شرحه إن شاء الله تعالى وتقبض على بيبقا الناصري وسائر شيعته من الأمراء وأودعهم السجون إلى أن استحالت الأحوال وولى وظائفهم من أوقف عليه نظره من أمراء الدولة وأفرج عن أنيال الثائر قبله وبعثه نائباً على طرابلس واستقل بحمل الدولة وانتظمت به أحوالها واستراب سندمر نائب دمشق لصحابته مع بركة فتقبض عليه وعلى أصحابه بدمشق وولى نيابة دمشق عشقتمر ونيابة حلب أنيال وولى أشمس الأتابكية مكان بركة والأق الشعباني أمير سلاح والطنبقا الجوباني أمير مجلس وأبقا العثماني دوادار وجركس الخليلي أمير الماخورية والله تعالى ولي التوفيق.

انتقاض أهل البحيرة وواقعة العساكر

كان هؤلاء الظواعن الذين عمروا الدولة من بقايا هوارة ومزاتة وزناتة يعمرونها عن تحت أيديهم من هذه القبائل وغيرهم ويقومون بخراج بالسلطان كل سنة في إبانه وكانت الرياسة عليهم حتى في أداء الخراج لبدر بن سلام وآبائه من قبله وهو من زناتة إحدى شعوب لواتة وكان للبادية المتبذين مثل أبي ذئب شيخ أحياء مهرانة وعسرة ومثل بني التركية أمراء العرب بعقبة الإسكندرية اتصال بهم لاحتياجهم إلى الميرة من البحيرة ثم استخدموا الأمراء الترك في مقاصدهم وأموالهم واعتزوا بجاههم وأسفوا على نظائرهم من هوارة وغيرهم ثم حدثت الزيادة في وظائف الجباية كما هي طبيعة الدولة فاستثقلوها وحدثتهم أنفسهم بالامتناع منها لما عندهم من الاعتزاز فأرهقوا في الطلب وحبس سلام بالقاهرة وأجفل ابنه بدر إلى الصعيد بالقبلية واعترضه هنالك عساكر السلطان فقاتلهم وقتل الكاشف في حربه وسارت إليه العساكر سنة ثمانين مع الأق الشعباني وأحمد بن بيبقا وأنيال قبل ثورته فهربوا وعاثت العساكر في مخلفهم ورجعوا وعاد بدر إلى البحيرة وشغلت الدولة عنهم بما كان من ثورة أينال وبركة بعده واتصل فساد بدر وامتناعه فخرجت إليه العساكر مع الأتابك أشمس والأمير سلام والجوباني أمير مجلس وغيرهم من الأمراء الغريبة ونزلت العساكر البحيرة واعتزم بدر على قتالهم فجاءهم النذير بذلك فانتبذوا عن الخيام وتركوها خاوية ووقفوا على مراكزهم حتى توسط القوم المخيم وشغلوا بنهبه فكرت عليهم العساكر فكادوا يستلحمونهم ولم يفلت منهم إلا الأقل وبعث بدر بالطاعة واعتذر بالخوف وقام بالخراج فرجعت العساكر وولى بكتمر الشريف على البحيرة ثم استبدل منه بقرط بن عمر ثم عاد بدر إلى حاله فخرجت العساكر فهرب أمامها وعاث القرط فيهم وقتل الكثير من رجالهم وحبس آخرين ورجع عن بدر أصحابه مع ابن عمه ومات ابن شادي وطلب الباقي الأمان فأمنوا وحبس رجال منهم وضمن الباقون القيام بالخراج واستأمن بدر فلم يقبل فلحق بناحية الصعيد واتبعته العساكر فهرب واستبيح مخلفه وأحياؤه ولحق ببرقة ونزل على أبي ذئب فأجاره واستقام أمر البحيرة وتمكن قرط من جبايتها وقتل رحاب وأولاد شادي وكان قرطاي يستوعب رجالتهم بالقتل وأقام بدر عند أبي ذئب يتردد ما بين أحيائه وبين الواحات حتى لقيه بعض أهل الثأر عنده فثأروا منه سنة تسع وثمانين وذهب مثلاً في الآخرين والله تعالى أعلم.

مقتل بركة في محبسه وقتل ابن عزام بثأره

كان الأمير بركة استعمل أيام إمارته خليل بن عزام أستاذ داره ثم اتهمه في ماله وسخطه ونكبه وصادره على مال امتحنه عليه ثم أطلقه فكان يطوي له على النكث ثم صار بركة إلى ما صار إليه من الاعتقال بالإسكندرية وتولى ابن عزام نيابتها فحاول على حاجة نفسه في قتل بركة ووصل إلى القاهرة متبرئاً من أمره متخوفاً من مغبته ورجع وقد طوى من ذلك على الدغل ثم حمله الحقد الكامن في نفسه على اغتياله في جنح الليل فأدخل عليه

جماعة متسلحين فقتلوه وزعم أنه أذن له في ذلك.

وبلغ الخبر إلى كافل الدولة الأمير برقوق وصرح مماليكه بالشكوى إليه فأنكر ذلك وأغلظ على ابن عزام وبعث دوداره الأمير يونس يكشف عن سببه وإحضار ابن عزام فجاء به مقيداً وأوقفه على شنيع مرتكبه في بركة فحلف الأمير ليقادن منه به وأحضر إلى القلعة في منتصف رجب من سنة اثنتين وثمانين فضرب بباب القلعة أسواطاً ثم حمل على جمل مشتهراً وأنزل سوق الخيل فتلقاه مماليك بركة فتناولوه بالسيوف إلى أن تواقعت أشلاؤه بكل ناحية وكان فيه عظة لمن يتعظ أعاذنا اللّه من درك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء انتهى.

وفاة السلطان المنصور علي بن الأشرف وولاية الصالح أمير حاج

كان هذا السلطان علي بن الأشرف قد نصبه الأمير قرطاي في ثورته على أبيه الأشرف وهو ابن اثنتي عشرة سنة فلم يزل منصورا والأمر ينتقل من دولة إلى دولة كما ذكرناه إلى أن هلك لخمس سنين من ولايته في صفر سنة ثلاث وثمانين فحضر الأمير برقوق واستدعى الأمراء واتفقوا على نصب أخيه أمير حاج ولقبوه الصالح وأركبوه إلى الإيوان فأجلسوه على التخت وقلده الخليفة على العادة وجعل الأمير برقوق كافله في الولاية والنظر للمسلمين لصغره حينئذ عن القيام بهذه العهدة وأفتى العلماء يومئذ بذلك وجعلوه من مضمون البيعة وقرىء كتاب التقليد على الأمراء والقضاة والخاصة والعامة في يوم مشهود وانفض الجمع وانعقد أمر السلطان وبيعته وضرب فيها للأمير برقوق بسهم واللّه تعالى مالك الأمور.

وصول أنس الغساني والد الأمير برقوق وانتظامه في الأمراء

أصل هذا الأمير برقوق من قبيلة جركس الموطنين ببلاد الشمال في الجبال المحيطة بوطء القفجاق والروس واللان من شرقيها المطلة على بسائطهم ويقال: إنهم من غسان الداخلين إلى بلاد الروم مع أميرهم جبلة بن الأيهم عندما أجفل هرقل إلى الشام وسار إلى القسطنطينية وخبر مسيره من أرض الشام وقصته مع عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه متناقلة معروفة بين المؤرخين وأما هذا الرأي فليس على ظاهره وقبيلة جركس من الترك معروفة بين النسابين ونزولهم بتلك المواطن قبل دخول غسان وتحقيق هذا الرأي أن غسان لما دخلوا مع جبلة إلى هرقل أقاموا عنده ويئسوا من الرجوع لبلادهم وهلك هرقل واضطرب ملك الروم وانتشرت الفتنة هنالك في ممالكهم واحتاجت غسان إلى الحلف للمدافعة في الفتن وحالفوا قبائل جركس ونزلوا في بسيط جبلهم من جانبه الشرقي مما يلي القسطنطينية وخالطوهم بالنسب والصهر واندرجوا فيهم حتى تلاشت أحياؤهم وصاروا إلى تلك الأماكن وأووا من البسائط إلى الجبال مع جركس فلا يبعد مع هذا أن تكون أنسابهم تداخلت معهم ممن انتسب إلى غسان من جركس وهو مصدق في نسبه ويستأنس له بما ذكرناه فهو نسبة قوية في صحته واللّه تعالى أعلم.

وجلب هذا الأمير برقوق على عهد الأمير بيبقا عثمان قراجا من التجار المعروفين يومئذ بتلك الجهات فملكه بيبقا وربي في أطباق بيته وأوى من قصده وشد في الرماية والثقافة وتعلم آداب الملك وانسلخ من جلدة الخشونة وترشح للرياسة والإمارة والسعادة تشير إليه والعناية الربانية تحوم عليه ثم كان ما ذكرناه من شأن مماليك بيبقا ومهلك كبيرهم يومئذ استدمر وكيف تقسموا بين الجلاء والسجن وكان الأمير برقوق أعزه اللّه تعالى ممن أدركه التمحيص فلبث في سجن الكرك خمس سنين بين أصحاب له منهم فكانت تهوينا لما لقي من بوائقه وشكراً له بالرجوع إلى اللّه ليتم ما قدر ا لله فيه من حمل أمانته واسترعاء عباده ثم خلص من ذلك المحبس مع أصحابه وخُلي سبيله فانطلقوا إلى الشام واستخلصهم الأمير منجك نائب الشام يومئذ وكان بصيراً مجرباً فألقى محبته وعنايته على هذا الأمير لما رأى عليه من علامات القبول والسعادة ولم يزل هناك في خالصته إلى أن هجس في نفس السلطان الأشرف استدعاء المرشحين من مماليكه وهذا الأمير يقدمهم وأفاض فيهم الإحسان واستضافهم لولده الأمير علي ولم يكن إلا أيام وقد انتقض الجائي القائم بالدولة وركب على السلطان فأحضرهم السلطان الأشرف وأطلق أيديهم في خيوله المقربة وأسلحته المستجادة فاصطفوا منها ما اختاروه وركبوا في مدافعة الجائي وصدقوه القتال حتى دافعوه على الرميلة.

ثم اتبعوه حتى ألقى نفسه في البحر فكان آخر العهد به واحتلوا بما كان من أثره السلطان واختصاصه فسوغ لهم الإقطاعات وأطلق لهم الجرايات ولهذا الأمير بين يديه من بينهم مزيد مكانة ورفيع محل إلى أن خرج السلطان الأشرف إلى الحج وكان ما قدمناه من انتقاض قرطاي واستبداده ثم استبداد أيبك من بعده وقد عظم محل هذا الأمير من الدولة ونما عزه وسمت رتبته

ثم فسد أمر أبيك وتغلب على الأمر جماعة من الأمراء مفترقي الأهواء وخشي العقلاء انتقاض الأمر وسوء المغبة فبادر هذا الأمير وتناول الحبل بيده وجعل طرفه في يد بركة رديفه فأمسك معه برهة من الأيام ثم اضطرب وانتقض وصار إلى ما صار إليه من الهلاك واستقل الأمير برقوق بحمل الدولة والعناية الربانية تكفله والسعادة تؤاخيه.

وكان من جميل الصنع الرباني له أن كيف غريبة في اجتماع شمل أبيه به فقدم وفد التجار بأبيه من قاصية بلادهم بعد أن أعملوا الحيلة في استخلاصه وتلطفوا في استخراجه وكان اسمه أنس فاحتفل ابنه الأمير برقوق من مبرته وأركب العساكر وسائر الناس على طبقاتهم لتلقيه وأعد الخيام بسرياقوس لنزوله فحضروا هنالك جميعاً في ثاني ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين وجلس الأمير أنس الوافد صدر المجلس وهم جميعاً حفافيه من القضاة والأمراء ونصب السماط فطعم الناس وانتشروا.

ثم ركبوا إلى البلد وقد زينت الأسواق وأوقدت الشموع وماجت السكك بالنظارة من عالم لا يحصيهم إلا خالقهم وكان يوماً مشهوداً وأنزله بالاصطبل تحت المدينة الناصرية ونظمه السلطان في أقربائه وبني عمه وبني إخوانه واجتمع شملهم به وفرض لهم الأرزاق وقررهم في الوظائف ثم مات هذا الأب الوافد وهو الأمير أنس رحمه الله في أواسط وثمانين بعد أن أوصى بحجة إسلامه وشرفت مراتب الإمارة بمقامه ودفنه السلطان بتربة الدوادار يونس ثم نقله إلى المدفن بجوار المدرسة التي أنشاها بين القصرين سنة ثمان وثمانين والله يؤتي الملك من يشاء.

خلع الصالح أمير حاج وجلوس برقوق على التخت واستبداده بالسلطان

كان أهل الدولة من البيبقاوية- من ولي منهم هذا الأمير برقوق- قد طمعوا في الاستبداد وظفروا بلذة الملك والسلطان ورتعوا في ظل الدولة والأمان ثم سمت أحوالهم إلى أن يستقل أميرهم بالدولة ويستبد بها دون الأصاغر المنتصبين بالمملكة وربما أشار بذلك بعض أهل الفتيا يوم بيعة أمير حاج وقال: لابد أن يشرك معه في تفويض الخليفة الأمير القائم بالدولة لتشد الناس إلى عقدة محكمة فأمضى الأمر على ذلك وقام الأمير بالدولة فأنس الرعية بحسن سياسته وجميل سيرته واتفق أن جماعة من الأمراء المختصين بهذا الصبي المنصوب غصوا بمكان هذا الأمير وتفاوضوا في الغدر به وكان متولي ذلك منهم أبقا العثماني دوادار السلطان.

ونمي الخبر إليه بذلك فتقبض عليهم وبعث أبقا إلى دمشق على إمارته وغرب الآخرين إلى قوص فاعتقلوا هنالك حتى أنفذ فيهم حكمه وأشفق الأمراء من تدبر مثل هؤلاء عليهم وتفاوضوا في محو الأصاغر من الدست وقيامه بأمرهم مستقلاً فجمعهم لذلك في تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وحضر الخاصة والعامة من الجند والقضاة والعلماء وأرباب الشورى والفتيا وأطبقوا على بيعته وعزل السلطان أمير حاج فبعث إليه أميرين من الأمراء فأدخلوه إلى بيته وتناولوا السيف من يده فأحضروها.

ثم ركب هذا السلطان من مجلسه بباب الاصطبل وقد لبس شعار السلطنة وخلعة الخلافة فدخل إلى القصور السلطانية وجلس بالقصر الأبلق على التخت وأتاه الناس ببيعتهم أرسالاً وانعقد أمره يومئذ ولقب الملك الظاهر وقرعت الطبول وانتشرت البشائر وخلع على أمراء الدولة مثل أشمس الأتابك والطنبقا الجوباني أمير مجلس وجركس الخليلي أمير الماخورية وسودون الشيخوني نائباً والطنبقا المعلم أمير سلاح ويونس النوروي دوادار وقردم الحسيني رأس نوبة وعلى كتابه أوحد الدين بن ياسين كاتب سره أدال به من بدر الدين بن فضل الله كاتب سر السلطان من قبل وعلى جميع أرباب الوظائف من وزير وكاتب وقاض ومحتسب وعلى مشاهير العلم والفتيا والصوفية وانتظمت الدولة أحسن انتظام وسر الناس بدخولهم في إيالة السلطان يقدر للأمور قدرها ويحكم أواخيها واستأذنه الطنبقا الجوباني أمير مجلس في الحج تلك السنة وأذن له فانطلق لقضاء فرضه وعاد انتهى والله تعالى أعلم.

مقتل قرط وخلع الخليفة ونصب ابن عمه الواثق للخلافة

كان قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة وكان له إقدام وصرامة رقي بهما إلى محل من مرادفة الأمراء في وجوههم ومذاهبهم ودفع إلى ولاية الصعيد ومحاربة أولاد الكنز من العرب الجائلين في نواحي أسوان فكان له في ذلك غناء وأحسن في تشريدهم عن تلك الناحية ثم بعث إلى البحيرة والياً عند انتقاض بدر بن سلام وفراره ومرجع العساكر من تمهيدها فقام بولايتها وتتبع آثار أولئك المنافقين وحسم عللهم وحضر في ثورة أنيال فجلا في ذلك اليوم لشهامته وإقدامه وكان هو المتولي تسور الحائط وإحراق الباب الظهراني الذي ولجوا عليه وأمسكوه فكان يمت بهذه الوسائل أجمع والسلطان يرعى له إلا أنه كان ظلوماً غشوماً فكثرت شكايات الرعايا والمتظلمين به فتقبض عليه

لأول بيعته وأودعه السجن.

ثم عفا عنه وأطلقه وبقي مباكراً باب السلطان مع الخواص والأولياء وطوى على الغث وتربص بالدولة ونمي عنه أنه فاوض الخليفة المتوكل بن المعتضد في الانتقاض والأجلاب على الدولة بالعرب المخالفين بنواحي برقة من أهل البحيرة وأصحاب بدر بن سلام وأن يفوض الخليفة الأمر إلى سوى هذا السلطان القائم بالدولة بأنه داخل في ذلك بعض ضعفاء العقول من أمراء الترك ممن لا يؤبه له فأحضرهم من غداته وعرض عليهم الحديث فوجموا وتناكروا وأقر بعضهم واعتقل الخليفة بالقلعة وأخرج قرط هذا لوقته فطيف به على الجمل مسمراً إبلاغا في عقابه ثم سيق إلى مصرعه خارج البلد وقُدَّ بالسيف نصفين وضم الباقون إلى السجون وولى السلطان الخلافة عمر بن إبراهيم الواثق من أقاربه وهو الذي كان الملك الناصر ولى أباه إبراهيم بعد الخليفة أبي الربيع وعزل عن ابنه أحمد كما مر وكان هذا كله في ربيع سنة خمس وثمانين وولى مكانه أخوه زكريا ولقب المعتصم واستقرت الأحوال إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

نكبة الناصري واعتقاله

كان هذا الناصري من مماليك بيبغا وأرباب الوظائف في أيامه وكان له مع السلطان الظاهر ذمة وداد وخلة من لدن المربى والعشرة فقد كانوا أتراباً بها وكانت لهم دالة عليه لعلو سنه وقد ذكرنا كيف استبدوا بعد أيبك ونصبوا الناصري أتابكاً ولم يحسن القيام عليها وجاء طشتمر بعد ذلك فكان معه حتى في النكبة والمحبس ثم أشخص إلى الشام وولي على طرابلس ثم كانت ثورة أنيال ونكبته في جمادى سنة إحدى وثمانين فاستقدمهم من طرابلس وولي أمير سلاح مكان أنيال واستخلفه الأمير بركة وخلطه بنفسه وكانت نكبته فحبس معه ثم أشخص إلى الشام وكان أنيال قد أطلق من اعتقاله وولي على حلب سنة اثنتين وثمانين مكان منكلي بقري الأحمدي فأقام بها سنة أو نحوها.

ثم نمي عنه خبر الانتقاض فقبض عليه وحبس بالكرك وولى مكانه على حلب بيبغا الناصري في شوال سنة ثلاث وثمانين وقعد الظاهر على التخت لسنة بعدها واستبد بملك مصر وكان الناصري لما عنده من الدالة يتوقف في إنفاذ أوامره لما يراه من المصالح بزعمه والسلطان ينكر ذلك ويحقده عليه وكان له مع الطنبقا الجوباني أمير مجلس أحد أركان الدولة حلف لم يغن عنه وأمر السلطان بالقبض على سولي بن بلقادر حين وفد عليه بحلب فأبى من ذلك صوناً لوفائه بزعمه ودس بذلك إلى سولي فهرب ونجا من النكبة.

ووفد على السلطان سنة خمس وثمانين وجدد حلفه مع الجوباني ومع أشمس الأتابك ورجع إلى حلب ثم خرج بالعساكر إلى التركمان آخر سنة خمس وثمانين دون إذن السلطان فانهزم وفسدت العساكر ونجا بعد ثالثة جريحاً وأحقد عليه السلطان هذه كلها ثم استقدمه سنة سبع وثمانين فلما انتهى إلى سرياقوس تلقاه بها أستاذ دار فتقبض عليه وطير به إلى الإسكندرية فحبس بها مدة عامين وولى مكانه بحلب الحاجب سودون المظفر وكان عيبة نصح للسلطان وعيناً على الناصري فيما يأتيه ويذره لأنه من وظائف الحاجب للسلطان في دولة الترك خطة البريد المعروفة في الدول القديمة فهو بطانة السلطان بما يحدث في عمله ويعترض شجى في صدر من يروم الانتقاض من ولاته وكان هذا الحاجب سودون هو الذي ينمي أخباره إلى السلطان ويطلعه على مكا من مكره فلما حبس الناصري بالإسكندرية ولاه مكانه بحلب وارتاب الجوباني من نكبة الناصري لما كان بينهما من الوصلة والحلف فوجم واضطرب وتبين السلطان منه النكر فنكبه كما نذكره بعد إن شاء اللّه تعالى وأقصاه واللّه أعلم.

إقصاء الجوباني إلى الكرك ثم ولايته على الشام بعد واقعة بندمر

أصل هذا الأمير الجوباني من قبائل الترك واسمه الطنبقا وكان من موالي بيبغا الخاصكي المستولي على السلطان الأشرف وقد مر ذكره ربي في قصره وجوٌ عزٌ ولقّن الخلال والآداب في كنفه وكانت بينه وبين السلطان خلة ومصافاة اكسبتها له تلك الكفالة بما كانا رضيعي ثديها وكوكبي أفقها وتربي مرقاها وقد كان متصلاً فيما قبله بينهما من لدن المربي في بلادهم واشتمل بعضهم على بعض واستحكم الاتحاد حتى بالعشرة أيام التمحيص والاغتراب كما مر فلقد كان معتقلاً معه بالكرك أيام المحنة خمساً من السنين أدال اللّه لهذا السلطان حزنها بالمسرة والنحوسة بالسعادة والسجن بالملك وقسمت للجوباني بها شائبة من رحمة اللّه وعنايته في خدمة السلطان بدار الغربة والمحنة وألفته به في المنزل الخشن لتعظم له الوسائل وتكرم الأذمة والعهود:

إن الكرام اذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ثم كان انطلاقهما إلى الشام ومقامهما جميعاً واستدعاؤهما إلى دار الملك ورقيهما في درج العز والتغريب كذلك وكان

للسلطان أصحاب سراة يمتون إليه بمثل هذه الوسائل وينتظمون في سلكها وكان متميز الرتبة عنهم سابقا في مرقى درجات العز أمامهم مجلياً في الحلبة التي فيها طلقهم إلى أن ظفر بالملك واستولى على الدولة وهو يستتبعهم في مقاماته ويوطئهم عقبه ويذلل لهم الصعاب فيقتحموها ويحوز لهم الرتب فيستهمون عليها ثم اقتعد منبر الملك والسلطان واستولى على كرسيه وقسم مراتب الدولة ووظائفها بين هؤلاء الأصحاب وآثر الجوباني منهم بالصفاء والمرباع فجعله أمير مجلسه ومعناه: صاحب الشورى في الدولة وهو ثاني الأتابك وتلو رتبته فكانت له القدم العالية من أمرائه وخلصائه والحظ الوافر من رضاه وإيثاره وأصبح أحد الأركان التي بها عمد دولته بأساطينها وأرسى ملكه بقواعدها إلى أن دبت عقارب الحسد إلى مهاده وحومت شباة السعاية على قرطاسه وارتاب السلطان بمكانه وأعجل الحزم على إمهاله فتقبض عليه يوم الاثنين لسبع بقين من سنة سبع وثمانين وأودعه بعض حجر القصر عامة يومه.

ثم أقصاه إلى الكرك وعواطف الرحمة تنازعه وسجايا الكرم والوفاء تقض من سخطه ثم سمح وهو بالخير أسمح وجنح وهو إلى الأدنى من اللّه أمنح فسرح إليه من الغد بمرسوم النيابة على تلك الأعمال فكانت غريبة لم يسمع بمثلها من حلم هذا السلطان وأناته وحسن نيته وبصيرته وكرم عهده وجميل وفائه وانطلقت الألسن بالدعاء له وامتلأت القلوب بالمحبة وعلم الأولياء والخاصة والشيع والكافة أنهم في كفالة أمن ولطف ومملكة إحسان وعدل.

ثم مكث حولاً يتعقب أحواله ويتتبع سيره وأخباره طاوياً شأنه في ذلك عن سائر الأولياء إلى أن وقف على الصحيح من أمره وعلم خلوص مصادقته وجميل خلوصه فأخفق سعي الداعين وخابت ظنون الكاشحين وإدالة العتبى من العتاب والرضا من النكرى واعتقد أن يمحو عنه هواجس الاسترابة والاستيحاش ورده إلى أرفع الإمارة وبينما هو يطوي على ذلك ضميره ويناجي سره إذ حدثت واقعة بتدمر بالشام فكانت ميقاتاً لبدر السعادة وعلماً على فوزه بذلك الحظ كما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

وخبر هذه الواقعة أن بندمر الخوارزمي كان نائباً بدمشق وقد مر ذكره غير مرة وأصله من الخوارزمية أتباع خوارزم شاه صاحب العراق عند استيلاء التتر وافترقوا عند مهلكه على يد جنكزخان في ممالك الشام واستخدموا لبني أيوب والترك أول استبدادهم بمصر وكان هذا الرجل من أعقاب أصلهم وكان له نجابة جذبت بضبعه ونصب عند الأمراء من سوقه فاستخدم بها إلى ترشح للولاية في الأعمال وتداول إمارة دمشق مع منجك اليوسفي وعشقتمر الناصري وكان له انتقاض بدمشق عند تغلب الخاصكي وحاصره واستنزله بأمانه.

ثم أعيد إلى ولايته ثم تصرمت تلك الدول وتغلب هذا السلطان على الأمر وردافه فيه فولوه على دمشق وكانت صاغيته مع بركة فلما حدث انتقاض بركة كتب إليه وإلى بقري بدمشق أولياؤه هنالك بالاستيلاء على القلعة وكتب برقوق إلى نائب القلعة يحذرهم فركب جنتمر أخ طاز وابن جرجي ومحمد بيك وقاتلوه ثلاثاً ثم أمسكوه وقيدوه ومعه بقري بن برقش وجبريل مرتبه وسيقوا إلى الإسكندرية فحبسوا فلما قتل بركة أطلق بندمر ومن كان حبس من أصحاب بركة مثل بيبقا الناصري ودمرداش الأحمدي ثم استخلصه السلطان برقوق ورده إلى عمله الأول بعد جلوسه على التخت والشام له وكان جماعاً للأموال شديد الظلامة فيها متحيلاً على استخلاصها من أيدي أهلها بما يطرق لهم من أسباب العقاب مصانعاً للحاشية بماله من حاميته إلى أن سئم الناس إيالته وترحمت القلوب منه.

وكان بدمشق جماعة من الموسوسين المسامرين لطلب العلم بزعمهم متهمون في عقيدتهم بين مجسم ورافضي وحلولي جمعت بينهم أنساب الضلال والحرمان وقعدوا عن نيل الرتب بما هم فيه تلبسوا بإظهار الزهد والنكير على الخلق حتى على الدولة في توسعة بطلان الأحكام والجباية عن الشرع والسياسة التي تداولها الخلفاء وأرخص فيها العلماء وأرباب الفتيا وحملة الشريعة بما تمس إليه الحاجة من الوازع السلطاني والمعونة على الدفاع.

وقديماً نصبت الشرطة الصغرى والكبرى ووظيفة المظالم ببغداد دار السلام ومقر الخلافة وإيوان الدين والعلم وتكلم الناس فيها بما هو معروف وفرضت أرزاق العساكر في أثمان البياعات عند حاجة الدولة الأموية فليس ذلك من المنكر الذي يعتد بتغييره فلبس هؤلاء الحمقى على الناس بأمثال هذه الكلمات وداخلوا من في قلبه مرض من الدولة وأوهموا أن قد توثقوا من الحل والعقد في الانتقاض فرية انتحلوها وجمعاً أنهوه نهايته وعدوا على كافل القلعة بدمشق وحاميتها يسألونهم الدخول معهم في ذلك لصحابة كانت بين بعضهم وبينه فاعتقلهم وطالع السلطان بأمرهم.

وتحدث الناس أنهم داخلوا في ذلك بندمر النائب بمداخلة بعضهم كابنه محمد شاه ونمي الخبر بذلك إلى السلطان فارتاب به وعاجله بالقبض والتوثق منه ومن حاشيته ثم أخرج مستوفي الأموال بالحضرة لاستخلاص ما احتازه من أموال الرعايا واستأثر به على الدولة وأحضر هؤلاء الحمقى ومن بسوء سيرتهم مقتدون

إلى الأبواب العالية فقذفوا في السجون وكانوا أحق بغير ذلك من أنواع العذاب والنكال.

وبعث السلطان لعشقتمر الناصري وكان مقيماً بالقدس أن يخرج نائباً على دمشق فتوجه إليها وأقام رسم الإمارة بها أياماً ظهر فيها عجزه وبيّن عن تلك الرتبة قعوده بما أصابه من وهن الكبر وطوارئ الزمانة والضعف حتى زعموا أنه كان يحمل على الفراش في بيته إلى منعقد حكمه فعندما بعث السلطان عن هذا الأمير الجوباني وقد خلص من الفتن أبريزه وأينع بنفحات الرضا والقبول عوده وأفرح بمطالعة الأنس والقرب روعه فجاء من الكرك على البريد وقد أعدت له أنواع الكرامة وهيّئ له المنزل والركاب والفرش والثياب والآنية والخوان والخرثي والصوان واحتفل السلطان لقدومه وتلقيه بما لم يكن في أمله.

وقضى الناس العجب من حلم هذا السلطان وكرم عهده وجميل وفائه وتحدث به الركبان ثم ولاه نيابة دمشق وبعثه لكرسيها مطلق اليد ماضي الحكم عزيز الولاية وعسكر بالزيدانية ظاهر القاهرة ثالث ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وارتحل من الغد وسعادة السلطان تقدمه ورضاه ينقله إلى أن قارب دمشق والناس يتلقونه أرسالاً ثم دخل المدينة غرة ربيع الثاني وقد احتفل الناس لقدومه وغصت السكك بالمتنزهين وتطاول إلى دولته أرباب الحدود وتحدث الناس بجمال هذا المشهد الحفيل وتناقلوا خبره واستقل بولاية دمشق وعناية السلطان تلاحظه ومذاهب الطاعة والخلوص تهديه بحسن ذكره وأفاض الناس الثناء في حسن اختياره وجمال مذهبه وأقام السلطان في وظيفته أحمد ابن الأمير بيبقا فكان أمير مجلس والله غالب على أمره.

هدية صاحب إفريقية

كان السلطان لهذا العهد بإفريقية من الموحدين ومن أعقاب الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي المستبد بإفريقية على بني عبد المؤمن ملوك مراكش أعوام خمس وعشرين وستمائة وهو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم أبي زكريا سلسلة ملوك كلهم ولم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد يعرفون لملوك الترك بمصر حقهم ويوجبون لهم الفضل والمزية بما خصهم الله من ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين وكانت المهاداة بينهم تتصل بعض الأحيان ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال وكان لي اختصاص بذلك السلطان ومكان من مجلسه.

ولما رحلت إلى هذا القطر سنة أربع وثمانين واتصلت بهذا السلطان بمصر الملك الظاهر سألني عنه لأول لقيه فذكرته له بأوصافه الحميدة وما عنده من الحب والثناء ومعرفة حقه على المسلمين أجمع وعلى الملوك خصوصاً في تسهيل سبيل الحج وحماية البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود أحسن الله جزاءه ومثوبته.

ثم بلغني أن السلطان بإفريقية صد أهلي وولدي عن اللحاق بي اغتباطاً بمكاني وطلباً لفيئتي إلى بابه ورجوعي فتطارحت على هذا السلطان في وسيلة شفاعة تسهل منه الأذن فأسعفني بذلك وخاطبت ذلك السلطان كان الله أغبط له بمودة هذا السلطان والعمل على مواصلته ومهاداته كما كان بين سلفهم في الدولتين فقبل مني وبادر إلى إتحافه بمقربات إذ ليس عندنا في المغرب تحفة تطرف بها ملوك الشرق إلا الجياد العرب وأما ما سوى ذلك من أنواع الطرف والتحف بالمغرب فكثير لديهم أمثاله ويقبح أن يطرف عظماء الملوك بالتافه المطروح لديهم.

واختار لتلك سفينته التي أعدها لذلك وأنزل بها أهلي وولدي بوسيلة هذا السلطان أيده الله لسهولة سبيل البحر وقرب مسافته فلما قاربوا مرسى الإسكندرية عاقتهم عواصف الرياح عن احتلال السفينة وغرق معظم ما فيها من الحيوان والبضائع وهلك أهلي وولدي فيمن هلك ونفقت تلك الجياد وكانت رائعة الحسن صافية النسب وسلم من ذلك المهلك رسول جاء من ذلك السلطان لمد العهد وتقرر المودة فتلقى بالقبول والكرامة وأوسع النزل والقرى ثم اعتزم على العودة إلى مرسله فانتقى السلطان ثيابا من الوشي المرقوم من عمل العراق والإسكندرية يفوت القيمة واستكثر منها وأتحف بها السلطان ملك إفريقية على يد هذا الرسول على عادة عظماء الملوك في إتحافهم وهداياهم.

وخاطبت ذلك السلطان معه بحسن الثناء على قصده وجميل موقع هديته من السلطان واستحكام مودته له وأجابني بالعذر من الموقع وأنه مستأنف من الإتحاف للسلطان واستحكام مودته بما يسره الحال فلما قدم الحاج من المغرب سنة ثمان وثمانين وصل فيهم من كبار الغرب بدولته وأبناء الأعاظم المستبدين على سلفه عبيد بن القائد أبي عبد الله محمد بن الحكيم بهدية من المقربات رائقة الحلي رائعة الأوصاف منتخبة الأجناس والأنساب غريبة الألوان والأشكال فاعترضها السلطان وقابلها بالقبول وحسن الموقع.

وحضر الرسول بكتابه فقرىء وأكرم حامله وأنعم عليه بالزاد لسفر الحج وأوصى أمراء المحمل فقضى فرضه على أكمل

الأحوال وكانت أهم أمنياته ثم انقلب ظافراً بقصده وأعاده السلطان إلى مرسله بهدية نحو من الأولى من أجناس تلك الثياب ومستجادها مما يجاوز الكثرة ويفوت واستحكمت عقدة المودة بين هذين السلطانين وشكرت الله على ما كان فيها من أثر مسعاي ولو قل.

وكان وصل في جملة الحاج من المغرب كبير العرب من هلال وهو يعقوب بن علي بن أحمد أمير رياح الموطنين بضواحي قسطنطينة وبجاية والزاب في وفد من بنيه وأقربائه ووصل في جملتهم أيضاً عون بن يحيى طالب بن مهلهل من الكعوب أحد شعوب سليم الموطنين بضواحي تونس والقيروان والجريد وبنو أبيه فقضوا فرضهم أجمعون وانقلبوا إلى مواطنهم أواسط شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين واطردت أحوال هذه الدولة على أحسن ما يكون والله متولي أمرها بمنه وكرمه انتهى.

حوادث مكة وأمرائها

قد تقدم لنا أن ملك مكة سار في هذه الأعصار لبني قتادة من بني مطاعن الهواشم بني حسن وذلك منذ دولة الترك وكان ملكهم بها بدوياً وهم يعطون الطاعة لملك مصر ويقيمون مع ذلك منذ الدولة العباسية للخليفة الذي ينصبه الترك بمصر إلى أن استقر أمرها آخر الوقت لأحمد بن عجلان من رميثة بن أبي نمي أعوام سنة ستين وسبعمائة بعد أبيه عجلان فأظهر في سلطانه عدلاً وتعففاً عن أموال الناس وقبض أيدي أهل العيث والظلم وحاشيتهم وعبيدهم وخصوصاً عن المجاورين وأعانه على ذلك ما كان له من الشوكة بقوة أخواله ويعرفون ببني عمر من أتباع هؤلاء السادة ومواليهم فاستقام أمره وشاع بالعدل ذكره وحسنت سيرته وامتلأت مكة بالمجاورين والتجار حتى غصت بيوتها بهم.

وكان عنان ابن عمه مقامس بن رميثة ومحمد ابن عمه مقامس بن رميثة ينفسون عليه ما آتاه الله من الخير ويجدون في أنفسهم إذ ليس يقسم لهم برضاهم في أموال جبايته فتنكروا له وهموا بالانتقاض فتقبض عليهم وكان لهم حلف مع أخيه محمد بن عجلان فراوده على تركهم أو حبسهم فحبسوا ولبثوا في محبسهم ذلك حولاً أو فوقه ثم نقبوا السجن ليلاً وفروا فأدركوا من ليلتهم وأعيدوا إلى محبسهم وأفلت منهم عنان بن مقامس ونجا إلى مصر سنة ثمان وثمانين صريخاً بالسلطان وعن قليل وصل الخبر بوفاة أحمد بن عجلان على فراشه وأن أخاه كبيش بن عجلان نصب ابنه محمداً مكانه وقام بأمره وأنه عمد إلى هؤلاء المعتقلين فسمهم صوناً للأمر عنهم لمكان ترشيحهم فنكر السلطان ذلك وسخطه من فعلاتهم وافتياتهم ونسب إلى كبيش وأنه يفسد بالفساد بين هؤلاء الأقارب.

ولما خرج الحاج سنة ثمان وثمانين أوصى أمير حاج بعزل الصبي المنصوب والاستبدال عنه بابن عنان بن مقامس والقبض على كبيش ولما وصل الحاج إلى مكة وخرج الصبي لتلقي المحمل الخلافي وقد أرصد الرجال حفافيه للبطش بكبيش وأميره المنصوب فقعد كبيش عن الحضور وجاء الصبي وترجل عن فرسه لتقبيل الخف من راحلة المحمل على العادة فوثب به أولئك المرصدون طعناً بالخناجر يظنونه كبيشاً ثم غابوا فلم يوقف لهم على خبر وتركوه طريحاً بالبطحاء ودخل الأمير إلى الحرم فطاف وسعي وخلع على عنان بن مقامس الإمارة على عادة من سلف من قومه ونجا كبيش إلى جدة من سواحل مكة.

ثم لحق بأحياء العرب المتبذين ببقاع الحجاز صريخاً فقعدوا عن نصرته وفاء بطاعة السلطان وافترق أمره وخذله عشيره وانقلب الأمير بالحاج إلى مصر فعنفه السلطان على قتله الصبي فاعتذر بافتيات أولئك الرجال عليه فعذره وجاء كبيش بعد منصرف الحاج وقد انضم إليه أوباش من العرب فقعد بالمرصد يخيف السابلة والركاب والمسافرين ثم زحف إلى مكة وحاصرها أول سنة تسع وثمانين وخرج عنان بن مقامس بعض الأيام وبارزه فقتله واضطرب الأمر بمكة وامتدت أيدي عنان والأشرار معه إلى أموال المجاورين فتسلطوا عليها ونهبوا زرع الأمراء هنالك وزرع السلطان للصدقة وولى السلطان علي بن عجلان واعتقله حسماً لمادة طوراق الفساد عن مكة واستقر الحال على ذلك إلى أن كانت فتنة الناصر كما نذكر إن شاء الله تعالى انتهى.

انتقاض منطاش بملطية ولحاقه بسيواس ومسير العساكر في طلبه

كان منطاش هذا وتمرتاي الدمرداشي الذي مر ذكره أخوين لتمراز الناصري من موالي الملك الناصر محمد بن قلاوون وربيا في كفالة أمهما وكان اسم تمرتاي محمداً وهو الأكبر واسم منطاش احمد وهو الأصغر واتصل تمرتاي بالسلطان الأشرف وترقى في دولته في الوظائف إلى أن ولي بحلب سنة ثمانين وكانت واقعته مع التركمان وذلك أنه وفد عليه أمراؤهم فقبض عليهم لما كان من عيثهم في النواحي واجتمعوا فسار إليهم وأمده السلطان بعساكر الشام وحماة وانهزموا أمامهم إلى الدربند ثم كروا على العساكر

فهزموها في المضايق وتوفي تمرتاي سنة اثنتين وثمانين وكان السلطان الظاهر برقوق يرعى لهما هذا الولاء فولى منطاش على ملطية ولما قعد على الكرسي واستبد بالسلطان بدت من منطاش علامات الخلاف فهمّ به ثم راجع ووفد وتنصل للسلطان وكان سودون باق من أمراء الألوف خالصة للسلطان ومن أهل عصبيته وكان من قبل ذلك في جملة الأمير تمرتاي فرعا لمنطاش حق أخيه وشفع له عند السلطان وكفل حسن الطاعة منه وأنه يخرج على التركمان المخالفين ويحسم علل فسادهم وانطلق إلى قاعدة عمله بملطية ثم لم تزل آثار العصيان بادية عليه وربما داخل أمراء التركمان في ذلك ونمي الخبر إلى السلطان فطوى له وشعر هو بذلك فراسل صاحب سيواس قاعدة بلاد الروم وبها قاض مستبد على صبي من أعقاب بني أرشى ملوكها من عهد هلاكو قد اعصوصب عليه بقية من أحياء التتر الذين كانوا حامية هنالك مع الشحنة فيها كما نذكره.

ولما وصلت رسل منطاش وكتبه إلى هذا القاضي بادر باجابته وبعث رسلاً وفداً من أصحابه في إتمام الحديث معه فخرج منطاش إلى لقائهم واستخلف على ملطية دواداره وكان مغفلاً فخشي مغبة ما يرومه صاحبه من الانتقاض فلاذ بالطاعة وتبرأ من منطاش وأقام دعوة السلطان في البلد وبلغ الخبر إلى منطاش فاضطرب ثم استمر وسار مع وفد القاضي إلى سيواس فلما قدم عليه وقد انقطع الحبل في يده أعرض عنه وصار إلى مغالطة السلطان عما أتاه من مداخلة منطاش وقبض عليه وحبسه وسرح السلطان سنة تسع وثلاثين عساكره مع يونس الدوادار وقردم رأس نوبة والطنبقا الرماح أمير سلاح وسودون باق من أمراء الألوف وأوعز الناصري فأتى وطلب أن يخرج معهم بعساكره وإلى أنيال اليوسفي من أمراء الألوف بدمشق وساروا جميعاً.

وكان يومئذ ملك التتر بما وراء النهر وخراسان تمر من نسب جفطاي قد زحف إلى العراقين وأذربيجان وملك توزير عنوة واستباحها وهو يحاول ملك بغداد فسارت هذه العساكر توري بغزوه ودفاعه حتى إذا بلغوا حلب أتى إليهم الخبر بأن تمر رجع بعساكره لخارج خرج عليه بقاصية ما وراء النهر فرجعت عساكر السلطان إلى جهة سيواس واقتحموا تخومها على حين غفلة من أهلها فبادر القاضي إلى إطلاق منطاش لوقته وقد كان أيام حبسه يوسوس إليه بالرجوع عن موالاة السلطان ومما لأته ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى جنح إلى قوله فبعث لإحياء التتر الذين كانوا ببلاد الروم فيئة بن أريتا بن أول فسار إليهم واستجاشهم على عسكر السلطان وحذرهم استئصال شأفتهم باستئصال ملك ابن أريتا وبلده.

ووصلت العساكر خلال ذلك إلى سيواس فحاصروها أياماً وضيقوا عليها وكادت أن تلقي باليد ووصل منطاش إثر ذلك بإحياء التتر فقاتلهم العساكر ودافعوهم ونالوا منهم وجلّى الناصري في هذه الوقائع وأدرك العساكر الملل والضجر من طول المقام وبطء الظفر وانقطاع الميرة بتوغلهم في البلاد وبعد الشقة فتداعوا للرجوع ودعوا الأمراء إليه فجنح لذلك بعضهم فانكفؤوا على تعبيتهم وسار بعض التتر في اتباعهم فكرّوا عليهم واستلحموهم وخلصوا إلى بلاد الشام على أحسن حالات الظهور ونية العود ليحسموا علل العدو ويمحوا أثر الفتنة واللّه تعالى أعلم.

نكبة الجوباني واعتقاله بالإسكندرية

كان الأمراء الذين حاصروا سيواس قد لحقهم الضجر والسآمة من طول المقام وفزع قردم والطنبقا المعلم منهم إلى الناصري مقدم العساكر بالشكوى من السلطان فيما دعاهم إليه من هذا المرتكب وتفاوضوا في ذلك ملّياً وتداعوا إلى الإفراج عن البلد بعد أن بعثوا إلى القاضي بها واتخذوا عنده يداً بذلك وأوصوه بمنطاش والإبقاء عليه ليكون لهم وقوفاً للفتنة وعلم يونس الدوادار أنهم في الطاعة فلم يسعه خلافهم ففوض لهم ولما انتهى إلى حلب غدا عليه دمرداش من أمرائها فنصح له بأن الجوباني نائب بدمشق مداخل للناصر في تمريضه في الطاعة وأنهما مصران على الخلاف وقفل يونس إلى مصر فقص على السلطان نصيحته واستدعى دمرداش فشافه السلطان بذلك واطلع منه على جلي الخبر في شأنهما.

وكان للجوباني مماليك أوغاد قد أبطرتهم النعمة واستهواهم الجاه وشرهوا إلى التوثب وهو يزجرهم فصاروا إلى إغرائه بالحاجب يومئذ طرنطاي فقعد في بيته عن المجلس السلطاني وطير بالخبر إلى مصر فاستراب الجوباني وسابقه بالحضور عند السلطان لينضح عنخ ما علق به من الأوهام وأذن له في ذلك فنهض من دمشق على البريد في ربيع سنة تسعين ولما انتهى إلى سرياقوس أزعج إليه أستاذ داره بهادر المنجكي فقبض عليه وطير به السفن إلى الإسكندرية وأصبح السلطان من الغد فقبض على قردم والطنبقا المعلم وألحقهما به فحبسوا هنالك جميعاً وانحسم ما كان يتوقع من انتقاضهم وولى السلطان مكان الجوباني بدمشق طرنطاي الحاجب ومكان قردم بمصر ابن عمه مجماس ومكان

المعلم دمرداش واستمر الحال على ذلك.

فتنة الناصري واستيلاؤه على الشام ومصر واعتقال السلطان بالكرك

لما بلغ الناصري بحلب اعتقال هؤلاء الأمراء استراب واضطرب وشرع في أسباب الانتقاض ودعا إليه من يشيع الشر وسماسرة الفتن من الأمراء وغيرهم فأطاعوه وافتتح أمره بالنكير للأمير سودون المظفري والانحراف عنه لما كان منه في نكبته وإغراء السلطان به ثم ولايته مكانه ومن وظائف الحاجب في دولة الترك خطة البريد المعروفة في الدول القديمة فهو يطالع السلطان بما يحدث في عمله ويعترض شجى في صدر من يريد الانتقاض من ولاته فأظلم الجو بين هؤلاء الرهط وبين المظفري وتفاقم الأمر وطير بالخبر إلى السلطان فأخرج للوقت دواداره الأصغر تلكتمر ليصلح بينهما ويسكن الثائرة وحينما سمعوا بمقدمة ارتابوا وارتبكوا في أمرهم وقدم تلكتمر فتلقاه الناصري وألقى إليه كتاب السلطان بالندب إلى الصلح مع الحاجب والإغضاء له فأجاب بعد أن التمس من حقائب تلكتمر مخاطبة السلطان وملاطفته للأمراء حتى وقف عليه.

ثم غلب عليه أولئك الرهط من أصحابه بالفتك بالحاجب فأطاعهم وباكرهم تلكتمر بدار السعادة ليتم الصلح بينهم وتذهب الهواجس والنفرة فدعاه الناصر إلى بعض خلواته وبينما هو يحادثه وإذا بالقوم قد وثبوا على الحاجب وفتكوا به وتولى كبر ذلك أنبقا الجوهري واتصلت الهيعة فوجم تلكتمر ونهض إلى محل نزوله واجتمع الأمراء إلى الناصري واعصوصبوا عليه ودعاهم إلى الخلعان فأجابوا وذلك في محرم سنة إحدى وتسعين.

واتصل الخبر بطرابلس وبها جماعة من الأمراء يرومون الانتقاض منهم بدلار الناصري عميد الفتن فتولى كبرها وجمع الذين تمالأوا عليها وعمدوا إلى الإيوان السلطاني المسمى بدار السعادة وقبضوا على النائب وحبسوه ولحق بدلار الناصري في عساكر طرابلس وأمرائها وفعل مثل ذلك أهل حلب وحمص وسائر ممالك الشام وسرح السلطان العساكر لقتالهم فسار أيتمش الأتابك ويونس الدوادار والخليلي جركس أمير الماخورية وأحمد بن بيبقا أمير مجلس وايدكاز صاحب الحجاب فيمن إليهم من العساكر وانتخب من أبطال مماليكهم وشجعانهم خمسمائة مقاتل واستضافهم إلى الخليلي وعقد لهم لواءه المسمى بالشاليش وأزاح عللهم وعلل سائر العساكر وساروا على التعبية منتصف ربيع السنة.

وكان الناصري لما فعل فعلته بعث عن منطاش وكان مقيما بين أحياء التتر منذ رجوع العساكر عن سيواس فدعاه ليمسك معه حبل الفتنة والخلاف فجاء وملأه مبرةً وإحساناً واستنفر طوائف التركمان والعرب ونهض في جموعه يريد دمشق وطرنطاي نائبها يواصل تعريف السلطان بالأخبار ويستحث العساكر من مصر على نائبها الأمير الصفوي وبينه وبين الناصر علاقة وصحبة فاسترابوا به وتقبضوا عليه ونهبوا بيته وبعثوا به حبيساً إلى الكرك وولوا مكانه محمد باكيش بن جند التركماني كان مستخدماً عند بندمر هو وأبوه وولى لهذا العهد على نابلس وما يجاورها فنقلوه إلى غزة.

ثم تقدموا إلى دمشق واختاروا من القضاة وفداً أوفدوه على الناصري وأصحابه للإصلاح فلم يجيبوا وأمسكوا الوفد عندهم وساروا للقاء ولما تراءى الجمعان بالمرج نزع أحمد بن بيبقا وإيدكاز الحاجب ومن معهما إلى القوم فساروا معهم واتبعهم مماليك الأمراء وصدق القوم الحملة على من بقي فانفضوا ولجأ إيتمش إلى قلعة دمشق فدخلها وكان معه مكتوب السلطان بذلك متى احتاج إليه وذهب يونس حيران وقد أفرده مماليكه فلقيه عنقا أمير الأمراء وكان عقد له بعض النزعات أيام سلطانه فتقبض عليه وأحيط بجركس الخليلي ومماليك السلطان حوله وقد أبلوا في ذلك الموقف واستلحم عامتهم فخلص بعض العدو إليه وطعنه فأكبه ثم احتز رأسه وذهب ذلك الجمع شعاعاً وافترقت العساكر في كل وجه وجيء بهم أسرى من كل ناحية.

ودخل الناصري وأصحابه دمشق لوقتهم واستولوا عليها وعاثت عساكرهم من العرب والتركمان في نواحيها وبعث إليهم عنقا يستأذنهم في أمر يونس فأمر بقتله فقتله وبعث إليهم برأسه وأوعزوا إلى نائب القلعة بحبس إيتمش عنده وفرقوا المحبوسين من أهل الواقعة على السجون بقلعة دمشق وصفد وحلب وغيرها وأظهر ابن باكيس دعوته بغزة وأخذ بطاعتهم ومر به أنيال اليوسفي من أمراء الألوف بدمشق ناجيا من الوقعة إلى مصر فقبض عليه وحبسه بالكرك واستعد السلطان للمدافعة وولى دمرداش أتابكا مكان إيتمش وقرماش الجندار دواردار مكان يونس وعمر سائر المراتب عمن فقد منها وأطلق الخليفة المعتقل المتوكل بن المعتضد وأعاده إلى خلافته وعزل المنصوب مكانه.

وأقام الناصري وأصحابه بدمشق أياماً ثم أجمعوا المسير إلى مصر ونهضوا إليها بجموعهم وعميت أنباؤهم حتى أطلت مقدمتهم على بلبيس ثم تقدموا إلى بركة الحاج وخيموا بها لسبع من جمادى

الأخيرة من السنة وبرز السلطان في مماليكه ووقف أمام القلعة بقية يومه والناس يتسايلون إلى الناصري من العساكر ومن العامة حتى غصت بهم بسائط البركة واستأمن أكثر الأمراء مع السلطان إلى الناصري فأمنهم وأطلع السلطان على شأنهم وسارت طائفة من العسكر وناوشوهم القتال وعادوا منهزمين إلى السلطان وارتاب السلطان بأمره وعاين انحلال عقدته فدس إلى الناصري بالصلح وبعث إليه بالملاطفة وأن يستمر على ملكه ويقوم بدولته خدمه وأعوانه وأشار بأن يتوارى بشخصه أن يصيبه أحد من غير البيبقاوية بسوء فلما غشيه الليل أذن لمن بقي معه من مماليكه في الانطلاق ودخل إلى بيته ثم خرج متنكراً وسرى في غيابات المدينة.

وباكرهم الناصري وأصحابه القلعة فاستولوا عليها ودعوا أمير حاج ابن الأشرف فأدوه إلى التخت كما كان ونصبوه للملك ولقبوه المنصور وبادروا باستدعاء الجوباني والأمراء المعتقلين بالإسكندرية فأغذوا السير ووصلوا ثاني يومهم وركب الناصري وأصحابه للقائهم وأنزل الجوباني عنده بالإصطبل وأشركه في أمره وأصبحوا ينادون بطلب السلطان الظاهر بقية يومهم ذلك ومن الغد حتى دل عليه بعض مماليك الجوباني وحين رآه قبل الأرض وبالغ في الأدب معه وحلف له على الأمان وجاء به إلى القلعة فأنزله بقاعة الغصبة واشتوروا في أمره وكان حرص منطاش وزلار على قتله أكثر من سواهما وأبى الناصري والجوباني إلا الوفاء بما اعتقد معهم واستقر الجوباني أتابك والناصري رأس النوبة الكبرى ودمرداش الأحمدي أمير سلاح وأحمد بن بيبقا أمير مجلس والأبقا العثماني دوادار وأنبقا الجوهري أستاذدار وعمرت الوظائف والمراتب.

ثم بعثوا زلار نائباً على دمشق وأخرجوه إليها وبعثوا كتبغا البيبقاوي على حلب وكان السلطان قد عزله عن طرابلس واعتقله بدمشق فلما جاء في جملة الناصري بعثه على حلب مكانه وقبضوا على جماعة من الأمراء فيهم النائب سودون باق وسودون الطرنطاي فحبسوا بعضهم بالإسكندرية وبعثوا آخرين إلى الشام فحبسوا هنالك وتتبعوا مماليك السلطان فحبسوا أكثرهم وأشخصوا بقيتهم إلى الشام يستخدمون عند الأمراء.

وقبضوا على أستاذ دار محمود قهرمان الدولة وقارون القصري فصادروه على ألف ألف درهم ثم أودعوه السجن وهم مع ذلك يتشاورون في مستقر السلطان بين الكرك وقوص والإسكندرية حتى أجمعوا على الكرك ووروا بالإسكندرية حذراً عليه من منطاش فلما أزف مسيره قعد له منطاش عند البحر رصداً وبات عامة ليله وركب الجوباني مع السلطان من القلعة وأركب معه صاحب الكرك موسى بن عيسى في لمة من قومه يوصلونه إلى الكرك وسار معه برهة من الليل مشيعاً ثم رجع وشعر منطاش من أمره وطوى على الغش وأخذ ثياب الثورة كما يذكر ونجا السلطان إلى الكرك في فل من غلمانه ومواليه ووكل الناصري به حسن الكشكي من خواصه وولاه على الكرك وأوصاه بخدمته ومنعه ممن يرومه بسوء فتقدمه إلى الكرك وأنزله القلعة وهيأ له النزول بما يحتاج إليه وأقام هنالك حتى وقع من لطائف اللّه في أمره ما يذكر بعد إن شاء اللّه تعالى وجاء الخبر أن جماعة من مماليك الظاهر كانوا مختفين منذ الوقعة فاعتزموا على الثورة بدمشق وأنهم ظفروا بهم وحبسوا جميعاً ومنهم أيبقا الصغير واللّه تعالى أعلم.

ثورة منطاش واستيلاؤه على الأمر ونكبة الجوباني وحبس الناصري والأمراء البيبقاوية بالإسكندرية

كان منطاش منذ دخل مع الناصري إلى مصر متربصاً بالدولة طاوياً جوانحه على الغدر لأنهم لم يوفروا حظه من الإقطاع ولم يجعلوا له اسما في الوظائف حين اقتسموها ولا راعى له الناصري حق خدمته ومقارعته الأعداء وكان ينقم عليه مع ذلك إيثاره الجوباني واختصاصه فاستوحش وأجمع الثورة وكان مماليك الجوباني لما حبس أميرهم وانتقض الناصري بحلب لحقوا به وجاؤوا به في جملته واشتملوا على منطاش فكان له بهم في ذلك السفر أنس وله إليهم صفو فداخل جماعة منهم في الثورة وحملهم على صاحبهم وتطفل على الجوباني في المخالصة بغشيان مجلسه وملابسة ندمائه وحضور مائدته وكان البيقاوية جميعاً ينقسمون على الناصري ويرون أنه مقصر في الرواتب والإقطاع وطووا من ذلك على النكث ودعاهم منطاش إلى التوثب فكانوا إليه أسرع وزينوه له وقعدوا عنه عند الحاجة.

ونمي الخبر إلى الناصري والجوباني فعزموا على إشخاص منطاش إلى الشام فتمارض وتخلف في بيته أياماً يطاولهم ليحكم التدبير عليهم ثم عدا عليه الجوباني يوم الاثنين وقد أكمن في بيته رجالاً للثورة فقبضوا على الجوجاني وتلوه لحينه وركب منطاش إلى الرميلة فنهب مراكب الأمراء بباب الاصطبل ووقف عند مأذنة المدرسة الناصرية وقد شحنها ناشبة ومقاتلة مع أمير من أصحابه وقف في حمايتهم واجتمع إليه من داخله في الثورة من الأشرفية وغيرهم واجتمع إليه من كان بقي من مماليك الظاهر واتصلت

الهيعة فركب الأمراء البيبقاوية من بيوتهم ولما أفضوا إلى الرميلة وقفوا ينظرون مآل الحال وبرز الناصري من الاصطبل فيمن حضر وأمر الأمراء بالحملة عليهم فوقفوا فأحجم هو عن الحملة وتخاذل أصحابه وأصحاب منطاش.

ومال إلى الناصري بمماليك الجوباني لنكبة صاحبهم فهددهم منطاش بقتله فافترقوا وتحاجز الفريقان آخر النهار وباكروا شأنهم من الغد وحمل الناصري فانهزم وأقاموا على ذلك ثلاثاً وجموع منطاش في تزايد ثم انفض الناس عن الناصري عشية الأربعاء لسبعين يوماً من دخول القلعة واقتحمها عليه منطاش ونهب بيوته وخزائنه وذهب الناصري حيران وأصحابه يرجعون عنه وباكر البيبقاوية مجلس منطاش من الغد فقبض عليهم وسيق من تخلف منهم عن الناصري أفذاذاً وبعث بهم جميعاً إلى الاسكندرية وبعث جماعة ممن حبسهم الناصري إلى قوص ودمياط ثم جدد البيعة لأمير حاج منصور ثم نادى في مماليك السلطان بالعرض وقبض على جماعة منهم وفر الباقون وبعث بالمحبوسين منهم إلى قوص وصادر جماعة من أهل الأموال وأفرج عن محمود أستاذ دار وخلع عليه ليوليه في وظيفته.

ثم بدا له في أمره وعاود مصادرته وامتحانه واستصفى منه أموالا عظيمة يقال ستين قنطاراً من الذهب ولما استقل بتدبير الدول عمر الوظائف والمراتب وولى فيها بنظره وبعث عن الأشقتمري من الشام وكان أخوه تمرتاي قد آخى بينهما فولاه النيابة الكبرى وعن استدمر بن يعقوب شاه فجعله أمير سلاح وعن أنبقا الصفوي فولاه صاحب الحجاب واختص الثلاثة بالمشورة وأقام أركاناً للدولة وكان إبراهيم بن بطلقتمر أمير جندار قد داخله في الثورة فرعى له ذلك وقدمه في أمراء الألوف ثم بلغه أنه تفاوض مع الأمراء في الثورة به واستبداد السلطان فقبض عليه ثم أشخصه إلى حلب على إمارته هناك وكان قد اختص أرغون السمندار وألقى عليه محبته وعنايته فغشيه الناس وباكروا بابه وعظم في الدولة صيته ثم نمي عنه أنه من المداخلين لإبراهيم أمير جندار فسطا به وامتحنه أن له على هؤلاء المداخلين لإبراهيم فلاذ بالإنكار وأقام في محبسه وأفرج عن سودون النائب فجاء إلى مصر فألزمه بيته واستمر الحال على ذلك انتهى.

ثورة بذلار بدمشق

ولما بلغ الخبر إلى بذلار بدمشق باستقلال منطاش بالدولة أنف من ذلك وارتاب وداخلته الغيرة وأجمع الانتقاض وكاتب نواب الممالك بالشام في حلب وغيرها يدعوهم إلى الوفاق فأعرضوا عنه وتمسكوا بطاعتهم وكان الأمير الكبير بدمشق جنتمر أخوطاز يداخل الأمراء هناك في التوثب به وتوثق منهم للدولة وبلغ الخبر إلى بذلار فركب في مماليكه وشيعته يروم القبض عليه فلم يتمكن من ذلك واجتمعوا وظاهرهم عامة دمشق عليه فقاتلوه ساعة من نهار ثم أيقن بالغلب والهلكة فألقى بيده وقبضوا عليه وطيروا بالخبر إلى منطاش وهو صاحب الدولة فأمر باعتقاله وهلك مريضاً في محبسه وولى منطاش جنتمر نيابة دمشق واستقرت الأحوال على ذلك والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عبادة.

خروج السلطان من الكرك وظفره بعساكر الشام وحصاره دمشق

ولما بلغ الخبر إلى السلطان الظاهر بالكرك بأن منطاش استقل بالدولة وحبس البيبقاوية جميعاً وأدال منهم بأصحابه أهمته نفسه وخشي غائلته ولم يكن عند منطاش لأول استقلاله أهم من شانه وشأن السلطان فكتب إلى حسن الكشكي نائب الكرك بقتله وقد كان الناصري أوصاه في وصيته حين وكله به أن لا يمكنه ممن يرومه بسوء فتجافى عن ذلك واستدعى البريدي وفاوض أصحابه وقاضي البلد وكاتب السر فأشاروا بالتحرز من دمه جهد الطاقة فكتب إلى منطاش معتذراً بالخطر الذي في ارتكابه دون إذن السلطان والخليفة فأعاد عليه الكتاب مع كتاب السلطان والخليفة بالإذن فيه واستحثه في الإجهاز عليه فأنزل البريدي وعلله بالوعد وطاوله يرجو المخلص من ذلك وكانوا يطوون الأمر عن السلطان شفقة وإجلالاً فشعر بذلك وأخلص اللجأ إلى الله والتوسل بإبراهيم الخليل لأنه كان يراقب مدفنه من شباك في بيته.

وانطلق غلمانه في المدينة حتى ظفروا برجال داخلوهم في حسن الدفاع عن السلطان وأفاضوا فيهم فأجابوا وصدقوا ما عاهدوا عليه واتعدوا لقتال البريدي وكان منزله بإزاء السلطان فتوافوا ببابه ليلة العاشر من رمضان وهجموا عليه فقتلوه ودخلوا برأسه إلى السلطان وشفار سيوفهم دامية وكان النائب حسن الكشكي يفطر على سماط السلطان تأنيساً لهم فلما رآهم دهش وهموا بقتله فأجاره السلطان وملك السلطان أمره بالقلعة وبايعه النائب وصعد إليه أهل المدينة من الغد فبايعوه.

ووفد عليه عرب الضاحية من بني عقبة وغيرهم فأعطوه طاعتهم وفشا الخبر في النواحي فتساقط إليه مماليكه من كل جهة وبلغت أخباره إلى منطاش فأوعز إلى ابن باكيش نائب غزة أن

يسير العساكر إلى الكرك وتردد السلطان بين لقائه والنهوض إلى الشام ثم أجمع المسير إلى دمشق فبرز من الكرك منتصف شوال فعكسر بالقبة وجمع جموعه من العرب والترك وطوى المراحل إلى الشام وسرح جنتمر نائب دمشق العساكر لدفاعه فيهم أمراء الشام وأولاد بندمر فالتقوا بشقحب وكانت بينهم واقعة عظيمة أجلت عن هزيمة أهل دمشق وقتل الكثير منهم وظفر السلطان بهم واتبعهم إلى دمشق ونجا الكثير منهم إلى مصر.

ثم أحس السلطان بأن ابن باكيش وعساكره في اتباعه فكر إليهم وأسرى ليلته وصبحهم على غفلة في عشر ذي القعدة فانهزموا ونهب السلطان وقومه جميع ما معهم وامتلأت أيديهم واستفحل أمره ورجع إلى دمشق ونزل بالميدان وثار العوام وأهل القبيبات ونواحيها بالسلطان وقصدوه بالميدان فركب ناجياً وترك أثقاله فنهبها العوام وسلبوا من لقوه من مماليكه ولحق بقبة بلبغا فأقام بها وأغلقوا الأبواب دونه فأقام يحاصرهم إلى محرم سنة اثنتين وتسعين وكان كمشيقا الحموي نائب حلب قد أظهر دعوته في عمله وكاتبه بذلك عندما نهض من الكرك إلى الشام كما نذكره ولما بلغه حصاره لدمشق تجهز للقائه واحتمل معه ما يزيح علل السلطان من كل صنف وأقام له أبهة ووصل أنيال اليوسفي وقجماش ابن عم السلطان وجماعة من الأمراء كانوا محبوسين بصفد وكان مع نائبها جماعة من مماليك السلطان يستخدمون فغدروا به وأطلقوا من كان من الأمراء في سجن صفد كما نذكر ولحقوا بالسلطان وتقدمهم أنيال وهو محاصر لدمشق فأقاموا معه والله تعالى أعلم.

ثورة المعتقلين بقوص ومسير العساكر اليهم واعتقالهم

ولم بلغ الخبر إلى الأمراء المحبوسين بقوص خلاص السلطان من الاعتقال واستيلاؤه على الكرك واجتماع الناس إليه فثاروا بقوص أوائل شوال من السنة وقبضوا على الوالي بها وأخذوا من مودع القاضي ما كان فيه من المال وبلغ خبرهم إلى مصر فسرح إليهم العساكر ثم بلغه أنهم ساروا إلى أسوان وشايعوا الوالي بها حسن بن قرط فلحن لهم بالوعد وعرض بالوفاق فطمعوا واعتزموا أن يسيروا من وادي القصب من الجهة الشرقية إلى السويس ويسيروا من هناك إلى الكرك ولما وصل خبر ابن قرط أخرج منطاش سندمر بن يعقوب شاه ثامن عشرين من السنة وانكفأ جموعه وسار على العدوة الشرقية في جموعه لاعتراضهم فوصل إلى قوص وبادر ابن قرط فخالفه إلى منطاش بطاعته فأكرمه ورده على عمله فوافى ابن يعقوب شاه بقوص وقد استولى على النواحي واستنزل الأمراء المخالفين ثم قبض عليهم وقتل جميع من كان معهم من مماليك السلطان الظاهر ومماليك ولاة الصعيد وجاء بالأمراء إلى مصر فدخل بهم منتصف ذي الحجة من السنة فأفرج عن أربعة منهم سوماي اللاى وحبس الباقين والله تعالى أعلم.

ثورة كمشيقا بحلب وقيامه بدعوة السلطان

قد كنا قدمنا أن الناصري ولى كمشيقا رأس نوبة نيابة حلب ولما استقل منطاش بالدولة ارتاب ودعاه بذلار لما ثار بدمشق إلى الوفاق فامتنع ثم بلغه الخبر بخلاص السلطان من الاعتقال بالكرك فأظهر الانتقاض وقام بدعوة السلطان وخالفه إبراهيم بن أمير جندار واعصوصب عليه أهل باقوسا من أرباض حلب فقاتلهم كمشيقا جميعاً وهزمهم وقتل القاضي ابن أبي الرضا وكان معه في ذلك الخلاف واستقل بأمر حلب وذلك في شوال من السنة ثم بلغه أن السلطان هزم عساكر دمشق وابن باكيش وإنه مقيم بقبة بلبغا محاصراً لدمشق بعد أن نهبوا أثقاله وأخرجوا من الميدان فتجهز من حلب إليه في العساكر والحشود وجهز له جميع ما يحتاج إليه من المال والأقمشة والسلاح والخيل والإبل وخيام الملك بفرشها وما عونها وآلات الحصار وتلقاه السلطان وبالغ في تكرمته وفوض إليه في الأتابكية والمشورة وقام معه محاصراً لدمشق.

واشتد الحصار على أهل دمشق بعد وصوله واستكثار السلطان من المقاتلة وآلات الحصار وخرب كثيراً من جوانبها بحجارة المجانيق وتصدعت حيطانها وأضرم كثيراً من البيوت على أربابها فاحترقت واستولى الخراب والحريق على القبيبات أجمع وتفاحش فيها واشتد أهل القتال والدفاع من فوق الأسوار وتولى كبر ذلك منهم قاضي الشافعية أحمد بن القرشي بما أشار عليهم وفاه أهل العلم والدين بالنكير فيه وكان منطاش لما بلغه حصار دمشق بعث طنبقا الحلي دوادار الأشرف بمدد من المال يمد به العساكر هنالك وأقام معهم ثم بعث جنتمر إلى أمير آل فضل يعبر بن جبار يستنجد به فجاء لقتالهم وسار كمشيقا نائب حلب فلقيه وفض جموعه وأسر خادمه وجاء به أسيراً فمن عليه السلطان وأطلقه وكساه وحمله ورده إلى صاحبه واستمر حصار دمشق إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثورة أينال بصفد بدعوة السلطان

كان أينال لما انهزم يوم واقعة دمشق فر إلى مصر ومر بغزة فاعتقله ابن باكيش وحبس بالكرك فلما استولى الناصري أشخصه إلى صفد فحبس بها مع جماعة من الأمراء وولى على صفد قلطبك النظامي فاستخدم جماعة من مماليك برقوق واتخذ منهم بلبغا السالمي دوادار فلما بلغه خلاص السلطان من الاعتقال ومسيره إلى الشام داخل بلبغا مماليك أستاذه قطلوبقا في الخلاف واللحاق بالسلطان وهرب منهم جماعة فركب قطلوبقا في اتباعهم وأبقى بلبغا السالمي دوادار وحاجب صفد فأطلقوا أينال وسائر المحبوسين من السلطان فملك أينال القلعة ورجع قطلوبقا من اتباع الهاربين فوجدهم قد استولوا وامتنعوا وارتاب من مماليكه فسار عن صفد ونهب بيته ومخلفه ولحق بالشام فلقي الأمراء المنهزمي أمام السلطان بشقحب قاصدين مصر فسار معهم ولحق أينال بالسلطان من صفد بعد أن ضبطها واستخلف عليها وأقام مع السلطان والله تعالى أعلم.

مسير منطاش وسلطانه أمير حاجي إلى الشام وانهزامهم ودخول منطاش إلى دمشق وظفر السلطان الظاهر بأمير حاجي والخليفة والقضاة وعوده لملكه

ولما تواترت الأخبار بهزيمة عساكر الشام وحصار السلطان الظاهر دمشق وظهور دعوته في حلب وصفد وسائر بلاد الشام ثم وصلت العساكر المنهزمون وأولاد بندمر ونائب صفد واستحثوه وتواترت كتب جنتمر نائب دمشق وصريخه أجمع منطاش أمره حينئذ على المسير إلى الشام فتجهز ونادى في العساكر وأخرج السلطان والخليفة والقضاة والعلماء سابع عشر ذي الحجة سنة إحدى وتسعين وخيموا بالزيدانية من ناحية القاهرة حتى أزاح العلل واستخلف على القاهرة دوادار صراي تمر وأطلق يده في الحل والعقد والتولية والعزل واستخلف على القلعة بكا الأشرفي وعمد إلى خزانة من خزائن الذخيرة بالقلعة فسد بابها ونقبها من أعلاها حتى صارت كهيئة الجب ونقل إليها من كان في سجنه من أهل دولة السلطان.

ونقل سودون النائب إلى القلعة فأنزله بها وأمر بالقبض على من بقي من مماليك السلطان حيث كانوا فتسربوا في غيابات المدينة ولاذوا بالاختفاء وأوعز بسد كثير من أبواب الدروب بالقاهرة فسدت ورحل في الثاني والعشرين من الشهر بالسلطان وعساكره على التعبية وطووا المراحل ونمي إليه أثناء طريقه أن بعض مماليك السلطان المستخدمين عند الأمراء مجمعون على التوثب ومداخلون لغيرهم فأجمع السطوة بهم ففروا ولحقوا بالسلطان ولما بلغ خبره مسيرهم السلطان وهو محاصر دمشق ارتحل في عساكره إلى لقائهم ونزل قريباً من شقحب وأصبحوا على التعبية وكمشيقا بعساكر حلب في ميمنة السلطان ومنطاش قد عبى جيشه.

وجعل السلطان أمير حاجي والخليفة والقضاة والرماة من ورائهم ووقف معهم تمارتمر رأس نوبة وسندمر بن يعقوب شاه أمير سلاح ووقف هو في طائفة من مماليكه وأصحابه في حومة المعترك فلما تراءى الجمعان حمل هو وأصحابه على ميمنة السلطان ففضوها وانهزم كمشيقا إلى حلب ومروا في اتباعه ثم عطفوا على مخيم السلطان فنهبوه وأسروا قجماش ابن عمه كان هناك جريحاً ثم حطم السلطان على الذي فيه أمير حاجي والخليفة والقضاة فدخلوا في حكمه ووكل بهم واختلط الفريقان وصاروا في عمى من أمرهم والسلطان في لمة من فرسانه يخترق جوانب المعترك ويحطم الفرسان ويشردهم في كل ناحية وشراد مماليكه وأمرائه يتساقطون إليه حتى كثف جمعه.

ثم حمل على بقية العسكر وهم ملتئمون على الصفدي فهزمهم ولحقوا بدمشق وضرب خيامه بشقحب ولما وصل منطاش إلى دمشق أوهم النائب جنتمر أن الغلب له وأن السلطان أمير حاجي على الأثر ونادى في العساكر بالخروج في السلاح لتلقيه وخرج من الغد مورياً بذلك فركب إليهم السلطان في العساكر فهزمهم وأثخن فيهم واستلحم كثيراً من عامة دمشق ورجع السلطان إلى خيامه وبعث أمير حاجي بالتبري من الملك والعجز عنه والخروج إليه من عهدته فأحضر الخليفة والقضاة فشهدوا عليه بالخلع وعلى الخليفة بالتفويض إلى السلطان والبيعة له والعود إلى كرسيه وأقام السلطان بشقحب تسعاً واشتد كلب البرد وافتقدت الأقوات لقلة الميرة فأجمع العود إلى مصر ورحل يقصدها وبلغ الخبر إلى منطاش فركب لاتباعه فلما أطل عليه أحجم ورجع واستمر السلطان لقصده وقدم حاجب غزة للقبض على ابن باكيش فقبض عليه ولما وافى السلطان غزة ولى عليها مكانه وحمله معتقلاً وسار وهو مستطلع لأحوال مصر حتى كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثورة بكا والمعتقلين بالقلعة واستيلاؤهم عليها بدعوة السلطان الظاهر وعوده إلى كرسيه بمصر وانتظام أمره

كان منطاش لما فصل إلى الشام بسلطانه وعساكره كما مر واستخلف على القاهرة دواداره سراي تمر وأنزله بالاصطبل وعلى القلعة بكا الأشرفي ووكله بالمعتقلين هنالك فأخذوا أنفسهم بالحزم والشدة وبعد أيام نمي إليهم أن جماعة من مماليك السلطان مجتمعون للثورة وقد داخلوا مماليكهم فبيتوهم وقبضوا عليهم بعد جولة دافع فيها مماليك عن أنفسهم ثم قبضوا على من داخلهم من مماليكهم وكانوا جماعة كثيرة وحدثت لهم بذلك رتبة واشتداد في الحزم فنادوا بالوعيد لمن وجد عنده أحد من المماليك السلطان ونقلوا ابن أخت السلطان من بيت أمه إلى القلعة وحبسوه وأوعزوا بقتل الأمراء المعتقلين بالفيوم فقتلوا وعميت عليهم أنباء منطاش والعساكر وبعثوا من يقتص لهم الطريق ويسائل الركبان واعتزموا على قتل المسجونين بالقلعة.

ثم تلاوموا في ذلك ورجعوا إلى التضييق عليهم ومنع المترددين بأقواتهم فضاقت أحوالهم وضجروا وأهمتهم أنفسهم وفي خلال ذلك عثر بعضهم على منفذ إلى سرب تحت الأرض يفضي إلى حائط الإصطبل ففرحوا بذلك وتنسموا ريح الفرج ولما أظلتهم ليلة الأربعاء غرة صفر سنة اثنتين وتسعين مروا في ذلك السرب فوجدوا فيه آلة النقب فنقبوا الحائط وأفضوا إلى أعلى الإصطبل وتقدم بهم خاصكي من أكابر الخاصكية وهجموا على الحراس فثاروا إليهم فقتلوا بعضهم بالقيود من أرجلهم وهرب الباقون ونادوا شعبان بكا نائب القلعة يوهمون أنه انتقض.

ثم كسروا باب الإصطبل الأعلى والأسفل وأفضوا إلى منزل سراي تمر فأيقظه لغطهم وهلع من شأن بكا فأرمى نفسه من السور ناجيا ومر بالحاجب قطلوبغا ولحق بمدرسة حسن وقد كان منطاش أنزل بها ناشبة من التركمان لحماية الإصطبل وأجرى لهم الأرزاق وجعلهم لنظر تنكز رأس نوبة ثم هجم أصحاب بكا على بيت سراي تمر فنهبوا ماله وقماشه وسلاحه وركبوا خيله واستولوا على الإصطبل وقرعوا الطبول ليلتهم وقاتلهم بكا من الغد وسرب الرجال إلى الطبلخانات فملكها ثم أزعجوه عنها وزحف سراي تمر وقطلوبغا الحاجب إلى الإصطبل لقتالهم وبرزوا إليهم فقاتلوهم واعتصموا بالمدرسة واستولى بكا على أمره وبعث إلى باب السر من المدرسة ليحرقه فاستأمن إليه التركمان الذين به فأنزلهم على الأمان وسرب أصحابه في البلد لنهب بيوت منطاش وأصحابه فعاثوا فيها وتسلل إليه مماليك السلطان المختفون بالقاهرة فبلغوا ألفاً أو يزيدون.

ثم استأمن بكا من الغد فأمنه سودون النائب وجاء به إلى الناصري أمير سلاح ودمرداش وكان عنده فحبسهما بكا ثم وقف سودون على مدرسة حسن والأرض تموج بعوالم النظارة فاستنزل منها سراي تمر وقطلوبغا الحاجب فنزلا على أمانه وهم العوالم بهما فحال دونهما وجاء بهما بكا فحبسهما وركب سودون يوم الجمعة في القاهرة ونادى بالأمان والخطبة للسلطان فخطب له من يومه وأمر بكا بفتح السجون وإخراج من كان فيها في حبس منطاش وحكام تلك الدولة وهرب الوالي حسن بن الكوراني خوفاً على نفسه لما كان شيعة لمنطاش على مماليك السلطان.

ثم عثر عليه بكا وحبسه مع سائر شيعة منطاش وأطلق جميع الأمراء الذين حبسهم بمصر ودمياط والفيوم ثم بعث الشريف عنان بن مقامس أمير بني حسن بمكة وكان محبوساً وخرج معهم فبعثه مع أخيه أيبقا على الهجن لاستكشاف خبر السلطان ووصل يوم الأحد بعدها كتاب السلطان مع ابن صاحب الدرك سيف بن محمد بن عيسى العائدي بإعداد الميرة والعلوفة في منازل السلطان على العادة وقص خبر الواقعة وأن السلطان توجه إلى مصر وانتهى إلى الرملة ثم وصل أيبقا أخو بكا يوم الأربعاء ثامن صفر بمثل ذلك وتتابع الواصلون من عسكر السلطان ثم نزل بالصالحية وخرج السلطان لتلقية بالعكرشة.

ثم أصبح يوم الثلاثاء رابع صفر في ساحة القلعة وقلده الخليفة وعاد إلى سريره ثم بعث عن الأمراء الذين كان حبسهم منطاش بالإسكندرية وفيهم الناصري والجوباني وابن بيبقا وقراد مرداش وأبغا الجوهري وسودون باق وسودون الطرنطاي وقردمر المعلم في آخرين متعددين واستعتبوا للسلطان فأعتبهم وأعادهم إلى مراتبهم وولى أنيال اليوسفي أتابكاً والناصري أمير سلاح والجوباني رأس نوبة وسودون نائباً وبكادوادار وقرقماش أستاذ دار وكمشيقا الخاصكي أمير مجلس وتطلميش أمير الماخورية وعلاء الدين كاتب سر الكرك كاتب سره بمصر وعمّر سائر المراتب والوظائف.

وتوفي قرقماش فولى محمود أستاذ داره الأول ورعى له سوابق خدمته ومحنة العدو له في محبته وانتظم أمر دولته واستوثق ملكه وصرف نظره إلى الشام وتلافيه من مملكة العدو وفساده والله تعالى أعلم.

ولاية الجوباني على دمشق واستيلاؤه عليها من يد منطاش ثم هزيمته ومقتله وولاية الناصري مكانه

لما استقر السلطان على كرسيه بالقاهرة وانتظمت أمور دولته صرف نظره إلى الشام وشرع في تجهيز العساكر لإزعاج العدو منه وعين الجوباني لنيابة دمشق ورياسة العساكر والناصري لحلب لأن السلطان كان عاهد كمشيقا على أتابكية مصر وعين قراد مرداش لطرابلس ومأموناً القلحطاوي لحماة فولى في جميع ممالك الشام ووظائفه وأمرهم بالتجهيز ونودي في العساكر بذلك وخرجوا ثامن جمادى الأولى من سنة اثنتين وتسعين وكان منطاش قد اجتهد جهده في طي خبر السلطان بمصر عن أمرائه وسائر عساكره وما زال يفشو حتى شاع وظهر بين الناس فانصرف هواهم إلى السلطان وبعث في أثناء ذلك الأمير بمازتمر نائباً على حلب فاجتمع أهل كانفوسا وحاصر كمشيقا بالقلعة نحواً من خمسة أشهر وشد حصارها وأحرق باب القلعة والجسر ونقب سورها من ثلاثة مواضع واتصل القتال بين الفريقين في أحد الأنقاب لشهرين على ضوء الشموع.

ثم بعث العساكر إلى طرابلس مع ابن إيماز التركماني وحاصرها وملكوها من يد سندمر حاجب حجابها، وكان مستولياً عليها بدعوة الظاهر،ولما ملكها ولى عليها قشتمر الأشرفي، ثم بعث العساكر إلى بعلبك مع محمد بن سندمر في نفر من قرابته وجنده فقتلهم منطاش بدمشق أجمعين ثم أوعز إلى قشتمر الأشرفي نائب طرابلس بالمسير إلى حصار صفد فسار إليها وبرز إليه جندها فقاتلوه وهزموه فجهز إليها العساكر مع أبقا الصفدي كبير دولته فسار إليها في سبعمائة من العساكر وقد كان لما تيقن عنده استيلاء السلطان على كرسيه بمصر جنح إلى الطاعة والاعتصام بالجماعة وكاتب السلطان بمغارمه ووعده فلما وصل إلى صفد بعث إلى نائبها بطاعته وفارق أصحاب منطاش ومن له هوى فيه وصفوا إليه وبات ليلته بظاهر صفد وارتحل من الغد إلى مصر فوصلها منتصف جمادى الأخيرة وأمراء الشام معسكرون مع الجوباني بظاهر القلعة فأقبل السلطان عليه وجعله من أمراء الألوف ولما رجع أصحابه من صفد إلى دمشق اضطرب منطاش وتبين له نكر الناس وارتاب بأصحابه وقبض جماعة من الأمراء وعلى جنتمر نائب دمشق وابن جرجي من أمراء الألوف وابن قفجق الحاجب وقتله والقاضي محمد بن القرشي في جملة من الأعيان واستوحش الناس ونفروا عنه واستأمنوا إلى السلطان مثل محمد بن سندمر وغيره وهرب كاتب السر بدر الدين بن فضل الله وناظر الجيش وقد كانوا يوم الواقعة على شقحب لحقوا بدمشق يظنون أن السلطان يملكها يومه ذلك فبقوا في مملكة منطاش وأجمعوا الفرار مرة بعد أخرى فلم يتهيأ لهم وشرع منطاش في الفتك بالمنتمين إلى السلطان من المماليك المحبوسين بالقلعة وغيرهم وذبح جماعة من الجراكسة وهمَّ بقتل أشمس فدفعه الله عنه وارتحل الأمراء من مصر في العساكر السلطانية إلى الشام مع الجوباني يطوون المراحل والأمراء من دمشق يلقونهم في كل منزلة هاربين إليهم حتى كان آخر من لقيهم ابن نصير أمير العرب بطاعة أبيه ودخلوا حدود الشام.

ثم ارتبك منطاش في أمره واستقر الخوف والهلع والاسترابة بمن معه فخرج منتصف جمادى الأخيرة هارباً من دمشق في خواصه وأصحابه ومعه سبعون حملاً من المال والأقمشة واحتمل معه محمد بن أنيال وانتقض عليه جماعة من المماليك فرجعوا به إلى أبيه وكان يعبر بن جبار أمير آل فضل مقيماً في أحيائه ومعه أحياء آل مرو وأميرهم عنقا، فلحق بهم هنالك منطاش مستجيراً فأجاروه ونزل معهم.

ولما فصل منطاش عن دمشق خرج أشمس من محبسه وملك القلعة ومعه مماليك السلطان معصوصبون عليه وأرسل إلى الجوباني بالخبر فأغذ السير إلى دمشق وجلس بموضع نيابته وقبض على من بقي من أصحاب منطاش وخدمه مع من كان حبس هو معهم ووصل الطنبقا الحلبي ودمرداش اليوسفي من طرابلس وكان منطاش استقدمهم وهرب قبل وصولهم وبلغ الخبر إلى إيماز تمر وهو يحاصر حلب وأهل كانفوسا معصوصبون عليه فأجفل ولحق بمنطاش وركب كمشيقا من القلعة إليهم بعد أن أصلح الجسر وأركب معه الحجاب وقاتل أهل كانفوسا ومن معهم من أشياع منطاش ثلاثة أيام ثم هزموهم وقتل كمشيقا منهم أكثر من ثمانمائة وخرب كانفوسا فأصبحت خراباً وعمر القلعة وحصنها وشحنها بالأقوات وبعث الجوباني بالعساكر إلى طرابلس وملكوها من يد قشتمر الأشرفي نائب منطاش من غير قتال وكذلك حماة وحمص ثم بعث الجوباني نائب دمشق وكافل الممالك الشامية إلى يعبر بن جبار أمير العرب بإسلام منطاش وإخراجه من أحيائه فامتنع واعتذر فبرز من دمشق بالعساكر ومعه الناصري وسائر الأمراء ونهض إلى مصر فلما انتهوا إلى حمص أقاموا بها وبعثوا إلى يعبر يعتذرون إليه فلج واستكبر وحال دونه وبعث إليه أشمس خلال ذلك من دمشق بأن جماعة شيعة بندمر وجنتمر يرومون الثورة

فركب الناصري إلى دمشق وكبسهم وأثخن فيهم ورجع إلى العسكر وارتحلوا إلى سلمية.

واستمر يعبر في غلوائه وترددت الرسل بينهما فلم تغن ثم كانت بين الفريقين حرب شديدة وحملت العساكر على منطاش والعرب فهزموهم إلى الخيام واتبع دمرداش منطاش حتى جاوز به الحي وارتحلت العرب وحملوا بطانتهم على العسكر فلم يثبتوا لحملتهم وكان معهم آل علي بجموعهم فنهبوهم من ورائهم وانهزموا وأفرد الجوباني مماليكه فأسره العرب وسيق إلى يعبر فقتله ولحق الناصري بدمشق وأسر جماعة من الأمراء وقتل منهم أيبقا الجوهري ومأمون المعلم في عدد آخرين ونهب العرب مخيمهم وأثقالهم ودخل الناصري إلى دمشق فبات ليلته وباكر من الغد آل علي في أحيائهم فكبسهم واستلحم منهم جماعة فثار منهم بما فعلوه في الواقعة ثم بعث إليه السلطان بنيابة دمشق منتصف شعبان من السنة فقام بأمرها وأحكم التصريف في حمايتها والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

إعادة محمود إلى أستاذية الدار واستقلاله في الدولة

هذا الرجل من ناشئة الترك وولدانهم ومن أعقاب كراي المنصوري منهم شب في ظل الدولة ومرعى نعمها ونهض بنفسه إلى الاضطلاع والكفاية وباشر كثيراً من أعمال الأمراء والوزراء حتى أوفى على ثنية النجابة وعرضته الشهرة على اختيار السلطان فعجم عوده ونقد جوهره ثم ألحق به أغراض الخدمة ببابه فأصاب شاكلة الرمية ومضى قدماً في مذاهب السلطان مرهف الحد قوي الشكيمة فصدق ظنه وشكر اختياره ثم دفعه إلى معاينة الحبس وشد الدواوين من وظائف الدولة فجلا فيهما وهلك خلال ذلك أستاذ الدار بهادر المنجكي سنة تسعين فأقامه السلطان مكانه قهرماناً لداره ودولته ونظارته على دواوين الجباية من قراب اختياره ونقده جماعة للأموال غواصاً على استخراج الحقوق السلطانية قاروناً للكنوز اكسيرا للنقود مغناطيساً للقنية يسابق أقلام الكتاب ويستوفي تفاصيل الحساب بمدارك إلهامة وتصور صحيح وحدس ثاقب لا يرجع إلى حذاقة الكتاب ولا إلى أيسر الأعمال بل يتناول الصعاب فيذللها ويحوم على الأغراض البعيدة فيقربها وربما يحاضر بذكائه في العلوم فينفذ في مسائلها ويفحم جهابذتها موهبة من الله اختصه بها ونعمة أسبغ عليه لبوسها فقام بما دفع إليه السلطان من ذلك وأدر خروج الجباية فضاقت أفنية الحواصل والخزائن بما تحصل وتسرب إليها وكفى السلطان مهمه في دولته ومماليكه ورجاله بما يسوغ لهم من نعمه ويوسع من أرزاقه وعطائه حتى أزاح عللهم بتوالي إنفاقه وقرت عين السلطان باصطناعه وغص به الدواوين والحاشية ففوقوا إليه سهام السعاية وسلطوا عليه ألسنة المتظلمين فخلص من ذلك خلوص الإبريز ولم تعلق به ظنة ولا حامت عليه ريبة.

ثم طرق الدولة ما طرقها من النكبة والاعتقال وأودعته المحنة غيابات السجون وحفت به أنواع المكاره واصطلمت نعمته واستصفيت أمواله في المصادرة والامتحان حتى زعموا أن الناصري المتغلب يومئذ استأثر منه بخمسة قناطير من دنانير الذهب ومنطاش بعده بخمسة وخمسين ثم خلص إبريزه من ذلك السبك وأهل قمره بعد المحاق واستقل السلطان من نكبته وطلع بأفق مصره وتمهد أريكة ملكه ودفعه لما كان بسبيله فأحسن الكرة في الكفاية لمهمه وتوسيع عطاياه وأرزاقه وتمكين أحوال دولته وتسربت الجباية من غير حساب ولا تقرير إلى خزائنه وأحسن النظر في الصرف والخرج بحزمه وكفايته حتى عادت الأمور إلى أحسن معهودها بيمن تعبيته وسديد رأيه وصلابة عوده وقوة صرامته مع بذل معروفه وجاهه لمن تحت يده وبشاشته وكفايته لغاشيته وحسن الكرامة لمنتابه ومقابلة من يأتي إليه بكرم مقاصده فأصبح طرازاً للدولة وتاجاً للخواص.

وقذفه المنافسون بخطا السعايات فزلت في جهات حلم السلطان وجميل اعتباطه وتثبته حتى أعيتهم المذاهب وانسدت عليهم الطرق ورسخت قدمه في الدولة واحتل من السلطان بكرم العهد والذمة ووثق بغنائه واضطلاعه فرمى إليه مقاليد الأمور.

وأوطأ عقبه أعيان الخاصة والجمهور وأفرده في الدولة بالنظر في الأمور حسباناً وتقديراً وجمعاً وتقريراً وكنزاً موفراً وصرفاً لا يعرف تبذيراً وبطراً وفي الإنهاء بالعزل والإهانة مشهوراً مع ما يمتاز به من الأمر والشان وسمو مرتبته على مر الأزمان وهو على ذلك لهذا العهد عند سفر السلطان إلى الشام لمدافعة سلطان المغل كما مر ذكره والله متولي الأمور لا رب غيره.

مسير منطاش ويعبر إلى نواحي حلب وحصارها ثم مفارقة يعبر وحصاره عنتاب ثم رجوعه

ولما انهزمت العساكر بسلمية كما قلنا ارتحل يعبر في أحيائه

ومعه منطاش وأصحابه إلى نواحي حلب وسار يعبر إلى بلد سرمين من أقطاعه ليقسمهما في قومه على عادتهم وكان كمشيقا نائب حلب قد أقطعها الجند من التركمان في خدمته فلما وافاها يعبر هربوا إلى حلب فلقوا في طريقهم أحمد بن المهدار في العساكر وقد نهض إلى يعبر فرجعوا عنه ولقيهم علي بن يعبر فقاتلوه وهزموه وقتلوا بعض أصحابه صبراً ورجع يعبر إلى أحيائه وارتحلوا إلى حلب فحاصروها وضيقوا عليها أيام رمضان ثم راجع يعبر نفسه وراسل كمشيقا نائب حلب في الطاعة واعتذر عما وقع منه وطوق الذنب بالجوباني وأصحابه أهل الواقعة وسأل الأمان مع حاجبه عبد الرحمن فأرسله كمشيقا إلى السلطان وأخبره بما اشترط يعبر فأجابه السلطان إلى سؤاله.

وشعر بذلك منطاش بمكانه من حصار حلب فارتاب وخادع يعبر إلى الغارة على التركمان بقربهم فأذن للعرب في المسير معه وسار معه منهم سبعمائة فلما جاوز الدربند أرجلهم عن الخيل وأخذها ولحق بالتركمان ونزل بمرعش بلد أميرهم سولي ورجع العرب مشاة إلى يعبر فارتحل إلى سبيله راجعاً وسار منطلش إلى عنتاب من قلاع حلب ونائبها محمد بن شهري فملكها واعتصم نائبها بالقلعة أياماً ثم ثبت منطاش وأثخن في أصحابه وقتل جماعة من أمرائه وكانت العساكر قد جاءت من حلب وحماة وصفد لقتاله فهرب إلى مرعش وسار منها إلى بلاد الروم واضمحل أمره وفارقه جماعة من أصحابه إلى العساكر وراجعوا طاعة السلطان آخر ذي القعدة من سنة اثنتين وسبعين وبعث سولي بن دلقادر أمير التركمان في عشر ذي الحجة يستأمن إلى السلطان فأمنه وولاه على البلستين كما كان والله سبحانه وتعالى أعلم.

قدوم كمشيقا من حلب

قد كان تقدم لنا أن كمشيقا الحموي رأس نوبة بيبقا كان نائباً بطرابلس وأن السلطان عزله وحبسه بدمشق فلما استولى الناصري على دمشق أطلقه من الاعتقال وجاء في جملته إلى مصر فلما ولي على مماليك الشام وأعمالها ولاه على حلب مكانه منتصف إحدى وسبعين ولما استقل السلطان من النكبة وقصد دمشق كما مر أرسل كمشيقا إليه بطاعته ومشايعته على أمره وأظهر دعوته في حلب وما إليها من أعماله ثم سار السلطان إلى دمشق وحاصرها وأمده كمشيقا بجميع ما يحتاج إليه ثم جاءه بنفسه في عساكر حلب صريخاً وحمل إليه جميع حاجاته وأزاح علله وأقام له رسوم ملكه وشكر السلطان أفعاله في ذلك وعاهده على أتابكية مصر.

ثم كانت الواقعة على شقحب فانهزم كمشيقا إلى حلب فامتنع بهما وحاصره يماز تمر أتابك منطاش أشهراً كما مر ثم هرب منطاش من دمشق إلى العرب فأفرج يمازتمر عن حلب ثم كانت واقعة الجوباني ومقتله وزحف منطاش ويعبر إلى حلب فحاصروها مدة ثم وقع الخلاف بينهما وهرب منطاش إلى بلاد التركمان ورجع يعبر إلى بلدة سلمية واستأمن إلى السلطان ورجع إلى طاعته منتصف شوال ولما أفرجوا عن حلب نزل كميشقا من القلعة ورم خرابها وخرب بانقوسا واستلحم أهلها وأخذ في إصلاح أسوار حلب ورم ما سلم منها وكانت خراباً من عهد هلاكو وجمع له أهل حلب ألف ألف درهم للنفقة فيه وفرغ منه لثلاثة أشهر.

ولما استوسق أمر السلطان وانتظمت دولته بعث إليه يستدعيه في شهر ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وولى مكانه في حلب قرادمرداش نقله إليها من طرابلس وولى مكانه أنيال الصغير فسار كمشيقا من حلب ووصل مصر تاسع صفر سنة ثلاث وتسعين فاهتزله السلطان وأركب الأمراء للقائه مع النائب ثم دخل إلى السلطان فحياه وبالغ في تكرمته وتلقاه بالرحب ورفع مجلسه فوق الأتابك أنيال وأنزله بيست منجك وقد هيأ فيه من الفرش والماعون والخرثي ما فيه للمنزل ثم بعث إليه بالأقمشة وقرب إليه الجياد بالمراكب الثقيلة وتقدم للأمراء أن يتحفوه بهداياهم فتناغوا في ذلك وجاؤوا من وراء الغاية وحضر في ركابه من أمراء الشام الطنبقا الأشرفي وحسن الكشكي فأكرمهما السلطان واستقر كمشيقا بمصر في أعلى مراتب الدولة إلى أن توفي أنيال الأتابك في جمادى أربع وتسعين فولاه السلطان مكانه كما عاهده عليه بشقحب وجعل إليه نظر المارستان على عادة الأتابكية واستمر على ذلك لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

استقدام أيتمش

كان أيتمش النجاشي أتابك الدولة قد نكبه السلطان وسار في العساكر إلى الشام منتصف ربيع إحدى وتسعين لقتال الناصري وأصحابه لما انتقض عليه وكانت الواقعة بينهم بالمرج من نواحي دمشق وانهزمت العساكر ونجا أيتمش إلى قلعة دمشق ومعه كتب السلطان في دخولها متى اضطر إليه فامتنع بها وملكها الناصري من الغد بطاعة نائبها ابن الحمصي فوكل بأيتمش وأقام حبيساً

موسعاً عليه ثم سار الناصري إلى مصر وملكها وعاد السلطان إلى كرسيه في صفر سنة اثنتين وتسعين كما فصل ذلك من قبل وأيتمش في أثناء ذلك كله محبوس بالقلعة ثم زحف الجوباني في جمادى الأخيرة وخلص أيتمش من اعتقاله وفقت مماليك السلطان السجن الذي كانوا فيه بقلعة دمشق وخرجوا واعصوصبوا على أيتمش قبل مجيء الجوباني وبعث إليه بالخبر وبعث الجوباني إلى السلطان بمثل ذلك فتقدم إليه السلطان بالمقام بالقلعة حتى يفرغ من أمر عدوه.

ثم كان بعد ذلك واقعة الجوباني مع منطاش والعرب ومقتله وولاية الناصري على دمشق مكانه ثم افترق العرب وفارقهم منطاش إلى التركمان وانتظمت ممالك الشام في مملكة السلطان واستوسق ملكه واستفحلت دولته فاستدعي الأمير أيتمش من قلعة دمشق وسار لاستدعائه قنوباي من مماليك السلطان ثامن ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين ووصل إلى مصر رابع جمادى الأولى من السنة ووصل في ركابه حاجب الحجاب بدمشق ومعه الأمراء الذين حبسوا بالشام منهم جنتمر نائب دمشق وابنه وابن أخته وأستاذ داره طنبقا ودمرداش اليوسفي نائب طرابلس والطنبقا الحلي والقاضي أحمد بن القريشي وفتح الدين بن الرشيد وكاتب السر في ست وثلاثين نفراً من الأمراء وغيرهم.

ولما وصل أيتمش قابله السلطان بالتكرمة والرحب وعرض الحاجب المساجين الذين معه ووبخ السلطان بعضهم ثم حبسوا بالقلعة حتى نفذ قضاء اللّه وقتلوا مع غيرهم ممن أوجبت السياسة قتلهم واللّه تعالى مالك الأمور لا رب سواه انتهى.

هدية أفريقية

كان السلطان قد حصل بينه وبين سلطان أفريقية أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص الموحدي مودة والتئام وكانت كثيراً ما تجددها الهدايا من الجانبين ونذكرها إن شاء اللّه تعالى ولما بلغ الخبر إلى تونس بما كان من نكبة السلطان وما كان أمره امتعض له هذا السلطان بتونس وتفجع لشأنه وأقام يستطلع خبره ويستكشف من الجار التي تحضر إلى مصر من أهل تونس أنباءه حتى وقف على الجلي من أمره وما كيف اللّه من أسباب السعادة في خلاصه وعوده إلى كرسيه فملأ السرور جوانحه وأوفد عليه بالتهنئة رسوله بهدية من المقربات على سبيل الوداد مع خالصة من كبراء الموحدين محمد بن علي بن أبي هلال فوصل في العشر الأواخر من رمضان سنة اثنتين وتسعين فتلقاه السلطان بالكرامة وركب محمود أستاذ داره ليتلقاه عند نزوله من البحر بساحل بولاق وأنزل ببيت طشتمر بالزميلة قبالة الإصطبل وأجريت عليه النفقة بما لم يجر لأمثاله ورغب من السلطان في الحج فحج وأصحب هدية إلى مرسله من ثياب الوشي والديباج والسلاح بما لم يعهد مثلها وانصرف آخر ربيع سنة ثلاث وتسعين واللّه تعالى أعلم بغيبه.

حصار منطاش دمشق ومسير السلطان من مصر إليه وفراره ومقتل الناصري

لم يزل منطاش شريداً عند التركمان منذ فارق العرب ولما كان منتصف سنة ثلاث وتسعين اعتزم على قصد دمشق ويقال: إن ذلك كان بإغراء الناصري يخادعه بذلك ليقبض عليه فسار منطاش من مرعش على نواحي حلب وتقدم خبره إلى حماة فهرب نائبها إلى طرابلس ودخل منطاش حماة ونادى فيها بالأمان ثم سار منها إلى حمص كذلك ثم إلى بعلبك وهرب نائبها إلى دمشق فخرج الناصري نائب دمشق في العساكر لمدافعته وسار على طريق الزبداني فخالفه منطاش إلى دمشق وقدم إليها أحمد شكار بن أبي بندمر فثار شيعة الخوارزمية والبندمرية وفتحوا له أبواب البلد ومر بإصطبلات فقاد منها نحواً من ثمانمائة فرس.

وجاء منطاش من الغد على أثره فنزل بالقصر الأبلق وأنزل الأمراء الذين معه في البيوت حوالي القصر وفي جامع شكن وجامع بيبقا وشرع في مصادرة الناس والفريضة عليهم وأقام يومه في ذلك وإذا بالناصري قد وصل في عساكره فاقتتلوا عشية ذلك اليوم مرات ومن الغد كذلك وأقام كل واحد منهما في حومته والقتال متصل بينهما سائر رجب وشعبان ولما بلغ الخبر إلى السلطان ارتاب بالناصري واتهمه بالمداهنة في أمر منطاش وتجهز لقصد الشام ونادى في العساكر بذلك عاشر شعبان وقتل أهل الخلاف من الأمراء المحبوسين وأشخص البطالين من الأمراء إلى الإسكندرية ودمياط وخرج يوم عشرين شعبان فخيم بالريدانية حتى أزاح علل العساكر وقضوا حاجاتهم.

واستخلف على القاهرة الأتابك كمشيقا الحموي وأنزله الإصطبل وجعل له التصرف في التولية والعزل وترك بالقاهرة من الأمراء جماعة لنظر الأتابك وتحت أمره وأنزل النائب سودون بالقلعة وترك بها ستمائة من مماليكه الأصاغر وأخرج معه القضاة الأربعة والمفتين وارتحل غرة رمضان من السنة بقصد الشام وجاء الخبر رابع الشهر بأن منطاش لما بلغه مسيرة السلطان من مصر

هرب من دمشق منتصف شعبان مع عنقا بن أمير آل مراء الصريخ بمنطاش فكانت بينهما وقعة انهزم فيها الناصري وقتل جماعة من أمراء الشام نحو خمسة عشر فيهم إبراهيم بن منجك وغيره.

ثم خرج الناصري من الغد في اتباع منطاش وقد ذكر له أن الفلاحين نزحوا من نواحي دمشق واحتاطوا به فركب إليه منطاش ليقاتله ففارقه أتابكه يمازتمر إلى الناصري في أكثر العساكر وولي هارباً ورجع الناصري إلى دمشق وأكرم يمازتمر وأجمل له الوعد وجاءه الخبر بأن السلطان قد دخل حدود الشام فسار ليلقاه فلقيه بقانون وبالغ السلطان في تكرمته وترجل حين نزوله وعانقه وأركبه بقربه ورده إلى دمشق ثم سار في أثره إلى أن وصل دمشق وخرج الناصري ثانية ودخل إلى القلعة ثاني عشر رمضان من السنة والأمراء مشاة بين يديه والناصري راكب معه يحمل الخبز على رأسه وبعث يعبر في كتاب نائب حماة بالعذر عما وقع منه وأنه اتهم الناصري في أمر منطاش فقصد حسم الفتنة في ذلك واستأمن السلطان وضمن له إحضار منطاش من حيث كان فأمنه وكتب إليه بإجابة سؤاله ولما قضى عيد الفطر برز من دمشق سابع شوال إلى حلب في طلب منطاش ولقيه أثناء طريقه رسول سولي بن دلقادر أمير التركمان بهديته واستئمانه وعذره عن تعرضه لسيس وأنه يسلمهما لنائب حلب فقبل السلطان منه وأمنه ووعده بالجميل ثم وفد عليه أمراء آل مهنا وآل عيسى في الطاعة ومظاهرة السلطان على منطاش ويعبر وأنهما نازلان بالرحبة من تخوم الشام فأكرم السلطان وفادتهم وتقبل طاعتهم وسار إلى حلب ونزل بالقلعة منها ثاني شوال ثم وصل الخبر إلى السلطان بأن منطاش فارق يعبرا ومر ببلاد ماردين فواقعته عساكر هناك وقبضوا على جماعة من أصحابه وخلص هو من الواقعة إلى سالم الرودكاري من أمراء التركمان فقبض عليه وأرسل إلى السلطان يطالعه بشأنه ويطلب بعض أمراء السلطان قرا دمرداش نائب حلب في عساكره إلى سالم الرودكاري لإحضار منطاش وأتبعه بالناصري وأرسل الأتابك إلى ماردين لإحضار من حصل من أصحاب منطاش وانتهى أنيال إلى رأس العين وأتى أصحاب سلطان ماردين وتسلم منهم أصحاب منطاش وكتب سلطانهم بأنه معتمل في مقاصد السلطان ومرتصد لعدوه وانتهى قراد مرداش إلى سالم الرودكاري وأقام عنده أربعة أيام في طلب منطاش وهو يماطله فأغار قرا دمرداش عليه ونهب أحياءه وفتك في قومه وهرب هو ومنطاش إلى سنجار وجاء الناصري على أثر ذلك ونكر على دمرداش ما أتاه وارتفعت الملاحاة بينهما حتى هم الناصري به ورفع الآلة بضربه ولم يحصل أحد منهم بطائل ورجعوا بالعساكر إلى السلطان وكتب إليه سالم الرودكاري بالعذر عن أمر منطاش وأن الناصري كتب إليه وأمره بالمحافظة على منطاش وأن فيه زبوناً للترك فجلس السلطان بالقلعة جلوساً ضخماً سادس ذي الحجة من السنة واستدعى الناصري فوبخه ثم قبض عليه وعلى ابن أخيه كشلي ورأس نوبة شيخ حسن وعلى أحمد بن الهمدار الذي أمكنه من قلعة حلب وأمر بقتله وقشتمر الأشرفي الذي وصل من ماردين معهم وولى على نيابة دمشق مكانه بكا الدوادار وأعطى إقطاعه لقرا دمرداش وأمره بالمسير إلى مصر وولى مكانه بحلب حلبان رأس نوبة وولى أبا يزيد دواداراً مكان بكا ورعى له وسائله في الخدمة وتردده في السفارة بينه وبين الناصري أيام ملك الناصري وأجلب على مصر وأشار عليه الناصري بالإنتفاء كما ذكرناه فاختفى عند أصحاب أبي يزيد هذا بسعايته في ذلك ثم ارتحل من حلب ووصل إلى دمشق منتصف ذي الحجة وقتل بها جماعة من الأمراء أهل الفساد يبلغون خمسة وعشرين وولى على العرب محمد بن مهنا وأعطى إقطاع يعبر لجماعة من التركمان وقفل إلى مصر.

ولقيه الأتابك كمشيقا والنائب سودون والحاجب سكيس ثم دخل إلى القلعة على التعبية منتصف المحرم سنة أربع وتسعين في يوم مشهود ووصل الخبر لعاشر دخوله بوفاة بكا نائب دمشق فولي مكانه سودون الطرنطاي ثم قبض في منتصف صفر على قراد دمرداش الأحمدي وهلك في محبسه وقبض على طنبقا المعلم وقردم الحسيني وجاء الخبر أواخر صفر من السنة بأن جماعة من المماليك مقدمهم إيبقا دوادار بذلار لما هلك بكا واضطرب أصحابه وهرب بعضهم عمد هؤلاء المماليك إلى قلعة دمشق وهجموا عليها وملكوها ونقبوا السجن وأخرجوا المعتقلين به من أصحاب الناصري ومنطاش وهم نحو المائة وركبت العساكر إليها وحاصروها ثلاثا ثم هجموا على الباب فأحرقوه ودخلوا إلى القلعة فقبضوا عليهم أجمعين وقتلوهم وفر إيبقا دوادار وبذلار في خمسة نفر وانحسمت عللهم ثم وصل الخبر آخر شعبان من السنة بوفاة سودون الطرنطاي فولى السلطان مكانه كمشيقا الأشرفي أمير مجلس وولى مكان كمشيقا أمير شيخ الخاجكي انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل منطاش

كان منطاش فر مع سالم الرودكاري إلى سنجار وأقام معه أياماً ثم فارقه ولحق بيعبر فأقام في أحيائه وأصهر إليه بعض أهل الحي بابنته فتزوجها وأقام معهم ثم سار أول رمضان سنة أربع

وتسعين وعبر الفرات إلى نواحي حلب وأوقعت به العساكر هناك وهزموهم وأسروا جماعة من أصحابه ثم طال على يعبر أمر الخلاف وضجر قومه من افتقاد الميرة من التلول فأرسل حاجبه يسأل الأمان وأنه يمكن من منطاش على أن يقطع أربع بلاد منها المعرة فكتب له الدوادار أبو يزيد على لسانه بالإجابة إلى ذلك.

ثم وفد محمد بن سنة خمس وتسعين فأخبر أنه كان مقيماً بسلمية في أحيائه ومعه التركمان المقيمون بشيزر فركبوا إليهم وهزموهم وضرب بعض الفرسان منطاش فأكبه وجرحه ولم يعرف في المعركة لسوء صورته بما أصابه من الشظف والحفاء فأردفه ابن يعبر ونجابه وقتل منهم جماعة منهم ابن بردعان وابن أنيال وجيء برؤسها إلى دمشق وأوعز السلطان إلى أمراء الشام أن يخرجوا بالعساكر وينفوه إلى أطراف البلاد لحمايتها حتى يرفع الناس زروعهم.

ثم زحف يعبر ومنطاش في العساكر أول جمادى الأخيرة من السنة إلى سلمية فلقيهم نائب حلب ونائب حماة فهزموهما ونهبوا حماه وخالفهم نائب حلب إلى أحياء يعبر فأغار عليها ونهب سوادها وأموالها واستاق نعمها ومواشيها وأضرم النار فيما بقي وأكمن لهم ينتظر رجوعهم وبلغهم الخبر بحماة فأسرعوا الكر إلى أحيائهم فخرج عليهم الكمناء وأثخنوا فيهم وهلك بين الفريقين خلق من العرب والأمراء والمماليك.

ثم وفد على السلطان أواخر شعبان عامر بن طاهر بن جبار طائعاً للسلطان ومنابذاً لعمه وذكوان بن يعبر على طاعة السلطان وأنهم يمكنون من منطاش متى طلب منهم فأقبل عليه السلطان وأثقل كاهله بالإحسان والمواعيد ودس معه إلى بني يعبر بإمضاء ذلك ولهم ما يختارونه فلما رجع عامر ابن عمهم طاهر بمواعيد السلطان تفاوضوا مع آل مهنا جميعاً ورغبوهم فيما عند السلطان ووصفوا ما هم فيه من الضنك وسوء العيش بالخلاف والانحراف عن الطاعة وعرضوا على يعبر بأن يجيبهم إلى إحدى الحسنيين من إمساك منطاش أو تخلية سبيلهم إلى طاعة السلطان ويفارقهم هو إلى حيث شاء من البلاد فجزع لذلك ولم يسعه خلافهم وأذن لهم في القبض على منطاش وتسليمه إلى نواب السلطان فقبضوا عليه وبعثوا إلى نائب حلب فيمن يتسلمه واستحلفوه على مقاصدهم من السلطان لهم ولأبيهم يعبر فحلف لهم وبعث إليهم بعض أمرائه فأمكنوه منه وبعثوا معه الفرسان والرجالة حتى أوصلوه ودخل إلى حلب في يوم مشهود وحبس بالقلعة وبعث السلطان أميراً من القاهرة فاقتحمه وقتله وحمل رأسه وطاف به في ممالك الشام وجاء به إلى القاهرة جمادي عشر رمضان سنة خمس وتسعين فعلقت على باب القلعة ثم طيف بها مصر والقاهرة وعلقت على باب زويلة ثم دفعت إلى أهله فدفنوها آخر رمضان من السنة واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

حوادث مكة

قد كان تقدم لنا أن عنان بن مقابس ولاه السلطان على مكة بعد مقتل محمد بن أحمد بن عجلان في موسم سنة ثمان وثمانين وأن كنيش بن عجلان أقام على خلافه وحاصره بمكة فقتل في حومة الحرب سنة تسع بعدها وساء أثر عنان وعجز عن مغالبة الأشراف من بني عمه وسواهم وامتدت أيديهم إلى أموال المجاورين وصادروهم عليها ونهبوا الزرع الواصل في الشواني من مصر إلى جدة للسلطان والأمراء والتجار ونهبوا تجار اليمن وساءت أحوال مكة بهم وبتابعهم وطلب الناس من السلطان إعادة بني عجلان لإمارة مكة.

ووفد على السلطان بمصر سنة تسع وثمانين صبي من بني عجلان اسمه علي فولاه على إمارة مكة وبعثه مع أمير الحاج وأوصاه بالإصلاح بين الشرفاء ولما وصل الأمير إلى مكة يومئذ قرقماش خشي الأشراف منه واضطرب عنان وركب للقائه ثم توجس الخيفة وكر راجعاً وأتبع الأشراف واجتمعوا على منابذة علي بن عجلان وشيعته من القواد والعبيد ووفد عنان بن مقامس على السلطان سنة تسعين فقبض عليه وحبسه ولم يزل محبوساً إلى أن خرج مع بكا عند ثورته بالقلعة في صفر سنة اثنتين وتسعين وبعثه مع أخيه إيبقا يستكشف خبر السلطان كما مر.

وانتظم أمر السلطان بسعاية بكا في العود إلى إمارته رعياً لما كان بينهما من العشرة في البحر وأسعفه السلطان بذلك وولاه شريكاً لعلي بن عجلان في الإمارة فأقاما كذلك سنتين وأمرهما مضطرب والأشراف معصوصبون على عنان وهو عاجز عن الضرب على أيديهم وعلي بن عجلان مع القواد والعبيد كذلك وأهل مكة على وجل من أمرهم في ضنك من اختلاف الأيدي عليهم.

ثم استقدمهم السلطان سنة أربع وتسعين فقدموا أول شعبان من السنة فأكرمهما ورفع مجلسهما ورفع مجلس علي على سائرهم ولما انقضى الفطر ولى علي بن عجلان مستقلاً واستبلغ في الإحسان إليه بأصناف الأقمشة والخيول والممالك والحبوب وأذن له في الجراية والعلوفة فوق الكفاية ثم ظهر عليه بعد شهر

وقد أعد الرواحل ليلحق بمكة هارباً فقبض عليه وحبسه بالقلعة وسار علي بن عجلان إلى مكة وقبض على الأشراف لتستقيم إمارته ثم خودع عنهم فأطلقهم فنفروا عنه ولم يعاودوا طاعته فإضطرب أمره وفسد رأيه وهو مقيم على ذلك لهذا العهد والله غالب على أمره إنه على كل شيء قدير.

وصول أحياء من التتر وسلطانهم إلى صاحب بغداد واستيلاؤه عليها ومسير السلطان بالعساكر إليه

كان هؤلاء التتر من شعوب الترك وقد ملكوا جوانب الشرق من تخوم الصين إلى ما وراء النهر ثم خوارزم وخراسان وجانبيها إلى سجستان وكرمان جنوباً وبلاد القفجاق وبلغار شمالاً ثم عراق العجم وبلاد فارس وأذربيجان وعراق العرب والجزيرة وبلاد الروم إلى أن بلغوا حدود الفرات واستولوا على الشام مرة بعد أخرى كما تقدم في أخبارهم ويأتي إن شاء اللّه تعالى وكان أول من خرج منهم ملكهم جنكزخان أعوام عشر وستمائة واستقلوا بهذه الممالك كلها ثم انقسمت دولته بين بنيهم فيها فكان لبني دوشي خان منهم بلاد القفجاق وجانب الشمال بأسره ولبني هلاكو بن طولي خان خراسان والعراق وفارس وأذربيجان والجزيرة وبلاد الروم ولبني جفطاي خوارزم وما إليها.

واستمرت هذه الدول الثلاث إلى هذا العهد في مائة وثمانين سنة انقرض فيها ملك بني هلاكو في سنة أربعين من هذه المائة بوفاة أبي سعيد آخرهم ولم يعقب وافترق ملكه بين جماعة من أهل دولته في خراسان وأصبهان وفارس وعراق العرب وأذربيجان وتوريز وبلاد الروم فكانت خراسان للشيخ ولي وأصبهان وفارس وسجستان للمظفر الأزدي وبنيه وخوارزم وأعمالها إلى تركستان لبني جفطاي وبلاد الروم لبني أرشا مولى من موالي مرداش بن جوبان وبغداد وأذربيجان والجزيرة للشيخ حسن بن حسين بن أيبغا بن أيكان وأيكان سبط أرغو بن أبغا بن هلاكو ولبنيه وهو من كبار المغل في نسبه.

ولم يزل ملكهم المفترق في هذه الدول متناقلاً بين أعقابهم إلى أن تلاشى واضمحل واستقر ملك بغداد وأذربيجان والجزيرة لهذا العهد لأحمد بن أويس ابن الشيخ حسن سبط أرغوكما في أخبار يأتي شرحها في دول التتر بعد.

ولما كان في هذه العصور ظهر بتركستان وبخارى فيما وراء النهر أمير اسمه تمر في جموع من المغل والتتر ينسب هو وقومه إلى جفطاي لا أدري هو جفطاي بن جنكزخان أو جفطاي آخر من شعوب المغل والأول أقرب لما قدمته من ولاية جفطاي بن جنكزخان على بلاد ما وراء النهر لعهد أبيه وإن اعترض معترض بكثرة هذا الشعب الذي مع تمر وقصر المدة أن هذه المدة من لدن جفطاي تقارب مائتي سنة لأن جفطاي كان لعهد أبيه جنكزخان يقارب الأربعين فهذه المدة أزيد من خمسة من العصور لأن العصر اربعون سنة وأقل ما يتناسل من الرجل في العصر عشرة من الولد فإذا ضوعفت لعشرة بالضرب خمس مراتب كانت مائة ألف.

وإن فرضنا أن المتناسلين تسعة لكل عصر بلغوا في الخمسة عصور إلى نحو من سبعين ألفاً وإن جعلناها ثمانية بلغوا فوق الاثنين وثلاثين وإن جعلناهم سبعة بلغوا ستة عشر ألفاً والسبعة أقل ما يمكن من الرجل الواحد لا سيما مع البداوة المقتضية لكثرة النسل والستة عشر ألفاً عصابة كافية في استتباع غيرها من العصائب حتى تنتهي إلى غاية العساكر ولما ظهر هذا فيما وراء النهر عبر إلى خراسان فملكها من يد الشيخ ولي صاحبها أعوام أربعة وثمانين بعد مراجفات وحروب وهرب الشيخ ولي إلى توريز فعمد إليه تمر في جموعه سنة سبع وثمانين وملك توريز وأذربيجان وخربها وقتل الشيخ ولي في حروبه ومر بأصبهان فأعطوه طاعة معروفة.

وأطل بعد توريز على نواحي بغداد فأرجفوا منه وواقعت عساكره بأذربيجان جموع الترك أهل الجزيرة والموصل وكانت الحروب بينهم سجالاً ثم تأخر إلى ناحية أصفهان وجاءه الخبر بخارج خرج عليه من قومه يعرف بقمر لدين تطمش ملك الشمال من بني دوشي خان بن جنكزخان وهو صاحب كرسي صراي أمده بأمواله وعساكره فكر راجعاً إلى بلده وعميت أنباؤه إلى سنة خمس وتسعين ثم جاءت الأخبار بأنه غلب قمرالدين الخارج عليه ومحا أثر فساده واستولى على كرسي صراي فكر تمر راجعاً وملكها.

ثم خطى إلى أصفهان وعراق العجم وفارس وكرمان فملك جميعها من يد بني المظفر اليزدي بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبددت جموعهم وراسله صاحب بغداد أحمد بن أويس وصانعه بالهدايا والتحف فلم يغن عنه وما زال يخادعه بالملاطفة والمراسلة إلى أن فتر عزم أحمد وافترقت عساكره فصمد إليه يغذ السير حتى انتهى إلى دجلة وسبق النذير إلى أحمد فأسرى من ليله ومر بجسر الحلة فقطعه وصبح مشهد علي ووافى تمر وعساكره دجلة يوم الحادي والعشرين من شوال سنة خمس وتسعين

وأجازوا دجلة سجا ودخلوا بغداد واستولوا عليها.

وبعث العساكر في اتباع أحمد فلحقوا بأعقابه وخاضوا إليه النهر عند الجسر المقطوع وأدركوه بالمشهد فكر عليهم في جموعه وقتل الأمير الذي كان في اتباعه ورجعوا عنه بعد أن كانوا استولوا على جميع أثقاله ورواحله بما فيها من الأموال والذخيرة فرجعوا بها ونجا أحمد إلى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها وطالع نائبها السلطان بأمره فأخرج إليه بعض خواصه بالنفقات والأزواد ليستقدمه فقدم به إلى حلب آخر ذي القعدة فأراح بها وطرقه مرض أبطأ به عن مصر وجاءت الأخبار بأن تمر عاث في مخلفه واستصفى ذخائره واستوعب موجود أهل بغداد بالمصادرات لأغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة وأقفرت جوانب بغداد من العيث.

ثم قدم أحمد بن أويس على السلطان بمصر في شهر ربيع سنة ست وتسعين مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدوه فأجاب السلطان صريخه ونادى في عساكره بالتجهز إلى الشام وقد كان تمر بعدما استولى على بغداد زحف في عساكره إلى تكريت فأولى المخالفين وعثاء الحرابة ورصد السابلة وأناخ عليها بجموعه أربعين يوماً فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من قتل منهم ثم خربها وأسرها.

ثم انتشرت عساكره في ديار بكر إلى الرها ووقفوا عليها ساعة من نهار فملكوها وأشفوا نعمتها وافترق أهلها وبلغ الخبر إلى السلطان فخيم بالريدانية أياماً أزاح فيها علل عسكره وأفاض العطاء في مماليكه واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند واستخلف على القاهرة النائب مودود وارتحل إلى الشام على التعبية ومعه أحمد بن أويس صاحب بغداد بعد أن كفاه مهمه وسرب النفقات في تابعه وجنده.

ودخل دمشق آخر جمادى الأولى وقد كان أوعز إلى حلبان نائب حلب بالخروج إلى الفرات واستيعاب العرب والتركمان للإقامة هنالك رصداً للعدو فلما وصل إلى دمشق وفد عليه جلبان وطالعه بمهماته وما عنده من أخبار القوم ورجع لإنفاذ أوامره والفصل فيما يطالعه فيه وبعث السلطان على أثره العساكر مدداً له مع كميشقا الأتابك وتلكمش أمير سلاح وأحمد بن بيبقا وكان العدو قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً ثم ملكها وعاثت عساكره فيها وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها إلى ناحية بلاد الروم ومر بقلاع الأكراد فأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها والسلطان لهذا العهد وهو شعبان سنة ست وتسعين مقيم بدمشق مستجمع للوثبة به متى استقبل جهته والله ولي الأمور

وهذا آخر ما انتهت إليه دولة الترك بانتهاء الأيام وما يعلم أحد ما في غد والله مقدر الأمور وخالقها.

الخبر عن دولة بني رسول مولى بني أيوب الملوك باليمن بعدهم ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم

قد كان تقدم لنا كيف استولى بنو أيوب على اليمن واختلف عليها الولاة منهم إلى أن ملكها من بني المظفر شاهنشاه بن أيوب حافده سليمان بن ابن المظفر وانتقض أيام العادل سنة اثنتي عشرة وستمائة فأمر العادل ابنه الكامل خليفته على مصر أن يبعث ابنه يوسف المسعود إلى اليمن وهو أخو الصالح ويلقب بالتركي أطس ويقال: أقسنس وقد تقدم ذكر هذا اللقب فملكها المسعود من يد سليمان وبعث به معتقلاً إلى مصر وهلك في جهاد الإفرنج بدمياط سنة سبع وأربعين وهلك العادل أخو المسعود سنة خمس عشرة وستمائة وولي بعده ابنه الكامل وجدد العهد إلى يوسف المسعود على اليمن وحج المسعود سنة تسع عشرة وكان من خبره في تأخير إعلام الخليفة عن إعلامه ما مر في أخبار دولتهم.

ثم جاءت سنة عشرين إلى مكة وأميرهم حسن بن قتادة من بني مطاعن إحدى بطون حسن فجمع لقتاله وهزمه المسعود وملك مكة وولى عليها ورجع إلى اليمن فأقام به ثم طرقه المرض سنة ست وعشرين فارتحل إلى مكة واستخلف على اليمن علي بن رسول التركماني أستاذ داره.

ثم هلك المسعود بمكة لأربع عشرة سنة من ملكه وبلغ خبر وفاته إلى أبيه وهو محاصر دمشق ورجع ابن قتادة إلى مكة ونصب علي بن رسول على اليمن موسى بن المسعود ولقبه الأشرف وأقام ملكاً على اليمن إلى أن خلع وخلف المسعود ولد آخر اسمه يوسف ومات وخلفه ابنه واسمه موسى وهو الذي نصبه الترك بعد أيبك ثم خلعوه ثم خلع علي بن رسول موسى الأشرف بن المسعود واستبد ملك اليمن وأخذ بدعوة الكامل بمصر وبعث أخويه رهناً على الطاعة ثم هلك سنة تسع وعشرين وولي ابنه المنصور عمر بن علي بن رسول ولما هلك علي بن منصور ولى بعده الكامل ابنه عمر ثم توفي الكامل سنة خمس وثلاثين وشغل بنو أيوب بالفتنة بينهم فاستغلظ سلطان عمر باليمن وتلقب المنصور ومنع الأتاوة التي كان يبعث بها إلى مصر فأطلق صاحب

مصر العادل بن الكامل عمومته الذين كان أبوه رهنهم على الطاعة لينازعوه في الأمر فغلبهم وحبسهم وكان أمر الزيدية بصفد قد خرج من بني الرسي وصار لبني سليمان بن داود كما مر في أخبارهم ثم بويع من بني الرسي أحمد بن الحسين من بني الهادي يحيى بن الحسن بن القاسم الرسي بايع له الزيدية بحصن ملا وكانوا من يوم أخرجهم السليمانيون من صفد قد أووا إلى جبل مكانه فلما بويع أحمد بن الحسين هذا لقبوه الموطىء وكان تحصن بملا وكان الحديث شائعاً بين الزيدية بأن الأمر يرجع إلى بني الرسي.

وكان أحمد فقيهاً أديباً عالماً بمذهب الزيدية مجتهداً في العبادة وبويع سنة خمس وأربعين وستمائة وأهمَّ عمر بن رسول شأنه فشمر لحربه وحاصره بحصن ملا مدة ثم أفرج عنه وجهز العساكر لحصاره من الحصون المجاورة له ولم يزل قائماً بأمره إلى أن وثب عليه سنة ثمان وأربعين جماعة من مماليكه بممالأة بني أخيه حسن فقتلوه لثمان عشرة سنة من ولاية المظفر يوسف بن عمر ولما هلك المنصور علي بن رسول كما قلناه قام بالأمر مكانه ابنه المظفر شمس الدين يوسف وكان عادلاً محسناً وفرض الأتاوة عليه لملوك مصر من الترك لما استقلوا بالملك وما زال يصانعهم بها ويعطيهم إياها وكان لأول ملكه امتنع عليه حصن الدملوة فشغل بحصاره وتمكن أحمد الموطىء الثائر بحصن ملا من الزيدية من أعقاب بني الرسى فملك عشرين حصناً من حصون الزيدية وزحف إلى صفد فملكها من يد السلميانيين ونزل له أحمد المتوكل إمام الزيدية منهم فبايعه وأمنه ولما كانوا في خطابة لم يزل في كل عصر منهم إمام كما ذكرناه في أخبارهم قبل.

ولم يزل المظفر والياً على اليمن إلى أن هلك بغته سنة أربع وتسعين لست وأربعين سنة من ملكة الأشرف عمر بن المظفر يوسف ولما هلك المظفر يوسف كما قلناه وولي بعده ابنه الأشرف ممهد الدين عمر وكان أخوه داود والياً على الشحر فدعا لنفسه ونازعه الأمر فبعث الأشرف عساكره وقاتلوه وهزموه وقبضوا عليه وحبسه واستمر الأشرف في ملكه إلى أن سمته جاريته فمات سنة ست وتسعين لعشرين شهراً من ولايته أخوه داود بن المظفر المؤيد يوسف ولما هلك الأشرف بن عمر بن المظفر يوسف أخرج أخاه مؤيد الدين داود من معتقله وولوُّه عليهم ولقبوه المؤيد وافتتح أمره بقتل الجارية التي سمت أخاه وما زال يواصل ملوك الترك بهداياه وصلاته وتحفه والضريبة التي قررها سلفه وانتهت هديته سنة إحدى عشرة وسبعمائة إلى مائتي وقر بعير بالثياب والتحف وطرف اليمن ومائتين من الجمال والخيل ثم بعث سنة خمس عشرة بمثل ذلك وفسد ما بينه وبين ملوك الترك بمصر وبعث بهديته سنة ثمان عشرة فردوها عليه ثم هلك سنة إحدى وعشرين وسبعمائة لخمس وعشرين سنة من ملكه وكان فاضلاً شافعي المذهب وجمع الكتب من سائر الأمصار فاشتملت خزانته على مائة ألف مجلد وكان يتفقد العلماء بصلاته ويبعث لابن دقيق العيد فقيه الشافعية بمصر جوائزه ولما توفي المؤيد داود سنة إحدى وعشرين كما قلناه قام بملكه ابنه المجاهد سيف الدين علي ابن اثنتي عشرة سنة والله وارث الأرض ومن عليها.

ثورة جلال الدين بن عمر الأشرف وحبسه

ولما ملك المجاهد علي شغل بلذاته وأساء السيرة في أهل المناصب الدينية بالعزل والاستبدال بغير حق فنكره أهل الدولة وانتقض عليه جلال الدين ابن عمه عمر الأشرف وزحف إليه وكانت بينهما حروب ووقائع كان النصر فيها للمجاهد وغلب على جلال الدين وحبسه والله تعالى أعلم.

ثورة جلال الدين ثانياً وحبس المجاهد وبيعة المنصور أيوب بن المظفر يوسف

وبعد أن قبض المجاهد على جلال الدين ابن عمه الأشرف وحبسه لم يزل مشتغلاً بلهوه عاكفاً على لذاته وضجر منه أهل الدولة وداخلهم جلال الدين في خلعه فوافقوه فرحل إلى سنة اثنتين وعشرين فخرج جلال الدين من محبسه وهجم عليه في بعض البساتين وفتك بحرمه وقبض عليه وبايع لعمه المنصور أيوب بن المظفر يوسف واعتقل المجاهد عنده في نفر وأطلق جلال الدين ابن عمه والله تعالى أعلم بغيبه.

خلع المنصور أيوب ومقتله وعود المجاهد إلى ملكه ومنازعة الظاهر بن المنصور أيوب له

ولما حبس المجاهد بقلعة تعز واستقل المنصور بالملك اجتمع شيعة المجاهد وهجموا على المنصور في بيته بتعز وحبسوه وأخرجوا المجاهد وأعادوه إلى ملكه ورجع أهل اليمن لطاعته وكان أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب بالدملوة فعصى عليه وامتنع بها وكتب إليه المجاهد يهدده بقتل أبيه فلجَّ واتسع الخرق بينهما

وعظمت الفتنة وافترق عليهما العرب وكثر عيثهم وكثر الفساد وبعث المنصور من محبسه إلى ابنه عبد الله أن يسلم الدملوة خوفاً على نفسه من القتل فأبى عبد الله من ذلك وأساء الرد على أبيه ولما يئس المجاهد منه قتل أباه المنصور أيوب بن المظفر في محبسه واجتمع أهل الدملوة وكبيرهم الشريف ابن حمزة وبايعوا أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب وبعث عسكراً مع الشهاب الصفوي إلى زبيد فحاصروها وفتحوها.

وجهز المجاهد عساكره إليها مع قائده علي بن الدوادار ولما قاربوا زبيد أصابهم سيل وبيتهم أهل زبيد فنالوا منهم وأسروا أمراءهم واتهم المجاهد قائده علي بن الدوادار بمداخلة عدوه فكتب إليه أن يسير إلى عدن لتحصيل مواليها وكتب إلى والي عدن بالقبض عليه ووقع الكتاب بيد الظاهر فبعث به إلى الدوادار فرجع إلى عدن وحاصرها وفتحها وخطب بها للظاهر سنة ثلاث وعشرين وملك عدن بعدها ثم استمال صاحب صنعاء وخوص فقاموا بدعوة الظاهر وبعث المجاهد إلى مذحج والأكراد يستنجدهم فلم ينجدوه وهو بحصن المعدية وكتب الظاهر إلى أشراف مكة وقاضيها نجم الدين الطبري بأن الأمر قد استقر له باليمن والله تعالى ولي التوفيق لا رب سواه.

وصول العساكر من مصر مدداً للمجاهد واستيلاؤه على أمره وصلحه مع الظاهر

ولما غلب الظاهر بن المنصور أيوب على قلاع اليمن وانتزعها من المجاهد وحاصره بقلعة المعدية، بعث المجاهد سنة أربع وعشرين بصريخه إلى السلطان بمصر من الترك الناصر محمد بن قلاوون سنة خمس وعشرين، فبعث إليه العساكر مع بيبرس الحاجب وأنيال من أمراء دولته، ووصلوا إليه سنة خمس وعشرين فسار إليهم المجاهد من حصن المعدية بنواحي عدن إلى تغر فاستأمن إليه أهلها فأمنهم وراسلوا الظاهر في الصلح فأجاب على أن تكون له الدملوة، وتحالفوا على ذلك.

وطلب أمراء الترك الشهاب الصفوي الذي أنشأ الفتنة بين المجاهد والظاهر فامتنع عن إجابتهم فركب بيبرس وهجم عليه في خيمته وقتله بسوق الخيل بتغر، وأثخنوا في العصاة على المجاهد في كل ناحية حتى أطاعوا، وتمهد له الملك ورجعت العساكر إلى مصر سنة ست وعشرين والله سبحانه وتعالى أعلم.

نزول الظاهر للمجاهد عن الدملوة ومقتله

ولما استقام الأمر للمجاهد باليمن واستخلفه الظاهر على الدملوة أخذ المجاهد في تأنيسه وأحكام الوصلة به حتى اطمأن، وهو يفتل له في الذروة والغارب حتى نزل له عن الدملوة وولى عليها من قبله وصار الظاهر في جملته، ثم قبض عليه وحبسه بقلعة تعز، ثم قتله في محبسه سنة أربع وثلاثين والله تعالى أعلم.

حج المجاهد علي بن المؤيد داود وواقعته مع أمراء مصر واعتقاله بالكرك ثم إطلاقه ورجوعه إلى ملكه

ثم حج المجاهد سنة إحدى وخمسين أيام حسن الناصري الأولى وهي السنة التي حج فيها طاز كافل المملكة أميراً وحج بيبقاروس الكافل الآخر مقيداً لأن السلطان أمر طاز بالقبض عليه في طريقه.

فلما قبض عليه رغب منه أن يخلي سبيله لأداء فرضه فأجابه وحج مقيداً.

وجاء المجاهد ملك اليمن للحج وشاع عنه أنه يروم كسوة الكعبة فتنكر أمراء مصر وعساكرها لأهل اليمن ووقعت في بعض الأيام هيعةفي ركب اليمن فتحاربوا وانهزم وذهب سواده وركب أهل اليمن كافة وأطلق بيبقاروس للقتال فجلا في تلك الوقعة وأعيد إلى اعتقاله.

وحمل المجاهد إلى مصر معتقلاًفحبس ثم أطلق سنة اثنتين وخمسين في دولة الصالح، عثوا معه قشتمر المنصوري إلى بلاده.

فلما انتهى إلى الينبع ظهر عليه بأنه يروم الهرب فرده وحبسه بالكرك.

ثم أطلق بعد ذلك وأعيد إلى ملكه، وأقام على مهاداة صاحب مصر ومصانعته إلى أن توفي سنة ست وستين لاثنتين وأربعين سنة من ملكه.

ولاية الأفضل عباس بن المجاهد علي

ولما توفي المجاهد سنة ست وستين ولي بعده ابنه عباس واستقام له ملك اليمن إلى أن هلك سنة ثمان وسبعين لاثنتي عشرة سنة من ملكه والله تعالى أعلم.

ولاية المنصور محمد بن الأفضل عباس

ولما توفي الأفضل عباس بن المجاهد سنة ثمان وسبعين ولي بعده ابنه المنصور محمد واستولى على أمره واجتمع جماعة من مماليكه سنة اثنتين وثمانين للثورة به وقتله والع على شأنهم فهربوا إلى الدملوة وأخذهم العرب في طريقهم وجاؤوا بهم وعفا عنهم واستمر في ملكه إلى أن هلك والله تعالى أعلم.

ولاية أخيه الأشرف بن الأفضل عباس

ولما توفي المنصور محمد بن الأفضل سنة ولي أخوه الأشرف إسماعيل واستقام أمره وهو صاحب اليمن لهذا العهد لسنة ست وتسعين والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن دولة التتر من شعوب الترك وكيف تغلبوا على الممالك الإسلامية وانتزوا على كرسي الخلافة ببغداد وما كان لهم من الدول المفترقة وكيف أسلموا بعد ذلك ومبدأ أمورهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدم لنا ذكر التتر وأنهم من شعوب الترك وأن الترك كلهم ولد كومر بن يافث على الصحيح، وهو الذي وقع في التوراة.

وتقدم لنا ذكر أجناس الترك وشعوبهم وعددنا منهم الغز الذين منهم السلجوقية والهياطلة الذين منهم القلج، وبلاد الصغد قريباً من سمرقند ويسمون بها أيضاً.

وعددنا منهم الخطا والطغرغر وهم التتر، وكانت مساكن هاتين الأمتين بأرض طمغاج، ويقال: أنها بلاد تركستان وكاشغر وما إليها من وراء النهر وهي بلاد ملوكهم في الإسلام، وعددنا منهم الخزلجية والغور والخزر والخفشاج وهم القفجاق ويمك والعلان ويقال: الآن وجركس وأركش.

وعد صاحب روجار في كتابه على الجغرافيا العسسه والتغز غزية والخزخيرية والكيماكية والخزلجية والخزر والخلج وبلغار ويمناك وبرطاس وسنجارت وخرجان وأنكر، وذكر مساكن أنكر في بلاد البنادقة من أرض الروم وجمهور هذه الأمم من الترك فيما وراء النهر شرقاً إلى البحر المحيط بين الجنوب والشمال من الأقليم الأول إلى السابع، والصين في وسط بلادهم.

وكانت الصين أولاً لبني صيني إخوانهم من بني يافث.

ثم صار لهم واستولوا على معظمه إلا قليلاً من أطرافه على ساحل البحر، وهم رحاله كما مر في ذكرهم أول الكتاب وفي دولة السلجوقية وأكثرهم من المفازة التي بين الصين وبلاد تركستان.

وكان لهم قبل الإسلام دولة، ولهم مع الفرس حروب مذكورة وملكهم لذلك العهد في بني فراسيان.

وكان بينهم وبين العرب لأول الفتح حروب طويلة قاتلوهم على الإسلام، فلم يجيبوا فأثخنوا فيهم، وغلبوهم على أطراف بلادهم وأسلم ملوكهم على بلادهم وذلك من بعد القرن الأول وكانت لهم في الإسلام دولة ببلاد تركستان وكاشغر، ولا أدري من أي شعوبهم كان هؤلاء الملوك.

وقد قيل فيهم إنهم من ولد فراسيان ولا يعرف شعب فراسيان فيهم، وكان هؤلاء الملوك يلقبون بالخاقان بالخاء والقاف سمة لكل من يملك منهم، مثل كسرى للفرس وقيصر للروم.

وأسلم ملوكهم بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم فأقاموا بها، وكان بينهم وبين بني سامان الملوك القائمين فيما وراء النهر بدولة بني العباس حرب وسلم اتصلت حالهم عليها إلى أن تلاشت دولتهم ودولة بني سامان جميعاً.

وقام محمود بن سبكتكين من موالي بني سامان بدولتهم وملكهم فيما وراء النهر وخراسان.

وقد ظهر لذلك العهد بنو سلجوق وغلبوا ملوك الترك على أمرهم وأصبحوا في عداد ولاتهم شأن الدول البادية الجديدة مع الدول القديمة الحاضرة، ثم قارعوا بني سبكتكين وغلبوهم على ملكهم فيما بعد المائة الرابعة واستولوا على ممالك الإسلام بأسرها، وملكوا ما بين الهند ونهاية المعمور في الشمال وما بين الصين وخليج القسطنطينية في الغرب، وعلى اليمن والحجاز والشام وفتحوا كثيراً من بلاد الروم واستفحلت دولتهم بما لم تنته إليه دولة بعد العرب والخلفاء في الملة.

ثم تلاشت دولتهم وانقرضت بعد مائتين من السنين شأن الدول وسنة الله في العباد.

وكانوا بعد خروج السلجوقية إلى خراسان قد خلفتهم في بلاد بضواحي تركستان وكاشغر من أمم الترك أمة الخطا ومن ورائهم أمة التتر إلى تركستان وحدود الصين.

ولم يقدر ملوك الخانية بتركستان على دفاعهم لعجزهم عن ذلك فكان أرسلان خان ابن محمد بن سليمان ينزلهم مسالح على الدروب ما بينه وبين الصين، ويقطعهم على ذلك ويوقع بهم على الفساد والعيث ثم زحف من الصين ملك الترك الأعظم كوخان سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ولحقت به أمم الخطا ولقيهم الخان محمود بن محمد بن سليمان بن داود بن بقراخان صاحب تركستان وما وراء النهر من الخانية، وهو ابن أخت السلطان سنجار بن ملك شاه صاحب خراسان من ملوك السلجوقية فهزموه.

وبعث بالصريخ إلى خاله سنجار، فاستنفر ملوك خراسان وعساكر المسلمين وعبر جيحون للقائهم، وسارت إليه أمم التتر والخطا وتواقعوا في صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وانهزم سنجار وأسرت زوجته ثم أطلقها كوخان ملك الترك، واستولى على ما وراء النهر.

ثم مات كوخان سنة سبع وثلاثين وملكت بعده بنته، ثم ماتت فملكت بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد، ثم انقرض ملكهم واستولى الخطا على ما وراء النهر.

ثم غلب على خوارزم علاء الدين محمد بن تكش كما قدمناه، ويلقب هو وأبوه بخوارزم شاه.

وكان ملوك الخانية ببلادهم فيما وراء النهر فاستصرخوا به على الخطا لما كثر من عيثهم وفسادهم، فأجاب صريخهم وعبر النهر سنة ست وستمائة، وملكهم يومئذ كبير السن بصير في الحرب فلقيهم فهزموه وأسر خوارزم شاه ملكهم طانيكوه وحبسه بخوارزم، وملك سائر بلاد الخطا إلى أوركندا، وأنزل به نوابه وزوج أخته من الخان صاحب سمرقند وأنزل معه شحنة كما كانت للخطا وعاد إلى بلاده.

وثار ملك الخانية بالشحنة بعد رجوعه بسنة وقتلهم، وهمَّ بقتل زوجته أخت خوارزم شاه وحاصره بسمرقند واقتحمها عليه عنوة وقتله في جماعة من أقاربه، ومحا أثر الخانية وملكهم مما وراء النهر، وأنزل في سائر البلد نوابه.

وكانت أمة التتر من وراء الخطا هؤلاء قد نزلوا في حدود الصين ما بينها وبين تركستان، وكان ملكهم كشلي خان ووقع بينهم وبين الخطا من العداوة والحروب ما يقع بين الأمم المتجاورة.

فلما بلغهم ما فعله خوارزم شاه بالخطا أرادوا الانتقام منهم، وزحف كشلي خان في أمم التتر إلى الخطا لينتهز الفرصة فيهم، فبعث الخطا إلى خوارزم شاه يتلطفون له ويسألونه النصر من عدوهم قبل أن يستحكم أمره وتضيق عنه قدرتهم وقدرته.

وبعث إليه كشلي ملك التتر بمثل ذلك فتجهز يوهم كل واحد من الفريقين أنه له وأقام متنبذاً عنهما وقد تواقعوا وانهزم الخطا فمال مع التتر عليهم واستلحموهم في كل وجه ولم ينج منهم إلا قليل تحصنوا بين جبال في نواحي تركستان وقليل آخرون لحقوا بخوارزم شاه فكانوا معه وبعث خوارزم شاه إلى كشلي خان ملك التتر يعتد عليه بهزيمة الخطا وأنها إنما كانت بمظاهرته فأظهر له الاعتراف وشكره ثم نازعه في بلادهم وأملاكهم وبعث خوارزم شاه بحربهم ثم علم أنه لا طاقة له بهم فمكث يراوغهم عن اللقاء وكشلي خان يعذله في ذلك وهو يغالطه واستولى كشلي خان خلال ذلك على كاشغر وبلاد تركستان وساغون ثم عمد خوارزم شاه إلى الشاش وفرغانة واسبيجاب وقاشان وما حولها من المدن التي لم يكن في بلاد اللّه أنزه منها ولا أحسن عمارة فجلا أهلها إلى بلاد المسلمين وخرب جميعها خوفاً أن يملكها التتر بعد ذلك وخرج على كشلي خان طائفة أخرى يعرفون بالمغل وملكهم جنكزخان فشغل كشلي خان بحربهم عن خوارزم شاه وعبر النهر إلى خراسان ونزل خوارزم إلى أن كان من أمره ما نذكره واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء التتر على ممالك خوارزم شاه فيما وراء النهر وخراسان ومهلك خوارزم شاه وتولية محمد بن تكش

ولما رحل السلطان إلى خراسان استولى على الممالك ما بينه وبين بغداد من خراسان ومازندران وباميان وغزنة إلى بلاد الهند وغلب الغورية على ما بأيديهم ثم ملك الري وأصفهان وسائر بلاد الجبل وسار إلى العراق وبعث إلى الخليفة في الخطبة كما كانت للملوك بني سلجوق فامتنع الخليفة من ذلك كما مر ذلك كله في أخبار دولتهم ثم عاد من العراق سنة ست عشرة وستمائة واستقر بنيسابور فوفدت عليه رسل جنكزخان بهدية من نقرة المعدنين ونوافح المسك وحجر اليشم والثياب الخطائية المنسوجة من وبر الإبل البيض ويخبر أنه ملك الصين وما بينها من بلاد الترك ويطلب الموادعة والإذن للتجار بالتردد لمتاجرهم من الجانبين وكان في خطابه إطراء السلطان خوارزم شاه بأنه مثل أعز أولاده فاستنكف السلطان من ذلك وامتعض له وأجمع عداوته واستدعى محموداً الخوارزمي من رسل جنكزخان واصطنعه ليكون عيناً له على صاحبه واستخبره عما قاله في كتابه من أنه ملك الصين.

واستولى على مدينة طوغاج فصدق له ذلك وسأله عن مقدار العساكر فقللها وغشه في ذلك ثم نكر عليه الخطاب بالولد ثم صرف الرسل بما طلبوه من الموادعة والإذن للتجار ووصل على أثر ذلك بعض التجار من بلادهم إلى أطرار وبها أنيال خان ابن خال السلطان خوارزم شاه فعثره على أموالهم ورفع إلى السلطان أنهم عيون على البلاد وليسوا بتجار فأمره بالاحتياط عليهم ففعل وأخذ أموالهم وقتلهم خفية وفشا الخبر إلى جنكزخان فبعث بالنكير على السلطان في ذلك وقال له: إن كان فعله أنيال خان فابعثه إلي وتهدده على ذلك في كتابه فأنزعج السلطان لها وقتل الرسل وبلغ الخبر إلى جنكزخان فسار في العساكر إلى بلاده وجبى السلطان من سمرقند خراج سنتين حصن به أسوار سمرقند وجبى ثالثة استخدم بها الفرسان لحمايتها ثم سار للقاء جنكزخان فكانت بينهما واقعة عظيمة هلك فيها كثير من الفريقين فكبسهم وهو غائب عنهم ورجع خوارزم شاه إلى جيحون وأقام عليه وفرق عساكره في أعمال ما وراء النهر بخارى وسمرقند وترمذ وأنزل أبنانخ من أكبر أمرائه وأصحاب دولته في بخارى وجعلهم لنظره ثم جاء جنكزخان إليه فعبر النهر مجفلاً وقصد جنكزخان أطرار فحاصرها وملكها غلاباً وأسر أميرها أنيال خان الذي قتل التجار فأذاب الفضة في أذنيه وعينيه ثم حاصر بخارى وملكها على الأمان وقاتلوا معه القلعة حتى خربها ثم غدر بهم فقتلهم وسباهم وفعل مثل ذلك في سمرقند سنة تسع عشرة.

ثم كتب كتباً إلى أمراء خوارزم شاه قرابة أمه كأنها أجوبة عن كتبهم إليه باستدعائه والبراءة من خوارزم وذمه بعقوق أمه فبسط آمالهم في كتبه ووعد تركمان خان أم السلطان وكانت في خوارزم فوعدها بزيارة خراسان وأن تبعث من يستخلفه على ذلك وبعث بالكتب من يعترض بها للسلطان فلما قرأها ارتاب بأمه وبقرابتها فاستوحشوا ووقع التقاطع والنفرة ولما استولى جنكزخان على ما وراء النهر ونجا نائب بخارى في الفل أجفل السلطان وعبر جيحون ورجع عنه طوائف الخطا الذين كانوا معه وتخاذل الناس وسرح جنكزخان العساكر في أثره نحواً من عشرين ألفاً كانوا يسمونهم التتر المغربة لتوغلهم في البلاد غربي خراسان إلى بلاد القفجاق ووصل السلطان إلى نيسابور فلم يلبث بها وارتحل إلى مازندران والتتر في أثره.

ثم انتهى إلى همذان فكبسوه هنالك وفرقوا جموعه ونجا إلى جبال طبرستان فأقام بقربة بساحل البحر في فل من قومه ثم كبسه التتر أخرى فركب البحر إلى جزيرة في بحيرة طبرستان وخاضوا في أثره فغلبهم الماء ورجعوا وأقام خوارزم شاه بالجزيرة ومرض بها ومات سنة سبع عشرة وستمائة وعهد لابنه جلال الدين سكري ولما بلغ خبر إجفاله إلى أمه تركمان خاتون بخوارزم خرجت سارية واعتصمت بقلعة أيلاز من مازندران ورجع التتر عن اتباع خوارزم شاه فافتتحوا قلاع مازندران وملكوها وملكوا قلعة أيلاز صلحاً وأسروا أم السلطان وبناته وتزوجهن التتر وتزوج دوشي خان بن جنكزخان واحدة وبقيت تركمان خاتون أسيرة عندهم في ذل وخمول والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير التتر المغربة بعد خوارزم شاه إلى العراق وأذربيجان واستيلاؤهم عليها إلى بلاد قفجاق والروس وبلاد الخزر

ولما رجع التتر المغربة من اتباع خوارزم شاه سنة سبع عشرة عادوا إلى همذان وانتسفوا ما مروا عليه، وصانعهم أهل همذان بما طلبوه، ثم ساروا إلى سنجار كذلك، ثم إلى قومس فامتنعوا منهم وحاصروها وملكوها غلاباً وقتلوا أكثر من أربعين ألفاً ثم ساروا إلى أذربيجان وصانعهم صاحب تبريز وانصرفوا إلى موقان ومروا ببلاد الكرج فاكتسحوها وجمعوا لهم فهزموهم وأثخنوا فيهم وذلك آخر سنة سبع عشرة ثم عادوا إلى مراغة فملكوها عنوة في صفر سنة ثمان عشرة واستباحوها ورحلوا عنها إلى إربل، وبها مظفر الدين كوكبري، واستمد صاحب الموصل فأمده بالعساكر.

ثم استدعاهم الخليفة الناصر إلى دقوقا للمدافعة عن العراق مع عساكره وولى عليهم مظفر الدين صاحب إربل فخام عن لقائهم وخاموا عن لقائه.

وساروا إلى همذان وبها شحنتهم فامتنعوا من مصانعتهم وقاتلوهم فملكوها عنوة واستباحوها واستلحموا أهلها، ورجعوا إلى أذربيجان فملكوا أردبيل واستباحوها وخربوها وساروا إلى تبريز، وقد فارقها أزبك بن البهلوان إلى نقجوان فصانعوهم بالأمان، وساروا إلى بيلقان وملكوها عنوة وأفحشوا في القتل والمثلة واكتسحوا جميع الضاحية. ثم ساروا إلى كنجة قاعدة أران فصانعهم أهلها فساروا إلى بلاد الكرج فهزموهم وحاصروهم بقاعدتهم تفليس، وردهم كثرة الأوعار عن التوغل فيها.

ثم قصدوا دربند شروان وحاصروا مدينة سماجي ودخلوه عنوة وملكوه واستباحوه، وأعجزهم الدربند عن المسير فراسلوا شروان في الصلح، فبعث إليهم رجالاً من أصحابه فقتلوا بعضهم وقتلوا الباقين أذلاء.و أفضوا من الدربند إلى أرض أسحمة، وبها

من القفجاق واللاز والغز وطوائف من الترك مسلمون وكفار أمم لا تحصى. ولم يطيقوا مغالبتهم لكثرتهم فرجعوا إلى التضريب بينهم حتى استولوا على بلادهم. ثم اكتسحوها وأوسعوهم قتلاً وسبياً وفر أكثرهم إلى بلاد الروس وراءهم واعتصم الباقون بالجبال والغياض. وانتهى التتر إلى مدينتهم الكبرى سرداق على بحر نيطش المتصل بخليج القسطنطينية وهي مادتهم وفيها تجارتهم فملكها التتر وافترق أهلها في الجبال وركب أهلها البحر إلى بلاد الروم في إيالة بني قليج أرسلان.

ثم سار التتر سنة عشرين وستمائة من بلاد قفجاق إلى بلاد الروس المجاورة لها، وهي بلاد فسيحة وأهلها يدينون بالنصرانية فساروا إلى مدافعتهم في تخوم بلادهم، ومعهم جموع من القفجاق أياماً.ثم انهزموا وأثخن فيهم التتر قتلاً وسبياً ونهباً، وركبوا السفن هاربين إلى بلاد الإسلام وتركوا بلادهم فاكتسحها التتر، ثم عادوا عنها وقصدوا بلغار آخر السنة. واجتمع أهلها وساروا للقائهم بعد أن أكمنوا لهم ثم استطردوا أمامهم وخرج عليهم الكمناء من خلفهم فلم ينج منهم إلا القليل. وارتحلوا عائدين إلى جنكزخان بأرض الطالقان، ورجع القفجاق إلى بلادهم واستقروا فيها. واللّه تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

مسير جنكزخان إلى خراسان وتغلبه على أعمالها وعلى خوارزم شاه

كان جنكزخان بعد أن أجفل خوارزم شاه من جيحون ومسير التتر المغربة في طلبه ملك سمرقند فبعث عسكراً إلى ترمذ، وعسكراً إلى خوارزم وعسكراً إلى خراسان. وكان عسكر خوارزم أعظمها لأنها كرسي الملك ومأوى العساكر، وبعث مع العساكر ابنه جفطاي وأركطاي فحاصروها خمسة أشهر، وامتنعت فأمدهم جنكزخان بالعساكر متلاحقة، وملكوها ناحية ناحية إلى أن استوعبوا. ثم نقبوا السد الذي يمنع ماء جيحون عنها فسال إليها جيحون فغرّقها وتقسم أهلها بين السند والعراق، وهكذا قال ابن الأثير.

وقال النسابي كاتب جلال الدين: إن دوشي خان عرض عليهم الأمان وخرجوا إليه فقتلهم أجمعين وذلك في محرم سنة سبع عشرة وعاد دوشي خان والعساكر إلى جنكزخان فوجدوه بالطالقان.

وأما عسكر ترمذ فساروا إليها وملكوها وتقدموا إلى كلابه من قلاع جيحون فملكوها وخربوها، وعسكر فرغانه كذلك. وأما عسكر خوارزم فعبروا إلى بلخ وملكوها على الأمان سنة سبع عشرة وأنزلوا بها شحنة. ثم ساروا إلى الزوزان وأيدحور ومازندران فملكوها وولوا عليها. ثم ساروا إلى الطالقان وحاصروا قلعة بساركوه وكانت منيعة، وجاءهم جنكزخان بنفسه بعد امتناعها ستة أشهر فحاصروها أربعة أشهر أخرى. ثم أمر بنقل الخشب والتراب ليجتمع به تل يتعالى به البلد. فلما استيقنوا الهلكة فتحوا الباب وصدقوا الحملة فنجا الخيالة وتفرقوا في البلاد والشعاب وقتل الرجالة ودخل التتر فاستباحوها وبعث جنكزخان عسكراً إلى سبا مع صهره قفجاق نون فقتل في حصارها ثم ملكوها فاستباحوها وخربوها.

ويقال: قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً. ثم بعث جنكزخان في العساكر إلى مدينة مرو، وقد كان الناجون من هذه الوقائع انزووا إليها فاجتمعوا بظاهرها أكثر من مائتي ألف لا يشكون في الظفر، فلما زحف إليهم التتر ولوا منهزمين وأثخنوا فيهم ثم حاصروا البلد خمسة أشهر واستنزلوا أميرها على الأمان.ثم قتلوهم جميعاً وحضر جنكزخان قتلهم. يقال: قتل فيها سبعمائة ألف. ثم ساروا إلى نيسابور فاقتحموها عنوه وقتلوا وعاثوا، ثم إلى طرابلس كذلك. ثم ساروا إلى هراة فملكوها على الأمان وأنزلوا عندهم الشحنة وعادوا إلى جنكزخان بالطالقان، وهو يرسل العساكر والسرايا في نواحي خراسان حتى أتوا عليها تخريباً، وذلك كله سنة سبع عشرة، واللّه تعالى أعلم.

إجفال جلال الدين ومسير التتر في اتباعه وفراره إلى الهند

ثم بعث العساكر في طلب جلال الدين وقد كان بعد مهلك أبيه وخروج تركمان خاتون من خوارزم سار إليها وملكها واجتمع إليه الناس ثم نمي إليه أن قرابة تركمان خاتون وهم البياروتية مالوا إلى أخيه يولغ شاه وابن أختهم وأنهم يريدون الوثوب بجلال الدين ففر ولحق بنيسابور وجاءت عساكر التتر إلى خوارزم فأجفل يولغ شاه وأخوه ليلحقوا به بنيسابور فأدركهم التتر وهم محاصرون قلعة قندهار فاستلحمهم ثم سار غزنة فملكها من يد الثوار الذين استولوا عليها أيام هذه الفتنة وذلك سنة ثمان عشرة.

ولحق به أمراء أبيه الذين تغلبوا على نواحي خراسان في هذه الفتنة وأزعجهم التتر عنها فحضروا مع جلال الدين كبسة التتر بقلعة قندهار ولحق فلهم بجنكزخان وبعث ابنه طولي خان

لقتال جلال الدين فهزمه جلال الدين وقتله ولحق الفل من عساكره بجنكزخان فسار في أمم التتر ولقي جلال الدين فانهزم ولم يفلت من التتر إلا الأقل ورجع جلال الدين فنزل على نهر السند وقد كان جماعة من أمرائه انعزلوا عنه يوم الواقعة الأولى بسبب الغنائم فبعث إليهم يستألفهم فعاجله جنكزخان وقاتله ثلاثاً ثم هزمه واعترضه نهر السند فاقتحمه وخلص إلى السند بعد أن قتل حرمه أجمعين وذلك سنة ثمان عشرة والله تعالى أعلم.

أخبار غياث الدين بن خوارزم شاه مع التتر

كان خوارزم شاه قد قسم الملك بين ولده فجعل العراق لغورن شاه وكرمان لغياث الدين تمر شاه فلم ينفذ إليها أيام أبيه فلما فر خوارزم شاه إلى ناحية الري لقيه ابنه غورن شاه صاحب العراق ثم كانت واقعة التتر به على حدوه ولحق خوارزم شاه بجزيرة طبرستان ولحق غورنشاه بكرمان ثم رجع واستولى على أصفهان وعلى الري ثم زحف التتر إليه وحاصروه بقلعة أوند وقتلوه وكان أخوه غياث الدين بكرمان وملكه بينه وبين بقا طرابلسي أتابكه وفر إلى ناحية أذربيجان واستولى غياث الدين على العراق ومازندران وخوزستان فأقطع بقا طرابلسي همذان.

ثم سار غياث الدين إلى أذربيجان فصانعه صاحبها أزبك بن البهلوان ولحق به من كان متغلباً من أمراء أبيه بخراسان وكان أينايخ خان نائب بخارى قد تغلب بعد الواقعة على نسا ونواحيها وجرجان وعلى شيروان وعامة خراسان وكان تكين بهلوان متغلباً على مرو فعبر جيحون سنة سبع عشرة وكبس شحنة التتر وأتبعوه إلى شيروان ولقوا إينايخ خان على جرجان فهزموه ونجا فلهم إلى غياث الدين على العراق والري وما وراءها في الجنوب من موكان وأذربيجان وبقيت خوارزم طوائف وفي كل ناحية منها متغلب وعساكر التتر في كل وقت تدوخ بلاد العراق وغياث الدين منهمك في لذاته والله تعالى أعلم.

رجوع جلال الدين من الهند واستيلاؤه على العراق وكرمان وأذربيجان ثم زحف التتر إليه

ثم رجع جلال الدين من الهند سنة إحدى وعشرين واستولى على ملك أخيه غياث الدين بالعراق وكرمان وبعث إلى الخليفة يطلب الخطبة فلم يسعف فاستعد لمحاربته وقد كانت بلاد الري من بعد تخريب التتر المغربة لها عاد إليها بعض أهلها وعمروها فبعث إليها جنكزخان عسكراً من التتر فخربوها ثانية وخربوا ساوة وقم وقاشان وأجفل أمامهم عسكر خوارزم شاه من همذان فخربوها واتبعوهم فكبسوهم في حدود أذربيجان ولحق بعضهم بتبريز والتتر في اتباعهم فصانعهم صاحبها أزبك بن البهلوان وبعث بهم إلى التتر الذين في اتباعهم بعد أن قتل جماعة منهم وبعث برؤوسهم وبالأموال على سبيل المصانعة فرجعوا عن بلاده.

وسار جلال الدين إلى أذربيجان سنة اثنتين وعشرين فملكها وكانت له فيها أخبار ذكرناها في دولته ثم بلغ السلطان جلال الدين أن التتر زحفوا من بلادهم وراء النهر إلى العراق فنهض من تبريز للقائهم في رمضان سنة خمس وعشرين ولقيهم على أصفهان وانفض عنه أخوه غياث الدين في طائفة من العساكر وانهزمت ميسرة التتر وسار السلطان في اتباعهم وقد أكمنوا له وأحاطوا به واستشهد جماعة ثم صدق عليهم الحملة فأفرجوا له ومضى لوجهه وانهزمت العساكر إلى فارس وكرمان وأذربيجان ورجع المتبعون للتتر من قاشان فوجدوه.قد انهزم فافترقوا أشتاتاً ولحق السلطان بأصفهان بعد ثمانية أيام فوجد التتر يحاصرون أصفهان فبرز إليهم في عساكرها وهزمهم واتبعهم إلى الري وبعث العساكر في اتباعهم إلى خراسان ورجع إلى أذربيجان وأقام بها وكانت له فيها أخبار مذكورة في دولته والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير التتر إلى أذربيجان واستيلاؤهم على تبريز ثم واقعتهم على جلال الدين بآمد ومقتله

كان التتر لما استقروا فيما وراء النهر عمروا تلك البلاد واختطوا قرب خوارزم مدينة عظيمة تعوض عنها وبقيت خراسان خاوية واستبد بالمدن فيها طوائف من الأمراء أشباه الملوك يعطون الطاعة للسلطان جلال الدين منذ جاء من الهند وانفرد جلال الدين بملك العراق وفارس وكرمان وأذربيجان وأران وما إلى ذلك وبقيت خراسان مجالاً لغزاة التتر وعساكرهم وسارت طائفة منهم سنة خمس وعشرين إلى أصفهان وكانت بينهم وبين جلال الدين الواقعة كما مر ثم زحف جلال الدين إلى خلاط وملكها.و زحف

إليه صاحبها الأشرف بن العادل من الشام وعلاء الدين كيقباد صاحب بلاد الروم، وأوقعوا به كما مر في أخباره سنة سبع وعشرين، الواقعة التي أوهنت منه وحلت عرى ملكه. وكان علاء الدين مقدم الإسماعيلية بقلعة الموت عدواً لجلال الدين بما أثخن في بلاده، وقرر عليه وظائف الأموال، فبعث إلى التتر يخبرهم أن الهزيمة أوهنته ويحثهم على قصده، فسار إلى أذربيجان أول سنة ثلاث وعشرين.

وبلغ الخبر إلى السلطان بمسيرهم فرحل من تبريز إلى موقان وأقام بها في انتظار شحنة خراسان ومازندران، وشغل بالصيد فكبسه التتر ونهبوا معسكره، وخلص إلى نهر راس من أران. ثم رجع إلى أذربيجان وشتى بماهان. ثم جاءه النذير بمسير التتر إليه فرحل إلى أران وتحصن بها، وثار أهل تبريز لما بلغهم خبر الوقعة الأولى بمن عندهم من عساكر الخوارزمية وقتلوهم، ومنعهم رئيسهم الطغرياني من طاعة التتر. ووصل للسلطان جلال الدين ثم هلك قريباً فسلموا بلادهم للتتر، وكذا فعل أهل كنجة وأهل سلعار. ثم سار السلطان إلى كنجة وارتجعها وقتل المعترضين للثورة فيها، وسار إلى خلاط واستمد الأشرف بن العادل صاحب الشام فعلله بالمواعيد، وسار إلى مصر ويئس من إنجاده فبعث إلى جيرانه من الملوك يستنجدهم مثل صاحب حلب وآمد وماردين. وجرد عسكراً إلى بلاد الروم في خرت برت وملطية وأذربيجان فاقتحموها لما بين صاحبها كيقباد وبين الأشرف من الموالاة فاستوحش جميع الملوك من ذلك وقعدوا عن نصرته.

وجاءه الخبر وهو بخلاط أن التتر زحفوا إليه فاضطرب في رحله، وبعث أتابكه أوترخان في أربعة آلاف فارس طليعة، فرجع وأخبره أن التتر رجعوا من حدود ملاذكرد، وأشار عليه قومه بالمسير إلى أصفهان، وزين له صاحب آمد قصد بلاد الروم وأطمعه في الاستيلاء عليها ليتصل بالقفجاق ويستظهر بهم على التتر، ووعده الإمداد بنفسه يروم الانتقام من صاحب بلاد الروم لما ملك من قلاعه فخيم إلى رأيه وعدل عن أصفهان ونزل بآمد. وبعث إليه التركمان بالنذير وأنهم رأوا نيران التتر فاتهم خبرهم. وصحبه التتر على آمد منتصف شوال سنة ثمان وعشرين وأحاطوا بخيمته، وحمل عليهم أتابكه أوترخان وكشفهم عن الخيمة.

وركب السلطان وأسلم أهله وسواده، ورد أوترخان العساكر وانتبذ ليتوارى عن عين العدو. وسار أوترخان إلى أصفهان واستولى عليها إلى أن ملكها التتر من يده سنة تسع وثلاثين. وذهب السلطان منجفلاً وقد امتلأت الدربندات والمضايق بالمفسدين من غير صنوفهم بالقتل والنهب، فأشار عليه أوترخان بالرجوع، فرجع إلى قرية من قرى ميافارقين ونزل في بيدرها وفارقه أوترخان إلى حلب.و هجم التتر على السلطان بالبيدر وقتلوا من كان معه، وهرب فصعد إلى جبل الأكراد وهم مترصدون الطرق للنهب فسلبوه وهموا بقتله.

وشعر بعضهم أنه السلطان فمضى به إلى بيته ليخلصه إلى بعض النواحي، ودخل البيت في مغيبه بعض سفلتهم وهو يريد الثأر من الخوارزمية بأخ له قتل بخلاط فقتله، ولم يغن عنه أهل البيت.

ثم انتشر التتر بعد هذه الواقعة في سواد آمد وأرزن وميافارقين وسائر ديار بكر فاكتسحوها وخربوها، وملكوا مدينة أسعرد عنوة فاستباحوها بعد حصار خمسة أيام، ومروا بميافارقين فامتنعت، ثم وصلوا إلى نصيبين فاكتسحوا نواحيها، ثم إلى سنجار وجبالها والخابور.ثم ساروا إلى أيدس فأحرقوها، ثم إلى أعمال خلاط فاستباحوا هاكرى وأرجيش. وجاءت طائفة أخرى من أذربيجان إلى أعمال إربل ومروا في طريقهم بالتركمان الأيوبية والأكراد الجوزقان فنهبوا وقتلوا، وخرج إليهم والي إربل مستمداً أهلها وعساكر الموصل فلم يدركوهم فعادوا وبقيت البلاد قاعاً صفصفاً.والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

التعريف بجنكزخان وقسمة الأعمال بين ولده وانفراده بالكرسي في قراقوم وبلاد الصين

هذا السلطان جنكزخان هو سلطان التتر لعهده ثم من المغل أحد شعوبهم، وفي كتاب لشهاب الدين بن فضل الله: أنه من قبيلة أشهر قبائل المغل وأكبرهم، وزايه التي بين الكاف والخاء ليست صريحة وإنما مشتملة بالصاد فينطق بها بين الصاد والزاي) وكان اسمه تمرجين ثم أصاروه جنكز، وخان تمام الاسم وهو بمعنى الملك عندهم. وأما نسبته فهي هكذا: جنكز بن بيسوكي بن بهادر بن تومان برتيل خان بن تومينه بن باد سنقر بن تيدوان ديوم بن بقا بن مودنجه، أحد عشر اسماً أعجمياً صعبة الضبط وهذا منحاها.

وفي كتاب ابن فضل الله فيما نقله عن شمس الدين الأصفهاني إمام المعقولات بالمشرق أخذها عن أصحاب نظير الدين الطوسي قال: إن مودنجه اسم امرأة وهي جدتهم من غير

أب.

قالوا: وكانت متزوجة وولدت ولدين اسم أحدهما بكتوت والآخر بلكتوت، ويقال لولدها بنو الدلوكية. ثم مات زوجها وتأيمت وحملت وهي أيم فنكر عليها أقرباؤها فذكرت أنها رأت بعض الأيام نوراً دخل في فرجها ثلاث مرات، وطرأ عليها الحمل بعده.و قالت لهم: إن في حملها ثلاثة ذكور، فإن صدق ذلك عند الوضع وإلا فافعلوا ما بدا لكم. فوضعت ثلاثة توائم من ذلك الحمل فظهرت براءتها بزعمهم، اسم أحدهم: برقد والآخر قوناً والثالث نجعو وهو جد جنكزخان الذي في عمود نسبه كما مر، وكانوا يسمونهم النورانيين نسبة إلى النور الذي ادعته. ولذلك يقولون جنكزخان ابن الشمس.

وأما أوليته فقال يحيى بن أحمد بن علي النسابي كاتب جلال الدين خوارزم شاه في تاريخ دولته: إن مملكة الصين متسعة ودورها مسيرة تسعة أشهر وهي منقسمة من قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر ويتولى ملك كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ويكون نائباً عن الخان الأعظم.

قال: وكان الأعظم الذي عاصر خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش يقال له طرخان توارثها عن آبائه وكان مقيماً بطوغاج وهي وسط الصين وكان جنكزخان من أولئك الخانات الستة وكان من سكان البدو ومن أهل النجدة والشرف وكان مشتاه فارعون من بلاد الصين وكان من خاناتهم أيضاً ملك آخر اسمه دوشي خان كان متزوجاً بزوجة جنكزخان واتفقت وفاته فحضر جنكزخان يوم وفاة زوجها دوشي خان فولته مكانه وحملت قومها على طاعته.

وبلغ الخبر إلى الخان الأعظم طرخان فنكر ذلك وزحف إليهم فقاتلوه وهزموه وغلبوه على أثر بلاده ثم صالحهم عليها وأقام متغلباً ثم مات بقية الخانات الستة وانفرد جنكزخان بأمرهم جميعاً وأصبح ملكهم وكان بينه وبين خوارزم شاه من الحروب ما قدمناه.

وفي كتاب ابن فضل اللّه محكياً عن الصاحب علاء الدين عطاء وحدثه به قال: كان ملك عظيم من التتر في قبيلة عظيمة من قبائلهم يدعى أزبك خان وكان مطاعاً في قومه فاتصل به جنكزخان فقربه واستخلصه ونافسه قرابة السلطان وسعوا به عنده حتى استفسدوه عليه وطوى له وتربص به وسخط أزبك خان على مملوكين عنده فاستجارا بجنكزخان فأجارهما وضمن لهما أمانه وأطلعاه على رأي السلطان فيه فاستوحش وحذر وثبة السلطان فأجفل أمامه واتبعه السلطان في عساكره فلما أدركه كر عليه جنكزخان فهزمه وغنم سواده وما معه.

ثم استمرت العداوة وانتبذ عن السلطان واستألف العساكر والأتباع وأفاض فيهم الإحسان فاشتدت شوكته ودخل في طاعته قبيلتان عظيمتان من المغل وهما أورات ومنفورات فعظمت جموعه وأحسن إلى المملوكين اللذين حذراه من أزبك خان ورفع رتبتهما وكتب لهما العهود بما اختاراه وكتب فيها أن يستمر ذلك لهما إلى تسعة بطون من أعقابهما ثم جهز العساكر لحرب أزبك خان فهزمه وقتله واستولى على مملكة التتر بأسرها ولما توطأ أمره تسمى جنكزخان وكان اسمه تمرجين كما مر وكتب لهم كتاباً في السياسة في الملك والحروب والأحكام العامة شبه أحكام الشرائع.

وأمر أن يوضع في خزانته وأن تختص بقرابته ولم يكن يؤتى بمثله وإنما كان دينه ودين آبائه وقومه المجوسية حتى ملكوا الأرض واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وما وراء النهر وأسلم من ملوكهم من هداه اللّه للإسلام كما نذكره إن شاء اللّه تعالى فدخلوا في عداد ملوك الإسلام إلى أن انقرضت دولتهم وانقضت أيامهم والبقاء لله وحده.

وأما ولده فكثير وهو الذي يقتضيه حال بداوته وعصبيته إلا أن المشهور منهم أربعة: أولهم دوشي خان ويقال: جرجي وثانيهم: جغطاي ويقال: كداي وثالثهم: أوكداي ويقال: أوكتاي ورابعهم: طولي بين التاء والطاء.

والثلاثة الأول لأم واحدة وهي أوبولي بنت تيكي من كبار المغل.

وعد شمس الدين الأصفهاني الأربعة فقال: جرجي وكداي وطولي وأوكداي.

وقال نظام الدين يحيى بن الحليم نور الدين عبد الرحمن الصيادي كاتب السلطان أبي سعيد فيما نقله عنه شهاب الدين بن فضل اللّه: إن كداي هو جغطاي وجرجي هو طوشي فلما ملك جنكزخان البلاد قسم الممالك فكان لولده طوشي بلاد فيلاق إلى بلغار وهي دست القفجاق وأضاف إليه أران وهمذان وتبريز ومراغة وعيرلان وكتاي حدود آمد وقوباق وما أدري تفسير هذه وجعله ولي عهده.

وعين لجغطاي من الأيقور إلى سمرقند وبخارى وما وراء النهر ولم يعين لطولي شيئاً وعين لأخيه أوتكين نوى بلاد الخت ولا أدري معنى هذا الاسم.

ولما استفحل ملكه واستولى على هذه الممالك جلس على

التخت وانتقل إلى وطنه القديم بين الخطا والأيقور وهو تركستان وكاشغر وفي ذلك الوطن مدينة قراقوم وبها كان كرسيه ومكانه بين أعمال ولده مكان المركز من الدائرة وكان كبير ولده طوشي ويقال دوشي ومات في حياته وخلف من الولد ناخوا وبركة وداوردة وطوفل هكذا قال ابن الحكيم.

وقال شمس الدين: ناظو وبركة فقط ومات طولي أيضاً في حياته في حربه مع جلال الدين خوارزم شاه بنواحي غزنة وخلف من الولد منكو قبلاي وأزبيك وهلاكو والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

ملوك التخت بقراقوم من بعد جنكزخان

قال ابن فضل الله: ولما هلك جنكزخان استقل أوكداي بالتخت وبدست القفجاق وما معه وكان أصغر ولده وانتقل إلى قراقوم بمكانهم الأصلي فأعطى وقراياق التي كانت بيده لابنه كغود ولم يتمكن كداي وهو جفطاي من مملكة ما وراء النهر ونازع ناظو بن دوشي خان في أران وهمذان وتبريز ومراغة وبعث أميراً من أمرائها لحمل أموالها والقبض على عماله بها وقد كان ناظو كتب إليهم بالقبض على ذلك الأمير فقبضوا عليه وحملوه إلى ناظو فطحنه وبلغ ذلك إلى كغود فسار إلى ناظو في ستمائة ألف من العساكر وهلك قبل أن يصل إليه بعشر مراحل فبعث القوم إلى ناظو أن يكون صاحب التخت فأبى وجعله لأخيه منكوفان بن طولي وبعثه إليه وأخويه معه قبلاي وهلاكو وبعث معهم أخاه بركة بن طولي في مائة ألف من العساكر ليجلسه على التخت فلما عاد من بخارى لقي الشيخ شمس الدين الباخوري من أصحاب نجم الدين كبير الصوفية فأسلم على يده وتأكدت صحبته معه وحرضه على التمسك بطاعة الخليفة ومكاتبته المعتصم ومبايعته ومهاداته.

وترددت الرسل بينه وبين المعتصم وتأكدت الموالاة واستقل منكوفان بالتخت وولى أولاد جفطاي عمه على ما وراء النهر امضاء لوصية جنكزخان لأبيهم التي مات دونها ووفد عليه جماعة من أهل قزوين وبلاد الجبل يشكون ما نزل بهم من ضرر الإسماعيلية وفسادهم فجهز أخاه هلاكو لقتالهم واستئصال قلاعهم فمضى لذلك وحسن لأخيه منكوفان الاستيلاء على أعمال الخليفة فأذن له فيه وبلغ ذلك بركة فنكره على أخيه ناظو الذي ولى منكوفان لما كان بين بركة والمعتصم من الولاية والوصلة بوصية الشيخ الباخوري فبعث ناظو إلى أخيه هلاكو بالنهي عن ذلك وأن لا يتعدى مكانه وبلغته رسل ناظو بذلك وهو فيما وراء النهر قبل أن يفصل بالعساكر فأقام سنين امتثالاً لأمره حتى مات ناظو وتولى بركة مكانه فاستأذن أخاه منكوفان ثانية وسار لقصد الملاحدة وأعمال الخليفة فأوقع بالملاحدة وفتح قلاعهم واستلحمهم وأوقع بأهل همذان واستباحهم لميلهم إلى بركة وأخيه ناظو.

ثم سار إلى بركة بدست القفجاق فزحف إليه بركة في جموع لا تحصى والتقيا واستمر القتل في أصحاب هلاكو وهمَّ بالهزيمة ثم حال نهر الكر بين الفريقين وعاد هلاكو في البلاد واستحكمت العداوة بينهما وسار هلاكو إلى بغداد فكانت له الواقعة المشهورة كما مر ويأتي في أخبار دولته إن شاء الله تعالى.

وفي كتاب ابن فضل الله فيما نقله عن شمس الدين الأصفهاني: إن هلاكو لم يكن مستقلا بالملك وإنما كان نائباً عن أخيه منكوفان ولا ضربت السكة باسمه ولا ابنه أبغا وإنما ضربها منهم أرغو حين استقل فجعل اسمه في السكة مع اسم صاحب التخت.

قال: وكان شحنة صاحب التخت لا يزال ببغداد إلى أن ملك قازان فطرد الشحنة وأفرد اسمه في السكة.

وقال: ما ملكت البلاد إلا بسيفي. وبيت جنكزخان يرون أن بني هلاكو إنما كانوا ثواراً وجنكزخان لم يملك طولي شيئاً وأن أخاه منكوفان الذين ولاه عليها إنما بعثه نائباً مع أن منكوفان إنما ولاه ناظو بن دوشي خان كما مر.

قال: ونقل عن ثقاة أنه لم يبق هلاكو من يحقق نسبه لكثرة ما وقع فيهم من القتل غيرة على الملك ومن نجا طلب الاختفاء بشخصه فخفي نسبه إلا ما قيل في محمل المنسوب إلى بحرجي.

قال شمس الدين الأصفهاني ونقله عن أمير كبير منهم إن أول من استقل بالتخت جنكزخان ثم ابنه أوكداي ثم ابنه كغود بن اوكداي ثم منكوفان بن طولي ثم أخوه أريكان ثم أخوهما قبلاي ثم دمرفاي ويقال تمرفاي ثم تربى كيزي ثم كيزقان ثم سندمرقان بن طرمالا بن جنكمر بن قبلاي بن طولي انتهى كلام ابن فضل الله.

وعن غيره أن منكوفان جهز عساكر التتر أيام ملكه على التخت إلى بلاد الروم سنة مع أمير من أمراء المغل اسمه بيكو فملكها من يد بني قليج أرسلان كما هو مذكور في أخبارهم فأقامت في طاعة القان إلى أن انقرض أمر المغل منها ثم بعث منكوفان العساكر لغزو بلاد الخطا مع أخيه قبلاي بعد أن عهد له

بالخانية ثم سار على أثره بنفسه واستخلف أخاه الآخر أزبك على كرسي قراقوم وهلك منكوفان في طريقه ذلك على نهر الطاي من بلاد الغور سنة ثمان وخمسين فجلس أزبك على التخت وعاد قبلاي من بلاد الخطا فزحف إليه أزبك فهزمه إلى بعض النواحي واستأثر بالغنائم عن إخوته وقومه فمالوا إلى قبلاي واستدعوه فجاء وقاتل أخاه أزبك فغلبه وتقبض عليه وحبسه واستقر في الغانية.

وبلغ الخبر إلى هلاكو وهو في الشام عندما استولى عليه فرجع لما كان يؤمله من الغانية ولما انتهى إلى جيحون بلغه استقلال أخيه قبلاي في الغانية وتبين له عجزه عنه فسالمه وقنع بما في يده ورجع إلى العراق ثم نازع قبلاي في الغانية لآخر دولته سنة سبع وثمانين بعض بني أوكداي صاحب التخت الأول وهو قيدو بن قاشي بن كغود بن أوكداي ونزع إليه بعض أمراء قبلاي وزينوا له ذلك فسار له وبعث قبلاي العساكر للقائه مع ابنه تمقان فهزمه قيدو ورجع منهزماً إلى أبيه فسخطه وطرده إلى بلاد الخطا ومات هنالك وسلط قبلاي على قيدو وكان غلب على ما وراء النهر براق بن سنتف بن منكوفان بن جفطاي من بني جفطاي ملوك ما وراء النهر بوصية أبيهم جنكزخان فغلبه براق واستولى على ما وراء النهر.

ثم هلك قبلاي صاحب التخت سنة ثمان وثمانين وملك ابنه سرتموق. هذا ما انتهى إلينا من أخبار ملوك التخت بقراقوم من بني جنكزخان ولم نقف على غيرها والله تعالى ولي التوفيق.

ملوك بني جفطاي بن جنكزخان بتركستان وكاشغر وما وراء النهر

هذا الإقليم هو مملكة الترك الأولى قبل الإسلام وأسلم ملوكهم على تركستان وكاشغر فأقاموا بها وملك بنو سامان نواحي بخارى وسمرقند واستبدوا ومنها كان ظهور السلجوقية والتتر من بعدهم ولما استولى جنكزخان على البلاد أوصى بهذه المملكة لابنه جفطاي ولم يتم ذلك في حياته ومات جفطاي دونه فلما ولي منكوفان بن طولي على التخت ولى أولاد جفطاي عمه على ما وراء النهر إمضاء لوصية جنكزخان لأبيهم التي مات دونها وولى منكوفان فلما هلك ولي أخوه هلاكو ابنه مبارك شاه ثم غلب عليهم قيدو بن قاشي بن كغود بن أوكداي بن جنكزخان وانتزع ما وراء النهر من أيديهم وكان جده كفوك صاحب التخت.

وبعده ولي منكوفان فلما ولي قيدو نازع صاحب التخت يومئذ وهو قبلاي وكانت بينهما حروب وأعان قبلاي في خلالها بني جفطاي على استرجاع ملكهم وولي منهم براق بن سنتف بن منكوفان بن جفطاي وأمده بالعساكر والأموال فغلب قيدو بن قاشي بن كغود بن أوكداي بن جنكزخان وانتزع من صاحب التخت يومئذ واستبد بملك آبائه.

ثم هلك فولي من بعده دوا ثم من بعد دوا بنون له أربعة واحدا بعد واحد وهم: كجك ثم أسعا ثم كبك ثم أنجكداي ثم ولي بعد الأربعة دواتمر ثم ترماشين ثم توزون بن اوماكان بن منكوفان بن جفطاي وتخلل هؤلاء من توثب عل الملك ولم ينتظم له مثل سيساور بن أركتم بن بغاتمر بن براق ولم يزل ملكهم بعد ترماشين مضطرباً إلى أن ملك منهم جنقصو بن دواتمر بن حلو بن براق بن سنتف كانوا كلهم على دين المجوسية وخصوصاً دين جنكزخان وعبادته الشمس وكان فيما يقال على دين النجشية فكان بنو جفطاي يعضون عليها بالنواجذ ويتبعون سياسته مثل أصحاب التخت فلما صار الملك إلى ترماشن منهم أسلم رحمه الله سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجاهد وأكرم التجار المترددين وكانت تجار مصر ممنوعين من بلاده فلما بلغهم ذلك قصدوها فحمدوها ولما انقرضت دول بني جنكزخان وتلاشت في جميع النواحي ظهر في أعقاب دولة بني جفطاي هؤلاء بسمرقند وما وراء النهر ملك اسمه تمر ولا أدري كيف كان يتصل نسبه فيهم ويقال: إنه من غير نسبهم وإنما هو متغلب على صبي من أعقاب ملوكهم اسمه طغتمش أو محمود درج اسمه بعد مهلك أبيه واستبد عليه وأنه من أمرائهم.

وأخبرني من لقيته من أهل الصين أن أباه أيضاً كان في مثل مكانه من الإمارة والاستبداد وما أدري أهو طينة في نسب جفطاي أو من أحلافهم وأتباعهم.

وأخبرني الفقيه برهان الدين الخوارزمي وهو من علماء خوارزم وأعيانها قال: كان لعصره وأول ظهوره ببخارى رجل يعرف بحسن من أمراء المغل وآخر بخوارزم من ملوك صراي أهل التخت يعرف بالحاج حسن الصوفي تهيأ وزحف إلى بخارى فملكها من يد حسن ثم إلى خوارزم وطالت حروبه مع الحاج حسن الصوفي وحاصرها مراراً وهلك حسن خلال ذلك وولي أخوه يوسف فملكها تمر من يده وخربها في حصار طويل ثم كلف بعمارتها وبناء ما خرب منها وانتظم له الملك بما وراء النهر ونزل قجارى ثم زحف إلى خراسان فملك هراة من يد صاحبها وأظنه من بقايا ملوك الغورية.

ثم زحف إلى مازندران وطال تمرسه وحروبه مع صاحبها الشيخ ولي إلى أن ملكها عليه سنة أربع وثمانين ولحق الشيخ ولي بتوريز إلى أن ملكها تمر سنة ثمان وثمانين فهلك في حروبه معها ثم زحف إلى أصفهان فأتوه طاعة ممرضة وخالفه في قومه كبير من أهل نسبه يعرف بعمر الدين وأمد طغطمش صاحب التخت بصراي فكر راجعاً وشغل بحربه إلى أن غلبه ومحا أثره وغلب طغطمش على ما بيده من البلاد ثم زحف إلى بغداد سنة خمس وتسعين فأجفل عنها ملكها أحمد بن أويس ابن الشيخ حسن المتغلب عليه بعد بني هلاكو فلحق أحمد ببر الشام سنة ست وتسعن واستولى تمر على بغداد والجزيرة وديار بكر إلى الفرات واستعد ملك مصر للقائه ونزل الفرات فأحجم عنه وتأخر عنه إلى قلاع الأكراد وأطراف بلاد الروم وأناخ على قراباغ ما بين أذربيجان والأبواب ورجع خلال ذلك طغطمش صاحب التخت إلى صراي وملكه فسار إليه تمر أول سنة سبع وتسعين وغلبه على ملكه وأخرجه عن سائر ممالكه ثم وصل الخبر آخر السنة بظفره بطغطمش وقتله إياه واستيلائه على جميع أعماله والحال على ذلك لهذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها وفي خبر العجم أن ظهوره سنة عذب يعنون سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة بحساب الجمّل في حروف هذه اللفظة والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

الخبر عن ملوك بني دوشي خان من التتر ملوك خوارزم ودست القفجاق ومبادئ أمروهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدم لنا أن جنكزخان عين هذه البلاد لابنه دوشي خان وملكه عليها وهي مملكة متسعة في الشمال آخذة من خوارزم إلى ناركند وصفد وصراي إلى مدينة ماجري وأران وسرادق وبلغار وباشقرد وجدلمان وفي حدود هذه المملكة مدينة باكو من مدن شروان وعندها باب الحديد ويسمونه دمرقفو وتمر حدود هذه المملكة في الجنوب إلى حدود القسطنطينية وهي قليلة المدن كثيرة العمارة والله تعالى أعلم.

دوشي خان بن جنكزخان

وأول من وليها من التتر دوشي خان فلم يزل ملكاً عليها إلى أن هلك كما مر.

ناظو خان بن دوشي خان

ولما هلك دوشي خان ولي مكانه ابنه ناظو خان ويقال: صامرخان ومعناه الملك المغير فلم يزل ملكاً عليها إلى أن هلك سنة خمسين وستمائة.

طرطو بن دوشي خان

ولما هلك ناظو ولي أخوه طرطو فأقام ملكاً سنتين وهلك سنة اثنتين وخمسين ولما هلك ولي مكانه أخوه بركة هكذا نقل ابن فضل الله عن ابن الحكيم.

وقال المؤيد صاحب حماة في تاريخه: إنه لما هلك طرطو هلك من غير عقب وكان لأخيه ناظو خان ولدان وهما تدان وبركة وكان مرشحاً للملك فعدل عنه أهل الدولة وملكوا أخاه بركة وسارت أم تدان إلى هلاكو عندما ملك العراق تستحثه للملك قومها فردوها من الطريق وقتلوها واستمر بركة في سلطانه انتهى.

فنسب المؤيد بركة إلى ناظو خان بن دوشي خان وابن الحكيم على ما نقل ابن فضل الله جعله ابن دوشي خان نفسه.

وذكر المؤيد قصة إسلامه على يد شمس الدين الباخوري من أصحاب نجم الدين وان الباخوري كان مقيماً ببخارى وبعث إلى بركة يدعوه إلى الإسلام فأسلم وبعث إليه كتابه بإطلاق يده في سائر أعماله بما شاء فرده عليه وأعمل بركة الرحلة إلى لقائه فلم يأذن له في الدخول حتى تطارح عليه أصحابه وسهلوا الإذن لبركة فدخل وجدد الإسلام وعاهده الشيخ على إظهاره الإسلام وأن يحمل عليه سائر قومه فحملهم واتخذ في جميع بلاده المساجد والمدارس وقرب العلماء والفقهاء ووصلهم.

وسياق القصة على ما ذكره المؤيد يدل على أن إسلامه كان أيام ملكه وعلى ما ذكر ابن الحكيم أن إسلامه كان أيام أخيه ناظو ولم يذكر ابن الحكيم طرطو وإنما ذكر بعد ناظو أخاه بركة ولم نقف على تاريخ لدولتهم حتى يرجع إليه وهذا ما أدى إليه الاجتهاد، وما بعدها مأخوذ من تاريخ المؤيد صاحب حماة من بني المظفر بن شاهنشاه بن أيوب.

قال: ثم بعث بركة أيام سلطانه أخاه ناظو إلى ناحية الغرب للجهاد وقاتل ملك اللمان من الإفرنج فانهزم ورجع ومات أسفاً ثم حدثت الفتنة بين بركة وبين قبلاي صاحب التخت وانتزع بركة الخاقانية من أعمال قبلاي وولى عليها سرخاد ابن أخيه ناظو وكان على دين النصرانية وداخله هلاكو في الانتقاض على عمه بركة إلى

أخيه قبلاي صاحب التخت ويقطعه الخاقانية وما يشاء معها وشعر بركة بشأنه وأن سرخاد يحاول قتله بالسم فقتله وولى الخاقانية أخاه مكانه وأقام هلاكو طالباً بثأر سرخاد ووقعت الحرب بينه وبين بركة على نهر آمد سنة ستين ثم هلك هلاكو سنة ثلاث وستين وولى ابنه ابغا فسار إلى حربه وسرح بركة للقائه سنتاي بن بانيخان بن جفطاي ونوغيثة بن تتر بن مغل بن دوشي خان فلما التقى الجمعان أحجم سنتاي ورجع منهزماً وانهزم أبغا أمام نوغيثة وأثخن في عساكره وعظمت منزلة نوغثية عند بركة وسخط بركة سنتاي وساءت منزلته عنده إلى أن هلك بركة سنة خمس وستين والله سبحانه وتعالى أعلم.

منكوتمر بن طغان بن ناظو خان

ولما هلك بركة ملك الدست بالشمال ملك مكانه منكوتمر بن طغان بن ناظو خان ابن دوشي خان وطالت أيامه وزحف سنة سبعين إلى القسطنطينية لجدة وجدها على الأشكر ملكها فتلقاه بالخضوع والرغبة ورجع عنه ثم زحف سنة ثمانين إلى بلاد الشام في مظاهرة أبغا بن هلاكو ونزل بين قيسارية وأبلستين من بلاد الروم ثم أجاز الدربند ومر بأبغا وهو منازل الرحبة وتقدم مع أخيه منكوتمر بن هلاكو إلى حماة فنازلوها وزحف إليهم المنصور قلاوون ملك مصر والشام من دمشق ولقيهم بظاهر حمص وكانت الدائرة على ملوك التتر وهلك خلق من عساكرهم وأسر آخرون وأجفل أبغا من منازلة الرحبة ورجعوا إلى بلادهم منهزمين.

وهلك على أثر ذلك منكوتمر ملك الشمال ومنكوتمر بن هلاكو سنة إحدى وثمانين ولما هلك منكوتمر ملك مكانه ابنه تدان وجلس على كرسي ملكهم بصراي فأقام خمس سنين ثم ترهب وخرج عن الملك سنة ست وثمانين وانقطع إلى صحبة المشايخ الفقراء ولما ترهب تدان بن منكوتمر وخرج عن الملك ملك مكانه أخوه قلابغا وأجمع على غزو بلاد الكرك واستنفر نوغيثة بن تتر بن مغل بن دوشي خان وكان حاكماً على طائفة من بلاد الشمال وله استبداد على ملوك بني دوشي خان فنفر معه في عساكره وكانت عظيمة ودخلوا جميعاً بلاد الكرك وأغاروا عليها وعاثوا في نواحيها وفصلوا منها وقد تمكن فصل الشتاء وملك السلطان مسافة اعتسف فيها البيداء وهلك أكثر عساكره من البرد والجوع وأكلوا دوابهم.

وسار نوغيثة من أقرب المسالك فنجا إلى بلاده سالماً من تلك الشدة فاتهمه السلطان قلابغا بالادهان في أمره وكان ينقم عليه استبداده حتى أنه قتل امرأة كنجك وكانت متحكمة في أيام أبيه وأخيه وشكت إلى نوغيثة فأمر بقتلها خنقاً وقتل أميراً كان في خدمتها اسمه بيطرا فتنكر له قلابغا وأجمع الفتك به وأرسل يستدعيه لما طوي له عليه ونمي الخبر بذلك إلى نوغيثة فبالغ في إظهار النصيحة والإشفاق على السلطان وخاطب أمه بأن عنده نصائح يود لو ألقاها إلى السلطان في خلوة فثنت ابنها عن رأيه فيه وأشارت عليه باستدعائه والاطلاع على ما عنده وجاء نوغينة وقد بعث عن جماعة من إخوة السلطان قلابغا كانوا يميلون إليه ومنهم طغطاي وبولك وصراي وتدان بنو منكوتمر بن طغان فجاؤوا معه وقد توقفوا لما هجم السلطان قلابغا وركب للقاء نوغيثة في لمة من عسكره وجاء نوغتية وقد أكمن له طائفة من العسكر فلما التقيا تحادثا مليا وخرج الكمناء وأحاطوا بالسلطان وقتلوه سنة تسعين وستمائة وأقبل طغطاي بن منكوتمر.

ولما قتل قلابغا ولوا مكانه طغطاي لوقته ورجع نوغيثة إلى بلاده وبعث إلى طغطاي في قتل الأمراء الذين داخلوا قلابغا في قتله فقتلهم طغطاي أجمعين ثم تنكر طغطاي لنوغيتة لما كان عليه من الاستبداد وأنف طغطاي منه وأظلم الجو بينهما واجتمع أعيان الدولة إلى نوغيتة فكان يوغر صدرهم على طغطاي وأصهر إلى طاز بن منجك منهم بابنته فسار إليه ولقيه نوغيتة فهزمه واعترضه نهر مل فغرق كثير من عسكره ورجع نوغيتة عن اتباعه واستولى على بلاد الشمال وأقطع سبطه قراجا بن طشتمر سنة ثمان وسبعين مدينة القرم وسار إليها لقبض أموالها فأضافوه وبيتوه وقتلوه من ليلته.

وبعث نوغيتة العساكر إلى القرم فاستباحوها وما يجاورها من القرى والضياع وخرب سائرها وكان نوغيتة كثير الإيثار لأصحابه فلما استبد بأمره آثر ولده على الأمراء الذين معه وأحسوا عليهم وكان رديفه من ملك المغل أياجي بن قرمش وأخوه قراجا فلما آثر ولده عليهما نزعا إلى طغطاي في قومهما وسار ولد نوغيثة في اتباعهما فرجع بعضهم واستمر الباقون وقتل ولد نوغيثة من رجع معه من أصحاب أياجي وقراجا وولدهم فامتعض لذلك أمراء المغل الذين معه ولحقوا بطغطاي واستحثوه لحرب نوغيتة فجمع وسار إليه سنة تسع وتسعين بكوكانلك فانهزمت عساكر نوغيتة وولده وقتل في المعركة وحمل رأسه إلى طغطاي فقتل قاتله وقال: السوقة لا تقتل الملوك.

واستبيح معسكر نوغيتة وبيع سباياهم وأسراهم في الأقطار وكان بمصر منهم جماعة استرقوا بها وانتظموا في ديوان جندها ولام هلك نوغيتة خلفه في أعماله ابنه جكك وانتقض عليه أخوه

فقتله فاستوحش لذلك أصحابه وأجمعوا الفتك به وتولى ذلك نائبه طغرلجاي وصهره على أخته طاز بن منجك ونمي الخبر بذلك إليه وهو في بلاد اللاز والروس غازياً فهرب ولحق ببلاده ثم لحق به عسكره فعاد إلى حربهم وغلبهم على البلاد ثم أمدهما طغطاي على جكا بن نوغيتة فانهزم ولحق ببلاد أولاق وحاول الامتناع ببعض القلاع من بلاد أولاق وفيها صهره فقبض عليه صاحب القلعة واستخدم بها الطغطاي فأمره بقتله سنة إحدى وسبعمائة ونجا أخوه طراي وابنه قراكسك شريدين وخلا الجو لطغطاي من المنازعين والمخالفين واستقرت في الدولة قدمه وقسم أعماله بين أخيه صراي بغا وبين ابنيه.

وأنزل منكلي بغا من ابنيه في عمل نهر طنا مما يلي باب الحديد ثم رجع صراي بن نوغيتة من مفره واستذم بصراي بغا أخي طغطاي فأذمه وأقام عنده فلما أنس به كشف له القناع عما في صدره واستهواه للانتقاض على أخيه طغطاي وكان أخوهما أزبك أكبر منه وكان مقيماً عند طغطاي فركب إليه صراي بغا ليفاوضه في الشأن فاستعظمه واطلع عليه أخاهما طغطاي فأمره لوقته بإحضار أخيه صراي بغا وصراي بن نوغيتة وقتلهما واستضاف عمل أخيه صراي بغا لابنه أيل بهادر ثم بعث في طلب قراكسك بن نوغيتة فأبعد في ناحية الشمال واستذم ببعض الملوك هنالك ثم هلك سنة تسع وسبعمائة أخوه لذلك وابنه إيل بهادر وهلك طغطاي بعدهما سنة اثنتي عشرة والله تعالى أعلم.

أزبك بن طغرلجاي بن منكوتمر

ولما هلك طغطاي بايع نائبه قطلتمر لأزبك ابن أخيه طغرلجاي بإشارة الخاتون تنوفالون زوج أبيه طغرلجاي وعاهده على الإسلام فأسلم واتخذ مسجداً للصلاة وأنكر عليه بعض أمرائه فقتله وتزوج الخاتون بنالون وكانت المواصلة بين طغطاي وبين ملوك مصر ومات طغطاي ورسله عند الملك الناصر محمد بن قلاوون فرجعوا إلى أزبك مكرمين وجدد أزبك الولاية معه وحبه قطلتمر في بعض كرائمهم يرغبه وعين له بنت بذلك أخي طغطان وتكررت الرسالة في ذلك إلى أن تم الأمر وبعثوا بكريمتهم المخطوبة إلى مصر فعقد عليها الناصر وبنى بها كما مر في أخباره ثم حدثت الفتنة بين أزبك وبين أبي سعيد ملك التتر بالعراق من بني هلاكو وبعث أزبك عساكره إلى أذربيجان.

وكان بنو دوشي يدعون أن توريز ومراغة لهم وأن القان لما بعث هلاكو لغزو بلاد الإسماعيلية وفتح بغداد استكثر من العساكر وسار معه عسكر أهل الشمال هؤلاء وقررت لهم العلوفة بتوريز ولما مات هلاكو طلب بركة من ابنه أبغا أن يأذن له في بناء جامع تبريز ودار لنسخ الثياب والطرز فأذن له فبناهما وقام بذلك ثم اصطلحوا وأعيدت فادعى بنو دوشي خان أن توريز ومراغة من أعمالهم ولم يزالوا مطالبين بهذه الدعوة فلما وقعت هذه الفتنة بين أزبك وأبي سعيد افتتح أمره بغزو موقان فبعث العساكر إليها سنة تسعة عشر فاكتسحوا نواحيها ورجعوا.

وجمع جوبان على دولته وتحكمه في بني جنكزخان وأنه يأنف أن يكون براق بن سنتف بن منكوفان بن جفطاي ملكاً على خوارزم فأغزاه أزبك فملك خراسان وأمده بالعساكر مع نائبه قطلتمر وسار سيول لذلك وبعث أبو سعيد نائبه جوبان لمدافعتهما فلم يطق وغلب سيول على كثير من خراسان وصالحه جوبان عليها وهلك سيول سنة عشرين ثم عزل أزبك نائبه قطلتمر سنة إحدى وعشرين وولي مكانه عيسى كوكز ثم رد سنة أربع وعشرين إلى نيابته.

ولم تزل الحرب متصلة بين أزبك وأبي سعيد إلى أن هلك أبو سعيد سنة ست وثلاثين ثم هلك القان في هذه السنة ولما هلك أزبك بن طغرلجاي ولي مكانه ابنه جاني بك وكان أبو سعيد قد هلك قبله كما قلنا ولم يعقب وولي مكانه على العراق الشيخ حسن من أسباط أبغا بن هلاكو وافترق الملك في عمالاتهم طوائف وردد جاني بك العساكر إلى خراسان إلى أن ملكها سنة ثمان وخمسين ثم زحف إلى أذربيجان وتوريز وكان قد غلب عليها الشيخ الصغير ابن دمرداش بن جوبان وأخوه الأشرف من بعده كما يذكر في أخبارهم إن شاء الله تعالى فزحف جاني بك في العساكر إلى أذربيجان بتلك المطالبة التي كان سلفه يدعون بها فقتل الأشرف واستولى على توريز وأذربيجان وانكفأ راجعاً إلى خوزستان بعد أن ولى على توريز ابنه بردبيك واعتل جاني بك في طريقه ومات.

بردبيك بن جاني

ولما اعتل جاني في ذهابه من توريز إلى خراسان طير أهل الدولة الخبر إلى ابنه بردبيك وقد استخلفه في توريز فولي عليها أميراً من قبله وأغذ السير إلى قومه ووصل إلى صراي وقد هلك أبوه جاني فولوه مكانه واستقل بالدولة وهلك لثلاث سنين من ملكه.

ماماي المتغلب على مملكة هراي

ولما هلك بردبيك خلف ابنه طغطمش غلاماً صغيراً وكانت أخته بنت بردبيك تحت كبير من أمراء المغل اسمه ماماي وكان متحكماً في دولته وكانت مدينة القرم من ولايته وكان يومئذ غائباً بها وكان جماعة من أمراء المغل متفرقين في ولايات الأعمال بنواحي صراي ففرقوا الكلمة واستبدوا بأعمالهم فتغلب حاجي شركس على ناحية منج طرخان وتغلب أهل خان على عمله وأيبك خان كذلك؛ وكانوا كلهم يسمون أمراء المسيرة فلما هلك بردبيك وانقرضت الدولة واستبد هؤلاء في النواحي خرج ماماي إلى القرم ونصب صبياً من ولد أزبك القان اسمه عبد الله وزحف به إلى صراي فهرب منها طغطمش ولحق بمملكة أرض خان في ناحية جبال خوارزم إلى مملكة بني جفطاي بن جنكزخان في سمرقند وما وراء النهر والمتغلب عليها يومئذ السلطان تمر من أمراء المغل وقد نصب صبياً منهم اسمه محمود أو طغطمش وتزوج أمه واستبد عليه فأقام طغطمش هناك.

ثم تنافس الأمراء المتغلبون على أعمال صراي وزحف حاجي شركس صاحب عمل منج طرخان إلى ماماي فغلبه على صراي فملكها من يده وسار ماماي إلى القرم فاستبد بها ولما زحف حاجي شركس من عمله بعث أرض خان عساكره من نواحي خوارزم فحاصروا منج طرخان وبعث حاجي العساكر إليهم مع بعض أمرائه فأعمل الحيلة حتى هزمهم عن منج طرخان وفتك بهم وبالأمير الذي يقودهم وشغل حاجي شركس بتلك الفتنة فزحف إليه أيبك خان وملك صراي من يده واستبد بها أياماً ثم هلك وولي بعده بصراي ابنه قاريخان ثم زحف إليه أرض خان من جبال خوارزم فغلبه على صراي وهرب قاريخان بن أيبك خان وعادوا إلى عملهم الأول واستقر أرض خان بصراي وماماي بالقرم ما بينه وبين صراي في مملكته وكان هذا في حدود أعوام سنة ست وسبعين وطغطمش في خلال ذلك مقيم عند السلطان تمر فيما وراء النهر.

ثم طمحت نفس طغطمش إلى ملك آبائه بصراي فجهز معه السلطان تمر العساكر وسار بها فلما بلغ جبال خوارزم اعترضه هناك عساكر أرض خان فقاتلوه وانهزم ورجع إلى تمر ثم هلك أرض خان قريباً من منتصف تلك السنة فخرج السلطان تمر بالعساكر مع طغطمش مددا له إلى حدود عمله ورجع واستمر طغطمش فاستولى على أعمال أرض خان بجبال خوارزم ثم سار إلى صراي وبها عمال أرض خان فملكها من أيديهم واسترجع ما تغلب عليه ماماي من ضواحيها وملك أعمال حاجي شركس في منج طرخان واستنزع جميع ما كان بأيدي المتغلبين ومحا أثرهم وسار إلى ماماي بالقرم فهرب أمامه ولم يوقف على خبره ثم صح الخبر بمهلكه من بعد ذلك واستوسق الملك بصراي وأعمالها لطغطمش بن بردبيك كما كان لقومه.

حروب السلطان تمر مع طغطمش صاحب صراي

قد ذكرنا فيما مر ظهور هذا السلطان تمر في دولة بني جفطاي وكيف أجاز من بخارى وسمرقند إلى خراسان أعوام أربعة وثمانين وسبعمائة فنزل على هراة وبها ملك من بقايا الغورية فحاصرها وملكها من يده ثم زحف إلى مازندران وبها الشيخ ولي تغلب عليها بعد بني هلاكو فطالت حروبه معه إلى أن غلبه عليها ولحق الشيخ ولي بتوريز في فل من أهل دولته ثم طوى تمر المماليك طيّاً وزحف إلى أصفهان فأتاه ابن المظفر بها طاعته ثم إلى توريز سنة سبع وثمانين فملكها وخربها وكان قد زحف قبلها إلى دست القفجاق بصراي فملكها من يد طغطمش وأخرجه عنها فأقام بأطراف الأعمال حتى أجاز تمر إلى أصفهان فرجع إلى كرسيه وكان للسلطان تمر قريع في قومه يعرف بقمر الدين فراسله طغطمش صاحب صراي وأغراه بالانتقاض على تمر وأمده بالأموال والعساكر فعاث في تلك البلاد وبلغ خبره إلى تمر منصرفه من فتحه فكر راجعاً وعظمت حروبه مع قمرالدين إلى أن غلبه وحسم علته وصرف وجهه إلى شأنه الأول وقرر الزحف إلى طغطمش وسار طغطمش للقائه ومعه أغلان بلاط من أهل بيته فداخله تمر وجماعة الأمراء معه واستراب بهم طغطمش وقد حان اللقاء وتصافحوا للحرب فصدم ناحية من عسكر تمر وصدم من لقي فيها وتبدد عياله وافترق الأمراء الذين داخلوا تمر وساروا إلى الثغور فاستولوا عليها.

وجاء طغطمش إلى صراي فاسترجعها وهرب أغلان بلاط إلى القرم فملكها وزحف إليه طغطمش في العساكر فحاصرها وخالفه أرض خان إلى صراي فملكها فرجع طغطمش وانتزعها من يده ولم تزل عساكره تختلف إلى القرم وتعاهدها بالحصار إلى أن ملكها وظفر بأغلان بلاط فقتله وكان السلطان تمر بعد فراغه من حروبه مع طغطمش سار إلى أصفهان فملكها أيضاً واستوعب ملوك بني المظفر وعاملهم بالقتل وانتظم له أعمالهم جميعاً في مملكته ثم زحف إلى بغداد فملكها من يد أحمد بن أويس سنة خمس

وتسعين كما مرّ ذكره.

ولحق أحمد بالسلطان الظاهر صاحب مصر مستصرخاً به فخرج معه في العساكر وانتهى إلى الفرات وقد سار تمر عن بغداد إلى ماردين فحاصرها وملكها وامتنعت عليه قلعتها فعاج من هنالك إلى حصون الأكراد ثم إلى بلاد الأرمن ثم إلى بلاد الروم.

وبعث السلطان الظاهر صاحب مصر العساكر مدداً لابن أويس فسار إلى بغداد وبها شرذمة من عسكر تمر فملكها من أيديهم ورجع الملك الظاهر إلى مصر وقد أظل الشتاء ورجع تمر إلى نواحي أعماله فأقام في عمل قراباق ما بين أذربيجان وهمذان والأبواب ثم بلغ الخبر إلى تمر فسار من مكانه ذلك إلى محاربة طغطمش وعميت أنباؤه مدة ثم بلغ الخبر آخر سنة سبع وتسعين إلى السلطان بأن تمر ظفر بطغطمش وقتله واستولى على سائر أعماله والله غالب على أمره انتهى.

ملوك غزنة وباميان من بني دوشي خان

كانت أعمال غزنة وباميان هذه قد صارت لدوشي خان وهي من أعمال ما وراء النهر من جانب الجنوب وتتاخم سجستان وبلاد الهند وكانت في مملكة بني خوارزم شاه فملكها التتر لأول خروجهم من أيديهم وملكها جنكزخان لابنه دوشي خان وصارت لابنه أردنو ثم لابنه أنبجي بن أردنو وهلك على رأس المائة السابعة وخلف من الولد بيان وكبك ومنغطاي وانقسمت الأعمال بينهم وكان كبيرهم بيان في غزنة وقام بالملك بعد أنبجي ابنه كبك وانتقض عليه أخوه بيان واستمد بطغطاي صاحب صراي فأمده بأخيه بذلك واستنجد كبك بقندو فأمده ولم يغن عنه وانهزم ومات سنة تسع وسبعمائة واستولى بيان على الأعمال وأقام بغزنة وزحف إليه قوشناي ابن أخيه كبك واستمد بقندو وغلب عمه على غزنة ولحق بيان بطغطاي واستقر قوشناي بغزنة ويقال: إن الذي غلب عليها إنما هو أخوه طغطاي ولم نقف بعد على شيء من أخبارهم والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

دولة بني هلاكو ملوك التتر كفور بن وخراسان ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدم لنا أن جنكزخان عهد بالتخت وهو كرسي الملك بقراقوم لابنه أوكداي ثم ورثه من بعده كغودبن أوكداي وأن الفتنة وقعت بينه وبين صاحب الشمال من بني جنكزخان وهو ناظو بن دوشي خان صاحب التخت بصراي وسار إليه في جموع المغل والتتر وهلك في طريقه وسلم المغل الذين معه التخت لناظو فامتنع من مباشرته بنفسه وبعث إليه أخاه منكوفان وبعث معه بالعساكر أخويه الآخرين قبلاي وهلاكو ومعهما أخوهما بركة ليجلسه على التخت فأجلسه سنة خمسين وذكرنا سبب إسلام بركة عند مرجعه وأن منكوفان استقل بالتخت وولى بني جغطاي بن جنكزخان على بلاد ما وراء النهر إمضاء لوصية جنكزخان وبعث أخاه هلاكو لتدويخ عراق العجم وقلاع الإسماعيلية ويسمون الملاحدة والاستيلاء على ممالك الخليفة.

هلاكو بن طولي

ولما بعث منكوفان أخاه إلى العراق فسار لذلك سنة اثنتين وخمسين وستمائة وفتح الكثير من قلاعهم وضيق بالحصار مخنقهم وولى خلال ذلك في كرسي صراي بالشمال بركة بن ناظو بن دوشي خان فحدثت الفتنة بينه وبين هلاكو ونشأت من الفتنة الحرب وسار بركة ومعه نوغان بن ططر بن مغل بن دوشي خان والتقوا على نهر نول وقد جمد ماؤه لشدة البرد وانخسف من تحته فانهزم هلاكو وهلك عامة عسكره وقد ذكرنا أسباب الفتنة بينهما ثم رجع هلاكو إلى بلاد الإسماعيلية وقصد قلعة الموت وبها صاحبها علاء الدين فبلغه في طريقه وصية من ابن العلقمي وزير المستعصم ببغداد في كتاب ابن الصلايا صاحب إربل يستحثه للمسير إلى بغداد ويسهل عليه أمرها لما كان ابن العلقمي رافضياً هو وأهل محلته بالكرخ وتعصب عليهم أهل السنة وتمسكوا بأن الخليفة والدوادار يظاهارونهم وأوقعوا بأهل الكرخ.

وغضب لذلك ابن العقلمي ودس إلى ابن الصلايا بإربل وكان صديقاً له بأن يستحث التتر لملك بغداد وأسقط عامة الجند يموه بأنه يصانع التتر بعطائهم وسار هلاكو والتتر إلى بغداد واستنفر بنحو مقدم التتر ببلاد الروم فيمن كان معه من العساكر فامتنع أولاً ثم أجاب وسار إليه.

ولما أطل هلاكو على بغداد في عساكره برز للقائه أيبك الدوادار في عساكر المسلمين فهزموا عساكر التتر ثم تراجع التتر فهزموهم واعترضهم دون بغداد بثوق انبثقت في ليلتهم تلك من دجلة فحالت دونها فقتلوا أجمعين وهلك أيبك الدوادار وأسر الأمراء الذين معه ورجعوا إلى البلد فحاصروها مدة ثم استأمن ابن العلقمي للمستعصم ولنفسه آملاً بأن هلاكو يستبقيه فخرج

إليه في موكب من الأعيان وذلك في محرم سنة ست وخمسين.

وقبض على المستعصم فشدخ بالمعاول في عدل تجافياً عن سفك دمه بزعمهم ويقال: أن الذي أحصى فيها من القتلى ألف ألف وثلثمائة ألف واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يحصره العدد والضبط وألقيت كتب العلم التي كانت في خزائنهم بدجلة معاملة بزعمهم لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن واعتزم هلاكو على إضرام بيوتها ناراً فلم يوافقه أهل مملكته واستبقي ابن العلقمي على الوزارة ولرتبةٍ ساقطة عندهم فلم يكن قصارى أمره إلا الكلام في الدخل والخرج متصرفاً من تحت آخر أقرب إلى هلاكو منه فبقي على ذلك مدة ثم إضطرب وقتله هلاكو.

ثم بعث هلاكو بعد فتح بغداد بالعساكر إلى ميافارقين وبها الكامل محمد بن غازي بن العادل فحاصروها سنين حتى جهد الحصار أهلها ثم اقتحموها عنوة واستلحموا حاميتها ثم بعث إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ابنه ركن الدين إسماعيل بالطاعة والهدية فتقبله وبعثه إلى القان الأعظم منكوفان بقراقوم وأبطأ على لؤلؤ خبره فبعث بالولدين الآخرين شمس الدين إسحاق وعلاء الدين بهدية أخرى ورجعوا إليه بخبر ابنه وقرب إيابه فتوجه لؤلؤ بنفسه إلى هلاكو ولقيه بأذربيجان وحضر حصار ميافارقين وجاءه ابنه ركن الدين من عند منكوفان بولاية الموصل وأعمالها.

ثم هلك سنة سبع وخمسين وولي ابنه ركن الدين إسماعيل ويلقب الصالح وبعث هلاكو عسكراً إلى إربل فحاصرها ستة أشهر وامتنعت فأفرجت عنها العساكر فاغتنم ابن الصلايا الفرصة ونزل عنها لشرف الدين الكردي ولحق بهلاكو فقتله وكان صاحب الشام يومئذ الناصر بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين فلما بلغه استيلاء هلاكو على بغداد بعث إليه ابنه بالهدايا والمصانعة والعذر عن الوصول بنفسه لمكان الإفرنج من سواحل الشام فقبل هديته وعذره ورجع ابنه بالمواعيد ولم يتم لهلاكو الاستيلاء على الجزيرة وديار بكر وديار ربيعة وانتهى ملكه إلى الفرات وتاخم الشام وعبر الفرات سنة ثمان وخمسين فملك البيرة ووجد بها السعيد أخا الناصر بن العزيز معتقلاً فأطلقه ورده إلى عمله بالضبينة وبانياس.

ثم سار إلى حلب فحاصرها مدة ثم ملكها ومنّ عليه وأطلقه ووجد بها المعتقلين من البحرية مماليك الصالح أيوب الذين حبسهم الناصر وهم سنقر الأشقر وتنكز وغيرهما فأطلقهم وكان معهم أمير من أكابر القفجاق لحق به واستخدم له وجعلهم معه وولى على البلاد التي ملكها من الشام ثم جهز العساكر إلى دمشق وارتحل الناصر إلى مصر ورجع عنه الصالح بن الأشرف صاحب حمص إلى هلاكو فولاه دمشق وجعل نوابه بها لنظره وبلغ الناصر إلى هلاكو ثم استوحش الخليفة من قطز سلطان مصر لما كان بينهما من الفتنة فخرج إلى هلاكو فأقبل عليه واستشاره في أنزال الكتائب بالشام فسهل له الأمر في عساكر مصر ورجع إلى رأيه في ذلك وترك نائبه كتبغا من أمراء التتر في خف من الجنود فبعث كتبغا إلى سلطان مصر وأساء رسله بمجلس السلطان في الخطاب بطلب الطاعة فقتلهم وسار إلى الشام فلقي كتبغا بعين جالوت فانهزمت عساكر التتر وقتل كتبغا أميرهم والسعيد صاحب الضبينة أخو الناصر كان حاضراً مع التتر فقبض عليه وقتل صبراً.

ثم بعث هلاكو العساكر إلى البيرة والسعيد بن لؤلؤ على حلب ومعه طائفة من العساكر فبعث بعضهم لمدافعة التتر فانهزموا وحنق الأمراء على السعيد بسبب ذلك وحبسوه وولوا عليهم حسام الدين الجوكندار وزحف التتر إلى حلب فأجفل عنها واجتمع مع صاحبها المنصور على حمص وزحفوا إلى التتر فهزموهم وسار التتر إلى أفامية فحاصروها وهابوا ما وراءها وارتحلوا إلى بلادهم وبلغ الخبر إلى هلاكو فقتل الناصر صاحب دمشق لاتهامه إياه فيما أشار به من الاستهانة بأهل مصر وكان هلاكو لما فتح الشام سنة ثمان وخمسين بلغه مهلك أخيه القان الأعظم منكوفان في مسيره إلى غزو بلاد الخطا فطمع في القانية وبادر لذلك فوجد أخاه قبلاي قد استقل فيها بعد حروب بدت بينه وبين أخيه أزبك تقدم ذكرها في أخبار القان الأعظم فشغل بذلك عن أمر الشام ثم لما يئس من القانية قنع بما حصل عنده من الأقاليم والأعمال ورجع إلى بلاده والأقاليم التي حصلت بيده إقليم خراسان كرسيه نيسابور ومن مدنه طوس وهراة وترمذ وبلخ همذان ونهاوند وكنجة وعراق العجم كرسيه أصفهان ومن مدنه قزوين وقم وقاشان وشهرزور وسجستان وطبرستان وطلان وبلاد الإسماعيلية، وعراق العرب كرسيه بغداد ومن مدنه الدينور والكوفة والبصرة أذربيجان وكرسيه توريز ومن مدنه حران وسلماس وقفجاق خوزستان كرسيها ششتر ومن مدنها الأهواز وغيرها فارس كرسيها شيراز ومن مدنها كش ونعمان ومحمل رزون والبحرين ديار بكر كرسيها الموصل ومن مدنها ميافارقين ونصيبين وسنجار واسعرد ودبيس وحران والرها وجزيرة ابن عمر بلاد الروم كرسيها قونية ومن مدنها ملطية واقصرا وأورنكار وسيواس وأنطاكية والعلايا.

ثم أجلاه أحمد الحاكم خليفة مصر فزحف إلى بغداد وهذا

الحاكم هو عم المستعصم لحق بمصر بعد الواقعة ومعه الصالح بن لؤلؤ بعد أن أزاله التتر من الموصل فنصب الظاهر بيبرس أحمد هذا في الخلافة سنة تسع وخمسين وبعثه لاسترجاع بغداد ومعه الصالح بن لؤلؤ على الموصل فلما أجازوا الفرات وقاربوا بغداد كبسهم التتر ما بين هيت وغانة فكبسوا الخليفة وفر ابن لؤلؤ وأخواه إلى الموصل فنازلهم التتر سبعة أشهر ثم اقتحموها عليهم عنوة وقتلوا الصالح وخشى الظاهر بيبرس غائلة هلاكو ثم إن بركة صاحب الشمال قد بعث إلى الظاهر سنة ستماية وسبعين بإسلامه فجعلها الظاهر وسيلة للوصلة معه والإنجاد وأغراه بهلاكو لما بينهما من الفتنة فسار بركة لحربه وأخذ بحجزته عن الشام ثم بعث هلاكو عساكر التتر لحصار البيرة ومعه درباي من أكابر أمراء المغل وأردفه بابنه أبغا وبعث الظاهر عساكره لإنجاد أهلها فلما أطلوا على عسكر درباي وعاينهم أجفل وترك المخيم والآلة ولحق بأبغا منهزماً فاعتقله وسخطه ثم هلك هلاكو سنة ثنتين وستين لعشر سنين من ولايته العراق والله أعلم.

أبغا بن هلاكو

ولما هلك هلاكو ولي مكانه ابنه أبغا وسار لأول ولايته لحرب بركة صاحب الشمال فسرح إليه بركة العساكر مع قريبه نوغاي بن ططر بن مغل بن دوشي خان ومع سنتف بن منكوفان ابن جغطاي بن جنكزخان وخام سنتف عن اللقاء ورجع منهزماً وأقام نوغاي فهزم أبغا وأثخن في عساكره وعظمت منزلته بذلك عند بركة.

ثم بعث سنة إحدى وسبعين عساكره مع درباي لحصار البيرة وعبر الظاهر إليهم الفرات وهزمهم وقتل أميرين مع درباي ولحق درباي بأبغا منهزماً فسخطه وأدال منه بأبطاي.

وفي سنة اثنتين وسبعين زحف أبغا إلى تكدار بن موجي بن جغطاي بن جنكزخان وكان صاحبه فاستنجد بابن عمه براق بن سنتف بن منكوفان بن جغطاي فأمده بنفسه وعساكره واستنفر أبغا عساكر الروم وأميرهم طمقان والبرواناة والتقى الجمعان ببلاد الكرج فانهزم تكدار ولجأ إلى جبل هنالك حتى استأمن أبغا فأمنه وعهد أن لا يركب فرساً فارها ولا يمس قوساً.

ثم نمي إلى أبغا أن الظاهر صاحب مصر سار إلى بلاد الروم فبعث العساكر إليها مع قائدين من قواد المغل وهما تدوان وتغوا فسارا وملك الظاهر قيسارية من تخوم بلادهم وبلغ الخبر إلى أبغا فجاء بنفسه إلى موضع الهزيمة وعاين مصارع قومه ولم يسمع ذكراً لأحد من عسكر البرواناة أنه صرع فاتهمه وبعث عنه بعد مرجعه فقتله.

ثم سار أبغا سنة ثمانين وعبر الفرات ونازل الرحبة وبعث إلى صاحب ماردين فنزل معه هناك وكان منكوتمر ابن أخي بركة ملك صراي فسار بعساكره من المغل وحشود الكرج والأرمن والروم ومر بقيسارية وأبلسين وأجاز الدربند إلى الرحبة فنازلها وبعث أبغا إليه بالعساكر مع أخيه منكوتمر بن هلاكو وأقام هو على الرحبة وزحف الظاهر من مصر في عساكر المسلمين فلقيهم التتر على حمص وانهزم التتر هزيمة شنعاء هلك فيها عامة عساكرهم وأجفل أبغا من حصار الرحبة وهلك أخوه منكوتمر بن هلاكو مرجعه من تلك الواقعة يقال: مسموماً وأنه مر ببعض أمرائه بجزيرة تسمى مومواغا كان يضطغن له بعض الفعلات فسقاه سمّاً عند مروره به وهرب إلى مصر فلم يدركوه وأنهم قتلوا أبناءه ونساءه ثم هلك أبغا سنة إحدى وثمانين بعدها ويقال: مسموماً أيضاً على يد وزيره الصاحب شمس الدين الجوني مشير دولته وكبيرها حمله الخوف على ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

تكدار بن هلاكو ويسمى أحمد

ولما توفي أبغا كما ذكرناه وكان ابنه أرغو غائباً بخراسان فبايع المغل لأخيه تكدار فأسلم وتسمى أحمد وخاطب بذلك الملوك لعصره وأرسل إلى مصر يخبرهم ويطلب المساعدة وجاء بذلك قاضي سيواس قطب الدين الشيرازي وأتابك بلاد الروم وابن الصاحب من وراء ماردين وكان أخوه قنقرطاي مع صمغان الشحنة فبعث تكدار عن أخيه فامتنع من الإجابة وأجاره غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم فتوعده تكدار فخاف منه وسار هو وقنقرطاي إلى تكدار فقتل أخاه وحبس غياث الدين وولى مكانه أخاه عز الدين وأدال من صمغان الشحنة بأولاطو من أمراء المغل ثم جهز العساكر إلى خراسان لقتال أخيه أرغو فسار إليهم أرغو وكبسهم وهزمهم وفتك فيهم فسار تكدار فهزم أرغو وأسره وأثخن في عساكره وقتل اثني عشر أميراً من المغل فاستوحش أهل معسكره وكانوا ينقمون عليه إسلامه فثاروا عليه وقتلوا نائبه ثم قتلوه سنة اثنتين وثمانين وبعثوا إلى أرغو بن أبغا بطاعتهم والله تعالى أعلم.

أرغو بن أبغا

ولما ثار المغل على تكدار وقتلوه وبعثوا بطاعتهم إلى أرغو فجاء وولوه أمرهم فقام بسلطانه وقتل غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم في محبسه اتهمه بمداهنته في قتل عمه قنقرطاي وتقبض لأول ولايته على الوزير شمس الدين الجوني وكان متهماً بأبيه وعمه فقتله وولى على وزارته سعداً اليهودي الموصلي ولقبه سعد الدولة وكان عالماً بالحكمة وولى ابنيه قازان وخربندا على خراسان لنظر نيروز أتابكه. ولما فرغ من أمور ملكه وكان قد عدل عن دين الإسلام وأحب دين البراهمة من عبادة الأصنام وانتحال السحر والرياضة له ووفد عليه بعض سحرة الهند فركب له دواء لحفظ الصحة واستدامتها فأصابه منه صرع فمات سنة سبعين والله سبحانه وتعالى أعلم.

كتخاتو بن أبغا

ولما هلك أرغو بن أبغا وابناه قازان وخربندا غائبان بخراسان اجتمع المغل على أخيه كتخاتو فبايعوه وقدموه للملك ثم ساءت سيرته وأفحش في المناكر وإباحة الحرمات والتعرض للغلمان من أبنائهم وكان في عسكره بيدو بن عمر طرغاي بن هلاكو فاجتمع إليه أمراء المغل وبايعوه سراً وشعر بهم كتخاتو ففر من معسكره إلى جهة كرمان وساروا في أثره فأدركوا بأعمال غانة وقتلوه سنة ثلاث وتسعين لثلاث سنين وأشهر من ولايته والله تعالى أعلم.

بيدو بن طرغاي بن هلاكو

ولما قتل أمراء المغل كتخاتو بن أبغا بايعوا مكانه لابن عمه بيدو بن طرغاي بن هلاكو وكان قازان بن أرغو بخراسان فسار لحرب بيدو ومعه الأتابك نيروز فلما تقاربا للقاء تردد الناس بينهما في الصلح على أن يقيم نيروز الأتابك عند بيدو واصطلحا وعاد قازان ثم أرسل نيروز الأتابك إلى قازان يستحثه فسار من خراسان ولما بلغ الخبر إلى بيدو فاوض فيه نيروز الأتابك فقال: أنا أكفيكه فصبر حتى أتى إليه فسرحه ولما وصل إلى قازان أطلعه على شأن أمراء بيدو وأنهم راغبون عنه وحرضه على المسير فامتعض لذلك بيدو وسار للقائهم فلما التقى الجمعان انتقض عليه أمراؤه بمداخلة نيروز فانهزم ولحق بنواحي همذان فأدرك هناك وقتل سنة خمس وتسعين لثمانية أشهر من ملكه والله سبحانه وتعالى أعلم.

قازن بن أرغو

ولما انهزم بيدو وقتل ملك على المغل مكانه قازان بن أرغو فجعل أخاه خربندا والياً على خراسان وجعل نيروز الأتابك مدبراً لملكته وسعى لأول أمره في التدبير على طرغاي من أمرائه ومواليه من المغل الذي داخل بيدو في قتل كتخاتو الذي تولى كبر ذلك فخافه طرغاي على نفسه وكان نازلاً بين بغداد والموصل فبعث إلى كتبغا العادل صاحب مصر والشام يستأذنه في اللحاق به ثم ولى قازان على ديار بكر أميراً من أشياعه اسمه مولان فهزمه وقتل الكثير من أصحابه ونجا إلى الشام وبعث كتبغا من تلقاه وجاء به إلى مصر ودخل مجلس الملك ورفع مجلسه فيها قبل أن يسلم واستقر هو وقومه الأويراتية بمصر وأقطع لهم وكان ذلك داعياً إلى الفتنة بين الدولتين.

ثم قتل قازان الأتابك نيروز وذلك أنه استوحش من قازان وكاتب لاشين سلطان مصر والشام المتولي بعد كتبغا وأحسّ نيروز بذلك فلحق بهراة مستجيراً بصاحبها وهو فخر الدين ابن شمس الدين كرت صاحب سجستان فقبض عليه فخر الدين وأسلمه إلى قطلو شاه فقتله وقتل قازان بعد ذلك أخويه ببغداد وهما حاجي ولكري وقفل السفير إليه بالكتاب من مصر ثم كان بعد ذلك مفر شلامس بن أيال بن منجو إلى مصر وكان أميراً في بلاد الروم على الطومار المحجر فيها والطومار عندهم عبارة عن مائة ألف من العساكر عن قازان فارتاب به وأرسل إلى لاشين يستأذنه في اللحاق به.

وبعث قازان العساكر إليه فقاتلوه وانفض عنه أكثر أصحابه ففر إلى مصر وترك أهله وولده وبعث معه صاحب مصر العساكر لتلقي أهله ومروا بسيس فاعترضه عساكر التتر هناك فهزموه وقتلوا أمير مصر الذي معه واعتصم هو ببعض القلاع فاستنزلوه منها وبعثوا به إلى قازان فقتله وأقام أخوه قطقطو بمصر في جملة عسكرها ونشأت بهذه كلها الفتن بين قازان وأهل مصر ونزع إليه أمراء الشام فلحق نائب دمشق، وبكتمر نائب حلب والبكي الظاهري وعزاز الصالحي واسترابوا بسلطانهم الناصر محمد بن قلاوون فلحقوا به واستحثوه إلى الشام وسار سنة تسع وسبعين في عساكر المغل والأرمن ومعه نائبه قطلوشاه ومولي.

وجاء الملك الناصر من مصر في عساكر المسلمين ولما انتهى إلى غزة أطلع على تدبير بعض المماليك عليه من أصحاب كتبغا

ومداخلة الأمراء الذين هاجروا من المغل إلى مملكة مصر لهم في ذلك فسبق جميعهم وارتحل إلى حمص للقاء التتر ثم سار فصبحهم بمرج المروج والتقى الجمعان وكانت الدبرة على المسلمين واستشهد منهم عدد ونجا السلطان إلى مصر وسار قازان على التعبية فملك حمص واستوعب مخلف السلطان فيها ثم تقدم إلى دمشق فملك المدينة وتقدم إلى قفجاق لجباية أموالها ولحصار القلعة وبها علاء الدين سنجار المنصور فامتنع وهدم ما حولها من العمران وفيها دار السعادة التي بها أيوان الملك.

وسار قازان إلى حلب فملكها وامتنعت عليه القلعة وعاثت عساكره في البلاد وانتهت غاراتهم إلى غزة ولما امتنعت عليه القلاع ارتحل عائداً إلى بلده وخلف قطلوشاه في عساكره لحماية البلد وحصار القلعة ويحيى بن جلال الدين لجباية الأموال وترك قفجاق على نيابة دمشق وبكتمر على نيابة حلب وحمص وحماة وكر الملك الناصر راجعاً إلى الشام بعد أن جمع العساكر وبث العطاء وأزاح العلل وعلى مقدمته سرمز الجاشنكير وسلار كافلا مملكته فتقدموا إلى حدود الشام وأقام هو بالصالحية واستأمن لهما قفجاق وبكتمر النائبان بدمشق وحلب وراجعا طاعة السلطان واستولى سرمز وسلار على الشام ورجع قطلوشاه إلى العراق.

ثم عاود قازان المسير إلى الشام سنة اثنتين وسبعين وعبر الفرات ونزل على الرحبة وكاتب أهل الشام يخادعهم وقدم قطلوشاه فأغار على القدس وبها أحياء التركمان فقاتلوه ونالوا منه وتوقفوا هنالك وسار الناصر من مصر في العساكر ثالث شعبان ولقي قطلوشاه بمرج الصفر فهزمه بعد حرب شديدة وسار في اتباعهم إلى الليل فاعتصموا بجبل في طريقهم وبات المسلمون يحرسونهم ثم تسللوا وأخذ القتل منهم كل مأخذ واعترضهم الوحل من أمامهم من بثوق بثقت لهم من نهر دمشق فلم ينج منهم أحد وقدم الفل على قازان بنواحي كيلان ومرض هنالك ومات في ذي الحجة من السنة ويقال: إنه مات أسفاً والله تعالى أعلم بالصواب.

خربندا بن أرغو

ولما هلك قازان ولي بعده أخوه خربندا وابتدا أمره بالدخول في دين الإسلام وتسمى بمحمد وتلقب غياث الدين وأقر قطلوشاه على نيابته ثم جهزه لقتال الكرد في جبال كيلان وقاتلهم فهزموه وقتلوه وولى مكانه جوبان بن تدوان وأقام في سلطانه حسن الدين معظماً للخلفاء وكتب أسماءهم على سكته ثم صحب الروافض فساء اعتقاده وحذف ذكر الشيخين من الخطبة ونقش أسماء الأئمة لاثني عشر على سكته ثم أنشأ مدينة بين قزوين وهمذان وسماها السلطانية ونزلها واتخذ بها بيتاً لطيفاً بلبن الذهب والفضة وأنشأ بإزائها بستاناً جعل فيه أشجار الذهب بثمر اللؤلؤ والفصوص وأجرى اللبن والعسل أنهاراً وأسكن به الغلمان والجواري تشبيهاً له بالجنة وأفحش في التعرض لحرمات قومه ثم سار إلى الشام سنة ثلاث عشرة وعبر الفرات ونزل الرحبة ورجع ثم هلك ويقال: مات مسموماً على يد بعض أمرائه سنة ست عشرة والله تعالى أعلم.

أبو سعيد بن خربندا

ولما هلك خربندا خلف ابنه أبا سعيد طفلاً صغيراً ابن ثلاث عشرة سنة فاستصغره جوبان وأرسل إلى أزبك ملك الشمال بصراي يستدعيه لملك العراقين فحذره نائبه قطلتمر من ذلك وبايع جوبان لأبي سعيد بن خربندا على صغره وبدأ أمره بقتل أبي الطيب رشيد الدولة فضل الله بن يحيى الهمذاني المتهم بقتل أبيه فقتله وكان مقدماً في العلوم وسريا في الغاية وله تاريخ جمع فيه أخبار التتر وأنسابهم وقبائلهم وكتبه مشجراً كما في كتابنا هذا وكان جوبان يومئذ بخراسان يقاتل عليها سيول بن براق بن سنتف بن ماسان بن جفطاي صاحب خوارزم أغراه أزبك صاحب الشمال بخراسان وأمده بعساكره وكان جوبان موافقاً له فلما هلك خربندا طمع سيول في الاستيلاء على خراسان وكاتب أمراء المغل بدولة أبي سعيد يرغبهم فأطمعوه فسار جوبان إلى الأردن ومعناه بلغتهم والمخيم.

وانتهى إلى أبي سعيد خبر أمرائه فقتل منهم أربعين ورجع جوبان إلى خراسان سنة ثمان عشرة وقد استولى سيول عليها وعلى طائفة من عراق العجم وبعث إليه أزبك صاحب الشمال نائبه قطلتمر مدداً في العساكر فلقيهم جوبان وكانت بينهم حروب وانتزع جوبان ما ملكه سيول من بلاد خراسان وصالحه على ما بقي ورجع.

ثم سار أزبك ملك الشمال إلى مراغة فأغار عليها وغنم ورجع وأتبعه جوبان في العساكر فلم يدركه وهلك سيول سنة عشرين وارتجع أبو سعيد ما كان بيده من خراسان وكان أزبك صاحب الشمال ينقم على أبي سعيد استبداد جوبان عليه وتحكمه في بني جنكزخان ويحرض أهل النواحي على جوبان ويتوقع له المهالك وأوصل الملوك في النواحي للمظاهرة على جوبان وسلطانه

أبي سعيد حتى لقد صاهر صاحب مصر على مثل ذلك ولم يتم الصلح لأبي سعيد معه كما مر في أخبارهم.

وجهز أزبك العساكر سنة عشرين لحرب جوبان فحاصرهم المدني بنهر كوزل الذي في حدود ملكهم فرجعوا ثم جهز جيشاً آخر مع قطلقتمر نائبه وكان جوبان نائب أبي سعيد قد ولى على بلاد الروم ابنه دمرداش فزحف سنة إحدى وعشرين إلى بلاد سيس وافتتح منها قلاعاً ثلاثاً وخربها وبعث إلى الملك الناصر يطلب المظاهرة في جهاد الأرمن بسيس فبعث السلطان عساكره سنة اثنتين وعشرين ومعهم من المتطوعة عدد وحاصروا سيس ثم انعقد الصلح سنة ثلاث وعشرين بعدها بين الملك الناصر وبين أبي سعيد واستقامت الأحوال وحج أكابر المغل من قرابة أبي سعيد ملك التتر بالعراقين واتصلت المهاداة بينهما وسار نائبه جوبان سنة خمس وعشرين إلى خراسان في العساكر وقد زحف إليه كبك بن سيول فجرت بينهما حروب وانهزم جوبان واستولى كبك على خراسان.

ثم كبسه جوبان فهزمه وأثخن في عساكره وغلبه على خراسان فعادت إلى مملكة أبي سعيد وبينما جوبان مشتغل بتلك الفتنة والحروب في نواحي خراسان إذ بلغه الخبر بأن السلطان أبا سعيد تقبض على ابنه خوا في دمشق فلما بلغه الخبر بذلك انتقض وزحف إليه أبو سعيد فافترق عنه أصحابه ولحق بهراة فقتل بها سنة ست وعشرين وأذن أبو سعيد لولده أن ينقلوا شلوه إلى تربته التي بناها بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ونقلوه فلم يقدر دفنه بها وتوقف أمير المدينة على أذن السلطان بمصر في ذلك فدفن بالبقيع ولما بلغ خبر جوبان لابنه دمرداش وهو أمير ببلاد الروم أنزعج لذلك ولحق بمصر فيمن معه من الأمراء والعساكر.

وأقبل السلطان الملك الناصر عليه وأحله محل التكرمة وجاءت على أثره رسل أبي سعيد يطلب حكم الله فيه لسعيه في الفساد والفتنة وأجابه السلطان إلى ذلك على أن يفعل مثل ذلك في قراسنقر النازع إليهم من أمراء الشام فأمضى ذلك فيهما جزاء بما قدمت أيديهما ثم تأكدت أسباب المواصلة والالتحام بين هذين السلطانين بالإصهار والمهاداة واتصل ذلك وانقطع زبون العرب وفسادهم بين المملكتين وهلك السلطان أبو سعيد سنة ست وثلاثين ولم يعقب ودفن بالسلطانية واختلف أهل دولته وانقرض الملك من بني هلاكو وافترقت الأعمال التي كانت في ملكهم وأصبحت طوائف في خراسان وفي عراق العجم وفارس وفي أذربيجان كله في عراق العرب وفي بلاد الروم كما نذكر ذلك والله وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

اضطراب دولة بني هلاكو وانقسام الملك طوائف في أعمالهم وانفراد الشيخ حسن ببغداد واستيلاء بنيه معها على توريز وما كان لهم فيها من الملك والدولة وابتدائها ومصايرها

لما هلك أبو سعيد بن خربندا ملك التتر بكرسي بغداد سنة ست وثلاثين ولم يعقب نصب أمراء المغل الوزير غياث الدين وخلع أورخان ونصب للملك موسى خان من أسباطهم وقام بدولته الشيخ حسن بن حسين بن بيبقا بن أملكان وهو ابن عمه السلطان أبي سعيد سبط أرغو بن أبغا أنزله أبو سعيد بقلعة كانج من بلاد الروم ووكل به فلما هلك أبو سعيد وانحل عقاله وذهب أبو نور بن ماس عفى عليها وبلغه شأن أهل الدولة ببغداد فلم يرضه ونهض إليها فقتل علي ماسا القائم بالدولة وعزل موسى خان الملك ونصب مكانه محمد بن عنبرجي وهو الذي تقدم في ملوك التخت صحة نسبه إلى هلاكو واستولى الشيخ حسن على بغداد وتوريز ثم سار إليه حسن بن دمرداش من مكان إمارته وإمارة أبيه ببلاد الروم وغلبه على توريز وقتل سلطانه محمد بن عنبرجي ولحق الشيخ حسن ببغداد واستقر حسن بن دمرداش في توريز ونصب للملك أخت السلطان أبي سعيد اسمها صاليبك وزوجها لسليمان خان من أسباط هلاكو واستقل بملك توريز وكان يعرف بالشيخ حسن الصغير لأن صاحب بغداد كان يشاركه في اسمه وهو أسن وأدخل في نسب الخان فميز بالكبير وميز هذا بالصغير.

ولما استقل حسن الصغير بالملك والخان عنده عجز عنه الشيخ حسن الكبير وغلبته أمم التركمان بضواحي الموصل إلى سائر بلاد الجزيرة فيقال: إنه أرسل إلى الملك الناصر صاحب مصر بأن يملكه بغداد ويلحق به فيقيم عنده وطلب منه أن يبعث عساكره لذلك على أن يرهن فيهم ابنه فلم يتم ذلك لما اعترضه من الأحوال وافترقت مملكة بني هلاكو فكان هو ببغداد والصغير بتوريز وابن المظفر بعراق العجم وفارس والملك حسين بخراسان واستولى على أكثرها ملك الشمال أزبك صاحب التخت بصراي من بني دوشي خان بن جنكزخان ثم استوحش الشيخ حسن من سلطانه سليمان خان فقتله واستبد ثم هلك الشيخ حسن الصغير

بن دمرداش بتوريز سنة أربع وأربعين وملك مكانه أخوه الأشرف ثم هلك الشيخ حسن الكبير ببغداد سنة سبع وخمسين والله تعالى أعلم.

أويس بن الشيخ حسن

ولما هلك الشيخ حسن الكبير ببغداد ولي مكانه ابنه أويس وكان بتوريز الأشرف بن دمرداش فزحف إليه ملك الشمال جاني بك بن أزبك سنة ثمان وخمسين وملكها من يده ورجع إلى خراسان بعد أن استخلف عليها ابنه واعتقل في طريقه فكتب أهل الدولة إلى ابنه بردبيك يستحثونه للملك فأغذ السير إليهم وترك بتوريز عاملها أخبجوخ فسار إليه أويس صاحب بغداد وغلبه عليها وملكها ثم ارتجعها منه أخبجوخ وأقام بها فزحف إليه ابن المظفر صاحب أصفهان وملكها من يده وقتله وانتظم في ملكه عراق العجم وتوريز وتستر وخوزستان ثم سار أويس فانتزعها من يد ابن المظفر واستقرت في ملكه ورجع إلى بغداد وجلس على التخت واستفحل أمره ثم هلك سنة ست وسبعين حسين بن أويس وقد خلف بنين خمسة وهم الشيخ حسن وحسين والشيخ علي وأبو يزيد وأحمد وكان وزيره زكريا وكبير دولته الأمير عادل كان كافلاً لحسين ومن أقطاعه السلطاني فاجتمع أهل الدولة وبايعوا لابنه حسين بتوريز وقتلوا الشيخ حسن وزعموا أن أباهم أويساً أوصاهم بقتله.

وكان الشيخ علي بن أويس ببغداد فدخل في طاعة أخيه حسين وكان قنبر علي بادك من أمرائهم نائباً بتستر وخوزستان فبايع لحسين وبعث إليه بطاعته واستولى على دولته بتوريز زكريا وزير أبيه وكان إسماعيل ابن الوزير زكريا بالشام هارباً أمام أويس فقدم على أبيه زكريا وبعث إلى بغداد ليقوم بخدمة الشيخ علي فاستخلصه واستبد عليه فغلب شجاع بن المظفر على توريز وارتجعها منه ولما استقل حسين بتوريز كان بنو المظفر طامعين في ولايتها وقد ملكوها من قبل كما مر وانتزعها أويس منهم فلما توفي أويس سار شجاع إلى توريز في عساكره فأجفل عنها حسين بن أويس إلى بغداد واستولى عليها شجاع ولحق حسين بأخيه الشيخ علي ووزيره إسماعيل ببغداد مستجيشا بهما فسرحوا معه العساكر ورجع أدراجه إليها فهرب عنها شجاع إلى خوزستان وحصن ملكه بها واستقر فيها.

مقتل إسماعيل واستيلاء حسين على بغداد ثم ارتجاعها منه

كان إسماعيل مستبداً على الشيخ علي ببغداد كما قدمناه فتوثب به جماعة من أهل الدولة منهم مبارك شاه وقنبر وقرا محمد فقتلوه وعمه أمير أحمد منتصف إحدى وثمانين واستدعوا قنبر علي بادك من تستر فولوه مكان إسماعيل واستبد على الشيخ علي ببغداد ونكر حسين عليهم ما آتوه وسار في عساكره من توريز إلى بغداد فارقها الشيخ علي وقنبر على بادك إلى تستر واستولى حسين على بغداد واستمده فاتهمه بممالأة أخيه الشيخ علي ولم يمده ونهض الشيخ علي من تستر إلى واسط وجمع العرب من عبادان والجزيرة فأجفل أحمد من واسط إلى بغداد وسار الشيخ علي في أثره فأجفل حسين إلى توريز واستوسق ملك بغداد للشيخ علي واستقر كل ببلده والله تعالى أعلم.

انتقاض أحمد واستيلاؤه على توريز ومقتل حسين

ولما رجع حسين من بغداد إلى توريز عكف على لذاته وشغل بلهوه واستوحش منه أخوه أحمد فلحق بأردبيل وبها الشيخ صدر الدين واجتمع إليه من العساكر ثلاثة آلاف أو يزيدون فسار إلى توريز وطرقها على حين غفلة فملكها واختفى حسين أياماً ثم قبض عليه أحمد وقتله والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

انتقاض عادل ومسيره لقتال أحمد

كان الأمير عادل والياً على السلطانية وكانت من أقطاعه فلما بلغه مقتل حسين امتعض له وكان عنده أبو يزيد بن أويس فسارا إلى شجاع بن المظفر اليزدي صاحب فارس يستصرخانه على الأمير أحمد بن أويس فبعث العساكر لصريخهما وبرز الأمير أحمد للقائهم ثم تقاربوا واتفقوا أن يستقر أبو يزيد في السلطانية أميراً ويخرج الأمير عادل عن مملكتهم ويقيم عند شجاع بفارس واصطلحوا على ذلك وعاد أبو يزيد إلى السلطانية فأقام بها وأضر أمراؤه وخاصته بالرعايا فدسوا الصريخ إلى أحمد بتوريز فسار في العساكر إليه وقبض عليه وكحله وتوفي بعد ذلك ببغداد.

مقتل الشيخ علي واستيلاء أحمد على بغداد

لما قتل أحمد أخاه حسيناً جمع الشيخ علي العساكر واستنفر قرا محمد أمير التركمان بالجزيرة وسار من بغداد يريد توريز فبرز أحمد للقائه واستطرد له لما كان منه فبالغ في اتباعه إلى أن خفت عساكره فكر مستميتاً وكانت جولة أصيب فيها الشيخ علي بسهم فمات وأسر قرا محمد فقتل ورجع أحمد إلى توريز واستوسق له ملكها ونهض إليه عادل بن السلطان أبي سعيد يروم فرصة فيه فهزمه ثم سار أحمد إلى بغداد وقد كان استبد بها بعد مهلك الشيخ علي خواجا عبد الملك من صنائعهم بدعوة أحمد ثم قام الأمير عادل في السلطانية بدعوة أبي يزيد وبعث إلى بغداد قائداً اسمه برسق ليقيم بها دعوته فأطاعه عبد الملك وأدخله إلى بغداد ثم قتله برسق ثاني يوم دخوله واضطرب البلد شهراً.

ثم وصل أحمد من توريز وخرج برسق القائد لمدافعته فانهزم وجيء به إلى أحمد أسيراً فحبسه ثم قتله وقتل عادل بعد ذلك وكفى أحمد شره وانتظمت في ملكه توريز وبغداد وتستر والسلطانية وما إليها واستوسق أمره فيها ثم انتقض عليه أهل دولته سنة ست وثمانين وسار بعضهم إلى تمر سلطان بني جغطاي بعد أن خرج من وراء النهر بملكه يومئذ واستولى على خراسان فاستصرخه على أحمد فأجاب صريخه وبعث معه العساكر إلى توريز فأجفل عنها أحمد إلى بغداد واستبد بها ذلك الثائر ورجع تمر إلى مملكته الأولى وطمع طغطمش ملك الشمال من بني دوشي خان في انتزاع توريز من يد ذلك الثائر فسار إليها وملكها، وزحف تمر في عساكره سنة سبع وثمانين إلى أصفهان وبعث العساكر إلى توريز فاستباحها وخربها واستولى على تستر والسلطانية وانتظمهما في أعماله وانفرد أحمد ببغداد وأقام بها.

استيلاء تمر على بغداد ولحاق أحمد بالشام

كان تمر سلطان المغل بعد أن استولى على توريز خرج عليه خارج من قومه في بلاده يعرف بقمر الدين فجاءه الخبر عنه وأن طغطمش صاحب كرسي صراي في الشمال أمده بأمواله وعساكره فكر راجعاً من أصفهان إلى بلاده وعميت أنباؤه إلى سنة خمس وسبعين ثم جاءت الأخبار بأنه غلب قمرالدين الخارج عليه ومحا أثر فساده ثم استولى على كرسي صراي وأعمالها ثم خطى إلى أصفهان وعراق العجم والري وفارس وكرمان فملك جميعها من بني المظفر اليزدي بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبادت جموعهم وشد أحمد ببغداد عزائمه وجمع عساكره وأخذ في الاستعداد ثم عدل إلى مصانعته ومهاداته فلم يغن ذلك عنه وما زال تمر يخادعه بالملاطفه والمراسلة إلى أن فتر عزمه وافترقت عساكره فنهض إليه يغذ السير في غفلة منه حتى انتهى إلى دجلة وسبق النذير إلى أحمد فأسرى بغلس ليلة وحمل ما أقلته الرواحل من أمواله وذخائره وخرق سفن دجلة ومر بنهر الحلة فقطعه وصبح مشهد علي.

ووافى تمر وعساكره دجلة في حادي عشر شوال سنة خمس وتسعين ولم يجد السفن فاقتحم بعساكره النهر ودخل بغداد واستولى عليها وبعث العساكر في إتباع أحمد فساروا إلى الحلة وقد قطع جسرها فخاضوا النهر عندها وأدركوا أحمد بمشهد علي واستولوا على أثقاله ورواحله فكر عليهم في جموعه واستماتوا وقتل الأمير الذي كان في اتباعه ورجع بقية التتر عنهم ونجا أحمد إلى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها وطالع نائبها السلطان بأمره فسرح بعض خواصه لتلقيه بالنفقات والأزواد وليستقدمه فقدم به إلى حلب وأراح بها وطرقه مرض أبطأ به عن مصر.

وجاءت الأخبار بأن تمر عاث في مخلفه واستصفى ذخائره واستوعب موجود أهل بغداد بالمصادرات لأغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة وأقفرت جوانب بغداد من العيث ثم قدم أحمد بن أويس على السلطان بمصر في شهر ربيع سنة ست وتسعين مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدوه فأجاب السلطان صريخه ونادى في عسكره بالتجهُز إلى الشام وقد كان تمر بعدما استولى على بغداد زحف في عساكره إلى تكريت مأوى المخالفين وعش الحرابة ورصد السابلة وأناخ عليها بجموعه أربعين فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من قتل منهم ثم خربها وأقفرها وانتشرت عساكره في ديار بكر إلى الرها ووقفوا عليها ساعة من نهر فملكوها وانتسفوا نعمها وبلغ الخبر إلى السلطان فخيم بالزيدانية أياماً أزاح فيها علل عساكره وأفاض العطاء في مماليكه واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند واستخلف على القاهرة النائب سودون وارتحل إلى الشام على التعبية ومعه أحمد بن أويس بعد أن كفاه مهمه وشرب النفقات في تابعه وجنده ودخل دمشق آخر جمادى الأولى.

وقد كان أوعز إلى جلبان صاحب حلب بالخروج إلى الفرات واستنفار العرب والتركمان للإقامة هناك رصداً للعدو فلما وصل إلى دمشق وفد عليه جلبان وطالعه بمهماته وما عنده من أخبار القوم ورجع لإنفاذ أوامره والفصل فيما يطالعه فيه وبعث السلطان على أثره العساكر مدداً له مع كمشبغا الأتابك وتكلتمش أمير سلاح وأحمد بن بيبغا وكان العدو تمر قد شغل

بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً وملكها وعاثت عساكره فيها واكتسحت نواحيها وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها إلى ناحية بلاد الروم ومر بقلاع الأكراد فأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها والسلطان لهذا العهد -وهو شعبان سنة ستمائة وتسعين- الشيخ على أحمد بن أويس ابن الشيخ حسن بن أقبغا بن إيلكان سبط أرغو بن أبغا الشيخ حسن أبو زيد مقيم بدمشق مستجمع لنطاحه والوثبة به متى استقبل جهته والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

الخبر عن بني المظفر اليزدي المتغلبين على أصفهان وفارس بعد انقراض دولة بني هلاكو وابتداء أمورهم ومصايرها

كان أحمد المظفر من أهل يزد وكان شجاعاً واتصل بالدولة أيام أبي سعيد فولوه حفظ السابلة بفارس وكان منها مبدأ أمرهم وذلك أنه لما توفي أبو سعيد سنة ست وثلاثين وسبعمائة ولم يعقب اضطربت الدولة ومرج أمر الناس وافترق الملك طوائف وغلب أزبك صاحب الشمال على طائفة من خراسان فملكها واستبد بهراة الملك حسين واللان محمود فرشحه من أهل دولة السلطان أبي سعيد عاملاً على أصفهان وفارس فاستبد بأمره واتخذ الكرسي بشيراز إلى أن هلك وولي بعده ابنه أبو إسحاق أمير شيخ سالكاً سبيله في الاستبداد وكانت له آثار جميلة وله صنف الشيخ عضد الدين كتاب المواقف والشيخ عماد الدين الكاشي شرح كتاب المفتاح وسموهما باسمه.

وتغلب أيضاً محمد بن المظفر على كرمان ونواحيها فصارت بيده وطمع في الاستيلاء على فارس وكان أبو إسحاق أمير شيخ قد قتل شريفاً من أعيان شيراز فنادى بالنكير عليه ليتوصل إلى غرض انتزاع الملك من يده وسار في جوعه إلى شيراز ومال إليه أهل البلد لنفرتهم عن أمير شيخ لفعلته فيهم فأمكنوه من البلد وملكها واستولى على كرسيها وهرب أبو إسحاق أمير شيخ إلى أصفهان واتبعه ففر منه أيضاً وملك أصفهان وبث الطلب في الجهات حتى قبض عليه وقتله قصاصاً بالشريف الذي قتله بشيراز وكان له من الولد أربعة: شاه ولي ومحمود وشجاع وأحمد وتوفي شاه ولي أبيه وترك ابنيه منصوراً ويحيى وملك ابنه محمود أصفهان وابنه شجاع شيراز وكرمان واستبد عليه محمود وشجاع وخلفاه في ملكه سنة ستين وكحلاه.

وتولى ذلك شجاع وسار إليه محمود من أصفهان بعد أن استجاش بأويس بن حسن الكبير فأمده بالعساكر سنة خمس وستين وملك شيراز ولحق شجاع بكرمان من أعماله وأقام بها واختلف عليه عماله ثم استقاموا على طاعته ثم جمع بعد ثلاث سنين ورجع إلى شيراز ففارقها أخوه محمد إلى أصفهان وأقام بها إلى أن هلك سن ست وسبعين فاستضافها شجاع إلى أعماله وأقطعها لابنه زين العابدين وزوجه بابنة أويس التي كانت تحت محمود وولى على مردى ابن أخيه شاه ولي ثم هلك شجاع سنة سبع وثمانين واستقل ابنه زين العابدين بأصبهان وخلفه في شيراز وفارس منصور ابن أخيه شاه ولي.

وكان عادل كبير دولة بني أويس بالسلطانية كما مر ولحق به منصور بن شآه ولي هارباً من شيراز أمام عمه زين العابدين فحبس ثم فر من محبسه ولحق بأحمد بن أويس مستصرخاً به فصارخه وأنزله بتستر من أعماله ثم سار منها إلى شيراز ففارقها عمه زين العابدين إلى أصفهان وأخوه يحيى بيزد وعمهما أحمد بن محمد المظفر بكرمان ثم زحف تمر سلطان التتر من بني جفطاي بن جنكزخان سنة ثمان وثمانين وملك توريز وخربها كما مر في أخباره فأطاعه يحيى صاحب يزد وأحمد صاحب كرمان.

وهرب زين العابدين من أصفهان وملكها عليه تمر فلحق بشيراز ورجع تمر إلى بلاده فيما وراء النهر وعميت أنباؤه إلى سنة خمس وتسعين فزحف إلى بلاد فارس وجمع منصور بن شاه ولي العساكر لحربه فخادعه تمر بولايته وانكفأ راجعاً إلى هراة فافترقت عساكر منصور بن شاه ولي وجاءت عيون تمر بخبر افتراقها إليه فأغذ السير وكبس منصور بن شاه ولي بظاهر شيراز وهو في قل من العساكر لا يجاوزن الفين فهرب الكثير من أصحابه إلى تمر واستمات هو والباقون وقاتلوا أشد قتال وفقد هو في المعركة فلم يوقف له على خبر وملك تمر شيراز واستضافها إلى أصفهان وولى عليها من قبله وقتل أحمد بن محمد صاحب كرمان وابنيه وولى على كرمان من قبله وقتل يحيى بن شاه ولي صاحب يزد وابنيه وولي على يزد من قبله واستلحم بني المظفر واستصفى زين العابدين بن شجاع بن محمود وهرب ابنه فلحق بخاله أحمد بن أويس وهو لهذا العهد مقيم معه بمصر والله وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

الخبر عن بني ارتنا ملوك بلاد الروم من المغل بعد بني هلاكو والإلمام بمبادي أمورهم ومصايرهم

قد سبق لنا أن هذه المملكة كانت لبني قليج أرسلان من ملوك السلجوقية وهم الذين أقاموا فيها دعوة الإسلام وانتزعوها من يد ملوك الروم أهل قسطنطينية واستضافوا إليها كثيراً من أعمال الأرض ومن ديار بكر فانفسحت أعمالهم وعظمت ممالكهم وكان كرسهم بقونية ومن أعمالهم أقصر وأنطاكية والعلايا وطغرل ودمرلو وقرا حصار ومن ممالكهم أذربيجان ومن أعمالها أقشهر وكامخ وقلعة كعونية ومن ممالكهم قيسارية ومن أعمالها نكره وعدا قليلة ومنال ومن ممالكهم أيضاً سيواس وأعمالها ملكوها من يد الونشمند كما مر في أخبارهم ومن أعمالها نكسار وأقاسية وتوقات وقمنات وكنكرة كورية وسامسون وصغوى وكسحونية وطرخلوا وبرلوا.

ومما استضافوه من بلاد الأرمن خلاط وأرمينية الكبرى وأني وسلطان وأرجيس وأعمالها ومن ديار بكر خرت برت وملطية وسميساط ومسارة فكانت لهم هذه الأعمال وما يتصل بها من الشمال إلى مدينة برصة ثم إلى خليج القسطنطينية واستفحل ملكهم فيها وعظمت دولتهم ثم طرقها الهرم والفشل كما يطرق الدول ولما استولى التتر على ممالك الإسلام وورثوا الدول في سائر النواحي واستقر التخت الأعظم لمنكوفان أخي هلاكو، وجهز عساكر المغل سنة أربع وخمسين وستمائة إلى هذه البلاد وعليهم بيكو من أكابر أمرائهم وعلى بلاد الروم يومئذ غياث الدين كنخسرو بن علاء الدين كيقباد وهو الثاني عشر من ملوكهم من ولد قطلمش فنزلوا على أرزن الروم وبها سنان الدين ياقوت مولى علاء الدين فملكوها بعد حصار شهرين واستباحوها وتقدموا أمامهم ولقيهم غياث الدين بالصحراء على أقشهر وزنجان وانهزم غياث الدين واحتمل ذخيرته وعياله ولحق بقونية واستولى بيكو على مخلفه ثم سار إلى قيسارية فملكوها وهلك غياث الدين أثر ذلك وملك بعده ابنه علاء الدين كيقباد وأشرك معه أخويه في أمره وهما: عز الدين كيكاوس وركن الدين قليج أرسلان.

وعاثت عساكر التتر في البلاد فسار علاء الدين كيقباد إلى منكوفان صاحب التخت واختلف أخواه من بعده وغلب عز الدين كيكاوس واعتقل أخاه ركن الدين بقونية وبعث في أثر أخيه علاء الدين من يستفسد له منكوفان فلم يحصل من ذلك على طائل وهلك علاء الدين في طريقه وكتب منكوفان بتشريك الملك بين عز الدين وركن الدين والبلاد بينهما مقسومة فلعزّ الدين من سيواس إلى تخوم القسطنطينية ولركن الدين من سيواس إلى أرزن الروم متصلاً من جهة الشرق ببلاد التتر وأفرج عز الدين عن ركن الدين واستقر في طاعة التتر وسار بيكو في بلاد الروم قبل أن يرجع عز الدين فلقيه أرسلان دغمش من أمراء عز الدين فهزمه بيكو إلى قونية فأجفل عنها عز الدين إلى العلايا وحاصرها بيكو فملكها على يد خطيبها وخرج إلى بيكو فأسلمت زوجته على يده ومنع التتر من دخولها إلا وحداناً وأن لا يتعرضوا لأحد، واستقر عز الدين وركن الدين في طاعة التتر ولهما اسم الملك والحكم للشحنة بيكو.

ولما زحف هلاكو إلى بغداد سنة ست وخمسين واستنفر بيكو وعساكره فامتنع واعتذر بمن في طريقه من طوائف الأكراد الفراسيلية والياروقية فبعث إليه هلاكو العساكر ومروا بأذربيجان وقد أجفل أهلها وهم قوم من الأكراد فملكوها وساروا مع بيكو إلى هلاكو وحضروا معه فتح بغداد وما بعدها ولما نزل هلاكو حلب استدعى عز الدين وركن الدين فحضرا معه فتحها وحضر معهما وزيرهما معين الدين سليمان البرواناة واستحسنه هلاكو وتقدم إلى ركن الدين بأن يكون السفير إليه عنه فلم يزل على ذلك ثم هلك بيكو مقدم التتر ببلاد الروم وولي مكانه صمقار من أمراء المغل.

ثم اختلف الأميران عز الدين وغياث الدين سنة تسع وخمسين واستولى عز الدين على أعمال ركن الدين فسار ومعه البرواناة إلى هلاكو صريخاً فأمده بالعساكر وسار إلى عز الدين فهزمهم واستمده ثانية فأمدّه هلاكو وانهزم عز الدين فلحق بالقسطنطينية وأقام عند صاحبها لشكري واستولى ركن الدين قليج أرسلان على بلاد الروم وامتنع التركمان الذين بتلك الأعمال بأطراف الأعمال والثغور والسواحل وطلبوا الولاية من هلاكو فولاهم وأعطاهم اللّه الملك فهم الملوك بها من يومئذ كما يأتي في أخبارهم إن شاء اللّه تعالى.

وأقام عز الدين بالقسطنطينية وأراد التوثب بصاحبها لشكري ووشى به أخواله من الروم فاعتقله لشكري في بعض قلاعه ثم هلك ويقال: إن ملك الشمال منكوتمر صاحب التخت بصراي حدثت بينه وبين صاحب القسطنطينية فتنة فغزاه واكتسح بلاده ومر بالقلعة التي بها عز الدين معتقلاً فاحتمله معه إلى صراي وهلك عنده ولحق ابنه مسعود بعد ذلك بأبغا بن هلاكو

فأكرمه وولاه على بعض القلاع ببلاد الروم ثم إن معين الدين سليمان البرواناة ارتاب بركن الدين فقتله غيلة سنة ست وستين ونصب ابنه كنخسرو للملك ولقبه غياث الدين وكان متغلباً عليه مقيماً مع ذلك على طاعة التتر وربما كان يستوحش منهم فيكاتب سلطان مصر بالدخول في طاعته وأطلع أبغا على كتابه بذلك إلى الظاهر بيبرس فنكره.

وهلك صمغار الشحنة فبعث أبغا مكانه أميرين من أمراء المغل وهما تدوان وتوقر فتقدما سنة خمس وسبعين إلى بلاد الشام ونزلا بأبلستين ومعهما غياث الدين كنخسرو وكافله البرواناة في العساكر وسار الظاهر من دمشق فلقيهم بأبلستين وقد قعد البرواناة لما كان تواعد مع الظاهر عليه وهزمهما الظاهر جميعاً وقتل الأميرين تدوان وتوقر في جماعة من التتر ونجا البرواناة وسلطانه فلم يصب منهم أحد واستراب السلطان بالبرواناة لذلك وملك الظاهر قيسارية كرسي بلاد الروم وعاد إلى مصر وجاء أبغا ووقف على مكان الملحمة ورأى مصارع قومه فصدق الريبة بممالأة الظاهر والبرواناة وأصحابه فاكتسح البلاد وخربها ورجع.

ثم استدعى البرواناة إلى معسكره فقتله وأقام مكانه في كفالة كنخسرو أخاه عز الدين محمداً ولم يزل غياث الدين والياً على بلاد الروم والشحنة من المغل حاكم في البلاد إلى أن ولي تكرار بن هلاكو وكان أخوه قنقرطاي مقيماً ببلاد الروم مع صمغار فبعث عنه وامتنع من الوصول فأوعز إلى غياث الدين واعتقله بأرزنكان وولي على بلاد الروم على الشحنة أولاكو من أمراء المغل وذلك سنة إحدى وثمانين ويقال: إن أرغو بن أبغا هو الذي ولى أولاكو شحنة ببلاد الروم بعد صمغار وأن تداون وتوقر إنما بعث بهما أبغا لقتال الظاهر ولم يرسلهما شحنة.

ثم أقام مسعود بن عز الدين كيكاوس في سلطانه ببلاد الروم والحكم لشحنة التتر وليس له من الملك إلا اسمه إلى أن افترق واضمحل أمره وبقي أمراء المغل يتعاقبون في الشحنة ببلاد الروم وكان منهم أول المائة الثامنة الأمير علي وهو الذي قتل ملك الأرمن هيشوش بن ليعون صاحب سيس واستعدى أخوه عليه بخربندا فأعداه وقتله كما مر في أخبار الأرمن في دولة الترك وكان منهم سنة عشرين وسبعمائة الأمير ألبغا ثم ولي السلطان أبو سعيد على بلاد الروم دمرداش بن جوبان سنة ثلاث وعشرين واستفحل بها ملكه وجاهد الأرمن بسيس واستمد الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر عليهم فأمده بالعساكر وافتتحوا اياس عنوة ورجعوا.

ثم نكب السلطان أبو سعيد نائبه جوبان بن بروان وقتله كما مر في أخبارهم وبلغ الخبر إلى دمرداش ابنه ببلاد الروم فاضطرب لذلك ولحق بمصر في عساكره وأمرائه فأقبل السلطان عليه وتلقاه بالتكرمة والإيثار وجاءت رسل أبي سعيد في اتباعه تطلب حكم الله تعالى فيه بسعيه في الفساد وإثارة الفتنة على أن يفعل مثل ذلك في قراسنقر النازع إليهم من أمراء الشام فقتلوه وقتل دمرداش بمصر وذهبا بما كسبا وكان دمرداش لما هرب من بلاد الروم إلى مصر ترك من أمرائه أرتنا وكان يسمى النوير اسم أبناء الملوك فبعث إلى أبي سعيد بطاعته فولاه على البلاد فملكها ونزل سيواس واتخذها كرسي ملكه ثم استبد حسن بن دمرداش بتوريز فبايع له إرتنا ثم انتقض وكاتب الملك الناصر صاحب مصر ودخل في طاعته وبعث إليه بالولاية والخلع فجمع له حسن بن دمرداش وسار إليه بسيواس وسار ارتنا للقائه بصحراء كيسنول وهزمه وأسر جماعة من أمرائه وذلك سنة أربع وأربعين.

واستفحل ملك أرتنا من يومئذ وعجز جويان وحسن بن دمرداش عن طلبه إلى أن توفي سنة ثلاث وخمسين وأما بنوه من بعده فلا أدري من ملك منهم ولا ترتيب ولايتهم إلا أنه وقع في أخبار الترك أن السطان أوعز سنة ست وستين إلى نائب حلب أن يسير في العساكر لإنجاد محمد بك بن أرتنا فمضوا وظفروا وما زال أرتنا وبنوه مستبدين ببلاد الروم وأعمالها واقتطع لهم التركمان منها بلاد الأرمن سيس وما إليها فاستولى عليها بنو دلقادر على خلافه وزحفوا إليه وهي في أيديهم لهذا العهد ولما خالف سعاروس من أمراء الترك سنة اثنتين وخمسين ظاهره قراجا بن دلقادر على خلافه وزحف إليه السلطان من مصر فافترقت جموعه واتبعته العساكر فقتل.

وبعث السلطان سنة أربع وخمسين عسكراً في طلب قراجا فساروا إلى البلستين وأجفل عنها نائبها فنهبوا أحياءه ولحق هو بابن أرتنا بسيواس فقبض عليه وبعث به إلى السلطان بمصر فقتله واقتطع التركمان ناحية الشمال من أعمالهم إلى القسطنطينية وأثخنوا في أمم النصرانية وراءهم واستولوا على كثير من تلك الممالك وراء القسطنطينية وأميرهم لهذا العهد في عداد الملوك الأعاظم ودولتهم ناشئة متجددة.

وكان صبياً بسيواس منذ أعوام الثمانين وهو من أعقاب بني إرتنا فاستبد عليه قاضي البلد لما كان كافلاً له بوصية أبيه ثم قتل القاضي ذلك الصبي أعوام اثنتين وتسعين واستبد بذلك الملك وكانت هناك أحياء التتر يناهزون ثلاثين ألفاً أو نحوها مقيمين بتلك النواحي ملكهم دمرداش بن جوبان ومن قبله من أمراء المغل فكانوا شيعة لبني أرتنا وعصابة لهم وهم الذين استنجد بهم

القاضي حين وجهت إليه عساكر مصر في طلب منطاش الثائر الذي فر ثم لحق بـه وسارت عساكر مصر في طلبه سنة تسع وثمانين فاستنجد القاضي بأحياء التتر هـؤلاء وجاؤوا لإنجاده ورجعت عساكر مصر عنهم كما تقدم ذلك كلـه في أخبار الترك والحال على ذلك لهذا العهد والله مصير الأمور بحكمته وهو على كل شيء قدير.

ج ب ا

إبراهيم بن محمد بك بن أرتنا النوير عامل أبي سعيد على بلاد الروم.

الخبر عن الدولة المستجدة للتركمان في شمال بلاد الروم إلى خليج القسطنطينية وما وراءه لبني عثمان وإخوته

قد تقدم لنا في أنساب العالم ذكر هؤلاء التركمان وأنهم من ولد يافث بن نوح أي من توغرما بن كومر بن يافث كذا وقع في التوراة.

وذكر الفيومي من علماء بني إسرائيل ونسابتهم أن توغرما هم التركمان أخوة الترك ومواطنهم فيما وجدناه من بحر طبرستان ويسمى بحر الخزر إلى جوفي القسطنطينية وشرقها إلى ديار بكر وبعد انقراض العرب والأرمن ملكوا نواحي الفرات من أولـه إلى مصبه في دجلة وهم شعوب متفرقون وأحياء مختلفون لا يحصرهم الضبط ولا يحويهم العد وكان منهم ببلاد الروم جموع مستكثرة كان ملوكها يستكثرون بهم في حروبهم مع أعدائهم وكان كبيرهم فيها لعهد المائة الرابعة جق وكانت أحياؤهم متوافرة وأعدادهم متكاثرة.

ولما ملك سليمان بن قطلمش قونية بعد أبيه وفتح أنطاكية سنة سبع وسبعين من يد الروم طالبه مسلم بن قريش بما كان له على الروم فيها من الجزية فأنف من ذلك وحدثت بينهما الفتنة وجمع قريش العرب والتركمان مع أميرهم جق وسار إلى حرب سليمان بأنطاكية فلما التقيا مال التركمان إلى سليمان لعصبية الترك وانهزم مسلم بن قريش وقتل.

وأقام أولئك التركمان ببلاد لروم أيام بني قطلمش موطنين بالجبال والسواحل، ولما ملك التتر ببلاد الروم وأبقوا على بني قطمش ملكهم وولوا ركن الدولة قليج أرسلان بعد أن غلب أخوه عز الدين كيكاوس وهرب إلى القسطنطينية، وكان أمراء هؤلاء التركمان يومئذ محمد بك وأخاه الياس بك وصهره علي بك وقريبه سونج، والظاهر أنهم من بني جق فانتقضوا على ركن الدولة وبعثوا إلى هلاكو بطاعتهم وتقرير الأثر عليهم وأن يبعث إليهم باللواء على العادة وأن يبعث شحنة من التتر يختص بهم فاسعفهم بذلك وقلدهم وهم من يومئذ ملوك بها.

ثم أرسل هلاكو إلى محمد بك الأمير يستدعيه فامتنع من المسير إليه واعتذر فأوعز هلاكو إلى الشحنة الذي ببلاد الروم إلى السلطان قليج أرسلان بمحاربته، فساروا إليه وحاربوه ونزع عنه صهره علي بك ووفد على هلاكو فقدمه مكان محمد صهره ولقي محمد العساكر فانهزم وأبعد في المفر، ثم جاء إلى قليج أرسلان مستامناً فأمنه وسار معه إلى قونية فقتله واستقر صهره علي بك أميراً على التركمان، وفتحت عساكر التتر نواحي بلاد الروم إلى اسطنبول، والظاهر أن بني عثمان ملوكهم لهذا العهد من أعقاب علي بك أو أقاربه يشهد بذلك اتصال هذه الإمارة فيهم مدّة هذه المائة سنة.

ولما اضمحل أمر التتر من بلاد الروم واستقرّ بنو أرتنا بسيواس وأعمالها غلب هؤلاء التركمان على ما وراء الدروب إلى خليج القسطنطينية ونزل ملكهم مدينة برصة من تلك الناحية، وكان يسمى أورخان بن عثمان جق فاتخذها داراً لملكهم ولم يفارق الخيام إلى القصور، وإنما ينزل بخيامه في بسيطها وضواحيها.

وولي بعده ابنه مراد بك وتوغل في بلاد النصرانية وراء الخليج وافتتح بلادهم إلى قريب من خليج البنادقة وجبال جنوة وصار أكثرهم ذمة ورعايا، وعاث في بلاد الصقالبة بما لم يعهد لمن قبله وأحاط بالقسطنطينية من جميع نواحيها حتى اعتقل ملكها من أعقاب لشكري وطلب منه الذمة وأعطاه الجزية، ولم يزل على جهاد أمم النصرانية وراءه إلى أن قتله الصقالبة في حروبه معهم سنة إحدى وتسعين وسبعمائة.

وولي بعده ابنه أبو يزيد وهو ملكهم لهذا العهد. وقد استفحل ملكهم واستنجدت بالغز دولتهم وكان قد غلب على قطعة من بلاد الروم ما بين سيواس وبلادهم من انطاكية والعلايا بجبال البحر إلى قونية بنو قرمان من أمراء التركمان وهم الذين كانوا في حدود أرمينية وجدهم هو الذي هزم هيشوش بن ليعون ملك سيس من الأرمن سنة عشرين وسبعمائة، ثم كان بين بني عثمان جق وبين بني قرمان اتصال ومصاهرة، وكان ابن قرمان لهذا العهد صهر السلطان مراد بك على أخته فغلبه السلطان مراد بك على ما بيده ودخل ابن قرمون صاحب العلايا في طاعته بل والتركمان كلهم وفتح سائر البلاد ولم يبق له إلا سيواس بلد بني

ارتنا في استبداد القاضي الذي عليها وما أدري ما اللّه صانع بعد ظهور هذا الملك تمر المتغلب على ملك المغل من بني جفطاي بن جنكزخان.

وملك ابن عثمان لهذا العهد مستفحل بتلك الناحية الشمالية ومتسع في أقطارها ومرهوب عند أمم النصرانية هنالك ودولته مستجدة عزيزة على تلك الأمم والأحياء، واللّه غالب على أمره.

وإلى هنا انتهت أخبار الطبقة الثالثة من العرب ودولهم وهم الأمم التابعة للعرب بما تضمنه من الدول الإسلامية شرقاً وغرباً لهم ولمن تبعهم من العجم، فلنرجع الآن إلى ذكر الطبقة الرابعة من العرب وهم المستعجمة أهل الجيل الناشيء بعد انقراض اللسان المضري ودروسه ونذكر أخبارهم ثم نخرج إلى الكتاب الثالث في أخبار البربر ودولهم، فنفرغ بفراغها من الكتاب إن شاء اللّه تعالى واللّه ولي العون والتوفيق بمنه وكرمه.

الطبقة الرابعة
من العرب المستعجمة أهل الجيل الناشىء لهذا العهد من بقية أهل الدولة الإسلامية من العرب

لما استقلت مضر وفرسانها وأنصارها من اليمن بالدولة الإسلامية، فيمن تبع دينهم من إخوانهم ربيعة ومن وافقهم من الأحياء اليمنية، وغلبوا الملل والأمم على أمورهم، وانتزعوا الأمصار من أيديهم، وانقلبت أحوالهم من خشونة البداوة وسذاجة الخلافة إلى عز الملك وترف الحضارة، ففارقوا الحلل وافترقوا على الثغور البعيدة والأقطار النائية عن ممالك الإسلام، فنزلوا بها حامية ومرابطين عصباً وفرادى، وتناقل الملك من عنصر إلى عنصر ومن بيت إلى بيت، واستفحل ملكهم في دولة بني أمية وبني العباس من بعدهم بالعراق، ثم دولة بني أمية الأخرى بالأندلس، وبلغوا من الترف والبذخ ما لم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم، فانقسموا في الدنيا ونبتت أجيالهم في ماء النعيم، واستأثروا مهاد الدعة واستطابوا خفض العيش، وطال نومهم في ظل الغرف والسلم، حتى ألفوا الحضارة ونسوا عهد البادية وانفلتت من أيديهم الملكة التي نالوا بها الملك، وغلبوا الأمم من خشونة الدين وبداوة الأخلاق، ومضاء المضرب.

فاستوت الحامية والرعية لولا الثقافة، وتشابه الجند والحضر إلا في الشارة. وأنف السلطان من المساهمة في المجد والمشاركة في النسب، فجدعوا أنوف المتطاولين إليه من أعياصهم وعشائرهم ووجوه قبائلهم، وغضوا من عنان طموحهم، واتخذوا البطانة مقرهم من موالي الأعجام وصنائع الدولة، حتى كثروا بهم قبيلتهم من العرب الذين أقاموا الدولة، ونصروا الملة ودعموا الخلافة، وأذاقوهم وبال الخلابة من القهر، وساموهم خطة الخسف والذل، فأنسوهم ذكر المجد وحلاوة العز، وسلبوهم نصرة العصبية حتى صاروا أجزاءً على الحامية، وخولاً لمن استعبدهم من الخاصة وأوزاعاً متفرقين بين الأمة، وصيروا لغيرهم الحل والعقد والإبرام، والنقض من الموالي والصنائع، فداخلتهم أريحية العز وحدثوا أنفسهم بالملك، فجحدوا الخلفاء وقعدوا بدست الأمر والنهي. واندرج العرب أهل الحماية في القهر واختلطوا بالهمج، ولم يراجعوا أحوال البداوة لبعدها، ولا تذكروا عهد الأنساب لدروسها. فدثروا وتلاشوا شأن من قبلهم وبعدهم، سنة اللّه قد خلت من قبل ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً.

وكان المولدون لتمهيد قواعد الأمر، وبناء أساسه من أول الإسلام والدين والخلافة من بعده، والملك، قبائل من العرب موفورة العدد عزيزة الأحياء. فنصروا الإيمان والملة، ووطدوا أكناف الخلافة، وفتحوا الأمصار والأقاليم، وغلبوا عليها الأمم والدول. أما من مضر: فقريش وكنانة وخزاعة وبنو أسد وهذيل وتميم وغطفان وسليم وهوازن، وبطونها من ثقيف وسعد بن بكر وعامر بن صعصعة ومن إليهم من الشعوب والبطون والأفخاذ والعشائر والخلفاء والموالي. وأما من ربيعة: فبنو تغلب بن وائل وبنو بكر بن وائل وكافة شعوبهم من بني شكر وبني حنيفة وبني عجل وبني ذهل وبني شيبان وتيم اللّه. ثم بنو النمر من قاسط، ثم عبد القيس ومن إليهم. وأما من اليمنية ثم من كهلان بن سبأ منهم: فأنصار اللّه الخزرج والأوس ابنا قيلة من شعوب غسان وسائر قبائل الأزد، ثم همذان وخثعم وبجيلة، ثم مذحج وكافة بطونها من عبس ومراد وزبيد والنخع والأشعريين وبني الحرث بن كعب، ثم لخم وبطونها ولخم وبطونها، ثم كندة وملوكها.

وأما من حمير بن سبأ فقضاعة وجميع بطونها ومن إلى هذه القبائل والأفخاذ والعشائر والأحلاف. هؤلاء كلهم أنفقتهم الدولة الإسلامية العربية، فنبا منهم الثغور القصية، وأكلتهم الأقطار المتباعدة، واستلحمتهم الوقائع المذكورة، فلم يبق منهم حي يطرف، ولا حلة تنجع ولا عشير يعرف، ولا قليل يذكر ولا عاقلة تحمل جناية، ولا عصابة لصريخ إلا سمع من ذكر أسمائهم في أنساب أعقاب متفرقين في الأمصار ألوى الخمول بجملتهم، فتقطعوا في البلاد ودخلوا بين الناس فامتهنوا واستهينوا وأصبحوا خولاً للأمراء، وبُهماً للذائد وعالةً على الحرف. وقام بالإسلام والملة غيرهم، وصار الملك والأمر في أيدي سواهم، وجلبت بضائع العلوم والصنائع إلى غير سوقهم، فغلب أعاجم المشرق من الديلم والسلجوقية والأكراد والغز والترك على ملكه ودولته فلم يزل مناقلة فيهم إلى هذا العهد. وغلب أعاجم المغرب من زناتة والبربر على أمره أيضاً، فلم تزل الدول تتناقل فيهم على ما نذكره بعد إلى هذا العهد. وغلب أعاجم المغرب والبربر على أمره، وانقرض أكثر الشعوب الذين كان لهم الملك من هؤلاء فلم يبق لهم ذكر. وانتبذ بقية هذه الشعوب من هذه الطبقة بالقفار وأقاموا أحياء بادين لم يفارقوا الحلل ولا تركوا البداوة والخشونة، فلم يتورطوا في مهلكة الترف ولا غرقوا في بحر النعيم، ولا فقدوا في غيابات الأمصار والحضارة ولهذا أنشد شاعرهم:

فمن ترك الحضارة أعجبته ... بأي رجال بادية ترانا

وقال المتنبي يمدح سيف الدولة ويعرض بذكر العرب الذين أوقع بهم لما كثر عيثهم وفسادهم:

وكانوا يروعون الملوك بأن بدوا وأن نبتت في الماء نبت الغلافق

فهاجوك أهدى في الفلا من نجومه وأبدى بيوتاً من أداحي النقانق

وأقامت هذه الأحياء في صحارى الجنوب من الغرب والمشرق بأفريقية ومصر والشام والحجاز والعراق وكرمان، كما كان سلفهم من ربيعة ومضر وكهلان في الجاهلية، وعتوا وكثروا وانقرض الملك العربي الإسلامي. وطرق الدول الهرم الذي هو شأنها واعتز بعض أهل هذا الجيل غرباً وشرقاً فاستعملتهم الدول وولوهم الإمارة على أحيائهم وأقطعوهم في الضاحية والأمصار والتلول وأصبحوا جيلاً في العالم ناشئاً، كثروا سائر أهله من العجم. ولهم في تلك الإمارة دول، فاستحقوا أن تذكر أخبارهم، وتلحق بالأجيال من العرب سلفهم. ثم إن اللسان المضري الذي وقع به الإعجاز ونزل به القرآن فثوى فيهم وتبدل إعرابه فمالوا إلى العجمة. وإن كانت الأوضاع في أصلها صحيحة، واستحقوا أن يوصفوا بالعجمة من أجل الأعراب، فلذلك قلنا فيهم العرب المستعجمة.

فلنذكر الآن بقية هؤلاء الشعوب من هذه الطبقة من المغرب والمشرق ونخص منهم أهل الأحياء الناجعة والأقدار النابهة، ونلغي المندرجين في غيرهم. ثم نرجع إلى ذكر المنتقلين من هذه الطبقة إلى أفريقية والمغرب فنستوعب أخبارهم لأن العرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن، وإنما انتقل إليه في أواسط المائة الخامسة أفاريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هنالك، فكانت أخبارهم من أخبارها، فلذلك استوعبناها. وأما آخر مواطن العرب فكانت برقة، وكان فيها بنو قرة بن هلال بن عامر. وكان لهم في دول العبيديين أخبار، وحكايتهم في الثورة أيام الحاكم والبيعة لأبي ركوة من بني أمية في الأندلس معروفة، وقد أشرنا إليها في دولة العبيديين.

ولما أجاز بنو هلال وسليم إلى المغرب خالطوهم في تلك المواطن، ثم ارتحلوا معهم إلى المغرب كما نذكره في دخول العرب إلى أفريقية والمغرب. وبقي في مواطنهم ببرقة لهذا العهد أحياء بني جعفر، وكان شيخهم أوسط هذه المائة الثامنة أبو ذئب وأخوه حامد بن حميد. وهم ينسبون في المغرب تارة في العزة ويزعمون أنهم من بني كعب بن سليم، وتارة في الهيب كذلك، وتارة في فزارة، والصحيح في نسبهم أنهم من مسراتة إحدى بطون هوارة سمعته من كثير من نسابتهم، وبعدهم فيما بين برقة والعقبة الكبيرة أولاد سلام، وما بين العقبة الكبيرة والإسكندرية أولاد مقدم وهم بطنان: أولاد التركية وأولاد قائد. ومقدم وسلام معاً ينسبون إلى لبيد، فبعضهم يقول لبيد بن لعتة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر وبعضهم يقول في مقدم: مقدم بن عزاز بن كعب بن سليم.

وذكر لي سلام شيخ أولاد التركية: أن أولاد مقدم من ربيعة بن نزار، ومع هؤلاء الأحياء حي محارب ينتمون بآل جعفر. ويقال: إنهم من جعفر بن كلاب، وحيّ رواحة ينتمون بآل زبيد، ويقال: من جعفر أيضاً. والناجعة من هؤلاء الأحياء كلهم ينتمون في شأنهم إلى الواحات من بلاد القبلة. وقال ابن سعيد: ومن غطفان في برقة مهيب ورواحة وفزارة، فجعل هؤلاء من غطفان والله أعلم بصحة ذلك.

وفيما بين الإسكندرية ومصر قبائل رحالة ينتقلون في نواحي البحيرة هنالك، ويعمرون أرضها بالسكنى والفلح، ويخرجون في المشاتي إلى نواحي العقبة وبرقة من مزانت وهوارة وزنارة إحدى بطون لواتة، وعليهم مغارم الفلح. ويندرج فيهم أخلاط من العرب والبربر لا يحصون كثرة. وبنواحي الصعير قبائل من العرب من بني هلال وبني كلاب من ربيعة. وهؤلاء أحياء كثيرة ويركبون الخيل، ويحملون السلاح، ويعمرون الأرض بالفلاحة ويقومون بالخراج للسلطان. وبينهم مع ذلك من الحروب والفتن ما ليس يكون بين أحياء القفر.

وبالصعيد الأعلى من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعددة وأحياء متفرقة، كلهم من جهينة إحدى بطون قضاعة، ملأوا تلك القفار وغلبوا النوبة على مواطنهم وملكهم، وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها. والذين يلون أسوان هم يعرفون بأولاد الكنز، كان جدهم كنزل الدولة، وله مقامات مع الدول مذكورة، ونزل معهم في تلك المواطن من أسوان إلى قوص بنو جعفر بن أبي طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحي المدينة، وأخرجوهم منها، فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة، ويحترفون في غالب أحوالهم بالتجارة.

وبنواحي مصر من جهة القبلة إلى عقبة أيلة أحياء جذام جمهورهم من العائد وعليهم درك السابلة بتلك الناحية، ولهم على ذلك الأقطاع والعوائد من السلطان. ويليهم من جهة الشرق بالكرك ونواحيها أحياء بني عقبة من جذام أيضاً، ورحالة ناجعة تنتهي رحلتهم إلى المدينة النبوية. وعليهم درك السابلة فيما يليهم. وفيما وراء عقبة أيلة إلى القلزم قبائل من قضاعة ومن القلزم إلى الينبع، قبائل من جهينة. ومن الينبع إلى بدر ونواحيه من زبيد

إحدى بطون مذحج، ولهم الأمراء بمكة من بني حسن حلف ومواخاة. وفيما بين مكة والمهجم مما يلي اليمن قبائل بني شعبة من كنانة، وفيما بين الكرك وغزة شرقاً قبائل جذام من قضاعة في جموع وافرة، ولهم أمراء أعزة يقطعهم السلطان على العسكر وحفظ السابلة، وينجعون في المشاتي إلى معان وما يليها من أسافل نجد، مما يلي تيماء، وبعدهم في أرض الشام بنو حارثة بن سنبس وآل مراء من ربيعة إخوة فضل الملوك على العرب في برية الشام والعراق ونجد. وأخبرني بعض أمراء حارثة بن سنبس عن بطون. فلنذكر الآن خبر أولاد فضل أمراء الشام والعراق من طيء فنبين أعراب الشام جميعاً.

خبر آل فضل وبني مهنا منهم ودولتهم بالشام والعراق

هذا الحي من العرب يعرفون بآل فضل، وهم رحالة ما بين الشام والجزيرة وبرية نجد من أرض الحجاز، ينتقلون هكذا بينها في الرحلتين وينتهون في طيء ومعهم أحياء من زبيد وكلب وهزيم ومذحج أحلاف لهم باين بعضهم في الغلب والعدد آل مراء. ويزعمون أن فضلاً ومراء آل ربيعة، ويزعمون أيضاً أن فضلاً ينقسم ولده بين آل مهنا وآل علي، وأن آل فضل كلهم كانوا بأرض حوران فغلبهم عليها آل مراء وأخرجوهم منها، فنزلوا حمص ونواحيها، وأقامت زبيد من أحلافهم بحوران فهم بها حتى الآن لا يفارقونها. قالوا: ثم اتصل آل فضل بالدولة من السلطنة وولوهم على أحياء العرب وأقطعوهم على إصلاح السابلة بين الشام والعراق، فاستظهروا برئاستهم على آل مراء، وغلبوهم على المشاتي فصار عامة رحلتهم في حدود الشام قريباً من التلول والقرى، لا ينجعون إلى البرية إلا في الأقل.

وكانت معهم أحياء من أفاريق الأعراب يندرجون في لفيفهم وحلفهم من مذحج وعامر وزبيد كما كان لآل فضل. إلا أن أكثر من كان من آل مراء أولئك الأحياء وأوفرهم عدداً بنو حارثة من إحدى سنى بطون طيء، هكذا ذكر الثقة عنهم من رجالاتهم. وحارثة هؤلاء متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها إلى القفار. ومواطن طيء بنجد قد اتسعت، وكانوا أول خروجهم من اليمن نزلوا جبلي أجأ وسلمى، وغلبوا عليهما بني أسد وجاوروهم. وكان لهم من مواطن سميراء وفيد من منازل الحاج. ثم انقرض بنو أسد وورثت طيء بلادهم فيما وراء الكرخ من أرض غفرو وكذلك ورثوا منازل تميم بأرض نجد فيما بين البصرة والكوفة واليمامة. وكذلك ورثوا غطفان ببطن مما يلي وادي القرى.

هكذا قال ابن سعيد. وقال: أشهر الحجازيين منهم الآن بنو لام وبنو نبهان والصولة بالحجاز لبني لام بين المدينة والعراق، ولهم حلف مع بني الحسين أمراء المدينة.

قال: وبنو صخر منهم في جهة تيماء بين الشام وخيبر. قال: وغربة من طيء بنو غربة بن أفلت بن معبد بن معن بن عمرو بن عنبس بن سلامان، ومن بعد بلادهم حي الأنمر والأساور ورثوها من عنزة. ومنازلهم لهذا العهد في مصايفهم بالكبيات وفي مشاتيهم مع بني لام من طيء. وهم أهل غارة وصولة بين الشام والعراق. ومن بطونهم الأجود والبطنين وإخوانهم زبيد نازلون بالموصل، فقد جعل ابن سعيد: زبيد هؤلاء من بطون طيء، ولم يجعلهم من مذحج. ورئاسة آل فضل في هذا العهد في بني مهنا، وينسبونه هكذا: كنّا بن مايع بن مدسة بن عصية بن فضل بن بدر بن علي بن مفرج بن بدر بن سالم بن قصية بن بدر بن سميع. ويقفون عند سميع، ويقول زعماؤهم: إن سميعاً هذا هو الذي ولدته العباسة أخت الرشيد من جعفر بن يحيى البرمكي. وحاشا لله من هذه المقالة في الرشيد وأخته، وفي بنات كبراء العرب من طيء إلى موالي العجم من بني برمك وأمثالهم.

ثم إن الوجود يحيل رياسة مثل هؤلاء على هذا الحي إذا لم يكونوا من نسبهم. وقد تقدم مثل ذلك في مقدمات الكتاب.

وكان مبدأ رئاستهم من أول دولة بني يعقوب. قال العماد الأصفهاني: نزل العادل بمرج دمشق ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة شيخ الأعراب في جموع كثيرة. وكانت الرئاسة فيهم لعهد الفاطميين لبني جراح من طيء. وكان كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح. وكان من أقطاعه التي معه وهو الذي قبض على أسكى مولى بني بويه لما انهزم مع مولاه بختيار بالعراق. وجاء إلى الشام سنة أربع وستين وثلثمائة وملك دمشق وزحف مع القرامطة لقتال العزيز بن المعز لدين الله صاحب مصر، فهزمهم العزيز وهرب أفتكين فلقيه مفرج بن دغفل، وجاء به إلى العزيز فأكرمه ورقاه في دولته. ولم يزل شأن مفرج هكذا وتوفي سنة أربع وأربعمائة. وكان من ولده حسان ومحمود وعلي وجرار. وولي حسان بعده وعظم صيته، وكان بينه وبين خلفاء الفاطميين معزة واستقامة، وهو الذي هزم الرملة وهزم قائدهم باروق التركي وقتله وسبى نساءه، وهو الذي مدحه التهامي. ويذكر المسمى وغيره أن موطىء دولة العبيديين في قرابة حسان بن مفرج هذا فضل بن ربيعة بن حازم وأخوه بدر بن ربيعة وابنا بدر. ولعل فضلاً هذا هو جد آل فضل.

قال ابن الأثير إن فضل بن ربيعة بن حازم كان آباؤه أصحاب البلقاء والبيت المقدس. وكان الفضل تارة مع الفرنج وتارة مع خلفاء مصر. ونكره لذلك طغركين أتابك دمشق وكافل بني تتش فطرده من الشام فنزل على صدقة بن مزيد بالحلة وحالفه. ووصله صدقة بتسعة آلاف دينار. فلما خالف صدقة بن مزيد على السلطان محمد بن ملكشاه سنة خمسمائة وما بعدها، ووقعت بينهما الفتنة اجتمع له فضل هذا وقرواش بن شرف الدولة ومسلم بن قريش صاحب الموصل وبعض أمراء التركمان، وكانوا كلهم أولياء صدقة، فصار في الطلائع بين يدي الحرب، وهربوا إلى السلطان فأكرمهم وخلع عليهم، وأنزل فضل بن ربيعة بدار صدقة بن مزيد ببغداد حتى إذا سار السلطان لقتال صدقة، واستأذنه فضل في الخروج إلى البرية ليأخذ بحجرة صدقة فأذن له وعبر إلى الأنبار، فلم يراجع السلطان بعدها اه كلام ابن الأثير. ويظهر من كلامه وكلام المسبحي أن فضلاً هذا وبدراً من آل جرّاح بلا شك. ويظهر من سياقة هؤلاء نسبهم أن فضلاً هذا هو جدهم لأنهم ينسبونه: فضل بن ربيعة بن الجراح. فلعل هؤلاء نسبوا ربيعة إلى مفرج الذي هو كبير بني الجراح لبعد العهد وقلة المحافظة على مثل هذا من البادية القفر.

وأما نسبة هذا الحي من آل فضل بن ربيعة بن فلاح من مفرج في طيء، فبعضهم يقول: إن الرئاسة في طيء كانت لأياس بن قبيصة من بني سبأ بن عمرو بن الغوث من طيء، وأياس هو الذي ملكه كسرى على الحيرة بعد آل المنذر لما قتل النعمان بن المنذر، وهو الذي صالح خالد بن الوليد عن الحيرة على الجزية. ولم تزل الرئاسة على طيء إلى بني قبيصة هؤلاء صدراً من دولة الإسلام. فلعل بني الجراح وآل فضل هؤلاء من أعقابهم، وإن كان انقرض أعقابهم فهم من أقرب الحي إليهم، لأن الرئاسة على الأحياء والشعوب إنما تتصل في أهل العصبية والنسب كما مر أول الكتاب.

وقال ابن حزم عندما ذكر أنساب طيء وأنهم لما خرجوا من اليمن مع بني أسد نزلوا جبلي أجأ وسلمى، وأوطنوهما وما بينهما، ونزل بنو أسد ما بينهم وبين العراق. وفضل كثير منهم وهم: بنو حارثة نسبة إلى أمهم، وتيم الله، وحبيش، والأسعد إخوتهم رحلوا عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بحلب، وحاضر طيء وأوطنوا تلك البلاد إلا بني رومان بن جندب بن خارجة بن سعد، فإنهم أقاموا بالجبلين فكانوا جبلين ولأهل حلب وحاضر طيء من بني خارجة السهيليون اه.

فلعل هذه الأحياء الذين بالشام من بني الجراح وآل فضل من بني خارجة هؤلاء الذين ذكر ابن حزم أنهم انتقلوا إلى حلب وحاضر طيء، لأن هذا الموطن أقرب إلى مواطنهم لهذا العهد من مواطن بني الجراح بفلسطين من جبلي أجأ وسلمى الذي هو موضع الآخرين، فالله أعلم أي ذلك يصح من أنسابهم. وتحت خفارتهم بنواحي الفرات ابن كلاب بن ربيعة بن عامر دخلوا مع قبائل عامر بن صعصعة من نجد إلى الجزيرة.

ولما افترق بنو عامر على الممالك الإسلامية اختص هؤلاء بنواحي حلب وملكها منهم بنو صالح بن مرداس من بني عمرو بن كلاب. ثم تلاشى ملكهم ورجعوا عنها إلى الأحياء وأقاموا بالفرات تحت خفارة هؤلاء الأمراء من طيء.

وأما ترتيب رئاستهم على العرب بالشام والعراق منذ دولة بني أيوب العادل وإلى هذا العهد، وهو آخر ست وتسعين وسبعمائة، فقد ذكرنا ذلك في دولة الترك ملوك مصر والشام، وذكرناهم واحداً بعد واحد على ترتيبهم. وسنذكرهم هاهنا على ذلك الترتيب فنقول: كان الأمير لعهد بني أيوب عيسى بن محمد بن ربيعة أيام العادل كما كان بعده حسام الدين مانع بن حارثة بمصر والشام.

وفي سنة ثلاثين وستمائة ولي عليهم بعده ابنه مهنّا. ولما ارتجع قطز بن فضل أحد ملوك الترك بمصر والشام من أيدي التتر، وهزمهم بعين جالوت، أقطع سلمية لمهنا بن مانع وانتزعها من عمل المنصور بن مظفر بن شاهنشاه صاحب حماة، ولم أقف على تاريخ وفاة مهنا. ثم ولي الظاهر على أحياء العرب بالشام عند ما استفحل ملك الترك. وسار إلى دمشق لتشييع الخليفة الحاكم عم المستعصم إلى بغداد عيسى بن مهنا بن نافع، وجر له الإقطاعات على حفظ السابلة، وحبس ابن عمه زامل بن علي بن ربيعة من آل فضل على سعايته وإغرامه. ولم يزل يغير على أحياء العرب، وصلحوا في أيامه لأنه خالف أباه في الشدة عليهم، وهرب إليه سنقر الأشقر سنة تسع وسبعين وستمائة وكاتبوا أبغا واستحثوه لملك الشام. وتوفي عيسى بن مهنا سنة أربع وثمانين فولّى المنصور قلاون من بعده ابنه مهنا.

ثم سار الأشرف بن قلاون إلى الشام ونزل حمص، ووفد عليه مهنا بن عيسى في جماعة من قومه، فقبض عليه وعلى ابنه موسى وإخوته محمد وفضل ابني مهنا. وبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها حتى أفرج عنهم العادل كتبغا عندما جلس على التخت سنة أربع وتسعين، ورجع إلى إمارته. وكان له في أيام الناصر نصرة واستقامة وميلة إلى ملوك التتر بالعراق، ولم يحضر شيئاً من وقائع غازان. ولما انتقض قراسقر وأقوش الأفرم

وأصحابهما سنة عشر وسبعمائة لحقوا به، وساروا من عنده إلى خربندا، واستوحش هو من السلطان وأقام في أحيائه منقبضاً عن الوفادة.

ووفد أخوه فضل سنة اثنتي عشرة وسبعمائة فرعى له حق وفادته، وولاه على العرب مكان أخيه مهنا وبقي مهنا مشرداً.

ثم لحق سنة ست عشرة وسبعمائة بخربندا ملك التتر فأكرمه وأقطعه بالعراق. وهلك خربندا في تلك السنة فرجع مهنا إلى أحيائه، ووفد ابنه أحمد وموسى وأخوه محمد بن عيسى مستعتبين على الناصر ومتطارحين عليه، فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر الأبلق، وشملهم بالإحسان وأعتب مهنا وردّه إلى إمارته وأقطاعه، وذلك سنة سبع عشرة و حج هذه السنة ابنه عيسى وأخوه محمد وجماعة من آل فضل في اثني عشر ألف راحلة. ثم رجع مهنا إلى دينه في ممالأة التتر والأجلاب على الشام. واتصل ذلك منه فنقم السلطان عليه، وسخط عليه قومه أجمع. وتقدم إلى نواب الشام سنة عشرين بعد مرجعه من الحج، فطرد آل فضل عن البلاد وأدال منهم مالكاً على عدالته بينهم وولى منهم على أحياء العرب محمد بن أبي بكر، وصرف أقطاع مهنا وولده إلى محمد وولده فأقام مهنا على ذلك مدة.

ثم وفد سنة إحدى وثلاثين مع الأفضل بن المؤيد صاحب حماة متوسلاً به ومتطارحاً على السلطان، فأقبل عليه ورد عليه أقطاعه وإمارته.

وذكر لي بعض أمراء الكبراء بمصر فيمن أدرك وفادته أو حدث بها: أنه تجافى في هذه الوفادة من قبول شيء من السلطان، حتى أنه ساق عنده النياق الحلوبة والعراب، وأنه لم يغش باب أحد من أرباب الدولة ولا سأل منهم شيئاً من حاجاته، ثم رجع إلى أحيائه وتوفي سنة أربع وثلاثين فولي ابنه مظفر الدين موسى، وتوفي سنة اثنتين وأربعين عقب مهلك الناصر، وولي مكانه أخوه سليمان.

ثم هلك سليمان سنة ثلاث وأربعين فولي مكانه شرف الدين عيسى ابن عمه فضل بن عيسى. ثم توفي سنة أربع وأربعين بالقريتين ودفن عند قبر خالد بن الوليد. وولي مكانه أخوه سيف بن فضل، ثم عزله السلطان بمصر، الكامل ابن الناصر سنة ست وأربعين، وولي مكانه أحمد بن مهنا بن عيسى. ثم جمع سيف بن فضل ولقيه فياض بن مهنا بن عيسى وانهزم سيف. ثم ولي السلطان حسن الناصر في دولته الأولى وهو في كفالة بيبغاروس أحمد بن مهنا فسكنت الفتنة بينهم.

ثم توفي سنة سبع وأربعين فولي مكانه أخوه فياض، وهلك سنة تسع وأربعين وولي مكانه أخوه خيار بن مهنا، ولاه حسن الناصر في دولته الثانية. ثم انتقض سنة خمس وستين وأقام سنتين بالقصر عاصياً إلى أن شفع فيه نائب حماة، فأعيد إلى إمارته. ثم انتقض سنة سبعين فولى السلطان الأشرف مكانه ابن عمه زامل بن موسى بن عيسى، وجاء إلى نواحي حلب واجتمع إليه بنو كلاب وغيرهم، وعاثوا في البلاد وعلى حلب يومئذ قشتمر المنصوري، فبرز إليهم وانتهى إلى خيمهم واستاق نعمهم وتخطى إلى الخيام فاستجاشوا بها وهزموا عساكره وقتل قشتمر ابنه في المعركة، تولى هو قتله بيده، وذهب إلى القفر منتقضاً فولى الأشرف مكانه ابن عمه معيقل بن فضل بن عيسى.

ثم بعث ابن معيقل صاحبه سنة إحدى وسبعين يستأمن لخيار فأمنه. ثم وفد خيار بن مهنا سنة خمس وسبعين فرضي عنه السلطان وأعاده إلى إمارته. ثم توفي سنة سبع وسبعين فولي أخوه مالك إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين فولى مكانه معيقل بن موسى بن عيسى، وابن مهنا شريكين في إمارتهما. ثم عزلا لسنة وولي نعير بن جابر بن مهنا واسمه محمد، وهو لهذا العهد أمير على آل فضل وجميع أحياء طيء بالشام. والسلطان الظاهر لعهده يزاحمه بمجر بن محمد بن قارى حتى سخطه. ثم وصل انتقاضه على السلطان وخلافه، وظاهر السلطان على موالاة محمد بن قاري فسخطه، وولى مكانهما ابن عمهما محمد بن كوكتين ابن عمه موسى بن عساف بن مهنا فقام بأمر العرب وبقي نعير منتبذاً بالقفر وعجز عن الميرة لقلة ما بيده واختلت أحواله، وهو على ذلك لهذا العهد، والله ولي الأمور لا رب سواه.

ولنرجع إلى ما بقي من شعوب هذه الطبقة فنقول: كان بنو عامر بن صعصعة كلهم بنجد، وبنو كلاب في خناصرة والربذة من جهات المدينة وكعب بن ربيعة فيما بين تهامة والمدينة وأرض الشام. وبنو هلال بن عامر في بسائط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان وغير بن حامد معهم. وجشم محسوبون منهم بنجد، وانتقلوا كلهم في الإسلام إلى الجزيرة الفراتية فملك نمير حران ونواحيها. وأقام بنو هلال بالشام إلى أن ظعنوا إلى المغرب كما نذكر في أخبارهم. وبقي منهم بقية بجبل بني هلال المشهور بهم الذي فيه قلعة صرخد. وأكثرهم اليوم يتعاطون الفلح. وبنو كلاب بن ربيعة ملكوا أرض حلب ومدينتها كما ذكرناه. وبنو كعب بن ربيعة دخلت إلى الشام، منهم قبائل عقيل وقشير وجريش وجعدة، فانقرض الثلاثة في دولة الإسلام ولم يبق إلا بنو عقيل.

وذكر ابن حزم: أن عددهم يفي عدد جميع مضر. فملك

منهم الموصل بنو مالك بعد بني حمدان وتغلب. واستولوا عليها وعلى نواحيها وعلى حلب معها. ثم انقرض ملكهم ورجعوا للبادية، وورثوا مواطن العرب في كل جهة، فمنهم بنو المنتفق بن عامر بن عقيل، وكان بنو مالك بن عقيل في أرض تيماء من نجد، وهم الآن بجهات البصرة في الآجام التي بينها وبين الكوفة المعروفة بالبطائح، والإمارة منهم في بني معروف، وبالمغرب من بني المنتفق أحياء دخلوا مع هلال بن عامر يعرفون بالخلط، ومواطنهم بالمغرب الأقصى ما بين فاس ومراكش.

وقال الجرجاني: إن بني المنتفق كلهم يعرفون بالخلط، ويليهم في جنوب البصرة إخوتهم بنو عامر بن عوف بن مالك بن عوف بن عامر، وعوف أخو المنتفق قد غلبوا على البحرين وغمارة وملكوها من يدي أبي الحسين الأصغر بن تغلب. وكانت هذه المواطن للأزد وبني تميم وعبد القيس، فورث هؤلاء أرضهم فيها وديارهم.

قال ابن سعيد: وملكوا أيضاً أرض اليمامة من بني كلاب وكان ملوكهم فيها لعهد الخمسين والستمائة بني عصفور. وكان من بني عقيل خفاجة بن عمرو بن عقيل، كان انتقالهم إلى العراق فأقاموا به وملكوا ضواحيه، وكانت لهم مقامات وذكر، وهم أصحاب صولة وكثرة، وهم الآن ما بين دجلة والفرات. ومن عقيل هؤلاء بنو عبادة بن عقيل، ومنهم الأجافل لأن عبادة كان يعرف بالأجفل. وهم لهذا العهد بالعراق مع بني المنتفق. وفي البطايح التي بين البصرة والكوفة وواسط والإمارة فيهم على ما يبلغنا لرجل اسمه قيان بن صالح وهو في عدد ومنعة. وما أدري أهو في بني معروف أمراء البطائح بني المنتفق، أو من عبادة الأخائل. هذه أحوال بني عامر بن صعصعة واستيلاؤهم على مواطن العرب من كهلان وربيعة ومضر.

فأما بنو كهلان فلم يبق لهم أحياء فيما يسمع. وأما ربيعة فأجازوا بلاد فارس وكرمان فهم يتتجعون هنالك ما بين كرمان وخراسان. وبقيت بالعراق منهم طائفة ينزلون البطائح وانتسب إلى الكوفة منهم بنو صباح ومعهم لفائف من الأوس والخزرج. فأمير ربيعة اسمه الشيخ ولي، وعلى الأوس والخزرج طاهر بن خضر منهم.

هذه شعوب الطبقة الثالثة من العرب لهذا العهد في ديار المشرق بما أدى إليه الإمكان. ونحن الآن نذكر شعوبهم الذين انتقلوا إلى المغرب: فإن أمة العرب لم يكن لهم إلمام قط بالمغرب، لا في الجاهلية ولا في الإسلام، لأن أمة البربر الذين كانوا به كانوا يمانعون عليه الأمم. وقد غزاه أفريقش بن صيفي الذي سميت به أفريقية، من ملوك التبابعة وملكها. ثم رجع عنها وترك كتامة وصنهاجة من قبائل حمير، فاستحالت طبيعتهم إلى البربر واندرجوا في عدادهم، وذهب ملك العرب منهم. ثم جاءت الملة الإسلامية وظهر العرب على سائر الأمم بظهور الدين، فسارت عساكرهم في المغرب، وافتتحوا سائر أمصاره ومدنه وعانوا من حروب البربر شدة. وقد تقدم لنا ما ذكره ابن أبي زيد من أنهم ارتدوا اثنتي عشرة مرة. ثم رسخ فيهم الإسلام ولم يسكنوا بأجيالهم في الخيام ولا نزلوا أحياء لأن الملك الذي حصل لهم يمنعهم من سكنى الضاحية، ويعدل بهم إلى المدن والأمصار. فلهذا قلنا إن العرب لم يوطنوا بلاد المغرب. ثم أنهم دخلوا إليه في منتصف المائة الخامسة، وأوطنوه وافترقوا بأحيائهم في جهاته كما نذكر الآن ونستوعب أسبابه.

الخبر عن دخول العرب من بني هلال وسليم المغرب من الطبقة الرابعة وأخبارهم هنالك

كانت بطون هلال وسليم من مضر لم يزالوا بادين منذ الدولة العباسية وكانوا أحياء ناجعة بمجالاتهم من قفر الحجاز بنجد. فبنو سليم مما يلي المدينة، وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف وربما كانوا يطوفون في رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة، ويقطعون على الرفاق، وربما أغار بنو سليم على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة. وما زالت البعوث تجهز والكتائب تكتب من باب الخلافة ببغداد للإيقاع بهم وصون الحاج عن معرّات هجومهم. ثم تحيّز بنو سليم والكثير من ربيعة بن عامر إلى القرامطة عند ظهورهم، وصاروا جنداً لهم بالبحرين وعمان.

ولما تغلب شيعة ابن عبيد اللّه المهدي على مصر والشام، وكان القرامطة قد تغلبوا على أمصار الشام فانتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردهم على أعقابهم إلى قرارهم بالبحرين، ونقل أشياعهم من العرب من بني هلال وسليم فأنزلهم بالصعيد وفي العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هناك، وكان لهم أضرار بالبلاد. ولما انساق ملك صنهاجة بالقيروان إلى المعز بن باديس بن المنصور سنة ثمان وأربعمائة قلده الظاهر لدين اللّه علي بن الحاكم بأمر اللّه منصور بن العزيز باله نزار بن المعزّ لدين اللّه معدّ أمر إفريقية على عادة آبائه كما نذكره لك بعد. وكان لعهد

ولايته غلاماً يفعة ابن ثمان سنين، فلم يكن مجرباً للأمور ولا بصيراً بالسياسة، ولا كانت فيه عزة وأنفة. ثم هلك الظاهر سنة سبع وعشرين وأربعمائة وولي المستنصر بالله معز الطويل أمر الخلافة بما لم ينله أحد من خلفاء الإسلام. يقال: ولي خمساً وسبعين وقيل: خمساً وتسعين، والصحيح ثلاث وسبعون لأن مهلكه كان على رأس المائة الخامسة، وكانت أذن المعز بن باديس صاغية إلى مذاهب أهل السنة، وربما كانت شواهدها تظهر عليه، وكبا به فرسه في أول ولايته لبعض مذاهبه فنادى مستغثياً بالشيخين أبي بكر وعمر، وسمعته العامة فثاروا بالرافضة وقتلوهم وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الإيمان وقطعوا من الأذان حي على خير العمل. وأغضى عنه الظاهر من ذلك وابنه معدّ المنتصر من بعد. واعتذر بالعامة فقبل واستمر على إقامة الدعوة والمهاداة، وهو في أثناء ذلك يكاتب وزيرهما وحاجب دولتهما المضطلع بأمورهما أبا القاسم أحمد بن علي الجرجاني ويستميله ويعرّض ببني عبيد وشيعتهم. وكان الجرجاني يلقب بالأقطع بما كان أقطعه الحاكم بجناية ظهرت عليه في الأعمال، وانتهضته السيدة بنت الملك عمة المستنصر.

فلما ماتت استبد بالدولة سنة أربع عشرة وأربعمائة إلى أن هلك سنة ست وثلاثين وولي الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن علي اليازوري أصله من قرى فلسطين، وكان أبوه ملاحاً بها. فلما ولي الوزارة خاطبه أهل الجهات، ولم يولوه فأنف من ذلك، فعظم عليه وحنق عليه ثمال بن صالح صاحب حلب والمعز بن باديس صاحب أفريقية، وانحرفوا عنه وحلف المعز لينقضن طاعتهم وليحولنّ الدعوة إلى بني عباس، ويمحونّ اسم بني عبيد من منابره، ولج في ذلك وقطع أسماءهم من الطراز والرايات، وبايع القائم أبا جعفر بن القادر من خلفاء بني العباس، وخاطبه ودعا له على منابره سنة سبع وثلاثين وبعث بالبيعة إلى بغداد.

ووصله أبو الفضل البغدادي وحظي من الخليفة بالتقليد والخلع، وقرىء كتابه بجامع القيروان ونشرت الرايات السود وهدمت دار الإسماعيلية. وبلغ الخبر إلى المستنصر معدّ الخليفة بالقاهرة، وإلى الشيعة الرافضة من كتامة وصنائع الدولة فوجموا، وطلع عليهم المقيم المقعد من ذلك، وارتبكوا في أمرهم. وكان أحياء هلال هؤلاء الأحياء من جشم والأثبج وزغبة ورياح وربيعة وعدي في محلاتهم بالصعيد كما قدمناه. وقد عمّ ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم، فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي اليازوري باصطناعهم والتقدم لمشايخهم وتوليتهم أعمال أفريقية وتقليدهم أمرها ودفعهم إلى حرب صنهاجة ليكونوا عند نصر الشيعة والسبب في الدفاع عن الدولة، فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة، كانوا أولياء للدعوة وعمالاً بتلك القاصية. وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها.

وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك، فتغلبوا على هديه وشورانه. وقيل: إن الذي أشار بذلك وفعله وأدخل العرب إلى أفريقية إنما هو أبو القاسم الجرجاني، وليس ذلك بصحيح، فبعث المستنصر وزيره على هؤلاء الأحياء سنة إحدى وأربعين، وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل. وقال لهم: قد أعطيتكم المغرب، وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون وكتب اليازوري إلى المغرب: أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً. ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. فطمعت العرب إذ ذاك، وأجازوا النيل إلى برقة، ونزلوا بها وافتتحوا أمصارها واستباحوها، وكتبوا لإخوانهم شرقي النيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا لكل رأس دينارين فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه، وتقارعوا على البلاد: فحصل لسليم الشرق، ولهلال الغرب، وخربوا المدينة الحمراء وأوجدابية وأسمرا وسرت.

وأقامت هيب من سليم وأحلافها رواحة وناصرة وغمرة بأرض برقة. وسارت قبائل دياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى أفريقية كالجراد المنتشر، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه، حتى وصلوا إلى أفريقية سنة ثلاث وأربعين وكان أول من وصل إليهم أمير رياح مؤنس بن يحيى الصنبري فاستماله المعز واستدعاه واستخلصه لنفسه وأصهر إليه. وفاوضه في استدعاء العرب من قاصية وطنه للاستغلاظ على نواحي بني عمه. فاستنفر القرى وأتى عليهم فاستدعاهم فعاثوا في البلاد وأظهروا الفساد في الأرض، ونادوا بشعار الخليفة المستنصر، وسرح إليهم من صنهاجة الأولياء فأوقعوا بها فتمخط المعز لكبره وأشاط بغضبه، وتقبض على أخي مؤنس وعسكر بظاهر القيروان، وبعث بالصريخ إلى ابن عمه صاحب القلعة القائد بن حامد بن بلكين، فكتّب إليه كتيبة من ألف فارس سرحهم إليه، استنفروا عن زناتة فوصل إليه المستنصر بن خزرون المغراوي في ألف فارس من قومه.

وكان بالبدو من إفريقية مع الناجعة من زناتة، وهو من أعظم ساداتهم. وارتحل المعز في أولئك النفر ومن لف لفهم من الأتباع والحشم والأولياء ومن في إيالتهم من بقايا عرب الفتح، وحشد زناتة والبربر وصمد نحوهم في أمم لا تحصى يناهز عددهم

فيما يذكر ثلاثين ألفاً. وكانت رياح وزغبة وعدي حيدران من جهة فاس. ولما تزاحف الفريقان انخذل بقية عرب الفتح وتحيزوا إلى الهلاليين للعصبية القديمة، وخانته زناتة وصنهاجة، وكانت الهزيمة على المعز، وفر بنفسه وخاصته إلى القيروان، وانتهبت العرب جميع مخلفه من المال والمتاع والذخيرة والفساطيط والرايات، وقتلوا فيها من البشر ما لا يحصى. يقال: إن القتلى من صنهاجة بلغوا ثلاثة آلاف وثلثمائة، وفي ذلك يقول علي بن رزق الرياحي كلمته. ويقال إنها لابن شداد وأولها:

لقد زار وهناً من أميم خيال ... وأيدي المطايا بالزميل عجال
وأن ابن باديس لأفضل مالك ... لعمري، ولكن ما لديه رجال
ثلاثون ألفاً منهم قد هزمتهم ... ثلاثة آلاف وذاك ضلال

ثم نازلوه بالقيروان وطال عليه أمر الحصار، وهلكت الضواحي والقرى بإفساد العرب وعيثهم، وانتقام السلطان منهم بانتمائهم في ولاية العرب، ولجأ الناس إلى القيروان وكثر النهب واشتد الحصار، وفر أهل القيروان إلى تونس وسوسه، وعم النهب في البلاد والعيث في البلاد ودخلت تلك الأرض سنة خمس وأربعين، وأحاطت زغبة ورياح بالقيروان. ونزل موسى قريباً من ساحة البلد، وفر القرابة والأعياص من آل زير فولاهم موسى قابس وغيرها، ثم ملكوا بلاد قسطنطينة كلها وغزا عامل ابن أبي الغيث منهم: زناتة ومغراوة فاستباحهم ورجع.

واقتسمت العرب بلاد إفريقية سنة ست وأربعين، وكان لزغبة طرابلس وما يليها، ولمرداس بن رياح باجة وما يليها. ثم اقتسموا البلاد ثانية فكان لهلال من تونس إلى الغرب وهم: رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثبج والخلط وسفيان وتصرم الملك من يد المعز، وتغلب عائد بن أبي الغيث على مدينة تونس وسباها وملك أبو مسعود من شيوخهم بونة صلحاً. وعامل المعز على خلاص نفسه، وصاهره بناته ثلاثة من أمراء العرب: فارس بن أبي الغيث وأخاه عائذاً، والفضل بن أبي علي المرادي.

وقدم ابنه تميم إلى المهدية سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ولسنة تسع بعدها بعث إلى أصهاره من العرب وترحم بهم ولحق بهم بالقيروان، واتبعوه فركب البحر من الساحل، وأصلح أهل القيروان فأخبرهم ابنه المنصور بخبر أبيه، فساروا بالسودان والمنصور، وجاء العرب فدخلوا البلد واستباحوه واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في محاسنها، وطمسوا من الحسن والرونق معالمها. واستصفوا ما كان لآل بلكين في قصورها وشملوا بالعيث والنهب سائر من فيها وتفرق أهلها في الأقطار فعظمت الرزية، وانتشر الداء وأعضل الخطب. ثم ارتحلوا إلى المهدية فنزلوها، وضيقوا عليها بمنع المرافق وإفساد السابلة.

ثم حاربوا زناتة من بعد صنهاجة وغلبوهم على الضواحي، واتصلت الفتنة بينهم، وأغزاهم صاحب تلمسان من أعقاب محمد بن خزر جيوشه مع وزيره أبي سعدى خليفة اليفرني فهزموه وقتلوه بعد حروب طويلة، واضطرب أمر أفريقية، وخرب عمرانها، وفسدت سابلتها. وكانت رئاسة الضواحي من زناتة والبربر لبني يفرن ومغراوة وبني يمانوا وبني يلومان ولم يزل هذا دأب العرب وزناتة حتى غلبوا صنهاجة وزناتة على ضواحي أفريقية والزاب، وغلبوا عليها صنهاجة وقهروا من بها من البربر وأصاروهم عبيداً وخدماً بباجة.

وكان في هؤلاء العرب لعهد دخولهم إفريقية رجالات مذكورون. وكان من أشرفهم حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض، وينسبون هؤلاء في دريد بن الأثبج وماضي بن مقرب وينسبونه في قرة وسلامة بن رزق في بني كثير من بطون كرفة بن الأثبج وشبان بن الأحيمر وأخوه صليصل وينسبوهم في بني عطية من كرفه، وذياب بن غانم وينسبونه في بني ثور، وموسى بن يحيى وينسبونه في مرداس رياح لا مرداس سليم، فاحذر من الغلط في هذا. وهو من بني صنبر بطن من بطون مرداس رياح، وزيد بن زيدان وينسبونه في الضحاك، ومليحان بن عباس وينسبونه في حمير، وزيد العجاج بن فاضل ويزعمون أنه مات بالحجاز قبيل دخولهم إلى إفريقية، وفارس بن أبي الغيث وعامر أخوه، والفضل بن أبي علي ونسبهم أهل الأخبار منهم في مرداس كل هؤلاء يذكرون في أشعارهم.

وكان زياد بن عامر رائدهم في دخول إفريقية ويسمونه لذلك أبا مخير، وشعوبهم لذلك العهد كما نقلناهم زغبة ورياح والأثبج وقرة وكلهم من هلال بن عامر. وربما ذكر فيهم بنو عدي، ولم نقف على أخبارهم وليس لهم لهذا العهد حي معروف، فلعلهم دثروا وتلاشوا وافترقوا في القبائل. وكذلك ذكر فيهم ربيعة، ولم نعرفهم لهذا العهد إلا أن يكونوا هم المعقل كما تراه في نسبهم. وكان فيهم من غير هلال كثيّر من فزارة وأشجع من بطون غطفان وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية، والمعقل من بطون اليمنية، وعمرة بن أسد من بني ربيعة بن نزار، وبني ثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة، وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان. وطرود بطن من فهم بن قيس، إلا أنهم كلهم مندرجون في هلال وفي الأثبج منهم خصوصاً، لأن الرئاسة كانت عند دخولهم للأثبج وهلال فأدخلوا فيهم وصاروا مندرجين في

جملتهم. وفرقة من هؤلاء الهلاليين لم يكونوا من الذين أجازوا النيل لعهد اليازوري أو الجرجاني. وإنما كانوا من قبل ذلك ببرقة أيام الحاكم العبيدي، ولهم فيها أخبار مع الصنهاجيين ببرقة والشيعة بمصر خطوب، ونسبهم إلى عبد مناف بن هلال كما ذكر شاعرهم في قوله:

طلبنا القرب منهم وجزيل منهم	بلا عيب من عرب سحاح جمودها
وبيت عرت أمره منا وبينها	طرود أنكاد اللّـي يكودها
ماتت ثلاث آلاف مرة وأربعة	بحرمه منا تداوي كبودها

وقال الآخر منهم:

أيا رب خير الخلق من نائح البلا	إلا القليل انجار مالا يجيرها
وخص بها قرة مناف وعينها	ديما لأرياد البوادي تشيرها

فذكر نسبهم في مناف وليس في هلال، مناف هكذا منفرداً إنما هو عبد مناف والله تعالى أعلم. وكان شيخهم أيام الحاكم مختار بن القاسم. ولما بعث الحاكم يحيى بن علي الأندلسي لصريخ فلفول بن سعيد بن خزروك بطرابلس على صنهاجة كما نذكره في أخبار بني خزروك، أوعز لهم السير معه، فوصلوا إلى طرابلس وجروا الهزيمة على يحيى بن علي ورجعوا إلى برقة. وبعث عنهم فامتنعوا، ثم بعث لهم بالأمان، ووصل وفدهم إلى الإسكندرية فقتلوا عن آخرهم سنة أربع وتسعين وثلثمائة. وكان عندهم معلم للقرآن اسمه الوليد بن هشام ينسب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بني أمية. وكان يزعم أن لديه أثارة من علم في اختيار ملك آبائه، وقبل ذلك منه البرابرة من مزاتة وزناتة ولواتة وتحدثوا بشأنه فنصبه بنو قرة وبايعوه بالخلافة سنة خمس وتسعين وتغلبوا على مدينة برقة. وزحف إليهم جيوش الحاكم فهزموها، وقتل الوليد بن هشام قائدها من الترك.

ثم زحفوا به إلى مصر فانهزموا، ولحق الوليد بأرض النجاء من بلاد السودان. ثم أخفرت ذمته وسيق إلى مصر وقتل، وهدرت لبني قرة جناياتهم هذه وعفا عنهم. ولما كانت سنة اثنتين وأربعمائة اعترضوا هدية باديس بن منصور ملك صنهاجة من إفريقية إلى مصر فأخذوها، وزحفوا إلى برقة فغلبوا العامل عليها، وفر في البحر واستولوا على برقة، ولم يزل هذا شأنهم ببرقة. فلما زحف إخوانهم الهلاليون من زغبة ورياح والأثبج وأتباعهم إلى إفريقية، كانوا ممن زحف معهم. وكان من شيوخهم ماضي بن مقرب المذكور في أخبار هلال.

ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق في الخبر غريبة: يزعمون أن الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتوح، وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان في أخته الجازية فأنكحه إياها، وولدت منه ولداً اسمه محمد، وأنه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة، وأجمعوا الرحلة عن نجد إلى أفريقية. وتحيلوا عليه في استرجاع هذه الجازية فطلبته في زيارة أبويها فأزارها إياهم، وخرج بها إلى حللهم فارتحلوا به وبها. وكتموا رحلتها عنه وموّهوا عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص ويروحون به إلى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه، وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم ففارقوه، فرجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل، وأنها من بعد ذلك كلفت به مثل كلفه إلى أن ماتت من حبه.

ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفى عن خبر قيس وكثير ويروون كثيراً من أشعارها محكمة المباني متفقة الأطراف، وفيها المطبوع والمتحل والمصنوع، لم يفقد فيها من البلاغة شيء وإنما أخلوا فيها بالإعراب فقط، ولا مدخل له في البلاغة كما قررناه لك في الكتاب الأول من كتابنا هذا. إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب، ويحسبون أن الإعراب هو أصل البلاغة وليس كذلك. وفي هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية فلذلك لا يوثق به، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم، وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم لكنا لا نثق بروايتها، وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه، وهذا قصارى الأمر فيه. وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفاً عن سلف، وجيلاً عن جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل المفرط لتواترها بينهم. وهذا الشريف الذي يشيرون إليه هو من الهواشم، وهو شكر بن أبي الفتوح الحسن بن أبي جعفر بن هاشم محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله بن إدريس، وأبوه أبو الفتوح هو الذي خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدي وبايع له بنوا الجراح أمراء طيء بالشام، وبعثوا عنه فوصل إلى أحيائهم وبايع له كافة العرب. ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدي ورجع إلى مكة، وهلك سنة ثلاثين وأربعمائة فولي بعده ابنه شكر هذا، وهلك سنة ثلاث وخمسين وولي ابنه محمد الذي يزعم هؤلاء الهلاليون أنه من الجازية هذه. وتقدم ذلك في أخبار العلوية. هكذا نسبه ابن حزم.

وقال ابن سعيد: هو من السليمانيين من ولد محمد بن سليمان بن داود بن حسن بن الحسين السبط الذي بايع له أبو الزاب الشيباني بعد ابن طباطبا، ويسمى الناهض. ولحق بالمدينة

فاستولى على الحجاز واستقرت إمارة مكة في بيته إلى أن غلبهم عليها هؤلاء الهواشم. جداً قريباً من الحسن والحسين. وأما هاشم الأعلى فمشترك بين سائر الشرفاء، فلا يكون مميزاً لبعضهم عن بعض. وأخبرني من أثق به من الهلاليين لهذا العهد أنه وقف على بلاد الشريف شكر وأنها بقعة من أرض نجد مما يلي الفرات، وأن ولده بها لهذا العهد والله أعلم.

ومن مزاعمهم أن الجازية لما صارت إلى إفريقية وفارقت الشريف، خلفه عليها منهم ماضي بن مقرب من رجالات دريد، وكان المستنصر لما بعثهم إلى إفريقية عقد لرجالاتهم على أمصارها وثغورها، وقلدهم أعمالها، فعقد لموسى بن يحيى المرداسي على القيروان وباجة، وعقد لزغبة على طرابلس وقابس، وعقد لحسن بن سرحان على قسطنطينة، فلما غلبوا صنهاجة على الأمصار، وملك كل ما عقد له سميت الرعايا بالأمصار عسفهم وعيثهم باختلاف الأيدي، إذ الوازع مفقود من أهل هذا الجيل العربي منذ كانوا فثاروا بهم وأخرجوهم من الأمصار، وصاروا إلى ملك الضواحي والتغلب عليها، وسيم الرعايا بالخسف في النهب والعيث وإفساد السابلة، هكذا إلى هلمّ.

ولما غلبوا صنهاجة اجتهد زناتة في مدافعتهم بما كانوا أملك للبأس والنجدة بالبداوة، فحاربوهم ورجعوا إليهم من إفريقية والمغرب الأوسط، وجهز صاحب تلمسان من بني خزر قائده أبا سعدى اليفرني فكانت بينهم وبينه حروب إلى أن قتلوه بنواحي الزاب، وتغلبوا على الضواحي في كل وجه. وعجزت زناتة عن مدافعتهم بإفريقية والزاب. وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد، ومصاب من بلاد المغرب الأوسط. فلما استقر لهم الغلب وضعت الحرب أوزارها وصالحهم الصنهاجيون على خطة خسف في انفرادهم بملك الضواحي دونهم، وصاروا إلى التفريق بينهم، وظاهروا الأثبج على رياح وزغبة، وحشد الناصر بن علناس صاحب القلعة لمظاهرتهم وجمع زناتة.

وكان فيهم المعز بن زيري صاحب فاس من مغراوة ونزلوا الأربس جميعاً. ولقيهم رياح وزغبة بسببه.

ومكر المعز بن زيري المغراوي بالناصر وصنهاجة بدسيسة زعموا من تميم بن المعز بن باديس صاحب القيروان، فجر عليهم الهزيمة واستباحت العرب وزناتة خزائن الناصر ومضاربه، وقتل أخوه القاسم ونجا إلى قسطنطينية ورياح في أتباعه. ثم لحق بالقلعة فنازلوها وخربوا جنباتها وأحبطوا عروشها، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار، ثم طبنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكنيها، وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعاً صفصفاً أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير، وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد، وهجروا ملوك إفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالهم في الأمصار، وملكوا عليهم الضواحي يتحيفون جوانبهم ويقعدون لهم بالمراصد، ويأخذون لهم الأتاوة على التصرف في أوطانهم.

ولم يزل هذا دأبهم حتى لقد هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة، واختط بالساحل مدينة بجاية، ونقل إليها ذخيرته وأعدها لنزله. ونزلها المنصور ابنه من بعده فراراً من ضيم هذا الجيل وفسادهم بالضواحي إلى منعة الجبال وتوعر مسالكها على رواحلهم، واستقروا بها بعد وتركوا القلعة. وكانوا يختصون الأثبج من هؤلاء الأحياء بالرئاسة سائر أيامهم. ثم افترق جمع الأثبج وذهبت بذهاب صنهاجة دولتهم. ولما غلب الموحدون سائر الدول بالمغرب في سني إحدى وأربعين وخمسمائة، وزحف شيخ الموحدين عبد المؤمن إلى إفريقية، وفد عليه بالجزائر أميران منهم لذلك العهد أبو الجليل بن شاكر أمير الأثبج وحباس بن مشيفر من رجالات جشم، فتلقاهما بالمبرة وعقد لهما على قومهما ومضى لوجهه. وفتح بجاية سنة تسع وخمسين.

ثم انتقض العرب الهلاليون واعصوصبوا على دعوة صنهاجة، وكان أمير رياح فيهم محرز بن زناد بن بازخ إحدى بطون بني علي بن رياح، فلقيتهم جيوش الموحدين بسطيف وعليهم عبد الله بن عبد المؤمن فتواقفوا ثلاثاً علقوا فيها رواحلهم، وأثبتوا في مستنقع الموت أقدامهم، ثم انتفض في الرابعة جمعهم واستلحمهم الموحدون وغلبوا عليهم، وغنموا أموالهم وأسروا رجالهم وسبوا نساءهم واتبعوا أدبارهم إلى فحص سبتة، ثم راجعوا من بعد ذلك بصائرهم واستكانوا لغزو الموحدين وغلبهم، فدخلوا في دعوتهم وتمسكوا بطاعتهم، وأطلق عبد المؤمن أسراهم ولم يزالوا على استقامتهم، ولم يزل الموحدون يستنفرونهم في جهادهم بالأندلس، وربما بعثوا إليهم في ذلك المخاطبات الشعرية، فأجازوا مع عبد المؤمن ويوسف ابنه كما هو في أخبار دولتهم، ولم يزالوا في استقامتهم إلى أن خرج عن الدولة بنو غانية المسوّفيون أمراء ميورقة، أجازوا البحر في أساطيلهم إلى بجاية فكسبوها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة لأول دولة المنصور، وكشفوا القناع في نقض طاعة الموحدين، ودعوا العرب بها، فعادت هيف إلى أديانها.

وكانت قبائل جشم ورياح وجمهور الأثبج من هؤلاء الهلاليين أسرع إجابة إليها. ولما تحركت جيوش الموحدين إلى إفريقية لكف عدوانهم، تحيزت قبائل زغبة إليهم، وكانوا في

جملتهم، ولحق بنو غانية بفاس ومعهم كافة جشم ورياح، ولحق بهم جل قومهم من مسوفة وإخوانهم لمتونة من أطراف البقاع، واستمسكوا بالدعوة العباسية التي كان أمراؤهم بنو تاشفين بالمغرب يتمسكون بها، فأقاموها فيمن إليهم من القبائل والمسالك ونزلوا بفاس.

وطلبوا من الخليفة ببغداد المستنصر تجديد العهد لهم بذلك، وأوفدوا عليه كاتبهم عبد البر بن فرسان، فعقد لابن غانية وأذن له في حرب الموحدين. واجتمعت إليه قبائل بني سليم بن منصور، وكانوا جاؤوا على أثر الهلاليين عند إجازتهم إلى إفريقية، وظاهره على أمره ذلك قراقوش الأرمني. ونذكر أخباره في أخبار الميروقي، فاجتمع لعلي بن غانية من الملثمين والعرب والعجم عساكر جمة، وغلب الضواحي وافتتح بلاد الجريد، وملك قفصة وتوزر ونفطة. ونهض اليه المنصور من مراكش يجر أمم المغرب من زناتة والمصامدة وزغبة من الهلاليين وجمهور الأثبج، فأوقعوا بمقدمته بفحث غمرة من جهات قفصة. ثم زحف إليهم من تونس فكانت الكرة عليهم، وفلّ جمعهم واتبع آثارهم إلى أن شردهم إلى صحاري برقة، وانتزع بلاد قسطيلية وقابس وقفصة من أيديهم، وراجعت قبائل جشم ورياح من الهلاليين طاعته ولاذوا بدعوته فنفاهم إلى المغرب الأقصى. وأنزل جشم ببلاد تامستا، ورياحاً ببلاد الهبط وأزغار مما يلي سواحل طنجة إلى سلا.

وكانت تخوم بلاد زناتة منذ غلبهم الهلاليون على إفريقية وضواحيها أرض مصاب ما بين صحراء إفريقية وصحراء المغرب الأوسط، وبها قصور اتخذوها فسميت بإسم من ولي خطتها من شعوبهم. وكان بنو بادين وزناتة وهم بنو عبد الواد وتوجين ومصاب وبنو زردال وبنو راشد شيعة للموحدين منذ أول دولتهم، فكانوا أقرب إليهم من أمثالهم بنو مرين وأنظارهم كما يأتي. وكانوا يتولون من أرياف المغرب الأوسط وتلوله ما ليس يليه أحد من زناتة، ويجوسون خلاله في رحلة الصيف بما لم يؤذن لأحد ممن سواهم في مثله حتى كأنهم من جملة عساكر الموحدين وحاميتهم. وأمرهم إذ ذاك راجع إلى صاحب تلمسان من سادة القرابة، ونزل هذا الحي من زغبة مع بني بادين هؤلاء لما اعتزلوا إخوانهم الهلاليين وتحيزوا إلى فئتهم، وصاروا جميعاً قبلة المغرب الأوسط من مصاب إلىجبل راشد، بعد أن كانت قسمتهم الأولى بقابس وطرابلس.

وكانت لهم حروب مع أولاد خزرون أصحاب طرابلس. وقتلوا سعيد بن خزرون فصاروا إلى هذا الوطن الآخر لفتنة ابن غانية، وانحرافهم عنه إلى الموحدين وانعقد ما بينهم وبين بني بادين حلف على الجوار والذب عن الأوطان وحمايتها من معرة العدو في اهتبال غرتها وانتهاز الفرصة فيها، فتعاقدوا على ذلك واجتوروا وأقامت زغبة في القفار وبنو بادين بالتلول والضواحي. ثم فر مسعود بن سلطان بن زمام أمير الرياحيين من بلاد الهبط، ولحق ببلاد طرابلس ونزل على زغبة وذياب من قبائل بني سليم. ووصل إلى قراقش بن رياح وحصر معه طرابلس حين افتتحها، وهلك هنالك، وقام إلى الميروني ولحق ولقيه بالحمة فهزمه وقتل الكثير من قومه.

وانهزمت طائفة من قوم محمد بن مسعود منهم: ابنه عبد اللّه وابن عمه حركات بن أبي الشيخ بن عساكر بن سلطان، وشيخ من شيوخ قرة، فضرب أعناقهم. وفر يحيى بن غانية إلى مسقطه من الصحراء. واستمرت على ذلك أحوال هذه القبائل من هلال وسليم وأتباعها.

ونحن الآن نذكر أخبارهم ومصائر أمورهم ونعددهم فرقة فرقة، ونخص منهم بالذكر من كان لهذا العهد بحيه وناجعته، ونطوي ذكر من انقرض منهم، ونبدأ بذكر الأثبج لتقدم رئاستهم أيام صنهاجة كما ذكرناه. ثم نقفي بذكر جشم لأنهم معدودون فيهم. ثم نذكر رياحاً وزغبة، ثم المعقل لأنهم من عداد هلال. ثم نأتي بعدهم بذكر سليم لأنهم جاؤوا من بعدهم و لله الخلاق العليم.

الخبر عن الأثبج وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة

كان هؤلاء الأثبج من الهلاليين أوفر عدداً وأكثر بطوناً وكان التقدم لهم في جملتهم. وكان منهم: الضحاك وعياض ومقدم والعاصم ولطيف ودريد وكرفة وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم. وفي دريد بطنان: توبة وعنز، ويقولون بزعمهم: إن أثبج هو ابن أبي ربيعة ابن نهيك بن هلال. فكرفة هو ابن الأثبج. وكان لهم جمع وقوة، وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية، وكانت مواطنهم حيال جبل أوراس من شرقية. ولما استقر أمر الأثبج بإفريقية على غلب صنهاجة على الضواحي ووقعت الفتنة بينهم، ولذلك أن حسن بن سرحان وهو من دريد قتل شبانة بن الأحيمر من كرفة غيلة، فطوت كرفة له على الهائم.

ثم إن أخته الجازية غاضبت زوجها ماضي بن مقرب بن قرة، ولحقت بأخيها فمنعها منه، فاجتمعت قرة وكرفة على فتنة حسن وقومه، وظاهرتهم عياض، ولم تزل الفتنة إلى أن قتل حسن

بن سرحان، قتله أولاد شبانة بن الأحيمر، وثأروا منه بأبيهم. ثم كان الغلب بعده لدريد على كرفة وعياض وقرة، واستمرت الفتنة بين هؤلاء الأثابج وافترق أمرهم. وجاءت دولة الموحدين وهم على ذلك الشتات والفتنة، وكانت لبطونهم ولاية لصنهاجة. فلما ملك الموحدون إفريقية نقلوا منهم إلى المغرب العاصم ومقدماً وقرة وتوابع لهم من جشم، وأنزلوا جميعهم بالمغرب كما نذكر.

واعتزت رياح بعدهم بإفريقية وملكوا ضواحي قسطنطينة، ورجع إليهم شيخهم مسعود بن زمام من المغرب فاعتز الدواودة على الأمراء والدول. وساء أثرهم فيها وغلبوا بقايا الأثابج، فنزلوا قرى الزاب، وقعدوا عن الطعن وأوطنوا بالقرى والآطام. ولما نبذ بنو أبي حفص العهد للدواودة كما يأتي في أخبارهم واستجاش عليهم بنو سليم وأنزلوهم القيروان، اصطنعوا كرفة من بطون الأثابج، فكانوا حرباً لرياح وشيعة للسلطان، واقطعتهم الدولة لذلك جباية الجانب الشرقي من جبل أوراس وكثيراً من بلاد الزاب الشرقية حيث كانت محلاتهم الشتوية، حتى إذا اختل ريح الدولة، وأخلقت جدّتها واعتزّت رياح عليها وملكوا المجالات على من يظعن فيها نزل كرفة هؤلاء بجبل أوراس حيث إقطاعاتهم وسكنوه حللاً متفرقة واتخذوه وطناً.

وربما يظعن بعضهم إلى تخوم الزاب كما نذكر عن بطونهم وهم بطون كثيرة، فأولهم: بنو محمد بن كرفة ويعرفون بالكلبية، وأولاد سهيب بن محمد بن كليب ويعرفون بالشبه، وأولاد صبيح بن فاضل بن محمد بن كليب ويعرفون بالصبحة، وأولاد سرحان بن فاضل أيضاً ويعرفون بالسرحانية، وهؤلاء هم المودعات وهم موطنون بجبل أوراس مما يلي زاب تهود. ثم أولاد نابت بن فاضل، وهم أهل الرئاسة في كرفة ولهم إقطاعات السلطان التي ذكرناها، وهم ثلاثة أفخاذ: أولاد مساعد وأولاد ظافر وأولاد قطيفة. والرئاسة أخص بأولاد مساعد في أولاد علي بن جابر بن فتاح بن مساعد بن ثابت. وأما بنو محمد والمروانة فهم ظواعن جائلة في القفار تلقاء مواطن أولاد نابت. ويكتالون الحبوب لأقواتهم من زروع أهل الجبل، وأولاد نابت. وربما يستعملهم صاحب الزاب في تصاريف أمره من عسكر وإخفار وغير ذلك من أغراضه.

وأما دريد فكانوا أعز الأثبج وأعلاهم كعباً بما كانت الرئاسة على الأثبج كلهم عند دخولهم إلى إفريقية لحسن بن سرحان بن وبرة إحدى بطونهم، وكانت مواطنهم ما بين العناب إلى قسطنطينة إلى طارف مصقلة، وما يحاذيها من القفر. وكانت بينهم وبين كرفة الفتنة التي هلك فيها حسن بن سرحان كما ذكرناه، وقبره هنالك. وكانوا بطوناً كثيرة منهم أولاد عطية بن دريد وأولاد سرور بن دريد وأولاد جار الله من ولد عبد الله بن دريد. وتوبة من ولد عبد الله أيضاً وهو توبة بن عطاف بن جبر بن عطاف بن عبد الله، وكانت لهم بين هلال رئاسة كثيرة ومدحهم شعراؤهم بشعر كثير، فمن ذلك قول بعض شعرائهم:

دريد ذات سراة البد وللجود منقع	كما كل أرض منقع الماء خيارها
تحن إلى أوطان مرة ناقتي لكن معها	جملة دريد كان موارها
وهم عربوا الأعراب حتى تعربت	بنوف المعالي ما يفي قصارها
وتركوا طريق النار برهة وقد	كان ما تقوى المطايا حجارها

فأما أولاد عطية فكانت رئاستهم في أولاد بني مبارك بن حباس، وكانت لهم تلة بن حلوف من أرض قسطنطينة. ثم دثروا وتلاشوا، وغلبتهم توبة على تلة بن حلوف زحفوا إليها من مواطنهم بطارف مصقلة فملكوها وما إليها. ثم عجزوا عن رحلة القفر وتركوا الإبل واتخذوا الشاة والبقر وصاروا في عداد القبائل الغارمة. وربما طالبهم السلطان بالعسكرة معه فيعيّنون له جنداً منهم. ورئاستهم في أولاد وشاح بن عطوة بن عطية بن كمون بن فرج بن توبة، وفي أولاد مبارك بن عابد بن عطية بن عطوة وهم على ذلك لهذا العهد. ويجاورهم أولاد سرور وأولاد جار الله على سننهم في ذلك.

فأما أولاد وشاح فرئاستهم لهذا العهد منقسمة بين سجم بن كثير بن جماعة بن وشاح وبين أحمد بن خليفة بن رشاش بن وشاح. وأما أولاد مبارك بن عابد فرئاستهم أيضاً منقسمة بين نجاح بن محمد بن منصور بن عبيد بن مبارك، وعبد الله بن أحمد بن عنان بن منصور ورثها عن عمه راجح بن عثمان بن منصور، وأما أولاد جار الله فرئاستهم في ولد عنان بن سلام منهم. وأما العاصم ومقدم والضحاك وعياض فهم أولاد مشرف بن أثبج، ولطيف وهو ابن سرح بن مشرف، وكان لهم عدد وقوة بين الأثابج.

وكان العاصم ومقدم انحرفوا عن طاعة الموحدين إلى ابن غانية، فأشخصهم يعقوب المنصور إلى المغرب، وأنزلهم تامستا مع جشم، ويأتي خبرهم، وبقيت عياض والضحاك بمواطنهم بإفريقية: فعياض نزلوا بجبل القلعة، قلعة بني حماد وملكوا قبائله وغلبوهم على أمرهم، وصاروا يتولون جبايتهم، ولما غلبت عليهم الدولة بمظاهرة رياح صاروا إلى المدافعة عن تلك الرعايا وجبايتهم للسلطان. وسكنوا ذلك الجبل بطوله من المشرق إلى المغرب ما بين ثنية غنية والقصّاب إلى وطن بني يزيد بن زغبة. فأولهم مما يلي غنية للمهاية، ورئاستهم في أولاد ديفل، ومعهم بطن منهم يقال

لهم الزير، وبعدهم المرتفع والخراج من بطونهم.

فأما المرتفع فثلاثة بطون: أولاد تبان ورئاستهم في أولاد محمد بن موسى، وأولاد حناش ورئاستهم في بني عبد السلام، وأولاد عبدوس ورئاستهم في بني صالح. ويدعى أولاد حناش وأولاد تبان جميعاً أولاد حناش. وأما الخراج فرئاستهم لأولاد زائد بني عباس بن خفير ويجاور الخراج من جانب الغرب أولاد صخر، وأولاد رحمة من بطون عياض، وهم مجاورون لبني يزيد بن زغبة في آخر وطن الأثابج من الهلاليين. وأما الضحاك فكانوا بطوناً كثيرة، وكانت رئاستهم مفترقة بين أمرين منهم، وهما أبو عطية وكلب بن منيع، وغلب كلب أبا عطية على رئاسة قبيلتهما لأول دولة الموحدين، فارتحل فيما زعموا إلى المغرب، وسكن صخر سجلماسة، وكانت له فيها آثار حتى قتله الموحدون أو غرّبوه إلى الأندلس، هكذا ينقل أصحاب أخبارهم، وبقي تجمعهم بالزاب حتى غلب مسعود بن زمام والدواودة عليهم وأصاروهم في جملتهم.

ثم عجزوا عن الطعن، ونزلوا بلاد الزاب واتخذوا بها المدن، فهم على ذلك لهذا العهد. وأما لطيف فهم بطون كثيرة منهم اليتامى وهم أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف بني ذوي مطرف وذوي أبي الخليل وذوي جلال بن معافى. ومنهم اللقامنة أولاد لقمان بن خليفة بن لطيف ومنهم: أولاد جرير بن علوان بن محمد بن لقمان، ونزار بن معن بن محيا بن جري بن علوان، وجرير يزعمون أنهم من محيا بن جري، ومزنة من ديفل بن محيا؛ وإليه يرجع نسب بني مزنى الولاة بالزاب لهذا العهد.

وكان للطيف هؤلاء كثرة ونجعة. ثم عجزوا عن الظعن وغلبهم على الضواحي الدواودة من بعدهم لما قل جمعهم وافترق ملوكهم، وصار إلى المغرب من صار منهم من جمهور الأثبج فاهتضموا، وعليهم رياح والدواودة فنزلوا بلاد الزاب، واتخذوا بها الآطام والمدن مثل الدوسن وغربيوا وتهودة وتنومة وبادس. وهم لهذا العهد من جملة الرعايا الغارمة لأمير الزاب. ولهم عنجهية منذ رئاستهم القديمة لم يفارقوها، وهم على ذلك لهذا العهد. وبينهم في قصورهم بالزاب فتن متصلة بين المتجاورين منهم، وحروب وقتل. وعامل الزاب يدرأ بعضاً ببعض، ويستوفي جبايته منهم جميعاً والله خير الوارثين.

ويلحق بهؤلاء الأثبج العمور، ويغلب على الظن أنهم من ولد عمرو بن عبد مناف بن هلال إخوة قرة بن عبد مناف وليسوا من ولد عمر بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال، لأن رياحاً وزغبة والأثبج من أبي ربيعة، ولا نجد بينهم انتماء بالجملة. ونجد بينهم وبين قرة وغيرهم من بطون هلال الانتماء، فدل على أنهم لعمرو بن عبد مناف، أو يكونون من عمرو بن رويبة بن عبد الله بن هلال، وكلهم معروف. ذكره ابن الكلبي والله أعلم بذلك. وهم بطنان: قرة وعبد الله، وليس لهم رئاسة على أحد من هلال ولا ناجعة تظعن لقلتهم وافتراق ملتهم إنما هم ساكنون بالضواحي والجبال، وفيهم الفرسان وأكثرهم رجالة ومواطنهم ما بين جبل أوراس شرقاً إلى جبل راشد. وكان كل ذلك من ناحية الحضنة والصحراء. وأما التلول فهم مدفوعون عنها بقلتهم وخوفهم من حامية الدول، فتجدهم أقرب إلى موطن القفر والجدب.

فأما بنو قرة منهم فبطن متسع إلا أنهم مفترقون في القبائل والمدن وحدانا. وبنو عبد الله منهم على رئاسة فيهم وهم: عبد الله بن علي وبنوه: محمد وماضي بطنان، وولد محمد: عنان وعزيز بطنان، وولد عنان: شكر وفارس بطنان. من ولد شكر أولاد يحيى بن سعيد بن بسيط بن شكر بطن أيضاً. فأما أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضي فموطنهم بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة قاعدة الزاب، متصلين كذلك غرباً إلى مواطن غمرة، وهم في جوار رياح وتحت أيديهم، وخول لأولاده وخصوصاً من الدواودة المتولين موطنهم بالمجال. ولصاحب الزاب عليهم طاعة لقرب جواره وحاجتهم إلى سلطانه، فيصرفهم لذلك في حاجته متى عنت من إخفار العير ومقارفة مدن الزاب مع رجله وغير ذلك.

وأما أولاد شكر وهم أكبر رئاسة فيهم فنزلوا جبل راشد، وكانوا فريقين فنزلوا واحتربوا وغلب أولاد محيا بن سعيد منهم أولاد زكرير ودفعوهم عن جبل راشد، فصاروا إلى جبل كسال محاذيه من ناحية الغرب وأوطنوه، واتصلت فتنتهم معهم على طول الأيام وافتحهم رجال زغبة باقتسام المواطن، فصار أولاد يحيى أهل جبل راشد في إيالة سويد بن زغبة وأحلافاً لهم، وأولاد زكرير أهل جبل كسال في إيالة بني عامر وأحلافاً لهم، وربما يقتحمون بادية زغبة مع النضر أحلافاً لهم في فتنتهم كما نذكر في أخبار زغبة.

وكان شيخهم من أولاد محيا فيما قرب من عهدنا عامر بن أبي يحيى بن محيا. وكان له فيهم ذكر وشهرة. وكان ينتحل العبادة وحج ولقي بمصر شيخ الصوفية لعصره يوسف الكوراني، وأخذ عنه ولقن طرق هدايته ورجع إلى قومه وعاهدهم على طريقته ونحلته فاتبعه الكثير منهم، وغزا المفسدون من بادية النضر في جواره، وجاهدهم إلى أن اغتالوه بعض الأيام في الصيد فقتلوه، وكان شيخ أولاد زكرير يغمور بن موسى بن بوزير بن زكرير،

وكان يسامي عامراً ويناهضه في شرفه إلا أن عامراً كان أسود منه بنحلة العبادة والله مصرّف الأمور والخلق اه.

الخبر عن جشم الموطنين بسائط المغرب وبطونهم من هذه الطبقة

هؤلاء الأحياء بالمغرب لهذا العهد فيهم بطون من قرة والعاصم، ومقدّم والأثبج وجشم والخلط. وغلب عليهم جميعاً اسم جشم فعرفوا به. وهم: جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن. وكان أصل دخولهم إلى المغرب: أن الموحدين لما غلبوا على إفريقية أذعنت لهم هؤلاء القبائل من العرب طوعاً وكراهية. ثم كانت فتنة ابن غانية فأجلبوا فيها وانحرفوا عن الموحدين، وأرجعوا الطاعة لعهد المنصور فنقل جمهور هؤلاء القبائل إلى المغرب ممن له كثرة وشوكة وظواعن ناجعة. فنقل العاصم ومقدّم من بطون الأثبج، ومعهم بطون ونقل جشم هؤلاء الذين غلب اسمهم على من معهم من الأحياء وأنزلهم تامستا. ونقل رياحاً وأنزلهم الهبط فنزل جشم بتامستا البسيط الأفيح ما بين سلا ومراكش أوسط بلاد المغرب الأقصى، وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار لإحاطة جبل درن بها وشموخه بأنفه حذاءها، ووشوج أعراقه حجراً عليها فلم ينتجعوا بعدها قفراً ولا أبعدوا رحلة، وأقاموا بها أحياء حلولاً، وافترقت جيوشهم بالمغرب إلى الخلط وسفيان وبني جابر.

وكانت الرئاسة لسفيان من بينهم في أولاد جرمون سائر أيام الموحدين، ولما وهن أمر بني عبد المؤمن وفشلوا وذهبت ريحهم استكثروا بجموعهم، فكانت لهم سورة غلب واعتزاز على الدولة بكثرتهم وقرب عهدهم بالبداوة، وضربوا بين الأعياص، وظاهروا الخلافة وأكثروا الفساد وسائر آثارهم في البغي.

ولما اقتحم بنو مرين بلاد المغرب على الموحدين وملكوا فاس وقريتها لم تكن فيه حامية أشد منهم بأساً ومن رياح لقرب العهد بالبداوة، فكانت لهم معهم وقائع وحروب استلحمهم فيها بنو مرين إلى أن حق الغلب واستكانوا لعزّ بني مرين وصولتهم، وأعطوهم صفقة الطاعة وأصهر بنو مرين منهم إلى الخلط في بنت بني مهلهل فكان في جملة بني مرين، وكانت لهم الجولة للملك. واستقرت رئاسة جشم وكثرهم في الخلط منهم، في بنت مهلهل بعد أن كانت على عهد الموحدين في سفيان.

ثم ضربت الأيام ضرباتها وأخلقت جدّتهم وفشلوا وذهبت ريحهم، ونسوا عهد البداوة والناجعة وصاروا في عداد القبائل الغارمة للجباية والعسكرة مع السلطان. ولنذكر الآن فرقهم الأربع، وأحياء كل واحدة منها ونحقق الكلام في أنسابهم، فليست راجعة إلى جشم على ما يتبين. ولكن الشهرة بهذا النسب متصلة والله أعلم بحقائق الأمور.

هذه القبائل معدودة في جشم، وجشم المعهود هو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن أو لعلّه جشم آخر من غيرها. وكان شيخهم المشهور لعهد المأمون وبنيه جرمون بن عيسى، ونسبه فيما يزعم بعض المؤرخين أيام الموحدين في بني قرة، وكانت بينهم وبين الخلط شيعة للمأمون وبينه فصار سفيان لذلك شيعة ليحيى بن الناصر منازعه في الخلافة بمراكش.

ثم قتل الرشيد مسعود بن حميدان شيخ الخلط كما نذكره بعد، فصاروا إلى يحيى بن الناصر. وصار سفيان إلى الرشيد. ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مع الموحدين ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق أمير بني مرين حياءً مما وقع له معه، وذلك سنة ثمان وثلاثين. وذلك أنه نادمه ذات ليلة حتى سكر وحمل عليه وهو سكران يرقص فرقص طرباً، ثم أفاق فندم وفرّ إلى محمد بن عبد الحق، وذلك سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها. وعلا كعب كانون ابنه من بعده عند السعيد، وخالف عليه عند نهوضه إلى بني مرين سنة ثلاث وأربعين ورجع إلى أزمور فملكها.

وفتّ ذلك في عضد السعيد فرجع عن حركته، وقصد كانون بن جرمون ففر أمامه، وحضر حركته إلى تامزردكت، وقتل قبل مهلكه بيوم قتله الخلط في فتنة وقعت بينهم في محلة السعيد، وهي التي جرت عليها تلك الواقعة. وأقام بأمر سفيان من بعده أبوه يعقوب بن جرمون، وقتل محمد ابن أخيه كانون. وقام بأمر سفيان، وحضر مع المرتضى حركة أمان إيملّولين سنة تسع وأربعين فرحل عن السلطان واختل عسكره ورجع فاتبعه بنو مرين وكانت الهزيمة.

ثم رجع المرتضى وعفا له عنها، ثم قتله سنة تسع وخمسين مسعود وعلي ابنا أخيه كانون بثأر أبيهما، ولحقا بيعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين، وقدم المرتضى ابنه عبد الرحمن فعجز عن القيام بأمره، فقدم عمه عبيد الله بن جرمون فعجز، فقدم مسعود بن كانون ولحق عبد الرحمن ببني مرين، ثم تقبّض المرتضى على يعقوب بن قيطون شيخ بني جابر وقدم عوضاً منه يعقوب بن كانون السفياني. ثم راجع عبد الرحمن بن يعقوب سنة أربع وخمسين فتقبض عليه واعتقل، وأقام مسعود بن كانون شيخاً على سفيان، وكان لابني عمه معه ظهور وهما: حطوش وعيسى ابنا

يعقوب بن جرمون. ونزع مسعود عن يعقوب مقامه إلى أن هلك سنة ست وستين ابن عبد الحق ولحق بسكورة وشب نار الفتنة والحرب، وأقيم حطوش بن يعقوب مقامه إلى أن هلك سنة تسع وستين فولي مكانه أخوه عيسى وهلك مسعود بسكورة سنة ثمانين ولحق ابنه منصور بن مسعود بالسكسيوي إلى أن راجع الخدمة أيام يوسف بن يعقوب، ووفد عليه بعسكره من حصار تلمسان سنة ست وسبعمائة فتقبله.

واتصلت الرئاسة على سفيان في بني جرمون هؤلاء إلى عهدنا. وأدركت شيخاً لعهد السلطان أبي عنان يعقوب بن علي بن منصور بن عيسى بن يعقوب بن جرمون بن عيسى. وكان سفيان هؤلاء حياً حلولاً بأطراف تامستا مما يلي أسفى، وملك بسائطها الفسيحة عليهم الخلط، وبقي من أحيائهم الحرث والكلابية ينتجعون أرض السوس وقفاره، ويطلبون ضواحي بلاد جاجة من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس، ورئاستهم في أولاد مطاوع من الحرث، وطال عيثهم في ضواحي مراكش وإفسادهم، فلما استبد سلطان مراكش الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلّوسن علي ابن السلطان أبي علي سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم. واستقدمهم بعض أيامه للعرض بفرسانهم ورجلهم على العادة، وشيخهم منصور بن يعيش من أولاد مطاع، وتقبض عليهم أجمعين، وقتل من قتل منهم وأودع الآخرين سجونه فذهبوا مثلاً في الأيام، وحصدت شوكتهم والله قادر على ما يشاء.

الخلط من جشم

هذا القبيل يعرف بالخلط وهم في عداد جشم هؤلاء، لكن المعروف أن الخلط بنو المنتفق من بني عامر بن عقيل بن كعب، كلهم شيعة للقرامطة بالبحرين. ولما ضعف أمر القرامطة استولى بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة، ثم غلبهم عليها بنو أبي الحسين من بطون تغلب بالدعوة العباسية، فارتحل بنو سليم وبنو المنتفق من هؤلاء المسمّون بالخلط إلى إفريقية، وبقي سائر بني عقيل بنواحي البحرين إلى أن غلب منهم على التغلبيين بنو عامر بن عوف بن مالك بن عوف بن عامر بن عقيل إخوة الخلط هؤلاء، لأنهم في المغرب منسوبون إلى جشم تخليطاً في النسب ممن يحققه من العوام.

ولما أدخلهم المنصور إلى المغرب كما قلنا استقروا ببسائط تامستا، فكانوا أولي عدد وقوة، وكان شيخهم هلال بن حميدان بن مقدم بن محمد بن هبيرة بن عواج لا نعرف من نسبه أكثر من هذا. فلما ولي العادل بن منصور خالفوا عليه وهزموا عساكره وبعث هلال ببيعته إلى المأمون سنة خمس وعشرين واتبعه الموحدون في ذلك وجاء المأمون وظاهروه على أمره، وتحيز أعداؤهم سفيان إلى يحيى بن الناصر منازعه. ولم يزل هلال مع المأمون إلى أن هلك في حركة سبتة وبايع بعده لابنه الرشيد وجاء به إلى مراكش وهزم سفيان واستباحهم.

ثم هلك هلال وولّي أخوه مسعود، وخالف على الرشيد عمر بن أوقاريط شيخ الهساكرة من الموحدين، وكان صديقاً لمسعود بن حميدان، فأغراه بالخلاف على إكسز السلطان فخالف، وحاول عليه الرشيد حتى قدم عليه بمراكش وقتله في جماعة من قومه سنة اثنتين وثلاثين، وولي أمر الخلط بعده يحيى ابن أخيه هلال وتحيز بقومه إلى يحيى بن القاص وحصروا مراكش ومعهم ابن أوقاريط. وخرج الرشيد إلى سجلماسة واستولوا على مراكش وعاثوا فيها. ثم جاء الرشيد سنة ثلاث وثلاثين وغلبهم عليها ولحق ابن أوقاريط بالأندلس.

وأبدى علي بن هود بيعة الخلط، وعلموا أنها حيلة من ابن أوقاريط وأنه تخلص من الورطة، فطردوا عنهم يحيى بن الناصر إلى معقل. وراجعوا الرشيد فقبض على علي ووشاح ابني هلال وسجنهم بأزمور سنة خمس وثلاثين. ثم أطلقهم ثم غدر بعد ذلك بمشيختهم بعد الاستدعاء والتأنيس وقتلهم جميعاً مع عمر بن أوقاريط، كان أهل إشبيلية بعثوا به إليه، ثم حضروا مع السعيد في حركته إلى بني عبد الواد وجروا عليه الواقعة حتى قتل فيها بفتنتهم مع سفيان يومئذ، فلم يزل المرتضى يعمل الحيلة فيهم إلى أن تقبض على أشياخهم سنة اثنتين وخمسين وقتلهم. ولحق عواج بن هلال ببني مرين، وقدم المرتضى عليهم علي بن أبي علي من بيت الرئاسة فيهم. ثم رجع عواج سنة أربع وخمسين وأغزاه علي بن أبي علي فقتل في غزاته.

ثم كانت واقعة أم الرجلين على المرتضى سنة ستين، فرجع علي بن أبي علي إلى بني مرين. ثم صار الخلط كلهم إلى بني مرين وكانت الرئاسة فيهم لأول سلطان لبني مرين لمهلهل بن يحيى من مقدم، وأصهر إليه يعقوب بن عبد الحق فأنكحه ابنته التي كان منها ابنه السلطان أبو سعيد. ولم يزل مهلهل عليهم إلى أن هلك سنة خمس وتسعين، ثم ابنه عطية. وكان لعهد السلطان أبي سعيد وابنه أبو الحسن، وبعثه سفيراً إلى سلطان مصر الملك الناصر.

ولما هلك قام بأمره أخوه عيسى بن عطية، ثم ابن أخيهما زمام بن إبراهيم بن عطية. وبلغ إلى المبالغ من العز والترف والدالة

على السلطان والقرب من مجلسه إلى أن هلك، فولي أمره ابنه أحمد بن إبراهيم، ثم أخوه سليمان بن إبراهيم، ثم أخوهما مبارك على مثل حالهم أيام السلطان أبي عنان، ومن بعده إلى أن كانت الفتنة بالمغرب بعد مهلك السلطان أبي سالم، واستولى على المغرب أخوه عبد العزيز وأقطع ابنه أبا الفضل ناحية مراكش، فكان مبارك هذا معه.

ولما تقبض على أبي الفضل تقبض على مبارك وأودع السجن إلى أن غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد وقتله، فقتل معه مبارك هذا لما كان يعرف به من صحابته ومداخلته في الفتن كما يذكر في أخبار بني مرين، وولي ابنه محمد على قبيل الخلط، إلا أن الخلط، إلا أن الخلط اليوم دثرت كأن لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الأفيح زيادة للعز والدعة، فأكلتهم السنون وذهب بهم الترف والله غالب على أمره.

بنو جابر بن جشم

بنو جابر هؤلاء من عداد جشم بالمغرب، وربما يقال: إنهم من سدراتة إحدى فرق زناتة أو لواتة والله أعلم بذلك. وكان لهم أثر في فتنة يحيى بن الناصر بما كانوا معه من أحزابه، ولما هلك يحيى بن الناصر سنة ثلاث وثلاثين بعث الرشيد بقتل شيخهم قائد بن عامر وأخيه قائد، وولي بعده يعقوب بن محمد بن قيطون. ثم اعتقله يعْلو قائد الموحدين، بعثه المرتضى لذلك. وقدم يعقوب بن جرموق، وولي مشيخة بني جابر إسماعيل بن يعقوب بن قيطون، ثم تحيز بنو جابر هؤلاء من أحياء جشم إلى سفح الجبل بتادلاً وما إليها يجاورون هناك صناكة الساكنين بقشته وهضابه من البربر، فيسهلون إلى البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا دهمتهم مخافة من السلطان أو ذي غلبة.

والرئاسة فيهم لهذه العصور في ورديغة من بطونهم، أدركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن علي الورديغي، ثم هلك وأقيم مقامه الناصر ابنه ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان إلى سالم سنة ستين وسبعمائة، ونهضت إليهم عساكر السلطان فأمكنوا منه. ثم لحق بهم أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم عند فراره عن مراكش سنة ثمان وستين، ونازله السلطان عبد العزيز وأحيط به فلحق برابرة صناكة من قومه، ثم أمكنوا منه على مال حمل إليهم، ولحق بهم أثناء هذه الفتن الأمير عبد الرحمن يغلوسن على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب.

وطلبه عمر فأخرجوه عنهم وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة، فنكرته الدولة، وتقبض عليه وأودع السجن فمكث فيه سنين وتجافت الدول عنه من بعد ذلك، وأطلق عقالهم. ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ابن السلطان عبد العزيز وأودعه السجن، ونقلوا الرئاسة عن بني علي هؤلاء، والله يقلب الليل والنهار. وقد يزعم كثير من الناس أن ورديقة من بني جابر ليسوا من جشم، وأنهم بطن من بطون سدراتة إحدى شعوب لواتة من البربر، ويستدلون على ذلك بمواطنهم وجوارهم للبربر، والله أعلم بحقيقة ذلك.

العاصم ومقدم من الأثبج

هؤلاء الأحياء من الأثبج - كما ذكرنا في أنسابهم - ونزلوا تامستا معهم، وكانت لهم عزة وعلياء، إلا أن جشم أعز منهم لمكان الكثرة. وكان موطنهم بسيط تامستا، وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية شأن إخوانهم من جشم. وكان شيخ العاصم لعهد الموحدين، ثم عهد المأمون منهم حسن بن زيد، وكان له أثر في فتنة يحيى بن الناصر. ولما هلك سنة ثلاث وثلاثين أمر الرشيد بقتل حسن بن زيد مع قائد وفائد ابني عامر شيوخ بني جابر فقتلوا جميعاً. ثم صارت الرئاسة لأبي عياد وبنيه، وكان بينهم لعهد بني مرين عياد بن أبي عياد، وكان له تغلب في النفرة والاستقامة، فر إلى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة، وفر إلى السوس ورجع منه سنة سبع وسبعمائة، ولم يزل دأبه هذا. وكانت له ولاية مع يعقوب بن عبد الحق من قبل ذلك، ومقاماته في الجهاد مذكورة، وبقيت رئاسته في بنيه إلى أن انقرض أمرهم وأمر مقدم ودثروا وتلاشوا. والله خير الوارثين.

الخبر عن رياح وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة

كان هذا القبيل من أعز قبائل هلال وأكثرهم جمعاً عند دخولهم إفريقية وهم فيما ذكره ابن الكلبي: رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر، وكانت رئاستهم حينئذٍ لموسى بن يحيى الصنبري من بطون مرداس بن رياح. وكان من رجالاتهم لذلك العهد الفضل بن علي مذكور في حروبهم مع صنهاجة، وكانت بطونهم: عمرو ومرداس، وعلى كلهم بنو رياح وسعيد بن رياح

وخضر بن عامر بن رياح وهم الأخضر. ولمرداس بطون كثيرة: داود بن مرداس وصنبر بن حواز بن عقيل بن مرداس، وإخوتهم مسلم بن عقيل، ومن أولاد عامر بن يزيد بن مرداس بطون أخرى منهم: بنو موسى بن عامر وجابر بن عامر. وقد يقال: إنهم من لطيف كما قدمناه، وسودان ومشهور ومعاوية بنو محمد بن عامر بطون ثلاثة. واسم سودان علي بن محمد. وقد يقال أيضاً: إن المشاهرة وهم بنو مشهور بن هلال بن عامر من غير رياح والله أعلم.

والرئاسة على رياح في هذه البطون كلها لمرداس، وكانت عند دخولهم إفريقية في صنبر منهم. ثم صارت للدواودة أبناء داود بن مرداس بن رياح. ويزعم بنو عمر بن رياح أن أباهم كفله ورباه. وكان رئيسهم لعهد الموحدين مسعود بن سلطان بن زمام بن رديني بن داود، وكان يلقب البلط لشدته وصلابته. ولما نقل المنصور رياحاً إلى المغرب تخلف عساكر أخو مسعود في جماعات منهم لما بلاه السلطان من طاعته وانحياشه، وأنزل مسعوداً وقومه لبلاد الهبط ما بين قصور كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى إزغار البسيط الفسيح هناك إلى ساحل البحر الأخضر، واستقروا هنالك.

وفر مسعود بن زمام من بينهم في لمة من قومه سني تسعين وخمسمائة، ولحق بإفريقية واجتمع إليه بنو عساكر أخيه ولحقوا بطرابلس، ونزلوا على زغب وذياب يتقلبون بينهم. ثم نزع إلى خدمة قراقش، وحضر معه بقومه فتح طرابلس كما نذكره في أخبار قراقش. ثم رجع إلى ابن غانية الميورقي ولم يزل في خلافة ذلك إلى أن هلك، وقام بأمره من بعده ابنه محمد، وكانت له رئاسه وغناء في فتنة الميورقي مع الموحدين.

ولما غلب أبو محمد بن أبي حفص يحيى الميورقي مع الموحدين سنة ثماني عشرة على الحمة من بلاد الجريد، وقتل من العرب من قتل، كان فيمن قتله ذلك اليوم عبد الله بن محمد هذا وابن عمه أبو الشيخ بن حركات بن عساكر.

ولما هلك الشيخ أبو محمد رجع محمد بن مسعود إلى إفريقية وغلب عليها، واجتمع إليه حلف الأثبج ظواعن من الضحاك ولطيف فكاثروه واعتزوا به على أقتالهم من دريد وكرفة، إلى أن عجزت ظواعن الضحاك ولطيف عن الرحلة، وافترقوا في قرى الزاب وصدرة. وبقي محمد بن مسعود يتغلّب في رحلته وصارت رئاسة البدو في ضواحي إفريقية ما بين قسطيلية والزاب والقيروان والمسيلة له ولقومه. ولما هلك يحيى بن غانية من العرب من بني سليم والرياح سنة إحدى وثلاثين وستمائة كما نذكره انقطع ملكهم، واستغلظ سلطان أبي حفص.

واستقل منهم الأمير يحيى بن عبد الواحد بخطبة الخلافة عندما فسد كرسيها بمراكش، وافترق أتباع يحيى بن غانية من العرب من بني سليم والرياح، فنكره آل أبي حفص هؤلاء الدواودة، ومكانهم من الوطن بما سلف من عنادهم ومشايعتهم لابن غانية عدوهم فجاجأ الأمير أبو زكريا في بني سليم من مواطنهم لذلك العهد بقابس وطرابلس وما إليها. والتقدم فيهم يومئذ لمرداس والكعوب كما نذكره في أخبارهم، واصطنعوهم لمشايعة الدولة، وضربوا بينهم وبين قبائل رياح وأنزلوهم بالقيروان وبلاد قسطيلية، وكانت أبّة لمحمد بن مسعود ووفد عليه في بعض السنين وفد مرداس يطلبون المكيل وينزلون عليهم فشرهوا إلى نعمتهم وقاتلوهم عليها، وقتلوا رزق بن سلطان عم محمد بن مسعود، فكانت بينهم وبين رياح أيام وحروب حتى رحّلوهم عن جانب المشرق من إفريقية وأصاروهم إلى جانبها الغربي.

وملك الكعوب ومرداس من بني سليم ضواحي الجانب الشرقي كلها، من قابس إلى بونة ونفطة وامتاز الدواودة بملك ضواحي قسطنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ وواركلا وما وراءها من القفار في بلاد القبلة، وهلك محمد بن مسعود فولي رئاسته موسى بن محمد، وكان له صيت وغناء في قومه واعتزاز على الدولة.

ولما هلك يحيى بن عبد الواحد بويع ابنه محمد المستنصر الطائر الذكر المشهود له في الشهرة. وخرج عليه أخوه إبراهيم فلحق بالدواودة هؤلاء فبايعوه بجهات قسطنطينة واتفقوا على تقديمه، ونهض إليه المستنصر سنة ست وستين وستمائة ففروا أمامه وافترق جمعهم وتحيّز إليه بنو عساكر ابن سلطان منهم، ورئاستهم يومئذ لولد مهدي بن عساكر. ونبذوا العهد إلى ابراهيم بن يحيى ولحقوا بتلمسان. وأجاز البحر إلى الأندلس، وأقام بها في جوار الشيخ ابن الأحمر.

ثم هلك موسى بن محمد وولي رئاسته ابنه شبل بن موسى، واستطال على الدولة وكثر عيثهم، فنبذ المستنصر عهدهم، ونهض إليه بعساكره وجموعه من الموحدين والعرب من بني سليم وأولاد عساكر إخوانهم، وعلى مقدمته الشيخ أبو هلال عياد بن محمد الهنتاني وكان يومئذ أميراً ببجاية. وحاول عليهم فاستقدم رؤساءهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخاه يحيى، وسباع بن يحيى بن دريد ين مسعود، وحداد بن مولاهم بن خنفر بن مسعود، وفضل بن ميمون بن دريد بن مسعود، ومعهم دريد بن تازير شيخ أولاد نابت من كرفة، فقبض عليهم لحين قدومهم وضرب أعناقهم في مصرع واحد ابن راية حيث بايعوا أبا إسحاق

أخاه والقاسم بن أبي زيد بن أبي حفص النازع إليهم لطلب الخروج على الدولة.

وافترقت ظواعنهم وفروا أمامه، واتبعهم إلى آخر الزاب. وترك شبل بن موسى سباعاً ابنه طفلاً صغيراً، فكفله عمه مولاهم بن موسى، ولم تزل الرئاسة بهم، وترك سباع ابنه يحيى أيضاً طفلاً فكفله عمه طلحة بن يحيى، ولحق فلهّم بملوك زناتة بالمغرب، فأولاد محمد لحقوا بيعقوب بن عبد الحق بفاس، وأولاد سباع بن يحيى لحقوا بيغمراسن بن زيان بتلمسان فكسوهم وحملوهم، فارتاشوا وقاتلوا واحتالوا وزحفوا إلى مواطنهم فتغلبوا على أطراف الزاب من واركلان وقصور ريغ وصيروها سهاماً بينهم، وانتزعوها للموحدين فكان آخر عهدهم بملكها.

ثم تقدموا إلى بلاد الزاب وجمع لهم عاملها أبو سعيد عثمان بن محمد بن عثمان ويعرف بابن عتوا من رؤساء الموحدين. وكان منزله بمقرة فزحف إليهم بمكانهم من الزاب، وأوقعوا به وقتلوه بقلطاوة، وغلبوا على الزاب وضواحيه لهذا العهد، ثم تقدموا إلى جبل أوراس فغلبوا على من به من القبائل، ثم تقدموا إلى التل وجمع لهم من كان به من أولاد عساكر، وعليهم موسى بن ماضي بن مهدي بن عساكر، فجمع قومه ومن في حلفهم من عياض وغيرهم.

وتزاحفوا فغلبهم أولاد مسعود وقتلوا شيخهم موسى بن ماضي، وتولوا الوطن بما فيه، ثم تلافت الدولة أمرهم بالاصطناع والاستمالة وأقطعوهم ما غلبوا عليه من البلاد بجبل أوراس والزاب، ثم الأمصار التي بالبسيط الغربي من جبل أوراس المسمى عندهم بالحصنة وهي نقاوس ومقرة والمسيلة، واختص أقطاع المسيلة بسباع بن شبل بن يحيى حتى صارت لعلي بن سباع بن يحيى من بعد ذلك، فهي في قسم بنيه وسهامهم.

واختص أقطاع مقرة بأحمد بن عمر بن محمد، وهو ابن عم شبل بن موسى بن سباع، ونقاوس بأولاد عساكر. ثم هلك سباع بن شبل وقام بأمرهم ابنه عثمان، ويعرف بالعاكر، فنازعه الرئاسة بنو عمه علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود بن دريد بن مسعود وفرقوا جماعة بني مسعود هؤلاء، بعد أن كانوا جميعاً وصاروا فريقين: أولاد محمد بن مسعود، وأولاد سباع بن يحيى وسلمان بن علي بن سباع بن يحيى. ولم يزالوا كذلك لهذا العهد، ولهم تغلب على ضواحي بجاية وقسطنطينة ومن بها من سدويكش وعياض وأمثالهم، ورئاسة أولاد محمد الآن ليعقوب بن علي بن أحمد، وهو كبير الدواودة بمكانه وسنه وله شهرة وذكر ومحل من السلطان متوارث.

ورئاسة أولاد سباع في أولاد علي بن سباع، وأولاد عثمان بن سباع، وأولاد علي أشرف منهم وأعز بالكثرة والعدد ورئاستهم في ولد يوسف بن سليمان بن علي بن سباع ويرادفهم أولاد يحيى بن علي بن سباع. واختص أولاد محمد بنواحي قسطنطينة وأقطعتهم الدول كثيراً من أريافها. واختص أولاد سباع بنواحي بجاية وأقطاعهم فيها قليل لمنعة بجاية وضواحيها عن ضيم العرب، ولغلبهم بالجبال المطيفة بها وتوعر مسالكها على رواحل الناجعة. وأما ريغ وواركلا فقسمت بينهم منذ عهد سلفهم كما قلناه.

وأما الزاب فالجانب الغربي منه وقاعدته طولقة لأولاد محمد وأولاد سباع بن يحيى، وكانت لأبي بكر بن مسعود، فلما ضعف بنوه ودثروا اشتراها منهم علي بن أحمد شيخ أولاد محمد وسليمان بن علي شيخ أولاد سباع. واتصلت بينهم بسببها الفتنة وصارت في مجالات أولاد سباع بن يحيى فصار غلب سليمان وبنيه عليها أكثر.

والجانب الوسط وقاعدته بسكرة لأولاد محمد وفي مجالاتهم وليعقوب بن علي على عامله بسبب ذلك سلطان وعزة، وله به تمسك وإليه انحياش في منعته من الدولة واستبداده بوطنه، وحماية ضواحيه من عبث الأعراب وفسادهم غالب الأوقات.

وأما الجانب الشرقي من الزاب وقاعدته بادس وتنومة فهو لأولاد نابت رؤساء كرفة بما هو من مجالاتهم، وليس هو من مجالات رياح. إلا أن عمال الزاب تأخذ منه في الأكثر جباية غير مستوفاة بعسكر لها إلا في بعض الأحايين ببادية رياح بإذن من كبيرهم يعقوب وإشراكه في الأمر. وبطون رياح كلها تبع لهؤلاء الدواودة ومقتسمون عليهم وملتمسون مما في أيديهم، وليس لهم في البلاد ملك يستولون عليه، وأشدهم قوة وأكثرهم جمعاً بطون سعيد ومسلم والأخضر، يبعدون النجعة في القفار والرمال، ويسخرون الدواودة في فتنة بعضهم مع بعض ويختصون بالحلف فريقاً دون آخر.

فسعيد أحلاف لأولاد محمد سائر أيامهم إلا قليلاً من الأحيان ينابذونهم ثم يراجعونهم، ومسلم والأخضر أحلاف لأولاد سباع كذلك إلا في بعض الأحايين.

فأما سعيد فرئاستهم لأولاد يوسف بن زيد منهم في ولد ميمون بن يعقوب بن عريف بن يعقوب بن يوسف، وأردافهم أولاد عيسى بن رحاب بن يوسف، وهم ينتسبون بزعمهم إلى بني سليم في أولاد القوس من سليم. والصحيح من نسبهم أنهم من

رياح بالحلف والموطن ومع أولاد يوسف هؤلاء لفائف من العرب يعرفون بالمخادمة والغيوث والفجور، فأما المخادمة والغيوث من أبناء مخدم فمن ولد مشرف بن أثبج، وأما الفجور فمنهم من البرابر لواتة وزناتة إحدى بطونهم، وفيهم من نفاث، فأما نفاث فمن بطون جذام وسيأتي ذكرهم.

وأما زناتة فهم من بطون لواتة كما ذكرناه في بني جابر وتادلاً كثير منهم وأجاز منهم إلى العدوة لعهد بني الأحمر سلطان الزناري، وكانت له في الجهاد آثار. وذكروا أن منهم بأرض مصر والصعيد كثيراً. وأما أحلاف أولاد محمد من الدواودة فبطن من رباب بن سودات بن عامر بن صعصعة، اندرجوا في أعداد رياح، ولهم معهم ظعن ونجعة، ولهم مكان من حلفهم ومظاهرتهم. وأما أحلاف أولاد سباع من مسلم والأخضر فقد قدمنا أن مسلماً من أولاد عقيل بن مرداس بن رياح أخو حوّاز بن رياح بعضهم ينتسب إلى الزبير بن العوام وهو غلط، ويقول بعض من ينكر عليهم: إنما هو نسب إلى الزبير بن المهاية الذين هم من بطون عياض كما ذكرناه. ورئاسته في أولاد جماعة بن مسلم بن حمّاد بن مسلم بين أولاد تساكر بن حامد بن كسلان بن غيث بن رحال بن جماعة. وبين أولاد بن زرارة بن موسى بن قطران بن جماعة.

وأما الأخضر فيقولون: إنهم من ولد خضر بن عامر وليس عامر بن صعصعة؛ فإن أبناء عامر بن صعصعة معروفون كلهم عند النسابين، وإنما هو واللّه أعلم عامر آخر من أولاد رياح. ولعله عامر بن زيد بن مرداس المذكور في بطونهم، أولهم من الخضر الذين هم ولد مالك بن طريف بن مالك بن حفصة بن قيس عيلان. ذكرهم صاحب الأغاني وقال: إنما سموا الخضر لسوادهم، والعرب تسمي الأسود أخضر. قال: وكان مالك شديد السمرة فأشبهه ولده. ورئاستهم في أولاد تامر بن علي بن تمام بن عمار بن خضر بن عامر بن رياح، واختصت مرين بأولاد عامر ولد عامر بن صالح بن عامر بن عطية بن تامر. وفيهم بطن آخر لزائدة بن تمام بن عمار. وفي رياح أيضاً بطن من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، ويظعنون مع باديتهم.

وأما من نزل من رياح ببلاد الهبط حيث أنزلهم المنصور، فأقاموا هنالك بعد رحلة رئيسهم مسعود بن زنان بتلك المواطن إلى أن انقرضت دولة الموحدين، وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون وقتله سنة ثلاثين وستمائة. ولما تغلب بنو مرين على ضواحي المغرب ضرب الموحدون على رياح هؤلاء البعث مع عساكرهم، فقاموا بحماية ضواحيهم وتحيز لهم بنو عسكر بن محمد بن محمد من بني مرين حين كانوا حرباً لإخوانهم بني حمامة بن محمد، سلف الملوك منهم لهذا العهد، فكانت بين الفريقين جولة قتل فيها عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن جماعة أبو الملك وابنه إدريس، فأوجدوا السبيل لبني مرين على أنفسهم في طلب الترة والدماء، فأثخنوا فيهم واستلحموهم قتلاً وسبياً مرة بعد أخرى.

وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت حافد يوسف بن يعقوب سنة سبع وسبعمائة تتبعهم بالقتل إلى أن لحقوا برؤوس الهضاب وأسنمة الربى المتوسطة في المرج المستبحر بازغار فصاروا إلى عدد قليل، ولحقوا بالقبائل الغارمة. ثم دثروا وتلاشوا شأن كل أمة واللّه وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين لا رب غيره ولا معبود سواه، وهو نعم المولى ونعم النصير، عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير.

نسأله سبحانه وتعالى من فيض فضله العميم، ونتوسل إليه بجاه نبيه الكريم، أن يرزقنا إيماناً دائماً، وقلباً خاشعاً، وعلماً نافعاً، ويقيناً صادقاً، وديناً قيماً والعافية من كل بلية، وتمام العافية، ودوام العافية، والشكر على العافية، والغنى عن الناس، وأن يحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأن يجيرنا من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة، وأن يرزقنا من فضله وكرمه إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ومرافقة نبينا وسيدنا محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد بمنّه وكرمه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

الخبر عن سعادة القائم بالسنّة في رياح ومآل أمره وتصاريف أحواله

كان هذا الرجل من مسلم إحدى شعوب رياح، ثم من رحمان منهم. وكانت أمه تدعى حضيبة وكانت في أعلى مقامات العبادة والورع، ونشأ هو متحلاً للعبادة والزهد، وارتحل إلى المغرب ولقي شيخ الصالحين والفقهاء لذلك العهد بنواحي تازة أبا إسحاق التسولي، وأخذ عنه ولزمه، وتفقّه عليه، ورجع إلى وطن رياح بفقه صحيح وورع وافر، ونزل طولقة من بلاد الزاب، وأخذ بنفسه في تغيير المنكر على أقاربه وعشيرته ومن عرفه أو صحبه، فاشتهر بذلك وكثرت غاشيته لذلك من قومه وغيرهم.

ولزم صحابته منهم أعلام عاهدوه على التزام طريقته كان من أشهرهم: أبو يحيى بن أحمد بن عمر شيخ بني محمد بن مسعود من الدواودة، وعطية بن سليمان بن سباع شيخ أولاد سباع بن يحيى منهم، وعيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد إدريس من

أولاد عساكر منهم، وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة بن يحيى بن دريد بن مسعود منهم، وهجرس بن علي من أولاد يزيد بن زغبة، ورجالات من العطاف من زغبة في كثير من أتباعهم والمستضعفين من قومهم.

فكثر بذلك تابعه واستظهر بهم على شأنه في إقامة السنة وتغيير المنكر على من جاء به. واشتد على قاطع الطريق من شرّار البوادي، ثم تخطى ذلك إلى العمار فطلب عامل الزاب يومئذ منصور بن فضل بن مزني بإعفاء الرعايا من المكوس والظلامات فامتنع من ذلك، واعتزم على الإيقاع به، فحال دونه عشائر أصحابه، وبايعوه على إقامة السنة والموت دونه في ذلك.

وآذنهم ابن مزني في الحرب ودعا لذلك أمثالهم ونظراءهم من قومهم. وكان لذلك العهد علي بن أحمد بن عمر بن محمد قد قام برئاسة أولاد محمد، وسليمان بن علي بن سباع قد قام برئاسة أولاد يحيى، واقتسموا رئاسة الدواودة فظاهروا ابن مزني على مدافعه سعادة وأصحابه المرابطين من إخوانهم، وكان أمر ابن مزني والزاب يومئذ راجعاً إلى صاحب بجاية من بني أبي حفص، وهو الأمير خالد ابن الأمير أبي زكريا، والقائم بدولته أبو عبد الرحمن بن عمر، وبعث إليه ابن مزني في المدد فأمدّه بالعساكر والجيوش، وأوعز إلى أهل طولقة بالقبض على سعادة فخرج منها، وابتنى بأنحائها زاوية، ونزل بها هو وأصحابه.

ثم جمع أصحابه المرابطين وكان يسميهم السُنّية وزحفوا إلى بسكرة وحاصروا ابن مزني سنة ثلاث وسبعمائة وقطعوا نخيلها، وامتنعت عليهم فرحلوا عنها. ثم أعادوا حصارها سنة أربع وسبعمائة، وامتنعت. ثم انحدر أصحاب سعادة من الدواودة إلى مشاتيهم سنة خمس وسبعمائة، وأقام المرابط سعادة بزاويته من زاب طولقة، وجمع من كان إليه من المرابطين المتخلفين عن الناجعة، وغزا مليلي وحاصرها أياماً، وبعثوا بالصريخ إلى ابن مزني والعسكر السلطاني مقيم عندهم ببسكرة، فأركبهم ليلاً مع أولاد حرب من الدواودة، وصبحوا سعادة وأصحابه على مليلي فكانت بينهم جولة قتل فيها سعادة واستلحم الكثير من أصحابه وحمل رأسه إلى ابن مزني.

وبلغ الخبر إلى أصحابه بمشاتيهم فظهروا إلى الزاب، ورؤساؤهم أبو يحيى بن أحمد بن عمر شيخ أولاد محرز، وعطية بن سليمان شيخ أولاد سباع، وعيسى بن يحيى شيخ أولاد عساكر، ومحمد بن حسن شيخ أولاد عطية، ورئاستهم جميعاً راجعة لأبي يحيى بن أحمد. ونازلوا بسكرة وقطعوا نخيلها وتقبضوا على عمال ابن مزني فأحرقوهم في النار، واتسع الخرق بينهم وبينه، ونادى ابن مزني في أوليائه من الدواودة، واجتمع إليه علي بن أحمد شيخ أولاد محمد، وسليمان بن علي شيخ أولاد سباع وهما يومئذ أجلاّء الدواودة، وخرج ابنه علي بينهم بعساكر السلطان، وتزاحفوا بالصحراء سنة ثلاث عشرة فغلبهم المرابطون، وقتل علي بن مزني وتقبض على علي بن أحمد فقادوه أسيراً، ثم أطلقه عيسى بن أحمد رعياً لأخيه أبي يحيى بن أحمد.

واستفحل أمر هؤلاء السنّية ما شاء اللّه أن يستفحل. ثم هلك أبو يحيى بن أحمد وعيسى بن يحيى، وخلت أحياء أولاد محرز من هؤلاء السنّية، وتفاوض السنّية فيمن يقيمونه بينهم في الفتيا في الأحكام والعبادات، فوقع نظرهم على الفقيه أبي عبد اللّه محمد بن الأزرق من فقهاء مقرة. وكان أخذ العلم ببجاية على أبي محمد الزواوي من كبار مشيختها، فقصدوه بذلك وأجابهم وارتحل معهم، ونزل على حسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة، واجتمع إليه السنية واستفحل بهم جانب أولاد سباع، واجتمعوا على الزاب وحاربوا علي بن أحمد طويلاً.

وكان السلطان أبو تاشفين حين كان يجلب على أوطان الموحّدين يجيب عليهم أولياءهم من العرب، يبعث إلى هؤلاء السنية بالجوائز يستدعي بذلك ولايتهم، ويبعث معهم للفقيه أبي الأزرق بجائزة معلومة في كل سنة. ولم يزل ابن الأزرق مقيماً لرسمهم إلى أن غلبهم على أمرهم ذلك علي بن أحمد شيخ أولاد محمد، وهلك حسن بن سلامة وانقرض أمر السنية من رياح، ونزل ابن الأزرق بسكرة فاستدعاه يوسف بن مزني لقضائها تفريقاً لأمر السنية، فأجابه ونزل عنده، فولاّه القضاء ببسكرة إلى أن هلك سنة...

ثم قام علي بن أحمد بهذه السنية بعد حين ودعا إليها، وجمع لابن مزني سنة أربعين وسبعمائة، ونزل بسكرة وجاءه مدد أهل ريغ، وأقام محاصراً لها أشهراً، وامتنعت عليه فأقلع عنها وراجع يوسف بن مزني وصاروا إلى الولاية إلى أن هلك علي بن أحمد وبقي من عقب سعادة في زاويته بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزني الرعاية، وتعرّف لهم أعراب الفلاة من رياح حقاً في إجازة من يجيزونه من أهل السابلة. وبقي هؤلاء الدواودة ينزع بعضهم أحياناً إلى إقامة هذه الدعوة، فيأخذون بها أنفسهم غير متّصفين من الدين والتعمق في الورع بما يناسبها ويقضي حقها، بل يجعلونها ذريعة لأخذ الزكوات من الرعايا، ويتظاهرون بتغيير المنكر يسرون بذلك حسواً في ارتقاء، فينحل أمرهم بذلك، وتخفق مساعيهم، ويتنازعون على ما تحصل بأيديهم ويفترقون على غير شيء. واللّه متولي الأمور لا إله إلا هو سبحانه يحيى ويميت.

الخبر عن زغبة وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة

هذه القبيلة إخوة رياح، ذكر ابن الكلبي: أن زغبة ورياحاً أبناء أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر هكذا نسبهم، وهم لهذا العهد مما يزعمون أن عبد الله يجمعهم، بكسر دال عبد، ولم يذكر ابن الكلبي ذلك، وذكر عبد الله في ولد هلال، فلعل انتسابهم إليه بما كفلهم واشتهر دونهم، وكثيراً ما يقع مثل هذا في أنساب العرب أعني انتساب الأبناء لعمّهم أو كافلهم والله أعلم.

وكانت لهم عزّة وكثرة عند دخولهم إفريقية وتغلبوا على نواحي طرابلس وقابس، وقتلوا سعيد بن خزرون من ملوك مغراوة بطرابلس. ولم يزالوا بتلك الحال إلى أن غلب الموحدون على إفريقية، وثار بها ابن غانية، وتحيزت إليه أفاريق هلال بن رياح وجشم، فنزعت زغبة إلى الموحدين، انحرفوا عن ابن غانية فرعوا له حق نزوعهم، وصاروا يداً واحدةً مع بني يادين من زناتة في حماية المغرب الأوسط من ابن غانية وأتباعه، واتصلت مجالاتهم ما بين المسيلة وقبلة تلمسان في القفار، وملك بنو بادين وزناتة عليهم التلول.

ولما ملكت زناتة بلاد المغرب الأوسط ونزلوا بأمصاره، دخل زغبة هؤلاء التلول وتغلبوا فيها، ووضعوا الأتاوة على الكثير من أهلها بما جمعهم وزناتة من البداوة وعصبية الحلف، وخلا قفرهم من ظعونهم وحمايتهم فطرقته عرب المعقل المجاورون لهم من جانب المغرب، وغلبوا على من وجدوا من مخلف زغبة هؤلاء بتلك القفار، وجعلوا عليهم خفارة يأخذونها من إبلهم، ويختارون عليهم البكرات منها.

وأنفوا لذلك وتآمروا وتعاقدوا على دفع هذه الهضمة، وتولى كبرها من بطونهم ثوابة بن جوثة من سديد كما نذكره بعد، فدفعوهم عن أوطانهم من ذلك القفر. ثم استفحلت دولة زناتة وكفحوا العرب عن وطء تلولهم لما انتشأ عنهم من العبث والفساد فرجعوا إلى صحرائهم، وملكت الدولة عليهم التلول والحبوب، واستصعبت الميرة وهزل الكراع، وتلاشت أحوالهم وضربت عليهم البعوث، وأعطوا الأتاوة والصدقة حتى إذا فشل ريح زناتة وداخل الهرم دولتهم، وانتزى الخوارج من قرابة الملك بالقاصية وجدوا السبيل بالفتن إلى طروق التلول، ثم إلى الغلب فيها، ثم غالبوا زناتة عليها فغلبوهم في أكثر الأحايين، وأقطعتهم الدولة الكثير من نواحي المغرب الأوسط وأمصاره في سبيل الاستظهار بهم، فتمشت ظعونهم فيه وملكوه من كل جانب كما نذكره، وبطون زغبة هؤلاء يتعددون من يزيد وحصين ومالك وعامر وعروة، وقد اقتسموا بلاد المغرب الأوسط كما نذكر في أخبارهم.

بنو يزيد بن زغبة

كان لبني يزيد هؤلاء محل من زغبة بالكثرة والشرف، وكان للدول به عناية، فكانوا لذلك أول من أقطعته الدول من العرب التلول والضواحي. أقطعهم الموحدون في أرض حمزة من أوطان بجاية مما يلي بلاد رياح والأثابج فنزلوا هنالك، ولجوا الثنايا المفضية إلى تلول حمزة والدهوس وأرض بني حسن ونزلوها ريفاً وصحراء، وصار للدولة استظهار بهم على جباية تلك الرعايا من صنهاجة وزوارة، فلما عجزت عساكر بجاية من جبايتهم دفعوهم لها فأحسنوا في اقتضائها وزادت الدول بهم تكرمة وعناية بذلك، وأقطعتهم الكثير من تلك الأوطان. ثم غلب زناتة الموحدون على تلك الأوطان فاقتطعوها عن أوطان بجاية وأصاروها عن ممالكهم.

فلما فشل ريح زناتة وجاش بحر فتنتهم مع العرب استبد بنو يزيد هؤلاء بملكة تلك الأوطان، وغلبوا عليها من جميع جوانبها، وفرغوا لجبايتها واقتضاء مغارمها، وهم على ذلك لهذا العهد. وهم بطون كثيرة منهم: حميان بن عقبة بن يزيد، وجواب وبنو كرز وبنو موسى والمرابعة والخشنة. وهم جميعاً بنو يزيد بن عيسى بن زغبة وإخوانهم عكرمة بن عبس من ظعونهم، وكانت الرئاسة في بني يزيد لأولاد لاحق، ثم لأولاد معافى، ثم صارت في بيت سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبد الله بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن مهدي بن يزيد بن عيسى بن زغبة، وهم يزعمون أنه مهدي بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، نسب تأباه رئاستهم على غير عصبتهم، وقد مر ذلك قبل.

وربما نسبهم آخرون إلى سلول، وهم بنو مرة بن صعصعة أخي عامر بن صعصعة وليس بصحيح كما قلناه. وقد يقال: إن سلولاً وبني يزيد إخوة. ويقال لهم جميعاً: أولاد فاطمة. وبنو سعد هؤلاء ثلاثة بطون: بنو ماضي بن رزق بن سعد، وبنو منصور بن سعد، وبنو زغلي بن رزق بن سعد، واختصت الرئاسة على الظعون والحلول ببني زغلي. وكانت لريان بن زغلي فيما علمناه. ثم من بعده لأخيه ديفل، ثم لأخيهما أبي بكر، ثم لابنه ساسي بن أبي بكر، ثم لابنه معتوق بن أبي بكر، ثم لموسى ابن عمهم أبي الفضل بن زغلي ثم لأخيه أحمد بن أبي الفضل، ثم لأخيهما

علي بن أبي الفضل، ثم لأبي الليل بن أبي موسى بن أبي الفضل، وهو رئيسهم لهذا العهد. وتوفي سنة إحدى وتسعين وخلفه في قومه ابنه.

وكان من أحلافهم فيما تقدم بنو عامر بن زغبة يظعنون معهم في مجالاتهم ويظاهرونهم في حروبهم. وكانت بين رياح وزغبة فتنة طويلة لعهد موسى بن محمد بن مسعود، وابنه شبل أيام المستنصر بن أبي حفص. فكان بنو يزيد هؤلاء يتولون كبرها لمكان الجوار. وكان بنو عامر أحلافهم فيها وظهراؤهم، وكان هم على مظاهرتهم وضيعة من الزرع تسمى الغرارة وهي ألف غرارة من الزرع، وكان سببها فيما يزعمون: أن أبا بكر بن زغلي غلبته رياح على الدهوس من وطن حمزة أزمان فتنته معهم، فاستصرخ لبني عامر، فجاءه أولاد شافع وعليهم صالح بن بالغ، وبنو يعقوب وعليهم داود بن عطاف، وحميد وعليهم يعقوب بن معروف، واسترجع وطنه وفرض لهم على وطنه ألف غرارة من الزرع، واستمرت لبني عامر.

فلما ملك يغمراسن بن زيان تلمسان ونواحيها، ودخلت زناتة إلى التلول والأرياف. كثر عيث المعقل وفسادهم في وطنها فجاء يغمراسن ببني عامر هؤلاء من مجالاتهم بصحراء بني يزيد، وأنزلهم في جواره بصحراء لتمسان كياداً للمعقل، ومزاحمةً لهم بأقيالهم فنزلوا هنالك. وتبعتهم حميّان من بطون بني يزيد بما كانوا بطوناً وناجعة، ولم يكونوا حلولاً، فصاروا في عداد بني عامر لهذا العهد. وتولت بنو يزيد بلاد الريف وخصبه فأوطن فيه أكثرهم، وقلّ أهل الناجعة منهم إلا أفاريق من عكرمة وبعض بطون عيسى يظعنون مع أولاد زغلي في قفرهم.

وأقصروا عن الظعن في القفر إلا في القليل ومع أحلافهم من ظعون رياح أو زغبة، وهم على ذلك لهذا العهد. ومن بطون بني يزيد بن عيسى زغبة هؤلاء بنو خشين وبنو موسى وبنو معافى وبنو لاحق. وكانت الرئاسة لهم ولبني معافى قبل بني سعد بن مالك، وبنو جواب وبنو كرز وبنو مربع وهم المرابعة، وهؤلاء كلهم بطن حمزة لهذا العهد. ومن المرابعة حيّ ينجعون بضواحي تونس لهذا العهد، وغلب عليهم بسبب زغبة والله الخلاق العليم.

أبو الفضل بن موسى بن زغلي بن رزق بن سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبد الله بن سعيد بن محمد بن عبد الله.

حصين بن زغبة

وأما أولاد حصين بن زغبة فكانت مواطنهم بجوار بني يزيد إلى المغرب عنهم. كانوا حياً حلوا هنالك، وكان الريف للحاذي من تيطري ونواحي المرية مواطن للثعالبة من بطون البعوث، ويأخذون منهم الأتاوات والصدقات. حتى إذا ذهب سلطان بني توجين من أرض المريّة وغلبهم عليهم بنو عبد الواد ساموا حصيناً هؤلاء خطة الخسف والذل، وألزموهم الوضائع والمغارم، واستلحموهم بالقتل وهضموهم بالتكاليف، وصيروهم في عداد القبائل الغارمة وبأثر ذلك، كان تغلّب بني مرين على جميع زناتة كما نذكره، فكانوا لهم أطوع، ولدولتهم أذلّ. فلما عاد بنو عبد الواد إلى ملكهم لعهد أبي حمّو موسى بن يوسف بعد مهلك السلطان أبي عنّان هبت ريح العزّ للعرب، وفشل ريح زناتة، ولحق دولتهم ما يلحق الدول من الهرم، ونزل حصين هؤلاء بتيطري وهو جبل أشير وملكوه وتحصنوا به.

وكان أبو زيّان ابن عم السلطان أبي حمّو لما ملك من قبله لحق بتونس مفلتاً حبالة بني مرين، وخرج طالباً لملك أبيه، ومنازلاً لابن عمّه هذا، ونزل في خبر طويل نذكره بقبائل حصين هؤلاء أحوج ما كانوا لمثلها لما راموه من خلع ما كان بأعناقهم من الذل وطرق الاهتضام والعسف فتلقوه بما يجب له. ونزل منهم بأكرم نزل وأحسن مثوى. وبايعوه وأرسلوا إخوانهم وكبراءهم من رؤساء زغبة بني سويد وبني عامر فأصفقوا عليه، وترددت عساكر السلطان أبي حمّو وبني عبد الواد إليهم فتحصنوا بجبل تيطري وأوقعوا به.

ونهض إليهم السلطان أبو حمّو بعساكره فقتلوه ونالوا منه، ونالت زغبة بذلك ما أرادوه من الاعتزاز على الدولة آخر الأيام، وتملكوا البلاد إقطاعات وسهماناً، ورجع أبو زيّان إلى رياح فنزل بهم على سلم عقد مع ابن عمه وبقي لحصين أثر الاعتزاز من جرّائه. وأقطعتهم الدولة ما ولوه من نواحي المرية وبلاد صنهاجة. ولحصين هؤلاء بطنان عظيمان: جندل وخراش، فمن جندل أولاد خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن جندل، ورئاستهم في بني خليفة بن سعد ليلي، وسيدهم أولاد خشعة بن جندل.

وكانت رئاستهم على جندل قبل أولاد الخليفة، ورئيسهم الآن علي بن صالح بن دياب بن مبارك بن يحيى بن مهلهل بن شكر بن عامر بن محمد بن خشعة. ومن خراش أولاد مسعود بن مظفر بن محمد الكامل بن خراش ورئاستهم لهذا العهد في ولد رحاب بن عيسى بن أبي بكر بن زمام بن مسعود، وأولاد فرج بن مظفر، ورئاستهم في بني خليفة بن عثمان بن موسى بن فرج، وأولاد طريف بن معبد بن خراش، ويعرفون بالمعابدة، ورئاستهم

في أولاد عريف بن طريف لزيّان بن بدر بن مسعود بن معرّف بن عريف. ولمصباح بن عبدالله بن كثير بن عريف. وربما انتسب أولاد مظفر من خراش إلى بني سليم ويزعمون أن مظفر بن محمد الكامل جاء من بني سليم ونزل بهم والله أعلم بحقيقة الأمر.

بنو مالك بن زغبة

وأما بنو مالك بن زغبة فهم بطون ثلاثة: سويد بن عامر بن مالك والحرث بن مالك وهم بطنان للعطاف بن ولد عطاف بن رومي بن حارث. والديالم من ولد ديلم بن حسن بن إبراهيم بن رومي فأما سويد فكانوا أحلافاً لبني بادين قبل الدولة. وكان لهم اختصاص ببني عبد الواد، وكانت لهم لهذا العهد أتاوات على بلد سيرات والبطحاء وهوارة، ولما ملك بنو بادين تلول المغرب الأوسط وأمصاره كان قسم بني توجين منه سياج التلول القبلية ما بين قلعة سعيدة في الغرب إلى المرية في الشرق، فكان لهم قلعة ابن سلامة ومنداس وأنشريس ورينة وما بينهما، فاتصل جوارهم لبني مالك هؤلاء في القفر والتل.

ولما ملك بنو عبد الواد تلمسان ونزلوا بساحتها وضواحيها، كان بنو سويد هؤلاء أخص بحلفهم وولايتهم من سائر زغبة. وكانت لسويد هؤلاء بطون مذكورون من فليتة وشبانة ومجاهر وجوثة، كلهم من بني سويد. والحساسنة بطن من شبانة إلى حسان بن شبانة وغفير وشافع وما لفّ، كلهم بنو سليمان بن مجاهر وبو رحمة وبو كامل، وحمدان بنو مقدر بن مجاهر، ويزعم بعض نسابتهم أن مقدراً ليس بجد لهم، وإنما وضع ذلك أولاد بو كامل.

وكانت رئاستهم لعهدهم في يغمراسن وما قبله في أولاد عيسى بن عبد القوي بن حمدان، وكانوا ثلاثة: عمر بن مهدي وعطية وطراد. واختص مهدي بالرئاسة عليهم، ثم ابنه سيف بن مهدي، ثم أخوه عمر بن مهدي، وأقطع يغمراسن يوسف بن مهدي ببلاد البطحاء وسيرات وأقطع عنتر بن طراد بن عيسى قرارة البطحاء وكان يقتضون أتاواتهم على الرعايا ولا يناكرهم فيها، وربما خرج في بعض خروجه واستخلف عمر بن مهدي على تلمسان وما إليها من ناحية المشرق.

وفي خلال ذلك خلت مجالاتهم بالقفر من ظعونهم وناجعتهم، إلا أحياء من بطونهم قليلي العدد من الجوثة وفليتة وما لفّ وغفير وشافع وأمثالهم فغلب عليهم هنالك المعقل، وفرضوا عليهم أتاوةً من الإبل يعطونها ويختارونها عليهم من البكرات. وكان المتولي لأخذها منهم من شيوخ المعقل أبو الريش بن نهار بن عثمان بن عبيد الله، وقيل: علي بن عثمان أخو نهار. وقيل إن البكرات إنما فرضها للمعقل على قومه عامر بن جميل لأجل مظاهرة له على عدوه، وبقيت للمعقل عادة إلى أن تمشت رجالات من زغبة في نقض ذلك، وغدروا برجال المعقل ومنعوا تلك البكرات.

أخبرني يوسف بن علي، ثم غانم عن شيوخ قومه من المعقل أن سبب البكرات وفرضها على زغبة كما ذكرناه، وأما سبب رفعها فهو أن المعقل كانوا يقولون: غرامتها إدالة بينهم، فلما دالت لعبيد اللّه الدولة في غرامتها جمع ثوابة بن جوثة قومه وحرضهم على منعها، فاختلفوا واحتربوا مع عبيد اللّه ودفعوهم إلى جانب الشرق، وحالوا بينهم وبين أحيائهم وبلادهم، وطالت الحرب ومات فيها بنو جوثة وابن مرمح من رجالاتهم، وكتب بنو عبد اللّه إلى قومهم من قصيدة:

بني معقل إن لم تصرخونا على العدو ... فلا بدّ لكم تذكر ما طرا لنا
قتلنا ابن جوثة والهمّام بن مرهج ... على الوجه مكبوب وذا من فعالنا

فاجتمعوا وجاؤوا إلى قومهم، وفرت أحياء زغبة، واجتمع بنو عبيد اللّه وإخوانهم من ذوي منصور وذوي حسان، وارتفع أمر البكرات من زغبة لهذا العهد. ثم حدث بين يغمراسن وبينهم فتنة هلك فيها عمر بن مهدي وارتحلوا وأنزلوهم عن التلول والأرياف من بلاد عبد الواد إلى القفر المحاذي لأوطان بني توجين على المهادنة والمصاهرة، فصاروا لهم حلفاء على بني عبد الواد، ومن عجز منهم عن الظعن نزل ببسائط البطحاء. وسارت بطونهم كلها من شبابة ومجاهر وغفير وشافع ومالف وبو رحمة وبو كامل، ونزل محيسن بن عمارة وأخوه سويد بضواحي وهران، فوضعت عليهم الأتاوات والمغارم وصاروا من عداد الرعايا أهل الجباية، وولّي عثمان بن عمر أمر الظعون من سويد ثم هلك وقام بأمره ابنه ميمون وغلب عليه أخوه سعيد واستبد.

وكان بين سويد وبين بني عامر بن زغبة فتنة اتصلت على الأيام وثقلت وطأة الدولة الزيانية عليهم، وزحف يوسف بن يعقوب إلى منازلة تلمسان، وطال مقامه عليها، فوفد عليه سعيد بن عثمان بن عمر بن مهدي شيخهم لعهده، فأتى مجلسه وأكرم وفادته، ثم أجمع قتله ففر ولحق بقومه، وأجلب على أطراف التلول وملك السرسو قبلة بلاد توجين، ونزعت إليه طائفة من عكرمة بني يزيد وعجزوا عن الظعن، وأنزلهم بجبل كريكرة قبلة السرسو ووضع عليهم الأتاوة. ولم يزل كذلك إلى أن هلك يوسف بن يعقوب واتصل سلطان آل يغمراسن.

ولما ولي أبو تاشفين بن موسى بن عثمان بن يغمراسن

استخلص عريف بن يحيى لديه صحابة كانت له معه قبل الملك، ثم آسفه ببعض النزعات الملوكية. وكان هلال مولاه المستولي عليه يغصّ بما كان عريف منه، فنزع عريف بن يحيى إلى بني مرين ملوك المغرب الأقصى ونزل على السلطان أبي سعيد منهم سنة عشرين وسبعمائة، واعتقل أبو تاشفين عمه سعيد بن عثمان إلى أن هلك في محبسه قبيل فتح تلمسان، ولحق أخوه ميمون بن عثمان وولده بملك المغرب وأنزل عريف بن يحيى من سلطان بني مرين أكرم نزل وأدنى مجلسه وأكرم مثواه، ثم اتخذه ابنه السلطان أبو الحسن من بعده بطانة لشوراه ونجياً لخلواته. ولم يزل يحرضهم على آل زيّان بتلمسان. ونفس ميمون بن عثمان وولده عريف رتبته عند السلطان أبو الحسن، فنزعوا إلى أخيه أبي علي بتافيلالت فلم يزالوا بها إلى أن هلك ميمون.

ثم تغلب السلطان أبو الحسن على أخيه أبي علي وصار أولاد ميمون في جملته. وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان يجرّ أمم المغرب، وأحجر على زيّان بتلمسان، ثم اقتحمها عليهم عنوة وابتزهم ملكهم، وقتل السلطان أبا تاشفين عند شدونة، وبعث كلمته في أقطار المغرب الأقصى والأدنى إلى تخوم الموحدين من أندلس، وجمع كلمة زناتة واستتبعهم تحت لوائه، وفرّ بنو عامر من زغبة أولياء بني عبد الواد إلى القفر كما نذكره، ورفع السلطان أبو الحسن قوم عريف بن يحيى بمحلته على كل عربي في إيالته من زغبة والمعقل. وكان عقد سمعون بن سعيد على الناجعة من سويد، وهلك أيام نزول السلطان بتاسالة سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة قبل فتح تلمسان.

وولي من بعده أخوه عطية وهلك لأشهر من ولايته بعد فتح تلمسان فعقد السلطان لونزمار بن عريف على سويد وسائر بني مالك، وجعل رئاسة البدو حيث كانوا من أعماله، وأخذ الصدقات منهم والأتاوات، فعكفت على بيته أمم البدو واقتدى بشوراه رؤساؤهم. وفرّ ابن عمه المسعود بن سعيد ولحق ببني عامر، وأجلبوا على السلطان بدعاء جزارشبة ابنه أبي عبد الرحمن، فجمع لهم ونزمار وهزمهم كما نذكره، وسفر عريف بين السلطان أبي الحسن وبين الملوك لعهده من الموحدين بإفريقية وبني الأحمر بالأندلس والترك بالقاهرة، ولم يزل على ذلك إلى أن هلك السلطان أبو الحسن.

ولما تغلب السلطان أبو عنان على تلمسان كما سنذكره، رعى لسويد ذمة الانقطاع إليه، فرفع ونزمار بن عريف على سائر رؤساء البدو من زغبة وأقطعه السرسّو وقلعة ابن سلامة وكثيراً من بلاد توجين. وهلك أبو عريف بن يحيى، فاستقدمه من البدو، وأجلسه بمكان أبيه من مجلسه جوار أريكته ولم يزل على ذلك، وعقد لأخيه عيسى على البدو من قومه، ثم ابن عبد الواد بعد ملك السلطان أبي عنان عادت لهم الدولة بأبي حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن أبي يغمراسن من أعياص ملوكهم.

وتولى كبر ذلك صغير بن عامر وقومه لما لهم مع آل زيّان من الولاية، وما كان لبني مرين فيهم من النقمات فملكوا تلمسان ونواحيها، وعقدوا على سويد لميمون بن سعيد بن عثمان. وتال لونزمار بن عريف ورأى الترهب والخروج عن الرئاسة، فبنى حصناً بوادي ملوية من تخوم بني مرين ونزل به، وأقام هنالك لهذا العهد. وملوك بني مرين يرعون له ذمة اختصاصه سلفهم فيؤثرونه بالشورى والمداخلة في الأحوال الخاصة مع الملوك والرؤساء من سائر النواحي، فتوجهت إليه بسبب ذلك وجوه أهل الجهات من الملوك وشيوخ العرب ورؤساء الأقطار.

ولحق أخواه أبو بكر ومحمد بقومهم فمكروا بالميمون ودسوا عليه من قتله غيلة من ذويهم وحاشيتهم، واستبدوا برئاسة البدو. ثم لما نصبت بنو حصين بن زيّان ابن عم السلطان أبي حمّو للملك كما نذكره ورشحوه للمنازعة سنة سبع وستين وسبعمائة هبت من يومئذ ريح العرب وجاش مرجلهم على زناتة ووطئوا من تلول بلادهم بالمغرب الأوسط ما عجزوا عن حمايته، وولجوا من فروجها ما قصروا عن سده، ودبوا فيها دبيب الظلال في الفيوء، فتملكت زغبة سائر البلاد بالأقطاع من السلطان طوعاً وكرهاً رعياً لخدمته، وترغيباً فيها وعدة وتمكيناً لقوته حتى أفرجت لهم زناتة عن كثيرها، ولجأوا إلى سيف البحر.

وحصل كل منهم في الفلول على ما يلي موطنه من بلاد القفر، فاستولى بنو يزيد على بلاد حمزة وبني حسن كما كانوا من قبل، ومنعوا المغارم، واستولى بنو حسين على ضواحي المدينة أقطاعاً، والعطاف على نواحي مليمانة، والديالم على وزينة، وسويد على بلاد بني توجين كلها ما عدا جبل ونشريس لتوعره بقيت فيه لمة من توجين رئاستهم لأولاد عمر بن عثمان من الحشم بني تيغرين كما نذكره، وبني عامر على تاسالة وميلانة إلى صيرور إلى كيدزة الجبل المشرف على وهران.

وتماسك السلطان بالأمصار وأقطع منها كلميتو لأبي بكر بن عريف، ومازونة لمحمد بن عريف، ونزلوا لهم عن سائر الضواحي فاستولوا عليها كافة، وأوشك بهم أن يستولوا على الأمصار. وكل أول فإلى آخر، ولكل أجل كتاب، وهم على ذلك لهذا العهد.

ومن بطون سويد هؤلاء بطن بنواحي البطحاء يعرفون بهبرة، ينسبهم الناس إلى مجاهد بن سويد، وهم يزعمون أنهم من قوم المقداد بن الأسود، وهم بهذا من قضاعة، ومنهم من يزعم أنهم من تجيب إحدى بطون كندة والله أعلم. ومن ظواعن سويد هؤلاء ناجعة يعرفون بصبيح، ونسبهم إلى صبيح بن علاج بن مالك ولهم عدد وقوة وهم يظعنون بظعن سويد ويقيمون بمقامهم.

وأما الحارث بن مالك وهم العطاف والديالم فموطن العطاف قلة مليانة، ورئاسة ظعونهم لولد يعقوب بن نصر بن عروة بن منصور بن أبي الذئب بن حسن بن عياض بن عطاف بن زيان بن يعقوب، وابن أخيه علي بن أحمد وبنيه، ومعهم طائفة من براز إحدى بطون الأثبج. وأقطعهم السلطان مغارم جبل دراك وما إليه من وادي شلب، وحال بينهم وبين موطن سويد ونشريس ولهم بلاد وزينة في قبلة الجبل رئاستهم في ولد إبراهيم بن رزق بن رعاية من مزروع بن صالح بن ديلم، والسعد بن العباس بن إبراهيم منهم لهذا العهد. وكانت من قبل لعمه أبي يحيى بن إبراهيم وتقبض عليه السلطان أبو عثمان بإشارة عريف بن يحيى وأغرى به وهلك به وهلك في محبسه.

وفيهم بطون كثيرة منهم بنو زيادة بن إبراهيم بن رومي والدهاقنة أولاد هلال بن حسن وبنو نوال بن حسن أيضاً، وكلهم إخوة ديلم بن حسن وابن عكرمة من مزروع بن صالح، ويعرفون بالعكارمة. وهؤلاء العطاف والديالم أقل عدداً من سويد وأولياؤهم في فتنتهم مع بني عامر لمكان العصبية من نسب مالك، ولسويد عليهم اعتزاز بالكثرة، والديالم أبعد مجالاً منهم في القفر ويحاذيهم في مواطنهم من جانب التلول بطن من بطون الحرث يعرفون بغريب نسبهم إلى غريب بن حارث، حي حلول بتلك المواطن يطلبهم السلطان في العسكرة، ويأخذ منهم المغارم وهم أهل شاء وبقر، ورئاستهم في أبناء مزروع بن خليفة بن خلوف بن يوسف بن بكرة بن منهاب بن مكتوب بن منيع بن مغيث بن محمد الغريب، وهو جدهم ابن حارث. وترادفهم في رئاستهم على غريب أولاد يوسف، وهم جميعاً أولاد بني منيع، وسائر غريب من الأحلاف شيوخهم أولاد كامل، والله مالك الخلق والأمر.

بنو عامر بن زغبة

وأما بنو عامر بن زغبة فمواطنهم في آخر مواطن زغبة من المغرب الأوسط قبلة تلمسان مما يلي المعقل، وكانت مواطنهم من قبل ذلك في آخرها مما يلي المشرق، وكانوا مع بني يزيد حياً جميعاً، وكانوا يغلبون غيرهم في مواطن حمزة والدهوس، وبني حسن لميرة أقواتهم في المصيف. ولهم على وطن بني يزيد ضريبة من الزرع متعارفة بين أهله لهذا العهد. يقال: إنها كانت لهم أزمان تغلبهم في ذلك الوطن، وقيل: إن أبا بكر بن زغبي في فتنته مع رياح غلبوه على الدهوس من وطنه، فاستصرخ بني عامر فجاؤوا لصريخه، وعلى بني يعقوب داود بن عطاف، وعلى بني حميد يعقوب بن معروف، وعلى شافع صالح بن بالغ وغلبوا رياحاً بعزلان، وفرض لهم على وطن بني يزيد ألف غرارة، واستمرت لهم عادة عليهم.

ولما نقلهم يغمراسن إلى مواطنهم هذه لمحاذاة تلمسان ليكونوا حجزاً بين المعقل وبين وطنها، استقروا هنالك يتقلبون في قفارها في المشاتي، ويظهرون إلى التلول في المرابع والمصايف. وكان فيهم ثلاثة بطون: بنو يعقوب بن عامر وبنو حميد بن عامر وبنو شافع بن عامر، وهم بنو شقارة وبنو مطرف، ولكل واحد من البطنين الآخرين أفخاذ وعمائر، ولبني حميد فصائل أخرى فمنهم: بنو حميد، ومن عبيد الحجز وهم بنو حجاز بن عبيد، وكان له من الولد جحرش وهجيش ابني حجاز، ولجحرش حامد ومحمد ورباب.

ومن محمد الولالدة بنو ولاد بن محمد، ومن رباب بنو رباب وهم معروفون لهذا العهد، ومن عبيد أيضاً العُقلة بنو عقيل بن عبيد، والمحارزة بنو محرز بن حمزة بن عبيد. وكانت الرئاسة على حميد لعلاق من هؤلاء المحارزة، وهم الذين قبل جحرش جدّ بني رباب، وكانت الرئاسة على بني عامر كافة لبني يعقوب على عهد يغمراسن وابنه لداود بن هلال بن عطاف بن رداد بن ركيش بن عياد بن منيع بن يعقوب منهم، وكان بنو حميد أيضاً برئيسهم وشيخهم - إلا أنه رديف لشيخ بني يعقوب - منهم.

وكانت رئاسة حميد لأولاد رباب بن حامد بن جحرش بن حجاز بن عبيد بن حميد ويسمون الحجز. وعلى عهد يغمراسن لمعرف بن سعيد بن رباب منهم، وهو رديف لداود كما قلناه. ووقعت بين عثمان وبين داود بن عطاف مغاضبة، وسخطه عثمان لما أجاز الأمير أبا زكريا ابن السلطان أبي إسحاق من آل أبي حفص حين فر من تلمسان طالباً الخروج على الخليفة بتونس، وكان عثمان بن يغمراسن في بيعته، فاعتزم على رجعه فأبى داود من إخفار ذمته في ذلك، ورحل معه حتى لحق بعطية بن سليمان من شيوخ الدواودة، وتغلب على بجاية وقسطنطينة كما يذكر في أخباره.

وأقطع داود بن هلال رعياً لفعلته وطناً من بلاد حمزة

يسمى كدارة، وأقام داود هنالك في مجالاتهم الأولى إلى أن نازل يوسف بن يعقوب تلمسان، وطال حصاره لها، فوفد عليه داود مؤملاً صلاح حاله لديه، وحمّله صاحب بجاية رسالة إلى يوسف بن يعقوب فاستراب به من أجلها، فلما قفل من وفادته بعث في أثره خيالة من زناتة بيتوه ببني يبقى في سد وقتلوه، وقام بأمره في قومه ابنه سعيد، ونفس مخنق الحصار عن تلمسان. وكان قبل بني مرين لأبيه وسيلة رعاها لهم بنو عثمان بن يغمراسن فرجعوهم إلى مواطنهم ومع قومهم. وقد اغتر أولاد معرف بن سعيد في غيبتهم تلك يساجلونهم في رئاسة بني عامر، وغص كل واحد بمكان صاحبه، واختص بنو معرف بإقبال الدولة عليهم لسلامتهم من الحزازة والخلاف. ونزع سعيد بن داود لأجل هذه الغيرة إلى بني مرين.

ووفد على السلطان أبي ثابت من ملوكهم يؤمل به الكرة، فلم يصادف لها محلاً ورجع إلى قومه، وكانوا مع ذلك حياً جميعاً ولم تزل السعاية بينهم ندب حتى عدا إبراهيم بن يعقوب بن معرّف على سعيد بن داود فقتله، وتناول قتله ماضي بن ردان من أولاد معرف بن عامر بمجالاته، وتعصب عليه أولاد رباب كافة، فافترق أمر بني عامر وصاروا حيين. بنو يعقوب وبنو حميد، وذلك لعهد أبي حمّو موسى بن عثمان من آل زيّان، وقام بأمر بني يعقوب بعد سعيد ابنه عثمان. ثم هلك بعد حين إبراهيم بن يعقوب شيخ بني حميد وقام مقامه من قومه ابنه عامر بن إبراهيم، وكان شهماً حازماً وله ذكر، ونزل المغرب قبل عريف بن يحيى ونزل على السلطان أبي سعيد، وأصهر إليه ابنته فأنكحه عامر إياها وزفها إليه ووصله بمال له خطر، فلم يزل عثمان يحاول أن يثأر منه بأبيه بالفتنة تارة والصلح والاجتماع أخرى حتى غدره في بيته وقتله، وارتكب فيه الشنعاء التي تنكرها العرب، فتقاطع الفريقان لذلك آخر الدهر.

وصارت بنو يعقوب أحلافاً لسويد في فتنتهم مع بني حميد هؤلاء. ثم تلاحقت ظواعن سويد بعريف بن يحيى في مكانه عند بني مرين، واستطال ولد عامر بن إبراهيم بقومهم على بني يعقوب فلحقوا بالمغرب، ولم يزالوا به إلى أن جاؤوا في عساكر السلطان أبي الحسن، وهلك شيخهم عثمان، قتله أولاد عريف بن سعيد بثأر عامر بن إبراهيم، وولي بعده ابن عمه هجرس بن غانم بن هلال، فكان رديفاً له في حياته، ثم هلك وقام بأمره عمه سليمان بن داود.

ولما تغلب السلطان أبو الحسن على تلمسان فرّ بنوعامر بن إبراهيم إلى الصحراء، وكان شيخهم لذلك العهد صغير ابنه، واستأنف السلطان على يد عريف بن يحيى سائر بطون حميد وأولاد رباب فخالفوا صغيراً إخوانه إلى السلطان. وولي عليهم شيخاً من بني عمهم عريف بن سعيد، وهو يعقوب بن العباس بن ميمون بن عريف، ووفد بعد ذلك عمر بن إبراهيم عم صغير فولاه عليهم واستخدمهم، ولحق بنو عامر بن إبراهيم بالدواودة ونزلوا على يعقوب بن علي، ولم يزالوا هناك حتى شبّوا نار الفتنة بالدعي بن هيدور المهيمن بشعبه أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن، وأعانه على ذلك أهل الحقود على الدولة والأضغان من الديالم، وأولاد ميمون بن غنم بن سويد نقموا على الدولة مكان عريف وابنه ونزمار منها، فاجتمعوا وبايعوا لهذا الدعي.

وأوعز السلطان إلى ونزمار بحربهم فنهض إليهم بالعرب كافة، وأوقع بهم وفضهم ومزق جموعهم، وطال مفر صغير بن عامر وإخوته في القفار، وأبعدوا في الهرب، قطعوا العرق الرمل الذي هو سياج على مجالات العرب، ونزل قليعة والد وأوطنها. ووفد من بعد ذلك على السلطان أبي الحسن متذمّماً به فقبل وفادته واسترهن أخاه أبا بكر، وصحب السلطان إلى إفريقية وحضر معه واقعة القيروان، ثم رجع إلى قومه وعادوا جميعاً لولاية بني يغمراسن، واستخدموا قبائلهم لأبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن الدائل بتلمسان بعد واقعة القيروان أعوام خمسين وسبعمائة، فكان له ولقومه فيها مكان، ولحق سويد وبنو يعقوب بالمغرب حتى جاؤوا في مقدمة السلطان أبي عنان.

ولما هلك بنو عبد الواد وافترق جمعهم فر صغير إلى الصحراء على عادته، وأقام بالقفر يترقب الخوارج، ولحق به أكثر قومه من بني معرف بن سعيد فأجلب بهم على كل ناحية. وخالف أولاد حسين بالمعقل على السلطان أبي عنّان أعوام خمس وخمسين وما بعدها ونازلوا سجلماسة فكاثرهم وكان معهم، وأوقعت بهم عساكر بني مرين في بعض سني خلائهم وهم بنكور يمتارون فاكتسحوا عامة أموالهم وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، ولم يزالوا كذلك شريداً في الصحراء، وسويد وبنو يعقوب بمكانهم من المجالات، وفي حظهم عند السلطان حتى هلك السلطان أبو عنان وجاء أبو حمو موسى بن يوسف أخو السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن لطلب ملك قومه بتلمسان، وكان مستقراً بتونس منذ غلبهم أبو علي على أمرهم، فرحل صغير إلى وطن الدواودة، ونزل على يعقوب بن علي أزمان خلافه على السلطان أبي عنان، وداخله في استخلاص أبي حمو هذا من إيالة الموحدين للإجلاب على وطن تلمسان وبني مرين الذين به، فأرسلوا معه وأعطوه الآلة. ومضى به مقير وصولة بن يعقوب بن علي وزيّان بن

عثمان بن سباع وشبل ابن أخيه ملوك بني عثمان. ومن بادية رياح دغار بن عيسى بن رحاب بقومه من سعيد، وبلغوا معهم إلى تخوم بلادهم فرجع عنهم رياح إلا دغار بن عيسى وشبل بن ملوك، ومضوا لوجههم. ولقيتهم جموع سويد، وكان الغلب لبني عامر، وقتل يومئذ شيخ سويد بن عيسى بن عريف وأسر أخوه أبو بكر. ثم منّ عليه علي بن عمر بن إبراهيم وأطلقه، ولم يتصل الخبر بفاس إلا والناس منصرفون من جنازة السلطان أبي عنان، ثم أجلب أبو حمو بالمغرب على تلمسان فأخذها وغلب عساكر بني مرين عليها، واستوثق ملكه بها. ثم هلك مقير لسنتين أو نحوهما حمل نفسه في جولة فتنة في الحي يروم تسكينها على بعض الفرسان، فاعترضه سنان رمح على غير قصد فأنفذه وهلك لوقته. وولي رئاستهم من بعده أخوه خالد بن عامر يرادفه عبد اللّه ابن أخيه مقير، وخلصت رغبة كلها للسلطان أبي حمو فأساء بني مرين لما كان بينهم من الفتنة واستخدمهم جميعاً على مضاربهم وعوائدهم من سويد وبني يعقوب والديالم والعطاف، حتى إذا كانت فتنة أبي زيان بن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو كما نذكره في خبرهم جاش مرجل الفتنة من زغبة، واختلفوا على أبي حمو وتقبض على محمد بن عريف أمير سويد لاتهامه إياه بالإدهان في أمره، فنزع أخوه أبو بكر وقومه إلى صاحب المغرب عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن سنة سبعين وسبعمائة وجاؤوا في مقدمته واستولى على موطنهم.

ولحق بنو عامر وأبو حمو بالصحراء، وطال ترددهم فيها وسعى عند أبي حمو في خالد من عمومته وأقاربه عبد اللّه بن عسكر بن معرف بن يعقوب، ومعرف هو أخو إبراهيم بن يعقوب، وكان عبد اللّه هذا بطانة للسلطان وعيناً، فاستفسد بذلك قلب خالد وتغيّر ونبذ إليه عهده، ونزع عنه إلى السلطان عبد العزيز، وجاءت به عساكر بني مرين فأوقع بالسلطان أبي حمو ومن معه من العرب.

وهلك عبد العزيز سنة أربع وسبعين فارتحل إلى المغرب هو وعبد اللّه ابن أخيه مقير، ولحقهم ساسي بن سليم بن داود شيخ بني يعقوب. كان قومه بني يعقوب قتلوا أبناء محمد بن عريف فحدثت بينهم فتنة، ولحق ساسي هذا وقومه بالمغرب، وصحب خالداً يؤمل به الكرة، ويئسوا من صريخ بني مرين لما بينهم من الفتنة، فرجعوا إلى أوطانهم سنة سبع وسبعين وأضرموا نار الفتنة، وخرجت إليهم عساكر السلطان أبي حمو مع ابنه أبي تاشفين، وزحف معه سويد والديالم والعطاف فأوقعوا بهم على وادي مينا قبلة القلعة.

وقتل عبد اللّه بن مقير وأخوه ملوك في قرابة لهم آخرين، وسار فلُّهم شريداً إلى الصحراء، ولحقوا بالديالم والعطاف، واجتمعوا جميعاً إلى سالم بن إبراهيم كبير الثعالبة، وصاحب وطن متيجه وكان يتوجس لأبي حمو الخيفة فاتفقوا على الخلاف وبعثوا إلى الأمير أبي زيان بمكانه من وطن رياح فجاءهم وتابعوه، وأمكنه سالم من الجزائر، ثم هلك خالد في بعض تلك الأيام فافترق أمرهم، وولي علي بني عامر المسعود بن مقير، وزحف إليهم أبو حمو في سويد وأوليائه من بني عامر، واستخدم سالم بن إبراهيم، وخرج أبو زيان إلى مكانه من وطن رياح، ولحق المسعود بن عامر وقومه بالقفر، ولحق ساسي بن سليم بيعقوب بن علي وقومه من الدواودة.

ثم راجعوا جميعاً خدمة السلطان وأوفدوا عليه فأمنهم، وقدموا عليه وأظهروا البر والرحب بالمسعود وساسي، وطوى لهم على السوء، ثم داخل بطانة من بني عامر وسويد في نكبتهم، فأجابوه ومكر بهم، وبعث ابنه أبا تاشفين لقبض الصدقات من قومهم حتى اجتمع له ما أراد من الجموع، فتقبض على المسعود وعشرة من إخوانه بني عامر بن إبراهيم، ونهض أبو تاشفين والعرب جميعاً إلى أحياء بني يعقوب وكانوا بسيرات، وقد أرصد لهم سويد بوادي مينا فصبحهم بنو عامر بمكانهم واكتسحوهم، وصار فلهم إلى الصحراء، فاعترضهم أبو تاشفين ببني راشد فلم يبق لهم باقية، ونجا ساسي بن سليم إلى الصحراء في فلّ قليل من قومه، ونزل على النضر بن عروة، واستبد برئاسة بني عامر سليمان بن إبراهيم بن يعقوب عم مقير ورديفه عبد اللّه بن عسكر بن معرف بن يعقوب، وهو أقرب مكاناً من السلطان وخلعه.

ثم بعث صاحب المغرب السلطان أبو العباس أحمد بن الولي أبا سالم بالشفاعة في المسعود وإخوانه بوسيلة من ونزمار بن عريف بعد أن كان مداخلاً لأبي حمو ولإخوانه في نكبتهم، فأطلقهم أبو حمو بتلك الشفاعة، فعادوا إلى الخلاف، وخرجوا إلى الصحراء، واجتمع إليهم الكثير من أولاد إبراهيم بن يعقوب. واجتمع أيضاً فلّ بني يعقوب من مطارحهم إلى شيخهم ساسي بن سليم ونزلوا جميعاً مع عروة، وأوفد إخوانه على السلطان أبي العباس صاحب إفريقية لهذا العهد متذمماً به وصريخاً على عدوه فتلقاه من البر والإحسان ما يناسبه، وأفاض في وفده العطاء وصرفه بالوعد الجميل.

وشعر بذلك أبو حمو فبعث من عيونه من اغتاله ووفد بعدها على السلطان أبي العباس صاحب إفريقية علي بن عمر بن

إبراهيم، وهو ابن عم خالد بن محمد وكبير النفر المخالفين من بني عامر على أبي حمو.ووفد معه سليمان بن شعيب بن عامر فوفدوا عليه بتونس يطلبون صريخه، فأجابتهم ووعدهم وأحسب بالإحسان والمبرة أمامهم، ورجعوا إلى قومهم. ثم راجع علي بن عمر خدمة أبي حمو وقدمه على بني عامر، وأدال به من سليمان بن إبراهيم بن عامر، فخرج سليمان إلى أهل بيته من ولد عامر بن إبراهيم الذين بالصحراء، ونزلوا مع بني يعقوب بأحياء أبي بكر بن عريف، وهو على ذلك لهذا العهد. و لله مقدر الليل والنهار اه.

عروة بن زغبة

وأما عروة بن زغبة فهم بطنان: النضر بن عروة. وبطون خميس ثلاثة: عبيد اللّه وفرغ ويقظان. ومن بطون فرغ بنو قائل أحلاف أولاد يحيى من المعمور القاطنين بجبل راشد. وبنو يقظان وعبيد اللّه أحلاف لسويد يظعنون لظعنهم ويقيمون لإقامتهم، ورئاستهم لأولاد عابد من بطن راشد. وأما النضر بن عروة فمتبذون بالقفر ينتجعون في رماله ويصعدون إلى أطراف التلول في إيالة الديالم والعطاف وحصين وتخوم أوطانهم، وليس لهم ملك ولا اقطاع لعجزهم عن دخول التلول بلغتهم وممانعة بطون زغبة الآخرين عنها إلا ما تغلبوا عليه في أذناب الوطن بجبل المستند مما يلي وطن رياح، يسكنه قوم من غمرة وزناتة استمر عليهم غلب العرب منذ سنين، فوضع النضر هؤلاء عليهم الأتاوة وأصاروهم خولاً ورعية. وربما نزل منهم مع هؤلاء البرابر من عجز عن الظعن في بيوتهم ولهم بطون مذكورة: أولاد خليفة والخمانة وشريعة والسحاوى وذوي زيان وأولاد سليمان، ورئاستهم جميعاً في أولاد خليفة بن النضر بن عروة، وهي لهذا العهد لمحمد بن زيان بن عسكر بن خليفة ورديفه سمعون بن أبي يحيى بن خليفة بن عسكر، وأكثر السحارى موطنون بجبل المشنتل الذي ذكرناه، ورئاستهم في أولاد، وناجعة هؤلاء النضر أحلاف لزغبة دائماً، فتارة للحرب وحصين جيرانهم في المواطن، وتارة لبني عامر في فتنتهم مع سويد، وندّيتهم مع بني عامر فيما يزعمون بآل قحافة وسمعت من مشايخهم أنه ليس بأب لهم، وإنما هو اسم وادٍ كان به حلفهم قديماً، وربما يظاهرون سويداً على ابن عامر، إلا أنه في الأقل والندرة. وهم إلى حلف بني عامر أقرب وأسرع لما ذكرناه، وربما ظاهروا رياحاً بعض المرات في فتنتهم لجوار الوطن، إلا أنه قليل أيضاً وفي النادر، ويتناولون في الأكثر مع البادية من رياح مثل مسلم وسعيد، وربما وقعت بينهم حروب في القفر يصيب فيها بعض من دماء بعض، هذه بطون زغبة وما تأدى إلينا من أخبارهم. و لله الخلق والأمر وهو رب العالمين.

الخبر عن المعقل من بطون هذه الطبقة الرابعة وأنسابهم وتصاريف أحوالهم

هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى مجاورون لبني عامر من زغبة في مواطنهم بقبلة تلمسان، وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب، وهم ثلاثة بطون:ذوي عبيد اللّه وذوي منصور وذوي حسان. فذوي عبيد اللّه منهم هم المجاورون لبني عامر ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة، ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها الى سجلماسة وعلى درعة وعلى ما يحاذيها من التل مثل تاري وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمقدر، ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة مستوفة ولمتونة.

وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل يقال إنهم لم يبلغوا المائتين، واعترضهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار والغربية فعفوا وكثروا وأنبتوا في صحارى المغرب الأقصى، فعمروا رماله وتغلبوا على فيافيه. وكانوا هناك أحلافاً لزناتة سائر أيامهم، وبقي منهم بإفريقية جمع قليل اندرجوا في جملة بني كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان، واستلاف العرب.

فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن قام هؤلاء المعقل في القفار وتفردوا في البيداء فنموا نمواً لا كفاء له، وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غرباً، ثم توات ثم بودة ثم تامنطيت، ثم واركلان ثم تاسبيت ثم تيكورارين شرقاً، وكل واحد من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة، وبينهم فتن وحروب على رئاستها، فجاز عرب المعقل هؤلاء الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الأتاوات والضرائب، وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً. وكانوا من تلك السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل ويسمونها حمل الرحيل. وكان لهم الخيار في تعيينها.

ولم يكن هؤلاء العرب يستبيحون من أطراف المغرب

وتلوله حمى، ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه لما كان بالمغرب من اعتزاز الدول وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة بعدهم، وكان لهم بإزاء ذلك أقطاع من الدول يمدون إلى أخذه اليد السفلى، وفيهم من مسلم سعيد بن رياح والعمور من الأثبج، وعددهم كما قلنا قليل، وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم فإن فيهم من فزارة ومن أشجع أحياء كبيرة، وفيهم الشظة من كرفة والمهاية من عياض، والشعراء من حصين، والصباح من الأخضر، ومن بني سليم وغيرهم. وأما أنسابهم عند الجمهور فخفية ومجهولة، ونسابة العرب من هلال يعدونهم من بطون هلال وهو غير صحيح، وهم يزعمون أن نسبهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبي طالب وليس ذلك بصحيح، لأن الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة. والصحيح والله أعلم من أمرهم أنهم من عرب اليمن، فإن فيهم بطنين يسمى كل واحد منهما بالمعقل، ذكرهما ابن الكلبي وغيره، فأحدهما: من قضاعة بن مالك بن حمير وهو معقل بن كعب بن غليم بن خبّاب بن هبل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد بن اللات بن رفيدة بن ثور بن كعب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. والآخر: من بني الحرث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج، واسمه مالك، ابن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زير بن كهلان، وهو معقل واسمه ربيعة بن كعب بن ربيعة بن كعب بن الحرث.

والأنسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر الذي من مذحج، كان اسمه ربيعة، وقد عده الإخباريون في بطون هلال الداخلين إلى إفريقية، لأن مواطن بني الحرث بن كعب قريب من البحرين حيث كان هؤلاء العرب مع القرامطة قبل دخولهم إلى إفريقية. ويؤيده أن ابن سعيد لما ذكر مذحج وأنهم بجهات الجبال من اليمن، وذكر من بطونهم زبيد ومراد ثم قال: وبإفريقية منهم فرقة وبرية ترتحل وتنزل، وهؤلاء الذين ذكر إنما هم المعقل الذين هم بإفريقية، وهم فرقة من هؤلاء الذين بالمغرب الأقصى.

ومن إملاء نسّابتهم: أن معقل جدّهم له من الولد: سحير ومحمد، فولد سحير: عبيد الله وثعلب، فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم، ومن ثعلب الثعالب الذين كانوا ببسيط متيجة من نواحي الجزائر، وولد محمد: مختار ومنصور وجلال وسالم وعثمان. فولد مختار بن محمد: حسان وشبانة، فمن حسان ذوي حسان البطن المذكور أهل السوس الأقصى. ومن شبانة الشبانات جيرانهم هنالك. ومنهم بطنان: بنو ثابت وموطنهم تحت جبل السكسيوي من جبال أدرن وشيخهم لهذا العهد أو ما قبله يعيش بن طلحة. والبطن الآخر آل علي، وموطنهم في برية هنكيسة تحت جبل كزولة، وشيخهم لهذا العهد أو ما قرب منه حريز بن علي. ومن جلال: سالم وعثمان الرقيطات بادية لذوي حسان ينتجعون معهم. وولد منصور بن محمد: حسين وأبو الحسين وعمران ونسباً يقال لهم جميعاً ذوي منصور، وهو أحد بطونهم الثلاثة المذكورة. والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه وأحكم.

ذوو عبيد الله

فأما ذوي عبيد الله فهم المجاورون لبني عامر بن زغبة وفي سلطان بني عبد الواد من زناتة، فمواطنهم ما بين تلمسان إلى وجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صامن من القبلة. وتنتهي رحلتهم في القفار إلى قصور توات وتمنطيت، وربما عاجوا ذات الشمال إلى تاسابيت وتوكرارين، وهذه كلها رقاب القفر إلى بلاد السودان. وبينهم وبين بني عامر فتن وحروب موصولة. وكان لهم مع بني عبد الواد مثلها قبل السلطان والدولة، فما كانوا أحلافاً لبني مرين. وكان المنبات من ذوي منصور أحلافاً لبني عبد الواد فكان يغمراسن يوقع بهم أكثر أوقاته وينال منهم إلى أن صحبوا بسبب الجوار، واعتزت عليهم الدولة فأعطوا الصدقة والطوائل وعسكروا مع السلطان في حروبه.

ولم يزل ذلك إلى أن لحق الدولة الهرم الذي يلحق مثلها فوطنوا التلول، وتملكوا وجدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس أقطاعاً من السلطان إلى ما كان لهم عليها قبل من الأتاوات والوضائع فصار معظم جبايتها لهم، وضربوا على بلاد هنين بالساحل ضريبة الإجازة منها إلى تلمسان، فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجازتهم، وعلى ضريبة يؤديها إليهم. وهم بطنان: الهراج والخراج، فالخراج من ولد فزاج بن مطرف بن عبيد الله، ورئاستهم في أولاد عبد الملك وفرج بن علي بن أبي الريش بن نهار بن عثمان بن خراج، لأولاد عيسى بن عبد الملك ويعقوب بن عبد الملك ويغمور بن عبد الملك.

وكان يعقوب بن يغمور شيخهم لعهد السلطان أبي الحسن، ولما تغلب على تلمسان استخدم له عبيد الله هؤلاء وكان يحيى بن العز من رجالة بني يزناسن أهل الجبل المطل على وجدة. وكان له قدم في خدمة الدول فاتصل بالسلطان أبي الحسن ورغبه في ملك قصور هذه الصحراء، فبعثه مع هؤلاء العرب في عسكر، ودخل معهم إلى الصحراء وملك تلك القصور واستولى عليها، وأسف

عبيد الله بانتزاع أملاكهم وسوء المعاملة لهم، فوثبوا بـه وقتلـوه في خبائه وانتهبوا عسكر السلطان الذين معـه ونقضـوا الطاعـة، وفـر يعقوب بن يغمور فلم يزل شريداً بالصحراء سـائر أيامـه، ورجـع بعد ذلك.

ثم عادت دولة بني عبد الواد فصدوا في ولايتها، فلـم يـزل على ذلك، وخلفه ابنه طلحة، وكان أيام خلاف يعقوب وانتقاضه رأس على الخراج من أهل بيته منصور بن يعقوب بن عبـد الملـك وابنه رحو من بعده. وجاء أبو حمّو فكـان لـه في خدمتـه ومخالطتـه قدم، فقدمه شيخاً عليهم. فرئاستهم لهذا العهد منقسمة بـين رحـو بن منصور بن يعقوب بـن عبـد الملـك وبـين طلحـة بـن يعقـوب المذكور آنفاً، وربما نازعه. ولهم بطون كثيرة فمنهـم: الجعاونـة مـن جعوان بن خراج، والغسل من غاسل بـن خـراج، والمطارفـة مـن مطرف بن خراج، والعثامنة من عثمان بن خراج، وفيهم رئاسـتهم كما قلناه، ومعهم ناجعة يسمون بالمهاية ينسبون تارة إلى المهاية بـن عياض، وقدمنا ذكرهم. وتارة إلى مهيّا بن مطرف.

وأما الهراج فمن ولد الهراج بن مهدي بـن محمـد بـن عبيـد الله، ومواطنهم في ناحية المغرب عن الخراج فيجاورون بني منصور ولهـم تـاوريرت ومـا إليهـا. وخدمتهـم في الغـالب لبـني مريـن وإقطاعاتهم من أيديهـم، ومواطنهـم تحتهـم، ورجوعهـم إلى عبد الواد في الأقل، وفي بعض الأحايين ورئاستهم في ولد يعقـوب بـن هبا بن هراج لأولاد مرين بن يعقوب، وأولاد مناد بـن رزق اللّـه ابن يعقوب، وأولاد فكرون بن محمد بن عبد الرحمن بـن يعقـوب من ولد حريز بن يحيى الصغير بن موسى بن يوسـف بـن حريـز، كان شيخاً عليهم أيام السلطان عبد العزيـز، وهلـك عقبـه، ورأس عليهم ابنه. ومن ولد مُناد أبو يحيى الكبير بن مناد كان شيخاً قبـل أبي يحيى الصغير، وبالإضافة إليـه وصـف بالصغـير. ومنهـم أبـو حيمدة محمد بن عيسى بن مناد وهو لهذا العصر رديـف لشيخهم من ولد أبي يحيى الصغير، وهـو كثـير التقلب في القفـار والغـزو للقاصية ولأهل الرمال والملثمين. والله مالك الملوك لا رب غـيره ولا معبود سواه وهو نعم المولى ونعم النصير.

الثعالبة

وأما الثعالبة إخوتهم من ولد ثعلب بن علـي بـن بكـر بـن صغير أخي عبيد الله بن صغير، فموطنهم لهذا العهـد بمتيجـة مـن بسيط الجزائر، وكانوا قبلها بقطيري مواطـن حصين لهـذا العهـد، نزلوها منذ عصـور قديمـة، وأقـاموا بهـا حيـاً حلـولاً. ويظهـر أن نزولهم لها حين كان ذوو عبيد الله في مواطن بني عامر لهذا العهد، وكان بنو عامر في مواطن بني سويد فكانت مواطنهم لذلك العهـد متصلة بـالتلول الشـرقية فدخلـوا مـن ناحيـة كـزول وتدرجـوا في المواطن إلى ضواحي المدينة، ونزلوا جبل تيطري وهـو جبـل أشـير الذي كانت فيه المدينة الكبيرة. فلما تغلب بنو توجين على التلـول وملكوا ونشريش زحف محمد بن عبد القـوي إلى المدينـة فملكهـا، وكانت بينهم وبينه حرب وسـلم إلى أن وفـدت عليـه مشـيختهم، فتقبض عليهم وأغزى من وراءهم من بقيـة الثعالبـة واسـتلحمهم واكتسح أموالهم.

وغلبهم بعدها على تيطري وأزاحهم عنها إلى متيجة، وأنزل قبائل حصين بتيطـري وكـانوا معه في عـداد الرعايـا يـؤدّون إليـه المغارم والوظائف، ويأخذون بالعسكرة معه ودخل الثعالبة هـؤلاء في إيالـة ملكيـش مـن صنهاجـة ببسـيط متيجـة، وأوطنـوا تحـت ملكتهم، وكان لهم عليهم سلطان كما نذكره، حتى إذا غلـب بنـو مرين على المغرب الأوسط وأذهبـوا ملـك ملكيـش منهـا، استبد الثعالبة هؤلاء بذلك البسـيط وملكـوه، وكـانت رئاسـتهم في ولـد سباع بن ثعلب بن علي بن مكر بن صغـير. ويزعمـون أن سـباعاً هذا كان ذا وفد على الموحدين يجعلون من فوق عمامته ديناراً يزن عدداً من الدنانير سابقة في تكرمته وترفيعه.

وسمعت من بعض مشيختنا أن ذلك لمـا كـان مـن كرامتـه للإمـام المهـدي حين أجـاز بهـم فإنـه مـر بهـم سـاعياً فحملـوه واستقرت الرئاسة في ولد سباع هذا في بني يعقوب بن سـباع أولاً، فكانت لهم مدداً، ثم في عقب حنيش منهم. ثم غلب السلطان أبـو الحسن على ممالك بني عبـد الـواد ونقلهـم إلى المغـرب، وصـارت الولاية لهم لأبي الحملات بن عائد بن ثابت، وهو ابن عم حنيـش وهلك في الطاعون الجارف أواسط هذه المائة الثامنـة لعهـد نـزول السلطان أبي الحسن بالجزائر من تونس، فولّي عليهم إبراهيـم بـن نصر.

ولم تزل رئاستهم إليه إلى أن هلك بعد استيلاء السلطان أبي عنان على المغربين كما نذكره في أخباره وقام برئاستهم ابنـه سـالم، وكانوا أهل مغارم ووضيعه لمليكش ومن بعدهم من ولاة الجزائر، حتى إذا هبّت ريح العرب أيام خروج أبي زيّان وحصين على أبي حمّو أعوام ستين وسبعمائة كما ذكرناه. وكان شيخهم لذلك العهد سالم بن إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن نابت بن محمد بن سباع، فأخب في تلك الفتنة وأوضع، وعاقد أبو حمـو وانتقـض عليه مراراً، وغلب بنو مرين على تلمسان فتحـيز إليهـم، وكـانت رسله ووفده تقدموا إليهم بالمغرب.

ثم هلك السلطان عبد العزيز ورجع أبو حمّو إلى ملكه، ونزلت الغوائل فخشيه سالم، واستدعى أبا زيان ونصبه بالجزائر، وزحف إليه أبو حمّو سنة تسع وسبعين ففضّ جمعه وراجع سالم خدمته، وفارق أبا زيان كما نذكره في أخباره. ثم زحف إليه أبو حمو وحاصره بجبال متيجة أياماً قلائل، واستنزله على عهده. ثم أخفره وتقبض عليه وقاده إلى تلمسان أسيراً وقتله قعصاً بالرماح وذهب أثره وماكان له من الرئاسة التي لم تكن الثعالبة لها بأهل. ثم تتبع إخوانه وعشيره وقبيله بالقتل والسبي والنهب إلى أن دثروا، والله يخلق ما يشاء.

ذوو منصور

وأما أولاد منصور بن محمد فهم معظم هؤلاء المعقل، وجمهورهم ومواطنهم تخوم المغرب الأقصى من قبلته ما بين ملوية ودرعة. وبطونهم أربعة: أولاد حسين وأولاد أبي الحسين وهما شقيقان، والعمارنة أولاد عمران، والمنبات أولاد منبا وهما شقيقان أيضاً. ويقال لهذين البطنين جميعاً: الأحلاف. فأما أولاد أبي الحسن فعجزوا عن الظعن ونزلوا قصوراً اتخذوها بالقفر ما بين تافيلالت وتيكورارين.وأما أولاد حسين فهم جمهور ذوي منصور، ولهم العزة عليهم ورئاستهم أيام بني مرين في أولاد خالد بن جرمون بن جرار بن عرفة بن فارس بن علي بن فارس بن حسين بن منصور، كانت أيام السلطان أبي الحسن لعلي بن غانم، وهلك إثر كائنة طريف. وصارت لأخيه يحيى، ثم لابنه عبد الواحد بن يحيى، ثم لأخيه زكريا، ثم لابن عمه أحمد بن رحو بن غانم، ثم لأخيه يعيش، ثم لابن عمه يوسف بن علي بن غانم لهذا العهد.

وكنت لبني مرين فيهم وقائع أيام يعقوب بن عبد الحق وابنه يوسف، وسيأتي في أخبار بني مرين غزوة يوسف بن يعقوب من مراكش إليهم، وكيف أوقع بهم بصحراء درعة. ولما أقام بالشرق على تلمسان محاصراً لها أحلف هؤلاء العرب من المعقل على أطراف المغرب ما بين درعة وملوية إلى تاوريرت. وكان العامل يومئذ بدرعة عبد الوهاب بن صاعد من صنائع الدولة وكبار ولاتها، فكانت بينه وبينهم حروب قتل في بعضها. ثم هلك يوسف بن يعقوب ورجع بنو مرين إلى المغرب، فأخذوا منهم بالثأر حتى استقاموا على الطاعة، وكانوا يعطون الصدقة أطوع ما يكون إلى أن فشل ريح الدولة، واعتزت العرب فصاروا يمنعون الصدقة إلا في الأقل يغلبهم السلطان على إعطائها.

ولما استولى السلطان أبو عنان على تلمسان أعوام خمسين وسبعمائة وفرّ صغير بن عامر إلى الصحراء ونزل عليهم واستجار بهم فأجاروه. ونزل السلطان عليهم ذلك فأجمعوا نقض طاعته وأقاموا معه بالصحراء وصغير متولي كبير ذلك الخلاف، حتى إذا هلك أبو عنان وكان من سلطان أبي حمو بتلمسان ما نحن ذاكروه، وزحف بنو مرين إلى تلمسان ففر منها أبو حمو وصغير، ونزلوا عليهم فأوقعوا بعسكر بني مرين بنواحي تلمسان، واتسع الخرق بينهم وبين بني مرين فانحازوا إلى أبي حمو وسلطانه، وأقطعهم بضواحيه. ثم رجعوا إلى أوطانهم بعد مهلك السلطان أبي سالم أعوام ثلاث وستين على حين اضطراب المغرب بفتنة أولاد السلطان أبي علي ونزولهم بسجلماسة، فكان لهم في ذلك الفتنة آثار إلى أن انقشعت.

ثم كان لأحمد بن رحو مع أبي حمو جولة وأجلب عليه بأبي زيان حافد أبي تاشفين فقتل في تلك الفتنة كما نذكره. ثم اعتزوا على الدولة من بعد ذلك وأكثر مغارم درعة لهذا العهد. واقطع لهم ببلاد تادلاً والمعدن من تلك الثنايا التي منها دخولهم إلى المغرب للمربع والمصيف ولميرات الأقوات. وسجلماسة من مواطن إخوانهم الأحلاف كما نذكره، وليست من مواطنهم، فأما درعة فهي من بلاد القبلة موضوعة حقّاً في الوداي الأعظم المنحدر من جبل درن من فوهة يخرج منها وادي أم ربيع، ويتساهل إلى البسائط والتلول ووادي دريعة ينحدر إلى القبلة مغرباً إلى أن يصب في الرمل ببلاد السوس، وعليه قصور درعة، وواد آخر كبير أيضاً ينحدر إلى القبلة مشرقاً بعض الشيء إلى أن يصب في الرمل دون تيكورارين وفي قبلتها.

وعليه من جهة المغرب قصور توات، ثم بعدها تمنطيت، ثم بعدها وركلان. وعندها يصب في الرمل، وفي الشمال عن ركان قصور تسابيت. وفي الشمال عنها إلى الشرق قصور تيكورارين، والكل وراء عرب الرمل. وجبال درن هي الجبال العظمية الجاثمة سياجاً على المغرب الأقصى من آسفي إلى تازي، وفي قبلتها جبل نكيسة لصنهاجة، وآخره جبل ابن حميدي من طرف هسكورة. ثم ينعطف من هنالك جبال أخرى متوازية حتى تنتهي إلى ساحل بادس من البحر الرومي. وصار المغرب لذلك كالجزيرة أحاطت الجبال به من القبلة والشرق والبحر ومن المغرب والجوف.

واعتمر هذه الجبال والبسائط التي بينها أمم من البربر لا يحصيهم إلا خالقهم، والمسالك بين هذه الجبال إلى المغرب منحصرة، ثم معدودة، وبزحام القبائل المعتمرين لها كاظة. ومصب وادي درعة هذا إلى الصحراء والرمال ما بين سجلماسة وبلاد السوس، ويمتد إلى أن يصب في البحر ما بين نون وواداں، وحفافيه

قصور لا تحصى، شجرتها النخل وقاعدتها بلد تادنست بلـد كبير يقصده التجّر للسلم في النيلج، انتظار خروجه بالصناعـة. ولأولاد حسين هؤلاء استيلاء على هذا الوطن ومن بإزائه في فسيح جبلـة من قبائل البربر صناكة وغيرهم. ولهم عليهـم ضرائـب وخفـرات ووضائع. ولهم في مجابي السلطان إقطاعـات ويجـاورهم الشبانات من أولاد حسان من ناحية الغرب، فلهم بسبب ذلك علـى درعـة بعض الأتاوات.

وأما الأحلاف مـن ذوي منصـور وهـم العمارنـة والمنبّـات فمواطنهم مجاورة لأولاد حسين من ناحيـة الشرق، وفي مجـالاتهم بالقفر تافيلات، وصحراؤها. وبالتل ملوية وقصور وطـاط وتـازي وبطوية وغسّاسة، لهم على ذلك كله الأتـاوات والوضـائع، وفيهـا الإقطاعات السلطانية. وبينهم وبين أولاد حسـين فتنـة، ويجمعهـم العصبية في فتنة من سواهم. ورئاسة العمارنـة في أولاد مظفـر بـن ثابت بن مخلف بن عمران، وكان شيخهم لعهد السلطان أبي عنّان طلحة بن مظفر وابنه الزبير. ولهذا العهد محمد بـن الزبـير وأخـوه موسى، ويرادفهم في رئاستهم أولاد عمارة بـن قـلان بـن مخلـف، فكان منهم محمد العائد. ومنهم لهذا العهد سليمان بـن نـاجي بـن عمارة ينتجع في القفر ويكـثر الغـزوا إلى اعـتراض العـير وقصـور الصحراء.

ورئاسة المنبات لهذا العهـد لمحمـد بـن عبـد بـن حسـين بـن يوسف بن فرج بن منبا، وكانت أيـام السـلطان أبـي عنـان لأخيـه علي من قبله وترادفهم في رئاستهم ابن عمهم عبد اللّه بن الحـاج عـامر بـن أبـي البركـات بـن منبـا. والمنبـات والعمارنـة اليـوم إذا اجتمعوا جميعاً يكثر أولاد حسين. وكان للمنبات كثيرة لأول دولـة بني مرين، وكان خلفهم مع بني عبد الواد. وكان مقدّمه يغمراسـن بن زيان في افتتاح سجلماسة، وتملكهـا مـن أيـدي الموحديـن، ثـم تغلب بنو مرين عليها وقتلوا من حاربها من مشيختهم مع بني عبد الـواد، ثـم أوقعـوا بالمنبـات مـن بعـد ذلـك في مجـالاتهم بـالقفر واستلحموهم، فنقص عددهـم لذلـك آخـر الأيـام، واللّـه مـالك الأمور لا رب سواه.

مواطن العثامنة تلي مواطن بني منصور من جـانب الغـرب ويليهم أولاد سالم، وفي حيز مواطنهم درعـة، ولهـم عليهـا القفـر. ويليهم أولاد جـلال عنـد منتهـى عمـارة درعـة ممـا يلـي المغـرب والقبلة، ويليهم غرباً إلى البحر الشبانات وهـو أولاد علـي وأولاد بو ثابت وأولاد حسان وراءهم من ناحية القبلة والغرب ويـنزلون مواطنهم بالغلب الذي لهم عليه.

ذوو حسان عرب السوس

وأما بنو مختـار بـن محمـد فهـم كمـا قدمنـاه: ذوي حسـان والشبانات والرقيطات. ومنهم أيضاً الجياهنة وأولاد برية، وكـانت مواطنهم بنواحـي ملويـة إلى مصبّـه في البحـر مـع إخوانهـم ذوي منصور وعبيد اللّـه إلى أن استصرخهم علـي بـن يـدر الزكنـدري صاحب السوس من بعد الموحدين، ونسبه بزعمه في عرب الفتـح، وكانت بينه وبين كزولة الظواعـن ببسـائط السـوس، وجبالـة فتنـة طويلة اسـتصرخ لهـا بـني مختـار هـؤلاء فصـارخوه وارتحلـوا إليـه بظعونهم، وحمدوا مواطن السوس لعدم المزاحم من الظواعن فيهـا فأوطنوها. وصارت مجالاتهم بقفرها وغلبوا كزولة وأصـاروهم في جملتهم ومن ظعونهم وغلبوا على القصور الـتي بتلـك المواطـن في سوس ونول. ووضعوا عليها الأتاوات مثل تارودانت من سوس، وهي ضفـة وادي سـوس حيـث يهبـط مـن الجبـل، وبـين مصبـه ومصب وادي ماسة حيث الرباط المشهور مرحلة إلى القبلة.

ومن هناك إلى زوايا أولاد بني نعمان مرحلة أخرى في القبلة على سائر البحر، وتواصت على وادي نول حيث يدفع من جبـل نكيسة غرباً، وبينها وبين إيفري مرحلة، والعرب لا يغلبونهـا وإنمـا يغلبـون علـى البسـائط في نواحيهـا، وكـانت هـذه المواطـن لعهـد الموحدين من جملة ممالكهم وأوسع عمـالاتهم، فلمـا انقـرض أمـر الموحدين حجبت عن ظل الدولة وخرجت عن إيالة السـلطان إلا ما كان بها لبني يدر هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم، وكان علي بن يدر مالكاً لقصورها، وكان له من الجنـد نحـو ألـف فـارس، وولي مـن بعده عبد الرحمن بن الحسن بن يدر، وبعده أخوه علي بن الحسن.

وكان لعبد الرحمن معهم حروب وفتن بعد استظهاره بهـم، وهزموه مرات متتابعة أعوام خمس وسبعمائة وما بعده، وغدر هـو بمشيختهم وقتلهم بتارودانت سنة ثمان من بعد ذلك. وكـان لبـني مرين على هؤلاء المعقل بالسوس وقائع وأيام، وظهر يعقـوب بـن عبد الحق ببني مرين في بعضها الشبانات على بني حسان واستلحم منهم عـدداً، وحـاصرهم يوسـف بـن يعقـوب بعدهـا فأمسكوها وأغرمهم ثمانية عشر ألفاً، وأثخن فيهم يوسف بـن يعقـوب ثانيـة سنة ست وثمانين وحاربتهم جيوشه أيضاً أياماً لحق بهم بنو كمـي من بني عبد الواد، وخالفوا على السلطان، فترددت إليهم العساكر واتصلت الحروب كما نذكر في أخباره.

ولما استفحل أمر زناتة بالمغرب وملك أبو علي ابن السلطان أبي سعيد سجلماسة واقتطعها عن ملـك أبيـه بصلـح وقّـع علـى ذلك، انضوى إليه هؤلاء الأعـراب أهـل السـوس مـن الشـبانات

وبني حسان، ورغّبوه في ملك هذه القصور فأغزاها من تخوم وطنه بدرعة ودخل القرى عنوة.. وفر علي بن الحسن وأمه إلى جبال نكيسة عند صنهاجة ثم رجع، ثم غلب السلطان أبو الحسن واستولى على المغرب كله، ورغّبه العرب في مثلها من قصور السوس، فبعث معهم عساكره، وقائده حسون بن إبراهيم بن عيسى من بني يرنيان فملكها، وجبى بلاد السوس وأقطع فيه للحرب، وساسهم في الجباية فاستقامت حاله مدة.

ثم انقرض أمر السلطان أبي الحسن فانقرض ذلك، ورجع السوس إلى حاله وهو اليوم ضاح من ظل الدولة، والعرب يقتسمون جبايته ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجه قبائل الجباية. والظواعن منهم يقتسمونهم خولاً للعسكرة مثل كزولة مع بني حسان وزكرز ولخس من لمطة مع الشبانات، هذه حالهم لهذا العهد. ورئاسة ذوي حسان في أولاد أبي الخليل بن عمر بن عفير بن حسن بن موسى بن حامد بن سعيد بن حسان بن مختار لمخلوف بن أبي بكر بن سليمان بن الحسن بن زيان بن الخليل ولأخواته. ولا أدري رئاسة الشبانات لمن هي منهم، إلا أنهم حرب لبني حسان آخر الأيام والرقيطات في غالب أحوالهم أحلاف للشبانات، وهم أقرب إلى بلاد المصامدة وجبال درن وذوي حسان أبعد في القفر، والله تعالى يخلق ما يشاء لا إله إلا هو.

الخبر عن بني سليم بن منصور من هذه الطبقة الرابعة وتعديد بطونهم وذكر أنسابهم وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم

ونبدأ أولاً بذكر بني كعب وأخبارهم. وأما بني سليم هؤلاء فبطن متسع من أوسع بطون مضر وأكثرهم جوعاً، وكانت منازلهم بنجد. وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس، وفيهم شعوب كثيرة ورئاستهم في الجاهلية لبني الشريد بن رياح بن ثعلبة بن عطية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم، وعمرو بن الشريد عظيم مضر، وأبناؤه: صخر ومعاوية، فصخر أبو الخنساء وزوجها العباس بن مرداس صحابي حضرت معه القادسية.

ومن بطون سليم: عطية ورعل وذكوان الذين دعا عليهم رسول الله ﷺ لما فتكوا بأصحابه فحمد ذكرهم. وكان بنو سليم لعهد الخلافة العباسية شوكة بغي وفتنة، حتى لقد أوصى بعض خلفائهم ابنه أن لا يتزوج فيهم. وكانوا يغيرون على المدينة وتخرج الكتائب من بغداد إليهم وتوقع بهم وهم متبذون بالقفر، ولما كانت فتنة القرامطة صاروا حلفاء لأبي الطاهر وبنيه أمراء البحرين من القرامطة مع بني عقيل بن كعب.

ثم لما انقرض أمر القرامطة غلب بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة لما أن القرامطة كانوا على دعوتهم. ثم غلب بنو الأصفر بن تغلب على البحرين بدعوة العباسية أيام بني بويه، وطردوا عنها بني سليم فلحقوا بصعيد مصر. وأجازهم المستنصر على يد اليازوري وزيره إلى إفريقية لحرب المعز بن باديس عند خلافته عليهم كما ذكرنا ذلك أولاً، فأجازوا مع الهلاليين وأقاموا ببرقة وجهات طرابلس زماناً ثم صاروا إلى إفريقية كما يذكر في الخبر عنهم.

وبإفريقية وما إليها من هذا العهد من بطونهم أربعة بطون: زغب وذياب وهبيب وعوف، فأما زغب فقال ابن الكلبي في نسبته: زغب بن نصر بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم. وقال أبو محمد التجاني من مشيخة التونسيين في رحلته: أنه زغب بن ناصر بن خفاف بن جرير بن ملاك بن خفاف، وزعم أنه أبو ذياب، وزغب الأصغر الذين هم الآن من أحياء بني سليم بإفريقية. وقال أبو الحسن بن سعيد: هو زغب بن مالك بن بهثة بن سليم، كانوا بين الحرمين وهم الآن بإفريقية مع إخوانهم، ونسب ذياب بن مالك بن بهنة فالله أعلم بالصحيح من ذلك.

ونسب ابن سعيد والتجاني لهؤلاء قريب بعضه من بعض ولعله واحد، وسقط لابن سعيد جد وأما هبيب فهو ابن بهنة بن سليم ومواطنهم من أول أرض برقة مما يلي إفريقية إلى العقبة الصغيرة من جهة الإسكندرية، أقاموا هنالك بعد دخول إخوانهم إلى إفريقية. وأول ما يلي الغرب منهم بنو حميد لهم أجرابية وجهاتها، وهم عديد يرهبهم الحاج ويرجعون إلى شماخ وقبائل شماخ لها عدد ولهم العز في هيب لكونها حازت خصب برقة الذي منه المرج. وفي شرقيهم إلى العقبة الكبيرة من قبائل هيب بنو لبيد، وهم بطون عديدة، وبين شماخ ولبيد فتن وحروب. وفي شرقيهم إلى العقبة الصغيرة شمال ومحارب والرئاسة في هاتين القبيلتين لبني عزاز وهم المعروفون بالعزة، وجميع بطون هيب هذه استولت على إقليم طويل خرّبوا مدنه، ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية إلا لأشياخهم، وفي خدمتهم بربر ويهود يحترفون بالفلاحة والتجر، ومعهم من رواحة وفزارة أمم، واشتهر لهذا العهد ببرقة من شيوخ أعرابها أبو ذؤيب. ولا أدري نسبه فيمن هو وهو بعيد وهم يقولون من العزة، وقوم يقولون من بني أحمد، وقوم يجعلونه

من فزارة لأن فزارة هنالك قليل عددهم والغلب لهيب، فكيف تكون الرئاسة لغيرهم؟

وأما عوف فهو ابن بهثة بن سليم ومواطنهم من وادي قابس إلى أرض بونة، ولهم جذمان عظيمان: مرداس وعلاق، ولعلاق بطنان: بنو يحيى وحصن، وفي أشعار هؤلاء المتأخرين منهم مثل حمزة بن عمر شيخ الكعوب وغيره، أن يحيى وعلاقاً أخوان، ولبني يحيى ثلاثة بطون: حمير ودلاج ورياح، ولحمير بطنان: ترجم وكردم، ومن ترجم: الكعوب بنو كعب بن أحمد بن ترجم، ولحصن بطنان: بنو علي وحكيم. ونحن نأتي على الحكاية عن جميعهم بطناً بطناً. وكانوا عند إجازتهم على أثر الهلاليين مقيمين ببرقة كما ذكرناه. وهنالك نزل عليهم القاضي أبو بكر بن العربي وأبوه حين غرقت سفينتهم ونجوا إلى الساحل، فوجدوا هنالك بني كعب فنزل عليهم فأكرمه شيخهم كما ذكر في رحلته.

ولما كانت فتنة ابن غانية وقراقش الغزي بجهات طرابلس وقابس وضواحيها كما نذكر في أخبارهم، كان بنو سليم هؤلاء فيمن تجمع إليهم من ذؤبان العرب وأوشاب القبائل فاعصوصبوا عليهم، وكان لهم معهم حروب، وقتل قراقش ثمانين من الكعوب وهربوا إلى برقة، واستصرخوا برياح من بطون سليم، ودبكل من حمير فصارخوهم إلى أن تجلت غمامة تلك الفتنة بمهلك قراقش وابن غانية من بعده. وكان رسوخ الدولة الحفصية بإفريقية.

ولما هلك قراقش واتصلت فتنة ابن غانية مع أبي محمد بن أبي حفص، ورجع بنو سليم إلى أبي محمد صاحب إفريقية، وكان ابن غانية الدواودة من رياح، وشيخهم مسعود البلط، فر من المغرب ولحق به، فكان معه هو وبنوه، وبنو عوف هؤلاء من سليم مع الشيخ أبي محمد، فلما استبد ابنه الأمير أبو زكريا بملك إفريقية رجعوا جميعاً إليه والشفوف للدواودة، فلما انقطع دابر ابن غانية صرف عزمه إلى إخراج رياح من إفريقية لما كانوا عليه من العيث بها والفساد، فجاء بمرداس وعلاق وهما بنو عوف بن سليم هؤلاء من مواطنهم بنواحي السواحل وقابس واصطنعهم.

ورئاسة مرداس يومئذ في أولاد جامع، وبعده لابنه يوسف، وبعده لعنان بن جابر بن جامع، ورئاسة علاق في الكعوب لأولاد شيخة بن يعقوب بن كعب. وكانت رئاسة علاق عند دخولهم إفريقية لعهد المعز وبنيه لرافع بن حماد، وعنده راية جده التي حضر بها مع النبي ﷺ وهو جد بني كعب فيما يزعمون.

فاستظهر بهم السلطان على شأنه، وأنزلهم بساح القيروان، وأجزل لهم الصلات والعوائد وزاحموا الدواودة من رياح بمنكل بعد أن كانت لهم استطالة على جميع بلاد إفريقية.

وكانت أبة إقطاعاً لمحمد بن مسعود بن سلطان أيام الشيخ أبي محمد بن أبي حفص، فأقبل إليه مرداس في بعض السنين عيرهم للكيل ونزلوا به، فرأوا نعمة الدواودة في تلولهم تلك، فشرهوا إليها وأجمعوا طلبها فحاربوهم فغلبوهم، وقتلوا رزق بن سلطان، واتصلت الفتنة، فلما حضرهم الأمير أبو زكريا صادف عندهم القبول لتحريضه فاعصوصبوا جميعاً على فتنة الدواودة وتأهبوا لها.

وتكررت بينهم وبين رياح الحروب والوقائع حتى أزاحوهم عن إفريقية إلى مواطنهم لهذا العهد بتلول قسطنطينة وبجاية إلى الزاب وما إليه. ثم وضعوا أوزار الحرب وأوطن كل حيث قسمت له قومه. وملك بنو عوف سائر ضواحي إفريقية وتغلبوا عليه، واصطنعهم السلطان وأثبتهم في ديوان العطاء، ولم يقطع شيئاً من البلاد، واختص بالولاية منهم أولاد جامع وقومه فكانوا له خالصة، وتم تدبيره في غلب الدواودة ورياح في ضواحي إفريقية وإزعاجهم عنها إلى ضواحي الزاب وبجاية وقسطنطينة، وطال بالدولة واختلف حالهم في الاستقامة معها والنفرة، وضرب السلطان بينهم ابن علاق فنشأت الفتنة وسخط عنان بن جابر شيخ مرداس من أولاد جامع مكانه من الدولة، فذهب مغاضباً عنها. وأقام بناجعته من مرداس ومن إليهم بنواحي المغرب في بلاد رياح من زاغر إلى ما يقاربها، وخاطبه أبو عبد الله بن أبي الحسن خالصة السلطان أبي زكريا صاحب إفريقية يومئذ يؤنبه على فعلته في مراجعة السلطان بقصيدة منها قوله، وهي طويلة:

قدوا المهامه بالمهرية القود ... واطووا فلاة بتصويب وتصعيد

ومنها قوله:

سلوا دمنة بين الغضا والسواجر ... هل استن فيها واكفات المواطر

فأجاب عن هذه عنان بقوله:

خليلي عوجاً بين سلع وحاجر ... بهوج عناجيج نواج ضوامر

يقيم عروة في النزوع عنهم ويستعطف السلطان بعض الشيء كما نذكره في أخبار الدولة الحفصية. ثم لحق بمراكش بالخليفة السعيد من بني عبد المؤمن محرضاً له على إفريقية وآل أبي حفص، وهلك في سبيله وقبر بسلا. ولم يزل حال مرداس بين النفرة والأصحاب إلى أن هلك الأمير أبو زكريا واستفحل ملك ابنه المستنصر من بعده، وعلا الكعوب بذمة قوية من السلطان. وكان شيخهم لعهده عبد الله بن شيخة، فسعى عند السلطان في مرداس، وكأن ابن جامع مبلغاً سعايته واعصوصبت عليه سائر

علاق، فحاربوا المرداسيين هؤلاء وغلبوهم على الأوطان والحفظ من السلطان، وأخرجوهم عن إفريقية وصاروا إلى القفر، وهم اليوم به من جهة بادية الأعراب أهل الفلاة ينتزعون إلى الرمل ويمتارون من أطراف التلول تحت أحكام سليم أو رياح ويختصمون بالتغلب على ضواحي قسطنطينة أيام مرابع الكعوب ومصائفهم بالتلول. فإذا انحدروا إلى مشاتيهم بالقفر أجفلت أحياء مرداس إلى القفر البعيد، ويخالطونهم على حلف، ولهم على توزر ونفطة وبلاد قسطيلة أتاوة يؤدونها إليهم بما هي مواطنهم ومجالاتهم وتصرفهم، ولأنها في الكثير من أعراضهم.

وصاروا لهذا العهد إلى تملك القفار بها، فاصطفوا منه كثيراً وأصبح منه عمران قسطنطينة لهم مرتاباً واستقام أمر بني كعب من علاق وفي رئاسة عوف وسائر بطونهم من مرداس وحصين ورياح ودلاج، ومن بطون رياح حبيب وعلا شأنهم عند الدولة. واعتزوا على سائر بني سليم بن منصور، واستقرت رئاستهم في ولد يعقوب بن كعب، وهم بنو شيخة وبنو طاهر وبنو علي. وكان التقدم لبني شيخة بن يعقوب، لعبد الله أولاً ثم لإبراهيم أخيه، ثم لعبد الرحمن ثالثهما على ما يأتي. وكان بنو علي يرادفونهم في الرئاسة، وكان منهم بنو كثير بن يزيد بن علي. وكان كعب هذا يعرف بينهم بالحاج لما كان قضى فرضه، وكانت له صحابة مع أبي سعيد العود الرطب شيخ الموحدين لعهد السلطان المستنصر أفادته جاهاً وثروةً، وأقطع له السلطان أربعاً من القرى أصارها لوالده. كان منها بناحية صفاقس وبإفريقية وبناحية الجريد. وكان له من الولد سبعة، أربعة لأم وهم: أحمد وماضي وعلي ومحمد، وثلاثة لأم وهم: بريد وبركات وعبد الغني. فنازع أحمد أولاد شيخة في رئاستهم على الكعوب، واتصل بالسلطان أبي إسحاق وأحفظهم ذلك فلحقوا بالدعي عند ظهوره، وكان من شأنه ما قدمنا.

وهلك أحمد واستقرت الرئاسة في ولده، وكان له من الولد جماعة، فمن غزية إحدى نساء بني يزيد من صنهاجة: قاسم ومرا أبو الليل وأبو الفضل، ومن الحكمية: فائد وعبيد ومنديل وعبد الكريم، ومن السرية: كليب وعساكر وعبد الملك وعبد العزيز، ولما هلك أحمد قام بأمرهم بعده ابنه أبو الفضل. ثم من بعده أخوه أبو الليل بن أحمد، وعلت رئاسة بني أحمد هؤلاء على قومهم، وتألفوا ولد إخوتهم جميعاً.وعرفوا ما بين أحيائهم بالأعشاش إلى هذا العهد. ولما كان شأن الدعي بن أبي عمارة، وليس بأنه الفضل بن يحيى المخلوع وأوقع بالسلطان أبي إسحاق وقتله وأكثر بنيه كما نذكره في موضعه، لحق أبو حفص أخوه الأصغر بقلعة سنان من حصون إفريقية.

وكان لأبي الليل بن أحمد في نجاته ثم في القيام بأمره أثره وقع منه أحسن المواقع فاصطنعه به وشيّد من رئاسته على قومه عندما أدال الله به من الدعي، فاضطلع أبو الليل هذا بأمرهم.

وزاحم أولاد شيخة بمنكب قوي ولحق آخرهم عبد الرحمن بن شيخة بجباية عندما اقتطعها الأمير أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحاق عن ملك عمه السلطان أبي حفص، فوفد عليه مستجيشاً به ومرغباً له في ملك تونس، يرجو بذلك كثرة رئاسته فهلك دون مرامه، وقبر ببجاية وانقرضت رئاسة أولاد شيخة بمهلكه واستبد أبو الليل بالرئاسة في الكعوب، ووقع بينه وبين السلطان أبي حفص وحشة، فقدم على الكعوب مكانه محمد بن عبد الرحمن بن شيخة، وزاحمه به أياماً حتى استقام على الطاعة.

ولما هلك قام بأمرهم ابنه أحمد، واتصل أمر رئاسته ونكبه السلطان أبو عصيدة فهلك في سجنه، وولي بعده أخوه عمر بن أبي الليل وزاحمه هراج بن عبيد بن أحمد بن كعب إلى أن هلك هراج كما نذكره. ولما هلك عمر قام بأمره في قومه أخوه محمد بن أبي الليل، وكفل مولاهم وحمزة ابن أخيه عمر. وكان عمر مضعفاً عاجزاً فنازعه أولاد مهلهل ابن عمه قاسم وهم: محمد ومسكيانه ومرغم وطالب وعون في آخرين لم يحضرني أسماؤهم، فترشحوا للاستبداد على قومهم ومجاذبة محمد ابن عمهم أبي الليل حبل الرئاسة فيهم. ولم يزالوا على ذلك سائر أيامهم.

ولما ظهر هراج بن عبيد بن أحمد بن كعب وعظم ضغائنه وعتوه وإفساد الأعراب من أحيائه السابلة، وساء أثره في ذلك، وأسف السلطان بالاعتزاز عليه والاشتراط في ماله. وتوغلت له صدور الغوغاء والعامة، فوفد على تونس عام خمسة وسبعمائة ودخل المسجد يوم الجمعة لابساً خفيه، ونكر الناس عليه وطأه بين الله بخف لم ينزعه. وربما قال له في ذلك بعض المصلين إلى جنبه، فقال: إني أدخل بها بساط السلطان فكيف الجامع؟ فاستعظم الناس كلمته وثاروا به لحينه فقتلوه في المسجد وأرضوا الدولة بفعلهم. وكان أمره مذكوراً.

وقتل السلطان بعد ذلك أخاه كيسان وابن عمه شبل بن منديل بن أحمد. وقام بأمر الكعوب من بعد محمد بن أبي الليل وهراج بن عبيد مولاهم وحمزة أبناء عمر، واستبد برئاسة البدو من سليم بإفريقية على مزاحمة من بني عمهم مهلهل بن قاسم وأقتالهم وفحول شولهم. وانتقض أحمد بن أبي الليل وابن أخيه مولاهم ابن عمر على السلطان سنة سبع وسبعمائة، واستدعيا عثمان بن

أبي دبوس من مكانه بوطن دبّاب، فجاءهما وأجلبا به على تونس. ونزل كدية الصعتر بظاهرها. وبرز إليهم الوزير أبو عبد اللّه بن يزريكن فهزمهم، واستخدم أحمد بن أبي الليل.

ثم تقبض عليه واعتقل بتونس إلى أن هلك. ووفد بعد ذلك مولاهم ابن عمر سنة ثمان فاعتقل معه، ولحق أخوه حمزة بالأمير أبي البقاء خالد ابن الأمير زكريا صاحب الثغر الغربي من إفريقية بين يدي مهلك السلطان أبي عصيدة، ومعه أبو علي بن كثير ويعقوب بن الفرس وشيوخ بني سليم هؤلاء. ورغبوا الأمير أبا البقاء في ملك الحضرة. وجاؤوا في صحبته، وأطلق أخاه مولاهم من الاعتقال منذ دخول السلطان تونس سنة عشر وسبعمائة كما نذكره في خبره.

ثم لحق حمزة بالسلطان أبي يحيى زكريا بن اللعياني واتصلت به يده فرفعه على سائر العرب حتى لقد نفس ذلك عليه أخوه مولاهم. ونزع إلى السلطان أبي يحيى الطويل أمر الخلافة، ولّي سبعاً ببجاية وثلاثين بعد استيلائه على الحضرة وسائر بلاد إفريقية، فاستخلصه السلطان لدولته ونابذه حمزة فأجلب عليه بالقرابة واحداً بعد واحد كما نذكره، وداهل أخوه مولاهم في مناصحة السلطان ومالأ حمزة على شأنه.

وربما نميَ عنه الغدر فتقبض عليه السلطان وعلى ابنه منصور وعلي ربيبه زغدان ومغران بن محمد بن أبي الليل. وكان الساعي بهم إلى السلطان ابن عمّهم عون بن عبد اللّه بن أحمد، وأحمد بن عبد الواحد أبو عبيد، وأبو هلال بن محمود بن فائد، وناجي بن أبي علي بن كثير، ومحمد بن مسكين وأبو زيد بن عمر بن يعقوب، ومن هوارة فيصل بن زعزاع فقتلوا لحينهم سنة اثنتين وعشرين وبعث أشلاؤهم إلى حمزة فاشتد حنقه، ولحق صريخاً بأبي تاشفين صاحب تلمسان لعهده من آل يغمراسن، ومعه محمد ابن السلطان اللحياني المعروف بأبي ضربة قد نصبه للملك.

وأمدهم أبو تاشفين بعساكر زناتة، وزحفوا إلى إفريقية فخرج إليهم السلطان وهزمهم برغيش. ولم يزل حمزة من بعدها مجلباً على السلطان أبي يحيى بالمرشحين من أعياص البيت الحفصي، وأبو تاشفين صاحب تلمسان يمدّهم بعساكره. وتكررت بينهم الوقائع والأيام سجالاً كما نذكره في مواضعه.

حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن وقومه من بني مرين على تلمسان والغرب الأوسط سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، واستتبعوا بني عبد الواد وسائر زناتة أقصي حمزة عن فتنته وانقطع حبلها في يده، ولحق بالسلطان أبي الحسن مستشفعاً به، فتقبل السلطان أبو يحيى شفاعته وعفا له عن جرائمه وأحله محل الأصفياء والخلوص. فشمر عن نصحه واجتهاده وظاهر قائده محمد بن الحكيم على تدويخ إفريقية، وظهر البدو من الأعراب فاستقام أمر الدولة وتوثر مهادها. وهلك حمزة سنة أربعين وسبعمائة بيد أبي عون نصر بن أبي علي عبد السلام من ولد كثيِّر بن زيد المتقدم الذكر في بني علي من بطون بني كعب، طعنه في بعض الحروب فأشواه، وكان فيها مهلكه.

وقام بأمرهم من بعده ابنه عمر بمظاهرة شقيقه قتيبة. ولكن أبا الليل تغلب على سائر الإخوة والقرابة، واستبد برئاسة بني كعب وسائر بني يحيى، وأقتاله بنو مهلهل ينافسونه ويرتقبون الإدارة منه. وكان مساهمه في أمره معن بن مطاعن من فزارة وزير أبيه، وخرجوا على السلطان بعد مهلك حمزة أبيهم واتهموا أن قتل أبي عون إياهم إنما كان بممالأة الدولة فنازلوا تونس، وجمعوا لمحاصرتها أولاد مهلهل أمثالهم، ثم اختلفوا ورحلوا عن البلد وانخذل طالب بن مهلهل وقومه إلى السلطان، ونهض في أثرهم فأوقع بهم في القيروان، ووفدت مشيختهم على ابنه الأمير أبي العباس بقصره يداخلونه في الخروج على ابنه، وكان فيهم معن بن مطاعن وزيرهم فتقبض عليه وقتله وأفلت الباقون.

وراجعوا الطاعة وأعطوا الرهن.

ولما هلك السلطان أبو يحيى وقام بالأمر ابنه عمر، انحرفوا عنه وظاهروا أخاه أبا العباس صاحب الجريد وولي العهد، وزحفوا معه بظواعنهم إلى تونس فدخلها، وقتله أخوه عمر كما نذكره في موضعه، وقتل معه أخاهم أبا الهول بن حمزة فأسعفهم بذلك.

ووفد خالد على صاحب المغرب السلطان أبي الحسن فيمن وفد عليه من وجوه الدولة وكافة المشيخة من إفريقية، وجاء في جملته حتى إذا استولى على البلاد قبض أيديهم عما كانت تمتد إليه من إفساد السابلة وأخذ الأتاوة، وانتزع الأمصار التي كانت مقتطعة بأيديهم وألحقهم بأمثالهم من أعراب بلاد المغرب الأقصى من المعقل وزغبة، فثقلت وطأته عليهم وتنكروا له وساء ظنه بهم، وفشت غارات المفسدين من بداويهم بالأطراف فنسب ذلك إليهم، ووفد عليه بتونس من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد وخليفة بن عبد اللّه بن مسكين وخليفة بن أبي زيد من شيوخ حليم، فسعى بهم عنده أنهم داخلوا بعض الأعياص من أولاد اللحياني من بني أبي حفص كما في رحلته، وكما نذكره في موضعه، فتقبض عليهم وبلغ خبرهم إلى الحي فتأشبوا بقسطيلية والجريد فظفروا بزنابي من بقية آل عبد المؤمن من عقب أبي العباس إدريس الملقب بأبي إدريس آخر خلفائهم بمراكش وقتيل

يعقوب بن عبد الحق عند غلبه على الموحدين بمراكش واستيلاؤه على المغرب، وهو أحمد بن عثمان بن إدريس، فنصبوه وبايعوه واجتمعوا عليه.

وتأشبت معهم بنو عمهم مهلهل أقتالهم وكان طالب هلك، وقام مكانه فيهم ابنه محمد فصرخهم بقومه واتفقوا جميعاً على حرب زناتة. ونهض إليهم السلطان أبو الحسن من تونس فاتح تسع وأربعين فأجفلوا أمامه حتى نزل القيروان، ثم ناجزوه ففضوا جموعه وملأوا حقائبهم بأسلابه وأسلابهم، وخضدوا من شوكة السلطان، والانوا من حدّ الملك، وخفضوا من أمر زناتة، وغلبهم الأمم وكان يوم له ما بعده في اعتزاز العرب على الدول آخر الأيام. وهلك أبو الليل بن حمزة فعجز عمر عن مقاومة إخوته، واستبد بالرئاسة عليه أخوه خالد، ثم من بعده أخوهما منصور، واعتز على السلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى صاحب تونس لعهده اعتزازاً لا كفاء له.

وانبسطت أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم الدولة حتى الأمصار وألقاب الجباية ومختص الملك، وانتفضت الأرض من أطرافها ووسطها، ومازالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية، وقاسموهم في جبايات الأمصار بالأقطاع ريفاً وصحراءً وتلولاً وجريداً، ويحرّضون بين أعياص الدولة ويجلبون بهم على الحضرة لما يعطونه طعمة من الدولة. ويرميهم السلطان بأقتالهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد يديل به منهم حتى أحفظوها. ويحرش بينهم بقضاء أوطارها حتى إذا أراد اللّه إنقاذ الأمة من هوة الخسف وتخليصهم من مكاره الجوع والخوف، وإدالتهم من ظلمات الموت بنور الاستقامة، بعث همة السلطان أمير المؤمنين أبي العباس أحمد أيده اللّه لطلب إرثه من الخلافة. فبعث من بالحضرة فانبعث لها من مكان إمارته بالثغر العربي، ونزل إليه أمير البدو ومنصور بن حمزة هذا، وذلك سنة إحدى وسبعين وسبعمائة على حين مهلك السلطان أبي إسحاق مقتعد كرسي الحضرة وصاحب عصا الخلافة والجماعة.

وقام ابنه خالد بالأمر من بعده فنهض إلى إفريقية ودخل تونس عنوة، واستولى على الحضرة سنة اثنتين وسبعين بعدها، وأرهف حده للعرب في الاعتزاز عليهم وقبض أيديهم عن المفاسد وذويهم، فحدثت لمنصور نفرة عن الدولة، ونصب الأمير أبو يحيى زكريا ابن السلطان ابن أبي يحيى جدهم الأكبر، كان في أحياء العرب منذ سنتين كما نذكر ذلك كله في أخبار الدولة، وأجلب به على تونس سنة ثلاث وسبعين، فامتنعت عليهم ولم يظفروا بشيء وراجع منصور حاله عند السلطان، وكشف عن وجه المناصحة.

وكان عشريته قد ملّوا منه حسداً ومنافسة بسوء ملكته عليهم، فغدا عليه محمد ابن أخيه أبي الليل وطعنه فأشواه، وهلك ليومه سنة خمس وسبعين، وافترق جمعهم.

وقام بأمرهم من بعده صولة ابن أخيه خالد بن حمزة، ويرادفه أولاد مولاهم بن عمر، فجهد بعض الشيء في خدمة السلطان ومناصحته. ثم رجع إلى العصيان وكشف القناع في الخلاف، واتصل حاله على ذلك ثلاثاً، وأدال السلطان منه ومن قومه بأقتالهم أولاد مهلهل، ورئاستهم لمحمد بن طالب، فرجّع إليهم رئاسة البدو، وجعل لهم المنع والإعطاء فيهم ورفع رتبهم على العرب، وتحيز إليهم مع أولاد مولاهم بن عمر بن أبي الليل، ونقلت أولاد حمزة سائر هذه الأيام في الخلافة، ونهض السلطان سنة ثمانين إلى بلاد الجريد لتقديم رؤسائها عن المراوغة، وحملهم على جادة الطاعة، فتعرضوا لمدافعته عنها بإملاء هؤلاء الرؤساء ومشارطتهم لهم على ذلك، وبعد أن جمعوا له الجموع من ذؤبان العرب الأعراب وذياب البدو، فغلبهم عليها جميعاً، وأزاحهم عن ضواحيها، وظفر بفرائسه من أولئك الرؤساء، وأصبحوا بين معتقل ومشرد، واستولى على قصورهم وذخائرهم، وأبعد أولاد حمزة وأحلافهم من حكيم المفر، وجاوزوا تخوم بلادهم من جهة المغرب، واعتزت عليهم الدولة اعتزازاً لا كفاء له، فنامت الرعايا في ظل الأمن وانطلقت منهم أيدي الاعتمار والمعاش وصلحت السابلة بعد الفساد، وانفتحت أبواب الرحمة على العباد.

وقد كان اعتزاز هؤلاء العرب على السلطان والدولة لا ينتهي إليه اعتزاز، ولهم عنهجية وإباية وخلق في التكبر والزهو غريزة لما أنهم لم يعرفوا عهداً للذل، ولا يساومون بإعطاء الصدقات لهذا العهد الأول. وأما في دولة بني أمية فللعصبية التي كانت للعرب بعضها مع بعض، يشهد بذلك أخبار الردة والخلفاء معهم ومع أمثالهم، مع أن الصدقة كانت لذلك العهد تتحرّى الحق بجانب الاعتزاز والغلظة، فليس في إعطائها كثير غمط ولا مذلة. وأما أيام بني العباس حين استفحال الملك وحدوث الغلظة على أهل العصابة فلابعادهم بالقفر من بلاد نجد وتهامة وما وراءهما.

وأما أيام العبيديين فكانت الحاجة تدعو الدولة إلى استمالتهم للفتنة التي كانت بينهم وبين بني العباس. وأما حين خرجوا بعد ذلك إلى قضاء برقة وإفريقية فكانوا ضاحين من ظل الملك. ولما اصطنعهم بنو أبي حفص كانوا معهم بمكان من الذل وسوم الخسف حتى كنت واقعتهم بالسلطان أبي الحسن وقومه من زناتة بالقيروان، فنهجوا سبيل الاعتزاز كغيرهم من العرب

على الدول بالمغرب، فتحامل المعقل وزغبة على ملوك زناتة، واستطالوا في طلابهم بعد أن كانوا مكبوحين بحكمة التغلب على التطاول إلى مثلها. والله مالك الأمور.

الخبر عن قاسم بن مرا من الكعوب القائم بالسنة في سليم ومآل أمره وتصاريف أحواله

كان هذا الرجل من الكعوب من أولاد أحمد بن كعب منهم، وهو قاسم بن مرا بن أحمد. نشأ بينهم ناسكاً متنحلاً للعبادة. ولقي بالقيروان شيخ الصلحاء بعصره أبا يوسف الدهماني وأخذ عنه ولزمه، ثم خرج إلى قومه مقتفياً طريقة شيخه في التزام الورع والأخذ بالسنة ما استطاع، ورأى ما العرب عليه من إفساد السابلة والخروج عن الجادة، فأخذ نفسه بتغيير المنكر فيهم وإقامة السنة لهم، ودعا إلى ذلك عشيره من أولاد أحمد، وأن يقاتلوا معه على ذلك. فأشار عليه أولاد أبي الليل منهم وكانوا عيبة له تنصح له أن ينكفّ عن طلب ذلك من قومه، مخافة أن يلحّوا في عداوته فيفسد أمره. ودفعوه إلى مطالبة غيرهم من سليم وسائر الناس بذلك، وأنهم منعة له ممن يرومه خاصة، فجمع إليه أوباشاً من البادية تبعوه على شأنه والتزموا طريقته والمرابطة معه، وكانوا يسمون بالجنادة.

وبدأ بالدعاء إلى إصلاح السابلة بالقيروان وما إليها من بلاد الساحل، وتتبع المحاربين بقتل من يعثر عليه منهم بالطرق، وغزو المشاهير منهم في بيوتهم، واستباحة أموالهم ودمائهم حتى شردهم كل مشرد. وعلت بذلك كلمته على آل حصن وصلحت السابلة بإفريقية ما بين تونس والقيروان وبلاد الجُريد وطار له ذكر نفسه عليه قومه، وأجمع عداوته واغتياره بنو مهلهل قاسم بن أحمد، وتنصحوا ببعض ذلك للسلطان بتونس الأمير أبي حفص وأن دعوة هذا الرجل قادحة في أمر الجماعة والدولة، فأغضى لهم عن ذلك، وتركهم وشأنهم، فخرجوا من عنده مجمعين على قتله.

ودعوه في بعض أيامهم إلى المشاورة معه على عادة العرب، ووقفوا معه بساحة حيّهم، ثم خلصوا معه نجياً، وطعنه من خلفه محمد بن مهلهل الملقب بأبي عذبتين فخرّ صريعاً لليدين والفم. وامتعض له أولاد أبي الليل وطلبوا بدمه فافترقت أحياء بني كعب من يومئذ بعد أن كانت جميعاً. وقام بأمره من بعده ابنه رافع على مثل طريقته إلى أن هلك في طلب الأمر على يد بعض رجالات آل حصن سنة ست وسبعمائة.

ولم يزل بنو أبي الليل على الطلب بثأر قاسم بن مرا إلى أن ظهر فيهم حمزة ومولاهم ابنا عمر بن أبي الليل، وصارت إليهم الرئاسة على أحيائهم. واتفق بعض الأيام اجتماع أولاد مهلهل بن قاسم في سيدي حمزة، ومولاهم في مشاتيهم بالقفر، فأجمع اغتيالهم وقتلهم عن آخرهم بثأر ابن عمهم قاسم بن مرا، ولم يفلت منهم إلا طالب بن مهلهل لم يحضر معهم، وعظمت الفتنة من يومئذ بين هذين الحيين وانقسمت عليهم أحياء بني سليم وصاروا يتعاقبون في الخلاف والطاعة على الدولة، وهم على ذلك لهذا العهد، والرئاسة في بني مهلهل اليوم لمحمد بن طالب بن مهلهل وأخيه يحيى، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

بنو حصن بن علاق

بنو حصن هؤلاء من بطون علاق وحصن أخو يحيى بن علاق كما مر، فهم بطنان أيضاً:بنو علي وحكيم. وقد يقال: إن حكيماً ليس لحصن، وإنما ربّي في حجره فانتمى إليه. وأما حكيم فلهم بطون منهم: بنو ظريف بن حكيم وهم أولاد جابر، والشراعبة ونعير وجوين لمقدام بن ظريف وزياد بن ظريف.ومنهم: بنو وائل بن حكيم ومنهم بنو طرود بن حكيم. وقد يقال إن طروداً ليس لسليم، وأنهم من منبس إحدى بطون هلال بن عامر، ويقال: إن منهم زيد العجاج بن فاضل المذكور في رجالات هلال، والصحيح في طرود أنهم من بني فهم بن عمر بن قيس بن عيلان ابن عُدوان وفي تعدادهم، وكانت طرود أحلاف الدلاج، ثم قاطعوهم وحالفوا آل ملاعب.

ومن بطون حكيم آل حسين ونوال ومقعد والجميعات، ولا أدري كيف يتصل نسبهم. ومنهم بنو نمير بن حكيم، ولنمير بطنان: ملاعب وأحمد، فمن أحمد بنو محمد والبطين، ومن ملاعب بنو هيكل بن ملاعب. وهم أولاد زمام والفريات وأولاد مياس وأولاد فائد. ومن أولاد فائد: الصرح والمدافعة. وأولاد يعقوب بن عبد الله بن كثير بن حرقوص بن فائد، وإليهم رئاسة حكيم وسائر بطونهم ومواطن حكيم هؤلاء لهذا العهد ما بين سوسة والأجم، والناجعة منهم أحلاف لبني كعب، تارة لأولاد أبي الليل وتارة لأقتالهم أولاد مهلهل، ورئاستهم في بني يعقوب بن عبد السلام بن يعقوب شيخاً عليهم، وانتقض أيام اللحياني.

ووفد على السلطان أبي يحيى بالثغر الغربي من إفريقية في بجاية وقسطنطينة وجاء في جملته، فلما ملك الملك تونس، عقد له

على قومه ورفعه على أنظاره، وغصّ به بنو كعب فحرّض عليه حمزة من الأعشاش محمد بن حامد بن يزيد فقتله في موقف شوراهم، وولي الرئاسة فيهم من بعده ابن عمه محمد بن مسكين بن عامر بن يعقوب بن القوس وانتهت إليه رئاستهم. وكان يرادفه أو ينازعه جماعة من بني عمه، فمنهم سحيم بن سليمان بن يعقوب، وحضر واقعة طريف مع السلطان أبي الحسن، وكان له فيها ذكر، ومنهم أبو الهول وأبو القاسم ابنا يعقوب بن عبد السلام، وكان لأبي الهول مناصحة للسلطان أبي الحسن حين أحلف عليه بنو سليم بالقيروان وأدخله مع أولاد مهلهل في الخروج على القيروان، فخرج معهم جميعاً إلى سوسة.

ومنهم بنو يزيد بن عامر بن يعقوب وابنه خليفة. ولم يزل محمد بن مسكين على رئاسته أيام السلطان أبي يحيى كلها وكان مخالطاً له، ومتهالكاً في نصيحته والانحياز إليه.ولما هلك خلفه في رئاسته ابن أخيه خليفة بن عبد الله بن مسكين وهو أحد الأشياخ الذين تقبض عليهم السلطان أبو الحسن بتونس بين يدي واقعة القيروان. ثم أطلقه وهو محصور بالقيروان فكان له به اختصاص من بعد ذلك. ولما تغلب العرب على النواحي بعد واقعة القيروان تغلب بنو مسكين هؤلاء على سوسة، فأقطعها السلطان خليفة هذا وبقيت في ملكته.

وهلك خليفة فقام برئاستهم في حكيم ابن عمه عامر بن محمد بن مسكين. ثم قتله محمد بن بثينة بن حامد من بني كعب قتله يعقوب بن عبد السلام، ثم قتله محمد هذا غدراً بجهاد الجريد سنة خمس وخمسين وسبعمائة.ثم افترق أمرهم واستقرت رئاستهم لهذا العهد بين أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين، وتلقّب أبا معنونة وهو ابن أخي خليفة المذكور، وعبد اللّه بن محمد بن يعقوب وهو ابن أخي أبي الهول المذكور، ولما تغلب السلطان أبو العباس على تونس وملكها، انتزع سوس من أيديهم، فامتعض أحمد لذلك وصار إلى ولاية صولة بن خالد بن حمزة من أولاد أبي الليل وسلكوا سبيل الخلاف والفتنة، وأبعدوا في شأوها. وهم لهذا العهد مشردون عن الضواحي والأرياف منزاحون إلى القفر.

وأما عبد اللّه بن محمد ويلقّب الراوي فتحيز إلى السلطان، وأكد حلفه مع أولاد مهلهل على ولايته ومظاهرته، فعظمت رئاسته في قومه وهو على ذلك لهذا العهد. ثم راجع أبو معنونة خدمة السلطان وانقسمت رئاسة حكيم بينهما، وهم على ذلك لهذا العهد. وأما بنو علي إخوة حكيم فلهم بطون أولاد صورة ويجمعهما معاً عوف بن محمد بن علي بن حصن. ثم أولاد نمي والبدرانة، وأولاد أم أحمد والحضرة أو الرجلان، وهو مقعد والجميعات والحمر والمسابهة آل حسين وحجري، وقد يقال: إن حجري ليسوا لسليم وأنهم من بطون كندة صاروا معهم بالحلف، فانتسبوا بنسبهم ورئاسة بني علي في أولاد صورة، وشيخهم لهذا العهد أبو الليل بن أحمد بن سالم بن عقبة بن شبل بن صورة بن مرعي بن حسن بن عوف. ويرادفهم المراعية من أهل نسبهم أولاد مرعي بن حسن بن عوف، ومواطنهم ما بين الأجم والمباركة من نواحي قابس، وناجعتهم أحلاف الكعوب إما لأولاد أبي الليل أو لأولاد مهلهل، وغالِب أخوالهم أولاد مهلهل، واللّه مقدر الأمور لا رب سواه.

ذباب بن سليم

قد ذكرنا الخلاف في نسبهم من أنهم من ذباب بن ربيعة بن زغب الأكبر وأن ربيعة أخو زعب الأصغر. وضبط هذه اللفظة لهذا العهد بضم الزاي وقد ضبطها الأجدابي والرشاطي بكسر الزاي. كذا نقل أبو محمد التجاني في رحلته، ومواطنهم ما بين قابس وطرابلس إلى برقة ولهم بطون فمنهم: أولاد أحمد بن ذبّاب ومواطنهم غربي قابس وطرابلس إلى برقة، عيون رجال مجاورون لحصن، ومن عيون رجال بلاد زغب من بطون ذبّاب بنو يزيد مشاركون لأولاد أحمد في هذه المواطن، وليس هذا أباً لهم، ولا اسم رجل، وإنما هو اسم حلفهم انتسبوا به إلى مدلول الزيادة. كذا قال التجاني وهم بطون أربعة:الصهب بسكون الهاء بنو صهب بن جابر بن فائد بن رافع بن ذباب، وإخوتهم الحمادية بنو حمدان بن جابر، والخرجة بسكون الراء بطن من آل سليمان منهم.أخرجهم آل سليمان من مواطنهم بمسلاتة فحالفوا هؤلاء ونزلوا معهم، والأصابعة نسبة إلى رجل ذي إصبع زائدة. ولم يذكر التجاني في أي بطن من ذباب ينتسبون.

ومنهم النوائل بنو نائل بن عامر بن جابر وإخوتهم أولاد سنان بن عامر، وإخوتهم أولاد وشاح بن عامر، وفيهم رئاسة هذا القبيل من ذباب كلهم.

وهم بطنان عظيمان: المحاميد بنو محمود بن طوق بن بقية بن وشاح ومواطنهم ما بين قابس ونفوسة وما إلى ذلك من الضواحي والجبال، ورئاستهم لهذا العهد في بني رحاب بن محمود لأولاد سباع بن يعقوب بن عطية بن رحاب. والبطن الآخر الجواري بنو حميد بن جارية بن وشاح، ومواطنهم طرابلس وما إليها مثل تاجورا وهزاعة وزنزور وما إلى ذلك، ورئاستهم لهذا العهد في بني مرغم بن صابر بن عسكر بن علي بن مرغم. ومن

أولاد وشاح بطنان آخران صغيران مندرجان مع الجواري والمحاميد وهما: الجواربة بنو جراب بن وشاح، والعمور بنو عمر بن وشاح، هكذا زعم التجاني في العمور هؤلاء. وفي هلال بن عامر بطن العمور كما ذكرناه.وهم يزعمون أن عمور ذباب هؤلاء منهم، وأنهم إنما جمعهم مع ذباب الموطن خاصة وليسوا من سليم والله أعلم بحقيقة ذلك.

وكان من أولاد وشاح بنو حريز بن تميم بن عمر بن وشاح وكان منهم فائد بن حريز من فرسان العرب المشاهير وله شعر متداول بينهم لهذا العهد سمر الحي وفكاهة المجالس، ويقال: إنه من المحاميد، فائد بن حريز حربي بن محمود بن طوب. وكان بنو ذباب هؤلاء شيعة لقراقش الغزي وابن غانية، ولهما فيه أثر. وقتل قراقش مشيخة الجواري في بعض أيامه، ثم صاروا بعد مهلك ابن غانية إلى خدمة الأمير أبي زكريا وأهل بيته من بعده، وهم الذين أقاموا أمر الداعي بن أبي عمارة وعليهم كان تلبسه لأن يصير أميراً بدل المخلوع، وكان فر إليهم بعد مهلك مولاه وبنيه، ونزل عليهم حتى إذا مر بهم ابن أبي عمارة فعرفه الخبر، فاتفقوا على التلبيس وزينوا ذلك لهؤلاء العرب فقبلوه. وتولى كبر ذلك مرغم بن صابر وتبعه قومه، وداخلهم في الأمر أبو مروان عبد الملك بن مكي رئيس قابس، فكان ما قدر الله ما كان من تمام أمره وتلويث كرسي الخلافة بدمه حسبما يذكر في أخبار الدولة الحفصية.

وكان السلطان أبو حفص يعتمد عليهم فغلبهم في دعوة عمارة فخالفوا عليه، وسرح لحربهم قائده أبا عبد الله الفزاري، واستصرخوا بالأمير أبي زكريا ابن أخيه، وهو يومئذ صاحب بجاية والثغر الغربي من إفريقية. ووفد عليه منهم عبد الملك بن رحاب ابن محمود فنهض لصريخه سنة سبع وثمانين وستمائة، وحاربوا أهل قابس وهزموهم وأثخنوا فيهم، ثم غلبهم الفزاري ومانعهم عن وطن إفريقية، ورجع الأمير أبو زكريا إلى ثغره. وكان مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجواري قد أسره أهل صقلية من سواحل طرابلس سنة اثنتين وثمانين وباعوه لأهل برشلونة، فاشتراه ملكهم وبقي أسيراً عنده إلى أن نزع إليه عثمان بن إدريس الملقب بأبي دبوس بقية الخلفاء من بني عبد المؤمن، وأراد الإجازة إلى إفريقية لطلب حقه في الدعوة الموحدية، فعقد ملك برشلونة بينه وبين مرغم حلفاً وبعثهما، ونزل بساحل طرابلس.

وأقام مرغم الدعوة لأبي دبوس وحمل عليها قومه، وحاصر طرابلس سنة ثمان وثمانين أياماً ثم تركوا عسكراً لحصارها، وارتحلوا لجباية الوطن فاستفرغوه، وكان ذلك غاية أمرهم، وبقي أبو دبوس يتقلب في أوطانهم مدة، واستدعاه الكعوب لأول المائة الثامنة وأجلبوا به على تونس أيام السلطان أبي عصيدة من الحفصيين وحاصروها أياماً فلم يظفروا، ورجع إلى نواحي طرابلس وقام بها مدة. ثم ارتحل إلى مصر وأقام بها إلى أن هلك كما يأتي ذكره في خبر ابنه مع السلطان أبي الحسن بالقيروان. ولم يزل هذا شأن الجواري والمحاميد إلى أن تقلص ظل الدولة عن أوطان قابس وطرابلس فاستبدّ برئاسة ضواحيها. واستعبدوا سائر الرعاية المعتمرة في جبالها وبسائطها واستبد أهل الأمصار برئاسة أمصارهم بنو مكي بقابس وبنو ثابت بطرابلس على ما يذكر في أخبارهم.

وانقسمت رئاسة أولاد وشاح بانقسام المصرين، فتولى الجواري طرابلس وضواحيها، وزنرور وغريان ومغر، وتولى المحاميد بلد قابس وبلاد نفوسة وحرب.

وفي ذباب هؤلاء بطون أخرى ناجعة في القفر، ومواطنهم منزاحة إلى جانب الشرق عن مواطن هؤلاء الوشاحين. فمنهم آل سليمان بن هبيب بن رابع بن ذباب، ومواطنهم قبلة مغر وغريان، ورئاستهم في ولد نصر بن زائد بن سليمان، وهي لهذا العهد لهائل بن حمّاد بن نصر، وبنيه، والبطن الآخر آل سالم بن هيب أخي سليمان. ومواطنهم بلد مسراتة إلى لبدة ومسلاتة. وشعوب آل سالم هؤلاء الأحامد والعمائم والعلاونة وأولاد مرزوق، ورئاستهم في ولد مرزوق، وهو ابن معلّى بن معراني بن قلينة بن قاص بن سالم وكانت في أول هذه المائة الثامنة لغلبون بن مرزوق، واستقرت في بنيه، وهي اليوم لحميد بن سنان بن عثمان بن غلبون. والعلاونة منهم مجاورون للعزّة من عرب برقة والمشابنة من هوارة المقيمين.

وتجاذب ذباب هؤلاء في مواطنهم من جهة القبلة ناصرة، وهم من بطون ناصرة بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم، فإن كان زعب أبو ذباب لملك بن خفاف كما زعم التجاني فهم إخوة ناصرة، ويبعد أن يسمى قوم باسم إخوانهم، وإن كانوا الناصرة كما زعم ابن الكلبي وهو أقرب، فيكون هؤلاء اختصوا باسم ناصرة دون ذباب وغيرهم من بنيه، وهذا كثير من بطون القبائل والله أعلم. ومواطنهم بلاد فزان وودان. هذه أخبار ذباب هؤلاء.

وأما العزّة جيرانهم في الشرق الذين قدمنا ذكرهم فيهم موطنون من أرض برقة خلاء لاستيلاء الخراب على أمصارها وقراها من دولة صنهاجة، تمرست بعمرانها بادية العرب وناجعتهم، فتحيفرها عارة ونهباً إلى أن فسدت فيها مذاهب المعاش، وانتقض العمران، فخربت وصار معاش الأكثر من هؤلاء

العرب الموطنين بها لهذا العهد من الفلح يثيرون له الأرض بالعوامل من الجمال والحمير، وبالنساء إذا ضاق كسبهم عن العوامل وارتكبوا ضرورة المعاش.

وينجعون إلى بلاد النخل في جهة القبلة منهم من أوجلة وشنترية والواحات وما وراء ذلك من الرمال والقفر إلى بلد السودان المجاورين لهم، وتسمى بلادهم برنيق، وشيخ هؤلاء العرب ببرقة يعرف لهذا العهد بأبي ذئب من بني جعفر. وركاب الحج من المغرب يحمدون مسالمتهم في ممرهم وحسن نيتهم في التجافي عن حاج بيت اللّه، وإرفادهم بجلب الأقوات لسربهم وحسن الظن بهم. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾

وأما نسبهم فما أدري فيمن هو من العرب، وحدثني الثقة من ذباب عن خريص ابن شيخهم أبي ذيب من بقايا الكعوب ببرقة. وتزعم نسابة الهلاليين أنهم لربيعة بن عامر إخوة هلال بن عامر. وقد مر الكلام في ذلك في أول ذكر بني سليم، ويزعم بعض النسابة أنهم والكعوب من العزة، وأن العزة من هيث، وأن رئاسة العزة لأولاد أحمد وشيخهم أبو ذئب وأن المثانية جيرانهم من هوارة.وذكر لي سلام ابن التركية شيخ أولاد مقدم جيرتهم بالعقبة أنهم من بطون مسراتة من بقية هوارة، وهو الذي رأيت النسّابة المحقّقين عليه بعد أن دخلت مصر ولقيت كثيراً من المترددين إليها من أهل برقة. وهذه آخر الطبقة الرابعة من العرب، وبانقضائه انقضى الكتاب الثاني في العرب وأجيالهم منذ بدء الخليقة، فلنرجع إلى أحوال البربر في الكتاب الثالث واللّه ولي العون اهـ.



الكتاب الثالث

في أخبار البربر والأمة الثانية من أهل المغرب وذكر أوليتهم وأجيالهم ودولتهم منذ بدء الخليقة لهذا العهد ونقل الخلاف الواقع بين الناس في أنسابهم

الفصل الأول

هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر، ويظعن أهل العزّ منهم والغلبة لانتجاع المراعي، فيما قرب من الرحلة، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس. ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأظعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة. ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصمّاء بالأكسية المعلّمة، ويفرغون عليه البرانس الكحل ورؤوسهم في الغالب حاسرة، وربما يتعاهدونها بالحلق. ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم.

يقال: إن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وإفريقية، وقتل الملك جرجيس، وبنى المدن والأمصار، وباسمه زعموا سميت إفريقية لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال: ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر. والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة، ومنه يقال: بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة.

وأما شعوب هذا الجيل وبطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما: برنس وماذغيس. ويلقب ماذغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب برنس البرانس، وهما معاً ابنا برنس، وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد. فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار أنهما لأب واحد على ما حدثه عنه يوسف الورّاق. وقال سالم بن سليم المطماطي وهاني بن مسرور والكومي وكهلان بن أبي لوا، وهم نسابة البربر: إن البرانس بتر، وهم من نسل مازيغ بن كنعان. والبتر بنو بر بن قيس بن عيلان، وربما نقل ذلك عن أيوب بن أبي يزيد، إلا أنّ رواية ابن حزم أصح لأنه أوثق.

وأما شعوب البرانس فعند النسابين أنهم يجمعهم سبعة أجذام وهي: ازداجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأوريغة. وزاد سابق بن سليم وأصحابه: لمطة وهسكورة وكزولة. وقال أبو محمد بن حزم: يقال إن صنهاج ولمط إنما هما ابنا امرأة يقال لها تصكي ولا يعرف لهما أب، تزوجها أوريغ فولدت له هوّار فلا يعرف لهما أكثر من أنهما أخوان لهوّار من أمه. قال: وزعم قوم من أوريغ أنه ابن خبوز بن المثنى بن السكاسك من كندة وذلك باطل.

وقال الكلبي: إن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر، وإنما هما من شعوب اليمانية تركهما أفريقش بن صيفي بإفريقية مع من نزل بها من الحامية. هذه جماع مذاهب أهل التحقيق في شأنهم، فمن ازداجة مسطاطة، ومن مصمودة: غمارة بنو غمار بن مصطاف بن مليل بن مصمود، ومن أوريغة هوارة وملد ومغر وقلدن. فمن هوار بن أوريغ: مليلة وبنو كهلان، ومن ملد بن أوريغ: سطط وورفل وأسيل ومسراتة، ويقال لجميعهم: لهانة بنو لهان بن ملد، ويقال: إن مليلة منهم. ومن مغد بن أوريغ: ماواس وزمور وكبا ومصراي، ومن قلدن بن أوريغ قمصاتة وورسطيف وبيانة وفل مليلة.

وأما شعوب البتر وهم بنو مادغيس الأبتر فيجمعهم أربعة أجذام: أدّاسة ونفّوسة وضرية وبنو لوا الأكبر، وكلهم بنو زحّيك بن مادغيس. فأما أداسة بنو أداس بن زحّيك فبطونهم كلها في هوارة لأن أم أداس تزوجها بعد زحيك أوريغ ابن عمه برنس والد هوارة، فكان أداس أخاً لهوارة، ودخل نسب بنيه كلهم في هوارة. وهم سفارة وأندارة وهنزولة وضرية وهداغة وأوطيطة وترهتة. هؤلاء كلهم بنو أداس بن زحيك بن باذغيس وهم اليوم في هوارة.

وأما لوا الأكبر فمنه بطنان عظيمان وهما: نفزاوة بنو نفزا وابن لوا الأكبر، ولواتة بنو لوا الأصغر بن لوا الأكبر، فخلفه أبوه حملاً فسمي به. فمن لواتة: أكوزة وعتروزة وبنو فاصلة بن لوا الأصغر، ومنهم مزاتة بنو زاير بن لوا الأصغر. ومغانة وجدانة بنو كطوف بن لوا الأصغر. ومن لواتة سدراتة بنو نيطط بن لوا

الأصغر. ودخل نسب سدراتة في مغراوة. قال أبو محمد بن حزم: كان مغراوة تزوج أم سدراتة، فصار سدراتة أخا بني مغراوة لأمهم واختلط نسبه بهم. ومن نفزاوة أيضاً بطون كثيرة وهم ولهاصة وغسّاسة وزهلة وسوماتة وورسيف ومرنيزة وزاتيمة وورِكول ومرنسية ووردغروس ووردين كلهم بنو يطوفت من نفزاوة.

وزاد ابن سابق وأصحابه: مجر ومكلاتة، وقال: ويقال إن مكلاتة ليس من البربر وأنه من حمير وقع إلى يطوفت صغيراً فتبناه وهو مكلا بن ريمان بن كلاع حاتم بن سعد بن حمير. ولولهاصة من نفزاوة بطون كثيرة من بزغاش ودحية ابني ولهاص. فمن بزغاش بطون ورفجومة وهم: رجال وطووبورغيش ووانجز وكرطيط وما انجدل وسينتت بنو رفجوم بن بيزغاش بن ولهاص ابن يطوفت بن نغزاو.

قال ابن سابق وأصحابه: وبنو بيزغاش من لواتة كلهم بجبال أوراس، ومن دحية ورترين وتريرو ورتبونت ومكرا ولقوس بنو دحية بن ولهاص بن تطوفت بن نفزاو. وأما ضرية وهم بنو ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبتر فيجمعهم جذمان عظيمان: بنو تمصيت بن ضرى وبنو يحيى بن ضرى.

وقال سابق وأصحابه: إن بطون تمصيت كلها من فاتن بن تمصيت وأنهم اختصوا بنسب ضرسية دون بطون يحيى. فمن بطون تمصيت: مطماطة وصطفورة، وهم كومية ولماية ومطغرة ومرينة ومغيلة ومكزوزة وكشاتة ودونة ومديونة، كلهم بنو فاتن بن تمصيت بن ضرى. ومن بطون يحيى: زناتة كلهم وسمكان وورصطف. فمن ورصطف: مكناسة وأوكنة وورتناج بنو ورصطف بن يحيى. فمن مكناسة ورتيفة ووردوسن وتفليت ومنصارة وموالات وحرات ورفلابس ومن مكن: بولالين وتدين ويصلتن وجرين وفرغال. ومن ورتناج: مكنسة وبطالسة وكرنيطة وسدرجة وهناطة وفولال بنو ورتناج بن ورصطف. ومن سمكان زواغة وزواوة بنو سمكان بن يحيى وابن حزم يعد زواوة التي بالواو في بطون كتامة وهو أظهر، ويشهد له الوطن. فالغالب أن زواوة بنو سمكان بن يحيى. وعن ابن حزم: بعد زواوة التي بالواو في بطون كتامة والتي تعد في سكان هي التي بالزاي وهي قبيلة معروفة. ومن زواغة بنو ماجر وبنو واطيل وسمكين. وسيأتي الكلام فيهم مستوفى عند ذكرهم إن شاء اللّه تعالى. هذا آخر الكلام في شعوب هذا الجيل مجملاً ولا بدّ من تفصيل فيه عند تفصيل أخبارهم اه.

وأما إلى من يرجع نسبهم من الأمم الماضية فقد اختلف النسّابون في ذلك اختلافاً كثيراً، وبحثوا فيه طويلاً. فقال بعضهم: إنهم من ولد إبراهيم عليه السلام من نقشان ابنه، وقد تقدم ذكره عند ذكر إبراهيم عليه السلام. وقال آخرون: البربر يمنيون، وقالوا: أوزاع من اليمن. وقال المسعودي: من غسان وغيرهم، تفرّقوا عندما كان من سيل العرم. وقيل: تخلفهم أبرهة ذو المنار بالمغرب، وقيل: من لخم وجذام كانت منازلهم بفلسطين، وأخرجهم منها بعض ملوك فارس، فلما وصلوا إلى مصر منعتهم ملوك مصر النزول فعبروا النيل، وانتشروا في البلاد. وقال أبو عمر بن عبد البرّ: ادعت طوائف من البربر أنهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ. قال: ورأيت في كتاب الأسفنداد الحكيم: أن النعمان بن حمير بن سبأ كان ملك زمانه في الفترة، وأنه استدعى أبناءه وقال لهم: أريد أن أبعث منكم للمغرب من يعمّره، فراجعوه في ذلك، وعزم عليهم، وأنه بعث منهم لمت أبا لمتونة ومسفو أبا مسوفة ومرطا أبا هسكورة وأصناك أبا صنهاجة ولمط أبا لمطة وإيلان أبا هيلانة، فنزل بعضهم بجبل دون، وبعضهم بالسوس وبعضهم بدرعة.

ونزل لمط عند كزول وتزوج ابنته، ونزل أجانا وهو أبو زناتة بوادي شلف، ونزل بنو ورتجين ومغراو بأطراف إفريقية من جهة المغرب، ونزل مصمود بمقربة من طنجة. والحكاية طويلة أنكرها أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد بن حزم. وقال آخرون: إنهم كلهم من قوم جالوت. وقال علي بن عبد العزيز الجرجاني النسابة في كتاب الأنساب له: لا أعلم قولاً يؤدي إلى الصحة إلا قول من قال: إنهم من ولد جالوت. ولم ينسب جالوت ممن هو، وعند ابن قتيبة: أنه ونور بن هربيل بن حديلان بن جالود بن رديلان بن حطي بن زياد بن زجيك بن مادغيس الأبتر.

ونقل عنه أيضاً أنه جالوت بن هريال بن جالود بن دنيال بن قحطان بن فارس. قال: وفارس مشهور وسفك أبو البربر كلهم. قالوا: والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمّة، وهي: هوارة وزناتة وضريسة ومغيلة وورفجومة ونفزة وكتامة ولواتة وغمارة ومصمودة وصدينة ويزدران وورنجين وصنهاجة ومجكسة وواركلان وغيرهم. وذكر آخرون منهم الطبري وغيره: أن البربر أخلاط من كنعان والعماليق، فلما قتل جالوت تفرقوا في البلاد وغزا أفريقش المغرب ونقلهم من سواحل الشام وأسكنهم إفريقية وسمّاهم بربر. وقيل: إن البربر من ولد حام بن نوح بن بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام. وقال الصولي: هم من ولد بربر بن كسلوجيم بن مصرائيم بن حام. وقيل: إن العمالقة من بربر بن تملا بن مارب بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاود بن إرم بن سام، وعلى هذا القول فهم عمالقة. وقال مالك بن المرحل: البربر

قبائل شتى من حمير ومُضر والقبط والعمالقة وكنعان وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسمّاهم أفريقش البربر لكثرة كلامهم. وسبب خروجهم عند المسعودي والطبري والسهيلي: أن أفريقش استجاشهم لفتح إفريقية وسماهم البربر وينشدون من شعره:

بربرت كنعان لما سقتها ... من أراضي الضنك للعيش الخصيب

وقال ابن الكلبي: اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام، فقيل: داود بالوحي، قيل: يا داود أخرج البربر من الشام فانهم جذام الأرض. وقيل: يوشع بن نون، وقيل: أفريقش، وقيل: بعض الملوك التبابعة. وعند البكري: أن بني إسرائيل أخرجوهم عند قتل جالوت. وللمسعودي والبكري: أنهم فروا بعد موت جالوت إلى المغرب، وأرادوا مصر فأجلتهم القبط، فسكنوا برقة وإفريقية والمغرب على حرب الإفرنج والأفارقة وأجازوهم على صقلية وسردانية وميورقة والأندلس. ثم اصطلحوا على أن المدن للافرنجة، وسكنوا القفار عصوراً في الخيام وانتجاع الأمصار من الإسكندرية إلى البحر، وإلى طنجة والسوس حتى جاء الاسلام. وكان منهم من تهوّد ومن تنصّر وآخرون مجوساً يعبدون الشمس والقمر والأصنام، ولهم ملوك ورؤساء. وكان بينهم وبين المسلمين حروب مذكورة. وقال الصولي البكري: إن الشيطان نزغ بين بني حام وبني سام، فانجلى بنو حام إلى المغرب ونسلوا به.

وقال أيضاً: إن حام لمّا اسودّ بدعوة أبيه فرّ إلى المغرب حياءً واتبعه بنوه وهلك عن أربعمائة سنة، وكان من ولده بربر بن كسلاجيم فنسل بنوه بالمغرب. قال: وانضاف إلى البربر حيّان من المغرب يمنيان عند خروجهم من مارب: كتامة وصنهاجة. قال: وهوارة ولمطة ولواتة بنو حمير بن سبأ. وقال هانيء بن بكور الضريسي وسابق بن سليمان المطماطي وكهلان بن أبي لؤي وأيوب بن أبي يزيد وغيرهم من نسابة البربر: أن البربر فرقتان كما قدّمناه وهما: البرانس والبتر، فالبتر من ولد بر بن قيس بن عيلان، والبرانس بنو برنس بن سفجو بن أبزج بن جناح بن واليل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان بن حام، وهذا هو الذي يعتمده نسّابة البربر. قال الطبري: خرج بربر بن قيس ينشد ضالّة بأحياء البربر فهوِيَ جارية وتزوّجها فولدت. وعند غيره من نسابة البربر: أنه خرج فاراً من أخيه عمرو بن قيس، وفي ذلك تقول تماضر وهي أخته:

لتبكي كل باكيةٍ أخاها ... كما أبكي على برّ بن قيس

تحمّل عن عشيرته فأضحى ... ودون لقائه أنضاء عيس

ومما ينسب إلى تماضر أيضاً:

وشطت ببرّ داره عن بلادنا ... وطوح برّ نفسه حيث يمّما

وازرت ببر لكنة أعجمية ... وما كان بر في الحجاز بأعجما

كأنا وبرّا لم نقف بجيادنا ... بنجد ولم نقسم نهاباً ومغنما

وأنشد علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلي:

الا أيها الساعي لفرقة بيننا ... توقف هداك الله سبل الأطائب

فاقسم إنا والبرابر إخوة ... نمانا وهم جدّ كريم المناصب

أبونا أبوهم قيس عيلان في الورى ... وفي حرمة يسقي غليل المحارب

فنحن وهم ركن منيع وإخوة ... على رغم أعداء لئام المغاقب

فإن البرّ ما بقي الناس ناصراً ... وبرّ لنا ركن منيع المناكب

نعد لمن عادى شواذه ضمرا ... وبيضاً تقص الهام يوم التضارب

وبرّ بن قيس عصبةٌ مضريةٌ ... وفي الفرع من أحسابها والذوائب

وقيس قوام الدين في كل بلدة ... وخير معد عند حفظ المناسب

وقيس لها المجد الذي يقتدى به ... وقيس لها سيفٌ حديد المضارب

وينشد أيضاً أبيات ليزيد بن خالد يمدح البربر:

أيّها السائل عنّا أصلنا ... قيس عيلان بنو العزّ الأول

نحن ما نحن بنو بر القوى ... عرف المجد وفي المجد دخل

وابتنى المجد فأورى زنده ... وكفانا كل خطب ذي جلل

إن قيساً يعتزي برّ لها ... ولبر يعتزي قيس الأجل

ولنا الفخر بقيس إنه ... جدّنا الأكبر فكاك الكبل

إن قيساً قيس عيلان هم ... معدن الحقّ على الخير دلل

حسبك البربر قومي إنهم ... ملكوا الأرض أطراف الأسل

وببيض تضرب الهام بها ... هام من كان عن الحق نكل

أبلغوا البربر عنّي مدحاً ... حيك من جوهر شعر منتحل

وعند نسابة البربر، وحكاه البكري وغيره أنه كان لمضر ولدان: إلياس وعيلان، أمهما الرباب بنت حيدة بن عمرو بن معدّ بن عدنان، فولد عيلان بن مضر قيساً ودهمان، أما دهمان فولده قليل وهم أهل بيت من قيس يقال لهم: بنو أمامة. وكانت لهم بنت تسمى البهاء بنت دهمان، وأما قيس بن عيلان فولد له أربعة بنين وهم: سعد وعمر، وأمهما مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار، وبر وتماضر وأمهما تمريغ بنت مجدل، ومجدل بن غمار بن مصمود، وكانت قبائل البربر يومئذ يسكنون الشام ويجاورون العرب في المساكن ويشاركونهم في المياه والمراعي ويصهرون إليهم، فتزوج برّ بن قيس بنت عمه وهي البهاء بنت دهمان، وحسده إخوته في ذلك، وكانت أمه تمريغ من دهاة النساء فخشيت منهم عليه، وبعثت بذلك إلى أخوالها سراً، ورحلت معهم بولدها وزوجته إلى أرض البربر وهم إذ ذاك ساكنون بفلسطين وأكناف الشام، فولدت البهاء لبر بن قيس ولدين: علوان ومادغيس، فمات علوان صغيراً وبقي مادغيس، فكان يلقب الأبتر، وهو أبو

البتر من البربر، ومن ولده جميع زناتة.

قالوا: وتزوج مادغيس بن بر وهو الأبتر بأملل بنت واطاس بن محمد بن مجدل بن عمّار فولدت له زحيك بن مادغيس. وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد في الأنساب: اختلف الناس في أنساب البربر اختلافاً كثيراً، وأنسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قبط بن حام، لما نزل مصر خرج ابنه يريد المغرب، فسكنوا عند آخر عمالة مصر، وذلك ما وراء برقة إلى البحر الأخضر، مع بحر الأندلس إلى منقطع الرمل متصلين بالسودان، فمنهم لواتة آهلين بأرض طرابلس، ونزل قوم بقربها وهم نفزة.

ثم امتدت بهم الطرق إلى القيروان وما وراءها إلى تاهرت إلى طنجة وسجلماسة إلى السوس الأقصى وهم طوائف صنهاجة وكتامة وزكالة وركلاوة وفطواكة من هسكورة ومزطاوة، وذكر بعض أهل الآثار أن الشيطان نزغ بين بني حام وبني سام، فوقعت بينهم مناوشات كانت الدبرة فيها لسام وبنيه، وخرج سام إلى المغرب، وقدم مصر وتفرق بنوه، ومضى على وجهه يؤمّ المغرب حتى بلغ السوس الأقصى، وخرج بنوه في إثره يطلبونه، فكل طائفة من ولده بلغت موضعاً وانقطع عنهم خبره، فأقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه، ووصلت إليهم طائفة فأقاموا معهم وتناسلوا هنالك.

وكان عمر حام أربعمائة وثلاثاً وأربعين سنة فيما ذكره البكري. وقال آخرون: كان عمره خمسمائة وإحدى وثلاثين سنة. وقال السهيلي فيمن هو يعرب بن قحطان.قال: وهو الذي أجلى بني حام إلى المغرب بعد أن كانوا الجزى من ولد قوط بن يافث. هذا آخر الخلاف في أنساب البربر.

واعلم أن هذه المذاهب كلها مرجوحة وبعيدة من الصواب، فأما القول بأنهم من ولد إبراهيم فبعيد، لأن داود الذي قتل جالوت وكان البربر معاصرين له ليس بينه وبين إسحاق بن إبراهيم أخي نقشان الذي زعموا أنه أبو البربر إلا نحو عشرة آباء ذكرناهم أول الكتاب، ويبعد أن يتشعب النسل فيهم هذا التشعب.

وأما القول بأنهم من ولد جالوت أو العماليق، وأنهم نقلوا من ديار الشام وانتقلوا، فقول ساقط، يكاد يكون من أحاديث خرافة، إذ مثل هذه الأمة المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض، لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متحيزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام.فما الذي يحوجنا إلى التعلق بهذه الترّهات في شأن أوليتهم، ويحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب. وأفريقش الذي يزعمون أنه نقلهم قد ذكروا أنه وجدهم بها، وأنه تعجب من كثرتهم وعجمتهم، وقال: ما أكثر بربرتكم. فكيف يكون هو الذي نقلهم وليس بينه وبين أبرهة ذي المنار من يتشعبون فيه إلى مثل ذلك إلى أن قالوا أنه الذي نقلهم.

وأما القول أيضاً بأنهم من حمير من ولد النعمان أو من مضر من ولد قيس بن عيلان فمنكر من القول، وقد أبطله إمام النسابين والعلماء أبو محمد بن حزم. وقال في كتاب الجمهرة: ادعت طوائف من البربر أنهم من اليمن ومن حمير، وبعضهم ينسب إلى بربر بن قيس، وهذا كله باطل لا شك فيه، وما علم النسّابون لقيس بن عيلان ابناً اسمه بر أصلاً، وما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرّخي اليمن.

وأما ما ذهب إليه ابن قتيبة أنهم من ولد جالوت، وأن جالوت من ولد قيس بن عيلان فأبعد عن الصواب. فإن قيس عيلان من ولد معدّ، وقد قدمنا أن معداً كان معاصراً لبختنصر وأن أرمياء النبي خلص به إلى الشام حذراً عليه من بختنصر حين سلط على العرب، وبختنصر هو الذي خرب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان إياه بأربعمائة وخمسين سنة ونحوها، فيكون معدّ بعد داود بمثل هذا الأمد، فكيف يكون ابنه قيس أباً لجالوت المعاصر لداود، هذا في غاية البعد وأظنها غفلة من ابن قتيبة ووهماً.

والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في أنساب الخليقة، وأن اسم أبيهم مازيغ وإخوتهم أركيش وفلسطين إخوانهم بنو كسلوحيم بن مصرايم بن حام، وملكهم جالوت سمة معروفة له.وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة. وكان بنو كنعان وواكريكيش شيعاً لفلسطين، فلا يقعنّ في وهمك غير هذا، فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه. ولا خلاف بين نسّابة العرب أن شعوب البربر الذي قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة، فإن بين نسّابة العرب خلافاً والمشهور أنهم من اليمنية، وأن أفريقش لما غزا إفريقية أنزلهم بها.

وأما نسّابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب، مثل لواتة يزعمون أنهم من حمير، ومثل هوارة يزعمون أنهم من كندة من السكاسك، ومثل زناتة تزعم نسّابتهم أنهم من العمالقة فروا أمام بني إسرائيل. وربما يزعمون فيهم أنهم من بقايا التبابعة، ومثل عمارة أيضاً وزواوة ومكلاتة يزعم في هؤلاء كلهم نسابتهم أنهم من حمير حسبما نذكره عند تفصيل شعوبهم في كل فرقة منهم، وهذه كلها مزاعم. والحق الذي شهد به المواطن

والعجمة أنهم بمعزل عن العرب إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة. وعندي أنهم من إخوانهم والله أعلم. وقد انتهى بنا الكلام إلى أنسابهم وأوليتهم، فلنرجع إلى تفصيل شعوبهم وذكرهم أمة بعد أمة، ونقتصر على ذكر من كانت له منهم دولة ملك أو سالف شهرة أو تشعّب نسل في العالم وعدد لهذا العهد وما قبله من صنفي البرانس والبتر منهم، وترتيبهم شعباً شعباً حسبما تأدى إلينا من ذلك واشتمل عليه محفوظنا، والله المستعان.

الفصل الثاني

في ذكر مواطن هؤلاء البربر بإفريقية والمغرب

اعلم أن لفظ المغرب في أصل وضعه إسم إضافي يدلّ على مكان من الأمكنة بإضافته إلى جهة المشرق، ولفظ المشرق كذلك بإضافته إلى جهة المغرب فكل مكان من الأرض مغرب بالإضافة إلى جهة المشرق، ومشرق بالإضافة إلى جهة المغرب إلا أن العرب قد يخصص هذه الأسماء بجهات معينة وأقطار مخصوصة. وعرف أهل الجغرافيا المعتنين بمعرفة هيئة الأرض وقسمتها بأقاليمها ومعمورها وخرابها وجبالها وبحارها ومساكن أهلها، مثل بطليموس ورجار صاحب صقلية المنسوب إليه الكتاب المشهور بين الناس لهذا العهد في هيئة الارض والبلدان، وأمثالهم: أن المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار، فحدّه من جهة المغرب بحر المحيط وهو عنصر الماء، وسمي محيطاً لإحاطته بما انكشف من الأرض كما قدمنا أول الكتاب.

ويسمى أيضاً البحر الأخضر لتلونه غالباً بالخضرة، ويسمى بحر الظلمات لما أنه تقل فيه الأضواء من الأشعة المنعكسة على سطح الأرض من الشمس لبعده عن الأرض فيكون مظلماً. ولفقدان الأضواء تقل الحرارة المحللة للأبخرة فلا تزال السحب والغيوم متكاثفة على سطحه منعقدة هناك متراكمة، وتسميه الأعاجم: بحر أوقيانوس يعنون به والله أعلم ما نعني نحن بالعنصر. ويسمونه أيضاً بحر البلاية بتفخيم اللام الثانية. وهو بحر كبير غير منحصر، لا تبعد فيه السفن عن مرأى العين من السواحل للجهل بسموت الرياح هنالك ولنهايتها إذ لا غاية من العمران وراءه.

والبحار المنحصرة إنما جرت فيها السفن بالرياح المعروفة الهوائية بكثرة تجاربهم، فتبعث الريح من الأماكن وغاية مهبّها في سمتها فكل ريح عندهم معروفة الغاية، فإذا علم أن جريته بالريح المنبعثة من مكان كذا، وبما خرج من ريح إلى ريح بحسب مقصوده وجهته، وهذا مفقود في البحر الكبير لأنه منحصر، ومنبعث الريح، وإن كان معروفاً فغايته غير معروفة لفقدان العمران وراءه فتضل السفن إذا جرت به وتذهب فتهلك. وأيضاً فإذا أوغل فيه فربما وقع في المتكاثف من الغيوم والأبخرة كما قلناه فيهلك، فلهذا كان راكبه على غرر وخطر. فحدّ الغرب من جهة المغرب البحر المحيط كما قلناه، وعليه كثير من مدنه مثل طنجة وسلا أزمور وأنفى وأسفى، وهي من مدن الغرب وحواضره. وعليه أيضاً مسجد ماسة وبلدتا كاوصت ونول من بلاد السوس وهي كلها من مساكن البربر وحواضرهم. وتنتهي المراكب إلى وراء ساحل نول ولا تجاوزه إلا على خطر كما قلناه. وأما حده من جهة الشمال فالبحر الرومي والمتفرع من هذا البحر المحيط يخرج في خليج متضايق بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الأندلس ويسمى هذا الخليج الزقاق، وعرضه ثمانية أميال فما فوقها، وكانت عليه قنطرة ركبها ماء البحر.

ثم يذهب هذا البحر الرومي في سمت الشرق إلى أن ينتهي إلى سواحل الشآم وثغوره وما إليها مثل أنطالية وأنطاكية والعلايا وطرسوس والمصيصة وطرابلس وصور والإسكندرية، ولذلك سمي البحر الشامي. وهو إذا خرج من الخليج ينفسح في ذهابه عرضاً، وأكثر انفساحه إلى جهة الشمال، ولا يزال انفساحه ذلك متصاعداً إلى الشمال إلى أن ينتهي إلى غايته. وطوله فيما يقال خمسة آلاف ميل أو ستة. وفيه جزائر ميورقة ومنرقة وياسة وصقلية واقريطش وسردانية وقبرص. وأما عرضه من جهة الجنوب فإنه يخرج عن سمت واحد، ثم يختلف في ذهابه فتارة يبعد في الجنوب وتارة يرجع إلى الشمال. واعترض ذلك بعروض البلدان التي بساحله، وذلك أن عرض البلد هو ارتفاع قطبه الشمال على أفقه، وهو أيضاً بعد ما بين سمت رؤوس أهله ودائرة معدل النهار.

والسبب في ذلك أن الأرض كروية الشكل، والسماء من فوقها مثلها. وأفق البلد هو فرق بين ما يرى وبين ما لا يرى من السماء ومن الأرض. والفلك ذو قطبين، إذا ارتفع أحدهما على رؤوس معمور المخفض الآخر بقدره عنهم، والعمارة في الأرض كلها هي إلى الجانب الشمال أكثر، وليس في الجنوب عمران لما تقرر في موضعه. فلهذا ارتفع القطب الشمالي على أهل العمران دون الجنوبي. والمارّ على سطح الكرة كلما أبعد في جهة ظهر له من سطح الكرة، ومن السماء المقابل لها مالم يكن يظهر، فيزيد بعد

القطب على الأفق كلما أبعد في الشمال، وينقص كلما رجع إلى الجنوب.

فعرض سبتة وطنجة التي هي على زقاق هذا البحر وخليجه(له)ودقائق. ثم يتصاعد البحر إلى الجنوب فيكون عرض تلمسان (لد) ونصف، فتزيد في الجنوب فيكون عرض وهران (لب) أبعد من فاس بيسير لأن عرض فاس (لج) ودقائق.

ولهذا كان العمران في المغرب الأقصى أعرض في الشمال من عمران المغرب الأوسط بقدر ما بين فاس وسبتة. وصار ذلك القطر كالجزيرة بين البحار لانعطاف البحر الرومي إلى الجنوب. ثم يرجع البحر بعد وهران عن سمته ذلك فيكون عرض تونس والجزائر (له) على مثل سمته الأول عند منبعثه من الزقاق. ثم يزيد في الشمال فيكون عرض بجاية وتونس (يوم) على مثل سمت غرناطة ومريه ومالقة. ثم يرجع إلى الجنوب فيكون عرض طرابلس وقابس (له) على مثل السمت الأول بطنجة وسبتة، ثم يزيد في الجنوب فيكون عرض برقة (لج) على مثل سمت فاس وتوزر، فيكون عرض الإسكندرية (لا) على مثل مراكش وأغمات. ثم يذهب في الشمال إلى القطافة إلى منتهى سمته بسواحل الشام.

وهكذا اختلافه في هذه العدوة الجنوبية، ولسنا على علم من حاله في العدوة الشمالية. وينتهي بسواحل عرض هذا البحر في انفساحه إلى سبعمائة ميل أو نحوها ما بين سواحل إفريقية وجنوة من العدوة الشمالية والبلاد الساحلية من المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية من لدن الخليج حيث منبعثه كلها عليه مثل طنجة وسبتة وبادس وعسّاسة وهنين ووهران والجزائر وبجاية وبونة وتونس وسوسة والمهدية وصفاقس وقابس وطرابلس وسواحل برقة والإسكندرية.

هذا وصف هذا البحر الرومي الذي هو حد المغرب من جهة الشمال. وأما حده من جهة القبلة والجنوب فالرمال المتهيلة الماثلة حجزاً بين بلاد السودان وبلاد البربر.

وتعرف عند العرب الرحّالة البادية بالعرق، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتديء من البحر المحيط وذاهب في جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر، فهنالك ينقطع وعرضه ثلاث مراحل وأزيد. ويعترضه في جهة المغرب الأوسط أرض محجرة تسمى عند العرب الحمادة من دوين مصاب إلى بلاد ريغ، ووراءه من جهة الجنوب وبعض بلاد الجريدية ذات نخيل، وأنهار معدودة في جملة بلاد المغرب، مثل بلاد بودة وتمنطيت في قبلة المغرب الأقصى، وتسابيت وتيكورارين في قبلة المغرب الأوسط، وغدامس وفزان وودّان في قبلة طرابلس.

كل واحد من هذه إقليم يشتمل على بلدان عامرة ذات قرى ونخيل وأنهار، وينتهي عدد كل واحد منها إلى المائة فأكثر.

وإلى هذه العدوة الجنوبية من هذا العرق ينتهي في بعض السنين مجالات أهل الشام من صنهاجة ومتقلبهم الجائلون هناك إلى بلاد السودان. وفي العدوة الشمالية منه مجالات البادية من الأعراب الظواعن بالمغرب. وكانت قبلهم مجالات للبربر كما نذكره بعد هذا حدّ المغرب من جهة الجنوب، ومن دون هذا العرق سياج آخر على المغرب مما يلي التلول منه، وهي الجبال التي هي تخوم تلك التلول ممتدة من لدن البحر المحيط في الغرب إلى برنيق من بلاد برقة. وهنالك تنقطع هذه الجبال ويسمى مبدؤها من المغرب جبال درن، وما بين هذه الجبال المحيطة بالتلول وبين العرق الذي وصفناه آنفاً بسائط وقفار أكثر نباتها الشجر، وفيما يلي التلول منها، ويقاربها بلاد الجريد ذات نخل وأنهار.

ففي أرض السوس قبلة مراكش ترودانت والغيرى فويان وغيرهما، بلاد ذات نخل وأنهار ومزارع متعددة عامرة. وفي قبلة فاس سجلماسة وقراها بلد معروف، ودرعة أيضاً وهي معروفة، وفي قبلة تلمسان قصور متعددة ذات نخل وأنهار. وفي قبلة تاهرت القصور أيضاً بلاد متتالية على سطر من المشرق إلى المغرب أقرب ما إليها جبل راشد، وهي ذات نخل ومزارع وأنهار، ثم قصور معينات تناهز المائة وأكثر قبلة الجزائر ذات نخل وأنهار، ثم بلد واركلي قبلة بجاية بلد واحد مستبحر العمران كثير النخل، وفي سمته إلى جهة التلول بلاد ريغ تناهز الثلثمائة منتظمة على حفافي وادٍ ينحدر من المغرب إلى المشرق يناهز مائة من البلاد فأكثر، قاعدتها بسكرة من كبار الأمصار بالمغرب. وتشتمل كلها على النخل والأنهار والفدن والقرى والمزارع.

ثم بلاد الجريد قبلة تونس وهي: نفطة وتوزر وقفصة وبلاد نفزاوة وتسمى كلها بلاد قسطيلة مستبحرة العمران مستحكمة الحضارة مشتملة على النخل والأنهار. ثم قابس قبلة سوسة وهي حاضرة البحر من أعظم أمصار إفريقية، وكانت دار ملك لابن غانية كما نذكره بعد، وتشتمل على النخل والأنهار والمزارع. ثم فزان وودان قبلة طرابلس قصور متعددة ذات نخل وأنهار، وهي أول ما افتتح المسلمون من أرض إفريقية لما أغزاها عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص. ثم الواحات قبلة برقة، ذكرها المسعودي في كتابة، وما وراء هذه كلها في جهة الجنوب فقفار

ورمال لا تنبت زرعاً ولا مرعىً، إلى أن تنتهي إلى العرق الذي ذكرناه.

ومن ورائه مجالات المتلثمين كما قلناه مفاوز معطشة إلى بلاد السودان. وما بين بلاد هذه والجبال التي هي سياج التلول بسائط متلون مزاجها تارة بمزاج التلول، وتارة بمزاج الصحراء، بهوائها ومياهها ومنابتها. وفيها القيروان وجبل أوراس معترض وسطها، وبلاد الحضنة حيث كانت طبنة ما بين الزاب والتل، وفيها مقرة والمسيلة، وفيها السرسو قبلة تلمسان حيث تاهرت فيها جبل ديرو وقبلة فاس معترض في تلك البسائط. هذا حد المغرب من جهة القبلة والجنوب.

وأما من جهة الشرق فيختلف باختلاف الاصطلاحات فعرف أهل الجغرافيا أنه بحر أهل القلزم المنفجر من بحر اليمن، هابط على سمت الشمال وبانحراف يسير إلى المغرب حتى ينتهي إلى القلزم والسويس، ويبقى بينهم من هنالك، وبين سمته من البحر الرومي مسيرة يومين. وينقطع عند السويس والقلزم. وبعده عن مصر في جهة الشرق ثلاثة أيام. هذا آخر المغرب عندهم ويدخل فيه إقليم مصر وبرقة.

وكان المغرب عندهم من جزيرة أحاطت بها البحار من ثلاث جهاتها كما تراه. وأما العرف الجاري لهذا العهد بين سكان هذه الأقاليم فلا يدخل فيه إقليم مصر ولا برقة، وإنما يختصّ بطرابلس وما وراءها إلى جهة المغرب في هذا العرف لهذا العهد. وهذا الذي كان في القديم ديار البربر ومواطنهم. فأما المغرب الأقصى منه وهو ما بين وادي ملوية من جهة الشرق إلى أسفي حاضرة البحر المحيط وجبال درن من جهة الغرب فهي في الأغلب ديار المصامدة من أهل درن وبرغواطة وغمارة. وآخر غمارة بطوية مما يلي غساسة، ومعهم عوالم من صنهاجة ومطغرة وأوربة وغيرهم، يحيط به البحر الكبير من غربيه، والرومي من شماليه، والجبال الصاعدة المتكاثفة مثل درن وجانب القبلة وجبال تازى من جهة الشرق. لأن الجبال أكثر ما هي وأكثف قرب البحار بما اقتضاه التكوين من ممانعة البحار بها. فكانت جبال المغرب لذلك، أكثر وساكنها من المصامدة في الأغلب وقيل من صنهاجة. وبقيت البسائط من الغرب مثل أزغاو وتامستا وتادلا ودكالة. واعتمرها الظواعن من البربر الطارئين عليه من جشم ورياح فغص المغرب بساكنه من الأمم لا يحصيهم إلا خالقهم، وصار كأنه جزيرة وبلد واحد أحاطت به الجبال والبحار، وقاعدته لهذا العهد فاس، وهي دار ملكه.

ويمر فيه النهر العظيم المعروف بوادي أم ربيع، وهو نهر عظيم يمتنع عبوره أيام الأمطار لاتّساعه، ويعظم مده إلى البحر فينتهي إلى سبعين ميلاً أو ما يقاربها، ومصبه في البحر الكبير عند أزبور. ومنبعه من جبال درن من فوهة كبيرة ينبع منها هذا النهر ويتساهل إلى بسيط المغرب. وينبع منها أيضاً نهر آخر، وينحدر إلى القبلة. ويمر ببلاد درعة ذات النخل المخصوصة بنبات النيلج. وصناعة استخراجه من شجره، وهي قصور ذات نخل موضوعة في سفح جبل درن من آخره، وبها يسمى هذا النهر ويجاورها، إلى أن يغوص في الرمل قبلة بلاد لسوس.

وأما نهر ملوية آخر المغرب الأقصى فهو نهر عظيم منبعه من فوهة في جبال قبلة تازى، ويصب في البحر الرومي عند غساسة. وعليه كانت ديار مكناسة المعروفة بهم في القديم، ويسكنها لهذا العهد أمم أخرى من زناتة في قصور منتظمة إلى أعلى النهر يعرفون بوطاط ويجاورهم هنالك وفي سائر نواحيه أمم من البربر أشهر من فيهم بطالسة إخوة مكناسة. وينبع مع هذا النهر من فوهته نهر كبير ينحدر ذاهباً إلى القبلة مشرقاً بعض الشيء، ويقطع العرق على سمته إلى أن ينتهي إلى بودة، ثم بعدها إلى تمنطيت، ويسمى لهذا العهد كير وعليه قصورها. ثم يمر إلى أن يصب في القفار ويروغ في قفارها ويغور في رمالها، وهو موضع مغامه قصور ذات نخل تسمى وركلان وفي شرق بوده مما وراء العرق قصور تسابيت من قصور الصحراء. وفي شرقي تسابيت إلى ما يلي الجنوب قصور تيكورارين تنتهي إلى ثلثمائة أو أكثر في واد واحد، فينحدر من المغرب إلى المشرق، وفيها أمم من قبائل زناتة.

وأما المغرب الأوسط فهو في الأغلب ديار زناتة، كان لمغراوة وبني يفرن، وكان معهم مديونة ومغيلة وكومية ومطغرة ومطماطة. ثم صار من بعدهم لبني ومانوا وبني يلومي. ثم صار لبني عبد الواد وتوجين من بني مادين وقاعدته لهذا العهد تلمسان، وهي دار ملكه ويجاوره من جهة المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمرية وما يليها إلى بجاية، وقبائله كلهم لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة. ويمر في وادي شلف بني واطيل النهر الأعظم منبعه من بلد راشد في بلاد الصحراء، ويدخل إلى التل من بلاد حصين لهذا العهد. ثم يمر مغرباً ويجتمع فيه سائر أودية المغرب الأوسط مثل مينا وغيره إلى أن يصب في البحر الرومي ما بين كليتوا ومستغانم. وينبع من فوهته نهر آخر يذهب مشرقاً من جبل راشد، ويمر بالزاب إلى أن يصب في سبخة ما بين توزر ونفزاوة معروفة هنالك، ويسمى هذا النهر وادي شدّي.

وأما بلاد بجاية وقسطنطينة فهي دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة، وهي اليوم ديار للعرب إلا ممتنع الجبال، وفيها بقاياهم.

وأما إفريقية كلها إلى طرابلس فبسائط فيح كانت دياراً لنفزاوة وبني يفرن ونفوسة ومن لا يحصى من قبائل البربر. وكانت قاعدتها القيروان وهي لهذا العهد مجالات للعرب من سليم وبني يفرن وهوارة مغلوبون تحت أيديهم. وقد تبدوا معهم ونسوا رطانة الأعاجم، وتكلموا بلغات العرب، وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم. وقاعدتها لهذا العهد تونس وهي دار ملكها، ويمر فيها النهر الأعظم المعروف بوادي مجردة يجتمع فيه سائر الأودية بها، ويصب في البحر الرومي على مرحلة من غربي تونس بموضع يعرف ببنزرت. وأما برقة فدرست معالمها وخربت أمصارها، وانقرض أمرها. وعادت مجالات للعرب بعد أن كانت داراً للواتة وهوارة وغيرهم من البربر وكانت بها الأمصار المستبحرة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان وأمثالها، فعادت يباباً ومفاوز كأن لم تكن والله أعلم.

الفصل الثالث

في ذكر ما كان لهذا الجيل قديماً وحديثاً من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة الراقية بهم إلى مراقي العز ومعارج السلطان والملك

قد ذكرنا ما كان من أمر هذا الجيل من البربر ووفور عدده وكثرة قبائلهم وأجيالهم، وما سواه من مغالبة الملوك ومزاحمة الدول عدة آلاف من السنين، من لدن حروبهم مع بني إسرائيل بالشام وخروجهم عنه إلى إفريقية والمغرب، وما كان منهم لأول الفتح في محاربة الطوالع من المسلمين أولاً، ثم في مشايعتهم ومظاهرتهم على عدوهم ثانياً من المقامات الحميدة والآثار الجميلة. وما كان لوهيّا الكاهنة وقومها بجبل أوراس من الملك والعز والكثرة قبل الإسلام وبعده حتى تغلب عليهم العرب، وما كان لمكناسة من مشايعة المسلمين أولاً، ثم ردتهم ثانياً، وتحيزهم إلى المغرب الأقصى وفرارهم أمام عقبة بن نافع ثم غلبهم بعد ذلك طوالع هشام بأرض المغرب.

قال ابن أبي زيد: إن البربر ارتدوا بإفريقية المغرب اثنتي عشرة مرة، وزحفوا في كلها للمسلمين، ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير، وقيل بعدها. وتقدم ذكر ما كان لهم في الصحراء والقفر من البلاد، وما شيّدوا من الحصون والآطام والأمصار من سجلماسة وقصور توات، وتجوراريـن وفيجيج ومصاب وواركل وبلاد ريغة والزاب ونفزاوة والحمة وغدامس، ثم ما كان لهم من الأيام والوقائع والدول والممالك. ثم ما كان بينهم وبين طوالع العرب من بني هلال في المائة الخامسة بإفريقية. وما كان لهم مع دولة آل حماد بالقلعة ومع لمتونة بتلمسان وتاهرت من الموالاة والانحراف. وما استولى عليه بنو بادين آخراً بإسهام الموحدين وإقطاعهم من بلاد المغرب، وما كان لبني مرين في الأجلاب على عير عبد المؤمن من الآثار، وما تشهد أخباره كلها بأنه جيل عزيز على الأيام وأنهم قوم مرهوب جانبهم شديد بأسهم كثير جمعهم، مظاهرون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس ويونان والروم.

ولكنهم لما أصابهم الفناء وتلاشت عصابتهم بما حصل لهم من ترف الملك والدول التي تكررت فيهم، قلّت جموعهم وفنيت عصابتهم وعشائرهم وأصبحوا خولاً للدول وعبيداً للجباية. واستنكف كثير من الناس عن النسب فيهم لأجل ذلك، وإلا فقد كانت أوربة أميرهم كسيلة عند الفتح كما سمعت، وزناتة أيضاً حتى أسر أميرهم وزمار بن مولات، وحمل إلى المدينة إلى عثمان بن عفان. ومن بعد ذلك هوارة وصنهاجة وبعدهم كتامة وما أقاموا من الدولة التي ملكوا بها المغرب والمشرق، وزاحموا بني العباس في ديارهم وغير ذلك منهم كثير.

وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية النزيل، ورعي الأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكاره والثبات في الشدائد وحسن الملكة والإغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم. وقرى الضيف والإعانة على النوائب وعلو الهمة وإباية الضيم ومشاقة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز، وأوفت بهم على ثنايا الملك حتى علت على الأيدي أيديهم ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم.

وكان مشاهيرهم بذلك من أهل الطبقة الأولى: بلكين بن زيري الصنهاجي عامل إفريقية للعبيدين، ومحمد بن خزر والخير ابنه، وعروبة بن يوسف الكتامي القائم بدعوة عبد الله الشيعي،

ويوسف بن تاشفين ملك لمتونة بالمغرب، وعبد المؤمن بن علي شيخ الموحدين وصاحب الإمام المهدي. وكان عظماؤهم من أهل الطبقة الثانية السابقون إلى الراية بين يدي دولهم والماهدون لملكهم بالمغرب الأقصى والأوسط، كبيرهم يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ويغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد، ومحمد بن عبد القوي ووزمار كبير بني توجين وثابت بن منديل أمير مغراوة وأهل شلف ووزمار بن إبراهيم زعيم بني راشد المتعاصرين في أزمانهم المتناغين في تأثيل عزهم والتمهيد لقومهم كلٌ على شاكلته بقوة جمعه. فكانوا من أرسخهم في تلك الخلال قدماً وأطولهم فيها يداً، وأكثرهم لها جمعاً، طارت عنهم في ذلك قبل الملك وبعده أخبار عني بنقلها الأثبات من البربر وغيرهم، وبلغت في الصحة والشهرة منتهى التواتر.

وأما إقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملّة ونصرهم لدين اللّه فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب اللّه لصبيانهم، والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتفاء الأئمة للصلوات في بواديهم، وتدارس القرآن بين أحيائهم وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم التماساً للبركة في آثارهم وسوءاً للدعاء عن صالحيهم، وإغشائهم البحر أفضل المرابطة والجهاد، وبيعهم النفوس من اللّه في سبيله وجهاد عدوه ما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التي كانت ملاكاً لعزهم ومقاداً إلى سلطانهم وملكهم.وكان المبرز منهم في هذا المنتحل يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وبنوهم

ثم يعقوب بن عبد الحق من بعدهم وبنوه، فقد كان لهم في الاهتمام بالعلم والجهاد وتشييد المدارس واختطاط الزوايا والربط، وسد الثغور وبذل النفس في ذات اللّه، وإنفاق الأموال في سبيل الخيرات، ثم مخالطة أهل العلم وترفيع مكانهم في مجالستهم ومفاوضتهم في الاقتداء بالشريعة والانقياد لإشاراتهم في الوقائع والأحكام ومطالعة سير الأنبياء وأخبار الأولياء وقراءتها بين أيديهم من دواوين ملكهم ومجالس أحكامهم وقصور عزهم.والتعرض بالمعاقل لسماع شكوى المتظلمين وإنصاف الرعايا من العمال والضرب على يد أهل الجور واتخاذ المساجد بصحن دورهم وسدة خلافتهم وملكهم، يعمرونها بالصلوات والتسبيحات والقراء المرتلين لتلاوة كتاب اللّه أحزاباً بالعشي والإشراق على الأيسام، وتحصين ثغور المسلمين بالبنيان المشيد والكتائب المجهزة، وإنفاق الأموال العريضة، شهدت لهم بذلك آثار تخلفوها بعدهم.

وأما وقوع الخوارق فيهم وظهور الكاملين في النوع الإنساني من أشخاصهم، فقد كان فيهم من الأولياء المحدثين أهل النفوس القدسية والعلوم الموهوبة، ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة والكهان المفطورين على المطلع للأسرار المغيبة.ومن الغرائب التي خرقت العادة وأوضحت أدلة القدرة ما يدل على عظيم عناية اللّه بذلك الجيل وكرامته لهم، بما آتاهم من جماع الخير وآثرهم به من مذاهب الكمال، وجمع لهم من متفرق خواص الإنسان، ينقل ذلك في أخبار توهم عجائب.

فكان من مشاهير حملة العلم فيهم سعيد بن واسول جد بني مدرار ملوك سجلماسة، أدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى العباس، ذكره عريب بن حميد في تاريخه. ومنهم أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني صاحب الحمار، الخارج على الشيعة سنة اثنتين وثلثمائة الدائن بدين الخارجية. أخذ العلم بتوزر عن مشيختها، ورأس في الفتيا وقرأ مذاهب الإضافية من الخوارج، وصدق فيه. ثم لقي عماراً الأعمى الصفري النكار. فتلقن عنه من مذاهبهم ما انسلخ من آية السعادة بانتحاله. وهو مع ذلك من الشهرة في هذا الجيل بحيث لا يغفل.

ومنهم منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة من ظواعن ولهاصة، ثم من سوماتة منهم، مولده عام عشرة ووفاته عام ثلاثة وثمانين وثلثمائة. كان من البتر من ولد مادغيس هلك على يد عبد الرحمن الناصر. ومنهم أيضاً أبو محمد بن أبي زيد علم الملة وهو من نفزة أيضاً. ومنهم علماء بالنسب والتاريخ وغير ذلك من فنون العلوم.

ومن مشاهير زناتة أيضاً موسى بن صالح الغمري، معروف عند كافتهم معرفة وضوح وشهرة، وقد ذكرناه عند ذكر غمرة من شعوب زناتة، وهو وإن لم توقفنا الأخبار الصحيحة على الجلّي من أمره في دينه، فهو من محاسن هذا الجيل الشاهدة بوجود الخواص الإنسانية فيهم: من ولاية وكهانة وعلم وسحر، وكل نوع من آثار الخليقة.ولقد تحدث أهل هذا الجيل فيما يتحدثون به أن أخت يعلى بن محمد اليفرني جاءت بولد من غير أب سمّوه كلمام. ويذكر له أخبار في الشجاعة خرقت العوائد ودلّت على أنه موهبة من اللّه استأثره بها، لم يشاركه فيها غيره من أهل جلدته. وربما ضاقت حواصل الخواص منهم عن ملتقط هذه الكائنة، ويجهلون ما يتسع لها ولأمثالها من نطاق القدرة، وينقلون أن حملها كان إثر استحمامها في عين حامية هنالك غب ما صدر عنها بعض السباع، كانت تردّ فيها على الناس، ويردّون عليها ويرون أنها علقت من فضل ولوغه، ويسمون ذلك المولود ابن الأسد لظهور

خاصة الشجاعة فيه. وكثير من أمثال هذه الأخبار التي لو انصرفت إليها عناية الناقلين لملأت الدواوين. ولم يزل هذا دأبهم وحالهم إلى أن مهّدوا من الدول وأثلوا من الملك ما نحن في سبيل ذكره.

الفصل الرابع

في ذكر أخبارهم على الجملة من قبل الفتح الإسلامي ومن بعده الى ولاية بني الأغلب

هؤلاء البربر جيل ذوو شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى حسبما هو معروف في تاريخ الفتح بإفريقية والمغرب، وفي أخبار ردتهم وحروبهم فيها. نقل ابن أبي الرقيق: أن موسى بن نصير لما فتح سقوما كتب إلى الوليد بن عبد الملك أنه صار لك من سبي سقوما مائة ألف رأس. فكتب إليه الوليد بن عبد الملك: ويحك إني أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقاً فهذا محشر الأمة، ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلى الإسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومي وبلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها. وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب إلا في بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم. فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم، فقد غزتهم ملوك اليمن من قرارهم مراراً على ما ذكر مؤرّخوهم، فاستكانوا لغلبهم ودانوا بدينهم.

ذكر ابن الكلبي: أن حمير بالقبائل اليمانية ملك المغرب مائة سنة، وأنه الذي ابتنى مدائنه مثل إفريقية وصقلية، واتفق المؤرخون على غزو أفريقش بن صيفي من التبابعة إلى المغرب كما ذكرنا في أخبار الروم، واختطوا بسيف البحر وما يليه من الأرياف مدناً عظيمة الخطة وثيقة المباني شهيرة الذكر باقية المعالم والآثار لهذا العهد مثل:سبيطلة وجلولاء ومرناق وطاقة وزانة وغيرها من المدن التي خربها المسلمون من العرب لأول الفتح عند استيلائهم عليها. وقد كانوا دانوا لعهدهم بما تعبدوهم به من دين النصرانية، وأعطوهم المهادنة وأدوا إليهم الجباية طواعية.

وكان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء من قوّة وعدّة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال. وأمراؤها لا يرامون بذلّ، ولا ينالهم الروم والإفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة الإساءة، وقد صبحهم الإسلام وهم في مملكة قد استولوا على رومة.وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية كما كان المقوقس صاحب الإسكندرية وبرقة ومصر يؤدون الجباية له، وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الأندلس من الغوط لما كان الروم غلبوا على هؤلاء الأمم أجمع، وعنهم كلهم أخذوا دين النصرانية، فكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر إفريقية ولم يكن للروم فيها شيء من ولاية، وإنما كان كل من كان منهم بها جنداً للإفرنج ومن حشودهم. وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح إفريقية فمن باب التغليب، لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج، وما قاتلوا في الشام إلا الروم، فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية. فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية

ونقلت الأخبار عن العرب كما هي، فجرجير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم، وكذا الأمة الذين كانوا بإفريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها، إنما كانوا من الفرنجة. وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم، لقرب الشام وسلطانه منهم كما كان جراة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح، وكما كانت نفوسة من برابر إفريقية وقندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو فازان من برابرة المغرب الأقصى حتى محا إدريس الأكبر الناجم بالمغرب من بني حسن بن الحسن جميع ما كان في نواحيه من بقايا الأديان والملل، فكان البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الفرنج، وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم كما ذكرناه، حتى إذا كان الفتح وزحف المسلمون إلى إفريقية زمان عمر رضي اللّه عنه سنة تسع وعشرين، وغلبهم عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي، فجمع لهم جرير ملك الفرنجة يومئذ بإفريقية من كان بأمصارها من الفرنج والروم، ومن بضواحيها من جموع البربر وملوكهم.

وكان ملك ما بين طرابلس وطنجة، وكانت دار ملكه سبيطلة فلقوا المسلمين في زهاء مائة وعشرين ألفاً، والمسلمون يومئذ في عشرين ألفاً، فكان من هزيمة العرب لهم وفتحهم لسبيطلة وتخريبهم إياها وقتلهم جرجير ملكهم.و ما نفلهم اللّه من أموالهم وبناتهم التي اختصت منهن ابنته بقاتلة عبد اللّه بن الزبير لعهد المسلمين له بذلك بعد الهزيمة، وخلوصه بخبر الفتح إلى الخليفة والملأ من المسلمين بالمدينة ما هو كله مذكور مشهور. ثم أرزء الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة، وخلوصه بخبر

الفتح إلى حصون إفريقية، وانساح المسلمون في البسائط بالغارات، ووقع بينهم وبين البربر أهل الضواحي زحوف وقتل وسبي، حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمار بن صقلاب جدّ بني خزر، وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة، ورفعوه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يده، ومنّ عليه وأطلقه، وعقد له على قومه.

ويقال: إنما وصله وافداً وحصن المسلمين عليهم ولاذ الفرنج بالسلم وشرطوا لابن أبي سرح ثلثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب، ويخرج بهم من بلادهم ففعل. ورجع المسلمون إلى المشرق وشغلوا بما كان من الفتن الإسلامية.ثم كان الاجتماع والاتفاق على معاوية بن أبي سفيان، وبعث معاوية بن خديج السكوني من مصر لافتتاح إفريقية سنة خمس وأربعين. وبعث ملك الروم من القسطنطينية عساكره لمدافعتهم في البحر فلم تغن شيئاً وهزمهم العرب بساحل أجم. وحاصروا جلولاء وفتحوها، وقفل معاوية بن خديج إلى مصر فولّى معاوية بن أبي سفيان على إفريقية بعده عقبة بن نافع، فاختط القيروان وافترق أمر الفرنجة وصاروا إلى الحصون، وبقي البربر بضواحيهم إلى أن ولّي يزيد بن معاوية وولّى على إفريقية أبا المهاجر مولى.

وكانت رئاسة البربر يومئذ في أوربة لكسيلة بن لمزم، وهو رأس البرانس، ومرادفه سكرديد بن رومي بن مازرت من أوربة، وكان على دين النصرانية فأسلما لأول الفتح. ثم ارتدا عند ولاية أبي المهاجر واجتمع إليها البرانس، وزحف إليهم أبو المهاجر حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم وظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه. ثم جاء عقبة بعد أبي المهاجر فنكبه غيظاً على صحابته لأبي المهاجر. ثم استفتح حصون الفرنجة مثل باغاية ولميس، ولقيه ملوك البربر بالزاب وتاهرت ففضّهم جمعاً بعد جمع، ودخل المغرب الأقصى، وأطاعته غمارة، وأميرهم يومئذ يليان. ثم أجاز إلى وليلى ثم جبال درن، وقاتل المصامدة، وكانت بينهم وبينه حروب، وحاصروه بجبال درن. ونهضت إليهم جموع زناتة وكانوا خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة فأفرجت المصامدة عن عقبة، وأثخن فيهم حتى حملهم على طاعة الإسلام، ودوخ بلادهم.

ثم أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهو يومئذ على دين المجوسية، ولم يدينوا بالنصرانية، فأثخن فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر، وقاتل مسوّفة من وراء السوس، وسبى منهم وقفل راجعاً. وكسيلة أثناء هذا كله في اعتقاله يحمله معه في عسكره سائر غزواته. فلما قفل من السوس سرّح العساكر إلى القيروان حتى بقي في خف من الجنود. وتراسل كسيلة وقومه، فأرسلوا له شهوداً وانتهزوا الفرصة فيه وقتلوه ومن معه وملك كسيلة إفريقية خمس سنين ونزل القيروان وأعطى الأمان لمن بقي بها ممّن تخلف من العرب أهل الذراري والأثقال، وعظم سلطانه على البربر.

وزحف قيس بن زهير البلوي في ولاية عبد الملك للثار بدم عقبة سنة سبع وستين، وجمع له كسيلة سائر البربر، ولقيه بجيش من نواحي القيروان فاشتد القتال بين الفريقين ثم انهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم. وأتبعهم العرب إلى مرمجنة ثم إلى ملوية وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد، وخاف البربر من زهير ومن العرب خوفاً شديداً فلجأوا إلى القلاع والحصون.ثم ترهّب زهير بعدها وقفل إلى المشرق فاستشهد ببرقة كما ذكرناه. واضطرمت إفريقية ناراً وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم. وكان من أعظمهم شأناً يومئذ الكاهنة دُهيا بنت ماتية بن تيفان ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر وزعمائهم، فبعث عبد الملك إلى حيان بن النعمان الغساني عامله على مصر أن يخرج إلى جهاد إفريقية، وبعث إليه بالمدد، فزحف إليها سنة تسع وسبعين ودخل القيروان وغزا قرطاجنة وافتتحها عنوة، وذهب من كان بقي بها من الإفرنجة إلى صقلية وإلى الأندلس.

ثم سأل عن أعظم ملوك البربر فدلوه على الكاهنة وقومها جراوة فمضى إليها حتى نزل وادي مسكيانة. وزحفت إليه فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر خالد بن يزيد القيسي. ولم تزل الكاهنة والبربر في اتباع حيان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس، ولحق حسان بعمل طرابلس. ولقيه كتاب عبد الملك بالمقام فأقام وبنى قصوره وتعرف لهذا العهد به. ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها واتخذت عهداً عند أسيرها خالد بالرضاع مع ابنيها. وأقامت في سلطان إفريقية والبربر خمس سنين. ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالمدد، فرجع إلى إفريقية سنة أربع وسبعين، وخربت الكاهنة جميع المدن والضياع، وكانت من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً في قرى متصلة.

وشق ذلك على البربر فاستأمنوا لحسان فأمنّهم ووجد السبيل إلى تفريق أمرها، وزحف إليها وهي في جموعها من البربر فانهزموا، وقتلت الكاهنة بمكان البير المعروف بها لهذا العهد بجبل أوراس. واستأمن إليه البربر على الإسلام والطاعة وعلى أن يكون منهم اثنا عشر ألفاً مجاهدين معه، فأجابوا وأسلموا وحسن

إسلامهم، وعقد للأكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة وعلى جبل أوراس فقالوا: لزمنا الطاعة له سبقناها إليها وبايعناه عليها. وأشارت عليهم بذلك لأثارة من علم كانت لديها بذلك من شياطينها، وانصرف حسان إلى القيروان فدوّن الدواوين وصالح من ألقى بيده من البربر على الخراج. وكتب الخراج على عجم إفريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر والبرانس.

واختلفت أيدي البربر فيما بينهم على إفريقية والمغرب فخلت أكثر البلاد، وقدم موسى بن نصير إلى القيروان والياً على إفريقية. ورأى ما فيها من الخلاف، وكان ينقل العجم من الأقاصي إلى الأداني وأثخن في البربر ودوخ المغرب وأدى إليه البربر الطاعة. وولّي على طنجة طارق بن زياد، وأنزل معه سبعة وعشرين ألفاً من العرب واثني عشر ألفاً من البربر، وأمرهم أن يعلّموا البربر القرآن والفقه. ثم أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن عبد اللّه بن أبي المهاجر سنة إحدى ومائة.

وذكر أبو محمد بن أبي زيد: إن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس بعد أن دوخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر أمرائهم برسم الجهاد. فاستقروا هنالك من لدن الفتح، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة. ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها، ولقّنوها من العرب الناقليها من منبعها بالعراق. وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها، من الأباضية والصفرية كما ذكرنا في أخبار الخوارج.

وفشت هذه البدعة وأعقدها رؤوس النفاق من العرب وجراثيم الفتنة من البربر ذريعة إلى الانتزاء على الأمر فاختلّوا في كل جهة، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر تتلون عليهم مذاهب كفرها، ويلبسون الحق بالباطل فيها إلى أن رسخت فيهم كلمات منها، ووشجت بينهم عروق من غرائسها. ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمراء العرب، فقتلوا يزيد بن أبي مسلم سنة اثنتين ومائة لما نقموا عليه في بعض الفعلات. ثم انتقض البربر بعد ذلك سنة اثنتين وعشرين ومائة في ولاية عبد اللّه بن الحجاب أيام هشام بن عبد الملك لما أوطأ عساكره بلاد السوس، وأثخن في البربر وسبى وغنم. وانتهى إلى مسوفة فقتل وسبى وداخل البربر منه رعب، وبلغه أن البربر أحسوا بأنهم فيء للمسلمين فانتقضوا عليه. وثار ميسرة المطغري بطنجة على عمرو بن عبد اللّه فقتله وبايع لعبد الأعلى بن جريج الأفريقي رومي الأصل ومولى العرب، كان مقدم الصفريّة من الخوارج في انتحال مذهبهم، فقام بأمرهم مدة وبايع ميسرة لنفسه بالخلافة داعياً إلى نحلته من الخارجية على مذهب الصفرية، ثم ساءت سيرته فنقم عليه البربر ما جاء به فقتلوه وقدموا على أنفسهم خالد بن حميد الزناتي.

قال ابن عبد الحكم: هو من هتورة إحدى بطون زناتة فقام بأمرهم، وزحف إلى العرب وسرح إليه عبد اللّه بن الحبحاب العساكر في مقدمته ومعهم خالد بن أبي حبيب فالتقوا بوادي شلف، وانهزم العرب وقتل خالد بن أبي حبيب ومن معه وسميت وقعة الأسراب وانتقضت البلاد ومرج أمر الناس، وبلغ الخبر هشام بن عبد الملك فعزل ابن الحبحاب وولى كلثوم بن عياض القشيري سنة ثلاث وعشرين وسرحه في اثني عشر ألفاً من أهل الشام. وكتب إلى ثغور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه، فخرج إلى إفريقية والمغرب حتى بلغ وادي طنجة وهو وادي سبس فزحف إليه خالد بن حميد الزناتي فيمن معه من البربر، وكانوا خلقاً لا يحصى، ولقوا كلثوم بن عياض من بعد أن هزموا مقدمته فاشتد القتال بينهم، وقتل كلثوم وانهزمت العساكر فمضى أهل الشام إلى الأندلس مع بلج بن بشر القشيري ومضى أهل مصر وإفريقية إلى القيروان.

وبلغ الخبر إلى هشام بن عبد الملك فبعث حنظلة بن سفيان الكلبي فقدم القيروان سنة أربع وعشرين وأربعمائة وهوارة يومئذ خوارج على الدولة، منهم: عكاشة بن أيوب وعبد الواحد بن يزيد في قومهما، فثارت هوارة ومن تبعهم من البربر فهزمهم حنظلة بن المعز بظاهر القيروان بعد قتال شديد، وقتل عبد الواحد الهوّاري وأخذ عكاشة أسيراً، وأحصيت القتلى في هذه الوقيعة فكانوا مائة وثمانين ألفاً. وكتب بذلك حنظلة إلى هشام وسمعها الليث بن سعد فقال: ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحبّ إليّ من غزوة القرن والأصنام.

ثم خفت صوت الخلافة بالمشرق والتاث أمرها لما كان بين بني أمية من الفتنة، وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان. وأفضى الأمر إلى الإدالة ببني العباس من بني أمية وأجاز البحر عبد الرحمن بن حبيب من الأندلس إلى إفريقيا فملكها وغلب حنظلة عليها سنة ست وعشرين ومائة فعادت هيف إلى أديانها، واستشرى داء البربر وأعضل أمر الخارجية ورؤوسها، فانتفضوا من أطراف البقاع، وتواثبوا على الأمر بكل ما كان داعين إلى بدعتهم، وتولى كبر ذلك يومئذ صنهاجة، وتغلب أميرهم ثابت بن زيدون وقومه على باجة، وثار معه عبد اللّه بن سكرديد من أمرائهم فيمن تبعه.

وثار بطرابلس عبد الجبار والحرث من هوارة، وكانا يدينان

برأي الأباضية فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عبس القيسي لما خرج إليهم يدعوهم إلى الصلح، وبقي الأمر على ذلك مدة، وثار إسماعيل بن زياد فيمن معه من نفوسة، وتغلب علة قابس. ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين فقتل عبد الجبار والحارث وأوعب في قتل البربر وأثخن فيهم، وزحف إلى تلمسان سنة خمس وثلاثين فظفر بها ودوخ المغرب وأذل من كان فيه من البربر. ثم كانت بعد ذلك فتنة وربجومة وسائر قبائل نفزاوة سنة أربعين ومائة، وذلك لما انحرف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبي جعفر وقتله أخواه إلياس وعبد الوارث، فولّي مكانه ابنه حبيب، وطالبهما بثأر أبيه، فقتل إلياس ولحق عبد الوارث بوربجومة فأجاره أميرهم عاصم بن جميل، وتبعه على شأنه يزيد بن سكوم أمير ولهاصة واجتمعت لهم كلمة نفزاوة ودعوا لأبي جعفر المنصور، وزحفوا إلى القيروان ودخلوها عنوةً، وفرّ حبيب بن قابس فأتبعه عاصم في نفزاوة وقبائلهم.

وولي على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد النفزي، ثم انهزم حبيب إلى أوراس، واتبعه عاصم، فاعترضه عبد الملك بن أبي الجعد وجموع نفزاوة الذين كانوا بالقيروان وقتلوه واستولت وربجومة على القيروان وسائر إفريقية، وقتلوا من كان بها من قريش وربطوا دوابهم بالمسجد الجامع، واشتد البلاء على أهل القيروان وأنكرت ذلك من فعل وربجومة ومن إليهم من نفزاوة برابرة طرابلس الأباضية من هوارة وزناتة، فخرجوا واجتمعوا إلى أبي الخطاب عبد الأعلى ابن الشيخ المعافري وقصدوا طرابلس وأخرجوا عمر بن عثمان القرشي، واستولى أبو الخطاب عليها. واجتمع إليه سائر البربر الذين كانوا هنالك من زناتة وهوارة وزحف بهم إلى القيروان فقتل عبد الملك بن أبي الجعد وسائر وربجومة ونفزاوة، واستولى على القيروان سنة إحدى وأربعين.

ثم ولّي على القيروان عبد الرحمن بن رستم وهو من أبناء رستم أمير فارس بالقادسية، كان من موالي العرب ومن رؤوس هذه البدعة. ورجع أبو الخطاب إلى طرابلس واضطرم المغرب ناراً، وانتزى خوارج البربر على الجهات فملكوها، واجتمعت الصفرية من مكناسة بناحية المغرب سنة أربعين ومائة، وقدموا عليهم عيسى بن يزيد الأسود، وأسسوا مدينة سجلماسة ونزلوها، وقدم محمد بن الأشعث والياً على إفريقية من قِبل أبي جعفر المنصور فزحف إليه أبو الخطاب ولقيه بسرت، فهزموا ابن الأشعث وقتل البربر قتلاً ذريعاً. وفر عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تاهرت بالمغرب الأوسط، واجتمعت إليه طوائف البربر الأباضية من لماية ورجالة من نفزاوة فنزل بها، واختط مدينتها سنة أربع وأربعين ومائة وضبط ابن الأشعث إفريقية وخافه البربر.

ثم انتقض بنو يفرن من زناتة ومغيلة من البربر بنواحي تلمسان، وقدموا على أنفسهم أبا قرة من بني يفرن، ويقال إنه من مغيلة وهو الأصح في شأنه، وبويع له بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة. وزحف إليه الأغلب بن سود التميمي عامل طِّبنة، فلما قرب منه هرب أبو قرة، فنزل الأغلب الزاب، ثم اعتزم على تلمسان ثم طنجة، ورجع إليه الجند فرجع، ثم انتقض البربر من بعد ذلك أيام عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب. وكان يلقب هزار مرد سنة إحدى وخمسين.

واجتمعوا بطرابلس، وقدموا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب بن مدين بن يطوفت من أمراء مغيلة، ويسمى أبا قادم.

وزحفت إليهم جنود عمر بن حفص فهزموها وملكوا طرابلس، وزحفوا إلى القيروان فحاصروها. ثم زحف البرابرة من الجانب الآخر بجنود عمر بطبنة في اثني عشر معسكراً. وكان منهم أبو قرة في أربعين ألفاً من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في ستة آلاف من الأباضية، والمسور بن هانيء في عشرة آلاف كذلك، وجرير بن مسعود فيمن تبعه من مديونة، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي في ألفين منهم من الصفرية. واشتد الحصار على عمر بن حفص فأعمل الحيلة في الخلاف بين جماعتهم، وكان بنو يفرن من زناتة أكثر البرابرة يومئذ جمعاً، وأشدهم قوة، فصالح أبو قرة زعيمهم على أربعين ألفاً وأعطى ابنه في إتمام ذلك أربعة آلاف، وافترقوا وارتحلوا عن طبنة. ثم بعث بعثاً إلى ابن رستم فهزمه، ودخل تاهرت مفلولاً، وزحف عمر بن حفص إلى أبي حاتم والبربر الأباضية الذين معه، ونهضوا إليه فخالفهم إلى القيروان، وشحنها بالأقوات والرجال.

ثم لقي أبا حاتم والبربر وهزموه، ورجع إلى القيروان وحاصروه. وكانوا في ثلاثمائة وخمسين ألفاً، الخيل منها خمسة وثلاثون ألفاً، وكانوا كلهم أباضية، وطال الحصار وقتل عمر بن حفص في بعض أيامه سنة أربع وخمسين ومائة. وصالح أهل القيروان أبا حاتم على ما أحب وارتحل. وقدم يزيد بن قبيصة بن المهلب سنة أربع وخمسين ومائة والياً على إفريقية، فزحف إليه أبو حاتم بعد أن خالف عليه عمر بن عثمان الفهري، وافترق أمرهم فلقيه يزيد بن حاتم بطرابلس فقتل أبو حاتم، وانهزم البربر ولحق عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن من أصحاب أبي حاتم بكتامة وبعث المخارق بن غفار الطائي فحاصره ثمانية أشهر. ثم غلب عليه فقتله ومن كان معه من البربر، وهربوا إلى كل ناحية. وكانت حروبهم مع الجند من لدن قتل عمر بن حفص بطبنة إلى

انقضاء ثلثمائة وخمسة وسبعين حرباً.

وقدم يزيد إفريقية فزال فسادها ورتب القيروان، ولم تزل البلاد هادئة، وانتقض ورفجومة سنة سبع وخمسين وولوا عليهم رجلاً منهم اسمه أبو زرجونة، فسرح إليهم يزيد من عشيرة ابن محراة المهلبي فهزموه. واستأذنه ابنه المهلب وكان على الزاب وطبنة وكتامة في الزحف إلى ورفجومة فأذن له، وأمده بالعلاء بن سعيد ابن مراون المهلبي من عشيرتهم أيضاً، فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل. وانتقض نفزاوة من بعد ذلك في سلطنة ابنه داود من بعد مهلكه سنة إحدى وستين ومائة، وولّوا عليهم صالح بن نصير النفزي ودعوا إلى رأيهم رأي الأباضية، فسرح إليهم ابن عمه سليمان بن الصمة في عشرة آلاف فهزمهم وقتل البربر أبرح قتل.ثم تحيز إلى صالح بن نصير، ولم يشهد الأولى من البربر الأباضية واجتمعوا بشقبنارية فهزمهم إليها سليمان ثانية وانصرف إلى القيروان.

وركدت ريح الخوارج من البربر من إفريقية وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال، ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة إحدى وسبعين في موادعة صاحب القيروان روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، فوادعه وانخصدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا للدين، فضرب الإسلام بجرانه، وألقت الدولةالضريبة على البربر بكلكلها، وتقلد إبراهيم بن الأغلب التميمي أمر إفريقية والمغرب من قبل الرشيد هارون سنة خمس وثمانين ومائة فاضطلع بأمر هذه الولاية، وأحسن السيرة وقوّم المتاد ورأب الصدع وجمع الكلمة. ورضيت الكافة واستقل بولايتها غير منازع ولا متشوه، وتوارثها بنوه خالفاً عن سالف.

وكانت لهم بإفريقية والمغرب الدولة التي ذكرناها من قبل إلى أن انقرض أمر العرب بإفريقية على زيادة الله عاقبتهم الفارّ إلى المشرق أمام كتامة سنة ست وتسعين ومائتين كما نذكره.وخرج كتامة على بني الأغلب بدعوة الرافضية، قام بها فيهم أبو عبد الله المحتسب الشيعي داعية عبيد الله المهدي، فكان ذلك آخر عهد العرب بالملك والدولة بإفريقية. واستقل كتامة بالأمر من يومئذ، ثم من بعدهم من برابرة المغرب. وذهبت ريح العرب ودولتهم من المغرب وإفريقية، فلم يكن لهم بعد دولة إلى هذا العهد.وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلاً بعد آخر، تارة يدعون إلى الأمويين الخلفاء بالأندلس، وتارة إلى الهاشمين من بني العباس وبني الحسن.ثم استقلوا بالدعوة لأنفسهم آخراً حسبما نذكر ذلك كله مفصلاً عندما يعرض لنا من ذكر دول زناتة والبربر الذين نحن في سياقة أخبارهم.

الخبر عن البرابرة البتر وشعوبهم ونبدأ منهم أولاً بذكر نفوسة وتصاريف أحوالهم

كان مادغيس الأبتر جدّ البرابرة البتر، وكان ابنه زحيك ومنه تشعبت بطونهم. فكان له من الولد فيما يذكر نسابة البربر أربعة. نفوس وأداس وضرا ولوا، فأما أداس فصار في هوارة لما يقال: إن هوارة خلف أباه زحيك على أمه قبل فصاله فانتسب إليه واختلط بولده، واندرجت بطون أداس في هوارة كما ذكرناه.وأما ضرا ولوا فسنأتي بذكر بطونهم واحداً واحداً.وأما نفوس فهم بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها. وكانوا من أوسع قبائل البربر فيهم شعوب كثيرة مثل بني زمور وبني مكسور وماطوسة.

وكانت مواطن جمهورهم بجهات طرابلس وما إليها، وهناك الجبل المعروف بهم، وهم على ثلاثة مراحل من قبلة طرابلس يسكنه اليوم بقاياهم.، وكانت مدينة صبرة قبل الفتح في مواطنهم، وتعزى إليهم، وهي كانت باكورة الفتح لأول الإسلام، وخربها العرب بعد استيلائهم عليها فلم يبق منهم إلا الأطلال ورسوم خافية. وكان من رجالاتهم إسماعيل بن زياد المتغلب على قابس سنة اثنتين وثلاثين ومائة لأول الدولة العباسية. ومنهم لهذا العهد أوزاع متفرقون في الأقطار بعمالات مصر والمغرب، واللّه وارث الأرض ومن عليها، وأما لوا فمن ولده نفزاوة ولواتة كما نذكر.

الخبر عن نفزاوة وبطونهم وتصاريف أحوالهم

وهم بنو يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر بن زحيك، وبطونهم كثيرة مثل غساسة ومرنيسة وزهيلة وسوماتة وزاتيمة وولهاصة ومجرة وورسيف، ومن بطونهم مكلاتة.ويقال: إن مكلاتة من عرب اليمن وقع إلى يطوفت صغيراً فتبناه، وليس من البربر.ولمكلاتة بطون متعددة مثل: بني ورياغل وكزناية وبني يصلتين وبني ديمار وريحون وبني سراين، ويقال: أن غساسة منهم، هكذا عند نسابة البربر مثل سابق المطماطي وغيره، ومن بطون ولهاصة ورتدين بن داحية بن ولهاصة وورفجومة بن تدغاس بن ولهاص.ومن بطون ورفجومة زكولة رجالة لذاك بن ورفجوم إلى بطون أخرى كثيرة.

وكان ورفجومة هؤلاء أوسم بطون نفزاوة وأشدهم بأساً

وقوة. ولما انحرف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبي جعفر المنصور وقتله أخواه عبد الوارث وإلياس وطالبهما ابنه حبيب بالثأر فلحق عبد الوارث بورفجومة، ونزل على أميرهم عاصم بن جميل بأوراس، وكان كاهناً فأجاره وقام بدعوة أبي جعفر المنصور، واجتمعت إليه نفزاوة، وكان من رجالاتهم عبد الملك بن أبي الجعد ويزيد بن سكوم وكانوا يدينون بدين الأباضية من الخوارج، وزحفوا إلى القيروان سنة أربعين ومائة، وفر عنها حبيب بن عبد الرحمن، ودخلها عبد الملك بن أبي الجعد وقتل حبيباً. واستولت نفزاوة على القيروان وقتلوا من كان بها من قريش وسائر العرب، وربطوا دوابهم بالمسجد، وعظمت حوادثهم.

ونكر ذلك عليهم الأباضية من برابرة طرابلس وتولى كبرها زناتة وهوارة فاجتمعوا إلى الخطاب بن السمح ورجالات العرب، واستولوا على طرابلس ثم على القيروان سنة إحدى وأربعين ومائة وقتلوا عبد الملك بن أبي الجعد وأثخنوا في قومه من نفزاوة وورفجومة، ثم رجعوا إلى طرابلس بعد أن استعمل أبو الخطاب على القيروان عبد الرحمن بن رستم.واضطرم المغرب ناراً وعظمت فتنة ورفجومة هؤلاء إلى أن قدم محمد بن الأشعث سنة ست وأربعين من قبل المنصور فأثخن في البربر وأطفأ نار هذه الفتنة كما قدّمناه. ولما اختط عمر بن حفص مدينة طبنة سنة إحدى وخمسين أنزل ورفجومة هؤلاء بها بما كانوا شيعاً له، وعظم غناؤهم فيها عندما حاصره بها ابن رستم وبنو يفرن.

ثم انتقضوا بعد مهلك عمر على يزيد بن حاتم عند قدومه على إفريقية سنة سبع وخمسين وولوا عليهم أبا زرجونة منهم، وسرح إليهم يزيد العساكر مع ابنه وقومه فأثخنوا فيهم. ثم انتقضت نفزاوة على أبيه داود، ودعوا إلى دين الأباضية، وولوا عليهم صالح بن نصر منهم فرجعت العساكر إليهم متراسلة وقتلوهم أبرح قتل.وعليها كان ركود ريح الخوارج بإفريقية ذعار البربر. وافترق بنو ورفجومة بعد ذلك وانقرض أمرهم وصاروا أوزاعاً في القبائل. وكان رجّالة منهم بطناً متسعاً. وكان منهم رجالات مذكورون في أول العبيديين وبني أمية بالأندلس منهم الرجالي أحد الكتاب بقرطبة، وبقي منهم لهذا العهد فرق بمرماجة. وهناك قرية ببسيطها تنسب إليهم.

وأما سائر ولهاصة من ورفجومة وغيرهم فهم لهذا العهد أوزاع، لذلك أشهرهم قبيلة بساحل تلمسان اندرجوا في كومية وعدّوا منهم بالنسب والخلط.وكان منهم في أواسط هذه المائة الثامنة ابن عبد الملك استقل برئاستهم وتملّك بدعوى السلطان بعد استيلاء بني عبد الواد على تلمسان ونواحيها، وتغلب على سلطانهم لذلك العهد كما نذكره عثمان بن عبد الرحمن وسجنه بالمطبق بتلمسان ثم قتله. ومن أشهر قبائل ولهاصة أيضاً قبيلة أخرى ببسيط بونة يركبون الخيل ويأخذون بمذاهب العرب في زيهم ولغتهم وسائر شعارهم كما هو شأن هوراة، وهم في عداد القبائل الغارمة ورئاستهم في بني عريف منهم، وهي لهذا العهد في ولد حازم بن شدّاد بن حزام بن نصر بن مالك بن عريف. وكانت قبلهم لعسكر بن بطنان منهم، هذه أخبار ولهاصة فيما علمناه.

وأما بقايا بطون نفزاوة فمنهم زاتيمة، وبقية منهم لهذا العهد بساحل برشك، ومنهم غساسة، وبقية منهم لهذا العهد بساحل بطوية حيث القرية التي هناك حاضرة البحر، ومرسى لأساطيل المغرب، وهي مشهورة باسمهم. وأما زهيلة فبقيتهم لهذا العهد بنواحي بادس مندرجون في غمارة وكان منهم لعهد مشيختنا أبو يعقوب البادسي أكبر الأولياء، وآخرهم بالمغرب. وأما مرنيسة فلا يعلم لهم موطن، ومن أعقابهم أوزاع بين أحياء العرب بإفريقية، وأما سوماتة فمنهم بقية في نواحي القيروان، كان منهم منذر بن سعيد القاضي بقرطبة لعهد الناصر والله أعلم.

وأما بقايا بطون نفزاوة فلا يعرف لهم لهذا العهد حي ولا موطن إلا القرى الظاهرة المقدّرة السير المنسوبة إليهم ببلاد قسطيلة، وبها معاهدون من الفرنجة أوطنوهم على الجزية واعتقاد الذمة عند عهد الفتح، وأعقابهم بها لهذا العهد، وقد نزل معهم كثير من بني سليم من الشريد وزغبة، وأوطنوها وتملكوا بها العقار والضياع.وكان أمر هذه القرى راجعاً إلى عامل توزر أيام استبداد الخلافة. فلما تقلص ظل الدولة عنهم، وحدثت العصبة في الأمصار استبدت كل قرية بأمرها وصار مقدم توزر يحاول دخولهم في إيالته فمنهم من يعطيه ذلك ومنهم من يأباه حتى أظلتهم دولة مولانا السلطان أبي العباس، وأدرجوا كلهم في طاعته واندرجوا في حبله، والله ولي الأمور لا رب غيره اه.

الخبر عن لواتة من البرابرة البتر وتصاريف أحوالهم

وهو بطن عظيم متسع من بطون البربر البتر ينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك، ولوا الأصغر هو نفزاو كما قلناه. ولوا اسم أبيهم، والبربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فصار لوات، فلما عرّبته العرب حملوه على الإفراد وألحقوا به هاء الجمع. وذكر ابن حزم أن نسابة البربر يزعمون أن

سدراتة ولواتة ومزاتة من القبط وليس ذلك بصحيح.و ابن حزم لم يطلع على كتب علماء البربر في ذلك. وفي لواتة بطون كثيرة وفيهم قبائل كثيرة مثل سدراتة بن نيطط بن لوا، ومثل عزوزة بن ماصلت بن لوا. وعد سابق وأصحابه في بني ماصلت بطوناً أخرى غير عزوزة وهم:أكورة وجرمانة ومغانة مثل بني زائد بن لوا، وأكثر بطونهم مزاتة. ونسابة البربر يعدون في مزاتة بطوناً كثيرة مثل: بلايان وقرنة ومجيجة ودكمة وحمرة ومدونة.وكان لواتة هؤلاء ظواعن في مواطنهم بنواحي برقة كما ذكره المسعودي، وكان لهم في فتنة أبي يزيد آثار.

وكان منهم بجبل أوراس أمة عظمية ظاهروا أبا يزيد مع بني كملان على أمره. ولم يزالوا بأوراس لهذا العهد مع من به من قبائل هوارة وكتامة، ويدهم العالية عليهم تناهز خيالتهم ألفاً وتجاوز رجالاتهم العدّة. وتستكفي بهم الدولة في جباية من تحت أيديهم بجبل أوراس من القبائل الغارمة فيحسنون الغناء والكفاية.وكانت البعوث مضروبة عليهم ينفرون بها في معسكر السلطان، فلما تقلص ظل الدولة عنهم صار بنو سعادة منهم في أقطاع أولاد محمد من الدواودة فاستعملوهم في مثل ما كانت الدولة تستعملهم فيه، فأصاروهم خولاً للجباية وعسكراً للاستنفار وأصبحوا من جملة رعاياهم. وقد كان بقي جانب منهم لم تستوفه الإقطاعات، وهم بنو زنجان وبنو باديس فاستضافهم منصور بن مزني إلى عمله، فلما استبد مزني عن الدولة واستقلوا بالزاب ضاروا يبعدونهم بالجبلية بعض السنين ويعسكرون عليهم لذلك بأفاريق الأعراب، وهم لهذا العهد معتصمون بجبلهم لا يجاوزونه إلى البسيط خوفاً من عادية الأعراب.

ولبني باديس منهم أتاوات على بلد نقاوس المختطة في سفح الجبل بما تغلبوا على ضواحيها. فاذا انحدر الأعراب إلى مشاتيهم اقتضوا منها أتاواتهم وخفارتهم. وإذا أقبلوا إلى مصايفهم رجع لواتة إلى معاقلهم الممتنعة على الأعراب. وكان من لواتة هؤلاء أمة عظيمة بضواحي تاهرت إلى ناحية القبلة، وكانوا ظواعن هنالك على وادي ميناس ما بين جبل يعود من جهة الشرق وإلى وارصلف من جهة الغرب. يقال: إن بعض أمراء القيروان نقلهم معه في غزوة وأنزلهم هنالك. وكان كبيرهم أورغ بن علي بن هشام قائداً لعبيد الله الشيعي.

ولما انتقض حميد بن يصل صاحب تاهرت على المنصور ثالث خلفاء الشيعة ظاهروه على خلافه، وجاوروه في مذاهب ضلاله إلى أن غلبه المنصور. وأجاز حميد إلى الأندلس سنة ست وثلاثين وزحف المنصور يريد لواتة فهربوا أمامه إلى الرمال ورجع عنهم ونزل إلى وادي ميناس ثم انصرف إلى القيروان.

وذكر ابن الرقيق: أن المنصور وقف هنالك على أثر من آثار الأقدمين بالقصور التي على الجبال الثلاثة مبنية بالحجر المنجوت، يبدو للناظر على البعد كأنها أسنمة قبور، ورأى كتاباً في حجر فسّره له أبو سليمان السردغوس: خالف أهل هذا البلد على الملك فأخرجني إليهم، ففتح لي عليهم، وبنيت هذا البناء لأذكر به، هكذا ذكر ابن الرقيق، وكان بنو وجديجن من قبائل زناتة بمواطنهم من منداس جيراناً للواتة هؤلاء، والتخم بينهما وادي ميناس وتاهرت.وحدثت بينهما فتنة بسبب امرأة أنكحها بنو وجديجن في لواتة فعيّروها بالفقر، فكتبت بذلك إلى قومها ورئيسهم يومئذ عنان فتذامروا واستمدوا من وراءهم من زناتة فأمدوهم بعلي بن محمد اليفرني.

وزحفت مطماطة من الجانب الآخر في مظاهرتهم وعليهم غزانة أميرهم، وزحفوا جميعاً إلى لواتة، فكانت بينهم وقائع وحروب هلك في بعضها علاق، وأزاحو عن الجانب الغربي السرسو، وألجؤوهم إلى الجبل الذي في قبلة تاهرت، المسمى لهذا العهد كركيرة، وكان به قوم من مغراوة فغدروا بهم، وتظاهروا جميعاً عليهم إلى أن أخرجوهم عن آخر مواطنهم في جهة الشرق بجبل يعود فنزلوا من ورائه الجبل المسمى لهذا العهد دارك.

وانتشرت عمائرها بتلوله وما وراءه إلى الجبال المطلة على متيجة، وهم لهذا العهد في عداد القبائل الغارمة. وجبل دارك في أقطاع ولد يعقوب بن موسى مشيخة العطاف من زغبة ومن لواتة أيضاً بطون بالجبال المعروفة بهم قبلة قابس وصفاقس ومنهم بنو مكي رؤساء قابس لهذا العهد.

ومنهم أيضاً بواحات مصر فيما ذكره المسعودي أمة عظيمة بالجيزة التي بينها وبين مصر. وكان لما قرب من هذه القصور شيخهم هنالك بدر بن سالم، وانتقض على الترك وسرّحوا إليه العساكر فاستلحموا كثيراً من قومه، وفر إلى ناحية برقة وهو الآن في جوار العرب بها. ومن زناتة هؤلاء أحياء بنواحي تادلا قرب مراكش من الغرب الأقصى، ولهم هنالك كثرة.ويزعم كثير من الناس أنهم بنواحي جابر من عرب جشم، واختلطوا بهم وصاروا في عدادهم، ومنهم أوزاع مفترقون بمصر وقرى الصعيد شاوية وفلاحين، ومنهم أيضاً بضواحي بجاية قبيلة يعرفون بلواتة، ينزلون بسيط تاكرارت من أعمالها ويعتمرونها، فدناً لمزارعهم ومسارح لأنعامهم، ومشيختهم لهذا العهد في ولد راجح بن صواب منهم، وعليهم للسلطان جباية مفروضة وبعث مضروب. هؤلاء المعروفون من بطون لواتة ولهم شعوب أخرى كثيرة اندرجوا في

البطون وتوزعوا بين القبائل، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن بني فاتن من ضريسة إحدى بطون البرابرة البتر وتصاريف أحوالهم

وهم بطون: مطغرة ولماية وصدّينة وكومية ومديونة ومغيلة ومطماطة وملزوزة ومكناسة ودونة، وكلهم من ولد فاتن بن تمصيت بن ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر، ولهم ظهور من البرابر وأخبار، نسردها بطناً بطناً إلى آخرها.

مطغرة: وهم من أوفر هذه الشعوب، وكانوا خصاصين آهلين. وكان جمهورهم بالمغرب منذ عهد الإسلام ونوبة الفتح وشؤون الردة وحروبها، وكان لهم فيها مقامات. ولما استوسق الإسلام في البربر أجازوا إلى فتح الأندلس وأجازت منهم أمم واستقروا هنالك.ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذ مطغرة هؤلاء برأي الصفرية، وكان شيخهم ميسرة، ويعرف بالحفير مقدّماً فيه.

ولما ولي عبيد الله بن الحبحاب على إفريقية من قبل هشام بن عبد الملك، وأمره أن يمضي إليها من مصر، فقدمها سنة أربع عشرة واستعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى وابنه إسماعيل على السوس وما وراءه، واتصل أمر ولايتهم وساءت سيرتهم في البربر ونقموا عليهم أحوالهم، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات والأفرية العسلية الألوان، وأنواع طرف المغرب، فكانوا يتغالبون في جمعهم ذلك وانتحاله حتى كانت الصرمة من الغنم تستهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه.

فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم، وامتعض لذلك ميسرة الحفيد زعيم مطغرة وحمل البرابرة على الفتك بعمر بن عبد الله عامل طنجة فقتلوه سنة خمس وعشرين وولى ميسرة مكانه عبد الأعلى بن خدع الأفريقي الرومي الأصل، كان من موالي العرب وأهل خارجيتهم، وكان يرى رأي الصفرية، فولاه ميسرة على طنجة، وتقدم إلى السوس فقتله عامله إسماعيل بن عبد الله، واضطرم المغرب ناراً وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد.

وزحف ابن الحبحاب إليه من القيروان في العساكر وعلى مقدمته خالد بن أبي حبيب الفهري، فلقيهم ميسرة في جموع البرابرة فهزم المقدمة واستلحمهم، وقتل خالد.

وتسامع البربر بالأندلس بهذا الخبر فثاروا بعاملهم عقبة بن الحجاج السلولي وعزلوه، وولوا عبد الملك بن قطن الفهري، وبلغ الخبر بذلك إلى هشام بن عبد الملك فسرح كلثوم بن عياض المري في اثني عشر ألفاً من جنود الشام، وولاّه على إفريقية وأدال به من عبيد الله بن الحبحاب.

وزحف كلثوم إلى البرابرة سنة ثلاث وعشرين حتى انتهت مقدمته إلى وادي سبو من أعمال طنجة فلقيه البرابرة هنالك مع ميسرة وقد فحصوا عن أوساط رؤوسهم ونادوا بشعار الخارجية فهزموا مقدمته ثم هزموه وقتلوه.

وكان كيدهم في لقائهم إياه، أن ملأوا الشنان بالحجارة وربطوها بأذناب الخيل تنادي بها فتقعقع الحجارة في شنانها، ومرت بمصاف العساكر من العرب فنفرت خيولهم واختل مصافهم وانجرت عليهم الهزيمة فافترقوا، وذهب بلج مع الطلائع من أهل الشام إلى سبتة كما ذكرناه في أخبارهم. ورجع إلى القيروان أهل مصر وإفريقية، وظهرت الخوارج في كل جهة، واقتطع المغرب عن طاعة الخلفاء إلى أن هلك ميسرة، وقام برئاسة مطغرة من بعده يحيى بن حارث منهم، وكان حليفاً لمحمد بن خرز ومغراوة. ثم كان من بعد ذلك ظهور إدريس بالمغرب، فقدم بها البرابرة وتولى كبرها أوربة منهم كما ذكرناه. وكان على مطغرة يومئذ شيخهم يملول بن عبد الواحد، فانحرف مالك عن إدريس إلى طاعة هارون الرشيد بمداخله إبراهيم بن الأغلب عامل القيروان، فصالحه إدريس وأنبأه بالسلم.

ثم ركد ريح مطغرة من بعد ذلك وافترق جمعهم، وجرّت الدول عليهم أذيالها واندرجوا في عمال البربر الغارمين لهذا العهد بتلول المغرب وصحرائه.

فمنهم ما بين فاس وتلمسان أمم يتصلون بكومية ويدخلون حلفهم، واندرجوا من لدن الدعوة الموحدية منهم ورئاستهم لولد خليفة. كان شيخهم على عهد الموحدين، وبنى لهم حصناً بمواطنهم على ساحل البحر يسمى تاونت. ولما انقرضت دولة بني عبد المؤمن واستولى بنو مرين على المغرب قام هارون بن موسى بن خليفة بدعوة يعقوب بن عبد الحق سلطانهم، وتغلب على ندرومة، وزحف إليه يغمراسن بن زيان فاسترجع ندرومة من يده، وغلبه على تاونت، ثم زحف يعقوب بن عبد الحق إليهم وأخذها من أيديهم وشحنها بالأقوات، واستعمل هارون ورجع إلى المغرب فحدثت هارون نفسه بالاستبداد، فدعا لنفسه معتصماً بذلك

الحصن خمس سنين.

ثم حاصره يغمراسن واستنزله على صلح سنة اثنتين وسبعين وستمائة. ولحق هارون بيعقوب بن عبد الحق. ثم أجاز إلى الجهاد بإذنه واستشهد هنالك. وقام بأمر مطغرة من بعده أخوه تاشفين إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعمائة. واتصلت رئاستهم على عقبه لهذا العهد.

ومن قبائل مطغرة أمة بجبل قبلة فاس معروف بهم. ومنهم أيضاً قبائل كثيرون بنواحي سجلماسة وأكثر أهلها منهم. وربما حدثت بها عصبية من جرّاهم. ومن قبائل مطغرة أيضاً بصحراء المغرب كثيرون نزلوا بقصورها واغترسوا شجرة النخل على طريقة العرب، فمنهم بنوات قبلة سجلماسة إلى تمنطيت آخر عملها، قوم كثيرون موطنون مع غيرهم من أصناف البربر.

ومنهم في قبلة تلمسان وعلى ستة مراحل منها، وهي قصور متقاربة بعضها من بعض ائتلف منها مصر كبير مستبحر بالعمران البدوي، معدود في آحاد الأمصار بالصحراء، ضاحٍ من ظل الملك والدول لبعده في القفر. ورئاسته في بني سيد الملوك منهم. وفي شرقيها وعلى مراحل منها قرى أخرى متتابعة على سمتها متصاعدة قليلاً إلى الجوف، آخرها على مرحلة من قبلة جبل راشد. وهي في مجالات بني عامر من زغبة وأوطانهم من القفر، وقد تملكوها لحط أثقالهم وقضاء حاجاتهم حتى نسبت إليهم في الشهرة. وفي جهة الشرق عن هذه القصور وعلى خمس مراحل منها دامعة متوغلة في القفر تعرف بقليعة.

والآن يعتمرها رهط من مطغرة هؤلاء. وينتهي إليها ظواعن عن الملثمين من أهل الصحراء بعض السنين إذا لفحهم الهجير، يستبردون في تلولها لتوغلها في ناحيتهم. ومن مطغرة هؤلاء أوزاع في أعمال المغرب الأوسط وإفريقية، و لله الخلق جميعاً.

لماية

وهم بطون فاتن بن تمصيت كما ذكرناه إخوة مطغرة، ولهم بطون كثيرة عدّ منها سابق وأصحابه: بنوزكرفا ومزيزة ومليزة بنو مدينين كلهم من لماية. وكانوا ظواعن بإفريقية والمغرب، وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط موطنين بتخومة مما يلي الصحراء.

ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذوا برأي الأباضية ودانوا به وانتحلوه وانتحله جيرانهم من مواطنهم تلك من لواتة وهوارة. وكانوا بأرض السرسو قبلة منداس وزواغة وكانوا في ناحية الغرب عنهم. وكانت مطماطة ومكناسة وزناتة جميعاً في ناحية الجوف والشرق، فكانوا جميعاً على دين الخارجية، وعلى رأي الأباضية منهم. وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح، وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية، وقدم إلى إفريقية مع طوالع الفتح فكان بها، وأخذ بدين الخارجية والأباضية منهم، وكان شيعة لليمنية وحليفاً لهم.

ولما تحزّب الأباضية بناحية طرابلس منكرين على ورفجومة فعلهم في القيروان كما مر، واجتمعوا إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المغافري إمام الأباضية فملكوا طرابلس، ثم ملكوا القيروان، وقتل واليها من ورفجومة عبد الملك بن أبي الجعد، وأثخنوا في ورفجومة وسائر نفزاوة سنة إحدى وأربعين ورجع أبو الخطاب والأباضية الذين معه من زناتة وهوارة وغيرهم بعد أن استخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم.

وبلغ الخبر بفتنة ورفجومة هذه واضطراب الخوارج من البربر بإفريقية والمغرب وتسلقهم على الكرسي للإمارة بالقيروان إلى المنصور أبي جعفر فسرح محمد بن الأشعث الخزاعي في العساكر إلى إفريقية، وقلّده حرب الخوارج بها، فقدمها سنة أربع وأربعين.

ولقيهم أبو الخطاب في جموعه قريباً من طرابلس فأوقع به ابن الأشعث وبقومه. وقتل أبو الخطاب وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكان إمارته في القيروان، فاحتمل أهله وولده ولحق بأباضية المغرب الأوسط من البرابرة الذين ذكرناهم، ونزل على لماية لقديم حلف بينه وبينهم، فاجتمعوا إليه وبايعوا له بالخلافة، وائتمروا في بناء مدينة ينصبون بها كرسي إمارتهم، فشرعوا في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل كزول السياح على تلول منداس، واختطوها على وادي ميناس النابعة منه عيون بالقبلة، ويمر بها وبالبطحاء إلى أن يصب في وادي شلف، فأسسها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن، وولي ابنه عبد الوهاب من بعده، وكان رأس الأباضية.

وزحف سنة ست وتسعين مع هوارة إلى طرابلس وبها عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب من قبل أبيه فحاصره في جموع الأباضية من البربر إلى أن هلك إبراهيم بن الأغلب، واستقدم عبد الله بن الأغلب لإمارته بالقيروان، فصالح عبد الوهاب على أن تكون الضاحية لهم وانصرف إلى نفوسة ولحق عبد الله بالقيروان، وولي عبد الوهاب ابنه ميموناً، وكان رأس الأباضية والصفرية والواصلية، وكان يسلم عليه بالخلافة، وكان أتباعه من الواصلية

وحدهم ثلاثين ألفاً من ظواعن ساكنين بالخيام. ولم يـزل الملك في بني رستم هؤلاء بتاهرت وحاربهم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسـان، وأخـذت بهـا زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة فامتنعوا عليهـم سـائر أيـامهم، إلى أن كان استيلاء أبي عبد الله الشيعي على إفريقية والمغرب سنة ست وتسعين فغلبهم على مدينة تاهرت وابتزهم ملكهم بها.

وبث دعوة عبيد اللـه في أقطـار المغربـين، فـانقرض أمرهـم بظهور هذه الدولة وعهد عروبة بن يوسف الكتامي فـاتح المغـرب للشيعة على تاهرت لأبي حميـد دواس بـن صـولان اللهيصـي في غزاته إلى المغرب سنة ثمان وتسعين فـأثخن في برابرتهـا الأباضيـة من لماية وازداجة ولواتة ومكناسة ومطماطـة، وحملهـم علـى ديـن الرافضة وفسخ بها دين الخارجية حتى استحكم في عقـائدهم. ثـم وليها أيام إسماعيل المنصور بصلاصين بن حبوس.

ثم نزع إلى دعوة الأموية وراء البحر، ولحق بالخير بن محمـد بن خزر صاحب دعوتهم في زناتة. واستعمل المنصور بعـده علـى تاهرت ميسوراً الخصي مـولاه وأحمـد بـن الزجـالي مـن صنائعـه، فزحف إليها حميد والخير وانهزم ميسور. واقتحمـوا تـاهرت عنـوة وتقبضوا على أحمد الزجالي وميسور إلى أن أطلقوهما بعد حين.

ولم تزل تاهرت هذه بعد ثغـراً لأعمـال الشيعة وصنهاجـة سائر أيامهم، وتغلب عليها زناتة مراراً ونازلتهـا عسـاكر بـني أميـة زاحفة في أثر زيري بن عطية أمير المغرب مـن مغـراوة أيـام أجـاز المظفر بن أبي عامر من العدوة إلى حربه. ولم يـزل الشـأن هـذا إلى أن انقرض أمر تلك الدول، وصار أمر المغرب إلى لمتونة. ثـم صـار إلى دولة الموحدين من بعدهم، وملكوا المغربين. وخرج عليهم بنـو غانية بناحية قابس، ولم يزل يحيى منهم يجلب على ثغور الموحديـن وشن الغـارات علـى بسـائط إفريقيـة والمغـرب الأوسـط. وتكـرر دخوله إليها عنوة مرة بعـد أخـرى إلى أن احتمـل سـكانها وخـلا جوها وعفا رسمها لما يناهز عشرون مـن المائـة السـابعة، والأرض لله.

وأما قبائل لماية فـانقرضوا وهلكـوا بهـلاك مصرهـم الـذي اختطوه وحازوه وملكوه سُنة اللـه في عبـاده. وبقيـت فـرق منهـم أوزاعاً في القبائل، ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحريـة تجاه ساحل قابس، وهم بها لهذا العهد. وقـد كـان النصرانيـة مـن أهل صقلية ملكوها على من بها من المسلمين، وهـي قبـائل لمايـة وكتامة مثل: جربة وسدويكس ووضعـوا عليهـم الجزيـة وشـيدوا على ساحل البحر بهـا معقـلا لإمـارتهم سموه القشـتيل. وطـال تمرس العساكر به من حضرة الدولة الحفصيـة بتونـس حتـى كـان افتتاحها أعـوام ثمـان وثلاثـين مـن المائـة الثامنـة في دولـة مولانـا السلطان أبي بكر، وعلـى يـد مخلـوف بـن الكمـاد مـن صنائعـه. واستقرت بها الدعـوة الإسلامية إلى هـذه العهـد. إلا أن القبـائل الذين بها من البربر لم يزالوا يدينـون لديـن الخارجيـة ويتدارسـون مذاهبهم وبينهم مجلدات تشتمل علـى تـآليف لأئمتهـم في قواعـد دياناتهم وأصول عقـائدهم وفـروع مذاهبهـم يتناقلونهـا ويعكفـون على دراستها وقراءتها والله خلقكم وما تعملون.

مطماطة

وهم إخوة مطغرة ولماية من ولد فاتن بن تمصيت الذين مـر ذكرهم، وهم شعوب كثيرة. وعن سابق المطماطي وأصحابـه مـن النسابة أن اسم مطماط مصكاب، ومطماط لقب له وأن شـعوبهم من لوا بن مطماط. وأنه كـان لـه ولـد آخر اسمـه ورنشـيط، ولم يذكروا له عقباً قـالوا: وكـان للـوا أربعـة مـن الولـد: ورماكسـن ويلاغف ووريكول ويليصن. ولم يعقـب بليصـن وأعقـب الثلاثـة الباقون، ومنهم افترقت شعوب مطماطة كلها، فأما ورمـاس فمنـه مصمود ويونس ويفرين، وأما وريكول فكان له مـن الولـد كلثـام ومسيدة وفيدن ولم يعقب مسيده ولا فيدن وكان لكثام عصفراصن وسلiايان فمن سلiايان ووريغـني ووصـدى وقسـطايان وعمـرو، ويقـال لهـؤلاء الخمسـة بنـو مصطلـودة سمـوا بـأمهم. وكـان لعصفراصن يرهاض ويصراصن فمن يصراصن ورتجين ووريكول وجليدا وسـكوم، ويقـال لهـم بـني تليفكتـان سموا بـأمهم وكـان ليزهاض يليت ويصلاسن فمن يليت ورسفلاسن وسـكن ومحمـد ومكديل ودكوال.

ومن يصلاسـن فـان يولـين ويتماسـن وماركسـن ومسـافر وفلوسن ووريجيد،ونافع وعبد الله وغرزاي، وأما يلاغف بن ولوا بن مطماط فكان له من الولد دهيا وثابتة فمن ثابتة ماجرسن وريغ وعجلان ويفام وقرة. وكان لدهيـا ورتجـى ومجلـين. فمـن ورتجـى مقرين وتور وسـكم وعمجميـس. ومـن مجلـين مـاكور وأشكول وكيلان ومذكون وقطارة وأبورة. هذه شعوب مطماطـة كمـا ذكـر نسابة البربر سابق وأصحابه، وهم مفرقون في المواطن، فمنهم مـن نواحي فاس من قبلتها في جبل هنالك معروف بهم مـا بـين فـاس وصفروى، ومنهم بجهات قابـس والبلد المختط على العـين الحاميـة من جهة غربها، منسوب إليهم. ولهذا العهـد يقـال حمـة مطماطـة، ويأتي ذكرها في الدولة الحفصيـة وممـالك إفريقيـة وبقايـاهم أوزاع من القبائل، وكانت مواطن جمهورهـم بتلـول منـداس عنـد جبـل

وانشريس وجبل كزول من نواحي تاهرت. وكان لهم بتلك المواطن أخريات بدولة صنهاجة استفحال وصولة.

وفي فتنة حماد بن بلكين مع باديس بن المنصور مقامات وآثار. وكان كبيرهم يومئذ عزانة، وكانت له مع البرابرة المجاورين له من لواتة وغيرهم حروب وأيام. ولما هلك عزانة قام بأمره في مطماطة ابنه زيري فمكث فيهم أياماً. ثم غلبت صنهاجة على أمره فأجاز البحر إلى العدوة، ونزل على المنصور بن أبي عامر فاصطنعه ونظمه في طبقة الأمراء من البربر الذين كانوا في جملته، واستظهره على أمره فكان من أوجه رجالهم عنده، وأعظمهم قدراً لديه، إلى أن هلك، وأجراه إبنه المظفر من بعده وأخوه عبد الرحمن الناصر على سنن ابيهما في ترفيع مكانه واخلاص ولايته، وكان عند ثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار غائباً مع أبي عامر في غزاة النعمان مع من كان معه من أمراء البربر وعرفائهم. فلما رأوا انتقاض أمره وسوء تدبيره لحقوا بمحمد بن هشام المهدي فكانوا معه إلى أن كانت الفتنة البربرية بالأندلس إلى أن هلك هنالك ولا أدري أي السنين كان مهلكه. وأجاز إلى الأندلس وهلك زيري هنالك، لا أدري أي السنين كان مهلكه. وأجاز إلى الأندلس أيضاً من رجالتهم كهلان بن أبي لوا يصلاصن ونزل على الناصر، وهو من أهل العلم بأنساب البربر. وكان من مشاهيرهم أيضاً النسابة سابق بن سليمان بن حراث بن مولات بن دوفاس وهو كبير نسابة البربر ممن علمناه. وكان منهم أيضاً عبد الله بن إدريس كاتب الخراج لعبيد الله المهدي في آخرين يطول ذكرهم اه.

وهذا ما تلقيناه من أخبار مطماطة. وأما موطن منداس فزعم بعض الإخباريين من البربر ووقفت على كتابه في ذلك أنه سمي بمنداس بن مغر بن أوريغ بن كبوري بن المثني وهو هوار وكأنه والله أعلم يشير إلى أداس بن زحيك الذي يقال إنه ربيب هوار كما يأتي في ذكرهم، إلا أنه اختلط عليه الأمر. وكان لمنداس من الولد شراوة وكلتوم وتكم. قال: ولما استفحل أمر مطماطة وكان شيخهم لهذا العهد إرهاص بن عصفراصن فأخرج منداس من الوطن وغلبه على أمره، واعتمر بنوه موطن منداس ولم يزالوا به اه. كلامه وبقية هؤلاء القوم لهذا العهد بجبل وادشنيش، لحقوا به لما غلبهم بنو توجين من زناتة على منداس وصاروا في عداد قبائل الغارمة والله وارث الأرض ومن عليها.

مغيلة

وهم إخوة مطماطة ولماية كما قلناه، وإخوتهم ملزوزة معدودون منهم. وكذلك دونة وكشاتة ولهم افتراق في الوطن وكان منهم جمهوران: أحدهما بالمغرب الأوسط عند مصب شلف في البحر من ضواحي مازونة، المصر لهذا العهد. ومن ساحلهم أجاز عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ونزل بالمنكب فكان منهم أبو قرة المغيلي الدائن بدين الصفرية من الخوارج ملك أربعين سنة. وكانت بينه وبين أمراء العرب بالقيروان لأول دولة بني العباس حروب ونازل طبنة. وقد قيل إن أبا قرة هذا من بني مطماطة وهذا عندي صحيح. فلذلك أخرت ذكر أخباره إلى أخبار بني يفرن من زناتة.

وكان منهم أيضاً أبو حسان ثار بإفريقية لأول الإسلام، وأبو حاتم يعقوب بن لبيب بن مرين بن يطوفت من ملزوز الثائر مع أبي قرة سنة خمسين ومائة. وتغلب على القيروان فيما ذكر خالد بن خراش وخليفة بن خياط من علمائهم. وذكروا من رؤسائهم أيضاً موسى بن خليد ومليح بن علوان وحسان بن زروال الداخل مع عبد الرحمن. وكان منهم أيضاً دلول بن حماد أميراً في سلطان يعلى بن محمد اليفرني، وهو الذي اختط بلد إيكري على اثني عشر ميلاً من البحر، وهي لهذا العهد خراب لم يبق منها إلا الأطلال ماثلة. ولم يبق من مغيلة بذلك الوطن جمع ولا حي. وكان جمهورهم الآخر بالمغرب الأقصى وهم الذين تولوا مع أوربة وصدينة القيام بدعوة إدريس بن عبد الله لما لحق بالمغرب وأجازه، وحملوا قبائل البربر على طاعته والدخول في أمره. ولم يزالوا على ذلك إلى أن اضمحلت دولة الأدارسة وبقاياهم لهذا العهد بمواطنهم ما بين فاس وصفروي ومكناسة والله وارث الأرض ومن عليها.

مدبونة

وهم من إخوة مغيلة ومطماطة من ولد فاتن كما قلناه، وكانت مواطن جمهورهم بنواحي تلمسان ما بين جبل بني راشد لهذا العهد إلى الجبل المعروف بهم قبلة وجدة، يتقلبون بظواعنهم في ضواحيه وجهاته. وكان بنو يلومي وبنو يفرن من قبلهم يجاورونهم من ناحية المشرق، ومكناسة من ناحية المغرب وكومية وولهاصة من جهة الساحل.

وكان من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود كان أميراً عليهم، وكان مع أبي حاتم وأبي قرة في فتنتهم، وأجاز إلى الأندلس في طوالع الفتح كثير منهم، فكان لهم هنالك استفحال. وخرج هلال بن أبزيا منهم بشنتمرية على عبد الرحمن الداخل

متبعاً شقّيا المكناسي في خروجه. ثم راجع الطاعة فتقبله وكتب لـه على قومه، فكان بشرق الأندلس، وشنتمرية. ثـم خلفه بهـا مـن قومه نابتة بن عامر. ولما تغلب بنو توجين وبنـو راشـد مـن زناتـة على ضواحي المغرب الأوسط وكان مديونة هؤلاء قد قل عددهم وفـل حدهـم فداخلتهـم زناتـة على الضواحي مـن مواطنهـم وتملكوها، وصارت مديونة إلى الحصـون مـن بـلاده بجبـل تاسالـة وجبل وجده المعروف بهم وضربت عليهم المغارم وتمرست بهـم الأيام، فلم يبق منهم هنالك إلا صبابـة محترفون بـالفلح. ومنهـم أيضاً أوزاع في القبائل مندرجون فيهـم. وبنواحي فـاس مـا بينهـا وبين صفروي قبيلة منهم مجاورة لمغيلة، والله يـرث الأرض ومـن عليها.

كومية

وهم المعروفون قديماً بصطفورة أخوة لمايـة ومطغـرة، وهـم من ولد فاتن كما قدمنا، ولهم ثلاث بطون منها تفرعـت شـعوبهم وقبائلهم وهي: ندرومة وصغارة وبنو يلول، فمن ندرومة: نغوطـة وحرسة وفردة وهفانة وفراتة ومن بني يلول: مسيفة ووتيوة وهبيئة وهيوارة ووالغة. ومن صغارة: ماتيلـة وبنـو حياسـة، وكـان منهـم النسابة المشهور هاني بن مصدور بن مريـس بـن نقـوط هـذا هـو المعروف في كتبهم.

وكانت مواطن كومية بالمغرب الأوسـط لسيف البحـر مـن ناحية أرشكول وتلمسان. وكان لهم كثرة موفورة وشوكة مرهوبـة. وصاروا من أعظم قبائل الموحدين لما ظاهروا المصـامدة على أمـر المهـدي وكلمـة توحيـده.وربمـا كـانوا رهـط عبـد المؤمـن صاحبـه وخليفته، فإنه كان من بني عابد أحد بيوتاتهم، وهم عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلي بن مروان بن نصر بن علي بن عامر بـن الأمير بن موسى بن عبد الله بـن يحيى بـن ورنيـغ بـن صطفـور وهكذا نسـبه مؤرخـو دولـة الموحديـن إلى صطفـور. ثـم يقولـون صطفور بن نفـور بـن مطمـاط بـن هـودج بـن قيـس غيـلان بـن مضر.ويذكر بعضهم أنه منقول من خـط أبـي محمـد عبـد الواحـد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن، فأما انتسابهم في قيـس غيـلان فقد ذكرنا أنه غير صحيح. وفي أسماء هذا العمود من نسب عبـد المؤمن ما يدل على أنه مصنوع، إذ هذه الأسماء ليست من أسماء البربر وإنما هي كما تـراه كلهـا عربيـة والقـوم كـانوا مـن الـبرابرة معروفون بينهم، وانتساب مطغور إلى مطماط تخليط أيضـاً فإنهمـا أخوان عند نسابة البربر أجمع، وعبد المؤمن بلا شك منهـم، والله أعلم بما سوى ذلك.

وكان عبد المؤمن هـذا مـن بيوتـاتهم وأشـرافهم وموطنهـم بتاكرارت، وهـو حصـن في الجبـل المطـل علـى هنـين مـن ناحيـة الشرق. ولما نجم عبد المؤمن فيهـم وشـب ارتحـل في طلـب العلـم فنزل بتلمسان، وأخذ عن مشيختها مثل ابن صاحب الصلاة وعبد السلام التونسي وكان فقيهاً صالحاً، وهو ضجيع الشيخ أبي مديـن في تربته. ولما هلك عبد السلام هذا، ولم يحذق تلميذه بعد في فنونه وكان شـيخ عصـره في الفقـه والكـلام. تعطـش التلميـذ بعـده إلى القراءة، وبلغهم خبر الفقيه محمد بن تومرت المهدي، ووصلهم إلى بجاية، وكان يعرف إذ ذاك بالفقيه السوسي ونسبته إلى السوس. ولم يكن لقب المهدي وضع عليه بعده.

وكان في ارتحاله من المشرق إلى المغرب قد أخـذ نفسـه مـن تغيير المنكر الذي شأنه وطريقته نشر العلم وتبين الفتاوى وتدريس الفقه والكلام. وكان له في طريقته الأشعرية إمامة وقـدم راسـخة. وهو الذي أدخلها إلى المغرب كمـا ذكرنـاه، وتشـوق طلبـة العلـم بتلمسان إلى الأخذ عنه وتفاوضوا في ذلك، وندب بعضهـم بعضـاً إلى الرحلة إليه لاستجلابه، وأن يكـون لـه السبق بإتحـاف القطـر بعلومه، فانتدب لها عبد المؤمن على مكانه من صغر السن بنشـاطه للسفر لبداوته، فارتحل إلى بجاية للقائه وترغيبـه في نزولـه تلمسـان فلقيه بملالة، وقد استحكمت بينه وبين العزيز النفرة وبنـو وريـاكل متعصبون على إجارته منهم، ومنعـه مـن إذايتـه والوصـول إليـه. فالقى إليه عبد المؤمن ما عنده من الترغيب، وأدى إليه رسالة طلبة العلم بتلمسان فوعاها، وشأنه غير شأنهم.

وعكـف عبـد المؤمـن عـن التعليـم والأخـذ عنـه في ظعنـه ومقامه. وارتحل إلى المغرب في صحابتـه، وحـذق في العلـم وآثـره الإمام بمزيد الخصوصية والقـرب، بمـا خصـه الله بـه مـن الفهـم والوعي للتعليم، حتى كأنه خالصة الإمام وكبـير صحابتـه. وكـان يؤمله لخلافته لما ظهر عليه من الشواهد المدونة بذلك. ولما اجتازوا في طريقهم إلى المغرب بالثعالبة من موطن العرب الذيـن ذكرنـاهم قبل في نواحي المدينـة، قربـوا إليـه حمـاراً فارهـاً يتخـذه لـه عطيـة لركوبه، فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه: أركبوه الحمـار يركبكم الخيول المسومة. ولما بويع له في بهرغة سـنة خمـس عشـرة وخمسمائة، واتفقت علـى دعوتـه كلمـة المصـامدة وحـاربوا لمتونـة نازلوا مراكش.

وكانت بينهم في بعض أيام منازلتها حرب شديدة هلك فيها من الموحدين الألف، فقيل للإمام إن الموحدين قـد هلكـوا. فقـال لهم: ما فعل عبد المؤمن؟ قالوا هو على جواده الأدهم قد أحسـن

البلاء. فقال ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد ولما احتضر الإمام سنة اثنتين وعشرين عهد بخلافته في أمره لعبد المؤمن، واستراب من العصبية بين المصامدة فكتم موت المهدي وأرجأ أمره حتى صدع الشيخ أبوحفص أمير هنتاتة وكبير المصامدة لمصاهرته. وأمضى عهد الإمام فيه فقام بالأمر واستبد بشياخة الموحدين وخلافة المسلمين.

ونهض سنة سبع وثلاثين إلى فتح المغرب فدانت له غمارة. ثم ارتحل منها إلى الريف ثم إلى بطوية، ثم إلى بطالسة ثم إلى بني يزناسن. ثم إلى مديونة ثم إلى كومية وجيرانهم ولهاصة، وكانوا يلونهم في الكثرة فاشتد عضده بقومه، ودخلوا في أمره وشايعوه على تمكين سلطانه بين الموحدين وخلافته. ولما رجع إلى المغرب وافتتح أمصاره واستولى على مراكش استدعى قومه للرحلة إليها والعسكرة عليه فخف جمهورهم إلى المغرب واستوطن مراكش لحمل سرير الخلافة والقيام بأمر الدعوة والذب عن ثغورهم والمدافعة، فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر الدولة، وكانوا بمكانتهم فاتحة الكتاب وفذلكة الجماعة. وأنفقهم الملك في الفتوح والعساكر وأكلتهم الأقطار في تجهيز الكتائب وتدويخ الممالك، فانقرضوا، وبقي بمواطنهم الأولى بقايا منهم: بنو عابد وهم في عداد القبائل الغارمة قد أثقلت زناتة كاهلهم فحملوا المغرم، والعسف ونهوضهم بالتكاليف. ونظموهم مع جيرانهم ولهاصة في سوم الخسف والذل واقتضاء الخراج بالنكال والعذاب، والله مبدل الأمر ومالك الملك سبحانه.

الخبر عن زواوة وزواغة من بطون ضريسة من البرابر البتر والإلمام ببعض أحوالهم

هؤلاء البطون من بطون البرابرة البتر، من ولد سمكان بن يحيى بن ضري بن زحيك بن مادغيس الأبتر. وأقرب ما يليهم من البرابر زناتة لأن أباهم أجانا هو أخو سمكان ابن أبيه فلذلك كانوا ذوي قربى لهم.

زواوة

فأما زواوة فهم من بطونهم، وقد يقال إن زواوة من قبائل كتامة، ذكر ذلك ابن حزم. ونسابة البربر إنما يعدونهم من ولد سمكان كما قلناه، والصحيح عندي ما ذكره ابن حزم. ويشهد له الموطن ونحلة الشيع مع كتامة لعبيد الله. وعد نسابة البربر لهم بطوناً كثيرة:بنو مجسطة وبنو مليكش وبنو كوفي ومشدالة وبنو زريقف وبنو كوزيت وكرسفينة ووزلجة وخوجة وزكلاوة وبنو مرانة، ويقال: إن بني مليكش من صنهاجة والله أعلم.

ومن قبائلهم المشهورة لهذا العهد: بنو يجرو وبنو مانكلات وبنو يترون وبنو ماني وبنو بوغردان وبنو يتورغ وبنو بو يوسف وبنو عبسي وبنو بو شعيب وبنو صدقة وبنو غبرين وبنو كشطولة، ومواطن زواوة بنواحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة أوطنوا منها جبالاً شاهقة متوعرة تنذعر منها الأبصار ويضل في خمرها السالك مثل: بني غبرين بجبل زيري، وفيه شعراء من شجر الزان يشهد بها لهذا العهد. ومثل بني فراسن وبنى برائن، وجبلهم ما بين بجاية وتدلس وهو أعظم معاقلهم وأمنع حصونهم، فلهم به الاعتزار على الدول والخيار عليها في إعطاء المغرم، مع أن كلهم لهذا العهد قد امتنع لساهمه واعتز على السلطان في أبناء طاعته وقانون مزاجه.

وكانت لهم في دولة صنهاجة مقامات مذكورة في السلم والحرب بما كانوا أولياء لكتامة، وظهر أولهم على أمرهم من أول الدولة، وقتل بادس بن المنصور في إحدى وقائعه بهم، وشيخهم زيري بن أجانا لاتهامه أياه في أمر حماد. ثم اختط بنو حماد بعد ذلك بجاية وتمرسوا بهم، فانقادوا وأذعنوا لهم إلى آخر الدولة، واتصل إذعانهم إلى هذا العهد إلا تمريضاً في المغرم يحملهم عليه الموثقون بمنعة جبالهم. وكانت رئاسة بني يراتن منهم في بني عبد الصمد من بوتاتهم وكانت عند تغلب السلطان أبي الحسن على المغرب الأوسط شيخة عليهم من بني عبد الصمد هؤلاء اسمها شمسي، وكان لها عشرة من الولد فاستفحل شأنها بهم وملكت عليهم أمرهم.

ولما تقبّض السلطان أبو الحسن على ابنه يعقوب المكنى بأبي عبد الرحمن عندما فر من معسكره بمتيجة سنة ثمان أو سبع وثلاثين وسرح في أثره الخيالة فرجعوه واعتقله. ثم قتله من بعد ذلك حسبما يذكر في أخبارهم. لحق حينئذ بني بزاتن هؤلاء خازن من مطبخة فموّه عليهم باسمه وشبّه بتمثاله ودعا إلى الخروج على ابنه بزعمه فشمرت شمسي هذه عزائمها في إجازته وحملت قومها على طاعته. وسرّب السلطان أبو الحسن أمواله في مومها وهما على السلامة فأبته. ثم نمي إليها الخبر بمكره وتمويهه فنبذت إليه عهده، وخرج عنها إلى بلاد العرب كما نذكر بعض ذلك في أخبارهم.وقدمت على السلطان أبي الحسن في وفد من قومها وبعض بنيها فأبلغ السلطان في تكريمها وأحسن صلتها وأجاز الوفد ورجعت بهم إلى موطنها، ولم تزل الرئاسة في هذا البيت.

زواغة

وأما زواغة فلم يتأد إلينا من أخبارهم وتصاريف أحوالهم ما نعمل فيه الأقلام. ولهم ثلاثة بطون وهي: دمّر بن زواغ وبنو واطيل بن زحيك بن زواغ وبنو ماخر بن تيفون من زواغة. ومن دمر بنو سمكان وهم أوزاع في القبائل، ومنهم بنواحي طرابلس مفترقون في براريها ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر. وفي جهات قسطنطينة أيضاً رهط من زواغة، وكذلك بجبال شلف بنو واطيل منهم وبنواحي فاس آخرون. و لله الخلق والأمر.

الخبر عن مكناسة وسائر بطون بني ورصطف وما كان لمكناسة من الدول بالمغرب وأولية ذلك وتصاريفه

كان لورصطف بن يحيى، وهو أخو أجانا بن يحيى وسمكان بن يحيى ثلاثة من البطون، وهم: مكناسة وورتناجية وأوكته. ويقال: مكنة. وبنو ورتناجة أربعة بطون: سدرجة ومكسة وبطالسة وكرنيطة.وزاد سابق وأصحابه في بطونهم: هناطة وفولالة، وكذلك عدوا في بطون مكنة: بني يصلتن وبني تولالين وبني ترين وبني جرتن وبني فوغال. ولمكناسة عندهم أيضاً بطون كثيرة منها: صولات وبنو حوّات وبنو ورفلاس وبنو وريدوس وقنصارة وورنيفة ووريفلتة. وبطون ورصطف كلهم مندرجون في بطون مكناسة، وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن أعلاه بسجلماسة إلى مصبه في البحر، وما بين ذلك من نواحي تازا وتسول. وكانت رئاستهم جميعاً في بني أبي يزول واسمه مجدول بن تافريس بن فراديس بن ونيف بن مكناس. وأجاز منهم إلى العدوة عند الفتح أمم.

وكانت لهم بالأندلس رئاسة وكثرة، وخرج منهم على عبد الرحمن الداخل شعيا بن عبد الواحد سنة إحدى وخمسين واعتصم بشنتمرية ودعا لنفسه منتسباً إلى الحسن بن علي، وتسمّى عبد اللّه ابن محمد وتلقب بالفاطمي، وكانت بينه وبين عبد الرحمن حروب إلى أن غلبه ومحا أثر ضلالته. وكان من رجالتهم لعهد دولة الشيعة مصالة بن حبوس بن منازل اتصل بعبيد اللّه الشيعي، وكان من أعظم قواده وأوليائه، وولاه تاهرت وافتتح له المغرب وفاس وسجلماسة.

ولما هلك أقام أخاه يصلتن بن حبوس مقامه في ولاية تاهرت والمغرب. ثم هلك وأقام ابنه حميداً مقامه فانحرف عن الشيعة، ودعا لعبد الرحمن الناصر، واجتمع مع بني خزر أمراء جراوة على ولاية المروانية ثم أجاز إلى الأندلس وولي الولايات أيام الناصر وابنه الحكم، وولي في بعضها تلمسان بدعوتهم. ثم هلك وأقام ابنه نصل بن حميد وأخوه فياطن بن يصلتن وعلي ابن عمه مصالة في ظل الدولة الأموية إلى أن أجاز المظفر بن أبي عامر إلى المغرب فولي يصل بن حميد سجلماسة كما نذكره. ثم أن رئاسة مكناسة بالعدوة انقسمت في بني أبي يزول، وانقسمت قبائل مكناسة بانقسامها. وصارت رئاسة مكناسة في مواطن سجلماسة وما إليها من بني واسول بن مصلان بن أبي يزول، ورئاسة مكناسة بجهات تازا وتسول وملوية ومليلة لبني أبي العافية بن أبي نائل بن أبي الضحاك بن أبي يزول. ولكل واحد من هذين الفريقين في الإسلام دولة وسلطان وصاروا به في عداد الملوك كما نذكره.

الخبر عن دولة بني واسول ملوك سجلماسة وأعمالها من مكناسة

كان أهل مواطن سجلماسة من مكناسة يدينون لأول الإسلام بدين الصفرية من الخوارج لقنوه عن أئمتهم ورؤوسهم من العرب لما لحقوا بالمغرب وأنتزوا على الأصقاع وماجت أقطار المغرب بفتنة ميسرة. فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم نقضوا طاعة الخلفاء وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج. واختطوا مدينة سجلماسة لأربعين ومائة من الهجرة. ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم. ثم سخطوا أميرهم عيسى ونقموا عليه كثيراً من أحواله فشدّوه كتافاً ووضعوه على قنّة جبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين، واجتمعوا بعده على كبيرهم أبي القاسم سمكو بن مصلان بن أبي يزول. كان أبوه سمقو من حملة العلم، ارتحل إلى المدينة فأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس، ذكره غريب بن حميد في تاريخه، وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد وحمل قومه على طاعته فبايعوه من بعده.

وقاموا بأمره إلى أن هلك سنة سبع وستين ومائة لمنتهى عشر سنين من ولايته، وكان أباضياً صفرياً. وخطب في عمله للمنصور والمهدي من بني العباس. ولما هلك ولوا عليهم ابنه إلياس، وكان يدعى بالوزير. ثم انتقضوا عليه سنة أربع وتسعين ومائة فخلعوه وولوا مكانه أخاه إليسع بن أبي القاسم وكنيته أبو

منصور، فلم يزل أميراً عليهم، وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان أباضياً صفرياً. وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة، وهو الذي أتم بناءها وتشييدها، واختط بها المصانع والقصور، وانتقل إليها آخر المائة الثانية، ودوخ بلاد الصحراء وأخذ الخمس من معادن درعة، وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فانكحه إياها.

ولما هلك سنة ثمان ومائتين ولي بعده ابنه مدرار ولقبه المنتصر، وطال أمر ولايته. وكان له ولدان اسم كل واحد منهما ميمون، أحدهما لأروى بنت عبد الرحمن بن رستم، وقيل إن اسمه أيضاً عبد الرحمن. والآخر لتقي وتنازعا في الاستبداد على أبيه، ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين. وكانت لأبيهما مدرار صاغية إلى ابن أروى فمال معه حتى غلب أخاه فأخذه وأخرجه عن سجلماسة. ولم يلبث أن خلع أباه واستبدّ بأمره، ثم ساءت سيرته في قومه ومدينته، فخلعوه وصار الى درعة وأعاد مدراراً الى أمره. ثم حدث نفسه بإعادة ابنه ميمون ابن الرستمية إلى إمارته بصاغيته إليه فخلعوه ورجعوا ابنه ميموناً بن التقي، وكان يعرف بالأمير.

ومات مدار إثر ذلك سنة ثلاث وخمسين لخمس وأربعين من ملكه، وأقام ابنه ميمون في استبداده إلى أن هلك سنة ثلاث وستين ومائتين وولّي ابنه محمد، وكان أباضياً وتوفي سنة سبعين فولي إليسع بن المنتصر، وقام بأمره ولحق عبيد اللّه الشيعي وابنه وأبو القاسم بسلجماسة لعهده. وأوعز المعتضد إليه في شأنهما، وكان على طاعته، فاستراب بهما وحبسهما إلى أن غلب الشيعي بني الأغلب، وملك رقادة، فزحف إليه لاستخراج عبيد اللّه وابنه من محبسه، وخرج إليه إليسع في قومه مكناسة فهزمه أبو عبيد اللّه الشيعي، واقتحم عليه سجلماسة وقتله سنة ست وتسعين، واستخرج عبيد اللّه وابنه من محبسهما وبايع لهما، وولّى عبيد اللّه المهدي على سجلماسة إبراهيم بن غالب المزاتي من رجالات كتامة، وانصرف إلى إفريقية.

ثم انتقض أمراء سجلماسة على واليهم إبراهيم فقتلوه ومن كان معه من كتامة سنة ثمان وتسعين وبايعوا الفتح بن ميمون الأمير ابن مدرار ولقبه واسول، وميمون ليس هو ابن التقي الذي تقدم ذكره وكان أباضيــاً. وهلك قريباً من ولايته لرأس المائة الثالثة، فولي أخوه أحمد واستقام أمره إلى أن زحف مصالة بن حبوس في جموع كتامة ومكناسة إلى المغرب سنة تسع وثلثمائة، فدوخ المغرب وأخذهم بدعوة صاحبه عبيد اللّه المهدي. وافتتح سجلماسة وتقبض على صاحبها أحمد بن ميمون بن مدرار وولى عليها ابن عمه المعتز بن محمد بن بسادر بن مدرار، فلم يلبث أن استبد المعتز، وهلك سنة إحدى وعشرين قبيل ملك المهدي، وولي من بعده ابنه أبو المنتصر محمد بن المعتز فمكث عشراً.

ثم هلك وولي من بعده ابنه المنتصر سمكو شهرين، وكانت جدته تدبر أمره لصغره. ثم ثار على ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون الأمير وتغلب عليه، وشغب عليه بنو عبيد اللّه لفتنة ابن أبي العافية وتاهرت، ثم بفتنةِ أبي يزيد بعدهما فدعا محمد بن الفتح لنفسه مموهاً بالدعوة لبني العباس. وأخذ بمذاهب أهل السنة ورفض الخارجية، ولقب الشاكر باللّه، واتخذ السكة باسمه ولقبه، وكانت تسمى الدراهم الشاكرية. كذا ذكره ابن حزم وقال فيه:وكان في غاية العدل حتى إذا أفزع له بنو عبيد وحمت الفتنة زحف جوهر الكاتب أيام المعز لدين اللّه معدّ في جموع كتامة وصنهاجة وأوليائهم إلى المغرب سنة سبع وأربعين فغلب على سجلماسة وملكها، وفر محمد بن الفتح إلى حصن تاسكرات على أميال من سجلماسة وأقام به.

ثم دخل سجلماسة متنكراً فعرفه رجل من مطغرة وأنذر به، فتقبض عليه جوهر، وقاده أسيراً إلى القيروان مع أحمد بن بكر صاحب فاس كما نذكره، وقفل إلى القيروان، فلما انتقض المغرب على الشيعة، وفشت بدعة الأمية وأخذ زناتة بطاعة الحكم المستنصر، ثار بسلجماسة قائم من ولد الشاكر وباهى المنتصر باللّه،. ثم وثب عليه أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين فقتله، وقام بالأمر مكانه وتلقب المعتز باللّه.

وأقام على ذلك مدة وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال، وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم إلى أن زحف خزرون بن فلفول من ملوك مغراوة إلى سجلماسة سنة ست وستين وبرز إليه أبو محمد المعتز فهزمه خزرون وقتله، واستولى على بلده وذخيرته، وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح. وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر، فنسب إليه واحتسب له جداً ويمن نقيبة، وعقد لخزرون على سجلماسة، فأقام دعوة هشام بأنحائها فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى، وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع وأديل منهم بمغراوة وبني يفرن حسبما يأتي ذكرهم في دولتهم، والأمر لله وحده وله البقاء سبحانه وتعالى.

الخبر عن دولة بني أبي العافية ملوك تسول من مكناسة وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان مكناسة الظواعن من أهل مواطن ملوية وكرسيف ومليلة وما إليها من التلول بنواحي تازا وتسول، والكل يرجعون في رئاستهم إلى بني أبي باسل بن أبي الضحاك بن أبي يزّول، وهم الذين اختطوا بلد كرسيف ورباط تازا، ولم يزالوا على ذلك من أول الفتح.

وكانت رئاستهم في المائة الثالثة لمصالة بن حبوس وموسى بن أبي العافية بن أبي باسل، واستفحل أمرهم في أيامه وعظم سلطانهم وتغلبوا على قبائل البربر بأنحاء تازا إلى الكائي، وكانت بينهم وبين الأدارسة ملوك المغرب لذلك العهد فتن وحروب. وكانوا يغلبونهم على كثير من ضواحيها لما كان نزل بدولتهم من الهرم. ولما استولى عبيد اللّه على المغرب واستفحل أمره كانوا من أعظم أوليائه وشيعه، وكان مصالة بن حبوس من أكبر قواده لانحياشه إليه، وولاه على مدينة تاهرت والمغرب الأوسط.

ولما زحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلثمائة، واستولى على فاس وعلى سجلماسة وفرغ من شأن المغرب واستنزل يحيى بن إدريس من إمارته بفاس إلى طاعة عبيد اللّه وأبقاه أميراً على فاس، عقد حينئذ لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة على سائر ضواحي المغرب وأمصاره مضافة إلى عمله من قبل تسول وتازا وكرسيف وقفل مصالة إلى القيروان. وقام موسى بن أبي العافية بأمر المغرب، وناقضه يحيى بن إدريس صاحب فاس لما يضطغن له من المظاهرة عليه.

فلما عاود مصالة غزو المغرب سنة تسع أغراه ابن أبي العافية بيحيى بن إدريس، فتقبّض عليه واستصفاه وطرده عن عمله فلحق ببني عمه بالبصرة والريف. وولى مصالة على فاس ريحان الكتامي وقفل إلى القيروان فهلك، وعظم ملك ابن أبي العافية بالمغرب، ثم ثار بفاس سنة ثلاث عشرة وثلثمائة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس، وكان مقداماً شجاعاً ويلقب بالحجّام لطعنه في المحاجم دخل فاس على حين غفلة من أهلها، وقتل ريحان واليها، واجتمع الناس على بيعته. ثم خرج لقتاله ابن أبي العافية فتزاحفوا بفحص أداذ ما بين تازا وفاس، ويعرف لهذا العهد بوادي المطاحن، واشتدت الحرب بينهم، وهلك منهال بن موسى بن أبي العافية في الفتن بمكناسة.

ثم كانت العاقبة لهم وانفضّ عسكر الحسن ورجع مفلولاً إلى فاس، فغدر به عامله على عدوة القرويين حامد بن حمدان الهمداني واستمكن من عاقلة، واستحث ابن أبي العافية للقدوم وأمكنه من البلد، وزحف إلى عدوة الأندلس فملكها وقتل عاملها عبد اللّه بن ثعلة بن محارب بن محمود، وولّى مكانه أخاه محمداً وطالب حامداً بصاحبه الحسن فدس إليه حامد بالفرار تجافياً عن دعاء أهل البيت، وتدلى الحسن من السور فسقط وانكسر ساقه ومات مستخفياً بعدوة الأندلس لثلاث ليال منها، وحذر حامد من سطوة أبي العافية فلحق بالمهدية واستولى ابن أبي العافية على فاس والمغرب أجمع، وأجلى الأدارسة عنهم وألجأهم إلى حصنهم بقلعة حجر النسر مما يلي البصرة، وحاصرهم بها مراراً، ثم جمر عليهم العساكر، وخلف فيهم قائده أبا الفتح فحاصرهم ونهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة بعد أن استخلف على المغرب الأقصى ابنه مدين، وأنزله بعدوة القرويين.

واستعمل على عدوة الأندلس طوال بن أبي يزيد، وعزل به محمد بن ثعلبة. وزحف إلى تلسمان فملكها وغلب عليها صاحبها الحسن بن أبي العيش بن عسى بن إدريس بن محمد بن سليمان من عقب سليمان بن عبد اللّه أخي إدريس الأكبر الداخل إلى المغرب بعده، فغلب موسى بن أبي العافية الحسن على تلمسان وأزعجه عنها إلى مليلة من جزائر ملوية ورجع إلى فاس. وقد كان الخليفة الناصر لما فشت دعوته بالمغرب خاطبه بالمقاربة والوعد، فسارع إلى إجابته ونقض طاعة الشيعة، وخطب للناصر على منابر عمله، فسرح إليه عبيد اللّه المهدي قائده ابن أخي مصالة، وهو حميد بن يصلتن المكناسي قائد تاهرت، فزحف في العساكر إلى حرمة سنة إحدى وعشرين ولقيه موسى بن أبي العافية بفحص مسون فتزاحفوا أياماً، ثم لقيه حميد فهزمه ولحق ابن أبي العافية بتسول فامتنع بها، وأفرج قائده أبو الفتح عن حصن الأدارسة فاتبعوه وهزموه ونهبوا معسكره.

ثم نهض حميد إلى فاس ففر عنها مدين بن موسى إلى ابنه، واستعمل عليها حامد بن حمدان كان في جملته وقفل حميد إلى إفريقية وقد دوخ المغرب. ثم انتقض أهل المغرب على الشيعة بعد مهلك عبيد اللّه، وثار أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامي على حامد بن حمدان فقتله، وبعث برأسه إلى ابن أبي العافية فأرسله إلى الناصر بقرطبة واستولى على المغرب.

وزحف ميسور الخصي قائد أبي القاسم الشيعي إلى المغرب سنة ثلاث وعشرين وخام ابن أبي العافية عن لقائه، واعتصم بحصن لكاي، ونهض ميسور إلى فاس فحاصرها واستنزل أحمد بن

بكر عاملها. ثم تقبض عليه وأشخصه إلى المهدية، وبدر أهل فاس بغدره فامتنعوا وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتي، وحاصرهم ميسور مدة حتى رغبوا إلى السلم، واشترطوا على أنفسهم الطاعة والأتاوة فتقبل ميسور ورضي، وأقر حسن بن قاسم على ولايته بفاس وارتحل إلى حرب ابن أبي العافية فكانت بينهما حروب إلى أن غلبه ميسور فتقبض على ابنه الغوري وغرّبه إلى المهدية، وأجلى موسى بن أبي العافية عن أعمال المغرب إلى نواحي ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء، وقفل إلى القيروان.

ولما مر بأرشكول خرج إليه صاحبها ملاطفاً له بالتحف، وهو إدريس بن إبراهيم من ولد سليمان بن عبد الله أخي إدريس الأكبر، فتقبض عليه واصطلم نعمته، وولى مكانه أبا العيش بن عيسى منهم. وأغذّ السير إلى القيروان سنة أربع وعشرين ورجع موسى بن أبي العافية من الصحراء إلى أعماله بالمغرب، فملكها وولّى على الأندلس أبا يوسف بن محارب الأزدي، وهو الذي مدن عدوة الأندلس، وكانت حصوناً. واحتل موسى بن أبي العافية قلعة كوماط، وخاطب الناصر فبعث إليه مدداً من أسطوله، وزحف إلى تلمسان ففر عنها أبو العيش واعتصم بأرشكول فنازله وغلبه عليها سنة خمس وعشرين ولحق أبو العيش بنكور، واعتصم بالقلعة التي بناها هنالك لنفسه.

ثم زحف ابن أبي العافية إلى مدينة نكور فحاصرها مدة، ثم تغلب عليها وقتل صاحبها عبد البديع بن صالح، وخرب مدينتهم. ثم سرح ابنه مدين في العساكر، فحاصر أبا العباس بالقلعة حتى عقد له السلم عليها. واستفحل أمر ابن أبي العافية في المغرب الأقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط، وبثوا دعوة الأموية في أعمالها، وبعث ابنه مدين بأمره في قومه، وعقد له الناصر على أعمال ابنه بالمغرب واتصلت يده بيد الخير بن محمد كما كان بين آبائهما.

ثم فسد ما بينهما وتزاحفا للحرب، وبعث الناصر قاضيه منذر بن سعد لمشارفة أحوالهما وإصلاح ما بينهما فتم ذلك كما أراده ولحق به سنة خمس وثلاثين أخوه البوري فاراً من عسكر المنصور مع أحمد بن بكر الجذامي عامل فاس بعد أن لحقا بأبي يزيد، فسار أحمد بن أبي بكر إلى فاس وأقام بها متنكراً إلى أن وثب بعاملها حسن بن قاسم اللواتي وتخلّى له عن العمل، وصار البوري إلى أخيه مدين واقتسم أعمال ابنه معه ومع ابنه الآخر منقذ، فكانوا ثلاث الأثافي. وأثار الثوري الناصر سنة خمس وأربعين فعقد الناصر لابنه منصور على عمله وكانت وفاته وهو محاصر لأخيه مدين بفاس، وأجاز أبناء أبو العيش ومنصور إلى الناصر فأجزل لهما الكرامة على سنن أبيهما.

ثم هلك مدين فعقد الناصر لأخيه أبي منقذ على عمله سنة ثم غلب مغراوة على فاس وأعمالها، واستفحل أمرهم بالمغرب وأزاحوا مكناسة عن ضواحيه وأعماله، وساروا إلى مواطنهم وأجاز إسماعيل بن البوري ومحمد بن عبد الله بن مرين إلى الأندلس فنزلوا بها إلى أن جازوا مع واضح أيام المنصور كما مر عندما نقض زيري بن عطية طاغيتهم سنة ست وثمانين، فملك واضح المغرب ورجعهم إلى أعمالهم. وتغلب بلكين بن زيري على المغرب على الأوسط وغلب عليه ملوكه بني خزر من مغراوة فاتصلت يد مكناسة. ولم يزالوا في طاعة بني زيري ومظاهرتهم. وهلك إسماعيل بن البوري في حروب حماد مع باديس بشلف سنة خمس وأربعمائة، وتوارث ملكهم في أعقاب موسى إلى أن ظهرت دولة المرابطين، وغلب يوسف بن تاشفين على أعمال المغرب، فزحف إليهم القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن موسى بن أبي العافية، فاستدعى أهل فاس وصريخ زناتة بعد مهلك معنصرة المغراوي فلقي عساكر المرابطين بوادي صفر فهزمهم وزحف إليه يوسف بن تاشفين من مكانه فحاصر قلعة فازاز فهزم القاسم بن محمد وجموع مكناسة وزناتة ودخل فاس عنوة كما ذكرناه في أخباره

ثم زحف إلى أعمال مكناسة فاقتحم الحصن وقتل القاسم. وفي بعض تواريخ المغرب أن مهلك إبراهيم بن موسى كان سنة خمس وأربعمائة.وولي ابنه عبد الله أبو عبد الرحمن وهلك سنة ثلاثين وولي ابنه محمد وهلك سنة ست وأربعين، وولي ابنه القاسم وهلك بتسول عند اقتحام لمتونة عليه سنة ثلاث وستين وانقرض ملك مكناسة من المغرب بانقراض ملك مغراوة، والأمر لله وحده، وبقي من قبائل مكناسة لهذا العهد بهذه المواطن أفاريق في جبال تازا بعد ما تمرّست بهم الدول وأناخت بساحتهم الأمم. وهم موصوفون بوفور الجباية وقوة الشكيمة، ولهم عناء في مظاهرة الدولة وحقوق عند الحشد والعسكرة. وفيهم مؤن من الخيالة، ومن مكناسة «غير هؤلاء» أوزاع في القبائل لهذا العهد مفرقون في نواحي إفريقية والمغرب الأوسط. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وهذا آخر الكلام في بني ورصطيف، فلنرجع إلى من بقي علينا من البربر وهم زناتة، والله ولي العون وبه المستعان.

أخبار البرانس من البربر

ولنبدأ أولا بالخبر عن هوارة من شعوبهم وذكر بطونهم وتصاريف أحوالهم وافتراق شعوبهم في عمالات إفريقية والمغرب

وهوارة هؤلاء من بطون البرانس باتفاق من نسابة العرب والبربر ولد هوار بن أوريغ بن برنس، إلا ما يزعم بعضهم أنهم من عرب اليمن. تارة يقولون: من عاملة إحدى بطون قضاعة، وتارة يقولون: من ولد المسور بن السكاسك بن واثل بن حمير. وإذا تحروا الصواب: المسور بن السكاسك بن أشريس بن كندة، وينسبونه هكذا: هوار بن أوريغ بن خنون بن المثنى بن المسور. وعند هؤلاء أن هوارة وصنهاجة ولمطة وكزولة وهسكورة يعرف جميعهم بني ينهل وأن المسور جدهم جميعاً وأنه وقع إلى البتر ونزل على بني زحيك بن مادغيس الأبتر. وكانوا أربعة إخوة: لوا وضرا وأداس ونفوس، وأنهم زوجوه أختهم تيسكي العرجاء بنت زحيك فولدت منه المثنى أبا هوارة، وتزوجها بعد المسور عاصيل بن زعزاع أبو صنهاجة ولمطة وكزولة وهكسورة كما يأتي فيما بعد أنهم إخوة المثنى لأمه، وبها عرف جميعهم.

قالوا: وولد المثنى بن المسور خبّوز وولد خبوز بن المثنى ريغ الذي يقال فيه: أوريغ بن برنس، ومنه تفرقت قبائل هوارة. قالوا: إنما سميت هوارة لأن المسور لما جال البلاد ووقع في المغرب قال: لقد تهورنا، هكذا عند بعض نسابه البربر. وعندي، والله أعلم، أن هذا الخبر مصنوع وأن أثر الصنعة بادٍ عليه. ويعضد ذلك أن المحققين ونسابتهم مثل سابق وأصحابه قالوا: إن بطون أداس بن زحيك دخلت كلها في هوارة من أجل أن هوار خلف زحيك على أم أداس، فربُي أداس في حجره وزحيك على ما في الخبر الأول هو جدّ هوار، لأن المثنى جدّه الأعلى- هو ابن تيصكي وهي بنت زحيك، فهو الخامس من زحيك فكيف يخلفه على امرأته. هذا بعيد. والخبر الثاني أصح عند نسابتهم من الأول.

وأما بطون هوارة فكثير وأكثرهم بنو نبه وأوريغ اشتهروا نسبة لشهرته وكبر سنه من بينهم فانتسبوا جميعاً إليه. وكان لأوريغ أربعة من الولد: هوار وهو أكبرهم، ومغر وقلدن وملد، ولكل واحد منهم بطون كثيرة وكلهم ينسبون إلى هوار. فمن بطون مغر ما وس وزمور وكياد وسراي ذكر هذه البطون الأربعة ابن حزم، وزاد سابق المطماطي وأصحابه: ورجين رمنداسة وكركورة ومن بطون قلدن: قمصانة وورصطيف وبيانة. وبل ذكر هذه الأربعة ابن حزم وسابق. ومن بطون ملد مليلة ووسطط وروفل وأسيل ومسارتة ذكرهما ابن حزم، وقال: جميعهم بنو لهان بن ملد، وكذا عند سابق. ويقال: إن ونيفن أيضاً من نهانه.

ومن بطون هوارة بنو كهلان. ويقال: إن مليلة من بطونهم. وعند نسابه البربر من بطونهم غريان وورغة وزكاوة ومسلاتة ومجريس.ويقال إن ونيفن منهم. ومجريس لهذا العهد ينتسبون إلى ونيفن وعند سابق وأصحابه أن بني كهلان وريجن إحدى بطون مغر، وأن من بطون بني كهلان بني كسى وورتاكط ولشوه وهيوارة. وأما بطون أداس بن زحيك بن مادغيس الأمراء الذين دخلوا في هوارة فكثير. فمنهم: هزاعة وترهوتة وشتاتة وأنداوة وهنزونة وأوطيطة وصنبرة هؤلاء باتفاق من ابن حزم وسابق وأصحابه.

وكانت مواطن الجمهور من هوارة هؤلاء، ومن دخل في نسبهم من إخوانهم البرانس والصمغر لأول الفتح بنواحي طرابلس وما يليها من برقة كما ذكره المسعودي والبكري. وكانوا ظواعن وآهلين، ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر وجاوزوا لمطة من قبائل الملثمين فيما يلي بلاد كوكو من السودان تجاه إفريقية، ويعرفون بنسبهم هكارة، قلبت العجمة واوه كافاً أعجمية تخرج بين الكاف العربية والقاف. وكان لهم في الردة وحروبها آثار ومقامات ثم كان لهم في الخارجية والقيام بها ذكر، وخصوصاً بالأباضية منها. وخرج على حنظلة منهم عبد الواحد بن يزيد مع عكاشة الفزاري فكانت بينهما وبين حنظلة حروب شديدة. ثم هزمهما وقتلهما وذلك سنة أربع وعشرين ومائة أيام هشام بن عبد الملك. وخرج على يزيد بن حاتم سنة ست وخمسين ومائة يحيى بن فوناس منهم، واجتمع إليه كثير من قومه وغيرهم.

وزحف إليه قائد طرابلس عبد الله بن السمط الكندي على شاطىء البحر بسواريه من سواحلهم، فانهزم وقتل عامة هوارة. وكان منهم مع عبد الرحمن بن حبيب مجاهد بن مسلم من قواده. ثم أجاز منهم إلى الأندلس مع طارق رجالات مذكورون واستقروا هنالك، وكان من حلفهم بنو عامر بن وهب أمير رندة أيام لمتونة، وبنو ذي النون الذين ملكوها من أيديهم، واستضافوا معها طليلطة وبنو رزين أصحاب السهلة. ثم ثارت هوراة من بعد ذلك على إبراهيم بن الأغلب سنة ست وتسعين ومائة، وحاصروا طرابلس وافتتحوها فخربوها. وتولى كبر ذلك منهم عياض بن وهب، وسرح إبراهيم إليهم ابنه أبا العباس فهزمهم وقتلهم وبنى طرابلس.

وجاءأ هوارة بعبد الوهاب بن رستم من مكان إمارتهم بتاهرت فجاءهم واجتمعوا إليه ومعهم قبائل نفوسة وحاصروا أبا

العباس بن الأغلب بطرابلس إلى أن هلك أبوه إبراهيم بالقيروان، وقد عهد إليه فصالحهم على أن يكون الصحراء لهم. وانصرف عبد الوهاب إلى نفوسه. ثم أصحبو بعد ذلك وغزوا مع الجيوش صقلية، وشهد فتحها منهم زواوة بن نعم الحلفاء. ثم كان لهم مع أبي يزيد النكاري وفي حروبه مقامات مذكورة، اجتمعوا إليه من مواطنهم بجبل أوراس ومرماجنه لما غلب عليه، وأخذ أهلها بدعوته فانحاشوا إلى ولايته وفعلوا الأفاعيل. وكان من أظهرهم في تلك الفتنة بنو كهلان.

ولما هلك أبو يزيد كما نذكره سطا إسماعيل المنصور بهم وأثخن فيهم، وانقطع ذكر بني كهلان. ثم جرت الدول عليهم أذيالها وأناخت بكلاكلها، وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة من كل ناحية، فمنهمُ لهذا العهد بمصر أوزاع متفرقون أوطنوها أكره وعبارة وشاوية، وآخرون موطنون ما بين برقة والاسكندرية يعرفون بالمثالينة، ويظعنون مع الحرة من بطون هيب من سليم بأرض التلول من إفريقية ما بين تبسه إلى مرماجنة إلى باجة، ظواعن صاروا في عداد الناجعة عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل، وكسب الإبل وممارسة الحروب، وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم. قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب، فلا يكاد يفرق بينهم. فأولهم مما يلي تبسة قبيلة وينقش ورئاستهم لهذا العهد في ولد يفرن بن حناش لأولاد سليم بن عبد الواحد بن عسكر بن محمد بن يفرن، ثم لأولاد زيتون بن محمد بن يفرن، ولأولاد دحمان بن فلان بعده. وكانت الرئاسة قبلهم لسارية من بطون ونيفن ومواطنهم ببسائط مرماجنة وتبسة وما إليهما.

ويليهم قبيلة أخرى في الجانب الشرقي منهم يعرفون بقيصرون ورئاستهم في بيت بني مؤمن ما بين ولد زعازع وولد حركات ومواطنهم بفحص أبه وما إليها من نواحي الأربس. وتليهم إلى جانب الشرق قبيلة أخرى منهم يعرفون بنصورة، ورئاستهم في بيت الرمامنة لولد سليمان بن جامع منهم. ويرادفهم في رئاسة نصرة قبيلة وربهامة ومواطنهم ما بين تبسة إلى حامة إلى جبل الزنجار إلى إطار على ساحل تونس وبسائطها. ويجاورهم متساحلين إلى ضواحي باجة قبيلة أخرى من هوارة يعرفون بني سليم، ومعهم بطن من عرب مضر من هذيل بن مدركة بن إلياس. جاؤوا من مواطنهم بالحجاز مع العرب الهلاليين عند دخولهم إلى المغرب واستوطنوا بهذه الناحية من إفريقية، واختلطوا بهوارة وحملوا في عدادهم.

ومعهم أيضاً بطن آخر من بطون رياح من هلال ينتمون إلى عتبة بن مالك بن رياح صاروا في عدادهم وجروا على مجراهم من الظعن والمغرم. ومعهم أيضاً بطن من مرداس بني سليم يعرفون ببني حبيب. ويقولون هو حبيب بن مالك. وهم غارمة مثل سائر هوارة وضواحي إفريقية لهذا العهد معمورة لهؤلاء الظواعن، ومعظمهم من هوارة. وهم أهل بقر وشاء وركوب للخيل وللسلطان بإفريقية، عليهم وظائف من الجباية، وضعها عليهم دهاقين العمال بديوان الخراج، قوانين مقررة وتضرب عليهم مع ذلك البعث في غزوات السلطان بعسكر مفروض يحضر بمعسكر السلطان متى استنفروا لذلك.

ولرؤسائهم آراء ذلك قاطعات ومكان في الدول بين رجالات البدو، ويربطون هوارة بمواطنهم الأولى من نواحي طرابلس، ظواعن وآهلين، توزعتهم العرب من دباب فيما توزعوه من الرعايا وغلبوهم على أمرهم منذ ضحا عملهم من ظل الدولة، فتملكوهم تملك العبيد للجباية منهم والاستكثار منهم في الانتجاع والحرب مثل: ترهونه وورقلة، الظواعن ومجريس الموطنين بزرنزور من ونيفن وهي قرية من قرى طرابلس، ومن هوارة هؤلاء بآخر عمل طرابلس مما يلي بلد سرت وبرقة قبيلة يعرفون بمسراتة لهم كثرة واعتزار، ووضائع العرب عليهم قليلة ويعطونها من عزة. وكثيراً ما ينقلون في سبيل التجارة ببلاد مصر والإسكندرية، وفي بلاد الجريد من إفريقية وبأرض السودان إلى هذا العهد.

واعلم أن في قبلة قابس وطرابلس جبالاً متصلاً بعضها ببعض من المغرب إلى المشرق، فأولها من جانب الغرب جبل دمر يسكنه أمم من لواتة ويتصلون في بسيطة إلى فاس وصفاقس من جانب الغرب، وأمم أخرى من نفوسة من جانب الشرق. وفي سبع طوله سبع مراحل، ويتصل به شرقاً جبل نفوسة تسكنه أمة كبيرة من نفوسة ومغراوة وسدارته، وهو قبلة طرابلس على ثلاث مراحل عنها. وفي طوله سبع مراحل، ويتصل به من جانب الشرق جبل مسلاتة، ويعتمره قبائل هوارة إلى بلد مسراتة ويفضي إلى بلد سرت وبرقة، وهو آخر جبال طرابلس. وكانت هذه الجبال من مواطن هوارة ونفوسة ولواتة. وكانت هنالك مدينة صغيرة بلد نفوسة قبل الفتح. وكانت برقة من مواطن هوارة هؤلاء، ومنهم مكان بني خطاب ملوك زويلة إحدى أمصار برقة، كانت قاعدة ملكهم حتى عرفت بهم، فكان يقال زويلة بن خطاب.

ولما خربت انتقلوا منها إلى فزان من بلاد الصحراء وأوطنوها، وكان لهم بها ملك ودولة حتى إذا جاء قراقوش الغزي الناصري مملوك تقي الدين ابن أخي صلاح الدين كما نذكر في

مكانه عند ذكر الميورقي بن مسوفة وأخباره، وافتتح زلة وأوجلة وافتتح فزان بعدها، وتقبض على عاملها محمد بن خطاب بن يصلتن بن عبد الله بن صنفل بن خطاب آخر ملوكهم، وامتحنه وطالبه بالأموال وبسط عليه العذاب إلى أن هلك، وانقرض أمر بني خطاب هؤلاء الهواريين.

ومن قبائل هوارة هؤلاء بالمغرب أمم كثيرة في مواطن من أعمال تعرف بهم، وظواعن شاوية تنتجع لمسرحها في نواحيها، وقد صاروا عبيداً للمغارم في كل ناحية. وذهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات بسبب الكثرة، وصاروا إلى الافتراق في الأودية بسبب القلة والله مالك الأمور. ومن أشهرهم بالمغرب الأوسط أهل الجبل المطل على البطحاء، وهو مشهور باسم هوراة وفيه من مسراتة وغيرهم من بطونهم، ويعرف رؤساؤهم من بني إسحاق. وكان الجبل من قبلهم فيما زعموا لبني يلومين، فلما انقرضوا صار إليه هوارة وأوطنوه، وكانت رئاستهم في بني عبد العزيز منهم. ثم ظهر من بني عمّهم رجل اسمه إسحاق واستعمله ملوك القلعة، وصارت رئاستهم في عقبة بني إسحاق واختط كبيرهم محمد بن إسحاق القلعة المنسوبة إليهم.

وورث رئاسته فيهم أخوه حيون وصارت في عقبه. واتصلوا بالسلطان أيام ملك بني عبد الواد على المغرب الأوسط، وانتظموا في شرائعهم، واستعمل أبو تاشفين من ملوكهم يعقوب بن يوسف بن حيون قائداً على بني توجين عندما غلبهم على أمرهم، المغارم عليهم، فقام بها أحسن قيام دوخ بلادهم، وأذل من عزهم. وبعد أن غلب بنو مرين بني عبد الواد على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن عبد الرحمن بن يعقوب على قبيلة هؤلاء. ثم استعمل بعده عمه عبد الرحمن، ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن بن يوسف. ثم تلاشى هذا القبيل وخف ساكن الجبل بما اضطهدتهم دولة بني عبد الواد، وأجحفت بهم في الظلامات. وانقرض بيت بني إسحاق، والأمر على ذلك لهذا العهد، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن أزداجة ومسطاسه وعجيسة من بطون البرانس ووصف أحوالهم

أما أزداجة ويعرفون أيضاً وزداجة فمن بطون البرانس، وكثير من نسابة البربر يعدونهم في بطون زناتة. وقد يقال إن أزداجة من زناتة ووزداجة من هوارة، وأنهما بطنان مفترقان وكان لهم وفور وكثرة. وكانت مواطنهم بالمغرب الأوسط بناحية وهران، وكان لهم اعتزاز وآثار في الفتن والحروب. ومسطاسة مندرجون معهم فيقال: إنهم من عداد بطونهم، ويقال: إنهم إخوة مسطاس أخي وزداج والله أعلم.

وكان من رجالتهم المذكورين شجرة بن عبد الكريم المسطاسي وأبو دليم بن خطاب. وأجاز أبو دليم إلى الأندلس من ساحل تلمسان، وكان لبنيه بها ذكر وفي فقهاء قرطبة مكان. وكان من بطون أزداجة بنو مسقن وكانوا يجاورون وهران ونزل مرس وهران من رجال الدولة الأموية محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون، فداخلوا بني مسكن وملكوا وهران سبع سنين مقيمين فيها للدعوة الأموية، فلما ظهرت دعوة الشيعة وملك عبيد الله المهدي تاهرت وولى عليها داوس بن صولات اللّهيصي من كتامة، وأخذت البرابرة بدعوتهم أوعز دواس بحصار وهران فزحفوا إليها سنة سبع وتسعين وداخلوا بني مسكن في ذلك فأجابوهم، وفر محمد بن أبي عون فلحق بدوّاس بن صولات واستبيحت وهران وأضرمت ناراً.

ثم جدّد بناءها دواس وأعاد محمد بن أبي عون إلى ولايتها، فعادت أحسن ما كانت، وأمراء تلمسان لذلك العهد من الأدراسة بنو أحمد بن محمد بن سليمان، وسليمان أخو إدريس الأكبر كما ذكرناه. وكانوا يقيمون دعوة الأموية لذلك العهد. ثم ولي على تاهرت أيام أبي القاسم بن عبد الله أبا ملك يغمراسن بن أبي سمحة، وانتقض عليه البربر فحاصروه عند زحف ابن أبي العافية إلى المغرب الأوسط بدعوة المروانية، وكان ممن أخذ بها محمد بن أبي عون صاحب وهران وسرح أبو القاسم ميسوراً فولاه إلى المغرب وأتاه محمد بن عون بطاعته فقبلها وأقره على عمله، ثم نكث محمد بن عون عند منصرف ميسور من المغرب وراجع طاعته المروانية.

ثم كان شأن أبي يزيد وانتقاض سائر البرابرة على العبيديين، واستفحل أمر زناتة وأخذوا بدعوة المروانيين. وكان الناصر عقد ليعلى بن أبي محمد اليفرني على المغرب، فخاطبه بمراوغة محمد بن أبي عون وقبائل أزداجة في الطاعة للعداوة وبين القبيلتين بالمجاورة، وزحف إلى أزداجة فحصرهم بجبل كيدرة، ثم تغلب عليهم واستأصلهم وفرق جماعتهم وذلك لسنة ثلاث وأربعين وثلثمائة، ثم زحف إلى وهران ونازلها، ثم افتتحها عنوة وأضرمها ناراً واستلحم أزداجة ولحق رئاستهم بالأندلس فكانوا بها، وكان منهم خزرون بن محمد من كبار أصحاب المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر وأجاز إلى المغرب وبقي ازداجة بعد ذلك على حال من الهضيمة والمذلة وانتظموا في عداد المغارم من

القبائل.

وأما العجيسة: وهم من بطون البرانس من ولد عجيسة من برنس ومدلول هذا الاسم البطن، فإن البربر يسمون البطن بلغتهم عدّس بالدال المشددة، فلما عربتها العرب قلبت دالها جيماً مخففة، وكان لهم بين البربر كثرة وظهور، وكانوا مجاورين في بطونهم لصنهاجة، وبقاياهم لهذا العهد في ضواحي تونس والجبال المطلة على المسيلة، وكانت منهم من بطون يسكنون جبل القلعة. وكان لهم في فتنة أبي يزيد أثر. ولما هزمهم المنصور لجأ إليهم واعتصم بقلعة كتامة من حصونهم حتى اقتحم عليه. ثم بادر حماد بن بلكين من بعد ذلك مكاناً لبناء مدينة فاختطها بينهم. ونزلها ووسع خطتها واستبحر عمرانها. وكانت حاضرة الملك آل حماد فأخلفت هذه المدينة من جدة عجيسة لم تمرست بهم، وخضدت من شوكتهم وراموا كيد القلعة مراراً، وأجلبوا على ملوكها بالأعياص منهم فاستلحمهم السيف، ثم هلكوا وهلكت القلعة من بعدهم وورثت مواطنهم بذلك الجبل عياض من أفاريق الرعب الهلاليين وسمي الجبل بهم، وفي القبائل بالمغرب كثير من عجيسة هؤلاء مفترقون فيهم والله أعلم.

الخبر عن أوربة من بطون البرانس وما كان لهم من الردة والثورة وما صار لهم من الدعاء لإدريس الأكبر

كانت البطون التي فيها الكثرة والغلب من هؤلاء البربر البتر كلهم لعهد الفتح أوربة وهوارة وصنهاجة من البرانس، ونفوسة وزناتة ومطغرة ونفراوة من البتر، وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء بما كانوا أكثر عدداً وأشد بأساً وقوة، وهم من ولد أورب بن برنس، وهم بطون كثيرة، فمنهم بجاية ونفاسة ونعجة وزهكوجة ومزياتة ورغيوتة وديقوسة. وكان أميرهم بين يدي الفتح سكرديد بن زوغي بن بارزت بن برزيات ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة، وأدرك الفتح الإسلامي ومات سنة إحدى وسبعين، وولي عليهم من بعده كسيلة بن لزم الأوربي فكان أميراً على البرانس كلهم، ولما نزل ابو المهاجر تلمسان سنة خمس وخمسين كان كسيلة بن لزم مرتاداً بالمغرب الأقصى في جموعه من أوربة وغيرهم، فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم، واستنقذه وأحسن إليه وصحبه.

وقدم عقبة في الولاية الثانية أيام يزيد سنة إثنتين وستين فاضطغن عليه صحابته لأبي المهاجر وتقدم أبو المهاجر في اصطناعه فلم يقبل وزحف إلى المغرب وعلى مقدمته زهير ابن قيس البلوي فدوخه. ولقيه ملوك البربر ومن انضم إليه من الفرنجة بالزاب وتاهرت فهزمهم واستباحهم، وأذعن له بليان أمير غمارة ولاطفه وهاداه، ودله على عورات البرابرة وراءه أبو ليلة والسوس وما والاهما من مجالات الملثمين فغنم وسبى، وانتهى إلى ساحل البحر وقفل ظافراً.

وكان في غزاته تلك يستهين كسيلة ويستخف به وهو في اعتقاله. وأمره يوماً بسلخ شاة بين يديه فدفعها إلى غلمانه، وأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه، وانتهز فقام إليها كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة يمسح بلحيته والعرب يقولون ما هذا يا بربري؟ فيقول: هذا جيد للشعر فيقول لهم شيخ منهم: إن البربري يتوعدكم. وبلغ ذلك أبا المهاجر فنهىعقبة عنه، وقال: كان رسول الله ﷺ يستألف جبابرة العرب، وأنت تعمد إلى رجل جبّار في قومه بدار عزّة قريب عهد بالشرك فتفسد قلبه وأشار عليه بأن يوثق منه. وخوفه فتكه فتهاون عقبة بقوله.

فلما قفل عن غزاته وانتهى إلى طبنة صرف العساكر إلى القيروان أفواجاً ثقة بما دوخ من البلاد، وأذلّ من البربر حتى بقي في القليل من الناس، وسار إلى تهودة أو بادس لينزل بها الحامية. فلما نظر إليه الفرنجة طمعوا فيه وراسلوا كسيلة بن لزم ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها، وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر، واتبعوا عقبة وأصحابه رضي الله عنه إذا غشوه بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم، ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه رضي الله عنهم ولم يفلت منهم أحد. وكانوا زهاء ثلثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد، وفيهم أبو المهاجر كان أصحبه في اعتقاله، فأبلى رضي الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن، وأجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد.

وقد جعل على قبر عقبة أسنمة ثم جصص، واتخذ عليه مسجد عرف باسمه وهو في عدد المزارات ومظان البركة، بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه، وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن أويس الأنصاري ويزيد بن خلف القيسي ونفر معهم ففداهم ابن مصاد صاحب قفصة. وكان زهير بن قيس البلوي بالقيروان وبلغه الخبر فخرج هارباً وارتحل بالمسلمين ونزل برقة وأقام بها ينتظر المدد من الخلفاء.

واجتمع إلى كسيلة جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة، وزحف الى القيروان فخرج العرب منها ولحق بزهير بن قيس وبقي بها أصحاب الذراري والأثقال فأمّنهم ودخل القيروان وأقام أميراً على إفريقية ومن بقي بها من العرب خمس سنين.

وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية وفتنة الضحاك بن قيس مع المروانية بمرج راهط وحروب آل الزبير فاضطراب أمر الخلافة بعض الشيء، واضطرم المغرب ناراً وفشت الردة في زناتة والبرانس. ثم استقل عبد الملك بن مروان من بعد ذلك بالخلافة وأذهب بالمشرق آثار الفتنة. وكان زهير بن قيس مقيماً ببرقة منذ مهلك عقبة، فبعث إليه بالمدد وولاه حرب البرابرة والثأر بدم عقبة. فزحف إليها في آلاف من العرب سنة سبع وستين. وجمع كسيلة البرانس وسائل البربر، ولقيه بجيش من نواحي القيروان واشتد القتال بين الفريقين.

ثم انهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم وأتبعهم العرب إلى مرماجنة ثم إلى ملوية وذل البربر ولجأوا إلى القلاع والحصون وخضت شوكة أوربة من بينهم واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى فلم يكن بعدها لهم ذكر.واستولوا على مدينة وليلى بالمغرب كانت ما بين موضع فاس ومكناسة بجانب جبل زرهون وأقازا على ذلك، والجيوش من القيروان تدوخ المغرب مرة بعد أخرى إلى أن خرج محمد بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن بن علي أيام المنصور وقتل بالمدينة سنة خمس وأربعين. ثم خرج بعده ابن عمه حسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنى بن الحسن السبط أيام الهادي وقتل بفخ على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع وستين ومائة، واستلحم كثير من أهل بيته وفر إدريس بن عبد اللّه إلى المغرب ونزل على أوربة سنة اثنتين وسبعين وأميرهم يومئذ بو ليلى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد منهم فأجاره وجمع البرابر على دعوته.واجتمعت عليه زواغة ولواتة وسراتة وغمات ونفرة ومكناسة وغمارة وكافة برابرة المغرب، فبايعوه وائتمروا بأمره، وتم له الملك والسلطان بالمغرب. وكانت له الدولة التي ورثها أعقابه إلى حين انقراضها، كما ذكرنا في دولة الفاطميين واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن كتامة من بطون البرانس وما كان لهم من العز والظهور على القبائل وكيف تناولوا الملك من أيدي الأغالبة بدعوة الشيعة

هذا القبيل من قبائل البربر بالمغرب وأشدهم بأساً وقوة، وأطولهم باعاً في الملك عند نسابة البربر من ولد كتام بن برنس، ويقال: كتم ونسابة العرب يقولون إنهم من حمير ذكر ذلك ابن الكلبي والطبري. وأول ملوكهم أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة، وهو الذي افتتح إفريقية وبه سميت، وقتل ملكها جرجير، وسمى البربر بهذا الاسم كما ذكرناه. ويقال: أقام في البربر من حمير صنهاجة وكتامة فهم إلى اليوم فيهم، وتشعبوا في المغرب وانبثوا في نواحيه إلا أن جمهورهم كانوا لأول الملة بعد تهييج الردة وطيخة تلك الفتن، موطنين بأرياف قسطنطينة إلى تخوم بجاية غرباً إلى جبل أوراس من ناحية القبلة. وكانت بتلك المواطن بلاد مذكورة أكثرها لهم، وبين ديارهم ومجالات تقلبهم مثل أبكجان وسطيف وباغاية، ونقاوس ويلزمه ويتكست وميلة وقسطنطينة والسيكرة والقل وجيجل من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر ما بين بجاية وبونة.

وكانت بطونهم كثيرة يجمعها كلها غرسن ويسودة ابنا كتم بن برنس فمن: يسودة فلاسة ودنهاجة ومتوسة ووريسن كلهم بنو يسودة بن كتم وإلى دنهاجة ينسب قصور كتامة بالمغرب لهذا العهد. ومن غرسن: مصالة وقلان وما وطن ومعاذ بنو غرسن بن كتم، ولهيصة وجيملة ومسالته بنو يناوة بن غرسن، وإجانة وغسمان وأوفاس بنو ينطاسن بن غرسن، وملوسة من أيان بن غرسن. ومن ملوسة هؤلاء بنو زلدوي أهل الجبل المطل على قسطنطينة لهذا العهد. وبعد البرابرة من كتامة بنو يستيتن وهشتيوة ومصالة وبني قنسيلة. وعدّ ابن حزم منهم زواوة بجميع بطونهم وهو الحق على ما تقدم.

وكان من هذه البطون بالمغرب الأقصى كثير منتدبون عن مواطنهم، وهم بها إلى اليوم. ولم يزالوا بهذه المواطن وعلى هذه الحالة من لدن ظهور الملة وملك المغرب إلى دولة الأغالبة. ولم تكن الدولة تسومهم بهضيمة ولا ينالهم تعسف لاعتزازهم بكثرة جموعهم كما ذكره ابن الرقيق في تاريخه إلى أن كان من قيامهم في دعوة الشيعة ما ذكرناه في دولتهم عند ذكر دولة الفاطميين إثر دولة بني العباس، فانظره هنالك وتصفحه تجد تفصيله. ولما صار

لهم الملك بالمغرب زحفوا إلى المشرق فملكوا الإسكندرية ومصر والشام واختطوا القاهرة أعظم الأمصار بمصر، وارتحل المعز رابع خلفائهم فنزلها وارتحل معه كتامة على قبائلهم واستفحلت الدولة هنالك وهلكوا في ترفها وبذخها.

وبقي في مواطنهم الأولى بجبل أوراس وجوانبه من البسائط بقايا من قبائلهم على أسمائها وألقابها والآخرون بغير لقبهم وكلهم رعايا معبدون للمغارم إلا من اعتصم بفتنة الجبل مثل بني زلدوي بجبالهم وأهل جبال جيجل وزواوة،وزواوة أيضاً في جبالهم. وأما البسائط فأشهر من فيها منهم سدويكش ورئاستهم في أولاد سواق ولا أدري إلى من يرجعون من قبائل كتامة المسمين في هذا الكتاب. إلا أنهم منهم باتفاق من أهل الأخبار، ونحن الآن ذاكرون ما عرفناه من أخبارهم المتأخرة بعد دولة كتامة والله تعالى ولي العون.

الخبر عن سدويكش ومن إليهم من بقايا كتامة في مواطنهم

هذا الحي لهذا العهد وما قبله من العصور يعرفون بسدويكش وديارهم في مواطن كتامة ما بين قسطنطينة وبجاية في البسائط منها، ولهم بطون كثيرة مثل سيلين وطرسون وطرغيان ومووليت وبني فتنة وبني لمائي وكايارة وبني زغلان والبوزة وبني مزوان ووراكسن وسكرال وبني عيّاد. وفيهم من لماية ومكلاتة وريغة والرئاسة على جميعهم في بطن منهم يعرفون أولاد سواق لهم جمع وقوة وعدة. وكان جميع هذه البطون وعيالهم غارمة فيمتطون الخيل ويسكنون الخيام ويظعنون على الإبل والبقر ولهم مع الدول في ذلك الوطن استقامة. وهذا شأن القبائل الأعراب من العرب لهذا العهد.وهم ينتفون من نسب كتامة ويفرون منه لما وقع منذ أربعمائة سنة من النكير على كتامة بانتحال الرافضة وعداوة الدول بعدهم، فيتفادون بالانتساب إليهم. وربما انتسبوا في سليم من قبائل مضر وليس ذلك بصحيح، وإنما هم من بطون كتامة وقد ذكرهم مؤرخو صنهاجة بهذا النسب ويشهد لذلك الموطن الذي استوطنوه من إفريقية.

ويذكر نسابتهم ومؤرخوهم أن موطن أولاد سواق منهم كان في قلاع بني بو خصرة من نواحي قسطنطينة ومنه انتقلوا وانتشروا في سائر تلك الجهات. وأولاد سواق بطنان وهم: أولاد علاوة بن سواق وأولاد يوسف بن حمو بن سواق. فأما أولاد علاوة فكانت الرئاسة على قبائل سدويكش لهم فيما سمعناه من مشيختنا، وأن ذلك كان لعهد دولة الموحدين وكان منهم علي بن علاوة وبعده ابنه طلحة بن علي وبعده أخوه يحيى بن علي وبعده أخوهما منديل بن علي وعزل تاريز ابن أخيه طلحة.

لما بويع السلطان أبو يحيى بقسطنطينة سنة عشر من هذه المائة وقع من تاريز انحراف عن طاعته واعتلق بطاعة ابن الخلوف ببجاية، فقدم عوضاً منه عمه منديل، ثم استبدل منهم أجمعين بأولاد يوسف، فشمروا في طاعته وأبلوا، وغلب السلطان على بجاية وقتل ابن الخلوف فظهر أولاد يوسف وزحموا أولاد علاوة، وأخرجوهم من الوطن فصاروا إلى عياض من أفاريق هلال، وسكنوا في جوارهم بجبلهم الذي أوطنوه المطل على المسيلة، واتصلت الرئاسة على سدويكش في أولاد يوسف وهم لهذا العهد أربع قبائل: بنو محمد بن يوسف وبنو المهدي وبنو إبراهيم بن يوسف والعزيزيون وهم بنو منديل، وظافر وجري وسيد الملوك والعباس وعيسى، والستة أولاد يوسف وهم أشقاء، وأمهم تاعزيزت فنسبوا إليها، وأولاد محمد والعزيزيون يوطنون بنواحي بجاية وأولاد المهدي وإبراهيم بنواحي قسطنطينة.

وما زالت الرئاسة في هذه القبائل الأربع تجتمع تارة في بعضهم وتفترق أخرى إلى هذا العهد، وكانت الأخرى دولة مولانا السلطان أبي يحيى اجتمعت رئاستهم لعبد الكريم بن منديل بن عيسى من العزيزيين.

ثم افترقت واستقل كل بطن من هؤلاء الأربعة برئاسة، وأولاد علاوة في خلال هذا كله بجبل عياض. ولما تغلب بنو مرين على إفريقية أنكر السلطان أبو عنان أولاد يوسف ورماهم بالميل إلى الموحدين، وصرف الرئاسة على سدويكش إلى مهنا بن تاريز بن طلحة من أولاد علاوة فلم يتم له ذلك، وقتله أولاد يوسف، ورجع أولاد علاوة إلى مكانهم من جبل عياض.

وكان رئيسهم لهذه العصور عدوان بن عبد العزيز بن زرّوق بن علي بن علاوة، وهلك ولم تجتمع رئاستهم بعده لأحد. وفي بطون سدويكش هؤلاء بطن مرادف أولاد سواق في الرئاسة على بعض أحيائهم وهم بنو سكين، ومواطنهم في جوار لواتة بجبل تابور وما إليه من نواحي بجاية، ورئاستهم في بني موسى بن ثابر منهم، أدركنا ابنه صخر بن موسى واختصه السلطان أبو يحيى بالرئاسة على قومه، وكان له مقامات في خدمته، ثم عرف بعده في الوفاء ابنه الأمير أبو حفص فلم يزل معه إلى أن وقع به بنو مرين بناحية قابس، وجيء به مع أسرى الوقيعة فقطعه السلطان أبو الحسن من خلاف، وهلك بعد ذلك وقام برئاسته ابنه عبد الله وكان له فيها وفي خدمة السلطان ببجاية شأن إلى أن هلك لأعوام

ثمانين، وولي ابنه محمد من بعده، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن بني ثابت أهل الجبل المطل على قسطنطينة من بقايا كتامة

ومن بطون كتامة وقبائلهم أهل الجبل المطل على القل ما بينه وبين قسطنطينة المعروف برئاسة أولاد ثابت بن حسن بن أبي بكر من بني تليلان. ويقال: إن أبا بكر هذا الجد هو الذي فرض المغرم على أهل هذا الجبل لأيام الموحدين، ولم يكن قبل ذلك عليه مغرم. فلما انقرض ملك صنهاجة وغلب الموحدون على إفريقية وفد أبو بكر هذا على الخليفة بمراكش ونجع بالطاعة والانقياد، وتقرب إليه بفرض المغرم على قبيلة بالجبل، وكان لثابت هذا من الولد: علي وحسن وسلطان وإبراهيم، كلهم رأسوا بالجبل، وأما حسن منهم فحجب السلطان أبا يحيى لأول دولته وفي عنيته، ولابن عمر لدولة طرابلس أعوام إحدى عشر وسبعمائة كما نذكره. فلما تملك السلطان بجاية وقتل ابن خلوف ورجع ابن عمر من تونس إلى حجابته، وجد حسن بن ثابت معسكراً بفرجيوة لانقضاء مغارم الوطن، فبعث إليه من قتله. وكان آخرهم رئاسة بالجبل علي، أدرك دولة بني مرين بإفريقية، وولي بعده ابن عبد الرحمن ووفد على السلطان أبي عنان بفاس.

ولما استجد مولانا السلطان أبو العباس دولته بإفريقية استولى عليهم ومحا أثر مشيختهم ورئاستهم وصيرهم من عداد جنده وحاشيته.واستعمل في الجبل عماله وهو جبل مطاوع وجبايته مؤداة لصولته وجواره للعسكر بقسطنطينة. ومن بقايا كتامة أيضاً قبائل أخرى بناحية تدلس في هضابة مكتنفة بها وهم في عداد القبائل الغارمة، وبالمغرب الأقصى منهم قبيلة من بني يستيتن بجبل قبلة جبل يزناسن، وقبيلة أخرى بناحية الهبط مجاورون لنصر بن عبد الكريم وقبائل أخرى بناحية مراكش نزلوا مع صنهاجة هنالك.

ونسب كتامة لهذا العهد بين القبائل المثل السائر في الدولة لما نكرتهم الدول من بعدهم أربعمائة سنة بانتحالهم الرافضة ومذاهبها الكفرية، حتى صار كثير من أهل نسبهم يفرون منه، وينتسبون فيمن سواهم من القبائل فراراً من هجنته، والعزة لله وحده.

الإلمام بذكر زواوة من بطون كتامة

هذا البطن من أكبر بطون البربر ومواطنهم كما تراه محتفة ببجاية إلى تدلس في جبال شاهقة وأوعار متسنّمة، ولهم بطون وشعوب كثيرة، ومواطنهم متصلة بمواطن كتامة هؤلاء، وأكثر الناس جاهلون بنسبهم. وعامة نسابة البربر على أنهم من بني سمكان بن يحيى بن ضريس، وأنهم إخوة زواغة والمحققون من النسابة مثل ابن حزم وأنظاره إنما يعدونهم في بطون كتامة وهو الأصوب. والمواطن أوضح دليل عليه وإلا فأين مواطن زواغة؟ وهي طرابلس بالمغرب الأقصى من مواطن كتامة.

وإنما حمل على الغلط في نسبهم إلى كتامة تصحيف، اسم زوازه بالزاي بعد الواو، وهم إخوة زواغة بلا شك، فصحف هذا القارىء الزاي بالواو فعدّ زواوة إخوان زواغة. ثم استمر التصحيف وجعا في نسب سمكان والله أعلم، وقد مر ذكرهم هنالك مع ذكر زواغة وتعديد بطونهم.

الخبر عن صنهاجة من بطون البرانس وما كان لهم من الظهور والدول في بلاد المغرب والأندلس

هذا القبيل من أوفر قبائل البربر، وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما قبله لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر. وكان لهم في الردة ذكر وفي الخروج على الأمراء شأن تقدم منه في صدر ذكر البرابر، ونذكر منه هنا ما تيسر. وأما ذكر نسبهم فإنهم من ولد صنهاج وهو صناك بالصاد المشمة بالزاي والكاف القريبة من الجيم. إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج، وهو عند نسابة البربر من بطون البرانس من ولد برنس بن بر، وذكر ابن الكلبي والطبري أنهم وكتامة جميعاً من حمير كما تقدم في كتامة، وفيما نقل الطبري في تاريخه أنه صنهاج بن يصوكان بن ميسور بن الفند بن أفريقش بن قيس.

وبعض النسابة يزعم أنه صنهاج بن المثنى بن المنصور بن المصباح بن يحصب بن مالك بن عامر بن حمير الأصغر من سبأ، كذا نقل ابن النحوي من مؤرخي دولتهم وجعله ليحصب. وقد مر ذكره في أنساب حمير وليس كما ذكر والله أعلم. وأما المحققون

من نسابة البربر فيقولون: هو صنهاج بن عاميل بن زعزاع بن كيمتا بن سدر بن مولان بن يصلين بن يبرين بن مكسيلة بن دهيوس بن حلحال بن شرو بن مصرايم بن حام. ويزعمون أن جزول واللمط وهسكور إخوة صنهاج، وأن أمهم الأربعة تصكي وبها يعرفون وهي بنت زحيك بن مادغس، ويقال لها العرجاء، فهذه القبائل الأربعة من القبائل أخوة لأم والله أعلم.

وأما بطون صنهاجة فكثيرة فمنهم: بلكانة وأنجفة وشرطة ولمتونة ومسوفة وكدالة ومندلة وبنو وارث وبنو يتيسن. ومن بطون أنجفة: بنو مزوارت وبنو سليب وفشتالة وملوانة. هكذا يكاد نقل بعض نسابة البربر في كتبهم وذكر آخرون من مؤرخي البربر أن بطونهم تنتهي إلى سبعين بطناً. وذكر ابن الكلبي والطبري أن بلادهم بالصحراء مسيرة ستة أشهر. وكان أعظم قبائل صنهاجة تلكانة وفيهم كان الملك الأول وكانت مواطنهم ما بين المغرب الأوسط وإفريقية، وهم أهل مدر. ومواطن مسوفة ولمتونة وكدالة وشرطة بالصحراء، وهم أهل وبر.

وأما أنجفة فبطونهم مفترقة وهم أكثر بطون صنهاجة. ولصنهاجة ولاية لعلي بن أبي طالب، كما أن لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما، إلا أنا لا نعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها. وكان من مشاهيرهم في الدولة الإسلامية ثابت بن وزريون ثار بإفريقية أيام السفاح عند انقراض الأموية، وعبد الله بن سكرديرلك، وعباد بن صادق من قواد حماد بن بلكين وسليمان بن بطعتان بن عليان أيام باديس بن بلكين. وبنو جدون وزاريني بني حماد، وهو حمدون بن سليمان بن محمد بن علي بن عليم، منهم ميمون بن جميل ابن أخت طارق، مولى عثمان بن عفان صاحب فتح الأندلس في آخرين يطول ذكرهم. وكان الملك في صنهاجة في طبقتين: الطبقة الأولى لملكانة ملوك إفريقية والأندلس، والثانية مسوفة ولمتونة من الملثمين ملوك المغرب المسمون بالمرابطين. ويأتي ذكرهم كلهم إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الطبقة الأولى من صنهاجة وما كان لهم من الملك

كان أهل هذه الطبقة بنو ملكان بن كرت، وكانت مواطنهم بالمسيلة إلى حمرة إلى الجزائر ولمدية ومليناتة من مواطن بني يزيد وحصين والعطاف من زغبة، ومواطن الثعالبة لهذا العهد. وكان معهم بطون كثيرة من صنهاجة أعقابهم هنالك من متنان وأنوغة وبنو عثمان وبنو مزغنة وبنو جعد وملكانة وبطوية وبنو يفرن وبنو خليل، وبعض أعقاب ملكانة بجهات بجاية ونواحيها، وكان التقدم منهم جميعاً لملكانة وكان كبيرهم لعهد الأغالبة مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر، وهو صناك بن واسفاق بن جبريل بن يزيد بن واسلي بن سمليل بن جعفر بن إلياس بن عثمان بن سكاد بن ملكان بن كرت بن صنهاج الأكبر هكذا نسبه ابن النحوي، من مؤرخي الأندلس، وذكر بعض مؤرخي المغرب: أن مناد بن منقوش ملك جانباً من إفريقية والمغرب الأوسط مقيماً لدعوة بني العباس، وراجعاً إلى أمر الأغالبة.

وأقام أمره من بعده ابنه زيري بن مناد، وكان من أعظم ملوك البربر. وكانت بينه وبين مغراوة من زناتة المجاورين له من جهة المغرب الأوسط كما نذكر حروب وفتن طويلة.ولما استوسق الملك للشيعة بإفريقية تحيز إليهم للولاية التي لعلي رضي الله عنه فيهم، وكان من أعظم أوليائهم، واستطال بهم على عدوه من مغراوة فكانوا ظهراً له عليهم، وانحرفت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعة سائر أيامهم وتحيزوا عن المروانيين ملوك العدوة بالأندلس فأقاموا دعوتهم بالمغرب الأوسط والأقصى كما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.ولما كانت فتنة أبي يزيد والتاث أمر العبيديين بالقيروان والمهدية، كان لزيري بن مناد منافرة إلى الخوارج أصحاب أبي يزيد وأعقابهم وتسريب الحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان كما ستراه.

واختط مدينة أشير للتحصن بها سفح الجبل تيطرا لهذا العهد حيث مواطن حصين، وحصّنها بأمر المنصور، وكانت من أعظم مدن المغرب. واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمرانها، ورحل إليها العلماء والتجار من القاصية. وحين نازل أبا إسماعيل المنصور أبا يزيد لقلعة كتامة جاءه زيري في قومه ومن انضم إليه من حشود البربر وعظمت نكايته في العدو وكان الفتح، وصحبه المنصور إلى أن انصرف من المغرب ووصله بصلات سنية. وعقد له على قومه وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة أشير. وعقد له على تاهرت وأعمالها.

ثم اختط ابنه بلكين بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر، ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف، ومدينة لمدونة. وهم بطن من بطون صنهاجة وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط، ولم يزل زيري على ذلك قائماً بدعوة العبيديين منابذاً لمغراوة، واتصلت الفتنة فيهم. ولما نهض جوهر الكاتب إلى المغرب الأقصى أيام معد المعز لدين الله أمره أن يستصحب زيري بن مناد فصحبه إلى المغرب

وظاهره على أمره. ولما قتل يعلى بن محمد اليفرني اتهمه زناتة بالممالأة عليه. ولما نزل جوهر فاس وبها أحمد بن بكر الجذامي، وطال حصاره إياه، كان لزيري في حصارها أعظم العناء، وكان فتحها على يده، سهر ذات ليلة وصعد سورها فكان الفتح.

ولما استمرت الفتنة بين زيري بن مناد ومغراوة ووصلوا أيديهم بالحكم المستنصري وأقاموا دعوة المروانية بالمغرب الأوسط، وشمر محمد بن الخير بن محمد بن خزر لذلك، رماه معدّ بقريعة زيري وقومه من صنهاجة وعقد له على المغرب وأقطع له ما افتتح من أقطاره فنهض زيري في قومه، واحتشد أهل وطنه وقد جمع له محمد بن الخير وزناتة، فسرح إليهم ولده بلكين في مقدمة، وعارضهم قبل استكمالهم التعبئة، فدارت بينهم حرب شديدة بعد العهد بمثلها يومئذ، واختل مصاف مغراوة وزناتة، ولما أيقن محمد بن الخير بالمهلكة وعلم أحيط به مال إلى ناحية من العسكر، وتحامل على سيفه فذبح نفسه وانفض جموع زناتة، واستمرت الهزيمة عليهم سائر يومهم فاستلحموا، ومكثت عظامهم ماثلة بمصارعهم عصوراً.

وهلك فيما زعموا بضعة عشر أميراً منهم، وبعث زيري برؤوسهم إلى المعز بالقيروان فعظم سروره وغمّ لها الحكم المستنصري صاحب الدعوة بما أوهنوا من أمره. واستطال زيري وصنهاجة على بوادي المغرب، وغلب يده على جعفر بن علي صاحب المسيلة والزاب وسما به في الرتب عند الخلافة وتاخمه في العمالة. واستدعى معدّ جعفر بن علي من المسيلة لتولية إفريقية حين اعتزم على الرحيل إلى القاهرة فاستراب مما كانت السعاية كبرت فيه. وبعث معدّ المعزّ بعض مواليه فخافه جعفر على نفسه، وهرب من المسيلة ولحق بمغراوة فاشتملوا عليه، وألقوا بيده زمام أمرهم، وقام فيهم بدعوة الحكم المستنصري. وكانوا أقدم لها إجابة وفاوضهم زيري الحرب قبل استفحالهم فزحف إليهم واقتتلوا قتالاً شديداً.

وكانت على زيري الدبرة وكبا به فرسه، وأجلت الهزيمة عن مصرعه ومصارع حاميته من قومه فحزوا رأسه وبعثوا به الى الحكم المستنصري بقرطبة في وفد أوفدوه عليه من أمرائهم يؤدون الطاعة ويؤكدون البيعة، ويجمعون لقومهم النصرة. وكان مقدم وفدهم يحيى بن علي أخو جعفر هذا كما ذكرناه. وهلك زيري هذا سنة ستين وثلثمائة لست وعشرين سنة من ولايته، ولما وصل خبره إلى ابنه بلكين وهو بأشير نهض إلى زناتة ودارت بينهم حرب شديدة. فانهزمت زناتة وثأر بلكين بأبيه وقومه، واتصل ذلك بالسلطان محمد أثره وعقد له على عمل أبيه بأشير وتيهرت وسائر أعمال المغرب، وضم إليه المسيلة والزاب وسائر عمل جعفر فاستعتب واستفحل أمره واتسعت ولايته وأثخن في البربر أهل الخصوص من مزناتة وهوارة ونفزة وتوغل في المغرب في طلب زناتة فأثخن فيهم، ثم رجع واستقدمه السلطان لولاية إفريقية فقدم سنة إحدى وستين واستبلغ السلطان في تكريمه ونفس ذلك عليه كتامة، ثم نهض السلطان إلى القاهرة واستخلفه كما نذكره. وكان ذلك أول دولة آل زيري بإفريقية والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة آل زيري بن مناد ولاة العبيديين من هذه الطبقة بإفريقية وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم

لما أخذ المعز في الرحلة إلى المشرق وصرف اهتمامه إلى ما يتخلف وراء ظهره من الممالك والعمالات، ونظر فيمن يوليه أمر إفريقية والمغرب ممن له الغناء والاضطلاع، وبه الوثوق من صدق التشيع ورسوخ القدم في دراية الدولة، فعثر اختياره على بلكين بن زيري بن مناد وليّ الدولة منذ عهد سلفه بموجب عهد أخذه من أيدي زناتة أعدائها في سبيل الإباء على الدولة والمظاهرة للدولة.

دولة بلكين بن زيري

فبعث خلف بلكين بن زيري وكان متوغلاً في المغرب في حروب زناتة، وولاه أمر إفريقية والمغرب ما عدا صقلية كانت لبني أبي الحسين الكلبي، وطرابلس لعبد الله بن يخلف الكتامي وسماه يوسف بدلاً من بلكين، وكناه أبا الفتوح، ولقبه سيف الدولة، ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة، وحمله على مقرباته بالمراكب الثقيلة وأنفذ أمره في الجيش والمال وأطلق يده في الأعمال، وأوصاه بثلاث: أن لا يرفع السيف عن البربر، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية، ولا يولي أحداً من أهل بيته. وعهد إليه أن يفتتح أمره بغزو المغرب لحسم دائه، ويقطع علائق الأموية منه. وارتحل يريد القاهرة سنة اثنتين وستين ورجع عنه بلكين من نواحي صفاقس فنزل قصر معدّ بالقيروان، واضطلع بالولاية وأجمع غزو المغرب فغزاه في جموع صنهاجة وخلّف كتامة وارتحل إلى المغرب، وفر أمامه ابن خزر صاحب المغرب الأوسط إلى سجلماسة.

وبلغه خلاف أهل تاهرت وإخراج عامله فرحل إليها وخربها. ثم بلغه أن زناتة اجتمعوا إلى تلمسان فرحل إليهم فهربوا

أمامه. ونزل على تلمسان فحاصرها حتى نزل أهلها على حكمه ونقلهم إلى أشير. وبلغه كتاب معد ينهاه عن التوغل في المغرب فرجع. ولما كان سنة سبع وستين رغب بلكين من الخليفة نزار بن المعز أن يضيف إليه عمل طرابلس وسرت وأجدابية فأجابه إلى ذلك وعقد له عليها، ورحل عنها عبد الله بن يخلف الكتامي وولى بلكين عليه من قبله. ثم ارتحل بلكين إلى المغرب، وفرت أمامه زناتة فملك فاس وسجلماسة وأرض الهبط وطرد منها عمال بني أمية، ثم غزا جموع زناتة بسجلماسة وأوقع بهم وتقبض على ابن خزر أمير مغراوة فقتله، وأجفل ملوكهم أمامه مثل بني يعلى بن محمد اليفرني وبني عطية بن عبد اللّه بن خزر وبني فلفول بن خزر، ويحيى بن علي بن حمدون صاحب البصرة.

وبرزوا جميعاً بقياطينهم إلى سبتة، وبعثوا الصريخ إلى المنصور بن أبي عامر، فخرج بعساكره إلى الجزيرة الخضراء، وأمدهم بمن كان في حضرته من ملوك زناتة ورؤسائهم النازعين إلى خلفاء الأموية بالأندلس بقرطبة بالمقام في سبيل الطاعة، واغتنام فضل الرباط بثغور المسلمين في إيالة الخلفاء، واجتمعت منهم وراء البحر أمم مع ما انضم إليهم من العساكر والحشود، وأجازهم البحر لقصر جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة، وعقد له على حرب بلكين وأمده بمائة حمل من المال، فتعاقد ملوك زناتة واجتمعوا إليه، وضربوا مصاف القتال بظاهر سبتة. وهرع إليهم المدد من الجزيرة من عساكر المنصور، وكادوا يخوضون البحر من فراض الزقاق إلى مظاهرة أوليائهم من زناتة. ووصل بلكين إلى تيطاور وتسنم هضابها، وقطع شعراءها لنهج المسالك والطرق لعسكره، حتى أطل على معسكرهم بظاهر سبتة فرأى ما هاله واستيقن امتناعهم.

ويقال: إنه لما عاين سبتة من مستشرفه، ورأى اتصال المدد من العدوة إلى معسكرهم بها قال: هذه أفعى فغزت إلينا فاها وكرّ راجعاً على عقبه. وكان موقفه ذلك أقصى أثره، ورجع إلى البصرة فهدمها وكانت دار ملك ابن الأندلسي، وبها عمارة عظيمة. ثم انفتح له باب في جهاد برغواطة فارتحل إليهم وشغل بجهادهم، وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأنصار كما نذكره. وأرسل بالسبي إلى القيروان وأذهب دعوة بني أمية من نواحي المغرب وزناتة مشردون بالصحراء إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين بوراكسن ما بين سجلماسة وتلمسان منصرفاً من هذه الغارة الطويلة.

دولة منصور بن بلكين

ولما توفي بلكين بعث مولاه أبو زغبل بالخبر إلى ابنه المنصور، وكان والياً باشير وصاحب عهد أبيه، فقام بأمر صنهاجة من بعده ونزل صبره وقلده العزيز نزار بن معد أمر إفريقية والمغرب وكان على سنن أبيه، وعقد لأخيه أبي البهار على تاهرت ولأخيه يطوفت على أشير، وسرحه بالعساكر إلى المغرب الأقصى سنة أربع وسبعين يسترجعه من أيدي زناتة، وقد بلغه أنهم ملكوا سجلماسة وفاس، فلقيه زيري بن عطية المغراوي الملقب بالقرطاس أمير فاس فهزمه ورجع إلى أشير. وأقصى المنصور بعدها عن غزو المغرب وزناتة، واستقل به ابن عطية وابن خزرون وبدر بن يعلى كما نذكر بعد.

ثم رحل بلكين إلى رقادة وفتك بعبد اللّه بن الكاتب عامله وعامل أبيه على القيروان لهنات كانت منه، وسعايات أنجحت فيه فهلك سنة تسع وسبعين وولي مكانه يوسف بن أبي محمد، وكثر التواتر بكتابه فقتلهم وأثخن فيهم حتى أذعنوا، وأخرج إليهم العمال وعقد لأخيه حماد على أشير. وطالت الفتنة مع زناتة ونزل إليه منهم سعيد بن خزرون. ولم يزل سعيد بطبغة إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وولى ابنه فلفول بن سعيد. وخالف أبو البهار بن زيري سنة تسع وسبعين فزحف إليه المنصور وفر بين يديه إلى المغرب، وأمد المنصور أهل تاهرت ومضى في اتباع أبي البهار حتى نفد عسكره وأشير عليه بالرجوع فرجع، وبعث أبو النهار إلى أبي عامر صاحب الأندلس في المظاهرة والمدد، واسترهن ابنه في ذلك، فكتب زيري بن عطية صاحب دعوة الأموية من زناتة بفاس أن يكون معه يداً واحدة فظاهره زيري واتفق رأيهما مدة، وحاربهما بدر بن يعلى فهزماه وملكا فاس وما حولها، ثم اختلفت ذات بينهما سنة اثنتين وثمانين ورجع أبو البهار إلى قومه، ووفد على المنصور سنة اثنتين وثمانين بالقيروان فأكرمه ووصله وأنزله أحسن نزل وعقد له على تاهرت، ثم هلك المنصور سنة خمس وثمانين.

دولة باديس بن المنصور

ولما هلك المنصور قام بأمره ابنه باديس وعقد لعمه يطوفت على تاهرت، وسرح عساكره لحرب زناتة مع عميه يطوفت وحماد، فولوا منهزمين أمام زناتة إلى أشير. ونهض بنفسه سنة تسع وثمانين لحرب زيري بن عطية راجعاً إلى المغرب، فولى باديس أخاه يطوفت

على تاهرت وأشير، وخالف عليه عمومته ماكسن وزاوي وحلال ومعتز وعزم واستباحوا عسكر يطوفت وأفلت منهم، ووصل أبو البهار متبرئاً من شأنهم، وشغل السلطان باديس بحرب فلفول بن سعيد كما نذكره في أخبار بني خزرون وسرح عمه حماداً لحرب بني زيري إخوته. ووصل بنو زيري أيديهم بفلفول ثم رجعوا إلى حماد فهزمهم وتقبض على ماكسن منهم بأطمة الكلاب وقتل أولاد الحسن وباديس، كذا ذكر ابن حزم.

ونجا فلهم إلى جبل سنوة فنازلهم حماد أياماً وعقد لهم السلم على الإجازة إلى الأندلس فلحقوا بابن عامر سنة إحدى وتسعين وثلثمائة.

وهلك زيري بن عطية المغراوي لتسع أيام من مهلك ماكسن، وأقفل باديس عمه حماداً إلى حضرته ليستعين به في حروب فلفول، فاضطرب المغرب لقفوله، وأظهرت زناتة الفساد وأضروا بالسابلة وحاصروا المسيلة وأشير، فسرح إليهم باديس عمه حماداً وخرج على أثره سنة خمس وتسعين فنزل تيجست ودوخ حماد المغرب، وأثخن في زناتة واختط مدينة القلعة. ثم طلب منه باديس أن ينزل على عمل يتحس وقسطنطينة اختياراً للطاغية فأبى وأظهر الخلاف، وبعث إليه أخاه إبراهيم فأقام معه، وزحف إليهم باديس، ثم رحل في طلبه إلى شلف، ونزع إليه بعض العساكر، ودخل في طاعته بنو توجين وجاروا في مدده، ووصل أميرهم عطية بن دافلين وبدر بن أغمان بن المعتز فوصلها، وكان حماد قتل دافلين. ثم نزل باديس نهر واصل والسرسو وكزول وانثنى حماد راجعاً إلى القلعة واتبعه باديس.ونازله بها وهلك بمعسكره عليها سنة ست وأربعمائة فجأة، وهو نائم بين أصحابه بمضربه، فارتحلوا راجعين واحتملوا باديس على أعواده.

دولة المعز بن باديس

ولما بلغ الخبر بمهلك باديس بويع ابنه المعز ابن ثمان سنين، ووصل العسكر فبايعوه البيعة العامة. ودخل حماد المسيلة وأشير، واستعد للحرب وحاصر باغاية، وبلغ الخبر بذلك فزحف المعز إليه وأفرج عن باغاية، ولقيه فانهزم حماد وأسلم معسكره، وتقبض على أخيه إبراهيم ونجا إلى القلعة، ورغب في الصلح فاستجيب على أن يبعث ولده،وانتهى المعز إلى سطيف وقصر الطين وقفل إلى حضرته، ووصل إليه القائد ابن حماد سنة ثمان وأربعمائة راغباً في الصلح فعقده، واستقل حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت، وما يفتح من بلاد المغرب، وعقد للقائد ابن حماد على طبنة والمسيلة ومقره ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة وانقلب بهدية ضخمة. ووضعت الحرب أوزارها من يومئذ، واقتسموا الخطة والتحموا بالأصهار، وافترق ملك صنهاجة إلى دولتين: دولة إلى المنصور بن بلكين أصحاب القيروان، ودولة إلى حماد بن بلكين أصحاب القلعة.

ونهض المعز إلى حماد سنة اثنتين وثلاثين فحاصره بالقلعة مدة سنين، ثم أقلع عنها وانكفأ راجعاً ولم يعاود فتنة بعد. ووصل زاوي بن زيري من الأندلس سنة عشر وأربعمائة كما ذكرناه في خبره، فتلقاه المعز أعظم لقاء وسلّم عليه راجلاً وفرشت القصور لنزله، ووصله أعظم الصلات وأرفعها، واستمر ملك المعز بإفريقية والقيروان، وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه. نقل ابن الرقيق من أحوالهم في الولائم والهدايا والجنائز والأعطيات ما يشهد بذلك، مثل ما ذكر أن هدية صندل عامل باغاية مائة حمل من المال، وأن بعض توابيت الكبراء منهم كان العود الهندي بمسامير الذهب، وأن باديس أعطى فلفول بن مسعود الزناتي ثلاثين حملاً من المال وثمانين تختاً.وأن أعشار بعض أعمال الساحل بناحية صفاقس كان خمسين ألف قفيز وغير ذلك من أخبارهم.

وكانت بينه وبين زناتة حروب ووقائع كان له الغلب في جميعها كما هو مذكور، وكان المعز منحرفاً عن مذاهب الرافضة، ومنتحلاً للسنة، فأعلن بمذهبه لأول ولايته ولعن الرافضة، ثم صار إلى قتل من وجد منهم، وكبا به فرسه ذات يوم فنادى مستغيثاً باسم أبي بكر وعمر، فسمعته العامة فثاروا لحينهم بالشيعة وقتلوهم أبرح قتل وقتل دعاة الرافضة يومئذ وامتعض لذلك خلفاء الشيعة بالقاهرة، وخاطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجاني محذراً، وهو يراجعه بالتعريض بخلفائه والقدح فيهم حتى أظلم الجو بينه وبينهم إلى أن انقطع الدعاء لهم سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر من خلفائهم. وأحرق بنوده ومحا اسمه من الطرز والسكة، ودعا للقائم بن القادر من خلفاء بغداد. وجاءه خطاب القائم وكتاب عهده صحبة داعيته أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي، فرماه المستنصر خليفة العبيديين بالعرب من هلال الذين كانوا مع القرامطة، وهم رياح وزغبة والأثبج، وذلك بمشاركة من وزيره أبي محمد الحسن بن علي اليازوري كما ذكرنا في أخبار العرب ودخولهم إلى إفريقية.

وتقدموا إلى البلاد وأفسدوا السابلة والقرى وسرح إليهم المعز جيوشه فهزموهم، فنهض إليهم ولقيهم بجبل حيدران فهزموه، واعتصم بالقيروان فحاصروه وتمرسوا به وطال عيثهم في

البلاد وإضرارهم بالرعايا إلى أن خربت إفريقية. وخرج ابن المعز من القيروان سنةتسع وأربعين مع خفيره منهم، وهو مؤنس بن يحيى الصبري أمير رياح، فلحق في خفارته بالمهدية بعد أن أصهر إليه في ابنته فأنكحه إياها ونزل بالمهدية وقد كان قدم إليها ابنه تميماً فنزل عليه، ودخل العرب القيروان وانتهبوها.

وأقام المعز بالمهدية وانتزى الثوار في البلاد فغلب حمو بن مليل البرغواطي على مدينة صفاقس وملكها سنة إحدى وخمسين، وخالفت سوسة وصار أهلها إلى الشورى في أمرهم، وصارت تونس آخراً إلى ولاية الناصر بن علناس بن حماد صاحب القلعة. وولى عليهم عبد الحق بن خراسان فاستبد بها واستقرت في ملكه وملك بنيه، وتغلب موسى بن يحيى على قابس وصار عاملها المعز بن محمد الصنهاجي إلى ولايته، وأخوه إبراهيم من بعده كما يأتي ذكره. والتاث ملك آل باديس وانقسم في الثوار كما نذكر في أخبارهم بعد وهلك المعز سنة أربع وخمسين والله أعلم.

دولة تميم بن المعز

ولما هلك المعز قام بأمره ابنه تميم وغلبه العرب على إفريقية، فلم يكن له إلا ما ضمه السور، خلا أنه كان يخالف بينهم وتسلط بعضهم على بعض، وزحف إليه حمو بن ملين البرغواطي صاحب صفاقس، فخرج تميم للقائه، وانقسمت العرب عليهما فانهزم حمو وأصحابه، ذلك سنة خمس وخمسين وسار منها إلى سوسة فافتتحها، ثم بعث عساكره إلى تونس فحاصروا ابن خراسان حتى استقام على الطاعة لتميم. ثم بعث عساكره أيضاً إلى القيروان، وكان بها قائد بن ميمون الصنهاجي من قبل المعز فأقام ثلاثاً، ثم غلبته عليها هوارة، وخرج إلى المهدية، ثم رده تميم إلى ولايته بها فخالف بعد ست من ولايته، وكاتب الناصر بن علناس صاحب القلعة فبعث تميم إليه العساكر فلحق بالناصر وأسلم القيروان.

ثم رجع بعد ست إلى حمو بن مليل البرغواطي بصفاقس وابتاع له القيروان من مهنّا بن علي أمير زغبة، فولاّه عليها وحصّنها سنة سبعين، وكانت بين تميم والناصر صاحب القلعة أثناء ذلك فتن كان سماسرتها العرب يجأجئون بالناصر من قلعته، ويوطئون عساكره ببلاد إفريقية، وربما ملك بعض أمصارها، ثم يردونه على عقبه إلى داره إلى أن اصطلحا سنة سبعين، وأصهر إليه تميم بابنته، ونهض تميم سنة أربع وسبعين إلى قابس وبها ماضي بن محمد الصنهاجي، وليها بعد أخيه إبراهيم فحاصرها، ثم أفرج عنها، ونازلته العرب سنة ست وسبعين بالمهدية، ثم أفرجوا عنه، وهزمهم فقصدوا القيروان ودخلوها فأخرجهم عنها.

وفي أيامه كان تغلّب نصارى جنده على المهدية سنة ثمانين نزلوها في ثلثمائة مركب وثلاثين ألف مقاتل، واستولوا عليها وعلى زويلة، فبذل لهم تميم في النزول عنها مائة ألف دينار بعد أن انتبهوا جميع ما كان بها، فاستخلصها من أيديهم ورجع إليها، ثم استولى على قابس سنة تسع وثمانين من يد أخيه عمر بن المعز بايع له أهلها بعد موت قاضي بن ابراهيم. ثم استولى بعدها على صفاقس سنة ثلاث وتسعين وخرج منها حمو بن مليل إلى قابس، فأجاره مكن بن كامل الدهماني إلى أن مات بها. وكانت رياح قد تغلبت على زغبة وعلى إفريقية من لدن سبع وستين وأخرجوه منها، وفي هذه المائة الخامسة غلب الأخضر من بطون رياح على مدينة باجة وملكوها، وهلك تميم إثر ذلك سنة إحدى وخمسمائة.

دولة يحيى بن تميم

ولما هلك تميم بن المعزّ ولّي ابنه يحيى، وافتتح أمره بافتتاح إقليبية وغلب عليها ابن محفوظ الثائر بها. وثار أهل صفاقس على ابنه أبي الفتوح فلطف الحيلة في تفريق كلمتهم، وراجع طاعة العبيديين ووصلته المخاطبات والهدايا، وكان قد صرف همه إلى غزو النصارى والأساطيل البحرية فاستكثر منها واستبلغ في اقتنائها، وردد البعوث إلى دار الحرب فيها حتى اتقته أمم النصرانية بالجزي من وراء البحر من بلاد إفريقية وجنوة وسردينية.وكان له في ذلك آثار ظاهرة عزيزة. وهلك فجأة في قصره سنة تسع وخمسمائة والله أعلم.

دولة علي بن يحيى

ولما هلك يحيى بن تميم ولّي علي ابنه، استقدم لها من صفاقس، فقدم في خفارة أبي بكر بن أبي جابر مع عسكر ونظرائه من أمراء العرب. وكان أعظم أمراء عساكر صنهاجة محاصرين لقصر الأجم فاجتمعوا إليه وتمت بيعته. ونهض إلى حصار تونس حتى استقام أحمد بن خراسان على الطاعة، وفتح جبل وسلات، وكان ممتنعاً على من سلف من قومه، فجرد إليه عسكراً مع ميمون بن زياد الصخري المعادي من أمراء العرب، فافتتحوه وقتلوا من كان به. ووصل رسول الخليفة من مصر بالمخاطبات والهدايا على العادة، ثم نهض إلى حصار رافع بن مكن بقابس سنة

إحدى عشرة وخمسمائة، ودون لها قبائل فادغ من بني علي إحدى بطون رياح كما نذكره في أخبار رافع. ثم حدثت الفتنة بينه وبين رجار صاحب صقلية بممالأة رجار لرافع بن كامل عليه، وإمداده إياه بأسطوله، يغير على ساحل علي بن يحيى ويرصد أساطيله، فاستخدم علي بن يحيى الأساطيل وأخذ في الأهبة للحرب، وهلك سنة خمس عشرة وخمسمائة والله أعلم.

دولة الحسن بن علي

ولما هلك علي بن يحيى بن تميم ولي بعده ابنه الحسن بن علي غلاماً يفعة ابن اثنتي عشرة سنة، وقام بأمره مولاه صندل. ثم مات صندل وقام بأمره مولاه موفق. وكان أبوه أصدر المكاتبة إلى رجار عند الوحشة يهدده بالمرابطين ملوك المغرب، ولما كان بينه وبينهم من المكاتبة. واتفق أن غزا أحمد بن ميمون قائد أسطول المرابطين صقلية، وافتتح قرية منها، فسباها وقتل أهلها سنة ست عشرة، فلم يشك رجار أن ذلك بإملاء الحسن، فنزلت أساطيله إلى المهدية وعليهم عبد الرحمن بن عبد العزيز وجرجي بن مخائيل الأنطاكي، وكان جرجي هذا نصرانياً هاجر من المشرق، وقد تعلم اللسان وبرع في الحساب، وتهذب في الشام بأنطاكية وغيرها، فاصطنعه تميم واستولى عليه، وكان يحيى يشاوره.

فلما هلك تميم أعمل جرجي الحيلة في اللحاق برجار فلحق به، وحظي عنده، واستعمله على أسطوله. فلما اعتزم على حصار المهدية بعثه لذلك، فزحف في ثلثمائة مركب، وبها عدد كثير من النصرانية، فيهم ألف فارس. وكان الحسن قد استعد لحربهم، فافتتح جزيرة قوصرة، وقصدوا إلى المهدية ونزلوا إلى الساحل، وضربوا الأبنية وملكوا قصر الدهانين وجزيرة الأملس وتكرر القتال فيهم إلى أن غلبهم المسلمون، وأقلعوا راجعين إلى صقلية بعد أن استمر القتل فيهم، ووصل بأكثر ذلك محمد بن ميمون قائد المرابطين بأسطوله، فعاث في نواحي صقلية، واعتزم رجار على إعادة الغزو إلى المهدية. ثم وصل أسطول يحيى بن العزيز صاحب بجاية لحصار المهدية، ووصلت عساكره في البر مع قائده مطرف بن علي بن حمدون الفقيه، فصالح الحسن صاحب صقلية ووصل يده به، واستمد منه أسطوله، واستمد الحسن أسطول رجار فأمده، وارتحل مطرف إلى بلده.

وأقام الحسن مملكاً بالمهدية، وانتقض عليه رجار وعاد إلى الفتنة معه، ولم يزل يردد إليه الغزو إلى أن استولى على المهدية قائد أسطوله جرجي بن مناسل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ووصلها بأسطوله في ثلثمائة مركب. وخادعهم بأنهم إنما جاؤوا مدداً له. وكان عسكر الحسن قد توجه صريخاً لمحرز بن زياد الفادغي صاحب علي بن خراسان صاحب تونس، فلم يجد صريخاً فجلا عن المهدية، ورحل واتبعه الناس، ودخل العدو إلى المدينة وتملكوها دون دفاع. ووجد جرجي القصر كما هو لم يرفع منه الحسن إلا ما خف، وترك الذخائر الملوكية، فأمّن الناس وأبقاهم تحت إيالته، وردّ الفارّين منهم إلى أماكنهم. وبعث أسطولاً إلى صفاقس فملكها، وأجاز إلى سوسه فملكها أيضاً. ثم إلى طرابلس كذلك. واستولى رجار صاحب صقلية على بلاد الساحل كلها، ووضع على أهلها الجري، وولي عليهم كما نذكره إلى أن استنقذهم من ملكة الكفر عبد المؤمن شيخ الموحدين وخليفة إمامهم المهدي.

ولحق الحسن بن يحيى بعد استيلاء النصارى على المهدية بالعرب من رياح، وكبيرهم محرز بن زياد الفادغي صاحب القلعة، فلم يجد لديهم مصرخاً، وأراد الرحيل إلى مصر للحافظ عبد المجيد فأرصد له جرجي فارتحل إلى المغرب، وأجاز إلى بونة وبها الحارث بن منصور وأخوه العزيز. ثم توجه إلى قسطنطينة وبها سبع بن العزيز أخو يحيى صاحب بجاية، فبعث إليه من أجازه إلى الجزائر. ونزل على ابن العزيز فأحسن نزله وجاوره إلى أن فتح الموحدون الجزائر سنة سبع وأربعين بعد تملكهم المغرب والأندلس، فخرج إلى عبد المؤمن فلقاه تكرمةً وقبولاً.ولحق به وصحبه إلى إفريقية في غزواته الأولى، ثم الثانية سنة سبع وخمسين فنازل المهدية وحاصرها أشهراً، ثم افتتحها سنة خمس وخمسين، وأسكن بها الحسن وأقطعه رحيش فأقام هنالك ثماني سنين. ثم استدعاه يوسف بن عبد المؤمن فارتحل بأهله يريد مراكش. وهلك بتامستا في طريقه إلى بابارولو سنة ست وثلاثين، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ورب الخلائق أجمعين.

الخبر عن بني خراسان من صنهاجة الثوار بتونس على آل باديس عند اضطراب أفريقية بالعرب ومبدأ أمرهم ومصاير أحوالهم

لما تغلب العرب على القيروان وأسلم المعز وتحول إلى المهدية، اضطرمت إفريقية ناراً. واقتسمت العرب البلاد عمالات، وامتنع كثير من البلاد على ملوك آل باديس مثل أهل سوسة

وصفاقس وقابس، وصارت صاغية أهل إفريقية إلى بني حماد ملوك القلعة وملكوا القيروان، كما تقدم. وانقطعت تونس عن ملك المعز، ووفد مشيختها على الناصر بن علناس، فولى عليهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان، يقال إنه من أهل تونس، والأظهر أنه من قبائل صنهاجة، فقام بأمرهم وشاركهم في أمره وتودد إليهم وأحسن السيرة فيهم، وصالح العرب أهل الضاحية على أتاوة معلومة لكف عاديتهم.، وزحف تميم بن المعز من المهدية إليه سنة ثمان وخمسين في جموعه، ومعه يبقى ابن علي أمير زغبة، فحاصر تونس أربعة أشهر، إلى أن صالحه ابن خراسان واستقام على طاعته فأفرج عنه.

ولم يزل قائماً بأمره إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين فولّي ابنه عبد العزيز وكان مضعفاً وهلك على رأس هذه المائة الخامسة وقام بأمره ابنه أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق فقتل عمه إسماعيل بن عبد الحق لمكان ترشه، وغربه أبو بكر إلى أن برزت فأقام بها خوفاً على نفسه. ونزع أحمد إلى التخلق بسير الملك، والخروج عن سير المشيخة، واشتدت وطأته، وكان من مشاهير رؤساء بني خراسان هؤلاء، فاستبد بتونس لأول المائة السادسة، وضبطها وبنى أسوارها. وعامل العرب على إصلاح سابلتها فصلحت حاله، وبنى قصور بني خراسان. وكان مجالساً للعلماء محباً فيهم ونازله علي بن يحيى بن العزيز بن تميم سنة عشر وخمسمائة وضيق عليه، ودافعه بإسعاف غرضه فأفرج عنه. ثم نازله عساكر العزيز بن منصور صاحب بجاية فعاد إلى طاعته سنة أربعة عشر ولم يزل والياً على تونس إلى أن نهض سنة اثنتين وعشرين مطرف بن علي بن حمدون قائد يحيى بن العزيز من بجاية في العساكر إلى إفريقية، وملك عامة أمصارها، فتغلب على تونس وأخرج أحمد بن عبد العزيز صاحبها ونقله إلى بجاية بأهله وولده.

وولّي على تونس كرامة بن المنصور عم يحيى بن العزيز فبقي والياً عليها إلى أن مات، وولي عليها بعده أخوه أبو الفتوح بن المنصور إلى أن مات وولّي مكانه ابن ابنه محمد، وساءت سيرته فعزل، وولي مكانه عمه معدّ بن المنصور إلى أن استولى النصارى على المهدية وسواحلها ما بين سوسة وصفاقس وطرابلس سنة ثلاث وأربعين، وصارت لصاحب صقلية، وأخرج الحسن بن علي كما هو مذكور، فأخذ أهل تونس في الاستعداد والحذر، واستأسدوا لذلك على واليهم، وانتشر بغاتهم وربما ثاروا بعض الأيام عليه فقتلوا عبيده بمرأى منه، واعتدوا عليه في خاصته. فبعث عنه أخوه يحيى من بجاية فركب البحر في الأسطول، وترك نائبه العزيز بن دافال من وجوه صنهاجة، فأقام بينهم وهم مستبدّون عليه، وكان بالمعلقة جوارهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح قد تغلب عليها.

وكانت الحرب بينه وبين أهل تونس سجالاً، والتحم بينهما المصاف وكان محرز يستمد عساكر صاحب المهدية على أهل تونس فتأتيه إلى أن غلب النصارى على المهدية، وحدثت الفتنة بينهم بالبلد فكان المصاف بين أهل باب السويقة وأهل باب الجزيرة، وكانوا يرجعون في أمورهم إلى القاضي عبد المنعم ابن الإمام أبي الحسن.ولما غلب عبد المؤمن على بجاية وقسطنطينة وهزم العرب بسطيف ورجع إلى مراكش انتهت إليه شكوى الرعايا بإفريقية مما نزل بهم من العرب، فبعث ابنه عبد اللّه من بجاية إلى إفريقية في عساكر الموحدين، فنازل تونس سنة اثنتين وخمسين وامتنعت عليه. ودخل معهم محرز بن زياد وقومه من العرب، واجتمع جندهم وبرزوا للموحدين فأوقعوا بهم، وأفرجوا عن تونس.

وهلك أميرها عبد اللّه بن خراسان خلال ذلك، وولي مكانة علي بن أحمد بن عبد العزيز خمسة أشهر، وزحف عبد المؤمن إلى تونس وهو أميرها، فانقادوا لطاعته كما نذكره في أخبار الموحدين. ورحل علي بن أحمد بن خراسان إلى مراكش بأهله وولده، وهلك في طريقه سنة أربع وخمسين وأفرج محرز بن زياد عن المعلقة. واجتمعت إليه قومه وتدامرت العرب عن مدافعة الموحدين واجتمعوا بالقيروان، وبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو منصرف من غزاته إلى المغرب فبعث إليهم العساكر وأدركوهم بالقيروان فأوقعوا بهم واستلحموهم قتلاً وسبياً وتقبض على محرز بن زياد أميرهم فقتل وصلب شلوه بالقيروان، واللّه يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه، وهو على كل شيء قدير.

الخبر عن بني الرند ملوك قفصة الثائرين بها عند التياث ملك آل باديس بالقيروان واضطرابه بفتنة العرب ومبدأ دولتهم ومصاير أمورهم

لما تغلب العرب على إفريقية وانحل نظام الدولة الصنهاجية، وارتحل المعز من القيروان إلى المهدية، وكان بقفصة عاملاً لصنهاجة عبد اللّه بن محمد بن الرند وأصله من جرية من بني صدغيان. وقال ابن نخيل: هو من بني مرين من مغراوة، وكان مسكنهم بالجوسين من نفزاوة فضبط قفصة وقطع عنها عادية الفساد، وصالح العرب على الأتاوة فصلحت السابلة واستقام الحال، ثم

استبد بأمره وخلع الامتثال من عنقه سنة خمس وأربعين واستمر على ذلك. وبايعته توزر وقفصة وسوس والحامة ونفزاوة وسائر أعمال قسطنطينة فاستفحل أمره وعظم سلطانه، ووفد عليه الشعراء والقصاد، وكان معظّماً لأهل الدين إلى أن هلك سنة خمس وستين.

وولّي من بعده ابنه المعتز وكنيته أبو عمر، وانقاد إليه الناس فضبط الأمور وجبى الأموال واصطنع الرجال، وتغلب على قمودة وجبل هوارة وسائر قسطيلية وما إليها، وحسنت سيرته إلى أن عمي، وهلك في حياته ابنه تميم فعهد لابنه يحيى بن تميم، وقام بالأمر واستبد على جدّه ولم يزالوا بخير حال إلى أن نازلهم عبد المؤمن سنة أربع وخمسين. فمنعهم من الأمر، ونقلهم إلى بجاية فمات المعتز بها سنة سبع وخمسين لمائة وأربع عشرة من عمره وقيل لسبعين، ومات بعده بيسير حافده يحيى بن تميم. وولّى عبد المؤمن على قفصة نعمان بن عبد الحق الهنتاني، ثم عزله بعد ثلاث بميمون بن أجانا الكنسيفي، ثم عزله بعمران بن موسى الصنهاجي، وأساء إلى الرعية، فبعثوا عن علي بن العزيز بن المعتز من بجاية. وكان بها في مضيعة يحترف بالخياطة فقدم عليهم، وثاروا بعمران بن موسى عامل الموحدين فقتلوه وقدّموا علي بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته، وأغزاه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاث وستين أخاه السيد أبا زكريا فحاصره وضيق عليه وأخذه، وأشخصه إلى مراكش بأهله وماله، واستعمله على الأشغال بمدينة سلا إلى أن هلك وفنيت دولة بني الرند والبقاء لله وحده اه.

الخبر عن بني جامع الهلاليين أمراء قابس لعهد الصنهاجيين وما كان لتميم بها من الملك والدولة وذلك عند فتنة العرب بأفريقية

ولما دخلت العرب إلى إفريقية وغلبوا المعز على الضواحي ونازلوه بالقيروان، وكان الوالي بفاس المعز بن محمد بن لموية الصنهاجي، وكان أخواه إبراهيم وماضي بالقيروان قائدين للمعز على جيوشه فعزلهما، ولحقا مغاضبين بمؤنس بن يحيى، وكان ذلك أول تملك العرب.ثم أقام إبراهيم منهم والياً بقابس ولحق المعز بن محمد بمؤنس، فكان معه إلى أن هلك إبراهيم وولي مكانه أخوه ماضي، وكان سيء السيرة فقتله أهل قابس، وذلك لعهد تميم بن المعز بن باديس، وبعثوا إلى عمر أخي السلطان إلى طاعة العرب، فوليها بكر بن كامل بن جامع أمير المناقشة من دهمان من بني علي إحدى بطون رياح فقام بأمرها، واستبد على صنهاجة. ولحق به مثنى بن تميم بن المعز نازعاً عن أبيه فأجابه، ونازل معه المهدية حتى امتنعت عليه، واطلع على قبائح شتى، فأفرج عنها. ولم يزل كذا على حاله في إجابة قابس وإمارة قومه دهمان إلى أن هلك.وقام بأمره بعده رافع واستفحل بها ملكه، وهو الذي اختط قصر العروسيين من مصانع الملك بها، واسمه مكتوب لهذا العهد في جدرانها.

ولما ولي علي بن يحيى بن تميم فسد ما بينه وبين رافع، وأعان عليه رافع صاحب صقلية فغلب أسطول علي بن يحيى على أسطول النصارى. ثم ذوى قبائل العرب والأساطيل، وزحف إلى قابس سنة إحدى عشر وأربعمائة. قال ابن أبي الصلت:دول الثلاثة الأخماس من قبائل العرب الذين هم: سعيد ومحمد ونحبة، وأضاف إليهم من الخمس الرابع أكابر بني مقدم فوافى من كان منهم بفحص القيروان، وفر رافع إلى القيروان وامتنع عليه أهلها. ثم اجتمع شيوخ دهمان واقتسموا البلاد، وعيّنوا القيروان لرافع وأمكنوه.وبعث علي بن يحيى عساكره والعرب المدونّة على منازلة رافع بالقيروان، وخرج إلى محاربتهم فهلك بالطريق في بعض حروبه مع أشياع رافع.

ثم أن ميمون بن زياد الصخري حمل رافع بن مكن على مسالمة السلطان وسعى في إصلاح ذات بينهما، فانصلح وارتفعت بينهما الفتنة. وقام بقابس من ذلك رشيد بن كامل. قال ابن نخيل: وهو الذي اختط قصر العروسيين وضرب السكة الرشيدية، وولّي بعده ابنه محمد بن رشيد، وغلب عليه مولاه يوسف، ثم خرج محمد في بعض وجوهه وترك ابنه مع يوسف فطرده يوسف واستبد، وانتهى إلى طاعة رجار فثار به أهل قابس ودفعوه عنهم، فخرج إلى أخيه، ولحق أخوه عيسى بن رشيد وأخبره الخبر فحاصرهم رجار بسبب ذلك مدة من الأيام. وكان آخر من ملكها من بني جامع أخوه مدافع بن رشيد بن كامل. ولما استولى عبد المؤمن على المهدية وصفاقس وطرابلس بعث ابنه عبد الله بعسكر إلى قابس ففر مدافع بن رشيد عن قابس وأسلمها للموحدين، ولحق بعرب طرابلس من عرب عوف فأجاروه سنتين، ثم لحق بعبد المؤمن بقابس فأكرمه ورضي عنه. وانقرض أمر بني جامع من يؤانس، والبقاء لله وحده اه.

الخبر عن ثورة رافع بن مكن بن مطروح بطرابلس والفرياني بصفاقس على النصارى وإخراجهم واستبدادهم بأمر بلدهم في آخر دولة بني باديس

أما طرابلس فكان رجار صاحب صقلية قد استولى عليها سنة أربعين وخمسمائة على يد قائده جرجي بن ميخائيل الأنطاكي، وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم، وبقيت في مملكة النصارى أياماً. ثم إن أبا يحيى بن مطروح من أعيان البلد مشى في وجوه الناس وأعيانهم، وداخلهم في الفتك بالنصارى فاجتمعوا لذلك وثاروا بهم وأحرقوهم بالنار. ولما وصل عبد المؤمن إلى المهدية وافتتحها سنة خمس وخمسين وفد عليه أبو يحيى بن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم براً وتكرمةً. وقدم ابن مطروح المذكور عليهم وردهم إلى بلدهم، فلم يزل عليهم إلى أن هرم وعجز بعهد يوسف بن عبد المؤمن، وطلب الحج فسرحه السيد أبو زيري بن أبي حفص محمد بن عبد المؤمن عامل تونس فارتحل في البحر سنة ست وثمانين واستقر بالإسكندرية.

وأما صفاقس فكانت ولاتها أيام بني باديس من صنهاجة قبيلهم إلى أن ولى المعز بن باديس عليها منصور البرغواطي من صنائعه، وكان فارساً مقداماً، فحدث نفسه بالثورة أيام تغلب العرب على إفريقية، وخروج المعز إلى المهدية ففتك به ابن عمه حمو بن مليل البرغواطي وقتله في الحمام غدراً. وامتعض له حلفاؤه من العرب وحاصروا حمّو حتى بذل لهم من المال ما رضوا به. واستبد حمّو بن مليل بأمر صفاقس حتى إذا هلك المعز حدثته نفسه بالتغلب على المهدية، فزحف إليها في جموعه من العرب، ولقيه تميم فانهزم حمّو وأصحابه سنة خمس وخمسين. ثم بعث ابنه يحيى مع العرب لحصار صفاقس، فحاصرها مدة وأقلع عنها. وزحف إليه تميم بن المعز سنة ثلاث وتسعين فغلبه عليها. ولحق حمو بمكن بن كامل أمير قابس فأجاره، وصارت صفاقس إلى ملكة تميم ووليها ابنه.

ولما تغلب النصارى على المهدية وملكها جرجي بن ميخائيل قائد رجار سنة ثلاث وأربعين وتغلبوا بعدها على صفاقس وأبقوا أهلها، واستعملوا عمر بن أبي الحسن القرباني لمكانه فيهم. وحملوا أباه أبا الحسن معهم إلى صقلية رهناً. وكان ذلك مذهب رجار وديدنه فيما ملك من سواحل إفريقية، يبقيهم ويستعمل عليهم منهم، ويذهب إلى العدل فيهم فبقي عمر بن أبي الحسن عاملاً لهم في أهل بلده وأبوه عندهم. ثم أن النصارى الساكنين بصفاقس امتدت أيديهم إلى المسلمين ولحقوهم بالضرر. وبلغ الخبر أبا الحسن وهو بمكانه من صقلية، فكتب إلى ابنه عمر، وأمره بانتهاز الفرصة فيهم والاستسلام إلى اللّه في حق المسلمين، فثار بهم عمر لوقته سنة إحدى وخمسين وقتلهم وقتل النصارى أباه أبا الحسن وانتقضت عليهم بسبب ذلك سائر السواحل. ولما افتتح عبد المؤمن المهدية من يد رجار، وصل إليه عمر، وأدى طاعته، فولاه صفاقس، ولم يزل والياً عليها وابنه عبد الرحمن من بعده إلى أن تغلب يحيى بن غانية فرغبه في الحج، فسرحه ولم يعد.

الخبر عما كان بإفريقية من الثوار على صنهاجة عند اضطرابها بفتنة العرب الى أن محا أثرهم الموحدون

لما كان أبو رجاء الورد اللخمي عند اضطرام نار الفتنة بالعرب، وتقويض المعز عن القيروان إلى المهدية، وتغلبهم عليها قد ضم إليه جماعة من الدعّار. وكان ساكناً بقلعة قرسبنة من جبل شعيب، فكان يضرب على النواحي بجهة بنزرت ويفرض على أهل القرى الأتاوات بسبب ذلك، فطال عليهم أمره ويئسوا من حسم دائه، وكان ببلد بنزرت فريقان أحدهما من لخم وهم من قوم الورد، وبقوا فوضى واختلف أمرهم، فبعثوا إلى الورد في أن يقوم بأمرهم، فوصل إلى بلدهم، فاجتمعوا عليه وادخلوا حصن بنزرت، وقدموه على أنفسهم فحاطهم من العرب، ودافع عن نواحيهم. وكان بنو مقدم من الأثبج ودهمان من بني علي إحدى بطون رياح هم المتغلبون على ضاحيتهم فهادنهم على الأتاوة وكف بها عاديتهم، واستفحل أمرهم وتسمى بالأمير، وشيد المصانع والمباني وكثر عمران بنزرت إلى أن هلك، فقام بأمره ابنه طراد وكان شهماً، وكانت العرب تهابه.

وهلك فولي من بعده ابنه محمد بن طراد، وقتله أخوه مقرن لشهر من ولايته في مسامرة، وقام بأمر بنزرت وسمي بالأمير، وحمى حوزته من العرب، واصطنع الرجال، وعظم سلطانه وقصده الشعراء وامتدحوه فوصلهم. وهلك فولي من بعده ابنه عبد العزيز عشر سنين، وجرى فيها على سنن أبيه وجده، ثم ولى من بعده أخوه موسى على سننهم أربع سنين.

ثم من بعده أخوهما عيسى واقتفى أثرهم. ولما نازل عبد اللّه بن عبد المؤمن تونس وأفرج عنه ومر به في طريقه فاستفرغ

جهده في قراه ونجع بطاعته. وطلب منه الحفاظ على بلده فأسعفه. وولى عليهم أبا الحسن الهرغي، فلما قدم عبد المؤمن على إفريقية سنة أربع وخمسين راعى له ذلك وأقطعه، واندرج في جملة الناس. وكان بقلعة ورغة بدوكس بن أبي علي الصنهاجي من أولياء العزيز المنصور صاحب بجاية، والقلعة قد شادها وحصنها.

وكان مبدأ أمره أن العزيز تغير عليه في حروب وقعت بينه وبين العرب نسب فيها إلى نفسه الإقدام، وإلى السلطان العجز، فخافه على نفسه، ولحق ببجاية فأكرمه شيخها محمود بن نزال الربغي وآواه وترافع إلى محمود أهل ورغة من عمله، وكانوا فتنين مختلفتين من زاتيمة إحدى قبائل البربر، وهما أولاد مدين وأولاد لاحق. فبعث عليهم بروكس بن أبي علي لينظر في أحوالهم، وأقام معهم بالقلعة. ثم استجلب بعض الدعار كانوا بناحيتها، وأنزلهم بالقلعة معهم واصطنعهم صاهر أولاد مدين وظاهرهم على أولاد لاحق، وأخرجهم من القلعة واستبد بها.

وقصدته الرجال من كل جانب إلى أن اجتمعت له خمسمائة فارس، وأثخن في نواحيه، وحارب بني الورد ببنزرت وابن علال بطبربة، وقتل محمد بن سباع أمير بني سعيد من رياح، وغصت القلعة بالساكن فاتخذ لها ربضاً، وجهز إليه العزيز عسكره من بجاية فبارز قائد العسكر وفتك به واسمه غيلاس. وهلك بعد مدة وقام بأمره ابنه منيع، ونازله بنو سباع وسعيد طالبين بثأر أخيهما محمد. وتمادى به الحصار وضاقت أحواله فاقتحموا عليه القلعة، واستلحم هو وأهل بيته قتلاً وسبياً والله مالك الأمور.

وكان أيضاً بطبربة مدافع بن علال القيسي شيخ من شيوخها. فلما اضطربت إفريقية عند دخول العرب إليها امتنع بطبربة وحصن قلعتها، واستبد بها في جملة من ولده وبني عمه وجماعته إلى أن ثار عليه ابن بيزون اللخمي في البحرين على وادي مجردة. بإزاء الرياحين. وطالت بينهما الفتنة والحرب. وكان قهرون بن غنوش بمنزل دحمون قد بنى حصنه وشيده، وجمع إليه جيشاً من أوباش القبائل، وذلك لما أخرجه أهل تونس بعد أن ولاه العامة عليهم. ثم صرفوه عن ولايتهم لسوء سيرته، فخرج من البلد ونزل دحمون، وبنى حصناً بنفسه مع الحنايا وردد الغارة على تونس، وعاث في جهاتها فرغبوا من محرز بن زياد أن يظاهرهم عليه ففعل.

وبلغ خبره ابن علال صاحب طبربة فوصل ابن علال يده بصهر منه، ونقله إلى بعض الحصون ببلده، وهي قلعة غنوش، وتظافروا على الإفساد. وخلفهما بنوهما من بعدهما إلى أن وصل عبد المؤمن إلى إفريقية سنة أربع وخمسين فمحا آثار الفساد من جانب إفريقية، وكان أيضاً حماد بن خليفة اللخمي بمنزل رقطون من إقليم زغوان على مثل حال ابن علال وابن غنوش وابن بيزون وخلفه ولده في مثل ذلك إلى أن انقطع ذلك على يد عبد المؤمن. وكان عماد بن نصر الله الكلاعي بقلعة شقبنارية قد صار إليه جند من أهل الدعارة وأوباش القبائل، فحملها من العرب، واستغاث به ابن فتاتة شيخ الأربس من العرب، وشكا إليه سوء ملكتهم، فزحف إليهم وأخرجهم من الأربس، وفرض عليهم مالاً يؤدونه إليه إلى أن مات وولي ابنه من بعده، فجرى على سننه إلى أن دخل في طاعة عبد المؤمن سنة أربع وخمسين وخمسمائة، والله مالك الملك لا رب غيره وسبحانه اه.

الخبر عن دولة آل حماد بالقلعة من ملوك صنهاجة الداعية لخلافة العبيديين وما كان لهم من الملك والسلطان بإفريقية والمغرب الأوسط إلى حين انقراضه بالموحدين

هذه الدولة شعبة من دولة آل زيري وكان المنصور بلكين قد عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة، وكان يتداولها مع أخيه يطوفت وعمه أبي البهار. ثم استقل بها سنة سبع وثمانين أيام باديس من أخيه المنصور ودفعه لحرب زناتة سنة خمس وتسعين بالمغرب الأوسط من مغراوة وبني يفرن، وشرط له ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه وأن لا يستقدمه.فعظم عناؤه فيها وأثخن في زناتة وكان مظفراً عليهم، واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين، وهو جبل عجيسة وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال. ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخربهما. ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها، وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة. وشيد من بنيانها وأسوارها واستكثر فيها من المساجد والفنادق، فاستبحرت في العمارة واتسعت بالتمدن. ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها.

ولم يزل حماد أيام باديس هذا أميراً على الزاب والمغرب الأوسط ومتولياً حروب زناتة.وكان نزوله ببلد أشير والقلعة متاخماً لملوك زناتة وأحيائهم البادية بضواحي تلمسان وتاهرت. وحاربه بنو زيري عند خروجهم على باديس سني تسعين وثلثمائة وهم زاوي وماكسن وإخوانهما فقتل ماكسن وابناه، والجأ زاوي

وإخوته إلى جبل شنون وأجازهم البحر إلى الأندلس. ثم إن بطانة باديس ومن إليه من الأعجام والقرابة نفسوا على حماد رتبته وسعوا في مكانه من باديس إلى أن فسد ذات بينهما. وطلب باديس أن يسلم عمل تيجست وقسطنطينة لولده المعز لما قلده الحاكم ولاية عهد ابنه، فأبى حماد وخالف دعوة باديس وقتل الرافضة وأظهر السنة، ورضي عن الشيخين ونبذ طاعة العبيديين جملة، وراجع دعوة آل العباس وذلك سنة خمس وأربعمائة.

وزحف إلى باجة فدخلها بالسيف ودس إلى أهل تونس الثورة على المشارقة والرافضة فثاروا بهم فناصبه باديس الحرب، وعبأ عساكره من القيروان، وخرج إليه فنزع عن حماد أكثر أصحابه مثل: بني أبي والبل أصحاب معرة من زناتة، وبني حسن كبار صنهاجة، وبني يطوفت من زناتة، وبني غمرة أيضاً منهم، وفر حماد، وملك باديس أشير. ولحق حماد بشلف بني واليل وباديس في اتباعه حتى نزل مواطين فحصر السرسو من بلاد زناتة. ونزع إليه عطية بن داقلتن في قومه من بني توجين، لما كان حماد قتل أباه. وجاء على أثره ابن عمه بدر بن لقمان بن المعتز فوصلهما باديس واستظهر بهما على حماد.

ثم أجاز إليه باديس من وادي شلف وناجزه الحرب، ونزع إليه عامة أهل معسكره فانهزم وأغذ السير إلى القلعة، وباديس في أثره نزل فحاصر المسيلة، وانحجر حماد في القلعة وحاصره. ثم هلك بمعسكره من ذلك الحصار فجأة بمضربه وهو نائم بين أصحابه ست وأربعمائة، فباعت صنهاجة لابنه المعز صبياً ابن ثمان سنين. وتلافوا أمر أشير، وبعثوا كرامة بن منصور لسدها فلم يقدر، واقتحمها عليه حماد. واحتملوا باديس على أعواده إلى مدفنهم بالقيروان وبايعوا المعز بالبيعة العامة وزحف إلى حماد بناحية قفصة، وأشفق حماد فبعث ابنه القائد لأحكام الصلح بينه وبين المعز، فوصل إلى القيروان سنة ثمان وأربعمائة بهدية جليلة. وأمضى له المعز ما سأله من الصلح ورجع إلى أبيه.

وهلك حماد سنة تسعة عشر وأربعمائة فقام بأمره ابنه القائد، وكان جباراً فاختار أخاه يوسف على المغرب وويغلان على حمزة في بلد اختطه حمزة بن إدريس. وزحف إليه حمامة بن زيري بن عطية ملك فاس من مغراوة سنة ثلاثين فخرج إليه القائد، وسرب الأموال في زناتة. وأحس بذلك حمامة فصالحه ودخل في طاعته، ورجع إلى فاس، وزحف إليه المعز من القيروان سنة أربع وثلاثين وحاصره مدة طويلة. ثم صالح القائد وانصرف إلى أشير فحاصرها، ثم أقلع عنها وانكفأ راجعاً. وراجع القائد طاعة العبيديين لما نقم عليه المعز ولقبوه شرف الدولة.

وهلك سنة ست وأربعين وولي ابنه محسن وكان جباراً، وخرج عليه عمه يوسف ولحق بالمغرب فقتل سائر أولاد حماد، وبعث محسن في طلبه بلكين ابن عمه محمد بن حماد، وأصحبه من العرب خليفة بن بكير وعطية الشريف وأمرهما بقتل بلكين في طريقهما، فأخبرا بلكين بذلك وتعاهدوا جميعاً على قتل محسن، وأنذر بهم، ففر إلى القلعة وأدركوه، فقتله بلكين لتسعة أشهر من ولايته. وولّي الأمر سنة سبع وثلاثين وكان شهماً قرماً حازماً سفاكاً للدماء. وقتل وزير محسن الذي تولى قبله.

وفي أيامه قتل جعفر بن أبي رمان مقدّم بسكرة لما أحس بنكثه، فخالف أهل بسكرة بأثر ذلك حسبما نذكره. ثم مات أخوه مقاتل بن محمد فاتهم به زوجته ناميرت بنت عمه علناس بن حماد فقتلها، وأحفظ ذلك أخاها الناصر وطوى على التبييت. وكان بلكين كثيراً ما يردد الغزو إلى المغرب، وبلغه استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصامدة فنهض نحوهم سنة أربع وخمسين وفر المرابطون إلى الصحراء، وتوغل بلكين في ديار المغرب، ونزل بفاس، واحتمل من أكابر أهلها وأشرافهم رهناً على الطاعة. وانكفأ راجعاً إلى القلعة فانتهز منه الناصر ابن عمه الفرصة في الثأر بأخته، ومالأه قومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بإبعاد الغزو والتوغل في أرض العدو، فقتله بتساله سنة أربع وخمسين.

وقام بالأمر من بعده، واستوزر أبا بكر بن أبي الفتوح، وعقد على المغرب لأخيه كباب وأنزله مليانة وعلى حمزة لأخيه رومان، وعلى نقاوس لأخيه خزر. وكان المعز قد هدم سورها فأصلحه الناصر، وعقد على قسطنطينة لأخيه بلبار، وعلى الجزائر ومرسى الدجاج لابنه عبد الله وعلى أشير لابنه يوسف، وكتب إليه حمو بن مليل البرغواطي من صفاقس بالطاعة وبعث إليه بالهدية. ووفد عليه أهل قسطنطينة ومقدمهم يحيى بن واطاس فأعلنوا بطاعته، وأجزل صلتهم وردهم إلى أماكنهم، وعقد عليها ليوسف بن خلوف من صنهاجة ودخل أهل القيروان أيضاً في طاعته وكذلك أهل تونس.

وكان أهل بسكرة لما قتل بلكين مقدمتهم جعفر بن أبي رمان خلعوا طاعة آل حماد واستبدوا بأمر بلدهم، وعليهم بنو جعفر، فسرح الناصر إليهم خلف بن أبي حيدرة وزيره ووزير بلكين قبله، فنازلها وافتتحها عنوة، واحتمل بني جعفر في جماعة من رؤسائها إلى القلعة فقتلهم الناصر وصلبهم، ثم قتل خلف بن أبي حيدرة بسعاية رجالات صنهاجة فيه، أنه لما بلغه خبر بلكين أراد تولية أخيه معمر، وشاورهم في ذلك، فقتله الناصر وولى مكانه أحمد بن جعفر بن أفلح.

ثم خرج الناصر ليتفقد المغرب فوثب علي بن راكان على تافربوست دار ملكهم وكان لما قتل بلكين هرب إلى إخوانه من عجيسة واهتبلوا الغرة في تافربوست لغيبة الناصر، فطرقوها ليلاً، وملكها علي فرجع الناصر من المسيلة وعاجلهم فسقط في أيديهم، وافتتحها عليهم عنوة وذبح علي بن راكان نفسه بيده.ثم وقعت بين العرب الهلاليين فتن وحروب ووفد عليه رجالات الأثبج صريخاً به على رياح، فأجابهم ونهض إلى مظاهرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة حتى نزل للأربس، وتواقعوا بسببه فغدرت بهم زناتة وجروا عليه وعلى قومه الهزيمة بدسيسة ابن المعز بن زيري بن عطية، وإغراء تميم بن المعز فانهزم الناصر، واستباحوا خزائنه ومضاربه، وقتل أخوه القاسم وكاتبه، ونجا إلى قسطنطينة في أتباعه.

ثم لحق بالقلعة في فل من عسكره، لم يبلغوا مايتين. وبعث وزيره ابن أبي الفتوح للإصلاح، فعقد بينهم وبينه صلحاً وتممه الناصر. ثم وفد عليه رسول تميم، وسعى عنده بالوزير ابن أبي الفتوح وأنه مائل إلى تميم فنكسه وقتله. وكان المستنصر بن خزرون الزناتي خرج في أيام الفتنة بيت الترك والمغاربة بمصر، ووصل إلى طرابلس فوجد بني عدي بها قد أخرجهم الأثبج وزغبة من إفريقية كما ذكرناه، فرغبهم في بلاد المغرب، وسار بهم حتى نزل المسيلة، ودخلوا أشير. وخرج إليه الناصر ففر إلى الصحراء ورجع، فرجع إلى مكانه من الإفساد، فراسله الناصر في الصلح فأسعفه، وأقطعه ضواحي الزاب ووريغة، وأوعز إلى عروس بن هندي رئيس بسكرة لعهده، وولي دولته أن يمكن به، فوصل المنتصر إلى بسكرة وخرج إليه عروس ابن هندي وأحمد نزله، وأشار إلى حشمه عند انسكاب المنتصر وذوية على الطعام فبادروا مكبين لطعنه، وفر أتباعه وأخذوا رأسه، وبعث به إلى الناصر فنصبه ببجاية، وصلب شلوه بالقلعة وجعلوه عظة لغيره.

وقتل كثير من رؤساء زناتة، فمن مغراوة: أبي الفتوح بن حبوس أمير بني سنجلس، وكانت له بلد لمدية والمرية قبيل من بطون صنهاجة سميت البلد بهم، وقتل معتصر بن حماد منهم أيضاً، وكان بناحية شلف فأجلب على عامل مليانة، وقتل شيوخ بني وريسفان من مغراوة، فكاتبهم السلطان لما كان مشتغلاً عنهم بشأن العرب. فزحفوا إلى معنصر وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى الناصر فنصبه على رأس القصر.وبعث إليه أهل الزاب أن عمر ومغراوة ظاهروا الأثبج من العرب على بلادهم، فبعث ابنه المنصور في العساكر ونزل وعلان بلد المنتصر بن خزرون وهدمها.

وبعث سراياه وجيوشه إلى بلد واركلا وولّى عليها، وقفل بالغنائم والسبي، وبلغه عن بني توجين من زناتة أنهم ظاهروا بني عدي من العرب على الفساد وقطع السبيل، وأميرهم إذ ذاك مناد بن عبد الله، فبعث ابنه المنصور إليهم بالعسكر، وتقبض على أمراء بني عدي: ساكن بن عبد الله وحميد بن خزعل ولا حق بن جهان، وتقبض أيضاً على أمير بني توجين وأخيه زيري وعميهما الأغلب وحمامة، وأحضرهم فوبخهم وقدر عليهم فغلبه في إجارتهم من أولاد القاسم رؤساء بني عبد الواد، وقتلهم جميعاً على الخلاف.

وفي سنة ستين افتتح جبل بجاية، وكان له قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم، إلا أن الكاف فيهم بلغتهم ليست كافاً بل هي بين الجيم والكاف، وعلى هذا القبيل من صنهاجة باقون لهذا العهد أوزاعاً في البربر. فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسماها الناصرية، وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهي بجاية، وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل إليها الناس، وأسقط الخراج عن ساكنيها وانتقل إليها سنة إحدى وستين.

وفي أيام الناصر هذا كان استفحال ملكهم وشغوفه على ملك بني باديس إخوانهم بالمهدية، ولما أضرع منه الدهر بفتنة العرب الهلاليين حتى اضطرب عليهم أمرهم، وكثر الثوار عليهم والمنازعون من أهل دولتهم، فاعتز آل حماد هؤلاء أيام الناصر هذا، وعظم شأن أيامهم، فبنى المباني العجيبة المؤنقة، وشيد المدائن العظيمة، وردد الغزو إلى المغرب وتوغل فيهم.

ثم هلك سنة إحدى وثمانين وقام بالأمر من بعده ابنه المنصور بن الناصر، ونزل بجاية سنة ثلاث وثمانين، وأوطنها بعساكره وخاصة بعرا من منازل العرب، وما كانوا يسومونهم بالقلعة من خطة الخسف وسوء العذاب بوطء ساحتها والعيث في نواحيها، وتخطف الناس من حولها لسهولة طرقها على رواحلهم، وصعوبة المسالك عليها في الطريق إلى بجاية لمكان الأوعار، فاتخذ بجاية هذه معقلاً وصيّرها داراً لملكه، وجدد قصورها وشيد جامعها. وكان المنصور هذا جمّاعة مولعاً بالبناء وهو الذي حضر ملك بني حماد وتأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين. فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميميون.

وكان أخوه يلباز على قسطنطينة منذ عهد الناصر أبيهما وهمّ بالاستبداد لأول ولاية المنصور، فسرح إليه أبا يكنى بن محصن بن العابد في العساكر، وعقد له على قسطنطينة وبونة فتقبض على بلباز وأشخصه إلى القلعة، وأقام والياً على قسطنطينة

مكانه، وولى أخاه ويغلان على بونة.ثم بدا له في الخلاف على المنصور وثار بقسطنطينة سنة سبع وثمانين وبعث أخاه من بونة إلى تميم بن المعز بالمهدية، واستدعاه لولاية بونة فبعث معه ابنه أبا الفتوح بن تميم، ونزل بونة مع ويغلان، وكاتبوا المرابطين بالمغرب الأقصى وجمعوا العرب على أمرهم.

وسرح المنصور عساكره فحاصروا بونه سبعة أشهر، ثم اقتحموها غلاباً، وتقبضوا على أبي الفتوح بن تميم وبعثوا به إلى المنصور فاعتقله بالقلعة.

ثم نازلت عساكره قسطنطينة واضطرب أحوال ابن أبي يكنى فخرج إلى القلعة بجبل أوراس، وتحصن بها. ونزل بقسطنطينة صليصل بن الأحمر من رجالات الأثبج. وداخل صليصل المنصور في أن يمكنه من قسطنطينة على مال يبذله ففعل، واستولى عليها المنصور. وأقام أبو يكنى بحصنه من أوراس، وردد الغارة على قسطنطينة فتوجهت إليه العساكر وحاصروه بقلعته، ثم اقتحموها عليه وقتلوه. وكان بنو ومانو من زناتة حياً جميعاً وقوماً أعزة، وكانت إليهم رئاسة زناتة. وكان رئيسهم لعهده ماخوخ، وكان بينهم وبين آل حماد صهر، فكانت إحدى بناتهم زوجة للناصر، وكانت أخرى عند المنصور.

ولما تجددت الفتنة بينه وبين قومهما أغزاهم المنصور بنفسه في جموع صنهاجة وحشوده، وجمع له ما خوخ ولقيه في زناتة، فانهزم المنصور إلى بجاية فقتل أخت ماخوخ التي كانت تحته. واستحكمت النفرة بين ماخوخ وبينه. وسار إلى ولاية أمراء تلمسان من لمتونة وحرضهم على بلاد صنهاجة، فكان ذلك مما دعا المنصور إلى النهوض إلى تلمسان، وذلك أن يوسف بن تاشفين لما ملك المغرب، واستفحل به أمره، سما إلى ملك تلمسان، فغلب عليها أولاد يعلى سنة أربع وسبعين على ما يأتي ذكره، وأنزلها محمد بن يغمر المسوفي وصيرها ثغراً لملكه فاضطلع بأمرها ونازل بلاد صنهاجة وثغورهم، فزحف إليه المنصور وأخرب ثغوره وحصون ماخوخ، وضيق عليه فبعث إليه يوسف بن تاشفين وصالحه.

وقبض أيدي المرابطين عن بلاد صنهاجة، ثم عاود المرابطون إلى شأنهم في بلاده، فبعث ابنه الأمير عبد اللّه، وسمع به المرابطون فانقبضوا عن بلاده وزحفوا إلى مراكش، واحتل هو بالمغرب الأوسط فشن الغارة في بلاد بني ومانوا، وحاصر الجعبات، وفتحها ثم عاود ذلك مرات كذلك، وعفا عن أهلها، ورجع إلى أبيه.ثم وقعت الفتنة بينه وبين ماخوخ. وقتل أخوه ولحق ابن ماخوخ بتلمسان، وظاهره ابن يغمر صاحب تلمسان على أمره، وأجلبوا على الجزائر فنازلوها يومين، مات عقيبها محمد بن يغمر صاحب تلمسان.

وولي يوسف بن تاشفين مكان أخيه تاشفين بن يغمر، فنهض إلى أشير وافتتحها، فقام المنصور في ركائبه ومعه كافة صنهاجة. ومن العرب أحياء الأثبج وزغبة وربيعة، وهم العقل من زناتة أمماً كثيرة، ونهض إلى غزو تلمسان سنة ست وسبعين في نحو عشرين ألفاً.ولقي أسطقسيف وبعث العسكر في مقدمته، وجاء على أثرهم.وكان تاشفين قد أفرج عن تلمسان وخرج إلى تسالة، ولقيته عساكر المنصور فهزموه، ولجأ إلى جبل الصخرة. وعاثت عساكر المنصور في تلمسان فخرجت إليه حوّا زوجة تاشفين أميرهم متذممة راغبة في الإبقاء، متوسلة بوشائج. الصنهاجة، فأكبر قصدها إليه وأكرم موصلها، وأفرج عنهم صبيحة يومه. وانكفأ راجعاً إلى حضرته بالقلعة. وأثخن بعدها في زناتة وشردهم بنواحي الزاب والمغرب الأوسط.ورجع إلى بجاية وأثخن في نواحيها، ودوخت عساكره قبائلها، فساروا في جبالها المنيعة مثل: بني عمران وبني تازروت والمنصورية والصهريج والناظور وحجر المغز، وقد كان أسلافه يرومون كثيراً عنها، فتمتنع عليهم فاستقام أمره واستفحل ملكه.

وقدم عليه معز الدولة بن صمادح من المرية فاراً أمام المرابطين لما ملكوا الأندلس، فنزل على المنصور وأقطعه تدلس وأنزله بها. وهلك سنة ثمان وتسعين فولي من بعده ابنه باديس، فكان شديد البأس عظيم النظر فنكب عبد الكريم بن سليمان وزير أبيه لأول ولايته، وخرج من القلعة إلى بجاية فنكب سهاماً عامل بجاية، وهلك قبل أن يستكمل سنة، وولي من بعده أخوه العزيز، وقد كان عزله عن الجزائر وغربه إلى جيجل فبعث عنه القائد علي بن حمدون فوصل، وبايعوه، وصالح زناتة وأصهر إلى ماخوخ فأنكحه ابنته. وطال أمر ملكه، وكانت أيامه هدنة وأمناً. وكان العلماء يتناظرون في مجلسه.

ونازلت أساطيله جربة فنزلوا على حكمه وأخذوا بطاعته، ونازل تونس وصالحه صاحبها أحمد بن عبد العزيز وأخذ بطاعته، وكبس العرب في أيامه القلعة وهم غازون فاكتسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها، وعظم عيثهم، وقاتلتهم الحامية فغلبوهم وأخرجوهم من البلد. ثم ارتحل العرب وبلغ الخبر إلى العزيز فبعث ابنه يحيى وقائده علي بن حمدون من بجاية في عسكر وتعبية، فوصل إلى القلعة وسكن الأحوال. وقد أمن العرب واستعتبوا فأعتبوا وانكفأ يحيى راجعاً إلى بجاية في عسكره. وعلى عهد العزيز. وهذا كان وصول مهدي الموحدين إلى بجاية قافلاً من

المشرق سنة اثنتي عشرة وغيّر بها المنكر، فسعى به عند العزيز وائتمر به، فخرج إلى بني ورياكل من صنهاجة كانوا ساكنين بوادي بجاية فأجاروه. ونزل عليهم بملالة وأقام بها يدرس العلم. وطلبه العزيز فمنعوه وقاتلوا دونه إلى أن رحل عنهم إلى المغرب.

وهلك العزيز سنة خمس عشرة وأربعمائة فولي من بعده ابنه يحيى، وطالت أيامه مستضعفاً مغلباً للنساء مولعاً بالصيد على حين انقراض الدولة وذهاب الأيام بقبائل صنهاجة واستحدث السكة ولم يحدثها أحد من قومه أدباً مع خلفائهم العبيديين، ونقل ابن حماد أن سكته في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه، فدائرة الوجه الواحد: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ والسطور: لا إله إلا اللّه ومحمد رسول اللّه، يعتصم بحبل اللّه يحيى بن العزيز باللّه الأمير المنصور. ودائرة الوجه الآخر: بسم اللّه الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وفي سطوره: الإمام أبو عبد اللّه المقتفي لأمر اللّه أمير المؤمنين العباسي.

ووصل سنة ثلاث وأربعين إلى القلعة لافتقادها ونقل ما بقي بها، وانتقض عليه بتوزر بن مروان، فجهز إليه الفقيه مطرف بن علي بن حمدون في العساكر فافتتحها عنوة وتقبض على ابن مروان وأوصله إليه فسجنه بالجزائر إلى أن هلك في معتقله، وقيل قتله. وبعث مطرف بابنه إلى تونس فافتتحها ونازل في وجهته هذه المهدية فامتنعت عليه، ورجع إلى بجاية وتغلب النصارى على المهدية، وقصده الحسن صاحبها فأجازه إلى الجزائر وأنزله بها مع أخيه القائد، حتى إذا زحف الموحدون إلى بجاية وفرّ القائد من الجزائر وأسلمها، قدموا الحسن على أنفسهم ولقي عبد المؤمن فأمنهم، وأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء الموحدين فانهزم وملك الموحدون بجاية.

وركب يحيى البحر إلى صقلية يروم الإجازة منها إلى بغداد. ثم عدل إلى بونة فنزل على أخيه الحارث ونكر عليه سوء صنيعه وإخراجه عن البلاد فارتحل عنه إلى قسطنطينة، فنزل على أخيه الحسن فتخلى له عن الأمر. وفي خلال ذلك دخل الموحدون القلعة عنوة. ودخل حوشن بن العزيز وابن الدحامس من الأثبج معه وخربت القلعة. ثم بايع يحيى لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين. ونزل قسطنطينة واشترط لنفسه فوفى له، ونقله إلى مراكش فسكنها. ثم انتقل إلى سلا سنة ثمان وخمسين فسكن قصر بني عشيرة إلى أن هلك في سنته. وأما الحارث بن عبد العزيز صاحب بونة ففر إلى صقلية واستصرخ صاحبها فصارخه على أمره ورجع إلى بونة وملكها. ثم غلب عليها الموحدون وقتلوه صبراً. وانقرض ملك بني حماد والبقاء لله وحده، ولم يبق من قبائل ماكسن إلا أوزاع بوادي بجاية ينسبون إليهم، وهم لهذا العهد في عداد الجند، ولهم أقطاع بنواحي البلد على العسكرة في جملة السلطنة مع قواده، واللّه وارث الأرض ومن عليها اه.

ملوك بني حبوس الخبر عن ملوك بني حبوس بن ماكسن من بني زيري من صنهاجة بغرناطة من عدوة الأندلس وأولية ذلك ومصايره

لما استبد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد بن هاد بولاية إفريقية سنة خمس وثمانين ولّى عمومته وقرابته ثغور عمله، فأنزل حماداً بأشير وأخاه يطوفت بتاهرت، وزحف زيري بن عطية صاحب فاس من مغراوة بدعوة المؤيد هشام خليفة قرطبة إلى عمل صنهاجة في جموع زناتة، ونزل تاهرت وسرح باديس عساكره لنظر محمد بن ابي العون فالتقوا على تاهرت، وانهزم صنهاجة، فزحف باديس بنفسه للقائهم، وخالف عليه فلفول بن سعيد بن خزرون صاحب طبنة ثم أجفل زيري بن عطية أمامه ورجع إلى المغرب، فرجع باديس الى القيروان، وترك عمومته أولاد زيري بأشير مع حماد وأخيه يطوفت وهم: زاوي وحلال وعمرم ومعنين وأجمعوا على الخلاف والخروج على باديس سنة سبع وثمانين، فأسلموا حماداً برمته واستولوا على جميع ما معه، واتصل الخبر بأبي البهار بن زيري، وهم مع باديس فخشيه على نفسه، ولحق بهم واجتمعوا في الخلاف، واشتغل باديس عنهم بحرب فلفول بن يانس مولى الحاكم القادم على طرابلس من قبله، وانفسح مجالهم في الفساد والعيث ووصلوا أيديهم بفلفول وعاقدوه.

ثم رجع أبو البهار عنهم إلى باديس فتقبله وصالح له ثم رجعوا إلى حماد سنة إحدى وتسعين، ولقيهم فهزمهم وقتل ماكسن وابنه. ولحق زاوي بجبل شنوق من ساحل مليانة، وأجاز البحر إلى الأندلس في بنيه وبني أخيه وحاشيته، ونزل على المنصور بن أبي عامر صاحب الدولة وكافل الخلافة الأموية، فأحسن نزلهم وأكرم وفادتهم، واصطنعهم لنفسه واتخذهم بطانة لدولته وأوليائه على ما يرومه من قهر الدولة والتغلب على الخلافة، ونظمهم في طبقات زناتة وسائر رجالات البربر الذين أدال بجموعهم من جنود

السلطان وعساكر الأموية وقبائل العرب، واستغلظ أمر صنهاجة بالأندلس واستفحلت إمارتهم، وحملوا دولة المنصور بن أبي عامر ولديه المظفر والناصر من بعده على كاهلهم.

ولما انقرض أمرهم واضمحلت دولتهم ونشأت الفتنة بالأندلس بين البرابرة وأهلها، فكان زاوي كبش تلك الوقائع ومحش حروبها.وتمرس بقرطبة هو وقومه صنهاجة وكافة زناتة والبربر حتى أثبتوا قدم خليفتهم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر الذي أتوه ببيعتهم، وأعطوه على الطاعة صفقتهم كما ذكرناه في أخبارهم.ثم اقتحموا به قرطبة عنوةً واصطلموا عامة أهلها وأنزلوا المعرات بذوي الصون منها وبيوتات الستر من خواصها، فحدّث الناس ذلك بأخبارها وتوصل زاوي عند استباحة قرطبة إلى رأس أبيه زيري بن مناد المتصور بجدران قصر قرطبة فأزاله وأصاره إلى قومه ليدفن في جدثه.

ثم كان شأن بني حمود من العلوية، وافترق أمر البرابرة واضطرمت الأندلس ناراً، وامتلأت جوانبها فتنة، وأسرى الرؤساء من البرابرة ورجالات الدولة على النواحي والأمصار فملكوها، وتحيزت صنهاجة إلى ناحية ألبيرة فكانت ضواحيها وحصل عليها استيلاؤهم، وزاوي يومئذ عضد البرابرة فنزل غرناطة واتخذها داراً لملكته ومعتصماً لقومه.

ثم وقع في نفسه سوء أثر البربر بالأندلس أيام الفتنة، وحذر مغبة الفعلة واستعاضت الدولة، فاعتزم على الرحلة وآوى إلى سلطان قومه بالقيروان سنة عشر وأربعمئة بعد غيبة عشرين سنة، وأنزل على المعز بن باديس حافد أخيه بلكين أجلّ ما كانت دولتهم بأمر إفريقية، وأترف وأوسع ملكاً وأوفر عدداً، فلقيه المعز بأحسن أحوال البر والتجلّة، وأنزله أرفع المنازل من الدولة وقدّمه على الأعمام والقرابة وأسكنه بقصره، وأبرز الحرم للقائه، فيقال: إنه لقيه من ذوات محارمه ألف امرأة لا تحل له واحدة منهن، ووارى إبراهيم مع شلوه بجدثه، وكان استخلف على عمله ابنه ونّا فظعن لأهل غرناطة فانتقضوا عليه، وبعثوا عن حبّوس ابن عمه ماكسن بن زيري مكانه ببعض حصون عمله، فبادر إليهم، ونزل بغرناطة، فانتقضوا عليه وبايعوه، واستحدث بها ملكاً، وكان من أعظم ملوك الطوائف بالأندلس إلى أن هلك سنة تسع وعشرين.

وولي من بعده ابنه باديس بن حبوس ويلقب بالمظفر، ولم يزل مقيماً لدعوة آل حمور أمراء مالقة بعد تخلفهم عن قرطبة سائر أيامه، وزحف إليها العامري صاحب المرية سنة تسع وعشرين، فلقيه باديس بظاهر غرناطة فهزمه وقتله وطالت أيامه ومد ملوك الطوائف أيديهم جميعاً إلى مدده فكان ممن استمده محمد بن عبد اللّه البرزالي لما حاصره إسماعيل بن القاضي بن عباد بعساكر أبيه فأمده باديس بنفسه وقومه وصار إلى صريخه مع ابن بقية قائد إدريس بن حمود صاحب المالقة سنة إحدى وثلاثين ورجعوا من طريقهم. وطمع إسماعيل بن القاضي بن عباد مع صريخه فيهم فاتبعهم ولحق بباديس في قومه، فاقتتلوا، وفر عسكر إسماعيل وأسلموه فقتله صنهاجة، وحمل رأسه إلى ابن حمود.

وكان القادر بن ذي النون صاحب طليطلة أيضاً يستدفع به وبقومه استطالة ابن عباد وأعوانه. وباديس هذا هو الذي مصّر غرناطة واختط قصبتها وشاد قصورها وشيد حصونها، وآثاره في مبانيها ومصانعها باقية لهذا العهد.واستولى على مالقة عند انقراض بني حمود سنة تسع وأربعين وأضافها إلى عمله، وهلك سنة سبع وستين وظهر أمر المرابطين بالمغرب واستفحل ملك يوسف بن تاشفين فولي من بعده حافده عبد اللّه بن بلكين بن باديس، وتغلب المظفر وعقد لأخيه تميم على مالقة فاستقام أمرها إلى أن أجاز يوسف بن تاشفين إلى العدوة إجازته المعروفة كما نذكره في أخباره. ونزل بغرناطة سنة ثلاث وثمانين فتقبض على عبد اللّه بن بلكين واستصفى أمواله وذخيرته والحق به أخاه تميماً من مالقة واستصحبها إلى العدوة، فأنزل عبد اللّه وتميماً بالسوس الأقصى وأقطع لهما إلى أن هلكوا في إيالته، ويزعم بنو الماكسن من بيوتات طنجة لهذا العهد أنهم من أعقابهم، فاضمحل ملك بلكانة من صنهاجة ومن إفريقية والأندلس أجمع والبقاء لله وحده اه.

الطبقة الثانية من صنهاجة وهم الملثمون وما كان لهم بالمغرب من الملك والدولة

هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها، فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذاً عن العمران، واستئناساً بالانفراد وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر، فنزلوا من ريف الحبشة جواراً، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزاً، واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد وكثروا، وتعددت قبائلهم من كذالة فلمتونة فمسوفة فوتريكة فناوكا فزغاوه ثم لمطة إخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة

طرابلس وبرقة.

وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم: بنو ورتنطق وبنو زمال وبنو صولان وبنو ناسجة، وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كاكدم وكان دينهم جميعاً المجوسية شأن برابرة المغرب.ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس، وكانت الرئاسة فيهم للمتونة.واستوسق لهم ملك ضخم مذ دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل توارثه ملوك منهم: تلاكاكين وورتكا وأوراكن بن ورتنطق جد أبي بكر بن عمر أمير لمتونة في مبتدأ دولتهم، وطالت أعمارهم فيها إلى الثمانين ونحوها، ودوخوا تلك البلاد الصحراوية وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام، فدان به كثيرهم.واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم وملك عليهم بعد تلاكاكين المذكور تيولوتان.

قال ابن أبي زرع: أول من ملك الصحراء من لمتونة تيولوتان، فدوخ بلاد الصحراء واقتضى مغارم السودان وكان يركب في مائة ألف نجيب. وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وملك بعده يلتان وقام بأمرهم وتوفي سنة سبع وثمانين ومائتين، وقام بأمرهم بعده ابنه تميم إلى سنة ست وثلثمائة، وقتله صنهاجة وافترق أمرهم. كلام ابن أبي زرع. وقال غيره: كان من أشهرهم تينزوا بن وانشيق بن بيزا وقيل برويان بن واشنق بن يزار ملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في المائة الرابعة. وفي عهد عبيد الله وابنه أبي القاسم من خلفاء الشيعة، كان يركب في مائة ألف نجيب، وعمله مسيرة شهرين في مثلها، ودان له عشرون ملكاً من ملوك السودان يعطونه الجزى، وملك من بعده بنوه ثم افترق أمرهم من بعد ذلك، وصار ملكهم طوائف ورئاستهم شيعاً، قال ابن أبي زرع:افترق أمرهم بعد تميم بن بلتان مائة وعشرون سنة إلى أن قام فيهم أبو عبيد الله بن تيفاوت المعروف بناشرت اللمتوني، فاجتمعوا عليه وأحبوه وكان من أهل الدين والصلاح، وحج وهلك لثلاثة أعوام من رئاسته في بعض غزواته.وقام بأمرهم صهره يحيى بن إبراهيم الكندالي. وبعده يحيى بن عمر بن تلاكاكين.اه كلامه.وكان لهذه الطبقة ملك ضخم بالمغرب والأندلس أولاً، وبإفريقية بعده فنذكره الآن على نسقه.

الخبر عن دولة المرابطين من لمتونة وما كان لهم بالعدوتين من الملك وأولية ذلك ومصايره

كان هؤلاء الملثمون في صحاريهم كما قلناه، وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة كما ذكرناه، وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه فدانوا لهم واستوثق لهم الملك. ثم افترقوا وكانت رئاسة كل بطن منهم في بيت مخصوص.فكانت رئاسة لمتونة في بني ورتانطق بن منصور بن مصالة بن المنصور بن مزالت بن أميت بن رتمال بن تلميت وهو لمتونة.ولما أفضت الرئاسة إلى يحيى بن إبراهيم الكندالي، وكان له صهر في بني ورتانطق هؤلاء، وتظاهروا على أمرهم، وخرج يحيى بن إبراهيم لقضائه فرصة في رؤساء من قومه في سني أربعين وأربعمائة، فلقوا في منصرفهم بالقيروان شيخ المذهب المالكي أبو عمران الفاسي، واغتنموا ما متعوا به من هدية وما شافههم به من فروض أعيانهم من فتاويه.

وسأله الأمير يحيى أن يصحبهم من تلميذه من يرجعون إليه في نوازلهم وقضايا دينهم، فندب تلميذه إلى ذلك حرصاً على إيصال الخير إليهم لما رأى من رغبتهم فيه.فاستوعبوا مسغبة بلادهم. وكتب لهم الفقيه أبو عمران إلى الفقيه محمد وكاك بن زلوا اللمطي بسلجماسة من الآخذين عنه، وعهد إليه أن يلتمس لهم من يثق بدينه وفقهه، ويروض نفسه على مسغبة أرضهم في معاشه، فبعث معهم عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي، ووصل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين. ثم هلك يحيى بن إبراهيم وافترق أمرهم، واطّرحوا عبد الله بن ياسين، واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف، فأعرض عنهم وترهب وتنسك معه يحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة، وأخوه أبو بكر، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحاً في المصيف وغمراً في الشتاء، فتعود جزراً منقطعة، فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة، وتسامح بهم من قلبه مثقال حبة من خير، فتسايلوا إليهم ودخلوا دينهم وغيضتهم.

ولما كمل معهم ألف من الرجالات، قال لهم شيخهم عبد الله بن ياسين: إن ألفاً لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه، فأخرجوا بنا لذلك، فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكدالة ومسوفة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة، وأذن لهم في

أخذ الصدقات من أموال المسلمين، وسماهم بالمرابطين، وجعل أمرهم في العرب إلى الأمير يحيى بن عمر، فتخطوا الرمال الصحراوية إلى بلاد درعة وسجلماسة فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا. ثم كتب إليهم وكاك اللمطي بما نال المسلمين فيما إليه من العسف والجور من بني وانودين أمراء سجلماسة من مغراوة، وحرضهم على تغيير أمرهم، فخرجوا من الصحراء سنة خمس وأربعين وأربعمائة في عدد ضخم ركباناً على المهارى أكثرهم، وعمدوا إلى درعة. لا بل كانت هنالك بالحمى وكانت تناهز خمسين ألفاً ونحوها.

ونهض إليهم مسعود بن وانودين أمير مغراوة وصاحب سجلماسة ودرعة لمدافعتهم عنها وعن بلاده، فتواقعوا وانهزم ابن وانودين وقتل واستلحم عسكره مع أموالهم، واستلحمهم ودوابهم وإبل الحمى التي كانت ببلد درعة. وقصدوا سجلماسة فدخلوها غلاباً وقتلوا من كان بها من أهل مغراوة، وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس، واقتضوا الصدقات واستعملوا عليها منهم وعادو إلى صحرائهم، فهلك يحيى بن عمر سنة سبع وأربعين وقدم مكانه أخاه أبا بكر وندب المرابطين إلى فتح المغرب فغزا بلاد السوس سنة ثمان وأربعين.

وافتتح ماسة وتارودانت وجميع معاقله.ثم افتتح مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وفر أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي إلى تادلاً واستضاف إلى بني يفرن بها ثم افتتح المرابطون بلاد المصامدة بجبال درن، وجاسوا خلالها سنة خمسين، ثم أغزوا تادلاً فاستباحوها واستلحموا بني يفرن ملوكها وقتل معهم لقوط بن يوسف المغراوي صاحب أغمات وتزوج امرأته زينب بنت إسحاق النفراوية، وكانت مشهورة بالجمال والرئاسة، وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن واطاس، وكان شيخاً على وريكة وهزرجة بزمن هيلانة في دولة أمغارن في بلاد المصامدة وهم الشيوخ. وتغلب بنو يفرن على وريكة، وملكوا أغمات فتزوج لقوط زينب هذه، ثم تزوجها بعده أبو بكر بن عمر كما ذكرنا. ثم دعا المرابطين الى جهاد برغواطة الذين كانوا بتامستا وإنفا وجهات الريف الغربي، فكانت لهم فيهم وقائع وأيام استشهد عبد الله بن ياسين في بعضها سنة خمسين.

وقدم المرابطون بعده سليمان بن عدو ليرجعوا إليه في قضايا دينهم.واستمر أبو بكر بن عمر في إمارة قومه على جهادهم ثم استأصل شأفتهم ومحا أثر دعوتهم من المغرب وهلك في جهادهم سليمان بن عدو سنة إحدى وخمسين لسنة من وفاة عبد الله بن ياسين.

ثم نازل أبو بكر مدينة لواتة وافتتحها عنوة وقتل من كان بها من زناتة سنة اثنتين وخمسين. وبلغه وهو لم يستتم فتح المغرب بعد ما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء، حيث أصل أعياصهم ووشايج أعراقهم ومنبع عددهم، فخشي افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة، وتلافى أمره بالرحلة. وأكد ذلك زحف بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة إلى المغرب سنة ثلاث وخمسين لقتالهم، فارتحل أبو بكر إلى الصحراء، واستعمل على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين ونزل له عن زوجه زينب بنت إسحاق ولحق بقومه. ورفع ما كان بينهم من خرق الفتنة، وفتح باباً من جهاد السودان، فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم.

وأقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب، ونزل بلكين صاحب القلعة فاس وأخذ رهنها على الطاعة، وانكفأ راجعاً. فحينئذ سار يوسف بن تاشفين في عسكره من المرابطين ودوخ أقطار المغرب. ثم رجع أبو بكر الى المغرب فوجد يوسف بن تاشفين قد استبد عليه. وأشارت عليه زينب أن يريه الاستبداد في أحواله وأن يعدّ له متاع الصحراء وماعونها، ففطن لذلك الأمير أبو بكر وتجافى عن المنازعة وسلم له الأمر، ورجع إلى أرضه فهلك لمرجعه سنة ثمانين وأربعمائة.

واختط يوسف مدينة مراكش سنة أربع وخمسين ونزلها بالخيام وأدار سورها على مسجد وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، وكمل تشييدها وأسوارها ابنه من بعده سنة ست وعشرين وخمسمائة. وجعل يوسف مدينة مراكش لنزله ولعسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها في جبل درن، فلم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعاً. ثم صرف عزمه إلى مطالبة مغراوة وبني يفرن وقبائل زناتة بالمغرب، وجذب الحبل من أيديهم، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم فقد كانوا من ذلك على الم_ حدث المؤرخون في أخبار مدينة فاس ودولتهم فيها بكثير منه _ فنازل أولاً قلعة فازاز وبها مهدي بن توالي من بني يحفش.

قال صاحب نظم الجواهر: وهم بطن من زناتة، وكان أبو توالي صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده، فنازله يوسف بن تاشفين.ثم استجاش به على فاس مهدي بن يوسف الكزنابي صاحب مكناسة بما كان عدواً لمعنصر المغراوي صاحب فاس، فزحف في عساكر المرابطين إلى فاس، وجمع إليه معنصر ففض جموعه، وارتحل يوسف إلى فاس وتقرى منازلها وافتتح جميع الحصون المحيطة بها، وأقام عليها أياماً قلائل، وظفر بعاملها بكار

بن إبراهيم فقتله، ثم نهض إلى صفروي فافتتحها وقتل من كان بها من أولاد وانودين المغراوي ورجع إلى فاس فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين ثم رجع إلى غمارة ونازلهم وفتح كثيراً من بلادهم.وأشرف على طنجة وبها سكوت البرغواطي الحاجب صاحب سبتة، وبقية الأمراء من موالي الحمودية وأهل دعوتها. ثم رجع إلى منازلة قلعة فازاز، وخالفه معنصر إلى فاس فاستولى عليها وقتل عاملها.

واستدعى يوسف بن تاشفين مهدي بن يوسف صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل بأيديهما، وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى وليه ومساهمه في شدته الحاجب سكوت البرغواطي.واستصرخ أهل مكناسة بالأمير يوسف بن تاشفين فسرح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فأخذوا بمخنقها وقطعوا المرافق عنها، وألحوا بالقتال عليها فمسّهم الجهد.وبرز معنصر إلى مناجزة عدوه لإحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه وهلك. واجتمع زناتة من بعده على القاسم بن محمد بن عبد الرحمن من ولد موسى بن أبي العافية، كانوا ملوكاً بتازا وتسول، فزحفوا إلى عساكر المرابطين والتقوا بوادي صفير فكان الظهور لزناتة. واستلحم كثير من المرابطين، واتصل خبرهم بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة مهدي من بلاد فازاز فارتحل سنة ست وخمسين، ونزل عليها عسكر من المرابطين وصار يتنقل في بلاد المغرب فافتتح بني مراسن ثم فنزلاوة، ثم بلاد ورغة سنة ثمان وخمسين.

ثم افتتح بلاد غمارة سنة ستين. وفي سنة اثنتين وستين نازل فاس فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة حتى أعوزت مدافنهم فرادى، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات، وخلص من نجا منهم من القتل إلى بلاد تلمسان وأمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين القرويين والأندلسيين من عدوتيها، وصيّرها مصراً واحداً، وأدار عليها الأسوار وحمل أهلها على الاستكثار من المساجد، ورتب بناءها، وارتحل سنة ثلاث وستين إلى وادي ملوية، فافتتح بلادها وحصون وطاط من نواحيها. ثم نهض سنة خمس وستين إلى مدينة الدمنة فافتتحها عنوة، ثم افتتح حصن علودان من حصون غمارة. ثم نهض سنة سبع وستين إلى جبال غياثة وبني مكود من أحواز تازا فافتتحها ودوخها، ثم قسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه، ثم استدعاه المعتمد بن عباد إلى الجهاد فاعتذر له بمكان الحاجب سكوت البرغواطي وقومه من أولياء الدولة الحمودية بسبتة، فأعاد إليه ابن عباد الرسل بالمشايعة إليهم، فجهز إليهم قائده صالح بن عمران في عساكر لمتونة، فلقيه سكوت الحاجب بظاهر طنجة في قومه ومعه ابنه ضياء الدولة، فانكشف وقتل الحاجب سكوت ولحق ابنه العزيز ضياء الدولة.و كتب صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف بن تاشفين، ثم أغزى الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب الأوسط سنة اثنتين وسبعين قائده مزدلي بن تبلكان بن محمد بن وركوت من عشيره في عساكر لمتونة لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان، وبها يومئذ الأمير العباس بن بختي من ولد يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر، فدوخوا المغرب الأوسط وصاروا في بلاد زناتة، وظفروا بيعلى ابن الأمير العباسي فقتلوه، وانكفأوا راجعين من غزاتهم.

ثم نهض يوسف بن تاشفين سنة ثلاث بعدها إلى الريف وافتتح كرسيف ومليلة وسائر بلاد الريف وخرب مدينة نكور فلم تعمر بعده ثم نهض في عساكره المرابطين إلى بلاد المغرب الأوسط فافتتح مدينة وجدة وبلاد بني يزناسن ثم افتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة، وقتل العباس بن بختي أمير تلمسان وأنزل محمد بن تينعمر المستوفى بها في عساكر المرابطين، فصارت ثغراً لملكه.ونزل بعساكره واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته، وهو اسم المحلة بلسان البربر. ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس إلى الجزائر، وانكفأ راجعاً إلى المغرب فاحتل مراكش سنة خمس وسبعين ولم يزل محمد بن تينعمر والياً بتلمسان إلى أن هلك، وولي بعده أخوه تاشفين.

ثم إن الطاغية تكالب على بلاد المسلمين وراء البحر، وانتهز الفرصة فيها بما كان من الفرقة بين ملوك الطوائف فحاصر طليطلة، وبها القادر بن يحيى بن ذي النون حتى نالهم الجهد، وتسلمها منه صلحاً سنة ثمان وسبعين على أن يملكه بلنسية، فبعث معه عسكراً من النصرانيةّ فدخل بلنسية وتملّكها على حين مهلك صاحبها أبي بكر بن العزيز بين يدي حصار طليلطة. وسار الطاغية في بلاد الأندلس حتى وقف بفرضة المجاز من صريف، وأعيا أمره أهل الأندلس واقتضى منهم الجزية فأعطوها. ثم نازل سرقسطة وضيق على ابن هود بها، وطال مقامه وامتد أمله إلى تملكها، فخاطب المعتمد بن عباد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين منتجزاً وعده في صريخ الإسلام بالعدوة وجهاد الطاغية.

وكاتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة فاهتز للجهاد وبعث ابنه المعز في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضة المجاز، فنازلها براً، وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً فاقتحموها عنوةً في ربيع الآخر سنة ست وسبعين وتقبض على ضياء الدولة وقيّد إلى

المغرب فقتله صبراً، وكتب إلى أبيه بالفتح. ثم أجاز ابن عباد البحر في جماعته والمرابطين، ولقيه بفاس مستنفراً للجهاد، وأنزل له ابنه الراضي عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطاً لجهاده فأجاز البحر في عساكر المرابطين وقبائل المغرب ونزل الجزيرة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ولقيه المعتمد بن عباد وابن الأفطس صاحب بطليوس.وجمع ابن أدفونش ملك الجلالقة أمم النصرانية لقتاله، ولقي المرابطين بالزلاقة من نواحي بطليوس فكان للمسلمين عليه اليوم المشهور سنة إحدى وثمانين.

ثم رجع إلى مراكش وخلف عسكراً بالإشبيلية لنظر محمد ومجون بن سيمونن بن محمد بن وركوت من عشيره، ويعرف أبوه بالحاج، وكان محمد من بطانته وأعاظم قواد تكاليب الطاغية على شرق الأندلس، ولم يغن فيه أمراء الطوائف شيئاً، فزحف إليه من سبتة ابن الحاج قائد يوسف بن تاشفين في عساكر المرابطين فهزموا جميع النصارى هزيمة شنيعة. وخلع ابن رشيق صاحب مرسية، وتمادى إلى دانية ففر علي بن مجاهد أمامه إلى بجاية ونزل على الناصر بن علناس فأكرمه ووصل ابن جحاف قاضي بلنسية إلى محمد بن الحاج مغرياً بالقادر بن ذي النون، فأنفذ معه عسكراً وملك بلنسية، وقتل ابن ذي النون وذلك سنة خمس وثمانين، وانتهى الخبر إلى الطاغية فنازل بلنسية واتصل حصاره إياها إلى أن ملكها سنة خمس وثمانين، ثم استخلصتها عساكر المرابطين، وولّى عليها يوسف بن تاشفين الأمير مزدلي، وأجاز يوسف بن تاشفين ثانية سنة ست وثمانين وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمّون به عليهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم، فوجد عليهم، وعهد برفع المكوس وتحرّي المعدلة، فلما أجاز انقبضوا عنه إلا ابن عباد فإنه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم، فتقبض على ابن رشيق فأمكن ابن عباد منه العداوة التي بينهما.

وبعث جيشاً إلى المرية ففر عنها ابن صمادح ونزل على المنصور بن الناصر ببجاية، وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكره ومحلاته فساء نظره، وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم، وصارت إليه بذلك فتاوى أهل الشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي، فعهد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبيد الله بن بلكين بن باديس وأخاه تميماً من مالقة بعد أن كان منهما مداخلة الطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين، وبعث بهما إلى المغرب فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه وفشت السعايات بينهما.ونهض يوسف بن تاشفين إلى سبتة فاستقر بها، وعقد للأمير سير بن أبي بكر بن محمد وركوت على الأندلس وأجازه فقدم عليها، وقعد ابن عباد عن تلقيه ومبرته فأحفظه ذلك، وطالبه بالطاعة للأمير يوسف والنزول عن الأمر، ففسد ذات بينهما، وغلبه على جميع عمله.

واستنزل أولاد المأمون من قرطبة ويزيد الراضي من رندة وقرمونة واستولى على جميعها وقتلهم. وصمد إلى أشبيلية فحاصر المعتمد بها وضيق عليه، واستنجد الطاغية فعمد إلى استنقاذه من هذا الحصار، فلم يغن عنه شيئاً، وكان دفاع لمتونة مما فت في عضده، واقتحم المرابطون إشبيلية عليه عنوةً سنة أربع وثمانين وتقبض على المعتمد وقاده أسيراً إلى مراكش، فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه بأغمات سنة سبعين وأربعمائة ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الأفطس فقتله وابنيه يوم الأضحى سنة تسع وثمانين بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية، وأن يملّكوه مدينة بطليوس، ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث سنة تسعين وزحف إليه الطاغية فبعث عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج فانهزم النصارى أمامه، وكان الظهور للمسلمين.

ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين وانضم إليه محمد بن الحاج وسير بن أبي بكر واقتحموا عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصماً بالنصارى.وغزا الأمير مزدلي صاحب بلنسية إلى بلاد برشلونة فأثخن بها وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع. وانتظمت بلاد الأندلس في ملكة يوسف بن تاشفين، وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن، واستولى على العدوتين، واتصلت هزائم النصارى على يد المرابطين مراراً وتسمّى بأمير المسلمين، وخاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد، وبعث إليه عبد اللّه بن العرب على يد المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر، فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس، فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم. وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضّانه على العدل والتمسك بالخير، ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف بحكم اللّه.

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الأندلس سنة سبع وتسعين وقد كان ما قدمناه في أخبار بني حماد من زحف المنصور بن الناصر إلى تلمسان سنة سبع وتسعين للفتنة التي وقعت بينه وبين تاشفين بن يتنعمر وافتتاحه أكثر بلادهم، فصالحه

يوسف بن تاشفين واسترضاه بعدول تاشفين عن تلمسان سنة سبع وتسعين وبعث إليهما مزدلي من بلنسية، وولي بلنسية عوضاً منه أبا محمد ابن فاطمة، وكثرت غزواته في بلاد النصرانية.

وهلك يوسف على رأس المائة الخامسة، وقام بالأمر من بعده ابنه علي بن يوسف فكان خير ملك. وكانت أيامه صدراً منها وداعة ولدولته على الكفر وأهله ظهور وعزة، وأجاز إلى العدوة فأثخن في بلاد العدو قتلاً وسبياً، وولى على الأندلس الأمير تميم بن... وجمع الطاغية للأمير تميم فهزمه تميم، ثم أجاز علي بن يوسف سنة ثلاث ونازل طليطلة وأثخن في بلاد النصارى ورجع، وعلى أثر ذلك قصد ابن ردمير سرقسطة وخرج ابن هود للقائه فانهزم المسلمون ومات ابن هود شهيداً وحاصر ابن ردمير البلد حتى نزلوا على حكمه.

ثم كان سنة تسع شأن برقة وتغلّب أهل جنوة عليها وخلاؤها. ثم رجع العمران إليها على يد ابن تامرظست من قواد المرابطين كما مر في ذكرها عند ذكر الطوائف، ثم استمرت حال علي بن يوسف في ملكه، وعظم شأنه، وعقد لولده تاشفين على غرب الأندلس سنة ست وعشرين وأنزله قرطبة وإشبيلية، وأجاز معه الزبير بن عمر، وحشد قومه وعقد لأبي بكر بن إبراهيم المسوفي على شرق الأندلس وأنزله بلنسية، وهو ممدوح بن خفاجة ومخدوم أبي بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ. وعقد لابن غانية المسوفي على الجزائر الشرقية دانية وميورقة، واستقامت أيامه، ولأربع عشرة سنة من دولته كان ظهور الإمام المهدي صاحب دعوة الموحدين، فقيهاً منتحلاً للعلم والفتيا والتدريس، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، متعرضاً بذلك للمكروه في نفسه.

ونالته ببجاية وتلمسان ومكناسة أذايات من الفسقة ومن الظالمين، وأحضره الأمير علي بن يوسف للمناظرة ففلج علي خصومه من الفقهاء بمجلسه، ولحق بقومه هرغة من المصامدة، واستدرك علي بن يوسف رأيه فتفقده وطالب هرغة بإحضاره فأبوا عليه فسرح إليهم البعث فأوقعوا به، وتقاسم معهم هنتانة وتينملل على إجارته والوفاء بما عاهدهم عليه من القيام بالحق والدعاء إليه حسبما يذكر ذلك كله بعد دولتهم. وهلك المهدي في سنة أربع وعشرين وقام بأمرهم عبد المؤمن بن علي الكومي كبير أصحابه بعهده إليه، وانتظمت كلمة المصامدة وأغزوا مراكش مراراً.وفشل ريح لمتونة بالعدوة الأندلسية، وظهر أمر الموحدين وفشت كلمتهم في برابرة المغرب. وهلك علي بن يوسف سنة سبع وثلاثين وقام بالأمر من بعده ولده تاشفين وولي عهده، وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين كما كانوا على حين استغلظ أمر الموحدين واستفحل شأنهم وألحّوا في طلبه.

وغزا عبد المؤمن غزوته الكبرى إلى جبال المغرب، ونهض تاشفين بعساكره بالبسائط إلى أن نزل تلمسان ونازله عبد المؤمن والموحدون بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطري المطل عليها، ووصله هنالك مدد صنهاجة من قبل يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية مع قائده طاهر بن كباب، وشرهوا إلى مدافعة الموحدين فغلبوهم، وهلك طاهر واستلحم الصنهاجيون وفر تاشفين إلى وهران في موادعة لب بن ميمون قائد البحر بأساطيله، واتبعه الموحدون واقتحموا عليه البلد فهلك، يقال: سنة إحدى وأربعين، واستولى الموحدون على المغرب الأوسط واستلحموا لمتونة.ثم بويع بمراكش ابنه إبراهيم وألفوه مضعفاً عاجزاً، فخلع وبويع عمه إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين. وعلى هيئة ذلك وصل الموحدون إليها وقد ملكوا جميع بلاد المغرب عليه، فخرج إليهم في خاصته فقتلهم الموحدون وأجاز عبد المؤمن والموحدون إلى الأندلس سنة إحدى وخمسين وملكوا واستلحموا أمراء لمتونة وكافتهم وفروا في كل وجه، ولحق فلهم بالجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة إلى أن جددوا من بعده للملك بناحية إفريقية، والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة ابن غانية من بقية المرابطين وما كان له من الملك والسلطان بناحية قابس وطرابلس وإجلابه على الموحدين ومظاهرة قراقش الغزي له على أمره وأولية ذلك ومصايره

كان أمر المرابطين من أوله في كدالة من قبائل الملثمين حتى هلك يحيى بن إبراهيم فاختلفوا على عبد الله بن ياسين إمامهم، وتحول عنهم إلى لمتونة وأقصر عن دعوته وتنسك وترهّب كما قلناه، حتى إذا أجاب داعية يحيى بن عمر وأبي بكر بن عمر من بني ورتانطق بيت رئاسة لمتونة، واتبعهم الكثير من قومهم وجاهدوا معه سائر قبائل الملثمين، وكان مسوفة قد دخل في دعوة المرابطين كثير منهم، فكان لهم بذلك في تلك الدولة حظ من الرئاسة والظهور، وكان يحيى المسوفي من رجالاتهم وشجعانهم، وكان مقدماً عند يوسف بن تاشفين لمكانه في قومه.واتفق أنه قتل بعض رجالات لمتونة في ملاحاة وقعت بينهما، فتثاور الحيّان وفرّ هو إلى الصحراء، ففدّى يوسف بن تاشفين القتيل ووداه،

واسترجع علياً من مقره لسنين من مغيبه، وأنكحه امرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها إليه في ذلك، فولدت منه محمداً ويحيى ونشأ في ظل يوسف بن تاشفين وحجر كفالته.

ورعى لهما علي بن يوسف ذمام هذه الأواصر وعقد ليحيى على غرب الأندلس وأنزله قرطبة. وعقد لمحمد على الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة سنة عشرين وخمسمائة، وانقرض بعد ذلك أمر المرابطين. وتقدم وفد الأندلس إلى عبد المؤمن وبعث معهم أبا إسحاق برّاق بن محمد المصمودي من رجالات الموحدين وعقد له على حرب لمتونة كما يذكر في أخبارهم، فملك إشبيلية واقتضى طاعة يحيى بن علي ابن غانية، واستنزله عن قرطبة إلى جيان والقلعة، فسار منها إلى غرناطة يستنزل من بها من لمتونة، ويحملهم على طاعة الموحدين فهلك هنالك سنة ثلاث وأربعين ودفن بقصر باديس. وأما محمد بن علي فلم يزل والياً إلى أن هلك وقام بأمره بعده ابنه عبد اللّه.

ثم هلك وقام بالأمر أخوه إسحاق بن محمد بن علي، وقيل: إن إسحاق ولي بعد ابنه محمد، وأنه قتله غيرة من أخيه عبد اللّه لمكان أبيه منه، فقتلهما معاً، واستبد بأمره إلى أن هلك سنة ثمانين وخمسمائة. وخلف ثمانية من الولد وهم: محمد وعلي ويحيى وعبد اللّه والغازي وسير والمنصور وجبارة، فقام بالأمر ابنه محمد. ولما أجاز يوسف بن عبد المؤمن بن علي إلى ابن الزبرتير لاختبار طاعتهم، ولحين وصوله نكر ذلك إخوته وتقبضوا عليه واعتقلوه. وقام بالأمر أخوه علي بن محمد بن علي، وتلوموا في رد ابن الزبرتير إلى مرسله، وحالوا بينه وبين الأسطول حين بلغهم أن الخليفة يوسف القسري استشهد في الجهاد بأركش من العدوة، وقام بالأمر ابنه يعقوب واعتقلوا ابن الزبرتير وركبوا البحر في اثنين وثلاثين قطعة من أساطيلهم وأسطوله، وركب معه إخوته يحيى وعبد اللّه والغازي، وولي على ميورقة عمه أبا الزبير، وأقلعوا إلى بجاية فطرقوها على حين غفلة من أهلها، وعليها السيد أبو الربيع بن عبد اللّه بن عبد المؤمن، وكان بايميلول من خارجها في بعض مذاهبه، فلم تمانعه أهل البلد واستولوا عليها في صفر سنة إحدى وثمانين واعتقلوا بها السيد أبا موسى بن عبد المؤمن، كان قافلاً من إفريقية يؤم المغرب واكتسحوا ما كان بدار السادة والموحدين.

وكان والي القلعة قاصداً مراكش وهو يستخبر خبر بجاية، فرجع وظاهر السيد أبا الربيع، وزحف إليهما علي ابن غانية فهزمهما واستولى على أموالهما وابنتهما ولحقا بتلمسان، فنزلا بها على السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وأخذ في تحصين تلمسان ورمّ أسوارها، وأقاما عند السيد يرومان الكرة من صاحب تلمسان. وعاث علي بن محمد ابن غانية في الأموال وفرّقها في ذؤبان العرب ومن انضاف إليهم، ورحل إلى الجزائر فافتتحها، وولّى عليها يحيى بن أبي طلحة. ثم افتتح مازونة وانتهى إلى مليانة فافتتحها، وولى عليها بدر ابن عائشة. ثم نهض إلى القلعة فحاصرها ثلاثاً ودخلها عنوة، وكانت في المغرب خطة مشهورة. ثم قصد قسطنطينة فامتنعت عليه واجتمعت عليه وفود العرب فاستنجدهم وجاؤوا بأحلافهم. ولما اتصل الخبر بالمنصور وهو بسبتة مرجعه من الغزو، سرح العساكر في البر لنظر السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وعقد له على المغرب الأوسط.

وبعث الأساطيل إلى البحر وقائدها أحمد الصقلي وعقد عليها لأبي محمد بن إبراهيم بن جامع، وزحف العساكر من كل جهة فثار أهل الجزائر على يحيى بن أبي طلحة ومن معه، وأمكنوا منهم السيد أبا يزيد فقتلهم على شلف، وعفا عن يحيى لنجدة عمه طلحة، وكان بدرا بن عائشة أسرى من مليانة واتبعه الجيش فلحقوه أمام العدو، فتقبضوا عليه بعد قتال مع البرابرة حين أرادوا إجارته، وقادوه إلى السيد أبي يزيد فقتله.

وسبق الأسطول إلى بجاية فثار بيحيى ابن غانية وفر إلى أخيه علي لمكانه من حصار قسطنطينة بعد أن كان أخذ بمخنقها. ونزل السيد أبو زيد بعساكره بتكلات من ظاهر بجاية، وأطلق السيد أبا موسى من معتقله. ثم رحل في طلب العدو فأفرج عن قسطنطينة بعد أن كان أخذها ومضى شديداً في الصحراء، والموحدون في اتباعه حتى انتهوا إلى مغرة ونغارس. ثم نقلوا إلى بجاية واستنفر السيد أبا زيد بها وقصد علي ابن غانية في قفصة فملكها، ونازل بورق وقسطيلية فامتنعت وارتحل إلى طرابلس وفيها قراقش الغزي المطغري، وكان من خبره على ما نقل أبو محمد التيجاني في كتاب رحلته: أن صلاح الدين صاحب مصر بعث تقي الدين ابن أخيه شاه إلى المغرب لافتتاح ما أمكنه من المدن تكون له معقلاً يتحصن فيه من مطالبة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام الذي كان صلاح الدين عمه من وزرائه. واستعجلوا النصر فخشوا عاديته. ثم رجع تقي الدين من طريقه لأمر عرض له ففر قراقش الأرمني بطائفة من جنوده، وفر إبراهيم بن قراتكين سلاح دار المعظم نسبة للملك المعظم شمس الدولة ابن أيوب أخي صلاح الدين. فأما قراقش فلحق بسنترية وافتتحها وذلك سنة ست وثمانين وخطب فيها لصلاح الدين ولأستاذه تقي الدين، وكتب لهما بالفتح وافتتح زويلة وغلب بني خطاب الهواري على ملك

فزان وكانت ملكاً لعمه محمد بن الخطاب بن يصلتن بن عبد اللّه بن صنفل بن خطاب وهو آخر ملوكهم، وكانت قاعدة ملكه زويلة.وتعرف زويلة ابن خطاب فتقبض عليه وغلبه على المال حتى هلك، ولم يزل يفتح البلاد إلى أن وصل طرابلس واجتمع عليه عرب ذياب بن سليم. ونهض بهم إلى جبل نفوسة فملكه واستخلص أموال العرب، واتصل به مسعود بن زمام شيخ الوداودة من رياح عند مفرة من المغرب كما ذكرناه. واجتمعت أيديهم على طرابلس وافتتحها واجتمع إليه ذؤبان العرب من هلال وسليم، وفرض لهم العطاء واستبد بملك طرابلس وما وراءها. وكان قراقش من الأرمن وكان يقال له: المظفري لأنه مملوك المظفر والناصري لأنه يخطب للناصر صلاح الدين.وكان يكتب في ظهائره ولي أمير المؤمنين بسكون الميم، ويكتب علامة الظهير بخطه: وثقت باللّه وحده أسفل الكتاب. وأما إبراهيم بن قراقش صاحبه، فإنه سار مع العرب إلى قفصة فملك جميع منازلها، وراسل بني الزند رؤساء قفصة فأمكنوه من البلد لانحرافهم عن بني عبد المؤمن، فدخلها وخطب للعباسي ولصلاح الدين إلى أن قتله المنصور عند فتح قفصة كما نذكره في أخبار الموحدين.

رجع الخبر إلى ابن غانية

ولما وصل علي ابن غانية إلى طرابلس ولقي قراقش اتفقا على المظاهرة على الموحدين واستمال ابن غانية كافة بني سليم من العرب وما جاورهم من مجالاتهم ببرقة وخالطوه في ولايتهم، واجتمع إليه من كان منحرفاً عن طاعة الموحدين من قبائل هلال مثل:جشم ورياح والأثبج. وخالفتهم زغبة إلى الموحدين، فاحتفلوا بطاعتهم سائر أيامهم. ولحق بابن غانية فل قومه من لمتونة ومنونة من أطراف البقاع، فانعقد أمره وتجدد بذلك القطر سلطان قومه. وجدد رسوم الملك واتخذ الآلة وافتتح كثيراً من بلاد الجريد وأقام فيها الدعوة العباسية. ثم بعث ولده وكاتبه عبد المؤمن من فرسان الأندلس إلى الخليفة الناصر بن المستضيء ببغداد مجدداً ما سلف لقومه من المرابطين بالمغرب من البيعة والطاعة وطلب المدد والإعانة. فعقد له كما كان لقومه وكتب الكتاب من ديوان الخليفة إلى ملك مصر والشام النائب عن الخليفة بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، فجاء إلى مصر فكتب له صلاح الدين إلى قراقش واتصل أمرهما في إقامة الدعوة العباسية.

وظاهره ابن غانية على حصار قابس فافتتحها قراقش من يد سعيد بن أبي الحسن، وولّى عليها مولاه وجعل فيها ذخائره. ثم اتصل بها إلى أن وصل إلى قفصة خلعوا طاعة ابن غانية، فظاهره قراقش عليها فافتتحها عنوة. ثم رحل إلى توزر وقراقش في مظاهرته فافتتحها أيضاً. ولما اتصل بالمنصور ما نزل بإفريقية من أجلاب ابن غانية وقراقش على بلاد الجريد نهض من مراكش سنة ثمان وثمانين لحسم هذا الداء واستنقاذ ما غلبوا عليه. ووصل إلى تونس فأراح بها وسرّح في مقدمته السيد أبا يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، ومعه عمر بن أبي زيد من أعيان الموحدين، فلقيهم ابن غانية في جموعه بعهده، فانهزم الموحدون وقتل ابن أبي زيد وجماعة منهم، وأسر علي بن الزبرتير في آخرين، وامتلأت أملاك العدو من أسلابهم ومتاعهم، ووصل سرعان الناس إلى تونس، وصمد المنصور إليهم فأوقع بهم بظاهر الحامة في شعبان من سنته. وأفلت ابن غانية وقراقش بحومة الوفر وبادر أهل قابس وكانت خالصة لقراقش دون ابن غانية، فأتوا طاعتهم وأسلموا من كان عندهم من أصحابه وذويه فاحتلموا الى مراكش، وقصد المنصور إلى توزر فحاصرها فأسلموا إليه من كان فيها من أصحاب ابن غانية. وبادر أهلها بالطاعة.

ثم رجع إلى قفصة فحاصرها حتى نزلوا على حكمه، وقتل من كان بها من الحشود. وقتل إبراهيم بن قراتكين، وامتن على سائر الأعوان وخلى سبيلهم، وأمن أهل البلد في نفسهم وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة.ثم غزا العرب واستباح حللهم وأحياءهم حتى استقاموا على طاعته. وفرّ ذو المراس كثير الخلاف والفتنة منهم إلى المغرب مثل: جشم والرياح والعاصم كما قدمناه. وقفل إلى المغرب سنة أربع وثمانين، ورجع ابن غانية وقراقش إلى حالهما من الأجلاب على بلاد الجريد إلى أن هلك علي في بعض حروبها مع أهل نفزاوة سنة أربع وثمانين، أصابه سهم غرب كان فيه هلاكه فدفن هنالك، وعفي على قبره، وحمل شلوه إلى ميورقة فدفن بها. وقام بالأمر أخوه يحيى بن إسحاق بن محمد ابن غانية وجرى في مظاهرة قراقش وموالاته على سنن أخيه علي.

ثم نزع قراقش إلى طاعة الموحدين سنة ست وثمانين فهاجر إليهم بتونس وتقبله السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأقام معه أياماً.ثم فر ووصل إلى قابس فدخلها فخادعه وقتل جماعة منهم، واستبد على أشياخ ذباب والكعوب من بني سليم فقتل سبعين منهم بقصر العروسيين، كان منهم: محمود بن طوق أبو الحاميد وحميد بين جارية أبو الجواري.ونهض إلى طرابلس فافتتحها ورجع إلى بلاد الجريد فاستولى على أكثرها، ثم فسد ما بينه وبين يحيى ابن غانية. وسار إليه يحيى فانتهز قراقش ولحق

بالجبال وتوغل فيها، ثم فر إلى الصحراء ونزل ودّان ولم يزل بها إلى أن حاصره ابن غانية من بعد ذلك بمدة وجمع عليه أهل الثأر من ذباب، واقتحمها عليه عنوة وقتله ولحق ابنه بالموحدين.ولم يزل بالحضرة إلى أيام المستنصر. ثم فر إلى ودّان وأجلب في الفتنة فبعث إليه ملك كام من قتله لسنة ست وخمسين وخمسمائة.

رجع الخبر: واستولى ابن غانية على الجريد، واستنزل ياقوت فولى قراقش من طرده، كذا ذكره التجاني في رحلته. ولحق ياقوت بطرابلس، ونازله ابن غانية بها، وطال أمر حصاره. وبالغ ياقوت في المدافعة، وبعث يحيى عن أسطول ميورقة فأمده أخوه عبد اللّه بقطعتين منه فاستولى على طرابلس، وأشخص ياقوت إلى ميورقة واعتقل بها إلى أن أخذها الموحدون.وكان من خبر ميورقة أن علي ابن غانية لما نهض إلى فتح بجاية ترك أخاه محمداً وعلي بن الزبرتير في معتقلهما. فلما خلا الجو من أولاد غانية وكثير من الحامية داخل ابن الزبرتير في معتقله نفر من أهل الجزيرة، وثاروا بدعوة محمد وحاصروا القصبية إلى أن صالحهم أهلها على إطلاق محمد بن إسحاق فأطلق من معتقله، وصار الأمر له فدخل في دعوة الموحدين، ووفد مع علي بن الزبرتير على يعقوب المنصور.وخالفهم إلى ميورقة عبد اللّه بن إسحاق، ركب البحر من إفريقية إلى صقلية وأمدوه بأسطول، ووصل إلى ميورقة عند وفادة أخيه على المنصور فملكها، ولم يزل بها والياً.وبعث إلى أخيه علي بالمدد إلى طرابلس كما ذكرناه، وبعثوا إليه ياقوت فاعتقله عنوة إلى أن غلب عليه الموحدون سنة تسع وتسعين فقتل، ومضى ياقوت إلى مراكش وبها مات.

رجع الخبر: ولما فرغ ابن غانية من أمر طرابلس ولى عليها تاشفين ابن عمه الغازي، وقصد قابس فوجد بها عامل الموحدين ابن عمر تافراكين بعثه إليهم صاحب تونس الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص، فاستدعاه أهلها لما فر عنهم نائب قراقش أخذ ابن غانية لطرابلس فنازل قابس، وضيق عليها حتى سألوه الأمان على أن يخلي سبيل ابن تافراكين فعقد لهم ذلك وأمكنوه من البلد فملكها سنة إحدى وتسعين وأغرمهم ستين ألف دينار، وقصد المهدية سنة سبع وتسعين فاستولى عليها وقتل الثائر بها محمد بن عبد الكريم الركراكي.

وكان من خبره أنه نشأ بالمهدية وصار من جندها المرتدين، وهو كوفي الأصل، وكانت له شجاعة معروفة، فجمع لنفسه خيلاً ورجالاً وصار يغير على المفسدين من الأعراب بالأطراف فداخلهم هيبة، وبعد في ذلك صيته وأمده الناس بالدعاء.وقدم أبو سعيد بن أبي حفص على إفريقية من قبل المنصور لأول ولايته، وولّى على المهدية أخاه يونس، وطالب محمد بن عبد الكريم بالسهمان في المغانم، وامتنع فأنزل به النكال وعاقبه بالسجن فدبر ابن عبد الكريم الثورة وداخل فيها بطانته، وتقبّض على أبي علي يونس سنة خمس وتسعين واعتقله إلى أن فداه أخوه أبو سعيد بخمسمائة دينار من الذهب العين واستبد ابن عبد الكريم بالمهدية ودعا لنفسه، وتلقب المتوكل على اللّه. ثم وصل السيد أبو زيد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن والياً على إفريقية فنازل ابن عبد الكريم بتونس سنة ست وتسعين واضطرب معسكره بحلق الوادي وبرز إليه جيوش الموحدين فهزمهم وطال حصاره لهم. ثم سألوه الإفراج عنهم فأجاب لذلك، وارتحل عنهم إلى حصار يحيى ابن غانية بفاس فنازله مدة.

ثم ارتحل إلى قفصة وخرج ابن غانية في أتباعه فانهزم ابن عبد الكريم أمامه ولحق بالمهدية، وحاصره ابن غانية بها سنة سبع وتسعين وأمده السيد أبو زيد بقطعتين من الغزاة حتى سأل ابن عبد الكريم النزول على حكمه وخرج إليه فقبض عليه ابن غانية وهلك في اعتقاله، واستولى على المهدية واستضافها إلى ما كان بيده من طرابلس وقابس وصفاقس والجريد. ثم نهض إلى الجانب الغربي من إفريقية فنازل باجة، ونصب عليها المجانيق وافتتحها عنوةً وخربها، وقتل عاملها عمر بن غالب، ولحق شريدها بالأربس وشقبنارية وتركها خاوية على عروشها، وبعد مدة تراجع إليها ساكنها بأمن السيد أبي زيد، فزحف إليها ابن غانية ونازلها، وزحف إليه السيد أبو الحسن أخو السيد أبي زيد فلقيه بقسطنطينة، وانهزم الموحدون واستولى على معسكرهم.

ثم نهض إلى بسكرة واستولى عليها وقطع أيدي أهلها، وتقبض على حافظها أبي الحسن بن أبي يعلى، وتملك بعدها بلنسية والقيروان وبايعه أهل بونة، ورجع إلى المهدية وقد استفحل ملكه، فأزمع على حصار تونس وارتحل إليها سنة تسع وتسعين واستعمل على المهدية ابن عمه علي بن الغازي ويعرف بالكافي بن عبد اللّه بن محمد بن علي ابن غانية، ونزل بالجبل الأحمر من ظاهر تونس ونزل أخوه بحلق الوادي. ثم ضايقوها بمعسكرهم وردموا خندقها ونصبوا المجانيق والآلات، واقتحموها لأربعة أشهر من حصارها في ختام المائة السادسة. وقبض على السيد أبي زيد وابنيه ومن كان معه من الموحدين، وأخذ أهل تونس بغرم مائة ألف دينار، وولّى بقبضها منهم كاتبه ابن عصفور وأبا بكر بن عبد العزيز بن السكاك، فأرهقوا الناس بالطلب حتى لاذ معظمهم بالموت واستعجل القتل فيما نقل أن إسماعيل بن عبد الرفيع من بيوتاتها ألقى بنفسه في بئر فهلك، فرجع الطلب ببقيتها عنهم.

وارتحل إلى نفّوسة والسيد أبو زيد معتقل في معسكره ففعل بهم مثل ذلك، وأغرمهم ألف ألف مرتين من الدنانير، وكثر عيثه وإضراره بالرعية، وعظم طغيانه وعتوه، واتصل بالناصر بمراكش ما دهم أهل إفريقية منه ومن ابن عبد الكريم قبله، فامتعض لذلك ورحل إليها سنة إحدى وستمائة. وبلغ يحيى ابن غانية خبر زحفه إليه، فخرج من تونس إلى القيروان ثم إلى قفصة واجتمع إليه العرب وأعطوه الرهن على المظاهرة والدفاع، ونازل طرّة من حصون مغراوة، فاستباحها، وانتقل إلى حامة مطماطة. ونزل الناصر تونس، ثم قفصة، ثم قابس، وتحصن منه ابن غانية، في جبل دمّر، فرجع عنه إلى المهدية، وعسكر عليها واتخذ الآلة لحصارها.

وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص لقتال ابن غانية في أربعة آلاف من الموحدين سنة اثنتين وستمائة فلقيه بجبل تاجرًا من نواحي قابس، وأوقع به وقتل أخاه جبارة بن إسحاق واستنقذ السيد أبا زيد من معتقله، ثم افتتح الناصر المهدية ودخل إليها علي بن الغازي في دعوة فتقبله، ورفع مكانه ووصله بهدية وافق وصولها من سبتة إليه على يد واصل مولاه وكان بها ثوبان منسوجان بالجواهر فوصله بذلك كله، ولم يزل معه إلى أن استشهد مجاهداً.

وولّى الناصر على المهدية محمد بن يغمور من الموحدين ورجع إلى تونس. ثم نظر فيمن يوليه أمر إفريقية لسد فرجها والذب عنها ومدافعة ابن غانية وجموعه دونها.فوقع اختياره على الشيخ أبي محمد بن أبي حفص، فعقد له على ذلك سنة ثلاث كما ذكرناه في أخباره.ورجع الناصر إلى المغرب وأجمع ابن غانية النهوض لقتال الموحدين بتونس، وجمع ذؤبان العرب من الدواودة وغيرهم، وأوفد الدواودة يومئذ محمد بن مسعود بن سلطان وتحيز بنو عوف بن سليم إلى الموحدين، والتقوا بشبرو من نواحي تبسة فانهزمت جموع ابن غانية، ولجأ إلى جهة طرابلس.

ثم نهض إلى المغرب في جموعه من العرب والملثمين فانتهى إلى سجلماسة وامتلأت أيدي أتباعه من النهاب، وخرقوا الأرض بالعبث والفساد. وانكفأ إلى المغرب الأوسط وداخله المفسدون من زناتة، وأغزوا به صاحب تلمسان السيد أبا عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن فلقيه بتاهرت فهزمه ابن غانية، وقتله وأسر وافده، وكر راجعاً إلى إفريقية، فاعترضه الشيخ أبو محمد صاحب إفريقية في جموع الموحدين، واستنقذ الغنائم من أيديهم. ولجأ ابن غانية إلى جبال طرابلس، وهاجر أخوه سيد بن إسحاق إلى مراكش فقبله الناصر وأكرمه. ثم اجتمع إلى ابن غانية طوائف العرب من رياح وعوف وهيث ومن معهم من قبائل البربر، وعزم على دخول إفريقية. ونهض إليهم الشيخ أبو محمد سنة ست ولقيهم بجبل نفّوسة، ففلّ عسكرهم واستلحم أمرهم، وغنم ما كان معهم من الظهر والكراع والأسلحة. وقتل يومئذ محمد بن الغازي وجوار بن يفرن، وقتل معه ابن عمه من كتاب ابن أبي الشيخ ابن عساكر بن سلطان وهلك يومئذ من العرب الهلاليين أمير قرة سمّاد بن نخيل.

حكى ابن نخيل: أن مغانم الموحدين يومئذ من عساكر الملثمين كانت ثمانية عشر ألفاً من الظهر، فكان ذلك مما أوهن من شدته ووطّى من بأسه. وثارت قبائل نفوسة بكاتبه ابن عصفور فقتلوا ولديه، وكان ابن غانية يبعثه عليهم للمغرم. وسار أبو محمد في نواحي إفريقية ودفع سلبهم واستأثر أشياخيهم بأهلهم، وأسكنهم بتونس حسماً لفسادهم. وصحلت أحوال إفريقية إلى أن هلك الشيخ أبو محمد سنة ثمان عشرة وستمائة وولّى أبو محمد السيد أبو العلا إدريس بن يونس بن عبد المؤمن، ويقال: بل وليها قبيل مهلك الشيخ أبي محمد، فاستطار بعد مهلكه ثور ابن غانية، ونجم نفاقه وعيثه، فعابه رعيته ونهض إليه السيد أبو العلا ونزل قابس وأقام بقصر العروسيين، وسرح ولده السيد أبا زيد بعسكر من الموحدين إلى درج وغدامس، وسرح عسكراً آخر إلى ودّان لحصار ابن غانية، فأرجف بهم العرب ونهضوا وهمّ السيد أبو العلا، وفر ابن غانية إلى الزاب، واتبعه السيد أبو زيد فنازل بسكرة واقتحمها عليه، ونجا ابن غانية وجمع أوباشاً من العرب والبربر، وأتبعه السيد أبو زيد في الموحدين وقبائل هوارة، وتزاحفوا بظاهر تونس سنة إحدى وعشرين وستمائة فانهزم ابن غانية وجموعه، وقتل كثير من الملثمين وامتلأت أيدي الموحدين من الغنائم.

وكان لهوارة يومئذ، وأميرهم حناش بن بعرة بن ونيفسن، في هذا الزحف أثر مذكور وبلاء حسن، وبلغ السيد أبا زيد إثر هذه الوقيعة خبر مهلك أبيه بتونس، فانكفّ راجعاً، وأعيد بنو أبي حفص إلى مكان أبيهم الشيخ أبي محمد بن أثال بإفريقية. واستقل الأمير أبو زكريا منهم بأمرها، واقتلعها عن ملكه إلى عبد المؤمن وتناولها من يد أخيه أبي محمد عبد الله.وهذا الأمير أبو زكريا هو جد الخلفاء الحفصيين وماهد أمرهم بإفريقية، فأحسن دفاع ابن غانية عنها وشرده في أقطارها. ورفع يده شيئاً فشيئاً عن النيل من أهلها ورعاياها. ولم يزل شريداً مع العرب بالقفار، فبلغ سجلماسة من أقصى المغرب والعقبة الكبرى من تخوم الديار المصرية. واستولى على ابن مذكور صاحب السويقة من تخوم برقة، وأوقع بمغراوة بواجر ما بين متيجة ومليانة، وقتل أميرهم منديل بن عبد

الرحمن وصلب شلوه بسور الجزائر.

وكان يستخدم الجند فإذا سئموا الخدمة تركهم لسبيلهم إلى أن هلك لخمسين سنة من إمارته سنة إحدى وثلاثين وستمائة وقيل: ثلاث وثلاثين، ودفن وعفى أثر مدفنه. يقال: بوادي الرجوان قبلة الأربس يقال: بجهة مليانة من وداي شلف، ويقال: بصحراء باديس ومديد من بلاد الزاب. وانقرض أمر الملثمين من مسوقة ولمتونة ومن جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس بمهلكه. وذهب ملك صنهاجة من الأرض بذهاب ملكه وانقطاع أمره. وقد خلف بنات بعثهن زعموا إلى الأمير أبي زكريا لعهده بذلك إلى علجه جابر فوضعن في يده. وبلغه وفاة أبيهن وحسن ظنه في كفالته إياهن، فأحسن الأمير أبو زكريا كفالتهن، وبنى لهن بحضرته داراً لصونهن معروفة لهذا العهد بقصر البنات.

وأقمن تحت حراسته وفي سعة من رزقه موصولات لوصاة أبيهن بذلك منهن وحفظهن لوصاته. ولقد يقال إن ابن عم لهن خطب إحداهن، فبعث إليها الأمير أبو زكريا فقال لها: هذا ابن عمك وأحق بك، فقالت: لو كان ابن عمنا ما كفلنا الأجانب، إلى أن هلكن عوانس بعد أن متّعن من العمر بحظ.

أخبرني والدي رحمه اللّه: أنه أدرك واحدة منهن أيام حياته في سني العشر والسبعمائة تناهز التسعين من السنين. قال: ولقيتها وكانت من أشرف النساء نفساً وأسراهن خلقاً وأزكاهن خلالاً واللّه وارث الأرض ومن عليها.

ومضى هؤلاء الملثمون وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جوار السودان حجزاً بينهم وبين الرمال التي هي تخوم بلاد البربر من المغربين وإفريقية، وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط في المغرب إلى ساحل النيل بالمشرق. وهلك من قام بالملك منهم بالعدوتين، وهم قليل من مسوقة ولمتونة كما ذكرناه، أكلتهم الدولة وابتلعتهم الآفاق والأقطار، وأفناهم الرق واستلحمهم أمراء الموحدين وبقي من أقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من افتراق الكلمة واختلاف البين، وهم الآن يعطون طاعة لملوك السودان، يجبون إليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم.

واتصل بنيانهم على بلاد السودان إلى المشرق مناظر السلع العرب بلاد المغربين وإفريقية، فكدالة منهم في مقابلة ذوي حسان من المعقل عرب السوس الأقصى ولمتونة وتريكة في مقابلة ذوي منصور وذوي عبد اللّه من المعقل أيضاً عرب المغرب الأقصى، ومسوقة في مقابلة زغبة عرب المغرب الأوسط، ولمطة في مقابلة رياح عرب الزاب وبجاية وقسطنطينة، وتاركا في مقابلة سليم عرب إفريقية، وأكثر ما عندهم من المواشي الإبل لمعاشهم وحمل أثقالهم وركوبهم، والخيل قليلة لديهم أو معدومة. ويركبون من الإبل الفارهة ويسمونها النجيب، ويقاتلون عليها إذا كانت بينهم حرب، وسيرها هملجة، وتكاد تلحق بالركض وربما يغزوهم أهل القفر من العرب وخصوصاً بنو سعيد من بادية رياح، فهم أكثر العرب غزواً إلى بلادهم فيستبيحون من صحبوه منهم يرمونه في بطون مغاير.فإذا اتصل الصائح بأحيائهم وركبوا في أتباعهم اعترضوهم على المياه قبل وصولهم من تلك البلاد فلا يكادون يخلصون، ويشتد الحرب بينهم فلا يخلص العرب من غوائلهم إلا بعد جهد، وقد يهلك بعضهم، و للّه الخلق والأمر.وإذ عرض لنا ملوك السودان فلنذكر ملوكهم لهذا العهد المجاورين لملوك المغرب.

الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء الملثمين ووصف أحوالهم والإلمام بما اتصل بنا من دولتهم

هذه الأمم السودان من الآدميين هم أهل الإقليم الثاني وما وراءه إلى آخر الأول بل وإلى آخر المعمورة متصلون ما بين المغرب والمشرق، ويجاورون بلاد البربر بالمغرب وإفريقية وبلاد اليمن والحجاز في الوسط، والبصرة وما وراءها من بلاد الهند بالمشرق، وهم أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج والحبشة والنوبة، وأما أهل المغرب منهم فنحن ذاكروهم بعد،وأما نسبهم فإلى حام بن نوح بالحبش من ولد حبش بن كوش بن حام، والنوبة من ولد نوبة بن كوش بن كنعان بن حام فيما قاله المسعودي، وقال ابن عبد البر: إنهم من ولد نوب بن قوط بن مصر بن حام، والزنج من ولد زنجي بن كوش، وأما سائر السودان فمن ولد قوط بن حام فيما قاله ابن عبد البر، ويقال: هو قبط بن حام.

وعدّ ابن سعيد من قبائلهم وأممهم تسع عشر أمة، منهم في المشرق الزنج على بحر الهند، لهم مدينة فنقية وهم مجوس، وهم الذين غلب رقيقهم بالبصرة على ساداتهم مع دعي الزنج في خلافة المعتمد.قال: ويليهم بربرا، وهم الذين ذكرهم امرؤ القيس في شعره. والإسلام لهذا العهد فاش فيهم، ولهم مدينة مقدشوا على البحر الهندي يعمرها تجار المسلمين ومن غربيهم وجنوبهم الدمادم وهم حفاة عراة.قال: وخرجوا إلى بلاد الحبشة والنوبة عند خروج التتر إلى العراق، فعاثوا فيها ثم رجعوا.قال: ويليهم الحبشة وهم أعظم أمم السودان وهم مجاورون لليمن على شاطىء البحر

الغربي ومنه غزوا ملك اليمن ذي نواس وكانت دار مملكتهم كعبر، وكانوا على دين النصرانية، وأخذ بالإسلام واحد منهم زمن الهجرة على ما ثبت في الصحيح، والذي أسلم منهم لعهد النبي ﷺ وهاجر إليه الصحابة قبل الهجرة إلى المدينة فآواهم ومنعهم، وصلى عليه النبي ﷺ عندما نعي إليه، كان اسمه النجاشي وهو بلسانهم: انكاش بالكاف المشمة بالجيم عرّبتها العرب جيماً محضة وألحقتها ياء النسب، شأنها في الأسماء الأعجمية إذا تصرفت فيها، وليس هذا الاسم سمة لكل من تملك منهم كما يزعم كثير من الناس ممن لا علم له بهذا، ولو كان كذلك لشهروا اسمه إلى اليوم لأن ملكهم لم يتحول منهم.

وملكهم لهذا العهد اسمه الحطى ما أدري اسم السلطان نفسه، أو اسم العشيرة الذين فيهم الملك، وفي غربيه مدينة داموت وكان بها ملك من أعاظمهم وله ملك ضخم، وفي شماليه ملك آخر منهم اسمه حق الدين محمد بن علي بن ولصمع في مدينة أسلم أولوه في تواريخ مجهولة. وكان جده واصمع مطيعاً لملك دامون، وأدركت الحطى الغيرة من ذلك فغزاه واستولى على بلاده، ثم اتصلت الفتنة وضعف أمر الحطى فاسترجع بنو ولصمع بلادهم من الحطى وبنيه، واستولوا على وفات وخربوها. وبلغنا أن حق الدين هلك، وملك بعده أخوه سعد الدين وهم مسلمون ويعطون الطاعة للحطى أحياناً وينابذونه أخرى والله مالك الملك.

قال ابن سعيد: ويليهم البجاوة وهم نصارى ومسلمون، ولهم جزيرة بسواكن في بحر السوس، ويليهم النوبة إخوة الزنج والحبشة ولهم مدينة دنقلة غرب النيل، وأكثرهم مجاورون للديار المصرية، ومنهم رقيق. ويليهم زغاوة وهم مسلمون، ومن شعوبهم تاجرة ويليهم الكانم وهم خلق عظيم، والإسلام غالب عليهم ومدينتهم حيمي ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان. وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية منذ أولها، ويليهم من غربهم كوكو، وبعدهم نغالة والتكرور ولمى وتمنم وجالي وكوري وأفكرار، ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانية في الغرب اه كلام ابن سعيد.

ولما فتحت إفريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب فلم يجدوا فيهم أعظم من ملوك غانية، كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب، وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك، وحاضرة ملكهم غانية مدينتان على حافتي النيل من أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمراً، ذكرها مؤلف كتاب رجار وصاحب المسالك والممالك، وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما زعم الناقلون تعرف صوصو بصادين مضمومتين أو سينين مهملتين، ثم بعدها أمة أخرى تعرف مالّي ثم بعدها أمة أخرى تعرف كوكو ويقال: كاغو ثم بعدها أمة أخرى تعرف بالتكرور.

وأخبرني الشيخ عثمان فقيه أهل غانية وكبيرهم علماً وديناً وشهرةً، قدم مصر سنة تسع وتسعين وستمائة حاجاً بأهله وولده ولقيته بها فقال: إنهم يسمون التكرور زغاي ومالي أنكاريه اه.

ثم إن أهل غانية ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر كما ذكرناه، وعبروا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الأتاوات والجزى، وحملوا كثيراً منهم على الإسلام فدانوا به. ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أمم السودان واستعبدوهم وأصاروهم في جملتهم. ثم إن أهل مالّي كثروا أمم السودان في نواحيهم تلك، واستطالوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو وملكوا جميع ما بأيديهم من ملكهم القديم، وملك أهل غانة إلى البحر المحيط من ناحية الغرب وكانوا مسلمين، يذكرون أن أول من أسلم منهم ملك اسمه برمندانة هكذا ضبطه الشيخ عثمان. وحج هذا الملك واقتفى سننه في الحج ملوكهم من بعده.

وكان ملكهم الأعظم الذي تغلب على صوصو وافتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه ماري جاطة، ومعنى ماري عندهم الأمير الذي يكون من نسل السلطان وجاطة الأسد، واسم الحافد عندهم تكن، ولم يتصل بنا نسب هذا الملك. وملك عليهم خمساً وعشرين سنة فيما ذكروه. ولما هلك ولّي عليهم من بعده منساولي ومعنى منسا السلطان، ومعنى ولي بلسانهم علي، وكان منساولي هذا من أعاظم ملوكهم، وحج أيام الظاهر بيبرس، وولّي عليهم من بعده أخوه واتى، ثم بعده أخوه خليفة وكان محمقاً رامياً، فكان يرسل السهام على الناس فيقتلهم مجّاناً، فوثبوا عليه فقتلوه. وولّي عليهم من بعده سبط من أسباط ماري جاطة يسمى بأبي بكر، وكان ابن بنته فملكوه على سنن الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت. ولم يقع إلينا نسبه ونسب أبيه.

ثم ولي عليهم من بعده مولى من مواليهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة. وقال الشيخ عثمان: ضبطه بلسانهم أهل غانية سبكرة، وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا، وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم. وافتتح بلاد كوكو وأصارها في ملكه أهل مالي. واتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور في المشرق، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان، وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وإفريقية.

وقال الحاج يونس ترجمان التكرور: إن الذي فتح كوكو هو سغمنجة من قواد منسا موسى، وولّي من بعده ساكورة وهذا هو ابن السلطان ماري جاطة. ثم من بعده ابنه محمد بن قو، ثم انتقل ملكهم من ولد السلطان ماري جاطة إلى ولد أخيه أبي بكر فولي عليهم منسا موسى بن أبي بكر، وكان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تؤثر عنه، وحج سنة أربع وعشرين وسبعمائة، لقيه في الموسم شاعر الأندلس أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويجن وصحبه إلى بلاده. وكان له اختصاص وعناية ورثها من بعده ولده إلى الآن، وأوطنوا والاتر من تخوم بلادهم من ناحية المغرب، ولقيه في منصرفه صاحبنا المعمّر أبو عبد اللّه ابن خديجة الكومي من ولد عبد المؤمن، كان داعية بالزاب للفاطمي المنتظر، وأجلب عليهم بعصائب من العرب فكر به واركلا واعتقله، ثم خلى سبيله بعد حين، فخاض القفر إلى السلطان منسا موسى مستجيشاً به عليهم، وقد كان بلغه توجهه للحج، فأقام في انتظاره ببلد غدامس يرجو نصراً على عدوه ومعونة على أمره لما كان عليه منسا موسى من استفحال ملكه بالصحراء الموالية لبلد واركلا وقوة سلطانه فلقي منه مبرة وترحباً ووعده بالمظاهرة والقيام بثأره واستصحبه إلى بلدة أخرى وهو الثقة.

قال: كنا نواكبه أنا وأبو إسحاق الطويجن دون وزرائه ووجوه قومه نأخذ بأطراف الأحاديث حيث يتسع المقام، وكان يتحفنا في كل منزل بطرف المآكل والحلاوات قال: والذي تحمّل آلته وحربته من الوصائف خاصة اثنا عشر ألفاً لابسات أقبية الديباج والحرير اليماني.

قال الحاج يونس ترجمان هذه الأمة بمصر: جاء هذا الملك منسا موسى من بلده بثمانين حملاً من التبر، كل حمل ثلاثة قناطير، قال: وإنما يحملون على الوصائف والرجال في أوطانهم فقط، وأما السفر البعيد كالحج فعلى المطايا.

قال أبو خديجة: ورجعنا معه إلى حضرة ملكه فأراد أن يتخذ بيتاً في قاعدة سلطانه محكم البناء مجللاً بالكلس لغرابته بأرضهم، فأطرفه أبو إسحاق الطويجن ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته. وكان صنّاع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم، ووصله باثني عشر ألفاً من مثاقيل التبر مبثوثة عليها، إلى ما كان له من الأثرة والميل إليه والصلات السنيّة. وكان بين هذا السلطان منسا موسى وبين ملك المغرب لعهده من بني مرين السلطان أبي الحسن مواصلة ومهاداة سفرت بينهما فيها الأعلام من رجال الدولتين، واستجاد صاحب المغرب من متاع وطنه وتحف ممالكه مما تحدث عنه الناس على ما نذكره عند موضعه، بعث بها مع علي بن غانم المغفل وأعيان من رجال دولته.وتوارثت تلك الوصلة أعقابهما كما سيأتي واتصلت أيام منسا موسى هذا خمساً وعشرين سنة.

ولما هلك ولي أمر مالي من بعده ابنه منسا مغا، ومعنى مغا عندهم محمد، وهلك لأربع سنين من ولايته، وولي أمرهم من بعده منسا سليمان بن أبي بكر وهو أخو موسى، واتصلت أيامه أربعاً وعشرين سنة، ثم هلك فولة بعده ابنه منسا بن سليمان وهلك لتسعة من ولايته، فولي عليهم من بعده ماري جاطه بن منسا مغا بن منسا موسى واتصلت أيامه أربعة عشر عاماً وكان أشر وال عليهم بما سامهم من النكال والعسف وإفساد الحرم. واتحف مَلك المغرب لعهده السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن بالهدية المذكورة سنة اثنتين وستين وسبعمائة وكان فيها الحيوان العظيم الهيكل المستغرب بأرض المغرب المعروف بالزرافة، تحدث الناس بما اجتمع فيه من متفرّق الحلى والشبه في جثمانه ونعوته دهراً.

وأخبرني القاضي الثقة أبو عبد اللّه محمد بن وانسول من أهل سجلماسة، وكان أوطن بأرض كوكو من بلادهم واستعملوه في خطة القضاء بما لقيه منذ سنة ست وسبعين وسبعمائة، فأخبرني عن ملوكهم بالكثير مما كتبته وذكر لي عن هذا السلطان جاطة أنه أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم، وكاد أن ينتقض شأن سلطانهم.قال: ولقد انتهى الحال به في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان في جملة الذخيرة عن أبيهم، وهو حجر يزن عشرين قنطاراً منقولاً من المعدن من غير علاج بالصناعة ولا تصفية بالنار، كانوا يرونه من أنفس الذخائر والغرائب لندور مثله في المعدن، فعرضه جاطة هذا الملك المسرف على تجار مصر المترددين إلى بلده وابتاعوه منه بأبخس ثمن اذ استهلك من ذخائر ملوكهم سرفاً وتبذيراً في سبيل الفسوق والتخلف.

قال: وأصابته علة النوم، وهو مرض كثيراً ما يطرق أهل الإقليم وخصوصاً الرؤساء منهم يعتاده غشي النوم عامة أزمانه حتى يكاد أن لا يفيق ولا يستيقظ إلا في القليل من أوقاته، ويضرّ صاحبه ويتصل سقمه إلى أن يهلك.قال: ودامت هذه العلة بخلطه مدة عامين اثنين وهلك سنة خمس وسبعين وسبعمائة وولّوا من بعده ابنه موسى فأقبل على مذاهب العدل والنظر لهم، ونكب عن طرق أبيه جملة وهو الآن مرجو الهداية ويغلب على دولته وزيره ماري جاطة، ومعنى ماري عندهم الوزير وجاطة تقدم وهو الآن

قد حجر السلطان واستبد بالأمر عليه، ونظر في تجهيز العساكر وتجهيز الكتائب، ودوخ أقطار الشرق من بلادهم وتجاوز تخوم كوكو وجهز إلى منازلة تكرت بما وراءها من بلاد الملثمين، كتائب نازلتها لأول الدولة، وأخذت بمخنقها، ثم أفرجت عنها وحاطهم الآن هدنة.

وتكرت هذه على سبعين مرحلة من بلد واركلا في الجانب القبلي الغربي وفيها من الملثمين يعرف بالسلطان، وعليهم طريق الحاج من السودان، وبينه وبين أمير الزاب وواركلا مهاداة ومراسلة. قال: وحاضرة الملك لأهل مالي هو بلد بني... بلد متسع الخطة معين على الزرع مستبحر العمارة نافق الأسواق، وهو الآن محط لركاب البحر من المغرب وإفريقية ومصر، والبضائع مجلوبة إليها من كل قطر.ثم بلغنا لهذا العهد أن منسا موسى توفي سنة تسع وثمانين وسبعمائة وولي بعده أخوه منسا مغا ثم قتل لسنة أو نحوها، وولي بعده صندكي زوج أم موسى صندكي الوزير. ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت ماري جاطة. ثم خرج من بلاد الكفرة وراءهم وجاءهم رجل اسمه محمود ينسب إلى منساقو بن منسا ولي ابن ماري جاطة الأكبر، فتغلب على الدولة وملك أمرهم سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ولقبه منسا مغا، والخلق والأمر لله وحده.

الخبر عن لمطة وكزولة وهسكورة بني تصكي وهم إخوة هوارة وصنهاجة

هؤلاء القبائل الثلاث قد تقدم لنا أنهم إخوة لصنهاجة، وأن أم الثلاثة تصكي العرجاء بنت زحيك بن مادغيس، فأما صنهاجة فمن ولد عاميل بن زعزاع، وأما هوارة فمن ولد أوريغ وهو ابنها ابن برنس، وأما الأخرون فلا تحقيق في نسبهم.

قال ابن حزم: إن صنهاجة ولمطة لا يعرف لهما أب، وهذه الأمم الثلاث موطنون بالسوس وما يليه من بلاد الصحراء وجبال درن ملأوا بسائطه وجباله. فأما لمطة فأكثرهم مجاورون الملثمين من صنهاجة ولهم شعوب كثيرة، وأكثرهم ظواعن أهل وبر ومنهم بالسوس قبيلتا زكن ولخس، صاروا في عداد ذوي حسان من معقل، وبقايا لمطة بالصحراء مع الملثمين ومعظمهم قبيلة بين تلمسان وإفريقية وكان منهم الفقيه واكاك بن زيري صاحب أبي عمران الفاسي وكان نزل سجلماسة. ومن تلميذه كان عبد اللّه بن ياسين صاحب الدولة اللمتونية على ما مرّ.

وأما كزولة فبطونهم كثيرة، ومعظمهم بالسوس ويجاورون لمطة ويحاربونهم. ومنهم الآن ظواعن بأرض السوس، وكان لهم مع المعقل حروب قبل أن يدخلوا السوس، فلما دخلوه تغلب عليهم، وهم الآن من خولهم وأحلافهم ورعاياهم.

وأما هسكورة وهم لهذا العهد في عداد المصامدة وينسبون إلى دعوة الموحدين، وهم أمم كثيرة وبطون واسعة ومواطنهم بجبالهم متصلة من درن إلى تادلاً من جانب الشرق إلى درعة من جانب القبلة وكان دخول بعضهم في دعوة المهدي قبل فتح مراكش، ولم يستكملوا الدخول في الدعوة إلا من بعده، لذلك لا يعدهم كثير من الناس في الموحدين، وإن عدوا فليسوا من أهل السابقة منهم لمخالفتهم الإمام أول الأمر، وما كان من حروبهم معه ومع أوليائه وشيعته. وكانوا ينادون بخلافهم وعداوتهم ويجهرون بلعنهم، فتقول خطباؤهم في مجامع صلواتهم: لعن اللّه هنتاتة وتينملل وهرنة وهرزجة، فلما استقاموا من بعد ذلك لم يكن لهم مزية السابقة كما كانت لهنتاتة وتينملل وهزعة وهرزجة فاستقامتهم على الدعوة كان بعد فتح مراكش.

وبطون هسكورة هؤلاء متعددون فمنهم: مصطاوة وغجرامة وزمراوة وانتيفت وبنو نفال وبنو رسكونت إلى آخرين لم يحضرني أسماؤهم. وكانت الرئاسة عليهم آخر دولة الموحدين لعمر بن وقاريط المنتسب، وذكره في أخبار المأمون والرشيد من بني عبد المؤمن خلاف الموحدين بمراكش. ثم كان من بعده مسعود بن كلداسن، وهو القائم يأمر دبوس والمظاهر له على شأنه، وأظنه جد بني مسعود بن كلداسن، الرؤساء عليهم لهذا العهد من فطواكة المعروفين ببني خطاب لاتصال الرئاسة في هذا البيت، ولما انقرض أمر الموحدين استعصوا على بني مرين مدة واختلف حالهم معهم في الاستقامة والنفرة، وكانوا ملجأً للنازعين عن الطاعة من عرب جشم، ومأوى للثائرين منهم.

ثم استقاموا وأذعنوا لأداء الضرائب والمغارم وجبايتها من قومهم، والخفوف إلى العسكرة مع السلطان متى دعوا إليها شأن غيرهم من سائر المصامدة.

وأما انتيفت فكانت رئاستهم في أولاد هنو وكان يوسف بن كنون منهم اتخذ لنفسه حصن تاقيوت، وامتنع به، ولم يزل ولده علي ومخلوف يشيدانه من بعده، وهلك يوسف وقام بأمره ابنه مخلوف، وجاهر بالنفاق سنة اثنتين وسبعمائة. ثم راجع الطاعة وهو الذي تقبض على يوسف بن أبي عياد المتعدي على مراكش أيام ابي ثابت سنة سبع وسبعمائة كما نذكر في أخباره، لما أحيط به، فتقبض عليه مخلوف وأمكن منه. وكانت وسيلته من الطاعة وكان من بعده ابنه هلال بن مخلوف، والرئاسة فيهم متصلة لهذا

العهد.

وأما بنو نفال فكانت رئاستهم لأولاد تروميت، وكان منهم لعهد السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن، كبيرهم علي بن محمد، وكان له في الخلاف والامتناع ذكر، واستنزله السلطان أبو الحسن من محله لأول ولايته بعد حصاره بمكانه، وأصاره في جملته تحت عنايته وأمرائه إلى أن هلك بتونس بعد واقعة القيروان في الطاعون الجارف. وولي بنوه من بعده أمر قومهم إلى أن انقرضوا، والرئاسة لهذا العهد في أهل بيتهم ولأهل عمومتهم.

وأما فطواكة: وهم أوسع بطونهم وأعظمهم رئاسة فيهم وأقربهم اختصاصاً بصاحب الملك واستعمالاً في خدمته. وكان بنو خطاب منذ انقراض أمر الموحدين قد جنحوا إلى بني عبد الحق، وأعطوهم المقادة واختصوا شيوخهم في بني خطاب بالولاية عليهم. وكان شيخهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب محمد بن مسعود، وابنه عمر من بعده. وهلك عمر سنة أربع وسبعمائة بمكانه من محله، وولي بعده عمه موسى بن مسعود وسخطه السلطان لتوقع خلافه فاعتقله. وكان خلاصه من الاعتقال سنة ست وسبعمائة، وقام بأمر هسكورة من بعده محمد بن عمر بن محمد بن مسعود.

ولما استفحل ملك بني مرين وذهب أثر الملك من المصامدة وبعد عهدهم صار بنو مرين إلى استعمال رؤسائهم في جباية مغارمهم لكونهم من جلدتهم. ولم يكن فيهم أكبر رئاسة من أولاد تونس في هنتاتة. وبني خطّاب هؤلاء في هسكورة فداولوا بينهم ولاية الأعمال المراكشية وليها محمد بن عمر هذا من بعد موسى بن علي وأخيه محمد شيوخ هنتاتة.فلم يزل والياً منها إلى أن هلك قبيل نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان. ولحق ابنه ابراهيم بتلمسان ذاهباً إلى السلطان أبي الحسن. فلما دعا أبو عنان إلى نفسه رجع عنه إلى محله، وتمسك بما كان عليه من طاعة أبيه، ورعاه أبو عنان لعمه عبد الحق، وقلّده الأعمال المراكشية فلم يغنِ في منازعه إلى أن لحق السلطان أبو الحسن بمراكش، فكان من أعظم دعاته، وأبلى في مظاهرته. فلما هلك السلطان أبو الحسن اعتقله أبو عنان وأودعه السجن، ثم قتله بين يدي نهوضه إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وقام بأمره من بعده أخوه منصور بن محمد إلى أن ملك الأمير عبد الرحمن بن أبي يغلوسن مراكش سنة ست وسبعين وسبعمائة فاستقدمه وتقبض عليه، واعتقله بدار ابن عمه يجّو بن العلاّم بن مسرى بن مسعود بن خطاب كان في جملته، وكان هو وأبوه نازعاً إلى بني مرين خوفاً على أنفسهم من أولاد محمد بن عمر لترشحهم للأمر، فلما استمكن منه بداره معتقلاً وثب عليه فقتله واستلحم بنيه معه، وسخطه السلطان لها فاعتقله قليلاً ثم أطلقه، واستقل برئاسة هسكورة لهذا العهد والله قادر على ما يشاء.

الطبقة الثالثة من صنهاجة

وهذه الطبقة ليس فيها ملك، وهم لهذا العهد أوفر قبائل المغرب، فمنهم المواطنون بالجانب الشرقي من جبال درن ما بين تازي وتادلا ومعدن بني فازان حيث الثنية المفضية إلى آكرسلوين من بلاد النخل، وتفصل تلك الثنية بين بلادهم وبلاد المصامدة في المغرب من جبال درن.ثم اعتمروا قنن تلك الجبال وشواهقها، وتنعطف مواطنهم من تلك الثنية إلى ناحية القبلة إلى أن تنتهي إلى آكرسلوين. ثم ترجع مغرباً من آكرسلوين إلى درعة إلى ضواحي السوس الأقصى، وأمصاره من تارودانت وأيفري الى فونان وغيرها. ويعرف هؤلاء كلهم باسم صناكة حذفت الهاء من اسم صنهاجة، وأشموا صاده زاياً وأبدلوا الجيم بالكاف المتوسطة المخرج عند العرب لهذا العهد بين الكاف والقاف أو بين الكاف والجيم، وهي معربة النطق.

ولصنهاجة هؤلاء بين قبائل المغرب وفور عدد وشدة بأس ومنعة، وأعزهم جانباً أهل الجبال المطلة على تادلا ورئاستهم لهذا العهد في ولد عمران الصناكي ولهم اعتزاز على الدولة ومنعة عن الهضيمة والانقياد للمغرم. وتتصل بهم قبائل خباتة منهم ظواعن يسكنون الخص وينتجعون مواقع القطر في نواحي بلادهم يتغانمين من قبيلة مكناسة إلى وادي أم ربيع من تامستا في الجانب الشمالي من جانبي جبل درن، ورئاستهم في ولد هيبري من مشاهيرهم ولهم اعتياد بالمغرم وروم على الذل.

وتتصل بهم قبائل دكالة في وسط المغرب من عدوة أم ربيع إلى مراكش، ويتصل بهم من جهة المغرب على ساحل البحر المحيط قبيلة بناحية آزمور، وأخرى وافرة العدد مندرجة في عداد المصامدة وطناً ونحلة وجباية وعمالة، ورئاستهم لهذا العهد في دولة عزيز بن يبورك، ورئيسهم لأول دولة زناتة، ويأتي ذكره ويعرف عقبه الآن ببني بطال، ومن قبائل صنهاجة بطون أخرى بجبال تازى وما والاها مثل بطوية ومخاصة وبني وارتين إلى جبل لكائي من جبال المغرب معروف ببني الكائي إحدى قبائلهم، يعطون المغرم عن عزة. وبطوية منهم ثلاثة بطون: بطوية على تازى، وبني ورياغل على ولد المزمة، وأولاد علي بتافرسيت. وكان لأولاد علي ذمة مع بني عبد الحق ملوك بني مرين، وكانت أم يعقوب بن عبد الحق

منهم فاستوزرهم، وكان منهم طلحة بن علي وأخوه عمر على ما يأتي ذكره في دولتهم.

ويتصل ببسيط بالمغرب ما بين جبال درن وجبال الريف من ساحل البحر الرومي حيث مساكن حماد الآتي ذكرهم قبائل أخرى من صنهاجة موطنون في عضاب وأودية وبسائط يسكنون بيوت الحجارة والطين مثل قشتالة وسطه وبنو ورياكل وبنو حميد وبنو مزكلدة وبنو عمران وبنو دركون وبنو رتزر وملوانة وبنو وامرد. وموطن هؤلاء كلهم بورغة، وأمر كو يحترفون بالحياكة والحراثة، ويعرفون لذلك صنهاجة البز، وهم في عداد القبائل المغارمة ولغتهم في الأكثر عربية لهذا العهد وهم مجاورون بجبال غمارة.

ويتصل بجبال غمارة من ناحيتهم جبل سريف موطن بني زروال من صنهاجة وبني مغالة لا يحترفون بمعاش ويسمون صنهاجة العز لما اقتضته منعة جبالهم. ويقولون لصنهاجة آزمور الذين قدمنا ذكرهم: صنهاجة الذل، لما هم عليه من الذل والمغرم، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وقد يقال في بعض مزاعم البربر: أن بني وديد من صنهاجة وبنو يزناسن وباطويه هم أخوال وأصل بن يزناسن أجناسن ومعناه بلغة العرب الجالس على الأرض.

الخبر عن المصامدة من قبائل البربر وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه

وأما المصامدة وهم من ولد مصمود بن يونس بربر فهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم، من بطونهم: برغواطة وغمارة وأهل جبل درن. ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة. وكان المتقدم فيهم قبيل الإسلام وصدره برغواطة. ثم صار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبال درن إلى هذا العهد. وكان لبرغواطة في عصرهم دولة، ولأهل درن منهم دولة أخرى أو دول حسبما نذكر، فلنذكر هذه الشعوب وما كان فيها من الدول بحسب ما تأدّى إلينا من ذلك.

الخبر عن برغواطة من بطون المصامدة ودولتهم ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم

وهم الجيل الأول منهم، كان لهم في صدر الإسلام التقدم والكثرة وكانوا شعوباً كثيرة مفترقين، وكانت مواطنهم خصوصاً من بين المصامدة في بسائط تامستا وريف البحر المحيط من سلا وازمور وأنفى وأسفى. وكان كبيرهم لأول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صالح وكان من قواد ميسرة الخفير طريف المطغري القائم بدعوة الصفرية ومعهما معزوز بن طالوت. ثم انقرض أمر ميسرة والصفرية، وبقي طريف قائماً بأمرهم بتامستا، ويقال أيضاً: إنه تنبأ وشرع لهم الشرائع. ثم هلك وولي مكانه ابنه صالح، وقد كان حضر مع أبيه حروب ميسرة وكان من أهل العلم والخير فيهم.

ثم انسلخ من آيات الله، وانتحل دعوى النبوة، وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده، وهي معروفة في كتب المؤرخين. وادعى أنه نزل عليه قرآن كان يتلو عليهم سوراً منه، يسمي منها سورة الديك وسورة الجمل وسورة الفيل وسورة آدم وسورة نوح وكثير من الأنبياء، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب الدنيا، وفيها العلم العظيم بزعمهم، حرم فيها وحلل، وشرع وقص، وكانوا يقرأونه في صلواتهم، وكانوا يسمونه صالح المؤمنين كما حكاه البكري عن زمور بن صالح بن هاشم بن وراد الوافد منهم على الحاكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم أبي عيسى بن أبي الأنصاري سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة.

وكان يترجم عنه بجميع خبره داود بن عمر المسطاسي. قال:وكان ظهور صالح هذا في خلافة هشام بن عبد الملك سنة سبع وعشرين من المائة الثانية من الهجرة. وقد قيل: إن ظهوره كان لأول الهجرة، وأنه إنما انتحل ذلك عناداً أو محاكاة لما بلغه شأن النبي ﷺ والأول أصحّ. ثم زعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان، وأن عيسى يكون صاحبه ويصلي خلفه، وأن اسمه في العرب صالح وفي السريان مالك وفي الأعجمي عالم وفي العبراني روبيا وفي البربري وربا ومعناه الذي ليس بعده نبي، وخرج إلى المشرق بعد أن ملك أمرهم سبعاً وأربعين سنة، ووعدهم أنه يرجع إليهم في دولة السابع منهم، وأوصى بدينه إلى ابنه إلياس، وعهد إليه بموالاة صاحب الأندلس من بني أمية، وبإظهار دينه إذا قوي أمرهم.

وقام بأمره بعده ابنه إلياس ولم يزل مظهراً للإسلام مُسراً لما

أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم. وكان طاهراً عفيفاً زاهداً لخمسين سنة من ملكه، وولي أمرهم من بعده ابنه يونس، فأظهر دينهم ودعا إلى كفرهم وقتل من لم يدخل في أمره حتى حرق مدائن تامسنا وما والاها، يقال: إنه حرق ثلثمائة وثمانين مدينة، واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم إياه، وقتل منهم بموضع يقال له: تاملوكاف، وهم حجر عالٍ نابت وسط الطريق فقتل سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين.

قال زمور: ورحل يونس إلى المشرق وحج، ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده، وهلك لأربع وأربعين سنة من ملكه، وانتقل الأمر عن بنيه، وولي أمرهم أبو غفير محمد بن معاد بن إليسع بن صالح بن طريف، فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره، وكانت له في البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار إليها سعيد بن هشام المصمودي في قوله:

قفي قبل التفرق وأخبرينا ... وقولي واخبري خبراً يقينا
وهذي أمة هلكوا وضلوا ... وغاروا لا سقوا ماءً معينا
يقولون: النبي أبو غفير ... فأخزى اللّه أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر يوم بيت ... على آثار خيلهم رنينا
رنين الباكيات فبين ثكلى ... وعادمة ومسقطة جنينا
سيعلم أهل تامسنا إذا ما ... تـوا يوم القيامة مهطعينا
هنالك يونس وبنو أبيه ... يقودون البرابر حائرينا
إذا زر يساور طافت عليهم ... جبهتهم بأيدي المنكرينا
فليس اليوم يومكم ولكن ... ليالي كنتم متيسّرينا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعاً وأربعين، وكان له من الولد مثلها وأكثر. وهلك أخريات المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه، وولي بعده ابنه أبو الأنصار عبد اللّه فاقتفى سننه وكان كثير الدعة مهاباً عند ملوك عصره يهاودونه ويدافعونه بالمواصلة، وكان يلبس الملحفة والسراويل ولا يلبس المخيط ولا يعتمّ، ولا يعتم أحد في بلاده إلا الغرباء. وكان حافظاً للجار وفياً بالعهد، وتوفي سنة إحدى وأربعين من المائة الرابعة لأربع وأربعين سنة من ملكه، ودفن بأمسلاخت وبها قبره. وولي بعده ابنه أبو منصور عيسى ابن اثنتين وعشرين سنة، فسار سير آبائه وادعى النبوة والكهانة، واشتد أمره وعلا سلطانه ودانت له قبائل المغرب.

قال زمور: وكان فيما أوصاه به أبوه: يا بني! أنت سابع الأمراء من أهل بيتك، وأرجو أن يأتيك صالح بن طريف. قال زمور: وكان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغواطة وعشرة آلاف من سواهم مثل: جراوة وزواغة والبرانس ومجاصة ومطغرة ودمر ومطماطة وبنو وارزكيت. وكان أيضاً بنو يفرن وإصادة وركانة وايزمن ورصافة ورغمصزارة على دينهم، ولم تسجد ملوكهم إلا له منذ كانوا. كلام زمور. وكان للملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم أثناء هذه وبعده آثار عظيمة من الأدارسة والأموية والشيعة. ولما أجاز جعفر بن علي من الأندلس إلى المغرب وقلده المنصور بن أبي عامر عمله سنة ست وستين وثلاثماية فنزل البصرة، ثم اختلف ذات بينه وبين أخيه يحيى واستمال عليه أخوه الجند وأمراء زناتة، فتجافى له جعفر عن العمل وصرف وجهه إلى جهاد برغواطة يعتده من صالح عمله، وزحف إليهم في أهل المغرب وكافة الجند الأندلسيين فلقوه وسط بلادهم، وكانت عليه الدبرة، ونجا بنفسه في فلّ من جنده، ولحق بأخيه بالبصرة. ثم أجاز بعدها إلى المنصور باستدعائه، وترك أخاه يحيى على عمل المغرب. ثم حاربتهم أيضاً صنهاجة لما غزا بلكين بن زيري المغرب سنة ثمان وستين وثلثمائة بعدها وأجفلت زناتة أمامه وارزوا إلى حائط سبتة، وامتنعوا منه بأوعارها وانصرف عنهم إلى جهاد برغواطة، وزحف إليهم فلقيه أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار في قومه، وكانت عليهم الهزيمة.

وقتل أبو منصور وأثخن فيهم بلكين بالقتل، وبعث سبيهم إلى القيروان وأقام بالمغرب يردد الغزو فيهم إلى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة وانصرف من المغرب فهلك في طريقه إلى القيروان. ولم أقف على من ملك أمرهم بعد أبي منصور. ثم حاربتهم أيضاً جنود المنصور بن أبي عامر لما عقد عبد الملك بن المنصور لمولاه واضح على المغرب عند قفوله من غزاة زيري بن عطية سنة تسع وثمانين وثلاثماية، فافتتح واضح أمرة بغزو برغواطة هؤلاء فيمن قبله من الأجناد وأمراء النواحي وأهل الولاية، فعظم الأثر فيهم بالقتل والسبي. ثم حاربهم أيضاً بنو يفرن لما استقل بنو يعلى ابن محمد اليفرني من بعد ذلك بناحية سلا من بلاد المغرب واقتطعوه من عمل أبناء زيري بن عطية المغراوي بعدما كان بينهما من الحروب.

وانساق أمر أولاد يعلى هؤلاء إلى تميم بن زيري بن يعلى في أول المائة الخامسة، وكان موطناً بمدينة سلا مجاوراً لبرغواطة، فكان له أثر كبير في جهادهم، وذلك في سني عشرين وأربعمائة، فغلبهم على تامستا وولّى عليها من قبله بعد أن أثخن فيهم سبياً وقتلاً. ثم تراجعوا من بعده إلى أن جاءت دولة لمتونة وخرجوا من مواطنهم بالصحراء إلى بلاد المغرب، واقتحموا الكثير من معاقل السوس الأقصى وجبال المصامدة. ثم بدا لهم جهاد برغواطة بتامستا وما إليها من الريف الغربي فزحف إليهم أبو بكر بن عمر

أمير لمتونة في المرابطين من قومه، وكانت له فيهم وقائع استشهد في بعضها صاحب الدعوة عبد الله بن ياسين الكزولي سنة خمسين وأربعماية، واستمر أبو بكر وقومه من بعده على جهادهم حتى استأصلوا شأفتهم ومحوا من الأرض آثارهم وكان صاحب أمرهم لعهد انقراض دولتهم أبو حفص عبد الله من أعقاب أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاد بن إليسع بن صالح بن طريف، فهلك في حروبهم وعليه كان انقراض أمرهم وقطع دابرهم على يد هؤلاء المرابطين، والحمد لله رب العالمين.

وقد يغلط بعض الناس في نسب برغواطة هؤلاء فيعدّهم في قبائل زناتة، وآخرون يقولون في صالح: إنه يهودي من ولد شمعون بن يعقوب نشأ ببرباط ورحل إلى المشرق، وقرأ على عبد الله المعتزلي واشتغل بالسحر، وجمع فنوناً وقدم المغرب ونزل تامستا فوجد بها قبائل جهّالاً من البربر فأظهر لهم الزهد وسحرهم بلسانه، ومِوه عليهم فقصدوه واتبعوه، فادعى النبوة وقيل له برباطي نسبة إلى الموطن الذي نشأ به، وهو برباط وادٍ بحصن شريش من بلاد الأندلس، فعربت العرب هذا الاسم وقالوا برغواط. ذكر ذلك كله صاحب كتاب نظم الجوهر وغيره من النسابين للبربر، وهو الأغاليط البينة، وليس القوم من زناتة ويشهد لذلك موطنهم وجوارهم لإخوانهم المصامدة. وأما صالح بن طريف فمعروف منهم وليس من غيرهم، ولا يتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمة دخيل في نسبه. سنة الله في عباده وإنما نسب الرجل في برغواطة وهم شعب من شعوب المصامدة معروف كما ذكرناه والله ولي التوفيق.

الخبر عن غمارة من بطون المصامدة وما كان فيهم من الدول وتصاريف أحوالهم

هذا القبيل من بطون المصامدة من ولد غمار بن مصمود، وقيل: غمار بن مسطاف بن مليل بن مصمود، وقيل: غمار بن أصاد بن مصمود. ويقول بعض العامة: أنهم عرب غمروا في تلك الجبال فسموا غمارة، وهو مذهب عامي، وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تنحصر. والبطون المشهورة منهم: بنو حميد ومتيوة وبنو نال واغصاوة، وبنو وزروال ومجكسة، وهم آخر مواطنهم يعتمرون جبال الريف بساحل البحر الرومي من عن يمين بسائط المغرب، من لدن غساسة فنكّور فبادس فتيكيساس فتيطاوين فسبتة فالقصر الى طنجة خمس مراحل أو أزيد، أوطنوا منها جبالاً شاهقةً اتصل بعضها ببعض سياجاً بعد سياج خمس مراحل أخرى في العرض إلى أن ينحط بسائط قصر كتامة ووادي ورغة من بسائط المغرب، ترتد عنها الأبصار وتزل في حافاتها الطيور لا بل الهوام وتنفسح في رؤوسها وبين قننها الفجاج، سبل السفر ومراتع السائمة وفدن الزراعة وأدواح الرياض.

ويتبين لك أنهم من المصامدة بقاء هذا النسب المحيط سمة فيهم لبعض شعوبهم يعرفون بمصمودة ساكنين ما بين سبتة وطنجة، وإليهم ينسب قصر المجاز الذي يعبر منه الخليج البحري إلى بلد طريف، ويعضده أيضاً اتصال مواطنهم بموطن برغواطة من شعوب المصامدة بريف البحر الغربي وهو المحيط، إذ كان بنو حسان منهم موطنين بذلك الساحل من لدن أزغار وأصيلا إلى أنفى، ومن هنالك تتصل بهم مواطن برغواطة ودكالة إلى قبائل درن من المصامدة فما وراءها من بلاد القبلة. فالمصامدة هم أهل الجبال بالمغرب الأقصى إلا قليلاً منها وغيرهم في البسائط. ولم تزل غمارة هؤلاء بمواطنهم هذه من لدن الفتح، ولم يعلم ما قبل ذلك.

وللمسلمين فيهم أزمان الفتح وقائع الملاحم وأعظمها لموسى بن نصير وهو الذي حملهم على الإسلام واسترهن أبناءهم وأنزل منهم عسكراً مع طارق بطنجة. وكان أميرهم لذلك العهد يليان وهو الذي وفد عليه موسى بن نصير ورغّبه في غزو الأندلس، وكان منزله سبتة كما نذكره، وذلك قبل استحواء نكور وكانت في غمارة هؤلاء بعد الإسلام دول قاموا بها لغيرهم وكان فيهم متنبئون، ولم تزل الخوارج تقصد جبالهم للمنعة فيها والاعتصام كما نذكرهم.

الخبر عن سبتة ودولة بني عصام بها

كانت سبتة هذه من الأمصار القديمة قبل الإسلام، وكانت يومئذ منزل يليان ملك غمارة، ولما زحف إليه موسى بن نصير صانعه بالهدايا وأذعن للجزية، فأمره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه، وأنزل طارق بن زياد بطنجة للجزية، وضرب عليهم العسكر للنزول معه. ثم كانت إجازة طارق إلى الأندلس فضرب عليهم البعوث، وكان الفتح الذي لا كفاء له كما مر في موضعه. ولما هلك يليان استولى العرب على مدينة سبتة صلحاً من أيدي قومه فعمروها. ثم كانت فتنة ميسرة الحقير وما دعى إليه من ضلالة الخارجية، وأخذ بها الكثير من البرابرة من غمارة وغيرهم، فزحف برابرة طنجة إلى سبتة وأخرجوا العرب منها وسبوها

وخربوها فبقيت خلاء.

وأنزل بها ماجكس من رجالاتهم ووجوه قبائلهم، وبه سميت مجكسة فبناها ورجع إليها الناس وأسلم. وسمع من أهل العلم إلى أن مات فقام بأمره ابنه عصام ووليها دهراً.ولما هلك قام بأمره ابنه مجبر فلم يزل والياً عليها إلى أن هلك، ووليها أخوه الرضي ويقال: إنه ابنه، وكانوا يعطون لبني إدريس طاعة مضعفة كما نذكره. ولما سما للناصر أمل في ملك المغرب، وتناول حبله من أيدي بني إدريس المالكين ببلاد الهبط وغمارة حين أجهضتهم مكناسة وزناتة عن ملكهم بفاس، وقاموا بدعوة الناصر وبثوها في أعمالهم نزلوا حينئذ للناصر عن سبتة، وأشاروا له إلى تناولها من بني عصام، فسرح إليها عساكره وأساطيله مع قائده نجاح بن غفير، فكان فتحها سنة تسع عشرة وثلثمائة، ونزل له الرضي بن عصام عنها وأتاه طاعته وانقرض أمر بني عصام. وصارت سبتة إلى الناصر حتى استولى عليها بعد حين بنو حماد واستحدثوا بعدها دولة أخرى كما نذكره.

الخبر عن بني صالح بن منصور ملوك نكور ودولتهم في غمارة وتصاريف أحوالهم

لما استولى المسلمون أيام الفتح على بلاد المغرب وعمالاته واقتسموه وأمدّهم الخلفاء بالبعوث إلى جهاد البربر، وكان فيهم من كل القبائل من العرب. وكان صالح بن منصور الحميري من عرب اليمن في البعث الأول. وكان يعرف بالعبد الصالح فاستخلص نكور لنفسه، وأقطعه إياها الوليد بن عبد الملك في أعوام إحدى وتسعين للهجرة، قاله صاحب المقياس،حدّ بلد نكور ينتهي من المشرق إلى زواغة وجراوة بن أبي العيص مسافة خمسة أيام وتجاوره من هنالك مطماطة، وأهل كبدانة ومرنيسة وغساسة أهل جبل هرك، وقلوع جارة التي لبني ورتندي، وينتهي من الغرب إلى بني مروان من غمارة، وبني حميد وإلى مسطاسة وصنهاجة ومن ورائهم أوربة، حزب فرحون وبني وليد وزناتة وبني يرنيان وبني واسن حزب قاسم صاحب صا والبحر جوفي نكور على خمسة أميال، فأقام صالح هنالك لما اقتطع أرضها وكثر نسله واجتمع إليه قبائل غمارة وصنهاجة مفتاح وأسلموا على يده وقاموا بأمره، وملك تمسامان، وانتشر الإسلام فيهم. ثم ثقلت عليهم الشرائع والتكاليف وارتدوا وأخرجوا صالحاً وولوا عليهم رجلاً من نفزة يعرف بالرندي.

ثم تابوا وراجعوا الإسلام وراجعوا صالحاً فأقام فيهم إلى أن هلك بتمساسان سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وولي أمرهم من بعده ابنه المعتصم بن صالح، وكان شهماً شريف النفس كثير العبادة.وكان يلي الصلاة والخطبة لهم بنفسه، ثم هلك لأيام يسيرة وولي من بعده أخوه إدريس، فاختط مدينة نكور في عدوة الوادي ولم يكملها. وهلك سني ثلاث وأربعين ومائة وولي من بعده ابنه سعيد، واستفحل أمره، وكان ينزل مدينة تمسامان، ثم اختط مدينة نكور لأول ولايته ونزلها وهي التي تسمى لهذا العهد المزمّة بين نهرين أحدهما نكور ومخرجه من بلاد كزناية ومخرجه ومخرج وادي ورغة واحد، والثاني غيس ومخرجه من بلد بني ورياغل، يجتمع النهران في أكدال، ثم يفترقان إلى البحر وتقابل نكور من عدوة الأندلس بزليانة.

وغزا المجوس نكور هذه في أساطيلهم سنة أربع وأربعين ومائة فتغلبوا عليها واستباحوها ثمانياً. ثم اجتمع إلى سعيد البرانس، وأخرجوهم عنها، وانتقضت غمارة بعدها على سعيد فخلعوه وولوا عليهم رجلاً منهم اسمه سكن.وتزاحفوا فأظهره اللّه عليهم وفرق جماعتهم وقتل مقدّمهم واستوسق أمره إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين ومائة لسبع وثلاثين من ملكه. وقام بأمره ابنه صالح بن سعيد فتقبل مذاهب سلفه في الاستقامة والاقتداء وكان له مع البربر حروب ووقائع إلى أن هلك سنة خمسين ومائتين لاثنتين وسبعين سنة من ملكه.

وقام من بعده ابنه سعيد بن صالح وكان أصغر ولده فخرج إليه أخوه عبيد اللّه وعمه الرضي وظفر بهما بعد حروب كثيرة، فغرب أخاه إلى المشرق ومات بمكة وأبقى على عمه الرضي لذمة صهر بينهما. وقتل سائر من ظفر به من عمومته وقرابته، وأنهض لهما سعادة اللّه بن هارون منهم، ولحق ببني يصلتن أهل جبل أبي الحسن ودلهم على عورته، وبيتوا معسكره واستولوا عليه، وأخذوا آلته وقتلوا آلافاً من مواليه، وحاصروا بنكور. ثم كانت له الكرة عليهم وقتل منهم خلقاً، ونجا سعادة اللّه إلى تمسامان وتقبض على أخيه ميمون فضرب عنقه.ثم صار سعادة اللّه إلى طلب الصلح فأسعفه وأنزله معه مدينة نكور، ثم غزا سعيد بقومه وأهل إيالته من غمارة بلاد بطوية ومرنيصة وقلوع جارة وبني ورتندي وأصهر بأخته إلى أحمد بن إدريس بن محمد بن سليمان صاحبه. وأنزله مدينة نكور معه. وتوطد الأمر لسعيد في تلك النواحي إلى أن خاطبه عبيد اللّه المهدي يدعوه إلى أمره وفي أسفل كتابه:

فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا
وأعلوا بسيفي قاهراً لسيوفكم وأدخلها عفواً وأملؤها قتلا

فكتب إليه شاعره الأحمس الطليطلي بأمر يوسف بن صالح أخي الأمير سعيد:

كذبت وبيت اللّه ما تحسن العدلا ولا علم الرحمن من قولك الفصلا
وما أنت إلا جاهلٌ ومنافقٌ تمثل للجهال في السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمدٍ وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فكتب عبيد اللّه إلى مصالة بن حبوس صاحب تاهرت، وأوعز إليه بغزوه فغزاه سنة أربع وثلثمائة لأربع وخمسين من دولته، فحاربه سعيد وقومه أياماً. ثم غلبهم مصالة وقتلهم، وبعث برؤوسهم إلى رقادة، فطيف بها وركب بقيتهم البحر إلى مالقة، فتوسع الناصر في إنزالهم وإجارتهم وبالغ في تكريمهم وأقام مصالة بمدينة نكور ستة أشهر. ثم قفل إلى تاهرت وولى عليها دلّول من كتامة، فانقبض العسكر من حوله، وبلغ الخبر إلى بني سعيد بن صالح وقومهم بمالقة، وهم: إدريس المعتصم وصالح، فركبوا السفن إليها، وسبق صالح منهم، فاجتمع إليه البربر بمرسى تمسامان وبايعوه سنة خمس وثلاثماية، ولقبوه اليتيم لصغره، وزحفوا إلى دلّول فظفروا به وبمن معه وقتلوهم، وكتب صالح بالفتح إلى الناصر، وأقام دعوته بأعماله وبعث إليه الناصر بالهدايا والتحف والآلة، ووصل إليه إخوته وسائر قومه وأتوا طاعته.ولم يزل على هدى أوليه من الاقتداء إلى أن هلك سنة خمس عشرة وثلاثماية.

وولي بعده ابنه عبد البديع، ولقب المؤيد، وزحف إليه موسى بن أبي العافية القائم بدعوة العبيديين بالمغرب، فحاصره وتغلب عليه فقتله، واستباح المدينة وخربها سنة سبع عشرة وثلثمائة. ثم تراجع إليها فلُّهم وقام بأمرهم أبو أيوب إسماعيل بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور وأعاد المدينة التي بناها صالح بن منصور وعمرها وسكنها ثلاثاً.ثم أغزاه ميسور مولى أبي القاسم بن عبد اللّه صندلاً مولاه عندما أناخ على فاس، فبعث عسكراً مع صندل هذا فحاصر جراوة، ثم عطف على نكور وتحصن منه إسماعيل بن عبد الملك بقلعة أكدّى. وبعث إليه صندل رسله من طريقه فقتلهم فأغذّ السير وقاتله ثمانية أيام.

ثم ظفر به فقتله واستباح القلعة وسباها، واستخلف عليها من كتامة رجلاً اسمه مرمازوا، ورحل صندل إلى فاس فتراجع أهل نكور وبايعوا الموسى بن المعتصم بن محمد بن قرة بن المعتصم بن صالح بن منصور. وكان بجبل أبي الحسين عند بني يصلتن وكان يعرف بابن رومي.

وقال صاحب المقياس: هو موسى بن رومي بن عبد السميع بن إدريس بن صالح بن إدريس بن صالح بن منصور، فأخذ مرمازوا ومن معه وضرب أعناقهم، وبعث برؤوسهم إلى الناصر. ثم ثار عليه من أعياص بيته عبد السميع بن جرثم بن إدريس بن صالح بن منصور، فخلعه وأخرجه عن نكور سنة تسع وعشرين وثلثمائة ولحق موسى بالأندلس ومعه أهله وولده وأخوه هارون بن رومي وكثير من عمومته وأهل بيته، فمنهم من نزل معه المرية ومنهم من نزل مالقة. ثم انتقض أهل نكور على عبد السميع وقتلوه. واستدعوا من مالقة جرثم بن أحمد بن زيادة اللّه بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور، فبادر إليهم وبايعوه سنة ست وثلاثين وثلثمائة فاستقامت له الأمور وكان على مذهب سلفه في الاقتداء والعمل بمذهب مالك إلى أن مات آخر سنة ستين وثلثمائة لخمس وعشرين سنة من ملكه، واتصلت الولاية في بنيه إلى أن غلب عليهم أزداجة المتغلبون على وهران، وزحف أميرهم يعلى بن فتوح الأزداجي سنة ست وأربعمائة، وقيل سنة عشر فغلبهم على نكور وخربها، وانقرض ملكهم بعد ثلاثماية سنة وأربع عشرة سنة من لدن ولاية صالح، وبقيت في بني يعلى بن فتوح وأزداجة إلى أعوام ستين وأربعمائة واللّه مالك الأمور لا إله إلا هو.

الخبر عن حاميم المتنبي من غمارة

كان غمارة هؤلاء غريقين في الجهالة والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير، وتنبأ فيهم من مجكسة حاميم بن منّ اللّه بن حرير بن عمر بن رحفو بن أزوال بن مجكسة يكنى أبا محمد وأبوه أبو خلف. تنبأ سنة ثلاث عشرة وثلثمائة بجبل حاميم المشتهر به قريباً من تيطاوين، واجتمع إليه كثير منهم وأقروا بنبوته وشرع لهم الشرائع والديانات من العبادات والأحكام، وصنع لهم قرآناً كان يتلوه عليهم بلسانهم، من كلامه: «يا من يخلي البصر، ينظر في الدنيا، خلّني من الذنوب يا من أخرج موسى من البحر آمنت بحاميم وبأبيه أبي خلف منّ اللّه، وآمن راسي وعقلي وما يكنّه صدري، وما أحاط به دمي ولحمي، وآمنت بتابعيت عمة حاميم أخت أبي خلف منّ اللّه، وكانت كاهنة ساحرة إلى غير هذا، وكان يلقب المفتري، وكانت أخته دبو ساحرة كاهنة، وكانوا يستغيثون بها في الحروب والقحوط، وقتل في حروب مصمودة بأحواز طنجة سنة خمسة عشر وثلاثماية، وكان لابنه عيسى من بعده قدر جليل في غمارة، ووفد على الناصر.

ورهطهم بنو رحفو موطنون بوادي لاو ووادي راس قرب

تيطاوين، وكذلك تنبأ منهم بعد ذلك عاصم بن جميل اليزدجومي، وله أخبار مأثورة، وما زالوا ينتحلون السحر لهذا العهد.وأخبرني المشيخة من أهل المغرب أن أكثر منتحلي السحر منهم النساء العواتق.قال: ولهن قوة على استجلاب روحانية ما يشاؤونه من الكواكب، فإذا استولوا عليه وتكيفّوا بتلك الروحانية تصرفوا منها في الأكوان بما شاؤوا واللّه أعلم.

الخبر عن دولة الأدارسة في غمارة وتصاريف أحوالهم

كان عمر بن إدريس عندما قسم محمد بن إدريس أعمال المغرب بين إخوته برأي جدته كنزة أم إدريس اختص منها بتيكيساس وترغه وبلاد صنهاجة وغمارة، واختص القاسم بطنجة وسبتة والبصرة وما إلى ذلك من بلاد غمارة. ثم غلب عمر عليها عندما تنكر له أخوه محمد واستضافها إلى عمله كما ذكرنا في أخبارهم. ثم تراجع بنو محمد بن القاسم من بعد ذلك إلى عملهم الأول فملكوه، واختط منهم محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم قلعة حجر النسر الدانية من سبتة معقلاً لهم وثغراً لعملهم. وبقيت الإمارة بفاس وأعمال المغرب في ولد محمد بن إدريس. ثم أدالوا منهم بولد عمر بن إدريس، وكان آخرهم يحيى بن إدريس بن عمر وهو الذي بايع لعبيد اللّه الشيعي على يد مصالة بن حبّوس قائده، وعقد له على فاس، ثم نكبه سنة تسع وثلثمائة.

وخرج عليه سنة ثلاث عشرة وثلثمائة من بني القاسم الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس ويلقب بالحجام لطعنه في المحاجم، وكان مقداماً شجاعاً، وثار أهل فاس بريحان وملكوا الحسن، وزحف إليه موسى فقتله ومات.واستولى ابن أبي العافية على فاس وأعمال المغرب، وأجلى الأدارسة وأحجرهم بحصنهم حجر النسر، وتحيزوا إلى جبال غمارة وبلاد الريف، وكان لغمارة في التمسك بدعوتهم آثار ومقامات، واستجدوا بتلك الناحية ملكاً توزّعوه قطعاً، كان أعظمها لبني محمد هؤلاء ولبني عمر بتيكيساز ونكور وبلاد الريف.ثم سما الناصر عبد الرحمن إلى ملك العدوة ومدافعة الشيعة، فنزل له بنو محمد عن سبتة سنة تسع عشرة وتناولها من يد الرضي بن عصام رئيس مجكسة، وكان يقيم فيها دعوة الأدارسة فأفرجوا له عنها ودانوا بطاعته وأخذها من يده.

ولما أغزا أبو القاسم ميسوراً إلى المغرب لمحاربة ابن أبي العافية حين نقض طاعتهم ودعا للمروانية وجد بنو محمد السبيل إلى النيل منه بمظاهرة ميسور عليه، ومالأهم على ذلك بنو عمر صاحب نكور.

ولما استقل ابن أبي العافية من نكبته ورجع من الصحراء سنة خمس وعشرين وثلثمائة منصرف ميسور من المغرب نازل بني محمد وبني عمر وهلك بعد ذلك. وأجاز الناصر وزيره القاسم بن محمد بن طملس سنة ثلاث وثلاثين لحربهم، وكتب إلى ملوك مغراوة محمد بن خزر وابنه الخير بمظاهرة عساكره مع ابن أبي العافية عليهم، فتسارع أبو العيش بن إدريس بن عمر المعروف بابن مصالة، إلى الطاعة، وأوفد رسله إلى الناصر فعقد له الأمان، وأوفد ابنه محمد بن أبي العيش مؤكداً للطاعة، فاحتفل لقدومه وأكد له العقد، وتقبّل سائر الأدارسة من بني محمد مذهبهم.

وسألوا مثل سؤالهم، فعقد لجميع بني محمد أيضاً، وكان وفد منهم محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد والحسن بن القاسم بن ابراهيم بن محمد، وكان بنو إدريس يرجعون في رئاستهم إلى بني محمد هؤلاء منذ استبد بها آخرهم الحسن بن محمد الملقب بالحجام في ثورته على ابن أبي العافية، فقدموا على أنفسهم القاسم بن محمد الملقب بكنّون بعد فرار موسى بن أبي العافية، وملك بلاد المغرب ما عدا فاس مقيماً لدعوة الشيعة إلى أن هلك بقلعة حجر النسر سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وقام بأمرهم من بعده أبو العيش أحمد بن القاسم كنّون، وكان فقيهاً عالماً بالأيام والأخبار شجاعاً كريماً ويعرف بأحمد الفاضل، وكان منه ميل للمروانية فدعا للناصر، وخطب له على منابر عمله ونقض طاعة الشيعة، وبايعه أهل المغرب كافة إلى سجلماسة.

ولما بايعه أهل فاس استعمل عليهم محمد بن الحسن ووفد محمد بن أبي العيش بن إدريس بن عمر بن مصالة على الناصر عن أبيه سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة فاتصلت به وفاة أبيه وهو بالحضرة فعقد له الناصر على عمله وسرّحه، وهجم عيسى ابن عمه أبي العيش أحمد بن القاسم كنّون على عمله بتيكيسان في غيبة محمد، فملكها واحتوى على مال ابن مصالة، ولما أقبل محمد من الحضرة زحف برابرة غمارة إلى عيسى المذكور ابن كنون ففظعوا به وأثخنوه جراحة، وقتلوا أصحابه ببلد غمارة.وأجاز الناصر قواده إلى المغرب، وكان أول من أجاز إلى بني محمد هؤلاء سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة أحمد بن يعلى من طبقة القواد، أجازه إليهم في العساكر ودعاهم إلى هدم تيطاوين فامتنعوا، ثم انقادوا وتنصلوا وأجابوا إلى هدمها.

ورجع عنهم فانتقضوا فسرح إليهم حميد بن يصل المكناسي في العساكر سنة تسع وثلاثين وثلثمائة وزحفوا إليه بوادي لاو فأوقع بهم فأذعنوا من بعدها، وتغلب الناصر على طنجة من يد

أبي العيش أمير بني محمد وبقي يصل على بيعة الناصر.ثم تخطت عساكر الناصر إلى بسائط المغرب فأذعن له أهله، وأخذ بدعوته فيه أمراء زناتة من مغراوة وبني يفرن ومكناسة كما ذكرناه، فضعف أمر بني محمد واستأذنه أميرهم أبو العيش في الجهاد فأذن له وأمر ببناء القصور له في كل مرحلة من الجزيرة إلى الثغر، فكانت ثلاثين مرحلة، فأجاز أبو العيش واستخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون، وتلقاه الناصر بالمبرة وأجرى له ألف دينار في كل يوم، وهلك شهيداً في مواقف الجهاد سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة.

ولما أغزا معدّ قائده جوهراً الكاتب إلى المغرب واستنزل عماله، وتحصن الحسن بن كنون منه بقلعة النسر معقلهم.و بعث إليه بطاعته فلم يعرض له جوهر، ولما قفل من المغرب راجع الحسن طاعة الناصر إلى أن هلك سنة خمسين وثلثمائة فاستجد الحكم عزمه في سد ثغور المغرب وإحكام دعوتهم فيه.

وشحذ لها عزائم أوليائهم من ملوك زناتة، فكان بينهم وبين زيري وبلكين ما ذكرناه. ثم أغزى معدّ بلكين بن زيري المغرب سنة اثنتين وستين وثلثمائة أولى غزواته، فأثخن في زناتة وأوغل في ديار المغرب. وقام الحسن بن كنون بدعوة الشيعة ونقض طاعة المروانية، فلما انصرف بلكين أجاز الحكم عساكره إلى العدوة مع وزيره محمد بن قاسم بن طملس سنة اثنتين وستين وثلثمائة لقتال الحسن بن كنون وبني محمد، فكان الظهور والفلاح للحسن على عسكر الحكم.

وقتل قائده محمد بن طملس وخلقاً كثيراً من عسكره وأوليائه. ودخل فلهم إلى سبتة واستصرخوا الحكم، فبعث غالباً مولاه البعيد الصيت المعروف الشهامة، وأمده بكفاء ذلك من الأموال والجنود، وأمره باستنزال الأدارسة وإجازتهم إليه، وقال له: سر يا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حياً منصوراً أو ميتاً معذوراً. واتصل خبره بالحسن بن كنون فأفرج عن مدينة البصرة واحتمل منها أمواله وحرمه وذخيرته إلى حجر النسر معقلهم القريب من سبتة، ونازله غالب بقصر مصمودة فاتصلت الحرب بينهم أياماً.

ثم بثّ غالب المال في رؤساء البربر من غمارة ومن معه من الجنود ففروا وأسلموه، وانحجز بقلعة جبل النسر ونازله غالب وأمده الحكم بعرب الدولة ورجال الثغور، وأجازهم مع وزيره صاحب الثغر الأعلى يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي فيمن معه من أهل بيته وحشمه سنة ثلاث وستين وثلثمائة فاجتمع مع غالب على القلعة، واشتد الحصار على الحسن، وطلب من غالب الأمان فعقد له وتسلّم الحصن من يده.ثم عطف على من بقي من الأدارسة ببلاد الريف فأزعجهم وصيرهم أسوة ابن عمهم، واستنزل جميع الأدارسة من معاقلهم وسار إلى فاس فملكها واستعمل عليها محمد بن علي بن قشوش في عدوة القرويين، وعبد الكريم بن ثعلبة الجذامي في عدوة الأندلس.وانصرف غالب إلى قرطبة ومعه الحسن بن كنون وسائر ملوك الأدارسة، وقد مهد المغرب وفرق عماله في جهاته، وقطع دعوة الشيعة، وذلك سنة أربع وستين وثلثمائة، وتلقاهم الحكم وأركب الناس للقائهم. وكان يوم دخولهم إلى قرطبة أحفل أيام الدولة.

وعفا عن الحسن بن كنون ووفى له بالعهد، وأجزل له ولرجاله العطاء والخلع والجعالات، وأوسع عليه الجراية وأسنى لهم الأرزاق ورتّب من حاشيتهم في الديوان سبعمائة من أنجاد المغاربة.وتجنى عليه بعد ثلاث سنين بسؤاله من الحسن قطعة عنبر عظيمة تأدت إليه من بعض سواحل عمله بالمغرب أيام ملكه، فاتخذ منها أريكة يرتفقها ويتوسدها، فسأله حملها إليه على أن يحكمه في رضاه، فأبى عليه مع سعاية بني عمه فيه عند الخليفة، وسوء خلق الحسن ولجاجه، فنكبه واستصفى ما لديه من قطعة العنبر وسواها.

واستقام المغرب للحكم وتظافر أمراؤه على مدافعة بلكين، وعقد الوزير المنصوري لجعفر بن علي على المغرب، واسترجع يحيى بن محمد بن هاشم وغرّب الحسن بن كنون الأدارسة جميعاً إلى المشرق استثقالاً لنفقاتهم، وشرط عليهم ألا يعودوا، فعبروا البحر من المرية سنة خمس وستين وثلثمائة، ونزلوا من جوار العزيز بن معدّ بالقاهرة خير نزل، وبالغ في الكرامة ووعد بالنصرة والترة.

ثم بعث الحسن بن كنون إلى المغرب وكتب له إلى آل زيري بن مناد بالقيروان بالمظاهرة، فلحق بالمغرب ودعا لنفسه. وبعث المنصور بن أبي عامر العساكر لمدافعته فغلبوه وتقبضوا عليه، وأشخصوه إلى الأندلس فقتل في طريقه سنة... كما ذكرناه في أخبارهم.وانقرض ملك الأدارسة من المغرب أجمع إلى أن كان رجوع الأمر لبني حمود منهم ببلاد غمارة وسبتة وطنجة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دولة بني حمّود ومواليهم بسبتة وطنجة وتصاريف أحوالهم وأحوال غمارة من بعدهم

كانت الأدارسة لما أجلاهم الحكم المستنصر عن العدوة إلى المشرق، ومحا أثرهم من سائر بلاد المغرب واستقامت غمارة على طاعة المروانية، وأذعنوا لجند الأندلسيين، ورجع الحسن بن كنون لطلب أمرهم، فهلك على يد المنصور بن أبي عامر فانقرض أمرهم، وافترقت الأدارسة في القبائل وانتشروا في الأرض، ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب، واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة. ولحق بالأندلس في جملة البرابرة من ولد عمر بن إدريس رجلان منهم وهما: علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس، فطار لهم ذكر في الشجاعة والإقدام. ولما كانت الفتنة البربرية بالأندلس بعد انقراض الدولة العامرية، ونصب البرابرة سليمان بن الحكم ولقّبوه المستعين، واختص به أبناء حمّود هذان، وأحسنوا الغَناء في ولايته، حتى إذا استولى على ملكه بقرطبة وعقد للمغاربة الولايات، عقد لعلي بن حمود هذا على طنجة وأعمال غمارة فنزلها وراجع عهده معهم فيها.

ثم انتقض ودعا لنفسه وأجاز إلى الأندلس، وولي الخلافة بقرطبة كما ذكرناه فعقد على عمله بطنجة لابنه يحيى، ثم أجاز يحيى إلى الأندلس بعد مهلك أبيه علي منازعاً لعمه القاسم، واستقل أخوه إدريس من بعده بولاية طنجة وسائر أعمال أبيه بالعدوة من مواطن غمارة.ثم أجاز بعد مهلك أخيه يحيى بمالقة فاستدعى رجال دولتهم، وعقد لحسن ابن أخيه يحيى على عملهم بسبتة وطنجة، وأنفذ نجا الخادم معه ليكون تحت نظره واستبداده. ولما هلك إدريس واعتزم ابن بقنة على الاستبداد بمالقة أجاز نجا الخادم بحسن بن يحيى من طنجة فملك مالقة ورتب أمره في خلافته ورجع إلى سبتة. وعقد له حسن على عملهم في مواطن غمارة حتى إذا هلك حسن أجاز نجا إلى الأندلس يروم الاستبداد. واستخلف على العمل من وثق به من الموالي الصقالبة، فلم يزل إلى نظرهم واحداً بعد آخر إلى أن استقل بسبتة وطنجة من موالي بني حمود هؤلاء الحاجب سكوت البرغواطي، وكان عبداً للشيخ حدّاد من مواليهم اشتراه من سبي برغواطة في بعض أيام جهادهم. ثم صار إلى علي بن حمود فأخذت النجابة بضبعه إلى أن استقل بأمرهم واقتعد كرسي عملهم بطنجة وسبتة، وأطاعته قبائل غمارة.

واتصلت أيامه إلى أن كانت دولة المرابطين، وتغلب يوسف بن تاشفين على مغراوة بفاس. ونجا فلّهم إلى بلد الدمنة من آخر بسيط المغرب مما يلي بلاد غمارة، ونازلهم يوسف بن تاشفين سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، ودعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم، فهمّ بالانحياش ومظاهرته على عدوه، ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأي.فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وأوقع بهم وافتتح حصن علودان من حصون غمارة من ورائه، وانقاد المغرب لحكمه، صرف وجهه إلى سكوت فجهز إليه العساكر وعقد عليها للقائد صالح بن عمران من رجالات لمتونة، فتباشرت الرعايا بمقدمهم وانثالوا عليهم. وبلغ الخبر إلى الحاجب سكوت فأقسم أن لا يسمع أحداً من رعيته هدير طبولهم، ولحق هو بمدينة طنجة ثغر عمله. وقد كان عليه من قبله ابنه ضياء الدولة المعز، وبرز للقائهم فالتقى الجمعان بظاهر طنجة وانكشفت عساكر سكوت، وطحنت رحى المرابطين وسالت نفسه على ظباهم، ودخلوا طنجة واستولوا عليها، ولحق ضياء الدولة بسبتة.

ولما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس، وبعث ابن عباد صريخه إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مستنجزاً وعده في جهاد الطاغية والذب عن المسلمين، وكاتبه أهل الأندلس كافة اهتزّ إلى الجهاد، وبعث ابنه المعز سنة ست وسبعين وأربعمائة في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضة المجاز، فنازلها براً وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً، واقتحموها عنوةً. وتقبّض على ضياء الدولة، واقتيد إلى المعز فطالبه بالمال لانحائه فأساء إجابه فقتله لوقته، وعثر على ذخائره وفيها خاتم يحيى بن علي بن حمّود. وكتب إلى أبيه بالفتح، وانقرضت دولة آل حمّود وامّحى أثر سلطانهم من بلاد غمارة، وأقاموا في طاعة لمتونة سائر أيامهم.

ولما نجم المهدي بالمغرب واستفحل أمر الموحدين بعد مهلكه، تنقل خليفته عبد المؤمن في بلادهم في غزاته الكبرى لفتح المغرب سنة سبع وثلاثين وما بعدها قبل استيلائه على مراكش كما نذكره في أخبارهم، فوحّدوا صفوفهم، واتبعوا أمره ونازلوا سبتة في عساكره. وامتنعت عليهم، وتولى كِبر امتناعها قاضيهم عياض الطائر الذكر رئيسهم لذلك العهد بدينه وأبوّته وعلمه ومنصبه. ثم افتتحت بعد فتح مراكش سنة إحدى وأربعين فكانت لغمارة هؤلاء السابقة التي رُعيت لهم سائر أيام الدولة.

ولما فشل أمر بني عبد المؤمن وذهبت ريحهم، وكثر الثوار بالقاصية، ثار فيهم محمد بن محمد الكتامي سنة خمس وعشرين، كان أبوه من قصر كتامة منقبضاً عن الناس وكان ينتحل السيميا،

ولقنه عنه ابنه محمد هذا. وكان يلقب أبا الطواجن فارتحل إلى سبتة ونزل على بني سعيد وادعى صناعة الكيمياء فاتبعه الغوغاء. ثم ادعى النبوة وشرع شرائع، وأظهر أنواعاً من الشعوذة فكثر تابعه. ثم اطلعوا على خبثه ونبذوا إليه عهده. وزحفت عساكر سبتة إليه ففر عنها، وقتله بعض البرابرة غيلةً.

ثم غلب بنو مرين على بسائط المغرب وأمصاره سني أربعين وستمائة، واستولوا على كرسي الأمر بمراكش سنة ثمان وستين وستمائة فامتنع قبائل غمارة من طاعتهم واستعصوا عليهم، وأقاموا بمنجاة من الطاعة، وعلى ثبج من الخلاف، وامتنعت سبتة من ورائهم على ملوك بني مرين بسبب امتناعهم وصار أمرها إلى الشورى، واستبد بها الفقيه أبو القاسم العزفي من مشيختهم، كما سنذكر ذلك كله، إلى أن وقع بين قبائل غمارة ورؤسائهم فتن وحروب، ونزعت إحدى الطائفتين إلى طاعة السلطان بالمغرب من بني مرين فأتوها طواعيةً.

ودخل الآخرون في الطاعة تلوهم طوعاً أو كرهاً، فملك بنو مرين أمرهم، واستعملوا عليهم، وتخطوا إلى سبتة من ورائهم فملكوا أمر العزفيين سنة تسع وعشرين وسبعماية على ما نذكره بعد عند ذكر دولتهم. وهم الآن على أحسن أحوالهم من الاعتزاز والكثرة يؤتون طاعتهم وجبايتهم عند استقلال الدولة، ويعرضون فيها عند التياثها بفشل أو شغل بخارج، فيجهز البعوث إليهم من الحضرة حتى يستقيموا على الطاعة، ولهم بوعورة جبالهم عز ومنعة وجوار لمن لحق بهم من أعياص الملك، ومستأمني الخوارج إلى هذا العهد. ولبني يكم من بينهم الحظ الوافر من ذلك لأشراف جبلهم على سائرها وسموه بقلاعه إلى مجاري السحب دونها وتوعر مسالكه بهبوب الرياح فيها. وهذا الجبل مطل على سبتة من غربيها ورئيسه منهم وصاحب أمره يوسف بن عمر وبنوه، ولهم فيه عزة وثروة، وقد اتخذوا به المصانع والغروس وفرض لهم السلطان بديوان سبتة العطاء، وأقطعهم ببسيط طنجة الضياع والفدن استئلافاً لهم وحسماً لزبون سائر غمارة بإيناس طاعتهم، و لله الخلق والأمر بيده ملكوت السموات والأرض.

الخبر عن أهل جبال درن بالمغرب الأقصى من بطون المصامدة وما كان لهم من الظهور والأحوال ومبادىء أمورهم وتصاريفها

هذه الجبال بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمور بنا أعرق في الثرى أصلها وذهبت في السماء فروعها، وملأت الجو هياكلها، ومثّلت سياجاً على ريف المغرب سطورها تبتدىء من ساحل البحر المحيط عند أسفى وما إليها، وتذهب في المشرق إلى غير نهاية. ويقال: إنها تنتهي إلى قبلة برنيق من أرض برقة، وهي في الجانب مما يلي مراكش قد ركب بعضها بعضاً متتالية على نسق من الصحراء إلى التل.

يسير الراكب فيه معترضاً من تامسنا وسواحل مراكش إلى بلاد السوس ودرعة من القبلة ثماني مراحل وأزيد، تفجرت فيها الأنهار، وجلل الأرض خُمُر الشعراء وتكاثفت بينها ظلال الأدواح، وزكت فيها الزرع والضرع، وانفسحت مسارح الحيوان ومراتع الصيد، وطابت منابت الشجر، ودرّت أفاويق الجباية يعمرها من قبائل المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم، قد اتخذوا المعاقل والحصون وشيدوا المباني والقصور واستغنوا بقطرهم منها عن سائر أقطار العالم، فرحل إليهم التجر من الآفاق، واختلفت إليهم أهل النواحي والأمصار، ولم يزالوا مذ أول الإسلام وما قبله معتمرين بتلك الجبال قد أوطنوا منها أقطاراً بل أقاليم تعددت فيها الممالك والعمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم، وافترقت أسماؤها بافتراق أحيائهم.

تنتهي ديارهم من هذه الجبال إلى ثنية المعدن المعروفة ببني فازان حيث تبتدىء مواطن صناكة ويحفون بهم كذلك من ناحية القبلة إلى بلاد السوس، وقبائل هؤلاء المصامدة بهذه المواطن كثيرة فمنهم: هرغة وهنتاتة وتينملل وكدميوة وكنفيسة ووريكة وركراكة ومزميرة ودكالة وحاحة وأصادن وبنو وازكيت وبنو ماكر وإيلانة ويقال هيلانة بالهاء. ويقال أيضاً إن إيلان هو ابن بر، أصهر المصامدة فكانوا خلفاءهم. ومن بطون أصادن: مسفاوة وماغوس، ومن مسفاوة: دغاغة ويوطانان، ويقال: إن غمارة ورهون وأمول من أصادن والله أعلم.

ويقال: إن من بطون حاحة: زكن ولخس الظواعن الآن بأرض السوس أحلافاً لذوي حسان المتغلبين عليها من عرب المعقل. ومن بطون كنفيسة أيضاً قبيلة سكسيوة الموطنون بأمنع

المعاقل من هذه الجبال يطل جبلهم على بسيط السوس من القبلة وعلى ساحل البحر المحيط من المغرب، ولهم بمنعة معقلهم ذلك اعتزاز على أهل جلدتهم نذكره بعد. وكان لهؤلاء المصامدة صدر الإسلام بهذه الجبال عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم. وكان من مشاهيرهم كسير بن وسلاس بن شملال بن أصادة، وهو جد يحيى بن يحيى راوي الموطأ عن مالك.

ودخل الأندلس وشهد الفتح مع طارق في آخرين من مشاهيرهم استقروا بالأندلس، وكان لأعقابهم بها ذكر في الدولة الأموية. كان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء. ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين، ومن صنهاجة بإفريقية حسبما هو مشهور ونأتي الآن بذكره إن شاء الله.

الخبر عن مبدأ أمر المهدي ودعوته وما كان للموحدين القائمين بها على يد بني عبد المؤمن من السلطان والدولة بالعدوتين وإفريقية وبداية ذلك وتصاريفه

لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال درن عظيماً، وجماعتهم موفورة وبأسهم قوياً، وفي أخبار الفتح من حروبهم مع عقبة بن نافع وموسى بن نصير حتى استقاموا على الإسلام ما هو معروف مذكور إلى أن أظلتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلاً، وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهماً، حتى لقد اختطوا مدينة مراكش لنزلهم جوار مواطنهم من درن ليتمرّسوا بهم ويذللوا من صعابهم. وفي عنفوان تلك الدولة على عهد علي بن يوسف منها نجم إمامهم العالم الشهير محمد بن تومرت صاحب دولة الموحدين المشتهر بالمهدي، أصله من هرغة من بطون المصامدة الذين عددناهم يسمى أبوه عبد اللّه وتومرت، وكان يلقب في صغره أيضاً امغار، وهو محمد بن عبد الله بن وجلّيد بن يامصال بن حمزة بن عيسى فيما ذكره ابن رشيق وحققه ابن القطان. وذكر بعض مؤرخي المغرب أنه محمد بن تومرت بن تيطاوين بن سافلا بن مسيغون بن إيكلديس بن خالد.

وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت، وأنه محمد بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي إدريس الأكبر، الواقع نسب الكثير من بنيه في المصامدة وأهل السوس. كذا ذكر ابن نخيل في سليمان هذا، وأنه لحق بالمغرب إثر أخيه إدريس، ونزل تلمسان وافترق ولده في المغرب، قال: فمن ولده كل طالبي بالسوس، وقيل: بل هو من قرابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب، وأن رباحاً الذي في عمود هذا النسب إنما هو ابن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن، وعلى الأمرين فإن نسبه الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة ووشجت عروقه فيهم، والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم، وانتسب بنسبتهم وصار في عدادهم.وكان أهل بيته أهل نسك ورباط. وشب محمد هذا قارئاً محباً للعلم، وكان يسمى أسافو، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل بالمساجد لملازمتها، وارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة، ومر بالأندلس ودخل قرطبة وهي إذ ذاك دار علم. ثم أجاز إلى الإسكندرية وحج ودخل العراق ولقي جلة من العلماء يومئذ وفحول النظار، وأفاد علماً واسعاً وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده لما كان الكهان والحزاء يتحينون ظهور دولة يومئذ بالمغرب، ولقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي، وفاوضه بذات صدره بذلك فأراده عليه لما كان فيه الإسلام يومئذٍ بأقطار المغرب من اختلال الدولة وتقويض أركان السلطان الجامع للأمة المقيم للملة، بعد أن سأله عمن له من العصابة والقبائل التي يكون بها الاعتزاز والمنعة، وبشأنها يتم أمر اللّه في درك البغية وظهور الدعوة. وانطلق هذا الإمام راجعاً إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم، وشهاباً وارياً من الدين. وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدور أهل البدعة. وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإمرار المتشابهات كما جاءت، فطعن أهل المغرب في ذلك وحملهم على القوم بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم وألفّ العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد.وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الإمامية الذي افتتحه بقوله: أعز ما يطلب، وصار هذا المفتتح لقباً على ذلك الكتاب، وأحل بطرابلس أول بلاد المغرب مفتياً بمذهبه ذلك مظهراً النكير على علماء المغرب في عدولهم عنه، آخذاً نفسه بتدريس العلم

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع، حتى لقي بسبب ذلك أذايات في نفسه احتسبها من صالح أعماله. ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علنّاس بن حمّاد من أمراء صنهاجة، وكان من المترفين فأغلظ له ولأتباعه بالنكير، وتعرض يوماً لتغيير بعض المنكرات في الطرق، فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة وائتمروا به، فخرج منها خائفاً ولحق بملالة على فرسخ منها، وبها يومئذ بنو وريـاكل من قبائل صنهاجة.وكان لهم اعتزاز ومنعة، فآووه وأجاروه وطالبهم السلطان صاحب بجاية بإسلامه إليه فأبوا وأسخطوه، وأقام بينهم يدرس العلم أياماً.

وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ديار ملالة، وهي لهذا العهد معروفة.وهنالك لقيه كبير صحابته عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه فأعجب بعلمه، وأثنى عزمه عن وجهه ذلك، واختص به وشمر للأخذ عنه، وارتحل المهدي إلى المغرب وهو في جملته ولحق بوانشريس، وصحبه منها البشير من جلة أصحابه، ثم لحق بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فأحضره القاضي بها ابن صاحب الصلاة ووبخه على منتحله ذلك، وخلافه لأهل قطره، وظن أن العذل يزعه عن ذلك، فصمّ عن قبوله، واستمر على طريقه إلى فاس، ثم إلى مكناسة ونهى بها عن بعض المناكير فأوقع به الشرار من الغوغاء. فأوجعوه ضرباً، ولحق بمراكش وأقام بها آخذاً في شأنه. ولقي علي بن يوسف في المسجد الجامع في صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له القول.ولقي ذات يوم الصورة أخت علي بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم فوبخها، ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه، ففاوض الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من شهرته. وكانوا ملئوا منه حسداً وحفيظةً لما كان ينتحل مذهب الأشعرية في تأويل المتشابه وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إمراره كما جاء، ويرى أن الجمهور لقّنوه تجسيماً، ويذهب إلى تكفيرهم بذلك أحد قولي الأشعرية في التكفير بمآل الرأي فأغروا الأمير به وأحضره للمناظرة معهم فكان له الفتح والظهور عليهم، وخرج من مجلسه ونذر بالشر منهم فلحق من يومه بأغمات، وغيّر المناكير على عادته وأغرى به أهلها علي بن يوسف وطيّروا إليه بخبره فخرج عنها هو وتلاميذه الذين كانوا في صحابته، ودعا إسماعيل بن إيكيك من أصحابه مايتين من أنجاد قومه، وخرج به إلى منجاة من جبال المصامدة، ولحق أولاً بمسفيوة، ثم بهنتاتة. ولقيه من أشياخهم عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي، وهو أبو حفص ويعرف بيته بين هنتاتة ببني فاصكات.

وتقول نسابتهم: إن فاصكات هو جد وانودين، ويقال لهنتاتة بلسانهم يتى فلذلك كان يعرف عمر بينتى وسيأتي الكلام في تحقيق نسبه عند ذكر دولتهم. ثم ارتحل المهدي عنهم إلى إيكيلين من بلاد هرغة، فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة، وبنى رابطة للعبادة واجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة والتوحيد باللسان البربري. وشاع أمره في صحبته واستدرك رئيس الفئة العلمية بمجلس الأمير علي بن يوسف وهو مالك بن وهيب أغراه به، وكان جزّاء ينظر في النجوم وكان الكهان يتحدثون بأن ملكاً كائن بالمغرب لأمة من البربر ويتغير فيه شكل السكة لقران بين الكوكبين العلويين من السيارة يقتضي ذلك في أحكامهم، وكان الأمير يتوقعها، فقال له: احتفظوا بالدولة من الرجل فإنه صاحب القران.

والدرهم المربع في كلام سفساف بسجع سوقي يتناقل الناس نصه وهو: اجعل على رجله كبلا ليلاً يسمعك طبلاً. وأظنه صاحب الدرهم المربع، فطلبه علي بن يوسف فتفقده وسرح الخيالة في طلبه ففاتهم، وداخل عامل السوس، وهو أبو بكر بن محمد اللمتوني بعض هرغة في قتله، ونذر بهم إخوانهم فنقلوا الإمام إلى معقل امتناعهم، وقتلوا من داخل في أمره. ثم دعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد، وقتال المجسمين دونه سنة خمسة عشر وخمسمائة، فتقدم إليها رجالاتهم من العشرة وغيرهم.وكان فيهم من هنتاتة أبو حفص عمر بن يحيى وأبو يحيى بن بكيت ويوسف بن وانودين وابن يغمور، ومن تينملل أبوحفص عمر بن علي أصناك ومحمد بن سليمان وعمر بن تافراكين وعبد اللّه بن ملويات.

وأوعب قبيلة هرغة فدخلوا في أمره كلهم، ثم دخل معهم كدميوة وكنفيسة، ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان لقبه قبلها الإمام. وكان يسمى أصحابه الطلبة، وأهل دعوته الموحدين، ولما تم له خمسون من أصحابه سماهم آيت الخمسين. وزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمد اللمتوني بمكانهم من هرغة، فاستجاشوا بإخوانهم من هنتاتة وتينملل فاجتمعوا إليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة فكانت مقدمة الفتح. وكان الإمام يعدهم بذلك فاستبصروا في أمره، وتسابق كافتهم إلى الدخول في دعوته، وترددت عساكر لمتونة إليهم مرة بعد أخرى ففضّوهم، وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينملل فأوطنه، وبنى داره ومسجده بينهم حوالي منبع وادي نفيس.

وقاتل من تخلّف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا فقاتل أولاً هزرجة وأوقع بهم مراراً، ودانوا بالطاعة. ثم قاتل

هسكورة ومعهم أبو درقة اللمتوني فغلبهم وقفل فاتّبعه بنو وازكيت، فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً. ثم غزا بلد عجدامة وكان قد افتتحه وترك فيه الشيخ أبا محمد عطية من أصحابه فغدروا به وقتلوه فغزاهم واستباحهم. ورجع إلى تينملل وأقام بها إلى أن كان شأن البشير وميز الموحد من المنافق، وكانوا يسمون لمتونة الحشم فاعتزم على غزوهم، وجمع كافة أهل دعوته من المصامدة، وزحف إليهم فلقوه بكيك، وهزمهم الموحدون واتبعوهم الى أغمات فلقيهم هنالك زحوف لمتونة مع بكر بن علي بن يوسف وإبراهيم بن تاعبّاست فهزمهم الموحدون، وقتل إبراهيم واتبعوهم إلى مراكش، فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفاً كلهم رجلى إلا أربعمائة فارس.

واحتفل علي بن يوسف في الاحتشاد وبرز إليهم لأربعين من نزولهم عليه خرج عليهم من باب إيلان فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وسبياً، وفقد البشير من أصحابه. واستحرّ القتل في هيلانة، وأبلى عبد المؤمن في ذلك اليوم أحسن البلاء. وكانت وفاة المهدي لأربعة أشهر بعدها. وكان يسمي أتباعه بالموحدين تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم، وكان حصوراً لا يأتي النساء، وكان يلبس العباءة المرقعة، وله قدم في التقشف والعبادة، ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم.

الخبر عن دولة عبد المؤمن خليفة المهدي والخلفاء الأربعة من بيته ووصف أحوالهم ومصائر أمورهم

لما هلك المهدي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة كما ذكرناه وقد عهد بأمره من بعده لكبير صحابته عبد المؤمن بن علي الكومي المقدم ذكره، ونسبه عند ذكر قومه، فقبر بمسجده لصق داره من تينملل. وخشي أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة ولاية عبد المؤمن لكونه من غير جلدتهم، فأرجأوا الأمر إلى أن تخالط بشاشة الدعوة قلوبهم، وكتموا موته، زعموا ثلاث سنين يموّهون بمرضه، ويقيمون سنته في الصلاة والحزب الراتب، ويدخل صحابته إلى البيت كانه اختصهم بعبادته، فيجلسون حفافي قبره ويتفاوضون في شؤونهم بمحضر أخته زينب ثم يخرجون لإنفاذ ما أبرموه، ويتولاّه عبد المؤمن بتلقينهم حتى إذا استحكم أمرهم وتمكنت الدعوة من نفوس كافتهم كشفوا حينئذ القناع عن حالهم، وتمالأ من بقي من العشرة على تقديم عبد المؤمن، وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص، وأراد هنتاتة وسائر المصامدة عليه فأظهروا للناس موت المهدي، وعهده لصاحبه وانقياد بقية أصحابه لذلك.

وروى يحيى بن يغمور عن الإمام أنه كان يقول في دعائه إثر صلواته: «اللّهم بارك في الصاحب الأفضل» فرضي الكافة وانقادوا وأجمعوا على بيعته بمدينة تينملل سنة أربع وعشرين وخمسمائة فقام بأمر الموحدين وأبعد في الغزوات فصبح تادلا، وأصاب منهم. ثم غزا درعة واستولى عليها سنة ست وعشرين وخمسمائة، ثم غزا تاشعبوت وافتتحها وقتل واليها أبا بكر بن مزروال ومن كان معه من قومه غمارة بني ونام وبني مزردع.

ثم تسابق الناس إلى دعوتهم أفواجاً، وانتقض البرابر في سائر أقطار المغرب على لمتونة، وسرّح علي بن يوسف ابنه تاشفين لقتالهم سنة ثلاث وثلاثين فجاءهم من ناحية أرض السوس، واحتشد معه قبائل كزولة وجعلهم في مقدمته، فلقيهم الموحدون بأوائل جبلهم وهزموهم. ورجع تاشفين ولم يلق حرباً، ودخل كزولة من بعدها في دولة الموحدين، وأجمع عبد المؤمن على غزو بلاد المغرب، فغزا غزاته الطويلة منذ سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ولما يراجع فيها تينملل حتى إذا انقضت بالفتح والاستيلاء على المغربين، خرج إليها من تينملل، وخرج تاشفين بعساكره يحاذيه في البسيط، والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن وهو يتنقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل والحطب للدفء إلى أن وصل إلى جبال غمارة، واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب، وامتنعت الرعايا من المغرم وألح الطاغية على المسلمين بالعدوة.

وهلك خلال ذلك علي بن يوسف أمير لمتونة وملك العدوتين سنة سبع وثلاثين وخمسماية، وولي أمرهم تاشفين ابنه، وهو في غزاته هذه، وقد أحيط به. وحدث بعد أبيه فتنة بين لمتونة ومسوفة، ففزع أمراء مسوفة مثل برّاز بن محمد ويحيى بن تاكغت ويحيى بن إسحاق المعروف بأنكمار، وكان والي تلمسان، ولحقوا بعبد المؤمن فيمن إليهم من الجملة، ودخلوا في دعوته، ونبذ إليهم لمتونة العهد، وإلى سائر مسوفة، واستمر عبد المؤمن على حاله فنازل سبتة وامتنعت عليه، وتولى كبر دفاعه عنها القاضي عياض الشهير الذكر، كان رئيسها يومئذ بدينه وأبوّته ومنصبه، ولذلك سخطته الدولة آخر الأيام حتى مات مغرباً عن سبتة بتادلا مستعملاً في خطة القضاء بالبادية، وتمادى عبد المؤمن في غزاته إلى جبال غياثة وبطوية فافتتحها، ثم نزل ملوية فافتتح حصونها. ثم تخطى إلى بلاد زناتة فأطاعته قبائل مديونة، وكان بعث إليهم

عسكراً من الموحدين لنظر يوسف بن وانودين وابن يرمور فخرج إليهم محمد بن يحيى بن فانوا عامل تلمسان فيمن معه من عساكر لمتونة وزناتة فهزمهم الموحدون وقتل ابن فانوا وانفض عسكر زناتة، ورجعوا إلى بلادهم.

وولى ابن تاشفين على تلمسان أبا بكر بن مزدلي، ووصل إلى عبد المؤمن بمكانه من الريف أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يدّر أمراء بني ومانوا، فبعث معهم ابن يغمور وابن وانودين في عسكرهم من الموحدين، فأثخنوا في بلاد بني عبد الواد، وبني باجدي سبياً وأسراً، وأمدّتهم عساكر لمتونة ومعهم الزبرتير قائد الروم ونزلوا منداس، واجتمعت عليهم زناتة في بني يلومي وبني عبد الواد، وشيخهم حمامة بن مطهر، وبني ينكاسن وبني ورسيفان وبني توجين، فأوقعوا ببني ومانوا واستنقذوا غنائمهم من أيديهم، وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه، وتحصّن الموحدون وابن وانودين بجبال سيرات، ولحق تاشفين بن ماخوخ بعبد المؤمن صريخاً على لمتونة وزناتة، فارتحل معه إلى تلمسان. ثم أجاز إلى سيرات وقصد محلة ملتونة وزناتة، فأوقع بهم ورجع إلى تلمسان فنزل ما بين الصخرتين من جبل بني ورنيد.

ونزل تاشفين باصطفصف ووصل مدده صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية لنظر طاهر بن كبّاب من قواده، أمدوا به تاشفين وقومه لعصبية الصنهاجية. وفي يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين، وكان يدل بإقدام وبأس فزارى بلمتونة وأميرهم لقعودهم عن مناجزة الموحدين، وقال: إنما جئتكم لأمكنكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا، وأرجع إلى قومي، فامتعض تاشفين لكلمته وأذن له في المناجزة، فحمل على القوم فركبوا وصمموا للقائه، فكان آخر العهد به وبعسكره. وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم الزبرتير في عسكر ضخم كما قلناه، فأغار على بني سنوس وزناتة الذين كانوا في بسيطهم ورجع بالغنائم فاعترضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلوهم، وقتل الزبرتير وصلب.

ثم بعث بعثاً آخر إلى بلاد بني ومانوا، فلقيهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين وأوقعوا بهم. واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النيل.

وتوالت هذه الوقائع على تاشفين فأجمع الرحلة إلى وهران، وبعث ابنه إبراهيم ولي عهده إلى مراكش في جماعة من لمتونة، وبعث كاتباً معه أحمد بن عطية، وحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة فأقام عليها شهراً ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون إلى أن وصله من المرية بعشرة أساطيل، فأرساها قريباً من معسكره وزحف عبد المؤمن من تلمسان وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وبني ومانوا من زناتة فتقدموا إلى بلاد بني يلومي وبني عبد الواد وبني ورسيفن وبني توجين وأثخنوا فيهم حتى دخلوا في دعوتهم.

ووفد على عبد المؤمن برؤسائهم، وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس شيخ بني يلومي فتلقاهم بالقبول، وسار في جموع الموحدين إلى وهران ففجعوا لمتونة بمعسكرهم ففضوهم، ولجأ تاشفين إلى رابية هنالك فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى غشيهم الليل، فخرج تاشفين من الحصن راكباً على فرسه، فتردّى من بعض حافات الجبل، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. وبعث برأسه إلى تينملل، ونجا فل العسكر إلى وهران فانحصروا مع أهلها حتى جهدهم العطش ونزلوا جميعاً على حكم عبد المؤمن يوم الفطر من تلك السنة. وبلغ خبر مقتل تاشفين إلى تلمسان مع فلّ لمتونة وفيهم أبو بكر بن ولحف وسير بن الحاج وعلي بن فيلو في آخرين من أعيانهم، ففر معهم من كان بها من لمتونة. وقدم عبد المؤمن فقتل من وجد بتاكرارت بعد أن كانوا بعثوا ستين من وجوههم، فلقيهم يصلين من مشيخة بني عبد الواد فقتلهم جميعاً.

ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان استباح أهل تاكرارت لما كان أكثرهم من الحشم، وعفا عن أهل تلمسان، ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد أن ولّى عليها سليمان بن محمد بن وانودين، وقيل: يوسف بن وانودين. وفيما نقل بعض المؤرخين أنه لم يزل محاصراً تلمسان والفتوح ترِد عليه، وهنالك وصلته بيعة سجلماسة. ثم اعتزم على الرحيل إلى المغرب، وترك إبراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان، فقصد فاس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وقد تحصن بها يحيى الصحراوي ولحق بها من فلّ تاشفين من تلمسان فنازلها عبد المؤمن، وبعث عسكراً لحصار مكناسة، ثم رحل في أتباعه وترك عسكراً من الموحدين على فاس، وعليهم الشيخ أبو حفص وأبو إبراهيم وصحابة المهدي العشرة، فحاصروها سبعة أشهر.

ثم داخلهم ابن الجياني مشرف البلد وأدخل الموحدين ليلاً، وفرّ الصحراوي إلى طنجة، وأجاز منها إلى ابن غانية بالأندلس، وبلغ خبر فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة، فرجع إليها وولّى عليها إبراهيم بن جامع وولّى على حصار مكناسة يحيى بن يغمور، ورحل إلى مراكش وكان إبراهيم بن جامع لما افتتح تلمسان ارتحل إلى عبد المؤمن وهو محاصر لفاس فاعترضه في طريقه المخضب بن عسكر أمير بني مرين باكرسيف

ونالوا منه ومن رفقته، فكتب عبد المؤمن إلى يوسف بن وانودين عامل تلمسان أن يجهز إليهم العساكر، فبعثها صحبة عبد الحق بن منقاد شيخ بني عبد الواد، فأوقعوا ببني مرين وقتل المخضب أميرهم.

ولما ارتحل عبد المؤمن من فاس إلى مراكش وصلته في طريقه بيعة أهل سبتة، فولّى عليهم يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتاتة، ومر على سلا فافتتحها بعد مواقعة قليلة، ونزل منها بدار ابن عشرة، ثم تمادى إلى مراكش وسرح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة فأثخن فيهم ورجع. ولقيه في طريقه ووصلوا جميعاً إلى مراكش وقد ضموا إليها جموع لمطة، فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلاً، واكتسحوا أموالهم وظعائنهم، وأقاموا على مراكش تسعة أشهر وأميرهم إسحاق بن علي بن يوسف، بايعوه صبياً صغيراً عند بلوغ خبر أبيه، ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين، فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل، واقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وقتل عامة الملثمين، ونجا إسحاق في جملته وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدبن، وأحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم وتولى كبر ذلك أبو حفص بن واكاك منهم وأمحى أثر الملثمين واستولى الموحدون على جميع البلاد المغرب.

ثم خرج عليهم بناحية السوس ثائر من سوقة سلا يعرف محمد بن عبد اللّه بن هود وتلقب بالهادي، وظهر في رباط ماسة، فأقبل إليه الشراد من كل جانب، وانصرفت إليه وجوه الأغمار من أهل الآفاق وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة وركراكة وقبائل تامسنا وهوارة، وفشت ضلالته في جميع المغرب، فسرح إليه عبد المؤمن عسكراً من الموحدين لنظر يحيى أنكمار اللمتوني النازع إليه من إيالة تاشفين بن علي. ولقي هذا الثائر المآسي، ورجع مهزوماً إلى عبد المؤمن فسرح الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وأشياخ الموحدين، واحتفل في الاستعداد فنهضوا إلى رابطة ماسة، وبرز إليهم الثائر في نحو ستين ألفاً من الرجال وسبعمائة من الفرسان، فهزمهم الموحدون، وقتل داعيتهم في المعركة مع كثرة أتباعه، وذلك في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وكتب الشيخ أبو حفص بالفتح إلى عبد المؤمن من إنشاء أبي جعفر بن عطية الشهير الذكر، كان أبوه أبو أحمد كاتباً لعلي بن يوسف وابنه تاشفين، وتحصّل في قبضة الموحدين فعفا عنه عبد المؤمن.

ولما نزل على فاس اعتزم أبو أحمد هذا على الفرار فتقبض عليه في طريقه، واعتذر فلم يقبل عذره وقتل. وكان ابنه أحمد كاتباً لإسحاق بن علي بمراكش فشمله عفو السلطان فيمن شمله من ذلك الفلّ، وخرج في جملة الشيخ أبي حفص في وجته هذه وطلبه للكتاب في ذلك، فأجابه واستحسن كتابه عبد المؤمن لما وقف عليه فاستكتبه أولاً. ثم ارتفع عنده مكانه فاستوزره، وبعُد في الدولة صيته، وقاد العساكر وجمع الأموال وبذلها، ونال من الرتبة عند السلطان مالم ينله أحد في دولتهم إلى أن دبت عقارب السعاية إلى مهاده الوثير، فكان فيها حتفه، ونكبه الخليفة سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وقتله بمحبسه حسبما هو مشهور.

ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزاة ماسة أراح بمراكش أياماً. ثم خرج غازياً إلى القائمين بدعوة الماسي بجبال درن، فأوقع بأهل نفيس وهيلانة وأثخن فيهم بالقتل والسبي حتى أذعنوا بالطاعة ورجع، ثم خرج إلى هسكورة وأوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم، ثم نهض إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراكش، ثم خرج ثالثة إلى برغواطة فحاربوه مدة ثم هزموه، واضطرمت نار الفتنة بالمغرب، وانتقض أهل سبتة، وأخرجوا يوسف بن مخلوف التينمللي وقتلوه ومن كان معه من الموحدين، وأجاز القاضي عياض البحر إلى يحيى بن علي ابن غانية المسوفي الوالي بالأندلس، فلقيه بالخضراء وطلب منه والياً على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي الذي كان بفاس منذ منازلة عبد المؤمن لها. وذكرنا أنه لحق بطنجة فأجاز البحر إلى الأندلس ولحق بابن غانية بقرطبة وصار في جملته.

وبعثه ابن غانية إلى سبتة مع القاضي عياض كما ذكرناه. وقام بأمرها ووصل يده بالقبائل الناكثة لطاعة الموحدين من برغواطة ودكالة على حين هزيمتهم للموحدين كما ذكرناه. ولحق بهم من مكانه بسبتة وخرج إليهم عبد المؤمن بن علي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فدوخ بلادهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة وتبرأوا من يحيى الصحراوي ولمتونة، ورجع إلى مراكش لستة أشهر من خروجه، ووصلته المرعبة من مشيخة القبائل في يحيى الصحراوي فعفا عنه وصلحت أحوال المغرب. وراجع أهل سبتة طاعتهم فتقبل منهم، وكذلك أهل سلا فصفح لهم وأمر بهدم سورهم.

فتح الأندلس وشؤونها

ثم صرف عبد المؤمن نظره إلى الأندلس، وكان من خبرها أنه اتصل بالملثمين مقتل تاشفين بن علي، ومنازلة الموحدين مدينة

فاس، وكان علي بن عيسى ميمون قائد أسطولهم قد نزع طاعة لمتونة وانتزى بجزيرة قادس، فلحق بعبد المؤمن بمكانه من حصار فاس، ودخل في دعوته وخطب له بجامع قادس أول خطبة خطبت لهم بالأندلس عام أربعين وخمسمائة، وبعث أحمد بن قيسي صاحب مرتلة ومقيم الدعوة بالأندلس أبا بكر بن حبيس رسولاً إلى عبد المؤمن فلقيه على تلمسان وأدّى كتاب صاحبه فأنكر ما تضمنه من النعت بالمهدي، ولم يجاوب. وكان سدراتي بن وزير صاحب بطليوس وباجة وغرب الأندلس قد تغلب على أحمد بن قيسي هذا، وغلبه على مرتلة فأجاز أحمد بن قيسي البحر إلى عبد المؤمن من بعد فتح مراكش لمداخلة علي بن عيسى بن ميمون ونزل بسبتة، فجهزه يوسف بن مخلوف، ولحق بعبد المؤمن، ورغبه في ملك الأندلس، وأغراه بالملثمين فبعث معه عساكر الموحدين لنظر براز بن محمد المسوفي الناظر إلى عبد المؤمن من جملة تاشفين، وعقد له على حروب من بها من لمتونة والثوار وأمدّه بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد، وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجي، ولما أجازوا إلى الأندلس نازلوا أبا الغمر بن عزون من الثوار بشريش، وكانت له مع رندة.

ثم قصدوا لبلة وبها من الثوار يوسف بن أحمد البطروجي فأعطاهم الطاعة، ثم قصدوا مرتلة، وهي تحت الطاعة لتوحيد صاحبها أحمد بن قيسي، ثم قصدوا شلْب فافتتحوها، وأمكنوا منها ابن قيسي. ثم نهضوا إلى باجة وبطليوس فأطاعهم صاحبها سدراتي بن وزير. ثم براز في عسكر الموحدين إلى مرتلة حتى انصرم فصل الشتاء فخرج إلى منازلة إشبيلية فأطاعه أهل طليطلة وحصن القصر، واجتمع إليه سائر الثوار وحاصروا إشبيلية براً وبحراً إلى أن افتتحوها في شعبان من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وفر الملثمون بها إلى قرمونة وقتل من أدرك منهم. وأتى القتل على عبد الله ابن القاضي أبي بكر بن العربي في هيعة تلك الدخلة من غير قصد. وكتبوا بالفتح إلى عبد المؤمن بن علي. وقدم عليه وفدهم بمراكش يقدمهم القاضي أبو بكر فتقبل طاعتهم وانصرفوا بالجوائز والإقطاعات لجميع الوفد سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة.

وهلك القاضي أبو بكر في طريقه ودفن بمقبرة فاس. وكان عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي من مشيخة العسكر بإشبيلية فساء أثرهما بالبلد واستطالت أيديهما على أهله، واستباحوا الدماء والأموال. ثم اعتزما على الفتك بيوسف البطروجي صاحب لبلة فلحق ببلده وأخرج الموحدين الذين بها، وحول الدعوة عنهم. وبعث إلى طليطلة وحصن القصر، ووصل يده بالملثمين الذين كانوا بالعدوة وارتد ابن قيسي في مدينة شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون بجزيرة قادس ومحمد بن علي بن الحجام بمدينة بطليوس وثبت أبو الغمر بن عزون على طاعة الموحدين بشريش ورندة وجهاتهما. وتغلب ابن غانية على الجزيرة الخضراء، وانتقض أهل سبتة كما ذكرناه، وضاقت أحوال الموحدين بإشبيلية، فخرج منها عيسى وعبد العزيز أخوا المهدي وابن عمهما يصليتن بمن كان معهم. ولحقوا بجبال بيستر وجاءهم أبو الغمر بن عزرون، واتصلت أيديهم على حصار الجزيرة حتى افتتحوها وقتلوا من كان بها من لمتونة، ولحق أخوا المهدي بمراكش، وبعث عبد المؤمن على إشبيلية يوسف بن سليمان في عسكر من الموحدين وأبقى براز بن محمد على الجباية، فخرج يوسف ودوخ أعمال البطروجي بلبلة وطليطلة وعمل ابن قيسي بشلب ثم أغار على طلبيرة وأطاعه عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية، وغزا معهم وأرسل محمد بن علي بن الحجام صاحب بطليوس بهداياه فتغلبت ورعيت له، ورجع يوسف إلى إشبيلية. وفي أثناء ذلك استغلظ الطاغية على يحيى بن علي ابن غانية بقرطبة وألح على جهاته حتى نزل له عن بياسة ورندة، وتغلب على الأشبونة وطرطوشة ولاردة وأفراغة وشنتمرية وغيرها من حصون الأندلس، وطالب ابن غانية بالزيادة في ضريبته أو الإفراج له عن قرطبة، فراسل ابن غانية براز بن محمد واجتمعا بأسجة وضمن له براز إمداد الخليفة على أن يتخلى عن قرطبة وقرمونة ويدال منها بجيان فرضي بذلك وتم العقد ووصل خطاب عبد المؤمن بإمضائه فارتحل ابن غانية إلى جيان ونازله الطاغية بها فغدر بأقماطه واعتقلهم بقلعة ابن سعيد وأفرج الطاغية عن جيان ولحق هذا بغرناطة وبها ميمون بن بدر اللمتوني في جماعة من المرابطين، قصده ابن غانية ليحمله على مثل حاله مع الموحدين فكان مهلكه بها في شعبان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وقبره بها معروف لهذا العهد. وانتهز الطاغية فرصته في قرطبة فزحف إليها ودفع الموحدون بإشبيلية أبا الغمر بن عزرون لحمايتها، ووصل إليه مدد يوسف البطروجي من لبلة ويلغ الخبر عبد المؤمن فبعث إليها عسكراً من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور ولما دخلها أخرج عنها الطاغية لأيام من مدخله، وبادر الثوار إلى يحيى بن يغمور في طلب الأمان من عبد المؤمن. ثم تلاحقوا به بمراكش فتقبلهم وصفح لهم ونهض إلى مدينة سلا سنة خمس وأربعين وخمسمائة واستدعى منها أهل الأندلس فوفدوا عليه وبايعوه جميعاً، وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الأمر مثل سدراتي بن وزير صاحب باجة، ويابورة والبطروجي صاحب لبلة، وابن عزرون صاحب شريش ورندة وابن الحجام صاحب بطليوس، وعامل بن مهيب صاحب طلبيرة، وتخلف ابن قيسي

وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سبباً لقتله من بعد. ورجع عبد المؤمن إلى مراكش وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته.

فتح أفريقية وشؤونها

ثم بلغ عبد المؤمن ما هي عليه أفريقية من اختلاف الأمراء واستطالة العرب عليها بالعيث والفساد، وأنهم حاصروا مدينة القيروان، وأن موسى بن يحيى الرياحي المرداسي دخل مدينة باجة وملكها، فأجمع الرحلة إلى غزو إفريقية بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وأبا إبراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه. وخرج من مراكش في أواخر سنة ست وأربعين وخمسمائة مورياً بالجهاد حتى انتهى إلى سبتة واستوضح أحوال أهل الأندلس، ثم رحل عن سبتة مورياً بمراكش، وأغذّ السير إلى بجاية فدخل الجزائر على حين غفلة، وخرج إليه الحسن بن علي صاحب المهدية، فصحبه واعترضته جيوش صنهاجة بأم العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها. وركب يحيى بن العزيز البحر في أسطولين كان أعدهما لذلك، واحتمل فيهما ذخائره وأمواله والحق بقسطنطينة إلى أن نزل بعد ذلك عنها على أمان عبد المؤمن. واستقر بمراكش تحت الجراية والعناية إلى أن هلك رحمه الله.

ثم سرّح عبد المؤمن عساكر الموحدين وعليهم ابنه عبد اللّه إلى القلعة، وبها جوشن بن العزيز في جموع صنهاجة فاقتحمها واستلحم من كان بها منهم، وأضرم النار في مساكنها وقتل جوشن ويقال: إن القتلى بها كانوا ثمانية عشر ألفاً وامتلأت أيدي الموحدين من الغنائم والسبي، وبلغ الخبر إلى العرب بإفريقية من الأثبج وزغبة ورياح وقسرة فعسكروا بظاهر باجة، وتآمروا على الدفاع عن ملكهم يحيى بن العزيز، وارتحلوا إلى سطيف وزحف إليهم عبد اللّه بن عبد المؤمن في الموحدين الذين معه، وكان عبد المؤمن قد قفل إلى المغرب ونزل متيجة، فلما بلغه الخبر بعث المدد لابنه عبد اللّه، والتقى الفريقان بسطيف واقتتلوا ثلاثاً، ثم انفضّت جموع العرب واستلحموا وسبيت نساؤهم واكتسحت أموالهم وأسر أبناؤهم.

ورجع عبد المؤمن إلى مراكش سنة سبع وأربعين وخمسمائة ووفد عليه كبراء العرب من أهل إفريقية طائعين فوصلهم، ورجعوا إلى قومهم. وعقد على فاس لابنه السيد أبي الحسن، واستوزر له يوسف بن سليمان، وعقد على تلمسان لابنه السيد أبي حفص واستوزر له أبا محمد بن وانودين، وعلى سبتة لابنه السيد أبي سعيد واستوزر له محمد بن سليمان. وعلى بجاية للسيد أبي محمد عبد اللّه واستوزر له يخلف بن الحسين، واختص ابنه عبد اللّه بولاية عهده. وتغير بذلك كله ضمائر عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي فلحقا بمراكش مضمرين الغدر وأدخلوا بعض الأوغاد في شأنهم فوثبوا بعمر بن تافراكين وقتلوه بمكانه من القصبة. ووصل على أثرهما الوزير أبو جعفر بن عطية وعبد المؤمن على أثره فأطفأ نار تلك الثورة وقتل أخوا المهدي ومن داخلهم فيها واللّه أعلم.

بقية فتح الأندلس

وبلغه بمراكش سنة تسع وأربعين وخمسمائة أن يحيى بن يغمور صاحب إشبيلية قتل أهل لبلة بما كان من غدر الوهبي لها. ولم يقبل معذرتهم في ذلك فسخط يحيى بن يغمور وعزله عن إشبيلية بأبي محمد عبد اللّه بن أبي حفص بن علي التينمللي، وعن قرطبة بأبي زيد بن بكيت، وبعث عبد اللّه بن سليمان فجاء بابن يغمور معتقلاً إلى الحضرة، وألزمه منزله إلى أن بعثه مع ابنه السيد أبي حفص إلى تلمسان واستقام أمر الأندلس. وخرج ميمون بن بدر اللمتوني عن غرناطة للموحدين فملكوها، وأجاز إليها السيد أبو سعيد صاحب سبتة بعهد أبيه عبد المؤمن إليه بذلك، ولحق الملثمون بمراكش، ونازل السيد أبو سعيد مدينة المرية حتى نزل من كان بها من النصارى على الأمان. وحضر لذلك الوزير أبو جعفر بن عطية بعد أن أمدهم ابن مردنيش الثائر بشرق الأندلس والطاغية معه، وعجزوا جميعاً عن المدافعة. ثم وفد أشياخ إشبيلية سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ورغبوا من عبد المؤمن ولاية بعض أبنائه عليهم، فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها، وافتتح أمره بمنازلة علي الوسيني الثائر بطبيرة ومعه الوزير أبو جعفر بن عطية حتى استقام على الطاعة. ثم استولى على عمل ابن وزير وابن قيسي، واستنزل تاشفين اللمتوني من مرتلة سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وكان الذي أمكن الملثمين منها ابن قيسي واستتم الفتح. ورجع السيد إلى إشبيلية وانصرف أبو حفص بن عطية إلى مراكش فكانت فيها نكبته ومقتله. واستوزر عبد المؤمن من بعده عبد السلام الكومي، كان يمت إليه بذمة صهر فلم يزل على وزارته.

بقية فتح أفريقية

لما بلغ عبد المؤمن سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ما كان من

إيقاع الطاغية بابنه السيد أبي يعقوب بظاهر إشبيلية، ومن استشهد من أشياخ الموحدين وحفّاظهم، ومن الثوار مثل ابن عزرون وابن الحجام، نهض يريد الجهاد، واحتلّ سلا، فبلغه انتقاض أفريقية، وأهمه شأن النصارى بالمهدية، فلما توافت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب، وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس، ونهض يغذ السير حتى نزل المهدية وبها من نصارى أهل صقلية، فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين وخمسمائة واستنقذ جميع البلاد الساحلية مثل صفاقس وطرابلس من أيدي العدو.

وبعث ابنه عبد اللّه من مكان حصاره للمهدية إلى قابس فاستخلصها من يد بني كامل المتغلبين عليها من دهمان، بعض بطون رياح. واستخلص قفصة من يد بني الورد، وورغة من يد بني بروكسن، وطبرقة من يد ابن علال، وجبل زغوان من يد بني حماد بن خليفة وشقبنارية من يد بني عياد، بن نصر اللّه، ومدينة الأربص من يد من ملكها من العرب حسبما ذلك مذكور في أخبار هؤلاء الثوار في دولة صنهاجة.

ولما استكمل الفتح وثّنى عنانه إلى المغرب سنة ست وخمسين وخمسمائة بلغه أن الأعراب بأفريقية انتقضوا عليه، فرجع إليهم عسكراً من الموحدين، فنهضوا إلى القيروان وأوقعوا بالعرب، وقتل كبيرهم محرز بن زياد الفارغي من بني علي إحدى بطون رياح.

أخبار ابن مردنيش الثائر بشرق الأندلس

كان بلغ عبد المؤمن وهو بأفريقية أن محمد بن مردنيش الثائر بشرق الأندلس خرج من مرسية ونازل جيان، وأطاعه واليها محمد بن علي الكومي، ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها وغدر بقرمونة وملكها، ثم رجع إلى قرطبة. وخرج ابن بكيت لحربه فهزمه وقتله، فكتب إلى عماله بالأندلس بفتح إفريقية، وأنه واصل إليهم، وعبر إلى جبل الفتح، واجتمع إليه أهل الأندلس ومن بها من الموحدين، ثم رجع إلى مراكش وبعث عساكره إلى الجهاد، ولقيهم الطاغية فهزموه. وتغلب السيد أبو يعقوب على قرمونة من يد ابن همشك صهر ابن مردنيش. وكان السيدان أبو يعقوب صاحب إشبيلية وأبو سعيد صاحب غرناطة ارتحلا لزيارة الخليفة بمراكش، فخالف ابن همشك إلى مدينة غرناطة وعلا ليلاً بمداخلة من بعض أهلها، واستولى عليها وانحصر الموحدون بقصبتها، وخرج عبد المؤمن من مراكش لاستنقاذها فوصل إلى سلا.

وقدم السيد أبا سعيد فأجاز البحر ولقيه عامل إشبيلية عبد اللّه بن أبي حفص بن علي، ونهضوا جميعاً إلى غرناطة، فنهض إليهم ابن همشك وهزمهم. ورجع السيد أبو سعيد إلى مالقة، وردفه عبد المؤمن بأخيه السيد أبي يعقوب في عساكر الموحدين، ونهضوا إلى غرناطة وكان قد وصلها ابن مردنيش في جموع من النصارى مدداً لابنَ همشك، فلقيهم الموحدون بفحص غرناطة وهزموهم، وفر ابن مردنيش إلى مكانه من المشرق، ولحق ابن همشك بجيان فنازله الموحدون، وارتحل السيدان إلى قرطبة فأقاما بها إلى أن استدعى السيد أبو يعقوب بمراكش سنة ثمان وخمسين وخمسمائة لولاية العهد والإدالة به من أخيه محمد، فلحق بمراكش وخرج في ركاب أبيه الخليفة عبد المؤمن لما نهض للجهاد. وأدركته المنية بسلا في جمادى الآخرة من هذه السنة ودفن بتينملل إلى جانب المهدي واللّه أعلم.

دولة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن

لما هلك عبد المؤمن أخذ البيعة على الناس السيد أبو حفص لأخيه أبي يعقوب باتفاق من الموحدين كافة، ورضا من الشيخ أبي حفص خاصة، واستقل في رتبة وزارته ورجعوا إلى مراكش وكان السيد أبو حفص هذا وزيراً لأبيه عبد المؤمن، استوزره عند نكبة عبد السلام الكومي، فرجعه من أفريقية سنة خمس وخمسين وخمسمائة.وكان أبو علي بن جامع متصرفاً بين يديه في رسم الوزارة إلى أن هلك عبد المؤمن فأخذ أبو حفص البيعة لأخيه أبي يعقوب. ثم هلك إثر وفاة عبد المؤمن ابنه السيد أبو الحسن صاحب فاس والسيد أبو محمد صاحب بجاية في طريقه إلى الحضرة. ثم استقدم أبو يعقوب السيد أبا سعيد من غرناطة سنة ستين وخمسمائة فقدم ولقيه السيد أبو حفص بسبتة.

ثم سرح الخليفة أبو يعقوب معه أخاه السيد أبا حفص إلى الأندلس في عساكر الموحدين لما بلغه من إلحاح ابن مردنيش على قرطبة، بعد أن احتشد معه قبائل العرب، زغبة ورياح والأثبج، فأجاز البحر وقصد ابن مردنيش، وقد جمع جموعه وأولياءه من النصارى، ولقيتهم عساكر الموحدين بفحص مرسية، فانهزم ابن مردنيش وأصحابه وفر إلى مرسية من سبتة، ونازله الموحدون بها ودوخوا نواحيه. وانصرف السيد أبو حفص وأخوه أبو سعيد سنة إحدى وستين وخمسمائة إلى مراكش، وخمدت نار الفتنة من ابن مردنيش. وعقد الخليفة على بجاية لأخيه السيد أبي زكريا، وعلى إشبيلية للشيخ أبي عبد اللّه بن إبراهيم. ثم أدال عنه بأخيه السيد

أبي إبراهيم، وأقر الشيخ أبا عبد اللّه على وزارته. وعقد على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحاق، وأثر السيد أبا سعيد على غرناطة. ثم نظر الموحدون في وضع العلامة في المكتوبات بخط الخليفة، فاختاروا: الحمد لله وحده، لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي في بعض مخاطباته، فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم.

فتنة غمارة

وفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة تحرك الأمير أبو يعقوب إلى جبال غمارة، لما كان ظهر بها من الفتنة التي تولّى كبرها سبع بن منغفاد ونازعهم في الفتنة صنهاجة جيرانهم، فبعث الأمير أبو يعقوب عساكر الموحدين لنظر الشيخ أبي حفص، ثم تعاظمت فتن غمارة وصنهاجة فخرج إليهم بنفسه وأوقع بهم، واستأصلهم، وقتل سبع بن منغفاد وانحسم داؤهم، وعقد لأخيه السيد أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم.وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة اجتمع الموحدون على تجديد البيعة واللقب بأمير المؤمنين، وخاطب العرب بأفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرضهم. وكتب إليهم في ذلك قصيدة ورسالة مشهورة بين الناس، وكان من إجابتهم ووفودهم عليه ما هو معروف.

أخبار الأندلس

لما استوسق الأمر للخليفة أبي يعقوب بالعدوة وصرف نظره إلى الأندلس والجهاد، واتصل به ما كان من غدر العدو، دمره اللّه بمدينة ترجالة، ثم مدينة يابرة ثم حصن شبرمة ثم حصن جلمانية إزاء بطليوس، ثم مدينة بطليوس، فسرح الشيخ أبا حفص في عساكر من الموحدين احتفل في انتقائهم، وخرج سنة أربع وستين وخمسمائة لاستنقاذ بطليوس من هوة الحصار، فلما وصل إلى إشبيلية بلغه أن الموحدين وببطليوس هزموا ابن الرنك الذي كان يحاصرهم بإعانة ابن أذفونش، وأن ابن الرنك تحصّل في قبضتهم أسيراً وفرّ جواندة الجليقي إلى حصنه، فقصد الشيخ أبو حفص مدينة قرطبة، وبعث إليهم إبراهيم بن هشمك من جيان بطاعته وتوحيده ومفارقته صاحبه ابن مردنيش لما حدث بينهما من الشحناء والفتنة، فألح عليه ابن مردنيش بالحرب، وردد إليه الغزو، فبعث إلى الشيخ أبي حفص بطاعته.

وكتب الشيخ أبو حفص بذلك إلى الخليفة وبما كان من عيث النصارى بجوانب الأندلس، فسرح أخاه ووزيره أبا حفص في عساكر الموحدين، فنهض من مراكش سنة خمس وستين وخمسمائة وفي جملته السيد أبو سعيد أخوه، فوصل إلى إشبيلية وبعث أخاه أبا سعيد إلى بطليوس، فعقد الصلح مع الطاغية وانصرف، ونهضوا جميعاً إلى مرسية ومعهم ابن هشمك فحاصروا ابن مردنيش، وثار أهل لورقة بدعوة الموحدين، فملكها السيد أبو حفص. ثم افتتح مدينة بسطة وأطاع ابن عمه محمد بن مردنيش صاحب المرية فحصّ بذلك جناحه.

واتصل الخبر بالخليفة بمراكش، وقد توافت عنده جموع العرب من أفريقية صحبة أبي زكريا صاحب بجاية والسيد أبي عمران صاحب تلمسان، وكان يوم قدومهم عليه يوماً مشهوداً، فاعترضهم وسائر عساكره، ونهض إلى الأندلس. واستخلف على مراكش السيد أبا عمران أخاه فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسمائة ثم ارتحل بعدها إلى إشبيلية، ولقيه السيد أبو حفص هنالك منصرفاً من غزاته. وكان ابن مردنيش لما طال عليه الحصار ارتاب ففتك بهم، وباد أخوه أبو الحجاج إلى الطاعة وهلك هو في رجب من هذه السنة.ودخل ابنه هلال في الطاعة، وبادر السيد أبو حفص إلى مرسية فدخلها وخرج هلال في جملته، وبعثه إلى الخليفة بإشبيلية.ثم ارتحل الخليفة غازياً إلى بلاد العدو فنازل رندة أياماً وارتحل عنها إلى مرسية. ثم رجع إلى إشبيلية سنة ثمان وستين وخمسمائة واستصحب هلال بن مردنيش وأصهر له في ابنته، وولى عمه يوسف على بلنسية وعقد لأخيه السيد أبي سعيد على غرناطة.

ثم بلغه خروج العدو إلى أرض المسلمين مع القومس الأحدب، فخرج للقائهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح، وأثخن فيهم ورجع إلى إشبيلية وأمر ببناء حصن بالقلعة ليحصن جهاتها، وقد كانت خراباً منذ فتنة ابن حجاج فيه مع كريب بن خلدون بمورة أزمان المنذر بن محمد وأخيه عبد اللّه من أمراء بني أمية.

ثم انتقض ابن أذفونيش وأغار على بلاد المسلمين، فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص إليه فغزاه بعقر داره، وافتتح قنطرة بالسيف، وهزم جموعه في كل جهة.ثم ارتحل الخليفة من إشبيلية راجعاً إلى مراكش سنة إحدى وسبعين وخمسمائة لخمس سنين من إجازته إلى الأندلس، وعقد على قرطبة لأخيه الحسن، وعلى إشبيلية لأخيه علي، وأصاب مراكش الطاعون فهلك من السادات أبو عمران وأبو سعيد وأبو زكريا، وقدم الشيخ أبو حفص من قرطبة فهلك في طريقه، ودفن بسلا.

واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا علي وأبا الحسن، فعقد لأبي علي على سجلماسة ورجع أبو الحسن إلى قرطبة، وعقد

لابني أخيه السيد أبي حفص: لأبي زيد منهما على غرناطة، ولأبي محمد عبد اللّه على مالقة. وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة سطا بذرية بني جامع وغربهم إلى ماردة. وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة عقد لغانم بن محمد بن مردنيش على أسطوله وأغزاه مدينة الأشبونة، فغنم ورجع. وفيه كانت وفاة أخيه السيد الوزير أبي حفص بعدما أبلى في الجهاد وبالغ في نكاية العدو.وقدم ابناه من الأندلس وأخبرا الخليفة بانتقاض الطاغية، واعتزم على الجهاد وأخذ في استدعاء العرب من أفريقية.

الخبر عن انتقاض قفصة واسترجاعها

كان علي بن المعز ويعرف بالطويل، من أعقاب بني الرند ملوك قفصة قد ثار سنة خمس وسبعين وخمسمائة كما ذكرناه في أخبارهم. وبلغ الخليفة خبره فنهض إليها من مراكش، وسار إلى بجاية وبقي عنده يعلى بن المنتصر الذي كان عبد المؤمن استنزله من قفصة أنه يواصل قريبه الثائر بها ويخاطب العرب، فتقبض عليه، ووجدت المخاطبات عنده شاهدة بتلك السعاية واستصفى ما كان بيده، وارتحل إلى قفصة ونازلها.ووفدت عليه مشيخة العرب من رياح بالطاعة فتقبلهم ولم يزل محاصراً لقفصة إلى أن نزل على ابن المعز، وانكفأ راجعاً إلى تونس. وأنفذ عساكر العرب إلى المغرب، وعقد على أفريقية والزاب للسيد أبي علي أخيه، وعلى بجاية للسيد أبي موسى فقفل إلى الحضرة.

معاودة الجهاد

لما قفل من فتح قفصة سنة سبع وسبعين وخمسمائة وفد عليه أخوه السيد أبو إسحاق من إشبيلية، والسيد أبو عبد الرحمن يعقوب من مرسية، وكافة الموحدين ورؤساء الأندلس يهنونه بالإياب فأكرم موصلهم وانصرفوا إلى بلادهم. واتصل به أن محمد ابن يوسف بن وانودين غزا بالموحدين من أشبيلية إلى أرض العدو فنازل مدينة يابرة وغنم ما حولها، وافتتح بعض حصونها ورجع إلى أشبيلية، وأن عبد اللّه بن إسحاق بن جامع قائد الأسطول بأشبيلية التقى بأسطول أهل أشبونة في البحر فهزمهم وأخذوا عشرين من قطائعهم مع السبي والغنائم.

ثم بلغ الخبر بأن أدفونس بن شانجة نازل قرطبة وشنّ الغارات على جهات مالقة ورندة وغرناطة. ثم نزل أسجة وتغلب على حصن شنغيلة.وأسكن بها النصارى وانصرف، فاستنفر السيد أبو إسحاق سائر الناس للغزو ونازل الحصن نحواً من أربعين يوماً. ثم بلغه خروج أذفونش من طليطلة بمدده فانكفأ راجعاً. وخرج محمد بن يوسف بن وانودين من أشبيلية في جموع الموحدين ونازل طلبيرة وبرز إليه أهلها، فأوقع بهم وانصرف بالغنائم، فاعتزم الخليفة أبو يعقوب على معاودة الجهاد، وولى على الأندلس أبناءه وقدمهم للاحتشاد، فعقد لابنه أبي إسحاق على أشبيلية كما كان، ولابنه السيد أبي يحيى على قرطبة، ولابنه السيد أبي زيد الحرضاني على غرناطة. ولابنه السيد أبي عبد اللّه على مرسية.

ونهض سنة تسع وسبعين وخمسمائة إلى سلا، ووافاه بها أبو محمد بن أبي إسحاق بن جامع من إفريقية بحشود العرب. وسار إلى فاس وبعث في مقدمته هنتاتة وتيمنلل وحشود العرب وأجاز البحر من سبتة في صفر من سنة ثمانين وخمسمائة فاحتل جبل الفتح، وسار إلى أشبيلية فوافته بها حشود الأندلس. وسخط محمد بن وانودين وغرّبه إلى حصن غافق، ورحل غازياً إلى شنترين فحاصرها أياماً، ثم أقلع عنها وأسحر الناس يوم إقلاعه، وخرج النصارى من الحصن فوجدوا الخليفة في غير أهبة ولا استعداد، فأبلى في الجهاد هو ومن حضره، وانصرفوا بعد جولة شديدة. وهلك في ذلك اليوم الخليفة، يقال: من سهم أصابه في حومة القتال، وقيل من مرض طرقه عفا اللّه عنه.

دولة ابنه يعقوب المنصور

ولما هلك الخليفة أبو يعقوب على حصن شنترين سنة ثمانين وخمسمائة بويع ابنه يعقوب، ورجع بالناس إلى إشبيلية واستكمل البيعة.واستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص، واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد أبي يحيى فأخذ بعض الحصون وأثخن في بلاد الكفار. ثم أجاز البحر إلى الحضرة ولقيه بقصر مصمودة السيد أبو زكريا ابن السيد أبي حفص قادماً من تلمسان مع مشيخة زغبة، ومضى إلى مراكش فغير المناكر وبسط العدل ونشر الأحكام، وكان من أول الأحداث في دولته شأن ابن غانية.

الخبر عن شأن ابن غانية

كان علي بن يوسف بن تاشفين لما تغلب العدو على جزيرة ميورقة وهلك واليها من موالي مجاهد، وهو مبشر، وبقي أهلها فوضى، وقد كان مبشر بعث إليه بالصريخ، والعدو محاصر له،

فلما أخذها العدو وغنم وأحرق وأقلع، وبعث علي بن يوسف والياً عليها وأنور بن أبي بكر من رجالات لمتونة، وبعث معه خمسمائة فارس من معسكره، فأرهب لهم حدة، وأرادهم على بناء مدينة أخرى بعيدة من البحر فامتنعوا، وقتل مقدمهم فثاروا به وحبسوه. ومضوا إلى علي بن يوسف فأعفاهم منه، وولى عليهم محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية. وكان أخوه يحيى على غرب الأندلس، وكان نزله بأشبيلية. واستعمل محمد أخاه على قرطبة فكتب إليه علي بن يوسف يأمره بصرف محمد أخيه إلى ولاية ميورقة فارتحل إليها من قرطبة ومعه أولاده عبد الله وإسحاق وعلي والزبير وإبراهيم وطلحة، وكان عبد الله وإسحاق في تربية عمهما يحيى وكفالته فتبناهما. ولما وصل محمد بن علي بن غانية إلى ميورقة قبض على أنور وبعثه مصفداً إلى مراكش، وأقام على ذلك عشراً، وهلك يحيى بن غانية وقد ولّى عبد الله ابن أخيه محمد على غرناطة، وأخاه إسحاق بن محمد على قرمونة. ثم هلك علي وضعف أمر لمتونة، وظهر عليهم الموحدون فبعث محمد عن ابنيه عبد الله وإسحاق فوصلا إليه في الأسطول وانقضى ملك لمتونة.

ثم عهد محمد إلى ابنه عبد الله فنافسه أخوه إسحاق، وداخل جماعة من لمتونة في قتله فقتلوه، وقتلوا أباه محمداً. ثم أجمعوا على الفتك به فارتاب بهم وداخل لب بن ميمون قائد البحر في أمرهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم سنة ست وأربعين وخمسمائة. وبقي أميراً لميورقة. واشتغل أول أمره بالبناء والغراسة، وضجر منه الناس لسوء ملكته. وفر عنه لب بن ميمون إلى الموحدين. ثم رجع أخيراً إلى الغزو، وكان يبعث بالأسرى والعلوج للخليفة أبي يعقوب إلى أن هلك قبيل مهلكة سنة ثمانين وخمسمائة.

وخلف من الولد: محمداً وعلياً ويحيى وعبد الله والغازي وسير والمنصور وجبارة وتاشفين وطلحة وعمر ويوسف والحسن، فولى ابنه محمد وبعث إلى الخليفة أبي يعقوب بطاعته، فبعث هو علي بن الزبرتير لاختبار ذلك منه، وأحسن بذلك إخوته فنكروه وتقبضوا عليه.وقدموا علياً منهم. وبلغهم مهلك الخليفة وولاية ابنه المنصور فاعتقلوا ابن الزبرتير وركبوا البحر في أسطولهم إلى بجاية، وولى على ميورقة أخاه طلحة وطرق بجاية في أسطوله على حين غفلة، وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان خارجها في بعض مذاهبه، فاستولوا عليها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وتقبضوا على السيد أبي الربيع والسيد أبي موسى عمران بن عبد المؤمن صاحب إفريقية، وكان بها مجتازاً واستعمل أخاه يحيى على بجاية، ومضى إلى الجزائر فافتتحها، وولى عليها يحيى ابن أخيه طلحة، ثم إلى مليانة فولى عليها بدر بن عائشة. ونهض إلى القلعة، ثم إلى قسطنطينة فنازلها واتصل الخبر بالمنصور وهو بسبته مرجعه من الغزو، فسرح السيد أبا زيد ابن عمه السيد أبي حفص، وعقد له على حرب ابن غانية، وعقد لمحمد بن أبي إسحاق بن جامع على الأساطيل، وإلى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلي.

وانتهى السيد أبو زيد إلى تلمسان وأخوه يومئذ السيد أبو الحسن واليها وقد أنعم النظر في تحصينها، ثم ارتحل بعساكره من تلمسان ونادى بالعفو في الرعية، فثار أهل مليانة على ابن غانية فأخرجوه وسبقت الأساطيل إلى الجزائر فملكوها وقبضوا على يحيى بن طلحة وسيق بدر بن عائشة من أم العلو فقتلوا جميعاً بشلف. وتقدم القائد أحمد الصقلي بأسطوله إلى بجاية فملكها ولحق يحيى بن غانية بأخيه علي بمكانه من حصار قسطنطينة فأقلع عنها. ونزل السيد أبو زيد بتكلات وخرج السيد أبو موسى من اعتقاله فلقيه هنالك. ثم ارتحل في طلب العدو فأفرج عن قسطنطينة، وخرج إلى الصحراء واتبعه الموحدون إلى مقرة ونقاوس. ثم قفلوا إلى بجاية واستقر السيد أبو زيد بها، وقصد علي ابن غانية قفصة فملكها، ونازل توزر فامتنعت عليه، ولحق بطرابلس. وخرج غزي الصنهاجي من جموع ابن غانية في بعض أحياء العرب فتغلب على أشير وسرح إليهم السيد أبو زيد ابنه أبا حفص عمر، ومعه غانم بن مردنيش فأوقعوا بهم واستولى على حللهم. وقتل غزي وسيق رأسه إلى بجاية ونصب بها، والحق به عبد الله أخوه. وغرب بنو حمدون من بجاية إلى سلا لاتهامهم بالدخول في أمر ابن غانية. واستقدم الخليفة السيد أبا زيد من مكانه ببجاية، وقدم مكانه أخاه السيد أبا عبد الله وانصرف إلى الحضرة. وبلغ الخبر أثناء ذلك باستيلاء علي بن الزبرتير على ميورقة. وكان من خبره أن الأمير يوسف بن عبد المؤمن بعثه إلى ميورقة لدعاء بني غانية إلى أمره. لما كان أخوهم محمد خاطبه بذلك، فلما وصل ابن الزبرتير إليهم نكروا شأنه على أخيهم محمد واجتمعوا دونه وتقبضوا عليه وعلى ابن الزبرتير وقدموا عليهم أخاه علي وركبوا الأساطيل إلى بجاية فلما خلا الجو منهم، دبر ابن الزبرتير في أمره، وداخل مواليهم من العلوج في تخلية سبيله من معتقله على أن يخلي سبيلهم بأهليهم وولدهم إلى أرضهم، فتم له مراده منهم وثار بقفصة واستنفذ محمد بن أبي إسحاق من مكان اعتقاله، ولحقوا جميعاً بالحضرة. وبلغ الخبر علي ابن غانية بمكانة من طرابلس، فبعث أخاه عبد الله إلى صقلية، وركب منها إلى ميورقة ونزل في بعض قراها. واعمل الحيلة في

تملك البلد فاستولى عليه واضرمت نار الفتنة بإفريقية.

ونازل علي ابن غانية بلاد الجريد وتغلب على الكثير منها، وبلغ الخبر باستيلائه على قفصة فخرج المنصور إليه من مراكش سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، ووصل فاس فأراح بها، وسار إلى رباط تازى، ثم سار على التعبية إلى تونس، وجمع ابن غانية من إليه من الملثمين والأعراب، وجاء معه قراقش الغزي صاحب طرابلس، فسرح إليهم المنصور عساكره لنظر السيد أبي يوسف ابن السيد أبي حفص، ولقيهم بغمرة فانفض جموع الموحدين وانجلت المعركة عن قتل علي بن الزبرتير وأبي علي بن يغمور، وفقد الوزير عمر بن أبي زيد، ولحق فلهم بقفصة فأثخنوا فيهم قتلا، ونجا الباقون إلى تونس. وخرج المنصور متلافياً خبر الواقع في هذا الحال، ونزل القيروان، وأغذ السير إلى الحامة فتشاور الفريقان وتزاحفوا فكانت الدبرة على ابن غانية وأحزابه، وأفلت من المعركة بذماء نفسه ومعه خليلة قراقش، وأتى القتل على كثيرهم فصبح المنصور قابس فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس. وثنى العنان إلى توزر فافتتحها وقتل من وجد بها، ثم إلى قفصة فنازلها أياماً حتى نزلوا على حكمه. وأمن أهل البلد والأغراب أصحاب قراقش، وقتل سائر الملثمين ومن كان معهم من الحشود، وهدم أسوارها وانكفأ راجعاً إلى تونس، فعقد على إفريقية للسيد أبي زيد، وقفل إلى المغرب سنة أربع وثمانين وخمسمائة ومر بالمهدية، وأصحر على طريق تاهرت، والعباس بن عطية أمير بني توجين دليله على تلمسان، فنكب بها عمه السيد أبا إسحاق لشيء بلغه عنه وأحفظه.ثم ارتحل إلى مراكش، ورفع إليه أن أخاه السيد أبا حفص والي مرسية الملقب بالرشيد، وعمه السيد أبا الربيع والي تادلا عندما بلغهم خبر الوقيعة بغمرة، حدثوا أنفسهم بالتوثب على الخلافة، فلما قدموا عليه للتهنئة أمر باعتقالهما برباط الفتح خلال ما استجلى أمرهما، ثم قتلهما وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية، وقصد يحيى بن غانية قسطنطينة فزحف إليه السيد أبو الحسن من بجاية فهزمه ودخل قسطنطينة وارتحل ابن غانية إلى بسكرة فقطع نخلها وافتتحها عنوة.ثم حاصر قسطنطينة فامتنعت عليه فارتحل إلى بجاية وحاصرها، وكثر عيثه إلى أن كان من خبره ما يذكر إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

أخباره في الجهاد

لما بلغه تغلب العدو على قاعدة شلب، وأنه أوقع بعسكر أشبيلية، وترددت سراياهم على نواحيها، وافتتح كثيراً من حصونها، وخاطبه السيد أبو يوسف بن أبي حفص صاحب إشبيلية بذلك. استنفر الناس للجهاد وخرج سنة ست وثمانين وخمسمائة إلى قصر مصمودة فأراح به. ثم أجاز إلى طريف وأغذ السير منها إلى شلب، ووافته بها حشود الأندلس فتركهم لحصارها. وخف إلى حصن طرش فافتتحه ورجع إلى أشبيلية. ثم رجع إلى منازلة شلب سنة سبع وثمانين فافتتحه.وقدم عليه ابن وزير بعد أن كان افتتح في طريقه إليه حصوناً أخرى. ثم قفل إلى حضرته بعد استكماله غزاتة. وكتب بعهده لابنه الناصر.

وقدم عليه سنة ثمان وثمانين وخمسمائة السيد أبو زيد صاحب إفريقية، ومعه مشيخة العرب من هلال وسليم فتلقاهم مبرة وتكريماً، وانقلب وفدهم إلى بلادهم. ثم بلغه سنة تسعين وخمسمائة استفحال ابن غانية بإفريقية وكثرة العيث والفساد بها، فاعتزم على النهوض إليها، ووصل إلى مكناسة فبلغه من أمر الأندلس ما أهمه فصرف وجهه إليها، ووصل قرطبة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فأراح بها ثلاثاً وأمداد الحشود تتلاحق به من كل ناحية. ثم ارتحل للقاء العدو ونزل بالأرك من نواحي بطليوس، وزحف إليه العدو من النصارى وأمراؤهم يومئذ ثلاثة :ابن أذفونش وابن الرنك ولبابوج. وكان اللقاء يوم كذا سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وأبو محمد بن أبي حفص يومئذ على المطوعة، وأخوه أبو يحيى على العساكر والموحدين، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى واستلحم منهم ثلاثون ألفاً بالسيف.

واعتصم فلهم بحصن الأرك، وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم، فاستنزلهم المنصور على حكمه وفودي بهم عددهم من المسلمين. واستشهد في هذا اليوم أبو يحيى ابن الشيخ أبي حفص بعد أن أبلى بلاء حسناً، وعرف بنوه بعدها ببني الشهيد وانكفأ المنصور راجعاً إلى أشبيلية. ثم خرج منها سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة غازياً إلى بلاد الجوف فافتتح حصوناً ومدناً وخربها.كان منها ترجالة وطلبيرة. وأطل على نواحي طليطلة، فخرب بسائطها واكتسح مسارحها، وقفل إلى أشبيلية سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة فرفع إليه في القاضي أبي الوليد بن رشد مقالات نسب فيها إلى المرض في دينه وعقله. وربما ألف بعضها بخطه فحبس. ثم أطلق وأشخص إلى الحضرة وبها كانت وفاته.

ثم خرج المنصور من أشبيلية غازياً إلى بلاد ابن أذفونش حتى احتل بساحة طليطلة، وبلغه أن صاحب برشلونة أمد ابن أدفونش بعساكره، وأنهم جميعاً بحصن مجريط، فنهض إليهم. ولما أطل عليهم انفضت جموع ابن أذفونش من قبل القتال، وانكفأ

راجعاً إلى أشبيلية. ثم رغب إليه ملوك النصرانية في السلم فبذله لهم.

وعقد على أشبيلية للسيد أبي زيد ابن الخليفة، وعلى مدينة بطليوس للسيد أبي الربيع ابن السيد أبي حفص، وعلى المغرب للسيد أبي عبد اللّه ابن السيد أبي حفص.وأجاز إلى حضرته سنة أربع وتسعين وخمسمائة فطرقه المرض الذي كان منه حتفه، وأوصى وصيته التي تناقلها الناس. وحضر لوصيته عيسى ابن الشيخ أبي حفص، وهلك رحمه اللّه سنة خمس وتسعين وخمسمائة آخر ربيعها، واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن وصول ابن منقذ بالهدية من قبل صاحب الديار المصرية

كان الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة وملكوا بيت المقدس، فلما استولى صلاح الدين بن أيوب على ديار مصر والشام اعتزم على جهادهم، وصار يفتح حصونها واحداً بعد واحد حتى أتى على جميعها. وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهدم الكنيسة التي بنواحيها، وانفضت أمم النصرانية من كل جهة واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر، فبعث صريخه إلى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة يطلب إعانته بالأساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس. ووفد عليه أبو الحرث عبد الرحمن بن منقذ بقية أمراء شيزر من حصون الشام، كانوا استبدوا به عند اختلال الدولة العبيدية. فلما استقام الأمر على يد صلاح الدين، وانتظم ملك مصر والشام واستنزل بني منقذ هؤلاء ورعى لهم سابقتهم، وبعثه في هذه إلى المنصور بالمغرب بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين، ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة ثقيلة. ووصل إلى المغرب ووجد المنصور بالأندلس فانتظره بفاس إلى حين وصلوله، فلقيه وأدى الرسالة فاعتذر له عن الأسطول وانصرف. ويقال إنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولاً، ومنع النصارى من سواحل الشام.

دولة الناصر بن المنصور

لما هلك المنصور وأمر ابنه محمد ولي عهده، وتلقب الناصر لدين اللّه، واستوزر أبا زيد بن يوجان، وهو ابن أخي الشيخ أبي حفص. ثم استوزر أبا محمد ابن الشيخ أبي حفص، وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية، وفوض إليه في شؤونها. وبلغه سنة ست وتسعين وخمسمائة إجحاف العدو بإفريقية، وفساد الأعراب في نواحيها، ورجوع السيد أبي الحسن من قسطنطينة منهزماً أمام ابن غانية، فانفذ السيد أبا زيد بن أبي حفص إلى تونس في عسكر من الموحدين لسد ثغورها.وأنفذ أبا سعيد ابن الشيخ أبي حفص فتغلب ابن غانية خلال ذلك على حصن المهدية. وثار بالسوس سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ثائر من كزولة يعرف بأبي قفصة، فسرح الناصر إليه عساكر الموحدين فقصدوا جموعه وقتل. وفي أيامه كان فتح ميورقة على ما يتلوا من خبرها.

فتح ميروقة

وكان من خبرها أن محمد بن إسحاق لما فصل إخوته علي ويحيى إلى إفريقية، وولى على ميورقة أخاهم طلحة، داخل محمد بعض الحاشية، وخرج من الاعتقال هو وابن الزبرتير، وقام بدعوة المنصور، وبعث بها مع ابن الزبرتير، فبعث المنصور أسطوله مع أبي العلا بن جامع ليملك ميورقة، فأبى محمد عن ذلك، وراسل طاغية برشلونة في المدد بجند من النصارى يستخدمهم فأجابه، وانتقض عليه أهل ميورقة لذلك، وخشوا عادية المنصور فطردوا محمد بن إسحاق وولو عليهم أخاه تاشفين.وبلغ ذلك عليا وهو على قسطنطينة، فبعث أخويه عبد اللّه الغازي فداخلوا بعض أهل البلد وعزلوا تاشفين وولّي عبد اللّه، وبعث المنصور أسطوله مراراً مع أبي العلا بن جامع.ثم مع يحيى ابن الشيخ إبراهيم الهزرجي فامتنعوا منهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وقوي أمره وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

ثم لما هلك المنصور بعث الناصر أسطوله مع عمه السيد أبي العلى والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص فنازلوه وانخذل عنه أخوه تاشفين بالناس، ودخل البلد عنوة، واستفتحت وقتل. وانصرف السيد إلى مراكش وولى عليها عبد اللّه بن طاع ا لله الكومي، ثم ولى الناصر عليها عمه السيد أبا زيد، وجعل ابن طاع اللّه على قيادة البحر. وبعد السيد أبي زيد وليها السيد أبو عبد اللّه بن أبي حفص بن عبد المؤمن، ثم أبو يحيى علي بن أبي عمران التينمللي، ومن يده أخذها النصارى سنة سبع وعشرين وستمائة.

خبر إفريقية وتغلب ابن غانية عليها ولاية أبي محمد بن أبي الشيخ أبي حفص

ولما هلك المنصور قوي أمر ابن غانية بإفريقية، وولى الناصر السيد أبا زيد والشيخ أبا سعيد بن أبي حفص، ويقال إن المنصور ولاهما، وكثر الهرج بإفريقية وثار بالمهدية محمد بن عبد الكريم الركراكي، ودعا لنفسه، ونازع ابن غانية الموحدين الأمر، وتسمى صاحب قبة الأديم محمد بن عبد الكريم الركي. ونزل تونس وعاث في قراها سنة ست وتسعين وخمسمائة ونازل ابن غانية بفاس فامتنع عليه، وكان محمد ابن مسعود البلطي شيخ رياح من أشياعه فانتقض عليه، وراجع ابن غانية فأتيح له الظهور على محمد بن عبد الكريم وقصده وهو على قفصة فهزمه. واتبعه إلى المهدية فنازله بها. وبعث إلى صاحب تونس في المدد بأسطوله فأمده، فضاقت حال ابن عبد الكريم، فسأل الأمان من ابن غانية فأمنه، وخرج إليه فتقبض عليه واستولى على المهدية سنة تسع وتسعين وخمسمائة وقتله.

وبعث الناصر أسطوله في البحر مع عمه أبي العلى وعساكر الموحدين مع السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن. ونازلوا ابن عبد الكريم قبل استيلاء ابن غانية عليها، فاعتذر ابن عبد الكريم بأنه حافظ للحصن من العدو، ولا يمكنه إلا لثقة الخليفة، وانصرف السيد أبو الحسن إلى بجاية موضع عمله، وقسم العسكر بينه وبين أخيه السيد أبي زيد صاحب تونس وصلحت الأحوال. ثم أن ابن غانية لما تغلب على المهدية وعلى قراقش الغزي صاحب طرابلس، وقد مرت أخباره في ابن غانية. ثم تغلب على بلاد الجريد، ثم نزل تونس سنة تسع وتسعين وخمسمائة وافتتحها عنوة، وتقبض على السيد أبي زيد، وطالب أهل تونس بالنفقة التي أنفق وبسط عليهم العذاب. وتولى ذلك فيهم كاتبه ابن عصفور حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم. ثم دخل في دعوته أهل بونه وبنزرت وشقبنارية والأربص والقيروان وسبتة وصفاقس وقابس وطرابلس. وانتظمت له أعمال إفريقية وفرق العمال وخطب للعباسي كما ذكرناه في أخباره. ثم ولى على تونس أخاه الغازي ونهض إلى جبال طرابلس فأغرمهم ألف ألف دينار مكررة مرتين ورجع إلى تونس.

واتصل بالناصر كثرة الهرج بإفريقية واستيلاء ابن غانية عليها وحصول السيد أبي زيد في قبضته، فشاور الموحدين في أمره، فأشاروا بمسالمة ابن غانية. وأشار أبو محمد بن الشيخ أبي حفص بالنهوض إليها والمدافعة عنها فعمل على رأيه، ونهض من مراكش سنة إحدى وستمائة، وبعث الأسطول في البحر لنظر أبي يحيى بن أبي زكريا الهزرجي، فبعث ابن غانية ذخيرته وحرمه إلى المهدية مع علي بن الغازي بن محمد بن علي. وانتقض أهل طرابلس على ابن غانية وأخرجوا عاملهم تاشفين بن الغازي بن محمد بن علي ابن غانية، وقصدهم ابن غانية فاقتحمها وخربها.

ووصل أسطول الناصر إلى تونس فدخلوها وقتلوا من كان بها من أشياع ابن غانية، ونهض الناصر في أتباع ابن غانية فأعجزه ونازل المهدية، وبعث أبا محمد بن الشيخ أبي حفص للقاء ابن غانية فلقيه بتاجرا فأوقع به وقتل أخاه جبارة. وكاتبه ابن اللمطي وعامله الفتح بن محمد. قال ابن نخيل: وكانت الغنائم من عسكره يومئذ ثمانية عشر ألفاً من أحمال المال والمتاع والخرثى والآلة.ونجا بأهله وولده فأطلق السيد أبا زيد من الاعتقال بعد أن هم حرسه بقتله عند الهزيمة. ثم تسلم الناصر المهدية من يد علي بن الغازي المعروف بالحاج الكافي على أن يلحق بابن عمه فقبل شرطه ومضى لوجهه. ثم رجع من طريقه واختار التوحيد فناله من الكرامة والتقريب ما لا فوقه.وهلك في يوم العقاب الآتي ذكره. ثم قوض الناصر على المهدية، واستعمل عليها محمد بن يغمور الهرغي، وعلى طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن جامع، ورجع إلى تونس فأقام إلى سنة ثلاث وستمائة. وسرح أخاه السيد أبا إسحاق في عسكر من الموحدين لاتباع العدو فدوخوا ما وراء طرابلس. واستأصلوا بني دمر ومطماطة وجبال نفوسة وتجاوزوها إلى سويقة بني مذكور. وقفل السيد أبو إسحاق بهم إلى أخيه الناصر بتونس وقد كمل الفتح. ثم اعتزم على الرحيل إلى المغرب وأجمع رأيه على تولية أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، وكان شيخ دولته وصاحب رأيه فامتنع إلى أن بعث إليه الناصر في ذلك بابنه يوسف، فأكبر مجيئه وأناب لذلك على أن يقيم بإفريقية ثلاث سنين خاصة خلاف ما يستحكم صلاحها، وأن يحكم فيمن يقيم معه من العسكر فتقبل شرطه.

ورجع الناصر إلى مراكش فدخلها في ربيع سنة أربع وستمائة، وقدم عبد العزيز بن أبي زيد الهنتاتي على الأشغال بالعدوتين وكان على الوزارة أبو سعيد بن جامع، وكان صديقاً لابن عبد العزيز. وعند مرجعه من إفريقية توفي السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن صاحب بجاية، وقد كان أبو الربيع هذا ولي بجاية من قبل، وهو الذي جدد الرفيع والبديع من رياضها. وكان بنو حماد شيدوها من قبل، فأصابها الخراب وجددهما السيد أبو الربيع.وفي سنة خمس وستمائة بعدها عقد للسيد أبي عمران بن يوسف ابن عبد المؤمن على تلمسان، أدال به من السيد أبي

الحسن فوصل إلى تلمسان في عساكر الموحدين وتطوف أقطارها.

وزحف إليه ابن غانية هنالك فانفض الموحدون وقتل السيد أبو عمران. وارتاع أهل تلمسان وأسرع السيد أبو زكريا من فاس إليها فسكن نفوسهم خلال ما عقد الناصر لأبي زيد بن يوجان على تلمسان، وسرحه في العساكر فنزل بها. وفر ابن غانية إلى مكانه من قاصية إفريقية ومعه محمد بن مسعود البلط شيخ الدواودة من رياح وغيره من أعراب رياح وسليم.

واعترضهم أبو محمد بن أبي حفص فانكشفوا واستولى الموحدون على محلاتهم وما بأيديهم، ولحقوا بجهات طرابلس. ورجع عنهم سير بن إسحاق آخذاً بدعوة الموحدين، وفي هذه السنة عقد الناصر على جزيرة ميورقة لأبي يحيى بن أبي الحسن بن أبي عمران، أدال به من السيد أبي عبد اللّه بن أبي حفص، وعقد له على بلنسية وعلى مرسية لأبي عمران بن ياسين الهنتاتي، أدال به من أبي الحسن بن واكاك. وعقد للسيد أبي زيد على كورة جيان، أدال به من أبي موسى بن أبي حفص، وعقد للسيد أبي ابراهيم بن يوسف على أشبيلية ولأبي عبد الله بن أبي يحيى بن الشيخ حفص على غرناطة إلى أن كان ما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

أخباره في الجهاد

لما بلغ الناصر تغلب العدو على كثير من حصون بلنسية أهمه ذلك وأقلقه، وكتب إلى الشيخ أبي محمد بن أبي حفص يستشيره في الغزو، فأبى عليه فخالفه، وخرج من مراكش سنة تسع وستمائة ووصل أشبيلية واستقر بها واستعد للغزو. ثم خرج من أشبيلية وقصد بلاد ابن أذفونش فافتتح قلعة شلبطرة وأثلج في طريقه. ونازل الطاغية قلعة رياح وبها يوسف بن قادس وأخذ بمخنقه فصالحه على النزول، ووصل إلى الناصر فقتله وصار على التعبية إلى الموضع المعروف بالعقاب. وقد استعد له الطاغية، وجاءه طاغية برشلونة مدداً بنفسه، فكانت الدبرة على المسلمين.فانكشفوا في يوم بلاء وتمحيص أواخر صفر سنة تسع وستمائة. وانكفأ راجعاً إلى مراكش فهلك في شعبان من السنة بعدها. وكان ابن أذفونش قد ناظر ابن عمه البيوج صاحب ليون في أن يوالي الناصر ويجر الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك.ثم رجعوا إلى الأندلس بعد الكائنة للإغارة على بلاد المسلمين، فلقيهم السيد أبو زكريا ابن أبي حفص بن عبد المؤمن قريباً من أشبيلية فهزمهم، وانتعش المسلمون بها، واتصلت الحال على ذلك والله أعلم.

ثورة ابن الفرس

كان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس من طبقة العلماء بالأندلس ويعرف بالمهر، وحضر مجلس المنصور في بعض الأيام وتكلم بما خشي عاقبته في عقده وخرج من المجلس فاختفى مدة، ثم بعد مهلك المنصور ظهر في بلاد كزولة وانتحل الإمامة وادعى أنه القحطاني المراد في قوله ﷺ:

«لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعصاه يملأها عدلاً كما ملئت جوراً»، إلى آخر الحديث.وكان مما ينسب إليه من الشعر:

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن علي ... تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء سيد قحطان وعاملها ... ومنتهى القول والغلاب للدول
والناس طوعاً عصاه وهو سائقهم ... بالأمر والنهي بحر العلم والعمل
تبادروا أمره فاللّه ناصره ... واللّه خاذل أهل الزيغ والميل

فبعث الناصر إليه الجيوش فهزموه وقتل وسيق رأسه الى مراكش فنصب بها.

دولة المستنصر بن الناصر

لما هلك محمد الناصر بن المنصور بويع ابنه يوسف سنة إحدى عشرة وستمائة وهو ابن ست عشرة سنة ولقب المستنصر باللّه، وغلب عليه ابن جامع ومشيخة الموحدين فقاموا بأمره.وتأخرت بيعة أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص من إفريقية لصغر سن المستنصر. ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع صاحب الأشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته، واشتغل المستنصر عن التدبير بما يقتضيه الشباب، وعقد للسادة على عمالات ملكه، فعقد للسيد أبي إبراهيم أخي المنصور، وتلقب بالظاهر على فاس، وهو أبو المرتضى. وعقد على أشبيلية لعمه السيد أبي إسحاق الأحول. واستولى ألفنش على المعاقل التي أخذها الموحدون، وهزم حامية الأندلس، ووفد رسوله ابن الفخار فحاوله ابن جامع في السلم فعقده، ثم صرف ابن جامع عن الوزارة بعد مهلك ابن أبي زيد بسعاية أبي زيد بن يوجان، واستوزر أبا يحيى الهزرجي وولى على الأشغال أبا علي بن أشرفي.

ثم رضي عن ابن جامع وأعاده، وعزل أبا زيد بن يوجان من ولاية تلمسان بأبي سعيد بن المنصور، وبعثه إلى مرسية فاعتقل

بها. واستمرت أيام المستنصر في هدنة وموادعة إلى أن ظهر بنو مرين بجهات فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة، فخرج إليهم واليها السيد أبو إبراهيم في جموع الموحدين فهزموه وأسروه، ثم عرفوه وأطلقوه، ثم وصل الخبر بمهلك أبي محمد بن أبي حفص صاحب إفريقية فولّى عليها أبا العلى أخا المنصور، وكان والياً بأشبيلية فعزل. وولّى على إفريقية بسعاية ابن مثنى خاصة السلطان فتوجه إليها كما نذكر في أخبار بني أبي حفص. وخرج بناحية فاس رجل من العبيديين انتسب للعاضد، وتسمى بالمهدي، فبعث السيد أبو إبراهيم أخو المنصور والي فاس إلى شيعته وبذل لهم المال فتقبضوا عليه، وساقوه إليه فقتل. وفي سنة تسع عشرة وستمائة عقد المستنصر لعمه أبي محمد المعروف بالعادل على مرسية، وعزله عن غرناطة. وهلك سنة عشرين وستمائة وقد التاثت الأمور فكان ما نذكر، والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة المخلوع أخي المنصور

لما هلك المستنصر في الأضحى من سنة عشرين وستمائة اجتمع ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبي محمد عبد الواحد أخي المنصور، فقام بالأمر وأمر بمطالبة ابن أشرفي بالمال. وكتب أخوه لأبي العلى بتجديد الولاية على إفريقية بعد أن كان المستنصر أوعز بعزله، فأدركته الولاية ميتاً فاستبد بها ابنه أبو زيد المشمّر كما نذكره في أخبار إفريقية. وأنفذ المخلوع أمره بإطلاق ابن يوجان فأطلق. ثم صدّه ابن جامع عن ذلك وأنفذ أخاه أبا إسحاق في الأسطول ليغرّبه إلى ميورقة كما كان المستنصر أنفذه قبل وفاته. وكان الوالي بمرسية أبو محمد عبد الله بن المنصور فأغراه ابن يوجان بالتوثب على الأمر، وشهد له أنه سمع من المنصور العهد له بالخلافة من بعد الناصر. وكان الناس على كره ابن جامع، وولاة الأندلس كلهم بنو منصور فأصغى إليه، وكان متردداً في بيعة عمه، فدعا لنفسه وتسمى بالعادل. وكان إخوته أبو العلى صاحب قرطبة، وأبو الحسن صاحب غرناطة، وأبو موسى صاحب مالقة، فبايعوه سراً.

وكان أبو محمد بن أبي عبد ا لله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي صاحب جيان وعزله المخلوع بعمه أبي الربيع بن أبي حفص فانتقض وبايع للعادل وزحف مع أبي العلى صاحب قرطبة وهو أخو العادل إلى أشبيلية، وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع فدخل في دعوتهم وامتنع السيد أبو زيد بن عبد الله أخي البياسي عن بيعة العادل، وتمسك بطاعة المخلوع. وخرج العادل من مرسية إلى أشبيلية فدخلها مع أبي زيد بن يوجان، وبلغ الخبر إلى مراكش فاختلف الموحدون على المخلوع، وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه إلى هسكورة. وقام بأمر هنتاتة أبو زكرياء يحيى بن أبي يحيى السيد ابن أبي حفص، وبأمر تينملل يوسف بن علي، وبعث على أسطول البحر أبا إسحاق بن جامع، وأنفذه لمنع الجواز من الزقاق. وكان أسرّ إلى ابن جامع حين خرج إلى هسكورة أن يحاول عليه من هنالك فلم يتم أمره، وقتل بمكان خفي في ربيع سنة إحدى وعشرين وستمائة وبعث الموحدون ببيعتهم إلى العادل، والله أعلم.

الخبر عن دولة العادل بن المنصور

لما بلغت بيعة الموحدين للعادل وكتاب ابن زكريا بن الشهيد بقصة المخلوع، قارن ذلك تغييره للبياسي فانتقض عليه، ودعا لنفسه ببياسة، وتلقب الظافر وشغل بشأنه، وبعث أخاه أبا العلى لحصاره فامتنع عليه، وبعث بعده أبا سعيد ابن الشيخ أبي حفص فامتنع عليه أيضاً، واختلفت الأحوال بالأندلس على العادل وكثرت إغارة النصارى على أشبيلية ومرسية وهو مقيم بها. وانهزمت جيوش الموحدين على طليطلة وأغراه خاصته بابن يوجان فأخذ إلى سبتة. وعظم أمر البياسي بالأندلس وظاهره النصارى على شأنه، فأجاز العادل إلى العدوة وولى أخاه أبا العلى على الأندلس. ولما كان بقصر المجاز دخل عليه عبو بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، فقال له: كيف حالك؟ فأنشد:

حالٌ متى علم ابن منصورٍ بها   جاء الزمان إليه منها تائبا

فاستحسن ذلك وولاه إفريقية. وكتب للسيد أبي زيد ابن عمه بالقدوم، ووصل إلى سلا فأقام بها. وبعث عن شيوخ جشم، وكان لابن يوجان عناية واختصاص جهلال بن حمدان بن مقدم أمير الخلط، فتثاقل ابن جرمون أمير سفيان عن الوصول، واقتتل الخلط وسفيان، وبادر العادل إلى مراكش فدخلها واستوزر أبا زيد بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، وتغير لابن يوجان ففسد باطنه. وتغلب على الدولة ابن الشهيد ويوسف بن علي شيخا هنتاتة وتينملل. ثم خالفت هسكورة والخلط وعاثوا في نواحي مراكش، وخرج إليهم ابن يوجان فلم يغن شيئاً فخربوا بلاد دكالة فأنفذ إليهم العادل عسكراً من الموحدين لنظر إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص وهو الذي كان نازع أولاد الشيخ أبي محمد بإفريقية كما نذكره فانهزم وقتل. وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي إلى قبائلهما للحشد ومدافعة هسكورة، فاتفقا على خلع

العادل والبيعة ليحيى بن الناصر، وقصدوا مراكش فاقتحموا عليه القصر ونهبوه، وقتل العادل خنقاً أيام الفطر من سنة أربع وعشرين وستمائة.

الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له

كان المأمون لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب على أخيه، وتلاشي أمره دعا لنفسه بأشبيلية فبويع وأجابه أكثر أهل الأندلس وبايع السيد أبو زيد صاحب بلنسية وشرق الأندلس. ثم كان ما قدمناه من انتقاض الموحدين على العادل وقتله بالقصر وبيعتهم ليحيى ابن أخيه الناصر، فكاتب ابن يوجان سراً وعمل على إفساد الدولة، فداخل هسكورة والعرب في الغارة على مراكش، وهزم عساكر الموحدين وفطن ابن الشهيد لتدبير ابن يوجان فقتله بداره. وخرج يحيى بن الناصر إلى معتصمه كما ذكرناه فخلع الموحدون العادل وبعثوا ببيعتهم إلى المأمون.

وتولى كِبر ذلك الحسن أبو عبد اللّه الغريغر والسيد أبو حفص بن أبي حفص فبلغ خبرهم إلى يحيى بن الناصر وابن الشهيد، فنزلوا إلى مراكش سنة ست وعشرين وستمائة وقتلوهم وبايع للمأمون صاحب فاس وصاحب تلمسان محمد بن أبي زيد بن يوجان، وصاحب سبتة أبو موسى بن المنصور، وصاحب بجاية ابن أخته ابن الأطامي وامتنع صاحب إفريقية وكان ذلك سبباً لاستبداد الأمير أبي زكريا على ما تذكر. ولم يبق على دعوة يحيى بن الناصر إلا إفريقية وسجلماسة.

وزحف البياسي إلى قرطبة فملكها، ثم زحف إلى إشبيلية فنازل بها المأمون والطاغية معه، بعد أن نزل له عن مخاطة وغيرها من حصون المسلمين فهزمهم المأمون بنواحي أشبيلية ولحق البياسي بقرطبة فثاروا به إلى حصن المدور، فغدر به وزيره ميورك، وجاء برأسه إلى المأمون بأشبيلية.

ثم ثار محمد بن يوسف بن هود وملك مرسية واستولى على الكثير من شرق الأندلس كما ذكرناه في أخباره. وزحف إليه المأمون وحاصره وامتنع عليه فرجع إلى أشبيلية، ثم خرج سنة ست وعشرين وستمائة إلى مراكش لما استدعاه أهل المغرب، وبعثوا إليه ببيعاتهم، وبعث إليه هلال بن حميدان أمير الخلط يستدعيه. واستمد الطاغية عسكراً من النصارى فأمده على شروط تقبلها منه المأمون، وأجاز إلى العدوة. وبادر أهل أشبيلية بالبيعة لابن هود، واعترضه يحيى بن الناصر فهزمه المأمون واستلحم من كان معه من الموحدين والعرب، ولحق يحيى بجبل هنتاتة. ثم دخل المأمون الحضرة وأحضر مشيخة الموحدين وعدد عليهم فعلاتهم وتقبض على مائة من أعيانهم فقتلهم، وأصدر كتابه إلى البلدان بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة، والنعي عليه في النداء للصلاة باللغة البربرية، وزيادة النداء لطلوع الفجر وهو: أصبح و لله الحمد، وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي وعبد المؤمن، وجرى على سننها أبناؤه. فأوعز بالنهي عن ذلك كله. وشنّع عليهم في وصفهم الإمام المهدي بالمعصوم، وأعاد في ذلك وأبدى.

وأذن للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة بمراكش على شرطهم، فضربوا بها نواقيسهم. واستولى ابن هود بعده على الأندلس، وأخرج منها سائر الموحدين، وقتلهم العامة في كل قطر. وقتل السيد أبو الربيع ابن أخي المنصور وكان المأمون تركه والياً بقرطبة. واستبد الأمير أبو زكريا بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص بإفريقية، وخلع طاعته سنة سبع وعشرين وستمائة للسيد أبي عمران ابن عمه محمد الحرحناني على بجاية مع أبي عبد اللّه اللحياني أخي الأمير أبي زكريا. وزحف إليه يحيى بن الناصر فانهزم، ثم ثانية كذلك، واستلحم من كان معه ونصبت رؤوسهم بأسوار الحضرة. ولحق يحيى بن الناصر ببلاد درعة وسجلماسة.

ثم انتقض على المأمون أخوه أبو موسى ودعا لنفسه بسبتة وتسمى بالمؤيد، فخرج المأمون من مراكش وبلغه في طريقه أن قبائل بني فازاز ومكلاتة حاصروا مكناسة وعاثوا في نواحيها، فسار إليها وحسم عاملها واستمر إلى سبتة فحاصرها ثلاثة أشهر، واستمد أخوه أبو موسى صاحب الأندلس ابن هود فأمده بأساطيله.وخالف يحيى بن الناصر المأمون إلى الحضرة فاقتحمها مع عرب سفيان وشيخهم جرمون بن عيسى، ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاتة، وعاثوا فيها، فأقلع المأمون عن سبتة يريد الحضرة وهلك في طريقه بوادي أم الربيع مفتتح سنة ثلاثين وستمائة وحين إقلاعه دخل أخوه السيد أبو موسى في طاعة ابن هود، وأمكنه من سبتة فأداله منها، واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن دولة الرشيد بن المأمون

لما هلك المأمون بويع ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد، وكتموا موت أبيه وأغذوا السير إلى مراكش، ولقيهم يحيى بن الناصر في طريقهم بعد أن استخلف بمراكش أبا سعيد بن وانودين فهزموه، وقتل أكثر من معه. وصبح الرشيد مراكش فامتنعوا عليه

بأشياعهم، ثم خرجوا إليه واستقاموا على بيعته. وكان وصل في صحبته عمه السيد أبو محمد سعد فحلّ من الدولة بمكان، وكان إليه التدبير والحل والعقد، وبعد استقرار الرشيد بالحضرة وصل إليه عمر بن وقاريط كبير الهساكرة بمن كان عنده من أولاد المأمون السيد وإخوته، فجاؤوا من أشبيلية عند ثورة أهلها بهم، واستقروا بسبتة عند عمهم أبي موسى، ومنها إلى الحضرة عند استيلاء ابن هود على سبتة ومروا بهسكورة، وكان ابن وقاريط حذراً من المأمون ومعتقداً أن لا يعود إليه، فتذمم بصحبة هؤلاء الأولاد، وقدم على الرشيد فتقبله واعتلق بوصلة من السيد أبي محمد سعد وصحبة لمسعود بن حميدا كبير الخلط.

ولما هلك السيد أبو محمد لحق ابن وقاريط بقومه ومعتصمه، وكشف وجه الخلاف، وأخذ بدعوة يحيى بن الناصر، واستنفر له قبائل الموحدين ونهض إليهم الرشيد سنة إحدى وثلاثين وستمائة واستخلف على الحضرة صهره أبا العلى إدريس وصعد إليهم الجبل، فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزرجة واستولى على معسكرهم. ولحق يحيى ببلاد سجلماسة وانكفأ الرشيد راجعاً إلى حضرته، واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع يحيى بن الناصر فأمنهم ولحقوا بحضرته.وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا الكدموي، وجاء الباقون على أثره وبسعيه بعد أن شرطوا عليه إعادة ما كان أزال المأمون من رسوم المهدي فأعيدت. وقدم فيهم أبو بكر بن يعزى التينمللي رسولاً عن يوسف بن علي بن يوسف شيخ تينملل، ومحمد بن يرزيكن الهنتاني رسولاً عن أبي علي بن عزوز، ورجعا إلى مرسليهما بالقبول، فقدما على الحضرة وقدم معهم موسى بن الناصر أخو يحيى وكبيره. وجاء على أثرهم أبو محمد بن أبي زكريا وأنسوا لإعادة رسوم الدعوة المهدية.

وكان مسعود بن حميدان الخلطي قد أغراه عمر بن وقاريط بالخلاف لصحبة بينهما، وكان مدلاً ببأسه وكثرة جموعه. يقال: إن الخلط كانوا يومئذ يناهزون اثني عشر ألفاً سوى الرجل والأتباع والحشود، فمرض في الطاعة وتثاقل عن الوفادة، ولما علم بمقام الموحدين أجمع اعتراضهم وقتلهم تمكيناً للفرقة والشتات في الدولة فأعمل الرشيد الحيلة في استدعائه، وصرف عساكره إلى باجة لنظر وزيره السيد أبي محمد، حتى خلا لابن حميدان الجو وذهب عنه الريب، واستقدمه فأسرع اللحاق بالحضرة، وقدم معه معاوية عم عمر بن وقاريط، فتقبض عليه وقتل لحينه. واستدعى مسعود بن حميدان إلى المجلس الخلافي للحديث فتقبض عليه وعلى أصحابه وقتلوا ساعتئذ بعد جولة وهيعة، وقضى الرشيد حاجة نفسه فيهم، واستقدم وزيره وعساكره من باجة فقدموا، ولما بلغ خبر مقتلهم إلى قومهم قدموا عليهم يحيى بن هلال بن حميدان، وأجلبوا على سائر النواحي، وأخذوا بدعوة يحيى واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء.

وداخلهم في ذلك عمر بن وقاريط، وزحفوا لحصار الحضرة، وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلولان فرجع ابن وقاريط في جموعه من العساكر فانهزموا، وأحيط بجند النصارى فقتلوا وتفاقم الأمر بالحضرة، وعدمت الأقوات.واعتزم الرشيد على الخروج إلى جبال الموحدين فخرج إليها، وسار منها إلى سجلماسة فملكها، واشتد الحصار على مراكش وافتتحها يحيى بن الناصر وقومه من هسكورة والخلط، وسار أمرهم فيها وتغيرت أحوال الخلافة. وتغلب على السلطان السيد أبو إبراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حاقة، وفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة خرج الرشيد من سجلماسة بقصد مراكش، وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان، فأجازوا وادي أم الربيع وبرز إليه يحيى في جموعه، والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم، ودخل الرشيد إلى الحضرة ظافراً.

وأشار يحيى بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ بابن هود صاحب الأندلس، والأخذ بدعوته، فنكثوا بيعة يحيى وبعثوا وفدهم إلى ابن هود صحبة عمر بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ فاستقر هنالك. وخرج الرشيد من مراكش وفرّ الخلط أمامه، وسار إلى فاس وسرح وزيره السيد أبا محمد إلى غمارة وفازاز لجباية أموالهم. وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب المعقل فأجاروه ووعدوه النصرة، واشتطوا عليه في المطالب، وأسف بعضهم بالمنع فاغتاله في جهة تازى، وسيق رأسه إلى الرشيد بفاس فبعثه إلى مراكش، وأوعز إلى نائبه بها أبي علي ابن عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا في اعتقاله وهم: حسن بن زيد شيخ العاصم، وفائد وقائد ابنا عامر شيخا بني جابر، فقتلهم وانكفأ الرشيد راجعاً إلى حضرته سنة أربع وثلاثين وستمائة وبلغه استيلاء صاحب درعة أبي محمد بن وانودين على سجلماسة، وذلك أن الرشيد لما فصل من سجلماسة استخلف عليها يوسف بن علي بن يوسف التينمللي، فاستعمل ابن خالته من بني مردنيش، وهو يحيى بن أرقم بن محمد بن مردنيش، فثار عليه ثائر من صنهاجة وقتله في خبائه. وقام ابنه أرقم يطلب الثأر، وبلغ منه ما أراد. ثم حدثته نفسه بالانتقاض خوفاً من عزل الرشيد إياه فانتقض.

ونهض إليه الرشيد سنة اثنتين وثلاثين وستمائة فلم يزل أبو

محمد بن وانودين يعمل الحيلة في استخلاصها حتى تمكن منها وعفى عن أرقم. وكان ابن وقاريط لما فصل إلى ابن هود سنة أربع وثلاثين وستمائة ركب البحر في أسطول ابن هود، وقصد سلا وبها السيد أبو العلى صهر الرشيد، فكاد أن يغلب عليها. وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة بايع أهل أشبيلية للرشيد ونقضوا طاعة ابن هود، وتولى كبر ذلك أبو عمر بن الجد، وأشخص بنو حجاج إلى سبتة ووصل وفدهم إلى الحضرة ومروا في طريقهم بسبتة، فاقتدى أهلها بهم في بيعة الرشيد، وخلعوا أميرهم اليانشتي الثائر بها على ابن هود وقدموا الحضرة، وولى عليهم الرشيد أبا علي بن خلاص منهم. ولأيام من مقدمهم وصل عمر بن وقاريط معتقلاً من أشبيلية، أغراهم بالقبض عليه القاضي أبو عبد اللّه المؤمناني، كان توجه رسولاً إلى ابن هود عن الرشيد، فأمكنهم من ابن وقاريط. وبعثه إلى الرشيد في وفد من رسله فاعتقله بأزمور وقتل وصلب برباط هسكورة، بعد أن طيف به على جمل. وانصرف وفد أشبيلية وسبتة، واستقدم الرشيد رؤساء الخلط فتقبض عليهم، وبعث عساكره فاستباحوا حللهم وأحياءهم. ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن وقاريط، وقطع دابرهم. وفي سنة ست وثلاثين وستمائة وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر الثائر بالأندلس على ابن هود. وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة اشتدت الفتنة بالمغرب، وانتشر بنو مرين في بسائطه، وقاتلهم رياح بأزغار وشيخهم عثمان بن نصر فهزمهم بنو مرين وقتلوهم قتلاً ذريعاً. وكان الرشيد استقدم أبا محمد بن وانودين من سجلماسة سنة خمس وثلاثين وستمائة وعقد له على فاس وسجلماسة وغمارة ونواحيها من أرض المغرب، فكان هنالك. ولما انتشر بنو مرين بالمغرب زحف إليهم فهزموه، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه، وأقام في محاربتهم سنتين ورجع إلى الحضرة. واشتد عدوان بني مرين بالمغرب، وألحوا على مكناسة حتى أعطوا الأتاوة لبني حمامة منهم، فأسفوا بني عسكر بذلك، واتصل عيثهم في نواحيها. وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة قتل الرشيد كاتبه ابن المؤمناني لمداخلة له مع بعض السادة، وهو عمر بن عبد العزيز أخي المنصور، وقف على كتابه إليه بخطه. وغلط الرسول بها فدفعها بدار الخليفة.

وفي سنة أربعين وستمائة بعدها كانت وفاة الرشيد غريقاً، زعموا في بعض حوائز القصر. ويقال: إنه أخرج من الماء وحمّ لوقته، وكان فيها مهلكه، واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن دولة السعيد بن المأمون

لما هلك الرشيد بويع أخوه أبو الحسن السعيد بتعيين أبي محمد بن وانودين، وتلقب المقتدر باللّه واستوزر السيد أبا إسحاق بن السيد أبي إبراهيم ويحيى بن عطوش. وتقبض على جملة من مشيخة الموحدين واستصفى أموالهم واستخلص لنفسه رؤساء العرب من جشم. واستظهر بجموعهم على أمره وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون كبير مجكسة ولأول بيعته انتقض عليه أبو علي بن الخلاص البلنسي صاحب سبتة، وكذلك أهل أشبيلية وبايعوا جميعاً للأمير أبي زكريا صاحب إفريقية.

ثم انتقض عليه بسلجماسة عبد اللّه بن زكريا الهزرجي لمقالة كانت منه يوم بيعة الرشيد أسرها له فبايع للأمير أبي زكريا. ثم وصلته في هذه السنة هدية يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان، فنهض الأمير أبو زكريا صاحب إفريقية بسبب ذلك إلى تلمسان، واستولى عليها. ثم عقد عليها ليغمراسن حسبما نذكر في أخباره. وخرج السعيد من مراكش لتمهيد بلاد المغرب سنة اثنتين وأربعين وتغير لسعيد بن زكريا الكدميوي فتقبض عليه في معسكره بتانسفت وفرّ أخوه أبو زيد ومعه أبو سعيد العود الرطب، ولحقوا بسلجماسة فاستصفى أموالهم بمراكش، وارتحل بقصد سجلماسة وأخذ واليها عبد اللّه الهزرجي في أسباب الامتناع، فغدر به أبو زيد بن زكريا الكدميوي، وداخل أهل سجلماسة في الثورة عليه وملك البلد. واستدعى السعيد لها فوصل وقتل الهزرجي. وفر أبو سعيد العود الرطب إلى تونس. ثم رجع السعيد إلى المغرب وقتل سعيد بن زكريا ونزل المقرمدة من أحواز فاس. وعقد المهادنة مع بني مرين وقفل إلى مراكش فتقبض على أبي محمد بن وانودين واعتقله بأزمور. واعتقل معه يحيى بن مزاحم ويحيى بن عطوش لنظر ابن ماكسن، فأعمل الحيلة في الفرار من معتقله. وخلص ليلاً إلى كانون بن جرمون فأركبه وبعث معه من عرب سفيان من أوصله إلى قومه هنتاتة. وراسله السعيد على أثرها وسكنه واعتذر له، وأسعفه بسكنى تافيوت من حصون عمله بأهله وولده.

ثم انتقض على السعيد كانون بن جرمون وسفيان، وخالفهم إليه بنو جابر والخلط، وخرج من مراكش واستوزر السيد أبا إسحاق ابن السيد أبي ابراهيم إسحاق أخي المنصور. واستخلف أخاه أبا زيد على مراكش، وأخاهما أبا حفص عمر على سلا وفصل من مراكش سنة، وجمع له أبو يحيى بن عبد الحق جموع بني راشد وبني ورا وسفيان، حتى إذا تراءى الفريقان للقاء، خالف كانون بن جرمون الموحدين إلى أزمور، واستولى عليها

ورجع السعيد أدراجه في أتباعه، ففرّ كانون واعترضه السعيد فأوقع به، واستلحم كثيراً من سفيان قومه، واستولى على ماله من مال وماشية، ولحق كانون في فلّه ببني مرين ورجع السعيد إلى الحضرة.وفي ثلاث وأربعين ثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه، وحذّر مشيختها من سطوته فحولوا الدعوة إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حفص صاحب إفريقية، وبعثوا إليه ببيعتهم، وكانت من إنشاء أبي مطرف بن عميرة، وذلك بمداخلة أبي يحيى بن عبد الحق أمير بني مرين ووفاقه لهم على ذلك. وشارطوا أبا يحيى بن عبد الحق بمال دفعوه إليه على الحماية.

ثم راجعوا أمرهم وأوفدوا صلحاءهم ببيعتهم فرضي عنهم السعيد ورضوا عنه، وفي هذه السنة بعث أهل أشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبي زكريا صاحب إفريقية.وبعث ابن خلاص بهديته مع ابنه في أسطول أنشأه لذلك فغرق عند إقلاعه من المرسى. وفي سنة ست وأربعين كان استيلاء الطاغية على أشبيلية لسبع وعشرين من رمضان ولما بلغ السيد بيعة أهل أشبيلية وسبتة للأمير أبي زكريا إلى ما كان من تغلبه على تلمسان، وأخذ يغمراسن بدعوته، ثم ما كان من بيعة أهل مكناسة وأهل سجلماسة له أعمل نظره في الحركة إلى تلمسان ثم إلى إفريقية. وخرج إلى مراكش في ذي الحجة من سنة خمس وأربعين وستمائة ووافاه كانون بن جرمون فعاوده الطاعة واستحشد سفيان وجاء في جملة السعيد مع سائر القبائل من جشم.ولما احتل السعيد بتازى وافاه وفد بني مرين عن أميرهم أبي يحيى بن عبد الحق، فأعطوه الطاعة وبعثوا معه عسكراً من قومهم مدداً له.

ثم سار السعيد إلى تلمسان فكان مهلكه بتامزردكت على يد بني عبد الواد في صفر سنة ست وأربعين وستمائة حسبما نشرح في أخبارهم.ويقال: إن ذلك كان بمداخلة من الخلط فاستولوا على المحلة وقتلوا عدوهم كانون، وانفض العسكر إلى المغرب وقد اجتمعوا إلى عبد اللّه بن السعيد واعترضهم بنو مرين بجهات تازى، فقتلوا عبد اللّه بن السعيد ولحق الفل بمراكش فبايعوا للمرتضى كما نذكر.

الخبر عن دولة المرتضى ابن أخي المنصور

لما لحق فل العسكر بعد مهلك السعيد بمراكش، اجتمع الموحدون على بيعة السيد أبي حفص عمر ابن السيد أبي إبراهيم إسحاق أخي المنصور، واستقدموه لها من سلا، فلقيه وافدهم بتامستا من طريقه ومعه أشياخ العرب فبايعوه وتلقب المرتضى، وعقد ليعقوب بن كانون على بني جابر ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد أن كان قومه قدموه عليهم، ودخل الحضرة فاستوزر أبا محمد بن يونس وتقبض على حاشية السعيد، ثم وصل أخوه السيد أبو إسحاق من الفل آخذاً على طريق سجلماسة فاستوزره واستبد عليه، واستولى أبو يحيى بن عبد الحق وبنو مرين إثر مهلك السعيد على رباط تازى من يد السيد أبي علي أخي أبي دبوس وأخرجوه فلحق بمراكش.ثم استولوا بعدها على مدينة فاس سنة سبع وأربعين وستمائة كما نذكره في أخبارهم بعد.

وفي هذه السنة ثار بسبتة أبو القاسم العزفي وأخرج ابن الشهيد الوالي على سبتة من قرابة الأمير أبي زكريا صاحب إفريقية، وحول الدعوة للمرتضى حسبما نذكر في أخبار الدولة الحفصية وأخبار بني الغزي. وفي سنة تسع وأربعين وستمائة وفد على المرتضى موسى بن زيان الونكاسي وأخوه علي من قبائل بني مرين وأغروه بقتال بني عبد الحق فخرج إليهم ولما انتهى إلى أمان إيملولي أشاع يعقوب بن جرمون قضية الصلح بينهما فأصبحوا راحلين، وقد استولى الجزع على قلوبهم فانفضوا ووقعت الهزيمة من غير قتال. ووصل المرتضى إلى الحضرة فعزل أبا محمد بن يونس عن الوزارة لشيء بلغه عنه، وأسكنه بحملته مع حاشيته، وفر من جملته علي بن بدر إلى السوس سنة إحدى وخمسين وستمائة، وجاهر بالعناد. وسرح إليه السلطان عسكراً من الجند فرجعوا عنه ولم يظفروا به، وتفاقم أمره سنة اثنتين وخمسين وستمائة. وجمع أعراب الشبانات وبني حسان وحمل أموال ونازل تارودانت فحاصر من كان بها. وسرح المرتضى إليه عسكراً من الموحدين فأفرج عنها. ثم رجع بعد قفولهم إلى حاله، وعثر المرتضى على خطابه لقريبة ابن يونس وكتاب ابن يونس إليه بخطه، فاعتقل هو وأولاده ثم قتل.

وفي هذه السنة استدعى مشيخة الخلط إلى الحضرة وقتلوا لما كان منهم في مهلك السعيد. وفيها خرج أبو الحسن بن يعلو في عسكر من الموحدين إلى تامستا ليكشف أحوال العرب، ومعه يعقوب بن جرمون، وعهد إليه المرتضى بالقبض على يعقوب بن محمد بن قيطون شيخ بني جابر، فتقبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطيّر بهما إلى الحضرة معتقلين.

وفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس ونواحيها من يد بني مرين المتغلبين عليها، فوصل إلى بني بهلول، وزحف إليه بنو مرين وأميرهم أبو يحيى فكانت

الهزيمة على الموحدين بذلك الموضع. ورجع المرتضى مفلولاً إلى مراكش، ورعى بني مرين من بعد ذلك سائر أيامه. واستبد العزفي بسبتة، وابن الأمير بطنجة كما نذكره في أخبارهم.

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة بعث المرتضى إلى السوس عسكراً من الموحدين لنظر أبي محمد بن أصناك فلقيهم علي بن بدر وهزمهم واستبد بأمره في السوس. وفي هذه السنة استولى أبو يحيى بن عبد الحق على سجلماسة وتقبض على واليها عبد الحق بن أصكو بمداخلة من خديم له يعرف بمحمد القطراني كان أبوه تاجراً في القطران بنواحي سلا، فصرف عبد الحق ابنه محمداً هذا في مهمةٍ وقربه من بين أهل خدمته، وحدثته نفسه بالثورة فاستمال عرب المعقل أولاً بالمشاركة في حاجاتهم عند مخدومه، والإحسان إليهم حتى اشتملوا عليه.

ثم داخل أبا يحيى بن عبد الحق في تمكينه من البلد فجاء بجملته، وقدم وفده إلى البلد رسلاً في بعض الحديث فتقبض محمد القطراني على عبد الحق بن أصكو وأخرجه إلى أبي يحيى بن عبد الحق فقاده وسرحه إلى مراكش. وكان القطراني شرط على أبي يحيى أن يكون والي سجلماسة فامضى له شرطه، وأنزل معه بها من رجالات بني مرين حتى إذا هلك أبو يحيى بن عبد الحق أخرجهم محمد القطراني واستبد بأمر سجلماسة، وراجع دعوة المرتضى واعتذر إليه واشترط عليه الاستبداد فامضى له شرطه إلا في الأحكام الشرعية.

وبعث أبا عمر بن حجاج قاضياً من الحضرة، وبعض السادات للسكنى في القصبة، وقائداً من النصارى بعسكر للحماية، فأعمل ابن الحجاج الحيلة في قتل القطراني وتولاه قائد النصارى. واستبد السيد بأمر سجلماسة بدعوة المرتضى، واستفحل أمر بني مرين أثناء ذلك. ونزل يعقوب بن عبد الحق بسائط تامستا، فسرح إليهم المرتضى عساكر الموحدين لنظر يحيى بن وانودين فأجفلوا إلى وادي أم ربيع، واتبعهم الموحدون فرجعوا إليهم، وغدر بهم بنو جابر فانهزم الموحدون بأمر الرجلين. ولحق شيخ الخلط علي بن أبي علي ببني مرين وارتحلوا إلى أوطانهم.

وكان المرتضى قدم يعقوب بن جرمون على قبائل سفيان، وكان يعقوب ابن أخيه كانون يناهضه في رئاسة قومه، وغص به فقتله، وثار به أخواه مسعود وعلي بعد حين فقتلاه. وولى المرتضى مكانه ابنه عبد الرحمن فاستوزر يوسف بن وارزك ويعقوب بن علوان. وشغل بلذاته وتصدى لقطع السابلة، ثم نكث الطاعة ولحق ببني مرين، فولى مكانه عمه عبيد الله بن جرمون ويكنى بأبي زمام. وعقد له المرتضى، ثم أدال منه بأخيه مسعود لعجزه.

ووفد على المرتضى عواج بن هلال من أمراء الخلط نازعاً إلى طاعته ومفارقاً لبني مرين، فأنزل معه أصحابه بمراكش وجاء على أثره عبد الرحمن بن يعقوب بن جرمون، فتقبّض على عواج ودفعه إلى علي بن أبي علي فقتله، وكان تقبض معه على عبد الرحمن بن يعقوب ووزيريه فقتلوا جميعاً، واستبد برئاسة سفيان مسعود بن كانون، وبرئاسة بني جابر إسماعيل بن يعقوب بن قيطون.

وفي سنة ستين وستمائة عند رجوع يحيى بن وانودين من واقعة أم الرجلين، خرج عسكر من الموحدين إلى السوس لنظر محمد بن علي أزلماط ولقيه علي بن بدر فهزم جموعه وقتله، وعقد المرتضى من بعده على حرب علي بن بدر للوزير أبي زيد بن بكيت، وسرح معه عسكراً من الجند، وكان فيهم دنلب من زعماء النصرانية، فدارت الحرب بين الفريقين، ولم يكن للموحدين فيها ظهور على كثرتهم وقوة جلدهم وحسن بلائهم. قعد بهم عن ذلك تكاسل دنلب وخروجه عن طاعة الوزير. وكتب بذلك للمرتضى فاستقدمه، وأمر أبو زيد بن يحيى الكدميوي باعتراضه في طريقه وقتله. وفي سنة اثنتين وستين وستمائة أقبل يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين فنازلوا مراكش واتصلت الحرب بينهم وبين الموحدين بظاهرها أياماً هلك فيها عبد الله أنعجوب بن يعقوب، فبعث المرتضى إلى أبيه بالتعزية ولاطف وضرب له أتاوة يبعث بها إليه في كل عام، فرضي وارتحل عنهم.

الخبر عن انتقاض أبي دبوس وتغلبه على مراكش ومهلك المرتضى وما كان في دولته من الأحداث

لما ارتحل بنو مرين عن مراكش بعد مهلك أنعجوب فرّ من الحضرة قائد حروبه السيد أبو العلى الملقب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لسعاية تمكنت فيه عند المرتضى، وصحبه ابن عمه السيد أبو موسى عمران بن عبد الله بن الخليفة، فلحقا بمسعود بن كلداسن كبير هسكورة فأجاره. ثم لحق بيعقوب بن عبد الحق بفاس صريخاً به على شأنه، واشترط له المقاسمة في العمالة والذخيرة فأمده بالمال، يقال: خمسة آلاف دينار عشرية. وأوعز إلى علي بن أبي علي الخلطي بمظاهرته وإعطائه الآلات. ورجع إلى علي بن أبي علي الخلطي فأمده بقومه. ثم سار إلى هسكورة ونزل على صاحبه مسعود بن كلداسن فأطاعه قبائل هسكورة وهزرجة.

وبعث إليه عزوز بن يبورك كبير صنهاجة في ناحية أزمور، وكان منحرفاً عن طاعة المرتضى إلى جملة يعقوب بن عبد الحق، ووفد عليه جماعة من السادة والموحدين والجند والنصارى، وارتاب المرتضى بمسعود بن كانون شيخ سفيان، وبإسماعيل بن قيطون شيخ بني جابر، فتقبض عليهما واعتقلهما، وصار الكثير من قومهما إلى أبي دبوس. وقتل إسماعيل بن قيطون في معتقله، فانتفض أخوه ثائراً ولحق بهم، وحذر علوش بن كانون مثلها على أخيه فاتبعهم، وزحف أبو العلى إلى مراكش. ولما بلغ أغمات وجد بها الوزير أبا زيد بن بكيت في عساكر لحمايتها فناجزه الحرب فانهزم ابن بكيت وقتل عامة أصحابه. وسار أبو دبوس إلى مراكش، وأغار علوش بن كانون على باب الشريعة والناس في صلاة الجمعة، وركز رمحه بمصراعه.

ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبي دبوس باب والأسوار خالية من الحوّاس والحامية فقصد أبو دبوس أغمات فتسور البلد من هنالك ودخلها على حين غفلة. وقصد القصبة فدخلها من باب الطبول وفرّ المرتضى ومعه الوزيران أبو زيد بن يعلو الكومي، وأبو موسى بن عزوز الهنتاتي، فلحقوا بهنتاتة وألفوهم قد بعثوا بطاعتهم فرحل إلى كدميوة، ومر في طريقه بعلي بن زكدان الونكاسي كان نزع إليه عن قومه، ولم يفد عليه بعد، فنزل به المرتضى ورحل معه علي بمن معه إلى كدميوة، وكان فيها وزيره أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الكريم، فأراد النزول عليه فمنعه ابن سعد اللّه، وسار إلى شفشاوة، ووجد بها عدداً من الظهر فمنحها علي بن زكدان. وكتب إلى ابن وانودين بمعسكره من حاحة. وإلى ابن عطوش بمعسكره من ركراكة باللحاق به فأقلعا إلى الحضرة.

وخاطب أبو دبوس علي بن زكداز يرغبه في القدوم عليه، فارتاب المرتضى لذلك ولحق بأزمور فتقبض عليها واليها ابن عطوش. وكان صهره واعتقله، وطير الخبر إلى ابن دبوس، فأمر وزيره السيد أبا موسى أن يكاتبه في كشف أماكن الذخيرة، فأجابه بإنكار أن يكون ذخر شيئاً عندهم، والحلف على ذلك. وسألهم بالرحم، فعطف أبو دبوس عليه وجنح إلى الإبقاء. وبعث وزيره السيد أبا موسى ومسعود بن كانون في إزعاجه إليه.

ثم بدا له في استحيائه بإشارة بعض السادات، فكتب خطه إلى السيد أبي موسى بقتله، فقتله واستقل أبو دبوس بالأمر، وتلقب الواثق باللّه والمعتمد على اللّه. واستوزر السيد أبا موسى وأخاه السيد أبا زيد، وبذل العطاء ونظر في الولايات ورفع المكوس عن الرعية، وحدث بينه وبين مسعود بن كلداسن وحشة فارتحل إليه لإزالتها. وقدم عبد العزيز بن عطوش سفيراً إليه في ذلك. وبلغه أن يعقوب بن عبد الحق نزل تامستا فأوفد عليه حميدي بن مخلوف الهسكوري بهدية فقبلها، وأكد بينهما العهد وانكفأ راجعاً إلى وطنه. ورجع حميدي إلى الواثق، ووافق وصول عبد العزيز بن عطوش بطاعة مسعود بن كلداسن، فرجع أبو دبوس إلى مراكش بعد أن عقد لأبي موسى بن عزوز على بلاد حاحة. وبلغه في طريقه عن عبد العزيز بن السعيد أنه حدث نفسه بالملك، وأن ابن بكيت وابن كلداسن داخلوه في ذلك. وساءل عن ذلك السيد أبا زيد ابن السيد أبي عمران خليفته، وأخبره بما سمع، وأمره بالقبض عليه وقتله، فأنفذ ذلك.

ثم ارتحل إلى السوس لتمهيده، وحسم علل ابن يدر فيه. وقدم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولمطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم، وسار يتقرى المنازل ويستنفر القبائل، ومر بتارودنت فوجدها قفراً خلاءً إلا قلائل من الدور بخارجها. ونزل على حميدي صهر علي بن بدر وقريبه بحصن تيسخت على وادي السوس، كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن بدر وملكه فنازله أبو دبوس وحاصره أياماً، وهزم فيها جموعه وداخل حميدي علي بن زكداز في إفراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤديها إليه، فأعجله الفتح عن ذلك ونجا بدمائه إلى بيته. وطولب بالمال، وبقي معتقلاً عند ابن زكداز، وامتنع ابن بدر بحصنه. ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته، فانصرف الواثق إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وستمائة. وبلغه الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وأنه زاحف إلى .... فبعث بهديته إلى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطرال وابن أبي عثمان رسول يغمراسن، وخرج بهم من مراكش ابن أبي مديون السكاسني دليلاً. وسلك بهم على القفر إلى سجلماسة، وبها يحيى بن يغمراسن، فبعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه فألفوه بجهة مليانة، فأقام ابن قطرال بتلمسان ينتظره. وكان يعقوب بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراكش بجيوش بني مرين وعسكر المغرب، ونزل بضواحي مراكش وأطاعه أهل النواحي ونهض إليه أبو دبوس في عساكر الموحدين فاستجرّه يعقوب إلى وادي أغفو، ثم ناجزه الحرب فاختل مصافه وفرّ عسكره. وانهزم يريد مراكش، والقوم في اتباعه فأدرك وقتل. وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في المحرم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة وفر بقية المشيخة من الموحدين إلى معاقلهم بعد أن كانوا بايعوا عبد الواحد بن أبي دبوس، وسموه المعتصم مدة خمسة أيام وخرج في جملتهم، وانقرض أمر بني عبد المؤمن، والبقاء لله وحده.

الخبر عن هسكورة

وأما هسكورة وهم أكثر قبائل المصامدة، وفيهم بطون كثيرة أوسعها بطن هسكورة. وأما سواهم من بطون كنفيسة فأنفقتهم الدولة بما تولوا من مشايعتها، وإبرام عقدتها، فهلك رجالاتهم في إنفاقها سبل الأمم قبلهم في دولهم، وأما هسكورة فكان لهم بين الموحدين مكان واعتزاز بكثرتهم وغلبهم إلا أنهم كانوا أهل بدو ولم يخالطوهم في ترفهم ولا انغمسوا في نعيمهم.

وكان جبلهم الذي أوطنوه من حالة دون القنة منها والذروة. واعتصموا منه بالآفاق الفدد واليفاع الأشم والطود الشاهق، قد لمس الأفلاك بيده ونظم النجوم في مفرقه. وتلفع بالحساب في مروطه، وآوى الرياح العواصف الدجوة وألقى إلى خبر السماء بإذنه، وأظل على البحر الأخضر بشماريخه، واستدبر القفر من بلاد السوس بظهره، وأقام سائر جبال درن في حجره.

ولما انقرض أمر الموحدين وتغلب بنو مرين على المصامدة أجمع، وساموهم خطة الخسف في وضع الضرائب والمغارم عليهم، فاستكانوا لعزهم وأعطوهم يد الطواعية، واعتصم هسكورة هؤلاء بمعقلهم واعتزوا فيه بمنعتهم، فلم يغمسوا في خدمتهم يداً، ولا أعطوهم مقاداً، ولا رفعوا بدعوتهم راية، إنما هي منابذة لأمرهم وامتناع عليهم سائر الأيام. فاذا زحفت الحشود وتمرست بهم العساكر دافعوهم بطاعة معروفة وأتاوة غير ملتزمة، ورئيسهم مع ذلك يستخلص جبايتهم لنفسه ويدفعهم في المضايق لحمايته، وربما تخطاهم إلى بعض قبائل الجبل ومن قاربه من أهل بسائط السوس يعسكر بذلك للرجل من قومه هسكورة وكنفيسة، وبالحشد من العرب الموطنين بأرض السوس.

وسفيان وهم بطن الحارث ومن المعقل وهم بطن الشبانات، وكان رئيسهم في ما ذكرنا - بعد انقراض عبد المؤمن بن يوسف، وتحرير لسان الأعجمين - هو عبد الواحد، وكان له في الاستبداد والصرامة ذكر. وهلك سنة ثمانين وستمائة وكان منتحلاً للعلم واعيةً له جمّاعة لكتبه ودواوينه، حافظاً لفروع الفقه. يقال: إن المدونة كانت من محفوظاته، محباً في الفلسفة مطالعاً لكتبها، حريصاً على نتائجها من علم الكيمياء والسيمياء والسحر والشعوذة، مطّلعاً على الشرائع القديمة والكتب المنزلة بكتب التوراة.ويجالس أحبار اليهود حتى لقد اُتهم في عقيدته ورُمي بالرغبة عن دينه، ثم ولّي من بعده ابنه عبد اللّه، وكان مقتفياً سنن أبيه في ذلك خصوصاً في انتحال السحر والاستشراف إلى صنعة الكيمياء، ولما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن أخيه عمر، وسكن فتنة المغرب ودوخ أقطاره وحل معتصمه بالعساكر وأوطأ ساحاته لكتائب رجاله دون من يمده من أعراب السوس من ورائه، بما كان من تغلّبه على بلادهم واقتضائه بطاعتهم وإنزال عماله بالعساكر بينهم، فلاذ منه عبد اللّه السكسيوي بطاعة معروفة رهن فيها ابنه، واشترط للسلطان الهدية والضيافة، فتقبل منه ومنحه جانب الرضى.

ولما كانت نكبة السلطان بالقيروان، واضطراب المغرب فتنة وخلا جو البلاد المراكشية من المشايخ اجتمع رأي الملأ من المصامدة على النزول إلى مراكش، وأحكموا عقد الاتفاق بينهم وأجمعوا تخريبها بما كانت داراً للإمرة ولمقام الكتائب الجمرة، وزعم عبد اللّه السكسيوي هذا بإنفاذ ذلك فيها، وضمن هو تخريب المساجد لتجافيهم عنها فكانت مذكورة على الأيام. ثم انحل عزمهم وافترقت جماعتهم وكلمتهم بما كانت من استقامة الدولة بفاس واجتماع بني مرين على السلطان أبي عنان كما يذكر بعد فانحجر كل منهم بوجاره.

ولما فرغ أبو عنان من شأن أبيه واستولى على المغرب الأوسط وغلب عليه بنو عبد الواد، ولحق أخوه أبو الفضل بن مطرح اغترابه في الأندلس بالطاعة يروم الإجازة إلى المغرب لطلب حقه، فأركبه السفير إلى مراحل السوس فنزل به، ولحق بعبد اللّه السكسيوي فآواه وظاهر على أمره. فجرد أبو عنان العزائم إليهم وعقد لوزيره فارس بن ميمون بن وادرار على حربهم.واستخرج جيوش المغرب وأناخ بساحته سنة أربع وخمسين وستمائة واختط بسفح الجبل مدينة لحصاره سماها القاهرة. وأخذت بمخنقه وزاحمت بمناكبها أركان معقله حتى لاذت للسلم، واشترط أن ينبذ العهد إلى أبي الفضل المصري عنده يذهب حيث يشاء فتقبل منه. وعقد له سلماً على عادته وأفرج عنه.وخرج على عبد اللّه السكسيوي لأيام السلطان أبي سالم ابنه محمد المعروف في لغتهم أيزم ومعناه الأسد، فغلبه على أمره ولحق عبد اللّه بعامر بن محمد الهنتاتي كبير المصامدة لعهده، وعامل السلطان عليهم، فاستجاش به ووعده عامر النصرة وأمهله عاماً ونصفه حتى وفد على السلطان، واستوهب في ذلك.

ثم أجمع على نصره من عدوه فجمع له الناس وخاطب أهل ولايته أن يكون معه يداً، وزحف عبد اللّه حتى نزل بالقاهرة وأخذ بمخنق أبيه وأشياعه، ثم داخله بعض بطانته ودله على بعض العورات اقتحم منها الجبل وثاروا بابنه أيزم فصاح به عبد اللّه وقومه. وفر محمد أمامهم فأدرك بتلاسف من نواحي الجبل وقتل واسترجع عبد اللّه ملكه، واستقلت قدمه إلى أن مكر به ابن عمه

يحيى بن سليمان حين بلغ استبداد الوزير عمر بن عبد اللّه على سلطان المغرب واستبداد عامر بن محمد بولاية مراكش، وثار منه يحيى هذا بأبيه سليمان وهو عم عبد اللّه، كان قتله أيام إمارته الأولى وأقام مملكاً على سكسيوة إلى سني خمس وسبعين وستمائة، فثار عليه أبو بكر بن عمر بن خرو فقتله بأخيه عبد اللّه، واستقل بأمر سكسيوة ومن إليهم. ثم خرج عليهم لأعوام من استقلاله ابن عم له من أهل بيته لم ينقل لي من تعريفه إلا أن اسمه عبد الرحمن، لأن ثورته كانت بعد رحلتي الثانية من المغرب سنة ست وسبعين وستمائة، فأخبرني الثقة بأمره وأنه ظفر بأبي بكر بن عمر وقتله. واستبد بأمر الجبل إلى هذا العهد فيما زعم وهو سنة تسع وسبعين وستمائة، ثم بلغني سنة ثمان وثمانين وستمائة أن عبد الرحمن هذا ويعرف بأبي زيد بن مخلوف بن عمر آجليد قتله يحيى بن عبد اللّه بن عمر، واستبد بأمر هذا الجبل وهو الآن مالكه، وهو أخو أيزم بن عبد اللّه، وا لله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

بقية قبائل المصامدة

وأما بقية قبائل المصامدة من سوى هؤلاء السبع مثل هيلانة وحاحة ودكاكة وغيرهم ممن أوطن هضاب الجبل أو ساحته فهم أمم لا تنحصر. ودكالة منهم في ساحة الجبل من جانب الجوف مما يلي مراكش إلى البحر من جانب الغرب. وهناك رباط آسفي المعروف ببني ماكر من بطونهم وبين الناس اختلاف في انتسابهم في المصامدة أو صنهاجة، وتجاورهم من جانب المغرب في بسيط ينعطف ما بين ساحل البحر وجبل درن في بسيط هناك يفضي إلى السوس، يعمّره من حاحة هؤلاء خلق أكثرهم في خُمُر الشعراء من الشجر المعروف بأرجان، يتحصنون بملتفها وأدواحها ويعتصرون الزيت لأدامهم من ثمارها، وهو زيت شريف طيب اللون والرائحة والطعم يبعث منه العمال إلى دار الملك في هداياهم فيطوفون به.

ويآخر مواطنهم مما يلي أرض السوس وفي القبلة عن جبل درن بلدة دنست وبها معظم هذه الشعراء ينزلها رؤساؤهم، ورئاستهم في بطن منهم يعرفون بمغراوة وكان شيخهم لعهد السلطان أبي عنان إبراهيم بن حسين بن حماد بن حسين، وبعده ابنه محمد بن إبراهيم بن حسين، وبعده ابن عمهم خالد بن عيسى بن حماد، واستمرت رئاسته عليهم إلى أعوام ست وسبعين وسبعمائة أيام استيلاء السلطان عبد الرحمن بن بطوسن على مراكش، فقتله شيخ بني مرين علي بن عمر الورتاجي من بني ويغلان منهم وما أدري لمن صارت رئاستهم من بعده، وهم دكالة جميعاً أهل مغرم واسع وجباية موفورة فيما علمناه، و لله الخلق والأمر وهو خير الوارثين.

كان الواثق جهز لحرب أحد أمراء المصامدة، فكان وزيره داخله في ذلك وسائل من ذلك السيد أبا زيد ابن السيد أبي عمران خليفته وأخبره بما سمع، وأمره بالقبض عليه وقتله فأنفذ ذلك. ثم ارتحل إلى السوس لتمهيده، وحسم هلال بن بدر فيه علله وقدِم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولمطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم، وسار يتعدى المنازل ويستنفر القبائل وهو بتارودنت فوجدها قفراً خلاء إلا قليلاً من الدور بخارجها، ونزل على حميدين صهر علي بن بدر وقريبه بحصن تيسخت على وادي السوس، كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن بدر وملكه فنازله أبو دبوس وحاصره أياماً وهزم فيها جموعه.

وداخل محمد بن علي بن زكدان في إفراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤديها إليه، فأعجله الفتح من ذلك ونجا بدمائه إلى بيته، وطولب بالمال وبقي معتقلاً عند ابن زكدان، وامتنع على ابن بدر بحصنه، ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته فانصرف الواثق إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وستمائة وبلغه الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وأنهى إليه فبعث بمرتبه إلى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطران؟؟ وابن أبي عثمان رسول يغمراسن. وخرج إليهم من مراكش ابن أبي مديون الونكاسي دليلاً وسلك بهم على الثغر إلى سجلماسة، وبها يحيى بن يغمراسن فبعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه، والفوه بجهة مليانة فأقام ابن قطرال بتلمسان ينتظره. وكان يعقوب بن عبد لحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراكش بجيوش بني مرين ونزل بضواحي مراكش، وأطاعه أهل النواحي ونهض إليه أبو دبوس بعساكر الموحدين فاستجره يعقوب إلى وادي أعفر. ثم ناجزه الحرب فاختل مصافه وفر عسكره وانهزم يريد مراكش والقوم في اتباعه، فأدرك وقتل وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في المحرم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة، وفر بقية المشيخة من الموحدين إلى معاقلهم بعد أن كانوا بايعوا عبد الحق أحد بني أبي دبوس وسموه المعتصم مدة من خمسة أيام وخرج في جملتهم وانقرض أمر بني عبد المؤمن والبقاء لله وحده اه.

الخبر عن بقايا قبائل الموحدين من المصامدة بجبال درن بعد انقراض دولتهم بمراكش وتصاريف أحوالهم لهذا العهد

لما دعا المهدي إلى أمره في قومه من المصامدة بجبال درن وكان أصل دعوته نفي التجسيم الذي آل إليه مذهب أهل المغرب باعتمادهم ترك التأويل في المتشابه من الشريعة، وصرّح بتكفير من أبى ذلك آخذاً بمذهب التكفير بالمثال فسمّى لذلك دعوته بدعوة التوحيد، وأتباعه بالموحدين نعياً على الملثمين مثال مذاهبهم إلى اعتقاد الجسمية، وخص بالمزية من دخل في دعوته قبل تمكنها، وجعل علامة تمكنها فتح مراكش، فكان إنما اختص بهذا اللقب أهل السابقة قبل ذلك الفتح، وكان أهل تلك السابقة قبل فتح مراكش ثماني قبائل سبعة من المصامدة: هرغة وهم قبيلة الإمام المهدي وهنتاتة وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة على الإجارة والحماية، وكنفيسة وهزرجة وكذميرة ووريكة.

وثمانية قبائل الموحدين: كومية قبيلة عبد المؤمن كبير صحابته، دخلوا في دعوته قبل الفتح فكانت لهم المزية بسابقة عبد المؤمن وسابقتهم فاختص هؤلاء القبائل بمزية هذه السابقة واسمها. وقاموا بالأمر وحملوا سريره وأنفقوا في مذاهبه وممالكه في سائر الأقطار على نسبة قربهم من صاحب الأمر وبعدهم. وبقي من بقي منهم بجبالهم ومعاقلهم بقية حتوف. وجرت عليهم ذيل زناتة من بعد الملك أذيال الغلب والقهر حتى أبقوهم بالأتاوات، وانتظموا في عداد الغارمين من الرعايا، وصاروا يولون عليهم من زناتة تارة ومن رجالاتهم أخرى، وفي ذلك عبرة وذكرى لأولي الألباب، والملك لله يؤتيه من يشاء.

هرغة

فأما هرغة وهم قبيل الإمام المهدي قد دثروا وتلاشوا وانتفقوا في القاصية من كل وجه لما كانوا أشد القوم بلاءً في القيام بالدعوة، وأصلاهم لنارها بقرابتهم من صاحبها وتعصبهم على أمره. ولم يبق منهم إلا أخلاط وأوشاب أمرهم إلى غيرهم من رجالات المصامدة لا يملكون عليهم منه شيئاً.

تينملل

وكذا تينملل إخوتهم في التعصب على دعوة المهدي والاشتمال عليه والقيام بأمره حتى تحيز إليهم وبنى داره ومسجده بينهم، فكان يعطيهم من الفيء بقدر عظمهم من الابتلاء، وأبعدوا في ممالك الدولة وعمالاتها فانقرض رجالاتهم، وملك غيرهم من المصامدة أمرهم عليهم، وقبر الإمام بينهم بهذا العهد على حاله من التجلة والتعظيم وقراءة القرآن عليه أحزاباً بالغدو والعشي، وتعاهده بالزيارة وقيام الحجاب دون الزائرين من الغرباء لتسهيل الإذن، واستشعار الأبهة وتقديم الصدقات بين يدي زناتة على الرسم المعروف في احتفال الدولة، وهم مصممون مع ذلك وكافة المصامدة أن الأمر سيعود وأن الدولة ستظهر على أهل المشرق والمغرب وتملأ الأرض كما وعدهم المهدي، لا يشكّون في ذلك ولا يستريبون فيه.

هنتاتة

وأما هنتاتة وهم تلو القبيلتين في الأمر، وكل من بعدهم فإنما جاء على أثرهم وتبعاً لهم، بما كانوا عليه من الكثرة والبأس، ومكان شيخهم أبي حفص عمر بن يحيى من صحابة الإمام والاعتزاز على المصامدة. وكانت لهم بإفريقية دولة كما نذكره، فأنفقت الدولتان منهم عوالم في سبيل الاستظهار بهم، وبقي بموطنهم المعروف بهم من جبال درن، وهو الجبل المتاخم لمراكش على توسط من الاستبداد والخضوع ولهم في قومهم مكان بامتناع معقلهم وإطلاله على مراكش. ولما تغلب بنو مرين على المصامدة، وقطعوا عنهم أسباب الدعوة كان لرؤسائهم أولاد يونس انحياش إليهم بما كانوا مسخوطين في آخر دولة بني عبد المؤمن، فاختصوهم بالأثرة والمخالصة.

وكان علي بن محمد كبيرهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق خالصة له من بين قومه. وهلك سنة سبعين وستمائة على يد ابن الملياني الكاتب بكتاب لبس فيه، وأنفذه على السلطان لابنه أمير مراكش فقتل رهط من مشيخة المصامدة في اعتقاله، كان منهم: علي بن محمد فقام السلطان لها في ركائبه، وندم على ما فرط من أمره في إفلات ابن الملياني على ما نذكره من أمر هذه الواقعة في أخبار السلطان يوسف بن يعقوب. ولما ولي السلطان أبو سعيد وانقطع عن المصامدة ما كان لهم من أثر الملك والسلطان، وانقادوا للدولة رجع بنو مرين إلى التولية عليهم من رجالاتهم، وتداولوا بينهم في ذلك واختار السلطان بعد صدر من دولته موسى بن علي بن محمد للولاية على المصامدة وجبايتهم، فعقد له وأنزله مراكش فاضطلع بهذه الولاية سنين

ورسخت فيها قدمه، وأورثها أهل بيته، وصار لهم بها في الدولة مكان انتظموا له في الولاية، وترشحوا للوزارة.

ولما هلك موسى عقد السلطان من بعده لأخيه محمد، وأجراه على سننه إلى أن هلك فاستعمل السلطان بنيه في وجوه خدمته، وعقد لعامر منهم على قومه. ولما ارتحل السلطان أبو الحسن إلى إفريقية صحبه عامر فيمن صحبه من أمراء المصامدة وكافة الوجوه، حتى إذا كانت نكبة القيروان سنة تسع وأربعين وسبعمائة عقد له على الشرطة بتونس على رسم الموحدين من تنويه الخطة وسعة الرزق. واستنام إليه فيها فكفاه مهمّها، ولما فصل من تونس ركب الكثير من حرمه وحظاياه السفن لنظر عامر هذا، حتى إذا غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بما أصابهم من عاصف الريح رمى الموج بالسفينة التي كانوا بها إلى المرية من ثغور الأندلس، فأنزل بها كرائم السلطان لنظره وبعث عنهن ابنه أبو عنان المستبد على أبيه بملك المغرب، فامتنع من إسلامهن إليه وفاء بأمانته في خدمتهم.

وخلص السلطان أبو الحسن بعد النكبة البحرية إلى الجزائر سنة خمسين وسبعمائة وزحف إلى بني عبد الواد ففلّوه ونهض إلى المغرب، وسلك إليه القفر حتى نزل سجلماسة فقصده أبو عنان فخرج منها إلى مراكش وقام بدعوته المصامدة وعرب جشم، فاحتشد، ولقي ابنه أبا عنان بجهات أم ربيع فكانت الدبرة عليه، ونجا إلى جبل هنتاتة. وكان عبد العزيز بن محمد شيخاً عليهم منذ مغيب عامر، وكان في جملته، وخلص معه فأنزله عبد العزيز بداره، وتآمر هو وقومه على إجارته والموت دونه فاعتصم بمعقلهم. وجاء السلطان أبو عنان في كافة بني مرين إلى مراكش فخيم بظاهرها واحتشد لحصارهم أشهراً حتى هلك السلطان أبو الحسن كما نذكره بعد، فحملوه على الأعواد ونزلوا على حكم أبي عنان فأكرمهم ورعى لهم وسيلة هذا الوفاء، وعقد لعبد العزيز على إمارته، واستقدم عامراً كبيرهم من مكانه بالمرية، فقام بهن لأمانته من حظايا السلطان وحرمه فلقاه السلطان مبرة وتكريماً، وأناله من اعتنائه حظاً.

وتخلى له أخوه عبد العزيز عن الأمر فأقره نائباً. ثم عقد السلطان لعامر سنة أربع وخمسين وسبعمائة على سائر المصامدة واستعمله لجبايتهم فقام بها مضطلعاً، وكفاه مُهمّ الأعمال المراكشية حتى عرف عناءه فيها وشكر له كفايته. وهلك السلطان أبو عنان واستبد على ابنه السعيد ووزيره الحسن بن عمر المودودي. وكان ينفس عليه ما كان له من الترشيح للرتبة، وبينهما في ذلك شحناء، فخشي بادرته وخرج من مراكش، إلى معقله في جبل هنتاتة، وحمل معه ابن السلطان أبي عنان الملقب بالمعتمد. وكان أبوه عقد له يافعاً قبيل وفاته على مراكش لنظر عامر فخلص به إلى الجبل، حتى إذا استوت قدم السلطان أبي سالم في الأمر واستقل بملك المغرب سنة ستين وسبعمائة وفد عليه عامر بن محمد مع رسله إليه، وأوفد ابن أخيه محمد المعتمد فتقبل السلطان وفادته، وشكر وفاءه، وأقام ببابه مدة. ثم عقد له على قومه، ثم استنفره معه إلى تلمسان، ولم يزل مقيماً ببابه إلى قبيل وفاته فأنفذه لمكان إمارته.

ولما هلك السلطان أبو سالم واستبد بالمغرب بعده عمر بن عبد الله بن علي على ما نذكره، وكانت بينه وبين عامر بباب السلطان صداقة وملاطفة، وصل يده بيده، وأكّد العهد معه على سد تلك الفرجة، وعوّل عليه في حوط البلاد المراكشية وأن لا يؤتى من قبله، وكان زعيماً بذلك. وعقد له على الأعمال المراكشية وما إليها إلى وادي أم ربيع. وفوض إليه أمر تلك الناحية، واقتسما المغرب شق الأبلمة وخلص إليه الأعياص من ولد السلطان أبي سعيد أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم، وعبد المؤمن ابن السلطان أبي علي، فاعتقل عبد المؤمن وأمكن أبا الفضل من إمارته على ما نذكر بعد.

وساءت الحال بينه وبين عمر ونهض إليه من فاس بجموع بني مرين وكافة العساكر، واعتصم بجبله وقومه واستبد على الأمر من بعده. ووصل عبد المؤمن من معتقله يجأجئ به بنو مرين لما كانوا يؤملون من ولايته واستبداده لما آسفهم من حجر الوزراء لملوكهم. فلما رأوا استبداد عامر عليه أعرضوا عنه، وانعقد السلم بينه وبين عمر بن عبد الله على ما كان عليه من مقاسمته إياه في أعمال المغرب، ورجع واستقل عامر بناحية مراكش وأعمالها، حتى إذ هلك عمر بن عبد الله بيد عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن كما نذكره، حدثت أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم نفسه بالفتك بعامر بن محمد كما فتك عمه بعمر بن عبد الله. ونذر بذلك فاحتمل كرائمه وصعد إلى داره بالجبل، ففتك أبو الفضل بعبد المؤمن ابن عمه لأنه كان معتقلاً بمراكش. واستحكمت لذلك السقرة بينه وبين عامر بن محمد. وبعث إلى السلطان عبد العزيز فنهض من فاس في جموعه سنة تسع وستين وسبعمائة.

وفر أبو الفضل فلحق بتادلاً، وتقبض عليه عمه السلطان عبد العزيز وقتله كما نذكر في أخباره. وطلب عامراً في الوفادة فخشيه على نفسه، واعتصم بمعقله فرجع إلى حضرته، واستجمع عزائمه. وعقد على مراكش وأعمالها لعلي بن أجانا من صنائع دولتهم، وأوعز إليه بمنازلة عامر فدافعه عامر وقومه عن معتصمه،

واوقع به وتقبض على طائفة من بني مرين وصنائع السلطان في المعركة أودعهم سجنه، فحرك بها عزائم السلطان، ونهض إليه في قومه من بني مرين وعساكر المغرب وأحاط به ونازله حولاً كريتاً.

ثم تغلب عليه سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، وانفضت جموعه. وتقبض عليه عند اقتحام الجبل فسيق أسيراً إلى السلطان فقيده، وقفل به إلى الحضرة. ولما قضى نسك الفطر من سنته أحضره ووبخه. ثم أمر به فتلّ إلى مصرعه، وأثخن جلداً بالسياط وضرباً بالمقارع حتى فاض عفا اللّه عنه. وعقد السلطان على قومه لفارس ابن أخيه عبد العزيز، كان نزع إليه بين يدي مهلك عمه، وعفا عن ابنه أبي يحيى بسابقته إلى الطاعة قبيل اقتحام الجبل عليهم، أشار عليه بذلك أبوه نظراً له فظفر بالسلامة والحظ، وأصاره السلطان في جملته.

ثم هلك بعد ذلك فارس بن عبد العزيز، واضطرم المغرب فتنةً بعد مهلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة، وصارت أعمال مراكش في إيالة السلطان عبد الرحمن بن علي الملقب بأبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي. ونزع إليه أبو يحيى بن عامر فعقد له على قومه، ثم اتهمه باحتجاز الأموال منذ عهد أبيه وشره إلى استصفائه، ونذر به ابن عامر فلحق ببعض قبائل المصامدة جيرانهم بأطراف السوس، ونزل عليهم. وكان مهلكه فيهم أعوام ثمانين وسبعمائة، واللّه وارث الأرض ومن عليها.

كدميوة

وأما كدميوة وكانوا تبعاً لهنتاتة وتينملل في الأمر، وجبلهم لصق جبل هنتاتة، وكان رؤساءهم لعهد الموحدين بنو سعد اللّه. ولما تغلب بنو مرين على المصامدة ووضعوا عليهم الضرائب وامتنع يحيى بن سعد اللّه بعض الشيء بحصن تافرجا وتيسخنت من جبلهم وخالفه عبد الكريم بن عيسى وقومه إلى طاعة بني مرين، واختلفت إليهم العساكر إلى أن هلك يحيى بن سعد اللّه سنة أربع وتسعين وستمائة، وعساكر يوسف بن يعقوب مجهزة على حصاره، فهدموا حصونه، وأذلوا من قومه. استخلص السلطان يوسف بن يعقوب عبد الكريم بن عيسى منذ عهد أبيه فعقد له عليهم. ثم تقبض على أمراء المصامدة واعتقله فيمن اعتقل منهم، حتى اذا فعل ابن الملياني فعلته في استهلاكهم لعداوة عمه بتلبس الكتاب على لسان السلطان لابنه على أمير مراكش، فقتل عبد الكريم فيمن قتل منهم، وقتل معه بنوه عيسى وعلي ومنصور، وابن أخيه عبد العزيز بن محمد. وامتعض السلطان لذلك وأفلت ابن الملياني من معسكره لحصار تلمسان فدخلها. ثم قام بأمر كدميوة عبد الحق بن ... من بيت بني سعد اللّه أيام السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان، وكانت بينه وبين عامر بن محمد فتنة جرها منصب العمالة، شأن المجتورين من القبائل، وقديم العداوة بين السلف. فلما استفحل أمر عامر بالولاية على مراكش وسائر المصامدة، نبذ إلى عبد الحق العهد ونحلة الخلاف والمداخلة للسكسيوي شيخ الفتنة المستعصي منذ أول الدولة، فصمد إليه سنة سبع وخمسين وسبعمائة في قومه ومشايخ السلطان التي كانت بمراكش لنظره فاقتحم عليه معقله عنوة وقتله. واستولى على كدميوة ولحق بنو سعد اللّه بفاس، فأقاموا بها حتى إذا خاض السلطان أبو سالم البحر إلى ملكه بعد أخيه أبي عنان ونزل بغمارة، نزل إليه يوسف بن سعد اللّه واعتقد منه ذمة بسابقته تلك. فلما استولى على البلد الجديد واستقل سلطانه، عقد له على قومه رعياً لوسيلته، فأقام في ولايته مدة السلطان أبي سالم. وكان عامل مراكش محمد بن أبي العلى من حاشية السلطان وبيوت الولاة بالمغرب معولاً فيها على مظاهرته.

ولما هلك السلطان أبو سالم واستبد عمر بن عبد اللّه على الملوك بعده، بادر لحين ثورته بالعقد لعامر على أعمال ليستظهر به، وطير إليه الكتاب بذلك، فنزل إلى مراكش وقتل بها يوسف بن سعد اللّه، ونكث ابن أبي العلى، ثم قتله وألحقه بأبي عبد الحق، وذهبت الرئاسة من كدميوة برهة من الدهر، ثم رجعت إليهم في بني سعد اللّه، واللّه تعالى قادر على ما يشاء، وبيده تصاريف الأمور.

وريكة

وأما وريكة فهم مجاورون لهنتاتة، وبينهم فتنة قديمة وحروب متصلة ودماء مطلولة، كانت بينهم سجالاً، وهلك فيها من الفريقين أمم إلى أن غلبهم هنتاتة باعتزازهم بالولاية، فخضدوا منهم الشوكة وأصاروهم في الجملة، واللّه وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن بني يدر أمراء السوس من الموحدين بعد انقراض بني عبد المؤمن وتصاريف أحوالهم

كان أبو محمد بن يونس من جملة وزراء الموحدين من هنتاتة، وكان المرتضى قد استوزره ثم سخطه، وعزله سنة خمسين وستمائة وألزمه داره بتامصلحت، وفر عنه قومه وحاشيته وقرابته. وكان من أهل قرابته علي بن يدر من بني باداس ففر إلى السوس وجاهر بالخلاف سنة إحدى وخمسين وستمائة ونزل بحصن تانصاصت بسفح الجبل حيث يدفع وادي السوس من درن، وشيده وحصنه وتغلب على حصن تيسخت من أيدي صنهاجة وشيده، وأنزل فيه ابن عمه حمدين. ثم تغلب على بسيط السوس، وجأجأ ببني حسان من أعراب المعقل من مواطنهم بنواحي ملوية إلى بلاد الريف، فارتحلوا إليه وعاث بهم في نواحي السوس، وأطاع له كثير من قبائله فاستوفى جبايتهم. وأجلب على عامل الموحدين بتارودنت وضيق عليه المسالك، وتفاقم أمره. واتهم الوزير أبو محمد بن يونس بمداخلته وعثر على كتابه إلى علي بن يدر فأمر المرتضى باعتقاله وقتله سنة اثنتين وخمسين وستمائة، وأغزى أبا محمد بن أصناك إلى بلاد السوس في عسكر الموحدين والجند، وعقد له عليها فنزل تارودنت وتحصن علي بن يدر في تيونودين. وزحف إليه ابن أصناك في عسكره فهزمه ابن يدر وقتل كثيراً منهم، ورجع إلى مراكش مفلولاً. وأقام علي بن يدر على حاله من الخلاف، وأغزاه المرتضى محمد بن علي أزلماط في عسكر من الموحدين سنة ستين وستمائة فهزمهم، وقتل ابن أزلماط فعقد المرتضى من بعده على السوس لوزيره أبي زيد بن بكيت فزحف إليه ودارت الحرب بينهما ملياً، وانقلب من غير ظفر، واستفحل ابن يدر ببلاد السوس واستخدم الأعراب من بني الشبانات وذوي حسان. وأطاعته القبائل من كزولة ولمطة وزكن ولخس من شعوب لمطة وصناكة. وجبى الأموال واستخدم الرجال، يقال: كان جنده ألف فارس، وكان بينه وبين كزولة فتن وحروب يستظهر في أكثرها بذوي حسان.

ولما استولى أبو دبوس على مراكش سنة خمس وستين وستمائة وفرغ من تمهيد ملكه بها، اعتزم على الحركة إلى السوس، ورحل من مراكش، وقدم بين يديه يحيى بن وانودين لاحتشاد القبائل ومرّ بالجبل ثم أسهل من تامسكروط إلى بسيط السوس، ونزل على بني باداس وقبيلة ابن يدر على فرسخين من تيونيوين. وقصد تيزخت ومر بتارودنت وعاين آثار الخراب الذي بها من عيث ابن يدر، ولما بلغ حصن تيزخت خيّم بساحته وحشد أمماً من القبائل لحصاره، وكان به حمدين ابن عم علي بن يدر فحاصره أياماً. ولما اشتد عليه الحصار داخل علي بن زكداز من مشيخة بني مرين، كان في جملة أبي دبوس فداخله في الطاعة، وتقبل السلطان طاعته على النزول عن حصنه.

ثم أعجلته الحرب واقتحم عليهم الجبل ولجئوا إلى الحصن وفر حمدين إلى بيت علي بن زكداز فأمره السلطان باعتقاله. واستولى السلطان على الحصن، وأنزل به بعض السادة لولايته. وارتحل أبو دبوس إلى محاصرة علي بن يدر فحاصره أياماً، ونصب عليه المجانيق. ولما اشتد عليه الحصار رغب في الإقالة ومعاودة الطاعة، فتقبل وأقلع السلطان عن حصاره، وقفل إلى حضرته. ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد علي بن يدر وتملك سوس واستولى على تارودنت وإيفري وسائر أمصاره وقواعده ومعاقله، وأرهف حده للأعراب فزحفوا إليه. وكانت عليه الدبرة، وقتل سنة ثمان وستين وستمائة وقام بأمره علي ابن أخيه عبد الرحمن بن الحسن مدة، ثم هلك وقام بأمرهم أخوه علي بن الحسن بن يدر. ولما صار أبو علي ابن السلطان أبي سعيد إلى ملك سجلماسة يصلح عقده مع أبيه كما نذكر في أخبارهم، فنزلها وشيد ملكه بها، واستخدم كافة عرب المعقل فرغبوه في ملك السوس وأطمعوه في أموال ابن يدر فغزاه من سجلماسة، وفر ابن يدر أمامه إلى جبال نكيسة. واستولى السلطان أبو علي على حصنه تانصاصت وسائر أمصار السوس، واستصفى ذخيرته وأمواله، ورجع إلى سجلماسة.

ثم استولى السلطان أبو الحسن من بعد ذلك عليه وانقرض ملك بني يدر. ولحق به عبد الرحمن بن علي بن الحسن، وصار في جملته. وأنزل السلطان بأرض السوس مسعود بن إبراهيم بن عيسى اليرنياني من طبقة وزرائه، وعقد له على تلك العمالة إلى أن هلك، وعقد لأخيه حسون من بعده إلى أن كانت نكبة القيروان. وهلك حسون وانفض العسكر من هنالك، وتغلب عليه العرب من بني حسان والشبانات، ووضعوا على قبائله الأتاوات والضرائب. ولما استبد أبو عنان بملك المغرب من بعد أبيه أغزى عساكره السوس لنظر وزيره فارس بن ودرار سنة ست وخمسين وستمائة فملكه واستخدم القبائل والعرب من أهله، ورتب المشايخ بأمصاره، وقفل إلى مكان وزارته، فانفضت المسالح

ولحقت به.

وبقي عمل السوس ضاحياً من ظل الملك لهذا العهد، وهو وطن كبير في مثل عرض البلاد الجريدية وهوائها المتصلة من لدن البحر المحيط إلى نيل مصر الهابط من وراء خط الاستواء في القبلة إلى الإسكندرية. وهذا الوطن قبلة جبال درن ذو عمائر وقرى ومزارع وفدن وأمصار وجبال وحصون، يخترقه وادي السوس ينصب من باطن الجبل إلى ما بين كلاوة وسكسيوة، ويدفع إلى بسيطه، ثم يمر مغرباً إلى أن ينصب في البحر المحيط والعمائر متصلة حفافي هذا الوادي ذات الفدن والمزارع، وأهلها يتخذون فيها قصب السكر. وعند مصب هذا الوادي من الجبل في البسيط مدينة تارودنت وبين مصب هذا الوادي في البحر ومصب وادي ماسة مرحلتان إلى ناحية الجنوب على ساحل البحر، وهنالك رباط ماسة الشهير المعروف بتردد الأولياء وعبادتهم. وتزعم العامة أن خروج الفاطمي منه.

ومنه أيضاً إلى زوايا أولاد بو نعمان مرحلتان في الجنوب كذلك على ساحل البحر، وبعدها على مراحل مصب الساقية الحمراء وهي منتهى مجالات المعقل في مشايتهم وفي رأس وادي السوس جبل زكندر قبلة جبل الكلاوي، وفي قبلة جبال درن جبال نكيسة تنتهي إلى جبال درعة ويعرف الآخر منها في الشرق بابن حميدي، ويصب من جبال نكيسة وادي نول ويمر مغرباً إلى أن يصب في البحر. وعلى هذا الوادي بلد تاكاوصت محط الرقاق والبضائع بالقبلة، وبها سوق في يوم واحد في السنة يقصده التجار من الآفاق، وهو من الشهرة لهذا العهد بمكان. وبلد إيفري بسفح جبال نكيسة بينها وبين تاكاوصت مرحلتان، وأرض السوس مجالات لكزولة ولمطة، فلمطة منهم مما يلي درن وكزولة مما يلي الرمل والقفر. ولما تغلّب المعقل على بسائطه اقتسموها مواطن، فكان الشبانات أقرب إلى جبال درن، وصارت قبائل لمطة من أحلافهم، وصارت كزولة من أحلاف ذوي حسان. والأمر على ذلك لهذا العهد، وبيد الله تصاريف الأمور.

الخبر عن دولة بني أبي حفص ملوك أفريقية من الموحدين ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم

قد قدمنا أن قبائل المصامدة بجبل درن وما حوله كثير مثل: هنتاتة وتينملل وهرغة، وكنفيسة وسكسيوة وكدميوة، وهزرجة ووريكة وهزميرة، وركراكة وحاحة وبني ماغوس وكلاوة، وغيرهم ممن لا يحصى. وكان منهم قبل الإسلام وبعده رؤساء وملوك. وهنتاتة هؤلاء من أعظم قبائلهم وأكثرها جمعاً وأشدها قوةً، وهم السابقون للقيام بدعوة المهدي والممهدون لأمره وأمر عبد المؤمن من بعده، كما ذكرناه في أخباره. واسم هنتات جدهم بلسان المصامدة بتي وكان كبيرهم لعهد الإمام المهدي الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى، ونقل البيذق أن اسمه بلسانهم فاصكات.

وهنتاتة لهذا العهد تقول إنه اسم جده، وكان عظيماً فيهم متبوع غير مدافع، وهو أول من بايع الإمام المهدي من قومه، فجاء يوسف بن وانودين وأبو يحيى بن بكيت وابن يغمور وغيرهم منهم على أثره. واختص بصحابة المهدي فانتظم في العشرة السابقين إلى دعوته. وكان تلو عبد المؤمن فيهم، ولم تكن مزية عبد المؤمن عليه إلا من حيث صحابة المهدي.

وأما في المصامدة فكان كبيرهم غير مدافع، وكان يسمى بين الموحدين بالشيخ كما كان المهدي يسمى بالإمام، وعبد المؤمن بالخليفة، سمات لهؤلاء الثلاثة من بين أهل الدعوة تدل على اشتراكهم في الجلالة، وأما نسبه فهو: عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي بن أحمد بن والال بن إدريس بن خالد بن إليسع بن إلياس بن عمر بن وافتن بن محمد ابن نجية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، هكذا نسبه ابن نخيل وغيره من الموحدين. ويظهر منه أن هذا النسب القرشي وقع في المصامدة والتحم بهم، واشتملت عليه عصبيتهم شأن الأنساب التي تقع من قوم إلى قوم وتلتحم بهم كما قلناه أول الكتاب.

ولما هلك الإمام وعهد بأمره الى عبد المؤمن، وكان بعيداً عن عصبية المصامدة إلا ما كان له من أثرة المهدي واختصاصه فكتم موت المهدي وعهد عبد المؤمن ابتلاء لطاعة المصامدة. وتوقف عبد المؤمن عن ذلك ثلاث سنين، ثم قال له أبو حفص: نقدمك كما كان الإمام يقدمك فعلم أن أمره منعقد. ثم أعلن بيعته وأمضى عهد الإمام بتقديمه وحمل المصامدة على طاعته، فلم يختلف عليه اثنان. وكان الحل والعقد في المهمات إليه سائر أيام عبد المؤمن وابنه يوسف، واستكفوا به نوائب الدعوة فكفاهم همها. وكان عبد المؤمن يقدمه في المواقف فبلى فيها. وبعثه على مقدمته حين زحف إلى المغرب الأوسط قبل فتح مراكش سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وزناتة كلهم مجتمعون بمنداس لحرب الموحدين مثل: بني ومانوا وبني عبد الواد وبني ورسيفان وبني توجين وغيرهم، فحمل زناتة على الدعوة بعد أن أثخن فيهم. ولأول

دخول عبد المؤمن لمراكش خرج عليه الثائر بماسة، وانصرفت إليه وجود الغوغاء وانتشرت ضلالته في النواحي وتفاقم أمره، فدفع لحربه الشيخ أبا حفص فحسم داءه ومحا أثر غوايته.

ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى إفريقية حركته الأولى لم يقدّم شيئاً على استشارة أبي حفص. ولما رجع منها وعهد إلى ابنه محمد خالفه الموحدون، ونكروا ولاية ابنه، فاستدعى أبا حفص من مكانه بالأندلس، وحمل الموحدين على البيعة له. وأشار بقتل يصلاتي الهرغي رأس المخالفين في شأنه فقتله، وتم أمر العهد لابنه محمد. ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى إفريقية سنة أربع وخمسين وخمسمائة حركته الثانية لفتح المهدية استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب، وينقل من وصاة عبد المؤمن على الرحلة إلى إفريقية لبنيه أنه لم يبق من أصحاب الإمام إلا عمر بن يحيى ويوسف بن سليمان، فأما عمر فإنه من أوليائكم، وأما يوسف فجهزه بعسكرة إلى الأندلس تستريح منه. وكذلك فافعل بكل من تكرهه من المصامدة. وأما ابن مردنيش فاتركه ما تركك وتربص به ريب المنون، وأخل إفريقية من العرب وأجلهم إلى بلاد المغرب، وأذخرهم لحرب ابن مردنيش إن احتجت إلى ذلك.

ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن تخلف الشيخ أبو حفص عن بيعته، ووجم الموحدون لتخلفه حتى استنبل غرضه في حكم أمضاه بمقعد سلطانه، وأعجب بفضله فأعطاه صفقة يمينه، وأعلن بالرضا بخلافته فكانت عند يوسف وقومه من أعظم البشائر، وتسمّى لها بأمير المؤمنين سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن وتحركت الفتنة بجبال غمارة وصنهاجة التي تولى كبرها سبع بن منغفاد سنة اثنتين وستين وخمسمائة عقد للشيخ أبي حفص على حربهم فجلى في ذلك. ثم خرج بنفسه فأثخن فيهم وكمل الفتح كما ذكرناه. ولما بلغه سنة أربع وستين وخمسمائة تكالب الطاغية على الأندلس وغدره بمدينة بطليوس، واعتزم على الإجازة لحمايتها قدم عساكر الموحدين إليها لنظر الشيخ أبي حفص، ونزل قرطبة وأمر من كان بالأندلس من السادة أن يرجعوا إلى رأيه، فاستنغذ بطليوس من هذا الحصار، وكانت له في الجهاد هنالك مقامات مذكورة.

ولما انصرف من قرطبة إلى الحضرة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة هلك عفا الله عنه في طريقه بسلا ودفن بها، وكان أبناؤه من بعده يتداولون الإمارة بالأندلس والمغرب وإفريقية مع السادة من بني عبد المؤمن، فولى المنصور ابنه سعيد على إفريقية لأول ولايته، وكان من خبره مع عبد الكريم المنتزي بالمهدية ما ذكرناه في أخباره. واستوزر أبا يحيى بن أبي محمد بن عبد الواحد، وكان في مقدمته يوم المعركة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فجلى عن المسلمين، وكان له في ذلك الموقف من النصرة والثبات ما طار له به ذكر. واستشهد في ذلك الموقف، وعرف أعقابه ببني الشهيد آخر الدهر، وهم لهذا العهد بتونس.

ولما نهض الناصر إلى إفريقية سنة إحدى وستمائة، لما بلغه من تغلب ابن غانية على تونس فاسترجعها، ثم نازل المهدية فتعاونت عليه ذئاب الأعراب. وجمعهم ابن غانية ونزل قابس فسرح الناصر إليهم أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص في عسكر من الموحدين، فأوقع بابن غانية بتاجرا من نواحي قابس سنة اثنتين وستمائة، وقتل جبارة أخو ابن غانية، وأثخن فيهم قتلاً وسبياً، واستنقذ منهم السيد أبا زيد بن يوسف بن عبد المؤمن الوالي كان بتونس، وأسره ابن غانية ورجع إلى الناصر بمكانه من حصار المهدية. فكان سبباً في فتحها. وكان ذلك مما حمل الناصر على ولاية الشيخ أبي محمد بإفريقية حسبما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن إمارة أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص بأفريقية وهي أولية أمرهم بها

لما تكالب ابن غانية وأتباعه على إفريقية واستولى على أمصارها، وحاصر تونس وملكها، وأسر السيد أبا زيد أميرها، ونهض الناصر من المغرب سنة إحدى وستمائة كما ذكرناه فاسترجعها من أيديهم وشردهم عن نواحيها، وخيّم على المهدية يحاصرها، وقد أنزل ابن غانية ذخيرته وولده بها وأجلب في جموعه خلال ذلك على قابس، فسرح الناصر إليه الشيخ أبا محمد هذا في عساكر الموحدين. وزحف إليهم بتاجرا من جهات قابس فهزمهم واستولى على معسكرهم وما كان بأيديهم، وأثخن فيهم بالقتل والسبي واستنقذ السيد أبا زيد من أسرهم، ورجع إلى الناصر بعسكره من حصار المهدية ظافراً ظاهراً. وعاين أهل المهدية يوم مقدمه بالغنائم والأسرى فبهتوا وسقط في أيديهم، وسألوا النزول على الأمان. وكمل فتح المهدية ورجع الناصر إلى تونس فأقام بها حولاً إلى منتصف سنة ثلاث وستمائة. وسرح أثناء ذلك أخاه السيد أبا إسحاق ليتتبع المفسدين، ويمحو مواقع عيثهم، فدوخ ما وراء طرابلس، وأثخن في بني دمّر ومطماطة ونفوسة، وشارف أرض سرت وبرقة، وانتهى إلى سويقة ابن مذكور. وفرّ ابن غانية إلى صحراء برقة وانقطع خبره. وانكفأ السيد راجعاً إلى تونس. واعتزم الناصر على الرحلة إلى المغرب وقد أفاء على إفريقية ظل

الرضى وضرب عليهم سرادق الحماية. وبدا له أن ابن غانية سيخالفه إليها، وأن مراكش بعيدة عن الصريخ، وأنه لابد من رجل يسد فيها مسد الخلافة، ويقيم بها شؤون الملك، فوقع اختياره على أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، ولم يكن ليعدوه لما كان عليه هو وأبوه في دولتهم من الجلالة، وأن أمر بني عبد المؤمن إنما تم بوفاق الشيخ أبي حفص ومظاهرته، وأن أباه المنصور كان قد أوصى الشيخ أبا محمد به وبإخوته. وكان يوليه صلاة الصبح إذا حضره شغل وأمثال ذلك.

وسرى الخبر إلى أبي محمد فامتنع، وشافهه الناصر به فاعتذر، فبعث إليه ابنه يوسف فأكرم موصله. وأجاب على شريطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات إفريقية في ثلاث سنين، وأن يختار عليهم من رجالات الموحدين وأن لا يتعقب عليه في تولية ولا عزل، فقبل شرطه ونودي في الناس بولايته، ورفعت بين الموحدين رايته، وارتحل الناصر إلى المغرب ورجع عنه الشيخ أبو محمد من باجة فقعد مقعد الإمارة بقصبة تونس في السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستمائة، وأنفذ أوامره، واستكتب أبا عبد اللّه محمد بن أحمد بن نخيل ورجع ابن غانية إلى نواحي طرابلس، فجمع أحزابه وأتباعه من العرب من سليم وهلال.

وكان فيهم محمد بن مسعود البلط في قومه من الدواودة، وعاودوا عيثهم، وخرج إليهم أبو محمد سنة أربع وستمائة في عساكر الموحدين، وتحيز إليه بنو عوف من سلم وهم: مرداس وعلاق فلقيهم بشبرو فتواقعوا واحتربوا عامة يومهم، ونزل الصبر. ثم انفض عسكر ابن غانية آخر النهار واتبعهم الموحدون والعرب واكتسحوا أموالهم، وأفلت ابن غانية جريحاً إلى أقصى مفره، ورجع أبو محمد إلى تونس بالظفر والغنيمة. وخاطب الناصر بالفتح واستنجاز وعده في التحول عن الولاية فخاطبه بالشكر والعذر بمهمات المغرب عن إدالته، وأنه يستأنف النظر في ذلك. وبعث إليه بالمال والخيل والكساء للإنفاق والعطاء. كان مبلغها متتا ألف دينار اثنتان وألف وثمانمائة كسوة، وثلثمائة سيف، ومائة فرس، غير ما كان أنفذ إليه من سبتة وبجاية، ووعده بالزيادة. وكان تاريخ الكتب سنة خمس وستمائة فاستمر أبو محمد على شأنه وترادفت الوقائع بينه وبين يحيى الميورقي كما نذكره.

وقيعة تاهرت وما كان من أبي محمد في تلافيها واستنقاذ غنائمها

كان يحيى ابن غانية لما أفلت من وقيعة شبرو بدا له ليقصدن بلاد زناتة بنواحي تلمسان، وقارن ذلك وصول الشيخ أبي عمران بن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن والياً عليها من مراكش، وخروجه إلى بلاد زناتة لتمهيد أنحائهم وجباية مغارمهم.وكتب إليه الشيخ أبو محمد نذيراً بشأنه، وأن لا يتعرض له وأنه في أتباعه فأبى من ذلك، وارتحل إلى تاهرت وصحبه بها ابن غانية فانفض معسكره. وفرّت زناتة إلى حصن بها، وقتل السيد أبو عمران. واستبيحت تاهرت، فكان آخر العهد بعمرانها، وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي، وانقلبوا إلى إفريقية فاعترضهم الشيخ أبو محمد في موضع فأوقع بهم واستنقذ الأسرى من أيديهم، واكتسح سائر مغانمهم، وقتل فيها كثير من الملثمين ولحق فلهم بناحية طرابلس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

واقعة نفوسة ومهلك العرب والملثمين بها

كان ابن غانية بعد واقعة شبرو واستفتاح أبي محمد تاهرت من يده خلص إلى جهة طرابلس، وتلاحق به فل الملثمين وأولياؤه من العرب.

وكان الجلي معه في مواقف الدواودة من رياح، وكبيرهم محمد بن مسعود فتذامروا واعتزموا على معاودة الحرب، وتعاقدوا على الثبات والصبر، وانطلقوا يستألفون الأعراب من كل ناحية، حتى اجتمع إليهم من ذلك أمم كان فيهم رياح وزغب والشريد وعوف ودباب ونفات.واحتفلوا في الاحتشاد وأجمعوا دخول إفريقية، فبادرهم أبو محمد قبل وصولهم إليه. وخرج من تونس سنة ست وستمائة وأغذّ السير إليهم، وتزاحفوا عند جبل نفوسة، واشتدت الحرب، ولما حمي الوطيس ضرب أبو محمد أبنيته وفسطاطيطه، وتحيز إليه بعض الفرق من بني عوف بن سليم واحتل مصاف ابن غانية واتبعه الموحدون إلى أن دخل في غيابات الليل وامتلأت أيديهم بالأسرى والغنائم، وسيقت ظعائن العرب. وقد كانوا قدموها بين أيديهم للحفيظة أفذاذاً في الكر والفر، فأصبحت مغنماً للموحدين وربات خدورهم سبياً.

وهلك في المعركة خلق من الملثمين وزناتة والعرب، كان فيهم عبد اللّه بن محمد بن مسعود البليط بن سلطانُ شيخ الدواودة، وابن عمه حركات بن أبي الشيخ بن عساكر بن سلطان وشيخ بني قرة وجرار بن ويفرن كبير مغزاوة ومحمد بن الغازي ابن غانية في آخرين من أمثالهم. وانصرف ابن غانية مهيض الجناح مفلول الحد محفوفاً باليأس من جميع جهاته، وانقلب أبو محمد والموحدون أعزة ظاهرين، واستفحل أمر أبي محمد بإفريقية وحسم

علل الفساد منها واستوفى جبايتها، وطالت مواقف حروبه، ولم تهزم له راية. وهلك الناصر وولي ابنه يوسف المستنصر واستبد عليه المشيخة لمكان صغره، وشغلوا بفتنة بني مرين وظهورهم بالمغرب، فاستكفى بالشيخ أبي محمد في إفريقية وعوّل على غنائه فيها، وضبطه لأحوالها وقيامه بملكها فأبقاه على عملها، وسرب إليه الأموال لنفقاتها وأعطياتها، ولم يزل بها إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستمائة.

الخبر عن مهلك الشيخ أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وولاية ابنه عبد الرحمن

كانت وفاة الشيخ أبي محمد فاتح سنة ثمان عشرة وستمائة ولما هلك ارتاع الناس لمهلكه، وافترق أمر الموحدين في الشورى فريقين بين عبد الرحمن ابن الشيخ أبي محمد وابراهيم ابن عمه إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص، فترددوا ملياً ثم اتفقوا على الأمير أبي زيد عبد الرحمن ابنه، وأعطوه صفقة أيمانهم، وأقعدوه بمجلس أبيه في الإمارة، فسكن الثائر وشمر للقيام بالأمر عزائمه. وأفاض العطاء وأجاز الشعراء، واستكتب أبا عبد اللّه بن أبي الحسين، وخاطب المستنصر بالشأن. وخرج في عساكره لتمهيد النواحي وحماية الجوانب إلى أن وصل كتاب المستنصر بعزله لثلاثة أشهر من ولايته حسبما نذكره فارتحل إلى المغرب ومعه إخوانه وكاتبه ابن أبي الحسين ولحق بالحضرة.

الخبر عن ولاية السيد أبي العلا على أفريقية وابنه أبي زيد من بعده وأخبارهم فيها واعتراضهم في الدولة الحفصية

لما بلغ الخبر إلى مراكش بمهلك أبي محمد بن أبي حفص، وقارن ذلك عزله السيد أبي العلا من إشبيلية، ووصوله إلى الحضرة مسخوطاً، وهو أبو العلا إدريس بن يوسف عبد المؤمن أخو يعقوب المنصور، وعبد الواحد المخلوع المبايع له بعد ذلك. وعول على الوزير ابن المثنى في جبر حاله، فسعى له عند الخليفة، وعقد له على إفريقية. ووصل الخطاب بولايته ونيابة إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص عنه خلال ما يصل، واستقدام أبناء الشيخ أبي محمد إلى الحضرة. وقرىء الكتاب شهر ربيع الأول من سنة ثماني عشرة وستمائة، فقام الشيخ بالنيابة في أمره، واستعمل أحمد المشطب في وزارته، وغلب عليه بطانته، وأساء في الموالاة لقرابته. واختص أبناء الشيخ أبا محمد بقبيحة، وظن امتداد الدولة له. ووصل السيد أبو العلا شهر ذي القعدة من السنة، فنزل بالقصبة ونزل ابنه السيد أبا زيد بقصر ابن فاخر من البلد، ورتب الأمور ونهج السنن.

ولشهر من وصوله تقبض علي محمد بن نخيل كاتب الشيخ أبي محمد، وعلى أخويه أبي بكر ويحيى، واستصفى أموالهم واحتاز عقارهم وضياعهم. وكان المستنصر عهد إليه بذلك، لما كان أسفه بفلتات من القول والكتاب تنمى إليه أيام رئاسته في خدمة أبي محمد، فاعتقلهم السيد أبو العلا، ثم قتله وأخاه يحيى لشهر من اعتقالهما بعد أن فرّ من سجنه وتقبض فقتل. ونقل أبو بكر إلى مطبق المهدية فأردع به.

وخرج السيد أبو العلا من تونس سنة تسع عشرة وستمائة في عساكر الموحدين إلى نواحي قابس لقطع أسباب ابن غانية منها، فنزل قصر العروسيين، وسرح ولده السيد أبا زيد في عسكر من الموحدين إلى درج وغدامس من بلاد الصحراء لتمهيدها وجبايتها. وقدم بين يده عسكراً آخراً لمنازلة ابن غانية بودّان، وواعدهم هناك منصرفة من غدامس فأرجف بهم العرب في طريقهم بمداخلة ابن غانية. ومال بذله في ذلك فانفض العسكر، وزحفوا إلى قابس. وأهمل السيد أبو زيد في غدامس إليهم فلقيه خبر مفرهم. فلحق بأبيه وأخبره بالجلى في أمرهم، فسخط قائد العسكر وهم بقتله. وطرق السيد أبا العلا المرض فرجع إلى تونس. وبلغه أن ابن غانية نهض من ودان إلى الزاب، وأن أهل بسكرة أطاعوه، فسرح السيد أبا زيد في عساكر الموحدين إليه، ودخل ابن غانية الرمل فأعجزهم.

ورجع السيد أبو زيد إلى بسكرة فأنزل بهم عقابه من النهب والتخريب، ورجع إلى تونس. ثم بلغه أن ابن غانية قد رجع إلى جوانب إفريقية، واجتمع إليه أخلاط من العرب والبربر، فسرح السيد أبا زيد إليه في العساكر ونزل بالقيروان، وخالفه ابن غانية إلى تونس فقصده السيد أبو زيد ومعه العرب وهوارة بظعائنهم ومواشيهم.وتزاحفوا بمجدول فاتح إحدى وعشرين وستمائة، واشتد القتال وعضت الموحدون الحرب، وأبلى هوارة وشيخهم بعرة بن حناش بلاءً جميلاً وضرب ابنتيه وتناغوا في الثبات والصبر فانهزم الملثمون وانجلت المعركة عن حصيد من القتلى من أصحاب ابن غانية، واستولى الموحدون على معسكرهم.

وكان بلغ السيد أبا زيد خبر مهلك أبيه السيد أبي العلا بتونس في شعبان سنة عشرين وستمائة. فلما فرغ من مواقعة ابن غانية رجع إلى تونس وأقصر عن متابعته. وخاطب المستنصر

بمهلك أبيه وواقعة الملثمين، وكان المستنصر قد عزله واستبدل منه بأبي يحيى بن أبي عمران التينمللي صاحب ميورقة، ولم يصل إليه الخبر بعزله بعد. وهلك الملك المستنصر إثر ذلك سنة عشرين وستمائة، وولي عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن فنقض تلك العقدة، وكتب إلى السيد أبي زيد بالإبقاء على عمله، ونقض ما أصدر المستنصر من عزله، فأرسل عنانه في الولاية، وبسط يده في الناس بمكروهه، وتنكرت له الوجوه، وانحرف عنه الناس، بما كانوا عليه من الصاغية لأبي محمد بن أبي حفص وولده، الى أن عزل واستبدل بهم كما نذكره، وركب البحر بذخائره وأهله فلحق بالحضرة.

الخبر عن ولاية أبي محمد عبد الله بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وما كان فيها من الأحداث

لما هلك المخلوع وولي العادل، ولّى علي إفريقية أبا محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد. وولى على بجاية يحيى بن الأطاس التينمللي، وعزل عنها ابن يغمور. وكتب إلى السيد أبي زيد بالقدوم. وكتب أبو محمد عبد الله إلى ابن عمه موسى بن ابراهيم ابن الشيخ أبي حفص بالنيابة عنه خلال ما يصل، فخرج السيد أبو زيد في ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة، واستقل أبو عمران موسى بأمر إفريقية، واستمرت نيابته عليها زهاء ثمانية أشهر. وخرج أبو محمد عبد الله من مراكش إلى إفريقية.

ولما انتهى إلى بجاية قدم بين يديه أخاه الأمير أبا زكريا ليعترضه طبقات الناس للقائه، فوصل إلى تونس في شعبان من هذه السنة بعد أن أوقع في طريقه بوهاصة. وكان أولاد شداد رؤساؤهم قد جمعوا لاعتراضه بناحية بونة، فسرح أخاه الأمير أبا زكريا لحسم دائهم ولخروج الطبقات من أهل الحضرة للقائه فكان كذلك. وخرج في رمضان من سنته، وخرج معه الناس على طبقاتهم فلقوه بسطيف، ووصل إلى الحضرة في ذي القعدة من آخر السنة، وتزحزح أبو عمران عن النيابة. ثم لحقه من المغرب أخوه أبو إبراهيم في صفر سنة أربع وعشرين وستمائة، فعقد له على بلاد قسطيلية وعقد لأخيه الأمير أبي زكريا على قابس وما إليها، وذلك في جمادى من هذه السنة.

وبعد استقراره بتونس بلغه أن ابن غانية دخل بجاية عنوة، ثم تخطى كذلك إلى تدلس، وأنه عاث في تلك الجهات فرحل من تونس وعقد لأخويه كما ذكرناه. وأغذ السير إلى فحص أبة فصبح به هوارة، وقد كان بلغه عنهم السعي في الفساد، فأطلق فيهم أيدي عسكره، واعتقل مشايخهم وأنفذهم إلى المهدية. ثم مر في أتباع ابن غانية، فانتهى إلى بجاية، وسكن أحوالها، ثم إلى متيجة ومليانة فأدركه الخبر أن ابن غانية قصد سجلماسة فانكفأ راجعاً إلى تونس، ودخلها في رمضان سنة أربع وعشرين وستمائة، ولم يزل مستبداً بإمارته إلى أن ثار عليه الأمير أبو زكريا، وغلبه على الأمر كما نذكر.

الخبر عن ولاية الأمير أبي زكريا ممهد الدولة لآل أبي حفص بأفريقية ورافع الراية لهم بالملك وأولية ذلك وبدايته

لما قتل العادل بمراكش سنة أربع وعشرين وستمائة، وبويع المأمون بالأندلس بعث إلى أبي محمد عبد الله بتونس ليأخذ له البيعة على من بها من الموحدين. وكان المأمون قد فتح أمره بالخلاف، ودعا لنفسه قبل موت أخيه العادل بأيام، فامتنع أبو محمد وردّ رسله إليه، فكتب بذلك لأخيه الأمير أبي زكريا وهو بمكانه من ولاية قابس. وعقد له على أفريقية فأخذ له البيعة على من إليه، وداخله في شأنها ابن مكي كبير المشيخة بقابس. واتصل ذلك بأبي محمد فخرج من تونس إليهم.

ولما انتهى إلى القيروان نكر عليه الموحدون نهوضه إلى حرب أخيه، وانتقضوا عليه وعزلوه.و طير بالخبر إلى أخيه في وفد منهم فألفوه معملاً في اللحاق برحاب بن محمد وأعراب طرابلس، فبايعوه ووصلوا به إلى معسكرهم. وخلع أبو محمد نفسه، ثم ارتحل الأمير أبو زكريا إلى تونس فدخلها في رجب من سنة خمس وعشرين وستمائة، وأنزل أخاه أبا محمد بقصر ابن فاخر، وتقبض على كاتبه أبي عمرو طرا من الأندلس. واستكتبه أبو محمد فغلب على هواه، وكان يغريه بأخيه، فبسط الأمير أبو زكريا عليه العذاب إلى أن هلك. ثم بعث أخاه محمد في البحر إلى المغرب فاستبد بملكه، واستوزر ميمون بن موسى الهنتاتي، واستقامت أموره.

الخبر عن استبداد الأمير أبي زكريا بالأمر لبني عبد المؤمن

لما اتصل به ما أتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش، وخصوصاً هنتاتة وتينملل. وكان منهم أخواه أبو محمد عبد اللّه المخلوع وإبراهيم، وأنه أشاع النكير على المهدي في العصمة، وفي وضع العقائد والنداء للصلوات باللسان البربري، وإحداث النداء للصبح وتربيع شكل الدرهم وغير ذلك من سننه. وأنه غير رسوم الدعوة، وبدل أصول الدولة. وأسقط اسم الإمام من الخطبة والسكة وأعلن بلعنه. ووافق بلوغ الخبر بذلك وصول بعض العمال إلى تونس بتولية المأمون فصرفهم، وأعلن بخلعه سنة ست وعشرين وستمائة. وحول الدعوة إلى يحيى ابن أخيه الناصر المنتزي عليه بجبال الهساكرة. ثم اتصل به بعد ذلك عجز يحيى واستقلاله، فأغفله واقتصر على ذكر الإمام المهدي، وتلقب بالأمير ورسم علامته به في صدور مكتوباته. ثم جدد البيعة لنفسه سنة أربع وثلاثين وستمائة، وثبت ذكره في الخطبة بعد ذكر الإمام مقتصراً على لفظ الأمير، لم يجاوزه إلى أمير المؤمنين. وخاض أولياء دولته في ذلك حتى رفع إليه بعض شعرائه في مفتتح كلمة مدحه بها:

الا صل بالأمير المؤمنينا   فأنت بها أحق العالمينا

فزحزحهم عن ذلك وأبى عنه، ولم يزل على ذلك إلى آخر دولته.

الخبر عن فتح بجاية وقسطنطينة

لما استقل الأمير أبو زكريا بالأمر بتونس، وخلع بني عبد المؤمن، ونهض إلى قسطنطينة سنة ست وعشرين وستمائة، فنزل بساحتها وحاصرها أياماً. ثم داخله ابن علناس في شأنها وأمكنه من غرتها فدخلها، وتقبض على واليها السيد ابن السيد أبي عبد اللّه الخرصاني بن يوسف العشري. وولى عليها ابن النعمان. ورحل إلى بجاية فافتتحها، وتقبض على واليها السيد أبي عمران ابن السيد أبي عبد اللّه الخرصاني وصيرهما معتقلين في البحر إلى المهدية. وأجريت عليهما هنالك الأرزاق، وبعث بأهلهما وولدهما مع ابن أوماز إلى الأندلس، فنزلوا بأشبيلية. وبعث معهما إلى المهدية في الاعتقال محمد بن جامع وابنه وابن أخيه جابر بن عون بن جامع من شيوخ مرداس عوف، وابن أبي الشيخ بن عساكر من شيوخ الدواودة، فاعتقلوا بمطبق المهدية وكان أخوه أبو عبد اللّه اللحياني صاحب أشغال بجاية فصار في جملته، وولاه بعدها الولايات الجليلة، وكان يستخلفه بتونس في مغيبه.

وفي هذه السنة تقبض على وزيره ميمون بن موسى واستصفى أمواله، وأشخصه إلى قابس فاعتقل بها مدة. ثم غربه إلى الإسكندرية، واستوزر مكانه أبا يحيى بن أبي العلا بن جامع، إلى أن هلك، فاستوزر بعده أبا زيد ابن أخيه الآخر محمد إلى أن هلك.

الخبر عن مهلك ابن غانية وحركة السلطان إلى بجاية وولاية ابنه الأمير أبي يحيى زكريا عليها

لما استقل الأمير أبو زكريا بإفريقية وخلع طاعة بني عبد المؤمن صرف عزمه أولاً إلى مدافعة يحيى بن غانية عن نواحي أعماله، فكانت له في ذلك مقامات مذكورة، وشرده عن جهات طرابلس والزاب وواركلا. واختط بواركلا المسجد لما نزلها في اتباعه، وأنزل بالأطراف عساكره وعماله لمنعها دونه. ولم يزل ابن غانية وأتباعه من العرب من أفاريق سليم وهلال وغيرهم على حالهم من التشريد والجلاء، إلى أن هلك سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وانقطع عقبه فانقطع ذكره، ومحا اللّه آثار فتنته من الأرض. واستقام أمر الدولة ونبضت منها عروق الاستيلاء واتساع نطاق الملك.ونهضت عزائمه إلى تدويخ أرض المغرب فخرج من تونس سنة اثنتين وثلاثين وستمائة يؤم بلاد زناتة بالمغرب الأوسط. وأغذ السير إلى بجاية فتلوم بها. ثم ارتحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها. ثم نهض منها إلى بلاد مغراوة فأطاعه بنو منديل بن عبد الرحمن، وجاهر بنو توجين بخلافه، فنزل البطحاء وأوقع بهم. وتقبض على رئيسهم عبد القوي بن العباس فاعتقله، وبعث به إلى تونس ودوخ المغرب الأوسط وقفل راجعاً إلى حضرته. وعقد مرجعه من المغرب لابنه الأمير أبي يحيى زكريا على بجاية وأنزله بها. واستوزر له يحيى بن صالح بن إبراهيم الهنتاتي وجعل شواره لعبد اللّه بن أبي تهدى، وجبايته لعبد الحق بن ياسين، وكلهم من هنتاتة. وكتب إليه بوصيته مشتملة على جوامع الخلال في الدين والملك والسياسة، يجب إثباتها لشرف مغزاها وغرابة معناها ويأتي نصها فيما بعد.

الخبر عن سطوة السلطان بهوارة

كان لهوارة هؤلاء بإفريقية ظهور وعدد منذ عهد الفتح، وكانت دولة العبيديين قد جرت عليهم بكلكلها لما كان منهم في فتنة أبي يزيد كما نذكره في أخبارهم. وبقي منهم فل بجبل أوراس وما بعده من بلاد إفريقية وبسائطها إلى أبة ومرماجنة وسبيبة وتبرسق.

ولما انقرض ملك صنهاجة بالموحدين وتغلب الأعراب من هلال وسليم على سائر النواحي بإفريقية، وكثروا ساكنها، وتغلبوا عليهم أخذ هذا الفل بمذهب العرب وشعارهم وشارتهم في اللبوس والزي والظعون وسائر العوائد. وهجروا لغتهم العجمية إلى لغتهم، ثم نسوها كأن لم تكن لهم، شأن المغلوب في الاقتداء بغالبه. ثم كان لهم انحياش أول الدولة إلى الطاعة بغلب عبد المؤمن وقومه. فلما استبد الأمير أبو زكريا، وانقلبت الدولة إلى بني أبي حفص ظهر منهم التياث في الطاعة، وامتناع عن المغرم، وأضرار بالسابلة، فاعتمل السلطان في أمرهم. وخرج من تونس سنة ست وثلاثين وستمائة مورياً بالغزو إلى أهل أوراس، وبعث في احتشادهم فتوافدوا في معسكره. ثم صبحهم في عسكره من الموحدين والعرب ففتك بهم قتلاً وسبياً، واكتسح أموالهم وقتل كبيرهم أبو الطيب بعرة بن حناش وأفلت من أفلت منهم ناجياً بنفسه، عارياً من كسبه، فألانت هذه البطشة من حدهم وخضدت من شوكتهم، واستقاموا على الطاعة بعد.

الخبر عن ثورة الهرغي بطرابلس ومآل أمره

كان هذا الرجل من مشيخة الموحدين وهو يعقوب بن يوسف بن محمد الهرغي ويكنى بأبي عبد الرحمن، وكان الأمير أبو زكرياء وقد عقد له على طرابلس وجهاتها، وسرح معه عسكراً من الموحدين لحمايتها من أعراب دباب من بني سليم، فقام بأمرها واضطلع بجباية رعاياها. واستخدم العرب والبربر الذين بساحتها وكان بينه وبين الجواهري مصدوقة ود. فلما قتل الجواهري سنة تسع وثلاثين وستمائة كما قدمناه استوحش لها يعقوب الهرغي واستقدمه السلطان فتلكأ، وبعث عنه أخاه ابن أبي يعقوب فازداد نفاره، وحدثته نفسه بالاستبداد لما كان أثرى من الجباية وشعر لها أهل البلد. فانطلقوا وهم يتخافون أن يعاجلوه قبل مداخلته العرب في أمره، فتقبضوا عليه وعلى أخيه وعلى أتباعهما ليلة أجمعوا الثورة في صباحها. وطيروا بالخبر إلى الحضرة فنفذ الأمر بقتلهم فقتلوا، وبعث برؤوسهم إلى باب السلطان، ونصبت أشلاؤهم بأسوار طرابلس، وأصبحوا عبرة للمعتبرين وأنشد الشعراء في التهنية بهم وقامت للبشائر سوق لكائنتهم.

وكان ممن قتل معه محمد ابن قاضي القضاة بمراكش أبي عمران بن عمران. وصل علقا إلى تونس وقصد طرابلس فاتصل بهذا الهرغي، ونمي عنه أنه أنشأ خطبة ليوم البيعة فكانت سائقة حتفه. وكان بالمهدية رجل من الدعاة يعرف بأبي حمراء اشتهر بالنجدة في غزو البحر، وقدم على الأسطول فردد الغزو حتى هابه الغزى من أمم الكفر، وأمنت سواحل المسلمين من طروقهم. وطار له فيها ذكر ونمي أنه كان مداخلاً للجواهري والهرغي، وأن القاضي بالمهدية أبا زكرياء البرقي اطلع على دسيستهم في ذلك، فنفذ الأمر السلطاني للوالي بها أبي علي بن أبي موسى بن أبي حفص بقتل ابن أبي الأحمر، وإشخاص القاضي إلى الحضرة معتقلاً، فأمضى عهده.

ولما وصل البرقي إلى تونس فحص السلطان عن شأنه فبرىء من مداخلتهم، فسرحه وأعاده إلى بلده. وقتل بالحضرة رجل آخر من الجند اتهم بمداخلتهم وسعايته في قيامهم، وكان له تعلق برحاب بن محمود أمير دباب، فأوعز السلطان إلى بعض الدعار من زناتة، فقتله غيلة ثم أهدر دمه. وتتبع أهل هذه الخائنة بالقتل حتى حسم الداء، ومحا شوائب الفتنة.

الخبر عن بيعة بلنسية ومرسية وأهل شرق الأندلس ووفدهم

لما استقل أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج بن سعد بن مردنيش بملك بلنسية، وغلب عليها السيد أبا زيد بن السيد أبي حفص، وذلك عند خمود ريح بني عبد المؤمن بالأندلس، وخروج ابن هود على المامون، ثم فتنته هو مع ابن هود، وثورة ابن الأحمر بأرجونة، واضطراب الأندلس بالفتنة. وأسف الطاغية إلى ثغور الأندلس من كل جانب. وزحف ملك أرغون إلى بلنسية فحاصرها، وكانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين وستمائة سبع محلات لحصار المسلمين:اثنتان منها على بلنسية، وجزيرة شقر وشاطبة. ومحلة بجيان ومحلة بطبيرة ومحلة بمرسية ومحلة بلبلة، وأهل جنوة من وراء ذلك على سبتة.

ثم تملك طاغية قشتالة مدينة قرطبة، وظفر طاغية أرغون بالكثير من حصون بلنسية والجزيرة، وبنى حصن أنيشة لحصار بلنسية. وأنزل بها عسكره وانصرف، فاعتزم زيان بن مردنيش على

غزو من بقي بها من عسكره، واستنفر أهل شاطبة وشقر وزحف إليهم فانكشف المسلمون، وأصيب كثير منهم. واستشهد أبو الربيع بن سالم شيخ المحدثين بالأندلس، وكان يوماً عظيماً، وعنواناً على أخذ بلنسية ظاهراً. ثم ترددت عليها سرايا العدو. ثم زحف إليها طاغية أرغون في رمضان سنة خمس وثلاثين وستمائة فحاصرها واستبلغ في نكايتها. وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم، وظهر أمر بني أبي حفص بإفريقية، فأمل ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الأمير أبا زكرياء للكرة، وبعثوا إليه بيعتهم، وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله بن الأبار صريخاً، فوفد وأدى بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة، وأنشد في ذلك المحفل قصيدته على روي السين، يستصرخه فيها للمسلمين وهي هذه:

أدرك بخيلك خيل اللّه أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
عاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للنائبات وأمسى جدها تعسا
كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدى عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثني الأمان حذاراً والسرور أسا
قاسم السروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسماً ... جذلان وارتحل الإيمان منبئسا
وصيرتها العوادي عائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
ما للمساجد عادت للعدى بيعاً ... وللنداء يرى أثناءها جرسا
لهفاً عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني أصبحت درسا
وأربعاً غنمت أيدي الربيع بها ... ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح النصر من أدواحها وعسا
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستوقف الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا ... عيث الدبا في مغانيها التي كبسا
وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الأسد الضاري لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضراً ... وأين غصن جنيناه بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حيناً وما نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا
خلا له الجو وامتدت يداه إلى ... إدراك ما لم تنل رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ... ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا
وأحي ما طمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهدي ما طمسا
أيام صرت لنصر الحق مستبقاً ... وبت من نور ذاك الهدي مقتبسا
وقمت فيها لأمر اللّه منتصراً ... كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم ... والصبح ماحية أنواره الغلسا
هذي رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية ... منك الأمير الرضي والسيد الندسا
خاضت خضارة يعلوها ويخفضها ... عبابه فتعاني اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتية ... كما طلبت بأقصى شدة الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي ... حفص مقبلة من تربه القدسا
ملك تقلدت الأملاك طاعته ... ديناً ودنيا فغشاها الرضى لبسا
من كل غاد على يمناه مستلما ... وكل صاد إلى نعماه ملتمسا
مؤيد لو رمى نجماً لأثبته ... ولو دعا أفقاً لبى وما احتبسا
أمارة تحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها يستصحب القعسا
يبدي النهار بها من ضوئه شنبا ... ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
كأنه البدر والعلياء هالته ... تحف من حوله شهب القنا حرسا
له الثرى والثريا خطتان فلا ... أعز من خطتيه ما سما ورسا
يا أيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من ... يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطىء رأس كل من رأسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمعاً تهمي زكاء وخسا
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ... داء متى لم تباشر حسمه انتكسا
املأ هنيئاً لك التمكين ساحتها ... جرداً سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد أتى وعسا

فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم، وبعث إليهم أسطوله مشحوناً بمدد الطعام والأسلحة والمال، مع أبي يحيى بن يحيى بن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفص. وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار.

وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار، فنزل بمرسى دانية واستفرغ المدد بها ورجع بالناض إذا لم يخلص إليه من قبل ابن مردنيش من يتسلمه. واشتد الحصار على أهل بلنسية، وعدمت الأقوات وكثر الهلاك من الجوع، فوقعت المراودة على إسلام البلد فتسلمها جاقمة ملك أرغون في صفر سنة ست وثلاثين وستمائة، وخرج عنها ابن مردنيش إلى جزيرة شقر، فأخذ البيعة على أهلها للأمير أبي زكريا. ورجع ابن الأبار إلى تونس، فنزل على السلطان وصار في جملته، وألح العدو على حصار ابن مردنيش بجزيرة شقر، وأزعجه عنها إلى دانية فدخلها في رجب من سنته، وأخذ عليهم البيعة للأمير أبي زكريا.

ثم داخل أهل مرسية، وقد كان بويع بها أبو بكر عزيز بن عبد الملك ابن خطاب في مفتتح السنة، فافتتحها عليه في رمضان من سنته وقتله، وبعث ببيعتهم إلى الأمير أبي زكريا. وانتظمت

البلاد الشرقية في طاعته، وانقلب وفد ابن مردنيش إليه من تونس بولايته على عمله سنة سبع وثلاثين وستمائة، ولم يزل بها إلى أن غلبه ابن هود على مرسية، وخرج عنها إلى لقنت الحصون سنة ثمان وثلاثين وستمائة، إلى أن أخذها طاغية برشلونة من يده سنة أربع وأربعين وستمائة، وأجاز إلى تونس، والبقاء لله.

الخبر عن الجوسي وأوليته ومآل أمره

اسم هذا الرجل: محمد بن محمد الجوهري، وكان مشتهراً بخدمة ابن أكمازير الهنتاتي والي سبتة وغمارة من أعمال المغرب. وكان حسن الضبط مترامياً إلى الرئاسة. ولما ورد على تونس وتعلق بأعمال السلطان نظر فيما يزلفه ويرفع من شأنه، فوجد جباية أهل الخيام بإفريقية من البرابرة الموطنين مع الأعراب غير منضبطة ولا محصلة في ديوان، فنبه على أنها مأكلة للعمال ونهبة للولاة، فدفع إليها فأنمى جبايتها وقرر ديوانها، وصارت عملاً منفرداً يسمى عمل العمود وطار له بذلك بين العمال ذكر، جذب له السلطان أبو زكرياء بضبعه، وعول على نصيحته وآثره باختصاصه. ووافق ذلك موت أبي الربيع الكنفيتي المعروف بابن الغريغر صاحب الأشغال بالحضرة، فاستعمل مكانه، وكان لا يلي تلك الخطة إلا كبير من مشيخة الموحدين، فرشحه السلطان لها لكفايته وغنائه، فظفر منها بحاجة نفسه، واعتدها ذريعة إلى أمنيته، فاتخذ شارة أرباب السيوف، وارتبط الخيل واتخذ الآلة في حروبه مع أهل البادية إذا احتاج إليها.

وأسف أثناء ذلك أبا علي بن النعمان وأبا عبيد الله بن أبي الحسن بعدم الخضوع لهما، فنصبا له، وأغريا به السلطان، وحذراه غائلة عصيانه. وكان فيه إقدام أوجد به السبيل على نفسه، ويحكى أن السلطان استشاره ذات يوم في تقويم بعض أهل الخلاف والعصيان، فقال له:عندي ببابك ألف من الجنود أرم بها من تشاء من أمثالهم، فأعرض عنه السلطان واعتدها عليه. وجعلها مصداقاً لما نمي عنه. ولما قدم عنه عبد الحق بن يوسف بن ياسين على الأشغال ببجاية مع زكريا بن السلطان، أظهر له الجوهري أن ذلك بسعايته، وعهد إليه بالوقوف عند أمره والعمل بكتابه، فألقى عبد الحق ذلك إلى الأمير أبي زكريا فقام لها وقعد، وأنف من استبداد الجوهري عليه. ولم تزل هذه وأمثالها تعد عليه حتى حق عليه القول فسطا به الأمير أبو زكريا وتقبض عليه سنة تسع وثمانين وستمائة، ووكل امتحانه إلى أعدائه ابن لمان والندرومي، فتجلد على العذاب وأصبح في بعض أيامه ميتاً بمحبسه. ويقال: خنق نفسه وألقي شلوه بقارعة الطريق فتفنن أهل الشمات في العبث به، وإلى الله المصير.

الخبر عن فتح تلمسان ودخول بني عبد الواد في الدعوة الحفصية

كان الأمير أبو زكريا منذ استقل بأمر إفريقية واقتطعها عن بني عبد المؤمن كما ذكرناه متطاولاً إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسي الدعوة. وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك، فكان يداخل أمراء زناتة فيه ويرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة.وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلماً لوليهم وحرباً على عدوهم. وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده الاتحاف بأنواع الألطاف والهدايا تعمّناً لمسراته، وميلاً إليه عن جانب أقتاله بني مرين المجلبين على المغرب والدولة، فاستكبر السلطان أبو زكريا اتصال الرشيد هذا بيغمراسن وآله وألزمهم من جواره بالمحل القريب.

وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي أمير بني توجين وبعض ولد منديل بن عبد الرحمن أمراء مغراوة صريخاً على يغمراسن فسهلوا له أمره، وسولوا له الاستبداد على تلمسان. وجمع كلمة زناتة، وإعداد ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك الموحدين بمراكش، وانتظامه في أمره، وسلماً لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه، وباباً لولوج المغرب على أهله، فحركه إملاؤهم وهزه إلى النعرة صريخهم، وأهاب بالموحدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان. واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في طاعته من بني سليم ورياح بظعنهم، فأهطعوا لداعيه.

ونهض سنة تسع وثلاثين وستمائة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة. وسرح إمام حركته عبد القوي بن العباس وأولاد منديل بن محمد لحشد من وافى بأوطانهم من أحياء زناتة وذؤبان قبائلهم، وأحياء زغبة أحلافهم من العرب. وضرب معهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم. ولما نزل صحراء زاغر قبلة تيطري منتهى مجالات رياح وبني سليم من المغرب، تثاقل العرب عن الرحلة بظعنهم في ركاب السلطان، وتولوا بالمعاذير فألطف الأمير أبو زكريا الحيلة. وزعموا في استنهاضهم وتنبيه عزائمهم، فارتحلوا

معه حتى نازل تلمسان بجميع عساكر الموحدين وحشود زناتة وظعن العرب بعد أن كان قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة بالأعذار والدعاء إلى الطاعة، فرجعهم بالخيبة، ولما حلت عساكر الموحدين بساحة البلد، وبرز يغمراسن وجموعه للقاء بصحبتهم ناشبه السلطان بالنبل، فانكشفوا ولاذوا بالجدران وعجزوا عن حماية الأسوار، فاستمكنت المقاتلة من الصعود. ورأى يغمراسن أن قد أحيط بالبلد فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتفاً في ذويّه وخاصته. واعتراضه عساكر الموحدين فصمم نحوهم وجندل بعض أبطالهم فأفرجوا له، ولحقوا بالصحراء وتسللت الجيوش إلى البلد من كل حدب، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال.

ولما تجلى غشي تلك الهيعة، وحسر تيار الصدمة، وخمدت نار الحرب، راجع الموحدون بصائرهم وأنعم الأمير أبو زكريا نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بثغرها لإقامة دعوته الداثلة من دعوة بني عبد المؤمن والمدافعة عنها. واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبرأ أمراء زناتة ضعفاً عن مقاومة يغمراسن علماً بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله ولا يصد عن فريسته.

وسرح يغمراسن الغارات في نواحي المعسكر فاختطف الناس من حوله، واطلعوا من المراقب عليه. ثم بعث وفده متطارحين على السلطان في الملامة والاتفاق، واتصال اليد على صاحب مراكش طالب الوتر في تلمسان وإفريقية. وأن يفرده بالدعوة الموحدية فأجابه إلى ذلك. ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم موصلها وأسنى جائزتها، وأحسن وفادتها ومنقلبها، وسوغ ليغمراسن في شرطه بعض الأعمال بإفريقية، وأطلق أيدي عماله على جبايته، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله.

وفي أثناء طريقه وسوس إليه الموحدون باستبداد يغمراسن، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة وأمراء المغرب الأوسط شجى في صدره، ومعترضاً عن مرامه، وإلباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيه، فأجابهم وقلد كلاً من عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المغراوي ومنصور المليكشي أمر قومه ووطنه، وعهد إليهم بذلك وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم، فاتخذوه بحضرته وبمشهد من ملأ الموحدين. وأقاموا مراسمها ببابه. وأغذ السير إلى تونس قرير العين بامتداد ملكه، وبلوغ وطره والإشراف على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته، فدخل الحضرة واقتعد أريكته وأنشده الشعراء في الفتح، وأسنى جوائزهم وتطاولت أعناق الآفاق كما نذكره.

الخبر عن دول أهل الأندلس في الدعوة الحفصية ووصول بيعة إشبيلية وكثير من أمصارها

كان بإشبيلية أبو مروان أحمد الباجي من أعقاب أبي الوليد وأبو عمرو بن الجد من أعقاب الحافظ أبي بكر الطائر الذكر، ورثا التجلة عن جدهما وأجراهما الخلفاء على سننهم. وكانا مسمتين وقورين متبوعين من أهل بلدهما مطاعين في أفقهما. وكان السادة من بني عبد المؤمن يعولون على شوراهما في مصرها. وكان بعدوة الأندلس التياث في الملك منذ وفاة المستنصر، وانتزى بها السادة وافترقوا. وثار بشرق الأندلس ابن هود وزيان بن مردنيش، وبغربها ابن الأحمر. وغلب ابن هود الموحدين وأخرجهم عنها. وملك ابن هود أشبيلية سنة ست وعشرين وستمائة واعتقل من كان بها من الموحدين. ثم انتقضوا عليه سنة تسع وعشرين وستمائة بعدها وأخرجوا أخاه أبا النجاة سالماً، وبايعوا الباجي وتسمى بالمعتضد، واستوزر أبا بكر بن صاحب الرد، ودخلت بيعته قرمونة، وحاصره ابن هود فوصل الباجي يده بمحمد بن الأحمر الثائر بأرجونة وجيان بعد أن ملك قرطبة.

وزحف ابن هود إليهم فلقوه وهزموه، ورجعوا ظافرين، فدخل الباجي إلى أشبيلية وعسكر بخارجها، ثم انتهز فرصته في أشبيلية وبعث قريبه ابن اشقيلولة مع أهل أرجونة والنصارى إلى فسطاط الباجي فتقبضوا عليه وعلى وزيره وقتلوهما سنة إحدى وثلاثين وستمائة. ودخل ابن الأحمر أشبيلية، ولشهر من دخوله إليها ثار عليه أهلها ورجعوا إلى طاعة ابن هود، وولى عليهم أخاه أبا النجاة سالماً. ولما هلك محمد بن هود سنة خمس وثلاثين وستمائة صرف أهل أشبيلية طاعتهم إلى الرشيد بمراكش، وولوا على أنفسهم محمد بن السيد أبي عمران الذي قدمنا أنه كان والياً بقسطنطينة، وأن الأمير أبا زكريا غلبه عليها واعتقله، وبعث ولده إلى الأندلس فربي محمد هذا في كفالة أمه بأشبيلية.

ولما سار أهل أشبيلية للرشيد قدموه على أنفسهم، وتولى كبر ذلك أبو عمرو بن الجد، وبعثوا وفدهم إلى الحضرة فأقر السيد أبا عبد الله على ولايتهم. واستمرت في دعوة الرشيد إلى أن هلك سنة أربعين وستمائة. وقد ملك الأمير أبو زكريا تلمسان وأشرف

على أعمال المغرب، فاقتدوا بمن تقدم إلى بيعته من أهل شرق الأندلس ببلنسية ومرسية، وبايعوا للأمير أبي زكريا بن أبي محمد بن أبي حفص واقتدى بهم أهل شريش وطريف، وبعثوا إليه وفدهم ببيعته سنة إحدى وأربعين وستمائة. وسألوا منه ولاية بعض أهل قرابته فولى عليهم أبا فارس ابن عمه يونس بن الشيخ أبي حفص، فقدم أشبيلية وقام بأمرها، وسلم له ابن الجد في نقضها وإبرامها.

ثم انتقض عليه سنة ثلاث وأربعين وستمائة وطرده من البلد إلى سبتة واستبد بأمر أشبيلية، ووصل يده بالطاغية. وعقد له السلم وضرب على أيدي أهل المغاورة من الجند وأسقطهم من ديوانه فقتلوه بإملاء قائدهم شفاف واستقبل بأمر أشبيلية. ورجع أبا فارس بن أبي حفص وولاه بدعوة الأمير أبي زكريا فسخطهم الطاغية لذلك وانتقض عليهم وملك قرمونة ومرشانة. ثم زحف إلى حصرهم وسألوه الصلح فامتنع. وصار أمر البلد شورى بين القائد شفاف وابن شعيب ويحيى بن خلدون ومسعود بن خيار وأبي بكر بن شريح، ويرجعون في أمرهم آخراً إلى الشيخ أبي فارس بن أبي حفص.

وأقاموا في هذا الحصار سنتين ونازلهم ابن الأحمر في جملة الطاغية، وبعث إليهم الأمير أبو زكريا المدد، وجهز له الأسطول لنظر أبي الربيع بن الغريغر التينمللي. وأوعز له إلى سبتة بتجهيز أسطولهم معه فوصل إلى وادي أشبيلية، وغلبهم أسطول الطاغية على مرسية فرجع. واستولى العدو عليها صلحاً سنة ست وأربعين وستمائة بعد أن أعانهم ابن الأحمر بمدده وميرته. وقدم الطاغية على أهل الدخن بها عبد الحق بن أبي محمد البياسي من آل عبد المؤمن، والأمر لله.

الخبر عن بيعة أهل سبتة وطنجة وقصر ابن عبد الكريم وتصاريف أحوالهم ومآل أمرهم

كان أهل سبتة بعد إقلاع المامون عنهم، ونزول أخيه موسى عنها لابن هود قد انتقضوا وأخرجوا عنهم القشتيني والي ابن هود، وقدموا عليهم أحمد الينشتي وتسمى بالموفق. ثم رجعوا إلى طاعة الرشيد عندما بايعه أهل أشبيلية سنة خمس وثلاثين وستمائة. وتقبضوا على الينشتي وابنه وأدخلوا السيد أبا العباس ابن السيد أبي سعيد، كان والياً بغمراوة فولوه عليهم. ثم عقد الرشيد على ديوان سبتة لأبي علي بن خلاص، كان من أهل بلنسية واتصل بخدمة الرشيد فجلى فيها. ودفعه إلى الأعمال فضبطها، فولاه سبتة فاستقل بها. وولى على طنجة يوسف ابن الأمير قائداً على الرحل الأندلسي وضابطاً لقصبتها. حتى إذا هلك الرشيد سنة أربعين وستمائة، وقد استفحل أمر الأمير أبي زكريا بإفريقية، واستولى على تلمسان وبايعه الكثير من أمصار الأندلس، فصرف ابن خلاص وجهه إليه.

وكان قد اقتنى الأموال واصطنع الرجال، فدخل في دعوته، وبعث الوفد ببيعته. واقتدى به في ذلك أهل قصر ابن عبد الكريم فبعثوا بيعتهم للأمير أبي زكريا. وعقد لابن خلاص على سبتة وما إليها، فبعث بالهدية إليه في أسطول أنشأه لذلك سماه الميمون، وأركب ابنه أبا القاسم فيه وافداً على السلطان، ومعه الأديب إبراهيم بن سهل، فعطب عند إقلاعه.

ولما رجع الأسطول من أشبيلية كما قدمناه على بقية هذا العطب وحزن أبي علي بن خلاص على ابنه، رغب من قائده أبي الربيع بن الغريغر أن يحمله بجملته إلى الحضرة، فانتقل بأهله واحتمل ذخيرته. ولما مر الأسطول بمرسى وهران نزل بساحلها فأراح، وأحضر له تين فأكله فأصابه مغص في معاه هلك منه فجأة سنة ست وأربعين وستمائة. وعقد السلطان على سبتة لأبي يحيى بن زكريا ابن عمه أبي يحيى الشهيد بن الشيخ أبي حفص. وبعث معه على الجباية أبا عمر بن أبي خالد الأشبيلي، كان صديقاً لشفاف وعدواً لابن الجد. ولما قتل شفاف لحق بالحضرة فولاه الأمير أبو زكريا أشغال سبتة، استمرت الحال إلى أن كان من استبداد العزفي بسبتة على ما نذكره.

الخبر عن بيعة المرية

لما هلك محمد بن هود بالمرية سنة خمس وثلاثين وستمائة كما ذكرناه واستبد وزيره أبو عبد اللّه محمد بن الرميمي بها، وضبطها لنفسه وضايقه ابن الأحمر فبعث ببيعته سنة أربعين إلى الأمير أبي زكريا حين أخذ أهل شرق الأندلس بطاعته. ولم يزل ابن الأحمر يحاصره إلى أن تغلب عليه سنة ثلاث وأربعين وستمائة كما ذكرناه في أخباره. وخرج منها إلى سبتة بأهله وذخيرته، وأحله أبو علي بن خلاص محل البر والتكرمة، وأنزله خارج المدينة في بساتين بنيونش، وأجمع الثورة بأبي خلاص، فنذر به وتغير له.

فلما رجع الأسطول من أشبيلية ركبه الرميمي ولحق بتونس، فنزل على الأمير أبي زكريا وحل من حضرته محل

التكرمة. واستوطن تونس، وتملك بها الضياع والقرى، وشيد القصور إلى أن هلك والبقاء لله وحده.

الخبر عن بيعة ابن الأحمر

كان محمد بن الأحمر قد انتزى على ابن هود ببلده أرجونة، وتملك جيان وقرطبة وأشبيلية وغرب الأندلس وطالت فتنته مع ابن هود وراجع طاعته. ثم انتقض عليه وبايع للرشيد سنة ست وثلاثين وستمائة عندما بايعه أهل أشبيلية وسبتة، فلم يزل على ذلك إلى أن هلك الرشيد على حين استفحال ملك الأمير أبي زكريا بإفريقية وتأميله للنصرة والكرة، فحول ابن الأحمر إليه الدعوة، وأوفد بها أبا بكر بن عياش من مشيخة مالقة فرجعهم الأمير أبو زكريا بالأموال للنفقات الجهادية، ولم يزل يواصلها لهم من بعد ذلك إلى أن هلك سنة سبع وأربعين وستمائة، فأطلق ابن الأحمر نفسه من عقال الطاعة واستبد بسلطانه.

الخبر عن بيعة سجلماسة وانتقاضها

كان عبد اللّه بن زكريا الهزرجي من مشيخة الموحدين والياً بسجلماسة لبني عبد المؤمن. ولما هلك الرشيد وبويع أخوه السعيد سنة أربعين وستمائة، ونميت إليه عن الهزرجي عظيمة من القول خشن بها صدره وبعث إليه مستعتباً فلم يعتبه. ومزق كتابه فخشيه الهزرجي على نفسه، واتصل به ما كان من استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان ونواحيها، فخاطبه بطاعته وأوفد عليه بيعته، فعقد له الأمير أبو زكريا على سجلماسة وأنحائها، وفوض إليه في أمرها ووعده بالمدد من المال والعسكر لحمايتها. وخطب له عبد اللّه بسجلماسة، وفر إليه من مراكش أبو زيد الكدميوي بن واكاك، وأبو سعيد العود الرطب، فلحق بتونس. وأقام أبو زيد معه بسجلماسة. وزحف إليه السعيد سنة إحدى وأربعين وستمائة، وقيل سنة أربعين، ومن معسكره كان مفر أولئك المشيخة. وخاطب السعيد أهل سجلماسة وداخلهم أبو زيد الكدميوي فغدروا بالهزرجي وثاروا به، فخرج من سجلماسة وأسلمها، وقام بأمرها أبو زيد الكدميوي. وطير بالخبر إلى السعيد فشكر له فعلته، وغفر له سالفته. وتقبض على عبد اللّه الهزرجي بعض الأعراب، وأمكن منه السعيد فقتله وبعث برأسه إلى سجلماسة فنصب بها، ورجع من طريقه إلى مراكش وأقامت سجلماسة على دعوة عبد المؤمن إلى أن كان من خبرها ما نذكره في موضعه.

الخبر عن بيعة مكناسة وما تقدمها من طاعة بني مرين

كان بين بني عبد الواد وبين بني مرين منذ أوليتهم وتقلُّبهم في القفار فتن وحروب، ولكل منهما أحلاف في المناصرة وأشياع. فلما التاثت دولة بني عبد المؤمن غلب كل منهما على موطنه، وكانت السابقة في ذلك لبني عبد الواد لبعدهم عن حضرة مراكش حيث محشر العساكر ويعسوب القبائل. ولما استبد الأمير أبو زكريا بأمر إفريقية، ودوخ المغرب الأوسط وافتتح تلمسان، وأطاعه بنو عبد الواد، حذر بنو مرين حينئذ غائلتهم. وخافوا أن يظاهرهم الأمير أبو زكريا عليهم، فألانوا له في القول ولاطفوه على البعد بالطاعة، وخاطبوه بالتمويل، وأوجبوا له حق الخلافة، ووعدوه أن يكونوا أنصاراً لدعوته وأعواناً في أمره، ومقدمة في عسكره إلى مراكش وزحفه. وحملوا من تحت أيديهم من قبائل المغرب وأمصاره على طاعتهم، والاعتصام ببيعتهم. ولم تزل المخاطبات بينهم وبين الأمير أبي زكريا في ذلك من أميرهم عثمان بن عبد الحق وأخيه محمد من بعده. ورسلهم تفد عليه بذلك مرة بعد أخرى إلى أن هلك الرشيد. وقد استولى الأمير أبو زكريا على تلمسان، ودخل في دعوته قبائل زناتة بالمغرب الأوسط واستشرف أهل الأمصار من العدوتين إلى إيالته. وكان أهل مكناسة قد اعتصموا بوصلة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، وجاءهم وال من مراكش وأساء فيهم السيرة فتوثبوا به وقتلوه. وبعثوا إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، فحملهم على بيعة الأمير أبي زكريا فأنفذوها من إنشاء قاضيهم أبي المطرف بن عميرة سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وضمن أبو يحيى بن عبد الحق حمايتهم خلال ما يأتيهم أمر السلطان من تونس ومدده، وبلغ الخبر إلى السعيد فأرهف حده واعتزم على النهوض إليهم فخامهم الرعب، وراجعوا طاعته وأوفدوا صلحاءهم وعلماءهم في الإقالة واغتفار الجريدة، فتقبل ذلك إلى أن كان من حركته بعد ذلك ومهلكه ما هو معروف.

الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى زكريا ولي العهد بمكان إمارته من بجاية وتصيير العهد إلى أخيه محمد

كان الأمير أبو زكريا قد عقد لابنه أبي يحيى زكريا على ثغر

بجاية قاعدة ملك بني حماد، وجعل إليه النظر في سائر أعمالها من الجزائر وقسطنطينة وبونة والزاب سنة ثلاث وثلاثين وستمائة كما ذكرناه، فاستقل بذلك، وكان بمكان من الترشيح للخلافة بنفسه وجلاله، وانتظامه في سلك أهل العلم والدين وإيناس العدل. فولاه الأمير أبو زكريا عهده سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وأحضر الملأ لذلك وأشهدهم في كتابه، وأوعز بذكره في الخطبة على المنابر مع ذكره. وكتب إليه بالوصية التي تداولها الناس من كلامه ونصها:

اعلم سددك اللّه وأرشدك، وهداك لما يرضيه وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السريرة. إن أول ما يجب على من استرعاه اللّه في خلقه، وجعله مسؤولاً عن رعيته في جل أمرهم ودقه، أن يقدم رضى اللّه عز وجل في كل أمر يحاوله، وأن يكل أمره وحوله وقوته لله، ويكون عمله وسعيه وذبه عن المسلمين، وحربه وجهاده للمؤمنين، بعد التوكل عليه، والبراءة من الحول والقوة إلا إليه. ومتى فاجأك أمر مقلق، أو ورد عليك نبأ مرهق، فريِّض لبك، وسكّن جأشك، وارع عواقب أمر تأتيه، وحاوله قبل أن ترد عليه وتغشيه. ولا تقدم إقدام الجاهل، ولا تحجم إحجام الأخرق المتكاسل.

واعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله، وقصر عن مقاومته رجاله، فمتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء الجيش ورؤسائهم، وذوي التجارب من نبهائهم. ثم الإقدام عليه، والتوكل على اللّه فيما لديه، والإحسان لكبير جيشك وصغيره الكثير على قدره، والصغير على قدره. ولا تلحق الحقير بالكبير فتجري الحقير على نفسك، وتغلطه في نفسه وتفسد نية الكبير وتؤثره عليك، فيكون إحسانك إليه مفسدة في كلا الوجهين، ويضيع إحسانك وتشتت نفوس من معك.

واتخذ كبيرهم أباً وصغيرهم ابناً، واخفض لهم جناح الذل من الرحمة، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على اللّه، إن اللّه يحب المتوكلين.

واتخذ نفسك صغيرة، وذاتك حقيرة، وحقر أمورك، ولا تستمع أقوال الغالطين المغلطين، بأنك أعظم الناس قدراً، وأكثرهم بذلاً، وأحسنهم سيرة وأجملهم صبراً، فذاك غرور وبهتان وزور.

واعلم أن من تواضع لله رفعه اللّه. وعليك بتفقد أحوال رعيتك والبحث عن عمالهم والسؤال عن سير قضاتهم فيهم، ولا تنم عن مصالحهم، ولا تسامح أحداً فيهم. ومهما دعت لكشف ملمة فاكشفها عنهم، ولا تراع فيهم كبيراً ولا صغيراً إذا عدل عن الحق. ولا تراع في فاجر متصرف إلاً ولا ذمة، ولا تقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعية والمتظلمين. ولا تقف عند مراده في أحوالهم.

واتخذ لنفسك ثقاة صادقين مصدقين، لهم في جانب اللّه أوفر نصيب، وفي مسائل خلقه إليك أسرع مجيب. وليكن سؤالك لهم أفذاذ، فأنك متى اقتصرت على شخص واحد في نقله ونصحه، حمله الهوى على الميل، ودعته الحمية إلى تجنب الحق، وترك قول الصدق. وإذا رفع إليك أحد مظلمة، وأنت على طريق، فادعه إليك وسله حتى يوضح قصته لك. وجاوبه جواب مشفق مصغ إلى قوله، مصيخ إلى نازلته ونقله، ففي إصاختك له وحنوك عليه أكبر تأنيس، وللسياسة والرئاسة في نفوس الخاصة والعامة، والجمهور أعظم تأسيس.

واعلم أن دماء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن باللّه واليوم الآخر إلا في حق أوجبه الكتاب والسنة، وعضدته أقاويل الشرعية والحجة، أو في مفسد عائث في طرقات المسلمين وأموالهم جار على غيه في فساد صلاتهم وأحوالهم، فليس إلا السيف فإن أثره عفاء ووقعه لداء الأدمغة الفاسدة دواء، ولا تقل عثرة حسود على النعم، عاجز عن السعي، فإن إقالته تحمله على القول، والقول يحمله على الفعل،ووبال عمله عائد عليك. فاحسم داءه قبل انتشاره، وتدارك أمره قبل إظهاره، واجعل الموت نصب عينيك، ولا تغتر بالدنيا وإن كانت في يديك. لا تنقلب إلى ربك إلا بما قدمته من عمل صالح ومتجر في مرضاته رابح.

واعلم أن الإيثار أربح المكاسب وأنجح المطالب، والقناعة مال لا ينفد. وقد قال بعض المفسرين في قوله عز من قائل: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ إنه النبأ الحسن في الدنيا على ما خلد فيها من الأعمال المشكورة، والفعلات الصالحة المذكورة.فليكفك من دنياك ثوب تلبسه وفرس تذب به عن عباده. وأرجو بك متى جعلت وصيتي هذه نصب عينيك، لم تعدم من ربك فتحاً ييسره على يديك، وتأييداً ملازماً لا يبرح عنك إلا إليك، بمنِّ اللّه وحوله وطوله. واللّه يجعلك ممن سمع فوعى، ولبى داعي الرشد إذ دعا، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل.

تمت الوصية المباركة، فعظم ترشيح الأمير أبي يحيى لذلك، وعلا في الدولة كعبه، وقوي عند الكافة تأميله، وهو بحالة من النظر في العلم والجنوح للدين، إلى أن هلك سنة ست وأربعين وستمائة، فأسى له السلطان، واحتفل الشعراء في رثائه وتأبينه، فكانوا يثيرون بذلك شجو السلطان، ويبعثون حزنه، وعقد العهد

من بعده لأخيه الأمير أبي عبد الله محمد، بحضور الملأ، وإيداع الخاصة كتابهم بذلك في السجل، إلى أن كان من خلافته ما نذكره بعده.

الخبر عن مهلك السلطان أبي زكريا وما كان عقبه من الأحداث

كان السلطان أبو زكريا قد خرج من تونس إلى جهة قسطنطينة للإشراف على أحوالها، ووصل إلى باغاية فعرض العساكر بها، ووافته هنالك الدواودة، وشيخهم موسى بن محمد. وكان منه اضطراب في الطاعة فاستقام. وأصاب السلطان هنالك المرض فرجع إلى قسطنطينة. ثم أبلّ من مرضه، ووصل منها إلى بونة، فراجعه المرض. ولما نزل بظاهر بونة اشتد به مرضه. وهلك لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وستمائة لاثنتين وعشرين سنة من ولايته، ودفن بجامع بونة. ثم نقل شلوه بعد ذلك إلى قسطنطينة سنة ست وستين وستمائة بين يدي حصار النصارى تونس. وبويع إثر مهلكه ابنه وولي عهده أبو عبد الله محمد كما نذكره. وطار خبر مهلكه في الآفاق، فانتقض كثير من أهل القاصية، ونبذوا الدعوة الحفصية، وعطل ابن الأحمر منابره من الدعوة الحفصية. وتمسك بها يغمراسن بن زيان صاحب المغرب الأوسط، فلم يزالوا عليها حيناً من الدهر، إلى أن انقطعت في حصار تلمسان كما نذكره. ولما بلغ الخبر بمهلكه إلى سبتة، وكان بها أبو يحيى بن الشهيد من قبل الأمير أبي زكريا كما نذكره، وأبو عمرو بن أبي خالد، والقائد شفاف، فثارت العامة وقتل ابن أبي خالد وشفاف، وطردوا ابن الشهيد فلحق بتونس. وتولى كبر هذه الثورة حجبون الرنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي.

واتفق الملأ على ولاية العزفي، وحولوا الدعوة للمرتضى، وذلك سنة سبع وأربعين وستمائة، وتبعهم أهل طنجة في الدعوة، واستبد بها ابن الأمير، وهو يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني، وكان والياً عليها من قبل أبي علي بن خلاص. فلما صار الأمر للعزفي والقائد حجبون الرنداحي، خالفهم هو إلى الدعوة الحفصية، واستبد عليهم. ثم خطب للعباسي وأشرك نفسه معه في الدعاء، إلى أن قتله بنو مرين غدراً كما نذكره، وانتقل بنوه الى تونس ومعهم صهرهم القاضي أبو الغنم عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة، انتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلاء، فنزلوا بها وأصهر إليهم بنو الأمير، وارتحلوا معهم إلى تونس. وعرف دين القاضي أبي القاسم وفضله ومعرفته بالأحكام والوثائق، واستعمل في خطة القضاء بالحضرة أيام السلطان، وكان له فيه ذكر.

ولما بلغ الخبر بمهلك الأمير أبي زكريا إلى صقلية أيضاً، وكان المسلمون بها في مدينة بلرم قد عقد لهم السلطان مع صاحب الجزيرة على الاشراك في البلد والضاحية، فتساكنوا حتى إذا بلغهم مهلك السلطان بادر النصارى إلى العيث فيهم فلجأوا إلى الحصون والأوعار، ونصبوا عليهم ثائراً من بني عبس، وحاصرهم طاغية صقلية بمعقلهم من الجبل. وأحاط بهم حتى استنزلهم. وأجازهم البحر إلى عدوته، وأنزلهم بوجاره من عمائرها. ثم تعدى إلى جزيرة مالطة فأخرج المسلمين الذين كانوا بها، وألحقهم بإخوانهم. واستولى الطاغية على صقلية وجزائرها. ومحا منها كلمة الإسلام بكلمة كفره، والله غالب على أمره.

الخبر عن بيعة السلطان أبي عبد الله المستنصر وما كان في أيامه من الحوادث

لما هلك الأمير أبو زكريا بظاهر بونة سنة سبع وأربعين وستمائة كما قدمناه اجتمع الناس على ابنه الأمير أبي عبد الله، وأخذ له البيعة عمه محمد اللحياني على الخاصة وسائر أهل المعسكر، وارتحل إلى تونس فدخل الحضرة ثالث رجب من السنة، فجدد بيعته يوم وصوله وتلقب المستنصر بالله. ثم جدد البيعة بعد حين، واختار لوضع علامته: الحمد لله، والشكر لله. وقام بأعباء ملكه، وتقبض على خاصة أبيه الخصي كافور، كان قهرمان داره، فأشخصه إلى المهدية، وأوعز إلى الجهات بأخذ البيعة على أهل العمالات فترادفت من كل جانب. واستوزر أبو عبد الله بن أبي مهدي، واستعمل على القضاء أبا زيد التوزري وكان يعلم ولد عمه اللحياني الثائر عليه كما نذكره.

الخبر عن ثورة ابن عمه محمد اللحياني ومقتله ومقتل أبيه

كان للأمير أبي زكريا من الإخوة اثنان: محمد وكان أسن منه ويعرف باللحياني لطول لحيته، والآخر: أبو إبراهيم، وكان بينهم من المخالصة والمصافاة ما لا يعبر عنه.

ولما هلك الأمير أبو زكريا، وقام بالأمر ابنه أبو عبد الله المستنصر، واستوزر محمد بن أبي مهدي الهنتاتي، وكان عظيماً في قومه، فأمل أن يستبد عليه لمكان صغره، إذ كان في سن العشرين

ونحوها. واستصعب عليه حجر السلطان بما كان له من الموالي العلوجيين، والصنائع من بيوت الأندلس. فقد كان أبوه اصطنع منهم رجالاً، ورتب جنداً كثروا الموحدين وزاحموهم في مراكزهم من الدولة.فداخل ابن أبي مهدي أخوي السلطان، وبعث عندهما الأسف على ما فاتهما من الأمر، فلم يجد عندهما ما أمل من ذلك. فرجع إلى ابن محمد اللحياني، فأجابه إلى ذلك. وبايعه ابن أبي مهدي سراً، ووعده المظاهرة. ونمي الخبر بذلك إلى السلطان من عمه محمد اللحياني وحذره من غائلة ابنه، وأبلغه ذلك أيضاً القاضي أبو زيد التوزري متنصحاً.

وباكر ابن أبي مهدي مقعده للوزارة بباب السلطان لعشرين من جمادى سنة ثمان وأربعين وستمائة، وتقبض على الوزير أبي زيد بن جامع. وخرج ومشيخة الموحدين معه، فبايعوا لابن محمد اللحياني بداره، واستركب السلطان أولياءه. وعقد للقائد ظافر على حربهم فخرج في الجند والأولياء، ولقي الموحدين بالمصلى خارج البلد، ففض جميعهم، وقتل ابن أبي مهدي وابن وازكلدن وسار ظافر مولى السلطان إلى دار اللحياني عم السلطان فقتله وابنه صاحب البيعة، وحمل رؤوسهما إلى السلطان.وقتل في طريقه أخاه أبا إبراهيم وابنه، وانتهب منازل الموحدين وخربت. ثم سكنت الهيعة وهدأت الثورة، وعطف السلطان على الجند والأولياء وأهل الاصطناع، فأدر أرزاقهم ووصل تفقدهم. وأعاد عبد الله بن أبي الحسين إلى مكانه بعد أن كان هجره أول الدولة، وتزحزح لابن مهدي عن رتبته، وتضاءل لاستطالته، فرجع إلى حاله واستقامت الأمور على ذلك. ثم سعى عند السلطان بمولاه الظافر، وقبحوا عنده ما أتاه من الأفتيات في قتل عميه من غير جرم. ونذر بذلك فخشي البادرة ولحق بالدواودة، وكان المتولي لكبر هذه السعاية هلال مولاه، فعقد له مكانه واستنفر ظافر في جوار العرب طريداً، إلى أن كان من أمره ما كان.

الخبر عن الآثار التي أظهرها السلطان في أيامه

فمنها شروعه في اختطاط المصانع الملوكية، وأولها المصيد بناحية بنزرت. اتخذه للصيد سنة خمسين وستمائة، فأدار سياجاً على بسيط من الأرض قد خرج نطاقه عن التحديد، بحيث لا يراع فيه سرب الوحش، فإذا ركب للصيد تخطى ذلك السياج إلى قوراء في لمة من مواليه المتخصين وأصحاب بيزرته، بما معهم من جوارح بزاة وصقوراً وكلاباً سلوقية وفهوداً، فيرسلونها على الوحش في تلك القوراء، وقد وثقوا باعتراض البناء لها من أمام فيقضي وطراً من ذلك القنيص سائر يومه، فكان ذلك من أفخم ما عمل في مثلها. ثم وصل ما بين قصوره ورياض رأس الطائبة بحائطين ممتدين يجوزان عرض العشرة أذرع أو نحوها طريقاً سالكاً ما بينهما، وعلى ارتفاع عشرة أذرع يحتجب به الحرم في خروجهن إلى تلك البساتين عن ارتفاع العيون عليهن، فكان ذلك مصنعاً فخماً وأثراً على أيام الدولة خالداً.

ثم بنى بعد ذلك الصرح العالي بفناء داره ويعرف بقبة أساراك. وأساراك باللسان المصمودي هو القوراء الفسيحة. وهذا الصرح هو إيوان مرتفع السماك متباعد الأقطار متسع الأرجاء يشرع منه إلى الغرب، وجانبيه ثلاثة أبواب لكل باب منها مصرعان من خشب مؤلف الصنعة ينوء كل مصراع منها في فتحه وغلقه بالعصبة أولي القوة.ويفضي بابها الأعظم المقابل لسمت الغرب الى معارج قد نصبت للظهور عليها عريضة ما بين الجوف إلى القبلة بعرض الأيوان، يناهز عددها الخمسين أو نحوها، ويفضي البابان عن جانبيه إلى طريقين ينتهيان إلى حائط القوراء. ثم ينعطفان إلى ساحة القوراء يجلس السلطان فيها على أريكته مقابل الداخل أيام العرض والفود ومشاهد الأعياد، فجاءت من أضخم الأواوين وأحفل المصانع التي تشهد بأبهة الملك وجلالة الدولة.

واتخذ أيضاً بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف بأبي فهر، يشتمل على جنات معروشات وغير معروشات، اغترس فيها من شجرة كل فاكهة من أصناف التين والزيتون والرمان والنخيل والأعناب، وسائر الفواكه وأصناف الشجر. ونضد كل صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البري، وسمى دوح هذه بالشعراء واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والحوائز وشجر النور والنزه من الليم والنارنج والسرو والريحان، وشجر الياسمين، والخيري والنيلوفر وأمثاله. وجعل وسط هذه الرياض روضاً فسيح الساحة، وصنع فيه للماء حائزاً من عداد البحور، جلب إليه الماء في القناة القديمة، كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنة تسلك بطن الأرض في أماكن، وتركب البناء العادي ذا الهياكل الماثلة والقسي القائمة على الأرجل الضخمة في أخرى، فعطف هذه القناة من أقرب السموات إلى هذا البستان. وأمطاها حائطاً وصل ما بينهما حتى ينبعث من فوهة عظيمة إلى جب عميق المهوى، رصيف البناء متباعد الأقطار مربع القنا مجلل بالكلس، إلى أن يغمره الماء فيرسله في قناة أخرى قريبة الغاية، فينبعث في الصهريج إلى أن يفهق حوضه، وتضطرب أمواجه ترفّه الحظايا عن السعي بشاطئه لبعد

مداه فيركبن في الجواري المنشئات ثبجه، فيتبارى بهن تباري الفتح، ومثلت بطرفي هذا الصهريج قبتان متقابلتان كبراً وصغراً على أعمدة المرمر، مشيدة جوانبها بالرخام المنجد، ورفعت سقفها من الخشب المقدر بالصنائع المحكمة والأشكال المنمقة، إلى ما اشتملت عليه هذه الرياض من المقاصير والأواوين والحوائز والقصور وغرفاً من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، وتأنق في مبانيه هذه واستبلغ وعدل عن مصانع سلفه ورياضهم إلى متنزهاته من هذه، فبلغ فيها الغاية في الاحتفال وطار لها ذكر في الآفاق.

الخبر عن فرار أخيه أبي إسحاق وبيعة رياح له وما قارن ذلك من الأحداث

كان الأمير أبو إسحاق في إيالة أخيه المستنصر، وكان يعاني من خلقه وملكته عليه شدة، وكان السلطان يخافه على أمره وخرج سنة إحدى وخمسين وستمائة لبعض الوجوه السلطانية، ففر الأمير أبو إسحاق من معسكره، ولحق بالدواودة من رياح، فبايعوه بروايا من نواحي نقاوس، واجتمعوا على أمره. وبايع له ظافر مولى أبيه النازع إليهم واعتقد منه الذمة والرتبة، وقصدوا بسكرة وحاصروها، ونادى بشعار طاعتهم فضل بن علي بن الحسن بن مزني من مشيختها. وائتمر به الملأ ليقتلوه، ففر إليه وصار في جملته. ثم بايع له أهل بسكرة ودخلوا في طاعته. ثم ارتحلوا إلى قابس فنازلوها، واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب. وأهم السلطان شأنه، وتقبض على ولده فحبسهم بالقصبة جميعاً. ووكل بهم من يحوطهم وألطف ابن أبي الحسين الحيلة في فساد ما بين الأمير أبي إسحاق ومولاه ظافر، بتحذير ألقاه إلى أخته بالحضرة تنصحاً، فبعث به إلى أخيها، فتنكر لظافر وفارقه، وسار إلى المغرب. ثم لحق بالأندلس، وافترق جموع الأمير أبي إسحاق فلحق بتلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس. ونزل على السلطان محمد بن الأحمر فرعى له عهد أبيه، وأسنى له الجراية. وشهد هنالك الوقائع، وأبلى في الجهاد. ولم يزل السلطان المستنصر يتاحف ابن الأحمر ويهاديه، ويوفد عله مشيخة الموحدين مصانعة في شأن أخيه واستجلاء لحاله، إلى أن هلك. وكان من ولاية أخيه أبي إسحاق ما نذكر لحين مهلكه أجاز ظافر من الأندلس إلى بجاية. وأوفد ولده على الواثق مستعتباً وراغباً في السبيل إلى الحج. وقلق المستولي على الدولة بمكانه، وراسل شيخ الموحدين أبا هلال عياد بن محمد الهنتاتي صاحب بجاية في اغتياله من قصده، فذهب دمه هدراً وبقي ولده عند بني توجين حتى جاؤوا في جملة السلطان أبي إسحاق، وبيد الله تصاريف الأمور.

الخبر عن بني النعمان ونكبتهم والخروج أثرها إلى الزاب

كان بنو النعمان هؤلاء من مشيخة هنتاتة ورؤسائهم، وكان لهم في دولة الأمير أبي زكريا ظهور ومكان، وخلصت ولاية قسطنطينة لهم يستعملون عليها من قرابتهم. واتصل لهم ذلك أول دولة المستنصر، وكان كبيرهم أبو علي وتلوه ميمون وعبد الواحد، وكان لهم في مداخلة اللحياني أثر. فلما استوسق للسلطان أمره، وتمهدت دولته نكبهم وتقبض عليهم سنة إحدى وخمسين وستمائة، فأشخص أبا علي إلى الإسكندرية، وقتل ميمون وانقرض أمرهم. وظهر أثر ذلك بالزاب خارج تسمى بأبي حمارة، فخرج السلطان من تونس وقصده بالزاب، فأوقع به وبجموعه عليه، وسيق إلى السلطان فقتله، وبعث برأسه إلى تونس فنصب بها. وقفل السلطان إلى مقره فنزل بها، وسخط وجوهاً من سليم: من مرداس ودباب، كان فيهم رحاب بن محمود وابنه، فاعتقلهم وأشخصهم إلى المهدية فأودعهم بمطبقها ورجع إلى تونس ظافراً غانماً.

الخبر عن دعوة مكة ودخول أهلها في الدعوة الحفصية

كان صاحب مكة ومتولي أمرها من سادة الخلق وشرفائهم ولد فاطمة، ثم من ولد ابنها الحسن صلوات الله عليهم أجمعين، أبو نمي وأخوه إدريس، وكانوا قائمين بالدعوة العباسية منذ حولها إليهم بمصر والشام والحجاز صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي، وأمر الموسم وولايته راجعة إليه، وإلى بنيه ومواليه من بعده إلى هذا العهد. وجرت بينهم وبين الشريف صاحب مكة مغاضبة وافقها استيلاء الططر على بغداد، ومحوهم رسم الخلافة بها، وظهور الدعوة الحفصية بإفريقية، وتأميل أهل الآفاق فيها وامتداد الأيدي إليها بالطاعة. وكان أبو محمد بن سبعين الصوفي نزيلا بمكة، بعد أن رحل من بلده مرسية إلى تونس، وكان حافظاً للعلوم الشرعية والعقلية، وسالكاً مرتاضاً بزعمه على طريقة الصوفية. ويتكلم بمذاهب غريبة منها، ويقول برأي الوحدة كما ذكرناه في ذكر المتصوفة الغلاة، ويزعم بالتصوف في الأكوان على الجملة، فأرهق في عقيدته، ورمي بالكفر أو الفسق في كلماته،

وأعلن بالنكير عليه والمطالبة له شيخ المتكلمين بأشبيلية. ثم بتونس أبو بكر بن خليل السكوني، فتنمر له المشيخة من أهل الفتيا وحملة السنة وسخطوا حالته.

وخشي أن تأسره البينات فلحق بالمشرق ونزل مكة، وتذمم بجوار الحرم الأمين، ووصل يده بالشريف صاحبها. فلما أجمع الشريف أمره على البيعة للمستنصر صاحب إفريقية، داخله في ذلك عبد الحق بن سبعين وحرضه عليه، وأملى رسالة بيعتهم، وكتبها بخطه تنويهاً بذكره عند السلطان والكافة، وتأميلاً للكرة ونصها:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على الأسوة المختار سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً. وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً. هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

هذا النوع من الفتح - أعني المبين - هو من كل الجهات داخل الذهن وخارجه، وهو الذي خصت به مكة، وهو أعظم فتح نذر في أيام الدهر والزمان الفرد منه خير من أيام الشهر، وبه تتم النعمة، ويستقيم صراط الهداية، وتحفظ النهاية، وتغفر ذنوب البداية، ويحصل النصر العزيز، ونور السكينة، وتتمكن قواعد مكة والمدينة.وكلمة الله عاملة في الموجودات بحسب قسمة الزمان. ثم لا يقال: إنها متوقفة على شيء، ولا في مكان دون مكان.

وهذا الفتح قد كان بالقصد الأول والقدر الأكمل، للمتبوع الذي أفاد الكمال الثاني كالسبع المثاني، فإنه هو الإسوة ﷺ، وكل نعمة تظهر على سعيد ترجع إليه مثل التي ظهرت على خليقته وعلى يديه. وإن كانت نصبة مولده ﷺ ورسالته تقتضي ختم الأنبياء بهذا القرن الذي نحن فيه، وأمامنا فيه هو ختم الأولياء.فمن فتح عليه بفتح مكة تمت له النعمة، ورفعت له الدرجة، وضفت عليه الرحمة. ومن وصل سلطانه إليها فقد هدي الرشد وسار على صراطه، ورجح ميزان ترجيحه على أقرانه وأرهاطه. ومن حرم هذا فقد حرم من ذلك، والأمر هكذا.

وسنة الله كذلك، وصلى الله على رسوله الذي طلع المجد من مدينته بعدما أطلعه من بلده، ورضي الله عن خليفته المنتخب من عنصر خليفة عمر صاحب نبيه، ثم من عمر صاحبه ووليه والحمد لله على نعمه.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد ولد آدم محمد ﴿حم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. قد صح أن هذه الليلة فيها تنزّل الآيات وترتقب البينات، وفيها تخصيص القضايا الممكنة وأحكام الأكوان ويفرق الأمر، ويفسر الملك الموكل بقيض الأرواح بحمل الآجال في الأزمان، وفيها تقرر خطة الإمامة والملك، وتقيض الإمامة بالهلك، وهي في القول الأظهر في أفضل الشهور، وفي السابع والعشرين منه كما ورد في الحديث المشهور. ثم هي في أم القرى وفي حرمها تقدر بقدر زائد، ويعم فضلها إلا للحائد عن الفائد، وإنما قلت هذا ورسمته ليعلم من وقف على الخطبة التي اقتضبتها، والليلة التي فيها قرأتها، أنها من أفضل المطالب التي قصدت، وأن القرائن التي اجتمعت فيها ولها، زادت على الفضائل التي لأجلها رصدت، وأيضاً تأخر فيها مجد إمام عن إمام، وبعد مجد إمامه وراء إمام وهو وراء الإمام، ورحمت فيها نفس خليفة عبرت وتلقب وعظمت فيها ذات خليفة تحيي التي سلفت، فهذه نعمة بركة ينبغي أن يقرر حدها ويتحقق مجدها، ولا يقدر قدرها فإنها ليلة قدر، ليلة قدرها.

والحمد لله حمداً واصلاً: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على واحد الله في عنايته سيدنا محمد ﴿طسم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ الحق الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته، وفي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل والمتعارف من عادته التي ربطها بحكمته التي تعدل ولا تعدل، إن لكل هداية نبوية ضلالة فرعونية، وكذا الحال في الأولياء، ومع كل مصيبة فرج، ولا ينعكس الأمر في الأتقياء. ولكل ظلم ظالم متجبر قهر قاهر متكبر، وعند ظهور ظفر المبطل يظهر قصد المحق المفضل. وفي عقب كل فترة أو فيها كلمة قائم بحق يغلب لا يغلب، وفي كل دور أو قرن إمامة تطلب بشخصها ولا تطلب، وكواكب الكفر إذا طلعت على أفق الإيمان فيه نكب آفله، وكلمة الله إذا عورضت تكر معارضتها قافلة. وإنما ذكرت ذلك بعد الذكر المحفوظ ليتذكر بالآيات الظاهرة إلى الآيات القاهرة. وليعلم كل مؤمن أن كلمة الله متصلة الاستصحاب والسبب، وعاملة في الأشياء مع الأزمان والحقب، وأن رجال الملة والحنيفية أعلى المنازل والرتب. ولذلك يقول في نوع فرعون الأذل، ونوع موسى الأجل: أشخاصها متعددة، وأكوانها متحدة، والله غالب على أمره. وقد قيل: إن الملة الحنيفية المضرية تنصرها السيرة العمرية المحمدية المستنصرية.

ولعل الذي أقام الدين وأطلعه من المشرق وأتلفه منه،

ويجيره من المغرب ولا ينقله عنه، فينبغي لمن آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسوله، وبما يجب كما يجب أن لا يتغير قصده ولا يتوقف عند سماع المهلكات حمده، قد قيدت أقدام قوم بشرك الشرك، وحملهم الضجر إلى الهلك بطاعة الترك وكع كيد الكنود هلك كنعان وكل بصر بصيرته، ولبس لهم الذل بالعرض، وجعل مصيبة الدين تفتته مع جحوده لسلطان السنة والفرض. وأما هامان المرتدين فليس هم بالمؤمنين، وعلا فرعون الشرّ في الأرض، واللّه يمن على المستضعفين في الأرض بنصر من عنده، ويهلك المفسدين بجند من رفده. وينبغي أو يجب أن نضرب عن ذكر كائنة مدينة السلام، فإنها تزلزل الطبع وتحمل الروح إلى ساحة الشام أو تفزع في صلاة كسوف شمس سرورها إلى التسليم بالاستسلام وتكبر أربع تكبيرات على الإنس ويودع بعد ذلك وعد وسلام، وينتظر قيامه بقيام أمر محيي الدين والإسلام، والحمد لله على كل حال.

بسم اللّه الرحمن الرحيم وصلى اللّه على الذي أعجزت خصاله العد والحد، مسلم والطبقة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حيثاً لا يعده عداً». وقال ﷺ: «يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعد». زاد أبو العباس الهمداني، وأشار بيده إلى المغرب.

وذكر بهاء الدين التبريزي في ملحمته التي زعم أنه لا يثبت فيها من الأخبار إلا ما صححته روايته، ولا يذكر من الأحكام المنسوبة إلى الصنائع العملية إلا ما أبرزته درايته. ولا يعتبر من الأعلام الدينية إلى ما أدركته هدايته. قال في الترجمة الأولى: إذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد، ويستقيم ملك المغرب وتبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند.

ذكرت هذا ليعلم المقام أيده اللّه أنه هو المشار إليه، وأنه الذي يعول في إصلاح ما فسد بحول اللّه عليه. ومن تأمل قوله ﷺ: «يكون في آخر الزمان» الحديث، تبين له ما أردناه وذلك يظهر من وجوه، منها: أن الخليفة المذكور لم يسمع به فيما تقدم، ولا ذكر في الدول الماضية، ولو ذكر لرددنا القول به وأهملناه لأجل تقييده بآخر الزمان.

والثاني: أن آخر الزمان الذي يراد به ظهور الشروط المتوسطة، وأكثر العلامات المنذرة بالساعة هو هذا بعينه.

الثالث: لا خليفة لأهل الملة في وقتنا هذا غير الذي قصدناه.

وهذه أقطار الملة منحصرة ومعلومة لنا من كل الجهات، والذي يشاركه في الاسم ويقاسمه في إطلاقه فقط لا يصدق عليه، إذ هو أضعف من ذرة في كرة، ومن نملة في رملة. وأقفر من قصد طالب السراب، ويده مع أيبس من التراب فصح بالسبر والتقسيم، وبتصفح الموجودات والأزمان والدول والمراتب والنعوت إنه هو لا شريك له فيها، والمصحح لذلك كله، والذي يصدق وينطبق عليه مدلول الحديث كرمه الذي يعجز عنه الحد، ولا يتوقف فيه العد. وهذا خليفة الملة كذلك، وهذه دلائله هي أوضح من نار على علم. وهذه خصاله شاهدة له بفضائل السيف والقلم، وهذه خزائنه تغلب الطالب وتعجز عن الدافع، وهذه سعوده في صعوده، وهذه متاجر تعويله على اللّه رابحة وهذه أحواله بالكلية صالحة، وهذه سعايته ناجحة. ثم هذه موازين ترجيحه راجحة، والحمد لله كما يجب. وما النصر إلا من عند اللّه وصلى اللّه على عبده محمد بن عبد اللّه إنه من بكة، وإنه للحق، وإنه بسم اللّه الرحمن الرحيم، وإنه إلى خضر لا تحصر الخضرة، ويحدر فيها الندر، ويحافظ على سنة الرؤوف الرحيم. ﷺ.

أما بعد فبهداهم اقتداه، الحمد لله الذي أحسن بمقام الإحسان وتمم النعمة، وبين لمن تبين علم البيان، وحكم لمن أحكم الحكمة وسبقت في صفات أفعاله صفة الرحمة وذكر الهداية في كتابه بعد ذكر النعمة، هو الرؤوف بالبرية وهو الرحيم والحفي بالحنيفية، وهو القاهر الماضي المشيئة الذي يقبض ويبسط المشيئة. شهد له بالكمال الممكن الذي أبرزه وخصصه وعرفه بالجلال من يسره لذلك وخلصه. هو الذي استعمل عليها من اختاره لإقامة النافلة والفرض، وأعمى من أهلها من توسل له بنية العرض وأعتق العقاب وسر العقاب وأهمل العقاب بطاعة من يستعمر به الربع المعمور، وأنعم على المستضعفين في الأرض بإمام بحر المجد في بحر خصاله يعد بعض البعض.

سنته محمدية، وسيرته بكرية وسريرته علوية، وسلالته عمرية. فهذه ذرية وأنواع مجد بعضها من بعض، بل هذه خطوط فصل الطول فيها مثل العرض. عرف بالرئاسة العالية، ووصف بالنفاسة السالية، وشهد له بذلك الخاص والعام ونزه من النقائص. النزيه النفس، ومن نزهه في سلطانه علمه العام. صلى اللّه على الأسوة الرؤوف بالمؤمنين، سيدنا محمد الذي أنزل عليه التنزيل، وكتب اسمه في صحيح القصص والنصوص، وبنى اللّه أئمة أمته الذين شبههم بالبنيان المرصوص، وعلى آله وصحبه الكرام البررة الذين اصطفاهم وطهرهم، ثم أيدهم فطهروا الأرض من الكفرة الفجرة. وأخرج من ظهورهم ذرياتهم، بالدين

أظهرهم، ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم.

ومنهم الخليفة المستنجد باللّه المفضل على الناس، ولكن أكثرهم، ورضي اللّه عنهم وعنه، وضاعف للمحب الثواب الدائم منهم ومنه. وبعد خدمة يتقدم فيها بعد الحمد والتصلية والدعاء للدولة الدالّه على قبول الدعوة أصلية، تحية بعضها مكية وكلها ملكوتية، وروضة ريحها حضرة القدس ونشرها يدرك فيه صحبة النفث، روح القدس. وتكبر عن أن تشتبه بالعنبر والند والورد وأزهار الربى والرياض. لأن المفارق للمادة مفارق لغير المفارق لها مفارقة السواد للبياض. ثم هي مع هذا واجبة القصد عذبة الورد، تذكر الذاكر الذكي بعرفها الذكي لمدركات جنة الخلد والنعيم. وفي مثل هذه فليتنافس المتنافسون.

وتدرك النفس النفيسة لذة النعيم لأنها ظاهرة طيبة، كريمة صيّبة، واقفة على حضرة الملك والسلطان، ومدار فلك النسك ومستقر الإمامة والجلالة، ومعقل الهداية والدلالة، وأصل الأصالة ودار المتقين، وبيت العدالة وحزب اليقين. وإنسانها الأعظم معلي الموحدي على الملحدين وقائم الدين وقيمه، ومقر الإسلام ومقدمه، القائم بالدعوة العامة بعد أبيه إمام المجد والفخر، ثم الأمة الذي إذا عزم أوهم بتخصيص مهمل، اتخذ في خلده ما هو بالفعل مع ما هو بالقوة، وأن يعرض له في طريق إعراضه الممكن العسير يسره سعده وساعده ساعد القوة، وإن سمع بالحمد في جهة حدبه بخاصة خصاله بعد مجد الأبوة وفخر النبوة، لا يذكر معه ولا عنده صعب الأمور إلا بالضد، فإنه مظهر العناية الإلهية، ومرآة الجد والجد. هو علم العلم ثم هو محل الحلم، اسمه متوحد في مدلوله كالاسم العلم، وعهده لا يتوقف على اللسان ولا على رسوم القلم.

كتب في السماء وسمع به في الكرسي وكذلك العرش، وما هنا إنما هو مما هنالك فهو الأعلى. وإن كان في الفرش هو شامخ القدر ظاهر الفضل شديد البطش. ثم هو مما ظهر عليه علم أن الشجاعة لم تنتقل من الإنسان إلى الأسد. ولا يقال هذا بحر العلم فينتقل من الطبيعة إلى بحر الخلد، لأن ذلك كله فيه بوجه أكمل وبه وعليه، وفي يديه بنوع أفضل، بلغ ذروة النهاية المخصوصة، بالمطالب العالية، وحصل في الزمان الفرد ما حصله الفرد في الأيام الخالية. وبلغ في تبليغ حمده بصفاته ما بلغ الأشد عمره ونال غاية الإنسان، ويتعجب منه في القيامة عمره، ويسره أمره طلعت سعوده على مولده، ومطالعه كلمة مجده لأحكام الفلك وطالعه. إن حرر القول فيه وفهم شأنه، قيل: هو فوق الأطلس والمكوكب، وإن قيس سعده بالكمالات الثلاثة كان كالبسيط مع المركب.

أي غاية تطلب بعد طاعته، وأي تجارة تنظر مع بضاعته، له الحمد بيده الملك والأمانة، بل له الكل بفضل اللّه وفيه المقصد والسلامة، لا بل له الفتح المبين وتتميم النعمة والهداية ونور السكينة، وفيه الإمارة والعلامة. منبر مكة بإزاء بيت بكة خطب بخطبته، والذي ذهب بالمدينة يطلب فلعله يسعفه في خطبته أفئدة السر تطير إذا سمعت بذكره، والمهندات البتر تلين لباس ساعده. ويقول طباع أربابها بشكره دولة التوحيد، توحدت له إذ هو واحدها الأوحد، وسياسة التسديد تحكمت له فهو مدبرها الأرشد. ومع هذا كتابته أهملت صيت الصادين، وكورت شمس الفتح، ثم الفتح والصادين.

وكذلك الثلاثة الذين من قبلهم لا نذكر معه الأديب حبيب في رد الإعجاز على الصدور، فإنه الذي يعتبر في ذلك والذي يصدر عنه واقع في الصدور، وأفعل في طباع المهرة وفي نفوس الصدور يتأخر عن شعره شعر الرجلين. وبعده نذكر الطبقة، ثم شعراء نجد، والخبب والجبلي والولد بعده والهذلي، والمؤكد هو تقديمه في المغرب من ذلك. والهذلي علوم الأدب، الخمسة تممها وسادسها وسابعها زاده من عند نفسه. وخليل النحو لو حضر عنده كان خليله في تحصيل نوعه وجنسه، والفارسي تلميذه ثم الآخر بعده والأخفش الكبير ثم الصغير ما ضرب لهم من قبل في مثله بنصيب. وأقام أئمة النحو تنحو نحوه بنحو ينحوه نحو نحوه، ثم لا يكون كالمصيب. وكل كوفي بل كل بصري يحب الظهور إذا سمع به اختفى، والمنصف منهم هو الذي بنحوه اكتفى. أقيسة الفقه الثلاثة هذبها وحصلها، وأصوله كما يجب علمها وفصلها. والمسائل الطبولية تكلم على مفصلها ومجملها، وسهل الصعب من مخصصها ومهملها.

وإن فسر كتاب اللّه المعجز عجز أرباب البلاغة بإعجاز بعد إعجازه، وإن تعرض لعوارض ألفاظه أظهر العجب في اختصاره وإيجازه. وإن شرع في شرح قصصه وجدله، وفي تفسير ترغيبه وترهيبه. ومثله يبصر الناظر فيه والمستمع لما لم يسمع وما لم يبصر، فإنه سلك بقدم كماله وتكميله على قنطرة بعد لم تعبر ويضطر الزعيم به بتحصيله إلى تجديد قنطرة أخرى، وبعد هذا يفتقر في بيانه إليه في الأولى وإلى اللّه في الأخرى. وإن تكلم على متشابهه ومحكمه علم الاصطلاح. ثم بيان النوع للخبير به وبمحكمه، وكذلك القول على الناسخ والمنسوخ والوعد والوعيد. وإن يشاء طوّل في مطولاتهم واختصر من مختصراتهم، فبيده الزيادة وضد المزيد، وأما تحرير أمره ونهيه وأسراره ورقائقه، وفواتح سوره وحقائقه. والذي يقال: إنه لا من جنس الذي

يكتسب والذي هو أعظم من الذي يرد، وإليه الأحوال تنتسب فهو الشارح لها والخبير بها، وإن تأخر. وينوع في ذلك ويزيد غير الأول وإن تكرر.

وأما علوم الحديث وأنواعها السبعة فهو بعلمها، وصناعته بجملتها للعلماء يعلمها. والوراقة والضبط والخط وقفت عليه مهنة غايتها، وحمله الأمر علوم الشريعة كلها عرفها ووعاها ورعاها حق رعايتها. وكل العلوم العقلية والنقلية ورجالها على ذهنه الطاهر من دنس النسيان، والمقامات السنية المستنزلات العلوية أدركها بعد التبيان. فمن أراد أن يمدحه ويعدل عن إطلاق القول فقد اقترف أعظم الذنب. ومن ذكره ولم يتلذذ بذلك فقد جاء بما ينضح حمله الخبب، ونعوت جمالها يمنع عن إدراكها نور المتصل، وحضرة جلاله محفوظة بجدها وجدها وقاطعها المنفصل. ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء، قل اللّهم مالك الملك، اللّه أعلم حيث يجعل رسالاته.

هذه كلها آياته. والرابعة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ فإنها هباته إن حدث المحدث بكرمه يقول: قال رسول اللّه ﷺ: «يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده، ونصر اللّه إذا جاء لا يرده، وفتحه من ذا الذي عن السعيد يصده»، والمؤرخ يتذكر بتذكره الكلمات الهذلي من حيث المطالب، إذ قال، وقد سئل عن الإمام علي بن أبي طالب وهو الإمام وفيه أربعة وهو واحدها حتى في رفع التشبيه وقطع السبب، العلم والحلم والشجاعة وفضل الحسب، يسر بحكمته ويغتبط بها متى يتبع جملته، الباحث الحكيم ولا يشعر بشعره إذا تصفح نعوته الشاعر العليم، وينشد طبعه في الحين والوقت والحزة ويخرج الحروف من مخارج الهمزة.

شهدت لقد أوتيت جامع فضله وأنت على علمي بذاك شهيد
ولو طلبت في الغيب منك سجية لقد فر موجود وعز وجود

أدام اللّه له المجد الذي يسلك به على النجدين، وحفظ عليه مقامه الذي لا يحتقر فيه إلا جوهر النقدين، وبسط له في العلم والقدرة، وبارك له في نصيب النصرة، وجهز به العسرة، ورد به على الشرك والفتن الكرة، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعاً جميلاً، ولطفاً خفياً جليلاً. وكفاه الشر المحض وخير الشرين، كما كشف له عن الخير المحض وعلم السرين، وأيده بروح منه في السر والسريرة، وحفظه في حركاته وسكناته من الصغيرة والكبيرة. وجعل كلمته غالبة للضد والجند، وبلغ صيته الجزائر والبربر، ثم إلى السند والهند. وخلد ملكه وسلم فلكه، ورفعه على أوج المجد بحده الطويل العريض. وأهبط عدوه من الشرف الأعلى إلى الحضيض.

وفتح اللّه به باب الفتح في المشرق والمغرب بعد فتح الثغور، وشرح بنصره وفتحه أوساط الصدور، وما استنبطته الضمائر من نفثات الصدور وجبر به كسر الظفر، ووصل به ما انقطع من الأسباب. وعصم جنده من ضد الدنف الأنف، وردهم إلى ردم الأبواب وقدس كلمته بعد الحرمين في البيت المقدس، وسلك به مسالك السبل في المقبل والمعرس. وبعد هذا فهذه أدعيتنا، بل هذه أوديتنا، وهذه مسائلنا بل هذه وسائلنا، وهذه تحية حياها ذو الفطرة السليمة، وهذه خدمة يفتخر بها طبيعة النفس العليمة.و استنبت فيها الكتاب واستثبت فيها الجواب، والموجب لإصدارها محبة، أصلها ثابت وفرعها في العلى، وحفز عليها حافزان:شوق قديم، ورعاية الآخرة والأولى، بل الأمر الذي هو في خير الأمور من أوسطها، وإذا نظم في عقد الأسباب الموجبة لهذه الخطابة يكون في وسطها، فإنه يحكي أحكام الشأن والقصة، ويعلم المقام أيده اللّه الذي حصل له في حرم اللّه وحرم نبيه من النصيب والحصة، وفيه ينبغي أن تذهب الألفاظ وتلحظ عيون الأغراض ويفتح المقاصد ويحمل على جواهر الكمالات كالأعراض، فمن ذلك ذكر الملة التي كملت وكبرت، والأخرى التي كانت ثم غمرت وصغرت. والمنبر الذي صعد خطب خطبته على الخطيب، وعرج إلى سماء السمو وهو على درجه، والآخر الذي درج عنه خطيبه وضاق صدره الأمر حرجه، وقرئت سورة الإمام بحرف المستنجد المستبصر، لا بحرف المستعصم بن المستنصر.

بسط القول وأطلق ترجمة عبد اللّه بعدما قبضه الذي أمات وأحيا، وقبض على مقامه ودفع للإمام محمد بن يحيى، وكان ذلك في يوم وصول الخبر بمصيبة الاختبار، ثم في ليلة الآيات والاعتبار. ومن ذلك أيضاً بنعمة الحمد والدعاء الظاهر القول والمقبول في الحرم الشريف، وانقياد الذي ظهر على طائفة الحق والسيد والشريف. ومن ذلك صعود علم الأعلام على جبل معظم الحج ومقر وفوق الحاج، ووقف به المتكلم في مقام من كانت له سقاية الحاج، وذكر كما يجب بما يجب في موقف الإمام مالك، وعرف هنالك أنه الإمام والمالك لكل مالك، وتعرف نكرة دعوة التوحيد بتخصيص خصوصية المخصوص بعرفة، وتعارف بها من تعارف معه هناك ونعم التعارف والمعرفة.

ثم ذكر عند المشعر الحرام وفي جهات حدود حرم المسجد الحرام، وعظم اسمه بعد ذكر اللّه وذكر الوالدين، وطلع الذاكر بالتركيب إلى الجدين الساكنين في الخلد والخالدين. فلما وصل الحجيج إلى عقبة الجمرات، ذكر مع السبع الأولى سبع

مرات.وكذلك عند الركوع في مسجد الخيف، وكل كلمات تمجيده بالكم والكيف، وعند التوجه من هناك ويوم النفر قررت آياته المذكورة في كتاب الجفر.ثم جدد الذكر حول البيت العتيق بالحمد والشكر. فلما وصل العلم بانتقال بيت الملك والسلطان من بغداد في شهر رمضان، أظهر الخفي المكنون فكان ذلك مع التسبيح والقرآن، وكان الخادم في الزمان الأول وفي الذاهب ينتظر الخطفة من نحو عراق والمغرب. والآن وجد نفسها من نحو اليمن إقليم الأعراب والعرب.

والذي حمل على هذا كله طاعة كاملة وغبطة عاملة، والله تعالى بفضله يعصمه من كيد المعاند، فإنه في إظهار دعوة التوحيد كالمجاهد والمكابد، ومعاد التحية على المقام الأرفع والمقر الأنفع، وعلى خدام حضرته العلية، وأرباب دعوته الجلية وأنواع رحمته تعالى وبركاته. والحمد لله كما يجب وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وسلم. كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف، والحمد لله رب العالمين.

ولما وصلت هذه البيعة استحضر لها السلطان الملأ والكافة، وقرئت بمجمعهم وقام خطيبهم القاضي أبو البراء في ذلك المحفل فاسحنفر في تعظيمها والإشادة بحسن موقعها، وإظهار رفعة السلطان ودولته بطاعة أهل البيت والحرم ودخولهم في دعوته. ثم جأر بالدعاء للسلطان وانفض الجمع فكان من الأيام المشهودة في الدولة.

الخبر عن الوفود من بني مرين والسودان وغيرهم

كان بنو مرين كما قدمناه قد تمسكوا بطاعة الأمير أبي زكريا ودخلوا في الدعوة الحفصية، وحملوا عليها من تحت أيديهم من الرعايا مثل: أهل مكناسة وتازى والقصر، وخاطبوا السلطان بالتمويل والخضوع. ولما هلك السلطان وولي ابنه المستنصر، وقارن ذلك ولاية المرتضى بمراكش. ثم كان بينهم وبين المرتضى من الفتنة والحرب ما ذكرناه ونذكره، فاتصل ذلك بينهم وبعث الأمير أبو يحيى بن عبد الحق بيعة أهل فاس، وأوفد بها مشيخة بني مرين على السلطان وذلك سنة اثنتين وخمسين وستمائة، فكان لها موقع من السلطان والدولة. وقابلهم من الكرامة كل على قدره، وانصرفوا محبورين إلى مرسلهم. ولما هلك أبو يحيى بن عبد الحق، واستقل أخوه يعقوب بالأمر أوفد إليه ثانية رسله وهديته، وطلب الإعانة من السلطان على المرتضى وأمر أهل مراكش على أن يقيموا بها الدعوة له عند فتحها. ولم يزل دأبهم هذا إلى أن كان الفتح.

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان، وهو صاحب برنو مواطنه قبلة طرابلس، وكان فيها الزرافة وهو الحيوان الغريب الخلق المنافر الحلى والشيات، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجفلى من أهل البلد حتى غص بها الفضاء، وطال إعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوته، وأخذها من كل حيوان بشبه.

وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة وصل دون الرنك أخو ملك قشتالة مغاضباً لأخيه، ووفد على السلطان بتونس فتلقاه من المبرة والحباء بما يلقى به كرام القوم وعظماء الملوك، ونزل من دولته بأعز مكان. وكان تتابع هذه الوافدات مما شاد بذكر الدولة ورفع من قدرها.

الخبر عن مقتل ابن الأبار وسياقة أوليته

كان هذا الحافظ أبو عبد الله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وكان علامة في الحديث ولسان العرب، وبليغاً في الترسيل والشعر. وكتب عن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ببلنسية. ثم عن ابنه السيد أبي زيد. ثم دخل معه دار الحرب حين نزع إلى دين النصرانية، ورجع عنه قبل أن يأخذ به. ثم كتب عن ابن مردنيش. ولما دلف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث زيان بوفد بلنسية وبيعتهم إلى الأمير أبي زكريا، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ، فحضر مجلس السلطان وأنشد قصيدته على روي السين يستصرخه، فبادر السلطان بإغاثتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات والكسى فوجدهم في هوة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية.و رجع ابن الأبار بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، ورشحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدة. ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغساني لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي، وكان آثر عنده من الخط المغربي، فسخط ابن الابار أنفة من إيثار غيره عليه، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها فجاهر بالرد ووضعها استبداداً وأنفة، وعوتب على ذلك فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وأنشد متمثلاً.

واطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

فنمي ذلك إلى السلطان فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه عد فيه من عوتب من الكتاب، وأعتب. وسماه أعتاب الكتاب. واستشفع فيه بابنه المستنصر فغفر السلطان له وأقال عثرته، وأعاده إلى الكتابة.ولما هلك الأمير أبو زكريا رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس وأهل تونس، وكان في ابن الأبار أنفة وبأو وضيق خلق، فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه، فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولايتها عليه.

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية لحقد قديم، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية نزل ببنزرت، وخاطب ابن أبي الحسن بغرض رسالته، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم. ونبه على ذلك فاستضحك وقال: إن أباً لا تعرف حياته من موته لأب خامل. ونميت إلى ابن أبي الحسين فأسرها في نفسه، ونصب له إلى أن حمل السلطان على إشخاصه من بجاية. ثم رضي عنه واستقدمه ورجعه إلى مكانه من المجلس.و عاد هو إلى مساءة السلطان بنزعاته إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواثق وساءل عنه السلطان فاستبهم، فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها، فاتهم بتوقع المكروه للدولة والتربص بها كما كان أعداؤه يشنعون عليه، لما كان ينظر في النجوم فتقبض عليه. وبعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع، وألقى أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أولها:

طغى بتونس حلف سموه ظلماً خليفة

فاستشاط لها السلطان وأمر بامتحانه، ثم بقتله قعصاً بالرماح، وسط محرم من سنة ثمان وخمسين وستمائة، ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه.

الخبر عن مقتل اللياني وأوليته وتصاريف أحواله

أصل هذا الرجل من ليانة قرية من قرى المهدية، مضمومة اللام مكسورة الثانية، وكان أبوه عاملاً بالمهدية، وبها نشأ ابنه أبو العباس. وكان ينتحل القراءة والكتاب حتى حذق في علوم اللسان. وتفقه على أبي زكريا البرقي، ثم طالع مذاهب الفلاسفة، ثم صار إلى طلب المعاش من الإمارة فولي أعمال الجباية. ثم صودر في ولايته على مال أعطاه وتخلص من نكبته، فنهض في الولايات حتى شارك كل عامل في عمله بما أظهر من كفايته وتنميته للأموال حتى قصر بهم وأديل منهم.

وكان الكثير منهم متعلقاً من ابن أبي الحسين رئيس الدولة بذمة خدمة، فأسفه بذلك وأغرى به بطانة السلطان ومواليه، حتى سعوا به عند السلطان، وأنه يروم الثورة بالمهدية، حتى خشن له باطن السلطان. فدخل عليه ذات يوم أبو العباس الغساني فاستجازه السلطان في قوله:اليوم يوم المطر، فقال الغساني: ويوم رفع الضرر، فتنبه السلطان واستزاده فأنشد:

والعام تسعة كمثل عام الجوهري.

فكانت إغراء باللياني، فأمر أن يتقبض عليه وعلى عدوه ابن العطار، وكان عاملاً. وأمر أبا زيد بن يغمور بامتحانهما فعذبهما حتى استصفى أموالهما، والميل في ذلك على اللياني. وكان في أيام امتحانه يباكر موضع عمله. ثم نمي عنه أنه يروم الفرار إلى صقلية، وبوحث بعض من داخله في ذلك فأقر عليه، فدفع إلى هلال كبير الموالي من العلوج فضربه إلى أن قتله، ورمى بشلوه إلى الغوغاء فعبثوا به وقطعوا رأسه، ثم تتبع أقاربه وذووه بالنكال إلى أن استنفذوا.

الخبر عن انتقاض أبي علي الملياني بمليانة على يد الأمير أبي حفص

كان المغرب الأوسط من تلمسان وأعمالها إلى بجاية في طاعة السلطان منذ تغلب أبوه الأمير زكريا عليه، وفتح تلمسان وأطاعه يغمراسن وكان بين زناتة بتلك الجهات فتن وحروب شأن القبائل اليعاسيب، وكانت مليانة من قسمة مغراوة بني ورسيفان، وكانوا أهل بادية.وتقلص ظل الدولة عن تلك الجهات بعض الشيء. وكان أبو العباس الملياني من مشيخة مليانة صاحب فقه ورواية وسمت ودين، رحل إليه الأعلام وأخذ عنه العلماء، وانتهت إليه رئاسة الشورى ببلده. ونشأ ابنه أبو عليه علي خلواً من الخلال متهالكاً في الرئاسة متبعاً غواية الشبيبة، فلما رأى تقلص ظل الدولة وفتن مغراوة مع يغمراسن ومزاحمته لهم، حدثته نفسه بالاستبداد فخلع طاعة آل أبي حفص ونبذ دعوتهم، وانبرى بها داعياً لنفسه. وبلغ الخبر إلى السلطان فسرح إليه أخاه الأمير أبا حفص، ومعه الأمير أبو زيد بن جامع، ودن الرنك أخو الفنش، وطبقات الجند. فخرج من تونس سنة تسع وخمسين وستمائة وأغذ السير إلى مليانة فنازلها مدة، وشد حصارها حتى اقتحموها غلاباً. وفر أبو علي المليـاني ولحق ببني يعقوب من آل العطاف أحد

شعوب زغبة فأجاروه وأجازوه الى المغرب الأقصى، إلى أن كان من خبره ما نذكره بعد.

ودخل الأمير أبو حفص مليانة ومهد نواحيها وعقد عليها إلى ابن منديل أمير مغراوة فملكها مقيماً فيها لدعوة السلطان شأن غيرها من عمالات مغراوة. وقفل الأمير أبو حفص إلى تونس، ولقيه بطريقه كتاب السلطان بالعقد له على بجاية وإمارتها، فكره ذلك غبطة بجوار السلطان. وترددت في ذلك رغبته فأديل منها بالشيخ أبي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي، وعقد له على بجاية. ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة إلى أن كان من خلافته ما نذكر بعد. وهلك شقيقه أبو بكر بن الأمير أبي زكريا ثانية مقدمه إلى تونس سنة إحدى وستين وستمائة، فتفجع له الخليفة والقرابة والناس وشهد السلطان جنازته، والبقاء لله وحده.

الخبر عن فرار أبي القاسم بن أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد وخروجه في رياح

كان أبو القاسم بن أبي زيد هذا في جملة ابن عمه الخليفة، وتحت جرايته، وأبوه أبو زيد هو القائم بالأمر بعد أبيه الشيخ أبي محمد. ولحق بالمغرب. وجاء أبو القاسم في جملة الأمير أبي زكريا، وأوصى به ابنه إلى أن حدثته نفسه بالتوثب والخروج.وخامره الرعب من إشاعة تناقلها الدهماء، سببها أن السلطان استحدث سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة، حاكى بها سكة الفلوس بالمشرق تسهيلاً على الناس في المعاملات بإسرافها وتيسيراً لاقتضاء حاجاتهم. ولما كان لحق سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرفها وصوغها، وسمى سكته التي استحدثها بالحندوس.ثم أفسدها الناس بالتدليس وضربها أهل الريب ناقصة عن الوزن، وفشا فيها الفساد. واشتد السلطان في العقوبة عليها فقطع وقتل، وصارت ريبة لمن تناولها.وأعلن الناس بالنكير في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها وكثر الخوض في ذلك وتوقعت الفتنة. وأشيع من طريق الحدثان الذي تكلف به العامة أن الخارج الذي يثير الفتنة هو أبو قاسم بن أبي زيد، فأزال السلطان تلك السكة وعفا عليه، وأهمه شأن أبي القاسم ابن عمه، وبلغه الخبر فخامره الرعب إلى ما كان يحدث نفسه من الخروج، ففر من الحضرة سنة إحدى وستين وستمائة، ولحق برياح ونزل على أميرهم شبل بن موسى بن محمد رئيس الدواودة، فبايع له وقام بأمره. ثم بلغه اعتزام السلطان على النهوض إليه فخشي بادرته واضطرب أمر العرب من قبيله. ولما أحس أبو القاسم باضطرابهم وخشي أن يسلموه إذا أزادهم السلطان عليها، تحول عنهم ولحق بتلمسان وأجاز البحر منها إلى الأندلس، وصحبت الأمير أبا إسحاق ابن عمه في مثوى اغترابهما بالأندلس. ثم ساءت أفعاله وعظم استهتاره. وفشا النكير عليه من الدولة، فلحق بالمغرب وأقام بتينملل مدة. ثم رجع إلى تلمسان، وبها مات. وقام الأمير أبو إسحاق بمكانه من جوار ابن الأحمر إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن خروج السلطان إلى المسيلة

لما اتصل بالسلطان شأن أبي قاسم ابن عمه أبي زيد وفصاله عن رياح إلى المغرب بعد عقدهم بيعته، خرج من تونس سنة أربع وستين في عساكر الموحدين وطبقات الجند لتمهيد الوطن، ومحو آثار الفساد منه، وتقويم العرب على الطاعة. وتنقل في الجهات إلى أن وصل بلاد رياح فدوخها ومهد أرجاءها، وفر شبل بن موسى وقومه الدواودة إلى القفر، واحتل السلطان بالمسيلة آخر وطن رياح. ووافاه هنالك محمد من عبد القوي أمير بني توجين من زناتة مجدداً لطاعته، ومتبركاً بزيارته، فتلقاه من البرور تلقي أمثاله، وأثقل كاهله بالحباء والجوائز، وجنب له الجياد المقربات بالمراكب المثقلة بالذهب، واللجم المحلات.وضرب له الفساطيط الفسيحة الأرجاء من ثياب الكتان وجدل القطن، إلى ما يتبع ذلك من المال والظهر والكراع والأسلحة. وأقطع له مدينة مقرة وبلد أوماش من عمل الزاب، وانقلب عنه الى وطنه.

ورجع السلطان إلى تونس وفي نفسه من رياح ضغن إلى أن صرف إليهم وجه تدبيره كما نذكره، والثانية احتلاله في الحضرة كان مهلك مولاه هلال، ويعرف بالقائد، وكان له في الدولة مكان بمكان تلادا للسلطان، وكان شجاعاً جواداً خيراً محبباً سهلاً مقبلاً على أهل العلم وذوي الحاجات، وله في سبل الخير آثار منقولة صار له بها ذكر، فارتمض السلطان لمهلكه.

الخبر عن مقتل مشيخة الدواودة

كان شبل بن موسى وقومه من الدواودة فعلوا الأفاعيل في اضطراب الطاغية، ونصب من لحق بهم من أهل هذا البيت للملك، فبايعوا أولاً للأمير أبي إسحاق كما ذكرناه، ثم بعده لأبي القاسم ابن عمه أبي زيد، وخرج إليهم السلطان سنة أربع وستين وستمائة ودوخ أوطانهم، ولحقوا بالصحراء ودافعوه على البعد

بطاعة ممرضة فتقبلها، وطوى لهم على الشنى. ورجع إلى تونس فأوعز إلى أبي هلال عياد عامل بجاية من مشيخة الموحدين باصطناعهم واستئلافهم لتكون وفادتهم عليه من غير عهد، وجمع السلطان أحلافه من كعوب بني سليم ودباب وأفاريق بني هلال، وخرج من تونس سنة ست وستين وستمائة في عساكر الموحدين وطبقات الجند، ووافاه بنو عساكر ابن السلطان إخوة بني مسعود ابن السلطان من الدواودة فعقد لمهدي ابن عساكر عن إمارته قومه وغيرهم من رياح، وفر بنو مسعود ابن السلطان مصحرين والسلطان في أثرهم حتى نزل نقاوس وعسكروا بثنايا الزاب، ورسلهم تختلف إلى أبي هلال إيناساً للمراجعة على يده للدخلة في الساحة، فأشار عليهم بالوفادة على السلطان وفاء بقصده من ذلك، فتقبلوا إشارته.

ووفد أميرهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخوه يحيى، وبنو عمهما أولاد زيد بن مسعود: سباع بن يحيى بن دريد وابنه، وطلحة بن ميمون بن دريد، وحداد بن مولاهم بن خنفر بن مسعود وأخوه، فتقبض عليهم لحينهم، وعلى دريد ابن تازير من شيوخ كرفة. وانتهبت أسلابهم وضربت أعناقهم ونصبت أشلاؤهم بزرايا من جهات نقاوس حيث كانت بيعتهم لأبي القاسم بن أبي زيد، وبعث برؤوسهم إلى بسكرة فنصبها بها، وأغذ السير غازياً إلى أحيائهم وأحلهم بمكانها من ثناية الزاب.

وصبحهم هنالك فأجفلوا وتركوا الظهر والكراع والأبنية، فامتلأت أيدي العساكر وسدويكش منها، ونجوا بالعيال والولد على الأقتاب، والعساكر في اتباعهم إلى أن أجازوا وادي شدى قبلة الزاب وهو الوادي الذي يخرج أصله من جبل راشد قبلة المغرب الأوسط ويمر إلى ناحية الشرق مجتازاً بالزاب إلى أن يصب في سبخة نفراوة من بلاد الجريد.فلما جاز فلهم الوادي أصحروا إلى المفازة المعطشة والأرض الحرة السوداء المستحجرة المسماة بالحمادة، فرجعت العساكر عنهم، وانقلب السلطان من غزاته ظافراً، ظاهراً وأنشده الشعراء في التهنئة، ولحق فل الدواودة بملوك زناتة فنزل بنو يحيى بن دريد على يغمراسن بن زيان، وبنو محمد بن مسعود على يعقوب بن عبد الحق، فأجاروهم وأوسعوهم حباء وملؤوا أيديهم بالصلات، ومرابطهم بالخيل، وأحياءهم بالإبل ورجعوا إلى مواطنهم فتغلبوا على واركلة وقصور ريغة واقتطعوها من إيالة السلطان. ثم زحفوا إلى الزاب فجمع لهم عامله ابن عتو وكان موطناً بمقرة، ولقيهم على حدود أرض الزاب فهزموه واتبعوه إلى قطاوة فقتلوه عندها، واستطالوا على الزاب وجبل أوراس وبلاد الحضنة إلى أن اقتطعهم الدول إياها من بعد ذلك، فصارت ملكاً لهم.

الخبر عن طاغية الإفرنجة ومنازلته تونس في أهل نصرانيته

هذه الأمة المعروفة بالإفرنجة وتسميها العامة بالإفرانسيس نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى إفرانسة، ونسبهم إلى يافث بن نوح، وهم بالعدوة الشمالية من عدوتي هذا البحر الرومي الغربي ما بين جزيرة الأندلس وخليج القسطنطينة، مجاورون الروم من جانب الشرق والجلالقة من جانب الغرب. وكانوا قد أخذوا بدين النصرانية مع الروم، ومنهم لقنوا دينها. واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم وأجازوا البحر إلى إفريقية مع الروم فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل سبيطلة وجلولا وقرطاجنة ومرناق وباغاية ولمس وغيرها من الأمصار وغلبوا على كل من كان بها من البربر حتى اتبعوهم في دينهم وأعطوهم طاعة الانقياد.

ثم جاء الإسلام وكان الفتح بانتزاع الأعراب من أيديهم سائر أمصار إفريقية، والعدوة الشرقية والجزر البحرية مثل أقريطش ومالطة وصقلية وميورقة ورجوعهم إلى عدوتهم.ثم أجازوا خليج طنجة وغلبوا القوط والجلالقة والبشكنس، وملكوا جزيرة الأندلس وخرجوا من ثناياها ودورها إلى بسائط هؤلاء الإفرنجة فدوحوها وعاثوا فيها. ولم تزل الصوائف تتردد إليها صدراً من دولة بني أمية بالأندلس، وكان ولاة إفريقية من الأغالبة ومن قبلهم أيضاً يرددون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدوة حتى غلبوهم على الجزر البحرية، ونازلوهم في بسائط عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن، فكان يخالجها الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه منها.

وكان الربع أقرب إلى سواحل الشام وطمع فيها. فلما وصل أمر الروم بالقسطنطينية ورومة، واستفحل ملك الفرنجة هؤلاء، وكان ذلك على هيئة سمو الخلافة بالمشرق.فسموا حينئذ إلى التغلب على معاقل الشام وثغوره، وزحفوا إليها وملكوا الكثير منهم واستولوا على المسجد الأقصى وبنوا فيه الكنيسة العظمى بدل المسجد، ونازلوا مصر والقاهرة مراراً حتى جاد الله للإسلام من صلاح الدين أبي أيوب الكردي صاحب مصر والشام في أواسط المائة السادسة جنة واقية، وعذاباً على أهل الكفر مصبوباً، فأبلى في جهادهم وارتجع ما ملكوه، وطهر المسجد الأقصى من أفكهم وكفرهم، وهلك على حين غرة من الغزو والجهاد.

ثم عاودوا الكرة ونازعوا مصر في المائة السابعة على عهد الملك الصالح صاحب مصر والشام، وأيام الأمير أبي زكريا بتونس، فضربوا أبنيتهم بدمياط وافتتحوها وتغلبوا في قرى مصر. وهلك الملك الصالح خلال ذلك، وولي ابنه المعظم وأمكنت المسلمين في الغزو فرصة أيام فيض النيل، ففتحوا الغياض وأزالوا مدد الماء فأحاط بمعسكرهم وهلك منهم عالم، وقيد سلطانهم أسيراً من المعركة إلى السلطان فاعتقله بالإسكندرية، حتى مر عليه بعد حين من الدهر وأطلقه على أن يمكنوا المسلمين من دمياط فوفوا له. ثم على شرط المسالمة فيما بعد فنقضه لمدة قريبة، واعتزم على الحركة إلى تونس متجنياً عليهم فيما زعموا بمال أدعياء تجار أرضهم، وأنهم أقرضوا اللياني فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلثمائة دينار بغير موجب يستندون إليه، فغضبوا لذلك واشتكوه إلى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو تونس لما كان فيها من المجاعة والموتان.

فأرسل الفرنسيس طاغية الإفرنج واسمه سنلويس بن لويس وتلقب بلغة الإفرنج روا فرنس ومعناه ملك إفرنس، فأرسل إلى ملوك النصارى يستنفرهم إلى غزوها، وأرسل إلى القائد خليفة المسيح بزعمهم فأوعز إلى ملوك النصرانية مظاهرته، وأطلق يده في أموال الكنائس مدداً له. وشاع خبر استعداد النصارى للغزو في سائر بلادهم، وكان الذين أجابوه للغزو ببلاد المسلمين من ملوك النصرانية ملك الإنكتار وملك أسكوسيا وملك نزول وملك برشلونة واسمه ريدراكون وجماعة آخرون من ملوك الإفرنج، هكذا ذكر ابن الأثير، وأهمَّ المسلمين بكل ثغر شأنهم وأمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدة، وأرسل في الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب، وانقبض تجار النصارى عن تعاهد بلاد المسلمين. وأوفد السلطان رسله إلى الفرنسيس لاختبار رحاله ومشارطته على ما يكف عزمه. وحملوا ثمانين ألفاً من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا، فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أن غزوه إلى أرضهم. فم طلبوا المال اعتل عليهم بأنه لم يباشر قبضه ووافق شأنهم معه وصول رسول عن مصاحب مصر، فأحضر عند الفرنسيس واستجلس فأبى.

وأنشده قائلاً من قول أبي مطروح شاعر السلطان بمصر

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق من وزير نصيح
آجرك اللّه على ما جرى	من قتل عباد نصارى المسيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بسوء تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك اللّه إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان بابكم بذا راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهناً إنه	أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عودةً	لأخذ ثار أو لشغل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

يعني بدار ابن لقمان موضع اعتقاله بالإسكندرية والطواشي في عرف أهل مصر هو الخصي. فلما استكمل إنشاده لم يزد ذلك الطاغية إلا عتواً واستكباراً، واعتذر عن نقض العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من المخالفات، عذراً دافعهم به، وصرف الرسل من سائر الآفاق ليومه. فوصل رسل السلطان منذرين بشأنهم وجمع الطاغية حشده وركب أساطيله إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين وستمائة فاجتمعوا بسردانية وقيل بصقلية. ثم واعدهم بمرسى تونس وأقلعوا ونادى السلطان في الناس بالنذير بالعدو والاستعداد له، النفير إلى أقرب المدائن، وبعث الشواني لاستطلاع الخبر واستبهم أياماً.

ثم توالت الأساطيل بمرسى قرطاجنة وتفاوض السلطان مع أهل الشورى من الأندلس والموحدين في تخليتهم وشأنهم من النزول بالساحل أو صدهم عنه، فأشار بعضهم بصدهم حتى تنفد ذخيرتهم من الزاد والماء فيضطرون إلى الإقلاع. وقال آخرون: إذا أقلعوا من مرسى الحضرة ذات الحامية والعدد صبحوا بعض الثغور سواها فملكوه واستباحوه، واستصعبت مغالبتهم عليه فوافق السلطان على هذا وخلوا وشأنهم من النزول فنزلوا بساحل قرطاجنة بعد أن ملئت سواحل رودس بالمرابطة بجند الأندلس والمطوعة زهاء أربع آلاف فارس لنظر محمد بن الحسين رئيس الدولة.

ولما نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس، وثلاثين ألفاً من الرجالة فيما حدثني أبي عن أبيه رحمهما اللّه قال: وكانت أساطيلهم ثلثمائة بين كبار وصغار، وكانوا سبعة يعاسيب كان فيهم الفرنسيس وإخوة جرون صاحب صقلية وصاحب الجزر، والعلجة زوج الطاغية تسمى الرينة، وصاحب البر الكبير، وتسميهم العامة من أهل الأخبار ملوكاً ويعنون أنهم متباينون إذ ظاهروا على غزو تونس وليس كذلك وإنما كان واحداً وهو طاغية الفرنجة وإخوته وبطارقته، عد كل واحد منهم ملكاً لفضل قوته وشدة بأسه، فأنزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنة. وكانت مائلة الجدران اضطرم المعسكر بداخلها، ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونضدوا شرفاتها وأداروا على

السور خندقاً بعيد المهوى وتحصنوا. وندم السلطان على إضاعة الحزم في تخريبها أو دفاعهم عن نزلها. وأقام ملك الفرنجة وقومه متمرسين بتونس ستة أشهر والمدد يأتيه في أساطيله في البحر من صقلية والعدوة بالرجل والأسلحة والأقوات.

وسلك بعض المسلمين طريقاً في البحيرة واتبعهم العرب فأصابوا غرة في العدو فظفروا وغنموا وشعروا بمكانهم، فكفلوا بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق إليهم، وبعث السلطان في ممالكه حاشداً فوافته الأمداد من كل ناحية، ووصل أبو هلال صاحب بجاية وجاءت جموع العرب وسدويكش ووهاصة وهوارة حتى أمده ملوك المغرب من زناتة، وسرح إليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان وأخرج السلطان ابنيته، وعقد لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتزقة والمطوعة وهم: إسماعيل بن أبي كلداسن وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح وأبو هلال عياد صاحب بجاية ومحمد بن عبو، وأمرهم كلهم راجع ليحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر منهم.

واجتمع من المسلمين عدد لا يحصى، وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بأنفسهم والتزم السلطان القعود بإيوائه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم:الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود، وابن أبي الحسين، وقاضيه أبو القاسم بن البراء، وأخو العيش. واتصلت الحرب والتقوا في منتصف محرم سنة تسع بالمنصف، فرحف يومئذ يحيى بن صالح وجرون فمات من الفريقين خلق، وهجموا على المعسكر بعد العشاء وتدامر المسلمون عنده، ثم غلبوا عليه بعد أن قتل من النصارى زهاء خمسمائة، فأصبحت أبنيته مضروبة كما كانت. وأمر بالخندق على المعسكر فتعاورته الأيدي، واحتفر فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه، وابتلي المسلمون بتونس، وظنوا الظنون واتهم السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان.

ثم إن اللّه أهلك عدوهم وأصبح ملك الفرنجة ميتاً يقال: حتف أنفه، ويقال: أصابه سهم غرب في بعض المواقف فأبته ويقال: أصابه مرض الوباء، ويقال وهو بعيد أن السلطان بعث إليه مع ابن جرام الدلاصي بسيف مسموم وكان فيه مهلكه. ولما هلك اجتمع النصارى على ابنه دمياط سمي بذلك لميلاده بها فبايعوه، واعتزموا على الإقلاع. وكان أمرهم راجعاً إلى العلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤنة حركتهم، وترجع بقومها فأسعفها السلطان لما كان العرب اعتزموا على الإنصراف إلى مشاتيهم.

وبعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح في ربيع الأول سنة تسع وستين وستمائة فتولى عقده وكتابه القاضي ابن زيتون لخمسة عشر عاماً. وحضر أبو الحسن علي بن عمرو وأحمد بن الغماز وزيان بن محمد بن عبد القوى أمير بني توجين، واختص جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته. وأقلع النصارى بأساطيلهم وأصابهم عاصف من الريح أشرفوا منه على العطب، وهلك الكثير منهم وأغرم السلطان الرعايا ما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية. يقال: إنه عشرة أحمال من المال وترك النصارى بقرطاجنة تسعين منجنيقاً. وخاطب السلطان صاحب المغرب وملوك النواحي بالخبر ودفاعه عن المسلمين وما عقده من الصلح، وأمر بتخريب قرطاجنة وأن يؤتى بنيانها من القواعد، فصير أبنيتها طامسة ورجع الفرنجة إلى دعوتهم فكان آخر عهدهم بالظهور والاستفحال ولم يزالوا في تناقص وضعف إلى أن افترق ملكهم عمالات.واستبد صاحب صقلية لنفسه، وكذا صاحب نابل وجَنَوة وسردانية، وبقي بيت ملكهم الأقدام لهذا العهد على غاية من الفشل والوهن. واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن مهلك رئيس الدولة أبي عبد اللّه بن أبي الحسين وأبي سعيد العود الرطب

أصل هذا الرجل من بني سعيد رؤساء القلعة المجاورة لغرناطة، وكان كثير منهم قد استعملوا أيام الموحدين بالعدوتين، وكان جده أبو الحسن سعيد صاحب الأشغال بالقيروان. ونشأ حافده محمد هذا في كفالته. ولما عزل وقفل إلى المغرب هلك ببونة سنة أربع وستمائة ورجع حافده محمد إلى تونس والشيخ أبو محمد بن أبي حفص صاحب إفريقية لذلك العهد فاعتلق بخدمة ابنه أبي زيده. ولما ولي الأمر بعد وفاة أبيه غلب محمد هذا على هواه. ثم جاء السيد أبو علي من مراكش وعلى إفريقية محمد بن أبي الحسين في جملته إلى أن هلك في حصار هسكورة بمراكش كما قدمناه ورجع ابن أبي الحسين إلى تونس واتصل بالأمير أبي زكريا لأول استبداده فغلب على هواه، وكان مبختاً في صحابة الملوك. ولما ولي المستنصر أجراه على سننه برهة.ثم تنكر له إثر كائنة اللحياني، وعظمت سعاية أعدائه من الباطنية وأشاعوا مداخلته لأبي القاسم بن مخدومه أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد فنكبه السلطان واعتقله بداره تسعة أشهر. ثم سرحه وأعاده إلى مكانه وثأر من أعدائه، واستولى على أمور السلطان إلى أن هلك سنة

إحدى وسبعين وستمائة.

وكان ابن عمه سعيد بن يوسف بن أبي الحسن صاحب أشغال الحضرة، وكان قد اقتنى مالاً جسيماً ونال من الحضرة منالاً عظيماً. وكان الرئيس أبو عبد اللّه متفنناً في العلوم مجيداً في اللغة يقرض الشعر فيحسن، ويرسل فيجيد، وله من التآليف:كتاب ترتيب المحكم لابن سيده على نسق الصحاح للجوهري واختصاره، وسماه الخلاصة. وكان في رئاسته صليب الرأي قوي الشكيمة عالي المهمة، شديد المراقبة والحزم في الخدمة، وله شعر نقل منه التيجاني وغيره، ومن أشهره ما نقل عنه من شعره يخاطب عنان بن جابر عن الأمير أبي زكريا لما خالف واتبع ابن غانية، وهي على روي الراء، وكان قبلها أخرى على روي الدال. وكان له ولد اسمه سعيد وترقى في حياة أبيه في المراتب السلطانية. ثم اغتبط دون غايته وفي ثالث مهلكه كان مهلك الشيخ أبي سعيد عثمان بن محمد الهنتاتي المعروف بالعود الرطب، ويعرف أهل بيته بالمغرب ببني أبي زيد. وكان منهم عبد العزيز المعروف بصاحب الأشغال كان فر من المغرب أيام السعيد لجفوة نالته، ولحق بسجلماسة سنة إحدى وأربعين، وقد كان انتزى بها عبد اللّه الهزرجي، وبايع للأمير أبي زكريا فأجازه عبد اللّه إلى تونس، ونزل على الأمير أبي زكريا ونظمه في طبقات مشيخة الموحدين وأهل مجلسه. ثم حظي عند ابنه المستنصر بعد نكبة بني النعمان حظوة لا كفاء لها. واستولى على الرأي والتدبير إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين وستمائة فشيع طيب الذكر ملحفاً بالرضوان من الخاصة والكافة، واللّه مالك الأمور.

الخبر عن انتقاض أهل الجزائر وفتحها

كان أهل الجزائر لما رأوا تقلص ظل الدولة عن زناتة وأهل المغرب الأوسط حدثوا أنفسهم بالاستبداد والقيام على أمرهم، وخلع ربقة الطاعة من أعناقهم فجاهروا بالخلعان. وسرح السلطان إليهم العساكر سنة تسع وستين وستمائة وأوعز إلى صاحب ثغر بجاية وهو أبو هلال عياد بن سعيد الهنتاتي فقدم إليها في عساكر الموحدين سنة إحدى وسبعين وستمائة ونازلها مدة حول، وامتنعت عليه فأقلع عنها ورجع إلى بجاية، وهلك بمعسكر ببني ورا سنة ثلاث وسبعين وستمائة.

ثم إن السلطان صرف عزمه إلى منازلتهم سنة أربع وسبعين وستمائة وسرح إليهم العساكر في البر وأنفذ الأساطيل في البحر وعقد على عسكر تونس لأبي الحسن بن ياسين وأوعز إلى عامل بجاية بإنفاذ عسكر آخر فأنفذه لنظر أبي العباس بن أبي الأعلام، ونهضت هذه العساكر براً وبحراً إلى أن نازلتها وأحاطت بها من كل جانب، واشتد حصارها. ثم اقتحمت عنوة واستحرّ فيهم القتل وانتهبت المنازل وافتضح الكرائم في أبكارهن. وتقبض على مشيخة البلد فنقلوا إلى تونس مصفّدين، واعتقلوا بالقصبة أن سرحهم الواثق بعد مهلك السلطان.

الخبر عن مهلك السلطان المستنصر ووصف شيء من أحواله

كان السلطان بعد فتح الجزائر قد خرج من تونس للصيد وتفقد العمالات، فأصابه في سفره مرض ورجع إلى داره، واشتدت علته وكثر الإرجاف بموته، وخرج يوم الأضحى سنة خمس وخمسين وستمائة يتهادى بين رجلين، ورجالاه لا تخطان في الأرض وجلس للناس على منبر متجلداً. ثم دخل بيته وهلك لليلته تلك رضوان اللّه عليه، وكان شأن هذا السلطان في ملوك آل حفص عظيماً. وشهرته طائرة الذكر بما انفسح من أمر سلطانه، ومدت إليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به. وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصاً الأندلس من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير وملك أورع وشجاع أهيش متفيئين ظل ملكه متناغين في اللياذ به لطموس معالم الخلافة شرقاً، وغرباً على عهده، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه.

فقد كان الطاغية التهم قواعد الملك بشرق الأندلس وغربها، فأخذت قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وبلنسية ستة ست بعدها وأشبيلية سنة ست وأربعين وستمائة، واستولى التتر على بغداد دار خلافة العرب بالمشرق وحاضرة الإسلام سنة ست وخمسين وستمائة، وانتزع بنو مرين ملك بني عبد المؤمن، واستولوا على حضرة مراكش دار خلافة الموحدين سنة ثمان وستين وستمائة، كل ذلك على عهده وعهد أبيه ودولتهم أشد ما كانت قوة وأعظم رفاهية وجباية وأوفر قبيلاً وعصابةً، وأكثر عساكر وجنداً، فأمله أهل العلم للكرة، وأجفلوا إلى الإمساك بحقويه. وكان له في الأبهة والجلال أخبار، وفي الحروب والفتوح آثار مشهودة، وفي أيامه عظمت حضارة تونس، وكثر ترف ساكنها. وتأنق الناس في المراكب والملابس والمباني والماعون والآنية، فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وانتقائها إلى أن بلغت غايتها ثم رجعت من بعده أدراجها، واللّه مالك الأمور ومصرفها.

الخبر عن بيعة الواثق يحيى بن المستنصر وهو المشهور بالمخلوع وذكر أحواله

لما هلك السلطان المستنصر سنة خمس وسبعين وستمائة كما قدمناه، اجتمع الموحدون وسائر الناس على طبقاتهم إلى ابنه يحيى، فبايعوه ليلة مهلك أبيه، وفي غدها وتلقب الواثق. وافتتح أمره برفع المظالم وتسريح أهل السجون وإفاضة العطاء في الجند وأهل الديوان، وإصلاح المساجد، وإزالة كثير من الوظائف عن الناس. وامتدحه الشعراء فأسنى جوائزهم، وأطلق عيسى بن داود من اعتقاله ورده إلى حاله. وكان المتولي لأخذ البيعة عن الناس والقائم بأمره سعيد بن يوسف بن أبي الحسين لمكانه من الدولة ورسوخه في الشهرة، فقام بالأمر ولم يزل على ذلك إلى أن نكبه وأدال منه بالحَبّبْر.

الخبر عن نكبة ابن أبي الحسين واستبداد ابن الحبير على الدولة

هذا الرجل اسمه يحيى بن عبد الملك الغافقي وكنيته أبو الحسن أندلسياً من أعمال مرسية، وفد مع الجالية من شرق الأندلس أيام استيلاء العدو، وكان يحسن الكتابة ولم يكن له من الخلال سواها، فصرف في الأعمال، ثم ارتقى إلى خدمة ابن أبي الحسين فاستكتبه، ثم رقاه إلى ولاية الديوان فعظمت حاله، وكانت له أثناء ذلك مداخلة للواثق ابن السلطان، واعتدها له سابقة. فلما استوثق الأمر رفع منزلته واختصه بالشورى، وقلده كتاب علامته. وكان سعيد بن أبي الحسين مزاحماً له منافساً لما كان أسف من تقديمه. فأغرى به السلطان ورغبه في ماله فتقبض على أبي سعيد بن أبي الحسين لستة أشهر من الدولة سنة ست وسبعين وستمائة واعتقل بالقصبة. وتقبّض على نقله ابن ياسين وابن صياد الرجالة وغيرهم. وقدم على الأشغال مدافعاً في الموالي المعلوجين. ووكل أبا زيد بن أبي الأعلام من الموحدين بمصادرة ابن أبي الحسين على المال وامتحانه.

ولم يزل يستخرج منه حتى ادعى الإملاق واستحلف فحلف. ثم ضرب فادعى مؤتمناً من ماله عند قوم استكشفوا عنه فأدوه. ثم دل بعض مواليه على ذخيرة بداره دفينة فاستخرج منها زهاء ستمائة ألف من الدنانير، فلم يقبل بعدها مقاله، وبسط عليه العذاب إلى أن هلك في ذي الحجة من سنته، ودفن شلوه بحيث لم يعرف مدفنه. واستبد أبو الحسن الحَبّبُر على الدولة والسلطان، وبعث أخاه أبا العلاء والياً على بجاية، وأسف المشيخة والبطانة بعتوه واستبداده وما يتجشمونه من مكابرة بابه إلى أن عاد وبال ذلك على الدولة كما نذكره.

الخبر عن إجازة السلطان أبي إسحاق من الأندلس ودخول أهل بجاية في طاعته

كان السلطان المستنصر قد عقد على بجاية سنة ستين وستمائة لأبي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي، وأدال به من أخيه الأمير أبي حفص، فأقام والياً عليها إلى أن هلك ببني ورا سنة ثلاث وسبعين وستمائة كما قدمنا وعقد عليها من بعده لابنه محمد، وكان له غناء في ولايته واضطلع بأمره إلى أن هلك المستنصر وولي ابنه الواثق، فبادر إلى انقياد طاعته، وبعث وفد بجاية ببيعتهم. ثم قلد أبو الحسن الحَبّبّر القائم بالدولة أخاه إدريس ولاية الأشغال ببجاية، فقام بها وأفنى الأموال وتحكم في المشيخة. وأنف محمد بن أبي هلال من استبداده عليه فهم إدريس بنكبته، فخشي محمد بن أبي هلال بادرته وداخل بعض بطانته في قتله. وفاوض الملأ فيه فعدوا عليه لأول ذي القعدة سنة سبع وسبعين وستمائة بمقعده من باب السلطان فقتلوه ورموا برأسه إلى الغوغاء والزعانف فعبثوا به.

ووافق ذلك حلول السلطان أبي إسحاق بتلمسان، وكان عند بلوغ الخبر إليه بمهلك أخيه المستنصر أجمع أمره على الإجازة لطلب حقه بعدما تردد برهة. ثم اعتزم وعاد إلى تلمسان، ونزل على يغمراسن بن زيان فقام لمورده، واحتفل في مبرته، وفعل أهل بجاية وابن أبي هلال فعلتهم وخشوا بوادر السلطان بالحضرة فخاطب السلطان أبا إسحاق وأتوه ببيعتهم، وبعثوا وفدهم يستحثونه للملك، فأجابهم ودخل إليها آخر ذي القعدة من سنته، فبايعه الموحدون والملأ من أهل بجاية. وقام بأمره محمد بن هلال. ثم زحف في عساكره إلى قسطنطينة فنازلها، وبها عبد العزيز بن عيسى بن داود، فامتنعت عليه فأقلع عنها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن خروج الأمير أبي حفص بالعساكر للقاء السلطان أبي إسحاق ثم دخوله في طاعته وخلع الواثق

لما بلغ الخبر إلى الواثق ووزيره المستبد عليه ابن الحببر بدخول السلطان أبي إسحاق بجاية، سرّح العساكر إلى حربه، وعقد عليها لعمه أبي حفص. واستوزر له أبا زيد بن جامع، فخرج من تونس واضطرب معسكره بجباية. وعقد الواثق على قسطنطينة لعبد العزيز بن عيسى بن داود لذمة صهر كانت له من ابن الحببر، فتقدم إلى قسطنطينة، ومانع عنها الأمير أبا إسحاق كما ذكرناه. ثم اضطرب رأي ابن الحببر في خروج الأمير أبي حفص، وأراد انفضاض عسكره فكتب الواثق إلى أبي حفص ووزيره ابن جامع يغري كل واحد منهما بصاحبه، فتفاوضا واتفقا على الدعاء للأمير أبي إسحاق، وبعثوا إليه بذلك. واتصل الخبر بالواثق وهو بتونس متنبذاً عن الحامية والبطانة. فاستيقن ذهاب ملكه، وأشهد الملأ، وانخلع عن الأمر لعمه السلطان أبي إسحاق غرة ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين وستمائة وتحول عن قصور الملك بالقصبة إلى دار الأقوري وانقرضت دولته وأمره، والبقاء لله وحده.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحاق على الحضرة

لما بلغ السلطان أبا إسحاق كتاب أخيه الأمير أبي حفص وابن جامع من بجاية، بادر مغذّاً إليهم. ثم وافاه خبر انخلاع الواثق ابن أخيه بتونس، فارتحلوا جميعاً وسائر أهل الحضرة على طبقاتهم إلى لقائه، وآتوه طاعتهم ودخل الحضرة منتصف الحجة آخر سنة ثمان وسبعين وستمائة ومحمد بن هلال شيخ دولته. وعقد على حجابته لأبي القاسم بن الشيخ كاتب أبي الحسين، وعلى خطة الأشغال لابن أبي الحسن ابن خلدون. كان وفد مع أبيه الحسن على الأمير أبي زكريا من اشبيلية لذمة رعاها لهم، لما كانت أم ولده أم الخلائف من هدايا ابن المحتسب أبي زكريا محلهم.

ورحل الحسن إلى المشرق ومات هنالك، وبقي ابنه أبو بكر بالحضرة فاستعمله الأمير أبو إسحاق لأول دخوله في خطة الأشغال، ولم يكن يليها إلا الموحدون كما قلناه. وعقد لفضل بن علي بن مزني على الزاب، ولم يكن أيضاً يليها إلا الموحدون. لكن رعى لفضل بن مزني ذمة اغترابه معه إلى الأندلس، فعقد له على الزاب، ولأخيه عبد الواحد على بلاد قسطيلية. ثم تقبض على أبي الحببر وأمر باعتقاله ودفعه إلى موسى بن محمد بن ياسين للمصادرة والامتحان. ووجد مكان التمائم عليه طوابع وطلسمات مختلفة الأشكال والصور، يسحر بها فيما زعموا مخدومه فحاق به وبالها. وكان شأنه في الامتحان والاستحلاف والهلاك بالعذاب شأن سعيد بن أبي الحسين منكوبه أيام دولته، إلى أن هلك في شهر جمادى الأولى من سنته، والله لا يظلم مثقال ذرة.

ولما اقتعد السلطان أبو إسحاق كرسي ملكه، واستوثق عرى خلافته، تقبض على محمد بن أبي هلال وقتله بجر نكبته سنة ست وسبعين وستمائة، لما كان يتوقع منه من المكروه في الدولة وما عرف به من المساعي في الفتنة.

الخبر عن مقتل الواثق وولده

لما انخلع الواثق عن الأمر وتحول إلى دار الأقوري فأقام بها أياماً.و كان له ثلاثة من الولد أصاغر: الفضل والطاهر، والطيب، فكانوا معه. ثم نمي عنه للسلطان أبي إسحاق أنه يروم الثورة وأنه داخل في ذلك بعض رؤساء النصارى من الجند، فأقلق السلطان مكان ترشيحه واعتقله بمكان اعتقال بنيه، وهو من القصبة أيام أخيه المستنصر. ثم بعث إليهم ليلتهم فذبحوا جميعاً في شهر صفر سنة تسع وسبعين وستمائة واستوثق له الأمر وأطلق من عنان الإمارة لولده إلى أن كان من شأنهم ما يذكر.

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس ابن السلطان أبي إسحاق على بجاية بعهد أبيه والسبب في ذلك

كان للسلطان أبي إسحاق من الأبناء خمسة: أبو فارس وعبد العزيز وكان أكبرهم، وأبو محمد عبد الواحد، وأبو زكريا يحيى، وخالد، وعمر، وكان السلطان المستنصر قد حبسهم عند فرار أبيهم إلى رياح في أيامه ببعض حجر القصر، وأجرى عليهم رزقاً فنشؤوا في ظل كفالته وجميم رزقه، إلى أن استولى أبوهم السلطان أبو إسحاق على الملك فطلعوا بآفاقه.وطالت فروعهم في دوحه، واشتملوا على العز واصطنعوا أهل السوابق من الرجال، وأرخى السلطان لهم ظلهم في ذلك. وكان المجلي فيها كبيرهم أبو فارس لما كان مرشحاً لولاية العهد، وكان ممن اصطنعه وألقى عليه

رداء محبته في الناس وعنايته أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس اليعمري، وأخوه أبو الحسين لسابقة رعاها لهما، وذلك أن أباهما أبا بكر بن سيد الناس، كان من بيوت أشبيلية حافظاً للحديث راوية له، ظاهرياً في فقهه على مذهب داود وأصحابه. وكانت لأهل أشبيلية خصوصاً من بين الأندلس وصلة بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنيه، منذ ولايته غرب الأندلس.

فلما تكالب الطاغية على الدولة والتهم ثغورها واكتسح بسائطها، وأشف إلى قواعدها وامصارها، أجاز الأعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وإفريقية. وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها. فلما رأى الحافظ أبو بكر اختلال أحوال الأندلس وقبح مصايرها، وخفة ساكنها، أجمع الرحلة عنها إلى ما كان بتونس من سابقته عند هؤلاء الخلفاء. فأجاز البحر ونزل بتونس فلقاه السلطان تكرمة، وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة عند حمام الهوا التي أسستها أمه أم الخلائف.

ونشأ بنوه أحمد وأبو الحسين في جو الدولة وحجر كفالتها للاختصاص الذي كان لأبيهم بها. وعدلوا عن طلب العلم إلى طلب الدنيا، وتشوفوا إلى مراتب السلطان، واتصلوا بأبناء السلطان أبي إسحاق بمكانهم من حجر القصر حيث أنزلهم عمهم بعد ذهاب أبيهم، فخالطوهم واستخدموا لهم. ولما استولى السلطان على الأمر ورشح ابنه أبا فارس للعهد، وأجراه على سنن الوزارة فاصطنع أحمد بن سيد الناس، ونوه باسمه وخلع عليه لبوس كرامته. واختصه بلقب حجابته، وأخوه أبو الحسين يناهضه في ذلك عنده. ونفس ذلك عليهما البطانة فأغروا السلطان أبا إسحاق بابنه وخوفوه شأنه. وأن أحمد بن سيد الناس داخله في التوثب بالدولة. وتولى كبر هذه السعاية عبد الوهاب بن قائد الكلاعي من علية الكتاب ووجوههم. كان يكتب للعامة يومئذ، فسطا السلطان بابن سيد الناس سنة تسع وستين وستمائة آخر ربيع، استدعى إلى باب القصر فتعاورته السيوف هبراً. ووري شلوه ببعض الحفر. وبلغ الخبر إلى الأمير أبي فارس فركب إلى أبيه في لبوس الحزن، فعزاه أبوه عن ذلك بأنه ظهر لابن سيد الناس على المكر والخديعة بالدولة. وأماط سواده بيده، ونجا أبو الحسين من هذه المهلكة. واعتقل في لمة من رجال الأمير أبي فارس وبطانته بعد أن توارى أياماً إلى أن أطلق من محبسه، وكان من أمره ما نذكره بعد. واستبلغ السلطان في تأنيس ابنه، ومسح الضغينة عن صدره، فعقد له على بجاية وأعمالها، وأنفذه إليها أميراً مستقلاً. وانفذ معه في رسم الحجابة جدي محمد ابن صاحب أشغاله أبي بكر بن الحسن بن خلدون، فخرج إليها سنة تسع وستين وستمائة وقام بأمرها، ولم يزل أميراً بها إلى آخر دولته.

الخبر عن ثورة ابن الوزير بقسطنطينة ومقتله

اسم هذا الرجل أبو بكر بن موسى بن عيسى، ونسبته في كوميه من بيوت الموحدين. كان مستخدماً لابن كلداسن الوالي بقسطنطينة بعد ابن النعمان من مشيخة الموحدين أيام المستنصر. ووفد ابن كلداسن على الحضرة، وأقام ابن وزير نائباً عنه بقسطنطينة، فكان له غنىً وصرامة. وولاه السلطان أبو إسحاق حافظاً على قسطنطينة. واتصلت ولايته وهلك المستنصر واضطربت الأحوال. ثم ولاه الواثق، ثم السلطان أبو إسحاق وكان ابن وزير هذا طموحاً لأموال الناس لا يمل.وعلم أن قسطنطينة معقل ذلك القطر وحصنه فحدثته نفسه بالامتناع بها، والاستبداد على الدولة. وساء أثره في أهلها فرفعوا أمرهم إلى السلطان أبي إسحاق، واستعدوه فلم يعدهم لما رأى من مخايل انحرافه عن الطاعة. وكتب هو بالاعتذار والنكير لما جاء به، فتقبله وأغضى له عن هناته. ولما مر به الأمير أبو فارس إلى محل إمارته من بجاية سنة تسع وسبعين وستمائة قعد عن لقائه وأوفد إليه جمعاً من الصلحاء بالمعاذير والاستعطاف، فمنحه من ذلك كفاء مرضاته، حتى إذا أبعد الأمير أبو فارس إلى بجاية، اعتزم على الانتزاء. وكاتب ملك أرغون في جيش من النصارى يكون معهم في ثغره يردد بهم الغزو على أن يكون فيما زعموا داعيةً له فأجابه ووعده ببعث الأسطول إليه، فجاهر بالخلعان، وانتزى بثغر قسطنطينة داعياً لنفسه آخر سنة ثمانين وستمائة.

وزحف إليه الأمير أبو فارس من بجاية في عساكره، واحتشد الأعراب وفرسان القبائل إلى أن احتل بميلة. ووفد عليه مشيخة من أهل قسطنطينة بمكر من الرغبة والتوسّل بعثهم ابن وزير فأعرض عنهم، وقصد قسطنطينة في أول ربيع سنة إحدى وثمانين وستمائة فنازلها وجمع الأيدي على حصارها.ونصب المجانيق وقرب قواعد الرماة، وقاتلها يوماً أو بعض يوم، وتسور عليهم المعقل من بعض جهاته. وكان المتولي لتسوره صاحبه محمد ابن أبي بكر بن خلدون، وأبلى بن وزير عند الصدمة حتى أحيط به، وقتل هو وأخوه وأشياعهما، ونصبت رؤوسهم بسور البلد. وتمشى الأمير في سكك البلد مسكناً ومؤنساً، وأمر برم ما تثلم من الأسوار وبإصلاح القناطر. ودخل إلى القصر وبعث بالفتح إلى أبيه بالحضرة. وجاء أسطول النصارى إلى مرسى القل في مواعدة ابن

وزير، فأخفق مسعاهم، وارتحل الأمير أبو فارس ثالثة الفتح إلى بجاية، فدخلها آخر ربيع من سنته.

الخبر عن قيادة أبناء السلطان العساكر إلى الجهاد

كان السلطان يؤثر أبناءه بمراتب ملكه، ويوليهم خطط سلطانه شغفاً بهم وترشيحاً لهم، فعقد في رجب سنة إحدى وثمانين لابنه الأمير زكريا على عسكر من الموحدين والجند، وبعثه إلى قفصة للإشراف على جهاتها. وضم جبايتها فخرج إليها وقضى شأنه من حركته، وانصرف إلى تونس في رمضان من سنته. ثم عقد لابنه الآخر أبي محمد عبد الواحد على عسكره، وأنفذه إلى وطن هوارة لانقضاء مغارمهم وجباية ضرائبهم وفرائضهم، وبعث معه عبد الوهاب بن قائد الكلاعي مباشراً لذلك وواسطة بينه وبين الناس، فانتهى إلى القيروان، وبلغه شأن الدعي وظهوره في دباب بنواحي طرابلس، فطير بالخبر إلى السلطان وأقبل على شأنه. ثم انتشر أمر الدعي وانكفأ راجعاً إلى تونس.

الخبر عن صهر السلطان مع عثمان بن يغمراسن

كان السلطان لما أجاز البحر من الأندلس لطلب ملكه، ونزل على يغمراسن بن زيان بتلمسان، فاحتفل لقدومه وأركب الناس للقائه، وأتاه ببيعته على عادته من سلفه لما علم أنه أحق بالأمر، ووعده النصرة من عدوه والمؤازرة على أمره، وأصهر إليه في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان تشريفاً خطبه منه، فأولاه إسعافاً به. ولما استولى السلطان على حضرته واستبد بأحوال ملكه بعث يغمراسن ابنه إبراهيم المكنى بأبي عامر في وفد من قومه لإتمام ذلك العقد، فاعتمد السلطان مبرتهم وأسعف طلبتهم، وأقاموا بالحضرة أياماً، وظهر من إقدامهم في فتن الدعي مقامات، وانصرفوا بظعينتهم سنة إحدى وثمانين وستمائة مجبورين محبورين. وابتنى بها عثمان لحين وصولها فكانت من عقائل قصورهم ومفاخر دولتهم، وذكراً لهم ولقومهم إلى آخر الأيام.

الخبر عن ظهور الدعي ابن أبي عمارة وما وقع من الغريب في أمره

كان أحمد بن مرزوق أبو عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليهما من المسيلة، نشأ ببجاية وسيماً محترفاً بصناعة الخياطة غراً غمراً. وكان يحدث نفسه بالملك لما كان يزعم أن العارفين يخبرونه بذلك. وكان هو يخط فيريه خطه ذلك. ثم اغترب عن بلده ولحق بصحراء سجلماسة واختلط بعرب المعقل وانتمى إلى أهل البيت، وادعى أنه الفاطمي المنتظر عند الأغمار، وأنه يحيل المعادن إلى الذهب بالصناعة، فاشتملوا عليه وحدثوا بشأنه أياماً.

أخبرني طلحة بن مظفر من شيوخ العمارية إحدى بطون المعقل أنه رآه أيام ظهوره بالمعقل ملتبساً بتلك الدعوى حتى فضحه العجز. ثم لما زهدوا فيه لعجز مدعاه ذهب يتقلب في الأرض حتى وصل إلى جهات طرابلس، ونزل على دباب وصحب منهم الفتى نصيراً مولى الواثق بن المستنصر، ويلقب برى، ولما رآه تبين فيه شبهاً من الفضل ابن مولاه فطفق يبكي ويقبل قدميه، فقال له ابن أبي عمارة: ما شأنك؟ فقص عليه الخبر، فقال: صدقني في هذه الدعوى وأنا أثيرك من قاتلهم.

وأقبل نصير على أمراء العرب منادياً بالسرور بابن مولاه، حتى خيل عليهم. ثم لبس بما دسّ إلى ابن أبي عمارة من محاورات وقعت بين العرب وبين الواثق، قصها عليهم ابن أبي عمارة نفياً للريب بأمره، فصدقوا واطمأنوا، وأتوه ببيعتهم. وقام بأمره مرغم بن صابر بن عسكر أمير دباب وجمع له العرب ونازلوا طرابلس، وبها يومئذ محمد بن عيسى الهنتاتي ويُشهر بعنق الفضة، فامتنعت عليهم، ورحلوا إلى بجر بين الموطنين بزنزور وجهاتها من هوارة فأوقعوا بهم. ثم سار في تلك النواحي واستوفى جباية ولماية وزواورة وزواغة، وأغرم نفوسة وغريان ونفزة من بطون هوارة وضائع ألزمهم إياها واستوفاها. ثم زحف إلى قابس فبايع له عبد الملك بن مكي في رجب سنة إحدى وثمانين وستمائة وأعطاه صفقته طواعية، وفاه بحق آبائه فيما طوقوه وذريعة إلى الاستقلال الذي كان يؤمله، وأعلن بخلافته ونادى بقومه واستخدم له بني كعب بن سليم ورئاستهم في بني شيخة لعبد الرحمن بن شيخة، فأجابوا داعيه وأنابوا إلى خدمته، وتوافت إليه بيعة أهل جربة والحامة وقرى نفزاوة. ثم زحف إلى توزر وبلاد قسطيلية فأطاعوه. ثم رجع إلى قفصة فبايع له أهلها، وعظم أمره وعلا صيته. فجهز إليه السلطان أبو إسحاق العساكر من تونس كما نذكره.

الخبر عن انفضاض عساكر السلطان وتقويضه عن تونس

لما تفاقم أمر الدعي بنواحي طرابلس، ودخل الكثير من أهل الأنصار في طاعته، جهز السلطان عساكره وعقد لابنه الأمير أبي زكريا على حربه، فخرج من تونس ونزل القيروان، واقتضى منها غرائم ووضائع استأثر منها بأموال. ثم ارتحل إلى لقاء الدعي وانتهى إلى تموده، وبلغه هنالك ما كان من استيلاء الدعي على قفصة فأرجف به العسكر وانفضوا من حوله، ورجع إلى تونس فدخلها آخر يوم من رمضان من سنته، وارتحل الدعي على أثره من قفصة واحتل بالقيروان، فبايع له أهلها واقتدى به أهل المهدية وصفاقس وسوسة فبايعوا له، وكثر الإرجاف بتونس، فاضطرب السلطان وأخرج معسكره بظاهر البلد في وسط شوال. وضرب الغزو على الناس واستكثر من العدد، وخرج إلى معسكره بالمهدية وتلوم بها لإزاحة العلل. وارتحل الدعي من القيروان زاحفاً إليه فتسربت إليه طبقات الجنود ومشيخة الموحدين، رضيٌّ بمكانه وصاغية إلى بني المستنصر خليفتهم الطويل أمد الولاية عليهم، ورحمة لما نال الواثق وأبناءه من عملهم ثم انفض عن السلطان كبير الدولة موسى بن ياسين في معظم الموحدين، ولحق الدعي بطريقه، فاختل أمر السلطان وانتقضت على ملكه، وفر إلى بجاية كما نذكره.

الخبر عن لحاق السلطان أبي إسحاق ببجاية ودخول الدعي بن أبي عمارة الى تونس وما كان من أمره بها

لما انفض معسكر السلطان أبي إسحاق آخر شوال من سنة إحدى وثمانين وستمائة ركب في خاصته وبعض جنوده ذاهباً إلى بجاية، ومر بتونس فوقف عندها ثم احتمل أهله وولده وسار في كلب البرد، فكان يعاني من قلة الأقوات وتعاور المطر والثلج شدة. وكان يصانع القبائل في طريقه لبذل ماله. ثم مر بقسطنطينة فمنعه عاملها عبد اللّه بن يوقيان الهرغي من دخولها وقرب إليه بعض القرى من الأقوات، وارتحل إلى بجاية وكان أمره ما يذكر. ودخل الدعي بن أبي عمارة إلى الحضرة، وقلد موسى بن ياسين وزارته، وأبا القاسم أحمد بن الشيخ حجابته، وتقبض على صاحب الأشغال أبي بكر بن الحسن بن خلدون فاستصفاه وصاده على مال امتحنه عليه. ثم قتله خنقاً، وصرف خطة الجباية إلى عبد الملك بن مكي رئي قابس. واستكمل ألقاب الملك، وقسم الخطط بين رجال الدولة، وصرف همه إلى غزو بجاية.

الخبر عن استبداد الأمير أبي فارس بالأمر عند وصول أبيه إليه

لما وصل السلطان أبو إسحاق إلى بجاية في شهر ذي القعدة من سنته طريداً عن ملكه غافلاً عن كرسي سلطانه، انتقض عليه ابنه الأمير أبو فارس ومنعه من الدخول إلى قصره، فنزل بروض الرفيع، وأراده على الخلع فانخلع له. وأشهد الملأ من الموحدين ومشيخة بجاية بذلك، وأنزله قصر الكوكب ودعا الناس إلى بيعته آخر ذي القعدة، فبايعوه وتلقب المعتمد على اللّه. ونادى في أوليائه من رياح وسدويكش. وخرج من بجاية زاحفاً إلى الدعي، واستخلف عليها أخاه الأمير أبا زكريا. وخرج معه عمه الأمير أبو حفص وإخوته، فكان من أمرهم ما نذكر.

الخبر عن زحف الأمير أبي فارس للقاء الدعي ثم انهزامه أمامه واستلحامه وإخوته في المعركة وما كان أثر ذلك من مهلك أبيهم السلطان أبي إسحاق وفرار أخيهم الأمير أبي زكريا الى تلمسان

لما بلغ الخبر إلى الدعي باستبداد الأمير أبي فارس على أبيه واستعداده للقائه، تقبض على أهل البيت الحفصي، فاعتقلهم بعد أن هم بقتلهم. وخرج من تونس في عساكر من الموحدين وطبقات الجند في صفر سنة اثنتين وثمانين وستمائة فانتهى إلى مرماجنة، وتراءى الجمعان ثالث ربيع الأول فاقتتلوا عامة يومهم. ثم اختل مصاف الأمير أبي فارس، وتخاذل أنصاره فقتل في المعركة، وانتهب معسكره وقتل إخوته جميعاً صبراً:عبد الواحد قتله الدعي بيده، وعمر وخالد وأبو محمد بن عبد الواحد وبعث برؤوسهم إلى تونس فطيف بها الرماح ونصبت بأسوار البلد. وتخلص عمه الأمير أبو حفص من الواقعة إلى أن كان من أمره ما نذكر.

وبلغ خبر الواقعة إلى بجاية فاضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض، وجمعهم قاضيهم أبو محمد عبد المنعم بن عتيق الجزائري للحديث في الشأن فتكالبوا، وزجرهم ابنه فقتلوا.

ثم أشخصوا القاضي إلى بلده في البحر وخرج السلطان أبو إسحاق وابنه الأمير أبو زكريا إلى تلمسان، فقدم أهل بجاية عليهم محمد بن السيد قائماً فيهم بطاعة الدعي، وخرج في أتباع السلطان فادركه بجبل بني غبرين من زواوة، فتقبض عليه، ونجا الأمير ابو زكريا إلى تلمسان، وبقي السلطان أبو إسحاق ببجاية معتقلاً ريثما بلغ الخبر إلى تونس، وأرسل الدعي محمد بن عيسى بن داود فقتله آخر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة وانقضى أمره و لله عاقبة الأمور.

الخبر عن ظهور الأمير أبي حفص وبيعته وما كان على أثر ذلك من الأحداث

قد ذكرنا أن الأمير أبا حفص حضر واقعة بني أخيه مع الدعي بمرماجنة، فخلص من المعركة راجلاً، ونجا إلى قلعة سنان معقل هوارة القريب من مكان الملحمة، ولاذ به في ذهابه إلى منجاته ثلاثة من صنائعهم: أبو الحسين بن أبي بكر بن سيد الناس، ومحمد بن القاسم بن إدريس الفازازي، ومحمد بن أبي بكر بن خلدون، وهو جد المؤلف الأقرب. وربما كانوا يتناقلونه على ظهورهم إذا أصابه الكلال. ولما نجا إلى قلعة سنان تحدث به الناس وشاع خبر منجاته إليها.

وكان الدعي قد أسف العرب وثقلت وطأته عليهم بما كان يسيء الملكة فيهم، فليوم دخوله شكا إليه الناس عيثهم فتقبض على ثلاثة منهم وقتلهم وصلبهم. ثم سرح شيخ الموحدين عبد الحق بن تافراكين لحسم عللهم وأوعز إليه بالإثخان فيهم. فاستلحم من لقي منهم. ثم تقبض على مشايخ بني علاق وأودع سجونه منهم نحواً من الثمانين، فساء أثره فيهم وتطلبوا أعياص البيت، وتسامعوا بخبر الأمير أبي حفص بمكانه من قلعة سنان، فرحلوا إليه وأتوه ببيعتهم في ربيع سنة ثلاث وثمانين وستمائة وجمعوا له شيئاً من الآلة والأخبية، وقام بأمره أبو ليل بن أحمد أميرهم. وبلغ الخبر إلى الدعي فداخلته الظنة في أهل دولته. وتقبض على أبي عمران بن ياسين شيخ دولته، وعلى أبي الحسن بن ياسين وابن وانودين، وعلى الحسين بن عبد الرحمن يعسوب زناتة فامتحنهم واستصفى أموالهم. ثم قتلهم آخراً وتوجع لهم الناس واضطرب أمر الدعي إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن خروج الدعي ورجوعه واستيلاء السلطان أبي حفص على ملكه وغلبه ومهلكه

لما ظهر السلطان أبو حفص وبايعه العرب تسامع به أهل الحضرة واجتمع إليه الناس وأوقع الدعي بأهل الدولة فمقتوه، وخرج من تونس يريد قتاله فأرجف به أهل العسكر ورجع منهزماً، ودخلت البلاد في طاعة السلطان أبي حفص ونهض إلى تونس فنزل بسحوم قريباً منها. وعسكر الدعي بظاهر البلد تجاهه وطالت بينهما الحرب أياماً والناس في كل يوم يستوضحون خبء الدعي ومكره إلى أن تبرؤوا منه وأسلموه، ورحل من مكان معسكره ولاذ بالاختفاء، ودخل السلطان البلد في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة واستولى على سرير ملكه، وطهرة من الدنس قاصيه ودانيه، واختفى الدعي بتونس وغاص في لجة ساكنيها وأحاط به البحث فعثر عليه لليال من مدخل السلطان بدور بعض السوقة يعرف بأبي قاسم القرمادي فهدمت لحينها. وثل إلى السلطان فأحضر له الملأ، ووبخه وساءله فاعترف بادعائه في نسبهم فأمر بامتحانه وقتله. وذهب في غير سبيل مرحمة، وطيف بشلوه ونصب رأسه. وكان عبد اللّه بن يغمور المباشر لقتله، وكان خبره من المثلات. واستبد السلطان بملكه وتلقب المستنصر باللّه، وبادر الناس إلى الدخول في طاعته. وبعث أهل القاصية ببيعتهم من طرابلس وتلمسان وما بينهما وعقد للشيخ أبي عبد اللّه الفازازي على عساكره وعلى الحروب والضاحية، وأقطع البلاد والمغارم للعرب رعياً لذمة قيامهم بأمره، ولم يكن لهم قبلها أقطاع، وكان الخلفاء قبله يتحامون عن ذلك ولا يفتحون فيه على أنفسهم باباً، وأقام متملياً ملكه وادعاً في حضرته إلى أن كان ما نذكر.

الخبر عن استيلاء العدو على جزيرة جربة وميورقة ومنازلته المهدية وأجلابه على السواحل

كان من أعظم الحوادث، تكالب العدو في أيام هذا السلطان على الجزر البحرية، فاستولت أساطيلهم على جزيرة جربة في رجب من سنة ثلاث وثمانين وستمائة ورئاستها يومئذ من محمد بن سمون بن شيخ الوهبية. ويخلف ابن أمغار شيخ النكازة وهما فرقتا الخوارج. وزحف إليها المراكيا صاحب صقلية نائباً عن

الفدريك بن الريداكون ملك برشلونة في أساطيله البحرية وكانوا فيما قيل سبعين أسطولاً من غربان وشواني، وضايقهم مراراً. ثم تغلبوا عليها فانتهبوا أموالها وحملوا أهلها أسراً وسبياً. فقيل: إنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالرضع في الجبوب، فكانت هذه الواقعة من أشجى الوقائع للمسلمين. ثم بنوا بساحلها حصناً واعتمروه وشحنوه حاميةً وسلاحاً. وفرض عليهم المغرم مائة ألف دينار كل سنة، وأقاموا على ذلك وهلك المراكيا إلى رأس المائة. وبقيت الجزيرة في ملك النصارى إلى أن أعادوها ا لله في أواخر الأربعين والسبعمائة كما نذكر.

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة ظفر العدو بجزيرة ميورقة، ركب إليها طاغية برشلونة في أساطيله في عشرين ألفاً من الرجال المقاتلة ومروا بميورقة كأنهم سفر من التجار وطلبوا من أبي عمر بن حكم ورئيسها النزول للاستسقاء فأذن لهم. فلما تساحلوا آذنوا أهلها بالحرب فتزاحموا ثلاثاً يثخن فيهم المسلمون في كلها قتلاً وجراحة بما يناهز الآلاف، والطاغية في بطارقته قاعد عن الزحف، فلما كان اليوم الثالث واستولت الهزيمة على قومه زحف الطاغية في العسكر فانهزم المسلمون، ولجؤوا إلى قلعتهم فانحصروا بكعابها، وعقدوا لابن حكم ذمة في أهده وحاشيته، فخرجوا إلى سبتة ونزل الباقون على حكم العدو، وسار إلى ميورقة واستولى على ما فيها من الذخيرة والعدة والأمر بيد اللّه.

وفي سنة ست وثمانين وستمائة بعدها غدر النصارى بمرسى الخرز فاقتحموها بعد أن ثلموا أسوارها واكتسحوا ما فيها، واحتملوا أهلها أسرى وأضرموا بيوتها ناراً. ثم مروا بمرسى تونس وانصرفوا إلى بلادهم. وفيها أو في سنة تسع وثمانين وستمائة بعدها نازل أسطول العدو مدينة المهدية، وكان فيها الفرسان لقتالها فزحفوا إليها ثلاثاً ظفر بهم المسلمون في كلها. ثم جاء مدد أهل الأجم فانهزم العدو حتى اقتحموا عليهم الأسطول، وانقلبوا خائبين وتمت النعمة.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي بكر زكريا على الثغر العربي بجاية والجزائر وقسطنطينة وأولية ذلك ومصائره

كان للأمير أبي بكر زكريا ابن السلطان من الترشيح للأمل بهديه وشرف همته وحسن ملكته، ومخالطته أهلا لعلم ما يشهد له بحسن حاله، وهو الذي اختط المدرسة للعلم بإزاء دار الأقوري حيث كان سكناه بتونس، ولما لحق بتلمسان بعد منجاته من مهلك أبيه ببجاية، نزل على صهره عثمان بن يغمراسن بتلمسان، وجاء في أثره أبو الحسن بن أبي بكر بن سيد الناس صنيعة أبيه وأخيه بعد أن خلص مع السلطان أبي حفص من الواقعة إلى مرماجنة. فلما بايع له العرب وبدت مخايل الملك، رأى أبو الحسين إيثار السلطان للفازازي عليهم فنكب عنه، ولحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان واستحثه لطلب ملكه. واستقرض من تجار بجاية هنالك مالاً أنفقه في إقامة أبهة الملك له، وجمع الرجال واصطنع الأولياء.

وفشا الخبر بما يرومه من ذلك، فصده عثمان بن يغمراسن عنه بما كان تقلد من طاعة السلطان أبي حفص على سننهم من الخلفاء بالحضرة قبله، فاعتزم الأمير أبو زكريا على شأنه، وخرج من تلمسان مورياً بالصيد الذي كان يتحله أيام مقامه بينهم، ولحق بداود بن هلال بن عطاف أمير بني يعقوب، وكافة بني عامر من زغبة، أوعز عثمان بن يغمراسن إلى داود برده إليه فأبى من إخفار ذمته، وارتحل معه بقومه إلى آخر بلاد زغبة، ونزلوا على عطية بن سليمان بن سباع من رؤساء الدواودة، فتلقاه بالطاعة وارتحلوا جميعاً إلى ضواحي قسطنطينة فدخل العرب سدويكش في طاعته.

ونزل البلد سنة ثلاث وثمانين وستمائة وعاملها يومئذ أبو يوقيان من مشيخة الموحدين، وكان صاحب الجباية بها أبو الحسن بن طفيل. كان له من العامل صهر فداخل الأمير أبا زكريا في شأن البلد، وشرط لنفسه وصهره فأمضى السلطان شرطهم وأمكنوه من البلد. وأقاموا به دعوته، وارتحل إلى بجاية وكان قد حدث فيها اضطراب بين أهلها أدى إلى الخلاف والتباين، واستحثوا الأمير أبا زكريا فأغذ السير إليهم ودخلها سنة أربع وثمانين وستمائة ويقال: إن ملكه ببجاية كان سابقاً على ملكه بقسطنطينة وهو الأصح فيما سمعناه من شيوخنا. وبعث إليه أهل الجزائر بطاعتهم فاستولى على هذه الثغور القريبة، وتلقب المنتخب لإحياء دين اللّه. وأغفل ذكر أمير المؤمنين أدباً مع عمه الخليفة بالحضرة، حيث ملأ الموحدين أهل الحل والعقد من الجماعة. ونصب للحجابة أبا الحسين بن سيد الناس فقام بها، ورسخ ملكه وملك بنيه بهذه الناحية الغربية، وانقسمت به الدولة إلى أن خلص الأمر للملوك من عقبه واستولوا على الحضرة كما نذكر.

الخبر عن حركة الأمير أبي زكريا إلى ناحية طرابلس ومنازلة عثمان بن يغمراسن بجاية في مغيبه

لما استولى الأمير أبو زكريا على الناحية الغربية، واقتطعها من أعمال الحضرة اعتمل في الحركة على تونس، فنهض إليها في عساكره سنة خمس وثمانين وستمائة، ووفد عليه عبد اللّه بن رحاب بن محمود من مشيخة دباب ومانعه الفزازي عن أحواز تونس فنازل قابس وحاصرها، وكان له في قتالها أثر واستولت الهزيمة على مقاتلتها ذات يوم فأثخن فيهم قتلاً وأسراً، وهدم ربضها وأحرق المنازل في غابتها والنخل، وارتحل إلى مسراته وانتهى إلى الأبيض وأطاعه الجواري والمحاميد وآل سالم وعرب برقة، وبلغه بمكانه من مسراته أن عثمان بن يغمراسن أسف الى منازلة بجاية وكان من خبره أن الأمير أبا زكريا لما فصل من تلمسان لطلب ملكه على كره منه، وامتنع جاره داود بن عطاف من رده، وامتلأ له عداوة وحقداً، وجدد البيعة لصاحب تونس، وأوفد بها علي ابن محمد الخراساني من صنائعه. وكان له أثناء ذلك ظهور على بني توجين ومغراوة بالمغرب الأوسط وضاق ذرع أهل الحضرة بمكان الأمير أبي زكريا من مطالبتهم وتدويخه لقاصيتهم، فداخلوا عثمان بن يغمراسن في منازلة معقله بعد بجاية ليردوه على عقبه عنهم، فزحف إلى بجاية سنة ست وثمانين وستمائة ونازلها أياماً وامتنع عليه سائر ضواحيها فلم يظفر بأكثر من الإطلال عليها. وانكفأ الأمير أبو زكريا راجعاً إلى بجاية سنة ست وثمانين وستمائة إلى أن كان من أمره ما نذكر.

الخبر عن فاتحة استبداد أهل الجريد

كان في بعض الأيام بين سدادة وكنومة من عمل تقيوس فتنة قتل فيها ابن لشيخ سدادة، وأقسم ليثأرن فيه بشيخ كنومة نفسه، وكان عامل توزر محمد بن يحيى بن أبي بكر التينمللي من مشيخة الموحدين فتذمم شيخ كنومة به، وبذل له مالاً على نصره من عدوه، فكاتب الحضرة وأعلن بخلاف أهل سدادة واحتشد لهم أهل نفطة وتقيوس، وخرج هو في حشد أهل توزر وغزاهم في بلدهم ولاذ بإعطاء الرهن، وبذل المال فلم يقبل فأمدهم أهل نفزاوة وزحفوا إليه، فانهزمت جموعه وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً إلى توزر، وذلك سنة ست وثمانين وستمائة. ثم عاود غزوهم عقب ذلك ففتحوا عليه ثم عقد لهم سلماً على الوفاء بمغارمهم واشترطوا أن لا حكم عليهم في سواها، وأن رؤساء نفزاوة منهم، فأمضى شرطهم وكان أول استبداد أهل الجريد كما نذكر.

الخبر عن خروج عثمان ابن السلطان أبي دبوس داعياً لنفسه بجهات طرابلس

كان أبو دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش لما قتل سنة ثمان وخمسين وستمائة، وافترق بنوه وتقلبوا في الأرض، لحق منهم عثمان بشرق الأندلس، ونزل على طاغية برشلونة فأحسن تكريمه، ووجد هنالك أعقاب عمه السيد أبي زيد المتنصر أخي أبي دبوس في مثواهم من إيالة العدو. وكان لهم هنالك مكان وجاه لنزوع أبيهم السيد أبي زيد عن دينه إلى دينهم، فاستبلغوا في مساهمة قريبهم هذا الوافد، وخطبوا له عن الطاعة حظّاً. ووافق ذلك حصول مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجوالي من بني دباب في قبضة أسره، وكان قد أسره العدى من أهل صقلية بنواحي طرابلس سنة اثنتين وثمانين وستمائة وباعوه من أهل برشلونة فاشتراه الطاغية، وقام عنده أسيراً إلى أن نزع إليه عثمان بن أبي دبوس هذا كما ذكرناه. وشمّر لطلب حقّه في الدعوة الموحدية حيث كانت وأمل الظفر في القاصية لبعدها عن الحامية، فعبر البحر إلى طرابلس، وكان من حظوظ كرامته عند الطاغية أن أطلق له مرغم بن صابر، وعقد له حلفاً معه على مظاهرته، وجهز لهما الأساطيل وشحنها بالمدد من المقاتلة والأقوات على مال شرطوه له، فنزلوا على طرابلس سنة ثمان وثمانين وستمائة واحتشد مرغم قومه وحملهم على طاعة ابن أبي دبوس، ونازلوا البلد معه ومع جنده من النصرانية، فحاصروها ثلاثاً، وساء أثرهم فيها. ثم دخل النصارى بأسطولهم وأرسو بأقرب السواحل إلى البلد وتنقل ابن أبي دبوس ومرغم في نواحي طرابلس بعد أن أنزلوا عليها عسكراً للحصار، فاستوفوا من جباية المغارم والوضائع مالاً دفعوه للنصارى في شرطهم، وانقلبوا أسطولهم، وأقام ابن أبي دبوس يتقلب مع العرب. واستدعاه ابن مكي من بعد ذلك لأنه يشبّه به في استبداده، فلم يتم أمره إلى أن هلك بجربة، واللّه وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مهلك أبي الحسين بن سيد الناس صاحب بجاية وولاية ابن أبي جبي مكانه

قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته، وأنه لحق بالأمير أبي

زكريا بتلمسان، وأبلى في خدمته، فلما استولى الأمير أبو زكريا على الثغر الغربي واقتطعه عن أعمال الحضرة، ونزل بجاية وظاهر بها تونس، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته، وفوض إليه فيما وراء بابه وأجراه في رئاسته على سنن أبي الحسين الرئيس قبله في دولة المستنصر الذين كانوا يتلقنون طرقه، وينزعون إلى مراميه، بل كانت رئاسة هذا في حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبي الحسين لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزاحمونه، كما كان ابن أبي الحسين مزاحماً بهم، فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية، وقام بأمر مخدومه أحسن قيام، وصار إلى الحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وتمكن في يده الزمام، إلى أن هلك سنة تسعين وستمائة أعظم ما كان رئاسة وأقرب من صاحبه مكاناً وسرّاً، فأقام الأمير أبو زكريا مكانه كاتبه أبا القاسم بن أبي حي ولا أدري من أوليته أكثر من أنه من جالية الأندلس، وورد على الدولة، وتصرف في أعمالها، واتصل بأبي الحسين بن سيد الناس فاستكتبه، ثم رقاه واستخلصه لنفسه، وأجره رسنه، وتناول زمام الدولة من يد سيد الناس، فقادها في يد مطهر خدمته حتى عنت إليه الوجوه وأمله الخاصة، وأطلع السلطان على اضطلاعه وكفايته في أمور مخدومه. وهلك أبو الحسين ابن سيد الناس، فرشحه السلطان بخطته فقام بها سائر أيامه وصدراً من أيام ابنه الأمير أبي البقاء حتى كان من أمره ما نذكره بعد.

الخبر عن خروج الزاب عن طاعة الأمير أبي حفص إلى طاعة الأمير أبي زكريا صاحب بجاية وانتظام بسكرة في عمله

كان السلطان أبو إسحاق قد عقد على الزاب لفضل بن علي بن مزني من مشيخة بسكرة كما قدمناه، فقام بأمره. ولما هلك السلطان عدا عليه بعض أفاريق العرب الموطنين قرى الزاب بمداخلة قوم من أعدائه، وقتلوه سنة ثلاث وثمانين وستمائة كما نذكره، وأملوا الاستبداد بالبلد فدفعهم عنها المشيخة من بني زيان، واستقلوا بأمر بلدهم وبايعوا للأمير أبي حفص صاحب الحضرة ودانوا بطاعته على السنن. وتوقعوا عادية منصور بن فضل بن مزني. وكان لحق بالحضرة عند مهلك أبيه فخاطبوا فيه السلطان أبا حفص ورموه بالدواهي فأمر باعتقاله، وأودع السجن سبع سنين إلى أن فر منه ولحق بكرفة من أحياء هلال بن عامر، وهم العرب المتولون أمر جبل أوراس، ونزل على الشبه من أفاريقهم فأركبوه وكسبوه ولحق ببجاية سنة إثنتين وتسعين وستمائة فنزل بباب السلطان، ورغبه في ملك الزاب، وصانع الحاجب ابن أبي جبى بأنواع التحف، وضمن له تحويل الدعوة بالزاب للسلطان الأمير أبو زكريا وتسريب جبايته إليه، فاستماله بذلك وعقد له على الزاب وأمده بالعسكر، ونازل بسكرة فامتنعت عليه، ورأى مشيختها بنو رمان بعدهم عن صريخ تونس، وإلحاح عدوهم منصور بن فضل عليهم فأعلنوا بطاعة الأمير أبي زكريا وبعثوا إليه ببيعتهم ووفدهم ودفع عادية بن مزني عنهم، فأرجعهم بما أملوه من القبول، وأن تكون أحكامهم إلى قائد عسكره. ونظر ابن مزني مصروفاً إلى الجباية فقط. ولما وصل الوفد إلى بسكرة خرجوا إلى القائد ومنصور بن مزني، فأدخلوها البلد ودانوا بالطاعة، وتصرفت الأمور على ذلك إلى أن كان من أمر منصور بن مزني ما نذكره في أخباره، ولم يزل الزاب في دعوة الأمير أبي زكريا وبنيه إلى أن استولى على الحضرة بعده بنوه لهذا العهد، كما تراه في الأخبار بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك أبي عبد الله الفازازي شيخ الموحدين والحاجب أبي القاسم بن الشيخ رؤساء الدولة بالحضرة

كان أبو عبد الله الفازازي من مشيخة الموحدين، وكان خالصة للسلطان أبي حفص، وعقد له على العساكر كما قدمناه ودفعه إلى الحروب وتمهيد النواحي، فقام في ذلك المقام المحمود، ودوخ الجهات واستنزل الثوار ودفعهم، وجبى الخراج وكانت له في ذلك آثار مذكورة، وفي بلاد الجريد ومشيختها تصاريف وأحوال، وهو الذي امتحن أحمد بن يملول بسعاية المشيخة من أهل توزر، وكبح عنانه عن مراميه إلى الرئاسة عليهم، وهلك آخر حركاته إلى بلاد الجريد على مرحلتين من تونس سنة ثلاث وتسعين وستمائة ولسنة منها كان مهلك الحاجب أبي القاسم بن الشيخ، وكان من خبر أوليته أنه قدم من بلده دانية إلى بجاية سنة ست وعشرين وستمائة واتصل بعاملها محمد بن ياسين فاستكتبه وغلب عليه.

واستدعى ابن ياسين إلى الحضرة وابن الشيخ في جملته، والتمس السلطان من يرشحه لكتابته ويخف عليه، فأطنب ابن ياسين في وصف كاتبه أبي القاسم بن الشيخ وحلاه، وابتلاه السلطان فلم يرضه وصرفه، ثم راجع رأيه فيه واستحسنه ورسمه في خدمته، وأمر ابن أبي الحسين بتلقينه الآداب وتصريفه في وجوه

الخدمة ومذاهبها. فكان له في ذلك غناء وخفة على مخدومه إلى أن هلك ابن أبي الحسين، وكان الخراج بدار السلطان موقوفاً على نظره من جملة ما إليه، وكان قلمه عاملاً فيه، فأفرد ابن الشيخ بذلك بعد مهلكه إلى آخر أيام السلطان المستنصر. ولما ولي الواثق استبد ابن أبي الحسين عليه كما قلناه، فأبقاه على خطته واختصه لنفسه ودرجه في جملته. ثم جاءت دولة السلطان أبي إسحاق فأقامه في رسمه وزاحمه بأبي بكر بن خلدون صاحب أشغاله.وكانت الرئاسة الكبرى على عهده لبنيه أبي فارس، ثم أبي زكريا وأبي محمد عبد الواحد من بعده. ثم كانت مضلّة الدعي، فاستولى على ملكهم فاستخلص أبا القاسم بن الشيخ، واستضاف له إلى خطة التنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات. فلما ارتجع السلطان أبو حفص ملكه وقتل الدعي، خافه ابن الشيخ لما كان من رتبته عند الدعي، فلاذ بالصلحاء لإشارة من الخير والعبادة وصلت بينهم وبينه فشفعوا له وتقبلها السلطان، وأظهر لهم ذات نفسه في الحاجة إلى استعماله، وقلده حجابته مجموعة الى تنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات. فلما ارتجع السلطان أبو حفص ملكه وقتل الخارج وصرف العلامة إلى غيره من طبقة الدولة، فلم يزل ذلك إلى أن هلك سنة أربع وتسعين وستمائة وبقي اسم الحجابة من بعده في هذه الخطط الثلاث وأمر التدبير والحرب ورئاستهما راجع إلى مشيخة الموحدين إلى أن تصرفت الأحوال، وأديل بعضها من بعض كما يأتيك أثناء الأخبار، وقلد السلطان من بعد ابن الشيخ حجابته لأبي عبد اللّه التحتي من طبقة الجند فقام بها إلى آخر الدولة، واللّه وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مهلك السلطان أبي حفص وعهده بالأمر من بعده

لم يزل السلطان أبو حفص على أكمل حالات الظهور والدعة إلى أن استوفى مدته، وأصابه وجع أول ذي الحجة من سنة أربع وتسعين وستمائة ثم اشتد به الوجع وأهمه أمر المسلمين وما قلدوه من عدتهم فعهد لابنه عبد اللّه بالخلافة ثاني أيام التشريق، ونكره الموحدون لتخلفه عن المراتب لصغره وأنه لم يحتلم وتحدثوا في ذلك. وأفضى الخبر إلى السلطان فأسخطه، وعدل عنهم إلى الشورى مع الولي أبي محمد المرجاني. وكان رأيه فيه جميلاً وظنه به صالحاً. وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو وبنوه بمحبسهم فرت إحدى جواريه، وقد اشتملت على حمل منه إلى رباط هذا الولي فوضعته في بيته، فسماه الشيخ محمداً، وعق عليه وأطعم الفقراء يومئذ عصيدة الحنطة، فلقب بأبي عصيدة إلى آخر الدهر. ثم صار بعد الاختفاء ودواعيه إلى قصورهم ونشأ في ظل الخلفاء من قومه، حيث شب وبقيت له مع الولي أبي محمد ذمة يثابر كل منهما على الوفاء بها، فلما فاوضه السلطان أبو حفص في شأن العهد وقص عليه نكير الموحدين لولده، أشار عليه الشيخ بصرف العهد إلى محمد بن الواثق فتقبل إشارته وعلم ترشيحه، وانفذ بذلك عهده بمحضر الملأ ومشيخة الموحدين، وهلك آخر ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة وإلى اللّه المصير.

الخبر عن بيعة السلطان أبي عصيدة وما كان على أثرها من الأحوال

لما هلك السلطان أبو حفص اجتمع الملأ من الموحدين والأولياء والجند والكافة إلى القصبة، فبايعوا بيعة عامة لولي عهده السلطان أبي عبد اللّه محمد، ويلقب كما ذكرناه بأبي عصيدة ابن السلطان الواثق في الرابع والعشرين لذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة فانشرحت ببيعته الصدور، ورضيته الكافة، وتلقب المستنصر باللّه. وافتتح أمره بقتل عبد اللّه ابن السلطان أبي حفص لمكان ترشيحه، وقلد وزارته محمد ابن يرزيكن من مشيخة الموحدين، وأبقى محمد الشخشي على خطة الحجابة وصرف التدبير والعساكر ورئاسة الموحدين إلى أبي يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني قتيل السلطان المستنصر، عند تعرض ابنه للبيعة، واستنامة الخلافة فقام بما دفع إليه من ذلك. وضايقه فيه عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين قبله، حتى إذا نكب وهلك استبد هو على الدولة، واستقل الشخشي بحجابته. وكان محمد بن إبراهيم بن الدباغ رديفاً له فيها.

وكان من خبر ابن الدباغ هذا أن إبراهيم أباه وفد على تونس في جالية أشبيلية سنة ست وأربعين وستمائة فولد هو بتونس ونشأ بها، وأفاد صناعة الديوان وحسبانه - وكان من المبرزين فيه - أبي الحسن وأبي الحكم ابني مجاهد، وأصهر إليهما في ابنة أبي الحسن فأنكحاه ورشحاه للأمانة على ديوان الأعمال. ولما استقل أبو عبد اللّه الفازازي بالرئاسة استكتبه وكان طياشاً مستضعفاً على الخليفة، فكان كاتبه محمد بن الدباغ يروضه لأغراض الخليفة إذا دسها إليه الحاجب ابن الشيخ، فيقع ذلك من الخليفة أحسن الموقع. ولما ولي السلطان أبو عصيدة وكانت له عنده سابقة رعاها، وكان حاجبه الشخشي بهمة غفلاً عن أدوات

الكتاب، فاستكتب السلطان ابن الدباغ ثم رقاه إلى كتاب علامته سنة خمس وتسعين وستمائة وكان يتصرف فيها فأصبح رديفاً للشخشي في حجابته، وجرت أمور الدولة على ذلك إلى أن هلك الشخشي سنة تسع وتسعين وستمائة فقلده السلطان حجابته فاستقل بها على ما قدمناه من أن التدبير والحرب مصروف إلى مشيخة الموحدين.

الخبر عن نكبة عبد الحق بن سليمان وخبر بنيه من بعده

كان أبو محمد عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين لعهد السلطان أبي حفص، وأصله من تينملل الموطنين بتبرسق مذ أول الدولة، كانت له ولسلفه الرئاسة عليهم، وصارت إليه رئاسة الموحدين كافة بالحضرة أيام هذا السلطان وكان له خالصة وشيعة، وكان حريصاً على ولاية ابنه عبد الله للعهد. وكان يدافع نكير الموحدين في ذلك، فأسرّها له السلطان أبو عصيدة. ولما استوثق له الأمر، وقتل عبد الله بمحبسه، تقبض على أبي محمد بن سليمان واعتقله في صفر سنة خمس وتسعين وستمائة. ولم يزل معتقلاً إلى أن قتل بمحبسه على رأس المائة السابعة، وفر عند نكبته ابناه محمد وعبد الله، فأما عبد الله فلحق بالأمير أبي زكريا، وصار في جملته إلى أن دخل تونس مع ابنه السلطان أبي البقاء خالد. وأما محمد فأبعد المفر ولحق بالمغرب الأقصى، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين بمعسكره من حصار تلمسان، فاستبلغ في تكريمه وأقام عنده مدة. ثم عاود وطنه ونزع عن طريقه إلى النسك ولبس الصوف. وصحب الصالحين وقضى فريضة الحج، وامتد عمره وحسنت فيه ظنون الكافة، واعتقدوا فيه وفي دعائه، وكثرت غاشيته لالتماس البركة منه. وأوجب الخلفاء أزاء ذلك تجلة أخرى، وأوفدوه على ملوك زناتة مرة بعد مرة في مذاهب الود وقصود الخير. وحضر في بعض الجهاد بجبل الفتح عندما نازلته عساكر السلطان أبي الحسن، ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك في الطاعون الجارف في منتصف المائة الثامنة.

الخبر عن مراسلة يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين ومهاداته

كان السلطان أبو عصيدة لما استفحل أمره واستوسق ملكه حدث نفسه بغزو الناحية الغربية وارتجاع ثغورها من يد الأمير أبي زكريا، وكان الأمير أبو زكريا قد انتقض عليه أهل الجزائر بعد مهلك عامله عليها من الموحدين من بني الكمازير، انبرى بها بعده محمد بن علان من مشيختها، واستفحل أمر عثمان بن يغمراسن وبني عبد الواد من ورائه، وتغلبوا على توجين ومغراوة، ومليكش، وكان شيعة لصاحب الحضرة بما كان متمسكاً بدعوتهم ومتقبلاً مذهب أبيه في بيعتهم، فقويت عزائم السلطان أبي عصيدة لذلك، ونهض من الحضرة سنة خمس وتسعين وستمائة وتجاوز تخوم عمله إلى أعمال قسطنطينة، وأجفلت أمامه الرعايا والقبائل وانتهى إلى ميلة، وفيها كان منقلبه إلى حضرته في رمضان من سنته.

ولما ضايق عمل بجاية بغزوه أعمل الأمير أبو زكريا نظره في تسكين الناحية الغربية ليتفرغ عنها إلى مدافعة السلطان صاحب الحضرة، فوصل يده بعثمان بن يغمراسن وأكد معه قديم الصهر بحادث الود والمواصلة. وفي خلال ذلك زحف يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين إلى تلمسان، وألقى عليها بكلكله، واستجاش عثمان بن يغمراسن بالأمير أبي زكريا فأمده بعسكر من الموحدين لقيهم عسكر من بني مرين بناحية تدلس فهزموهم وأثخنوا فيهم قتلاً. ورجع فلهم إلى بجاية وسرح يوسف بن يعقوب عساكر بني مرين إلى بجاية وعقد عليها لأخيه أبي يحيى بعد أن كان عثمان بن سباع قد وفد عليها نازعاً عن صاحب بجاية إليه، ومرغباً له في ملكها، فأوسع له في الحباء والكرامة ما شاء، وبعث معه هذا العسكر فانتهوا إلى بجاية، وضايقوها ثم جاوزوها إلى تاكرارت وبلاد سدويكش، وعاثوا في تلك الجهات ودوخوها وانقلبوا راجعين إلى السلطان يوسف بن يعقوب بمعسكره من تلمسان.

وكان السلطان أبو عصيدة صاحب الحضرة لما علم بإمداد الأمير أبي زكريا لعثمان بن يغمراسن بعث إلى يوسف بن يعقوب عدوهم وحرضه على بجاية ونواحيها، وسفر بينهما في ذلك رئيس الموحدين أبو عبد الله بن أكمارير أولى سفارته. ثم سفر ثانية سنة ثلاث وسبعمائة بهدية ضخمة أغرب فيها بسرج وسيف ومهماز من الذهب مرصعة صنعة الحلى الفاخر من حصباء الياقوت والجوهر. ورافقه في هذه السفارة الثانية وزير الدولة أبو عبد اللّه بن برزيكن ورجعا بهدية ضخمة من يوسف بن يعقوب كان من جملتها ثلثمائة من البغال، واتصلت المخاطبات والسفارات والهدايا والملاطفات. وكان يوسف بن يعقوب يكاتب السلطان في تلك الشؤون تعريضاً ويكاتب رئيس الموحدين أبا يحيى بن اللحياني وتردد عساكر بني مرين إلى نواحي بجاية إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما يأتي في أخباره.

الخبر عن مقتل هداج وفتنة الكعوب وبيعتهم لأبي دبوس وما كان بعد ذلك من نكبتهم

كان هؤلاء الكعوب قد اثرتهم الدولة واصطنعتهم منذ قيامهم بأمر الأمير أبي حفص، فاعتزوا ونموا وبطروا النعمة، وكثر عيثهم وفسادهم وطال إضرارهم بالسابلة وحطمهم للجنات، وانتهابهم للزرع، فاضطغن لهم العامة وحقدوا عليهم سوء آثارهم. ودخل رئيسهم هداج بن عبيد الله سنة خمس وسبعمائة إلى البلد فخزرته العيون وهمت به العامة. وحضر المسجد لصلاة الجمعة فتجنوا عليه بأنه وطيء المسجد بخفيه. وقال: لمن نكرّ عليه ذلك: إني أدخل بهما مجلس السلطان فثاروا به عقب الصلاة وقتلوه، وجروا شلوه في سكك المدينة، فزاد عيثهم وأجلابهم على السلطان، واستقدم أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب لذلك العهد عثمان بن أبي دبوس من مكانه بنواحي طرابلس، ونصبه للأمر، وأجلب به على الحضرة ونازلها.

وخرج إليهم الوزير أبو عبد اللّه بن برزيكن في العساكر فهزمهم، وسار بالعساكر لتمهيد الجهات وتسكين ثائرة العرب، فوفد عليه أحمد بن أبي الليل ومعه سليمان بن جامع من رجالات هوارة بعد أن راجع الطاعة. وصرف ابن أبي دبوس إلى مكانه فتقبض عليهما، وبعث بهما إلى الحضرة فلم يزالا معتقلين إلى أن هلك أحمد بمحبسه سنة ثمان وسبعمائة وقام بأمر الكعوب محمد بن أبي الليل ومعه حمزة ومولاهم ابنا أخيه عمر رديفين له. ثم خرج الوزير بعساكره سنة سبع وسبعمائة، واستوفد مولاهم ابن عمر وتقبض عليه وبعث به إلى الحضرة فاعتقل مع عمه أحمد. وجاهر أخوة حمزة بالخلاف وأتبعه عليه قومه فكثر عيثهم، وأضروا بالرعايا وكثرت الشكاية من العامة، ولغطوا بها في الأسواق وتصايحوا. ثم نفروا إلى باب القصبة يريدون الثورة فسد الباب دونهم فرموا بالحجارة، وهم في ذلك يعتدون ما نزل بهم من الحاجب ابن الدباغ ويطلبون شفاء صدورهم بقتله. ورفع أمرهم الحاجب واستلحمهم جميعاً فأبى من ذلك السلطان وأمره بملاطفتهم إلى أن سكنت هيعتهم. ثم تتبع بالعقاب من تولى كبر ذلك منهم، وانحسم الداء. وكان ذلك في رمضان من سنة ثمان وسبعمائة واستمر العرب في غلوائهم إلى أن هلك السلطان فكان ما يأتي ذكره.

الخبر عن انتقاض أهل الجزائر واستبداد ابن علان بها

قد قدمنا ما كان من انتقاض أهل الجزائر أيام المستنصر ودخول عساكر الموحدين عليهم عنوة، واعتقال مشيختهم بتونس حتى أطلقوا بتونس بعد مهلكه، ولما استقل الأمير أبو زكريا الأوسط بملك الثغور الغربية من بجاية وقسطنطينة. وكان الوالي على الجزائر ابن أكمازير من مشيخة الموحدين فبادر إلى طاعته باتفاق من مشيخة الجزائر، ووفدوا عليه. وكتب لابن أكمازير بولايتها، فلم يزل والياً عليهم إلى أن كان شأن بني مرين وزحفهم إلى بجاية. وكان ابن أكمازير قد أسن وهرم فأدركته الوفاة خلال ذلك. وكان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصاً به ومتصرفاً بأوامره ونواهيه ومصدراً لإمارته.حصلت له بذلك الرئاسة على أهل الجزائر سائر أيامه. ويقال: كان له معه صهر، فلما وصل ابن أكمازير حدثته نفسه بالاستبداد والانتزاء بالجزائر، فبعث عن أهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك أميره، وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد. وشغل الأمير أبو زكريا عنه بما كان من منازلة بني مرين ببجاية إلى أن هلك، وبقيت في انتقاضها على الموحدين آخر الدهر إلى أن تملكها بنو عبد الواد كما نذكره

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية وبيعة ابنه الأمير أبي البقاء خالد

كان الأمير أبو زكريا قد استولى على الثغور الغربية كما قلنا، واقتطعها من أعمال الحضرة، وقسم الدعوة الحفصية بدولتين. وكان على غاية من الحزم والتيقظ والصرامة لم يبلغها سواه. وكان كثير الإشراف على وطنه والمباشرة لأعماله بنفسه وسد خلله. ولم يزل على ذلك إلى أن هلك على رأس المائة السابعة. وكان قد عهد بالأمر لابنه الأمير أبي البقاء خالد سنة ثمان وتسعين وستمائة قبلها وعقد له على قسطنطينة وأنزله بها. فلما هلك الأمير أبو زكريا جمع الحاجب أبو القاسم بن أبي جُبي مشيخة الموحدين وطبقات الجند، وأخذ بيعتهم للأمير أبي البقاء وطير له بالخبر واستقدمه فقدم، وبويع البيعة العامة، وأبقى ابن أبي جُبي على حجابته واستوزر يحيى بن أبي الأعلام، وقدم على صنهاجة أبا عبد الرحمن بن يعقوب بن خلوف منهم، وتسمى المزوار. وقلد رئاسة الموحدين أبا زكريا يحيى بن زكريا من أهل البيت الحفصي واستمر الأمر على ذلك إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله

قد قدمنا ما كان من زحف بني مرين إلى بجاية بمداخلة صاحب تونس. ولما ولي السلطان أبو البقاء اعتزم على المواصلة مع صاحب تونس قطعاً للزبون عنه، وعين للسفارة في ذلك شيخ القرابة ببابه أبا زكريا يحيى بن زكريا الحفصي ليحكم شأن المواصلة بينهما. وبعث معه القاضي أبا العباس الغبريني كبير بجاية وصاحب شوراها، فأدوا رسالتهم وانقلبوا إلى بجاية، ووجد بطانة السلطان السبيل في الغبريني فأغروه به، وأشاعوا أنه داخل صاحب الحضرة في التوثب بالسلطان. وتولى كبر ذلك ظافر الكبير وذكره بجرائره، وما كان منه في شأن السلطان أبي إسحاق وأنه الذي اغرى بني غبرين به، فاستوحش منه السلطان وتقبض عليه سنة أربع وسبعمائة. ثم أغروه بقتله فقتل بمحبسه في سنته تلك، وتولى قتله منصور التركي، والله غالب على أمره.

الخبر عن سفارة الحاجب ابن أبي جُبى إلى تونس وتنكر السلطان له بعدها وعزله

ولما ولي السلطان أبو البقاء كانت عساكر بني مرين مترددة إلى أعمال بجاية بمداخلة صاحب تونس كما ذكرناه، فدوخوا نواحيها. وكان ابن أبي جُبى مستبداً على الدولة في حجابته، فضاق ذرعه بشأنهم وأهمته حال الدولة معهم. ورأى أن اتصال اليد بصاحب الحضرة مما يكف عن عزمهم، فعزم على مباشرة ذلك بنفسه لوثوقه من سلطانه.فخرج من بجاية سنة خمس وسبعمائة وقدم على الحضرة رسولاً عن سلطانه، فاهتزت له الدولة وتُلقي بما يجب له ولمرسله من البر، وأنزله شيخ الموحدين ومدبر الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحياني بداره استبلاغاً في تكريمه. وقضى من أمر تلك الرسالة حاجة صدره، وكانت بطانة الأمير أبي البقاء خالد لما خلا لهم وجه سلطانهم منه تهافتوا على النصح إليه والسعاية بابن أبي جبى عنده.

وشمر لذلك يعقوب بن غمر وجلى فيه وتابعه عليه عبد الله الرخامي كاتب ابن أبي جبى وصديقه بما كان ابن طفيل قريبه يسخط عليه الناس، ويوغر له صدورهم بيأوه وتحقيره بهم، فالحّ له العداوة في كل جائحة وأسخطه على عبد الله الرخامي. وكان صديقه ومداخله فتولى من السعاية فيه مع يعقوب بن غمر كبرها، والقى إلى السلطان أن ابن أبي جبى داخل صاحب الحضرة في تمكينه من ثغور قسطنطينة وبجاية، بما كان على الأمير العامل بقسطنطينة صهراً لابن أبي جبى، وهو الذي ولاه عليها فاستراب السلطان به، ونكر له بعد عوده من تونس. وخشي كل منهما بادرة صاحبه. ثم رغب ابن أبي جبى في قضاء فرضه وتخلية سبيله إليه، فأسف وخرج من بجاية ذاهباً إلى الحج، ولحق بالقبائل من ضواحي قسطنطينة وبجاية فنزل عليهم وأقام بينهم مدة. ثم لحق بتونس وأقام بها إلى حين مهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة أبي بكر الشهيد، وحضر دخول الأمير أبي البقاء عليه بتونس، وخلص من تيار تلك الصدمة فلحق بالمشرق وقضى فرضه. ثم عاد إلى المغرب ومر بإفريقية ولحق بتلمسان وأغرى أبا حمو بالحركة على بجاية فكان ما نذكره.

الخبر عن حجابة أبي عبد الرحمن بن غمر ومصائر أموره

هو يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن غمر السلمي، وكنيته أبو عبد الرحمن. كان جده محمد فيما حدثني أهل بيتهم قاضياً بشاطبة، وخرج مع الجالية أيام العدو إلى تونس، ونزل بالربض الجوفي أيام السلطان أبي عصيدة، وانتقل ابناه أبو بكر ومحمد إلى قسطنطينة ونزلا على ابن أوقيان العامل عليها من مشيخة الموحدين لعهد الأمير أبي زكريا الأوسط، فأوسعهما عناية وتكريماً. وولى أبا بكر على الديوان بالقل واستخلصه لنفسه.وكان يتردد إلى الحضرة ببجاية في شؤونه فاتصل بمرجان الخصي من موالي الأمير أبي زكريا وخواص داره، واستخدم على يده للأمير خالد وأمه من كرائم السلطان، فحظي عندهم وتزوج ابنه يعقوب من ربيبات القصر، وخوله، ونشأ في جو تلك العناية. وأعلنوا بصحبة الحاج فضل قهرمان دار السلطان وخاصته فاستخدم له سائر أيامه إلى أن هلك. وكان الحاج فضل كثيراً ما يتردد إلى الأندلس لاستجلاب الثياب الحريرية من هنالك وانتقاء أصنافها. وكذلك إلى تونس لاستجادة الثياب منها.

وبعثه السلطان آخر أمره إلى الأندلس فاستصحب ابن غمر وهلك الحاج فضل هنالك، فعدل السلطان عن خطاب ابنه محمد إلى خطاب ابن غمر، فأمره بإتمام ذلك العمل والقدوم به، فقدم هو وابنه محمد إلى خطاب ابن غمر، فأمره بإتمام ذلك العمل والقدوم به، فقدم هو وابن الحاج فضل وساءهما السلطان عن عملهما، فكان ابن غمر أوعى من صاحبه فحلي بعينه وخف عليه، واعتلق بذمة من خدمته أحظته عند السلطان ورقته فاستعمل في الجباية. ثم قلد أعمال الأشغال وزاحم ابن أبي جبى

وعبد الله الرخامي، وغصوا به فأغروا السلطان بنكبته، فنكبه وأشخصه إلى الأندلس فأقام هنالك، واستعطف السلطان أبا البقاء بعد مهلك أبيه، وتشفع بوسائل خدمته فاستقدمه. وقدم مع علي وحسين ابني الرنداحي، وركب معهما البحر إلى بجاية في مغيب ابن أبي جبى عن الحضرة فصادف من السلطان قبولاً، وشمر في السعاية بابن أبي جبى مع مرجان إلى أن تم له ما أراد من ذلك. وصرف ابن أبي جبى كما ذكرناه، فقلد السلطان حجابته ليعقوب بن غمر، وقدم على الأشغال عبد الله الرخامي، وكان ناهضاً في أمور الحجابة لمباشرتها مع مخدومه، فأصبح رديفاً لابن غمر وغص بمكانه فأغرى به السلطان ودله على مكامن ثورته وعلى عداوته، فنكب وصودر وامتحن وغرب إلى ميورقة، حتى افتداه يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين من أسره، واستقدمه ليقلده أشغاله عند تنكره لعبد الله بن أبي مدين كما نذكره في أخباره، فهلك يوسف بن يعقوب دون ما أمل من ذلك، وأقام الرخامي بتلمسان وبها كان مهلكه. واستقل يعقوب بن غمر بأعباء خطته واضطلع بها، وفوض إليه السلطان في الإبرام والنقض، فحول المراتب بنظره وأجرى الأمور على غرضه. وكان أول ما أتاه صرعته لمرجان مصطنعه ملأ صدر السلطان عليه، وحذره مغبته فتقبض عليه والقي في البحر فالتقمه الحوت، فخلا وجه السلطان لابن غمر وتفرد بالعقد والحل إلى أن استولى السلطان أبو البقاء على الحضرة وكان من أمره ما نذكره.

الخبر عن ثورة ابن الأمين بقسطنطينة وبيعة السلطان أبي عصيدة ثم فتح السلطان أبي البقاء خالد لها وقتله

كان يوسف بن الأمين الهمداني بعد أن قتله بطنجة أبناء أبي يحيى بن عبد الحق من بني مرين كما يأتي في أخبارهم، انتقل بنوه إلى تونس أيام المستنصر ورعى لهم السلطان وسيلة قيامهم بالدعوة الحفصية أيام أبي علي بن خلاص بسبتة وبعدها إلى أن غلبهم عليها العزفي كما نذكره في أخباره فلقاهم مبرة وتكريماً، ونزلوا من الحضرة خير نزل تحت جراية ونعمة وعناية. وكان كبيرهم متحمقاً متعاظماً فربما لقي في الدولة لذلك عسفاً إلا ان الإبقاء عليهم كان مانعاً من اضطهادهم. ونشأ بنوهم في ظل ذلك النعيم.

ثم هلك السلطان واضطربت الأمور وضرب الدهر ضرباته، ولحق علي منهم بالثغر الغربي، وتأكدت له مع ابن أبي جبى لحمة نسب وذمة صهر ووشجت بينهما عروقها. فلما استقل ابن أبي جبى بحجابة الأمير أبي زكريا لم يأل جهداً في مشاركة علي بن الأمير وترقيته المنازل إلى أن ولاه ثغر قسطنطينة مستقلاً بها وحاجباً للسلطان أبي بكر بن الأمير أبي زكريا، وأنزله معه فقام بحجابته وأظهر فيها غناءه وحزمه، حتى إذا سخط السلطان ابن أبي جُبى وصرفه عن حجابته تنكر أبو الحسن بن الأمين وخشي بوادر السلطان فحول الدعوة إلى صاحب الحضرة وطير إليه بالبيعة، واستدعى المدد والنائب فوصله رئيس الموحدين والدولة أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني، وعقد البيعة لسلطانه سنة أربع وسبعمائة.

وبلغ الخبر إلى السلطان أبي البقاء ببجاية فنهض إليه بالعساكر آخر سنة أربع وسبعمائة، ونازله أياماً فامتنع عليه، وهم بالإفراج عنه. ثم داخل رجل من بطانة ابن الأمين يعرف بابن موزة أبا الحسن بن عثمان من مشيخة الموحدين، وكان معسكره بباب الوادي فناجزهم الحرب من هنالك حتى انتهى إلى السور، فتسنمه المقاتلة بإغضاء ابن موزة لهم عنه، وركب السلطان في العساكر عند الصدمة ووقف على باب البلد، وقد استمكن أولياؤه منه فخرج إليه بنو المعتمد وبنو باديس ومشيخة البلد، فاقتحم البلد عنوة ومضى أبو محمد الرخامي واستنزله. ثم حمله في رجال السلطان إلى دار ابن الأمين فغشيه بها وقد انفض عنه الناس واستخفى بغرفة من غرف داره واستمات، فلاطفه الرخامي واستنزله. ثم حمله على برذون مستدبراً، وأحضره بين يدي السلطان فقتل، ونصب شلوه وأصبح آية للمعتبرين.

الخبر عن حركة السلطان أبي البقاء إلى الجزائر

قد قدمنا ما كان من خبر انتقاض الجزائر على الأمير أبي زكريا واستبداد ابن علان بها. فلما استولى السلطان أبو البقاء على الأمر وتمهدت له الأحوال وأقلع بنو مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب عن تلمسان، أعمل السلطان نظره في الحركة إليها، فخرج إليهم سنة سبع وسبعمائة أو ست وسبعمائة وانتهى إلى متيجه ودخل في طاعته منصور بن محمد شيخ مليكش وجميع قومه ولجأ إليه راشد بن محمد بن ثابت بن منديل أمير مغراوة هارباً أمام بني عبد الواد، فآواه إلى ظله وألقى عليه جناح حمايته. واحتشد جميع من في تلك النواحي من القبائل وزحف إلى الجزائر وأقام عليها أياماً فامتنعت عليه، وانكفأ راجعاً إلى حضرته ببجاية، وأقام

مليكش على طاعته ومطاولته الجزائر بالقتال إلى أن كان من أمرها. وتغلب بنو عبد الواد عليها كما نذكره في أخبارهم.وجاء معه راشد بن محمد إلى بجاية متذمماً لخدمته إلى أن قتله عبد الرحمن بن خلوف كما يذكر في موضعه.

الخبر عن السلم وشروطه بين صاحب تونس وصاحب بجاية

لما افتتح السلطان أبو البقاء خالد قسطنطينة وقتل ابن الأمين وفرغ من ذلك الشأن أدرك أهل الحضرة الندم على ما استدبروا من مهادنة صاحب الثغر، وقارن ذلك مهلك يوسف بن يعقوب الذي كانوا يرجونه شاغلاً له فجنحوا إلى السلم، وبعثوا وفدهم في ذلك إليه فأسدوا وألحموا. وشرط عليهم السلطان أبو البقاء أن من هلك منهما قبل صاحبه فالأمر من بعده للآخر والبيعة له، فتقبّلوا الشرط وحضر الملأ والمشيخة من الموحدين ببجاية، ثم بتونس، فأشهدوا به على أنفسهم، وربط ذلك العهد وأحكمت أواخيه إلى أن نقضه أهل الحضرة عند مهلك السلطان أبي عصيدة كما نذكره.

الخبر عن سفر شيخ الدولة بتونس ابن اللحياني لحصار جربة ومضيه منها إلى الحج

لما انعقد أمر هذا الصلح واستتم، راجع رئيس الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحياني نظره لنفسه، وأعمل فكره في الخلاص ممن استوطنه، وكان يؤمل رجوع الوفد المقربين بالمهدية من أمراء الديار المصرية إلى يوسف بن يعقوب فيصحبهم لقضاء فرضه، وأبطأ عليه شأنهم فاعتزم على قصده ووري بحركته إلى جزيرة جربة لاسترجاعها من أيدي النصارى والرجوع عنها من بعد ذلك إلى الجريد لتمهيد أحواله.وتناول الرأي في الظاهر من أمره مع السلطان فأذن له وسرح معه العساكر فخرج من تونس في جمادى سنة ست وسبعمائة غازياً إلى جربة. ولم يزل يغذ السير حتى انتهى إلى مجازها. ثم عبر منه إلى الجزيرة، وكان النصارى لما تغلبوا عليها سنة ثمان وثمانين وستمائة شيدوا بها حصناً لاعتصام الحامية سموه بالقشتيل، فنزلت العساكر عليه.وانفذ الشيخ أبو يحيى عماله للجباية وأقام في منازلته شهرين. ثم انقطعت الأقوات واستعصى الحصن إلا بالمطاولة فرجع إلى قابس. ثم ارتحل إلى بلاد الجريد وانتهى إلى توزر ونزلها، وأعمل في خدمته أحمد بن محمد بن يملول من مشيختها، فاستوفى جباية الجريد وعاد إلى قابس.

وأنزله عبد الملك بن عثمان بن مكي بداره، وصرح بما روى عنه من حجه. وصرف العساكر إلى الحضرة وولي بعده رئاسة الموحدين وتدبير الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن، وتحول عن قابس إلى بعض جبالها تجافياً عن هوائها الوخم. وأقام في انتظار الركب الحجازي، وكان مريضاً إلى أن أبلّ فتحول إلى طرابلس فأقام بها عاماً ونصفه إلى أن وصل وفد الترك من المغرب الأقصى آخر سنة ثمان وسبعمائة فخرج معهم حاجاً حتى قضى فرضه وعاد فكان من شأنه واستيلائه على منصب الخلافة ما يأتي ذكره.

ووصل مدد النصرانية إلى قشتيل جربة سنة ثمان وسبعمائة بعد منصرف العساكر عنهم، وفيهم فردريك ابن الطاغية صاحب صقلية، فقاتلهم أهل الجزيرة من المكارية لنظر أبي عبد اللّه ابن الحسين من مشيخة الموحدين ومعه ابن أومغار في قومه من أهل جربة فأظفرهم اللّه بهم. ولم يزل شأن هذه الجزيرة من المكان مع العدو كذلك منذ التاثت دولة صنهاجة، وربما وقعت الفتنة بين المكارية فتصل إحدى الطائفتين يدها بالنصارى إلى أن كان ارتجاعها في هذه النوبة سنة.... وأربعين لعهد مولانا السلطان أبي يحيى كما نذكره في أخباره.

الخبر عن مهلك السلطان أبي عصيدة وخبر أبي بكر الشهيد

كان السلطان أبو عصيدة بعد تملي سلطانه، وتمهيد ملكه، طرقه مرض الاستسقاء فازمن منه. ثم مات على فراشه في ربيع الآخر سنة تسع وسبعمائة، ولم يخلف ابناً، وكان بقصرهم سبط من أعقاب الأمير أبي زكريا جدهم ثم من ولد أبي بكر ابنه الذي ذكرنا وفاته في خبر شقيقه أبي حفص في فتح مليانة أيام السلطان المستنصر، فلم يزل بنوه في قصورهم وفي ظل ملكهم. ونشأ منهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر في إيالة السلطان أبي عصيدة، وربى في جميم نعمته. فلما هلك السلطان أبو عصيدة ولم يعقب، وكان السلطان أبو البقاء خالد قد نزع إليه حمزة بن عمر عند إياسه من خروج أخيه من محبسه فرغبه في ملك الحضرة واستحثه عليها. ثم وصل أبو عبد اللّه بن يزريكن فنعى السلطان أبا عصيدة واستنهض السلطان أبا البقاء لملك تونس، فنهض كما نذكر. واستراب الموحدون بتونس في شأن حركته فخافوه على أنفسهم، فبايعوا لهذا الأمير أبي بكر الذي عرف بالشهيد بما كان من قبله لسبع عشرة ليلة من بيعته، وأبقى أبا عبد اللّه بن يرزيكن

على وزارته وزحزح محمد بن الدباغ عن رتبة الحجابة. فتوعده لما كان يحقد عليه من التقصير به أيام سلطانه، فكان عوناً عليه إلى أن هلك عند استيلاء السلطان أبي البقاء كما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي البقاء على الحضرة وانفراده بالدعوة الحفصية

لما بلغ السلطان أبا البقاء بمكانه من بجاية وأعمالها الخبر بمرض السلطان أبي عصيدة مع ما كان من العقد بينهما بأن من مات قبل صاحبه جمع الأمر من بعده للآخر، داخلته الظنة أن ينقض أهل الحضرة هذا الشرط واعتزم على النهوض لمشارفة الحضرة، ووصل إليه حمزة بن عمر نازعاً عنهم، فرغبه واستحثه، وخرج من بجاية في عساكره، وورى بالحركة إلى الجزائر لما كان من انتقاضهم على أبيه، واستبداد ابن علان بها. ثم ارتحل إلى قصر جابر وعند بلوغه إليه ورد الخبر بمهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة الموحدين بعده لأبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا، فاضطغنها على الموحدين.

وأغذ السير وانحاش إليه كافة أولاد أبي الليل واجتمع أقتالهم أولاد مهلهل إلى صاحب تونس، وخرج معهم شيخ الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن والوزير أبو عبد اللّه ابن يرزيكن في العساكر للقاء، ووقوا سلطانهم بأنفسهم. فلما زحف إليهم السلطان أبو البقاء اختل مصافهم وانهزموا وانتهب المعسكر، وقتل الوزير ابن يرزيكن، وأجفلت أحياء العرب إلى القفر، ودخل العسكر إلى البلد واضطرب الأمر، وخرج الأمير أبو بكر بن عبد الرحمن فوقف بساحة البلد قليلاً، ثم تفرق عنه العسكر وتسايلوا إلى السلطان أبي البقاء. وفر أبو بكر ثم أدرك ببعض الجهات فثل إلى السلطان فاعتقله في بعض الفازات، وغدا على السلطان أهل الحضرة من مشيخة الموحدين والفقهاء والكافة فعقدوا بيعته. وقتل الأمير فسمي الشهيد آخر الدهر، وباشر قتله ابن عمه أبو زكريا يحيى بن زكريا شيخ الموحدين.ودخل السلطان من الغد إلى الحضرة واستقل بالخلافة، وتلقب بالناصر لدين اللّه المنصور. ثم استضاف إلى لقبه المتوكل. وأبقى أبا يعقوب بن يزدوتن في رئاسته على الموحدين مشاركاً لأبي زكريا يحيى بن أبي الأعلام الذي كان رئيساً عنده قبلها واستمر على خطة الحجابة أبو عبد الرحمن يعقوب بن غمر، وولى على الأشغال بالحضرة منصور بن فضل بن مزني، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن بيعة ابن مزني ليحيى بن خالد ومصادر أموره

كان يحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحاق في جملة السلطان أبي البقاء خالد، وتنكرت له الدولة لبعض النزعات فخشي البادرة وفر فلحق بمنصور بن مزني. وكان منصور قد استوحش من ابن غمر فدعاه إلى القيام بأمره فأجاب، وعقد له على حجابته، وجمع له العرب وأجلب على قسطنطينة أياماً، وبها يومئذ ابن طفيل، وكانت قد اجتمعت ليحيى بن خالد زعنفة من الأوغاد اشتملوا عليه واشتمل عليهم، وأغروه بابن مزني فوعدهم إلى حين ظفره، واطلع ابن مزني على سوء دخلته ودخلتهم فنفض يده من طاعته، وانصرف عنه إلى بلده، فانفضت جموعه وراجع ابن مزني طاعة السلطان أبي البقاء ومخالصة بطانته وحاجبه فتقبلوه، ولحق يحيى بن خالد بتلمسان مستجيشاً، ونزل على أميرها أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن فهلك لأيام من مقدمه. وولي بعده أخوه أبو حمو موسى بن عثمان فأمده وزحف إلى محاربة قسطنطينة فامتنعت عليه. ثم استدعاه ابن مزني إلى بسكرة فأقام عنده وأسنى له الجراية، ورتب عليه الحرس. وكان السلطان ابن اللحياني يبعث إليه من تونس بالجائزة مصانعة له في شأنه، حتى لقد أقطع له بتونس من قرى الضاحية ما كان للسلطان وابنه، فلم يزل في إسهام بنيه من بعده إلى أن هلك يحيى بن خالد بمكانه عنده سنة إحدى وعشرين وسبعمائة.

الخبر عن بيعة السلطان أبي بكر بقسطنطينة على يد الحاجب ابن عمر وأولية ذلك

لما نهض السلطان أبو البقاء إلى الحضرة عقد على بجاية لعبد الرحمن بن يعقوب بن مخلوف مضافاً إلى رئاسته على قومه كما كانوا يستخلفون أباه عليها عند سفرهم عنها، وكان يلقب المزوار، وجعله حاجباً لأخيه الأمير أبي بكر على قسطنطينة فانتقل إليها. وعكف السلطان أبو البقاء في تونس على لذاته وأرهف حده وعظم بطشه فقتل عدوان بن المهدي من رجالات سدويكش ودعا ابن حريز من رجالات الأثابج، فتفاوض رجال الدولة في شأنه وخشوا بادرته وأعمل الحاجب ابن غمر وصاحبه منصور بن فضل عامل الزاب الحيلة في التخلص من إيالته، واستغضب راشد بن محمد أمير مغراوة، كان نزع إليهم عند استيلاء بني عبد الواد على وطنه فتلقوه من الكرامة بما يناسبه واستقر في جملتهم، وعليه

وعلى قومه كانت تدور رحى حروبهم.

واستصحبه السلطان أبو البقاء خالد إلى الحضرة أميراً على زناتة فرفع بعض حشمه إلى الحاجب في مقعد حكمه، وقد استعدى عليه بعض الخدم فامر بقتله لحينه.

واحفظ ذلك الأمير راشد بن محمد فركب لها عزائمه، وقوض خيامه لحينه مغاضباً، فوجد الحاجب بذلك سبيلاً إلى قصده وتمت حيلته وحيلة صاحبه. وأهم السلطان شأن بجاية ونواحيها، وخشي عليها من راشد بما كان صديقاً ملاطفاً لعبد الرحمن بن الخلوف وفاوضهما فيمن يدفعه إليها، فأشار عليه الحاجب بمنصور بن مزني، وأشار منصور بالحاجب، وتدافعها أياماً حتى دفعهما جميعاً إليها. وطلب ابن غمر من السلطان العقد لأخيه أبي بكر على قسطنطينة فعقد له، وولى علياً ابن عمه على الحجابة بتونس نائباً عنه. وفصل من الحضرة ولحق بقسطنطينة، وصرف منصور بن فضل إلى عمله بالزاب فكان من خلافه ما يذكر.

وقام ابن غمر بخدمة السلطان أبي بكر فتصرف في حجابته. ثم داخله في الانتقاض على أخيه، وبدت مخايل ذلك عليهم فارتاب لهم السلطان أبو البقاء وأحسَّ علي بن غمر بارتيابه فلحق بقسطنطينة. وجهز السلطان أبو البقاء عسكراً وعقد عليها لظافر مولاه المعروف بالكبير، وسرحه إلى قسطنطينة فانتهى إلى باجة وأناخ بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

وبادر ابن غمر إلى المجاهرة بالخلعان ودعا مولانا لسلطان أبا بكر إليه فأجابه، وأخذ له البيعة على الناس فتمت سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وتلقب بالمتوكل وعسكر بظاهر قسطنطينة إلى أن بلغه مجاهرة ابن الخلوف بخلافهم، فكان ما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان على بجاية ومقتل ابن خلوف وما كان من الإدارة في ذلك

كان يعقوب بن الخلوف ويكنى أبا عبد الرحمن كبير صنهاجة جند السلطان الموطنين بنواحي بجاية، وكان له مكان في الدولة وغناء في حروبهم ودفاع عدوهم. ولما نزلت عساكر بني مرين على بجاية مع أبي يحيى بن يعقوب بن عبد الحق سنة ثلاث وسبعمائة، كان له في حروبهم مقامات مذكورة وآثار معروفة. وكان الأمير أبو زكريا وابنه يستخلفونه ببجاية أزمان سفرهم عنها، وكان يلقب بالمزوار. ولما هلك خلفه في سبيله تلك ابنه عبد الرحمن واستخلفه السلطان أبو البقاء على بجاية عندما نهض إلى تونس سنة تسع وسبعمائة وأنزله بها، وكان طموحاً لجوجاً مدلاً ببأسه وقومه ومكانه من الدولة.

فلما دعا السلطان أبو بكر لنفسه وخلع طاعة أخيه، وأخذ له أبو عبد الرحمن بن غمر البيعة على الناس وخاطبوه بأخذ البيعة له على من يليه ببجاية وأعمالها فأبى منها، وتمسك بدعوة صاحبه، ونفس على ابن غمر ما تحصل له بذلك من الحظ فجاهر بخلافهم.

وجمع واحتشد وتقبض على صاحب الأشغال عبد الواحد ابن القاضي أبي العباس الغماري وعلى صاحب الديوان محمد بن يحيى القالون مصطنع الحاجب ابن غمر من أهل المرية كان أسدى إليه عند اجتيازه به معروفاً، ورحل إليه عندما استولى على الرتبة ببجاية، فكافأه عن معروفه واصطنعه وألقى عليه محبته ورقاه إلى الرتب، وصرفه في أعمال الجباية وقلده ديوان بجاية، فتقبض عبد الرحمن بن خلوف عليه وعلى صاحبه. وجمع الناس وأعلن بالدعوة للسلطان أبي البقاء خالد.

وارتحل السلطان أبو بكر من معسكره بظاهر قسطنطينة وأغذ السير إلى بجاية، ونزل مطلاً عليها وأمهل الناس عامة يومهم وشرط ابن الخلوف على السلطان عزل ابن غمر، وترددت الرسل بينهم في ذلك. وكان الوزير أبو زكريا بن أبي الأعلام من الساعين في هذا الإصلاح بما كان له من الصهر مع ابن الخلوف. وحين رجع إليه بامتناع السلطان عن شرطه منعه من الرجوع إليهم وحبسه عنده، وأرجف أهل المعسكر بالسلطان وحاموا عن لقاء صنهاجة ومن معهم من مغراوة أهل الشوكة والعصبية والعديد والقوة.

وأجفل السلطان من معسكره فانتهب وأخذت آلته، وسلب من كان في المعسكر من أخلاط الناس. ودخل السلطان إلى قسطنطينة في فل من عسكره، وبعث ابن خلوف عسكراً في اتباعه فوصلوا إلى ميلة فدخلوها عنوة. ثم وصلوا إلى قسطنطينة فقاتلوها أياماً، ورجعوا إلى بجاية. وأقام السلطان واضطرب أمره، وتوقع زحف ظافر إليه من باجة، واتصل به أن أبا يحيى زكريا بن أحمد اللحياني قفل من المشرق، وأنه لما انتهى إلى طرابلس دعا لنفسه لما وجد بأفريقية من الاضطراب، فبويع وتوافت إليه العرب من كل جهة، فرأى السلطان من مذاهب الحزم أن يبعث إليه بالحاجب ابن أبي عبد الرحمن بن غمر ليشيد من سلطانه، ويشغل أهل الحضرة عنه، فورى بالفرار عن السلطان وتواطأ معه على المكر

بابن خلوف في ذلك.

ولحق ابن عمر باللحياني واستحثه لملك تونس وهون عليه الأمر، وغدا السلطان عند فصول ابن غمر على منازله فكبسها وسطا بحاشيته، وولى حجابته حسن بن إبراهيم بن أبي بكر بن ثابت رئيس أهل الجبل المطل على قسطنطينة والفل من كتامة، ويعرف قومه ببني نليلان، وكان قد اصطنعه من قبل، وارتحل بالعساكر إلى بجاية سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، واستخلف على قسطنطينة عبد الله بن ثابت أخا الحاجب.

وأشيع بالجهات أن السلطان تنكر لابن غمر وسخطه، وأنه ذهب إلى ابن اللحياني واستجاشة على الحضرة، وبلغ ذلك ابن خلوف واستيقن اضطراب حال السلطان خالد بتونس فطمع في حجابة السلطان أبي بكر، وتوثق لنفسه منه بالعهد بمداخلة عثمان بن شبل بن وعثمان بن سباع بن يحيى من رجالات الدواودة والولي يعقوب الملاري من نواحي قسطنطينة.

وأغذ السير من بجاية ولقي السلطان بفرجيوه من بلاد سدويكش فلقاه مبرة ورحباً. ثم استدعاه من جوف الليل إلى رواقه في سرب من مواليه المعلوجي فعاقرهم الخمر إلى أن ثمل، واستغضبوه ببعض النزعات فغضب وأقذع فتناولوه طعناً بالخناجر إلى أن قتلوه، وجروا شلوه فطرحوه بين الفساطيط، وتقبض على سائر قومه وحاشيته، وفر كاتبه عبد الله بن هلال فلحق بالمغرب. وارتحل السلطان مغذاً إلى بجاية فدخلها على حين غفلة من أهلها واستولى السلطان على سائر المملكة التي كانت تحت إيالة ابنه بالجهة المعروفة بالناحية الغربية، واستوثق له أمرها، وأقام في انتظار حاجبه ابن غمر إلى أن كان من الأمر ما نذكره.

الخبر عن مهلك السلطان أبي البقاء خالد واستيلاء السلطان أبي يحيى بن اللحياني على الحضرة

كان السلطان أبو البقاء خالد بعد بيعة السلطان أبي بكر بقسطنطينة قد اضطربت أحواله وجهز إليه العساكر لمنازلة قسطنطينة، وعقد عليها لمولاه ظافر المعروف بالكبير فعسكر بباجة وأراح ينتظر أمر السلطان. وكان أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني بن أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص قد بويع بطرابلس لما قفل من المشرق، ورأى اضطراب الأحوال ووفد عليه الحاجب أبو عبد الرحمن بن غمر بهدية من السلطان أبي بكر، وأنه مُمِده ومظاهره على شأنه، فأحكم ذلك من عقدته وشد من أسره، وتوافت إليه رجالات الكعوب أولاد أبي الليل وغيرهم، فبايعوه واسحثوه للحضرة فارتحل إليها وبعث في مقدمته أولاد أبي الليل ومعهم شيخ دولته أبو عبد الله محمد بن محمد المزدوري فأغذوا السير إلى الحضرة.

وبعث السلطان إلى مولاه ظافر بمكانه من باجة مستجيشاً به، فاعترضوه قبل وصوله وأوقعوا به واعتقلوا ظافراً وصبحوا تونس ثامن جمادى سنة إحدى عشرة وسبعمائة ووقفوا بساحتها فكانت هيعة بالبلد قتل فيها شيخ الدولة أبو زكريا الحفصي، وعدا القاضي أبو إسحاق بن عبد الرفيع على السلطان وكان متبوعاً صارماً قوي الشكيمة، فأغراه بمدافعة العدو فخام عن لقائه، واعتذر بالمرض وأشهد بالانخلاع عن الأمر وحل البيعة. ودخل أبو عبد الله المزدوري القصر فاستمكن من اعتقاله.

ثم جاء السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني على أثره ثاني رجب فبويع العامة بظاهرها ودخل إلى البلد، واستولى عليها، وولى على حجابته كاتبه أبا زكريا يحيى بن علي بن يعقوب، على الأشغال بالحضرة ابن عمه محمد بن يعقوب، وبنو يعقوب هؤلاء أهل بيت بشاطبة من بيوت العلم والقضاء، وقدموا إلى الحضرة مع الجالية، وكان منهم أبو القاسم عبد الرحمن بن يعقوب، وفد مع ابن الأمين صاحب طنجة كما قدمناه. وتصرف في القضاء بإفريقية، وولاه السلطان المستنصر قضاء الحضرة. وسفر عنه إلى ملوك مصر، وكان بنو علي هؤلاء عبد الواحد ويحيى ومحمد من أقاربه، فكان لهم ظهور في دولة السلطان أبي حفص وبعدها، وكان عبد الواحد منهم صاحب جباية الجريد، وهلك بتوزر سنة اثنتين وسبعمائة. وكان السلطان أبو يحيى بن اللحياني قد استكتب أخاه أبا زكريا يحيى أيام رئاسته على الموحدين فحظي عنده واختصه ولازمه وحج معه. فلما ولي الخلافة أحظاه وولاه حجابته. ولما استقر بتونس استوثق له الأمر أعاد الحاجب أبا عبد الرحمن بن غمر إلى مرسله السلطان أبي يحيى بعد أن وثق العهد معه على المهادنة، وضمن له ابن غمر من ذلك ما رضيه وتمسك بابن عمه على ابن غمر فأقام عنده مكرماً متسع الجراية والإسهام إلى أن كان من الأمر ما نذكر.

الخبر عن قدوم ابن غمر على السلطان ببجاية ونكبة ابن ثابت وظافر الكبير

لما قدم ابن غمر على بجاية استبد بحجابته وكفالته كما كان،

وليوم وصوله فر عبد اللّه بن هلال كاتبه ابن خلوف، ولحق بتلمسان وشمر ابن غمر عزائمه للاضطلاع بأمره، ودفع حسن بن إبراهيم بن ثابت عن الرتبة فلم يتزحزح له، وخرج لجباية الوطن. ثم أغرى به السلطان وحذره من استبداده بقسطنطينة لمكان معقله المجاور لها وسعايات تنصح بها حتى صادفت القبول لمكانه والوثوق بنصائحه.

وخرج السلطان في العساكر من بجاية إلى قسطنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة للنظر في أحوالها. فلما انتهى إلى فرجيوه لقيه عبد اللّه بن ثابت فتقبض عليه وعلى أخيه حسن بن الحاجب سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وقتلهما بعد أن استصفى أموالهما، ويقال: إنه بعد خروج حسن بن ثابت إلى أعمال قسطنطينة بعث في أثره بعض مواليه، وأوعز معهم إلى عمل عبد الكريم بن منديل ورجالات سدويكش فقتلوه بوادي القطن. وأن السلطان لم يباشر نكبته، وكان ظافر الكبير بعد انهزامه وحصوله في أسر العرب كما قدمناه امتنعوا عليه وأطلقوه، ولحق بالسلطان أبي بكر فآثره واستخلصه كما كان لأخيه، وولاه على قسطنطينة عند نكبة ابن ثابت. واستكتب له أبا القاسم بن عبد العزيز لخلوه من الأدوات فأقام ظافراً والياً بقسطنطينة. ثم استقدمه السلطان إلى بجاية وقد غص ابن غمر بمكانه، فأغرى به السلطان فتقبض عليه وأشخصه في السفين إلى الأندلس.

الخبر عن منازلة عساكر بني عبد الواد ببجاية وما كان في أثر ذلك من الأحداث

كان السلطان أبو يحيى بعد انهزامه عن بجاية سنة عشر وسبعمائة وبعث سعيد بن يخلف عن مواليه إلى أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن. وكان قد أتيح له في زناتة المغرب الأوسط ظفر واعتزاز. وتملّك أمصارهم من أيدي بني مرين من بعد مهلك يوسف بن يعقوب على تلمسان ودوخ جهاته، واستولى على أعمال مغراوة وتوجين، وملك الجزائر، واستنزل منها ابن علان الثائر بها وملك تدلس من يد ابن خلوف فبعث إليه السلطان في المواصلة والمظافرة، وأن تكون يدهما على ابن خلوف واحدة، فطمع لذلك موسى بن عثمان في ملك بجاية. ثم بلغه مهلك ابن خلوف واستيلاء السلطان على ثغره فاستمر على المطالبة.

وادعى أن بجاية له في شرطه، وقارن ذلك لحاق صنهاجة إليه عند مهلك صاحبهم فرغبوه في ملك بجاية وضمنوا له أمرها. ثم قدم عثمان بن سباع بن يحيى مغاضباً للسلطان لما كان من افتياته عليه في ابن خلوف وإخفار ذمته وعهده فيه، واستقر عنده ابن أبي جبى منذ منصرفه عن الحجابة، ورجوعه من الحج فرغبوه في ذلك واسحثوه لطلب بجاية، فسرح العساكر إليها لنظر محمد ابن عمه يوسف بن يغمراسن ومسعود ابن عمه أبي عامر إبراهيم ومولاه مسامح. وبعث معهما أبا القاسم ابن أبي جبى الحاجب ففصلوا عنه بدار مقامه بشلف، فأغذوا السير. وهلك ابن أبي جبى بجبل الزاب ونازلوا البلد. ثم جاوزوها إلى الجهات الشرقية فأثخنوا فيها ودخلوا جبل ابن ثابت، واستولوا عليه واستباحوه سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.

ونالت منهم الحامية في المدافعة بالقتل والجراحة أعظم السيل، وقفلوا راجعين فشيدوا حصناً بأصفون وشحنوه بالأقوات. ولما وصل محمد بن يوسف ومسامح وبجهما وطوفهما ذنب القصور والعجز وعزلهما. وبعث السلطان عسكراً في البر وأسطولاً في البحر بعد رجوعه من قسطنطينة سنة أربع عشرة وسبعمائة لهدم حصن بني عبد الواد بأصفون، فخرب وانتهبت أقواته وعدده، وسرح أبو حمو عسكراً لحصار بجاية عقد عليه لمسعود ابن عمه أبي عامر بن إبراهيم بن يغمراسن، فنازلوها سنة خمس عشرة وسبعمائة واتصل لهم خروج محمد بن يوسف بن يغمراسن وبني توجين معه على أبي حمو، وأنهم أوقعوا به وهزموه، واستولوا على معسكره، فأجفل مسعود بن أبي عامر وعسكره وأفرجوا عن بجاية. ووصل على أثرها خطاب محمد بن يوسف بالطاعة والانحياش، فبعث السلطان إليه صنيعته محمد بن الحاج فضل بالهدية والآلة، ووعده بالمظاهرة وتسويغ الأسهام التي كانت ليغمراسن بإفريقية. وشغل بنو عبد الواد عن بجاية، وخرج السلطان في عساكره للإشراف على وطنه إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن استبداد ابن غمر ببجاية

لم يزل ابن غمر مستبداً على السلطان في حجابته يرى أن زمامه بيده وأمره متوقف على إنفاذه. وصار يغريه ببطانته فيقتلهم ويغربهم وربما كان السلطان يأنف من استبداده عليه. وداخله بعض أهل قسطنطينة سنة ثلاث عشرة وتسعمائة في اغتياله ابن غمر فهموا بذلك، ولم يتم ففطن لها ابن غمر فأوقع بهم وقسمهم بين النكال والعذاب فرقاً. ثم رجع السلطان إلى بجاية سنة ثلاث عشرة وسبعمائة لما أهمهم حصاره، واتصلت حاله معه على ذلك النحو من الاستبداد إلى أن بلغ السلطان أشده وأرهف حده وسطا لمحمد بن فضل فقتله في خلوة معاقرته من غير مؤامرة الحاجب.

وباكر ابن غمر مقعده بباب السلطان فوجد شلوه ملقى في الطريق مضرجاً في ثيابه، وأخبر أن السلطان سطا بـه فداخلـه الريب مـن استبداد السلطان وإرهاف حـده، وخشـي بـوادره، وتوقـع سـعاية البطانة ونجي الخلوة. فتحيل في بعده عنـه واسـتبداده بـالثغر دونـه فأغراه بطلب إفريقية من يد ابن اللحياني، وجهزه بما يصلحـه مـن الآلة والفساطيط والعساكر والخدام، ورتـب لـه المراتـب. وارتحـل السلطان إلى قسطنطينة سنة خمس عشرة وسبعمائة ثم تقـدم غازيـاً إلى بلاد هوارة، وأجفل عنها ظافراً بمن تعاطى قائدها من مواليهم. فاستوفى جبايـة هـوارة، وقفـل إلى قسـطنطينة سـنة سـت عشـرة وسبعمائة واستبد ابن غمر ببجاية ومدافعة العدو من زناتة عنها.

واستخلف على حجابته السلطان محمد بن القالون، وقـرت عينه بما كان يؤمل من استبداده إلى أن كان من أمره ما نذكر.

الخبر عن سفر السلطان أبي يحيى بن اللحياني إلى قابس وتجافيه عن الخلافة

كان هذا السلطان أبو يحيى بن اللحياني قد طعن في السـن، وكان بصيراً بالسياسة مجرباً للأمور، وكان يرى مـن نفسـه العجـز عن حمل الخلافة واستحقاقها مع أبنـاء الأمـير أبـي زكريـا الأكـبر. وعلم مع ذلك استفحال صاحب الثغور الغربيـة الأمـير أبـي بكـر واستغلاظ أمره بمن انتظم في ملكه، وارتسم في ديـوان جنـده مـن أعياص زناتة وفحول شلولهم من توجين ومغراوة وبني عبد الـواد وبني مرين.

كانوا يـنزعون إليـه مـع الأيـام عـن ملوكهـم خشـية علـى انفسهم لما قـاسموهم في النسب وسـاهموهم في يعسـوبية القبيـل وفحولية الشول، ومنهم من غلبوا على مواطنهم فملكوها عليهـم مثل مغراوة وبني توجين ومليكش، فاستكثف بذلك جند السلطان وكثرت جموعه وهابه الملوك.

ونهض سنة ست عشرة وسبعمائة إلى إفريقية وجال في بلاد هوارة وأخذ جباياتها كمـا ذكرنـا، فتوقـع السـلطان ابـن اللحيـاني زحفه إليه بتونس. وكانت إفريقية مضطربة عليه، وكـان تعويلـه في الحماية والمدافعة على أوليائه من العرب، تولى منهم حمزة بن علـي بن عمر بن أبي الليل فحكمه في أمره وأشركه في سلطانه، وأفـرده برئاسة العرب وأجره الرسن، وسرب إليه الأمـوال، وكـثر بذلـك زبون العرب واختلافهم عليه، فاعتزم على التقويض عـن إفريقيـة ونفض اليد من الخلافة، فجمع الأموال والذخيرة، وبـاع مـا كـان بمودعاتهم من الآنيـة والفـرش والخرثـي والمـاعون والمتـاع، حتـى الكتب التي كان الأمير أبو زكريا الأكـبر جمعهـا واسـتجاد أصولهـا ودواوينها، أخرجت للوارقين فبيعت بدكاكينهم. فجمع مـن ذلـك - زعموا - قناطير من الذهب تجاوز العشرين قنطـاراً وجواليقـين من حصى الدر واليـاقوت، وخـرج مـن تونـس إلى قـابس موريـاً بمشارفة عملها فـاتح سنة سبع عشـرة وسـبعمائة بعـد أن رتـب الحامية بالحضرة وباجة والحمامات، واستخلف بالحضرة أبا الحسن بن وانودين وانتهى إلى قابس فأقام بها، وصرف العمال في جهاتها إلى أن كان من بيعة ولده بتونس ما نذكره بعد إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن نهوض السلطان أبي بكر إلى الحضرة ورجوعه إلى قسطنطينة

لما خرج السلطان من هوارة إلى قسطنطينة سنة ست عشـرة وسبعمائة كما قدمناه استبلغ في جهـاد حركـة أخرى إلى تونـس، فاحتشد وقسم العطاء وأزاح العلل، واعترض الجنود عن طبقاتهم مـن زناتـة والعـرب وسـدويكش. واسـتخلف علـى قسـطنطينة الحاجب محمد بن القـالون وبعـث إلى حاجبـه الأعظـم أبـي عبـد الرحمن بـن غمـر بمكانـه مـن إمـارة بجايـة في مـدد المـال للنفقـات والأعطيات. فبعث إليه منصور بن فضل بن مزني عـامل الـزاب، وكان ابن غمر لما رأى من كفايته وأنه جماعة للمال، اسـتضاف لـه عمل جبل أوراس والحضنة وسـدويكش وعيـاض وسـائر أعمـال الضاحية، فكانت أعمال الجبايـة كلهـا لنظـره، وأموالهـا في حسـان دخله وخرجه، فبعثه ابن غمر ليقيـم إنفـاق السـلطان. واسـتخلفه على خطة حجابته، وارتحل السلطان من قسطنطينة في جمادي سـنة سبع عشـرة وسـبعمائة يطـوي المراحـل. ولقيـه في طريقـه وفـود العرب، وانتهى إلى باجة فانفضت حاميتها إلى تونس.

وكان السلطان أبو يحيى بـن اللحيـاني قـد خـرج عنهـا إلى قابس كما قدمناه، واستخلف عليها أبا الحسن بن وانودين، وبعث إليه بنهوض السلطان أبي بكر إلى تونس، وأنه محتـاج إلى المدافعـة، فاعتذر لهم اللحياني بما قبله من الأموال، وأطلق يدهم في الجيـش والمال، فاركبوا واستحلقوا ورتبوا الديـوان، وأخرجـوا ابنـه محمـداً ويكنى أبا ضربة فأطلقوه من اعتقاله.

وبغتهـم الخـبر بإشـراف السـلطان أبـي بكـر علـى باجـة، فخرجوا جميعاً من تونس، وخالفهم إلى السلطان مولاهم ابن غمر بن أبي الليـل. كـان مضطغنـاً مـع الدولـة متربصـاً بهـا، لمـا كـان اللحياني يؤثر عليه أخـاه حمـزة، فلقـي السـلطان في دويـن باجـة، فأعطاه صفقته واستحثه، ووصل إلى تونس، فنزل روض السناجره

من رياض السلطان في شعبان من سنة سبع عشرة وسبعمائة وخرج إليه الملأ وترددوا في البيعة بعض الشيء انتظاراً لشأن أبي ضربة وأصحابه. وكان من خبرهم أن السلطان لما أغذ السير من باجة بادر حمزة بن عمر إلى بطانة اللحياني وأوليائه بتونس، فلقيهم وقد خرجوا عنها، فأشار عليهم ببيعة أبي ضربة بن السلطان اللحياني ومزاحمة القوم به، فبايعوه وزحفوا إلى لقاء السلطان.

ودس حمزة إلى أخيه مولاهم أن يزحف بالمعسكر فأجفل السلطان من مقامته بروض السناجره لسبعة أيام من احتلاله قبل أن يستكمل البيعة، وارتحل إلى قسطنطينة ورجع عنه مولاهم من تخوم وطنه، وسرح منصور بن مزني إلى ابن غمر ببجايه ودخل أبو ضربة بن اللحياني والموحدون إلى تونس منتصف شعبان من سنته. وبويع بالحضرة البيعة العامة وتلقب بالمستنصر. وأراد أهل تونس على إدارة سور بالأرباض فيكون سياجاً عليها، فأجابوه إلى ذلك وشرع فيه، وأرهقه العرب في مطالبهم واشتطوا عليه في شروطهم إلى أن عاود مولانا السلطان حركته كما نذكر.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر على الحضرة وإيقاعه بأبي ضربة وفرار أبيه من طرابلس إلى المشرق

لما قفل السلطان من تونس إلى قسطنطينة بعث قائده محمد بن سيد الناس بين يديه إلى بجاية فارتاب ابن غمر بوصوله، وتنكر له وشعر السلطان بذلك وأغضى له عنها وطالبه في المدد، فاحتفل في الحشد والآلة والأبنية. وبعث إليه سبعة من رجال الدولة بسبعة عساكر وهم: محمد بن سيد الناس، ومحمد بن الحكم، وظافر السنان وأخوه من موالي الأمير أبي زكريا الأوسط، ومحمد المديوني ومحمد الجرسي ومحمد البطوني. وبعث له من فحول زناتة وعظمائهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين، كان ارتحل إليه من الأندلس كما نذكر في خبره، وأبا رشيد بن محمد بن يوسف من أعياص بني عبد الواد فيمن كان معهم من قومهم وحاشيتهم.

وتوافوا بعساكرهم عند السلطان بقسطنطينة، فاعتزم على معاودة الزحف إلى تونس، وكان قد اختبر أحوال إفريقية وأحسن في ارتيادها، فخرج في صفر من سنة ثماني عشرة وسبعمائة واستعمل على حجابته أبا عبد اللّه بن القالون، ومرادفه أبو الحسن بن عمر ووافاه بالأربس وفد هوارة وكبيرهم سليمان بن جامع، وأخبروه بأن أبا ضربة بن اللحياني أجفل من باجة بعد أن نزلها معتزماً على اللقاء، فارتحل مولانا السلطان مغذاً ولقيه مولاهم ابن غمر فراجع الطاعة، وارتحلوا في أتباع أبي ضربة وجموعه حتى شارفوا على القيروان، فخرج إليه عاملها ومشيختها فألقوا إليه باليد وأعطوا الطاعة.

وارتحل السلطان راجعاً عن اتباع عدوه إلى الحضرة وقد ترك بها أبو ضربة بن اللحياني من بطانتة محمد بن الغلاق ليمانع دونها، فأخرج الرماة إلى ساحتها وقاتل العساكر ساعة من النهار. ثم اقتحموها عليه، واستبيح عامة أرباضها وقتل ابن الغلاق ودخل السلطان إلى الحضرة في ربيع من سنته، فأقام خلال ما انعقدت العامة. وقدم على الشرطة ميمون بن أبي زيد واستخلفه على البلد. ورحل في أتباع أبي ضربة بن اللحياني وجموعه فأوقع بهم بمصوح من جهات بلاد هوارة.

وقتل من مشيخة الموحدين أبو عبد اللّه بن الشهيد من أهل البيت الحفصي، وأبو عبد اللّه بن ياسين. ومن طبقات الكتاب أبو الفضل البجائي وتقبض على شيخ الدولة أبي محمد عبد اللّه بن يغمور. وقيد إلى السلطان فعفا عنه ونوهه ليومه. ثم أعاده إلى خطته بعد ذلك. ورجع السلطان إلى تونس في رجب من سنته. وكان السلطان أبو عيسى بن اللحياني لما بلغه الخبر بنهوض السلطان إلى تونس حركته الثانية سنة سبع عشرة وسبعمائة وما كان من بيعة الموحدين والعرب لابنه أبي ضربة، ارتحل من مقامته بقابس إلى نواحي طرابلس. ثم بلغه رجوع السلطان إلى قسطنطينة فأوطن طرابلس فبنى مقعداً لملكه بسور البلد مما يلي البحر سماه الطارمة، وبعث العمال في الجهات لجباية الأموال، وبعث على جبال طرابلس أبا عبد اللّه بن يعقوب قريب حاجبه ومعه هجرس بن مرغم كبير الجواري من دباب فدوخ البلاد وفتح المعاقل وجبى الأموال وانتهى إلى برقة. واستخدم آل سالم وآل سليمان من عرب ذباب، ورجع إلى سلطانه بطرابلس ووافاه الخبر بانهزام أبي ضربة ابنه، فبعث حاجبه أبا زكريا بن يعقوب ووزيره أبا عبد اللّه بن ياسين بالأموال لاحتشاد العرب، ففرقوها في علاق ودباب وزحف أبو ضربة إلى القيروان. وبلغ خبره إلى السلطان أبي بكر فخرج من تونس آخر شعبان سنة ثمان عشرة وسبعمائة فأجفلوا عن القيروان. ثم تدامروا وعقلوا رواحلهم مستميتين بزعمهم حتى أطلت عليهم العساكر بمكان فج النعام، فانفضّت جموعهم وشردت رواحلهم وارتحلوا منهزمين، والقتل والنهب يأخذ منهم مأخذه. ونجا أبو ضربة في فله إلى المهدية، وكانوا مقيمين على دعوة أبيه فامتنع بها إلى أن كان من شأنه ما سنذكره.

وبلغ الخبر إلى أبيه بمكانه من طرابلس فاضطرب معسكره وبعث إلى النصارى في أسطول يحمله إلى الإسكندرية فوافوه بستة أساطيل فاحتمل أهله وولده، وركب البحر ومعه حاجبه أبو زكريا بن يعقوب إلى الإسكندرية، واستخلف على طرابلس أبا عبد اللّه بن أبي عمران من ذوي قرابته وصهره، فلم يزل بها إلى أن استدعاه الكعوب ونصبوه للأمر، وأجلبوا به على السلطان مراراً كما نذكره بعد. وركب السلطان أبو يحيى بن اللحياني البحر إلى الإسكندرية فنزل بها على السلطان محمد بن القالون من ملوك الترك بمصر والشام واستقدمه إلى مصر فعظم من مقدمه واهتز للقائه ونوه من مجلسه، وأسنى من جرايته وأقطاعه إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ورجع السلطان أبو بكر إلى تونس بعد الواقعة على أبي ضربة وقومه بفج النعام، فدخلها في شوال من سنته. واستقامت إفريقية على طاعته، وانتظمت أمصارها وثغورها في دعوته إلى المهدية وطرابلس كما ذكرناه إلى أن كان ما يأتي ذكره.

الخبر عن مهلك الحاجب ابن عمر ببجاية وولاية الحاجب محمد بن القالون عليها ثم الإدالة منه بابن سيد الناس

كان الحاجب بن عمر لما استبد ببجاية سنة خمس عشرة وسبعمائة، انتقل السلطان إلى قسطنطينة ولم يراجعها بعد. ثم لما رجع من تونس ثانية حركاته سنة سبع عشرة وسبعمائة صرف إليه منصور بن فضل وبعث في أثره قائده أبا عبد اللّه محمد بن حاجب أبيه الحسن بن سيد الناس يهيىء له قصوره ببجاية للتحول إليها، فرده ابن غمر وتنكر له وطالبه السلطان في المدد فبادر به فاقطعه جانب الرضا. وعقد له على بجاية وقسطنطينة كما ذكرنا ذلك كله قبل. فاستبد ابن غمر بالثغر وما إليه من الأعمال مقتصراً على ذكر السلطان في الخطبة واسمه في السكة. وأقام على ذلك إلى أن ملك السلطان تونس واستولى على جهاتها، وبعث إليه بابن عمه محمد بن غمر فعقد أبو عبد الرحمن الحاجب على قسطنطينة فمضى إليها، وهو في خلال ذلك كله يدافع عساكر زناتة عن بجاية.

وقد كان أبو حمو صاحب تلمسان بعد ظهوره على محمد بن يوسف واسترجاعه بلاد مغراوة وتوجين من يده كما قدمناه يسرب العساكر لحصارها. وابتنى بالوادي على مرحلتين منها قلعة تكر ليجمر بها الكتائب لحصارها. ثم هلك أبو حمود وولي ابنه أبو تاشفين من بعده سنة ثمان عشرة وسبعمائة فتنفس فخنق الحصار عن بجاية ريثما كانت حركة السلطان إلى تونس وفتحها. ثم خرج أبو تاشفين من تلمسان لتمهيد أعماله، وقتل محمد بن يوسف بمعقله من جبل وانشريش كما ذكرناه في أخبارهم، فارتحل من هنالك غازياً إلى بجاية، فأطل عليه في سنة تسع عشر وسبعمائة وبدا له من حصنها وكثرة مقاتلتها وامتناعها ما لم يحتسب فانكفأ راجعاً إلى تلمسان، وأصاب ابن غمر المرض فبعث إلى علي ابن عمه بمكان عمله بقسطنطينة، وعهد إليه بأمره والقيام بولاية بجاية إلى أن يصل أمر السلطان.

وهلك لأيام على فراشه في شوال من سنة تسع عشرة وسبعمائة، وقام علي بن غمر بأمر بجاية، واتصل الخبر بالسلطان فاهمه شأن الثغر. وطير ابن سيد الناس إليه مع قهرمانة داره لتحصيل تراثه والبحث عن ذخيرته فاستوفى من ذلك فوق الكثرة من الصامت والذخيرة، وقدم به على السلطان واستقدم معه علي بن غمر، فأولاه السلطان من رضاه ما أحسب أمله، وأقام بالحضرة إلى أن كان منه خلاف مع ابن عمران. ثم راجع الطاعة وقد أحفظ السلطان بولاية عدوه. فلما عاد إلى تونس أوعز إلى مولاه نجاح وهلال بقتله، فاغتالوه خارجاً من بستانه فأشووه، وهلك من جراحته.

الخبر عن إمارة الأمير أبي عبد اللّه على قسطنطينة وأخيه الأمير أبي زكريا على بجاية وتولية القالون على حجابته

لما هلك ابن غمر أهم السلطان شأن بجاية بما كانت عليه من شأن الحصار، ومطالبة بني عبد الواد لها فرأى أن يكثف الحامية بالثغور الغربية وينزل بها أبناءه للمدافعة والحماية، وعقد على قسطنطينة لابنه الأمير أبي عبد اللّه وعقد على بجاية لابنه الآخر الأمير أبي زكريا وجعل حجابتها لأبي عبد اللّه بن القالون مستبداً عليهما لمكان صغرهما، وأكثف له الجند وأمره بالمقام ببجاية لمانعتها من العدو الملح على حصارها وارتحلوا من تونس فاتح سنة عشرين وسبعمائة في احتفال من العسكر والصحاب والأبهة. وأبقى خطة الحجابة خلواً ممن يقوم بها. وأبقى على ابن القالون. وبقي للتصرف في الأمور من رجالات السلطان أبو عبد اللّه محمد بن عبد العزيز الكردي الملقب بالمزوار. وكان مقدماً على بطانة السلطان المعروفين بالدخلة. وعلى الأشغال الكاتب أبو القاسم بن عبد العزيز، وسنذكر أوليتهما بعد. وانصرف إلى بجاية رافلا في

حلل العز والتنويه إلى أن كان من أمره ما نذكر.

الخبر عن استقدام ابن القالون والإدالة منه بابن سيد الناس في بجاية وبظافر الكبير في قسطنطينة

لما انصرف أبو عبد اللّه بن يحيى بن قالون إلى بجاية، وخلا وجه السلطان فيه لبطانته عند ولايته ببجاية، بثوا فيه السعايات ونصبوا له الغوائل، وتولى كبر ذلك المزوار ابن عبد العزيز بمداخلة أبي القاسم بن عبد العزيز صاحب الأشغال. وعظمت السعاية فيه عند السلطان حتى داخلت فيه المظنة، وعقد لمحمد بن سيد الناس على بجاية، نقله إليها من عمله باجة، وكتب له عهده بخطه واستقدم صاحبه محمد بن القالون فقدم، وقد تغير السلطان له ودخل ابن سيد الناس بجاية، وقام بأمر حصارها وحجابة أميرها إلى أن استقدم للحجابة، وكان من أمره ما نذكره. ومر ابن القالون بقسطنطينة في طريقه إلى الحضرة فحدثته نفسه بالامتناع بها، وداخل مشيختها في ذلك فأبوا عليه، فأشخصهم إلى الحضرة نكالاً بهم.

ونمي الخبر بذلك إلى السلطان فأسرها لابن القالون وعزم على استضافة الحجابة بقسطنطينة لابن سيد الناس، فاستعفى مشيختها من ذلك وأروه أن ابن الأمين قريبه وابن أخيه، وذكروه ثروة أبيه فأقصر عن ذلك، وصرف اعتزامه إلى مولاه ظافر الكبير وذلك عند قدومه من المغرب، وكان من خبره انه كان من موالي الأمير زكريا، وكان له في دولة ابنه السلطان أبي البقاء ظهور، وهو الذي زحف هو بالعساكر عندما استراب السلطان أبو البقاء بأخيه السلطان أبي بكر فأقام بباجة. وجاء المزدوري والعرب إلى تونس في مقدمة ابن اللحياني فزحف إليهم ففضوه وتقبضوا عليه كما ذكرنا ذلك كله. ثم لحق بعدها بمولانا السلطان أبي يحيى وأعاده إلى مكانه من الدولة، وولاه قسطنطينة عند مهلك ابن ثابت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.

ثم غص به ابن غمر وأغرى به السلطان فأشخصه في سفين إلى الأندلس، وأجاز إلى المغرب. ونزل على السلطان أبي سعيد إلى أن بلغه الخبر بمهلك ابن غمر فكر راجعاً إلى تونس، ولقاه السلطان مبرة وتكريماً. ووافق ذلك وصول الحاجب ابن القالون من بجاية، فعقد السلطان لظافر هذا على حجابة ابنه بقسطنطينة الأمير أبي عبد اللّه فقدمها وقام بأمرها، واستعمل ذويه وحاشيته في وجوه خدمتها وصرف من كان هنالك من الخدام أهل الحضرة إلى بلدهم. وكان بها أبو العباس بن ياسين متصرفاً بين يدي الأمير أبي عبد اللّه، والكاتب أبو زكريا بن الدباغ على أشغال الجباية، وكانا قدما من الحضرة في ركاب الأمير أبي عبد اللّه فصرفهما القائد ظافر لحين وصوله، واستقل بأمره إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن ظهور ابن أبي عمران وفرار ابن القالون إليه

كان محمد بن أبي عمران هذا من عقب أبي عمران موسى بن ابراهيم ابن الشيخ أبي حفص، وهو الذي ولي إفريقية نائباً عن أبي محمد عبد اللّه ابن عمه الشيخ أبي محمد عبد الواحد، كتب له بها من مراكش لأول ولايته، فأقام والياً عليها ثمانية أشهر إلى أن قدم آخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وأقام أبو عمران هذا في جملتهم إلى أن هلك ونشأ بنوه في ظل دولتهم إلى أن كان من عقبه أبو بكر والد محمد هذا، فكان له صيت وذكر. وكان السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني قد رعى له ذمة قرابته، ووصله بصهر عقده لابنه محمد على ابنته. واستخلفه على تونس عند خروجه عنها.

ثم استخلفه على طرابلس عند ركوبه السفين إلى الإسكندرية. وكان أبو ضربة بعد انهزامه وافتراق جموعه اعتصم بالمهدية، ونازله بها السلطان أبو بكر فامتنعت عليه وأقلع عنها على سلم عقده لأبي ضربة وأقام حمزة بن عمر في سبيل خلافه على السلطان، ويتقلب في نواحي إفريقية حتى عظم زبوبه على السلطان ونزع إليه الكثير من الأعراب وكثرت جموعه، فاستقدم محمد بن أبي عمران من مكان ولايته بثغر طرابلس.

وزحف إلى تونس معارضاً للسلطان قبل اجتماع عساكره وكمال تعبيته، فخرج السلطان أبو بكر من تونس في رمضان من سنة إحدى وعشرين وسبعمائة ولحق بقسطنطينة وصحبه إليها مولاهم ابن عمر، وكان الحاجب محمد بن يحيى بن القالون قد غصته البطانة والحاشية بالسعاية فيه عند السلطان، وتبين له انحرافه عنه. وكان معز بن مطاع الفزاري وزير حمزة بن عمر وصاحب شواره صديقاً لابن القالون ومخالصاً، فداخله في الأجلاب بابن عمران. فلما خرج السلطان أمام زحفه تخلف القالون بتونس، وركب من الغد في البلد منادياً بدعوة ابن أبي عمران. ودخل محمد بن أبي عمران ثانية خروج السلطان، واستولى على الحضرة وأقام بها بقية سنته، وصدر من الأخرى، ولحق السلطان

بقسطنطينة فجمع عساكره واحتشد جموعه، وأزاح العلل واستكمل التعبية وزحف منها في صفر سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، وخرج ابن أبي عمران للقائه مع حمزة بن عمر في جموع العرب ولقيهم السلطان أولى وثانية بالرجلة وأوقع بهم، وقتل شيخ الموحدين أبا عبد الله بن أبي بكر. وكان على مقدمتهم محمد بن منصور بن مزني وغيره. وأثخنت العساكر فيهم قتلاً وأسراً، وكان للسلطان فيها ظهور لا كفاء له. ثم تقبض على مولاهم ابن عمر فكان من خبره ما نذكره.

الخبر عن مقتل مولاهم بن عمر وأصحابه من الكعوب

لما أتيح للسلطان من الظهور على ابن عمران وأتباعه والظفر بهم ما أتيح، وصنع له فيه رغم أنف مولاهم ابن عمر، وظهرت مع أصحابه كلمات أنبأت بفساد دخلتهم. ثم نمي للسلطان أن مولاهم داخل في الفتك به ابنه منصور وربيبه زعدان ومعدان ابني عبد الله بن أحمد بن كعب، وسليمان بن جامع من شيوخ هوارة. وشى بذلك عنهم ابن عمهم عون بن عبد الله بن أحمد بعد أن داخلوه فيها، فتنصح بها للسلطان. فلما عدوا على السلطان تقبض عليهم وبعثهم إلى تونس فاعتقلوا بها، ورجع هو إلى الحضرة فدخلها في جمادى من سنته. وجدد البيعة على الناس، وزحفت العرب في اتباعه حتى نزلوا بظاهر البلد وشرطوا عليه إطلاق مولاهم وأصحابه، فأنفذ السلطان قتلهم فقتلوا بمحبسهم، وبعث بأشلائهم إلى حمزة فعظم عنده موقع هذا الحزن، وصرخ في قومه وتآمروا أن يثأروا بصاحبهم.

وأغذوا السير إلى الحضرة ودخل ابن أبي عمران معهم على حين افتراق وإراحة السلطان. وظنوا أنهم ينتهزون الفرصة، وخرج السلطان عن تونس لأربعين يوماً من دخوله ولحق بقسطنطينة ودخل ابن أبي عمران إلى تونس فأقام بها ستة أشهر خلال ما احتشد السلطان جموعه واستكمل تعبيته. ونهض من قسطنطينة وزحف إليه ابن أبي عمران وحمزه بن عمر في جموعه. فأوقع السلطان بهم وأثخن فيهم وشردهم في النواحي وعاد إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، ومضى حمزة لوجهه إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن واقعة رغيس مع ابن اللحياني وزناتة وواقعة الشقة مع ابن أبي عمران

لما انهزم حمزة بن عمر وابن أبي عمران عن تونس مرة بعد أخرى ورأى حمزة إبن أبي عمران غير مغن عنه فصرفه إلى مكان عمله بطرابلس، وبعث إلى أبي ضربة ابن السلطان اللحياني بمكانه من المهدية فداخله في الصريخ بزناتة والوفود على سلطان بني عبد الواد فرحل معه أبو ضربة ووفدوا على أبي تاشفين صاحب تلمسان ورغبوه في الظفر ببجاية، وأن يشغل صاحب تونس عن مددها بترديد البعوث وتجهيز العساكر إليه، فسرح معهم السلطان آلافاً من العساكر وعقد عليها لموسى بن علي الكردي صاحب الثغر بتيمز زدكت، وكثير الحاشية والرجالات. وارتحلوا من تلمسان يغذون السير، وبلغ السلطان خبر فصولهم بتلمسان فبرز للقائهم من تونس في عساكره حتى انتهى إلى رغيس بين بونة وقسطنطينة.

ولما أطلت عساكر زناتة والعرب اختل مصاف السلطان، وانهزمت المجنبات وثبت في القلب وصدق العزيمة واللقاء، فاختل مصافهم وانهزموا في شعبان سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، وامتلأت أيدي العساكر من أسلابهم من نساء زناتة، ومن عليهن السلطان وأطلقهن. ورجع أبو ضربة وموسى بن علي الكردي في فلهم إلى تلمسان، وعاد السلطان إلى حضرته لأيام من هزيمتهم. ولقيه الخبر في طريقه باجتماع العرب وابن أبي عمران بنواحي القيروان، فتخطى الحضرة إليهم ولقيهم بالشقة، وأوقع بهم ورجع إلى تونس في شوال من سنة أربع وعشرين. فاتبعه حمزة ومن معه إلى تونس عندما افترقت العساكر، ومعه إبراهيم بن الشهيد من البيت الحفصي.

وسبق إليه بخبرهم عامر بن بو علي بن كثير وسحيم بن....
فخرج للقائهم من يومه في خف من الجنود بعد أن بعث عن عسكر باجة، وقائدها عبد الله العاقل مولاه فصبحه العرب بنواحي شاذلة فقاتلوه صدرها وحمي الوطيس، ووصل عبد الله العاقل والناس متواقفون، واشتدت الحرب ثم كانت الهزيمة على العرب، واستبيحت حرماتهم وافترقت جموعهم، ورجع السلطان إلى البلد واستقر بالحضرة.

الخبر عن أجلاب حمزة بإبراهيم بن الشهيد وتغلبه على الحضرة

لما انهزم أبو ضربة بن اللحياني وحمزة بن عمر وعساكر بني عبد الواد لحق أبو ضربة بتلمسان فهلك بها، ولقي حمزة بعده من الحروب مع السلطان ما لقي، ويئس الكعوب من غلابه وتدامروا لفتنته والإجلاب عليه، فوفد حمزة بن عمر على أبي تاشفين صريخاً ومعه طالب بن مهلهل، قرنه في قومه، ومحمد بن مسكين شيخ بني حكيم من أولاد القوس وكلهم من سليم ومعهم الحاجب ابن القالون، فاستحثوا عساكره لصريخهم فكتب لهم السلطان كتيبة عقد عليها لموسى بن علي الكردي وأعاده معهم. ونصب لهم لملك تونس من أعياص أبي حفص إبراهيم بن الشهيد منهم، وأبوه الشهيد هو أبو بكر بن أبي الخطاب عبد الرحمن الذي نصب للأمر عند مهلك السلطان أبي عصيدة، وقتله السلطان أبو البقاء خالد كما ذكرناه. وكان ابراهيم هذا قد لحق بالعرب ونصبوه للأمر وأجلبوا به على تونس أثر واقعة رغيس وبرزت إليهم العساكر فانهزموا كما ذكرناه، ولحق بتلمسان وجاء هذا الوفد على أثره فنصبه السلطان أبو تاشفين لهم واستعمل على حجابته محمد بن يحيى بن القالون، وبعث معهم العساكر لنظر موسى بن علي الكردي وزحفوا إلى إفريقية. وخرج السلطان أبو بكر من تونس لمدافعتهم ذي القعدة من سنة أربع وعشرين وسبعمائة وانتهى إلى قسطنطينة وعاجلوه قبل استكمال التعبية فنزلوا بساحتها. وأقام موسى بن علي على منازلتها بعساكر بني عبد الواد. وتقدم ابراهيم بن الشهيد وحمزة بن عمر إلى تونس فدخلها في رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة واستمكن منها، وعقد على باجة لمحمد بن داود من مشيخة الموحدين وثار عليه في بعض ليالي رمضان بعض بطانة السلطان كانوا بالبلد في غيابات الاختفاء، وكان منهم يوسف بن عامر بن عثمان، وهو ابن أخي عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين، وفيهم القائد بلاط من وجوه الترك المرتزقة بالحضرة، وابن جسار نقيب الشرفاء فاعتدوا واجتمعوا من جوف الليل وهتفوا بدعوة السلطان وطافوا بالقصبة فامتنعت عليهم، فعمدوا إلى دار كشلي من الترك المرتزقة، وكان بطانة لابن القالون فقاتلوها وامتنعت عليهم. ثم أعجلهم الصباح عن مرامهم وتتبعوا بالقتل، وفرغ من شأنهم، وكان موسى بن علي ومن معه من العساكر لما تخلف عن ابن الشهيد لحصار قسطنطينة أقام عليها أياماً، ثم أقلع عنها لخمس عشرة ليلة من منازلته ورجع إلى صاحبه بتلمسان. وخرج السلطان من قسطنطينة فاستكمل الحشد والتعبية، ونهض إلى تونس فأجفل منها ابن الشهيد وابن القالون، ودخلها السلطان في شوال سنة خمس وعشرين وسبعمائة واستولى على دار ملكه، وأقام بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن حصار بجاية وبناء تيمرزدكت وانهزام عساكر السلطان عليها

كان أبو تاشفين منذ خلا له الجو وتمكن في الأمر منه القوم يلح على بجاية بترديد البعوث ومطاولة الحصار، والسلطان أبو بكر يدفع لحمايتها والممانعة دونها من رجالات دولته وعظماء وزرائه الأول، فالأول من أهل الكفاية والاضطلاع بما يدفع إليه من ذلك. وسرب إليهم المدد من الأموال والأسلحة والجنود وتعهد إليهم بالصبر والثبات في المواطن ونظره من وراء ذلك. وكان أبو تاشفين كلما أحس من السلطان أبي بكر بنهوضه إلى المدافعة عنها، أو عزم على غزو كتائبه المجمرة عليها رماه بشاغل يوهن من عزمه ويسكن عنان بطشه. وكانت فتنة حمزة ابن عمر من أدهى الشواغل في ذلك بما كان يجنب العرب عن الطاعة، ويجمع الأحزاب للإجلاب على الحضرة، وينصب الأعياص يطمعهم فيما ليس لهم من نيل الخلافة. وكان ذلك ديدناً متصلاً أزمان تلك المدة.

ولما سرح أبو تاشفين العساكر سنة خمس وعشرين وسبعمائة مع إبراهيم ابن الشهيد وحمزة بن عمر وأوليائهم من أهل إفريقية، وعقد عليها لموسى بن علي من رجالاته، فنازل قسطنطينة ثم أقلع عنها وعاود حصارها سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. وشن الغارة في نواحيها، واكتسح الأموال ورجع إلى وادي بجاية فاختط مدينة بتيكلات على مرحلة منها، وعلى قارعة الطريق الشارع من الغرب إلى الشرق وبما كانت بجاية زائغة عنه إلى البحر، فاختطوا تلك المدينة وشيدوها وجمعوا الأيدي عليها، وقسموها مسافات على جيوشهم فاستتمت لأربعين يوماً وسموها تيمرزدكت باسم حصنهم الأقدم بالجبل قبالة وجدة، حيث امتنع يغمراسن على السعيد ونازله وهلك عليه كما ذكرناه في أخباره. وشحنوا هذه المدينة بالأقوات والمدد وعمروها بالمقاتلة من الرجل والفرسان والقبائل، وأخذت بمخنق البلد.

وقلق السلطان بمكانها فأوعز إلى قواد عساكره وأصحاب عمالاته من مواليه وصنائعه أن ينفروا بعساكرهم إلى صاحب الثغر محمد بن سيد الناس ويزحفوا معه إلى هذا البلد المخروب،

ويستميتوا دون تخريبه، فنهض ظافر الكبير من قسطنطينة وعبد الله العاقل من هوارة وظافر السنان من بونة: وتوافروا ببجاية سنة سبع وعشرين وسبعمائة وبلغ موسى بن علي خبرهم فاستنفر من عساكر بني الواد، وخرجت العساكر جميعاً من بجاية تحت لواء ابن سيد الناس. وزحف إلى العدو بمخيمهم من تيكلات فكانت الدبرة عليه وعلى أصحابه، وقتل ظافر الكبير ورجع فلهم إلى بجاية. وداخلت ابن سيد الناس فيهم الظنة بما كان يداخل موسى بن عيسى في زبون كل واحد منهما بصاحبه على سلطانه. فمنعهم من دخول البلد ليلتئذ وأسحروا قافلين إلى أعمالهم، وعقد السلطان على قسطنطينة لأبي القاسم بن عبد العزيز أياماً. ثم استقدمه إلى الحضرة ليستعين به محمد بن عبد العزيز المزوار في خطة حجابته بما كان غفلاً من الأدوات التي تحتاج إليها الحجابة. وعقد على حجابة ابنه الأمير أبي عبد الله بقسطنطينة لمولاه ظافر السنان إلى أن كان من تحويل بنائه ما نذكره.

الخبر عن مهلك الحاجب المزوار وولاية ابن سيد الناس مكانه ومقتل ابن القالون

هذا الرجل محمد بن القالون المعروف بالمزوار، لا أدري من أوليته أكثر من أنه كردي من الأكراد الذين وفد رؤساؤهم على ملوك المغرب أيام أجلاهم التتر عن أوطانهم بشهرزور عند تغلبهم على بغداد سنة ست وخمسين وستمائة: فمنهم من أقام بتونس، ومنهم من تقدم إلى المغرب فنزلوا على المرتضى بمراكش فأحسن جوارهم. وصار قوم منهم إلى بني مرين وآخرون إلى بني عبد الواد حسبما نذكر في أخبارهم.

ومن المقيمين بالحضرة كان سلف ابن عبد العزيز هذا إلى أن نشأ هو في دولة الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغور الغربية، وتحت كنف من اصطناعه. واختلط بأبنائه وقدم في جملة ابنه السلطان أبي بكر إلى تونس مقدماً في بطانته ورئيساً على الحاشية المسمين بالدخلة، وكان يعرف لذلك بالمزوار. وكان شهماً وقوراً متديناً وله في الدولة حظ من الظهور، وهو الذي تولى كبر السعاية في الحاجب ابن القالون حتى ارتاب بمكانه. وفر إلى ابن أبي عمران سنة إحدى وعشرين وسبعمائة كما قدمناه. وولاه السلطان الحجابة مكانه فقام بها مستعيناً بالكاتب أبي القاسم بن عبد العزيز لخلوه هو من الأدوات. وإنما كان شجاعاً بهمة.

ولم يزل على ذلك إلى أن هلك في شعبان سنة سبع وعشرين وسبعمائة وأراد السلطان على الحجابة محمد بن خلدون جدنا الأقرب فأبى، ورغب في الإقالة فأجحف جنوحاً لما كان بسبيله منذ سنين من الصاغية إلى الدين والرغبة في السكون والفرار من الرتب. وأشار على السلطان بصاحب الثغر محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لتقديمه سلفه مع سلف السلطان، وكثرة تابعه وحاشيته وقوة شكيمته في الاضطلاع بما يدفع إليه.

أخبرني بهذا الخبر أبي رحمه الله وصاحبنا محمد بن منصور بن مزني، قال لي: حضرت لاستدعاء جدكم إلى معسكر السلطان بباجة يوم مهلك المزوار، وأدخله السلطان إلى رواقه، وغاب ملياً ثم خرج وقد استفاض بين البطانة والحاشية أنه دعي إلى الخطة فاستنكرها، وأقام السلطان يومئذ في خطة الحجابة الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم، واستقدم خالصته محمد بن حاجب أبيه أبي الحسين بن سيد الناس، فقدم في محرم فاتح ثمان وعشرين وسبعمائة وولاه حجابته فاضطلع لها، وجدد له العقد على بجاية وحجابة ابنه بها، فدفع إليها للنيابة عنه في الحجابة صنيعته محمد بن فرحون، ومعه كاتبه أبو القاسم بن المريد. وجرى الحال على ذلك ببجاية وعساكر زناتة تجوس خلالها ومعاقلهم تأخذ بمخنقها. وقدم القالون دوين مقدم ابن سيد الناس بشفاعة من نزيله علي بن أحمد سيد الدواودة، وطمع في عوده إلى الخطة.

وكان من خبره أنه لما تخلف عن السلطان بتونس في خدمة ابن أبي عمران رأى ركوب السفين إلى الأندلس، فأعجلهم السلطان عن ذلك وخرج ابن أبي عمران فأجلب معه على الحضرة مراراً، ولحق بتلمسان. ثم جاء مع ابن الشهيد وفعل الأفاعيل، ثم انحل أمر ابن الشهيد، ولحق هو بالدواودة من رياح. ونزل على علي بن أحمد رئيسهم لذلك العهد فأجاره وأنزله بطولقة من بلاد الزاب، وخاطب السلطان في شأنه واقتضى له الأمان حتى أسعف ووفد على الحضرة مع أخيه موسى بن أحمد، وفي نفس القالون طمع في الخطة. وسبقه ابن سيد الناس إلى السلطان فاستقل بها. وجاء القالون من بعده فأوصله السلطان إلى نفسه، واعتذر إليه ووعده وعقد له على قفصة فسار إليها وصحب موالي السلطان من المعلوجي بشير وفارح وأوعز ابن سيد الناس إلى مشيخة قفصة أن يتقبضوا على حاميته ليتمكن الموالي منه. فلما نزل بساحة البلد دخل كشلي من جند الترك المرتزقة كان في جملته منذ أيام حجابته وكان يستظهر بمكانه. فلما دخل إلى البلد قتل في سككها فكانت لمقتله هيعة تسامع الناس بعظمها من خارج البلد، وبرز القالون من فسطاطه وقد جث للرعب فتقدم إليه الموالي الذين جاؤوا معه وتناولوه طعناً بالخناجر إلى أن هلك. والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن ولاية الفضل على بونة

كان السلطان عقد على بونة منذ أول دولته لمولاه مسرور المعلوجي فقام فاضطلع بولايتها، وكان من الغلظة ومراس الحروب بمكان. وكان مع ذلك غشوماً جباراً وخرج إلى ولهاصة سنة...* فاضطهدهم وذهبوا إلى مدافعته عن أموالهم فحاربهم. وبلغ خبر مهلكه إلى السلطان فعقد على بونة لابنه أبي العباس الفضل، وبعثه إليها. وولى على حجابته وقيادة عسكره ظافراً السنان من مواليه المعلوجين فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن قيام إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

الخبر عن واقعة الرياس وما كان قبلها من مهلك الأمير أبي فارس أخي السلطان

كان السلطان أبو بكر لما قدم إلى تونس قدم معه إخوته الثلاثة محمد وعبد العزيز وعبد الرحمن، وهلك عبد الرحمن منهم وبقي الآخران. وكانا في ظل ظليل من النعمة، وحظ كبير من المساهمة في الجاه. وكان في نفس الأمير أبي فارس تشوق إلى نيل المرتبة وتربص بالدولة. وكان عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من فحول بني مرين وأعياص ملكهم قدم على الحضرة نازعاً إليها من الأندلس، فنزل على ابن عمر ببجاية قبيل مهلكه سنة ثمان عشر وسبعمائة ثم لحق بالسلطان فلقاه مبرة ورحباً، ووفر حظه وحظ حاشيته من الجرايات والأقطاع، وجعل له أن يستركب ويستلحق، وكان يستظهر به في مواقف حروبه، ويتجمل في المشاهد بمكانه من سريره بما كان سيداً في قومه. وكان قد انعقدت له بيعة على أهل وطنه، وكانت فيه غلظة وأنفة وإباء. وغدا في بعض أيامه على الحاجب ابن سيد الناس فتلقاه الإذن بالغدر، فذهب مغاضباً، ومر بدار الأمير أبي فارس فحمله على ذات صدره من الخروج والثورة، وخرجا من يومهما في ربيع سنة تسع وعشرين وسبعمائة ومرا ببعض أحياء العرب فاعترضهما أمير الحي فعرض عليهما النزول، فأما عبد الحق فأبى وذهب لوجهه إلى أن لحق بتلمسان، وأما الأمير أبو فارس فأجاب ونزل، وطير بالخبر إلى السلطان فسرح لوقته محمد بن الحكيم من صنائعه وقواد دولته في طائفة من العسكر والنصارى، فصبحوه في الحي وأحاطوا ببيت نزله فامتنع من الإلقاء باليد، ودافع عن نفسه مستميتاً فقتلوه قعصاً بالرماح، وجاؤوا بشلوه إلى الحضرة فدفن بها.

ونزل عبد الحق بن عثمان على أبي تاشفين خير نزل، ورغبه فيما كان بسبيله من مطالبة الدولة الحفصية وتدويخ ممالكها، ووفد على أثره حمزة بن عمر ورجالات سليم صريخاً على عادتهم. فأجاب أبو تاشفين صريخهم ونصب لهم محمد بن أبي عمران وكان من خبره أنه تركه السلطان اللحياني عاملاً على طرابلس. فلما انهزم أبو ضربة وانحل أمره استقدمه العرب وأجلبوا به على الحضرة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة فملكها ستة أشهر. ثم أجفل عنها عند رجوع السلطان إليها، ولحق بطرابلس إلى أن انتقض عليه أهلها سنة أربع وعشرين وسبعمائة وثاروا به وأخرجوه فلحق بالعرب وأجلبوا به على السلطان مراراً ينهزمون عنه في كلها.

ثم لحق بتلمسان واستقر بها عند أبي تاشفين في خير جوار وكرامة وجراية إلى أن وصل هذا الوفد إليه سنة تسع وعشرين وسبعمائة فنصبه للأمر بإفريقية. وأمدهم بالعساكر من زناته.عقد عليهم ليحيى بن موسى من بطانته وصنائع أبيه.ورجع معهم عبد الحق بن عثمان بمن في جملته من بنيه وعشيرته ومواليه وحاشيته. وكانوا أحلاس حرب وفتيان كريهة، فنهضوا جميعاً إلى تونس فزحف السلطان للقائهم وتراءى الجمعان بالرياس من نواحي بلاد هوارة سنة سبع وعشرين وسبعمائة، فدارت الحرب واختل مصاف السلطان، وأفلت جموعه. وأحيط به فأفلت بعد عصب الريق، وأصابته في حومة الحرب جراحة وهن لها، وقتل كثير من بطانته وحاشيته، وكان من أشهرهم محمد المديوني. وانتهب المعسكر وتقبض على أحمد وعمر ابني السلطان فاحتملا إلى تلمسان حتى أطلقهما أبو تاشفين بعد ذلك في مراسلة وقعت بينه وبين السلطان فاتحه فيها أبو تاشفين، وجنح إلى السلم وأطلق الابنين ولم يتم شأن الصلح من بعد ذلك. وتقدم ابن أبي عمران بعد الواقعة إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاثين وسبعمائة واستبد عليه يحيى بن موسى قائد بني عبد الواد، وحجب التصرف في شيء من أمره، ثم عاد يحيى بن موسى إلى سلطانه. ونهض السلطان أبو بكر من قسطنطينة إلى تونس بعد أن استكمل الحشد والتعبية، فأجفل ابن أبي عمران عنها، ودخل إليها السلطان في رجب من سنته إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن مراسلة ملك المغرب في الاستجاشة على بني عبد الواد وما يتبع ذلك من المصاهرة

كان السلطان أبو بكر لما خلص من واقعة الرياس نجا إلى بونة، وركب منها البحر إلى بجاية، وقد ضاق ذرعه بإلحاح عبد الواد على ممالكه وتجهيز الكتائب على ثغره وترديد البعوث إلى وطنه، فأعمل نظره في الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد ليذكره ما بين سلفه وسلفهم من السابقة، مع ما لهم عند بني عبد الواد من الأوتار والإحن، ليبعث بذلك دواعيهم على مطالبة بني عبد الواد: فيأخذ بحجزتهم عنه.

ثم عين للوفادة عليه ابنه الأمير أبا زكريا، وبعث معه أبا محمد عبد الله بن تافراكين من مشيخة الموحدين لساناً لخطابه ونجياً لشواره. وركبوا البحر من بجاية فنزلوا بمرسى غساسة، واهتز صاحب المغرب لقدومه وأكرم وفادته واستبلغ في القرى والإجارة، وأجاب دعاءهم إلى محاربة عدوهم وعدوه على شريطة اجتماع اليد عليها وموافاة السلطان أبي سعيد والسلطان أبي يحيى بعساكرهما تلمسان لموعد ضربوه لذلك.

وكان السلطان أبو سعيد قد بعث سنة إحدى وعشرين وسبعمائة يحيى الزنداجي قائد الأسطول بسبتة إلى مولانا السلطان أبي بكر في الإصهار على إحدى كرائمه، وشغل عن ذلك بما وقع من شأن ابن أبي عمران. فلما وفد عليه ابن السلطان وأولياؤه أعاد الحديث في ذلك، وعين للنيابة عنه في الخطبة من السلطان إبراهيم بن أبي حاتم العزفي وصرفه مع العدو، فوافوا السلطان بتونس آخر سنة ثلاثين وسبعمائة وقد طرد عدوه وشفى نفسه، فجاؤوه بأمنيته من حركة صاحب المغرب على تلمسان. وخطب منه إبراهيم للأمير أبي الحسن ابن السلطان أبي سعيد، فعقد على ابنته فاطمة شقيقة الأمير أبي زكريا السفير إليهم وزفها إليه في أساطيله سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وتقدم لزفافها من مشيخة الموحدين أبو القاسم بن عتو ومحمد بن سليمان الناسك، وقد مر ذكره، فنزلت على محل وثير من الغبطة والعز، وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد أعراسها وولائمها وجهازها كله من المفاخر للدولتين، ولم يزل مذكوراً على الأيام.

الخبر عن حركة السلطان إلى المغرب وفرار بني عبد الواد وتخريب تامرزدكت

كان مهلك السلطان أبي سعيد على تفيئة ما قدمناه من الأخبار آخر سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وولي السلطان أبو الحسن من بعده فبعث إلى ابن تاشفين يخاطبه في الغض عن عنان عيثه ببلاد الموحدين وطغيانه عليها، فلج واستكبر وأساء الرد، فنهض إليه في سبيل الصريخ لهم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وطوى البلاد طياً إلى تلمسان، وأفرجت عساكرهم عن بجاية إلى سلطانهم. وتقدم السلطان عن تلمسان لمشارفة أحوال بجاية والأخذ بحجزة العدو المحاصر لها وبعث عسكراً من قومه مدداً لهم عقد عليهم لمحمد البطوي، وأركبهم أساطيله من سواحل وهران فدخلوا إليها وقوبلوا بما يناسبهم من الكرامة والجراية. واستنهض السلطان أبو الحسن أبا بكر لحصار تلمسان معه كما كان الشرط بين أبيه وبين ابنه الأمير أبي زكريا، فشرع السلطان في جهاز حركته وإزاحة علله. وأقام السلطان أبو الحسن في تاسالة في انتظاره شهراً حتى انصرم فصل الشتاء.

وبلغه بمعسكره من تاسالة أن أخاه السلطان أبا علي صاحب سجلماسة انتقض وخرج إلى درعة، فقتل عامله عليها بعد أن كان داخله وعقد له على المهادنة والتجافي عنه بمكانه من سجلماسة. فلما بلغه هذا الخبر كر راجعاً إلى المغرب لإصلاح شأنه.

وكان السلطان أبو بكر قد خرج من تونس واحتفل في الحشد والتعبية فانتهى إلى بجاية وبعث مقدماته إلى ثغور بني عبد الواد المحيطة ببجاية فهزموا كتائبها. ثم زحف بجملته إلى تيمرزدكت، وفرت عنها الكتائب المجمرة بها، فأناخ عليها حتى خربها وانتهب أموالها وأسلحتها، ونسف آثارها وقفل عنها إلى بلد المسيلة أختها في الغي، وموطن أولاد سباع بن يحيى من الدواودة، كانت مشيختهم سليمان ويحيى ابنا علي بن سباع وعثمان بن سباع عمهم وابنه سعيد، قد تمسكوا بطاعة أبي تاشفين وحملوا عليها قومهم، ونهجوا لعساكره السبيل إلى وطء بلاد الموحدين والعيث فيها ومجاذبة حبلها.

وأقطعهم أبو تاشفين بلد المسيلة وجبل متنان ووانوغة وجبل عياض فأصاروها من أعمالها، فلما شرد السلطان عساكرهم عن بجاية وهدم ثغرهم عليها واسترجع أعمال بجاية إليها سار بجموعه إلى هذا الوطن ليسترجع أعماله ويجدد به دعوته. وزاد في

إغرائه بذلك علي بن أحمد كبير أولاد محمد لقتال أولاد سباع هؤلاء ونظرائهم وأهل أوتارهم ودخولهم، فارتحل غازياً إلى المسيلة حتى نزلها، واصطلم نعمها وخرب أسوارها، وبلغه بمكانه منها شأن عبد الواحد ابن السلطان اللحياني وأجلابه على تونس، وكان من خبره أنه قدم من المشرق بعد مهلك أبيه السلطان أبي يحيى زكريا سنة تسع وعشرين وسبعمائة فنزل على دباب وبايع له عبد الملك بن مكي رئيس المشيخة بقابس، وتسامع به الناس وإفريقية شاغرة من الحامية والعساكر لنهوضهم مع السلطان، فاغتنم حمزة بن عمر الفرصة، واستقدمه فبايع له ورحل به إلى الحضرة، فنزل بساحتها، ودخل عبد الواحد بن اللحياني وحاجبه ابن مكي إلى البلد فأقاموا بها ريثما بلغ الخبر إلى السلطان فقفل من الحضرة وبعث في مقدمته محمد البطوي من بطانته في عسكر اختارهم لذلك، فأجفل ابن اللحياني وجموعه عن تونس لخمس عشرة ليلة من نزولهم، ودخل البطوي إليها وجاء السلطان على أثره أيام عيد الفطر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

الخبر عن نكبة الحاجب محمد بن سيد الناس وولاية ابن عبد العزيز وابن الحكيم من بعده

قد قدمنا أولية هذا الرجل وأن أباه أبا الحسين كان حاجباً للأمير أبي زكريا ببجاية. ولما هلك سنة تسعين وستمائة خلف ابنه محمداً هذا في كفالة السلطان ومرعى نعمته، فاشتمل قصرهم عليه وآواه إلى حجره وأرضعه مع الكثير من بنيه، ونشأ في كنفه. وكان الحجاب للدولة من بعد أبيه مثل ابن أبي جُبى والرخامي صنائع لأبيه فكانوا يعرفون حقه ويؤثرونه على أنفسهم في التجلة. ولم يدرك في سن الرجولة والسعي في الجد إلا أيام ابن غمر آخرهم، فكان له منه مكان حتى إذا ارتحل السلطان أبو يحيى إلى قسطنطينة لطلب تونس، وجهز له ابن غمر الآلات والعساكر، وأقام له الحجاب والوزراء والقواد، كان فيمن سرح معه محمد بن سيد الناس قائداً على عسكر من عساكره. وكان ظئراً للسلطان فكانت له عنده أثره واختصاص، وعقد له من بعد مهلك ابن غمر على بجاية لما عزل عنها القالون كما قدمناه، فاستبد بها على السلطان وحماها دون عساكر زناتة، ودفع في صدورهم عنها وكان له في ذلك كله مقامات مذكورة.

وكانت بينه وبين قائد زناتة موسى بن علي مداخلة في زبون كل واحد منهما بمكان صاحبه على سلطانه، وفطن لأمرهما.

فأما أبو تاشفين فنكب موسى بن علي كما نذكره في أخباره، وأما السلطان أبو بكر فأغضى لابن سيد الناس عنها. ثم استدعاه وقلده حجابته سنة سبع وعشرين وسبعمائة كما قدمناه، واستخلف على مكانه ببجاية محمد بن فرحون وأحمد بن المزيد للقيام بما كان يتولاه من مدافعة العدو وكفالة الأمير أبي زكريا ابن السلطان. وقدم هو على السلطان وأسكنه بقصور ملكه، وفوض إليه أمور سلطانه، تفويض الاستقلال، فجرى في طلق الاستبداد عليه وأرخى له السلطان حبل الإمهال واعتد عليه فلتات الدالة مع ما كانت الظنون ترجم فيه بالمداهنة في شأن العدو والزبون على مولاه باستغلاظهم. وأمهله السلطان لمكانه من حماية الثغر ببجاية والاستقلال به دونه، حتى إذا تجلت غمامتهم، وأطل أبو الحسن عليهم من مرقبه ونهض السلطان أبو بكر إلى بجاية وخرب تيمرزدكت، فأغراه البطانة حينئذ بالحاجب محمد بن سيد الناس.

وتنبه له السلطان فأحفظ له استبداده وتقبض عليه مرجعه من هذه الحركة في ربيع سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واعتقله. ثم امتحنه بأنواع العذاب لاستخراج المال معه فلم ينبس بقطرة، وما زال يستغيث ويتوسل بسوابقه من الرضاع والمربى، وسوابق أبيه عند سلفه حتى لدغه العذاب فأفحش، ونال من السلطان وأقذع فقتل شدخاً بالعصي وجر شلوه فأحرق خارج الحضرة وعفا رسمه كأن لم يكن، وإلى الله عاقبة الأمور.

ولما تقبض السلطان على ابن سيد الناس ومحا أثر استبداده قلد حجابته الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز، وقد كان قدم من الحمة عند مبايعة ابن مكي لعبد الواحد بن اللحياني فلحق بالسلطان في طريقه إلى تيمرزدكت، فلم يزل معه إلى أن دخل حضرته، وتقبض على ابن سيد الناس فولاه الحجابة، وكان مضعفاً لا يقوم بالحرب، فعقد السلطان على الحرب والتدبير لضيعته وكبير بطانته يومئذ محمد بن الحكيم وفوض له فيما وراء الحضرة، وهو محمد بن علي بن محمد بن حمزة بن إبراهيم بن أحمد اللخمي، ونسبه في بني العزفي الرؤساء بسبتة. وجده أحمد هو أبو العباس المذكور بالعلم والدين والد أبي القاسم المستقل برئاسة سبتة بعد الموحدين، وكان من خبر أوليته فيما حدثني به محمد بن يحيى بن أبي طالب العزفي آخر رؤساء العزفيين بسبتة، والمنقضي أمرهم بها بانقضاء رئاسته، وحدثني بها أيضاً حسين ابن عمه عبد الرحمن بن أبي طالب، وحدثني بها أيضاً الثقة عن إبراهيم ابن عمهما أبي حاتم قالوا جميعاً: إن أبا القاسم العزفي كان له أخ يسمى إبراهيم، وكان مسرفاً على نفسه وأصاب دماً في سبتة،

وحلف أخوه أبو القاسم ليقتدن منه، ففر ولحق بديار المشرق. هذا آخر خبرهم، وإن محمداً هذا من بنيه.

وبقية الخبر عن أهل هذا البيت من سواهم أن إبراهيم انجب محمداً، وانجب محمد حمزة، ثم أنجب حمزة علياً فكلف بالقراءة واستظهر علم الطب واستقر في إيالة السلطان أبي زكرياء بالثغور الغربية وأصاب السلطان وجع في بعض أزمانه وأعياه دواؤه فجمع له الأطباء وكان فيهم علي هذا فحدس على المرض وأحسن المداواة، فوقع من السلطان أحسن المواقع واستخلصه لنفسه وخلطه بخاصيته وأهل خلوته، وصار له من الدولة مكان لا يجاريه أحد فيه. وكان يدعى في الدولة بالحكيم وبه عرف ابنه من بعده، وأصهر إلى إحدى بيوت قسطنطينة فزوجوه وخلط أهله بحرم السلطان. وولد له محمد ابنه بقصره، ورضع مع الأمير أبي بكر ابنه، ونشأ في حجر الدولة وكفالتها على أحسن الوجوه من تربيتها.

ولم بلغ أشده وصرف إليه رئيس الدولة يعقوب بن غمر وجه إقباله واختصاصه. فكان له منه مكان أكسبه ترشيحاً للرئاسة فيما بعد من بين خواص السلطان وخلصائه.

ولما نهض السلطان أبو يحيى إلى إفريقية قلده قيادة بعض العساكر. ثم عقد له بعد مهلك ابن عمر على عمل باجة حين رقى ابن سيد الناس عنها إلى بجاية. وكان عمل باجة من أعظم الولايات في الدوله فاضطلع به. ثم لما أمر السلطان بطانته في نكبة ابن سيد الناس دفعه لذلك. فولي القبض عليه وكمن له في عصبة من البطانة في بعض الحجر من رياض رأس الطابية. واستدعي ابن سيد الناس إلى السلطان ومر بمكانهم. فلما انتهى إليهم توثبوا به وشدوه كتافاً وتلوه إلى محبسه بالبرج المعد لثقاف مثله بالقصبة.

وتولى ابن الحكيم من امتحانه وعذابه ما ذكرناه إلى أن هلك، وعقد له السلطان مكانه على الحرب والتدبير من خططه، وفوض إليه فيما وراء الحضرة كما قلناه.

وجعل تنفيذ الأموال والكتب على الأوامر لابن عبد العزيز، فكان عدله في حمل الدولة، إلا أن ابن عبد الحكيم كان أسف فيه لما كان إليه من التدبير في الحرب والرئاسة على الكتابة، لرئاسة السيف على القلم فاضطلع برئاسته وأحسن الغناء والولاية إلى أن كان من خبره وخبر الدولة ما نذكر.

الخبر عن فتح قفصة وولاية الأمير أبي العباس عليها

كان أهل الجريد منذ تقلص عنهم ظل الدولة عند انقسام الملك بين الثغور الغربية والحضرة وما إليها، وصار أمرهم إلى الشورى بين المشيخة إلا في الأحايين يؤملون الاستبداد كما كانوا عليه من قبل الموحدين، فقدم عبد المؤمن إلى إفريقية وبنو الرند على قفصة وقسطنطينة، وابن واطاس على توزر، وابن مطروح على طرابلس فأملوا فتكها، وشغل مولانا السلطان أبا بكر عنهم بعد استقلاله بالأمر وانفراده بالدعوة الحفصية شأن الفتنة مع آل يغمراسن بن زيان وإجلاب عساكرهم مع حمزة بن عمر على أوطانه. حتى إذا أخذ السلطان أبو الحسن بحرجتهم وأطل عليهم من مراقبه فعادوا إلى أوكارهم بعد أن أسفوا، وتنفس مخنق الثغور الغربية من حصارهم، وزال عن كاهل الدولة إصر معاناتهم وسكن اضطراب الخوارج على الدولة وخفتت أصوات المرجفين في ممالكها، وصرف السلطان نظره في أعطاف ملكه ومحو الشقاق من سائر أعماله، وسمت همته إلى تدويخ القاصية من بلاد الجريد واستنقاذ أهلها من أيدي الذئاب الغاوية والكلاب العادية زعماء أمصارها وأعراب فلاتها، فنهض إلى قفصة سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وقد كان استبد بشوراها يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد الشريدي من بيوتاتها، فنازلها أياماً والعساكر تلح عليها بأنواع القتال، ونصب عليها المجانيق فامتنعوا. ثم جمع الأيدي حتى قطع نخيلهم وإقلاع شجرائهم فنادوا بالأمان فأمنهم. وخرج إليه ابن عبد الجليل رئيسهم الآخر من سنته، فأشخصه إلى الحضرة وأنزله بها ورجالات من قومه بني العابد. وفر سائرهم إلى قابس فنزل في جوار ابن مكي ودخل أهل البلد في حكمه، وتفيأوا بعد أن كانوا ضاحين من الملك كله فأحسن التجاوز عنهم، وبسط المعدلة فيهم. وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم بالإسهام والأقطاع وتجديد ما بأيديهم من المكتوبات السلطانية. ثم آثرهم بسكنى ولده المخصوص بعدئذ لعهد الأمير أبي العباس، وأنزله بين ظهرانيهم وأوصاه بهم، وعقد له على قسطنطينة وما إليها. وجعل معه على حجابته أبا القاسم ابن عتو من مشيخة الموحدين، وقفل إلى حضرته فدخلها في رمضان من سنته.

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس بن عزوز وأبي البقاء خالد على سوسة ثم إضافة المهدية إليهما

لما نكب السلطان حاجبه ابن سيد الناس، وولى محمد بن فرحون على حجابة ابنه الأمير أبي زكريا، وقارن ذلك ما نزل بيغمراسن من عدوهم وتفرغ السلطان للنظر في ملكه وتمهيد أحواله، وأن يرسي قواعد أعماله بنجباء أبنائه. فعقد على سوسة والبلاد الساحلية لولديه الأميرين عزوز وخالد شريكين في الأمر، وأنزلهما بسوسة، وأنزل معهما محمد بن طاهر من صنائع الدولة ومن بيوت أهل الأندلس القادمين في الجالية، ورئاسة سلفهم بمرسية معروفة في أخبار الطوائف. وكان أخوه أبو القاسم صاحب الأشغال بالحضرة فأقاما كذلك. ثم هلك محمد بن طاهر فاستقدم السلطان محمد بن فرحون من بجاية ثقة باستبداد ابنه وأن يولي من شاء على حجابته وأنزل ابن فرحون مع هذين الأميرين لصغرهما سنة خمس وثلاثين وسبعمائة. ثم استدعاه الأمير أبو زكريا فرجع إليه وأقام هذان الأميران بسوسة حتى إذا نكب السلطان قائده محمد بن الحكيم واستنزل قريبه محمد بن الركراك من المهدية كان أنزله بها ابن الحكيم لما افتتحها من يد المتغلب عليها من أهل رجيس، ويعرف بابن عبد الغفار واتخذها شحناً لنفسه، وأنزل بها قريبه هذا وأشحنها بالعدد والأقوات فلم يغن عنه. ولما هلك استنزل ابن الركراك وبعث السلطان عليهما ابنه الأمير أبا البقاء، وأفرد الأمير أبا فارس بولاية سوسة فأقاما كذلك إلى أن كان من خبر مهلكهما ما نذكره.

الخبر عن وفاة الأمير أبي عبد اللّه صاحب قسطنطينة من الأبناء وولاية بنيه من بعده

كان الأمير أبو عبد اللّه مخصوصاً من أبيه من بين ولده بالأثرة والعناية قد صرف إليه إقباله وألقى عليه محبته لما كان يتوسم في شواهده من الترشيح، وما تحلى به من خلال الملك. وكان الناس يعرفون له حق ذلك؛ وذلك أن ابن عمر كان مستبداً بالثغور الغربية: ببجاية وقسطنطينة ومدافعاً عنها العدو من زناتة المطالبين لها. فلما هلك ابن عمر سنة تسع عشرة وسبعمائة كما قدمناه صرف السلطان نظره إلى ثغوره، فعقد على بجاية لابنه الأمير أبي زكريا وعقد على حجابته لابن القالون وسرحه معه لمدافعة العدو، وعقد على قسطنطينة للأمير أبي عبد اللّه ومعه أحمد بن ياسين. وخرجوا جميعاً من تونس سنة عشرين وسبعمائة ونزل كل بعمله. وقدم ظافر الكبير من الغرب فولاه السلطان حجابة ابنه بقسطنطينة وأنزله بها إلى أن هلك سنة سبع وعشرين وسبعمائة على تيمرزدكت كما ذكرناه، فجاء بحجابته من تونس أبو القاسم بن عبد العزيز الكاتب فأقام أربعين يوماً.

ثم رجع إلى الحضرة وأضاف السلطان حجابة قسطنطينة لابن سيد الناس إلى حجابة بجاية، وبعث إليها نائباً عنه مولاه هلال النازع إليه عن موسى بن علي قائد بني عبد الواد فقام بخدمة الأمير أبي عبد اللّه إلى أن كانت نكبة ابن سيد الناس عندما بلغ الأمير أبو عبداللّه أشده وجرى في طلق استبداده ففوض له في عمله السلطان وأطلق من عنانه، وكان يؤامره في شأنه ويناجيه في خلوته.

وأنزل معه بقسطنطينة مولاه نبيلاً من المعلوجين يقيم له رسم الحجابة. ثم استدعى ظافر السنان من تونس سنة أربع وثلاثين وسبعمائة لقيادة الأعنة والحرب، فقدم لذلك وأقام سنة ونصفها. ثم رجع وقام نبيل بحجابته كما كان ودفع ليعيش بن... من صنائع الدولة لقيادة العساكر وحماية الأوطان فقاسمه لذلك مراسم الخدمة ورتب الدولة واستمرت حال الأمير أبي عبد اللّه على ذلك والأيام تزيده ظهوراً ومساعيه الملوكية تكسبه خلالاً وترشيحاً إلى أن اغتبط دون غايته وإعتاقه الأجل عن مداه، فهلك رضوان اللّه عليه آخر سبع وثلاثين وسبعمائة وقام بأمره من بعده كبير بنيه الأمير أبو زيد عبد الرحمن، فعقد له السلطان أبو بكر على عمل أبيه لنظر نبيل مولاهم لمكان صغره، واستمرت حالهم على ذلك إلى آخر الدولة، وكان من أمرهم ما نذكره بعد واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن شأن العرب ومهلك حمزة ثم أجلاب بنيه على الحضرة وانهزامهم ومقتل معز وزيرهم وما قارن ذلك من الأحداث

لما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان وأعمالها، وقطع دابر آل زيان واجتث أصلهم وجمع كلمة زناتة على طاعته، واستتبعهم غصباً تحت لوائه، ودانت القبائل بالانقياد له ورجفت القلوب لرعبه، ووفد عليه حمزة بن عمر يرغبه في ممالك إفريقية ويستحثه لها ديدنه مع أبي تاشفين من قبله، فكف بالبأس من غلوائه،

وزجره عن خلافه على السلطان وشقاقه. ونهج له بالشفاعة سبيلاً إلى معاودة طاعته والعمل بمرضاته، فرجع حمزة إلى السلطان عائذاً بحلمه متوسلاً بشفاعة صاحبه راغباً بإذعانه، وقطع مواد الخلاف من العرب باستقامته فتلقاه السلطان بالقبول وأسعاف الرغبة والجزاء على المناصحة والمخالصة. ولم يزل حمزة بن عمر من لدن رضى مولانا السلطان عنه وإقباله عليه صحيح الطاعة خالص الطوية منادياً بمظاهرة محمد بن الحكيم قائد حربه، وشهاب دولته على تدويخ إفريقية وتمهيد أعمالها وحسم أدواء الفساد منها.

وأخذ الصدقات من جميع ظواعن البدو الناجعة في أقطارها، وجميع الطوائف المتعاصين بالثغور على إلقاء اليد للطاعة والكف عن أموال الجباية فكانت لهذا القائد آثار في ذلك مهدت من الدولة وأرغمت أنوف المتعاطين بالاستبداد في القاصية حتى استقام الأمر وانمحت آثار الشقاق فاستولى على المهدية سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وغلب عليها ابن عبد الغفار المنتزي بها من أهل رجيس واستولى على تبسة وتقبض على صاحبها محمد بن عبدون من مشيختها وأودعه سجن المهدية إلى أن أطلق بعد نكبته، ونازل توزر من بعد ذلك حتى استقام ابن يملول على طاعته المضعفة، واسترهن ولده، ونازل بسكرة غير مرة يدافعه يوسف بن منصور بن مزني بذمة عليه يدعيها من السلطان أبي بكر وسلفه. ويعطيه الجباية عن يد مع ما كان له من الاعتلاق بخدمة السلطان أبي الحس فيتجافى عنه ابن الحكيم لذلك بعد استيفاء مغارمه.

وزحف إلى بلاد ريغة فافتتح قاعدتها تقرت واستولى على أموالها وذخيرتها وسار إلى جبل أوراس فافتتح الكثير من معاقله. وعصفت ريح الدولة بأهل الخلاف من كل جانب وجاست عساكر السلطان خلال كل أرض. وفي أثناء ذلك هلك حمزة بن عمر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة على يد أبي عون بن علي بن كبير أحد بطون بني كعب بطعنة طعنه غيلة فأشواه وقام بأمره من بعده بنوه، وكبيرهم يومئذ عمر، وداخلتهم الظنة بأن قتله بإملاء الدولة فاعصوصبوا وتدامروا واستجاشوا بأقتالهم أولاد مهلهل فجيشوا معهم وزحف إليهم ابن الحكيم في عساكر السلطان من زناتة والجند ففلوه واستلحموا كثيراً من وجوههم. ورجع إلى الحضرة فتحصن بها واتبعوه فنزلوا بساحتها سنة ثلاثين وسبعمائة وقاتلوا العساكر سبع ليال.

ثم اختلفوا ونزل طالب بن مهلهل في قومه إلى طاعة السلطان فأجفلوا وخرج السلطان على تفيئة ذلك في جمادى من سنته في عساكره وأحزابه من العرب وهوارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سنته.

وذهبوا مفلولين إلى القفر ومروا في طريقهم بالأمير أبي العباس بقفصة فرغبوه بالخلاف على أبيه، وأن يجلبوا به على الحضرة فأملى لهم في ذلك حتى ظفر بالمعز بن مطاع وزير حمزة وكان رأس النفاق والغواية فتقبض عليه وقتله، وبعث برأسه إلى الحضرة ونصب بها. ووقع ذلك من مولانا السلطان أحسن المواقع. ثم وفد بعدها على الحضرة فبايع لها بالعهد في آخر سنته في محفل أشهده الملأ من الخاصة والكافة بإيوان ملكه. وكان يوماً مشهوداً قرىء فيه سجل العهد على الكافة، وانفضوا منه داعين للسلطان. وراجع بنو حمزة الطاعة بعدها واستقاموا عليها إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

الخبر عن مهلك الحاجب ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين من بعده وما كان على تفيئة ذلك من نكبة ابن الحكيم

هذا الرجل اسمه أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الغساني وكنيته أبو القاسم، وأصل سلفه من الأندلس انتقلوا إلى مراكش واستخدموا بها للموحدين، واستقر أبوه إسماعيل بتونس، ونشأ أبو القاسم بها واستكتبه الحاجب ابن الدباغ، ولما دخل السلطان أبو البقاء خالد إلى تونس، ونكب ابن الدباغ لجأ ابن عبد العزيز إلى الحاجب ابن غمر، وخرج معه من تونس إلى قسطنطينة واستقر ظافر الكبير هنالك فاستخدمه إلى أن غرب إلى الأندلس كما قدمناه. ثم استعمله ابن غمر على الأشغال بقسطنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة فقام بها وتعلق بخدمة القالون بعد استبداد ابن عمر ببجاية. فلما وصل السلطان أبو بكر إلى تونس سنة ثمان عشرة وسبعمائة استقدمه القالون واستعمله على أشغال تونس. ثم كانت سعايته في القالون مع المزوار بن عبد العزيز إلى أن فر القالون سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وولي الحجابة المزوار بن عبد العزيز، وكان أبو القاسم بن عبد العزيز هذا رديفاً لضعف أدواته.

ولما هلك ابن عبد العزيز المزوار بقي أبو القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم إلى أن قدم ابن سيد الناس من بجاية، وتقلد الحجابة كما قدمناه فغص بمكان ابن عبد العزيز هذا وأشخصه عن الحضرة وولاه أعمال الحامة ثم استقدم منها عندما ظهر عبد الواحد اللحياني بجهات قابس فلحق بالسلطان في حركته إلى تيمرزدكت، وأقام في جملة السلطان إلى أن نكب ابن سيد الناس، وولي الحجابة بالحضرة كما ذكرت ذلك كله من قبل إلى أن هلك

فاتح سنة أربع وأربعين وسبعمائة فعقد السلطان على حجابته لشيخ الموحدين أبي محمد عبد الله بن تافراكين.

وكان بنو تافراكين هؤلاء من بيوت الموحدين في تينملل ومن آيت الخمسين. وولي عبد المؤمن كبيرهم عمر بن تافراكين على فاس أول ما ملكها الموحدون سنة أربعين وخمسمائة إلى أن فتحوا مراكش، فكان عبد المؤمن يستخلفه عليها أيام مغيبه على الإمارة والصلاة. ولما ثار بمراكش عبد العزيز وعيسى ابنا أومغار أخي الإمام المهدي سنة إحدى وخمسين كان أول ثورتهم أن اعترضوا عمر بن تافراكين عند ندائه للصلاة فقتلوه، وفضحهم الصبح فاستلحمهم العامة، ثم كان ابنه عبد الله بن عمر من بعده من رجالات الموحدين ومشيختهم. ولما عقد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحاق أنزل معه عبد الله بن عمر بن تافراكين للمشورة مع جماعة من الموحدين كان منهم يوسف بن وانودين، وكان عبد الله المقدم فيهم وجاء ابنه عمر من بعده متقبلاً مذهبه مرموقاً بتجلته. ولما ولي السيد أبو سعيد بن عمر بن عبد المؤمن على إفريقية ولاه قابس وأعمالها إلى أن استنزله عنها يحيى بن غانية سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ثم كان منهم بعد ذلك عظماء في الدولة وكبراء من المشيخة آخرهم عبد العزيز بن تافراكين، خالف الموحدين بمراكش لما نقضوا بيعة المأمون، فاغتالوه في طريقه إلى المسجد عند الأذان للصبح، بما كان محافظاً على شهود الجماعات. ورعاه له المأمون في أخيه عبد الحق وبنيه أحمد ومحمد وعمر، فلما استلحم الموحدون وعمهم الجزع ارتحل عبد الحق مورياً بالحج ونزل على السلطان المستنصر فأنزله بمكانه من الحضرة وسرحه بعض الأحايين إلى الحامة لحسم الداء فيها. وقد كان يوقع الخلاف من مشيختها فحسن غناؤه فيها، وقتل أهل الخلاف وحسم العلل، وولاه السلطان أبو إسحاق على بجاية بعد مقتل محمد بن أبي هلال فاضطلع بها. ولما ولي الدعي ابن عمارة سرحه في عسكر من الموحدين لقهر العرب وكف عدوانهم فأثخن فيهم ما شاء. ولم يزل معروفاً بالرئاسة مرموقاً بالتجلة إلى أن هلك. وكان بنو أخيه عبد العزيز وهم: أحمد ومحمد وعمر جاؤوا على أثره من المغرب فنزلوا بالحضرة خير منزل، وغذوا بلبان النعمة والجاه فيها. وكان أحمد كبيرهم، وولاه السلطان أبو حفص على قفصة ثم على المهدية، ثم استعفى من الولاية فأُعفي.

وكان السلطان أبو عصيدة يستخلفه على الحضرة إذا أخرج منها على ما كان لأوليه إلى أن هلك الأول المائة الثامنة سنة ثلاث. ونشأ ابناه أبو محمد عبد الله وأبو العباس أحمد في حجر الدولة وجو عنايتها، وأصهر عبد الله منهما إلى أبي يعقوب بن يزدوتن شيخ الدولة في ابنته فعقد له عليها. وأصهر من بعده أخوه أحمد إلى أبي محمد بن يغمور في ابنته فعقد له أيضاً عليها، واستخلص أبو ضربة اللحياني كبيرهما أبا محمد عبد الله وآثره بصحابته، فلم يزل معه إلى أن كانت الوقيعة عليه بمصوح، وتقبض على كثير من الموحدين فكان في جملتهم. ومنَّ عليه السلطان أبو بكر ورقاه في رتب عنايته إلى أن ولاه الوزارة بعد الشيخ أبي محمد بن القاسم. ثم قدمه شيخاً على الموحدين بعد مهلك شيخهم أبي عمر بن عثمان سنة اثنتين وأربعين وبعثه إلى ملك المغرب مع ابنه الأمير أبي زكريا صاحب بجاية صريخاً على بني عبد الواد فجلى في خدمة السلطان وعرض سفارته. وتوجه للإيثار بعدها إليه. واختص بالسفارة إلى ملك المغرب سائر أيامه. وغص الحاجب ابن سيد الناس بمكانه، وهم بمكروهه فكبح السلطان عنانه عنه، ويقال إنه أفضى إليه بذات صدره من نكبته. ولما انقسمت خطط الدولة من الحرب والتدبير ومخالصة السلطان وتنفيذ أوامره بين ابن عبد العزيز الحاجب وابن الحكيم القائد. كان له هو القدح المعلى في المشورة والتدبير، وكانوا يرجعون إليه ويعولون على رأيه، وكان ثالث أثافيهم ومصقلة آرائهم.

ولما هلك الحاجب ابن عبد العزيز، وكان السلطان قد أضمر نكبة ابن الحكيم، لما كان يتعاطاه من الاستبداد ويحتجنه من أموال السلطان، وأسر الحاجب ابن عبد العزيز إلى السلطان زعموا بين يدي مهلكه بالتحذير من ابن الحكيم وسوء دخلته، وأنه فاوضه أيام نزول العرب عليه بساح تونس سنة اثنتين وأربعين كما قدمناه في الإدالة من السلطان ببعض الأعياص من بني أبي دبوس، كانوا معتقلين بالحضرة، ألقاها الغدر على لسانه ضجراً من قعود السلطان عن الخروج بنفسه إلى العرب وسأمه ما هو فيه من الحصار فاعتدها عليه ابن عبد العزيز حتى ألقاها إلى السلطان عند موته، وبريء منها إليه فأودعها إذناً واعية وكان حتف ابن الحكيم فيها. ولما هلك وولي شيخ الموحدين أبو محمد بن تافراكين فاوضه في نكبة ابن الحكيم، وكان يتربص به لما كان بينهما من المنافسة.

وكان ابن الحكيم غائباً عن الحضرة في تدويخ القاصية، وقد نزل جبل أوراس واقتضى مغارمه وتوغل في أرض الزاب واستوفى جبايته من عامله يوسف بن منصور، وتقدم إلى ريغ ونازل تغرت وافتتحها، وامتلأت أيدي عساكرهم من مكاسبهم وحليهم. واتصل به خبر مهلك ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين الحجابة فنكر ذلك لما كان يظن أن السلطان لا يعدل

بها عنه. وكان يرشح لها كاتبه أبا القاسم بن واران، ويرى أن ابن عبد العزيز قبله لم يتميز بها إيثاراً عليه، فبدا له ما لم يحتسبه فظن الظنون ونعر ثم أصحب، وأغذ السير إلى الحضرة وقد واكب السلطان أبا محمد بن تافراكين في نكبته وأعد البطانة للقبض عليه. وقدم على الحضرة منتصف ربيع من سنة أربع وأربعين وجلس له السلطان جلوساً فخماً فعرض عليه هديته من المقربات والرقيق والأنعام، حتى إذا انفض المجلس وشيع السلطان وزراءه وانتهى إلى بابه أشار إلى البطانة فلحقوا به وتلّوه إلى محبسه. وبسط عليه العذاب لاستخراج الأموال فأخرجها من مكان احتجانها وحصل منها في مودع السلطان أربعمائة ألف من الذهب العين ومثلها أو ما يقاربها قيمة من الجوهر والعقار إلى أن استصفى. ولما امتك عظمه ونفذ ماله خنق بمحبسه في رجب من سنته وذهب مثلاً في الأيام. وغرب ولده مع أمه إلى المشرق، وطوح بهم الاغتراب إلى أن هلك منهم من هلك، وراجع الحضرة علي وعبيد منهم في آخرين من أصاغرهم بعد أيام وأحوال واللّه يحكم لا معقب لحكمه.

الخبر عن شأن الجريد واستكمال فتحه وولاية ابنه أبي العباس عليه وولاية صاحب قابس أحمد بن مكي على جزيرة جربة

كان أمر الجريد قد صار إلى الشورى منذ شغلت الدولة بمطالبة زناتة بني عبد الواد وما نالها لذلك من الاضطراب، واستبد مشيخة كل بلد بأمره، ثم انفرد واحد منهم بالرئاسة، وكان محمد بن يملول من مشيخة توزر هو القائم فيها والمستبد بأمرها كما سنذكره. ولما فرغت الدولة إلى الاستبداد وأرهف السلطان حده للثوار وعفى على آثار المشيخة بقفصة وعقد لابنه الأمير أبي العباس على قسطيلية. ونزل بقفصة فأقام بها ممهداً لإمارته، ومردداً بعوثه إلى البلاد اختباراً لما يظهرون من طاعته. وزحف حاجبه أبو القاسم بن عتو بالعساكر إلى نفطة ابتلاء لطاعة رؤسائها بني مدافع المعروفين ببني الخلف، وكانوا إخوة أربعة استبدوا برئاستها في شغل الدولة عنهم فسامهم سوء العذاب، ولاذوا بجدران الحصون التي ظنوا أنها مانعتهم وتبرأت منهم الرعايا فأدركهم الدهش، وسألوا النزول على حكم السلطان فجنبوا إلى مصارعهم وصلبوا على جذوعهم آية للمعتبرين، وأفلت السيف عليّاً صغيرهم لنزوعه إلى العسكر قبل الحادثة، فكانت له ذمة واقية من الهلكة. فانتظم الأمير أبو العباس بلد نفطة في مملكته وجدد له العقد عليه أبوه. وتملك الكثير من نفزاوة.

ولما استبيحت نفطة ونفزاوة سمت همته إلى ملك توزر جرثومة الشقاق وعش الخلاف والنفاق، وخشي مقدمها محمد بن يملول مغبة حاله فذهب إلى مصانعة قائد الدولة محمد بن الحكيم بذات صدره فتجافى عنه إلى أن كان مهلكهما في سنة واحدة، واضطرب أمر توزر وتواثب بنوه وإخوته وقتل بعضهم بعضاً. وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فأطلقه السلطان من محبسه بعد أن أخذ عليه المواثيق بالطاعة والجباية، ومضى إلى توزر فملكها وطالبه الأمير أبو العباس صاحب قفصة وبلاد قسطيلية بالانقياد الذي عاهد عليه، فنازعه ما كان في نفسه من الاستبداد وصارت توزر لذلك شجاً معترضاً في صدر إمارته فخاطب أباه السلطان أبا بكر وأغراه به فنهض إليه سنة خمس وأربعين، وانتهى إلى قفصة وصار الخبر إلى أبي بكر ابن يملول رئيسها يومئذ فأدركه الدهش وانفض من حوله الأولياء، وجاهر بطاعة السلطان ولقائه ففر عنه كاتبه وكاتب أبيه المستولي على أمره علي بن محمد التمودي المعروف الشهرة، ولحق ببسكرة في جوار يوسف بن مزني واتخذ السلطان السير إلى توزر فخرج إليه أبو بكر بن يملول وألقى إليه بيده وخلط نفسه بجملته.

ثم ندم على ما فرط من أمره وأحس بالنكراء من الدولة، وأنذر بالمهلكة فلحق بالزاب ونزل على يوسف بن منصور ببسكرة فتلقاه من الترحيب والقرى بما تحدث به الناس، ولما استولى السلطان على توزر وانتظمها في أعماله عقد عليها لابنه الأمير أبي العباس وأنزله بها وأمكنه من رمتها ورجع السلطان إلى الحضرة ظافراً عزيزاً، وتملأ أيام ملكه إلى أن هلك على فراشه كما نذكر. واتصلت ممالك الأمير أبي العباس في بلاد الجريد وساور أبو بكر بن يملول توزر مراراً يفلت في كلها من المهلكة إلى أن مات ببسكرة سنة سبع وأربعين قبيل مهلك ابن السلطان كما نذكر. وأقام الأمير أبو العباس بمحل إمارته ولم يزل يمهد الأحوال ويستنزل الثوار. وكان ابن مكي قد امتنع عليه بقابس، وكان من خبره أنه لما رجع عبد الملك من تونس مع عبد الواحد بن اللحياني الذي كان حاجباً له ذهب ابن اللحياني إلى المغرب وأقام هو بقابس. ثم استراب بمثال أمره مع السلطان حين ذهب ملك آل زيان فأوفد أخاه أحمد بن مكي على السلطان أبي الحسن متنصلاً من ذنوبه متذمماً بشفاعته منه إلى السلطان أبي بكر فشفع له وأعاده السلطان إلى مكان رئاسته. واستقام هو على الطاعة ونكب عن سنن العصيان والفتنة.

وكان لأحمد بن مكي حظ من الخلال والأدوات ونفس

مشغوفة بالرئاسة والسرو، وكان يقرض الشعر فيجيد ويرسل فيحسن، وكان خط كتابته أنيقاً ينحو به منحى الخط الشرقي شأن أهل الجريد فيمتع ما شاء، فكانت لذلك كله في نفس الأمير أبي العباس صاغية إليه. وكان هو مستريباً بالمخالطة لما شاء من آثاره السالفة. ولم يزل الأمير أبو العباس يفتل له في الذروة والغارب إلى أن جمعه مجلس السيدة أمة الواحدة أخت مولانا السلطان قافلة من حجها فمسح ما كان بصدره، وأحكم له عقد مخالصته واصطنعه لنفسه، فحل من إمارته بمكان غبطة واعتزاز. وعقد له السلطان على جزيرة جربة، واستضافها إلى عمله وأنزل عنها مخلوف بن الكماد من صنائعه كان افتتحها سنة ثمان وثمانين وعقد له السلطان عليها ونزلها أحمد بن مكي. واستقل عبد الملك أخوه برئاسة قابس فقاما على ذلك وجردا عزائمهما في ولاية أبي العباس صاحب أعمال الجريد فلم يزالوا كذلك إلى أن كان من أمر الجمع ما نذكره.

الخبر عن مهلك الوزير أبي العباس بن تافراكين

كان السلطان أبو بكر عند نكبته لقائده ابن الحكيم استعمل على حجابته شيخ الموحدين أبا محمد بن تافراكين كما ذكرناه، وفوض إليه فيما وراء بابه وعقد على الوزارة لأخيه أبي العباس أحمد، وكان أبو محمد جلس بالبابِ لمكان الحجابة فدفع إلى الحرب وقود العساكر، وإمارة الضاحية أخاه أبا العباس فقام بما دفع إليه من ذلك. وكان بنو سليم بعد مهلك حمزة بن عمر نقموا ما كان عليه من الإذعان وسموا إلى الخلاف والعناد، فكان من أبناء حمزة في ذلك من الأجلاب على الحضرة ما ذكرناه، وكان سحيم ابن من أولاد القوس بن حكيم بهمّة غوار ومارد وخلاف وعناد، وكان السلطان قد ولى على حجابة ابنه الأمير أبي العباس في أعمال الجريد أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وكان يناهض بني تافراكين بزعمه في الشرف، وينفس عليهم ما آتاهم الله من الرتبة والحظ، فلما ولي أبو محمد الحجابة مليء منه حسداً وحفيظةً، وداخل فيما زعموا سحيماً هذا الغوي في النيل من أبي العباس بن تافراكين صاحب العساكر وشارطه على ذلك بما أداه إليه وتكاتموا أمرهم. وخرج أبو العباس بن تافراكين فاتح سنة سبع في العساكر لجباية هوارة فوفد عليه سحيم هذا وقومه وضايقوه في الطلب. ثم انتهزوا الفرصة بعض الأيام وأجلبوا عليه، فانفض معسكره وكبا به فرسه فقتل وحمل شلوه إلى الحضرة فدفن بها وجاهر سحيم بالخلاف، وخرج إلى الرمال فلم يزل كذلك إلى حين مهلك السلطان كما نذكره.

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأنباء وما كان بعد ذلك من ثورة أهل بجاية بأخيه الأمير أبي حفص وولاية ابنه الأمير أبي عبد الله

كان السلطان أبو بكر لما هلك الحاجب ابن غمر عقد على بجاية لابنه الأمير أبي زكريا كبير ولده، وأنفذه إليها مع حاجبه محمد بن القالون كما ذكرناه وجعل أموره تحت نظره. ثم رجع القالون إلى تونس فأنزل معه ابن سيد الناس كذلك، فلما استبد سيد الناس بحجابة الحضرة جعل على حجابته أبا عبد الله بن فرحون. ثم لما تقبض على ابن سيد الناس وعلي ابن فرحون وقد استبد الأمير أبو زكريا بأمره، وقام على نفسه فوض إليه السلطان الأمر في بجاية وبعث إليه ظافراً السنان مولى أبيه الأمير أبي زكريا الأوسط قائداً على عسكره. والكاتب أبا إسحاق بن غلان متصرفاً في حجابته فأقاما ببابه مدة ثم صرفهما إلى الحضرة، وقدم لحجابته أبا العباس أحمد بن أبي زكريا الرندي، كان أبوه من أهل العلم وكان ينتحل مذهب الصوفية الغلاة، ويطالع كتب عبد الحق بن سبعين. ونشأ أحمد هذا ببجاية واتصل بخدمة السلطان وترقى في الرتب إلى أن استعمله الأمير أبو زكريا كما قلناه. ثم هلك وقد أنف السلطان أبو بكر من انتزاء هؤلاء السوقة على حجابة ابنه فأنفذ لها من حضرته كبير الموحدين يومئذ صاحب السفارة أبا محمد بن تافراكين سني أربعين وسبعمائة فأقام أحوال ملكه، وعظم أبهة سلطانه، وجهز العساكر لسفره وأخرجه إلى أعماله فطاف عليها وتفقدها، وانتهى إلى تخومها من المسيلة ومقرة. ولم يستكمل الحول حتى سخطه مشيخة من أهل بجاية لما نكروا من الأبهة والحجاب حتى استغلظ عليهم باب السلطان، وتولى كبر ذلك القاضي ابن أبي يوسف تعنتاً وملالاً، واستعفى هو من ذلك فأعفي وعاد إلى مكانه بالحضرة.

ثم استقدم الأمير أبو زكريا حاجبه الأول بعهد ابن سيد الناس، وهو أبو عبد الله محمد بن فرحون، وقد كان السلطان بعثه في غرض الرسالة إلى ملك المغرب في الأسطول الذي بعثه مدداً للمسلمين عند إجازة السلطان أبي الحسن إلى طريف. وكان أخوه زيد بن فرحون قائد ذلك الأسطول بما كان قائد البحر ببجاية،

فلما رجع ابن عبد اللّه بن فرحون من سفارته تلك أذن له في المقام عند الأمير أبي زكريا واستعمله على حجابته إلى أن هلك فولي من بعده في تلك الخطة ابن القشاش من صنائع دولته. ثم عزله وولى عليها أبا القاسم بن علناس من طبقة الكتاب، اتصل بدار هذا الأمير وترقى في ديوانه إلى أن ولاه خطة الحجابة. ثم عزله بعلي بن محمد بن المنت الحضرمي. كان أبوه وعمه قدما على جالية الأندلس وكانا ينتحلان القراءات.

وأخذ أهل بجاية عن عمه أبي الحسن علم القراءات، وكان طموحاً للرئاسة واتصل بحظية كانت للمولى أبي زكريا تسمى أم الحكم قد غلبت على هواه، فرسخت على ابن المنت هذا بخطة الحجابة واستعمله فيها فقام بها وأصلح معونات السلطان وأحوال مقاماته في سفره، وجهز له العساكر وجال في نواحي أعماله.

وهلك هذا الأمير في إحدى سفاراته وهو على حجابته بتاكرارت من أعمال بجاية من مرض كان أزمن به في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وسبعمائة، وكان ابنه الأمير أبو عبد اللّه في حجر مولاه فارح من معلوجي بن سيد الناس. وكان اصطنعه فألفاه قابلاً للترشيح فأقام مع ابن مولاه ينتظر أمر الخليفة، وبادر حاجبه الأول أبو القاسم بن علناس إلى الحضرة وأنمى الخبر إلى الخليفة فعقد على بجاية لابنه الأمير أبي حفص كان معه الحضرة، وهو من أصاغر ولده، وأنفذه إليها مع رجاله وأولي اختصاصه.

وخرج معه أبو القاسم بن علناس فوصل إلى بجاية ودخلها على حين غفلة. وحمله الأوغاد من البطانة على إرهاف الحد وإظهار السطو فخشي الناس البوادر واتمروا. ثم كانت في بعض الأيام هيعة تمالأ فيها الكافة على التوثب بالأمير القادم فطافوا بالقصبة في سلاحهم ونادوا بإمارة ابن مولاهم. ثم تسوروا جدرانها واقتحموا داره وملكوا عليه أمره وأخرجوه برمته بعد أن انتهبوا جميع موجوده، وتسايلوا إلى دار الأمير أبي عبد اللّه محمد ابن أميرهم ومولاهم بعد أن كان معتزماً على التفويض عنهم واللحاق بالخليفة جده. وأذن له في ذلك عمه الأمير القادم فبايعوه بداره من البلد. ثم نقلوه من الغد إلى قصره بالقصبة وملكوه أمرهم. وقام بأمره مولاه فارح ولقبه باسم الحجابة واستمر حالهم على ذلك. ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة آخر جمادى الأولى من سنته لشهر من يوم ولايته إلى أن كان من شأنه بعد مهلك مولانا السلطان ما نذكره. وتدارك السلطان أمر بجاية وبعث إليهم أبا عبد اللّه بن سليمان من كبراء الصالحين من مشيخة الموحدين يسكنهم ويؤنسهم، وبعث معهم كتاب العقد عليها لحافده الأمير أبي عبداللّه محمد بن الأمير أبا زكرياء ذهاباً مع مرضاتهم فسكنت نفوسهم وأنسوا بولاية ابن مولاهم، وجاءت الأمور إلى مصايرها كما نذكره.

الخبر عن مهلك مولانا السلطان أبي بكر وولاية ابنه الأمير أبي حفص

بينما الناس في غفلة من الدهر وظل ظليل من العيش وأمن من الخطوب تحت سرادق من العز وذمة وافية من العدل، إذ ريع بالسرب وتكدر الشرب وتقلصت ظلال العز والأمن، وتعطل فناء الملك ونعي السلطان أبو بكر بتونس فجأة من جوف الليل ليلة الأربعاء ثاني رجب من سنة سبع وأربعين وسبعمائة، فهب الناس من مضاجعهم متسايلين إلى القصر يستمعون نبأ النعي وأطافوا به سائر ليلتهم تراهم سكارى وما هم بسكارى. وبادر الأمير أبو حفص عمر ابن السلطان من داره إلى القصر فملكه وضبط أبوابه واستدعى الحاجب أبا محمد بن تافراكين من داره، ودعوا المشيخة من الموحدين والموالي وطبقات الجند، وأخذ الحاجب عليهم البيعة للأمير أبي حفص. ثم جلس من الغداة جلوساً فخماً على الترتيب المعروف في الدولة أحكمه الحاجب أبو محمد لمعرفته بعوائدها وقوانين ترتيبها، تلقنه عن أشياخه أهل الدولة من الموحدين، وغدا عليه الكافة في طبقاتهم فبايعوا له وأعطوه صفقة أيمانهم. وانفض المجلس وقد انعقدت بيعته وأحكمت خلافته.

وكان الأمير خالد ابن مولانا السلطان مقيماً بالحضرة قدمها سائراً منذ أشهر وأقام متملياً من الزيارة، فلما سمع النعي فر من ليلته، وتقبض عليه أولاد منديل من الكعوب وردوه إلى الحضرة فاعتقل بها. وقام أبو محمد بن تافراكين بخطة الحجابة كما كان وزيادة تفويض واستبداد إلا أن بطانة السلطان كانوا يكثرون السعاية فيه ويوغرون صدره عليه يذكرون منافسات ومناقشات سابقة بين الحاجب والأمير أيام أبيه، واتصل ذلك منهم غصاً بمكانه، وأنذر الحاجب بذلك منهم فأعمل الحيلة في الخلاص من صحابتهم كما نذكر بعد.

الخبر عن زحف الأمير أبي العباس ولي العهد من مكان إمارته بالجريد إلى الحضرة وما كان من مقتله ومقتل أخويه الأميرين أبي فارس عزوز وأبي البقاء خالد

كان السلطان أبو بكر قد عهد إلى ابنه الأمير أبي العباس صاحب أعمال الجريد كما ذكرناه سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، فلما بلغه خبر مهلك أبيه وما كان من بيعة أخيه، نعى على أهل الحضرة ما جاؤوا به من نقض عهده. ودعا العرب إلى مظاهرة أمره، فأجابوه ونزعوا جميعاً إلى طاعته عن طاعة أخيه بما كان مرهفاً لحده في الاستبداد والضرب على أيدي أهل الدولة من العرب وسواهم، وزحف إلى الحضرة ولقيه أخوه أبو فارس صاحب عمل سوسة لقيه بالقيروان فآتاه طاعته وصار في جملته، وجمع السلطان أبو حفص عمر جموعه واستركب واستلحق وأزاح العلل، وأخرج غرة شعبان وارتحل عن تونس، وحاجبه أبو محمد بن تافراكين قد نذر منه بالهلكة، واعتمل في أسباب النجاة، حتى إذا تراءى الجمعان رجع الحاجب إلى تونس في بعض الشغل وركب الليل ناجياً من المغرب. وبلغ خبر مفره إلى السلطان فأجفل واختل مصافه، وتحيز إلى باجة فتلوم بها وتخلف عنه أهل المعسكر فلحقوا بالأمير أبي العباس، وملك الحضرة ثامن رمضان ونزل برياض رأس الطابية وأطلق أخاه أبا البقاء من معتقله.

ثم دخل إلى قصره لسبع ليال من ملكه وصبحه الأمير أبو حفص ثامنها فاقتحم عليه البلد لصاغية كانت له في قلوب الغوغاء من غشيانه أسارهم وطروقه منازلهم أيام جنون الشباب وقضاء لذاته في مرباه. وفتك بأخيه الأمير أبي العباس. ولسرعان ما نصب رأسه على القناة، وداست شلوه سنابك العسكر، وأصبح آية للمعتبرين. وثارت العامة بمن كان بالبلد من وجوه العرب ورجالاتهم فقتلوا في تلك الهيعة من كتب عليه القتل. وتلوا كثيراً منهم إلى السلطان فاعتقلهم، وقتل أبا الهول بن حمزة بن عمر بن بينهم، وتقبض على أخويه خالد وعزوز، فأمر بقطعهم من خلاف فقطعوا وكان فيه مهلكهم. واستوسق ملكه بالحضرة واستعمل على حجابته أبا العباس أحمد بن علي بن رزين من طبقة الكتاب، كان كاتباً للشخشي الحاجب وبعده للقائد ظافر الكبير. واتصل بالسلطان أبي بكر لأول ملكه بالحضرة فأسف علي بن عمر بولاية ابن القالون الحاجب فخاطب السلطان فيه ونكبه. ثم أطلق من محبسه ومضى إلى المغرب ونزل على السلطان أبي سعيد فأحمد نزله، ثم رجع إلى الحضرة ولم يزل مشنوءاً أيام السلطان. كلها، واستكتب الأمير أبو حفص ولده محمداً وكانت له به وصلة، فلما استوسق له الملك بعد مفر أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه، ولى أباه أبا العباس هذا على حجابته، وعقد على حربه وعساكره لظافر مولى أبيه وجده المعروف بالسنان، واستخلص لنجواه وسره كاتبه أبا عبد الله محمد بن الفضل بن من طبقة الفقهاء ومن أهل البيوت النابهة بتونس، كان له بها سلف مذكور، واتصل بدار السلطان وارتسم بها مكتباً لولده. وقرأ عليه هذا الأمير أبو حفص فيمن قرأ عليه منهم فكانت له من أجل ذلك خصوصية به ومزيد عناية عنده. ولما استبد بأمره كان هو مستبداً بشوراه، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي الحسن على إفريقية ومهلك الأمير أبي حفص وانتقال الأبناء من بجاية وقسطنطينة إلى المغرب وما تخلل ذلك من الأحداث

كان السلطان أبو الحسن يحدث نفسه منذ ملك تلمسان وقبلها بملك إفريقية، ويتربص بالسلطان أبي بكر ويسر له حسواً في ارتغاء، فلما لحق به حاجبه أبو محمد بن تافراكين بعد مهلكه رغبه في سلطانها واستحثه بالقدوم عليها، وجدد له الحوار فتنبهت لذلك عزائمه. ثم وصل الخبر بمهلك ولي العهد وأخويه وخبر الواقعة، فأحفظه لذلك بما كان من رضاه بعهده، وخطه بالوفاق على ذلك بيده في سجله. وذلك أن حاجب الأمير أبي العباس وهو أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين كان سفر عن السلطان لآخر أيامه إلى السلطان أبي الحسن بهدية. وحمل سجل العهد فوقف عليه السلطان أبو الحسن، وسأل منه أمضاء لمولاه وكتب ذلك بخطه في سجله، فخطه بيمينه وأحكم له عقده. فلما بلغه مهلك ولي العهد تعلل بأن النقض أتى على ما أحكمه فأجمع غزو إفريقية ومن بها، فعسكر بظاهر تلمسان، وفرق الأعطيات، وأزاح العلل. ثم رحل في صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة يجر الدنيا بما حملت. وأوفد عليه أبناء حمزة بن عمر أمراء البدو بإفريقية، ورجالات الكعوب أخاهم خالداً يستصرخه لثأر أخيه أبي الهول الهالك يوم الواقعة فأجابهم.

ونزع إليهم أيضاً أهل القاصية بإفريقية بطاعتهم فجاؤوا في

وفد واحد: ابن مكي صاحب قابس وابن يملول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة ومولاهم ابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نفطة، فلقوه بوهران وآتوه بيعتهم رغبة ورهبة. وأدوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس، ولم يتخلف عنهم إلا من بعد داره. ثم جاء من بعدهم وعلى أثرهم صاحب الزاب يوسف بن منصور بن مزني ومعه مشيخة الموحدين الدواودة، وكبيرهم يعقوب بن علي فلقيه بنو حسن من أعمال بجاية فأوسع الكل حباً وكرامةً، وأسنى الصلات والجوائز وعقد لكل منهم على بلده وعمله. وبعث مع أهل الجزائر الولاة للجباية لنظر مسعود بن إبراهيم اليرنياني من طبقة وزرائه، وأغذ السير إلى بجاية، فلما أطلت عساكره عليها توامر أهلها في الامتناع، ثم أنابوا وخرج أميرها أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي زكريا فآتاه طاعته، وصرفه إلى المغرب مع إخوانه، وأنزله ببلد ندرومة. وأقطع له الكفاف من جبايتها وبعث على بجاية عماله وخلفاءه. وسار إلى قسطنطينة فخرج إليه أبناء الأمير أبي عبد الله يقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد وآتوه طاعتهم، وأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها، وأنزل بقسطنطينة خلفاءه وعماله، وأطلق القرابة من مكان اعتقالهم بها، وفيهم أبو عبد الله محمد أخو السلطان أبي بكر وبنوه، ومحمد ابن الأمير خالد وإخوانه وبنوه، وأصارهم في جملته حتى صرفهم إلى الغرب من الحضرة من بعد ذلك.

ووفد عليه هنالك بنو حمزة بن عمر ومشايخ قومهم الكعوب فأخبروه بإجفال المولى أبي حفص من تونس مع ظواعن أولاد مهلهل، واستحثوه باعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر، وسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو العشري من مواليه، وسرح عسكراً آخراً إلى تونس لنظر يحيى بن سلسمان من بني عسكر ومعه أبو العباس بن مكي، وسارت العساكر لطلب الأمير أبي حفص فأدركوه بأرض الحامة من جهات قابس، وصبحوهم فدافعوا عن أنفسهم بعض الشيء، ثم انفضوا وكبا بالأمير أبي حفص جواده في بعض نافقاء الجرابيع، وانجلت الغيابات عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهما، وأوثقهما قائد الكتائب بيده، حتى إذا جن الليل وتوقع أن يفلتهما العرب من أساره قبل أن يصل بهما إلى مولاه فذبحهما، وبعث برؤوسهما إلى السلطان أبي الحسن فوصلا إليه بباجة.

وخلص الفل من الواقعة إلى قابس، فتقبض عبد الملك بن مكي على رجالات من أهل الدولة، كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة، فبعث بهم ابن مكي إلى السلطان. فأما ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطعهم من خلاف، واعتقل الباقين، وسيقت العساكر إلى تونس. ثم جاء السلطان على أثرهم ودخل الحضرة في الزي والاحتفال في جمادى الآخرة من سنته، وخفيت الأصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدي أهل الفساد، وانقرض أمر الموحدين إلا ذبالاً في بونة، فإنه عقد عليها للمولى الفضل ابن مولانا أبي بكر لمكان صهره ووفادته عليه بين يدي مهلك أبيه. ثم ارتحل السلطان إلى القيروان ثم إلى سوسة والمهدية وتطوف على المعالم التي بها، ووقف على آثار ملوك الشيعة وصنهاجة في مصانعها ومبانيها، والتمس البركة في زيارة القبور التي تذكر للصحابة والسلف من التابعين والأولياء، وقفل إلى تونس ودخلها آخر شعبان من سنته.

الخبر عن ولاية الأمير أبي العباس الفضل على بونة وأولية ذلك ومصائره

كان السلطان أبو الحسن قد أصهر إلى السلطان أبي بكر قبيل مهلكه في إحدى كرائمه، وأوفد عليه في ذلك عريف بن يحيى كبير بني سويد من زغبة وصاحب شوراه وخالصة سره مع وفد من رجالات دولته من طبقات الفقهاء والكتاب والموالي كان فيهم صاحب الفتيا بمجلسه أبو عبد الله السطي وكاتب دولته أبو الفضل بن عبد الله بن أبي مدين وأمير الحرم عنبر الخصي، فأسعف السلطان وعقد له على حظيته عزونة شقة ابنه الفضل وزفها إليه بين يدي مهلكه مع أخيها الفضل، ومعه أبو محمد عبد الواحد بن أكماز من مشيخة الموحدين، وأدركهم الخبر بمهلك السلطان في طريقهم.فلما قدموا على السلطان أبي الحسن تقبلهم بقبول حسن، ورفع مجلس الفضل، ولما استتب له ملكها أعرض له عن ذلك، إلا أنه رعى له ذمة الصهر وسابقة الوعد فأقنعه بالعقد على بونة مكان عمله منذ أيام أبيه، وأنزله بها عندما رحل عنها إلى تونس. واضطغن المولى الفضل من ذلك حقداً لما كان يرجوه من تجافيه له عن ملك آبائه، ولحق وفادته وصهره وأقام بمكان عمله منها يؤمل الكرة إلى أن كان من أمره ما نذكره والله أعلم.

الخبر عن بيعة العرب لابن أبي دبوس وواقعتهم مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما قارن ذلك كله من الأحداث

كان السلطان أبو الحسن لما استوسق له ملك إفريقية أسف العرب بمنعهم من الأمصار التي ملكوها بالإقطاعات، والضرب على أيديهم في الأتاوات، فوجموا لذلك، واستكانوا لغلبته، وتربصوا الدوائر. وربما كان بعض البادية يشن الغارات في الأطراف فيعتدها السلطان من كبائرهم. وأغاروا بعض الأيام في ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان في مراعيها، وأظلم الجو بينهم وبينه، وخشوا عاديته وتوقعوا بأسه. ووفد عليه أيام الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد من بني كعب وخليفة بن عبد الله بن مسكين، وخليفة بن بوزيد من رجالات حكيم.

وساءت ظنونهم في السلطان لسوء أفعالهم فداخلوا عبد الواحد بن اللحياني في الخروج على السلطان. وكان من خبر عبد الواحد هذا أنه بعد إجفاله من تونس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة كما ذكرناه لحق بأبي تاشفين فأقام عنده في مبرة وتكرمة. ولما أخذ السلطان أبو الحسن بمخنق تلمسان واشتد حصارها سأل عبد الواحد من أبي تاشفين تخليته للخروج فودعه وخرج إلى السلطان أبي الحسن فنزل عليه. ولم يزل في جملته إلى أن احتل بإفريقية.

فلما خشن ما بينه وبين الكعوب والتمسوا الأعياص من بني أبي حفص ينصبونهم للأمر رجوا أن يظفروا من عبد الواحد بالبغية فداخلوه وارتاب لذلك، وخشي بادرة السلطان فرفع إليه الخبر، فتقبض السلطان عليهم أربعتهم بعد أن أحضرهم معه فأنكروا وبهتوا. ثم وبخهم واعتقلهم، وعسكر بساحة الحضرة لغزوهم، وتلوم لبعث الأعطيات وإزاحة العلل، وبلغ الخبر إلى أحيائهم فقطع اليأس أسباب رجائهم. وانطلقوا يحزّبون الأحزاب ويلتمسون للملك الأعياص. وكان أولاد مهلهل أقيالهم وعديلة حملهم قد أيأسهم السلطان من القبول والرضا بما بالغوا في نصيحة المولى أبي حفص ومظاهرته فلحقوا بالقفر، ودخلوا الرمال فركب إليهم قتيبة بن حمزة وأمه ومعهم ظواعن أبنائهما متذممين لأولاد مهلهل بالعصبية والقرابة، فأجابوهم واجتمعوا بقسطيلية وتواهبوا التراث والدماء، وتذامروا بما شملهم من رهب السلطان، وتوقع بأسه. وتفقدوا من أعياص الموحدين من ينصبونه للأمر، وكان بتوزر أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش وقد ذكرنا خبره وخروجه بجهات طرابلس وأجلابه مع العرب على تونس أيام السلطان أبي عصيدة. ثم انفضوا وبقي عثمان بجهات قابس وطرابلس إلى أن هلك بجريرة جربة، واستقر بنو ابنه عبد السلام بالحضرة بعد حين فاعتقلوا بها أيام السلطان أبي بكر. ثم غربهم إلى الإسكندرية مع أولاد ابن الحكيم عند نكبته كما ذكرنا ذلك كله، فنزلوا بالإسكندرية وأقبلوا على الحرف لمعاشهم. ورجع أحمد هذا من بينهم إلى المغرب واستقر بتوزر واحترف بالخياطة. ولما تفقد العرب الأعياص دلهم على نكرته بعض أهل عرفانه فانطلقوا إليه وجاؤوا به، وجمعوا له الآلة، ونصبوه للأمر وتبايعوا على الاستماتة. وزحف إليهم السلطان في عساكره من تونس أيام الحج من سنة ثمان، ولقيهم بالثنية دون القيروان فغلبهم وأجفلوا أمامه إلى القيروان. ثم تدامروا ورجعوا مستميتين ثاني محرم سنة تسع، فاختل مصافه ودخل القيروان وانتهبوا معسكره بما يشتمل عليه وأخذوا بمخنقة إلى أن اختلفوا فأفرجوا عنه وخلص إلى تونس كما نذكر والله تعالى أعلم.

الخبر عن حصار القصبة بتونس ثم الإفراج عن القيروان وعنها وما تخلل ذلك

كان الشيخ أبو محمد بن تافراكين أيام حجابته للسلطان أبي بكر مستبداً بأمره مفوضاً إليه في سائر شؤونه، فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على مألوفه لما كان قائماً على أمره وليس التفويض للوزراء من شأنه. وكان يظن أن السلطان أبا الحسن سيكل إليه أمر إفريقية وينصب معه الفضل للملك. وربما زعموا أنه عاهده على ذلك فكان في قلبه من الدولة مرض، وكان العرب يفاوضونه بذات صدروهم من الخلاف والإجلاب، فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان أبي الحسن وعساكره وأحاطوا به في القيروان تحيل ابن تافراكين في الخروج على السلطان لما تبين فيه من النكر منه ومن قومه. وبعث العرب في لقائه وأن يحملوه حديث فيئهم إلى الطاعة فأذن له وخرج إليهم وقلدوه حجابة سلطانهم، ثم سرحوه إلى حصار القصبة. وكان السلطان عند رحيله من تونس خلف بها الكثير من حرمه وأبنائه ووجوه قومه. فلما كانت واقعة القيروان واتصل الخبر بتونس كانت لبناته هيعة خشي عليها عسكر السلطان على أنفسهم فلجأ من كان معهم من تونس إلى قصبتها، وأحاط بهم الغوغاء فامتنعت عليهم واتخذوا الآلة للحصار، وفرقوا الأموال في الرجال، وعظم فيها غناء بشير من المعلوجين الموالي فطار له ذكر. وكان الأمير أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب

فوافاه الخبر دوين القيروان، فانفض معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم بالقصبة.

ولما خرج ابن تافراكين من هوة الحصار بالقيروان إليهم طمعوا في الاستيلاء على قصبة تونس وفض ختامها، فدفعوه إلى ذلك. ثم لحق به سلطانه ابن أبي دبوس وعانى من ذلك ابن تافراكين صعباً لكثرة الرجال الذين كانوا بها، ونصبوا المجانيق عليها فلم يغن شيئاً، وهو أثناء ذلك يحاول النجاء بنفسه لاضطراب الأمور واختلال الرسوم إلى أن بلغه خلوص السلطان من القيروان إلى سوسة.

وكان من خبره أن العرب بعد إيقاعهم بعساكره أحاطوا بالقيروان واشتدوا في حصارها، وداخل السلطان أولاد مهلهل من الكعوب وحكيماً من بني سليم في الإفراج عنه، واشترط لهم على ذلك الأموال واختلف رأي العرب لذلك، ودخل عليه فتيتة بن حمزة بمكانه من القيروان زعماً بالطاعة فتقبله وأطلق أخويه خالداً وأحمد، ولم يثق إليهم.

ثم دخل إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة بن بو زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وأسرى معهم بعسكره إلى سوسة فصبحها وركب منها في أساطيله إلى تونس، وسبق الخبر إلى ابن تافراكين بتونس فتسلل من أصحابه وركب السفين إلى الإسكندرية في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

وأصبحوا وقد تفقدوه فاضطربوا وأجفلوا عن تونس، وخرج أهل القصبة من أولياء السلطان فملكوها وخربوا منازل الحاشية فيها. ونزل السلطان بها من أسطوله في ربيع الآخر فاستقلت قدمه من العثار، ورجا الكرة لولا ما قطع أسبابها عنه مما كان من انتراء أبنائه بالمغرب على ما نذكره في أخبارهم. وأجلب العرب وابن أبي دبوس معهم على الحضرة ونازلوا بها السلطان فامتنعت عليهم فرجعوا إلى مهادنته فعقد لهم السلم، ودخل حمزة بن عمر إليه وافداً فحبسه إلى أن تقبض على ابن أبي دبوس وأمكنه منه فلم يزل في محبسه إلى أن رحل إلى المغرب، ولحق هو بالأندلس كما نذكره في أخباره، وأقام السلطان بتونس، ووفد عليه أحمد بن مكي فعقد لعبد الواحد بن اللحياني على الثغور الشرقية طرابلس وقابس وصفاقس وجربة وسرحه مع ابن مكي فهلك عند وصوله إليها في الطاعون الجارف، وعقد لأبي القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وهو الذي كان قطعه بإغراء أبي محمد بن تافراكين، فلما ظهر خلافه أعاد ابن عتو إلى مكانه، وعقد له على بلاد قسطيلية وسرحه إليها وأقام هو بتونس إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن استيلاء الأمير الفضل على قسطنطينة وبجاية ثم استيلاء أمرائهما عليهما

كان سنن السلطان أبي الحسن في دولته بالمغرب وفود العمال عليه آخر كل سنة لإيراد جبايتهم والمحاسبة على أعمالهم، فوفدوا عليه عامهم ذلك من قاصية المغرب ووافاهم خبر الواقعة بقسطنطينة وكان معهم ابن مزني عامل الزاب وفد أيضاً بجبايته وهديته، وكان معهم أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن كان أسيراً من يوم واقعة طريف. ووقعت المهادنة بين الطاغية وبين أبيه فأطلقه وأوفد معه جمعاً من بطارقته وقدموا معه على أبيه ووفد معه أخوه عبد الله من المغرب وكان أيضاً معهم وفد السودان من أهل مالي في غرض السفارة، واجتمعوا كلهم بقسطنطينة، فلما اتصل بهم خبر الواقعة على السلطان كثر الاضطراب، وتجلبت السفاه من الغوغاء إلى ما بأيديهم وخشي الملأ من أهل البلد على أنفسهم فاستدعوا أبا العباس الفضل من عمله ببونة. ولما أطل على قسطنطينة ثارت العامة بمن كان هنالك من الوفود والعمال وانتهبوا أموالهم واستلحموا منهم، وخلص أبناء السلطان مع وفود السودان والجلالقة إلى بسكرة مع ابن مزني، وفي حفارة يعقوب بن علي أمير الدواودة فأوسعهم ابن مزني قرى وتكرمة إلى أن لحقوا بالسلطان أبي الحسن بتونس في رجب من سنة تسع.

ودخل المولى الفضل إلى قسطنطينة وأعاد ما ذهب من سلطان قومه. وشمل الناس بعدله وإحسانه، وسوغ الأقطاع والجوائز ورحل إلى بجاية لما آنس من صاغية أهلها إلى الدعوة الحفصية. فلما أطل عليها ثار أهلها بالعمال الذين كان السلطان أنزلهم بها واستباحوهم وأفلتوا من أيدي نكبتهم بجريعة الذقن ودخل الفضل إلى بجاية واستولى على كرسي ملكها. ونظمها مع قسطنطينة وبونة في ملكه. وأعاد ألقاب الخلافة ورسومها وشياتها كما كانت، واعتزم على الرحيل إلى الحضرة. وبينما هو يحدث نفسه بذلك إذ وصل الخبر بقدوم أمراء بجاية وقسطنطينة من المغرب، وكان من خبرها أن الأمير أبا عنان لما بلغه خبر الواقعة بأبيه وانتزاء منصور ابن أخيه أبي مالك بالبلد الجديد دار ملكهم، وأحس بخلاص أبيه من هوة الحصار بالقيروان وثب على الأمر ودعا لنفسه، ورحل إلى المغرب كما نذكره في أخباره. وسرح الأمير أبا عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأبناء إلى عمله. وأمده بالأموال وأخذ عليه المواثيق ليكونن له

رداء دون أبيه، وليحول بينه وبين الخلوص اليه متى مر به.

وانطلق أبو عبد الله إلى بجاية وقد سبقه إليها عمه الفضل واستولى عليها فنازله بها وطال حصارها، ولحق به بمكانه من منازلتها نبيل المولى من المعلوجي مع ابناء الأمير أبي عبد الله وكافل بنيه من بعده. وتقدم إلى قسطنطينة وبها عامل من قبل الفضل، فثار به الناس لحينه، ودخل نبيل وملك البلد وأقام فيها دعوة الأمير أبي زيد ابن الأمير أبي عبد الله. وكان الأمير أبو عنان استصحبه وإخوانه إلى المغرب، وبعد احتلاله بفاس سرحهم إلى مكان إمارتهم بقسطنطينة بعد أن أخذ عليهم الموثق في شأن أبيه بمثل موثق ابن عمهم فجاؤوا عل أثر نبيل مولاهم ودخلوا البلد واحتل أبو زيد منها بمكان إمارته وسلطان قومه كما قبل رحلتهم إلى المغرب.

ولم يزل الأمير أبو عبد الله ينازل بجاية إلى أن بيتها بعض ليالي رمضان من سنته بمداخلة بعض الأشياع من زعانفتها داخلهم مولاه وكافله فارح في ذلك، فسرب فيهم الأموال وواعدوه للبيات، وفتحوا له باب البر من أبوابها فاقتحمها وفاجأهم هدير الطبول فهب السلطان من نومه وخرج من قصره فتسنم الجبل المطل عليها متسرباً في شعابه إلى أن وضح الصباح وظهر عليه فجيء به إلى ابن أخيه فمن عليه واستبقاه، وأركبه السفين إلى بلده بونة في شوال من سنة تسع وأربعين وسبعمائة ووجد بعض الأعياص من قرابته قد ثاروا بها، وهو محمد بن عبد الواحد من ولد أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا الأكبر كان هو وأخوه عمر بالحضرة، وكان لعمر منهما النظر على القرابة. فلما كان هذا الاضطراب لحقوا بالفضل وتركهم ببونة عند سفره إلى بجاية، فحدثتهم انفسهم بالانتراء فلم يتم لهم الأمر. وثارت بهم الحاشية والعامة فقتلوا لوقتهم ووافى الفضل إلى بونة وقد انجلت غيمتهم ومحيت آثارهم فدخل إلى قصره وألقى عصا تسياره، واستقل الأمير أبو عبد الله ابن الأمير أبي زكريا ببجاية محل إمارة أبيه والأمير أبو زيد بن الأمير أبي عبد الله بقسطنطينة محل إمارة أبيه، والأمير أبو العباس الفضل ببونة محل إمارته منذ عهد الإمرة والسلطان أبو الحسن بتونس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى

الخبر عن حركة الفضل إلى تونس بعد رحيل السلطان أبي الحسن إلى المغرب

كان العرب بعدما قدمنا من طاعتهم وإسلامهم السلطان إلى أبي دبوس قد انقبضوا عن السلطان أبي الحسن وأجلبوا عليه ثانية، وتولى كبر ذلك فتيتة بن حمزة، وخالف إلى السلطان أخوه خالد مع أولاد مهلهل وافترق أمرهم. وخرج كبيرهم عمر بن حمزة حاجاً فاستقدم فتيتة وأصحابه الأمير الفضل من مكان إمارته ببونة لطلب حقه واسترجاع ملك آبائه، فأجابهم ووصل إلى أحيائهم آخر سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فنازلوا تونس وأجلبوا عليها. ثم أفرجوا عنها وعاودوا منازلتها أول سنة خمسين وسبعمائة، وأفرجوا عنها آخر المصيف واستدعاهم أبو القاسم بن عتو صاحب الجريد من مكان عمله بتوزر فدخل في طاعة الفضل وحمل أهل الجريد كلهم عليها واتبعه في ذلك بنو مكي وانتقضت إفريقية عن السلطان أبي الحسن من أطرافها فركب أساطيله إلى المغرب أيام الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ونهض المولى الفضل إلى تونس وبها أبو الفضل ابن السلطان أبي الحسن، كان أبوه قد عقد له عليها عند رحيله إلى المغرب تفادياً من ثورات الغوغاء ومعرات هيعتهم، وأمن عليه بما كان قد عقد له من الصهر مع عمر بن حمزة في ابنته، فلما أطلت رايات المولى الفضل على تونس أيام الحج نبضت عروق التشيع للدعوة الحفصية، وأحاطت الغوغاء بالقصر ورجموه بالحجارة. وأرسل أبو الفضل إلى بني حمزة متذمماً بصهرهم فدخل عليه أبو الليل وأخرجه ومن معه من قومه إلى الحي واستركب له من رجالات بني كعب من أبلغه مأمنه وهداه السبيل إلى وطنه، ودخل الفضل إلى الحضرة وقعد بمجلس آبائه من الخلافة وجدد ما طمسه بنو مرين من معالم الدولة واستمر أمره على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الفضل وبيعة أخيه المولى أبي إسحاق في كفالة أبي محمد بن تافراكين وتحت استبداده

لما دخل أبو العباس الفضل إلى الحضرة واستبد بملكها عقد إلى حجابته لأحمد بن محمد بن عتو نائباً عن عمه أبي القاسم ريثما يصل من الجريد وعقد على جيشه وحربه لمحمد بن الشواش من بطانته. وكان وليه المطارد به أبو الليل فتيتة بن حمزة مستبداً عليه في سائر أحواله مشتطاً في طلباته. وأنف له بطانته من ذلك فحملوه على التنكر له وأن يديل منه بولاية خالد أخيه وبعث عن أبي القاسم بن عتو وقد قلده في حجابته وفوض إليه أمره وجعل مقاد الدولة بيده، فركب إليه البحر من سوسة واستأنف له خالد بن

حمزة ظهيراً على أخيه بعد أن نبذ إليه عهده وفاوضهم أبو الليل ابن حمزة قبل استحكام أمورهم، فغلب على السلطان وحمله على عزله قائده محمد بن الشواش فدفعه إلى بونة على عساكرها.

واضطربت نار الفتنة بين أبي الليل بن حمزة وبين أخيه خالد، وكاد شملهم أن يتصدع. وبينما هم يجيشون نار الحرب ويجمعون الجموع والأحزاب إذ قدم كبيرهم عمر وأبو محمد عبد اللّه بن تافراكين من حجهم. وكان ابن تافراكين لما احتل بالإسكندرية بعث السلطان أبو الحسن فيه إلى أهل المشرق، وخاطب ملوك مصر في التحكيم فيه فأجاره عليه الأمير المستبد على الدولة حينئذ بيبغاروس. وخرج من مصر لقضاء فرضه، وخرج عامئذ عمر بن حمزة لقضاء فريضة الحج أيضاً فاجتمعا في مشاهد الحاج آخر سنة خمسين وسبعمائة وتعاقدا على الرجوع إلى إفريقية والتظاهر على أمرهما وقفلا فالقيا خالداً وفتيتة على الصفين فأشار عمر بن داية فاجتمعا وتوافقا ومسح الإحن من صدورهما، وتواطأوا جميعاً على المكر بالسلطان، وبعث إليه وليه فتيته بالمراجعة فقبله واتفقوا على أن يقلد حجابته أبا محمد بن تافراكين حاجب أبيه وكبير دولته، ويديل به من ابن عتو فأبى.

ثم أضحت ونزلت أحياؤهم ظاهر البلد واستحثوا السلطان للخروج إليهم ليكملوا عقد ذلك معه فخرج ووقف بساحة البلد إلى أن أحاطوا به، ثم اقتادوه إلى بيوتهم وأذنوا لابن تافراكين في دخول البلد، فدخلها لإحدى عشرة من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وعمد إلى دار المولى أبي إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي بكر فاستخرجه بعد أن بذل من العهد لأمه والمواثيق ما رضيته، وجاء به إلى القصر وأقعده على كرسي الخلافة وبايع له الناس خاصة وعامة وهو يومئذ غلام مناهز فانعقدت بيعته. ودخل بنو كعب فأتوه طاعتهم وسيق إليه أخوه الفضل ليلتئذ فاعتقل وغط من جوف الليل بمحبسه حتى فاض ولاذ حاجبه أبو القاسم بن عتو يومئذ بالاختفاء في غيابات البلد وعثر عليه لليال وامتحن وهلك في امتحانه، وخوطب العمال في الجهات بأخذ البيعة على من قبلهم فبعثوا بها واستقام ابن يملول صاحب توزر على الطاعة وبعث بالجباية والهدية، واتبعه صاحب نفطة وصاحب قفصة وخالفهم ابن مكي وذهب إلى الإجلاب على ابن تافراكين لما كان قد كفل السلطان وحجزه عن التصرف في أمره واستبد عليه إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء اللّه تعالى واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن حركة صاحب قسطنطينة إلى تونس وما كان من حجابة أبي العباس بن مكي وتصاريف ذلك

لما استولى أبو محمد بن تافراكين على تونس وبايع للمولى أبي إسحاق بالخلافة واستبد عليه نقم عليه الأمراء شأن استبداده وشمر ابن مكي للسعي عليه لمنافسة كانت بينهما قديمة من لدن أيام السلطان أبي بكر. واستعان على ذلك بأولاد مهلهل مقاسمي أولاد أبي الليل في رئاسة الكعوب ومجاذبيهم حبل الإمارة، فلما رأوا صاغية ابن تافراكين إلى أولاد أبي الليل أقتالهم أجمعوا له ولهم، وحالفوا بني حكيم من قبائل علاق، وأجلبوا على الضواحي وشنوا الغارات. ثم وفدوا على الأمير أبي زيد صاحب قسطنطينة وأعمالها يستحثونهم للنهوض إلى إفريقية واستخلاص ملك آبائه ممن استبد عليه واحتازه، فسرح معهم عسكرين لنظر ميمون ومنصور الجاهل من مواليه وموالي أبيه، وارتحلوا من قسطنطينة. وارتحل معهم يعقوب بن علي كبير الدواودة بمن معه من قومه وسرح أبو محمد بن تافراكين من الحضرة للقائهم عسكراً مع أبي الليل بن حمزة لنظر مقاتل من موالي السلطان، والتقى الجمعان ببلاد هوارة سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة فكانت الدبرة على أولاد أبي الليل.

وقتل يومئذ أبو الليل فتيتة بن حمزة بيد يعقوب بن سحيم من أولاد القوس شيوخ بني حكيم، ورجع فلهم إلى تونس وامتدت أيدي أولاد مهلهل وعساكر قسطنطينة في البلاد وجبوا الأموال من أوطان هوارة وانتهوا إلى أبة. ثم قفلوا راجعين إلى قسطنطينة، وولي على أولاد أبي الليل مكان فتيتة أخوه خالد بن حمزة، وقام بأمرهم، وكان أبو العباس بن مكي أثناء ذلك يكاتب المولى أبا زيد صاحب قسطنطينة من مكان ولايته بقابس ويعده من نفسه الوفادة والمدد بالمال والأحزاب والقيام بأعطيات العرب، حتى إذا انصرم فصل الشتاء ووفد عليه مع أولاد مهلهل فلقاه مبرة وتكريماً. وعقد له على حجابته وجمع عساكره وجهز آلته وأزاح علل تابعه، ورحل من قسطنطينة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة من صفر، وجهز أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا إسحاق لما يحتاج إليه من العساكر والآلة وجعل على حربه ابنه أبا عبد اللّه محمد بن نزار من طبقة الفقهاء ومشيخة الكتاب، كان يعلم أبناء السلطان الكتاب ويقرئهم القرآن كما قدمناه، وفصل من تونس في التعبية حتى تراءى الجمعان بمرماجنة وتزاحفوا فاختل

مصاف السلطان أبي إسحاق، وافترقت جموعه وولوا منهزمين. واتبعهم القوم عشية يومهم ولحق السلطان بحاجبه جبي محمد بن تافراكين بتونس وجاؤوا على أثره فنزلوا تونس أياماً وطالت عليها الحرب. ثم امتنعت عليهم وارتحلوا إلى القيروان، ثم إلى قفصة، وبلغهم أن ملك المغرب الأقصى السلطان أبا عنان بعد استيلائه على المغرب الأوسط زحف إلى التخوم الشرقية وانتهى إلى المرية. وكان صاحب بجاية أبو عبد الله قد خالفهم إلى قسطنطينة بمداخلة أبي محمد بن تافراكين واستجاشته. ونازل جهات قسطنطينة وانتسف زروعها وشن الغارات في بسائطها فبلغهم أنه رجع إلى بجاية منكمشاً من زحف بني مرين، واعتزم الأمير أبو زيد على مبادرة ثغره ودار إمارته قسطنطينة. ورغب إليه أبو العباس بن مكي من وأولاد مهلهل أن يخلف بينهم من إخوانه من يجتمعون إليه ويزاحفون به، فولى عليهم أخاه أباه العباس فبايعوه، وأقام فيهم هو وشقيقه أبو يحيى زكريا إلى أن كان من شأنه ما نذكر، وانصرف الأمير أبو زيد عند ذلك من قفصة يغذ السير إلى قسطنطينة واحتل بها في جمادى من سنته والله تعالى أعلم.

الخبر عن وفادة صاحب بجاية على ابني عنان واستيلاؤه عليه وعلى بلده ومطالبته قسطنطينة

كان بين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية وبين الأمير أبي عنان أيام إمارته بتلمسان، ونزول الأعياص الحفصيين بندرومة ووجدة أيام أبيه كما ذكرناه اتصال ومخالصة، أحكمها بينهما نسب الشباب والملك وسابقة الصهر: فكان الأمير أبي عبد الله من أجل ذلك صاغية إلى بني مرين أوجد بها السبيل على ملكه. ولما مر به السلطان أبو الحسن في أسطوله عند ارتحاله من تونس كما قدمناه أمر أهل سواحله بمنعه الماء والأقوات من سائر جهاتها رعياً للذمة التي اعتقدها مع الأمير أبي عنان في شأنه وجنوحاً إلى تشييد سلطانه. ولما أوقع السلطان أبو عنان ببني عبد الواد سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة واستولى على المغرب الأوسط ونجا فلهم إلى بجاية أوعز إلى الأمير أبي عبد الله باعتراضهم في جهاته والتقبض عليهم فأجابه إلى ذلك، وبعث العيون بالمراصد فعثروا في ضواحي بجاية على محمد ابن سلطانهم أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن، وعلى أخيه أبي ثابت الزعيم بن عبد الرحمن وعلى وزيرهم يحيى بن داود بن مكن فأوثقوهم اعتقالاً، وبعث بهم إلى السلطان أبي عنان.

ثم جاء على أثرهم فتلقاه بالقبول والتكرمة وأنزله بأحسن نزل. ثم دس إليه من أغراه بالنزول له عن بجاية رغبة فيما عند السلطان إزاء ذلك من التجلة والإدالة منها بمكناسة المغرب، والراحة من زبون الجند والبطانة، وإخفاقاً مما سواه إن لم يتعهده فأجاب إليه على اليأس والكره، وشهد مجلس السلطان في بني مرين بالرغبة في ذلك، فأسعف وأسنيت جائزته، واقتطعت له مكناسة من أعمال المغرب. ثم انتزعها لأيام قلائل ونقله في جملته إلى المغرب، وبعث الأمير أبو عنان أبو عبدالله مولاه فارحاً المستبد كان عليه ليأتيه بأهله وولده، وعقد أبو عنان على بجاية لعمر بن علي ابن الوزير من بني واطاس، وهم ينتسبون بزعمهم إلى علي بن يوسف أمير لمتونة فاختصه أبو عنان بولايتها لمتانة هذا النسب الصنهاجي بينه وبين أهل وطنها منهم. وانصرفوا جميعاً من المرية. ولما احتلوا بجاية تآمر أولياء الدعوة الحفصية بها ومن صنهاجة والموالي وتمشت رجالاتهم في قتل عمر بن علي الوزير وأشياع بني مرين، وتصدى لذلك زعيم صنهاجة منصور بن إبراهيم بن الحاج في رجالات من قومه بإملاء فارح كما زعموا.وغدوا عليه في داره من القصبة فأكب عليه منصور يناجيه فطعنه وطعن آخر منهم القاضي ابن فركان بما كان شيعة لبني مرين. ثم أجهزوا على عمر بن علي ومضى القاضي إلى داره فمات.

واتصلت الهيعة بفارح فركب إليها وهتف الهاتف بدعوة صاحب قسطنطينة محمد بن أبي زيد، وطيروا إليه بالخبر واستحثوه للقدوم. وأقاموا على ذلك أياماً ثم تآمر الملأ من أهل بجاية في التمسك بدعوة صاحب المغرب خوفاً من بوادره فثاروا بفارح وقتلوه أيام التشريق من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبعثوا برأسه إلى السلطان بتلمسان. وتولى كبر ذلك هلال صاحبه من موالي ابن سيد الناس ومحمد بن الحاجب أبي عبد الله بن سيد الناس ومشيخة البلد، واستقدموا العامل بتدلس من بني مرين وهو يحيى بن عمر بن عبد المؤمن من بني ونكاسن فبادر إليهم. وسرح السلطان أبو عنان إليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو في الكتائب فدخلها فاتح أربع وخمسين وسبعمائة وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق كبارهم وذوو الفعلة منه بتونس، وتقبض على هلال مولى ابن سيد الناس لما داخلته فيه من الظنة، وعلى القاضي محمد بن عمر لما كان شيعة لفارح، وعلى عرفاء الغوغاء من أهل المدينة وأشخصهم معتقلين إلى المغرب. وصرف نظره إلى تمهيد الوطن واستدعى كبراء العرب وأهل النواحي وأعمال بجاية وقسطنطينة.

ووفد عليه يوسف بن مزني صاحب الزاب ومشيخة

الدواودة فاسترهن أبناءهم على الطاعة، وقفل بهم إلى المغرب. واستعمل أبو عنان على بجاية موسى بن إبراهيم اليرنياني من طبقة الوزراء وبعثه إليها. ولما وفدوا على السلطان جلس لهم جلوساً فخماً، ووصلوا إليه ولقاهم تكرمة ومبرة، وأوسعهم حباءً وإقطاعاً وأنفذ لهم الصكوك والسجلات وأخذ على طاعتهم العهود والمواثيق والرهن وانقلبوا إلى أهلهم وعقد لحاجبه أبي عمرو على بجاية وأعمالها وعلى حرب قسطنطينة من ورائها، ورجعه إليها فدخلها في رجب من سنته.

وأوعز السلطان إلى موسى بن إبراهيم بالولاية على سدويكش والنزول ببني ياورار في كتيبة جهزها هنالك لمضايقة قسطنطينة وجباية وطنها، وكل ذلك لنظر الحاجب ببجاية، وكان بقسطنطينة أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن معتقلاً من لدن واقعة بني مرين بها. وكان موسوساً في عقله معروفاً بالجنون عند قومه. وكان الأمراء بقسطنطينة قد أسنوا جرايته في اعتقاله وأوله من المبرة والحفاوة كفاء نفسه. فلما زحفت كتائب بني مرين إلى بني ياورار آخر عمر بجاية وآذنوا قسطنطينة ومن بها بالحروب والحصار، نصب المولى أبو زيد هذا الموسوس أبا عمر ليجاجئ به رجالات بني مرين أهل العسكر ببجاية وبني ياورار، وجهز له الآلة، وتسامعوا بذلك فنزع إليهم الكثير منهم. وخرج نبيل حاجب الأمير أبي زيد إلى أهل الضاحية من بونة ومن كان على دعوته من سدويكش والدواودة فجمعهم وزحفوا جميعاً إلى وطن بجاية، واتصل الخبر بالحاجب ببجاية فبعث في الدواودة من مشاتيهم بالصحراء فأقبلوا إليه حتى نزلوا التلول. ووفد عليه أبو دينار بن علي بن أحمد واستحثه للحركة على قسطنطينة فاعترض عساكره وأزاح عللهم، وخرج من بجاية في ربيع من سنة خمسين وسبعمائة فكر أبو عمر ومن معه راجعين إلى قسطنطينة. وزحف الحاجب فيمن معه من بني مرين والدواودة وسدويكش، ولقيهم نبيل الحاجب بمن معه فكانت عليه الدبرة. واكتسحت أموال بونة، ورجع ابن أبي عمر بعساكره إلى قسطنطينة فأناخ عليها سبعاً. ثم ارتحل عنها إلى ميلة، وعقد يعقوب بن علي بين الفريقين صلحاً على أن يمكنوه من أبي عمر الموسوس، فبعثوا به إلى أخيه السلطان أبي عنان فأنزله ببعض الحجر، ورتب عليه الحرس. وسار الحاجب في نواحي أعماله وانتهى إلى المسيلة واقتضى مغارمها، ثم انكفأ راجعاً إلى بجاية وهلك فاتح سنة ست وخمسين وسبعمائة وعقد السلطان على بجاية وأعمالها بعده لوزيره عبد الله بن علي بن سعيد من بني يابان وسرحه إليها فدخلها، وزحف إلى قسطنطينة فحاصرها وامتنعت عليه فرجع إلى بجاية. ثم زحف من العام المقبل سنة سبع وخمسين وسبعمائة كذلك ونصب عليها المجانيق فامتنعت عليه وأرجف في عسكره بموت السلطان فانفضوا وأحرق مجانيقه.

ورجع إلى بجاية وجمر الكتائب ببني ياورار لنظر موسى بن إبراهيم اليرنياني عامل سدويكش إلى أن كان من الإيقاع به وبعسكره ما نذكره إن شاء الله تعالى، والله أعلم

الخبر عن حادثة طرابلس واستيلاء النصارى عليها ثم رجوعها إلى ابن مكي

كانت طرابلس هذه ثغراً منذ الدول القديمة وكانت لهم عناية بحمايتها لما كان وضعها في البسيط، وكانت ضواحيها قفراً من القبائل فكان النصارى أهل صقلية كثيراً ما يحدثون أنفسهم بملكها. وكان ميخائيل الأنطاكي صاحب أسطول رجار قد تملكها من أيدي بني حيزرون من مغراوة آخر دولتهم ودولة صنهاجة كما ذكرنا. ثم رجعها ابن مطروح ودخلت في دعوة الموحدين ومرت عليها الأيام إلى أن استبد بها ابن ثابت ووليها من بعده ابنه في أعوام خمسين وسبعمائة منقطعاً عن الحضرة مقيماً رسم الدعوة. وكان تجار الجنويين يترددون إليها فاطلعوا على عوراتها وائتمروا في غزوها واتعدوا لمرساها فوافوه سنة خمس وخمسين وانتشروا بالبلد في حاجاتهم ثم بيتوها ذات ليلة فصعدوا أسوارها وملكوها عليهم. وهتف هاتفهم بالحرب وقد لبسوا السلاح فارتاعوا وهبوا من مضاجعهم، فلما رأوهم بالأسوار لم يكن همهم إلا النجاة بأنفسهم. ونجا ثابت بن عمر مقدمهم إلى حلة الجواري في أعراب وطنها من دباب إحدى بطون بني سليم، فقتل لدم كان أصابه منهم. ولحق إخوته بالإسكندرية، واستباحها النصارى، واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها من الخرثي والمتاع والعقائل والأسرى وأقاموا بها. وداخلهم أبو العباس بن مكي صاحب قابس في فدائها فاشترطوا عليه خمسين ألفاً من الذهب العين، فبعث فيها لملك المغرب السلطان أبي عنان يطرفه بمثوبتها. ثم تعجلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من أهل قابس والحامة وبلاد الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخير. وأمكنه النصارى من طرابلس فملكها واستولى عليها وأزال ما دنسها من وضر الكفر. وبعث السلطان أبو عنان بالمال إليه وأن يرد على الناس ما أعطوه وينفرد بمثوبتها وذكرها فامتنعوا إلا قليلاً منهم، ووضع المال عند ابن مكي لذلك، ولم يزل ابن مكي أميراً عليها إلى أن هلك كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أمير المؤمنين ومفتتح أمره السعيد بقسطنطينة

كان الأمير أبو زيد قد ولي الأمر من بعد أبيه الأمير أبي عبد اللّه بولاية جده الخليفة أبي بكر، وكان إخوته جميعاً في جملته، ومنهم السلطان أبو العباس أمير المؤمنين لهذا العهد، والمنفرد بالدعوة الحفصية وكان الناس من لدن مهلك أبيهم يرون أن الوراثة لهم، وأن الأمر فيهم حتى لقد يحكى عن شيخ وقته الولي أبي هادي المشهور الذكر، وكان من أهل المكاشفة، أنه قال ذات يوم وقد جاؤوا لزيارته بأجمعهم على طريقهم وسنن أسلافهم في التبرك بالأولياء فدعا لهم الشيخ ما شاء ثم قال: البركة إن شاء اللّه في هذه العشر، وأشار إلى الإخوة مجتمعين، وكان الحزى والمنجمون أيضاً يخبرون بمثلها، ويحومون بظنونهم على أبي العباس من بينهم لما يتفرسون فيه من الشواهد والمخايل. فلما كان من منازلة أخيه أبي زيد بتونس سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ما قدمناه، ثم ارتحل عنها إلى نفطة وأراد الرجوع إلى قسطنطينة للإرجاف بشأن السلطان أبي عنان وأنه زحف إلى آخر عمله من تخوم بجاية، رغب إليه حينئذ أولاد مهلهل أولياؤه من العرب وشيعته وحاجبه أبو العباس بن مكي صاحب عملي قابس وجربة أن يستعمل عليهم من إخوته من يقيم معهم لمعاودة تونس بالحصار، فسرح أخاه مولانا أبا العباس فتخلف معهم في ذلك وفي جملته شقيقه أبو يحيى فأقاما بقابس.

وكان صاحب طرابلس محمد بن ثابت قد بعث أسطوله لحصار جربة فدخل الأمير أبو العباس بمن معه الجزيرة وخاضوا إليها البحر فأجفل عسكر ابن ثابت وأفرجوا عن الحصن. ثم رجع السلطان إلى قابس وزحف العرب أولاد مهلهل معه إلى تونس وحاصروها أياماً فامتنعت عليهم. ورجع إلى أعمال الجريد وأوفد أخاه أبا يحيى زكريا على السلطان صريخا سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فلقاه مبرة ورحباً، وأسنى جائزته وأحسن وعده وانكفأ راجعاً عنه إلى وطنه، ومر بالحاجب ابن أبي عمر عند إفراجه عن قسطنطينة، ولحق بأخيه بمكانه من قاصية إفريقية واتصلت أيديهما على طلب حقهما.

وفي خلال ذلك فسد ما بين أبي محمد بن تافراكين صاحب الأمر بتونس وبين خالد بن حمزة كبير أولاد أبي الليل فعدل عنه إلى أقتاله أولاد مهلهل، واستدعاهم للمظاهرة فأقبلوا عليه. وتحيز خالد إلى السلطان أبي العباس وزحفوا معه إلى تونس فنازلوها سنة ست وخمسين وسبعمائة، وامتنعت عليهم وأفرجوا عنها واستقدمه أخوه أبو زيد إثر ذلك لينصره من عساكر بني مرين عند ما تكاثفوا عليه، وضاق به الحصار فأجابه وقدم عليه بخالد وقومه وخرج الأمير أبو زيد مع زيد إلى منازلة تونس.

واستخلف على قسطنطينة أخاه أبا العباس فدخلها ونزل بقصور الملك منها، وأقام بها مدة وعساكر بني مرين قد ملأت عليه الضاحية فدعا الأولياء إلى الاستبداد وأنه أبلغ في المدافعة والحماية لما كانوا يتوقعون من زحف العساكر إليهم من بجاية، فأجاب وبويع سنة خمس وخمسين، وانعقد أمره. وزحف عبد اللّه بن علي صاحب بجاية إلى قسطنطينة من سنته، وفي سنة سبع بعدها فحاصرها ونصب المجانيق. ثم أجفل آخراً للإرجاف كما ذكرناه. وتنفس مخنق الحصار عن قسطنطينة، وكان الأمير أبو زيد أخوه لما ذهب مع خالد إلى تونس ونازلها امتنعت عليه، ورجع وقد استبد أخوه بأمر قسطنطينة فعدل إلى بونة وراسل أبا محمد بن تافراكين في سكنى الحضرة والنزول لهم عن بونة فأجابه ونزل عنها الأمير أبو زيد لعمه السلطان أبي إسحاق. وتحول إلى تونس فأوسعوا له المنازل وأسنوا الجرايات والجوائز، وأقام في كفالة عمه إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن واقعة موسى بن إبراهيم واستيلاء أبي عنان بعدها على قسطنطينة وما تخلل ذلك من الأحداث

لما استبد السلطان أبو العباس بالأمر وزحفت إليه عساكر بجاية وبني مرين، فأحسن دفاعها عن بلده. وتبين لأهل الضاحية مخايل الظهور فيه فداخله رجالات من سدويكش من أولاد المهدي بن يوسف في غزو موسى بن إبراهيم وكتائبه المجمرة ببني ياورار، ودعوا إلى ذلك ميمون بن علي بن أحمد وكان منحرفاً عن أخيه يعقوب ظهير بني مرين ومناصحهم فأجاب. وسرح السلطان أخاه أبا يحيى زكريا معهم بمن في جملته من العساكر وصبحوهم في غارة شعواء، فلما شارفوهم ركبوا إليهم فتقدموا قليلاً ثم أحجموا واختل مصافهم وأحيط بهم وأثخن قائد العسكر موسى بن إبراهيم بالجراحة واستلحم بنوه زيان وأبو القاسم ومن إليهم وكانوا أسود هياج وفرسان ملحمة في آخرين من أمثالهم، وتتبعوا بالقتل والنهب إلى أن استبيحوا ونجا فلهم إلى بجاية ولحقوا بالسلطان أبي عنان. ولما بلغه الخبر قام في ركائبه وقعد وفتح ديوان العطاء وبعث وزراءه للحشد في الجهات.

واعترض الجنود وأزاح العلل وشكا له موسى بن إبراهيم بقعود عبد الله بن علي صاحب بجاية عن نصره فسخطه ونكبه وعقد مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود، وتلوم بعده أشهراً في تجهيز العساكر، وبعث السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى إلى تونس صريخاً لعمه السلطان أبي إسحاق فأعجله الأمر عن الإياب إليه، وارتحل أبو عنان في عساكره. ثم بعث في مقدمته وزيره فارس بن ميمون بن ودرار، وزحف على أثره في ربيع سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وأغذ السير إلى قسطنطينة وقد نازلها وزيره ابن ودرار قبله. فلما نزل بساحتها وقد طبق الأرض الفضاء بجيوشه وعساكره وجم أهل البلد، وأدركهم الدهش فانفضوا وتسللوا إليه. وتحيز السلطان أبو العباس إلى القصبة فامتنع بها حتى توثق لنفسه بالعهد. ثم نزل إليه فكفاه تكرمة ورحباً وبنى له الفساطيط في جواره. ثم بدا له لأيام قلائل فنقض عهده وأركبه السفن إلى المغرب، وأنزله بسبتة وربت عليه الحرس، وبعث خلال ذلك إلى بونة فدخلت في طاعته، وفر عنها عمال الحضرة. ولما استولى عقد على قسطنطينة لمنصور بن خلوف شيخ بني بابان من قبائل بني مرين. ثم بعث رسله إلى أبي محمد بن تافراكين في الأخذ بطاعته والنزول عن تونس فردهم، وأخرج سلطانه المولى أبا إسحاق مع أولاد أبي الليل ومن إليهم من العرب بعد أن جهز له العساكر وما يصلح من الآلة والجند، وأقام هو بتونس وأجمع أبو عنان النهوض إليه، ووفد إليه أولاد مهلهل يستحثونه لذلك، فسرح معهم عسكراً في البر لنظر يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي حشود كبير تيربيعين من قبائل بني مرين وصاحب الشورى في مجلسه. وسرح عسكراً آخر في الأسطول لنظر محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من بني الأحمر من الملوك بالأندلس لهذا العهد، فسبق الأسطول وصبحوا تونس وقاتلوها يوماً أو بعض يوم، وأتيح لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين ولحق بالمهدية، واستولت عساكر بن مرين على تونس في رمضان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وحق لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين، ولحق يحيى بن رحو بعسكره فدخل البلد وأمضى فيها أوامر السلطان. ثم دعاه أولاد مهلهل إلى الخروج لمباغتة أولاد أبي الليل وسلطانهم فخرج معهم لذلك، وأقام ابن الأحمر وأهل الأسطول بالبلد، وفي خلال ذلك جاهر يعقوب بن علي بالخلاف لما تبين من نكراء السلطان أبي عنان وإرهاف حده للعرب، ومطالبتهم بالرهن، وقبض أيديهم عن الأتاوات ومسح أعطافه بالمدارات فلم يقبلها يعقوب بالرمل، واتبعه السلطان فأعجزه فعدا على قصوره ومنازله بالتل والصحراء فخربها وانتسفها.

ثم رجع إلى قسطنطينة وارتحل منها يريد إفريقية وقد نهض المولى أبو إسحاق بمن معه من العرب للقائه، وانتهوا إلى حصن سبتة. ثم تمشت رجالات بني مرين وائتمروا في الرجوع عنه حذراً أن يصيبهم بإفريقية ما أصابهم من قبل، فانفضوا متسللين إلى المغرب. ولما خف المعسكر من أهله أقصر عن القدوم إلى إفريقية فرجع إلى المغرب بمن بقي معه، واتبع العرب آثاره، وبلغ الخبر إلى أبي محمد بن تافراكين بمكان منجاته من المهدية فسار إلى تونس. ولما أطل عليها ثار أهل البلد بمن كان عندهم من عسكر بني مرين وعمالهم، فنجوا إلى الأساطيل ودخل أبو محمد بن تافراكين إلى الحضرة وأعاد ما طمس من الدولة. ولحق به السلطان أبو إسحاق بعد أن تقدم الأمير أبو زيد في عسكر الجنود والعرب لاتباع آثار بني مرين ومنازلة قسطنطينة، فأتبعه إلى تخوم عملهم ورجع أبو زيد إلى قسطنطينة وقاتلها أياماً فامتنعت عليه فانكفأ راجعاً إلى الحضرة. ولم يزل مقيماً بها إلى أن هلك عفا الله عنه وعنا آمين سنة.

وكان أخوه أبو يحيى زكريا قد لحق بتونس من قبل صريخاً كما قلناه، فلما بلغهم أن قسطنطينة قد أحيط بها تمسكوا به فلحق به الفل من مواليهم وصنائعهم فكانوا معه إلى أن يسر الله أسباب الخير والسعادة للمسلمين، وأعاد السلطان أبا العباس إلى الأمر من بعد مهلك أبي عنان كما يذكر ومد إيالته على الخلق فطلع على الرعايا بالعدل والأمان وشمول العافية والإحسان، وكف أيدي العدوان ورتع الناس من دولته في ظل ظليل ومرعى جميل كما نذكر إن شاء الله.

الخبر عن انتقاض الأمير أبي يحيى زكريا بالمهدية ودخوله في دعوة أبي عنان ثم نزوله عنها الى الطاعة وتصاريف ذلك

كان الحاجب أبو محمد عند رجوعه إلى الحضرة صرف عنايته إلى تحصين المهدية يعدها للدولة وزراً من حادث ما يتوقعه من المغرب وأهله، فشيد من أسوارها وشحن بالأقوات والأسلحة مخازنها ومستودعاتها وعقد عليها للأمير زكريا أخي السلطان أبي إسحاق، وكان في كفالته وأنزله بها. وبعث على حجابته أحمد بن خلف من أوليائه وذويه مستبداً عليه فأقام على ذلك حولاً أو بعضه. ثم ضجر الأمير أبو يحيى زكريا من الاستبداد عليه واستنكف من حجره في سلطانه فبيت أحمد بن خلف فقتله،

وبعث عن أبي العباس أحمد بن مكي صاحب جربة وقابس ليقيم له رسم الحجابة بما كان مناوئاً لأبي محمد بن تافراكين كافله فوصل إليه، وطيروا بالخبر إلى السلطان أبي عنان صاحب المغرب وبعثوا إليه ببيعتهم واستحثوه لصريخهم. واضطراب أمرهم. وسرح أبو محمد بن تافراكين إليها العسكر فأجفلوا أمامه، ولحق المولى أبو يحيى زكريا بقابس، واستولى عليها العسكر واستعمل عليها أبو محمد بن تافراكين محمد بن الجكجاك من قرابة ابن ثابت، اصطنعه عندما وقعت الحادثة على طرابلس، ولحق به فاستعمله على المهدية. ولما وصل الخبر إلى أبي عنان بشأن المهدية جهز إليها الأسطول وشحنه بالمقاتلة والرجال، وعين الموالي والخاصة فألفوها وقد رجعت إلى إيالة الحضرة، ووصل إليها ابن الجكجاك وأقام بها وحسن غناؤه فيها إلى أن كان من أمره ما نذكر.

وأقام الأمير زكريا بقابس، وأجلب به أبو العباس بن مكي على تونس. ثم بعثوه بالدواودة ونزل على يعقوب بن علي وأصهر إليه في ابنة أخيه سعيد، فعقد له عليها. ولما استولى أخوه أبو إسحاق على بجاية استعمله على سدويكش بعض الأعوام، ولم يزل بين الدواودة إلى أن هلك سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكره بعد.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحاق على بجاية وإعادة الدعوة الحفصية إليها

لما رجع السلطان أبو عنان من قسطنطينة إلى المغرب أراح بسبتة، وسرح عساكره من العام المقبل إلى إفريقية لنظر وزيره سليمان بن داود فسار في نواحي قسطنطينة ومعه ميمون بن علي بن أحمد أديل به من يعقوب على قومه من الدواودة، وعثمان بن يوسف بن سليمان شيخ أولاد سباع منهم. وحضر معهم يوسف بن مزني عامل الزاب، أوعز إليه السلطان بذلك فدوخ الجهات وانتهى إلى آخر وطن بونة، واقتضى المغارم. ثم انكفأ راجعاً إلى المغرب وهلك السلطان أبو عنان إثر قفوله سنة تسع وخمسين وسبعمائة، واضطرب أمر المغرب ثم استقام على طاعة أخيه السلطان أبي سالم كما نذكره. وكان أهل بجاية قد نقموا على عاملهم يحيى بن ميمون من بطانة السلطان أبي عنان سوء ملكته وشدة سطوته وعنسفه فداخلوا أبا محمد بن تافراكين على البعد في التوثب به، فجهز إليهم السلطان أبا إسحاق ما يحتاج إليه من العساكر والآلة، ونهض من تونس ومعه ابنه أبو عبد اللّه على العساكر. وتلقاهم يعقوب بن علي وظاهرهم على أمرهم وسار أخوه أبو دينار في جملتهم. ولما أطلوا على بجاية ثارت الغوغاء بيحيى بن ميمون العامل، كان عليهم منذ عهد السلطان أبي عنان، فالقى بيده وتقبض عليه وعلى من كان من قومه، وأركبوا السفين إلى الحضرة، وأودعهم أبو محمد بن تافراكين سجونه تحت كرامة وجراية إلى أن منَّ عليهم من بعد ذلك وأطلقهم إلى المغرب.

ودخل السلطان أبو إسحاق إلى بجاية سنة إحدى وستين وسبعمائة واستبد بها بعض الاستبداد وحاجبه وكافله أبو محمد يدبر أمره من الحضرة. ثم استقدم ابنه ونصب لوزارة السلطان أبا محمد عبد الواحد بن محمد من أكمازير من مشيخة الموحدين فكان يقيم له رسم الحجابة. وقام بأمر الرجل بالبلد من الغوغاء علي بن صالح من زعانفة بجاية وأوغادها، التفَّ عليه الشرار والدعار وأصبحت له بهم شوكة كان له بها تغلب على الدولة إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء اللّه تعالى واللّه أعلم.

الخبر عن فتح جربة ودخولها في دعوة السلطان أبي إسحاق صاحب الحضرة

هذه الجزيرة جربة من جزر هذا البحر الذي يمر قريباً من قابس وإلى الشرق عنها قليلاً طولها من المغرب وإلى المشرق ستون ميلاً، وعرضها من ناحية الغرب عشرون ميلاً. ومن ناحية الشرق خمسة عشر ميلاً، وبينها وبين قرقنة في ناحية الغرب ستون ميلاً.وشجرها التين والنخل والزيتون والعنب، واختصت بالتفاح وعمل الصوف للباسهم فيتخذون منه الأكسية المعلمة للاشتمال وغير المعلمة للباس. ويجلب منها إلى الأقطار فينتقيه الناس للباسهم. وأهلها من البربر من كتامة وفيهم إلى الآن سدويكش وصدغيان من بطونهم، وفيهم أيضاً من نفزة وهوارة وسائر شعوب البربر. وكانوا قديماً على رأي الخوارج، وبقي بها إلى الآن فرقتان منهم: الوهبية وهم بالناحية الغربية، ورئاستهم لبني سمومن، والنكارة وهم بالناحية الشرقية، وجربة فاصلة بينهما.

والظهور والرئاسة على الكل لبني سمومن. وكان فتحها أول الإسلام على يد رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة من بني ملك بن النجار من الأنصار من جند مصر، ولاه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا إفريقية وفتح جربة سنة سبع وأربعين بعدها، وشهد الفتح حنش بن عبد اللّه الصنعاني ورجع إلى برقة فمات بها. ولم تزل في ملكة المسلمين إلى أن دخل دين الخوارج إلى البربر فأخذوا به. ولما كان شأن أبي زيد

سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة فأخذوا بدعوته بعد أن دخلوها عنوة، وقتل مقدمها يومئذ ابن كلدين وصلبه.

ثم استردها المنصور إسماعيل، وقتل أصحاب أبي يزيد. ولما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة في إنشاء الأساطيل وغزو الساحل. ثم غزاهم علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس سنة تسع وخمسمائة بأساطيله إلى أن انقادوا وضمنوا قطع الفساد وصلح الحال. ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وعشرين وخمسمائة عند تغلبهم على سواحل إفريقية. ثم ثار أهلها عليهم وأخرجوهم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ثم تغلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها واستعملوا على الرعية وأهل الفلح. ثم عادت للمسلمين ولم تزل مترددة بين المسلمين والنصارى إلى أن غلب عليها الموحدون أيام عبد المؤمن. واستقام أمرها إلى أن استبد بنو أبي حفص بإفريقية. ثم افترق أمرهم بعد حين واستبد المولى أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحاق بالناحية الغربية، وشغل صاحب الحضرة بشأنه كما قدمناه، فتغلب على هذه الجزيرة أهل صقلية سنة ثمان وثمانين وستمائة وبنوا بها حصن القشتيل مربع الشكل في كل ركن منه برج، وبين كل ركنين برج. ويدور به حفير وسوران. وأهم المسلمين شأنها، ولم تزل عساكر الحضرة تتردد إليها كما تقدم إلى أن كان فتحها أيام السلطان أبي بكر على يد خلوف بن الكماد من بطانته سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة واستضافها ابن مكي صاحب قابس إلى عمله فأضافها إليه، وعقد له عليها فصارت من عمله سائر أيام السلطان ومن بعده.

واتصلت الفتنة بين أبي محمد بن تافراكين وبين ابن مكي، وبعث الحاجب أبو محمد ابن تافراكين عن ابنه أبي عبد اللّه، وكان في جملة السلطان ببجاية كما قلناه.

ولما وصل إليه سرحه في العساكر لحصار جربة وكان أهلها قد نقموا على ابن مكي سيرته فيهم ودسوا إلى أبي محمد بن تافراكين بذلك، فسرح إليه ابنه في العساكر سنة ثلاث وستين وسبعمائة وكان أحمد بن مكي غائباً بطرابلس قد نزلها منذ ملكها من أيدي النصارى، وجعلها داراً لإمارته فنهض العسكر من الحضرة لنظر أبي عبد اللّه ابن الحاجب أبي محمد، ونهض الأسطول في البحر فنزلوا بالجزيرة وضايقوا القشتيل بالحصار إلى أن غلبوا عليه وملكوه. وأقاموا به دعوة صاحب الحضرة. واستعمل أبو عبد اللّه بن تافراكين كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون، كان من صنائع الدولة منذ العهد، وكانت لأبيه قرابة من ابن عبد العزيز الحاجب ترقى بها إلى ولاية الأشغال بتونس مناهضاً لأبي القاسم بن طاهر الذي كان تولاها يومئذ، فكان رديفه عليها إلى أن هلك ابن طاهر فاستبد هو بها منذ أيام الحاجب أبي محمد واتصل ابنه محمد هذا بخدمة ابن الحاجب واختص بكتابته إلى أن استعمله على جربة عند استيلائه عليها هذه السنة، وانكفأ راجعاً إلى الحضرة فلم يزل محمد بن أبي العيون والياً عليها. ثم استبد بها على السلطان بعد مهلك الحاجب وفرار ابنه من السلطان إلى أن غلبه عليها السلطان أبو العباس سنة أربع وسبعين وسبعمائة كما نذكره.

الخبر عن عودة الأمراء من المغرب واستيلاء السلطان أبي العباس على قسطنطينة

لما هلك السلطان أبو عنان قام بأمره من بعده وزيره الحسن بن عمر، ونصب ابنه محمد السعيد للأمر كما نذكره في أخباره. وكان يضطغن للأمير أبي عبد اللّه صاحب بجاية فقبض عليه لأول أمره واعتقله حذراً من وثوبه على عمله فيما زعموا. وكان السلطان أبو العباس بسبتة منذ أنزله السلطان أبو عنان بها، ورتب عليه الحرس كما ذكرنا، فلما انتزى على الملك المنصور بن سليمان من أعياص ملكهم، ونازل البلد الجديد دار الملك ودخل في طاعته سائر الممالك والأعمال بعث في السلطان أبي العباس واستدعاه من سبتة فنهض إليه. وانتهى في طريقه إلى طنجة ووافق في ذلك إجازة السلطان أبي سالم من الأندلس لطلب ملكه. وكان أول ما استولى عليه من أعمال المغرب طنجة وسبتة فاتصل به السلطان أبو العباس وظاهره على أمره إلى أن نزع إليه قبيلة بنو مرين عن منصور بن سليمان المنتزي على ملكهم فاستوسق أمره واستتب سلطانه به ودخل فاس وسرح الأمير أبا عبد اللّه من اعتقال الحسن بن عمر كما قدمناه. ورعى للسلطان أبي العباس ذمة سوابقه القديمة والحادثة فرفع مجلسه وأسنى جرايته، ووعده بالمظاهرة على أمره، واستقروا جميعاً في إيالته إلى أن كان من تغلب السلطان أبي سالم على تلمسان والمغرب الأوسط ما نذكره في أخبارهم.

واتصل به ثورة أهل بجاية بعاملهم يحيى بن ميمون ورجالات قبيلهم، فامتعض لذلك وحين قفل إلى المغرب نفض يده من الأعمال الشرقية ونزل للسلطان أبي العباس عن قسطنطينة دار إمارته ومثوى عزه ومنبت ملكه، فأوعز إلى عاملها منصور بن خلوف بالنزول له عنها وسرحه إليها وسرح معه

الأمير أبا عبد الله ابن عمه لطلب حقه في بجاية، والأجلاب على عمه السلطان أبي إسحاق جزاء بما نال من بني مرين عند افتتاحها من المعرة. وارتحلوا إلى تلمسان في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعمائة وأغذوا السير إلى مواطنهم. فأما السلطان أبو العباس فوقف منصور بن خلوف عامل البلد على خطاب سلطانه بالنزول عن قسطنطينة فنزل وأسلمها إليه، وأمكنه منها فدخلها شهر رمضان سنة إحدى وستين وسبعمائة واقتعد سرير ملكه منها وتباشرت بعودته مقاصر قصورها فكانت مبدأ لسلطانه ومظهراً لسعادته ومطلعاً لدولته على ما نذكر بعد.

وأما الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية فلحق بأول وطنها، واجتمع إليه أولاد سباع أهل ضاحيتها وقفرها من الدواودة. ثم زحف إليها فنازلها أياماً وامتنعت عليه فرحل عنها إلى بني ياورار، واستخدم أولاد محمد بن يوسف والعزيزيين أهل ضاحيتها من سدويكش. ثم نزعوا عنه إلى خدمة عمه ببجاية فخرج إلى القفر مع الدواودة إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول الأخ الأمير أبي يحيى بن زكريا من تونس وافتتاحه بونة واستيلائه عليها

كان الأمير أبو يحيى زكريا منذ بعثه أخوه العباس إلى عمهما السلطان أبي إسحاق صريخاً لم يزل مقيماً بتونس، وبلغه استيلاء السلطان أبي عنان على قسطنطينة فخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرته، وتوقع زحفه إليها وغلبه إياه على الأمر. ورأى أن يخفض جناحه في أخيه، ويتوثق به فاعتقله بالقصبة تحت كرامة ورعي، وبعث فيه السلطان أبو الحسن بعد مراوضة في السلم فأطلقه وانعقد بينهما السلم. ولما وصل الأمير أبو يحيى إلى أخيه بقسطنطينة عقد له على العساكر وزحف إلى بونة فملكها سنة اثنتين وستين وعقد له عليها وأنزله بها مع العساكر وأصارها تخماً لعمله واستمرت حالها على ذلك إلى أن كان من أمرها ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي عبد الله على بجاية ثم على تدلس بعدها

لما قدم السلطان أبو عبد الله من المغرب ونازل بجاية فامتنعت عليه خرج إلى أحياء العرب كما قدمناه ولزم صحابته أولاد يحيى بن علي بن سباع فغربوا في الوفاء بها. وأقام بين ظهرانيهم وفي حللهم متقلباً في طلب بجاية برحلة الشتاء والصيف وتكفلوا نفقة عياله ومؤنة حشمه وأنزلوه ببلد المسيلة من أوطانهم، وتجافوا له عن جبايتهم وأقام على ذلك سنين خمساً ينازل بجاية في كل سنة منها مراراً، وتحول في السنة الخامسة عنهم إلى أولاد علي بن أحمد، ونزل على يعقوب بن علي فأسكنه بمقرة من بلاده إلى أن بدا لعمه المولى أبي إسحاق رأيه في اللحاق بتونس لما توقع من مهلك حاجبه وكافله أبي محمد بن تافراكين، أسره إليه بعض الحزى فحذره مغبته ووقع من ذلك في نفوس أهل بجاية انحراف عنه ومرج أمرهم وراسلوا أميرهم الأقدم أبا عبد الله من مكانه بمقرة وظاهره على ذلك يعقوب بن علي وأخذ له العهد على رجالات سدويكش أهل الضاحية، وارتحلوا معه إلى بجاية ونازلها أياماً. ثم استيقن الغوغاء اعتزم سلطانهم على التقويض عنهم، وسئموا ملكة علي بن صالح الذي كان عريفاً عليهم فثاروا به ونبذوا عهده وانفضوا من حوله إلى الأمير أبي عبد الله بالرسة من ساحة البلد. ثم قادوا إليه عمه أبا إسحاق فمن عليه وخلى سبيله إلى حضرته فلحق بها واستولى أبو عبد الله على بجاية محل إمارته في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة على علي بن صالح ومن معه من عرفاء الغوغاء أهل الفتنة فاستصفى أموالهم، ثم أمضى حكم الله في قتلهم. ثم نهض إلى تدلس لشهرين من مملكة بجاية فغلب عليها عمر بن موسى عامل بني عبد الواد، ومن أعياص قبيلهم، وتملكها في آخر سنة خمس وستين وسبعمائة. وبعث عني من الأندلس كنت مقيماً بها نزيلاً عند السلطان أبي عبد الله بن أبي الحجاج بن الأحمر في سبيل اغتراب ومطاوعة تقلب منذ مهلك السلطان أبي سالم الجاذب بضبعي إلى تنويهه، والراقي بي في خطط كتابته من ترسيل وتوقيع ونظر في المظالم وغيرها. فلما استدعاني هذا الأمير أبو عبد الله بادرت إلى امتثاله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ فأجزت البحر شهر جمادى من سنة ست وخمسين وسبعمائة وقلدني حجابته، ودفع إلي أمور مملكته. وقمت في ذلك المقام المحمود إلى أن أذن الله بانقراض أمره، وانقطاع دولته، ولله الخلق والأمر، وبيده تصاريف الأمور.

الخبر عن مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين واستبداد سلطانه من بعده

كان السلطان أبو إسحاق آخر دولته بجاية قد تحين مهلك حاجبه المستبد عليه أبي محمد بن تافراكين لما كان أهل صناعة التنجيم يحدثونه بذلك، فأجمع الرحلة إليها، وانفض عنه أهل بجاية إلى ابن أخيه كما قدمناه. واستولى عليه ثم أطلقه إلى حضرته فلحق بها في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة وتلقاه أبو محمد بن تافراكين ورآه مرهف الحد للاستبداد الذي لفه ببجاية فكايله بصاع الوفاق، وصارفه نقد المصانعة، وازدلف بأنواع القربات. وقاد إليه النجائب ومنحه من الذخائر والأموال وتجافى له عن النظر في الجباية. ثم أصهر إليه السلطان في كريمته فعقد له عليها وأعرس السلطان بها. ثم كان مهلكه عقب ذلك سنة ست وستين وسبعمائة فوجم السلطان لنعيه وشهد جنازته حتى وضع بملحده من المدرسة التي اختطها لقراءة العلم إزاء داره جوفي المدينة. وقام على قبره باكياً وحاشيته يتناولون التراب حثياً على جدثه فغرب في الوفاء معه بما تحدث به الناس واستبد من بعده بأمره وأقام سلطانه لنفسه.

وكان أبو عبد اللّه الحاجب ابن أبي محمد غائباً عن الحضرة. خرج منها بالعسكر للجباية والتمهيد فلما بلغه خبر مهلك أبيه داخلته الظنة وأوجس الخيفة فصرف العسكر إلى الحضرة، وارتحل مع حكيم من بني سليم، وعرض نفسه على معاقل إفريقية التي كان يظن أنها خالصة لهم. فصده محمد بن أبي العيون كاتبه عن جربة، ومحمد بن الجكجاك الحكيم صنيعتهم وبطانتهم عن المهدية. وبعث إليه السلطان بما رضيه من الأمان فاستصحب بعد النفور وبادر إلى الحضرة فتلقاه السلطان بالبر والترحيب، وقلده حجابته وأنزله على مراتب العز والتنويه. ونكر هو مباشرة السلطان للناس من رفعه للحجاب، ولم يزل يريضه لما ألف من الاستبداد منذ عهد أبيه فأظلم الجو بينه وبين السلطان ودبت عقارب السعاية لمهاده الوثير، فتنكر وخرج من تونس ولحق بقسطنطينة، ونزل بها على السلطان أبي العباس مرغباً له في ملك تونس ومستحثاً فأنزله خير نزل، ووعده بالنهوض معه إلى إفريقية بعد الفراغ من أمر بجاية لما كان بينه وبين ابن عمه صاحبها من الفتنة كما نذكرها بعد. واستبد السلطان أبو إسحاق بعد مفر ابن تافراكين عنه، ونظر في أعطاف ملكه، وعقد على حجابته لأحمد بن إبراهيم اليالفي مصطنع الحاجب أبي محمد من طبقة العمال، وعلى العساكر والحرب لمولاه منصور سريحه من المعلوجي، وورفع الحجاب بينه وبين رجال دولته وصنائع ملكه حتى باشر جبايات الخراج وعرفاء الحشم، وأوصلهم إلى نفسه وألغى الوسائط بينهم وبينه إلى حين مهلكه كما نذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى، واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي العباس على بجاية وملك صاحبها ابن عمه

لما ملك الأمير أبو عبد اللّه بجاية واستقل بإمارتها تنكر للرعية وساءت سيرته فيهم بإرهاف الحد للكافة وإسخاط الخاصة، فنغلت الصدور ومرضت القلوب واستحكمت النفرة، وتوجهت الصاغية إلى ابن عمه السلطان أبي العباس بقسطنطينة لما كان أسوس منه وأغلب للذاته وأقوم على سلطانه. وكانت بينهما فتنة وحروب جرتها المنافسة في تخوم العمالتين منذ عهد الآباء. وكان السلطان أبو العباس أيام نزوله على السلطان أبي سالم محمود السيرة والخلال عنده مستقيم الطريقة في مثوى اغترابه. وربما كان ينقم على ابن عمه هذا بعض النزعات المعرضة لصاحبها للملامة فيستثقل نصيحته. ونغل بذلك ضميره، فلما استولى على بجاية عاد إلى الفتنة فشبها، وشمر عزائمه لها فكان مغلباً فيها. واعتلق منه يعقوب بن علي بذمة في المظاهرة على السلطان أبي العباس فلم يغن عنه وراجع يعقوب سلطانه. ثم جهز هو العساكر من بجاية لمزاحمة تخوم قسطنطينة ففضها أبو العباس فنهض إليه ثانية بنفسه في العساكر، وتراجع العرب من أولاد سباع بن يحيى وجمع هو أولاد محمد وزحف فيهم وفي عسكر من زناتة، والتقى الفريقان بناحية سطيف فاحتل مصاف أهل بجاية وانهزموا، واتبعهم السلطان أبو العباس إلى تاكرارت وجال في عمله ووطىء نواحي وطنه، وقفل إلى بلده.

ودخل الأمير أبو عبد اللّه إلى بجاية وقد استحكمت النفرة بينه وبين أهل بلده فدسوا إلى السلطان أبي العباس بقسطنطينة بالقدوم عليهم، فوعدهم من العام القابل وزحف سنة سبع وستين وسبعمائة في عساكره وشيعته من الدواودة أولاد محمد، وانضوى إليه أولاد سباع شيعة بجاية بالجوار والسابقة القديمة لما نكروا من أحوال سلطانهم. وعسكر الأمير أبو عبد اللّه بلبزو في جمع قليل من الأولياء وأقام بها يرجو مدافعة ابن عمه بالصلح، فبيته السلطان بمعسكره من لبزو، وصحبه في غارة شعواء فانفض جمعه، وأحيط به، وانتهب المعسكر، ومر إلى بجاية، فأدرك في بعض الطريق وتقبض عليه، وقتل قعصاً بالرماح. وأغذ السلطان أبو

العباس السير إلى بجاية فأدرك بها صلاة الجمعة تاسع عشر شعبان من سنة سبع وستين وسبعمائة، وكنت بالبلد مقيماً فخرجت إليه في الملأ وتلقاني بالمبرة والتنويه. وأشار إلي بالاصطناع واستوسق له ملك جده الأمير أبي زكريا الأوسط في الثغور العربية وأقمت في خدمته بعض شهر. ثم توجست الخيفة في نفسي وأذنته في الانطلاق فأذن لي تكرماً وفضلاً وسعة صدر ورحمة، ونزلت على يعقوب بن علي، ثم تحولت عنه إلى بسكرة ونزلت على ابن مزني إلى أن صفا الجو، واستقبلت من أمري ما استدبرت واستأذنته لثلاث عشرة سنة من انطلاقي عنه في خبر طويل نقصه من شأني فأذن لي، وقدمت عليه فقابلتني وجوه عنايته، وأشرقت علي أشعة بخته كما نذكر ذلك من بعد إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن زحف أبي حمو وبني عبد الواد إلى بجاية ونكبتهم عليها وفتح تدلس من أيديهم بعدها

كان الأمير أبو عبد صاحب بجاية لما اشتدت الفتنة بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس مع ما كان بينه وبين بني عبد الواد من الفتنة عند غلبه إياهم على تدلس تكائد عن حمل العداوة من الجانبين، وصغا إلى مهادنة بني عبد الواد فنزل لهم عن تدلس، وأمكن منها قائد العسكر المحاصر لها. وأوفد رسله على سلطانهم أبي حمو بتلمسان، وأصهر إليه أبو حمو في ابنته فعقد له عليها وزفها إليه بجهاز أمثالها. فلما غلبه السلطان أبو العباس على بجاية وهلك في مجال حربه، أشاع أبو حمو الامتعاض له لمكان الصهر، وجعلها ذريعة إلى الحركة على بجاية. وزحف من تلمسان يجر الشوك والمدد في آلاف من قومه وطبقات العساكر والجند. وتراجع العرب حتى انتهى إلى وطن حمزة فأجفل أمامه أبو الليل موسى بن زغلي في قومه بني يزيد، وتحصنوا في جبال زواوة المطلة على وطن حمزة. وبعث إليه رسله لاقتضاء طاعته فأوثقهم كتافاً، وكان فيهم يحيى حافد أبي محمد صالح نزع من السلطان أبي العباس إلى أبي حمو وكان عيناً على غزاة أبي الليل هذا لما بينهما من المربى والجوار في الوطن، وجاء في وفد الرسالة عن أبي حمو فتقبض عليهم وعليه فقتله وبعث برأسه إلى بجاية.

وامتنع على أبي حمو وعساكره فأجازوا على بجاية، ونزل معسكره بساحتها وقاتلها أياماً، وجمع الفعلة على الآلات في الحصار. وكان السلطان أبو العباس بالبلد وعسكره مع مولاه بشير بتكرارت، ومعهم أبو زيان بن عثمان بن عبد الرحمن، وهو ابن عم أبي حمو من أعياص بيتهم، وكان من خبره أنه كان خرج من المغرب كما نذكره في أخباره. ونزل على السلطان أبي إسحاق بالحضرة ورعى له أبو محمد الحاجب حق بيته فأوسع في كرامته. ولما غلب الأمير أبو عبد اللّه على تدلس بعث إليه من تونس ليوليه عليها، وتكون رداء بينه وبين حمو، ويتفرغ هو للأجلاب على وطن قسطنطينة، فبادر إلى الإجابة وخرج من تونس. ومر السلطان أبو العباس بمكانه من قسطنطينة فصده عن سبيله واعتقله عنده مكرماً، فلما غلب على بجاية وبلغه الخبر بزحف أبي حمو أطلقه من اعتقاله ذلك واستبلغ في تكرمته وحبائه، ونصبه للملك وجهز له بعض الآلة. وخرج في معسكره مولاه بشير ليجاجىء به بني عبد الواد عن ابن عمه أبي حمو لما سئموا من ملكه وعنفه.

وكان زغبة عرب المغرب الأوسط في معسكر أبي حمو، وكانوا حذرين من مغبة أمره معهم فراسلوا أبا زيان واتمروا بينهم في الأرجاف بالمعسكر. ثم تحينوا لذلك أن يشب الحرب بين أهل البلد وأهل المعسكر فأجفلوا خامس ذي الحجة، وانفض بالمعسكر وانتهوا إلى مضايق الطرقات بساح البلد فكظت بزحامهم وتركموا عليها فهلك الكثير منهم، وخلفوا من الأثقال والعيال والسلاح والكراع ما لا يحيط به الوصف. وأسلم أبو حمو عياله وأمواله فصارت نهباً واحتلبت حظاياه إلى السلطان فوهبها لابن عمه ونجا أبو حمو بنفسه بعد أن طاح في كظيظ الزحام عن جواده فنزل له وزيره عمران بن موسى عن مركوبه فكان نجاؤه عليه، ولحق بالجزائر في الفل، ولحق منها بتلمسان واتبع أبو زيان أثره، واضطرب المغرب الأوسط كما نذكره في أخباره. وخرج السلطان أبو العباس من بجاية على إثر هذه الواقعة فنازل تدلس وافتتحها وغلب عليها من كان بها من عمال بني عبد الواد وانتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جده الأمير أبي زكريا الأوسط حين قسم الدعوة الحفصية بها إلى أن كان ما نذكره بعده إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن زحف العساكر إلى تونس

كان أبو عبد اللّه ابن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لما نزع عن السلطان أبي إسحاق صاحب الحضرة لحق بحلل أولاد مهلهل من العرب، ووفدوا جميعاً على السلطان أبي العباس فاتح سنة سبع وستين وسبعمائة يستحثونه إلى الحضرة ويرغبونه في ملكها فاعتذر لهم بما كان عليه من الفتنة مع ابن عمه صاحب بجاية. وزحف إليها في حركة الفتح وصاروا في جملته، فلما استكمل فتح

بجاية سرح معهم أخاه المولى أبا يحيى زكريا في العساكر فساروا معه إلى الحضرة، وابن تافراكين في جملته، فنازلوها أياماً وامتنعت عليهم وأقلعوا على سلم ومهادنة انعقدت بين صاحب الحضرة وبينهم، وقفل المولى أبو يحيى بعسكره إلى مكان عمله. ولحق ابن تافراكين بالسلطان، فلم يزل في جملته إلى أن كان من فتح تونس ما نذكر.

الخبر عن مهلك السلطان أبي إسحاق صاحب الحضرة وولاية ابنه خالد من بعده

لما تزل حال السلطان أبو إسحاق بالحضرة على ما ذكرناه، ويختلف في الفتنة والمهادنة مع السلطان أبي العباس طوراً بطور، واستخلص لدولتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب يستظهر به على أمره، ويستدفع برأيه وشوكته فخلص له سائر أيامه. وعقد سنة تسع وستين وسبعمائة لابنه خالد على عسكر لنظر محمد بن رافع من طبقات الجنود من مغراوة مستبداً على ابنه. وسرحه مع منصور بن حمزة وقومه وأوعز إليهم بتدويخ ضواحي بونة واكتساح نعمها وجباية ضواحيها فساروا إليها. وسرح الأمير أبو يحيى زكريا صاحب بونة عسكره مع أهل الضاحية فأغنوا في مدافعتهم وانقلبوا على أعقابهم فكان آخر العهد بظهورهم. ولما رجعوا إلى الحضرة تنكر السلطان لمحمد بن رافع قائد العسكر فخرج من الحضرة ولحق بقومه بمكانهم من لحفه من أعمال تونس. واستقدمه السلطان بعد أن استعتب له فلما قدم تقبض عليه وأودعه السجن. وعلى إثر ذلك كان مهلك السلطان فجأة ليلة من سنة سبعين وسبعمائة بعد أن قضى وطراً من محادثة السمر وغلبه النوم آخر ليله فنام، ولما أيقظه الخادم وجده ميتاً، فاستحال السرور، وعظم الأسف وغلب على البطانة الدهش.

ثم راجعوا بصائرهم ودفعوا الدهش عن أنفسهم وتلافوا أمرهم بالبيعة لابنه الأمير أبي البقاء خالد فأخذها له على الناس مولاه منصور سريحة من المعلوجي وحاجبه أحمد بن إبراهيم البالقي، وحضر لها الموحدون والفقهاء والكافة. وانفض المجلس وقد انعقد أمره إلى جنازة أبيه حتى واروه التراب. واستبد منصور وابن البالقي على هذا الأمير المنصوب للأمر فلم يكن له تحكم عليهما، وكان أول ما افتتحا به أمرهما أن تقبضا على القاضي محمد بن خلف الله من طبقة الفقهاء، كان نزع إلى السلطان من بلده نفطة مغاضباً لمقدمها عبد الله بن علي بن خلف فرعى له نزوعه إليه واستعمله بخطة القضاء بتونس عند مهلك أبي علي عمر بن عبد الرفيع. ثم ولاه قيادة العساكر إلى بلاد الجريد وحربهم فكان فيه غناء واستدفعوه مرات بجبايتهم يبعثون بها إلى السلطان، ومرات بمصانعة العرب على الإرجاف بمعسكره. وكان ابن البالقي يغص بمكانه عند السلطان، فلما استبد على ابنه أعظم فيه السعاية وتقبض عليه، وأودعه السجن مع محمد بن علي بن رافع. ثم بعث عليهما من داخلهما في الفرار من الاعتقال حتى دبروه معه، وظهر على أمرهما فقتلهما في محبسهما خنقاً والله متولي الجزاء منه. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

ثم أظهر ابن البالقي من سوء سيرته في الناس وجوره عليهم وعسفه بهم وانتزاع أموالهم، وإهانة سبال الأشراف ببابه منهم ما نقموه، وضرعوا إلى الله في إنقاذهم من ملكته، فكان ذلك على يد مولانا السلطان أبي العباس كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح تونس واستيلاء السلطان عليها واستبداده بالدعوة الحفصية في سائر عمالات إفريقية وممالكها

لما هلك السلطان أبو إسحاق صاحب الحضرة سنة سبعين وسبعمائة كما قدمنا وقام بالأمر مولاه منصور سريحه وحاجبه البالقي ونصبوا ابنه الأمير خالداً للأمر صبياً لم يناهز الحلم غرا فلم يحسنوا تدبير أمره ولا سياسة سلطانه، وأسخطوا لوقتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب المتغلبين على الضاحية بما أطمعوه بسوء تدبيرهم في شركته لهم في الأمر. ثم قلبوا له ظهر المجن فسخطهم ولحق بالسلطان أبي العباس وهو مطل عليهم بمرقبة من الثغور الغربية مستجمع للتوثب بهم، فاستحثه لملكهم وحرضه على تلافي أمرهم ورم ما تثلم من سياج دولتهم. وكان الأحق بالأمر لشرف نفسه وجلاله واستفحال ملكه وسلطانه، وشياع الحديث عن عدله ورفقه وحميد سيرته وأمان أهل مملكته من نظر يعقب نظره فيهم واستبداد سواه عليهم، فأجاب صريخه وشحذ للنهوض عزمه. وكان أهل قسطنطينة قد بعثوا بمثل ذلك، فسرح إليهم أبا عبد الله بن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لاستخبار طاعتهم وابتلاء دخلتهم، فسار إليهم واقتضى بيعاتهم وطاعتهم، وسارع إليها يحيى بن يملول مقدم توزر والخلف بن الخلف مقدم نفطة فأتوها طواعية. وانقلب عنهم وقد أخذوا بدعوة السلطان وأقاموها.

ثم خرج السلطان من بجاية في العسكر وأغذ السير إلى

المسيلة، وكان بها إبراهيم ابن عمه الأمير أبي زكريا الأخير جاءه به أولاد سليمان بن على من الدواودة من مثوى اغترابه بتلمسان، ونصبوه لطلب حقه في بجاية من بعد أخيه الأمير أبي عبد اللّه، وكان ذلك بمداخلة أبي حمو صاحب تلمسان ومواعيد بالمظاهرة مخلفة. فلما انتهى السلطان إلى المسيلة نبذوا إلى ابراهيم عهده وتبرأوا منه. ورجعوه من حيث جاء، وانكفأ راجعاً إلى بجاية. ثم نهض منها إلى الحضرة وتلقته وفود إفريقية جميعاً بالطاعة وانتهى إلى البلد فخيم بساحتها أياماً يغاديها القتال ويراوحها: ثم كشف عن مصدوقته وزحف إلى أسوارها وقد ترجل أخوه والكثير من بطانته وأوليائه فلم يقم لهم شيء حتى تسنموا الأسوار برياض رأس الطابية، فنزل عنها المقاتلة وفروا إلى داخل البلد. وخامر الناس الدهش وتبرأ بعضهم من بعض، وأهل الدولة في موكبهم وقوف بباب الغدر من أبواب القصبة. فلما رأوا أنهم أحيط بهم ولوا الأعقاب وقصدوا باب الجزيرة فكسروا أقفاله. وثار أهل البلد جميعاً بهم فخلصوا سلطانهم من البلد بعد عصب الريق، ومضى الجند في اتباعهم فأدرك أحمد بن البالقي فقتل وسيق رأسه إلى السلطان. وتقبض على الأمير خالد واعتقل، ونجا العلج منصور سريحه برأس طمرة ولجام وذهل عن القتال دون الأحبة.

ودخل السلطان القصر واقتعد أريكته، وانطلقت أيدي العيث في ديار أهل الدولة فاكتسحت ما كان الناس يضطغنون عليهم تحاملهم على الرعية واغتصاب أموالهم، فاضطرمت نار العيث في دورهم ومخلفهم فلم تكد أن تنطفىء ولحق بعض أهل العافية معرات من ذلك لعموم النهب وشموله حتى أطفأه اللّه ببركات السلطان وجميل نيته وسعادة أمره. ولاذ الناس منه بالملك الرحيم والسلطان العادل، وتهافتوا عليه تهافت الفراش على الذبال يلثمون أطرافه، ويجأرون بالدعاء له ويتنافسون في التماح محياه الى أن غشيهم الليل ودخل السلطان قصوره وخلا بما ظفر من ملك آبائه، وبعث بالأمير خالد وأخيه في الأسطول إلى قسطنطينة، فعصفت به الريح وانخرقت السفينة وترادفت الأمواج إلى أن هلكا. واستبد السلطان بأمره وعقد لأخيه الأمير أبي يحيى زكريا على حجابته. ورعى لابن تافراكين حق انحياشه إليه ونزوعه فجعله رديفاً لأخيه، واستمر الأمر على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن انتقاض منصور بن حمزة وأجلابه بالعم أبي يحيى زكريا على الحضرة وما كان عقب ذلك من نكبة ابن تافراكين

كان منصور بن حمزة هذا أمير البدو من بني سليم بما كان سيد بني كعب. وكان السلطان أبو إسحاق يؤثره بمزيد العناية، وجعل له على قومه المزية. وكان بنو حمزة هؤلاء منذ غلبوا على السلطان أبي الحسن على إفريقية وأزعجوه منها قد استطالت أيديهم عليها وتقاسموها أوزاعاً، وأقطعهم أمراء الحضرة السهمان في جبايتها زيادة لما غلبوا عليه من ضواحيها وأمصالها، استئلافاً لهم على المظاهرة وإقامة الدعوة والحماية من أهل الثغورَ الغربية، فملكوا الأكثر منها، وضعف سهمان السلطان بينهم فيها، فلما استولى هذا السلطان أبو العباس على الحضرة واستبد بالدعوة الحفصية كبح أعنتهم عن التغلب والاستبداد وانتزع ما بأيديهم من الأمصار والعمالات التي كانت من قبل خالصة للسلطان وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبونه، فأحفظهم ذلك وأهمهم شأنه وتنكر منصور بن حمزة وقلب ظهر المجن ونزع يده من الطاعة وغمسها في الخلاف، وتابعه على خروجه على السلطان أبو صعنونة أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن مسكين شيخ حكيم. وارتحل بأحيائه إلى الدواودة صريخاً مستحثياً بالأمير أبي يحيى بن السلطان أبي بكر المقيم بين ظهرانيهم من لدن فعلته بالمهدية وانتزائه بها على أخيه المولى أبي إسحاق كما ذكرناه، فنصبوه للأمر وبايعوه. وارتحل معهم وأغذوا السير إلى تونس، ولقيه منصور بن حمزة في أحيائه بنواحي تبسة فبايعوا له وأوفدوا مشيختهم على يحيى بن يملول شيطان الغواية المارد على الخلاف يستحثونه للطاعة والمدد بمداخلة كانت بينهم في ذلك سول لهم فيها بالمواعيد، وأملى لهم حتى إذا غمسوا أيديهم في النفاق والأجلاب سوفهم عن مواعيده ضنانة بماله فأسرها منصور في نفسه، واعتزم من يومئذ على الرجوع إلى الطاعة.

ثم رحلوا للأجلاب على الحضرة، وسرح السلطان أبو العباس أخاه الأمير أبا يحيى زكريا للقيهم في العساكر، وتزاحفوا فأتيح لمنصور وقومه ظهور على عساكر السلطان وأوليائه لم يستكمله، وأجلبوا على البلاد أياماً. ونمي إلى السلطان أن حاجبه أبا عبد اللّه بن تافراكين داخلهم في تبيين البلد فتقبض عليه وأشخصه في البحر إلى قسطنطينة فلم يزل بها معتقلاً إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وسبعمائة. ثم سرب السلطان أمواله في العرب

فانتقض على المنصور قومه وخشي مغبة حاله، وسوغه السلطان جائزته فعاود الطاعة، ورهن ابنه ونبذ إلى السلطان زكريا العم عقده ورجعه على عقبه إلى الدواودة، والتزم طاعة السلطان والاستقامة على المظاهرة إلى أن هلك سنة ست وتسعين وسبعمائة فقتله محمد ابن أخيه قتيبة في مشاجرة كانت بينهما، طعنه بها فأشواه ورجع جريحاً إلى بيته، وهلك دونها آخر يومه. وقام بأمر بني كعب بعده صولة ابن أخيه خالد وعقد له مولانا السلطان على أمرهم واستمرت الحال إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن فتح سوسة والمهدية

كانت سوسة منذ واقعة بني مرين بالقيروان وتغلب العرب على العمالات التي أقطعها السلطان أبو الحسن لخليفة بن عبد الله بن مسكين فيما سوغ للعرب من الأمصار والإقطاعات مما لم يكن لهم فاستولى عليها خليفة هذا ونزلها واستقل بجبايتها وأحكامها. واستبد بها على السلطان ولم يزل كذلك إلى أن هلك وقام بأمره في قومه عامر بن عمه مسكين أيام استبداد أبي محمد بن تافراكين فسوغها له كذلك متقبلاً مذهب من قبله ثم قتله بنو كعب، وأقام بأمر حكيم من بعده أحمد الملقب أبو صعنونة بن محمد أخي خليفة بن عبد الله بن مسكين فاستبد بسوسة على السلطان واقتعدها دار إمارته، وربما كان ينتقض على صاحب الحضرة فيجلب عليها من سوسة، ويشن الغارات في نواحيها، حتى لقد أوقع في بعض أيامه بمنصور سريحه مولى السلطان أبي إسحاق وقائد عسكره، فتقبض عليه واعتقله بسوسة أياماً. ثم من عليه وأطلقه وعاود الطاعة معه، ولم يزل هذا دأبهم. وكانت لهم في الرعايا آثار قبيحة وملكات سيئة، ولم يزالوا يضرعون إلى الله في إنقاذهم من أيدي جورهم وعسفهم إلى أن تأذن الله لأهل إفريقية باقتبال الخير وفيء ظلال الأمر. واستبد مولانا السلطان أبو العباس بالحضرة وسائر عمالات إفريقية وهبت ريح العز على العرب في جميع النواحي، فتنكر أهل سوسة لعاملهم أبي صعنونة هذا، وأحس بنكرائهم فخرج عنهم وتجافى للسلطان عن البلد. وثارت عامتها بعماله وأجهضوهم، ونزل عمال السلطان.

ثم كانت من بعد ذلك حركة المولى أبي يحيى إلى نواحي طرابلس ودوخ جهاتها واستوفى جباية عمالها. وكان بالمهدية محمد بن الجكجاك استعمله عليها الحاجب أبو محمد بن تافراكين أيام ارتجاعه إياها من يد أبي العباس بن مكي، والأمير أبي يحيى زكريا المنتزي بها ابن مولانا السلطان أبي بكر كما مر. وأقام ابن الجكجاك أميراً عليها واستبد بها بعد موت الحاجب. فلما وخزته شوكة الاستطالة من الدولة، وطلع نحوه قتام العساكر فرق من الاستيلاء عليه، وركب أسطوله إلى طرابلس ونزل على صاحبها أبي بكر بن ثابت لذمة صهر قديم كان بينهما وبادر مولانا السلطان إلى تسليم المهدية، وبعث عليها عماله وانتظمت في ملكه واطردت أحوال الظهور والنجح، وكان بعد ذلك ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح جربة وانتظامها في ملك السلطان

كان محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون منذ ولاه أبو عبد الله محمد بن تافراكين على هذه الجزيرة، قد تقبل مذاهب جيرانها من أهل قابس وطرابلس وسائر الجريد في الامتناع على السلطان ومصارفة الاستبداد وانتحال مذاهب الإمارة وطرقها ولبوس شارتها. وقد ذكرنا سلفه من قبل، وأن والده كان صاحب الأشغال بالحضرة أيام الحاجب أبي محمد بن تافراكين وأنه اعتلق بمكاتبة ابنه أبي عبد الله فولاه على جربة عند افتتاحه إياها وأنه قصده عند مفره عن المولى أبي إسحاق لينزل جربة معولاً على قديم اصطناعه إياه فمنعه. ثم داخل شيوخ الجزيرة من بني سمومن في الامتناع على السلطان والاستبداد بأمرهم فأجابوه، وأقام ممتنعاً سائر دولة المولى أبي إسحاق وابنه من بعده.

ولما استولى مولانا السلطان أبو العباس على تونس داخله الروع والدهش وصار إلى مكاثر رؤساء الجريد في التظافر على المدافعة بزعمهم، فأجرى في ذلك شأواً بعيداً مع تخلفه في مضمار بقديه وحديثه. وصادق السلطان سوء الامتثال وإتيان الطاعة ومنع الجباية فأحفظ ذلك، ولما افتتح أمصار الساحل وثغوره سرح ابنه الأمير أبا بكر في العساكر إلى جربة ومعه خالصة الدولة محمد بن علي بن إبراهيم من ولد أبي هلال شيخ الموحدين، وصاحب بجاية لعهد المستنصر، وقد تقدم ذكره. وأمده في الأسطول في البحر لحصارها، ونزل الأمير بعسكره على مجازها ووصل الأسطول إلى مرساها فأطاف بحصن القشتيل، وقد لاذ ابن أبي العيون بجدرانه وافترق عنه شيوخ الجزائر من البربر وانحاش بطانته من الجند المستخدمين معه بها. ولما رأوا ما لا طاقة لهم به وأن عساكر السلطان قد أحاطت بهم براً وبحراً نزلوا إلى قائد الأسطول وأمكنوه من الحصن، وبادروا إلى معسكر الأمير فأقبل معهم الخاصة أبو عبد الله بن أبي هلال فيمن معه من بطانة الأمير

وحاشيته فاقتحموا الحصن، وتقبضوا على محمد بن أبي العيون ونقلوه من حينه إلى الأسطول، واستولوا على داره وولوا على الجزيرة وارتحلوا قافلين إلى السلطان. ووصل محمد بن أبي العيون إلى الحضرة ونزل بالديوان فأركب إلى القصبة على جمل وطيف به على أسواق البلد إظهاراً لعقوبة اللّه النازلة به، وأحضره السلطان فوبخه على مرتكبه في العناد ومداخلته أهل الغواية من أمراء الجريد في الانحراف عنه. ثم تجافى عن دمه وأودعه السجن إلى أن هلك سنة تسع وسبعين.

الخبر عن استقلال الأمراء من الأبناء بولاية الثغور الغربية

كان السلطان عندما استجمع الرحلة إلى إفريقية باستحثاث أهلها لذلك، ووفادة منصور بن حمزة شيخ الكعوب مرغباً فأهمه لذلك شأن الثغور الغربية، وأجال اختياره في بنيه يسبر أحوالهم ويفتش عن الأكفاء لهذه الثغور منهم فوقع نظره أولاً على كبير ولده المخصوص بعناية اللّه في إلقاء محبته عليه الأمير أبي عبد اللّه فعقد له على بجاية وأعمالها، وأنزله بقصور الملك منها، وأطلق يده في مال الجباية وديوان الجند. واستعمل على قسطنطينة وضواحيها لمولاه القائد بشير سيف دولته وعنان حربه، ناشىء قصره وتلاد مرباه.و كانت لهذا الرجل نخوة من الصرامة والبأس، ودالة بالقديم والحادث. وخلال لقيها أيام التقلب في أواوين الملك. وكان ملازماً ركاب مولاه في مطارح اغترابه وأيام تمحيصه، وربما لقي عند إحالته على قسطنطينة من المحنة والاعتقال الطويل ما أعاضه اللّه عنه بجميل التنويه، وعود العز والملك إلى مولاه على أحسن الأحوال. فظفر من ذلك بالبغية وحصل من الرتبة على الأمنية. وكان السلطان يثق بنظره في العسكر ويبعثه في مقدمة الحروب، وكان عند استيلائه على بجاية وصرف العناية إليها ولاه أمر قسطنطينة وأنزله بها، وأنزل معه ابنه الأمير أبا إسحاق وجعل إليه كفالته لصغره ثم استنفره بالعساكر عند النهوض إلى إفريقية فنهض في جملته وشهد معه الفتح. ثم رجعه إلى عمله بقسطنطينة بمزيد التفويض والاستقلال، فلم يزل بما دفع إليه من ذلك إلى أن هلك.

وكان السلطان قد أوفد ابنه أبا إسحاق على ملك المغرب السلطان عبد العزيز عندما استولى على تلمسان مهنياً بالظفر ملفحاً غراس الود وأوفد معه شيخ الموحدين ببابه أبا إسحاق بن أبي هلال، وقد مر من قبل ذكره وذكر أخيه فتلقاهما ملك المغرب بوجوه المبرة والاحتفاء، ورجعهما بالحديث الجميل عنه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة. ونزل الأمير أبو إسحاق بقسطنطينة دار إمارته وعقد له السلطان عليها وألقاب الملك ورسومه مصروفة إليه. والقائد بشير مولى ابنه مستبد عليه لمكان صغره إلى أن هلك بشير سنة ثمان وسبعين وسبعمائة عندما استكمل الأمير أبو إسحاق الخلال واستجمع الإمارة فجدد له السلطان عهده عليها وفوض إليه في إمارتها فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن مقام، وأكفاه مصدقاً الظنون وتوميء إليه وشهادة المخايل التي دلّت عليه، فاستقل هذان الأميران بثغر بجاية وقسطنطينة وأعمالها مفوضاً إليهما الإمارة مأذوناً لهما في اتخاذ الآلة وإقامة الرسوم الملوكية والشارة. وكان الأمير أبو يحيى زكريا الأخ الكريم مستقلاً أيضاً ببونة وعملها منذ استيلائه عليها قد أضافها السلطان وأصارها في سهمانه، فلما ارتحلوا إلى إفريقية عام الفتح وتيقن الأخ أبو يحيى طول مغيبه واغتباط السلطان أخيه لكونه معه، عقد عليها لابنه الأمير أبي عبد اللّه محمد وأنزله بقصره منها، وفوض إليه في إمارته لما استجمع من خلال الترشيح والذكر الصالح في الدين. واستمر الحال على ذلك لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، واللّه مدبر الأمور.

الخبر عن فتح قفصة وتوزر وانتظام أعمال قسطنطينة في طاعة السلطان

كان أمر هذا الجريد قد صار شورى بين رؤساء أمصاره فيما قبل دولة السلطان أبي بكر لاعتلال الدولة حينئذ بانقسامها كما مر، فلما استبد السلطان أبو بكر بالدعوة الحفصية وفرغ من الشواغل صرف إليهم نظره وأوطأهم عساكره. ثم نهض بنفسه فمحى أثر الشورى منها، وعقد لابنه أبي العباس عليها كما قلناه. فلما كان بعد مهلكه من اضطراب إفريقية وتغلب الأعراب على نواحيها ما كان منذ هزيمة السلطان أبي الحسن وبني مرين بالقيروان عاد أهل الشورى في الجريد إلى ديدنهم من التوثب على الأمر والاستبداد على السلطان، وتناغى رؤسائهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك ومساريه، يقتعدون الأرائك ويعقدون في المشي بين السكك المراكب، ويهينون في إيوانهم سبال الأشراف، ويتخذون الآلة أيام المشاهد آية للمعتبرين في تقلب الأيام، وضحكة لأهل الشمات، حتى لقد حدثتهم أنفسهم بألقاب الخلافة، وأقاموا على ذلك أحوالاً والدولة في التياثها، فلما استبد السلطان أبو العباس بإفريقية وعمالاتها، وأتيح منه بالحضرة البازي المطل من مرقبه والأسد الحادر في عرينه، وأصبحوا فرائس

له يتوقعون انصبابه إليهم وتوثبه بهم، داخلوا حينئذ الأعراب في مدافعته عنهم بإضرام نار الفتنة، واقتعاد مطية الخلاف والنفاق يفتّون بذلك في عزائمه وأرخى هو لهم طيل الإمهال وفسح لهم مجال الإيناس بالمقاربة والوعد، رجاء الفيئة إلى الطاعة المعروفة والاستقامة على الجادة فأصروا وازدادوا عناداً ونفاقاً فشمر لهم عن عزائمه ونبذ إليهم عهدهم على سواء.

ونهض من الحضرة سنة سبع وسبعين وسبعمائة في عساكره من الموحدين وطبقات الجند والموالي وقبائل زناتة ومن استألف إليه من العرب أولاد مهلهل وحكيم وإظاهر أولاد أبي الليل على المدافعة عن أهل الجريد، ووافقوا السلطان أياماً. ثم أجفلوا أمامه وغلبهم السلطان على رعاياهم مرنجيزة، وكانوا من بقايا بني يفرن عمروا ضواحي إفريقية مع ظواعن هوارة ونفوسة ونفزاوة. وكانت للسلطان عليهم مغارم وجبايات وافرة، فلما تغلب المغرب على بسائط إفريقية وتنافسوا في الإقطاعات كانت ظواعن مرنجيزة هؤلاء في إقطاع أولاد حمزة، فكانت جبايتهم موفورة ومالهم دثراً بما صاروا مدداً لهم بالمال والكراع والدروع والأدم، وبالفرسان منهم يستظهرون بهم في حروبهم مع السلطان ومن قومهم، فاستولى السلطان عليهم في هذه السنة واكتسح أموالهم، وبعث برجالهم أسرى إلى سجون الحضرة وقطع بها عنهم أعظم مادة كانت تمدهم، فخمد ذلك من عتوهم وقص من جناحهم آخر الدهر، ووهنوا له. ثم عاد السلطان إلى حضرته وافترق أشياعه، ونزع عنهم أبو صعنونة فتألف على أولاد أبي الليل، ورجعوا إلى الحضرة فأجلبوا بساحلها أياماً وشنوا الغارات عليها. ثم انفضوا عنها وخرج على أثرهم لأول فصل الشتاء، وتساحل إلى سوسة والمهدية فاقتضى مغارم الأوطان التي كانت لأبي صعنونة، ثم رجع إلى القيروان وارتحل منها يريد قفصة وجمع أولاد أبي الليل للمدافعة عنها، وسرب فيهم صاحب توزر الأموال فلم تغن عنه وزحف السلطان إلى قفصة فنازلها ثلاثاً ولجوا في عصيانهم وقاتلوه فجمع الأيدي على قطع نخيلهم وتسايلت إليه الرعية من أماكنهم، وأسلموا أحمد بن العابد مقدمهم وابنه محمد المستبد عليه لكبره وذهوله، فخرج إلى السلطان واشترط ما شاء من الطاعة والخراج ورجع إلى البلد وقد ماج أهلها بعضهم في بعض، وهموا بالخروج فسابقهم ابنه أحمد المستبد على أبيه، وكان السلطان سرح أخاه أبا يحيى في الخاصة والأولياء إلى البلد، فلقيه محمد هذا بنواحي ساحتها فبعث به إلى السلطان، ودخل هو إلى القصبة وتملك البلد وتقبض السلطان على محمد بن العابد لوقته، وسيق إليه أبوه من البلد فجعل معه واستولى معه على داره وذخائره.

واجتمع الملأ والكافة من أهل البلد عند السلطان، وأتوه بيعتهم عليها لابن أبي بكر، وارتحل يغذ السير إلى توزر وقد طار الخبر بفتح قفصة إلى ابن يملول فركب لحينه، واحتمل أهله وما خف من ذخائره ولحق بالزاب. وطير أهل توزر بالخبر إلى السلطان فلقيه أثناء طريقه، وتقدم إلى البلد فملكها واستولى على ذخيرة ابن يملول ونزل بقصوره فوجد بها من الماعون والمتاع والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يعتد لأعظم ملك من ملوك الأرض، وأحضر بعض الناس ودائع كانت لهم عنده من نفيس الجواهر والحلي والثياب وبرؤوا منها إلى السلطان.

وعقد السلطان على توزر لابنه المنتصر وأنزله قصور ابن يملول، وجعل إليه إمارتها واستقدم السلطان الخلف بن الخلف صاحب نفطة فقدم عليه وأتاه طاعته، وعقد له على بلده وولاية حجابة ابنه بتوزر، وأنزله معه وقفل إلى الحضرة. وقد كان أهل الخلاف من العرب عند تغلبه على أمصار الجريد خالفوه إلى التلول، فلما قصد حضرته اعترضوه دونها فأوقع بهم وفل من غربهم، وأجفلوا إلى الجهات الغربية يؤملون منها كرة لما كان ابن يملول قد جاءا بهم إلى خدمة صاحب تلمسان والاستجاشة به، فوفد عليه بتلمسان منصور بن خالد منهم ونصر ابن عمه منصور صريخين به على عادة صريخهم بأبي تاشفين سلفه فدافعهم بالمواعدة، وتبينوا منها عجزه وانكفؤوا راجعين. ووفد صولة على السلطان بعد أن توثق لنفسه فاشترط له على قومه ما شاء، ورجع إليهم فلم يرضوا بشرطه ونهض السلطان من الحضرة في العساكر الأولياء من العرب، وأجفلوا أمامهم فاتبعهم وأوقع بهم ثلاث مرات واقفوه فيها. ثم أجفلوا ولحقوا بالقيروان وقدم وفدهم على السلطان والاشتراط له كما يشاء، فتقبل ووسعهم عفوه، وصاروا إلى الانقياد والاعتمال في مذاهب السلطان ومرضاته، وهم على ذلك لهذا العهد.

الخبر عن ثورة أهل قفصة ومهلك ابن الخلف

لما استقل الخلف بن علي بن الخلف بحجابة المنتصر ابن السلطان. وعقد له مع ذلك على عمله بنفطة فاستخلف عليها عامله، ونزل بتوزر مع المنتصر. ثم سعى به أنه يداخل ابن يملول ويراسله فبث عليه العيون والأرصاد، وعثر على كتابة بخط كاتبه المعروف إلى ابن يملول وإلى يعقوب بن علي أمير الدواودة يحرضهما على الفتنة، فتقبض عليه وأودعه السجن. وبعث عماله

إلى نفطة واستولى على أمواله وذخائره، وخاطب أباه في شأنه فأمهله بعد أن تبين نقضه للطاعة وسعيه في الخلاف. وكان السلطان قبل فتح قفصة قد نزع إليه من بيوتاتها أحمد بن أبي يزيد، وسار في ركابه إليها. فلما استولى على البلد رعى له ذمة نزوعه إليه، وأوصى به ابنه أبا بكر فاستولى على مشورته وحله وعقده، وطوى على النكث. ثم حدثته نفسه بالاستبداد وتحين له المواقيت واتفق أن سار الأمير أبو زكريا من قفصة لزيارة أخيه المنتصر بتوزر وخلف بالبلد عبد اللّه التريكي من مواليهم، وكان السلطان أنزله معه وولاه حجابته، فلما توارى الأمير عن البلد داخل ابن أبي زيد زعنفة من الأوغاد وطاف في سكك المدينة والهاتف معه ينادي بالثورة ونقض الطاعة. وتقدم إلى قفصة فأغلقها القائد عبد اللّه دونه وحاربها فامتنعت عليه. وقرع عبد اللّه الطبل بالقصبة واجتمع عليه أهل القرى فأدخلهم من باب كان بالقصبة يفضي إلى الغابة فكثروا شيع ابن أبي زيد، وتسلل عنه الناس فلاذ بالاختفاء. وخرج القائد من القصبة فتقبض على كثير من أهل الثورة وأودعهم السجن واستولى على البلد. وسكن الهيعة وطار الخبر إلى المولى أبي بكر فأغذ السير منقلباً إلى قفصة، ولحين دخوله ضرب أعناق المعتقلين من أهل الثورة وأمر الهاتف فنادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد وأخيه. ولأيام من دخوله عثر بهما الحرس في مقاعدهم بالباب مستترين بزي النساء فتقبضوا عليهما وتلوهما إلى الأمير فضرب أعناقهما وصلبهما في جذوع النخل. وكانا من المترفين فأصبحا مثلاً في الأيام وقد خسرا دينهما ودنياهما، وذلك هو الخسران المبين، وارتاب المنتصر صاحب توزر حينئذ بابن الخلف وحذر مغبة حاله فقتله بمحبسه وذهب في غير سبيل مرحمة وانتظم السلطان أمصار الجريد كلها في طاعته واتصل ظهوره إلى أن كان ما نذكر.

الخبر عن فتح قابس وانتظامها في ملكة السلطان

هذه البلد لم تزل في هذه الدولة الحفصية لبني مكي المشهور ذكرهم في هذه العصور وما إليها، وسيأتي ذكر أخبارهم ونسبهم وأوليتهم في فصل نفرده لهم فيما بعد، وكان أصل رئاستهم فيها اتصالهم بخدمة الأمير أبي زكريا الأول أيام ولايته قابس سنة ثلاث وعشرين وستمائة فاختصوا به، وداخلهم في الانتقاض على أخيه أبي محمد عبد اللّه عندما استجمع لذلك، فأجابوه وبايعوه فرعى لهم هذه الوسائل عندما استبد بإفريقية، وأفردهم برئاسة الشورى في بلدهم. ثم سموا إلى الاستبداد عندما فشل ريح الدولة عن القاصية بما حدث من فتن وانفراد الثغور الغربية بالملك.ولم يزالوا جانحين إلى هذا الاستبداد سانحين إليه بثأر الفتن والانتقاض على السلطان، ومداخلة الثوار والإجلاب بهم على الحضرة. والدولة أثناء ذلك في شغل عنهم وعن سواهم من أهل الجريد منذ أحقاب متطاولة بما كان من انقسام الدولة وإلحاح صاحب الثغور الغربية على مطالبة الحضرة.

ثم استبد مولانا السلطان بالدعوة الحفصية في سائر عمالات إفريقية وشغله عنهم شاغل الفتنة مع صاحب تلمسان في الأجلاب على الحضرة مع جيوشه ومنازلتهم ثغر بجاية وتسريبه جيوش بني عبد الواد مرة بعد أخرى مع الأعياص من بني أبي حفص والعرب إلى إفريقية. وكان المتولي لرياسة قابس يومئذ عبد الملك بن مكي بن أحمد بن عبد الملك وردیفه فيها أخوه أحمد، وكانا يداخلان أبا تاشفين صاحب تلمسان في الأجلاب على الحضرة مع جيوشه والثوار القادمين معهم. وربما خالفوا السلطان إلى الحضرة أزمان مغيبه عنها كما وقع له مع عبد الواحد بن اللحياني، وقد مر ذكر ذلك.فلما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان وانمحى أثر بني زيان فرغ السلطان أبو بكر لهؤلاء الثوار الرؤساء بالجريد الدائنين بالانتقاض سائر أيامهم. وزحف إلى قفصة فملكها فذعروا ولحق أحمد بن مكي بالسلطان أبي الحسن متذمماً بشفاعته، بعد أن كان الركب الحجازي من المغرب مر بقابس وبه بعض كرائم السلطان فأوسعوا حباءها وسائر الركب قرى وحباء. وقدموا ذلك وسيلة بين يدي وفادته فقبل السلطان وسيلتهم وكتب إلى مولانا السلطان أبي بكر شافعاً فيهم لذمة السلطان والصهر فتقبل شفاعته وتجاوز عن الانتقام منهم بما اكتسبوا.

ثم هلك مولانا السلطان أبو بكر وهاج بحر الفتنة والخلاف وعادت الدولة إلى حالها من الانقسام، واشتدت على صاحب الحضرة وجوه الانتصاف منهم، فعاد بنو مكي وسواهم من رؤساء الجريد إلى حالهم من الاستبداد على الدولة. وقطع أسباب الطاعة ومنع المغارم والجباية ومشايعة صاحب الغربية زبوناً على صاحب الحضرة. فلما استبد مولانا السلطان أبو العباس بالدعوة الحفصية وجمع الكلمة، واستولى على كثير من الثغور المنتقضة تراسل أهل هذه العصور الجريدية وتحدثوا فيما دهمهم وطلبوا وجه الخلاص منه، والامتناع عليه.

وكان عبد الملك بن مكي أقعدهم بذلك لطول مراسه الفتن وانحياشه إلى الثوار، وكان أحمد أخوه ورديفه قد هلك سنة خمس

وستين وسبعمائة، وانفرد هو برئاسة قابس فراسلوه وراسلهم في الشأن، وأجمعوا جميعاً على تخبيب العرب على السلطان وتسريب الأموال فيهم ومشايعة صاحب تلمسان بالترغيب في ملك إفريقية، فانتدبوا لذلك من كل ناحية، وبعثوا البريد إلى صاحب تلمسان فأطمعهم من نفسه، وعللهم بالمواعيد الكاذبة، والسلطان أبو العباس مقبل على شأنه يفتل لهم في الذروة والغارب حتى غلب أولاد أبي الليل الذين كانوا يعدونهم بالمدافعة عنهم، وافتتح قفصة وتوزر ونفطة. وتبين لهم عجز صاحب تلمسان عن صريخهم، فحينئذ بادر عبد الملك إلى مراسلة السلطان يعده من نفسه الطاعة والوفاء بالجباية، ويستدعي لاقتضاء ذلك منه بعض حاشيته فأجابه إلى ذلك، وبعث وافده إليه ورجع إلى الحضرة في انتظاره فطاوله ابن مكي في الغرض ورده بالوعد.

ثم اضطرب أمره وانتقض عليه أهل ضاحيته بنو أحمد إحدى بطون دباب، وركبوا إليه فحاصروه وضيقوا عليه، واستدعوا المدد لذلك من الأمير أبي بكر صاحب قفصة وأمدهم بعسكر وقائد فنازلوه واشتد الحصار، واتهم ابن مكي بعض أهل البلد بمداخلتهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم، وتنكرت له الرعية وساء حاله، ودس إلى بعض المفسدين من العرب من بني علي في تبييت العسكر المحاصرين له، واشترط لهم على ذلك ما رضوه من المال، فجمعوا لهم وبيتوهم فانفضوا ونالوا منهم. وبلغ السلطان خبرهم فأحفظه وأجمع الحركة على قابس وعسكر بظاهر الحضرة في رجب سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، وتلوم أياماً حتى استوفى العطاء واعترض العساكر، وتوافت أحياء أوليائه من أولاد مهلهل وحلفائهم من سائر سليم. ثم ارتحل إلى القيروان، وارتحل منها يريد قابس، وقد استكمل التعبية وبادر إلى لقائه الأخذ بطاعته مشيخة دباب أعراب قابس من بني سليم. ووفد منهم خالد بن سباع بن يعقوب شيخ المحاميد وابن عمه علي بن راشد فيمن إليهم يستحثونه إلى منازلة قابس، فأغذ السير إليها وقدم رسله بين يديه بالإنذار لابن مكي. وانتهوا إليه فرجعهم بالإنابة والانقياد إلى الطاعة. ثم احتمل رواحله وعبى ذخائره وخرج من البلد، ونزل على أحياء دباب هو وابنه يحيى وحافده عبد الوهاب ابن ابنه مكي الهالك منذ سنين من قبل.

واتصل الخبر إلى السلطان فبادر إلى البلد ودخلها في ذي القعدة من سنته، واستولى على منازل ابن مكي وقصوره. ولاذ أهل البلد بطاعته وولى عليها من حاشيته، وكان أبو بكر بن ثابت صاحب طرابلس قد بعث إلى السلطان بالطاعة والانحياش، ووافته رسله دوين قابس. فلما استكمل فتحها بعث إليه من حاشيته لاقتضاء ذلك فرجعهم بالطاعة، وأقام عبد الملك بن مكي بعد خروجه من قابس بين أحياء العرب ليالي قلائل. ثم بغته الموت فهلك ولحق ابنه وحافده بطرابلس فمنعهم ابن ثابت الدخول إليها فنزلوا بزنزور من قراها في كفالة الجواري من بطون دباب. ولما استكمل السلطان الفتح وشؤونه انكفأ راجعاً إلى الحضرة فدخلها فاتح اثنين وثمانين وسبعمائة ولحقه رسله من طرابلس بهدية ابن ثابت من الرقيق والمتاع بما فيه الوفاء بمغارمه بزعمه. ووفد عليه بعد استقراره بالحضرة رسل أولاد أبي الليل متطارحين في العفو عنهم والقبول عليهم فأجابهم إلى ذلك. ووفد صولة بن خالد شيخهم وقبله أبو صعنونة شيخ حكيم، ورهنوا أبناءهم على الوفاء واستقاموا على الطاعة. واتصل النجح والظهور والأمر على ذلك لهذا العهد وهو فاتح ثلاث وثمانين وسبعمائة، والله مالك الأمور لا رب غيره.

الخبر عن استقامة ابن مزني وانقياده وما اكتنف ذلك من الأحوال

كان هؤلاء الرؤساء المستبدون بالجريد والزاب منذ فرغ السلطان لهم من الشواغل، واسترابوا بمغبة حالهم معه ومراوغتهم له بالطاعة يرومون استحداث الشواغل ويؤملون لها سلطان تلمسان لعهدهم أبا حمو الأخير، وأنه يأخذ بحجزته عنهم إن وصلوا به أيديهم واستحثوه لذلك لائتلافهم مثلها من سلف قومه. وأبي حمو وأبي تاشفين من قبله قياساً متورطاً في الغلط بعيداً من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد في هذه العصور من الضعف والزمانة، وما أصاب قومهم من الهلاك والشتات بأيديهم وأيدي عدوهم وتقدمهم في هذا الشأن أحمد بن مزني صاحب بسكرة لقرب جواره واشتهار مثلها من سلفه فاتبعوه وقلدوه وغطى هواهم جميعاً على بصيرتهم. وقارن ذلك نزول الأمير أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو على ابن يملول بتوزر عند منابذة سالم بن إبراهيم الثعالبي إياه، وكان طارد به أياماً. ثم راجع أبو حمو وصرفه سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فخرج من أعمال تلمسان وأبعد المذهب عنهم ونزل على ابن يملول بتوزر.

وطير الخبر إلى إمامه في تلك الفتنة أحمد بن مزني واغتبطوا بمكان أبي زيان، وأن تمسكهم به ذريعة إلى اعتمال أبي حمو في مرضاتهم، وإجابته إلى داعيهم، وركض بريدهم إلى تلمسان في ذلك ذاهباً وجائياً حتى أعيت الرسل واشتبهت المذاهب ولم

يحصلوا على غير المقاربة والوعد لكن على شريطة التوثق من أبي زيان. وبينما هم في ذلك إذ هجم السلطان على الجريد وشرد عنه أولاد أبي الليل الذين تكفلوا لرؤسائه بالمدافعة. وافتتح قفصة وتوزر ونفطة ولحق يحيى بن يملول ببسكرة، واستصحب الأمير أبا زيان فنزل على ابن مزني، وهلك لأيام قلائل كما ذكرنا. واستحكمت عندها استرابة يعقوب بن علي شيخ رياح بأمره مع السلطان لما سلف فيه من مداخلة هؤلاء الرهط وتمسكهم بحقويه والمبالغة في العذر عنهم. ثم غيرته بأنظاره من مشيخة الدواودة الذين انحاشوا إلى السلطان فأفاض عليهم عطاءه، واختصهم بولايته فحدث لذلك منه نفرة واضطراب، وارتحل إلى السلطان أبي حمو صاحب تلمسان فاتح اثنتين وثمانين وسبعمائة يستجيشه لهؤلاء الرهط ويهزه بها إلى البدار بصريخهم.

ونزل على أولاد عريف أولياؤه من سويد، وأوفد عليه ابنه فتعلل لهم بمنافرة حدثت في الوقت بينه وبين صاحب المغرب، وأنه لهم بالمرصادِ متى رابهم ريب من نهوض السلطان أبي العباس إليهم ليتمسك بذلك طرف التوثق من أبي زيان، وربما دس إليهم بمشارطة اعتقاله وإلقائه في غيابات السجون. وفي مغيب يعقوب هذا طرق السلطان تمحيص من المرض أرجف له المفسدون بالجريد ودس لشيع آل يملول بخبره إلى صبي من أبناء يحيى مخلف ببسكرة، فذهل ابن مزني عن التثبت لها ذهاباً مع صاغية الولد وأوليائه، وجهزهم لانتهاز الفرصة في توزر مع العرب المشارطين في مثلها بالمال، وأغذ السير إلى توزر على حين غفلتهم من الدهر وخف من الجند فجلى المنتصر وأولياؤه في الامتناع، وصدق الدفاع وتمحصت بهذا الابتلاء طاعة أهل توزر ومخالصتهم وانصرف ابن يملول بإخفاق من السعي وأليم من الندم وتوقع للمكاره. ووافق ببسكرة قدوم يعقوب بن علي مرجعه من الغرب فبالغ في تغنيبهم بالملامة على ما أحدثوا بعده من هذا الخرق المتسع المعيي على الراقع.

وكان السلطان لأول بلوغ الخبر بأجلابهم على توزر وممالأة ابن مزني على ابنه وأوليائه، أجمع النهوض إلى بسكرة وعسكر بظاهر الحضرة، وفتح ديوان العطاء وجهز آلات الحصار. وسرى الخبر بذلك إليهم فخلصوا نجياً ونقضوا عيبة آرائهم فتمحض لهم اعتقال أبي زيان الكفيل لهم بصريخ أبي حمو على زعمه فتعللوا عليه ببعض النزعات، وتورطوا في إخفار ذمته، وطيروا بالصريخ إلى أبي حمو، وانتظروا فما راعهم إلا وافده بالعذر عن صريخهم والإعاضة بالمال، فتبينوا عجزه ونبذوا عهده، وبادروا لتخلية السبيل لأبي زيان والعذر له لما كان السلطان نكر عليهم من أمرهم فارتحل عنهم ولحق بقسطنطينة. وحملهم ابن علي على اللياذ بالطاعة، وأوفد ابن عمه متطارحاً وشافعاً فتقبل السلطان فيئته ووسيلته وأغضى لابن مزني عن هناته وأسعفهم بكبير دولته وخالصة سره أبي عبد الله بن أبي هلال ليتناول منه المخالصة. ويمكن له الألفة وتمسح عنه هواجس الارتياب والمخافة.

وكان لقاؤه أشهى إليهم من الحياة ففصل عن الحضرة، وانتهى السلطان في ذي القعدة آخر سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة لتفقد أعماله وابتلاء الطاعة من أهل أوطانه. ولما وصل وافد السلطان إلى أبي مزني ألقى زمامه إليه وحكمه في ذات يده وقبله، ومحا أثر المراوغه واستجد لبوس الانحياش والطاعة، وبادر إلى استجادة المقربات وانتقاء صنوف التحف، وبعث بذلك في ركاب الوافد مع الذي عليه من الضريبة المعروفة محملاً أكتاد ثقاته وظهور مطاياه، ووصلوا إلى معسكر السلطان بساح تبسة فاتح سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة فجلس لهم السلطان جلوساً فخماً ولقاهم قبولاً وكرامة، فعرضوا الهدية، وأعربوا عن الانحياش والطاعة وحسن موقع ذلك من السلطان وشملهم إحسان السلطان في مقاماتهم وجوائزه على الطبقات في انصرافهم، وانقلبوا بما ملأ صدورهم إحساناً ونعمة وظفروا برضى السلطان وغبطته، وحسبهم بها أمنية وبيد اللّه تصارف الأمور ومظاهر الغيوب.

الخبر عن انتقاض أولاد أبي الليل ثم مراجعتهم الطاعة

قد ذكرنا ما كان من رجوع أولاد أبي الليل هؤلاء إلى طاعة السلطان إثر منصرفه من فتح قابس، وأنهم وفدوا عليه بالحضرة فتقبلهم وعفا عن كبائرهم واسترهن على الطاعة أبناءهم، واقتضى بالوفاء على ذلك أيمانهم. وخرج الأخ الكريم أبو يحيى زكريا في العساكر لاقتضاء المغارم من هوارة التي استأثروا بها في مدة هذه الفتن.وارتحل معه أولاد أبي الليل وأحلافهم من حكيم حتى استوفى جبايته وجال في أقطار عمله. ثم انكفأ راجعاً إلى الحضرة، ووفدوا معه على السلطان يتوسلون به في إسعافهم بالعسكر إلى بلاد الجريد لاقتضاء مغارمهم على العادة واستيفاء إقطاعاتهم، فسرح السلطان معهم لذلك أبا فارس وارتحلوا معه بأحيائهم، وكان ابن مزني وابن يملول من قبله وابن يعقوب بن علي كثيراً ما يراسلونهم ويستدعونهم لمثل ما كانوا فيه من الانحراف ومشايعة صاحب تلمسان.

ولما اعتقلوا أبا زيان ببسكرة كما ذكرناه وثوقاً بصريخ أبي حمو ومظاهرته. نبضت عروق الخلاف في أولاد أبي الليل ونزعوا إلى اللحاق بيعقوب بن علي رجاء فيما توهموه من استغلاظ أمرهم بصاحب تلمسان ويأساً من معاودة التغلب الذي كان لهم على ضواحي إفريقية، ففارقوا الأمير أبا فارس بعد أن أبلغوه مأمنه من قفصة، وساروا بأحيائهم إلى الزاب فلم يقعوا على الغرض ولا ظفروا بالبغية، ووافوا يعقوب وابن مزني، وقد جاءهم وافد أبي حمو بالقعود عن نصرتهم، والأمير أبو زيان قد انطلق لسبيله عنهم، فسقط في أيديهم وعاودهم الندم على ما استدبروا من أمرهم، وحملهم يعقوب على مراجعة السلطان وأوفد ابنه محمداً في ذلك مع وافد العزيز أبي عبد الله محمد بن أبي هلال فتقبلهم وأحسن التجاوز عنهم. وبعث أبا يحيى أخاه لاستقدامهم أماناً لهم وتأنيساً. وبذل لهم فوق ما أملوه من مذاهب الرضى والقبول واتصال النجح والظهور، والحمد لله وحده.

تغلب ابن يملول على توزر وارتجاعها منه

قد كان تقدم لنا أن يحيى بن يملول لما هلك ببسكرة تخلف صبياً اسمه أبو يحيى، وذكرنا كيف أجلب على توزر سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة مع لفيف أعراب رياح ومرادس. فلما كان سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة بعدها وقعت مغاضبة بين السلطان وبين أولاد هلال من الكعوب، وانحدروا إلى مشاتيهم بالصحراء فبعث أميرهم يحيى بن طالب عن هذا الصبي أبي يحيى من بسكرة، فنزل بأحيائه بساح توزر، ودفع الصبي إلى حصارها، واجتمع عليه شيعته من نواحي البلد وأوشاب من أعراب الصحراء، وأجلبوا على البلد وناوشوا أهلها القتال وكان بها المنتصر ابن السلطان فقاتلهم أياماً. ثم تداعى شيعهم من جوانب المدينة وغلبوا عساكرهم وأحجروهم بالبلد، ثم دخلوا عليهم، وخرج المنتصر ناجياً بنفسه إلى بيت يحيى بن طالب. واستذم به فأجاره وأبلغه إلى مأمنه بقفصة، وبها عاملها عبد الله التريكي.

واستولى ابن يملول على توزر، واستنفذ ما معه وما استخرجه من ذخائرهم بتوزر في أعطيات العرب، وزادهم جباية السنة من البلد بكمالها، ولم يحصل على رضاهم وبلغ الخبر إلى السلطان بتونس، فشمر عزائمه وعسكر بظاهر البلد، واعترض الجند وأزاح عللهم وارتحل إلى ناحية الأربص وهو يستألف الأعراب ويجمع لقتال أولاد مهلهل اقتالهم وأعداءهم أولاد أبي الليل وأولياءهم وأحلافهم ليستكثر بهم، حتى نزل على فحص تبسة فأراح بهم أياماً حتى توافت أمداده من كل ناحية ونهض يريد توزر. ولما احتل بقفصة قدم أخاه الأمير أبا يحيى وابنه الأمير المنتصر في العساكر ومعهما صولة بن خالد بقومه أولاد أبي الليل، وسار على أثرهم في التعبية. ولما انتهى أخوه وابنه إلى توزر حاصروها وضيقوا عليها أياماً. ثم وصل السلطان فزحف إليها العساكر من جوانبها وقاتلوها يوماً إلى المساء، ثم باكروها بالقتال فخذل ابن يملول أصحابه وأفردوه فذهب ناجياً بنفسه إلى حلل العرب، ودخل السلطان البلد واستولى عليه وأعاد ابنه إلى محل إمارته منه، وانكفأ راجعاً إلى قفصة، ثم إلى تونس منتصف أربع وثمانين وسبعمائة

ولاية الأمير زكريا ابن السلطان على توزر

ثم عاد ابن يملول إلى الأجلاب على توزر من السنة القابلة وخرج السلطان في عساكره فكر راجعاً إلى الزاب ونزل السلطان قفصة ووافاه هنالك ابنه المنتصر، وتظلم أهل توزر من أبي القاسم الشهرزوري الذي كان حاجباً للمنتصر فسمع شكواهم، وأنهى إليه الخاصة سوء دخلته وقبيح أفعاله فتقبض عليه بقفصة واحتمله مقيداً إلى تونس. وغضب لذلك المنتصر وأقسم لا يلي على توزر. وسار معه السلطان إلى تونس وولى السلطان على توزر الأمير زكريا من ولده الأصاغر لما كان يتوسم فيه من النجابة فصدقت فراسته فيه وقام بأمرها وأحسن المدافعة عنها، وقام باستئلاف الشارد من أحياء العرب وأمرائهم حتى تم أمره وحسنت ولايته. والله متولي الأمور بحكمته سبحانه.

وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية

كان السلطان لما سار إلى فتح تونس ولى على بجاية ابنه محمداً كما مر وأقام له حاجباً وأوصاه بالرجوع إلى محمد بن أبي مهدي زعيم البلد وقائد الأسطول المتقدم على أهل الشطارة والرجولة من رجل البلد ورماتهم. فقام هذا الأمير أبو عبد الله في منصب الملك ببجاية أحسن قيام واصطنع ابن أبي مهدي أحسن اصطناع، فكان يجري في قصوره وأغراضه ويكفيه مهمه في سلطانه، ويراقب مرضاة السلطان في أحواله، والأمير يعرف له ذلك ويوفيه حقه إلى أن أدركته المنية أوائل خمس وثمانين وسبعمائة، فتوفي على فراشه، آنسُ ما كان سرباً وآمن روعاً مشيعاً من رضى أبيه ورعيته بما يفتح له أبواب الرضى من ربه، وبلغ نعيه إلى أبيه بتونس فبادر بإنفاذ العهد لابنه أبي العباس أحمد

بولاية بجاية مكان أبيه وجعل كفالة أمره لابن أبي مهدي مستبداً عليه واستقامت الأمور على ذلك.

حركة السلطان إلى الزاب

كنت أنتهي بتأليف الكتاب إلى ارتجاع توزر من يد ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس، ثم ركبت البحر منتصف أربع وثمانين وسبعمائة إلى بلاد المشرق لقضاء الفرض، ونزلت بالإسكندرية ثم بمصر، وصارت أخبار المغرب تبلغنا على ألسنة الواردين، فمن أول ما بلغنا وفاة هذا الأمير ابن السلطان ببجاية سنة خمس وثمانين، ثم بلغنا بعدها حركة السلطان إلى الزاب سنة ست وثمانين وسبعمائة، وذلك أن أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب لعهده كان مضطرب الطاعة يجير على السلطان وكان يمنع في أكثر السنين المغارم معولاً على مدافعة العرب الذين ملكوا ضواحي الزاب والتلول دونه، وأكثر وثوقه في ذلك بيعقوب ابن علي وقومه الدواودة، وقد مر طرف من أخباره في ذلك مثبوتاً في أخبار الدولة. وكان ابن يملول قد أوى إلى بلده واتخذ وكراً في وجوه، وأجلب على توزر مراراً برأيه ومعونته فأحفظ ذلك السلطان ونبه له عزائمه.

ثم نهض سنة ست وثمانين وسبعمائة يريد الزاب بعد أن جمع الجموع واحتشد الجنود واستألف العرب من بني سليم فساروا معه وأوعبوا، ومر على فحص تبسة. ثم خرج من طرف جبل أوراس إلى بلد تهودا من أعمال الزاب، واعصوصب الدواودة ومن تبعهم من قبائل رياح على المدافعة دون بسكرة والزاب غيرة من بني سليم أن يطرقوا أوطانهم أو يردوا مراعيهم إلا بني سباع بن شبل من الدواودة، فإنهم تحيزوا إلى السلطان.

واستنفر ابن مزني حماة وطنه ورجالة قومه من الأثبج فغصت بسكرة بجموعهم وتوافت الفريقان، وناوشهم السلطان القتال أياماً وهو يراسل يعقوب بن علي ويستحثه لما كان يطعمه به من المظاهرة على ابن مزني، ويعقوب يخادعه بانحراف قومه عنه وائتلافهم على ابن مزني ويرغبه في قبول طاعته ووضع أوزار الحرب مع رياح حتى تتمكن له فرصة أخرى، فتقبل السلطان نصيحته في ذلك وأغضى لابن مزني ولرياح عنها، وقبل طاعته وضريبته المعلومة، وانكفأ راجعاً، ومر بجبل أوراس ثم إلى قسطنطينة فأراح بها، ثم ارتحل إلى تونس فوصل إليها منتصف سنة ثمانين وسبعمائة.

حركة السلطان إلى قابس

كان السلطان قد فتح مدينة قابس سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وانتظمها في أعماله، وشرد عنها بني مكي فذهبوا إلى نواحي طرابلس وهلك كبيرهم عبد الملك وعبد الرحمن ابن أخيه أحمد، وذهب ابنه يحيى إلى الحج، وأقام عبد الوهاب بزنزور ثم رجع إلى جبال قابس يحاول على ملكها. واستتب له ذلك بوثوب جماعة من أهل البلد بعاملها يوسف الأبّار من صنائع السلطان لقبح إيالته وسوء سيرته، فداخلوا جماعة من شيعة بين مكي في ضواحي قابس وقراها وواعدوهم فجاؤوا لميعادهم وعبد الوهاب معهم، واقتحموا باب البلد وقتلوا البواب. وقصدوا ابن الأبار فقتلوه في مسكنه سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وملك عبد الوهاب البلد واستقل بها كما كان سلفه.وجاء أخوه يحيى من المشرق فأجلب عليه مراراً يروم ملك البلد منه فلم يتهيأ له ذلك ونزل على صاحب الحامة وأقام عنده يحاول أمر البلد منها، فبعث عبد الوهاب إلى صاحب الحامة وبذل له المال على أن يمكنه منه فبعث به إليه فاعتقله بقصر العروسيين، وأقام يراوغ السلطان على الطاعة ويبذل ماله في أعراب الضاحية من دباب وغيرهم للمدافعة عنه، ومنع الضريبة التي كانوا يؤدونها للسلطان أيام طاعتهم، والسلطان مشغول عنهم بمهمه، فلما فرغ من شواغله بإفريقية والزاب نهض إليه سنة تسع وثمانين وسبعمائة بعد أن اعترض عساكره واستألف من العرب أولياءه وسرب فيهم عطاءه.

ونزل على قابس وقد استعد لها وجمع الآلات لحصارها فاكتسح نواحيها، وجثم عليها بعساكره يقاتلها ويقطع نخيلها حتى أعاد الكثير من الفرفهة... براحاً وموج الهواء في ساحتها، فصح بعد أن كانوا يستوخمونه لاختفائه بين الشجر، وفي متكاثف الظلال وما يلحقه في ذلك من التعفن، فذهب عنها ما كان يعهد فيها من ذلك الوخم رحمة من الله أصابتهم من عذاب هذا السلطان، وربما صحت الأجسام بالعلل.

ولما اشتد بهم الحصار وضاق المخنق، وظن ابن مكي أنه قد أحيط به استعتب للسلطان واستأمن فأعتبه وأمنه ورهن ابنه على الطاعة وأداء الضريبة وأفرج عنه السلطان وانكفأ راجعاً إلى تونس، واستقام ابن مكي حتى كان من تغلب عمه يحيى عليه ما نذكره.

رجوع المنتصر إلى ولايته توزر وولاية أخيه زكريا على نفطة ونفزاوة

كان العرب أيام ولاية المنتصر بتوزر قد حمدوا سيرته وأصفقوا على محبته والتشيع له، فلما رجع السلطان عن قابس رغبوا إليه في طريقه إلى أن تولى المنتصر على بلاد الجريد كما كان ويردد على عمله بتوزر. وتولى ذلك بنو مهلهل وأركبوا نساءهم الظعن في الهوادج واعترضوا بهن السلطان سافرات مولولات دخلاء عليه في إعادة المنتصر إلى توزر لما لهم فيه من المصالح فقبل السلطان وسيلتهن وأعاده إلى توزر، ونقل ابنه زكريا إلى نفطة وأضاف إليها عمل نفزاوة فسار إليها واستعمله وأظهر من الكفاية والاضطلاع ما تحدث به الناس عنه، وكانت ولايته أول سنة تسعين وسبعمائة.

فتنة الأمير إبراهيم صاحب قسطنطينة مع الدواودة ووفاة يعقوب بن علي ثم وفاة الأمير إبراهيم إثرها

كان للدواودة بقسطنطينة عطاء معلوم مرتب على مراتبهم زيادة لما بأيديهم من البلاد في التلول والزاب بأقطاع السلطان وضاق نطاق الدولة لهذه العصور فضاقت الجباية وصار العرب يزرعون الأراضي في بلادهم بالتلول ولا يحتسبون بمغارمها فيضيق الدخل ويمنعهم العطاء من أجل ذلك، فتفسد طاعتهم وتنطلق بالعيث والنهب أيديهم.

ولما رجع الأمير إبراهيم من حركته في ركاب أبيه إلى قابس، وكان منذ أعوام ينقص من عطائهم لذلك، ويعللهم بالمواعيد، فلما قفل من قابس اجتمعوا إليه وطلبوا منه عطاءهم فتعلل عليهم ، وجاءه يعقوب بن علي مرجعه من الحج وأشار عليه بإنصاف العرب من مطالبهم فأعرض عنه وارتحل لبعض مذاهبه، وتركه ونادى في العرب بالفتنة معه يروم استئلاف أعدائه فأجابه الكثير من أولاد سباع بن شبل وأولاد سباع بن يحيى وباديتهم من ذؤبان رياح، وخرج يعقوب من التل فنزل في نقاوس فأقام بها، وانطلقت أيدي قومه على تلول قسطنطينة بالنهب وانتساف الزروع حتى اكتسحوا عامتها ولحقوا به مالئي اليد مثقلي الظهر.

ثم طرقه المرض فهلك سنة تسعين وسبعمائة ونقلوا شلوه إلى بسكرة فدفنوه بها وقام مكانه في قومه ابنه محمد. واستمر على العصيان وصعد إلى التل في منتصف إحدى وتسعين وسبعمائة واستألف الأمير إبراهيم أعداءه من الدواودة وأحلافهم من البادية وجنح إليه أبو ستة بن عمر أخو يعقوب بن علي بما معه من أولاد عائشة أم عمر، وخالفه أخوه صميت إلى محمد بن يعقوب، ثم تحاربوا مع الأمير إبراهيم فهزموه وقتل أبو ستة ثم جمع السلطان لحربهم ودفعهم عن التلول ومنعهم من المصيف عامهم ذلك. وانحدروا إلى مشاتيهم وعجزوا بعدها عن الصعود إلى التلول وقضوا مصيفهم عامهم ذلك بالزاب، وانحدروا منه إلى المشاتي فلما رجعوا من مشاتيهم وقد فقدوا الميرة انطلقت أيديهم على نواحي الزاب فانتسفوا زروعه، وكاد أن يفسد ما بينهم وبين ابن مزني مظاهرهم على تلك الفتنة. ثم ارتحلوا صاعدين إلى التلول وقد جمع الأمير إبراهيم لدفاعهم عنه. وبينما هو في ذلك ألم به طائف من المرض فتوفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وافترقت جموعه وأغذ محمد بن يوسف السير إلى نواحي قسطنطينة فاحتل بها مظاهراً للطاعة متبرئاً من الخلاف، ونادى في أهل البلاد بالأمان والعمارة فصلحت أحوال الرعايا والسابلة. وبعثوا إلى السلطان بتونس مستأمنين مستعتبين فأمنهم وأعتبهم وأقام بقسطنطينة مكان ابنه إبراهيم ابنه، وبعث من حضرته محمد بن مولاه بشير لكفالته والقيام بدولته فقام بأمرها، وصلحت الأحوال.

منازلة نصارى الفرنج للمهدية

كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم التغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره مثل: دانية وسردانية وميورقة وصقلية، وملأت أساطيلهم فضاءه وتخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها، وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله ومران راكبيه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم، وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بني مرين أياماً. ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بإفرنسة، وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية، وأصبحوا دولاً متعددة فتنبهت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفراء والطائفة من غزاة البحر، ويصنعون الأسطول ويتخيرون له أبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً

ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر معه أو يكاد، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلاً وحسرةً وعجزوا عن الثأر به، وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان بإفريقية فصم عن سماعها وتطارحوا بثهم وتكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزال المسلمين والأخذ بالثأر منهم.

وبلغ خبر استعدادهم إلى السلطان فسرح ابنه أبا فارس يستنفر أهل النواحي ويكون رصداً للأسطول هنالك، واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم أو مجاورهم من أمم النصرانية، وأقلعوا من جنوة فحطوا بمرسى المهدية منتصف اثنتين وتسعين وسبعمائة وطرقوها على حين غفلة، وهي على طرف البر داخل في البحر كأنه لسان دالع فأرسوا عندها، وضربوا عند أول الطرف سوراً من الخشب بينه وبين البر حتى أصاروا المعقل في حكمهم، وعالوا عليه بالأبراج وشحنوها بالمقاتلة ليتمكنوا من قتال البلد ومن يأتيهم من مدد المسلمين، وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البحر يشرف على أسوار المعقل لتعظم نكايتهم، وتحصن أهل البلد وقاتلوهم صابرين محتسبين. وتوافت إليهم الأمداد من نواحي البلد فحال دونهم الفرنجة.

وبلغ الخبر إلى السلطان فأهمه أمرها وسرح العساكر تترى إلى مظاهرتهم. ثم خرج أخوه الأمير أبو يحيى زكريا وسائر بنيه فيمن حضره من العساكر فانطلقوا لجهاد هذا العدو، واستنفر المقاتلة من الأعراب وغيرهم فاجتمعت بساحتها أمم، وألحوا على الفرنجة بالقتال ونضح السهام حتى أحجروهم في سورهم. وبرز الفرنجة للقتال فكان بينهم وبين المسلمين جولة جلى فيها أبناء السلطان، وكاد الأمير أبو فارس منهم أن يتورى لولا حماية اللّه التي وقته. ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنفط من أسوار البلد فاحترق البرج المطل عليها من جهة البحر فوجموا لحريقه. ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا إلى بلادهم، وخرج أهل المهدية يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكر الأمراء على ما اعتمدوه في نصرهم، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾. وأمر الأمير أبو يحيى برم ما تثلم من أسوارها، ولمّ ما تشعب منها، وقفل إلى تونس وقد أنجح اللّه قصدهم وأظهرهم على عدوهم.

انتقاض قفصة وحصارها

كان السلطان أبو العباس قد ولى على قفصة عندما ملكها ابنه الأمير أبا بكر وأقام في خدمته من رجال دولتهم عبد اللّه التريكي من موالي جدهم السلطان أبي يحيى فانتظم به أمره وأقام بها حولاً. ثم تجافى عن إمارتها ولحق بأبيه بتونس سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة فجعل السلطان أمر قفصة لعبد اللّه التريكي وولاه عليها ثقة بغنائه واضطلاعه. ولم يزل بها والياً إلى أن هلك سنة أربع وتسعين وسبعمائة وولى السلطان مكانه ابنه محمداً، وكان له إخوة أصاغر أبناء علات فنافسوه في تلك الرتبة وحسدوه عليها، وأغراهم به محمد الدنيدون من قرابة أحمد بن العابد كان ينظر في قسمة الماء بالبلد، وكان فيها عدلاً معقلاً، فلم تطرقه النكبة كما طرقت قومه، وأبقاه السلطان بالبلد فأغرى هؤلاء الإخوة بأخيهم ووثبوا به فاعتقلوه وأظهروا العصيان. ثم حمله أعيان البلد على البراءة من بني عبد اللّه التريكي استرابة بهم أن يراجعوا طاعة السلطان فتوثب بهم وأخرجهم واستصفاهم واستقل برئاسة البلد كما كان قومه، والسلطان في خلال ذلك يرعد ويبرق ويواصل الأعذار والإنذار، وهم قد لجوا في طغيانهم. ثم جمع جنوده واحتشد واستألف الأعراب ووفر لهم الأعطيات. ونهض إليها حتى نزل بساحتها منتصف خمس وتسعين وسبعمائة وقد استعدوا وتحصنوا فألح عليهم القتال وأذاقهم النكال، وقطع الميرة فضيق مخنقهم. ثم عدا على نخلهم فقطعها حتى صرع جذوعها وفسح المجال بين لفافها.

ولما اشتد بهم الحصار وضاق عليهم المخنق، خرج شيخهم الدنيدن إلى السلطان يعقد معه صلحاً على بلده وقومه فغدر به، وحبسه رجاء أن يملك بذلك البلد. وكان بعض بني العابد اسمه عمرو بن الحسن قد انتبذ عن قفصة أيام نكبتهم وأبعد في المغرب، ثم رجع ونزل بأطراف الزاب. ولما استقل الدنيدن بقفصة قدم عليه فأقام معه أياماً ثم استراب به وتقبض عليه وحبسه. فلما غدر به السلطان اجتمعت عليه المشيخة وعقدوا له الإمرة، وبعثوا إلى العرب يسترحمونهم ويعطفونهم على ذخيرتهم فيهم. وسربوا إليهم الأموال فتصدى إلى الدفاع عنهم صولة بن خالد بن حمزة أمير أولاد أبي الليل، وزحف إلى السلطان بمعسكره من ظاهر البلد، وكان أولياؤه من العرب قد أبعدوا عنه في الجهات لانتجاع إبلهم فما راعه إلا إطلاق صولة براياته في قومه فأجفل واتبعوه. وما زال بكر عليهم في بنيه وخواصه حتى ردهم على أعقابهم. وأغذ السير إلى تونس وهو في اتباعه، ولم يظفروا منه

بعقال إلا ما كان من طعن القنا ووقع السيوف حتى وصل إلى حضرته. ثم ندم صولة على ما كان منه وأرسل السلطان بطاعته فلم يقبله، وانحدر إلى مشاتيه سنة ست وتسعين وسبعمائة.

واستدعى ابن يملول من عش نفاقه ببسكرة فخف إليه ودفعه إليها تربه في الغي أحمد بن مزني صاحب الزاب. ووصل ابن يملول إلى صوله فاغراه بحصار توزر، ونزل معه عليها بقومه فجلى الأمير المنتصر في دفاعهم والامتناع عليهم حتى يئسوا، واضطربت آراؤهم وأفرجوا عنها مفترقين. وصعد صولة إلى التل للمصيف به، وعاود الرغبة من السلطان في قبول طاعته. وكان محمد الدنيدن لما أجفل السلطان عن قفصة تركه بتلك الناحية، فلما وصل إلى تونس أرسل أهل قفصة في الرجوع إليهم فأجابه بعض أشياعه، ودخل البلد فنذر به عمر بن العابد وكبسه بمكانه الذي نزل به وقتله، واستبد بمشيخة قفصة وخشي أهل قفصة من غائلة السلطان وسوء مغبة العصيان فبعثوا إلى السلطان بطاعتهم، وشرط عليهم نزول عامله عندهم، وهذا آخر ما بلغنا عنهم ولم يبلغنا أنه عقد لهم ولا لصولة أمراً والله يصرف الأمور بحكمته.

ولاية عمر ابن السلطان على صفاقس واستيلائه منها على قابس وجزيرة جربة

هذا الأمير عمر ابن السلطان هو شقيق إبراهيم الذي كان أميراً بقسطنطينة، وكان في كفالة أخيه إبراهيم. فلما توفي كما مر لحق بالسلطان أبيه وأقام عنده. ولما كان من وفاة أبي بكر بن ثابت شيخ طرابلس ما قدمناه واضطرب قومه من بعده، ونزع قائدهم قاسم بن خلف إلى السلطان فبعث معه ابنه عمر هذا سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة لحصار طرابلس، وأقام عليها حولاً كريتاً يحاصرها ويمنع الأقوات عنها، حتى ضجروا وضجر من طول المقامة فدافعوه بالضريبة وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة ووافاه جائماً على قفصة عندما انتقضوا عليه، وقد كان مر في طريقه على جربة وأراد الدخول إليها فمنعه عامل أبيه بها من الموالي المعلوجي فأنف من ذلك، وشكاه إلى أبيه فولاه على صفاقس، ووعده بولاية جربة فسار هو إلى صفاقس وأجاز البحر إلى جزيرة جربة، وانضم إليه جميع من بها من القبائل. وامتنع العلج منصور العامل بحصنها المسمى بالقشتيل بلسان الفرنج، حتى كاتب السلطان فأمره بتمكين ابنه من الحصن والإفراج له عن الجزيرة أجمع، فاستبد بها. ثم إن الأمير عمر سما إلى ملك قابس، فداخل أهل الحامة جارتها المجلبة عليها على الأيام في ذلك فأجابوه وساروا معه بمجموعهم سنة ست وتسعين وسبعمائة فبيتها وملكها، وقبض على رئيسها يحيى بن عبد الملك بن مكي فضرب عنقه، وانقرض أمر بني مكي من قابس واستقل بها الأمير عمر مضافة إلى ما كان بيده، والله وارث الأمور.

وفاة السلطان أبي العباس وولاية ابنه أبي فارس عزوز

كان السلطان أبو العباس قد أزمن به وجع النقرس حتى كان في غالب أسفاره يحمل على البغال في المحفة. ثم اشتد به آخر عمره وأشرف في سنة ست وتسعين وسبعمائة على الهلكة. وكان أخوه زكريا رديفه في الملك والمرشح بعده للأمر، وابنه محمد والياً في بونة موضع إمارته من قبل. وكان للسلطان أولاد كثيرون يتطاولون إلى مكان أبيهم ويغصون بعمهم زكريا، ويخشون غائلته بعد أبيهم، فلما قارب السلطان منيته اشتد جزعهم وإشفاقهم من عمهم. وبعث السلطان كبيرهم أبا بكر بعهده على قسطنطينة فسار إليها بين أيدي موته، واعصوصب الباقون على كبيرهم بعده أبي فارس عزوز فقبضوا على عمهم زكريا وقد دخل يعود أخاه، وأودعوه في بعض الحجر ووكلوا به، وهلك السلطان لثلاث بعدها فبايعوا أخاهم أبا فارس رابع شعبان سنة ست وتسعين وجاء أهل البلد إلى بيعته أفواجاً من الأعيان والكافة فتمت بيعته، وأمر بنقل ما في بيوت عمه من الأموال والذخيرة إلى قصره حتى استوعبها، وضيق عليه في محبسه، وقام بتدبير ملكه وسياسة سلطانه. وولى بعض إخوانه على منابر عمله بإفريقية فبعث أحدهم على سوسة والثاني على المهدية، وردف أخاه إسماعيل في ملكه بتونس، وأحل الباقين محل الشورى والمفاوضة.

وبلغ الخبر إلى أخيه المنتصر بتوزر فاضطرب أمره ولحق بالحامة فأقام بها. وكذلك أخوه زكريا بنفطة فلحق بجبال نفزاوة. وكان أخوه أبو بكر لما سار إلى قسطنطينة لولاية أبيه قبيل وفاته مر ببونة فلقيه صاحبها الأمير محمد ابن عمه زكريا بما شاء من أنواع الكرامة والمبرة ووافى قسطنطينة فطلب منه القائمون بها كتاب السلطان بعهده عليها فاقرأهم إياه، وفتحوا له الأبواب فدخل واستولى على أمرها. وكان خالصة السلطان محمد بن أبي هلال قد بعثه السلطان قبيل موته إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز المتولي بالمغرب بعد وفاة أبيه السلطان أبي العباس بن أبي سالم في صفر من شهور السنة، وحمله من الهدايا والتحف ما يليق بأمثالهما فسار. فلما انتهى إلى ميلة بلغه الخبر بوفاة السلطان مرسله وأوعز

إليه الأمير أبو بكر من قسطنطينة بالرجوع إليه فرجع بهديته، واستقر عنده هنالك.هذا آخر ما بلغنا من الأخبار الصحيحة عنهم لهذه السنين وحالهم على ذلك لهذا العهد، والملك بيد اللّه يؤتيه من يشاء.

الخبر عن بني مزني أمراء بسكرة وما إليها من الزاب

هذا البلد بسكرة هو قاعدة وطن الزاب لهذا العهد، وحده من لدن قصر الدوسن بالمغرب إلى قصور تنومة وبادس في الشرق، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمونه الحضنة جبل جاثم من المغرب إلى المشرق، ذو ثنايا تفضي إليه من تلك الحضنة، وهو أبل درن المتصل من أقصى المغرب إلى قبلة برقة.ويعمر ذلك الجبل في محاذاة الزاب من غربيه بقايا عمرت من زناتة، ويتصل من شرقيه بجبل أوراس المطل على بسكرة المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الشمال.وهو جبل مشهور الذكر يأتي الخبر عن بعض ساكنيه. وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعاً جمعاً، يعرف كل واحد منها بالزاب. وأولها زاب الدوسن، ثم زاب طولقة ثم زاب مليلة وزاب بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس.وبسكرة أم هذه القرى كلها، وكانت مشيختها في القديم بعد الأغالبة والشيعة لعهد صنهاجة ملوك القلعة في بني رمان من أهلها بما كثروا ساكنها. وملكوا عامة ضياعها. كان لجعفر بن أبي رمان منهم صيت وشهرة.

وربما نقضوا الطاعة لعهد بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة في سني خمسين وأربعمائة، وضبطوا البلد وامتنعوا. وتولى كبر ذلك جعفر بن أبي رمانة، ونازلتهم جيوش صنهاجة إلى نظر الوزير خلف بن أبي حيدرة من صنائع الدولة فاقتحمها عليهم، واحتملهم إلى القلعة فقتلهم بلكين جميعاً، وجعلهم عظة لمن بعدهم.وأصار أمر الشورى لبني سندي من أهلها. وكان لعروس منهم بعد ذلك خلوص في الطاعة وانحياش إلى الدولة على حين تقلص ظلها وفشل ريحها، وألوى الهرم بشبابها. وهو الذي فتك بالمنتصر بن خزرون الزناتي عند وصوله من المشرق واجتلابه على السلطان بقومه من مغراوة وأعراب الأثبج وبني عدي وبني هلال، فمكر به السلطان وأقطعه ضواحي الزاب وريغة طعمة. ودس إلى عروس في الفتك به ففعل كما قدمنا ذكره في أخبار آل حماد. وانقرضت رئاسة بني سندي بانقراض أمراء صنهاجة من إفريقية. وجاءت دولة الموحدين، والكثرة والبيت لبني زمان. وكان بنو مزني لفقاً من لفائق الأعراب، وصلوا إلى إفريقية أحلافاً لطوالع بني هلال بن عامر في المائة الخامسة كما قدمناه.

ونسبهم بزعمهم في مازن من فزارة والصحيح أنهم في لطيف من الأثبج. ثم من بني جرى بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف، واسم أبيهم مزنة بن ديفل بن محيا بن جرى، هكذا تلقيته من بعض نسابة الهلاليين، وشهد لذلك الوطن، فإن أهل الزاب كلهم من أفاريق الأثبج عجزوا عن الظعن ونزلوا قراه على من كان بها قبلهم من زناتة وطوالع الفتح، وإنما يرغبون عن هذا النسب فزارة لما صار إليه أهل الأثبج بالزاب من المغرم والوضائع، فيستنكفون لذلك وينتسبون إلى غرائب الأنساب.وكان أول نزولهم بقرية من قرى بسكرة وكانت تعرف بقرية حياس. ثم عفوا وتأثلوا وأخذوا مع أهل بسكرة بحظ وافر من تملك العقار والمياه.ثم انتقلوا إلى البلد واستمتعوا منها بالمنزل والظلال، وقاسموا أهلها في الحلو والمر، وانتظم كبارهم في أرباب الشورى من المشيخة. ثم استنكف بنو رمان من انتظامهم معهم وحسدوهم على ما آتاهم اللّه من فضله، وحذروهم على أنفسهم فاضطرمت بينهم نار العداوة والإحن، وكان أولها الكلام والترافع إلى سدة السلطان بتونس على حين استقلال أبي حفص بإفريقية، ولعهد الأمير أبي زكريا وابنه السلطان المستنصر. ثم تناجزوا الحرب وتواقعوا سكك المدينة وكانت صاغية الدولة مع بني رمان لقديمهم في البلد.

ولما خرج الأمير أبو إسحاق على أخيه محمد المستنصر لأول بيعته، ولحق بالدواودة من العرب وبايع له موسى بن محمد بن مسعود البلط أمير البدو يومئذ، واعتمر به بسكرة وبلاد الزاب، وأناخ عليها بكلكله كما قدمناه. قام يومئذ فضل بن علي بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني بدعوته، وأعلن بين أهل البلد بطاعته واتبعوه على كره.ثم عاجلتهم عساكر السلطان وأجهضتهم عن الزاب، فاعتلق فضل بن علي به، واستمسك بذيله وصحبه في طريقه إلى الأندلس، وبدار غربته منها إلى أن هلك المستنصر أخوه، وهيأ اللّه له من أمر الخلافة ما هيأ حسبما ذكرناه. ولما تم أمره واقتعد بتونس كرسي خلافته عقد لفضل بن علي على الزاب ولأخيه عبد الواحد على بلاد الجريد رعياً لذمة خدمتهما، وذكراً لائتلافهما في المنزل الخشن وصحبتهما، فقدم والياً على الزاب، ودخل بسكرة واستكان بنو رمان لصولته وانقادوا في مرضاة الدولة إلى أمره فلم ينبسوا بكلمة في شأنه، واضطلع بتلك الولاية ما شاء اللّه.

ثم كان شأن الداعي بن أبي عمارة وتلبيسه، ومهلك

السلطان أبي إسحاق على يده. ثم ثار منه السلطان أبو حفص بأخيه واسترجع ما ضاع من ملكهم، وكل منهم يثق بغنائه، ويعول في أمر الزاب على كفايته. وسيم أعداؤه بنو رمان أيام ولايته فداخلوا أولاد حريز من لطيف إحدى بطون الأثابج، كانوا نزلوا بقربة ماشاش لضيق المدينة حين عجزوا عن الظعن، وخالطوا أهل البلد في أحوالهم وامتزجوا معهم بالنسب والصهر فأغروهم بفضل بن علي أن يكون التقدم لهم في الفتك به، وتناول الأمر من يده، وأن يخربوا بيوتهم من قرية ماشاش بأيديهم ليسكنوا إليهم ويطمئنوا إلى ولايتهم حلفاً عقدوه على المكر بهم. ولما أوقعوا به بظاهر البلد في بعض أيام ركوبه سنة ثلاث وثمانين وستمائة ونزلوا من أمر الزاب ما كان يتولاه، تنكر لهم بنو رمان لحولين من ذلك الحلف، ونابذوهم العهد فخرجوا عن البلد وفقدوا المأوى للتمرس بها من قريب، وتفرقوا في بلاد ريغة، واستبد بنو رمان بشورى بسكرة والزاب منتقضين عليهم وعلى السلطان، والدواودة قد تغلبوا عليه وعلى بلاد الحضنة من ورائه نقاوس ومقرة والمسيلة. وكان منصور بن فضل بن علي عند مهلك أبيه بالحضرة في بعض شؤونه. فلما هلك أبوه واستبد بنو رمان بعده، بثوا السعايات فيه إلى السلطان بالحضرة فأنجحت، وتقبض عليه واعتقل أيام السلطان أبي حفص.

ولما تغلب المولى أبو زكريا يحيى ابن الأمير أبي إسحاق على بجاية وقسطنطينة وبونة، واستقل بأمرها وانقسمت دولة آل أبي حفص بملكه ذلك منها، تمسك أهل الزاب بدعوة صاحب الحضرة المولى أبي حفص وفر منصور بن فضل بن علي من محبسه بتونس ولحق ببجاية بعد مهلك الحاجب القائم بالأمر أبي الحسين بن سيد الناس وتولية السلطان أبي زكريا مكانه كاتبه أبو القاسم بن أبي يحيى سنة إحدى وتسعين وستمائة، فلازم خدمته وخف عليه وصانعه بوجوه التحف وتضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه، وتسريب أمواله وجبايته إليه واستماله بذلك، فعقد له على الزاب وأمده بالعسكر فنازل بسكرة ووفد أهلها بنو رمان على السلطان ببجاية ببيعتهم فرجعهم على الأعقاب إلى عاملهم منصور، وكتب إليه بقبول فيئتهم، ودخل البلد سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وكادهم في بناء القصر لشيعته، وتحصن العسكر بسوره.ثم نابذهم العهد، وثار بهم فأجلاهم عن البلد، واستمكن فيه ورسخت قدم إمارته فيها، واستدر جباية السلطان، واتسع له نطاق العمالة، فاستضاف إلى عمل الزاب جبل أوراس وقرى ريغة وبلاد واركلي وقرى الحضنة:مقرة ونقاوس والمسيلة. فعقد له السلطان على جميعها، ودفعه إلى مزاحمة العرب في جبايتها وانتهاش لحومها إذ كانوا قد غلبوا على سائر الضواحي فساهمهم في جبايتها حتى كاد يغلبهم عليها. ووفر أموال الدولة وأنمى الخراج وصانع رجال السلطان فألقوا عليه بالمحبة، وجذبوا بضبعه إلى أقصى مراتب الاصطناع، فأثرى واحتجزت الأموال ورسخت عروق رئاسته ببسكرة، ورسخت منابت عزه وهلك المولى أبو زكريا الأوسط على رأس المائة السابعة، وولوا مكانه ابنه الأمير أبا البقاء خالداً كما قدمناه، وقام بأمره حاجبه أبو عبد الرحمن بن غمر.

وكان لمنصور بن فضل هذا اختصاص به واعتلاق بيد جاهه فاستنام إليه وعول في سائر الضواحي من ممالك السلطان على نظره، وعقد له على بلاد التل من أرض سدويكش وعياض فاستضافها إلى عمله، وجرد عن ساعد كفايته في جبايتها فلقح عقيمها وتفجرت ينابيعها. ثم حدثت بينه وبين الدولة منافرة وأجلب على قسطنطينة بيحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحاق جاءا به من تلمسان، وبايع له واستألف الدواودة لمشايعته، ونازل به قسطنطينة ثم اطلع على مكامن صدره فيه وما طوى عليه من التربص به فحل عقدته، ولحق بعسكره ببسكرة، وراجع الطاعة. ولحق به يحيى بن خالد واعتقله إلى أن هلك سنة عشرين وسبعمائة وكانت بينه وبين المرابطين أهل السنة من العرب أتباع سعادة المشهور الذكر فتن وحروب، وطالبوه بترك المغارم والمكوس تخفيفاً عن الرعية وعملاً بالسنة التي كانوا ملتزمين لطريقها، ونازلوه من أجل ذلك ببسكرة مراراً. ثم هلك سعادة في بعض حروبه على مليلى كما مر في ذكره سنة خمس وسبعمائة. وجمع منصور بن مزني للمرابطين، وبعث عسكره يقوده ابنه علي بن منصور مع علي بن أحمد شيخ الدواودة، وعلى المرابطين أبو يحيى بن أحمد أخوه ومعه رجالات المرابطين مثل:عيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد عساكر، وعطية بن سليمان بن سباع وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة فهزموا عسكر ابن مزني وقتلوا ابنه علياً وتقبضوا على علي بن أحمد، ثم منوا عليه وأطلقوه.ورجعوا إلى بسكرة فنازلوها وقطعوا نخيلها. ثم عاودوه ثانية وثالثة. ولم يزل الحرب بينه وبين هؤلاء المرابطين فتن سائر أيامه. وكان الحاجب ابن غمر قد استخلصه لنفسه وأحله محل الثقة بخلته واستقامه إلى صفائه.

ولما نهض السلطان أبو البقاء إلى تونس صحبه الحاجب في جملته حتى إذا أعمل المكيدة في الانصراف عن السلطان شاركه في تدبيرها إلى أن تمت كما قدمناه. ورجع الحاجب إلى قسطنطينة ورده إلى مكان عمله من الزاب. وكان يتردد إليه ببجاية للزيارة والمطالعة في أعماله إلى أن غدر به العرب في بعض طرقه إليها.

وتقبض عليه من أمراء الدواودة علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود، وسليمان بن علي بن سباع بن يحيى بن مسعود على حين اجتذبا حبل الإمارة من يد عثمان بن سباع بن شبل بن موسى بن محمد، واقتسما رئاسة الدواودة قومهما فاستمكنا من هذا العامل منصور بن فضل في مرجعه من عمله ببلاد سدويكش، وأوثقوه اعتقالاً، وهموا بقتله فافتدى منهم بخمسة قناطير من الذهب وارتاشوا بمكسوبهم، وصرفوا في وجوه رئاستهم ألفاً منها، وقبض منصور بن فضل عنانه عن السفر بعدها إلا في الأحايين. وبعد أخذ الرهن من العرب إلى أن كانت حركة مولانا السلطان أبي يحيى إلى تونس سنة سبع عشرة وسبعمائة أول حركاته إليها، وطالب حاجبه يعقوب بن غمر وهو بثغر بجاية بالأموال للنفقات والأعطيات، فبعث إليه بمنصور بن فضل وأشار بعقده له على حجابته ليقوم بأمره، ويكفيه مهمات شؤونه واعتدها منصور على ابن غمر فساء ظنه، وتنكر له ابن غمر، وحالت صبغة وده وانكفأ السلطان من حركته تلك مخفق السعي بعد أن نزل ظاهر تونس بعساكره كما قدمناه. ولما احتل بقسطنطينة بدت له من يعقوب بن غمر صاحب الثغر مخايل الامتناع فأقصر عن اللحاق به، وترددت بينهما الرسل وبعث له ابن غمر في منصور بن فضل. ونذر منه بالشر فأجاب داعيه، وصحب قائد السلطان يومئذ محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس إليه، حتى إذا كان ببعض الطريق عدل إلى بلده، وهمّ به القائد فأجاره أولياؤه من العرب: عثمان بن الناصر شيخ أولاد حربي ويعقوب بن إدريس شيخ أولاد خنفر ومن معهم من ذويهم. ولحق ببسكرة وبلغ الخبر إلى ابن غمر فقرع سن الندم عليه، وشايع منصور بن مزني عدوهم صاحب تلمسان أبا تاشفين ودخل في دعوته وأوفد ابنه يوسف عليه بالطاعة والهدية.

وملك السلطان خلال ذلك تونس وسائر بلاد إفريقية وهلك ابن غمر سنة تسع عشرة وسبعمائة ولم يزل منصور بن مزني ممتنعاً سائر أيامه على الدولة، والعساكر من بجاية تتردد لمنازلته إلى أن هلك سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وقام بأمره من بعده ابنه عبد الواحد فعقد له السلطان على عمل أبيه بالزاب، واستضاف إليه ما وراءه من البلاد الصحراوية: قرى ريغة وواركلي. وكان السلطان قد عقد على الثغر بعد مهلك ابن غمر لمحمد بن أبي الحسين بن سيد الناس، وجعل له كفالة ابنه يحيى ودفعه إليه فتجددت الوحشة بين عبد الواحد هذا وبين صاحب الثغر في سبيل المنافسة في المرتبة عند السلطان لما كانوا جميعاً صنائع وبطانة للحاجب ابن غمر. وبعث العساكر لحربه ومنازلة حصنه. وناول عبد الواحد هذا لآل زيان مخانقي الدولة طرفاً من حبل طاعته تقبل فيها مذهب أبيه آخر عمره. وطال تمرس الجيوش به إلى أن استجن منه عبد الواحد بصهر عقده له على ابنته، واشتراط المهادنة وتسليم الجباية، وتودع أمره إلى أن اغتاله أخوه يوسف سنة تسع وعشرين وسبعمائة بمداخلة بطانتهم من بني سماط وبني أبي كواية. ولما أحكم مداخلتهم في شأنه آذنه عشاء الشورى معه في بعض المهمات، وطعنه بخنجره فأشواه وهلك لحينه. واستقل يوسف بن منصور بإمارة الزاب ووصله مرسوم السلطان بالتقليد والخلع على العادة، وأجرى الرسم في الدعاء له على منابر عمله.

وكان السلطان قد استدعى محمد بن سيد الناس من الثغر لحجابته، وفوض له أمور مهلكه، فلهجت نار العداوة والإحن القديمة بما بينه وبين يوسف بن منصور عامل الزاب، وهمّ به لولا ما أخذ بحجزته من الشغل الشاغل للدولة بتحيف آل زيان وهلك الحاجب سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة في نكبة السلطان إياه كما ذكرناه، وعقد لمحمد بن الحكيم على القيادة وجعل بيده زمام العساكر، وفوض له سائر القرى والضواحي، فأجرى رئاسته وحكمه في دولته وتغلب على أمره حين فرغ السلطان من الشغل بمدافعة عدوه، وحط ما كان من إصرهم على كاهل دولته. ونهض السلطان أبو الحسن إلى يغمراسن فقلم أظفار أعدائهم وفل شبا عزائمهم كما شرحناه قبل، فأذكى القائد محمد بن الحكيم مع يوسف بن منصور نار العداوة، وأثار له من السلطان كامن الحفيظة وصرف وجوه العزائم إلى حمله على الجادة وتقويمه عن المراوغة في الطاعة، وناهضه بالعساكر مرات ثلاثاً يدافعه في كلها بتسليم الجباية إليه. ثم كانت بينه وبين علي بن أحمد كبير الدواودة فتن وحروب دعا إليها منافسة علي في استئثاره بمال الجباية دونه فواضعه الحرب، ودعا العرب إلى منازلته مموها بالدعاء إلى السنة، وحشد أهل ريغة لذلك ونازله، وانحرف عنه ابنه يعقوب ودخل إلى بسكرة فأصهر له ابن مزني في أخته بنت منصور بن فضل، وعقد له عليها، فحسن دفاعه عنه، وبعث ابن مزني عن سليمان بن علي كبير أولاد سباع، وقريع علي بن أحمد في شؤونه، فكان عنده ببسكرة يغاديه القتال ويراوحه إلى أن امتنع ابن مزني.

ورحل علي بن أحمد عن بسكرة وصار مع ابن مزني إلى الاتفاق والمهادنة أعوام الأربعين من المائة الثامنة. ثم كانت غزاة القائد ابن الحكيم إليه نهض من إفريقية بعد أن نازل بلاد الجريد، واقتضى طاعتهم ومغارمهم، واسترهن ولد ابن يملول. ثم ارتحل إلى الزاب في جنوده ومعه العرب من سليم فأجفل بالزاب ونزل بلد أوماش من قراه، وفرت العرب من الدواودة وسائر رياح

أمامه، ودافعه يوسف بن مزني بهديته دفعها إليه وهو بمكانه من أوماش، وارتحل عنه إلى بلاد ريغة فافتتح تقرت معقلهم واستباحها ودوخ سائر أعماله. ورجع إلى تونس ونكب السلطان قائده محمد بن الحكيم هذا سنة أربع وأربعين وسبعمائة وولى ابنه أبا حفص عمر. وخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرة بطانته فلحق بملك المغرب المرهوب الشبا المطل على الممالك، يعسوب القبائل والعشائر أبي الحسن، وأغراه بملك إفريقية واستجره إليها، فنهض في الأمم العريضة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كما ذكرنا ذلك كله من قبل. ووفد عليه يوسف بن منصور أمير الزاب بمعسكره من بني حسن فلقاه براً وترحيباً واستتبعه في حملته إلى قسطنطينة. ثم عقد له على الزاب وما وراءه من قرى ريغة ووراكلي، وصرفه إلى عمالته. واستقبل تونس، وأمره برفع الجباية إليه مع العمال القادمين من أقصى المغرب على رأس الحول فاستعد لذلك، حتى إذا سمع بوصولهم من المغرب لحقهم بقسطنطينة وفجأهم هنالك جميعاً الخبر بنكبة السلطان على القيروان كما ذكرناه، فاعتزم على اللحاق ببلده.

واعصوصب عليه يعقوب بن علي بن أحمد أمير البدو بالناحية القريبة من إفريقية لأزمة صهر كانت بينهما ومخالصة، وتحيز إليهم من كان بقسطنطينة من أولياء السلطان وحاشيته وعماله، ورسل الطاغية والسودان الوافدين مع ابنه عبد الله من أصاغر بنيه، آواهم يوسف بن منصور جميعاً إليه، وأنزلهم ببلده وكفاهم مهماتهم شهوراً من الدهر حتى خلص السلطان من القيروان إلى تونس، ولحقوا به مع يعقوب بن علي فكانت تلك يداً اتخذها يوسف بن يعقوب عند السلطان أبي الحسن وبنيه باقي الأيام. ثم اتبع ذلك بمخالفة رؤساء النواحي من إفريقية جميعاً في الانتقاض عليه، وأقام متمسكاً بطاعته يسرب الأموال إليه بتونس وبالجزائر عند خلوصه إليها من النكبة البحرية كما سنذكره، ويدعو له على منابره بعد تفويضه عن الجزائر إلى المغرب الأقصى لاسترجاع ملكه، إلى أن هلك السلطان أبو الحسن بجبل هنتاتة من أقصى المغرب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة واستقام أمر الدولة الحية الذكر المرينية لابنه السلطان أبي عنان، ولما استضاف إلى ملكه ملك تلمسان، ومحا ما جدده بنو عبد الواد من رسوم ملكهم وجمع كلمة زناتة، وأطل على البلاد الشرقية سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة بادر يوسف بن منصور بطاعته فآتاها طواعية، وأوفد على السلطان رسله بكتاب بيعته. ثم أوفد عليه ثانياً مع حاجبه الكاتب أبي عبد الله محمد بن أبي عمر، وبعثه بالعساكر لتدويخ إفريقية وتمهيد ملكه ببجاية كما سنذكره. وأوفد عليه أمراء القبائل والبدو ورؤساء النواحي سنة أربع وخمسين وسبعمائة ووفد في جملتهم يوسف بن منصور أمير الزاب ويعقوب بن علي أمير البدو وسائر الدواودة فلقاهم السلطان تكرمة ورعياً لأزمة خلوصهم لأبيه وقومه من بين أهل إفريقية، وأسنى جوائزهم. وعقد ليوسف بن مزني على الزاب وما وراءه من بلاد ريغة وواركلي على عادته وانقلب محبواً محبوراً.

وقد ثبت له من ولاية السلطان ومخالطته حظ، ورفع له ببساطه مجلس، ولما نهض السلطان إلى إفريقية لافتتاح قسطنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة كما سنذكره تلقاه يوسف بن منصور على قسطنطينة فخلطه بأوليائه، ونظمه في طبقات وزرائه. واستوحش يعقوب بن علي يومئذ من مطالبته بالرهن له ولقومه وانتقض، فأجفلت أحياؤه إلى بلاد الزاب وخرب بلاد يعقوب بن علي بالزاب والتل بقطع أشجارها وتغوير مياهها وهدم بنائها ونسف آثارها، ودخل يعقوب بأحيائه الرمل وأعجزوا السلطان فانكفأ راجعاً، واحتل بظاهر بسكرة فتلوم بها ثلاثاً لإراحة العساكر وإزاحة عللهم من وعثاء السفر وشعث الصحراء، فغرب يوسف بن منصور في قرى عساكره أيام مقامه يشملهم فيها من العلوفة والحنطة واللحمان والأدم بما أرغد عيشهم وكفاهم مهمهم. وتحدثت بها الناس دهراً، ورفع إليه جباية الزاب لعامه قناطير من الذهب دفعه ببيت المال فقبضه القهارمة من ثقاته، وأجزل السلطان مثوبته وأسنى عطيته، واختصه بكسوة ثيابه وعياله من كسى حرمه وثياب قصره. وانكفأ راجعاً إلى حضرته. ثم أوفد يوسف بن منصور ابنه أحمد على السلطان بسدته من فاس عند منصرف وزيره سليمان بن داود من حركة إفريقية سنة تسع خمسين وسبعمائة وأصحبه هدية من عتاق الخيل وفاره الرقيق. وأقام أياماً في نزل كريم ومحل من المجلس رفيع إلى أن هلك السلطان خاتمة تسع وخمسين وسبعمائة فأرغد القائم بالدولة من بعده جائزته وأسنى صلته وصرفه إلى عمله، واستوصى به أمراء النواحي والثغور في طريقه. ولم ينشب أن شبت نار الفتنة وانتزى الخوارج بالجهات بعد مهلك السلطان فخلص إلى أبيه بعد عناية وعلى يأس من النجاة بعد أن حصل في قبضة أبي حمو سلطان بني عبد الواد عند استيلائه على تلمسان، وهو بها مع بني مرين، وقد مر بهم مجتازاً إلى وطنه فأجاره عليه صغير بن عامر شيخ بني عامر من زغبة رعياً لأزمة ابنه يوسف صاحب الزاب، وتأميلاً للعرب فيه وفي أعماله. وبعد أن بذل له من ذات يده ومن طرف ما وصله به بنو مرين من ذخائرهم فبعث معه صغير ركاباً من قومه أبلغوه، فكانت إحدى الغرائب في نجاته. واسترجع

الموحدون ثغورهم:بجاية وقسطنطينة من يد بني مرين وأزعجوا عنها العساكر المجمرة بها من قبائلهم كما قدمناه، فراجع يوسف بن منصور طاعته المعروفة لهم إلى أن هلك سنة سبع وستين وسبعمائة ليوم عاشوراء، وقام بأمره ابنه أحمد، وجرى على سننه وهو لهذا العهد أمير على الزاب بمحل أبيه من إمارته متقبل في مذهبه وطريقه إلا أن خلق أبيه كان سخية وخلق هذا تلهوقا لما فيه من التحذلق، وربك يخلق ما يشاء ويختار.وله أولاد كبيرهم أبو يحيى من بنت محمد بن يملول أخت يحيى، وهو لهذا العهد مرشح لمكانه. ولما حلت بأهل الجريد الفاقرة ونزل به يحيى بن يملول المشؤوم على وطنه توجس الخيفة من السلطان وتوقع المطالبة بطاعة غير طاعته المعروفة، فسرب الأموال في العرب ومد يده إلى حبل صاحب تلمسان ليتمسك به فوجده قاصراً عنه، وأقام يقدم في أمره رجلاً ويؤخر أخرى.ثم قذف الله نور الهداية في قلبه، وأراه سنن رشده. وبادر إلى الاستقامة في الطاعة والعدول عن المراوغة، ووصله وافد السلطان أبي العباس شيخ الموحدين أبو عبدالله بن أبي هلال، وكشف له قناع المخالصة والانحياش، وبعث معه وفده بهديته واستقامته وتقبله السلطان وأعاده إلى أحسن الأحوال من الرضى عنه والله متولي الأمور سبحانه.

الخبر عن رئاسة بني يملول بتوزر وبني الخلف بنفطة وبني أبي المنيع بالحامة

زعيم هؤلاء الرؤساء ابن يملول صاحب توزر لاتساع بلده وتمدن مصره واحتلاله منها بأم القرى من قطره، وهو يحيى بن محمد بن يملول. ونسبهم بزعمهم في طوالع العرب من تنوخ، استقر أولوه بهذا الصقع كان منذ أول الفتح فعفوا وتأثلوا ووشجت به عروقهم نسباً وصهراً حتى انتظموا في بيوت الشورى المتقدمين للوفادة على الملوك وتلقي العمال القادمين من دار الخلافة والنظر في مصالح الكافة أيام آل حماد بالقلعة، وآل عبد المؤمن بمراكش وآل أبي حفص بتونس: مثل بني واطاس وبني فرقان وبني ماردة وبني عوض.وكان التقدم فيهم أيام عبد الله الشيعي لابن فرقان، وهو الذي أخرج أبا يزيد حين شعر أنه يريد القيام على أبي القاسم القائم، وأيام آل حماد ليحيى بن واطاس، وهو النازع بطاعة أهل قسطنطينة إليهم عن آل بلكين ملوك القيروان حين انقسمت دولة آل زيري، وافترق أمرهم.ثم عادت الرئاسة لبني فرقان لأول دولة الموحدين، ومنهم كان الذي لقي عبد المؤمن وآتاه الطاعة عن نفسه وعن أهل بلده توزر، فتقبله ووصله.

وصار الأمر للموحدين فمحوا منها آثار المشيخة والاستبداد. ونشأ أحمد هذا الجد مترامياً إلى الرئاسة بهذا القطر يدافع عنه بالراح، ويزاحم بالمناكب من وجوه البلد وأشراف الوطن. وسعى به إلى شيخ الموحدين وقائد العسكر أيام السلطان أبي حفص محمد الفازاري فنكبه وصادره على مال امتحنه عليه. كانت أول نكباته التي أورت من زناده وأوقدت من جمره، فخلص إلى الحضرة يؤمل اقتعاد مطيته وثبوت مركزه من دار الخلافة فأوطنها أياماً يباكر أبواب الوزراء والخاصة، ويلثم أطراف الأولياء والحاشية ويبذل كرائم ماله فيما يزلفه لديهم، ويؤثره بعنايتهم حتى استعمل بديوان البحر مقعد العمال بمرفأ السفن لجباية الأعشار من تجار دار الحرب. ثم استضاف بما كان من غنائه فيها واضطلاعه سائر أعمال الحضرة فتلقدها زعيماً بإمضاء الجرايات وأدرار الجباية. واستمرت على ذلك حاله وتضاعفت فائدته فأثرى واحتجن المال، واستخرج الذخيرة قاطعاً لألسنة السعاية المصانعة والإتحاف بطرف ما يجلبه الروم من بضائعهم حتى أبطره الغنى، ودلت على مكانته الثورة، ورفع أمره إلى الحاجب فخرج التوقيع بالقبض عليه واستصفاء ماله لعهد السلطان أبي يحيى اللحياني فنكب الثانية وصودر على مئين من آلاف الدنانير وامتحن لها، وباع فيها مكسوبه حتى من الكتب وخلص من النكبة مثلوب الأمانة ممزق الأديم فقيد الرياش، أحوج ما كان إلى ما يعوز من الكن والدفء وبلالة العيش. ولحق ببلده ناجياً بالرمق ضارعاً للدهر.

ودفعه الملأ إلى ما يستنكفون عنه من خدمة العمال ومباكرة أبوابهم والامتهان في ضروراتهم، وأنجده في ذلك بخت جذب بضبعه. وكان في خلال ذلك شغل الحضرة شأن الثغور الغربية وأمرائها فتقلص ظل الدولة عن هؤلاء بعض الشيء وهملت الرعايا بالبلاد الجريدية، وصار أمرها إلى الشورى التي كانت عليها قبل. فلما أدرك أحمد هذه الشورى التي كان يسمو لها سمو حباب الماء ثلج صدره، وأنجح سعيه، واستبد بمشيخة توزر. وهلك في أعوام ثماني عشرة فخلفه من بعده في سبيله تلك ولده يحيى طموحاً إلى الرتبة منافساً في الاستقلال، ومزاحماً بيوتات المصر بمناكب استوصلها سائر عمره من الدعار والأوغاد بمعاقرة الخمر والمجاراة في فنون الشباب ليستبد أمره، والاستيلاء على نظرائه حتى تطارحوا في هوة الهلاك بين قتيل ومغرب مخيف العمران، لم تعطفه عليهم عواطف الرحم ولا زجره وازع التقوى والسلطان، حتى خلا له الجو واستوسق الأمر واستقر من أمر البلد والحل

والعقد بأوفى من استبداد أبيه. وكان مهلكه قريباً من استبداده لخمس سنين فتلقف الكرة من يده أخوه محمد تربه في الرئاسة ومجاريه في مضمارها، فأجرى إلى الغاية واقتعد كرسي الرئاسة وعفى على آثار المشيخة. واستظهر على أمره بمصانعة أمراء البدو وأولاد أبي الليل، والمتات إليهم بصهر كان عقده أبوه أحمد لأبي الليل جدهم على أخته أو عمته. فكانوا رداً له من الدولة فبعد صيته وعظم استيلاؤه وامتدت أيامه وعني الملوك بخطابه وإسناد الأمور في تلك البلاد إليه خلال ما تعود الكرة وتهب ريح الدولة. وزحف إليه القائد محمد بن الحكيم سني أربعين فلاذ منه بالطاعة والمصانعة بالمال، ورهنه ولده يحيى فرجعه إليه ابن الحكيم وتقبل طاعته من غير رهن استقامة لما ابتلاه من خلوصه. وأقام على ذلك إلى أن هلك أعوام أربع وأربعين من المائة الثامنة.

وتصدى ولده عبد الله للقيام بالأمر فوثب عليه عمه أبو زيد بن أحمد فقتله على جدث أبيه صبح مواراته بعد أن كان أظهر الرضا به والتسليم له فثارت به العامة لحينه، وكان مصرعهما واحداً. وقام بالأمر أخوه يملول بن أحمد أربعة أشهر كانت شر مدة وأسوأ ولاية، لما أصاب الناس بسوء ملكته من سفك الدماء واستباحة الحرم واغتصاب الأموال، حتى كان ينسب إلى الجنون مرة وإلى الكفر مرة أخرى فمرج أمرهم واستولى الضجر على نفوسهم، وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فراسله أهل توزر سراً وأطلقه السلطان من محبسه بعد أن اخذت عليه المواثيق بالطاعة والوفاء بالجباية فصمد إليها بمن في لفه من الأعراب، وحشد نفزاوة المجاورين لها في القرى الظاهرة المقدرة السير، وأجلب عليهم ثم بيتها فاقتحمها وبادر الناس إلى القبض على يملول أخيه وأمكنه منه فاعتقله بداره وتبرأ من دمه، وأصبح لثالثة اعتقاله ميتاً بمحبسه.

وكانت قفصة من قبل ذلك لما صار أمر الجريد إلى الشورى قد استبد بها يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد من بيوتها، ونسبهم في زعمهم في بلى ولهم خلف بزعمهم في الشريد من بطون سليم. والله أعلم بأولية نزولهم بقفصة حتى التحمو بأهلها وانتظموا أمر بيوتاتها. وكانت البيوت بها بيت بني عبد الصمد وبيت بني أبي زيد، وكانت رئاسته لبعض بني أبي زيد لعهد الأمير أبي زكريا الأعلى، كان يستعمله على جباية أموال الجريد، ثم سعى به أنه أصاب منها فنكبه وصودر على آلاف من المال فاعطاها، وأقامت رئاستهم متفرقة في هذه البيوتات.

ولما حدثت العصبية بالبلد أيام صار أمر الجريد إلى الشورى كان بنو العابد هؤلاء أقوى عصبية من سائرهم، واستبد بها كبيرهم يحيى بن علي. فلما فرغ السلطان من شغله بزناتة وجثم السلطان أبو الحسن على تلمسان يحاصرها. وأقبل السلطان على النظر في تمهيد ملكه وإصلاح ثغوره، وافتتح أمره بغزو قفصة ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعمائة في عساكره من الموحدين وطبقات الجند والأولياء من العرب، فحاصرها شهراً أو نحوه وقطع نخيلها وضاق عنقهم بالحصار وتلاوموا في الطاعة. واستبقوا بها إلى السلطان وفر الكثير من بني العابد فلحقوا بقابس في جوار ابن مكي ونزل أهل البلد على حكم السلطان فتقبل طاعتهم وأحسن التجاوز عنهم، وبسط المعدلة فيهم وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم، وانكفأ راجعاً إلى حضرته بعد أن آثرهم بسكنى ولده المخصوص بعدئذ بعهده الأمير أبي العباس وأنزله بين ظهرانيهم وعقد له على بلاد الجريد، واحتمل مقدم روضة يحيى بن علي إلى الحضرة فلم يزل بها إلى أن هلك سنة أربع وأربعين وسبعمائة، واستبد الأمير أبو العباس بأمر الجريد واستولى على نفطة كما قدمناه. وقتل بني خلف وهم: مدافع وأبو بكر وعبد الله ومحمد وابنه أحمد بن محمد إخوة أربعة، وابن أخيهم الخلف بن علي بن الخلف بن مدافع، ونسبهم في غسان في طوالع العرب.

وانتقل جدهم من بعض قرى نفزاوة إلى نفطة وتأثل بها، وكان لبنيه بها بيت. واستبد هؤلاء الإخوة الأربعة أزمان الشورى كما قدمناه. ولما استولى السلطان أبو بكر على الجريد وأنزل ابنه أبا العباس بقفصة، وعقد له على سائر أمصارها واقتضى طاعتهم وامتنعوا فسرح إليهم وزيره أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين. وجهزت له العساكر من الحضرة ونازلها وقطع نخلها فلاذ أهلها بالطاعة، وأسلموا بني مدافع المتغلبين فضرب أعناقهم وصلبهم في جذوع النخل آية للمعتبرين. وأفلت السيف منهم علياً صغيرهم لذمة اعتدها له أبو القاسم بن عتو لنزوعه قبل الحادثة فكانت واقيته من الهلكة.

واستولى الأمير أبو العباس على نفطة واستضافها إلى عمله. ثم مرض أبو بكر بن يملول في طاعته فنهض إليه السلطان أبو بكر من تونس سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وكان الفتح كما قدمناه. ولحق أبو بكر بن يملول ببسكرة فلم يزل بها إلى أن أجلب على توزر فنبذ إليه يوسف بن مزني عهده، وانتقل إلى حصون وادي ابن يملول المجاورة لتوزر، وهلك سنة ست وأربعين. ثم كان مهلك السلطان وابنه الأمير أبي العباس صاحب الأعمال الجريدية إثر ذلك سنة سبع وأربعين وسبعمائة، ورجع إلى كل مصر من الجريد مقدموه فرجع أحمد بن العابد إلى قفصة من مكانه في جوار ابن

مكي واستولى على بلده في مكان ابن عمه يحيى بن علي، ورجع علي بن الخلف إلى نفطة واستبد بها. ورجع يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول إلى توزر من مثوى اغترابه ببسكرة، وارتحل إليها مع عمه أبي بكر طفلاً، فلما خلا الجريد من الإمارة درج يحيى هذا من عشه في جوار يوسف بن منصور بن مزني وأطلقه مع أولاد مهلهل من الكعوب بعد أن وصلهم وشارطهم، واسترهن فيه أبناءهم فأوصلوه إلى محل رئاسته بتوزر، ونصبه شيعته وأولياء أبيه، وقاموا بأمره. ورجع أمر الجريد كله إلى رئاسة مقدمه كما كان.

ثم وفدوا على السلطان أبي الحسن عند رجعته إلى إفريقية ولقوه بوهران فلقاهم مبرة وتكرمة ورجّع كلاً إلى بلده ومحل رئاسته بعد أن أسنى الجائزة، ووفر الإسهام والأقطاع، وانفذ الصكوك والكتب: فرجع إلى توزر يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول صبياً مغتلماً، وإلى نفطة علي بن الخلف بن مدافع. وإلى قفصة أحمد بن عمر بن العابد وأنزل بكل واحد من هذه الأمصار عاملاً وحامية. وعقد على الجريد كله لمسعود بن إبراهيم بن عيسى اليرنياني من طبقة وزرائه، واستوصى بهؤلاء الرؤساء خيراً في جواره حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان سنة تسع وأربعين وسبعمائة وارتحل عامل الجريد مسعود بن إبراهيم يريد المغرب بمن معه من العمال والحامية، ونمي خبره إلى الأعراب من كرفة فصبحوه في بعض مراحل سفره دون أرض السزاب فاستلحموه ومن كان معه من الحامية، واستولوا على أبنيتهم وذخيرتهم وكراعهم، واستبد رؤساء تلك البلاد بأمصارهم وعادوا إلى ديدنهم من التمريض، وآذانوا بالدعاء لصاحب الحضرة منابرهم، واستمروا على ذلك.

فأما يحيى بن محمد بن يملول فنزع إلى مناغاة الملوك في الشارة والحجاب واتخاذ الآلة والبيت المقصور للصلاة، واقتعاد الأريكة وخطاب التمويل وفسح للمجون العكوف على اللذات مجالاً يرى أن جماع السياسة والملك في إدارة الكأس وافتراش الآس والحجبة عن الناس والتأله على الندمان والجلاس. وفتح مع ذلك على رعيته وأهل إيالته باب العسف والجور. وربما بيت المشاهير منهم غيلة فأتلفت نفوسهم، وامتد أمره في ذلك إلى أن استولى السلطان أبو العباس على إفريقية، وكان من أمره ما نذكره.

وأما جاره الجنب علي بن الخلف فلم يلبث لما استبد برئاسته أن حج سنة أربع وستين وسبعمائة والتزم مذاهب الخير وطرق الرضى والعدالة، وهلك سنة خمس وستين وسبعمائة بعدها وولي مكانه ابنه محمد جارياً على سننه. ثم هلك لسنة من ولايته، وقام بأمره أخوه عبد الله بن علي فأذكى سياسته، وأيقظ حزمه وأرهف للناس حده فنقموا عليه سيرته، وسيموا عسفه واستمكن مناهضهم في الشرف ومحاذيهم في رئاسة البلد القاضي محمد بن خلف الله من صاحب الحضرة بذمة كانت له في خدمته قديمة استعمله لرعيها في خطة القضاء بحضرته، وآثره بالمكان منه والصحبة فسعى بعبد الله هذا عند الخليفة ودله على مكامن هلكته، وبصره بعورات بلده. واقتاد عساكر السلطان إليه في زمامه.

ولما احتل بظاهر البلد وعبد الله رئيسها أشد ما كان قوة وأكثر جمعاً وأمضى عزماً استألف أخوه الخلف بن علي بن الخلف جماعة المشيخة دونه، وحرضهم عليه وداخل القاضي في تبييت البلد وأنه بالمرصاد في اقتحامها، حتى إذا كانت الهيعة دس إلى بعض الأوغاد في قتل أخيه عبد الله، ومكر بالقاضي والعسكر وامتنع عليهم واعتصم دونهم. واستقل برئاسة بلده وأقام على ذلك يناغي ابن يملول في سيره ويطارحه الكثير من مذاهبه، ويجري في الشأو الذي بلغ إلى غايته وأوفى على ثنيته.

وأما أحمد بن عمر بن العابد فلم يزل من لدن استبداده في قفصة سالكاً مسالك الخمول منحطاً عن رتبة التكبر متحلاً مذاهب أهل الخير والعدالة في شارته وزيه ومركبه، جانحاً إلى التقلل.فلما أوفى على شرف من العمر استبد عليه ابنه محمد وترفع عن حال أبيه بعض الشيء إلى مناغاة هؤلاء الرؤساء المترفين، فبينما هؤلاء المتقدمون في هذه الحال من الاستبداد على السلطان والتخلق بأخلاق الملوك، والتثاقل عن الرعايا بالتعسف والجور، واستحداث المكوس والضرائب إذا أطل على مفاحصهم السلطان أبو العباس بالحضرة مستبداً بدعوته، صارفاً إلى فتحها عزائمه فوجموا وتوجسوا الخيفة منه. واتمروا في المظاهرة واتصال اليد بعد أن كانوا يستحثونه إلى الحضرة، ويبعثون إليه بالانحياش على البعد زبوناً على صاحب الحضرة وتراوغاً عن مصدوقية الطاعة.

فلما استبد السلطان أبو العباس بالدعوة استرابوا في أمرهم وسربوا أموالهم في الأعراب المخالفين على السلطان من الكعوب، يؤملون مدافعتهم عنهم فشمر لها أولاد أبي الليل بما كان وقع بينهم وبين السلطان من النفرة.ونهض إليهم السلطان فغلبهم على ضواحي إفريقية على الظواعن التي كانت جبايتها لهم من مرنجيزة كما قلناه، واكتسحهم فأوهن بذلك من قوتهم.

ثم زحف الثانية إلى أمصار الجريد فلاذوا بالامتناع، فأناخ السلطان بعساكره وأوليائه من العرب أولاد مهلهل على قفصة

فقاتلوها يوماً أو بعض يوم، وغدا في ثانية على نخيلهم يقطعها فكأنما يقطع بذلك أمعاءهم فتبرأوا من مقدمهم، وشعر بذلك فبادر إلى السلطان ونزل على حكمه فتقبض عليه وعلى ابنه شهر ذي القعدة من سنة ثمانين وسبعمائة وتملك البلد، واستولى على ديار ابن العابد بما فيها. وكان شيئاً لا يعبر عنه لطول أيامه في الولاية وكثرة احتجانه للأموال.

وعقد السلطان على قفصة لابنه أبي بكر وارتحل يريد توزر، وطار الخبر لابن يملول في توزر فقوض عنها بأهله، ونزل على أحياء مرداس وسرب فيهم المال فرحلوا معه إلى الزاب، ولحق ببسكرة مأوى نكباته ومنتهى مفره، فنزل بها على أحمد بن يوسف بن مزني وأقام هنالك على قلعة من توقع مطالبة السلطان له ولجاره ابن مزني وخسارة أموالهم في زبون العرب وسوء المغبة إلى أن هلك لسنة أو نحوها وائتمر أهل توزر. بعد تقويضه عنهم، وبعثوا إلى السلطان ببيعتهم فلقيه أثناء طريقه، وتقدم إلى البلد فنزل بقصور ابن يملول واستولى على ذخيرته وتبرأ إليه أهل البلد من ودائع كانت له عندهم من خالص الذخيرة فرفعوها إلى السلطان.وعقد لابنه المنتصر على توزر واستقدم الخلف بن الخلف من نفطة، وكان يخالف أصحابه إلى الطاعة حتى نقضوها زبوناً على يملول وسالفة من العداوة كان يتقبلها. فلما أحيط بهم أدركه الدهش بطاعته فأتاها، وقدم عليه فتقبل السلطان ظاهره وأغضى له عن غيرها طمعاً في استصلاحه، وعقد له على حجابة ابنه المنتصر وأنزله معه بتوزر وأمره بالاستخلاف على بلده نفطة وعقد على ولايتها وانكفأ راجعاً إلى الحضرة، وقدم ابن خلف على أمره ورأى أنه قد تورط في الهلكة فراسل ابن يملول بمكانه من توزر، وعثر أولياء السلطان على كتابه إلى يعقوب بن علي شيخ رياح ومدرة حروبهم على صريخ ابن يملول ومعونته، فعلموا نكثه ومداجاته وبادروا إلى القبض عليه، وولوا على نفطة من قبلهم وخاطبوا السلطان بالشأن وأقام في اعتقاله إلى أن كانت حادثة قفصة، فبادر الأمير المنتصر إلى قتله.

وكان من خبر قفصة أن ابن أبي زيد من مشيختها كان نزع إلى السلطان قبل فتحها هو وأخوه لمنافسة بينهما وبين ابن العابد وهما: محمد وأحمد ابنا عبد العزيز بن عبد الله بن أحمد بن علي بن عمر بن أبي زيد. وقد ذكرنا أوليتهم واستعمال سلفهم أيام الأمير أبي زكريا الأعلى في جباية الجريد. فلما استولى على البلاد رعى لهما تشيعهما وبدارهما إلى طاعته مع قديمهما فأنزلهما مع ابنهما بقفصة وكبيرهما رديف لحاجبه عبد الله من الموالي الأتراك ومدبر لأمور البلد في طاعة السلطان. ثم نزغ الشيطان في صدره وحدثته نفسه بالاستبداد، وأقام يتحين له الفرصة وذهب الأمير أبو بكر إلى زيارة أخيه بتوزر فكاده بالتخلف عنه، وجمع أوباشاً من الغوغاء والزعانف وتقدم بهم إلى القصبة وبعث بالصريخ للفتك بعبد الله التريكي ونذر بذلك فأغلق أبواب القصبة وبعث الصريخ في أهل القرى، وقاتلهم ساعة من نهار حتى وافى إليه المدد. فلما استغلظ بمدده أدركهم الدهش وانفض الأشرار من حوله ولجأوا إلى الاختفاء في بيوت البلد، وتقبضوا على الكثير ممن داخلهم في الثورة، ووصل الخبر إلى الأمير أبي بكر بتوزر فبادر إلى مكانه، وقد سكنت الهيعة واستلحم جميع من تقبض عليه حاجبه ونادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد فتبرؤوا منه. وعثر الحرس عليه وعلى أخيه خارجين من أبواب البلد في زي النساء فقادهما إليه فقتلهما بعد أن مثل بهما.

وبادر المولى المنتصر بتوزر لقتل الخلف بن الخلف أن يخوض في مثلها فذهب في غير مرحمة لم يعطف عليه رحم، ولا تكنه سماء ولا أرض. واستبد السلطان بالجريد ومحا منه آثار المشيخة وعفا عليها وانتظمه في عمالات السلطان.

وأما بلد الحامة وهي من عمالة قسطيلية وتعرف بحامة قابس وحامة مطماطة نسبة إلى أهلها الموطنين كانوا بها من البربر، وهم فيما يقال الذين اختطوها، وأما الآن ففيها ثلاث قبائل من توجن وبني ورياجن وهم في العصبية فرقتان: أولاد يوسف ورئاستهم في أولاد أبي منيع وأولاد جحاف ورئاستهم في أولاد وشاح، ولا أدري كيف نسب لفرقتين: فأما بنو أبي منيع فالحديث عن رئاستهم في قومهم أن جدهم رجا بن يوسف كان له ثلاثة من الولد وهم بوسباك يحمد وملالة وأن رئاسته بعده كانت لابنه بوساك، ثم ابنه أبي منيع من بعده، ثم لابنه حسن بن أبي منيع، ثم لابنه محمد بن حسن، ثم لأخيه موسى بن حسن ثم لأخيهما أبي علان إلى أن كان ما نذكر.

وأما أولاد جحاف فكانت أول رئاستهم لمحمد بن أحمد بن وشاح، وقبله خاله القاضي عمر بن كلى، وكان العمال من الحضرة يتعاقبون فيهم إلى أن أسقط السلطان عنهم الخراج والمغارم بأمرها. وكان مقدمهم لأول دولة السلطان أبي بكر من أولاد أبي منيع، وهو موسى بن حسن. وكان المديوني قائد السلطان والياً عليهم، وارتاب بهم بعض الأيام وأحبوا الثورة به، فدس بها إلى السلطان في بعض حركاته، وغزاهم بنفسه ففروا، وأدرك سبعة من أولاد يوسف هؤلاء وتقبض عليهم فقتلوا. ثم رجع الأمير وولى موسى بن حسن. ولما هلك ولي بعده أخوه أبو عنان، وطال أمد ولايته عليهم وكان منسوباً إلى الخير والعفاف.

وهلك سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وولي بعده ابن عمر ثم ابنه الآخر أبو زيان. ثم ولي بعدهما ابن عمهما مولاهم ابن محمد. ووفد على السلطان أبي الحسن مع وفد أهل الجريد كما مر. ثم هلك فولي بعده من بني عمهم حسان بن هجرس، وثار به محمد بن أحمد بن وشاح من أولاد جحاف المذكور فعزله، وأقام في ولايته إلى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فثار به أهل الحامة وقتلوا عمر بن كلى القاضي، وولوا عليهم حسان بن هجرس واليهم.

ثم ثار به يوسف واعتقله وهو يوسف بن عبد الملك بن حجاج بن يوسف بن وشاح وهو الآن مقدمها يعطي طاعة معروفة، ويستدعي العامل في الجباية ويراوغ عن المصدوقة والغلب والاستيلاء، وقد أحاط به من كل جهة.

وأملى عليَّ بعض نسابتهم أن مشيخة أهل الحامة في بني بوسباك. ثم في بني تامل بن بوساك. وان تامل رأس عليهم وان وشاحاً من ولد تأمل وأن بني وشاح، على فرقتين: بنو حسن وبنو يوسف، فحسّان بن هجرس ومولاهم وعمر وأبو علان كلهم من بني حسن، ومحمد بن أحمد بن وشاح من بني يوسف، وهذا مخالف للأول، والله أعلم بالصحيح في أمرهم.

وأما نفزاوة وأعمال قسطيلية فتنسب لهذا العهد إلى توزر وهي القرى العديدة المقدرة السير، يعترض بينها وبين توزر إلى القبلة عنها السبخة المشهورة المانعة في الاعتساف، إلا معالم قائمة من الخشب يهتدي بها السالك، وربما يضل خائضها فتبتلعه. ويسكن هذه القرى قوم من بقايا نفزاوة من البرابرة البتر الذين بقوا هنالك بعد انقراض جمهورهم، وتحيف العرب لسائر بطون البربر، ومعهم معاهدون من الفرنجة ينسبون إلى سردانية نزلوا على الذمة والجزية وبها الآن أعقابهم. ثم نزل عليهم من عرب الشريد وزغب من بني سليم كل من عجز عن الظعن، وملكوا بها العقار والمياه وكثروا نفزاوة، وهم لهذا العهد عامة أهلها وليس في نفزاوة هذه رئاسة لصغرها ورجوعها في الغالب إلى أعمال توزر ورئاستها. هذا حال المتقدمين ببلاد الجريد في الدولة الحفصية أوردنا أخبارهم فيها لأنهم من صنائعها، وفي عداد ولايتها ومواليها، والله متولي الأمور.

الخبر عن بني مكي رؤساء قابس وأعمالها

كانت قابس هذه من ثغور إفريقية ومنتظمة في عمالاتها، وكان ولاتها من القيروان أيام الأغالبة والعبيديين وصنهاجة من لدن الفتح، ولما دخل الهلاليون إفريقية واضطربت أمورها واقتسمت دولة صنهاجة الطوائف، انتزى بقابس وصنهاجة المعز ابن محمد الصنهاجي وأدال منه مونس بن يحيى الصنبري من مرداس رياح بأخيه إبراهيم إلى أن هلك.وولي أخوه قاضي بن إبراهيم، ثم نازله أهل قابس فقتلوه أيام تميم بن المعز بن باديس فبايعوا لعمر بن المعز بن باديس كان مخالفاً على أخيه، وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة. ثم غلبه عليها أخوه تميم وكان مغلباً للعرب. وكانت قابس وضواحيها في قسم زغبة من عرب هلال. ثم غلبتهم رياح عليها ونزل مكن بن كامل بن جامع من بني دهمان إخوة فادغ وهما معاً من بني علي إحدى بطون رياح فاستحدث بها مكن ملكاً لقومه بني جامع وأورثه بنيه إلى أن استولى الموحدون على إفريقية وبعث عبد المؤمن عساكره إلى قابس ففر عنها مدافع بن رشيد آخرهم وانتظمها كما ذكرناه في أخبارهم وملكها، وانقراض ملك بني جامع وصارت قابس وأعمالها للموحدين، كان ولاة أفريقية من السادة يولون عليها من الموحدين إلى أن تغلب بنو غانية وقراقش على طرابلس وقابس وأعمالها، وكان ما ذكرناه في أخبارهم.

ثم غلب الموحدون يحيى بن غانية عليها وأنزلوا بها عمالهم. ولما عاد بنو أبي حفص إلى إفريقية العودة الثانية بعد مهلك الشيخ أبي محمد عبد الواحد، وعقد العادل على إفريقية لابنه أبي محمد عبد الله معه على قابس للأمير أبي زكريا أخيه فنزلها أميراً.ثم كان من شأن استبداده وخلعه لأخيه ولطاعة بني عبد المؤمن ما ذكرناه. وكان مشيخة قابس لذلك العهد في بيت من بيوتاتها، وهم بنو مسلم ولم يحضرني فيمن هو نسبهم.

وبنو مكي ونسبهم في لواتة وهو مكي بن فراج بن زيادة الله ابن أبي الحسن بن محمد بن زيادة الله بن أبي الحسين اللواتي. وكان بنو مكي هؤلاء خالصة للأمير أبي زكريا. ولما اعتزم على الاستبداد داخلَ أبو القاسم عثمان بن أبي القاسم بن مكي وتولى له أخذ البيعة على الناس فكان له ولقومه بذلك مكان من المولى أبي زكريا، رعى لهم ذمتها ورفع من شأنهم بسببها، ورموا بني سليم نظراءهم في رئاسة البلد بصاغيتهم إلى ابن غانية فأخذوا ذبالهم بماله واستقلوا بشورى بلدهم. وأقاموا على ذلك أيام المولى أبي زكريا الأول وابنه المستنصر. ثم كان ما قدمناه من مهلك الواثق بن المستنصر وبنيه على يد عمهم السلطان أبي إسحاق. وكان من أمر الدعي بن أبي عمارة، وكيف شبه على الناس بالفضل بن المخلوع بحيلة من مولاه نصير. رام أن يثأر بها من قاتلهم فتمت مكيدته في ذلك لما أراده الله.

ولما أظهر نصير أمره وتسايلت العرب إلى بيعته خاطب

لأول أمره رئيس قابس لذلك العهد من بني مكي عبد الملك بن عثمان بن مكي فسارع إلى طاعته وحمل الناس عليها، وكانت له بذلك قدم في الدولة معروف رسوخه.

ولما ألقى الداعي بن أبي عمارة جسداً على كرسي الخلافة سنة إحدى وثمانين وستمائة قلده خطة الجباية بالحضرة مستقلاً فيها بالولاية والعزل والفرض والتقدير والحسبان بعد أن أجزل من بيت المال عطاءه وجرايته وأسنى رزقه وجرايته وأهدى الجواري من القصر إليه. ولما هلك الداعي واستقلت قدم الخلافة من عثارها كما قدمناه سنة ثلاث وثمانين وستمائة لحق عبد الحق بن مكي ببلده وامتنع بها على حين ركود ريح الدولة وفشلها، ومرض في طاعته ودافع أهل الدولة بالدعاء للخليفة على منابره. ثم جاهر بالخلعان سنة ثلاث وتسعين وستمائة وبعث بطاعته إلى صاحب الثغور المولى أبي زكريا الأوسط. وهلك ابنه أحمد ولي عهده سنة سبع وتسعين وستمائة. ثم هلك هو من بعده على رأس المائة السابعة، وتخلف حافده مكي فنصبوه يفعة. وكفله ابن عمه يوسف بن حسن وقام بالأمر مستبداً عليه إلى أن هلك،، وخلفه في كفالة أحمد بن ليران من بيوت أهل قابس أصهار بني مكي والتاث أمرهم بمهلك يوسف فنقلهم السلطان ابن اللحياني إلى الحضرة، وأقاموا بها أياماً، ثم ردهم إلى بلدهم أيام تجافيه عن تونس وخروجه إلى ناحية قابس.

ثم هلك خلال ذلك مكي، وتخلف صبيين يافعين عبد الملك وأحمد فكفلهما أحمد ابن ليران إلى أن شبا واكتهلا، ولهما من الامتناع على الدولة والاستبداد بأمر القطر والاقتصار على الدعاء للخليفة مثل ما كان لأبيهما وأكثر لتقلص ظل الملك عن قطرهم، وشغل السلطان بمدافعة آل يغمراسن وعساكرهم عن الثغور الغربية، واجلابهم بالأعياص من أهل البيت على الحضرة،

ولما هلك السلطان أبو يحيى اللحياني قفل ابنه عبد الواحد إلى المغرب يحاول أسباب الملك، ونزل بساحتهم على ما كان من صنع أبيه إليهم فذكروا العهد، وأوجبوا الحق وآتوا بيعتهم.وقام كبيرهم عبد الملك بأمره ودعا الناس إلى طاعته، وخالف السلطان أبا يحيى عند نهوضه إلى الثغر ببجاية سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة كما قدمناه، فدخل الحضرة ولبث بها أياماً لم تبلغ نصف شهر، وبلغ خبرهم إلى السلطان فانكفأ راجعاً وفروا إلى مكانهم من قابس، والدولة تنظر إليهم الشزر وتتربص بهم الدوائر إلى أن غلب السلطان أبو الحسن على تلمسان ومحا دولة آل يغمراسن، وفرغت الدولة من شأنهم إلى تمهيد أعمالها وتقويم المنحرفين عن الطاعة من ولاتها.

وقفل حمزة بن عمر بشفاعة السلطان أبي الحسن إلى السلطان أبي يحيى في شأنه فتقبل وسيلته واستخلصه لنفسه من بعدها، واستقام هو على الطاعة التي لم تجد وليجة عنها، وسلك سبيله تلك أقتاله من الدولة الطائحين في هوة الشقاق، فأوفد عبد الملك هذا شقيقه أحمد على السلطان أبي الحسن متنصلاً من ذنوبه لائذاً بشفاعته متوسلاً بما قدمناه من خدمته حظاياه في طريقهن إلى الحج ذاهباً وجائياً، فخاطب السلطان أبا يحيى في شأنه وأعاده إلى مكانه من اصطناع سلفه واستقام على طاعته.ولما انتظم السلطان أبو يحيى سائر البلاد الجريدية في ملكه وعقد عليها لابنه أبي العباس ولي عهده، وأنزله دار إمارتها متردداً ما بين توزر وقفصة إلى أن قفلت عمته من الحج سنة ست وأربعين وسبعمائة، وخرج للقائها مختفياً بين الظعائن فجمعه مجلسها بأحمد بن مكي كان قد اعتمد تلقيها والقيام بصحابتها في مراحل سفرها من بلده إلى آخر عمله، فمسح الأمير أبو العباس الإحن عن صدره وأدال له الأمن والرضى من توحشه، واستخلصه لدولته ونجوى أسراره واصطفاه لنفسه وحمله رديفاً لحاجبه، فحل من دولته بمكان غبطة فيه امتيازه من أمراء تلك الطوائف.

وعقد له السلطان أبو يحيى على جزيرة جربة بوسيلة أبي العباس ابنه، وقد كان افتتحها مخلوف بن الكماد من صنائعهم من يد العدو أهل صقلية كما ذكرناه، فضمها إليه وصيرها في أعماله.ولم يزل هذا شأنه معه إلى أن هلك أبو العباس ولي العهد بتونس على يد أخيه أبي حفص عمر عندما دخلها بعد مهلك أبيهما كما ذكرناه، ولحق أحمد بن مكي ببلده. ثم سار في وفد رؤساء الجريد إلى تلقي السلطان أبي الحسن عند نهوضه إلى إفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ولقيه معهم بوهران من أعمال تلمسان، وكان قدمه عنده فوق قدمهم.ورجع الوفد على أعقابهم محبورين. وتمسك بأحمد بن مكي في جملته إلى الحضرة، ووفد عليه أخوه عبد الملك مؤدياً طاعة السلطان، فكرم موصله وأحسن متقلبهما جميعاً إلى بلدهما على ما كان بيدهما من عمل قابس وجربة. ثم كانت نكبة السلطان أبي الحسن على القيروان فوفد عليه أحمد بتونس بعد خلوصه من القيروان مجدداً لعهد طاعته، فأرادهم السلطان على الامتنان لعبد الواحد اللحياني سلطانهم الأقدم، وعقد له على تلك الثغور الشرقية، وأنزله جربة، وأمرهما بالطاعة له ما دام في طاعته. وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر وقسطيلية بعد أن كان قطعه عندما تقبض عليه في واقعة السلطان أبي حفص عمر. ثم استقبل رايه في استخلاصه عندما انتقض عليه أبو محمد بن تافراكين. ولما رجع

من القيروان إلى تونس عقد له على توزر كما ذكرناه، ولعبد الواحد بن اللحياني على قابس وجربة فأسف بذلك بني مكي هؤلاء.

وهلك ابن اللحياني لحين نزوله بجربة بما أصابه من علة الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة فانتقض بنو مكي على السلطان أبي الحسن ودعوا إلى الخروج عليه وبايعوا الأفضل ابن السلطان أبي يحيى عندما أفرج عن حصار تونس سنة خمسين وسبعمائة، وداخلوا أبا القاسم بن عتو وهو إذ ذاك لم يتوزر، فأجابهم وكانت من دواعي رحلة السلطان أبي الحسن من إفريقية وتقويضه عنها كما قدمناه. ولما رجع الحاجب أبو محمد بن تافراكين من المشرق، واستقل بأمر تونس، ونصب الإمام أبا إسحاق ابن السلطان أبي يحيى للخلافة بها في كفالته غصوا بمكانه من التغلب وأنفوا من استبداده، وانحرفوا إلى دعوة الأمير أبي زيد صاحب ثغر قسطنطينة. ووفد عليه أحمد بن مكي مع محمد بن طالب بن مهلهل كبير البدو بإفريقية فيمن إليه فاستنهضوه وقلده الأمير أبو زيد حجابته وجعل أمره إليه. وأبرز الحاجب أبو محمد تافراكين سلطانه أبا إسحاق في عساكره مع خالد بن حمزة وقومه فالتقى الجمعان بمرجنة وكانت الدبرة على السلطان أبي إسحاق سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وجاؤوا على أثرهم فنازلوا تونس أياماً وما أفرجوا عنها إلا للصائح يخبرهم باحتلال عساكر بني مرين بالمرية من آخر أعمال تلمسان، وأن السلطان أبا عنان قد استلحم بني عبد الواد، وجمع كلمة زناتة، واستقام له أمر المغربين.وأطل على الثغور الشرقية فافترق جمعهم. ولحق الأمير أبو زيد بقسطنطينة، وأحمد بن مكي بقابس وسأل من الأمير أبي زيد أن يقسم رسم الإمارة بينهم في قابس وجربة بأخيه السلطان أبي العباس فأذن له في ذلك، فكانت أول ولايته السعيدة ومضى إلى قابس فنزلها، ثم أجاز البحر إلى جربة، ودفع عنها العسكر الذي كان محاصراً للقشتيل من قبل ابن ثابت صاحب طرابلس، ورجع إلى قابس حتى كان من أمره ما ذكرناه.

وأوفد السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى زكريا على أبي عنان ملك المغرب صريخاً على شأنه، وأوفد ابن مكي رسله متذمماً ومذكراً بوسائله فتقبل وأغضى. ثم كانت واقعة العدو دمره اللّه بطرابلس سنة أربع وخمسين وسبعمائة كما قدمناه فبعث إلى السلطان أبي عنان يسأله فديتها والنظر لها من بين ثغور المسلمين، فحمل إليه خمسة أحمال من الذهب العين من بيت المال، أوفد بها من أعيان مجلسه: الخطيب أبا عبد اللّه بن مرزوق، وأبا عبد اللّه محمد حافد المولى أبي علي عمر بن سيد الناس. وعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فاستقل بها، وعقد لأخيه عبد الملك على قابس وجربة وأقاموا على دعوته. ومد أحمد يده إلى صفاقس فنازلها وتغلب عليها سنة سبع وخمسين وسبعمائة وهلك السلطان أبو عنان وقد شرق صدر ابن تافراكين الغالب على الحضرة بعداً وتهمتاً فردد عليهما البعوث براً وبحراً إلى أن استخلص جزيرة جربة من أيديهما أعوام أربعة وستين وسبعمائة وعقد عليها لولده محمد فاستخلف بها كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون من صنائع الدولة كما ذكرناه.

وهلك أحمد بن مكي سنة ست وستين وسبعمائة على تفيئة مهلك الحاجب بن تافراكين بالحضرة فكأنهما ضربا موعداً للهلكة وتوافياه. وتخلف ابنه عبد الرحمن بطرابلس في كفالة مولاه ظافر العلج، وهلك ظافر إثر مهلكه فاستبد عبد الرحمن بطرابلس وساءت سيرته فيها إلى أن نازله أبو بكر بن محمد بن ثابت في أسطوله كما نذكره سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة. وأجلب عليه بالبرابرة والعرب من أهل الوطن فانتقض عليه أهل البلد وثاروا به. وبادر أبو بكر بن ثابت لاقتحامها عليه وأسلموه ففرّ إلى بيت أحد أمراء دباب فأجاره إلى أن أبلغه مأمنه من محلة قومه، وإيالة عمه عبد الملك بقابس إلى أن هلك سنة تسع وسبعين وسبعمائة ولم يزل عبد الملك لهذا العهد وهو سنة إحدى وثمانين وسبعمائة والياً على عمله بقابس وابنه يحيى مستبد بوزارته، وحافده عبد الوهاب لابنه مكي رديف له، وقد تراجعت أحوالهم عما كانت وخرجت من أيديهم الأعمال التي كانت في عمالتهم لعهد أخيه أحمد مثل: طرابلس وجزيرة جربة وصفاقس وما إلى ذلك من العمالات حتى كان البخت إنما كان لأخيه، واليمن إنما اقترن بحياته وسيرتهما جميعاً من العدالة وتحري مذاهب الخير والسمت، والانتسام بسمات أهل الدين وحيلة الفقه معروفة حتى كان كل واحد منهم إنما يدعي بالفقه علماً بين أهل عصره حرصاً على الانغماس في مذاهب الخير وطرقه. وكان لأحمد حظ من الأدب، وكان يقرض الأبيات من الشعر فيجيد عفا اللّه عنه. وله في الترسيل حظ ووساع بلاغة وخط، وينحو في كتابه منحى أهل المشرق في أوضاع حروفهم وأشكال رسومها، ولأخيه عبد الملك حظ من ذلك شارك به جهابذة أهل عصره وافقه.

ولما انتظم السلطان أبو العباس أمصار إفريقية في ملكه واستبد بالدعوة الحفصية على قومه داخل أهل الجريد منه الروع، وفزعوا إليه للمقاوضة في الامتناع فداخلهم في ذلك وأشاروا إلى صاحب تلمسان بالترغيب في إفريقية فعجز عنهم وألحوا عليه فخام عن العداوة. وزحف مولانا السلطان خلال ذلك إلى الجريد

فملك قفصة وتوزر ونفطة فبادر ابن مكي إلى التلبيس بالاستقامة وبعث إليه بالطاعة. ثم رجع السلطان إلى الحضرة فرجع هو عن المصدوقة واتهم أهل البلد بالميل إلى السلطان فتقبض على بعضهم وفر آخرون. وانتقض بنو أحمد أهل ضواحيه من دباب فنازلوه وبعثوا إلى الأمير الأكبر أبي بكر بقفصة في العسكر لمنازلته، فبعثه إليهم وأحاطوا به. ثم انتهز الفرصة وداخل بعض العرب من بني علي في تبييت المعسكر، وبذل لهم في ذلك المال فبيتوه وانفض وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من حضرته سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ونزل القيروان وتوافت إليه أحاديات وبعث رسله للأعذار بين يديه فردهم ابن مكي بالطاعة ثم احتمل رواحله ونزل بأحياء العرب.

وأغذ السلطان السير إلى البلد فدخلها واستولى على قصورها، ولاذ أهل البلد بالبيعة فأتوها واستعمل عليهم من بطانته وانكفأ راجعاً إلى تونس. وهلك عبد الملك لأيام قلائل بين أحياء العرب. وهلك بعده ابنه عبد الرحمن ابن أخيه أحمد الذي كان صاحب طرابلس بعد أبيه، ولحق ابنه يحيى وحافده عبد الوهاب بطرابلس فمنعهم ابن ثابت من النزول ببلده لما كان متمسكاً بطاعة السلطان، فنزلوا بزنزور من بلاد دباب التي بضواحيها وأقاموا هنالك. واستقامت النواحي الشرقية على طاعة السلطان وانتظمت في دعوته والله مالك الملك.

ثم ذهب يحيى بن عبد الملك إلى المشرق لقضاء فرضه، وأقام عبد الوهاب بين أحياء البربر بالجبال هنالك، وكان الوالي الذي تركه السلطان بقابس قد ساء أثره في أهلها، فدس شيعتهم إلى عبد الوهاب بذلك وجاء إلى البلد فبيتها، وثاروا بالوالي فقتلوه سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وملك عبد الوهاب قابس وجاء أخوه يحيى من المشرق بعد قضاء فرضه، فأجلب عليه مراراً يروم ملكها منه، ولم يتهيأ له، ونزل على صاحب الحمة فداخله عبد الوهاب في أن يمكنه منه، ويشترط ما شاء.وتم ذلك بينهما وأوثقه كتافا وبعث به إليه واعتقله بقصر العروسيين، فمكث في السجن أعواماً. ثم فر من محبسه ولحق بالحامة على مرحلة من قابس مستنجداً بابن وشاح صاحبها، فأنجده. وما زال يجلب على نواحي قابس إلى أن ملكها وتقبض على عبد الوهاب ابن أخيه مكي فقتله أعوام تسعين وسبعمائة. ولم يزل مستبداً ببلده إلى سنة ست وتسعين وسبعمائة وكان الأمير عمر ابن السلطان أبي العباس قد بعثه أبوه لحصار طرابلس فحاصرها حولاً كما نذكره، حتى استقام أهلها على الطاعة وأعطوا الضريبة فأفرج عنها. ورجع إلى أبيه فولاه على صفاقس وأعمالها فاستقل بها، ثم داخل أهل الحامة في ملك قابس فأجابوه وساروا معه فبيتها ودخلها وقبض على يحيى بن عبد الملك فضرب عنقه، وانقرض أمر بني مكي من قابس، و لله الأمر من قبل ومن بعد، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني ثابت رؤساء مدينة طرابلس وأعمالها

قد تقدم لنا شأن هذا البلد لأول الفتح الإسلامي، وأن عمرو بن العاص هو الذي تولى فتحه، وبقي بعد ذلك من جملة أعمال إفريقية، تنسحب عليه ولاية صاحبها، فلم يزل ثغراً لهذه الأعمال من لدن إمارة عقبة ومن بعده وفي دول الأغالبة. وكان المعز لدين الله من خلفاء الشيعة لما ارتحل إلى القاهرة، وعقد على إفريقية لبلكين ابن زيري بن مناد أمير صنهاجة، عقد على طرابلس لعبد الله بن يخلف من رجالات كتامة. ثم لما ولي نزار الخلافة سنة سبع وستين وثلثمائة طلب منه بلكين أن يضيف عمل طرابلس إلى عمله فأجاب وعهد له بها، وولى عليها بلكين من رجالات صنهاجة. ثم عقد عليها الحاكم بعد مهلك المنصور بن بلكين ليأنس الصقلبي سنة تسعين وثلاثمائة بمداخلة عاملها يصول من صنهاجة، وأعانه على ذلك برجوان الصقلبي المتغلب على الدولة يومئذ لمنافسته ليأنس، فوصل إليها في ألف وخمسمائة فارس فملكها، فسرح باديس جعفر بن حبيب لحربه في عسكر من صنهاجة، وتزاحفا يومين بساحة زنزور، ثم انفض عسكر يأنس في الثالث وقتل، ولحق فله بطرابلس فاعتصموا بها. ونازلهم جعفر بن حبيب القائد، وزحف فلفول بن سعيد بن خزرون الثائر على باديس وابنه بإفريقية إلى قابس فحاصرها.

ثم قصد جعفر بن حبيب بمكانه من حصار طرابلس فأفرج عنها جعفر ولحق بنفوسة، وأميرهم يحيى بن محمد فامتنع عليهم، ثم لحق بالقيروان ومضى فلفول بن سعيد إلى طرابلس فخرج إليه فتوح بن علي ومن معه من أصحاب يأنس فملكوه، وقام فيها بدعوة الحاكم من خلفاء الشيعة وأوطنها. وعقد الحاكم عليها ليحيى بن علي بن حمدون أخي جعفر صاحب المسيلة النازع إليه من الأندلس فوصل إليها واستظهر بفلفول على بجاية، ونازل قابس فامتنعت عليه. ثم عجز عن الولاية ورأى استبداد فلفول عليه بعصبته فرجع إلى مصر، واستبد فلفول بطرابلس وتداولها بنوه مع ملوك صنهاجة إلى أن استبدوا بها آخراً. ودخل العرب الهلاليون إلى إفريقية فخربوا أوطانها وطمسوا معالمها. ولم تزل بأيدي بني خزرون هؤلاء إلى أن غلبهم عليها جرجي بن ميخائيل

صاحب أسطول رجار ملك صقلية من الإفرنج سنة أربعين وخمسمائة، وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم كما فعل في سواحل إفريقية فأقاموا في ملكة النصارى أياماً. ثم ثار بهم المسلمون بمداخلة أبي يحيى بن مطروح من أعيانهم وفتكوا بهم. ولما افتتح عبد المؤمن المهدية سنة خمس وخمسين وخمسمائة وفد عليه ابن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم تكرمة وردهم إلى بلدهم. وولى عليهم ابن مطروح إلى أن كبر سنه وعجز وارتحل إلى المشرق سنة ست وثمانين وخمسمائة بإذن السيد زيد بن عمر بن عبد المؤمن عامل إفريقية من قبل عمه يوسف واستقر بالإسكندرية.

وتعاقبت عليها ولاة الموحدين، ثم كان من أمر ابن غانية وقراقش ما قدمناه، وصارت طرابلس لقراقش. ثم استبد بنو أبي حفص بإفريقية على بني عبد المؤمن. وهلك قراقش وابن غانية، وانتظم عمل طرابلس في أعمال الأمير أبي زكريا وبنيه إلى أن انقسمت دولتهم، واقتطعت الثغور الغربية عن الحضرة. وفشل ريح الدولة بعض الشيء وتقلص ظلها عن القاصية، فصارت رئاسة طرابلس إلى الشورى ولم يزل العامل من الموحدين يجيء إليها من الحضرة إلا أن رئيسها من أهلها مستبد عليها، وحدثت العصبية في البلد لحدوث الشورى والمنافسة فيها. ثم نزلها السلطان أبو يحيى بن اللحياني سنة سبع عشرة وسبعمائة حين تجافى عن ملك الحضرة، وأحس بزحف السلطان أبي يحيى صاحب بجاية إليها فأبعد عن تونس إلى ثغر طرابلس، وأقام بها وأقام أحمد بن عربي من مشيختها بخدمته.

ولما فارق ابن اللحياني تونس ويئس الموحدون من عوده أخرجوا ابنه محمد المكنى بأبي ضربة من الاعتقال، وبايعوا له. وخرج للقاء السلطان أبي بكر ومدافعته فهزمه السلطان أبو بكر وحمله الأعراب الذين معه على قصد طرابلس لانتزاع الأموال والذخائر الملوكية من يد أبيه. ولما أحس بذلك أبوه ركب البحر من طرابلس إلى الإسكندرية كما هو مذكور في خبره، واستخلف على طرابلس صهره محمد بن أبي عمر بن إبراهيم بن أبي حفص فقام بأمرها، وولى حجابته رجلاً من أهله يشهر بالبطيسي، فساء أثره في أهل طرابلس، وحجب عنهم وجه الرضى من سلطانه، وحمله على مصادرتهم واستخلاص أموالهم حتى أجمعوا الثورة بالسلطان فركب السفين ناجياً منهم بعد أن تعرض بعضهم لوداعه فأطلعه على سعايات البطيسي بهم فقتلوه لوقته، وقتلوا قاضياً بطرابلس من أهل تونس كان يمالىء على ذلك. وتولى كبر ذلك أحمد بن عربي. ثم هلك وقام بأمر طرابلس محمد بن كعبور فقتله سعيد بن طاهر المزوغي وملك أمر البلد، وكان معه أبو البركات بن أبي الدنيا فمات حتف أنفه. واستقل ابن طاهر بأمر طرابلس اثنتي عشرة سنة. ثم هلك وقام بأمرها ثابت بن عمار الزكوجي من قبائل هوارة. وثار به لستة أشهر من ولايته أحمد بن سعيد بن طاهر فقتله واستبد به. ثم ثار به جماعة زكوجة وقتلوه في مغتسله عند الأذان بالصبح، وولوا محمداً ابن شيخهم ثابت بن عمار أعوام سبعة وعشرين فاستبد بأمر طرابلس نحواً من عشرين سنة وظل الدولة متقلص عنه. وهو يغالط عن الإمارة بالتجارة والاحتراف بها ولبوس شارتها، والسعي راجلاً في سكك المدينة يتناول حاجاته وماعونه بيده ويخالط السوقة في معاملاته، يذهب في ذلك مذهب التخلق والتواضع يسر منه حسواً في ارتغاء، ويطلب العامل من تونس، فيبعثه السلطان على طرابلس يقيم عنده معتملاً في تصريفه. وهو يبرأ إليه ظاهراً من الأحكام والنقض والإبرام إلى أن كان تغلب بني مرين على إفريقية. ووصل السلطان أبو الحسن إلى الحضرة على ما نذكره، فداوله طرف الحبل وهو ممسك بطرفه، ونقل إلى الإسكندرية ماله وذخيرته. ثم اغتاله أثناء ذلك جماعة من مجريش عند داره فقتلوه، وثار منهم للحين بطانته وشيعته. وولي بعده ابنه ثابت، فتزيا بزي الإمارة في اللبوس والركوب بحلية الذهب، واتخاذ الحجاب والبطانة.

وأقام على ذلك إلى أن اجتمع بها أسطول من تجار النصارى أغفلوا أمرهم لكثرة طروقهم وترددهم في سبيل التجارة، وكثرة ما يغشاها من سفنهم، فغدروا بها ليلاً وثاروا فيها وكثروا أهلها فأسلم الحامية إليهم باليد. وفر مقدمهم ثابت إلى حلة أولاد مرغم أمراء الجواري في أنحائها فقتلوه صبراً لدم كان أصابه منهم في رئاسته، فكانت مدته ست سنين، وقتلوا معه أخاه عماراً.

واكتسح النصارى جميع ما كان بالبلد من الذخيرة والمتاع والخرثي والماعون، وشحنوا السفن بها وبالأسرى من العقائل والحامية مصفدين، وأقاموا بالبلد أياماً على قلق ورهب من الكرة لو كان لها رجال. ثم تحدثوا مع من جاورها من المسلمين في فدائها فتصدى لذلك صاحب قابس أبو العباس أحمد بن مكي وبذل لهم فيها خمسين ألفاً من الذهب استوهب أكثرها من جماعة المسلمين بالبلاد الجريدية تزلفاً إلى الله باستخلاص الثغر من يد الكفر، وذلك سنة... وخمسين ولحق ولد ابن ثابت بثغر الإسكندرية فأقاموا به يحترفون بالتجارة إلى أن هلك أحمد بن مكي سنة ست وستين وسبعمائة، وقام بأمره ولده عبد الرحمن. فسما أبو بكر بن محمد بن ثابت إلى رئاسة أبيه، وذكر عهود الصبا في معاهد قومه فاكترى من النصارى سفناً شحنها بصنائعه وموالي أبيه،

ونازلها سنة إحدى وسبعين وسبعمائة في أسطول من أساطيلهم. واجتمع إليه ذؤبان العرب ففرق فيهم الأموال وأجلب عليها بمن في قراها وأريافها من الرجل، فاقتحمها على عبد الرحمن بن أحمد بن مكي عنوة، وأجاره العرب من أولاد مرغم بن صابر، وتولى ذلك منهم إلى أن أبلغوه مأمنه في إيالة عمه عبد الملك بمكان إمارتهم بقابس.

واستوسق أمر طرابلس لأبي بكر هذا، واستقل بولايتها. ودخل في طاعة السلطان أبي العباس بتونس، وخطب له على منابر، وقام يصانعه بما للسلطان من الضريبة، ويتحفه حيناً بعد حين بالهدايا والطرف إلى أن هلك سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، وولي مكانه علي ابن أخيه عمار، وقام بكفالته عمه. وكان قائده قاسم بن خلف الله متهماً بالتشيع للصبي المخلف عن أبي يحيى، فارتاب ودفعوه لاقتضاء المغارم من مسرتة، فتوحش الخليفة من علي وانتقض. ثم بعث إليه بأمانه فرجع إلى طرابلس، ثم استوحش وطلب الحج فخلوا سبيله وركب البحر إلى الإسكندرية. ولقي بها خالصة السلطان محمد بن أبي هلال عام حج فأخذ منه ذمة، وكر راجعاً في السفين إلى تونس يستحث السلطان لملك طرابلس. فلما مر بهم راسلوه ولاطفوه واستعادوه إلى مكانه فعاد إليهم. ثم جاءته النذر بالهلكة ففر، ولحق السلطان بتونس واستحثه لملك طرابلس. وبلغ الخبر إلى السلطان فبعث معه ابنه الأمير أبا حفص عمر لحصار طرابلس فنزل بساحتها، وافترق عرب دباب عليه وعلى ابن ثابت، وقام ابن خلف الله في خدمته المقام المحمود، ووفر له جباية الوطن ومغارمه ونقل العرب إلى طاعته ويستألفهم به، وأقام عليها حولاً كريتاً يمنع عنهم الأقوات ويبرزون إليه فيقاتلهم بعض الأحيان. ثم دفعوه بالضريبة التي عليهم لعدة أعوام نائطة وكان قد ضجر من طول المقامة فرضي بطاعتهم وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة فولاه على صفاقس وافتتح منها قابس كما قدمناه.وأقام علي بن عمار على إمارته بطرابلس إلى هذا العهد، والله مدبر الأمور بحكمته.

هذا آخر الكلام في الدولة الحفصية من الموحدين وما تبعها من أخبار المقدمين المستبدّين بأمصار الجريد والزاب والثغور الشرقية، فلنرجع إلى أخبار زناتة ودولهم، وبكمالها يكمل الكتاب إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زناتة من قبائل البربر وما كان بين أجيالهم من العز والظهور وما تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة

هذا الجيل في المغرب جيل قديم العهد، معروف العين والأثر؛ وهم لهذا العهد آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين، وتخطف الناس من العمران، والإباية عن الانقياد للنصفة.

وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر. ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب.

فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم كما نذكره.

ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية، وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأذعنوا لحكمهم؛ والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال: وطن زناتة.

ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى، وهم لهذا العهد أهل دول وملك بالمغربين، وكانت لهم فيه دول أخرى في القديم.

ولم يزل الملك يتداول في شعوبهم حسبما نذكره بعد لكل شعب منهم إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نسبة زناتة وذكر الخلاف الواقع فيه وتعديد شعوبهم

أما نسبهم بين البربر فلا خلاف بين نسّابتهم أنهم من ولد شانا وإليه نسبهم، وأما شانا فقال أبو محمّد بن حزم في كتاب « الجمهرة » : قال بعضهم: هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورماك بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر.

وقال أيضاً في كتاب « الجمهرة » : ذكر لي يوسف الوراق عن أيوب بن أبي يزيد - يعني حين وفد على قرطبة عن أبيه الثائر بإفريقية أيام الناصر - قال: هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورساك بن ضري بن مقبوبو بن قروال بن يملا بن مادغيس بن رحيك بن همرحق بن كراد بن مازيغ بن هريك بن هرك بن برا بن بربر بن كنعان بن حام هذا ما ذكره ابن حزم.

ويظهر منه أن مادغيس ليس نسبة إلى البربر وقد قدمنا ما في ذلك من الخلاف، وهو أصح ما ينقل في هذا الآن ابن حزم موثوق ولا يعدل به غيره.

ونقل عن ابن أبي زيد وهو كبير زناتة: ويكون البربر على هذا من نسل برنس فقط، والبتر الذين هم بنو مادغيس الأبتر ليسوا من البربر ومنهم زناتة وغيرهم كما قدمنا لكنهم إخوة البربر لرجوعهم كلهم إلى كنعان بن حام كما يظهر من هذا النسب.

ونقل عن أبي محمد بن قتيبة في نسب زناتة هؤلاء أنهم من ولد جالوت في رواية أن زناتة هو شانا بن يحيى بن ضريس بن جالوت، وجالوت هو ونور بن هريبل بن جديلان بن جاد بن رديلان بن حصى بن باد بن زجيك بن مادغيس الأبتر بن قيس بن عيلان.

وفي رواية أخرى عنه: أن جالوت بن جالود بن ديّال بن قحطان بن فارس، وفارس مشهور.

وفي رواية أخرى عنه: أنه ابن هوبال بن بالود بن ديال بن برنس بن سفك، وسفك أبو البربر كلهم، ونسابة الجيل نفسه من زناتة يزعمون أنهم من حمير، ثم من التبابعة منهم.

وبعضهم يقول: إنهم من العمالقة، ويزعمون أن جالوت جدهم من العمالقة.

والحق فيهم ما ذكره أبو محمد بن حزم أولاً وما بعد ذلك فليس شيء منه بصحيح.

فأما الرواية الأولى عن أبي محمد بن قتيبة فمختلطة وفيها أنساب متداخلة.

وأما نسب مادغيس إلى قيس عيلان فقد تقدم في أول كتاب البربر عند ذكر أنسابهم وأن أبناء قيس معروفون عند النسابة.

وأما نسب جالوت إلى قيس فأمر بعيد عن القياس، ويشهد لذلك أن معدّ بن عدنان الخامس من آباء قيس إنما كان معاصراً لبختنصّر كما ذكرناه أول الكتاب.

وأنه لمّا سلّط على العرب أوحى اللّه إلى أرمياء نبّي بني إسرائيل أن يخلص معدّاً ويسير به إلى أرضه، وبختنصر كان بعد داود بما يناهز أربعمائة وخمسين من السنين، فإنه خرب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان له بمثل هذه المدة.

فمعدّ متأخر عن داود بمثلها سواء، فقيس الخامس من أبنائه متأخر عن داود بأكثر من ذلك، فجالوت على ما ذكر أنه من أبناء قيس متأخر عن داود بأضعاف ذلك الزمن.

وكيف يكون ذلك مع أن داود هو الذي قتل جالوت بنص القرآن؟

وأمّا إدخاله نسب جالوت في نسب البربر، وأنه من ولد مادغيس أو سفك فخطأ، وكذلك من نسبه إلى العمالقة.

والحق أن جالوت من بني فلسطين بن كسلوحيم بن مصرايم بن حام أحد شعوب حام بن نوح، وهم إخوة القبط والبربر والحبشة والنوبة كما ذكرناه في نسب أبناء حام.

وكان بين بني فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل حروب كثيرة، وكان بالشام كثير من البربر إخوانهم، ومن سائر أولاد كنعان يضاهونهم فيها، ودثرت أمة فلسطين وكنعان وشعوبهما لهذا العهد، ولم يبق إلا البربر، واختص اسم فلسطين بالوطن الذي كان لهم فاعتقد سامع اسم البربر مع ذكر جالوت أنه منهم وليس كذلك.

وأمّا ما رأي نسّابة زناتة أنهم من حمير فقد أنكره الحافظان أبو عمر بن عبد البّر وأبو محمد بن حزم وقالا: ما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في أكاذيب مؤرّخي اليمن، وإنّما حمل نسّابة زناتة على الانتساب في حمير الترفُّع عن النسب البربري لما يرونهم في هذا العهد خولاً وعبيداً للجباية وعوامل الخراج، وهذا وهم فقد كان في شعوب البربر من هم مكافؤون لزناتة في العصبيّة أو أشدّ منهم مثل هوّارة ومكناسة، وكان فيهم من غلب العرب على ملكهم مثل كتامة وصنهاجة ومن تلقّف الملك من يد صنهاجة مثل المصامدة، كل هؤلاء كانوا أشدّ قوة وأكثر جمعاً من زناتة.

فلما فنيت أجيالهم أصبحوا مغلبين فنالهم ضُر المغرم، وصار اسم البربر مختصّاً لهذا العهد بأهل المغرم، فأنف زناتة منه فراراً من المضيمة.

وأعجبوا بالدخول في النسب العربي لصراحته وما فيه من المزيّة بتعدُّد الأنبياء ولا سيما نسب مضر وأنهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم بن نوح بن شيث بن آدم، خمسة من الأنبياء ليس للبربر إذا نسبوا إلى حام مثلها مع خروجهم عن نسب إبراهيم الذي هو الأب الثالث للخليقة إذ الأكثر من أجيال العالم لهذا العهد من نسله.

ولم يخرج عنه لهذا العهد إلا الأقلّ مع ما في العروبية أيضاً من عزّ التوحُّش، والسلامة من مذمومات الخلق بانفرادهم في البيداء.

فأعجب زناتة نسبهم وزينه لهم نسّابتهم، والحق بمعزل عنه، وكونهم من البربر بعموم النسب لا ينافي شعارهم من الغلب والعزّة، فقد كان الكثير من شعوب البربر مثل ذلك وأعظم منه.

وأيضاً فقد تميزت الخليقة وتباينوا بغير واحد من الأوصاف، والكل بنو آدم ونوح من بعده.

وكذلك تميزت العرب وتباينت شعوبها والكل لسام ولإسماعيل بعده.

وأما تعدّد الأنبياء في النسب فذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء، ولا يضرّ الاشتراك مع الجيل في النسب العام إذا وقعت المباينة لهم في الأحوال التي ترفع عنهم، مع أنّ المذلّة للبربر إنما هي حادثة بالقلّة ودثور أجيالهم بالملك حصل لهم، ونفقوا في سبله وترفه كما تقدّم لك في الكتاب الأوّل من تأليفنا.

وإلا فقد تقدم لهم من الكثرة والعزّ والملك والدولة ما هو معروف.

وأما أن جيل زناتة من العمالقة الذين كانوا بالشام فقول مرجوح وبعيد عن الصواب لأنّ العمالقة الذين كانوا بالشام صنفان: عمالقة من ولد عيصو بن إسحاق، ولم تكن لهم كثرة ولا ملك، ولا نقل أنّ أحداً منهم انتقل إلى المغرب بل كانوا لقلّتهم ودثور أجيالهم أخفى من الخفاء، والعمالقة الأخرى كانوا من أهل الملك والدولة بالشام قبل بني إسرائيل وكان أريحاء دار ملكهم.

وغلب عليهم بنو إسرائيل وابتزّوهم ملكهم بالشام والحجاز وأصبحوا حصائد سيوفهم؛ فكيف يكون هذا الجيل من أولئك العمالقة الذين دثرت أجيالهم؟ وهذا لو نقل لواقع به الاسترابة فكيف وهو لم ينقل؟ هذا بعيد في العبادة واللّه أعلم بخلقه.

وأمّا شعوب زناتة وبطونهم فكثير ولنذكر المشاهير منها فنقول:

اتفق نُسّاب زناتة على أن بطونهم كلّها ترجع إلى ثلاثة من ولد جانا وهم: ودليك وفرني والديرت. هكذا في كتب أنساب زناتة.

وذكر أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة له من ولد ورسيك عند نسّابتهم مسّارت ورغاي وواشروجن، ومن واشروجن واريفن بن واشروجن.

وقال أبو محمد بن حزم: ولد ورسيك أنهم مسارت وناجرت وراسين.

وأما فرني بن جانا فمن ولده عند نسّابه زناتة يزمرتن ومرنجيصة ووركلة وغمالة وسبرترة، ولم يذكر أبو محمد بن حزم سبرترة وذكر الأربعة الباقية.

وأمّا الديرت بن جانا فمن ولده عند نسّابة زناتة جراو بن الديرت، ولم يذكره ابن حزم.

وإنما قال عند ذكر الديرت ومن شعوبه: ينوورسيك بن الديرت وهم بطنان دمّر بن ورسيك وزاكيا بن ورسيك. قال: ودمر لقب واسمه الغانا.

قال: فمن ولد زاكيا بنو مغراو وبنو يفرن وبنو واسين.

قال: وأُمّهم واسين مملوكة لأم مغراو وهم ثلاثتهم بنو يصلتن بن مسرا بن زاكيا.

ويزيد نسّابة زناتة في هؤلاء يرنيان يصلتن أخاً لمغراو ويفرن وواسين ولم يذكره ابن حزم.

قال: ومن ولد دمّر بنو ورنيد بن وانتن بن وارديرن بن دمّر، وذكر لبني دمر أفخاذاً سبعة وهم غرزول ولقورة ورتاتين، وهؤلاء الثلاثة مختصّون بنسب دمّر، وبرزال ويصدرين وصغمان ويطوفت، هكذا ذكر أبو محمد بن حزم وزعم أنه من إملاء أبي بكر بن يكنى البرزالي الأباضي.

وقال فيه: كان ناسكاً عالماً بأنسابهم، وذكر أن بني برواسين وبني برزال كانوا أباضيّة وأن بني يفرن ومغراوة كانوا سنّية.

وعند نسّابة البربر مثل سابق بن سليمان المطماطي وهانئ بن يصدور والكومي وكهلان بن أبي لوا، وهو مسطّر في كتبهم أن بني ورسيك بن الديرت بن جانا ثلاثة بطون وهم: بنو زاكيا وبنو دمّر وآنشة بنو آنش، وكلهم بنو وارديرن بن وورسيك.

فمن زاكيا بن وارديرن أربعة بطون: مغراوة وبنو يفرن وبنو يرنيان وبنو واسين، كلهم بنو يصلتن بن مسرا بن زاكيا ومن آنش بن وارديرن أربعة بطون: بنو برنال وبنو صقمان وبنو يصدورين وبنو يطوفت كلهم بنو آنش بن وارديرن.

ومن دمّر بن وارديرن ثلاثة بطون: بنو تقورت وبنو غزرول وبنو ورتاتين كلهم بنو وتيد بن دمر، هذا الذي ذكره نسابة البربر وهو خلاف ما ذكره ابن حزم.

ويذكر نسابة زناتة آخرين من شعوبهم ولا ينسبونهم مثل يجفش وهم أهل جبل قازاز قريب مكناسة وسنجاسن وورسيفان وتحليلة وتيسات وواغمرت وتيغرض ووجديجن وبنو يلومي وبنو ومانوا وبنو توجين على أن بني توجين ينتسبون في بني واسين نسباً ظاهر صيحيحاً بلا شك على ما يذكر في أخبارهم.

وبعضهم يقول في وجديجن وواغمرت بنو ورتنيض أنهم من البرانس من بطون البربر على ما قدمناه.

وذكر ابن عبد الحكم في كتابه فتح مصر خالد بن حميد الزناتي، وقال فيه: هو من شورة إحدى بطون زناتة، ولم نره لغيره.

هذا ملخص الكلام في شعوب زناتة وأنسابهم بما لا يوجد في كتاب.

واللّه الهادي إلى مسالك التحقيق لا رب غيره.

فصل في تسمية زناتة ومبنى هذه الكلمة

أعلم أن كثيراً من الناس يبحثون عن مبنى هذه الكلمة واشتقاقها على ما ليس معروفاً للعرب ولا لأهل الجيل أنفسهم فيقال: هو اسم وضعته العرب على هذا الجيل، ويقال بل الجيل وضعوه لأنفسهم أو اصطلحوا عليه.

ويقال: هو زانا بن جانا فيزيدون في النسب شيئاً لم تذكره النسّابة.

وقد يقال: إنه مشتق ولا يعلم في لسان العرب أصل مستعمل من الأسماء يشتمل على حروفه المادية، وربما يحاول بعض الجهلة اشتقاقه من لفظ الزنا، ويعضده بحكاية خسيسة يدفعها الحق، وهذه الأقوال كلها ذهاب إلى أنّ العرب وضعت لكل شيء اسماً، وأنّ استعمالها إنما هو لأوضاعها التي من لغتها ارتجالاً واشتقاقاً.

وهذا إنما هو في الأكثر وإلا فالعرب قد استعملت كثيراً من غير لغتها في مسمّاه إمّا لكونه علماً فلا يغيّر مثل إبراهيم ويوسف وإسحاق من اللغة العبرانية، وإمّا استعانةً وتخفيفاً لتداوله بين الألسنة كاللجام والديباج والزنجبيل والنيروز والياسمين والآجرّ، فتصير باستعمال العرب كأنها من أوضاعهم. ويسمّونها المعرّبة وقد يغيّرونها بعض التغيير في الحركات أو في الحروف، وهو شائع لهم لأنه بمنزلة وضع جديد.

وقد يكون الحرف من الكلمة ليس من حروف لغتهم فيبدّلونه بما يقرب منه في المخرج فإن مخارج الحروف كثيرة منضبطة وإنما نطقت العرب منها بالثمانية والعشرين حروف أبجد.

وبين كل مخرجين منها حروف أكثر من واحد فمنها ما نطقت به الأمم، ومنها ما لم تنطق به، ومنها ما نطق به بعض العرب كما هو مذكور في كتب أهل اللسان.

وإذا تقرّر ذلك فاعلم أنّ أصل هذه اللفظة التي هي زناتة من صيغة جانا التي هي إسم أبي الجيل كله، وهو جانا بن يحيى المذكور في نسبهم.

وهم إذا أرادوا الجنس في التعميم ألحقوا بالاسم المفرد تاء فقالوا: جانات.

وإذا أرادوا التعميم زادوا مع التاء نوناً فصار جاناتن، ونطقهم بهذه الجيم ليس من مخرج الجيم عند العرب بل ينطقون بها بين الجيم والشين وأميل إلى السين، ويقرب للسمع منها بعض الصفير فأبدلوها زاياً محضة لاتصال مخرج الزاي بالسين، فصارت زانات لفظاً مفرداً دالاً على الجنس.

ثم ألحقوا به هاء النسبة وحذفوا الألف التي بعد الزاي تخفيفاً لكثرة دورانه على الألسنة واللّه أعلم.

فصل في أولية هذا الجيل وطبقاته

أمّا أوليّة هذا الجيل بإفريقية والمغرب فهي مساوقة لأوليّة البربر منذ أحقاب متطاولة لا يعلم مبدأها إلا اللّه تعالى.

ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يفرن وجراوة وبني يرنيان ووجديجن وغمرة وبني ويجفش وواسين وبني تيغرست وبني مرين وتوجين وبني عبد الواد وبني راشد وبني برزال وبني ورنيد وبني زنداك وغيرهم.

وفي كل واحد من هذه الشعوب بطون متعدّدة.

وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تلمسان ثم إلى وادي ملويّة.

وكانت الكثرة والرياسة فيهم قبل الإسلام لجراوة لهم لمغراوة وبني يفرن.

ولما ملك الإفرنجة بلاد البربر ودانوا لهم بدين النصرانية ونزلوا الأمصار بالسواحل، وكان زناتة هؤلاء وسائر البربر في ضواحيهم صاروا يؤدُّون لهم طاعة معروفة، وخراجاً معروفاً مؤقتاً، ويعسكرون معهم في حروبهم ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك حتى جاء اللّه بالإسلام، وزحف المسلمون إلى إفريقية وملك الإفرنجة بها يومئذ جرجير، فظاهره زناتة والبربر على شأنه مع المسلمين وانفضّوا جميعاً.

وقتل جرجير وأصبحت أموالهم مغانم ونساؤهم سبايا، وافتتحت سبيطلة.

ثم عاود المسلمون غزو إفريقية وافتتحوا جلولاء وغيرها من الأمصار، ورجع الإفرنجة الذين كانوا يملكونهم على أعقابهم

إلى مواطنهم وراء البحر.

وظن البربر بأنفسهم مقاومة العرب فاجتمعوا وتمسّكوا بحصون الجبال واجتمعت زناتة إلى الكاهنة وقومها جراوة بجبل أوراس حسبما نذكر، فأثخن العرب فيهم واتّبعوهم في الضواحي والجبال والقفار حتى دخلوا في دين الإسلام طوعاً وكرهاً، وانقادوا إلى إيالة مصر وتولّوا من أمرهم ما كان الإفرنجة يتولّونه حتى إذا انحلّت بالمغرب عُرى الملك العربي وأخرجهم من إفريقية البربر من كتامة وغيرهم، قدح هذا الجيل الزناتي زناد الملك فأورى لهم، وتداول فيهم الملك جيلاً بعد جيل في طبقتين حسبما نقصُّه عليك إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن الكاهنة وقومها جراوة من زناتة وشأنهم مع المسلمين عند الفتح

كانت هذه الأمة من البربر بإفريقية والمغرب في قوّة وكثرة وعديد وجموع، وكانوا يعطون الإفرنجة بأمصارهم طاعة معروفة، ملك الضواحي كلها لهم، وعليهم مظاهرة الإفرنجة مما احتاجوا إليهم ولما أطلّ المسلمون في عساكرهم على إفريقية للفتح ظاهروا جرجير في زحفه إليهم حتى قتله المسلمون وانفضّت جموعهم وافترقت رياستهم ولم يكن بعدها بإفريقية موضع للقاء المسلمين بجمعهم لما كانت غزواتهم لكل أُمّة من البربر في ناحيتها وموطنها مع من تحيّز إليهم من قبل الإفرنجة.

ولما اشتغل المسلمون في حرب عليّ ومعاوية أغفلوا أمر إفريقية ثم ولاها معاوية بعد عام عُقبة بن نافع الفهريّ فأثخن في المغرب في ولايته الثانية، وبلغ إلى السوس وقتل بالزاب في مرجعه.

واجتمعت البربر على كُسيلة كبير أوربّة، وزحف إليه بعد ذلك زُهير بن قيس البلوي أيام عبد الملك بن مروان فهزمه وملك القيروان وأخرج المسلمين من إفريقية.

وبعث عبد الملك حسّان بن النُعمان في عساكر المسلمين فهزموا البربر، وقتلوا كسيرة واسترجعوا القيروان وقرطاجنّة وإفريقية وفرّ بقية الإفرنجة والروم إلى صقليّة والأندلس، وافترقت رياسة البربر في شعوبهم.

وكانت زناتة أعظم قبائل البربر وأكثرها جموعاً وبطوناً، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس، وهم ولد كراو بن الديرت بن جانا.

وكانت رياستهم للكاهنة دهيا بنت تابنة بن نيقان بن باورا بن مصكسري بن أفرد بن وصيلا بن جراو.

وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربّوا في حجرها، فاستبدّت عليهم وعلى قومهم بهم، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم.

قال هاني بن بكور الضريسي: ملكت عليهم خمساً وثلاثين سنة وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة.

وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبلة جبر أوراس بإغرائها برابرة تهودا عليه، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها.

فلما انقضى جمع البربر وقتل كسيلة زحفوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس، وقد ضوي إليها بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البُتْر، فلقيتهم بالبسيط أمام جبلها، وانهزم المسلمون واتّبعت آثارهم في جموعها حتى أخرجتهم من إفريقية، وانتهى حسّان إلى برقة فأقام بها حتى جاءه المدد من عبد الملك، فزحف إليهم سنة أربع وسبعين وفضّ جموعهم، وأوقع بهم وقتل الكاهنة، واقتحم جبل أوراس عنوةً واستلحم فيه زهاء مائة ألف.

وكان للكاهنة ابنان قد لحقا بحسّان قبل الواقعة، أشارت عليهما بذلك أُمّهما دهيا لأثارة علم كان لديها في ذلك من شيطانها فتقبلهما حسّان وحسن إسلامهما واستقامت طاعتهما، وعقد لهما على قومها جراوة ومن انضوى إليهم بجبل أوراس.

ثم افترق فلُهم من بعد ذلك وانقرض أمرهم.

وافترق جراوة أوزاعاً بين قبائل البربر، وكان منهم قوم بسواحل مليلة، وكان لهم آثار بين جيرانهم هناك.

وإليهم نزع بن أبي العيش لما غلبه موسى بن أبي العافية على سلطانه بتلمسان أوّل المائة الرابعة حسبما نذكره.

فنزل عليهم وبنى القلعة بينهم إلى أن خربت من بعد ذلك.

والفلُّ منهم بذلك الوطن إلى الآن لهذا العهد مندرجون في يطوفت ومن إليهم من قبائل غمارة واللّه وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مبتدأ دول زناتة في الإسلام ومصير الملك إليهم بالمغرب وإفريقية

لما فرغ شأن الردّة من إفريقية والمغرب وأذعن البربر لحكم

الإسلام وملكت العرب، واستقلّ بالخلافة ورياسة العرب بنو أُميَّة اقتعدُوا كرسيّ الملك بدمشق، واستولوا على سائر الأمم والأقطار، وأثخنوا في القاصية من لدن الهند والصين في المشرق، وفرغانة في الشمال، والحبشة في الجنوب، والبربر في المغرب، وبلاد الجلالقة والإفرنجية في الأندلس.

وضرب الإسلام بجرانه، وألقت دولة العرب بكلكلها على الأمم.

ثم جدع بنو أُميَّة أُنوف بني هاشم مقاسميهم في نسب عبد مناف، والمدّعين استحقاق الأمر بالوصيَّة.

وتكرّر خروجهم عليهم، فأثخنوا فيهم بالقتل والأسر، حتى توغّرت الصدور واستحكمت الأوتار وتعدّدت فرق الشيعة باختلافهم في مساق الخلافة من علي كرَّم اللّه وجهه إلى من بعده من بني هاشم.

فقوم ساقوها إلى آل العبَّاس، وقوم إلى آل الحسن، وآخرون إلى آل الحسين، فدعت شيعة آل العباس بخراسان وقام بها اليمنيَّة فكانت الدولة العظيمة الحائزة للخلافة ونزلوا بغداد واستباحوا الأمويين قتلاً وسبياً.

وخلص من جاليتهم إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، فجدّد بها دعوة الأمويين واقتطع ما وراء البحر عن ملك الهاشميين فلم تخفق لهم به راية.

ثم نفس آل أبي طالب على آل العباس ما أكرمهم اللّه به من الخلافة والملك، فخرج المهدي محمد بن عبد اللّه المدعوّ بالنفس الزكية في بني أبي طالب على أبي جعفر المنصور، وكان من أمرهم ما هو مذكور واستلحمتهم جيوش بني العباس في وقائع عديدة.

وفرّ إدريس بن عبد اللّه أخو المهدي ناجياً من بعض وقائعهم إلى المغرب الأقصى فأجاره البرابرة من أوربة ومغيلة وصدينة، وقاموا بدعوته ودعوة بنيه من بعده، ونالوا به الملك وغلبوا على المغرب الأقصى والأوسط، وبثّوا دعوة إدريس وبنيه من أهله بعده في أهله من زناتة مثل بني يفرن ومغراوة وقطعوه من ممالك بني العباس. واستمرّت دولتهم إلى حين انقراضها على يد العبيديّين.

ولم يزل الطالبيُّون أثناء ذلك بالمشرق ينزعون إلى الخلافة ويبثّون دُعاتهم بالقاصية إلى أن دعا أبو عبد اللّه المحتسب بإفريقية إلى المهدي ولد إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، فقام برابرة كتامة ومن إليهم من صنهاجة وملكوا إفريقية من يد الأغالبة، ورجع العرب إلى مركز ملكهم بالمشرق، ولم يبق لهم في نواحي المغرب دولة، ووضع العرب ما كان على كاهلهم من أمر المغرب ووطأة مُضر بعد أن رسخت الملّة فيهم، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، واستيقنوا بوعد الصادق أنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده.

فلم تنسلخ الملّة بانسلاخ الدولة ولا تقوّضت مباني الدين بتقويض معالم الملك، وعداً من اللّه لن يخلفه في تمام أمره وإظهار دينه على الدين كلّه.

فتناغى حينئذ البربر في طلب الملك والقيام بدعوة الأعياص من بني عبد مناف يسترون منها حسواً في ارتغاء إلى أن ظفروا من ذلك بحظ مثل كتامة بإفريقية، ومكناسة بالمغرب، ونافسهم في ذلك زناتة، وكانوا من أكثرهم جمعاً وأشدّهم قوّة فشمّروا له حتى ضربوا معهم بسهم، فكان لبني يفرن بالمغرب وإفريقية على يد صاحب الحمار، ثم على يد يعلى بن محمد وبنيه ملك ضخم.

ثم كان لمغراوة على يد بني خزر دولة أخرى تنازعوها مع بني يفرن وصنهاجة.

ثم انقرضت تلك الأجيال وتجرّد الملك بالمغرب بعدهم في جيل آخر منهم، فكان لبني مرين بالمغرب الأقصى ملك، ولبني عبد الواد بالمغرب الأوسط ملك آخر تقاسمهم فيه بنو توجين والفلُّ من مغراوة حسبما نذكر ونستوفي شرحه، ونجلب أيامهم وبطونهم على الطريقة التي سلكناها في أخبار البربر، واللّه المعُين سبحانه لا ربّ سواه، ولا معبود إلا إيّاه.

الطبقة الأولى من زناتة ونبدأ منها بالخبر عن بني يفرن وأنسابهم وشعوبهم وما كان لهم من الدول بإفريقية والمغرب

وبنو يفرن هؤلاء من شعوب زناتة وأوسع بطونهم، وهم عند نسّابة زناتة بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا، وإخوته مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين، والكل بنو يصلتين.

ويفرن في لغة البربر: هو القار وبعض نسّابتهم يقولون: إنّ يفرن هو ابن ورتنيذ بن جانا وإخوته مغراوة وغمرت ووجديجن.

وبعضهم يقول: يفرن بن مرّة بن ورسيك بن جانا، وبعضهم يقول: هو ابن جانا لصلبه والصحيح ما نقلناه عن أبي محمد بن حزم.

وأمّا شعوبهم فكثير ومن أشهرهم بنو واركوا ومر نجيصة.

وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح أكبر قبائل زناتة وأشدّها شوكة، وكان منهم بإفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب، فلما كان الفتح غشي إفريقية ومن بها من البربر جنود الله المسلمون من العرب فتطامنوا لبأسهم حتى ضرب الدين بجرانه، وحسن إسلامهم.

ولما فشا دين الخارجيّة في العرب وغلبهم الخلفاء بالمشرق واستلحموهم نزعوا إلى القاصية، وصاروا يبثّون بها دينهم في البربر فتلقفه رؤساؤهم على اختلاف مذاهبه باختلاف رؤوس الخارجية في أحكامهم من أباضية وصفرية وغيرهما كما ذكرناه في بابه، ففشا في البربر وضرب فيه يفرن هؤلاء بسهم وانتحلوه وقاتلوا عليه.

وكان أوّل من جمع لذلك منهم أبو قرّة من أهل المغرب الأوسط.

ثم من بعده أبو يزيد صاحب الحمار وقومه بنو واركوا ومرنجيصة.

ثم كان لهم بالمغرب الأقصى من بعد الانسلاخ من الخارجية دولتان على يد يعلى بن محمد صالح وبنيه حسبما نذكر ذلك مفصّلا إن شاء الله تعالى.

الخبر عن أبي قرّة وما كان لقومه من الملك بتلمسان ومبدأ ذلك ومصادره

كان من بني يفرن بالمغرب الأوسط بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل بني راشد المعروف بهم لهذا العهد، وهم الذين اختُطوا تلمسان كما نذكره في أخبارها.

وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بني أُميّة إلى بني العبّاس أبو قُرّة ولا نعرف من نسبه أكثر من أنه منهم.

ولما انتقض البرابرة بالمغرب الأقصى وقام ميسرة وقومه بدعوة الخارجيّة وقتله البرابرة قدّموا على أنفسهم مكانه خالد بن حميد من زناتة، فكان من حروبه مع كلثوم بن عياض وقتله إيّاه ما هو معروف. ورأس على زناتة من بعده أبو قرّة هذا.

ولما استأثلت دولة بني أُميّة كثرت الخارجيّة في البربر، وملك ورفجومة القيروان، وهوّارة وزناتة طرابلس ومكناسة سجلماسة، وابن رستم تاهرت.

وقدم ابن الأشعث إفريقية من قبل أبي جعفر المنصور.

وخافه البربر فحسم العلل وسكن الحروب.

ثم انتقض بنو يفرن بنواحي تلمسان ودعوا إلى الخارجيّة، وبايعوا أبا قرّة كبيرهم بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة، وسرّح إليهم ابن الأشعث الأغلب بن سوادة التميمي فانتهى إلى الزاب وفرّ أبو قرّة إلى المغرب الأقصى، ثم راجع موطنه بعد رجوع الأغلب.

ولما انتقض البرابرة على عمر بن حفص بن أبي صفرة الملقّب (هزار مرد) عام خمسين ومائة وحاصروه بطبنة كان فيمن حاصره أبو قرّة اليفرني في أربعين ألفاً صفريّة من قومه وغيرهم حتى اشتدّ عليه الحصار، وداخل أبا قرّة في الإفراج عنه على يد ابنه على أن يعطيه أربعين ألفاً، ولابنه أربعة آلاف، فارتحل بقومه وانفضّ البرابرة عن طبنة.

ثم حاصروه بعد ذلك بالقيروان واجتمعوا عليه وأبو قرّة معهم بثلاثمائة وخمسين ألفاً، الخيّالة منها خمسة وثمانون ألفاً. وهلك عمر بن حفص في ذلك الحصار.

وقدم يزيد بن حاتم والياً على إفريقية ففضّ جموعهم وفرّق كلمتهم، ولحق أبو قرّة ببني يفرن أصحابه بمواطنهم من تلمسان بعد أن قتل صاحبه أبو حاتم الكنديّ رأس الخوارج، واستلحم بن يفرن وتوغّل يزيد بن حاتم في المغرب ونواحيه وأثخن في أهله إلى أن استكانوا واستقاموا.

ولم يكن لبني يفرن من بعدها انتقاض حتى كان شأن أبي يزيد بإفريقية في بني واركوا ومرنجيصة منهم حسبما نذكره إن شاء الله تعالى الكريم.

وبعض المؤرخين ينسب أبا قرّة هذا إلى مغيلة، ولم أظفر بصحيح في ذلك، والطرائق متساوية في الجانبين، فإنّ نواحي تلمسان، وإن كانت موطناً لبني يفرن فهي أيضاً موطن لمغيلة، والقبيلتان متجاورتان.

لكن بني يفرن كانوا أشدّ قوّة وأكثر جمعاً، ومغيلة أيضاً كانوا أشهر بالخارجية من بني يفرن لأنهم كانوا صفريّة.

وكثير من الناس يقولون: إنّ بني يفرن كانوا على مذهب أهل السُّنّة كما ذكره ابن حزم وغيره والله أعلم.

الخبر عن أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار من بني يفرن ومبدأ أمره مع الشيعة ومصادره

هذا الرجل من بني واركوا إخوة مرنجيصة، وكلهم من بطون بني يفرن، وكنيته أبو يزيد، واسمه مخلد بن كيداد لا يعلم من نسبه فيهم غير هذا.

وقال أبو محمد بن حزم: ذكر لي أبو يوسف الورّاق عن أيوب بن أبي يزيد أن اسمه مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن ورينت بن حونيفر بن سميران بن يفرن بن جانا وهو زناتة.

قال: وقد أخبرني في بعض البربر بأسماء زائدة بين يفرن وجانا، اهـ. كلام ابن حزم.

ونسبه ابن الرقيق أيضاً في بني واسين بن ورسيك بن جانا، وقد تقدّم نسبهم أوّل الفصل.

وكان كيداد أبوه يختلف إلى بلاد السودان في التجارة، فولد له أبو يزيد بكركوا من بلادهم، وأمه أم ولد اسمها سبيكة ورجع به إلى قيطون زناتة ببلاد قصطيلة.

ونزل توزر متردِّداً بينها وبين تقيوس، وتعلّم القرآن وتأدّب، وخالط النكارية فمال إلى مذاهبهم وأخذها عنهم، ورأس فيها ورحل إلى مشيختهم بتهيرت، وأخذ عن أبي عبيدة منهم أيام اعتقال عبيد الله المهدي بسجلماسة.

ومات أبوه كيداد وتركه على حال من الخصاصة والفقر، فكان أهل القيطون يصلونه بفضل أموالهم، وكان يعلّم صبيانهم القرآن ومذاهب النكارية.

واشتهر عنه تكفير أهل الملّة وسبّ عليّ فخاف وانتقل إلى تقيوس.

وكان يختلف بينها وبين توزر، وأخذ نفسه بالتغيير على الولاة.

ونمي عنه اعتقاد الخروج عن السلطان فنذر الولاة بقسطيلة دمه، فخرج إلى الحج سنة عشر وثلاثمائة وأرهفه الطلب فرجع من نواحي طرابلس إلى تقيوس.

ولما هلك عبد الله أوعز إلى أهل قسطيلة في القبض عليه، فلحق بالمشرق وقضى الفرض وانصرف إلى موطنه، ودخل توزر سنة خمس وعشرين مستتراً.

وسعى به ابن فرقان عند والي البلد فتقبّض عليه واعتقله، وأقبل سَرَعان زناتة إلى البلد ومعهم أبو عمّار الأعمى رأس النكارية واسمه كما سبق عبد الحميد، وكان ممّن أخذ عنه أبو يزيد فتعرضوا للوالي في إطلاقه، فتعلّل عليهم بطلبه في الخراج، فاجتمعوا إلى فضل ويزيد ابني أبي يزيد، وعمدوا إلى السجن فقتلوا الحرس وأخرجوه، فلحق ببلد بني واركلا، وأقام بها سنة يختلف إلى جبل أوراس وإلى بني برزال في مواطنهم بالجبال قبالة المسيلة، وإلى بني زنداك من مغراوة إلى أن أجابوه، فوصل إلى أوراس ومعه أبو عمّار الأعمى في اثني عشر من الراحلة، ونزلوا على النكارية بالنوالات.

واجتمع إليه القرابة وسائر الخوارج، وأخذ له البيعة عليهم أبو عمّار صاحبه على قتال الشيعة وعلى استباحة الغنائم والسبي، وعلى أنهم إن ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى، وذلك سنة إحدى وثلاثين.

وترصدوا غيبة صاحب باغاية في بعض وجوهه فضربوا على بسيطها، واستباح بعض القصور بها سنة اثنتين وثلاثين وغمس بذلك أيدي البربر في الفتنة.

ثم زحف بهم إلى باغاية واستولت عليه وعلى أصحابه الهزيمة فلحقوا بالجبل.

وزحف إليهم صاحب باغاية فانهزم ورجع إلى بلده، فحاصره أبو يزيد وأوعز أبو القاسم القائم إلى كتامة في إمداد كنّون صاحب باغاية، فتلاحقت به العساكر فبيّتهم أبو يزيد وأصحابه ففلوهم، وامتنعت عليه باغاية وكاتب أبو يزيد البربر الذين حول قسطيلة من بني واسين وغيرهم، فحاصروا توزر سنة ثلاث وستّين ورحل إلى تبسة فدخلها صلحاً، ثم إلى مجاية كذلك، ثم إلى مرماجنّة كذلك، وأهدوا له حماراً أشهب فلزم ركوبه حتى اشتهر به.

وبلغ خبره عساكر كتامة بالإربس فانفضّوا وملك الإربس وقتل إمام الصلاة بها. وبعث عسكراً إلى تبسّة فملكوها وقتلوا عاملها. وبلغ الخبر القائم وهو بالمهديّة فهاله.

وسرّح العساكر لضبط المدن والثغور، وسرّح مولاه بشرى الصقلي إلى باجة، وعقد لميسور على الجيوش فعسكر بناحية المهدية، وسرّح خليل بن إسحاق إلى القيروان فعسكر بها.

وزحف أبو يزيد إلى بشرى بباجة، واشتدّت الحرب بينهم، وركب أبو يزيد حماره وأمسك عصاه فاستمات النكارية، وخالفوا بشرى إلى معسكره فانهزم إلى تونس، واقتحم أبو يزيد باجة

واستباحها، ودخل بشرى إلى تونس وارتدّت البرابر من كل ناحية فاسلم تونس ولحق بسوسة.

واستأمن أهل تونس إلى أبي يزيد فأمنّهم وولّى عليهم، وانتهى إلى وادي مجرّدة فعسكر بها. ووافته الحشود هنالك.

ورعب الناس منه فأجفلوا إلى القيروان، وكثرت الأراجيف وسرّب أبو يزيد جيوشه في نواحي إفريقية، فشنّوا الغارات وأكثروا السبي والقتل والأسر.

ثم زحف إلى رقادة فانفضّ كتامة الذين كانوا بها ولحقوا بالمهدية. ونزل أبو يزيد رقادة في مائة ألف.

ثم زحف إلى القيروان فانحصر بها خليل بن إسحاق ثم أخذه بعد مراوضة في الصلح، وهمّ بقتله فأشار عليه أبو عمّار باستبقائه فلم يطعه وقتله.

ودخلوا القيران فاستباحوها ولقيه مشيخة الفقهاء فأمنّهم بعد التقريع والعتب، وعلى أن يقتلوا أولياء الشيعة، وبعث رسله في وفد من أهل القيروان إلى الناصر الأموي صاحب قرطبة ملتزماً لطاعته والقيام لدعوته وطالباً لمدده، فرجعوا إليه بالقبول والوعد.

ولم يزل يردّد ذلك سائر أيام الفتنة حتى أوفد ابنه أيوب في آخرها سنة خمس وثلاثين، فكان له اتصال بالناصر سائر أيامه.

وزحف ميسور من المدينة بالعساكر وفرّ عنه بنو كملان من هوارة ولحقوا بأبي يزيد وحرّضوه على لقاء ميسور، فزحف إليه واستوى اللّقاء.

واستمات أبو يزيد والنكارية فانهزم ميسور وقتله بنو كملان وبعث برأسه إلى القيروان، ثم إلى المغرب واستبيح معسكره.

وسرّح أبو يزيد عساكره إلى مدينة سوسة فاقتحموها عنوة وأكثروا من القتل والمثلة.

وعظم القتل بضواحي إفريقية، وخلت القرى والمنازل ومن أفلته السيف أهلكه الجوع.

واستخفّ أبو يزيد بالناس بعد قتل ميسور فلبس الحرير وركب الفاره.

ونكر عليه أصحابه ذلك، وكاتبه به رؤساؤهم من البلاد، والقائم خلال ذلك بالمهديّة يخندق على نفسه ويستنفر كتامة وصنهاجة للحصار معه.

وزحف أبو زيد حتى نزل المهديّة وناوش عساكرها الحرب، فلم يزل الظهور عليهم، وملك زويلة.

ولما وقف بالمصلّى قال القائم لأصحابه من ههنا يرجع، واتصل حصاره للمهدية، واجتمع إليه البربر من قابس وطرابلس ونفّوسة.

وزحف إليهم ثلاث مرات فانهزم في الثالثة ولم يقلع، وكذلك في الرابعة، واشتد الحصار على أهل المهدية ونزل الجوع بهم.

واجتمعت كتامة بقسنطينة وعسكروا بها لإمداد القائم، فسرّح إليهم أبو يزيد يكموس المزاتي من ورفجومة، فانفضّ معسكر كتامة من قسنطينة.

ويئس القائم من مددهم وتفرّقت عساكر أبي زيد في الغارات والنهب فخفّ المعسكر، ولم يبق به إلا هوارة ورأس بنو كملان وكثرت مراسلات القائم للبربر.

واستراب بهم أبو يزيد وهرب بعضهم إلى المهديّة، ورحل آخرون إلى مواطنهم، فأشار عليه أصحابه بالإفراج عن المهدية فأسلموا معسكرهم، ولحقوا بالقيروان سنة أربع وثلاثين.

ودُبر أهل القيروان في القبض عليه فلم يتهيأ لهم، وعذله أبو عمّار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا فتاب وأقلع، وعاود لبس الصوف والتقشف.

وشاع خبر إجفاله عن المهدية فقتل النكارية في كل بلد، وبعث عساكره فعاثوا في النواحي وأوقعوا بأهل الأمصار وخرّبوا كثيراً منها.

وبعث ابنه أيوب إلى باجة فعسكر بها ينتظر وصول المدد من البربر وسائر النواحي فلم يفجأه إلا وصول علي بن حمدون الأندلسي صاحب المسيلة في حشد كتامة وزواوة، وقد مرّ بقسنطينة والإربس وسقنبارية، واصطحب منها العساكر فبيّته أيوب وانفضّ معسكره، وتردّى به فرسه في بعض الأوعار فهلك.

ثم زحف أيوب في عسكره إلى تونس وقائدها حسن بن علي من دُعاة الشيعة فانهزم، ثم أُتيحت له الكرّة ولحق حسن بن علي ببلد كتامة فعسكر بهم على قسنطينة. وسرّح أبو يزيد جموع البربر لحربه.

ثم اجتمعت لأبي يزيد حشود البربر من كل ناحية وثابت إليه قوّته. وارتحل إلى سوسة فحاصرها ونصب علها المجانيق.

وهلك القائم سنة أربع وثلاثين في شوّال وصارت الخلافة لابنه إسماعيل المنصور فبعث بالمدد إلى سوسة بعد أن اعتزم على الخروج إليها بنفسه فمنعه أصحابه.

ووصل المدد إلى سوسة فقاتلوا أبا يزيد فانهزم ولحق بالقيروان، فامتنعت عليه فاستخلص صاحبه أبا عمّار من أيديهم وارتحل عنهم.

وخرج المنصور من المهدية إلى سوسة، ثم إلى القيروان فملكها وعفا عن أهلها وأمّنهم وأحسن في مخلّف أبي يزيد وعياله.

وتوافى المدد إلى أبي يزيد ثالثة فاعتزم على حصار القيروان، وزحف إلى عسكر المنصور بساحتها فبيّتهم، واشتدّ الحرب واستمات الأولياء وافترقوا آخر نهارهم.

وعاودوا الزحف مرّات ووصل المدد إلى المنصور من الجهات حتى إذا كان منتصف المحرّم كان الفتح، وانهزم أبو يزيد وعظم القتل في البربر ورحل المنصور في أتباعه فمرّ بسبيبة ثم تبسّه حتى انتهى إلى باغاية.

ووافاه بها كتاب محمد بن خزر بالطاعة والولاية والاستعداد للمظاهرة، فكتب إليه بترصّد أبي يزيد والقبض عليه، ووعده في ذلك بعشرين حملاً من المال.

ثم رحل إلى طبنة فوافاه بها جعفر بن عليّ عامل المسيلة بالهدايا والأموال.

وبلغه أنّ أبا يزيد نزل بسكرة وأنه كاتب محمد بن خزر يسأله النصرة، فلم يجد عنده ما يرضيه، فارتحل المنصور إلى بسكرة فتلقّاه أهلها.

وفرّ أبو يزيد إلى بني برزال بجبل سالات، ثم إلى جبل كتامة وهو جبل عياض لهذا العهد.

وارتحل المنصور في أثره إلى ومرة وبيته أبو يزيد هنالك فانهزم ولم يظفر وانحاز إلى جبل سالات.

ثم لحق بالرمال ورجع عنه بنو كملان، وأمّنهم المنصور على يد محمد بن خزر.

وسار المنصور في التعبية حتى نزل جبل سالات، وارتحل وراءه إلى الرمال.

ثم رجع ودخل بلاد صنهاجة، وبلغه رجوع أبي يزيد إلى جبل كتامة فرجع إليه، ونزل عليه المنصور في كتامة وعجيسة وزواوة وحشد بني زنداك ومزاتة ومكناسة ومكلاتة وتقدّم المنصور إليه فقاتلوا أبا يزيد وجموع النكارية فهزموهم واعتصموا بجبل كتامة، ورحل المنصور إلى المسيلة وانحصر أبو يزيد في قلعة الجبل، وعسكر المنصور إزاءها واشتدّ الحصار، وزحف إليها مرّات، ثم اقتحمها عليهم فاعتصم أبو يزيد بقصر في ذروة القلعة فأُحيط به واقتحم، وقتل أبو عمّار الأعمى ويكموس المزاتي ونجا أبو يزيد مثخناً بالجراحة محمولاً بين ثلاثة من أصحابه فسقط في مهواة من الأوعار فوهن وسيق من الغداة إلى المنصور فأمر بمداواته.

ثم أحضره ووبّخه أقام الحجّة عليه وتجافى عن دمه، وبعثه إلى المهدية وفرض له بها الجراية فجزاه خيراً. وحمل في القفص فمات من جراحته سنة خمس وثلاثين. وأمر به فسلخ وحشي جلده بالتبن وطيف به في القيروان.

وهرب الفلّ من أصحابه إلى ابنه فضل، وكان مع معبد بن خزر فأغاروا على ساقة المنصور، وكمن لهم زيري بن مناد أمير صنهاجة فاوقع بهم. ولم يزل المنصور في أتباعه إلى أن نزل المسيلة وانقطع أثر معبد، ووافاه بمعسكره هنالك انتقاض حميد بن يصل عامل تيهرت من أوليائهم، وأنه ركب البحر من تنس إلى العدوة فارتحل إلى تيهرت وولّي عليها وعلى تنس.

ثم قصد لوّاتة فهربوا إلى الرمال، ورجع إلى إفريقية سنة خمس وثلاثين.

ثم بلغه أنّ فضل بن أبي يزيد أغار على جهات قسطيلة، فرحل من سنته في طلبه وانتهى إلى قفصة ثم ارتحل إلى ميطلة من أعمال الزاب، وفتح حصن ماداس مما يليه.

وهرب فضل في الرمال فأعجزه ورجع إلى القيروان سنة ست وثلاثين. ومضى فضل إلى جبل أوراس، ثم سار منه إلى باغاية فحاصرها. وغدر به ماطيط بن يعلى من أصحابه، وجاء برأسه إلى المنصور. وانقرض أمر أبي يزيد وبنيه وافترقت جموعهم.

واغتال عبد اللّه بن بكّار من رؤساء مغراوة بعد ذلك أيوب بن أبي يزيد وجاء برأسه إلى المنصور متقرّباً إليه.

وتتبّع المنصور قبائل بني يفرن بعدها إلى أن انقطع أثر الدعوة. والبقاء لله تعالى وحده.

الخبر عن الدولة الأولى لبني يفرن بالمغرب الأوسط والأقصى ومبادىء أمورهم ومصايرها

كان لبني يفرن من زناتة بطون كثيرة وكانوا متفرّقين بالمواطن، فكان منهم بإفريقية بنو واركوا ومرنجيصة وغيرهم كما قدّمناه، وكان منهم بنواحي تلمسان ما بينها وبين تاهرت أُمم كثير

عددهم وهم الذين اختطّوا مدينة تلمسان كما نذكره بعد.

ومنهم أبو قرّة المنتزي بتلك الناحية لأوّل الدولة العباسيّة، وهو الذي حاصر عمر بن حفص بطبنة كما تقدّم.

ولما انقرض أمر أبي يزيد وأثخن المنصور فيمن كان بإفريقية من بني يفرن أقام هؤلاء الذين كانوا بنواحي تلمسان على وفودهم. وكان رئيسهم لعهد أبي يزيد محمد بن صالح.

ولما تولّى المنصور محمد بن خزر وقومه مغراوة، وكان بينه وبين بني يفرن هؤلاء فتنة هلك فيها محمد بن صالح على يد عبد الله بن بكّار من بني يفرن، كان متحيّزاً إلى مغراوة.

وولي أمره في بني بفرن من بعده ابنه يعلى فعظم صيته، واختطّ مدينة إيفكان.

ولما خطب عبد الرحمن الناصر طاعة الأمويّة من زناتة أهل العدوة واستألف ملوكهم، سارع يعلى لإجابته، واجتمع عليها مع الخير بن محمد بن خزر وقومه مغراوة، وأجلب على وهران فملكها سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة من يد محمد بن عون، وكان ولاه عليها صولات اللميطي أحد رجالات كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين فدخلها يعلى عنوة على بنيه وخرّبها.

وكان يعلى قد زحف مع الخير بن محمد إلى تاهرت وبرز إليه ميسور الخصي في شيعته من لماية فهزموهم وملكوا تاهرت، وتقبّضوا على ميسور وعبد الله بن بكّار فبعث به الخير إلى يعلى بن محمد ليثأر به، فلم يرضه كفؤاً لدمه ودفعه إلى من ثأر به من بني يفرن.

واستفحل سلطان يعلى في ناحية المغرب وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر ما بين تاهرت إلى طنجة.

واستدعى من الناصر تولية رجال بيته على أمصار المغرب فعقد على فاس لمحمد بن الخير بن محمد بن عشيرة ونسك محمد لسنة من ولايته، واستأذن في الجهاد والرباط بالأندلس فأجاز لذلك واستخلف على عمله ابن عمّه أحمد بن عثمان بن سعيد، وهو الذي اختطّ مأذنة القرويين سنة أربع وأربعين كما ذكرناه ولم يزل سلطان يعلى بن محمد بالمغرب عظيماً إلى أن أغزى بعد المعزّ لدين الله كاتبه جوهر الصقلي من القيروان إلى المغرب سنة سبع وأربعين فلما فصل جوهر بالجنود عن تخوم إفريقية بادر أمير زناتة بالمغرب يعلى بن محمد اليفرني إلى لقائه والإذعان لطاعته والانحياش إليه، ونبذ عهد الأموية، وأعمل إلى لقيه الرحلة من بلده إيفكان وأعطاه يد الانقياد وعهد البيعة عن قومه بني يفرن وزناتة، فتقبلها جوهر وأضمر الفتك به، وتخيّر لذلك يوم فصوله

من بلده، وأسرّ إلى بعض مستخلصيه من الأتباع فأوقعوا نفرة في أعقاب العسكر طار إليها الزعماء من كتامة وصنهاجة. وزناتة، وتقبّض على يعلى فهلك في وطيس تلك الهيعة فغصّ بالرماح على أيدي رجالات كتامة وصنهاجة، وذهب دمه هدراً في القبائل.

وخرّب جوهر مدينة إيفكان وفرّت زناتة أمامه وكشف القناع في مطالبتهم. وقد ذكر بعض المؤرخين أنّ يعلى إنما لقي جوهراً عند منصرفه من الغزاة بمدينة تاهرت، وهنالك كان فتكه به بناحية شلف، فتفرّقت بعدها جماعة بني يفرن وذهب ملكهم.

فلم يجتمعوا إلا بعد حين على ابنه بدوي بالمغرب كما نذكره.

ولحق الكثير منهم بالأندلس كما يأتي خبره في موضعه وانقرضت دولة بني يفرن هؤلاء إلى أن عادت بعد مدّة على يد يعلى بفاس.

ثم استقرت آخراً بسلا وتعاقبت فيهم هنالك إلى آخرها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن الدولة الثانية لبني يفرن بسلا من المغرب الأقصى وأوليّة ذلك وتصاريفه

لما أوقع جوهر الكاتب قائد المعزّ بيعلى بن محمد أمير بني يفرن وملك المغرب سنة سبع وأربعين وثلاثمائة كما ذكرناه. وتفرّقت جموع بني يفرن لحق ابنه بدوي بن يعلى بالمغرب الأقصى وأحسّ بجوهر من ورائه فأبعد المفرّ وأصحر إلى أن رجع جوهر من المغرب.

ويقال: إن جوهراً تقبّض عليه واحتمله أسيراً فاعتقل إلى أن فرّ من معتقله بعد حين، واجتمع عليه قومه من بني يفرن وكان جوهر عند منصرفه من المغرب ولّى على الأدارسة المتحيّزين إلى الريف وبلاد غمارة الحسن بن كنون شيخ بني محمد منهم فنزل البصرة.

وأجاز الحكم المستنصر لأوّل ولايته سنة خمس وثلاثمائة وزيره محمد بن قاسم بن طملس في العساكر لتدويخ المغرب فجمع له الحسن بن كنون وأوقع به، ورجع إلى الأندلس مفلولاً فسرّح الحكم مولاه غالباً لتدويخ المغرب واقتلاع جرثومة الأدارسة، فأجاز في العساكر وغلبهم على بلادهم وأزعجهم جميعاً عن المغرب إلى الأندلس سنة خمس وستّين وثلاثمائة كما ذكرناه.

ومهّد دعوة الأموية بالمغرب، وأقفل الحكم مولاه غالباً

وردّه إلى الثغر لسدّه، وعقد على المغرب ليحيى بن محمد بن هاشم التجيبي صاحب الثغر الأعلى، وكان أجازه مدداً لغالب في رجال العرب وجند الثغور حتى إذا انغمس الحكم في علّة الفالج وركدت ريح المروانية بالمغرب واحتاجت الدولة إلى رجالها لسدّ الثغور ودفاع العدو، استدعى يحيى بن محمد بن هاشم من العدوة، وأداله الحاجب المصحفي بجعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب والمسيلة النازع إليهم من دعوة الشيعة، وجمعوا بين الانتفاع به في العدوة والراحة مما يتوقع منه على الدولة ومن البرابرة في التيات الخلافة لما كانوا أصاروا إليه من النكبة، وطوقوّه من المحنة.

ولما كان اجتمع بقرطبة من جموع البرابرة فعقدوا له ولأخيه يحيى على المغرب وخلعوا عليهما وأمكنوهما من مال دثر وكسي فاخرة للخلع على ملوك العدوة، فنهض جعفر إلى المغرب سنة خمس وستين وضبطه.

واجتمع إليه ملوك زناتة مثل بدوي بن يعلى أمير بني يفرن وابن عمّه نوبخت بن عبد الله بن بكّار، ومحمد بن الخير بن خزر وابن عمّه بكساس بن سيد الناس، وزيري بن خزر وزيري ومقاتل ابنا عطية بن تبادلت وخزرون بن محمد وفلفول بن سعيد أمير مغراوة، وإسماعيل بن البوري أمير مكناسة، ومحمد ابن عمّه عبد الله بن مدين وخزرون بن محمد الأزداجي، وكان بدوي بن يعلى من أشدّهم قوة وأحسنهم طاعة.

ولما هلك الحكم وولّي مكانه هشام المؤيدّ، وانفرد محمد بن أبي عامر بحجابته اقتصر من العدوة لأول قيامه على مدينة سبتة، فضبطها بجند السلطان ورجال الدولة، وقلدّها الصنائع من أرباب السيوف والأقلام، وعوّل في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناتة وتعهدهم بالجوائز والخلع، وصار إلى إكرام وفودهم وإثبات من رغب في الإثبات في ديوان السلطان منهم، فجرّدوا في ولاية الدولة وبثّ الدعوة.

وفسد ما بين أمير العدوة جعفر بن علي وأخيه يحيى واقتطع يحيى مدينة البصرة لنفسه وذهب بأكثر الرجال.

ثم كانت على جعفر النكبة التي نكبه برغواطة في غزاته إيّاهم، واستدعاه محمد بن أبي عامر لأول أمره لما رآه من استقامته إليه، وشدّ أزره به وتلوى عليه كراهية لما يلقى بالأندلس من الحكم.

ثم أصلحه وتخلّى لأخيه عن عمل المغرب وأجاز البحر إلى ابن أبي عامر فحلّ منه بالمكان الأثير، وتناغت زناتة في التزلّف إلى الدولة بقرب الطاعات، فزحف خزرون بن فلفول سنة ست وستين إلى مدينة سجلماسة فافتتحها ومحا أثر دولة آل مدرار منها، وعقد له المنصور عليها كما ذكرنا ذلك قبل.

وزحف عقب هذا الفتح بلّكين بن زيري قائد إفريقية للشيعة إلى المغرب سنة تسع وستين زحفه المشهور وخرج محمد بن أبي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمدافعته بنفسه، واحتمل من بيت المال مائة حمل ومن العساكر ما لا يحصى عدّه.

وأجاز جعفر بن علي بن حمدون إلى سبتة، وانضمت إليه ملوك زناتة ورجع بلّكين عنهم إلى غزو برغواطة إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين كما ذكرناه.

ورجع جعفر إلى مكانه من ابن أبي عامر، لم يسمح بمقامه عنه، ووصل حسن بن كنّون خلال ذلك من القاهرة بكتاب العزيز نزار بن معدّ إلى بلّكين صاحب إفريقية في إعانته إلى ملوك المغرب وإمداده بالمال والعساكر، فأمضاه بلّكين لسبيله، وأعطاه مالاً ووعده بإضعافه ونهض إلى المغرب فوجد طاعة المروانية قد استحكت فيه.

وهلك بلّكين إثر ذلك وشغل ابنه المنصور عن شأنه فدعا لحسن بن كنّون إلى نفسه، وأنفذ أبو محمد بن أبي عامر ابن عمّه محمد بن عبد الله ويلقّب عسكلاجة لحربه سنة خمس وسبعين وجاء أثره إلى الجزيرة كيما يشارف القصة، وأُحيط بالحسن بن كنوّن فسأل الأمان وعقد له مقارعه عمر وعسكلاجة، وأشخصه إلى الحضرة فلم يمض ابن أبي عامر أمامه، ورأى أن لا ذمّة له لكثرة نكثه فبعث من ثقاته من أتاه برأسه، وانقرض أمر الأدارسة وانمحى أثرهم فأغضب عمر وعسكلاجة لذلك.

واستراح إلى الجند بأقوال نميت عنه إلى المنصور فاستدعاه من العدوة وألحقه بمقتوله ابن كنوّن.

وعقد على العدوة للوزير حسن بن أحمد بن عبد الورود السلمي، وأكثف عدده، وأطلق في المال يده، ونفذ إلى عمله سنة ست فضبط المغرب أحسن ضبط وهابته البرابرة، ونزل فاس من العدوة، فعزّ سلطانه وكثر جمعه، وانضمّ إليه ملوك النواحي حتى حذّر ابن أبي عامر مغبّة استقلاله، واستدعاه ليبلو صحّة طاعته، فأسرع اللحاق به، فضاعف تكرمته وأعاده إلى عمله، وكان بدوي بن يعلى هذا من بين ملوك زناتة كثير الاضطراب على الأموية والمراوغة لهم بالطاعة.

وكان لمنصور بن أبي عامر يضرب بينه وبين قرينه زيري بن عطيّة ويقرن كلاً منهما بمناغاة صاحبه في الاستقامة، وكان إلى زيري أميل وبطاعته أوثق، لخلوصه وصدق طويّته وانحياشه فكان

يرجو أن يتمكّن من قياد بدوي بن يعلى بمناغاته، فاستدعى بزيري بن عطيّة إلى الحضرة سنة سبع وسبعين فبادر إلى القدوم عليه وتلقّاه وأكبر موصله وأحسن مقامه ومنقلبه وأعظم جائزته، وسام بدوي مثلها فامتنع، وقال لرسوله: قل لابن أبي عامر: متى عهد حمر الوحش تنقاد للبياطرة؟

وأرسل عنانه في العيث والفساد ونهض إليه صاحب المغرب الوزير حسن بن عبد الودود في عساكره وجموعه من جند الأندلس وملوك العدوة مظاهراً عليه لعدوّه زيري بن عطيّة، وجمع لهم بدوي ولقيهم سنة إحدى وثمانين فكان الظهور له.

وانهزم عسكر السلطان وجموع مغراوة، واستلحموا وجرح الوزير حسن بن عبد الودود جراحات كان فيها لليال مهلكه.

وطار الخبر إلى ابن أبي عامر فاغتمّ لذلك وكتب إلى زيري بضبط فاس ومكاتبة أصحاب حسن، وعقد له على المغرب كما نستوفي ذكره عند ذكر دولتهم.

وغالبه بدوي عليها مرّة بعد أخرى ونزع أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي عن قومه، ولحق بسواحل تلمسان ناقضاً لطاعة الشيعة، وخارجاً على ابن أخيه المنصور بن بلّكين صاحب القيروان.

وخاطب ابن أبي عامر من وراء البحر وأوفد عليه ابن أخيه ووجوه قومه فسرّب إليه الأموال والصلات بفاس مع زيري حسبما نذكره، وجمع أيديهما على مدافعة بدوي، فساء أمره فيهما جميعاً إلى أن راجع أبو البهار ولاية منصور ابن أخيه كما نذكر بعد.

وحاربه زيري فكان له الظهور عليه ولحق أبو البهار بسبتة، ثم عاد إلى قومه.

واستفحل زيري من بعد ذلك، وكانت بينه وبين بدوي وقعة اكتسح زيري من ماله ومعسكره مالاً كفؤ له، وسبى حرمه. واستلحم من قومه زهاء ثلاثة آلاف فارس. وخرج إلى الصحراء شريداً سنة ثلاث وثمانين. وهلك هناك فولّي أمره في قومه حبوس ابن أخيه زيري بن يعلى، ووثب به ابن عمّه أبو يداس بن دوناس فقتله طمعاً في الرياسة من بعده، واختلف عليه قومه فأخفق أمله وعبر البحر إلى الأندلس في جمع عظيم من قومه.

وولّي أمر بني يفرن من بعده حمامة بن زيري بن يعلى أخو حبُّوس المذكور، فاستقام عليه أمر بني يفرن وقد مرّ ذكره في خبر بدوي غير مرّة، وأنه كانت الحرب بينه وبين زيري بن عطيّة سجالاً، وكانا يتعاقبان ملك فاس بتناول الغلب.

وأنه لما وفد زيري على المنصور خالفه بدوي إلى فاس فملكها، وقتل بها خلقاً من مغراوة، وأنه لما رجع زيري اعتصم بدوي بفاس فنازله زيري وهلك من مغراوة بني يفرن في ذلك الحصار خلق.

ثم اقتحمها زيري عليهم عنوة فقتله وبعث برأسه إلى سدّة الخلافة بقرطبة سنة ثلاث وثمانين والله أعلم.

ولما اجتمع بنو يفرن على حمامة تحيّز بهم إلى ناحية شاله من المغرب فملكها وما إليها من تادلا، واقتطعها من زيري، ولم يزل عميد بني يفرن في تلك العمالة، والحرب بينه وبين زيري ومغراوة متصلة، وكانت بينه وبين المنصور صاحب القيروان مهاداة، فأهدى إليه وهو محاصر لعمّه حمّاد بالقلعة سنة ست وأربعمائة، وأوفد بهديته أخاه زاوي بن زيري فلقيه بالطبول والبنود.

ولما هلك حمامة قام بأمر بني يفرن من بعده أخوه الأمير أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى فاستبدّ بملكهم، وكان مستقيماً في دينه مولعاً بالجهاد، فانصرف إلى جهاد برغواطة وسالم مغراوة وأعرض عن فتنتهم.

ولما كانت سنة أربع وعشرين وأربعماية تجدّدت العداوة بين هذين الحيّين بني يفرن ومغراوة، وثارت الإحن القديمة، وزحف أبو الكمل صاحب شالة وتادلا وما إلى ذلك في جموع يفرن.

وبرز إليه حمامة بن المعزّ في قبائل مغراوة، ودارت بينهم حروب شديدة وانكشفت مغراوة وفرّ حمامة إلى وجدة، واستولى الأمير أبو الكمال تميم وقومه على فاس وغلبوا مغراوة على عمل المغرب.

واكتسح تميم اليهود بمدينة فاس، واصطلم نعمهم واستباح حرمهم.

ثم احتشد حمامة من وجدة سائر قبائل مغراوة وزناتة وبعث الحاشدين في قياطينهم لجميع بلاد المغرب الأوسط، ووصل إلى تنس صريخاً لزعمائهم.

وكاتب من بَعُدَ عنه من رجالاتهم، وزحف إلى فاس سنة تسع وعشرين فأفرج عنها أبو الكمال تميم ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة، وأقام بمكان عمله وموطن أمارته منها إلى أن هلك سنة ست وأربعين وولي ابنه حمّاد إلى أن هلك سنة تسع وأربعين.

وولي بعده ابنه يوسف إلى أن توفي سنة ثمان وخمسين، فولّي بعده عمّه محمد ابن الأمير أبي تميم إلى أن هلك في حروب لمتونة حين غلبوهم على المغرب أجمع حسبما نذكره، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وأما أبو يداس بن دوناس قاتل حبوس بن زيري بن يعلى بن محمد فإنه لما اختلف عليه بنو يفرن وأخفق أمله في اجتماعهم له، أجاز البحر إلى الأندلس سنة اثنتين وثمانين فرفعه إخوانه أبو قرّة وأبو زيد وعطاف، فحلّ كلهم من المنصور محل التكرمة والإيثار ونظّمه في جملة الرؤساء والأمراء وأسنى له الجراية والأقطاع، وأثبت رجاله في الديوان، ومن أجاز من قومه فبعد صيته وعلا في الدولة كعبه.

ولما افترقت الجماعة وانتثر سلك الخلافة كان في حروب البربر مع جند الأندلس آثار بعيدة وأخبار غريبة، ولما ملك المستعين قرطبة سنة أربعمائة واجتمع إليه من كان بالأندلس من البرابرة لحق المهدي بالثغور واستجاش طاغية الجلالقة، فزحف معه إلى غرناطة وخرج المستعين في جموعه من البرابرة إلى الساحل واتبعهم المهدي في جموعه فتواقعوا بوادي أيرة فكانت بين الفريقين جولة عظم بلاء البرابرة، وطار لأبي يداس فيها ذكر، وانهزم المهدي والطاغية وجموعهم بعد أن تضايقت المعركة وأصابت أبا يداس بن دوناس جراحة كان فيها مهلكه، ودفن هناك.

وكان لابنه خلوف وحافده تميم بن خلوف من رجالات زناتة بالأندلس شجاعة ورياسة، وكان يحيى بن عبد الرحمن ابن أخيه عطاف من رجالاتهم، وكان له اختصاص ببني حمّود، ثم بالقاسم منهم، ولاه كل قرطبة أيام خلافته والبقاء لله وحده.

الخبر عن أبي نور بن أبي قرّة وما كان له من الملك بالأندلس أيام الطوائف

هذا الرجل اسمه أبو نور بن أبي قرّة بن أبي يفرن من رجالات البربر الذين استظهر بهم قومهم أيام الفتنة، تغلّب على رندة أزمان تلك الفتن، وأخرج منها عامر بن فتّوح من موالي الأموية سنة خمس وأربعمائة فملكها واستحدث بها لنفسه سلطاناً.

ولما استفحل أمر ابن عبّاد بإشبيلية وأسف إلى تملّك ما جاوره من الأعمال والثغور، نشأت الفتنة بينه وبين أبي نور هذا.

واختلف حاله معه في الولاية والانحراف، وسجّل له سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة برندة وأعمالها فيمن سجّل له من البربر.

واستدعاه بعدها سنة خمسين لبعض ولائمه وكاده بكتاب أوقفه عليه على لسان جارية بقصره تشكو إليه ما نال منها ابنه من المحرم، فانطلق إلى بلده وقتل ابنه. وشعر بالمكيدة فمات أسفاً وولّى ابنه الآخر أبو نصر إلى سنة سبع وخمسين فغدر به بعض جنده، وخرج هارباً فسقط من السور ومات.

وتسلّم المعتمد رندة من بعد ذلك ويقال: إن ذلك كان عند كائنة الحمام سنة خمس وأربعين وأن أبا نور هلك فيها. ولما بلغ الخبر ابنه أبا نصر وقع ما وقع والله أعلم.

الخبر عن مرنجيصة من بطون بني يفرن وشرح أحوالهم

كان هذا البطن من بني يفرن بضواحي إفريقية وكانت لهم كثرة وقوة. ولما خرج أبو يزيد على الشيعة وكان من أخوالهم بنو واركوا ظاهروه على أمره بما كان له معهم من العصبية.

ثم انقرض أمره وأخذتهم دولة الشيعة وأولياؤهم صنهاجة وولاتهم على إفريقية بالسطوة والقهر، وإنزال العقوبات بالأنفس والأموال إلى أن تلاشوا وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة.

وبقيت منهم أحياء نزلوا ما بين القيروان وتونس أهل شاء وبقر وخيام يظعنون في نواحيها، وينتحلون الفلح في معاشهم، وملك الموحدون إفريقية وهم بهذا الحال، وضربت عليهم المغارم والضرائب والعسكرة مع السلطان في غزواته بعدّة مفروضة يحضرون بها متى استقرّوا.

ولما تغلب الكعوب من بني سليم على ضواحي إفريقية وأخرجوا منها الدواودة من رياح أعداء الدولة لذلك العهد، واستظهر بهم السلطان عليهم، اتخذوا إفريقية وطناً من قابس إلى باجة.

ثم اشتدت ولايتهم للدولة وعظم الاستظهار بهم وأقطعهم ملك الدولة ما شاؤوه من الأعمال والخراج فكان في إقطاعهم خراج مرنجيصة هؤلاء.

ولما كانت وقعة بنو مرين على القيروان وكان بعدها في الفترة ما كان من طغيان الفتنة التي اعتزّ فيها العرب على السلطان والدولة، كان لهؤلاء الكعوب المتغلبين مدد قوي من أحياء مرنجيصة هؤلاء من الخيل للحملان، والجباية للإنفاق، والإنعام للحمال والخيّالة للاستظهار بأعدادهم في الحروب فصاروا لهم لحمة وخولاً، وتملّكوهم تملّك العبيد، حتى إذا ذهب الله بحمى الفتنة وأقام مائل الخلافة والدولة وصار تراث هذا الملك الحفصي إلى الأحقّ به مولانا السلطان أبي العباس أحمد، فانقشع الجو وأضاء الأفق ودفع المتغلبين من العرب عن أعماله، وقبض أيديهم عن رعاياه وأصار مرنجيصة هؤلاء من صفاياه بعد إنزال العقوبة

بهم على لياذهم بالعرب وظعنهم معهم، فراجعوا الحق وأخلصوا في الانحياش ورجعوا إلى ما ألفوه من الغرامة وقوانين الخراج، وهم على ذلك لهذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مغراوة من أهل الطبقة الأولى من زناتة وما كان لهم من الدول بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه

هؤلاء القبائل من مغراوة كانوا أوسع بطون زناتة وأهل البأس والغلب منهم، ونسبهم إلى مغراو بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا إخوة بني يفرن وبني يرنيان، وقد تقدّم الخلاف في نسبهم عند ذكر بني يفرن، وأما شعوبهم وبطونهم فكثر مثل بني يلنت وبني زنداك وبني ورّاق وورتزمير وبني أبي سعيد وبني ورسيفان ولغواط بني ريغة وغيرهم ممّن لم يحضرني أسماؤهم.

وكانت مجالاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة وما إليها ولهم مع إخوانهم بني يفرن اجتماع وافتراق ومناغاة في أحوال البدو.

وكان لمغراوة هؤلاء في بدوهم ملك كبير أدركهم عليه الإسلام فأقرّه لهم وحسن إسلامهم.

وهاجر أميرهم صولات بن وزمار إلى المدينة، ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فلقاه برّاً وقبولاً لهجرته، وعقد له على قومه ووطنه.

وانصرف إلى بلاده محبوّاً محبوراً مغتبطاً بالدين مظاهراً لقبائل مُضر، فلم يزل هذا دأبه.

وقيل: إنه تقبض عليه أسيراً لأول الفتح في بعض حروب العرب مع البربر قبل أن يدينوا بالدين فأشخصوه إلى عثمان لمكانه من قومه فمنّ عليه وأسلم فحسن إسلامه، وعقد له على عمله فاختصّ صولات هذا وسائر الأحياء من مغرارة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أُميّة، وكانوا خاصّة لهم دون قريش، وظاهروا دعوة المروانية بالأندلس رعياً لهذا الولاء على ما تراه بعد في أخبارهم.

ولّما هلك صولات قام بأمره في مغراوة وسائر زناتة من بعده ابنه حفص وكان من أعظم ملوكهم، ثم لما هلك قام بأمره ابنه خزر وعندما تقلّص ظلّ الخلافة عن المغرب الأقصى بعض الشيء، وأطلّت فتنة ميسرة الحقير ومطخرة فاعتزّ خزر وقومه على أُمراء المضريّة بالقيروان، واستفحل ملكهم وعظم شأن سلطانهم على البدو من زناتة بالمغرب الأوسط.

ثم انتقض أمر بني أُميّة بالمشرق فكانت الفتنة بالمغرب فازدادوا اعتزازاً وعتوّاً، وهلك خلال ذلك خزر وقام بملكه ابنه محمد وخلص إلى المغرب إدريس الأكبر بن عبد الله بن حسن بن الحسن سنة سبعين ومائة في خلافة الهادي.

وقام برابرة المغرب من أوربة ومدينة ومغيلة بأمره، واستوثق له الملك واقتطع المغرب عن طاعة بني العبّاس سائر الأيام.

ثم نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين فتلقّاه محمد بن خزر هذا وألقى إليه المقادة، وبايع له عن قومه وأمكنه من تلمسان بعد أن غلب عليها بني يفرن أهلها.

وانتظم لإدريس بن إدريس الأمر وغلب على جميع أعمال أبيه، وملك تلمسان وقام بنو خزر هؤلاء بدعوته كما كانوا لأبيه.

وكان قد نزل تلمسان لعهد إدريس الأكبر أخوه سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن القادم إليه من المشرق، وسجّل له بولاية تلمسان من سجل ابنه إدريس لمحمد ابن عمّه سليمان من بعده، فكانت ولاية تلمسان وأمصارها في عقبه، واقتسموا ولاية ثغورها الساحليّة فكانت تلمسان لولد إدريس بن محمد بن سليمان، وأرشكول لولد عيسى بن محمد، وتنس لولد إبراهيم بن محمد، وسائر الضواحي من أعمال تلمسان لبني يفرن ومغراوة.

ولم يزل الملك بضواحي المغرب الأوسط لمحمد بن خزر كما قلناه إلى أن كانت دولة الشيعة واستوثق لهم ملك إفريقية.

وسرّح عبيد الله المهدي إلى المغرب عروبة بن يوسف الكتاميّ في عساكر كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين، فدوّخ المغرب الأدنى ورجع.

ثم سرّح بعده مصالة بن حبُوس إلى المغرب في عساكر كتامة، فاستولى على أعمال الأدارسة واقتضى طاعتهم لعبيد الله.

وعقد على فاس ليحيى بن إدريس بن عمر آخر ملوك الأدارسة.

وخلع نفسه ودان بطاعتهم، وعقد له مصالة على فاس، وعقد لموسى بن أبي العالية أمير مكناسة وصاحب تازة، واستولى على ضواحي المغرب، وقفل إلى القيروان.

وانتقض عمر بن خزر من أعقاب محمد بن خزر الداعية لإدريس الأكبر، وحمل زناتة وأهل المغرب الأوسط على البرابرة

من الشيعة وسرّح عبيد الله المهدي مصالة قائد المغرب في عساكر كتامة سنة تسع، ولقيه محمد بن خزر في جموع مغراوة وسائر زناتة ففلّ عساكر مصالة وخلص إليه فقتله، وسرّح عبيد إليه ابنه أبا القاسم في العساكر إلى المغرب سنة عشر، وعقد له على حرب محمد بن خزر وقومه، فأجفلوا إلى الصحراء، واتّبع آثارهم إلى ملويّة فلحقوا بسلجماسة وعطف أبو القاسم على المغرب فدوّخ أقطاره وجال في نواحيه وجدّد لابن أبي العافية على عمله ورجع ولم يلق كيداً.

ثم إنّ الناصر صاحب قرطبة سما له أمل في ملك العدوة، فخاطب ملوك الأدارسة وزناتة، وبعث إليهم خالصته محمد بن عبيد الله بن أبي عيسى سنة ستة عشر فبادر محمد بن خزر إلى إجابته وطرد أولياء الشيعة من الزاب.

وملك شلب وتنس من أيديهم، وملك وهران وولّى عليها ابنه الخير، وبثّ دعوة الأمويّة في أعمال المغرب الأوسط ما عدا تاهرت.

وبدأ في القيام بدعوة الأموية إدريس بن إبراهيم بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول.

ثم فتح الناصر سبتة سنة سبع عشرة من يد الأدارسة وأجار موسى بن أبي العالية على طاعته، واتّصلت يده بمحمد بن خزر وتظاهروا على الشيعة وخالف فلفول بن خزر أخاه محمد إلى طاعة الشيعة، وعقد له عبد الله على مغراوة.

وزحف إلى المغرب حميد بن يصل سنة إحدى وعشرين في عساكر كتامة إلى عبد الله على تاهرت فانتهى إلى فاس وأجفلت أمامه ظواعن زناتة ومكناسة ودوّخ المغرب.

وزحف من بعده ميسور الخصيُّ سنة اثنتين وعشرين فحاصر فاس وامتنعت عليه ورجع.

ثم انتقض حميد بن يصل سنة ثمان وعشرين وتحيّز إلى محمد بن خزر. ثم أجاز إلى الناصر وولاه على المغرب الأوسط.

ثم شغل الشيعة بفتنة أبي يزيد وعظمت آثار محمد بن خزر وقومه من مغراوة، وزحفوا إلى تاهرت مع حميد بن يصل قائد الأموية سنة ثلاث وثلاثين زحف معه الخير بن محمد وأخوه حمزة وعمّه عبد الله بن خزر، ومعهم يعلى بن محمد في قومه بني يفرن، وأخذوا تاهرت عنوة وقتلوا عبد الله بن بكّار، وأسروا قائدها ميسور الخصيّ بعد أن قتل حمزة بن محمد بن خزر في حروبها.

وكان محمد بن خزر وقومه زحفوا قبل ذلك إلى بسكرة ففتحوا وقتلوا زيدان الخصيّ.

ولما خرج إسماعيل من حصار أبي يزيد وزحف إلى المغرب في أتباعه خشية محمد بن خزر على نفسه لما سلف منه في نقض دعوتهم وقتل أتباعهم، فبعث إليه بطاعة معروفة وأوعز إليه إسماعيل بطلب أبي يزيد ووعده في ذلك بعشرين حملاً من المال.

وكان أخوه معبد بن خزر في موالاة أبي يزيد إلى أن هلك.

وتقبّض إسماعيل بعد ذلك على معبد سنة أربعين وقتله، ونصب رأسه بالقيروان.

ولم يزل محمد بن خزر وابنه الخير متغلّباً على المغرب الأوسط، ومقاسماً فيها ليعلى بن محمد.

ووفد فتوح بن الخير سنة أربعين على الناصر مع مشيخة تاهرت ووهران فأجازهم وصرفهم إلى أعمالهم.

ثم حدثت الفتنة بين مغراوة وصنهاجة وشغل محمد وابنه الخير بحروبهم، وتغلّب يعلى بن محمد على وهران وخرّبها وعقد الناصرلحميد بن يصل على تلمسان وأعمالها، وليعلى بن محمد على المغرب وأعماله، فراجع محمد بن خزر طاعة الشيعة من أجل قريبة يعلى بن محمد.

ووفد على المعزّ بعد مهلك أبيه إسماعيل سنة اثنتين وأربعين فأولاه تكرمة على طاعتهم إلى أن حضر مع جوهر في غزاته إلى المغرب بأعوام سبع أو ثمان وأربعين ثم وفد على المعزّ بعد ذلك سنة خمسين، وهلك بالقيروان، وقد نيّف على المائة من السنين.

وهلك الناصر المرواني عامئذ على حين انتشرت دعوة الشيعة بالمغرب وانقبض أولياء الأموية إلى أعمال سبتة وطنجة فقام بعده ابنه الحكم المستنصر، واستأنف مخاطبة ملوك العدوة فأجابه محمد بن الخير بن محمد بن خزر بما كان من أبيه الخير وجدّه محمد في ولاية الناصر، والولاية التي لبني أُميّة على آل خزر بوصيّة عثمان بن عفّان لصولات بن وزمار جدّهم كما ذكرناه. فأثخن في الشيعة ودوّخ بلادهم. ورماه معدّ بقريعه زيري بن مناد أمير صنهاجة فعقد له على حرب زناتة وسوّغه ما غلب عليه من أعمالهم، وجمعوا للحرب سنة ستين ومائتين فلقي بلّكين بن زيري جموعهم بدسيسة من بعض أولياء محمد بن الخير قبل أن يستكمل تعبيتهم، فأبلى منهم ثباتاً وصبراً واشتدّت الحرب بينهم وانهزمت زناتة، حتى إذا رأى محمد بن الخير أن قد أُحيط به انتبذ إلى ناحية من العسكر وذبح نفسه.

واستمرت الهزيمة على قومه وجندل منهم في المعركة سبعة عشر أميراً سوى الأتباع. وتحيّز كلٌّ إلى فريقه.

وولّى بعد محمد في مغراوة ابنه الخير وأغرى بلّكين بن زيري الخليفة معدّ وجندل بن جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب بموالاة حمد بن الخير فاستراب جعفر وبعث عنه معدّ لولاية إفريقية حتى اعتزم على الرحيل إلى القاهرة، فاشتدّت استرابته ولحق بالخير بن محمد وقومه.

وزحفوا إلى صنهاجة فأتيحت لهم الكرة وأُصيب زيري بن مناد كبير العصابة، وبعثوا برأسه إلى قرطبة في وفد من وجوه بني خزر مع يحيى بن علي أخي جعفر.

ثم استراب بعدها جعفر من زناتة ولحق بأخيه يحيى، ونزلوا على الحكم وعقد مُعدّ لبلّكين بن زيري على حرب زناتة وأمدّه بالأموال والعساكر، وسوّغه ما تغلّب عليه من أعمالهم، فنهض إلى المغرب سنة إحدى وستّين وأوغر بالبرابرة منهم وتقرّى أعمال طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة وأجفلت زناتة أمامه.

وتقدّم إلى تاهرت فمحا من المغرب الأوسط آثار زناتة، ولحق بالمغرب الأقصى.

واتبع بلّكين آثار الخير بن محمد وقومه إلى سجلماسة، فأوقع بهم وتقبّض عليهم، فقتله صبراً وفضّ جموعهم، ودوّخ المغرب وانكفّ راجعاً، ومرّ بالمغرب الأوسط فاستلحم بوادي زناتة ومَن إليهم من الخصاصين ورفع الأمان على كلّ من ركب فرساً أو أنتج خيلاً من سائر البربر. ونذر دماءهم فأقفر المغرب الأوسط من زناتة وساروا إلى ما وراء ملويّة من بلاد المغرب الأقصى إلى أن كان من رجوع بني يعلى بن محمد إلى تلمسان وملكهم إياها، ثم هلك بنو خزر بسجلماسه وطرابلس، وملك بني زيري ابن عطيّة بفاس ما نحن ذاكروه إن شاء اللّه تعالى.

الخبرعن آل زيري بن عطيّة ملوك فاس وأعمالها من الطبقة الأولى من مغراوة وما كان لهم بالمغرب الأقصى من الملك والدولة ومبادىء ذلك وتصاريفه

كان زيري هذا أمير آل خزر في وقته، ووارث ملكهم البدوي، وهو الذي مهّد الدولة بفاس والمغرب الأقصى وأورثها بنيه إلى عهد لمتونة حسبما نستوفي في شرحه.

واسمه زيري بن عطيّة بن عبد الرحمن بن خزر وجدّه عبد اللّه أخو محمد داعية الناصر الذي هلك بالقيروان كما ذكرناه.

وكانوا أربعة إخوة: محمد ومعبد الذي قتله إسماعيل وفلفول الذي خالف محمداً إلى ولاية الشيعة وعبد اللّه هذا وكان يعرف بأُمه واسمها تبادلت.

وقد قيل: إن عبد اللّه هذا هو ابن محمد بن خزر، وأخوه حمزة بن محمد الهالك في حربه مع ميسور عند فتح تاهرت.

ولما هلك الخير بن محمد كما قلناه بيد بلّكين سنة إحدى وستين وارتحلت زناتة إلى ما وراء ملوية من المغرب الأقصى، وصار المغرب الأوسط كله لصنهاجة، واجتمع مغراوة إلى بقية آل خزر وأمراؤهم يومئذ محمد بن خير المذكور ومقاتل وزيري ابنا مقاتل بن عطيّة بن عبد اللّه وخزرون بن فلفول.

ثم كان ما ذكرناه من ولاية بلّكين بن زيري على إفريقية، وزحف إلى المغرب الأقصى زحفه المشهور سنة تسع وستين وأجفلت أمامه ملوك زناتة من بني خزر وبني محمد بن صالح، وانحازوا جميعاً إلى سبتة.

وأجاز محمد بن الخير البحر إلى المنصور بن أبي عامر صريخاً، فخرج المنصور في عساكره إلى الجزيرة ممدّاً لهم بنفسه.

وعقد لجعفر بن علي على حرب بلّكين، وأجازه البحر وأمدّه بمائة حمل من المال، فاجتمعت إليه ملوك زناتة وضربوا مصافّهم بساحة سبتة.

وأظلّ عليهم بلّكين من جبل تطاون فرأى ما لا قبل له به فارتحل عنهم، وأشغل نفسه بجهاد برغواطة إلى أن هلك مُنصرفاً من المغرب سنة اثنتين وسبعين كما ذكرناه.

وعاد جعفر بن علي إلى مكانه من الحضرة، وساهمه المنصور في حمل الرياسة وبقي المغرب غفلاً من الولاية، واقتصر المنصور على ضبط سبتة ووكّل إلى ملوك زناتة دفاع صنهاجة وسائر أولياء الشيعة.

وقام يبلو طاعتهم إلى أن قام بالمغرب الحسن بن كنّون من الأدارسة، بعثه العزيز نزار من مصر لاسترجاع ملكه بالمغرب، وامدّه بلّكين بعسكر من صنهاجة وهلك على تفيئة ذلك بلّكين، ودعا الحسن إلى أمره بالمغرب، وانضمّ إليه بدوي ابن يعلى بن محمد اليفرني وأخوه زيري وابن عمّه أبو يدّاس فيمن إليهم من بني يفرن، فسرّح المنصور لحربه ابن عمّه أبا الحكم عمرو بن عبد اللّه بن أبي عامر الملقّب عسكلاجه، وبعثه بالعساكر والأموال فأجاز البحر، وانحاش إليه ملوك آل خزر محمد بن الخير، ومقاتل وزيري ابنا عطيّة، وخزرون بن فلفول في جمع مغراوة، وظاهروه على شأنه.

وزحف بهم أبو الحكم بن أبي عامر إلى الحسن بن كنّون حتى ألجأوه إلى الطاعة، وسأل الأمان على نفسه فعقد له عمرو بن أبي عامر ما رضيه من ذلك، وأمكن به من قياده، وأشخصه إلى الحضرة فكان من قتله وإخفار ذمّة أبي الحكم بن أبي عامر وقتله بعده ما تقدّم حسبما ذكرنا ذلك من قبل.

وكان مقاتل وزيري ابنا عطيّة من بين ملوك زناتة أشدّ الناس انحياشاً للمنصور وقياماً بطاعة المروانية.

وكان بدوي بن يعلى وقومه بنو يفرن منحرفين عن طاعتهم.

ولما انصرف أبو الحكم بن أبي عامر من المغرب عقد المنصور عليه للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي وأطلق يده في انتقاء الرجال والأموال فأنفذه إلى عمله سنة ست وسبعين وأوصاه بملوك مغراوة من زناتة، واستبلغ بمقاتل وزيري من بينهم لحسن انحياشهم وطاعتهم، وأغراه ببدوي بن يعلى المضطرب الطاعة الشديد المراوغة، فنفذ لعمله ونزل بفاس، وضبط أعمال المغرب، واجتمعت إليه ملوك زناتة.

وهلك مقاتل بن عطيّة سنة ثمان وسبعين واستقل برياسة الظواعن البدو عن مغراوة أخوه زيري بن عطيّة، وحسنت مخالّته لابن عبد الودود صاحب المغرب وانحياشه بقومه إليه.

واستدعاه المنصور من محله بفاس سنة إحدى وثمانين إشادة بتكريمه وأغراه ببدوي بن يعلى بمنافسته في الخط وإيثار الطاعة فبادر إلى إجابته بعد أن استخلف على المغرب ابنه المعزّ، وأنزله بتلمسان ثغر المغرب وولّى على عدوة القرويين من فاس علي بن محمود بن أبي علي قشّوش، وعلى عدوة الأندلسيين عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة.

وقدّم بين يديه هدية إلى المنصور، ووفد عليه فاستقبله بالجيش والعدّة واحتفل للقائه، وأوسع نزله وجرايته ونوّه باسمه في الوزارة وأقطعه رزقها.

وأثبت رجاله في الديوان ووصله بقيمة هديّته وأسنى فيها وأعظم جائزة وفده وعجّل تسريحه إلى عمله فقفل إلى إمارته من المغرب.

ونمي عنه خلاف ما احتسب فيه من غمط المعروف وإنكار الصنيع، والاستنكاف من لقب الوزارة الذي نوّه به، حتى أنه قال لبعض حشمه، وقد دعاه بالوزير: وزير من يا لكع لاوالله إلا أمير ابن أمير، واعجباً من ابن أبي عامر وخرفته، والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله، إن له منّا ليوماً، والله لقد تاجرني فما أهديت إليه حطّاً للقيم، ثم غالطني بما بدّله تبتيتاً للكرم، إلا أن يحتسب بثمن الوزارة التي حطّني بها عن رتبتي.

ونمي ذلك إلى ابن أبي عامر فصرّ عليها أذنه وزاد في اصطناعه، وبعث يدّو بن يعلى اليفرني قريبه في ملك زناتة يدعوه إلى الوفادة فأساء إجابته وقال: متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد إلى البياطرة.

وأخذ في إفساد السابلة والأجلاب على الأحياء والعيث في العمالة، فأوعز المنصور إلى عامله على المغرب الوزير حسن بن عبد الودود بنبذ العهد إليه، ومظاهرة عدّوه زيري بن عطيّة عليه، فجمعوا له سنة إحدى وثمانين ولقوه فكانت الدائرة عليهم، وتخرّم العسكر وأثبت الوزير ابن عبد الودود جراحة كان فيها حتفه.

وبلغ الخبر إلى المنصور فشقّ عليه وأهمّه شأن المغرب، وعقد عليه لوقته لزيري بن عطيّة، وكتب إليه بعهده وأمر بضبط المغرب ومكاتبة. جند السلطان وأصحاب حسن بن عبد الودود، فاضطلع بأعبائه وأحسن الغناء في عمله.

واستفحل شأن يدّو بن يعلى وبني يفرن، واستغلظوا على زيري بن عطيّة وأصلوه نار الفتنة، وكانت حروبهم سجالاً، وسيمت الرعايا بفاس كثرة تعاقبهم عليها وانتزائهم على عملها.

وبعث الله لزيري بن عطيّة ومغراوة مدداً من أبي البهار بن زيري بن مناد بما كان انتقض لذلك العهد على أخيه منصور بن بلّكين صاحب القيروان وإفريقية، ونزع عن دعوة الشيعة إلى المروانية.

واقتفى أثره في ذلك خلُوف بن أبي بكر صاحب تيهرت وأخوه عطيّة لصهر كان بينهما وبين زيري، فاقتطعوا أعمال المغرب الأوسط ما بين الزاب وانشريش، ووهران، وخطبوا في سائر منابرها باسم هشام المؤيّد، وخاطب أبو البهار من وراء البحر المنصور بن أبي عامر، وأوفد عليه أبا بكر ابن أخيه حبُوس بن زيري في طائفة من أهل بيته ووجوه قومه، فاستقبلوا بالجيش ولقاه رحباً وتسهيلاً، وأعظم موصله وأسنى جوائز وفده وصلاتهم، وأنفذ معه إلى عمّه أبي البهار بخمسماية قطعة من صنوف الثياب الخزّ والعبيد، وقيمته عشرة آلاف درهم من الآنية والحليّ، وبخمسة وعشرين ألفاً من الدنانير، ودعاه إلى مظاهرة زيري بن عطية على بدوي بن يعلى، وقسم بينهما عمل المغرب شقّ الأبلمة حتى لقد اقتسما مدينة فاس عدوة بعد عدوة، فلم يرع ذلك يدّو ولا وزعه عن شأنه من الفتنة والأجلاب على البدو والحاضرة،

وشقّ عصا الجماعة.

وانتقض خلوف بن أبي بكر على المنصور لوقته، وراجع ولاية المنصور بن بلّكين.

ومرض أبو البهار في المظاهرة عليه للوصلة التي بينهما، وقعدً عمّا قام له زيري بن عطيّة من حرب خلوف بن أبي بكر، وأوقع به زيري في رمضان سنة إحدى وثمانين واستلحمه وكثيراً من أوليائه، واستولى على عسكره، وانحاش إليه عامّة أصحابه.

وفرّ عطيّة شريداً إلى الصحراء، ثم نهض على أثرها ليدّو بن يعلى وقومه فكانت بينهما لقاءة صعبة انكشف فيها أصحاب يدّو استلحم منهم زهاء ثلاثة آلاف، واكتسح معسكره وسبيت حرمه التي كانت منهنّ أمه وأخته، وتحيّز سائر أصحابه إلى فئة زيري وخرج شريداً إلى الصحراء إلى أن اغتاله ابن عمّه أبو يدّاس بن دوناس حسبما ذكرناه، وورد خبر الفتحين متعاقبين على المنصور فعظم موقعهما لديه.

قيل: إن مقتل يدّو إنما كان عند إياب زيري من الوفادة، وذلك أنه لما استقدمه المنصور ووفد عليه كما ذكرناه، خالفه يدّو إلى فاس فدخلها وقتل بها من مغراوة خلقاً واستمكن بها أمره فلما رجع زيري من وفادته امتنع به يدّو فنازله زيري وطال الحصار وهلك من الفريقين خلق ثم اقتحمها عليه عنوة فقتل وبعث برأسه إلى سدّة الخلافة بقرطبة.

إلا أن راوي هذا الخبر يجعل وفادة زيري على المنصور وقتله ليدّو سنة ثلاث وثمانين فاللّه أعلم أيّ ذلك كان.

ثم إن زيري فسد ما بينه وبين أبي البهار الصنهاجي وتزاحفا فأوقع به زيري وانهزم أبو البهار إلى سبتة مورياً بالعبور إلى المنصور فبادر بكاتبه عيسى بن سعيد بن القطاع في قطعة من الجند إلى تلقّيه فحاد عن لقائه.

وصعد إلى قلعة جراوة، وقد قدم الرُسل إلى ابن أخيه المنصور صاحب القيروان مستميلاً إلى أن التحم ذات بينهما.

ثم تحيّز إليه وعاد إلى مكانه من عمله، وخلع ما تمسك به من طاعة الأموية وراجع طاعة الشيعة فجمع المنصور لزيري بن عطيّة أعمال المغرب.

واستكفى به في سدّ الثغر وعوّل عليه من بين ملوك المغرب في الذبّ عن الدعوة، وعهد إليه بمناجزة أبي البهار وزحف إليه زيري في أُمم عديدة من قبائل زناتة وحشود البربر وفرّ أمامه، ولحق بالقيروان. واستولى زيري على تلمسان وسائر أعمال أبي البهار. وملك ما بين السوس الأقصى والزاب فاتّسع ملكه وانبسط سلطانه واشتدّت شوكته، وكتب بالفتح إلى المنصور وبعث إليه بمائتين من عتاق الخيل وخمسين جملاً من المهارى السُبّق، وألف دوقة من جلود اللمط وأحمال من قسي الزان وقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره، وألف حمل من التمر وأحمال من ثياب الصوف الرفيعة كثيرة، فجدّد له عهده على المغرب سنة إحدى وثمانين وأنزل أحياءه بأنحاء فاس في قياطنهم.

واستفحل أمر زيري بالمغرب ودفع بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا، واختطّ مدينة وجدة سنة أربع وثمانين وأنزلها عساكره وحشمه، واستعمل عليها ذويه، ونقل إليها ذخيرته، وأعدّها معتصماً، وكانت ثغراً لعمله بين المغرب الأقصى والأوسط.

ثم فسد ما بينه وبين المنصور بما نمي عنه من التأنّف لهشام باستبداد المنصور عليه فسامه المنصور الهضيمة وأبى منها، وبعث كاتبه ابن القطاع في العسكر، فاستعصى عليه وأمكنه صاحب قائد قلعة حجر النسر منها، فأشخصه إلى الحضرة.

وأحسن إليه المنصور وسمّاه الناصح، وكشف زيري وجهه في عداوة ابن أبي عامر والإغراء به والتشيُّع لهشام المؤيد والإمتعاض له من هضيمته وحجره، فسخطه عند ابن أبي عامر وقطع عنه رزق الوزارة، ومحى اسمه من ديوانها ونادى بالبراءة منه.

وعقد لواضح مولاه على المغرب وعلى حرب زيري بن عطيّة، وانتقى له الحُماة من سائر الطبقات، وأزاح عللهم وأمكنه من الأموال للنفقات وأحمال السلاح والكسي، وأصحبه طائفة من ملوك العدوة كانوا بالحضرة، منهم: محمد بن الخير بن محمد بن الخير وزيري بن خزر وابن عمّهما بكساس بن سيُد الناس.

ومن بني يفرن أبو نوبخت. بن عبد اللّه بن بكّار.

ومن مكناسة: إسماعيل بن البوري ومحمد بن عبد اللّه بن مدين، ومن أزداجة خزرون بن محمد وأمدّه بوجوه الجند.

وفصل من الحضرة سنة سبع وثمانين وسار في التعبية وأجاز البحر إلى طنجة فعسكر بوادي ردات وزحف زيري بن عطيّة في قومه، فعسكر إزاءه وتواقفا ثلاثة أشهر، واتّهم واضح رجالات بني برزال بالأدهان فأشخصهم إلى الحضرة وأغرى بهم المنصور فوبّخهم وتنصلوا فصفح عنهم، وبعثهم في غير ذلك الوجه.

ثم تناول واضح حصن أصيلاً ونكُور فضبطهما واتصلت

الوقائع بينه وبين زيري، وبيت واضح معسكر زيري بنواحي أصيلا وهم غازون فأوقع بهم. وخرج ابن أبي عامر من الحضرة لاستشراف أحوال واضح وإمداده، فسار في التعبئة واحتل بالجزيرة عند فرضة المجاز، ثم بعث عن ابنه المظفّر من مكان استخلافه بالزاهرة، وأجاز إلى العدوة واستكمل معه أكابر أهل الخدمة وجُلّة القوّاد.

وقفل المنصور إلى قرطبة واستذاع خبر عبد الملك بالمغرب ورجع إليه عامّة أصحاب زيري من ملوك البربر وتناولهم من إحسانه وبرّه ما لم يعهدوا مثله.

وزحف عبد الملك إلى طنجة واجتمع مع واضح، وتلوّم هناك مزيحاً لعلل العسكر، فلما استتمّ تدبيره زحف في جمع لاكفاء له. ولقيه زيري بوادي منى من أحواز طنجة في شوّال سنة ثمان وثمانين فدارت بينهم حرب شديدة. همّ فيها أصحاب عبد الملك وثبت هو وبينما هم في حومة الحرب إذا طعن زيري بعض الموتورين من أتباعه اهتبل الغرّة في ذلك الموقف فطعنه ثلاثاً في نحره وأشواه بها، ومرّ يشتدّ نحو المظفّر، وبشّره فاستكذبه به لثبوت رايته، ثم سقط إليه الصحيح فشدّ عليهم فاستوت الهزيمة وأثخن فيهم بالقتل، واستولى على ما كان في معسكرهم مما يذهب فيه الوصف. ولحق زيري بفاس جريحاً في قلّة، فامتنع عليه أهلها ودافعوه بحرمه، فاحتملهنّ وفرّ أمام العساكر إلى الصحراء، وأسلم جميع أعماله.

وطيّر عبد الملك بالفتح إلى أبيه فعظم موقعه عنده وأعلن بالشكر لله والدعاء وبثّ الصدقات وأعتق الموالي، وكتب إلى ابنه عبد الملك بعهده على المغرب فأصلح نواحيه وسدّ ثغوره، وبعث العمّال في جهاته: فأنفذ محمد بن الحسن بن عبد الودود في جند كثيف إلى تادلا واستعمل حميد بن يصل المكناسي على سجلماسة فخرج كلٌّ لوجهه، واقتضوا الطاعة وحملوا إليه الخراج، فأقفل المنصور ابنه عبد الملك في جمادى من سنة سبع وثمانين وعقد على المغرب لواضح فضبطه واستقام على تدبيره.

ثم عزله في رمضان من سنته بعبيد الله ابن أخيه يحيى، ثم ولّى عليه من بعده إسماعيل بن البوري، ثم من بعده أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التُّجيبي إلى أن هلك المنصور.

وأعاد المظفّر بن المعزّ بن زيري من منتبذه بالمغرب الأوسط لولاية أبيه بالمغرب فنزل بفاس، وكان من خبر زيري أنه لما استقل من نكبته وهزيمة عبد الملك إياه، واجتمع إليه بالصحراء فل مغراوة، وبلغه اضطراب صنهاجة واختلافهم على باديس بن المنصور بعد مهلك أبيه، وأنه خرج عليه بعد عمومته مع ماكسن بن زيري، فصرف وجهه حينئذ إلى أعمال صنهاجة يتنهز فيها الفرصة.

واقتحم المغرب الأوسط ونازل تاهرت وحاصر بها يطُوفت بن بلّكين.

وخرج باديس من القيروان صريخاً له.

فلما مرّ بطبنة امتنع عليه فلفول بن خزرون وخالفه إلى إفريقية فشغل بحربه.

وقد وكان أبو سعيد بن خزرون لحق بإفريقية وولاه المنصور على طبنة كما نذكره، فلما انتقض سار إليه باديس ودفع حمّاد بن بلّكين في عساكر صنهاجة إلى مدافعة زيري بن عطيّة فالتقيا بوادي ميناس قرب تاهرت، فكانت الدّبرة على صنهاجة، واحتوى زيري على معسكرهم واستلحم أُلوفاً منهم.

وفتح مدينة تاهرت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة، وأقام الدعوة فيها كلها للمؤيد هشام ولحاجبه المنصور من بعده.

ثم اتّبع آثار صنهاجة إلى أشير قاعدة ملكهم، فأناخ عليها واستأمن إليه زاوي بن زيري ومن معه من أكابر أهل بيته المنازعين لباديس فأعطاه منه ما سأل، وكتب إلى المنصور بذلك يسترضيه ويشترط على نفسه الرهن والاستقامة إن أُعيد إلى الولاية، ويستأذنه في قدوم زاوي وأخيه خلال، وأذن لهما وقدما سنة تسعين، وسأل أخوهما أبو البهار مثل ذلك، وأنفذ رسله يذكّر تقديمه فسوّفه المنصور لما سبق من نكثه.

واعتلّ زيري بن عطيّة وهو بمكانه من حصار أشير فأفرج عنها.

وهلك في منصرفه سنة إحدى وتسعين واجتمع آل خزر وكافّة مغراوة من بعده على ابنه المعزّ بن زيري فبايعوه، وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة ثم استجدى للمنصور واعتلق بالدعوة العامريّة وصلحت حاله عندهم، وهلك المنصور خلال ذلك ورغب المعزّ من ابنه عبد الملك المظفّر أن يعيده إلى عمله على مال يحمله إليه وعلى أن يكون ولده معنصر رهينة بقرطبة فأجابه إلى ذلك وكتب له عهده وأنفذ به وزيره أبا علي بن خديم ونسخته: بسم اللّه الرحمن الرحيم صلّى اللّه على سيّدنا محمد وآله من الحاجب المظفّر سيف الدولة دولة الإمام الخليفة هشام المؤيد باللّه أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافّة مدنيّي فاس وكافّة أهل المغرب سلّمهم اللّه. أمّا بعد أصلح اللّه شأنكم وسلّم أنفسكم وأديانكم، فالحمد لله علاّم

الغيوب وغفّار الذنوب ومقلّب القلوب ذي البطش الشديد المبدي المعيد الفعّال لما يريد، لا رادّ لأمره، ولا معقّب لحكمه، بل له الملك والأمر، وبيده الخير والشر، إياه نعبد وإياه نستعين، وإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون.

وصلّى اللّه على محمد سيّد المرسلين وعلى آله الطيّبين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والسلام عليكم أجمعين.

وإن المعزّ بن زيري بن عطيّة أكرمه اللّه تابع لدينا رسله وكتبه متنصّلا من هنات دفعته إليها ضرورات، ومستغفراً من سيئات حطّتها من توبته حسنات، والتوبة محاء للذنب، والاستغفار منقذ من العيب وإذا أذن اللّه بشيء يسّره، وعسى أن تكرهوا شيئاً ولكم فيه خير وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة، ولزوم الجادة، واعتقاد الإستقامة وحسن المعونة وخفّة المونة، فولّيناه ما قبلكم، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم، وأن يرفع أعمال الجور عنكم وأن يعمّر سبلكم، وأن يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم إلا في حدود اللّه تبارك وتعالى وأشهدنا اللّه عليه بذلك وكفى اللّه شهيداً.

وقد وجّهنا الوزير أبا محمد علي بن جدلم أكرمه اللّه وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا ليأخذ بشأنه ويؤكد العهد فيه عليه بذلك، وأمرناه بإشراككم فيه ونحن بأمركم معتنون وأحوالكم مطالعون، وأن يقضي على الأعلى للأدنى، ولا يرتضي فيكم بشيء من الأدنى فثقوا بذلك وأسكنوا إليه وليمض القاضي أبو عبد اللّه أحكامه مشدوداً ظهره بنا، معقوداً سلطانه بسلطاننا، ولا تأخذه في اللّه لومة لائم، فلذلك طبنا به إذ ولّيناه، وأملنا فيه إذ قلّدناه، واللّه المستعان، وعليه التكلان، لا إله إلا هو، وتبلغوا منّا سلاماً طيّباً جزيلاً ورحمة اللّه وبركته كتب في ذي القعدة من سنة ست وتسعين وثلاثمائة.

ولما وصل إلى المعزّ بن زيري عهد المظفّر إليه بولايته على المغرب ما عدا كورة سجلماسة، فإنّ واضحاً مولى المنصور عهد بها في ولايته على المغرب بها لوانودين بن خزرون بن فلفول حسبما نذكره بعد، فلم تدخل في ولاية المعزّ هذه.

فلما وصله عهد المظفّر ضمّ نشره وثاب إليه نشاطه، وبثّ عمّاله في جميع كور المغرب وجبى خراجها، ولم تزل ولايته متّسقة، وطاعة رعاياه منتظمة.

ولما افترق أمر الجماعة بالأندلس واختلّ رسم الخلافة وصار الملك فيها طوائف استحدث المعزّ في التغلّب على سجلماسة وانتزاعها من أيدي بني وانودين بن خزرون فأجمع لذلك، ونهض إليه سنة سبع وأربعمائة وبرزوا إليه في جموعهم فهزموه، ورجع إلى فاس في فل من قومه وأقام على الاضطراب من أمره إلى أن هلك سنة سبع عشرة وولّي من بعده ابن عمّه حمامة بن المعزّ بن عطيّة، وليس كما يزعم بعض المؤرّخين أنه ابنه وإنما هو اتفاق في الأسماء أوجب هذا الغلط، فاستولى حمامة هذا على عملهم واستفحل ملكه، وقصده الأمراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء ثم نازعه الأمر أبو كمال تميم بن زيري بن يعلى اليفرني سنة أربع وعشرين وأربعمائة من بني يدّو بن يعلى المتغلّبين على نواحي سلا، وزحف إلى فاس في قبائل بني يفرن ومن انضاف إليهم من زناتة.

وبرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن إليهم فكانت بينهم حروب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة.

وهلك من مغراوة أُمم واستولى تميم على فاس أمال المغرب، ولما دخل فاس استباح يهود وسبى حرمهم واصطلم نعمتهم، ولحق حمامة بوجدة فامتد من هنالك من قبائل مغراوة من أنجاد مديونه وملويّة.

وزحف إلى فاس فدخلها سنة تسع وعشرين وتحيّز تميم إلى موضع إمارته من سلا وأقام حمامة في سلطان المغرب.

وزحف إليه سنة ثلاثين وأربعمائة القائد ابن حمّاد صاحب القلعة في جموع صنهاجة، وخرج إليه مجمعاً حربه، وبثّ القائد عطاءه في زناتة واستفسدهم على صاحبهم حمامة، فأقصر عن لقائه ولاذ منه بالسلم والطاعة، رجع القائد عنه ورجع هو إلى فاس. وهلك سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة فولّي بعده ابنه دوناس ويكنّى أبا العطاف، واستولى على فاس وسائر عمل أبيه، وخرج عليه لأول أمره حمّاد ابن عمّه معنصر بن المعزّ فكانت له معه حروب ووقائع، وكثرت جموع حمّاد فغلب دوناس على الضواحي وأحجره بمدينة فاس وخندق دوناس على نفسه الخندق المعروف بسياج حمّاد، وقطع حمّاد جرية الوادي عن عدوة القرويين إلى أن هلك محاصراً لها سنة خمس وثلاثين وأربعمائة فاستقامت دولة دوناس، وانفسحت أيامه، وكثر العمران ببلده، واحتفل في تشييد المصانع وأدار السور على أرباضها، وبنى بها الحمّامات والفنادق فاستبحر عمرانها ورحل التجّار بالبضائع إليها، وهلك دوناس سنة إحدى وخمسين وأربعمائة وولّي من بعده ابنه الفتوح ونزل بعدوة الأندلس ونازعه الأمر أخوه الأصغر عجيسة وامتنع بعدوة القرويّين، وافترق أمرهم بافتراقهما وكانت الحرب بينهما سجالاً، ومجالها بين المدينتين حيث يفضي باب النقبة بعدوة القرويين لهذا العهد، وشيّد الفتوح باب عدوة الأندلسيين وهو مسمّى به إلى

الآن، واختطّ عجيسة باب الجيسة وهو أيضاً مسّمى به إلى الآن، وإنما حذفت عينه لكثرة الدوران في استعمالهم وأقاموا على ذلك إلى أن غدر الفتوح بعجيسة أخيه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وبيته فظفر به وقتله، ودهم المغرب إثر ذلك على ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة، وخشي الفتوح مغبّة أحوالهم فأفرج عن فاس.

وزحف صاحب القلعة بلّكين بن محمد بن حمّاد إلى المغرب سنة أربع وخمسين وأربعمائة على عادتهم في غزوه، ودخل فاس واحتمل من أكابرهم وأسرافهم رهناً على الطاعة، وقفّل إلى قلعته. وولّى على المغرب بعد الفتوح معنصر بن حمّاد بن منصور، وشغل بحروب لمتونة.

وكانت له عليهم الواقعة المشهورة سنة خمس وخمسين وأربعمائة ولحق بصدينة وملك يوسف بن تاشفين والمرابطون فاس، وخلّف عليها عامله وارتحل إلى غمارة فخالفه معنصر إلى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لمتونة، ومثّل بهم بالحرق والصلب.

ثم زحف إلى مهدي ابن يوسف الكزنائي صاحب مدينة مكناسة، وقد كان دخل في دعوة المرابطين فهزمه وبعث برأسه إلى سكون البرغواطي الحاجب صاحب سبتة.

وبلغ الخبر إلى يوسف بن تاشفين فسّرح عساكر المرابطين لحصار فاس فأخذوا بمخنقها، وقطعوا المرافق عنها حتى اشتدّ بأهلها الحصار ومسّهم الجهد.

وبرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدبرة عليه، وفقد في الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمائة وبايع أهل فاس من بعده لابن تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء.

وشغل يوسف بن تاشفين عنهم.

بفتح بلاد غمارة حتى إذا كان سنة اثنتين وستين وأربعمائة وفرغ من فتح غمارة صمد إلى فاس فحاصرها أياماً، ثم اقتحمها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة.

وهلك تميم في جملتهم حتى أعوزت مزاراتهم فرادى، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات.

وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان، وأمر يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين العدوتين وصيرهما مصراً، وأدار عليهما سوراً واحداً، وانقرض أمر مغراوة من فاس والبقاء لله سبحانه وتعالى.

الخبر عن بني خزرون ملوك سجلماسة من الطبقة الأولى من مغراوة وأوّلية ملكهم ومصائره

كان خزرون بن فلفول من أُمراء مغراوة وأعيان بني خزر، ولما غلبهم بلّكين بن زيري وصنهاجة على المغرب الأوسط تحيّزوا إلى المغرب الأقصى وراء ملويّة.

وكان بنو خزر يدينون بالدعوة المروانيّة كما ذكرناه.

وكان المنصور بن أبي عامر القائم بدولة المؤيد قد اقتصر لأول حجابته من أحوال العدوة على ضبط سبتة برجال الدولة ووجوه القوّاد وطبقات العسكر، ودفع ما وراءها إلى أمراء زناتة من مغراوة وبني يفرن ومكناسة. وعوّل في ضبط كوره وسداد ثغوره عليهم وتعهدهم بالعطاء وأفاض فيهم الإحسان فازدلفوا إليه بوجوه التقربات وأسباب الوصائل.

وإن خزرون بن فلفول هذا زحف يومئذ إلى سجلماسة وبها المعتزّ من أعقاب آل مدرار، فانتزى بها أخوه المنتصر بعد قفول جوهر إلى المغرب وظفر بأميرهم الشاكر لله محمد بن الفتح، فوثب المنتصر من أعقابهم بعده على سجلماسة وتملّكها.

ثم وثب به أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة فقتله وقام بأمر سجلماسة، وأعاد بها ملك بني مدرار وتلقّب المعتزّ بالله فزحف إليه خزرون بن فلفول سنة ست وستين في جموع مغراوة، وبرز إليه المعتزّ فهزمه خزرون واستولى على مدينة سجلماسة ومحا دولة آل مدرار والخوارج منها آخر الدهر، وأقام الدعوة بها للمؤيد هشام، فكانت أول دعوة أُقيمت للمروانيين بذلك الصقع ووجد للمعتزّ مالاً وسلاحاً فاحتقبها وكتب بالفتح إلى هشام وأنفذ رأس المعتزّ فنصب بباب سدّته ونسب الأثر في ذلك الفتح لصحابة محمد بن أبي عامر ويمن طائره، وعقد لخزرون على سجلماسة وأعمالها، وجاءه عهد الخليفة بذلك فضبطها وقام بأمرها إلى أن هلك، فولّي أمر سجلماسة من بعده ابنه وانودين.

ثم كان زحف زيري بن مناد إلى المغرب الأقصى سنة تسع وستين وفرّت زناتة أمامه إلى سبتة وملك أعمال المغرب وولّى عليها من قبله وحاصر سبتة.

ثم أفرج عنها وشغل بجهاد برغواطة، وبلغه أن وانودين بن

خزرون أغار على نواحي سجلماسة، وأنه دخلها عنوة وأخذ عامله وما كان معه من المال والذخيرة، فدخل إليها سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وفصل عنها فهلك في طريقه، ورجع وانودين بن خزرون إلى سجلماسة.

وفي أثناء ذلك كان استيلاء زيري بن عطيّة بن عبد الله بن خزر على المغرب وملك فاس بعهد هشام.

ثم انتقض على المنصور آخراً وأجاز ابنه عبد الملك في العساكر إلى العدوة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة فغلب عليها بني خزر ونزل فاس، وبثّ العمّال في سائر نواحي المغرب لسدّ الثغور وجباية الخراج،وعقد فيما عقد على سجلماسة لحميد بن يصل المكناسي النازع إليهم من أولياء الشيعة فعقد له على سجلماسة حين فرّ عنها بنو خزرون فملكها وأقام فيها الدعوة.

ولما قفل عبد الملك إلى العدوة وأعاد واضحاً إلى عمله بفاس، استأمن إليه كثير من وجوه بني خزر كان منهم وانودين بن خزرون صاحب سجلماسة وابن عمّه فلفول بن سعيد فأمّنهم، ثم رجع وانودين إلى علمه بسجلماسة بعد أن تضامن أمرها وانودين وفلفول بن سعيد على مال مفروض، وعدّة من الخيل والدرق يحملان ذلك إليه كل سنة.

وأعطيا في ذلك أبناءهما رهناً فعقد لهما واضح بذلك، واستقلّ وانودين بعد ذلك بملك سجلماسة منذ أول سنة تسعين وأربعمائة مقيماً فيها للدعوة المروانية.

ورجع المعزّ بن زيري إلى ولاية المغرب بعهد المظفّر بن أبي عامر سنة ست وتسعين وأربعمائة واستثنى عليه فيها أمر سجلماسة لمكان وانودين بها.

ولما انتثر سلك الخلافة بقرطبة، وكان أمر الجماعة للطوائف واستبدّ أُمراء الأمصار والثغور وولاة الأعمال بما في أيديهم، استبدّ وانودين هذا بأعمال سجلماسة وتغلّب على عمل درعة واستضافه إليه.

ونهض المعزّ بن زيري صاحب فاس سنة سبع وأربعمائة مع جموع من مغراوة يحاول انتزاع هذه الأعمال من يد وانودين، فبرز إليه في جموعه وهزمه، وكان ذلك سبباً في اضطراب أمر المعزّ إلى أن هلك، واستفحل ملك وانودين واستولى على صفروي من أعمال فاس وعلى جميع قصور ملويّة، وولّى عليها من أهل بيته.

ثم هلك وولّي أمره من بعده ابنه مسعود بن وانودين، ولم أقف على تاريخ ولايته ومهلك أبيه.

ولما ظهر عبد الله بن ياسين واجتمع إليه المرابطون من لمتونة ومسوفة وسائر الملثمين، وافتتحوا أمرهم بغزو درعة سنة خمس وأربعين وأربعمائة فأغاروا على إبل كانت هناك في حمى لمسعود بن وانودين حماه لها وهو بسجلماسة فنهض لمدافعتهم وتواقفوا، فانهزم مسعود بن وانودين وقتل كما ذكرناه في أخبار لمتونة.

ثم عادوا الغزو إلى سجلماسة فدخلوها من العام المقبل فدخلوها، وقتلوا من كان بها من فلّ مغراوة.

ثم تتبّعوا من بعد ذلك أعمال المغرب وبلاد سوس وجبال المصامدة، واقتحموا صفروي سنة خمس وخمسين وأربعمائة وقتلوا من كان بها من أولاد وانودين وبقيّة مغراوة.

ثم افتتحوا حصون ملوية سنة ثلاث وستين وأربعمائة وانقرض أمر بني وانودين كأن لم يكن، والبقاء لله وحده وكلّ شيء هالك إلا وجهه، سبحانه وتعالى لا ربّ سواه، ولا معبود إلا إيّاه، وهو على كل شيء قدير.

الخبر عن ملوك طرابلس من بني خزرون بن فلفول من أهل الطبقة الأولى وأوّلية أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان مغراوة وبنو خزر ملوكهم قد تحيّزوا إلى المغرب الأقصى أمام بلّكين، ثم اتّبعهم سنة تسع وستين في زحفه المشهور، وأحجرهم بساحل سبتة حتّى بعثوا صريخهم إلى المنصور.

وجاءهم إلى الجزيرة مُشارفاً لأحوالهم وأمدّهم بجعفر بن يحيى ومن كان معه من ملوك البربر وزناتة، فامتنعوا على بلّكين، ورجع عنهم فتقرى أعمال المغرب، وهلك في منصرفه سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ورجع أحياء مغراوة وبنو يفرن إلى مكانهم منه.

وبعث المنصور الوزير حسن بن عبد الودود عاملاً على المغرب، وقدم سنة ست وسبعين وثلاثمائة واختصّ مُقاتلاً وزيري ابني عطيّة بن عبد الله بن خزر بمزيد التكرمة، ولحق نظراؤهما من أهل بيتهما الغيرة من ذلك، فنزع سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر إلى صنهاجة سنة سبع وسبعين منحرفاً عن طاعة الأمويّة.

ووافى المنصور بن بلّكين بأشير منصرفه من إحدى غزواته، فتلقّاه بالقبول والمساهمة، وبالغ في تكرمته وعقد له على عمل طبنة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وعقد لابنه وزُو بن سعيد على إحدى بناته إحكاماً للمخالصة، فنزل سعيد وأهل بيته بمكان إمارته من طبنة.

ووفد على المنصور ثانية بالقيروان سنة إحدى وثمانين، وخرج للقائه، واحتفل في تكرمته ونزله. وأدركه الموت بالقيروان فهلك لسنته.

ووفد ابنه فلفول من مكان عمله، فعقد له على عمل أبيه وخلع عليه، وزفّ إليه ابنته، وسوّغه ثلاثين حملاً من المال، وثلاثين تختاً من الثياب، وقرّب إليه مراكب بسروج مثقلة وأعطاه عشرة من البنود مذهبة، وانصرف إلى عمله.

وهلك المنصور بن بلّكين سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وولّي ابنه باديس فعقد لفلفول على عمله بطبنة، ولما انتقض زيري بن عطيّة على المنصور بن أبي عامر، وسرّح إليه ابنه المظفّر في العساكر كما قلناه، فغلبه على أعمال المغرب.

ولحق زيري بالقفر، ثم عاج على المغرب الأوسط، ونازل ثغور صنهاجة، وحاصر تيهرت، وبها يطّوفت بن بلّكين.

وزحف إليه حمّاد بن بلّكين من أشير في العساكر من تلكّانة، ومعه محمّد بن أبي العرب قائد باديس، بعثه في عساكر صنهاجة من القيروان مدداً ليطوفت.

وأوغر إلى حمّاد بن بلكّين وهو باشير أن يكون معهم ولقيهم. زيري بن عطيّة ففضّ جموعهم، واستولى على معسكرهم، واضطرمت إفريقية فتنة وتنكّرت صنهاجة لمن كان بجهاتها من قبائل زناتة.

وخرج باديس بن المنصور من رقادة في العساكر إلى المغرب.

ولما مرّ بطبنة استقدم فلفول بن سعيد بن خزرون ليستظهر به على حربه، فاستراب واعتذر عن الوصول. وسأل تجديد العهد إلى مقدم السلطان فأُسعف.

ثم اشتدت استرابته ومن كان معه من مغراوة فارتحلوا عن طبنة وتركوها. ولما أبعد باديس رجع فلفول إلى طبنة فعاث في نواحيها، ثم فعل في تيجس كذلك، ثم حاصر باغاية.

وانتهى باديس إلى أشير وفرّ زيري بن عطيّة إلى صحراء المغرب ورجع باديس بعد أن ولّى على تاهرت وأشير عمّه يطوفت بن بلّكين وانتهى إلى المسيلة فبلغه خروج عمومته ماكسن وزاوي وعزم ومغنين فخاف أبو البهار إحن زيري ولحق بهم من معسكره.

وبعث باديس في أثرهم عمّه حمّاد بن بلّكين، ورحل هو إلى فلفول بن سعيد بعد أن كان سرّح عساكره إليه، وهو محاصر باغاية، فهزمهم وقتل قائدهم أبا زعبل.

ثم بلغه وصول باديس فأفرج عنها، واتّبعه باديس إلى مرماجنّة، فتزاحفوا وقد اجتمع لفلفول من قبائل زناتة والبربر أُمم، فلم يثبتوا للّقاء وانكشفوا عنه. وانهزم إلى جبل الحناش، ونزل القيطون بما فيه.

وكتب باديس بالفتح إلى القيروان، وقد كان الإرجاف أخذ منهم المآخذ، وفرّ كثر منهم إلى المهدية وشرعوا في عمل الدروب بما كانوا يتوقعون من فلفول بن سعيد حين قتل أبا زعيل، وهزم جيوش صنهاجة، وكانت الواقعة آخر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وانصرف باديس إلى القيروان، ثم بلغه أن أولاد زيري اجتمعوا مع فلفول بن سعيد وعاقدوه، ونزلوا جميعاً بحصن تبسّة فخرج باديس من القيروان إليهم، فافترقوا ولحق العمومة بزيري بن عطيّة ما خلا ماكسن وابنه محسن، فإنهما أقاما مع فلفول. ورجل باديس في أثره سنة إحدى وتسعين وثلثمائة وانتهى إلى بسكرة ففرّ فلفول إلى الرمال.

وكان زيري بن عطيّة محاصراً لأشير أثناء هذه الفتنة، فأفرج عنها، ورجع عنها أبو البهار بن زيري إلى باديس، وقفّل معه إلى القيروان وتقدّم فلفول بن سعيد إلى نواحي قابس وطرابلس فاجتمع إليه من هنالك من زناتة، وملك طرابلس على ما نذكره.

وذلك أن طرابلس كانت من أعمال مصر وكان العامل عليها بعد رحيل معدّ إلى القاهرة عبد الله بن يخلف الكتاميّ.

ولما هلك معدّ رغب بلّكين من نزار العزيز إضافتها إلى عمله، فأسعفه بها، وولّى عليها تمصولة بن بكّار من خواصّ مواليه نقله إليها من ولاية بونة، فأقام والياً عليها عشرين سنة إلى أيام باديس، فتنكرت له الأحوال عمّا عهد، وبعث إلى الحاكم بمصر يرغب الكون في حضرته،، وأن يتسلّم منه عمل طرابلس.

وكان برجوان الصقلبي يستبد على الدولة، وكان يغصّ بمكان يأنس الصقلبي منها، فأبعده عن الحضرة لولاية برقة ثم لما تتابعت رغبة تمصولة صاحب طرابلس، أشار برجوان ببعث يأنس إليها، فعقد له الحاكم عليها، وأمره بالنهوض إلى عملها فوصلها سنة تسعين وثلثمائة ولحق تمصولة بمصر وبلغ الخبر إلى باديس، فسرّح القائد جعفر بن حبيب في العساكر ليصدّه عنها وزحف إليه يانس فكانت عليه الهزيمة وقتل.

ولحق فتوح بن علي من قوّاده بطرابلس، فامتنع بها ونازله جعفر بن حبيب وأقام عليها مدّة.

وبينما هو محاصر له إذ وصله كتاب يوسف بن عامر عامل قابس يذكر أن فلفول بن سعيد نزل على قابس، وأنه قاصد إلى

طرابلس، فرحل جعفر عن البلد إلى ناحية الجبل، وجاء فلفول بن سعيد فنزل بمكانه، وضاقت الحال بجعفر وأصحابه فارتحلوا مصمّمين على المناجزة وقاصدين قابس، فتخلّى فلفول عن طريقهم وانصرفوا إلى قابس.

وقصد فلفول مدينة طرابلس فتلقّاه أهلها، ونزل له فتوح بن علي عن إمارتها فملكها، وأوطنها من يومئذ وذلك سنة إحدى وتسعين وثلثمائة وبعث بطاعته إلى الحاكم فسرّح الحاكم يحيى بن علي بن حمدون، وعقد له على أعمال طرابلس وقابس، فوصل إلى طرابلس، وارتحل معه فلفول بن سعيد وفتّوح بن علي بن غفيانان في عساكر زناتة إلى حصار قابس، فحاصروها مدّة ورجعوا إلى طرابلس.

ثم رجع يحيى بن علي إلى مصر واستبدّ فلفول بعمل طرابلس، وطالت الفتنة بينه وبين باديس، ويئس من صريخ مصر فبعث بطاعته إلى المهدي محمد بن عبد الجبّار بقرطبة، وأوفد إليه رسله في الصريخ والمدد، وهلك فلفول قبل رجوعهم إليه سنة أربعمائة، واجتمعت زناتة إلى أخيه ورّوا بن سعيد.

وزحف باديس إلى طرابلس وأجفل ورّوا ومن معه من زناتة عنها، ولحق بباديس من كان بها من الجند، فلقوه في طريقه، وتمادى إلى طرابلس فدخلها ونزل قصر فلفول، وبعث إليه ورّوا بن سعيد يسأل الأمان له ولقومه، فبعث إليه محمد بن حسن من صنائعه، فاستقدم وفدهم بأمانه فوصلهم، وولّى ورُّوا على نفزاوة والنعيم بن كنُّون على قسطيلية وشرط عليهم أن يرحلوا بقومهم عن أعمال طرابلس،فرجعوا إلى أصحابهم.

وارتحل باديس إلى القيروان، وولّى على طرابلس محمد بن حسن. ونزل ورّوا بنفزاوة والنعيم بقسطيلية.

ثم انتقض ورّوا سنة إحدى وأربعمائة، ولحق بجبال إيدمر فتعاقدوا على الخلاف، واستضاف النعيم بن كنّون نفزاوة إلى عمله.

ورجع خزرون بن سعيد عن أخيه ورّوا إلى السلطان باديس، وقدم عليه بالقيروان سنة اثنتين وأربعمائة فتقبّله ووصله، وولاه عمل أخيه نفزاوة، وولّ بني مجلية من قومه على قفصة، وصارت مدن الماء كلها لزناتة، وزحف ورّوا بن سعيد فيمن معه من زناتة إلى طرابلس، وبرز إليه عاملها محمد بن حسن فتواقعوا ودارت بينهم حرب شديدة انهزم فيها ورّوا، وهلك الكثير من قومه.

ثم راجع حصارها وضيّق على أهلها فبعث باديس إلى خزرون وأخيه وإلى النعيم بن كنّون وأمراء الجريد من زناتة بأن يخرجوا لحرب صاحبهم، فخرجوا إليه وتواقفوا بصبرة ما بين قابس وطرابلس، ثم اتفقوا ولحق أصحاب خزرون بأخيه ورّوا.

ورجع خزرون إلى عمله واتّهمه السلطان بالمداهنة في شأن أخيه ورّوا.

فاستقدمه من نفزاوة فاستراب وأظهر الخلاف وسرّح السلطان إليه فتوح بن أحمد في العساكر فأجفل عن عمله، واتّبعه النعيم وسائر زناتة، ولحقوا جميعاً بورّوا بن سعيد سنة أربع وأربعمائة وتظاهروا على الخلاف ونصبوا الحرب على مدينة طرابلس.

واشتد فساد زناتة فقتل السلطان من كان عنده من رهن زناتة، واتفق وصول مقاتل ابن سعيد نازعاً عن أخيه ورّوا في طائفة من أبنائه وأخواله فقتلوا معهم جميعاً، وشغل السلطان بحرب عمّه حمّاد.

ولما غلبه بشلف وانصرف إلى القيروان بعث إليه ورُّوا بطاعته، ثم كان مهلك ورُّوا سنة خمس وأربعمائة وانقسم قومه على ابنه خليفة وأخيه خزرون بن سعيد، واختلفت كلمتهم ودسّ حسن بن محمد عامل طرابلس في التضريب بينهم.

ثم صار أكثر زناتة إلى خليفة، وناجز عنه خزرون الحرب فغلبه على القيطون وضبط زناتة، وقام فيهم بأمر أبيه وبعث بطاعته إلى السلطان باديس بمكانه من حصار القلعة فتقبّلها.

ثم هلك باديس وولّي ابنه المعزّ سنة ست وأربعمائة وانتقض خليفة بن ورُّوا عليه، وكان أخوه حمّاد بن ورُّوا يضرب على أعمال طرابلس وقابس، ويواصل عليه الغارة والنهب إلى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة فانتقض عبد الله بن حسن صاحب طرابلس على السلطان وأمكنه من طرابلس.

وكان سبب ذلك أنّ المعزّ بن باديس لأول ولايته استقدم محمد بن حسن من عمله، واستخلف عليها أخاه عبد اللّه بن حسن وقدم على المعزّ وفوّض إليه أمر مملكته، وأقام على ذلك سبعاً، وتمكنت حاله عند السلطان، وكثرت السعاية فيه فنكبه وقتله، وبلغ الخبر إلى أخيه فانتقض كما قلناه، وأمكن خليفة بن وروا وقومه بني خزرون بطرابلس، وقتلوا الصنهاجيين واستولوا عليهم.

ونزل خليفة بقصر عبد اللّه وأخرجه عنه، واستصفى أمواله وحرمه. واتصل ملك خليفة بن وروا وقومه بني خزرون بطرابلس.

وخاطب الخليفة بالقاهرة الظاهر بن الحكم سنة سبع عشر وأربعمائة بالطاعة وضمان السابلة وتشييع الرفاق، ويخطب عهده على طرابلس فأجابه إلى ذلك، وانتظم في عمله.

وأوفد في هذه السنة أخاه حمّاداً على المعزّ بهديته فتقبّلها وكافأه عليها.

هذا آخر ما حدّث به ابن الرقيق من أخبارهم، ونقل ابن حمّاد وغيره أن المعزّ زحف أعوام ثلاثين وأربعمائة إلى زناتة بجهات طرابلس، فبرزوا إليه وهزموه.

وقتلوا عبد اللّه بن حمّاد وسبوا أُخته أُم العلوّ بنت باديس، ومنّوا عليها بعد حين وأطلقوها إلى أخيها. ثم زحف إليهم ثانية فهزموه.

ثم أُتيحت له الكرّة عليهم فغلبهم وأذعنوا لسلطانه، واتّقوه بالمهادنة، فاستقام أمرهم على ذلك.

كان خزرون بن سعيد لما غلبه خليفة بن وروا على زناتة لحق بمصر، فأقام فيها بدار الخلافة ونشأ بنوه بها، وكان منهم المنتصر بن خزرون وأخوه سعيد.

ولما وقعت الفتنة بين الترك والمغاربة بمصر وغلبهم الترك وأجلوهم عنها، لحق المنتصر وسعيد بطرابلس وأقاما في نواحيها.

ثم ولّي سعيد أمر طرابلس ولم يزل والياً عليها إلى أن هلك سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

وقال أبو محمد التيجاني في رحلته عند ذكر طرابلس: ولما قتلت زغبة سعيد بن خزرون سنة تسع وعشرين وأربعمائة قدم خليفة بن خزرون من القيطون بقومه إلى ولايتها، فأمكنه منها رئيس الشورى بها يومئذ من الفقهاء أبو الحسن بن المنمّر المشتهر بعلم الفرائض، وبايع له، وقام بها خزرون إلى سنة ثلاثين وأربعمائة بعدها فقدم المنتصر بن خزرون في ربيع الأول منها، ومعه عساكر زناتة، ففرّ خزرون بن خليفة من طرابلس مختفياً، وملكها المنتصر بن خزرون، وأوقع بابن المثمر ونفاه، واتصلت بها إمارته انتهى ما نقله التيجاني.

وهذا الخبر مشكل من جهة أن زغبة من العرب الهلاليين وإنما جاؤوا إلى إفريقية من مصر بعد الأربعين من تلك المائة، فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة تسع وعشرين وأربعمائة إلاّ أن كان تقدّم بعض أحيائهم إلى إفريقية من قبل ذلك فقد كان بنو قرّة ببرقة، وبعثهم الحاكم مع يحيى بن علي بن حمدون إلا أن ذلك لم ينقله أحد.

ولم تزل طرابلس بأيدي بني خزرون الزناتيين ولما وصل العرب الهلاليون وغلبوا المعزّ بن باديس على أعمال إفريقية واقتسموها كانت قابس وطرابلس في قسمة زغبة، والبلد لبني خزرون.

ثم استولى بنو سليم على الضاحية وغلبوا عليها زغبة ورحّلوهم عن تلك المواطن ولم تزل البلد لبني خزرون.

وزحف المنتصر بن خزرون مع بني عدّي من قبائل هلال مجلباً على أعمال بني حمّاد حتى نزل المسيلة ونزل أشير.

ثم خرج إليهم الناصر، ففرّ أمامه إلى الصحراء، ورجع إلى القلعة، فرجعوا إلى الأجلاب على أعماله، فراسله الناصر على الصلح وأقطعه ضواحي الزاب وزيغة، وأوعز إلى عروس بن سندي رئيس بسكرة لعهده أن يمكر به، فلما وصل المنتصر إلى بسكرة أنزله عروس ثم قتله غيلة أعوام ستين وأربعمائة، وولّي طرابلس من بني خزرون لم يحضرني اسمه. واختلّ ملك صنهاجة واتصل فيهم ملك تلك الأعمال إلى سنة أربعين وخمسماية.

ثم نزل بطرابلس ونواحيها في هذه السنة مجاعة، وأصابهم منها شدّة هلك فيها الناس، وفرّوا عنها وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها، فجهّز إليها رجار طاغية صقلية أسطولاً لحصارها بعد استيلائه على المهدية وصفاقس واستقرار ولايته فيهما، ووقع بين أهل طرابلس الخلاف فغلب عليهم جرجي بن ميخايل قائد الأسطول وملكها، وأخرج منها بني خزرون وولّى على البلد شيخهم أبا يحيى بن مطروح التميمي، فانقرض أمر بني خزرون منها وبقي منهم من بقي بالضاحية إلى أن افتتح الموحدون إفريقية وكانت ثورة المسلمين بهم، وإخراج النصارى من بين أظهرهم كما ذكرناه في أخبار إفريقية آخر الدولة الصنهاجية.

والملك لله وحده يؤتيه من يشاء من عباده سبحانه لا إله غيره.

الخبر عن بني يعلى ملوك تلمسان من آل خزر من أهل الطبقة الأولى والإلمام ببعض أحوالهم ومصائرها

قد ذكرنا في أخبار محمد بن خزر وبنيه أن محمد بن الخير الذي قتل نفسه في معركة بلّكين كان من ولده الخير ويعلى.

وأنهم الذين ثاروا منهم بأبيهم زيري فقتلوه واتبعهم بلّكين من بعد ذلك وأجلاهم إلى المغرب الأقصى حتى قتل محمد منهم

صبراً أعوام ستين وثلاثماية بنواحي سجلماسة قبل وصول معد إلى القاهرة، وولاية بلّكين على إفريقية وقام بأمر زناتة بعد الخير ابنه محمد، وعمّه يعلى بن محمد.

وتكررت إجازة محمد بن الخير هذا وعمّه يعلى إلى المنصور بن أبي عامر كما ذكرنا ذلك من قبل.

وغلبهم ابنا عطيّة بن عبد الله بن خزر وهما مقاتل وزيري على رياسة مغراوة.

وهلك مقاتل واختص المنصور زيري بن عطيّة بإثرته، وولاه على المغرب كما ذكرناه، وقارن ذلك مهلك بلّكين وانتقاض أبي البهار بن زيري صاحب المغرب الأوسط على باديس، فكان من شأنه مع زيري ويدّو بن يعلى ما قدّمناه.

ثم استقل زيري وغلبهم جميعاً على المغرب، ثم انتقض على المنصور فأجاز إليه ابنه المظفّر وأخرج زناتة من المغرب الأوسط، فتوغّل زيري في المغرب الأوسط ونازل أمصاره وانتهى إلى المسيلة وأشير.

وكان سعيد بن خزرون قد برع إلى صنهاجة وملك طبنة واجتمع زناتة بإفريقية عليه وعلى ابنه فلفول من بعده.

وانتقض فلفول على باديس عند زحف زيري إلى المسيلة وأشير، وشغل باديس ثم ابنه المنصور على المغرب الأوسط بحروب فلفول وقومه، ودفعوا إليه حمّاد بن بلّكين فكانت بينه وبين زناتة حروب سجال، وهلك زيري بن عطيّة واستقل المعزّ ابنه بملك المغرب سنة ثلاث وتسعين وثلاثماية وغلب صنهاجة على تلمسان وما إليها، واختطّ مدينة وجدة كما ذكرنا ذلك كله من قبل.

ونزل يعلى بن محمد مدينة تلمسان فكانت خالصة له، وبقي ملكها وسائر ضواحيها في عقبه.

ثم هلك حمّاد بعد استبداده ببلاد صنهاجة على آل بلّكين وشغل بنوه بحرب بني باديس، فاستوسق ملك بني يعلى خلال ذلك بتلمسان، واختلفت أيامهم مع آل حمّاد سلماً وحرباً.

ولما دخل العرب الهلاليّون إفريقية وغلبوا المعزّ وقومه عليها واقتسموا سائر أعمالها، ثم تخطّوا إلى أعمال بني حمّاد فأحجروهم بالقلعة وغلبوهم على الضواحي فرجعوا إلى استيلائهم واستخلصوا الأثبج منهم وزغبة.

فاستظهروا بهم على زناتة المغرب الأوسط وأنزلوهم بالزاب، وأقطعوهم الكثير من أعماله فكانت بينهم وبين بني يعلى أمراء تلمسان حروب ووقائع وكان زغبة أقرب إليهم بالمواطن وكان أمير تلمسان لعهدهم بختي من ولد يعلى وكان وزيره وقائد حروبه أبو سعدى بن خليفة بن اليفرني، فكان كثيراً ما يخرج بالعساكر من تلمسان لقتال عرب الأثبج وزغبة، ويحتشد من إليهم من زناتة مَن أهل المغرب الأوسط مثل مغراوة وبني يلومو وبني عبد الواد وتوجين وبني مرين، وهلك في بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعدى أعوام خمسين وأربعمائة.

ثم ملك المرابطون أعمال المغرب الأقصى بعد مهلك بختي، وولاية ابنه العباس بن بختي بتلمسان.

وسرّح يوسف بن تاشفين قائده مزدلي في عساكر لمتونة لحرب من بقي بتلمسان من مغراوة، ومن لحق بهم من فل بني زيري وقومهم، فدوّخ المغرب الأوسط وظفر بيعلى بن العباس بن بختي، برز لمدافعتهم، فهزمه وقتله وانكفأ راجعاً إلى المغرب.

ثم نهض يوسف بن تاشفين بنفسه في جموع المرابطين سنة ثلاث وسبعين فافتتح تلمسان واستلحم بني يعلى ومن كان بها من مغراوة وقتل العباس بن بختي أميرها من بني يعلى.

ثم افتتح وهران وتنس وملك جبل وانشريش وشلف إلى الجزائر وانكفأ راجعاً وقد محا أثر مغراوة من المغرب الأوسط وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي في عسكر من المرابطين بتلمسان، واختطّ مدينة تاكرارت بمكان معكسره وهو اسم محله بلسان البربر، وهي التي صارت اليوم مع تلمسان القديمة التي تسمّى أكادير بلداً واحداً، وانقرض أمر مغراوة من جميع المغرب كأن لم يكن والبقاء لله وحده سبحانه.

الخبر عن أمراء أغمات من مغراوة

لم أقف على أسماء هؤلاء إلا أنهم كانوا أمراء باغمات آخر دولة بني زيري بفاس، وبني يعلى اليفرني بسلا وتادلا في جوار المصامدة وبرغواطة.

وكان لقُوط بن يوسف بن علي آخرهم في سني الخمسين وأربعماية، وكانت امرأته زينب بنت إسحاق النفزاوية من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة.

ولما غلب المرابطون على أغمات سنة تسع وأربعين وأربعمائة فرّ لقّوط هذا إلى تادلا ونزل على محمد بن تميم اليفرني صاحب سلا وأعمالها، إلى أن افتتح المرابطون تادلا سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وقتل الأمير محمد. واستلحم بني يفرن،

فكان الأمير لقّوط فيمن استلحم وخلفه أبو بكر بن عمر أمير المرابطين على زينب بنت إسحاق حتى إذا ارتحل إلى الصحراء سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وإستعمل ابن عمّه يوسف بن تاشفين على المغرب، نزل له عن زوجه زينب هذه فكان لها في سياسة أمره وسلطانه، وما أشارت إليه عند مرجع أبي بكر من الصحراء في إظهار الاستبداد حتى تجافى عنه منازعته، وخلص ليوسف بن تاشفين ملكه كما ذكرنا في أخبارهم.

ولم نقف من أخبار لقّوط بن يوسف وقومه على غير هذا الذي كتبناه، والله وليّ العون سبحانه.

الخبر عن بني سنجاس وريغة والأغواط وبني ورا من قبائل مغراوة من أهل الطبقة الأولى وتصاريف أحوالهم

هذه البطون الأربعة من بطون مغراوة وقد زعم بعض الناس أنهم من بطون زناتة غير مغراوة.

أخبرني بذلك الثقة عن إبراهيم بن عبد الله التيمزوغتي قال وهو نسّابة زناتة لعهده: ولم تزل هذه البطون الأربعة من أوسع بطون مغراوة.

فأما بنو سنجاس فلهم مواطن في كل عمل من إفريقية والمغربين، فمنهم قبلة المغرب الأوسط بجبل راشد وجبل كريكرة وبعمل الزاب وبعمل شلف، ومن بطونهم بنو غيار ببلاد شلف أيضاً، وبنو غيار بعمل قسنطينة.

وكان بنو سنجاس هؤلاء من أوسع القبائل وأكثرهم عدداً، وكان لهم في فتنة زناتة وصنهاجة آثار بإفريقية والمغرب، وأكثرها في إفساد السبيل والعيث في المدن، ونازلوا قفصة سنة أربع عشرة وخمسماية بعد أن عاثوا بجهات القصر، وقتلوا من وجدوا هنالك من عسكر ملكاتة.

وخرجت إليهم حامية قفصة فأثخنوا فيهم، ثم كثر فسادهم، وسرّح السلطان قائده محمد بن أبي العرب في العساكر إلى بلاد الجريد فشرّدهم عنها وأصلح السابلة.

ثم عادوا إلى مثلها سنة خمس عشرة وخمسمائة فأوقع بهم قائد بلاد الجريد وأثخن فيهم بالقتل، وحمل رؤوسهم إلى القيروان فعظم الفتح فيهم، ولم تزل الدولة تتبعهم بالقتل والإثخان إلى أن خضدوا من شوكتهم.

وجاء العرب الهلاليّون وغلبوا على الضواحي كلّ من كان بها من صنهاجة وزناتة، وتحيّز فلّهم إلى الحصون والمعاقل، وضُربت عليهم المغارم إلا ما كان ببلاد القفر مثل جبل راشد، فإنهم لبعدهم عن منازل الملك لا يعطون مغرماً، إلا أنه غلب عليهم هنالك العمور من بطون الهلاليين، ونزلوا معهم.

وملكوا عليهم أمرهم وصاروا لهم فيئة ومن بني سنجاس من نزل بالزاب، وهم لهذا العهد أهل مغارم لمن غلب على ثغورهم من مشايخهم، وأما من نزل منهم ببلاد شلف ونواحي قسنطينة فهم لهذا العهد أهل مغارم الدول.

وكان دينهم جميعاً الخارجية على سنن زناتة في الطبقة الأولى، ومن بقي منهم اليوم بالزاب فعلى ذلك.

ومن بني سنجاس هؤلاء بأرض المشتل ما بين الزاب وجبل راشد أوطنوا جباله في جوار غمرة وصاروا عند تغلُّب الهلاليين في ملكهم يقبضون الأتاوة منهم.

ونزل معهم لهذا العهد السحارى من بطون عروة من زغبة، وغلبوهم على أمرهم وأصاروهم خولاً.

وأما بنو ريغة فكانوا أحياء متعددة ولما افترق أمر زناتة تحيّز منهم إلى جبل عياض وما إليه من البسيط إلى نقاوس وأقاموا في قياطنهم، فمن كان بجبل عياض منهم أهل مغارم لأمراء عياض يقبضونها منهم للدولة الغالبة ببجاية، وأما من كان ببسيط نقاوس فهم في أقطاع العرب لهذا العهد.

ونزل أيضاً الكثير منهم ما بين قصور الزاب وواركلا فاختطّوا قرى كثيرة في عدوة واد ينحدر من الغرب إلى الشرق ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة، والأطم قد رفّ عليها الشجر ونضّدت حفافيها النخيل، وانساحت خلالها المياه، وزهت بنابعها الصحراء، وكثر في قصورها العمران من ريغة هؤلاء، وبهم تعرف لهذا العهد، وهم أكثرها.

ومن بني سنجاس وبني يفرن وغيرهم من قبائل زناتة.

وتفرقت جماعتهم للتنازع في الرياسة فاستقلّت كل طائفة منهم بقصور منها أو بواحد.

ولقد كانت فيما يقال أكثر من هذا العدد أضعافاً وأن ابن غانية المسوفي حين كان يجلب على بلاد إفريقية والمغرب في فتنته مع الموحدين خرّب عمرانها، واجتثّ شجرها، وغور مياهها، ويشهد لذلك آثر العمران بها في أطلال الديار ورسوم البناء وأعجاز النخل المنقعر، وكان هذا العمل يرجع في أول الدولة الحفصية لعامل الزاب وكان من الموحدين، وينزل بسكرة يتردّد ما

بينها وبين مقرة، وكان من أعماله قصور واركلة أيضاً.

ولما فتك المنتصر بمشيخة الدواودة كما قلناه في أخباره، وقتلوا بعد ذلك عامل الزاب ابن عتوّ من مشيخة الموحدين، وغلبوا ضواحي الزاب وريغة وواركلة. وأقطعتهم إيّاها الدول بعد ذلك فصارت في إقطاعهم.

ثم عقد صاحب بجاية بعد ذلك على العمل كله لمنصور بن مزني واستقر في عقبه.

فربما يسومون بعض الأحيان أهل تلك القصور الغرم للسلطان بما كان من الأمر القديم، ويعسكر عليهم في ذلك كتائب من رجالة الزاب وخيّالة العرب، ويبهون عليها الأمر الدواودة ثم يقاسمهم فيما يمتريه منهم.

وأكبر هذه الأمصار تسمى تُقُرت، مصر مستبحر العمران بدوي الأحوال، كثير المياه والنخل، ورياسته في بني يوسف بن عبد اللّه كانت لعبيد اللّه بن يوسف، ثم لابنه داود، ثم لأخيه يوسف بن عبيد اللّه.

وتغلّب على واركلة من يد أبي بكر بن موسى أزمان حداثته، وأضافها إلى عمله.

ثم هلك وصار أمر تُقُرت لأخيه مسعود بن عبيد اللّه، ثم لابنه حسن بن مسعود، ثم لابنه أحمد بن حسن شيخها لهذا العهد.

وبنو يوسف بن عبيد اللّه هؤلاء من ريغة، ويقال: إنّهم من سنجاس، وفي أهل تلك الأمصار من مذاهب الخوارج وفرقهم كثير، وأكثرهم على دين العزابة ومنهم النكاريّة، وأقاموا على انتحال هذه الخارجية لبعدهم عن منال الأحكام.

ثم بعد مدينة تُقُرت بلد تماسين وهي دونها في العمران والخطّة ورياسته لبني إبراهيم من ريغة وسائر أمصارهم كذلك، كل مصر منها مستبدٌ بأمره وحرب لجاره.

وأما لقواط وهم فخذ من مغراوة أيضاً فهم في نواحي الصحراء ما بين الزاب وجبل راشد، ولهم هنالك قصر مشهور بهم، فيه فريق من أعقابهم على سغب من العيش لتوغّله في القفر، وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب، وبينهم وبين الدوسن أقصى عمل الزاب مرحلتان، وتختلف قصودهم إليهم لتحصيل المرافق منهم.

واللّه يخلق ما يشاء ويختار.

وأما بنو ورا فهم فخذ من مغراوة أيضاً، ويقال من زناتة وهم متشعبون ومفترقون بنواحي المغرب: فمنهم بناحية مراكش والسوس ومنهم ببلاد شلف ومنهم بناحية قسنطينة ولم يزالوا على حالهم منذ انقراض زناتة الأوّلين، وهم لهذا العهد أهل مغارم وعسكرة مع الدول، وأكثر الذين كانوا بمراكش قد انتقل رؤساؤهم إلى ناحية شلف نقلهم يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين في أوّل هذه المائة الثامنة، لما ارتاب بأمرهم في تلك الناحية، وخشي من فسادهم وعيثهم، فنقلهم في عسكر إلى موطن شلف لحمايته، فنزلوا به.

ولما ارتحل بنو مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب أقاموا ببلاد شلف فأعقابهم به لهذا العهد، وأحوالهم جميعاً في كل قطر متقاربة في المغرم والعسكرة مع السلطان و لله الخلق والأمر جميعاً.

سبحانه لا إله إلا هو الملك العظيم.

الخبر عن بني يرنيان إخوة مغراوة وتصاريف أحوالهم

قد ذكرنا بني يرنيان هؤلاء، وأنهم إخوة مغراوة وبني يفرن، والكل ولد يصليتن ونسبهم جميعاً إلى جانا مذكور هنالك، وهم مبثوثون كثيراً بين زناتة في المواطن.

وأما الجمهور منهم فموطنهم بملويّة من المغرب الأقصى ما بين سجلماسة وكرسيف، كانوا هنالك مجاورين لمكناسة في مواطنهم، واختطّوا حفافي وادي ملويّة قصوراً كثيرة متقاربة الخطّة، ونزلوها وتعدّت بطونهم وأفخاذهم في تلك الجهات.

ومنهم بنو وطاط متوطنون لهذا العهد بالجبال المطلّة على وادي ملويّة من جهة القبلة، ما بينه وبين تازى وفاس، بهم تُعرف تلك القصور لهذا العهد، وكان لبني يرنيان هؤلاء صولة واعتزاز، وأجاز الحكم بن المستنصر منهم، والمنصور بن أبي عامر من بعده فيمن أجازوه من زناتة ثم في المائة الرابعة، وكانوا من أفحل جند الأندلس وأشدّهم شوكة.

وبقي أهل المواطن منهم في مواطنهم مع مكناسة أيام ملكهم، ويجمعهم عصبية يحيى.

ثم كانوا مع مغراوة أيضاً أيام ملكهم المغرب الأقصى ولمّا ملك لمتونة والموحدون من بعدهم لحق الظواعن منهم بالقفر، فاختلطوا بأحياء بني مرين الموالين لتلول المغرب من زناتة، أقاموا معهم في أحيائهم، وبقي من عجز عن الظعن منهم بمواطنهم: مثل بني وطاط وغيرهم، ففرضت عليهم المغارم والجبايات.

ولما دخل بنو مرين للمغرب ساهموهم في أقسام أعماله،

وأقطعوهم البلد الطيب من ضواحي سلا والمعمورة، زيادة إلى وطهنم الأول بملويّة، وأنزلوهم بنواحي سلا بعد أن كان منهم انحراف عنهم في سبيل المدافعة عن مواطنهم الأولى.

ثم أصحبوا ورعى لهم بنو عبد الحق سابقتهم معهم فاصطفوهم للوزارة والتقدّم في الحروب، ودفعوهم إلى المهمات وخلطوهم بأنفسهم.

وكان من أكابر رجالاتهم لعهد السلطان أبي يعقوب وأخيه أبي سعيد الوزير إبراهيم بن عيسى، استخلصوه للوزارة مرة بعد أخرى، واستعمله السلطان أبو سعيد على وزارة ابنه أبي علي، ثم لوزارته.

واستعمل ابنه السلطان أبو الحسن أبناء إبراهيم هذا في أكابر الخدّام فعقد لمسعود بن إبراهيم على أعمال السوس عندما فتحها أعوام الثلاثين وسبعماية، ثم عزله بأخيه حسّون، وعقد لمسعود على بلاد الجريد من إفريقية عند فتحه إيّاها سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وكان فيها مهلكه.

ونظّم أخاهما موسى في طبقة الوزارة، ثم أفرده بها أيام نكبته ولحاقه بجبل هنتاتة، واستعمله السلطان أبو عنّان بعد في العظيمات، وعهد له على أعمال سدويكش بنواحي قسنطينة ورشّح ابنه محمد السُّبيع لوزارته إلى أن هلك، وتقلّبت بهم الأيام بعده.

وقلّد عبد الحليم المعروف بحلي ابن السلطان أبي علي وزارته محمد بن السبيع بعد هذا أيام حصاره لدار ملكهم سنة اثنتين وستين وسبعمائة.كما نذكره في أخبارهم، فلم يقدّر لهم الظفر.

ثم رجع السبيع بعدها إلى محله من دار السلطان وطبقة الوزارة، وما زال يتصرف في الخدم الجليلة والأعمال الواسعة ما بين سجلماسة ومراكش وأعمال تازى وتادلا وغمارة، وهو على ذلك لهذا العهد.

والله وارث الأرض ومن عليها،وهو خير الوارثين.

الخبر عن وجديجن وواغمرت من قبائل زناتة ومبادىء أحوالهم وتصاريفها

قد تقدّم أن هذين البطنين من بطون زناتة من ولد ورتنيص بن جانا، وكان لهم عدد وقوّة، ومواطنهم مفترقة في بلاد زناتة.

فأما وجديجن فكان جمهورهم بالمغرب الأوسط، ومواطنهم منه منداس ما بين بني يفرن من جانب الغرب، ولواتة من جانب القبلة في السرسو، ومطماطة من جانب الشرق في وانشريش، وكان أميرهم لعهد يعلى بن محمد اليفرني رجلاً منهم اسمه عنّان،و كانت بينهم وبين لواتة الموطنين بالسرسو فتنة متصلة، يذكر أنها بسبب امرأة من وجديجن نكحت في لواتة وتلا، جامعها نساء قيوطنهم فعيّرنها بالفقر، فكتبت بذلك إلى عنّان تدمره، فغضب واستجاش بأهل عصبته من زناتة وجيرانه، فزحف معه يعلى في بني يفرن وكلمام بن حياتي في مغيلة وغرابة في مطماطة، ودارت الحرب بينهم وبين لواتة مليّاً.

ثم غلبوا لواتة على بلاد السرسو وانتهوا بهم إلى كدية العابد من آخرها وهلك عنّان شيخ وجديجن في بعض تلك الوقائع بملاكو من جهات السرسو.

ثم لجأت لواتة إلى جبل كريكرة قبلة السرسو، وكان يسكنه أحياء من مغراوة يعرف شيخهم لذلك العهد علاهم ربيب لشيخهم عمر بن تامصا الهالك قبله،و معنى تامصا بلسان البربر الغول.

ولما لجأت لواتة إليه غدر بهم وأغرى قومه، فوضعوا أيديهم فيهم سلباً وقتلا فلاذوا بالفرار ولحقوا بجبل لعود وجبل دراك فاستقروا هنالك آخر الدهر.

وورثت وجديجن مواطنهم بمنداس إلى أن غلبهم عليها بنو يلومين، وبنو ومانو كلٌ من جهته، ثم غلّب الآخرين عليها بنو عبد الواد،و بنو توجين إلى هذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها.

وأما واغمرت ويسموّن لهذا العهد غمرت،و هم إخوة وجديجن من ولد ورتنيص بن جانا كما قلناه.

فكانوا من أوفر القبائل عدداً،و مواطنهم متفرقة، وجمهورهم بالجبال إلى قبلة بلاد صنهاجة من المشتنل إلى الدوسن وكان لهم مع أبي يزيد صاحب الحمار في الشيعة آثار،و أوقع بهم إسماعيل القائم عند ظهوره على أبي يزيد وأثخن فيهم،و كذلك بلّكين وصنهاجة من بعده.

ولما افترق أمر صنهاجة لحمّاد وبنيه كانوا شيعاً لهم على بني بلّكين.

ونزع عن حمّاد أيام فتنته ابن أبي جلى من مشيختهم، وكان مختصّاً به، فنزع إلى باديس، فوصله وحمل أصحابه،و عقد له على طبنة وأعمالها.

حتى إذا جاء العرب الهلاليون وغلبوهم على الضواحي

اعتصموا بتلك الجبال قبلة المسيلة وبلاد صنهاجة، وصدّوا بها عن الظعن، وتركوا القيطون إلى سكنى المدن.

ولما تغلب الدواودة على ضواحي الزاب وما إليها، أقطعتهم الدولة مغارم هذه الجبال التي لغمرت.

وهم لهذا العهد في سهمان أولاد يحيى بن علي بن سباع من بطونهم وكان في القديم من غمرت هؤلاء كاهن زناتة موسى بن صالح مشهور عندهم حتى الآن، ويتناقلون بينهم كلماته برطانتهم على طريقة الرجز، فيها أخبار بالحدثان فيما يكون لهذا الجيل الزناتي من الملك والدولة، والتغلّب على الأحياء والقبائل والبلدان.

شهد كثير من الواقعات على وفقها بصحتها، حتى لقد نقلوا من بعض كلماته ما معناه باللسان العربي أن تلمسان ينالها الخراب، وتصير دورها فدنا حتى يثير أرضها حراث أسود بثور أسود أعور.

وذكر الثقات أنهم عاينوا ذلك بعد انتشار كلمته هذه أيام لحقها الخراب في دولة بني مرين الثانية سنة ستّين وسبعماية، وأفرط الخلاف بين هذا الجيل الزناتي في التشيع له والحمل عليه، فمنهم من يزعم أنه وليّ أو نبيّ، وآخرون يقولون: كاهن، ولم تقفنا الأخبار الصحيحة على الجليّ من أمره.

والله وتعالى أعلم لا رب غيره.

الخبر عن بني واركلا من بطون زناتة والمصر المنسوب إليهم بصحراء إفريقية وتصاريف أحوالهم

بنو واركلا هؤلاء إحدى بطون زناتة كما تقدم، من ولد فريني بن جانا، وقد مرّ ذكرهم.

وإن إخوانهم يزمرتن ومنجصة وغمالتة المعروفون لهذا العهد، منهم بنو واركلا وكانت فئتهم قليلة، وكانت مواطنهم قبلة الزاب، واختطّوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثماني مراحل من بسكرة في القبلة عنها ميامنة إلى المغرب، بنوها قصوراً متقاربة الخطة.

ثم استبحر عمرانها فائتلفت وصارت مصراً واحداً.

وكان معهم هنالك جماعة من بني زنداك من مغراوة، وإليهم كان هرب ابن أبي زيد النكاري عند فراره من الاعتقال لسنة خمس وعشرين وثلاثماية، وكان مقامه بينهم سنة يختلف إلى بني برزال قبلة المسيلة بسالات،و إلى قبائل البربر بجبل أوراس، يدعوهم جميعاً إلى مذهب النكارية، إلى أن ارتحل إلى أوراس، واستبحر عمران هذا المصر واعتصم به بنو واركلا هؤلاء، والكثير من ظواعن زناتة عند غلب الهلاليين إيّاهم على المواطن، واختصاص الأثبج بضواحي القلعة والزاب وما إليها.

ولما استبدّ الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بملك إفريقية وجال في نواحيها في أتباع ابن غانية، مرّ بهذا المصر فأعجبه وكلّف بالزيادة في تمصيره، فاختطّ مسجده.

العتيق ومأذنته المرتفعة، وكتب عليها اسمه وتاريخ وضعه نقشاً في الحجارة.

وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المُفْضية إلى بلاد السودان يسلكها التجّار الداخلون إليها بالبضائع وسكانها لهذا العهد من أعقاب بني واركلا وأعقاب إخوانهم من بني يفرن ومغراوة، ويعرف رئيسه باسم السلطان، شُهرة غير نكيرة بينهم، ورياسته لهذه الأعصار مخصوصة ببني أبي غبول، ويزعمون أنهم من بني واكير إحدى بيوت بني واركلا، وهو بذا العهد أبو بكر بن موسى بن سليمان من بني أبي غبول، ورياستهم متصلة في عمود هذا النسب وعلى عشرين مرحلة من هذا المصر في القبلة منحرفاً إلى الغرب بيسير بلد تكدة قاعدة وطن الملثمين وركاب الحاج من السودان اختطّه الملثمون من صنهاجة وهم ساكنوه لهذا العهد، وصاحبه أمير من بيوتاتهم يعرفونه باسم السلطان، وبينه وبين أمير الزاب مراسلة ومهاداة.

ولقد قدمت على بسكرة سنة أربع وخمسين أيام السلطان أبي عنّان في بعض الأغراض السلطانية ولقيت رسول صاحب تكدة عند يوسف بن مزني أمير بسكرة، وأخبرني عن استبحار هذا المصر في العمارة ومرور السابلة، وقال لي: اجتاز بنا هذا العام سفرٌ من تجّار المشرق إلى بلد مالي كانت ركابهم اثنى عشر ألف راحلة.

وذكر لي غيره أن ذلك هو لشأن في كل سنة.

وهذا البلد في طاعة سلطان مالي من السودان كما في سائر تلك البلاد الصحراوية المعروفة بالملثمين لهذا العهد، والله غالب على أمره سبحانه.

الخبر عن دمّر من بطون زناتة ومن ولي منهم بالأندلس وأوّلية ذلك ومصائره

بنو دمّر هؤلاء من زناتة وقد تقدّم أنهم من ولد ورسيك بن أديدت بن جانا، وشعوبهم كثيرة، وكانت مواطنهم بإفريقية في نواحي طرابلس وجبالها وكان منهم آخرون ظواعن بالضواحي من عرب إفريقية.

ومن بطون إيدمر هؤلاء بنو ورغمة، وهم لهذا العهد مع قومهم بجبال طرابلس.

ومن بطونهم أيضاً بطن متّسع كثير الشعوب وهم: بنو ورنيد بن وانتن بن واردين بن دمّر، وأن من شعوبهم بني ورتاتين وبني غرزول وبني تفورت، وربما يقال: إن هؤلاء الشعوب لا ينتسبون إلى دمّر من ورنيد كما تقدّم، وبقايا بني ورنيد لهذا العهد بالجبل المطل على تلمسان، بعد أن كانوا في البسيط قبلته، فزحمهم بنو راشد حين دخولهم من بلادهم بالصحراء إلى التل، وغلّبوهم على تلك البسائط فانزاحوا إلى الجبل المعروف بهم لهذا العهد، وهو المطل على تلمسان وكان قد أجاز إلى الأندلس من إيدمر هؤلاء أعيان ورجالات حرب فيمن أجاز إليها من زناتة وسائر البربر، أيام أخذهم بدعوة الحكم المستنصر فضمهم السلطان إلى عسكره، واستظهر بهم المنصور بن أبي عامر من بعد ذلك على شأنه، وفرى بهم المستعين أديم دولته، ولما اعصوصب البربر على المستعين وبني حمّود من بعده وغالبوا جنود الأندلس من العرب، وكانت الفتنة الطويلة بينهم التي نثرت سلك الخلافة وفرّقت شمل الجماعة، واقتسموا خطط الملك وولايات الأعمال، وكان من رجالاتهم نوح الدمري، وكان من عظماء أصحاب المنصور، وولاه المستعين أعمال مودور وأركش فاستبدّ بها سنة أربع في غمار الفتنة، وأقام بها سلطاناً لنفسه إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين، فولي ابنه أبا مناد محمّد بن نوح وتلقّب بالحاجب عزّ الدولة لقبين في قرن شأن ملوك الطوائف.

وكانت بينه وبين ابن عبّاد صاحب غرب الأندلس خطوب ومرّ المعتضد في بعض أسفاره بحصن أركش، وتطوّف مختفياً فقبض عليه بعض أصحاب ابن نوح، وساقه إليه، فخلّى سبيله وأولاه كرامة احتسبها عنده يداً وذلك سنة ثلاث وأربعين، فانطلق إلى دار ملكه ورجع بعدها إلى ولاية الملوك الذين حوله من البربر.

وأسجل لابن نوح هذا على عملي أركش ومورور فيمن أسجل له منهم، فصاروا إلى مخالصته إلى أن استدعاهم سنة خمس وأربعين بعدها إلى صنيع دعا إليه الجفلى من أهل أعماله، واختصّهم بدخول حمام أُعدّ لهم استبلاغاً في تكريمهم.

وتخلّف ابن نوح عنده من بينهم، فلما حصلوا داخل الحمام طبقه عليهم، وسدّ المنافس للهواء دونهم إلى أن هلكوا.

ونجا منهم ابن نوح لسالفة يده، وطيّر في الحين من تسلّم معاقلهم وحصونهم، فانتظمهم في أعماله.

وكان منهم وفدة وشريش وسائر أعمالها، وهلك من بعد ذلك الحاجب أبو مناد بن نوح، وولّي ابنه أبو عبد الله، ولم يزل المعتضد يضايقه إلى أن انخلع له سنة ثمان وخمسين، فانتظمها في أعماله وصار إليه محمد بن أبي مناد إلى أن هلك سنة ثمان وستين وانقرض ملك بني نوح والبقاء لله وحده سبحانه.

الخبر عن بني برزال إحدى بطون دمّر وما كان لهم من الملك بقرمونة وأعمالها بالأندلس أيام الطوائف وأوّلية ذلك ومصائره

قد تقدّم لنا أن بني برزال هؤلاء من ولد ورنيد بن وانتن بن واردين بن دمر، كما ذكره ابن حزم، وأن إخوتهم بنو يصدرين وبنو صمغار، وبنو يطوفت.

وكان بنو برزال هؤلاء بإفريقية، وكانت مواطنهم منها جبل سالات وما إليها من أعمال المسيلة.

وكان لهم ظهور ووفور عدد، وكانوا نكارية من فرق الخوارج.

ولما فرّ أبو زيد أمام إسماعيل المنصور، وبلغه أن محمد بن خزر يترصد له، أجمع الاعتصام بسالات وصعد إليهم، ثم أرهقته عساكر المنصور فانتقل عنهم إلى كتامة. وكان من أمره ما قدّمناه.

ثم استقام بنو برزال على طاعة الشيعة وموالاة جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب، حتى صاروا له شيعاً.

ولما انتقض جعفر على معدّ سنة ستين وثلاثمائة كان بنو برزال هؤلاء في جملته ومن أهل خصوصيته، فأجازوا به البحر إلى الأندلس أيام الحكم المستنصر، فاستخدمهم ونظّمهم في طبقات جنده إلى من كان لحق به من قبائل زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بالدعوة الأموية، ومحاربتهم عليها للأدارسة، فاستقرّوا جميعاً بالأندلس وكان لبني برزال من بينهم ظهور وغناء مشهور.

ولما أراد المنصور بن أبي عامر الاستبداد على خليفته هشام، وتوقّع النكير من رجالات الدولة وموالي الحكم، استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر وأفاض فيهم الإحسان، فاعتزّ أمره واشتدّ أزره حتى أسقط رجال الدولة ومحا رسومها، وأثبت أركان سلطانه ثم قتل صاحبهم جعفر بن يحيى كما ذكرناه خشية عصبيته بهم واستمالهم من بعده فأصبحوا له عصبة وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال الرفيعة وكان من أعيان بني برزال هؤلاء إسحاق بن....، فولاه في قرمونة وأعمالها، فلم يزل والياً عليها أيام بني أبي عامر وجدّد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة ووليها من بعده ابنه عبد اللّه.

ولما انقرض ملك بني حمّود من قرطبة ودفع أهلها القاسم المأمون عنهم سنة أربع عشرة أربعماية أراد اللحاق بإشبيلية، وبها نائبه محمد بن أبي زيري من وجوه البربر، وبقرمونة عبد اللّه بن إسحاق البرزالي فداخلهما القاضي ابن عبّاد في خلع طاعة القاسم، وصدّه عن العملين فأجابا إلى ذلك ثم دسّ للقاسم بالتحذير من عبد اللّه بن إسحاق فعدل القاسم عنهم جميعاً إلى شريش، واستبد كل منهم بعمله.

ثم هلك عبد اللّه من بعد ذلك، وولي ابنه محمد سنة... وكانت بينه وبين المعتضد بن عباد حرب، وظاهر عليه يحيى بن على بن حمود في منازلة إشبيلية سنة ثمان عشرة وأربعمائة ثم اتفق معه ابن عباد بعدها وظاهره على عبد اللّه بن الأفطس.

وكانت بينهما حرب كانت الدبرة فيها على ابن الأفطس.

وتحصل ابنه المظفر قائد العسكر في قبضة محمد بن عبد اللّه بن إسحاق إلى أن منّ عليه بعد ذلك وأطلقه.

ثم كانت الفتنة بين محمد بن إسحاق وبين المعتضد وأغار إسماعيل بن المعتضد على قرمونة في بعض الأيام بعد أن كمن الكمائن من الخيالة والرجل، وركب إليه محمد في قومه فاستطرد لهم إسماعيل إلى أن بلغوا الكمائن فثاروا بهم وقتلوا محمد البرزالي وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وولي ابنه العزيز بن محمد وتلقب بالمستظهر مناغياً في ذلك لملوك الطوائف في عهده.

ولم يزل المعتضد يستولي على غرب الأندلس شيئاً فشيئاً إلى أن ضايقه في عمل قرمونة، واقتطع منها أسيجة والمدور، ثم انخلع له العزيز عن قرمونة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ونظمها المعتضد في ممالكه، وانقرض ملك بني برزال من الأندلس ثم انقرض بعد ذلك حيهم من جبل سالات، وأصبحوا في الغابرين والبقاء للّه وحده سبحانه.

الخبر عن بني ومانوا وبني يلومي من الطبقة الأولى من زناتة وما كان لهم من الملك والدولة بأعمال المغرب الأوسط ومبدأ ذلك وتصاريفه

هاتان القبيلتان من بطون زناتة ومن توابع الطبقة الأولى، ولم نقف على نسبها إلى جانا، إلا أن نسابتهم متفقون على أن يلومي وورتاجن الذي هو أبو مرين أخوان، وأن مديون أخوهما للأم، ذكر لي ذلك غير واحد من نسابتهم.

وبنو مرين لهذا العهد يعرفون لهم هذا النسب، ويوجبون لهم العصبية به.

وكانت هاتان القبيلتان من أوفر بطون زناتة وأشدهم شوكة، ومواطنهم جميعاً بالمغرب الأوسط.

وبنو ومانوا منهم إلى جهة الشرق عن وادي في ميناس ومرات وما إليها من أسافل شلف وبنو يلومي بالعدوة الغربية منه بالجعبات والبطحاء وسيك وسيرات وجبل هوارة وبني راشد.

وكان لمغراوة وبني يفرن التقدم عليهم في الكثرة والقوة.

ولما غلب بلكين بن زيري مغراوة وبني يفرن على المغرب الأوسط، وأزاحهم إلى المغرب الأقصى بقيت هاتان القبيلتان بمواطنهما، واستعملهم صنهاجه في حروبهم، حتى إذا تقلص ملك صنهاجة عن المغرب الأوسط واعتزوا عليهم واختص الناصر بن علناس صاحب القلعة ومختط بجاية بني ومانوا هؤلاء بالولاية، فكانوا سيفاً لقومه دون بني يلومي.

وكانت رياسة بني ومانوا في أبيت منهم يعرفون ببني ماخوخ.

وأصهر المنصور بن الناصر إلى ماخوخ منهم في أخته، فزوجها إياه فكان لهم بذلك مزيد ولاية في الدولة.

ولما ملك المرابطون تلمسان أعوام سبعين وأربعماية وأنزل يوسف بن تاشفين بها عامله محمد بن تينعمر المسوفي، ودوخ أعمال المنصور وملك أمصارها إلى أن نازل الجزائر.

وهلك فولّي أخوه تاشفين على عمله، فغزا أشير وافتتحها وخربها وكان لهذين الحيين من زناتة أثر في مظاهرته وإمداده أحقد عليهم المنصور بعدها وغزا بني ومانوا في عساكر صنهاجة، وجمع له خلع ماخوخ فهزمه وأتبعه منهزماً إلى بجاية، وقتل لمدخله إلى

قصره وقتل زوجه أخت ماخوم تشفياً وضغناً.

ثم نهض إلى تلمسان في العساكر واحتشد العرب من الأثبج ورياح وزغبة ومن لحق به من زناتة وكانت الغزاة المشهورة سنة ست وثمانين وأربعمائة أبقى فيها على ابن تينعمر المسوفي بعد استمكانه من البلد كما ذكرناه في أخبار صنهاجة.

ثم هلك المنصور وولي ابنه العزيز، وراجع ماخوخ ولايتهم وأصهر إليه العزيز أيضاً في ابنته فزوجها إياه.

واعتز البدو في نواحي المغرب الأوسط، واشتعلت نار الفتنة بين هذين الحيين من بني ومانوا وبني يلومي فكانت بينهم حروب ومشاهد.

وهلك ماخوخ وقام بأمره في قومه بنوه تاشفين وعلي وأبو بكر، وكان أحياء زناتة الثانية من بني عبد الواد وتوجين وبني راشد وبني ورسيفان من مغراوة مدداً للفريقين، وربما ماد بنو مرين إخوانهم بني يلومي لقرب مواطنهم منهم، إلا أن زناتة الثانية لذلك العهد مغلوبون لهذين الحيين، وأمرهم تبع لهم إلى أن ظهر أمر الموحدين.

وزحف عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط في اتباع تاشفين بن علي، وتقدم أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يدر من بني وماتوا إلى طاعته، ولحقوه بمكانه من أرض الريف، فسرح معهم عساكر الموحدين لنظر يوسف بن وانودين وابن يغمور، فأثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي بن ابن يوسف، فأمدهم بالعساكر ونزلوا منداس.

واجتمع لبني يلومي بنو ورسيفان من مغراوة وبنو توجين من بني بادين وبنو عبد الواد منهم أيضاً، وشيخهم حمامة بن مظهر، وبنو يكاسن من بني مرين وأوقعوا ببني ومانوا وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة منهم واستنقذوا غنائمهم.

وتحصن الموحدون وفل بني ومانوا بجبل سيرات، ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخاً بعبد المؤمن، وجاء في جملته حتى نازل تاشفين بن علي بتلمسان.

ولما ارتحل في أثره إلى وهران كما قدمناه سرح الشيخ أبو حفص في عساكر الموحدين إلى بلاد زناتة فنزلوا منداس وسط بلادهم، وأثخنوا فيهم حتى أذعنوا للطاعة ودخلوا في الدعوة.

ووفد على عبد المؤمن بمكانه من حصار وهران بمشيختهم يقدمهم سيد الناس بن أمير الناس شيخ بني يلومي وحمامة بن مظهر شيخ بني عبد الواد. وعطية الخير شيخ بني توجين وغيرهم، فتلقاهم بالقبول.

ثم انتقضت زناتة بعدها وامتنع بنو يلومي بحصنهم الجعبات ومعهم شيوخهم سيد الناس وبدرح ابنا أمير الناس فحاصرهم عساكر الموحدين وغلبوهم عليها وأشخصوهم إلى المغرب.

ونزل سيد الناس بمراكش، وبها كان مهلكه أيام عبد المؤمن. وهلك بعد ذلك بنو ماخوخ.

ولما أخذ أمير هذين الحيين في الانتقاض جاذب بني يلومي في تلك الأعمال بنو توجين، وشاجروهم في أحواله ثم واقعوهم الحرب في جوانبه وتولى ذلك فيهم عطية الخير كبير بني توجين، وصلي بنارها منهم معه بنو منكوش من قومه حتى غلبوهم على مواطنهم وأذلوهم وأصاروهم جيراناً لهم في قياطينهم.

واستعلى بنو عبد الواد وتوجين على هذين الحيين وغيرهم بولايتهم للموحدين ومخالطتهم إياهم، فذهب شأنهم وافترق قيطونهم أوزاعاً في زمانه الوارثين أوطانهم من عبد الواد وتوجين والبقاء لله سبحانه.

ومن بطون بني وماتوا هؤلاء بنو يالدس وقد يزعم زاعمون أنهم من مغراوة ومواطنهم متصلة قبلة المغرب الأقصى والأوسط وراء العرق المحيط بعمرانها المذكور قبل.

واختطوا في المواطن القصور والأُطم، واتخذوا بها الجنات من النخيل والأعناب وسائر الفواكه، فمنها على ثلاثة مراحل قبلة سجلماسة، وتسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المائتين، آخذة من الغرب إلى الشرق وآخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر العمران، وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد، ومن بلد مالي إليه، وبينه وبين ثغر بلد مالي المسمى غار، المفازة المجهلة لا يهتدي بها للسبل، ولا يمر الوارد إلا بالدليل الخريت من الملثمين الظواعن بذلك القفر، يستأجره التجار على البذرقة بهم بأوفى الشروط، ولقد كانت بلد بودي وهي أعلى تلك القصور بناحية المغرب من ناحية السوس هي الركاب إلى والاتن الثغر الأخير من أعمال مالي.

ثم أهملت لما صارت الأعراب من بادية السوس يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت.

ومن هذه القصور قبلة تلمسان، وعلى عشر مراحل منها قصور تيكورارين وهي كثيرة تقارب المائة في بسيط واد منحدر من الغرب إلى الشرق، واستبحرت في العمران وغصت بالساكن.

وأكثر سكان هذه القصور الغريبة في الصحراء بنو يالدس

هؤلاء ومعهم من سائر قبائل زناتة والبربر مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين، وهم أهل عديد وعدة وبعدٌ عن هضيمة الأحكام وذل المغارم، وفيهم الرجالة والخيالة وأكثر معاشهم من فلح النخل، وفيهم التجر إلى بلد السودان وضواحيها كلها مشتاة للعرب، ومختصة بعبيد اللّه من المعقل، عينتها لهم قسمة الرحلة.

وربما شاركهم بنو عامر بن زغبة في تيكورارين فتصل إليها ناجعتهم بعض السنين.

وأما عبيد اللّه فلا بد لهم في كل سنة من رحلة الشتاء إلى قصور توات وبلد تمنطيت، ومع ناجعتهم تخرج قفول التجار من الأمصار والتلول حتى يخطوا بتمنطيت. ثم يبذرقون منها إلى بلاد السودان.

وفي هذه البلاد الصحراوية إلى ما وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة، فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها على الماء، فينبعث صاعداً فيفعم البئر ثم يجري على الأرض وادياً، ويزعمون أن الماء ربما أعجل بسرعته عن كل شيء.

وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكورارين وواركلا وريغ.

والعالم أبو العجائب واللّه الخلاق والعليم.

وهذا آخر الكلام في الطبقة الأولى من زناتة ولنرجع إلى أخبار الطبقة الثانية فهم وهم الذين اتصلت دولتهم إلى هذا العهد.

أخبار الطبقة الثانية من زناتة وذكر أنسابهم وشعوبهم وأوليتهم ومصائر ذلك

قد تقدم لنا في تضاعيف الكلام قبل انقراض الملك من الطبقة من زناتة ما كان على يد صنهاجة والمرابطين من بعدهم، وأن عصبة أجيالهم افترقت بانقراض ملكهم ودولهم، وبقيت منهم بطون لم يمارسوا الملك،و لا أخلقهم ترفه، فأقاموا في قياطنهم بأطراف المغربين ينتجعون جانبي القفر والتل، ويعطون الدول حق الطاعة.

وغلبوا على بقايا الأجيال الأولى من زناتة بعد أن كانوا مغلبين لهم فأصبحت لهم السورة والعزة وصارت الحاجة من الدول إلى مظاهرتهم ومسالمتهم، حتى انقرضت دولة الموحدين فتطاولوا إلى الملك وضربوا فيه مع أهلهم بسهم. وكانت لهم دول نذكرها إن شاء اللّه تعالى.

وكان أكثر هذه الطبقة من بني واسين بن يصلتين إخوة مغراوة وبني يفرن، ويقال: إنهم من بني وانتن بن ورسيك بن جانا إخوة مسارت وتاجرت،و قد تقدم ذكر هذه الأنساب وكان من بني واسين هؤلاء ببلد قسطيلية.

وذكر ابن الرقيق: أن أبا يزيد النكاري لما ظهر بجبل أوراس كتب إليهم بمكانهم حول توزر يأمرهم بحصارها فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين وثلاثماية.

وربما أن منهم ببلد الحامة لهذا العهد،و يعرفون بني ورتاجن إحدى بطونهم.

وأما جمهورهم فلم يزالوا بالمغرب الأقصى ما بين ملوية إلى جبل راشد.

وذكر موسى بن أبي العافية في كتابه إلى الناصر الأموي يعرفه بحربه مع ميسور مولى أبي القاسم الشيعي، وبمن صار إليه من قبائل البربر وزناتة، فذكر فيمن فيهم من كان على ملوية، وصا من قبائل بني واسين وبني يفرن وبني ورتاسن وبني وريمت ومطماطة، فذكر منهم بني واسين لأن تلك المواطن من مواطنهم قبل الملك.

وفي هذه الطبقة منهم بطون: فمنهم بنو مرين، وهم أكثرهم عدداً وأقواهم سلطاناً وملكاً وأعظمهم دولة.

ومنهم: أبو عبد الواد تلوهم في الكثرة والقوة، وبنو توجين من بعدهم كذلك هؤلاء أهل الملك من هذه الطبقة.

وفيها من غير أهل الملك بنو راشد إخوة بني بادين كما نذكره، وفيها أهل الملك أيضاً من غير نسبهم بقية مغراوة بمواطنهم الأولى من وادي شلف نبضت فيهم عروق الملك بعد انقراض جيلهم الأول، فتجاذبوا حبله مع أهل هذا الجيل وكانت لهم في مواطنهم دولة كما نذكره.

ومن أهل هذه الطبقة كثير من بطونها ليس لهم ملك نذكرهم الآن حين تفصيل شعوبهم.

وذلك أن أحياءهم جميعاً تشعبت من زحيك بن واسين فكان منهم بنو بادين بن محمد، وبنو مرين بن ورتاجن، فأما بنو ورتاجن فمنهم من ولد ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يخفت بن عبد اللّه بن ورتنيد بن المغر بن إبراهيم بن

زحيك.

وأما بنو مرين بن ورتاجن فتعددت أفخاذهم وبطونهم كما نذكره بعد، حتى كثروا سائر شعوب بني ورتاجن، وصار بنو ورتاجن معدودين في جملة أفخاذهم وشعوبهم.

وأما بنو بادين بن محمد فمن ولد زحيك ولا أذكر الآن كيف يتصل نسبهم به.

وتشعبوا إلى شعوب كثيرة، فكان منهم: بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو مصاب وبنو أزردال يجمعهم كلهم نسب بادين بن محمد.

وفي محمد هذا يجتمع بادين وبنو راشد، ثم يجتمع محمد مع ورتاجن في زحيك بن واسين، وكانوا كلهم معروفين بين زناتة الأولى ببني واسين قبل أن تعظم هذه البطون والأفخاذ، وتشعبت مع الأيام.

وبأرض إفريقية وصحراء برقة وبلاد الزاب منهم طوائف من بقايا زناتة الأولى قبل انسياحهم إلى المغرب، فمنهم بقصور غدامس على عشرة مراحل قبل سرت، وكانت مختطة منذ عهد الإسلام، وهي خطة مشتملة على قصور وآطام عديدة، وبعضها لبني واطاس من أحياء بني مرين، يزعمون أن أوائلهم اختطوها، وهي لهذا العهد قد استبحرت في العمارة واتسعت في التمدن بما صارت محطاً لركاب الحاج من السودان، وقفل التجار إلى مصر والإسكندرية عند إراحتهم من قطع المفازة ذات الرمال المعترضة أمام طريقهم دون الأرياف والتلول، وباباً لولوج تلك المفازة والحاج والتجر في مرجعهم ومنهم ببلاد الحمّة على مرحلة من غربي قابس أمة عظيمة من بني ورتاجن.

وفرت منهم حاميتها، واشتدت شوكتها وارتحل إليها التجرة بالبضائع لنفاق أسواقها، وتبحر عمارتها، وامتنعت لهذا العهد على من يرومها ممن يجاورها، فهم لا يودّون خراجاً ولا يسامون بمغرم، حتى كأنهم لا يعرفونه عزة جناب، وفضل بأس ومنعة.

ويزعمون أن سلفهم من بني ورتاجن اختطوها، ورياستهم في بيت منهم يعرفون ببني وشاح، ولربما طال على رؤسائهم عهد الخلافة ووطأة الدول فيتطاولون إلى التي تنكر على السوقة من اتخاذ الآلات، ويبرزون في زي السلطان أيام الزينة تهاوناً بشعار الملك، ونسياناً لمألوف الانقياد شأن جيرانهم رؤساء توزر ونفطة وسابق الغاية في هذه المضحكة هو يملول مقدم توزر.

ومن بني واسين هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطري في القبلة بما دون الرمال وعلى ثلاث مراحل من قصور بني ريغة في المغرب، وهذا الاسم اسمٌ للقوم الذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني بادين حسبما ذكرناهم الآن.

ووضعوها في أرض حرة على آكام وضراب ممتنعة في قننها.

وبينها وبين الأرض الحجرة المعروفة بالحمادة في سمت العرق متوسطة فيه قبالة تلك البلاد فراسخ في ناحية القبلة، وسكانها لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فيمن يضاف إليهم من شعوب زناتة، وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب وحالها في المباني والأغراس وتفرق الجماعات بتفرق الرياسة شبيهة بحال بلاد بني ريغة والزاب.

ومنهم بجبل أوراس بإفريقية طائفة من بني عبد الواد موطنوه منذ العهد الأقدم لأول الفتح، معروفون بين ساكنيه.

وقد ذكر بعض الأخباريين أن بني عبد الواد حضروا مع عقبة بن نافع في فتح المغرب عند إيغاله في ديار المغرب، وانتهائه إلى البحر المحيط بالسوس في ولايته الثانية.

وهي الغزاة التي هلك فيها في منصرفه منها، وأنهم أبلوا البلاء الحسن فدعا لهم وأذن في رجوعهم قبل استتمام الغزاة.

ولما تحيزت زناتة إلى المغرب الأقصى أمام كتامة وصنهاجة اجتمع شعوب بني واسين هؤلاء كلهم ما بين ملوية وصا كما ذكرناه.

وتشعبت أفخاذهم وبطونهم، وانبسطوا في صحراء المغرب الأقصى والأوسط إلى بلاد الزاب وما إليها من صحارى إفريقية إذ لم يكن للعرب في تلك المجالات كلها مذهب ولا مسلك إلى المائة الخامسة كما سبق ذكره.

ولم يزالوا بتلك البلاد مشتملين لبوس العز مستمرّين للأنفة، وكان جُلُّ مكاسبهم الأنعام والماشية، وابتغاؤهم الرزق من تحيف السابلة، وفي ظل الرماح المشرعة، وكانت لهم في محاربة الأحياء والقبائل ومنافسة الأمم والدول ومغالبة الملوك أيام ووقائع،تلمّ بها ولم تعظم العناية باستيعابها، فتأتي به.

والسبب في ذلك أن اللسان العربي كان غالباً بغلب دولة العرب وظهور الملّة العربية، فالكتاب والخط بلغة الدولة ولسان الملك، واللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماره، ولم يكن لهذا الجيل من زناتة في الأحقاب القديمة ملك يحمل أهل الكتاب على العناية بتقييد أيامهم وتدوين أخبارهم، ولم تكن مغالطة بينهم وبين أهل الأرياف والحضر، حتى يشهدوا آثارهم لإبعادهم في القفار كما رأيت في مواطنهم، وتوحشهم عن الانقياد، فبقيت

غفلاً إلى أن درس منها الكثير، ولم يصل إليها منهـا بعـد مهلكهـم إلا الشارد القليل يتبعـه المؤرخ المضطلـع في مسـالكه، ويتقـراه في شعابه ويستثيرهُ من مكامنه، وأقاموا بتلك القفار إلى أن تسنموا منها هضبات الملك على ما نصفه.

الخبر عن أحوال هذه الطبقة قبل الملك وكيف كانت تصاريف أحوالهم إلى أن غلبوا على الممالك والدول

وذلك أن أهل هذه الطبقة من بـني واسـين وشـعوبهم الـتي سميناها كانوا تبعاً لزناتة الأولى.

ولما انزاحت زناتـة إلى المغـرب الأقصـى أمـام كتامـة وصنهاجة، خرج بنو واسين هؤلاء إلى القفر ما بـين ملويـة وصـا، فكانوا يرجعون إلى ملك المغرب لذلـك العهـد. مكناسـة أولاً ثـم مغراوة من بعدهم.

ثم حسر تيار بني صنهاجـة عـن المغرب وتقلّص ملكهـم، بعض الشيء وصاروا إلى الاستجاشة على القاصية بقبـائل زناتـة، فأومضت بروقهم، ورفت في ممالك زناتة منابتهم كما قدمناه.

واقتسم أعمالها بنـو ومـانو وبنـو يلومـي نـاحيتين، وكـانت ملوك صنهاجـة أهـل القلعـة إذا عسـكروا للمغـرب يستنفرونهم لغزوه، ويجمعون حشدهم للتوغل فيه، وكـان بنـو واسـين هـؤلاء ومن تشعب منهم من القبائل الشهيرة الذكر مثل بـني مريـن وبـني عبد الواد وبني توجين ومصـاب قـد ملكـوا القفـر مـا بـين ملويـة وأرض الزاب، وامتنعت عليهم الأرياف من المغربـين بمـن ملكهـا من زناتة الذين ذكرناهم.

وكان أهل الرياسة بتلك الأرياف والضواحي من زناتة مثل بني ومانوا وبني يلومـي بـالمغرب الأوسـط، وبـني يفـرن ومغـراوة بتلمسان يستجيشون ببني واسـين هـؤلاء وشـعوبهم، ويستظهرون بجموعهم على من زاحمهم أو أوقارعهم من ملوك صنهاجة وزناتة وغيرهم، يجأجئون بهم عن مواطنهم لذلك، ويقرضونهم القـرض الحسن من المال والسلاح والحبوب المعوزة لديهم بالقفار، فيتأثلون منهم ويرتاشون.

وعظمت حاجة بني حماد إليهم في ذلك عندما عصفت بهـم ريح العرب الطوالع من بني هلال بن عامر، وأصرعوا دولـة المعز وصنهاجـة بالقـيروان والمهديـة والانـوا مـن حدّهـم، وزحفـوا إلى المغرب الأوسط فدافع بنـو حمـاد عـن حوزتـه وأوعـزوا إلى زناتـة بمدافعتهم أيضاً، فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة وجمعوا من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بـني مريـن وعبـد الواد وتوجين وبني راشد.

وعقدوا على حرب الهلاليين لوزيرهم بو سعدى خليفة ابن اليفرني، فكان لـه مقامـات في حروبهـم ودفـاعهم عـن ضواحـي الـزاب والمغـرب الأوسـط ومـا إليـه مـن بـلاد إفريقيـة والمغـرب الأوسط إلى أن هلك في بعض أيامه معهم، وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم عن الزاب وما إليه من بـلاد إفريقية، وانشمر بنـو واسـين هـؤلاء مـن بـني مريـن وعبـد الـواد وتوجين عن الزاب إلى موطنهم من بصحراء المغرب الأوسط مـن مصاب وجبل راشد إلى ملوية وفيكيك.

ثم إلى سجلماسة ولاذوا ببـني ومـانوا وبـني يلومـي ملـوك الضواحي بالمعرب الأوسط، وتفيأوا ظلهم واقتسـموا ذلـك القفـر بالمواطن، فكان لبني مرين الناحية الغربية منها قبلة المغرب الأقصى بتيكورارين ودبدوا إلى ملوية وسجلماسة، وبعدوا عن بـني ومـانوا وبني يلومي إلا في الأحايين وعند الصريخ، وكان لبني بـادين منهـا الناحية الشرقية قبلة المغرب الأوسط مـا بـين فيكيـك ومديونـة إلى جبل راشد ومصاب.

وكانت بينهم وبين بني مرين فتن متصلة باتصـال أيـامهم في تلك المواطن سبيل القبائل الجيران في مواطنهـم، وكـان الغلـب في حروبهم أكثر ما يكون لبني بادين لما كانت شعوبهم أكثر وعددهـم أوفر، فإنهم كانوا أربعة: شعوب بني عبد الواد وبني توجـين وبـني زردال وبني مصاب، وكان معهم شعب آخـر وهـم إخوانهـم بنـو راشد، لأنا قدمنا أن راشد أخو بادين.

وكان موطن بني راشد الجبل المشـهور بهـم بـالصحراء، ولم يزالوا على هذه الحال إلى أن ظهر أمر الموحدين، فكـان لبـني عبـد الواد وتوجين ومغراوة من المظاهرة لبني يلومي على الموحديـن مـا هو مذكور في أخبارهم.

ثم غلب الموحدون على المغرب الأوسط وقبائله مـن زناتـة فأطاعوا وانقادوا، وتحيز بنو عبد الواد وبنـو توجـين إلى الموحديـن وازدلفوا إليهم بإمحاض النصيحة ومشـايعة الدعـوة، وكـان التقـدم لبـني عبـد الـواد دون الشـعوب الأخـرى، وأمحضـوا النصيحـة للوحديـن فـاصطنعوهم دون بـني مريـن كمـا نذكـر في أخبـارهم وأقطعهم الموحدون ضواحـي المغرب الأوسـط كمـا كـانت لبـني يلومي وبني ومانوا فملكوها.

وتفرد بنو مرين بعد دخول بني بـادين إلى المغرب الأوسط

بتلك الصحراء، لما اختار اللّه لهم من وفور قسمهم في الملك، واستيلائهم على سلطان المغرب الذي غلبوا به الدول، واشتملوا الأقطار ونظموا المشارق إلى المغارب، واقتعدوا كراسي الدول المسامتة لهم بأجمعها ما بين السوس الأقصى إلى إفريقية.

والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

فأخذ بنو مرين وبنو عبد الواد من شعوب بني واسين هؤلاء بحظ من الملك أعادوا فيه لزناتة دولة وسلطاناً في الأرض، واقتادوا الأمم برسن الغلب، وناغاهم في ذلك الملك البدوي إخوانهم بنو توجين.

وكانت في هذه الطبقة الثانية بقية أخرى مما ترك آل خزر من قبائل مغراوة الأولى، كانوا موطنين بقرار عزّهم ومنشأ جيلهم بوادي شلف، فجاذبوا هؤلاء القبائل حبل الملك وناغوهم في أطوار الرياسة، واستطالوا بمن وصل جناحهم من هذه العشائر فتطاولوا إلى مقاسمتهم في المُلك مساهمتهم في الأمر، وما زال بنو عبد الواد في الغضّ من عنانهم وجدع أنوف عصيانهم حتى أوهنوا من بأسهم، وخصت الدولة العبد الوادية ثم المرينية بسمة الملك المخلفة من جناح تطاولهم، وتمحض ذلك كله عن استبداد بني مرين واستتباعهم بجميع هؤلاء العصائب كما نذكر لك الآن دولتهم واحدة بعد أخرى، ومصاير أمور هؤلاء القبائل الأربعة التي هي رؤوس هذه الطبقة الثانية من زناتة.

والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ولنبدأ منها بذكر مغراوة بقية الطبقة الأولى وما كان لرؤسائهم أولاد منديل من الملك في هذه الطبقة الثانية، كما ستراه إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن أولاد منديل من الطبقة الثانية وما أعادوا لقومهم من مغراوة من الملك بموطنهم الأول من شلف وما إليه من نواحي المغرب الأوسط

لما ذهب الملك من مغراوة بانقراض ملوكهم آل خزر، واضمحلت دولتهم بتلمسان وسجلماسة وفاس وطرابلس، وبقية قبائل مغراوة متفرقة في مواطنهم الأولى بنواحي المغربين وإفريقية والصحراء والتلول، والكثير منهم بعنصرهم ومركزهم الأول بموطن شلف وما إليه، فكان به بنو ورسيفان وبنو ورتزمان وبنو أيليت.

ويقال: إنهم من ورتزمان وبنو سعيد وبنو زجاك وبنو سنجاس، وربما يقال: إنهم من زناتة وليسوا من مغراوة، وكان بنو خزرون الملوك بطرابلس لما انقرض أمرهم، وافترقوا في البلاد، ولحق منهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون بجبل أوراس فراراً من أهل بيته هنالك الذين استولوا علي الأمر وجده خزرون بن خليفة هو السادس من ملوكهم بطرابلس، فأقام بجبل أوراس مدّة، ثم انتقل إلى زواوا، فأقام بينهم أعواماً.

ثم ارتحل عنهم فنزل على بقايا قومه مغراوة بشلف من بني ورسيفان وبني ورتزمين وبني بو سعيد وغيرهم، فتلقوه بالمبرة والكرامة، وأوجبوا له حق البيت الذي ينتسب إليه فيهم، وأصهر إليهم فأنكحوه وكثر ولده وعرفوا بينهم ببني محمد، ثم بالخزرية نسبة إلى سلفه الأول.

وكان من ولده الملقب أبو ناس بن عبد الصمد بن ورجيع بن عبد الصمد.

وكان منتحلاً للعبادة والخيرية، وأصهر إليه بعض ولد ماخوخ ملوك بني ومانوا بابنته، فأنكحه إياها، فعظم أمره عندهم بقومه ونسبه وصهره.

وجاءت دولة الموحدين على أثر ذلك فرمقوه بعين التجلة لما كان عليه من طرق الخير، فأقطعوه بوادي شلف وأقام على ذلك.

وكان له من الولد: ورجيع وهو كبيرهم، وعزيز ويغريان وماكور، ومن بنت ابن ماخوخ عبد الرحمن، وكان أجلهم شأناً عنده وعند قومه عبد الرحمن هذا، لما يوجبون له بولادة ماخوخ لأمه، ويتفرسون فيه أن له ولعقبه ملكاً.

ويزعمون أنه لما ولد خرجت به أمه إلى الصحراء فالقته إلى شجرة وذهبت في بعض حاجتها، فأطاف به يعسوب من النحل متواقعين عليه، وبصرت به على البعد فجاءت تعدو لما أدركها من الشفقة، وقال لها بعض العرّافين: احتفظي عليه فو اللّه ليكونن له شان.

ونشأ عبد الرحمن هذا في جو هذه التجلة مدلاً بنسبه وبأسه، وكثر عشيره من بني أبيه، واعصوصب عليه قبائل مغراوة، فكان له بذلك شوكة وفي دولة الموحدين تقدمة، لما كان يوجب لهم على نفسه من الانحياش والمخالطة والتقدم في مذاهب الطاعة.

وكان السادة منهم يمرون به في غزواتهم إلى إفريقية ذاهبين وراجعين، فينزلون منه خير نزل، وهم ينقلبون بحمده والشكر

لمذهبه، فيزيد خلفاؤهم اغتباطاً به.

وأدرك بعض السادة وهو بأرض قومه الخبر بمهلك الخليفة بمراكش، فخلف الذخيرة والظهر، وأسلمها إلى عبد الرحمن هذا، فنجا بدمائه بعد أن صحبه إلى تخم وطنه، فكانت له فيها ثروة أكسبته قوة وكثرة فاستركب من قومه، واستكثر من عصابته وعشيرته وهلك خلال ذلك وقد فشل ريح بني عبد المؤمن وضعف أمر الخليفة بمراكش.

وكان له من الولد منديل وتهيم، وكان أكبرهما منديل، فقام بأمر قومه على حين عصفت رياح الفتنة، وأجلب ابن غانية على أعمال المغرب الأوسط وسما لمنديل أمل في التغلب على ما يليه، فاستأسد في عرينه وحمى عن أشباله.

ثم فسح خطوته إلى ما جاوره من البلاد فملك جبل وانشريش والمرية وما إلى ذلك واختط قصبة مرات.

وكان بسيط متيجة لهذا العهد مستبحراً في العمران آهلاً بالقرى والأمصار.

ونقل الأخباريون أن أهل متيجة لذلك العهد كانوا يجمعون في ثلاثين مصراً فجاس خلالها وأوطأ الغارات ساحتها وخرب عمرانها حتى تركها خاوية على عروشها وهو في ذلك يوهم التمسك بطاعة الموحدين، وأنه سلم لمن سالمهم وحرب على من عاداهم.

وكان ابن غانية منذ غلبه الموحدون على إفريقية قد أزاحوه إلى قابس وما إليها، فنزل الشيخ أبو محمد بن أبي حفص بتونس ودفعه إلى إفريقية إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستمائة فطمع يحيى بن غانية في استرجاع أمره وسبق إلى الثغور والأمصار يعيث فيها ويخربها، ثم تجاوز إفريقية إلى بلاد زناتة وشن عليها الغارات واكتسح البسائط، وتكررت الوقائع بينه وبينهم، فجمع له منديل بن عبد الرحمن ولقيه بمتيجة، وكانت الدّبرة عليه وانفضت عنه مغراوة، فقتله ابن غانية صبراً سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين وستمائة وتغلب على الجزائر إثر نكبته، فصلب بها شلوه وصيره مثلاً للآخرين.

وقام بأمره في قومه بنوه، وكانوا نجباء فكان لهم العدّة والشرف، وكانوا يرجعون في أمرهم إلى كبيرهم العباس، فتقبل مذاهب أبيه وأقصر عن بلاد متيجة.

ثم غلبهم بنو توجين على جبل وانشريش وضواحي المرية وما إلى ذلك.

وانقبضوا إلى مراكزهم الأولى شلف، وأقاموا بها ملكاً بدوياً لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط.

واستولوا على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال مقيمين فيها الدعوة الحفصية واختطوا قرية مازونة.

ولما استوسق الملك بتلمسان ليغمراسن بن زيان، واستفحل سلطانه بها وعقد له عليها ولأخيه من قبله بنو عبد المؤمن، سما إلى التغلب على أمصار المغرب الأوسط، وزاحم بني توجين وبني منديل هؤلاء بمناكبة فلفتوا وجوههم جميعاً إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حفص مديل الدولة بإفريقية من آل عبد المؤمن، وبعثوا إليه الصريخ على يغمراسن، فاحتشد لها جموع الموحدين والعرب، وغزا تلمسان وافتتحها كما ذكرناه.

ولما قفل إلى الحضرة عقد في مرجعه لأمراء زناتة كل على قومه ووطنه، فعقد للعباس ابن منديل على مغراوة، ولعبد القوي على توجين ولأولاد حبورة على ملكيش، وسوغ لهم اتخاذ الآلة فاتخذوها بمشهد منه.

وعقد العباس السلم مع يغمراسن، ووفد عليه بتلمسان فلقاه مبرة وتكريماً، وذهب عنه بعدها مغاضباً.

يقال: إنه تحدث بمجلسه يوماً فزعم أنه رأى فارساً واحداً يقاتل مايتين من الفرسان، فنكر ذلك من سمعه من بني عبد الواد وعرضوا تكذيبه، فخرج العباس لها مغاضباً حتى أتى قومه، وأتى يغمراسن مصداق قوله، فإنه كان يعني بذلك الفارس نفسه.

وهلك العباس لخمس وعشرين سنة من بعد أبيه سنة سبع وأربعين وستمائة وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن منديل وصلُحت الحال بينه وبين يغمراسن وصاروا إلى الاتفاق والمهادنة، ونفر معه بقومه مغراوة إلى غزو المغرب سنة كلدمان وهي سنة سبع وأربعين وستماية، وهزمهم فيها يعقوب بن عبد الحق فرجعوا إلى أوطانهم وعاودوا شأنهم في العداوة وانتقض عليهم أهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصية.

وكان من خبر هذا الانتقاض أن أبا العباس أحمد الملياني كان كبير وقته علماً وديناً ورواية، وكان عالي السند في الحديث فرحل إليه الأعلام، وأخذ عنه الأئمة وأوفت به الشهرة على ثنايا السيادة، فانتهت إليه رياسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه.

ونشأ ابنه أبو علي في جو هذه العناية وكان جموحاً للرياسة طامحاً إلى الاستبداد، وهو مع ذلك خلو من المغارم.

فلما هلك أبوه جرى في شاو رياسته طلقاً، ثم رأى ما بين مغراوة وبني عبد الواد من الفتنة، فحدثته نفسه بالاستبداد ببلده، فجمع لها جراميزه، وقطع الدعاء للخليفة المستنصر سنة تسع

وخمسين وستمائة، وبلغ الخبر إلى تونس فسرح الخليفة أخاه أبا حفص في عسكر من الموحدين في جملته دون الريك بن هراندة من آل ادفونش ملوك الجلالقة، كان نازعاً إليه عن أبيه في طائفة من قومه، فنازلوا مليانة أياماً.

وداخل السلطان طائفة من مشيخة البلد المنحرفين عن أبي علي الملياني، فسرب إليهم جنداً بالليل واقتحموها من بعض المداخل، وفر أبو علي الملياني تحت الليل وخرج من بعض قنوات البلد، فلحق بأحياء العرب، ونزل على يعقوب بن موسى أمير العطاف من بطون زغبة، فأجاره إلى أن لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق، فكان من أمره ما ذكرناه في أخبارهم.

وانصرف عسكر الموحدين والأمير أبو حفص إلى الحضرة، وعقدوا لمحمد بن منديل على مليانة، فأقام بها الدعوة الحفصية على سنن قومه.

ثم هلك محمد بن منديل سنة اثنتين وستين وستمائة لخمس عشرة من ولايته، قتله أخواه ثابت وعايد بمنزل ظواعنهم بالخميس من بسيط بلادهم، وقتل معه عطية ابن أخيه منيف وشاركه ثابت في الأمر، واجتمع إليه قومه وتقطع ما بين أولاد منديل وخشنت صدورهم.

واستغلظ يغمراسن بن زيان عليهم، وداخله عمر بن منديل أخوهم في أن يمكنه من مليانة، ويشدّ عضده على رياسة قومه، فشارطه على ذلك وأمكنه من أزمة البلد سنة ثمان وستين وستمائة ونادى بعزل ثابت ومؤازرة عمر على الأمر فتم لهما ما أحكماه من أمرهما في مغراوة واستمكن بها يغمراسن من قيادة قومه.

ثم تناغى أولاد منديل في الازدلاف إلى يغمراسن بمثلها نكاية لعمر، فاتفق ثابت وعايد أولاد منديل على أن يحكماه في تنس فأمكناه منها سنة اثنتين وسبعين وستمائة على اثني عشر ألفاً من الذهب.

واستمرت ولاية عمر إلى أن هلك سنة ست وسبعين وستمائة، فاستقل ثابت بن منديل برياسة مغراوة، وأجاز عايد أخوه إلى الأندلس للرباط والجهاد مع صاحبه زيان بن محمد بن عبد القوي وعبد الملك بن يغمراسن فحول زناتة واسترجع ثابت بلاد تنس ومليانة من يد يغمراسن، ونبذ إليه العهد، ثم استغلظ يغمراسن عليهم واسترد تنس سنة إحدى وثمانين وستمائة بين يدي مهلكه.

ولما هلك يغمراسن وقام بالأمر ابنه عثمان انتقضت عليه تنس، ثم ردد الغزو إلى بلاد توجين ومغراوة حتى غلبهم آخراً على ما بأيديهم، وملك المرية بمداخلة بني لمدية أهلها سنة سبع وثمانين وستمائة وغلب ثابت بن منديل على مازونة، فاستولى عليها ثم نزل له عن تنس أيضاً فملكها.

ولم يزل عثمان مراغماً لهم إلى أن زحف إليهم سنة ثلاث وتسعين وستمائة فاستولى على أمصارهم وضواحيهم، وأخرجهم عنها وألجأهم إلى الجبال.

ودخل ثابت بن منديل إلى برشك ممانعاً دونها، فزحف إليه عثمان وحاصره بها حتى إذا استيقن أنه أُحيط به، ركب البحر إلى المغرب، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين صريخاً سنة أربع وتسعين وستمائة فأكرمه ووعده بالنصرة من عدوه، وأقام بفاس وكانت بينه وبين ابن أشهب من رجالات بني عسكر صحابة ومداخلة، فجاء بعض الأيام إلى منزله، ودخل عليه من غير استئذان وكان ابن الأشهب ثملاً، فسطا به وقتله وثأر السلطان به منه، وانفجع لموته.

وكان ثابت بن منديل قد أقام ابنه محمداً للأمر في قومه، وولاه عليهم لعهده واستبد بملك مغراوة دونه.

ولما انصرف أبوه ثابت إلى المغرب أقام هو بأمارته على مغراوة.

وهلك قريباً من مهلك أبيه، فقام بأمرهم من بعده شقيقه علي، ونازعه الأمر أخواه رحمون ومنيف، فقتله منيف ونكر ذلك هو منهم وأبوا من أمارتهما عليهم، فلحقا بعثمان بن يغمُراسن فأجازهما إلى الأندلس.

وكان أخوهما معمر بن ثابت قائداً على الغزاة بالبغيرة فنزل لمنيف عنها، فكانت أول ولاية وليها بالأندلس.

ولحق بهم أخوهم عبد المؤمن فكانوا جميعاً هنالك ومن أعقاب عبد المؤمن يعقوب بن زيان بن عبد المؤمن، ومن أعقاب منيف بن عمر بن منيف وجماعة منهم هم لهذا العهد بوطن الأندلس.

ولما هلك ثابت بن منديل سنة أربع وتسعين وستمائة كما قلناه، كفل السلطان ولده وأهله، وكان فيهم حافده راشد بن محمد، فأصهر إليه في أخته فأنكحه إياها.

ونهض إلى تلمسان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناخ عليها، واختط مدينة لحصارها وسرح عساكره في نواحيها، وعقد على مغراوة وشلف لعمر بن ويغرن بن منديل، وبعث معه جيشاً فافتتح مليانة وتنس ومازونة سنة تسع وتسعين وستمائة ووجد

راشد في نفسه إذ لم يوليه على قومه، وكان يرى أنه الأحق بنسبه وصهره، فنزع عن السلطان ولحق بجبال متيجة ودس إلى أوليائه في مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة، فأغذّ السير ولحق بهم، فافترق أمر مغراوة، وداخل أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وبيّت عمر بن ويغرن بأزمور من ضواحي بلادهم فقتله، واجتمع عليه قومه وسرح السلطان إليه الكتائب من بني عسكر لنظر الحسن بن علي بن أبي الطلاق، ومن بني ورتاجن لنظر علي بن محمد الخيري، ومن بني توجين لنظر أبي بكر بن إبراهيم بن عبد القوي.

ومن الجند لنظر علي بن حسان الصبحي من صنائعه، وعقد على مغراوة لمحمد بن عمر بن منديل، وزحفوا إلى مازونة وقد ضبطها راشد، وخلف عليها علياً وحمو ابني عمه يحيى بن ثابت.

ولحق هو ببني بو سعيد مطلاً عليهم وأناخت العساكر بمازونة، ووالوا عليها الحصار ستين حتى أجهدوهم.

وبعث علي بن يحيى أخاه حمو إلى السلطان من غير عهد فتقبض عليه ثم اضطره الجهد إلى مركب الغرور فخرج إليهم ملقياً بيده سنة ثلاث وسبعمائة وأشخصه إلى السلطان فعفا عنه واستبقاه، واحتسبها تأنيساً واستمالة لراشد ثم سرح العساكر إلى قاصية الشرق لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب، فنازل راشد بن محمد في معقل بني بو سعيد، وطال حصاره إياه، وأمكنته الغرة بعض الأيام في العساكر، وقد تعلقوا بأوعار الجبل زاحفين إليه فهزمهم وهلك في تلك الواقعة خلق من بني مرين وعساكر السلطان، وذلك سنة أربع وسبعماية.

وبلغ الخبر إلى السلطان فأحفظه ذلك عليهم، وأمر بابن عمه علي بن يحيى وأخيه حمو ومن معهم من قومهم، فقتلوا رشقاً بالسهام واستلحمهم.

ثم سرح أخاه أبا يحيى بن يعقوب ثانية سنة أربع وسبعمائة فاستولى على بلاد مغراوة ولحق راشد بجبال صنهاجة من متيجة، ومعه عمه منيف بن ثابت ومن اجتمع إليهم من قومهم، فنازلهم أبو يحيى بن يعقوب.

وراسل راشد يوسف بن يعقوب فانعقدت بينهما السلم، ورجعت العساكر عنهم.

وأجاز منيف بن ثابت مع بنيه وعشيرته إلى الأندلس، فاستقروا هنالك آخر الأيام.

ولما هلك يوسف بن يعقوب بمناخه على تلمسان آخر سنة ست وسبعمائة انعقدت السلم بين حافده أبي ثابت وبين أبي زيان بن عثمان سلطان بني عبد الواد على أن يخلي له بنو مرين عن جميع ما ملكوه من أمصارهم وأعمالهم وثغورهم وبعثوا في حاميتهم وعمّالهم وأسلموها لعمال أبي زيان.

وكان راشد قد طمع في استرجاع بلاده، وزحف إلى مليانة فأحاط بها.

فلما نزل عنها بنو مرين لأبي زيان وصارت مليانة وتنس له، أخفق سعي راشد وأفرج عن البلد.

ثم كان مهلك أبي زيان قريباً، وولي أخوه أبو حمو موسى بن عثمان واستولى على المغرب الأوسط فملك تافركينت سنة سبع وسبعمائة وملك بعدها مليانة والمرية، ثم ملك تنس وعقد عليها لسامح مولاه مسامح، وقارن ذلك حركة صاحب بجاية السلطان أبي البقاء خالد ابن مولانا الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي إسحاق إلى متيجة لاسترجاع الجزائر من يد ابن علان الثائر عليهم، فلقيه هنالك راشد بن محمد وصار في جملته وظاهره على شأنه.

ولقاه السلطان تكرمة وبراً، وعقد له ولقومه حلفاً مع صنهاجة أولياء الدولة والمتغلبين على ضاحية بجاية وجبال زواوة، فاتصلت يد راشد بيد زعيمهم يعقوب بن خلوف أحد وزراء الدولة.

ولما نهض السلطان خالد للاستيثار بملك الحضرة تونس، استعمل يعقوب بن خلوف على بجاية وعسكر راشد معه بقومه، وأبلى في الحروب بين يديه وأغنى في مظاهرة أوليائه حتى إذا ملك حضرتهم واستولى على تراث سلفهم، أسف حاجب الدولة راشد هذا وقومه بإمضاء الحكم في بعض حشمه، وتعرض للخرابة في السابلة، فتقبض عليه ورفع إلى سدة السلطان فأمضى فيه حكم اللّه.

وذهب راشد مغاضباً ولحق بوليه ابن خلوف ومضطربه من زواوة.

وكان يعقوب بن خلوف قد هلك وولى السلطان مكانه ابنه عبد الرحمن، فلم يرع حق أبيه في إكرام صديقه راشد.

وتشاجر معه في بعض الأيام مشاجرة نكر عبد الرحمن فيها ملاحاة راشد له، وأنف منها، وأدل فيها راشد بمكانه من الدولة وبباس قومه، فلدغه بالقول وتناوله عبد الرحمن وحشمه وخزاً بالرماح إلى أن أقعصوه وانذعر جميع مغراوة ولحقوا بالثغور القاصية، وأقفر منهم شلف وما إليه كأن لم يكونوا به فأجاز منهم بنو منيف وبنو يغرن إلى الأندلس للمرابطة بثغور المسلمين، فكانت

منهم عصابة حامية موطّنة هنالك أعقابهم لهذا العهد.

وأقام في جوار الموحدين فلّ آخر من أوساط قومهم كانوا شوكة في عساكر الدولة إلى أن انقرضوا ولحق على بن راشد طفلابعمّته في قصر بني يعقوب بن عبد الحق فكفلته، وصار أولاد منديل غصباً إلى وطن بني مرين فتولوهم وأحسنوا جوارهم، وأصهروا إليهم سائر الدولة، إلى أن تغلب السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط ومحا دولة آل زيان، وجمع كلمة زناتة، وانتظم مع بلادهم بلاد إفريقية وعمل الموحدين وكانت نكبته على القيروان صدر سنة تسع وأربعين وسبعمائة كما شرحناه قبل.

وانتقضت العمالات والأطراف وانتزى أعياص الملك بمواطنهم الأولى، فتوثب علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل على بلاد شلف وتملكها وتغلب على أمصارها مليانة وتنس وبرشك وشرشال، وأعاد ما كان لسلفه فيها من الملك على طريقتهم البدوية، وأرهفوا حدهم لمن طالبهم من القبائل.

وخلص السلطان أبو الحسن من ورطته بإفريقية، ثم من ورطة البحر بمرسى بجاية إلى الجزائر يحاول استرجاع ملكه المفترق، فبعث إلى علي بن راشد وذكره ذمته فتذكر وحن، واشترط لنفسه التجافي له عن ملك قومه بشلف على أن يظاهره على بني عبد الواد فأبى السلطان أبو الحسن من اشتراط ذلك له، فتحيز عنه إلى فيئة بني عبد الواد الناجين بتلمسان كما ذكرناه قبل، وظاهرهم عليه وبرز إليهم السلطان أبو الحسن من الجزائر والتقى الجمعان بشربوبة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فاختلّ مصاف السلطان أبي الحسن وانهزم جمعه، وهلك ابنه الناصر، وطاح دمه في مغراوة وهؤلاء وخرج إلى الصحراء ولحق منها بالمغرب الأقصى كما نذكره بعد.

وتطاول الناجون بتلمسان من آل يغمراسن إلى انتظام بلاد مغراوة في ملكهم كما كان لسلفهم، فنهض إليهم بعساكر بني عبد الواد رديف سلطانهم وأخوه أبو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن بن يغمراسن، فأوطأ قومه بلاد مغراوة سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وفل جموعهم وغلبهم على الضاحية والأمصار.

وأحجر علي بن راشد بتنس في شرذمة من قومه، وأناخ بعساكره عليه وطال الحصار ووقع الغلب. ولما رأى علي بن رشد أن قد أُحيط به دخل إلى زاوية من زوايا قصره انتبذ فيها عن الناس، وذبح نفسه بحد حسامه، وصار مثلاً وحديثاً للآخرين.

واقتحم البلد لحينه، واستلحم من عثر عليه من مغراوة، ونجا الآخرون إلى أطراف الأرض، ولحقوا بأهل الدول فاستركبوا واستلحقوا وصاروا جنداً للدول وحشماً وأتباعاً، وانقرض أمرهم من بلاد شلف.

ثم كانت لبني مرين الكرة الثانية إلى تلمسان، وغلبوا آل زيان ومحوا آثارهم.

ثم فاء ظلهم بملك السلطان أبي عنّان، وحسر تيارهم، وجدد الناجون من آل يغمراسن دولة ثالثة بمكان عملهم على يد أبي حمُو الأخير ابن موسى بن يوسف كما نذكره في أخبارهم.

ثم كانت لبني مرين الكرة الثالثة إلى بلاد تلمسان، ونهض السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن إليها فاتح سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وسرح عساكره في اتباع أبي حمو الناجم بها من آل يغمراسن حين فر أمامه في قومه وأشياعه من العرب كما يأتي ذلك كله.

ولما انتهت العساكر إلى البطحاء تلوموا هنالك أياماً لإزاحة عللهم وكان في جملتهم صبي من ولد علي بن راشد الذبيح اسمه حمزة، ربيّ يتيماً في حجر دولتهم لذمام الصهر الذي لقومه فيهم، فكفلته نعمتهم وكنفه جوهم، حتى شب واستوى وسخط رزقه في ديوانهم وحاله بين ولدانهم، واعترض بعض الأيام قائد الجيوش الوزير أبا بكر بن غازي شاكياً، فجبهه وأساء رده، فركب الليل ولحق بمعقل بني بوسعيد من بلد شلف فأجاروه ومنعوه، ونادى بدعوة قومه فأجابوه، وسرح إليهم السلطان عبد العزيز وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة كبير تيربيغين في جيش كثيف من بني مرين والجند فنزل بساحة ذلك الجبل فحاصرهم حولاً كريتاً ينال منهم وينالون منه، وامتنعوا عليه واتهم السلطان وزيره بالمداهنة، وسعى به منافسوه، فتقبض عليه، وسرّح وزيره الآخر أبا بكر بن غازي، فنهض يجر العساكر الضخمة والجيوش الكثيفة إلى أن نزل بهم وصبحهم القتال، فقذف اللّه في قلوبهم الرعب وأنزلهم من معقلهم.

وفر حمزة بن علي في فل من قومه، فلحق ببلاد حصين المتقضين كانوا على الدولة مع أبي زيان بن أبي سعيد الناجم من آل يغمراسن حسبما نذكره.

وأتى بنو أبي سعيد طاعتهم، وأخلصوا الضمائر في مغيبهم وحسن موقعها وبدا لحمزة في الرجوع إليهم فأغذ السير في لمّة من قومه، حتى إذا ألم بهم نكروه لمكان ما اعتقلوا به من حبل الطاعة، فتسهّل إلى البسائط وقصد تيمزوغت يظن بها غرّة ينتهزها، وبرزت إليه حاميتها ففلّوا حده وردّوه على عقبه، وتسابقوا في اتباعه إلى أن تقبضوا عليه، وقادوه إلى الوزير ابن غازي بن

الكاس.

وأوعز إليه السلطان بقتله في جملة أصحابه، فضرب أعناقهم، وبعث بها إلى سُدّة السلطان وصلب أشلاءهم على خُشُب مسندة نصبها لهم ظاهر مليانة، وامّحى أثر مغراوة، وانقرض أمرهم وأصبحوا خولاً للأمراء، وجنداً في الدول، وأوزاعاً في الأقطار كما كانوا قبل هذه الدولة الأخيرة لهم.

والبقاء لله وحده، وكل شيء هالك إلا وجهه.

الخبر عن دولة بني عبد الواد من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم بتلمسان وبلاد المغرب الأوسط من الملك والسلطان وكيف كان مبدأ أمرهم ومصائر أحوالهم

قد تقدم لنا في أول هذه الطبقة الثانية من زناتة ذكر بني عبد الواد هؤلاء وأنهم من ولد بادين بن محمد إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد، وأنّ نسبهم يرتفع إلى زحيك بن واسين بن ورشيك بن جانا، وذكرنا كيف كانت حالهم قبل الملك في مواطنهم تلك.

وكان إخوانهم بمصاب وجبل راشد وفيكيك وملوية، ووصفنا من حال فتنتهم مع بني مرين إخوانهم المجتمعين معهم بالنسب في زحيك بن واسين.

ولم يزل بنو عبد الواد هؤلاء بمواطنهم تلك وكان إخوانهم وبنو راشد وبنو زردال وبنو مصاب منجدين إليهم بالنسب والحلف، وبنو توجين منابذين لهم أكثر أزمانهم.

ولم يزالوا جميعاً متغلبين على ضاحية المغرب الأوسط عامّة الأزمان. وكانوا تبعاً فيه لبني ومانوا وبني يلومي حين كان لهم التغلّب فيه.

وربما يقال: إن شيخهم لذلك العهد كان يُعرف بيوسف بن تكفا، حتى إذا نزل عبد المؤمن والموحدون نواحي تلمسان، وسارت عساكرهم إلى بلاد زناتة تحت راية الشيخ أبي حفص، فأوقعوا بهم كما ذكرناه، وحسنت بعد ذلك طاعة بني عبد الواد وانحياشهم إلى الموحّدين.

وكانت بطونهم وشعوبهم كثيرة أظهرها فيما يذكرون ستّة: بنو ياتكين وبنو وللّوا وبنو ورصطف ومصموحة وبنو تومرت وبنو القاسم.

ويقولون بلسانهم: أيت القاسم،وأيت حرف الإضافة النسبية عندهم.

ويزعم بنو القاسم هؤلاء أنهم من أولاد القاسم بن إدريس.

وربما قالوا في هذا القاسم أنه ابن محمد بن إدريس، أو ابن محمد بن عبد الله، أو ابن محمد بن القاسم وكلهم من أعقاب إدريس، مزعماً لا مستند له إلا اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه، مع أن البادية بعداء عن معرفة هذه الأنساب والله أعلم بصحة ذلك.

وقد قال يغمراسن بن زيان أبو ملوكهم لهذا العهد لمّا رفع نسبهم إلى إدريس كما يذكرونه فقال برطنتهم ما معناه: إن كان هذا صحيحاً فينفعنا عند الله وأما الدنيا فإنّما نلناها بسيوفنا.

ولم تزل رياسة بني عبد الواد في بني القاسم لشدّة شوكتهم واعتزاز عصبتهم، وكانوا بطوناً كثيرة فمنهم: بنو يكنيمن بن القاسم.

وكان منهم ويغرن بن مسعود بن يكنيمن وأخواه يكنيمن وعمر. وكان أيضاً أعدوي بن يكنيمن الأكبر. ويقال الأصغر ومنهم أيضاً عبد الحق بن منغفاد من ولد ويغرن، وكانت الرياسة عليهم لعهد عبد المؤمن لعبد الحق بن منغفاد وأعدوى بن يكنيمن وعبد الحق بن منغفاد هو الذي استنقذ الغنائم من يد بني مرين، وقتل المخضب بمسوف حين بعثه عبد المؤمن مع الموحدين لذلك، والمؤرخون يقولون: عبد الحق بن معاد بميم وعين مهملة مفتوحتين وألف بعدها دال، وهو غلط، وليس هذا اللفظ بهذا الضبط من لغة زناتة، وإنّما هو تصحيف منغفاد بميم ونون بعدهما مفتوحتين وغين بعدهما معجمة ساكنة وفاء مفتوحة، والله أعلم.

ومن بطون بني القاسم أيضاً: بنو مطهر بن يمل بن يزكن بن القاسم وكان حمامة بن مطهر من شيوخهم لعهد عبد المؤمن، وأبلى في حروب زناتة مع الموحدين. ثم حسنت طاعته وانحياشه.

ومن بطون بني القاسم أيضاً: بنو علي، وإليهم انتهت رياستهم وهم أشدّهم عصبية وأكثر جمعاً، وهم أربعة أفخاذ: بنو طاع الله، وبنو دلّول وبنو كمي وبنو معطي بن جوهر، والأربعة بنو علي.

ونصاب الرياسة في بني طاع الله لبني محمد بن زكدّان بن تيدوكسن بن طاع الله، هذا ملخص الكلام في نسبهم.

ولما ملك الموحدون بلاد المغرب الأوسط وبلوا من طاعتهم وانحياشهم ما كان سبباً لاستخلاصهم، فأقطعوهم عامة بلاد بني ومانوا، وأقاموا بتلك المواطن، وحدثت الفتنة بين بني طاع الله

وبني كمي إلى أن قتل كندوز من بني كمي زيان بن ثابت كبير بني محمد بن زكدان وشيخهم. وقام بأمرهم بعده جابر ابن عمّه يوسف بن محمد، فثار من كندوز بزيان ابن عمّه وقتله في بعض أيامهم وحروبهم.

ويقال: قتله غيلة، وبعث برأسه ورؤوس أصحابه إلى يغمراسن بن زيان بن ثابت، فنصبت عليها القدور أثافي شفاية لنفوسهم من شأن أبيه زيّان.

وافترق بنو كمي، وفر بهم عبد اللّه كبيرهم بن كندوز، فلحقوا بتونس ونزل على الأمير أبي زكرياء كما نذكره بعد.

واستبد جابر بن يوسف بن محمد برياسة بني عبد الواد.

وأقام هذا الحي من بني عبد الواد بضواحي المغرب الأوسط، حتى إذا فشل ريح بني عبد المؤمن، وانتزى يحيى بن غانية على جهات قابس وطرابلس، وردد الغزو والغارات على بسائط إفريقية والمغرب الأوسط فاكتسحها وعاث فيها.

وكبس الأمصار فاقتحمها وانتهب بلاد زناتة وقتل أمراءهم، ودخل تلمسان ووهران واستباحهما وغيرهما من بلاد المغرب الأوسط، وألح على تاهرت بالغارة وإفساد السابلة وانتهاب الزرع، وحطم النعم إلى أن خربت، وعفى رسمها لسني الثلاثين من المائة السابعة.

وكانت تلمسان لذلك العهد نزلاً للحامية ومناخاً للسيد من القرابة الذي يضم نثرها، ويذب عن أنحائها وكان المأمون استعمل على تلمسان أخاه السيد أبا سعيد، وكان غفلاً ضعيف التدبير.

وغلب الحسن بن حبون من مشيخة قومه كومية، وكان عاملاً على الوطن.

وكانت في نفسه من بني عبد الواد ضغائن جرها ما كان حدث لهم من التغلب على الضاحية وأهلها، فأغرى السيد أبا سعيد بجماعة مشيخة منهم وفدوا عليه فتقبض عليهم واعتقلهم.

وكان في حامية تلمسان لمة من بقايا لمتونة تجافت الدولة عنهم، وأثبتهم عبد المؤمن في الديوان وجعلهم مع الحامية.

وكان زعيمهم في ذلك العهد إبراهيم بن إسماعيل بن علان، وشفع عندهم في المشيخة المعتقلين من بني عبد الواد فردوه، فغضب وحمى أنفه وأجمع الانتقاض والقيام بدعوة ابن غانية، فجدد ملك المرابطين من قومه بقاصية الشرق، فاغتار الحسن بن حبون لحينه، وتقبض على السيد أبي سعيد وأطلق المشيخة من بني عبد الواد، ونقض طاعة المأمون وذلك سنة أربع وعشرين فطير الخبر إلى ابن غانية فأغذ إليه السير.

ثم بدا له في أمر بني عبد الواد، ورأى أن ملاك أمره في خضد شكوتهم وقص جناحهم، فحدث نفسه بالفتك بمشيختهم، ومكر بهم في دعوة واعدهم لها، وفطن لتدبيره ذلك جابر بن يوسف شيخ بني عبد الواد، فواعده اللقاء والمؤازرة، وطوى له على النكث، وخرج إبراهيم بن علان إلى لقائه ففتك به جابر.

وبادر إلى البلد فنادى بدعوة المأمون وطاعته، وكشف لأهلها القناع عن مكر ابن علان بهم، وما أوقعهم فيه من ورطة ابن غانية، فحمدوا رأيه وشكروا جابراً على صنيعه، وجددوا البيعة للمأمون.

واجتمع إلى جابر في أمره هذا كافة بني عبد الواد وأحلافهم من بني راشد، وبعث إلى المأمون بطاعته واعتماله في القيام بدعوته فخاطبه بالشكر، وكتب له العهد على تلمسان وسائر بلاد زناتة على رسم السادة الذين كانوا يلون ذلك من القرابة، فاضطلع بأمر المغرب الأوسط.

وكانت هذه الولاية ركوباً إلى صهوة الملك الذي اقتعدوه.

ثم انتقض عليه أهل ندرومة بعد ذلك فنازلهم وهلك في حصارها بسهم غرب أثبته سنة تسع وعشرين وسبعمائة.

وقام بالأمر بعده ابنه الحسن وجدد له المأمون عهده بالولاية، ثم ضعف عن الأمر وتخلى عنه لستة أشهر من ولايته.

ودفع إليه عمه عثمان بن يوسف، وكان سيِّء الملكة كثير العسف والجور فثارت به الرعايا بتلمسان وأخرجوه سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وارتضوا لمكانه ابن عمه زكران، بن زيان بن ثابت الملقب بأبي عزة فاستدعوه لها، وولوه على أنفسهم وبلدهم، وسلموا له أمرهم وكان مضطلعاً بأمر زناتة ومستبداً برياستهم ومستولياً على سائر الضواحي، فنفس أبو مطهر عليه وعلى قومه بني علي إخوانهم ما آتاهم اللّه من الملك، وأكرمهم به من السلطان وحسدوا زكران وسلفه فيما صار لهم من الملك، فشاقوه ودعوا إلى الخروج عليه، واتبعهم بنو راشد بن محمد أحلافهم منذ عهد الصحراء، وجمع لهم أبو عزة سائر قبائل بني عبد الواد، فكانت بينه وبينهم حرب سجال هلك في بعض أيامها سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة وقام بالأمر بعده أخوه يغمراسن بن زيان، فوقع التسليم والرضى به من سائر القبائل، ودان له بالطاعة جميع الأمصار.

وكتب له الخليفة الرشيد بالعهد على عمله وكان له ذلك سلماً إلى الملك الذي أورثه بنيه سائر الأيام.

والملك لله يؤتيه من يشاء.

الخبر عن تلمسان وما تأدى إلينا من أحوالها من الفتح إلى أن تأثل بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم

هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط، وأم بلاد زناتة اختطها بنو يفرن بما كانت في مواطنهم، ولم نقف على أخبارها فيما قبل ذلك.

وما يزعم بعض العوام من ساكنها أنها أزلية البناء، وأن الجدار الذي ذكر في القرآن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام هو بناحية أكادير منها، فأمر بعيد عن التحصيل لأن موسى عليه السلام لم يفارق المشرق إلى المغرب، وبنو إسرائيل لم يتسع ملكهم لإفريقية، فضلاً عما وراءها.

وإنما هي من مقالات التشيع المجبول عليه أهل العالم في تفضيل ما ينسب إليهم أو ينسبون إليه من بلد أو أرض أو علم أو صناعة.

ولم نقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق بأن أبا المهاجر الذي ولي إفريقية بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية، توغل في ديار المغرب ووصل إلى تلمسان، وبه سميت عيون المهاجر قريباً منها.

وذكرها الطبري عند ذكر أبي قرة اليفرني وأجلابه مع أبي حاتم والخوارج على عمر بن حفص بطبنة.

ثم قال: فأفرجوا عنه وانصرف أبو قرة إلى مواطنه بنواحي تلمسان.

وذكرها ابن الرقيق أيضاً في أخبار إبراهيم بن الأغلب قبل استبداده بإفريقية، وأنه توغل في غزوه إلى المغرب ونزلها، واسمها في لغة زناتة مركب من كلمتين: تلم سين ومعناهما تجمع اثنين يعنون البر والبحر.

ولما خلص إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن إلى المغرب الأقصى واستولى عليه، نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين ومائة فتلقاه محمد بن خزر بن صولات أمير زناتة وتلمسان، فدخل في طاعته وحمل عليها مغراوة وبني يفرن وأمكنه من تلمسان فملكها، واختط مسجدها وصنع منبره وأقام بها أشهراً وانكفأ راجعاً إلى المغرب.

وجاء على أثره من المشرق أخوه سليمان بن عبد الله فنزلها وولاه أمرها ثم هلك إدريس وضعف أمرهم.

ولما بويع لابنه إدريس من بعده واجتمع إليه برابرة المغرب نهض إلى تلمسان سنة تسع وتسعين ومائة، فجدد مسجدها وأصلح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين ودوخ فيها بلاد زناتة واستوسقت له طاعتهم وعقد عليها لبني محمد ابن عمه سليمان.

ولما هلك إدريس الأصغر واقتسم بنوه أعمال المغربين بإشارة أمه كنزة، كانت تلمسان في سهمان عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان وأعمالها لبني أبيه محمد بن سليمان.

فلما انقرضت دولة الأدارسة من المغرب، وولي أمره موسى بن أبي العافية بدعوة الشيعة، نهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة ومائتين وغلب عليها أميرها لذلك العهد الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان، ففر عنها إلى مليلة، وبنى حصناً لامتناعه بناحية نكور، فحاصره مدة، ثم عقد له سلماً على حصنه.

ولما تغلب الشيعة على المغرب الأوسط أخرجوا أعقاب محمد بن سليمان من سائر أعمال تلمسان، فأخذوا بدعوة بني أمية من وراء البحر وأجازوا إليهم.

وتغلب يعلى بن محمد اليفرني على بلاد زناتة والمغرب الأوسط، فعقد له الناصر الأموي عليها وعلى تلمسان أعوام أربعين وثلاثمائة.

ولما هلك يعلى وقام بأمر زناتة بعده محمد بن الخير بن محمد بن خزر داعية الحكم المستنصر فملك تلمسان أعوام ستين وثلاثمائة.

وهلك في حروب صنهاجة وغلبوهم على بلادهم، وانجلى إلى المغرب الأقصى ودخلت تلمسان في عمالة صنهاجة إلى أن انقسمت دولتهم، وافترق أمرهم.

واستقل بإمارة زناتة وولاية المغرب زيري بن عطية، وطرده المنصور بن أبي عامر عن المغرب، فصار إلى بلاد صنهاجة وأجلب عليها، ونازل معاقلها وأمصارها مثل تلمسان ووهران وتنس وأشير والمسيلة.

ثم عقد المظفر بعد حين لابنه المعز بن زيري على عمل المغرب سنة ست وتسعين وثلاثمائة واستعمل على تلمسان ابنه يعلى بن زيري واستقرت ولايتها في عقبه إلى أن انقرض أمرهم على يد لمتونة.

وعقد يوسف بن تاشفين عليها لمحمد بن تينعمر المسوفي وأخيه تاشفين من بعده، واستحكمت الفتنة بينه وبين المنصور بن الناصر صاحب القلعة من ملوك بني حماد، ونهض إلى تلمسان وأخذ بمخنقها، وكان يغلب عليها كما ذكرنا ذلك كله في مواضعه.

ولما غلب عبد المؤمن لمتونة وقتل تاشفين بن علي بوهران خربها وخرب تلمسان بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها، وذلك أعوام أربعين من المائة السادسة.

ثم راجع رأيه فيها وندب الناس إلى عمرانها، وجمع الأيدي على رم ما تثلم من أسوارها، وعقد عليها لسليمان بن وانودين من مشايخ هنتاتة وآخى بين الموحدين وبين هذا الحي من بني عبد الواد بما بلي من طاعتهم وانحياشهم.

ثم عقد عليها لابنه السيد أبي حفص، ولم يزل آل عبد المؤمن بعد ذلك يستعملون عليها من قرابتهم وأهل بيتهم ويرجعون إليه أمر المغرب كله وزناتة أجمع اهتماماً بأمرها واستعظاماً لعملها.

وكان هؤلاء الأحياء من زناتة بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو راشد قد غلبوا على ضواحي تلمسان والمغرب الأوسط وملكوها وتقلبوا في بسائطها، واحتازوا بأقطاع الدولة الكثير من أرضها والطيب من بلادها والوافر للجباية من قبائلها، فإذا خرجوا إلى مشايخهم بالصحراء خلفوا أتباعهم بالتلول لاعتمار أرضهم وازدراع فدنهم وجباية الخراج من رعاياهم.

وكان بنو عبد الواد من ذلك فيها بين البطحاء وملوية، ساحله وريفه وصحراءه.

وصرف ولاة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم إلى تحصينها وتشييد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرانها والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها، والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطة الدور.

وكان من أعظمهم اهتماماً بذلك وأوسعهم فيه نظراً السيد أبو عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف العشري ووليها سنة ست وخمسين وستمائة على عهد أبيه يوسف بن عبد المؤمن.

واتصلت أيام ولايته فيها، فشيد بناءها وأوسع خطتها وأدار سياج الأسوار عليها، ووليها من بعد السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن، وتقبل فيها مذهبه.

ولما كان من أمر بني غانية وخروجهم من ميورقة سنة إحدى وثمانين ما قدمناه وكبسوا بجاية فملكوها، وتخطوا إلى الجزائر ومليانة فغلبوا عليهما، تلافى السيد أبو الحسن أمره بإمعان النظر في تشييد أسوارها والاستبلاغ في تحصينها وسد فروجها، وأعماق الحفائر نطاقاً عليها، حتى سيّرها أمنع معاقل المغرب وأحصن أمصاره، وتقبل ولاتها بهذا المذهب من بعده في المعتصم بها.

واتفق من الغريب أن أخاه السيد أبا زيد هو الذي دفع لحرب بني غانية فكان لهما في رقع الخرق والمدافعة عن الدولة آثار.

وكان ابن غانية قد اجتمع إليه ذؤبان العرب من الهلاليين بإفريقية، وخالفهم زغبة إحدى بطونهم إلى الموحدين، وتحيزوا إلى زناتة المغرب الأوسط، وكان مفزعهم جميعاً ومرجع نقضهم وإبرامهم إلى العامل بتلمسان من السادة في مثواهم وحامي حقيقتهم.

وكان ابن غانية كثيراً ما يجلب على ضواحي تلمسان وبلاد زناتة ويطرقها بمن معه من ناعق الفتنة إلى أن خرب الكثير من أمصارها مثل تاهرت وغيرها، فأصبحت تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، وأم هؤلاء الأحياء من زناتة المغرب الكافلة لهم المهيئة في حجرها مهاد نومتهم بما خربت المدينتان اللتان كانتا من قبل قواعد الدول السالفة والعصور الماضية، وهما أرشكول بسيف البحر وتاهرت فيما بين الريف والصحراء قبلة البطحاء وكان خراب هاتين المدينتين فيما خرب من أمصار المغرب الأوسط في فتنة ابن غانية وبأجلاب هؤلاء الأحياء من زناتة وطلوعهم على أهلها بسوم الخسف والعيث والنهب، وتخطف الناس من السابلة وتخريب العمران ومغالبتهم حاميتها من عساكر الموحدين، مثل: قصر عجيسة وزرقة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجعبات والقلعة، فلم تُصبر بها نارٌ، ولفحت بها لنافخ ضرمة، ولا صرخت لها آخر الدهر ديكة ولم يزل عمران تلمسان يزايد وخطتها تتسع والصروح بها بالآجر والقرميد تعالى وتشاد إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها داراً لملكهم، وكرسياً لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المونقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب.

ورحل إليها الناس من القاصية ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية.

واللّه وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن استقلال يغمراسن بن زيان بالملك والدولة بتلمسان وما إليها وكيف مهد الأمر لقومه وأصاره تراثاً لبنيه

كان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد من أشد هذا الحي بأساً، وأعظمهم في النفوس مهابة وجلالة، وأعرفهم بمصالح قبيله، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، مهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده.

وكان مرموقاً بعين التجلة مؤملاً للأمر عند المشيخة وتعظمة من أمره عند الخاصة، ويفزع إليه في نوائبها العامة.

فلما ولي هذا الأمر بعد مهلك أخيه أبي عزة زكدان بن زيان سنة ثلاث وثلاثين فقام به أحسن قيام، واضطلع بأعبائه وظهر على بني مطهر وبني راشد الخارجين على أخيه، وأصارهم في جملته وتحت سلطانه.

وأحسن السيرة في الرعية، واستمال عشيرته وقبيله وأحلافهم من زغبة بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار، واتخذ الآلة ورتب الجنود والمسالح، واستلحق العساكر من الروم والغز رامحة وناشبة.

وفرض العطاء واتخذ الوزراء والكتاب، وبعث في الجهات العمال ولبس شارة الملك والسلطان، واقتعد الكرسي ومحا من آثار الدولة المؤمنية، وعطل من الأمر والنهي دستها، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش، وتناول التقليد والعهد من يده تأنيساً للكافة ومرضاة للأكفاء من قومه.

ووفد عليه لأول دولته ابن وضاح إثر دولة الموحدين، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس، فآثره وقرب مجلسه وأكرم نزله، وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه له.

ووفد في جملته أبو بكر بن الخطاب المبايع لأخيه بمرسية، وكان مرسلاً بليغاً، وكاتباً مجيداً، وشاعراً محسناً، فاستكتبه وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ ولم يزل يغمراسن محامياً عن غيله محارباً لعدوه.

وكانت له مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلهم من آل أبي حفص مواطن في التمرس به ومنازلة بلده، نحن ذاكروه كذلك.

وبينه وبين أقتاله بني مرين قبل ملكهم المغرب وبعد ملكه وقائع متعددة.

وله على زناتة الشرق من توجين ومغراوة في فل جموعهم وانتساف بلادهم وتخريب أوطانهم أيام مذكورة وآثار معروفة، نشير إلى جميعها إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان ودخول يغمراسن في دعوته

لما استقل يغمراسن بن زيان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط، وظفر بالسلطان وعلا كعبه على سائر أحياء زناتة، نفسوا عليه ما آتاه اللّه من العز، وكرمه به من الملك، فنابذوه العهد وشاقوه الطاعة، وركبوا له ظهر الخلاف والعداوة، فشمر لحربهم ونازلهم في ديارهم وأحجرهم في حصونهم ومعتصماتهم من شواهق الجبال وممتنع الأمصار وكانت له عليهم أيام مشهورة ووقائع معروفة.

وكان متولي كبر هذه المشاقة عبد القوي بن العباس شيخ بني توجين أقتالهم من بني بادين، والعباس بن منديل بن عبد الرحمن،وإخوته أمراء مغراوة.

وكان المولى الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص منذ استقل بأمر إفريقية واقتطعها عن الإيالة المؤمنية سنة خمس وعشرين وستمائة كما ذكرناه متطاولاً إلى احتياز المغرب والاستيلاء على كرسي الدعوة بمراكش، وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك، فكان يداخل أمراء زناتة فيرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة.

وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلماً لوليهم وحرباً على عدوهم.

وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده الإتحاف بأنواع الألطاف والهدايا عام سبع وثلاثين وستمائة تقمناً لمسراته، وميلاً إليه عن جانب أقتاله بني مرين المجلبين على المغرب والدولة.

وأحفظ الأمير أبا زكرياء يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية ما كان من اتصال يغمراسن بالرشيد، وهو من جواره بالمحل القريب، واستكره ذلك.

وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي بن العباس،

وولد منديل بن محمد صريخاً على يغمراسن، فسهلوا له أمره وسولوا له الاستيلاء على تلمسان، وجمع كلمة زناتة واعتداد ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك الموحدين وانتظامه في أمره، وسلماً لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه، وباباً للولوج على أهله، فحركه أملاؤهم وهزه إلى النعرة صريخهم، وأهاب بالموحدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان، واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في عمله من بني سليم ورياح بظعنهم فأهطعوا لداعيه، ونهض سنة تسع وثلاثين وستمائة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة، وسرح إمام حركته عبد القوي بن العباس وأولاد منديل بن محمد لحشد من بأوطانهم من أحياء زناتة، وأتباعهم وذؤبان قبائلهم، وأحياء زغبة أحلافهم من العرب، وضرب لهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم.

ولما نزل زاغر قبلة تيطرى منتهى مجالات رياح وبني سليم في المغرب، وافته هنالك أحياء زغبة من بني عامر وسويد، وارتحلوا معه حتى نازل تلمسان، فجمع عساكر الموحدين وحشد زناتة وظعن المغرب، بعد أن قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة والأعذار والبراءة والدعاء والطاعة فرجعهم بالخيبة.

ولما حلت العساكر الموحدين بساحة البلد وبرز يغمراسن وجموعه للقاء نضحتهم ناشبة السلطان بالنبل، فانكشفوا ولاذوا بالجدران، وعجزوا عن حماية الأسوار، فاستمكنت المقاتلة من الصعود.

ورأى يغمراسن أن قد أحيط بالبلد فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتفاً على ذويه وخاصته، واعترضته عساكر الموحدين فصمم نحوهم وجندل بعض أبطالهم، فأفرجوا له، ولحق بالصحراء.

وانسلت الجيوش إلى البلد من كل حدب، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان، واكتساح الأموال.

ولما تجلى غشي تلك الهيعة وحسر تيار الصدمة، وخمدت نار الحرب، راجع الموحدون بصائرهم، وأنعم الأمير أبو زكرياء نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة عبد المؤمن والمدافعة عنها.

واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبرأ أمراء زناتة منه ضعفاً عن مقاومة يغمراسن، وعلماً بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله، ولا يصد عن فريسته، وسرح يغمراسن الغارات في نواحي العسكر فاختطفوا الناس من حوله، وأطلوا من المراقب عليه.

وخاطب يغمراسن خلال ذلك الأمير أبا زكرياء رغباً في القيام بدعوته بتلمسان، فراجعه بالإسعاف واتصال اليد على صاحب مراكش، وسوغه على ذلك جباية اقتطعها له، وأطلق أيدي العمال ليغمراسن لجبايتها.

ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم وصلها وأسنى جائزتها وأحسن وفادتها ومنقلبها، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله وفي أثناء طريقه وسوس إليه بعض الحاشية باستبداد يغمراسن عليه، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة، وأمراء المغرب الأوسط شجاً في صدره ومعترضاً عن مرامه، وإلباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيه. فأجابهم وقلد عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المغراوي، وعلي بن منصور المليكشي من قومهم ووطنهم، وعهد إليهم بذلك، وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم، فاتخذوها بحضرته وبمشهد من ملك الموحدين، وأقاموا مراسمها ببابه، وأغذ السير إلى تونس قرير العين بامتداد ملكه، وبلوغ وطره، والإشراف على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته.

ودخل يغمراسن بن زيان ووفى للأمير أبي زكرياء بعهده، وأقام له الدعوة على سائر منابره، وصرف إلى مشاقيه من زناتة وجوه عزائمه، فأذاق عبد القوي بن العباس وأولاد منديل نكال الحرب، وسامهم سوء العذاب والفتنة، وجاس خلال ديارهم وتوغل في بلادهم وغلبهم على الكثير من ممالكهم، وشرد من الأمصار والقواعد ولاتهم وأشياعهم ودعاتهم، ورفع عن الرعية ما نالهم من عدوانهم وسوء ملكتهم وثقل عسفهم وجورهم.

ولم يزل على تلك الحال إلى أن كان من حركة صاحب مراكش بسبب أخذ يغمراسن بالدعوة الحفصية ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض السعيد صاحب مراكش ومنازلته يغمراسن بجبل تامزز يزدكت ومهلكه هنالك

لما انقضت دولة بني عبد المؤمن وانتزى الثوار والدعاة بقاصية أعمالهم وقطعوها عن ممالكهم، فاقتطع ابن هود ما وراء البحر من جزيرة الأندلس واستبد بها، وورى بالدعاء للمستنصر بن الظاهر خليفة بغداد من العباسيين لعهده، ودعا الأمير أبو

زكريا بن أبي حفص بإفريقية لنفسه، وسما إلى جمع كلمة زناتة والتغلب على كرسي الدعوة بمراكش، فنازل تلمسان وغلب عليها سنة أربعين وستمائة وقارن ذلك ولاية السعيد علي بن المأمون إدريس بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وكان شهماً حازماً يقظاً بعيد الهمة، فنظر في أعطاف دولته، وفاوض الملأ في تثقيف أطرافها وتقويم مائلها، وأثار حفائظهم ما وقع من بني مرين في ضواحي المغرب ثم في أمصاره واستيلائهم على مكناسة، وإقامتهم الدعوة الحفصية فيها كما نذكره.

فجهز والعساكر وأزاح عللهم، واستنفر عرب المغرب وقبائله، واحتشد كافة المصامدة ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد القاصية، ويشرد بني مرين عن الأمصار الدانية.

واعترض العساكر والحشود بوادي بهت، وأغذ السير إلى تازي، فوصلته هنالك طاعة بني مرين كما نذكره.

ونفر معه عسكر منهم، ونهض إلى تلمسان وما وراءها ونجا يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد بأهليهم وأولادهم إلى قلعة تامز وزدكت قبلة وجدة، فاعتصموا بها.

ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن مؤدياً للطاعة ثابتاً في مذاهب الخدمة، ومتولياً من حاجات الخليفة بتلمسان لما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله، ومعذراً عن وصول يغمراسن، فلجَّ الخليفة في شأنه ولم يعذره وأبى إلا مباشرة طاعته بنفسه، وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفياني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الجِلّة ورجعوا عبدوناً لاستقدامه، فتثاقل خشية على نفسه.

واعتمد السعيد الجبل في عساكره وأناخ بها في ساحه وأخذ بمخنقهم ثلاثاً، ولرابعتها ركب مهجراً على حين غفلة من الناس في قايلتهم ليتطوف على المعتصم، ويتقرى مكانه، وبصر به فارس من القوم يعرف بيوسف بن عبد المؤمن الشيطان، كان أسفل الجبل للاحتراس وقريباً منه يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر فانقضوا عليه من بعض الشعاب، وطعنه يوسف فأكبه عن فرسه، وقتل يعقوب بن جابر وزيره يحيى بن عطوش.

ثم استلحموا لوقتهم موليه ناصحاً من العلوج وعنبراً من الخصيان، وقائد جند النصارى أخو القمط، ووليدا يافعاً من ولد السعيد.

ويقال: إنما كان ذلك يوم عبأ العساكر وصعد الجبل للقتال، وتقدم أمام الناس فأقتطعه بعض الشعاب المتوعرة في طريقه، فتواثب به هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه، وذلك لصفرمن سنة ست وأربعين وستمائة.

ووقعت النفرة في العساكر لطائر الخبر فأجفلوا، وبادر يغمراسن إلى السعيد وهو صريع بالأرض فنزل إليه وحياه وفداه وأقسم له على البراءة من هلكته، والخليفة واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فاض وانتهب المعسكر بجملته، وأخذ بنو عبد الواد ما كان به من الأخبية والفازات.

واختص يغمراسن بفسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه، واستولى على الذخيرة التي كانت فيه، منها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه يزعمون أنه أحد المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته، وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل، حتى صار إلى ذخائر لمتونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس، ثم إلى ذخائر الموحدين من خزائن لمتونة، وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين بفاس فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان حين غلبهم إياهم على تلمسان، واقتحامها عنوة على ملكها منهم عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن فريسة السلطان أبي الحسن، مقتحمها غلاباً سنة سبع وثلاثين وسبعمائة كما نذكره.

ومنها العقد المنتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر، المشتمل على مئين متعددة من حصبائه يسمى بالثعبان، وصار في خزائن بني مرين منذ ذلك الغلاب فيما اشتملوا عليه من ذخيرتهم إلى أن تلف في البحر عند غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمراسي بجاية مرجعه من تونس حسبما نذكره بعد إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه بما يستخلصه الملوك لخزائنهم ويعنون به من ذخائرهم.

ولما سكنت النغرة وركد عاصف تلك الهيعة نظر يغمراسن في شأن مواراة الخليفة، فجهز ورفع على الأعواد إلى مدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين عفا الله عنه.

ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر، بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع، وأصحبهن جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمنهم ألحقوهن بدرعة عند تخوم طاعتهم، فكان له بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعى مراتب الملك ورجع إلى تلمسان.

وقد خضدت شوكة بني عبد المؤمن وأمنهم على سلطانه والبقاء لله وحده.

الخبر عما كان بينه وبين بني مرين من الأحداث سائر أيامه

قد ذكرنا ما كان بين هذين الحيين من المناغاة والمنافسة منذ الآماد المتطاولة بما كانت مجالات الفريقين بالصحراء متجاورة، وكان التخم بين الفريقين وادي صا إلى فيكيك.

وكان بنو عبد المؤمن عند فشل الدولة وتغلب بني مرين على ضاحية المغرب يستجيشون بني عبد الواد مع عساكر الموحدين على بني مرين فيجوسون خلال المغرب ما بين تازى إلى فاس إلى القصر في سبيل المظاهرة للموحدين والطاعة لهم.

وسنذكر في أخبار بني مرين كثيرا من ذلك.

فلما هلك السعيد وأسف بنو مرين إلى ملك المغرب سما ليغمراسن أمل في مزاحمتهم.

وكان أهل فاس بعد تغلب أبي يحيى بن عبد الحق عليهم قد نقموا على قومه سوء السيرة، وتمشت رجالاتهم في اللياذ بطاعة الخليفة المرتضى ففعلوا فعلتهم في الفتك بعامل أبي يحيى بن عبد الحق، والرجوع إلى طاعة الخليفة.

وأغذ أبو يحيى السير إلى منازلهم، فحاصرهم شهوراً وفي أثناء هذا الحصار اتصلت المخاطبة بين الخليفة المرتضى ويغمراسن بن زيان في الأخذ بحجرة أبي يحيى بن عبد الحق عن فاس، فأجاب يغمراسن داعيه، واستنفر لها إخوانه من زناتة فنفر معه عبد القوي بن عطية بقومه من توجين وكافة القبائل من زناتة والمغرب، ونهضوا جميعاً إلى المغرب.

وبلغ خبرهم إلى أبي يحيى بن عبد الحق بمكانه من حصار فاس، فجمر كتائبه عليها ونهض للقائهم في بقية العساكر، والتقى الجمعان بأيسلى من ناحية وجدة، وكانت هنالك الواقعة المشهورة بذلك المكان انكشفت فيها جموع يغمراسن، وهلك منهم يغمراسن بن تاشفين وغيره، ورجعوا في فلهم إلى تلمسان، واتصلت بعد ذلك بينهم الحروب والفتنات سائر أيامه، وربما تخللتها المهادنات قليلاً.

وكان بينه وبين يعقوب بن عبد الحق ذمة مواصلة أوجب له رعيها، وكثيراً ما كان يثني عنه أخاه أبا يحيى من أجلها.

ونهض أبو يحيى بن عبد الحق سنة خمس وخمسين وستمائة إلى قتاله وبرز إليه يغمراسن، وتزاحفت جموعهم بأبي سليط، فانهزم يغمراسن واعتزم أبو يحيى على اتباعه، فثناه عن ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق.

ولما قفلوا إلى المغرب صمد يغمراسن إلى سجلماسة، لمداخلة كانت بينه وبين المنبات من عرب المعقل، أهل مجالاتها وذئاب فلاتها، حدثته نفسه اهتبال الغرة في سجلماسة من أجلها، وكانت قد صارت إلى إيالة أبي يحيى بن عبد الحق منذ ثلاث كما ذكرناه في أخبارهم.

ونذر بذلك أبو يحيى، فسابق إليها يغمراسن بمن حضره من قومه فثقفها وسد فرجها.

ووصل يغمراسن عقيب ذلك بعساكره، وأناخ بها وامتنعت عليه فأفرج عنها قافلاً إلى تلمسان.

وهلك أبو يحيى بن عبد الحق إثر ذلك منقلبه إلى فاس، فاستنفر يغمراسن أولياءه من زناتة وأحياء زغبة، ونهض إلى المغرب سنة سبع وخمسين وستمائة وانتهى إلى كلدامان.

ولقيه يعقوب بن عبد الحق في قومه فأوقع به وولى يغمراسن منهزماً، ومر بطريقه بتافرسيت فانتسفها وعاث في نواحيها.

ثم تداعوا للسلم ووضع أوزار الحرب، وبعث يعقوب بن عبد الحق ابنه أبا مالك بذلك، فتولى عقده وإبرامه.

ثم كان التقاؤهما سنة تسع وخمسين وستمائة براجر قبالة بني يزناسن، واستحكم عقد الوفاق بينهما بعد ذلك، واتصلت المهادنة إلى أن كان بينهما ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن كائنة النصارى وإيقاع يغمراسن بهم

كان يغمراسن من بعد مهلك السعيد وانفضاض عساكر الموحدين قد استخدم طائفة من جند النصارى الذين كانوا في جملته مستكثراً بهم معتداً بمكانهم ومباهياً بهم في المواقف والمشاهد.

وناولهم طرفاً من حبل عنايته، واعتزوا به واستفحل أمرهم بتلمسان حتى إذا كانت سنة اثنتين وخمسين وستمائة بعد مرجعه من بلاد توجين في إحدى حركاته إليها، كانت قصة غدرهم الشنعاء التي أحسن اللّه في دفاعها عن المسلمين.

وذلك أنه ركب في بعض أيامه لاعتراض الجنود بباب المغرمادين من أبواب تلمسان.

وبينما هو واقف في موكبه عند قايلة الضحى عدا عليه قائدهم، وبادر النصارى إلى محمد بن زيان أخي يغمراسن فقتلوه، وأشار له بالنجوى فبرز من الصف لإسراره وأمكنه من أذنه، فتنكبه النصراني وقد خالطه روعة أحس منها يغمراسن بمكره فانحاص منه، وركض النصراني أمامه يطلب النجاة، وتبين الغدر، وثارت بهم الدهماء من الحامية والرعايا، فأُحيط بهم من كل جانب وتناولتهم أيدي الهلاك في كل مهلك قعصاً بالرماح وهبراً بالسيوف وشدخاً بالعصي والحجارة حتى استلحموا، وكان يوماً مشهوداً.

ولم يستخدم من بعدها جند النصارى بتلمسان حذراً من غائلتهم.

ويقال: إن محمد بن زيان هو الذي داخل القائد في الفتك بأخيه يغمراسن، وأنه إنما قتله عندما لم يتم لهم الأمر تبرياً من مداخلته، فلم يمهله غاشي الهيعة للتثبت في شأنها والله أعلم.

الخبر عن تغلب يغمراسن على سجلماسة ثم مصيرها بعد إلى إيالة بني مرين

كان عرب المعقل منذ دخول العرب الهلاليين إلى الصحراء المغرب الأقصى أحلافاً وشيعاً لزناتة، وأكثر انحياشهم إلى بني مرين إلا ذوي عبيد الله منهم بما كانت مجالاتهم لصق مجالات بني عبد الواد ومشاركة لها.

ولما استفحل شأن بني عبد الواد بين يدي ملكهم زاحموهم عنها بالمناكب، ونبذوا إليهم العهد واستخلصوا دونهم المنبات من ذوي منصور أقتالهم، فكانوا حلفاء وشيعة ليغمراسن ولقومه.

وكان سجلماسة في مجالاتهم ومنقلب رحلتهم، وكانت قد صارت إلى ملك بني مرين، ثم استبد بها القطراني، ثم ثاروا به ورجعوا إلى طاعة المرتضى.

وتولى كبر ذلك علي بن عمر كما ذكرناه في أخبار بني مرين.

ثم تغلب المنبات على سجلماسة وقتلوا عاملها علي بن عمر سنة اثنتين وستين وستمائة وآثروا يغمراسن بملكها، وداخلوا أهل البلد في القيام بدعوته وحملوهم عليها.

وجاجأوا بيغمراسن فنهض إليها في قومه، وأمكنوه من قيادها فضبطها، وعقد عليها لولده يحيى.

وأنزل معه ابن أخته حنينة، واسمه عبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع من ولد محمد. وأنزل معهما يغمراسن بن حمامة فيمن معهم من عشائرهم وحشمهم فأقام ابنه يحيى أميراً عليها إلى أن هلك،فأدال منه بعبد الملك ابن أُخته، فلم يزل والياً عليها إلى أن غلب يعقوب ابن عبد الحق الموحدين على دار خلافتهم.

وإطاعته طنجة وعامة بلاد المغرب، فوجه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من طاعة يغمراسن وحف إليها في العساكر والحشود من زناتة والعرب والبربر، ونصبوا عليها آلات الحصار إلى أن سقط جانب من سورها فاقتحموها منه عنوة في صفر سنة ثلاث وسبعين وستمائة واستباحوها وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة ومن معهم من بني عبد الواد وأمراء المنبات، وصارت إلى طاعة بني مرين آخر الأيام: والملك بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده.

الخبر عن حروب يغمراسن مع يعقوب بن عبد الحق

قد ذكرنا ما كان من شأن بني عبد المؤمن عند فشل دولتهم، واستطالة بني مرين عليهم في الاستظهار ببني عبد الواد واتصال اليد بهم في الأخذ بحجرة عدوهم من بني مرين عليهم.

ولما هلك المرتضى وولي أبو دبوس سنة خمس وستين وستمائة وحمي وطيس فتنته مع يعقوب بن عبد الحق، فراسل يغمراسن في مدافعته، وأكد العهد وأسنى الهدية، فأجابه إليها يغمراسن وشن الغارات على ثغور المغرب وأضرمها ناراً.

وكان يعقوب بن عبد الحق محاصراً لمراكش فأفرج عنها ورجع إلى المغرب.

واحتشد جموعه، ونهض إلى لقائه وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ، وقد استكمل كلٌ تعبيته، وكانت الوقيعة على يغمراسن استبيحت فيها حرمه واستلحم قومه، وهلك ابنه عمرأبو حفص أعز ولده عليه في أتراب له من عشيره مثل: ابن عبد الملك بن حنينة، وابن يحيى بن مكن، وعمر بن إبراهيم بن هشام،فرجع عنه يعقوب بن عبد الحق إلى مراكش حتى انقضى شأنه في التغلب عليها، ومحا أثر بني عبد المؤمن منها، وفرغ لمحاربة بني عبد الواد وحشد كافة أهل المغرب من المصامدة والجموع والقبائل، ونهض إلى بني عبد الواد سنة سبعين وستمائة فبرز إليه يغمراسن في قومه وأوليائه من مغراوة والعرب، وتزاحفوا بأيسلي من نواحي وجدة،

فكانت الدبرة على يغمراسن وانكشفت جموعه، وقتل ابنه فارس، ونجا بأهله بعد أن أضرم معسكره ناراً تفادياً من معرة اكتساحه، ونجا إلى تلمسان فانحجر بها، وهدم يعقوب بن عبد الحق وجدة، ثم نازله بتلمسان، واجتمع إليه هنالك بنو توجين مع أميرهم محمد ابن عبد القوي، وصل يده بيد السلطان على يغمراسن وقومه، وحاصروا تلمسان أياماً فامتنعت عليهم، وأفرجوا عنها.

وولى كل إلى عمله ومكان ملكه حسبما نذكره في أخبارهم.

وانعقدت بينهما المهادنة من بعد ذلك وفرغ يعقوب بن عبد الحق للجهاد، ويغمراسن لمغالبة توجين ومغراوة على بلادهم إلى أن كان من شأنهم ما نذكره والله أعلم.

الخبر عن شأن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وما كان بينهم من الأحداث

كانت أحياء من مغراوة في مواطنهم الأولى من نواحي شلف قد سالمتهم الدول عند تلاشي ملكهم، وساموهم الجباية فرضوا بها مثل: بني ورسفين وبني يليت وبني ورتزمير، وكان فيهم سلطان لبني منديل بن عبد الرحمن من أعقاب آل خزر ملوكهم الأولى منذ عهد الفتح وما بعده على ما ذكرناه في خبرهم.

فلما انتثر عقد الخلافة بمراكش وتشظت عصاها وكثر الثوار والخوارج بالجهات، استقل منديل بن عبد الرحمن وبنوه من بعده بتلك الناحية وملكوا مليانة وتنس وبشرشك وما إليها، وتطاولوا إلى متيجة فتغلبوا عليها.

ثم مدوا أيديهم إلى جبل وانشريش وما إليه، فتناولوا الكثير من بلاده ثم أزاحهم عنها بنو عطية وقومهم من بني توجين المجاورون لهم في مواطنهم بأعلى شلف شرقي أرض السرسو وكان ذلك لأول دخول أحياء زناتة الناجعة بأرض القبلة إلى التلول، فتغلب بنو عبد الواد على نواحي تلمسان إلى وادي صا.

وتغلب بنو توجين على ما بين الصحراء والتل من بلد المرية إلى جبل وانشريس، إلى مرات إلى الجعبات، وصار التخم لملك بني عبد الواد سيك والبطحاء، فمن قبليها لمواطن بني توجين ومن شرقها مواطن مغراوة.

وكانت الفتنة بين بني عبد الواد وبين هذين الحيين منذ أول دخولهم إلى التلول.

وكان المولى الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص يستظهر بهذين الحيين على بني عبد الواد ويراغمهم بهم، حتى كان من فتح تلمسان ما قدمناه، وألبس جميعهم شارة الملك على ما ذكرناه ونذكره في أخبارهم، فزاحموا يغمراسن بعدها بالمناكب وصرف هو إليهم وجه النقمات والحروب.

ولم يزل الشأن ذلك حتى انقرض ملك هذين الحيين لعهد ابنه عثمان بن يغمراسن وعلى يده، ثم على يد بني مرين من بعدهم كما يأتي ذكره.

ولما رجع يغمراسن بن زيان من لقاة بني مرين بأيسلي من نواحي وجدة التي كانت سنة سبع وأربعين وستمائة، وكان معه فيها عبد القوي بن عطية بقومه من بني توجين، وهلك مرجعه منها، فنبذ يغمراسن العهد إلى ابنه محمد الأمير بعده، وزحف إلى بلاده فجاس خلالها، ونازل حصونها فامتنعت عليه.

وأحسن محمد بن عبد القوي في دفاعه، ثم زحف ثانية سنة خمسين وستمائة إليهم فنازل حصن تافركينت من حصونهم.

وكان به على بني زيان حافد محمد بن عبد القوي فامتنع به في طائفة من قومه.

ورحل عليه يغمراسن كظيماً، ولم يزل يغمراسن بعدها يشن الغارة على بلادهم، ويجمر الكتائب على حصونهم.

وكان بتافركينت صنيعه من صنائع بني عبد القوي ونسبه في صنهاجة أهل ضاحية بجاية، اختص بهذا الحصن ورسخت قدمه فيه، واعتز بكثرة ماله وولده فأحسن الدفاع عنه، وكان له مع يغمراسن في الامتناع عليه أخبار مذكورة حتى سطا به بنو محمد بن عبد القوي حين شرهوا إلى نعمته، وأنفوا من استبداده فأتلفوا نفسه وتخطفوا نعمته، فكان حتف ذلك الحصن في حتفه كما يأتي ذكره.

وعندما شبت نار الفتنة بين يغمراسن وبين محمد بن عبد القوي وصل محمد يده بيعقوب بن عبد الحق.

فلما نازل يعقوب تلمسان سنة سبعة وستمائة بعد أن هدم وجدة، وهزم بغمراسن بأيسلي، جاءه محمد بن عبد القوي بقومه من بنى توجين، وأقام معه على حصارها ورحلوا بعد الامتناع عليهم، فرجع محمد إلى مكانه.

ثم عاود يعقوب بن عبد الحق منازلة تلمسان سنة ثمانين وستماية بعد إيقاعه بيغمراسن في خرزوزة، فلقيه محمد بن عبد القوي بالقصبات واتصلت أيديهم على تخريب بلاد يغمراسن ملياً، فنازلوا تلمسان أياماً ثم افترقوا ورجع كلٌ إلى بلده.

ولما خلص يغمراسن بن زيان من حصاره زحف إلى

بلادهم وأوطأ عساكره أرضهم، وغلب على الضاحية وخرب عمرانها إلى أن تملكها بعده ابنه عثمان كما نذكر.

وأما خبره مع مغراوة فكان عماد رأيه فيهم التضريب بين بني منديل بن عبد الرحمن للمنافسة التي كانت بينهم في رياسة قومهم.

ولما رجع من واقعة تلاغ سنة ست وستين وستمائة وهي الواقعة التي هلك فيها ولده عمر زحف بعدها إلى بلاد مغراوة، فتوغل فيها وتجاوزها إلى من وراءهم من مليكش والثعالبة، وأمكنه عمر من مليانة سنة ثمان وستين وستماية على شرط المؤازرة، والمظاهرة على إخوته، فملكها يغمراسن يومئذ وصار الكثير من مغراوة إلى ولايته، وزحفوا معه إلى المغرب سنة سبعين وستمائة ثم زحف بعدها إلى بلادهم سنة اثنتين وسبعين وستمائة فتجافى له ثابت بن منديل عن تنس بعد أن أثخن في بلادهم ورجع عنها، فاسترجعها ثابت، ثم نزل له عنها ثانياً سنة إحدى وثمانين وستمائة بين يدي مهلكه عندما تم له الغلب عليهم والإثخان في بلادهم إلى أن كان الاستيلاء عليها لابنه عثمان على ما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن انتزاء الزعيم بن مكن ببلد مستغانم

كان بنو مكن هؤلاء من عالية القرابة من بني زيان يشاركونهم في نسب محمد بن زكدان بن تيدوكسن بن طاع الله، وكان لمحمد هذا أربعة من الولد كبيرهم يوسف ومن ولده جابر بن يوسف أول ملوكهم وثابت بن محمد ومن ولده زيان بن ثابت أبو الملوك من بني عبد الواد، ودرع بن محمد ومن ولده عبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع المشتهر بأمه حنينة أخت يغمراسن بن زيان ومكن بن محمد.

وكان له من الولد يحيى وعمرش، وكان من ولد يحيى الزعيم وعلي، وكان يغمراسن بن زيان كثيراً ما يستعمل قرابته في الممالك ويوليهم على العمالات، وكان قد استوحش من يحيى بن مكن وابنه الزعيم وغربهما إلى الأندلس، فأجازا من هنالك إلى يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين وستمائة ولقياه بطنجة في إحدى حركات جهاده.

وزحف يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان عامئذ وهما في جملته فأدركتهما النعرة على قومها وآثرا مفارقة السلطان إليهم، فأذن لهم في الانطلاق ولحقا بيغمراسن بن زيان حتى إذا كانت الواقعة عليه بخرزوزة سنة ثمانين كما قدمناه، وزحف بعدها إلى بلاد مغراوة وتجافى له ثابت بن منديل عن مليانة وانكفأ راجعاً إلى تلمسان، استعمل على ثغر مستغانم الزعيم بن يحيى بن مكن.

فلما وصل إلى تلمسان انتقض عليه ودعا إلى الخلاف ومالأ عدوه من مغراوة على المظاهرة عليه، فصمد إليه يغمراسن وأحجره بها حتى لاذ منه بالسلم على الإجازة، فعقد له وأجازه.

ثم أجاز له على أثره أباه يحيى واستقر بالأندلس إلى أن هلك يحيى سنة اثنتين وتسعين وستمائة ووفد الزعيم بعد ذلك على يوسف بن يعقوب وسخطه لبعض النزعات، فاعتقله وفر من محبسه ولم يزل الاغتراب مطوحاً به إلى أن هلك والبقاء لله وحده.

ونشأ ابنه الناصر بالأندلس فكانت مثواه وموقف جهاده إلى أن هلك.

وأما أخوه علي بن يحيى فأقام بتلمسان وكان من ولده داود بن علي كبير مشيخة بني عبد الواد وصاحب شوراهم وكان منهم أيضاً إبراهيم بن علي عقد له أبو حمو الأوسط على ابنته، فكان منها ولد ذكر، وكان لداود ابن اسمه يحيى بن داود استعمله أبو سعيد بن عبد الرحمن في دولتهم الثانية على وزارته فكان من شأنه ما نذكره في أخبارهم والأمر لله.

الخبر عن شأن يغمراسن في معاقدته مع ابن الأحمر والطاغية على فتنة يعقوب بن عبد الحق والأخذ بحجزته

كان يعقوب بن عبد الحق لما أجاز إلى الجهاد وأوقع بالعدو وخرب حصونهم، نازل أشبيلية وقرطبة، وزلزل قواعد كفرهم.

ثم أجاز ثانية، وتوغل في دار الحرب وأثخن فيها، وتخلى له ابن أشقيلولة عن مالقة فملكها.

وكان سلطان الأندلس يومئذ الأمير محمد المدعو بالفقيه ثاني ملوك بني الأحمر، هو الذي استدعى يعقوب بن عبد الحق للجهاد بما عهد له أبوه الشيخ بذلك.

فلما استفحل أمر يعقوب بالأندلس وتعاقب الثوار إلى اللياذ به خشيه ابن الأحمر على نفسه، وتوقع منه مثل فعلة يوسف بن تاشفين بابن عباد، فاعتمل في أسباب الخلاص مما توهم وداخل

الطاغية في اتصال اليد والمظاهرة عليه، وكانت مالقة لعمر يحيى بن محلى، استعمله عليها يعقوب بن عبد الحق حين ملكها من يد ابن أشقيلولة، فاستماله ابن الأحمر وخاطبه مقارنة ووعداً وأداله بشلوبانية من مالقة طعمة خالصة له فتخلى عن مالقة إليها.

وأرسل الطاغية أساطيله في البحر لمنع الزقاق من إجازة السلطان وعساكره، وراسلوا يغمراسن من وراء البحر في الأخذ بحجزة يعقوب وشن الغارات على ثغوره ليكون ذلك شاغلاً له عنهم.

فبادر يغمراسن بإجابتهم وترددت الرسل منه إلى الطاغية ومن الطاغية إليه كما نذكره.

وبث السرايا والبعوث في نواحي المغرب، فشغل يعقوب عن شأن الجهاد حتى لقد سأله المهادنة وأن يفرغ لجهاد العدو فأبى عليه.

وكان ذلك مما دعى يعقوب إلى الصمود إليه ومواقعته بخرزوزة كما ذكرناه.

ولم يزل شأنهم ذلك مع يعقوب بن عبد الحق وأيديهم متصلة عليه من كل جهة، وهو ينتهز الفرصة في كل واحد منهم متى أمكنه منهم حتى هلك وهلكوا.

والله وارث الأرض ومن عليها سبحانه.

الخبر عن شأن يغمراسن مع الخلفاء من بني أبي حفص الذي كان يقيم بتلمسان دعوتهم ويأخذ قومه بطاعتهم

كان زناتة يدينون بطاعة خلفاء الموحدين من بني عبد المؤمن أيام كونهم بالقفار، وبعد دخولهم إلى التلول.

فلما فشل أمر بني عبد المؤمن ودعا الأمر أبو زكريا بن أبي حفص بإفريقية لنفسه، ونصب كرسي الخلافة للموحدين بتونس انصرفت إليه الوجوه من سائر الآفاق بالعدوتين، وأملوه للكرة، وأوفد زناتة عليه رسلهم من كل حي بالطاعة، ولاذ مغراوة وبنو توجين بظل دعوته ودخلوا في طاعته، واستنهضوه لتلمسان، فنهض إليها وافتتحها سنة أربعين وستمائة ورجع إليها يغمراسن واستعمله عليها وعلى سائر ممالكها، فلم يزل مقيماً لدعوته واتبع أثره بنو مرين في إقامة الدعوة له فيما غلبوا عليه من بلاد المغرب، وبعثوا إليه ببيعة مكناسة وتازى والقصر كما نذكره في أخبارهم إلى ما دانوا به ولابنه المستنصر من بعده من خطاب التمويل والإشادة بالطاعة والانقياد حتى غلبوا على مراكش، وخطبوا باسم المستنصر على منابرها حيناً من الدهر.

ثم تبين لهم بعد متناول تلك القاصية عليه، فعطلوا منابرهم من أسماء أولئك وأقطعوهم جانب الوداد والموالاة.

ثم سموا إلى اللقب والتفنن في الشارة الملوكية كما تقتضيه طبيعة الدول، وأما يغمراسن وبنوه فلم يزالوا آخذين بدعوتهم واحداً بعد واحد متجافين عن اللقب أدباً معهم، مجددين البيعة لكل من يتجدد قيامه بالخلافة، منهم يوفدون بها كبار أبنائهم وأولي الرأي من قومهم ولم يزل الشأن ذلك.

ولما هلك الأمير أبو زكرياء وقام ابنه محمد المستنصر بالأمر من بعده، وخرج عليه أخوه الأمير أبو إسحاق في إحياء الدواودة من رياح، ثم غلبهم المستنصر جميعاً.

ولحق الأمير أبو إسحاق بتلمسان في أهله فأكرم يغمراسن نزلهم وأجاز إلى الأندلس للمرابطة بها والجهاد، حتى إذا هلك المستنصر سنة خمس وسبعين وستمائة واتصل به خبر مهلكه ورأى أنه أحق بالأمر فأجاز البحر من حينه ونزل بمرسى هنين سنة سبع وسبعين وستمائة ولقاه يغمراسن مبرة وتوقيراً، واحتفل بقدومه وأركب الناس لتلقيه، وأتاه ببيعته على عادته مع سلفه، ووعده النصرة من عدوه والمؤازرة على أمره.

وأصهر إليه يغمراسن في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان ولي عهده وأسعفه وأجمل في ذلك وعده.

وانتقض محمد بن أبي هلال عامل بجاية على الواثق، وخلع طاعته ودعا للأمير أبي إسحاق واستحثه للقدوم، فأغذ إليه السير من تلمسان وكان من شأنه ما قدمناه في أخباره، فلما كانت سنة إحدى وثمانين وستمائة وزحف يغمراسن إلى بلاد مغراوة، وغلبهم على الضواحي والأمصار، بعث من هنالك ابنه إبراهيم وتسميه زناتة برهوم، ويكنى أبا عامر أوفده في رجال من قومه على الخليفة أبي إسحاق لإحكام الصهر بينهما، فنزلوا منه على خير نزل من أسناء الجراية، ومضاعفة الكرامة والمبرة، وظهر من آثاره في حروب ابن أبي عامر ما مد الأعناق إليه وقصر الشيم الزناتية على بيته.

ثم انقلب آخراً بظعينته محبواً محبوراً، وابتنى بها عثمان لحين وصولها وأصبحت عقيلة قصره، فكان ذلك مفخراً لدولته وذكراً له ولقومه.

ولحق الأمير أبو زكرياء ابن الأمير أبي إسحاق بتلمسان بعد

خلوصه من مهلك قومه في واقعة الدعي ابن أبـي عمـارة عليهـم بمراجنة سنة اثنتين وثمانين وستمائة فنزل من عثمان بن يغمراسن صهره خير نزل براً واحتفاءً وتكريماً وملاطفةً.

وسربت إليه أخته من القصر أنواع التحف والإنس، ولحـق به أولياؤه من صنائع دولتهم وكبيرهم أبو الحسن محمد بن الفقيه المحدث أبي بكر بن سيد الناس اليعمري، فتفيأوا من كرامة الدولـة بهم ظلاً وافراً واستنهضوه إلى تراث ملكه.

وفاوض أبا مثواه عثمان بن يغمراسـن في ذلـك، فنكـره لما كان قد أخذه بدعوة الحضرة.

وأوفـد عليـه رجـال دولتـه بالبيعـة علـى العـادة في ذلـك، فحدث الأمير أبو زكرياء نفسه بالفرار عنه.

ولحق بداود بن هلال بن عطاف أمير البدو مـن بني عـامر إحدى بطون زغبة، فأجاره وأبلغه مأمنه بحي الدواودة أمراء البـدو بعمل الموحدين.

نزل منهم على عطية بن سليمان بـن سـباع كمـا قدمنـاه، واستولى علـى بجاية سـنة أربـع وثمـانين وسـتمائة بعـد خطـوب ذكرناها، واقتطعها وسائر عملها عن ملك عمه صـاحب الدولـة بتونس أبي حفص، ووفى لداود بن عطاف وأقطعـه بوطـن بجايـة عملاً كبيراً أفرده لجبايته، كـان فيـه ايقـدارن بـالخميس مـن وادي بجاية.

واستقلّ الأمير أبو زكريـاء بمملكـة بونـة وقسـنطينة وبجايـة والجزائر والزاب وما وراءها وكان هذا الصهر وصلة له مع عثمان بن يغمراسن وبنيه.

ولما نازل يوسف بن يعقوب تلمسـان سـنة ثمـان وتسـعين وستمائة، بعث الأمير أبو زكرياء المدد من جيوشـه إلى عثمـان بـن يغمراسن، وبلغ الخبر بذلك إلى يوسف بن يعقوب، فبعث أخاه أبا يحيى في العساكر لاعتراضهم، والتقوا بجبل الزاب، فكـانت الدبـرة على عسكر الموحدين واستلحموا هناك وتسمى المعركة لهذا العهـد بمرسى الرؤوس.

واستحكمت من أجل ذلك صاغيـة الخليفـة بتونـس إلى بـني مرين، وأوفد عليهم مشـيخة مـن الموحديـن يدعوهـم إلى حصـار بجاية، وبعث معهم الهديـة الفـاخرة وبلـغ خـبرهم إلى عثمـان بـن يغمراسن من وراء جدرانـه فتنكـر لهـا وأسـقط ذكـر الخليفـة مـن منابره، ومحاه من عمله، فنسي لهذا العهد.

والله مالك الأمر سبحانه.

الخبر عن مهلك يغمراسن بن زيان وولاية ابنه عثمان وما كان في دولته من الأحداث

كان السلطان يغمراسن قد خرج من تلمسـان سنة إحدى وثمانين وستمائة واسـتعمل عليهـا ابنـه عثمـان، وتوغـل في بـلاد مغراوة وملك ضواحيهم.

ونزل له ثابت بن منديل عن مدينة تنس، فتناولها من يده.

ثم بلغه الخبر بإقبال ابنه أبي عامر برهـوم مـن تونـس بابنـة السلطان أبي إسحاق عرس ابنه عثمان، فتلوم هنالك إلى أن لحقـه بظاهر مليانة، فارتحل إلى تلمسان وأصابه الوجع في طريقه.

وعندما أحل سريره اشتد به وجعه فهلك هنـالك آخـر ذي القعدة من سنته، والبقاء لله وحده.

فحمله ابنه أبـو عـامر على أعـواد وواراه في خـدر موريـاً لمرضه إلى أن تجاوز بلاد مغراوة إلى سيك.

ثم أغذ السير إلى تلمسان، فلقيه أخوه عثمان بن يغمراسـن ولي عهد أبيه في قومه، فبايعه الناس وأعطوه صفقة أيمانهم.

ثم دخل تلمسان فبايعـه العامـة والخاصـة، وخـاطب لحينـه الخليفة بتونس أبا إسحاق وبعث إليه ببيعته، فراجعه بالقبول وعقد له على عمله على الرسم.

ثم خاطب يعقوب بن عبد الحق يخطب منه السلم، لما كـان أبوه يغمراسن أوصاه به.

حدثنا شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيـم الآيلـي قال: سمعت من السـلطان أبي حمـو موسـى بـن عثمـان، وكـان قهرماناً بداره، قال: أوصـى دادا يغمراسـن لـدادا عثمـان - ودادا حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم - فقـال لـه: يـا بـني إن بـني مرين بعد استفحال ملكهـم واسـتيلائهم علـى الأعمـال الغربيـة وعلى حضـرة الخلافـة بمراكـش، لا طاقـة لنـا بلقـائهم إذا جمعـوا الوفور مددهم، ولا يمكنني أنا القعود عن لقـائهم لمعـرة النكـوص عن القرن التي أنت بعيد عنها.

فإياك واعتماد لقائهم، وعليك باللياذ بـالجدران متـى دلفـوا إليك، وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل بـه ملكـك، وتكـافيء حشـد العـدو بحشدك ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلاً لذخيرتك.

فعلقت وصية الشيخ بقلبه، وعقد عليها ضمائره، وجنح إلى السلم مع بني مرين ليفرغ عزمه لذلك.

وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على يعقوب بن عبد الحق بمكانه من العدوة الأندلسية في إجازته الرابعة إليها فخاض إليه البحر ووصله بأركش، فلقاه براً وكرامة، وعقد له على السلم ما أحب وانكفأ راجعاً إلى أخيه، فطابت نفسه وفرغ لافتتاح البلاد الشرقية، كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن شأن عثمان بن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وغلبه على معاقلهم والكثير من أعمالهم

لما عقد عثمان بن يغمراسن السلم مع يعقوب بن عبد الحق صرف وجهه إلى الأعمال الشرقية من بلاد توجين ومغراوة وما وراءها من أعمال الموحدين، فتغلب أولاً على ضواحي بني توجين ومغراوة وما وراءها، ودوخ قاصيتها، وسار إلى بلاد مغراوة كذلك، ثم إلى متيجة فانتسق نعمها وخطم زرعها ثم تجاوزها إلى بجاية فحاصرها كما نذكره بعد.

وامتنعت عليه فانكفأ راجعاً ومرّ في طريقه بمازونة، فحاصرها وأطاعته، وذلك سنة ست وثمانين وستمائة ونزل له ثابت بن منديل أمير مغراوة عن تنس فاستولى عليها وانتظم سائر بلاد مغراوة في إيالته.

ثم عطف في سنته على بلاد توجين فاكتسح حبوبها واحتكرها بمازونة استعداداً لما يتوقع من حصار مغراوة إياها.

ثم دلف إلى تافركنيت فحاصرها وأخذ بمخنقها وداخل قائدها غالباً الخصي من موالي بني محمد بن عبد القوى، كان مولى سيد الناس منهم، فنزل له غالب عنها واستولى عليها، وانكفأ إلى تلمسان.

ثم نهض إلى بني توجين سنة سبع وثمانين وستمائة فغلبهم على وانشريش مثوى ملكهم ومنبت عزهم، وفر أمامه أميرهم مولى بني زرارة من ولد محمد بن عبد القوي.

وأخذ الحلف منهم فلحق بضواحي المرية في الأعشار وأولاد عزيز من قومه.

واتبع عثمان بن يغمراسن آثارهم وشردهم من تلك القاصية، وهلك مولى زرارة في مغرة.

وكان عثمان قبل ذلك قد دوخ بلاد بني يدللتين من بني توجين، ونازل رؤساءهم أولاد سلامة بالقلعة المنسوبة إليهم مرات فامتنعوا عليه، ثم أعطوه أيديهم على الطاعة ومفارقة قومهم بني توجين إلى سلطان بني يغمراسن، فنبذوا العهد إلى بني محمد بن عبد القوي أمرائهم منذ العهد الأول.

ووصلوا أيديهم بعثمان والزموا رعاياهم وعمالهم المغارم له إلى أن ملك وانشريس من بعدها كما نذكر ذلك في أخبارهم.

وصارت بلاد توجين كلها من عمله، واستعمل الحشم بجبل وانشريس.

ثم نهض بعدها إلى المرية وبها أولاد عزيز من توجين فنازلها، وقام بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون بلمدية وإليهم تنسب، فأمكنوه منها سنة ثمان وثمانين وستمائة وبقيت في إيالته سبعة أشهر ثم انتقضت عليه ورجعت إلى ولاية أولاد عزيز وصالحوه عليها، وأعطوه من الطاعة ما كانوا يعطونه محمد بن عبد القوي وبنيه فاستقام أمره في بني توجين ودانت له سائر أعمالهم.

ثم خرج سنة تسع وثمانين وستمائة إلى بلاد مغراوة لما كانوا ألباً عليه لبني مرين في إحدى حركاتهم على تلمسان، فدوخها وأنزل ابنه أبا حمو بشلف مركز عملهم، فأقام به وقفل هو إلى الحضرة.

وتحيز فل مغراوة إلى نواحي متيجة، وعليهم ثابت بن منديل أميرهم، فلم يزالوا بها.

ونهض عثمان إليهم سنة ثلاث وتسعين وستمائة بعدها فانحجزوا بمدينة برشك، وحاصرهم بها أربعين يوماً ثم افتتحها.

وخاض ثابت البحر إلى المغرب فنزل على يوسف بن يعقوب كما ذكرناه ونذكره.

واستولى عثمان على سائر عمل مغراوة كما استولى على عمل بني توجين، فانتظم بلاد المغرب الأوسط كلها وبلاد زناتة الأولى ثم شغل بفتنة بني مرين كما نذكر بعد إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن منازلة بجاية وما دعا إليها

قد ذكرنا أن المولى أبا زكريا الأوسط ابن المولى أبي إسحاق بن أبي حفص لحق بتلمسان عند فراره من بجاية أمام شيعة الدعي ابن أبي عمارة، ونزل على عثمان بن يغمراسن خير نزل.

ثم هلك الدعي ابن أبي عمارة واستقل عمه الأمير أبو حفص بالخلافة، وبعث إليه عثمان بن يغمراسن بطاعته على العادة، وأوفد عليه وجوه قومه، ودس الكثير من أهل بجاية إلى المولى أبي زكريا يستحثونه للقدوم، ويعدونه إسلام البلد إليه.

وفاوض عثمان بن يغمراسن في ذلك فأبى عليه وفاء بحق البيعة لعمه الخليفة بالحضرة فطوى عنه الخبر وتردد في النقض أياماً.

ثم لحق بأحياء زغبة في مجالاتهم بالقفر، ونزل على داود بن هلال بن عطاف وطلب عثمان بن يغمراسن من داود إسلامه فأبى عليه وارتحل معه إلى أعمال بجاية، ونزلوا على أحياء الدواودة كما قدمناه ثم استولى المولى أبو زكريا بعد ذلك على بجاية في خبر طويل قد ذكرناه في أخباره.

واستحكمت القطيعة بينه وبين عثمان، وكانت سببا لاستحكام الموالاة بين عثمان وبين الخليفة بتونس.

فلما زحف إليه عثمان سنة ست وثمانين وستمائة وتوغل في قاصية المشرق، أعمل الرحلة إلى عمل بجاية، ودوخ سائر أقطارها.

ثم نازلها من بعد ذلك يروم كيدها بالاعتمال في مرضاة خليفته بتونس، ويسر بذلك حسواً في ارتقاء، فأناخ عليها بعساكره سبعاً، ثم أفرج عنها منقلباً إلى المغرب الأوسط، فكان من فتح تافركنيت ومازونة ما قدمناه.

الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وشأن تلمسان في الحصار الطويل

لما هلك يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين على السلم المنعقد بينه وبين بنى عبد الواد لشغله بالجهاد، وقام بالأمر من بعده في قومه ابنه يوسف كبير ولده على حين اتبعهم أنفسهم شأن الجهاد.

وأسفهم يغمراسن وابنه بممالأة الطاغية وابن الأحمر فعقد يوسف بن يعقوب السلم مع الطاغية لحينه، ونزل لابن الأحمر عن ثغور الأندلس التي كانت لهم، وفرغ لحرب بني عبد الواد، واستتب له ذلك لأربع من مهلك أبيه، دلف إلى تلمسان سنة تسع وثمانين وستمائة، ولاذ منه عثمان بالأسوار فنازلها أربعين صباحاً، وقطع شجرها ونصب عليها المجانيق والآلات ثم أحس بامتناعها فأفرج عنها وانكفأ راجعاً.

وتقبل عثمان بن يغمراسن مذهب أبيه في مداخلة ابن الأحمر والطاغية، وأوفد رسله عليها فلم يغن ذلك عنه شيئاً.

وكان مغراوة قد لحقوا بيوسف بن يعقوب بتلمسان فنالوا منه أعظم النيل.

فلما أفرجوا عن تلمسان نهض عثمان إلى بلادهم فدوخها وغلبهم عليها، وأنزل ابنه أبا حمو بها كما قدمناه.

فلما كانت سنة خمس وتسعين وستمائة نهض يوسف بن يعقوب إلى حركته الثانية فنازل ندرومة، ثم ارتحل عنها إلى ناحية وهران وأطاعه أهل جبل كيدره وتاسكدلت رباط عبد الحميد بن الفقيه أبى زيد اليرناسي ثم كرَّ راجعاً إلى المغرب.

وخرج عثمان بن يغمراسن فأثخن في تلك الجبال لطاعتهم عدوه واعتراضهم جنده، واستباح رباط تاسكدلت.

ثم أغزاه يعقوب بن يوسف ثالثة سنة ست وتسعين وستمائة ثم رجع إلى المغرب.

ثم أغزاه رابعة سنة سبع وتسعين وستمائة فتأثل تلمسان وأحاط بها معسكره وشرعوا في البناء.

ثم أفرج عنها لثلاثة أشهر، ومر في طريقه بوجدة، فأمر بتجديد بنائها وجمع الفعلة عليها.

واستعمل أخاه أبا يحيى بن يعقوب على ذلك، وأقام لشأنه، ولحق يوسف بالمغرب.

وكان بنو توجين قد نازلوا تلمسان مع يوسف بن يعقوب، وتولى كبر ذلك منهم أولاد سلامة أمراء بني يدللتين، وأصحاب القلعة المنسوبة إليهم.

فلما أفرج عنها خرج إليهم عثمان بن يغمراسن فدوخ بلادهم وحاصرهم بالقلعة ونال منهم أضعاف ما نالوا منه، وطال مغيبه في بلادهم، فخالفه أبو يحيى بن يعقوب إلى ندرومة فاقتحمها عنوة بعسكره بمداخلة من قائدها زكريا بن يخلف بن المطغري صاحب تاونت.

فاستولى بنو مرين على ندرومة وتاونت، وجاء يوسف بن يعقوب على أثرها فوافاهم ودلفوا جميعاً إلى تلمسان.

وبلغ الخبر إلى عثمان بمكانه من حصار القلعة فطوى المراحل إلى تلمسان، فسبق إليها يوسف بن يعقوب ببعض يوم.

ثم أشرفت طلائع بني مرين عشي ذلك اليوم، فأناخوا بها في شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة وأحاط العسكر بها من جميع جهاتها.

وضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجاً من الأسوار محيطاً بها، وفتح فيه أبواباً مداخل لحربها، واختط لنزله إلى جانب الأسوار مدينة سماها المنصورة وأقام على ذلك سنين يغاديها القتال ويراوحها.

وسرح عسكره لافتتاح المغرب الأوسط وثغوره، فملك بلاد مغراوة وبلاد توجين كما ذكرناه في أخباره وجثم هو بمكانه من حصار تلمسان لا يعدوها كالأسد الضاري على فريسته إلى أن هلك عثمان وهلك هو من بعده كما نذكره.

وإلى اللّه المصير سبحانه وتعالى لا رب غيره.

الخبر عن مهلك عثمان بن يغمراسن وولاية ابنه أبي زيان وانتهاء الحصار من بعده إلى غايته

لما أناخ يوسف بن يعقوب بعساكره على تلمسان، انحجز بها عثمان وقومه واستسلموا، والحصار آخذ بمخنقهم.

وهلك عثمان لخامسة السنين من حصارهم سنة ثلاث وسبعمائة، وقام بالأمر من بعده ابنه أبو زيان محمد.

أخبرني شيخنا العلامة محمد بن إبراهيم الآبلي، وكان في صباه قهرمان دارهم قال: هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس، وكان قد أعد لشربه لبناً، فلما أخذ منه الديماس وعطش، دعا بالقدح فشرب اللبن ونام فلم يكن بأوشك أن فاضت نفسه.

وكنا نرى معشر الصنائع أنه داف فيه السم تفادياً من معرة غلب عدوهم إياهم.

قال: وجاء الخادم إلى قعيدة بيته زوجه بنت السلطان أبي إسحاق ابن الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب تونس، وخبرها الخبر فجاءت ووقعت عليه واسترجعت وخيمت على الأبواب بسدادها.

ثم بعثت إلى ابنيه محمد أبي زيان وموسى أبي حمو فعزتهما عن أبيهما.

وأحضرا مشيخة بني عبد الواد وعرضوا لهم بمرض السلطان فقال أحدهم مستفهماً عن الشأن ومترجماً عن القوم: السلطان معنا آنفاً، ولم يمتد الزمن لوقوع المرض، فإن يكن هلك فخبرونا، فقال له أبو حمو: وإذا هلك فما أنت صانع؟ فقال: إنما نخشى من مخالفتك، وإلا فسلطاننا أخوك الأكبر أبو زيان.

فقام أبو حمو من مكانه وأكب على يد أخيه يقبلها، وأعطاه صفقة يمينه واقتدى به المشيخة، فانعقدت بيعته لوقته واشتمل بنو عبد الواد على سلطانهم واجتمعوا إليه، وبرزوا لقتال عدوهم على العادة فكأن عثمان لم يمت.

وبلغ الخبر إلى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم فتفجع له، وعجب من صرامة قومه من بعده.

واستمر حصاره إياهم إلى تمام ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله، نالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفيران حتى أنهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي، وخربوا السقف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد.

وعجز وجدهم عنه فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به، مقداره اثني عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفاً من الذهب العين.

وثمن الرأس الواحد من البقر ستين مثقالاً، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفاً، وأثمان اللحمان من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم، والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهماً، والهر الواحد بمثقال ونصف، والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله، والدجاجة بستة عشر درهماً، والبيض واحدة بستة دراهم، والعصافير كذلك والأوقية من الزيت بإثني عشر درهماً، ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين، ومن الفول بمثلها، ومن الملح بعشرة، ومن الحطب كذلك والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال.

ومن الخس بعشرين درهماً ومن اللفت بخمسة عشر درهماً، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهماً، والخيار بثلاثة أثمان الدينار، والبطيخ بثلاثين درهماً، والحبة من التين والإجاص بدرهمين.

واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم.

واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها، واتسعت خطة مدينة المنصور المشيدة عليها.

ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة، وخطب الملوك سلمه ووده، ووفدت عليه رسل الموحدين وهداياهم من تونس وبجاية، وكذلك رسل صاحب مصر والشام وهديتهم، واعتز اعتزازاً لا كفاء له كما يأتي في أخباره وأنهك الجهد حامية بني يغمراسن وقبيلتهم وأشرفوا على الهلاك فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج بهم للاستماتة، فكيف اللّه لهم الصنيع الغريب، ونفس عن مخنقهم بمهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصي من العبدي، فأسخطته بعض

النزعات الملوكية فاعتمده في كسر بيته ومخدع نومه، وطعنه بخنجر قطع أمعاءه، وأدرك فسيق إلى وزرائه ومزقوا أشلاءه ولم يبوء بشسع من نعل عبيدهم كما ذكرناه والأمر لله وحده.

وأذهب اللّه العناة عن آل زيان وقومهم وساكني مدينتهم كأنما نشروا من الأجداث وكتبوا لها في سكتهم ما أقرب فرج اللّه استغراباً لحادثتها.

وحدثني شيخنا محمد بن ابراهيم الآبلي قال: جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم ذلك الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة زوايا قصره، واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله: كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة؟ فقال له: إنما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمانها.

وبينما هم في ذلك دخل عليه أخوه أبو حمو فأخبره فوجم لها، وجلسوا سكوتاً لا ينطقون.

وإذا بالخادم دعد قهرمانة القصر من وصائف بنت السلطان أبي إسحاق وحظية أبيهم خرجت من القصر إليهم، فوقفت وحيتهم تحيتها وقالت: تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم: ما لنا وللبقاء، وقد أحيط بكم وأسف لالتهامكم عدوكم، ولم يبق إلا فواق بكيئة لمصارعكم فأريحونا من معرة السبي، وأريحوا فينا أنفسكم وقربونا إلى مهالكنا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم.

فالتفت أبو حمو إلى أخيه وكان من الشفقة بمكان وقال: قد صدقتك الخبر فما تنظر فيهم؟ فقال: يا موسى! أرجئني ثلاثاً لعل اللّه يجعل بعد عسر يسراً، ولا تشاورني بعدها فيهن، بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهن وتعال إلي نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستميت، ويقضي اللّه ما يشاء.

فغضب له أبو حمو ونكر الإرجاء في ذلك، وقال: إنما نحن واللّه نتربص المعرة بهن وبأنفسنا، وقام عنه مغضباً وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء.

قال ابن حجاف: وأنا بمكاني بين يديه واجم لا أملك متأخراً ولا متقدماً إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرسي الباب يشير إلي أن إذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين بسيدة القصر، فلم أطق أرجع جوابه إلا بالإشارة وانتبه السلطان من خفيف إشارتنا فزعاً، فأذنته واستدعاه.

فلما وقف بين يديه قال له: إن يوسف بن يعقوب هلك الساعة، وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم، فاستبشر السلطان واستدعى أخاه وقومه حتى أبلغ الرسول رسالته بمسمع منهم، وكانت إحدى المقربات في الأنام.

وكان من خبر هذه الرسالة إلى يعقوب بن يوسف لما هلك تطاول للأمر الأعياص من إخوته وولده وحفدته، وتحيز أبو ثابت حافده إلى بني ورتاجن لخؤلة كانت له فيهم، فاستجاش بهم واعصوصبوا عليه وبعث إلى أولاد عثمان بن يغمراسن أن يعطوه الآلة ويكونوا مفزعاً له ومأمناً إن أخفق مسعاه على أنه إن تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين فعاقدوه عليها.

ووفى لهم لما تم أمره ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان يوسف بن يعقوب استولى عليها من بلادهم، وجاء بجميع الكتائب التي أنزلها في ثغورهم وقفلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأقصى، واستكمن السلطان أبو زيان من ثغور المغرب الأوسط كلها إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن شأن السلطان أبي زيان من بعد الحصار إلى حين مهلكه

كان من أول ما افتتح به السلطان أبو زيان أمره بعد الخروج من هوّة الحصار وتناوله الأعمال من يد بني مرين، أن نهض من تلمسان ومعه أخوه أبو حمو آخر ذي الحجة من سنة ست وسبعمائة، فقصد بلاد مغراوة وشرد من كان هنالك منهم في طاعة بني مرين، واحتاز الثغور من يد عمالهم ودوخ قاصيتها.

ثم عقد عليها المسامح مولاه، ورجع عنها، فنهض إلى السرسو، وكان العرب قد تملكوه أيام الحصار، وغلبوا زناتة عليه من سويد والديالم ومن إليهم من بني يعقوب بن عامر فأجفلوا أمامه.

واتبع آثارهم إلى أن أوقع بهم وانكفأ راجعاً ومر ببلاد بني توجين، فاقتضى طاعة من كان بقي بالجبل من بني عبد القوي والحشم فأطاعوه، ورياستهم يومئذ لمحمد بن عطية الأصم من بني عبد القوي.

وقفل إلى تلمسان لتسعة أشهر من خروجه، وقد ثقف أطراف ملكه، ومسح أعطاف دولته.

فنظر في إصلاح قصوره ورياضه، ورم ما تثلم من بلده، وأصابه المرض خلال ذلك فاشتد وجعه سبعاً، ثم هلك أخريات شوال من سنة سبع وسبعمائة والبقاء لله وحده.

الخبر عن محو الدعوة الحفصية من منابر تلمسان

كانت الدعوة الحفصية بإفريقية قد انقسمت بين أعياصهم في تونس وبجاية وأعمالها، وكان التخم بينهما بلد عجيسة ووشتاتة.

وكان الخليفة بتونس الأمير أبو حفص ابن الأمير أبي زكريا الأول منهم، وله الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالحضرة.

فكانت بيعة بني زيان له والدعاء على منابرهم باسمه، وكانت لهم مع المولى الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه، وكانت الوحشة قد اعترضت ذلك عندما نزل عثمان بجاية كما قدمناه.

ثم تراجعوا إلى وصلتهم واستمروا عليها إلى أن نازل يوسف بن يعقوب تلمسان، والبيعة يومئذ للخليفة بتونس السلطان أبي عصيدة بن الواثق، والدعوة على منابر تلمسان باسمه، وهو حاقد عليهم ولايتهم للأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغر، فلما نزل يوسف بن يعقوب على تلمسان وبعث عساكره في قاصية المشرق استجاش عثمان بن يغمراسن بصاحب بجاية، فسرح عسكراً من الموحدين لمدافعتهم عن تلك القاصية، والتقوا معهم بجبل الزاب فانكشف الموحدون بعد معترك صعب واستلحمهم بنو مرين، ويسمى المعترك لهذا العهد بمرسى الرؤوس لكثرة ما تساقط في ذلك المجال من الرؤوس.

واستحكمت المنافرة بذلك بين يوسف بن يعقوب وصاحب بجاية فأوفد الخليفة بتونس على يوسف بن يعقوب مشيخة من الموحدين تجديداً لوصلة سلفهم مع سلفه وإغراء بصاحب بجاية وعمله، فجاء موقع ذلك من عثمان بن يغمراسن وأحفظه ممالأة خليفته لعدوه، فعطل منابره من ذكره، وأخرج قومه وإيالته عن دعوته، وكان ذلك آخر المائة السابعة.

والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أبي حمو الأوسط وما كان فيها من الأحداث

لما هلك الأمير أبو زيان قام بالأمر بعده أخوه أبو حمو في أخريات سنة سبع كما قدمناه، وكان صارماً يقظاً حازماً داهية، قوي الشكيمة صعب العريكة، شرس الأخلاق مفرط الذكاء والحدة.

وهو أول ملوك زناتة، رتب مراسم الملك وهذب قواعده، وأرهف في ذلك لأهل ملكه حدة، وقلب لهم مجن بأسه حتى دلوا لعز الملك وتأدبوا بآداب السلطان.

سمعت عريف بن يحيى أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية لزناتة يقول ويعنيه: موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة، وإنما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان، فحد حدودها، وهذب مراسمها ولقن عنه ذلك أقتاله وأنظاره منهم، فتقبلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه انتهى كلامه.

ولما استقل بالأمر افتتح شأنه بعقد السلم مع سلطان بني مرين لأول دولته فأوفد كبراء دولته على السلطان أبي ثابت، وعقد له السلم كما رضي.

ثم صرف وجهه إلى بني توجين ومغراوة، فردد إليهم العساكر حتى دوخ بلادهم وذلل صعابهم، وشرد محمد بن عطية الأصم عن نواحي وانشريش، وراشد بن محمد عن نواحي شلف، وكان قد لحق بها بعد مهلك يوسف بن يعقوب فأزاحه عنها، واستولى على العملين، واستعمل عليهما، وقفل إلى تلمسان، ثم خرج سنة عشر وسبعماية في عساكره إلى بلاد بني توجين، ونزل تافركنيت وسط بلادهم فشرد الفل من أعقاب محمد بن عبد القوي عن وانشريش، واحتاز رياستهم في بني توجين دونهم وأدال منهم بالحشم وبني تيغرين.

وعقد لكبيرهم يحيى بن عطية على رياسة قومه في جبل وانشريس، وعقد ليوسف بن حسن من أولاد عزيز على المرية وأعمالها، وعقد لسعد من بني سلامة بني علي على قومه بني يدللتين إحدى بطون بني توجين وأهل الناحية الغربية من عملهم.

وأخذ من سائر بطون بني توجين الرهن على الطاعة والجباية، واستعمل عليهم جميعاً من صنائعه قائده يوسف بن حبون الهواري، وأذن له في اتخاذ الآلة.

وعقد لمولاه مسامح على بلاد مغراوة وأذن له أيضاً في اتخاذ الآلة.

وعقد لمحمد ابن عمه يوسف على مليانة، وأنزله بها وقفل إلى تلمسان والله أعلم.

الخبر عن استنزال زيرم بن حماد من ثغر برشك وما كان من قتله

كان هذا الغمر من مشيخة هذا المصر لوفور عشيره من مكلاته داخله وخارجه، واسمه زيري بالياء، فتصرفت فيه العامة وصار زيرم بالميم.

ولما غلب يغمراسن على بلاد مغراوة دخل أهل هذا المصر في طاعته.

حتى إذا هلك حدثت هذا الغمر نفسه بالانتزاء والاستبداد بملك برشك ما بين مغراوة وبني عبد الواد، ومدافعة بعضهم ببعض.

فاعتزم على ذلك وأمضاه وضبط برشك لنفسه سنة ثلاث وثمانين وستماية ونهض إليه عثمان بن يغمراسن سنة أربع وثمانين وستماية بعدها، ونازله فامتنع.

ثم زحف سنة ثلاث وتسعين إلى مغراوة، فلجأ ثابت بن منديل إلى برشك وحاصره عثمان بها أربعين يوماً ثم ركب البحر إلى المغرب كما قلناه.

وأخذ زيرم بعده بطاعة عثمان بن يغمراسن دافعه بها، وانتقض عليه مرجعه إلى تلمسان، وشغل بنو زيان بعدها بما دهمهم من شأن الحصار، فاستبد زيرم هذا ببرشك واستفحل شانه بها.

واتقى بني مرين عند غلبهم على أعمال مغراوة وتردد عساكرهم فيها بإخلاص الطاعة والانقياد، فلما انقشع إيالة بني مرين بمهلك يوسف بن يعقوب، وخرج بنو عثمان بن يغمراسن من الحصار رجع إلى ديدنه من التمريض في الطاعة، ومقاولة طرفها على البعد حتى إذا غلب أبو حمو على بلاد مغراوة وتجاوزت طاعته هذا المصر إلى ما وراءه، خشيه زيري على نفسه، وخطب منه الأمان على أن ينزل له عن المصر، فبعث إليه صاحب الفتيا بدولته أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الإمام، كان أبوه من أهل برش، وكان زيري قد قتله لأول ثورته غيلة.

وفر ابنه عبد الرحمن هذا وأخوه عيسى، ولحقا بتونس فقرآ بها، ورجعا إلى الجزائر فأوطناها.

ثم انتقلا إلى مليانة واستعملهما بنو مرين في خطة القضاء بمليانة.

ثم وفدا بعد مهلك يوسف بن يعقوب على أبي زيان وأبي حمو مع عمال بني مرين وقوادهم بمليانة، وكان فيهم منديل بن محمد الكناني صاحب أشغالهم المذكور في أخبارهم.

وكانا يقرئان ولده محمد فأشاد على أبي زيان وأبي حمو بمكانهم من العلم، ووقع ذلك من أبي حمو أبلغ المواقع حتى إذا استقل بالأمر ابتنى المدرسة بناحية المطمر من تلمسان لطلب العلم وابتنى لهما دارين عن جانبيها وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدين لذلك.

واختصهما بالفتيا والشورى، فكانت لهما في دولته قدم عالية فلما طلب زيري هذا الأمان من أبي حمو وأن يبعث إليه من يأمن معه في الوصول إلى بابه، بعث إليه أبا زيد عبد الرحمن الأكبر منهما، فنهض لذلك بعد أن استأذنه في أن يثأر منه بأبيه إن قدر عليه، فأذن له.

فلما احتل ببرشك أقام بها أياماً يناديه فيها زيري ويراوحه بمكان نزله، وهو يعمل الحيلة في اغتياله حتى أمكنته فقتله في بعض تلك الأيام سنة ثمان وسبعماية، وصار أمر برشك إلى السلطان أبي حمو وامحى منها أثر المشيخة والاستبداد والأمور بيد اللّه سبحانه.

الخبر عن طاعة الجزائر واستنزال ابن علان منها وذكر أوليته

كانت مدينة الجزائر هذه من أعمال صنهاجة، ومختطها بلكين بن زيري ونزلها بنوه من بعده.

ثم صارت إلى الموحدين وانتظمها بنو عبد المؤمن في أمصار المغربين وإفريقية، ولما استبد بنو أبو حفص بأمر الموحدين وبلغت دعوتهم بلاد زناتة.

وكانت تلمسان ثغراً لهم، واستعملوا عليها يغمراسن وبنيه من بعده، وعلى ضواحي مغراوة بني منديل بن عبد الرحمن، وعلى وانشريش وما إليه من عمل بني توجين محمد بن عبد القوي وبنيه.

وبقي ما وراء هذه الأعمال إلى الحضرة لولاية الموحدين من أهل دولته، فكان العامل على الجزائر من الموحدين أهل الحضرة.

وفي سنة أربع وستين وستماية انتقضوا على المستنصر ومكثوا في ذلك الانتقاض سبعاً.

ثم أوعز إلى أبي هلال صاحب بجاية بالنهوض إليها في سنة

إحدى وسبعين وستماية فحاصرها أشهراً وأفرج عنها.

ثم عاودها بالحصار سنة أربع وسبعين وستماية أبو الحسن بن ياسين بعساكر الموحدين فاقتحمها عليهم عنوة واستباحها.

وتقبض على مشيختها فلم يزالوا معتقلين بها إلى أن هلك المستنصر ولما انقسم أمر بني أبي حفص واستقل الأمير أبو زكرياء الأوسط بالثغور الغربية وأبوه، وبعثوا إليه بالبيعة، وولى عليهم ابن أكمازير، وكانت ولايتها لبطة من قبل، فلم يزل هو والياً عليها إلى أن أسن وهرم.

وكان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصاً به، ومتصرفاً في أوامره ونواهيه، ومصدراً لأمارته وحصل له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه.

فلما هلك ابن أكمازير حدثته نفسه بالاستبداد والانتزاء بمدينته، فبعث عن أهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك أميره وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد، واتخذ الآلة واستركب واستلحق من الغرباء والثعالبة عرب متيجة، واستكثر من الرجال والرماة ونازلته عساكر بجاية مراراً فامتنع عليهم.

وغلب مليكش على جباية الكثير من بلاد متيجة، ونازله أبو يحيى بن يعقوب بعساكر بني مرين عند استيلائهم على البلاد الشرقية، وتوغلهم في القاصية، فأخذ بمخنقها وضيق عليها، ومر بابن علان القاضي أبو العباس الغماري رسول الأمير خالد إلى يوسف بن يعقوب، فأودعه الطاعة للسلطان والضراعة إليه في الإبقاء، فأبلغ ذلك عنه وشفع له، فأوعز إلى أخيه أبي يحيى بمصالحته.

ثم نازله الأمير خالد بعد ذلك فامتنع عليه وأقام على ذلك أربع عشرة سنة وعيون الخطوب تحرزه، والأيام تستجمع لحربه.

فلما غلب السلطان أبو حمو على بلاد بني توجين واستعمل يوسف بن حيون الهواري على وانشريش، ومولاه مسامحاً على بلاد مغراوة، ورجع إلى تلمسان.

ثم نهض سنة اثنتي عشرة وسبعماية إلى بلاد شلف فنزل بها، وقدم مولاه مسامحاً في العساكر فدوخ متيجة من سائر نواحيها، وترس الجزائر، وضيق حصارها حتى مسهم الجهد وسأل ابن علان النزول على أن يسترط لنفسه، فتقبل السلطان اشتراطه، وملك السلطان أبو حمو الجزائر وانتظمها في أعماله.

وارتحل ابن علان في جملة مسامح، ولحقوا بالسلطان بمكانه من شلف فانكفأ إلى تلمسان وابن علان في ركابه، فأسكنه هنالك ووفى له بشرطه إلى أن هلك والبقاء لله وحده.

الخبر عن حركة صاحب المغرب إلى تلمسان وأولية ذلك

لما خرج عبد الحق بن عثمان من أعياص الملك على السلطان أبي الربيع بفاس، وبايع له الحسن بن علي بن أبي الطلاق شيخ بني مرين بمداخلة الوزير رحو بن يعقوب كما قدمناه في أخبارهم.

وملكوا تازى، وزحف إليهم السلطان أبو الربيع فبعثوا وفدهم إلى السلطان أبو حمو صريخاً.

ثم أعجلهم أبو الربيع وأجهضهم على تازى، فلحقوا بالسلطان أبي حمو ودعوه إلى المظاهرة على المغرب ليكونوا رداء له دون قومهم.

وهلك السلطان أبو الربيع خلال ذلك واستقل بملك المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، فطالب السلطان أبا حمو بإسلام أولئك النازعين إليه، فأبى من إسلامهم وإخفار ذمته فيهم وأجازهم البحر إلى العدوة، فأغضى له السلطان أبو سعيد عنها، وعقد له السلم.

ثم استراب يعيش بن يعقوب بن عبد الحق بمكانه عند أخيه السلطان أبي سعيد لما سعى به عنده، فنزع عنه إلى تلمسان وأجاره السلطان أبو حمو على أخيه فأحفظه ذلك، ونهض إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعمائة وعقد لابنه الأمير أبي علي وبعثه في مقدمته، وسار هو في الساقة.

ودخل أعمال تلمسان على هذه التعبية فاكتسح بسائطها، ونازل وجدة فقاتلها وضيق عليها.

ثم تخطاها إلى تلمسان فنزل بساحتها وانحجز موسى بن عثمان من وراء أسوارها، وغلب على ضواحيها ورعاياها، وسار السلطان أبو سعيد في عساكره يتقرى شعارها وبلادها بالحطم والانتساف والعيث.

فلما أحيط به وثقلت وطأة السلطان عليه وحذر المغبة منهم ألطف الحيلة في خطاب الوزراء الذين كان يسرب أمواله فيهم ويخادعهم عن نصائح سلطانهم حتى اقتضى مراجعتهم في شأن جاره يعيش بن يعقوب وإدالته من أخته.

ثم بعث خطوطهم بذلك إلى السلطان أبي سعيد فامتلأ قلبه منها خشية ورهبة، واستراب بالخاصة والأولياء ونهض إلى المغرب على تعبيته.

ثم كان خروج ابنه عمر عليه بعد مرجعه، وشغلوا عن تلمسان وأهلها برهة من الدهر حتى تمّ أمر اللّه في ذلك عند وقته، واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن مبدأ حصار بجاية وشرح الداعية إليه

لما خرج السلطان أبو سعيد إلى المغرب وشغل عن تلمسان، فزغ أبو حمو لأهل القاصية من عمله.

وكان راشد بن محمد بن ثابت بن منديل قد جاء من بلاد زواوة أثناء هذه الغمرة، فاحتل بوطن شلف واجتمع إليه أوشاب قومه، وحين تجلت الغمرة عن السلطان أبي حمو نهض إليه بعد أن استعمل ابنه أبا تاشفين على تلمسان، وجمع له الجموع ففر أمامه ناجياً إلى مثوى اغترابه ببجاية.

وأقام بنو أبي سعيد بمعقلهم من جبال شلف على دعوته، فاحتل السلطان أبو حمو بوادي نهل فخيم به وجمع أهل أعماله لحصار بني أبي سعيد شيعة راشد بن محمد، واتخذ هنالك قصره المعروف باسمه.

وسرح العساكر لتدويخ القاصية ولحق به هنالك الحاجب ابن أبي حي مرجعه من الحج سنة إحدى عشرة وسبعماية، فأغراه بملك بجاية ورغبه فيه وكان له فيها طمع منذ رسالة السلطان أبي يحيى إليه.

وذلك أنه لما انتقض على أخيه خالد ودعى لنفسه بقسنطينة، ونهض إلى بجاية فانهزم عنها كما قدمناه في أخباره وأوفد على السلطان أبي حمو بعض رجال دولته مغرياً له بابن خلوف وبجاية ثم بعث إليه ابن خلوف أيضاً يسأله المظاهرة والمدد فأطمعه ذلك في ملك بجاية.

ولما هلك ابن خلوف كما قدمناه، لحق به كاتبه عبد اللّه بن هلال، فأغراه واستحثه، وعداه عن ذلك شأن الجزائر.

فلما استولى على الجزائر، بعث مسامحاً مولاه في عسكر مع ابن أبي حي، فبلغوا إلى جبل الزان وهلك ابن أبي حي ورجع مسامح.

ثم شغله عن شأنها زحف، وفرغ من أمر عدوه، ونزل بلد شلف كما ذكرنا آنفاً ولحق به عثمان بن سباع بن يحيى، عثمان بن سباع بن شبل أمير الدواودة، يستحثانه لملك الثغور الغربية من عمل الموحدين، فاهتز لذلك وجمع له الجموع، وعقد لمسعود ابن عمه أبي عامر برهوم على عسكر وأمره بحصار بجاية، وعقد لمحمد ابن عمه يوسف قائد مليانة على عسكر، ولمولاه مسامح على عسكر آخر، وسرحهم إلى بجاية وما وراءها لتدويخ البلاد.

وعقد لموسى بن علي الكردي على عسكر ضخم، وسرحه مع العرب من الدواودة وزغبة على طريق الصحراء.

وانطلقوا إلى وجههم ذلك، وفعلوا الأفاعيل كلٌّ فيما يليه وتوغلوا في البلاد الشرقية، حتى انتهوا إلى بلاد بونة ثم انقلبوا من هنالك ومروا في طريقهم بقسنطينة، ونازلوها أياماً وصعدوا جبل ابن ثابت المطل عليها فاستباحوه ثم مروا ببني باورار فاستباحوها وأضرموها، واكتسحوا سائر ما مروا عليه.

وحدثت بينهم المنافرة حسداً ومنافسة، فافترقوا ولحقوا بالسلطان وأقام مسعود بن برهوم محاصراً لبجاية وبنى حصناً بأصفوان لمقامته وكان يسرح الجيوش لقتالها فتجول في ساحتها، ثم تراجع إلى الحصن ولم يزل كذلك حتى بلغه خروج محمد بن يوسف فأجفل عنها على ما نذكره الآن فلم يرجعوا لحصارها إلا بعد مدة واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن خروج محمد بن يوسف ببلاد بني توجين وحروب السلطان معه

لما رجع محمد بن يوسف من قاصية المشرق كما قدمناه، وسابقه إلى السلطان موسى بن علي الكردي، وجوانحه تلتهب غيظاً وحقداً عليه وسعى به عند السلطان فعزله عن مليانة، فوجم لها وسأله زيارة ابنه الأمير أبي تاشفين بتلمسان، وهو ابن أخته فاذن له وأوعز إلى ابنه بالقبض عليه، فأبى عن ذلك، وأراد هو الرجوع إلى معسكر السلطان فخلى سبيله.

ولما وصل إليه تنكر له وحجبه، فاستراب وملأ قلبه الرعب، وفر من المعسكر ولحق بالمدية، ونزل على يوسف بن حسن بن عزيز عاملها للسلطان من بني توجين.

فيقال: إنه أوثقه اعتقالاً حتى غلبه قومه على بغيته من الخروج معه، لما كان السلطان أبو حمو يوسقهم به من نزعاته، فأخذ له البيعة على قومه ومن إليهم من العرب.

وزحفوا إلى السلطان بمعسكره من نهل، فلقيهم في عساكره، فكانت الدبرة على السلطان، ولحق بتلمسان وغلب محمد بن يوسف على بلاد بني توجين ومغراوة ونزل مليانة.

وخرج السلطان من تلمسان لأيام من دخولها، وقد جمع

الجموع وأزال العلل وأوعز إلى مسعود ابن عمه برهوم بمكانه من حصار بجاية بالوصول إليه بالعساكر، ليأخذ بحجزتهم من ورائهم، وخرج محمد بن يوسف من مليانة لاعتراضه، واستعمل على مليانة يوسف بن حسن بن عزيز، فلقيه ببلاد مليكش وانهزم محمد بن يوسف.

ولجأ إلى جبل موصاية وحاصره بها مسعود بن برهوم أياماً، ثم أفرج عنه ولحق بالسلطان فنازلوا جميعاً مليانة.

وافتتحها السلطان عنوة وجيء بيوسف بن حسن أسيراً من مكمنه ببعض المسارب فعفا عنه وأطلقه، ثم زحف إلى المدية فملكها وأخذ الرهن من أهل تلك النواحي، وقفل إلى تلمسان.

واستطال محمد بن يوسف على النواحي ففشت دعوته في تلك القاصية وخاطب مولانا السلطان أبا يحيى بالطاعة فبعث إليه بالهدية والآلة، وسوغه سهام يغمراسن بن زيان من إفريقية، ووعده بالمظاهرة وغلب ساق سائر بلاد بني توجين وبايع له بنو تيغرين أهل جبل وانشريش، فاستولى عليه.

ثم نهض السلطان إلى الشرق سنة سبع عشرة وسبعماية وملك المدية واستعمل عليها يوسف بن حسن لمدافعة محمد بن يوسف، واستبلغ في أخذ الرهن منه ومن أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب، حتى من قومه بني عبد الواد.

ورجع إلى تلمسان ونزلهم بالقصبة وهي الغور الفسيحة الخطة تماثل بعض الأمصار العظيمة، اتخذها للرهن وكان يبالغ في ذلك حتى كان يأخذ الرهن المتعددة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط.

وتجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور والمشيخة والسوقة فملأ تلك القصبة بأبنائهم وأخوانهم، وشحنها بالأمم تلو الأمم، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء.

واختط لهم المساجد فجمعوا بها لصلاة الجمعة، ونفقت بها الأسواق والصنائع وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكي في العصور عن سجن.

ولم يزل محمد بن يوسف بمكان خروجه من بلاد بني توجين إلى أن هلك السلطان، والبقاء لله.

الخبر عن مقتل السلطان أبي حمو وولاية ابنه أبي تاشفين من بعده

كان السلطان أبو حمو قد اصطفى مسعود ابن عمه برهوم وتبناه من بين عشيرته وأولي قرباه لمكان صرامته ودهائه، واختصاص أبيه برهوم المكنى أبا عامر بعثمان بن يغمراسن شقيقه من بين سائر الإخوة، فكان يؤثره على بنيه ويفاوضه في شؤونه، ويصله إلى خلواته.

وكان قد دفع إلى ابنه عبد الرحمن أبا تاشفين أتراباً له من المعلوجي يقومون بخدمته في مرباه ومنشأه، كان منهم: هلال المعروف بالقطلاني، ومسامح المسمى بالصغير، وفرج بن عبد الله وظافر ومهدي وعلي بن تكرارت وفرج الملقب شقورة، وكان الصقهم وأعلقهم بنفسه تلاد له منهم يسمى هلالاً، وكان أبو حمو كثيراً ما يقرعه ويوبخه إرهافاً في اكتساب الخلال، وربما يقذع في تقريعه لما كان عفا الله عنه فحاشاً فيحفظه لذلك.

وكان مع ذلك شديد السطوة متجاوزاً بالعقاب حدوده في الزجر والأدب، فكان أولئك المعلوجي تحت رهب منه، وكانوا يغرون لذلك مولاهم أبا تاشفين بأبيه، ويبعثون غيرته لما يذكرون له من اصطفائه ابن أبي عامر دونه.

وقارن ذلك أن مسعود بن أبي عامر أبلى في لقاء محمد ابن يوسف الخارج على أبي حمو البلاء الحسن عندما رجع من حصار بجاية، فاستحمد له السلطان ذلك، وعير ولده عبد الرحمن بمكان ابن عمه هذا من النجابة والصرامة يستجد له بذلك خلالاً ويغرية بالكمال.

وكان عمه أبو عامر إبراهيم بن يغمراسن مثرياً بما نال من جوائز الملوك في وفاداته، وما أقطع له أبوه وأخوه سائر أيامهما.

ولما هلك سنة ست وتسعين وستمائة استوصى أخاه عثمان بولده فضمهم، ووضع تراثهم بمودع ماله، حتى يؤنس مسعود منهم الرشد في أحوالهم، حتى إذا كانت غزاة ابنه أبي سرحان مسعود هذه، وعلا فيها ذكره وبعد صيته، رأى السلطان أبو حمو أن يدفع إليه تراث أبيه لاستجماع خلاله، فاحتمل إليه من المودع.

ونمي الخبر إلى ولده أبي تاشفين وباطنته السوء من المعلوجي، فحسبوه مال الدولة قد احتمل إليه لبعد عهدهم عما وقع في تراث أبي عامر أبيه، واتهموا السلطان بإيثاره بولاية العهد دون ابنه، فأغروا أبا تاشفين بالتوثب على الأمر وحملوه على الفتك بمشتويه مسعود بن أبي عامر، واعتقال السلطان أبي حمو ليتم له الاستبداد.

وتحينوا لذلك قايلة الهاجرة عند منصرف السلطان من مجلسه، وقد اجتمع إليه ببعض حجر القصر خاصة من البطانة وفيهم مسعود بن أبي عامر والوزراء من بني الملاح.

وكان بنو الملاح هؤلاء قد استخلصهم السلطان لحجابته سائر أيامه، وكان مسمى الحجابة عندهم قهرمانة الدار والنظر في الدخل والخرج، وهم أهل بيت من قرطبة كانوا يحترفون فيها بسكة الدنانير والدراهم، وربما دفعوا إلى النظر في ذلك ثقة بأماناتهم، ونزل أولهم بتلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى وزادوا إليها الفلاحة واتصلوا بخدمة عثمان بن يغمراسن وابنه، وكان لهم في دولة أبي حمو مزيد حظوة وعناية، فولى على حجابته منهم لأول دولته محمد بن ميمون بن الملاح ثم ابنه محمد الأشقر من بعده ثم ابنه إبراهيم بن محمد من بعدهما، واشترك معه من قرابته علي بن عبد الله بن الملاح، فكانا يتوليان مهمة بداره ويحضران خلوته مع خاصته، فحضروا يومئذ مع السلطان بعد انقضاء مجلسه كما قلناه، ومعه من القرابة مسعود القتيل وحماوش بن عبد الملك بن حنينة.

ومن الموالي معروف الكبير ابن أبي الفتوح بن عنتر من ولد نصر بن علي أمير بني يزناتن من توجين، وكان السلطان قد استوزره.

فلما علم أبو تاشفين باجتماعهم هجم ببطانته عليهم وغلبوا الحاجب على بابه حتى ولجوه متسايلين بعد أن استمسكوا من إغلاقه، حتى إذا توسطوا الدار اعتوروا السلطان بأسيافهم فقتلوه.

وخام أبو تاشفين عنها، فلم يعرجوا عليه ولاذ أبو سرحان منهم ببعض زوايا الدار، واستمكن من غلقها دونهم، فكسروا الباب وقتلوه، واستلحموا من كان هنالك من البطانة، فلم يفلت إلا الأقل وهلك الوزراء بنو الملاح واستبيحت منازلهم.

وطاف الهاتف بسكك المدينة بأن أبا سرحان غدر بالسلطان، وأن ابنه أبا تاشفين ثار منه، فلم يخف على الناس الشأن.

وكان موسى بن علي الكردي قائد العساكر قد سمع الصيحة فركب إلى القصر، فوجده مغلقاً دونه، فظن الظنون فخشي استيلاء مسعود على الأمر فبعث إلى العباس بن يغمراسن كبير القرابة، فأحضره عند باب القصر حتى إذا مر بهم الهاتف واستيقن مهلك أبي سرحان، رد العباس على عقبه إلى منزله.

ودخل إلى السلطان أبي تاشفين، وقد أدركه الدهش من الواقعة فثبته ونشطه لحقّه، وأجلسه بمجلس أبيه وتولى له عقد البيعة على قومه خاصة وعلى الناس عامة، وذلك آخر جمادى الأولى من تلك السنة.

وجهز السلطان إلى مدفنه بمقبرة سلفه من القصر القديم، وأصبح مثلاً في الآخرين والبقاء لله.

وأشخص السلطان لأول بيعته سائر القرابة الذين كانوا بتلمسان من ولد يغمراسن، وأجازهم إلى العدوة حذراً من مغبة ترشيحهم، وما يتوقع من الفتن على الدولة من قبلهم وقلد حجابته مولاه هلالاً فاضطلع بأعبائها، واستبد بالعقد والحل والإبرام والنقض صدراً من دولته، إلى أن نكبه حسبما نذكره.

وعقد ليحيى بن موسى السنوسي من صنائع دولتهم على شلف وسائر أعمال مغراوة، وعقد لمحمد بن سلامة بن علي على عمله من بلاد بني يدللتن من توجين، وعزل أخاه سعداً، فلحق بالمغرب.

وعقد لموسى بن علي الكردي على قاصية الشرق، وجعل له حصار بجاية، وأغرى دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض والبساتين، فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك وأربى عليه، فاحتفلت القصور والمصانع في الحسن ما شاءت، واتسعت أخباره على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض السلطان أبي تاشفين إلى محمد بن يوسف بجبل وانشريش واستيلائه عليه

كان محمد بن يوسف بعد مرجع السلطان أبي حمو كما ذكرناه قد تغلب على جبل وانشريش ونواحيه واجتمع إليه الفل من مغراوة فاستفحل أمره، واشتدت في تلك النواحي شوكته.

وأهم السلطان أبا تاشفين أمره فاعتزم على النهوض إليه، وجمع لذلك وأزاح العلل.

وخرج من تلمسان سنة تسع عشرة وسبعمائة واحتشد سائر القبائل من زناتة والعرب، وأناخ على وانشريش وقد اجتمع به توجين ومغراوة مع محمد بن يوسف.

وكان بنو تيغرين من بني توجين بطانة ابن عبد القوي يرجعون في رئاستهم إلى عمر بن عثمان بن عطية حسبما نذكره وكان قد استخلص سواه من بني توجين دونه فأسفه بذلك، وداخل السلطان أبا تاشفين وواعده أن ينحرف عنه، فاقتحم السلطان عليهم الجبل والحجروا جميعاً بحصن توكال، فخالفهم عمر بن عثمان في قومه إلى السلطان بعد أن حاصرهم ثمانياً، فتخرم الجمع واختل الأمر وانفض الناس فاقتحم الحصن، وتقبض على محمد بن يوسف وجيء به أسيراً إلى السلطان وهو

في موكبه فعدد عليه، ثم وخزه برمحه، وتناوله الموالي برماحهم فأقعصوه، وحمل رأسه على القناة إلى تلمسان، فنصب بشرفات البلد، وعقد لعمر بن عثمان على جبل وانشريش وعمّال بني عبد القوي، ولسعيد العربي من مواليه على عمل المدية.

وزحف إلى الشرق فأغار على أحياء رياح وهم بوادي الجنان حيث الثنية المفضية من بلاد حمزة إلى القبلة، وصبح أحياءهم فاكتسح أموالهم ومضى في وجهه إلى بجاية، فعرس بساحتها ثلاثاً وبها يومئذ الحاجب يعقوب بن عمر فامتنعت عليه، فظهر له وجه المعذرة لأوليائهم في استحصانها لهم.

وقفل إلى تلمسان إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن حصار بجاية والفتنة الطويلة مع الموحدين التي كان فيها حتفه وذهاب سلطانه وانقراض الأمر عن قومه برهة من الدهر

لما رجع السلطان أبو تاشفين من حصار بجاية سنة تسع عشرة وسبعمائة اعتمل في ترديد البعوث إلى قاصية الشرق، والإلحاح بالغزو على بلاد الموحدين، فأغزاها جيوشه سنة عشرين وسبعمائة فدوخوا ضواحي بجاية وقفلوا.

ثم غزاهم ثانية سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وعليهم موسى بن علي الكردي فانتهى إلى قسنطينة وحاصرها فامتنعت عليه فأفرج عنها، وابتنى حصن بكر لأول مضيق الوادي، وادي بجاية، وأنزل به العسكر لنظر يحيى بن موسى قائد شلف وقفل إلى تلمسان.

ثم نهض موسى بن علي ثالثة سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة فدوخ نواحي بجاية ونازلها أياماً وامتنعت عليه فأفرج عنها.

ووفد سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة على السلطان حمزة بن عمر بن أبي الليل كبير البدو بإفريقية صريخاً على صاحب إفريقية مولانا السلطان أبي يحيى، فبعث معه العساكر من زناتة وعامتهم من بني توجين وبني راشد، وأمَّر عليهم القواد وجعلهم لنظر قائده موسى بن علي الكردي، ففصلوا إلى إفريقية، وخرج السلطان للقائهم، فانهزموا بنواحي مرمجنّة، وتخطفتهم الأيدي فاستلحموا، وقتل مسامح مولاه، ورجع موسى بن علي بالفَلِّ، فاتهمه السلطان بالادهان وكان من نكبته ما نذكر في أخباره وسيّر العساكر سنة أربع وعشرين وسبعمائة فدوخت نواحي بجاية، ولقيه ابن سيد الناس فهزموه، ونجا إلى البلد.

ووفد على السلطان سنة خمس وعشرين وسبعمائة مشيخة سليم: حمزة بن عمر بن أبي الليل وطالب بن مهلهل، الفحلان المتزاحمان في رياسة الكعوب ومحمد بن مسكين من بني القوس كبراء حكيم، فاستحثوه للحركة واستصرخوه على إفريقية، وبعث معهم العساكر لنظر قائده موسى بن علي ونصب لهم إبراهيم بن أبي بكر الشهيد من أعياص الحفصيين.

وخرج مولانا السلطان أبو يحيى من تونس للقائهم وخشيهم على قسنطينة فسابقهم إليها، فأقام موسى بن علي بعساكره على قسنطينة، وتقدم إبراهيم بن أبي بكر الشهيد في أحياء سليم إلى تونس فملكها كما ذكرناه في أخبارهم.

وامتنعت قسنطينة على موسى بن علي فأخرج عنها لخمس عشرة ليلة من حصارها وعاد إلى تلمسان.

ثم أغزاه السلطان سنة ست وعشرين وسبعمائة في الجيوش وعهد إليه بتدويخ الضاحية ومحاصرة الثغور، فنازل قسنطينة وأفسد نواحيها. ثم رجع إلى بجاية فحاصرها، حتى اذا اعتزم على الإقلاع ورأى أن حصن بكر غير صالح لتجهيز الكتائب عليها لبعده، وارتاد للبناء عليها فيما هو أقرب منه، فاختط بمكان سوق الخميس على وادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب بها على بجاية، وجمع الأيدي على بنائها من الفعلة والعساكر، فتمت لأربعين يوماً وسموها تامزيزدكت باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجبل قبلة وجدة، وأنزل بها عسكراً تناهز ثلاثة آلاف، وأوعز السلطان إلى جميع عماله ببلاد المغرب الأوسط بنقل الحبوب إليها حيث كانت، والأدم وسائر المرافق حتى الملح، وأخذ الرهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جباياتهم فثقلت وطأتهم على بجاية واشتد حصارها وغلت أسعارها.

وبعث مولانا السلطان أبو يحيى جيوشه وقواده سنة سبع وعشرين وسبعمائة فسلكوا إلى بجاية على جبل بني عبد الجبار، وخرج بهم قائدها أبو عبد اللّه بن سيد الناس إلى ذلك الحصن.

وقد كان موسى بن علي عند بلوغ خبرهم إليه استنفر الجنود من ورائه، وبعث إلى القواد قبله بالبراز فالتقى الجمعان بناحية تامزيزدكت، فانكشف ابن سيد الناس ومات ظافر الكبير مقدم الموالي من المعلوجي بباب السلطان واستبيح معسكرهم.

ولما سخط السلطان قائده موسى بن علي ونكبه كما نذكره في أخباره أغزى يحيى بن موسى السنوسي في العساكر إلى إفريقية ومعه القواد، فعاثوا في نواحي قسنطينة وانتهوا إلى بلد بونة ورجعوا.

وفي سنة تسع وعشرين وسبعمائة بعدها وفد حمزة بن عمر على السلطان أبي تاشفين صريخاً، ووفد معه أو بعده عبد الحق بن عثمان، فحل الشول من بني مزين.

وكان قد نزل على مولانا السلطان أبي يحيى منذ سنين، فسخط بعض أحواله ولحق بتلمسان، فبعث السلطان معهم جميع قواده بجيوشه لنظر يحيى بن موسى.

ونصب لهم محمد بن أبي بكر بن أبي عمران من أعياص الحفصيين، ولقيهم مولانا السلطان أبو يحيى بالرياس من نواحي بلاد هوارة، وانخذل عنه أحياء العرب من أولاد مهلهل الذين كانوا معه، وانكشفت جموعه واستولوا على ظعائنه بما فيها من الحريم، وعلى ولديه أحمد وعمر، فبعثوا بهم إلى تلمسان، ولحق مولانا السلطان أبو يحيى بقسنطينة وقد أصابه بعض الجراحة في حومة الحرب، وسار يحيى بن موسى وابن أبي عمران إلى تونس، واستولوا عليها ورجع يحيى بن موسى عنهم بجموع زناتة لأربعين يوماً من دخولها، فقفل إلى تلمسان وبلغ الخبر إلى مولانا السلطان أبي يحيى بقفول زناتة عنهم، فنهض إلى تونس وأجهض عنها ابن أبي عمر بعد أن كان أوفد من بجاية على ملك الغرب ابنه أبا زكريا يحيى ومعه أبو محمد بن تافراكين من مشيخة الموحدين صريخاً على أبي تاشفين، فكان ذلك داعية إلى انتقاض ملكه كما نذكره بعد.

وداخل السلطان أبا تاشفين بعض أهل بجاية، ودلوه على عورتها، واستقدموه فنهض إليها ودخلها ونذر بذلك الحاجب ابن سيد الناس فسابقه إليها، ودخل يوم نزوله عليها، وقتل من اتهمه بالمداخلة فانحسم الداء.

وأقلع السلطان أبو تاشفين عنها، وولى عيسى بن مزروع من مشيخة بني عبد الواد على الجيش الذي بتامزيزدكت، وأوعز إليه ببناء حصن أقرب إلى بجاية من تامزيزدكت فبناه بالياقوتة من أعلى الوادي قبالة بجاية فأخذ بمخنقها واشتد الحصار إلى أن أخذ السلطان أبو الحسن بحجزتهم، فانجفلوا جميعاً إلى تلمسان، وتنفس مخنق الحصار عن بجاية.

ونهض مولانا السلطان أبو يحيى بجيوشه من تونس إلى تامزيزدكت سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فخربها في ساعة من نهار كأن لم تغن بالأمس، حسبما ذكرنا ذلك في أخباره.

والله تعالى أعلم.

الخبر عن معاودة الفتنة بين بني مرين وحصارهم تلمسان ومقتل السلطان أبي تاشفين بن أبي حمو

كان السلطان أبو تاشفين قد عقد السلم لأول دولته مع السلطان أبي سعيد ملك المغرب، فلما انتقض عليه ابنه عمر في سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة من بعد المهادنة الطويلة من لدن استبداده بسجلماسة، بعث ابنه القعقاع إلى أبي تاشفين في الأخذ بحجزة أبيه عنه، ونهض إلى مراكش فدخلها.

وزحف إليه السلطان أبو سعيد فبعث أبو تاشفين قائده موسى بن علي في العساكر إلى نواحي تازى، فاستباح عمل كارت، واكتسح زروعه وقفل.

واعتدها عليه السلطان أبو سعيد، وبعث أبو تاشفين وزيره داود بن علي بن مكن رسولاً إلى السلطان أبي علي بسجلماسة، فرجع عنه مغاضباً وجنح أبو تاشفين بعدها إلى التمسك بسلم السلطان أبي سعيد، فعقد لهم ذلك وأقاموا عليها مدة.

فلما وفد ابن مولانا السلطان أبي يحيى على السلطان أبي سعيد ملك المغرب، وانعقد الصهر بينهم كما ذكرناه في أخبارهم، وهلك السلطان أبو سعيد، نهض السلطان أبو الحسن إلى تلمسان بعد أن قدم رسله إلى السلطان أبي تاشفين في أن يقلع جيوشه عن حصار بجاية، ويتجافى للموحدين عن عمل تدلس فأبى وأساء الرد، وأسمع الرسل بمجلسه هجر القول.

وأفذع لهم الموالي في الشتم لمرسلهم بمسمع من أبي تاشفين، فأحفظ ذلك السلطان أبا الحسن ونهض في جيوشه سنة اثنتين وثلاثين إلى تلمسان فتخطاها إلى تاسالة وضرب لها معسكره، وأطال المقامة وبعث المدد إلى بجاية مع الحسن البطوي من صنائعه، وركبوا في أساطيله من سواحل وهران ووافاهم مولانا السلطان أبو يحيى ببجاية وقد جمع لحرب بني عبد الواد وهدم تامزيزدكت وجاء لموعد السلطان أبي الحسن معه أن يجتمعا بعساكرهما لحصار تلمسان، فنهض من بجاية إلى تامزيزدكت وأجفل منها عسكر بني عبد الواد وتركوها قواء.

ولحقت بها عساكر الموحدين، فعاثوا فيها تخريباً ونهباً وانطلقت الأيدي على الاكتساح بما كان فيها من الأقوات والأدم،

فنُسفت وأُلصقت جدرانها بالأرض وتنفس مخنق بجاية من الحصار، وانكمش بنو عبد الواد إلى ما وراء تخومهم.

وفي خلال ذلك انتقض أبو علي ابن السلطان أبي سعيد على أخيه، وصمد من مقره بسجلماسة إلى درعة، وفتك بالعامل وأقام فيها دعوته كما نذكر ذلك بعد.

وطار الخبر إلى السلطان أبي الحسن بمحله من تاسالة، فنكص راجعاً إلى المغرب لحسم دائه، وراجع السلطان أبو تاشفين عزه وانبسطت عساكره في ضواحي عمله، وكتب الكتائب وبعث بها مدداً للسلطان أبي علي.

ثم استنفر قبائل زناتة وزحف إلى تخوم المغرب سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ليأخذ بحجزة السلطان أبي الحسن على أخيه، وانتهى إلى ثغر تاوريرت ولقيه هنالك تاشفين ابن السلطان أبي الحسن في كتيبة جمرها أبوه معه هنالك لسد الثغور، ومعه منديل بن حمامة شيخ تيربيغين من بني مرين في قومه.

فلما برزوا إليه انكشف ورجع إلى تلمسان.

ولما تغلب السلطان أبو الحسن على أخيه وقتله سنة أربع وثلاثين وسبعمائة جمع لغزو تلمسان وحصارها ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وقد استنفذ وسعه في الاحتفال بذلك وأحاطت بها عساكره وضرب عليها سياج الأسوار وسرادقات الحفائر أطبقت عليهم، حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم.

وسرح كتائبه إلى القاصية من كل جهة، فتغلب على الضواحي وافتتح الأمصار جميعاً، وخرب وجدة كما يأتي ذكر ذلك كله.

وألح عليها بالقتال يغاديها ويراوحها، ونصب المجانيق وانحجز بها مع السلطان أبي تاشفين زعماء زناتة من بني توجين وبني عبد الواد وكان عليهم في بعض أيامها اليوم المشهور الذي استلحمت فيه أبطالهم وهلك أمراؤهم.

وذلك أن السلطان أبا الحسن كان يباكرهم في الأسحار فيطوف من وراء أسواره التي ضرب عليهم شرطاً يرتب فيه المقاتلة ويثقف الأطراف ويسد الفروج ويصلح الخلل، وأبو تاشفين يبث العيون في ارتصاد فرصة فيه، وأطاف في بعض الأيام منتبذاً عن الجملة فكمنوا له حتى إذا سلك ما بين الجبل والبلد انقضوا عليه يحسبونها فرصة قد وجدوها، وضايقوه حتى كاد سرعان الناس أن يصلوا إليه، وأحس أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووحداناً، وركب ابناه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك جناحا عسكره، وعقابا جحافله وتهاوت إليهم صقور بني مرين من كل جو، فانكشفت عساكر البلد ورجعوا القهقرى، ثم ولوا الأدبار منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد، واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه، فكان الهالك يومئذ بالردم أكثر من الهالك بالقتل.

وهلك من بني توجين يومئذ كبير الحشم وعامل جبل وانشريش، ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني يدللتن وصاحب قلعة تاوعزدوت وما إليها من عملهم، وهما ما هما في زناتة إلى أشباه لهما وأمثال استلحموا في هذه الوقائع فقص هذا اليوم جناح الدولة وحطم منها، واستمرت منازلة السلطان أبي الحسن إياها إلى آخر شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فاقتحمها يوم السابع والعشرين منه غلاباً.

ولجأ السلطان أبو تاشفين إلى باب قصره في لمة من أصحابه، ومعه ولدان عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي وعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من أعياص بني مرين، وهو الذي لحق بهم من تونس كما ذكرناه، وسيأتي ذكره وخبره.

ومعه يومئذ ابنا أخيه أبو رزين وأبو ثابت فمانعوا دون القصر مستميتين إلى أن استلحموا ورفعت رؤوسهم على عصي الرماح، فطيف بها، وغصت سكك البلد من خارجها وداخلها بالعساكر، وكظت أبوابها بالزحام، حتى لقد كب الناس على أذقانهم وتواقعوا فوطئوا بالحوافر وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المذهب ما بين السقف ومسلك الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهباً واكتساحاً، وخلص السلطان إلى المسجد الجامع، واستدعى رؤوس الفتيا والشورى أبا زيد عبد الرحمن وأبا موسى عيسى ابني الإمام، قدمهما من أعماله لمكان معتقده في أهل العلم، فحضروه ورفعا إليه أمر الناس وما نالهم من معرة ووعظاه فأناب ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك، فسكن الاضطراب وأقصر العيث وانتظم السلطان أبو الحسن أمصار المغرب الأوسط وعمله إلى سائر أعماله.

وتاخم الموحدين بثغوره وطمس رسم الملك لآل زيان ومعالمه، واستتبع زناتة عصباً تحت لوائه من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة وأقطعهم ببلاد المغرب أسهاماً أداهم بها من تراثهم بأعمال تلمسان، فانقرض ملك آل يغمراسن برهة من الدهر إلى أن أعاده منهم أعياص سموا إليه بعد حين عند نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان كما نذكره، فأومض بارقه، وهبت ريحه، والله يؤتي ملكه من يشاء.

الخبر عن رجال دولته وهم موسى بن علي ويحيى بن موسى ومولاه هلال وأوليتهم ومصائر أمورهم واختصاصهم بالذكر لما طار من شهرتهم وارتفع من صيتهم

فأما موسى بن علي الحاجب الهالك مع السلطان، فأصله من قبيلة الكرد من أعاجم المشرق، وقد أشرنا إلى الخلاف في نسبهم بين الأمم.

وذكر المسعودي منهم أصنافاً سماهم في كتابه من الشاهجان والبرسان والكيكان إلى آخرين منهم، وأن مواطنهم ببلاد أذربيجان والشام والموصل، وأن منهم نصارى على رأي اليعقوبية وخوارج على رأي البراءة من عثمان وعلي انتهى كلامه.

وكان منهم طوائف بجبل شهرزور من عراق العرب وعامتهم يتقلبون في الرحلة وينتجعون لسائمتهم مواقع الغيث، ويتخذون الخيام لسكناهم من اللبود، وجل مكاسبهم الشاء والبقر من الأنعام، وكانت لهم عزة وامتناع بالكثرة ورياسات ببغداد أيام تغلب الأعاجم على الدولة واستبدادهم بالرياسة.

ولما طمس ملك بني العباس وغلب التتر على بغداد سنة ست وخمسين وستمائة، وقتل ملكهم هلاون آخر خلفاء العباسيين، وهو المستعصم.

ثم ساروا في ممالك العراق وأعماله، فاستولوا عليها وعبر الكثير من الكرد نهر الفرات فراراً أمام التتر لما كانوا يدينون به من المجوسية وصاروا في إيالة الترك، فاستنكف أشرافهم وبيوتاتهم من المقام تحت سلطانهم.

وأجاز منهم إلى المغرب عشيرتان يعرفان ببني لوين وبين تابير فيمن إليهم من الأتباع ودخلوا المغرب لآخر دولة الموحدين ونزلوا على المرتضى بمراكش فأحسن تلقيهم وأكرم مثواهم، وأسنى لهم الجراية والأقطاع وأحلهم بالمحل الرفيع من الدولة.

ولما انتقض أمر الموحدين بحدثان وصولهم صاروا إلى ملكة بني مرين، ولحق بعضهم بيغمراسن بن زيان، ونزع إلى صاحب إفريقية يومئذ المستنصر بيت من بني تابير لا أعرفهم، كان منهم محمد بن عبد العزيز المعروف بالمزوار، صاحب مولانا السلطان أبي يحيى وآخرون غيره منهم وكان من أشهر من بقي في إيالة بني مرين منهم.

ثم من بني تابير علي بن حسن بن صاف وأخوه سلمان، ومن بني لوين خضر بن محمد، ثم بنو محمود، ثم بنو بوصة.

وكانت رياسة بني تابير لسلمان وعلي، ورياسة لوين لخضر بن محمد.

وكادت تكون الفتنة بينهم كما كانت في مواطنهم الأولى، فإذا تعدّوا للحرب توافت إليهم أشياعهم من تلمسان، وكان نصالهم بالسهام لما كانت القسي سلاحهم.

وكانت من أشهر الوقائع بينهم وقيعة بفاس سنة أربع وسبعين وستمائة، جمع لها خضر رئيس بني لوين وسليمان وعلي رئيسا بني تابير، واقتتلوا خارج باب الفتوح.

وتركهم يعقوب بن عبد الحق لشأنهم من الفتنة حياء منهم، فلم يعرض لهم.

وكان مهلك سلمان منهم بعد ذلك مرابطاً لثغر طريف عام تسعين وستمائة، وكان لعلي بن حسن ابنه موسى اصطفاه السلطان يوسف بن يعقوب، وكشف له الحجاب عن داره، وربي بين حرمه فتمكنت له دالة سخط بسببها بعض الأحوال مما لم يرضه، فذهب مغاضباً ودخل إلى تلمسان أيام كان يوسف بن يعقوب محاصراً لها، فتلقاه عثمان بن يغمراسن من التكرمة والترحيب بما يناسب محله من قومه ومنزلته من اصطناع السلطان.

وأشار يوسف بن يعقوب على أبيه باستمالته فلقياه في حومة القتال وحادثه واعتذر له بكرامة القوم إياه، فحضه على الوفاء لهم، ورجع إلى السلطان فخبره الخبر فلم ينكر عليه.

وأقام هو بتلمسان وهلك أبوه علي بالمغرب سنة سبع وسبعمائة.

ولما هلك عثمان بن يغمراسن زاده بنوه اصطناعاً ومداخلة، وخلطوه بأنفسهم وعقدوا له على العساكر لمحاربة أعدائهم.

وولوه الأعمال الجليلة والرتب الرفيعة من الوزارة والحجابة.

ولما هلك السلطان أبو حمو وقام بأمره ابنه أبو تاشفين، وكان هو الذي تولى له أخذ البيعة على الناس، وغص بمكانه مولاه هلال فلما استبد عليه وكان كثيراً ما ينافي موسى بن علي وينافسه، فخشي على نفسه، وأجمع على إجازة البحر للمرابطة بالأندلس، فبادره هلال وتقبض عليه وغربه إلى العدوة ونزل بغرناطة، وانتظم في الغزاة المجاهدين وأمسك عن جراية السلطان فلم يمد إليها يداً أيام مقامه، وكانت من أنزه ما جاء به وتحدث به

الناس فأغربوا، وأنفذت جوانح هلال لها حسداً وعداوة، فأغري سلطانه فخاطب ابن الأحمر في استقدامه، فأسلمه إليه.

واستعمله السلطان في حروبه وعلى قاصيته حتى كان من نهوضه بالعساكر إلى إفريقية للقاء مولانا السلطان أبي يحيى سنة سبع وعشرين وسبعمائة.

وكانت الدبرة عليه واستلحمت زناتة، ورجع في الفل فأغرى هلال السلطان وألقى في نفسه التهمة به.

ونمي ذلك إليه فلحق بالعرب الدواودة، وعقد مكانه على محاصرة بجاية ليحيى بن موسى صاحب شلف، ونزل هو على سليمان ويحيى ابني علي بن سباع بن يحيى من أمراء الدواودة المذكورين في أخبارهم فلقوه مبرة وتعظيماً، وأقام بين أحيائهم مدة، ثم استقدمه السلطان ورجعه إلى محله من مجلسه.

ثم تقبض عليه لأشهر، وأشخصه إلى الجزائر فاعتقله بها وضيق عليه محبسه ذهاباً مع أغراض منافسة هلال، حتى إذا أسخط هلالاً استدعاه من محبسه أضيق ما كان، فانطلق إليه.

فلما تقبض على هلال قلد موسى بن علي حجابته، فلم يزل مقيماً لرسمها إلى يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان، فهلك مع أبي تاشفين وبنيه في ساحة قصرهم كما قلناه وانقضى أمره والبقاء لله.

وانتظم بنوه بعد مهلكه في جملة السلطان أبي الحسن وكان كبيرهم سعيد قد خلص من بين القتلى في تلك الملحمة بباب القصر بعد هَدْءٍ من الليل مثخناً بالجراح، وكانت حياته بعدها تعد من الغرائب، ودخل في عفو السلطان إلى أن عادت دولة بني عبد الواد، فكان له في سوقها نفاق كما نذكره والله غالب على أمره.

وأما يحيى بن موسى فأصله من بني سنوس إحدى بطون كومية، ولهم ولاء في بني كمين بالاصطناع والتربية.

ولما فصل بنو كمين إلى المغرب قعدوا عنهم واتصلوا ببني يغمراسن واصطنعوهم، ونشأ يحيى بن موسى في خدمة عثمان وبنيه واصطناعهم.

ولما كان الحصار ولاه أبو حمو مهمة من الطواف بالليل على الحرس بمقاعدهم من الأسوار، وقسم القوت على المقاتلة بالمقدار، وضبط الأبواب والتقدم في حومة القتال، وكان له أعوان على ذلك من خدامه قد لزموا الكون معه في البكر والآصال والليل والنهار، وكان يحيى هذا منهم فعرفوا له خدمته وذهبوا إلى اصطناعه وكان أول ترشيحه ترديد أبي يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم فيما يدور بينهم من المضاربة، فكان يجلي في ذلك ويوتي من عرض مرسله، ولما خرجوا من الحصار أوفوا به على رتب الاصطناع والتنويه.

ولما ملك أبو تاشفين استعمله بشلف مستبداً بها وأذن له في اتخاذ الآلة.

ثم لما عزل موسى بن علي عن حرب الموحدين وقاصية الشرق عزله به، وكانت المدية وتنس من عمله.

فلما نازل السلطان أبو الحسن تلمسان راسله بالطاعة والكون معه، فتقبله وجاءا به من مكان عمله، فقدم عليه بمخيمه على تلمسان، فاختصه بإقباله ورفع مجلسه من بساطه، ولم يزل عنده بتلك الحال إلى أن هلك بعد افتتاح تلمسان والله مصرف الأقدار.

وأما هلال فأصله من سبي النصارى القطلونيين أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن، وصار إلى السلطان أبي حمو فأعطاه إلى ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من الموالي المعلوجين، ونشأ معه ترباً، وكان مختصاً عنده بالمداخلة والدالة، وتولى كبر تلك الفعلة التي فعلوا بالسلطان أبي حمو.

ولما ولي بعده ابنه أبو تاشفين ولاه على حجابته، وكان مهيباً فظاً غليظاً، فقعد مقعد الفصل ببابه وأرهب للناس سطوته، وزحزح المرشحين عن رتب المماثلة إلى التعلق بأهدابه، فاستولى على أمر السلطان.

ثم حذر مغبة الملك وسوء العواقب، فاستأذن السلطان في الحج وركب إليه من هنين بعض السفن اشتراها بماله وشحنها بالعديد والعدة والأقوات والمقاتلة، وأقام كاتبه الحاج محمد بن حونتة بباب السلطان على رسم النيابة عنه، وأقلع سنة أربع وعشرين وسبعمائة فنزل بالإسكندرية وصحب الحاج من مصر في جملة الأمير عليهم، ولقي في طريقه سلطان السودان من مالي منسى موسى، واستحكمت بينهما المودة.

ثم رجع بعد قضاء فرضه إلى تلمسان فلم يجد مكانه من السلطان ولم يزل بعد ذلك يتنكر له وهو يسايسه بالمداراة والاستجداء إلى أن سخطه، فتقبض عليه سنة تسع وعشرين وسبعمائة وأودعه سجنه، فلم يزل معتقلاً إلى أن هلك من وجع أصابه قبيل فتح تلمسان، ومهلك السلطان بأيام، فكان آية عجباء في تقارب مهلكهما واقتران سعادتهما ونحوسهما.

وقد كان السلطان أبو الحسن يتبع الموالي الذين شهدوا مقتل السلطان أبي حمو، وأفلت هلال هذا من عقابه بموته والله بالغ حكمه.

الخبر عن انتزاء عثمان بن جرار على ملك تلمسان بعد نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان وعود الملك بذلك لبني زيان

كان بنو جرار هؤلاء من فصائل تيدوكسن بن طاع اللّه وهم بنو جرار بن يعلى بن تيدوكسن، وكان بنو محمد بن زكدان يغصون بهم مذ أول الأمر، حتى صار الملك إليهم واستبدوا به، فجروا على جميع الفصائل من عشائرهم ذيل الاحتقار.

ونشأ عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار من بينهم مرموقاً بعين التجلة والرياسة، وسعى عند السلطان أبي تاشفين بأن في نفسه تطاولاً للرئاسة فاعتقله مدة.

وفر من محبسه فلحق بملك المغرب السلطان أبي سعيد فآثر محله وأكرم نزله، واستقر بمثواه فنسك وزهد.

واستأذن السلطان عند تغلبه على تلمسان في الحج بالناس فأذن له.

وكان قائد الركب من المغرب إلى مكة سائر أيامه حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن على أعمال الموحدين، وحشد أهل المغرب من زناتة والعرب لدخول إفريقية اندرج عثمان هذا في جملته، واستأذنه قبيل القيروان في الرجوع إلى المغرب فأذن له ولحق بتلمسان فنزل على أميرها من ولده الأمير أبي عنان، كان قد عقد له على عملها، ورشحه لولاية العهد بولايتها، فازدلف إليه بما بثه من الخبر عن أحوال أبيه، فتلطف فيما أودع سمعه من تورط أبيه في مهالك إفريقية، وإياسه من خلاصه، ووعده بمصير الأمر إليه على ألسنة الحزى والكهان.

وكان يتظنن فيه أن لديه من ذلك علماً، وعلى تفيئة ذلك كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان.

وظهر مصداق ظنه وإصابة قياسه فأغراه بالتوثب على ملك أبيه بتلمسان، والبدار إلى فاس لغلب منصور ابن أخيه أبي مالك عليها، وكان استعمله جده أبو الحسن هنالك وأراه آية سلطانه وشواهد ملكه، وتحيل في إشاعة مهلك السلطان أبي الحسن وإلقائه على الألسنة حتى أوهم صدقه.

وتصدى الأمير أبو عنان للأمر، وتسايل إليه الفل من عساكر بني مرين، فاستلحق وبث العطاء وأعلن بالدعاء لنفسه في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمائة وعسكر خارج تلمسان للنهوض إلى المغرب ثم استعمل عثمان بن جرار على تلمسان وعملها وارتحل إلى المغرب كما نذكره في أخبارهم ولما فصل دعا عثمان لنفسه وانتزى على كرسيه واتخذ الآلة وأعاد من ملك بني عبد الواد رسماً لم يكن لآل جرار، واستبد أشهراً قلائل إلى أن خلص إليه من آل زيان من ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن من طمس معالمه، وخسف به وبداره، وأعاد أمر بني عبد الواد في نصابه حسبما نذكره إن شاء اللّه تعالى واللّه أعلم.

الخبر عن دولة أبي سعيد وأبي ثابت من آل يغمراسن وما كان فيها من الأحداث

كان الأمير أبو يحيى جدهما من أكبر ولد يغمراسن بن زيان، وكان ولي عهده بعد مهلك أخيه عمر الأكبر.

ولما تغلب يغمراسن على سجلماسة سنة إحدى وستين وستمائة استعمله عليها، فأقام بها أحوالاً وولد له هناك ابنه عبد الرحمن.

ثم رجع إلى تلمسان فهلك بها ونشأ عبد الرحمن بسجلماسة، ولحق بتلمسان بعد أبيه، فأقام مع بني أبيه إلى أن غص السلطان بمكانه وغربه إلى الأندلس، فمكث بها حيناً، وهلك في مرابطته بثغر قرمونة في بعض أيام الجهاد.

وكان له بنون أربعة: يوسف وعثمان والزعيم وإبراهيم، فرجعوا إلى تلمسان وأوطنوها أعواماً حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن على ملكهم، وأضاف إلى دولته دولتهم نقلهم من تلمسان إلى المغرب في جملة أعياصهم.

ثم سألوا إذنه في المرابطة بثغور الأندلس التي في عمله، فأذن لهم وفرض له العطاء وأنزلهم بالجزيرة فكانت لهم في الجهاد مواقف مذكورة ومواطن معروفة.

ولما استنفر السلطان أبو الحسن زناتة لغزو إفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كانوا في جملته مع قومهم بني عبد الواد وفي رايتهم، ومكانهم معلوم بينهم.

فلما اضطرب أمر السلطان أبي الحسن وتألب عليه الكعوب من بني سليم أعراب إفريقية، وواضعوه الحرب بالقيروان، كان بنو عبد الواد أول النازعين عنه إليهم.

فلما كانت النكبة والحجز بالقيروان وانطلقت أيدي الأعراب على الضواحي وانتقض المغرب من سائر أعماله، أذنوا لبني عبد الواد في اللحاق بقطرهم ومكان عملهم، فمروا بتونس وأقاموا بها أياماً، وخلص الملأ منهم نجياً في شأن أمرهم ومن

يقدمون عليهم فأصفقوا بعد الشورى على عثمان بن عبد الرحمن واجتمعوا عليه لعهده بهم يومئذ، وقد خرجوا به إلى الصحراء وأجلسوه بباب مصلى العيد من تونس على درقة.

ثم ازدحموا عليه بحيث توارى شخصه عن الناس، يسلمون عليه بالإمارة ويعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة حتى استكملوا جميعاً ثم انطلقوا به إلى رحالهم.

واجتمع مغراوة أيضاً إلى أميرهم علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل الذي ذكرناه من قبل، وتعاهدوا على الصحابة إلى أعمالهم والمهادنة آخر الأيام واستئثار كلٌ بسلطانه وتراث سلفه، وارتحلوا على تفيئة ذلك جميعاً إلى المغرب.

وشنت البوادي عليهم الغارات في كل وجه، فلم يظفروا منهم بقلامة الظفر: مثل ونيفن ونونة وبرية وأهل جبل بني ثابت.

ولما مروا ببجاية وكان بها فل من مغراوة وتوجين، نزلوا بها منذ غلبوا على أعمالهم، وصاروا في جند السلطان فارتحلوا معهم.

واعترضهم بجبل الزاب برابرة زواوة، فأوقعوا بهم وظهر من نجدتهم وبلائهم في الحروب ما هو معروف لأوليهم.

ثم لحقوا بشلف فتلقتهم قبائل مغراوة، وبايعوا سلطانهم علي بن راشد فاستوسق ملكه.

وانصرف بنو عبد الواد والأميران أبو سعيد وأبو ثابت بعد أن أحكموا العهد وأبرموا الوثاق مع علي بن راشد وقومه.

وكان في طريقهم بالبطحاء أحياء سويد ومن معهم من أحلافهم قد نزلوا هنالك مع شيخهم ونزمار بن عريف، منهزمهم من تاسالة أمام جيوش السلطان أبي عنان فأجفلوا من هنالك، ونزل بنو عبد الواد مكانهم، وكان في جملتهم جماعة من بني جرار بن تيدوكسن كبيرهم عمران بن موسى، ففر الى ابن عمه عثمان بن يحيى بن جرار بتلمسان فعقد له على حرب أبي سعيد وأصحابه، فنزع الجند الذين خرجوا معه إلى السلطان أبي سعيد.

وانقلب هو إلى تلمسان والقوم في أثره، فأدرك بطريقه وقتل.

ومر السلطان إلى البلد فثارت العامة بعثمان بن جرار فاستأمن لنفسه من السلطان فأمنه ودخل إلى قصر الملك آخر جمادى الآخرة من سنة تسع وأربعين وسبعمائة فاقتعد أريكته وأصدر أوامره واستوزر واستكتب، وعقد لأخيه أبي ثابت الزعيم على ما وراء بابه من شؤون ملكهما، وعلى القبيل والحروب، واقتصر هو على ألقاب الملك وأسمائه ولزم الدعة.

وتقبض لأول دخوله على عثمان بن يحيى بن جرار فأودعه المطبق إلى أن مات في رمضان من سنته، ويقال: قتيلاً.

وكان من أول غزوات السلطان غزاته إلى كومية، وذلك أن كبيرهم إبراهيم بن عبد الملك كان شيخاً عليهم منذ حين من الدهر، وكان ينتسب في بني عابد، وهم قوم عبد المؤمن بن علي من بطون كومية.

فلما وقع هذا الهرج بتلمسان حسب أنه لا تتجلى غيابته وحدثته نفسه بالانتزاء فدعا لنفسه، وأضرم بلاد كومية وما إليها من السواحل ناراً وفتنة.

فجمع له السلطان أبو ثابت ونهض إلى كومية فاستباحهم قتلاً وسبياً واقتحم هنين، ثم ندرومة بعدها.

وتقبض على إبراهيم بن عبد الملك الخارج فجاء به معتقلاً إلى تلمسان وأودعه السجن، فلم يزل به إلى أن قتل بعد أشهر.

وكانت أمصار المغرب الأوسط وثغوره لم تزل على طاعة السلطان أبي الحسن والقيام بدعوته، وبها حاميته وعماله وأقربها إلى تلمسان مدينة وهران، كان بها القائد عبو بن سعيد بن أجانا من صنائع بني مرين، وقد ضبطها وثقفها وملأها أقواتاً ورجلاً وسلاحاً، وملأ مرساها أساطيل، فكان أول ما قدموه من أعمال النهوض إليه فنهض السلطان أبو ثابت بعد أن جمع قبائل زناتة والعرب ونزل على وهران وحاصرها أياماً.

وكان في قلوب بني راشد أحلافهم مرض فداخلوا قائد البلد في الانتقاض على السلطان أبي ثابت ووعدوه الوفاء بذلك عند المناجزة، فبرز وناجزهم الحرب فانهزم بنو راشد وجروا الهزيمة على من معهم وقتل محمد بن يوسف بن عنان بن فارس أخي يغمراسن بن زيان من أكابر القرابة وانتهب المعسكر ونجا السلطان أبو ثابت إلى تلمسان إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن لقاء أبي ثابت مع الناصر ابن السلطان أبي الحسن وفتح وهران بعدها

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان قد لحق بتونس، فأقام بها والعرب محاصرون له ينصبون الأعياص من الموحدين لطلب تونس واحداً بعد آخر كما ذكرناه في أخبارهم.

وبينما هو مؤمل الكرة ووصول المدد من المغرب الأقصى إذ بلغه الخبر بانتشار السلك أجمع، وبانتقاض ابنه وحافده، ثم استيلاء أبي عنان على المغرب كله، ورجوع بني عبد الواد ومغراوة

وتوجين إلى ملكهم بالمغرب الأوسط ووفد عليه يعقوب بن علي أمير الدواودة، فاتفق مع عريف بن يحيى، أمير سويد وكبير مجلس السلطان، على أن يغرياه ببعث ابنه الناصر إلى المغرب الأوسط للدعوة التي كانت قائمة بأمصاره في الجزائر ووهران وجبل وانشريش، وكان به نصر بن عمر بن عثمان بن عطية قائماً بدعوته، وأن يكون عريف بن نصر في جملة الناصر لمكانه من السلطان ومكان قومه من الولاية.

وكان ذلك من عريف تفادياً من المقام بتونس فأجاب إليه السلطان وبعثهم جميعاً، ولحق الناصر ببلاد حصين فأعطوه الطاعة وارتحلوا معه، ولقيه العطاف والديالم وسويد فاجتمعوا إليه وتألبوا معه، وارتحلوا يريدون منداس.

وبينما الأمير أبو ثابت يروم معارضة الغزو إلى وهران إذ فجاءه الخبر بذلك، فطير به إلى السلطان أبي عنان وجاء العسكر من بني مرين مدداً صحبة أبي زيان ابن أخيه أبي سعيد، كان مستنفراً بالمغرب منذ نهوضهم إلى القيروان وبعث عنه أبوه فجاء مع المدد من العساكر والمال، ونهض أبو ثابت من تلمسان أول المحرم سنة خمسين وسبعمائة وبعث إلى مغراوة بالخبر فقعدوا عن مناصرته، ولحق ببلاد العطاف فلقيه الناصر هنالك في جموعه بوادي ورك آخر شهر ربيع الأول، فانكشفت جموع العرب وانهزموا، ولحق الناصر بالزاب فنزل على ابن مزني ببسكرة إلى أن أصحبه من رجالات سليم من أوصله إلى أبيه بتونس.

ولحق عريف بن يحيى بالمغرب الأقصى، واحتل عند السلطان أبي عنان بمكانه من مجلسهم، فحصل على البغية ورجع العرب كلهم إلى طاعة أبي ثابت وخدمته، واستراب بصغير بن عامر بن إبراهيم فتقبض عليه وأشخصه معتقلاً مع البريد إلى تلمسان، فاعتقل بها إلى أن أطلق بعد حين.

وقفل أبو ثابت إلى تلمسان فتلوم بها أياماً، ثم نهض إلى وهران في جمادى من سنته، فحاصرها أياماً، ثم افتتحها عنوة وعفا عن علي بن جانا القائم بها بعد مهلك أخيه عبو وعلى من معه، وأطلق سبيلهم واستولى على ضواحي وهران وما إليها، ورجع إلى تلمسان وقد استحكمت العداوة بينه وبين مغراوة، وكان قد استجرها ما قدمناه من قعودهم عن نصره، فنهض إليهم في شوال من سنته والتقوا في عدوة وادي رهيو فاقتتلوا ملياً.

ثم انكشفت مغراوة ولحقوا بمعاقلهم واستولى أبو ثابت على معسكرهم وملك مازونة، وبعث ببيعتها إلى أخيه السلطان أبي سعيد.

وكان على إثر ذلك وصول السلطان أبي الحسن من تونس، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن وصول السلطان أبي الحسن من تونس ونزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من الحروب ولحاقه بعد الهزيمة بالمغرب

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان وحصار العرب إياه، قد طال مقامه بتونس واستدعاه أهل المغرب الأقصى وانتقض عليه أهل بلاد الجريد وبايعوا للفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى، فأجمع الرحلة إلى المغرب وركب السفن من تونس أيام الفطر من سنة خمسين وسبعمائة فعصفت به الريح وأدركه الغرق، فغرق أسطوله على سواحل بجاية ونجا بدمائه إلى بعض الجزر هنالك،، حتى لحقه أسطول من أساطيله، فنجا فيه إلى الجزائر وبها حمو بن يحيى بن العسري قائده وصنيعة أبيه، فنزل عليه.

وبادر إليه أهل ضاحيتها من مليكش والثعالبة، فاستخدمهم وبث فيهم العطاء.

واتصل خبره بونزمار بن عريف وهو في أحياء سويد، فوفد عليه في مشيخة من قومه، ووفد معه نصر بن عمر بن عثمان صاحب جبل وانشريش من بني تيغرين، وعدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي الثائر بنواحي المدية من ولد عبد القوي، فأعطوه الطاعة واستحثوه للخروج معهم، فردهم للحشد، فجمعوا من إليهم من قبائل العرب وزناتة.

وبينما الأمير أبو ثابت ببلاد مغراوة محاصراً لهم في معاقلهم إذ بلغه الخبر بذلك في ربيع سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فعقد السلم معهم ورجع إلى قتال هؤلاء، فأخذ على منداس وخرج إلى السرسو قبلة وانشريش.

وأجفل أمامه ونزمار وجموع العرب الذين معه، ولحق به هنالك مدد السلطان أبي عنان قائدهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي، فاتبع أبو ثابت آثار العرب وشردهم ولحق أحياء حصين بمعاقلهم من جبل تيطرى، ثم عطف على المدية ففتحها وعقد عليها لعمران بن موسى الجلولي من صنائعهم.

ثم نهض إلى حصين فافتتح عليهم الجبل فلاذوا بالطاعة وأعطوا أبناءهم رهناً عليها، فتجاوزها إلى وطن حمزة فدوخها،

واستخدم قبائلها من العرب والبربر، والسلطان أبـو الحسـن أثنـاء ذلك مقيم بالجزائر.

ثم قفل أبو ثابت إلى تلمسان وقد كان استراب بيحيـى بـن رحو وعسكره من بني مرين.

وأنهم داخلوا السلطان أبا الحسن وبعـث فيـه إلى السـلطان أبي عنان، فأداله بعيسى بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب فبعثه قائداً على الحصة المرينية، فتقبض على يحيى بن رحو ولحقوا مع أبي ثابت بتلمسان.

ثـم أجـازوا إلى المغـرب واعـتز السـلطان أبـو الحسـن بعـد منصرفهم بابنه الناصر مع أوليائه من زناتة والعرب فاسـتولى علـى المدية وقتل عثمان بن عيسى الجلولي.

ثم تقدم إلى مليانة فملكها، وإلى تيمزوغت كذلك.

وجاء على أثره السلطان أبو الحسن أبوه، وقد اجتمعت إليه الجموع من زغبة وزناتة ومن عـرب إفريقيـة سـليم وريـاح: مثـل محمد بن طالب بن مهلهل، ورجال من عشيره، وعمر بن علي بن أحمد الدواودي، وأخيه أبي دينار، ورجالات من قومهما.

وزحف على هذه التعبية وابنه الناصر أمامه، فـأجفل علـي بن راشد وقومه مغراوة عن بلادهم إلى البطحـاء، وطـير الخـبر إلى أبي ثابت فوافاه في قومه وحشوده، وزحفوا جميعاً إلى السلطان أبي الحسن، فالتقى الجمعان بتنغمرين من شلف.

وصابروا ملياً، ثـم انكشـف السـلطان أبـو الحسـن وقومـه، وطعن الناصر بعض فرسان مغراوة فأثبته وهلك آخر يومه.

وقتل محمد بــن علـي العـزفي قـائد أسـاطيله وابـن البـواق والقبائلي كاتبه.

واستبيح معسكره وما فيه من متاع وحرم، وخلص بناته إلى وانشريش، وبعـث بهـن أبـو ثـابت إلى السـلطان أبي عنـان بعـد استيلائه على الجبل.

وخلص السلطان أبو الحســن إلى أحيـاء سـويد، بـالصحراء فنجا به ونزمار بن عريف إلى سجلماسـة كمـا نذكـره في أخبـاره، ودوخ أبو ثابت بلاد بـني توجـين وقفـل إلى تلمسـان واللّـه تعـالى أعلم.

الخبر عن حروبهم مع مغراوة واستيلاء أبي ثابت على بلادهم ثم على الجزائر ومقتل علي بن راشد بتنس على إثر ذلك

كان بين هذين الحيين من عبد الواد ومعراوة فتن قديمة سائر أيامهم، قد ذكرنا الكثير منها في أخبارهم.

وكان بنو عبد الواد قد غلبوهـم علـى أوطـانهم حـين قتـل راشد بن محمد في جلائه أمامهم بين زواوة.

ولما اجتمعوا بعد نكبة القيروان على أميرهم علي بن راشـد وجاؤوا من إفريقية إلى أوطانهم مع بني عبـد الـواد، ولم يطيقوهـم حينئذ أن يغلبوهـم رجعوا إلى توثيق العقد وتـأكيد العهـد فـأبرموه وأقاموا على الموادعة والتظاهر على عدوهم، وعروق الفتنة تنبض في كل منهم.

ولما جاء الناصر من إفريقية وزحف إليه أبو ثابت، قعد عنـه علي بن راشد وقومه، فأعتدهم عليها وأسرها في نفسه.

ثم اجتمعوا بعد ذلك للقاء السلطان أبي الحسن حتى انهزم ومضى إلى المغرب.

فلما رأى أبو ثابت أن قد كفى عدوه الأكبر وفرغ إلى عدوه الأصغر نظر في الانتقاض عليهم.

فبينمـا هـو يـروم أسـباب ذلـك إذ بلغـه الخـبر أن بعـض رجالات بني كمي من مغراوة جاؤوا إلى تلمسان ليغتـالوه فحمـي لها أنفه وأجمع لحربهم.

وخرج من تلمسان فاتحة اثنتين وخمسين وسبعمائة وبعث في أحياء زغبة من بـني عـامر وسـويد، فجـاؤوه بفارسـهم وراجلهـم وظعائنهم، وزحف إلى مغراوة فخاموا عن لقائه، وتحصنوا بـالجبل المطل على تنس، فحـاصرهم فيـه أيامـاً اتصلـت فيهمـا الحـروب وتعددت الوقائع.

ثم ارتحل عنهـم فجـال في نواحـي البلـد، ودوخ أقطارهـا، وأطاعته مليانة والمدية وبرشك وشرشال.

ثم تقدم بجموعه إلى الجزائر فأحاط بها وفيها فل بـني مريـن وعبد اللّه بن السلطان أبي الحسـن، تركـه هنـاك صغـيراً في كفالـة علي بن سعيد بن أجانا، فغلبهم على البلد وأشـخصهم في البحـر إلى المغرب، وأطاعته الثعالبة ومليكش وقبائل حصين.

وعقد على الجزائر لسعيد بـن موسى بـن علـي الكـردي، ورجـع إلى مغـراوة فحـاصرهم بمعقلهـم الأول بعـد أن انصرفـت

العرب إلى مشاتيها، فاشتد الحصار على مغراوة وأصاب مواشيهم العطش، فانحطت دفعة واحدة من على أعلى الجبل تطلب المورد فأصابهم الدهش.

ونجا ساعتئذ علي بن راشد إلى تنس، فأحاط به أبو ثابت أياماً.

ثم اقتحمها عليه غلاباً منتصف شعبان من سنته، فاستعجل المنية وتحامل على نفسه فذبح نفسه، وافترقت مغراوة من بعده وصارت أوزاعاً في القبائل وقفل أبو ثابت إلى أن كان من حركة السلطان على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي عنان على تلمسان وانقراض أمر بني عبد الواد ثانية

لما لحق السلطان أبو الحسن بالمغرب، وكان من شأنه مع ابنه أبي عنان إلى أن هلك بجبل هنتاتة على ما نذكره في أخبارهم.

فاستوسق ملك المغرب للسلطان أبي عنان وفرغ لعدوه وسما لاسترجاع الممالك التي انتزعها أبوه ممن توثب عليها، وكان قد بعث إليه علي بن راشد من مكان امتناعه بجبل تنس يسأل منه الشفاعة فرد أبو ثابت شفاعته وأحفظه ذلك وبلغه مقتل علي بن راشد فأجمع غزو تلمسان، ونذر بذلك أبو سعيد وأخوه، فخرج أبو ثابت لحشد القبائل من زناتة والعرب منتصف ذي القعدة، ونزل بوادي شلف.

واجتمع الناس عليه وواصلته هناك بيعة تدلس في ربيع من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.

غلب عليها الموحدين جابر الخراساني من صنائعهم، وبلغه من مكانه ذلك زحف السلطان أبي عنان فرجع إلى تلمسان، ثم خرج إلى المغرب.

وجاء على أثره أخوه السلطان أبو سعيد في العساكر من زناتة ومعه بنو عامر من زغبة والفل من سويد، إذ كان جمهورهم قد لحقوا بالمغرب لمكان عريف بن يحيى وابنه من ولاية بني مرين، فزحفوا على هذه التعبية وزحف السلطان أبو عنان في أمم المغرب من زناتة والعرب المعقل والمصامدة وسائر طبقات الجنود والحشد، وانتهوا جميعاً إلى أنكاد من بسيط وجدة، فكان اللقاء هنالك آخر ربيع الثاني من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وأجمع بنو عبد الواد على صدمة المعسكر وقت القائلة، وبعد ضرب الأبنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم، فأعجلوهم عن ترتيب المصاف.

وركب السلطان أبو عنان لتلافي الأمر، فاجتمع إليه أوشاب من الناس وانتقض سائر المعسكر ثم زحف إليهم فيمن حضره وصدقوهم القتال، فاختل مصافهم ومنحوا أكتافهم وخاضوا بحر الظلماء.

واتبع بنو مرين آثارهم وتقبض على أبي سعيد ليلتئذ فقيد أسيراً إلى السلطان، فأحضره بمشهد الملأ ووبخه ثم تل على محبسه وقتل لتاسعة من ليالي اعتقاله.

وارتحل السلطان أبو عنان إلى تلمسان، ونجا الزعيم أبو ثابت بمن معه من فل بني عبد الواد ومن خلص إليه منهم ذاهباً إلى بجاية ليجد في إيالة الموحدين وليجة من عدوه، فبيّتْهُ زواوة في طريقه وأبعد عن صحبه وأرجل عن فرسه وذهب راجلاً عارياً ومعه رفقاء من قومه منهم أبو زيان محمد ابن أخيه السلطان أبي سعيد، وأبو حمو وموسى ابن أخيهم يوسف، ووزيرهم يحيى بن داود بن مكن وكان السلطان أبو عنان أوعز إلى صاحب بجاية يومئذ المولى أبي عبد اللّه حفيد مولانا السلطان أبي بكر بأن يأخذ عليهم الطرق، ويذكي في طلبهم العيون، فعثر عليهم بساحة البلد وتقبض على الأمير أبي ثابت الزعيم وابن أخيه محمد بن أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود وأدخلوا إلى بجاية.

ثم خرج صاحبها الأمير أبو عبد اللّه إلى لقاء السلطان أبي عنان، واقتادهم في قبضة أسره فلقيه بمعسكره من ظاهر المدية، فأكرم وفادته وشكر صنيعه، وانكفأ راجعاً إلى تلمسان فدخلها في يوم مشهود.

وحمل يومئذ أبو ثابت ووزيره يحيى على جملين يتهاديان بهما بين سماطي ذلك المحفل، فكان شأنهما عجباً.

ثم سيقا ثاني يومهما إلى مصرعهما بصحراء البلد، فقتلا قعصاً بالرماح وانقرض ملك آل زيان، وذهب ما أعاده لهم بنو عبد الرحمن هؤلاء من الدولة بتلمسان إلى أن كانت لهم الكرة الثالثة على يد أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن المتمليها الى هذا العهد على ما سنذكره ونستوفي من أخباره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن دولة السلطان أبي حمو الأخير مديل الدولة بتلمسان في الكرة الثالثة لقومه وشرح ما كان فيها من الأحداث لهذا العهد

كان يوسف بن عبد الرحمن هذا في إيالة أخيه السلطان أبي سعيد بتلمسان هو وولده أبو حمو موسى وكان متكاسلا عن مراتب الظهور، متجافياً عن التهالك في طلب العز جانحاً إلى السكون ومذاهب أهل الخير، حتى إذا عصفت بدولتهم رياح بني مرين، وتغلب السلطان أبو عنان عليهم وابتزهم ما كان بأيدهم من الملك، وخلص ابنه أبو حمو موسى مع عمه أبي ثابت إلى الشرق، وقذفت النوى بيوسف مع أشراف قومه إلى المغرب فاستقر به.

ولما تقبض على أبي ثابت بوطن بجاية أغفل أمر أبي حمو من بينهم ونبت عنه العيون، فنجا إلى تونس ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين، فأكرم نزله وأحله بمكان أعياص الملوك من مجلس سلطانه ووفر جرايته، ونظم معه آخرين من فل قومه، وأوعز السلطان أبو عنان إليه بإنزعاجهم عن قرارهم في دولته، فحمي لها أنفه وأبى عن الهضيمة لسلطانه، فأغرى ذلك السلطان أبا عنان بمطالبته، وكانت حركته إلى بلاد إفريقية ومنابذة العرب من رياح وسليم لعهده ونقضهم لطاعته كما نستوفي أخباره.

ولما كانت سنة تسع وخمسين وسبعمائة قبل مهلكه اجتمع أمراء الدواودة من رياح إلى الحاجب أبا محمد بن تافراكين، ورغبوه في لحاق أبي حمو موسى بن يوسف بالمغرب من غربته، وأنهم ركابه لذلك ليجلب على نواحي تلمسان، ويحصل للسلطان أبي عنان شغلاً عنهم وسالوه أن يجهز عليه ببعض آلة السلطان.

ووافق ذلك رغبة صغير بن عامر أمير زغبة في هذا الشأن، وكان يومئذ في أحياء يعقوب بن علي وجواره، فأصلح الموحدون شأنه بما قدروا عليه ودفعوه إلى مصاحبة صغير وقومه من بني عامر، وارتحل معهم من الدواودة، عثمان بن سباع ومن أحلافهم بني سعيد دعار بن عيسى بن رحاب وقومه ونهضوا بجموعهم يريدون تلمسان وأخذوا على القفر ولقيهم أثناء طريقهم الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان فقويت عزائمهم على ارتجاع ملكهم، ورجع عنهم صولة بن يعقوب.

واغذ السير إلى تلمسان وبها الكتائب المجمرة من بني مرين، واتصل خبر أبي حمو بالوزير الحسن من عمر القائم بالدولة من بعد مهلك السلطان أبي عنان، والمتغلب على ولده السعيد الخليفة من بعده، فجهز المدد إلى تلمسان من الحامية والأموال، ونهض أولياء الدولة من أولاد عريف بن يحيى أمراء البدو من العرب في قومهم من سويد ومن إليهم من العرب لمدافعة السلطان أبي حمو وأشياعه، فانفض جمعهم وغلبوا على تلك المواطن واحتل السلطان أبو حمو وجموعه بساحة تلمسان، وأناخوا ركائبهم عليها، ونازلوها ثلاثاً، ثم اقتحموها في صبيحة الرابعة، وخرج ابن السلطان أبي عنان الذي كان أميراً عليها في لمة من قومه، فنزل على صغير بن عامر أمير القوم، فأحسن تجلته وأصحبه من عشيرته إلى حضرة أبيه، ودخل السلطان أبو حمو إلى تلمسان يوم الأربعاء لثمان خلون من ربيع الأول سنة ستين وسبعمائة واحتل منها بقصر ملكه، واقتعد أريكته، وبويع بيعة الخلافة، ورجع إلى النظر في تمهيد جوانب ملكه وأخرج بني مرين عن أمصار مملكته. والله أعلم.

الخبر عن إجفال أبي حمو عن تلمسان أمام عساكر المغرب ثم عوده إليها

كان القائم بأمر المغرب من بعد السلطان أبي عنان وزيره الحسن بن عمر كافل ابنه السعيد الذي أخذ له البيعة على الناس، فاستبد عليه وملك أمره، وجرى على سياسة السلطان الهالك واقتفى أثره في الممالك الدانية والقاصية في الحماية والنظر لهم وعليهم.

ولما اتصل به خبر تلمسان وتغلب أبي حمو عليها قام في ركائبه وشاور الملأ في النهوض إليه، فأشاروا عليه بالقعود وتسريح الجنود والعساكر، فسرح لها ابن عمه مسعود بن رحو بن علي بن عيسى بن ماساي من بني فردود وحكمه في اختيار الرجال واستجادة السلاح وبذل الأموال واتخاذ الآلة، فزحف إلى تلمسان واتصل الخبر بالسلطان أبي حمو وأشياعه من بني عامر، فأفرج عنها ولحق بالصحراء.

ودخل الوزير مسعود بن رحو تلمسان وخالفه السلطان أبو حمو إلى المغرب، فنزل ببسيط أنكاد.

وسرح إليهم الوزير مسعود بن رحو ابن عمه عامر بن عبو بن ماساي في عسكر من كتائبه ووجوه قومه، فأوقع بهم العرب

وأبو حمو ومن معهم واستباحوهم.

وطار الخبر إلى تلمسان واختلفت أهواء من كان بها من بني مرين، وبدا ما كان في قلوبهم من المرض لتغلب الحسن بن عمر على سلطانهم ودولتهم، فتحيزوا زرافات لمبايعة بعض الأعياص من آل عبد الحق.

وفطن الوزير مسعود بن رحو لما دبروه، وكان في قلبه مرض من ذلك فاغتنمها وبايع لمنصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق كبير الأعياص المنفرد بالتجلة.

وارتحل به وبقومه من بني مرين إلى المغرب، وتجافى عن تلمسان وشأنها واعترضهم عرب المعقل في طريقهم إلى المغرب، فأوقع بهم بنو مرين وصمموا لطيتهم، ورجع السلطان أبو حمو إلى تلمسان، واستقر بحضرته ودار ملكه، ولحق به عبد الله بن مسلم فاستوزره واستنام إليه فاشتد به أزره وغلب على دولته كما نذكره إلى أن هلك، والبقاء لله وحده.

الخبر عن مقدم عبد الله بن مسلم من مكان عمله بدرعة ونزوعه من إيالة بني مرين إلى أبي حمو وتقليده إياه الوزارة وذكر أوليته ومصائر أموره

كان عبد الله بن مسلم هذا من وجوه بني زردال من بني بادين إخوة بني عبد الواد وتوجين ومصاب، إلا أن بني زردال اندرجوا في بني عبد الواد لقلتهم واختلطوا بنسبهم، ونشأ عبد الله بن مسلم في كفالة موسى بن علي لعهد السلطان أبي تاشفين مشهوراً بالبسالة والإقدام، طار له ذكر وحسن بلاؤه في حصار تلمسان.

ولما تغلب السلطان أبو الحسن على بني عبد الواد وابتزهم وملكهم استخدمهم، وكان ينتقي أولي الشجاعة والإقدام منهم، فيرمي بهم ثغور المغرب، ولما اعترض بني عبد الواد ومر به عبد الله هذا ذكر له شأنه ونعت ببأسه، فبعثه إلى درعة واستوصى عاملها به، فكان له عنه غناء في مواقعه مع خوارج العرب بلاء حسن، جذب ذلك بضبعية، ورقي عند السلطان منزلته، وعرفه على قومه.

ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان ومرج أمر المغرب، وتوثب أبو عنان على الأمر، وبويع له بتلمسان واستجمع حافده منصور بن أبي مالك عبد الواحد لمدافعته، وحشد حامية الثغور للقائه، وانفضت جموعه بتازى وخلص إلى البلد الجديد ونازله، وكان عبد الله بن مسلم في جملته.

ولما نازله السلطان أبو عنان واتصلت الحرب بينهم أياماً، كان له فيها ذكر.

ولما رأى أنهم أحيط بهم، سبق الناس إلى السلطان أبي عنان فرعى سابقته وقلده عمل درعة، فاضطلع بها مدة خلافته وتأكدت له أيام ولايته مع عرب المعقل وصلة وعهد ضرب بهما في مؤاخاتهم بسهم.

وكان السلطان أبو عنان عند خروج أخيه أبي الفضل عليه لحقه بجبل ابن حميدي من معاقل درعة، أوعز إليه بأن يعمل الحيلة في القبض عليه، فداخل ابن حميدي ووعده وبذل له فأجاب وأسلمه وقاده عبد الله بن مسلم أسيراً إلى أخيه السلطان أبي عنان فقتله.

ولما استولى السلطان أبو سالم رفيق أبي الفضل في مثوى اغترابهما بالأندلس على بلاد المغرب من بعد مهلك السلطان أبي عنان، وما كان أثره من الخطوب، وذلك آخر سنة ستين وسبعمائة خشيه ابن مسلم على نفسه، ففارق ولايته ومكان عمله وداخل أولاد حسين أمراء المعقل في النجاة به إلى تلمسان فأجابوه، ولحق بالسلطان أبي حمو في ثروة من المال وعصبة من العشير وأولياء من العرب، فسر بمقدمه وقلده لحينه وزارته وشد به أواخي سلطانه، وفوض إليه تدبير ملكه، فاستقام أمره وجمع القلوب على طاعته وجأجأ بالمعقل من مواطنهم الغربية، فأقبلوا إليه وعكفوا على خدمته وأقطعهم بمواطن تلمسان وآخى بينهم وبين زغبة، فعلا كعبه واستفحل أمره، واستقامت رياسته إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان ورجوعه إلى المغرب بعد أن ولى عليها أبا زيان حافد السلطان أبي تاشفين وما آل أمره

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب ومحا أثره الخوارج على الدولة، سما إلى امتداد ظله إلى أقصى تخوم زناتة كما كان لأبيه وأخيه، وحركه إلى ذلك ما كان من فرار عبد الله

بن مسلم إلى تلمسان بجباية عمله، فأجمع أمره على النهوض إلى تلمسان وعسكر بظاهر فاس منتصف إحدى وستين وسبعمائة وبعث في الحشود فتوافت ببابه واكتملت.

ثم ارتحل إليها، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو ووزيره عبد اللّه بن مسلم فنادوا في العرب من زغبة والمعقل كافة فأجابوهم إلا شرذمة قليلة من الأحلاف، وخرجوا بهم إلى الصحراء ونازل حللهم بعسكره.

ولما دخل السلطان أبو سالم وبنو مرين تلمسان خالفوهم إلى المغرب فنازلوا وطاط وبلاد ملوية وكرسيف، وحطموا زروعها وانتسفوا أقواتها وخربوا عمرانها.

وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من صنيعهم، فأهمه أمر المغرب وأجلاب المفسدين عليه.

وكان في جملته من آل يغمراسن محمد بن عثمان بن السلطان أبي تاشفين ويكنى بأبي زيان، ويعرف بالقبى ومعناه العظيم الرأس فدفعه للأمر وأعطاه الآلة وكتب له كتيبة من توجين ومغراوة كانوا في جملته، ودفع إليه أعطياتهم وأنزله أبيه بتلمسان وانكفأ راجعاً إلى حضرته، فأجفلت العرب والسلطان أبو حمو أمامه وخالفوه إلى تلمسان فأجفل عنها أبو زيان وتحيز إلى بني مرين بأمصار الشرق من البطحاء ومليانة ووهران وأوليائهم من بني توجين وسويد من قبائل زغبة ودخل السلطان أبو حمو ووزيره عبد اللّه بن مسلم إلى تلمسان، وكان صغير بن عامر هلك في مذهبهم ذلك.

ثم خرجوا فيمن إليهم من كافة العرب المعقل وزغبة في أتباع أبي زيان ونازلوا بجبل وانشريش فيمن معه إلى أن غلبوه عليه وانفض جمعه، ولحق بمكانه من إيالة بني مرين بفاس.

ورجع السلطان أبو حمو إلى معاقل وطنه يستنقذها من ملكة بني مرين، فافتتح كثيرها وغلب على مليانة والبطحاء.

ثم نهض إلى وهران ونازلها أياماً واقتحمها غلاباً، واستلحم بها من بني مرين عدداً.

ثم غلب على المدية والجزائر، وأزعج عنها بني مرين فلحقوا بأوطانهم.

وبعث رسله إلى السلطان أبي سالم فعقد معه السلم ووضعوا أوزار الحرب.

ثم كان مهلك السلطان أبي سالم سنة اثنتين وستين وسبعمائة، وقام بالأمر من بعده عمر بن عبد اللّه بن علي من أبناء وزرائهم مبايعاً لولد السلطان أبي الحسن واحداً بعد آخر كما نذكره عند ذكر أخبارهم إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن قدوم أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد من المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله

كان أبو زيان هذا، وهو محمد بن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، لما تقبض عليه مع عمه أبي ثابت ووزيرهم يحيى بن داود ببجاية من أعمال الموحدين، وسيقوا إلى السلطان أبي عنان، فقتل أبا ثابت ووزيره واستبقى محمداً هذا وأودعه السجن سائر أيامه، حتى إذا هلك واستوسق أمر المغرب لأخيه أبي سالم من بعد خطوب وأهوال يأتي ذكرها، امتن عليه السلطان أبو سالم وأطلقه من الاعتقال ونظمه بمجلسه في مراتب الأعياص وأعده لمزاحمة ابن عمه.

وحدث بينه وبين السلطان أبي حمو سنة اثنتين وستين وسبعمائة بين يدي مهلكة نكراء بعد مرجعه من تلمسان، ومرجع أبي زيان حافد السلطان أبي تاشفين من بعده، فحقق السعي فيما نصبه له، وسما له في أبي زيان هذا أمل أن يستأثر بملك أبيه، ورأى أن يحسن الصنيع فيه فيكون فيئة له، فأعطاه الآلة ونصبه للملك، وبعثه إلى وطن تلمسان، وانتهى إلى تازى ولحقه الخبر هناك بمهلك السلطان أبي سالم.

ثم كانت فتن وأحداث نذكرها في محلها.

وأجلب عبد الحليم بن السلطان أبي علي بن السلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق على فاس، واجتمع إليه بنو مرين ونازلوا البلد الجديد.

ثم انفض جمعهم ولحق عبد الحليم بتازى كما نذكره في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

ورجا من السلطان أبي حمو المظاهرة على أمره فراسله في ذلك واشترط عليه كبح ابن عمه أبي زيان فاعتقله مرضاة له، ثم ارتحل إلى سجلماسة كما نذكره بعد ونازله في طريقه أولاد حسين من المعقل بحللهم وأحيائهم فاستغفل أبو زيان ذات يوم المتوكلين به، ووثب على فرس قائم حذاءه وركضه من معسكر عبد الحليم إلى حلة أولاد حسين مستجيراً بهم، فأجاروه.

ولحق ببني عامر على حين، وجفوة كانت بين السلطان أبي حمو وبين خالد بن عامر أميرهم ذهب لها مغاضباً، فأجلب به على

تلمسان.

وسرح إليهم السلطان أبو حمو عسكراً فشردهم عن تلمسان.

ثم بذل المال لخالد بن عامر على أن يقصيه إلى بلاد رياح، ففعل وأوصله إلى بلاد الدواودة فأقام فيهم.

ثم دعاه أبو الليل بن موسى شيخ بني يزيد وصاحب وطن حمزة وبني حسن وما إليه، ونصبه للأمر مشافهة وعناداً للسلطان أبي حمو.

ونهض إليه الوزير عبد اللّه بن مسلم في عساكر بني عبد الواد وحشود العرب وزناتة فأيقن أبو الليل بالغلب وبذل له الوزير المال وشرط له التجافي عن وطنه على أن يرجع عن طاعة أبي زيان ففعل، وانصرف إلى بجاية ونزل على المولى أبي إسحاق ابن مولانا السلطان أبي يحيى أكرم نزل، ثم وقعت المراسلة بينه وبين السلطان أبي حمو وتمت المهادنة وانعقد السلم على إقصاء أبي زيان عن بجاية المتاخمة لوطنه، فارتحل إلى حضرة تونس.

وتلقاه الحاجب أبو محمد بن تافراكين، قيوم دولة الحفصيين لذلك العهد من المبرة والترحيب وإسناء الجراية به، وترفيع المنزلة بما لم يعهد بمثله من الأعياص.

لم يزل حاله على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن قدوم أبي زيان حافد السلطان أبي تاشفين ثانية من المغرب إلى تلمسان لطلب ملكها وما كان من أحواله

كان العرب من سويد إحدى بطون زغبة فيئة لبني مرين وشيعة من عهد أميرهم عريف بن يحيى مع السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان، فكانوا عند بني عبد الواد في عداد عدوهم من بني مرين مع صاغية الدولة لبني عامر أقتالهم، فكانوا منابذين لبني عبد الواد آخر الأيام، وكان كبيرهم ونزمار بن عريف أوطن كرسيف في جوار بني مرين، مذ مهلك السلطان أبي عنان، وكان مرموقاً لديهم بعين التجلة يرجعون إلى رأيه ويستنيمون إلى قوله.

وأهمه شأن إخوانه في موطنهم ومع أقتالهم بني عامر، فاعتزم على نقض الدولة من قواعدها، وحمل صاحب المغرب عمر بن عبد اللّه على أن يسرح محمد بن عثمان حافد أبي تاشفين لمعاودة الطلب بملكه، ووافق ذلك نفرة استحكمت بين السلطان أبي حمو وأحمد بن رحو بن غانم كبير أولاد حسين من المعقل بعد أن كانوا فيئة له ولوزيره عبد اللّه بن مسلم، فاغتنمها عمر بن عبد اللّه وخرج أبو زيان محمد بن عثمان سنة خمس وستين وسبعمائة فنزل في حلل المعقل بملوية.

ثم نهضوا إلى وطن تلمسان وارتاب السلطان أبو حمو بخالد بن عامر أمير بني عامر فتقبض عليه وأودعه المطبق، ثم سرح وزيره عبد اللّه بن مسلم في عساكر بني عبد الواد والعرب، فأحسن دفاعهم وانفضت جموعهم ورحلهم إلى ناحية الشرق، وهو في اتباعهم إلى أن نزلوا بالمسيلة من وطن رياح، وصاروا في جوار الدواودة.

ثم نزل بالوزير عبد اللّه بن مسلم داء الطاعون الذي عاود أهل العمران عامئذ من بعد ما أهلكهم سنة سبع وأربعين وسبعمائة قبلها، فانكفأ به ولده وعشيره راجعين، وهلك في طريقه وأوصلوا شلوه إلى تلمسان فدفن بها.

وخرج السلطان أبو حمو لمدافعة عدوه وقد فتّ مهلك عبد اللّه في عضده.

ولما انتهى إلى البطحاء وعسكر بها، ناجزته جموع السلطان أبي زيان الحرب وأطلت راياته على المعسكر فداخلهم العرب وانفضوا، وأعجلهم الأمر عن أفنيتهم وأزودتهم، فتركوها وانفضوا وتسلل أبو حمو يبغي النجاة إلى تلمسان وأضرب أبو زيان فسطاطه بمكان معسكره، وسابقه أحمد بن رحو أمير المعقل إلى منجاته فلحقه بسيك وكر إليه السلطان أبو حمو فيمن معه من خاصته، وصدقوه الدفاع فكبا به فرسه وقطع رأسه.

ولحق السلطان أبو حمو بحضرته وارتحل أبو زيان والعرب في اتباعه إلى أن نازلوا بتلمسان أياماً.

وحدثت المنافسة بين المعقل وزغبة، وأسف زغبة استبداد المعقل عليهم وانفراد أولاد حسين برأي السلطان دونهم، فاغتنمها أبو حمو وأطلق أميرهم خالد بن عامر من محبسه، وأخذ عليه الموثق من اللّه ليخذلن الناس عنه ما استطاع، وليرجعن بقومه عن طاعة أبي زيان وليفرقن جموعه، فوفى له بذلك ونفس عليه المخنق وتفرقت أحزابهم ورجع أبو زيان إلى مكانه من إيالة بني مرين واستقام أمر السلطان أبي حمو وصلحت دولته بعد الالتياث، إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن حركة السلطان أبي حمو على ثغور المغرب

كان ونزمار من عريف متولي كبر هذه الفتن على أبي حمو، وبعث الأعياص عليه واحداً بعد واحد، بما كان بينهم من العداوة المتصلة كما قدمناه.

وكان منزله كرسيف من ثغور المغرب.

وكان جاره محمد بن زكدان كبير بني علي من بني ونكاسن الموطنين بجبل دبدو، وكانت أيديهما عليه واحدة فلما سكن غرب الثوار عنه وأزاحهم عن وطنه إلى المغرب، وانعقد سلمه معهم، رأى أن يغزو هذين الأميرين في ثغورهما، فاعتمل الحركة إلى المغرب فاتح سنة ست وستين وسبعمائة وانتهى إلى دبدو وكرسيف، وأجفل ونزمار وامتنع بمعاقل الجبال، فانتهب أبو حمو الزروع وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي.

وقصد محمد بن زكدان أيضاً في معقل دبدو فامتنع بحصنه الذي اتخذه هناك، وعاج عليه أبو حمو بركابه، وجاس خلال وطنه، وشمل بالتخريب والعيث نواحي بلده، وانكفأ راجعاً إلى حضرته، وقد عظمت في تخوم بني مرين وثغورهم نكايته، وثقلت عليهم وطأته، وانعقدت بينهما تعديل المهادنة والسلم.

انصرفت عزائمه إلى بلاد إفريقية، فكانت حركته إلى بجاية من العام المقبل ونكبته عليها كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن حركة السلطان أبي حمو إلى بجاية ونكبته عليها

كان صاحب بجاية المولى الأمير أبو عبد اللّه لما استولى عليها وعادت إليه العودة الثانية سنة خمس وستين وسبعمائة كما ذكرناه في أخباره، زحف بعدها إلى تدلس، فغلب عليها بني عبد الواد، وانزل بها عامله وحاميته.

ثم أظلم الجو بينه وبين صاحب قسنطينة السلطان أبي العباس بن عمه الأمير أبي عبد اللّه لما جرت بينهم المتاخمة في العمالات، فنشأت بينهما فتن وحروب شغل بها عن حماية تدلس، وألحت عليها عساكر بني عبد الواد بالحصار.

وأحيط بها فأوفد رسله على السلطان أبي حمو صاحب تلمسان في المهادنة على النزول له عن تدلس، فتسلمها أبو حمو وأنزل بها حاميته وعقد معه السلم وأصهر إليه في ابنته فأجابه، وزفها إليه فتلقاها قبيله ووزراؤة بآخر عملهم من حدود بجاية.

وفرغ صاحب بجاية لشأنه، وكان أثناء الفتنة معه قد بعث إلى تونس عن أبي زيان ابن عمه السلطان أبي سعيد لينزله بتدلس، ويشغل به السلطان أبا حمو عن فتنته.

وكان من خبر أبي زيان هذا أنه أقام بتونس بعد مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه إلى أن دس إليه مرضى القلوب من مشيخة بني عبد الواد بتلمسان بالأجلاب على السلطان أبي حمو.

ووعدوه عن أنفسهم الجنوح معه، فصغى إليها واعتدها وارتحل يريد تخوم تلمسان وعمل بجاية.

ومر بقسنطينة فتجافى عن الدخول إليها، وتنكر لصاحبها، وبلغ خبره السلطان أبا العباس صاحبها يومئذ فأجمع أمره في صده عن وجهه، وحبسه بقسنطينة واتصلت الفتنة بينه وبين ابن عمه صاحب بجاية، وكان شديد الوطأة على أهل بلده مرهف الحد لهم بالعقاب الشديد، حتى لقد ضرب أعناق خمسين منهم قبل أن يستكمل سنتين في ملكه، فاستحكمت النفرة وساءت الملكة، وأعضل الداء وفزع أهل البلد إلى مداخلة السلطان أبي العباس في استنقاذهم من ملكة العسف والهلاك، بما كان أتيح له من الظهور على أميرهم، فنهض إليها آخر سنة سبع وستين وسبعمائة وبرز الأمير أبو عبد اللّه للقائه بلبرو الجبل المطل على تاكررت وصبحه السلطان أبو العباس بمعسكره هنالك، فاستولى عليه وركض هو فرسه ناجياً بنفسه.

ومرت الجنود تعادي في أثره حتى أدركوه، فأحاطوا به وقتلوه قعصاً بالرماح عفا اللّه عنه.

وأجاز السلطان أبو العباس إلى البلد فدخلها منتصف يومه لعشرين من شعبان، ولاذ الناس به من دهش الواقعة وتمسكوا بدعوته، وأتوه طاعتهم، فانجلت الغيابة واستقام الأمر، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو فأظهر الامتعاض لمهلكه والقيام بثأره ويسر من ذلك حسواً في ارتغاء ونهض يجر الأمم إلى بجاية من العرب وزناتة والحشد حتى أناخ بها وملأ بخيامه الجهات بساحتها، وجنح السلطان إلى مبارزته، فتمسك به أهل البلد ولاذوا بمقامه فأسعفهم وطير البريد إلى قسنطينة، فأطلق أبا زيان من الاعتقال وسوغه الملابس والمراكب والآلة، وزحف به مولاه بشير في عسكر إلى أن نزل حذاء معسكر أبي حمو واضطربوا فحلتهم بسفح بني عبد الجبار وشنوا الغارات على معسكر أبي حمو صباح ومساء لما كان نمي إليهم من مرض قلوب جنده والعرب الذين معه.

وبدا للسلطان أبي حمو ما لم يحتسب من امتناعها، وكان قد تقدم إليه بعض سماسرة الفتن بوعد على لسان المشيخة من أهل البلد أطمعه فيها، ووثق بأن ذلك يغنيه عن الاعتداء، فاستبق إليها وأغفل الحزم فيما دونها، فلما امتنعت عليه أطبق الجو على معسكره وفسدت السابلة على العير للميرة، واستحكم الزبون في أحياء معسكره بظهور العدو المساهم في الملك.

وتبادرت رجالات العرب من سوء المغبة وسطوة السلطان، فتمشوا بينهم في الانفضاص وتحينوا لذلك وقت المناوشة، وكان السلطان لما كذبه وعد المشيخة أجمع قتالهم، وأمر بضرب الفساطيط مضايقة للأسوار، متسنمة وعراً من الجبل لم يرضه أهل الرأي.

وخرج رجال البلد على حين غفلة فجاولوا من كان بتلك الأخبية من المقاتلة فانهزموا أمامهم وتركوها بأيديهم فمزقوها بالسيوف.

وعاين العرب على البعد انتهاب الفساطيط فأجفلوا وانفض المعسكر بأجمعه.

وحمل السلطان أبو حمو أثقاله للرحلة ثم أجهدوه عنها فتركها، وانتهب مخلفه أجمع.

وتصايح الناس بهم من كل حدب، وضاقت المسالك من ورائهم وأمامهم، وكظت بزحامهم، وتواقعوا لجنوبهم، فهلك الكثير منهم وكانت من غرائب الواقعات، تحدث الناس بها زماناً وسيقت حظاياه إلى بجاية، واستأثر منهن الأمير أبو زيان بحظيته الشهيرة ابنة يحيى الزابي، ينسب إلى عبد المؤمن بن علي.

وكان أصهر فيها إلى أبيها أيام تقلبه في الاغتراب ببلاد الموحدين كما سبق، وكانت أعلق بقلبه من سواها، فخرجت في مغانم الأمير أبي زيان.

وتحرج عن مواقعتها حتى أوجده أهل الفتيا السبيل إلى ذلك بحيث زعموا وقع من السلطان أبي حمو في نسائه.

وخلص السلطان أبو حمو من هوة ذلك العطب بعد غصة الريق، ونجا إلى الجزائر لا يكاد يرد النفس من شناعة ذلك الهول.

ثم خرج منها ولحق بتلمسان، واقتعد سرير ملكه واشتدت شوكة أبي زيان ابن عمه، وتغلب على القاصية واجتمعت إليه العرب، وكثر تابعه.

وزاحم السلطان أبا حمو بتلك الناحية الشرقية سنين تباعاً نذكر الآن أخبارها، إن شاء الله تعالى.

الخبر عن خروج أبي زيان بالقاصية الشرقية من بلاد حصين وتغلبه على المدية والجزائر ومليانة وما كان من الحروب معه

لما انهزم السلطان أبو حمو بساحة بجاية عشيَّ يومه من أوائل ذي الحجة، خاتم سبع وستين وسبعمائة قرع الأمير أبو زيان طبوله واتبع أثره، وانتهى إلى بلاد حصين من زغبة.

وكانوا ستمين من الهضيمة والعسف إذا كانت الدول تجريهم مجرى الرعايا المعتدة في المغرم، وتعدل بهم عن سبيل إخوانهم من زغبة أمامهم ووراءهم فارتكبوا صعب الشقاق لمغبة العز وبايعوه على الموت الأحمر ووثقوا بمعتصمهم من جبل تيطري أن دهمتهم عسكر السلطان.

ثم أجلبوا على المدية وكان بها عسكر ضخم للسلطان أبي حمو لنظر وزرائه: عمران بن موسى بن يوسف، وموسى بن برغوث، ووادفل بن عبو بن حماد، ونازلوهم أياماً ثم غلبوهم على البلد.

وملكها الأمير أبو زيان ومنَّ على الوزراء ومشيخة بني عبد الواد وترك سبيلهم إلى سلطانهم، وسلك الثعالبة في سبيل حصين في التجافي عن ذل المغرم، فأعطوه يد الطاعة والانقياد للأمير أبي زيان، وكانت في نفوس أهل الجزائر نفرة من جور العمال عليهم، فاستمالهم بها سالم بن إبراهيم بن نصر أمير الثعالبة إلى طاعة الأمير أبي زيان ثم دعا أبو زيان أهل مليانة إلى مثلها فأجابوه.

واعتمل السلطان أبو حمو نظره في الحركة الحاسمة لرأيهم، فبعث في العرب وبذل المال، وأقطع البلاد على اشتطاط منهم في الطلب.

وتحرك إلى بلاد توجين ونزل قلعة ابن سلامة سنة ثمان وستين وسبعمائة يحاول طاعة أبي بكر بن عريف أمير سويد.

فلم يلبث أن انحرف أيضاً عنه خالد بن عامر ولحق بأبي بكر بن عريف، واجتمعا على الخلاف عليه ونقض طاعته.

وشنوا الغارة على معسكره، فاضطرب وأجفلوا وانتهبت محلاته وأثقاله، ورجع إلى تلمسان.

ثم نهض إلى مليانة فافتتحها، وبعث إلى رياح على حين طاعتهم إليه من يعقوب بن علي بن أحمد وعثمان بن يوسف بن سليمان بن علي أميري الدواودة لما كان وقع بينهما وبين السلطان مولانا أبي العباس من النفرة، فاستنهضوه للحركة على الأمير أبي

زيان وبعدها إلى بجاية.

وضمنوا له طاعة البدو من رياح، وبعثوا إليه ذمتهم على ذلك فردها وثوقاً بهم، ونهض من تلمسان وقد اجتمع إليه الكثير من عرب زغبة.

ولم يزل أولاد عريف بن يحيى وخالد بن عامر في أحيائهم منحرفين عنه بالصحراء.

وصمم إليهم فأجفلوا أمامه، وقصد المخالفين من حصين والأمير أبي زيان إلى معتصمهم بجبل تيطري.

وأغذ إليه السير يعقوب بن علي وعثمان بن يوسف بمن معهم من جموع رياح حتى نزلوا بالقطعة حذاهم.

وبادر أولاد عريف وخالد بن عمر إلى الدواودة ليشردوهم عن البلاد قبل أن تتصل يد السلطان بيدهم، فصبحوهم يوم الخميس أخريات ذي القعدة من سنة تسع وستين وسبعمائة ودارت بينهم حرب شديدة، وأجفل الدواودة أولاً، ثم كان الظهور لهم آخراً.

وقتل في المعركة من زغبة عدد، ويئسوا من صدهم عما جاؤوا إليه، فانعطفوا إلى حصين والأمير أبي زيان، وصعدوا إليهم بناجعتهم، وصاروا لهم مدداً على السلطان أبي حمو، وشنوا الغارة على معسكره، فصمدوا نحوه وصدقوه القتال، فاختل مصافه، وانهزمت عساكره، ونجا بنفسه إلى تلمسان على طريق الصحراء.

وأجفل الدواودة إلى وطنهم، وتحيز كافة العرب من زغبة إلى الأمير أبي زيان، واتبع آثار المنهزمين، ونزل بسيرات.

وخرج السلطان أبو حمو في قومه ومن بقي معه من بني عامر.

وتقدم خالد إلى مصادمته ففله السلطان وأجفل القوم من ورائه.

ثم تلطف في مراسلته وبذل له المال وأوسع له في الاشتراط فنزع إليه والتبس بخدمته، ورجع الأمير أبو زيان إلى أوليائه من حصين متمسكاً بولاية أولاد عريف.

ثم نزع محمد بن عريف إلى طاعة السلطان، وضمن له العدول بأخيه عن مذاهب الخلاف عليه، وطال سعيه في ذلك، فاتهمه السلطان وحمله خالد بن عامر عدوه على نكبته، فتقبض عليه وأودعه السجن.

واستحكمت نفرة أخيه أبي بكر، ونهض السلطان بقومه وكافة بني عامر إليه سنة سبعين وسبعمائة واستغلظ أمر أبي بكر لجموع الحارث من بني مالك ومن وراءهم من حصين، واعتصموا بالجبال من دراك وتيطرى، ونزل السلطان بجموعه لعود بلاد الديالم من الحرث، فانتسفها والتهمها وحطم زروعها ونهب مداثرها.

وامتنع عليه أبو بكر ومن معه من الحارث وحصين والأمير أبي زيان بينهم، فارتحل عنهم وعطف على بلاد أولاد عريف وقومهم من سويد فملأها عيثاً، وخرب قلعة ابن سلامة لما كانت أحسن أوطانهم.

ورجع إلى تلمسان وهو يرى أن كان قد شفا نفسه في أولاد عريف، وغلبهم على أوطانهم، ورجع عليهم منزلة عدوهم، فكان من لحاق أبي بكر بالمغرب وحركة بني مرين ما نذكره.

الخبر عن حركة السلطان عبد العزيز على تلمسان واستيلائه عليها ونكبة أبي حمو وبني عامر بالدوسن من بلاد الزاب وخروج أبي زيان من تيطري إلى أحياء رياح

لما تقبض أبو حمو على محمد بن عريف وفرق شمل قومه سويد، وعاث في بلادهم أجمع، رأى أخوه الأكبر أبو بكر علي الصريخ بملك المغرب.

فارتحل إليه بناجعته من بني مالك أجمع من أحياء سويد والديالم والعطاف حتى احتل بسائط ملوية من تخوم المغرب.

وسار إلى أخيه الأكبر ونزمار بمقره من قصر مرادة الذي اختصه بإرجاع وادي ملوية في ظل دولة بني مرين وتحت جوارهم لما كان ملاك أمرهم بيده، ومصادرهم عن آرائه خطة ورثها عن أبيه عريف بن يحيى مع السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن وابنه أبي عنان.

فتقبّل ملوك المغرب مذاهب سلفهم فيه، وتمنوا برأيه واستناموا إلى نصيحته.

فلما قدم عليه أخوه أبو بكر مستجيشاً بملك المغرب، وأخبره باعتقال أخيه الآخر محمد، قدح عزائمه، وأوفد أخاه أبا بكر ومشيخة قومهم من بني مالك على السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن منصرفه من افتتاح جبل هنتاتة، وظفره بعامر بن محمد بن علي النازع إلى الشقاق في معتصمه، فلقوه في طريقه

ولقاهم مبرة وتكرمة واستصرخوه لاستنقاذ أخيهم فأجاب صريخهم، ورغبوه في ملك تلمسان وما وراءها، فوافق صاغيته إلى ذلك بما كان في نفسه من الموجدة على السلطان أبي حمو بقبوله كل من ينزع إليه من عربان المعقل أشياع الدولة وبدوها، وما كان بعث إليه في ذلك، وصرف عن استماعه، فاعتزم على الحركة إلى تلمسان، وألقى زمامه بيد ونزمار وعسكر بساحة فاس.

وبعث الحاشدين في الثغور والنواحي من المغرب، فتوافت الحشود ببابه، وارتحل بعد قضاء النسك من الأضحى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة واتصل الخبر بالسلطان أبي حمو وكان معسكراً بالبطحاء، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان، فبعث في أوليائه من عبيد اللّه والأحلاف من عرب المعقل، فصموا عن إجابته ونزعوا إلى ملك المغرب، فأجمع رأيه على التحيز إلى بني عامر وأجفل غرة المحرم سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة واحتل السلطان عبد العزيز تلمسان في يوم عاشوراء بعدها وأشار ونزمار بن عريف بتسريح العساكر في اتباعه، فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن غازي بن الكاس حتى انتهى إلى البطحاء.

ثم لحق به هنالك ونزمار وقد حشد العرب كافة، وأغذ السير في اتباع السلطان أبي حمو وبني عامر، وكانوا قد أبعدوا المذهب، ونزلوا على الدواودة وسرحني إليهم يومئذ السلطان عبد العزيز يحملهم على طاعته، والعدول بهم عن صحابة بني عامر وسلطانهم.

وسرح فرج بن عيسى بن عريف إلى حصين لاقتضاء طاعتهم واستدعاء أبي زيان إلى حضرته، أو نبذهم عهده، وانتهيا جميعاً إلى أبي زيان ففارقه أولياؤه، ولحق بأولاد يحيى بن علي بن سباع من الدواودة، وانتهيت أنا إليهم فخفقت عليهم الشأن في جواره لما كانت مرضاة السلطان، وحذرتهم شأن أبي حمو وبني عامر، وأوفدت مشيختهم على ونزمار والوزير أبي بكر بن غازي فدلوهما على طريقه، وأغذوا السير وبيتوهم بمنزلهم على الدوس آخر عمل الزاب من جانب المغرب ففضوا جموعهم، وانتهبوا جميع معسكر السلطان أبي حمو بأموالهم وأمتعته وظهره.

ولحق فلهم بمصاب ورجعت العساكر من هنالك، فسلكت على قصور بني عامر بالصحراء قبلة جبل راشد التي منها ربا ولون سمعون وما إليهما فانتهبوها وخربوها وعاثوا فيها وانكفؤوا راجعين إلى تلمسان.

وفرق السلطان عماله في بلاد المغرب الأوسط من وهران ومليانة والجزائر والمدية وجبل وانشريش.

واستوثق به ملكه وانزاح عنه عدوه، ولم يبق به يومئذ إلا ضرمة من نار الفتنة ببلاد مغراوة بوعد من ولد علي بن راشد، سخط خالد في الديوان ولحق بجبل بني سعيد واعتصم به فجمر السلطان الكتائب لحصاره، وسرح وزيره عمر بن مسعود لذلك كما ذكرناه في أخبار مغراوة واحتقر شأنه.

وأوفدت أنا عليه يومئذ مشيخة الدواودة، فأوسعهم حباً وكرامة، وصدروا مملوءة حقائبهم خالصة قلوبهم منطلقة بالشكر ألسنتهم.

واستمر الحال إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان إلى تيطري وأجلاب أبي حمو على تلمسان ثم انهزامهما وتشريدهما على سائر النواحي

كان بنو عامر من زغبة شيعة خالصة لبني عبد الواد مذ أول أمرهم، وخلص سويد لبني مرين كما قدمناه، فكان من شأن عريف وبنيه عند السلطان أبي الحسن وبنيه ما هو معروف.

فلما استبيحت أحياؤهم بالدوسن مع أبي حمو، ذهبوا في القفر إشفاقاً ويأساً من قبول بني مرين عليهم لمكان ونزمار بن عريف وإخوانه من الدولة، فحدثوا على سلطانهم أبي حمو يتقلبون معه في القفار.

ثم نزع إليهم رحو بن منصور فيمن طاعه من قومه عبيد اللّه من المعقل.

وأجلبوا على وجدة فاضطرم للنفاق على الدولة ناراً، وخشي حصين مغبة أمرهم مع السلطان بما اتسموا به من الشقاق والعناد، فمدوا أيديهم إلى سلطانهم أبي زيان، وأوفد مشيختهم لاستدعائه من حلة أولاد يحيى بن علي فاحتل بينهم وأجلبوا له على المدية فملكوا نواحيها، وامتنع عليهم مصرها، واستمر الحال على ذلك واضطرب المغرب الأوسط على السلطان، وانتقضت به طاعته وسرح الجيوش والعساكر إلى قتال مغراوة وحصين، واجتمع مع أبو حمو وبنو عامر على قصده بتلمسان حتى إذا احتلوا قاباً منها دس السلطان عبد العزيز بعض شيعته إلى خالد بن عامر ورغبه في المال والحظ منه، وكان أبو حمو قد أسفه

بمخالطة بعض عشيره وتعقب رأيه برأي من لم يسلم إلى خطته ولم يرتض كفاءته فجنح إلى ملك المغرب، ونزع يده من عهد أبي حمو، وسرح السلطان عبد العزيز عسكره إلى خالد فاوقع بأبي حمو ومن كان معه من العرب عبيد اللّه وبني عامر، وانتهب معسكره وأمواله، واحتقبت حرمه وحظاياه إلى قصر السلطان، وتقبض على مولاه عطية، فمنّ عليه السلطان وأصاره في حاشيته، ونجا بنفسه إلى تيكورارين آخر بلاد الصحراء، فنزل بها منفرداً عن أهله وحاشيته ووزرائه، وأصفقت زناتة على خدمة ملك المغرب وافق هذا الفتح عند السلطان فتح بلاد مغراوة، وتغلب وزيره أبو بكر بن غازي على جبل بني بو سعيد، وتقبض على حمزة بن علي بن راشد في لمة من أصحابه، فضرب أعناقهم وبعث بها إلى سدة السلطان، وصلب أشلاءهم بساحة مليانة فتظاهر الفتح واكتمل الظهور.

وأوعز السلطان إلى وزيره أبي بكر بن غازي بالنهوض إلى حصين، فنهض إليهم وخاطبني وأنا مقيم ببسكرة في دعايته بأن أحتشد أولياءه من الدواودة ورياح، والتقى الوزير والعساكر على حصن تيطري، فنازلاه أشهراً.

ثم انفض جموعهم وفروا من حصنهم، وتمزقوا كل ممزق، وذهب أبو زيان على وجهه، ولحق ببلاد واركلي قبلة الزاب لبعدها عن منال الجيوش والعساكر، فأجاروه وأكرموا نزله.

وضرب الوزير على قبائل حصين والثعالبة المغارم الثقيلة، فأعطوها عن يد وبهضهم باقتضائها، ودوخ قاصية الثغور ورجع إلى تلمسان عالي الكعب عزيز السلطان ظاهر اليد.

وقعد له السلطان بمجلسه يوم وصوله قعوداً فخماً، وصل فيه إليه، وأوصل من صحبه من وفود العرب والقبائل فقسم فيهم بره وعنايته وقبوله كل على شاكلته.

واقتضى من أمراء العرب زغبة أبناءهم الأعزة رهناً على الطاعة، وسرحهم لغزو أبي حمو بمنتبذه من تيكورارين، فانطلقوا لذلك، وهلك السلطان عبد العزيز لليال قلائل من مقدم وزيره، وعساكره أواخر شهر ربيع الآخر من سنة أربع وسبعين وسبعمائة لمرض مزمن كان يتفادى بالكتمان والصبر من ظهوره.

وانكفأ بنو مرين راجعين إلى ممالكهم بالمغرب بعد أن بايعوا لولده دراجاً حماسياً، ولقبوه بالسعيد وجعلوا أمره إلى أبي بكر بن غازي، فملك أمرهم عليهم واستمر حاله كما نذكره في أخباره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن عودة السلطان أبي حمو الأخير إلى تلمسان الكرة الثالثة لبني عبد الواد في الملك

لما هلك السلطان عبد العزيز ورجع بنو مرين إلى المغرب، نصبوا من أعياص بني يغمراسن لمدافعة أبي حمو من بعدهم عن تلمسان، إبراهيم بن السلطان أبي تاشفين، كان ناشئاً بدولتهم منذ مهلك أبيه.

وتسلل من جملتهم عطية بن موسى مولى السلطان أبي حمو وخالفهم إلى البلد غداة رحيلهم، فقام بدعوة مولاه ودافع إبراهيم بن تاشفنن عن مرامه، وبلغ الخبر أولياء السلطان أبي حمو من عرب المعقل أولاد يغمور بن عبيد اللّه، فطيروا إليه النحيب على حين غلب عليه اليأس.

وأجمع الرحلة إلى بلاد السودان لما بلغه من اجتماع العرب للحركة عليه كما قلناه، فأغذ السير من مطرح اغترابه.

وسابقه ابنه ولي عهده في قومه عبد الرحمن أبو تاشفين مع ظهيرهم عبد اللّه بن صغير فدخلوا إلى البلد، وتلاهم السلطان لرابعة من دخولهم، وعاود سلطانه واقتعد أريكته، وكانت إحدى الغرائب وتقبض ساعتئذ على وزرائه، واتهمهم بمداخلة خالد بن عامر فما نقض من عهده وظاهر عليه عدوه، فأودعهم السجن وذبحهم ليومهم حنقاً عليهم.

واستحكمت لها نفرة خالد وعشيره، وخلصت ولاية أولاد عريف بن يحيى لمنافرة بني عامر إياه، وإقبال السلطان عبد العزيز عليه، ووثق بمكان ونزمار كبيرهم في تسكين عادية ملوك العرب عنه.

ورجع إلى تمهيد وطنه، وكان بنو مرين عند انفضاضهم إلى مغربهم قد نصبوا من أقيال مغراوة، ثم بني منديل علي بن هارون بن ثابت بن منديل ويعثوه إلى شلف مزاحمة للسلطان أبي حمو، ونقضاً لأطراف ملكه.

وأجلب أبو زيان ابن عمه على بلاد حصين، فكان من خبره معهما ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن رجوع أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد إلى بلاد حصين ثم خروجه عنها

كان الأمير أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد، لما هلك السلطان عبد العزيز وبلغه الخبر بمنجاته من واركلي، نهض منها إلى التلول، وأسف إلى الناجعة التي كان متنزياً بها مساهماً لأبي حمو فيها، فاقتطعها لدعوته كما كانت، ورجع أهلها إلى ما عرفوا من طاعته، فنهض السلطان أبو حمو لتمهيد نواحيه وتثقيف أطراف ملكه، ودفع الخوارج عن ممالكه، وظاهره على ذلك أمير البدو من زغبة أبو بكر ومحمد ابنا عريف بن يحيى، دس إليهما بذلك كبيرهما ونزمار، وأخذهما بمناصحة السلطان ومخالصته، فركبا من ذلك أوضح طريق وأسهل مركب.

ونبذ السلطان العهد إلى خالد وعشيره، فضاقت عليهم الأرض ولحقوا بالمغرب لسابقة نزوعهم إلى السلطان عبد العزيز.

وابتدأ السلطان بما يليه، فأزعج بمظاهرتهما علي بن هارون عن أرض شلف سنة خمس وسبعين وسبعمائة بعد حروب هلك في بعضها أخوه رحمون بن هارون.

وخلص إلى بجاية، فركب منها السفن إلى المغرب، ثم تخطى السلطان أبو حمو إلى ما وراء شلف.

وسفرمحمد بن عريف بينه وبين ابن عمه بعد أن نزع إليه الكثير من أوليائه حصين والثعالبة بما بذل لهم من المال، وبما سئموا من طول الفتنة، فشارطه على الخروج من وطنه إلى جيرانهم من رياح على أتاوة تحمل إليه، فقبل ووضع أوزار الحرب، وفارق مكان ثورته، وكان لمحمد بن عريف فيها أثر محمود، واستألف سالم بن إبراهيم كبير الثعالبة المتغلب على بسيط متيجة وبلد الجزائر، بعد أن كان خب في الفتنة، وأوضع فاقتضى له من السلطان عهده من الأمان والولاية على قومه وعمله وقلد السلطان ابنيه ثغور أعماله.

فأنزل ابنه بالجزائر لنظر سالم بن إبراهيم من تحت استبداده، وابنه أبا زيان بالمدية، وانقلب السلطان إلى حضرته بتلمسان بعد أن دوخ قاصيته، وثقف أطراف عمله، وأصلح قلوب أوليائه واستألف شيعة عدوه، فكان فتحاً لاكفاء له من بعد ما خلع من ربقة الملك، ونزع من لبوس السلطان فانتبذ من قومه وممالكه إلى قاصية الأرض، ونزل في جوار من لاينفذ أمره ولا يقوم بطاعته.

والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء.

الخبر عن أجلاب عبد الله بن صغير وانتقاض أبي بكر بن عريف وبيعتهما للأمير أبي زيان ورجوع أبي بكر إلى الطاعة

كان خالد بن عامر وابن أخيه عبد الله بن صغير وسائر إخوانهم من ولد عامر بن إبراهيم قد لحقوا بالمغرب صريخاً ببني مرين لما وقع بينهم وبين أبي حمو من الفعلة التي فعل خالد معه.

ويئس عبد الله بن صغير من صريخهم بما عقد ونزمار بن عريف من السلم بين صاحب المغرب وصاحب تلمسان، فخاض القفر بمن معه من قومه ولحق بوطن زغبة، وأجلب على جبل راشد وبه العمور أحلاف سويد من بني هلال فاعترضتهم سويد ودارت بينهم حرب شديدة، كان الظهور فيها لسويد عليهم.

وفي خلال ذلك فسد بين السلطان وبين أبي بكر بن عريف بسبب صاحب جبل وانشريش يوسف بن عامر بن عثمان، أراده السلطان على النزول عن عمله، فغضب له أبو بكر لقديم الصداقة بين سلفهما، ووصل يده بعبد الله بن صغير بعد الواقعة.

ودعاه إلى بيعة أبي زيان فأجابه وأوفدوا رجالاتهم عليه بمكانه من مجالات رياح، فوصل معهم ونصبوه للأمر، وتحيز محمد بن عريف إلى السلطان في جموع سويد.

ونهض السلطان من تلمسان فاتح سنة سبع وسبعين وسبعمائة فيمن معه من قبائل بني عبد الواد وعرب المعقل وزغبة، ودس إلى أولياء أبي زيان يرغبهم في المواعد وحكّم أبا بكر في الاشتراط عليه ففاء إلى الطاعة والمخالصه.

ورجع أبو زيان إلى مكانه من حلل الدواودة، وأغذ السلطان السير إلى حضرته فتملى أريكته، وحدث بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول خالد بن عامر من المغرب والحرب التي دارت بينه وبين سويد وأبي تاشفين هلك فيها عبد الله بن صغير وإخوانه

لما بلغ خالد بن عامر بمكانه من المغرب خبر عبد الله ابن

أخيه صغير، فقفل من المغرب يئساً من مظاهرة بني مرين فخفق السعي في صريخه بهم لما كانوا عليه من افتراق الأمر كما ذكرناه قبل.

ووصل معه ساسي بن سليم في قومه بني يعقوب، وتظاهر الحيان على العيث في بلاد السلطان أبي حمو.

واجتمع إليهم أبناء الفتنة من كل أوب، وأجلبوا على الأطراف وشنوا الغارة في البلاد، وجمع أولاد عريف لحربهم قومهم من سويد وأحلافهم من العطاف، وبعثوا بالصريخ إلى السلطان فسرح لحرب عدوه وعدوهم ابنه أبا تاشفين ولي عهده في قومه، وبرز لذلك في العساكر والجنود.

ولما انتهى إلى بلاد هوارة، واضطرب معسكره بها، أعجله صريخ أوليائه عن مناخ الركاب، فاستعجل الرحلة ولحق بأوليائه أولاد عريف ومن معهم من أشياع الدولة من زغبة.

وأغذ السير إلى وادي مينا بشرقي القلعة، فتراءى الجمعان وتواقفوا للقاء سائر يومهم واستضاؤوا بإضرام النيران مخافة البيات، وأصبحوا على التعبية.

وتمشت الرجالات في مواضعة الحرب، فأعجلهم مناشبة القوم، وتزاحفت الصفوف، وأعلم الكماة، وكشفت الحرب عن ساقها، وحمي الوطيس، وهبت الريح المبشرة، فخفقت لها رايات الأمير وهدرت طبوله، ودارت رحى الحرب وصمدت إليها كتائب العرب، فتردى فيها الأبطال منهم وانكشفوا، وأجلت المعركة عن عبد الله بن صغير صريعاً، فأمر أبو تاشفين فاحتز رأسه وطير به البريد إلى أبيه.

ثم عثرت المراكب بأخيه ملوك من صغير مع العباس ابن عمه موسى بن عامر، ومحمد بن زيان من وجوه عشيرتهم متواقعين لجنوبهم متضاجعين في مراقدهم كأنما اتعدوا للردى، فوطئتهم سنابك الخيل وغشيهم قتام المراكب.

وأطلقت العساكر أعنتها في اتباع القوم فاستاقوا نعمهم وأموالهم وكثرت يومئذ الأنفال، وغشيهم الليل فتستروا بجناحه.

ولحقهم فلهم بجبل راشد، وأطرب أبو تاشفين أباه بمنتهى ظهوره وملأه السرور بما صنع الله إليه على يده، وما كان له ولقومه من الأثر في مظاهرة أوليائه.

وطار له بها ذكر على الأيام، ورجع إلى أبيه بالحضرة مملوء الحقائب بالأنفال والجوانح بالسرور والأيام بالذكر عنه وعن قومه، ومضى خالد لوجهه في فل من قومه.

ولحق بجبل راشد إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء إليه، والله تعالى أعلم.

الخبر عن انتقاض سالم بن إبراهيم ومظاهرته خالد بن عامر على الخلاف وبيعتهما للأمير أبي زيان ثم ملك خالد ومراجعة سالم الطاعة وخروج أبي زيان إلى بلاد الجريد

كان سالم بن إبراهيم هذا كبير الثعالبة المتغلبين على فحص متيجة منذ انقراض مليكش، وكانت الرياسة فيهم لأهل بيته حسبما ذكرناه في أخبارهم عند ذكر المعقل.

ولما كانت فتنة أبي زيان بعد نكبة أبي حمو على بجاية، وهبت ريح العرب واستغلظ أمرهم، وكان سالم هذا أول من غمس يده في تلك الفتنة، ومكر بعلي بن غالب من بيوتات الجزائر، كان مغرباً عنها من لدن تغلب بني مرين على المغرب الأوسط أيام أبي عنان، ولحق بها عندما أظلم الجو بالفتنة، واستحكمت نفرة أهل الجزائر عن أبي حمو، فأظهر بها الاستبداد واجتمع إليه الأوشاب والطغام.

ونكره سالم أمير الضاحية لطمعه في الاستيلاء على الجزائر، فداخل في شأنه الملأ من أهل المدينة، وحذرهم منه أنه يروم الدعوة للسلطان أبي حمو، فاستشاطوا نفرة وثاروا به، حتى إذا رأى سالم أنه قد أحيط به تخلصه من أيديهم وأخرجه إلى حيه وأتلفه هنالك.

وحول دعوة الجزائر إلى الأمير أبي زيان تحت استبداده، حتى إذا كان من أمر بني مرين وحلول السلطان عبد العزيز بتلمسان ما قدمناه، أقام دعوتهم في الجزائر إلى حين مهلكه ورجوع أبي حمو إلى تلمسان.

وأقبل حينئذ جيش أبي زيان إلى تيطرى، فأقام سالم هذا دعوته في أحيائه وفي بلد الجزائر، خشية على نفسه من السلطان أبي حمو، لما كان يعتمد عليه في الإدالة من أمره بالجزائر بأمر ابن عمه.

ولما كان من خروج أبي زيان إلى أحياء رياح على يد محمد بن عريف ما قدمناه واقتضى سالم عهده من السلطان، وولى ابنه على الجزائر، أقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الأعمال واستضافة جبايتها لنفسه، وأوعز السلطان إلى عماله باستيفاء

جبايتها، فاستراب وبقي في أمره على المداهنة.

وحدثت إثر ذلك فتنة خالد بن عامر، فتربص دوائرها رجاء أن يكون الغلب له، فيشتغل السلطان عنه ثم بدا له ما لم يحتسب، وكان الغلب للسلطان ولأوليائه.

وكان قد حدثت بينه وبين محمد بن عريف عداوة فخشي أن يحمل السلطان على النهوض إليه، فبادر بالانتقاض على أبي حمو، واستقدم الأمير أبو زيان فقدم عليه وجاجأ بخالد بن عامر والمخالفين معه من العرب، فوصلوا إليه أول سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وعقد بينهم حلفاً مؤكداً، وأقام الدعوة للأمير أبي زيان بالجزائر.

ثم زحفوا إلى حصار مليانة وبها حامية السلطان فامتنعت عليهم، ورجعوا إلى الجزائر فهلك خالد بن عامر على فراشه ودفن بها، وولي أمر قومه من بعده المسعود ابن أخيه صغير، ونهض إليهم السلطان أبو حمو من تلمسان في قومه وأوليائه من العرب، فامتنعوا بجبال حصين وناوشتهم جيوش السلطان القتال بأسافل الجبل فغلبوهم عليها، وانفضت الناجعة عنهم من الديالم والعطاف وبني عامر، فلحقوا بالقفر.

ورأى سالم أصحابه أن قد أحيط بهم فلاذ بالطاعة، وحمل عيها أصحابه.

وعقد لهم السلطان من ذلك ما أرادوه على أن يفارقوا الأمير أبا زيان ففعلوا.

وارتحل عنهم فلحق ببلاد ريغ، ثم أجازها إلى نفطة من بلاد الجريد، ثم إلى توزر، فنزل على مقدمها يحيى بن يملول، فأكرم نزله وأوسع قراه إلى أن كان من أمره ما نذكر.

ورجع السلطان أبو حمو إلى تلمسان وفي نفسه من سالم حرارة لكثرة اضطرابه ومسارعته إلى الفتن، حتى توسط فصل الشتاء، وأبعدت العرب في مشاتيها، فنهض من تلمسان في جيوش زناتة، وأغذ السير فصبح فحص متيجة بالغارة الشعواء.

وأجفلت الثعالبة فلحقوا برؤوس الجبال وامتنع سالم بجبل بني خليل وبعث ابنه وأولياءه إلى الجزائر فامتنعوا بها وحاصروه أياماً ثم غلبوه على مكامنه فانتقل إلى بني ميسرة من جبال صنهاجة وخلف أهله ومتاعه، وصار الكثير من الثعالبة إلى الطاعة، وابتهلوا بأمان السلطان وعهده إلى فحص متيجة، وبعث هو أخاه ثابتاً إلى السلطان فاقتضى له العهد، ونزل من رأس ذلك الشاهق إلى ابنه أبي تاشفين فأوصله إلى السلطان إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان، فأخفر عهده وذمة ابنه، وتقبض عليه صبيحة ليلته.

وبعث قائده إلى الجزائر فاستولى عليها وأقام دعوته بها، وأوفد عليه مشيختها فتقبض عليهم، وعقد على الجزائر لوزيره موسى بن برغوث، ورجع إلى تلمسان فقضى بها عيد النحر، ثم أخرج سالم بن إبراهيم من محبسه إلى خارج البلاد، وقتل قعصاً بالرماح، ونصب شلوه وأصبح مثلاً للآخرين، والبقاء لله.

وعقد السلطان لابنه المنتصر على مليانة وأعمالها، ولابنه أبي زيان على وهران.

وراسله ابن يملول صاحب توزر، وصهره ابن مزني صاحب بسكرة وأولياؤهما من الكعوب والدواودة لما أهمهم أمر السلطان أبي العباس، وخافوه على أمصارهم فراسلوا أبا حمو يضمنون له مسالمة أبي زيان على أن يوفي له بما اشترط له من المال، وعلى أن يشب نار الفتنة من قبله على بلاد الموحدين ليشغل السلطان أبا العباس عنهم على حين عجز أبو حمو وضعف الدولة عنه فأوهمهم من نفسه القدرة وأطمعهم في ذلك.

وما زال يراجعهم ويراجعونه بالمقاربة والوعد إلى أن أحيط بابن يملول، واستولى السلطان على بلده فلحق ببسكرة وهلك بها لسنة من خروجه آخر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وبقي ابن مزني من بعده متعللاً بتلك الأماني الكاذبة إلى أن ظهر أمره وتبين عجزه، فراجع طاعة السلطان أبي العباس واستقام على الموادعة، ولحق الأمير أبو زيان بحضرة السلطان بتونس فنزل بها أكرم نزل مؤملاً منه المظاهرة على عدوه.

والحال بالمغرب الأوسط لهذا العهد على ما شرحناه مراراً من تغلب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار.

وتقلص ظل الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف البحر، وتضاؤل قدرتها على قدرتهم،، وإعطاء اليد في مغالبتهم ببذل رغائب الأموال وإقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار، والقنوع بالتضريب بينهم، والإغراء بعضهم ببعض والله ولي الأمور.

قسمة السلطان للأعمال بين ولده وما حدث بينهم من التنافس

كان لهذا السلطان أبي حمو جماعة من الولد كبيرهم أبو تاشفين عبد الرحمن.

ثم بعده أربعة لأم واحدة، كان تزوجها بميلة من أعمال قسنطينه أيام جولته في بلاد الموحدين، كبيرهم المنتصر ثم أبو زيان

محمد ثم عمر ويلقب عمير، ثم بعدهم ولد كثيرون أبناء علات.

وكان أبو تاشفين ولي عهده، وقد رفعه على الباقين وأشركه في أمره، وأوجب له الحق على وزراء دولته، فكان لذلك رديفه في ملكه ومظهر سلطانه.

وكان مع ذلك يتعاهد أولئك الإخوة الأشقاء بحنوه، ويقسم لهم من ترشيحه والنجي في خلوته، فيغص أبو تاشفين منهم، فلما استفحل أمر السلطان وانمحت من دولته آثار الخلاف، أعمل نظره في قسمة الأعمال بين ولده وترشيحهم للإمارة والبعد بهم عن أخيهم أبي تاشفين، أن يصيبهم بمكروه عند إيناس الغيرة منهم، فولى المنتصر كبيرهم على مليانة وأعمالها، وأنفذه إليها ومعه أخوه عمر الأصغر في كفالته، وولى أخاهما الأوسط أبا زيان على المدية وما إليها من بلاد حصين.

وولى ابنه يوسف ابن الزابية على تدلس وما إليها من آخر أعماله واستقر أمرهم على ذلك.

ثم كان من انتقاض سالم الثعالبي بالجزائر ما قدمناه، فنمي إلى السلطان أن ابنه أبا زيان داخله في الخلاف، فلما فرغ من أمر سالم كما مر وطرد أبا زيان ابن عمه عن أعماله إلى الجريد، أعمل نظره في نقل ابنه أبي زيان من المدية إلى ولاية وهران وأعمالها بعداً به عن العرب المجلبين في الفتن، وأنزل معه بعض وزرائه عيناً عليه، وأقام والياً عليها والله أعلم.

وثبة أبي تاشفين بيحيى بن خلدون كاتب أبيه

كان أول شيء حدث من منافسة أبي تاشفين لإخوته، أن السلطان لما ولى ابنه أبا زيان على وهران وأعمالها طلبه أبو تاشفين في ولايتها لنفسه فأسعفه ظاهراً، وعهد إلى كاتبه يحيى بن خلدون بمماطلته في كتابها حتى يرى المخلص من ذلك، فأقام الكاتب يطاوله.

وكان في الدولة لئيم من سفلة الشرط يدعى بموسى بن يخلف، صحبهم أيام الاغتراب بتيكورارين أيام ملك تلمسان عليهم عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن كما مر.

وخلاله وجه السلطان أبي حمو وابنه، فتقرب إليه بخدمته ورعاها له.

فلما رجع السلطان إلى تلمسان بعد مهلك عبد العزيز قدمه وأثره واستخلصه، فكان من أخلص بطانته وكان أبو تاشفين أيضاً استخلصه وجعله عيناً على أبيه.

وكان هو أيضاً يغص بابن خلدون كاتب السلطان، ويغار من تقدمه عنده ويغري به أبا تاشفين جهده، فدس إليه أثناء هذه المطاولة أن الكاتب ابن خلدون إنما مطله بالكتاب خدمة لأبي زيان أخيه وإيثاراً له عليه، فاستشاط لها أبو تاشفين، وترصده منصرفه من القصر إلى بيته بعد التراويح في إحدى ليالي رمضان سنة ثمانين وسبعمائة في رهط من الأوغاد، كان يطوف بهم في سكك المدينة، ويطرق بهم بيوت أهل السرو والحشمة في سبيل الفساد، فعرضوا له وطعنوه بالخناجر حتى سقط عن دابته ميتاً.

وغدا الخبر على السلطان صبيحة تلك الليلة فقام في ركائبه وبعث الطلب عن أولئك الرهط في جوانب المدينة.

ثم بلغه أن ابنه أبا تاشفين صاحب الفعلة، فأغضى وطوى عليها جوانحه، وأقطع أبا تاشفين مدينة وهران كما وعده.

وبعث ابنه أبا زيان على بلاد حصين والمدية كما كان.

ثم طلب أبو تاشفين من أبيه أن تكون الجزائر خالصة له فأقطعه إياها، وأنزل بها من إخوته يوسف ابن الزابية بما كان شيعة له من بينهم وفيئة في صحبته ومخالصته، فأقام والياً عليها، والله أعلم.

حركة السلطان أبي حمو على ثغور المغرب الأقصى ودخول ابنه أبي تاشفين إلى جهات مكناسة

كان السلطان أبو العباس ابن السلطان أبي سالم ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد نهض في عساكره سنة إحدى وثمانين وسبعمائة إلى مراكش، وبها الأمير عبد الرحمن بن بويفلوس ابن السلطان أبي علي مقاسمه في نسبه وملكه.

وكان قد سوغ له مراكش وأعمالها عندما أجلب معه على البلد الجديد سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما في أخبارهم واستقر الأمير عبد الرحمن بمراكش.

ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أحمد، ونهض إليه من فاس فحاصره أولى وثانية يفرج فيهما عنه.

ثم نهض إليه سنة أربع وثمانين وسبعمائة فحاصره وأخذ بمخنقه وأطال الحصار.

وكان يوسف بن علي بن غانم أمير المعقل من العرب

منتقضاً على السلطان وقد بعث السلطان العساكر إلى أحيائه، فهزموه وخربوا بيوته وبساتينه بسجلماسة ورجعوا وأقام هو بصحرائه منتقضاً.

فلما جهد الحصار الأمير عبد الرحمن بمراكش، بعث أبا العشائر ابن عمه منصور بن السلطان أبي علي إلى يوسف بن علي بن غانم، ليجلب به على فاس وبلاد المغرب، فيأخذ بحجزة السلطان وينفس من مخنقه، فسار يوسف بن علي مع أبي العشائر إلى السلطان أبي حمو بتلمسان يستنجده على هذا الغرض لقدرته عليه دون العرب، بما له من العساكر والأبهة، فأنجده على ذلك.

وقدم ابنه أبا تاشفين معهم، وخرج هو في أثرهم، فساروا إلى المغرب ونزل يوسف بن علي بقومه قريباً من مكناسة، ومعه الأميران أبو العشائر وأبو تاشفين.

وجاء أبو حمو من خلفهم فحاصر تازى سبعاً، وخرب قصر تازروت المعد هنالك لنزل السلطان.

وكان السلطان قد استخلف على فاس في مغيبه علي بن مهدي العسكري من عمال دولته ووجوه قبيلته، وكان هنالك عرب المنبات من المعقل قد دخلوا للميرة، فأهاب بهم ونزمار بن عريف ولي الدولة من عرب سويد، وهو نازل بقصر مرادة من أحواز تازى، فاستألفهم لمدافعة أبي حمو وابنه، وخرج بهم علي بن مهدي.

ثم وصل الخبر باستيلاء السلطان على مراكش منتصف خمس وثمانين وسبعمائة فأجفل أبو تاشفين وأبو العشائر ومن معهما من العرب، واتبعهم على بن مهدي بمن معه من المنبات.

وأجفل أبو حمو على تازى ومر بمرادة على قصر ونزمار فهدمه وعاث فيه، وانكفأ راجعاً إلى تلمسان.

وفارق ابنه أبو تاشفين أصحابه أبا العشائر والعرب ولحق بأبيه إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نهوض السلطان أبي العباس صاحب المغرب إلى تلمسان واستيلاؤه عليها واعتصام أبي حمو بحصن تاجحمومت

لما استولى السلطان أبو العباس على مراكش كما قلناه، رجع إلى دار ملكه بفاس وقد آسفه السلطان أبو حمو بأجلائه على وطنه هو وابنه أبو تاشفين مع العرب أيام مغيبه بمراكش، فأجمع الرحلة إلى تلمسان، وخرج في عساكره وراجع يوسف بن علي الطاعة ورحل معه في جموعه.

وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو فتردد بين الحصار بتلمسان ومفارقتها.

وكان بينه وبين ابن الأحمر صاحب الأندلس مواصلة، ولابن الأحمر دالة على السلطان أبي العباس كما مر.

فكان يخفض له الشأن في قصد تلمسان ويلبثه عنها فيعطيه المقادة في ذلك، فيعلل هو السلطان أبا حمو بأن السلطان أبا العباس لا يصل إليه.

ثم أجمع السلطان أبو العباس أمره، ونهض على حين غفلة مغذاً إلى تلمسان.

وتقدم الخبر إلى أبي حمو فأجمع مفارقة تلمسان بعد أن أظهر لأوليائه وأهل دولته أنه على الحصار.

ثم خرج حين غشيه الليل إلى معسكره بالصفيف، وافتقده أهل بلده من صبيحتهم، فتبادر أكثرهم إليه متعلقين بأذياله خوفاً من معرة العدو، ثم ارتحل يطوي المراحل إلى البطحاء، ودخل السلطان أبو العباس تلمسان واستولى عليها، وجهز العساكر لاتباع أبي حمو وقومه، فأجفل من البطحاء ولحق بتاجحموت فاعتصم بمعقلها ولحق به ابنه المنتصر من مليانة بما كان معه من الذخيرة، فاستمد بها وأقام هناك عازماً على الامتناع والله تعالى أعلم.

رجوع السلطان أبي العباس إلى المغرب واختلال دولته ورجوع السلطان أبي حمو إلى ملكه بتلمسان

كان السلطان أبو العباس لما استولى على مملكة تلمسان، طير كتبه ورسله بفتحها إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس، ويعتذر له من مخالفة رأيه في الحركة إليها.

وقد كان ابن الأحمر أسفه ذلك إلى ما انضم إليه من النزعات الملوكية التي يؤسف بها بعضهم بعضاً، وهو يطوي جوانحه عليها، واطلع على فساد طاعة السلطان أبي العباس في أهل دولته ونغل ضمائرهم له، فأزعج لوقته موسى ابن السلطان أبي عنان من أعياص ملكهم، كان عنده بالأندلس، وجهزه بما يحتاج إليه ويبعث في خدمته مسعود بن رحو بن ماساي إلى وزيرهم المشهور، وأركبه السفن إلى سبتة، فنزلوا بساحتها أول

ربيع سنة ست وثمانين وسبعمائة واستولوا عليها.

ثم تقدموا إلى فاس فنازلوا دار الملك أياماً وبها محمد بن عثمان القائم بدولة السلطان أبي العباس والمستبد عليه، واشتدوا في حصارها وتوافت إليهم الأمداد والحشود فداخله الخور وألقي بيده، ودخل السلطان موسى إلى دار الملك تاسع عشر ربيع الأول من السنة، وجلس على أريكته، وآتاه الناس طاعتهم.

وطار الخبر إلى السلطان أبي العباس بتلمسان وقد تجهز الأتباع أبي حمو، ونزل على مرحلة من تلمسان بعد أن أغراه ونزمار بن عريف أمير سويد بتخريب قصور الملك بتلمسان، وكانت لا يعبر عن حسنها، اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين، واستدعى لها الصناع والفعلة من الأندلس لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان، فبعث إليها السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله، فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاماً بزعمه من أبي حمو، وأخذاً بالثأر منه فيما اعتمده من تخريب دار الملك بتازى، وتخريب قصره هو بمرادة، فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر.

وبينما هو في ذلك وهو يروم السفر لاتباع أبي حمو، إذ جاءه الخبر بأن السلطان موسى ابن عمه السلطان أبي عنان قد استولى على دار ملكهم بفاس، واقتعد أريكتهم، فكر راجعاً إلى المغرب لا يلوي على شيء، وترك تلمسان لشأنها، وكان من أمره ما يأتي ذكره في أخباره، وطار الخبر إلى السلطان أبي حمو بمكانه من تاجحموت، فأغذ السير إلى تلمسان ودخلها، وعاد إلى ملكه بها، وتفجع لتلك القصور بما ذهب من رونق حسنها، وراجع دولة بني عبد الواد وسلطانهم بتلمسان والله سبحانه وتعالى أعلم.

تجدد المنافسة بين ولد السلطان أبي حمو ومجاهرة أبي تاشفين بذلك لهم وولايته

كان التنافس بين هؤلاء الأولاد خفياً على الناس بما كان السلطان أبوهم يدامل بينهم ويداري بعضهم عن بعض.

فلما خرجوا أمام بني مرين وعادوا إلى تلمسان صار تنافسهم إلى العداوة.

واتهم أبو تاشفين أباه بممالأة إخوته عليه، فشمر لعقوقه وعداوته وشعر السلطان بذلك فعمل الحركة إلى ناحية البطحاء موريا بإصلاح العرب، ومعتزماً على لقاء ابنه المنتصر بمليانة ليصل به جناحه، ويتخطى إلى الجزائر فيجعلها دار ملكه بعد أن استخلف بتلمسان ابنه أبا تاشفين وحالفه على المناصحة.

واطلع موسى بن يخلف على خبيئة السلطان بذلك، فدس بها إلى أبي تاشفين على عادته، فطار به الأسف كل مطار وأغذ السير من تلمسان فيمن معه من العسكر، وصبح أباه بأسافل البطحاء قبل أن يتصل بالمنتصر، وكشف له القناع عن النكير والتسخط على ما بلغه، فحلف له السلطان على ذلك وأرضاه بالرجوع معه إلى تلمسان فرجعا جميعاً.

خلع السلطان أبي حمو واستبداد ابنه أبي تاشفين بالملك واعتقاله إياه

ولما رجع السلطان من البطحاء وبطل ما كان يؤمله من الاتصال بالمنتصر، دس إليه مع خالصة من أهل دولته يعرف بعلي بن عبد الرحمن بن الكليب بأحمال من المال ويودعها عنده إلى أن يجد السبيل لحاجة نفسه.

وكتب له بولاية الجزائر ليقيم بها حتى يخلص إليه واطلع موسى بن يخلف على ذلك فاطلع أبا تاشفين على الخبر، فبعث في أثره من حاشيته من اغتال ابن الكليب في طريقه وجاء إليه بالمال والكتب، فاطلع منها على حقيقة أمرهم وأنهم متربصون به، فاستشاط وجاهر أباه وغدا عليه بالقصر، فوقفه على الكتاب وبالغ في عدله ووتحيز موسى بن يخلف إلى أبي تاشفين، وهجر باب السلطان وأغرى به ابنه فغدا على أبيه بالقصر بعد أيام وخلعه، وأسكنه بعض حجر القصر، ووكل به، واستخلص من كان معه من الأموال والذخيرة.

ثم بعث به إلى قصبة وهران فاعتقله بها واعتقل من حضر بتلمسان من إخوته، وذلك آخر ثمان وثمانين وسبعمائة وبلغ الخبر إلى المنتصر بمليانة وأبي زيان وعمير، فلحقوا بقبائل حصين واستذموا بهم فأذمُّوهم وأنزلوهم عندهم بجبل تيطري.

وجمع أبو تاشفين العساكر واستألف العرب من سويد، وبني عامر، وخرج في طلب المنتصر وإخوته، ومر بمليانة فملكها.

ثم تقدم إلى جبل تيطرى وأقام في حصارهم به، وهم ممتنعون عليه.

والله تعالى أعلم.

خروج السلطان أبي حمو من الاعتقال ثم القبض عليه وتغريبه في السفين إلى المشرق

لما طال مقام أبي تاشفين على تيطرى لحصار إخوته، ارتاب بأمر أبيه وطول مغيبه عنه وشاور أصحابه في شأنه، فأشاروا بقتله وأصفقوا على ذلك، فبعث أبو تاشفين ابنه أبا زيان في لمة من حاشيته فيهم: ابن الوزير عمران بن موسى، وعبد اللّه بن الخراساني، فقتلوا من كان معتقلاً بتلمسان من أبناء السلطان، وتقدموا إلى وهران وسمع أبو حمو بقدومهم، فأوجس الخيفة منهم واطلع من جدران القصبة ينادي بالصريخ في أهل البلد، فتبادروا إليه من كل جهة، وتدلى لهم بحبل وصله من عمامته كان متعمماً بها، فتناولوه حتى استقر بالأرض واجتمعوا إليه.

وكان الرهط الذين جاؤوا لقتلة بباب القصر، وقد أغلقه دونهم.

فلما سمعوا الهيعة واستيقنوا الأمر، طلبوا النجاة بدمائهم.

واجتمع على السلطان أهل البلد، وتولى كبر ذلك خطيبهم، وجددوا له البيعة وارتحل من حينه إلى تلمسان، فدخلها أوائل سنة تسع وثمانين وسبعمائة وهي يومئذ عورة بما كان بنو مرين هدموا أسوارها وأزالوا حصنها.

وبعث فيمن كان مخلفاً بأحياء بني عامر من أكابرهم ووجوههم، فقدموا عليه.

وطار الخبر إلى أبي تاشفين بمكانه من حصار تيطرى، فانكفأ راجعا إلى تلمسان فيمن معه من العساكر والعرب، وبادره قبل أن يستكمل أمره فأحيط به ونجا إلى مأذنة المسجد الجامع فاعتصم بها، ودخل أبو تاشفين القصر، وبعث في طلبه.

وأخبر بمكانه فجاء إليه بنفسه واستنزله من المأذنة، وأدركته الرقة، فجهش بالبكاء وقبل يده، وغدا به إلى القصر واعتقله ببعض الحجر هنالك، ورغب اليه أبوه في تسريحه إلى المشرق لقضاء فرضه، فشارط بعض تجار النصارى المترددين إلى تلمسان من القيطلان على حمله إلى الإسكندرية، وأركبه السفين معهم بأهله من فرضة وهران ذاهبا لطيبة موكلاً به، وأقبل أبو تاشفين على القيام بدولته، واللّه تعالى أعلم.

نزول السلطان أبو حمو ببجاية من السفين واستيلاؤه على تلمسان ولحاق أبي تاشفين بالمغرب

لما ركب السلطان أبو حمو السفين ذاهباً إلى الإسكندرية، وفارق أعمال تلمسان وحاذى بجاية، داخل صاحب السفينة في أن ينزله بجاية، فأسعفه بذلك.

فخرج من الطارمة التي كان بها معتقلاً، وصار الموكلون به في طاعته.

وبعث إلى محمد بن أبي مهدي قائم الأسطول ببجاية المستبد على أميرها من ولد السلطان أبي العباس بن أبي حفص.

وكان محمد بن وارث خالصة المستنصر بن أبي حمو من ناشئة دولتهم قد خلص إلى بجاية من تيطرى بعدما تنفس الحصار عنهم فبعثه ابن أبي مهدي إلى السلطان أبي حمو بالإجابة إلى ما سأل وأنزله بجاية آخر سنةتسع وثمانين وسبعمائة وأسكنه بستان الملك المسمى بالرفيع، وطير بالخبر إلى السلطان بتونس، فشكر له ما أتاه من ذلك، وأمره بالاستبلاغ في تكريمه، وأن يخرج عساكر بجاية في خدمة أبو حمو إلى حدود عمله متى احتاج إليها.

ثم خرج السلطان أبو حمو من بجاية ونزل متيجة واستنفر طوائف العرب من كل ناحية فاجتمعوا إليه ونهض يريد تلمسان واعصوصب قومه بنو عبد الواد على أبي تاشفين بما بذل فيهم من العطاء وقسم من الأموال، فنابذوا السلطان أبا حمو واستصعب عليه أمرهم وخرج إلى الصحراء وخلف ابنه أبا زيان في جبال شلف مقيماً لدعوته وبلغ إلى تامة من ناحية المغرب.

وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فبعث عسكراً إلى شلف مع ابنه أبي زيان ووزيره محمد بن عبد اللّه بن مسلم، فتواقعوا مع أبي زيان ابن السلطان أبي حمو فهزمهم وقتل أبو زيان بن أبي تاشفين ووزيره ابن مسلم، وجماعة من بني عبد الواد.

وكان أبو تاشفين لما بلغه وصول أبيه إلى تامة، سار إليه من تلمسان في جوعه، فأجفل أبو حمو إلى وادي صا واستجاس بالأحلاف من عرب المعقل هنالك، فجاؤوا لنصره، وعاود تامة فنزلها، وأقام أبو تاشفين قبالته وبلغه هنالك هزيمة ابنه ومقتله، فولى منهزماً إلى تلمسان وأبو حمو في اتباعه.

ثم سرح أبو تاشفين مولاه سعادة في طائفة من العسكر لمحاولة العرب في التخلي عن أبي حمو، فانتهز أبو حمو به الفرصة

وهزمه وقبض عليه، وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين بتلمسان، وكان يؤمل الحج عند سعادة فيما توجه فيه، فأخفق سعيه، وانفض عنه بنو عبد الواد والعرب الذين معه، وخرج هارباً من تلمسان مع أوليائه، من سويد إلى مشاتيهم بالصحراء.

ودخل السلطان أبو حمو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعمائة وقدم عليه أبناؤه فأقاموا معه بتلمسان، فطرق المنتصر ابنه المرض فهلك بها لأيام من دخوله تلمسان، واستقر الأمر على ذلك، والله أعلم.

نهوض أبي تاشفين بعساكر بني مرين ومقتل السلطان أبي حمو

لما خرج أبو تاشفين من تلمسان أمام أبيه، واتصل بأحياء سويد، أجمعوا رأيهم على الاستنجاد بصاحب المغرب، فوفد أبو تاشفين ومعه محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العباس صاحب فاس، وسلطان بني مرين صريخين على شأنهما، فقبل وفادتهما ووعدهما بالنصر من عدوهما.

وأقام أبو تاشفين عنده ينتظر إنجاز وعده، وكان بين أبي حمو وابن الأحمر صاحب الأندلس وشيجة ود وعقيدة وصلة، ولابن الأحمر دالة وتحكم في دولة أبي العباس صاحب المغرب بما سلف من مظاهرته على أمره منذ أول دولته، فبعث أبو حمو في الدفاع عنه بإجازة أبي تاشفين من المغرب إليه، فلم يجبه صاحب المغرب وفاء بذمته وعلله بالقعود عن نصره وألح عليه ابن الأحمر في ذلك، فتعلل بالمعاذير.

وكان أبو تاشفين قد عقد لأول قدومه مع وزير الدولة محمد بن يوسف بن علال حلفاً اعتقد الوفاء به، فكان هواه في إنجاده ونصره من عدوه، فلم يزل يفتل للسلطان في الذروة والغارب، ويلوي عن ابن الأحمر المواعيد حتى أجابه السلطان إلى غرضه.

وسرح ابنه الأمير أبا فارس والوزير محمد بن علال في العساكر لمصارخة أبي تاشفين.

وفصلوا من فاس أواخر إحدى وتسعين وسبعمائة وانتهوا إلى تازى.

وبلغ خبرهم إلى السلطان أبي حمو فخرج من تلمسان وجمع أشياعه من بني عامر والجراح بن عبيد الله وقطع جبل بني ورنيد المطل على تلمسان، وأقام بالغيران من جهاته.

وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فقدم إلى تلمسان فجدد المكر والخديعة وشيطان الفتنة والشر موسى بن يخلف، فاستولى عليها وأقام دعوة أبي تاشفين فيها، فطير أبو حمو ابنه عمير إليه، فصبحه بها لليلة من مسيره، فأسلمه أهل البلد.

وتقبض عليه، وجاء به أسيراً إلى أبيه بمكانه من الغيران، فوبخه أبو حمو على فعاله ثم أذاقه أليم عقابه ونكاله، وأمر به فقتل أشنع قتلة.

وجاءت العيون إلى أبي فارس ابن صاحب المغرب ووزيره ابن علال بمكان أبي حمو وأعرابه بالغيران، فنهض الوزير ابن علال في عساكر بني مرين لغزوه، وسار أمامهم سليمان بن ناجي من الأحلاف إحدى بطون المعقل، يدل بهم طريق القفر حتى صبحوه ومن معه من أحياء الخراج في مكان مقامتهم بالغيران.

وناوشوهم القتال فلم يطيقوهم لكثرتهم، وولوا منهزمين، وكبا بالسلطان أبي حمو فرسه فسقط وأدركه بعض فرسانهم وعرفه فقتله قعصاً بالرماح، وجاؤوا برأسه إلى الوزير ابن علال وأبي تاشفين، وجاءوا بابنه عمير أسيراً.

وهم أبو تاشفين أخوه بقتله فمنعوه أياماً، ثم أمكنوه منه فقتله، ودخل أبو تاشفين إلى تلمسان أواخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وخيم الوزير وعساكر بني مرين بظاهر البلد حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال.

ثم قفلوا إلى المغرب وأقام هو بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابره، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة كما اشترط على نفسه إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

مسير أبي زيان بن أبي حمو لحصار تلمسان ثم إجفاله عنها ولحاقه بصاحب المغرب

كان السلطان أبو حمو قد ولى على الجزائر ابنه أبا زيان لما عاد إلى ملكه بتلمسان، وأخرج منها أبا تاشفين.

فلما قتل أبو حمو بالغيران كما قلناه، وخرج أبو زيان من الجزائر ناجياً إلى أحياء حصين يؤمل الكرة بهم والأخذ بثأر أبيه وأخيه، فاشتملوا عليه وأجابوا صريخه.

ثم وفد عليه أمراء بني عامر من زغبة يدعونه لملكه، فسار إليهم وقام بدعوته وطاعته شيخهم المسعود بن صغير، ونهضوا جميعاً إلى تلمسان في رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة

فحاصروها أياماً ثم سرب أبو تاشفين المال في العرب، فافترقوا عن أبي زيان، وخرج إليه أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة.

ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل، وعاود حصار تلمسان في شوال، وبعث أبو تاشفين ابنه صريخاً إلى المغرب، فجاءه بمدد من العسكر.

ولما انتهى إلى تاوريرت أفرج أبو زيان عن تلمسان، وأجفل إلى الصحراء ثم أجمع رأيه على الوفادة إلى صاحب المغرب فوفد عليه صريخاً، فتلقاه وبر مقدمه، ووعده النصر من عدوه، وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين والله تعالى أعلم.

و فاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم، ومؤدياً للضريبة التي فرضها عليه منذ ملك، وأخوه الأمير أبو زيان مقيم عند صاحب المغرب ينتظر وعده في النصر عليه حتى تغير السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض النزعات الملوكية، فأجاب داعي أبي زيان وجهزه بالعساكر لملك تلمسان، فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعمائة وانتهى إلى تازى وكان أبو تاشفين قد طرقه مرض أزمن به ثم هلك منه في رمضان من السنة.

وكان القائم بدولته أحمد بن العز من صنائعهم، وكان يمت إليه بخؤولة، فولى بعده مكانه صبياً من أبنائه وقام بكفالته، وكان يوسف بن أبي حمو وهو ابن الزابية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين، فلما بلغه الخبر أغذ السير مع العرب، ودخل تلمسان فقتل أحمد بن العز والصبي المكفول ابن أخيه أبي تاشفين.

فلما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب، خرج إلى تازى وبعث من هنالك ابنه أبا فارس في العساكر، ورد أبا زيان بن أبي حمو إلى فاس ووكل به.

وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها، وأقام فيها دعوة أبيه، وتقدم وزير أبيه صالح بن حمو إلى مليانة فملكها وما بعدها من الجزائر وتدلس إلى حدود بجاية.

واعتصم يوسف بن الزابية بحصن تاجحموت.

وأقام الوزير صالح يحاصره، وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط، والله غالب على أمره.

وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم لما وصل إلى تازى، وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها، وأقام هو بتازى يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدم الفتح البلاد الشرقية.

وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق، وتقدمت إلى السلطان فيه وأخبرته بمحله من قومه، فأكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى صاحب المغرب، يطوقه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك فلما قدم يوسف بن علي بها على السلطان أبي العباس أعظم موقعها، وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها، وشرع في المكافأة عنها بتخير الجياد والبضائع والثياب، حتى استكمل من ذلك ما رضيه، واعتزم على انفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول وأنه يرسله من تازى أيام مقامته تلك، فطرقه هنالك مرض كان فيه حتفه في محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه بتازى، وولوه مكانه، ورجعوه إلى فاس، وأطلقوا أبا زيان بن أبي حمو من الاعتقال، وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها، وقائماً بدعوة السلطان أبي فارس فيها، فسار إليها وملكها، وكان أخوه يوسف بن الزابية قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والأجلاب عليها، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يبعثوا به إليه، فأجابوا إلى ذلك وأسلموه إلى ثقات أبي زيان، وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم، فبادروا بقتله، وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيان فسكنت أحواله، وذهبت الفتنة بذهابه، واستقامت أمور دولته، وهم على ذلك لهذا العهد والله غالب على أمره.

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية، وبقي علينا خبر الرهط الذين تحيزوا منهم إلى بني مرين منذ أول الدولة، وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي، وخبر بني كندوز أمرائهم بمراكش، فلنرجع إلى ذكر أخبارهم، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد.

والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني كمي إحدى بطون بني القاسم بن عبد الواد وكيف نزعوا إلى بني مرين وما صار لهم بنواحي مراكش وأرض السوس من الرياسة

قد تقدم لنا أول الكلام في بني عبد الواد أن بني كمي هؤلاء من شعوب القاسم، وأنهم بنو علي بن يمل بن يركن بن القاسم إخوة بني طاع الله وبني دلوك وبني معطي بن جوهر بن علي.

وذكرنا ما كان بين بني طاع الله وبين إخوانهم بني كمي من الفتنة، وكيف قتل كندوز بن عبد الله كبير بني كمي زيان بن ثابت بن محمد كبير بني طاع الله، وأن جابر بن يوسف بن محمد القائم بالأمر من بعده ثار منهم بزيان، وقتل به كندوزاً غيلة أو حرباً، وبعث برأسه إلى يغمراسن بن زيان فنصب عليها أهل بيته القدور شفاية لنفوسهم.

واستمر الغلب بعدها على بني كمي، فلحقوا بحضرة تونس وكبيرهم إذ ذاك عبد الله بن كندوز.

ونزلوا على الأمير أبي زكريا حتى كان من استيلائه على تلمسان ما قدمنا ذكره.

وطمع عبد الله في الاستبداد بتلمسان، فلم يتفق ذلك.

ولما هلك مولانا الأمير أبو زكريا، وولي ابنه المنتصر، أقام عبد الله صدراً من دولته.

ثم ارتحل هو وقومه إلى المغرب ونزل على يعقوب بن عبد الحق قبيل فتح مراكش، فاهتز يعقوب لقدومه وأحله بالمكان الرفيع من دولته.

وأنزل قومه بجهات مراكش، وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهماتهم وجعل السلطان انتجاع إبله ورواحلته في أحيائهم.

وقدم على رعايتها حسان بن أبي سعيد الصبيحي وأخاه موسى، وصلا في لفيفة من بلاد المشرق، وكانا عارفين برعاية الإبل والقيام عليها، وأقاموا يتقلبون في تلك البلاد، ويبعدون في نجعتها إلى أرض السوس.

وأوفد يعقوب بن عبد الحق عبد الله بن كندوز هذا على المستنصر صاحب إفريقية سنة خمس وستين وستمائة مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدمناه.

والتحم بنو كمي ببني مرين وأصبحوا إحدى بطونهم.

وهلك عبد الله بن كندوز، وصارت رئاستهم من بعده لابنه عمر بن عبد الله.

فلما نهض يوسف بن يعقوب بن عبد الحق إلى المغرب الأوسط وشغل بحصار تلمسان، وتحدث الناس بما نزل بعبد الواد من بني مرين، أخذت بني كمي الحمية وامتعضوا لقومهم، وأجمعوا الخلاف والخروج على السلطان.

ولحقوا بالحاحة سنة ثلاث وسبعمائة، واستولوا على بلاد السوس، فخرج إليهم أخو السلطان الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب، فناجزوه الحرب بتادارت وغلبوه، واستمروا على خلافهم.

ثم عاود محاربتهم بتامطريت سنة أربع وسبعمائة بعدها، فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصت جناحهم.

وقتل عمر بن عبد الله وجماعة من كبرائهم، وفروا أمامه إلى الصحراء، ولحقوا بتلمسان وهدم يعيش بن يعقوب تارودنت قاعدة أرض السوس، وأقام بنو كندوز بعدها بتلمسان نحواً من ستة أشهر ثم توجسوا للغدر من ولد عثمان بن يغمراسن فرجعوا إلى مراكش واتبعتهم عساكر السلطان وأبلى منهم في القتال عنهم محمد بن أبي بكر بن حمامة بن كندوز، وخلصو إلى منجاتهم مشردين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان يوسف بن يعقوب.

وراجعوا طاعة الملوك بالمغرب فعفوا لهم عما سلف من هذه الجريرة وعاودوهم إلى مكانهم من الولاية، فأمحضوا النصيحة والمخالصة.

وكان أميرهم من بعد عمر ابنه محمد، وأقام في إمارتهم سنتين ثم ابنه موسى بن محمد من بعده كذلك واستخلصه السلطان أبو الحسن أيام الفتنة بينه وبين أخيه أبي علي، لعهد أبيهما السلطان أبي سعيد ومن بعده، فكانت له في المدافعة عن نواحي مراكش آثار وأيام.

ثم هلك موسى بن محمد فولى السلطان أبو الحسن مكانه ابنه يعقوب بن موسى.

ولما غلب على تلمسان وأصار بني عبد الواد في خوله وجنوده، تمشت رجالاتهم وتباثوا أشجانهم حتى إذا كانت واقعة القيروان المشهورة وتواقف السلطان وبني سليم داخلهم يعقوب بن موسى في أن ينخذل عن السلطان إليهم ببني عبد الواد ومن إليهم من مغراوة وتوجين، وواعدهم لذلك، ثم مشى في قومه وكافة بني عبد الواد فأجابوه إلى ذلك.

ولحقوا جميعاً ببني سليم، فجروا بذلك الهزيمة على السلطان وكانت نكبة القيروان المشهورة.

ولحق بعدها بنو عبد الواد بتلمسان، وولوا أمرهم في بني يغمراسن.

وهلك يعقوب بن موسى بإفريقية، ولحق أخوه رحو بالمغرب.

وكان السلطان أبو عنان قد استعمل على جماعتهم وعملهم عبو بن يوسف بن محمد وهو ابن عمهم دنيا، فأقام فيهم كذلك حتى هلك، فولي من بعده ابنه محمد بن عبو وهم على ذلك لهذا العهد، يعسكرون للأمير بمراكش، ويتولون من خدمة السلطان هنالك ما لهم فيه الغناء والكفاية.

فكانهم بمعزل عن بني عبد الواد لاستحكمام العداوة بمقتل زيان بن ثابت.

والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، لا رب غيره ولا معبود سواه.

الخبر عن بني راشد بن محمد بن بادين وذكر أوليتهم وتصاريف أحوالهم

وإنما قدمنا ذكرهم قبل استتمام بطون بني بادين لأنهم لم يزالوا أحلافاً لبني عبد الواد ومن جملتهم، فكانت أخبارهم من أخبارهم، وأما راشد أبوهم فهو أخو بادين.

واختص بنوه كما قلنا ببني عبد الواد، وكانت مواطنهم بالصحراء بالجبل المعروف براشد اسم أبيهم.

وكانت مواطن مديونة من قبائل البربر قبلة تاسالة وبنو ورنيد من بطون دمر قبلة تلمسان إلى قصر سعيد.

وكان جبل هوارة موطناً لبني يلومان الذين كان لهم الملك كما قدمنا.

ولما اضمحل أمر بني يلومان وذهبت دولتهم، زحف بنو راشد هؤلاء من موطنهم بجبل راشد إلى بسائط مديونة وبني ورنيد، فشنوا عليهم الغارات، وطالت بينهم الحرب إلى أن غلبوهم على مواطنهم وألجؤوهم إلى الأوعار: فاستوطن بنو ورنيد الجبل المطل على تلمسان، واستوطن مديونة جبل تاسالة.

وملك بنو راشد بسائطهم القبلية.

ثم استوطنوا جبلهم المعروف بهم لهذا العهد، وهو بلد بني يفرن الذين كانوا ملوك تلمسان لأول الإسلام، وكان منهم أبو قرة الصفري كما قدمناه وكان منهم بعد ذلك يعلى بن محمد الأمير الذي قتله جوهر الصقلي قائد الشيعة كما ذكرناه في أخبارهم.

ويعلى هذا هو الذي اختط بهذا الجبل مدينة إيفكان التي هدمها جوهر يوم قتله.

فلما ملك بنو راشد هذا الجبل استوطنوه وصار حصناً لهم، ومجالاتهم في ساح القبلية إلى أن غلبهم العرب عليها لهذا العهد، وألجؤوهم إلى الجبل وكان غلب بني راشد على هذه الأوطان بين يدي دخول بني عبد الواد إلى المغرب الأوسط، وكانوا شيعة لهم وأحلافاً في فتنتهم مع بني توجين وبني مرين، وكانت رياستهم في بيت منهم يعرفون ببني عمران، وكان القائم بها لأول دخولهم إبراهيم بن عمران واستبد عليه إخوه ونزمار وقام بأمرهم إلى أن هلك، فولى ابنه مقاتل بن ونزمار وقتل عمه إبراهيم وتفرقت رياسة بني عمران من يومئذ بين بني إبراهيم وبني ونزمار إلا أن رياسة بني إبراهيم أظهر، فولي بعد إبراهيم بن عمران ابنه ونزمار وكان معاصراً ليغمراسن بن زيان وطال عمره، ولما هلك لتسعين من المائة السابعة ولي أمرهم غانم ابن أخيه محمد بن إبراهيم.

ثم كان فيهم من بعده موسى بن يحيى بن ونزمار، لا أدري معاقباً لغانم أو توسطهما أحد.

ولما زحف بنو مرين إلى تلمسان آخر زحفهم، صار بنو راشد هؤلاء إلى طاعة السلطان أبي الحسن، وشيخهم لذلك العهد أبو يحيى موسى بن عبد الرحمن بن ونزمار بن إبراهيم.

وانحصر بتلمسان بنو عمه كرجون بن ونزمار وانقرض أمر بني عبد الواد وأشياعهم.

ونقل بنو مرين رؤوس زناتة أجمع إلى المغرب الأقصى، فكان بنو ونزمار هؤلاء ممن صار إلى المغرب وأوطنوه إلى أن صار الأمر لبني عبد الواد في الكرة الثالثة على يد أبي حمو الأخير موسى بن يوسف.

وكان شيخ بني راشد لعهده زيان بن أبي يحيى بن موسى المذكور أقبل إليهم من المغرب من إيالة بني مرين، فاتهمه أبوحمو بمداخلتهم، فتقبض عليه واعتقله مدة بوهران وفر من معتقله فلحق بالمغرب وارتحل بين أحيائهم مدة.

ثم رجع إلى الطاعة واقتضى العهد من السلطان أبي حمو، وولاه على قومه.

ثم تقبض عليه واعتقله إلى أن قتله بمحبسه سنة ثمان

وستين وسبعمائة، وانقرض أمر بني ونزمار بن إبراهيم، وأما بنو ونزمار بن عمران فقام بأمرهم بعد مقاتل بن ونزمار أخوه أبو زركن بن ونزمار، ثم ابنه يوسف بن أبي زركن، ثم آخرون من بعدهم لم تحضرني أسماؤهم إلى أن غلب عليهم بنو ونزمار بن إبراهيم.

وقد ذهبت لهذا العهد رياسة أولاد عمران جميعاً، وصار بنو راشد خولاً للسلطان وجباية، وبقيتهم على الحال التي ذكرناها، والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني توجين من شعوب بني بادين من أهل هذه الطبقة الثالثة من زناتة وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب الأوسط وأولية ذلك ومصائره

كان هذا الحي من أعظم أحياء بني بادين وأوفرهم عدداً وكانت مواطنهم حفافي وادي شلف قبلة جبل وانشريش من أرض السرسو، وهو المسمى لهذا العهد نهر واصل وكان بأرض السرسو بجهة الغرب منهم بطون من لواتة، وغلبهم عليها بنو وجديجن ومطماطة.

ثم صارت أرض السرسو لبني توجين هؤلاء واستضافوها إلى مواطنهم الأولى صارت مواطنهم ما بين موطن بني راشد وجبل دراك في جانب القبلة.

وكانت رياستهم أيام صنهاجة لعطية بن دافلتن، وابن عمه لقمان بن المعتز كما ذكره ابن الرقيق.

ولما كانت فتنة حماد بن بلكين مع عمه باديس، ونهض إليه باديس من القيروان حتى احتل بوادي شلف، تحيز إليهم بنو توجين هؤلاء، وكانت لهم في حروب حماد آثار مذكورة.

وكان لقمان بن المعتز أظهر من عطية بن دافلتن، وكان قومهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف.

وأوفد لقمان ابنه يدر على باديس قبل اللقاء طاعة له وانحياشاً.

فلما انهزم حماد رعى لهم باديس انحياشهم إليه، وسوغ لهم ما غنموه، وعقد للقمان على قومه ومواطنه، وعلى ما يفتحه من البلاد بدعوته ثم انفرد برياستهم بعد حين بنو دافلتن.

ويقال إنه دافلتن بن أبي بكر بن الغلب.

وكانت رياستهم لعهد الموحدين لعطية بن مناد بن العباس بن دافلتن، وكان يلقب عطية الحيو.

وكانت بينهم لعهده وبين بني عبد الواد حروب، كان متولي كبرها من بني عبد الواد شيخهم لذلك العهد أعدوى بن يكنمن بن القاسم، فلم تزل تلك الفتنة بينهم إلى أن غلبهم بنو عبد الواد آخراً على مواطنهم كما نذكره.

ولما هلك عطية الحيو قام بأمرهم ابنه العباس، وكانت له آثار في الإجلاب على ضواحي المغرب الأوسط.

ونقض طاعة الموحدين إلى أن هلك سنة سبع وستماية، دس عليه عامل تلمسان يومئذ أبو زيد بن بوجان من اغتاله فقتله.

وقام بأمرهم من بعده ابنه عبد القوي، فانفرد برياستهم وتوارثها عقبه من بعده كما نذكره.

وكان من أشهر بطون بني توجين هؤلاء يومئذ بنو يدللتن وبنو تمزي وبنو مادون وبنو زنداك وبنو وسيل وبنو قاضي وبنو مامت، ويجمع هؤلاء الستة بنو مدن.

ثم بنو تيغرين وبنو يرناتن وبنو منكوش، ويجمع هؤلاء الثلاثة بنو رسوغين، ونسب بني زنداك دخيل فيهم، وإنما هم من بطون مغراوة.

وبنو منكوش هؤلاء منهم عبد القوي بن العباس ابن عطية الحيو، هكذا رأيت نسبه لبعض مؤرخي زناتة المنكوشي.

وكانت رياسة بني توجين جميعاً عند انقراض أمر بني عبد المؤمن لعبد القوي بن العباس بن عطية الحيو، وأحيائهم جميعاً بتلك المجالات القبلية.

فلما وهن أمر بني عبد المؤمن وتغلب مغراوة على بسائط متيجة، ثم على جبل وانشريش، نازعهم عبد القوي وقومه أمر وانشريش، وغالبوهم إلى أن غلبوهم عليه، واستقر في ملكهم وأوطنه بنو تيغرين وبنو منكوش من أحيائهم.

ثم تغلبوا على منداس وأوطنها أحياء بني مدن جميعاً.

وكان الظهور منهم لبني يدللتن، ورياسة بني يدللتن لبني سلامة.

وبقي بنو يرناتن من بطونهم بمواطنهم الأولى قبلة وانشريش.

وكان من أحلاف بني عطية الحيو بنو تيغرين منهم خاصة، وأولاد عزيز بن يعقوب، ويعرفون جميعاً بالحشم ولما تغلبوا على الأوطان والتلول، وأزاحوا مغراوة عن المدية ووانشريش

وتافركنيت، واستأثروا بملكها وملك الأوطان عن غربيها مثل:

مناداس والجعبات وتاوغزوت، ورئيسهم لذلك العهد عبد القوي بن العباس، والكل لأمره.

فصار له ملك بدوي ولم يفارق فيه سكنى الخيام ولا إبعاد النجعة ولا إيلاف الرحلتين.

ينتهون في مشاتيهم إلى مصاب والزاب، وينزلون في المصايف بلادهم هذه من التل ولم يزل هذا شأن عبد القوي وابنه محمد، إلى أن تنازع بنوه الأمر من بعده، وقتل بعضهم بعضاً.

وتغلب بنو عبد الواد على عامة أوطانهم وأحيائهم، واستبد عليهم بنو يرناتن وبنو يدللتن فصاروا إلى بني عبد الواد.

وبقي أعقابهم بجبل وانشريش إلى أن انقرضوا كما نذكره.

وكان عبد القوي لما غلب مغراوة على جبل وانشريش، اختط حصن مرات، بعد أن كان منديل المغراوي شرع في اختطاطه، فبنى منه القصبة ولم يكمله، فأكمله محمد بن عبد القوي من بعدهم.

ولما استبد بنو أبي حفص بأمر بإفريقية، وصارت لهم خلافة الموحدين نهض الأمير أبو زكرياء إلى المغرب الأوسط، دخلت في طاعته قبائل صنهاجة، وفرت زناتة أمامه وردد إليهم الغزو فأصاب منهم وتقبض في بعض غزواته على عبد القوي بن العباس أمير بني توجين فاعتقله بالحضرة ثم منّ عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه، فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر.

ونهض الأمير أبو زكرياء بعدها إلى تلمسان، فكان عبد القوي وقومه في جملته حتى إذا ملك تلمسان، ورجع إلى الحضرة عقد لعبد القوي هذا على قومه ووطنه، وأذن له في اتخاذ الآلة، فكانت أول مراسم الملك لبني توجين هؤلاء وكانت حالهم مع بني عبد الواد تختلف في السلم والحرب.

ولما هلك السعيد عل يدي يغمراسن وقومه كما ذكرناه، استنفر يغمراسن سائر أحياء زناتة لغزو المغرب، ومسابقة بني مرين إليه، فنفر معه عبد القوي في قومه سنة سبع وأربعين وستماية وانتهوا إلى تازى، واعترضهم أبو يحيى ين عبد الحق أمير بني مرين في قومه، فنكصوا واتبعهم إلى انكاد فكان اللقاء، وانكشفت جموع بني بادين وكانت الهزيمة التي ذكرناها في أخبار بني عبد الواد.

وهلك عبد القوي مرجعه منها في سنته بالموضع المعروف ماخنون من مواطنهم وتصدى للقيام بأمرهم بعده ابنه يوسف، فمكث في تلك الإمارة أسبوعاً، ثم قتله على جدث أبيه أخوه محمد بن عبد القوي، وولي عهد أبيه سابع مواراته.

وفر ابنه صالح بن يوسف إلى بلاد صنهاجة بجبال المدية، فأقام بها هو وبنوه.

واستقل محمد برياسة بني توجين، واستغلظ ملكه، وكان الفحل الذي لا يقرع أنفه.

ونازعه يغمراسن أمره ونهض إلى حربه سنة تسع وأربعين وستماية وعمد إلى حصن تافراكنيت فنازله،، به يومئذ حافده علي بن زيان بن محمد في عصابة من قومه، فحاصره أياماً وامتنعت عليه فارتحل عنها، ثم تواضعوا أوزار الحرب ودعاه يغمراسن إلى مثل ما دعا إليه أباه من غزو بني مرين في بلادهم فأجاب.

ونهضوا سنة سبع وخمسين وستماية ومعهم مغراوة فانتهوا إلى كلدمان ما بين تازى وأرض الريف ولقيهم يعقوب بن عبد الحق في جموعه فانكشفوا ورجعوا منهزمين إلى بلادهم كما ذكرناه.

وكانت بينه بعد ذلك وبين يغمراسن فتن وحروب، فنازله فيها بجبل وانشريش مرات، وجاس خلال وطنه ولم يقع بعدها بينهما مراجعة لاستبداد يغمراسن بالملك، وسموه إلى التغلب على زناتة أجمع وبلادهم، وكانوا جميعاً منحاشين إلى الدعوة الحفصية.

وكان محمد بن عبد القوي كثير الصاغية إلى السلطان المستنصر.

ولما نزل النصارى الإفرنجة بساحل تونس سنة ثمان وستين وستماية وطمعوا في ملك الحضرة، بعث المستنصر إلى ملوك زناتة بالصريخ فصرفوا وجوههم إليه، وخف من بينهم محمد بن عبد القوي في قومه ومن احتشد من أهل وطنه، ونزل على السلطان بتونس وأبلى في جهاد العدو أحسن البلاء، وكانت له في أيامه معهم مقامات مذكورة، ومواقف، عند الله محتسبة معدودة.

ولما ارتحل العدو عن الحضرة وأخذ محمد بن عبد القوي في الانصراف إلى وطنه، أسنى السلطان جائزته، وعم بالإحسان وجوه قومه وعساكره، وأقطعه بلد مقرة وأوماش من وطن الزاب، وأحسن منقلبه.

ولم يزل بعد ذلك متعلقاً بطاعته مستظهراً على عدوه بالانحياش إليه.

ولما استغلظ بنو مرين على يغمراسن بعد استيلائهم على أمصار المغرب واستبدادهم بملكه، وصل محمد يده بهم في الاستظهار على يغمراسن، وأوفد ابنه زيان بن محمد عليهم.

ولما نهض يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان سنة سبعين

وستماية وأوقع بيغمراسن في إيسلى من أنكاد الواقعة التي هلك فيها ابنه فارس نهض إلى محمد بن عبد القوي للقائه ومر في طريقه بالبطحاء، وهي يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها ولقي يعقوب بن عبد الحق في ساحة تلمسان مباهيا بآلته فأكرم يعقوب وفادته وبر مقدمه ونازلوها أياماً فامتنعت عليهم، وأجمعوا على الإفراج وتأذن لهم يعقوب بن عبد الحق لتيلومنْ عليها إلى أن يلحق محمد وقومه ببلادهم، حذراً عليهم من غائلة يغمراسن ففعل، وملأ حقائبهم بأتحافه، وجنب لهم ماية من الجياد العتاق بالمراكب الثقيلة، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب، وعمهم بالصلات والخلع الفاخرة، واستكثر لهم من السلاح والفازات والأخبيات والحملان وارتحلوا، ولحق محمد بن عبد القوي بمكانه من جبل وانشريش، واتصلت حروبه مع يغمراسن، وكثر إجلابه على وطنه وعيثه في بلاده وهو مع ذلك مقيم على موالاة يعقوب بن عبد الحق وإتحافه بالعتاق من الخيل والمستجاد من الطرف.

حتى كان يعقوب إذا اشترط على يغمراسن في مهادنته جعل سلمهم من سلمه، وحربهم من حربه، وبسببهم كان نهوض يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين وستماية لما اشترط عليه ذلك، ولج في قبوله، فنهض إليه وأوقع به بخرزوزة.

ثم أناخ عليه بتلمسان، ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي فلقيه في القصبات،، وعاثوا في نواحي تلمسان نهباً وتخريباً.

ثم أذن يعقوب محمداً وقومه في الانطلاق إلى بلادهم، وتلوم هو بمكانه من ضواحي تلمسان بمدة منجاتهم إلى مكانهم من وانشريش حذراً عليهم من اعتراض يغمراسن.

ولم يزل شأنهم ذلك إلى أن هلك يغمراسن بشدبوية من بلاد مغراوة خاتمة إحدى وثمانين وستماية وفي خلال ذلك استغلاظ بني مرين على بني عبد الواد، استوسق لمحمد هذا ملكه، فتغلب على أوطان صنهاجة بجبال المدية، وأخرج الثعالبة من جبل تيطري بعد أن غدر بمشيختهم وقتلهم، فانزاحوا عنه إلى بسائط متيجة وأوطنوها.

واستولى محمد على حصن المدية وهو المسمى بأهله لمدية (بفتح اللام والميم وكسر الدال وتشديد الياء بعدها وهاء النسب في آخرها).

وهم بطن من بطون صنهاجة وكان المختط لها بلكين بن زيري.

ولما استولى محمد عليها وعلى ضواحيها أنزل بها أولاد عزيز بن يعقوب من حشمه وجعلها لهم موطناً وولاية.

وفر بنو صالح ابن أخيه يوسف بن عبد القوي من مكانهم بين صنهاجة منذ مقتل أبيه يوسف كما ذكرناه ولحقوا ببلاد الموحدين بإفريقية، فلقوهم مبرة وتكريماً.

وأقطعوا لهم بضواحي قسنطينة، وكانوا يعولون عليهم أيام حروبهم وفي مواطن قتالهم.

وكان من أظهرهم عمر بن صالح وابناه صالح ويحيى بن عمر، وحافده يحيى بن صالح بن عمر في آخرين مشاهير.

وأعقابهم لهذا العهد بنواحي قسنطينة وفي إيالة الملوك من آل أبي حفص، يعسكرون معهم في غزواتهم ويبلون في حروبهم، ويقومون بوظائف خدمتهم.

وكان الوالي من أولاد عزيز على المدية حسن بن يعقوب، وبنوه من بعده يوسف وعلي، وكانت مواطنهم ما بين المدية وموطنهم الأول ماخنون.

وكان بنو يدللتن أيضاً من بني توجين قد استولوا على حصن الجعبات وقلعة تاوغزوت ونزل القلعة كبيرهم سلامة بن علي مقيماً على طاعة محمد بن عبد القوي وقومه، فاتصل ملك محمد بن عبد القوي في ضواحي المغرب الأوسط ما بين مواطن بني راشد إلى بلاد صنهاجة بنواحي المدية، وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو وجباله إلى أرض الزاب.

وكان يبعد الرحلة في مشتاه فينزل الدوسن ومقرة والمسيلة.

ولم يزل دأبه ذلك.

ولما هلك يغمراسن سنة إحدى وثمانين وستماية كما ذكرناه استجدت الفتنة بين عثمان ابنه وبين محمد بن عبد القوي فنهد إليه عثمان في جموعه من بني عبد الواد والعساكر سنة اثنتين وثمانين. فحاصره بجبل وانشريش وامتنع عليه، فعاث في نواحي وطنه وقفل إلى تلمسان.وهلك محمد بن عبد القوي، على أثر ذلك سنة أربع وثمانين وستماية وولي من بعده ابنه سيد الناس، فلم تطل مدة ملكه وقتله أخوه موسى لسنة أو نحوها من بعده مهلك أبيه.

وأقام موسى بن محمد في أمارة بني توجين نحو من عامين.

وكان أهل مرات من أشد أهل وطنه شوكة وأقواهم غائلة، فحدثته نفسه أن يستلحم مشيختهم ويريح نفسه من محاذرتم، فأجمع لذلك ونزلها، ونذروا بشأنه ورأيه فيهم فاستماتوا جميعاً وثاروا به فقاتلهم.

ثم انهزم مثخناً بالجراحة وألجأوه إلى مهاوي الحصن فتردى

منها وهلك.

وولي من بعد عمر ابن أخيه إسماعيل بن محمد مدة أربعة أعوام، ثم غدر به أولاد عمه زيان بن محمد فقتلوه وولوا كبيرهم بن زيان وكان حسن الولاية عليهم، يقال: ما ولي بعد محمد فيهم مثله.

وفي خلال هذه الولاية استغلظ عليهم بنو عبد الواد واشتدت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم بعد مهلك أبيهم محمد، فنهض إليهم سنة ست وثمانين وستماية وحاصرهم بجبل وانشريش وعاث في أوطانهم ونقل زروعها إلى مازونة حين غلب عليها مغراوة.

ثم نازل حصن تافركنيت وملكها بمداخلة القائد بها غالب الخصي مولى سيد الناس بن محمد، وقفل إلى تلمسان.

ثم نهض إلى أولاد سلامة بقلعة تاوغزوت، وامتنعوا عليه مرارا، ثم أعطوه اليد على الطاعة ومفارقة بني محمد بن عبد القوي فنبذوا لهم العهد وصاروا إلى إيالة عثمان بن يغمراسن وفرضوا لهم المغارم على بني يدللتن.

وسلك عثمان بن يغمراسن مسلك التضريب بين قبائل بني توجين وتحريضهم على إبراهيم بن زيان أميرهم، فعدا عليه زكران بن أعجمي شيخ بني مادون وقتله بالبطحاء في إحدى غزواته لسبعة أشهر من ملكه.

وولي من بعده موسى بن زرارة بن محمد بن عبد القوي، بايع له بنو تيغرين واختلف سائر بني توجين فأقام بعض سنة.

وعثمان بن يغمراسن في خلال هذا يستألف بني توجين شعباً فشعباً إلى أن نهض إلى جبل وانشريش فملكه وفر أمامه موسى بن زرارة إلى نواحي المدية وهلك في مفره ذلك.

ثم نهض عثمان إلى المدية سنة ثمان وثمانين وستمائة بعدها فملكها بمداخلة المدية من قبائل صنهاجة، غدروا بأولاد عزيز وأمكنوه منها.

ثم انتقضوا عليه لسبعة أشهر ورجعوا إلى إيالة أولاد عزيز، فصالحوا عثمان بن يوسف على الأتاوة والطاعة كما كانوا مع محمد بن عبد القوي وبنيه، فملك عثمان بن يغمراسن على عامة بلاد توجين.

ثم شغل بما دهمه من مطالبة بني مرين أيام يوسف بن يعقوب، فولى على بني توجين من بني محمد بن عبد القوي أبو بكر بن إبراهيم بن محمد مدة عامين، أخاف فيها الناس وأساء السيرة.

ثم هلك فنصب بنو تيغرين بعده أخاه عطية المعروف بالأصم، وخالفهم أولاد عزيز وجميع قبائل توجين فبايعوا ليوسف ابن زيان بن محمد.

وزحفوا إلى جبل وانشريش فحاصروا به عطية وبني تيغرين عاما أو يزيد وكان يحيى بن عطية كبير بني تيغرين هو الذي تولى البيعة لعطية الأصم.

فلما اشتد بهم الحصار واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان ورغبه في ملك جبل وانشريس فبعث معه الجيوش لنظر أخيه أبي سرحان، ثم أخيه أبي يحيى.

وكان نهوض أبي يحيى سنة إحدى وسبعمائة، فتوغل في ناحية الشرق، ولما رجع صمد إلى جبل وانشريش، فهدم حصونه، وقفل ونهض ثانية إلى بلاد بني توجين فشردهم عنها، وأطاعه أهل تافركنيت، ثم انتهى إلى المدية فافتتحها صلحاً، واختط قصبتها ورجع إلى أخيه يوسف بن يعقوب، فانتقض أهل تافركنيت بعد صدوره عنهم.

ثم راجع بنو عبد القوي بصائرهم في التمسك بالطاعة.

ووفدوا على يوسف بن يعقوب فتقبل طاعتهم وأعادهم إلى بلادهم، وأقطعهم.

وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي، وجعل وزارته ليحيى بن عطية فغلبه على دولته، واستقام ملكه.

وهلك خلال ذلك فعقد يوسف بن بن يعقوب مكانه لمحمد بن عطية الأصم، واستقام على طاعته وقتاً، ثم انتقض بين يدي مهلكه سنة ست وسبعمائة وحمل قومه على الخلاف.

ولما هلك يوسف بن يعقوب وتجافى بنو مرين من بعدها لبني يغمراسن عن جميع الأمصار التي تملكوها بالمغرب الأوسط، استمكن بنو يغمراسن منها ودفعوا المتغلبين عليها.

ولحق الفل من أولاد عبد القوي ببلاد الموحدين، فحلوا من دولتهم محل الإيثار والتكرمة.

وكان للعباس بن محمد بن عبد القوي مع الملوك من آل أبي حفص مقام الخلة والمصافاة إلى أن هلك، وبقي عقبه في جند السلطان.

ولما خلا الجو من هؤلاء المرشحين تغلب على جبل وانشريش من بعدهم كبير بني تيغرين وهو يحيى بن عطية بن يوسف بن المنصور، ويزعمون أنهم دخلاء في بني تيغرين، وأن المنصور هو أحمد بن محمد من أعقاب يعلى بن محمد

سلطان بني يفرن.

فأقام يحيى بن عطية هذا في رياستهم أياماً ثم هلك، وقام بأمره من بعده أخوه عثمان بن عطية.

ثم هلك وولي من بعد ابنه عمر بن عثمان، واستقل مع قومه بجبل وانشريش، واستقل أولاد عزيز بالمدية ونواحيها ورياستهم ليوسف وعلي ابني حسن ابن يعقوب، والكل في طاعة أبي حمو سلطان بني عبد الواد بما غلبهم على أمرهم، وانتزع الرياسة من بني عبد القوي أمرائهم إلى أن خرج على السلطان أبي حمو محمد ابن عمه يوسف بن يغمراسن، ولحق بأولاد عزيز فبايعوه وداخلوا في شأنه عمر بن عثمان كبير بني تيغرين وصاحب جبل وانشريس، فأجابهم وأصفق معهم سائر الأعشار ومنكوشة وبنو يرناتن.

وزحفوا مع محمد بن يوسف إلى السلطان أبي حمو في معسكره بتهل ففضوه، وكان من شأن فتنته معهم ما ذكرناه في أخبار بني عبد الواد إلى أن هلك السلطان أبو حمو وولي ابنه أبو تاشفين، فنهض إليهم في العساكر، وكان عمر بن عثمان قد لحقته الغيرة من مخالصة محمد بن يوسف لأولاد عزيز دون قومه، فداخل السلطان أبا تاشفين في الانحراف عنه،فلما نزل بالجبل، ولحق محمد بن يوسف بحصن توكال ليمتنع له، نزع عنه عمر بن عثمان ولحق بأبي تاشفين ودله على مكامن الحصن، فدلف إليه أبو تاشفين وأخذ بمخنقه.

وافترق عن محمد بن يوسف أولياؤه وأشياعه فتقبض عليه، وقيد أسيراً إلى السلطان أبي تاشفين فقتل بين يديه قعصاً بالرماح سنة تسع عشرة وسبعمائة وبعث برأسه إلى تلمسان، وصلب شلوه بالحصن الذي امتنع فيه أيام انتزائه.

ورجع أمر وانشريش إلى عمر بن عثمان هذا، وحصلت ولايته لأبي تاشفين إلى أن هلك بتلمسان في بعض أيامهم مع بني مرين، أعوام نازلها السلطان أبو الحسن كما ذكرنا في أخبار الحصار.

ثم لما تغلب بنو مرين على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن ابنه نصر بن عمر على الجبل، وكان خير وال وفاء بأزمة والطاعة، وخلوصاً في الولاية، وصدقاً في الانحياش،، وإحساناً للملكة، وتوفيراً للجباية.

ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان،و تطاول الأعياص من زناتة إلى استرجاع ملكهم، انتزى بضواحي المدية من آل عبد القوي عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي، وناغى الخوارج في دعوتهم، واشتمل عليه بنو عزيز هؤلاء وبنو يرناتن جيرانهم، وزحف إلى جبل وانشريش لينال مع الحشم من مديلي أمرهم والمداخلين لعدوهم في قطع دابرهم، وكبيرهم يومئذ نصر بن عمر بن عثمان.

وبايع نصر المسعود ابن بو زيد بن خالد بن محمد بن عبد القوي من أعقابهم، ثم خلص إليه من جملة عدي بن يوسف حذراً على نفسه من أصحابه.

وقاتلهم عدي وقومه فامتنعوا عليه، ودارت بينهم حروب كانت العاقبة فيها والظهور لنصر بن عمر وقومه.

ثم دخل عدي في جملة السلطان أبي الحسن لما خلص من تونس إلى الجزائر، وبقي مسعود بينهم وملكه أبو سعيد بن عبد الرحمن لما ملك تلمسان هو وقومه فلم يزل هنالك إلى أن غلبه السلطان أبو عنان، فصار في جملته بعد أن فر إلى زواوة.

واستنزله منها ونقله إلى فاس وانقضى ملكهم ودولتهم، وانقطع أثر بني محمد بن عبد القوي.

وأقام نصر بن عثمان في ولاية جبل وانشريش وعقد له السلطان أبو عنان عليه سائر دولته.

ولم يزل قائماً بدعوة بني مرين من بعده إلى أن غلبهم السلطان أبو حمو الأخير، وهو موسى بن يوسف على الأمر، فأعطاه نصر الطاعة.

ثم اضطرمت نار الفتنة بين العرب وبين بني عبد الواد أعوام سبعين وسبعماية، وقاموا بدعوة أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبو حمو، فانحاش نصر بن عمر إليهم وأخذ بدعوة الأمير أبي زيان حيناً ثم هلك أيام تلك الفتنة وقام بأمرهم من بعده أخوه يوسف بن عمر متقبلاً مذاهبه وهو لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة صاحب جبل وانشريش، وحاله مع أبي حمو مختلف في الطاعة والخلاف، والله مالك الأمور، لا رب غيره ولا معبود سواه.

الخبر عن بني سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت ورؤساء بني يدللتن من بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وأوليتهم ومصائرهم

كان بنو يدللتن هؤلاء من شعوب بني توجين وأشدهم

شوكة وأوفرهم عدداً، وكان لهم ظهور من بين سائر تلك البطون.

وكان بنو عبد القوي ملوك بني توجين يعرفون لهم ذلك، ويوجبون لهم حقه.

ولما دخلوا إلى التلول بعد انقراض بني يلومي وبني ومانوا نزل بنو قاضي منهم وبنو مادون بأرض منداس، فأوطنوها.

وجاء بنو يدللتن على أثرهم، فأوطنوا الجعبات وتاوغزوت ورياستهم يومئذ لنصر بن سلطان بن عيسى.

ثم هلك فقام بأمرهم ابنه مناد بن نصر، ثم أخوه علي بن نصر من بعده ثم ابنه إبراهيم بن علي من بعده.

ثم هلك وقام بأمرهم أخوه سلامة بن علي على حين استفحل ملك عبد القوي وبنيه، فاستفحل أمره هو في قومه واختط القلعة تاوغزوت المنسوبة إليه وإلى بنيه، وكانت من قبل رباطاً لبعض المنقطعين من عرب سويد.

ويزعم بنو سلامة هؤلاء أنهم دخلاء في نسب توجين، وأنهم من العرب ثم من بني سليم بن منصور.

وجاء جدهم عيسى أو سلطان نازعاً عن قومه لدم أصابه فيهم، فخلطه شيخ بني يدللتن من بني توجين بنسبه، وكفل بنيه من بعده فكانت له سبباً في رياسته على بني يدللتن وبنيه من بعده.

ولما هلك سلامة بن علي قام بأمرهم من بعده ابنه يغمراسن بن سلامة، على حين استغلظ بنو عبد الواد على بني توجين من بعد مهلك محمد بن عبد القوي سلطانهم الأكبر.

فكان عثمان بن يغمراسن يتردد إلى بلادهم بالغزو، ويطيل فيها العيث ونازل في بعض غزواته قلعتهم هذه، وبها يغمراسن فامتنع عليه وخالفه يوسف بن يعقوب وبنو مرين إلى تلمسان، فأجفل على القلعة وسابق بني مرين إلى دار ملكه واتبعه يغمراسن بن سلامة مغيراً في أعقابه، فكر إليه بالمكان المعروف بتليوان.

ودارت بينهم هنالك حرب هلك فها يغمراسن بن سلامة، وقام بالأمر من بعده أخوه محمد بن سلامة، فأذعن لطاعة عثمان بن يغمراسن، وخالف بني محمد بن عبد القوي وجعل الأتاوة على قومه ووطنه لملوك بني عبد الواد، فلم تزل عليهم لملوك تلمسان.

ولحق أخوه سعد بالمغرب، وجاء في جملة السلطان يوسف بن يعقوب في غزوته التي حاصر فيها تلمسان حصاره الطويل، فرعى لسعد بن سلامة هجرته إليه وولاه على بني يدللتن والقلعة.

وفر أخوه محمد بن سلامة فلحق بجبل راشد وأقام هنالك إلى أن هلك يوسف بن يعقوب ورجع أمر المغرب الأوسط لبني عبد الواد فوضعوا الأتاوات على بني توجين وأصاروهم إلى الجباية.

ولم يزل سعد على ولايته إلى أن هلك أبو حمو وولي أبو تاشفين، فسخط سعداً وبعث عن أخيه محمد من جبل راشد، فولاه مكانه.

ولحق سعد بالمغرب، وجاء في جملة السلطان أبي الحسن، ودخل أخوه محمد مع أبي تاشفين فانحصر بتلمسان، وولي سعد بن سلامة مكانه.

ثم هلك محمد في بعض أيام الحصار وحروبه.

ولما انقرض أمر بني عبد الواد رغب سعد من السلطان تخلية سبيله لقضاء فرضه، فحج وهلك مرجعه من الحج في طريقه وعهد إلى السلطان أبي الحسن واستوصاه ببنيه على لسان وليه عريف بن يحيى كبير بني سويد.

فولى السلطان أبو الحسن ابنه سليمان بن سعد على بني يدللتن والقلعة، وانقرض أمر السلطان أبي الحسن وعاد الأمر إلى أبي سعيد وأبي ثابت ابني عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، فكانت بينه وبينهم ولاية انحراف.

وكان أولياؤهم من العرب بني سويد من زغبة بما كانوا جيرانهم في مواطنهم من ناحية القبلة، فطمع ونزمار بن عريف شيخهم في التغلب على وطن بني يدللتن، ومانعه دونه سليمان هذا، وبالغ في دفاعه إلى أن ملك السلطان أبو عنان بلاد المغرب الأوسط، ورعى لونزمار، وابنه عريف حق انحياشهم إليه وهجرتهم إلى قومه، فاقطع ونزمار بن عريف القلعة وما إليها وجباية بني يدللتن أجمع.

والحق سليمان بن سعد بن سلامة في جنده ووجوه عسكره إلى أن هلك السلطان، وعاد الأمر لبني عبد الواد على يد أبي حمو الأخير، فولي سليمان على القلعة وعلى قومه واستغلظ العرب عليه.

فاستراب سليمان هذا ونذر بالشر منه، فلحق بأولاد عريف، ثم راجع الطاعة فتقبض عليه واغتاله، وذهب دمه هدراً.

ثم غلبه العرب على عامة المغرب الأوسط، وأقطع القلعة وبني يدللتن لأولاد عريف استئلافاً لهم.

ثم أقطعهم بني مادون ثم منداس، فأصبحت بطون توجين كلها خولاً لسويد وعبيداً لجبايتهم إلا جبل وانشريش فإنه لم يزل

لبني تيغرين والوالي عليهم يوسف بن عمر منهم كما قلناه.

ونظم أبو حمو أولاد سلامة في جنده وأثبتهم في ديوانه وأقطعهم القصبات من نواحي تلمسان في عطائهم وهم على ذلك لهذا العهد.

و لله الخلق والأمر، لا رب سواه ولا معبود إلا إياه، له الحكم، إليه ترجعون، وهو نعم المولى ونعم النصير، وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الخبر عن بني يرناتن إحدى بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم من التغلب والإمارة وذكر أوليتهم ومصائرهم

كان بنو يرناتن هؤلاء من أوفر قبائل بني توجين وأعزهم جانباً وأكبرهم صيتاً.

ولما دخل بنو توجين إلى تلول المغرب الأوسط، أقاموا بمواطنهم الأولى ما بين وماحنون وورينة.

ثم يعودون من القبلة يجولون جانبي نهر واصل من أعلى وادي شلف.

وكانت رياستهم في نصر بن علي بن تميم بن يوسف بن بو نوال، وكان شيخهم مهيب بن نصر منهم، وكان عبد القوي بن العباس وابنه محمد أُمراء بني توجين يختصونهم بالإثرة والتجلة لمكانهم من قومهم، وما يؤنسون من عظيم عنائهم.

وكان محمد بن عبد القوي في سلطانه يولي عليهم من الحشم أولاد عزيز، وكان واليهم لعهده وعهد بنيه عبو بن حسن بن عزيز.

وقد كان أصهر مهيب بن نصر إلى عبد القوي في ابنته، فأنكحه إياها وولدت له نصر بن مهيب، فشرفت خولته بمحمد بن عبد القوي وعلا كعبه في أمارته.

ثم ولي بعده ابنه علي بن نصر، وكان له من الولد نصر وعنتر وآخرون يعرفون بأمهم، واسمها تاسرغينت.

وولي بعده ابنه نصر بن علي فطال أمد إمارته في قومه.

واختلف بنو عبد القوي وغلبهم بنو عبد الواد على ما بأيديهم، فصرفت ملوك زناتة وجه العناية إليه فبعد صيته وعرف بنوه من بعده بشهرته، وكان ولوداً فيقال: إنه خلف ثلاثة عشر من البنين، ما منهم إلا صاحب حرب أو مقنب.

ومن مشاهيرهم عمر الذي قتله السلطان أبو الحسن بمرات حين سعى به أنه داخل في اغتياله، ففر وأدرك فقتل بمرات.

ومنهم منديل الذي قتله بنو تيغرين أيام ولوا علي بن الناصر وقتلوا معه عبو بن حسن بن عزيز، ومنهم عنان ومات قتيلاً في حصار تلمسان أيام أبي تاشفين،، ومنهم مسعود ومهيب وسعد وداود وموسى ويعقوب والعباس ويوسف في آخرين معروفين عندهم.

هذا شأن أولاد نصر بن علي بن نصر بن مهيب.

وأما ولد عنتر أخيه فكان منهم أبو الفتوح بن عنتر.

ثم من ولده عيسى بن أبي الفتوح، فكان رئيساً على بني أبيه، وكانت إحدى وصائفهم سقطت بدار عثمان بن يغمراسن، وادعت الحمل من سيدها أبي الفتوح، وجاءت بأخ لعيسى سمّي معروفاً، ربي بدارهم.

واستوزره أبو حمو وابنه من بعده، وبلغ المبالغ في دولتهم وكان يدعى معرف الكبير.

ولحق به أيام رياسته في دولة أبي حمو الأول أخوه عيسى بن أبي الفتوح مغاضباً لقومه، فسعى له في الولاية على بني راشد وجباية أوطانهم، وأنزله بلد سعيدة، فكانت له بها إمارة، وكان له من الولد أبو بكر وعبو وطاهر وونزمار، وعندما غلب بني مرين على بني عبد الواد ولاهم السلطان أبو الحسن على بني يرناتن متداولين وأما ولد تاسرغينت من بني علي بن نصر بن مهيب، فلم يكن لهم ذكر في رياسة قومهم، إلا أن بعض وصائفهم سقطت أيضاً إلى دار أبي تاشفين فولدت غلاماً يعرف بعطية بن موسى نشأ في دارهم فنسب إلى بني تاسرغينت فولاه.

وتناولته النجابة في خدمتهم، فولوه الأعمال النبيهة، وهو لهذا العهد عامل أبي حمو الأخير على شلف وما إليه.

وقد غلب العرب لهذا العهد على وطن بني يرناتن، وملكوا عليهم يعود وماحنون وبقيت صبابتهم بجبل ورينة.

وعليهم لهذا العهد أمير من ولد نصر بن علي بن نصر بن مهيب، يعطون المغرم للسلطان ويصانعون العرب بالأتاوة.

وبيد الله تصاريف الأمور سبحانه لا رب غيره.

الخبر عن بني مرين وأنسابهم وشعوبهم وما تأثلوا بالمغرب من السلطان والدولة التي استتبعت سائر زناتة وانتظمت كراسي الملك بالعدوتين وأولية ذلك ومصائره

قد ذكرنا أن بني مرين هؤلاء من شعوب بني واسين، وذكرنا نسب واسين في زناتة، وذكرنا أنهم بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يدر بن يخفت بن عبد اللّه بن ورتنيص بن المعز بن إبراهيم بن سحيك بن واسين، وأنهم إخوة بني يلومي ومديونة.

وربما يشهد بذلك جوار مواطنهم قبل الملك ما بين صا وملوية.

وذكرنا كيف اقتسموا الضاحية والقفر مع أخوانهم بني بادين بن محمد، وكيف اتصلت فتنتهم معهم سائر أيامهم.

وكان الغلب أولاً لبني بادين بن محمد لكثرة عددهم فإنهم كما ذكرنا خمسة بطون: بنو عبد الواد وتوجين ومصاب، وبنو زردال وإخوانهم بنو راشد بن محمد.

وكانوا أهل تلول الغرب الأوسط دونهم.

وبقي هذا الحي من بني مرين بمجالات القفر من فيكيك إلى سجلماسة إلى ملوية وربما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب.

ويذكر نسابتهم أن الرياسة فيهم قبل تلك العصور كانت لمحمد بن ورزين بن فكوس بن كوماط بن مرين، وأنه كان لمحمد إخوة آخرون يعرفون بأمهم تنالفت وكان بنو عمه ونكاسن بن فكوس.

وكان لمحمد من الولد سبعة: شقيقان وهما: حمامة وعسكر.

وأبناء علات أمهات أولاد: وهم سنكمان وسكميان وسكم ووراغ وقزونت وتسمى هذه الخمسة في لسانهم تيربيعين، ومعناه عندهم الجماعة.

يزعمون أن محمداً لما هلك قام بأمره في قومه ابنه حمامة، وكان الأكبر ثم من بعده أخوه عسكر، وكان له من الولد ثلاثة: نكوم وأبو يكنى، ويلقب المخضب، وعلي ويلقب لاعدر.

ولما هلك قام برياسته فيهم ابنه المخضب فلم يزل أميراً عليهم إلى أن كان أمر الموحدين.

وزحف عبد المؤمن إلى تاشفين بن علي بن يوسف فحاصره بتلمسان.

وسرح الشيخ أبا حفص في العساكر لحرب زناتة بالمغرب الأوسط، وجمع له بنو بادين كلهم وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة ففض الموحدون جموعهم واستلحموا أكثرهم.

ثم راجع بنو يلومي وبنو بادين طاعتهم، وأخلص بنو عبد الواد في خدمتهم ولنصيحتهم.

ولحق بنو مرين بالقفر، فلما غلب عبد المؤمن على وهران واستولى على أموال لمتونة وبعث ذخيرتهم بتلك الغنائم إلى جبل تينملل حيث داره، ومن أين كان منبعث الدعوة.

وبلغ الخبر إلى بني مرين بمكانهم من الزاب، وشيخهم يومئذ المخضب بن عسكر، فأجمع اعتراضها بقومه ولحق العير بوادي تلاغ، فاحتازها من أيدي الموحدين.

واستنفر عبد المؤمن لاستنقاذها أولياءه من زناتة، وسرحهم مع الموحدين لذلك، فأبلى بنو عبد الواد فيها بلاء حسناً.

وكان اللقاء في فحص مسون، وانكشف بنو مرين، وقتل المخضب بن عسكر، واكتسح بنو عبد الواد حللهم، وذلك سنة أربعين وخمسماية فلحق بنو مرين بعدها بصحرائهم، ومجالات قفرهم، وقام بأمرهم من بعد المخضب أبو بكر ابن عمه حمامة ابن محمد إلى أن هلك، فقام بأمره ابنه محيو، ولم يزل مطاعاً فيهم إلى أن استنفرهم المنصور لغزاة الأركة، فشهدوها وأبلوا البلاء الحسن وأصابت محيو يومئذ جراحة انتقضت عليه مرجعه منها، فهلك بصحراء الزاب سنة إحدى وتسعين وخمسماية.

وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده، وبقائها في عقبه ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن أمارة عبد الحق بن محيو المستقرة في بنيه وإمارة ابنه عثمان من بعده ثم أخيه محمد بن عبد الحق بعدهما وما كان فيها من الأحداث

لما هلك محيو بن أبي بكر بن حمامة من جراحته كما قلناه، وكان له من الولد عبد الحق ووسناف ويحياتن.

وكان عبد الحق أكبرهم، فقام بأمر بني مرين، وكان خير أمير عليهم قياماً بمصالحهم وتعففاً عما في أيديهم، وتقويماً لهم على الجادة ونظراً في العواقب، واستمرت أيامهم.

ولما هلك الناصر رابع خلفاء الموحدين بالمغرب سنة عشر وستماية مرجعه من غزاة العقاب، وقام بأمر الموحدين من بعده ابنه يوسف المستنصر، نصبه الموحدون للأمر غلاماً لم يبلغ الحلم.

وشغلته أحوال الصبا وجنونه عن القيام بالسياسة وتدبير الملك، فأضاع الحزم وأغفل الأمور وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه ونفس عن مخنقهم من قبضة الاستبداد والقهر، فضاعت الثغور وضعفت الحامية وتهاونوا بأمرهم، وفشلت ريحهم.

وكان هذا الحي لذلك العهد بمجالات القفار، من فيكيك إلى صا وملوية كما قدمناه من شأنهم.

وكانوا يطرقون في صعودهم إلى التلول والأرياف منذ أول دولة الموحدين وما قبلها جهات كرسيف إلى وطاط، ويأنسون بمن هنالك من بقايا زناتة الأولى: مثل مكناسة بجبال تازى، وبني يرنيان من مغراوة الموطنين قصور وطاط من أعالي ملوية فيتقلبون بتلك الجهات عام المربع والمصيف، وينحدرون إلى مشاتيهم بما امتاروه من الحبوب لأقواتهم.

فلما رأوا من اختلال بلاد المغرب ما رأوا انتهزوا فيها الفرصة، وتخطوا إليها القفر، ودخلوا ثناياه، وتفرقوا في جهاته وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم ولجأت الرعايا إلى معتصماتهم ومعاقلهم، وكثر شاكيهم وأظلم الجو بينهم وبين السلطان والدولة، فآذنوهم بالحرب وأجمعوا لغزوهم وقطع دابرهم.

وأغرى الخليفة المستنصر عظيم الموحدين أبا علي بن وانودين بجميع العساكر والحشود من مراكش، وسرحه إلى السيد أبي إبراهيم ابن أمير الموحدين يوسف بن عبد المؤمن بمكانه من إمارة فارس وأوعز إليه أن يخرج لغزو بني مرين، وأمره أن يثخن ولا يستبقي.

واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوية، فتركوا أثقالهم بحصن تازوطا، وصمدوا إليهم.

والتقى الجمعان بوادي نكور، فكان الظهور لبني مرين والدبرة على الموحدين وامتلأت الأيدي من أسلابهم وأمتعتهم، ورجعوا إلى تازى وفاس عراة يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة يوارون به سوآتهم لكثرة الخصب عامئذ، واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقلا حتى لقد سميت الواقعة يومئذ بعام المشعلة.

وصمد بنو مرين بعدها إلى تازى، ففلوا حاميتها أخرى. ثم اختلفت بنو محمد ورؤساؤهم وانتبذ عنهم من عشائرهم بنو عسكر بن محمد، لمنافسة وجدوها في أنفسهم من استقلال بني عمهم حمامة بن محمد بالرياسة دونهم، بعد أن كان أومض عندهم منها في عسكر، وابنه المخضب إيماض من أخلف بارقه.

فحالفوا عبد الحق أميرهم وقومه إلى مظاهرة أولياء الموحدين، وحامية المغرب من قبائل رياح الموطنين بالهبط وأزغار لحديث عهدهم بالتوحش والعز منذ إنزال المنصور إياهم بذلك القطر من إفريقية، فتحيزوا إليهم وكاثروهم على قومهم وصمدوا جميعاً للقاء بني مرين سنة أربع عشرة وستمائة، ودارت بينهم حرب تولى الصبر مقامها وهلك فيها أميرهم عبد الحق وكبير بنيه إدريس وتذامر لمهلكها بنو مرين وجلى تلك الحومة حمامة بن يصليتن من بني عسكر، والأمير ابن محيو السكمي فانكشفت رياح آخراً، وقتل منهم أبطال.

وولى بنو مرين عليهم بعد مهلك عبد الحق ابنه عثمان تلو إدريس، وشهرته بينهم أدرغال، ومعناه برطانتهم الأعور.

وكان لعبد الحق من الولد عشرة، تسعة ذكور وأختهم ورتطليم: فإدريس وعبد الله ورحو لامرأة من بني علي اسمها سوط النساء، وعثمان ومحمد لامرأة من بني ونكاسن اسمها النوار بنت تصاليت، وأبو بكر لامرأة من بني تنالفت وهي تاغزونت بنت أبي بكر بن حفص، وزيان لامرأة من بني ورتاجن، وأبو عياد لامرأة من بني دللو إحدى بطون عبد الواد واسمها أم الفرج، ويعقوب لأم اليمن بنت محلى من بطوية.

وكان أكبرهم إدريس الهالك مع أبيه عبد الحق، فقام بأمر بني مرين من بعد عبد الحق ابنه عثمان، بايعه لوقته حمامة بن يصليتن ولمير بن محيو ومن إليهما من مشيخة قومها واتبعوا منهزمة رياح وأثخنوا فيهم.

وثار عثمان بأبيه وأخيه حتى شفا نفسه منهم ولاذوا بالسلم، فسالمهم على أتاوة يؤدونها إليه وإلى قومه كل سنة.

ثم استشرى من بعد ذلك داء بني مرين وأعضل خطبهم، وكثر الثوار بالمغرب، وامتنع عامة الرعايا عن المغرم، وفسدت السابلة.

واعتصم الأمراء والعمال من السلطان فيمن دونه بالأمصار والمدن، وغلبوا أولئك على الضاحية وتقلص ظل الحكام عن البدو جملة.

وافتقد بنو مرين الحامية دون الوطن والدفاع، فمدوا إلى البلاد يداً.

وسار بهم أميرهم أبو سعيد عثمان بن عبد الحق في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه، ويضع المغارم على أهله حتى دخل أكثرهم في أمره، فبايعه من الظواعن الشاوية والقبائل الآهلة: هوارة وزكارة، ثم تسول ومكناسة، ثم بطوية وقشتالة، ثم سدراتة، وبهلولة ومديونة ففرض عليهم الخراج وألزمهم المغارم، وفرق فيهم العمال ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس وتازى ومكناسة وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها إليه على رأس كل حول، على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم.

ثم غزا ظواعن زناتة سنة عشرين وستمائة، وأثخن فيهم حتى أذعنوا، وقبض أيديهم عما امتدت إليه من الفساد والنهب.

وعطف بعدها على رياح أهل أزغار والهبط وأثار به بأبيه، فأثخن فيهم وأبادهم ولم يزل دأبه ذلك إلى أن هلك باغتيال علجة سنة سبع وثلاثين وستمائة.

وقام بأمر بني مرين من بعده أخوه محمد بن عبد الحق، فتقبل سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم والوضائع من ظواعنه وبدوه وسائر رعاياه وبعث الرشيد أبا محمد بن وانودين لحربهم وعقد له على مكناسة، فدخلها وأجحف بأهلها في المغارم.

ثم نزل بنو مرين بتبجد وغير من ضواحيها، فنادى في عساكره وخرج إليهم، فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين.

وبارز محمد بن إدريس بن عبد الحق قائداً من الروم، واختلفا ضربتين هلك العلج بإحداهما، وانجرح محمد في وجهه بالأخرى واندمل جرحه، فصار أثر في وجهه لقب من أجله أبا ضربة.

ثم شد بنو مرين على الموحدين، فانكشفوا ورجع ابن وانودين إلى مكناسة مفلولاً وبقي بنو عبد المؤمن أثناء ذلك في مرض من الأيام، وتثاقل عن الحماية ثم أومضت دولتهم آخراً إيماض الخمود.

وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستماية، وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد، وبايعه أهل المغرب، انصرفت عزائمه إلى غزو بني مرين، وقطع أطماعهم عما سمت إليه من تملك الوطن، فأغزى عسكر الموحدين لقتالهم، ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الروم.

فنهضوا سنة اثنتين وأربعين وستمائة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفاً فيما زعموا.

وزحف إليهم بنو مرين بوادي ياباش، وصبر الفريقان، وهلك الأمير محمد بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الروم.

وانكشفت بنو مرين واتبعهم الموحدون، ودخلوا تحت الليل، فلحقوا بجبال غياثة من نواحي تازى واعتصموا بها أياماً.

ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء، وولوا عليهم أبا يحيى بن عبد الحق، فقام بأمرهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دولة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق مديل الأمر لقومه بني مرين وفاتح الأمصار ومقيم الرسوم الملوكية من الآلة وغيرها لمن بعده من أمرائهم

لما ولي أبو يحيى بن عبد الحق أمر بني مرين سنة اثنتين وأربعين وستمائة، كان من أول ما ذهب إليه ورآه من النظر لقومه، أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين عشائر بني مرين وأنزل كلاً منهم في ناحية تسوغها سائر الأيام طعمة فاستركبوا الرجل أتباعهم، واستلحقوا من غاشيتهم، وتوفرت عساكرهم.

ثم نبضت نار المنافسة بين أحيائهم، وخالف بنو عسكر جماعتهم، وصاروا إلى الموحدين، فحرضوهم على أبي يحيى بن عبد الحق وبني حمامة وأغروهم بهم وبعثوا الصريخ إلى يغمراسن بن زيان، فوصل في قومه إلى فاس واجتمعوا جميعاً إلى قائد الموحدين، وأعطوا الرهن على صدق البلاء في الأمير أبي يحيى وأتباعه، وصمدوا إليه حتى انتهوا إلى ورغة، ثم إلى كرت، وأعجزهم فانكفؤوا راجعين إلى فاس.

ونذر يغمراسن بغدر الموحدين، فخرج في قومه مع أوليائه بني عسكر، وعارضهم الأمير أبو يحيى بوادي سبو، فلم يطق حربهم، ورجع عنهم عسكر الموحدين بما صرخ في معسكرهم من موت الخليفة السعيد.

ثم بعثوا إليه لملاطفتهم في الفيئة إلى الطاعة ومذاهب الخدمة، القائد عنبر الخصي مولى الخليفة في حصة من الروم والناشبة، فتقبض عليهم بنو عسكر وتمسكوا بهم في رهنهم، وقتلوا كافة النصارى، فأطلق أبناءهم ولحق يغمراسن وقومه بتلمسان، ثم رجع بنو عسكر إلى ولاية أميرهم أبي يحيى، واجتمع بنو مرين لشأنهم وتملكوا الأعمال.

ثم مدوا عينهم إلى تملك الأمصار، فنزل أبو يحيى بجملته جبل زرهون، ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب إفريقية، لما كان يومئذ على دعوته وفي ولايته، فحاصرها وضيق عليها بقطع المرافق وترديد الغارات ومعاودة الحرب، إلى أن أذعنوا لطاعته، فافتتحها صلحاً بمداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبي الحسن بن أبي العافية.

وبعثوا بيعتهم إلى الأمير أبي زكرياء، وكانت من إنشاء أبي المطرف بن عميرة، وكان قاضياً فيهم يومئذ، فأقطع السلطان ليعقوب ثلث جبايتها، ثم أحس الأمير أبو يحيى بن عبد الحق من نفسه الاستبداد، ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة.

وبلغ الخبر إلى السعيد بتغلبه على مكناسة وصرفها إلى دعوة ابن أبي حفص، فوجم لها وفاوض الملأ من أهل دولته في أمره، وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئاً فشيئاً: فابن أبي حفص اقتطع إفريقية، ثم يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الأوسط، وأقاموا فيها دعوة ابن أبي حفص، وأطمعوه في الحركة إلى مراكش بمظاهرتهم.

وابن هود اقتطع عدوة الأندلس، وأقام فيها دعوة بني العباس، وابن الأحمر في الجانب الآخر مقيم لدعوة ابن أبي حفص.

وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب، ثم سموا إلى تملك الأمصار، ثم افتتح أميرهم أبو يحيى مكناسة وأظهر فيها دعوة ابن أبي حفص، وجاهر بالاستبداد، ويوشك إن رضينا هذه الدنية، وأغضينا عن هذه الواقعات أن يختل الأمر أو تنقرض الدعوة، فتدامروا وامتعضوا وتداعوا للصمود إليه.

فجهز السعيد عساكره، واحتشد عرب المغرب وقبائله، واستنفر الموحدين والمصامدة، ونهض من مراكش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة: وبني مرين أولاً، ثم تلمسان ويغمراسن ثانياً، ثم إفريقية وابن أبي حفص آخراً، واعترض العساكر والحشود بوادي بهت.

ووصل الأمير أبو يحيى إلى معسكره متوارياً عنهم عيناً لقومه، حتى صدقهم كنه الخبر، وعلم أن لا طاقة له بهم، فأفرج عن البلاد، وتناذر بنو مرين بذلك من أماكنهم، فتلاحقوا به واجتمعوا إليه بتازوطا من بلاد الريف.

ونزل سعيد مكناسة، ولاذ أهلها بالطاعة، وسألوا العفو عن الجريرة، واستشفعوا بالمصاحف، برز بها الأولاد على رؤوسهم، وانتظموا مع النساء في صعيد حاسرات منكسرات الطرف من الخشوع ووجوم الذنب والتوسل، فعفا عنهم وتقبل فيئهم، وارتحل إلى تازى في اتباع بني مرين.

واجمع بنو أوطاس الفتك بأبي يحيى بن عبد الحق غيرة ومنافسة، ودس إليه بذلك مهيب من مشيختهم، فترحل عنهم إلى بلاد بني يزناسن، ونزل بعين الصفا.

ثم راجع نظره في مسالمة الموحدين والفيئة إلى أمرهم ومظاهرتهم على عدوهم يغمراسن وقومه من بني عبد الواد، ليكون فيها شفاء نفسه منهم، فأوفد مشيخة قومه عليه بتازى، فأدوا طاعته وفيئته، فتقبلها وصفح لهم عن الجرائر التي أتوها، وسألوه أن يستكفي بالأمير أبي يحيى في أمر تلمسان ويغمراسن، على أن يمده بالعساكر رامحة وناشبة.

فاتهمهم الموحدون وحذروا منهم غائلة العصبية، فأمرهم السعيد بالعسكرة معه فأمده الأمير أبو يحيى بخمسماية من قبائل بني مرين.

وعقد عليهم لابن عمه أبي عياد بن يحيى بن أبي بكر بن حمامة، وخرجوا تحت رايات السلطان، ونهض من تازى يريد تلمسان وما وراءها، وكان من خبر مهلكه على جبل تامزيزدكت بيد بني عبد الواد ما ذكرناه في أخبارهم.

ولما هلك وانفضت عساكره متسابقين إلى مراكش، وجمهورهم مجتمعون إلى عبد اللّه بن الخليفة السعيد ولي عهده، وتحت رايات أبيه، وطار الخبر بذلك إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، وهو بجهات بني يزناسن، وقد خلص إليه هنالك ابن عمه أبو عياد.

وبعث بني مرين من تيار تلك الصدمة، فانتهز الفرصة وأرصد لعسكر الموحدين وفلهم بكرسيف، فأوقع بهم وامتلأت أيدي بني مرين من أسلابهم، وانتزعوا الآلة من أيديهم.

وأصار إلى كتيبة الروم والناشبة من الغزو، واتخذ الموكب الملوكي، وهلك الأمير عبد اللّه بن السعيد في جوانب تلك الملحمة، ويئسوا للموحدين بعدها من الكرة.

ونهض الأمير أبو يحيى وقومه إلى بلاد المغرب مسابقين إليه يغمراسن بن زيان بما كان ملوك الموحدين أوجدوهم السبيل إلى ذلك باستجاشة على بني مرين أيام فتنتهم معهم، فكانوا يبيحونه حرم المغرب ويوطئونه عساكر قومه ما بين تازى إلى فاس، إلى القصر مع عساكر الموحدين، فكان ليغمراسن وقومه بذلك طمع فيها لولا ما كبحهم فأس بني مرين وجدع من أنوفهم.

وكان أول ما بدأ به أبو يحيى بن عبد الحق أعمال وطاط،

فافتتح حصونهم بملوية ودوخ جبلهم.

ثم رحل إلى فاس، وقد أجمع أمره على انتزاعها من ملكة بني عبد المؤمن، وإقامه الدعوة لابن أبي حفص بها وبسائر نواحيها، والعامل بها يومئذ السيد أبو العباس، فأناخ عليها بركابه، وتلطف في مداخلة أهلها، وضمن لهم جميل النظر وحميد السياسة، وكف الأيدي عنهم، والحماية لهم بحسن المغبة، وصالح العائدة، فأجابوه ووثقوا بعهده وعنائه، وآووا إلى ظله وركنوا إلى طاعته، وانتحال الدعوة الحفصية بأمره، ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن يأساً من صريخهم وكثرتهم.

وحضر أبو محمد القشتالي، وأشهده اللّه على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم، وحسن الملكة والكفالة، وتقبل مذاهب العدل فيهم، فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التي يعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة، وكانت البيعة بالرابطة خارج باب الفتوح.

ودخل إلى قصبة فاس لشهرين اثنين من مهلك السعيد، فاتح ست وأربعين وستماية، وأخرج السيد أبا العباس من القصبة، وبعث معه خمسين فارساً أجازوه أم ربيع ورجعوا، ثم نهض إلى منازلة تازى، وبها السيد أبو علي، فنازلها أربعة أشهر، ثم نزلوا على حكمه، فقتلهم ومن على آخرين منهم، وسد ثغرها، وثقف أطرافها، وأقطع رباط تازى وحصون ملوية لأخيه يعقوب بن عبد الحق.

ورجع إلى فاس، فوفد عليه بها مشيخة أهل مكناسة، وجددوا بيعتهم وعاودوا طاعتهم، ولحق بهم على أثرهم أهل سلا ورباط الفتح، فتملك الأمير أبو يحيى هذه البلاد الأربعة أمهات أمصار المغرب، واستولى على نواحيها إلى وادي أم ربيع، فأقام فيها دعوة ابن أبي حفص، وبعث بها إليه.

واستبد بنو مرين بملك المغرب الأقصى، وبنو عبد الواد بملك المغرب الأوسط، وبنو أبي حفص بإفريقية، وخمد ذبال آل عبد المؤمن، وركدت ريحهم، وآذنت بالانقراض دولتهم، وأشرف على الفناء أمرهم.

وإلى اللّه عاقبة الأمور.

الخبر عن انتقاض أهل فاس على أبي يحيى بن عبد الحق وظفره بهم بعد إيقاعه بيغمراسن وقومه بأيسلي

لما ملك الأمر أبو يحيى بن عبد الحق بمدينة فاس سنة ست وأربعين وستماية، استولى على بلاد المغرب بعد مهلك السعيد.

وقام بأمر الموحدين بمراكش أبو حفص عمر لمرتضى بن السيد أبي إبراهيم إسحاق الذي كان قائد عسكر الموحدين في حربهم مع بني مرين عام المشغلة، ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، كان السعيد تركه والياً بقصبة رباط الفتح من سلا، فاستدعاه الموحدون وبايعوه بيعة الخلافة، وقام بأمرهم.

فلما تغلب الأمير أبو يحيى على بلاد المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرناه، خرج إلى بلاد فازاز والمعدن لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها، واستعمل على فاس مولاه السعود بن خرباش، من جماعة الحشم أخلاف بني مرين وصنائعهم.

وكان الأمير أبي يحيى استبقى بها من كان فيها من عسكر الموحدين من غير عيصهم في السبيل التي كانوا عليها من الخدمة.

وكان فيهم طائفة من الروم، استخدمهم إلى نظر قائدهم شأنه، وكانوا من حصة السعود هنالك.

ووقعت بينهم وبين شيع الموحدين من أهل البلد مداخلة، وفتكوا بالسعود عاملهم وقلبوا الدعوة للمرتضى الخليفة بمراكش سكيت الحلبة ومخلف المضمار.

وكان المتولي لكبر تلك الثورة ابن حشار المشرف وأخوه وابن أبي طاطو وابنه، اجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المغيلي، زعيم فئة الشورى بينهم يومئذ وتوامروا فيها، وأغروا قائد الروم بقتل السعود، وعدوا عليه بمقعد حكمه من القصبة، وهاجوه ببعض المحاورات فغضبت ووثب عليه الرومي، فقتله وطاف برأسه الهاتف بسكك المدينة في شوال سنة سبع وأربعين وستماية، وانتهبت داره، واستبيحت حرمه، ونصبوا قائد الروم لضبط البلد، وبعثوا بيعتهم إلى المرتضى.

واتصل الخبر بالأمير أبي يحيى، وهو منازل بلد فازاز، فأفرج عنها، وأغذ السير إلى فاس، فأناخ بعساكره عليها، وشمر لحصارها، وقطع السابلة عنها.

وبعثوا إلى المرتضى بالصريخ، فلم يرجع إليهم قولاً، ولا ملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولا وجه لما نزل بهم وجهاً، حاشا إنه

استجاش بالأمير أبي يحيى يغمراسن بن زيان على أمره، وأغراه بعدوه، وأمله لكشف هذه النازلة عمن انحاش إلى طاعته.

وتعلقت أطماع يغمراسن بطروق بلاد المغرب، فاحتشد لحركته، ونهض من تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي يحيى عن فاس، وإجابة صريخ الخليفة لذلك.

وبلغ الأمير أبا يحيى خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته البلد، فجمر الكتائب عليها، صمد إليه قبل وصوله من تخوم بلاده، والتقى الجمعان بايسلى من بسائط وجدة، فتزاحف القوم وأبلوا، وكانوا ملحمة عظيمة، هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد إبراهيم بن هشام من بني عبد الواد.

ثم انكشف بنو عبد الواد، وهلك يغمراسن بن تاشفين من أكابر مشيختهم، ونجا يغمراسن بن زيان إلى تلمسان.

وانكفأ الأمير أبو يحيى إلى معسكره للأخذ بمخنق فاس، فسقط في أيدي أهلها، ولم يجدوا وليجة من دون طاعته، فسألوا الأمان، وبذله لهم على غرم ما تلف له من المال بداره يوم الثورة، وقدره مائة ألف دينار، فتحملوها وأمكنوه من قياد البلد، فدخلها في جمادى من سنة ثمان وأربعين وستماية.

وطالبهم بالمال، فعجزوا ونقضوا شرطه، فحق عليهم القول.

وتقبض على القاضي أبي عبد الرحمن وابن أبي طاطو وابنه، وابن حشار وأخيه المتولين كبر الفعلة فقتلهم، ورفع على الشرفات رؤوسهم، وأخذ الباقين بغرم المال طوعاً أو كرهاً، فكان ذلك مما عبد رعية فاس وقادهم لأحكام بني مرين، وضرب الرهب على قلوبهم لهذا العهد، فخشعت منهم الأصوات وانقادت الهمم، ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة.

والله مالك الأرض ومن عليها.

الخبر عن تغلب الأمير أبي يحيى على مدينة سلا وارتجاعها من يده وهزيمة المرتضى بعدها

لما كمل للأمير أبي يحيى فتح مدينة فاس، واستوسق أمر بني مرين بها، رجع إلى ما كان فيه من منازلة بلاد فازاز فافتتحها.

ودوخ أوطان زناتة، واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين فيها.

ثم تخطى إلى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستماية، فملكها وتاخم الموحدين بثغرها.

واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله ابن عبد الحق، وعقد له على ذلك الثغر، وضم إليه الأعمال.

وبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى، فأهمه الشأن.

وأحضر الملأ من الموحدين وفاوضهم، واعتزم على حرب بني مرين.

وسرح العساكر سنة خمسين وستماية، فأحاطت بسلا، فافتتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى.

وعقد عليها لأبي عبد الله بن أبي يعلو من مشيخة الموحدين.

وكان المرتضى قد صمد بنفسه سنة تسع وأربعين وستماية إلى محاربة بني مرين في جموع الموحدين وعساكر الدولة، صمد بنو مرين للقائه.

والتقى الجمعان بإيملولين، ففضوا جموعه، وكانت الدبرة عليه والظهور لهم.

ثم كان بعدها فتح سلا، وغلب الموحدين عليها.

وأجمع المرتضى بعدها على احتشاد أهل سلطانه، ومعاودة الخروج بنفسه إلى غزوهم لما خشي من امتداد أمرهم.

وتقلص ملك الموحدين، فعسكر خارج حضرته سنة ثلاث وخمسين وستمائة وبعث الحاشرين في الجهات، فاجتمع إليه أمم الموحدين والعرب والمصامدة.

وأغذ السير تلقاءهم، حتى إذا انتهى إلى جبال بهلولة من نواحي فاس، وصمد إليه الأمير أبو يحيى في عساكر بني مرين، ومن اجتمع إليهم من دونهم، والتقى الجمعان هنالك.

وصدقهم بنو مرين القتال، فاختل مصاف السلطان، وانهزمت عساكره وأسلمه قومه، ورجع إلى مراكش مفلولاً.

واستولى القوم على معسكره واستاحوا سرادقه وفساطيطه، وانتهبوا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة واستاقوا سائر الكراع والظهر، وامتلأت أيديهم من الغنائم، واعتز أمرهم وانبسط سلطانهم، وكان يوماً له ما بعده.

وأغرى أثر هذه الحركة عساكر بني مرين تادلا واستباح بني جابر حاميتها من جشم ببلد أبي نفيس، واستلحم أبطالهم، وألان من حدهم، وخضد من شوكتهم.

وفي أثناء هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق، وهو ابن أخي الأمير أبي يحيى، شعر منه بفساد الدخلة والاجتماع للتوثب به، فدس لابنه أبي حديد مفتاح بقتله، بجهات مكناسة سنة إحدى وخمسين وستمائة والله تعالى أعلم.

والله تعالى أعلم.

الخبر عن فتح سجلماسة وبلاد القبلة وما كان في ذلك من الأحداث

لما يئس بنو عبد المؤمن من غلبهم بني مرين على ما صار في أيديهم من بلاد المغرب وعادوا إلى مدافعتهم عن صبابة الدولة التي تحلبت إياها شفاههم لو أطاقوا المدافعة عنها وملك بنو مرين عامة بلاد التلول، اعتزم الأمير أبو يحيى بعدها على الحركة إلى بلاد القبلة ففتح سجلماسة ودرعة وما إليها سنة ثلاث وخمسين وستمائة فافتتحها بمداخلة من ابن القطراني، غدر بعامل الموحدين فتقبض عليه، وأمكن منها الأمير أبا يحيى فملكها، وما إليها من درعة سائر بلاد القبلة، وعقد عليها لابنه أبي حديد.

وبلغ الخبر إلى المرتضى فسرح العساكر سنة أربع وخمسين وستمائة لاستنقاذها، وعقد عليهم لابن عطوش من مشيخة الموحدين، فأغذ الأمير أبو يحيى السير إليها وابنه أبو حديد مفتاح.وأحس به ابن عطوش.ففر راجعاً إلى مراكش، ثم نهض سنة خمس وخمسين وستمائة إلى محاربة يغمراسن ولقيه بأبي سليط، فأوقع به واعتزم على اتباعه، فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن فرجع.

ولما انتهى إلى المقرمدة هذه، بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة من بعض أهلها أطمعته في ملكها، فاغذ السير إليها بجموعه، ودخلها. ولصبيحة دخوله وصل يغمراسن لشأنه، فلما علم بمكان أبي يحيى من البلد سقط في يده ويئس من غلابه، ودارت بينهم حرب تكافيا فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي يحيى، وانقلب يغمراسن إلى بلده، وعقد الأمير أبو يحيى على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن، واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وداود بن يوسف، وانكفأ راجعاً إلى فاس.

والله تعالى أعلم.

الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى وما كان أثر ذلك من الأحداث التي تمخضت عن استبداد أخيه يعقوب بن عبد الحق بالأمر

لما رجع الأمير أبو يحيى من حرب يغمراسن بسجلماسة، أقام أياماً بفاس.

ثم نهض إلى سجلماسة متفقداً لثغورها، فانقلب منها عليلاً، وهلك حتف أنفه على سرير ملكه في رجب سنة ست وخمسين وستمائة أمضى ما كان عزماً، وأطول إلى تناول الملك يداً.

اختطفته يد المنون عن شأنه ودفن بمقبرة باب الفتوح من فاس، ضجيعاً للمولى أبي محمد القشتالي كما عهد لأهل بيته.

وتصدى للقيام بأمره ابنه عمر واشتمل عليه عامة قومه.

ومالت المشيخة وأهل الحل والعقد إلى عمه يعقوب بن عبد الحق، وكان غائباً عن مهلك أخيه بتازى، فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر.

وأحس عمر بصاغية الناس إليه، وحرضه أتباعه على الفتك بعمه، فاعتصم بالقصبة، وسعى الناس في الإصلاح بينهما، فتفادى يعقوب عن الأمر، ودفعه إلى ابن أخيه، على أن يكون له بلاد تازى وبطوية وملوية، ولما لحق بتازى واجتمع إليه كافة بني مرين، عذلوه فيما كان منه فاستلام، وحملوه على العودة في الأمر، ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والمؤازرة فأجاب، وبايعوه وصمد إلى فاس، وبرز عمر للقائه فانتهى إلى المسجدين، ولما تراءى الجمعان خذله جنوده وأسلموه، فرجع إلى فاس مفلولاً، وجه الرغبة إلى عمه أن يقطعه مكناسة ونزل له عن الأمر، فأجابه إلى ذلك، ودخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة وتمشت طاعته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وسجلماسة وقصر كتامة.

واقتصر عمر على إمارة مكناسة فتملكها أياماً ثم اغتاله من عشيره عمر وإبراهيم ابنا عمه عثمان بن عبد الحق والعباس ابن عمه محمد بن عبد الحق فقتلوه وثاروا منه بدم كانوا يعتدونه عليه.

وهلك لعام وبعض عام من إمارته، فكفى يعقوب شأنه واستقام سلطانه، وذهب المنازع والمشاق عن أمره.

وكان يغمراسن بعد مهلك قرنه الأمير أبي يحيى سما له الأمل في الأجلاب على المغرب، فجمع لذلك قومه واستجاش بني توجين ومغراوة وأطمعهم في غيل الأسود ونهضوا إلى المغرب

حتى انتهوا إلى كلدامان وصمد السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى لقائهم فغلبهم ورجعوا على تعبية، ومر يغمراسن ببلاد بطوية فأحرق وانتسف واستباح وأعظم فيها النكاية.

ورجع السلطان إلى فاس وتقبل مذهب أخيه الأمير أبي يحيى في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره.

وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي النصارى، فكان له بها أثر جميل وذكر خالد، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فجاءة العدو مدينة سلا واستنقاذها من أيديهم

كان يعقوب بن عبد الله قد استعمله عمه الأمير أبو يحيى على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه.

فلما استرجعها الموحدون من يده أقام يتقلب في جهاتها مرصداً لأهلها وحاميتها.

ولما بويع عمه يعقوب بن عبد الحق أسفته بعض الأحوال، فذهب مغاضباً حتى نزل غبولة، والطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدها ذريعة لما أسر في نفسه، فتمت له الحيلة، وركب عاملها ابن يعلو البحر فاراً إلى أزمور وخلف أمواله وحرمه فتملك يعقوب بن عبد الله البلد وجاهر بالخلعان، وصرف إلى منازعة عمه السلطان أبي يوسف وجوه العزم، وداخل تجار الحرب في الإمداد بالسلاح.

فتحاوروا في ذلك وكثرت سفر المترددين بينهم، حتى كثروا أهلها واهتبلوا يوم الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند شغل الناس بعيدهم.

وثاروا بسلا، وسبوا الحرم وانتهبوا الأموال، وضبطوا البلد وامتنع يعقوب بن عبد الله برباط الفتح، وطار الصريخ إلى السلطان أبي يوسف، وكان بتازى متشرفاً لأحوال يغمراسن، فنادى في قومه، وطاروا بأجنحة الخيول ووصلها ليوم وليلة، وتلاحقت به أمداد المسلمين من أهل الديوان والمطوعة.

ونازلها أربع عشرة ليلة، ثم اقتحمها عليهم عنوة، وأثخن فيهم بالقتل، ثم رم بالبناء ما كان متثلماً من سورها الغربي حيث أمكنت منه الفرصة في البلد وتناول البناء فيه بيده والله لا يضيع عمل عامل.

وخشي يعقوب بن عبد الله بادرة السلطان، فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه.

ثم نهض إلى بلاد تامسنا وأنفى، فملكها وضبطها ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة، فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته.

وسار إلى لقاء يغمراسن لقاء المهادنة، فلقيه بوادي محرمان وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب، ورجع السلطان إلى المغرب فخرج عليه بنو أخيه أولاد إدريس، ولحقوا بقصر كتامة، شايعوا يعقوب ابن عمهم عبد الله على راية.

واجتمعوا إلى كبيرهم محمد بن إدريس فيمن إليهم من العشير والصنائع، فنهض إليهم واعتصموا بجبال غمارة، ثم استنزلهم واسترضاهم وعقد لعامر بن ادريس سنة ستين وستمائة على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المطوعة من بني مرين، وأغراهم إلى العدوة لجهاد العدو وحملهم، وفرض لهم وشفع بها عمله في واقعة سلا وهو أول جيش أجاز من بني مرين، فكان لهم في الجهاد والمرابطة مقامات محمودة وذكر خالد تقبل سبيلهم فيها خلفهم من بعدهم حسبما نذكره.

وأقام يعقوب بن عبد الله خارجاً بالنواحي متنقلاً في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلّى بساقيه غبولة من ناحية سلا سنة ثمان وستين وستمائة فكفى السلطان شأنه.

وكان المرتضى من توالت عليهم الوقائع واستمر الظهور لبني مرين المحجز في جدرانه وتوارى بالأسوار عن عدوه، فلم يسم إلى لقاء زحف ولا حدث نفسه إلى شهود حرب، واستأسد بنو مرين على الدولة وشرهوا إلى التهام البقية، وأسفوا إلى منازلة مراكش دار الخلافة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن منازلة السلطان أبي يوسف حضرة مراكش دار الخلافة وعنصر الدولة وما كان أثر ذلك من نزوع أبي دبوس إليه وكيف نهبه للأمر وكان مهلك المرتضى على يده ثم انتقض عليه

لما فرغ السلطان من شأن الخوارج عليه من عشيره، استجمع لمنازلة المرتضى والموحدين في دارهم، ورأى أنه أوهن لدولتهم وأقوى لأمره عليهم.

وبعث قومه واحتشد أهل ممالكه، واستكمل تعبيته وسار

حتى انتهى إلى إيكليز فاعتزم على ذلك سنة ستين وستمائة وشارف دار الخلافة، ثم نزل بقعرها وأخذ بمختنقها.

وعقد المرتضى على حربهم للسيد أبي العلاء إدريس المكنى بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، فعبأ كتائبه ورتب مصافه، وبرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة، فكانت بينهم حروب بعد العهد بمثلها، استشهد فيها الأمير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق، وكانوا يسمونه برطانتهم أيعجوب ففت مهلكه في عضدهم، وارتحلوا عنها إلى عملهم، واعترضتهم عساكر الموحدين بوادي أم ربيع، وعليهم يحيى بن عبد الله بن وانودين، فاقتتلوا في بطن الوادي وانهزمت عساكر الموحدين.

وكان في مسيل الوادي كدى تحسر عنها غمر الماء وتبدو كأنها أرجل، فسميت الواقعة بها أم الرجلين.

ثم سعى بعض سماسرة الفتن عند الخليفة المرتضى في ابن عمه وقائد حربه السيد أبي دبوس بطلبه الأمر لنفسه، وشعر بالسعاية فخشي بادرة المرتضى ولحق بالسلطان أبي يوسف مدخله إلى فاس من منازلته آخر سنة إحدى وستين وستمائة نازعاً إليه، فأقام عنده ملياً.

ثم سأل منه الإعانة على أمره بعسكر يمده وآلة يتخذها للملك، ومال يصرفه في ضروراته على أن يشركه في الغنيمة والفتح والسلطان، فأمده بخمسة آلاف من بني مرين، وبالكفاية من المال والمستجاد من الآلة وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل ممالكه ومن سواهم أن يكونوا يداً معه.

وسار في الكتائب حتى شارف الحضرة، ودس إلى أشياعه ومن يداخله من الموحدين في أمره، فثاروا بالمرتضى وأجهضوه عنها، فلحق بازمور مستجيشاً بصهره ابن عطوش.

ودخل أبو دبوس الحضرة في المحرم فاتح خمس وستين وستمائة وتقبض ابن عطوش عامل أزمور على المرتضى واقتاده أسيراً إلى أبي دبوس، فبعث مولاه مزاحماً احتز رأسه في طريقه، واستقل بالخلافة وصبابة آل عبد المؤمن.

ثم بعث إليه السلطان في الوفاء بالمشارطة، فعتا واستنكف، ونقض العهد وأساء الخطاب، فنهض إليه في جموع بني مرين وعساكر المغرب، فخام عن اللقاء وانحجز بمراكش، ونازله السلطان أياماً تباعاً ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزرع وينسف الأقوات.

وعجز أبو دبوس عن دفاعه، فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفت في عضده ويشغله من ورائه، ويأخذ بحجزته عن التهامه على ما نذكر لو أمهلته الأيام، وانفسح له الأجل.

الخبر عن وقيعة تلاغ بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان بإغراء أبي دبوس وتضريبه

لما نازل السلطان أبو يوسف حضرة مراكش وقعد على برائه للتوثب علمه، لم يجد أبو دبوس وليجة من دون قصده إلا استجاشته بيغمراسن وقومه عليه، ليأخذوا بحجزته عنه، ويشغلوه من ورائه.

فبعث إليه الصريخ في كشف بلواه ومدافعة عدوه، وأكد العهد وأسنى الهدية، فشمر يغمراسن لاستنقاذه وجذب عدوه من ورائه، وشن الغارات على ثغور المغرب وأضرمها ناراً فأهاج عليه وعلى قومه من السلطان يعقوب ليثاً عادياً، وأرهف منه عزماً ماضياً، وأفرج يعقوب على مراكش بعزم النهوض إلى تلمسان، ونزل بفاس، وتلوم بها أياماً حتى أخذ أهبة الحرب، وأكمل استعدادها ورحل فاتح ست وستين وستمائة وسلك على كرسيف، ثم على تافرطا، وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ، وعبأ كل منهم كتائبه ورتب مصافه، وبرز النساء سافرات الوجوه في سبيل التحريض يحيّن ويعدّين ويرّغبن ولما فاء الفيء ومال النهار، وكثر حشود المغرب جموع بني عبد الواد ومن إليهم، انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم.

وهلك أبو حفص عمر كبير والد يغمراسن وولي عهده في جماعة من عشيره، ذكرناهم في أخباره.

وأخذ يغمراسن بأعقاب قومه، فكان لهم ردءاً إلى أن خلصوا من المعترك ووصلوا إلى بلادهم في جمادى من سنتهم، وعاد السلطان أبو يوسف إلى مكانه من حصار مراكش والله أعلم.

الخبر عن السفارة والمهاداة التي وقعت بين السلطان يعقوب ابن عبد الحق وبين المستنصر الخليفة بتونس من آل أبي حفص

كان الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص منذ دعا لنفسه بتونس سنة خمس وعشرين وستمائة طموحاً إلى ملك مراكش مقر الدعوة ومنبعث الدولة وأصل الخلافة.

وكان يؤمل لذلك زناتة، وإلا فلما دونة من خضد شوكة آل عبد المؤمن، وتقليم أظافر بأسهم، وردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه، وتغلب على تلمسان سنة أربعين وستمائة ودخل يغمراسن بن زيان في دعوته وصار فئة له وشيعته على عدوه كما ذكرناه، فوصل به جناحه للمدافعة.

وناغاه بنو مرين في مراسلة ابن أبي حفص ومخاطبته، وتخفيض عليه فيما يهمه من شأن عدوه، وحمل ما يفتحون من بلاد المغرب على البيعة له والطاعة مثل: فاس ومكناسة والقصر.

وكان هويلاطفهم بالتحف والهدايا، ويريهم البر في الكتاب والخطاب والمعاملة وتكريم الوفد غير سبيل آل عبد المؤمن، فكانوا يجنحون بذلك إلى تجديد مراسلته، وإيفاد قرابتهم عليه.

وولي ابنه المستنصر من بعده سنة سبع وأربعين وستمائة فتقبل مذاهب أبيه وأوفي عليه بالإيعاز إليهم بمنازلة مراكش، وضمان الإنفاق عليهم فيها، فكان يبعث لذلك أحمالاً، من المال والسلاح وأعداد وافرة من الخيل بمراكبها للحملان، ولم يزل دأبه ذلك معهم.

ولما فعل ابن أبي دبوس فعلته في نقض العهد واستجمع السلطان لمنازلته، قدم بين يدي عمله مراسلة الخليفة المستنصر يخبره الخبر ويتلطف له في استنزال المدد، فأوفد عليه ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق، وأصحبه عبد اللّه بن كندوز لعبد الوادي كبير بني كمي، وقريع بني يغمراسن الذي ثار يغمراسن من أبيه كندوز بأبيه زيان كما ذكرناه في أخبارهم.

وكان خلص إليه من حضرة المستنصر فلقاه مبرة وتكريماً، وأوفد معهما الكاتب أبا عبد اللّه محمد بن محمد الكناني من صنائع دولة آل عبد المؤمن، كان نزع إلى أخيه الأمير أبي يحيى لما رأى من اختلال الدولة، وأنزله مكناسة وآثره بالصحبة والخلة، فجمع له يعقوب بن عبد الحق في هذا الوفد من الأشراف من يحسن الرياسة، ويعرب عما في الضمائر، ويدل على شرف مرسله.

فوفدوا على المستنصر سنة خمس وستين وستمائة وأدوا رسالتهم وحركوا له جوار المظاهرة على صاحب مراكش وكبح عنانه، فحسن واهتز سروراً من أعواده، ولقاهم مبرة التكريم وأحسن النزل، ورد الأمير عامر بن إدريس، وعبد اللّه بن كندوز لوقتهما.

وتمسك بالكناني من بينهم لمصاحبة وفده، فطال مقامه عنده إلى أن كان من فتح مراكش ما نذكره.

ثم أوفد المستنصر على السلطان يعقوب بن عبد الحق آخر سنة تسع وستين وستمائة بعدها شيخ الجماعة من الموحدين لعهده أبا زكريا يحيى بن صالح الهنتاتي مع جماعة من مشيخة الموحدين في مرافقة محمد الكناني، وبعث معهم إلى السلطان هدية سنية يلاطفه بها ويتاحفه، انتخب فيها من الجياد والسلاح وأصناف الثياب الغريبة العمل ما انتقاه.

ووقف رضاه وهمته على الاستكثار منه، فحسن موقعها وتحدث بها وانقلب وفده أحسن منقلب بعد أن تلطف محمد الكناني في ذكر الخليفة المستنصر على منبر مراكش، فتم له، وشهده وفد الموحدين فعظم سرورهم وانقلبوا محبورين مسرورين، واتصلت بعد ذلك مهاداة المستنصر ليعقوب بن عبد الحق إلى أن هلك، وجرى ابنه الواثق من بعده على سننه، فبعث إليهم سنة سبع وسبعين وستمائة هدية حافلة، بعث بها القاضي أبا العباس الغماري قاضي بجاية فعظم موقعها، وكان لأبي العباس الغماري بالمغرب ذكر تحدث به الناس واللّه أعلم.

الخبر عن فتح مراكش ومهلك أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين من المغرب

لما رجع السلطان أبو يوسف من حرب يغمراسن ورأى أنه قد كف من غربه ورد من كيده وكيد أبي دبوس صريخه، صرف حينئذ عزائمه إلى منازلة مراكش، والعودة إلى مضايقتها كما كان لأول أمره، ونهض لغزاته من فاس في شعبان من سنته.

ولما أجاز أم الربيع، بث السرايا وسرح الغارات، وأطلق الأيدي والأعنة للنهب، فحطموا من زروعها وانتسفوا آثارها، وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه.

ثم غزا عرب الخلط من حشم بتادلا، فأثخن فيهم واستباحهم.

ثم نزل وادي العبيد، ثم غزا بلاد صنهاجة، ولم يزل يتنقل ركابه بأنحاء البلاد المراكشية وأحوازها حتى حصرت صدور بني عبد المؤمن وقومه، وأغراهم أولياء الدولة من عرب جشم بنهوض الخليفة لمدافعة عدوه، فجمع لذلك وبرز في جيوش ضخمة وجموع وافرة، واستجره أبو يوسف بالفرار أمامه ليبعد عن مدد الصريخ، فيستمكن منه حتى نزل عفو.

ثم كر إليه والتحم القتال فاختل مصافه وفر عساكره، وانهزم يريد مراكش فأدركوه دون أمله، وأعتاقه أجله، فطعن في

مفره وخر صريعاً لليدين والفم واحتز رأسه، وهلك بمهلكه وزيره عمران وكاتبه علي بن عبد الله المغيلي.

وارتحل السلطان أبو يوسف إلى مراكش وفر من كان بها من الموحدين، فلحقوا بجبل تينملل، وبايعوا لإسحاق أخي المرتضى، فبقي ذبالة هنالك سنين.

ثم تقبض عليه سنة أربع وسبعين وستمائة، وسيق إلى السلطان هو وأبو سعيد ابن عمه السيد أبي الربيع والقبائلي وأولاده فقتلوا جميعاً، وانقرض أمر بني عبد المؤمن.

والله وارث الأرض ومن عليها.

وخرج الملأ وأهل الشورى من الحضرة إلى السلطان فأمنهم ووصلهم.

ودخل مراكش في بروز فخم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة وورث ملك آل عبد المؤمن وتولاه.

واستوسق أمره بالمغرب، وتطامن الناس لبأسه، وسكنوا لظل سلطانه.

وأقام بمراكش إلى رمضان من سنته، وأغزى ابنه الأمير أبا مالك إلى بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوخ أقطارها، ثم خرج بنفسه إلى المغرب للبلاد فأوقع بهم الواقعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم، ورجع لشهرين من غزاته، ثم أجمع الرحلة إلى داره بفاس فعقد على مراكش وأعمالها لمحمد بن علي من كبار أوليائهم ومن أهل خؤلته، وكان من طبقة الوزراء حسبما يأتي التعريف به وبعشيره، وأنزله بقصبة مراكش، وجعل المصالح أعمالها لنظره، وعهد إليه بتدويخ الأقطار ومحو آثار بني عبد المؤمن، وفصل إلى حضرته وأراح بسلا، فكان من خبر عهده لابنه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن عهد السلطان لابنه أبي مالك وما كان عقب ذلك من خروج القرابة عليه أولاد أخيه إدريس وإجازتهم إلى الأندلس

لما تلوم السلطان بسلا منصرفه من رباط الفتح وأراح بها ركابه عرض له طائف من المرض ووعك وعكاً شديداً.

فلما أبل جمع قومه وعهد بأمره فيهم لابنه أبي مالك عبد الواحد كبير ولده، بما علم من أهليته لذلك.

وأخذ له البيعة عليهم، وأعطوها طواعية، وأسف القرابة من ولد أخويه عبد الله وإدريس لأمهما سوط النساء، ووجدوا في أنفسهم لما يرون أن عبد الله وإدريس أكابر ولد عبد الحق، ولهما التقدم على من بعدهما من ولده، وأنهما أحق بالأمر، فعادت هيف إلى أديانها، ونفسوا على ابن السلطان ما أخذ له من البيعة والعهد، ونزعوا عنه إلى جبل علودان من جبال غمارة عش خلافهم، ومدرج فتنتهم، وذلك سنة تسع وستين وستمائة ورياستم يومئذ لمحمد بن إدريس وموسى بن رحو بن عبد الله، وخرج معهم ولد أبي عياد بن عبد الحق وأغزاهم السلطان ولده أبا يعقوب يوسف في خمسة آلاف من عسكره، فأحاط بهم وأخذ بمخنقهم، ولحق به أخوه أبو مالك في عسكره، ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان.

ثم خرج في أثرهم السلطان أبو يوسف واجتمع معسكرهم بتافركا ونازلوهم ثلاثاً، وهلك في حروبهم منديل بن ورتطليم.

ولما رأوا أن قد أحيط بهم سألوا الأمان، فبذله وأنزلهم، واستل سخائمهم ومسح ما في صدورهم، ووصل بهم إلى حضرته.

وسألوا منه الأذن في اللحاق بتلمسان حياء من كبر ما ارتكبوه، فأذن لهم، وأجازوا البحر إلى الأندلس، وخالفهم عامر بن إدريس لما أنس من صاغية السلطان إليه، فتخلف عنهم بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد إلى قومه بعد منازلة السلطان تلمسان كما نذكره الآن.

واحتل بنو إدريس وعبد الله وابن عمهم عياد بالأندلس على حين أقفر من الحامية جوها، واستأسد العدو على ثغرها.

وتحلبت شفاههم للالتهامها فاحتلوها أسوداً ضارية، وسيوفاً ماضية، معودين لقاء الأبطال وقراع الحتوف والنزال، مستغلظين بخشونة البداوة وصرامة العز وبسالة التوحش فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا شجى في صدره دون الوطن الذي كان طعمة له في ظنه، وارتدوه على عقبه، ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم.

وزاحموا أمير الأندلس في رياستها بمنكب، فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدوة من أعياصهم وقبائلهم ومن سواهم من أمم البرابرة، وتناقلوه وساهموه في الجباية بفرض العطاء والديوان، فبذله لهم واستمروا على ذلك العهد وحسن أثرهم فيها كما سنذكره بعد في أخبار القرابة.

ثم أعمل السلطان نظره في غزو تلمسان على ما نذكره إن

شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة السلطان أبي يوسف إلى تلمسان وواقعته على يغمراسن وقومه بإيسلي

لما غلب السلطان أبو يوسف على بني عبد المؤمن وفتح مراكش واستولى على ملكهم سنة ثمان وستين وستمائة وعاد إلى فاس كما ذكرنا، تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن وبني عبد الواد، وما أسفوا به من تخذيل عزائمه ومجاذبته عن قصده.

ورأى أن واقعة تلاغ لم تشف صدره، ولا أطفأت نار موجدته، فاجمع أمره على غزوهم.

واقتدر بما صار إليه من الملك والسلطان على حشر أهل المغرب لحربهم وقطع دابرهم، فعسكر بظاهر فاس، وسرح ولده وولي عهده أبا مالك إلى مراكش في خواصه ووزرائه حاشرين في مدائنها وضواحيها وقبائل العرب والمصامدة وبني ورا وغمرة وصنهاجة، وبقايا عساكر الموحدين بالحضرة، وحامية الأمصار من جند الروم وناشبة الغزو فاستكثر من أعدادهم واستوفى حشدهم.

واحتفل السلطان بحركته وارتحل إلى فاس سنة سبعين وستمائة وتلوم بملوية إلى أن لحقته الحشود وتوافت إليه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم، وبنو جابر ومن معهم من الأثبج، وقبائل ذوي حسان والشبانات من المعقل أهل السوس الأقصى، وقبائل رياح أهل أزغار والهبط.

فاعترض هنالك عساكره وعبأ مواكبه، فيقال: بلغت ثلاثين ألفاً، وارتحل يريد تلمسان، ولما انتهى إلى أنكاد وافته رسل ابن الأحمر هنالك فد المسلمين بالأندلس صريخاً على العدو ويستجيشون بأخوانهم المسلمين ويسألونهم الإعانة، فتحركت همته للجهاد ونصر المسلمين من عدوهم.

ونظر في صرف الشواغل عن ذلك، وجنح إلى السلم مع يغمراسن، وصوب الملأ في ذلك رأيه لما كانوا عليه من إيثار الجهاد.

وانتدب جماعة من المشيخة إلى السعي في إصلاح بينهما، والكف عن غرب عداوتهما.

وساروا إلى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهبة الحرب واستعد للقاء.

واحتشد زناتة أهل ممالكه بالشرق من بني عبد الواد وبني راشد ومغراوة وأحلافهم من العرب زغبة، فلج في ذلك واستكبر وصم عن إسعافهم.

وزحف في جموعه، والتقى الجمعان بوادي إيسلى من بسائط وجدة، والسلطان أبو يوسف قد عبّأ كتائبه، ورتب مصافه وجعل ولديه الأميرين أبي مالك وأبي يعقوب في الجناحين، وسار في القلب، فدارت بينهم حرب شديدة انجلت عن مهلك فارس بن يغمراسن، وجماعة من بني عبد الواد.

وكاثرتهم حشود المغرب الأقصى وقبائله، وعسكر الموحدين والبلاد المراكشية فولوا الأدبار، وهلك عامة عسكر الروم لثباتهم بثبات السلطان فطحنتهم رحى الحرب، وتقبض على قائدهم بيرنبس، ونجا يغمراسن بن زيان في فله مدافعاً دون أهله إلى تلمسان، ومر بفماطيطة، فأضرمها ناراً، وانتهب معسكره، واستبيحت حرمه.

وأقام السلطان أبو يوسف على وجدة حتى خربها واضرع بالتراب أسوارها، وألصق بالرغام جدرانها.

ثم نهض إلى تلمسان فحاصرها أياماً وأطلق الأيدي في ساحاتها بالنهب والعيث، وشن الغارات على البسائط، فاكتسحها سبياً ونسفها نسفاً.

وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي، وكان من علية وزرائه وحماة ميدانه له في ذلك أخبار مذكورة، وكان مهلكه في شوال من هذه السنة، ووصله بمثواه من حصارها محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، ومستصرخه على بني عبد الواد لما نال منه يغمراسن من ضيم القهر وذل الغلب والتحيف وصله في كافة قبيله مباهياً بآلته، فأكرم السلطان أبو يوسف وفادته واستركب الناس للقائه وبرور مقدمه.

واتخذوا رتبة السلاح لمباهاته، وأقام محاصراً لتلمسان معه أياماً حتى وقع اليأس وامتنع البلد، واشتدت شوكة حاميته ثم أجمع السلطان أبو يوسف على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي وقومه بالفصول قبل قفوله، وأن يغذوا السير إلى بلادهم.

وملاء حقائبهم بإتحافه وجنب لهم من المائة من المقربات بمراكبها، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب، وعمهم بالصلات من الخلع والكساء الفاخرة.

واستكثر لهم السلاح والفازات والفساطيط، وحملهم على

الظهر، وارتحلوا وتلوم السلطان أياماً لمنجاتهم إلى مقرهم من جبل وانشريش حذراً من غائلة يغمراسن من انتهاز الفرصة فيهم.

ثم قفل إلى فاس ودخلها مفتتح إحدى وسبعين وستمائة وهلك ولده الأمير أبو مالك ولي عهده لأيام من مقدمه، فأسف لمهلكه، ثم تعزى بالصبر الجميل عن فقده، ورجع إلى حاله في افتتاح بلاد المغرب.

وكان في غزوته هذه ملك حصن تاونت، وهو معقل مطغرة، وشحنه بالأقوات لما رآه ثغراً مجاوراً لعدوه، وأسلمه لنظر هارون شيخ مطغرة.

ثم ملك حصن مليلة بساحل الريف مرجعه من غزاته هذه، وأقام هارون بحصن تاونت، ودعا لنفسه.

ولم يزل يغمراسن يردد الغزو إليه حتى فر من الحصن وأسلمه سنة خمس وسبعين وستمائة ولحق بالسلطان أبي يوسف كما ذكرناه في أخباره، عند ذكر قبيلة مطغرة وكان من شأنه ما ذكرناه هنالك.

الخبر عن افتتاح مدينة طنجة وطاعة أهل سبتة وفرض الأتاوة عليهم وما قارن ذلك من الأحداث

كانت هاتان المدينتان سبتة وطنجة مذ أول دولة الموحدين من أعظم عمالاتهم، وأكبر ممالكهم بما كانت ثغر العدوة ومرفأ الأساطيل، ودار إنشاءة الآلة البحرية، وفرضة الجواز إلى الجهاد.

فكانت ولايتها مختصة بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن.

وقد ذكرنا أن الرشيد كان عقد على أعمالها لأبي علي بن خلاص من أهل بلنسية، وأنه بعد استفحال الأمير أبي زكريا بإفريقية ومهلك الرشيد، صرف الدعوة إليه سنة أربعين وستمائة وبعث إليه بالمال والبيعة مع ابنه أبي القاسم.

وولى على طنجة يوسف بن محمد بن عبد اللّه بن أحمد الهمداني المعروف بابن الأمين قائداً على الرجل الأندلسيين، وضابطاً للقصبة.

وعقد الأمير أبو زكريا على سبتة لأبي يحيى بن أبي زكريا، ابن عمه أبي يحيى الشهيد ابن الشيخ أبي حفص فنزل بها فأستراب أبو علي ابن خلاص من العواقب عند مهلك ابنه الوافد على السلطان غريقاً في البحر، فرحل بجملته إلى تونس في السفن، وأراح ببجاية، فكان فيها هلاكه سنة ست وأربعين وستمائة ويقال: بل هلك في سفينته ودفن ببجاية، ولما هلك الأمير أبو زكريا سنة سبع وأربعين وستمائة بعدها انتقض أهل سبتة على ابنه المستنصر وطردوا ابن الشهيد، وقتلوا العمال الذين كانوا معه، وصرفوا الدعوة إلى المرتضى.

وتولى كبر ذلك حجبون الزنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي كبير المشيخة بسبتة، وأعظمهم تجلة، ونشأ في حجر أبيه الفقيه الصالح أبي العباس أحمد مكفوفاً بالجلالة مغذواً بالعلم والدين، بما كان له فيهما قدم إلى أن هلك، فأوجب أهل البلد لابنه ما عرفوه لحقه وحق أبيه من قبله، فكانوا يفزعون إليه في المهمات ويسلمون له في الشورى، فأغرى الزنداحي بهذه الفعلة ففعلها فعقد المرتضى لأبي القاسم العزفي على سبتة مستقلاً من غير إشراف أحد من السادة، ولا من الموحدين، واكتفى بغنائه في ذلك الثغر وعقد لحجبون الزنداحي على قيادة الأساطيل بالمغرب، فورثها عنه بنوه إلى أن زاحمهم العزفي بمناكب رياسته، فقوضوا عن سبتة فمنهم من نزل بمالقة على ابن الأحمر ومنهم من نزل ببجاية على آل أبي حفص، ولهم في الدولتين آثار تشهد برياستهم.

واستقل الفقيه أبو القاسم العزفي برياسة سبتة، وأورثها بنيه من بعده على ما نذكره بعد.

وكانت طنجة تالية سبتة في سائر الأحوال وتبعاً لها، فاتبع ابن الأمير صاحبها إمارة الفقيه أبي القاسم.

ثم انتقض عليه لسنته واستبد وخطب لابن أبي حفص، ثم للعباسي، ثم لنفسه، وسلك فيها مسلك العزفي في سبتة، ولبثوا كذلك ما شاء اللّه، حتى إذا ملك بنو مرين المغرب وانبثوا في شعابه، ومدوا اليد إلى ممالكه فتناولوها، ونزلوا معاقله وحصونه فاقتحموها، وهلك الأمير أبو يحيى ابن عبد الحق وابنه عمر من بعده.

وتحيز بنوه في ذويهم وأتباعهم وحشمهم إلى ناحية طنجة وأصيلا، فأوطنوا ضاحيتها وأفسدوا سابلتها وضيقوا على ساكنها، واكتسحوا ما حواليها، وشارطهم ابن الأمين على خراج معلوم على أن يكفوا الأذية ويحموا الحوزة ويصلحوا السابلة، فاتصلت يده بأيديهم، وترددوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم.

ثم مكروا وأضمروا الغدر ودخلوا في بعض أيامهم متأبطين السلاح، وفتكوا بابن الأمين غيلة، فثارت بهم العامة لحينهم واستلحموا لمصرع واحد سنة واحد وستين وستمائة واجتمعوا إلى ولده وبقيت في ملكته خمسة أشهر.

ثم استولى عليها العزفي فنهض إليه بعساكره من الرجل براً وبحراً، واستولى عليها، وفر ابن الأمين والحق بتونس ونزل على المستنصر واستقرت طنجة في إيالة العزفي فضبطها وقام بأمرها، وولى عليها من قبله، وأشرك الملأ من أشرافه في الشورى.

ونازلها الأمير أبو مالك سنة ست وستين وستمائة فامتنعت عليه وأقامت على ذلك ستاً، حتى إذا انتظم السلطان أبو يوسف ببلاد المغرب في مملكته، واستولى على حضرة مراكش ومحا دولة بني عبد المؤمن، وفرغ من أمر عدوه يغمراسن، وهم بتلك الناحية واستضافة عملها، فأجمع الحركة إليها ونازل طنجة مفتتح سنة اثنتين وسبعين بما كانت في البسيط من دون سبتة، وأقام عليها أياماً.

ثم اعتزم على الإفراج، فقذف اللّه في قلوبهم الرعب، وافترق بينهم، وتنادى بعض الناشية من السور بشعاب بني مرين، فبادر سرعان الناس إلى تسور حيطانها فملكوه عليهم، وقاتلوا أهل البلد ظلام ليلتهم، ثم دخلوا البلد من صبيحتها عنوة، ونادى منادي السلطان في الناس بالأمان والعفو عن أهل البلد، فسكن ومهد وفرغ من شأن طنجة.

ثم بعث ولده الأمير أبا يعقوب في عساكر ضخمة لمنازلة العزفي بسبتة وإرغامه على الطاعة، فنازلها أياماً، ثم لاذ بالطاعة على المنعة.

واشترط على نفسه خراجاً يؤديه كل سنة، فتقبل السلطان منه، وأفرجت عساكره عنهم، وقفل إلى حضرته.

وصرف نظره إلى فتح سجلماسة وإزعاج بني عبد الواد المتغلبين عليها، كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن فتح سجلماسة الثاني ودخولها عنوة على بني عبد الواد والمنبات من عرب المعقل

قد ذكرنا ما كان من تغلب الأمير أبي يحيى بن عبد الحق مدينة على سجلماسة وبلاد درعة وأنه عقد عليها وعلى سائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن، وأنزل معه ابنه مفتاحاً المكنى بأبي حديد في مشيخة لحياطتها.

وأن المرتضى سرح وزيره ابن عطوش سنة أربع وخمسين وستمائة في العساكر لاسترجاعها، فنهض إليه الأمير أبو يحيى إليه وشرده عنها ورجعه على عقبه.

وأن يغمراسن بن زيان من بعد واقعة أبي سليط سنة خمس وخمسين وستمائة، قصدها لعورة دل عليها، وغرة أمل أصابتها، فسابقه إليها أبو يحيى ومانعه من دونها ورجع عنها خائب المسعى مفلول الحامية.

وكان الأمير أبو يحيى من بعد أن عقد عليها ليوسف بن يزكاسن عقد عليها من بعده لسنة ونصف من ولايته ليحيى بن أبي منديل كبير بني عسكر أقتالهم، ومقاسميهم نسب محمد بن ورصيص ثم عقد عليها لشهرين لمحمد بن عمران ابن عبلة من بني يرنيان صنائع دولتهم.

واستعمل معه على الجباية أبا طالب بن الحبسي وجعل مصلحة الجند بها إلى نظر أبي يحيى القطراني، وملكه قيادتهم، وأقاموا على ذلك سنتين اثنتين.

ولما هلك الأمير أبو يحيى وشغل السلطان أبو يوسف بحرب يغمراسن ومنازلة مراكش، سما للقطراني أمل في الاستبداد بها، وداخل في ذلك بعض أهل الفتن وظاهره يوسف بن فرج العزفي وفتكوا بعمار الورند غزاني شيخ الجماعة بالبلد، واتمروا بمحمد بن عمران بن عبلة، فخرج ولحق بالسلطان، واستبد القطراني بها، ثم ثار به أهل البلد سنة ثمان وخمسين وستمائة لسنة ونصفها من لدن استبداده وقتلوه، وصرفوا بيعتهم إلى الخليفة المرتضى بمراكش، وتولى كبر ذلك القاضي ابن حجاج وعلي بن عمر، فعقد له المرتضى عليهم وأقام بها أميراً.

ونازلته عساكر بني مرين والسلطان أبو يوسف سنة ستين وستمائة ونصب عليها آلات الحصار فأحرقوها وامتنعوا، فأفرج عنهم، وأقام علي بن عمر في سلطانه ذلك ثلاث سنين، ثم هلك.

وكان الأمير يغمراسن بن زيان منذ غلب الموحدين على تلمسان والمغرب الأوسط، وصار في مملكته، تحيز إليه من عرب المعقل قبيل المنبات من ذوي منصور، بما كانت مجالات المعقل مجاورة لمجالات بني بادين في القفر.

وإنما ارتحلوا عنها من بعد ما جأجأ يغمراسن ببني عامر من مجالاتهم بمصاب بلاد بني يزيد، فزاحموا المعقل بالمناكب عن مجالاتهم ببلاد فيكيك وصا.

ورحلوهم إلى ملوية وما وراءها من بلاد سجلماسة، فملكوا تلك المجالات.

ونبذ يغمراسن العهد إلى ذوي عبيد اللّه منهم واستخلص المنبات هؤلاء، فكانوا له حلفاً وشيعة ولقومه ودعوته خالصة.

وكانت سجلماسة في مجالاتهم ومنقلب ظعنهم وناجعتهم،

ولهم فيها طاعة معروفة.

فلما هلك علي بن عمر آثروا يغمراسن بملكها، فحملوا أهل البلد على القيام بدعوته، وخاطبوه وجاجأوا به، فغشيهم بعساكره وملكها وضبطها.

وعقد عليها لعبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع من ولد محمد بن زكدان بن تيدوكسن ويعرف بابن حنينة نسبة إلى أم أبيه أخت يغمراسن بن حمامة، وأنزل معهما ولده الأمير يحيى لإقامة الرسم الملوكي، ثم أداله بأخيه من السنة الأخرى، وكذا كان شأنه في كل سنة.

ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته، وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم، ومحا رسمهم، وافتتح طنجة وطوع سبتة مرقى الجواز إلى العدوة، وثغر المغرب، سما أمله إلى بلاد القبلة فوجه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من أيدي عبد الواد المتغلبين عليها وإدالة دعوته فيها من دعوتهم، فنهض إليها في العساكر والحشود في رجب من سنة اثنتين وسبعين وستمائة فنازلها وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها.

فأقام عليها حولاً كريتاً يغاديها القتال ويراوحها، إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بإلحاح الحجارة من المنجنيق عليه، فبادروا إلى اقتحام البلد، فدخلوها عنوة من تلك الفرجة في صفر من سنة ثلاث وسبعين وستمائة فقتلوا المقاتلة والحامية وسبوا الرعية، وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة، ومن كان معهم من بني عبد الواد وأمراء المنبات، وكمل فتح بلاد المغرب للسلطان أبي يوسف، وتمشت طاعته في أقطاره.

فلم يبق فيه معقل يدين بغير دعوته، ولا جماعة تتحيز إلى غير فيئته ولا أمل ينصرف إلى سواه، ولما كملت له نعم اللّه في استيساق ملكه وتمهيد أمره، انصرف أمله إلى الغزو وإيثار طاعة اللّه بجهاد أعدائه، واستنقاذ المستضعفين وراء البحر من عباده على ما نذكر.

ولما انكفأ راجعاً من سجلماسة، قصد مراكش من حيث جاء، ثم قفل إلى سلا فأراح بها أياماً ونظر في شؤونها، وسد ثغرها.

وبلغه الخبر بوفادة أبي طالب ابن صاحب سبتة الفقيه أبي القاسم العزفي على فاس، فأغذ السير إلى حضرته، وأكرم وفادته وأحسن منقلبه إلى أبيه مملوء الحقائب ببره، رطب اللسان بشكره.

ثم شرع في إجازة ولده إلى العدو كما نذكر الآن إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن شأن الجهاد وظهور السلطان أبي يوسف على النصارى وقتل زعيمهم دننه وما قارن ذلك

كانت عدوة الأندلس منذ أول الفتح ثغراً للمسلمين، فيه جهادهم ورباطهم ومدارج شهادتهم وسبيل سعادتهم.

وكانت مواطنهم فيه على مثل الرضف، وبين الظفر والناب من أسود الكفر لتوفر أمتهم في جوارها وإحاطتهم بها من جميع جهاتها، وحجز البحر بينهم وبين إخوانهم المسلمين وقد كان عمر بن عبد العزيز رأى أن يخرج المسلمين منها لانقطاعهم عن قومهم وأهل دينهم، ويعدهم عن الصريخ، وشاور في ذلك كبار التابعين وأشراف العرب فرأوه رأياً.

واعتزم عليه لولا ما اعتاقه من المنية وعلى ذلك، فكان للإسلام فيه اعتزاز على من جاورهم من أهل الكفر، بطول دولة العرب من قريش ومضر واليمن.

وكانت نهاية عزهم وسورة غلبهم أيام بني أمية بها، الطائرة الذكر الباسطة جناحها على العدوتين منذ ثلاث مئين من السنين أو ما يقاربها.

حتى انتثر سلكها بعد المائة الرابعة من الهجرة، وافترقت الجماعة طوائف وفشلت ريح المسلمين وراء البحر بفناء دولة العرب.

واعتز البربر بالمغرب واستفحل شأنهم وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان مفترقاً بالمغرب من كلمة الإسلام، وتمسكوا بالسنة وتشوفوا إلى الجهاد، واستدعاهم إخوانهم من وراء البحر للمدافعة عنهم، فأجازوا إليهم وأبلوا في جهاد العدو أحسن بلاء، وأوقعوا بالطاغية ابن أذفونش يوم الزلاقة وغيرها، وفتحوا حصوناً واسترجعوا أخرى واستنزلوا الثوار ملوك الطوائف، وجمعوا الكلمة بالعدوتين.

وجاء على أثرهم الموحدون سالكين أحسن مذاهبهم،

فكانت لهم في الجهاد آثار على الطاغية وأيام:

منها يوم الأرك ليعقوب المنصور وغيره من الأيام، حتى إذا فشلت ريح الموحدين وافترقت كلمتهم وتنازع الأمر سادة بني عبد المؤمن الأمراء بالأندلس، وتحاربوا على الخلافة واستجاشوا بالطاغية وأمكنوه من كثير من حصون المسلمين طعمة على الاستظهار، فخشي أهل الأندلس على أنفسهم وثاروا بالموحدين وأخرجوهم وتولى ذلك ابن هود بمرسية وشرق الأندلس، وعم بدعوته سائر أقطارها، وأقام فيها الدعوة للعباسيين، وخاطبهم ببغداد كما ذكرناه في أخباره، واستوفينا كلاً مما وصفناه في مكانه.

ثم عجز ابن هود عن الغربية لبعدها عنه، وفقده للعصابة المتناولة لها، وأنه لم تكن صنعته في الملك مستحكمة وتكالب الطاغية على الأندلس من كل جهة، وكثر اختلاف المسلمين بينهم، وشغل بنو عبد المؤمن بما دهم المغرب من شأن بني مرين وزناتة.

فتلافى محمد بن يوسف بن الأحمر أمر الغربية، وثار بحصنه أرجونة وكان شجاعاً قدماً ثبتاً في الحروب، فتلقف الكرة من يد ابن هود خلع الدعوة العباسية، ودعا للأمير أبي زكريا بن أبي حفص سنة تسع وعشرين وستمائة فلم يزل في فتنة ابن هود يجاذبه الحبل ويقارعه على عمالات الأندلس واحدة بعد أخرى إلى أن هلك ابن هود سنة خمس وثلاثين وستمائة.

وتكالب العدو خلال ذلك على جزيرة الأندلس من كل جانب ووفر له ابن هود في الجزية وبلغ بها أربعمائة ألف من الدنانير في كل سنة، ونزل له عن ثلاثين من حصون المسلمين.

وخشي ابن الأحمر أن يستغلظ عليه بالطاغية فجنح هو إليه وتمسك بعروته، ونفر في جملته إلى منازلة إشبيلية نكاية لأهلها.

ولما هلك الأمير أبو زكريا نبذ الدعوة الحفصية، واستبد لنفسه، وتسمى بأمير المسلمين، ونازعه بالشرق أعقاب ابن هود وبني مردنيش، ودعاه الأمر إلى النزول للطاغية من بلاد الفرنتيرة، فنزل عنها بأسرها.

وكانت هذه المدة من سنة اثنتين وعشرين إلى سنة سبعين، فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين واستبيح حماهم، والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهباً في الحروب، ووضيعة ومداراة في السلم.

واستولى طواغيت الكفر على أمصارها وقواعدها فملك ابن أذفونش قرطبة سنة ست وثلاثين، وجيان سنة أربع وأربعين، وأشبيلية سنة ست وأربعين.

وتملك قمص برشلونة مدينة بلنسية سنة سبع وثلاثين إلى ما بينهما من الحصون والقواعد والمعاقل التي لا تعد ولا تحصى، وانقرض أمر الثوار بالشرق وتفرد ابن الأحمر بغرب الأندلس، وضاق نطاقه عن الممانعة دون البسائط الفيح من أرض الفرنتيرة وما قاربها، ورأى أن التمسك بها مع قلة العدد وضعف الشوكة مما يوهن أمره ويطمع فيه عدوه، فعقد السلم للطاغية على النزول عنها أجمع، ولجأ بالمسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوعاره من عدوهم، واختار لنزله مدينة غرناطة، وابتنى بها لسكناه حصن الحمراء حسبما شرحنا ذلك كله في مواضعه.

وفي أثناء هذا كله لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر والملأ من أهل الأندلس يفدون على أمير المسلمين أبي يوسف للإعانة ونصر الملة، واستنقاذ الحرم والولدان من أنياب العدو فلا يجد مفزعاً إلى ذلك بما كان فيه من مجاذبة الحبل مع الموحدين، ثم مع يغمراسن، ثم تشغله بفتح بلاد المغرب وتدويخ أقطاره إلى أن هلك السلطان أبوعبد اللّه محمد بن يوسف ابن الأحمر المعروف بالشيخ، وأبي دبوس، لقبين كانا له على حين استكمل أمير المسلمين فتح المغرب وفراغه من شأن عدوه سنة إحدى وسبعين وستمائة على أن بني مرين كانوا يؤثرون الجهاد ويسمون إليه وفي نفوسهم جنوح إليه وصاغية.

ولما استوحش بنو إدريس بن عبد الحق وخرجوا سنة إحدى وستين وستمائة على السلطان يعقوب بن عبد الحق واستصلحهم انتدب الكثير منهم للغزو وإجازة البحر لصريخ المسلمين بالأندلس، واجتمع إليهم من مطوعة بني مرين عسكر ضخم من الغزاة ثلاثة آلاف أو يزيدون وعقد السلطان على ذلك العسكر لعامر بن إدريس فوصلوا إلى الأندلس فكان لهم فيها ذكر ونكاية في العدو، وكان الشيخ ابن الأحمر عهد إلى ولده القائم بالأمر بعده محمد، الشهير بالفقيه، لانتحاله طلب العلم أيام أبيه.

وأوصاه بأن يتمسك بعروة أمير المسلمين ويخطب نصره، ويدرأ به وبقومه عن نفسه وعن المسلمين تكالب الطاغية.

فبادر لذلك حين مواراة أبيه وأوفد مشيخة الأندلس كافة عليه، ولقيه وفدهم منصرفاً من فتح سجلماسة خاتم الفتوح بالثغور المغربية ومقاد الملك.

وتنادوا للإسلام بالثار وألقوا إليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين، وثقل وطأته، فحيا وفادتهم وبَرُّ رؤسائهم، وبادر لإجابة داعي اللّه واستنام الجنة.

وكان أمير المسلمين منذ أول أمره مؤثراً عمل الجهاد كلفاً به مختاراً له متى أعطي الخيار من سائر آماله، حتى لقد كان اعتزم

على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي يحيى وطلب إذنه في ذلك عندما ملكوا مكناسة سنة ثلاث وأربعين وستمائة فلم يأذن له وفصل إلى الغزو في حشمه وذويه ومن أطاعه من عشيرته.

وأوعز الأمير أبو يحيى لصاحب الأمر بسبتة لذلك العهد أبي علي بن خلاص بأن يمنعه الإجازة، ويقطع عنه أسبابها.

ولما انتهى إلى قصر الجواز، ثنى عزمه عن ذلك الولي يعقوب بن هارون الخيري، ووعده بالجهاد أميراً مستنصراً للمسلمين ظاهراً على العدو، فكان في نفسه من ذلك شغل وإليه صاغية.

فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزائمه وذكروا همته، فأعمل في الاحتشاد وبعث في النفير.

ونهض من فاس في شهر شوال من سنة ثلاث وسبعين وستمائة إلى فرضة المجاز من طنجة.

وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عللهم واستوفى عطاءهم وعقد عليهم لابنه منديل وأعطاه الراية.

واستدعى من العزفي صاحب سبتة السفن لإجازتهم فوافاه بقصر الجواز عشرون من الأساطيل، فأجاز العسكر ونزل بطريف، وأراح ثلاثاً، ودخل دار الحرب وتوغل فيها، وأجلب على ثغورها وبسائطها.

وامتلأت أيديهم من الغنائم وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار، حتى نزل بساحة شريش، فخام حاميتها عن اللقاء وانحجزوا في البلد، فقفل عنها إلى الجزيرة وقد امتلأت أيديهم من الأموال وحقائبهم من السبي وركائبهم من الكراع والسلاح.

ورأى أهل الأندلس أن قد ثاروا بعام العقاب حتى جاءت بعدها الطامة الكبرى على أهل الكفر، واتصل الخبر بأمير المسلمين فاعتزم على الغزو بنفسه، وخشي على ثغور بلاده من عادية يغمراسن في الفتنة، فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والموادعة.

ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فأكبر موصله وموصل قومه.

وبادر إلى الإجابة والألفة، وأوفد مشيخة بني عبد الواد على السلطان لعقد السلم.

وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع اللّه كلمة المسلمين، وعظم موقع هذا السلم من أمير المسلمين لما كان في نفسه من الصاغية إلى الجهاد، وإيثاره مبرورات الأعمال، وبث الصدقات بشكر اللّه على ما منحه من التفرغ لذلك.

ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع، ودعا المسلمين إلى الجهاد، وخاطب في ذلك كافة أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البرابرة وأهل المغرب من المرتزقة والمطوعة.

وأهاب بهم وشرع في إجازة البحر، فأجازه من فرضة طنجة لصفر من سنة أربع وسبعين وستمائة واحتل بساحل طريف.

وكان لما استصرخه السلطان ابن الأحمر وأوفد عليه مشائخ الأندلس اشترط عليه النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره، فتجافى له عن رندة وطريف.

ولما احتل بطنجة بادر إليه ابن هشام الثائر بالجزيرة الخضراء، أجاز البحر إليه، ولقيه بظاهر طنجة فأدى له طاعته وأمكنه من قياد بلده.

وكان الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو إسحاق صهر السلطان بن الأحمر تبعاً له في أمره ومؤازراً له على شأنه كله.

وأبوهما أبو الحسن هو الذي تولى له كبر الثورة على ابن هود ومداخلة أهل إشبيلية في الفتك بابن الباجي.

فلما استوت قدمه في ملكه وغلب الثوار بالأندلس واستولى على أمره فسد ما بينهما بعد أن كان ولى أبا محمد على مالقه وأبا إسحاق على وادي آش، فامتنع أبو محمد بن أشقيلولة بمالقة واستأثر بها وبغربيتها دونه.

ومع ذلك كانوا على الطاغية فيئة ولحمة، ولما أحس أبو محمد بن أشقيلولة بإجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق، قدم إليه الوفد من أهل مالقة ببيعتهم وصريخهم، وانحاش إلى جانب السلطان وولايته، وأمحضه المخالصة والنصيحة.

فلما احتل السلطان بساحة طريف ملأت كتائبه ساحة الأرض ما بينهما وبين الجزيرة وتسابق السلطان ابن الأحمر، وهو محمد الفقيه بن محمد الشيخ أبي دبوس صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة والغربية، وأخوه أبو إسحاق صاحب وادي آش إلى لقاء السلطان وتناغوا في برور مقدمه والإذعان له، ففاوضهما في أمور الجهاد، ورجعهما لحينه إلى بلديهما.

وانصرف ابن الأحمر مغضباً لبعض النزعات أحفظته وأغذ السلطان السير إلى الفرنتيرة، وعقد لولده الأمير أبي يعقوب على خمسة آلاف من عسكره، وسرح كتائبه في البسائط وخلال المعاقل ينسف الزرع وتحطم الغروس ويخرب العمران وتنتهب الأموال وتكتسح السرح وتقاتل المقاتلة وتسبى النساء والذرية، حتى انتهى إلى المدور وبايسة وأبدة واقتحم حصن بلمة عنوة.

وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها، وقفل والأرض تموج سبياً إلى أن عرس بأستجة من تخوم دار الحرب.

وجاءه النذير باتباع العدو وآثارهم لاستنقاذ أسراهم وارتجاع أموالهم، وأن زعيم الروم وعظيمهم دننه خرج في طلبهم بأمم بلاد النصرانية من المحتلم فما فوقه.

فقدم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفاً من الفرسان أمامها، وسار يقفيها، حتى إذا أطلّت رايات العدو من ورائهم كان الزحف، ورتب المصاف وحرض وذكر.

وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها وتحركت هممها، وأبلت في طاعة ربها والذب عن دينها، وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقعها.

ولم يك إلا كلا ولا، حتى هبت ريح النصر وظهر أمر اللّه وانكشفت جموع النصرانية، وقتل الزعيم دننه والكثير من جموع أهل الكفر، ومنح اللّه المسلمين أكتافهم، واحتل القتل فيهم.

وأحصي القتلى في المعركة فكانوا ستة آلاف، واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين أكرمهم اللّه بالشهادة وآثرهم بما عنده، ونصر اللّه حزبه وأعز أولياءه وأظهر دينه، وبدا للعدو ما لم يحتسبه بمحاماة هذه العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة.

وبعث أمير المسلمين برأس الزعيم دننه إلى ابن الأحمر فرده زعموا سراً إلى قومه بعد أن طيبه وأكرمه، ولاية أخلصها لهم، مداراة وانحرافاً عن أمير المسلمين، ظهرت شواهده عليه بعد حين كما نذكره، وقفل أمير المسلمين من غزاته إلى الجزيرة منتصف ربيع من سنته، فقسم في المجاهدين الغنائم وما نفله ا لله من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم، بعد الاستيثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه.

ويقال: كان مبلغ الغنائم في هذه الغزاة من البقر مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً، ومن الأسرى سبعة آلاف وثمان مائة وثلاثين، ومن الكراع أربعة عشر ألفاً وستمائة، وأما الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة، حتى لقد زعموا بيعت الشاة في الجزيرة بدرهم واحد، وكذلك السلاح.

وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياماً ثم خرج لجمادى غازياً إلى أشبيلية فجاس خلالها وتقرى نواحيها وأقطارها، وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها، وارتحل إلى شريش فأذاقها وبال العيث والاكتساح.

ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته، ونظر في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزل عسكره منتبذاً عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم، وتخير لها مكاناً لصق الجزيرة، فأوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية وجعل ذلك لنظر من يثق به من دونه.

ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب من سنة أربع وسبعين وستمائة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر، واحتل بقصر مصمودة وأمر ببناء السور على بادس مرفأ الجواز ببلاد غمارة.

وتولى ذلك إبراهيم بن عيسى كبير بني وسناف بن محيو، ثم رحل إلى فاس فدخلها في شعبان، وصرف النظر إلى أحوال دولته، واختطاط البلد الجديد لنزله ونزل حاشيته، واستنزال الثوار عليه بالمغرب على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن اختطاط البلد الجديد بفاس وما كان على تفيئة ذلك من الأحداث

لما قفل أمير المسلمين من غزاته الجهادية، وتم صنع اللّه لديه في ظهور الإسلام على يده واعتزاز أهل الأندلس بفيئته راح بالمغرب إلى نعمة أخرى من ظهور أوليائه وحسم أدواء الفساد في دولته، شفعت مواهب السعادة، وأكملت عوائد الصنع، وذلك أن صبابة بني عبد المؤمن وفلهم، لما فروا من مراكش عند الفتح لحقوا بجبل تينملل جرثومة أمرهم، ومنبعث دعوتهم، وملاحد خلفائهم، وحضرة سلفهم، ودار إمامهم، ومسجد مهديهم.

كانوا يعكفون عليه متيمنين بطيره، ملتمسين بركة زيارته، ويقدمون ذلك أمام غزولتهم قربة بين يدي أعمالهم يعتدونها من صالح مساعيهم.

فلما خلص الفل إليه اعتصموا بمعقله وآووا إلى وكونه، ونصبوا للقيام بأمرهم عيصاً من أعياص خلفاء بني عبد المؤمن ضعيف المنيه خاسر الصفقة من مواهب الحظ، وهو إسحاق أخو عمر المرتضى.

وبايعوه سنة تسع وستين وستمائة يرجون منه رجع الكرة،

وإدالة الدولة، وكان المتولي لكبر ذلك وزير دولتهم ابن عطوش.

ولما عقد السلطان يعقوب بن عبد الحق لمحمد بن علي بن محلي على أعمال مراكش، لم يقدم عملاً على محاربتهم، وتخذيل الناس عنهم، واستمالة أشياعهم.

وجمعوا له سنة أربع وسبعين وستمائة على غزة ظنوها، فأوقع بهم وفل من غربهم، ثم صمد إلى الجبل لشهر ربيع من سنته فافتض عذرته وفض ختامه، واقتحمه عليهم عنوة بعد مداولة النزال والحرب.

وهلك الوزير ابن عطوش في جوانب الملحمة، وتقبض على خليفتهم المستضعف، وابن عمه أبي سعيد ابن السيد أبي الربيع ومن معهما من الأولياء، وجنبوا إلى مصارعهم بباب الشريعة بمراكش، فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم.

وكان فيمن قتل منهم كاتبه القبائلي وأولاده، وعاثت العساكر في جبل تينملل واكتسحت أمواله.

وبعثرت قبور خلفاء من بني عبد المؤمن، واستخرج شلو يوسف وابنه يعقوب المنصور، فقطعت رؤوسهم، وتولى كبر ذلك أبو علي الملياني النازع إلى السلطان أبي يوسف من مليانة عش غوايته ومواطن انتزائه كما قدمناه.

وكان السلطان أقطعه بلاد أغمات إكراماً لوفادته، فحضر هذه الغزاة في جملة العساكر ورأى أن قد شفى نفسه بإخراج هؤلاء الخلفاء من أرماسهم، والعيث بأشلائهم لما نقم منه الموحدون، وأزعجوه من قراره، فنكرها السلطان لجلاله.

وتجاوز عنها للملياني تأنيساً لقربته وجواره، وعدها من هناته.

ولما وصل أمير المسلمين إلى حضرته من غزاة الجهاد، ترادفت عليه أخبار هذه الملحمة، وقطع دابر بني عبد المؤمن، فتظاهر السرور لديه، وارتفعت إلى الله كلمات الشكر طيبة منه.

ولما سكن غرب الثوار، وتمهد أمر المغرب، ورأى أمير المسلمين أن أمره قد استفحل، وملكه قد استوسق، واتسع نطاق دولته، وعظمت غاشيته وكثر وافده، رأى أن يختط بلداً يتميز بسكناه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه الحاملين سرير ملكه.

فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس، بساحة الوادي المخترق وسطها من أعلاه، وشرع في تأسيسها لثالث من شوال في سنة أربع وسبعين وستمائة هذه وجمع الأيدي عليها، وحشد الصناع والفعلة لبنائها.

وأحضر لها الحزى والمعدلين لحركات الكواكب، فاعتاموا في الطوالع النجومية مما يرضون أثره، ورصدوا أوانه.

وكان فيهم الإمامان أبو الحسن بن القطان وأبو عبد الله بن الحباك، المقدمان في الصناعة، فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم وكما رضي، ونزلها بحاشيته، وذويه سنة أربع وسبعين وستمائة كما ذكرناه.

واختطوا بها الدور والمنازل، وأجرى فيها المياه إلى قصوره، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام.

ثم أوعز بعد ذلك ببناء قصبة مدينة مكناسة، فشرع في بنائها من سنته، وكان لحين إجازته البحر قافلاً من غزاته لحق طلحة بن محلي بجبل أزور نازعاً إلى قبائل زناتة من صنهاجة، فأغذ إليه السلطان بعساكره وأناخ عليه، واستنزله لشهر على ما سأل من الأمان والرتبة، وحسم الداء من خروجه، واستوزر صنيعته فتح الله السدراتي، وأجرى له رزق الوزارة على عوائدهم.

ثم بعث إلى يغمراسن كفاء هديته التي أتحفه بها بين يدي غزاته، وكان شغله عنها أمر الجهاد، فبعث له فسطاطا رائقاً كان صنع له بمراكش، وحكمات مموهة بالذهب والفضة، وثلاثين من البغال الفارهة ذكوراً وإناثاً بمراكبها الفارسية من السروج، والنسوانية من الولايا، وأحمالاً من الأديم المعروف دباغة بالشركسي، إلى غير ذلك مما يباهي به ملوك المغرب وينافسون فيه.

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة من بعدها أهدى له محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، وصاحب جبل وانشريش أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة، ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية.

وفي نفسه أثناء هذا كله من الجهاد شغل شاغل يتخطى إليه سائر أعماله حسبما نذكر.

الخبر عن إجازة أمير المسلمين ثانية وما كان فيها من الغزوات

لما قفل أمير المسلمين من غزاته الأولى، واستنزل الخوارج وثقف الثغور، وهادى الملوك واختط المدينة لنزله كما ذكرنا ذلك كله.

ثم خرج فاتح سنة ست وسبعين وستمائة إلى جهة مراكش لسد ثغوره، وتثقيف أطرافه، وتوغل في أرض السوس، وبعث وزيره فتح الله بالعساكر فجاس خلاله، ثم انكفأ راجعاً.

وخاطب قبائل المغرب كافة بالنفير إلى الجهاد، فتباطؤوا واستمر على تحريضهم، ونهض إلى رباط الفتح وتلوم بها في انتظار الغزاة وثبطوا، فخف هو في خاصته وحاشيته واحتل بالفرضة من قصر المجاز، وتلاحق به الناس فأجاز البحر واحتل بطريف آخر محرم، ثم ارتحل إلى الجزيرة، ثم إلى رندة.

ووافاه هنالك الرئيسان أبو إسحاق بن أشقيلولة صاحب قمارش، وأبو محمد صاحب مالقة للغزو معه.

وارتحلوا إلى منازلة أشبيلية فعرسوا عليها يوم المولد النبوي، وكان بها ملك الجلالقة ابن أدفونش، فخام عن اللقاء وبرز إلى ساحة البلد محامياً عن أهلها.

ورتب أمير المسلمين مصافه وجعل ولده الأمير أبا يعقوب في المقدمة، وزحف في التعبية فأحجزوا العدو البلد، واقتحموا أثرهم الوادي وأثخنوا فيهم، وباتت العساكر ليلتهم بجولان في متون جيادهم وقد أضرموا النيران بساحتها، وارتحل من الغد إلى أرض الشرق، وبث السرايا والغوار في سائر النواحي، وأناخ بجمهور العساكر عليها، فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها، ودخل حصن قطنيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة، وأثخن بالقتل والسبي.

ثم قفل بالغنائم والأنفال إلى الجزيرة لسرار شهره، فأراح وقسم الغنائم في المجاهدين.

ثم خرج غازياً إلى شريش منتصف ربيع الآخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب، وأفقر نواحيها، وقطع أشجارها وأباد غضراءها وحرق ديارها، ونسف آثارها، وأثخن فيها بالقتل والأسر.

وبعث ولده الأمير أبا يعقوب في سرية من معسكره للغوار على أشبيلية وحصون الوادي، فبالغ في النكاية واكتسح حصن روطة وشلوقة ومليانه والقناطر.

ثم صبح إشبيلية بغاره فاكتسحها وانكفأ إلى أمير المسلمين، فقفلوا جميعاً إلى الجزيرة، وأراح وقسم في المجاهدين غنائمهم.

ثم ندب إلى غزو قرطبة، ورغبهم في عمرانها وثروة ساكنها، وخصب بلادها، فأهطعوا إلى إجابته، وخاطب ابن الأحمر يستنفره.

وخرج لأول جمادى من الجزيرة، ووافاه ابن الأحمر بناحية أرشدونة، فكرم وصوله وشكر خفوفه إلى الجهاد وبداره.

ونازلوا حصن بني بشير فدخل عنوة، وقتلت المقاتلة وسبيت النساء ونقلت الأموال وخرب الحصن، ثم بث السرايا والغارات في البسائط فاكتسحها وامتلأت الأيدي وأثرى العسكر، وتقروا المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها، وانحجزت حامية العدو من وراء أسوارها وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها، فنسفوا آثارها، وخربوا عمرانها واكتسحوا قراها وضياعها، وتردد على جهاتها، فدخل حصن بركونة عنوة، ثم أرجونة كذلك، وقدم بعثاً إلى جيان قاسمها حظها من الخسف والدمار، وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانه، وتلاف بلاده.

فجنح إلى الصلح وخطبه من أمير المسلمين، فدفعه إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه، فأجابهم ابن الأحمر إليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنه فيه وإبداء ما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدة الطويلة، فانعقد السلم.

وقفل أمير المسلمين من غزاته وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر وخرج له عن الغنائم كلها، فاحتوى عليها.

ودخل أمير المسلمين إلى الجزيرة في أول رجب من عام يومئذ، فأراح ونظر في ترتيب المسالح على الثغور، وتملك مالقة كما نذكره.

الخبر عن تملك السلطان مدينة مالقة من يد ابن أشقيلولة

كان بنو أشقيلولة هؤلاء من رؤساء الأندلس المؤملين لمدافعة العدو، وكانوا نظراء لابن الأحمر في الرياسة، وهما أبو محمد عبد الله وأبو إسحاق إبراهيم ابنا أبي الحسن بن أشقيلولة.

وكان أبو محمد منهم صهراً له على ابنته فكانوا له بذلك خالصة فأشركهم في أمره واعتضد بعصابتهم وبأبيهم من قبل على مقاومة ابن هود وسائر الثوار حتى إذا استمكن من فرصته واستوى على كرسيه استبد دونهم وأنزلهم إلى مقامات الوزراء.

وعقد لأبي محمد صهره على ابنته على مدينة مالقة والغربية، وعقد لأبي الحسن صهره على أخته على وادي آش وما إليه، وعقد لابنه أبي إسحاق إبراهيم بن علي على قمارش وما إلى ذلك، ووجدوا في أنفسهم، واستمر الحال على ذلك.

ولما هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة

وولي ابنه الفقيه محمد، سموا إلى منازعته.

وأوفد أبو محمد صاحب مالقة ابنه أبا سعيد على السلطان يعقوب بن عبد الحق، وهو منازل طنجة.

ووفد معه أبو عبد اللّه بن منديل فكرم وفادتهما وأحسن وانكفيا راجعين فبعث الرئيس أبو محمد إلى السلطان بطاعته وبيعه أهل مالقة سنة ثلاث وسبعين وستمائة وعقد له عليها، ونزع ابنه أبو سعيد فرج إلى دار الحرب، ثم رجع لسنته فقتل بمالقة.

ولما أجاز السلطان إلى الأندلس إجازته الأولى سنة أربع وسبعين وستمائة تلقاه أبو محمد بالجزيرة مع ابن الأحمر وفاوضهما السلطان في شؤون الجهاد وردهما إلى أعمالهما.

ولما أجاز إجازته الثانية سنة ست وسبعين وستمائة لقيه بالجزيرة الرئيسان ابنا أشقيلولة: أبو محمد صاحب مالقة، وأخوه أبو إسحاق صاحب وادي آش وقمارش، فشهدا معه الغزاة.

ولما قفل اعتل أبو محمد صاحب مالقة، ثم هلك غرة جمادى من سنته فلحق ابنه محمد بالسلطان آخر شهر رمضان، وهو متلوم بالجزيرة، منصرفه من الغزو كما ذكرناه، فنزل له عن البلد ودعاه إلى احتيازها، فعقد عليها لابنه أبي زيان منديل، فسار إليها في بعث، وكان ابن أشقيلولة لحين فصوله إلى لقاء السلطان، أمر ابن عمه محمد الأزرق بن أبي الحجاج يوسف بن الزرقاء بإخلاء منازل للسلطان بالقصبة وإعدادها، فتم ذلك لثلاث ليال، وضرب الأمير أبو زيان معسكره بخارجها، وأنفذ محمد بن عمران بن عبلة في رهط من رجال بني مرين إلى القصبة فنزلها وملك أمر البلد.

وكان السلطان ابن الأحمر لما بلغه وفاة أبي محمد بن أشقيلولة سما أمله إلى الاستيلاء على مالقة وأن ابن أخته شيعة له، وبعث لذلك وزيره أبا سلطان عزيز الداني، فوافى معسكر الأمير أبي زيان بساحتها، ورجا أن يتجافى عنها لسلطانه، فأعرض عن ذلك وتجهم له، ودخل إليها لثلاث بقين من رمضان، وانقلب الداني عنها بخفي حنين.

ولما قضى السلطان بالجزيرة صومه ونسكه، خرج إلى مالقة فوافاها سادس شوال، وبرز إليه أهلها في يوم مشهود، احتفلوا له احتفال أيام الزينة سروراً بمقدم السلطان، ودخولهم في إيالته، وأقام فيهم إلى خاتم سنته.

ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلي من صنائع دولتهم.

وأنزل معه المسالح وزيان بن أبي عياد بن عبد الحق في طائفة لنظره من أبطال بني مرين، واستوصاه بمحمد بن أشقيلولة وارتحل إلى الجزيرة.

ثم أجاز إلى المغرب سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لقدومه وامتلأت القلوب بما كنفه اللّه من نصر المسلمين بالعدوة، وعلو راية السلطان على كل راية.

وعظمت لذلك موجدة ابن الأحمر، ونشأت الفتنة كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن تظاهر ابن الأحمر والطاغية على منع السلطان أبي يوسف من إجازة البحر وإصفاق يغمراسن بن زيان معهم من وراء البحر على الأخذ بحجزته عنهم وواقعة السلطان على يغمراسن بخرزوزة

لما أجاز أمير المسلمين إلى العدوة إجازته الأولى، ولقي العدو بأستجة، وقتل اللّه دننه بأيدي عسكره، وصنع له من الظهور والعز ما لا كفاء له، ارتاب ابن الأحمر بمكانه، فبدا له من ذلك ما لم يحتسب، وظن بأمير المسلمين الظنون، واعترض ذكره شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس.

وأكد ذلك عنده جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه وانقيادهم لأمره، فغص بمكانه وحذر غوائله.

وتكدر الجو بينهما وأجاز إجازته الثانية، فانقبض ابن الأحمر عن لقائه، ودارت بينهما مخاطبات شعرية في معنى العتاب على ألسنة كتابهما نسردها الآن، فمن ذلك قصيدة كتبها إليه ابن الأحمر سنة أربع وسبعين وستمائة بعد واقعة دننه واعتزامه على الرجوع إلى المغرب، فخاطبه بها ليلة الإقامة بالجزيرة حذراً من غائلة العدو، وينحو فيها منحى الاستعطاف وهي من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط:

هل من معيني في الهوى أو منجدي ... من متهم في الأرض أو من منجد

هذا الهوى داع فهل من مسعف ... بإجابة وإنابة أو مسعد

هذه سبيل الرشد قد وضحت فهل ... بالعدوتين من امرىء مسترشد

يرجو النجاة بجنة الفردوس أو ... يخشى المسير إلى الجحيم الموقد؟

يا آمل النصر العزيز على العدى ... أجب الهدى تسعد به وتؤيد

سر النجاة إلى النجاة مشمراً ... إن الهدى لهو النجاة لمن هدي

يا من يقول غداً أتوب ولا غد ... ألديك علم أن تعيش إلى غد

لا تغترر بنسيئة الأجل الذي ... إن لم يحن لك نقده فكأن قد

سفر عليك طويلة أيامه ... لم تستعد لطوله فاستعدد

أوما علمت بأنه لا بد من زاد لكل مسافر فتزود
هذا الجهاد رئيس أعمال التقى خذ منه زادك لارتحالك تسعد
هذا الرباط بأرض أندلس فرح منه لما يرضي إلهك واغتدي
سودت وجهك بالمعاصي فالتمس وجهاً للقيا اللّه غير مسود
وامح الخطايا بالدموع فربما محت الدموع خطيّة المتعمد
من ذا يتوب، لربه من ذنبه أو يقتدي بنبيه أو يهتدي
من ذا يطهر نفسه بعزيمة مشحوذة في نصر دين محمد
أتعز من أرض العدو مدائن واللّه في أقطارها لم يعبد
وتذل أرض المسلمين وتبتلى بمثلثين سطواً بكل موحد
كم جامع فيها أعيد كنيسة فاهلك عليه أسى فلا تتجلد
القس والناقوس فوق مناره والخمر والخنزير وسط المسجد
أسفاً عليها أقفرت صلواتها من قانتين وراكعين وسجد
وتعوضت منهم بكل معاند مستكبر مذ كان لم يتشهد
كم من أسير عندهم وأسيرة فكلاهما يبغي الفداء فما فدي
كم من عقيلة معشر معقولة فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من وليد بينهم قد ود من ولداه وداً أنه لم يولد
كم من تقي في السلاسل موثق يبكي لآخر في الكبول مقيد
وشهيد معترك توزعه الردى ما بين حدي ذابل ومهند
ضجت ملائكة السماء لحالهم ورثى لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا مما دهانا من ردىً أو من ردي
أفلا تراعون الأذمة بيننا من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في إخوانكم وسيوفكم للثأر لم تتقلد
يا حسرة لحمية الإسلام قد خمدت وكانت قبل ذا توقد
أين العزائم ما لها لا تنقضي هل يقطع الهندي غير مجرد
أبني مرين أنتم جيراننا وأحق من في صرخة بهم ابتدي
فالجار كان به يوصي المصطفى جبريل حقاً في الصحيح المسند
أبني مرين والقبائل كلها في المغرب الأدنى لنا والأبعد
كتب الجهاد عليكم فتبادروا منه إلى فرض الأحق الأوكد
وارضوا بإحدى الحسنيين وأقرضوا حسنا تفوزوا بالحسان الخرد
هذي الجنان تفتحت أبوابها والحور قاعدة لكم بالمرصد
هل من بائع من ربه من مشتر منه الحصول على النعيم السرمد
لله في نصر الحنيفة موعد صدق فثوروا بانتجاز الموعد
هذي الثغور بكم إليكم تشتكي شكوى العديم إلى الغني الأوحد
ما بال شمل المسلمين مبدد فيها وشمل الكفر غير مبدد
أنتم جيوش اللّه ملء فضائه تأسون للدين الغريب المفرد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم وطريق هذا العذر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في أمتي؟ وتركتموهم للعدو المعتدي
لله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد
إخواننا صلوا عليه وسلموا وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد
واسعوا لنصرة دينه يسقيكم من حوضه في الحشر أعذب مورد

وصدر جوابها من نظم عبد العزيز شاعر السلطان يعقوب بن عبد الحق بما نصه:

لبيك لا تخش اعتداء المعتدي.. إلخ.

وكذلك أجاب عنها أيضاً مالك بن المرحل بقوله:

شهد الإله وأنت يا أرض اشهدي... الخ فأجابهما أبو عمرو بن المرابط كاتب ابن الأحمر بقوله:

قل للبغاة وللعداة الحسد إلخ.

ولما أجاز السلطان يعقوب بن عبد الحق إجازته الثانية سنة ست وسبعين وستمائة كما نذكره، وصار ابن الأحمر إلى الاستعتاب والرضا ولقي يعقوب بن عبد الحق فأنشده كاتبه أبو عمر بن المرابط يوم اجتماعهما بقوله:

بشرى لحرب اللّه والإيمان إلى آخرها.

ولما انقضى المجلس أمر السلطان شاعره عبد العزيز بمساجلة قصيدته، فأنشدها ثاني المجلس بحضرة ابن الأحمر ونصها:

اليوم كن في غبطة وأمان، إلى آخرها.

ثم كان أثناء ذلك ما وقع من استيلاء السلطان يعقوب بن عبد الحق على مدينة مالقة والغربية، جعل عمله بعد مهلك صاحبها أبي محمد بن أشقيلولة، فبرم لذلك وخيل عليه، ففزع إلى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده، وأن يعود إلى مكان أبيه من ولايته ليدفع به السلطان وقومه عن أرضه، ويأمن معه من زوال سلطانه، لما كانت كلمة الإسلام حجزاً دونه.

فاهتبل الطاغية غرتها، وانتكث عهد أمير المسلمين، ونقض السلم، ونبذ إليه العهد، وأغزى أساطيله بالجزيرة الخضراء حيث مسالح السلطان وعساكره، وأرست بالزقاق حيث فراض الجواز، وانقطع المسلمون من جنود السلطان وقومه وراء البحر ويئسوا من صريخه.

وانتبذ عمر بن يحيى بن محلى عن قومه بمكان إمارته من مالقة، وكان بنو محلى هؤلاء من كبار قومهم بطوية وكانوا حلفاء بني حمامة بن محمد منذ دخلوهم المغرب.

وأصهر عبد الحق أبو ملاك إلى أبيهم محلى في ابنته أم اليمن، فكان من ولده السلطان يعقوب بن عبد الحق.

وكانت امرأة صالحة خرجت إلى الحج سنة ثلاث وأربعين وستمائة فقضت فريضة اللّه عليها وعادت إلى المغرب لرابعة من

السنين سنة سبع وأربعين وستمائة ثم خرجت ثانية سنة اثنتين وخمسين وستمائة فتطوعت بحجة أخرى وهلكت بمصر منصرفها من تلك السنة سنة ثلاث وخمسين وستمائة فكان لبني محلى أبيها مكان من الدولة ودالة على السلطان لخؤولتهم ووشايج قرابتهم وغنائهم في قومهم. ولما استولى السلطان على حضرة الموحدين مراكش، عقد لمحمد بن علي بن محلى على جميع أعمالها، فكانت له في الاضطلاع بها مقامات محمودة.

واتصلت أيام ولايته عليها من لدن سنة ثمان وستين إلى سنة سبع وثمانين وستمائة ثم كان مهلكه أيام يوسف بن يعقوب كما نذكره.

ولما نزع محمد بن أشقيلولة إلى السلطان بالجزيرة سنة ست وسبعين وستمائة متجافياً له عن ولاية مالقة بعد وفاة أبيه الرئيس أبي محمد، واستولى السلطان عليها، واعتزم على الإجازة كما قدمناه، عقد على مالقة والغربية وسائر ثغورها وأعمالها لعمر بن يحيى بن محلى.

وكان أخوه طلحة بن يحيى ذا بأس وصرامة وقوة شكيمة، واعتزاز على السلطان بمكان الخؤولة، وهو الذي قتل يعقوب بن عبد الحق بغبولة سنة ثمان وستين وستمائة كما قلناه، وظاهر فتح الله السدراتي مولى السلطان ووزيره على قتال أبي العلاء بن أبي طلحة بن أبي قريش، عامل المغرب بكدية العرايش من ظاهر فاس سنة اثنتين وستين وستمائة ونزع سنة أربع وسبعين وستمائة إلى جبل أزور عند مرجع السلطان من إجازته الأولى، فاستنزله ورجعه إلى مجلسه من جملته.

ثم نزع من الجزيرة إلى غرناطة سنة ست وسبعين وستمائة عند مرجع السلطان من أمر مالقة، وأجاز البحر إلى بلاد الريف.

ثم رجع إلى القبلة وأقام بين بني توجين.

ثم أجاز البحر إلى الأندلس سنة سبع وسبعين وستمائة عندما أضرم نار هذه الفتنة بين السلطان وبين ابن الأحمر والطاغية، واحتل أسطول النصارى بالزقاق، وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر.

وأحس أخوه عمر صاحب مالقة بإظلام الجو بينه وبين السلطان بما كان من أمر أخيه طلحة من قبل فلاطفه ابن الأحمر عند استقراره بغرناطة في مداخلة أخيه عمر في النزول عن مالقة، والاعتياض عنها بشلوبانية والمنكب طعمة.

وخاطبه في ذلك أخوه طلحة فأجاب وخرج ابن الأحمر بعساكره إلى مالقة، وتقبض عمر بن محلى على زيان بن بو عياد قائد بني مرين ومحمد بن أشقيلولة.

وأمكن ابن الأحمر من البلد فداخلها آخر رمضان من سنته.

وأنزل ابن محلى بشلوبانية واحتمل ذخيرته وما كان السلطان ائتمنه عليه من المال والعدة الجهادية.

واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية على منع أمير المسلمين من الإجازة، وراسلوا يغمراسن بن زيان من وراء البحر وراسلهم في مشاقة السلطان وإفساد ثغوره وإنزال العوائق به المانعة من حركته، والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الجهاد، وأسنوا فيما بينهم بينهما الإتحاف والمهاداة.

وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف، وبعث إليه ابن الأحمر صحبة ابن مروان التجاني كفاء ذلك عشرة آلاف دينار، فلم يرض بالمال في هديته ورده.

وأصفقت أيديهم جميعاً على السلطان، ورأوا أن قد بلغوا في إحكام أمرهم وسد مذاهبه إليهم، واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش.

كان صمد إليها مرجعه من الغزو في شهر المحرم فاتح سبع وسبعين وستمائة لما كان من عيث العرب جشم بتامسنا وإفسادهم السابلة، فثقف أطرافها وحسم أدواءها.

ولما بلغه خبر ابن محلى ومالقة ومنازلة الطاغية للجزيرة، نهض لثالثة من شوال يريد طنجة.

ولما انتهى إلى تامسنا، وافاه الخبر بنزول الطاغية على الجزيرة، وإحاطة عساكره بها سادس شوال، بعد أن كانت أساطيله منازلتها منذ ربيع، وأنه مشرف على التهامها، وبعثوا إليه يستعدونه فاعتزم على الرحيل.

ثم اتصل به الخبر بخروج مسعود بن كانون أمير سفيان من جشم ببلاد نفيس من المصامدة خامس ذي القعدة، وأن الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم، فكر إليه راجعاً وقدم بين يديه حافده تاشفين بن بو مالك، ووزيره يحيى بن حازم، وجاء على ساقتهم وفروا أمام جيوشه، وانتهب معسكرهم وحللهم، واستباح عرب الحارث ابن سفيان.

ولحق مسعود بمعقل السكسيوي، ونازله السلطان بعساكره أياماً.

ثم سرح ابنه الأمير أبا بن زيان منديل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها، فأوغل في ديارها وقفل إلى أبيه خاتم

سنته.

واتصل بالسلطان ما نال أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وأعواز الأقوات، وأنهم قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر، فأهمه ذلك وأعمل النظر فيه، وعقد لولي عهده ابنه الأمير أبي يعقوب من مراكش على الغزو إليها.

وأغزى الأساطيل في البحر إلى جهاد عدوهم، فوصل إلى طنجة لصفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة وأوعز إلى البلاد البحرية لإعداد الأساطيل للغزاة بسبتة وطنجة وسلا، وقسم الأعطيات وتوفرت همم المسلمين على الجهاد، وصدقت عزائمهم على الموت.

وأبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبتة لما بلغه خطاب أمير المسلمين في ذلك البلاء الحسن، وقام فيه المقام المحمود، واستنفر كافة أهل بلده فركبوا البحر أجمعين من المحتلم فما فوقه.

ورأى ابن الأحمر ما نزل بالمسلمين في الجزيرة، وإشراف الطاغية على أخذها، فندم في ممالأته ونبذ عهده، وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة مدداً للمسلمين.

واجتمعت الأساطيل بمرفأ سبتة تناهز السبعين، قد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زي وأحسن قوة وأكمل عدة وأوفر عديد، وعقد لهم الأمير أبو يعقوب رايته، وأقلعوا عن طنجة ثامن ربيع الأول.

وانتشرت قلوعهم في البحر فأجازوه، وباتوا ليلة المولد الكريم بمرقى الجبل، وصبحوا العدو وأساطيلهم تناهز الأربعمائة، فتظاهروا في دروعهم وأسبغوا من سكتهم، وأخلصوا لله عزائمهم، وصدقوا مع اللّه نياتهم، وتنادوا بالجنة شعارهم، ووعظ وذكر خطباؤهم، والتحم القتال ونزل الصبر.

ولم يكن إلا كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل، فانكشفوا وتساقطوا في العباب، فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم، وملك المسلمون أساطيلهم ودخلوا مرمى الجزيرة وفرضتها عنوة، فاختل معسكر الطاغية، ودخلهم الرعب من إجازة الأمير أبي يعقوب ومن معه من الحامية، فأفرج لحينه عن البلد، وانتشر النساء والصبيان بساحته، وغلبت المقاتلة كثيراً من المعسكر على مخلفهم، فغنموا من الحنطة والأدم والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياماً، حتى وصلتها الميرة من النواحي.

وأجاز الأمير أبو يعقوب لحينه فأرهب العدو في كل ناحية، وصده عن الغزو إلى دار الحرب شأن الفتنة مع ابن الأحمر، فرأى أن يعقد مع الطاغية سلماً، ويصل به لمنازلة غرناطة يداً.

وأجابه إلى ذلك الطاغية رهبة من بأسهم، وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة، وبعث أساقفته لعقد ذلك فأجازهم الأمير أبو يعقوب إلى أبيه أمير المسلمين فغضب لها، ونكرها على ابنه، وزوى عنه وجه رضاه، ورجعهم إلى طاغيتهم مخفقي السعي.

وأجاز أبو يعقوب ابن السلطان إلى أبيه ومعه وفد أهل الجزيرة، فلقوا السلطان بمكانه من بلاد السوس.

وولى عليهم ابنه أبا زيان منديل فنزل بالجزيرة، وأحكم العقدة مع الطاغية، ونازل مربلة من طاعة ابن الأحمر براً وبحراً فامتنعت عليه ورجع إلى الجزيرة، وانضوى إليه أهل الحصون الغربية بطاعتهم حذراً من الطاغية فتقبلهم، ثم جاءه المدد من المغرب، ونازل رندة فامتنعت، والطاغية أثناء ذلك يجوس خلال الأندلس.

ونازل ابن الأحمر بغرناطة مع بني أشقيلولة وابن الدليل.

ثم راجع ابن الأحمر مسالمة بني مرين، وبعث لأبي زيان ابن السلطان بالصلح، واجتمع معه بأحواز مربلة كما نذكر بعد.

ولما ارتحل السلطان من معسكره إلى جبل السكسيوي يريد السوس، ثم أغزى العساكر ورجع من طريقه إلى مراكش حتى إذا انقضت غزاة البربر قفل إلى فاس، وبعث خطابه إلى الآفاق مستنفراً للجهاد.

وفصل في رجب من سنة ثمان وسبعين وستمائة حتى انتهى، إلى طنجة وعاين ما اختل من أحوال المسلمين في تلك الفترة، وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزار الطاغية، وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية ومن فيها.

وظاهره على ابن الأحمر منافسوه في رياسته بنو أشقيلولة، فاستجره الرئيس أبو الحسن بن أبي إسحاق صاحب وادي آش، ونازل معه غرناطة سنة تسع وسبعين وستمائة خمسة عشر يوماً ثم أفرجوا عنها، ولقيتهم عساكر غرناطة من زناتة فعد ذلك من سنتهم، وعليهم طلحة بن محلى وتاشفين بن معطى كبير تيربيغين بحصن المسلى، فأظهرهم اللّه عليهم.

وهلك من النصارى ما يناهز سبعمائة من فرسانهم، واستشهد فيها من أعياص بني مرين عثمان بن محمد بن عبد الحق.

واستجر الطاغية سنة ثمانين وستمائة بعدها الرئيس أبو محمد عبد اللّه أخو صاحب وادي آش إلى منازلة غرناطة، فنازلها الطاغية وأقام عليها أياماً.

ثم ارتحل وقد اعتز عليهم، وأشفق السلطان على المسلمين وعلى ما نال ابن الأحمر من خسف الطاغية، فراسله في الموادعة واتفاق الكلمة وشرط عليه النزول عن مالقة، وامتنع فرجع السلطان إلى إزالة العوائق المانعة عن شأنه من الجهاد، وكان من أعظمها فتنة يغمراسن.

واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية ابن أخي أدفونش من الاتصال والإصفاق فبعث إليه في تجديد الصلح والاتفاق، فلج وكشف الوجه في العناد وأعلن بما وقع بينه وبين أهل العدوة مسلمهم وكافرهم من الوصلة، وأنه معتزم على وصل بلاد المغرب، فصرف أمير المسلمين عزمه إلى غزو يغمراسن.

وقفل إلى فاس لثلاثة أشهر من نزوله طنجة، فدخلها آخر شوال وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجة عليه، والتحلي بمسالة بني توجين والتجافي عنهم لموالاتهم أمير المسلمين، فقام يغمراسن في ركائبه وقعد ولج في طغيانه.

وارتحل أمير المسلمين من فاس خاتمة سنة تسع وسبعين وستمائة وقدم ابنه أبا يعقوب في العساكر وأدركه بتازى.

ولما انتهى إلى ملوية تلوم في انتظارالعساكر ثم ارتحل إلى نامه ثم تافنا وصمد إليه يغمراسن بحشود زناتة والعرب بحللهم وكافة ناجعتهم، والتقت عيون القوم، فكانت بينهم حرب.

وركب على آثارهما العسكران فالتحم القتال، وكان الزحف بخرزوزة من ملعب تيفني، ورتب أمير المسلمين مصافه وجعل كتيبته وكتيبة ابنه الأمير أبي يعقوب جناحين للعسكر.

واشتد القتال سائر النهار، وانكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم، وانتهب جميع مخلفهم وما كان في معسكرهم من المتاع والكراع والسلاح والفساطيط، وبات معسكر أمير المسلمين ليلتهم في صهوات خيلهم، واتبعوا من الغد آثار عدوهم، واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن، وامتلأت أيدي بني مرين من نعمهم وشائهم.

ودخلوا بلاد يغمراسن وزناتة.

ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، لقيه بناحية القصبات، وعاثوا جميعاً في بلاده نهباً وتخريباً ثم أذن لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمخنق تلمسان متلوماً لوصول محمد بن عبد القوي وقومه إلى منجاتهم من جبل وانشريش حذراً عليهم من غائلة يغمراسن.

ثم أفرج عنها وقفل إلى المغرب ودخل فاس شهر رمضان من سنة ثمانين وستمائة ثم نهض إلى مراكش فاحتل بها فاتح إحدى وثمانين وستمائة بعدها، وسرح ابنه الأمير أبا يعقوب إلى السوس لتدويخ أقطاره، ووافاه بمراكش صريخ الطاغية على ابنه شانجة الخارج عليه، فاغتنم الفرصة في فساد بينهم لقضاء أربه من الجهاد، وارتحل مبادراً بالإجازة إلى الأندلس.

والله تعالى أعلم.

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف ثالثة باستدعاء الطاغية لخروج ابنه شانجة عليه وافتراق كلمة النصرانية وما كان في هذه الإجازة من الغزوات

لما رجع السلطان من غزاة تلمسان إلى فاس، وارتحل إلى مراكش وافاه بها وفد الطاغية من بطارقته وزعماء دولته، وقواميص ملته صريخاً على ابنه شانجة.

خرج عليه في طائفة من النصارى وغلبوه على أمره، فاستنصر أمير المسلمين ودعاه لحربهم وأمله لاسترجاع ملكه من أيديهم، فأجاب أمير المسلمين داعية رجاء للكرة بافتراقهم، وارتحل حتى انتهى إلى قصر المجاز، وأوعز إلى الناس بالنفير إلى الجهاد، وأجاز إلى الخضراء فاحتل بها لربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين وستمائة واجتمعت عليه مسالح الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عياد، فوافاه بها الطاغية ذليلاً لعز الإسلام مؤملاً صريخ السلطان، فأكبر وفادته وكرّم موصله وعظم قدره، وأمده لنفقاته بمائة ألف من مال المسلمين استرهن فيها التاج الذخيرة عند سلفه، وبقي بدارهم فخراً للأعقاب لهذا العهد.

ودخل معه دار الحرب غازياً حتى نازل قرطبة، وبها شانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفة، فقاتلها أياماً ثم أفرج عنها، وتنقل في جهاتها ونواحيها وارتحل إلى طليطلة فعاث في جهاتها، وخرب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر، فامتلأت أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها.

وقفل إلى الجزيرة فاحتل بها لشعبان من سنته، وكان عمر بن محلى نزع إلى طاعة السلطان فهم به ابن الأحمر، ونبذ إليه عهده.

وارتجع المنكب من يده ونازله بعساكره فاتح هذه السنة، فجهز السلطان إليه لوصوله الجزيرة أسطوله، وأفرج ابن الأحمر

عنه، فبادر إلى السلطان بطاعته، ووصل ببيعة شلوبانية فأبقاه فيها بدعوته.

ثم راجع طاعة ابن الأحمر في شوال من سنته، فتقبل فيئته وأعاضه عنها بالمنكب إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن شأن السلم مع ابن الأحمر وتجافي السلطان له عن مالقة ثم تجديد الغزو بعد ذلك

لما اتصلت يد السلطان بيد الطاغية، خشي ابن الأحمر غائلته، فجنح إلى موالاة شانجة الخارج عن أبيه، ووصل يده بيده، وأكد له العقد على نفسه واضطرمت له الأندلس ناراً وفتنة.

ولم يغن شانجة عن ابن الأحمر شيئاً ورجع السلطان من غزاته مع الطاغية، وقد ظهر على ابنه فأجمع على منازلة مالقة، ونهض إليها من الجزيرة فاتح اثنتين وثمانين وستمائة فتغلب على الحصون الغربية كلها، ثم أسف إلى مالقة فأناخ عليها بعساكره.

وضاق النطاق على ابن الأحمر وبدا له سوء المغبة في شأن مالقة ومداخلة ابن محلى في الغدر بها، وأعمل نظره في الخلاص من ورطتها.

ولم ير لها إلا ولي عهد السلطان ابنه أبا يوسف، فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخاً لرقع هذا الخرق، وجمع كلمة المسلمين على عدوهم، فأجابه واغتنم المثوبة في مسعاه.

وأجاز لشهر صفر، فوافى أمير المسلمين بمعسكره على مالقة، ورغب منه السلم لابن الأحمر عن شأن مالقة والتجافي له عنها، فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضى الله في جهاد وعدوه إعلاء كلمته.

وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر، وتجددت عزائم المسلمين، وقفل السلطان إلى الجزيرة وبث السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا.

ثم استأنف الغزو بنفسه إلى طليطلة فخرج غازياً غرة ربيع الثاني من سنة اثنتين وثمانين وستمائة حتى انتهى إلى قرطبة، فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون ثم ارتحل نحو البيرة وخلف معسكراً بظاهر بياسة وأغذ السير في أرض قفر، ولليلتين انتهى إلى البيرة من نواحي طليطلة، فسرح الخيل في البسائط حتى تقرت جميع ما فيها.

ولم ينته إلى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم، وأثخن في القتل، وقفل على غير طريقه فأثخن وخرب وانتهى إلى أبدة.

ووقف بساحتها والعدو منحجزون، ثم رجع إلى معسكره ببياسة وأراح ثلاثاً ينسف آثارها ويقتلع شجراءها وقفل إلى الجزيرة فاحتل بها شهر رجب وقسم الغنائم وقفل من الخمس.

وولى على الجزيرة حافده عيسى ابن الأمير أبي مالك ابنه، فهلك شهيداً بالمعترك لشهرين من ولايته، وأجاز السلطان غرة شعبان إلى المغرب، ومعه ابنه أبو زيان منديل، وأراح بطنجة ثلاثاً وأغذ السير إلى فاس فاحتل بها آخر شعبان، ولما قضى صيامه ونسكه، ارتحل إلى مراكش لتمهيدها، وتفقد أحوالها.

وقسم من نظره لنواحي سلا وأزُّور، فأقام برباط الفتح شهرين اثنين، واحتل مراكش فاتح ثلاث وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية ابن أدفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانجة الخارج عليه، فتحركت إلى الجهاد عزائمه وسرح الأمير أبا يعقوب ولي عهده بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب، وكف عاديتهم، ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة، فأجفلوا أمامه، واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس، فهلك أكثر العرب في تلك القفار مسغبة وعطشاً، وقفل لما بلغه من اعتلال أمير المسلمين، ووصل إلى مراكش وقد أبل، واعتزم على الجهاد والغزو شكر الله، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف الرابعة ومحاصرة شريش وما تخلل ذلك من الغزوات

لما اعتزم أمير المسلمين على الإجازة واعترض جنوده وحاشيته، وأزاح عللهم، وبعث في قبائل المغرب بالنفير، ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة.

واحتل رباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه، ثم ارتحل إلى قصور مصمودة وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمطوعة خاتم سنته، ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين وستمائة بعدها واحتل بطريف، ثم سار منها إلى الخضراء وأراح أياماً.

ثم خرج غازياً حتى انتهى إلى وادي لك، وسرح الخيول في بلاد العدو وبسائطها تغير وتحرق وتنسف.

فلما خرب بلاد النصرانية ودمر أرضهم قصد مدينة شريش، فنزل بساحتها وأناخ عليهــا، وبث السرايا والغارات في جميع نواحيها، وبعث عن المسالح التي كانت بالثغور، فتوافت لديه.

ولحقه حافده عمر بن أبي مالك بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرساناً ورجالاً، ووافته حصة العزفي من سبتة غزاة ناشبة تناهز خمسمائة من الرجل.

وأوعز إلى ولي عهده الأمير أبي يعقوب باستنفار من بقي بالعدوة من المسلمين إلى الجهاد، وعقد لحافده الآخر منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من الغزاة.

وأعطاه الراية وسرحه لغزو إشبيلية لآخر صفر من سنته، فغنموا ومروا بقرمونة في منصرفهم فاستباحوها واثخنوا بالقتل والأسار ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم.

وبعث وزيره محمد بن وعتو ومحمد بن عمران بن عبلة عيوناً، فوافوا حصن القناطر وروطة، واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور، فعقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان لثلاثة من ربيع وأعطاه الراية، وسرحه إلى بسائط وادي لك، فرجعوا من الغنائم بما ملأ العساكر بعد أن أثخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار، وأبادوا عمرانها.

ثم سرح ثامن ربيع عسكراً للإغارة على حصن أركش، ووافوه على غرة فاكتسحوا أموالهم، ثم عقد تاسع ربيع لابنه أبي معروف على ألف من الفرسان، وسرحه لغزو إشبيلية فساروا حتى توقف عليها، وانحجزت منه حاميتها، فخرب عمرانها وحرق زروعها وقطع شجرها، وامتلأت أيدي عسكره سبياً وأموالاً، ورجع إلى معسكر السلطان مملوَ الحقائب.

ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع لغزو حصن كان بالقرب من معسكره، وسرح معه الرجل من الناشبة والفعلة بالآلات، وأمده بالرجل من المصامدة، وغزاة سبتة فاقتحموه عنوة على أهله، وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذرية، واضرعوا خده بالتراب.

ولسبع عشرة من الشهر ركب السلطان إلى حصن سقوط قريباً من معسكره، فخربه وحرقه بالنار، واستباحه، وقتل المقاتلة وسبى أهله.

ولعشرين من شهره وصل ولي عهده، الأمير أبو يعقوب من العدوة بنفير أهل المغرب وكافة القبائل في جيوش ضخمة، وعساكر موفورة، وركب أمير المسلمين للقائهم وبرور مقدمهم.

واعترض العساكر الموافية يومئذ فكانت ثلاثة عشر ألفاً من المصامدة، وثمانية آلاف من برابرة المغرب متطوعون كلهم بالجهاد، فعقد له السلطان على خمسة آلاف من المرتزقة وألفين من المتطوعة وثلاثة عشر ألفاً من الرجل والفين من الناشبة وسرحه لغزو إشبيلية والإثخان في نواحيها، فعبى كتائبه ونهض لوجهه، وبث الغارات بين يديه، فأثخنوا وسبوا وقتلوا واقتحموا الحصون واكتسحوا الأموال.

وعاج على الشرف والغابة من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقتحم من حصونها عدة، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين ظاهراً عزيزاً غانماً.

ولسادس ربيع الثاني وصل الأمير أبو زيان منديل بن طريف بعسكر وافر من المسلمين فعقد له غداة وصوله وأمده بعسكر آخر وأغزاه قرمونة والوادي الكبير، فأغار على قرمونة، وطمعت حاميتها في المدافعة فبرزوا له وصدقهم القتال فانكشفوا حتى احجزوهم في البلد، ثم أحاطوا ببرج كان قريباً من البلد، فقاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة، ولم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة إشبيلية، فأغار واكتسح واقتحم برجاً كان هنالك عيناً على المسلمين، وأضرمه ناراً، وامتلأت أيدي عساكره، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين.

ولثلاث عشرة من ربيع الثاني عقد للأمير أبي يعقوب لمنازلة جزيرة كبوتر، فصمد إليها وقاتلها واقتحمها عنوة.

وفي ثاني جمادى عقد لطلحة بن يحيى بن محلى، وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مالقة سنة خمس وسبعين وستمائة خرج إلى الحج، فقضي فرضه ورجع، ومر في طريقه بتونس واتهمه الدعي ابن أبي عمارة كان بها يومئذ فاعتقله سنة اثنتين وثمانين، ثم سرحه ولحق بقومه بالمغرب.

ثم أجاز الأندلس غازياً في ركاب السلطان، فعقد له في هذه الغزاة على مائتين من الفرسان وسرحه إلى إشبيلية ليكون ربية للمعسكر وبعث معه لذلك عيوناً من اليهود والمعاهدين من النصارى، يتعرفون له أخبار الطاغية شانجة وأمير المسلمين أثناء ذلك يغادي شريش ويراوحها بالقتال والتخريب، ونسف الآثار، وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو، فلا يخلو يوماً عن تجهيز عسكر أو اغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية، حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية، وخرب بسائط إشبيلية ولبلة وقرمونة وأستجة وجبال الشرف وجميع بسائط الفرنتيرة.

وأبلى في هذه الغزوات عياد العاصي من شيوخ جشم،

وخضر الغزي أمير الأكراد بلاء عظيماً، وكان لهم فيها ذكر، وكذلك غزاة سبتة وسائر المجاهدين والعرب من جشم وغيرهم.

فلما دمرها تدميراً ونسفها تخريباً واكتسحها غارةً ونهباً، وزحم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن المعسكر، اعتزم على القفول وأفرج عن شريش لآخر رجب، ووافاه مدد غرناطة من عساكر الغزاة وقائدهم يعلى بن أبي عياد بن عبد الحق بوادي بردة، فلقاهم مبرة، وتكريماً وانقلبوا إلى أهلهم.

واتصل به أن العدو أوعز إلى أساطيله باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض فأوعز أمير المسلمين إلى جميع سواحله من سبتة وطنجة والمنكب وجزيرة وطيف وبلاد الريف ورباط الفتح، واستدعى أساطيله فتوافت منها ستة وثلاثون أسطولاً متكاملة في عدتها وعديدها، فأحجمت أساطيل العدو عنها وارتدت على أعقابها، واحتل بالجزيرة غرة رمضان.

واستيقن الطاغية شانجة وأهل ملته أن بلادهم قد فنيت وأرضهم خربت وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية، فجنحوا إلى السلم وضرعوا إلى أمير المسلمين في كف عاديته عنهم على ما يذكر ووصل إلى السلطان بمكانه من منازلة شريش عمر بن أبي يحيى بن محلى نازعاً إلى طاعته، فاتهمه لما سبق من تلاعبه وأمر أخاه طلحة بنكبه.

واحتمل إلى طريف فاعتقل بها، وسار طلحة إلى المنكب فاستصفى أموال أخيه عمر وذخائره وحملها إلى السلطان.

وأقر ثانية أخاه موسى على عمله بالمنكب، وأمده بعسكر من الرجل، ثم أطلق عمر للبال من اعتقاله، وأجاز طلحة وعمر في ركاب السلطان.

ونزع منصور بن أبي مالك حافد السلطان إلى غرناطة، ثم لحق منها بالمنكب وأقام مع موسى بن أبي يحيى بن محلى، فأقره السلطان ورضي بمقامه والله تعالى أعلم.

الخبر عن وفادة الطاغية شانجة وانعقاد السلم ومهلك السلطان على تفيئة ذلك

لما نزل بأمم النصرانية بلاد ابن أدفونش من أمير المسلمين ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبي نسائهم وإبادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم، زاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لا عاصم من أمير المسلمين، فاجتمعوا إلى طاغيتهم شانجة، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال، وحملوه على الضراعة لأمير المسلمين في السلم، وانفاذ الملأ من كبار النصرانية عليه في ذلك، وإلا فلا تزال تصيبهم منه قارعة، وتحل قريباً من دارهم فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخسف والهضيمة لدينه.

وأوفد على أمير المسلمين من بطارقتهم وقمامصتهم وأساقفتهم يخطبون السلم ويضرعون في المهادنة والإبقاء ووضع أوزار الحرب، فردهم أمير المسلمين اعتزازاً عليهم.

ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه. فأسعفهم أمير المسلمين وجنح إلى السلم لما تيقن صاغيتهم إليه وذلهم لعز الإسلام، وأجابهم إلى ما سألوه واشترط عليهم ما تقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه، والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم، ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده، وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة.

وبعث ثقته عبد الحق ابن الترجمان لاشتراط ذلك وأحكام عقده، فاستبلغ وأكد في الوفاء.

ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه دون أمير المسلمين وعلى مدافعته عنه، فأحضرهم بمشهد ابن الترجمان وأسمعهم ما عقد لأمير المسلمين على قومه وأهل ملته وقال لهم: إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم أو الحرب، وهذا ملك المسلمين ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا.

ولما رأى عبد الحق صاغيته إلى مرضاة السلطان وسوس إليه بالوفادة لتتمكن الألفة وتستحكم العقدة، وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة وتمكين الألفة، فصغى إلى وفاقه وسأل لقي الأمير أبي يعقوب ولي عهده من قبل ليطمئن عليه، فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش، وباتا بمعسكر المسلمين هنالك.

ثم ارتحلا من الغد للقاء أمير المسلمين وقد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه، وإظهار شعار الإسلام وأبهته، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية.

ولقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يلقى بها مثله من عظماء الملل وقدم الطاغية بين يديه هدية أتحف بها أمير المسلمين وابنه من طرف بلاده، كان فيها زوج من الحيوان الوحشي المسمى بالفيل، وحمارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الطرف.

تقبّلها السلطان وابنه وقابلوه بكفائها ومضاعفتها، وكمل عقد السلم، وتقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعز الإسلام عليه وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضا والمسرة وسأل منه أمير المسلمين أن يبعث من كتب العلم التي بأيدي النصارى من لدُن استيلائهم على مداين الإسلام، فاستكثر من أصنافها في ثلاثة عشر حملاً بعث بها إليه، فوقفها السلطان بالمدرسة التي أسسها بفاس لطلب العلم.

وقفل أمير المسلمين إلى الجزيرة لليلتين بقيتا لرمضان، فقضى صومه ونسكه، وجعل من قيام ليله جزءاً لمحاضرة أهل العلم.

وأعد الشعراء كلمات أنشدوها يوم الفطر بمشهد الملأ في مجلس أمير المسلمين.

وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة عزوز المكانسي، ذكر فيها سير أمير المسلمين وغزواته على نسق.

ثم أعمل أمير المسلمين نظره في الثغور فرتب بها المسالح وعقد عليها لابنه الأمير أبي زيان منديل، وأنزله بزكوان مقربة مالقة، واستوصاه بأن لا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثاً.

وعقد لعياد بن أبي عياض العاصمي على مسلحة أخرى، وأنزله بأصطبونة.

وأجاز ابنه الأمير أبا يعقوب لتفقد أحوال المغرب ومباشرة أموره، فأجاز في أسطول القائد محمد بن أبي القاسم الرنداحي قائد سبتة، وأوعز إليه بالبناء على قبر أبيه الملوك عبد الحق، وابنه إدريس بتافرطست، فاختط هنالك رباطاً وبني على قبورهم أسمنة من الرخام، ونقشها بالكتابة، ورتب عليها قراء لتلاوة القرآن، ووقف على ذلك ضياعاً وفدناً.

وهلك خلال ذلك وزيره يحيى بن أبي منديل العسكري لمنتصف رمضان.

ثم اعتل بعد ذلك أمير المسلمين لشهر ذي الحجة ومرض واشتد وجعه وهلك لآخر محرم سنة خمس وثمانين وستمائة من الهجرة والله أعلم.

الخبر عن دولة السلطان أبي يعقوب وما كان فيها من الأحداث وشأن الخوارج عليه لأول دولته

لما اعتل أمير المسلمين أبو يوسف بالجزيرة، مرضه نساؤه، وطير بالخبر إلى ولي العهد الأمير أبي يعقوب وهو بمكانه من المغرب، فأغذ السير، وقضى أمير المسلمين قبل وصوله، فأخذ له البيعة على الناس وزراء أبيه وعظماء قومه، وأجاز إليهم البحر، فجددوا بيعته غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها على الكافة.

وانعقد أمر السلطان يومئذ ففرق الأموال وأجزل الصلات، وسرح من في السجون في ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر، ووكلهم فيها إلى أمانتهم.

وقبض أيدي العمال عن الظلم والاعتداء والجور على الرعايا، ورفع المكوس ومحا رسوم الرتب، وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة.

وكان أول شيء أحدث من أمره إلى أن بعث إلى ابن الأحمر وضرب موعداً للقائه، فبدر إليه ولقيه بظاهر مربالة، لأول ربيع.

ولقاه مبرّة وتكريماً وتجافى له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت لمملكته ما عدا الجزيرة وطريف.

وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة، ورجع السلطان إلى الجزيرة ووافاه بها وفد الطاغية شانجة مجددين حكم السلم الذي عقد له أمير المسلمين عفا الله عنه فأجابهم.

ولما تمهد أمر الأندلس وفرغ من النظر اليها، عقد لأخيه أبي عطية العباس على الثغور الغربية والإمارة عليها.

وعقد لعلي بن يوسف بن يذكاسن على مسالحها، وأمده بثلاثة آلاف من عساكره.

وأجاز إلى المغرب فاحتل بقصر مصمودة سابع ربيع الثاني.

ثم ارتحل إلى فاس، واحتل بها لاثنتي عشرة خلت من جمادى، ولحين استقراره بدار ملكه، خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في إخوته وبنيه وذويهم، ولحق بجبل درعة، ودعا لنفسه، وسرح إليهم السلطان أخاه أبا معرف، فبدا له في النزوع إليهم، فلحق بهم، فأغزاهم السلطان بعساكره وردد إليهم البعوث والكتائب، وتلطف في استنزال أخيه، فنزل عن الخلاف وعاد إلى حسن طاعته.

وفر أولاد إدريس إلى تلمسان، وتقبض عليهم أثناء طريقهم، وسرح السلطان أخاه أبا زيان إلى تازى، وأوعز إليه بقتلهم بمليلي خارج تازى لرجب من سنة خمس وثمانين وستمائة ورهب الأعياص عند ذلك من بادرة السلطان فتفرقوا ولحق بغرناطة أولاد أبي العلاء إدريس بن عبد الحق، وأولاد ابي يحيى بن عبد الحق، وأولاد عثمان بن يزول.

ورجع أولاد أبي يحيى إلى السلطان بعد القضاء عهده وأمانه.

وهلك أخوه محمد بن اجليلد بن يعقوب بن عبد الحق لشعبان من سنته، وهلك عمر ابن أخيه أبي مالك بطنجة.

ثم خرج على السلطان عمر بن عثمان بن يوسف العسكري بقلعة قندلاوة، ونبذ الطاعة وأذن بالحرب.

وأوعز السلطان إلى بني عسكر ومن إليهم من القبائل المجاورين لها، فاحتشدوا له ونازلوه، ثم نهض بركابه وعساكره إلى منازلته، واحتل بنبدورة، وخافه عمر على نفسه، وأيقن أنه أحيط به، فسأل الأمان وبذله السلطان عل شريطة اللحاق بتلمسان، فبعث من توثّق له من الخيرة فنزل.فوفى له السلطان بعهده، ولحق بتلمسان بأهله وولده.

ثم ارتحل السلطان في رمضان من سنته إلى مراكش لتمهيد أنحائها، وتثقيف أطرافها، واحتل بها في شوال، واعتمل النظر في مصالحها، ونزع خلال ذلك طلحة بن محلى البطوي إلى بني حسان من المعقل، وخرج على السلطان ودعا لنفسه.

وعقد السلطان لمنصور ابن أخيه أبي مالك على العساكر، وعهد له بولاية السوس وسرحه لاستنزال الخوارج، ومحو آثار الفساد.

وارتاب بمكان أخيه عمر فغربه إلى غرناطة، فقتله أولاد أبي العلاء يوم وصوله إليها، فسار الأمير منصور في الجيوش والكتائب، وغزا عرب المعقل وأثخن فيهم.

وقتل طلحة بن محلى في بعض حروبهم لثلاث عشرة من جمادى سنة ست وثمانين وستمائة وبعث برأسه إلى سدة السلطان فعلق بتازى.

ثم نهض السلطان في رمضان لغزو المعقل بصحراء درعة بما أضروا العمران وأفسدوا السابلة.

وسار إليهم في اثني عشر ألفاً من الفرسان، ومر على بلاد هسكورة معترضاً جبل درن، وأدركهم بالقفر نواجع، فأثخن فيهم بالقتل والسبي.

واستكثر من رؤوسهم فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس.

وعاد من غزوه إلى مراكش آخر شوال، فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية عليها من لدن غلب الموحدين، لما وقع من الارتياب بأولاد محلى بما أتاه كبيره طلحة، فنكب عزة المحرم من سنة سبع وثمانين وستمائة، وهلك في محبسه لشهر صفر بعده.

وهلك على إثر ذلك المزوار قاسم بن عبو.

وعقد السلطان على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطو الجاناتي من موالي دولتهم ولاء الحلف، وترك معه ابنه أبا عامر.

ثم ارتحل إلى حضرة فاس، فاحتل بها منتصف ربيع، ووافته بها عروسه ابنة موسى بن رحو بن عبد اللّه بن عبد الحق من غرناطة في وفد من وزراء ابن الأحمر وأهل دولته، فأعرس بها وكان بعث إلى أبيها من قبل في الإصهار بها.

ووافت معها رسل ابن الأحمر يسألونه التجافي عن وادي آش، فأسعفهم بها، كما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن دخول وادي آش في طاعة السلطان ثم رجوعها إلى طاعة ابن الأحمر

كان أبو الحسن بن أشقيلولة ظهير السلطان ابن الأحمر على ملكه، ومعينه على شأنه، وكان له في الدولة بذلك مكان.

ولما هلك خلف من الولدان أبا محمد عبد اللّه وأبا إسحاق ابراهيم، فعقد ابن الأحمر لأبي محمد على مالقة ولأبي إسحاق على قمارش ووادي آش.

ولما هلك السلطان ابن الأحمر حدثت مغاضبات ومنافسات بينهما وبينه، وتأدى ذلك إلى الفتنة كما قلناه ودخل أبو محمد في طاعة السلطان أبي يوسف.

ثم هلك فلحق ابنه محمد بالسلطان، ونزل له عن البلد سنة ست وسبعين وستمائة ثم هلك أبو إسحاق سنة اثنتين وثمانين وستمائة وغلب ابن الأحمر على حصن قمارش وصار إليه.

وكان الرئيس أبو إسحاق قد عقد لابنه أبي الحسن على وادي آش وحصونها، واتصلت الفتنة بينه وبين ابن الأحمر، وظاهر أبو الحسن عليه الطاغية وأجلب أخوه أبو محمد على غرناطة هو

وابن الدليل.

وطال أمر الفتنة بينهما وبين ابن الأحمر وأجلب أخوه أبو محمد على غرناطة مع الطاغية.

ثم انعقد السلم بين المسلمين والنصرانية، وخشي أبو الحسن بن أشقيلولة على نفسه عادية ابن الأحمر، فتذمم بطاعة صاحب المغرب، وأقام دعوته بوادي آش سنة ست وثمانين وستمائة فلم يعرض لها ابن الأحمر حتى إذا وقعت المواصلة بينه وبين السلطان أبي يعقوب، وكان شأن هذا الصهر على يده، بعث رسله إلى السلطان يسأله التجافي عن وادي آش، فتجافى له عنها وبعث إلى أبي الحسن بن أشقيلولة بذلك فتركها.

وارتحل إليه سنة سبع وثمانين وستمائة ولقيه بسلا، فأعطاه القصر الكبير وأعماله طعمة سوغه إياها، ثم نزل لبنيه آخر دولتهم.

واستمكن ابن الأحمر من وادي آش وحصونها، ولم يبق له بالأندلس منازع من قرابته.

والله يؤتي ملكه من يشاء.

الخبر عن خروج الأمير أبي عامر ونزوعه إلى مراكش ثم فيئته إلى الطاعة

لما احتل السلطان بفاس وأقام بها خرج عليه ابنه أبو عامر، ولحق بمراكش، ودعا لنفسه أخريات شوال من سنة سبع وثمانين وستمائة وساعده على الخلاف والانتزاء عاملها محمد بن عطو.

وخرج السلطان في أثره إلى مراكش، فبرز إلى لقائه، فكانت الدائرة عليهم وحاصرهم السلطان بمراكش أياماً.

ثم خلص أبو عامر إلى بيت المال فاستصفى ما فيه وقتل المشرف ابن أبي البركات، ولحق بحلل المصامدة، ودخل السلطان من غده إلى البلد يوم عرفة، فعفا وسكن ونهض منصور ابن أخيه أبي مالك من السوس إلى حاحة فدوخ أنحاءها.

ثم سرح إليه المدد من مراكش، فأوقعوا بزكنة من برابرة السوس، وقتل منهم ما يناهز أربعين من سرواتهم.

وكان فيمن قتل شيخهم حبون بن إبراهيم.

ثم إن ابنه أبا عامر ضاق ذرعه بسخط أبيه، وإجلابه في الخلاف، فلحق بتلمسان ومعه وزيره ابن عطو فاتح سنة ثمان وثمانين وستمائة فأواهم عثمان بن يغمراسن، ومهد لهم المكان ولبثوا عنده أياماً.

ثم عطف السلطان على ابنه رحم لما عطفت ابنته عليه، فرضي عنه وأعاده إلى مكانه، وطالب عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان أن يسلم إليه ابن عطو الناجم في النفاق مع ابنه، فأبى من إضاعة جواره، وإخفار ذمته، وأغلظ له الرسول في القول فسطا به واعتقله، فثارت من السلطان الحفائظ الكامنة، وتحركت الإحن القديمة، والتراث المتواترة.

واعتزم على غزو تلمسان والله أعلم.

الخبر عن تجدد الفتنة مع عثمان بن يغمراسن وغزو السلطان مدينة تلمسان ومنازلته إياها

كانت الفتنة بين هذين الحيين قديمة من لدن مجالاتهم بالقفار من صحراء ملوية إلى صا، إلى فيكيك إلى مصاب، ولما انتقلوا إلى التلول وتغلبوا على الضواحي بالمغرب الأقصى والأوسط، لم تزل فتنتهم متصلة وأيام حروبهم فيها مذكورة.

وكانت دولة الموحدين عند اعتلالها والتياثها تستنصر منهم بالتضريب بينهم والفتنة، فتأكدت لذلك أحوالها واتصلت أيامها.

وكان بين يغمراسن بن زيان وأبي يحيى بن عبد الحق فيها وقائع ومشاهد، نقلنا منها بعضاً من كل واستظهر الموحدون بيغمراسن عليه في بعضها.

وكان الغلب أكثر ما يكون لأبي يحيى بن عبد الحق لوفور قبيله إلا أن يغمراسن كان يتصدى لمقاومته في سائر وقائعه.

ولما طمس أثر بني عبد المؤمن واستولى يعقوب ابن عبد الحق على ملكهم، وصارت في جملته عساكرهم، فضاعف عليه، وأسف على ملك يغمراسن ملكه.

وجمع له فأوقع به في تلاغ الواقعة المعروفة، ثم أوقع به ثانية وثالثة.

ولما استولت قدم يعقوب بن عبد الحق في ملكه، واستكمل فتح المغرب وسائر أمصاره، وكبح يغمراسن عن التطاول إلى مقاومته، وأوهن قواه بفل جموعه ومنازلته في داره، ومظاهرة أقتاله من زناتة بني توجين ومغراوة عليه فانصرف بعد ذلك إلى الجهاد، فكان له فيه شغل عما سواه كما نقلناه في أخباره.

ولما ارتاب ابن الأحمر بمكان السلطان يعقوب بن عبد الحق

من الأندلس، وحذره على ملكه، وتظاهر مع الطاغية على منعه من الإجازة إلى عدوتهم، خشوا أن يستقلوا بمدافعته، فراسلوا يغمراسن في الأخذ بحجزته، وأجابهم إليها وجرد عزائمه لها، واتصلت أيديهم في التظاهر عليه.

ثم فسد ما بين ابن الأحمر والطاغية ولم يكن له بد من ولاية يعقوب بن عبد الحق، فتولاه بواسطة ابنه يوسف بن يعقوب كما ذكرناه وأطلعوه على خباء يغمراسن في مظاهرتهم، فأغزاه سنة تسع وسبعين وستمائة وهزمه بخرزوزة.

ونازله بتلمسان وأوطا عدوه من بني توجين ساحته كما ذكرناه.

ثم انصرف إلى شأنه من الجهاد، وهلك يغمراسن بن زيان على تفيئة ذلك سنة إحدى وثمانين وستمائة، وأوصى ابنه عثمان ولي عهده، زعموا أن لا يحدث نفسه بمقاومة بني مرين ومساماتهم في الغلب، وأن لا يبرز إلى لقائهم بالصحراء، وأن يلوذ منهم بالجدران متى سموا إليه.

وألقى إليه، - زعموا - أن بني مرين بعد تغلبهم على مراكش، وإضافة سلطان الموحدين إلى سلطانهم، ازدادت قوتهم وتضاعف غلبهم.

وقال له - زعموا - فيما أوصاه: لا يغرنك أني زحفت بعدها اليهم، وبرزت إلى لقائهم، فإني أنفت أن أرجع عن مقاومتهم بعد اعتيادها، وأترك مبارزتهم وقد عرفها الناس وأنت فلا يضرك العجز عن مبارزتهم والنكول عن لقائهم، فليس لك في ذلك مقام معلوم، ولا عادة سالفة، واجهد جهدك في التغلب على إفريقية وراءك، فإن فعلت كانت المناهضة.

وهذه الوصاة - زعموا - هي التي حملت عثمان وبنيه من بعده على طلب ملك إفريقية، ومنازلة بجاية وحربهم مع الموحدين.

ولما هلك يغمراسن ذهب عثمان ابنه إلى مسالمة بني مرين، فبعث أخاه محمداً إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق، وأجاز البحر إليه بالأندلس.

ووافاه مراكش في إجازته الرابعة سنة أربع وثمانين وستمائة فعقد له ما جاء إليه من السلم والمهادنة، ورجعه إلى أخيه وقومه ممتلياً كرامة وسروراً.

وهلك يعقوب بن عبد الحق أثر ذلك سنة خمس وثمانين وستمائة وقام بالأمر ابنه يوسف بن يعقوب، وانتزى الخوارج عليه بكل جهة، فشمر لهم واستنزلهم وحسم أدواءهم.

ثم خرج ابنه عليه آخراً كما ذكرناه بممالأة الشيطان محمد بن عطو، ثم فاء إلى طاعة أبيه ورضي عنه، وأعاده إلى مكانه من حضرته.

وطالب عثمان بن يغمراسن كما ذكرناه في ابن عطو المنتزي عليه مع ابنه، فأبى عثمان من إسلامه وتحركت حفيظة السلطان واعتزم على غزوهم، فارتحل من مراكش لصفر من سنة تسع وثمانين وعقد عليها لابنه الأمير أبي عبد الرحمن.

ثم نهض لغزاته من فاس آخر ربيع من سنته في عساكره وجنوده، وحشد القبائل وكافة أهل المغرب، وسار حتى نزل تلمسان فانحجز عثمان وقومه بها، ولاذوا منه بجدرانها.

فسار في نواحيها ينسف الآثار ويخرب العمران ويحطم الزرع، ثم نزل بذراع الصابون من ساحتها.

ثم انتقل منه إلى ثمامه وحاصرها أربعين يوماً، وقطع شجراءها، وأباد غضراءها، ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعاً إلى المغرب، وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بني يزناتن، ونسك الأضحى وقربانه بتازى، وتلبث بها، ومنها كان فصوله للغزو عند انتقاض الطاغية كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن انتقاض الطاغية وإجازة السلطان لغزوه

لما رجع السلطان من غزو تلمسان وافاه الخبر بأن الطاغية شانجة انتقض ونبذ العهد، وتجاوز التخوم وأغار على الثغور، فأوعز إلى قائد المسالح علي بن يوسف بن يزكاسن بالدخول إلى دار الحرب ومنازلة شريش وشن الغارات على بلاد الطاغية، فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستمائة وجاس خلالها، وتوغل في أقطارها، وأبلغ في النكاية.

وفصل السلطان من تازى غازياً على أثره في جمادى، واحتل قصر مصمودة، واستنفر أهل المغرب وقبائله.

ونفروا وشرع في إجازتهم البحر.

وبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزاً دون الإجازة، فأوعز السلطان إلى قواد أساطيله بالسواحل وأغزاهم.

والتقت الأساطيل ببحر الزقاق في شعبان فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصهم اللّه.

ثم أغزاهم ثانية وخامت أساطيل العدو عن اللقاء،

وصاعدوا عن الزقاق، وملكته أساطيل السلطان فأجاز أخريات رمضان واحتل بطريف.

ثم دخل دار الحرب غازياً، فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر، وضيق عليهم.

وبث السرايا في أرض العدو، وردد الغارات على شريش، وإشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ في النكاية والإثخان.

وقضى من الجهاد وطراً، وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع الميرة عن المعسكر، فافرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة.

ثم أجاز إلى المغرب فاتح إحدى وتسعين وستمائة فتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منعه الإجازة كما نذكره إن شاء اللّه تعالى واللّه أعلم.

الخبر عن انتقاض ابن الأحمر ومظاهرته الطاغية على طريف أعادها اللّه

لما قفل السلطان من غزاته فاتح إحدى وتسعين وستمائة كما ذكرناه وقد أبلغ في نكاية العدو وأثخن في بلاده، فأهم الطاغية أمره، وثقلت عليه وطأته، والتمس الوليجة من دونه.

وحذر ابن الأحمر غائلته، ورأى أن مغبة حاله الاستيلاء على الأندلس وغلبه على أمره، ففاوض الطاغية وخلصوا نجياً.

وتحدثوا أن استمكانه من الإجازة إليهم إنما هو بقرب مسافة بحر الزقاق، وانتظام ثغور المسلمين حفافيه بتصرف شوانيهم وسفنهم متى أرادوا فضلاً عن الأساطيل وأن أم تلك الثغور طريف، وأنهم إذا استمكنوا منها كانت ربيئة لهم على بحر الزقاق.

وكان أسطولهم من مرقاها بمرصد الأساطيل صاحب المغرب الخائضين لجة ذلك البحر، فاعتزم الطاغية على منازلة طريف.

وزعم له ابن الأحمر بمظاهرته على ذلك، وشرط له المدد والميرة لأقوات العسكر أيام منازلتها، على أن تكون له إن حلصت، وتعاونوا على ذلك وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف.

وألح عليها بالقتال ونصب الآلات وانقطع عنها المدد والميرة.

واحتلت أساطيله ببحر الزقاق، فحالفوا دون الصريخ من السلطان، وإخوانهم المسلمين.

وضرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريباً منه، وسرب إليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الأقوات، وبعث عسكراً لمنازلة حصن أصطبونة، وتغلب عليه بعد مدة من الحصار.

واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد، ونال منهم الحصار، فراسلوا الطاغية في الصلح والنزول عن البلد، فصالحهم واستنزلهم سنة إحدى وتسعين وستمائة ووفى لهم بعهده واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية عنها لما عهدا عليه، فأعرض عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضاً منها، ففسد ذات بينهما، ورجع ابن الأحمر إلى تمسكه بالسلطان واستغاثته به لأهل ملته على الطاغية.

وأوفد ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقرير المعذرة عن شأن طريف، فوافوه مكانه من منازلة تازوطا كما نذكر بعد.

فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنتين وتسعين وستمائة بإسعاف غرضه من المواخاة واتصال اليد.

وهلك خلال ذلك قائد المسالح بالأندلس علي بن يزكاسن في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وستمائة وعقد السلطان لابنه ولي عهده، الأمير أبي عامر على ثغور الأندلس التي في طاعته، وعهد له بالنظر في مصالحها.

وانفذه إلى المجاز بعسكره فوافاه هنالك السلطان ابن الأحمر كما نذكر إن شاء اللّه تعالى واللّه أعلم.

الخبر عن وفادة ابن الأحمر على السلطان والتقائهما بطنجة

لما رجعت الرسل إلى ابن الأحمر، وقد كرمت وفادتهم وقضيت حاجاتهم، وأحكمت في المواخاة مقاصدهم، وقع ذلك من ابن الأحمر أجمل موقع، وطار سروراً من أعواده.

وأجمع الرحلة إلى السلطان لاستحكام العقد والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف وشأنها، واستعدادهم لإغاثة المسلمين ونصرهم من عدوهم، فاعتزم على ذلك وأجاز البحر ذا القعدة سنة اثنتين وتسعين وستمائة واحتل بنيونش من ساحة سبتة.

ثم ارتحل إلى طنجة، وقدم بين يدي نجواه هدية سنية أتحف بها السلطان، كان من أحفلها وأحسنها موقعاً لديه فيما زعموا

المصحف الكبير، أحد مصاحف عثمان بن عفان أحد الأربعة المنبثقة إلى الآفاق، المختص هذا منها بالمغرب، كما نقله السلف.

كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة، فتلقاه الأمير أبو عامر هنالك، وأخوه الأمير أبو عبد الرحمن ابنا السلطان واحتفلا في مبرته.

ثم جاء السلطان على أثرهما من حضرته لتلقيه وبرور مقدمه، ووافاه بطنجة، وأبلغ في تكرمته وبر وفادته ما يكرم به مثله.

وبسط ابن الأحمر العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان عن العذل وأعرض عنه وقبل منه وبر واحتفى ووصل وأجزل، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصناً من ثغور الأندلس كانت من قبل لطاعة صاحب المغرب ونزل عساكره، وعاد ابن الأحمر إلى الأندلس خاتم اثنتين وتسعين وستمائة محبواً محبوراً.

وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف وعقد على حربها ومنازلتها لوزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرباش الجشمي، فنازلها مدة، وامتنعت فأفرج عنها، وصرف السلطان همته إلى غزو تلمسان وحصارها، كما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن انتزاء الوزير الوطاس بحصن تازوطا من جهة الريف واستنزال السلطان إياه

كان بنو الوزير هؤلاء رؤساء بني وطاس من قبائل بني مرين، ويرون أن نسبهم دخيل في بني مرين.

وأنهم من أعقاب علي بن يوسف بن تاشفين لحقوا بالبدو ونزلوا على بني وطاس، ورسخت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم.

ولم يزل السرو متربعاً بين أعينهم لذلك، والرياسة شامخة بأنوفهم، وكانوا يرومون الفتك بالأمراء من أولاد عبد الحق، فلم يطيقوه.

ولما احتل السعيد بتازى غازياً إلى تلمسان كما ذكرناه، ولحق ببلدهم الأمير أبو يحيى بن عبد الحق ائتمروا في الفتك به، ونذر بشأنهم فارتحل، ففر إلى غبولة وعين الصفا من بلاد بني يزناسن، وهنالك بلغه خبر مهلك السعيد وكانت بلاد الريف لبني وطاس من لدن دخول بني مرين المغرب واقتسامهم لأعماله فكانت ضواحيها لنزلهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم.

وكان حصن تازوطا بها من أمنع معاقل المغرب وكان الملوك من أولاد عبد الحق يعتنون بشأنه، وينزلون به من أوليائهم من يثقون بغنائه واطلاعه، ليكون آخذاً بناصية هؤلاء الرهط وشجاً في صدورهم عما يسيمون إليه وكان السلطان قد عقد عليه لمنصور ابن أخيه الأمير أبي مالك بعد مهلك ابيه أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق.

وكان عمر بن يحيى ابن الوزير وأخوه عامر رئيسين على بني وطاس لذلك العهد، فاستوهنوا أمر السلطان بعد مهلك أبيه، وحدثوا أنفسهم بالانتزاء بتازوطا والاستبداد بتلك الناحية، فوثب عمر منهم بمنصور ابن أخي السلطان شهر شوال من سنة إحدى وتسعين وستمائة وفتك برجاله وذويه وأزعجه عنه، وغلبه على مال الجباية الذي كان بقصره، فاستصفاه واستأثر به، واستبد وشحن الحصن برجاله وحاشيته ووجوه قومه.

ووصل منصور إلى السلطان وهلك لليال من منجاته أسفاً لما أصابه، وسرح السلطان وزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرباش بالعساكر لمنازلته فأناخ عليه، ثم نهض السلطان على أثره ووافاه وضرب معسكره بساحته.

وخالف عامر أخاه عمر إلى السلطان بقومه حذراً من مغبة الأمر، وأشفق عمر لشدة الحصار ويئس من الخلاص، وظن أن قد أحيط به ودس إلى أخيه عامر، فأذن السلطان في مداخلته في النزول على الحصن فأذن له، واحتمل ذخيرته وفر إلى تلمسان.

وبدا لعامر في رأيه عندما خلص إلى الحصن وخلا له من عمر أخيه الجو، وحذر غائلة السلطان وخشي أن يثأر منه بأخيه، فامتنع بالحصن، ثم ندم وسقط في يده.

وفي خلال ذلك كان وصول وفد الأندلس، وأرسوا أساطيلهم بمرقى غساسة، فبعث إليهم عامر أن يشفعوا له عند السلطان لوجاهتهم لديه، فتقبلت شفاعتهم على شريطة إجازته إلى الأندلس، وكره ذلك وقدم بين يديه بعض حاشيته إلى الأسطول مكراً بهم، وخاض الليل إلى تلمسان، فتقبض السلطان على ولده وقتل.

وأسلم أهل الأسطول من كان من حاشيته لديهم، وتجافوا عن إجازتهم على السلطان لما مكر بهم عامر، فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذرياتهم وتملك السلطان حصن تازوطا وأنزل به عماله ومسلحته، وقفل إلى حضرته بفاس

آخر جمادى من سنة اثنتين وتسعين وستمائة والله تعالى أعلم.

الخبر عن نزوع أبي عامر ابن السلطان إلى بلاد الريف وجبال غمارة

كان الأمير أبو عامر بعد إجازة ابن الأحمر إلى السلطان أبيه ورضاه عنه، وتأكيد مؤاخاته، وإغزاء وزيره عمر بن السعود لمنازلة طريف، واستنزاله أولاد الوزير المنتزين بحصن تازوطا رجع من قصر مصمودة إلى بلاد الريف بإيعاز أبيه إليه بذلك لتسكين أحوالها.

وكان أولاد الأمير أبي يحيى بن عبد الحق قد نزعوا إلى تلمسان لسعاية فيهم، وقرت في صدر السلطان، فأقاموا بها أياماً، ثم استعطفوا السلطان واسترضوه، فرضي وأذن لهم في الرجوع الى محلهم من قومهم ودولتهم.

وبلغ الخبر الأمير أبا عامر وهو بمعسكره من الريف، فأجمع على اغتيالهم في طريقهم يظن أنه يرضي بذلك أباه.

واعترضهم بوادي القطف من بلاد ملوية سنة خمس وتسعين وستمائة فاستلحمهم وانتهى الخبر إلى السلطان فقام في ركائبه وقعد، وتبرأ إلى الله من إخفار ذمته، ومن صنيع ابنه، وسخطه وأقصاه، فذهب مغاضباً ولحق ببلاد الريف، ثم صعد إلى جبل غمارة، فلم يزل طريداً بينهم.

ونازلته عساكر أبيه لنظر ميمون بن ودران الجشمي، ثم لنظر زيكن بن المولاة تاميمونت.

وأوقع بهم مراراً آخرها بيرزيكن سنة سبع وتسعين وستماية، وذكر الزليخي مؤرخ دولتهم أن خروجه بجبل غمارة كان سنة أربع وتسعين وستماية وقتله لأولاد الأمير أبي يحيى كان سنة خمس وتسعين وستماية بعدما أغراب بهم من مثوى انتزائه، وقتلهم كما ذكرناه والله أعلم.

ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك ببني سعيد من جبال غمارة سنة ثمان وتسعين وستمائة ونقل شلوه إلى فاس فووري بباب الفتوح بملجد قومهم هنالك.

وأعقب ولدين كفلهما السلطان جدهما، فكانا الخليفتين من بعده على ما نذكر إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن ترديد الغزو الى تلمسان ومنازلتهما

كان عثمان بن يغمراسن بعد إفراج السلطان سنة تسع وثمانين وستمائة وانتقاض الطاغية وابن الأحمر عليه كما قلناه، صرف إلى ولايتهما وجه تدبيره وأوفد على الطاغية ابن بريدى من صنائع دولته سنة اثنتين وتسعين وستمائة ورجعه الطاغية مع الريك ريكسن رسول من كبار قومه.

ثم أعاد إليه الحاج المسعود من حاشيته، ووصل يده بيده يظن ذلك دافعاً عنه، واعتدها السلطان عليه وطوى له على النكث.

حتى إذا فرغ من شأن الأندلس وهلك الطاغية شانجة سنة ثلاث وتسعين وستمائة لإحدى عشرة من سني ملكه، وارتحل السلطان إلى طنجة لمشارفة أحوال الأندلس سنة أربع وتسعين وستمائة فأجاز إليه السلطان ابن الأحمر ولقيه بطنجة، وأحكم معه المؤاخاة.

ولما استيقن سكون أحوالها، نزل لابن الأحمر عن جميع الثغور التي بها لطاعته، وأجمع غزو تلمسان، ولحق به بين يدي ذلك ثابت بن منديل المغراوي صريخاً على ابن يغمراسن ومستجيشاً بقومه فتقبله وأجاره.

وكان أصاب الناس أعوام اثنتين وتسعين وستمائة وما بعدها قحط، ونالتهم سنة وهنوا لها.

ثم إن الله رحم خلقه وأدر نعمته، وأعاد الناس إلى ما عهدوه من سبوغ نعمهم وخصب عيشهم.

ووفد عليه سنة أربع وتسعين وستمائة ثابت بن منديل أمير مغراوة مستصرخاً به من عثمان بن يغمراسن، فبعث من كبار قومه موسى بن أبي حمو إلى تلمسان شفيعاً لثابت بن منديل فرده عثمان أقبح رد وأساء في إجابته، فعاود الرسالة إليه في شأنه، فلم تزدهم إلا ضرراً فاعتزم على غزو بلادهم واستعد لذلك، ونهض سنة أربع وتسعين وستمائة حتى انتهى إلى بلاد تاوريرت، وكانت تخماً لعمل بني مرين وبني عبد الواد في جانبها عامل السلطان أبي يعقوب، وفي جانبها الآخر عامل عثمان بن يغمراسن.

فطرد السلطان عامل ابن يغمراسن وتميز بها، واختط الحصن الذي هنالك لهذا العهد تولاه بنفسه يغادي الفعلة ويراوحهم، وأكمل بناءه، في شهر رمضان من سنته.

واتخذه ثغراً لملكه، وأنزل بني عسكر لحياطته وسد فروجه، وعقد عليهم لأخيه أبي يحيى بن يعقوب، وانكفأ راجعاً إلى الحضرة.

ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين وستمائة غازياً إلى تلمسان، ومر بوجدة، فهدم أسوارها وتغلب على مسيفة والزعارة، وانتهى إلى ندرومة، ونازلها أربعين يوماً ورماها بالمجانيق، وضيق عليها فامتنعت عليه فأفرج عنها ثاني الفطر.

ثم غزا تلمسان سنة ست وتسعين وستمائة وبرز لمدافعته عثمان بن يغمراسن، فهزمه وأحجزه بتلمسان، ونزل بساحتها وقتل خلقاً من أهلها، ونازلها أياماً، ثم أقلع عنها وقفل إلى المغرب وقضى منسك الأضحى من سنته بتازى.

فأعرس هنالك بحافدة ثابت بن منديل، كان أصهر فيها إلى جدها قبل مهلكه سنة ست وتسعين وستمائة قتيلاً ببحيرة الزيتون من ظاهر فاس، قتله بعض بني ورتاجن في دم كان لهم في قومه، فثأر السلطان به من قاتله وأعرس بحافدته، وأوعز ببناء القصر بتازى، وقفل إلى فاس فاتح سنة سبع وتسعين وستمائة، ثم ارتحل إلى مكناسة وانكفأ إلى فاس.

ثم نهض في جمادى غازياً تلمسان ومر بوجدة فأوعز ببنائها وتحصين أسوارها، واتخذ فيها قصبة وداراً لسكناه ومسجداً وأغزى إلى تلمسان، ونزل بساحتها، وأحاطت عساكره إحاطة الهالة بها، ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار ازدلف إليه الصناع والمهندسون بعملها، وكانت توقر على أحد عشر بغلاً.

ثم لما امتنعت عليه تلمسان أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة ومر بوجدة، فأنزل بها الكتائب من بني عسكر لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت، وأوعز إليهم فتردد الغارات على أعمال ابن يغمراسن وإفساد سابلتها.

وضاقت أحوالهم ويئسوا من صريخ صاحبهم، فأوفدوا على الأمير أبي يحيى وفداً منهم يسألون الأمان لمن وراءهم من قومهم، على أن يمكنوه من قياد بلدهم، ويدينوا بطاعة السلطان، فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم، ودخل البلد بعسكره، واتبعهم أهل تاوونت وأوفد مشيختهم جميعاً على السلطان آخر جمادى، فقدموا عليه بحضرته وأدوا طاعتهم، فقبلها، ورغبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة وعدوهم ابن يغمراسن، ووصفوا من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية، ما استنهض السلطان لذلك على ما نذكر إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

الخبر عن الحصار الكبير لتلمسان وما تخلل ذلك من الأحداث

لما توفرت عزائم السلطان عن النهوض إلى تلمسان، ومطاولة حصارها إلى أن يظفر بها وبقومها، واستيقن أنه لا مدافع له عن ذلك، فنهض من فاس في شهر رجب سنة ثمان وتسعين وستمائة بعد أن استكمل حشده.

ونادى في قومه، واعترض عساكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عللهم.

وارتحل في التعبية واحتل بساحة تلمسان ثاني شعبان وأناخ عليها وضرب معسكره بفنائها.

وأحجز عثمان بن يغمراسن وحاميتها من قومه، وأدار الأسوار سياجاً على عمرانها كله، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى.

ورتب المسالح على أبوابها وفرجها، وسرح عساكره إلى هنين فافتتحها وأتوا طاعتهم، وأوفدوا مشيختهم وسط شعبان.

ثم سرح عسكره لمحاصرة وهران وتقرّي البسائط ومنازلة الأمصار، فأخذت مازونة في جمادى الآخرة من سنة تسع وتسعين وستمائة ونهض في شعبان بعده، فافتتح تاللوت والقصبات وتامزردكت في رمضان منه، وفيه كان فتح مدينة وهران، وسارت عساكره في الجهات إلى أن بلغت بجاية كما نذكره.

وأخذ الرعب بقلوب الأمم بالنواحي، وتغلب على ضواحي مغراوة وتوجين، وسارت فيها عساكره ودوختها كتائبه، واقتحمت أمصارها راياته مثل مليانة ومستغانم وشرشال والبطحاء ووانشريش والمرية وتافركينت، وأطاعه زيري المنتزي ببرشك وأتى بيعته.

وابن علان المنبري بالجزائر وأتى بيعته.

وأزعج الناكبين منهم عن طاعته، واستألف أهل الصاغية كما نذكره.

وحذره الموحدون من ورائهم بإفريقية ملوك بجاية وملوك تونس، فمدوا إليه يد المواصلة ولاطفوه بالمتاحفة والمهاداة، وخاطب صاحب الديار المصرية ملك الترك وهاداه وراجعه كما نذكره، ووفد عليه شرفاء مكة بنو أبي نمي كما نذكر.

وهو في خلال ذلك مستجمع للمطاولة بالحصار والتضييق، متجاف عن القتال إلا في بعض الأيام، ولم تبلغ - زعموا - أربعة

أو خمسة ينزل شديد العقاب والسطوة بمن يميرها ويأخذ بالمرصاد على من يتسلل بالأقوات إليها.

قد جعل سرداق الأسوار المحيطة ملاكاً لأمره في ذلك، فلا يخلص إليهم الطيف ولا يكاد يصل إليهم العيث مدة مقامه عليها، إلى أن هلك بعد مائة شهر كما نذكره.

واختط بمكان فساطيط المعسكر قصراً لسكناه، واتخذ فيه مسجداً لمصلاه وأدار عليها السور، وأمر الناس بالبناء فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين وأجروا المياه.

ثم أمر بإدارة السور سياجاً على ذلك سنة اثنتين وسبعمائة، وصيرها مصراً، فكانت من أعظم الأمصار والمدن وأحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق أسواق، واحتفال بناء وتشييد منعة.

وأمر باتخاذ الحمامات والخانات والمارستان، وابتنى بها مسجداً جامعاً، وشيد له مأذنة رفيعة، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها، وسماها المنصورة، واستبحرت عمرانها ونفقت أسواقها، ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق فكانت إحدى مدائن المغرب.

وخربها آل يغمراسن عند مهلكه، وارتحال كتائبه عنها، بعد أن كان بنو عبد الواد أشرفوا على الهلاك، وأذنوا بالانقراض كما نذكره، فتداركهم من لطف الله ما شأنه أن يتدارك المتورطين في المهالك، والله غالب على أمره.

الخبر عن افتتاح بلاد مغراوة وما تخلل ذلك من الأحداث

لما أناخ السلطان عن تلمسان وتغلب على ضواحي بني عبد الواد، وافتتح أمصارهم، سما إلى التغلب على ممالك مغراوة وبني توجين.

وكان ثابت بن منديل قد وفد على السلطان بمقر ملكه من فاس سنة أربع وتسعين وستمائة وأصهر إليه في حافدته، فعقد له عليها.

وهلك ثابت بمكان وفادته من دولتهم، وأعرس السلطان بحافدته سنة ست وتسعين وستمائة كما ذكرنا ذلك من قبل، فلما تغلب السلطان على مال بني عبد الواد جهز عساكره إلى بلاد مغراوة، وعقد عليها لعلي بن محمد من عظماء بني ورتاجن، فتغلبوا على الضواحي وشردوا مغراوة إلى رؤوس المعاقل.

واعتصم راشد بن محمد بن ثابت بن منديل صهر السلطان بمليانة فنازلوه بها، ثم استنزلوه على الأمان سنة تسع وتسعين وستمائة فأوفدوه على السلطان، فلقاه مبرةً وتكرمةً، وخلطه بجملته لمكان صهره معه.

ثم افتتحوا مدينة تدلس ومازونة وشرشال، وأعطى زيري بن حماد المنتزي على برشك من بلادهم يد الطاعة، وأوفد على السلطان للبيعة، واستولوا على ضواحي شلف كلها، ولاذت مغراوة بطاعة السلطان.

وعقد عليهم وعلى جميع بلادهم لعمر بن ويغرن بن منديل فأسف لذلك راشد بن محمد لما كان يراه لنفسه من الاختصاص.

ولما كانت أخته حظية السلطان وكريمته، ونافس عمر بن ويغرن في إمارة قومه، فلحق بجبال متيجة، وأجلب على من هنالك من عمال السلطان وعساكره وانحاش إليه مرضى القلوب من قومه، فاعصوصبوا عليه.

وداخل أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وملكوه أمرهم في ربيع من المائة السابعة.

ثم بيت عمر بن ويغرن بمعسكره من وازمور، فقتله واستباح المعسكر.

وبلغ الخبر إلى السلطان، فسرح العساكر من بني مرين وعقد لعلي بن الحسن بن أبي الطلاق على قومه من بني عسكر، ولعلي بن محمد الخيري على قومه من بني ورتاجن، وجعل الأمر شورى بينهما، وأشرك معهما علياً الحساني من صنائع دولته، وأبا بكر بن إبراهيم بن عبد القوي من أعياص بني توجين، وعقد على مغراوة محمد بن عمر بن منديل، وأشركه معهم، وزحفوا إلى راشد.

ولما أحس بالعساكر لجأ إلى معقل بني بو سعيد فيمن معه من شيعة مغراوة.

وأنزل بمازونة علياً وحمو ابني عمه يحيى بن ثابت، واستوصاهم بضبط البلد، وأنه مشرف عليهم من الجبل.

وجاءت عساكر السلطان إلى بلاد مغراوة فتغلبوا على البسائط وأناخوا بمازونة، وضربوا معسكرهم بساحتها، وأخذوا بمخنقها، واهتبل علي وقومه غرة في معسكر بني مرين فبيتهم سنة إحدى وسبعمائة.

وانفض المعسكر وتقبض على علي بن محمد الخيري، ثم امتنعوا عليه وعاد المعسكر إلى مكانهم من حصارهم، وجهدهم حالهم فنزل إليهم حمو بن يحيى على حكم السلطان، وأنفذوه إليه

فتقبض عليه.

ثم نزل علي ثانيه من غير عهد، فأشخصوه إلى السلطان فلقاه مبرّةً وتكريماً، تأنيساً لراشد المنتزي بمعقله.

واقتحمت مازونة على أهلها عنوة سنة ثلاث وسبعمائة فمات منهم عالم واحتملت رؤوسهم إلى سدة السلطان، فرميت في حفائر البلد المحصور إرهاباً لهم وتخذيلاً، ولما عقد السلطان لأخيه أبي يحيى على بلاد الشرق وسرحه لتدويخ التخوم، نازل راشد بمعقله من بني بو سعيد، فبيت راشد معسكرهم إحدى لياليه، فانفضوا وقتل طائفة من بني مرين.

ووجد السلطان لها فأمر بقتل علي وحمو ابني عمه يحيى، ومن كان معتقلاً معهما من قومهما.

ورفعوا كل الجذوع وأثبتوهم بالسهام، ونزل راشد بعدها عن معقله ولحق بمتيجة، وانحاش إليه عمّه منيف بن ثابت، وأوشاب من مغراوة وتحيز الآخرون إلى أميرهم محمد بن عمر بن منديل الذي عقد له السلطان عليهم ثم تأشبت على راشد ومنيف خوارج الثعالبة ومليكش، وصمد إليهم الأمير أبو يحيى في عساكره ثانية، ونازلهم بمعاقلهم ورغبوا في السلم، فبذله السلطان لهم، وأجاز منيف بن ثابت إلى الأندلس فيمن إليه من بنيه وعشيره، فاستقروا بها آخر الأيام.

ولحق راشد ببلاد الموحدين ووفد محمد بن منديل سنة خمس وسبعمائة على السلطان، فأوسعه حباً وتكريماً.

وتمهدت بلاد مغراوة واستبد بملكها السلطان، وصرف إليها العمال، ولم يزل كذلك إلى أن هلك سنة ست وسبعمائة والله تعالى أعلم.

الخبر عن افتتاح بلاد بني توجين وما تخلل ذلك

لما نازل يوسف بن يعقوب تلمسان وأحاط بها، وتغلب على بلاد بني عبد الواد، سما إلى تملك بلاد بني توجين.

وكان عثمان بن يغمراسن قد غلبهم على مواطنهم، وملك جبل وانشريش وتصرف في بلاد عبد القوي بالولاية والعزل وأخذ الأتاوة سنة إحدى وسبعمائة، وأوعز إليه السلطان ببناء البطحاء التي هدمها محمد بن عبد القوي، فبناها وتوغل في قاصية المشرق، ثم انكفأ راجعاً إلى حضرة أخيه وعطف على بلاد بني توجين سنة اثنتين وسبعمائة وفر بنو عبد القوي إلى ضواحيهم بالقفر، ودخل جبل وانشريش وهدم حصونهم به، ورجع إلى الحضرة.

ثم بادره أهل تافركينت سنة ثلاث وسبعمائة بإتيان الطاعة.

ونقضوا بعدها.

ثم بعث أهل المدية بطاعتهم للسلطان، فتقبلها وأوعز ببناء قصبتها.

وراجع بنو عبد القوي بعد ذلك بصائرهم في طاعة السلطان، ووفدوا عليه بمكانه من المنصورة مدينته المحيطة على تلمسان سنة ثلاث وسبعمائة فتقبل طاعتهم ورعى سابقتهم، وأعادهم إلى بلادهم وأقطعهم، وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي، وأوعز ببناء قصبة المدية سنة أربع وكملت سنة خمس وسبعمائة وهلك علي بن الناصر خلال ذلك، فعقد عليهم لمحمد بن عطية الأصم كما ذكرناه.

فاستمر على الطاعة، ثم انتقض سنة ست وسبعمائة وحمل قومه على الخلاف، وانتبذوا عن الوطن إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

الخبر عن مراسلة الموحدين ملوك إفريقية بتونس وبجاية وأحواله معهم

كان لبني أبي حفص ملوك إفريقية مع زناتة هؤلاء أهل المغرب من بني مرين وبني عبد الواد سوابق مذكورة، فكانت لهم على يغمراسن وبنيه طاعة معروفة يؤدون بيعتها ويخطبون على منابرهم بدعوتها مذ تغلب الأمير أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد على تلمسان.

وعقد عليها ليغمراسن، واستمر حالهم على ذلك.

وكانت لهم أيضاً مع بني مرين ولاية سابقة بما كان بنو مرين مذ أول أمرهم يخاطبون الأمير أبا زكرياء، ويبعثون له ببيعة البلاد التي تغلبوا عليها: مثل مكناسة والقصر ومراكش آخراً.

ثم صارت خالصة من لدن عهد المستنصر ويعقوب بن عبد الحق.

وكانوا يتحفونهم بالمال والهدايا في سبيل المدد على صاحب مراكش، وقد ذكرنا السفارة التي وقعت بينهما سنة خمس وستين وستمائة وإن يعقوب أوفد عامر بن إدريس وعبد الله بن كندوز ومحمد الكناني، وأوفد عليه المستنصر سنة سبع وستين وستمائة بعدها كبير الموحدين يحيى بن صالح الهنتاتي في وفد من مشيخة

الموحدين، ومعهم هدية سنية.

ثم أوفد الواثق ابنه سنة سبع وسبعين قاضي بجاية المذكور أبا العباس أحمد الغماري، وأسنى الهدية معه.

ولم يزل الشأن بينهم هذا إلى أن افترق أمر آل أبي حفص.

وطار الأمير أبو زكرياء ابن الأمير أبي إسحاق بن يحيى بن عبد الواحد من عشه بتلمسان في وكر عثمان بن يغمراسن، وأسف إلى بجاية فاستولى عليها سنة ثلاث وثمانين وستمائة، واستضاف إليها قسنطينة وبونة، وصيَّرها عملاً لملكه، ونصّب بها كرسياً لأمره، وأسف عثمان بن يغمراسن لفراره من بلده لما كان عليه من التمسك بدعوة عمه أبي حفص صاحب تونس، فشق ذلك عليه ونكره، واستمرت الحال على ذلك.

ولما أخذ السلطان يوسف بن يعقوب بمخنق تلمسان وأوسع قواعد ملكه بساحتها، وسرح عساكره لالتهام الأمصار والجهات، وتوجس الموحدون الخيفة منه على أوطانهم.

وكان الأمير أبو زكرياء في جهات تدلس محامياً عن حوزته وعمله.

ووصله هنالك راشد بن محمد نازعاً عن السلطان أبي يعقوب.

ثم طلعت العساكر على تلك الجهات في اتباعه، فزحف إليه عسكر الموحدين سنة تسع وتسعين وستمائة بناحية جبل الزاب، ففضوا جمعه وأوقعوا به واستلحموا جنوده، واستبحر القتل فيهم، وبقيت عظامهم ماثلة بمصارعهم سنين.

ورجع الأمير أبو زكرياء إلى بجاية فانحصر بها وهلك على تفيئة ذلك على رأس المائة السابعة.

وقارن ذلك مغاضبة بينه وبين أمير الدواودة لعهده عثمان بن سباع بن يحيى بن دريد بن مسعود البلط، فوفد على السلطان أخريات إحدى وسبعمائة، ورغبه في ملك بجاية.

واستغدّه للسير إليها، فأوعز إلى أخيه الأمير أبي يحيى بمكانه من منازلة مغراوة ومليكش والثعالبة، بأن ينهض إلى عمل الموحدين.

وسار عثمان بن سباع وقومه بين يدي العساكر يتقصون الطريق إلى أن تجاوز الأمير أبو يحيى بعساكره بجاية، واحتل بتاكرارت من أوطان سدويكش من أعمال بجاية.

وأطل على بلاد سدويكش وانكفأ راجعاً، فأوطأ عساكره بساحة بجاية وبها الأمير خالد بن يحيي، وناشبهم القتال ببعض أيام، جلا فيها أولياء السلطان أبي البقاء عن أنفسهم وسلطانهم، وأمر بروض السلطان المسمى بالبديع فخربه، وكان من أنيق الرياض وأحفلها.

وقفل إلى مكانه من تدويخ البلاد، وأعرض عن أعمال الموحدين.

وكان صاحب تونس لذلك العهد محمد المستنصر الملقب بأبي عصيدة بن يحيى الواثق، فأوفد على السلطان شيخ الموحدين بدولته محمد بن أكمازير في أسباب الولاية، ومحكماً مذاهب الوصلة، ومقرراً سوابق السلف، فوفد في مشيخة من قومه لشعبان سنة ثلاث وسبعمائة.

وناغاه الأمير أبو البقاء خالد صاحب بجاية، وأوفد مشيخة من أهل دولته كذلك وبر السلطان وفادتهم وأحسن منقلبهم.

ثم عاد ابن أكمازير سنة أربع وسبعمائة، ومعه شيخ الموحدين وصاحب السلطان أبو عبد الله بن يرزيكن في وفد من عظماء الموحدين، وأوفد صاحب بجابة حاجبه أبا محمد الرخامي، وشيخ الموحدين بدولته عياد بن سعيد بن عثيمن.

ووفدوا جميعاً على السلطان ثالث جمادى، فأحسن السلطان في تكرمتهم ما شاء، وأوصلهم إلى نفسه بمساكن داره وأراهم أبهة ملكه وأطافهم قصوره ورياضه بعد أن فرشت ونمقت، فملأ قلوبهم جلالاً وعظمةً، ثم بعثهم إلى المغرب ليطوفوا على قصور الملك بفاس ومراكش، وشاهدوا آثار سلفهم، وأوعز إلى عمال المغرب بالاستبلاغ في تكرمتهم وإتحافهم، فانتهوا من ذلك إلى الغاية، وانقلبوا إلى حضرته آخر جمادى، وانصرفوا إلى ملوكهم بالحديث عن شأن رسالتهم وكرامة وفدهم.

ثم أعاد ملوكهم مراسلة السلطان سنة خمس وسبعمائة بعدها، فوفد أبو عبد الله بن أكمازير من تونس وعياد بن سعيد بن عثيمن من بجاية.

وأوفد السلطان على صاحب تونس مع رسوله صاحب الفتيا بحضرته الفقية أبا الحسن التنسي وعلي بن يحيى البرشكي رسولين يسألانه المدد بأسطوله، فقضوا رسالتهم سنة خمس وسبعمائة.

ووصل بخبرها أبو عبد الله المزدوري من مشيخة الموحدين، واقترن بذلك وصول حسون بن محمد بن حسون المكناسي من صنائع السلطان.

كما أوفده مع ابن عثيمن على مراسلة الأمير أبي البقاء خالد صاحب بجاية في طلب الأسطول أيضاً، فرجعوه بالمعاذير.

وأوفدوا معه عبد الحق بن سليمان فتلقاهم السلطان بالمبرة، وأوعز إلى عامله بوهران أن يستبلغ في تكريم عمرة الأسطول، فجرى في ذلك على مذهبه وانقلبوا جميعاً أحسن منقلب.

وغني السلطان عن أسطولهم لفوات وقت الحاجة إليه من منازلة بلاد السواحل إذ كان قد تملكها أيام مماطلتهم بيعته.

واتصل الخبر بصاحب تلمسان الأمير أبي زيان بن عثمان المبايع أيام الحصار عند مهلك أبيه عثمان بن يغمراسن آخر سنة ثلاث وسبعمائة فبلغه صنع الموحدين في موالاتهم عدوهم السلطان يوسف بن يعقوب ومظاهرته بأساطيلهم عليه، فأسفه ذلك وأخرس منابرهم عما كانت تنطق به من الدعاء من عهد يغمراسن، فلم يراجع دعوتهم من بعد، وهلك السلطان على تفيئة ذلك، والبقاء لله وحده.

الخبر عن مراسلة المشرق الأقصى ومهاداتهم ووفادة أمراء الترك على السلطان وما تخلل

لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بممالكه وأعماله، وهنأته ملوك الأقطار وأعراب الضواحي والقفار، وصلحت السابلة ومشت الرفاق إلى الآفاق، استجد أهل المغرب عزماً في قضاء فرضهم، ورغبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفن إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها لفساد السابلة واستهجان الدول.

فسما للسلطان في ذلك أمل ودخله بحرم الله وروضة نبيه الشوق، فأمر بانتساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن حسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه وجعل غشاءه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت، وجعلت منها حصاة وسط المغلق تفوت الحصيات مقداراً وشكلاً وحسناً، واستكثر من الأصونة عليه ووقفه على الحرم الشريف، وبعث به مع الحاج سنة ثلاث وسبعمائة وعني بشأن هذا الركب، فسرح معهم حامية من زناتة تناهز خمس مائة من الأبطال، وقلد القضاء عليهم محمد بن رغبوش من أعلام أهل المغرب، وخاطب صاحب الديار المصرية واستوصاه بحاج المغرب من أهل مملكته، واتحفه بهدية من طرف بلاد المغرب فاستكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة. يقال: إن المطايا كانت منها أربعمائة حدثني بذلك من لقيته إلى ما يناسب ذلك من طرف المغرب وماعونه، ونهج بها السبيل بها للحجاج من أهل المغرب، فأجمعوا الحج سنة أربع وسبعمائة بعدها وعقد السلطان على دلالتهم لأبي زيد الغفائري، وفصلوا من تلمسان لشهر ربيع الأول.

وفي شهر ربيع الآخر بعده كان مقدم الحاج الأولين حملة المصحف ووفد معهم على السلطان الشريف لبيدة بن أبي نمي نازعاً عن سلطان الترك لما كان تقبض على أخويه خميصة ورميثة إثر مهلك أبيهم أبي نمي صاحب مكة سنة إحدى وسبعمائة، فاستبلغ السلطان في تكريمه وسرحه إلى المغرب ليجول في أقطاره، ويطوف على معالم المملكة وقصوره، وأوعز إلى العمال بتكريمه وإتحافه كلٌّ على شاكلته.

ورجع إلى حضرة السلطان سنة خمس وسبعمائة وفصل منها إلى المشرق، وصحبه من أعلام المغرب أبو عبد الله فوزي حاجاً، ولشعبان من سنة خمس وسبعمائة وصل أبو زيد الغفائري دليل ركب الحاج الآخرين، ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان، لما أسفهم صاحب مصر بالتقبض على إخوانهم، وكان شأنهم ذلك حتى غاضبهم السلطان.

فقد سبق في أخبار المستنصر بن أبي حفص مثلها، وأهدى إلى السلطان ثوباً من كسوة البيت شغف به، واتخذ منه ثوباً للباسه في الجمع والأعياد يستبطنه بين ثيابه تبركاً به، ولما وصلت هدية السلطان إلى صاحب مصر لعهده الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي حسن موقعها لديه، وذهب إلى المكافأة، فجمع من طرف بلاده من الثياب والحيوان ما يستغرب جنسه وشكله، من نوع الفيل والزرافة، وأوفد بها من عظماء دولته الأمير التليلي وفصّل من القاهرة أخريات سنة خمس وسبعمائة ووصلت إلى تونس في ربيع من سنة ست وسبعمائة بعدها.

ثم كان وصولها إلى سدة السلطان بالمنصورة من البلد الجديد في جمادى الآخرة، واهتز السلطان لقدومها واستركب الناس للقائها، واحتفل للقاء هذا الأمير التليلي ومن معه من أمراء الترك، وبر وفادتهم، واستبلغ في تكريمهم نزلاً وقرى، وبعثهم إلى المغرب على العادة في مبرة أمثالهم، وهلك السلطان خلال ذلك وتقبل أبو ثابت سنته من بعده في تكريمهم، فأحسن منقلبهم وملأ حقائبهم صلة وبراً، وفصلوا من المغرب لذي الحجة سنة سبع وسبعمائة ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان وسبعمائة اعترضهم الأعراب بالقفر فانهبوهم وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن، فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سفراً ولا لفتوا إليه وجهاً.

وطال مـا أوفـد عليهـم ملـوك المغـرب بعدهـا مـن رجـال دولتهم من يؤبه به، يهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلـك كلـه على الخطاب شيئاً، وكان الناس لعهدهم ذلك يتهمـون أن الذيـن نهبوهم أعراب حصين بدسيسـة مـن صـاحب تلمسـان أبـي حمـو لعهدهم، منافسة لصاحب المغرب لما بينهم من العداوات والإحـن القديمة.

أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الأبلي قال: حضـرت بـين يدي السلطان وقد وصله بعض الحاج مـن أهـل بلـده مستصحباً كتاب الملك الناصر بالعتاب على شأن هؤلاء الأمراء، وما أصابهم في طريقهم من بلاده، وأهدى له مع ذلك كوزيـن بدهـن البلسـان المختص ببلدهم، وخمسة مماليك من الترك رماة بخمسة أقواس مـن قسي الغز المؤنقة الصنعة من العـرى والعقـب، فاسـتقل السـلطان هديته تلك بنسبة ما أهدوا إلى ملك المغرب، ثم استدعى القـاضي محمد بن هدية، وكان يكتب عنه فقـال لـه: الآن اكتـب إلى الملـك الناصر ما أقول لك، ولا تحرف كلمة عن موضعها إلا ما تقتضيـه صناعة الأعراب، وقـل لـه: أمـا عتـابك علـى شـأن الرسـل ومـا أصابهم في طريقهم فقد حضـروا عنـدي وأبنـت لهـم الاسـتعجال حذراً مما أصابهم، وأريتهـم مخـاوف بلادنـا ومـا فيهـا مـن غوائـل الأعراب، فكان جوابهم: إنا جئنا من عنـد ملـك المغـرب فكيـف نخاف! مغترين بشانهم يحسبون أن أمره نافذ في أعراب قبائلنا.

وأما الهدية فردت عليك، أما دهن البلسان فنحن قوم باديـة لا نعرف إلا الزيت وحسبنا به دهناً.

وأما المماليك الرماة قد افتتحنا بهم إشبيلية وصرفناهم إليك لتفتح بهم بغداد والسلام.

قال لي شيخنا: وكان الناس إذ ذاك لا يشـكون أن انتهـابهم كان بإذن منه، وكان هذا الكتاب دليلاً على ما في نفسه.

وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون.

الخبر عن انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد على سبتة وخروج عثمان بن أبي العلاء في غمارة

لما أحكم السلطان عقد المهادنة والولاية مـع السـلطان ابـن الأحمر المعروف بالفقيه، عند إجازته إليه بطنجة سنة اثنتين وتسعين وستمائة كما ذكرناه، وفرغ لعدوه تمسك ابن الأحمـر بولايتـه تلـك إلى أن هلك سنة إحدى وسبعمائة في شهر شعبان منه.

وقام بأمر الأندلس من بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع.

واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله بن الحكيم من مشيخة رندة، كان اصطفاه لكتابته أيام أبيه، فاضطلع بأموره وغلب عليه.

وكان هذا السلطان المخلوع ضرير البصـر ويقـال: إنـه ابـن الحكيم، فغلب عليه واستبد إلى أن قتلهما أخوه أبو الجيوش نصـر سنة ثمان وسبعمائة كما نذكره، وكان من أول آرائه عند اسـتيلائه على الأمر من بعد أبيه المبادرة إلى إحكام ولاية السلطان، واتصال يده بيده، فأوفد إليه لحين ولايته وزير أبيه السلطان عزيـز الدانـي، ووزيره الكاتب أبا عبد الله بـن الحكيـم، فوفـدوا علـى السـلطان بمعسكره من حصار تلمسان وتلقيا بـالقبول والمبرة، وجـددت لـه أحكام الود والولاية، وانقلبا إلى مرسلهما خير منقلب.

وتقدم السلطان إليهم في المـدد برجـل الأندلـس وناشـبتهم المعودين منازلة الحصون والمنـاغرة بالربـاط، فتبـادروا إلى إسـعافه، وبعثوا حصتهم لحين مرجعهم إلى سلطانهم، فوصلت سـنة اثنتـين وسبعمائة، وكانت لهم نكاية في العدو وأثر في البلد المحروب.

ثم بدا لمحمد بن الأحمر المخلوع في ولاية السلطان بمنافسـات جرت إلى ذلك.

وبعث إلى ابن أدفونش هراندة بن شانجه، وأحكـم لـه عقـد السلم ولاطفة في الولاية، فانعقد ذلك بينهما سنة ثلاث وسبعمائة واتصل خبره بالسلطان فسخطه ورجع إليهـم حصتهـم آخـر سـنة ثلاث وسبعمائة، لسنة من مقدمهم بعد أن أبلوا وأثخنوا، وطـوى لهم على النكث واعتمل ابن الأحمر وشيعته في الاسـتعداد لمدافعـة السلطان والإرصاد لسطوه بهم.

وأوعز إلى صاحب مالقة عمه الرئيس أبي سـعيد فـرج بـن إسماعيل بن محمد بن نصـر، وليـه مـن دون القرابـة بمـا كـان لـه الصهر على أخته، والمضطلع بثغر الغربية، فأوعز إليه بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان والقبض على بـني العـزفي، والرجـوع إلى ولاية ابن الأحمر.

وكان أهل سبتة منذ هلك إبراهيم الفقية أبو القاسم العـزفي سنة سبع وسبعين وستمائة قام بأمرهم ولده أبو حاتم، وكان أخـوه أبـو طـالب رديفـاً لـه في الأمـر إلا أنـه اسـتبد عليـه بصاغيتـه إلى الرياسة، وإيثار أبي حاتم للخمـول مـع إيجابـه حـق أخيـه الأكـبر، وإجابته الداعي متى روفع إليه فاستقام أمرهما مدة.

وكـان مـن سياسـتهما مـن أول أمرهمـا، الأخـذ بدعـوة السلطان فيما لنظرهمـا، والعمـل بطاعتـه والتجـافي عـن السـكنى بقصور الملك والتخرج عن أبهة السلطان لمكانهم، فأنزلوا بالقصبـة

عبد اللّه بن مخلص قائداً من البيوتات اصطنعوه وجعلوا له أحكام البلد، وضبط الحامية له فاضطلع بذلك سنين.

ثم أسفه يحيى بن أبي طالب ببعض النزعات الرياسية وحجر عليه الأحكام في ذويه، ثم أغزى به أباه وطالبه بحساب الخراج لعطاء الحامية وغفلوا عما وراءها من التظنن فيه والريبة به ثقة بمكانه واستنامة إليه.

وهم مع ذلك على أولهم في موالاة السلطان والأخذ بدعوته والوفود عليه في أوقاته.

ولما فسدت ولاية ابن الأحمر للسلطان وعقد على محاولة سبتة وجد السبيل إلى ذلك بما طوى صاحب الأحكام بالقصبة على النكث، فداخله الرئيس أبو سعيد صاحب الثغر بمالقة جارة سبتة، ووعده الغدر ببني العزفي وأن يصحبهم بأساطيله، فشرع الرئيس أبو سعيد في إنشاء الأساطيل البحرية، واستنفار الناس للمناغرة، وإن العدو له ولمالقة بمرصد، وشحنها بالفرسان والرجل والناشبة والأقوات، وأخفى وجه قصده عن الناس، حتى إذا أقلعت أساطيله وبيت سبتة لسبع وعشرين من شوال سنة خمس وسبعمائة وأرسى بساحتها لموعد صاحب القصبة، فأدخله إلى حصنه فملكه، ونشر رايته بأسوارها، وسرب جيوشه إلى البلد فتسايلوا وركب إلى دور بني العزفي فتقبض عليهم، وعلى ولدهم وحاشيتهم.

وطير الخبر إلى السلطان بغرناطة، فوصل الوزير أبو عبد اللّه بن الحكيم، ونادى في الناس بالأمان، وبسط المعدلة، وأركب بني العزفي في السفن إلى مالقة.

ثم أجازوا إلى غرناطة وقدموا على ابن الأحمر، فأجل قدومهم وأركب الناس إلى لقائهم، وجلس له جلوساً فخماً حتى أدوا بيعتهم وقضوا وفادتهم، وأنزلوا بالقصور وأجريت عليهم سنيات الأرزاق، واستقروا بالأندلس إلى أن صاروا إلى المغرب بعد كما نذكر.

واستبد الرئيس أبو سعيد بأمر سبته وثقف أطرافها وسد ثغورها، وأقام دعوة ابن عمه صاحب الأندلس بأنحائها.

وكان عثمان بن أبي العلاء بن عبد الحق من أعياص الملك المريني أجاز معه البحر إليها أميراً على الغزاة الذين كانوا بمالقة، وقائداً لعصبتهم تحت لوائه فموه بنصبه للملك بالمغرب.

وخاطب قبائل غمارة بذلك، فوقفوا بين الإقدام والإحجام واتصل ذلك كله بالسلطان وهو بمعسكره من حصار تلمسان، فاستشاط لها غضباً وحمي أنفه بعزه، واستنفره الصريخ، فبعث ابنه الأمير أبا سالم لسد تلك الفرجة، وجمع إليه العساكر وتقدم إليه بإحشاد قبائل الريف وبلاد تازى، فأغذ السير إليها وأحاطت عساكره بها، فحاصرها مدة.

ثم بيته عثمان بن أبي العلاء فاختل معسكره، وأفرج عنها منهزماً، فسخطه السلطان وزوى عنه وجه رضاه، وسار عثمان بن أبي العلاء في نواحي سبتة، وبلاد غمارة، وتغلب على تيكيساس، وانتهى إلى قصر ابن عبد الكريم في آخر سنة ست وسبعمائة لسنة من استيلائهم على سبتة، مقيماً رسم السلطان منادياً بالدعاء لنفسه، فاعتزم السلطان على النهوض عند الفراغ إليه من أمر تلمسان، لما كانت على شفا هلكة ومعاينة انفضاض، لولا عائق الأقدار بمهلكه، كما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن انتقاض بني كمي من بني عبد الواد وخروجهم بأرض السوس

كان هؤلاء الرهط من بنى عبد الواد ثم من بطون بني عليّ من شعب أبي القاسم، وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كندوزبن بن كمي. ولما استقل برياسة أولاد علي زيان بن ثابت بن محمد من أولاد طاع اللّه، نفس عليه كندوز هذا ما أتاه اللّه من الرياسة، وجاذبه حبلها، واحتقر زيان شأنه فلم يحفل به، ثم ناشب عليه أخلاط من قومهم وواضعهم الحرب.

وهلك زيان بيد كندوز، وقام بأمر أولاد علي جابر بن يوسف بن محمد.

ثم تناقلت الرياسة فيهم إلى أن عادت في ولد ثابت بن محمد، واستقل بها أبو عزة زكدان بن زيان ولم تطل أيامه.

والتحم بين أولاد كمي وبين أولاد طاع اللّه، وتناسوا الإحن، وصارت رياسة أولاد طاع اللّه ليغمراسن بن زيان، واستتبعوا قبائل عبد الواد كافة، واعتمل يغمراسن في الثأر بأبيه زيان من قاتله كندوز، فاغتاله ببيته، دعاه لمأدبة جمع لها بني أبيه، حتى إذا اطمأن المجلس تعاوروه بأسيافهم واحتزوا رأسه، وبعثوا به إلى أمهم، فنصبت عليه القدر ثالث أثافيها تشفياً منه وحفيظة.

وطالب يغمراسن بقية بني كندوز ففروا أمام مطالبته، وأبعدوا المذهب ولحقوا بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص، فأقاموا بسدته أحوالاً، وكانوا يرجعون في رياستهم لعبد اللّه بن كندوز، ثم تذكروا عهد البداوة وحنُوا إلى عشير زناتة، فراجعوا المغرب ولحقوا ببني مرين أقتالهم.

ونزل عبد الله بن كندوز على يعقوب بن عبد الحق خير نزل، لقاه من البر والترحيب بما ملأ صدره وأكد اغتباطه وأقطعه بناحية مراكش الكفاية له ولقومه، وأنزلهم هنالك.

وجعل انتجاع إبله وراحلته لحسان بن أبي سعيد الصبيحي وأخيه موسى من ذويهم وحاشيتهم، والطف منزلة عبد الله ورفع مكانه بمجلسه، واكتفى به في كثير من أموره وأوفده على المستنصر صاحب إفريقية سنة خمس وستين وستمائة مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدمناه.

واستقر بنو كندوز هؤلاء بالمغرب الأقصى، واستمرت الأيام على ذلك وصاروا من جملة قبائل بني مرين وفي عدادهم.

وهلك عبد الله بن كندوز وصارت رياستهم لعمر ابنه من بعده.

ولما لفت السلطان يوسف بن يعقوب عزائمه إلى بني عبد الواد ونازل تلمسان، وطاول حصارها، واستطال بنو مرين وذووهم على بني عبد الواد، وأحسوا بها أخذتهم العزة بالإثم، وأدركتهم النغرة، فأجمع بنو كندوز هؤلاء الخلاف والخروج على السلطان ولحقوا بحاجة سنة ثلاث وسبعمائة.

واحتفل الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب لغزوهم سنة أربع وسبعمائة، فناجزوه الحرب بتادرت، واستمروا على خلافهم.

ثم قاتلهم يعيش وعساكره ثانية بتامطريت سنة أربع وسبعمائة فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصّت جناحهم وأوهنت بأسهم.

وقتل جماعة من بني عبد الواد بأرعارن وبامكا، وأثخن يعيش بن يعقوب في بلاد السوس، وهدم تارودانت قاعدة أرضها وأم قراها، كان بها عبد الرحمن بن الحسن بن يدّر من بقية الأمراء على السوس من قبل بني عبد المؤمن، وقد مر ذكرهم.

وكانت بينه وبين عرب المعقل من الشبانات وبني حسان منذ انقرضت دولة الموحدين حروب سجال هلك في بعضها عمه علي بن يدّر سنة ثمان وستين وستمائة وصارت أمارته بعد حين إلى عبد الرحمن هذا، ولم يزالوا في حربه إلى أن تملك السوس يعيش بن يعقوب، وهدم تارودانت.

ثم راجع عبد الرحمن أمره وبنى بلده تارودانت هذه سنة ست بعدها.

وتزعم بنو يدّر هؤلاء أنهم مستقرون بذلك القطر من لدن عهد الطوالع من العرب، وأنهم لم يزالوا أمراء بها يعقد لهم ولاية كابر عن كابر، ولقد أدركت بفاس على عهد السلطان أبي عنان وأخيه أبي سالم من بعده شيخاً كبيراً من ولد عبد الرحمن هذا، فحدثني بمثل ذلك، وأنهم ولد أبي بكر الصديق، والله أعلم. ولم يزل بنو كندوز مشردين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان، وراجعوا طاعة الملوك من بني مرين من بعده وعفوا لهم عما سلف من هذه الجريرة، وأعادوهم إلى مكانهم من الولاية، فأمحضوا النصيحة والمخالصة إلى هذا العهد كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك المشيخة المصامدة بتلبيس أبي الملياني

قد ذكرنا شأن أبي علي الملياني وأوليته في أخبار مغراوة الثانية، وما كان من ثورته بمليانة وانتزائه عليها.

ثم إزعاج العساكر إياه منها ولحاقه بيعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين، وما أحله من مراتب التكرمة والمبرة.

وأقطعه بلد أغمات طعمة، فاستقر بها، وما كان منه في العيث بأشلاء الموحدين ونبش أجداثهم، وموجدة السلطان والناس عليه لذلك.

وأرصد له المصامدة الغوائل لما كان منه في ذلك، ولما هلك يعقوب بن عبد الحق استعمله يوسف بن يعقوب على جبايه المصامدة، فلم يضطلع بها وسعى به مشيختهم عند السلطان أنه احتجن المال لنفسه، وحاسبوه فصدقوا السعاية، فاعتقله السلطان فأقصاه، وهلك سنة ست وثمانين وستمائة واصطنع السلطان أحمد ابن أخيه واستعمله في كتابته، وأقام على ذلك ببابه وفي جملته.

وكان السلطان سخطه على مشيخة المصامدة علي بن محمد كبير هنتاتة، وعبد الكريم بن عيسى كبير كدميوة، وأوعز إلى ابنه علي الأمير بمراكش باعتقالهما، فاعتقله فيمن لهما من الولد والحاشية، وأحس بذلك أحمد بن الملياني فاستعجل الثأر.

وكانت العلامة السلطانية على الكتاب في الدولة لم تختص بكاتب واحد، بل كل منهم يضع العلامة بخطه على كتابه إذا أكمله، لما كانوا كلهم ثقة أمناء، وكانوا عند السلطان كأسنان المشط.

فكتب أحمد بن الملياني إلى ابن السلطان الأمير بمراكش سنة سبع وتسعين وستمائة كتاباً عن أمر أبيه، يأمره فيه بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين، ووضع عليه العلامة التي تنفذ بها الأوامر، وختم الكتاب، وبعث به مع البريد ونجا بنفسه إلى البلد

الجديد، وعجب الناس من شأنه.

ولما وصل الكتاب إلى ابن السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين من المصامدة إلى مصارعهم، وقتل علي بن محمد، وعبد الكريم بن عيشي وولد عيسى، وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز.

وطير الأمير وزيره إلى أبيه بالخبر فقتله لحينه حنقاً عليه، وأنفذ البريد باعتقال ابنه، وحرّد على ابن الملياني فافتقد ولحق بتلمسان ونزل على آل زيان، ثم لحق من بعدها بالأندلس عند إفراج السلطان عنها في تلك السنة كما ذكرناه، وبها هلك.

واقتصر السلطان من يومئذ في صنع علامته على من يختاره لها من صنائعه، ويثق بأمانته.

وجعلها لذلك العهد لعبد اللّه بن أبي مدين خالصته المضطلع بأمور مملكته، فاختصت من بعده لهذا العهد، واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن رياسة اليهود بني رقاصة ومقتلهم

كان السلطان يوسف بن يعقوب في صباه مؤثراً للذاته مستتراً بها عن أبيه يعقوب بن عبد الحق لمكانه من الدين والوقار، وكان يشرب الخمر ويعاقر بها الندمان.

وكان خليفة بن رقاصة من اليهود المعاهدين بفاس قهرماناً لداره على عادة الأمراء في مثله من المعاهدين، فكان يزدلف إليه بوجوه الخدم ومذاهبها، فاستعمله هذا الأمير في اعتصارها والقيام على شؤونها، فكانت له بذلك خلوة منه أوجبت له الحظ عنده، حتى إذا هلك يعقوب بن عبد الحق واستقل ابنه يوسف بأعباء ملكه، واتصلت خلواته في معاقرة الندمان، انفرد ابن وقاصة بخلوته لذلك مع ما كان من القهرمة، فعظمت رياسته وعلا كعبه في الدولة، وتلقى الخاصة الأوامر منه، فصارت له الوجاهة بينهم وعظم قدره بعظم الدولة.

أخبرنا شيخنا الآبلي أنه كان لخليفة هذا أخ يسمى إبراهيم، وابن عم يسمى خليفة، لقبوه بالصغير لمكانه هو من هذا الاسم.

وكان له صهر يعرفون ببني السبتي، كبيرهم موسى، وكان رديفه في قهرمته، فلم يفق السلطان من نشوة صباه وملهاه حتى وجدهم على حال استتبعوا فيها العلية من القبيل والوزراء والشرفاء والعلماء فأهمه ذلك وترصد بهم وتفطن لمذهبه فيهم خالصته عبد اللّه بن أبي مدين فسعى عنده فيهم، وأوجده السبيل عليهم، فسطا بهم سطوة واحدة واعتقلوا في شعبان من سنة إحدى وسبعمائة بمعسكره من حصار تلمسان.

وقتل خليفة الكبير وأخوه إبراهيم وموسى بن السبتي وإخوته بعد أن امتحنوا ومثّل بهم، وأتت النكبة على حاشيتهم وذويهم وأقاربهم، فلم يبق منهم باقية، واستبقى منهم خليفة الصغير احتقاراً لشأنه، حتى كان من قتله بعد ما نذكر، وعبث بسائرهم، وطهرت الدولة من رجسهم، وأزيلت عنها معرة رياستهم، والأمور بيد اللّه سبحانه.

الخبر عن مهلك السلطان أبي يعقوب

كان في جملة السلطان وحاشيته مولى من العبيدي الخصيان من موالي ابن الملياني يسمى سعادة، صار إلى السلطان من لدن استعماله إياه بمراكش، وكان على ثبج من الجهل والغباوة.

وكان السلطان يخلط الخصيان بأهله ويكشف لهم الحجاب عن ذوات محارمه، ولما كانت واقعة العز مولاه، واتهم بمداخلة بعض الحرم، وقتل بالظنة، واستراب السلطان بكثير من حاشيته الملابسين لداره، اعتقل جملة من الخصيان كان فيهم عنبر الكبير عريفهم، وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وسولت لهذا الخصي الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان، فعمد إليه وهو ببعض الحجر من قصره، وآذنه فأذن له فألفاه مستلقياً على فراشه مختضباً بالحناء، فوثب عليه فطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هارباً، وانطلق الأولياء في أثره، فأدرك من العشي بناحية تاسالة فتقبض عليه، وسيق إلى القصر فقتله العبيد والحاشية، وصابر السلطان مثبته إلى آخر النهار، ثم قضى رحمه اللّه يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمائة وقبر هنالك، ثم نقل بعد ما سكنت الهيعة إلى مقبرتهم بشالة، فدفن بها مع سلفه والبقاء لله وحده.

الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت واستلحامه المرشحين وما تخلل ذلك من الأحداث

كان الأمير أبو عامر ابن السلطان أبي يعقوب وولي عهده لما هلك طريداً ببلاد بني سعيد من غمارة والريف سنة ثمان وتسعين وستمائة كما ذكرناه، خلف ولديه عامراً وسليمان في كفالة السلطان جدهما، فكان لهما بعينه حلاوة وفي قلبه لوطة،

لمكان حبه لأبيهما واغترابه عنه، فحدب عليهما وأنزلهما من نفسه بمكان.

وكان الأمير أبو ثابت عامر منهما صقر قومه، إقداماً وشجاعة وجرأة، وكانت له في بني ورتاجن خؤولة، فلحين مهلك السلطان عرضوا له ودعوه للبيعة فبايعوه، وحصر لها الأمير أبو يحيى بن يعقوب عم أبيه، عثر بمجمعهم اتفاقاً، وحملوه على الطاعة، وكان أقرب للأمر منه لو حضره رجال، فأعطى القياد في المساعدة، وطوى على النكث.

وبادر الحاشية والوزراء بالبلد الجديد عند مهلك السلطان، فبايعوا ابنه الأمير أبا سالم.

وكاد أمر بني مرين أن يفترق وكلمتهم أن تفسد، فبعث الأمير أبو ثابت لحينه إلى تلمسان للأمير أبي زيان وأبي حمو ابني عثمان بن يغمراسن، وعقد لهما حلفاً على الإفراج عنهما، على أن يمداه بالآلة ويرفعا له كسر البيت إن كان غير ما أمل.

وحضر للعقد أبو حمو فأحكمه ومال أكثر بني مرين وأهل الحل والعقد إلى الأمير أبي ثابت.

وتفرد ببيعة أبي سالم البطانة والوزراء والحاشية والأجناد ومن إليهم، وكان مسكنه بالبلد الجديد، وأشاروا عليه بالمناجزة فخرج وقد عبأ كتائبه، فوقف وبهت وخام عن اللقاء ووعدهم الإقدام بالغداة، وكر راجعاً إلى قصره، فيئسوا منه، وتسللوا لواذاً إلى الأمير أبي ثابت، وهو بمرقب من الجبل يطل عليهم حتى إذا انحجز أبو سالم بالبلد، انحاش إليه الجملة دفعة واحدة.

فلما استوفت العساكر والقبائل لديه، زحف إلى البلد الجديد مثوى السلطان وسياج قصوره ومختط عزمه، وانتهى إلى ساحتها معتماً.

وخرج إليه الوزير يخلف بن عمران الفودودي، فأرجل عن فرسه بأمر أبي يحيى، وقتل بين يديه قعصاً بالرماح، وكان قريب عهد بالوزارة، استوزره السلطان قبل مهلكه في شعبان من سنة ست وسبعمائة.

وفر أبو سالم إلى جهة المغرب وصحبه من عشيره من أولاد رحُو بن عبد اللّه بن عبد الحق العباسي وعيسى وعلي ابنا رحو وابن أخيهم جمال الدين بن موسى.

واتبعهم الأمير أبو ثابت شرذمة من عسكره أدركوهم بندرومة، فتقبضوا عليهم ونفذوا أمر السلطان بقتل أبي سالم وجمال الدين، واستبقى الآخرين، وأمر بإحراق باب البلد ليفتحها العسكر، فأطل عليه قهرمان دارهم عبد اللّه بن أبي مدين الكاتب، وأخبره بفرار أبي سالم، وباتفاق الناس على طاعته.

ورغب إليه في المسالمة ليلتهم حتى يفجر الصباح خشية على دارهم من معرة العساكر وهجومها ففعل.

وأمره الأمير أبو يحيى باعتقال أبي الحجاج بن أشقيلولة، فاعتقله لقديم من العداوة كانت بينهما، ثم أمر بقتله، وإنفاذ رأسه فقتل.

وأمر السلطان ليلتئذ بإضرام النيران حتى إذا أضاء الظلام بات راكباً، ودخل القصر لصبحه فوارى جسد السلطان بعد أن صلى عليه.

وغص بمكان الأمير أبي يحيى لما تعدد فيه الترشيح وفاوض في شأنه كبير القرابة يومئذ عبد الحق بن عثمان ابن الأمير أبي يفرن، محمد بن عبد الحق ومن حضره من الوزراء: مثل إبراهيم بن عبد الجليل الونكاسي وإبراهيم بن عيسى اليرنياني وغيرهما من الخاصة، فأشاروا بقتله، ونميت عنه كلمات في معنى التربص بالسلطان ودولته، وابتغاء العصابة لأمره.

وركب الأمير أبو يحيى إلى القصر ثالث البيعة، فأخذ السلطان بيده ودخل معه إلى الحرم، لعزائهن عن أخيه السلطان.

ثم خرج على الخاصة وتخلف عنه السلطان وقد دس إلى عبد الحق بن عثمان أن يتقبض عليه ففعل.

ثم برز السلطان إليهم وهو موثق فأمر بالإجهاز عليه، ولم يمهله، وألحق به يومئذ وزيره عيسى بن موسى الفودودي، وفشا الخبر بمهلك هؤلاء الرهط، فرغب منه القرابة، ففر يعيش بن يعقوب أخو السلطان وابنه عثمان المعروف بأمه قضيب ومسعود بن أبي مالك، والعباس بن رحو بن عبد اللّه بن عبد الحق ولحقوا جميعاً بعثمان بن أبي العلاء بمكانه من غمارة، وخلا الجو من المرشحين، واستبد السلطان بملك قومه، وأمن غوائل المنازعين.

ولما تم له الأمر واستوسق الملك، وفى لبني عثمان بن يغمراسن بالإفراج عنهم، ونزل لهم عن جميع البلاد التي صارت إلى طاعته من بلاد المغرب الأوسط من أعمالهم، وأعمال بني توجين ومغراوة، ودعاه إلى بدار المغرب، ما كان من اختلال عثمان بن أبي العلاء بن عبد اللّه بن عبد الحق بسبتة، ودعائه لنفسه بين يدي مهلك السلطان، وخروجه إلى بلاد غمارة، واستيلائه على قصر كتامة، واعتزم على الرحلة إلى المغرب وفوض الأمر في الرحلة بأهل المدينة الجديدة للوزير إبراهيم بن عبد الجليل لما كانت حينئذٍ عامرة بالساكن مستبحرة في الاعتمار، ممتلئة من الخزائن والآلة، فأحسن السياسة في أمرهم وضرب لهم

الآجال والمواعيد أن استوفوا بالرحلة، وتركوها قـواء، خربهـا بنـو عثمان بن يغمراسن عند رحلة بني مرين إلى المغرب، وتحينوا لذلك فترات الفتن، وطمسوا معالمها طمساً ونسفوها نسفاً.

وقدم السلطان بين يديه من القرابة الحسن بن عامر بن عبد اللّه أتعجوب في العساكر والجنود، وعقد له على حرب ابن أبي العلاء.

وتلوم بالبلد الجديد لموافاة المسالح التي كانت بثغور الشرق، لما نزل عنها جميعاً لبني عثمان بن يغمراسن وارتحل غرة ذي القعدة، ودخل فاس فاتح سبع وسبعمائة واللّه أعلم.

الخبر عن انتزاء يوسف بن أبي عياد بمراكش وتغلب السلطان عليه

لما فصل السلطان أبو ثابت من معسكرهم بتلمسان إلى المغرب، قدم بين يديه من قرابته الحسن بن عامر بن عبد اللّه اتعجوب ابن السلطان أبي يوسف في العساكر والجنود، وعقد له على حرب عثمان بن أبي العلاء كما ذكرنا، وعقد له على بلاد مراكش ونواحيها لابن عمه الآخر يوسف بن محمد بن أبي عياد بن الحق، وعهد له بالنظر في أحوالها، فسار إليها واحتل بها.

ثم حدثته نفسه بالانتزاء، فقتل الوالي بمراكش، واسترکب واستلحق، واتخذ الآلة، وجاهر بالخلعان.

وتقبض على والي البلد فقتله بالسوط في جمادى سنة سبع وسبعمائة، ودعا لنفسه.

واتصل الخبر بالسلطان لأول قدومه، فسرح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود الجشمي، ويعقوب بن أصناك في خمسة آلاف من عساكره، ودفعهم إلى حربه، وخرج في أطرهم بكتائبه.

وبرز يوسف بن أبي عياد، وأجاز وادي أم الربيع فانهزم أمام الوزير وعساكره وأتبعه الوزير ففر إلى أغمات.

ثم فر إلى جبال هسكورة، ولحق به موسى بن أبي سعيد الصبيحي من أغمات، تدلى من سورها، ودخل الوزير يوسف في مراكش، ثم خرج في أثره ولحقه، فكانت بينهما جولة، وقتل منهم خلقاً، ولحق بهسكورة.

ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعمائة وأمر بقتل أوربة المداخلين كانوا له في انتزائه فاستلحموا.

ولما لحق يوسف بن أبي عباد بجبال هسكورة، نزل على مخلوف بن عبو، وتذمم بجواره، فلم يجره على السلطان، وتقبض عليه، واقتاده إلى مراكش مع ثمانية من أصحابه تولوا كبر ذلك الأمر، فقتلوا في مصرع واحد بعد أن مثل بهم بالسياط.

وبعث رأس يوسف إلى فاس، فنصب بسورها وأثخن بالقتل فيمن سواهم ممن داخله في الانتزاء، فاستلحم منهم أمماً بمراكش وأغمات.

وسخط خلال ذلك وزيره إبراهيم بن عبد الجليل فاعتقله واعتقل عشرة من بني دولين من بني ونكاسن، وقتل الحسن بن دولين منهم، ثم عفا عنهم.

وخرج منتصف شعبان إلى منازلة السكسيوي وتدويخ جهات مراكش، فتلقاه السكسيوي بطاعته المعروفة، وأسنى الهدية فتقبل طاعته وخدمته.

ثم سرح قائدة يعقوب بن أصناك في اتباع زكنة حتى توغل في بلاد السوس ففروا أمامه إلى الرمال، انقطع أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان.

وانكفأ السلطان بعساكره إلى مراكش، فاحتل بها غرة رمضان.

ثم قفل إلى فاس بعد أن قتل جماعة من شيوخ بني دورا، وجعل طريقه على بلاد صنهاجة، وسار في بلاد تامسنا، وتلقاه عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم، فاستصحبهم إلى أنفى وتقبض على ستين من أشياخهم، فاستلحم منهم عشرين ممن نمي عنهم إفساد السابلة، ودخل رباط الفتح أخريات رمضان فقتل هنالك من الأعراب أمة ممن يؤثر عنه الحرابة، ثم ارتحل منتصف شوال لغزو رياح أهل أزغار والهبط، وأثار منهم بالإحن القديمة، فأثخن فيهم بالقتل والسبي وقفل إلى فاس، فاحتل بها منتصف ذي القعدة.

وجاءه الخبر بهزيمة عبد الحق بن عثمان، واستلحام الروم من عسكره، ومهلك عبد الواحد الفودودي من رجالات دولته.

وإن عثمان بن أبي العلاء قد استفحل أمره بجهات غمارة، فأجمع لغزوه، واللّه أعلم.

الخبر عن غزاة السلطان لمدافعة عثمان بن أبي العلاء ببلاد الهبط ومهلكه بطنجة من بعد ظهوره

لما ملك الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر بسبتة سنة خمس وسبعمائة، وأقام بها الدعوة لابن عمه المخلوع محمد بن محمد الفقيه بن محمد بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر كما ذكرناه، وأجاز معه رئيس الغزاة المجاهدين بمحل إمارته من مالقة عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد اللّه بن عبد الحق من أعياص هذا البيت، كان مرشحاً للملك فيهم.

واستقدمه معه ليفرق به الكلمة في المغرب ويشغل بفتنة الدولة مدافعة عن سبتة لما كانوا أهاجوا السلطان وقومه بأخذها واستنام ملكها.

وطمع عثمان في ملك المغرب بإمدادهم ومظاهرتهم، وسولت له نفسه ذلك، فخرج من سبتة وولى على جيش الغزاة بعده عمر ابن عمه رحو بن عبد اللّه.

ونجم هو ببلاد غمارة، فدعا لنفسه وأجابته القبائل منهم.

واحتل بحصن علودان من أمنع معاقلهم، وبايعوه على الموت، ثم نهض إلى أصيلا والعرائش فغلب عليها.

واتصل ذلك كله بالسلطان الهالك أبي يعقوب فلم يحركه استهانة بأمرهم.

وبعث ابنه أبا سالم بالعساكر، فنازل سبتة أياماً، ثم أقلع عنها، وبعث بعده أخاه يعيش بن يعقوب وأنزله طنجة، وجهز معه الكتائب وجعلها ثغراً.

وزحف إليه عثمان بن أبي العلاء فتأخر عن طنجة إلى القصر، ثم أتبعه فخرج أهل القصر فرساناً ورجالاً ورماةً مع يعيش، فوصلوا إلى وادي ورا، ثم انهزموا إلى البلد.

ومات عمر بن ياسين، ونازل عثمان عليهم القصر يوماً، ثم دخله من غده.

ثم كان مهلك السلطان، ومفر يعيش بن يعقوب خيفة من أبي ثابت، فلحق بعثمان بن أبي العلاء واستقام أمره بتلك الجهات برهة.

وكان السلطان أبو ثابت لما احتل بالمغرب شغله ما كان من انتزاء يوسف بن محمد بن أبي عياد بمراكش كما قدمناه، فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء مكان عمه يعيش بن يعقوب لعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من رجال بيته، فزحف إليه، ونهض عثمان إلى لقائه منتصف ذي الحجة سنة سبع وسبعمائة فهزمه واستلحم من كان معه من جند الروم.

وهلك في تلك الواقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات السلطان المرشحين ردفاء الوزارة، وصار عثمان إلى قصر كتامة فنازله، واستولى على جهاته.

وعلى تفيئة ذلك كان رجوع السلطان من غزاة مراكش وقد حسم الداء ومحا أثر النفاق، فاعتزم على الحركة إلى بلاد غمارة ليمحو منها دعوة ابن أبي العلاء التي كانت تلح عليه ممالكه بالمغرب، ويرده على عقبه ويستخلص سبتة من يد ابن الأحمر لما صارت ركاباً لمن يروم الانتزاء والخروج من القرابة والأعياص المستنفرين وراء البحر غزاة في سبيل اللّه، فنهض من فاس منتصف ذي الحجة من سنة سبع وسبعمائة. ولما انتهى إلى قصر كتامة تلوم بها ثلاثاً حتى توافت عساكره وحشوده، وكمل اعتراضها وفر عثمان بن أبي العلاء أمامه، وارتحل السلطان في اتباعه فنازل حصن علودان واقتحمها عنوة، واستلحم بها زهاء أربعمائة.

ثم نازل بلد الدمنة، فاقتحمها وأثخن فيها قتلاً وسبياً لتمسكها بطاعة ابن أبي العلاء ومظاهرتها له، على كبس القصر واستباحته.

ثم ارتحل إلى طنجة واحتل بها غرة سنة ثمان وسبعمائة وانحجز ابن أبي العلاء بسبتة مع أوليائه وسرح السلطان عساكره، فتقرت نواحي سبتة بالاكتساح والغارة.

وأمر باختطاط بلد تيطاوين لنزول عساكره والأخذ بمخنق سبتة، وأوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبي الصبر إليهم في شأن النزول له عن البلد.

وفي خلال ذلك اعتل السلطان بمرض وقضى لأيام قلائل في ثامن صفر من سنته، ودفن بظاهر طنجة، ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة فووري هنالك.

رحمة اللّه عليه وعليهم.

الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع وما كان فيها من الأحداث

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالأمر عمه علي ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمه رزيكة، وخلص الملأ من

بني مرين أهل الحل والعقد إلى أخيه أبي الربيع فبايعوه.

وتقبض على عمه علي بن رزيكة المستام للأمر، فاعتقله بطنجة إلى أن هلك سنة عشر وسبعمائة لجمادى، وبث العطاء في الناس وأجزل الصلات وارتحل نحو فاس.

واتبعه عثمان بن أبي العلاء في جيش كثيف، وبيته وقد نذر به العسكر فأيقظوا ليلهم ووافاهم على الظهر بساحة علودان، فناجزهم الحرب، وكانت الدائرة على عثمان وقومه، وتقبض على ولده وكثير من عسكره، وأثخن أولياء السلطان فيهم بالقتل والسبي، وكان الظهور الذي لا كفاء له.

ووصل أبو يحيى بن أبي الصبر إلى الأندلس، وقد أحكم عقدة الصلح، وقد كان ابن الأحمر جاء للقاء السلطان أبي ثابت، ووصل إلى الجزيرة الخضراء فأدركه خبر مهلكه، فتوقف عن الجواز، وأجاز ابن أبي الصبر بإحكام المؤاخاة.

واجتاز عثمان بن أبي العلاء إلى العدوة فيمن معه من القرابة، فلحق بغرناطة.

وأغذ السلطان السير إلى حضرته، فدخل فاس آخر ربيع من سنة ثمان وسبعمائة واستقامت الأمور وتمهد الملك، وعقد السلم مع صاحب تلمسان موسى بن عثمان بن يغمراسن، وأقام وادعاً بحضرته.

وكانت أيامه خير أيام، هدنةً وسكونة وترفاً لأهل الدولة، وفي أيامه تغالى الناس في أثمان العقار، فبلغت قيمتها فوق المعتاد، حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين.

وتنافس الناس في البناء فعالوا الصروح، واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام وزخرفوها بالزليج والنقوش.

وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره، وأكل الطيب واقتناء الحلي من الذهب والفضة.

واستبحر العمران، وظهرت الزينة والترف، والسلطان وادع بداره متملٍّ أريكته إلى أن هلك كما نذكره، إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل عبد الله بن أبي مدين

كان أبو شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان من قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير، وكان متحلاً للدين مشتهراً به.

ولما أجلب بنو مرين على المغرب وجالوا في بسائطه، وتغلبوا على ضواحيه، صحب البر منهم والفاجر من أهله.

وكان بنو عبد الحق قد تخيروا شعيب هذا فيمن تخيروا للصحابة من أهل الدين، فكان إمام صلاتهم.

وكان يعقوب بن عبد الحق أشدهم صحابة له، وأوفاهم به ذماماً فاتصل به حبله، واستمرت صحابته، وعظم في الدولة قدره وانبسط بين الناس جاه ولده وأقاربه وحاشيته.

وربى بنو شعيب هذا: عبد اللّه ومحمد المعروف بالحاج، وأبو القاسم من بعدهم من إخوتهم بقصر كتامة في جو ذلك الجاه.

وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستخلصهم يوسف بن يعقوب لخدمته، واستعملهم على مختصاته، ثم ترقى بهم في رتب خدمته وأخصائه، درجة بعد أخرى إلى أن هلك أبوهم مدين شعيب سنة سبع وتسعين وستمائة وكان المقدم منهم عند السلطان عبد اللّه، فأوفى به على ثنيات العز والوزارة والخلة والولاية.

وتقدم بخطوته في مجلسه كل حظوة، واختصه بوضع علامته على الرسائل والأوامر الصادرة عنه، وجعل إليه حسبان الخراج والضرب على أيدي العمال، وتقييد الأوامر بالبسط والقبض، واستخلصه لمناجاة الخلوات والإفضاء بذات الصدور، فوقف ببابه الأشراف من الخاصة والقبيل والقرابة والولد، وتوددوا وخطبوا نائله.

وكان عبد اللّه استعمل مع ذلك أخاه محمداً على جباية المصامدة بمراكش، وهنأ أبا القاسم الدعة بفاس، فأقام بها متملياً راحته عريضاً جاهه، طاعماً كاسياً، تتسرب إليه أموال العمال في سبيل الإتحاف، وتقف ببابه صدور الركائب إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب يوسف.

ويقال: إن له خائنة في دمه مع سعاية الملياني.

ولما ولي السلطان أبو ثابت ضاعف رتبته وشفع لديه خطته ورفع على الأقدار قدره. ثم ولي من بعده أخوه أبو الربيع فتقبل فيه مذهب سلفه.

وكان بنو رقاصة اليهود حين نكبوا، باشر نكبتهم لمكانه من إصدار الأوامر، ويزعمون أن له فيهم سعاية، وكان خليفة الأصغر منهم قد استبقي كما ذكرناه، فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة بداره في بعض المهن، ولابس الخدم حتى اتصل بمباشرة السلطان، فجعل غايته السعاية بعبد اللّه بن أبي مدين.

وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع أنه لا يؤمن بوائقه مع حزم ذويه، وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس، فدس إلى

السلطان أن عبد الله بن أبي مدين يعرض باتهام السلطان في ابنته، وأن صدره وغر بذلك، وأنه متعرض بالدولة.

وكان يخشى الغائلة لما كان عليه من مداخلة القبيل، ولما كان داعية من دعاة آل يعقوب، فتعجل السلطان دفع غائلته واستدعاه صبيحة زفاف ابنته، زعموا على زوجها فاستحثه قائد الروم من داره بفاس، ونذر بالشر، فلم يغنه النذر، ومر في طريقه إلى دار السلطان بمقبرة أبي يحيى بن العربي، فطعنه القائد هنالك من ورائه طعنة أكبه على ذقنه، واحتز رأسه فألقاه بين أيدي السلطان.

ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجده بين يديه، فذهبت نفسه عليه على مكانه من الدولة حسرة وأسفاً، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي، فوقفه على براءة كان ابن أبي مدين بعثها معه إلى السلطان بالتنصل والحلف، فتيقظ وعلم مكر اليهودي به، فندم وفتك لحينه بخليفة بن رقاصة وذويه من اليهود المتصدين للخدمة، وسطا بهم سطوة الهلكة، فأصبحوا مثلاً للآخرين، والله أعلم.

الخبر عن ثورة أهل سبتة بالأندلسيين ومراجعتهم طاعة السلطان

لما قفل السلطان أبو الربيع من غزاة سبتة بعد أن شرد عثمان بن أبي العلاء وأحجزه بسبتة، وأجاز منها إلى العدوة ومن كان معه من القرابة كما قلناه، بلغه الخبر بضجر أهل سبتة، ومرض قلوبهم من ولاية الأندلسيين عليهم وسوء ملكتهم.

ودس إليه بعض أشياعه بالبلد بمثل ذلك، فأغزى صنيعته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخا وزيره في عساكر ضخمة من بني مرين، وسائر الطبقات من الجند.

وأوعز إليه بالتقدم إلى سبتة ومنازلتها، فأغذ إليها السير ونزل بساحتها، ولما أحس به أهل البلد بهشت رجالاتهم وتنادوا بشعارهم، وثاروا على من كان منهم من قواد ابن الأحمر وعماله وأخرجوا منها حاميته وجنوده، واقتحمها العساكر واحتل تاشفين بن يعقوب بقصبتها عاشر صفر من سنة تسع وسبعمائة.

وطير الفوائق بالخبر إلى السلطان فعم السرور وعظم شأن الفتح، وتقبض على قائد القصبة أبي زكريا يحيى بن مليلة، وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة، وعلى قائد الحروب بها من الأعياص عمر بن رحُو بن عبد الله بن عبد الحق، كان صاحب الأندلس عقد له مكان ابن عمه عثمان بن أبي العلاء عند إجازته البحر إلى الجهاد كما ذكرنا، وكتب إلى السلطان بالفتح، وأوفد عليه الملأ من مشيخة سبتة وأهل الشورى.

وبلغ الخبر إلى ابن الأحمر فارتاع لذلك وخشي عادية السلطان، وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة.

وكان الطاغية في تلك الأيام نازل الجزيرة الخضراء، وأقلع عنها على الصلح بعد أن أذاقها من الحصار شدة، وبعد أن نازل جبل الفتح، فتغلب عليه وملكه.

وانهزم زعيم من زعمائه يعرف بالفنش بيرس، هزمه أبو يحيى بن عبد الله بن أبي العلاء صاحب الجند بمالقة، لقيه يجوس خلال البلاد بعد تملك الجبل، فهزم النصارى وقتلوا أبرح قتل.

وأهم المسلمين شأن الجبل فبادر السلطان أبو الجيوش، بإنفاذ رسله راغبين في السلم خاطبين للولاية، وتبرع بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونها، ترغيباً للسلطان في الجهاد، فتقبل منه السلطان وعقد له الصلح على ما رغب، وأصهر إليه في أخته، فأنكحه إياها، وبعث بالمدد للجهاد، أموالاً وخيولاً وجنائب مع عثمان بن عيسى البرنياني، واتصلت بينهما والمهادنة والولاية إلى مهلك السلطان والبقاء لله وحده.

الخبر عن بيعة عبد الحق بن عثمان بممالأة الوزير والمشيخة وظهور السلطان عليهم ثم مهلكه بعد ذلك

كانت رسل ابن الأحمر خلال هذه المهادنة والمكاتبات تختلف إلى باب السلطان، ووصل منهم في بعض أحيانها خلف من مترفيهم، فجاهر بالكبائر، فكشف صفحة وجهه في معاقرة الخمر والإدمان عليه.

وكان السلطان منذ شهر جمادى الأول سنة تسع وسبعمائة قد عزل القاضي بفاس أبا غالب المغيلي، وعهد بأحكام القضاء لشيخ الفتيا المذكور بها أبي الحسن الملقب بالصغير.

وكان على ثبج من تغيير المنكرات والتعسف فيها، حتى لقد كان مطاوعاً في ذلك وسواس النسك الأعجمي، متجاوزاً بها الحدود المتعارفة من أهل الشريعة في سائر الأمصار، وأحضر عنده ذات يوم هذا الرسول ثملاً، وحضر العدول فاستروحوه، ثم أمضى حكم الله فيه، وأقام عليه الحدود، وأضرمته هذه الموجدة، فاضطرم غيظاً وتعرض للوزير رحو بن يعقوب الوطاسي منصرفه من دار السلطان في موكبه، وكشف عن ظهره يريه أثر السياط وينعي عليهم سوء هذا المرتكب مع الرسل.

فتبرم لذلك الوزير وأدركته حفيظة، وسرح وزعته وحشمه في إحضار القاضي على أسوإ الحالات من التنكيل والتل لذقنه، فمضوا لذلك الوجه، واعتصم القاضي بالمسجد الجامع، ونادى المسلمين، فثارت العامة بهم، ومرج أمر الناس.

واتصل الخبر بالسلطان فتلافاه بالبعث في أولئك النفر من وزعة الوزير، وضرب أعناقهم، وجعلهم عظة لمن وراءهم، فأسرها الوزير في نفسه، وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد شيخ بني مرين، والمسلم له في شوارهم. وقائد الروم غنصاله المنفرد برياسة العسكر وشوكته، وكان لهم بالوزير اختصاص آثروه له على سلطانه، فدعاهم إلى بيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الأعياص، وخلع طاعة السلطان فأجابوه وبايعوا له، وتم أمرهم نجياً.

ثم خرجوا عاشر جمادى من سنة عشر وسبعمائة إلى ظاهر البلد الجديد بمكان الرمكة، وجاهروا بالخلعان وأقاموا الآلة وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملأ وعسكروا بالعدوة القصوى من سبُو تخم بلاد العسكر، وأزاء نبدورة من معاقل الحسن بن علي زعيم تلك الثورة.

ثم ارتحلوا من الغد إلى تازى وخرج السلطان في إثرهم فعسكر بسبو وتلوم لاعتراض العساكر، وإزاحة العلل، واحتل القوم برباط تازى، وأوفدوا على موسى عثمان بن يغمراسن سلطان بني عبد الواد يدعونه إلى المظاهرة واتصال اليد، والمدد بالعساكر والأموال جنوحاً إلى التي هي آثر لديه من تفريق كلمة عدوه، فتثاقل عن ذلك لمكان السلم الذي عقد له السلطان أول الدولة، وليستبين سبيل القوم.

وقدم السلطان بين يديه يوسف بن عيسى الجشمي، وعمر بن موسى الفودودي في جموع كثيفة من بني مرين.

وسار في ساقتهم، فانكشف القوم عن تازى ولحقوا بتلمسان صريخاً.

وحمد السلطان مغبة نظره في التثاقل عن نصرهم ووجد بها الحجة عليهم، إذ غاية مظاهراته إياهم أن يملكهم تازى، وقد انكشفوا عنها فيئسوا من صريخه وأجاز عبد الحق بن عثمان ورحو بن يعقوب إلى الأندلس، فأقام رحو بها إلى أن قتله أولاد ابن أبي العلاء، ورجع الحسن بن علي إلى مكانه من قبيله ومحله من مجلس السلطان بعد أن اقتضى عهده بالأمان على ذلك ولما احتل الحسن بتازى حسم الداء ومحاة أثر الشقاق، وأثخن في حاشية الخوارج وذويهم بالقتل والسبي، ثم اعتل أثناء ذلك وهلك لليال من اعتلاله سلخ جمادى الآخرة من سنة عشر وسبعمائة ووري بصحن الجامع الأعظم من تازى، وبويع السلطان أبو سعيد، كما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد وما كان فيها من الأحداث

لما هلك السلطان أبو الربيع بتازى تطاول للأمر عمه عثمان ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمه قضيب، واستلم المنصب وأسدى في ذلك وألحم، وحضر الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدوء من الليل، فاستشاروا بشيخ القرابة يومئذ وكبير الأعياص المرشحين العالي القعد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. ودست أخته عريبة إليهم بالوعد، وسربت إليهم الأموال.

وجاءهم عثمان ابن السلطان أبي يعقوب مستاماً، فزجروه واستدعوا السلطان أبا سعيد، فحضر وبايعوه ليلتئذ وأنفذ كتبه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة.

وسرح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن إلى فاس، فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعمائة، ودخل القصر واطلع على أمواله وذخيرته، وفي غد ليلته أخذت البيعة العامة للسلطان بظاهر تازى على بني مرين، وسائر زناتة والقبائل والعرب والعساكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء.

فقام بالأمر واستوسق له الملك، وفرق الأعطيات وأسنى الجوائز، وتفقد الدواوين ورفع الظلامات، وحط المغارم والمكوس.

وسرح أهل السجون، ورفع عن أهل فاس وظيفة الرباع وارتحل لعشرين من شهر رجب إلى حضرته، فاحتل بفاس، وقدم عليه وفود التهنئة من جميع بلاد المغرب.

ثم خرج لذي القعدة بعدها إلى رباط الفتح لتفقد الأحوال والنظر في أحوال الرعايا، واهتم بالجهاد، وإنشاء الأساطيل للغزو في سبيل الله.

ولما قضى منسك الأضحى بعده، رجع إلى حضرته بفاس.

ثم عقد سنة إحدى عشرة وسبعمائة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس: الجزيرة ورندة وما إليهما من الحصون.

ثم نهض من الحصون سنة ثلاث عشرة وسبعمائة إلى

مراكش لما كان بها من اختلال الأحوال، وخروج عدي بن هنو الهسكوري، ونقضه للطاعة، فنزل به وحاصره مدة، واقتحم حصنه عنوة عليه، وحمله مقيداً إلى دار ملكه، فأودعه المطبق، ثم رجع إلى غزو تلمسان، والله أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي سعيد إلى تلمسان أولى حركاته إليها

لما خرج عبد الحق بن عثمان على السلطان أبي الربيع، وتغلب على تازى، بمظاهرة الحسن بن علي بن أبي الطلاق كبير بني عسكر، واختلف رسلهم إلى أبي حمو موسى بن عثمان سلطان بني عبد الواد، اسف ذلك بني مرين وحرك مزاجهم، ولما لحق الخارجون على الدولة بالسلطان أبي حمو وأقبل عليهم أضرم ذلك حقد بني مرين.

وولى السلطان أبو سعيد الأمر وفي أنفسهم من بني عبد الواد غصة فلما استوسق أمر السلطان، ودوخ الجهات المراكشية، وعقد على البلاد الأندلسية وفرغ من شأن المغرب، اعتزم على غزو تلمسان فنهض إليها سنة أربع عشرة وسبعمائة. ولما انتهى إلى وادي ملوية قدم ابنيه أبا الحسن وأبا علي في عسكرين عظيمين في الجناحين، وسار في ساقتهما، ودخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية، فاكتسح نواحيها واصطلم نعمها، ونازل وجدة، فقاتلها قتالاً شديداً وامتنعت عليه ثم نهض إلى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها.

وانحجز موسى بن عثمان من وراء أسوارها، وغلب على معاقلها ورعاياها وسائر ضواحيها، فحطمها حطماً، ونسف جهاتها نسفاً، ودوخ جبال بني يزناسن وفتح معاقلها وأثخن فيها وانتهى إلى وجدة.

وكان معه في عسكره أخوه يعيش بن يعقوب، وقد أدركته بعض الاسترابة بأمره ففر إلى تلمسان، ونزل على أبي حمو ورجع السلطان على تعبيته إلى تازى، فأقام بها.

وبعث ولده الأمير أبا علي إلى فاس فكان من خروجه على أبيه ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي وما كان بينه وبين أبيه من الواقعات

كان للسلطان أبي سعيد اثنان من الولد أكبرهما لأمته الحبشية، وهو علي، والآخر لمملوكة من سبي النصرانية وهو عمر.

وكان هذا الأصغر آثرهما لديه، وأعلقهما بقلبه منذ نشأ، فكان عليه حدباً وبه مشغوفاً.

ولما استولى السلطان على ملك المغرب، رشحه لولاية عهده، وهو شاب لم يطر شاربه، ووضعوا له ألقاب الإمارة، وصير معه الجلساء والخاصة والكتاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه.

وعقد على وزارته لإبراهيم بن عيسى البرنياني من صنائع دولتهم وكبار المرشحين بها.

ولما رأى أخوه الأكبر أبو الحسن صاغية أبيهما اليه، وكان شديد البرور لوالديه، انحاش إليه وصار في جملته، وخلط نفسه بحاشيته طاعة لأبيه واستمرت حال الأمير أبي علي على هذا، وخاطبه الملوك من النواحي وخاطبهم، وهادوه وعقد الرايات، وأثبت في الديوان ومحا وزاد في العطاء ونقص، وكاد أن يستبد.

ولما قفل السلطان أبو سعيد من غزاته إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعمائة أقام بتازى وبعث ولديه إلى فاس، فلما استقر الأمير أبو علي بفاس حدثته نفسه بالاستبداد على أبيه، وخلعه وراوضه المداخلون له في المكر بالسلطان حتى يتقبض عليه، فأبي وركب الخلاف وجاهر بالخلعان ودعا لنفسه، فأطاعه الناس لما كان السلطان جعل إليه من أمرهم، وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو السلطان، فبرز من تازى بعسكره يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

ثم بدا للأمير أبي علي في شأن وزيره، وحدثته نفسه بالتقبض عليه استرابة به لما كان بلغه من المكاتبة بينه وبين السلطان، فبعث لذلك عمر بن يخلف الفودودي، وتفطن الوزير لما جاء به من المكر، فتقبض عليه ونزع إلى السلطان أبي سعيد فتقبله ورضي عنه، وارتحل إلى لقاء ابنه.

ولما تراءى الجمعان بالقرمدة ما بين فاس وتازى، اختل مصاف السلطان وانهزم عسكره وأفلت بعد أن أصابته جراحه في يده وهن لها، ولحق بتازى فليلاً جريحاً.

ولحق ابنه الأمير أبو الحسن نازعاً إليه من جملة أخيه أبي علي بعد المحنة وفاء بحق أبيه، فاستبشر السلطان بالظهور والفتح،

وحميد المغبة، وأناخ الأمير أبو علي بعساكره على تازى، وسعى الخواص بين السلطان وبينه في الصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقتصر على تازى وجهاتها، فتم ذلك بينهما وانعقد، وشهد الملأ من مشيخة العرب وزناتة وأهل الأمصار، فاستحكم عقده وانكفأ الأمير أبو علي إلى حضرة فاس ممكاً، وتوافت إليه بيعة الأمصار بالمغرب ووفودهم، واستوسق أمره.

ثم اعتل على إثر ذلك واشتد وجعه، وصار إلى حال الموت وخشي الناس على أنفسهم تلاشي الأمر بمهلكه، فتسايلوا إلى السلطان بتازى، ثم نزع على الأمير أبي علي وزيره أبو بكر بن النوان وكاتبه منديل بن محمد الكناني، وسائر خواصه، فلحقوا بالسلطان وحملوه على تلافي الأمر، فنهض من تازى واجتمع إليه كافة بني مرين والجند.

وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصراً لها، وابتنى داراً لسكناه وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد وتفويض الأمر.

وتفرد أبو علي بطائفة من النصارى المستخدمين بدولته، كان قائدهم يمت إليه بالخؤولة، وضبط البلد مدة مرضه حتى إذا أفاق وتبين اختلال أمره، بعث إلى أبيه في الصفح والرضى، وأن ينزل له عما انتزى عليه من الأمر على أن يقطعه سجلماسة وما إليها، ويسوغه ما احتمل من المال والذخيرة من دراهم، فأجابه إلى ذلك، وانعقد بينهما سنة خمس عشرة وسبعمائة وخرج الأمير أبو علي بخاصته وحشمه، وعسكر بالزيتون من ظاهر البلد، ووفى له السلطان بما اشترط وارتحل إلى سجلماسة، ودخل السلطان إلى البلد الجديد ونزل بقصره، وأصلح شؤون ملكه، وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره، وفوض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال، وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتاب، ووضع العلامة على كتابه وسائر ما كان لأخيه، ووفدت إليه بيعات الأمصار بالمغرب، ورجعوا إلى طاعته.

ونزل الأمير أبو علي بسجلماسة فأقام بها ملكاً، ودون الدواوين، واستلحق واستركب، وفرض العطاء واستخدم ظواعن العرب من المعقل، وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكورارين وتمنطيت، وغزا بلاد السوس فافتتحها وتغلب على ضواحيها، وأثخن في إعرابها من ذوي حسان والشبانات وزكنة، حتى استقاموا على طاعته.

وبيت عبد الرحمن بن الحسن بن يدر أمير الأمصار بالسوس في تارودانت مقره، فافتتحها عليه عنوة وقتله، واصطلم نعمته وأباد سلطانه.

وأقام لبني مرين في بلاد القبلة ملكاً وسلطاناً، وانتقض على السلطان سنة عشرين وسبعمائة وتغلب على درعا، وسما إلى طلب مراكش، فعقد السلطان على حربه لأخيه الأمير أبي الحسن، وجعله إليه، وأغزاه ونهض على أثره، فاحتلوا بمراكش، وثقفوا أطرافها وحسموا عللها، وعقد عليها لكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم، وقفلوا بعسكرهم إلى الحضرة.

ثم نهض الأمير أبو علي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة بجموعه من سجلماسة وأغذ السير إلى مراكش، فاحتلت عساكره بها قبل أن يجتمع لكندوز أمره، فتقبض عليه وضرب عنقه ورفعه على القناة وملك مراكش وسائر ضواحيها.

وبلغ الخبر إلى السلطان، فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد وأزاح العلل، واستوفى الأعطيات، وقدم بين يديه ابنه الأمير أبا الحسن ولي عهده والغالب على أمره في عساكره وجموعه، وجاء في ساقته، وسار على هذه التعبية.

ولما انتهى إلى توتو من وادي ملوية ندروا بالبيات من أبي علي وجنوده، فحذروهم وأيقظوا ليلتهم، وبيتهم بمعسكرهم ذلك، فكانت الدايرة عليهم، وفل عسكره، وارتحلوا من الغد في أثره.

وسلك على جبال درن، وافترقت جنوده في أوعاره، ولحقهم من معراتها شناعات، حتى ترجل الأمير أبو علي عن فرسه، وسعى على قدميه، وخلصوا من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق، ولحق بسجلماسة، ومهد السلطان نواحي مراكش واستعمل عليها ورتب الحامية بها. وعقد على جباية أموال المصامدة ونواحي مراكش لموسى بن علي بن محمد الهنتاتي، فعظم عناؤه في ذلك واضطلاعه وامتدت أيام ولايته وارتحل السلطان إلى سجلماسة، فدافعه الأمير أبو علي بالخضوع في الصفح والرضى والعودة إلى السلم، فأجابه السلطان لما كان شغفه من حبه، فقد كان يؤثر عنه من ذلك غرائب، ورجع إلى الحضرة وأقام الأمير أبو علي بمكانه من القبلة إلى أن هلك السلطان، وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نكبة منديل الكناني ومقتله

كان أبوه محمد بن محمد الكناني من علية الكتاب بدولة الموحدين، ونزع من مراكش عندما انحل نظام بني عبد المؤمن وانفض جمعهم إلى مكناسة، فأوطنها في إيالة بني مرين، واتصل بالسلطان يعقوب بن عبد الحق فصحبه فيمن كان يتأثر على

صحابته من أعلام المغرب.

وسفر عنه إلى الملوك كما ذكرنا، في سفارته إلى المستنصر سنة خمس وستين وستمائة وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق وازداد الكناني عند ابنه يوسف حظوة ومكانة إلى أن سخطه ونكبه سنة سبع وسنين وستمائة وأقصاه من يومئذ وهلك في حال سخطته وبقي من بعده ابنه منديل هذا في جملة السلطان أبي يعقوب متبرماً بمقام عبد اللّه بن أبي مدين المستولي على قهرمة دار السلطان ومخالصته في خلواته غضباً لذلك، متوقعاً للنكبة في أكثر أيامه مضطرمة له بالحسد جوانحه، مع ما كان عليه من القيام على حسبان الديوان عرف فيه بسبقه وشهد به صديقه وعدوه.

ولما تغلب السلطان على ضاحية شلف وأمصار من بلاد مغراوة واستعمله على حسبان الجباية، وجعل إليه ديوان العسكر هنالك، وإلى نظره اعتراضهم وتمحيضهم، فنزل على بمليانه مع من كان هنالك من الأمراء: مثل علي بن محمد الخيري والحسن بن علي بن أبي الطلاق العسكري إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب، ورجع أبو ثابت البلاد إلى أبي زيان وأخيه أبو حمو ملوك بني عبد الواد. ونزل لهم عنها فرجع إلى المغرب ولحق بالسلطان أبي ثابت ومر في طريقه بأبي زيان وأخيه أبي حمو، فخف عليهما، وحلا بعيونهما، واستبلغا في تكريمه وانصرف إلى مغربه.

وكان أيام معسكر السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان قد صحب أخاه أبا سعيد عثمان بن يعقوب في حال خموله، وتأكدت بينهما الخلة التي رعاها له السلطان أبو سعيد.

فلما ولي أمر المغرب مت بذلك إليه، فعرفه له واختصه وخالصه، وجعل إليه وضع علامته وحسبان جبايته، ومستخلص أحواله، والمفاوضة بذات صدره، ورفع مجلسه، وقدمه على خاصته.

وكان كثير الصاغية للأمير أبي علي ابنه المتغلب على أبيه أول أمره، ولما استبد وخلع أباه انحاش منديل هذا إليه، ثم نزع عنه حين تبين اختلال أمره، وكان الأمير أبو الحسن يحقد له ولاية أخيه أبي علي لما كان بينهما من المنافسة وكان كثيراً ما يوغر صدره بإيجاب حق عمر عليه، وامتهانه في خدمته، وطوى له على النكث حتى حق إذا انفرد بمجلس أبيه وفصل عمر إلى سجلماسة أحكم السعاية فيه والآلاء في الهلكة التي أصر السلطان عليها أذناً واعية، حتى تأذن اللّه بإهلاكه.

وكان منديل هذا كثيراً ما يغضب السلطان في المحاورة والخطاب دالة عليه وكبراً، فاعتد عليه من ذلك كلمات وأحوالاً، وسخطه سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأذن لابنه أبي الحسن في نكبته، فاعتقله واستصفى أمواله، وطوى ديوانه وامتحنه أياماً، ثم قتله بمجلسه خنقاً، ويقال: جوعاً، وذهب مثلاً في الغابرين، واللّه خير الوارثين.

الخبر عن انتقاض العزفي بسبتة ومنازلته ثم مصيرها إلى طاعة السلطان بعد مهلكه

كان بنو العزفي لما تغلب عليهم الرئيس أبو سعيد ونقلهم إلى غرناطة سنة خمس وسبعمائة واستقروا بها في إيالة المخلوع، ثالث ملوك بني الأحمر، حتى إذا استولى السلطان أبو الربيع على سبتة سنه تسع وسبعمائة آذنوا في الإجازه إلى المغرب، وأجازوا إلى فاس، واستقروا بها وكان يحيى وعبد الرحمن ابنا أبي طالب من سراتهم وكبارهم، وكانوا يغشون مجالس أهل العلم، بما كانوا عليه من انتحال الطب.

وكان السلطان أبو سعيد أيام أمارة بني أبيه يجالس بالمسجد الجامع للقرويين شيخ الفتيا أبا الحسن الصغير وكان يحيى بن أبي طالب يلازمه، فاتصل به وصارت له وسيلة يحسبها عنده.

فلما ولي الأمر واستقل به، رعى لهم زمام صحابتهم، ووفى لهم مقاصدهم وعقد ليحيى على سبتة، ورجعهم إلى مقر إمارتهم منها ومحل رياستهم، فارتحلوا إليها سنة عشر وسبعمائة وأقاموا دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته.

ثم تغلب الأمير أبو علي علي أمر أبيه، واستبد عليه فعقد على سبتة لأبي زكريا حبون بن أبي العلاء القرشي، وعزل يحيى بن أبي طالب عنها، واستقدمه إلى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه حاتم، واستقروا في جملة السلطان.

وهلك أبو طالب بفاس خلال ذلك حتى إذا كان من خروج الأمير أبي علي على أبيه ما قدمناه، لحق يحيى بن أبي طالب وأخوه بالسلطان نازعين من جملة الأمير أبي علي.

فلما احتل بالبلد الجديد ونازله السلطان بها فحينئذ عقد السلطان ليحيى بن أبي طالب على سبتة، وبعثه إليها ليقيم دعوته بتلك الجهات وتمسك بابنه محمد رهناً على طاعته، فاستقل بإمارتها، وأقام طاعة السلطان دعوته بها وأخذ بيعته على الناس، واتصل ذلك سنين، وهلك عمه أبو حاتم هنالك بعد مرجعه معه من المغرب.

ولسنة ست عشرة وسبعمائة انقض على السلطان ونبذ

طاعة الأمر، ورجع إلى حال سلفه من أمر الشورى في البلد.

واستقدم من الأندلس عبد الحق بن عثمان فقدم إليه وعقد له على الحرب ليفرق به الكلمة، ويوهن ببأسه عزائم السلطان في مطالبته.

وجهز السلطان إليه العساكر من بني مرين وعقد على حربه للوزير إبراهيم بن عيسى، فزحف إليه وحاصره، وتعلل عليهم بطلب ابنه، فبعث به السلطان إلى وزيره إبراهيم ليعطي الطاعه، فتسلمه، وجاءه الخبر من عيون كانت بالعسكر أن ابنه كان في فسطاط الوزير بساحة البحر، بحيث يتأتّى الفرصة في أخذه، فبيت المعسكر، وهجم عبد الحق بن عثمان بحشمه وذويه على فسطاط الوزير، فاحتمله إلى أبيه وركبت العساكر للهيعة، فلم يقفوا عل خبر حتى تفقد الوزير ابن العزفي، واتهموا قائدهم إبراهيم بن عيسى الوزير بممالأة العدو على ذلك، فاجتمعت مشيختهم وتقبضوا عليه، وحملوه إلى السلطان ابتلاءً للطاعة واستنصاراً في نصح السلطان، فشكر لهم وأطلق وزيره لابتلاء نصيحته، ورغب يحيى بن العزفي بعدها في رضى السلطان وولايته.

ونهض السلطان سنة تسع عشرة وسبعمائة إلى طنجة لاختبار طاعته، فعقد له على سبتة واشترط هو على نفسه الوفاء بجباية السلطان، وأسنى هديته في كل سنة.

واستمرت الحال على ذلك إلى أن هلك يحيى العزفي سنة عشرين وسبعمائة.

وقام بالأمر ابنه محمد إلى نظر ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم.

وكان قائد الأساطيل بسبتة ولي النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الزنداحي إلى الأندلس، واختلف الغوغاء بسبتة، وانتهز السلطان الفرصة فأجمع على النهوض إليها سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وبادروا بإيتاء طاعتهم.

وعجز محمد بن يحيى عن المناهضة، وظنها محمد بن علي من نفسه، فتعرض للأمر في أوغاد من اللفيف، فاجتمعوا إليه ودافعهم الملأ عن ذلك، وحملوهم على الطاعة، واقتادوا بني العزفي إلى السلطان فانقادوا، واحتل السلطان بقصبة سبتة، وثقف جهاتها ورم متثلمها وأصلح خللها، واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه في أعمالها، فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدراتي على حاميتها، وعقد لأبي القاسم بن أبي مدين على جبايتها والنظر في مبانيها،، وإخراج الأموال للنفقات فيها، وأسنى جوائز الملأ من مشيختها، ووفر إقطاعاتهم وجراياتهم، وأوعز ببناء البلد المسمى أفراك على سبتة، فشرعوا في بنائها سنة تسع وعشرين وسبعمائة وانكفأ راجعاً إلى حضرته.

الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة

كان بنو عبد المهيمن من بيوتات سبتة، ونسبهم في حضرموت، وكانوا أهل تجلة ووقار، منتحلين للعلم.

وكان أبو محمد قاضياً بسبتة أيام أبي طالب وأبي حاتم، وكان له معهم صهر.

ونشأ ابنه عبد المهيمن هذا في حجر الطب والجلالة، وقرأ صنعة العربية على الأستاذ الغافقي وحذق فيها.

ولما نزلت بهم نكبة الرئيس أبي سعيد سنة خمس وسبعمائة واحتملوا إلى غرناطة، احتمل فيهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه.

وقرأ عبد المهيمن بغرناطة على مشيختها، وازداد علماً وبصراً باللسان والحديث، واستكتب بدار السلطان محمد المخلوع، واختص بوزيره المتغلب على دولته محمد بن عبد الحكيم الرندي فيمن اختص به من رؤسائهم بني العزفي.

ثم رجع بعد نكبة ابن الحكم إلى سبتة، وكتب عن قائدها بن مسلمة مدة.

ولما استخلص بنو مرين سبتة سنة تسع وسبعمائة اقتصر على الكتابة، وأقام منتحلاً مذاهب سلفه في انتحال العلم ولزوم المروءة.

ولما استولى السلطان أبو سعيد على المغرب واستقل بولاية العهد، وتغلب على الأمر ابنه أبو علي، وكان محباً للعلم مولعاً بأهله منتحلاً لفنونه، وكانت دولته خلواً من صناعة الترسيل منذ عهد الموحدين للبداوة الموجودة في دولتهم.

وحصل للأمير أبي علي بعض البصر بالبلاغة واللسان تفطن به لشأن ذلك، وخلو دولتهم من الكتاب المرسّلين، وأنهم إنما يحكمون الخط الذي حذقوا فيه.

ورأى فيه الأصابع تشير إلى عبد المهيمن في رياسة تلك الصناعة، فولع به، وكان كثير الوفادة مع أهل بلده أوقات وفادتهم، فيختصه الأمير أبو علي بمزيد من بره وكرامته، ويرفع مجلسه، ويخطبه للكتابة وهو يمتنع عليه، حتى إذا أمضى عزيمته في

ذلك أوعز إلى عامله بسبتة سنة اثنتي عشرة وسبعمائة أن يشخصه إلى بابه فقلده كتابته وعلامته حتى إذا خرج أبو علي على أبيه تحيز عبد المهيمن إلى الأمير أبي الحسن، فلما صولح أبو علي على النزول عن البلد الجديد وكتب شروطه على السلطان كان من جملتها كون عبد المهيمن معه، وأمضى له السلطان ذلك وأنف الأمير أبو الحسن منها، فاقسم ليقتلنه إن عمل بذلك، فرفع عبد المهيمن أمره إلى السلطان ولاذ به، وألقى نفسه بين يديه، فرق لشكواه وأمره باعتزالهما معاً والرجوع إلى خدمته، وأنزله بمعسكره وقام على ذلك، واختصه منديل الكناني كبير الدولة وزعيم الخاصة، وأنكحه ابنته.

ولما نكب منديل الكناني جعل السلطان علامته لأبي القاسم بن أبي مدين، وكان غفلاً خلواً من الآداب، فكان يرجع إلى عبد المهيمن في قراءة الكتب وإصلاحها، وإنشائها حتى عرف السلطان له ذلك، فاقتصر عليه وجعل وضع العلامة إليه سنة ثمان عشرة وسبعمائة فاضطلع بها ورسخت قدمه في مجلس السلطان، وارتفع صيته.

واستمر على ذلك أيام السلطان وابنه أبي الحسن من بعده إلى أن هلك بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة والله خير الوارثين.

الخبر عن صريخ أهل الأندلس بالسلطان ومهلك بطرة على غرناطة

كان الطاغية شانجة بن أدفونش قد تكالب على أهل الأندلس من بعد أبيه هراندة الهالك سنة اثنتين وثمانين وستمائة ومنذ غلب على طريف وشغل السلطان يوسف بن يعقوب بعدوه بني يغمراسن، ثم تشاغل حفدته من بعده بأمرهم وتقاصرت مددهم، وهلك شانجة سنة ثلاث وسبعين وولى ابنه هراندة ونازل الجزيرة الخضراء فرضة الجهاد لبني مرين حولاً كاملاً، ونازلت أساطيله جبل الفتح واشتد الحصار على المسلمين.

وراسل هراندة بن أدفونش صاحب برشلونة أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم، ويأخذ بحجزتهم، فنازل المرية وحاصرها الحصار المشهور سنة تسع وسبعمائة ونصب عليها الآلات.

وكان منها برج العود المشهور بطول الأسوار بمقدار ثلاث قامات، وتحيل المسلمون على إحراقه فأحرق.

وحفر العدو تحت الأرض مسرباً عريض المسافة مقدار ما يسير فيه عشرون راكباً.

وتفطن لهم المسلمون وحفروا قبالتهم مثله إلى أن نفذ بعضهم لبعض، واقتتلوا تحت الأرض وعقد ابن الأحمر لعثمان بن أبي العلاء زعيم الأعياص على عسكر بعثه مدداً لأهل المرية، فلقيه جمع من النصارى كان الطاغية بعثهم لحصار مرشانة، فهزمهم عثمان واستلحمهم، ونزل قريباً من معسكر الطاغية وألح بغاداتهم ومراوحتهم إلى أن رغبوا إليه في السلم وأفرج عن البلد.

وتغلب الطاغية، خلال ذلك على جبل الفتح، وأقامت عساكره على شمانة واصطبونة، وزحف العباس بن رحو بن عبد الله وعثمان بن أبي العلاء في العساكر لإغاثة البلدين، فأوقع عثمان بمعسكر اصطبونة، وقتل قائدهم ألفنش بترس في نحو ثلاثة آلاف فارس واستلحموا.

ثم زحف عثمان لإغاثة العباس وكان دخل عوجين فحاصرته جموع النصارى به، فانفضوا لخبر زحفه، وبلغ الخبر إلى الطاغية بمكانه من ظاهر الجزيرة بفتك عثمان في قومه، فسرح جموع النصرانية إليه، ولقيهم عثمان فأوقع بهم، وقتل زعماءهم.

وارتحل الطاغية يريد لقاءهم فخالفه أهل البلد إلى معسكره، وانتهبوا محلاته وفساطيطه، وأتيحت للمسلمين عليهم الكرة، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وأسراهم.

ثم هلك الطاغية إثر هذه الهزائم سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وهو هراندة بن شانجة.

وولي من بعده ابنه الهنشة طفلاً صغيراً، جعلوه لنظر عمه دون بطرة بن شانجة، وزعيم النصرانية جوان فكفلاه.

واستقام أمرهم على ذلك، وشغل السلطان أبو سعيد ملك المغرب بشأن ابنه وخروجه، فاهتبل النصرانية الغرة في الأندلس وزحفوا إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأناخوا فيها بعسكرهم وأممهم.

وبعث أهل الأندلس صريخهم إلى السلطان واعتذر لهم بمكان أبي العلاء من دولتم، ومحله من رياستهم، وأنه مرشح للأمر في قومه بني مرين، يخشى معه تفريق من الكلمة، وشرط عليهم أن يدفعوه إليه برمته حتى يتم أمر الجهاد، ويعيد هو إليهم حوطة على المسلمين، ولم يمكنهم ذلك لمكان عثمان بن أبي العلاء لصرامته وعصابته من قومه، فأخفق سعيهم واستلحموا.

وأطالت أمم النصرانية بغرناطة، وطمعوا في التهامها، ثم إن الله نفس مخنقهم، ودافع بيد قدرته عنهم، وكيف لعثمان بن أبي العلاء وعصبته واقعة فيهم كانت من أغرب الوقائع.

صمدوا إلى موقف الطاغية بجملتهم، وكانوا زهاء مائتين أو أكثر، وصابروهم حتى خالطوهم في مراكزهم، فصرعوا بطرة وجوان، وولوهم الأدبار، واعترضتهم من ورائهم مسارب الماء للشرب من شنيل فتطارحوا فيها، وهلك أكثرهم، واكتسحت أموالهم، وأعز الله دينه، وأهلك عدوه، ونصب رأس بطرة بسور البلد عبرة لمن يتذكر، وهو باق هنالك لهذا العهد، والله تعالى أعلم.

الخبر عن صهر الموحدين والحركة إلى تلمسان على أثره وما تخلل ذلك من الأحداث

لما انفرج الحصار عن ولد عثمان بن يغمراسن بن زيان أحد ملوك بني عبد الواد سنة ست وسبعمائة وتجافى أبو ثابت عن بلادهم، ونزل لهم عما كان بنو مرين منها بسيوفهم.

واستقل أبو حمو بملك بني عبد الواد على رأس الحول منها، صرف نظره واهتمامه إلى بلاد المشرق، فتغلب على بلاد مغراوة، ثم على بلاد بني توجين، ومحا أثر سلطانهم.

ولحق أعياصهم من ولد عبد القوي بن عطية وولد منديل بن عبد الرحمن بالموحدين آل أبي حفص مع من تبعهم من رؤوس قبائلهم، وصاروا في جملة عساكرهم.

واستلحق مولانا السلطان أبو يحيى وحاجبه يعقوب بن غمر منهم جندا كثيفاً أثبتهم في الديوان، وغالب بهم الخوارج والمنازعين للدولة.

ثم زحف أبو حمو إلى الجزائر وغلب ابن علان عليها سنة ونقله إلى تلمسان ووفى له.

وفر بنو منصور أمراء ملكيش أهل بسيط متيجة من صنهاجة، فلحقوا بالموحدين واصطنعوهم، وتملك قاصية المغرب الأوسط وتاخم عمل الموحدين بعمله.

ثم تغلب على تدلس سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وتجنى على مولانا السلطان أبي يحيى بما وقع بينهم من المراسلة أيام انتزاء ابن مخلوف ببجاية كما ذكرناه في أخباره، يحث عزائمه لمنازلتها وطلب بلاد الموحدين، وأوطأ عساكره أرضهم، ونازل أمصارهم بجاية وقسنطينة.

واختص بجاية بشوكته من ذلك، وجهز العساكر مع مسعود ابن عمه أبي عامر إبراهيم لمضايقتها.

وكان خلال ذلك ما قدمناه من خروج محمد بن يوسف بن يغمراسن عليه سنة وقيام بني توجين بأمره، واقتطاع جبل وانشريش من عمالة ملكه.

واستمرت الحال على ذلك حتى هلك السلطان أبو حمو سنة ثمان عشرة وسبعمائة وقام بأمرهم ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن فصنع له في ابن عمه محمد بن يوسف.

ونهض إليه بعساكر بني عبد الواد حتى نازله بمعتصمه من جبل وانشريش وداخله عمر بن عثمان كبير بني تيغرين في المكر به، فتقبض عليه وقتله سنة تسع عشرة وسبعمائة وارتحل إلى بجاية حتى احتل بساحتها، وامتنع عليه الحاجب ابن غمر فأقام يوماً أو بعضه، ثم انكفأ راجعاً إلى تلمسان، وردد البعوث إلى أوطان بجاية، وابتنى الحصون لتجمير الكتائب، فابتنى بوادي بجاية من أعلاه حصن بكر، ثم حصن تيمزيزدكت يليه.

ثم اختط بنيكلات على مرحلة منها بلداً سماه تيمزيزدكت على اسم المعقل الذي كان لأولهم بالجبل قبالة وجدة.

وامتنع يغمراسن به على السعيد كما قدمناه، فاختط بلد تيكلات هذه، وشحنها بالأقوات والعساكر، وصيرها ثغراً لملكه، وأنزل بها جنده، وعقد عليها لموسى بن علي العزفي كبير دولته، ودولة ابنه.

واستحثه أمراء الكعوب من بني سليم لملك إفريقية حين مغاضبتهم لمولانا السلطان أبي يحيى فأغرس معهم جيوش زنانة، وعقد على تونس للأعياص من آل أبي حفص: الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي يحيى اللحياني، وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عمران، وأبي إسحاق بن أبي يحيى الشهيد، مرة بعد أخرى كما ذكرناه في أخبارهم جميعاً.

وكانت حروبهم سجالاً إلى أن كان بين جيوش زناتة الموحدين الزحف المشهور بالرياش من نواحي مرماجنة سنة تسع وعشرين وسبعمائة زحفت فيه إلى السلطان أبي يحيى عساكر زناتة مع حمزة بن عمر أمير بني كعب، ومن إليه من البدو، وعليهم يحيى بن موسى من صنائع دولة آل يغمراسن.

وقد نصبوا للملك محمد بن أبي عمران بن أبي حفص، ومعهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني عبد الحق في بنيه وذويه، وكان نزع إليهم من عند الموحدين كما ذكرناه، فاختل مصاف مولانا السلطان أبي يحيى وانهزم، واستولوا على فساطيطه بما فيها من الذخيرة والحرم، وانتهبوا معسكره، وتقبضوا على

ولديه المولين أحمد وعمر، وأشخصوهما إلى تلمسان.

وأصيب السلطان في بدنه بجراحات أوهنته، وخلص إلى بونة ناجياً برمقة، وركب السفين منها إلى بجاية، فأقام بها يدامل جراحه، واستولت زناتة على تونس.

ودخلها محمد بن أبي عمران وسموه باسم السلطان ومقادته في يد يحيى بن موسى أمير زناتة.

واعتزم مولانا السلطان أبو يحيى على الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد بنفسه صريخاً على آل يغمراسن.

وأشار حاجبه محمد بن سيد الناس بإنفاذ ابنه الأمير أبي زكريا صاحب الثغر استنكافاً له عن مثلها، فتقبل إشارته وأركب ابنه البحر لذلك.

وبعث إليه معه أبا محمد عبد الله بن تافراكين من مشيخة الموحدين نافضاً أمامه طرق المقاصد والمجاوزات، ونزلوا بغساسة من سواحل المغرب، وقدموا على السلطان أبي سعيد بحضرته، وأبلغوه صريخ مولانا السلطان أبي يحيى، فاهتز لذلك هو وابنه الأمير أبو الحسن، وقال للأمير في ذلك المحفل: يا بني لقد أكبر قومنا قصدك وموصلك، والله لأبذلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي، ولأسيرن بعساكري إلى تلمسان فأنزلها مع أبيك. فانصرفوا إلى منازلهم مسرورين.

وكان فيما شرطه عليهم السلطان أبو سعيد مسير مولانا السلطان أبي يحيى بعسكره إلى منازلة تلمسان معه فقبلوا.

ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين وسبعمائة ولما انتهى إلى وادي ملوية وعسكر بصبرة، جاءهم الخبر اليقين باستيلاء السلطان أبي يحيى على حضرة تونس، وإجهاضه زناتة وسلطانهم عنها.

واستدعى مولانا السلطان الأمير أبا زكريا يحيى ابنه ووزيره أبا محمد عبد الله بن تافراكين وأمرهم بالانصراف إلى صاحبهم وأسنى جوائزهم وحاجاتهم، وركبوا أساطيلهم من غساسة وأرسل معهم للخطبة والصهر إبراهيم بن أبي حاتم العزفي والقاضي بحضرته أبا عبد الله بن عبد الرزاق، وانكفأ على عقبه راجعاً إلى حضرته.

ولما انعقد الصهر بين الأمير أبي الحسن، والسلطان أبي يحيى في ابنته شقيقة الأمير يحيى، زفها إليهم في أساطيله مع مشيخة من الموحدين: كبيرهم أبو القاسم بن عتو، ووصلوا بها إلى مرسى غساسة سنة إحدى وثلاثين بين يدي مهلك السلطان أبي سعيد، فقاموا بها على إقدام البر والتكرمة، وبعثوا الظهر إلى غساسة لركوبها وحمل أثقالها، وصيغت حكمات الذهب والفضة وقدت ولايا الحرير المغشاة بالذهب، واحتفل لوفدها وأعراسها غاية الاحتفال بما لم يسمع مثله في دولتهم.

وتولت قهارمة الدار من عجز من النساء ما يتولاه مثلهم من ذلك الصنيع، وتحدث الناس به، وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها، والبقاء لله وحده.

الخبر عن مهلك السلطان أبي سعيد عفا الله عنه وولاية ابنه السلطان أبي الحسن وما تخلل ذلك من الأحداث

كان السلطان لما بلغه وصول العروس بنت مولانا السلطان أبي يحيى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة واهتزت الدولة لقدومها عليهم تعظيماً لحق أبيها وقومها واحتفاءً بها، ارتحل السلطان أبو سعيد إلى تازى ليشارف أحوالها بنفسه احتفاء في تكريمها وسروراً بعرس ابنه.

واعتل هنالك ومرض حتى أشفى على الهلاك، وارتحل به ولي العهد الأمير أبو الحسن إلى الحضرة، وحمله في فراشه على أكتاف الحاشية والخول، حتى نزل بسبو، ثم أدخله كذلك ليلاً إلى داره، وأدركته المنية في طريقه، فقضى رحمة الله عليه، فوضعوه بمكانه من البيت.

واستدعى الصالحين لمواراته، فووري لشهر ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين وستمائة والبقاء لله وحده، وكل شيء هالك إلا وجهه.

ولما هلك السلطان أبو سعيد اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة لولي عهده الأمير أبي الحسن، وعقدوا له على انفسهم، وآتوه طاعتهم وبيعتهم، وأمر بنقل معسكره من سبو، وأضرب بالزيتون من ساحة فاس.

ولما ووري السلطان، خرج إلى معسكره بالتعبية، واجتمع إليه الناس على طبقاتهم لأداء البيعة، وجلس بفسطاطه، وتولى أخذ البيعة له يومئذ على الناس المزوار عبو بن قاسم رئيس الوزعة والمتصرفين وحاجب الباب القديم الولاية بذلك في دارهم منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب.

وزفت إليه ليلتئذ عروسه بنت السلطان أبي يحيى، فأعرس بها بمكانه من المعسكر، وأجمع أمره على الانتقام لأبيها من عدوه.

وبدأ باستكشاف حال أخيه أبي علي، وكان السلطان أبوهما يستوصيه به لما كان له بقلبه من العلاقة.

وكان ولي العهد هذا يؤثر لرضاه جهده، فاعتزم على الحركة إلى سجلماسة لمشارفة أحواله، والله تعالى أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي الحسن إلى سجلماسة وانكفائه عنها إلى تلمسان بعد الصلح مع أخيه والاتفاق

لما هلك السلطان أبو سعيد وكملت بيعة السلطان أبي الحسن، وكان كثيراً ما يستوصيه بأخيه أبي علي لما كان كلفاً به شفوقاً عليه، فأراد مشارفة أحواله قبل النهوض إلى تلمسان، فارتحل معسكره بالزيتون قاصداً سجلماسة، وتلقته في طريقه وفود الأمير أبي علي أخيه مؤدياً حقه، موجباً مبرته، مهنئاً له بما آتاه الله من الملك، متجافياً عن المنازعة فيه، قانعاً من تراث أبيه بما حصل في يده، طالباً العقد له بذلك من أخيه.

فأجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل، وعقد له على سجلماسة وما إليها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيهما.

وشهد الملأ من القبيل وسائر زناتة والعرب، وانكفأ راجعاً إلى تلمسان لإجابة صريخ الموحدين، وأغذ السير إليها.

ولما انتهى إلى تلمسان تنكب عنها متجاوزاً إلى جهة المشرق لوعد مولانا السلطان أبي يحيى بالنزول معه على تلمسان، كما كان عليه وفاقهم ومشارطتهم مع الأمير أبي زكريا الرسول إليهم.

فاحتل بتاسالة في شعبان من سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وتلوم بها وأوعز إلى أساطيله بمراسي المغرب فأغزاها إلى سواحل تلمسان.

وجهز لمولانا السلطان أبي يحيى مدداً من عسكره أركبهم الأساطيل من سواحل وهران، وعقد عليهم لمحمد البطوي من صنائع دولته، ونزلوا بجاية، ووافوا بها مولانا السلطان أبا يحيى فصاروا في جملته.

ونهضوا معه إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد المجمرة بها الكتائب لحصار بجاية، وبها يومئذ ابن هزرع من قوادهم، وأجفل من كان بها من العسكر قبل وصوله إليهم، فلحقوا بآخر عملهم من المغرب الأوسط.

وأناخ مولانا السلطان أبو يحيى عليها بعساكره من الموحدين والعرب والبربر وسائر الحشود، فخربوا عمرانها وانتهبوا ما كان من الأقوات مختزناً بها، وكان بحراً لا يدرك ساحله، لما كان السلطان أبو حمو من لدن اختطها قد أوعز إلى العمال بسائر البلاد الشرقية، من عمل البطحاء أن ينقلوا أعشار الحبوب إليها وسائر الأقوات، وتقبل ابنه السلطان أبو تاشفين مذهبه في ذلك.

ولم يزل دأبهم إلى حين حلت بها هذه الفاقرة فانتهب الناس من تلك الأقوات ما لا كفاء له.

وأضرعوا مختطها بالأرض فنسفوها نسفاً، وذروها قاعاً صفصفاً.

والسلطان أبو الحسن خلال ذلك متشوف لأحوالهم منتظر قدوم مولانا السلطان أبي يحيى بعساكره عليه لمنازلة تلمسان، حتى وافاه الخبر بانتقاض أخيه كما نذكره، فانكفأ راجعاً، واتصل الخبر بمولانا السلطان أبي يحيى فقفل إلى حضرته.

وحمل البطوي معه وأسنى جائزته وجوائز عسكره، وانصرفوا إلى السلطان مرسلهم في سفنهم من ساعتها، وانقبض عنان السلطان أبي تاشفين عن غزو بلاد الموحدين إلى أن انقرض أمره، والبقاء لله وحده.

الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي ونهوض السلطان أبي الحسن إليه وظفره به

لما توغل السلطان أبو الحسن في غزاة تلمسان وتجاوزها إلى تاسالة لوعد مولانا السلطان أبي يحيى، دس أبو تاشفين إلى الأمير أبي علي في اتصال اليد والاتفاق على السلطان أبي الحسن، وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه متى هم به، وانعقد بينهما على ذلك.

وانتقض الأمير أبو علي على أخيه السلطان أبي الحسن، ونهض من سجلماسة إلى درعة فقتل بها عامل السلطان، واستعمل عليها من ذويه، وسرح العسكر إلى بلاد مراكش.

واتصل الخبر بالسلطان وهو بمعسكره بتاسالة، فأحفظه شأنه، وأجمع على الانتقام منه، فانكفأ راجعاً إلى الحضرة.

وأنزل بثغر تاوريرت تخم عمله معسكراً، وعقد عليه لابنه تاشفين، وجعله إلى نظر وزيره منديل بن حمامة بن تيريبغين، وأغذ السير إلى سجلماسة، فنزل عليها وأحاطت عساكره بها، وأخذ بمخنقها وحشد الفعلة والصناع لعمل الآلات لحصارها، والبناء بساحتها.

وأقام يغاديها القتال ويراوحها حولاً كريتاً.

ونهض أبو تاشفين في عساكره وقومه إلى ثغر المغرب ليوطئه عساكره، وبعث في نواحيه يجاذب السلطان عن مكانه من حصاره.

ولما انتهى إلى تاوريرت برز إليه ابن السلطان في وزرائه وعساكره، وزحفوا إليه في التعبية، فاختل مصافه وانهزم ولم يلق أحداً، وعاد إلى منحجزه وبادر إلى إمداد الأمير أبي علي بعسكره، فعقد على حصة من جنده وبعث بهم إليه، فتسربوا إلى البلد زرافات ووحداناً حتى استكملوا عنده، وطاولهم السلطان الحصار وأنزل بهم أنواع الحرب والنكال حتى تغلب عليهم، واقتحم البلد عنوة، وتقبض على الأمير أبي علي عند باب قصره، وسيق إلى السلطان فامهله واعتقله، واستولى على ملكه.

وعقد على سجلماسة واستعمل عليها، ورحل منكفئاً إلى الحضرة، فاحتل بها سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واعتقل أخاه في إحدى حجر القصر إلى أن قتله لأشهر من اعتقاله خنقاً بمحبسه.

وعذر له هذا الفتح بفتح الجبل واسترجاعه من يد العدو ودمره اللّٰه بأيدي عسكره، وتحت راية ابنه أبي مالك، كما نذكره إن شاء اللّٰه تعالى.

الخبر عن منازلة جبل الفتح واستنثار الأمير أبي مالك والمسلمين به

لما هلك السلطان أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش، قام بالأمر من بعده ابنه محمد طفلاً صغيراً لنظر وزيره محمد بن المحروق من بيوت الأندلس وصنائع الدولة، واستبد عليه.

فلما شب وناهز أنف من الاستبداد عليه، وأغراه المعلوجي من حشمه بالوزير، فاغتاله وقتله سنة تسع وعشرين وسبعمائة وشمر للاستبداد وشد أواخي الملك.

وكان الطاغية قد أخذ جبل الفتح سنة تسع، وجاورت النصرانية به ثغور الفرضة، وكان شجى في صدرها، وأهم المسلمين شأنه.

وشغل عنهم صاحب المغرب بما كان فيه من فتنة ابنه، فرجعوا الجزيرة وحصونها إلى ابن الأحمر منذ سنة اثنتي عشر وسبعمائه لأول المائة الثامنة.

واستغلظ الطاغية عليهم بعد ذلك فرجعوا الجزيرة إلى صاحب المغرب سنة تسع وعشرين وسبعمائة وولى عليها السلطان أبو سعيد من أهل دولته سلطان بن مهلهل من عرب الخلط أخواله.

وأسفَّ الطاغية إلى حصونها عند مهلك السلطان أبي سعيد فملك أكثرها، ومنع البحر من الإجازة، وقارن ذلك استبداد صاحب الأندلس، وقتله لوزيره ابن المحروق، وأهمه شأن الطاغية، فبادر إلى إجازة البحر.

ووفد على السلطان أبي الحسن بدار ملكه من فاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فأكبر موصله وأركب الناس للقائه، وأنزله بروض المصارة لصق داره، واستبلغ في تكريمه.

وفاوضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر، وما أهمهم من عدوهم، وشكا إليه حال الجبل واعتراضه شجىً في صدر الثغور، فأشكاه السلطان، وعامل اللّٰه في أسباب الجهاد، وكان مشغوفاً به متقبلاً مذهب جده يعقوب فيه.

وعقد لابنه الأمير أبي مالك على خمسة آلاف من بني مرين، وأنفذه مع السلطان محمد بن إسماعيل لمنازلة الجبل، فاحتل بالجزيرة، وتتابع إليه الأسطول بالمدد.

وأرسل ابن الأحمر حاشرين في الأندلس، فتسايلوا إليه، وأضربوا معسكرهم جميعاً بساحة الجبل، وأبلوا في حربه ومنازلته البلاء الحسن، إلى أن تغلبوا عليه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة، ونفلهم اللّٰه من كان به من النصرانية بما معهم، ووافاه الطاغية بأمم الكفر لثالثة فتحه، وقد شحنه المسلمون بالأقوات، نقلوها من الجزيرة على خيولهم، وباشر نقلها الأمير أبو مالك وابن الأحمر، فنقلها الناس عامة.

وتحيز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلى من وزراء أبيه.

ووصل الطاغية بعد ثلاث فأناخ عليه، وبرز أبو مالك بعساكره، فنزل قبالته وبعث إلى الأمير أبي عبد اللّٰه صاحب الأندلس، فوصل بحشد المسلمين بعد أن دوخ أرض النصرانية.

وخرج فنزل بإزاء عسكر الطاغية، وتحصن العدو في محلتهم.

وأقاموا كذلك عادية لقرب العهد بارتجاعه، وخفة ما به من الحامية والسلاح، فبادر السلطان ابن الأحمر إلى لقاء الطاغية.

وسبق الناس إلى فسطاطه عجلاً بائعاً نفسه من اللّٰه في رضى المسلمين، وسد فرجتهم، فتلقاه الطاغية راجلاً حاسراً

إعظاماً لموصله، وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المعقل، واتحفه بذخائر مما لديه، وارتحل لفوره.

وأخذ الأمير أبو مالك في تثقيف أطراف الثغر، وسد فروجه، وأنزل الحامية به، ونقل الأقوات إليه، وكان فتحاً طوق دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر إلى آخر الأيام.

ثم رجع بعدها إلى شأنه من منازلة تلمسان وحصاره، كما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن حصار تلمسان وتغلب السلطان أبي الحسن عليها وانقراض أمر بني عبد الواد بمهلك أبي تاشفين

لما تغلب السلطان على أخيه وحسم علة انتزائه ومنازعته وسد ثغور المغرب، وعظمت لديه نعمة اللّه بظهور عسكره على النصرانية، وارتجاع جبل الفتح من أيديهم بعد أن أقام في ملكة الطاغية نحواً من عشرين سنة، فرغ لعدوه وأجمع على غزو تلمسان.

ووفد عليه رسل السلطان أبي يحيى في سبيل التهنئة بالفتح والأخذ بحجزة أبي تاشفين على الثغور.

وأوفد السلطان إلى أبي تاشفين شفعاء في أن يتخلى عن عمل الموحدين جملة، ولتراجع لهم عن تدلس، ويرجع إلى تخوم عمله منذ أول الأمر، ولو عامئذ ليعلم الناس جاه السلطان عند الملوك، ويقدروه حق قدره، واستنكف أبو تاشفين مع ذلك ولج وأغلظ للرسل في القول، وأفحش بمجلسه بعض السفهاء من العبيد في الرد عليهم والنيل من مرسلهم، فانقلبوا إليه بما أحفظه، فانبعثت عزائم السلطان للصمود إليهم.

وعسكر بساحة البلد الجديد، وبعث وزراءه إلى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والعساكر، ثم تعجل فاعترض جنوده وأزاح عللهم وعبى مواكبه، وسار في التعبية، وفصل بمعسكره من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعمائة وسار يجر الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده، ومر بوجدة، فجمر الكتائب لحصارها.

ثم مر بندرومة فقاتلها بعض يوم واقتحمها، فقتل حاميتها واستولى عليها آخر سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ثم سار على تعبيته حتى أناخ على تلمسان، وبلغه الخبر بتغلب عساكره على وجدة سنة ست وثلاثين وسبعمائة فأوعز إليه بتخريب أسوارها، فأضرعوها بالأرض.

وتوافت إليه إمداد النواحي وجهاتها وحشودها، وربض على فريسته، ووفدت إليه قبائل مغراوة وبني توجين فأتوه طاعتهم.

ثم سرح عساكره إلى الجهات فتغلب على وهران وهنين، ثم على مليانة وتنس والجزائر كذلك سنة ست وثلاثين وسبعمائة ونزع إليه يحيى بن موسى صاحب القاصية الشرقية من عمله، والمتاخم كان لعمل الموحدين، والقائم بحصار بجاية بعد نكبة موسى بن علي فلقاه مبرة وتكريماً، ورفع مجلسه في بساطه ونظمه في طبقات وزرائه وجلسائه.

وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى بن سليمان العسكري كبير بني عسكر بن محمد وشيخ بني مرين، وصاحب شوراهم بمجلس السلطان، والمخصوص بالصهر من السلطان، عقد له على ابنته فسار في الألوية والجنود وطوع ضاحية الشرق وقبائله، وافتتح أمصاره حتى انتهى إلى المرية.

ونظم البلاد في طاعة السلطان، وأحشد مقاتلتها إلى معسكره فلحقوا له وكاثروا جنوده.

واستعمل السلطان على وانشريش وعمل الحشم من بني توجين.

وعقد لسعد بن سلامة بن علي على كل بني يدللتن، وجعل الوالي بالقلعة إلى نظره، وكان خلص إليه بالمغرب قبل فصوله نازعاً عن أبي تاشفين لمكان أخيه قريعه محمد من الدولة.

واستعمل السلطان أيضاً على شلف وسائر أعمال المغرب الأوسط.

واختط السلطان بغربي تلمسان البلد الجديد لسكناه، ونزل عساكره وسماه المنصورية، وأدار على البلد المخروب سياجاً من السور ونطاقاً من الخندق، ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه وشيد قبالة كل برج من أبراج البلد برجاً على ساقة خندقه ينضح رماته بالنبل رماتهم، ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيد برجاً آخر أقرب منه، وترتفع شرفاته فوق خندقهم.

ولم يزل يتقرب بوضع الأبراج من حد إلى ما بعده، حتى اختطها من قرب على ساقه خندقهم.

وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعاليها، ورتب المجانيق إلى رجمها ودكها، فنالت من ذلك فوق الغاية، واشتد الحرب وضاق نطاق الحصار.

وكان السلطان يصحبهم كل يوم بالبكور والتطواف على

البلد من جميع جهاته لتفقد المقاتلة في مراكزهم، وربما ينفرد في طوافه بعض الأيام عن حاشيته، فاهتبلوا الأمر يحسبونه غرة.

وصفوا جيوشهم من وراء السور مما يلي الجبل المطل على البلد، حتى إذا حاذاه السلطان في تطوافه فتحوا أبوابهم، وأرسلوا عليه عقبان جنودهم، واضطروه إلى سفح الجبل حتى لحق بأوعاره، وكاد أن ينزل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير سويد.

ووصل الصائح إلى المعسكر فركب الأميران ابناه: أبو عبد الرحمن وأبو مالك، في جموع بني مرين، وتهاوت فرسان المعسكر من كل جانب، فشمر جنود بني عبد الواد إلى مراكزهم، ثم دفعوهم عنها، وحملوهم على هوة الخندق فتطارحوا فيه وترادفوا وهلك بالكظيظ أكثر ممن هلك بالقتل.

واستلحم في ذلك اليوم زعماء ملاحهم مثل عمر بن عثمان كبير الحشم من بني توجين، ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني يدللتن منهم أيضاً وغيرهم، وكان يوماً له ما بعده، واعتز بنو مرين عليهم من يومئذ، ونذر بنو عبد الواد بالتغلب عليهم، واتصلت الحرب مدة عامين.

ثم اقتحمها السلطان غلاباً لسبع وعشرين من رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، ووقف أبو تاشفين بساحة قصره مع خاصته، وقاتل هنالك حتى قتل ابناه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي ووليه عبد الحق بن عثمان بن محمد من أعياص عبد الحق، نزع إليه من جملة الموحدين كما أشرنا إليه ونستوفي خبره، فهلك هو وابنه وابن أخيه، وأثخنت السلطان أبا تاشفين الجراحة ووهن لها، فتقبض عليه.

واحتقبه بعض الفرسان إلى السلطان فلقيه الأمير أبو عبد الرحمن صالي تلك الحروب وأورد غمرتها بنفسه، فاعترضه وقد غض الطرف بموكبه، فأمر به في الحين فقتل، واحتز رأسه، وسخط ذلك السلطان من فعله لحرصه على توبيخه وتقريعه، وذهب مثلا في الغابرين.

واقتحم السلطان بكافة عساكره، وتواقع الناس بباب كشوط لجنوبهم من كظيظ الزحام، فهلك منهم أمم.

وانطلقت أيدي النهب على البلد فلحقت الكثير من أهله معرات في أموالهم وحرمهم، وخلص السلطان إلى المسجد الجامع مع لمة من خواصه وحاشيته.

واستدعى شيوخ الفتيا بالبلد: أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام، وفاء بحق العلم وأهله، فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب، فركب لذلك بنفسه وسكن وأوزع جنوده وأشياعه من الرعية، وقبض أيديهم عن الفساد وعاد إلى معسكره بالبلد الجديد.

وقد كمل الفتح وعز النصر، وشهد ذلك اليوم أبو محمد عبد الله بن تافراكين، وافاه رسولاً عن مولانا السلطان أبي يحيى مجدداً للعهد، فأعجله السلطان إلى مرسله بالخبر وسابق السابقين.

ودخل تونس لسبع عشرة ليلة من نوبة الفتح، فعظم السرور عند السلطان أبي يحيى بمهلك عدوه والانتقام منه بشارة، واعتدها بمساعيه.

ورفع السلطان أبو الحسن القتل عن بني عبد الواد أعدائهم، وشفى نفسه بقتل سلطانهم، وعفا عنهم وأثبتهم في الديوان، وفرض لهم العطاء، واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم.

وجمع كلمة بني واسين من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين، وسائر زناتة وأنزلهم ببلاد المغرب وسد بكل طائفة منهم ثغراً من أعماله، وساروا عصباً تحت لوائه، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة، وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومرابطين، واندرجوا في جملته، واتسع نطاق ملكه.

وأصبح ملك زناتة بعد أن كان ملك بني مرين وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب.

والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

الخبر عن نكبة الأمير عبد الرحمن بمتيجة وتقبض السلطان عليه ثم مهلكه آخراً

قد قدمنا ما كان من اشتراط السلطان أبي سعيد على الموحدين منازلتهم، تلمسان مع عساكره، وتلوم السلطان أبي الحسن بتاسالة لانتظار مولانا السلطان أبي يحيى.

ولما نازل تلمسان بعساكره المرة الثانية، لم يطالبهم بذلك.

وكان أبو محمد بن تافراكين يتردد إليه وهو بمعسكره من حصار تلمسان مؤدياً حقه مستخبراً مآل عدوهم.

فلما تغلب على تلمسان أسر إليه سفيره أبو محمد بن تافراكين بأن سلطانه قادم عليه للقائه وتهنئته بالظفر بعدوه.

وتشوف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر ويعنى به، وارتحل من تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، وعسكر ببسيط بمتيجة منتظراً وفادة مولانا السلطان أبي يحيى عليه.

وتكاسل السلطان عنها لما أراه سيفه المتحكم في دولته محمد بن الحكيم من حذر مغبتها، وقال له: إن لقاء سلطانين لا يتفق إلا في يوم على أحدهما، فكره ذلك السلطان وتقاعد عنه. وطال مقام السلطان أبي الحسن في انتظار الموعد الذي ألقى إليه أبو محمد بن تافراكين، واعتل لأشهر من مقامه ومرض بفسطاطه، وتحدث أهل المعسكر بمهلكه.

وكان ابناه الأمير أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهده منذ أيام جدهما أبي سعيد.

وكان السلطان قد جعل لهما من أول دولته ألقاب الإمارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء.

واستلحاق الفرسان والانفراد بالعساكر، فكانا من ذلك على ثبج، وجعل لهما مع ذلك الجلوس لمقعد فصله، مناوبة لتنفيذ الأوامر السلطانية، فكانا لذلك رديفين له في سلطانه.

ولما اشتد وجع السلطان تمشت سماسرة الفتن بين هذين الأميرين وحزب أهل المعسكر لهما أحزاباً، وبث كل واحد منهما المال وحمل على القربات، وصارت شيعاً وانقسموا فرقاً.

وهم الأمير أبو عبد الرحمن بالتوثب على الأمر قبل أن يتبين حال السلطان بإغراء وزرائه وبطانته بذلك.

وتفطن خاصة السلطان لها، فأخبروه الخبر وحضوه على الخروج إلى الناس قبل أن يتفاقم الأمر ويتسع الخرق، فبرز إلى فسطاط جلوسه وتسامح أهل المعسكر به، فازدحموا على مجلسه وتقبيل يده.

وتقبض على أهل الظنة من العسكر، فأودعهم السجن وسخط على الأميرين، ورحل الناس من معسكرهما، فردهما إلى معسكره.

ثم رجع إلى فسطاطه فارتاب الأميران لذلك ووجما، وطفئت نار فتنتهما وسكن سعي المفسدين عندهما وانتبذ الناس عنهما.

فاشتدت روعة الأمير أبي عبد الرحمن، وركب من فساطيطه وخاض الليل، وأصبح بحلة أولاد زغلى أمراء زغبة الموطنين بأرض حمزة، فتقبض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل، ورده إلى أبيه، فاعتقله بوجدة، ورتب العيون لحراسته من حشمه إلى أن قتله بعد ذلك سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، توثّب بالسجان فقتله.

وأنفذ السلطان حاجبه علال بن محمد فقضى عليه.

ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاسي بالموحدين فأجاروه.

ورضي السلطان صبيحة نزوع أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي مالك، وعقد له على ثغور عمله بالأندلس، وصرفه إليها، وانكفأ إلى تلمسان، والله أعلم.

الخبر عن خروج ابن هيدور وتلبيسه بأبي عبد الرحمن

لما تقبض السلطان على ابنه عبد الرحمن وأودعه السجن، تفرق خدمه وحشمه وانذعروا في الجهات.

وهمل جازر من مطبخه، كان يعرف بابن هيدور، كان شبيهاً له في الصورة، فلحق ببني عامر من زغبة، وكانوا لذلك العهد منحرفين عن الطاعة، خوارج على الدولة لما كان السلطان وأبوه قد اختصا عريف بن يحيى أمير بني سويد أقتالهم، منذ نزع إليهم عن أبي تاشفين، فركبوا سنن الخلاف ولبسوا جلدة النفاق، وانتبذوا بالقفار، ورياستهم لذلك العهد لصغير بن عامر، وإخوته.

وعقد السلطان على حربهم لونزمار ابن وليه عريف، وكان سيد البدو يومئذ، فجمع لهم وشمر لطلبهم، وأبعدوا إمامه في المذاهب، وأوقع بهم مراراً.

ولحق بهم هذا الجازر، وانتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن وأنه أبو عبد الرحمن ابنه النازع عنه، فشبه لهم وبايعوه وأجلبوا به على نواحي المدية.

وبرز إليهم قائدها مجاهد من صنائع الدولة، ففضوا جمعه وانهزم أمامهم.

ثم جمع لهم ونزمار وفروا عن تلك النواحي وافترق جمعهم، ونبذوا لذلك الجازر عهده، فلحق ببني يراتن من زواوة، ونزل على سيدتهم شمسي فقامت بأمره، وحمل بنوها من بني عبد الصمد قومهم على طاعته.

وشاع في الناس خبره: فمن مصدق ومن مكذب حتى تبينت حاله ووقفوا على كذبه في انتسابه، فنبذوا عهده ولحق بالدواودة أمراء رياح، ونزل على سيدهم يعقوب بن علي، وانتسب له في مثل ذلك النسب، فأجاره إلى أن صدق نسبه.

وأوعز السلطان إلى مولانا السلطان أبي يحيى في شأنه، فبعث إلى يعقوب بن علي فيه وأرسل إليه زيان بن عمر وزير أبي

عبد الرحمن النازع إليهم فكشف لهم عن خبثه فتقبض عليه يعقوب وأشخصه إلى السلطان مع ذويه، فلحق به بمكانه من سبتة فامتحنه السلطان وقطعه من خلاف وانحسم داؤه، وبقي بالمغرب تحت جراية من الدولة إلى أن هلك سنة ثمان وستين وسبعمائه والله تعالى أعلم.

الخبر عن شأن الجهاد وإغزاء السلطان ابنه الأمير أبا مالك واستشهاده

لما فرغ السلطان من أمر عدوه وما تبع ذلك من الأحوال، صرف اعتزامه إلى الجهاد لما كان كلفاً به.

وكان الطاغية منذ شغل بنو مرين عن الجهاد منذ عهد يوسف بن يعقوب وقد اعتزوا على المسلمين بالعدوة، ونازلوا معاقلهم، وتغلبوا على الكثير منها، وارتجعوا الجبل ونازلوا السلطان أبا الوليد في عقر داره بغرناطة، ووضعوا عليهم الجزية فتقبلوها وأسفوا إلى التهام المسلمين بالأندلس.

فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وغلب على الأيدي يده، وانفسح نطاق ملكه، دعته نفسه إلى الجهاد.

وأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور من عمله من الدعوة سنة أربعين وسبعمائة بالدخول إلى دار الحرب.

وجهز إليه العساكر من حضرته وأنفذ إليه الوزراء، فشخص غازياً في الجحفل، وتوغل في بلاد الطاغية واكتسحها، وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدره من أرضهم وأناخ بها.

واتصل به الخبر بأن النصارى جمعوا له، وأغذوا السير في اتباعه، وأشار عليه الملأ بالخروج من أرضهم وإجازة الوادي الذي كان تخماً بين أرض الإسلام ودار الحرب، وأن يسير إلى مدن المسلمين فيمتنع بها، فلج في إبايته وصمم عل التعريس.

وكان قدماً ثبتاً إلا أنه غير بصير بالحروب لمكان سنه، فصبحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يركبوا وخاطبوهم في أبايتهم.

وأدرك الأمير أبو مالك قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه، واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين، ورجعوا على أعقابهم.

واتصل الخبر بالسلطان فتفجع لهلاك ابنه، واسترحم له، واحتسب عند الله أجره وفي سبيله قتله، وشرع في إجازة العساكر للجهاد وتجهيز الأساطيل.

الخبر عن واقعة الملند والظفر به وظهور أساطيل المسلمين على أسطول النصارى

لما بلغ الخبر إلى السلطان باستشهاد ابنه، أخرج وزراءه إلى السواحل لتجهيز الأساطيل، وفتح ديوان العطاء، واعترض الجنود وأزاح عللهم، واستنفر أهل المغرب وارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد، وتسامعت أمم النصرانية بذلك، فاستعدوا للدفاع، وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة.

واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مرسى العدوة، وبعث إلى الموحدين بتجهيز أسطولهم إليه، فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية من صنائع دولتهم، وأوفى سبتة في ستة عشر من أساطيل إفريقية، كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية.

وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز المائة، وعقد السلطان عليها لمحمد بن علي العزفي الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها، وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق، وقد اكتمل عديدهم وعدتهم، فاستلأموا وتظاهروا في السلاح، وتزاحموا إلى أسطول النصارى وتواقفوا ملياً.

ثم قربوا الأساطيل بعضها إلى بعض وقرنوها للمصاع، فلم يكن إلا كلا ولا حتى هبت ريح النصر، وأظفر الله المسلمين بعدوهم، وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم قهراً بالسيوف، وطعناً بالرماح، وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدهم الملند واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة، فبرز الناس لمشاهدتها وطيفت بكثير من رؤوسهم في جوانب البلد، ونظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشاء.

وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة، وأنشدت الشعراء بين يديه، وكان يوماً من أغرِّ الأيام، والمنة لله سبحانه.

الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين

لما ظفر المسلمون بأسطول النصارى وخضدوا شوكتهم عن ممانعة الجواز، شرع السلطان في إجازة العسكر الغزاة من المرتزقين، وانتظمت الأساطيل بسلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة.

ولما استكمل إجازة العساكر أجاز هو في أسطوله وخاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها، واضطرب معسكره بفنائها، وبدأ بمنازلتها.

ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج ابن السلطان أبي الوليد بعسكر الأندلس من غزاة زناتة وحامية الثغور ورجل البدو، فعسكروا حذو معسكره وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً، وأنزلوا بهم أنواع القتال، ونصبوا عليها الآلات.

وجهز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر، وطال ثواهم بمكانهم من حصار البلد، ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات، فوهن الظهر واختلت أحوال المعسكر.

واحتشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتغال صاحب أشبونة، وغرب الأندلس، فجاء معه في قومه، وزحف إليهم لستة أشهر من نزولهم.

ولما قرب معسكرهم سرب إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنهم بها، فدخلوها ليلاً على حين غفلة من العسس الذي أرصد لهم.

وأحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً ولبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته.

وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبأ السلطان عساكر المسلمين صفوفاً، وتزاحفوا. ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فساطيط السلطان ودافعهم عنها الناشبة الذين أعدوا لحراستها فاستلحموهم.

ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن وخلصوا إلى حظايا السلطان: عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب، وفاطمة بنت مولانا السلطان أبي يحيى ملك إفريقية، وغيرهما من حظاياه فقتلوهن واستلبوهن.

وانتهبوا سائر الفساطيط وأضرموا المعسكر ناراً وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم، فأحاطوا به وتقبضوا عليه، وولى السلطان متحيزاً إلى فئة المسلمين، واستشهد كثير من الغزاة ووصل الطاغية إلى فسطاط السلطان من المحلة وانكر قتل النساء والولدان، ووقف منها بمنتهى أثره، وانكفأ راجعاً إلى بلاده، ولحق ابن الأحمر بغرناطة، وخلص السلطان إلى الجزيرة، ثم إلى الجبل، ثم ركب السفين إلى سبتة في ليلته ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم، وأرجأ لهم الكرة على عدوهم.

الخبر عن منازلة الطاغية الجزيرة، ثم تغلبه عليها بعد أن غاب على القلعة من ثغور ابن الأحمر

لما رجع الطاغية من واقعة طريف استأسد على المسلمين بالأندلس، وطمع في التهامهم، وجمع عساكر النصرانية، ونزل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة، وعلى مرحلة منها. وجمع الآلات والأيدي على حصارها، واشتد مخنقها وأصابهم الجهد من العطش، فنزلوا على حكمه سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وأدال الله الطيب منها بالخبيث، وانصرف إلى بلده.

وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعودة إلى الجهاد لرجع الكرة وبعث في الأمصار للاستنفار، وأخرج قواده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى أكمل له منها عدد.

ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها، وقدم عسكره إلى العدوة مع وزيره عسكر بن تاحضريت.

وبعث على الجزيرة محمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير، وبعث إليها مدداً من العسكر مع موسى بن إبراهيم اليرنياني من المرشحين للوزارة ببابه، وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته.

وتلاقت الأساطيل فمحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق وملكوه دون المسلمين وأقبل الطاغية من إشبيلية يجر عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرقى أساطيل المسلمين وفرضة المجاز، وأمل أن ينظمها في ملكته مع جارتها طريف، وحشد الفعلة والصناع للآلات، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار، واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاولة.

وجاء السلطان أبو الحجاج بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة.

وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب إليها المدد من الفرسان والمال والزرع في أحايين الغفلة من أساطيلهم، وتحت جناح الليل، فلم يغنهم ذلك، واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد.

وأجاز إليه السلطان أبو الحجاج يفاوضه في شان السلم مع الطاغية، بعد أن أذن له الطاغية في الإجازة مكراً به.

وترصدته بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غص الريق، وضاقت أحوال هذه الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان، وسألوا من الطاغية الأمان على أن ينزلوا عن البلد فبذله وخرجوا فوفى لهم.

وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فأنزلهم السلطان ببلاده خير نزل، ولقاهم من المبرة والكرامة ما أعاضهم مما فاتهم، أو خلع عليهم وحملهم وأجازهم بما تحدث به الناس.

وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة على تقصيره في المدافعة، مع تمكنه منها لما كان لديه من العساكر.

وانكفأ السلطان إلى حضرته موقناً بظهور أمر اللّه، وإنجاز وعده في رجوع الكرة وعلو الدين، واللّه متم نوره ولو كره الكافرون.

الخبر عن شفاعة صاحب تونس في أولاد أبي العلاء ووصولهم إلى السلطان

كان عثمان بن أبي العلاء من أعياص آل عبد الحق، شيخ الغزاة المجاهدين من زناتة والبربر بالأندلس.

وكان له فيها مقام معلوم في حماية الثغور ومدافعة العدو، وغزو دار الحرب، ومساهمة صاحب الأندلس الجهاد كما نستوفي في أخباره.

وكان السلطان أبو سعيد لما استصرخ به أهل الأندلس اعتذر بمكانه بينهم، واشترط عليهم أن يمكنوه من قياده حتى يقضي نوبة الجهاد، فلم يسعفوه بذلك.

ولما هلك عثمان بن أبي العلاء، قام بالأمر من بعده في مراسم الجهاد بنوه وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كبيرهم أبي ثابت عامر.

وقويت عصابتهم والأبناء والموالي، وغلبت على يد السلطان يدهم، واستبدوا عليه في أكثر الأحوال، واستنكف لها، وكان ذلك مما دعاه إلى القدوم على السلطان أبي الحسن.

وارتاب بنو أبي العلاء بإجازته إليه، واتهموه على أنفسهم، واستعدهم إلى منازلة جبل الفتح على كره.

فلما تغلب المسلمون عليه، وقضى ابن الأحمر من مدافعة الطاغية عنه بالرغبة ما قضى كما ذكرناه، واعتزم على القفول إلى حضرته، أجمعوا على الفتك به في طريقه.

وداخلوا في ذلك مواليه من المعلوجي لما أسفهم به من إرهاف حده والتضييق عليهم في جاهه، فبرموا وطووا على النكث، حتى إذا وجدوا من أبي العلاء داعية إلى ذلك، خفوا إلى إجابتها ونذر بهم محمد بن الأحمر فبعث عن السفين تعرضه في طريقه وساحل إليه، وتسابقوا لشأنهم قبل فوته، فأدركوه دون حصن أصطبونة، وعتبوه فاستعتب، وأغلظوا له في القول، وقتلوا مولاه عاصماً صاحب ديوان العطاء تجنياً عليه.

ونكر السلطان ذلك فتناولوه بالرماح طعناً حتى قعصوه.

ورجعوا إلى المعسكر فاستدعوا من كان داخلهم من الموالي.

وجاؤوا بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد، فبايعوا له وأصفقوا على تقديمه.

وسرح لحينه قائده ابن عزون، فاستولى له على دار ملكه، وتم أمره وحجبه رضوان مولى أبيهم، واستبد عليه، وسكن بين جنبيه من بني أبي العلاء وقتلهم لأخيه داء دخيل، حتى إذا سما السلطان أبو الحسن إلى الجهاد، وأجاز المدد إلى ثغور عمله بالأندلس، وعقد لابنه الأمير أبي مالك، أسر إليهم في شأن بني أبي العلاء بما كان أبوه السلطان أبو سعيد اشترط عليهم في مثلها، ووافق منهم داعية لذلك فتقبض عليهم أبو الحجاج وأودعهم المطبق أجمع.

ثم أشخصهم في السفين إلى مراسي إفريقية، فنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى، وبعث فيهم السلطان أبو الحسن إليه فاعتقلهم، ثم أوعز إليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون في إشخاصهم إلى حضرته، فتوقف عنها، وأبى من إخفار ذمتهم وتوسوس إليه وزيره أبو محمد بن تافراكين بأن مقصد السلطان فيهم غير ما ظنوا به من الشر، ورغب في منة السلطان ببعثهم إليه والمبالغة في الشفاعة فيهم، علماً بأن شفاعته لا ترد فأجابه إلى ذلك، وجنبوهم إليه مع ابن بكرون.

واتبعهم أبو محمد بن تافراكين بكتابة الشفاعة فيهم من السلطان.

وقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فتلقاهم بالبر والترحيب إكراماً لشفيعهم، وأنزلهم بمعسكره وجنب لهم القربات بالمراكب الثقيلة، وسرب لهم الفساطيط، وأسنى لهم الخلع والجوائز وفرض لهم أعلى رتب العطاء وصاروا في جملته.

ولما احتل بسبتة لمشارفة أحوال الجزيرة، سعى عنده فيهم بأن كثيراً من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوثب على الملك،

فتقبض عليهم وأودعهم في السجن بمكناسة، إلى أن كان من خبرهم مع ابنه أبي عنان ما نذكره إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

الخبر عن هدية السلطان إلى المشرق وبعثه بنسخة المصحف من خطه إلى الحرمين والقدس

كان للسلطان أبي الحسن مذاهب في ولاية ملوك المشرق، والكلف بالمعاهد الشريفة تقبله من سلفه، وضاعفه لديه متين ديانته.

ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى، وتغلب على المغرب الأوسط، وصار أهل النواحي تحت ربقة منه، واستطال بجناح سلطانه، وخاطب لحينه صاحب مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر، وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن الحاج في سابلتهم، وكان فرانقه في ذلك فارس بن ميمون بن ودرار، وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين السلف.

وأجمع السلطان على كتابة نسخة أنيقة من المصحف الكريم بخط يديه ليوقفها بالحرم الشريف قربة إلى الله تعالى، وابتغاء للمثوبة، فانتسخها وجمع الوراقين لمعاناة تذهيبها وتنميقها، والقراء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها.

وصنع لها وعاء مؤلف من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشي بصفائح الذهب، ونظم بالجوهر والياقوت، واتخذت له أصونة الجلد المحكمة الصناعة، المرقوم أديمها بخيوط الذهب ومن فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان.

وأخرج من خزائنه أموالاً عيناً لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها، وأوفد على الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام من خواص مجلسه وكبار أهل دولته، عريف بن يحيى أمير زغبة، والسابق القدم في بساطه على كل خالصة وعطية بن مهلهل بن يحيى كبير الخولة.

وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة بدولته وصاحب الباب عبو بن قاسم المزوار، واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالاً تحدث به الناس دهراً.

ووقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين هذا الرسول ووعيته وأنسيته وذكر لي بعض قهارمة الدار أنه كان فيها خمسمائة من عتاق الخيل المقربات، بسروج الذهب والفضة ولجمها، خالصاً ومغشىً ومموهاً، وخمسمائة حمل من متاع الغرب وما عونه وأسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسية وبرانس وعمائم، وأزراً معلمة وغير معلمة، ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوناً وغير ملون، وساذجاً منمقاً، ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللمط.

ومن حرش المغرب وماعونه وما يستظرف صناعته بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت.

واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ركابه ذلك، فأذن لها واستبلغ في تكريمها، واستوصى بها وافده وسلطان مصر في كتابه.

وفصلوا من تلمسان وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وهديتهم، فتقبلها وحسن لديه موقعها.

وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوماً مشهوداً، تحدث به الناس دهراً، ولقاهم في طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم، ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبهم.

وأسنى هدية السلطان من فساطيطهم الغريبة الهيكل والصنعة بالمغرب، ومن ثياب الإسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب، ورجعهم بها إلى مرسلهم وقد استبلغ في تكريمهم ووصلتهم، وبقي حديث هذه الهدية مذكوراً بين الناس لهذا العهد.

ثم انتسخ السلطان نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول، ووقفها على القراء بالمدينة، وبعثها مع من تخيره لذلك العهد من أهل دولته.

واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل، فخاطبه السلطان وأتحفه وعزاه عن أبيه، وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج ببابه أبا الفضل بن عبد الله بن أبي مدين فقضى من وفادته ما حمل.

وكان شأنه عجباً في إظهار أبهة سلطانه، والإنفاق على المستضعفين من الحاج في سبيلهم، وإتحاف رجال الدولة التركية بذات يده والتعفف عما في أيديهم.

ثم شرع السلطان بعده عند استيلائه على إفريقية كما نذكره في كتابة نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس، فلم يقدر على إتمامها، وهلك قبل فراغه من نسخها، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن هدية السلطان إلى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر معروف يتطاول به إلى مناغاة الملوك الأعاظم واقتفاء سننهم في مهاداة الأقتال والأنظار، وإنفاذ الرسل على ملوك النواحي القاصية والتخوم البعيدة.

وكان ملك مالي أعظم ملوك السودان لعهده مجاوراً لملكه بالمغرب على مائة مرحلة في القفر من ثغور ممالكه القبلية.

ولما غلب بني عبد الواد على تلمسان وابتزهم ملكهم، واستولى على ممالك المغرب الأوسط، وتحدث الناس بشأن أبي تاشفين وحصاره ومقتله، وما كان للسلطان في ذلك من سورة التغلب وآية العز وإهانة العدو وشاعت أخبار ذلك في الآفاق.

وسما سلطان مالي منسا موسى المتقدم ذكره في أخبارهم إلى مخاطبته، فأوفد عليه فرانقين من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لممالكهم من صنهاجة، فوفدوا على السلطان في التهنئة بالتغلب والظفر بالعدو، فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم.

ونزع إلى طريقته في الفخر، فانتخب طرفا من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره وأسناها، وعين رجالاً من أهل دولته، كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر الخصي، وأوفدهم بها على ملك مالي منسا سليمان بن منسا موسى، لمهلك أبيه قبل مرجع وفده.

وأوعز إلى أعراب الفلاة من المعقل بالسير معهم ذاهبين وجائين، فشمر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جار اللّه من المعقل، وصحبهم في طريقهم امتثالاً لأمر السلطان.

وتوغل ذلك الركاب في القفر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول المشقة، فأحسن مبرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم.

وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون سلطانه، ويوجبون حقه، ويؤدون طاعته من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به، فأدوا رسالتهم وبلغ السلطان إرباً من اعتزازه على الملوك وخضوعهم لسلطانه، وقضى حق الشكر لله في صنعه.

الخبر عن إصهار السلطان إلى صاحب تونس

لما هلكت ابنة مولانا السلطان أبي يحيى بطريف فيمن هلك من حظايا السلطان أبي الحسن بفساطيطه، بقي في نفسه منها شيء حنيناً إلى ما شغفته به من خلالها وعزة سلطانها، وقيامها على بيتها، وظرفها في تصرفاتها، والاستماع بأحوال الترف ولذاذة العيش في عشرتها، فسما أمله إلى الاعتياض منها ببعض أخواتها.

وأوفد في خطبتها وليه عريف بن يحيى أمير زغبة، وكاتب الجباية والعساكر بدولته أبا الفضل بن عبد اللّه بن أبي مدين، وفقيه الفتيا بمجلسه أبا عبد اللّه محمد بن سليمان السطي، ومولاه عنبر الخصي، فوفدوا يوم مثنى من سنة ست وأربعين وسبعمائة وأنزلوا منزل البر، واستبلغ في تكريمهم ودس الحاجب أبو محمد عبد اللّه بن تافراكين إلى سلطانه غرض وفادتهم، فأبى عن ذلك صونا لحرمه عن جولة الأقطار وتحكم الرجال، واستعظاماً لمثل هذا العرس.

ولم يزل حاجبه ابن تافراكين يخفض عليه الشأن ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع الأزمّة السالفة بينهما من الصهر والمخالطة إلى أن أجاب وأسعف.

وجعل ذلك إليه فانعقد الصهر بينهما وأخذ الحاجب في شوار العروس، وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال ثواء الرسل إلى أن استكمل وارتحلوا من تونس لشهر ربيع من سنة سبع وسبعمائة وأوعز مولانا السلطان أبو يحيى إلى ابنه الفضل صاحب بونة وشقيق هذه العروس أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياماً لحقه، وبعث من بابه مشيخة من الموحدين مقدمهم عبد الواحد بن أكمازير، صحبوا ركابها إليه.

ووفدوا جميعاً على السلطان واتصل بهم الخبر أثناء طريقهم بمهلك مولانا أبي يحيى عفا اللّه عنه، فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عندما وصلوا إليه، واستبلغ في تكريمهم وأجمل موعد أخيه الفضل بسلطانه ومظاهرته على تراث أبيه فاطمأنت به الدار إلى أن سار في جملة السلطان وتحت ألويته إلى إفريقية كما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن حركة السلطان إلى إفريقية واستيلائه عليها

كان السلطان أبو الحسن قد امتدت عينه إلى ملك إفريقية لولا مكان مولانا السلطان أبي يحيى من ولاية صهره، وأقام يتحين لها الوفاة، ولما بعث إليه في الصهر وأشيع بتلمسان أن الموحدين ردوا خطبته، نهض من المنصورة بتلمسان وأغذ السير إلى فاس ففتح ديوان العطاء، وأزاح علل عساكره، وعقد على المغرب الأقصى لحافده منصور ابن الأمير أبي مالك، وفوض إلى الحسن بن سليمان بن يرزبكن في أحكام الشرطة، وعقد له على الضاحية، وارتحل إلى تلمسان مضمراً الحركة إلى إفريقية حتى إذا جاءه الخبر اليقين بالإسعاف إلى والزفاف سكن غربه وهدأ طائره.

فلما هلك السلطان أبو يحيى في رجب من سنة سبع وأربعين وسبعمائة، وكان من قيام ابنه عمر بالأمر، ونزوع الحاجب أبي محمد بن تافراكين في رمضان منها ما ذكرناه، تحركت عزائمه لذلك، ورغبه ابن تافراكين في ملك الموحدين، فرغب وجاء على أثره الخبر بما كان من قتل عمر لأخيه أحمد ولي العهد، وكان يستظهر على عهده بكتاب أبيه، وما أودعه السلطان بطرته من الوفاق على ذلك بخطه، اقتضاه منه حاجبه أبو القاسم بن عتو في سفارته إليه، فامتعض السلطان لما أضاع عمر من عهد أبيه، وهدر من دم أخيه، وارتكب مذاهب العقوق فيهم، وخرق السياج الذي فرضه بخطه عليهم، فأجمع الحركة إلى إفريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر نازعاً إليه مستغذاً مسيره، ففتح ديوان العطاء ونادى في الناس بالمسير إلى إفريقية، وأزاح عللهم.

وكان صاحب بجاية المولى أبو عبد الله حافد مولانا السلطان أبي يحيى، وفد على السلطان أبي الحسن إثر مهلك جده يقرر المتات بسفارة أبيه إليه، وبطلب الإقرار على عمله.

فلما استيأس منه واستيقن حركته بنفسه إلى إفريقية، طلب الرجوع إلى مكانه فأسعف وفصل إلى بجاية.

ولما قضى السلطان منسك الأضحى من سنة سبع وأربعين وسبعمائة عقد لابنه الأمير أبي عنان على المغرب الأوسط، وعهد إليه بالنظر في أموره كافة، وجعل إليه جبايته، وارتحل يريد إفريقية، وسار في جملته هو وخالد بن حمزة أمير البدو.

ولما احتل بوهران وافاه هنالك وفد قسطيلية وبلاد الجريد، يقدمهم أحمد بن مكي أمير جربة ورديف أخيه عبد الملك في إمارة قابس، ويحيى بن محمد بن يملول أمير توزر سقط إليها بعد خروج الأمير أبي العباس ولي العهد عنها، ومهلكه بتونس، وأحمد بن عمر بن العابد رئيس نفطة، رجعا إليها كذلك بعد مهلك ولي العهد، فلقيه هؤلاء الرؤساء بوهران في ملأ من وجوه بلادهم، فأتوه بيعتهم وقضوا حق طاعته.

وتثاقل محمد بن ثابت أمير طرابلس عن اللحاق به، فبعث بيعته معهم، فأكرم وفدهم وعقد لهم على أمصارهم، وصرفهم إلى أعمالهم، وتمسك بأحمد بن مكي لصحابة ركابه، وفي جملته، وأغذ السير.

ولما احتل ببني حسن من أعمال بجاية، وافاه بها منصور بن مزني أمير بسكرة وبلاد الزاب في وفد من أهل وطنه، ويعقوب بن علي بن أحمد سيد الدواودة وأمير البدو بضاحية بجاية وقسنطينة، فتلقاهم بالمبرة والاحتفاء وألزمهم ساقته، وسرح بين يديه قائده حمو بن يحيى العشري من صنائع أبيه.

فلما عسكر بساحة بجاية أبي عبد الله أبى عليه أهل البلد رهبة من السلطان ورغبة فيه، وانفضوا من حوله، ولحقت مشيختهم بالقضاة وأهل الفتيا والشورى بمجلس السلطان.

وسابقهم إليه حاجبه فارح مولى ابن سيد الناس، فأدى طاعته ورجعه إليه بالخروج للقاء ركابه.

وارتحل حتى إذا أطلت راياته على البلد، بادر المولى أبو عبد الله ولقيه بساحة البلد، واعتذر من تخلفه فتقبل عذره وأحله من البرور والتكرمة محل الولد العزيز، وأقطعه عمل كومية من ضواحي هنين، وأسنى جرايته بتلمسان وأصحبه إلى ابنه أبي عنان صاحب المغرب الأوسط واستوصاه به، ودخل بجاية فرفع عنهم الظلامات وحط عنهم الربع من المغارم، ونظر في أحوال ثغورها فثقفها وسد فروجها.

وعقد عليها لمحمد بن الثوار من طبقة الوزراء والمرشحين لها، وأنزل معه حامية من بني مرين، وكاتب الخراج ببابه بركات بن حسون بن البواق، وارتحل مغذا لسيره حتى احتل بقسنطينة.

وتلقاه أميرها أبو زيد حافد مولانا السلطان أبي يحيى وإخوته أبو العباس أحمد وأبو يحيى زكريا وسائر إخوتهم، فأتوه بيعتهم ونزلوا عن عملهم.

وأداهم السلطان منه بندرومة من عمل تلمسان، عقد للمولى أبي زيد على إمارتها، وجعل له إسوة إخوته في إقطاع جبايتها، ودخل البلد وعقد عليها لمحمد بن العباس، وأنزل معه العباس بن عمر في قومه من بني عسكر.

وأمضى إقطاعات الدواودة ووافاه هنالك عمر بن حمزة

سيد الكعوب لعهده وأمير البدو مستحثاً لركابه.

وأخبره برحيل السلطان عمر بن مولانا أبي يحيى من تونس فيمن اجتمع إليه من أولاد مهلهل أقتالهم من الكعوب متوجهاً إلى ناحية قابس.

وأشار على السلطان بتسريح العساكر لاعتراضه قبل أن يخلص إلى طرابلس، فسرح معه حمو بن يحيى العشري قائده في عسكر من بني مرين والجند.

وارتحلوا في اتباع السلطان أبي حفص، وتلوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة، واعترض عساكره بسطح الجعاب منها.

وصرف يوسف بن مزني إلى عمله بالزاب، بعد أن خلع عليه وحمله.

ثم عقد للمولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى على مكان عمله ببونة، وملأ حقائبه جائزة وخلعاً نفيسة وسرحه، ثم ارتحل على أثرهم وأعذّ حمو بن يحيى مع السير الناجعة من أولاد أبي الليل، ولحقوا بالأمير أبي حفص بمباركة من ناحية قابس، فأوقعوا به وتردى عن فرسه في حومة القتال هو ومولاه ظافر السنان القائم بدولته من المعلوجي، فتقبض عليهما وسيقا إلى حمو فاعتقلهما إلى الليل، ثم ذبحهما وأنفذ برؤوسهما إلى السلطان.

ولحق الفل بقابس، فتقبض عبد الملك بن مكي على أبي القاسم بن عتو صاحب الأمير أبي حفص وشيخ الموحدين، وعلى صخر بن موسى شيخ بني سكين فيمن تقبض عليه من ذلك الفل، وأشخصهم مقرنين في الأصفاد إلى السلطان.

وسرح السلطان عساكره إلى تونس، وعقد عليهم ليحيى بن سليمان صهره من بني عسكر على ابنته، وأنفذ معه أحمد بن مكي فاحتلوا بتونس، واستولوا عليها.

وانطلق ابن مكي إلى مكان عمله من هنالك لما عقد له السلطان عليه وسرحه إليه بعد أن خلع عليه وعلى حاشيته وحملهم.

ونزل السلطان بناحية باجة، فوافاه هنالك البريد برأس الأمير أبي حفص، وعظم الفتح.

ثم ارتحل إلى تونس واحتل بها يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان.

وتلقاه وفد تونس وملؤها من شيوخ الشورى وأرباب الفتيا، فأتوا طاعتهم وانقلبوا مسرورين بملكتهم.

ثم عبأ يوم السبت لدخولها مواكبه، وصف جنده سماطين من معسكره بسيجوم إلى باب البلد يناهز ثلاثة أميال أو أربعة.

وركب بنو مرين في جموعهم على مراكزهم وتحت راياتهم.

وركب السلطان من فسطاطه وواكبه من عن يمينه وليه عريف بن يحيى أمير زغبة، ويليه أبو محمد عبد اللّه بن تافراكين ومن عن يساره الأمير أبو عبد اللّه محمد أخو مولانا السلطان أبي يحيى، ويليه الأمير أبو عبد اللّه ابن أخيه خالد، كانا معتقلين بقسنطينة مع ولدهما منذ خرج الأمير أبو فارس فأطلقهم السلطان أبو العباس وصحبوه إلى تونس، فكانوا طرازاً في ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم، وهدرت طبوله، وخفقت راياته، وكانت يومئذ مائة.

وجاء والمواكب تجتمع عليه صفًا صفًا إلى أن وصل إلى البلد، وقد ماجت الأرض بالجيوش، وكان يوماً لما ير مثله فيما عقلناه.

ودخل السلطان إلى القصر وخلع على أبي محمد بن تافراكين كسوته وقرب اليد فرسه بسرجه ولجامه، وطعم الناس بين يديه وانتشروا.

ودخل السلطان مع أبي محمد بن تافراكين إلى حجر القصر ومساكن الخلفاء، فطاف عليها ودخل منه إلى الرياض المتصلة به المدعوة برأس الطابية، فطاف على بساتينه وجوائزه، وأفضى منه إلى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها.

ووصل إليه فل الأمير أبي حفص والأسرى بقابس مقرنين في أصفادهم، فأودعهم السجن بعد أن قطع أبا القاسم بن عتو وصخر بن موسى من خلاف، لفتيا الفقهاء بجرايتهم.

وارتحل من الغد إلى القيروان فجال في نواحيها، ووقف على آثار الأولين ومصانع الأقدمين والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين، وزار أجداث العلماء والصالحين.

ثم سار إلى المهدية ووقف على ساحل البحر، ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبله أشد قوة وأثاراً في الأرض، واعتبر بأحوالهم.

ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير، وانكفأ راجعاً إلى تونس، واحتل بها غرة رمضان وأنزل المسالح على ثغور إفريقية، وأقطع لبني مرين البلاد والضواحي، وأمضى إقطاعات الموحدين للعرب.

واستعمل على الجهات وسكن القصر وقد كمُل وعظم

الفتح وعظمت في الاستيلاء على الممالك والدول المنة، واتسعت ممالكه ما بين مسراته والسوس الأقصى من هذه العدوة، وإلى رندة من عدوة الأندلس، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين ورفع إليه الشعراء بتونس يهنونه بالفتح، وكان سابقهم في تلك النوبة أبو القاسم الرحوي من ناشئة أهل الأدب فرفع إليه قوله:

أجابك شرق إذ دعوت ومغرب ... فمكة هشت للقاء ويثرب

ونـاداك مصر والعراق وشامه ... بدارا، فصدع الدين عندك يشعب

وحيتك أو كادت تحيي منابر ... عليها دعاة الحق باسمك تخطب

فسارع كل دان وشاسع ... إلى طاعة من طاعة اللّه تحسب

وتاقت لك الأرواح حبًا ورغبة ... وأنت على الآمال تنأى وتقرب

فبالبلدة البيضاء لبـاك معشر ... وأنت بأفق الناصرية ترقب

ووافتك من ذات النخيل وفودها ... فلاقاهم أهل لديك ومرحب

ولم تتلكأ عن إباء بجاية ... ولكن تراضي الصعب حينا وتركب

تأبت فلما أن أطلت عساكر ... ترى الشهب مما يستباح وينهب

تبادر منهم مذعن ومسلم ... وأذعن منهم شاغب ومؤلب

وما تونس إلا بمصر مروع ... وفي حرم أمست لديك تسرب

وما أهلها إلا بغاث لصائد ... وبالعز منك استنسروا وتعقبوا

وقد كنت قبل اليوم كهف زعيمهم ... فها أنت كهف للجميع ومهرب

فكل يرى أن الزمان أداله ... بكم فأجاب العيش والعيش مخصب

وكدّ لك ابن طائع وإن اعتلت ... به السن إجلالاً وأنت له أب

وما ذاك إلا أن عدلك ينتمي ... إلى الخلفاء الراشدين وينسب

تساميت في ملك ونسك بخطة ... حنياك محراب لديها وموكب

إذا لذ للأملاك خمر مدارة ... فلذ لك القرآن تتلو وتكتب

وإن أدمن القوم الصبوح فإنما ... على ركعات بالضحى أنت تداب

وإن حمدوا شرب الغبوق فإنما ... شرابك بالإمساء ذكر مرتب

وإن خشنت أخلاقهم وتحجبوا ... فما أنت فظ لا، ولا متحجب

لقد كرمت منك السجايا فأصبحت ... إذا ما أمد الدهر تحلو وتعذب

كما شدت بيتاً في ذؤابة معشر ... يزيد بهم قحطان فخراً ويعرب

هم التاركو قلب القساور خضعاً ... وعن شأوهم كفت عبيد وأغلب

هم الناس والأملاك تحت جوارهم ... هم العظم والأرض العظيمة تغرب

هم المالكو الملك العظيم ودستهم ... على كاهل السبع الشداد مطنب

لقد أصبحت بغداد تحسد فاسهم ... ودجلة ودت أن يكون بهاسب

تجلت سماء المجد منهم كواكباً ... لقد حل منها شارق ومغرب

فاللّه منهم ثلة يعربية ... يروم ثباها الأعجمي فيعرب

لقد قام عبد الحق للحق طالباً ... فما فاته منه الذي قام يطلب

وأعقب يعقوباً يؤم سبيله ... فلم يخطه وهو السبيل الملحب

وخلف عثماناً فللّه صارم ... به بان للإسلام شرع ومذهب

فكم في سبيل اللّه شن إغارة ... لما شاد أهل الكفر أمست تخرب

ولما أراد اللّه إتمام منة ... تقلدها منا مطيع ومذنب

أتى بك للدين الحنيفي آية ... تعرى بها عن لامع الحق غيهب

فجئت كما يرضى بك اللّه سالكا ... سبيلاً إلى رضوانه بك يذهب

وقمت بأمر اللّه حق قيامه ... يناضل عنه منك نصل مدرب

واصبح أهل اللّه أهلاً وشيعة ... لكم ولهم منكم مكان ومنصب

وحل بأهل الفتك ما حل عزمهم ... وقام لديهم واعظ ومثوب

وجاهدت في الرحمن حق جهاده ... فراهب أهل الكفر بأسك يُرهب

وانقذت من أيدي الإغارة أمة ... وأولى جهاد كان بل هو أوجب

فأصبحت الدنيا عروساً يزفها ... لأمرك من جاري التقادير مغرب

فلا مصر إلا قد تمناك أهله ... ولا أرض إلا بأذكارك تخصب

وما الأرض إلا منزل أنت ربه ... وما حلها إلا الودود المرجب

تملكت شطر الأرض كسباً وشطرها ... تراثاً فطاب الملك إرثاً ومكسب

بجيش على الألواح والماء يمتطي ... وجيش على الضمر الصوافن يركب

وجيش من الإحسان والعدل والتقى ... وذاك لعمر اللّه أغلى وأغلب

فلا مركب إلا يزين راكباً ... ولا راكب إلا به ازدان مركب

ولا رمح إلا وهو أهيف خاطر ... ولا سيف إلا وهو أبيض مقضب

فكم كاتب خطيه ودواته ... ولم يقر خطاً وهو يكتب

يمر على الأبطال وهو كأنه ... هزبر وأبطال الفوارس ربرب

وكم كاتب لا ينكر الطعن رمحه ... خبير بأيام الأعاريب معرب

له من عجيب السحر بالقول أضربٌ ... وفي هامة القوم المضارب مضرب

فها هو في الأقوال واش محبر ... وها هو في الأمثال ثاو مجرب

ومن ساحب برداً من العلم والتقى ... عليه ذيول الداودية تسحب

له صبغة في العلم جاءت بأصبغ ... وشهبان فهم لم يشمهن أشهب

فيا عسكراً قد ضم أعلام عالم ... به طاب في الدنيا لنا متقلب

هم الفئة العلياء والمعشر الذي ... إذا حل صعباً فهو للحق مشعب

لك الفضل في الدنيا على كل قاطن ... ومرتحل أنى يجيء ويذهب

ويا ملكاً عدلاً رضيّ متورعاً ... مناقبه العلياء تعلى وتكتب

شرعت من الإحسان فينا شريعة ... تساوى بها ناء ومن يتقرب

واسميت أهل النسك إذ كنت منهم ... فمنك أخو التقوى قريب مقرب

وأعليت قدر العلم إذ كنت عالماً ... فقيهاً وفي طلابه لك مأرب

فمدحك محتوم على كل قائل ... ومن ذا الذي يحصي الرمال ويحسب

فللّه كم تعطي وتمطي وتحتبي ... فللبحر من كفيك قد صح منسب

فلا برحت كفاك في الأرض مزنة ... يطيب بها للخلق مرعى ومشرب

ولا زلت في علياء مجدك راقياً ... وشانئك المدحوض ينكى وينكب

توفي على أقصى أمانيك آمنا ... فلا بر يستعصى ولا يتصعّب

الخبر عن واقعة العرب مع السلطان بالقيروان وما تخللها من الأحداث

كان هؤلاء الكعوب من بني سليم رؤساء البدو بإفريقية، وكان لهم اعتزاز على الدولة لا يعرفون غيره مذ أولها بل وما قبله، إذ كان سليم هؤلاء منذ تغلب العرب من مضر على الدول والممالك أول الإسلام انتبذوا إلى الضواحي والقفار، وأعطوا من صدقاتهم عن عزة، وارتاب الخلفاء بهم لذلك حتى لقد أوصى المنصور ابنه المهدي أن لا يستعين بأحد منهم كما ذكر الطبري.

فلما التاثت الدولة العباسية واستبد الموالي من العجم عليهم، واعتز بنو سليم هؤلاء بالقفر من أرض نجد، وأجلبوا على الحاج بالحرمين، ونالتهم منهم معرات، ولما انقسم ملك الإسلام بين العباسية والشيعة واختطوا القاهرة، نفقت لهم إذ ذاك أسواق الفتنة والتعزز، وساموا الدولتين بالهضيمة وقطع السابلة.

ثم أغزاهم العبيديون بالمغرب وأجازوا إلى برقة على إثر الهلاليين فخربوا عمرانها وأجروا في خلائها، حتى إذا خرج ابن غانية على الموحدين وانتزى بالثغور الشرقية: طرابلس وقابس، واجتمع معه على ذلك قراقش الغزي مولى بني أيوب ملوك مصر والشام، وانضاف إليهم أفاريق العرب من بني سليم هؤلاء وغيرهم، فأجلبوا معهم على الضواحي والأمصار، وصاروا في جملتهم من ناعق فتنتهم.

ولما هلك قراقش وابن غانية واستبد آل أبي حفص بإفريقية واعتز الدواودة على الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، استظهر عليهم بني سليم هؤلاء، وزاحمهم بظواعنهم وأقطعهم بإفريقية ونقلهم عن مجالاتهم بطرابلس وأنزلهم بالقيروان، فكان لهم من الدولة مكان وعليها اعتزاز، ولما افترق سلطان بني أبي حفص، واستبد الكعوب برياسة البدو، وضربوا بين أعياصها وسعوا في شقاقها، أصابت منهم وأصابوا منها، وكان بين مولانا الأمير أبي يحيى وبين حمزة بن عمر أخي الأمير منازعة وفتن وحرب سجال أعانه عليها ما كان من زحف بني عبد الواد إلى إفريقية وطمعهم في تملك ثغورها، فكان يستجر جيوشهم لذلك، وينصب الأعياص من آل أبي حفص يزاحمهم بهم، ثم غلبه مولانا السلطان أبو بكر آخراً وقاده إلى الطاعة ما كان من قطع كلمة الزبون عن مولانا السلطان أبي يحيى، وهلاك عدوه من آل يغمراسن، بسيف وليه وظهيره السلطان أبي الحسن، فأذعن وسكن غرب اعتزازه، وحمل بني سليم على إعطاء صدقاتهم، فأعطوها بالكراهة.

ثم هلك باغتيال الدولة له فيما يزعمون، وقام بالأمر بنوه فلم يعرفوا عواقب الأمور وبلعا باعتساف الدول، ولم يعهدوا ولا سمعوا لسلفهم غير الاعتزاز فحدثتهم أنفسهم بالفتنة والاعتزاز على قائد الدولة. وحاربوه فغلبوه، وأجلبوا على السلطان في ملكه، ونازلوه بعقر داره سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ولما سامهم الأمير عمر ابن مولانا الأمير أبي يحيى الهضيمة بعد مهلك أبيه نزعوا إلى أخيه ولي العهد، فجاء إلى تونس وملكها سبعاً.

ثم اقتحمها عليه أخوه الأمير أبو حفص فقتله، وتقبض يوم اقتحامه البلد على أبي الهول بن حمزة أخيهم، فقتله صبراً بباب داره بالقصبة، فأسفهم بها، وتداعوا إلى السلطان أبي الحسن ورغبوه في ملك إفريقية واستفذُوه إليها.

ولما تغلب السلطان على الوطن وكانت حاله في اعتزاز على من في طاعته غير حال الموحدين وملكته للبدو غير ملكتهم، وحين رأى اعتزازهم على الدولة وكثرة ما أقطعتهم من الضواحي والأمصار، نكره وأدالهم من الأمصار التي أقطعهم الموحدون بأعطيات فرضها لهم في الديوان.

واستكثر جباياتهم، فنقصهم الكثير منها وشكى إليه الرعية من البدو ما ينالونهم به من الظلامات والجور بفرض الأتاوة التي يسمونها الخفارة، فقبض أيديهم عنها وأوعز إلى الرعايا بمنعهم منها، فارتابوا لذلك، وفسدت نياتهم وثقلت وطأة الدولة عليهم فترصدوا لها.

وتسامع ذؤبانهم وبواديهم بذلك، فأغاروا على قياطين بني مرين ومسالحهم بثغور إفريقية وفروجها، واستاقوا أموالهم، وكثر شكاتهم وأظلم الجو بينهم وبين السلطان والدولة.

ووفد عليه بتونس بعد مرجعه من المهدية وفد من مشيختهم، كان فيهم خالد بن حمزة مستحثة إلى إفريقية، وأخوه أحمد وخليفة بن عبد اللّه بن مسكين، وابن عمه خليفة بن بو زيد من أولاد القوس، فأنزلهم السلطان وأكرمهم.

ثم رفع إليه الأمير عبد الواحد ابن السلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني كان في جملته، وكان من خبره أنه رجع من المشرق بعد مهلك أبيه بمصر كما قدمناه سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فدعا لنفسه بجهات طرابلس.

وتابعه أعراب دباب، وبايع له عبد الملك بن مكي صاحب قابس، ونهض معه إلى تونس في غيبة السلطان لتخريب تيمزيزدكت كما ذكرناه، فملكها أياما وأحس بمرجع السلطان

فأجفل عنها.

ولحق عبد الواحد بن اللحياني إلى تلمسان، إلى أن دلف إليها السلطان أبو الحسن بعساكره، ففارقهم وخرج إليه، فأحله محل التكرمة والمبرة واستقر في جملته إلى أن ملك تونس.

ورفع إليه عند مقدم هذا الوفد أنهم دسوا إليه مع بعض حشمهم، وطلبوه في الخروج معهم لينصبوه للأمر بإفريقية وتبرأ إلى السلطان من ذلك، فأحضروا بالقصر ووبخهم الحاجب علال بن محمد بن المصمود، وأمر بهم، فسحبوا إلى السجن.

وفتح السلطان ديوان العطاء وعسكر بسيجوم بساحة البلد بعد قضائه منسك الفطر من سنته.

وبعث في المسالح والعساكر فتوافوا ببابه واتصل الخبر بأولاد أبي الليل القوس باعتقال وفدهم وعسكرة السلطان لهم، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتعاقدوا على الموت، وبعثوا إلى أقتالهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد.

وكانوا بعد مهلك سلطانهم أبي حفص قد لحقوا بالقفر وانتبذوا عن إفريقية فراراً من مطالبة السلطان بما كانوا شيعة لعدوه.

فأغذ السير إليهم أبو الليل بن حمزة متطارحاً عليهم بنفسه في الاجتماع للخروج على السلطان، فأجابوه وارتحلوا معه.

وتوافت أحياء بني كعب وحكيم جميعاً بتوزر من بلاد الجريد، فهدروا الدماء بينهم وتدامروا وتبايعوا على الموت، والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للأمر، فدلهم بعض سماسرة الفتن على رجل من أعقاب أبي دبوس فريسة بني مرين من حلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، عندما استولوا عليها.

وكان من خبره أن أباه عثمان بن إدريس بن أبي دبوس لحق بعد مهلك أبيه بالأندلس، وصحب هنالك مرغم بن صابر شيخ بني دباب وهو أسير ببرشلونة.

فلما انطلق من أسره صحبه إلى وطن دباب بعد أن عقد قمص ببرشلونة بينهما حلفاً، وأمدهما بالأسطول على مال التزماه له.

ونزل بضواحي طرابلس وجبال البربر بها، ودعا لنفسه هنالك وقام بدعوته كافة العرب من دباب، وقاتل طرابلس، فامتنعت عليه.

ثم بايعه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب بإفريقية، وأجلب به على تونس، فلم يتم أمره لرسوخ دعوة الحفصيين بإفريقية وانقطاع أمر بني عبد المؤمن منها، وآثارهم منذ الأحوال العديدة والآماد المتقادمة فنسي أمرهم.

وهلك عثمان بن إدريس هذا بجربة، ثم ابنه عبد السلام بعده، وترك من الولد ثلاثة أصغرهم أحمد، وكان صناع اليدين.

ولحقوا بتونس بعدما طوحت بهم طوائح الاغتراب، وظنوا أن قد تنوسي شأن أبيهم، فتقبض عليهم مولانا السلطان أبو يحيى وأودعهم السجن إلى أن غربهم إلى الإسكندرية سنة أربع وأربعين وسبعمائة ورجع أحمد منهم إلى إفريقية، واحتل بتوزر محترفاً بحرفة الخياطة يتعيش منها، فاستدعاه بنو كعب هؤلاء حين اتفقت أهواؤهم ومن اتبعهم من أحلافهم أولاد القوس، وسائر شعوب علاق، وخرج إليهم من توزر فنصبوه للأمر وجمعوا له شيئاً، من الفساطيط والآلة والكسوة الفاخرة والمقربات، وأقاموا له رسم السلطان، وعسكروا عليه بحللهم وقياطينهم، وارتحلوا لمناجزة السلطان، ولما قضى منسك الأضحى من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ارتحل من ساحة تونس يريدهم، فوافاهم في العرج ما بين وتبسط تونس وتبسيط القيروان المسمى بالثنية، فأجفلوا أمامه وصدقوه القتال منهزمين، وهو في اتباعهم إلى أن احتل بالقيروان، ورأوا أن لا ملجأ منه، فتدامروا واتفقوا على الاستماتة، ودس إليهم من عسكر السلطان بنو عبد الواد ومغراوة وبنو توجين فغلبوا بني مرين، ووعدوهم بالمناجزة صبيحة يومهم ليتحيزوا إليهم براياتهم، فصبحوا معسكر السلطان، وركب إليهم في الآلة والتعبية، واختل المصاف، وتحيز إليهم للكثير، ونجا السلطان إلى القيروان فدخلها في الفل من عساكره ثامن المحرم فاتح تسع وعشرين وسبعمائة، وتدافعت ساقات العرب في أثره وتسابقوا إلى المعسكر، فانتهبوه ودخلوا فسطاط السلطان، فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه، وأحاطوا بالقيروان، وأحدقت حللهم بها سياجاً، وتعاوت ذيابهم بأطراف البقاع، وأجلب ناعق الفتنة من كل مكان.

وبلغ الخبر إلى تونس فاستحصن بالقصبة أولياء السلطان وحرمه، ونزع ابن تافراكين من جملة السلطان بالقيروان إليهم، فعقدوا له على حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دبوس ودفعوه إلى محاربة من كان بقصبة تونس، فأغذ إليها السير واجتمع إليه أشياع الموحدين وزعانف الغوغاء والجند، وأحاطوا بالقصبة، وغاداها بالقتال، ونصب المنجنيق لحصارها.

ووصل سلطانه أحمد على أثره، وامتنعت عليهم، ولم يغنوا فيها غناً، وافترق أمر الكعوب وخالف بعضهم بعضاً إلى السلطان، وتساقطوا إليه، فتنفس مخنق الحصار عن القيروان، واختلفت إليه

رسل أولاد مهلهل، وأحس بهم أولاد أبي الليل فدخل أبو الليل بن حمزة بنفسه، وعاهد السلطان على الإفراج، ولم يف بعهده.

وداخل السلطان وأولاد مهلهل في الخروج معهم إلى سوسة، فعاهدوه على ذلك.

وواعد أسطوله بمرساها وخرج معهم ليلاً على تعبية، فلحق بسوسة وبلغ الخبر إلى ابن تافراكين بمكانه من حصار القصبة، فركب السفين ليلاً إلى الإسكندرية.

وارتاب سلطانهم ابن أبي دبوس، لما وقف على خبره فانفض جمعهم وأفرجوا عن القصبة.

وركب السلطان أسطوله من سوسة، ونزل بتونس آخر جمادى واعتمل في إصلاح أسوارها وإدارة الخندق عليها، وأقام لها من الامتناع والتحصين رسماً ثبت له من بعده، ودفع به نحو عدوه، واستقل من نكبة القيروان وعثرتها، وخلص من هوتها والله يفعل ما يشاء.

ولحق أولاد أبي الليل وسلطانهم أحمد بن أبي دبوس بتونس، فأحاطوا بالسلطان واستبلغوا في حصاره، وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان، فعول عليهم ثم راجع بنو حمزة رأيهم في طاعة السلطان ودخل كبيرهم عمر إليه في شعبان، وتقبضوا على سلطانهم أحمد بن أبي دبوس وقادوه إلى السلطان استبلاغاً في الطاعة، وإمحاضاً للولاية فتقبل فيئتهم، وأودع ابن أبي دبوس السجن، وأصهر إلى عمر بابنه أبي الفضل، فعقد له على بنته، واختلفت أحوالهم في الطاعة والانحراف إلى أن كان ما نذكر.

والله غالب على أمره.

الخبر عن انتقاض الثغور الغربية ورجوعها إلى دعوة الموحدين

كان المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى، لما قدم على السلطان أبي الحسن بتلمسان في زفاف شقيقته سنة سبع وأربعين وسبعمائة بعدما اتصل به في طريقه مهلك أبيه، أوسع له السلطان كنفه، ومهد له جانب كرامته وبره، وغمز له بوعد في المظاهرة على ملك أبيه يعزي به عن فقده.

وارتحل السلطان إلى إفريقية، والمولى أبو الفضل يرجي أن يجعل سلطانها إليه، حتى إذا استولى السلطان على الثغرين بجاية وقسنطينة، وارتحل إلى تونس، عقد له على مكان إمارته أيام أبيه ببونة، وصرفه إليها، فانقطع أمله وفسد ضميره وطوى إلى النكث حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان، سما إلى التوثب على ملك سلفه.

وكان أهل قسنطينة وبجاية قد برموا من الدولة، واستثقلوا وطأة الإيالة لما اعتادوا من الملكة الرقيقة، فأشرأبوا إلى الثورة عندما بلغهم خبر النكبة.

وقد كان توافى بقسنطينة ركاب من المغرب فيه طوائف من الوفود والعساكر، وكان فيهم ابن صغير من أبناء السلطان، عقد له على عسكر من أهل المغرب، وأوعز إليه باللحاق بتونس، وفيهم عمال المغرب قدموا عند رأس الحول بجبايتهم وحسبانهم، وفيهم أيضاً وفد من زعماء النصارى بعثهم الطاغية ابن أدفونش مع تاشفين ابن السلطان لما أطلقه من الأسر بعد عقد السلم والمهادنة، وكان أسيراً عندهم من لدن واقعة طريف كما ذكرناه، وكان أصابه مس من الجنون.

فلما خلصت الولاية بين السلطان والطاغية، وعظم عنده الإتحاف والمهاداة، وبلغه خبر السلطان وتملكه إفريقية، أطلق ابنه تاشفين وبعث معه هؤلاء الزعماء للتهنئة، وفيهم أيضاً وفد من أهل مالي ملوك السودان بالمغرب، أوفدهم ملكهم منسا سليمان للتهنئة بسلطان إفريقية، وكان معهم أيضاً يوسف بن مزني عامل الزاب وأميره، قدم بجباية عمله، واتصل به خبر الركاب بقسنطينة فلحق بهم مؤثراً صحابتهم إلى سدة السلطان.

وتوافى هؤلاء الوفود جميعاً بقسنطينة، واعصوصبوا على ولد السلطان.

فلما وصل خبر النكبة اشرأب الغوغاء من أهل البلد إلى الثورة، وتجلت شفاههم إلى ما بأيديهم من أموال الجباية وأحوال الثروة، فنقموا عليهم سوء الملكة، ودس مشيختهم إلى المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى بمكانه من بونة، وقد كشف القناع في الانتزاء على عمله والدعاء لنفسه، فخطبوه للأمر، واستحثوه للقدوم، فأغذ السير.

وتسامع بخبره أولياء السلطان، فخشي ابن مزني على نفسه، وخرج إلى معسكره بحلة يعقوب بن علي أمير الدواودة، ولجأ ابن السلطان وأولياؤه إلى القصبة.

ومكر بهم أهل البلد في الدفاع دونهم حتى إذا أطلت رايات مولانا الفضل وثبوا بهم وأحجروهم بالقصبة وأحاطوا بهم حتى استنزلوهم على أمان عقدوه لهم.

ولحقوا بحلة يعقوب، فعسكروا بها بعد أن نقض أهل البلد عهدهم في ذات يدهم، فاستصفوه وأشار عليهم ابن مزني

باللحاق ببسكرة لتكون ركابهم إلى السلطان، فارتحلوا جميعاً في جوار يعقوب لما له من ملك تلك الضواحي، حتى لحقوا ببسكرة، ونزلوا منها على ابن مزني خيرنزل، وكفاهم كل شيء يهمهم على طبقاتهم ومقاماتهم، وعناية السلطان بمن كان وافداً منهم، حتى سار بهم يعقوب بن علي إلى السلطان وأوفدهم عليه في رجب من سنته.

واتصل الخبر بأهل بجاية بالفعلة التي فعل أهل قسنطينة، فساجلوهم في الثورة، وكبسوا منازل أولياء السلطان وعسكره وعماله، فاستباحوها واستلبوهم وأخرجوهم من بين ظهرانيهم عراة، فلحقوا بالمغرب وطيروا بالخبر إلى المولى أبي الفضل، واستحثوه للقدوم، فقدم عليهم وعقد على قسنطينة وبونة لمن استكفى به من خاصته ورجالات دولته، واحتل ببجاية لشهر ربيع من سنته، وأعاد ملك سلفه.

واستوسق أمره بهذه الثغور إلى أن كان من خبره مع السلطان بعد خروجه من بجاية ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتزاء أولاد السلطان بالمغرب الأوسط والأقصى ثم استقلال أبي عنان بملك المغرب كله

لما اتصل خبر النكبة بالقيروان بالأمير أبي عنان ابن السلطان، وكان صاحب تلمسان والمغرب الأوسط، وتساقط إليه الفل من عسكر أبيه عراة زرافات ووحداناً، وأرجف الناس بمهلك السلطان بالقيروان، فتطاول الأمير أبو عنان للاستئثار بملك أبيه، دون الأبناء، لما كان له من الإيثار عند أبيه لصيانته وعفافه، واستظهار القرآن، فكان محلاً بعين أبيه لأمثالها.

وكان عثمان بن يحيى بن جرار من مشيخة بني عبد الواد وأولاد تيدوكسن بن طاع الله منهم، وكان له محل من الدولة كما ذكرناه في خبره، وكان السلطان أذن له في الرجوع إلى المغرب، فرجع من معسكره بالمهدية، ونزل بزاوية العباد من تلمسان، وكان مسمتاً وقوراً، جهينة خبر ممتعاً في حديثه، وكان يرجم فيه الوقوف على الحدثان.

وكان الأمير أبو عنان متشوقاً إلى أخبار أبيه، ففزع إلى عثمان بن جرار في تعرفها، واستدعاه وأنس به، وكان في قلبه مرض من السلطان، فأودع أذن الأمير أبي عنان ما أراد من الأقاويل من تورط السلطان في المهلكة، وبشره بمصير الأمر إليه، فصادف منه أذناً واعية، واشتمل عليه ابن جرار من بعدها.

فلما ورد الخبر بنكبة السلطان أغراه ابن جرار بالتوثب على الملك، وسول له الاستئثار به على إخوانه تيقناً بمهلك السلطان، ثم أوهمه الصدق بإرجاف الناس بموت السلطان، فاعتزم وشحذ عزمه في ذلك ما اتصل به من حافد السلطان منصور ابن الأمير أبي مالك صاحب فاس وأعمال المغرب من الانتزاء على عمله، وأنه فتح ديوان العطاء واستلحق واستركب لغيبة بني مرين عن بلادهم، وخلاء جوه من عساكرهم، وأظهر العسكر والحشد لاستنقاذ السلطان من هوة القيروان يسر منها حسواً في ارتغاء، وتفطن لشأنه الحسن بن سليمان بن يرزيكن عامل القصبة بفاس، وصاحب الشرطة بالضواحي، فاستأذنه باللحاق بالسلطان، فأذن له راحة من مكانه.

وأصحبه عمال المصامدة ونواحي مراكش ليستقدمهم على السلطان بجباياتهم، فلحق بالأمير أبي عنان على حين أمضى عزيمته على التوثب والدعاء لنفسه، فقبض أموالهم وأخرج ما كان بمودع السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة، وجاهر بالدعاء لنفسه، وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع من سنة تسع وأربعين وسبعمائة فبايعه الملأ.

وقرأ كتاب بيعتهم على الأشهاد، ثم بايعه العامة، وانفض المجلس وقد انعقد سلطانه ورست قواعد ملكته، وركب في التعبية والآلة حتى نزل بقبة الملعب.

وأهم الناس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن سليمان بن يرزيكن، ثم لفارس بن ميمون بن ودرار وجعله رديفا له وتبعاً، ورفع مكان ابن جرار عليهم.

واختص لولايته ومناجاة خلوته كاتبه أبا عبد الله بن محمد ابن القاضي عبد الله بن أبي عمر وسنذكر خبره.

ثم فتح الديوان واستركب من تساقط إليه من فل أبيه، وخلع عليهم ودفع إليهم أعطياتهم وأزاح عللهم.

وبينما هو يريد الرحلة إلى المغرب إذ بلغه أن ونزمار ابن ولي السلطان، وخالصته عريف بن يحيى، وكان أمير زغبة لعهده ومقدماً على سائر البدو، وبلغه أنه قد جمع له يريد حربه، وغلبه على ما صار إليه من الانتزاء والثورة على أبيه.

وأنه قصد تلمسان بجموعه من العرب وزناتة المغرب الأوسط، فعقد للحسن بن سليمان وزيره على حربه وأعطاه الآلة وسرحه للقائه، وسرح معه من حضره من بني عامر أقتال سويد، وارتحل الوزير بعسكره حتى احتل بتاسالة، وناجزه ونزمار

الحرب، ففلت جموعه ومنحوا أكتافهم، واتبع الوزير وعسكره آثارهم، واكتسح أموالهم وحللهم، وعاد إلى سلطانه بالفتح والغنائم.

وارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب، وعقد على تلمسان لعثمان بن جرار وأنزله بالقصر القديم منها، حتى كان من أمره مع عثمان بن عبد الرحمن ما ذكرنا في أخبارهم.

ولما انتهى إلى وادي الزيتون وشى إليه بالوزير الحسن بن سليمان أنه مضمر الفتك به بتازى تزلفاً إلى السلطان ووفاء بطاعته، وأنه داخل في ذلك الحافد منصور صاحب أعمال المغرب، بما كان يظهر من طاعة جده، وارتاب الأمير أبو عنان به واستظهر واشيه على ذلك بكتابه.

فلما قرأه تقبض عليه، وقتله بالمساء خنقاً، وأغذ السير إلى المغرب.

وبلغ الخبر منصور بن أبي مالك صاحب فاس فزحف للقائه، والتقى الجمعان بساحة تازى وبوادي أبي الأجراف، فاختل مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق بفاس.

وانحجز بالبلد الجديد وارتحل الأمير أبو عنان في أثره، وتسايل الناس على طبقاتهم إليه، وآتوه الطاعة وأناخ بعساكره على البلد الجديد في ربيع الآخر من سنة تسع وأربعين، وأخذ بمخنقها وجمع الأيدي والفعلة على الآلات لحصارها، ولحين نزوله على البلد الجديد أوعز إلى الوالي بمكناسة، أن يطلق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة، فأطلقهم ولحقوا به فأقاموا معه على حصار البلد الجديد، وطال تمرسه بها إلى أن ضاقت أحوالهم واختلفت أهواؤهم، ونزع إليه أهل الشوكة منهم.

ونزع إليهم إدريس بن عثمان بن أبي العلاء فيمن إليه من الحاشية بإذنه له في ذلك سراً ليمكنه بهم، فدس إليه وواعده الثورة بالبلد، فثار بها واقتحمها الأمير أبو عنان عليهم، ونزل منصور بن أبي مالك على حكمه، فاعتقله إلى أن قتله بمحبسه، واستولى على دار الملك وسائر أعمال المغرب وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهنئة والبيعة.

وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان والانقياد لقائدهم عبد اللّه بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء حيناً، ثم توثبوا به وعقدوا على أنفسهم للأمير أبي عنان، وقادوا عاملهم إليه.

وتولى كبر الثورة فيهم زعيمهم الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن رافع من بيت أبي الشريف من آل الحسن، كانوا انتقلوا إليها من صقلية، واستوسق للأمير أبي عنان ملك المغرب، واجتمع إليه قومه من بني مرين إلا من أقام مع السلطان بتونس وفاء بحقه، وحص جناح أبيه عن الكرة على الكعوب الناكثين لعهده، الناكبين عن طاعته، فأقام بتونس يرجي الأيام، ويأمل الكرة، والأطراف تنتقض والخوارج تتجدد إلى أن ارتحل إلى المغرب بعد اليأس، كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن انتقاض النواحي وانتزاء بني عبد الواد بتلمسان ومغراوة بشلف وتوجين بالمدية

لما كانت نكبة السلطان بالقيروان وانتشر ملك زناتة، وانتقضت قواعد سلطانهم، اجتمع كل قوم منهم لإبرام أمرهم والنظر في شأن جماعتهم، وكانوا جميعاً نزعوا إلى الكعوب الخارجين على السلطان، وبنزوعهم كانت الدايرة عليه.

ولحقوا بتونس مع الحاجب أبي محمد بن تافراكين ليلحقوا منها بأعمالهم.

وكان في جملة السلطان جماعة من أعياصهم: منهم عثمان وإخوته الزعيم ويوسف وإبراهيم أبناء عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد، صاروا في أيالة السلطان منذ فتح تلمسان وأنزلهم بالجزيرة للرباط.

ثم رجعوا بعد استئثار الطاغية بها إلى مكانهم من دولتهم، وساروا إلى القيروان تحت لوائه ومنهم علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل.

وقد ذكرنا أخبار أبيه وأنه ربي في إيالة السلطان وجو الدولة يتيماً، وكفلته نعمتها منذ نشأته حتى كأنه لا يعرف سواها، فاجتمع بنو عبد الواد بتونس وعقدوا على أنفسهم لعثمان بن عبد الرحمن بما كان كبير إخوته، وأتوه ببيعتهم بشرقي المصلى العتيق المطل على سيجوم من ساحة البلد، لعهده بهم يومئذ.

وقد وضعوا له بالأرض درقة من اللمط أجلسوه عليها، ثم ازدحموا مكبين على يده يقبلونها للبيعة.

ثم اجتمع من بعدهم مغراوة إلى علي بن راشد وبايعوه وحفوا به.

وتعاهد بنو عبد الواد ومغراوة على الألفة وانتظام الكلمة وهدر الدماء.

وارتحلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأوسط، فنزل علي بن راشد

وقومه بموضع عملهم من ضواحي شلف، وتغلبوا على أمصاره وافتتحوا تنس وأخرجوا منها أولياء السلطان وعسكره، وقتلوا القاضي بمازونة سرحان، كان مقيماً لدعوة السلطان بها، ثم سولت له نفسه التوثب والانتزاء، فدعا لنفسه، وقتله علي بن راشد وقومه.

وأجاز عثمان بن عبد الرحمن وقومه من بني عبد الواد إلى محلّ ملكهم بتلمسان، وألفوا عثمان بن جرار قد انتزى بها بعد منصرف الأمير أبي عنان ودعا لنفسه، فتجهم له الناس لتوثبه على المنصب الذي ليس لأبيه، واستمسك بالبلد أياماً يؤمل نزوع قومه إليه.

ثم زحف إليه بنو عبد الواد وسلطانهم فصدقوه الزحف، وثارت به الغوغاء، وكسروا أبواب البلد، وخرجوا إلى السلطان فأدخلوه القصر، واحتل به في جمادى من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وتسابق الناس إلى مجلسه مثنى وفرادى، وبايعوه البيعة العامة.

وتفقد ابن جرار، ثم أغرى به البحث، فعثر عليه ببعض زوايا القصر، واحتمل إلى المطبق فأودع به إلى أن سرب إليه الماء فمات غريقاً في هوته.

وساهم السلطان أبو سعيد عثمان أخاه أبا ثابت الزعيم في سلطانه، وشركه في أمره، وأردفه في ملكه، وجعل إليه أمر الحرب والضواحي والبدو كلها.

واستوزر قريبه يحيى بن داود بن مكن، من ولد محمد بن تيدوكسن بن طاع اللّه، واستوسق ملكهم، وأوفدوا مشيختهم على الأمير أبي عنان صاحب المغرب، وسلطان بني مرين، فعقدوا معه السلم والمهادنة، واشترطوا له على أنفسهم دفاع السلطان أبيه عن الخلوص إليه.

وزحفوا إلى وهران من ثغور أعمالهم، ونازلوا بها أولياء السلطان وعساكره، وعاملها يومئذ عبّو بن جانا من صنائع السلطان إلى أن غلبوه عليها، واستنزلوه صلحاً لأشهر من حصارها.

واستمسك أهل الجزائر بطاعة السلطان، واعتصموا بها، وعقد علها لقائده محمد بن يحيى العشري من صنائع أبيه، بعثه إليهم من تونس بعد نكبة القيروان.

ونجم بالمدية عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي داعياً لنفسه، وطالباً سلطان سلفه، وامتنع عليه معقل ملكهم بجبل وانشريش لمكان ولد عمر بن عثمان وقومهم بني تيغرين في رياسته، وانحاش إليه أولاد عزيز من بني توجين أهل ضاحية المدية فقاموا بأمره، واعصوصبوا عليه، وكانت بينه وبين أبناء عمر بن عثمان حرب سجال إلى أن هلك، وخلص أمر بني توجين لأبناء عمر بن عثمان، وهم على مذهبهم من طاعة السلطان وتمسكهم بدعوته، وهو مقيم خلال ذلك بتونس إلى أن أزمع الرحلة، واحتل بالجزائر كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن رجوع أمراء الثغور الغربية من الموحدين إلى ثغورهم ببجاية وقسنطينة

لما توثب الأمير أبو عنان على ملك أبيه وبويع بتلمسان، وكانت للأمير أبي عبد اللّه محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب بجاية لديه خلة ومصافاة، من لدن بعثه إليه السلطان أبوه من بجاية.

وأنزله بتلمسان فرعى له السابقة وآثره في الإمارة، وعقد له على محل إمارته من بجاية، وأمده بما يرضيه من المال والسلاح.

ودفعه إليها ليكون حجزاً دون السلطان بتونس، وضمن له هذا الأمير صده عن الخلوص إليه، وسد المذاهب دونه.

وأوعز أبو عنان إلى أساطيله بوهران، فركبها الأمير إلى تدلس ودخلها.

ونزع إليه صنهاجة أهل ضاحية بجاية، عن عمه المولى أبي العباس الفضل واعصوصبوا عليه وقاموا بأمره لقديم نعمته وسالف إمارة أبيه.

ولما ارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب، رحل في جملته المولى أبو زيد عبد الرحمن ابن مولانا الأمير أبي عبد اللّه صاحب قسنطينة ومعه إخوته، فاختصهم يومئذ بتقريبه وخلطهم بنفسه.

فلما غلب الأمير أبو عنان منصور ابن أخيه أبي مالك على البلد الجديد، واستولى على المغرب رأى أن يبعث ملوك الموحدين إلى بلادهم، ويدفع في صدر أبيه بمكانهم فسرح المولى أبا زيد وجميع إخوته، وكان منهم مولانا السلطان أبو العباس الذي جبر اللّه به الصدع ونظم الشمل، فوصلوا إلى موطن ملكهم ومحل إمارتهم.

وكان مولاهم نبيل حاجب أبيهم قد تقدم إلى بجاية، ولحق بالمولى أبي عبد اللّه بمكانه من حصارها.

ثم تقدم إلى قسنطينة وبها مولى من موالي السلطان المتغلب عليها، وهو المولى أبو العباس الفضل، فلحين إطلاله على جهاتها وشعور أهلها بمكانه لفحت منهم عزائز المودة وذكروا جميل

الإيالة، وأجمعوا التوثب بوالديهم.

واحتل نبيل بظاهر قسنطينة فشرهت العامة إلى إمارته والقيام بدعوة مواليه.

وتوثب أشياعهم على أولياء عمهم فأخرجوهم واستولى القائد نبيل على قسنطينة وأعمالها وأقام دعوة المولى أبي زيد وإخوته كما كانت أول مرة بها: وجاؤوا من المغرب إلى مركز إمارتهم ودعوتهم بها قائمة، ورايتهم على أنحائها خافقة فاحتلوا بها حلول الآساد بعرينها والكواكب بآفاقها، ونهض المولى أبو عبد الله محمد فيمن اجتمع إليه من البطانة والأولياء، إلى محاصرة بلد بجاية، فأحجز عمه بالبلد، وأخذ بمخنقها أياماً، ثم أفرج عنها، ثم رجع إلى مكانه من حصارها.

ودس إليه بعض أشياعه بالبلد، وسرب المال في الغوغاء، فواعدوه فتح أبواب الربض في إحدى ليالي رمضان سنة تسع وأربعين وسبعمائة واقتحم البلد وملأ الفضاء بهدير طبوله، فهب الناس من مراقدهم فزعين وقد ولج الأمير وقومه البلد.

ولجأ الأمير أبو العباس الفضل إلى شعاب الجبل وكواريه المطل على القصبة راجلاً حافياً، فاختفى إلى أن عثر عليه ضحى النهار، وسيق إلى ابن أخيه، فمن عليه وأركبه السفين إلى محل إمارته من بونة.

وخلص ملك بجاية للمولى الأمير أبي عبد الله هذا واقتعد سرير آبائه بها، وكتبوا للأمير أبي عنان بالفتح، وتجديد المخالصة والموالاة، والعمل على مدافعة أبيه من جهاته، والله تعالى أعلم.

الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان ووليه عريف بن يحيى من تونس إلى المغرب الأوسط

لما بلغ السلطان خبر ما وقع بالمغرب من انتقاض أطرافه، وتغلب الأعياص من قومه وسواهم على أعماله، ووصل إليه يعقوب بن علي أمير الدواودة بولده وعماله ووفده، نظر في تلافي أمره فسرح ولده الناصر إلى المغرب الأوسط لارتجاع ملكهم، ومحو آثار الخوارج من أعمالهم.

فنهض مع يعقوب بن علي وأصحبه وليه عريف بن يحيى أمير زغبة ليستظهر به على ملك المغرب، وقدمهما طليعة بين يديه، وسار الناصر إلى بسكرة، واضطرب معسكره بها، ثم فصل من بلاد رياح إلى بلاد زغبة، واجتمع إليه أولياؤهم من العرب ومن زناتة من بني توجين أهل وانشريش وغيرهم.

وزحف إليهم الزعيم أبو ثابت من تلمسان في قومه من بني عبد الواد وغيرهم للمدافعة.

والتقى الجمعان بوادي ورك وانفضت جموع الناصر واندعروا، ورجع على عقبه إلى بسكرة وخلص عريف بن يحيى إلى قومه سويد، ثم قطع القفر إلى المغرب الأقصى.

ولحق بالأمير أبي عنان فنزل منه بألطف محل، ورجع الناصر إلى بسكرة، وارتحل مع أوليائهم أولاد مهلهل لمدافعة أولاد أبي الليل وسلطانهم المولى الفضل عن تونس كما ذكرناه.

وأحسوا بهم، فنهضوا إليهم، وفروا أمامهم، إلى أن خلص الناصر إلى بسكرة ثانية، واتخذها مثوى إلى أن لحق بأبيه بالجزائر عند رحلته من تونس إليها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن رحلة السلطان أبي الحسن إلى المغرب وتغلب المولى الفضل على تونس وما دعا إلى ذلك من الأحوال

لما خلص المولى أبو العباس الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى من نكبته ببجاية، وامتن عليه ابن أخيه، فلحق بمحل إمارته من بونة.

ووافته بها مشيخة أولاد أبي الليل، أوفدهم عليه بنو حمزة بن عمر يستحثونه لملك إفريقية، يرغبونه فيه، فأجاب داعيتهم ونهض إليهم بعد قضاء نسك الفطر من سنة تسع وأربعين، ونزل بحللهم وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ضواحي إفريقية، وجبوها، وصمدوا إلى تونس فنازلوها وأخذوا بمخنقها أياماً، ثم أخذ بحجزتهم عنها شيعة السلطان وأولياؤه من أولاد مهلهل وابنه الناصر عند قفوله من المغرب الأوسط مفلولاً فرحلوهم وشردوهم، ثم رجعوا إلى مكانهم من حصارها، ثم انفضوا عنها.

وتحيز خالد بن حمزة إلى شيعة السلطان أبي الحسن من أولاد مهلهل وقومه، فاعتزوا به وذهب عمر بن حمزة إلى المشرق لقضاء فرضه، وأجفل أبو الليل أخوه والمولى الفضل إلى القفر حتى كان من دخول أهل الجريد في طاعته ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وكان السلطان لما خلص من القيروان إلى تونس، وفد إليه أحمد بن مكي مهنياً ومفاوضاً في شأن الثغر وما مني به من انتقاض

الأطراف وفساد الرعية.

وتدارك السلطان أمره عند فواته بالتولية على أهل القطر من جنسهم استئلافاً للكافة، واستبقاء لطاعتهم.

فعقد على عمل قابس وجربة والحمة، وما إليها لعبد الواحد ابن السلطان أبي زكريا بن أحمد اللحياني، وأنفذه مع أحمد بن مكي إلى عمله، فهلك بجربة لليال من مقدمه بالطاعون الجارف عامئذ.

وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر ونفطة وسائر بلاد الجريد، بعد أن كان استخلصه عند مفر أبي محمد بن تافراكين قريعه، وما ظهر من سوء دخلته، فنزل بتوزر وجمع أهل الجريد على الولاية والمخالصة، ولما نازل المولى أبو العباس الفضل تونس مرتين، وشرد أولاد مهلهل وامتنعت عليه، عمد إلى الجريد سنة خمس وسبعمائة يحاول فيه ملكاً، وخاطب أبا القاسم بن عتو يذكره عهده وعهد سلفه وحقوقهم، فتذكر وحن، ونظر إلى ما ناله به السلطان من المثلة في أطرافه، واستثار كامن حقده، فانحرف وحمل الناس على طاعة المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى، فسارعوا إلى الإجابة وبايعه أهل توزر وقفصة ونفطة والحمة، ثم دعا ابن مكي إلى طاعته فأجاب إليها وبايعه أهل قابس وجربة أيضاً.

وانتهى الخبر إلى السلطان باستيلاء المولى الفضل على أمصار إفريقية، وأنه ناهض إلى تونس، فأهمه الشأن وخشي على أمره، وكانت بطانته يوسوسون إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه، فأجابهم إليها وشحن أساطيله بالأقوات، وأزاح علل المسافرين.

ولما قضى منسك الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر أيام استفحال فصل الشتاء، وعقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين أولاد حمزة من الصهر، وتفادياً بمكانه عن معرة الغوغاء وثورتهم.

وأقلع من مرسى تونس، ولخمس دخل مرسى بجاية، وقد احتاجوا إلى الماء فمنعهم صاحب بجاية من الورود، وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم، فزحفوا إلى الساحل وقاتلوا من صدهم عن الماء إلى أن غلبوهم عليه واستقوا وأقلعوا، وعصفت بهم الريح ليلتئذ وجاءهم الموج من كل مكان، وألقاهم اليم بالساحل بعد أن تكسرت الأجفان، وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامة الناس، وقذف الموج بالسلطان فألقاه إلى الجزيرة قرب الساحل من بلاد زواوة مع بعض حشمه عراة، فمكثوا ليلتهم وصبحهم جفن من الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف، فقذفوا إليه حين رأوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا إليه فاختطفه أولياؤه من أهل الجفن قبل أن يصل إليه البربر، وقذفوا به إلى الجزائر فنزل بها، ولأم صدعه.

وخلع على من وصل من فل الأساطيل ومن خلُص إليه من أوليائه، ولحق به ابنه الناصر من بسكرة، واتصل بالمولى الفضل خبر رحيله من تونس وهو ببلاد الجريد، فأغذ السير إلى تونس، ونزل بها على ابنه ومن كان بها من مخلف أوليائه، فغلبوهم عليها، واتصل أهل البلد بهم وأحاطوا يوم منى بالقصبة.

واستنزلوا ابن السلطان أبا الفضل الأمير بالقصبة على الأمان، فخرج إلى بيت أبي الليل بن حمزة، وأنفذ معه من بلغه إلى مأمنه، فلحق بالجزائر بأبيه وبادر إلى السلطان عدي بن يوسف المتزي بالمدينة من بني عبد القوي، فصار في جملته، وخرج له عن الأمر، وزعم أنه إنما كان قائماً بدعوته، فتقبل منه وأقره على عمله.

ووفد عليه أولياؤه من المغرب: سويد والحارث وحصين ومن إليهم ممن اجتمع إلى وليه ونزمار بن عريف المتمسك بطاعته.

ووفد عليه أيضاً علي بن راشد أمير مغراوة، وأغراه ببني عبد الواد، واشترط عليه إقراره بوطنه وعمله إذا تم أمره، فأبى من قبول الاشتراط ظناً بعهده عن النكث، فنزع عنه وصار إلى مظاهرة بني عبد الواد عليه.

وبعث أبو سعيد عثمان صاحب تلمسان إلى الأمير أبي عنان في المدد، فبعث إليه بعسكر من بني مرين عقد عليهم ليحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي من تيربيغن، وزحف الزعيم أبو ثابت إلى حرب السلطان أبي الحسن فيمن اجتمع إليه من عسكر بني مرين ومغراوة.

وخرج السلطان من الجزائر وعسكر بمتيجة، واحتشد ونزمار سائر العرب بحللهم، ووافاه بهم، وارتحلوا إلى شلف، ولما التقى الجمعان، بشدبونة صدقه مغراوة الحملة وصابرهم ابنه الناصر وطعن في الجولة فهلك فاحتل مصاف السلطان واستبيح معسكره، وانتهبت فساطيطه، وخلص مع وليه ونزمار بن عريف وقومه بعد أن استبيحت حللهم، فخرجوا إلى جبل وانشريش، ثم لحقوا بجبل راشد، ورجع القوم عن اتباعهم، وانكفؤوا إلى الجزائر فتغلبوا عليها، وأخرجوا من كان بها من أولياء السلطان ومحوا آثار دعوته من المغرب الأوسط جملة، والأمر بيد الله يؤتيه من يشاء.

الخبر عن استيلاء السلطان على سجلماسة ثم فراره عنها أمام ابنه إلى مراكش ثم استيلاؤه عليها وما تخلل ذلك

لما انفضت جموع السلطان بشدبونة وفلت عساكره، وهلك الناصر ابنه، خلص إلى الصحراء مع وليه ونزمار ولحق بمحلل قومه سويد وأوطانهم قبلة جبل وانشريش، وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزه ودار ملكه.

وارتحل معه وليه ونزمار بالناجعة من قومه، وخرجوا إلى جبل راشد.

ثم أبعدوا المذاهب وقطعوا المفاوز وسلكوا إلى سجلماسة في القفر.

فلما أطلوا عليها وعاين أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفراش، وخرج إليه العذارى من وراء ستورهن صاغية إليه، وإيثاراً لإيالته، وفر العامل بسجلماسة إلى منجاته.

وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد سجلماسة، ارتحل إليها في قومه وكافة عساكره بعد أن أزاح عللهم وأفاض عطاءه فيهم، وكان لبني مرين نفرة عن السلطان وحذر من غائلته لجناياتهم بالتخاذل في المواقف، والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار ويتجشم بهم المهالك، فكانوا لذلك مجتمعين على منابذته، ومخلصين في مناصحة ابنه منازعة، فما لبث السلطان أن جاءه الخبر بوصولهم إليه في العساكر الضخمة، مغذين السير إلى دفاعه، وعلم من حاله أنه لا يطيق لقاءهم، وأجفل عنه ونزمار وليه في قومه سويد.

وكان من خبره أن عريف بن يحيى كان نزع إلى الأمير أبي عنان وأحله بمحله المعهود من تشريفهم وولايتهم، حتى إذا بلغه الخبر بمناصحة ونزمار للسلطان ومظاهرته وقصده المغرب معه بناجعته، زوى عنه وجه رضاه بعض الشيء، وأقسم له لئن لم يفارق السلطان لأوقعن بك وبابنك عنتر. وكان معه من جملة الأمير أبي عنان، وأمره بأن يكتب له بذلك، فآثر ونزمار رضى أبيه، وعلم أن غناءه عن السلطان في وطن المغرب قليل، فأجفل عنه ولحق بالزاب وانتبذ عن قومه، وألقى عصاه ببسكرة، فكان ثواؤه بها إلى أن لحق بالأمير أبي عنان على ما نذكره.

ولما أجفل السلطان عن سجلماسة، ودخل الأمير أبو عنان إليها وثقف أطرافها وسد فروجها، وعقد عليها ليحى بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن، وبلغه قصد السلطان إلى مراكش، فاعتزم على الرحلة إليها وأبى عليه قومه، فرجع إلى فاس إلى أن كان من خبرهم مع السلطان ما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان على مراكش ثم انهزامه أمام الأمير أبي عنان ومهلكه بجبل منتاتة عفا الله عنه

لما أجفل السلطان من سجلماسة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بين يدي الأمير أبي عنان وعساكر بني مرين، وقصد مراكش، وركب إليها الأوعار من جبال المصامدة.

ولما شارفها تسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب، ونسلوا من كل حدب.

ولحق عامل مراكش بالأمير أبي عنان ونزع إلى السلطان صاحب ديوان الجباية أبو المجد محمد بن أبي مدين بما كان في المودع من مال الجباية، فاختصه واستكتبه وجعل إليه علامته، واستركب واستلحق وجبى الأموال، وبث العطاء، ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة.

وثاب له ملك بمراكش أمل معه أن يستولي على سلطانه، ويرتجع فارط أمره من يد مبتزه.

وكان الأمير أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها، وشرع في العطاء وأزاح العلل، وتقبض على كاتب الجباية حمزة بن شعيب بن محمد بن أبي مدين، اتهمه بممالأة بني مرين في الإبابة عليه عن اللحاق بمراكش من سجلماسة.

وأثار حقده في ذلك ما كان من نزوع عمه أبي المجد إلى السلطان بأموال الجباية، ووسوس إليه في السعاية به كاتبه وخالصته أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو لما بينهما من المنافسة، فتقبض عليه وامتحنه، ثم قطع لسانه وهلك في ذلك الامتحان، وارتحل الأمير أبو عنان وجموع بني مرين إلى مراكش، وبرز السلطان إلى لقائهم ومدافعتهم، وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم ربيع، وتربص كل واحد بصاحبه إجازة الوادي.

ثم أجازه السلطان أبو الحسن وأصبحوا جميعاً في التعبية، والتقى الجمعان بتامدغرست في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره، ولحق به أبطال بني مرين فرجعوا عنه حياء وهيبة.

وكبا به فرسه يومئذ في مفره، فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله.

واعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الدواودة، ورديف أخيه يعقوب، كان هاجر مع السلطان من الجزائر، ولم يزل في جملته إلى يومئذ، فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه ردءاً له.

وتقبض على حاجبه علال بن محمد، فصار في يد الأمير أبي عنان وأودعه السجن إلى أن امتن عليه بعد مهلك أبيه.

وخلص السلطان إلى جبل هنتاتة ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي، فنزل عليه وأجاره واجتمع إليه الملأ من هنتاتة ومن انضاف إليهم من المصامدة، وتدامروا وتعاهدوا على الدفاع عنه، وبايعوه على الموت، وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكش، وأنزل عساكره على جبل هنتاتة، ورتب المسالح لحصاره وحربه، وطال عليه ثواؤه، وطلب السلطان من ابنه الإبقاء، وبعث في حاجبه محمد بن أبي عمرو فحضر عنده، وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان والتمس له الرضى منه، فرضي عنه، وكتب له بولاية عهده.

وأوعز إليه بأن يبعث له مالاً وكسى، فسرح الحاجب ابن أبي عمرو إلى إخراجها من المودع بدار ملكهم، واعتل السلطان خلال ذلك، فمرضه أولياؤه وخاصته، وافتصد لإخراج الدم، ثم باشر الماء بعضوه للطهارة، فورم وهلك لليال قريبة عفا اللّه عنه، لثلاث وعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وبعث أولياؤه بالخبر إلى ابنه بمعسكره من ساحة مراكش، ورفعوه على أعواده إليه فتلقاه حافياً حاسراً، وقبل أعواده وبكى، واسترجع ورضي عن أوليائه وخاصته، وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته، ووارى أباه بمراكش إلى أن نقله إلى مقبرة سلفه بشالة في طريقه إلى فاس وتلقى أبا دينار بن علي بن أحمد بالقبول والكرامة، وأحله من كنفه محل الرحب والسعة، وأسنى جوائزه، وخلع عليه وحمله.

وانصرف من فاس إلى قومه يستحثهم للقاء السلطان أبي عنان بتلمسان لما كان أجمع على الحركة إليها بعد مهلك أبيه، ورعى لعبد العزيز بن محمد أمير هنتاتة إجارته للسلطان واستماتته دونه، فعقد له على قومه وأحله بالمحل الرفيع من دولته ومجلسه، واستبلغ في تكريمه، واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي عنان إلى تلمسان وإيقاعه ببني عبد الواد بأنكاد ومهلك أبي سعيد سلطانهم

لما هلك السلطان أبو الحسن وانقضى شأن الحصار وارتحل السلطان أبو عنان إلى فاس ونقل شلو أبيه إلى مقبرتهم بشالة فدفنه مع من هنالك من سلفه.

وأغذ السير إلى فاس وقد استبد بالأمر، وخلت الدولة عن المنازع، فاحتل بفاس وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي سموا لاستخلاصه.

ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة نادى بالعطاء وأزاح العلل، وعسكر بساحة البلد الجديد، واعترض العساكر وارتحل يريد تلمسان، واتصل الخبر بأبي سعيد وأخيه، فجمعوا قومهم ومن إليهم من الأشياع والأحزاب من زناتة والعرب، وارتحلوا إلى لقائه، ونزل السلطان بمعسكر وادي ملوية، وتلوم به أياماً لاعتراض الحشد والعرب.

ثم رحل على التعبية حتى إذا احتل ببسيط أنكاد وتراءى الجمعان، انفض سرعان المعسكر ولحقوا بالمغرب وركب السلطان في التعبية وخاض بحر القتال، وقد أظلم الجو به حتى إذا خلص إليهم من غمره، وخالطهم في صفوفهم، ولوا الأدبار، ومنحوهم الأكتاف، واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوه واستلحموهم قتلاً وسبياً، وصفدوهم أسارى، وغشيهم الليل وهم متسايلون في آثارهم، وتقبض على أبي سعيد سلطانهم، فسيق إلى السلطان وأمر باعتقاله، وأطلق أيدي بني مرين من الغد على حلل العرب من المعقل، فاستباحوهم واكتسحوا أموالهم جزاء بما شرهوا إليه من النهب في المحنة في هيعة ذلك المجال.

ثم ارتحل به على تعبية إلى تلمسان فاحتل بها لربيع من سنته، واستوت في ملكها قدمه، وأحضر أبا سعيد فقرعه ووبخه وأراه أعماله حسرة عليه، وأحضر الفقهاء وأرباب الفتيا، فأفتوا بحرابته وقتله.

وأمضى حكم اللّه فيه، فذبح في محبسه لتاسعة من اعتقاله، وجعله مثلاً للآخرين.

وخلص أخوة الزعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق، فكان من خبره ما نذكره إن شاء اللّه تعالى واللّه أعلم.

الخبر عن شأن أبي ثابت وإيقاع بني مرين به بوادي شلف وتقبض الموحدين عليه ببجاية

لما أوقع السلطان ببني عبد الواد بأنكاد، وتقبض على أبي سعيد سلطانهم، خلص أبو ثابت أخوه في فل منهم، ومر بتلمسان، فاحتمل حرمهم ومخلفهم، وأجفل إلى الشرق، فاحتل بشلف من بلاد مغراوة وعسكر هنالك.

واجتمع إليه أوشاب من زناتة، وحدث نفسه باللقاء، ووعدها بالصبر والثبات، وسرح السلطان وزيره فارس بن ميمون بن ودرار في عساكر بني مرين والجند، فاغذ السير إليهم وارتحل من تلمسان على أثره، ولما تراءى الجمعان صدق الفريقان المجاولة، وخاضوا النهر بالقراع.

ثم صدق بنو مرين الحملة وأجازوا النهر إليهم، فانكشفوا واتبعوا آثارهم واستلحموهم، واستباحوا معسكرهم واستاقوا أموالهم ودوابهم ونساءهم، وارتحلوا في أتباعهم، وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان، ومر أبو ثابت بالجزائر طارقاً، وأجاز إلى قاصية الشرق، فاعترضتهم قبائل زواوة وأرجلوهم عن خيلهم، وانتهبوا أسلابهم، ومروا حفاة عراة، واحتل الوزير بالجزائر، واستولى عليها واقتضى بيعة السلطان منهم فأتوها، واحتل الوزير بالمدية وأوعز إلى أمير بجاية المولى أبي عبد الله محمد حافد مولانا الأمير أبي يحيى مع وليه ونزمار وخالصته يعقوب بن علي بالقبض على أبي ثابت وأشياعه فاذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمرصاد، وعثر بعض الجشم على أبي ثابت وأبي زيان ابن أخيه أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود، فرفعوهم إلى الأمير ببجاية، فاعتقلهم وارتحل إلى لقاء السلطان بالمدية وبعثهم مع مقدمته، وجاء على أثرهم ونزل على السلطان بمعسكره من المدية خير نزل، بعد أن تلقاه بالمبرة والاحتفاء، وركب للقائه، ونزل عن فرسه للسلطان، فنزل السلطان براً به، وأودع أبا ثابت السجن.

وتوافت إليه وفود الدواودة بمكانه من المدية، فأكرم وفدهم وأسنى أعطياتهم من الخلع والحملان والذهب، وانقلبوا خير منقلب، ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل الزاب ووفدهم، فأكرمهم ووصلهم.

وفرغ السلطان من شان المغرب الأوسط، وبث العمال في نواحيه، وثقف أطرافه، وسما إلى ملك إفريقية كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تملك السلطان أبي عنان بجاية وانتقال صاحبها إلى المغرب

لما وصل المولى أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا يحيى صاحب بجاية إلى السلطان بمكانه من المدية في شعبان من سنته، وأقبل السلطان عليه، وبوأه كنف ترحيبه وكرامته، خلص الأمير به نجيًا، وشكى إليه ما تلقاه من أهل عمله من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد، وما يتبع ذلك من زبون الحامية واستبداد البطانة وكان السلطان متشوقاً لمثلها، فأشار عليه بالنزول عنها، يعوضه عنها ما شاء من بلاده، فسارع إلى قبول إشارته، ودس إليه مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يستبد بذلك على رؤوس الملاء، ففعل، ونقم عليه بطانته ذلك، وفرّ بعضهم من معسكره، فلحق بإفريقية، ومنهم علي بن القائد محمد بن الحكم.

وأمره السلطان أن يكتب بخطه إلى عامله على البلد بالنزول عنها وتمكين عمال السلطان منها ففعل وعقد السلطان عليها لعمر بن على الوطاسي من أولاد الوزير الذي ذكرنا خبر انتزائهم بتازوطا من قبل، ولما قضى السلطان حاجته من المغرب الأوسط واستولى على بجاية، انكفأ راجعاً إلى تلمسان لشهود الفطر بها، ودخلها في يوم مشهود، وحمل أبا ثابت ووزيره يحيى بن داود على جملين يخطران بهما في ذلك المحفل بين السماطين، فكانا عبرة لمن حضر وسيقا من الغد إلى مصارعها، فقتلا قعصاً بالرماح، وأنزل السلطان المولى الأمير أبا عبد الله صاحب بجاية خير نزل، وفرض له في مجلسه تكرمة به إلى أن كان من توثب صنهاجة وأهل بجاية بعمر بن علي ما نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ثورة أهل بجاية ونهوض الحاجب إليها في العساكر

كان صنهاجة هؤلاء من أعقاب تكلاتة ملوك القلعة وبجاية، نزل أولوهم بوادي بجاية بين القبائل من برابرتها الكتاميين في مواطن بني ورياكل منذ أول دولة الموحدين، وأقطعوهم على العسكرة معهم، ولما ضعفت جنود الموحدين وقل عددهم انفردوا بالعسكر مع السلطان، وصار لهم بذلك اعتزاز وزبون على الدولة.

وكان المولى الأمير أبو عبد الله هذا قد أصاب منهم لأول أمره، وقتل محمد بن تميم، من أكابر مشيختهم، وكان حاجبه فارح

مولى ابن سيد الناس عريفاً عليهم من عهد أبيه الأمير أبي زكريا، وكان مستبداً على المولى أبي عبد الله، فلما نزل عن إمارته للسلطان أبي عنان سخط ذلك ونقمه عليه، وأسرها في نفسه ولم يبدها له، وسرحه أميره مع عمر بن علي الوطاسي لنقل حرمه ومتاعه وماعون داره، فوصل إليها وشكى إليه الصنهاجيون مغبة أمرهم في ثقل الوطأة وسوء الملكة فأشكاهم ودعاهم إلى الثورة ببني مرين، والقيام بدعوة الموحدين للمولى أبي زيد صاحب قسنطينة، فأجابوه وتواعدوا بالفتك بعمر بن علي بمجلسه من القصبة.

وتولى كبرها منصور بن الحاج من مشيختهم، وباكره بداره على عادة الأمراء، ولما أكب عليه للثم أطرافه طعنه بخنجره، وفر إلى بيته جريحاً فولجوا عليه واستلحموه.

وثارت الغوغاء من أهل البلد أول ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.

وركب الحاجب فارح وهتف الهاتف بدعوة المولى أبي زيد، وطيروا بالخبر إليه واستدعوه، فتثاقل عن إجابتهم، وبعث مولى من المعلوجي للقيام بأمره.

وبلغ الخبر إلى السلطان فاتهم المولى أبا عبد الله بمداخلة حاجبه، فاعتقله بداره.

واعتقل وفداً من ملاء بجاية كان ببابه، وثابتْ آراء المشيخة من أهل بجاية، وتمشت رجالاتهم وأولوا الرأي والشورى منهم في، الفتك بصنهاجة والعلج، وداخلهم القائد هلال ابن سيد الناس من المعلوجي، وعلي بن محمد بن ألميت حاجب الأمير أبي زكريا يحيى، ومحمد بن الحاجب أبي عبد الله بن سيد الناس وتواعدوا للفتك بفارح يوم وصول النائب من قبل صاحب قسنطينة، فجهروا بالنكير على الحاجب، ودعوه إلى المسجد ليؤامروه، ونذر أمرهم فاعتمدوا دار شيخ الفتيا أحمد بن إدريس فاقتحموا عليه الدار، وباشره مولاه محمد بن سيد الناس، فطعنه وأشواه، ورمى بشلوه في سقف الدار، وقطع رأسه، فبعثوا به إلى السلطان، وفر منصور بن الحاج وقومه صنهاجة من البلد، وكان بالمرسى أحمد بن سعيد القرمرني من حاشية السلطان، جاء في السفين لبعض حاجاته من تونس، ووافى مرسي بجاية يومئذ فأنزلوه واعصوصبوا عليه، وتنادوا بدعوة السلطان وطاعته، فأشار عليهم أحمد القرموني أن يبعثوا إلى قائد تدلس من مشيخة بني مرين يحياتن بن عمر بن عبد المؤمن الونكاسي، فاستدعوه ووصل إليهم في لُمّة من العسكر، وبعثوا بأخبارهم إلى السلطان وانتظروا.

فلما بلغ الخبر إلى السلطان أمر حاجبه محمد بن أبي عمرو بالنهوض إلى بجاية، فعسكر بساحة تلمسان.

وانتقى له السلطان من قومه وجنوده خمسة آلاف فارس أزاح عللهم، واستوفى أعطياتهم وسرحه فنهض من تلمسان بعد قضاء منسك الأضحى، وأغذ السير إلى بجاية، ولما نزل ببني حسن جمع له صنهاجة ثم خاموا عن اللقاء، ولحقوا بقسنطينة وأجازوا إلى تونس واختل الحاجب بمعسكرهم من خميس بتكلات، وخرج إليه المشيخة والوزراء، فتقبض على القائد هلال وأشخصه إلى السلطان ودخل البلد على التعبية، واحتل بقصبتها لمحرم فاتح أربع وخمسين وسبعمائة وسكن الناس وخلع على المشيخة، واختص علي بن ألميت ومحمد بن سيد الناس، واستظهر بهم على أمره، وتقبض على جماعة من الغوغاء نقباء علي من تحت أيديهم ممن يتهم بالمداخلة في التوثب يناهزون مائتين، واعتقلهم وأركبهم السفين إلى المغرب، فودع الناس وسكنوا وتوافت وفود الدواودة من كل جهة، فأجزل صلاتهم واقتضى على الطاعة رهنهم.

ووصل عامل الزاب يوسف، وسد فروجه وارتحل إلى تلمسان أول جمادى لشهرين من مدخله وأغذ السير بمن معه من العرب والوفود، وكنت يومئذ في جملتهم، وقد خلع علي وحملني وأجزل صلتي، وضرب لي الفساطيط، فوفدت في ركابه، وقدم تلمسان لأول جمادى الآخرة، فجلس السلطان للوفد واعترض ما جنب له من الجياد والهدية، وكان يوماً مشهوداً.

ثم أسنى السلطان جوائز الوفد، واختص يوسف بن مزني ويعقوب بن علي بمزيد من البر والصلة، وخصوصيات من الكرامة، واتمرهم في شأن إفريقية ومنازلة قسنطينة.

ورجع معهم الحاجب ابن أبي عمرو على كره منه لما نذكره من أخباره، وانصرفوا إلى مواطنهم لأول شعبان من سنة أربع وخمسين وسبعمائة وانقلبت معه بعد إسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان، والوعد الجميل بتجديد ما لي ولقومي ببلدنا من الأقطاع والله أعلم.

الخبر عن الحاجب ابن أبي عمرو وما عقد له السلطان على ثغر بجاية وعلى منازلة قسنطينة ونهوضه لذلك

سلف هذا الرجل من أهل المهدية من أجناد العرب من بني تميم بإفريقية، وانتقل جده علي إلى تونس باستدعاء السلطان

المستنصر، وكان فقيهاً عارفاً بالفتيا والأحكام، وقلده القضاء بالحضرة واستعمله على كتابة علامته في الرسائل والأوامر الكبرى والصغرى، فاضطلع بذلك، وهلك على حالة من التجلة والمنصب، وقلد ابنه عبد الله من بعده العلامتين أيام أبي حفص عمر ابن الأمير أبي زكريا كما كان لأبيه، فاضطلع بذلك وكان أخوه أحمد بن علي مسمتاً وقوراً منتحلاً للعلم، ونشأ ابنه محمد وقرأ بتونس، وتفقه على مشيختها.

ولما التاثت أمورهم وتلاشت أحوالهم، خرج محمد بن أحمد بن علي مبتغياً للرزق والمعاش، وطوحت به الطوائح إلى بلد القل.

وكان منتحلاً للطلب والكتابة، فاستعمل شاهداً بمرسى القل أيام رياسة الحاجب ابن غمر، وكانت له صحبة مع حسن بن محمد السبتي المتحل بنسب الشرف، وكانا رفيقين في مطارح اغترابهما، فسعى له في مرافقتة في الشهادة، فأسعفا واتصلا بابن غمر فحمد مذاهبهما.

ولما نزع الشريف عبد الوهاب زعيم تدلس إلى طاعة الموحدين أيام التياث أبي حمو بخروج محمد بن يوسف عليه، واعتلال الدولة، ودخل في أمر ابن غمر وجملته، فبعث محمد بن أبي عمرو إلى تدلس، واستعمل حسن الشريف في القضاء، ومحمد بن عمرو في شهادة الديوان.

فلما برئت الدولة من مرضها، واستفحل أمر أبي حمو وتغلب على تدلس، وجاء رئيس الفتيا ابن الإمام لاقتضاء طاعتها، وإنفاذ أهلها على السلطان كانوا في الوفد، واستقروا بتلمسان يومئذ واستعملا معاً في خطة القضاء متعاقبين أيام بني عبد الواد وأيام السلطان أبي الحسن.

وتعصب على ابن أبي عمرو أيام قضائه جماعة من مشيخة البلد، وسعوا به إلى السلطان أبي الحسن، وتظلموا فأشكاهم على علم ببراءته، واختصه بتأديب ولده فارس هذا وتعليمه، فأفرغ وسعه في ذلك وربي ولده محمد هذا الحاجب مع السلطان أبي عنان مرقاً جليلاً وألقى عليه محبته حتى إذا خلص له الملك رفع رتبة محمد بن أبي عمرو هذا، ورقاه من منزلة إلى أخرى حتى إذا أوفى به على سائر المراتب، وجعل إليه العلامة والقيادة والحجابة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر ألقاب دولته، وخصوصيات داره، فانصرفت إليه الوجوه، ووقعت ببابه أشراف من الأعياص والقبائل والشرفاء والعلماء، وسرب إليه العمال أموال الجباية تزلفا، وطال أمره واستيلاؤه على السلطان ونفس عليه رجال الدولة ووزراؤها ما أتاه الله من الحظ، حتى إذا خلا لهم وجه السلطان منه عند نهوضه إلى بجاية، حامت أعراض السعاية على مكانه فقرطست وألقى السلطان أذنه إلى استماعها.

فلما رجع من بجاية، وكانت له الدالة على السلطان، وجد عليه في قبول الألاقي.

ولقيه مغاضباً فتنكر له السلطان، ثم تجنى بطلب الغيبة عن الدولة، أن يعقد له على بجاية متوهماً أن السلطان ضنين به، فبادر السلطان إلى إسعافه، وبدا له ما يحتسب من الإعراض عنه، ورجع إلى الرغبة في الإقالة فلم يسعف.

وعقد له على حرب قسنطينة وحكمه في المال والجيش، وارتحل في شعبان من سنة أربع وخمسين وسبعمائة واحتل بجاية آخرها واشتى بها.

ونصب الموحدون تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المعتقل عندهم من لدن عهد المولى الفضل واعتقاله إياه، فنصبوه للأمر لتفريق كلمة بني مرين وأجمعوا له الآلة والفساطيط، وقام بأمره ميمون بن علي لمنافسته مع أخيه يعقوب، وسمع بخبره يعقوب، فأغذ السير إليه بحلله من بلاد الزاب، وفرق جمعهم وردهم على أعقابهم، وأحجزهم بالبلد.

ولما انصرم الشتاء وقضى منسك الأضحى، عسكر بساحة البلد، واعترض العساكر وأزاح عللهم، وفرق أعطياتهم، وارتحل إلى منازلة قسنطينة، واجتمع إليه الدواودة بحللهم، وجمع المولى أبو زيد صاحب قسنطينة من كان على دعوته من أحياء بونة وميمون بن علي بن أحمد وشيعته من الدواودة، وعقد عليهم لحاجبه نبيل وسرحه للقاء ابن أبي عمرو وعساكره، فأوقع بهم الحاجب لجمادى من سنة خمس وسبعمائة واكتسح أموالهم ونازل قسنطينة حتى تفادوا منه بتمكينه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب للأمر، فاقتادوه إليه وأشخصه إلى أخيه السلطان.

وأوفد المولى أبو زيد ابنه على السلطان أبي عنان، فتقبل وفادته وشكر مراجعته، وانكفأ الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية وأقام بها إلى أن هلك في المحرم فاتح سنة ست وستين وسبعمائة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد، وتفجعوا لمهلكه، وبعث السلطان دوابه لارتحال عياله وولده، ونقل شلوه إلى مقبرة أبيه بتلمسان، وسرح ابنه أبا زيان في عساكر بني مرين لمواراته بها.

وعقد على بجاية لعبد الله بن علي بن سعيد وزيره، فنهض إليها في شهر ربيع من سنة ست وخمسين وسبعمائة واستقر بها وتقتل ما حمده الناس من مذاهب الحاجب وسيره فيها على ما نذكره، وجهز العساكر إلى حصار قسنطينة إلى أن كان من فتحها ما

نذكره بعد إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن خروج أبي الفضل ابن السلطان بجبل السكسيوي ومكر عامل درعة به ومهلكه

كان السلطان أبو عنان بعد مهلك أبيه لحق به في جملته أخواه أبو الفضل محمد وأبو سالم إبراهيم، وتدبر في ترشيحهما وحذر عليهما مغبته، فاشخصهما إلى الأندلس، واستقرا بها في إيالة أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد ابن الرئيس أبي سعيد.

ثم ندم على ما أتاه من ذلك، فلما استولى على تلمسان والمغرب الأوسط، ورأى أن قد استفحل أمره واعتز بسلطانه، أوعز إلى أبي الحجاج أن يشخصهما إليه ليكون مقامهما لديه أحوط للكلمة من أن يعتمد على تفريقهما سماسرة الفتن.

وخشي أبو الحجاج عليهما غائلته فأبى من إسلامهما إليه، وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته وجوار المسلمين المجاهدين، فأحفظ السلطان كلمته، وأوعز إلى حاجبه محمد بن أبي عمرو بأن يخاطبه في ذلك بالتوبيخ واللائمة، فكتب له كتاباً أبدع فيه وقفني عليه الحاجب ببجاية أيام كوني معه، فقضيت العجب من فصوله وأغراضه، ولما قرأه أبو الحجاج دس إلى كبيرهما أبي الفضل باللحاق بالطاغية، وكانت بينهما ولاية ومخالصة منذ مهلك أبيه الهنشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، فنزع إليه أبو الفضل وأجاره، وجهز له أسطولاً إلى مراسي المغرب، وأنزله بساحل السوس، فلحق بالسكسيوي عبد اللّه ودعا لنفسه.

وبلغ الخبر إلى السلطان بين يدي مقدم حاجبه ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة فجهز عساكره إلى المغرب وعقد على حرب السكسيوي لوزيره فارس بن ميمون بن ودرار وسرحه إليه، فنهض من تلمسان لربيع سنة أربع وخمسين وسبعمائة وأغذ السير إلى السكسيوي ونزل بمخنقه، وأحاط به، واختط مدينة لمعسكره وتجهيز كتائبه بسفح جبله، وسماها القاهرة.

واشتد الحصار على السكسيوي وراسل الوزير في الرجوع إلى الطاعة المعروفة، وأن ينتبذ العهد إلى أبي الفضل، ففارقه وتنقل في جبال المصامدة.

ودخل الوزير فارس إلى أرض السوس فدوخ أقطاره، ومهد أنحاءه، وسارت الألوية والجيوش في جهاته، ورتب المسالح في ثغوره وأمصاره مثل إيفري وفوريان وتارودانت، وثقف أطرافه وسد فروجه.

وسار أبو الفضل في جبال المصامدة إلى أن انتهى إلى صناكة، وألقى بنفسه على ابن حميدي منهم مما يلي بلاد درعة، فأجاره وقام بأمره.

ونازله عامل درعة يومئذ عبد اللّه بن مسلم الزردالي من مشيخة دولة بني عبد الواد، كان اصطنعه السلطان أبو الحسن منذ تغلبه عليهم، وفتحه لتلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فاستقر في دولتهم، ومن جملة صنائعهم، فأخذ بمخنق ابن حميدي وأرهبه بوصول العساكر والوزراء إليه، وداخله في التقبض على أبي الفضل، وأن يبذل له في ذلك ما أحب من المال، فأجاب ولاطف عبد اللّه بن مسلم الأمير أبا الفضل ووعده من نفسه الدخول في الأمر، وطلب لقاءه، فركب إليه أبو الفضل. ولما استمكن منه عبد اللّه بن مسلم تقبض عليه، ودفع لابن الحميدي ما اشترط له من المال، وأشخصه معتقلاً إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعمائة فأودعه السجن، وكتب بالفتح إلى القاصية، ثم قتله لليال من اعتقاله خنقاً بمحبسه.

وانقضى أمر الخوارج، وتمهدت الدولة إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن انتقاض عيسى بن الحسن بجبل الفتح ومهلكه

كان عيسى بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق هذا من مشيخة بني مرين، وكان صاحب شوراهم لعهده وقد كنا قصصنا من أخبار أبيه الحسن عند ذكر دولة أبي الربيع.

وكان السلطان أبو الحسن قد عقد له على ثغور عمله بالأندلس وأنزله بجبل الفتح عندما أكمل بناءه وجعل إليه النظر في مسالح الثغور وتفريق العطاء على مسالحها، فطال عهد ولايته ورسخ فيها قدمه، وكان السلطان أبو الحسن يبعث عنه في الشورى متى عنت.

وحضره عند سفره إلى إفريقية وأشار عليه بالإقصار عنها، وأراه أن قبائل بني مرين لا تفي أعدادهم بمسالح الثغور إذا رتبت شرقا وغربا وعدوة البحر وأن إفريقية تحتاج من ذلك إلى أوفر الأعداد وأشد الشوكة لتغلب العرب عليها، ويعد عهدهم بالانقياد فأعرض السلطان عن نصيحته لما كان شره إلى تملكها، وصرفه إلى

مكان عمله بالثغور الأندلسية.

ولما كانت نكبة القيروان وانـتزى الأبناء بفاس وتلمسان، أجاز البحر لحسم الداء ونزل بغساسة ثم انتقل إلى وطنه بتازى وجمع قومه بني عسكر، وألفى السلطان أبا عنان قد هزم عساكر ابن أخيه وأخذ بمخنقه، فأجلب عليه وبيته بمعسكره من ساحة البلد الجديد وعقد السلطان أبو عنان على حربه لصنيعته سعيد بن موسى العجيسي وأنزله بثغر بلاد بني عسكر على واد بوحلوا.

وتواقفا كذلك أياماً حتى تغلب السلطان أبو عنان على البلد الجديد، ثم راسل عيسى بن الحسن في الرجوع إلى طاعته وأبطأ عنه صريخ السلطان أبي الحسن بإفريقية فراجعه واشترط عليه، فتقبل وسار إليه فتلقاه السلطان وامتلأ سروراً بمقدمه وأنزله قصوره وجعل الشورى إليه في مجلسه واستمرت على ذلك حاله.

ولما تمكنت حال ابن أبي عمرو بعد مهلك السلطان أبي الحسن وانفرد بخلة السلطان ومناجاته وحجب عن الخاصة والبطانة أحفظه ذلك ولم يبدها واستأذن السلطان في الحج فأذن له وقضى فرضه ورجع إلى محله من بساط السلطان سنة ست وخمسين وسبعمائة ولقي ابن أبي عمرو ببجاية، وتطارح عليه في أن يصلح حاله عند سلطانه، فوعده في ذلك، ولما وفد على السلطان وجده قد استبد في الشورى، وتنكر للخاصة والجلساء، فاستأذنه في الرجوع إلى مجلسه من الثغر لإقامة رسم الجهاد فأذن له.

وأجاز البحر إلى جبل الفتح من سنته، وكان صاحب ديوان العطاء بالجبل يحيى الفرقاجي، وكان مستظهراً على العمال، وكان ابنه أبو يحيى قد برم بمكانه.

فلما وصل عيسى إلى الجبل اتبعه السلطان بأعطيات المسالح مع مسعود بن كندوز من صنائع دولته، فسرب الفرقاجي إلى الضرب على يده شأنه مع ابنه أيام مغيبه، وأنف عيسى من ذلك فتقبض عليه، وأودعه المطبق، ورد ابن كندوز على عقبيه، وأركبه السفين من ليلته إلى سبتة، وجاهر بالخلعان، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان فقلق لذلك، وقام في ركائبه وقعد، وأوعز بتجهيز الأساطيل، وظن أنه قد تدبر من الطاغية وابن الأحمر وبعث أحمد بن الخطيب قائد البحر بطنجة عيناً على شأنهم، فوصل إلى مرسى الجبل.

وكان عيسى بن الحسن لما جاهر بالخلعان تمشت رجالات الثغر وعرفاء الرجل من غمارة الغزاة الموطنين بالجبل، وتحدثوا في شأنه، وامتنعوا من الخروج على السلطان، وتآمروا في إسلامه برمته.

وخلا به سليمان بن داود بن أعراب العسكري، كان من خواصه وأهل شوراه، وكان عيسى قد مكن قومه عند السلطان واستعمله على رندة، فلما جاهر عيس بالخلعان، وركب له ظهر الغدر، خالفه سليمان هذا إلى طاعة السلطان، وأنفذ كتبه وطاعته، واشتبه عليه الأمر فندم إذ لم يكن بنى أمره على أساس من الرأي، فلما احتل أسطول أحمد بن الخطيب بمرسى الجبل، خرج إليه وناشده الله والعهد أن يبلغ السلطان طاعته، والبراءة مما صنع أهل الجبل، ونسبها إليهم.

فعند ذلك خشي غمارة على أنفسهم، فثاروا به، ولجأ إلى الحصن فاقتحموه عليه وشدوه وابنه وثاقاً، وألقوه في أسطول ابن الخطيب، وأنزله بسبتة وطير للسلطان بالخبر، فخلع عليه وأمر خاصته فخلعوا عليه.

وبعث عمر ابن وزيره عبد الله بن علي وعمر بن العجوز وقائد جند النصاري، فأحضروهما بدار السلطان يوم منى من سنة ست وسبعمائة وجلس لهما السلطان ووقفا بين يديه وتنصلا واعتذرا، فلم يقبل منهما وأودعما السجن وشد وثاقهما، حتى قضى منسك الأضحى.

ولما كان خاتم سنته أمر بهما فجنبا إلى مصارعهما وقتل عيسى قعصاً بالرماح، وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف، وأبى من مداواة قطعه، فلم يزل يتشحط في دمه إلى أن هلك لثانية قطعه، وأصبحا مثلا في الآخرين، وعقد على جبل الفتح وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داود إلى أن كان من الأمر ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض السلطان إلى قسنطينة وفتحها ثم فتح تونس عقبها

لما هلك الحاجب محمد بن أبي عمرو، عقد السلطان على ثغور بجاية وما وراءها من بلاد إفريقية لوزيره عبد الله بن علي بن سعيد، وسرحه إليها وأطلق يده في الجباية والعطاء.

وكانت جبال ضواحي قسنطينة قد تملكها السلطان بما كانت الدواودة متغلبة عليها.

وكان عامة أهل ذلك الوطن قبائل سدويكش، وعقد السلطان عليهم لموسى بن إبراهيم بن عيسى، وأنزله بتاوريرت آخر عمل بجاية في أقاربه وولده وصنائعه.

ولما نزل ابن أبي عمرو بجاية وأخذ بمخنق قسنطينة، ثم ارتحل عنها على ما عقد من السلم مع المولى الأمير أبي زيد، أنزل موسى بن إبراهيم بميلة، فاستقر بها.

ولما ولي الوزير عبد الله بن علي أمر إفريقية، أوعز إليه السلطان بمنازلة قسنطينة، فنازلها سنة سبع وخمسين وسبعمائة وأخذ بمخنقها، ونصب المنجنيق عليها، واشتد الحصار بأهلها، وكادوا أن يلقوا باليد لولا ما بلغ المعسكر من الإرجاف بمهلك السلطان فأفرجوا عنها، ولحق المولى أبو زيد ببونة، وأسلم البلد إلى أخيه مولانا أمير المؤمنين أبي العباس أيده الله تعالى، عندما وصل إليه من إفريقية، كان بها مع العرب طالباً ملكهم بتونس، ومجلباً بهم على ابن تافراكين منذ نازلوا تونس سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة كما مر، فلما رجع الآن إلى قسنطينة مع خالد بن حمزة، داخل المولى أبا زيد في خروجه إلى حصار تونس، وإقامة مولانا أبي العباس بقسنطينة، فأجاب لذلك وخرج معه، ودخل مولانا أبو العباس إلى قسنطينة، فدعا لنفسه، وضبط قسنطينة وكان مدلاً ببأسه وإقدامه، وداخله بعض المنحرفين من بني مرين من أولاد يوسف رؤساء سدويكش في تبييت موسى بن إبراهيم بمعسكره من ميلة، فبيتوه وانتهبوا معسكره وقتلوا أولاده وخلصوا إلى تاوريرت، ثم إلى بجاية، ولحق بمولانا السلطان مفلولاً.

ونكر السلطان على وزيره عبد الله بن علي ما وقع بموسى بن إبراهيم، وأنه قصر في إمداده، فسرح شعيب بن ميمون وتقبض عليه، وأشخصه إلى السلطان معتقلاً، وعقد على بجاية مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود من صنائع دولته، وفي خلال ذلك راسل المولى أبو زيد الحاجب أبا عبد الله بن تافراكين المتغلب على عمه إبراهيم في النزول لهم عن بونة، والقدوم عليهم بتونس، فقبلوه وأحلوه محل ولي العهد، واستعملوا على بونة من صنائعهم، ولما بلغ خبر موسى بن إبراهيم إلى السلطان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعمائة اعتزم على الحركة إلى إفريقية، واضطرب معسكره بساحة البلد الجديد، وبعث في الحشد إلى مراكش.

وأوعز إلى بني مرين بأخذ الأهبة للسفر، وجلس للعطاء والاعتراض من لدن وصول الخبر إليه إلى شهر ربيع من سنة ثمان وسبعمائة.

ثم ارتحل من فاس وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر، وسار في الساقه على التعبية إلى أن احتل ببجاية، وتلوم لإزاحة العلل، ونازل الوزير قسنطينة.

ثم جاء السلطان على أثره ولما أطلت راياته، وماجت الأرض بعساكره، ذعر أهل البلد، وألقوا بأيديهم إلى الإذعان، وانفضوا من حول سلطانهم مهطعين إلى السلطان، وتحيز صاحب البلد في خاصته إلى القصبة.

ووصل أخوه المولى الفضل يطلب الأمان، فبذله السلطان لهم وخرجوا، وأنزلهم بمعسكره أياماً، ثم بعث بالسلطان في الأسطول إلى سبتة فاعتقله بها إلى أن كان من أمره ما نذكره بعد.

وعقد على قسنطينة لمنصور بن الحاج مخلوف الياباني من مشيخة بني مرين وأهل الشورى منهم، وأنزله بالقصبة في شعبان من سنته، ووصل إليه بمعسكره من ساحة قسنطينة بيعة يحيى بن يملول صاحب توزر، وبيعة علي بن الخلف صاحب نفطة، ووفد ابن مكي فجدد طاعته.

ووصل إليه أولاد مهلهل أمراء الكعوب وأقتال بني أبي الليل يستحثونه لملك تونس، فسرح معهم العساكر وعقد عليها ليحيى بن رحو بن تاشفين، وبعث أسطوله في البحر مدداً لهم، وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف الأبكم، وساروا إلى تونس وأخرج الحاجب أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا إسحاق إبراهيم مولانا السلطان أبي يحيى مع أولاد أبي الليل، وجهز له العساكر لما أحس بقدوم عساكر السلطان.

ووصل الأسطول إلى مرسى تونس فقاتلهم يوماً أو بعض يوم، وركب الليل إلى المهدية فتحصن بها.

ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان وسبعمائة وأقاموا بها دعوته.

واحتل يحيى بن رحو بالقصبة، وأنفذ الأوامر، وكتبوا إلى السلطان بالفتح.

ونظر السلطان بعد ذلك في أحوال الوطن، وقبض أيدي العرب من رياح عن الأتاوة التي يسمونها الخفارة فارتابوا، وطالبهم بالرهن فأجمعوا على الخلاف، فأرهف لهم حده، وتبين يعقوب بن علي أميرهم مكره، فخرج معهم ولحقوا جميعاً بالزاب، وارتحل في أثرهم، وسار يوسف بن مزني عامل الزاب ينفض الطريق أمامه حتى نزل بعسكرة.

ثم ارتحل إلى طولقة فتقبض على مقدمها عبد الرحمن بن أحمد بإشارة ابن مزني، وخرب حصون يعقوب بن علي، وأجفلوا إلى القفر أمامه، ورجع عنهم.

وحمل له ابن مزني جباية الزاب بعد أن وعد عامة معسكره بالقرى من الحنطة والأدم واللحمان والعلوفة لثلاث ليال نفذت في ذلك، وكافأه السلطان على صنيعه، فخلع عليه وعلى ولده

وأسنى جوائزهم ورجع إلى قسنطينة، واعتزم على الرحلة إلى تونس.

وضاق ذرع العساكر بشأن النفقات والأبعاد في المذاهب وارتكاب الخطر في دخول إفريقية، فتمشت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان.

وداخلوا الوزير فارس بن ميمون فوافقهم عليه وأذن المشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا، ونمي الخبر إلى السلطان أنهم تآمروا في قتله.

ونصب إدريس بن عثمان بن أبي العلاء للأمر، فاسرها في نفسه ولم يبدها لهم.

ورأى قلة العساكر وعلم بانفضاضهم، فكر راجعاً إلى المغرب بعد أن ارتحل عن قسنطينة مرحلتين إلى المشرق، وأغذ السير إلى فاس، واحتل بها غرة ذي الحجة من سنته.

وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون، اتهمه بمداخلة بني مرين في شأنه، وقتله رابع أيام التشريق قعصا بالرماح، وتقبض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم وأودع منهم السجن، وبلغ إلى الجهات خبر رجوعه من قسنطينة إلى المغرب فارتحل أبو محمد بن تافراكين من المهدية إلى تونس، ولما أطل عليها ثار شيعته بالبلد على من كان بها من عساكر السلطان، وخلصوا إلى السفين، فنجوا إلى المغرب، وجاء على أثرهم يحيى بن رحو بمن معه من العساكر كان معه أولاد مهلهل، بناحية الجريد لاقتضاء جباياتهم، واجتمعوا بباب السلطان، وأرجأ حركته إلى اليوم القابل، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر إلى إفريقية

لما رجع السلطان من إفريقية ولم يستتم فتحها، بقي في نفسه منها شيء، وخشي على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الدواودة المخالفين، فأهمه شأنهم، واستدعى سليمان بن داود من مكانه بثغور الأندلس، وعقد له على وزارته، وسرحه في العساكر إلى إفريقية، فارتحل إليها في ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعمائة وكان يعقوب بن علي لما كشف وجهه في الخلاف، أقام السلطان مكانه أخاه ميمون بن علي منازعه، وقدمه على أولاد محمد من الدواودة، وأحله بمكانه من رياسة البدو والضواحي، ونزع إليه عن أخيه يعقوب الكثرة من قومه، وتمسك بطاعة السلطان طوائف من أولاد سباع بن يحيى وكبيرهم يومئذ عثمان بن يوسف بن سليمان، فانحاشوا جميعاً للوزير ونزلوا على معسكره بحللهم.

وارتحل السلطان في أثره حتى احتل بتلمسان فأقام بها لمشارفة أحواله منها، واحتل الوزير سليمان بوطن قسنطينة.

وأوعز السلطان إلى عامل الزاب يوسف بن مزني بأن تكون يده معه، وأن يؤامره في أحوال الدواودة لرسوخه في معرفتها، فارتحل إليه من بسكرة، ونازلوا جبل أوراس واقتضوا جبابته ومغارمه، وشردوا المخالفين من الدواودة عن العيث في الوطن، فتم غرضهم من ذلك.

وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أول أوطان إفريقية من آخر مجالات رياح، وانكفأ راجعاً إلى المغرب.

ووافى السلطان بتلمسان، ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة، فوصلهم السلطان وخلع عليهم وحملهم، وفرض لهم العطاء بالزاب وكتب لهم به، وانقلبوا إلى أهلهم، ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزني، أوفده أبوه بهدية السلطان من الخيل والرقيق والدرق فتقبلها السلطان وأكرم وفادته وأنزله، واستصحبه إلى فاس ليريه أحوال كرامته، ويستبلغ في الاحتفاء به، واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة والله أعلم.

الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان ونصب السعيد للأمر باستبداد الوزير الحسن بن عمر في ذلك

لما وصل السلطان إلى دار ملكه بفاس، احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى إذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض، وأعجله طائف الوجع عن الجلوس يوم العيد على العادة، فدخل إلى قصره ولزم فراشه، واشتد به وجعه، وأطاف به النساء يمرضنه.

وكان ابنه أبو زيان ولي عهده، وكان وزيره موسى بن عيسى العقولي من صنائع دولتهم وأبناء وزرائهم، قد عقد له السلطان على وزارته واستوصاه به، فتعجل الأمر، ودخل رؤوس بني مرين في الانحياش إلى أميرهم والفتك بالوزير الحسن بن عمر وداخله في ذلك عمر بن ميمون لعداوة بينهما وبين الوزير فخشيهم الحسن بن عمر على نفسه.

وفاوض عليه أهل المجلس بذات صدره، وكانت نفرتهم عن ولي العهد مستحكمة لما بلوا من سوء دخلته وشر ملكته، فاتفقوا على تحويل الأمر عنه.

ثم نمي لهم أن السلطان مشرف على الهلكة لا محالة، وأنه موقع بهم من قبل مهلكه، فأجمعوا أمرهم على الفتك به والبيعة لأخيه السعيد طفلاً خماسياً، وباكروا دار السلطان وتقبضوا على وزيره موسى بن عيسى وعمر بن ميمون فقتلوهما وأجلسوا السعيد للبيعة.

وأوعز وزيره مسعود بن رحو بن ماساي بالتقبض على أبي زيان من نواحي القصر، فدخل إليه وتلطف في إخراجه من بين الحرم، وقاده إلى أخيه فبايعه وتله إلى بعض حجر القصر، فأتلف فيها مهجته.

واستقل الحسن بن عمر بالأمر يوم الأربعاء الرابع والعشرين لذي الحجة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة والسلطان أثناء ذلك على فراشه يجود بنفسه.

وارتقب الناس دفنه يوم الخميس والجمعة بعده، فلم يدفن فارتابوا، وفشا الكلام وارتاب الجماعة، فأدخل الوزير -زعموا- إليه بمكانه من بيته من غطه حتى أتلفه.

ودفن يوم السبت، وحجب الحسن بن عمر الولد السعيد المنصوب للأمر، وأغلق عليه بابه، وتفرد بالأمر والنهي دونه.

ولحق عبد الرحمن ابن السلطان أبي عنان بجبل كاي يوم بيعة أخيه، وكان أسن منه وإنما آثروه لمكان ابن عمه مسعود بن ماساي من وزارته، فبعثوا إليه من لاطفه واستنزله على الأمان، وجاء به إلى أخيه فاعتقله الحسن بالقصبة من فاس.

وبعث عن أبناء السلطان الأصاغر الأمراء بالثغور: فجاء المعتصم من سجلماسة، وامتنع المعتمد بمراكش، وكان بها كفالة عامر بن محمد الهنتاتي استوصاه به السلطان وجعله هنالك لنظره، فمنعه من الوصول، وخرج به من مراكش إلى معقله من جبل هنتاتة، وجهز الوزير العساكر لمحاربته، ولم يزل هنالك إلى أن استنزله عمه السلطان أبو سالم عند استيلائه على ملك المغرب، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن تجهيز العساكر إلى مراكش ونهوض الوزير سليمان بن داود لمحاربة عامر بن محمد بن علي

كان عامر بن محمد بن علي شيخ هنتاتة من قبائل المصامدة، وكان السلطان يعقوب قد استعمل أباه محمد بن علي على جبايتهم، والسلطان أبو سعيد استعمل عمه موسى بن علي وربي عامر هذا في كفالة الدولة، وسار في جملة السلطان إلى إفريقية، وولاه السلطان أحكام الشرطة بتونس.

ولما ركب البحر إلى المغرب أركب حرمه وحظاياه في السفين، وجعلهم إلى نظر عامر بن محمد.

وأجازوا البحر إلى الأندلس فنزلوا المرية وبلغهم غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن وعساكره، فأقام بهم بمكانه من المرية، وبعث السلطان أبو عنان عنه، فلم يجب داعيه وفاء ببيعة أبيه، حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بدارهم بالجبل، ورعى لهم السلطان أبو عنان إجارتهم لأبيه، حين لفظته البلاد وتحاماه الناس، أجمع أمره على الوفادة عليه، فوفد بمن معه من الحرم.

وأكرم السلطان أبو عنان وفادته وأحسن نزله، ثم عقد له على جباية المصامدة سنة أربع وخمسين وسبعمائة وبعثه لها من تلمسان، فاضطلع بهذه الولاية وأحسن الغناء فيها، والكفاية عليها، حتى كان السلطان أبو عنان يقول: وددت لو أصبت رجلاً يكفيني ناحية المشرق من سلطاني كما كفاني عامر بن محمد ناحية الغرب، واتورع، ونافسه الوزراء في مقامه ذلك عند السلطان ورتبته.

وانفرد الحسن بن عامر آخر الأمر بوزارة السلطان، واشتدت منافستهم وانتهت إلى العداوة والسعاية.

وكان السلطان بين يدي مهلكه ولى أبناءه الأصاغر على أعمال ملكه، فعقد لابنه محمد المعتمد على مراكش، واستوزر له، وجعله إلى نظر عامر واستوصاه به.

فلما هلك السلطان وانتقل الحسن بن عمر بالأمر ونصب السعيد للملك، استقدم الأبناء من الجهات، فبعث عن المعتمد بمراكش فأبى عليه عامر من الوفادة عليهم، وصعد به إلى معقله من جبل هنتاتة، وبلغ الحسن بن عمر خبره، فجهز إليه العساكر وأزاح عللهم، وعقد على حربه للوزير سليمان بن داود مساهمة في القيام بالأمر، وسرحه في المحرم سنة ستين وسبعمائة، فأغذ

السير إلى مراكش واستولى عليها، وصمد إلى الجبل فأحاط به، وضيق على عامر وطاول منازلته.

وأشرف على اقتحام معقله إلى أن بلغه خبر افتراق بني مرين، وخروج منصور بن سليمان من أعياص الملك على الدولة، وأنه منازل للبلد الجديد، فانفض المعسكر من حوله وتسابقوا إلى منصور بن سليمان، فلحق به الوزير سليمان بن داود وتنفس المختنق عن عامر، إلى أن استولى السلطان أبو سالم على ملك المغرب في شعبان من سنة ستين وسبعمائة واستقدم عامر والمعتمد ابن أخيه من مكانهم بالجبل، فقدم عليه وأسلمه إليه كما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن ظهور أبي حمو بنواحي تلمسان وتجهيز العساكر لمدافعته، ثم تغلبه عليها وما تخلل ذلك من الأحداث

كان أبناء عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن هؤلاء أربعة كما ذكرناه في أخبارهم، وكان يوسف كبيرهم وكان سكوناً منتحلاً لطرق الخير لا يريد علواً في الأرض، ولما هلك أخوه عثمان بتلمسان، عقد له على تنس، وكان ابنه موسى متقبلاً مذهبه في السكون والدعة، ومجانبة أهل الشر، ولما تغلب السلطان أبو عنان عليهم سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وفر أبو ثابت إلى قاصية الشرق، واهتبلتهم قبائل زواوة وأرجلوهم عن خيلهم سعوا على أقدامهم، وانتبذ أبو ثابت وأبو زيان ابن أخيه أبي سعيد وموسى ابن أخيه يوسف ووزيرهم يحيى بن داود ناحية عن قومهم، وسلكوا غير طريقهم، وتقبض على أبي ثابت ويحيى بن داود محمد بن عثمان، وخلص موسى إلى تونس فنزل على الحاجب أبي محمد بن تافراكين وسلطانه خير نزل، وأجاره مع فل من قومه خلصوا إليهم وأسنوا جرايتهم.

وبعث السلطان أبو عنان فيهم إلى ابن تافراكين فأبى من إسلامهم وجاهر بإجارتهم على السلطان.

ولما استولت عساكر السلطان على تونس، وأجفل عنها سلطانها أبو إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى، خرج موسى بن يوسف هذا في جملته، ولما رجع السلطان إلى المغرب صمد المولى أبو إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى، وابن أخيه المولى أبو زيد صاحب قسنطينة مع يعقوب بن علي وقومه من الدواودة إلى منازلة قسنطينة وارتجاعها، وسار في جملتهم موسى بن يوسف هذا فيمن كان عندهم من زناتة قومه وكان بنو عامر من زغبة خارجين على السلطان أبي عنان منذ غلبه بنو عبد الواد على تلمسان وكانت رياستهم إلى صغير بن عامر بن إبراهيم، فلحق بإفريقية في قومه ونزلوا على يعقوب بن علي، وجاوروه بحللهم وظعنهم، فلما أفرجوا عن قسنطينة بعد امتناعها، واعتزم صغير على الرحلة بقومه إلى وطنهم من صحراء المغرب الأوسط، دعوا موسى ين يوسف هذا إلى الرحلة معهم لينصبوه للأمر، ويجلبوا به على تلمسان، فخلى الموحدون سبيله، وأعانوه بما اقتدروا عليه لوقتهم، وعلى حال سفرهم من آلة وفسطاط وارتحل معهم بني عامر، وارتحل مع صولة بن يعقوب بن علي وزيان بن عثمان بن سباع من أمراء الدواودة، ودغار بن عيسى في حلله من بني سعيد إحدى بطون رياح وأغذ السير إلى المغرب للعيث في نواحيه.

وجمع لهم أقتالهم من سويد أولياء السلطان والدولة، والتقوا بقبلة تلمسان، فانهزمت سويد وهلك عثمان بن كبيرهم ونزمار، وكان مهلك السلطان في خلال ذلك.

وكان السلطان حين استعمل الأبناء على الجهات، عقد لمحمد المهدي من أولاده على تلمسان.

ولما اتصل الخبر بوفاة السلطان بالعرب، أغذوا السير إلى تلمسان، وملكوا ضواحيها، وجهز الحسن بن عمر إليها عسكراً عقد عليه وعلى الحامية الذين بها لسعيد بن موسى العجيسي من صنائع السلطان، وسرحه إليها، وسار في جملته أحمد بن مزني فاصلاً إلى عمله بعد أن وصله وخلع عليه وحمله، وسار سعيد بن موسى في العساكر إلى تلمسان، فاحتل بها في صفر من سنة ستين وسبعمائة وزحف إليهم جموع بني عامر وسلطانهم أبو موسى بن يوسف، فغلبوهم على الضاحية وأحجزوهم بالبلد.

ثم نازلوهم الحرب أياما، واقتحموها عليهم لثمان خلون من ربيع، واستباحوا من كان بها من العسكر، وامتلأت أيديهم من أسلابهم ونهابهم.

وخلص سعيد بن موسى بابن السلطان إلى حلة صغير بن عامر فأجاره ومن جاء على أثره من قومه، وأوفد معهم رجالات من بني عامر ينفضون الطريق أمامه إلى أن أبلغوه مأمنه من دار ملكهم، واستولى أبو حمو على ملك تلمسان، واستأثر بالهدية التي ألفى بمودعها، كان السلطان انتقاها وبعث بها إلى صاحب برشلونة بطرة بن ألقنط وبعث إليه بها بفرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام ذهبيين ثقيلين.

فاتخذ أبو حمو ذلك الفرس لركوبه، وصرف الهدية في مصارفه ووجوه مذاهبه، والله غالب على أمره.

الخبر عن نهوض الوزير مسعود بن ماساي إلى تلمسان وتغلبه عليها ثم انتقاضه ونصبه منصور بن سليمان للأمر

لما بلغ الوزير الحسن ين عمر خبر تلمسان واستيلاء أبي حمو عليها، جمع مشيخة بني مرين وأمرهم بالنهوض إليها، فأبوا عليه من النهوض بنفسه، وأشاروا بتجهيز العساكر ووعدوه بمسيرهم كافة، ففتح ديوان العطاء وفرق الأموال وأسنى الصلات وأزاح العلل، وعسكر بساحة البلد الجديد.

ثم عقد عليهم لمسعود بن رحو بن ماساي وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في الألوية والعساكر.

وكان في جملته منصور بن سليمان بن منصور بن أبي مالك بن يعقوب بن عبد الحق، وكان الناس يرجون بأن سلطان المغرب صائر إليه بعد مهلك أبي عنان، وشاع ذلك على ألسنة الناس وذاع وتحدث به السمر والندمان، وخشي منصور على نفسه لذلك، فجاء إلى الوزير وشكا إليه ذلك، فانتهره بأن لا يختلج بفكره مثل هذا الوسواس انتهاراً خلا من وجه السياسة، فازدجر واقتصر.

ولقد شهدت هذا الموطن، ورحمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه.

ورحل الوزير مسعود في التعبية وأفرج أبو حمو عن تلمسان، ودخلها مسعود في ربيع الثاني واستولى عليها.

وخرج أبو حمو إلى الصحراء، وقد اجتمعت إليه جموع العرب من زغبة والمعقل.

ثم خالفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بأنكاد بحللهم وظواعنهم، وجهز مسعود بن رحو إليهم عسكراً من جنوده انتقى فيه مشيخة من بني مرين وأمرائهم، وعقد عليهم لعامر ابن عمه عبو بن ماساي، وسرحهم فزحفوا إليه بساحة وجدة، وصدقهم العرب الحملة، فانكشفوا واستبيح معسكرهم، واستلبت مشيختهم، وأرجلوا عن خيلهم، ودخلوا إلى وجدة عراة.

وبلغ الخبر إلى بني مرين بتلمسان، وكان في قلوبهم مرض من استبداد الوزير عليهم وحجزه لسلطانهم، فكانوا يتربصون بالدولة.

فما بلغ الخبر وجاض الناس لها جيضة الحمر، خلص بعضهم نجيًا بساحة البلد، واتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيان ابن السلطان أبي يعقوب فبايعوه.

وانتهى الخبر إلى الوزير مسعود بن رحو، وكان متحيناً السلطان منصور بن سليمان فاستدعاه وأكرهه على البيعة، وبايعه معه الرئيس الأكبر من بني الأحمر، وقائد جند النصارى القمدوز، وتسايل إليه الناس، وتسامع الملأ من بني مرين بالخبر، فبادروا إليه من كل جانب.

وذهب يعيش بن أبي زيان لوجهه، فركب البحر وخلص إلى الأندلس، وانعقد الأمر لمنصور بن سليمان.

واجتمع بنو مرين على كلمته، وارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب.

واعترضتهم جموع العرب في طريقهم فأوقعوا بهم، وامتلأت أيديهم من أسلابهم وظعنهم.

وأغذوا السير إلى المغرب، واحتلوا بسبوا في منتصف جمادى الآخرة، وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر فاضطرب معسكره بساحة البلد، وأخرج السلطان في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه.

ولما غشيهم الليل انفضوا عنه ونزع الملأ إلى السلطان منصور بن سليمان، فأوقد الشموع وأذكى النيران حول الفسطاط، وجمع الموالي والجند وأركب السلطان ودخل إلى قصره، وانحجز بالبلد الجديد، وأصبح منصور بن سليمان فارتحل في التعبية حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين لجمادى، واضطرب معسكره بها، وغدا عليها بالقتال وشد عليها الحملات، وامتنعت ليومها، ثم جمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار.

واجتمعت إليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة، ولحقت به كتائب بني مرين التي كانت مجمرة بمراكش لحصار عامر مع الوزير سليمان بن داود فاستوزره، وأطلق عبد الله بن علي وزير السلطان أبي عنان من معتقله فاستوزره أيضاً. وأوعز بإطلاق مولانا أبي العباس صاحب قسنطينة من معتقله بسبتة، فخلص منه خلوص الإبريز بعد السبك.

وأمر منصور بن سليمان بتسريح السجون، فخرج من كان بها من دعار بجاية وقسنطينة، وكانوا معتقلين من لدن استحواذ السلطان أبي عنان على بلادهم.

وانطلقوا إلى مواطنهم، وأقام على البلد الجديد يغاديها

بالقتال ويراوحها ونزع عنه إلى الوزير الحسن بن عمر طائفة من بني مرين، ولحق آخرون ببلادهم، وانتقضوا عليه ينتظرون مآل أمره.

ولبث على هذه الحال إلى غرة شعبان، فكان من قدوم السلطان أبي سالم لملك سلفه بالمغرب، واستيلائه عليه، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نزول المولى أبي سالم بجبال غمارة واستيلائه على ملك المغرب ومقتل منصور بن سليمان

كان السلطان أبو سالم بعد مهلك أبيه واستقراره بالأندلس، وخروج أبي الفضل بالسوس لطلب الأمر، ثم ظفر السلطان أبي عنان به ومهلكه كما ذكرنا، قد تورع وسكن وسالمه السلطان.

ثم هلك سلطان الأندلس أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة يوم الفطر بمصلى العيد طعنه أسود مدسوس كان ينسب إلى أخيه محمد من بعض إماء قصرهم.

ونصبوا للأمر ابنه محمداً وأحجبه مولاه رضوان، واستبد عليه، وكان للسلطان أبي عنان اعتزاز كما ذكرناه، وكان يؤمل ملك الأندلس.

وأوعز إليهم عندما طرقه من طائف المرض سنة سبع وخمسين وسبعمائة أن يبعثوا إليه طبيب دارهم إبراهيم بن زرزر الذمي، وامتنع من ذلك اليهودي، واعتذروا عذره فنكر لهم السلطان قبله، ولما وصل إلى فاس من فتح قسنطينة وإفريقية وتقبض على وزيره والمشيخة من قبله، تجنياً عليهم إذ لم يبادر السلطان بنفسه وحاجبه للتهنئة.

وأظلم الجو بينهم، واعتزم على النهوض إليهم وكانوا منحاشين بالجملة إلى الطاغية بطرة بن أدفونش صاحب قشتالة، منذ مهلك أبيه الهنشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ثم استبد رضوان على الدولة بعد مهلك أبي الحجاج، فكانت له صاغية إليهم، ظاهرها النظر للمسلمين بمسالمة عدوهم، وكان السلطان أبو عنان يعتد ذلك عليهم، وعلم أنه لا بد أن يمدهم بأساطيله ويدافعوه عن الإجازة إليهم.

وكان بين الطاغية بطرة وبين قمص برشلونة فتنة هلك فيها أهل ملتهم، فصرف السلطان قصده إلى قمص برشلونة وخاطبه في اتصال اليد على أدفونش، واجتماع أسطول المسلمين وأسطول القمص بالزقاق، وضربوا بذلك الموعد وأتحفه السلطان بهدية سنية من متاع المغرب وماعونه، ومركب ذهبي صنيع، ومقرب من جياده وأنفذها إليه، فبلغت تلمسان، وهلكت قبل وصولها إلى محلها، ولما هلك السلطان أبو عنان أمل أخوه المولى أبو سالم ملك أخيه، وطمع في مظاهرة أهل الأندلس له على ذلك لما كان بينهم وبين أخيه، واستدعاه أشياع من أهل المغرب، ووصل البعض منهم إليه بمكانه من غرناطة، وطلب الإذن من رضوان في الإجازة، فأبى عليه، فأحفظه ذلك.

ونزع إلى ملك قشتالة متطارحاً بنفسه عليه أن يجهز له الأسطول للإجازة إلى المغرب، فاشترط عليه وتقبل شرطه.

وأجازه في أسطوله إلى مراكش، فامتنع عامر من قبوله لما كان فيه من التضييق والحصار بحصة سليمان بن داود كما ذكرناه، فانكفأ راجعاً على عقبه.

فلما حاذى طنجة وبلاد غمارة وألقى بنفسه إليهم، ونزل بالصفيحة من بلادهم، واشتملت عليه قبائلهم، وتسايلوا إليه من كل حدب وبايعوه على الموت، وملك سبتة وطنجة، وبها يومئذ السلطان أبو العباس بن أبي حفص صاحب قسنطينة لحق بها بعد الخروج من اعتقاله بسبتة كما ذكرناه، فاختصه المولى أبو سالم بالصحابة والخلة، وألفه في اغترابه ذلك، إلى أن استولى على ملكه، وألقى بطنجة الحسن بن يوسف الورتاجني، وكاتب ديوان الجند أبا الحسن بن علي بن السعود، والشريف أبا القاسم التلمساني، كان منصور بن سليمان ارتاب بهم واتهمهم بمداخلة الحسن بن عمر بمكانه من البلد الجديد، فصرفهم من معسكره.

إلى الأندلس، فوافوا المولى أبا سالم عند استيلائه على طنجة، فساروا في إيالته، واستوزر الحسن بن يوسف، واستكتب لعلامته أبا الحسن علي بن السعود، واختص الشريف بالمجالسة والمراكبة.

ثم قام أهل الثغور الأندلسية بدعوته، وأجاز يحيى بن عمر صاحب جبل الفتح إليه بمن كان معه من المعسكر، وطالت حصاة المولى أبي سالم واتسع معسكره، وبلغ خبره إلى الثائر على البلد الجديد منصور بن سليمان، فجهز عسكراً لدفاعه وعقد عليه لأخويه عيسى وطلحة وأنزلهم قصر كتامة، وقاتلوه فهزموه، واعتصم بالجبل وبادر الحسن بن عمر من وراء الجدران فبعث إليه بطاعته، ووعده بالتمكن من دار ملكه.

وداخل بعض أشياع المولى أبي سالم مسعود بن رحو بن ماساي وزير منصور في النزوع إلى السلطان، وكان قد ارتاب بمنصور وابنه علي، فنزغ وانفض الناس من حول منصور، وتخاذل

أشياعه من بني مرين، ولحق ببادس من سواحل المغرب.

ومشى أهل المعسكر بأجمعهم في ساقاتهم ومواكبهم على التعبية، فلحقوا بالسلطان أبي سالم واستغذّوه إلى دار ملكه، فأغذ السير وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد عن الأمر، وأسلمه إلى عمه وخرج إليه فبايعه.

ودخل السلطان إلى البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعمائة واستولى على ملك المغرب، وتوافت وفود النواحي بالبيعات، وعقد للحسن بن عمر على مراكش، وجهزه إليها بالعساكر ريبة بمكانه.

واستوزر مسعود بن رحو بن ماساي والحسن بن يوسف الورتاجني، واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبد اللّه محمد بن أحمد بن مرزوق، وجعل إلى مؤلف هذا الكتاب توقيعه وكتابة سره.

وكنت نزعت إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرائس لما رأيت من اختلال أحواله، ومصير الأمر إلى السلطان، فأقبل علي وأنزلني بمحل البنوه واستخلصني لكتابته.

واستوسق أمره بالمغرب وتقبض شيعة السلطان ببادس على منصور بن سليمان وابنه علي وقادوهم مصفدين إلى سدته، وأحضرهم ووبخهم، وجنبوا إلى مصارعهم، فقتلوا قعصاً بالرماح آخر شعبان من سنته.

وجمع الأبناء والقرابة المرشحين من ولد أبيه وعمه، وأشخصهم إلى رندة من ثغورهم بالأندلس، ووكل بهم من يحرسهم، ونزع محمد بن أبي أخيه أبي عبد الرحمن منهم إلى غرناطة، ثم لحق منها بالطاغية، واستقر لديه حتى كان من تملكه المغرب ما نقصه، وهلك الباقون غرقاً في البحر بإيعاز السلطان بذلك بعد مدة من سلطانه، أركبهم السفين إلى المشرق، ثم غرقهم، وخلص الملك من الخوارج والمنازعين، واستوسق له الأمر، واللّه غالب على أمره.

واحتفل السلطان في كرامة مولانا السلطان أبي العباس، وشاد ببره وأوعز باتخاذ دار عامر بن فتح اللّه وزير أبيه لنزله، ومهد له المجلس لضيق أريكته، ووعده بالمظاهرة على ملكه إلى أن بعثه من تلمسان عند استيلائه عليها، كما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان

لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة ونصب ابنه محمد للأمر، واستبد عليه رضوان مولى أبيه، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته.

فلما عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم، وكان له صهر من ابن عمه محمد بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد في شقيقه فكان يدعوه سرًّا إلى القيام بأمره متى أمكنته فرصة في الدولة، فخرج السلطان إلى بعض منتزهاته برياضه، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين من رمضان من سنة ستين وسبعمائة في أوشاب، جمعهم من الطغام لثورته.

وعمد إلى دار الحاجب رضوان فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمه وبناته، وقربوا إلى إسماعيل فرسه فركبه فأدخلوه القصر وأعلنوا بيعته، وقرعوا طبولهم بسور الحمراء، وفر السلطان من مكانه بمتنزهه بوادي آش وغدا الخاصة والعامة على إسماعيل؛ فبايعوه واستبدّ عليه هذا الرئيس ابن عمه. ثم قتله لأشهر من بيعته، واستقل بسلطان الأندلس ولما لحق أبو عبد اللّه بوادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان، واتصل الخبر بالسلطان المولى أبي سالم، امتعض لمهلك رضوان، وخلع السلطان رعيًا لما سلف له في جوارهم، وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه، فوصل إلى الأندلس وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد اللّه بن الخطيب، كانوا اعتقلوه لأول أمره لما كان رديفا للحاجب رضوان وركنا لدولة المخلوع.

فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه فأطلقوه ولحق الرسول أبو القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب وأجاز لذي القعدة من سنته.

وقدم على السلطان بفاس وأجل قدومه، وركب للقائه، ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل بزينته، وغص بالمشيخة والعلية ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه، ويستحثه لمظاهرته على أمره.

واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة ورحمة، ونص القصيدة:

سلا هل لديها من مخبرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم به الزهر

وهل باكر الوسمي داراً على اللوا عفت آيها إلا التوهم والذكر

بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى   بأكنافها والعيش فينان مخضر

وجوي الذي ربى جناحي وكر   فها أنا ذا مالي جناح ولا وكر

نبت بي لا عن جفوة وملالة   ولا نسخ الوصل الهني بها هجر

ولكنها الدنيا قليل متاعها   ولذاتها دأباً تزور وتزور

فمن لي بنيل القرب منها ودوننا   مُدىً طال حتى يومه عندنا شهر

و لله عيناً من رآنا وللأسى   ضرام له في كل جانحة جمر

وقد بددت در الدموع يد النوى   وللبين أشجان تضيق لها الصدر

بكينا على النهر السرور عشية   فعاد أجاجاً بعدنا ذلك النهر

أقول لأظعاني وقد غالها السرى   وآنسها الحادي وأوحشها الزجر

رويدك بعد العسر يسر فأبشري   بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر

و لله فينا سر غيب وربما أتى النفع   من حال يكون بها الضر

وإن تجبن الأيام لم يجبن النهى   وإن تخذل الأقوام لم يخذل الصبر

وإن عركت مني الخطوب مجرباً   نقاقاً تساوي عنده الحلو والمر

فقد عجمت عوداً صليباً على النوى   وعزماً كما تمضي المهندة البتر

إذا أنت بالبيضاء قد زرت منزلي   فلا اللحم حل ما حييت ولا الظهر

زجرنا بإبراهيم مبرء همومنا   فلما رأينا وجهه صدق الزجر

بمنتخب من آل يعقوب كلما   دجا الخطب لم يكذب لعزمته فخر

تناقلت الركبان طيب حديثه   فلما رأته صدق الخبر الخُبر

ندى لو حواه البحر لذ مذاقة   ولم يتعقب مده أبداً جزر

وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى   وترفل في أذياله البتكة البكر

أطاعته حتى العصم في قنن الربا   وهشت إلى تأميله الأنجم الزهر

قصدناك يا مولى الملوك على النوى   لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر

كففنا بك الأيام عن غلوائها   وقد رابنا منها التعسف والكبر

وعدنا بذاك المجد فانصرف الردى   ولذنا بذاك العز فانهزم الذعر

ولما أتينا البحر يرهب موجه   ذكرنا بذاك الغمر فاحتقر البحر

خلافتك العظمى ومن لم يدن بها   فإيمانه لغو وعرفانه نكر

ووصفك يهدي المدح قصد صوابه   إذا ضل في أوصاف من دونك الشعر

دعتك قلوب المسلمين وأخلصت   وقد طاب منها السر لله والجهر

ومدت إلى الله الأكف ضراعة   فقال لهن الله قد قضي الأمر

وألبسها النعمى ببيعتك التي   لها الطائر الميمون والمحتد الحر

فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكاً   وقد كان مما نابه ليس يفتر

وأمنت بالسلم البلاد وأهلها   فلا ضيمة تعدو ولا روعة تعرو

وقد كان مولانا أبوك مصرحاً   بأنك في أبنائه الولد البر

وكنت حقيقاً بالخلافة بعده   على الفور لكن كل شيء له قدر

فأوحشت من دار الخلافة هالة   أقامت زماناً لا يلوح بها البدر

ورد عليك الله حقك إذ قضى   بأن تشمل النعمى وينسدل الستر

وقاد إليك الملك رفقاً بخلقه   وقد عدموا ركن الأمانة واضطروا

وزادك بالتمحيص عزًّا ورفعة   وأجراً ولولا السبك ما عرف التبر

وأنت الذي تدعى إذا دهم الردى   وأنت الذي ترجى إذا أخلف القطر

وأنت إذا جار الزمان بحكمه   لك النقض والإبرام والنهي والأمر

وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه   كسير ومن علياك يلتمس الجبر

غريب يرجى منك ما أنت أهله   فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر

فعد يا أمير المسلمين لبيعة   موثقة قد حل عقدتها الغدر

ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا   بآل مرين جاءه العز والنصر

وخذ يا إمام الحق للحق ثاره   ففي ضمن ما تأتي به العز والأجر

وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم   بحق فما زيد يرجى ولا عمرو

فإن قيل مال مالك الدثر وافر   وإن قيل جيش عندك العسكر المجر

يكف بك العادي ويحيا بك الهدى   ويبني بك الإسلام ما هدم الكفر

أعده إلى أوطانه عنك ثانيا   وقلده نعماك التي ما لها حصر

وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها   فقد صدهم عنه التغلب والقهر

وهم يرقبون الفعل منك وصفقة   تحاولها يمناك ما بعدها خسر

مرامك سهل لا يؤدك كفله   سوى أنه عرض ما إن له في العلى حظر

وما العمر إلا زينة مستعارة   ترد ولكن الثناء هو العمر

ومن باع ما يفنى بباق مخلد   فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر

ومن دون ما يبقيه يا مالك العلا   جياد المذاكي والمحجلة الغر

وراد وشقر واضحات شياتها   فأجسامها تبر وأرجلها در

وشهب إذا ما ضمرت يوم غارة   مطهمة غارت بها الأنجم الزهر

وأسد رجال من مرين أعزة   عمائمها بيض وآسالها سمر

عليهم من الماذي كل مفاضة   تدافع في أعطافها اللجج الخضر

هم القوم إن هبوا لكشف ملمة   فلا الملتقى صعب ولا المرتقى وعر

إذا سئلوا أعطوا، وإن نوزعوا سطوا   وإن وعدوا أوفوا وإن عاهدوا بروا

وإن سمعوا العوراء وفروا بأنفس   حرام على هماتها في الوغى الفرُّ

وإن مدحوا اهتزوا ارتياحاً كأنهم   نشاوى تمشت في معاطفهم خمر

وتبسم ما بين الوشيج ثغورهم   وما بين قضب الدوح يبتسم الزهر

أمولاي غاضت فكرتي وتبلدت   طباعي، فلا طبع يعين ولا فكر

ولولا حنان منك داركني به   وأحييتني لم يبق عين ولا إثر

فأوجدت مني فائتاً أي فائت   وأنشرت ميتاً ضم أشلاءه قبر

بدأت بفضل لم أكن لعظيمه   بأهل فجلّ اللطف وانشرح الصدر

وطوقتني النعمى المضاعفة التي   يقل عليها مني الحمد والشكر

وأنت بتتميم الصنائع كافل   إلى أن يعود العز والجاه والوفر

جزاك الذي أسنى مقامك رحمة   تفك بها العاني وينعش مضطر

إذا نحن أثنينا عليك بمدحة   فهيهات يحصى الرمل أو يحصر القطر

ولكننا نأتي بما نستطيعه   ومن بذل المجهود حق له العذر

ثم انفضَّ المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله، وقد فرشت له القصور وقربت الجياد بالمراكب المذهبة، وبعث إليه بالكسى الفاخرة، ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من

الصنائع، وانخفظ عليه رسم سلطانه في الموكب والرجل، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدباً مع السلطان، واستقر في جملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين وسبعمائة ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض الحسن بن عمر وخروجه بتادلا وتغلب السلطان عليه ومهلكه

لما فصل الوزير الحسن بن عمر إلى مراكش واستقر بها، تأثل له بها سلطان ورياسة، نفسها عليه الوزراء بمجلس السلطان وسعوا في تنكر السلطان له، حتى أظلم الجو بينهما، وشعر الوزير بذلك فارتاب بمكانه، وخشي بادرة السلطان على نفسه، وخرج من مراكش في شهر صفر من سنة إحدى وستين وسبعمائة فلحق بتادلا منحرفاً عن الطاعة، مرتبكاً في أمره، وتلقاه بنو جابر من جشم، واعصوصبوا عليه وأجاروه.

وجهز السلطان عساكره إلى حربه، وعقد عليها لوزيره الحسن بن يوسف وسرحه إليه فاحتل بتادلا، ولحق الحسن بن عمر بالجبل، واعتصم به مع حسين بن علي الورديغي كبيرهم.

وأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنقهم، وداخل الوزير بعض أهل الجبل من صناكة في الثورة بهم، وسرب إليهم المال فثاروا بهم، وانفض جمعهم، وتقبض على الحسن بن عمر، وقادوه برمته إلى عسكر السلطان فاعتقله الوزير، وانكفأ راجعاً إلى الحضرة.

وقدم به على السلطان في يوم مشهود، واستركب السلطان فيه العسكر وجلس ببرج الذهب مقعده من ساحة البلد لاعتراض عساكره.

وحمل الحسن بن عمر على جمل طائف به بين أهل ذلك المحشر، وقرب إلى المجلس فأومأ إلى تقبيل الأرض فوق جمله، وركب السلطان إلى قصره، وانفض الجميع وقد شهدوا عبرة من عبر الدنيا.

ودخل السلطان قصره واقتعد أريكته واستدعى خاصته وجلساءه، وأحضره فوبخه وقرر عليه مرتكبه، فتلوى بالمعاذير وفزع إلى الإنكار.

وحضرت يومئذ هذا المجلس فيمن حضره من العلية والخاصة، فكان مقاماً تسيل فيه العيون رحمة وعبرة.

ثم أمر به السلطان فسحب على وجهه، ونتفت لحيته وضرب بالعصا، وتل إلى محبسه، وقتل لليال من اعتقاله قعصاً بالرماح بساحة البلد، وصلب شلوه بسور البلد عند باب المحروق، وأصبح مثلاً في الآخرين.

الخبر عن وفد السودان وهديتهم وإغرابهم فيها بالزرافة

كان السلطان أبو الحسن لما أهدى إلى ملك السودان منسا سليمان بن منسا موسى هديته المذكورة في خبره، اعتمل في مكافأته وجمع لمهاداته من طرف أرضه وغرائب بلاده، وهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك، ووصلت الهدية إلى أقصى تخومهم من والاتن هلك منسا سليمان قبل وصولها.

واختلف أهل مالي وافترق ملكهم، وتواثب ملوكهم على الأمر وقتل بعضهم بعضاً، وشغلوا بالفتنة حتى قام فيهم منسا جاطة واستوسق له أمرهم ونظر في أعطاف ملكه، وأخبر بشأن الهدية وأخبر أنها بوالاتن فأمر بإنفاذها إلى ملك المغرب، وضم إليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل، العظيم الهيكل، المختلف الشبه بالحيوانات.

وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا إلى فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبعمائة وكان يوم وفادتهم يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلس العرض.

ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء، فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضاً في الازدحام على الزرافة إعجاباً بخلقتها وأنشد الشعراء في عرض المدح والتهنئة، ووصف الحال.

وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالاتهم بتأكيد الود والمخالصة، والعذر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتواثبهم على الأمر، وتعظيم سلطانهم وما صاروا إليه.

والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيهم عادة معروفة لهم.

وحيوا السلطان يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوك العجم.

ثم ركب السلطان وانفض ذلك المجلس وقد طار به الذكر.

واستقر ذلك الوفد في إيالة السلطان وتحت جرايته، وهلك السلطان قبل انصرافهم، فوصلهم القائم بالأمر من بعده، وانصرفوا إلى مراكش وأجازوا منها إلى ذوي حسان عرب السوس

من المعقل المتصلين ببلادهم.

ولحقوا من هنالك بسلطانهم، والأمر لله سبحانه.

الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان واستيلائه عليها وإيثار أبي زيان حافد أبي تاشفين بملكها وما كان مع ذلك من صرف أمراء الموحدين إلى بلادهم

لما استقل السلطان بملك المغرب سنة ستين وسبعمائة كما ذكرناه، وكان العامل على درعة عبد الله بن مسلم الزردالي من أخلاف بني عبد الواد وشيعة آل زيان، اصطنعه السلطان أبو الحسن عند تغلبه على تلمسان.

واستعمله ابنه أبو عنان بعد ذلك على بلاد درعة كما ذكرناه.

وتولى المكر بأبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن حين خروجه عل أخيه السلطان أبي عنان بجبل ابن حميدي فارتاب عند استقلال المولى أبي سالم بالأمر، وخشي بادرته لما نـابهم من حقد عليه بسبب أخيه أبي الفضل، لما بينهما من لحمة الاغتراب، فداخل بطانة له من عرب المعقل، واحتمل ذخائره وأمواله وأهله وقطع القفر إلى تلمسان، ولحق بالسلطان أبي حمو آخر سنة ستين وسبعمائة فنزل منه خير نزل، وعقد له لحين وصوله على وزارته، وباهابه وبمكانه، وفوض إليه في التدبير والحل والعقد، فشمر هو عن ساعده في الخدمة، وجأجأ بعرب المعقل من مواطنهم رغبة في ولايته وإيثاراً لمكانه من الدولة، ورهبة من السلطان بالمغرب لما كانوا ارتكبوه من موافقة بني مرين مرة بعد أخرى، فاستقروا بتلسمان وانحاشوا جميعاً إلى بني عبد الواد، وبعث السلطان إلى أبي حمو في شأن عاملهم عبد الله بن مسلم، فلم يرجع له جواباً عنه، وحظر عليه ولاية المعقل أهل وطنه، فلج في شأنهم فأجمع السلطان أمره عل النهوض إليه.

واضطرب معسكره بساحة البلد وفتح ديوان العطاء ونادى في الناس بالنفير إلى تلمسان، وأزاح العلل.

وبعث الحاشدين من وزرائه إلى مراكش فتوافت حشود الجهات ببابه، وفصل من فاس في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعمائة وجمع أبو حمو من في إيالته وعلى التشيع لدولته من زناتة والعرب من بني عامر والمعقل كافة، ما عدا العمارنة، كان أميرهم الزبير بن طلحة متحيزاً إلى السلطان، وأجفلوا عن تلمسان وخرجوا إلى الصحراء.

ودخل السلطان إلى تلمسان ثالث رجب، وخالفه أبو حمو وأشياعه إلى المغرب، فنزلوا كرسيف بلد ونزمار بن عريف، وخربوه واكتسحوا ما وجدوا فيه حنقاً على ونزمار وقومه بولاية بني مرين.

وتخطوا إلى وطاط، فعاثوا في نواحيه، وانقلبوا إلى أنكاد، وبلغ السلطان خبرهم فتلافى أمر المغرب.

وعقد على تلمسان لحافد من حفدة السلطان أبي تاشفين، كان ربي في حجرهم وتحت كفالة نعمتهم، وهو أبو زيان محمد بن عثمان، وشهرته بالفتى، وأنزله بالقصر القديم من تلمسان وعسكر عليه زناتة الشرق كلهم، واستوزر له ابن عمته عمر بن محمد بن إبراهيم بن مكن ومن أبناء وزرائهم سعيد بن موسى بن علي، وأعطاه عشرة أحمال من المال دنانير ودراهم، ودفع إليه الآلة.

وذكر حينئذ لمولانا السلطان أبي العباس سوابقه وإيلافه في المنزل الخشن، فنزل له عن محل إمارته قسنطينة.

وصرف أيضاً المولى أبا عبد الله صاحب بجاية لاسترجاع بلده بجاية، فعقد لهما بذلك وحملهما، وخلع عليهما وأعطاهما حملين من المال.

وكانت بجاية لذلك العهد قد تغلب عليها عمهم المولى أبو إسحاق إبراهيم صاحب تونس، فكتب إلى عاملهم على قسنطينة منصور بن الحاج خلوف أن ينزل عن بلده لمولانا السلطان أبي العباس، ويمكنه منها، وودع هؤلاء الأمراء وانكفأ راجعاً إلى حضرته لسد ثغور المغرب، وحسم داء العدو، فدخل فاس في شعبان من سنته.

ولم يلبث أن رجع أبو زيان على أثره بعد أن أجفل عن تلمسان ولحق بوانشريش.

وتغلب عليه أبو حمو وفض جموعه، فلحق بالسلطان واستقل أبو حمو بملك تلمسان، وبعث في السلم إلى السلطان فعقد له من ذلك ما رضيه كما ذكرناه.

الخبر عن مهلك السلطان أبي سالم واستيلاء حمو بن عبد الله على ملك المغرب ونصبه للملوك واحداً بعد آخر إلى أن هلك

كان السلطان قد غلب على هواه الخطيب أبو عبد اللّه بن مرزوق وكان من خبره أن سلفه من أهل رباط الشيخ أبي مدين كان جده قائماً على خدمة قبره ومسجده واتصل القيام على هذا الرباط في عقبه، وكان جده الثالث محمد معروفاً بالولاية، ولما مات دفنه يغمراسن بالقصر القديم ليجاوره بجدثه تبركاً به، وكان ابنه أحمد أبو محمد هذا قد ارتحل إلى المشرق، وجاور الحرمين إلى أن هلك ورُبي محمد ابنه بالمشرق ما بين الحجاز ومصر.

وقفل إلى المغرب بعد أن شدا شيئا في الطلب وتفقه على أولاد الإمام، ولما ابتنى السلطان أبو الحسن مسجد العباد ولاه الخطابة به، وسمعه يخطب على المنبر وقد أحسن في ذكره والدعاء له، فحلي بعينه واستخلصه لنفسه وأحله محل القرب من مجلسه، وجعله خطيباً حيث يصلى من مساجد المغرب، وسفر عنه إلى الملوك، ولما كانت نكبة القيروان خلص إلى المغرب واستقر برباط العباد محل سلفه، بعد أحوال أضربنا عن ذكرها اختصاراً.

ولما خلص السلطان إلى الجزائر داخله أبو سعيد صاحب تلمسان في السفارة عنه إلى السلطان أبي الحسن وإصلاح بينهما فسار لذلك ونقمه أبو ثابت وبنو عبد الواد ونكروه على سلطانهم، وسرحوا صغير بن عامر في اتباعه، فتقبض عليه وأودعه المطبق.

ثم أشخصوه بعد حين إلى الأندلس فاتصل بأبي الحجاج صاحب غرناطة، وولاه خطابته لما اشتهر به من إجادة الخطبة للملوك بزعمهم.

وألف السلطان أبا سالم في مثوى غربته من غرناطة، وشاركه عند أبي الحجاج في مهماته.

ولما نزل بجبال غمارة داخل بني مرين والوزراء في القيام بدعوته، وكان له في ذلك مقام محمود.

فرعى السلطان وسائله ومولاته القديمة والحادثة إلى مقامه عند أبيه، فلما استوثق له ملك المغرب اختصه بولايته وألقى عليه محبته وعنايته، وكان مؤامره ونجي خلوته والغالب على هواه، فانصرفت إليه الوجوه وخضعت له الرقاب ووطئ عتبته الأشراف والوزراء، وعكف على بابه القواد والأمراء وصار زمام الدولة بيده.

وكان يتجافى عن ذلك أكثر أوقاته حذراً من المغبة، ويزجر من يتعرض له في الشكاية ويردهم إلى أصحاب المراتب والخطط بباب السلطان، وهم يعلمون أنه قد ضرب على أيديهم، فنقموا ذلك وسخطوا الدولة من أجله.

ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه. ونفس عليه الوزراء ما تعيّن له عند السلطان من الحظ، فتربصوا بالدولة وشمل هذا الداء الخاصة والعامة.

وكان عمر بن عبد اللّه بن علي لما هلك أبوه الوزير عبد اللّه بن علي في جمادى سنة ستين وسبعمائة عند استيلاء السلطان علي ملكه، تجلت شفاه الدولة إلى تراثه، وكان مثرياً فاستجار مهم بابن مرزوق، وساهمه من تراث أبيه بعد أن حملوا السلطان على النيل منه، والإهانة به، فأجاره منهم.

ورفع عند السلطان رتبته وحمله على الإصهار إليه في أخته، وقلده السلطان أمانة البلد الجديد دار ملكه متى عنت له الرحلة عنها وأصهر عمر إلى وزير الدولة مسعود بن ماسي تسكيناً لغربه واستخلاصاً لمودته، وسفر عن السلطان إلى صاحب تلمسان في شعبان من سنة اثنتين وستين وسبعمائة ونمي عنه أنه داخل صاحب تلمسان في بعض المكر فهم بنكبته وقتله، ودافع عنه ابن مرزوق وخلص من عقابه، وطوى من ذلك على النكث وتربص الدولة.

وأعيد إلى مكانه من الأمانة عل دار الملك أول ذي القعدة مرجعه من تلمسان لما كان السلطان قد تحول عنها إلى القصبة بفاس، واختط إيواناً فخماً لجلوسه بها، لضيق قصوره متعنياً الأبردين.

فلما استولى عمر على دار الملك حدثته نفسه بالتوثب وسول له ذلك ما اطلع عليه من مرض القلوب والنكير على الدولة، بمكان ابن مرزوق من السلطان فداخل قائد الجند النصارى غريسة بن انطون وتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء لسبع عشر من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة وخلصوا إلى تاشفين الموسوس ابن السلطان أبي الحسن بمكانه من البلد الجديد، فخلعوا عليه وألبسوه شارة الملك، وقربوا له مركبة وأخرجوه إلى أريكة السلطان فأقعدوه عليها.

وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة له، وجهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا إلى مودع المال،

فأفاضوا العطاء من غير تقدير ولا حسبان، وماج أهل البلد الجديد من الجند بعضهم في بعض، واختطفوا ما وصلوا إليهم من العطاء، وانتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلع والعدة وأضرموا النار في بيوتها ستراً عل ما ضاع منها، وأصبح السلطان بمكانه من القصبة، فركب واجتمع إليه من حضر من الأولياء والقبائل، وغدا على البلد الجديد وطاف بها يروم فيها منفذاً، فاستصعبت واضطرب معسكره بكدية العرائس لحصارها، ونادى في الناس بالاجتماع إليه.

ونزل عند قائلة الهاجرة بفسطاطه فتسايل الناس عنه إلى البلد الجديد فوجاً بعد فوج بمرأى منه إلى أن سار إليها أهل مجلسه وخاصته، فطلب النجاة بنفسه وركب في لمة من الفرسان مع وزرائه: مسعود بن رحو بن سليمان بن داود ومقدم الموالي والجند ببابه سليمان بن ونصار، وأذن لابن مرزوق في الدخول إلى داره، ومضى على وجهه.

ولما غشيهم الليل انفضوا عنه، ورجع الوزيران إلى دار الملك فتقبض عليهما عمر بن عبد اللّه ومساهمه غرسية بن أنطول واعتقلاهما متفرقين، وأشخص علي بن مهدي بن يرزيجن في طلب السلطان، فعثر عليه نائماً في بعض المجاشر بوادي ورغة،وقد نزع عنه لباسه اختفاء بشخصه، وتوارى على العيون بمكانه، فتقبض عليه وحمله على بغل، وطير الخبر إلى عمر بن عبد اللّه فأزعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن داود،وفتح اللّه بن عامر بن فتح اللّه، وأمرهما بقتله وإنفاذ رأسه، فلقياه بخندق القصب وراء كدية العرائس، وأمروا بعض جنود النصارى أن يتولى ذبحه وحمل رأسه في مخلاة، فوضعه بين يدي الوزير والمشيخة.

واستقل عمر بالأمر ونصب الموسوس تاشفين يموه به على الناس، وجرت الأمور إلى غاياتها ولكل أجل كتاب.

الخبر عن الفتكة بابن أنطون قائد العسكر من النصارى ثم خروج يحيى بن رحو وبني مرين عن الطاعة

لما تقبض عمر بن عبد اللّه على الوزير، جعل معتقل سلمان بن داود بدار غرسية قائد النصارى ومعتقل ابن ماسي بداره صيانة عن الامتهان لمكان صهره.

ولما كان يؤمل منه من الاستظهار على أمره بعصابته من الأبناء والأخوة والقرابة وكان غرسية بن أنطون صديقاً لسليمان بن ونصار فلما رجع عن السلطان ليلة انفضاضهم نزل عليه وكان يعاقره الخمر فبثه شجوه وتفاوضا في اغتيال عمرو وإقامة معتقله سليمان بن داود في الوزارة لما هو عليه من السن ورسوخ القدم في الأمر، ونمي إلى عمر الخبر.

فارتاب وكان خلواً من العصابة ففزع إلى قائد الموكب السلطاني من الرجل الأندلسيين يومئذ إبراهيم البطروحي، فباثه أمره وبايعه على الاستماتة دونه.

ثم استقل عصابتهم ففزع إلى يحيى بن رحو شيخ بني مرين وصاحب شوراهم فشكا إليه، فأشكاه ووعده الفتك بابن أنطول وأصحابه.

وانبرم عقد ابن أنطول وسليمان بن ونصار على شأنهم وغدوا إلى القصر.

وأدخل ابن أنطول طائفة من النصارى للاستظهار بهم ولما توافت بنو مرين بمجلس السلطان على عادتهم وطعموا دعا عمر بن عبد اللّه القائد ابن أنطول بين يدي يحيى بن رحو وقد أحضر البطروحي رجل الأندلسيين فسأله تحويل سليمان بن داود من داره إلى السجن فأبى وضن به عن الإهانة حتى ينال مثلها من ابن ماسي صاحبه فأمر عمر بن عبد اللّه بالتقبض عليه، فكشر في وجوه الرجال واخترط سكينه للمدافعة فتواثبت بنو مرين وقتلوه لحينه، واستلحموا من وجدوا بالدار من جند النصارى بعد جولة، وفروا إلى معسكرهم ويعرف بالملاح جوار البلد الجديد.

وأرجف الغوغاء بالمدينة أن ابن أنطول غدر بالوزير فقتل جند النصارى حيث وجدوا من سكك المدينة،وتزاحفوا إلى الملاح لاستلحام من به من الجند، وركب بنو مرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء.

وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وأمتعتهم وقتل النصارى كثيرا من الجان كانوا يعاقرون الخمر بالملاح.

واستبد عمر بالدار واعتقل سليمان بن ونصار إلى الليل، وبعث من قتله بمحبسه.

وحول سليمان بن داود إلى بعض الدور بدار الملك واعتقله بها، واستولى على أمره ورجع في الشورى إلى يحيى بن رحو، واعصوصب بنو مرين عليه، واعتز على الوزراء والدولة، وكان عدواً الخاصة السلطان أبي سالم حريصاً على قتلهم، وكان عمر يريد استبقاءهم لما أمله في ابن ماساي، فاختلفت أهواؤهما وتبين ليحيى بن رحو والمشيخة صاغيته إلى ابن ماساي فخشنت صدورهم عليه ودبروا في شأنه.

وخاطب هو عامر بن محمد في اتصال اليد واقتسام ملك المغرب، وبعث إليه بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم، اعتده عنده وليجة لخلاصه من ربقة الحصار الذي هم به مشيخة بني مرين.

وكان أبو الفضل هذا بالقصبة تحت الرقبة والإرصاد، فتفقد من مكانه، وأغلظ المشيخة في العتب لعمر على ذلك، فلم يستعتب، ونبذ إليهم العهد وامتنع بالبلد الجديد، ومنعهم من الدخول إليه فاعصوصبوا على كبيرهم يحيى بن رحو وعسكروا بباب الفتوح، وجاؤوا بعبد الحليم ابن السلطان أبي علي وكان من خبرهم معه ما نذكره.

وأطلق عمر بن عبد اللّه مسعود بن ماساي من محبسه وسرحه إلى مراكش، وواعدوه في الاجلاب عليهم أن حاصروه كما نذكره.

الخبر عن وصول عبد الحليم ابن السلطان أبي علي من تلمسان وحصار البلد الجديد

كان السلطان أبو الحسن لما قتل أخاه الأمير أبا علي وقضى الحق الذي له في ذمته عمل بالحق الذي عليه في ولده وحرمه، فكفلهم وأغذاهم نعمته، وساواهم بولده في كافة شؤونهم، وأنكح ابنته تاحضريت العزيزة عليه علياً منهم المكنى بأبي يفلوسن ونزع عنه وهو بالقيروان أيام النكبة ولحق بالعرب.

وأجلب معهم على السلطان بالقيروان وتونس، ثم انصرف من إفريقية ولحق بتلمسان ونزل على سلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن فبؤاه كرامته.

ثم شرع في الإجازة إلى الأندلس، وبعث فيه السلطان أبو عنان قبل فصوله، فأشخصوه إليه فاعتقله ثم أحضره ووبخه على مرتكبه مع السلطان أبي الحسن وجحده حقه.

ثم قتله لليلتين من شهور إحدى وخمسين وسبعمائة، ولما هلك السلطان أبو الحسن ولحقت جملته من الخاصة والأبناء بالسلطان أبي عنان، وأشخص إخوته إلى الأندلس، وأشخص معهم ولد الأمير أبي علي هؤلاء: عبد الحليم وعبد المؤمن والمنصور والناصر وسعيد ابن أخيهم أبي زيان، فاستقروا بالأندلس في جوار ابن الأحمر.

ثم طلب أبو عنان إشخاصهم بعد، كما طلب إشخاص أخيه، فأجارهم ابن الأحمر جميعاً وامتنع من إسلامهم إليه، وكان من المغاضبة لذلك ما قدمناه.

ولما اعتقل السلطان أبو سالم الأبناء المرشحين برندة، كما قدمناه، نزع منهم عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوسن إلى غرناطة فلحق بأعمامه.

وكان السلطان أبو سالم بمكانهم مستريباً بشأنهم حتى لقد قتل محمد بن أبي يفلوسن ابن أخته تاحضريت وهو في حجرها وحجره، استرابة بما نمي عنه.

ولما أجاز أبو عبد اللّه المخلوع ابن أبي الحجاج، إلى المغرب ونزل عليه وصار إلى إيالته، ورأى أن قد ملك أمره في هؤلاء المرشحين بغرناطة، وراسل الرئيس محمد بن إسماعيل عند توثبه على الأمر واستلحامه أبناء السلطان أبي الحجاج، فراسله في اعتقالهم على أن يمسك المخلوع عن التهامه ويقبض عنانه عن الهوى عليه فاعتقلهم ثم فسد ما بين الرئيس والطاغية، وزحف إليهم والتهم كثيراً من حصون المسلمين.

وبعث إلى السلطان أبي سالم في أن يخلي سبيل المخلوع إليه، فامتنع وفاء للرئيس.

ثم دافع الطاغية عن ثغوره بإسعاف طلبه، فجهز المخلوع وملأ حقائبه صلات وأعطاه الآلة، وأوعز إلى أسطوله بسبتة فجهز وبعث علال بن محمد ثقة إليه فأركبه الأسطول وركب معه إلى الطاغية.

وخلص الخبر إلى الرئيس بمكانه من سلطان غرناطة، وكان أبو حمو صاحب تلمسان يراسله في أولاد أبي علي، وأن يجهزهم إليه ليجدهم زبوناً على السلطان أبي سالم، فبادر لحينه وأطلقهم من مكان اعتقالهم، وأركب عبد الحليم وعبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيهما على أبي يفلوسن في الأسطول، وأجازهم إلى هنين بين يدي مهلك السلطان أبي سالم، فنزلوا من صاحب تلمسان بأعز جوار، ونصب عبد الحليم منهم لملك المغرب.

وكان محمد السبيع بن موسى بن إبراهيم نزع عن عمر ولحق بتلمسان، فتوافى معهم وأخبرهم بمهلك السلطان وبايع له وأغراه بالرحلة إلى المغرب ثم تتابعت رسل بني مرين بمثلها، فسرحه أبو حمو وأعطاه الآلة، واستوزر له محمد السبيع وارتحل معه يغذان السير.

ولقيه بطريقه محمد بن زكدان من أولاد علي من شيوخ بني ونكاسن أهل دبدو ثغر المغرب منذ دخول بني مرين إليه، فبايعه وحمل قومه على طاعته، وأغذ السير وكان يحيى بن رحو والمشيخة لما نبذ عمر بن عبد اللّه إليهم العهد، وعسكروا بباب الفتوح،

أوفدوا مشيخة منهم على تلمسان لاستقدام السلطان عبد الحليم، فوافوه بتازى ورجعوا معه، وتلقته جماعة بني مرين بسبو، ونزلوا على البلد الجديد يوم السبت سابع محرم من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وأضربوا معسكرهم بكدية العرائس، وغادوا البلد القتال وراوحوها سبعة أيام، وبيعات الأمصار توافيهم والحشود تسايل إليهم ثم إن عمر بن عبد الله برز من السبت القابل في مقدمة السلطان أبي عمر بمن معه من الجند المسلمين والنصارى، رامحة وناشبة، ووكل السلطان من جاذبه في الساقة على التعبية المحكمة.

وناشبهم الحرب فدلفوا إليه فاستطردهم ليتمكن الناشبة من عقرهم من الأسوار حتى فشت فيهم الجراحات.

ثم صمم نحوهم وانفرج القلب وانفضت الجموع وزحف السلطان في الساقة فانذعروا في الجهات.

وافترق بنو مرين إلى مواطنهم ولحق يحيى بن رحو بمراكش مع مبارك بن إبراهيم شيخ الخلط، ولحق عبد الحليم وإخوته بتازى بعد أن شهد لهم أهل المقام بصدق الجلاد وحسن البلاء في ذلك المجال وصابر عمر بن عبد الله أمره يتنظر قدوم محمد بن أبي عبد الرحمن كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم محمد ابن الأمير أبي عبد الرحمن وبيعته بالبلد الجديد في كفالة عمر بن عبد الله

لما نبذ عمر إلى بني مرين عهدهم واعصوصبوا عليه، ونكروا ما جاء به من البيعة لأبي عمر مع فقدانه العقل الذي هو شرط الخلافة شرعاً وعادة، ونقموه عليه، اتهم نفسه في نظره، وفزع إلى التماس المرشحين، فوقع نظره على حافد السلطان أبي الحسن محمد ابن الأمير أبي عبد الرحمن النازع لأول دولة السلطان أبي سالم من رندة إلى الطاغية.

وكان قد نزل منه بخير مثوى، فبعث إليه مولاه عتيقاً الخصي، ثم تلاه بعثمان بن الياسمين، ثم تلاهما بالرئيس الأبكم من بني الأحمر في كل ذلك يستحث قدومه، وخاطب المخلوع ابن الأحمر وهو في جوار الطاغية كما قدمناه وقريب عهد بجوارهم، فخاطبه في استحثاثه واستخلاصه من يد الطاغية.

وكان المخلوع يرتاد لنفسه نزولاً من ثغور المسلمين لما كان فسد بينه وبين الطاغية ورام النزوع عن إيالته فاشترط على الوزير عمر النزول له عن رندة فتقبل شرطه، وبعث إليه الكتاب بالنزول عنها بعد أن وضع الملأ عليه خطوطهم من بني مرين والخاصة والشرفاء، فسار ابن الأحمر إلى الطاغية.

وسأل منه تسريح محمد هذا إلى ملكه، وأن قبيله دعوه إلى ذلك فسرحه بعد أن شرط عليه، وكتب الكتاب بقبوله وفصل من إشبيلية في شهر المحرم فاتح ثلاث وستين وسبعمائة ونزل بسبتة وبها سعيد بن عثمان من قرابة عمر بن عبد الله وأرصده لقدومه فطير بالخبر إليه فخلع أبا عمر من الملك، وأنزله بداره مع حرمه.

وبعث إلى السلطان أبي زيان محمد بالبيعة والآلة والفساطيط ثم جهز عسكراً للقائه فتلقوه بطنجة.

وأغذ السير إلى الحضرة فنزل منتصف شهر صفر بكدية العرائس.

واضطرب معسكره بها، وتلقاه الوزير يومئذ وبايعه وأخرج فسطاطه، فاضطر به بمعسكره وتلوم السلطان هنالك ثلاثاً ثم دخل في الرابع إلى قصره واقتعد أريكته وتودع ملكه وعمر مستبد عليه لا يكل إليه أمراً ولا نهياً واستطال عند ذلك المنازعون أولاد أبي علي كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تجهيز السلطان عبد الحليم وإخوته إلى سجلماسة بعد الواقعة عليهم بمكناسة

لما سمع عبد الحليم بقدوم محمد بن أبي عبد الرحمن من سبتة إلى فاس وهو بمكانه من تازى، سرح أخاه عبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيه إلى اعتراضه، فانتهوا إلى مكناسة وخاموا عن لقائه، فلما دخل إلى البلد الجديد أجلبوا بالغارة على النواحي وكثر العيث.

وأجمع الوزير عمر على الخروج إليهم بالعساكر، فبرز في التعبية والآلة، وبات بوادى النجاء.

ثم أصبح على تعبية وأغذ السير إلى مكناسة، فزحف إليه عبد المؤمن وابن أخيه عبد الرحمن في جموعهم فجاولهم القتال ساعة، ثم صمد إليهم فدفعهم عن مكناسة.

وانكشفوا فلحقوا بأخيهم السلطان عبد الحليم بتازى، ونزل الوزير عمر بساحة مكناسة، وأوفد بالفتح على السلطان، وكنت وافده إليه يومئذ، فعمت البشرى واتصل السرور، وتهنأ السلطان ملكه وتودع من يومئذ سلطانه.

ولما وصل عبد المؤمن إلى أخيه عبد الحليم بتازى مفلولاً انفض معسكره ونزعوا عنه إلى فاس، وذهب لوجهه هو وإخوته مع وزيرهم السبيع ومن كان معهم من العرب المعقل، فلحقوا بسجلماسة.

وكان أهلها قد دخلوا في بيعتهم ودانوا بطاعتهم واستقروا بها، وجددوا رسم الملك والسلطان إلى أن كان من خروجهم عنها ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماساي من مراكش وما كان من وزارة ابن ماساي واستبداد عامر بن محمد بمراكش

كان السلطان أبو سالم لما استقل بملك المغرب، استعمل على جباية المصامدة وولاية مراكش محمد بن أبي العلاء بن أبي طلحة من أبناء العمال، وكان مضطلعاً بها، ونافس الكثير من ذوي عامر فأحفظه ذلك وربما تكررت سعايته في عامر عند السلطان ولم يقبل.

ولما بلغ عامر خبر مهلك السلطان أبي سالم وقيام عمر بالأمر، وكانت بينهما خلة بيت محمد بن أبي العلاء فتقبض عليه وامتحنه وقتله، واستقل بأمر مراكش وبعث إليه الوزير عمر بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم يعتده لما توقع من حصار بني مرين إياه أن يجلب به عامر عليهم ويستنقذه كما ذكرناه.

ثم سرح مسعود بن ماساي كما ذكرناه، ولما أحاط بنو مرين بالبلد الجديد جمع عامر من إليه من الجند والحشود وزحف بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إلى أنفى، ونزل بوادي أم ربيع، ولما انفض جمعهم من على البلد الجديد، لحق به يحيى بن رحو، وكان له صديقاً ملاطفاً، فتنكر له توفية لعمر بن عبد الله وصاحبه مسعود، وبعثه إلى الجبل ولم يشهده الجمع، فذهب مغاضباً، ولحق بسجلماسة بالسلطان عبد الحليم وهلك في بعض حروبه مع العرب.

ولما انفض عبد المؤمن وأجفل عبد الحليم من تازى ولحقوا بسجلماسة، واستوسق الأمر لعمر بن عبد الله وفرغ من شأن المنازعين ومضايقتهم له، رجع إلى ما كان يؤمله من الاستظهار على أمره بمسعود بن رحو وإخوته وأقاربه لمكان الصهر الذي بينهما، فاستقدمه للوزارة مرضاة لبني مرين لما كانوا عليه من استمالتهم لجميع المذاهب والإغضاء عما نالوه به من النكاية.

وكان عامر بن محمد مجمعاً القدوم على السلطان فقدم في صحابته ونزل من الدولة بخير منزل، وعقد السلطان لمسعود بن رحو على وزارته بإشارة الوزير عمر واضطلع بها، ودفعه عمر إليها استنامة إليه وثقة بمكانه واستظهارا بعصابته.

وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب من تخم وادي أم ربيع وجعل إمارة مراكش لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إسعافاً بغرض عامر بن محمد في ذلك وأصهر عامر إليهم في بنت مولانا السلطان أبي يحيى المتوفى عنها السلطان أبو الحسن، فحملوا أولياءها على العقد له عليها وانكفأ راجعاً إلى مكان عمله بمراكش يجر الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعاً لجمادى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وصرف عمر عزيمته إلى تشريد عبد الحليم وأخيه من سجلماسة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبد الله إلى سجلماسة

لما احتل عبد الحليم وإخوته بسجلماسة، اجتمع إليهم عرب المعقل بكافة حللهم.

واقتضوا خراج البلاد فوزعوه فيهم، واقتضوا على الطاعة رهنهم.

وأقطعهم جهات المختص بأسرها واعصوصبوا عليه.

واستحثه يحيى بن رحو ومن هنالك من مشيخة بني مرين إلى النهوض للمغرب، فأجمع أمره على ذلك.

وتدبر الوزير عمر أمره وخشي أن يضطرم جمره، فأجمع الحركة إليه، ونادى في الناس بالعطاء والصلة فاجتمعوا إليه وبث العطاء فيهم.

واعترض العساكر وأزاح العلل وارتحل من ظاهر فاس في شعبان من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وارتحل معه ظهيره مسعود بن ماساي وبرز السلطان عبد الحليم إلى لقائهم.

ولما تراءت الفئتان بتاعزمطت عند فرج الجبل المفضي من تلول المغرب إلى الصحراء، هموا باللقاء.

ثم تواقفوا أياماً وتمشت بينهم رجالات العرب في الصلح والتجافي لعبد الحليم عن سجلماسة تراث أبيه، فانعقد مسعود ما بينهما وافترقا، ورجع كل واحد منهما إلى عمله ومكانه من سلطانه.

ودخل عمر والوزير مسعود إلى البلد الجديد في رمضان من سنته، وتلقاهما سلطانهما بأنواع المبرة والكرامة.

ونزع الوزير محمد السبيع عن السلطان عبد الحليم إلى الوزير عمر وسلطانه فتقبل وحل محل الكرامة والردافة للوزارة واستقر كل بمكانه، وتودعوا أمرهم إلى أن كان من خلع عبد المؤمن لأخيه عبد الحليم، ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج عبد الحليم إلى المشرق

لما رجع عبد الحليم بعد عقد السلم مع الوزير عمر إلى سجلماسة واستقر بها وكان عرب المعقل من ذوي منصور فريقين: الأحلاف وأولاد حسين.

وكانت سجلماسة وطناً للأحلاف وفي مجالاتهم مذ أول أمرهم ودخولهم المغرب.

وكان من أولاد حسين في ممالأة الوزير عمر ما قدمناه، فكانت صاغية السلطان عبد الحليم إلى الأحلاف بسبب ذلك أكثر، فأسف ذلك أولاد حسين على الأحلاف وتجددت بينهما لذلك فتنة وتزاحفاً.

وأخرج السلطان عبد الحليم أخاه عبد المؤمن لرقع ما بينهما من الخرق ولأمته، فلما قدم على أولاد حسين دعوه إلى البيعة والقيام بأمره فأبى وأكرهوه عليها وبايعوه.

وزحفوا إلى سجلماسة في صفر من سنة أربع وستين وستمائة وبرز عبد الحليم إليهم في أوليائه من الأحلاف وتواقفوا ملياً وعقلوا رواحلهم ثم انكشف الأحلاف وانهزموا.

وهلك يحيى بن رحو كبير المشيخة من بني مرين يومئذ في حربهم.

وتغلبوا على سجلماسة، ودخل إليها عبد المؤمن وتخلى له أخوه عبد الحليم عن الأمر وخرج إلى المشرق لقضاء فرضه، فودعه وزوده بما أراد وارتحل إلى الحج وقطع المفازة إلى بلد مالي من السودان.

وصحب منها ركاب الحاج إلى مصر، ونزل على أميرها المتغلب على سلطانها يومئذ، وهو يلبغا الخاصكي وأنهى خبره إليه وعرف بمقامه، فاستبلغ في تكريمه بما يناسب بيته وسلطانه.

وقضى حجه وانصرف إلى المغرب، فهلك بقرب الإسكندرية سنة ست وستين وسبعمائة واستقل عبد المؤمن بأمر سجلماسة حتى كان من نهوض العساكر إليه ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن نهوض ابن ماساي بالعساكر إلى سجلماسة واستيلائه عليها ولحاق عبد المؤمن بمراكش

لما افترقت كلمة أولاد السلطان أبي علي وخلع عبد المؤمن أخاه تطاول الوزير عمر إلى التغلب عليهم.

ونزع إليه الأحلاف عدو أولاد حسين وشيعة عبد الحليم المخلوع، فجهز العساكر وبث العطاء وأزاح العلل، وسرح ظهيره مسعود بن ماساي إلى سجلماسة، فنهض إليها في ربيع من سنة أربع وسبعمائة.

وتلقاه الأحلاف بحللهم وناجعتهم، وأغذ السير ونزع الكثير من أولاد حسين إلى الوزير مسعود.

وبعث عامر بن محمد عن عبد المؤمن فرحل عن سجلماسة، فتركها ولحق بعامر فتقبض عليه واعتقله بداره من جبل هنتاتة.

ودخل الوزير مسعود إلى سجلماسة واستولى عليها.

واقتلع منها جرثومة الشقاق باختلاع دعوة أولاد أبي علي منها.

وكرّ راجعاً إلى المغرب لشهرين من حركته، فاحتل بفاس إلى أن كان من خبره وانتقاضه على عمر وفساد ما بينهما ما نذكره.

الخبر عن انتقاض عامر ثم انتقاض الوزير ابن ماساي على أثره

لما استقل عامر بالناحية الغربية من جبال المصامدة ومراكش وما إلى ذلك من الأعمال واستبد بها، ونصب لأمره أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم واستوزر له واستكتب، وصارت كأنها دولة مستقلة، فصرف إليه النازعون من بني مرين على الدولة وجوه مفرهم ولجأوا إليه، فأجارهم عن الدولة واجتمع إليه منهم ملأ.

وأشاروا عليه باستقدام عبد المؤمن وأنه أبلغ ترشيحاً من

أبي الفضل بنسبه وقيامه على أمره وصاغية بني مرين إليه، فاستدعاه وأظهر لعمر أنه يروم بذلك مصلحته والمكر لعبد المؤمن.

ونمي ذلك كله إلى عمر فارتاب به ونزع إليه آخر من نزع السبيع بن موسى بن إبراهيم الوزير.

كان لعبد الحليم فكشف عمر القناع في مطالبته وتجهيز العساكر إليه.

واستراب بأهل ولايته، وعثر على كتاب من الوزير مسعود بن ماساي إليه يخالصه ويبذل له النصيحة، فتقبض على حامله وأودعه السجن، فتنكر مسعود وأغراه صحابته الملابسون له من بني مرين بالخروج ومنازعة عمر في الأمر، ووعدوه النصر منه، فاضطرب معسكره بالزيتون من خارج فاس مورياً بالنزعة إبان الربيع، وزخرف الأرض في شهر رجب من سنة خمس وسبعمائة.

وبنى أصحابه الفساطيط في معسكره حتى إذا استوفوا جمعهم واعتزم على الخروج، ارتحل مجاهراً بالخلاف، وعسكر بوادي النجا من كان يعده الخروج معه من بني مرين.

ثم ارتحل إلى مكناسة، وكتب إلى عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوسن، يستقدمه للبيعة، وكان بجهات تادلا قد خرج بها بعد انصرافهم من سجلماسة، وتخلفه عن أخيه عبد المؤمن.

وبعث عامر إليه بعثاً فهزموه ثم لحق ببني ونكاسن، فبعث إليه ابن ماساي وأصحابه، فقدم عليهم وبايعوه.

وأخرج عمر سلطانه محمد بن أبي عبد الرحمن وعسكر بكدية العرائس، وبث العطاء وأزاح العلل.

ثم ارتحل إلى وادي النجا، فبيته مسعود وقومه فثبت هو ومعسكره في مراكزهم حتى انجاب الظلام وفروا أمامهم، فاتبعوا آثارهم وانفض جمعهم وبدا لهم ما لم يحتسبوه من أصفاق الناس على السلطان ووزيره عمر واعتصامهم بطاعته، فانذعروا.

ولحق مسعود بن ماساي بن رحو بتادلا، ولحق الأمير عبد الرحمن ببلاد بنى ونكاسن، ورجع عمر والسلطان إلى مكانهم من الحضرة.

واستمال مشيخة بني مرين فرجعوا إليه وعفا لهم عنها واستصلحهم.

وتمسك أبو بكر بن حمامة بدعوة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأقامها في نواحيه، وبايعه عليها موسى بن سيد الناس من بني علي أهل جبل دبدو من بني ونكاسن بما كان صهراً له.

وخالفه قومه إلى الوزير عمر وأغراه بالنهوض إلى أبي بكر بن حمامة، فنهض وغلبه على بلاده.

واقتحم حصنه إيكلوان وفر هو وصهره موسى وفارقوا سلطانهم عبد الرحمن ونبذوا إليه عهده.

ورجعوا إلى طاعة صاحب فاس، فلحق هو بتلمسان ونزل على السلطان أبي حمو فاستبلغ في تكريمه ولحق وزيره مسعود بن ماساي بدبدة ونزل على أميره محمد بن زكدان صاحب ذلك الثغر.

ثم بدا له في أمره وداخل صاحب الثغر وبعث عن الأمير عبد الرحمن من تلمسان ليطارد به لفرصة ظنها في المغرب ينتهزها وأبى عليه أبو حمو من ذلك، فركب مطية الفرار ولحق بابن ماساي وأصحابه، فنصبوه للأمر وأجلبوا على تازى.

ونهض الوزير إليهم في العساكر واحتل بتازى وتعرضوا للقائه، ففض جموعهم وردهم عل أعقابهم إلى جبل دبدو وسعى بينهم ونزمار بن عريف ولي الدولة في قبض عنانهم عن المنازعة والتجافي عن طلب الأمر، وأن يتحيزوا إلى الأندلس للجهاد فأجاز عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره ابن ماساي من غساسة فاتح سبع وستين وسبعمائة وخلا الجو من أجلابهم وعنادهم ورجع الوزير إلى فاس واحتشد إلى مراكش كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانه إلى مراكش

لما فرغ عمر من شأن مسعود وعبد الرحمن بن أبي يفلوسن صرف نظره إلى ناحية مراكش وانتزاء عامر بن محمد بها.

وأجمع أمره على الحركة إليه فأفاض العطاء ونادى بالسفر إلى حرب عامر وأزاح العلل، وارتحل إليه لرجب من سنة سبع وسبعمائة وصعد عامر وسلطانه أبو الفضل إلى الجبل.

فاعتصم به وأطلق عبد المؤمن من معقله، ونصب له الآلة وأجلسه عل سرير حذاء سرير أبي الفضل يوهم أنه بايع له، وأنه قد حكم أمره، يجاجيء بذلك لبنى مرين لما علم من صاغيتهم إليه.

وخشي عمر مغبة ذلك، فألان له في القول ولاطفه في الخطاب، وسعى بينهما في الصلح حسون بن علي الصبيحي فعقد له عمر من ذلك ما ابتغاه، وانقلب إلى فاس.

ورجع عامر عبد المؤمن إلى معتقله وأجرى الأحوال على ما كانت من قبل إلى أن بلغهم قتل الوزير عمر لسلطانه، كما

نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد الرحمن وبيعة عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن

كان شأن هذا الوزير عمر في الاستبداد على سلطانه هذا عجباً حتى بلغ مبلغ الحجر للسنهاء من الصبيان.

وكان جعل عليه العيون والرقباء حتى من حرمه وأهل قصره.

وكان السلطان كثيراً ما يتنفس الصعداء من ذلك مع ندمائه ومن يختصه بذلك من حرمه إلى أن حدث نفسه باغتيال الوزير، وأمر بذلك طائفة من العبيد كانوا يختصون به، فنمي القول، وأرسل به إلى الوزير بعض الحرم كانوا عيناً له عليه، فخشي على نفسه، وكان من الاستبداد والدولة أن الحجاب مرفوع له عن خلوات السلطان وحرمه، ومكاشفة رتبه، فخلص إليه في حشمه وهو معاقر لندمائه، فطردهم عنه وتناوله غطّاً حتى فاض وألقوه في بئر بروض الغزلان.

واستدعى الخاصة فأراهم مكانه وأنه سقط عن دابته وهو ثمل في تلك البئر، وذلك في المحرم فاتح ثمان وستين وسبعمائة لست سنين من خلافته.

واستدعى من حينئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن وكان في بعض الدور من القصبة بفاس تحت الرقباء والحراسة من الوزير لما كان السلطان محمد يروم الفتك به غيرة منه على الملك، لمكان ترشيحه، فحضر بالقصر وجلس على سرير الملك.

وفتحت الأبواب لبني مرين والخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة بطاعته.

وكمل أمره وبادر الوزير من حينه إلى تجهيز العساكر إلى مراكش ونادى بالعطاء وفتح الديوان وكمل الاعتراض وارتحل بسلطانه من فاس في شهر شعبان، وأغذ السير إلى مراكش ونازل عامر بن محمد بمعقله من جبل هنتاتة ومعه الأمير أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم وعبد المؤمن ابن السلطان أبي علي، أطلقه من الاعتقال أيضاً وأجلسه موازي ابن عمه، واتخذ له الآلة يموه به في شأنه الأول، ثم سعى بينه وبين عمر في الصلح، فانعقد بينهما وانكفأ راجعاً بسلطانه إلى فاس في شهر شوال، فكان حتفه إثر ذلك، كما نذكره إن شاء اللّه تعالى واللّه أعلم.

الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبد اللّه واستبداد السلطان عبد العزيز بأمره

كان عمر قد عظم استبداده على السلطان عبد العزيز فحجره ومنعه من التصرف في شيء من أمره، ومنع الناس من التعرض له في شيء من أمورهم.

وكانت أمه حذرة عليه إشفاقا وحباً.

وكان عمر لما ملك أمره واستبد عليه، سما إلى الإصهار إليهم في بنت السلطان أبي عنان، واشترط لها - زعموا - تولية أخيه الأمير ونمي ذلك إلى السلطان، وأن عمر مغتاله لا محالة.

وقارن ذلك أن عمر أوعز إلى السلطان بالتحول عن قصره إلى القصبة، فركب أسنة الغدر لاضطراره واعتزم على الفتك به، وأكمن بزوايا داره جماعة من الرجال وأعدهم بالتوثب به.

ثم استدعاه إلى بيته للمؤامرة معه على سنته، فدخل معه وأغلق الموالي من الخصيان باب القصر من ورائه، ثم أغلظ له السلطان بالقول وعتبه.

ودلف الرجال إليه من زوايا الدار فتناولوه بالسيوف هبراً.

وصرخ ببطانته بحيث أسمعهم فحملوا على الباب وكسروا أغلاقه فألفوه مضرجاً بدمائه، فولوا الأدبار وانفضوا من القصر وانذعروا وخرج السلطان إلى مجلسه فاقتعد أريكته واستدعى خاصته.

وعقد لعمر بن مسعود بن منديل بن حمامة من بني مرين وشعيب بن ميمون بن ودرار من الجشم ويحيى بن ميمون المصمود من الموالي، وكملت بيعته منتصف ذي القعدة سنة ثمان وستين وسبعمائة وتقبض على علي بن الوزير عمر وأخيه وعمه وحاشيتهم، وذويهم واعتقلهم حتى أتى القتل عليهم لليال.

واستأصل النكال شأفتهم وسكن وأمن ورد النافرين بأمانه وبسط لهم في وجه بشره ثم تقبض لأيام على سليمان بن داود ومحمد السبيع، وكانا في مخالصة عمر بمكان فاعتقلهما استرابة بهما ولشيء نمى له عنهما.

وأودعهما السجن إلى أن هلكا واعتقل معهما علال بن محمد والشريف أبا القاسم ريبة بصحابتهما.

ثم امتن عليهما بشفاعة ابن الخطيب وزير ابن الأحمر وأقصاه.

ثم أطلق عنانه في الاستبداد وقبض أيدي الخاصة والبطانة

عن التصرف في شيء من سلطانه إلا بإذنه وعن أمره، وهلك لأشهر من استبداد الوزير شعيب بن ميمون.

ثم هلك يحيى بن ميمون على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن انتزاء أبي الفضل بن المولى أبي سالم ثم نهوض السلطان إليه ومهلكه

لما فتك السلطان عبد العزيز بعمر بن عبد اللّه المتغلب عليه، سولت لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم نفسه مثلها في عامر بن محمد، لمكان استبداده عليه، وأغراه بذلك بطانته، وتوجس لها عامر فتمارض بداره، واستأذنه في الصعود إلى معتصمه بالجبل ليمرضه هنالك حرمه وأقاربه، وارتحل بجملته، ويئس أبو الفضل من الاستمكان منه وأغراه حشمه بالراحة من عبد المؤمن.

ولليال من منصرف عامر ثمل أبو الفضل ذات ليلة، وبعث عن قائد الجند من النصارى، فأمره بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله من قصبة مراكش فجاء برأسه إليه، وطار الخبر إلى عامر فارتاع وحمد اللّه أن خلص من غائلته.

وبعث ببيعته إلى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبي الفضل ورغبه في ملك مراكش.

ووعده بالمظاهرة فأجمع السلطان أمره على النهوض إلى مراكش، ونادى في الناس بالعطاء، وقضى أسباب حركته وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة واستبد أبو الفضل بعد مهلك عبد المؤمن واستوزر طلحة السنوري وجعل علامته لمحمد بن محمد بن منديل الكناني، وجعل شوراه لمبارك بن إبراهيم بن عطية الخلطي.

ثم أشخص طلحة التينوري بسعاية الكناني، فقتله واعتمد بعساكره منازلة عامر.

ولما فصل لذلك من مراكش جاءه الخبر بحركة السلطان عبد العزيز إليه، فانفض معسكره ولحق بتادلا ليعتصم بها في معقل بني جابر.

وعاج السلطان إليها بعساكره عن مراكش إليها، فنازله وأخذ بمخنقه وقاتله، ففل عسكره وداخله بعض بني جابر في الإخلال بمصافه يوم الحرب مع مال بذله لهم، ففعلوا، وانهزمت عساكر أبي الفضل وجموعه، وتقبض على أشياعه.

وسيق مبارك بن إبراهيم إلى السلطان فاعتقله إلى أن قتله مع عامر عند مهلكه كما نذكره وفر الكناني إلى حيث لم يعلم مسقطه.

ثم لحق بعامر بن محمد ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة من ورائهم.

وداخلهم أشياع السلطان من بني جابر وبذلوا لهم المال الدثر في إسلامه، فأسلموه وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون، فجاء به أسيراً وأحضره السلطان فوبخه وقرعه واعتقله بفسطاط في جواره، ثم غط من الليل.

وكان مهلكه في رمضان من سنة تسع وستين وسبعمائة سنين من إمارته على مراكش، وبعث السلطان إلى عامر يختبر طاعته بذلك فأبى عليه وجاهر بالخلاف إلى أن كان من شأنه ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن نكبة الوزير يحيى بن ميمون بن المصمود ومقتله

كان يحيى بن ميمون هذا من رجالات دولتهم وربي في دولة السلطان أبي الحسن، وكان عمه علال عدواً له لعداوة أبيه.

ولما انتزى السلطان أبو عنان على ملك أبيه، استخلص يحيى هذا سائر أيامه، وهلك عمر يوم مهلكه كما ذكرناه.

واستعمل يحيى هذا ببجاية، فلم يزل بها إلى أن تقبض عليه الموحدون، لما استخلصوا بجاية من يده.

وسار إلى تونس واعتقل بها مدة، ثم صرفوه إلى المغرب أيام عمر، فاختص به.

ولما عقد له السلطان عبد العزيز على وزارته وكان قوي الشكيمة شديد الحزم وصعب العداوة مرهف الحد، وكان عمه علال بعد أن أطلقه السلطان من الاعتقال مكنه عن إذنه وأقامه متصرفاً بين يديه، فألقى إلى السلطان استبداد يحيى عليه وحذره من شأنه، ورفع إليه أنه يروم تحويل الدعوة لبعض القرابة من آل عبد الحق، وأنه داخل في ذلك قواد الجند من النصارى.

وأصاب الوزير وجع قعد به عن مجلس السلطان، فاختلف الناس إلى زيارته وعكف ببابه قواد النصارى، فاستراب بأمرهم وتيقن الأمر بعكوفهم، فأرسل السلطان من حشمه من تقبض عليه وأودعه السجن.

ثم جنب إلى مصرعه من الغد وقتل قعصاً بالرماح، وقتل المتهمون من القرابة وقواد الجند، واستلحموا جميعاً وصاروا مثلاً

في الآخرين، والأمر لله.

الخبر عن حركة السلطان إلى عامر بن محمد ومنازلته بجبله ثم الظفر به

لما فرغ السلطان من شأن أبي الفضل عقد على مراكش لعلي بن محمد بن أجانا من صنائع دولتهم.

وأوعز إليه بالتضييق على عامر والأخذ بمخنقه وإلجائه إلى الطاعة.

وانقلب إلى فاس، واعتزم على الحركة إلى تلمسان.

وبينما هو في الاستنفار كذلك إذ جاءه الخبر بأن علي بن أجانا نهض إلى عامر وحاصره أياماً، وأن عامراً زحف إليه.

ففض معسكره وتقبض على ابن أجانا والكثير من العسكر، فاعتقلهم، فقام السلطان في ركائبه وقعد، وأجمع أمره على النهوض إليه بكافة بني مرين وأهل المغرب، فبعث في الحشود وبث العطاء، وعسكر بظاهر البلد حتى استوفى الغرض وعقد على وزارته لأبي بكر بن الغازي بن يحيى بن الكاس، لما كان فيه من مخايل الرياسة والكفاية، ورفع محله.

وارتحل سنة سبعين وسبعمائة فاحتل بمراكش، ثم خرج إلى منازلته الجبل ونازله، وكان عامر بن محمد قد نصب بعض الأعياص من آل عبد الحق من ولد أبي ثابت بن يعقوب بن عبد الله اسمه تاشفين، ولحق به علي بن عمر ويغلان من شيوخ بني ورتاجن كبير بني مرين، وصاحب الشورى فيهم لعهده، فاشتد أزره به.

وتوافى به كثير من الجند النازعين عن السلطان رهبة من بأسه أو سخطة لحاله، أو رغبة فما عند عامر فرتبهم، وأمسك الله يده عن العطاء، فلم يسل بقطرة، وطال مثوى السلطان بساحته وعلى حصاره، وبوّأ المقاعد للمقاتلة وغاداه للقتال وراوحه.

وتغلب على حصونه شيئا فشيئاً إلى أن تغلق بأعلى جبل تامسكروط، وكان لأبي بكر بن غازي غناء مذكور، ويئس أصحاب عامر وأشياعه من عطائه.

وفسد ما بينه وبين علي بن عمر هذا، فدس إلى السلطان يطلب الأمان، وتوثق لنفسه ثم نزع إليه.

وداخله فارس بن عبد العزيز بن أخي عامر في القيام بدعوة السلطان والخلاف على عمه، لما كان يوصف به من إرهاف الحد وتفضيل ابنه أبي بكر عليه فبلغ خبره إلى السلطان واقتضى له وثيقة من الأمان والعهد بعث به إليه فثار بعمه.

واستدعى القبائل من الجبل إلى طاعة السلطان فأجابوه واستحث السلطان للزحف إليهم، فزحفت العساكر، الجنود واستولت على معتصم الجبل.

ولما استيقن عامر أن قد أحيط به أوعز إلى ابنه أن يلحق بالسلطان مموهاً بالنزوع، فألقى بنفسه إليه وبذل له الأمان وألحقه بجملته.

وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخلص إلى السوس فرده الثلج.

وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام برداً وثلجاً حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض، وسد المسالك فاقتحمه عامر وهلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه.

وعاين الهلكة العاجلة فرجع مخفياً أثره إلى غار أوى إليه مع أدلاء بذل لهم المال يسلكون به ظهر الجبل إلى الصحراء بالسوس، وأقاموا ينتظرون إمساك الثلج، وأغرى السلطان بالبحث عنه فدلهم عليه بعض البربر عثروا عليه فسيق إلى السلطان وأحضره بين يديه ووبخه فاعتذر ونجع بالطاعة.

ورغب في الإقالة واعترف بالذنب، فحمل إلى مضرب بني له بإزاء فسطاط السلطان، واعتقل هنالك.

وتقبض يومئذ على محمد بن الكناني فاعتقل وانطلقت الأيدي على معاقل عامر ودياره، فانتهب من الأموال والسلاح والذخيرة والزرع والأقوات والخرثي ما لا عين رأت ولا خطر على قلب أحد منهم.

واستولى السلطان على الجبل ومعاقله في رمضان من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة لحول من يوم حصاره.

وعقد على هنتاتة لفارس بن عبد العزيز بن محمد بن علي وارتحل إلى فاس واحتل بها آخر رمضان ودخلها في يوم مشهود برز فيه الناس.

وحمل عامر وسلطانه تاشفين على جملين وقد أفرغ عليهما الرث وعبثت بهما أيدي الإهانة فكان ذلك عبرة لمن رآه ولما قضى منسك الفطر أحضر عامراً فقرعه بذنوبه وأوتي بكتابه بخطه يخاطب فيه أبا حمو ويستنجده على السلطان فشهد عليه وأمر به السلطان فامتحن ولم يزل يجلد حتى انتثر لحمه، وضرب بالعصي حتى ورمت أعضاؤه، وهلك بين يدي الوزعة، وأحضر الكناني

ففعل به مثله.

وجنب تاشفين سلطانه إلى مصرعه فقتل قعصاً بالرماح وجنب مبارك بن إبراهيم من محبسه بعد طول الاعتقال، فألحق بهم ولكل أجل كتاب وصفا الجو للسلطان من المنازعين، وفرغ لغزو تلمسان كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء

قد تقدم لنا ذكر تغلب الطاغية الهنشة على الجزيرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة وأنه نازل بعدها جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وهلك بالطاعون وهو محاصر له عندما استفحل أمره، واشتدت شوكته.

فكفى اللّه شأنه وولي أمر الجلالقة بعده ابنه بطرة، وعدا على سائر إخوته.

وفر أخوه القمط ابن حظية أبيه المسماة بلغتهم ألريق بهمزة إلى قمص برشلونة فأجاره وأنزله خير نزل.

ولحق به من الزعماء المركش ابن خالته وغيره من أقماصهم وبعث إليه بطرة ملك قشتالة في إسلام أخيه فأبى من إخفار جواره.

وحدثت بينهما بسبب ذلك الفتنة الطويلة افتتح بطرة فيها كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي أرضه، وحاصر بلنسية قاعدة شرق الأندلس مراراً وأرجف عليها بعساكره، وملأ البحر إليها بأساطيله إلى أن ثقلت على النصرانية وطأته وساءت فيهم ملكته، فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه فزحف إلى قرطبة.

وثار على بطرة أهل إشبيلية وتيقن صاغية النصارى إليه، ففر عن ممالكه ولحق بملك الإفرنج وراء جليقية وفي الجوف عنها وهو صاحب انكلطرة، واسمه ألفنس غالس.

ووفد عليه صريخاً سنة سبع وستين وسبعمائة فجمع قومه وخرج في صريخه إلى أن استولى على ممالكه، ورجع ملك الإفرنج فعاد النصارى إلى شأنهم مع بطرة.

وغلب القمط على سائر الممالك فتحيز بطرة إلى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين، ونادى صريخه بابن الأحمر فانتهز فيها الفرصة.

ودخل بعساكر المسلمين فأثخن في أرض النصرانية، وخرب معاقلهم ومدنهم مثل أبدة وجيان وغيرهما من أمهات أمصارهم.

ثم رجع إلى غرناطة، ولم تزل الفتنة قائمة بين بطرة وأخيه القمط إلى أن غلب عليه القمط وقتله.

وفي خلال هذه الفتن بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة.

وتشوف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين.

وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك بما كان فيه من انتقاض أبي الفضل ابن أخيه وعامر بن محمد، فراسل صاحب الأندلس في أن يزحف إليه بعساكره على أن عليه عطاءهم وإمداده بالمال والأساطيل وعلى أن يكون مثوبة جهادهاخالصة له، فأجاب إلى ذلك وبعث إليه أحمال المال.

وأوعز إلى أساطيله بسبتة فعمرت وأقلعت إلى مرسى الجزيرة لحصارها وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العلل، واستعد الآلة للحصار، فنازلها أياماً قلائل.

ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم وألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان عليه ونزلوا عن البلد وأقيمت فيها شعائر الإسلام ومراسمه، ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيته، وكتب اللّه أجرها لمن أخلص في معاملته وكان وذلك سنة سبعين وسبعمائة وولى ابن الأحمر عليها من قبله.

ولم تزل لنظره إلى أن تمحض النظر عن هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها، فهدمت أعوام ثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس، والبقاء لله وحده.

الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان واستيلائه عليها وعلى سائر بلادها وفرار أبي حمو عنها

كان عرب المعقل موطنين بصحراء المغرب من لدن السوس ودرعة وتافيلالت وملوية وصا.

وكان بنو منصور منهم أولاد حسين والأحلاف مختصين بطاعة بني مرين وفي وطنهم.

وكانوا مغلّبين للدولة تحت قهر من سلطانها، ولما ارتجع بنو عبد الواد ملكهم، بتلمسان على يد أبي حمو، وكان الاحتلاف

بالمغرب، عاث هؤلاء المعقل وأكثروا في الوطن الفساد.

ولما استقلت الدولة من عثرها تحيزوا إلى بني عبد الواد وأقطعوهم في أوطانهم.

واستقروا هنالك من لدن نزوع عبد اللّه بن مسلم العامل كان بدرعة إلى أبي حمو ووزارته له، وفسد ما بين سلطان المغرب وبين أبي حمو من جراء ذلك.

ونهض أبو حمو سنة ست وستين وسبعمائة إلى المغرب، وعاث في نواحي دبدو ثغر المغرب فنشبت لذلك نار العداوة بينه وبين صاحب الثغر محمد بن زكدان فكان داعية لعداء صاحب المغرب على الأيام.

ولما استبد السلطان عبد العزيز وهلك صاحبهم عبد اللّه بن مسلم، وترددت الرسل بين أبي حمو وبين السلطان عبد العزيز، كان فما اشترط عليه التجافي عن قبول المعقل عرب وطنه، لما فيه من الاستكثار بهم عليه.

وأبى عليهم أبو حمو منها لاستظهاره بهم على زغبة من أهل وطنه وغيرهم.

وكثر التلاحي في ذلك وأحفظ السلطان وهم بالنهوض إليه سنة سبعين وسبعمائة وأقصر لما أخذ بحجزته من خلاف عامر.

وصاحب الثغر محمد بن زكدان أثناء ذلك يحرضه على الحركة إلى أبي حمو ببرغبه في ملك تلمسان.

ولما قضى السلطان من حركة مراكش وفرغ من شأن عامر ورجع إلى فاس، وافاه بها أبو بكر بن عريف أمير سويد في قومه من بني مالك بحللهم وناجعتهم، صريخاً على أبي حمو لما نال منهم.

وتقبض على أخيهم محمد ورؤساء بني مالك جزاء بما يعرف لهم ولسلفهم من ولاية صاحب المغرب.

ووفد عليه مهعم رسل أهل الجزائر ببيعتهم يستحثون السلطان لاستنقاذهم من لهواته.

ووامر السلطان بذلك وليه ونزمار بن عريف ومحمد بن زكدان صاحب دبدو فزعموا له بالغناء في ذلك واعتزم على النهوض إلى تلمسان وبعث الحاشرين إلى مراكش للاحتشاد، وتوافى الناس ببابه على طبقاتهم أيام منى من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وأفاض العطاء وأزاح العلل، ولما قضى منسكه في الأضحى اعترض العساكر وارتحل إلى تلمسان، واحتل بتازى.

وبلغ خبر نهوضه إلى أبي حمو، فجمع من إليه من زناتة الشرق وبني عامر من عرب زغبة.

وتوافت جموعه بساحة تلمسان واضطرب هنالك معسكره واستعرض جنوده واعتزم على الزحف للقاء بني مرين ثقة بمكان المعقل.

وتحيز من كان معه من عرب المعقل الأحلاف وعبيد اللّه إلى السلطان عبد العزيز بمداخلة وليهم ونزمار.

واجتمعوا إليه وسرح معهم صنائعه فارتحلوا بين يديه وسلكوا طريق الصحراء.

وبلغ خبر تحيزهم وإقبالهم إلى أبي حمو فأجفل هو وجنوده وأشياعه من بني عامر وسلكوا على البطحاء.

ثم ارتحلوا عنها وعاجوا على منداس وخرجوا إلى بلاد الديالم.

ثم لحقوا بوطن رياح فنزلوا على أولاد سباع بن علي بن يحيى.

وارتحل السلطان عبد العزيز من تازى وقدّم بين يديه وزيره أبا بكر بن غازي، فدخل تلمسان وملكها.

ورحل السلطان على أثره واحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على العسكر من بني مرين والجنود والعرب من المعقل وسويد، وسرحه في اتباعهم وجعل شوراه إلى وليه ونزمار وفوض إليه في ذلك.

وارتحلوا من تلمسان آخر المحرم وكنت وافداً على أبي حمو، فلما أجفل عن تلمسان ودعته وانصرفت إلى هنين للإجازة إلى الأندلس.

ووشى بعض المفسدين عند السلطان بأني احتملت مالاً للأندلس، فبعث جريدة من عسكره للقبض علي، وافوه بوادي الزيتون قبل مدخله إلى تلمسان فأحضرني وسألني، وتبين كذب الواشين فأطلقني وخلع علي وحملني.

ولما ارتحل الوزير في اتباع أبي حمو استدعاني وأمرني بالنهوض إلى رياح والقيام فيهم بطاعته، وصرفهم عن طاعة أبي حمو وصريخه، فنهضت لذلك، ولحقت بالوزير بالبطحاء، وارتحلت معه إلى وادي وراك من بلاد العطاف فودعته وذهبت لوجهي وجمعت رياحاً على طاعة السلطان ونكبت بهم عن صريخ أبي حمو فنكبوا عنه.

وخرج أبو زيان من محل بؤرته بحصين، فلحق بأولاد محمد

بن علي بن سباع من الدواودة.

وارتحل أبو حمو من المسيلة فنزل بالدوسن وتلوم بها، وأوفدت من الدواودة على الوزير ونزمار فكانوا أدلاءهم في النهوض إليه، ووافوه بمكانه من الدوسن في معسكره من زناتة وحلل بني عامر، والوزير في التعبية، وأمم زناتة والعرب من المعقل وزغبة ورياح محدقة به، فأجهضوه عن ماله ومعسكره، فانتهب بأسره.

واكتسحت أموال العرب الذين معه، ونجا بدمه إلى مصاب.

وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة، وتلوم الوزير بالدوسن أياماً.

ووافاه بذلك اتحاف بني مزني وانقلب إلى المغرب.

ومر على قصور بني عامر بالصحراء فاستباحها، وشردهم عنها إلى قاصية القفر ومفازة العطش، ولحق بتلمسان في ربيع الثاني.

ووفدت أنا بالدواودة على السلطان ورئيسهم أبو الدينار بن علي بن أحمد، فبر السلطان مقدمه ورعى له سوابقه عند أبيه، وخلع عليه وحمله وخلع على الوفد كافة وانصرفوا إلى مواطنهم.

وبعث السلطان عماله في الأمصار، وعقد لصنائعه على النواحي، وجهز الكتائب مع وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، لحصار حمزة بن علي بن راشد من آل ثابت بن منديل، كان ربي في حجر الدولة ونشأ في جو نعمتها وسخط حاله لديهم، فنزع إلى وطن سلفه من بلاد مغراوه.

ونزل بجبل بني بو سعيد فأجاروه وبايعوه على الموت دونه.

وسرح السلطان وزيره إلى الأخذ بمخنقهم، فنزل عليهم وقاتلهم وامتنعوا في رأس شاهق لهم، فأوطن الوزير بالخميس من وادي شلف وأحجرهم بمعتصمهم.

وتوافت لديه الأمداد من تلمسان، فجمرها كتائب وبوأهم المقاعد للحصار، وأقام هنالك واستولى السلطان على سائر الوطن من الأمصار والأعمال، وعقد عليها واستوسق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه.

والله تعالى أعلم.والملك بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده.

الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان إلى تيطرى وأجلاب العرب بأبي حمو على تلمسان إلى أن غلبهم السلطان جميعاً على الأمر واستوسق له الملك

لما خلص أبو حمو من واقعة الدوسن هو وأحياء بني عامر وأشياعه، لحقوا بالصحراء وأبعدوا فيها عن قصورهم قبلة جبل راشد.

ورجع الوزير ونزمار بن عريف بأحياء العرب كافة من زغبة والمعقل.

وكان السلطان لما احتل بتلمسان طلب العرب منه إطلاق أيديهم على ما أقطعهم أبو حمو إياه من الوطن على الزبون والاعتزاز عليه، فاستنكف من ذلك لعظم سلطانه واستبداد ملكه، فسخطوا أحواله ورجوا أن يكون لأبي حمو ظهور ينالون به من ذلك ما أملوه.

فلما انهزم وفلت عساكره، وظهر السلطان ظهوراً لاكفاء له فيئسوا، وأزمع رحو بن منصور بن يعقوب أمير الخوارج من عبيد الله إحدى بطون المعقل الخروج على السلطان، ولما خرج العرب إلى مشاتيهم لحق بأبي حمو وأحياء بني عامر وكاثرهم وقادهم إلى العيث في الأوطان، وأجلبوا على ممالك السلطان ونازلوا وجدة في رجب من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وصمد نحوهم العساكر من تلمسان، فأجفلوا وعادوا إلى البطحاء فاكتسحوا أوطانهم.

ونهض إليهم الوزير في العساكر ففروا أمامه، واتبع آثارهم إلى أن أصحروا.

واستنسر خلال ذلك بغاث حمزة بن علي بن راشد، فبيت معسكر الوزير بمكانه من حصاره بشلف، ففض جموعه ولحق مفلولاً بالبطحاء وبلغ الخبر إلى حصين وكانوا راهبين من السلطان، لما اشتهر عنهم من الخلاف على الدول والقيام بأمر الخوارج، فجأجؤا بأبي زيان الثائر كان عندهم من مكانه بأحياء أولاد يحيى بن علي بن سباع من الدواودة، فلحق بهم وأجلبوا على ضواحي المدية ونازلوا عسكر السلطان بها، واضطرم المغرب الأوسط ناراً، واتصل ذلك به مدة.

ولما كان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة واستمال السلطان

رحو بن منصور عن أبي حمو وبذل له مالاً واقطعه ما أحب من الضواحي، وفعل ذلك بسائرهم وملأ صدورهم ترغيباً.

واعتزم على تجهيز العساكر معهم لحسم أدواء الفساد وإخراج الثوار من النواحي.

واتهم وزيره عمر بن مسعود بالمداهنة في أمر المغراوي، فسرَّح من دويه من تقبض عليه وأشخصه إلى حضرته مقيداً.

واعتقله بفاس وجهز عساكره واعترض جنوده، وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على حرب الثوار والخوارج، فنهض من تلمسان في رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة واعتمد حمزة بن علي بن راشد في معتصمه بجبل بني بو سعيد، وألح عليهم بالقتال فعضتهم الحرب بنابها وداخلهم الرعب وأوفدوا مشيختهم على الوزير بالطاعة، ونبذ العهد إلى حمزة فعقد لهم ما ابتغوه.

ولحق حمزة بأبي زيان بمكانه من حصين، ثم أثنى عزمه عن ذلك ورجع إلى ضواحي شلف.

وبيته بعض الحامية بتيمروغت فثبتوا في مراكزهم وانفض جمعه وتقبض عليه وسيق إلى الوزير فاعتقله وبعث إلى السلطان في شأنه، فأمر بقتله، فاحتز رأسه ورؤوس أشياعه وبعث بهم إلى السلطان وعلق أشلاءهم بأسوار مليانة.

ثم زحف إلى حصين فأحجرهم بمعقلهم بتيطري، واجتمعت إليه أحياء زغبة كافة.

فأحاط بهم من كل جانب وطاولهم الحصار وغاداهم الحرب، وخاطبني السلطان بمكاني من الزاب، وأوعز إلي بنفير رياح كافة إلى معسكر الوزير واستنفرتهم بأحيائهم وناجعتهم، ونازلنا الجبل من جانب الصحراء مما يلي ضواحي رياح، فأصابهم الجهد وداخلهم الرعب، وانفضوا من المعقل واندعروا في الجهات في المحرم فاتح أربع وسبعين وسبعمائة ولحق أبو زيان بواركلي، واستولى الوزير على المعقل وانتهب ما فيه، واقتضى رهن حصين على الطاعة وقرر علهم الوضائع والمغارم، فأعطوها عن يد.

وكان أبو حمو في خلال ذلك قد أجلب على تلمسان ينتهز الفرصة في انتباذ العساكر عن السلطان.

وكان وليه خالد بن عامر أمير بني عامر من زغبة مريد الطاعة، لما اتهم أبو حمو به من ولاية رديفة عبد الله بن عسكر بن معروف دونه، فأسخطه ذلك، وداخل السلطان عبد العزيز في الإنحراف إليه عن أبي حمو على مال إليه، فنزع عنه.

وجهز له السلطان عسكراً لحرب أبي حمو واشياعه في ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من بني عامر وأولاد يغمور من المعقل، وعقد عليهم لمحمد بن عثمان من قرابة أبي بكر بن غازي وتعرضوا للقائهم، فانفض جمعهم ومنحوا أكتافهم وأحيط بمعسكر أبي حمو وحلل العرب فاكتسح ما فيها واستولى بنو مرين على أمواله وحرمه وولده، فاستاقوهم إلى السلطان فأشخصهم إلى فاس فأنزلهم بقصوره.

وتقبض على مولاه عطية بن موسى صاحب شلف، فامتن عليه وألحقه بجملته.

ونجا أبو حمو وألقى بنفسه إلى عبد الله بن صغير مستميتاً، فامتن عليه وبعث معه الأدلاء إلى تيكورارين من بلاد القبلة، فنزلها وكان ذلك بين يدي فتح تيطرى بليال.

واستوت قدم السلطان في ملكه واستولى على المغرب الأوسط، ودفع الثوار والخوارج عنه، واستمال كافة العرب إلى طاعته فأتوها راغبين راهبين.

ووفد عليه الوزير أبو بكر بن غازي من قاصية الشرق ومعه مشيخة العرب من كل حي من أحيائهم فوصلهم واحتفى بقدومهم، وركب للقاء الوزير وطلب المشيخة في الرهن على الطاعة والاستحثاث لتشريد أبي حمو من تيكورارين، وأوسع حفايتهم وبرهم وانصرفوا إلى مشاتيهم معتملين في أسباب الحركة إلى تيكورارين إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم الوزير ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعاً إليه عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس

أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة من البسيط الذي فيه ساحتها المسمى بالمرج على وادي شنجيل، ويقال: شنييل المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلف معدود في وزارتها.

وانتقل أبو عبد الله إلى غرناطة واستخدم لملوك بني الأحمر، واستعمل على مخازن الطعام، ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الأدب.

وأخذ عن أشياخه وامتلأ من خوض اللسان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه، ونبغ في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما.

وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره وملأ الدولة بمدائحه وانتشرت في الأفاق، فرقاه السلطان إلى خدمته وأثبته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية.

وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه، عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه كما مر في أخبارهم.

فاستبد ابن الجياب برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فولى السلطان أبو الحجاج حينئذ محمد بن الخطيب هذا رياسة الكتاب ببابه مثناة بالوزارة، ولقبه بها فاستقل بذلك.

وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة.

ثم داخله السلطان في تولية العمال على يديه بالمشارطات، فجمع له بها أموالاً، وبلغ في المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله.

وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة مقربا بأبيه السلطان أبي الحسن فجلّى في أغراض سفارته.

ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة، وطعنه فأشواه وفاض لوقته، وتعاورت سيوف الموالي المعلوجي هذا القاتل فمزقوه أشلاء.

وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته، وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم.

واستبد بالدولة، وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه، واتخذ لكتابته غيره، وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره ومشاركاً في استبداده معنى، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة.

ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان مستمداً له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه.

فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه، فأذن له، وأنشد وهو قائم:

خليفة اللّه ساعد القدرُ ... علاك ما لاح في الدجى قمر

ودافعت عنك كف قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشر

وجهك في النائبات بدر ... لنا وفي المحل كفك المطر

والناس طراً بأرض أندلس ... لولاك ما أوطنوا ولا عمروا

وجملة الأمر أنه وطن ... في غير علياك ماله وطر

ومن به مذ وصلت حبلهم ... ما جحدوا نعمة ولا كفروا

وقد أهمتهم نفوسهم ... فوجهوني إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم.

ثم أثقل كاهلهم بإحسانه، وردهم بجميع ما طلبوه.

وقال لي شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد: لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا، ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين.

ثم نازلهم محمد الرئيس ابن عم السلطان شركه في جده الرئيس أبي سعيد، وتحين خروج السلطان إلى متنزهه خارج الحمراء.

وتسور دار الملك المعروفة بالحمراء وكبس رضواناً في بيته، فقتله، ونصب للملك إسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج، لما كان صهره على شقيقته، وكان معتقلاً بالحمراء، فأخرجه وبايعه وقام بأمره مستبداً عليه.

وأحس السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان، فركب ناجياً إلى وادي آش وضبطها.

وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب، وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس.

واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محبسه.

وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودة استحلمت أيام مقامه بالأندلس كما مر.

وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم، فزين له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زبوناً على أهل الأندلس، ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متى طمحوا إلى ملك المغرب، فقبل ذلك منه.

وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه.

وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب، وحل معتقله.

فانطلق، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش وسار في ركاب سلطانه.

وقدموا على السلطان أبي سالم فاهتز لقدوم ابن الأحمر وركب في موكب لتلقيه، وأجلسه إزاء كرسيه، وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مر يستصرخ السلطان لنصره، فوعده وكان يوماً مشهوداً وقد مر ذكره.

ثم أكرم مثواه وأرغد نزله، ووفر أرزاق القادمين في ركابه وانتظر به، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والأقطاع.

ثم استأنس واستأذن السلطان في التحول إلى جهات مراكش والوقوف على آثار الملك بها، فأذن له وكتب إلى العمال باتحافه، فتبارزوا في ذلك وحصر منه على حظ وعندما مر بسلا في قفوله من سفره، دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدة على روي الراء الموصولة يرثيه ويستجير به في استرجاع ضياعه بقرطبة مطلعها:

إن بان منزله وشطت داره قامت مقام عيانه أخباره

قسّم زمانك عبرة أو عبرة هذا ثراه وهذه آثاره

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة، فشفعوه، واستقر هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة.

ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى مكانه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة كما مر في أخباره.

وبعث عن مخلفه بفاس من الأهل والولد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله بن علي فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره.

وسر السلطان بقدومه ورده إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله.

وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن شيوخهم قد لحق بالطاغية في ركاب أبيه عندما أحس بالشر من الرئيس صاحب غرناطة.

وأجاز يحيى من هنالك إلى العدوة وأقام عثمان بدار الحرب، فصحب السلطان في مثوى اغترابه هنالك، وتقلب في هذا مذاهب خدمته، وانحرفوا عن الطاغية عندما يئسوا من الفتح على يديه، فتحولوا عنه إلى ثغور بلاده، وخاطبوا عمر بن عبد الله في أن يمكنهم من بعض الثغور الغربية التي لطاعتهم بالأندلس، يرتقبون منها الفتح.

وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك، وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله ذمة مرعية ومخالصة متأكدة، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله.

وحملته على أن يرد عليه مدينة رندة إذ هي تراث سلفه، فقبل إشارتي في ذلك، وتسوّغها السلطان المخلوع، ونزل بها وعلى بن يحيى في جملته، وهو مقدم في بطانته، ثم غزوا منها مالقة، فكانت ركاباً للفتح.

وملكها السلطان واستولى بعده على دار ملكها بغرناطة، وعثمان بن يحيى مقدم القوم في الدولة عريق في المخالصة، وله على السلطان دالة واستبداد على هواه.

فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده، وأعاده السلطان إلى مكانه في الدولة من علو يده وقبول إشارته، فأدركته الغيرة من عثمان، ونكر على السلطان الاستكفاء به، والتخوف من هؤلاء الأعياص على ملكه، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق.

ثم غربهم بعد ذلك، وخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة، وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال، وغشي بابه الخاصة والكافة.

وغصت به بطانة السلطان وحاشيته، فتفننوا على السعايات فيه وقد صم السلطان عن قبولها، ونمي الخبر بذلك إلى ابن الخطيب، فشمر عن ساعده في التقويض عنهم.

واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العدوة يومئذ في التقبض على ابن عمه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي.

كانوا قد نصبوه شيخاً على الغزاة بالأندلس لما أجاز من العدوة بعدما جاس خلالها لطلب الملك، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بني مرين، فاضطر إلى الإجازة إلى الأندلس، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماسي ونزلوا على السلطان المخلوع أعوام سبع وستين وسبعمائة فأكرم نزلهم، وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة، فقدم عبد الرحمن مكانه.

وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد قتله الوزير عمر بن عبد الله، فغص بما فعله السلطان المخلوع من ذلك، وتوقع انتقاض أمره منهم.

ووقف على مخاطبات ابن عبد الرحمن يسربها في بني مرين، فجزع لذلك.

وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي وإراحة نفسه من شغبهم، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه، فأجابه إلى ذلك وكتب له العهد بخطه، على يد سفيره إلى الأندلس، وكاتبه أبي يحيى بن أبي مدين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن وابن ماسي فتقبض عليهما، واعتقلهما وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية.

وربما تخيل له أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد أحفظوه عليه، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب، واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية، وسار إليها في لمة من فرسانه، ومعه ابنه علي الذي كان خالصة السلطان وذهب لطبنة.

فلما حاذى جبل الفتح فرضة المجاز إلى العدوة، مال إليه وسرح إذنه بين يديه، فخرج قائد الجبل لتلقيه.

وقد كان السلطان عبد العزيز قد أوعز إليه بذلك، وجهز إليه الأسطول من حينه، فأجاز إلى سبتة وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسيم.

ثم سلك لقصد السلطان، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامته من تلمسان، فاهتزت له الدولة.

وأركب السلطان خاصته لتلقيه، وأحله بمجلسه بمحل الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان الشرف والعزة.

وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى الأندلس في طلب أهله وولده، فجاء بهم على أكمل الحالات من الأمن والتكرمة.

ثم لغط المنافسون له في شأنه وأوعزوا سلطانه بتتبع عثراته، وأبدى ما كان كامناً في نفسه من سقطات دالته، وإحصاء عصابته.

وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه، ورفعت إلى قاضي الحضرة الحسن بن الحسن، فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه.

وبعث القاضي أبو الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات، وإمضاء حكم اللّه فيه، فصم لذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يرد وقال لهم: هلا انتقمتم وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري.

ثم وفر الجراية والأقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملته.

فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة، فنزل بفاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفي.

واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة ابنه السعيد واستبداد أبي بكر بن غازي عليه ورجوع بني مرين إلى المغرب

كان السلطان منذ أول نشأته قد أزمنت به الحمى بما أصابه من مرض النحول، ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم على احتماله مع الأبناء إلى رندة، ولما شب أفاق من مرضه وصلح بدنه، ثم عاوده وجعه في مثواه بتلمسان وتزايد نحوله.

ولما كمل الفتح واستفحل الأمر واشتد به الوجع وصابر المرض وكتمه عن الناس خشية الإرجاف، واضطرب معسكره خارج تلمسان للحاق بالمغرب، ولما كان ليلة الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة قضى متودعا بين أهله وولده ودس الخدم بالخبر إلى الوزير، فخرج على الناس وقد احتمل محمد السعيد ابن السلطان على كتفه فعزى الناس عن خليفتهم لسبع سنين من خلافته، وألقى ابنه بين أيديهم فازدحموا عليه باكين متفجعين، يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة، وأخرجوه إلى المعسكر.

ثم أخرج الوزير شلو السلطان على أعواده وأنزله بفساطيطه وأيقظ بالليل بحراسة العسكر، وأذن في الناس بالرحيل، فخرجوا أفواجاً إلى المحلة.

ثم ارتحلوا لثلاث، وأغذوا السير إلى المغرب واحتلوا بتازى ثم أغذوا السير إلى فاس، واحتل ابن السلطان بدار ملكه وجلس للبيعة العامة بقصره، وتوافت وفود الأمصار ببيعاتهم على العادة.

واستبد عليه الوزير أبو بكر بن غازي، وحجبه بقصره

وحجره عن التصرف في شيء من سلطانه، ولم يكن في سن التصرف، واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفضل، واشتغل بأمر المغرب إبراماً ونقضاً إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن استيلاء أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

لما فصل بنو مرين من تلمسان إثر مهلك السلطان عبد العزيز واحتلوا بتازى اجتمع المشيخة وعقدوا على تلمسان لإبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين كان ربي في كفالة دولتهم منذ مهلك أبيه، فآثروه بذلك لخلوصه، وبعثوه مع رحو بن منصور أمير عبيد اللّه من المعقل، وسرحوا معهما من كان بالمغرب من مغراوة إلى وطن ملكهم بشلف.

وعقدوا عليهم لعلي بن هارون بن منديل بن عبد الرحمن وأخيه رحمون وانصرفوا إلى بلادهم.

وكان عطية بن موسى مولى أبي حمو قد صار إلى السلطان عبد العزيز وألحقه بجملته وبطانته، فلما هلك السلطان خرج من القصر واختفى بالبلد حتى إذا فصل بنو مرين من معسكرهم ظاهر البلد، خرج من مكان اختفائه، وقام بدعوة مولاه أبي حمو، واجتمع إليه شيعة من أهل البلد مع من تأشب إليهم من الغوغاء، وحملوا الخاصة على البيعة لأبي حمو، ووصلهم إبراهيم بن أبي تاشفين مع رحو بن منصور وقومه من عبيد اللّه، فنابذوه وامتنعوا عليه، فرجع عنهم إلى المغرب، وطير أولاد يغمور أولياء أبي حمو من عبيد اللّه بالخبر إليه وهو بمثواه من تيكورارين.

واتصل بابنه أبي تاشفين وهو بحي بني عامر فبادر إلى تلمسان ودخلها ومن معه من بني عبد الواد، وتساقط إليه فلهم من كل جانب، ووصل السلطان على إثرهم بعد اليأس منه، فدخلها في جمادى من سنة أربع وسبعين وسبعمائة واستقل بملكه، وتقبض على بطانته الذين آسفوه في اغترابه، ونمي له عنهم السعي عليه، فقتلهم، ورجع ملك بني عبد الواد وسلطانهم، ونهض إلى مغراوة أولياء بني مرين بمكانهم من شلف، فغلبهم عليه بعد مطاولة وحروب سجال هلك فيها رحمون بن هارون، ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره، واستقل بالأمر حسبما ذكرناه في أخباره، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهم بالنهوض إليه، ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بناحية بطوية فشغله شأنه عن ذلك.

الخبر عن إجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن إلى المغرب واجتماع بطوية إليه وقيامهم بدعوته

كان محمد المخلوع ابن الأحمر قد رجع من رندة إلى ملكه بغرناطة في جمادى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وقتل له الطاغية عدوة الرئيس المنتزي على ملكه حين هرب من غرناطة إليه وفاءً بعهد المخلوع، واستوى على كرسيه واستقل بملكه، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب فاستخلصه وعقد له على وزارته، وفوض إليه في القيام بملكه فاستولى عليه وملك هواه.

وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه إلى أن نزلت به آفة في رياسته، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه، وكان لأبناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة من ولد عمهم السلطان أبي علي ويخشونهم على أمرهم.

ولما لحق الأمير عبد الرحمن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب واستخلصه لنجواه، ورفع في الدولة رتبته وأعلى منزلته، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة مكان بني عمه من الأعياص، فكانت له آثار في الاضطلاع بها، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه، وكان ابن الخطيب ساعياً في مرضاته عند السلطان، فدس إليه باعتقال عبد الرحمن بن كأبي يفلوسن ووزيره المطارد به مسعود بن ماساي، وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره وحمل السلطان علهيما إلى أن سطا بهما ابن الأحمر واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز وتغير الجو من بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم فتنكر له، فنزع عنه إلى عبد العزيز إلىسلطان المغرب سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة لما قدم من الوسائل ومهد من السوابق فتقبله السلطان وأحلة من مجلسه محل الاصطفاء والقرب.

وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده، فبعثهم إليه واستقر في جملة السلطان.

ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر فرغب السلطان في ملك الأندلس وحمله عليه وتواعدوا لذلك عند مرجعه من تلمسان إلى المغرب.

ونمي ذلك إلى ابن الأحمر فبعث إلى السلطان بهدية لم يسمع بمثلها، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه، وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره

ابن الخطيب إليه وأبى السلطان من ذلك ونكره، ولما هلك واستبد الوزير ابن غازي بالأمر تحيز إليه ابن الخطيب وداخله وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان، فلجّ واستنكف عن ذلك واقبح الرد، وانصرف رسوله إليه، وقد رهب سطوته، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماسي ونهض إلى جبل الفتح ونازله بعساكره.

ونزل عبد الرحمن ببطوية في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين وسبعمائة، ومعه وزيره مسعود بن ماساي، فاجتمع قبائل بطوية إليه وبايعوه على القيام بدعوته والموت دونه، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فعقد لابن عمه محمد بن عثمان على سبتة وبعثه لسد ثغورها لما خشي عليها من ابن الأحمر، ونهض من فاس بالعساكر والإلة ونازل عبد الرحمن ببطوية، فامتنع عليه فقاتله أياماً ثم رجع إلى تازي ثم إلى فاس، ودخل الأمير عبد الرحمن تازى واستولى عليها، ودخل الوزير إلى فاس وقعد بمجلس الفصل، وهو مجمع العودة إلى تازى لتشريد عدوه إلى أن جاءه الخبر ببيعة السلطان أبي العباس أحمد بن السلطان أبي سالم حسبما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالملك وما كان خلال ذلك من الأحداث

لما نزل محمد بن عثمان بالثغر من سبتة لسد فروجها، ومدافعة ما يخشى من عادية ابن الأحمر عليها، وكان قد طاول حصار جبل الفتح واخذ بمخنقه، وتكررت المواصلة بينه وبين محمد بن عثمان بالعتاب، فاستعتب له وقبح ما جاء به ابن عمه من الاستغلاظ له، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه، وداخله في البيعة لابن السلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الرقبة والحوطة، وأن يقيمه للمسلمين سلطاناً مستبداً يجول بسياجهم ويدافع عنهم ولا يتركهم فوضى وهملاً.

ويجب بيعة الصبي الذي لم تنعقد بيعته شرعاً، واختص هذا بالسلطان من بين أولئك الأولاد وفاءً بحقوق أبيه، ووعده بالمظاهرة على ذلك، واشترط عليه أن ينزلوا له عن الجبل إذا انعقد أمرهم، ويشخصوا إليه بيعة الأبناء والقرابة من طنجة ليكونوا في إيالته وتحت حوطته، وأن يبعثوا إليه بابن الخطيب متى قدروا عليه، وبعثوا إليه بقية الأبناء والقرابة فتقبل محمد بن عثمان شرطه وكان سفيره في ذلك أحمد الرعيني من طبقة كتاب الأشغال بسبتة، كان السلطان أبو الحسن تزوج أمه ليلة إجازته من واقعة طريف وافتقاد حظاياه، حتى لحق به الحرم من فاس، فردها إلى أهلها ونشأ الرعيني في توهم هذه الكفالة، فانتفخ نحره لذلك ويحسبها وصلة إلى أبناء السلطان أبي الحسن، وكان سفيراً بين محمد بن عثمان وابن الأحمر، فأمل رياسة في هذه الدولة، ركب محمد بن عثمان من سبتة إلى طنجة، وقصد مكان اعتقالهم.

واستدعى أبا العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم من مكانه مع الأبناء فبايع له، وحمل الناس على طاعته، واستقدم أهل سبتة بكتاب البيعة، فقدموا وخاطب أهل الجبل فبايعوا، وأفرج ابن الأحمر عنهم.

وبعث إليه محمد بن عثمان بالنزول له عن جبل الفتح، وخاطبوا أهله بالرجوع إلى طاعته، فارتحل من مالقة إليه ودخله واستولى عليه، ومحا دعوة بني مرين مما وراء البحر، وأهدى للسلطان أبي العباس وأمده بعسكر من غزاة الأندلس وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره.

وكان محمد بن عثمان عند فصوله من فاس، وودعه الوزير ابن عمه وفاوضه في شأن السلطان، وأن يقدم للناس إماماً يرجعون إليه ويترك لهم أمرهم وأمره في ذلك، ولم يفترقا على مبرم من أمرهم.

فلما ارتكب هذا المرتكب وجاء بهذا الأمر، خاطب الوزير يموه عليه بأنه فعل بمقتضى المؤامرة، وأنه عن إذنه واللّه أعلم بما دار بينهما ولج الوزير في تكذيبه والبراءة للناس مما رمى به ولاطفه في نقض ذلك الأمر، ورد أبا العباس إلى مكانه مع الأبناء تحت الحوطة، وأبى محمد بن عثمان من ذلك ودافعه باجتماع الناس وانعقاد الأمر.

وبينما الوزير يروم ذلك جاءه الخبر بأن محمد بن عثمان أشخص الأبناء المعتقلين كلهم إلى الأندلس، وأنهم حصلوا في كفالة ابن الأحمر، فوجم وأعرض عن ابن عمه وسلطانه، ونهض إلى تازى ليفرغ من عدوه إليهم، فنازله الأمير عبد الرحمن وأخذ بمخنقه، واهتبل محمد بن عثمان الغرة في ملك المغرب، ووصله مدد السلطان ابن الأحمر وعسكره تحت رايته، عقدها عليهم لبوسف بن سليمان بن عثمان ين أبي العلاء من مشيخة الغزاة المجاهدين، وعسكر آخر من رجال الأندلس الناشبة يناهزون سبعماية.

وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمه السلطان أبي العباس أحمد، ومظاهرته على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتهما، وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختص عبد الرحمن بملك سلفه فتراضيا، وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس خالفوا إليه الوزير وانتهوا إلى قصر ابن عبد الكريم، وبلغ الخبر إلى الوزير بمكانه من حصار تازى فانفض معسكره ورجع إلى فاس ونزل بكدية العرائس.

وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون، فصمد إليه الوزير بعساكره، وصمم نحوه بمكانه من قنة الجبل، فاختل مصافه وانهزمت ساقة العسكر من ورائه، ورجع على عقبه مفلولاً وانتهب المعسكر ودخل إلى البلد الجديد وجأجأ بالعرب من أولاد حسين أن يعسكروا له بالزيتون ظاهر فاس، ويخرج بمجموعه إلى حللهم، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازى بمن كان معه من العرب الأحلاف وشردهم إلى الصحراء، وشارف السلطان أبا العباس أحمد بمجموعة من العرب وزناتة، وبعثوا إلى والي سلفهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصر مرادة الذي اختطه بملوية فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق فاجتمعوا بوادي النجا.

وحضر لعقدهم واتفاقهم وحلفهم على اتصال اليد على عدوهم ومنازلته بالبلد الجديد حتى تمكن اللّه إليه منه وارتحلوا بزحفهم إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وسبعمائة وبرز إليهم الوزير بعساكره فدارت الحرب وحمي الوطيس واشتد القتال ملياً.

ثم زحف إليه العسكران بساقتهما وآلتهما فاختل مصافه وانهزمت جيوشه وجموعه وأحيط به، وخلص إلى البلد الجديد بعد عصب بالريق.

وأضرب السلطان أبو العباس معسكره بكدية العرائس، ونزل الأمير عبد الرحمن بازائه، وضربوا على البلد الجديد سياجاً بالبناء للحصار وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب.

ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر من الرجالة الإندلسية.. حصارها، واحتكموا في ضياع ابن الخطيب بفاس، فهدموها وعاثوا فيها.

ولما كان فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة داخل محمد بن عثمان ابن عمه أبا بكر في النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان، لما كان الحصار قد اشتد به ويئس من الصريخ، وأعجزه المال فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي عن أعمال مراكش، وأن يدينوه بها من سجلماسة فعقدوا له عل كره، وطووا على المكر.

وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان أبي العباس أحمد، وبايعه واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة فبذله.

ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد لجديد سابع المحرم، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش واستولى عليها، وارتحل معه علي بن عمر بن ويغلان شيخ بني مرين والوزير ابن ماساي، ثم نزع عنه ابن ماساي الفاس لعهد كان قد اقتضاه من السلطان أبي العباس، وأجاز البحر إلى الأندلس واستقر بها في إيالة ابن الأحمر، واستقل السلطان أبو العباس ابن السلطان أبي سالم بملك المغرب ووزيره محمد بن عثمان بن الكاس، وفوض إليه شؤونه وغلب على هواه.

وصار أمر الشورى إلى سليمان بن داود، كان نزع إليه من البلد الجديد من جملة أبي بكر بن غازي بعد أن كان أطلقه من محبسه، واستخلصه.

وجعل إليه مرجع إبرامه ونقضه فتركه أحوج ما كان إليه، ولحق بالسلطان أبي العباس بمكانه من حصار البلد الجديد.

فلما استوسق ملكه ألقى الوزير محمد بن عثمان إليه بمقاد الدولة، وصار إليه أمر الشورى ورياسة المشيخة.

واستحكمت المودة بينهم وبين السلطان ابن الأحمر وتأكدت المداخلة، وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وإبرامهم لمكان الأبناء المرشحين في إيالته.

ولما ارتحل الأمير عبد الرحمن إلى مراكش نبذوا إليه العهد وتعللوا عليه بأن العقد الأول له: إنما كان على ملك سلفه ومراكش إنما ألجأهم إلى العقد عليها إلجاء، واعتزموا على النهوض إليه ثم أقصروا وانعقدت بينهم السلم سنة ست وسبعين وسبعمائة وجعلوا التخم بينهما أزمور وعقدوا على ثغرها لحسون بن علي الصبيحي فلم يزل عليها إلى أن هلك كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن مقتل ابن الخطيب

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين وسبعمائة واستقل بسلطانه والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه، وسليمان بن داود من أعراب بني عسكر رديف له، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر

عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه لما نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس.

فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقي الوزير أبو بكر بن غازي بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان ولاذ منه بالحصار، آوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه، فلما استولى السلطان على البلد الجديد أقام أياماً، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه فقبضوا عليه وأودعوه السجن وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب بما كان سليمان بن داود قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس، متى أعاده اللّه إلى ملكه.

فلما استقر له سلطانه أجاز إليه سفيراً عن عمر بن عبد اللّه ومقتضياً عهده من السلطان.

فصده ابن الخطيب عن ذلك بأن تلك الرياسة لأعياص الملك من آل عبد الحق، لأنهم يعسوب زناتة فرجع سليمان يائساً وحقد ذلك لابن الخطيب.

ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفس كل واحد منهما بصاحبه بما يحفظه لما كمن في صدورهما.

وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب، وهو أبو عبد اللّه بن زمرك، فقدم على السلطان أبي العباس وأحضر ابن الخطيب بالشورى في مجلسه الخاصة وأهل الشورى، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابته، فعظم عليه النكير فيها فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ من الناس تل إلى محبسه، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه ودس سليمان بن داود إليه لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله، فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقاً في محبسه، وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على شافة قبره طريحاً وقد جمعت له أعواد وأضرمت عليه ناراً، فاحترق شعره واسود بشره، فأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته، واللّه الفعال لما يريد وكان عفا اللّه عنه أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت، فتُجيش هواتفه لشعر يبكي نفسه

ومما قال في ذلك:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت	وجئنا لوعد ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعةً	كجهر الصلات تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً	وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا	عربن فباحت علينا السمون
فكم جدّلت ذا الحسام الظبا	وذو البحث كم جذلته
وكم سيق للقبر في خرقةٍ	فتى ملئت من كساه
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب	وفات فمن ذا الذي لا يفوت
ومن كان يفرح منهم له	فقل يفرح اليوم من لا يموت

الخبر عن إجازة سليمان بن داود الأندلس ومقامه بها إلى أن هلك

كان سليمان بن داود هذا منذ عضته الخطوب واختلفت عليه النكايات يروم الفرار بنفسه إلى الأندلس للمقامة مع الغزاة المجاهدين من قومه.

ولما استقر السلطان ابن الأحمر بفاس عند خلعه ووفادته على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة داخله سليمان بن داود في تأميل الكون عنده، فعاهده على ذلك وأن يقدمه على الغزاة المجاهدين.

فلما عاد إلى ملكه وفد عليه سليمان بن داود بغرناطة في سبيل السفارة عن عمر بن عبد اللّه سنة ست وستين وسبعمائة وأن يؤكد عقده من السلطان، فحال دون ابن الخطيب وثنى رأي السلطان عن ذلك بأن شياخة الغزاة مخصوصة بأعياص الملك من بني عبد الحق لمكان عصابتهم بالأندلس، فأخفق أمل سليمان حينئذ وحقدها على ابن الخطيب ورجع إلى مرسله، ثم كانت نكبته أيام السلطان عبد العزيز فلم يخلص منها إلا بعد مهلكه، أطلقه أبو بكر بن غازي الأمر من بعده، ليعتضد بمكانه على شأنه.

فلما اشتد الحصار على ابن غازي خرج عنه سليمان ولحق بالسلطان أبي العباس ابن المولى أبي سالم بمكانه من ظاهر البلد الجديد، فكان ذلك من أسباب الفتح، ولما دخل السلطان إلى دار ملكه من البلد الجديد فاتح سنة ست وسبعين وسبعماية واستوسق أمره، رفع مجلس سليمان وأحله محل الشورى، واعتضد به وزيره محمد بن عثمان واستخلصه كما ذكرناه.

وكان يرجع إلى رأيه وهو في خلال ذلك يحاول اللحاق بالأندلس، فكان من أول أمره التقرب إلى السلطان ابن الأحمر بإغراء الوزير محمد بن عثمان بقتل ابن الخطيب مشنوئه، فتم ذلك لأول الدولة.

وجرت الأمور بعدها على الاعتمال في مرضاته إلى أن حاول السفارة إليه في أغراض سلطانه، سنة ثمان وسبعماية في صحبة ونزمار بن عريف، فتلقاهما السلطان ابن الأحمر بما يتلقى به أمثالهما وأغرب في تكرمتهما.

وأما ونزمار فانقلب راجعاً لأول بداية الرسالة، اقتضى من السلطان خطته لقواد أسطوله بتسهيل الإجازة متى رامها.

وخرج يتصيد فلحق بمرسى مالقة ودفع أمر السلطان بخطه إلى قائد الأسطول، فأجازه إلى سبتة ولحق بمكانه.

وأما سليمان فاعتزم على المقام عند ابن الأحمر وأقام هنالك خالصة ونجياً ومشاوراً، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعماية.

الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه إلى مايرقة ثم رجوعه وانتقاضه بعد ذلك ومهلكه

لما اشتد الحصار بالوزير أبي بكر بن غازي وفنيت أمواله وأموال السلطان، وظن أنه أحيط به، داخله الوزير محمد بن عثمان من مكانهم بحصاره بالنزول عن البلد على الأمان والإبقاء فأجاب وخرج إلى السلطان أبي العباس بن أبي سالم، فعقد له أماناً بخطه، وتحول إلى داره بفاس وسلم سلطانه المنصوب للأمر، فتسلمه منه الوزير محمد بن عثمان، واشتد في الاحتياط عليه إلى أن بعثه إلى السلطان ابن الأحمر، فكان في جملة الأبناء عنده، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار ملكه واقتعد سريره ونفذت في الممالك أوامره.

وأقام أبو بكر بن غازي على حاله بداره والخاصة يباكرونه والنفوس منطوية على تأميله، فغص به أهل الدولة وترددت فيه السعاية، وتقبض عليه السلطان وأشخصه إلى غساسة، وركب منها السفين إلى ميورقة آخر ست وسبعين وسبعمائة فأقام بها شهراً ومخاطباته مترددة إلى الوزير محمد بن عثمان.

ثم عطفته عليه رحم، فأذن له في القدوم على المغرب والمقامة بغساسة فقدمها أوائل سنة سبع وسبعين وسبعمائة واستبد بإمارتها، وبدا له رأي في تأميل الرتبة وظهر ما كان يخفيه لابن عمه من المنافسة، فخاطب السلطان ابن الأحمر من وراء البحر ولاطفه بالتحف والهدايا.

فكتب إلى ابن عمه محمد بن عثمان يحضه على إعادته إلى مكانه دفعاً لغوائله، فأبى من ذلك، وداخله ونزمار بن عريف في بعضها كذلك، فلج في الامتناع وعمل سلطانه على نبذ العهد إلى أبي بكر بن غازي، فتنكر له وأجمع المسير إليه بعساكر العرب، فخرج من فاس سنة تسع وسبعين وسبعمائة وبلغ الخبر إلى أبي بكر بن غازي فاستجاش بالعرب واستحثهم للوصول، فوصل إليه الأحلاف من المعقل، وسرب فيهم أمواله، وخرج من غساسة فألقى بينهم، وعمد إلى بعض العرب الطارئين فنصبه للأمر مشبهاً ببعض أولاد السلطان أبي الحسن.

وزحف إليه السلطان حتى نزل بتازى، فأجفلت أحياء العرب أمام العساكر من بني مرين والجند، ونجا ابن غازي منهم ندمائه.

ثم داخله ونزمار بن عريف في الإذعان للسلطان عن شق الخلاف، فأجاب ووصل به إلى سدة الملك، فبعث به السلطان محتاطاً عليه إلى فاس فاعتقل بها.

ونزلت مقدمات العساكر بوادي ملوية، وداخل صاحب تلمسان منها رعب، فأوفد على السلطان من قومه وكبار مجلسه ملاطفاً ومدارياً، فتقبل منه وعقد له السلم، وأصدر به كتابه وعهده بخطه، وانكفأ راجعاً إلى حضرته بعد أن بعث العمال في تلك النواحي على جبايتها، فجمعوا له منها ما رضي.

ولما احتل بدار ملكه، أنفذ أمره بقتل أبي بكر بن غازي فقتل بمحبسه طعناً بالخناجر وذهب مثلاً في الأيام، واستوسق للسلطان أمره.

وأحكم العقد مع الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن صاحب مراكش واتصل بينهما، وترددت المهاداة منهما بعض إلى بعض، وإلى صاحب الأندلس وإليهما منه فامتلأت المغرب هدنة وأمناً، وانبعثت الآمال بساطاً وغبطة والحال متصلة على ذلك لهذا العهد آخر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة أيام إشرافنا على هذا التأليف، والله مقدّر الليل والنهار.

الخبر عن انتقاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب مراكش والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد الرحمن على أزمور ومقتل عاملها حسون بن علي

كان علي بن عمر كبير بني ورتاجن وشيخ بني ويغلان منهم، قد تحيز إلى الأمير عبد الرحمن منذ إجازته من الأندلس واستيلائه على تازى ثم زحفه إلى حصار البلد الجديد مع السلطان أبي العباس كما مر.

فوصل في جملته إلى مراكش، وكان صاحب شوراه وكبير دولته.

وكان يضطغن على خالد بن إبراهيم المبدازي شيخ حاحة من قبائل المصامدة ما بين مراكش وبلاد السوس، وقد كان علي بن عمر انتقض على ابن غازي الوزير المستبد بعد السلطان عبد العزيز، ولحق بالسوس.

ومر بخالد بن إبراهيم هذا فاعترضه في طريقه وأخذ الكثير من أثقاله ورواحله، وخلص هو إلى منجاته بالسوس، وقد حقد ذلك لخالد.

ثم بعث عن شيوخ المعقل عندما أجاز الأمير عبد الرحمن من الأندلس إلى نواحي تازى يروم اللحاق بهم، فوفدوا عليه.

وسار معهم إلى أحيائهم وأقام معهم وهو في طاعة الأمير عبد الرحمن ودعوته إلى أن اتصل به بين يدي حصاره البلد الجديد مع السلطان أبي العباس.

فلما فتح السلطان البلد الجديد أول سنة ست وسبعين وسبعماية واستولى على ملكهم بها، وفصل عبد الرحمن إلى مراكش كما كان الوفاق بينهم، وسار علي بن عمر في جملة الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، واستأذنه في قتل خالد صاحبه، فلم يأذن له، فأحفظه ذلك وطوى عليه، وبعد أيام صعد إلى جبل وريكة في غرض من أغراض الدولة، وتقدم إلى حافده عامر ابن ابنه محمد بقتل خالد، فقتله في بعض الأيام بظاهر مراكش، ولحق بجده علي بن عمر بوريكة، فتلطف له الأمير عبد الرحمن وأرسله بالملاينة والاستعطاف.

ثم ركب إليه بنفسه واستخلصه ونزل به إلى مراكش فأقام معه أياماً.

ثم ارتاب ولحق بأزمور وعاملها يومئذ حسون بن علي الصبيحي وأغراه بالإجلاب على عمل مراكش، وزحفوا جميعاً إلى عمل صنهاجة.

وسرح الأمير عبد الرحمن لمدافعتهم كبير دولته يومئذ وابن عمه عبد الكريم بن عيسى بن سليمان بن منصور بن بـي مالك، وهو عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، فخرج في العساكر ومعه منصور مولى الأمير عبد الرحمن، فلقوا علي بن عمر وهزموه وأخذوا سواده، ونجا إلى أزمور، ثم وفد هو وحسون بن علي إلى السلطان بفاس.

ووقعت أثناء ذلك المراسلة بين السلطانين، وانعقد بينهما الصلح.

فأقام علي بن عمر بفاس ورجع حسون بن علي إلى مكان عمله بأزمور، ثم انتقض ما بين السلطانين ثانياً.

وكان للأمير عبد الرحمن أخوان من ولد محمد بن يعقوب بن حسان الصبيحي وهما علي وأحمد، جرثوما بغي وفساد، وعدا على كبيرهما علي ابن عمه علي يعقوب بن علي بن حسان فقتله، واستعدى أخوه موسى عليه السلطان فأعداه.

وأذن له أن يثأر منه بأخيه فيقتله فجزع لذلك أحمد أخو علي، وهم بقتل موسى، فاستجار موسى بيعقوب بن موسى بن سيد الناس كبير بني ونكاسن، وصهر الأمير عبد الرحمن.

وأقام أياماً في جواره، ثم هرب إلى أزمور فلفحت نار الفتنة.

ونهض الأمير عبد الرحمن إلى أزمور فلم يطق حسون بن علي دفاعه فملكها عليه وقتله واستباحها.

وبلغ الخبر إلى السلطان بفاس فنهض في عساكره وانتهى إلى سلا.

ورجع الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، وسار السلطان في اتباعه حتى نزل بفحص أكمليم قريباً من مراكش، وأقام هنالك نحواً من ثلاثة أشهر والقتال يتردد بينهم.

ثم سعي بين السلطانين في الصلح، فاصطلحوا على حدود العمالات أولاً، وانكفأ صاحب فاس إلى بلاده.

وبعث الحسن بن يحيى بن حسون الصنهاجي عاملاً على الثغر بأزمور، فأقام بها، وكان أصله من صنهاجة أهل وطن أزمور، وله سلف في خدمة بني مرين منذ أول دولتهم، وكان أبوه يحيى في دولة السلطان أبي الحسن عاملاً في الجباية بأزمور وغيرها.

وهلك في خدمته بتونس أيام مقام السلطان بها، وترك ولده

يستعملون في مثل ذلك، ونزع الحسن هذا منهم إلى الجندية فلبس شارتها وتصرف في الولاية المناسبة لها، واتصل بخدمة السلطان أبي العباس لأول بيعته بطنجة.

وكان يومئذ عاملاً بالقصر الكبير فدخل في دعوته وصار في جملته، وشهد معه الفتح واستعمله في خطط السيف، حتى ولاه أزمور هذه الولاية فقام بها كما ذكرناه.

وأما الصبيحيون فالخبر عن أوليتهم أن جدهم حسان من قبيلة صبيح من أفاريق سويد، جاء مع عبد الله بن كندوز الكمي من بني عبد الواد حين جاء من تونس وافداً على السلطان يعقوب بن عبد الحق إليه بتنجداع كما مر، وكان حسان من رعاة إبله.

فلما استقر عبد الله بن كندوز بناحية مراكش وأقطعه السلطان يعقوب في أعمالها، وكان الظهر الذي يحمل عليه السلطان متفرقاً في شاوية المغرب، فجمعه وجعله لنظر عبد الله بن كندوز، فجمع له الرعاة وكبيرهم يومئذ حسان الصبيحي، فكان يباشر السلطان في شأن ذلك الظهر ويطالعه في مهماته، فحصلت له بذلك مداخلة وأجتلبت إليه الحظ، حتى ارتفع وكبر.

ونشأ ولده في ظل الدولة وعزها وتصرفوا في الولايات فيها، وانفردوا بالشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات، وكان لحسان من الولد علي ويعقوب وطلحة وغيرهم، ومن حسان هذا تفرعت شعوبهم في ولده، وهم لهذا العهد متصرفون في الدولة على ما كان سلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل، ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة، والله أعلم.

الانتقاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب مراكش ونهوض صاحب فاس إليه وحصاره ثم عودهما إلى الصلح

لما رجع السلطان إلى فاس على ما استقر من الصلح، طلب الأمير عبد الرحمن أن يدخل عمالة صنهاجة ودكاكة في أعماله، وكتب السلطان إلى الحسن بن يحيى عامل أزمور وتلك العمالة بأن يتوجه إليه ويسد المذاهب دونه في ذلك.

وكان الحسن بن يحيى مضطغناً على الدولة، فلما وصل إليه داخله في الخلاف وأن يملكه تلك العمالة، فازداد الأمير عبد الرحمن بذلك قوة على أمره، وتعلل على صاحب فاس بأن يكون حدوداً بين الدولتين ووادي أم ربيع.

واستمر صاحب فاس على الإباية من ذلك، فنهض الأمير عبد الرحمن من مراكش، ودخل الحسن بن يحيى في طاعته فملكها، وبعث مولاه منصوراً في العساكر إلى أنف فاستولى عليها وصادر أعيانها وقاضيها وواليها وبلغ الخبر إلى السلطان، فنهض من فاس في عساكره، وانتهى إلى سلا، فهرب منصور من أنف وتركها.

ولحق بمولاه عبد الرحمن فأجفل من أزمور إلى مراكش، والسلطان في أثره حتى انتهى إلى قنطرة الوادي، على غلوة من البلد، وأقام خمسة أشهر يحاصرها، واتصل الخبر بالسلطان ابن الأحمر صاحب الأندلس، فبعث خالصته الوزير أبا القاسم ابن الحكيم الرندي ليعقد الصلح بينهما، فعقده على أن استرهن السلطان أولاد الأمير عبد الرحمن وحافدا أبي الحسن، وانكفأ السلطان راجعاً إلى سلا.

ولحق به جماعة من جملة الأمير عبد الرحمن من بني مرين وغيرهم، نزعوا عنه، وكان منهم أحمد بن محمد بن يعقوب الصبيحي لقي في طريقه مولى الأمير عبد الرحمن، جاء به مكرهاً إلى السلطان.

وكان من النازعين أيضاً يعقوب بن سيد الناس كبير بني ونكاسن، وأبو بكر بن رحو بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق، ومحمد بن مسعود الإدريسي وزيان بن علي بن عمر الوطاسي وغيرهم من المشاهير.

وقدموا على السلطان بسلا فتقبلهم وأحسن كرامتهم، ورحل راجعاً إلى فاس. والله أعلم.

انتقاض علي بن زكريا شيخ الهساكرة على الأمير عبد الرحمن وفتكه بمولاه منصور ومقتل الأمير عبد الرحمن

لما رجع السلطان إلى فاس وبدا من الخلل في دولة الأمير عبد الرحمن وانتقاض الناس عليه ما قدمناه، نزع يده من التعويد على العساكر، وشرع في تحصين البلد.

وضرب الأسوار على القصبة وحفر الخنادق وتبين بذلك اختلال أمره.

وكان علي بن زكريا شيخ هسكورة كبير المصامدة في دعوته منذ دخل مراكش فتلافى أمره مع صاحب فاس، ومد إليه يداً من

طاعته.

ثم انتقض على الأمير عبد الرحمن ودخل في دعوة السلطان، وبعث إليه الأمير عبد الرحمن مولاه منصوراً يستألفه، فأرصد إليه في طريقه من حاشيته من قتله، ثم بعث برأسه إلى فاس، فنهض السلطان في عساكره إلى مراكش.

واعتصم الأمير عبد الرحمن بالقصبة وقد كان أفردها عن المدينة بالأسوار.

وخندق عليها فملك السلطان المدينة ورتب على القصبة المقاتلة من كل جهة، ونصب الآلة وأدار عليها من جهة المدينة حائطاً وأقام يحاصرها سبعة أشهر يغاديها بالقتال ويراوحها.

وكان أحمد بن محمد الصبيحي من الذين بوِّئوا المقاعد لقتالها، فهم بالانتقاض وحدثته نفسه بغدرة السلطان والتوثب به.

وسعى بذلك إلى السلطان، فتقبض عليه وحبسه.

وبعث السلطان بالنفير إلى أعماله فتوافت الأمداد من كل ناحية، وبعث صاحب الأندلس إليه مداداً من العسكر.

فلما اشتد الحصار بالأمير عبد الرحمن ونفذت الأقوات، وأيقن أصحابه بالهلاك، وأهمتهم أنفسهم.

فهرب عنه وزيره نحُو بن العلم من بقية محمد بن عمر شيخ الهساكرة والمصامدة لعهد السلطان أبي الحسن وابنه، وقد مر ذكره.

فلما لحق هذا بالسلطان وعلم أنه إنما جاء مضطراً قبض عليه وحبسه.

ثم انفض الناس عن الأمير عبد الرحمن ونزلوا من الأسوار ناجين إلى السلطان.

وأصبح في قصبته منفرداً، وقد بات ليلته يراوض ولديه على الاستماتة وهما: أبو عامر وسليم.

وركب السلطان من الغد في التعبية وجاء إلى القصبة فاقتحمها بمقدمته، ولقيهم الأمير عبد الرحمن وولداه بأسارك الميدان الذي بين أبواب دورهم، فجالوا معهم جولة قتل فيها هو وولداه، تولى قتلهم علي بن إدريس الشالقي وزيان بن عمر الوطاسي وطالما ما كان زيان يمتري يدي نعمهم ويجر ذيله خيلاء في جاههم، فذهب مثلا في كفران النعمة وسوء الجزاء، والله لا يظلم مثقال ذرة.

وكان ذلك خاتم جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وسبعماية.

ثم رحل السلطان منقلباً إلى فاس، وقد استولى على سائر أعمال المغرب، وظفر بعدوه ودفع النازعين عن ملكه، والله أعلم.

اجلاب العرب على المغرب في مغيب السلطان بقريبه من ولد أبي علي وبأبي تاشفين بن أبي حمو صاحب تلمسان ومجيء أبي حمو على أثرهم

كان أولاد حسين من عرب المعقل مخالفين على السلطان من قبل مسيره إلى مراكش.

وكان شيخهم يوسف بن علي بن غانم قد حدثت بينه وبين الوزير القائم على الدولة محمد بن عثمان منافرة وفتنة.

وبعث العساكر إلى سجلماسة، فخرب ما كان له بها من العقار والأملاك، وأقام منتقضاً بالقفر.

فلما حاصر السلطان الأمير عبد الرحمن بمراكش وأخذ بمخنقه أرسل أبا العشائر ابن عمه منصور إلى يوسف بن علي وقومه، ليجلبوا به على المغرب ويأخذوا بحجزة السلطان عن حصاره، فسار لذلك ولما قدم على يوسف سار به إلى تلمسان مستجيشاً بالسلطان أبي حمو لذلك القصد، بما كان بينه وبين الأمير عبد الرحمن من العهد على ذلك.

فبعث أبو حمو معهم ابنه أبا تاشفين في بعض عساكره، وسار في الباقين على أثرهم.

وسار أبو تاشفين وأبو العشائر إلى أحياء العرب، فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها.

وكان السلطان عند سفره إلى مراكش استخلف على دار ملكه بفاس علي بن مهدي العسكري في جماعة من الجند.

واستنجد بونزمار بن عريف شيخ سويد وولي الدولة المقيم بأحيائه بنواحي ملوية، فخالف بين العرب المعقل واستألف منهم العمارنة والمنبات وهم الأحلاف واجتمع مع علي بن مهدي، وساروا لمدافعة العدو بنواحي مكناسة فصدوهم عن مرامهم ومنعوهم من دخول البلاد فأقاموا متواقفين أياماً.

وقصد أبو حمو في عسكره مدينة تازى وحاصرها سبعاً، وخرب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازورت.

وبينما هم على ذلك بلغ الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الأمير عبد الرحمن، فأجفلوا من كل ناحية.

وخرج أولاد حسين وأبو العشائر وأبو تاشفين والعرب الأحلاف في اتباعهم، وأجفل أبو حمو عن تازى راجعاً إلى تلمسان ومر بقصر ونزمار في نواحي بطوية المعروف بمرادة، فهدمه ووصل السلطان إلى فاس وقد تم له الظهور والفتح إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

نهوض السلطان إلى تلمسان وفتحها وتخريبها

كان السلطان لما بلغه ما فعل العرب وأبو حمو بالمغرب لم يشغله ذلك عن شأنه، ونقم على أبي حمو ما أتاه من ذلك، وأنه نقض عهده من غير داع إلى النقض.

فلما احتل بدار ملكه بفاس أراح أياماً، ثم أجمع عزمه على النهوض إلى تلمسان.

وخرج في عساكره على عادتهم وانتهى إلى تاوريرت.

وبلغ إلى أبي حمو، فاضطرب في أمره واعتزم على الحصار، وجمع أهل البلد عليه واستعدوا له.

ثم خرج في بعض تلك الليالي بولده وأهله وفي خاصته، وأصبح مخيماً بالصفصف وانفض أهل البلد إليه بعضهم بعياله وولده مستمسكين به، متفادين من معرة هجوم عساكر المغرب ولم يزعه ذلك عن قصده، وارتحل ذاهباً إلى البطحاء.

ثم قصد بلاد مغراوة فنزل في بني بو سعيد قريباً من شلف، وانزل ولده الأصاغر وأهله بحصن تاجحمومت.

وجاء السلطان إلى تلمسان فملكها واستقر بها أياماً.

ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها، بإغراء وليه ونزمار جزاء بما فعله أبو حمو في تخريب قصر تازروت وحصن مرادة.

ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمو، ونزل على مرحلة منها.

وبلغه الخبر هنالك بإجازة السلطان موسى ابن عمه أبي عنان من الأندلس إلى المغرب وأنه خالفه إلى دار الملك، فانكفأ راجعاً وأغذ السير إلى المغرب كما نذكر.

ورجع أبو حمو إلى تلمسان واستقر في ملكه بها، كما تقدم في أخباره.

إجازة السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان من الأندلس إلى المغرب واستيلائه على الملك وظفره بابن عمه السلطان أبي العباس وإزعاجه إلى الأندلس

قد تقدم أن السلطان محمد بن الأحمر المخلوع، كان له تحكم في دولة السلطان أبي العباس بن أبي سالم صاحب المغرب بما كان من إشارته على محمد بن عثمان ببيعته وهو معتقل بطنجة، ثم بما أمده من مدد العساكر والأموال، حتى تمّ أمره واستولى على البلد الجديد كما قدمناه في أول خبره، وبما كان له من الزبون عليهم بالقرابة المرشحين الذين كانوا معتقلين بطنجة مع السلطان أبي العباس من أسباط السلطان أبي الحسن من ولد أبي عنان وأبي سالم والفضل وأبي عامر وأبي عبد الرحمن وغيرهم.

وكانوا متعاهدين في معتقلهم أن من أتاح اللّه له الملك منهم فيخرجهم من الاعتقال ويجيزهم إلى الأندلس.

فلما بويع السلطان أبو العباس وفى لهم بهذا العهد وأجازهم، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر أكرم نزل، أنزلهم بقصور ملكه بالحمراء وقرب لهم المراكب، وأفاض عليهم العطاء ووسع لهم الجرايات والأرزاق وأقاموا هنالك في ظل ظليل من كنفه فكان له بهم زبون على ملك المغرب وكان الوزير القائم بها محمد بن عثمان يقدر له قدر ذلك كله فيجري في أغراضه وقصوده وتحكمه في الدولة ما شاء ا لله أن يحكمه، حتى توجهت الوجوه إلى ابن الأحمر وراء البحر من شيوخ بني مرين والعرب، وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الأندلس.

ولما نهض السلطان إلى تلمسان خاطبوه وأوصوه بالمغرب، وأنزل محمد بن عثمان بدار الملك كاتبه محمد بن الحسن، كان مصطنعاً عنده من بقية شيع الموحدين ببجاية، فاختصه ورقاه واستخلفه في سفره هذا على دار الملك.

فلما انتهوا إلى تلمسان وحصل له من الفتح ما حصل، كتبوا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر مع شيطان من ذرية عبو بن قاسم المزواد كان بدارهم وهو عبد الواحد بن محمد بن عبو كان يسمو بنفسه إلى العظائم التي ليس لها بأهل ويتربص لذلك بالدولة.

وكان ابن الأحمر مع كثرة تحكمه فيهم يجني عليهم بعض الأوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في أمر لا يجدون

عنها وليجة، فيضطغن لهم ذلك.

فلما قدم عليه عبد الواحد هذا بخبر الفتح وقص عليه القصص، دس له أن أهل الدولة مضطربون على سلطانهم ومستبدلون به لو وجدوا، وأبلغ من ذلك ما حمل ولم يحمل.

وأشار له بخلاء المغرب من الحامية جملة وأن دار الملك ليس بها إلا كاتب حضري لا يحسن المدافعة، وهو أعرف به، فانتهز ابن الأحمر الفرصة وجهز موسى ابن السلطان أبي عنان من الأسباط المقيمين عنده.

واستوزر له مسعود بن رحو بن ماساي من طبقة الوزراء من بني مرين ومن بني فودود من أحلافهم.

وله في ذلك سلف وقد كان بعثه من قبل وزيراً للأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن حين أجاز إلى المغرب أيام استبداد أبي بكر بن غازي، فلم يزل معه حتى كان حصار البلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليها.

وذهب الأمير عبد الرحمن إلى مراكش فاستأذنه مسعود في الانصراف إلى الأندلس، فأذن له ورجع عنه إلى فاس.

ثم فارقهم وأجاز إلى الأندلس متودعاً ومتودداً للكل ومعولاً على ابن الأحمر، فتلقاه بالقبول وأوسع له بالنزول والجراية وخلطه بنفسه وأحضره مع ندمائه، ولم يزل كذلك إلى أن جهزه وزيراً للمغرب مع موسى ابن السلطان أبي عنان وبعث معهم عسكراً، ثم ركب معهم السفين إلى سبتة وكانت بينه وبين، شرفائها ورؤساء الشورى بها مداخلة، فقاموا بدعوة السلطان موسى وأدخلوه وقبضوا على عاملها رحو بن الزعيم المكدولي وجاؤوا به إلى السلطان فملكها غرة صفر من سنة ست وثمانين وسبعمائة وسلمها إلى ابن الأحمر، فدخلت في طاعته وسار هو إلى فاس، فوصلها لأيام قريبة، وأحاط بدار الملك، واجتمع إليه الغوغاء، ونزل الدهش بمحمد بن الحسن فبادر بطاعته.

ودخل السلطان موسى إلى دار الملك، وقبض عليه لوقته، وذلك في عاشر ربيع الأول من السنة.

وجاء الناس بطاعتهم من كل جانب، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس بمكانه من نواحي تلمسان بأن السلطان موسى قد نزل بسبتة، فجهز علي بن منصور ترجمان الجند النصارى ببابه مع طائفة منهم، وبعثهم حامية لدار الملك فانتهوا إلى تازى وبلغهم خبر فتحها فأقاموا هنالك.

وأغذ السلطان أبو العباس السير إلى فاس، فلقيه خبر فتحها بتاوريرت فتقدم إلى ملوية وتردد في رأيه بين المسير إلى سجلماسة مع العرب أو قصد المغرب.

ثم استمر عزمه، ونازل بتازى وأقام بها أربعاً، وتقدم إلى الركن، وأهل دولته خلال ذلك يخوضون في الانتقاض عليه ميلاً إلى ابن عمه السلطان موسى المستولي على فاس، ويوم أصبح من الركن مرتحلاً أرجفوا به، ثم انفضوا عنه طوائف قاصدين فاس، ورجع هو إلى تازى بعد أن انتهب معسكره واضرمت النار في خيامه وخزائنه.

ثم صبح تازى من ليلته فدخلها، وعاملها يومئذ الخير من موالى السلطان أبي الحسن.

وذهب محمد بن عثمان إلى ولي الدولة ونزمار بن عريف وأمراء المغرب من المعقل.

ولما دخل السلطان أبو العباس إلى تازى كتب إلى ابن عمه السلطان موسى يذكره العهد بينهما، وقد كان السلطان ابن الأحمر عهد إليه أن يبعث به إليه إن ظفر به، فبادر السلطان موسى باستدعائه مع جماعة من وجوه بني عسكر، أهل تلك الناحية، وهم زكريا بن يحيى بن سليمان ومحمد بن سليمان داود بن عراب، ومعهم العباس بن عمر الوسناني فجاؤوا به وأنزلوه بالزاوية بغدير الحمص من ظاهر فاس، فقيد هنالك ثم بعثه إلى الأندلس موكلاً به مع عمر بن رحو أخي الوزير مسعود بن ماساي.

واستصحب معه ابنه أبا فارس وترك سائرهم بفاس وأجاز البحر من سبتة فأنزله السلطان ابن الأحمر بقلعة ملكه الحمراء، وفك قيوده ووكل به، ووسع له الجراية وأقام هنالك محتاطاً به إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نكبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله

أصل هذا الوزير من بني الكاس إحدى بطون بني ورتاجن، وكان بنو عبد الحق عندما تأثلوا ملكهم بالمغرب يستعملون منهم في الوزارة.

وربما وقعت بينهم وبين الحشم وبني فودود المختصين بالوزارة عندهم مزاحمة، أجازوا بسببها إلى الأندلس، وربما وقع بينهم هنالك وبين بني إدريس وبني عبد الله منافسات، قتلوا فما بعض بني الكاس، منهم في دولة السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن، وتهذب بالخلال ثم استوزره السلطان أبو الحسن بعد مهلك وزيره يحيى بن طلحة ابن محلى بمكانه من حصار تلمسان، وقام بوزارته أعواماً، وحضر معه واقعة طريف سنة إحدى

وأربعين وسبعماية من هذه المائة، واستشهد فيها، ونشأ ابنه أبو بكر في ظل الدولة ممتعاً بحسن الكفالة وسعة الرزق، وكانت أمه أم ولد، وخلفه عليها ابن عمه محمد بن عثمان هذا الوزير، فنشأ أبو بكر في حجره.

وكان أعلى رتبة منه بأولية أبيه وسلفه، حتى إذا بلغ أشده واستوى سمت به الخلال، وجالت أبصار الملوك في اختياره وترشيحه، حتى استوزره السلطان عبد العزيز كما قلناه.

وقام بوزارته أحسن قيام، وأصبح محمد بن عثمان هذا رديفه.

وهلك السلطان عبد العزيز فنصب الوزير أبو بكر ابنه السعيد للملك صبياً لم يثغر، وكان من انتقاض أمره وحصاره بالبلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليه ما قدمناه، وقام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العباس مستبداً عليه، ودفع إليه أمور ملكه، وشغل بلذاته، فعانى محمد بن عثمان من أمور الدولة ما عاناه حتى كان من استيلاء السلطان موسى على ملكهم ما مر.

وانفض بنو مرين عن السلطان أبو العباس وفارقه محمد بن عثمان إلى ولي الدولة ونزمار بن عريف وهو مقيم بظاهر تازى، وتذمم له فتجهم له ونزمار وأعرض عنه، فسار مغذاً إلى أحياء المنبات من عرب المعقل.

كانوا هنالك قبلة تازى لذمة صحابة كانت بينه وبين شيخهم أحمد ابن عبو فنزل عليه متذمماً، فخادعه وبعث بخبره إلى السلطان، فجهز إليه عسكراً مع المزوار عبد الواحد بن محمد بن عبو بن قاسم وزروق بن توقريطت والحسن أوافو من الموالي فتبرأ منه العرب وأسلموه إليهم، فجاؤوا به وأشهره يوم دخوله إلى فاس.

واعتقل أياماً وامتحن في سبيل المصادرة حتى استصفى، ثم قتل ذبيحاً بمحبسه، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماساي إليه بالعساكر

لما استقل السلطان موسى بملك المغرب وقام مسعود بن ماساي بوزارته مستبداً عليه، وكان من تغريبهم السلطان أبا العباس إلى الأندلس ونكبتهم وزيره محمد بن عثمان وقتلهم إياه وافتراق أشياع الوزير محمد بن عثمان من قرابته وبطانته، فطلبوا بطن الأرض ولحق منهم ابن أخيه العباس بن المقداد بتونس، فوجد هنالك الحسن بن الناصر ابن السلطان أبي علي قد لحق بها من مقره بالأندلس في سبيل طلب الملك فثاب له رأي في الرجوع به إلى المغرب لطلب الأمر هنالك، فسرح به من تونس وقطع المفاوز والمشاق إلى أن انتهى إلى جبل غمارة، ونزل على أهل الصفيحة منهم، فأكرموا مثواه وتلقيه، وأعلنوا بالقيام بدعوته، واستوزر العباس بن المقداد.

وبلغ الخبر إلى مسعود ابن ماساي بفاس، فجهز العساكر مع أخيه مهدي بن ماساي، فحاصرها بجبل الصفيحة أياماً، وامتنع عليهم، فتجهز الوزير مسعود بن ماساي بالعساكر لطلبه من دار الملك وساروا لحصاره، ثم رجع من طريقه لما بلغه من وفاة السلطان بعد والله أعلم.

وفاة السلطان موسى والبيعة للمنتصر ابن السلطان أبي العباس

كان السلطان موسى لما استقل بملك المغرب استنكف من استبداد ابن ماساي عليه وداخل بطانته في الفتك به.

وأكثر ما كان يفاوض في ذلك كاتبه وخالصته محمد ابن كاتب أبيه، وخالصته محمد بن أبي عمر.

وكان للسلطان موسى ندمان يطلعهم كل الكثير من أموره منهم العباس بن عمرو بن عثمان الوسناقي، وكان الوزير مسعود بن ماساي قد خلف أباه عمر على أمه وربي في حجر، فكان يدلي إليه بذلك،ويشي له بما يدور في مجلس السلطان في شأنه.

فحصلت للوزير بسبب ذلك نفرة طلب لأجلها البعد عن السلطان، وبادر للخروج لمدافعة الحسن القائم بغمارة واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن رحو بن ماساي.

فلما انتهى إلى القصر الكبير لحقه الخبر بوفاة السلطان موسى، وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة طرقه المرض فهلك ليوم وليلة حتى.

كان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنه سمه، وبادر يعيش فنصب ابن أخيه للملك، وهو المنتصر ابن السلطان أبي العباس، وانكفأ الوزير مسعود راجعاً من القصر، وقتل السبيع محمد بن موسى بن إبراهيم موسى من طبقة الوزراء، وقد مر ذكره وذكر قومه، وكان اعتقله أيام السلطان موسى فقتله بعد وفاته،

واستمرت أمور الدولة في استقلاله والله أعلم.

إجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من الأندلس والبيعة له بفاس

كان الوزير مسعود بن ماساي لما استوحش من السلطان موسى بعث ابنه يحيى وعبد الواحد المزوار إلى السلطان ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدوة.

فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره، ودس للسلطان ابن الأحمر بردّه، وأن يبعث إليه بالواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من القرابة المقيمين عنده.

ورآه أليق بالاستبداد والحجر، فأسعفه ابن الأحمر في ذلك، ورد السلطان أحمد إلى مكانه بالحمراء، وجاء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده وفي خلال ذلك وصل جماعة من أهل الدولة انتقضوا على الوزير مسعود، ولحقوا بسبتة وأجازوا إلى السلطان ابن الأحمر وهم يعيش بن علي بن فارس الياباني وسيور بن يحياتن بن عمر الونكاسني وأحمد بن محمد الصبيحي، فرفع إليهم الواثق، ورجعوا به إلى المغرب على أنهم في خدمة الوزير، حتى إذا انتهوا إلى جبل زرهون المطل على مكناسة أظهروا الخلاف على الوزير وصعدوا إلى قبائل زرهون واعتصموا بجبلهم.

ولحق بهم من كان على مثل دينهم من الخلاف على ابن ماساي وصاروا معهم يداً مثل طلحة بن الزبير الورتاجني وسيور بن يحياتن بن عمر الونكاسني ومحمد التونسي من بني أبي الطلاق وفارح بن مهدي من معلوجي السلطان، وأصله من موالي بني زيان ملوك تلمسان.

وكان أحمد بن محمد الصبيحي من حين جاء مع الواثق قد استطال عل أصحابه فأظهر الاستبداد بما كان من طائفة الجند المستخدمين، فغض به أهل الدولة وتبرأوا منه للسلطان الواثق، فأظهر لهم البراءة منه، فوثبوا به وقتلوه عند باب خيمة السلطان، وتولى كبر ذلك يعيش بن علي بن فارس الياباني كبير بني مرين، فذهب مثلاً في الغابرين، ولم تبك عليه سماء ولا أرض.

وكان رروق ابن توقريطت من موالي بني علي بن زيان من شيوخ بني وانكاسن وكان من أعيان الدولة ومقدمي الجند، قد انتقض على الدولة أيام السلطان موسى ولحق بأحياء أولاد حسين من عرب المعقل المخالفين منذ أيام السلطان موسى، ونزل على شيخهم موسى بن بن غانم لذمة صحابة بينهما من جوارهم في المواطن.

وكان معه في ذلك الخلاف محمد بن يوسف بن علال، كان أبوه يوسف من صنائع السلطان أبي الحسن، ونشأة دولته استوحشا من الوزير، فلحقا بالمغرب فلما جاء هذا السلطان الواثق قدما عليه، فلقيهما بالتكرمة وأحلهما في مقامهما من الدولة، وخرج الوزير مسعود بن ماساي في العساكر، ونزل قبالتهم بجبل مغيلة وقاتلهم هناك أياماً وداخل الذين مع الواثق واستمالهم.

وبعث عساكر إلى مكناسة فحاصروها، وكان بها يومئذ عبد الحق بن الحسن بن يوسف الورتاجني، فاستنزله منها وملكها، وترددت المراسلات بينه وبين الواثق وأصحابه على أن ينصبه للأمر.

وبعث بالمنتصر المنصوب عنده إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وانعقد الأمر بينهم على ذلك.

وسار الواثق في أصحابه إلى الوزير ابن ماساي فنزل عليه، ومضى يعيش بن علي بن فارس عنهم ذاهباً لوجهه.

وسار الوزير بالواثق إلى دار الملك، فبايعه في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعماية بعد أن اشترط عليه لنفسه وأصحابه ما شاء.

وأجاز سلطانه المنتصر إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وقبض على جماعة ممن كان مع الواثق مثل المزوار عبد الواحد وقتله، وعلى فارح بن مهدي وحبسه، وعلى الخير مولى الأمير عبد الرحمن وامتحنه، وعلى آخرين سواهم.

ثم قبض على جماعة من بطانة السلطان موسى كانوا يداخلونه في الفتك به، فحبسهم وقتل بعضهم.

وعلى جند الأندلس الذين جاؤوا مدداً للواثق، وعلى قوادهم من معلوجي ابن الأحمر فأودعهم السجون.

ثم قبض على كاتب السلطان موسى بن أبي الفضل بن أبي عمر مرجعه من السفارة عن سلطانه إلى الأندلس، فاعتقله وصادره ثم أخلى سبيله ثم بعث إلى الحسن بن الناصر الثائر بجبل الصفيحة من غمارة مع إدريس بن موسى بن يوسف الياباني، فخادعه باستدعائه للملك والبيعة له، فخدعه واستنزله وجاء به فاعتقله الوزير أياماً ثم أجازه إلى الأندلس، واستقر الأمر على ذلك، والله أعلم.

الفتنة بين الوزير ابن ماساي وبين السلطان ابن الأحمر واجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة لطلب ملكها واستيلاؤه عليها

لما بلغ الوزير ابن ماساي للواثق ورأى أنه قد استقل بالدولة ودفع عنها الشواغب وصرف نظره إلى استرجاع ما فرط من أعمال الدولة، وافتتح أمره بسبتة، كان السلطان موسى لأول إجازته أعطاها لابن الأحمر كما مر.

فبعث إليه الآن الوزير ابن ماساي في ارتجاعها منه على سبيل الملاطفة، فاستشاط لها ابن الأحمر ولج في الرد، فنشأت الفتنة لذلك، وجهز ابن ماساي العساكر لحصار سبتة مع العباس بن عمر بن عثمان الوسناني ويحيى بن علال بن أمصمود، والرئيس محمد بن محمد الأبكم من بني الأحمر.

ثم من بيت السلطان الشيخ فاتح أمرهم وممهد دولتهم، وراسل السلطان إشبيلية والجلالقة من بني أدفونش وراء البحر، بأن يبعث إليهم ابن عم السلطان ابن الأحمر محمد بن إسماعيل مع الرئيس الأبكم ليجلبا من ناحيته على الأندلس.

وجاءت عساكر الوزير إلى سبتة فحاصروها ودخلوها عنوةً.

واعتصم حامية الأندلس الذين كانوا بها بالقصبة، واتصلت الجولة بين الفريقين وسط البلد، وأوقد أهل القصبة النيران بالجبل علامة عل أمرهم ليراها ابن الأحمر، وكان مقيماً بمالقة، فبادر بتجهيز الأسطول مشحوناً بالمقاتلة مدداً لهم.

ثم استدعى السلطان أبا العباس من مكانه بالحمراء، وأركبه اسفين إلى سبته، فأصبح إلى القصبة في غرة صفر سنه تسع وثمانين وسبعماية وأشرف عليهم من الغد وناداهم من السور يدعوهم إلى طاعته.

فلما رأوه اضطربوا وافترقوا وخرج إليهم، فنهب سوادهم ودخلوا في طاعته متسايلين، ورجع جمهور العرب ومقدموهم إلى طنجة واستولى السلطان على مدينة سبتة.

وبعث إليه ابن الأحمر بالنزول عنها، وردها إليه فاستقرت في ملكه وكملت بها بيعته، وكان يوليه أمور الضيفان الواردين والله تعالى أعلم.

مسير السلطان أبي العباس من سبتة لطلب ملكه بفاس ونهوض ابن ماساي لدفاعه ورجوعه منهزماً

ولما استولى السلطان أبو العباس على سبتة وتم له ملكها، واعتزم على المسير لطلب ملكه بفاس، وأغراه ابن الأحمر بذلك ووعده بالمداد لما كان من مداخلة ابن ماساي لجماعة من بطانته في أن يقتلوه ويملكوا الرئيس الأبكم يقال: إن الذي داخله في ذلك من بطانة ابن الأحمر يوسف بن مسعود البلنسي، ومحمد ابن الوزير أبي القاسم بن الحكيم الرندي وشعر بهم السلطان ابن الأحمر وهو يومئذ على جبل الفتح يطالع أمور السلطان أبي العباس، فقتلهم جميعاً وإخوانهم.

ويقال: إن ذلك كان بسعاية القائم على دولته مولاه خالد، كان يغص بهم ويعاودهم، فاحتال عليهم بهذه.

وتمت سعايته بهم، فاستشاط ابن الأحمر غضباً على ابن ماساي، وبعث إلى السلطان أبي العباس يستنفره للرحلة إلى طلب ملكه، فاستخلف على سبتة رحو ابن الزعيم المكدودي عاملها من قبل كما مر وسار إلى طنجة وعاملها من قبل الواثق صالح بن حمو الياباني ومعه بها الرئيس الأبكم من قبل العساكر، فحاصرها أياماً وامتنعت عليه فجمر عليها عسكراً وسار معها إلى أصيلا، فدخلت في دعوته وملكها.

ونهض الوزير ابن فاس في العساكر بعد أن استخلف أخاه يعيش على دار الملك وسار.

ولحقت مقدمته بأصيلا ففارقها السلطان أبو العباس، وصعد إلى جبل الصفيحة، فاعتصم به وجاء الوزير ابن ماساي فتقدم إلى حصاره بالجبل، وجمع عليه رماة الرجل من الأندلس الذين كانوا بطنجة، وأقام يحاصره بالصفيحة شهرين.

وكان يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين من عرب المعقل، مخالفاً على الوزير مسعود وداعية إلى السلطان أبي العباس وشيعة له، وكان يراسل ابن الأحمر في شأنه.

فلما سمع باستيلائه على سبتة وإقباله على فاس، جمع أشياعه من العرب، ودخل إلى بلاد المغرب ونزل ما بين فاس ومكناسة، وشن الغارات على البسائط واكتسحها، وأرجف الرعايا وأجفلوا إلى الحصون، وكان ونزمار بن عريف ولي الدولة شيعة للسلطان، وكان يكاتبه وهو بالأندلس ويكاتب ابن الأحمر في

شأنه.

فلما اشتد الحصار على السلطان بالصفيحة، بعث ابنه أبا فارس إلى ونزمار بمكانه من نواحي تازى، وبعث معه سيور بن يحياتن بن عمر، فقام ونزمار بدعوته، وسار به إلى مدينة تازى، وعاملها سليمان بن بوجيه الفودوي من قرابة الوزير ابن ماساي.

فلما نزل به أبو فارس ابن السلطان بادر إلى طاعته، وأمكنه من البلد، فاستولى عليها واستوزر سليمان هذا.

وسار إلى صفروي ومعه ونزمار للاجتماع بعرب المعقل وأصفاقهم على حصار فاس.

وكان محمد بن الدمعة عاملا على ورغة، فبعث إليه السلطان عسكراً مع العباس بن المقداد ابن أخت الوزير محمد بن عثمان فقتلوه وجاؤوا برأسه، ونجم الخلاف على يعيش نائب البلد الجديد من كل جهة، وطير يعيش بن ماساي النائب بدار الملك بالخبر بذلك كله إلى أخيه بمكانه من حصار السلطان بالصفيحة، فانفضت عنه العساكر وأجفل راجعاً إلى فاس.

وسار السلطان في اتباعه ودخل في طاعته عامل مكناسة، الخير مولى الأمير عبد الرحمن ولقيه يوسف بن علي بن غانم ومن معه من أحياء العرب، وساروا جميعا إلى فاس.

وكان أبو فارس ابن السلطان قد رحل من تازى إلى صفروي للقاء أبيه، فاعترضه الوزير ابن ماساي في العساكر ورجا أن يفله.

ولقيه ببني بهلول فنزع أهل العسكر إلى أبي فارس ورجع الوزير منهزماً ودخل البلد الجديد، فاعتصم بها وبلغ خبره إلى السلطان وهو بمكناسة، فارتحل يغذ السير إلى فاس، وسار ابنه أبو فارس للقائه على وادي النجا.

وصبحوا البلد الجديد فنزلوا عليه بجموعهم وقد اعتصم به الوزير في أوليائه وبطانته، ومعه يغمراسن بن محمد الثالقني ورهائن بني مرين الذين استرهنهم عند مسيره للقاء السلطان بأصيلا، والله أعلم.

ظهور دعوة السلطان أبي العباس في مراكش واستيلاء أوليائه عليها

كان الوزير مسعود بن ماساي قد ولى على مراكش وأعمال المصامدة أخاه عمر بن رحو وكانت منتظمة في طاعته.

فلما بلغ الخبر بوصول السلطان إلى سبتة واستيلائه عليها تطاولت رؤوس أوليائه إلى إظهار دعوته بجبل الهساكرة وشيخهم علي بن زكريا.

وبعث الوزير مسعود من مكانه في حصار السلطان بالصفيحة في إمداده بالعساكر من مراكش، فزحف إليه مخلوف بن سليمان الوارتني صاحب الأعمال ما بين مراكش والسوس، وقعد الباقون عن قصده وتفرقوا.

وصعد أبو ثابت حافد علي بن عمر إلى جبل الهساكرة ومعه يوسف بن يعقوب بن علي الصبيحي، فاستمد من علي بن زكريا ورجع إلى مراكش مجلبا على عمر بن رحو مناوشة القتال ساعة، ثم غلبه على البلد وملكها من يده ونزل بقصبة الملك، وحبس عمر بن رحو بها.

وكتب للسلطان بذلك، وهو بمكناسة متوجهاً إلى فاس، فكتب إليه بأن يصله بعساكر مراكش لحصار دار الملك فجمع العساكر واستخلف على قصبة مراكش بعض بني عمه ولحق بالسلطان، وأقام معه في حصار البلد الجديد، والله أعلم.

ولاية المنتصر ابن السلطان أبي علي على مراكش واستقلاله بها

كان السلطان أبو العباس حين ملك المغرب بعث ابنه المنتصر في البحر إلى سلا واستوزر له عبد الحق بن الحسن بن يوسف فوصل إلى سلا وأقام بها، ومر به زورق بن توقريطت راجعاً من دكالة، وقد بلغه نزول السلطان على البلد الجديد، فتلطف في استدعائه، ثم قبض عليه وبعث به إلى أبيه مقيداً فأودعه السجن وقتل بعد ذلك في محبسه.

ثم بعث السلطان إلى ابنه المنتصر بولاية مراكش وأن يسير إليها فلما وصل امتنع النائب بالقصبة من أن يمكنه من البلد إلا أن يدخل إليه منفرداً عن أصحابه وبطانته وكان علي بن عبد العزيز شيخ هنتانه مداخلاً لنائب القصبة، فدس لعبد الحق وزير المنتصر أن النائب قد هم بقتله، وحينئذ تمكن المنتصر من القصبة.

فأجفل بالمنتصر وصعد إلى جبل هنتاتة، وطير بالخبر إلى السلطان، فتغير لأبي ثابت وأمره أن يكاتب نائبه بتمكين ابنه من القصبة.

واستوزر له سعيد بن عبدون وبعثه بالكتاب، وعزل عبد

الحق عن وزارة ابنه، واستدعاه إلى فاس، فوصل سعيد بن عبدون إلى مراكش، ودفع إلى النائب بالقصبة كتاب مستخلفه فأجاب إلى الامتثال، وأمكنه من القصبة واعتزل عنها فدخلها.

وبعث عن المنتصر ابن السلطان، واستولوا عليها، وقبضوا على نائب عامر الذي كان بها وسائر شيعته وبطانته، وامتحنوهم واستصفوهم إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

حصار البلد الجديد وفتحها ونكبة الوزير ابن ماساي ومقتله

لما نزل السلطان على البلد الجديد واجتمع إليه سائر قبيله وأوليائه وبطانته، داخل الوزير مسعود الحنق على وجوه بني مرين لانتباذهم عنه.

وهم بقتل أبنائهم الذين استرهنهم على الوفاء له، فلاطفه يغمراسن السالفي في المنع من ذلك، فأقصر عنه وضيق السلطان مخنقه بالحصار ثلاث أشهر حتى دعا إلى النزول والطاعة، فبعث السلطان إليه ولي الدولة ونزمار بن عريف وخالصته محمد بن يوسف بن علال فعقد معهم الأمان لنفسه ولمن معه على أن يستمر على الوزارة ويبعث بسلطانه الواثق إلى الأندلس، واستحلفهم على ذلك وخرج معهم السلطان فدخل السلطان البلد الجديد خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعماية لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه.

ولحين دخوله قبض على الواثق وبعث به معتقلاً إلى طنجة وقتل بها بعد ذلك، ولما استوى على أمره قبض على الوزير ابن مسعود ليومين من دخوله وعلى إخواته وحاشيته وامتحنهم جميعاً فهلكوا في العذاب.

ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام ما لا يعبر عنه، ونقم عليه ما فعله في بدور بني مرين النازعين إلى السلطان فإنه كان متى هرب منه أحد منهم يعمد إلى بيوته فينهبها ويخربها فأمر السلطان بعقابه في أطلالها فكان يؤتى به إلى كل بيت منها، فيضرب عشرين سوطاً إلى أن أفحش فيه العذاب وتجاوز الحد.

ثم أمر به فقطع الثانية من الأربعة، فهلك عند قطع الثانية. فذهب مثلاً في الآخرين.

وزارة محمد بن هلال

كان أبوه يوسف بن هلال من نشأة الدولة وصنيعة السلطان أبي الحسن، وربي في داره.

ولما ضخم أمره سما به إلى ولاية الأعمال، فولاه على درعة فأثرى وأنجب وباهى أولياء الدولة، ثم ولاه السلطان أبو عنان أمر مطبخه ومائدته وضيوفه واستكفى في ذلك، وولاه أخوه أبو سالم بعده كذلك.

ثم بعثه إلى سجلماسة فعانى بها من أمور العرب مشقة، وعزله عنها، فهلك بفاس وكان له جماعة من ولد قد نشآوا في ظل هذه النعمة، وحدثت النجابة بمحمد منهم.

فلما ولى السلطان أبو العباس استعمله في أمور الضياف والمائدة كما كانت لأبيه، ثم رقاه إلى المخالصة وخلطه بنفسه، فلما خلع السلطان واستولى الوزير ابن ماساي على المغرب، وكانت بينه وبين أخيه يعيش بن ماساي إحن قديمة، فسكن لصولتهم حتى إذا اضطرمت نار الفتنة بالمغرب وأجلب عرب في المعقل الخلاف، واستوحش محمد هذا فلحق بأحيائهم مع زرروق بن توقريطت كما مر ذكره ونزلا على يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين، وأقاما معه في خلافه، حتى إذا أجاز السلطان الواثق من الأندلس ووصل مع أصحابه إلى جبل زرهون، وأظهروا الخلاف على الوزيرابن ماساي بادر محمد هذا وزروق إلى السلطان، ودخلا في طاعته متبرئين من النفاق الذي حملهم عليه عداوة الوزير ابن ماساي.

فما كان إلا أن انعقد الصلح بين الواثق وابن ماساي وسار به وبأصحابه إلى فاس، وحصلوا في قبضة ابن ماساي فعفا لهم عما كان منهم، واستعملهم في معهود ولايتهم.

ثم جاء الخبر بإجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة فاضطرب محمد بن يوسف وذكر لخالصة السلطان ومنافرة بني ماساي، فأجمع أمره ولحق بسبتة فتلقاه السلطان بالكرامة، وبر بمقدمه ودفعه إلى القيام بأمر دولته، فلم يزل متصرفاً بين يديه إلى أن نزل على البلد الجديد.

ولأيام من حصارها خلع عليه للوزارة ودفعه إليها، فقام بها أحسن قيام، ثم كان الفتح وانتظمت أمور الدولة، ومحمد هذا يصرف الوزارة على أحسن أحوالها إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ظهور محمد بن السلطان عبد الحليم بسجلماسة

قد تقدم لنا ذكر السلطان عبد الحليم ابن السلطان أبي علي، وكان يدعى حلى كيف، بايع له بنو مرين وأجلبوا به على عمر بن عبد الله سنة ثلاث وستين وسبعماية أيام بيعته للسلطان أبي عمر ابن السلطان أبي الحسن.

وحاصروا معه البلد الجديد حتى خرج لدفاعهم وقاتلهم، فانهزموا وافترقوا.

ولحق السلطان عبد الحليم بتازى وأخوه عبد المؤمن بمكناسة، ومعه ابن أخيهما عبد الرحمن بن أبي يفلوسن.

ثم بايع الوزير عمر بن عبد الله لمحمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن واستبدل به من أبي عمر لما كان بنو مرين يرمونه به من الجنون والوسوسة، فاستدعى محمد بن أبي عبد الرحمن من مطرح اغترابه بإشبيلية وبايع له وخرج في العساكر لمدافعة عبد المؤمن وعبد الرحمن عن مكناسة فلقيهما وهزمهما ولحقا بالسلطان عبد الحليم بتازى وساروا جميعاً إلى سجلماسة فاستقروا فيها والسلطان لعبد الحليم، وقد تقدم خبر ذلك كله في أماكنه.

ثم كان الخلاف بين عرب المعقل أولاد حسين والأحلاف وخرج عبد المؤمن للإصلاح بينهم، فبايع له أولاد حسين ونصبوه كرهاً للملك.

وخرج السلطان عبد الحليم إليهم في جموع الأحلاف فقاتلوه وهزموه، وقتلوا كبار قومه، كان منهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي شيخ بني تيربيغن وكبير دولة بني مرين، أجلت المعركة عن قتله، ودخل عبد المؤمن البلد منفرداً بالملك.

وصرف السلطان أخاه عبد الحليم إلى المشرق لقضاء فرضه لرغبته في ذلك، فسار على طريق القفر مسلك الحاج من التكرور إلى أن وصل القاهرة، والمستبد بها يومئذ يلبغا الخاصكي، على الأشرف شعبان بن حسين من أسباط الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأكرم وفادته ووسع نزله وجرايته، وأدر لحاشيته الأرزاق، ثم أعانه على طريقه إلى الحج بالأزواد والآنية والظهر من الكراع والخف.

ولما انصرف من حجه زوده لسفر المغرب، وهلك بتروجه سنة سبع وستين وسبعماية ورجع حاشيته إلى المغرب بحرمه وولده.

وكان ترك محمداً هذا رضيعاً، فشب متقلباً من الدول من ملك إلى آخر، متبذاً عن قومه لغيرة بني السلطان أبي الحسن من بني عمهم السلطان أبي علي.

وكان أكثر مما يكون مقامه عند أبي حمو سلطان بني عبد الواد بتلمسان لما يروم به من الأجلاب على المغرب، ودفع عادية بني مرين عنهم.

فلما وقع بالمغرب من انتقاض عرب المعقل على الوزير مسعود بن ماساي سنة تسع وثمانين وسبعماية ما وقع واستمروا على الخلاف عليه، انتهز أبو حمو الفرصة، وبعث بمحمد بن علي بن عبد الحليم هذا إلى المعقل ليجلبوا به على المغرب، ويمزقوا من ملكه ما قدروا عليه، فلحق بأحيائهم ونزل على الأحلاف الذين هم أمس رحماً بسجلماسة وأقرب موطناً إليها.

وكان الوزير مسعود بن ابن ماساي قد ولى عليها من قرابته علي بن إبراهيم بن عبو بن ماساي، فلما ظهر عليه السلطان أبو العباس وضيق مخنقه بالبلد الجديد، دس إلى الأحلاف وإلى قريبه علي بن إبراهيم أن ينصبوا محمد ابن السلطان أبي العباس عنه، وينفسوا من خناقه، ففعلوا ذلك.

ودخل محمد إلى سجلماسة فملكها، وقام علي بن إبراهيم بوزارته حتى إذا استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد، وفتك بالوزير مسعود بن ماساي وبإخوته وسائر قرابته، اضطرب علي بن إبراهيم وفسد ما بينه وبين سلطانه محمد، فخرج عنه من سجلماسة وعاد إلى أبي حمو سلطان تلمسان كما كان.

ثم زادت هواجس علي بن إبراهيم وارتيابه فخرج عن سجلماسة وتركها، ولحق بأحياء العرب، وسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمنه.

ونزل على السلطان أبي حمو إلى أن هلك، فسار إلى تونس وحضر وفاة السلطان أبي العباس بها سنة ست وتسعين وسبعماية ولحق محمد ابن السلطان عبد الحليم بعد مهلك أبي حمو بتونس.

ثم ارتحل بعد وفاة السلطان أبي العباس إلى المشرق في سبيل جولة ومطاوعة واغتراب لحجة، والله تعالى أعلم.

نكبة ابن أبي عمرو ومهلكه وحركات ابن حسون

لما استقل السلطان بملكه واقتعد سريره، صرف نظره إلى أولياء تلك الدولة ومن يرتاب منه، وكان محمد بن أبي عمرو قد

تقدم ذكره وأوليته، من جملة خواصه وندمائه.

وكان السلطان يقسم له من عنايته وجميل نظره ويرفعه عن نظرائه.

فلما ولي السلطان موسى نزعت به إليه نوازع المخالصة لأبيه من السلطان أبي عنان فقد كان أبوه من أعز بطانته كما مر، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفعه على منابر أهل الدولة.

وجعل إليه كتابه علامته على المراسم السلطانية، كما كان لأبيه.

وكان يفاوضه في مهماته ويرجع إليه في أموره حتى غص به أهل الدولة ونمي عنه للوزير مسعود بن ماساي أنه يداخل السلطان في نكبته.

وربما سعى عند سلطانه في جماعة من بطانة السلطان أحمد، فأتى عليهم النكال والقتل لفلتات كانت بينهم وبينه في مجالس المنادمة عند السلطان حقدها لهم.

فلما ظفر بالحظ من سلطانه، سعى بهم فقتلهم.

وكان القاضي أبو إسحاق إبراهيم اليزناسي من بطانة سلطانه وكان يحضر مع ندمائه فحقد له ابن أبي عمرو بعض الكلمات، وأغرى به سلطانه فضربه وأطافه، وجاء بها شنعاء غريبة في القبح.

وسفر عن سلطانه إلى الأندلس، وكان يمر بمنزل السلطان هذا ومكان اعتقاله، وربما تلقاه فلم يلم ولا بتحيه، ولا يوجب له حقاً، فأحفظ ذلك السلطان.

ولما فرغ من أمر ابن ماساي قبض على ابن أبي عمر ووأودعه السجن، ثم امتحنه بعد أيام إلى أن هلك ضرباً بالسياط، عفا اللّه عنه.

وحمل إلى داره، وبينما أهله يجهزونه إلى قبره إذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب في نواحي البلد إبلاغاً في التنكيل، فحمل من نعشه وقد ربط حبل برجله، وسحب في سائر أنحاء المدينة، ثم ألقي على بعض الكثبان، من اطرافها وأصبح مثلاً في الآخرين ثم قبض على حركات ابن حسون النياطي وكان مخبأ في الفتنة، موضعاً وكان العرب المخالفون من المعقل، ولما أجاز السلطان إلى سبتة وحركات هذا بتدلا، أرادوه على طاعة السلطان فامتنع أولاً، ثم أكرهوه وجاؤوا به إلى السلطان فطوى له على ذلك حتى استقام أمره.

وملك البلد الجديد فقبض عليه وامتحنه، إلى أن هلك، واللّه وارث الأرض ومن عليها.

خلاف علي بن زكريا بجبل الهساكرة ونكبته

لما ملك السلطان البلد الجديد واستوى على ملكه، وفد عليه علي بن زكرياء شيخ هسكورة مستصباً بما قدم من سوابقه.

وقد كان حضر معه حصار البلد الجديد واستدعاه، فجاء بقومه وعساكر المصامدة وأبلى في حصارها، فرعى السلطان سوابقه وولاه الولاية الكبرى على المصامدة على عادة الدولة في ذلك.

ثم وفد بعده محمد بن إبراهيم المبرازي من شيوخ المصامدة وكانت له ذمة صهر مع الوزير محمد بن يوسف بن علال على أخته، فولاه السلطان مكان علي بن زكريا فغضب لها علي واستشاط وبادر إلى الانتقاض والخلاف.

ونصب بعض القرابة من بني عبد الحق، فجهز إليه السلطان العساكر مع محمد بن يوسف بن علال وصالح بن حمو الياباني وأمر صاحب درعة وهو يومئذ عمر بن عبد المؤمن بن عمر أن ينهد إليه بعساكر درعة من جهة القبلة، فساروا إليه وحاصروه في جبلة، وجاولوه مرات ينهزم في جميعها حتى غلبوه على جبلة.

وسار إلى إبراهيم بن عمران الصناكي المجاور له في جبلة فاستذم به.

وخشي إبراهيم معرة الخلاف والغلب، ورغبه الوزير محمد بن يوسف بمال بذله له، فأمكنه منه، وقبض عليه الوزير وجاء به إلى فاس، فأدخله في يوم مشهود وشهره، واعتقل فلم يزل في الاعتقال إلى أن هلك السلطان أبو العباس، وارتاب به أهل الدولة بعده فقتلوه، كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وفادة أبي تاشفين على السلطان أبي العباس صريخاً على أبيه ومسيره بالعساكر ومقتل أبيه السلطان أبي حمو

كان أبو تاشفين ابن السلطان أبي حمو قد وثب على أبيه آخر ثمان وثمانين وسبعماية بممالأته لغيره من إخوته واعتقله بوهران.

وخرج بالعساكر لطلب إخوته المنتصر وأبي زيان وعمر فامتنعوا عند حصين بجبل تيطري فحاصرهم أياماً، ثم تذكر غائلة أبيه، فبعث ابنه أبا زيان في جماعة من بطانته منهم موسى ابن الوزير عمران بن موسى وعبد اللّه بن جابر الخراساني، فقتلوا بعض ولده بتلمسان، ومضوا إليه وهو بمحبسه في وهران.

فلما شعر بهم أشرف من الحصن ونادى في أهل المدينة متذمماً بهم، فهرعوا إليه.

وتدلى إليهم في عمامته وقد احتزم بها فأنزلوه وأحدقوا به وأجلسوه على سريره.

وتولى كبر ذلك خطيب البلد ابن خزروت ولحق أبو زيان بن أبي تاشفين ناجياً إلى تلمسان، واتبعه السلطان أبو حمو ففر منها إلى أبيه.

ودخل أبو حمو تلمسان وهي طلل وأسوارها خراب، فأقام فيها رسم دولته.

وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فأجفل من تيطري وأغذ السير فدخلها، واعتصم أبوه بمئذنة المسجد، فاستنزله منها وتجافى عن قتله.

ورغب إليه أبو حمو في رحلة المشرق لقضاء فرضه، فاسعفه وأركبه السفين مع بعض تجار النصارى إلى الإسكندرية موكلاً به.

فلما حاذى مرسى بجاية لاطف النصارى في تخلية سبيله فأسعفه وملك أمره.

وبعث إلى صاحب الأمر ببجاية يستأذنه في النزول، فأذن له.

وسار منها إلى الجزائر، واستخدم العرب واستصعب عليه أمر تلمسان، فخرج إلى الصحراء.

وجاء إلى تلمسان من جهة المغرب فهزم عساكر ابنه أبي تاشفين وملكها.

وخرج أبو تاشفين هارباً منها، فلحق بأحياء سويد في مشاتيهم.

ودخل أبو حمو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعماية، وقد تقدم شرح هذه الأخبار كلها مستوعبة.

ثم وفد أبو تاشفين مع محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العباس صريخاً على أبيه، ومؤملاً الكرة بإمداده.

فتقبله السلطان وأجمل عليه المواعيد وقام أبو تاشفين في انتظارها والوزير محمد بن يوسف بن علال يعده ويمنيه ويحلف له على الوفاء.

وبعث السلطان أبو حمو إلى السلطان ابن الأحمر لما يعلم من استطالته على دولة بني مرين كما مر، يتوسل إليه في أن يصدهم عن صريخ أبي تاشفين وإمداده عليه فخلا ابن الأحمر في ذلك وجعلها من أهم حاجاته.

وخاطب السلطان أبا العباس في أن يجيز إليه أبا تاشفين، فتعلل عليه في ذلك بأنه استجار بابنه أبي فاس واستذم به.

ولم يزل الوزير ابن علال يفتل لسلطانه ولابن الأحمر في الذروة والغارب، حتى تم أمره وأنجز له السلطان بالنظر موعده.

وبعث ابنه الأمير أبا فارس والوزير ابن علال في العساكر صريخين له، وانتهوا إلى تازى.

وبلغ الخبر إلى أبي حمو فخرج من تلمسان في عساكره، واستألف أولياءه من عبيد اللّه.

ونزل بالغيران من وراء جبل بني ورتيد المطل على تلمسان، وأقام هنالك متحصناً بالجبل، وجاءت العيون إلى عساكر بني مرين بتازى من مكانه هو وأعرابه من الغيران، فأجمعوا غزوه.

وسار الوزير علال وأبو تاشفين وسلكوا القفر ودليلهم سليمان بن ناجي من الأحلاف، حتى صبحوا أبا حمو ومن معه من أحياء الخراج في مكانهم من القيران.

فجاولوهم ساعة، ثم ولوا منهزمين، وكبا بالسلطان أبي حمو فرسه فسقط، وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين فقتلوه قعصاً بالرماح، وجاؤوا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علال، فبعثوا به إلى السلطان، وجيء بابنه عمير أسيراً، فهم أخوه أبو تاشفين بقتله، فمنعه بنو مرين أياماً.

ثم أمكنوه منه فقتله، ودخل تلمسان آخر إحدى وتسعين وسبعماية وختم الوزير وعساكر بني مرين بظاهر البلد، حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال.

ثم قفلوا إلى المغرب وأقام أبو تاشفين بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابر تلمسان وأعمالها، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة، كما اشترط على نفسه.

وكان أبو حمو لما ملك تلمسان ولى ابنه أبا زيان على الجزائر، فلما بلغه مقتل أبيه امتعض ولحق بأحياء حصين ناجياً وصريخاً، وجاءه وفد بني عامرمن زغبة يدعونه للملك.

فسار إليهم.

وقام بدعوته شيخهم المسعود بن صغير، ونهضوا جميعاً إلى

تلمسان في رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعماية فحاصروها أياماً.

ثم سرب أبو تاشفين المال في العرب فافترقوا عن أبي زيان، وخرج إليهم أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة.

ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل، وعاود حصار تلمسان في شوال.

وبعث أبو تاشفين ابنه صريخاً إلى المغرب، فجاءه بمدد من العساكر.

ولما انتهى إلى تاوريرت، أفرج أبو زيان عن تلمسان وأجفل إلى الصحراء.

ثم أجمع رأيه على الوفادة إلى صاحب المغرب، فوفد عليه صريخاً فتلقاه وبر مقدمه ووعده النصر من عدوه.

وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين، والله أعلم.

وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم، ومؤدياً الضريبة التي فرضها عليه منذ ملك، وأخوه الأمير أبو زيان عند صاحب المغرب ينتظر وعده بالنصر عليه، حتى تغير السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض النزعات الملوكية، فأجاب داعي أبي زيان وجهزه بالعساكر لملك تلمسان، فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعماية

وانتهى إلى تازى، وكان أبو تاشفين قد طرقه مرض أزمنه، ثم هلك منه في رمضان من السنة.

وكان القائم بدولته أحمد بن العز من صنائعهم وكان يمت إليه بخولة، فولى بعده مكانه صبياً من أبنائه، وأقام بكفالته.

وكان يوسف بن أبي حمو وهو ابن الزابية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين، فلما بلغه الخبر أغذ السير مع العرب فدخل تلمسان، وقتل أحمد بن العز والصبي المكفول ابن أخيه أبي تاشفين، فلما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب خرج إلى تازى، وبعث من هنالك ابنه أبا فارس في العساكر ورد أبا زيان بن أبي حمو إلى فاس، ووكل به.

وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها وأقام فها دعوة أبيه.

وتقدم وزير أبيه صالح بن أبي حمو إلى مليانة، فملكها وما بعدها من الجزائر وتدلس إلى حدود بجاية.

واعتصم يوسف بن الزابية بحصن تاجحموت وأقام الوزير صالح يحاصره.

وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط، والله غالب على أمره.

وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم لما وصل إلى تازى وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها، وأقام هو بتازى يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدم لفتح البلاد الشرقية.

وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعماية واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق.

وتقدمت إلى السلطان فيه وأخبرته بمحله من قومه، فأكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى صاحب المغرب، يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك.

فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس أعظم موقعها وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها.

وشرع في المكافأة عليها بتجهيز الجياد والبضائع والثياب، حتى استكمل من ذلك ما رضيه.

واعتزم على إنفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول.

وأنه يرسله من تازى أيام مقامته تلك، فطرقه هنالك مرض كان فيه حتفه في شهر محرم سنة ست وتسعين وسبعماية واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه بتازى وولوه مكانه، ورجعوا به إلى فاس.

وأطلقوا أبا زيان بن أبي حمو من الاعتقال، وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها، وقائماً بدعوة السلطان أبي فارس فيها، فسار إليها وملكها، وكان أخوه يوسف بن الزابية قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والإجلاب عليها، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يبعثوا به إليه، فأجابوه إلى ذلك، وأسلموه إلى ثقات أبي زيان.

وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم، فبادروا بقتله، وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيان فسكنت أحواله وذهبت الفتنة بذهابه، واستقامت أمور دولته، وهم على ذلك لهذا العهد، والله غالب على أمره، وهو على كل شيء قدير.

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية، وبقي علينا خبر الرهط الذين تحيزوا منهم إلى بني مرين من أول الدولة.

وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي، وخبر بني كندوز أمرائهم بمراكش.

فلنرجع إلى ذكر أخبارهم، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق من الغزاة المجاهدين بالأندلس الذين قاسموا ابن الأحمر في ملكه وانفردوا برياسة جهاده

كانت الجزيرة الأندلسية وراء البحر منذ انقراض أمر بني عبد المؤمن وقيام ابن الأحمر بأمرها، قليلة الحامية، ضعيفة الأحوال إلا من يلهمه الله لعمل الجهاد من قبائل زناتة المؤملين كرة الملك والمقتسمين ممالك المغرب، وخصوصاً بني مرين أهل المغرب الأقصى لاتصال عدوة الأندلس ببسائطه ولتعدد الفراض ببحر الزقاق القريب العدوتين.

وما زال هذا الزقاق على قديم الزمان لأجل ذلك فرضة دون سواحل المغرب.

ولما استولى بنو مرين على ممالكه، وضاقت أحوال المسلمين بالأندلس، وأخذ بمخنقهم الطاغية حتى ألجأهم إلى سيف البحر واستأثر بالفزنتيرة وما وراءها.

واستأثر بنو القمص أهل برشلونة وقطلوسة بشرق الأندلس.

وانتشر في الأقطار ما كان من أمر قرطبة وأختيها إشبيلية وبلنسية، وامتعض لذلك المسلمون وتنافسوا في الجهاد وإمداد الأندلس بأموالهم وأنفسهم، وسابق الناس إلى ذلك الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص بما كان صاحب الوقت والمؤمل للكرة، فاستنفد الكثير من أمواله ومقرباته في إمدادهم بعد أن كانوا آثروا القيام بدعوته، وأوفدوا عليه المشيخة ببيعتهم.

وكان ليعقوب بن عبد الحق أمل في الجهاد وحرص عليه.

فاعتزم في سلطان أخيه أبي يحيى على الإجازة لذلك، فمنعه ضنة به على الاغتراب عنه.

وأوعز إلى صاحب سبتة يومئذ أبي علي بن خلاص بمنعه منها، فوعر له السبيل وسد عليه المذاهب.

ولم ينشب يعقوب بن عبد الحق أن قام بسلطان المغرب بعد أخيه أبي يحيى وشغل بشأنه.

وأهمه شأن ابن أخيه إدريس بن الحق بما كان فيهم من الترشيح والمنافسة لبنيه واستأذنه عامر بن إدريس منهم في الجهاد بعد العدوة، فاغتنمها منه وعقد له من مطوعة زناتة على ثلاثة آلاف أو يزيدون، وأجاز معه رحو ابن عمه عبد الله بن عبد الحق.

وفصلوا إلى الأندلس سنة إحدى وستين وستماية فحسنت آثارهم في الجهاد وكرمت مقاماتهم.

ثم رجع عامر بن إدريس إلى المغرب وكثر انتقاض القرابة.

ونافسهم أقيال زناتة في مثلها، فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط مثل عبد الملك ويغمراسن بن زيان وعايد بن منديل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد ابن عبد القوي فتعاقدوا على الإجازة إلى الأندلس إلى الجهاد، وأجازوا فيمن خف معهم من قومهم سنة ست وسبعين وستماية، فامتلأت الأندلس بأقيال زناتة وأعياص الملك منهم.

وكان فيمن أجاز من أعياصهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عبو ابن أبي بكر بن حمامة.

ومنهم سليمان وإبراهيم وكانت لهما آثار في الجهاد ومقامات محمودة، وكان موسى بن رحو لما نازله السلطان وبنو عبد الله بن عبد الحق بحصن علودان ونزلوا على عهده لحق بتلمسان.

وكان بنو عبد الله بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق عصبة من بين سائرهم، لأن عبد الله وإدريس كانا شقيقين لسوط النساء بنت عبد الحق، فاقتفى أثر يعقوب بن عبد الحق بن عبد الله محمداً ابن عمه إدريس، وخرج على السلطان بقصر كتامة سنة ثلاث وستين وستماية، ثم استرضاه عمه واستنزله.

وبقي يعقوب بن عبد الله في انتقاضه يتنقل في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلى من أولياء السلطان سنة ثمان وستين

وستماية بجهات سلا، فكفى السلطان شأنه.

ولما كان من عهد السلطان لابنه أبي مالك ما قدمناه نفس عليه هؤلاء القرابة هذا الشأن، فانتفضوا ولحق محمد ابن ادريس بحصن علودان.

ولحق موسى بن رحو بن عبد الله بجبال غمارة ومعه أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق، ونازلهم السلطان حتى نزلوا على عهده، وأجازهم إلى الأندلس سنة سبعين وستماية، فأقاموا بها للجهاد سوقاً ونافسهم أقيال زناتة في مثلها بتلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس سنة سبعين وستماية، فولاه السلطان ابن الأحمر على جميع الغزاة المجاهدين هنالك، لما كان كبيرهم ومحل سؤلهم.

ولم يلبث أن عاد إلى المغرب، فولى السلطان مكانه أخاه عبد الحق.

ثم رجع عنه مغاضباً إلى تلمسان، فولي مكانه على الغزاة المجاهدين إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسناف إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن موسى بن رحو فاتح هذه الرياسة بالأندلس وخبر أخيه عبد الحق من بعده وابنه حمو بن عبد الحق بعدهما

لما هلك السلطان الشيخ بن الأحمر وولى ابنه السلطان الفقيه، ووفد على السلطان يعقوب بن عبد الحق صريخاً للمسلمين، فأجاز إليه أول إجازته سنة ثلاث وسبعين وستماية وأوقع بجيوش النصرانية.

وقتل الزعيم دننه واستولى له الغلب على الأندلس، وبدا لابن الأحمر في أمره وخشي مغبته، وتوقع أن يكون شأنه معه شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عياد.

وكان بالأندلس قرابته بنو أشقيلولة قد قاسموه في ممالكها، وانفردوا بوادي آش ومالقة وقمارش، حسبما ذكرناه في أخباره مع السلطان، وانتقض عليه أيضاً من رؤساء الأندلس ابن عبدويل وابن الدليل، فكانوا يجلبون على بلاد المسلمين.

وكانوا قد استنجدوا جيوش النصرانية ونازلوا غرناطة، وعاثوا في الجهات، فلما استوت قدم السلطان يعقوب بن عبد الحق بالأندلس، وصل هؤلاء الثوار به أيديهم، فخشيهم ابن الأحمر جميعاً على نفسه.

وقلب للسلطان ليوسف ظهر المجن، واستظهر عليه بالأعياص من قرابته.

وكان هؤلاء القرابة من أولاد رحو بن عبد الله بن عبد الحق وإدريس بن عبد ا لله وإدريس بن عبد الحق، وينسبون جميعاً إلى سوط النساء كما ذكرناه، ومن أولاد أبي عياد بن عبد الحق لما أوجسوا الخيفة من السلطان واستشعروا النكير منه، لحقوا بالأندلس تورية بالجهاد، وانتبذوا عن الشول فراراً من محله.

وقد كان السلطان أبو يوسف متى أحسّ بريبة منه في ذلك إذا انتقضوا عليه أشخصهم إلى الأندلس، فاجتمع منم عند ابن الأحمر عصابة من أولاد عبد الحق كما قلناه، وأولاد وسناف وأولاد نزول وتاشفين بن معطي كبير بني تيربيغين من بني محمد.

وتبعهم أولاد محلى أخوال السلطان أبي يوسف، وكان ابن الأحمر كثيراً ما يعقد لهم على الغزاة المجاهدين من زناتة لدار الحرب، فعقد أولاً لموسى بن رحو سنة ثلاث وسبعين وستماية ولأخيه عبد الحق بعد انصرافه إلى المغرب، ثم لإبراهيم بن عيسى بعد انصرافهما معاً كما قلناه.

ثم رجعا فعقد لموسى بن رحو ثانية على أشياخه، اثبت له قدما في الرياسة ليحسن به دفاع السلطان أبي يوسف عنهم، ثم تداولت الإمارة فيهم ما بينهم وبين عمومتهم.

وربما عقد قبل ذلك أزمان الفترة لعلي بن أبي عياد بن عبد الحق في بعض الغزوات، ولتاشفين بن معطي في أخرى سنة تسع وسبعين وستماية ومعه طلحة بن محلى، فاعترضوا الطاغية دون حصر المسلمين وربما كان لهم الظهور.

ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أبي تاشفين وعقد ابن الأحمر في بعض حروبه معه لعلي بن أبي عياد على زناتة جميعاً، وحاشهم إلى رايته، فانفضت جموع أبي يوسف، وظهروا عليه، وتقبضوا في المعركة على ابنه منديل، واستاقوه أسيراً إلى أن أطلقه السلطان ابن الأحمر في سلم عقده بعد مهلكه، مع ابنه يوسف بن يعقوب.

واستبد موسى بن رحو من بعدها بإمارة الغزاة بالأندلس إلى أن هلك، فوليها من بعده أخوه عبد الحق إلى أن هلك سنة تسع وتسعين وستماية وكان مظفر الراية على عدو المسلمين.

ولما هلك ولي من بعده ابنه حمو بن عبد الحق فكانت هذه الإمارة متصلة في بني رحو إلى أن انتقلت منهم إلى إخوانهم من بني أبي العلاء وغيرهم.

واندرج حمو في جملة عثمان بن أبي العلاء من بعده حسبما

نذكر.

وأما إبراهيم بن عيسى الوسناني فإنه رجع إلى المغرب، ونزل على يوسف بن يعقوب وقتله بمكانه من حصار تلمسان بعد حين من الدهر، وبعد أن كبر وعمي.

والله مالك الأمور لا رب غيره، وكان مهلك يعلى ابن أبي عياد سنة سبع وثمانين وستماية ومعطي بن أبي تاشفين سنة تسع وثمانين وستماية وطلحة بن محلى سنة ست وثمانين وستماية والله أعلم.

الخبر عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة بالأندلس

كان عبد الحق هذا من أعياص الملك المريني ويعاسيبهم وهو من ولد محمد بن عبد الحق ثاني الأمراء على بني مرين بعد أبيهم عبد الحق.

وهلك أبوه عثمان بن محمد بالأندلس إحدى أيام الجهاد سنة تسع وسبعين وستماية وربي ابنه عبد الحق هذا في حجر السلطان يوسف بن يعقوب إلى أن كان من أمر خروجه مع الوزير رحو بن يعقوب على السلطان أبي الربيع ما ذكرناه في أخباره.

ولحق بتلمسان وأجاز منها إلى الأندلس، وسلطانه يومئذ أبو الجيوش ابن السلطان الفقيه، وشيخ زناتة بها حمو بن عبد الحق بن رحو.

وخاطبهم السلطان أبو سعيد ملك المغرب في اعتقاله، فأجابوه وفر من محبسه، ولحق بدار الحرب.

ولما انتقض أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد وبايع لنفسه بمالقة، وزحف إلى غرناطة فنازلها، ووقعت الحرب بظاهرها بين الفريقين وأخذ في بعض أيامها حمو بن عبد الحق أسيراً، وسيق إلى السلطان أبي الوليد.

وكان معه عمه أبو العباس بن رحو فأبى من إسار ابن أخيه وخلى عنه، فرجع إلى سلطانه فارتاب به لذلك.

وعقد على الغزاة مكانه لعبد الحق بن عثمان استدعاه من مكانه بدار الحرب، ثم غلبهم أبو الوليد على غرناطة.

وتحول أبو الجيوش إلى وادي آش على سلم انعقد بينهم، وسار معه عبد الحق بن عثمان على شأنه.

ثم وقعت بينه وبين أبي الجيوش مغاضبة، لحق لأجلها بالطاغية وأجاز إلى سبتة، فاستظهر به يحيى بن أبي طالب العزفي أيام حصار السلطان أبي سعيد إياه، فكان له في حماية ثغره والدفاع دونه آثار مذكورة.

ثم عقد السلطان أبو سعيد السلم ليحيى العزفي، وأفرج عنه، فارتحل عبد الحق بن عثمان إلى إفريقية، ونزل ببجاية سنة تسع عشرة وسبعماية على أبي عبد الرحمن بن عمر صاحب السلطان أبي يحيى المستبد بالثغور الغربية، فأكرم نزله، وأوسع قراه، وضرب له الفساطيط بالزينة من ساحة البلد استبلاغاً في تكريمه وحمله وأصحابه على ماية وخمسين من الخيل، ثم أقدمهم على السلطان بتونس فبر مقدمهم، وخلط عبد الحق بنفسه وآثره بالخلة والصحابة، وأجله بمكان الاستظهار به وبعصابته.

ولما عقد السلطان لمحمد بن سيد الناس على حجابته سنة سبع وعشرين وسبعماية واستقدمه لذلك من ثغر بجاية كما ذكرناه، عظمت رياسته واستغلظ حجابه، وحجب عبد الحق ذات يوم عن بابه، فسخطها وذهب مغاضباً، وداخل أبا فارس في الخروج على أخيه، فأجابه وخرج به من تونس، فكان من خبرهم ومقتل أبي فارس وخلوص عبد الحق إلى تلمسان ونزوله على أبي تاشفين، وغزوه إلى إفريقية مع عساكر بني عبد الواد سنة سبع وعشرين وسبعماية ما ذكرناه في أخبار الدولة الحفصية.

ثم لما رجع بنو عبد الخالق إلى تلمسان صمد مولانا السلطان أبو يحيى إلى تونس في أخريات سنته.

وفر ابن أبي عمران السلطان المنصوب بتونس من بني أبي حفص إلى أحياء العرب، وتقبض على أبي رزيان ابن أخي عبد الحق بن عثمان في لمة من أصحابه، فقتله قعصا بالرماح.

ورجع عبد الحق بن عثمان إلى مكانه من تلمسان، فأقام بمثواه عند أبي تاشفين متبوئاً من الكرامة والاعتزاز ما شاء إلى أن هلك بمهلك أبي تاشفين يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان عليهم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وقتلوا جميعاً عند قصر الملك أبو تاشفين وأبناء عثمان ومسعود وحاجبه موسى بن علي، ونزيله عبد الحق هذا، وأبو ثابت ابن أخيه، فقطعت رؤوسهم وتركت أشلاؤهم بساحة القصر عبرة للمعتبرين حسبما ذكرناه في أخبار أبي تاشفين، والله أعلم.

الخبر عن عثمان بن أبي العلاء من أمراء الغزاة المجاهدين بالأندلس

كان أولاد سوط النساء من ولد عبد الحق، أهل عصابة واعتزاز على قومهم، وهم أولاد إدريس وعبد اللّه ابنيها والشقيقين كما ذكرنا.

وكان مهلك إدريس الأكبر يوم مهلك أبيه بتافرضيت ومهلك عبد اللّه قبله.

وخلف عبد اللّه ثلاثة من الولد تشعب فيهم نسله، وهم: يعقوب ورحو وإدريس.

واستعمل أبو يحيى بن عبد الحق يعقوباً منهم على سلا عند افتتاحه إياها سنة تسع وأربعين وستمائة ثم انتزى بها بعد ذلك على عمه يعقوب سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكان من شأن ثورة النصارى بها ما ذكرناه، واستخلصها يعقوب بن عبد الحق ولحق يعقوب بن عبد اللّه بعلودان من بلاد غمارة، وامتنع بها، وخرج على أثره ابنا عمه إدريس وهما: عامر ومحمد، وانتزوا بالقصر الكبير، ولحق بهم كافة أولاد سوط النساء.

وطالبهم السلطان فلحقوا بجبال غمارة ونازلهم، ثم استنزلهم بعد ذلك على الأمان، وعقد لعامر علي الغزو إلى الأندلس سنة ستين وستمائة كما ذكرنا، وأجاز معه رحو بن عبد اللّه.

ورجع محمد بن عامر وفر إلى تلمسان سنة ثمانين وستمائة وأجاز منا إلى الأندلس.

ثم خرجوا على السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة تسع وثمانين وستمائة ومعهم ولد أبي عياد بن عبد الحق واعتصموا بعلودان، واستنزلهم السلطان على اللحاق بتلمسان فلحقوا بها.

وأجاز أولاد سوط النساء وأولاد أبي عياد كافة إلى الأندلس واستقروا بها يومئذ، ورجع عامر منهم ومحمد وكان من خبره ما نذكر.

وهلك يعقوب بن عبد اللّه سنة ثمان وستين وستمائة في اغترابه بقفوله من رباط الفتح، قتله طلحة بن محلى.

واستقر بنوه من أولاد سوط النساء بالمغرب، وكان ابنه أبو ثابت أميراً على بلاد السوس أيام السلطان يوسف بن يعقوب وأوقع بزكنة سنة تسع وتسعين وستمائة ولم يزل وبنوه بالمغرب من يومئذ.

وكان من إخواته أبي العلاء ورحو ابنا عبد اللّه بن عبد الحق تشعب نسله فيهما، وأجاز رحو إلى الأندلس مع عامر ومحمد ابني عمه إدريس.

لهم أجاز موسى ابنه سنة تسع وتسعين وستمائة مع أولاد أبي عياد وأولاد سوط النساء.

كم رجع إلى محله من الدولة وفر ثانياً سنة خمس وسبعين وستمائة إلى تلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس واستقر بها.

وأجاز أولاد أبي العلاء سنة خمس وثمانين وستمائة مع أولاد أبي يحيى بن عبد الحق وأولاد عثمان بن عبد الحق واستقروا بالأندلس، وكانوا يرجعون في رياستهم لكبيرهم عبد اللّه بن أبي العلاء.

وعقد له ابن الأحمر على الغزاة من زناتة فيمن كان يعقد لهم من زناتة قبل استقرار المنصب، إلى أن هلك شهيداً في إحدى غزواته سنه ثلاث وتسعين وستمائة وعقد المخلوع ابن الأحمر لأخيه عثمان بن أبي العلاء، على حامية مالقة وغربيها من الغزاة لنظر ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر.

ولما غدر الرئيس أبو سعيد بسبتة سنة خمس وسبعمائة وتمت له الحيلة في تملكها واضطرمت نار العداوة بينه وبين صاحب المغرب، فنصبوا عثمان هذا للأمر، وأجازوه إلى غمارة، فثار بها ودعا لنفسه، وتغلب على أصيلا والعرائش، وكان ما ذكرنا إلى أن غلبه أبو الربيع سنة ثمانين وستمائة، ورجع إلى مكانه بالأندلس ولما اعتزم أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد على الخروج على أبي الجيوش صاحب غرناطة وداخل في ذلك شيخ الغزاة بمالقة عثمان بن أبي العلاء، فساعده عليه، واعتقل أباه الرئيس أبا سعيد، وزحف إلى غرناطة سنة أربع عشرة وسبعمائة فلما استولى عليها عقد لعثمان هذا على إمارة الغزاة المجاهدين من زناتة، وصرف عنها عثمان بن عبد الحق بن عثمان، فلحق بوادي آش مع أبي الجيوش.

وصار حمد بن عبد الحق بن رحو في جملته بعد أن كان شيخاً على الغزاة كما قلناه.

واستمرت أيام ولاية عثمان هذا، وبعد فيها صيته، وغص صاحب المغرب أبو سعيد بمكانه، ولما استصرخه المسلمون للجهاد سنة ثمان عشرة وسبعمائة اعتذر بمكان عثمان هذا، واشترط عليهم القبض عليه حتى يرجع عنهم فلم يكن ذلك، ونازل الطاغية غرناطة وحاصرها، وكان لعثمان وبنيه في ذلك آثار مذكورة.

وأتاح اللّه للمسلمين في النصرانية على يد عثمان هذا وبنيه ما لم يخطر على قلب أحد منهم، فتأكد اغتباط الدولة والمسلمين بمكانهم إلى أن هلك أبو الوليد سنة خمس وعشرين وسبعمائة، باغتيال بعض الرؤساء من قرابته بمداخلة عثمان هذا، زعموا في غدره، ونصب للأمر ابنه محمد صبياً لم يبلغ الحلم.

وأقام بأمره وزيره محمد بن المحروق من صنائع دولتهم، فاستبد عليه وألقى زمام الدولة بيد عثمان في النقض والإبرام، فاعتز عليهم وقاسمهم في الأمر، واستأثر في أعطيات الغزاة بكثير من أموال الجباية، حتى خشيه الوزير على الدولة.

وأدار الرأي في كبره على التغلب، فجمح وفسد ما بينه وبين الوزير ابن المحروق، فانتقض عليه وخرج مغاضباً، فاضطربت فساطيطه بمرج غرناطة.

واعصوصب جماعة الغزاة من قبائل زناتة عليه، واعتصم الوزير وأهل الدولة بالحمراء وسعى الناس بينهما أياماً، وأدار الوزير الرأي في أن ينصب له كفواً من قرابته، يجاذبه الحبل، يشغله بشأنه عن الدولة، فجأجأ بيحيى بن عمر بن رحو بن عبد اللّه بن عبد الحق وكان في جملة عثمان وأصهر إليه في ابنته فدخل إليه وعقد له على الغزاة وتسايلوا إليه.

وتفرّد عثمان بمعسكره في عشيره وولده، وعقد معه السلم في أن يجيز إلى المغرب.

وأوفد بطانته على السلطان أبي سعيد سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وارتحل من ساحة غرناطة في ألف فارس من ذويه وأقاربه وحشمه.

وقصد المرية ليجعلها فرضة لمجازه، حتى إذا حاذى أندوس، وكان بينه وبين رؤسائها مداخلة، فخرجوا إليه مؤدين حق مبرته، فغدر بهم وركب إليها فملكها وضبطها، وأنزل بها حرمه وأثقاله.

ودعا محمد ابن الرئيس أبي سعيد من شلوبانية وكان نازلاً بها، فجاء إليه ونصبه للأمر، وشن الغارات على غرناطة صباحاً ومساءً، واضطرمت نار الفتنة، واستركب يحيى بن رحو من قدر عليه من زناتة.

وطالت الحرب سنين حتى إذا فتك السلطان محمد بن الأحمر بوزيره ابن المحروق، استدعى عثمان بن أبي العلاء، وعقد له السلم على أن يجيز عمه إلى المغرب ويلحق بغرناطة لشأنه من رياسة الغزاة، فتم ذلك سنة تسع وعشرين وسبعمائة ورجع إلى مكانه من الدولة، وهلك إثر ذلك لسبع وثلاثين سنة من إمارته على الغزاة.

والبقاء لله وحده.

الخبر عن رياسة ابنه أبي ثابت من بعده ومصير أمرهم

لما هلك شيخ الغزاة ويعسوب زناتة عثمان بن أبي العلاء، قام بأمره في قومه ابنه أبو ثابت عامر، وعقد السلطان أبو عبد اللّه بن أبي الوليد له على الغزاة المجاهدين كما كان أبوه، فعظم شأنه قوة شكيمة وكثرة عصابة ونفوذ رأي وبسالة.

وكان لقومه اعتزاز على الدولة، بما عجموا من عودها، وكانوا أولي بأس وقوة فيها واستبداد عليها، وكان السلطان محمد بن أبي الوليد مستنكفاً عن الاستبداد عليه في القلة والكثرة، فكان كثيرا ما يخرقهم بتسفيه آرائهم والتضييق عليهم في جاههم.

ولما وفد على السلطان أبي الحسن سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة صريخاً على الطاغية، واستبد ابنه الأمير أبا مالك لمنازلة جبل الفتح، اتهموه بمداخلة السلطان أبي الحسن في شأنهم، فتنكروا وأجمعوا الفتك به، وداخلوا في ذلك بعض صنائعه ممن كان متربصاً بالدولة فساعدهم.

ولما افتتح الجبل وكان من شأنه ما قدمنا ذكره، وزحف الطاغية فأناخ عليه، وقصد ابن الأحمر الطاغية في بنيه راغباً أن يرجع إلى الحصن، فرجع وافترقت عساكر المسلمين، ارتحل السلطان ابن الأحمر إلى غرناطة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة وقد قعدوا له بمرصد من طريقه.

ونمي الخبر إليه، فدعا بأسطوله لركوب البحر إلى مالقة، واستبق إليهم الخبر بذلك، فتبادروا إليه ولقوه بطريقه من ساحل اصطبونة، فلاحوه وعاتبوه في شأن صنيعته عاصم من معلوجيه، وحاجهم عنه، فاعتوروا عاصماً بالرماح فنكر ذلك عليهم، فألحقوه به، وخر صريعاً عن مركوبه، وبعثوا إلى أخيه يوسف فأعطوه بيعتهم، وصفقة أيمانهم، ورجعوا به إلى غرناطة وهو حذر منهم لفعلتهم التي فعلوا، واستمرت الحال على ذلك.

ولما استكمل السلطان أبو الحسن فتح تلمسان وصرف عزائمه إلى الجهاد داخل ابن الأحمر في إزاحتهم عن الأندلس مكان جهاده، فصادف منه إسعافاً وقبولاً وحرصاً على ذلك، وتقبض على أبي ثابت وإخوته إدريس ومنصور وسلطان.

وفر أخوهم سليمان فلحق بالطاغية، وكان له في يوم طريف أثر في الإيقاع بالمسلمين، ولما تقبض ابن الأحمر على أبي

ثابت وإخوته، أودعهم جميعاً المطبق أياماً، ثم غربهم إلى إفريقية، فنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى.

وأوعز إليه السلطان أبو الحسن بالتوثق منهم أن يتصلوا بنواحي المغرب، ويخالفوه إليها أيام شغله بالجهاد في الأندلس، فاعتقلهم وأوفد أبا محمد بن تافراكين إلى سدة السلطان أبي الحسن إليه شفيعاً فيهم، فتقبل شفاعته وأحسن نزلهم وكرامتهم، حتى إذا احتل بسبتة أيام حصار الجزيرة في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة سعى بهم عنده، فتقبض عليهم واعتقلهم بمكناسة.

ولما انتزى ابنه الأمير أبو عنان على الأمر، وهزم منصور ابن أخيه أبي مالك صاحب فاس، ونازله بالبلد الجديد، بعث فيهم إلى مكناسة، فأطلقهم من الاعتقال وأفاض فيهم الإحسان والعطار واستظهر بهم شأنه.

وأحل أبا ثابت محل الشورى من مجلسه، وداخل إدريس أخاه في المكر بالبلد الجديد، فنزع إليها ومكر بهم، وثار عليهم إلى أن نزلوا على حكم السلطان أبي عنان، فعقد لأبي ثابت على سبتة وبلاد الريف ليشارف منها الأندلس محل إمارته.

وأطلق يده في المال والجيش، وفصل لذلك، فهلك بالطاعون يومئذ سنة تسع وأربعين وسبعمائة بمعسكره أزاء معسكر السلطان من حصار البلد الجديد.

واستقر إخوانه في إيالة السلطان أبي عنان بالمغرب الأقصى إلى أن كان من مفر أخيه إدريس وولايته على الغزاة بالأندلس، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن يحيى بن عمر بن رحو وإمارته على الغزاة بالأندلس أولاً وثانياً ومبدأ ذلك وتصاريفه

كان رحو بن عبد الله كبير ولد عبد الله بن عبد الحق، وكان له بنون كثيرون، وتشعب نسله فيهم، منهم: موسى وعبد الحق والعباس وعمر ومحمد وعلي ويوسف.

وأجازوا كلهم إلى الأندلس مع أولاد سوط نساء من تلمسان كما قدمناه.

وأقام عمر بعدها بتلمسان مدة واتخذ بها الأهل والولد.

ثم لحقهم وولي موسى إمارة الغزاة بعد إبراهيم بن عيسى الوسناني، وبعده أخوه عبد الحق على الغزاة أقام بها مدة وأجاز إلى سبتة مع الرئيس أبي سعيد وعثمان بن أبي العلاء سنة خمس وسبعمائة وولي بعدها على الغزاة المجاهدين ثم رجع إلى الأندلس، ولم يلبث بعدها أن أجاز إلى المغرب.

ونزل على السلطان أبي سعيد، فأكرم نزله، ثم رجع إلى الأندلس.

ولما ولي إمارة الغزاة عثمان بن أبي العلاء، وكان بينهم من المنافسة ما يكون بين فحول الشول، أشخص بني رحو جميعاً إلى إفريقية، فنزلوا على مولانا السلطان أبي يحيى خير نزل، اصطفاهم واستخلصهم واستظهر جمعهم في حروبه.

وهلك عمر بن رحو ببلاد الجريد وقبره ببشرى من نفزاوة معروف، ونزع ابنه يحيى من بين إخوته عن مولانا السلطان أبي يحيى، وصار في جملة ابن أبي عمران، ثم لحق بزواوة وأقام في بني يراتن سنين، ثم أجاز إلى الأندلس واستقر بمكانه من قومه.

واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وأصهر إليه بابنته، وخلطه بنفسه، ولما فسد ما بينه وبين ابن المحروق وزير السلطان بغرناطة سنة سبع وعشرين وسبعمائة واعصوصب عليه الغزاة بمعسكره من مرج غرناطة دس إليه يومئذ ابن المحروق إلى يحيى بن عمر هذا، ودعاه إلى مكان عثمان ليغيظه بذلك، فأجاب ونزع عن عثمان وقومه إلى ابن المحروق وسلطانه.

وعقد له على الغزاة فتسايلوا إليه عن عثمان شيخهم، وانصرف إلى المدية وكان من شأنه ما قصصناه في أخباره، وأقام يحيى بن عمر في رياسته إلى أن هلك ابن المحروق بفتكة سلطانه، واستدعى عثمان بني أبي العلاء للرياسة فرجع إليها.

وصرف يحيى بن عمر إلى وادي آش، وعقد له على الغزاة بها فأقام حيناً، ثم رجع إلى مكانه بين قومه.

واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وابنه أبو ثابت لما كانت أمه بنت موسى بن رحو، فكان يتعصب لخؤولته فيهم ثم هلك عثمان وكان ما قدمناه من شأن ولده وفتكهم بالسلطان المخلوع.

وتقبض أخوهم أبو الحجاج عليهم، وأشخصهم إلى إفريقية وقوض مباني رياستهم، وعقد على الغزاة مكانهم ليحيى بن عمر هذا، فاضطلع بها أحسن اضطلاع.

واستمرت حاله وحضر مشاهد أبي الحجاج مع السلطان أبي الحسن، فظهرت كفايته وغناؤه.

ولما هلك أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة طعيناً بمصلى العيد، في آخر سجدة من صلاته، بيد عبد من عبيد

اصطبله مصاب في عقله، أغري - زعموا بـه، وقتل لحينه صبراً بالسيوف.

وبويع لابنه محمد، أخذ له البيعة على الناس يومئذ مولاه رضوان من معلوجيهم، حاجب أبيه وعمه.

وقام بأمره واستبد عليه وحجره، فقاسم يحيى بن عمر هذا في شأنه وشاركه في أمره وشد أزر سلطانه به، حتى إذا ثار بالحمراء الرئيس ابن عمهم محمد بن إسماعيل بن محمد ابن الرئيس أبي سعيد قائماً بدعوة إسماعيل بن أبي الحجاج أخي السلطان محمد كان ساكناً بالحمراء.

وتحينوا لذلك مغيب السلطان في متنزهه بروضة خارج الحمراء، فخالفوه إليها وكبسوها ليلاً فقتلوا الحاجب المستبد رضوان، وأجلس السلطان على سرير ملكه ونادوا بالناس إلى بيعته.

ولما أصبح غدا عليهم يحيى بن عمر بعد أن يئسوا منه وخشوا عاديته، فأتاهم ببيعته وأعطى عليها صفقته وانصرف إلى منزله.

وبعد استيلائهم استخلصوا إدريس بن عثمان بن أبي العلاء، كان وصل إليهم من دار الحرب بأرض برشلونة كما نذكر، وولوه إمارة الغزاة وائتمروا في التقبض على يحيى بن عمر.

ونذر بذلك فركب في حاشيته يوم دار الحرب من أرض الجلالقة، واتبعه إدريس فيمن إليه من قومه، فقاتلهم صدر نهاره وفض جموعهم.

ثم خلص إلى تخوم النصرانية ولحق منها بسدة ملك المغرب على أثر سلطانه محمد المخلوع بن أبي الحجاج، وخلف ابنه أبا سعيد عثمان بدار الحرب.

ونزل يومئذ على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة فأكرم مثواه وأحله من مجلسه محل الشورى والمؤامرة، واستقر في جملته إلى أن بعث ملك قشتالة في السلطان المخلوع، بإشارة ابنه أبي سعيد وسعايته في ذلك، ليجلب به على أهل الأندلس بما نقضوا من عهده.

وجهزه السلطان أبو سالم سنة ثلاث وستين وسبعمائة فصحبه يحيى بن عمر هذا.

ولقيهم ابنه أبو سعيد عثمان وقاموا بأمر سلطانهم، واستولى على الأندلس بمظاهرتهم، وكان لهم آثار في ذلك.

ولما استولى على غرناطة سنة ثلاث وستين وسبعمائة عقد ليحيى بن عمر على إمارة الغزاة كما كان وأعلى يده، واستخلص عثمان لشوراه وخلطه ببطانته.

ونافسه الوزير يومئذ محمد بن الخطيب فسعى فيهم، وأغرى السلطان بهم، فتقبض عليهم سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق.

ثم أشخص يحيى سنة ست وستين وسبعمائة إلى المشرق وركب السفين من المدية فنزل بالاسكندرية، ورجع منها إلى المغرب، ونزل على عمر بن عبد الله أيام استبداده واستقر به في كرامة وخير مقامة، ولم يزل بالمغرب على أعز الأحوال إلى أن هلك سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ثم استخلص ابنه أبا سعيد عثمان من الاعتقال سنة سبع وستين وسبعمائة إلى إفريقية ونزل ببجاية على مولانا السلطان أبي العباس حافد مولانا السلطان أبي يحيى واستقر في جملته، وحضر معه فتح تونس وأبلى فيه.

واقطع له السلطان وأسنى له الجراية، وخلطه بنفسه واصطفاه لشوراه وخلته، وهو لهذا العهد من عظماء مجلسه وظهرائه في مقامات حروبه، وإخوته بالأندلس على مراكز عزهم وفي ظلال عصبيتهم مع قومهم، وقد ذهب مواجد السلطان بالأندلس عليهم وصار إلى جميل رأيه فيهم.

والله مالك الملك ومقلب القلوب لا رب غيره.

الخبر عن إدريس بن عثمان بن أبي العلاء وإمارته بالأندلس ومصاير أمره

لما هلك أبو ثابت بن عثمان بن أبي العلاء سنة خمسين وسبعمائة، واستمر إخوانه في جملة السلطان أبي عنان ملك المغرب وأقطعهم وأسنى جراياتهم، وكان في إدريس منهم بقية الترشيح يراه الناس به.

فلما نهض السلطان إلى فتح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة توغل في ديار إفريقية وحام قومه عن مواقعها، تحيلوا عليه في الرجوع به عن قصده منها.

وأذنت المشيخة لمن معهم من قومهم في الإنطلاق إلى المغرب حتى خف المعسكر من أهله وتآمروا، زعموا في اغتيال السلطان والإدالة منه بإدريس هذا، ونذر بذلك فكر راجعاً كما ذكرناه في أخباره.

ولما اشيع ذلك بلغ إدريس شأنه فركب ظهر الغدر وفر من العسكر ليلاً، ولحق بتونس، ونزل على القائم بالدولة يومئذ

الحاجب أبي محمد بن تافراكين خير نزل وأبره.

وركب السفين من تونس إلى العدوة، فنزل على ابن القمص صاحب برشلونة في حشمه وذويه.

وأقام هنالك إلى أن كان من مهلك رضوان الحاجب المستبد بالأندلس سنة ستين وسبعمائة ما قدمناه فنزع إلى منبته من غرناطة.

ونزل على إسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج والقائم بدولته يومئذ الرئيس محمد ابن عمه إسماعيل بن محمد الرئيس أبي سعيد فلقوه مبرة وتكريماً ورجوه بالإدالة به من يحيى بن عمر أمير الغزاة يومئذ، لما كانوا يتهمونه به من ممالأة المخلوع صاحب الأمر عليهم.

ولما نزع يحيى بن عمر إلى الطاغية، ولحق بدار الحرب سنة إحدى وستين وسبعمائة عقدوا لإدريس بن عثمان هذا على الغزاة مكانه، وولوه خطة أبيه وأخيه بدولتهم، فاضطلع بها.

ومالأ الرئيس محمداً على قتل سلطانه إسماعيل بن الحجاج واستبد بالأمر، ولسنتين من ولايته غلبه المخلوع أبو عبد الله على الأمر، وزحف إليه من رندة، كان نزل بها بعد خروجه من دار الحرب مغاضباً للطاغية.

وأذن له وزير المغرب عمر بن عبد الله في نزولها فنزلها، ثم زحف إلى الثائر بغرناطة على ملكهم الرئيس وحاشيته فأجفلوا.

ولحق الرئيس محمد بن إدريس هذا بقشتالة، ونزلوا في جملتهم وحاشيتهم على الطاغية، فتقبض عليهم، وقتل الرئيس محمد وحاشيته جزاء بما أتوه من غدر رضوان.

ثم غدر السلطان إسماعيل من بعده وأودع إدريس ومن معه من الغزاة السجن بإشبيلية، فلم يزل في أسره إلى أن تحيل في الفرار بمداخلة مسلم من الدجن أعد له فرساً أزاء معتقله، ففك قيده، ونقب البيت، وامتطى فرسه ولحق بأرض المسلمين سنة ست وستين وسبعمائة واتبعوه فأعجزهم، وجاء إلى السلطان أبي عبد الله محمد المخلوع فأكرم نزله وأحسن مبرته، ثم استأذنه في اللحاق بالمغرب فأذن له وأجازه إلى سبتة، وبلغ شأنه إلى عامل الأمر بالمغرب يومئذ عمر بن عبد الله، فأوعز إلى صاحب سبتة بالتقبض عليه لمكان ما يؤنس من ترشيحه.

وأودعه السجن بمكناسة، ثم نقله السلطان عبد العزيز إلى سجن الغور بفاس، ثم قتلوه خنقاً سنة سبعين وسبعمائة والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن إمارة علي بن بدر الدين على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره

قد ذكرنا أن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، كان أجاز إلى الأندلس مع محمد وعامر ابني إدريس بن عبد الحق وقومهم، أولاد سوط النساء سنة تسع وستين وسبعمائة، ثم رجع إلى المغرب وفر إلى تلمسان وأجاز منها إلى الأندلس، وولي إمارة الغزاة بها إلى أن هلك بعد أن أصهر إليه السلطان يوسف بن يعقوب في ابنته، فعقد له عليها وزفها إليه سنة تسع وسبعين وسبعمائة مع وفد من قومهم.

وكان لموسى بن رحو من الولد جماعة أكبرهم المحمدان جمال الدين وبدر الدين، وضع عليهما هذين اللقبين على طريقة أهل المشرق الشريف المكي الوافد على المغرب لذلك العهد من شرفاء مكة.

وكان هؤلاء الأعياص من ملوكهم وأقيالهم يعظمون أهل البيت النبوي ويلتمسون الدعاء والبركة منهم فيما تيسر من أحوالهم، فحمل موسى بن رحو ولديه هذين عند وضعهما إلى الشريف يحنكهما ويدعو لهما، فقال له الشريف: خذ إليك جمال الدين، وقال في الآخر: خذ إليك بدر الدين، فاستحب موسى دعاءهما بهذين اللقبين تبركاً في بتسمية الشريف بهما، فاشتهرا بهذين الاسمين.

ولما بلغا الأشد وشاركا أباهما في حمل الرياسة وكان من مهلكه ما ذكرناه، وانحرفت رياسة الغزاة عنهما إلى عمهما عبد الحق وابنه، فلحق جمال الدين منهما بالطاغية سنة ثلاث ثم أجاز البحر من قرطاجنة إلى السلطان يوسف بن يعقوب من معسكره من حصار تلمسان، واستقر في جملته حتى إذا هلك السلطان تصدى ابنه أبو سالم للقيام بأمر، وكان مغلباً مضعفا فلم يتم أمره، وتناول الملك أبو ثابت حافد السلطان واستولى علبه.

وفر أبو سالم عشي مهلكه ومعه من القرابة جمال الدين هذا وأعمامه العباس وعيسى وعلي بنو رحو بن عبد الله، فتقبض عليهم في طريقهم بمديونة وسيقوا إلى السلطان أبي ثابت، فقتل عمه أبا سالم وجمال الدين بن موسى بن رحو، وامتن على الباقين واستحياهم، وانصرف السلطان بعدها إلى الأندلس، فكانت له في الجهاد آثار كما ذكرناه قبل.

وأما بدر الدين فلم يزل بالأندلس مع قومه، ومحله من الرياسة والتجلة محله من النسب إلى أن هلك، فقام بأمره من بعده

ابنه علي بن بدر الدين مزاحماً لقومه في الرياسة، مباهياً لهم في الترشيح.

وكان كثيراً ما يعقد له ملوك بني الأحمر على الغزاة من زناتة المرابطين بالثغور فيما بعد عن الحضرة من قواعد الأندلس، مثل مالقة والمرية ووادي آش، سبيل المرشحين من أهل بيته، وكانت إمارة الغزاة بالأندلس مستأثرة بأمر السيف والحرب، مقاسمة للسلطان أكثر الجباية في الأعطية والأرزاق لما كانت الحاجة إليهم في مدافعة العدو ومقارعة ملك المغرب إلى ملك الأندلس، وكانوا يغضون لهم عن استطالتهم عليهم لمكان حاجتهم إلى دفاع العدوين، حتى إذا سكن ريح الطاغية بما كان من شغله بفتنة أهل دينه منذ منتصف هذه المائة، وشغل بنو مرين أيضاً بعد مهلك السلطان أبي الحسن وتناسوا عهد الغلب على أقتالهم وجيرانهم، وتناسوا عهد ذلك أجمع، فاعتزم صاحب الأندلس على محو هذه الخطة من دولته.

وأغراه بذلك وزيره ابن الخطب كما ذكرناه حرصاً على خلاء الجوله، فتقبض على يحيى بن عمر وبنيه سنة أربع وستين وسبعمائة كما ذكرناه، وعقد على الغزاة المجاهدين لابنه ولي عهده الأمير يوسف، ومحا رسم الخطة لبني مرين بالجملة إلى أن توهم فناء الحامية منهم بفناء بيوت العصبية الكبرى، فراجع رأيه في ذلك.

وكان علي بن بدر الدين خالصة له وكان مقدماً على الغزاة بوادي آش.

ولما لحق السلطان به ناجياً من النكبة ليلة مهلك رضوان، مانع دونه وظاهره على أمره حتى إذا ارتحل إلى المغرب ارتحل معه، ونزلوا جميعاً على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة كما ذكرناه.

ولما رجع إلى الأندلس رجع في جملته فكان له بذلك عهد وذمه رعاهما السلطان له، وكان يستخلصه ويناجيه.

فلما تفقد مكان الأمير على الغزاة ونظر فيمن يوليه عثر اختياره على هذا لسابقته ووسائله وما تولاه من نصحه ووقوفه عند حده، فعقد له سنة سبع وستين وسبعمائة على الغزاة كما كان أولوه، فقام بها واضطلع بأمورها، واستمرت حاله إلى أن هلك حتف أنفه سنة ثمان وستين وسبعمائة، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

الخبر عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره

كان أولاد السلطان أبي علي قد استوقروا بالأندلس وأجازوا إلى طلب الأمر بالمغرب.

وكان من أمرهم ما شرحناه، إلى أن أجاز عبد الرحمن هذا مع وزيره المطادر به مسعود بن رحو بن ماساي سنة ست وستين وسبعمائة من غساسة على سلم عقده لهم وزير المغرب المستبد بأمره يومئذ عمر بن عبد الله.

ونزل عبد الرحمن هذا بالمنكب، وكان السلطان يومئذ معسكراً بها فتلقاه من البر بما يناسبه، وأكرم مثواه وأسنى الجراية له ولوزيره ولحاشيته.

واستقروا في جملة الغزاة المجاهدين حتى إذا هلك علي بن بدر الدين سنة ثمان وستين وسبعمائة نظر السلطان فيمن يوليه أمرهم، فعثر اختياره على عبد الرحمن هذا لما عرف به من البسالة والإقدام ولقرب الشرائح بينه وبين ملك المغرب يومئذ، التي هي ملاك الترشيح لهذه الخطة بالأندلس كما قدمناه، لما كانت وشائج ولد عبد الله بن عبد الحق قد بعدت باتصال الملك في عمود نسب صاحب المغرب دون نسبهم، فآثره صاحب الأندلس بها، وعقد له على الغزاة المجاهدين سنة ثمان وستين وسبعمائة وأضفى عليه لبوس الكرامة والتجلة وأقعده بمجلس الوزارة كما كان الأمراء قبله، واتصل الخبر بسلطان المغرب يومئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، فغص بمكانه، وتوهم أن هذه الإمارة زيادة في ترشيحه ووسيلة للملكه، وكانت لوزير الأندلس محمد بن الخطيب مداخلة مع صاحب المغرب، بما أمل أن يجعله فيئة لاعتصامه، فأوعز إليه بالتحيل على إفساد ما بينه وبين صاحب الأندلس، فجهد في ذلك جهده.

ولُبست عليه وعلى وزيره مسعود بن ماساي كتب إلى عظماء القبيل وبعض البطانة من أهل الدولة بالتوثب والدعوة إلى الخروج على صاحب المغرب، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم، فشهد عليهم وأمر بهم فاعتقلوا في المطبق سنة سبعين وسبعمائة واسترضى صاحب المغرب بفعلته فيهم، ونزع الوزير ابن الخطيب بعد ذلك إلى السلطان عبد العزيز، وتبين للسلطان مكره واحتياله عليه في شأنهم.

ولما هلك عبد العزيز وأظلم الجو بين صاحب الأندلس،

وبين القائم بالدولة أبي بكر بن غازي كما قدمناه، وامتعض ابن الأحمر للمسلمين من الفوضى، أطلق عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماساي من الاعتقال وجهز لهما الأسطول، فأجازوا فيه إلى المغرب ونزلوا بمرسى غساسة على بطوية داعياً لنفسه، فقاموا بأمره وكان من شأنه مع الوزير أبي بكر بن غازي ما قصصناه، واستقر آخراً بمراكش وتقاسم ممالك المغرب وأعماله مع السلطان أبي العباس أحمد ابن أبي سالم صاحب المغرب لهذا العهد، وصار التخم بينهما وادي ملوية.

ووقف كل واحد منهما عند حده، وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها من ملكه.

وصار أمر الغزاة المجاهدين إليه، وباشر أحوالهم بنفسه، وعمهم بنظره، وخص القرابة المرشحين منهم بمزيد تكرمته وعنايته.

والأمر على ذلك لهذا العهد، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء لا رب غيره ولا معبود سواه. والحمد لله على كل حال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

تم كتاب أخبار الدول الإسلامية بالمغرب لولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي الإشبيلي المالكي.

والحمد لله رب العالمين.

التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب

وأصل هذا البيت من إشبيلية انتقل سلفنا عند الجلاء وغلب ملك الجلالقة ابن أدفونش عيها إلى تونس في أواسط المائة السابعة.

(نسبه) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون، لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة، ويغلب على الظن أنهم أكثر، وأنه سقط مثلهم عدداً، لأن خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس، فإن كان أول الفتح فالمدة لهذا العهد سبعمائة سنة، فيكونون زهاء العشرين، ثلاثة لكل مائة، كما تقدم في أول الكتاب الأول.

ونسبنا في حضرموت من عرب اليمن إلى وائل بن حجر من أقيال العرب، معروف وله صحبة.

قال أبو محمد بن حزم في كتاب « الجمهرة » : هو وائل بن حجر بن سعد بن مسروق بن وائل، ابن النعمان بن ربيعة بن الحارث بن عوف بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن شرحبيل بن الحرث بن مالك بن مرة بن حميري بن زيد بن الحضرمي بن عمرو بن عبد الله بن هانئ بن جرشم بن عبد شمس بن زيد بن لؤي بن ثبت بن قدامة بن أعجب بن مالك بن لؤي بن قحطان، وابنه علقمة بن وائل وعبد الجبار بن وائل.

وذكره أبو عمر بن عبد البر في حرف الواو من «الاستيعاب».

وأنه وفد على النبي ﷺ، فبسط له رداءه وأجلسه عليه، وقال: «اللّهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة».

وبعث معه جارية بن أبي سفيان إلى قومه يعلمهم الإسلام والقرآن، فكانت له بذلك صحابة مع معاوية.

ووفد عليه لأول خلافته فأجازه، فرد عليه جائزته ولم يقبلها.

ولما كانت واقعة حجر بن عدي الكندي بالكوفة، اجتمع رؤوس أهل اليمن، وفيهم هذا فكانوا مع زياد بن أبي سفيان عليه، حتى أوثقوه وجاؤوا به إلى معاوية فقتله كما هو معروف.

وقال ابن حزم: ويذكر بنو خلدون الإشبيليون من ولده، وجدهم الداخل من الشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هانئ بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر قال: وكان من عقبه كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد، وكانا من أعظم ثوار الأندلس.

قال ابن حزم: وأخوه محمد، كان من عقبه أبو العاصي عمرو بن محمد بن خالد بن محمد بن خلدون.

وبني أبي العاصي محمد وأحمد وعبد اللّه.

قال: وأخوهم عثمان، له عقب ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس تلميذ مسلمة المجريطي.

وهو أبو مسلم عمر بن محمد بن بقي بن عبد اللّه بن بكر بن خالد بن عثمان بن خالد بن عثمان بن خلدون الداخل.

وابن عمه أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه.

قال: ولم يبق من ولد كريب الرئيس المذكور إلا أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبد اللّه بن كريب انتهى، كلام ابن حزم.

سلفه بالأندلس، ولما دخل خلدون بن عثمان جدنا إلى الأندلس، نزل بقرمونة في رهط من قومه حضرموت، ونشأ بيت بنيه بها، ثم انتقلوا إلى إشبيلية.

وكانوا في جند اليمن، وكان لكريب من عقبه وأخيه خالد الثورة المعروفة بإشبيلية أيام الأمير عبد اللّه المرواني، ثار على ابن أبي عبدة وملكها من يده أعواماً.

ثم ثار عليه إبراهيم بن حجاج بإملاء الأمير عبد اللّه وقتله، وذلك في أواخر المائة الثالثة.

وتلخيص الخبر عن ثورته ما نقله ابن سعيد عن الحجاري وابن حيان وغيرهما، وينقلونه عن ابن الأشعث مؤرخ إشبيلية أن الأندلس لما اضطربت بالفتن أيام الأمير عبد اللّه، تطاول رؤساء إشبيلية إلى الثورة والاستبداد، وكان رؤساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت: بيت بني أبي عبدة ورئيسهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبي عبدة، وكان عبد الرحمن الداخل ولى أبا عبيدة إشبيلية وأعمالها، وكان حافده أمية من أعلام الدولة بقرطبة، ويولونه الممالك الضخمة.

وبيت بني خلدون هؤلاء ورئيسهم كريب المذكور، ويردفه خالد أخوه.

قال ابن حيان: وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية، نهاية في النباهة، ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية.

ثم بيت بني حجاج ورئيسهم يومئذ عبد اللّه.

قال ابن حيان: هم يعني - بني حجاج - من لخم وبيتهم إلى الآن في إشبيلية ثابت الأصل نابت الفرع موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية.

فلما عظمت الفتنة بالأندلس أعوام الثمانين والمائتين، وكان الأمير عبد اللّه قد ولى على إشبيلية أمية بن عبد الغافر، وبعث معه ابنه محمداً وجعله في كفالته، فاجتمع هؤلاء النفر وثاروا بمحمد بن الأمير عبد اللّه، وبأمية صاحبهم، وهو يمالئهم على ذلك، ويكيد بابن الأمير عبد اللّه.

وحاصروهما في القصر حتى طلب منهم اللحاق بأبيه فأخرجوه، واستبد أمية بإشبيلية، ودس على عبد اللّه بن حجاج من قتله، وأقام أخاه إبراهيم مكانه.

وضبط إشبيلية واسترهن أولاد بني خلدون وبني حجاج ثم ثاروا به، وهمَّ بقتل أبنائهم فراجعوا طاعته، وحلفوا له، فأطلق أبناءهم فانتقضوا ثانية، وحاربوه فاستمات وقتل حرمه وعقر خيوله، وأحرق موجوده.

وقاتلهم حتى قتلوه مقبلاً غير مدبر، وعاثت العامة في رأسه.

وكتبوا إلى الأمير عبد اللّه بأنه خلع فقتلوه، فقبل منهم مداراة، وبعث عليهم هشام بن عبد الرحمن من قرابته، فاستبدوا عليه وفتكوا بابنه، وتولى كبر ذلك كريب بن خلدون، واستقل بإمارتها.

وكان إبراهيم بن حجاج بعدما قتل أخوه عبد اللّه - على ما ذكره ابن سعيد عن الحجاري - سمت نفسه إلى التفرد، فظاهر ابن حفصون أعظم ثوار الأندلس يومئذ، وكان بمالقة وأعمالها إلى رندة، فكان له منه ردء.

ثم انصرف إلى مداراة كريب بن خلدون وملابسته، فردفه في أمره، وشركه في سلطانه، وكان في كريب تحامل على الرعية وتعصب، فكان يتجهم لهم ويغلظ عليهم، وابن حجاج يسلك بهم الرفق والتلطف في الشفاعة لهم عنده، فانحرفوا عن كريب إلى إبراهيم.

ثم دس إلى الأمير عبد اللّه يطلب منه الكتاب بولاية إشبيلية، لتسكن إليه العامة، فكتب إليه العهد بذلك، وأطلع عليه عرفاء البلد مع ما أشربوا من حبه، والنفرة عن كريب، ثم أجمع الثورة.

وهاجت العامة بكريب فقتلوه، وبعث برأسه إلى الأمير عبد اللّه، واستقر بإمارة إشبيلية.

قال ابن حيان: وحصن مدينة قرمونة من أعظم معاقل الأندلس، وجعلها مرتبطاً لخيوله، وكان يتنقل بينها وبين إشبيلية، واتخذ الجند ورتبهم طبقات، وكان يصانع الأمير عبد اللّه بالأموال والهدايا، ويبعث إليه المدد في الصوائف.

وكان مقصوداً ممدحاً، قصده أهل البيوتات فوصلهم، ومدحه الشعراء فأجازهم وانتجعه ومدحه أبو عمر بن عبد ربه صاحب « العقد » وقصده من بين سائر الثوار فعرف حقه وأعظم جائزته.

ولم يزل بيت بني خلدون بإشبيلية - كما ذكره ابن حيان وابن حزم وغيرهما - سائر أيام بني أمية إلى أزمان الطوائف - وانمحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة.

ولما علا كعب ابن عباد بإشبيلية، واستبد على أهلها استوزر من بني خلدون هؤلاء واستعملهم في رتب دولته، وحضروا معه وقعة الزلاقة كانت لابن عباد وليوسف بن تاشفين على ملك الجلالقة، فاستشهد فيهما طائفة كبيرة من بني خلدون هؤلاء ثبتوا في الجولة مع ابن عباد فاستلحموا في ذلك الموقف، ثم كان الظهور للمسلمين، ونصرهم اللّه على عدوهم.

ثم تغلب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس، واضمحلت دولة العرب وفنيت قبائلهم.

سلفه بإفريقية: ولما استولى الموحدون على الأندلس وملكوها من يد المرابطين، وكان ملوكهم: عبد المؤمن وبنيه، وكان الشيخ أبو حفص كبير هنتاتة زعيم دولتهم، وولوه على إشبيلية وغرب الأندلس مراراً، ثم ولوا ابنه عبد الواحد عليها في بعض أيامهم، ثم ابنه أبا زكريا كذلك، فكان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم، وأهدى بعض أجدادنا من قبل الأمهات، ويعرف بابن المحتسب للأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص أيام ولايته عليهم، جارية من سبي الجلالقة، اتخذها أم ولد، وكان له منها ابنه أبو يحيى زكريا ولي عهده الهالك في أيامه، وأخواه عمر وأبو بكر، وكانت تلقب أم الخلفاء.

ثم انتقل الأمير أبو زكريا إلى ولاية إفريقية سنة عشرين وستمائة، ودعا لنفسه بها وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنة خمس وعشرين وستمائة واستبد بإفريقية، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلس، وثار عليهم ابن هود.

ثم هلك واضطربت الأندلس وتكالب الطاغية عليها، وردد الغزو إلى الفرنتيرة بسيط قرطبة وإشبيلية إلى جيان.

وثار ابن الأحمر بغرب الأندلس من حصن أرجونة يرجو

التماسك لما بقي من رمق الأندلس، وفاوض أهل الشورى يومئذ بإشبيلية، وهم بنو الباجي، وبنو الجد، وبنو الوزير، وبنو سيد الناس، وبنو خلدون.

وداخلهم في الثورة على ابن هود، وأن يتجافوا للطاغية عن الفرنتيرة، ويتمسكوا بالجبال الساحلية وأمصارها المتوعرة، من مالقة إلى غرناطة إلى المرية، فلم يوافقوه على بلدهم.

وكان مقدمهم أبو مروان الباجي، فنابذهم ابن الأحمر وخلع طاعة الباجي وبايع مرة لابن هود ومرة لصاحب مراكش من بني عبد المؤمن، ومرة للأمير أبي زكريا صاحب إفريقية.

ونزل غرناطة واتخذها دار لملكه، وبقيت الفرنتيرة وأمصارها ضاحية من ظل الملك، فخشي بنو خلدون سوء العاقبة مع الطاغية، وارتحلوا من إشبيلية إلى العدوة، ونزلوا سبتة، وأجلب الطاغية على تلك الثغور فملك قرطبة وإشبيلية وقرمونة وجيان وما إليها في مدة عشرين سنة.

ولما نزل بنو خلدون بسبتة أصهر إليهم العزفي بأبنائه وبناته، فاختلط بهم، وكان له معهم صهر مذكور.

وكان جدنا الحسن بن محمد، وهو سبط ابن المحتسب قد أجاز فيمن أجاز معهم، فذكر سوابق سلفه عند الأمير أبي زكريا، فقصده، وقدم عليه فأكرم قدومه، وارتحل إلى المشرق فقضى فرضه.

ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكريا على بونة، فأكرمه واستقر في ظل دولته ومرعى نعمته، وفرض له الأرزاق وأقطع الأقطاع.

وهلك هنالك فدفن ببونة وخلف ابنه محمداً أبا بكر؛ فنشأ في جوّ تلك النعمة ومرعاها. وهلك الأمير أبو زكرياء ببونة سنة سبع وأربعين وستمائة وولي ابنه المستنصر محمد، فأجرى جدنا أبا بكر على ما كان لأبيه.

ثم ضرب الدهر ضرباته، وهلك المستنصر سنه خمس وسبعين وستمائة، وولي ابنه يحيى، وجاء أخوه الأمير أبو إسحاق من الأندلس بعد أن كان فر أمام أخيه المستنصر، فخلع يحيى، واستقل هو بملك إفريقية، ودفع جدنا أبا بكر محمداً الى عمل الأشغال في الدولة على سنن عظماء الموحدين فيها قبله، من الانفراد بولاية العمال وعزلهم وحسبانهم على الجباية، فاضطلع بتلك الرتبة.

ثم عقد السلطان أبو إسحاق لابنه محمد، وهو جدنا الأقرب على حجابة ولي عهده ابنه أبي فارس أيام أقصاه إلى بجاية.

ثم استعفى جدنا من ذلك فأعفاه ورجع إلى الحضرة، ولما غلب الدعي ابن أبي عمارة على ملكهم بتونس، اعتقل جدنا أبا بكر محمداً، وصادره على الأموال ثم قتله خنقاً في محبسه.

وذهب ابنه محمد جدنا الأقرب مع السلطان أبي إسحاق وأبنائه إلى بجاية فتقبض عليه ابنه أبو فارس، وخرج مع العساكر هو وإخوته لمدافعة الدعي ابن أبي عمارة، وهو يشبه بالفضل بن المخلوع حتى إذا استلحموا بمرماجنة خلص جدنا محمد مع أبي حفص- ابن الأمير أبي زكريا من الملحمة، ومعهما الفازازي وأبو الحسين بن سيد الناس فلحقوا بمنجاتهم من قلعة سنان.

وكان الفازازي من صنائع المولى أبي حفص، وكان يؤثره عليهم.

فأما أبو الحسين بن سيد الناس، فاستنكف من إيثار الفازازي عليه، بما كان أعلى رتبة منه ببلده إشبيلية، ولحق بالمولى أبي زكريا الأوسط بتلمسان، وكان من شأنه ما ذكرناه.

وأما محمد بن خلدون فأقام مع الأمير أبي حفص وسكن لإيثار الفازازي.

ولما استولى أبو حفص على الأمور رعى له سابقته وأقطعه، ونظمه في جملة القواد ومراتب أهل الحروب، واستكفى به في الكثير من أمر ملكه، ورشحه لحجابته من بعد الفازازي، وهلك فكان من بعده حافد أخيه المستنصر أبو عصيدة، واصطفى لحجابته محمد بن إبراهيم الدباغ كاتب الفازازي وجعل محمد بن خلدون رديفاً في حجابته.

فكان كذلك إلى أن هلك السلطان، وجاءت دولة الأمير خالد، فأبقاه على حاله من التجلة والكرامة، ولم يستعمله ولا عقد له، إلى أن كانت دولة أبي يحيى بن اللحياني فاصطنعه، واستكفى به عندما نبضت عروق التغلب للعرب، ودفعه إلى حماية الجزيرة من دلاج أحد بطون سليم الموطنين بنواحيها، فكانت له في ذلك آثار مذكورة.

ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج إلى المشرق وقضى فرضه سنة ثمان عشرة وأظهر التوبة والإقلاع، وعاود الحج متنفلاً سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ولزم كسر بيته.

وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمته في كثير مما كان بيده من الأقطاع والجراية، ودعاه إلى حجابته مراراً فامتنع.

أخبرني محمد بن منصور بن مزني قال: لما هلك الحاجب محمد بن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزوار سنة سبع وعشرين وسبعمائة، استدعى السلطان جدك محمد بن خلدون وأراده على

الحجابة، وأن يفوض إليه في أمره، فأبى واستعفى فأعفاه ووامره فيمن يوليه حجابته، فأشار عليه بصاحب الثغر: بجاية محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لاستحقاقه ذلك بكفايته واضطلاعه، ولقديم صحابة بين سلفهما بتونس،، وبإشبيلية من قبل.

وقال له: هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والذوين فعمل السلطان على إشارته واستدعى ابن سيد الناس وولاه حجابته.

وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تونس يستعمل جدنا محمداً عليها وثوقاً بنظره واستنامة إليه إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ونزع ابنه، وهو والدي محمد أبو بكر عن طريقة السيف والخدمة إلى طريقة العلم والرباط، لما نشأ عليه في حجر أبي عبد الله الزبيدي الشهير بالفقيه، كان كبير تونس لعهده في العلم والفتيا، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمه حسن، الوليين الشهيرين.

وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه، وألزمه ابنه وهو والدي رحمه الله فقرأ وتفقه، وكان مقدماً في صناعة العربية، وله بصر بالشعر وفنونه، عهدي بأهل الأدب يتحاكمون إليه فيه، ويعرضون حوكهم عليه، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

نشأته ومشيخته وحاله

أما نشأتي: فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال، الأنصاري، أصله من جالية الأندلس من أعمال بلنسية، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها، وكان إماماً في القراءات لا يلحق شأوه، وكان من أشهر شيوخه في القراءات السبع أبو العباس أحمد بن محمد البطرني، ومشيخته فيها، وأسانيده معروفة وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي،قرأته عليه بالقراآت السبع المشهورة إفراداً وجمعاً في إحدى وعشرين ختمة، ثم جمعتها في ختمة واحدة أخرى ثم قرأت برواية يعقوب ختمة واحدة جمعاً بين الروايتين عنه، وعرضت عليه رحمه الله قصيدتي الشاطبي اللامية في القراءات والرائية في الرسم وأخبرني بهما عن الأستاذ أبي العباس البطرني وغيره من شيوخه، وعرضت عليه كتاب « التقصي لأحاديث الموطأ » لابن عبد البر حذا به حذو كتابه « التمهيد على الموطأ » مقتصراً على الأحاديث فقط.

ودرست عليه كتباً جمة مثل كتاب « التسهيل » لابن مالك، و « مختصر ابن الحاجب » في الفقه ولم أكملهما بالحفظ، وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي وعلى أستاذي تونس: منهم الشيخ أبو عبد الله بن العربي الحصايري، وكان إماماً في النحو وله شرح مستوفى على كتاب التسهيل.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي.

ومنهم أبو العباس أحمد بن القصار، كان ممتعاً في صناعة النحو، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الجناب النبوي وهو حي لهذا العهد بتونس.

ومنهم إمام العربية والأدب بتونس أبو عبد الله محمد بن بحر، لازمت مجلسه وأفدت عليه، وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان.

وأشار علي بحفظ الشعر فحفظت كتب الأشعار الستة، والحماسة للأعلم وشعر حبيب وطائفة من شعر المتنبي، ومن أشعار كتاب الأغاني.

ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدثين بتونس، شمس الدين أبي عبد الله بن جابر بن سلطان القيسي الوادياشي صاحب الرحلتين، وسمعت عليه كتاب مسلم بن الحجاج إلا فوتاً يسيراً من كتاب الصيد، وسمعت عليه كتاب الموطأ من أوله إلى آخره، وبعضا من الأمهات الخمس، وناولني كتباً كثيرة في العربية والفقه وأجازني إجازة عامة، وأخبرني عن مشايخه المذكورين في برنامجه أشهرهم بتونس قاضي الجماعة أبو العباس أحمد بن الغماز الخزرجي.

وأخذت الفقه بتونس عن جماعة، منهم أبو عبد الله بن عبد الله الجياني، وأبو القاسم محمد القصير، وقرأت عليه كتاب « التهذيب » لأبي سعيد البرادعي، مختصر المدونة، وكتاب المالكية، وتفقهت عليه.

وكنت في خلال ذلك أنتاب مجلس شيخنا الإمام قاضي الجماعة أبي عبد الله بن عبد السلام مع أخي محمد رحمة الله عليهما، وأفدت منه وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك، وكانت له فيه طرق عالية عن أبي محمد بن هارون الطائي قبل اختلاطه - إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس، وكلهم في الطاعون الجارف.

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن عندما ملك إفريقية سنة ثمان وأربعين جماعة من أهل العلم كان يلزمهم شهود مجلسه، ويتجمل بمكانهم فيه، فمنهم شيخ الفتيا بالمغرب

وإمام مذهب مالك أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي، فكنت أنتاب مجلسه وافدت عليه.

ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته التي توضع أسافل مكتوباته، إمام المحدثين والنحاة بالمغرب أبو محمد عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضرمي، لازمته وأخذت عنه سماعا وإجازة، الأمهات الست.

وكتاب الموطأ، والسير لابن إسحاق، وكتاب ابن الصلاح في الحديث، وكتباً كثيرة شذت عن حفظي.

وكانت بضاعته في الحديث وافرة، ونحلته في التقييد والحفظ كاملة، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر في الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول وسائر الفنون، مضبوطة كلها مقابلة، ولا يخلو ديوان منها عن ضبط بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده إلى مؤلفه، حتى الفقه والعربية الغريبة الإسناد إلى مؤلفيها في هذه العصور.

ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب.

قرأت عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السبع، من طريق أبي عمرو الداني وابن شريح في ختمه ولم أكملها، وسمعت عليه عدة كتب، وأجازني بالإجازة العامة.

ومنهم شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي أصله من تلمسان، وبها نشأ، وقرأ كتب التعاليم وحذق فيها، وأظله الحصار الكبير بتلمسان أعوام المائة السابعة، فخرج منها وحج ولقي أعلام المشرق يومئذ، فلم يأخذ عنهم لأنه كان مختلطا بعارض عرض في عقله.

ثم رجع من المشرق وأفاق وقرأ المنطق والأصلين على الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام، وكان قرأ بتونس مع أخيه أبي زيد عبد الرحمن على تلاميذ ابن زيتون الشهير الذكر وجاء إلى تلمسان بعلم كثير من المنقول والمعقول، فقرأ الآبلي على أبي موسى منهما كما قلناه، ثم خرج من تلمسان هارباً إلى المغرب لأن سلطانها يومئذ ابو حمو من ولد يغمراسن بن زيان، كان يكرهه على التصرف في أعماله، وضبط الجباية بحسبانه، ففر إلى المغرب، ولحق بمراكش، ولازم العالم الشهير أبا العباس بن البناء الشهير الذكر، فحصل عنه سائر العلوم العقلية، وورث مقامه فيها وأرفع، ثم صعد إلى جبال الهساكرة بعد وفاة الشيخ باستدعاء علي بن محمد بن تروميت ليقرأ عليه، فأفاده وبعد أعوام استنزله ملك المغرب، السلطان أبو سعيد، وأسكنه بالبلد الجديد والآبلي معه.

ثم اختصه السلطان أبو الحسن ونظمه في جملة العلماء بمجلسه، وهو في خلال ذلك يعلم العلوم العقلية، ويبثها بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصارها، وألحق الأصاغر بالأكابر في تعليمه.

ولما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن، لزمته، وأخذت عنه الأصلين، والمنطق، وسائر الفنون الحكمية، والتعليمية، وكان رحمه الله يشهد لي بالتبريز في ذلك.

وممن قدم في جملة السلطان أبي الحسن، صاحبنا أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي، كان يكتب عن السلطان ويلازم خدمة أبي محمد عبد المهيمن رئيس الكتاب يومئذ، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات، وبعضها يضعه السلطان بخطه.

وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب في براعة خطه، وكثرة علمه، وحسن سمته، وإجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسيل عن السلطان، وحوك الشعر والخطابة على المنابر، لأنه كان كثيراً ما يصلي بالسلطان.

فلما قدم علينا بتونس صحبته، واغتبطت به، وإن لم أتخذه شيخاً، لمقاربة السن، فقد أفدت منه كما أفدت منهم.

وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الرحوي شاعر تونس في قصيدة على روي النون يرغب منه تذكرة شيخه أبي محمد عبد المهيمن في إيصال مدحه للسلطان أبي الحسن في قصيدته على روي الباء، وقد تقدم ذكرها في أخبار السلطان.

وذكر في مدح ابن رضوان أعلام العلماء القادمين مع السلطان وهي هذه:

عرفت زماني حين أنكرت عرفاني ... وايقنت أن لا حظ في كف كيوان

وأن لا اختيار في اختيار مقوم ... وأن لا قراع بالقران لأقران

وأن نظام الشكل أكمل نظمه ... لأضعف قاضٍ في الدليل برجحان

وأن افتقار المرء من فقراته ... ومن ثقله يغني اللبيب بأوزان

فمن بعد ما شمت الخلاب ولم أرغ ... لمثنة راضٍ أو لشرة غضبان

ولم يعشني للنار لمع شعاعها ... فما كان نار نار موسى بن عمران

ولم يبق لي في الغيب من أملٍ سوى ... لقاء ابن رضوان وجنّة رضوان

هنالك الفيت العلا تنتمي إلى ... أُناس ضئيلٌ عندهم فخر غسّان

وأُرعيت من روض التأدب يانعاً ... وحيّيت من كنز العلوم بقيعان

وردت فلم تجدب لديه ريادتي ... وصدّق طرفي ما تلقته آذاني

فحسبك من آدابه كلُّ زاجر ... يحيّيك معسولاً بدرٍ ومرجان

يحيّيك بالسّلك الذي لم تحط به ... طروس ابن سهل أو سوالف بوران

فقل ببابليّ إن ينافثك لفظةً | وفي وشيه الأطراس قل هو صنعاني
خلائق لم تخلق سدىً بل تكمَّلت | بإسداء إنعام وإبلاء إحسان

ثم يقول في ذكر العلماء القادمين:

هم القوم كل القوم أما حلومهم | فأرسخ من طودي ثبير وثهلان
فلا طيش يعروهم وأما علومهم | وقد ظفرت منه بوصل وقربان
بفقه يشيم الأصبحي صباحة | وأشهب منه يستدلُّ بشهبان
وحسن جدال للخصوم ومنطق | يجيئان في الأخفى بأوضح برهان
سقت روضة الآداب منهم سحائبٌ | سحبن على سحبان أذيال نسيان
فلم يبق نأي ابن الإمام شماخةً | على مدن الدُّنيا لأنف تلمسان
وبعد نوى السطي لم تسط فاسه | بفخر على بغداد في عصر بغدان
وبالأبليِّ استسقت الأرض وبلها | ومستوبل ما مال عنه لأظعان
وهامت على عبد المهيمن تونس | وقد ظفرت منه بوصل وقربان
وما علقت مني الضمائر غيره | وإن هويت كلا بحب ابن رضوان

وكتب هذا الشاعر: صاحبنا الرحوي يذكر عبد المهيمن بذلك.

لهي النفس في اكتساب وسعي | وهو العمر في انتهاب وفي
وأرى الناس بين ساع لرشد | يتوخى الهدى وساع لغي
وأرى العلم للبرية زينا | فتزي منه بأحسن زي
وأرى الفضل قد تجمع كلا | في ابن عبد المهيمن الحضرمي
حل بالرتبة العلية في حضرة | ملك سامي العماد عليّ
قلمٌ أوسع الأقاليم أمراً | فله قد أطاع كلّ عصيّ
قدرٌ ما يفيد منه احتذارٌ | فبأي تراه يقضي بأي
يمنح العزّ والعلا ويوالي | بالعطايا الجسام كلَّ وليٍّ
يلجأ الذّارعون خوفاً إليه | فهو يزري بالصّارم المشرفيّ
هو أعلى الأقلام في كل عصر | حيث ينمى إلى الإمام علي
حليت تكلم الرياسة منه | بفريد في كل معنى سنيّ
سالك ففي النظام دراً وطوراً | ناثر درّه بنشر وطيّ
بدعٌ للبديع ترمي بحصر | ولصابي بني بويه بعيّ
ويرى أخرس العراق لديه | إنه بالشام كالأعجمي
وعلوم هي البحور ولكن | ينثني الواردون منها بري
تصدر الأمة العظيمة عنه | بحديث مجوّد مرويّ
وبفقه فيه وحسن مقال | يضع النور في لحاظ العميّ
وبنحو ينحي على سيبويه | ببيان في المبهمات جليّ
عمي الأخفشان عنه وسدّت | عن خفاياه فطنةُ الفارسيّ
يا أخا الحكم في الأنام وإني | لأنادي ربّ الندى والندى
بنت فكري تعرّضت لحماكم | فالقها راضياً بوجه رضيّ
تبتغي القرب من مراقي الأماني | والترقي للجانب العلوي
فأنلها مرامها نلت ستهلا | كل دان تبغي وكل قصي

ثم كانت واقعة العرب على السلطان بالقيروان في فاتحة تسع وأربعين وسبعمائة فشغلوا عن ذلك ولم يظفر هذا الرحوي بطلبته.

ثم جاء الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه، وهلك عبد المهيمن فيمن هلك، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس، لخلة كانت بينه وبين والدي رحمه الله أيام قدومهم علينا.

فلما كانت واقعة القيروان ثار أهل تونس بمن كان عندهم من أشياع السلطان أبي الحسن، فاعتصموا بالقصبة دار الملك، حيث كان ولد السلطان وأهله، وانتقض عليه ابن تافراكين، وخرج من القيروان إلى العرب، وهم يحاصرون السلطان، وقد اجتمعوا على ابن أبي دبوس وبايعوا له كما مر في أخبار السلطان، فبعثوا ابن تافراكين إلى تونس، فحاصر القصبة وامتنعت عليه.

وكان عبد المهيمن يوم ثورة أهل تونس، ووقوع الهيعة خرج من بيته إلى دارنا فاختفى عند أبي رحمه الله، وأقام متخفياً عندنا نحواً من ثلاثة أشهر.

ثم نجا السلطان من القيروان إلى سوسة، وركب البحر إلى تونس، وفر ابن تافراكين إلى المشرق، وخرج عبد المهيمن من الاختفاء، وأعاده السلطان إلى ما كان عليه من وظيفة العلامة والكتابة وكان كثيراً ما يخاطب والدي رحمه الله ويشكره على موالاته، ومما كتب إليه وحفظته من خطه:

لمحمد ذوي المكارم قد ثناني | فعال شكره أبداً عناني
جزى الله ابن خلدون حياة | منعمة وخلداً في الجنان
فكم أولى ووالى من جميل | وبر بالفعال وباللسان
وراعى الحضرمية في الذي قد | حنا من وده ومن الحنان
أبا بكر ثناؤك طول دهري | أردد باللسان وبالجنان
وعن علياك ما امتدت حياتي | أكافح بالحسام وباللسان
فمنك أفدت خلا لست دهري | أرى عن حبه أثني عناني

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرحوي في شعره، هم سباق الحلبة في مجلس السلطان أبي الحسن، اصطفاهم لصحابته من بين أهل المغرب، فأما ابنا الإمام منهم، فكانا أخوين من أهل برشك من أعمال تلمسان، واسم أكبرهما أبو زيد عبد الرحمن، والأصغر: أبو موسى عيسى.

وكان أبوهما إماماً ببعض مساجد برشك، واتهمه المتغلب يومئذ على البلد زيرم بن حماد.

بأن عنده وديعة من المال لبعض أعدائه، فطالبه بها، فلاذ

بالامتناع، وبيته زيرم لينتزع المال من يده، فدافعه وقتل، وارتحل ابناه هذان الأخوان إلى تونس في المائة السابعة، وأخذا العلم بها عن تلاميذ ابن زيتون، وتفقها على أصحاب أبي عبد اللّه بن شعيب الدكالي، وانقلبا إلى المغرب بحظ وافر من العلم، وأقاما بالجزائر يبثان بها العلم لامتناع برشك عليهما من أجل [ضرر] زيرم المتغلب عليها، والسلطان أبو يعقوب يومئذ صاحب المغرب الأقصى من بني مرين جاثم على تلمسان يحاصرها الحصار الطويل المشهور، وقد بث بها جيوشه في نواحيها، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها، وملك عمل مغراوة بشلف، وحاضرته مليانة، بعث عليها الحسن بن بن علي أبي الطلاق من بني عسكر، وعلي بن محمد الخيري من بني ورتاجن،ومعهما - لضبط الجباية واستخلاص الأموال - الكاتب منديل بن محمد الكناني، فارتحل هذان الأخوان يومئذ من الجزائر، واختلا بمليانة، فحليا بعين منديل الكناني، فقربهما واصطفاهما، واتخذهما لتعليم ولده محمد.

ثم هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب بمكانه من حصار تلمسان سنة خمس وسبعمائة على يد خصي من خصيانه طعنه فأشواه، وهلك.

وقام بالملك بعده حافده أبو ثابت بعد أمور ذكرناها في أخباره، ووقع بينه وبين صاحب تلمسان يومئذ، أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن وأخيه أبي حمو العهد المتأكد على الإفراج عن تلمسان، ورد أعمالها عليهم، فوفى لهم بذلك وعاد إلى المغرب.

وارتحل ابن أبي الطلاق والخيري،و الكناني من مليانة راجعين إلى المغرب.

ومروا بتلمسان ومع الكناني هذان الأخوان فأوصلهما إلى أبي حمو وأثنى عليهما وعرفه بمقامهما في العلم، فاغتبط بهما أبو حمو وبنى لهما المدرسة المعروفة بهما بتلمسان، وأقاما عنده على هدي أهل العلم، وسننهم.

وهلك أبو حمو، وكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين إلى أن زحف السلطان أبو الحسن المريني إلى تلمسان، وملكها عنوة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وكانت لهما شهرة في أقطار المغرب، أثبتت لهما في نفس السلطان عقيدة صالحة، فاستدعاهما لحين دخوله، وأدنى مجلسهما واشاد بتكرمتها، ورفع محلهما على أهل طبقتهما.

وصار يجمل بهما مجلسه متى مرّا بتلمسان أو وفدا عليه في الأوقات التي يفد فيها أعيان بلدهما.

ثم استنفرهما إلى الغزو وحضرا معه واقعة طريف، وعادا إلى بلدهما وتوفي أبو زيد منهما إثر ذلك، وبقي أخوه أبو موسى متبوئاً ما شاء من ظلال تلك الكرامة.

ولما سار السلطان أبو الحسن إلى إفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كما مر في أخباره استصحب أبا موسى ابن الإمام معه مكرماً موقراً، عالي المحل، قريب المجلس منه فلما استولى على إفريقية سرحه إلى بلده، فأقام بها يسيراً وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبقي أعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة متوقلين قللها طبقاً عن طبق إلى هذا العهد.

وأما السطي، واسمه محمد بن سليمان من قبيلة سطة، من بطون أوربة بنواحي فاس، فنزل أبوه سليمان مدينة فاس ونشأ محمد بها وأخذ العلم عن الشيخ أبي الحسن الصغير إمام المالكية بالمغرب، والطائر الذكر وقاضي الجماعة بفاس، وتفقه وقرأ عليه، وكان أحفظ الناس لمذهب مالك، وأفقههم فيه.

وكان السلطان أبو الحسن لدينه وسراوته وبعد شأوه في الفضل يتشوف إلى تنويه مجلسه بالعلماء، واختار منهم جماعة لصحابته ومجالسته، كان منهم هذا الإمام محمد بن سليمان.

وقدم علينا بتونس في جملته، فشهدنا وفور فضائله، وكان في الفقه من بينها لا يجارى حفظاً وفهماً، عهدي به وأخي محمد رحمه تعالى، يقرأ عليه من كتاب التبصرة لأبي الحسن اللخمي، وهو يصححه عليه من إملائه وحفظه في مجالس عديدة، وكذا كان حاله في أكثر ما يعاني حمله من الكتب.

وحضر مع السلطان أبي الحسن واقعة القيروان وخلص معه إلى تونس، وأقام بها نحواً من سنتين، وانتقض المغرب على السلطان واستقل به ابنه أبو عنان.

ثم ركب السلطان أبو الحسن في أساطيله من تونس آخر سنة خمسين وسبعمائة ومر ببجايه فأدركه الغرق في سواحلها، فغرقت أساطيله وغرق أهله، وأكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم، وألقاه البحر ببعض الجزر هنالك حتى استنقذه منه بعض أساطيله، ونجا إلى الجزائر بعد أن تلف موجوده، وهلك الكثير من عياله وأصحابه، وكان من أمره ما مر في أخباره.

وأما الآبلي واسمه محمد بن إبراهيم فمنشؤه بتلمسان، وأصله من جالية الأندلس من أهل آبلة من بلاد الجوف منها، أجاز أبوه وعمه أحمد، فاستخدمهم يغمراسن بن زيان وولده في جندهم، وأصهر إبراهيم منهما إلى القاضي بتلمسان محمد بن غلبون في ابنته، فولدت له محمداً هذا.

ونشأ بتلمسان في كفالة جده القاضي، فنشأ له بذلك ميل

إلى انتحال العلم عن الجندية التي كانت منتحل أبيه وعمه.

فلما يفع وأدرك سبق إلى ذهنه محبة التعاليم، فبرع فيها واشتهر وعكف الناس عليه في تعلمها، وهو في سن البلوغ.

ثم أطل السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان وجثم عليها يحاصرها، وسير بعوثه إلى الأعمال، فافتتح أكثرها.

وكان إبراهيم الآبلي قائدا بهنين مرسى تلمسان في لمة من الجند، فلما ملكها يوسف بن يعقوب اعتقل من وجد بها من شيع ابن زيان واعتقل إبراهيم الآبلي فيهم، وشاع الخبر في تلمسان بأن يوسف بن يعقوب يسترهن أبناءهم ويطلقهم، فتشوف ابنه محمد إلى اللحاق به من أجل ذلك.

وأغراه أهله بالعزم عليه، فتسور الأسوار وخرج إلى أبيه فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً.

واستخدمه يوسف بن يعقوب قائداً على الجند الأندلسيين بين بتاوريرت، فكره المقام على ذلك، ونزع عن طوره، ولبس المسوح، وسار قاصداً إلى الحج.

وانتهى إلى رباط العباد مختفياً في صحبة الفقراء، فوجد هنالك رئيسا من كربلاء ثم من بني الحسين جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوتهم فيه، وكان معقلاً، فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب وشدة هيبته غلب عليه اليأس من مرامه ونزع عن ذلك، واعتزم على الرجوع إلى بلده، فسار شيخنا محمد بن إبراهيم في جملته.

قال لي رحمه الله: وبعد حين انكشف لي حاله وما جاء له، واندرجت في جملة أصحابه وتابعيه.

قال: وكان يتلقاه في كل بلد من أصحابه وأشياعه وخدمه من يأتيه بالأزواد والنفقات من بلده، إلى أن ركبنا البحر من تونس إلى الإسكندرية.

قال: واشتدت علي الغلمة في البحر واستحييت من كثرة الاغتسال لمكان هذا الرئيس، فأشار علي بعض بطانته بشرب الكافور، فاغترفت منه غرفة فشربتها فاختلطت.

وقدم الديار المصرية على تلك الحال، وبها يومئذ تقي الدين بن دقيق العيد وابن الرفعة وصفي الدين الهندي، والتبريزي وابن البديع وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول.

فلم يكن قصاراه إلا تمييز أشخاصهم إذا ذكرهم لنا، لما كان به من الاختلاط.

ثم حج مع ذلك الرئيس وسار في جملته إلى كربلاء فبعث معه من أصحابه من أوصله إلى مأمنه من بلاد زواوة من أطراف المغرب.

وقال لي شيخنا رحمه الله: كان معي دنانير كثيرة تزودتها من المغرب واستبطنتها في جبة كنت ألبسها، فلما نزل بي ما نزل انتزعها مني، حتى إذا بعث أصحابه يشيعونني إلى المغرب دفعها إليهم، حتى إذا أوصلوني إلى المأمن أعطوني إياها، وأشهدوا علي بها في كتاب حملوه معهم إليه كما أمرهم.

ثم قارن وصول شيخنا إلى المغرب مهلك يوسف بن يعقوب وخلاص أهل تلمسان من الحصار، فعاد إلى تلمسان وقد أفاق من اختلاطه، وانبعثت همته إلى تعلم العلم.

وكان مائلاً إلى العقليات فقرأ المنطق على أبي موسى ابن الإمام، وجملة من الأصلين، وكان أبو حمو صاحب تلمسان يومئذ قد استفحل ملكه، وكان ضابطاً لأموره، وبلغه عن شيخنا تقدمه في علم الحساب، فدفعه إلى ضبط أمواله ومشارفة عماله.

وتفادى شيخنا من ذلك فأكرهه عليه، فأعمل الحيلة في الفرار منه، ولحق بفاس أيام السلطان أبي الربيع، وبعث فيه أبو حمو، فاختفى بفاس عند شيخ التعاليم من اليهود خلوف المغيلي، فاستوفى عليه فنونها، وحذق وخرج متوارياً من فاس، فلحق بمراكش أعوام العشر والسبع مائة.

ونزل على الإمام أبي العباس بن البناء شيخ المعقول والمنقول، والمبرز في التصوف علماً وحالاً، فلزمه، وأخذ عنه وتضلع من علم المعقول والتعاليم والحكمة.

ثم استدعاه شيخ الهساكرة علي بن محمد بن ترومیت ليقرأ عليه، وكان ممرضاً في طاعته للسلطان، فصعد إليه شيخنا وأقام عنده مدة، قرأ عليه فيها وحصل.

واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ، فكثرت إفادته، واستفادته، وعلي بن محمد في ذلك على محبته وتعظيمه، وامتثال إشارته، فغلب على هواه، وعظمت رياسته في تلك القبائل.

ولما استنزل السلطان أبو سعيد علي بن ترومیت من جبله، نزل الشيخ معه، وسكن بفاس.

وانثال عليه طلبة العلم من كل ناحية، فانتشر علمه، واشتهر ذكره، فلما فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقي أبا موسى ابن الإمام، ذكره له بأطيب الذكر، ووصفه بالتقدم في العلوم، وكان السلطان معنياً بجمع العلماء لمجلسه كما ذكرنا.

فاستدعاه من مكانه بفاس ونظمه في طبقة العلماء بمجلسه،

وعكف على التدريس والتعليم، ولازم صحابة السلطان، وحضر معه واقعة طريف، وواقعة القيروان بإفريقية.

وكانت قد حصلت بينه وبين والدي رحمه اللّه صحابه، كنت وسيلتي إليه في القراءة عليه، فلزمت مجلسه وأخذت عنه وافتتحت العلوم العقلية بالتعاليم، ثم قرأت المنطق وما بعده من الأصلين، وعلوم الحكمة.

وعرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من تونس إلى المغرب.

وكان الشيخ في نزلنا وكفالتنا، فأشرنا عليه بالمقام وثبطناه عن السفر، فقبل وأقام، وطالبنا به السلطان أبو الحسن فأحسنا له العذر، فتجافى عنه.

وكان من حديث غرقه في البحر ما قدمناه.

وأقام الشيخ بتونس، ونحن وأهل بلدنا جميعاً نتساجل هتنانة وفرغ ابنه أبو عنان من شواغله، وملك تلمسان من بني عبد الواد، كتب فيه يطلبه من صاحب تونس وسلطانها يومئذ أبو إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي يحيى في كفالة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين، فأسلمه إلى سفيره، وركب معه البحر في أسطول السلطان الذي جاء فيه السفير، ومر ببجاية ودخلها، وأقام بها شهراً، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه برغبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول.

ثم ارتحل ونزل بمرسى هنين وقدم على السلطان بتلمسان، وأحله محل التكرمة، ونظمه في طبقة أشياخه من العلماء، وكان يقرأ عليه ويأخذ عنه إلى أن هلك بفاس سنة سبع وخمسين وسبعمائة.

وأخبرني رحمه اللّه أن مولده بتلمسان سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وأما (عبد المهيمن) كاتب السلطان أبي الحسن، فأصله من سبتة، وبيتهم بها قديم، ويعرفون ببني عبد المهيمن وكان أبوه محمد قاضيها أيام بني العزفي.

ونشأ ابنه عبد المهيمن في كفالته وأخذ عن مشيختها واختص بالأستاذ أبي إسحاق الغافقي، ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد صاحب الأندلس سبتة، ونقل بني العزفي مع جملة أعيانها إلى غرناطة، ونقل معهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه عبد المهيمن، فاستكمل قراءة العلم هنالك وأخذ عن أبي جعفر مشيختها ابن الزبير ونظرائه، وتقدم في معرفة كتاب سيبويه، وبرز في علو الإسناد، وكثرة المشيخة.

فكتب له أهل المغرب والأندلس والمشرق، واستكتبه رئيس الأندلس يومئذ الوزير أبو عبد اللّه بن الحكيم الرندي، المستبد على السلطان المخلوع من بني الأحمر فكتب عنه ونظمه في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه، مثل المحدث الرحالة أبي عبد اللّه بن رشيد الفهري وأبي العباس أحمد بن العزفي، والعالم الصوفي المتجرد أبي عبد اللّه محمد بن خميس التلمساني، وكانا لا يجاريان في البلاغة والشعر - إلى غير هؤلاء ممن كان مختصاً به، وقد ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة.

فلما نكب الوزير ابن الحكيم، وعادت سبتة إلى طاعة بني مرين، عاد عبد المهيمن إليها واستقر بها.

ثم ولي الأمر أبو سعيد وغلب عليه ابنه أبو علي، واستبد بحمل الدولة، تشوف إلى استدعاء الفضلاء، وتجمل الدولة بمكانه، فاستقدم عبد المهيمن من سبتة واستكتبه سنة اثني عشرة وسبعمائة.

ثم خالف على أبيه سنة أربع عشرة وسبعمائة، وامتنع بالبلد الجديد، وخرج منها إلى سجلماسة بصلح عقده مع أبيه، فتمسك السلطان أبو سعيد بعبد المهيمن واتخذه كاتباً إلى أن دفعه إلى رياسة الكتاب، ورسم علامته في الرسائل والأوامر، فتقدم لذلك سنة ثمان عشرة وسبعمائة، ولم يزل عليها سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن.

وسار مع أبي الحسن إلى إفريقية، وتخلف عن واقعة القيروان بتونس، لما كان به علة النقرس، فلما كانت الهيعة بتونس، ووصل خبر الواقعة، وتحيز أشياع السلطان إلى القصبة مع حرمه، تسرب عبد المهيمن في المدينة منتبذاً عنهم، وتوارى في بيتنا خشية أن يصاب معهم بمكروه.

فلما انجلت تلك الغيابة، وخرج السلطان من القيروان إلى سوسة وركب منها البحر إلى تونس، أعرض عن عبد المهيمن لما سخط غيبته عن قومه بالقصبة، وجعل العلامة لأبي الفضل ابن الرئيس عبد اللّه بن أبي مدين وقد كانت مقصورة من قبل على هذا البيت، وأقام عبد المهيمن عطلاً من العمل مدة أشهر.

ثم اعتبه السلطان ورضي عنه، وأعاد إليه العلامة كما كان، وهلك لأيام قلائل بتونس بالطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة ومولده سنة خمس وسبعين وستمائة من المائة قبلها، وقد استوعب ابن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة، فليطالعه هناك من أحب الوقوف عليه.

وأما ابن رضوان الذي ذكره الرحوي في قصيدته، فهو أبو القاسم عبد اللّه بن يوسف بن رضوان النجاري أصله من

الأندلس، نشأ بمالقة، وأخذ عن مشيختها، وحذق في العربية والأدب، وتفنن في العلوم ونظم ونثر، وكان مجيداً في الترسيل، ومحسناً في كتابة الوثائق.

وارتحل بعد واقعة طريف ونزل بسبتة، ولقي بها السلطان أبا الحسن ومدحه وأجازه، واختص بالقاضي إبراهيم بن أبي يحيى، وهو يومئذ قاضي العساكر وخطيب السلطان، وكان يستنيبه في القضاء والخطابة، ثم نظمه في حلبة الكتاب بباب السلطان.

واختص بخدمة عبد المهيمن رئيس الكتاب والأخذ عنه، إلى أن رحل السلطان إلى إفريقية، وكانت واقعة القيروان، وانحصر بقصبة تونس من انحصر بها من أشياعه مع أهله وحرمه.

وكان السلطان قد خلف ابن رضوان هذا بتونس في بعض خدمه، فجلى عند الحصار فيما عرض لهم من المكاتبات، وتولى كبر ذلك، فقام فيه أحسن قيام إلى أن وصل السلطان من القيروان، فرعى له حق خدمته تأنيساً وقرباً، وكثرة استعمال إلى أن ارتحل من تونس في الأسطول إلى المغرب سنة خمسين وسبعمائة كما مر.

واستخلف بتونس ابنه أبا الفضل، وخلف أبا القاسم بن رضوان كاتباً له، وأقام كذلك أياماً.

ثم غلبهم على تونس سلطان الموحدين الفضل ابن السلطان أبي يحيى.

ونجا أبو الفضل إلى أبيه، ولم يطق ابن رضوان الرحلة معه، فأقام بتونس حولاً، ثم ركب البحر إلى الأندلس، وأقام بالمرية مع جملة من هنالك من أشياع السلطان أبي الحسن، كان فيهم عامر بن محمد بن علي شيخ هنتاتة كافلاً لحرم السلطان أبي الحسن وابنه.

أركبهم السفين معه من تونس عندما ارتحل، فخلصوا إلى الأندلس، ونزلوا بالمرية وأقاموا بها تحت جراية سلطان الأندلس، فلحق بهم ابن رضوان وأقام معهم.

ودعاه أبو الحجاج سلطان الأندلس إلى أن يستكتبه فامتنع، ثم هلك السلطان أبو الحسن وارتحل مخلفه الذين كانوا بالمرية، ووفدوا على السلطان أبي عنان، ووفد معهم ابن رضوان، فرعى له وسائله في خدمة أبيه، واستكتبه واختصه بشهود مجلسه مع طلبة العلم بحضرته.

وكان محمد بن أبي عمرو يومئذ رئيس الدولة، ونجي الخلوة وصاحب العلامة، وحسبان الجباية والعساكر، قد غلب على هوى السلطان، واختص به، فاستخدم له ابن رضوان حتى علق منه بذمه، ولاية وصحبة وانتظام في السمر، وغشيان المجالس الخاصة، وهو من ذلك يدنيه من السلطان، وينفق سوقه عنده، ويستكفي به في مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهم، فحلي بعين السلطان ونفقت عنده فضائله.

فلما سار ابن أبي عمرو في العساكر إلى بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة انفرد ابن رضوان بقلم الكتاب عن السلطان، ثم رجع ابن أبي عمرو وقد سخطه السلطان، فأقصاه إلى بجاية وولاه عليها، وعلى سائر أعمالها، وعلى حرب الموحدين بقسنطينة.

وأفرد ابن رضوان بالكتابة، وجعل إليه العلامة كما كانت لابن أبي عمرو، فاستقل بها موفر الأقطاع والأسهام والجاه.

ثم سخطه آخر سبع وخمسين وسبعمائة وجعل العلامة لمحمد بن أبي القاسم بن أبي مدين والإنشاء والتوقيع لأبي إسحاق إبراهيم بن الحاج الغرناطي، فلما كانت دولة السلطان أبي سالم جعل العلامة لعلي بن محمد بن مسعود صاحب ديوان العساكر والإنشاء والتوقيع والسر لمؤلف الكتاب عبد الرحمن بن خلدون.

ثم هلك أبو سالم سنة اثنتين وستين وسبعمائة واستبد الوزير عمر بن عبد الله على من كفله من أبنائهم، فجعل العلامة لابن رضوان سائر أيامه، وقتله عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، واستبد بملكه، فلم يزل ابن رضوان على العلامة، وهلك عبد العزيز وولي ابنه السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس وابن رضوان على حاله، ثم غلب السلطان أحمد على الملك وانتزعه من السعيد وأبي بكر بن غازي، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس، مستبداً عليه، والعلامة لابن رضوان كما كانت إلى أن هلك بأزمور في بعض حركة السلطان أحمد إلى مراكش، لحصار عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي.

وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق، وتخطت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا ما قدر من آجالهم.

فممن حضر معه بإفريقية من العلماء، شيخنا أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي شيخ القراءات بالمغرب، أخذ العلم والعربية عن مشيخة فاس، وروى عن الرحالة أبي عبد الله بن رشيد، وكان إماماً في فن القراءات وصاحب ملكة فيها لا تجارى، وله مع ذلك صوت من مزامير آل داود وكان يصلي بالسلطان

التراويح ويقرأ عليه بعض الأحيان حزبه.

وممن حضر معه بإفريقية الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن الصباغ من أهل مكناسة، كان مبرزاً في المعقول والمنقول، وعارفاً بالحديث وبرجاله، وإماماً في معرفة كتاب الموطأ وإقرائه، أخذ العلوم عن مشيخة فاس، ولقي شيخنا أبا عبد اللّه الآبلي، ولازمه وأخذ عنه العلوم العقلية، فاستنفد بقية طلبه عليه، فبرز آخراً، واختاره السلطان لمجلسه واستدعاه، ولم يزل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول.

ومنهم القاضي أبو عبد اللّه محمد بن عبد النور من أعمال ندرومة ونسبه في صنهاجة كان مبرزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس، تفقه فيه على الأخوين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام، وكان من جلة أصحابهما.

ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان رفع من منزلة ابني الإمام واختصهما بالشورى في بلدهما.

وكان يستكثر من أهل العلم في دولته، ويجرى لهم الأرزاق ويعمر بهم مجلسه، فطلب يومئذ من ابن الإمام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجالس، فأشاروا عليه بابن عبد النور هذا، فأدناه وقرب مجلسه، وولاه قضاء عسكره، ولم يزل في جملته إلى أن هلك بالطاعون بتونس سنة تسع وأربعين وسبعمائة وكان قد خلف بتلمسان أخاه علياً رفيقه في دروس ابن الإمام إلا أنه أقصر باعاً منه في الفقه.

فلما خلع السلطان أبو عنان طاعة أبيه السلطان أبي الحسن، ونهض إلى فاس، استنفره في جملته وولاه قضاء مكناسة، فلم يزل بها حتى تغلب عمر بن عبد اللّه على الدولة كما مر، نزع إلى قضاء فرضه فسرحه.

فخرج حاجّاً سنة أربع وستين وسبعمائة فلما قدم على مكة وكان به بقية مرض، هلك في طواف القدوم.

وأوصى أمير الحاج على ابنه محمد، وأن يبلغ وصيته به للأمير المتغلب على الديار المصرية يومئذ يلبغا الخاصكي فأحسن خلافته فيه وولاه من وظائف الفقهاء ما سد به خلته، وصان عن سؤال الناس وجهه، وكان له عفا اللّه عنه كلف بعلم الكيمياء، تابعاً لمن غلط في ذلك من أمثاله.

فلم يزل يعاني من ذلك ما يورطه مع الناس في دينه وعرضه إلى أن دعته الضرورة للترحل عن مصر، ولحق ببغداد وناله مثل ذلك.

فلحق بماردين واستقر عند صاحبها، فأحسن جواره إلى أن بلغنا بعد التسعين أنه هلك هنالك حتف أنفه والبقاء لله وحده.

ومنهم شيخ التعاليم أبو عبد اللّه محمد بن النجار من أهل تلمسان، أخذ العلم ببلده عن مشيختها، وعن شيخنا الآبلي وبرز عليه.

ثم ارتحل إلى المغرب فلقي بسبتة إمام التعاليم أبا عبد اللّه محمد بن هلال شارح المجسطي في الهيئة، وأخذ بمراكش عن الإمام أبي العباس بن البناء، وكان إماماً في علوم النجامة وأحكامها، وما يتعلق بها، ورجع إلى تلمسان بعلم كثير، واستخلصته الدولة.

فلما هلك أبو تاشفين وملك السلطان أبو الحسن نظمه في جملته وأجرى له رزقه، فحضر معه بإفريقية وهلك في الطاعون.

ومنهم أبو العباس أحمد بن شعيب من أهل فاس، برع في الأدب واللسان والعلوم العقلية، من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها.

ونظمه السلطان أبو سعيد في حلبة الكتاب وأجرى عليه الرزق مع الأطباء لتقدمه فيهم، فكان كاتبه وطبيبه، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده، فحضر بإفريقية وهلك بها في ذلك الطاعون.

وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين، وكانت له إمامة في نقد الشعر وبصر به، ومما حضرني الآن من شعره:

دار الهوى نجد وساكنها	أقصى أماني النفس من نجد
هل باكر الوسمي ساحتها	واستن في قيعانها الجرد
أو بات معتل النسيم بها	مستشفيا بالبان والرند
يتلو أحاديث الذين هم	قصدي وإن جاروا عن القصد
أيام سمر ظلالها وطني	منها وزرق مياهها وردي
ومطارح النظرات في رشاء	أحوى المدامع أهيف القد
يرنو إليك بعين جازية	قتل المحب بها على عمد
حتى أجد على عجل	ريث الخطوب وعاثر الجد
فقدوا فلا وأبيك بعدهم	ما عشت لا آسى على الفقد
وغدوا دفينا قد تضمنه	بطن الثرى وقرارة اللحد
ومشرداً من دون رؤيته	قذف النوى وتنوفة البعد
أجرى علي العيش بعدهم	أني فقدت جميعهم وحدي
لا تلحني يا صاح في شجن	أخفيت منه فوق ما أبدى
بالغرب لي سكن تأوبني	من ذكره سهد على سهد
فرخان قد تركا بمضيعة	زويت عن الرفداء والرفد

ومنهم صاحبنا الخطيب أبو عبد اللّه بن أحمد بن مرزوق

من أهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعباد، ومتوارثين خدمة تربته من لدن جدهم خادمه في حياته.

وكان جده الخامس أو السادس واسمه أبو بكر بن مرزوق معروفا بالولاية فيهم.

ولما هلك دفنه يغمراسن بن زيان سلطان تلمسان من بني عبد الواد ففي التربة بقصره، ليدفن بإزائه متى قدر بوفاته.

ونشأ محمد هذا بتلمسان، ومولده - فيما أخبرني - سنة عشر وسبعمائة، وارتحل مع أبيه إلى المشرق.

وجاور أبوه بالحرمين الشريفين، ورجع هو إلى القاهرة وأقام بها، وقرأ على برهان الدين الصفاقسي المالكي وأخيه، وبرع في الطب والرواية، وكان يجيد الخطين، ثم رجع سنة خمس وثلاثين وسبعمائة إلى المغرب ولقي السلطان أبا الحسن بمكانه في تلمسان، وقد شيد بالعباد مسجداً عظيماً، وكان عمه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم في العباد، وتوفي فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه.

وسمعه يخطب على المنبر ويشيد بذكره والثناء عليه، فحلي بعينه واختصه وقربه، وهو مع ذلك يلازم مجلس الشيخين ابني الإمام، ويأخذ نفسه بلقاء الفضلاء والأكابر والأخذ عنهم، والسلطان في كل يوم يزيده رتبة، وحضر معه واقعة طريف التي كان فيها تمحيص المسلمين، فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس، ثم سفر عنه بعد أن ملك إفريقية إلى ابن أدفونش ملك قشتالة في تقرير الصلح، واستنقاذ أبي عمر تاشفين، كان أسر يوم طريف فغاب في تلك السفارة عن واقعة القيروان.

ورجع بأبي تاشفين مع طائفة من زعماء النصرانية جاؤوا في السفارة عن ملكهم، ولقيهم خبر واقعة القيروان بقسنطينة من بلاد إفريقية، وبها عامل السلطان وحاميته، فثار أهل قسنطينة بهم جميعاً ونهبوهم، وخطبوا للفضل ابن السلطان أبي يحيى، وراجعوا دعوة الموحدين، واستدعوه فجاء إليهم وملك البلد.

وانطلق ابن مرزوق عائداً إلى المغرب مع جماعة من الأعيان، والعمال والسفراء عن الملوك.

ووفد على السلطان أبي عنان بفاس مع أمه حظية أبي الحسن وأثيرته، كانت راحلة إليه، فأدركها الخبر بقسنطينة، وحضرت الهيعة واتصل بها الخبر بتوثب ابنها أبي عنان على ملك أبيه واستيلائه على فاس، فرجعت إليه وابن مرزوق في خدمتها.

ثم طلب اللحاق بتلمسان فسرحوه إليها، وأقام بالعباد مكان سلفه، وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان قد بايع له قبيله بنو عبد الواد بعد واقعة القيروان بتونس، وابن تافراكين يومئذ محاصر للقصبة كما مر في أخبارهم.

وانصرفوا إلى تلمسان فوجدوا بها أبا سعيد عثمان بن جرار من بيت ملوكهم وقد استعمله عليها السلطان أبو عنان عند انتقاضه على أبيه، ومسيره إلى فاس، وانتقض ابن جرار من بعده، ودعا لنفسه، وصمد إليه عثمان بن عبد الرحمن ومعه أخوه أبو ثابت وقومهما، فملكوا تلمسان من يد ابن جرار وحبسوه ثم قتلوه.

واستبد أبو سعيد بملك تلمسان وأخوه أبو ثابت يرادفه، وركب السلطان أبو الحسن البحر من تونس وغرق أسطوله ونجا هو إلى الجزائر فاحتل بها، وأخذ في الحشد إلى تلمسان، فرأى أبو سعيد أن يكف غربه عنهم، بمواصلة تقع بينهما، واختار لذلك الخطيب بن مرزوي فاستدعاه وأسر إليه بما يلقيه عنه للسلطان أبي الحسن، وذهب لذلك على طريق الصحراء.

وأطلع أبو ثابت وقومهم على الخبر فنكروه على أبي سعيد وعاتبوه، فبعثوا صغير بن عامر في اعتراض ابن مرزوق فجاء به وحبسوه أياماً.

ثم أجازوه البحر إلى الأندلس فنزل على السلطان أبي الحجاج بغرناطة، وله إليه وسيلة منذ اجتماعه به بمجلس السلطان أبي الحسن بسبتة إثر واقعة طريف، فرعى له أبو الحجاج ذمة تلك المعرفة، وأدناه واستعمله في الخطابة بجامعه بالحمراء.

فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه السلطان أبو عنان سنة أربع وخمسين وسبعمائة بعد مهلك أبيه، واستيلائه على تلمسان وأعمالها، فقدم عليه ورعى له وسائله، ونظمه في أكابر أهل مجلسه.

وكان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العلمي ويدرس في نوبته مع من يدرس في مجلسه منهم.

ثم بعثه إلى تونس عام ملكها سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى، فردت تلك الخطبة واختفت بتونس.

ووشي إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها، فسخطه لذلك ورجع السلطان من قسنطينة، فثار أهل تونس بمن كان بها من عماله وحاميته.

واستقدموا أبا محمد بن تافراكين من المهدية، فجاء وملك البلد، وركب القوم الأسطول ونزلوا بمراسي تلمسان.

وأوعز السلطان أبو عنان باعتقال ابن مرزوق، وخرج لذلك يحيى بن شعيب من مقدمي الجنادرة ببابه، فلقيه بتاسالة فقيده هنالك، وجاء به فأحضره السلطان وقرعه، ثم حبسه مدة وأطلقه بين يدي مهلكه.

واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبي عنان، وبايع بنو مرين لبعض الأعياص من بني يعقوب بن عبد الحق، وحاصروا البلد الجديد، وبها ابنه السعيد ووزيره المستبد عليه الحسن بن عمر، وكان السلطان أبو سالم بالأندلس غربه إليها أخوه السلطان أبو عنان مع بني عمهم ولد السلطان أبي علي بعد وفاة السلطان أبي الحسن، وحصولهم جميعاً في قبضته.

فلما توفي أراد أبو سالم النهوض لملكه بالمغرب، فمنعه رضوان القائم يومئذ بملك الأندلس مستبداً على ابن السلطان أبي الحجاج، فلحق هو بإشبيلية من دار الحرب، ونزل على بطرة ملكهم يومئذ، فهيأ له السفين وأجازه إلى العدوة فنزل، بجبل الصفيحة من بلاد غمارة، وقام بدعوته بنو مثنى وبنو منير أهل ذلك الجبل منهم، حتى تم أمره واستولى على ملكه في خبر طويل ذكرناه في أخبار دولتهم.

وكان ابن مرزوق يداخله وهو بالأندلس ويستخدم له، ويفاوضه في أموره وربما كان يكاتبه، وهو بجبل الصفيحة، ويداخل زعماء قومه في الأخذ بدعوته.

فلما ملك السلطان أبو سالم رعى له تلك الوسائل أجمع، ورفعه على الناس، وألقى عليه محبته وجعل زمام الأمور بيده، فوطىء الناس عقبه وغشي أشراف الدولة بابه، وصرفوا الوجوه إليه، فمرضت لذلك قلوب أهل الدولة ونقموه على السلطان، وتربصوا به حتى توثب عمر بن عبد الله بالبلد الجديد، وافترق الناس عن السلطان.

وقتله عمر بن عبد الله آخر اثنتين وستين وسبعمائة وحبس ابن مرزوق وأغرى به سلطانه الذي نصبه محمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن فامتحنه واستصفاه، ثم أطلقه بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله فمنعه منهم.

ولحق بتونس سنة أربع وستين وسبعمائة ونزل على السلطان أبي إسحاق وصاحب دولته المستبد عليه أبي محمد بن تافراكين، فأكرموا نزله وولوه الخطابة بجامع الموحدين بتونس.

وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو إسحاق سنة سبعين وسبعمائة وولي ابنه خالد.

وزحف السلطان أبو العباس حافد السلطان أبي يحيى من مقره بقسنطينة إلى تونس فملكها، وقتل خالداً سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة.

وكان ابن مرزوق يستريب منه لما كان يميل وهو بفاس مع ابن عمه أبي عبد الله محمد صاحب بجاية، ويؤثره عند السلطان أبي سالم عليه، فعزله السلطان أبو العباس عن الخطبة بتونس، فوجم لها وأجمع الرحلة إلى المشرق.

وسرحه السلطان فركب السفين ونزل بالإسكندرية، ثم ارتحل إلى القاهرة ولقي أهل العلم وأمراء الدولة، ونفقت بضائعه عندهم، وأوصلوه إلى السلطان وهو يومئذ الأشرف.

فكان يحضر مجلسه وولوه الوظائف العلمية، فكان يتجع منها معاشه.

وكان الذي وصل حبله بالسلطان استداره محمد بن آقبغا آص لقيه أول قدومه فحلي بعينه، واستظرف جملته، فسعى له وأنجحت سعايته، ولم يزل مقيماً بالقاهرة موقر الرتبة معروف الفضيلة، مرشحاً لقضاء المالكية ملازماً للتدريس في وظائفه إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعمائة هكذا ذكر من حضرنا من جملة السلطان أبي الحسن من أشياخنا وأصحابنا، وليس موضوع الكتاب الإطالة، فلنقتصر على هذا القدر، ونرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المؤلف.

ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها إلى المغرب والكتابة عن السلطان أبي عنان

لم أزل منذ نشأت وناهزت مكبّاً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة، وهلك أبواي رحمهما الله.

ولزمت مجلس شيخنا أبي عبد الله الآبلي، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين إلى أن شدوت بعض الشيء، واستدعاه السلطان أبو عنان فارتحل إليه، واستدعاني أبو محمد بن تافراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحاق.

وقد نهض إليه من قسنطينة صاحبها الأمير أبو زيد حافد السلطان أبي يحيى في عساكره، ومعه العرب أولاد مهلهل الذين استنجدوه لذلك، فأخرج ابن تافراكين سلطانه أبا إسحاق مع العرب أولاد أبي الليل، وبث العطاء في عسكره، وعمر له المراتب

والوظائف.

وتعلل عليه صاحب العلامة أبو عبد الله بن عمر بالاستزادة من العطاء، فعزله وأدالني منه، فكتبت العلامة للسلطان، وهي وضع «الحمد لله والشكر لله» بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم.

وخرجت معهم أول سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وقد كنت منطوياً على مفارقتهم لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي وعطلتي عن طلب العلم.

فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب وانحسر تيارهم عن إفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ، فاعتزمت على اللحاق بهم.

وصدني عن ذلك أخي وكبيري محمد رحمه الله، فلما دعيت إلى هذه الوظيفة سارعت إلى الإجابة لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب، وكان كذلك، فإنا لما خرجنا من تونس نزلنا بلاد هوارة، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض بفحص مرماجنة وانهزم صفنا ونجوت أنا إلى أبة، فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوشتاني من كبراء المرابطين، ثم تحولت إلى سبتة ونزلت بها على محمد بن عبدون صاحبها، فأقمت عنده ليالي حتى هيأ لي الطريق وبذرق لي مع رفيق من العرب، وسافرت إلى قفصة، وأقمت بها أياماً أترصد الطريق حتى قدم علينا بها الفقيه محمد بن الرئيس منصور بن مزني، وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزاب وكان هو بتونس، فلما حاصرها الأمير أبو زيد خرج إليه فكان معه.

ثم بلغهم الخبر بأن السلطان أبا عنان ملك المغرب، نهض إلى تلمسان فملكها، وقتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمن، وأخاه أبا ثابت وأنه انتهى إلى المدية وملك بجاية من يد صاحبها الأمير أبي عبد الله من حفدة السلطان أبي يحيى، وراسله عندما أطل على بلده، فسار إليه، ونزل له عنها.

وصار في جملته، وولى أبو عنان على بجاية عمر بن علي شيخ بني وطاس من بني الوزير شيوخهم.

فلما بلغهم هذا الخبر أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه على حصار تونس، ومر بقفصة فدخل إلينا محمد بن مزني ذاهباً إلى الزاب، فرافقته إلى بسكرة، ودخلت إلى أخيه هنالك، ونزل هو ببعض قرى الزاب تحت جراية أخيه إلى أن انصرم الشتاء.

وكان أبو عنان لما ملك بجاية ولى عليها عمر بن علي بن الوزير من شيوخ بني وطاس فجاء فارح مولى الأمير أبي عبد الله لنقل حرمه وولده، فداخل بعض السفهاء من صنهاجة في قتل عمر بن علي فقتله في مجلسه ووثب هو على البلد وبعث إلى الأمير أبي زيد يستدعيه من قسنطينة، فتمشت رجالات البلد فيما بينهم خشية من سطوة السلطان، ثم ثاروا بفارح فقتلوه وأعادوا دعوة السلطان كما كانت.

وبعثوا عن عامل السلطان بتدلس يحياتن بن عمر بن عبد المؤمن شيخ بني ونكاسن من بني مرين، فملكوه قيادهم وبعثوا إلى السلطان بطاعتهم، فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبي عمرو، وأكثف له الجند وصرف معه وجوه دولته وأعيان بطانته.

وارتحلت أنا من بسكرة وافداً على السلطان أبي عنان بتلمسان، فلقيت ابن أبي عمرو بالبطحاء، وتلقاني من الكرامة بما لم أحتسبه، وردني معه إلى بجاية فشهدت الفتح، وتسايلت وفود إفريقية إليه.

فلما رجع السلطان وفدت معهم فنالني من كرامته، وإحسانه ما لم أحتسبه، إذ كنت شاباً لم يطر شاربي.

ثم انصرفت مع الوفود ورجع ابن أبي عمرو إلى بجاية، فأقمت عنده حتى انصرم الشتاء من أواخر أربع وخمسين وسبعمائة وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه، وجرى ذكري عنده وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عني ووصفوني له، فكتب إلى الحاجب يستقدمني، فقدمت عليه سنة خمس وخمسين وسبعمائة ونظمني في أهل مجلسه العلمي، وألزمني شهود الصلوات معه، ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كره مني، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي.

وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة، وحصلت من الإفادة منهم على البغية.

وكان في جملته يومئذ الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الصفار من أهل مراكش إمام القراءات لوقته، أخذ عن جماعة من مشيخة المغرب كبيرهم شيخ المحدثين الرحالة أبو عبد الله محمد بن رشيد الفهري سيد أهل المغرب، وكان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع إلى أن توفي.

ومنهم قاضي الجماعة بفاس أبو عبد الله محمد المقري صاحبنا، من أهل تلمسان، أخذ العلم بها عن أبي عبد الله السلاوي ورد عليها من المغرب خلواً من المعارف.

ثم دعته همته إلى التحلي بالعلم، فعكف في بيته على

مدارسة القران فحفظه، وقرأه بالسبع.

ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية فحفظه، ثم على مختصري ابن الحاجب في الفقه والأصول فحفظهما.

ثم لزم الفقيه عمران المشدالي من تلاميذ أبي علي ناصر الدين، وتفقه عليه، وبرز في العلوم إلى حيث لم تلحق غايته.

وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسته بتلمسان، فقدمه للتدريس بها، يضاهي به أولاد الإمام، وتفقه عليه بتلمسان جماعة كان من أوفرهم سهماً في العلوم أبو عبد الله المقري هذا.

ولما جاء شيخنا أبو عبد الله الآبلي إلى تلمسان عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها، وكان أبو عبد الله السلاوي قد قتل يوم فتح تلمسان، قتله بعض أشياع السلطان لذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي علي بسجلماسة قبل انتحاله العلم، وكان السلطان يعتده عليه، فقتل بباب المدرسة، فلزم أبو عبد الله المقري بعده مجلس شيخنا الآبلي، ومجالس ابني الإمام، واستبحر في العلوم وتفنن.

ولما انتقض السلطان أبو عنان سنة تسع وأربعين وسبعمائة وخلع أباه، ندبه إلى كتاب البيعة فكتبها وقرأها على الناس في يوم مشهود.

وارتحل مع السلطان إلى فاس، فلما ملكها عزل قاضيها الشيخ المعمر أبا عبد الله بن عبد الرزاق وولاه مكانه، فلم يزل قاضياً بها إلى أن سخطه لبعض النزعات الملوكية، فعزله وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله الفشتالي آخر سنة ست وخمسين وسبعمائة، ثم بعثه في سفارة إلى الأندلس فامتنع من الرجوع.

وقام السلطان لها في ركائبه، ونكر على صاحب الأندلس ابن الأحمر تمسكه به، وبعث إليه فيه يستقدمه، فلاذ منه ابن الأحمر بالشفاعة فيه، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عنان، وأوفده مع جماعة من شيوخ العلم بغرناطة منهم: القاضيان بغرناطة شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي شيخ الدنيا جلالة وعلماً ووقاراً ورياسة، إمام حوكاً ونقداً في نظمه ونثره.

وشيخنا الأخر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي من أهل المرية شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس، وسيد أهل العلم بإطلاق، والمتفنن في أساليب المعارف، وآداب الصحابة للملوك فمن دونهم، فوفدا به على السلطان شفيعين على عظيم تشوقه للقائهما، فقبلت الشفاعة وأنجحت الوسيلة.

حضرت بمجلس السلطان يوم وفادتهما سنة سبع وخمسين وسبعمائة وكان يوماً مشهوداً.

واستقر القاضي المقري في مكانه بباب السلطان عطلا من الولاية والجراية.

وجرت عليه بعد ذلك محنة من السلطان بسبب خصومه وقعت بينه وبين أقاربه، امتنع من الحضور معهم عند القاضي الفشتالي، فتقدم السلطان إلى بعض أكابر الوزعة ببابه بأن يسحبه إلى مجلس القاضي حتى أنفذ فيه حكمه، فكان الناس يعدونها محنة، ثم ولاه السلطان بعد ذلك قضاء العساكر في دولته، عندما ارتحل إلى قسنطينة.

فلما افتتحها وعاد إلى دار ملكه بفاس آخر ثمان وخمسين وسبعمائة اعتل القاضي المقري في طريقه، وهلك عند قدومه بفاس.

ومنهم صاحبنا الإمام العالم الفذ، فارس المعقول والمنقول، وصاحب الفروع والأصول، أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني، ويعرف بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان، تسمى العلوين، فكان أهل بيته لا يدافعون في نسبهم.

وربما يغمز فيه بعض الفجرة ممن يزعه دينه ولا معرفته بالأنساب فيعد من اللغو، ولا يلتفت إليه، نشأ هذا الرجل بتلمسان وأخذ العلم عن مشيختها، واختص بأولاد الإمام وتفقه عليهما في الفقه والأصول والكلام، ثم لزم شيخنا أبا عبد الله الآبلي وتضلع من معارفه، فاستبحر وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه.

ثم ارتحل إلى تونس في بعض مذاهبه سنة أربعين وسبعمائة ولقي شيخنا القاضي أبا عبد الله بن عبد السلام وحضر مجلسه وأفاد منه، واستعظم رتبته في العلم.

وكان ابن عبد السلام يصغي إليه ويؤثر محله ويعرف حقه حتى زعموا أنه كان يخلو به في بيته، فيقرأ عليه فصل التصوف من كتاب الإشارات، لابن سينا، بما كان هو قد أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الآبلي وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا، ومن تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد، ومن الحساب والهندسة والفرائض علاوة على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر علوم الشريعة، وكانت له في كتب الخلافيات يد طولى، وقدم عالية، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كله وأوجب حقه، وانقلب إلى تلمسان، وانتصب لتدريس العلم وبثه فملأ المغرب معارف وتلاميذ، إلى أن اضطرب المغرب بعد واقعة القيروان.

ثم هلك السلطان أبو الحسن، وزحف ابنه أبو عنان إلى

تلمسان فملكها سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فاستخلص الشريف أبا عبد الله واختاره لمجلسه العلمي مع من اختار من المشيخة، ورحل به إلى فاس فتبرم الشريف من الاغتراب وردد الشكوى وعرف السلطان بذلك وارتاب به.

ثم بلغه أثناء ذلك أن عثمان بن عبد الرحمن سلطان تلمسان أوصاه على ولده، وأودع له مالاً عند بعض الأعيان من أهل تلمسان، وأن الشريف مطلع على ذلك، فانتزع الوديعة وسخط الشريف بذلك ونكبه، وأقام في اعتقاله أشهراً، ثم تلقاه أول ست وخمسين وسبعمائة وأقصاه، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة وأعاده إلى مجلسه إلى أن هلك السلطان آخر تسع وخمسين وسبعمائة.

وملك أبو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يد بني مرين، واستدعى الشريف من فاس فسرحه القائم بالأمر يومئذ الوزير عمر بن عبد الله فانطلق إلى تلمسان.

وتلقّاه أبو حمو براحتيه، وأصهر له في ابنته فزوجها إياه، وبنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه، وأقام الشريف يدرس العلم إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وأخبرني رحمه الله أن مولده سنة عشر وسبعمائة.

ومنهم صاحبنا الكاتب القاضي أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي من برجة الأندلس.

كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الإنشاء والسر في دولته، وكان مختصاً به، وأثيراً لديه.

وأصله من برجة الأندلس نشأ بها واجتهد في العلم والتحصيل، وقرأ وسمع وتفقه على مشيخة الأندلس.

واستبحر في الأدب وبرز في النظم والنثر، وكان لا يجارى في كرم الطباع وحسن المعاشرة، ولين الجانب وبذل البشر والمعروف.

وارتحل إلى بجاية في عشر الأربعين والسبعمائة، وبها الأمير أبو زكريا ابن السلطان أبي يحيى منفرداً بملكها على حين اقفرت من رسم الكتابة والبلاغة، فبادرت أهل الدولة إلى اصطفائه وإيثاره بخطة الإنشاء والكتابة عن السلطان إلى أن هلك الأمير أبو زكريا، ونصب ابنه محمد مكانه، فكتب عنه على رسمه ثم هلك السلطان أبو يحيى، وزحف السلطان أبو الحسن إلى إفريقية واستولى على بجاية، ونقل الأمير محمداً بأهله وحاشيته إلى تلمسان كما تقدم في أخباره، فنزل أبو القاسم البرجي تلمسان، وأقام بها واتصل خبره بأبي عنان ابن السلطان أبي الحسن وهو يومئذ أميرها، ولقيه، فوقع من قلبه بمكان إلى أن كانت واقعة القيروان.

وخلع أبو عنان واستبد بالأمر فاستكتبه وحمله معه إلى المغرب، ولم يسم به إلى العلامة لأنه آثر بها محمد بن أبي عمر بما كان أبوه يعلمه القرآن والعلم.

وربي محمد بداره، فولاه العلامة، والبرجي مرادف له في رياسته إلى أن انقرضوا جميعاً.

وهلك السلطان أبو عنان واستولى أخوه أبو سالم على ملك المغرب، وغلب ابن مرزوق على هواه كما قدمناه، فنقل البرجي من الكتابة واستعمله في قضاء العساكر، فلم يزل على القضاء إلى أن هلك سنة ست وثمانين وسبعمائة وأخبرني رحمه الله أن مولده سنة عشر وسبعمائة.

ومنهم: شيخنا المعمر الرحالة أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرزاق شيخ وقته جلالة وتربية وعلماً وخبرة بأهل بلده، وعظمة فيهم.

نشأ بفاس وأخذ عن مشيختها، وارتحل إلى تونس فلقي القاضي أبا إسحاق بن عبد الرفيع والقاضي أبا عبد الله النفراوي، وأهل طبقتهما، وأخذ عنهم وتفقه عليهم، ورجع إلى المغرب ولازم سنن الأكابر والمشايخ إلى أن ولاه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس، فأقام على ذلك إلى أن جاء السلطان أبو عنان من تلمسان بعد واقعة القيروان، وخلعه أباه فعزله بالفقيه أبي عبد اللّه المقري، وأقام عطلاً في بيته.

ولما جمع السلطان مشيخة العلم للتحليق بمجلسه، والإفادة منهم، واستدعى شيخنا أبا عبد اللّه بن عبد الرزاق، فكان يأخذ عنه الحديث، ويقرأ عليه القرآن برواياته في مجلس خاص إلى أن هلك رحمه اللّه بين يدي مهلك السلطان أبي عنان، إلى آخرين وآخرين من أهل المغرب والأندلس، كلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه، وأجازني بالإجازة العامة.

حدوث النكبة من السلطان أبي عنان

كان اتصالي بالسلطان أبي عنان آخر سنة ست وخمسين وسبعمائة وقربني وأدناني، واستعملني في كتابته، حتى تكدر جوي عنده بعد أن كان لا يعبر عن صفائه.

ثم اعتل السلطان آخر سبع وخمسين وسبعمائة وكان قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحدين مداخلة، أحكمها ما كان لسلفي في دولتهم.

وغفلت عن التحفظ في مثل ذلك، من غيرة السلطان، فما هو إلا أن شغل بوجعه، حتى أنمى إليه بعض الغواة أن صاحب بجاية معتمل في الفرار ليسترجع بلده، وبها يومئذ وزيره الكبير عبد الله بن علي، فانبعث السلطان لذلك، وبادر بالقبض عليه.

وكان فيما أنمي إليه أني داخلته في ذلك، فقبض علي وامتحنني وحبسني وذلك في ثامن عشر صفر، سنة ثمان وخمسين.

ثم أطلق الأمير محمداً وما زلت أنا في اعتقاله إلى أن هلك، وخاطبته بين يدي مهلكه مستعطفاً بقصيدة أولها:

على أي حال لليالي أعاتب ... وأي صروف للزمان أغالب
كفى حزناً أني على القرب نازح ... وأني على دعوى شهودي غائب
وأني على حكم الحوادث نازل ... تسالمني طوراً وطوراً تحارب

ومنها في التشوق:

سلوتهم إلا ادكار معاهد ... لها في الليالي الغابرات غرائب
وإن نسيم الريح منهم يشوقني ... إليهم وتصبيني البروق اللواعب

وهي طويلة، نحو مئتي بيتاً، ذهبت عن حفظي، فكان لها منه موقع، وهش لها وكان بتلمسان، فوعد بالإفراج عني عند حلوله بفاس، ولخمس ليال من حلوله طرقه الوجع، وهلك لخمس عشرة ليلة، في رابع وعشرين ذي الحجة، خاتم تسع وخمسين وسبعمائة.

وبادر القائم بالدولة، الوزير الحسن بن عمر إلى إطلاق جماعة من المعتقلين، كنت فيهم، فخلع علي، وحملني، وأعادني إلى ما كنت عليه، وطلبت منه الانصراف إلى بلدي، فأبى علي، وعاملني بوجوه كرامته، ومذاهب إحسانه، إلى أن اضطرب أمره، وانتقض عليه بنو مرين، وكان ما قدمناه في أخبارهم.

الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر والإنشاء

ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلس لطلب ملكه، ونزل بجبل الصفيحة من بلاد غمارة.

وكان الخطيب ابن مرزوق بفاس، فبث دعوته سراً، واستعان بي على أمره، بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبة والائتلاف، فحملت الكثير منهم على ذلك، وأجابوني إليه، وأنا يومئذ أكتب عن القائم بأمر بني مرين، منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، وقد نصبوه للملك، وحاصروا الوزير الحسن بن عمر، وسلطانه السعيد ابن أبي عنان، بالبلد الجديد، فقصدني ابن مرزوق في ذلك، وأوصل إلي كتاب السلطان أبي سالم.

بالحض على ذلك، وإجمال الوعد فيه.

وألقى علي حمله، فنهضت به، وتقدمت إلى شيوخ بني مرين، وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك، حتى أجابوا، وبعث ابن مرزوق إلى الحسن بن عمر، يدعو إلى طاعة السلطان أبي سالم، وقد ضجر من الحصار، فبادر إلى الإجابة، واتفق رأي بني مرين على الانفضاض عن منصور بن سليمان، والدخول إلى البلد الجديد، فلما تم عقدهم على ذلك نزعت إلى السلطان أبي سالم في طائفة من وجوه أهل الدولة، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس، المستبد بعد ذلك بملك المغرب على سلطانه، وكان ذلك النزوع مبدأ حظه، وفاتحة رياسته، بسعايتي له عند السلطان، فلما قدمت على السلطان بالصفيحة، بما عندي من أخبار الدولة، وما أجمعوا عليه من خلع منصور بن سليمان، وبالموعد الذي ضربوه لذلك، واستحثثته.

فارتحل، ولقينا البشير بإجفال منصور بن سليمان، وفراره إلى نواحي بادس، ودخول بني مرين إلى البلد الجديد، وإظهار الحسن بن عمر دعوة السلطان أبي سالم.

ثم لقيتنا، بالقصر الكبير، قبائل السلطان، وعساكره، على راياتهم، ووزير منصور بن سليمان، وهو مسعود بن رحو بن ماساي، فتلقاه السلطان بالكرامة كما يجب له، واستوزره نائباً للحسن بن يوسف بن علي بن محمد الورتاجني السابق إلى وزارته، لقيه بسبتة، وقد غربه منصور بن سليمان إلى الأندلس فاستوزره واستكفاه.

ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر صعد إلى فاس ولقيه الحسن بن عمر بظاهرها، فأعطاه طاعته، ودخل إلى دار ملكه وأنا في ركابه، لخمس عشرة ليلة من نزوعي إليه، منتصف شعبان سنة ستين وسبعمائة، فرعى لي السابقة واستعملني في كتابة سره، والترسيل عنه، والإنشاء لمخاطباته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة.

ثم أخذت نفسي بالشعر، وانثال علي منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور، وكان مما أنشدته إياه ليلة المولد النبوي من سنة اثنتين وستين وسبعمائة:

أسرفن في هجري وفي تعذيبي ... وأطلن موقف عبرتي ونحيبي
وأبين يوم البين وقفة ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا ... قلبي رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعي سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروب
يا ناقعاً بالعتب غلة شوقهم ... رحماك في عذلي وفي تأنيبي
يستعذب الصب الملام وإنني ... ماء الملام لدي غير شروب
ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى ... لولا تذكر منزل وحبيب
أهفو إلى الأطلال كانت مطلعاً ... للبدر منهم أو كناس ربيب
عبثت به أيدي البلى وترددت ... في عطفها للدهر أي خطوب
تبلى معاهدها وإن عهودها ... ليجدها وصفي وحسن نسيبي
وإذا الديار تعرضت لمتيم ... هزته ذكراها إلى التشبيب
إيه عن الصبر الجميل فإنه ... ألوى بدين فؤادي المنهوب
لم أنسها والدهر يثني صرفه ... ويغض طرفي حاسد ورقيب
والدار مونقة محاسنها بما ... لبست من الأيام كل قشيب
يا سائق الأظعان يعتسف الفلا ... ويواصل الأساد بالتأويب
متهافتاً عن رحل كل مذلل ... نشوان من اين ومس لغوب
تتجاذب النفحات فضل ردائه ... في ملتقاها من صباً وجنوب
إن هام من ظمأ الصبابة صحبه ... نهلوا بمورد دمعه المسكوب
او تعترض مسراهم سدف الدجى ... صدعوا الدجى بغرامه المشبوب
في كل شعب منية من دونها ... هجر الأماني أو لقاء شعوب
هلا عطفت صدورهن إلى التي ... فيها لبانة أعين وقلوب
فتؤم من أكناف يثرب مأمنا ... يكفيك ما تخشاه من تثريب
حيث النبوة آيها مجلوة ... تتلو من الآثار كل غريب
سر عجيب لم يحجبه الثرى ... ما كان سر اللّه بالمحجوب

ومنها بعد تعديد معجزاته ﷺ والأطناب في مدحه:

إني دعوتك واثقاً بإجابتي ... يا خير مدعو وخير مجيب
قرتُ في مدحي فإن يك طيباً ... فبما لذكرك من أريج الطيب
ماذا عسى يبغي المطيل وقد حوى ... في مدحك القرآن كل مطيب
يا هل تبلغني الليالي زورة ... تدني إلي الفوز بالمرغوب
أمحو خطيآتي بإخلاصي بها ... وأحط أوزاري وإصر ذنوبي
في فتية هجروا المنى وتعودوا ... إنضاء كل نجيبة ونجيب
يطوي صحائف ليلهم فوق الفلا ... ما شئت من خبب ومن تقريب
إن رنم الحادي بذكرك رددوا ... انفاس مشتاق إليك طروبي
أو غرد الركب الخلي بطيبة ... حنوا لمغناها حنين النيب
ورثوا اعتساف البيد عن آبائهم ... إرث الخلافة في بني يعقوب
الطاعنين الخيل وهي عوابس ... يغشى مثار النقع كل سبيب
والواهبين المقربات صوافناً ... من كل خوار العنان لعوب
والمانعين الجار حتى عرضه ... في منتدى الأعداء غير معيب
تخشى بوادرهم ويرجى حلمهم ... والعز شيمة مرتجى ومهيب

ومنها في ذكر إجازته البحر واستيلائه على ملكه:

سائل به طامي العباب وقد سرى ... تزجيه ريح العزم ذات هبوب
تهديه سهب أسنة وعزائم ... يصد عن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلت ظلم الظلام بسعيه ... وسطا الهدى بفريقها المغلوب
ياابن الألى شادوا الخلافة بالتقى ... واستأثروك بتاجها المغصوب
جمعوا لحفظ الدين أي مناقب ... كرموا بها في مشهد ومغيب
لله مجدك طارفاً أو تالداً ... فلقد شهدنا منهن كل عجيب
كم رهبة أو رغبة بك في العلى ... تقتاد بالترغيب والترهيب
لا زلت مسروراً بأشرف دولة ... يبدو الهدى من أفقها المرقوب
تحيي المعالي غادياً أو رائحاً ... وحديد سعدك ضامن المطلوب

ومن قصيدة خاطبته بها عند وصول هدية ملك السودان إليه، وفيها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة:

قدحت يد الأشواق من زندي ... وهفت بقلبي زفرة الوجد
ونبذت سلواني على ثقة ... بالقرب فاستبدلت بالبعد
ولرب وصل كنت آمله ... فاعتضت منه بمؤلم الصد
لا عهد عند الصبر أطلبه ... إن الغرام أضاع من عهدي
يلحى العذول فما أعنفه ... وأقول ضل فأبتغي رشدي
وأعارض النفحات أسألها ... برد الجوى فتزيد في الوقد
يهدي الغرام إلى مسالكها ... لتعللي بضعيف ما تهدي
يا سائق الأظعان معتسفا ... طي الفلاة لطية الوجد
أرح الركاب ففي الصبا نبأ ... يغني عن المستنة الجرد
وسل الربوع برامة خبراً ... عن ساكني نجد وعن نجد
مالي تلام على الهوى خلقي ... وهي التي تأبى سوى الحمد
لأبيت إلا الرشد مذ وضحت ... بالمستعين معالم الرشد
نعم الخليفة في هدى وتقى ... وبناء عز شامخ الطود
نجل السراة الغر شأنهم ... كسب العلى بمواهب الوجد

ومنها في ذكر خلوصي إليه وما ارتكبته فيه:

لله مني إذ تأوبني ... ذكراه وهو بشاهق فرد
شهم يفل بواتراً قضباً ... وجموع أقيال أولي الأيد
أوريت زند العزم في طلبي ... وقضيت حق المجد من قصدي
ووردت عن ظمأ مناهله ... فرويت من عز ومن رفدي
هي جنة المأوى لمن كلفت ... آماله بمطالب المجد
لو لم أعل بورد كوثرها ... ما قلت هذي جنة الخلد
من مبلغ قومي ودونهم ... قذف النوى وتنوفة البعد
أني أنفت على رجائهم ... وملكت عز جميعهم وحدي

ورقيمة الأعطاف حالية ... موشية بوشائح البرد
وحشية الأنساب ما أنست ... في موحش البيداء بالقود
تسمو بجيد بالغ صعداً ... شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات به ... ولربما قصرت عن الوهد
قطعت إليك تنائفاً وصلت ... إسادها بالنعي والوخد
تخدي على استصعابها ذللاً ... وتبيت طوع القسن والقد
بسعودك اللائي ضمن لنا ... طول الحياة بعيشة رغد
جاءتك في وفد الأحابش لا ... يرجون غيرك مكرم الوفد
وافوك انضاء تقلبهم ... أيدي السرى بالغور والنجد
كالطيف يستقري مضاجعه ... أو كالحسام يسل من غمد
يثنون بالحسنى التي سبقت ... من غير إنكار ولا جحد
ويرون لحظك من وفادتهم ... فخراً على الأتراك والهند
يا مستعيناً جل في شرف ... عن رتبة المنصور والمهدي
جازاك ربك عن خليقته ... خير الجزاء فنعم ما يسدي
وبقيت للدنيا وساكنها ... في عزة أبداً وفي سعد

وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً لم يحضرني الآن شيء منه.

ثم غلب ابن مرزوق على هواه وانفرد بمخالطته وكبح الشكائم عن قربه، فانقبضت وقصرت الخطو، مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة سره وإنشاء مخاطباته ومراسمه.

ثم ولاني آخر الدولة «خطة المظالم» فوفيتها حقها ودفعت للكثير مما أرجو ثوابه.

ولم يزل ابن مرزوق آخذاً في سعايته بي وبأمثالي من أهل الدولة، غيرة ومنافسة إلى أن انتقض الأمر على السلطان بسببه، وثار الوزير عمر بن عبد الله بدار الملك فصار إليه الناس، ونبذوا السلطان وبيعته، وكان في ذلك هلاكه على ما ذكرناه في أخبارهم.

ولما قام الوزير عمر بالأمر أقرني على ما كنت عليه، ووفر أقطاعي وزاد في جرايتي وكنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت فيه وأدل في ذلك بسابق مودة معه، منذ أيام السلطان أبي عنان، وصحابة استحكم عقدها بيني وبينه وبين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية فكان ثالث آثافينا ومصقلة فكاهتنا واشتدت غيرة السلطان لذلك كما مر، وسطا بنا، وتغافل عن عمر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بجاية ثم حملني الإدلال عليه أيام سلطانه، وما ارتكبه في حقي من القصور بي عما أسمو إليه إلى أن هجرته، وقعدت عن دار السلطان مغاضباً له، فتنكر لي وأقطعني جانباً من الإعراض، فطلبت الرحلة إلى بلدي بإفريقية.

وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم بتلمسان والمغرب الأوسط فمنعني من ذلك أن يغتبط أبو حمو صاحب تلمسان بمكاني، فأقيم عنده، ولج في المنع من ذلك، وأبيت أنا إلا الرحلة، واستجرت في ذلك برديفه وصديقه الوزير مسعود بن رحو بن ماساي، ودخلت عليه يوم الفطر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فأنشدته:

هنيئاً بصوم لا عداه قبول ... وبشرى بعيد أنت فيه منيل
وهنئتها من عزة وسعادة ... تتابع أعوام بها وفصول
سقى الله دهراً أنت إنسان عينه ... ولا مسّ ربعاً في حماك محول
فعصرك ما بين الليالي مواسم ... لها غرر وضاحة وحجول
وجانبك المأمول للجود مشرع ... يحوم عليه عالم وجهول
عساك وإن ضن الزمان منولي ... فرسم الأماني من سواك محيل
أجرني فليس الدهر لي بمسالم ... إذا لم يكن لي في ذراك مقيل
وأولني الحسنى بما أنا آمل ... فمثلك يولي راجياً وينيل
وو الله ما رمت الترحل عن قلى ... ولا سخطة للعيش فهو جزيل
ولا رغبة عن هذه الدار إنها ... لظل على هذا الأنام ظليل
ولكن نأى بالشعب عني حبائب ... شجاهن خطب والفراق طويل
يهيج بهن الوجد أني نازح ... وأن فؤادي حيث هن حلول
عزيز عليهن الذي قد لقيته ... وأن اغترابي في البلاد يطول
توارت بأبنائي البقاع كأنني ... تخطفت أو غالت ركابي غول
ذكرتك يا مغنى الأحبة والهوى ... فطارت بقلبي أنة وعويل
وحييت عن شوق رباك كأنما ... يمثل لي نؤي بها وطلول
أأحبابنا والعهد بيني وبينكم ... كريم وما عهد الكريم يحول
إذا أنا لم ترض الحمول مدامعي ... فلا قربتني للقاء حمول
إلام مقامي حيث لم ترد العلى ... مرادي ولم تعط القياد ذلول
أجاذب فضل العمر يوما وليلة ... وساء صباح بينها وأصيل
ويذهب بي ما بين يأس ومطمع ... زمان بنيل المعلوات بخيل
تعللني عنه أمان خوادع ... ويؤنسني ليان منه مطول
أما لليالي لا ترد خطوبها ... ففي كبدي من وقعهن فلول
يروعني عن صرفها كل حادث ... تكاد له صم الجبال تزول
أداري على الرغم العدى لا لريبة ... يصانع واش خوفها وعذول
واغدو بأشجاني عليلاً كأنما ... تجود بنفسي زفرة وغليل
وإني وإن أصبحت في دار غربة ... تحيل الليالي سلوتي وتديل
وصدتني الأيام عن خير منزل ... عهدت به أن لا يضام نزيل
لأعلم أن الخير والشر ينتهي ... مداه وأن الله سوف يديل
وإني عزيز بابن ماساي مكثر ... وإن هان أنصار وبان خليل

فأعانني الوزير مسعود عليه حتى أذن لي في الانطلاق على

شريطة العدول عن تلمسان في أي مذهب أردت، فاخترت الأندلس وصرفت ولدي وأمهم إلى أخوالهم، أولاد القائد محمد بن الحكيم بقسنطينة فاتح أربع وستين وسبعمائة وجعلت أنا طريقي على الأندلس، وكان سلطانها أبو عبد الله المخلوع، حين وفد على السلطان أبي سالم بفاس، وأقام عنده، حصلت لي معه سابقة وصلة ووسيلة خدمة، من جهة وزيره أبي عبد الله بن الخطيب، وما كان بيني وبينه من الصحابة، فكنت أقوم بخدمته وأعتمل في قضاء حاجاته في الدولة، ولما أجاز باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثب عليه بالأندلس من قرابته، خلفته فيمن ترك من عياله وولده بفاس، خير خلف في قضاء حاجاتهم وإدرار أرزاقهم، من المتولين لها، والاستخدام لهم.

ثم فسد ما بين الطاغية وبينه، قبل ظفره بملكه، برجوعه عما اشترطه له من التجافي عن حصون المسلمين التي تملكها بإجلابه ففارقه إلى بلاد المسلمين ونزل بأسجة وكتب إلى عمر بن عبد الله يطلب مصراً ينزله من أمصار الأندلس الغربية التي كانت ركاباً لملوك المغرب في جهادهم.

وخاطبني أنا في ذلك، فكنت له نعم الوسيلة عند عمر، حتى تم قصده من ذلك، وتجافى عن رندة وأعمالها، فنزلها وتملكها، وكانت دار هجرته، وركاب فتحه، وملك منها الأندلس أواسط ثلاث وستين وسبعمائة واستوحشت أنا من عمر إثر ذلك كما مر، وارتحلت إليه معولاً على سوابقي عنده، فغرب في المكافأة كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الرحلة إلى الأندلس

ولما أجمعت الرحلة إلى الأندلس بعثت بأهلي وولدي إلى أخوالهم بقسنطينة، وكتبت لهم إلى صاحبها السلطان أبي العباس من حفدة السلطان أبي يحيى وأني امر على الأندلس وأجيز إليه من هنالك.

وسرت إلى سبتة فرضة المجاز، وكبيرها يومئذ الشريف أبو العباس أحمد بن الشريف الحسني ذو النسب الواضح السالم من الريبة عند كافة أهل المغرب، انتقل سلفه إلى سبتة من صقلية، وأكرمهم بنو العزفي أولاً وصاهروهم، ثم عظم صيتهم في البلد فتنكروا لهم وغربهم يحيى العزفي آخرهم إلى الجزيرة، فاعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق فأسروهم.

وانتدب السلطان أبو سعيد إلى فديتهم رعاية لشرفهم، فبعث إلى النصارى في ذلك فأجابوه.

وفادى هذا الرجل وأباه على ثلاثة آلاف دينار، ورجعوا إلى سبتة وانقرض بنو العزفي ودولتهم، وهلك والد الشريف وصار هو إلى رياسة الشورى.

ولما كانت واقعة القيروان، وخلع أبو عنان أباه واستولى على المغرب، وكان بسبتة عبد الله بن علي الوزير والياً من قبل السلطان أبي الحسن، فتمسك بدعوته، ومال أهل البلد إلى السلطان أبي عنان وبث فيهم الشريف دعوته، فثاروا بالوزير وأخرجوه ووفدوا على أبي عنان وأمكنوه من بلدهم، فولى عليها من عظماء دولته سعيد بن موسى العجيسي كافل تربيته في صغره وأفرد هذا الشريف برياسة الشورى في سبتة فلم يكن يقطع أمر دونه، ووفد على السلطان بعض الأيام فتلقاه من الكرامة بما لا يشاركه فيه أحد من وفود الملوك والعظماء.

ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان وبعد وفاته، وكان معظماً وقور المجلس، هش اللقاء كريم الوفادة، متحلّياً بالعلم والأدب، منتحلاً للشعر غاية في الكرم وحسن العهد، وسذاجة النفس، ولما مررت به سنة أربع وستين وسبعمائة أنزلني ببيته إزاء المسجد الجامع، ورأيت منه ما لا يقدر مثله من الملوك، وأركبني الحراقة ليلة سفري يباشر دحرجتها إلى الماء بيده، إغراباً في الفضل والمساهمة، وحططت بجبل الفتح وهو يومئذ لصاحب المغرب، ثم خرجت منه إلى غرناطة وكتبت للسلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني، وليلة بت بقرب غرناطة على بريد منها، لقيني كتاب ابن الخطيب يهنئني بالقدوم، ويؤنسني ونصه:

حللت حلول الغيث في البلد المحل ... على الطائر الميمون والرحب والسهل

يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه ... من الشيخ والطفل المهدّإ والكهل

لقد نشأت عندي للقياك غبطة ... تنسي اغتباطي بالشبيبة والأهل

وودي لا يحتاج فيه لشاهد ... وتقريري المعلوم ضرب من الجهل

أقسمت بمن حجت قريش لبيته وقبر صرفت أزمة الأحياء لبيته ونور ضربت الأمثال بمشكاته وزيته لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية، والعارفة الوارفة، واللطيفة المطيفة بين رجع الشباب يقطر ماء، ويرف نماء، ويغازل عيون الكواكب، فضلاً عن الكواعب، إشارة وإيماء، بحيث لا الوخط يلم بسياج لمته، أو يقدح ذباله في ظلمته، أو يقدم حواريه في ملته، من الأحابش وأمته.

وزمانه روح وراح، ومغدى في النعيم ومراح، وقصف صراح ورقى وجراح، وانتخاب واقتراح، وصدور ما بها إلا

انشراح، ومسرات تردفها أفراح، وبين قدومك خليع الرسن ممتعاً، والحمد لله باليقظة والوسن، محكماً في نسك الجنيد أو فتك الحسن، ممتعاً بظرف المعارف، مالئاً أكف الصيارف ماحياً بأنوار البراهين شبه الزخارف، لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه، وأعياني ثمنه، وأجرت سحاب دمعي دمنه.

فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي وملكني أزمة آرابي وغبطني بمائي وترابي، ومألف أترابي، وقد أغصني بلذيذ شرابي، ووقع على سطوره المعتبرة إضرابي.

وعجلت هذه مغبطة بمناخ المطية، منتهى الطية وملتقى للسعود غير البطية وتهني الآمال الوثيرة الوطية فما شئت من نفوس عاطشة إلى ريك، متجملة بزيك، عاقلة خطا مهريك ومولى مكارمه، نشيدة أمثالك، ومظان مثالك، وسيصدق الخبر ما هنالك، ويسع فضل مجدك في التخلف عن الإصحار لا بل للقاء من وراء البحار والسلام.

ثم أصبحت من الغد قادماً على البلد وذلك ثامن ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة وقد اهتز السلطان لقدومي، وهيأ لي المنزل من قصوره بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائي تحفياً وبراً، ومجازاة بالحسنى.

ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك، وخلع علي وانصرفت.

وخرج الوزير ابن الخطيب فشيعني إلى مكان نزلي، ثم نظمني في علية أهل مجلسه، واختصني بالنجي في خلوته، والمواكبة في ركوبه والمواكلة والمطايبة والفكاهة في خلوات أنسه، وأقمت على ذلك عنده، وسفرت عنه سنة خمس وستين وسبعمائة إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ، بتره بن الهنشة بن أدفونش لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدوة بهدية فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة، فلقيت الطاغية بإشبيلية وعاينت آثار سلفي بها، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتباط بمكاني، وعلم أولية سلفنا بإشبيلية وأثنى علي عنده طبيبه إبراهيم بن زررر اليهودي المقدم في الطب والنجامة وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان وقد استدعاه يستطبه، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس.

ثم نزع بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم إلى الطاغية، فأقام عنده ونظمه في أطبائه، فلما قدمت أنا عليه أثنى علي عنده، فطلب الطاغية مني حينئذ المقام عنده، وأن يرد علي تراث سلفي بإشبيلية وكان بيد زعماء دولته، فتفاديت من ذلك بما قبله.

ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفت عنه، فزودني وحملني واختصني ببغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين، أهديتهما إلى السلطان فأقطعني قرية إلبيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة وكتب بها منشوراً كان نصه ثم حضرت ليلة المولد النبوي لخامسة قدومي، وكان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة وإنشاد الشعر اقتداء بملوك المغرب، فأنشدته ليلتئذ:

حي المعاهد كانت قبل تحييني ... بواكف الدمع يرويها ويظميني
إن الأُلى نزحت داري ودارهم ... تحملوا القلب في آثارهم دوني
وقفت أنشد صبراً ضاع بعدهم ... فيهم وأسأل رسماً لا يناجيني
أمثل الربع من شوق فألثمه ... وكيف والفكر يدنيه ويقصيني
وينهب الوجد مني كل لؤلؤة ... ما زال قلبي عليها غير مأمون
سقت جفوني مغاني الربع بعدهم ... بالدمع وقف على أطلاله الجون
قد كان للقلب داعي الهوى شغل ... لو أن قلبي إلى السلوان يدعوني
أحبابنا هل لعهد الوصل مدكر ... منكم وهل نسمة عنكم تحييني
ما لي وللطيف لا يعتاد زائره ... وللنسيم عليلاً لا يداويني
يا أهل نجد وما نجد وساكنها ... حسناً سوى جنة الفردوس والعين
أعندكم أنني ما مر ذكركم ... إلا انثنيت كأن الراح تثنيني
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكم ... شوقاً ولولاكم ما كان يصبيني
يا نازحاً والمنى تدنيه من خلدي ... حتى لأحسبه قرباً يناجيني
أسلى هواك فؤادي عن سواك وما ... سواك يوماً بحال عنك يسليني
ترى الليالي أنستك إدكاري يا ... من لم تكن ذكره الأيام تنسيني

ومنها في وصف الإيوان الذي بناه لجلوسه بين قصوره

يا مصنعاً شيدت منه السعود حمى ... لا يطرق الدهر مبناه بتوهين
صرح يحار لديه الطرف مفتتناً ... فيما يروقك من شكل وتلوين
بعداً لإيوان كسرى إن مشورك ... السامي لأعظم من تلك الأواوين
ودع دمشق ومغناها فقصرك ذا ... أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

ومنها في التعريض بمنصرفي من العدوة:

من مبلغ عني الصحب الأُلى تركوا ... ودي وضاع حماهم إذ أضاعوني
أني أويت من العليا إلى حرم ... كادت مغانيه بالبشرى تحييني
وأنني ظاعناً لم ألق بعدهم ... دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكيني
لا كالتي أخفرت عهدي ليالي إذ ... أقلب الطرف بين الخوف والهون
سقياً ورعياً لأيامي التي ظفرت ... يداي منها بحظ غير مغبون
ارتاد منها ملياً لا يماطلني ... وعداً وأرجو كريماً لا يعنيني
وهاك منها قواف طيها حكم ... مثل الأزاهر في طي الرياحين
تلوح إن جليت دراً وإن تليت ... تثني عليك بأنفاس البساتين
عانيت منها بجهدي كل شاردة ... لولا سعودك ما كادت تواتين
يمانع الفكر عنها ما تقسمه ... من كل حزن بطي الصدر مكنون

لكـن بسعدك ذلت لي شـواردها فرضـت منهـا بتحبير وتزيـين
بقيـت دهـرك في أمـن وفي دعـة ودام ملكـك في نصـر وتمكـين

وأنشدته سنة خمس وستين وسبعمائة في إعذار ولـده، والصنيع الذي احتفل لهم فيه، ودعا إليه الجفلى من نواحي الأندلس ولم يحضرني منها إلا ما أذكره:

صحا الشوق لولا عبرة ونحيب وذكرى تجد الوجد حين تثوب
وقلب أبى إلا الوفاء بعهده وإن نزحت دار وبان حبيب
و لله مني بعد حادثة النوى فؤاد لتذكار العهود طروب
يؤرقه طيف الخيال إذا سرى وتذكي حشاه نفحة وهبوب
خليلي لا تسعدا فدعا الأسى فإني لما يدعو الأسى لمجيب
ألماً على الأطلال يقض حقوقها من الدمع فياض الشؤون سكوب
ولا تعذلاني في البكاء فإنها حشاشة نفسي الدموع تذوب

ومنها في تقدم ولده للأعذار من غير نكول:

فيمم منه الحفل لا متقاعس لخطب ولا نكس اللقاء هيوب
وراح كما راح الحسام من الوغى تروق حلاه والفرند خضيب
شواهد أهدتهن منك شمائل وخلق بصفو المجد منك مشوب

ومنها في الثناء على ولديه:

هما النيران الطالعان على الهدى بآيات فتح شأنهن عجيب
شهابان في الهيجا غمامان في الندى تسح المعالي منهما وتصوب
يدان لبسط المكرمات نماهما إلى المجد فياض اليدين وهوب

وأنشدته ليلة المولد الكريم من هذه السنة:

أبى الطيف أن يعتاد إلا توهما فمن لي بأن ألقى الخيال المسلما
وقد كنت أستهديه لو كان نافعي وأستمطر الأجفان لو تنقع الظما
ولكن خيال كاذب وطماعة تعلل قلباً بالأماني متيما
أيا صاحبي نجواي والحب لوعة تبيح بشكواها الضمير المكتما
خذا لفؤادي العهد من نفس الصبا وظبي النقا والبان من أجرع الحمى
الا صنع الشوق الذي هو صانع فحبي مقيم اقصر الشوق أوسما
وإني ليدعوني السلو تعللا وتنهاني الأشجان أن أتقدما
لمن دمن أقفرن إلا هواتفا تردد في أطلالهن الترنما
عرفت بها سيما الهوى وتنكرت فمجت على آياتها متوسما
وذو الشوق يعتاد الربوع دوارسا ويعرف آثار الديار توهما
تأوبني والليل بيني وبينه وميض بأطراف الثنايا تضرما
أجد لي العهد القديم كأنه أشار بتذكار العهود فافهما
عجبت لمرتاع الجوانح خافق بكيت له خلف الدجى وتبسما
وبت أرويه كؤوس مدامعي وبات يعاطيني الحديث عن الحمى
وصافحته عن رسم دار بذي الغضا لبست بها ثوب الشبيبة معلما
لعهدي بها تدني الظباء أوانسا وتطلع في آفاقها الغيد أنجما

أحن إليها حيث سار بي الهوى وأنجد رحلي في البلاد وأتهما

ولما استقر، واطمأنت الدار، وكان من السلطان الاغتباط والاستئثار، وكثر الحنين إلى الأهل والتذكار، أمر باستقدام أهلي من مطرح اغترابهم بقسنطينة، فبعث عنهم من جاء بهم إلى تلمسان، وأمر قائد الأسطول بالمرية، فسار لإجازتهم في أسطوله، واحتلوا بالمرية.

واستأذنت السلطان في تلقيهم، وقدمت بهم على الحضرة بعد أن هيأت لهم المنزل والبستان ودمنة الفلح، وسائر ضروريات المعاش.

وكتب الوزير ابن الخطيب عندما قاربت الحضرة، وقد كتبت إليه أستأذنه في القدوم، وما أعتمده في أحواله:

سيدي، قدمت بالطير الميامين على البلد الأمين، واستضفت الرفاء إلى البنين، ومتعت بطول السنين.

وصلتني البراءة المعربة عن كثب اللقاء، ودنو المزار، وذهاب البعد، وقرب الدار، وأستفهم سيدي عما عندي في القدوم على المخدوم، والحق أن يتقدم سيدي إلى الباب الكريم في الوقت الذي يجد المجلس الجمهوري لم يفض حجيجه، ولا صوح بهيجه ويصل الأهل بعده إلى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم، واختاره اليمن قبل اختيارهم والسلام.

ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان، واشتماله علي، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر.

وشممت منه رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة، وتحكمه في سائر أحوالها، وجاءتني كتب السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية بأنه استولى عليها في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة واستدعاني إليه، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال إليه.

وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاء لمودته، فارتمض لذلك، ولم يسعه إلا الإسعاف فودع وزود وكتب لي مرسوم بالتشييع من إملاء الوزير ابن الخطيب نصه:

هذا ظهير كريم، تضمن تشييعاً وترفيعاً وإكراماً وإعظاماً، وكان لعمل الصنيعه ختاماً، وعلى الذي أحسن تماماً، وأشاد به للمعتمد به بالاغتباط الذي راق قساماً وتوفر إقساماً وأعلن له بالقبول إن نوى بعد النوى رجوعاً أو آثر على الظعن المزمع مقاماً.

أمر به، وأمضى العمل بمقتضاه، وحسبه الأمير أبو عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيد الله أمره، وأعز نصره، وأعلى ذكره، للولي الجليس، الحظي المكين، المقرب الأود الأحب الفقيه الجليل الصدر الأوحد، الرئيس العلم الفاضل الكامل، المرفع الأسمى الأظهر الأرضى الأخلص الأصفى أبي زيد عبد الرحمن بن الشيخ الجليل، الحسيب الأصيل المرفع المعظم، الصدر الأوحد، الأسمى الأفضل الموقر المبرور أبي يحيى أبي بكر ابن الشيخ الجليل الكبر، الرفيع الماجد، القائد الحظي، المعظم الموقر، المبرور المرحوم أبي عبد الله بن خلدون.

وصل الله له أسباب السعادة، وبلغه من فضله أقصى الإرادة، أعلن بما عنده، أيده اللّه من الاعتقاد الجميل في جانبه المرفع، وإن كان غنياً عن الإعلان، وأعرب عن معرفته بمقداره في الحسبان، العلماء الرؤساء الأعيان، وأشاد باتصال رضاه عن مقاصده البرة وشيمه الحسان، من لدن وفد بابه، وفادة العز الراسخ البنيان، وأقام المقام الذي عين له رفعة المكان، وإجلال الشان، إلى أن عزم على قصد وطنه، أبلغه اللّه ذلك في ظل اليمن والأمان، وكفالة الرحمن بعد الاغتباط المربي على الخبر بالعيان، والتمسك بجواره بجهد الإمكان، ثم قبول عذره بما جبلت الأنفس عليه من الحنين إلى المعاهد والأوطان.

بعد أن لم يدخر عنه كرامة رفيعة، ولم يحجب عنه وجه صنيعه، فولاه القيادة والسفارة وأحله جليسا معتماً بالإشارة وألبسه من الحظوة والتقريب أبهى الشارة، وجعل محله من حضرته مقصوداً بالمثل معنيّاً بالإشارة، ثم أصحبه تشييعاً يشهد بالضنانة بفراقه، ويجمع له بر الوجهة من جميع آفاقه، ويجعله بيده رتيمه خنصر ووثيقة سامع أو مبصر، فمهما لوى أخدعه إلى هذه البلاد بعد قضاء وطره، وتمليه من نهمة سفره، أو نزع به حسن العهد وحنين الود، فصدر العناية به مشروح، وباب الرضا والقبول مفتوح، وأما عهده من الحظوة والبر ممنوح.

فما كان القصد في مثله من أمجاد الأولياء ليتحول، ولا الاعتقاد الكريم ليتبدل، ولا الأخير من الأحوال لينسخ الأول.

على هذا فليطو ضميره، وليرد ما شاء نميره ومن وقف عليه من القواد والأشياخ والخدام براً وبحراً على اختلاف الخطط والرتب، وتباين الأحوال والنسب، أن يعرفوا حق هذا الاعتقاد في كل ما يحتاج إليه من تشييع ونزول، وإعانة وقبول، واعتناء موصول إلى أن يكمل الغرض، ويؤدي من امتثال هذا الأمر الواجب المفترض بحول الله وقوته.

وكتب في التاسع عشر من جمادى الأولى عام ست وستين وسبعمائة.

وبعد التاريخ العلامة بخط السلطان، ونصها «صح هذا».

الرحلة من الأندلس إلى بجاية وولاية الحجابة بها على الاستبداد

كانت بجاية ثغراً لإفريقية في دولة بني أبي حفص من الموحدين.

ولما صار أمرهم للسلطان أبي يحيى بكر بن منهم، واستقل بملك إفريقية، ولى في ثغر بجاية ابنه الأمير أبا زكريا، وفي ثغر قسنطينة ابنه الأمير عبد الله.

وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ينازعونه في أعماله، ويجمدون العساكر على بجاية، ويجلبون على قسنطينة إلى أن تمسك السلطان أبو بكر بذمة من السلطان أبي الحسن ملك المغرب الأقصى من بني مرين، وله الشفوف على سائر ملوكهم.

وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان فأخذ بمخنقها سنتين أو أزيد، وملكها عنوة وقتل سلطانها أبا تاشفين وذلك سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وخف ما كان على الموحدين من إصر بني عبد الواد، واستقامت دولتهم.

ثم هلك أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبي يحيى بقسنطينة سنة أربعين وسبعمائة، وخلف سبعة من الولد، كبيرهم أبو زيد عبد الرحمن، ثم أبو العباس أحمد، فولى الأمير أبا زيد مكان أبيه في كفالة نبيل مولاه ثم توفي الأمير أبو زكريا ببجاية سنة ست وأربعين وخلف ثلاثة من الولد كبيرهم أبو عبد الله محمد، وبعث السلطان أبو بكر ابنه الأمير أبا حفص عليها، فمال أهل بجاية إلى الأمير أبي عبد الله بن أبي زكريا، وانحرفوا عن الأمير عمر وأخرجوه.

وبادر السلطان فرقع هذا الخرق بولاية أبي عبد الله عليهم كما طلبوه.

ثم توفي السلطان أبو بكر منتصف سبع وأربعين وسبعمائة وزحف أبو الحسن إلى إفريقية فملكها، ونقل الأمراء من بجاية وقسنطينة إلى المغرب.

واقطع لهم هنالك إلى أن كانت حادثة القيروان، وخلع السلطان أبو عنان أباه.

وارتحل من تلمسان إلى فاس، فنقل معه هؤلاء الأمراء أهل بجاية وقسنطينة، وخلطهم بنفسه، وبالغ في تكرمتهم.

ثم صرفهم إلى ثغورهم الأمير أبا عبد اللّه أولا، وإخوته من تلمسان، وأبا زيد وإخوته من فاس ليستبدوا بثغورهم، ويخذلوا الناس عن السلطان أبي الحسن، فوصلوا إلى بلادهم وملكوها بعد أن كان الفضل ابن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مرين، فانتزعوها منه.

واستقر أبو عبد اللّه ببجاية حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصامدة، وزحف أبو عنان إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فهزم ملوكها من بني عبد الواد وأبادهم، ونزل المدية وأطل على بجاية، وبادر الأمير أبو عبد اللّه للقائه، وشكا إليه ما يلقاه من زبون الجند والعرب، وقلة الجباية.

وخرج له عن ثغر بجاية فملكها، وأنزل عماله بها، ونقل الأمير أبا عبد اللّه معه إلى المغرب، فلم يزل عنده في حفاية وكرامة.

ولما قدمت على السلطان أبي عنان آخر سنة خمس وخمسين وسبعمائة واستخلصني، نبضت عروق السوابق بين سلفي وسلف الأمير أبي عبد اللّه، واستدعاني للصحابة، فأسرعت وكان السلطان أبو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك.

ثم كثر المنافسون ورفعوا إلى السلطان وقد طرقه مرض أرجف له الناس، فرفعوا له أن الأمير أبا عبد اللّه اعتزم على الفرار إلى بجاية، وأني عاقدته على ذلك، على أن يوليني حجابته، فانبعث لها السلطان وسطا بنا واعتقلني نحواً من سنتين إلى أن هلك.

وجاء السلطان أبو سالم واستولى على المغرب، ووليت كتابة سره، ثم نهض إلى تلمسان وملكها من يد بني عبد الواد، وأخرج منها أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، ثم اعتزم على الرجوع إلى فاس، وولى على تلمسان أبا زيان محمد بن أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي تاشفين وأمده بالأموال والعساكر من أهل وطنه ليدافع أبا حمو عن تلمسان ويكون خالصة له، وكان الأمير أبو عبد اللّه صاحب بجاية معه كما ذكرناه، والأمير أبو العباس صاحب قسنطينة بعد أن كان بنو مرين حاصروا أخاه أبا زيد بقسنطينة أعواماً تباعاً.

ثم خرج لبعض مذاهبه إلى بونة، وترك أخاه أبا العباس بها فخلعه، واستبد بالأمر دونه وخرج إلى العساكر المجمرة عليها من بني مرين، فهزمهم وأثخن فيهم.

ونهض السلطان إليه من فاس سنة ثمان وخمسين وسبعمائة فتبرأ منه أهل البلد وأسلموه، فبعثه إلى سبتة في البحر، واعتقله بها حتى إذا ملك السلطان أبو سالم سبتة عند إجازته من الأندلس سنة ستين وسبعمائة أطلقه من الاعتقال وصحبه إلى دار ملكه ووعده برد بلده عليه.

فلما ولى أبا زيان على تلمسان أشار عليه خاصته ونصحاؤه بأن يبعث هؤلاء الموحدين إلى ثغورهم، فبعث أبا عبد اللّه إلى بجاية وقد كان ملكها عمه أبو إسحاق صاحب تونس، ومكفول بن تافراكين من يد بني مرين.

وبعث أبا العباس إلى قسنطينة، وبها زعيم من زعماء بني مرين، وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها فملكها لوقته، وسار الأمير أبو عبد اللّه إلى بجاية فطال إجلابه عليها، ومعاودته حصارها، ولج أهلها في الامتناع منه مع السلطان أبي إسحاق.

وقد كان لي المقام المحمود في بعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم، وتوليت كبر ذلك مع خاصة السلطان أبي سالم وكبار أهل مجلسه، حتى تم القصد من ذلك، وكتب لي الأمير أبو عبد اللّه بخطه عهدا بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه، ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد.

وكان لي أخ اسمه يحيى، أصغر مني، فبعثته مع الأمير أبي عبد اللّه حافظاً للرسم، ورجعت مع السلطان إلى فاس.

ثم كان ما قدمته من إنصرافي إلى الأندلس والمقام بها إلى أن تنكر الوزير ابن الخطيب وأظلم الجو بيني وبينه.

وبينما نحن في ذلك، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبد اللّه على بجاية من يد عمه في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة وكتب الأمير أبو عبد اللّه يستقدمني، فاعتزمت على ذلك، ونكر السلطان أبو عبد اللّه بن الأحمر ذلك مني، لا يظنه لسوى ذلك، إذ لم يطلع على ما كان بيني وبين الوزير ابن الخطيب، فأمضيت العزم، ووقع منه الإسعاف والبر والألطاف.

وركبت البحر من ساحل المرية منتصف ست وستين وسبعمائة ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي، وتهافت أهل البلد علي من كل أوب يمسحون أعطافي، ويقبلون يدي، وكان يوما مشهوداً.

ثم وصلت إلى السلطان فحيا وفدى، وخلع وحمل،

وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي، واستقلت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه، وقدمني للخطابة بجامع القصبة وأنا مع ذلك، عاكف بعد انصرافي من تدبير الملك غدوة، إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة، لا أنفك عن ذلك.

ووجدت بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة فتنة، أحدثتها المشاحة في حدود الأعمال من الرعايا والعمال، وشبَّ نار هذه الفتنة عرب أوطانهم من الدواودة من رياح، تنفيقا لسوق الزبون يمترون به أموالهم، فكانوا في كل سنة يجمع بعضهم لبعض فالتقوا سنة ست وستين وسبعمائة بفرجيوه، وانقسم العرب عليهما، وكان يعقوب بن علي مع السلطان أبي العباس، فانهزم السلطان أبو عبد الله ورجع إلى بجاية مفلولاً بعد أن كنت جمعت له أموالاً كثيرة أنفق جميعها في العرب، ولما رجع وأعوزته النفقة، فخرجت بنفسي إلى قبائل البربر بجبال بجاية المتمنعين من المغارم منذ سنين، فدخلت بلادهم واستبحت حماهم، وأخذت رهنهم على الطاعة، حتى استوفيت منهم الجباية، وكان لنا في ذلك مدد وإعانة.

ثم بعث صاحب تلمسان إلى السلطان أبي عبد الله يطلب منه الصهر، فأسعفه بذلك ليصل يده به على ابن عمه، وزوجه ابنته، ثم نهض السلطان أبو العباس سنة سبع وستين وسبعمائة وجاس أوطان بجاية، وكاتب أهل البلد، وكانوا وجلين من السلطان أبي عبد الله بما كان يرهف الحد لهم، ويشد وطأته عليهم، فأجابوه إلى الانحراف عنه.

وخرج السلطان أبو عبد الله يروم مدافعته، ونزل جبل ليزو معتصماً به، فبيته السلطان أبو العباس في عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد بن رياح بمكانه ذلك، بإغراء ابن صخر وقبائل سدويكش، وكبسه في مخيمه وركض هارباً، فلحقه وقتله، وسار إلى البلد بمواعدة أهلها.

وجاءني الخبر بذلك، وأنا مقيم بقصبة السلطان وقصوره، وطلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر والبيعة لبعض من أبناء السلطان، فتفاديت من ذلك، وخرجت إلى السلطان أبي العباس فأكرمني وحباني، وأمكنته من بلده، وأجرى أحوالي كلها على معهودها.

وكثرت السعاية عنده في والتحذير من مكاني، وشعرت بذلك، فطلبت الإذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك، فأذن لي بعد لأي، وخرجت إلى العرب، ونزلت على يعقوب بن علي.

ثم بدا للسلطان في أمري، وقبض على أخي واعتقله ببونة، وكبس بيوتنا، يظن بها ذخيرة وأموالاً فأخفق ظنه.

ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن علي وقصدت بسكرة لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني، وبين أبيه، وساهم في الحادث بماله وتجاهه.

مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان

كان السلطان أبو حمو قد التحم ما بينه وبين السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية بالصهر في ابنته، وكانت عنده بتلمسان.

فلما بلغه مقتل أبيها واستيلاء السلطان أبي العباس ابن عمه صاحب قسنطينة على بجاية، أظهر الامتعاض لذلك، وكان أهل بجاية قد توجسوا الخيفة من سلطانهم بإرهاف حده، وشدة سطوته فانحرفوا عنه باطناً وكاتبوا ابن عمه بقسنطينة كما ذكرناه.

ودسوا للسلطان أبي حمو بمثلها يرجون الخلاص من صاحبهم بأحدهما.

فلما استولى السلطان أبو العباس وقتل ابن عمه رأوا أن جرحهم قد اندمل، وحاجتهم قد قضيت، فاعصوصبوا عليه، وأظهر السلطان أبو حمو الامتعاض للواقعة يسر منها حسواً في ارتغاء، ويجعله ذريعة للاستيلاء على بجاية، بما كان يرى نفسه كفؤها بعده وعديده، وما سلف من قومه في حصارها، فسار من تلمسان بحر الشوك والمدر حتى خيم بالرشة من ساحتها، ومعه أحياء زغبة بجموعهم وظعائنهم من لدن تلمسان إلى بلاد حصين من بني عامر وبني يعقوب وسويد والديالم والعطاف وحصين.

وانحجر أبو العباس بالبلد في شرذمة من الجند أعجله السلطان أبو حمو عن استيعاب الحشد، ودافع أهل البلد أحسن الدفاع، وبعث السلطان أبو العباس عن أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو من قسنطينة، كان معتقلاً بها، وأمر مولاه وقائد عسكره بشيراً أن يخرج معه في العساكر، وساروا حتى نزلوا بني عبد الجبار قبالة معسكر أبي حمو، وكانت رجالات زغبة قد وجموا من السلطان، وأبلغهم النذير أنه إن ملك بجاية اعتقلهم بها، فراسلوا أبا زيان وركبوا إليه، واعتقدوا معه وخرج رجل البلد بعض الأيام من أعلى الحصن، ودفعوا شرذمة كانت مجمرة إزائهم، فاقتلعوا خباءهم، وأسهلوا من تلك العقبة إلى بسيط الرشة، وعاينهم العرب بأقصى مكانهم من المعسكر فأجفلوا، وتتابع الناس في الإنجفال حتى أفردوا السلطان في مخيمه فحمل رواحله وسار، وغصت الطرق بزحامهم، وتراكموا بعضهم على

بعض، فهلك منهم عوالم.

وأخذهم سكان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية، وقد غشيهم الليل، فتركوا أزودتهم ورحالهم.

وخلص السلطان ومن خلص منهم بعد عصب الريق، وأصبحوا على منجاة.

وقذفت بهم الطرق من كل ناحية إلى تلمسان، وكان السلطان أبو حمو قد بلغه خروجي من بجاية، وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي ومخلفي، فكتب إلي يستقدمني قبل هذه الواقعة، وكانت الأمور قد اشتبهت، فتفاديت بالأعذار، وأقمت بأحياء يعقوب بن علي.

ثم ارتحلت إلى بسكرة فأقمت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزني.

فلما وصل السلطان أبو حمو إلى تلمسان وقد جزع للواقعة، أخذ في استلاف قبائل رياح ليجلب بهم مع عساكره على أوطان بجاية، وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستتباعهم، وملك زمامهم، ورأى أن يعول علي في ذلك، واستدعاني لحجابته وعلامته، وكتب بخطه مدرجة في الكتاب نصها:

«الحمد لله على ما أنعم، والشكر لله على ما وهب، ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، حفظه الله، على أنك تصل إلى مقامنا الكريم لما أخصصناكم به من الرتبة المنيعة، والمنزلة المنيفة، وهو قلم خلافتنا، والانتظام في سلك أوليائنا، وقد أعلمناكم بذلك، وكتب بخط يده عبد الله المتوكل على الله، موسى بن يوسف لطف الله به وخار له.

وبعده بخط الكاتب ما نصه: بتاريخ السابع عشر من شهر رجب الفرد الذي من عام تسع وستين وسبعمائة، عرفنا الله خيره.

ونص الكتاب الذي هذه مدرجته، وهو بخط الكاتب: أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد ووالى رعايتكم، إنا قد ثبت عندنا، وصح لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا، والانقطاع إلى جنابنا، والتشيع قديماً وحديثاً لنا، مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكم، ومعارف فقتم فيها نظراءكم، ورسوخ قدم في الفنون العلمية والآداب العربية.

وكانت خطة الحجابة ببابنا العلي -أسماه الله- أكبر درجات أمثالكم، وأرفع الخطط لنظرائكم، قرباً منا، واختصاصاً بمقامنا، واطلاعاً على خفايا أسرارنا، آثرناكم بها إيثاراً، وقدمناكم لها اصطفاء واختياراً، فاعملوا على الوصول إلى بابنا العلي أسماه الله لما لكم فيه من التنويه، والقدر النبيه، حاجبا لعلي بابنا، ومستودعاً لأسرارنا، وصاحبا الكريمه علامتنا، إلى ما يشاكل ذلك من الأنعام العميم، والخير الجسيم، والاعتناء والتكريم.

لا يشارككم مشارك في ذلك، ولا يزاحمكم أحد، وإن وجد من أمثالك فاعملوه وعولوا عليه، والله تعالى يتولاكم، ويصل سراءكم، ويوالي احتفاءكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وتأدت إلي هذه الكتب السلطانية على يد سفير من وزرائه جاء إلى أشياخ الدواودة في هذا الغرض، فقمت له في ذلك أحسن قيام وشايعته أحسن مشايعة، وحملتهم على إجابة داعي السلطان والبدار إلى خدمته.

وانحرف كبراؤهم عن خدمة السلطان أبي العباس إلى خدمته، والاعتمال في مذاهبه، واستقام غرضه من ذلك، وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ببونه، وقدم علي ببسكرة، فبعثته إلى السلطان أبي حمو كالنائب عني في الوظيفة، متفادياً عن تجشم أهوالها بما كنت نزعت عن غواية الرتب.

وطال علي إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس، فوصل إليه الأخ فاستكفى به في ذلك، ودفعه إليه.

ووصلني مع هذه الكتب السلطانية كتاب رسالة من الوزير أبي عبد الله بن الخطيب من غرناطة يتشوق إلي، وتأدى إلى تلمسان على يد سفراء السلطان ابن الأحمر، فبعث إلي به من هنالك ونصه:

بنفسي وما نفسي علي بهينة ... فينزلني عنها المكاس بأثمان
حبيب نأى عيني وصم لأنني ... وراش سهام البين عمداً فأصماني
وقد كان هم الشيب -لا كان- كافيا ... فقد ادني لما ترحل هممان
شرعت له من دمع عيني موارداً ... فكدر شربي بالفراق وأظماني
وأرعيته من حسن عهدي جميمه ... فأجدب آمالي وأوحش أزماني
حلفت على ما عنده لي من رضى ... قياساً بما عندي فأحنث أيماني
وإني على ما نالني منه من قلى ... لأشتاق من لقياه نغبة ظمآن
سألت جنوني فيه تقريب عرشه ... فقست بجن الشوق جن سليمان
إذا ما دعا داع من القوم باسمه ... وثبت وما استثبت شيمة هيمان
وتالله ما أصغيت فيه لعاذل ... تحاميته حتى ارعوى وتحاماني
ولا استشعرت نفسي برحمة عابد ... تظلل يوماً مثله عبد رحمان
ولا شعرت من قبله بتشوق ... تخلل منها بين روح وجثمان

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج، وأما الصبر فسال

به أية درج، بعد لأن تجاوز اللوى والمنعرج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج، وإني بالصبر على إبر الدبر لا بل الضرب الهبر، ومطاولة اليوم والشهر، تحت حكم القهر، ومن للعين أن تسلو سلو المقصر عن إنسانها المبصر، أو تذهل ذهول الزاهد عن سرها الرائي والمشاهد، وفي الجسد مضغة يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه وإن نزحت، وإذا كان الفراق هو الحمام الأول، فعلام المعول أعيت مراوضة الفراق عمل الراق، وكادت لوعة الاشتياق أن تفضي إلى السياق.

تركتموني بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا
أقرع سني ندماً تارة واستميح الدمع أحيانا

وربما تعللت بغشيان المعاهد الخالية، وجددت رسوم الأسى بمباكرة الرسوم البالية، أسائل نون النؤى عن أهليه، وميم الموقد المهجور عن مصطليه، وثاء الأثافي المثلثة عن منازل الموحدين، وأحار وبين تلك الأطلال حيرة الملحدين، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، كلفت لعمر الله بسال عن جفوني المؤرقة، ونائم عن همومي، المتجمعة والمتفرقة، ظعن عن ملال، لا متبرماً منا بشر خلال.

وكدر الوصل بعد صفائه، وضرج النصل بعد عهد وفائه:

اقــل اشتياقا أيهــا القلــب إنمــا رأيتك تصفي الود من ليس جازيا

فها أنا أبكي عليه بدم أساله، وأندب في ربع الفراق آسى له، وأشكو إليه حال قلب صدعه، وأودعه من الوجد ما أودعه، لما خدعه، ثم قلاه وودعه، وأنشق ريّاه أنف ارتياح قد جدعه، واستعديه على ظلم ابتدعه.

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي

فلولا عسى الرجاء ولعله، لا بل شفاعة المحل الذي حله، لنشرت ألوية العتب وبثت كتائبها كمناء في شعاب الكتب، تهز من الألفات رماحاً خزر الأسنة وتوتر من النونات أمثال القسي المرنة، وتقود من مجموع الطرس والنقس بلقا تردي في الأعنة، ولكنه أوى إلى الحرم الأمين، وتفيأ ظلال الجوار المؤمن من معرة الغوار عن الشمال واليمين، حرم الحلال المزنية، والظلال اليزنية، والهمم السنية، والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدنية، حيث الرفد الممنوح، والطير الميامن يزجر لها السنوح والمثوى الذي إليه مهما تقارع الكرام على الضيفان، حول جوابي الجفان، فهو الجنوح:

كتب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا

ومن حل بتلك المثابة فقد اطمأن جنبه، وتغمد بالعفو ذنبه، و لله در القائل:

فوحقّه لقد انتدبت لوصفه بالبخل لولا أن حمصاً داره
بلد متى اذكره تهتج لوعتي وإذا قدحت الزند طار شراره

اللّهم غفراً، وأين قراره النخيل، من مثوى الأقلف البخيل، ومكذبة المخيل، وأين ثانيه هجر، من متبوأ من الحد وفجر:

من انكر غيثاً منشؤه في الأرض ينوء بمخلفها
فبنان بني مزني مزن تنهل بلطف مصرفها
مزن مذ حل بيسكرة يوماً نطقت بمصحفها
شكرت حتى بعبارتها وبمعناها وبأحرفها
ضحكت بأبي العباس من الأ يام ثنايا زخرفها
وتكسرت الدنيا حتى عرفت منه بمعرفها

بل نقول: يا محل الولد ﴿لا أقسم بهذا البلد. وأنت حل بهذا البلد﴾ لقد حل بينك عرى الجلد، وخلد الشوق بعدك يا ابن خلدون في الصميم من الخلد، فحيا الله زماناً شفيت في قربك زمانته، واجتلت في صدف مجدك جمانته، وقضيت في مرعى خلتك لبانته، وأهلا بروض أظلت أشتات معارفك بانته، فحمائمه بعدك تندب فيساعدها الجندب، ونواسمه ترق فتتغاشى، وعشياته تتخافت وتتلاشى، وأدواحه في ارتباك، وحمائمه في مأتم ذي اشتباك، كأن لم تكن قمر هالات قبابه، ولم يكن أنسك شارع بابه، إلى صفوة الظرف ولبابه، ولم يسبح إنسان عينك في ماء شبابه، فلهفي عليك من درة اختلستها يد النوى، ومطل بردها الدهر ولوى، ونعق الغراب بينها في ربوع الهوى، ونطق بالزجر فما نطق عن الهوى، وبأي شيء يعتاض منك أيتها الرياض، بعد أن طما نهرك الفياض، وفهقت الحياض، ولا كان الشانىء المشنوء والجرب المهنوء من قطع لیل أغار على الصبح فاحتمل، وشارك في الذم الناقة والجمل، واستأثر جنحه ببدر النادي لما كمل، نشر الشراع فراع، وواصل الإسراع، فكأنما هو تمساح النيل ضايق الأحباب في البرهة، واختطف لهم من الشط نزهة العين، وعين النزهة، ولجج بها، والعيون تنظر، والغمر عن الاتباع يحظر، فلم يقدر إلا على الأسف، والتماح الأثر المتنسف، والرجوع بملء العيبة من الخيبة، ووقر الجسرة من الحسرة، إنما نشكو إلى الله البث والحزن، ونستمطر من عبراتنا المزن، وبسيف الرجاء نصول، وإذا اشرعت للبأس أسنة ونصول:

ما أقدر الله أن يدني على شحط من داره الحزن ممن داره صول

فإن كان كلم الفراق رغيباً، لما نويت مغيباً، وجللت الوقت الهني تشغيباً، فلعل الملتقى يكون قريباً، وحديثه يروى صحيحاً غريباً.

إيه سيدي! كيف حال تلك الشمايل المزهرة الخمائل،

والشيم الهامية الديم؟ هل يمر ببالها من راعت بالبعد باله، وأخمدت بعاصف البين ذباله؟ أو ترثي لشئون شأنها سكب لا يفتر، وشوق يبت حبال الصبر ويبتر وضنى تقصر عن حلله الفاقعة صنعاء وتستر والأمر أعظم والله يستر، وما الذي يضيرك صين من لفح السموم نضيرك، بعد أن أضرمت وأشعلت وأوقدت، وجعلت، وفعلت فعلتك التي فعلت، إن تترفق بذماء، أو ترد بنغبة ماء، أرماق ظماء، وتتعاهد المعاهد بتحية يشم عليها شذا أنفاسك، أو تنظر إلينا -على البعد- بمقلة حوراء من بياض قرطاسك وسواد أنفاسك، فربما قنعت الأنفس المحبة بخيال زور، وتعللت بنوال منزور، ورضيت لما لم تصد العنقاء بزرزور:

يا من ترحل والرياح لأجله   تشتاق إن هبت شذا رياها
تحيا النفوس إذا بعثت تحية   وإذا عزمت اقرأ «ومن أحياها»

ولئن أحييت بها فيما سلف نفوساً تفديك، والله إلى الخير يهديك، فنحن نقول معشر مواديك «ثني ولا تجعليها بيضة لديك» وعذراً فإني لم أجترئ على خطابك بالفقر الفقيرة، وأدللت لدى حجراتك برفع العقيرة، عن نشاط بعثت مرسومه ولا اغتباط بالأدب تغري بسياسة سوسه، وانبساط أوحى إلي على الفترة ناموسه وإنما هو اتفاق جرته نفثة المصدور، وهناء الجرب المجدور، وإن تعلل به مخارق، فثم قياس فارق، أو لحن غنى به بعد البعد مخارق؛ والذي هيأ هذا القدر وسببه، وسهل المكروه إلي منه وحببه، ما اقتضاه الصنو يحيى، -مد الله حياته، وحرس من الحوادث ذاته- من خطاب ارتشف به لهذه القريحة بلالتها، بعد أن رضي علالتها، ورشح إلى الصهر الحضرمي سلالتها، فلم يسع إلا إسعافه، بما أعافه، فأمليت مجيباً ما لا يعد في يوم الرهان نجيباً، وأسمعته وجيبا لما ساجلت بهذه الترهات سحراً عجيباً، حتى إذا ألف القلم العريان سبحه، وجمح برذون الغزارة فلم أطق كبحه، لم أفق من غمرة غلوه وموقف متلوه، إلا وقد تحيز إلى فتتك معتزا بل معتراً، واستقبلها ضاحكاً مفترا، وهش لها براً، وإن كان من الخجل مصفراً، وليس بأول من هجر، في التماس والوصل ممن هجر، أو بعث التمر إلى هجر، وأي نسب بيني اليوم وبين زخرف الكلام، وإجالة جياد الأقلام، في محاورة الأعلام، بعد أن حال الجريض دون القريض، وشغل المريض عن التعريض، وغلب حتى الكسل، ونصلت الشعرات البيض كأنها الأسل، تروع برقط الحيات، سرب الحياة، وتطرق بذوات الغرر، والشباب عند البيات، والشيب الموت العاجل، وإذا ابيض زرع صبحته المناجل، والمعتبر الأجل، وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده، حكم في الظاهر بإبعاده، وأسره في ملكة عاده، فأغض أبقاك الله، واسمح لمن قصر عن المطمح، وبالعين الكليلة فالمح، واغتنم لباس ثوب الثواب، واشف بعض الجوى بالجواب.

تولاك الله فيما استضفت وملكت، ولا بعدت ولا هلكت، وكان لك أية سلكت، ووسمك في السعادة بأوضح السمات، وأتاح لقاءك من قبل الممات، والسلام الكريم يعتمد حلال ولدي وساكن خلدي، بل أخي وإن اتقيت عتبه وسيدي، ورحمة الله وبركاته، من محبة المشتاق إليه محمد بن عبد الله بن الخطيب في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني من عام سبعين وسبعمائة.

وكان تقدم منه قبل هذه الرسالة كتاب آخر إلي، بعث به إلى تلمسان فتأخر وصوله، حتى بعث به الأخ يحيى عند وفادته على السلطان، ونص الكتاب.

يا سيدي إجلالاً واعتداداً، وأخي وداً واعتقاداً، ومحل ولدي شفقة سكنت مني فؤاداً.

طال علي انقطاع أنبائك، واختفاء أخبارك، فرجوت أن تبلغ النية هذا المكتوب إليك، وتخترق به الموانع دونك، وإن كنت في مباثتك كالعاطش الذي لا يروى، والآكل الذي لا يشبع، شأن من تجاوز الحدود الطبيعية، والعوائد المألوفة، فأنا الآن -بعد إنهاء التحية المطلولة الروض بماء الدموع، وتقرير الشوق القديم اللزيم، وشكوى البعاد الأليم، وسؤال إناحة القرب قبل الفوت من الله ميسر العسير، ومقرب البعيد، أسأل عن أحوالك سؤال أبعد الناس محالاً في مجال الخلوص لك، وأشدهم حرصاً على اتصال سعادتك، وقد اتصل بي في هذه الأيام ما جرى به القدر من تنويع الحال لديك، واستقرارك ببسكرة محل الغبطة بك باللجا إلى تلك الرياسة الزكية، الكريمة الأب، الشهيرة الفضل، المعروفة القدر على البعد، حرسها الله ملجأ للفضلاء، ومخيماً لرجال العلياء، ومهبا لطيب الثناء، بحوله وقوته، وما كل وقت تتاح فيه السلامة فاحمدوا الله على الخلاص، وقاربوا في معاملة الآمال، وضنوا بتلك الذات الفاضلة عن المشاق، وأبخلوا بها عن المتالف، فمطلوب الحريص على الدنيا خسيس، والموانع الحافة جمة، والحاصل حسرة، وبأقل السعي تحصل حاله العافية، والعاقل لا يستنكحه الاستغراق فيما آخره الموت، إنما ينال منه الضروري، ومثلك لا يعجزه -مع التماس العافية- إضعاف ما يرجى به العمر من المآكل والمشرب، وحسبنا الله.

وإن تشوفت لحال المحب تلك السيادة الفذة والبنوة البرة، فالحال حال من جعل الزمام بيد القدر، والسير في مهيع الغفلة، والسبح في تيار الشواغل، ومن وراء الأمور غيب محجوب، وأجل

مكتوب، نؤمل فيه عادة الستر من اللّه، إلا أن الضجر الذي تعلمونه حفظه الناس لما عجزت الحيلة، وأعوز المناص وسدت المذاهب، والشأن اليوم شأن الناس فيما يقرب من الاعتدال.

وفيما يرجع إلى السلطان -تولاه اللّه- على أضعاف ما باشر سيدي من الأغياء في البر، ووصل سبب الالتحام والاشتمال مع الاسقلال وما ينتجه متعود الظهور، وا لحمد لله.

وفما يرجع إلى الأحباب والأولاد فعلى ما علمت إلا أن الشوق مخامر القلوب، وتصور اللقاء مما يزهد في الوطن، وحاضر النعم سنّى اللّه ذلك على أفضل حال، ويسره قبل الارتحال عن دار المحال.

وفيما يرجع إلى الوطن فأحلام النائم خصباً، وهدنة وظهوراً على العدو، وحسبك فافتتاح حصن آشر وبرغة القاطعة بين بلاد الإسلام، ووبذة والعارين وبيغه وحصن السهلة في عام.

ثم دخول بلد إطريرة بنت إشبيلية عنوة، والاستيلاء على ما يناهز خمسة آلاف من السبي ثم فتح دار الملك، ولدة قرطبة: ومدينة جيان عنوة في اليوم الأغر المحجل، وقتل المقاتلة، وسبي الذرية، وتعفية الآثار حتى لا يلم بها العمران، ثم افتتاح مدينة أبدة التي تلف جيان في ملاءتها، دار التجر، والرفاهية والبنى الحافلة، والنعم الثرة، نسأل اللّه -جل وعلا- أن يصل عوائد نصره، ولا يقطع عنا سبب رحمته، وأن ينفع بما أعان عليه من السعي في ذلك والإعانة عليه.

ولم يتزيد من الحوادث إلا ما علمتم من أخذ اللّه لنسمة السوء، وخبث الأرض، المسلوب من أثر الخير: عمر بن عبد اللّه، وتحكم شر الميتة في نفسه، وإتيان النكال على حاشيته، والاستئصال على ذاته، والاضطراب مستول على الوطن بعده، إلا أن الغرب على علاته لا يرجحه غيره.

والأندلس اليوم شيخ غزاتها عبد الرحمن بن علي ابن السلطان أبي علي، بعد وفاة الشيخ أبي الحسن: علي بن بدر الدين رحمه اللّه.

وقد استقر بها -بعد انصراف- سيدي الأمير المذكور، والوزير مسعود بن رحو، وعمر بن عثمان بن سليمان.

والسلطان ملك النصارى بطره قد عاد إلى ملكه بإشبيلية، وأخوه مجلب عليه بقشتالة وقرطبة مخالفة عليه، قائمة بطائفة من كبار النصارى الخائفين على أنفسهم، داعين لأخيه، والمسلمون قد اغتنموا هبوب هذه الريح.

وخرق اللّه لهم عوائد في باب الظهور والخير، لم تكن تخطر في الآمال.

وقد تلقب السلطان -أيده اللّه- بعقب هذه المكيفات «بالغني باللّه» وصدرت عنه مخاطبات بمجمل الفتوح ومفصلها يعظم الحرص على إيصالها إلى تلك الفضائل لو أمكن.

وأما ما يرجع إلى ما يتشوف إليه ذلك الكمال من شغل الوقت، فصدرت تقاييده، وتصانيف يقال فها - بعد ما أعملته تلك السيادة من الانصراف - يا إبراهيم ولا إبراهيم اليوم.

منها: أن كتاباً رفع إلى السلطان في المحبة من تصنيف ابن أبي حجلة من المشارقة أشار الأصحاب بمعارضته فعارضته، وجعلت الموضوع أشرف، وهو محبة اللّه، فجاء كتاباً ادعى الأصحاب غرابته.

وقد وجه إلى المشرق وصحبة كتاب: «تاريخ غرناطة» وغيره من تآليفي.

وتعرف تحبيسه بخانقاه سعيد السعداء من مصر، وانثال الناس عليه، وهو في لطافة الأغراض، يتكلف أغراض المشارقة من ملحه:

سلمت لمصرفي الهوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشاقه
من ينكر دعواي فقل عني له تكفي امرأة العزيز من عشاقه؟

واللّه يرزق الإعانة في انتساخه وتوجيهه.

وصدر عني جزء سميته: (الغيرة على أهل الحيرة) وجزء سميته: «حمد الجمهور على السنن المشهور».

والإكباب على اختصار كتاب (التاج) للجوهري ورد حجمه إلى مقدار الخمس، مع حفظ ترتيبه السهل، واللّه المعين على مشغلة نقطع بها هذه البرهة القريبة البداءة من التتمة، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

والمطلوب المثابرة على تعريف يصل من تلك السيادة والبنوة، إذ لا يتعذر وجود قافل من حج، أو لاحق بتلمسان يبعثها السيد الشريف منها، فالنفس شديدة التعطش، والقلوب قد بلغت من - الشوق والاستطلاع - الحناجر.

واللّه أسأل أن يصون في البعد وديعتي منك لديه، ويلبسك العافية، ويخلصك وإياي من الورطة، ويحملنا أجمعين على الجادة.

ويختم لنا بالسعادة.

والسلام الكريم عوداً على بدء، ورحمة اللّه وبركاته من المحب المتشوق الذاكر الداعي ابن الخطيب، في الثاني من جمادى الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة انتهى.

فأجبته عن هذه المخاطبات، وتفاديت من السجع خشية القصور عن مساجلته فلم يكن شأوه يلحق.

ونص الجواب: سيدي مجداً وعلواً، وواحدي ذخراً مرجواً ومحل والدي براً وحنواً.

ما زال الشوق - مذ نأت بي وبك الدار، واستحكم بيننا البعاد - يرعي سمعي أنباءك، ويخيل إلي من أيدي الرياح تناول رسائلك، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع، وعهد غير مضاع وود ذي أجناس وأنواع، فنشر بقلبي ميت السلو وحشر أنواع المسرات، وقدح للقائك زناد الأمل، ومن الله أسأل الإمتاع بك قبل الفوت على ما يرضيك، ويسني أماني وأمانيك.

وحييته تحية الهائم، لمواقع الغمائم، والمدلج للصباح المتبلج، وأملّ على مقترح الأولياء خصوصا فيك، من اطمئنان الحال، وحسن القرار، وذهاب الهواجس، وسكون النفرة، وعموما في الدولة من رسوخ القدم، وهبوب ريح النصر، والظهور على عدو الله باسترجاع الحصون التي استنقذوها في اعتلال الدولة، وتخريب المعاقل التي هي قواعد النصرانية، غريبة لا تثبت إلا في الحلم وآية من آيات الله، وإن خبيئة هذا الفتح في طي العصور السالفة إلى هذه المدة الكريمة، لدليل على عناية الله بتلك الذات الشريفة، حين ظهرت على يدها خوارق العادة، وما تجدد آخر الأيام من معجزات الملة، وكمل فيها والحمد لله بحسن التدبير ويمن النقيبه، من حميد الأثر، وخالد الذكر، طراز في حلة الخلافة النصرية، وتاج في مفرق الوزارة.

كتبه الله لكم فيما يرضاه الله من عباده.

ووقفت عليه الأشراف من أهل هذا القطر المحروس، وأذعته في الملأ سروراً لعز الإسلام وإظهاراً للنعمة، واستطراداً لذكر الدولة المولوية بما تستحقه من طيب الثناء والتماس الدعاء، والحديث بنعمتها، والإشادة بفضلها على الدول السالفة والخالفة وتقدمها، فانشرحت الصدور حباء، وامتلأت القلوب إجلالاً وتعظيماً، وحسنت الآثار اعتقاداً ودعاء.

وكان كتاب سيدي لشرف تلك الدولة عنواناً، ولما عساه يستعجم من نعتي في مناقبها ترجمانا، زاده الله من فضله، وأمتع المسلمين ببقاءه وبثثته شكوى الغريب من الشوق المزعج، والحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفاً لتجافي عن مهاد الأمن والتقويض عن دار العزيز المولى المنعم، والسيد الكريم، والبلد الطيب، والإخوان البررة ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾، وإن تشوفت السيادة الكريمة إلى الحال، فعلى ما علمتم سيراً مع الأمل، ومغالبة للأيام على الحظ، وإقطاعاً للغفلة جانب العمر.

هل نافعي والجد في صبب مري مع الآمال في صعد

رجع الله بنا إليه، ولعل في عظتكم النافعة شفاء هذا الداء، العياء إن شاء الله، على أن لطف الله مصاحب وجوار هذه الرياسة المزنية، وحسبك بها علمية عصمة وافية، صرفت وجه القصد إلى ذخيرتي التي كنت أعتدها منهم كما علمتم، على حين تفاقم الخطب، وتلون الدهر، والإفلات من مظان النكبة، وقد رتعت حولها بعدما جرته الحادثة بمهلك السلطان المرحوم على يد ابن عمه، قريعه في الملك وقسيمه في النسب، والتياث الجاه، وتغير السلطان، واعتقال الأخ المخلف، واليأس منه لولا تكييف الله في نجائه، والعيث بعده في المنزل والولد، واغتصاب الضياع المقتناة من بقايا ما متعت به الدولة النصرية أبقاها الله من النعمة، فآوى إلى الوكر، وساهم في الحادث وأشرك في الجاه والمال، وأعان على نوائب الدهر وطلب الوتر حين رأى الدهر قلاني وأمل الملوك استخلاصي، وتجاوروا في إتحافي والله المخلص من عقال الآمال، والمرشد إلى نبذ هذه الحظوظ المورطة.

وأنبأني سيدي بما صدر عنه من التصانيف الغريبة والرسائل البليغة في هذه الفتوحات الجليلة، وبودي لو وقع الإتحاف بها أو بعضها، فلقد عاودني الندم على ما فرطت.

وأما أخبار هذا القطر فلا زيادة على ما علمتم من استقرار السلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى بتونس مستبداً بأمره بالحضرة بعد مهلك شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين القائم بأمره، رحمة الله عليه مضايقاً في جباية الوطن وأحكامه بالعرب، المستظهرين بدعوته، مصانعا لهم بوفرة على أمان الرعايا والسابلة.

لو أمكن حسن السياسة جهد الوقت، ومن انتظام بجاية محل دولتنا في أمر صاحب قسطنينة وبونة غلاباً كما علمتم، محملا الدولة بصرامته وقوة شكيمته فوق طوقها، من الاستبداد والضرب على أيدي المستغلين من الأعراب، منتقض الطاعة أكثر أوقاته لذلك إلا ما شمل البلاد من تغلب العرب ونقص الأرض من الأطراف والوسط، وخمود ذبال الدول في كل جهة وكل بداية فإلى تمام.

وأما أخبار المغرب الأقصى والأدنى فلديكم طلعه.

وأما المشرق فأخبار الحاج هذه السنة من اختلاله، وانتقاض سلطانه، وانتزاء الجفاة على كرسيه، وفساد المصانع والسقايات المعدة لوفد الله وحاج بيته، ما يسخن العين ويطيل البث، حتى زعموا أن الهيعة اتصلت بالقاهرة أياماً.

وكثر الهرج في أزقتها وأسواقها لما وقع بين أسندمر المتغلب بعد يلبغا الخاصكي، وبين سلطانه ظاهر القلعة، من الجولة التي كانت دائرتها عليه، أجلت عن زهاء الخمسمائة قتلى، من حاشيته، وموالي يلبغا، وتقبض على الباقين، فأودع منهم السجون، وصلب الكثير، وقتل أسندمر في محبسه، وألقى زمام الدولة بيد كبير من موالي السلطان فقام بها مستبداً وقادها مستقلاً، وبيد الله تصاريف الأمور ومظاهر الغيوب جل وعلا.

ورغبتي من سيدي أبقاه الله أن لا يغب خطابه عني متى أمكن، يصل بذلك منته الجمة، وأن يقبل عني أقدام تلك الذات المولوية، ويعرفه بما عندي من التشيع لسلطانه، والشكر لنعمته، وأن ينهي عني لحاشيته وأهل اختصاصه التحية المختلسة من أنفاس الرياض، كبيرهم وصغيرهم.

وقد تأدى مني إلى حضرته الكريمة خطاب على يد الحاج نافع سلمه الله تناوله من الأخ يحيى عند لقائه إياه بتلمسان بحضرة السلطان أبي حمو أيده الله، فربما يصل وسيدي يوضح من ثنائي ودعائي ما عجز عنه الكتاب، والله يبقيكم ذخراً للمسلمين وملاذاً للآملين بفضله، والسلام عليكم، وعلى من لاذ بكم من السادة الأولاد المناجيب، والأهل والحاشية والأصحاب، من المحب فيكم المعتد بكم شيعة فضلكم ابن خلدون ورحمة الله وبركاته.

عنوانه سيدي وعمادي ورب الصنائع والأيادي والفضائل الكريمة الخواتم والمبادي إمام الأمة، علم الأئمة، تاج الملة فخر العلماء الجلة عماد الإسلام، مصطفى الملوك الكرام، نكتة الدول، كافل الإمامة، تاج الدول أثير الله، ولي أمير المسلمين، الغني بالله أيده الله، الوزير أبو عبد الله بن الخطيب أبقاه الله، وتولى عن المسلمين جزاه.

وكتب إلي من غرناطة: يا سيدي ووليي وأخي ومحل ولدي! كان الله لكم حيث كنتم ولا أعدمكم لطفه وعنايته، لو كان مستقركم بحيث يتأتى اليه ترديد رسول، واو إيفاد متطلع أو توجيه نائب، لرجعت على نفسي باللائمة في إغفال حقكم، ولكن العذر ما علمتم، واحمدوا الله على الاستقرار في كنف ذلك الفاضل الذي وسعكم كنفه، وشملكم فضله، شكر ا لله حسبه الذي لم يخلف وشهرته التي لم تكدر.

وإني اغتنمت سفر هذا الشيخ وافد الحرمين بمجموع الفتوح في إيصال كتابي هذا، وبودي لو وقفتم على ما لديه من البضاعة التي أنتم رأسها وصدرها، فيكون لكم في ذلك بعض أنس، وربما تأدى ذلك في بعضه مما لم يختم عليه وظواهر الأمور نحيل عليه في تعريفكم بها، وأما البواطن فمما لا تتأتى كثرة وجمامة، وأخص بالصاد ما أظن تشوفكم إليه حالي، فاعلموا أنني قد بلغ بي الماء الزبى واستولى علي سوء المزاج المنحرف، وتوالت الأمراض، وأعوز العلاج لبقاء السبب، والعجز عن دفعه، وهي هذه المداخلة جعل الله عاقبتها إلى خير، ولم أترك وجها من وجوه الحيلة إلا بذلته، فما أغنى ذلك عني شيئاً، ولولا أنني بعدكم شغلت الفكر بهذا التأليف مع الزهد، وبعد العهد، وعدم الإلماع بمطالعة الكتب، لم يتمش حالي من طريق فساد الفكر إلى هذا الحد، وآخر ما صدر عني كناش سميته باستنزال اللطف الموجود في أسر الوجود.

أمليته في هذه الأيام التي أقيم فيها رسم النيابة عن السلطان في سفره إلى الجهاد بودي لو وقفتم عليه، وعلى كتابي في المحبة، وعسى الله أن ييسر ذلك.

ومع هذا كله والله ما قصرت في الحرص على إيصال مكتوب إليكم إما من جهة أخيكم أو من جهة السيد الشريف أبي عبد الله، حتى من المغرب إذا سمعت الركب متوجهاً منه، فلا أدري هل بلغكم شيء من ذلك أم لا، والأحوال كلها على ما تركتموها عليه، وأحبابكم بخير على ما علمتم من الشوق والتشوف، والارتماض لمفارقتكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والله يحفظكم ويكون لكم، ويتولى أموركم، والسلام عليكم ورحمة الله.

من المحب الواحش الشيخ ابن الخطيب في غرة ربيع الثاني من عام إحدى وسبعين وسبعمائة.

وبباطنه مدرجة نصها:

سيدي رضي الله عنكم استقر بتلمسان في سبيل تقلب ومطاوعة مزاج تعرفونه صاحبنا المقدم في صنعة الطب أبو عبد الله الشقوري.

فإذا اتصل بكم فأعينوه على ما يقف عليه اختياره، وهذا لا يحتاج معه إلى مثلكم.

عنوانه سيدي ومحل أخي الفقيه الجليل الصدر الكبير المعظم الرئيس الحاجب العالم الفاضل الوزير ابن خلدون.

وصل الله سعده وحرس مجده بمنه.

وإنما طولت بذكر هذه المخاطبات، وإن كانت فيما يظهر خارجة عن غرض الكتاب لأن فيها كثيراً من أخباري وشرح حالي فيستوفي ذلك منها ما يتشوف إليه من المطالعين للكتاب.

ثم إن السلطان أبا حمو لم يزل معتملاً في الإجلاب على بجاية واستلاف قبائل رياح لذلك، ومعولاً على مشايعتي فيه، ووصل يده مع ذلك بالسلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي بكر صاحب تونس من بني أبي حفص، لما كان بينه وبين أبي العباس صاحب بجاية وقسنطينة وهو ابن اخيه من العداوة التي تقتضيها مقاسمة النسب والملك، فكان يوفد رسله عليه في كل وقت، ويمرون بي وأنا ببسكرة.

فأكد الوصلة بمخاطبة كل منهما، وكان أبو زيان ابن عم السلطان أبي حمو بعد إجفاله عن بجاية واختلال معسكره قد سار في أثره إلى تلمسان، وأجلب على نواحيها فلم يظفر بشيء، وعاد إلى بلاد حصين فأقام بينهم، واشتملوا عليه، ونجم النفاق في سائر أعمال المغرب الأوسط واختلف أحياء زغبة على السلطان، وانتبذ الكثير عنه إلى القفر.

ولم يزل يستألفهم حتى اجتمع له الكثير منهم، فخرج في عساكره منتصف تسع وستين وسبعمائة إلى حصين وأبي زيان، واعتصموا بجبل تيطرى، وبعث إلي في استنفار الدواودة للأخذ بحجزتهم من جهة الصحراء، وكتب يستدعي أشياخهم يعقوب بن علي كبير أولاد محمد، وعثمان بن يوسف كبير أولاد سباع بن يحيى.

وكتب إلى ابن مزني قعيدة وطنهم بإمدادهم في ذلك، فأمدهم، وسرنا مغربين إليه حتى نزلنا القطفا قبلة تيطرى، وقد أحاط السلطان به من جهة التل، على أنه إذا فرغ من شأنهم سار معنا إلى بجاية، وبلغ الخبر إلى صاحب بجاية أبي العباس فعسكر بمن استألف من بقي من قبائل رياح، وعسكر بطرف ثنية القصاب المفضية إلى المسيلة.

وبينما نحن على ذلك اجتمع المخالفون من زغبة، وهم خالد بن عامر كبير بني عامر، وأولاد عريف كبراء سويد، ونهضوا إلينا بمكاننا من القطفا، فأجفلت أحياء الدواودة، وتأخرنا إلى المسيلة.

ثم إلى الزاب، وسارت زغبة إلى تيطرى واجتمعوا مع أبي زيان وحصين وهجموا على معسكر أبي حمو ففلوه ورجع منهزماً إلى تلمسان.

ولم يزل من بعد ذلك على استلاف زغبه ورياح يؤمل الظفر بوطنه وابن عمه، والكرة على بجاية عاماً فعاماً، وأنا على حالي في مشايعته، وايلاف ما بينه وبين الدواودة، والسلطان أبي إسحاق صاحب تونس وابنه خالد من بعده.

ثم دخلت زغبة في طاعته واجتمعوا على خدمته ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين وبجاية، وذلك في أخريات إحدى وسبعين وسبعمائة فوفدت عليه بطائفة من الدواودة أولاد عثمان بن يوسف بن سليمان لنشارف أحواله، ونطالعه بما يرسم لهم في خدمته، فلقيناه بالبطحاء، وضرب لنا موعداً بالجزائر، انصرف به العرب إلى أهليهم، وتخلفت بعدهم لقضاء بعض الأغراض واللحاق بهم، وصليت به عيد الفطر على البطحاء، وخطبت به وأنشدته عند انصرافه من المصلى تهنئة بالعيد وغرضه:

هذي الديار فحيهن صباحا	وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال إن لم تروها	عبرات عينك واكفاً ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقاً	أن لا يرين مع البعاد شحاحا
إيه عن الحي الجميع وربما	طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا
ومنازل للظاعنين استعجمت	حزناً وكانت بالسرور فصاحا

وهي طويلة، ولم يبق في حفظي منها إلا هذا.

وبينما نحن في ذلك بلغ الخبر بأن السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى من بني مرين قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمراكش، وكان أخذ بمخنقه منذ حول، وساقه إلى فاس، فقتله بالعذاب، وأنه عازم على النهوض إلى تلمسان لما سلف من السلطان أبي حمو أثناء حصار السلطان عبد العزيز لعامر في جبلة، من الإجلاب على ثغور المغرب، ولحين وصول هذا الخبر، أضرب السلطان أبو حمو على ذلك الشأن الذي كان فيه، وكر راجعا إلى تلمسان.

وأخذ في أسباب الخروج إلى الصحراء مع شيعة بني عامر من أحياء زغبة، فاستألف وجمع وشد الرحال وقضى عيد الأضحى، وطلبت منه الإذن في الانصراف إلى الأندلس لتعذر الوجهة إلى بلاد رياح، وقد أظلم الجو بالفتنة، وانقطعت السبل، فأذن لي وحملني رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمر.

وانصرفت إلى المرسى بهنين، وجاءه الخبر بنزول صاحب المغرب تازا في عساكره، فأجفل بعدي من تلمسان ذاهباً إلى الصحراء على طريق البطحاء.

وتعذر علي ركوب البحر من هنين فاقصرت، وتأدى الخبر إلى السلطان عبد العزيز بأني مقيم بهنين، وأن معي وديعة احتملتها إلى صاحب الأندلس، تخيل ذلك بعض الغواة، وكتب إلى السلطان عبد العزيز فأنفذ من وقته سرية من تازا تعترضني لاسترجاع تلك الوديعة، واستمر هو إلى تلمسان، ووافتني السرية

بهنين وكشفوا الخبر، فلم يقفوا على صحته، وحملوني إلى السلطان فلقيته قريباً من تلمسان، واستكشفني عن ذلك الخبر فأعلمته بيقينه، وعنفني على مفارقة دارهم، فاعتذرت له بما كان من عمر بن عبد الله المستبد عليهم، وشهد لي كبير مجلسه، وولي أبيه وابن وليه ونزمار بن عريف، ووزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، واحتفت الألطاف، وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية، وأفهمني أنه يروم تملكها، فهونت عليه السبيل إلى ذلك فسر به، وأقمت تلك الليلة في الاعتقال، ثم أطلقني من الغد فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين ونزلت بجواره مؤثراً للتخلي والانقطاع للعلم، لو تركت له.

مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بني عبد الواد

ولما دخل السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واستولى عليها، وبلغ خبره إلى أبي حمو وهو بالبطحاء، فأجفل من هنالك، وخرج في قومه وشيعته من بني عامر ذاهباً، إلى بلاد رياح، فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن غازي في العساكر لاتباعه.

وجمع عليه أحياء زغبة والمعقل باستئلاف وليه ونزمار وتدبيره.

ثم أعمل السلطان نظره ورأى أن يقدمني أمامه إلى بلاد رياح لأوطد أمره، وأحملهم على مناصرته وشفاء نفسه من عدوه بما كان السلطان أيس من استتباع رياح وتصريفهم فيما يريده من مذاهب الطاعة، فاستدعاني من خلوتي بالعباد عند رباط الولي أبي مدين.

وأنا قد أخذت في تدريس العلم واعتزمت على الانقطاع، فآنسني وقربني، ودعاني لما ذهب إليه من ذلك، فلم يسعني إلا إجابته، وخلع علي وحملني، وكتب إلى شيوخ الدواودة بامتثال أمري وما ألقيه إليهم من أوامره، وكتب إلى يعقوب بن علي وابن مزني بمساعدتي على ذلك، وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمو من بين أحياء بني عامر، ويحولوه إلى حي يعقوب بن علي، فودعته وانصرفت في عاشوراء سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة فلحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء، ولقيته ودفعت إليه كتاب السلطان، وتقدمت أمامه وشيعني ونزمار يومئذ وأوصاني بأخيه محمد، وقد كان أبو حمو قبض عليه عندما أحس منهم بالخلاف، وأنهم يرومون الرحلة إلى المغرب.

وأخرجه معه من تلمسان مقيداً واحتمله في معسكره، فأكد على ونزمار يومئذ في المحاولة على استخلاصه بما أمكن، وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سويد يبذرق بي ويتقدم إلى أحياء حصين بإخراج أبي زيان من بينهم، فسرنا جميعاً وانتهينا إلى أحياء حصين وأخبرهم فرح بن عيسى بوصية عمه ونزمار إليهم فنبذوا إلى أبي زيان عهده، وبعثوا معه منهم من أوصله إلى بلاد رياح.

ونزل على أولاد يحيى بن علي بن سباع، وتوغلوا به في القفر، واستمريت أنا ذاهباً إلى بلاد رياح، فلما انتهيت إلى المسيلة ألفيت السلطان أبا حمو وأحياء رياح معسكرين قريباً منها في وطن أولاد سباع بن يحيى من الدواودة، وقد تسايلوا إليه، وبذل فيهم العطاء ليجتمعوا إليه، فلما سمعوا بمكاني بالمسيلة، جاؤوا إلي فحملتهم على طاعة السلطان عبد العزيز، وأوفدت أعيانهم وشيوخهم على الوزير أبي بكر بن غازي، فلقوه ببلاد الديالم عند نهر واصل، فأتوه طاعتهم، ودعوه إلى دخول بلادهم في اتباع عدوه، ونهض معهم.

وتقدمت أنا من المسيلة إلى بسكرة، فلقيت بها يعقوب بن علي، واتفق هو وابن مزني على طاعة السلطان، وبعث ابنه محمداً للقاء أبي حمو، وأمير بني عامر خالد بن عامر يدعوهم إلى نزول وطنه، والبعد به عن بلاد السلطان عبد العزيز، فوجده متدلياً من المسيلة إلى الصحراء.

ولقيه على الدوسن وبات ليلته يعرض عليهم التحول من وطن أولاد بني سباع إلى وطنهم بشرقي الزاب.

وأصبح يومه كذلك، فما راعهم آخر النهار إلا انتشار العجاج خارجاً إليهم من أفواه الثنية، فركبوا يستشرقون، وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثنية، وعساكر بني مرين والمعقل وزغبة متتالية أمام الوزير أبي بكر بن غازي قد دل بهم الطريق وفد أولاد سباع الذين بعثتهم من المسيلة، فلما أشرفوا على المخيم أغاروا عليه مع غروب الشمس، فأجفل بنو عامر وانتهب مخيم السلطان أبي حمو ورحائله وأمواله.

ونجا بنفسه تحت الليل، وتمزق شمل ولده وحرمه حتى خلصوا إليه بعد أيام، واجتمعوا بقصور مصاب من بلاد الصحراء وامتلأت أيدي العساكر والعرب من نهابهم، وانطلق محمد بن عريف في تلك الهيعة وأطلق الموكلون به وجاء إلى الوزير وأخيه ونزمار وتلقوه بما يجب له، وأقام الوزير أبو بكر بن غازي بالدوسن أياماً أراح فيها.

وبعث إليه ابن مزنى بطاعته وأرغد له من الزاد والعلوفة، وارتحل راجعاً إلى المغرب، وتخلفت بعده أياماً عند أهلي ببسكرة، ثم ارتحلت إلى السلطان في وفد عظيم من الدواودة، يقدمهم أبو دينار أخو يعقوب بن علي وجماعة من أعيانهم.

فسابقنا الوزير إلى تلمسان وقدمنا على السلطان فوسعنا من حبائه وتكرمته، ونزله ما بعد العهد بمثله.

ثم جاء من بعدنا الوزير أبو بكر بن غازي على الصحراء بعد أن مر بقصور بني عامر هنالك، فخربها وكان يوم قدومه على السلطان يوماً مشهوداً، وأذن بعدها لوفود الدواودة بالانصراف إلى بلادهم.

وقد كان ينتظر بهم قدوم الوزير ووليه ونزمار بن عريف، فودعوه وبالغ في الإحسان إليهم وانصرفوا إلى بلادهم.

ثم أعمل نظره في إخراج أبي زيان من بين أحياء الدواودة لما خشي من رجوعه إلى حصين، فوامرني في ذلك، وأطلقني إليهم في محاولة انصرافه عنهم، فانطلقت لذلك.

وكان أحياء حصين قد توجسوا الخيفة من السلطان، وتنكروا له، وانصرفوا إلى أهلهم بعد مرجعهم من غزاتهم مع الوزير، وبادروا باستدعاء أبي زيان من مكانه عند أولاد يحيى بن علي، وأنزلوه بينهم، واشتملوا عليه، وعادوا إلى الخلاف الذي كانوا عليه أيام أبي حمو واشتعل المغرب الأوسط ناراً.

ونجم صبي من بيت الملك في مغراوة وهو حمزة بن علي بن راشد، فر من معسكر الوزير ابن غازي أيام مقامه عليها، فاستولى على شلف وبلاد قومه، وبعث السلطان وزيره عمر بن مسعود في العساكر لمنازلته، وأعيا داؤه وانقطعت أنا ببسكرة، وحال ذلك ما بيني وبين السلطان إلا بالكتاب والرسالة.

وبلغني في تلك الأيام وأنا ببسكرة مفر الوزير ابن الخطيب من الأندلس وقدومه على السلطان بتلمسان حين توجس الخيفة من سلطانه، بما كان له من الاستبداد عليه، وكثرة السعاية من البطانة فيه، فأعمل الرحلة إلى الثغور المغربية لمطالعتها بإذن سلطانه، فلما حاذى جبل الفتح قبل الفرضة دخل إلى الجبل وبيده عهد السلطان عبد العزيز إلى القائد هنالك بقبوله.

وأجاز البحر من حينه إلى سبتة، وسار إلى السلطان بتلمسان، وقدم عليهما في يوم مشهود، وتلقاه السلطان من الحظوة والتقريب وإدرار النعم بما لا يعهد مثله.

وكتب إلي من تلمسان يعرفني بخبره، ويلم ببعض العتاب على ما بلغه من حديثي الأول بالأندلس، ولم يحضرني الآن كتابه

فكان جوابي عنه ما نصه:

الحمد لله ولا قوة إلا بالله، ولا راد لما قضاه الله.

يا سيدي ونعم الذخر الأبدي، والعروة الوثقى التي اعتقلتها يدي أسلم عليك سلام القدوم على المخدوم، والخضوع للملك المتبوع، لا! بل أحييكم تحية المشوق للمعشوق، والمدلج للصباح المتبلج، وأقرر ما أنتم أعلم بصحيح عقدي فيه من حبي لكم، ومعرفتي بمقداركم، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم، والثناء عليكم، والإشادة في الانفاق بمناقبكم ديدناً معروفاً، وسجية راسخة يعلم الله وكفى بالله شهيداً.

وبهذا كما في علمكم قسماً ما اختلف لي فيه أولاً وآخراً، ولا شاهداً ولا غائباً، وأنتم أعلم بما في نفسه وأكبر شهادة في خفايا ضميري، ولو كنت ذاك فقد سلف من حقوقكم، وجميل أخذكم، واجتلاب الحظ لو هيأه القدر، لمساعيكم وإيثاري بالمكان من سلطانكم ودولتكم، ما يستلين معاطف القلوب، ويستل سخائم الهواجس، فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة أو إحقاق ظن، ولو تعلق بقلب ساق حر ذرء وذرء فحاش لله أن يقدح في الخلوص لكم، أو يرجح سوابقكم، إنما هو خبيئة الفؤاد إلى الحشر أو اللقاء.

وو الله وجميع ما يقسم به، ما اطلع على مستكنه مني غير صديقي، وصديقكم الملابس، كان لي ولكم، الحكيم الفاضل العلم أبي عبد الله الشقوري أعزه الله، نفثة مصدور، ومباثة خلوص، إذ أنا أعلم الناس بمكانه منكم، وقد علم ما كان مني حين مفارقة صاحب تلمسان واضمحلال أمره من إجماع الأمر على الرحلة إليكم، والخفوف إلى حاضرة البحر للإجازة إلى عدوتكم تعرضت فيها للتهم، ووقفت بمجال الظنون، حتى تورطت في الهلكة بما ارتفع عني مما لم آته، ولا طويت العقد عليه، لولا حلم مولانا الخليفة وحسن رأيه في وثبات بصيرته، لكنت في الهالكين الأولين، كل ذلك شوقاً إلى لقائكم، وتمثلاً لأنسكم، فلا تظنوا بي الظنون، ولا تصدقوا فيّ التوهمات، فأنا من عملتم صداقة وسذاجة وخلوصاً، واتفاق ظاهر وباطن، أثبت الناس عهداً وأحفظهم غيباً، وأعرفهم بوزن الإخوان، ومزايا الفضلاء، ولأمر ما تأخر كتابي من تلمسان، فإني كنت أستشعر ممن استضافني ريباً بخطاب سواه، خصوصاً جهتكم، لقديم ما بين الدولتين من الاتحاد والمظاهرة، واتصال اليد مع أن الرسول تردد إلي وأعلمني اهتمامكم واهتمام السلطان تولاه الله باستكشاف ما انبهم من حالي، فلم أترك شيئاً مما أعلم تشوقكم إليه إلا وكشفت له قناعه، وأمنته على بلاغه، ولم أزل بعد انتياش مولانا الخليفة لدمائي وجذبه بضبعي، سابحاً

في تيار الشواغل كما علمتم القاطعة حتى عن الفكر.

وسقطت إلي بمحل خدمتي من هذه القاصية، أخبار خلوصكم إلى المغرب قبل وصول راجلي إلى الحضرة، غير جليه ولا ملتئمة، ولم يتعين ملقي العصى، ولا مستقر النوى، فأرجيت الخطاب إلى استجلائها، وأفدت في كتابكم العزيز علي الجاري على سنن الفضل، ومذاهب المجد، غريب ما كيفه القدر من تنويع الحال لديكم، وعجبت من تأتي أملكم الشارد فيه كما كنا نستبعده عند المفاوضة، فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدول على أحسن الوجوه، وأجمل المخارج الحميدة العواقب في الدنيا والدين، العائدة بحسن المآل في المخلف: من أهل وولد ومتاع وأثر بعد أن رضتم جموح الأيام وتوقلتم قلل العز وقدتم الدنيا بجذافيرها وأخذتم بآفاق السماء على أهلها.

وهنيئاً فقد نالت نفسكم التواقة أبعد أمانيها، ثم تاقت إلى ما عند الله، وأشهد لما ألهمتم للإعراض عن الدنيا، ونزع اليد من حطامها عند الإصحاب والإقبال، ونهى الآمال إلا جذباً وعناية من الله وحباً، وإذا أراد الله أمراً يسر أسبابه.

واتصل بي ما كان من تحفي المثابة المولوية بكم واهتزاز الدولة لقدومكم، ومثل تلك الخلافة، أيدها الله من يثابر على المفاخر، ويستأثر بالأخاير، وليت ذلك عند إقبالكم على الحظ، وأنسكم باجتلاب الآمال، حتى يحسن المتاع بكم ويتجمل السرير الملوكي بمكانكم، فالظن إن هذا الباعث الذي هزم الآمال ونبذ الحظوظ، وهون المفارق العزيز يسومكم الفرار إلى الله حتى يأخذ بيدكم إلى فضاء المجاهدة، ويستوي بكم على جودي الرياضة، والله يهدي للتي هي أقوم.

وكأني بالأقدام بتلت والبصائر بإلهام الحق صقلت والمقامات خلفت، بعد أن استقبلت، والعرفان شيمة أنواره وبوارقه، والوصول انكشفت حقائقه لما ارتفعت عوائقه.

وأما حالي والظن بكم الاهتمام بها، والبحث عنها فغير خفية بالباب المولوي أعلاه الله، ومظهرها في طاعته، ومصدرها عن أمره، وتصاريفها في خدمته، والزعم أني قمت المقام المحمود في التشيع والانحياش، واستمالة الكافة إلى المناصحة، ومخالطة القلوب للولاية، وما يتشوفه مجدكم، ويتطلع إليه فضلكم، واهتمامكم من خاصتها في النفس والولد، فجهينة خبره مؤدي كتابي إليكم، ناشيء تأديبي وثمرة تربيتي، فسهلوا له الإذن، وألينوا له جانب النجوى حتى يؤدي ما عندي وما عندكم، وخذوه بأعقاب الأحاديث أن يقف عند مبادئها، واتمنوه على ما تحدثون، فليس بظنين على السر.

وتشوفي بما يرجع به إليكم سيدي وصديقي وصديقكم المغرب في المجد والفضل، المساهم في الشدائد، كبير المغرب، وظهير الدولة، أبو يحيى بن أبي مدين، ـ كان الله له ـ في شأن الولد والمخلف تشوف الصديق لكم، الضنين على الأيام بقلامة الظفر من ذات يدكم، فاطلعوني طلع ذلك، ولا يهمكم فالفراق الواقع حسن، والسلطان كبير، والأثر جميل، والعدو الساعي قليل وحقير، والنية صالحة، والعمل خالص، ومن كان لله كان الله له.

واستطلاع الرياسة المزنية الكافلة ـ كافأ الله يدها البيضاء ـ عني وعنكم إلى مثله من أحوالكم استطلاع من يسترجح وزانكم، ويشكر الزمان على ولاوه بمثلكم.

وقد قررت من لعلومه من مناقبكم، وبعد شأوكم وغريب منحاكم، ما شهدت به آثاركم الشائعة الخالدة في الرسائل، المتأدية على ألسنة الصادر والوارد من الكافة، من حمل الدولة، واستقامة السياسة، ووقفته على سلامكم، وهو يراجعكم بالتحية، ويساهمكم بالدعاء.

وسلامي على سيدي، وفلذة كبدي ومحل ولدي، الفقيه الزكي الصدر أبي الحسن نجلكم، أعزه الله وقد وقع مني موقع البشرى حلوله من الدولة بالمكان العزيز والرتبة النابهة، والله يلحفكم جميعاً رداء العافية، والستر ويمهد لكم محل الغبطة والأمن، ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته، ويجريكم على عوائد لطفه وعنايته، والسلام الكريم يخصكم من المحب الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم، عبد الرحمن بن خلدون ورحمة الله وبركاته.

في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبعمائة.

وكان بعث إلي مع كتابه نسخة كتابه إلى سلطانه ابن الأحمر، صاحب الأندلس عندما دخل جبل الفتح، وصار إلى إيالة بني مرين، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب، فرأيت أن أثبته هنا، وإن لم يكن من غرض التأليف لغرابته، ونهايته في الجودة، وإن مثله لا يهمل من مثل هذا الكتاب، مع ما فيه من زيادة الاطلاع على أخبار الدول في تفاصيل أحوالها ونص الكتاب:

بانوا فمن كان باكيا يبكي	هذي ركاب السرى بلا شك
فمن ظهور الركاب معملة	إلى بطون الربى إلى الفلك
تصدع الشمل مثلما انحدرت	إلى صبوب جواهر السلك
من النوى قبل لم أزل حذراً	هذا النوى جل مالك الملك

مولاي كان الله لكم، وتولى أمركم.

أسلم عليكم سلام الوداع، وأدعو الله في تيسر اللقاء

والاجتماع، بعد التفرق والانصداع، وأقرر لديكم أن الإنسان أسير الأقدار، مسلوب الاختيار، متقلب في حكم الخواطر والأفكار، وأن لا بد لكل أول من آخر، وأن التفرق لما لزم كل اثنين بموت أو في حياة، ولم يكن منه بد، كان خير أنواعه الواقعة بين الأحباب، ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور.

ويعلم مولاي حال عبده منذ وصل إليكم من المغرب بولدكم، ومقامه لديكم بحال قلق، ولولا تعليلكم ووعدكم وارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم، وقطع مراحل الأيام حريصاً على استكمال سنكم، ونهوض ولدكم واضطلاعكم بأمركم، وتمكن هدنة وطنكم، وما تحمل في ذلك من ترك غرضه لغرضكم، وما استقر بيده من عهودكم، وأن العبد الآن لما تسبب لكم في الهدنة من بعد الظهور والعز، ونجح السعي وتأتى لسنين كثيرة الصلح، ومن بعد أن لم يبق لكم بالأندلس مشغب من القرابة، وتحرك لمطالعة الثغور الغربية، وقرب من فرضة المجاز واتصال الأرض ببلاد المشرق، طرقته الأفكار وزعزعت صبره رياح الخواطر، وتذكر أشراف العمر على التمام، وعواقب الاستعراق، وسيرة الفضلاء عند شمول البياض، فغلبته حال شديدة هزمت التعشق بالشمل الجميع، والوطن المليح، والجاه الكبير، والسلطان القليل النظير، وعمل بمقتضى قوله: «موتوا قبل أن تموتوا» فإن صحت الحال المرجو من إمداد الله، تنقلت الأقدام إلى أمام، وقوي التعلق بعروة الله الوثقى، وإن وقع العجز، وافتضح العزم، فالله يعاملنا بلطفه، وهذا المرتكب مرام صعب، لكن سهله علي أمور: منها أن الانصراف لما لم يكن منه بد، لم يتعين على غير هذه الصورة، إذ كان عندكم من باب المحال، ومنها أن مولاي لو سمح لي بغرض الانصراف لم تكن لي قدرة على موقف وداعه، لا والله! ولكان الموت أسبق إلي، وكفى بهذه الوسيلة الحسنة ـ التي يعرفها ـ وسيلة.

ومنها حرصي على أن يظهر صدق دعواي فيما كنت أهتف به، وأظن أني لا أصدق.

ومنها اغتنام المفارقة في زمن الأمان والهدنة الطويلة والاستغناء إذا كان الانصراف المفروض ضروريا قبيحاً في غير هذه الحال.

ومنها ـ وهو أقوى الأعذار ـ أني مهما لم أطق تمام هذا الأمر أو ضاق ذرعي به، لعجز أو مرض أو خوف طريق، أو نفاد زاد أو شوق غالب، رجعت رجوع الأب الشفيق إلى الولد البر الرضي، إذ لم أخلف ورائي مانعاً من الرجوع من قول قبيح أو فعل، بل خلفت الوسائل المرعية، والآثار الخالدة، والسير الجميلة، وانصرفت بقصد شريف فقت به أشياخي وكبار وطني وأهل طوري، وتركتكم على أتم ما أرضاه، مثنياً عليكم داعياً لكم، وإن فسح الله في الأمد، وقضى الحاجة، فأملي العودة إلى ولدي وتربتي، وإن قطع الأجل فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله.

فإن كان تصرفي صواباً وجارياً على السداد، فلا يلام من أصاب، وإن كان عن حمق، وفساد عقل، فلا يلام من اختل عقله، وفسد مزاجه، بل يعذر ويشفق عليه، ويرحم، وإن لم يعط مولاي أمري حقه من العدل، وجلبت الذنوب، وحشرت بعدي العيوب، فحياؤه وتناصفه ينكر ذلك، ويستحضر الحسنات من التربية والتعليم وخدمة السلف، وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان، والإرشاد إلى الأعمال الصالحة، والمداخلة والملابسة، لم يتخلل ذلك قط خيانة في مال ولا سر، ولا غش في تدبير ولا تعلق به عار، ولا كدره نقص، ولا حمل عليه خوف منكم، ولا طمع فيما بيدكم، فإن لم تكن هذه دواعي الرعي والوصلة والإبقاء، ففيم تكون بين بني آدم؟

وأنا قد رحلت فلا أوصيكم بمال، فهو عندي أهون متروك، ولا بولد فهم رجالكم، وخدامكم، وممن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم، ولا بعيال، فهي من مربيات بيتكم، وخواص داركم، إنما أوصيكم بحظي العزيز، كان علي بوطنكم، وهو أنتم، فأنا أوصيكم بكم، فارعوني فيكم خاصة.

أوصيكم بتقوى الله والعمل لغد، وقبض عنان اللهو في موطن الجد، والحياء من الله الذي محص وأقال، وأعاد النعمة بعد زوالها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وأطلب منكم عوض ما وفرته عليكم من زاد طريق ومكافأة وإعانة، زاداً سهلاً عليكم، وهو أن تقولوا لي: غفر الله لك ما ضيعت من حقي خطأ أو عمداً، وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت.

وأعلموا أيضا على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر، وعند كل ملك، واعتقاده وبره والسؤال عنه وذكره بالجميل، والأذن في زيارته نجابة منكم وسعه ذرع، ودهاء، فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت، ثم أقشعت وتركت الأزاهر تفوح والمحاسن تلوح، ومثاله معكم مثل المرضعة، أرضعت السياسة، والتدبير الميمون، ثم رقدتكم في مهد الصلح والأمان، وغطتكم بقناع العافية، وانصرفت إلى الحمام تغسل اللبن والوضر، وتعود فإن وجدت الرضيع نائماً فحسن، أو قد انتبه فلم تتركه إلا في حد الفطام.

وتختم لكم هذه الغزارة بالحلف الأكيد أني ما تركت لكم

وجه نصيحة في دين ولا في دنيا إلا وقد وفيتها لكم، ولا فارقتكم إلا عن عجز، ومن ظن خلاف هذا فقد ظلمني وظلمكم، والله يرشدكم ويتولى أمركم، ونقول: خاطركم في ركوب البحر.

انتهت نسخة الكتاب وفي طيها هذه الأبيات:

صاب مزن الدموع من جفن صبك ... عندما استروح الصبا من مهبك
كيف يسلو يا جنتي عنك قلب وقد ... كان قبل الوجود جن بحبك
ثم قل كيف كان بعد انتشاء الر ... وح من أنسك الشهي وقربك
لم يدع بيتك المنيع حماه ... لسواه إلا إلى بيت ربك
أول عذري الرضى فما جئت بدعاً ... دمت والفضل والرضا من دأبك
وإذا ما ادعيت كرباً لفقدي ... أين كربي ووحشتي من كربك
ولدي في ذراك وكري في دو ... حك لحدي وتربتي في تربك
يا زماناً أغرى الفراق بشملي ... ليتني أهبتي أخذت لحربك
أركبتني صروفك الصعب حتى ... جئت بالبين وهو أصعب صعبك

وكتب آخر النسخة يخاطبني:

هذا ما تيسر، والله ولي الخيرة لي ولكم من هذا الخباط الذي لا نسبة بينه وبين أولي الكمال، ردنا الله إليه، وأخلص توكلنا عليه، وصرف الرغبة إلى ما لديه.

وفي طي النسخة مدرجة نصها:

رضي الله عن سيادتكم، أونسكم بما صدر مني أثناء هذا الواقع، مما استحضره الولد في الوقت، وهو يسلم عليكم بما يجب لكم، وقد حصل من حظوة هذا المقام الكريم على حظ وافر، وأجزل إحسانه ونوه بجرايته، وأثبت الفرسان خلفه، والحمد لله انتهى.

ثم اتصل مقامي ببسكرة والمغرب الأوسط، مضطرب بالفتنة المانعة من الاتصال بالسلطان عبد العزيز وحمزة بن علي بن راشد ببلاد مغراوة والوزير عمر بن مسعود في العساكر يحاصره، بحصن تاجحمومت وأبو زيان العبد الوادي ببلاد حصين وهم مشتملون عليه وقائمون بدعوته.

ثم سخط السلطان وزيره عمر بن مسعود ونكر منه تقصيره في أمر حمزة وأصحابه، فاستدعاه إلى تلمسان وقبض عليه، وبعث به إلى فاس معتقلاً، فحبس هناك، وجهز العساكر مع الوزير ابي بكر بن غازي، فنهض إليه، وحاصره ففر من الحصن ولحق بمليانة مجتازاً عليها، فأنذر به عاملها فتقبض عليه، وسيق إلى الوزير في جماعة من أصحابه، فضرب أعناقهم، وصلبهم عظة ومزدجراً لأهل الفتنة.

ثم أوعز السلطان الى الوزير بالمسير إلى حصين وأبي زيان، فسار في العسكر واستنفر أحياء العرب من زغبة فأوعبهم ونهض إلى حصين فامتنعوا بجبل تطرى، ونزل الوزير بعساكره ومن معه من أحياء زغبة على جبل تيطرى من جهة التل، فأخذ بمخنقهم، وكاتب السلطان أشياخ الدواودة من رياح بالمسير إلى حصار تيطرى من جهة القبلة.

وكاتب أحمد بن مزني صاحب بسكرة بإمدادهم بأعطياتهم، وكتب إلي يأمرني بالمسير بهم لذلك، فاجتمعوا علي، وسرت بهم أول سنة أربع وسبعين وسبعمائة حتى نزلنا بالقطفة، ووفدت في جماعة منهم على الوزير بمكانه من حصار تيطرى، فحد لهم حدود الخدمة، وشارطهم على الجزاء.

ورجعت إلى أحيائهم بالقطفة، فاشتدوا في حصار الجبل والجاوهم بسوامهم وظهرهم إلى قنته، فهلك لهم الخف والحافر، وضاق ذرعهم بالحصار من كل جانب، وراسل بعضهم في الطاعة خفية فارتاب بعضهم من بعض وانفضوا ليلاً من الجبل، وأبو زيان معهم ذاهبين إلى الصحراء، واستولى الوزير على الجبل بما فيه من مخلفهم، ولما بلغوا مأمنهم من القفر نبذوا إلى أبي زيان عهده، فلحق بجبال غمرة، ووفد أعيانهم على السلطان عبد العزيز بتلمسان، وفاؤوا إلى طاعته فتقبل فيئتهم، وأعادهم إلى أوطانهم، وتقدم الى الوزير - عن أمر السلطان - بالمسير مع أولاد يحيى بن علي بن سباع للقبض على أبي زيان في جبل غمرة، وفاء بحق الطاعة لأن غمرة من رعاياهم، فمضينا لذلك، فلم نجده عندهم، وأخبرونا أنه ارتحل عنهم إلى بلد وإن كلا من مدن الصحراء، فنزل على صاحبها أبي بكر بن سليمان، فانصرفنا من هنالك، ومضى أولاد يحيى بن علي إلى أحيائهم، ورجعت أنا إلى أهلي ببسكرة، وخاطبت السلطان بما وقع في ذلك، وأقمت منتظراً أوامره حتى جاءني استدعاؤه إلى حضرته فارتحلت إليه.

فضل الوزير ابن الخطيب

وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هداه.

فمما كتب عن سلطانه إلى سلطان تونس جواباً عن كتاب وصل إليه مصحوباً بهدية من الخيل والرقيق، فراجعهم عنه بما نصه إلى آخره:

الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف، واستقلت مباني فخرها الشائع، وعزها الذائع، على ما أسسه الأسلاف ووجب لحقها الجازم، وفرضها اللازم الاعتراف،

ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والأكناف فامتزاجنا بعلائها المنيف، وولائها الشريف، كما امتزج الماء والسلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم، وفضلها العميم، كما تأرجت الرياض الأفواف، لما زارها الغمام الوكاف، ودعاؤنا بطول بقائها، واتصال علائها، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراف، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة، وفواضلها العميمة، لا تحصره الحدود، ولا تدركه الأوصاف، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والإنصاف، خلافة وجهة تعظيمنا إذ توجهت الوجوه ومن نؤثره إذا أهمنا ما نرجوه، ونفديه ونبديه إذا استمنح المحقوب واستدفع المكروه السلطان الكذا بن أبي إسحاق بن السلطان الكذا، أبي يحيى بن أبي بكر بن السلطان الكذا، أبي زكرياء بن السلطان الكذا، أبي إسحاق ابن الأمير الكذا، أبي زكرياء ابن الشيخ الكذا، أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص، أبقاه الله ومقامه مقام إبراهيم رزقاً وأماناً.

لا يخص جلب الثمرات إليه وقتاً ولا يعين زماناً، وكان على من يتخطف الناس من حوله مؤيداً بالله معاناً.

معظم قدره العالي على الأقدار، ومقابل داعي حقه بالابتدار، المثنى على معاليه المخلدة الآثار، في اصونة، النظام والنثار، ثناء الروضة المعطار، على الأمطار، الداعي إلى الله بطول بقائه في عصمة منسدلة الأستار، وعزة ثابتة المركز مستقيمة المدار، وأن يختم له بعد بلوغ غايات الحال، ونهاية الأعمال، بالزلفى وعقبى الدار.

عبد الله الغني بالله أمير المسلمين، محمد بن مولانا أمير المسلمين، أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر.

سلام كريم كما حملت أحاديث الأزهار نسمات الأسحار، وروت ثغور الأقاحي والبهار، عن مسلسلات الأنهار، وتجلى على منصة الاشتهار، وجه عروس النهار يخص خلافتكم الكريمة النجار، العزيزة الجار ورحمة الله وبركاته.

أما بعد أحمد الله الذي أخفى حكمته البالغة عن أذهان البشر، فعجزت عن قياسها، وجعل الأرواح اجناداً مجندة كما ورد في الخبر. تحن إلى أجناسها، منجد هذه الملة من أوليائه الجلة بمن يروض الآمال بعد شماسها، وييسر الأغراض قبل التماسها، ويعنى بتجديد المودات في ذاته وابتغاء مرضاته على حين أخلاق لباسها الملك الحق، واصل الأسباب بحوله، بعد انتكاث أمراسها ومغني النفوس بطوله، بعد إفلاسها حمداً يدر أخلاف النعم بعد إبساسها، وينشر رمم الأموال من أرماسها، ويقدس النفوس بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله سراج الهداية ونبراسها عند اقتناء الأنوار واقتباسها، مطهر الأرض من أوضارها وأدناسها، ومصطفى الله من بين ناسها، وسيد الرسل الكرام ما بين شيثها وإلياسها، الآتي مهيمناً على آثارها، في حين فترتها ومن بعد نصرتها واستيئاسها، مرغم الضراغم في أخياسها، بعد افترارها وافتراسها، ومعفر أجرام الأصنام ومصمت أجراسها.

والرضا عن آله وأصحابه وعترته وأحزابه، حماه شرعته البيضاء وحراسها، وملقحي غراسها، ليوث الوغى عند احتدام مراسها، ورهبان الدجى تتكفل مناجاة السميع العليم، في وحشة الليل البهيم بإيناسها، وتفاوح نسيم الأسحار، عند الاستغفار، بطيب أنفاسها.

والدعاء لخلافتكم العلية المستنصرية بالصنائع التي تشعشع أيدي العزة القعساء من أكواسها، ولا زالت العصمة الألهية كفيلة باحترامها واحتراسها، وأنباء الفتوح، المؤيدة بالملائكة والروح، ريحان جلاسها وآيات المفاخر التي ترك الأول للآخر، مكتتبة الأسطار بأطراسها وميادين الوجود مجالاً لجياد جودها وبأسها، والعز والعدل منسوبين لفسطاطها وقسطاسها، وصفيحة النصر العزيز تقبض كفها، المؤيدة بالله، على رياسها، عند اهتياج أضدادها، وشره أنكاسها، لانتهاب البلاد وانتهاسها وهبوب رياح رياحها وتمرد مرداسها.

فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم من كتائب نصره أمداداً تذعن أعناق الأنام لطاعة ملككم المنصور الأعلام، عند إحساسها، وآتاكم من آيات العنايات، آية تضرب الصخرة الصماء، ممن عصاها بعصاها، فتبادر بانبجاسها، من حمراء غرناطة، حرسها الله، وأيام الإسلام، بعناية الملك العلام تحتفل وفود الملائكة الكرام، لولائمها وأعراسها، وطواعين الطعان، في عدو الدين المعان، تجدد عهدها بعام عمواسها.

والحمد لله حمداً معاداً يقيد شوارد النعم، ويستدر مواهب الجود والكرم ويؤمن من انتكاث الجدود وانتكاسها، ولي الآمال ومكاسها وخلافتكم هي المثابة التي يزهى الوجود بمحاسن مجدها، زهو الرياض بوردها وآسها، وتستمد أضواء الفضائل من مقباسها، وتروي رواة الإفادة، والإجادة غريب الوجادة، عن ضحاكها وعباسها.

وإلى هذا أعلى الله معارج قدركم، وقد فعل، وأنطق بحجج فخركم من احتفى وانتعل، فإنه وصلنا كتابكم الذي حسبناه، على

صنائع اللّه لنا، تميمة لا تقلع بعدها عين، وجعلناه على حلل مواهبه قلادة لا يحتاج معها زين، ودعوناه من جيب الكنانة آية بيضاء الكتابة، لم يبق معها شك ولا مين، وقرأنا منه وثيقة ود هضم فيها عن غريم الزمان دين، ورأينا منه إنشاء، خدم اليراع بين يديه وشّاءً، واحتزم بهميان عقدته مشاءة، وسئل عن معانيه الاختراع فقال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء﴾، فأهلا به من عربي أبي يصف السانح والبانة، ويبين فيحسن الإبانة، أدى الأمانة، وسئل عن حيه فانتمى إلى كنانة، وأفصح وهو لا ينبس، وتهللت قسماته وليل حبره يعبس وكأن خاتمه المقفل على صوانه، المتحف بباكر الورد في غير أوانه، رعف من مسك عنوانه اللّه من قلم دبج تلك الحلل، ونقع بمجاج الدواة المستمدة من عين الحياة الغلل فلقد تخارق في الجود، مقتدياً بالخلافة التي خلد فخرها في الوجود، فجاد بسر البيان ولبابه، وسمح في سبيل الكرم حتى بماء شبابه، وجمع لفرط بشاشته وفهامته، بعد شهادة السيف بشهامته، فمشى من الترحيب، في الطرس الرحيب، على أم هامته.

وأكرم به من حكيم، أفصح بملغوز الإكسير، في اللفظ اليسير، وشرح بلسان الخبير، سر صناعة التدبير، كأنما خدم الملكة الساحرة بتلك البلاد، قبل اشتجار الجلاد، فآثرته بالطارف من سحرها والتلاد، أو عثر بالمعلقة، وتيك القديمة المطلقة، بدفية دار، أو كنز تحت جدار، أو ظفر لباني الحنايا، قبل أن تقطع به عن أمانيه المنايا، ببديعة، أو خلف جرجير الروم، قبل منازلة القروم، على وديعة، أو أسلمه ابن أبي سرح، في نشب للفتح وسرح، أو حتم له روح بن حاتم ببلوغ المطلب، أو غلب الحظوظ بخدمة آل الأغلب، أو خصه زيادة اللّه بمزيد، أو شارك الشيعة في أمر أبي يزيد، أو سار على منهاج، في مناصحة بني صنهاج، وفضح بتخليد أمداحهم كل هاج.

وأعجب به، وقد عزز منه مثنى البيان بثالث، فجلب سحر الأسماع، واسترقاق الطباع، بين مثان للإبداع ومثالث، كيف اقتدر على هذا المجيد، وناصح مع التثليث مقام التوحيد، نستغفر اللّه ولي العون، على الصمت والصون، فالقلم هو الموحد قبل الكون، والمتصف من صفات السادة، أولي العبادة، بضمور الجسم وصفرة اللون، إنما هي كرامة فاروقية، وأثارة من حديث سارية وبقية، سفر وجهها في الأعقاب، بعد طول الانتقاب، وتداول الأحقاب، ولسان مناب، عن كريم جناب، وإصابة السهم لسواه محسوبة، وإلى الرامي الذي سدده منسوبة، ولا تنكر على الغمام بارقة، ولا على المتحققين بمقام التوحيد كرامة خارقة، فما شاءه الفضل من غرائب بر وجد، ومحاريب خلق كريم ركع الشكر فيها وسجد، حديقة بيان استثارت نواسم الإبداع من مهبها، واستزارت غمائم الطباع من مصبها، فآتت أكلها مرتين بإذن ربها.

لا بل كتيبة عز طاعنت بقنا الألفات سطورها، فلا يرومها النقد ولا يطورها، ونزعت عن قسي النونات خطوطها، واصطفت من بياض الطرس، وسواد النقس، بلق تحوطها.

فما كأس المدير، على الغدير، بين الخورنق والسدير، تقامر بنرد الحباب، عقول ذوي الألباب، وتغرق كسرى في العباب، وتهدي، وهي الشمطاء نشاط الشباب، وقد أسرج ابن سريج والجم، وافصح الغريض بعد ما جمجم، وأعرب التاي الأعجم، ووقع معبد بالقضيب، وشرعت في حساب العقد بنان الكف الخضيب، وكأن الأنامل فوق مثالث العود ومثانيه، وعند إغراء الثقيل بثانيه، وإجابة صدى الغناء بين مغانيه، المراود تشرع في الوشي، أو العناكب تسرع في المشي، وما المخبر بنيل الرغائب، أو قدوم الحبيب الغائب.

لا بل إشارة البشير، بكم المشير، على العشير، بأجلب للسرور، من زائره المتلقى بالبرور، وأدعى للحبور، من سفيره المبهج السفور، فلم نر مثله من كتيبة كتاب تجنب الجرد، تمرح في الأرسان، وتتشوف مجالي ظهورها إلى عرائس الفرسان، وتهز معاطف الارتياح، من صهيلها الصراح، بالنغمات الحسان، إذا أوجست الصريخ نازعت أفناء الأعنة، وكاثرت بأسنة آذانها مشرعة الأسنة، فإن ادعى الظليم أشكالها فهو ظالم، أو نازعها الظبي هواديها وأكفالها فهو هاذ أو حالم، وإن سئل الأصمعي عن عيوب الغرر والأوضاح، قال مشيراً إلى وجوهها الصباح:

" جلدة بين العين والأنف سالم "

من كل عبل الشوى، مسابق للنجم إذا هوى، سامي التليل، عريض ما تحت الشليل، ممسوحة أعطافه بمنديل النسيم البليل.

من أحمر كالمدام، تجلى على الندام، عقب الفدام، اتحف لونه بالورد، في زمن البرد، وحيي أفق محياه بكوكب السعد، وتشوف الواصفون إلى عد محاسنه فأعيت على العد، بحر يساجل البحر عند المد، وريح تباري الريح عند الشد، بالذراع الأشد، حكم له مدير فلك الكفل باعتدال فصل القد، وميزه قدره المميز عند الاستباق، بقصب السباق، عند اعتبار الحد، وولد مختط غرته أشكال الجمال، على الكمال، بين البياض والحمرة ونقاء الخد، وحفظ الخلق الوجيه، عن جده الوجيه، ولا تنكر الرواية على الحافظ ابن الجد.

وأشقر، أبي الخلق، والوجه الطلق أن يحقر، كأنما صيغ من العسجد، وطرف بالدر وأنعل بالزبرجد، ووسم في الحديث بسمة

اليمن والبركة، واختص بفلج الخصام، عند اشتجار المعركة، وانفرد بمضاعف السهام، المنكسرة على الهام، في الفرائض المشتركة، واتصف فلك كفله بحركتي الإرادة والطبع من أصناف الحركة، أصغى إلى السماء بأذن ملهم، وأغرى لسان الصهيل عند التباس معاني الهمز والتسهيل ببيان المبهم، وفتنت العيون من ذهب جسمه، ولجين نجمه، بالدينار والدرهم، فإن انقض فرجم، أو ريح لها حجم، و إن اعترض فشفق لاح به للنجم نجم.

وأصفر قيد الأوابد الحرة، وأمسك المحاسن وأطلق الغرة، وسئل من أنت في قواد الكتائب، وأولي الأخبار العجائب؟ فقال: أنا المهلب بن أبي صفرة، نرجس هذه الألوان، في رياض الأكوان، تخشى به وجوه الحرب العوان، أغار بنخوة الصائل، على معصفرات الأصائل، فارتداها، وعمد إلى خيوط شعاع الشمس، عند جانحة الأمس، فألحم منها حلته وأسداها، واستعدت عليه تلك المحاسن فما أعداها، فهو أصيل تمسك بذيل الليل عرفه وذيله، وكوكب يطلعه من القتام ليله، فيحسده فرقد الأفق وسهيله.

وأشهب تغشى من لونه مفاضة، وتسربل منه لامة فضفاضة، قد احتفل زينه، لما رقم بالنبال لجينه، فهو الأشمط، الذي حقه لا يغمط، والدارع المسارع، والأعزل الذارع، وراقي الهضاب الفارع، ومكتوب الكتيبة البارع.

وأكرم به من مرتاض سالك، ومجتهد على غايات السابقين الأولين متهالك، وأشهب يروي من الخليفة، ذي الشيم المنيفة، عن مالك.

وحبارى كلما سابق وبارى، استعار جناح الحبارى، فإذا أعملت الحسبة، قيل من هنا جاءت النسبة، طرد النمر، لما عظم أمره وأمر، فنسخ وجوده بعدمه، وابتزه الفروة ملطخة بدمه، وكأن مضاعف الورد نثر عليه من طبقه، أو الفلك، لما ذهب الحلك، مزج فيه بياض صبحه بحمرة شفقه.وقرطاسي حقه لا يجهل، متى ما ترقى العين فيه تسفل، إن نزع عنه جله، فهو نجم كله، انفرد بمادة الألوان، قبل أن تشوبها يد الأكوان، أو تمزجها أقلام الملوان، يتقدم الكتيبة منه لواء ناصع، أو أبيض مناصع، لبس وقار المشيب، في ريعان العمر القشيب، وأنصتت الآذان من صهيلة المطيل المطيب، لما ارتدى بالبياض إلى نغمة الخطيب، وإن تعتب منه للتأخير متعتب، قلنا: الواو لا ترتب، ما بين فحل وحرة، وبهرمانة ودرة، ويا لله من ابتسام غرة، ووضوح يمن في طرة، وبهجة للعين وقرة، وإن ولع الناس بامتداح القديم، وخصوا الحديث بفري الأديم، أوجب المتعصب، وإن أبى المنصب، مرتبة التقديم، وطمح إلى رتبة المخدوم طرف الخديم، وقورن المثري بالعديم، وبخس في سوق الكسد الكيل، ودجا الليل، وظهر في فلك الأنصاف الميل، لما تذوكرت الخيل، فجيء بالوجيه والخطار، والذائد وذي الخمار وداحس والسكب، والأبجر وزاد الركب، والجموح واليحموم، والكميت ومكتوم، والأعوج وحلوان، ولاحق والغضبان، وعفرز والزعفران والمحبر واللعاب، والأغر والغراب، وشعلة والعقاب، والفياض واليعبوب، والمذهب واليعسوب، والصموت والقطيب، وهيدب والصبيب، وأهلوب وهداج، والحرون وخراج، وعلوى والجناح، والأحوى ومجاح، والعصا والنعامة، والبلقاء والحمامة، وسكاب والجرادة، وخوصاء والعرادة، فكم بين الشاهد والغائب، والفروض والرغائب، وفرق ما بين الأثر والعيان، غني عن البيان، وشتان بين الصريح والمشتبه، و لله در القائل:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به

والناسخ يختلف به الحكم، وشر الدواب عند التفضيل بين هذه الدواب الصم البكم إلا ما ركبه نبي، أو كان له يوم الافتخار وبرهان خفي ومفضل ما سمع على ما رأى غبي، فلو أنصفت محاسنها التي وصفت، لأقضمت حب القلوب علفاً، وأوردت ماء الشبيبة نطفاً، واتخذت لها من عذر الخدود الملاح عذر موشية، وعللت بصفير الحان القيان كل عشية، وأنعلت بالأهلة، وغطيت بالرياض بدل الأجلة إلى الرقيق، الخليق بالحسن الحقيق، يسوقه إلى مثوى الرعاية روقه الفتيان رعاته، ويهدي عقيقها من سبجه أشكالاً تشهد للمخترع سبحانه بإحكام مخترعاته، وقفت ناظر الاستحسان لا يريم، لما بهره منظرها الوسيم، وتخامل الظليم، وتضاؤل الريم وأخرس مفوه اللسان، وهو بملكات البيان، الحفيظ العليم، وناب لسان الحال، عن لسان المقال، عند الاعتقال، فقال يخاطب المقام الذي أطلعت أزهارها غمائم جوده، واقتضت اختيارها بركات وجوده: لو علمنا أيها الملك الأصيل، الذي كرم منه الأجمال والتفصيل، أن الثناء يوازيها، لكلنا لك بكيلك، أو الشكر يعادلها ويجازيها، لتعرضنا بالوشل إلى نيل نيلك، أو قلنا هي التي أشار إليها مستصرخ سلفك المستنصر بقوله:

" أدرك بخيلك "، حين شرق بدمعه الشرق، وانهزم الجمع واستولى الفرق، واتسع فيه والحكم لله الخرق ورأى أن مقام التوحيد بالمظاهرة على التثليث، وحزبه الخبيث، الأولى والأحق.

والآن قد أغنى الله بتلك النية، عن اتخاذ الطوال الردينية، وبالدعاء من تلك المثابة الدينية إلى رب البنية، عن الأمداد السنية والأجواد تخوض بحر الماء إلى بحر المنية وعن الجرد العربية، في مقاود الليوث الأبية، وجدد برسم هذه الهدية، مراسيم العهود

الودية، والذمم الموحدية، لتكون علامة على الأصل، ومكذبة لدعوى الوقف والفصل، وإشعاراً بالألفة التي لا تزال ألفها ألف الوصل، ولأمها حراماً على النصل.

وحضر بين يدينا رسولكم، فقرر من فضلكم ما لا ينكره من عرف علو مقداركم، وأصالة داركم، وفلك إبداركم، وقطب مداركم، وأجبناه عنه بجهد ما كنا لنقنع من جناه المهتصر، بالمقتضب المختصر، ولا لنقابل طول طوله بالقصر، لولا طرو الحصر.

وقد كان بين الأسلاف رحمة الله عليهم ورضوانه ود أبرمت من أجل الله معاقده، ووثرت للخلوص، الجلي النصوص، مضاجعه القارة ومراقده، وتعاهد بالجميل يوجع لفقده فاقده، أبى الله إلا أن يكون لكم الفضل في تجديده، والعطف بتوكيده، فنحن الآن لا ندري أي مكارمكم نذكر، أو أي فواضلكم نشرح أو نشكر، أمفاتحتكم التي هي في الحقيقة عندنا فتح، أم هديتكم، وفي وصفها للأقلام سبح، ولعدو الإسلام بحكمة حكمتها كبح، إنما نكل الشكر لمن يوفي في جزاء الأعمال البرة، ولا يبخس مثقال الذرة ولا أدنى من مثقال الذرة، ذي الرحمة الثرة، والألطاف المتصلة المستمرة، لا إله إلا هو.

وإن تشوفتم إلى الأحوال الراهنة، وأسباب الكفر الواهية بقدرة الله الواهنة، فنحن نطرفكم بطرفها، ونطلعكم على سبيل الإجمال بطرفها، وهو أننا لما أعادنا الله من التمحيص، إلى مثابة التخصيص، من بعد المرام العويص، كحلنا بتوفيق الله بصر البصيرة، ووقفنا على سبيله مساعي الحياة القصيرة، ورأينا كما نقل إلينا، وكرر على من قبلنا وعلينا أن الدنيا وإن غر الغرور وأنام على سرر الغفلة السرور، فلم ينفع الخطور على أجداث الأحباب والمرور، جسر يعبر، ومتاع لا يغبط من حي به ولا يحبر، إنما هو خير يخبر، وأن الحسرة بمقدار ما على تركه يجبر، وأن الأعمار أحلام، وأن الناس نيام، وربما رحل الراحل عن الخان، وقد جلله بالأذى والدخان، أو ترك به طيباً، وثناء يقوم بعد للآتي خطيباً، فجعلنا العدل في الأمور ملاكاً، والتفقد للثغور مسواكا، وضجيع المهاد، حديث الجهاد، وأحكامه مناط الاجتهاد، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ﴾ من حجج الاستشهاد، وبادرنا رمق الحصون المضاعة وجنح التقية دامس، وعواريها لا ترد يد لامس، وساكنها بائس، والأعصم في شعفاتها من العصمة يائس، فزينا ببيض الشرفات ثناياها، وأفعمنا بالعذب الفرات ركاياها وغشينا بالصفيح المضاعف أبوابها، واحتسبنا عند موفي الأجور ثوابها، وبيضنا بناصع الكلس أثوابها، فهي اليوم توهم حس العيان، أنها قطع من بيض العنان، وتكاد تناول قرص البدر بالبنان، متكفلة للمؤمنين من فزع الدنيا والآخرة بالأمان.

وأقرضنا الله قرضاً، وأوسعنا مدونة الجيش عرضاً، وفرضنا إنصافه مع الأهلة فرضاً، واستندنا من التوكل على الله الغني الحميد إلى ظل لواء، ونبذنا إلى الطاغية عهده على سواء وقلنا: ربنا أنت العزيز، وكل جبار لعزك ذليل، وحزبك هو الكثير، وما سواه قليل، أنت الكافي، ووعدك الوعد الوافي، فأفض علينا مدارع الصابرين، واكتبنا من الفائزين بحظوظ رضاك الظافرين، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

فتحركنا أول الحركات، وفاتحة مصحف البركات، في خف من الحشود، واقتصار على ما بحضرتنا من العساكر المظفرة والجنود، إلى حصن آشر البازي المطل، وركاب العدو الضال المضل، ومهدي نفثات الصل، على امتناعه وارتفاعه، وسمو يفاعه، وما بذل العدو فيه من استعداده، وتوفير أسلحته وأزواده، وانتخاب أنجاده، فصلينا بنفسنا ناره، وزاحمنا عليه الشهداء نصابر أواره ونلقى بالجوارح العزيزة سهامه المسمومة، وجلامده الململمة وأحجاره، حتى فرعنا بحول من لا حول ولا قوة إلا به أبراجه المنيعة وأسواره، وكففنا عن البلاد والعباد أضراره، بعد أن استضفنا إليه حصن السهلة جاره، ورحلنا عنه بعد أن شحناه رابطة وحامية، وأزواداً نامية، وعملنا بيدنا في رم ما ثلم القتال، وبقر من بطون مسابقة الرجال، واقتدينا بنبينا صلوات الله عليه وسلامه في الخندق لما حمى ذلك المجال، ووقع الارتجاز المنقول حديثة والارتجال، وما كان ليقر للإسلام مع تركه القرار، وقد كثب الجوار، وتداعى الدعرة وتعاوى الشرار.

وقد كنا أغرينا من بالجهة الغربية من المسلمين بمدينة برغة التي سدت بين القاعدتين رندة ومالقة الطريق، وألبست ذل الفراق ذلك الفريق، ومنعتهما أن يسيغا الريق، فلا سبيل إلى الإلمام، لطيف المنام، إلا في الأحلام، ولا رسالة إلا أجنحة هدل الحمام، فيسر الله فتحها، وعجل منحها، بعد حرب أنبتت فها النحور، وتزينت الحور.

وتبع هذه الأم بنات شهيرة، وبقع للزرع والضرع خيرة، فشفي الثغر من بؤسه، وتهلل وجه الإسلام بتلك الناحية الناجية بعد عبوسه.

ثم أعملنا الحركة إلى مدينة إطريرة، على بعد المدى، وتغلغلها في بلاد العدا، واقتحام هول الفلا وغول الردى، مدينة تبنتها حمص فأوسعت الدار، وأغلت الشوار، وراعت الاستكثار،

وبسطت الاعتمار، رجح لدينا قصدها على البعد، والطريق الجعد، ما أسفت به المسلمين من استئصال طائفة من أسراهم، مروا بها آمنين، وبطائرها المشؤوم متيمنين، قد أنهكهم الاعتقال، والقيود الثقال، وأضرعهم الأسار وجللهم الإنكسار، فجدلوهم في مصرع واحد، وتركوهم عبرة للرائي والمشاهد، وأهدوا بوقيعتهم إلى الإسلام ثكل الواجد، وترة الماجد، فكبسناها كبساً، وفجأناها بإلهام من لا يضل ولا ينسى وصبحتها الخيل، ثم تلاحق الرجل لما جن الليل، وحاق بها الويل، فأبيح منها الذمار، وأخذها الدمار، ومحقت من مصانعها البيض الأهلة وخسفت الأقمار، وشفيت من دماء أهلها الضلوع الحرار، وسلطت على هياكلها النار، واستولى على الآلاف العديدة من تسبيها الأسار، وانتهى إلى إشبيلية الثكلى المغار فجلل وجوه من بها من كبار النصرانية الصغار، واستولت الأيدي على ما لا يسعه الوصف ولا تقله الأوقار.

وعدنا والأرض تموج سبياً، لم نترك بعفرين شبلاً ولا بوجرة ظبياً، والعقائل حسرى، والعيون يبهرها الصنع الأسرى وصبح السرى قد حمد من بعد المسرى، فسبحان الذي أسرى، ولسان الحمية ينادي، في تلك الكنائس المخربة والنوادي: يا لثارات الأسرى!

ولم يكن إلا أن نفلت الأنفال، ووسمت بالأوضاح الأغفال، وتميزت الهوادي والأكفال، وكان إلى غزو مدينة جيان الاحتفال، قدنا إليها الجرد تلاعب الظلال نشاطاً، والأبطال تقتحم الأخطار رضى بما عند اللّه واغتباطاً، والمهندة الدلق تسبق إلى الرقاب استلالاً واختراطاً، واستكثرنا من عدد القتال احتياطاً، وأزحنا العلل عمن أراد جهاداً منجياً غباره من دخان جهنم ورباطاً، ونادينا الجهاد! الجهاد! يا أمة الجهاد! راية النبي الهاد! الجنة تحت ظلال السيوف الحداد! فهز النداء إلى اللّه تعالى كل عامر وغامر، وائتمر الجم من دعوى الحق إلى أمر آمر، وأتى الناس من الفجوج العميقة رجالاً وعلى كل ضامر، وكاثرت الرايات أزهار البطاح لوناً وعداً، وسدت الحشود مسالك الطريق العريضة سداً، ومد بحرها الزاخر مداً، فلا يجد لها الناظر ولا المناظر حداً.

وهذه المدينة هي الأم الولود، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود، وكرسي الملك، ومجنبة الوسطى من السلك، باءت بالمزايا العديدة ونجحت، وعند الوزان بغيرها من أمات البلدان رجحت، غاب الأسود، وجحر الحيات السود، ومنصب التماثيل الهائلة، ومعلق النواقيس المصلصلة.

فأدنينا إليها المراحل، وعنينا ببحار المحلات المستقلات منها الساحل، ولما أكثبنا جوارها، وكدنا نلتمح نارها، تحركنا إليها ووشاح الأفق المرقوم، بزهر النجوم، قد دار دائره، والليل من خوف الصباح، على سطحه المستباح، قد شابت غدائره، والنسر يرفرف باليمن طائره، والسماك الرامح يثأر بعز الإسلام ثائره، والنعائم راعدة فرائص الجسد، من خوف الأسد، والقوس يرسل سهم السعادة، بوتر العادة، إلى أهداف النعم المعادة، والجوزاء عابرة نهر المجرة، والزهرة تغار من الشعرى العبور بالضرة، وعطارد يسدي في حبل الحروب، على البلد المحروب ويلحمه، ويناظر على أشكالها الهندسية فيفحمه، والأحمر يبهر، وبعلمه الأبيض يغري وينهر، والمشتري يبدىء في فضل الجهاد ويعيد، ويزاحم في الحلقات على ما للسعادة من الصفقات، ويزيد، وزحل عن الطالع منزحل، وعن العاشر مرتحل، وفي زلق السعود وحل، والبدر يطالع حجر المنجنيق، كيف يهوي إلى النيق، ومطلع الشمس يرقب، وجدار الأفق يكاد بالعيون عنها ينقب.

ولما فشا سر الصباح، واهتزت أعطاف الرايات بتحيات مبشرات الرياح أطللنا عليه إطلال الأسود على الفرائس، والفحول على العرائس، فنظرنا منظراً يروع بأساً ومنعة، ويروق وضعاً وصنعة، تلفعت معاقله الشم للسحاب ببرود، ووردت من غدر المزن في برود، وأشرعت لاقتطاف أزهار النجوم والذراع بين النطاق معاصم رود، وبلداً يعيي الماسح والذارع، وينتظم المحاني والأجارع، فقلنا: اللّهم نفله أيدي عبادك، وأرنا فيه آية من آيات جهادك، ونزلنا بساحتها العريضة المتون، نزول الغيث الهتون، وتيمنا من فحصها بسورة "التين والزيتون"، متبرئة من أمان الرحمان للبلد المفتون، وأعجلنا الناس بحمية نفوسهم النفيسة، وسجية شجاعتهم البئيسة، عن أن تبوأ للقتال المقاعد، وتدني بأسماع شهير النفير منهم الأباعد، وقبل أن يلتقي الخديم بالمخدوم، ويركع المنجنيق ركعتي القدوم، فدفعوا من أصحر إليهم من الفرسان وسبق إلى حومة الميدان، حتى أحجروهم في البلد، وسلبوهم لباس الجلد، في موقف يذهل الوالد عن الولد، صابت السهام فيه غماماً، وطارت كأسراب الحمام تهدى حماماً، وأضحت القنا قصداً، بعد أن كانت شهاباً رصداً، وماج بحر القتام بأمواج النصول، وأخذ الأرض الرجفان لزلزال الصياح الموصول، فلا ترى إلا شهيداً تظلل مصرعه الحور، وصريعاً تقذف به إلى الساحل تلك البحور، ونواشب تبأى بها الوجوه الوجيهة عند اللّه والنحور، فالمقضب، فوده يخضب، والأسمر، غصنه يستثمر، والمغفر، حماه يخفر، وظهور القسي تقصم، وعصم الجند الكوافر تفصم، وورق اليلب في المنقلب يسقط، والبيض تكتب والسمر تنقط، فاقتحم الربض الأعظم لحينه، وأظهر اللّه لعيون المبصرين

والمستبصرين عزة دينه، وتبرأ الشيطان من خدينه، ونهب الكفار وخذلوا، وبكل مرصد جدلوا ثم دخل البلد بعده غلابا، وجلل قتلاً واستلاباً، فلا تسل إلا الظبا والأسل عن قيام ساعته، وهول يومها وشناعته، وتخريب المبائت والمباني، وغنى الأيدي من خزائن تلك المغاني، ونقل الوجود الأول إلى الوجود الثاني وتخارق السيف فجاء بغير المعتاد، ونهلت القنا الردينية من الدماء، حتى كادت تورق كالأغصان المغترسة والأوتاد، وهمت أفلاك القسي وسحت، وأرنت حتى بحت، ونفدت موادها فشحت، مما ألحت، وسدت المسالك جثث القتلى فمنعت العابر، واستأصل اللّه من عدوه الشأفة وقطع الدابر، وأزلف الشهيد وأحسب الصابر، وسبقت رسل الفتح الذي يسلم يسمع بمثله في الزمن الغابر تنقل البشرى من أفواه المحابر، إلى آذان المنابر.

أقمنا بها أياماً نعقر الأشجار، ونستأصل بالتخريب الوجار، ولسان الانتقام من عبدة الأصنام، ينادي: يا لثارات الإسكندرية تشفياً من الفجار، ورعياً لحق الجار، وقفلنا وأجنحة الرايات، برياح العنايات، خافقة وأوفاق التوفيق الناشئة من خطوط الطريق، موافقة، وأسواق العز باللّه نافقة، وحملاء الرفق مصاحبة والحمد لله مرافقة، وقد ضاقت ذروع الجبال، عن أعناق الصهب السبال، ورفعت على الأكفال، ردفاء كرائم الأنفال، وقلقلت من النواقيس أجرام الجبال، بالهندام والاحتيال، وهلك بمهلك هذه الأم بنات كن يرتضعن ثديها الحوافل، ويستوثرن حجرها الكافل، شمل التخريب أسوارها، وعجلت النار بوارها.

ثم تحركنا بعدها حركة الفتح، وأرسلنا دلاء الأدلاء قبل المتح، فبشرت بالمنح وقصدنا مدينة أبدة، وهي ثانية الجناحين، وكبرى الأختين، ومساهمة جيان في حين الحين، مدينة أخذت عرض الفضاء الأخرق، وتمشت فيه أرباضها تمشي الكتابة الجامحة في المهرق، المشتملة على المتاجر والمكاسب، والوضع المتناسب، والفلح المعيي ريعه عمل الحاسب وكوارة الدبر اللاسب المتعددة اليعاسب، فأناخ العفاء بربوعها العامرة، ودارت كؤوس عقار الحتوف، ببنان السيوف، على متديريها المعاقرة، وصبحتها طلائع الفاقرة، وأغريت ببطون أسوارها عوج المعاول الباقرة، ودخلت مدينتها عنوة السيف، في أسرع من خطرة الطيف، ولا تسأل عن الكيف، فلم يبلغ العفاء من مدينة حافلة، وعقيلة في حلل المحاسن رافلة، ما بلغ من هذه البائسة التي سجدت لآلهة النيران أبراجها، وتضاءل بالرغام معراجها، وضفت على أعطافها ملابس الخذلان، وأقفر من كنائسها كناس الغزلان.

ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافرة، وخزائن المزاين الوافرة، وربة الشهرة السافرة، والأنباء المسافرة، قرطبة، وما أدراك ماهية! ذات الأرجاء الحالية الكاسية، والأطواد الراسخة الراسية، والمباني المباهية، والزهراء الزاهية، والمحاسن غير المتناهية، حيث هالة بدر السماء قد استدارت من السور المشيد البناء داراً، ونهر المجرة من نهرها الفياض، المسلول حسامه من غمود الغياض، قد لصق بها جاراً، وفلك الدولاب، المعتدل الانقلاب، قد استقام مداراً، ورجع الحنين اشتياقاً إلى الحبيب الأول وادكاراً حيث الطود كالتاج، يزدان بلجين العذب الجاج، فيزري بتاج كسرى وداراً، حيث قسي الجسور المديدة، كأنها عوج المطي العديدة، تعبر النهر قطاراً، حيث آثار العامري المجاهد، تعبق بين تلك المعاهد، شذى معطاراً، حيث كرائم السحائب، تزور عرائس الرياض الحبائب، فتحمل لها من الدر نثاراً، حيث شمول الشمال تدار على الأدواح، بالغدو والرواح، فترى الغصون سكارى، وما هي بسكارى حيث أيدي الافتتاح، تفتض من شقائق البطاح أبكاراً، حيث ثغور الأقاح الباسم، تقبلها بالسحر زوار النواسم، فتخفق قلوب النجوم الغيارى، حيث المصلى العتيق، قد رحب مجالاً وطال مناراً، وأزرى ببلاط الوليد احتقاراً، حيث الظهور المثارة بسلاح الفلاح، تجب عن مثل أسنمة المهارى، والبطون كأنها لتدميث الغمائم بطون العذارى، والأدواح العالية، تخترق أعلامها الهادية، بالجداول الحيارى.

فما شئت من جو بقيل، ومعرس للحسن ومقيل، ومالك للعقل وعقيل، وخمائل، كم فيها للبلابل، من قال وقيل، وخفيف يجاوز بثقيل، وسنابل تحكي من فوق سوقها، وقصب بسوقها، الهمزات على الألفات، والعصافير البديعة الصفات، فوق القضب المؤتلفات، تميل لهبوب الصبا والجنوب، مائلة الجيوب، بدر الحبوب، وبطاح لا تعرف عين المحل، فتطلبه بالذحل، ولا تصرف في خدمة بيض قباب الأزهار، عند افتتاح السوسن والبهار، غير العبدان من سودان النحل، وبحر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله، ولا يبلغ الطية البعيدة راحله، إلى الوادي، وسمر النوادي، وقرار دموع الغوادي، للتجاسر على تخطيه، عند تمطيه، الجسر العادي، والوطن الذي ليس من عمرو ولا زيد، والفرا الذي في جوفه كل صيد أقل كرسيه خلافة الإسلام، وأغار بالرصافة والجسر دار السلام، وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام أو تعبر به عن ذلك الكمال فنون الكلام.

فأعملنا إليها السرى والسير، وقدنا إليها الخيل قد عقد اللّه في نواصيها الخير.

ولما وقفنا بظاهرها المبهت المعجب، واصطففنا بخارجها

المنبت المنجب، والقلوب تلتمس الإعانة من منعم مجزل، وتستنزل مدد الملائكة من منجد منزل، والركائب واقفة من خلفنا بمعزل، تتناشد في معاهد الإسلام:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

برز من حاميتها المحاميه، ووقود النار الحامية، وبقية السيف الوافرة على الحصاد النامية، قطع الغمائم الهامية، وأمواج البحور الطامية، واستجنت بظلال أبطال المجال، أعداد الرجال، الناشبة والرامية، وتصدى للنزال، من صناديدها الصهب السبال، أمثال الهضاب الراسية، تجنها جنن السوابغ الكاسية، وقواميسها المفادية للصلبان يوم بؤسها بنفوسها المواسية، وخنازيرها التي عدتها عن قبول حجج اللّه ورسوله، ستور الظلم الغاشية، وصخور القلوب القاسية، فكان بين الفريقين أمام جسرها الذي فرق البحر، وحلى بلجينه، ولآلىء زينه، منها النحر، حرب لم تنسج الأزمان على منوالها، ولا أتت الأيام الحبالى بمثل أجنة أهوالها، من قاسها بالفجار أفك وفجر، أو مثلها بجفر الهباءة خرف وهجر، ومن شبهها بحرب داحس والغبراء، فما عرف الخبر، فليسأل من جرب وخبر، ومن نظرها بيوم شعب جبلة فهو ذو بله، أو عادلها ببطن عاقل، فغير عاقل، أو احتج بيوم ذي قار، فهو إلى المعرفة ذو افتقار،أو ناضل بيوم الكديد، فسهمه غير السديد، إنما كان مقاماً غير معتاد، ومرعى نفوس سلم يف بوصفه لسان مرتاد وزلزال جبال أوتاد، ومتلف مذخور لسلطان الشيطان وعتاد، أعلم فيه البطل الباسل، وتورد الأبيض الباتر، وتأود الأسمر العاسل، ودوم الجليد المتكاسل، وانبعث من حدب الحنية، إلى هدف الرمية، الناشر الناسل، ورويت لمرسلات السهام المراسل، ثم أفضى أمر الرماح إلى التشاجر والارتباك، ونشبت الأسنة في الدروع نشب السمك في الشباك، ثم اختلط المرعي بالهمل، وعزل الرديني عن العمل، وعادت السيوف من فوق المفارق تيجاناً، بعد أن شقت غدر السوابغ خلجاناً، واتحدت جداول الدروع، فصارت بحراً، وكان التعانق، فلا ترى إلا نحراً يلازم نحراً، عناق وداع، وموقف شمل ذي انصداع، وإجابة مناد إلى فراق الأبد وداع، واستكشفت مآل الصبر الأنفس الشفاقة، وهبت بريح النصر الطلائع المبشرة الهفافة، ثم أمد السيل ذلك العباب، وصقل الاستبصار الألباب، واستخلص العزم صفوة اللباب، وقال لسان النصر: [ادخلوا عليهم الباب]فأصبحت طوائف الكفار، حصائد مناجل الشفار، فمغافرهم قد رضيت حرماتها بالأخفار، ورؤوسهم محطوطة في غير مقام الاستغفار، وعلت الرايات من فوق تلك الأبراج المستطرقة والأسوار، ورفرف على المدينة جناح البوار، لولا الانتهاء إلى الحد والمقدار، والوقوف عند اختفاء سر الأقدار.

ثم عبرنا نهرها، وشددنا بأيدي اللّه قهرها، وضيقنا حصرها، وأدرنا بلآلىء القباب البيض خضرها وأقمنا بها أياما تحوم عقبان البنود على فريستها حياما، وترمي الأدواح ببوارها، وتسلط النيران على أقطارها، فلولا عائق المطر، لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر، فرأينا أن نروضها بالاجتثاث والانتساف، ونوالي على زروعها وربوعها كرات رياح الاعتساف، حتى يتهيأ للإسلام لوك طعمتها، ويتهنا بفضل اللّه إرث نعمتها، ثم كانت من موقفها الإفاضة من بعد نحر النحور، وقذف جمار الدمار على العدو المدحور، وتدافعت خلفنا السيقات المتسقات تدافع أمواج البحور.

وبعد أن ألححنا على جناتها المصحرة، وكرومها المستبحرة إلحاح الغريم، وعوضناها المنظر الكريه من المنظر الكريم، وطاف عليها طائف من ربنا فأصبحت كالصريم، وأغرينا حلاق النار بجمم الجميم، وراكمنا في أحواف أجرافها غمائم الدخان، يذكر طيبه البان بيوم العميم، وأرسلنا رياح الغاراتلا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، واستقبلنا الوادي يهول مدّاً، ويروع سيفه الصقيل حدّاً، فيسره اللّه من بعد الأعواز، وانطلقت على الفرصة بتلك الفرصة أيدي الانتهاز، وسألنا من سائله أسد بن الفرات فأفتى برجحان الجواز، فعم الاكتساح والاستباح جميع الأحواز فأديل المصون، وانتهبت القرى، وهدت الحصون، واجتثت الأصول، وحطمت الغصون ولم نرفع عنها إلى اليوم غارة تصابحها بالبوس، وتطلع عليها غررها الضاحكة باليوم العبوس، فهي الآن مجرى السوابق ومجر العوالي على التوالي، والحسرات تتجدد في أطلالها البوالي، وكأن بها قد ضرعت، وإلى الدعوة المحمدية أسرعت، بقدرة من لو أنزل القرآن على الجبال لخشعت من خشية اللّه وتصدعت، وعزة من أذعنت الجبابرة لعزه وخضعت، وعدنا والبنود لا يعرف اللف نشرها، والوجوه المجاهدة لا يخالط التقطيب بشرها، والأيدي بالعروة الوثقى متعلقة، والألسن بشكر نعم اللّه منطلقة، والسيوف في مضاجع الغمود قلقه، وسرابيل الدروع خلقه، والجياد من ردها إلى المرابط والأواري، رد العواري حنقة، وبعبرات الغيظ المكظوم مختنقة، تنظر إلينا نظر العاتب، وتعود من ميادين الاختيال والمراح، تحت حلل السلاح، عود الصبيان إلى المكاتب، والطبل بلسان العز هادر والعزم إلى منادي العود الحميد مبادر، ووجود نوع الرماح، من بعد ذلك الكفاح نادر، والقاسم يرتب بين يديه من السبي النوادر، ووارد مناهل الأجور، غير الحلاء، ولا المهجور، غير صادر، ومناظر الفصل الآتي، عقب

أخيه الشاني، على المطلوب المواتي مصادر والله على تيسير الصعاب، وتخويل المنن الرغاب قادر، لا إله إلا هو.

فما أجمل لنا صنعه الحفي، وأكرم بنا لطفه الخفي، اللّهم لا نحصي ثناء عليك، ولا نلجأ منك إلا إليك، ولا نلتمس خير الدنيا والآخرة إلا لديك، فأعد علينا عوائد نصرك، يا مبدىء يا معيد، واعنا من وسائل شكرك، على ما ينثال به المزيد، يا حي يا قيوم يا فعال لما يريد.

وقارنت رسالتكم الميمونة لدينا حذق فتح بعيد صيته، مشرئب ليته، وفخر من فوق النجوم العوائم مبيته عجبنا من تأتي أمله الشارد، وقلنا: البركة في قدم الوارد وهو أن ملك النصارى لاطفنا بجملة من الحصون كانت من مملكة الإسلام قد غصبت، والتماثيل فيها ببيوت الله قد نصبت أدالها الله بمحاولتنا. الطيب من الخبيث، والتوحيد من التثليث، وعاد إليه الإسلام عود الأب الغائب، إلى البنات الحبائب، يسأل عن شؤونها، ويمسح دموع الرقة من جفونها وهي للروم خطة خسف قلما ارتكبوها فيما نعلم من العهود، ونادرة من نوادر الوجود.

وإلى الله علينا وعليكم عوارف الجود، وجعلنا في محاريب الشكر من الركع السجود.

عرفناكم بمجملات أمور تحتها تفسير، ويمن من الله وتيسير، إذ استيفاء الجزئيات عسير لنسركم بما منح الله دينكم، ونتوج بعز الملة الحنيفية جبينكم، ونخطب بعده دعاءكم وتأمينكم، فإن دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب سلاح ماض، وكفيل بالمواهب المسؤولة من المنعم الوهاب متقاض وأنتم أولى من ساهم في بر، وعامل الله بخلوص سر، وأين يذهب الفضل عن بيتكم، وهو صفة حيكم، وتراث ميتكم، ولكم مزية القدم، ورسوخ القدم والخلافة مقرها إيوانكم، وأصحاب الإمام مالك رضي الله عنه مستقرها قيروانكم، وهجير المنابر ذكر إمامكم، والتوحيد إعلام، والوقائع الشهيرة في الكفر منسوبة إلى أيامكم، والصحابة الكرام فتحة أوطانكم، وسلالة الفاروق عليه السلام وشائج سلطانكم، ونحن نستكثر من بركة خطابكم، ووصلة جنابكم ولولا الأعذار لوالينا بالمتزيدات تعريف أبوابكم.

والله عز وجل. يتولى عنا من شكركم المحتوم، ما قصر المكتوب منه عن المكتوم، ويبقيكم لإقامة الرسوم، ويحل محبتكم من القلوب محل الأرواح من الجسوم، وهو سبحانه يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، ويوالي نعمه عندكم.

والسلام الكريم، الطيب الزكي المبارك البر العميم، يخصكم كثيراً أثيراً، ما أطلع الصبح وجهاً منيراً، بعد أن أرسل النسيم سفيرا، وكان الوميض الباسم لأكواس الغمائم، على أزهار الكمائم مديراً، ورحمة الله وبركاته.

وكتب إلي يهنئني بمولود، ويعاتب على تأخير الخبر بولاده عنه:

هنيئاً أبا الفضل الرضا وأبا زيد	وأمنت من بغي يخاف ومن كيد
بطالع يمن طال في السعد شأوه	فما هو من عمرو الرجال ولا زيد
وقيد بشكر الله أنعمه التي	أوابدها تأبى سوى الشكر من قيد

أهلا ببدري المكاتب، وصدري المراتب، وعتبى الزمن العاتب وبكر المشتري والكاتب، ومرحباً بالطالع، في أسعد المطالع، والثاقب في أجلى المراقب، وسهلاً بغني البشير، وعزة الأهل والعشير، وتاج الفخر الذي يقصر عنه كسرى وأردشير، الآن اعتضدت الحلة الحضرمية بالفارس، وأمن السارح في حمى الحارس، وسعدت بالمنير الكبير، أفلاك التدوير، من حلقات المدارس، وقرت بالجنى الكريم عين الغارس، واحتقرت أنظار الآبلي وأبحاث ابن الدارس وقيل للمشكلات: طالما ألفت الخمرة، وأمضيت على الأذهان الأمرة، فتأهبي للغارة المبيحة لحماك، وتحيزي إلى فئة البطل المستأثر برشف لماك.

و لله من نصبة احتفى فيها المشتري واحتفل، وكفى سني تربيتها وكفل، واختال عطارد في حلل الجذل لها ورفل، واتضحت الحدود، وتهللت الوجوه، وتنافست المثلثات تؤمل الحظ وترجوه، ونبه البيت على واجبه، وأشار لحظ الشرف بحاجبه، وأسرع نير النوبة في الأوبة، قائماً في الاعتذار مقام التوبة، واستأثر بالبروج المولدة بيت البنين، وتخطت خطا القمر رأس الجوزهر وذنب التنين، وساوق منها حكم الأصل، حذوك النعل بالنعل، تحويل السنين، وحقق هذا المولود بين المواليد نسبة عمر الوالد، فتجاوز درجة المئين، واقترن بعاشره السعدان، اقتران الجسد، وثبت بدقيقه مركزه قلب الأسد، وسرق من بيت أعدائه خرثي الغل والحسد، ونظفت طرق التسيير، كما نفعل بين يدي السادة عند المسير، وسقط الشيخ الهرم من الدرج في البير، ودفع المقاتل إلى الوبال الكبير:

لم لا ينال العلا أو يعقد التاج	والمشتري طالع والشمس هيلاج
والسعد يركض في ميدانها مرحا	جذلان والفلك الدوار هملاج

كأن به والله يهديه قد انتقل من مهد التنويم، إلى النهج القويم، ومن أريكة الذراع، إلى تصريف اليراع، ومن كتد الداية، إلى مقام الهداية، والغاية المختطقة البداية جعل الله وقايته عليه عوذة، وقسم حسدته قسمة محرم اللحم، بين منخنقة ونطيحة

ومتردية وموقوذة، وحفظ هلاله في البدار إلى تمه وبعد تمه، وأقر به عين أبيه وأمه.

غير أني. واللّه يغفر لسيدي بيد أني راكع في سبيل الشكر وساجد، فأنا عاتب وواجد، إذ كان ظني أن البريد بهذا الخبر إلي يعمل، وإن إتحافي به لا يهمل، فانعكست القضية، ورابت الحال المرضية، وفضلت الأمور الذاتية الأمور العرضية، والحكم جازم، وأحد الفرضين لازم إما عدم السوية، ويعارضه اعتناء حبله مغار، وعهده سلم لم يدخلها جزية ولا صغار، أو جهل بمقدار الهبة، ويعارضه علم بمقدار الحقوق، ورضى مناف للعقوق، فوقع الأشكال وربما لطف عذر كان عليه الاتكال.

وإذا لم يبشر مثلي بمنحة اللّه قبل تلك الذات السرية، الخليقة بالنعم الحرية، فمن الذي يبشر، وعلى من يعرض بزها أو ينشر، وهي التي واصلت التفقد، وبهرجت المعاملة وأبت أن تنقد، وأنست الغربة وجرحها غير مندمل، ونفست الكربة وجنحها على الجوانح مشتمل، فمتى فرض نسيان الحقوق لم يبلني فرض، ولاشهد به علي سماء ولا أرض، وإن قصر فيما يجب لسيدي عمل، لم يقصر رجاء ولا أمل، ولي في شرح حمده ناقة وجمل.

ومنه جل وعلا نسأل أن يريه قرة العين في نفسه وماله وبنيه، ويجعل أكبر عطايا الهيالج أصغر سنيه، ويقلد عواتق الكواكب البابانية حمائل أمانيه وإن تشوف سيدي لحال وليه، فخلوة طيبة، ورحمة من جانب اللّه صيبة، وبرق يشام، فيقال: حدث ما وراءك يا هشام.

و لله در شيخنا إذ يقول:

لا بارك اللّه في إن لم   أصرف النفس في الأهم
وكثر اللّه في همومي   إن كان غير الخلاص همي

وإن أنعم سيدي بالإلماع بحالة، وحال الولد المبارك، فذلك من غرر إحسانه، ومنزلته في لحظ لحظي، بمنزلة إنسانه، والسلام.

العودة إلى المغرب الأقصى

ولما كنت في الاعتمال في مشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب، كما ذكرت تفاصيله، وأنا مقيم ببسكرة في جوار صاحبها أحمد بن يوسف بن مزني، وهو صاحب زمام رياح، وأكثر عطائهم من السلطان مفترض عليه في جباية الزاب، وهم يرجعون إليه في الكثير من أمورهم، فلم أشعر إلا وقد حدثت المنافسة منه في استتباع العرب، ووغر صدره، وصدق فيَّ ظنونه وتوهماته، وطاوع الوشاة فيما يوردون على سمعه من التقول والاختلاق، وجاش صدره بذلك، فكتب إلى ونزمار بن عريف، ولي السلطان، وصاحب شواره، يتنفس الصعداء من ذلك، فأنهاه إلى السلطان، فاستدعاني لوقته، وارتحلت من بسكرة بالأهل والولد، في يوم المولد الكريم سنة أربع وسبعين وسبعمائة متوجهاً إلى السلطان وقد كان طرقه المرض فما هو إلا أن وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط، فلقيني هنالك خبر وفاته، وأن ابنه أبا بكر السعيد نصب بعده للأمر في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي وأنه ارتحل إلى المغرب الأقصى مغذاً السير إلى فاس، وكان على مليانة يومئذ علي بن حسون بن أبي علي البناطي من قواد السلطان وموالي بيته، فارتحلت معه إلى أحياء العطاف ونزلنا على أولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم، بذرق لي بعضهم إلى حلة أولاد عريف: أمراء سويد، ثم لحق بنا بعد أيام علي بن حسون في عسكره وارتحلنا جميعاً إلى المغرب على طريق الصحراء، وكان أبو حمو قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتباذه بالقفر في تيكورارين إلى تلمسان فاستولى عليها وعلى سائر أعماله، فأوعز إلى بني يغمور من شيوخ عبيد اللّه من المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين مخرج وادي زا، فاعترضونا هنالك فنجا من نجامنا على خيولهم إلى جبل دبدو وانتهبوا جميع ما كان معنا وأرجلوا الكثير من الفرسان، وكنت فيهم، وبقيت يومين في قفره ضاحياً عارياً إلى أن خلصت إلى العمران ولحقت بأصحابي بجبل دبدو ووقع في خلال ذلك من الألطاف إلى ما لا يعبر عنه، ولا يسع الوفاء بشكره.

ثم سرنا إلى فاس ووفدت على الوزير أبي بكر وابن عمه محمد بن عثمان بفاس في جمادى من السنة، وكان لي معه قديم صحبة واختصاص منذ نزع معي إلى السلطان أبي سالم بجبل الصفيحة، عند إجازته من الأندلس لطلب ملكه كما مر في غير موضع من الكتاب، فلقيني من بر الوزير وكرامته وتوفير جرايته وإقطاعه، فوق ما أحتسب وأقمت بمكاني من دولتهم أثير المحل، نابه الرتبة عريض الجاه، منوه المجلس عند السلطان.

ثم انصرم فصل الشتاء وحدث بين الوزير أبي بكر بن غازي وبين السلطان ابن الأحمر منافرة بسبب ابن الخطيب، وما دعا إليه ابن الأحمر من إبعاده عنهم وأنف الوزير من ذلك فأظلم الجو بينهما، وأخذ الوزير في تجهيز بعض القرابة من بني الأحمر للإجلاب على الأندلس فبادر ابن الأحمر إلى إطلاق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن من ولد السلطان أبي علي، والوزير مسعود بن رحو بن ماساي كان حبسهما أيام السلطان عبد العزيز وبإشارته بذلك لابن الخطيب حين كان في وزارته بالأندلس، فأطلقهما الآن وبعثهما لطلب الملك بالمغرب، وأجازهما في

الأسطول إلى سواحل غساسة فنزلوا بها ولحقوا بقبائل بطوية هنالك، فاشتملوا عليهم، وقاموا بدعوة الأمير عبد الرحمن.

ونهض ابن الأحمر من غرناطة في عساكر الأندلس فنزل على جبل الفتح يحاصره، وبلغت الأخبار بذلك إلى الوزير أبي بكر بن غازي القائم بدوله بني مرين، فجهز لحينه ابن عمه محمد بن عثمان بن الكاس إلى سبتة لإمداد الحامية الذين لهم بالجبل، ونهض هو في العساكر إلى بطوية لقتال الأمير عبد الرحمن، فوجده قد ملك تازى، فأقام عليها يحاصره، وكان السلطان عبد العزيز قد جمع شباباً من بني أبيه المرشحين، فحبسهم بطنجة.

فلما وافى محمد بن الكاس سبتة وقعت المراسلة بينه وبين ابن الأحمر وعتب كل منهما صاحبه على ما كان منه، واشتد عذل ابن الأحمر على إخلائهم الكرسي من كفئه، ونصبهم السعيد بن عبد العزيز صبياً لم يثغر، فاستعتب له محمد، واستقال من ذلك، فحمله ابن الأحمر على أن يبايع لأحد الأبناء المحبوسين بطنجة، وقد كان الوزير أبو بكر أوصاه أيضاً بأنه إن تضايق عليه الأمر من الأمير عبد الرحمن، فيفرج عنه بالبيعة لأحد أولئك الأبناء.

وكان محمد بن الكاس قد استوزره السلطان أبو سالم لابنه أحمد أيام ملكه، فبادر من وقته إلى طنجة وأخرج أحمد ابن السلطان أبي سالم من محبسه، وبايع له وسار به إلى سبتة، وكتب لابن الأحمر يعرفه بذلك، ويطلب منه المدد على أن ينزل له عن جبل الفتح، فأمده بما شاء من المال والعسكر واستولى على جبل الفتح وشحنه بحاميته، وكان أحمد ابن السلطان أبي سالم قد تعاهد مع بني أبيه في محبسهم، على أن من صار الملك إليه منهم، يجيز الباقين إلى الأندلس، فلما بويع له ذهب إلى الوفاء لهم بعهدهم، وأجازهم جميعاً، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر، فأكرم نزلهم ووفر جراياتهم.

وبلغ الخبر بذلك كله إلى الوزير أبي بكر بمكانه من حصار الأمير عبد الرحمن بتازة، فأخذه المقيم المقعد من فعلة ابن عمه، وقوّض راجعاً إلى دار الملك، وعسكر بكدية العرائس من ظاهرها وتوعد ابن عمه محمد بن عثمان فاعتذر بأنه إنما امتثل وصيته، فاستشاط وتهدده واتسع الخرق بينهما وارتحل محمد بن عثمان بسلطانه ومدده من عسكر الأندلس إلى أن احتل بجبل زرهون المطل على مكناسة، وعسكر به، واشتملوا عليه، وزحف إليهم الوزير أبو بكر وصعد الجبل فقاتلوه وهزموه، ورجع إلى مكانه بظاهر دار الملك، وكان السلطان ابن الأحمر قد أوصى محمد بن عثمان بالاستعانة بالأمير عبد الرحمن والاعتضاد به، ومساهمته في جانب من أعمال المغرب يستبد به لنفسه، فراسله محمد بن عثمان في ذلك، واستدعاه واستمده وكان ونزمار بن عريف ولي سلفهم قد أظلم الجو بينه وبين الوزير أبي بكر، لأنه سأله وهو يحاصر تازى في الصلح مع الأمير عبد الرحمن فامتنع، واتهمه بمداخلته والميل له، فاعتزم على القبض عليه، ودس إليه بذلك بعض عيونه، فركب الليل ولحق بأحياء الأحلاف من المعقل، وكانوا شيعة للأمير عبد الرحمن، ومعهم علي بن عمر الويعلاني كبير بني ورتاجن، كان انتقض على الوزير ابن غازي ولحق بالسوس.

ثم خاض القفر إلى هؤلاء الأحلاف فنزل بينهم مقيماً لدعوة الأمير عبد الرحمن، فجاءهم ونزمار مفلتاً من حبالة الوزير أبي بكر وحرضهم على ما هم فيه، ثم بلغهم خبر السلطان أحمد بن أبي سالم ووزيره محمد، ابن عثمان، وجاءهم وافد الأمير عبد الرحمن يستدعيهم.

وخرج من تازى فلقيهم، ونزل بين أحيائهم، ورحلوا جميعاً إلى إمداد السلطان أبي العباس حتى انتهوا إلى صفووى.

ثم اجتمعوا جميعاً على وادي، النجا، وتعاقدوا على شأنهم، وأصبحوا من الغد على التعبئة، كل من ناحيته.

وركب الوزير أبو بكر لقتالهم فلم يطق، وولى منهزماً فانحجر بالبلد الجديد، وخيم القوم بكدية العرائس محاصرين له، وذلك أيام عيد الفطر من سنة خمس وسبعين وسبعمائة فحاصروها ثلاثة أشهر وأخذوا بمختنقها إلى أن جهد الحصار الوزير ومن معه، فأذعن للصلح على خلع الصبي المنصوب السعيد ابن السلطان عبد العزيز، وخروجه إلى السلطان أبي العباس ابن عمه، والبيعة له، وكان السلطان العباس والأمير عبد الرحمن قد تعاهدوا عند الاجتماع بوادي النجا على التعاون والتناصر، على أن الملك للسلطان أبي العباس بسائر أعمال المغرب، وأن للأمير عبد الرحمن بلدا سجلماسة ودرعة والأعمال التي كانت لجده السلطان أبي علي أخي السلطان أبي الحسن.

ثم بدا للأمير عبد الرحمن في ذلك أيام الحصار، واشتط بطلب مراكش وأعمالها فأغضوا له في ذلك، وشارطوه عليه حتى يتم لهم الفتح، فلما انعقد بما بين السلطان أبي العباس والوزير أبي بكر، وخرج إليه من البلد الجديد، وخلع سلطانه الصبي المنصوب، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار الملك فاتح ست وسبعين وسبعمائة وارتحل الأمير عبد الرحمن يغذ السير إلى مراكش، وبدا للسلطان أبي العباس ووزيره محمد بن عثمان في شأنه، فسرحوا العساكر في اتباعه، وانتهوا خلفه إلى وادي بهت فواقفوه ساعة من

نهار، ثم أحجموا عنه، وولوا على راياتهم، وسار هو إلى مراكش، ورجع عنه وزيره مسعود بن ماساي بعد أن طلب منه الإجازة إلى الأندلس يتودع بها، فسرحه لذلك، وسار إلى مراكش فملكها.

وأما أنا فكنت مقيماً بفاس في ظل الدولة وعنايتها، منذ ندمت على الوزير سنة أربع وسبعين وسبعمائة كما مر، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه، فلما جاء السلطان أبو العباس والأمير عبد الرحمن وعسكروا بكدية العرائس، وخرج أهل الدولة إليهم من الفقهاء والكتاب والجند، وأذن للناس جميعاً في مباكرة أبواب السلطانين من غير نكير في ذلك، فكنت أباكرهما معاً، وكان بيني وبين الوزير محمد بن عثمان ما مر ذكره قبل هذا، فكان يظهر لي رعاية ذلك، ويكثر من المواعيد، وكان الأمير عبد الرحمن يميل إلي ويستدعيني أكثر أوقاته، ويشاورني في أحواله، فغص بذلك الوزير محمد بن عثمان وأغرى سلطانه فقبض علي.

وسمع الأمير عبد الرحمن بذلك، وعلم أني إنما وتيت من جراه، فحلف ليقوضن خيامه، وبعث وزيره مسعود بن ماساي لذلك، فأطلقوني من الغد، ثم كان افتراقهما لثالثة.

ودخل السلطان أبو العباس دار الملك، وسار الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، وكنت أنا يومئذ مستوحشاً، فصحبت الأمير عبد الرحمن معتزماً على الإجازة إلى الأندلس من ساحل أسفي، معولاً في ذلك على صحابة الوزير مسعود بن ماساي لهواي فيه، فلما رجع مسعود أثنى عزمي في ذلك، ولحقنا بونزمار بن عريف بمكانه من نواحي كرسيف، لنقدمه وسيلة إلى السلطان أبي العباس صاحب فاس في الجواز إلى الأندلس، ووافينا عنده داعي السلطان فصحبناه إلى فاس، واستأذنه في شأني، فأذن لي بعد مطاولة وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان وسليمان بن داود بن أعراب، ورجال الدولة.

وكان الأخ يحيى لما رحل السلطان أبو حمو من تلمسان، رجع عنه من بلاد زغبة إلى السلطان عبد العزيز، فاستقر في خدمته، وبعده في خدمة ابنه محمد السعيد المنصوب مكانه.

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد استأذن الأخ في اللحاق بتلمسان، فأذن له وقدم على السلطان أبي حمو، فأعاده إلى كتابة سره كما كان أول أمره، وأذن لي أنا بعده فانطلقت إلى الأندلس بقصد القرار والدعة إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الإجازة ثانية إلى الأندلس ثم إلى تلمسان واللحاق بأحياء العرب والمقامة عند أولاد عريف

ولما كان ما قصصته من تنكر السلطان أبي العباس صاحب فاس والذهاب مع الأمير عبد الرحمن ثم الرجوع عنه إلى ونزمار بن عريف طلباً لوسيلته في انصرافي إلى الأندلس بقصد القرار والانقباض، والعكوف على قراءة العلم، فتم ذلك ووقع الإسعاف به بعد الامتناع، وأجزت إلى الأندلس في ربيع[سنة] ست وسبعين وسبعمائة ولقيني السلطان بالبر والكرامة وحسن النزل على عادته وكنت لقيت بجبل الفتح كاتب السلطان ابن الأحمر من بعد ابن الخطيب الفقيه أبا عبد الله بن زمرك، ذاهباً إلى فاس في غرض التهنئة، وأجاز إلى سبتة في أسطوله، وأوصيته بإجازة أهلي وولدي إلى غرناطة، فلما وصل إلى فاس، وتحدث مع أهل الدولة في إجازتهم، تنكروا لذلك، وساءهم استقراري بالأندلس، واتهموا أني ربما أحمل السلطان ابن الأحمر على الميل إلى الأمير عبد الرحمن الذي اتهموني بملابسته، ومنعوا أهلي من اللحاق بي.

وخاطبوا السلطان ابن الأحمر في أن يرجعني إليهم، فأبى من ذلك، فطلبوا منه أن يجيزني إلى عدوة تلمسان، وكان مسعود بن ماساي قد أذنوا له في اللحاق بالأندلس، فحملوه على مشافهة السلطان بذلك، وأبدوا له أني كنت ساعياً في خلاص ابن الخطيب، وكانوا قد اعتقلوه لأول استيلائهم على البلد الجديد وظفرهم به.

وبعث إليّ ابن الخطيب من محبسه مستصرخاً بي، ومتوسلاً، فخاطبت في شأنه أهل الدولة، وعولت فيه منهم على ونزمار وابن ماساي، فلم تنجح تلك السعاية، وقتل ابن الخطيب، بمحبسه، فلما قدم ابن ماساي على السلطان ابن الأحمر. وقد أغروه بي فألقى إلى السلطان ما كان مني في شأن ابن الخطيب، فاستوحش لذلك، وأسعفهم بإجازتي إلى العدوة، ونزلت بهنين والجو بيني وبين السلطان أبي حمو مظلم بما كان مني في إجلاب العرب عليه بالزاب كما مر.

فأوعز بمقامي بهنين، ثم وفد عليه محمد بن عريف فعذله في شأني فبعث عني إلى تلمسان، واستقررت بها بالعباد، ولحق بي أهلي وولدي من فاس، وأقاموا معي وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين وسبعمائة وأخذت في بث العلم، وعرض للسلطان

أبي حمو أثناء ذلك رأي في الدواودة، وحاجة إلى استئلافهم، فاستدعاني وكلفني السفارة إليهم في هذا الغرض، فاستوحشت منه ونكرته على نفسي لما آثرته من التخلي والإنقطاع، وأجبته إلى ذلك ظاهراً، وخرجت مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء، فعدلت ذات اليمين إلى منداس ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول فتلقوني بالتحفي والكرامة، وأقمت بينهم أياماً حتى بعثوا عن أهلي وولدي بتلمسان، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته، وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة من بلاد بني توجين التي صارت لهم بأقطاع السلطان فأقمت بها أربعة أعوام متخلياً عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسألت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها، وتألفت نتائجها، وكانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الفيئة إلى السلطان أبي العباس بتونس والمقام بها

ولما نزلت بقلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف، وسكنت بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها وكان من أحفل المساكن وأوثقها.

ثم طال مقامي هنالك وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان، وعاكف على تأليف هذا الكتاب، وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناتة، وتشوفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أمليت الكثير من حفظي، وأردت التنقيح والتصحيح، ثم طرقني مرض أوفى بي على الثنية لولا ما تدارك من لطف اللّه، فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس والرحلة إلى تونس، حيث قرار آبائي ومساكنهم، وآثارهم وقبورهم، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته والمراجعة، وانتظرت فما كان غير بعيد، وإذا بخطابه وعهوده بالإمان والاستحثاث للقدوم؛ فكان الخفوف للرحلة فظعنت عن أولاد عريف مع عرب الأخضر من بادية رياح، كانوا هنالك ينتجعون الميرة بمنداس، وارتحلنا في رجب سنة ثمانين وسبعمائة وسلكنا القفر إلى الدوسن من أطراف الزاب.

ثم صعدت إلى التل مع حاشية يعقوب بن علي وجدتهم بفرفار الضيعة التي اختطها بالزاب، فرحلتهم معه إلى أن نزلنا عليه بضاحية قسنطينة، ومعه صاحبها الأمير إبراهيم ابن السلطان أبي العباس بمخيمه وفي معسكره، فحضرت عنده وقسم لي من بره وكرامته فوق الرضى وأذن لي في الدخول إلى قسنطينة وإقامة أهلي في كفالة إحسانه، بينما أصل إلى حضرة أبيه، وبعث يعقوب بن علي معي ابن أخيه أبي دينار في جماعة من قومه، وسرنا إلى السلطان أبي العباس وهو يومئذ قد خرج من تونس في العساكر إلى بلاد الجريد لاستنزال شيوخها عن كراسي الفتنة التي كانوا عليها، فوافيته بظاهر سوسة، فحيا وفادتي وبر مقدمي وبالغ في تأنيسي، وشاورني في مهمات أموره، ثم ردني إلى تونس وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارح بتهيئه المنزل، والكفاية في الجراية والعلوفة، وجزيل الإحسان، فرجعت إلى تونس في شعبان من السنة، وآويت إلى ظل ظليل من عناية السلطان وحرمته، وبعثت إلى الأهل والولد وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة، وألقيت عصا التسيار، وطالت غيبة السلطان إلى أن افتتح أمصار الجريد، وذهب فلهم في النواحي، ولحق زعيمهم يحيى بن يملول ببسكرة، ونزل على صهره ابن مزني، وقسم السلطان بلاد الجريد بين ولده، فأنزل ابنه محمداً المنتصر بتوزر وجعل نفطة ونفزاوة من أعماله، وأنزل ابنه أبا بكر بقفصة، وعاد إلى تونس مظفراً ماهداً، فأقبل على وستدناني لمجالسته، والنجي في خلوته، فغص بطانته من ذلك، وأفاضوا في السعايات عند السلطان فلم تنجح، وكانوا يعكفون على إمام الجامع، وشيخ الفتيا محمد بن عرفة، وكان في قلبه نكتة من الغيرة من لدن اجتماعنا في المربى بمجالس الشيوخ، فكثيراً ما كان يظهر شفوفي عليه، وإن كان أسن مني فاسودت تلك النكتة في قلبه، ولم تفارقه، ولما قدمت تونس انثال علي طلبة العلم من أصحابه وسواهم؛ يطلبون الإفادة والاشتغال، وأسعفتهم بذلك، فعظم عليه، وكان يسر التنفير إلى الكثير منهم، فلم يقبلوا، واشتدت غيرته ووافق ذلك اجتماع البطانة إليه، واتفقوا على شأنهم في التأنيب عليَّ والسعاية بي، والسلطان خلال ذلك معرض عنهم في ذلك، وقد كلفني بالأكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوفه إلى المعارف والأخبار، واقتناء الفضائل فأكملت منه أخبار البربر وزناتة، وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل إلي منها، وأكملت منها نسخة رفعتها إلى خزانته.

وكان مما يغرون به على السلطان قعودي عن امتداحه، فإني كنت قد أهملت الشعر وانتحاله جملة، وتفرغت للعلم فقط، فكانوا يقولون له: إنما ترك ذلك استهانة بسلطانك لكثرة امتداحه للملوك قبلك، وتنسمت ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من بطانتهم، فلما رفعت له الكتاب وتوجته باسمه أنشدت في ذلك

اليوم هذه القصيدة أمتدحه، وأذكر سيره وفتوحاته وأعتذر عن انتحال الشعر وأستعطفه بهدية الكتاب إليه فقلت:

هل غير بابك للغريب مؤمل … أوعن جنابك للأماني معدل
هي همة بعثت إليك على النوى … عزماً كما شحذ الحسام الصيقل
متبوأ الدنيا ومنتجع المنى … والغيث حيث العارض المتهلل
حيث القصور الزاهرات منيفة … تعنى بها زهر النجوم وتحفل
حيث الخيام البيض يرفع للعلا … والمكرمات طرافها المتهدل
حيث الحمى للعز في ساحاته … ظل أفاءته الوشيج الذبل
حيث الكرام ينوب عن نار … القرى عرف الكباء بحيهم والمندل
حيث الرماح يكاد يورق عودها … مما تعل من الدماء
حيث الجياد أملهن شجعان بنو … مما أطالوا في المغار وأوغلوا
حيث الوجوه الغر قنعها الحيا … والبشر في صفحاتها يتهلل
حيث الملوك الصيد والنفر الألى … عز الجوار لديهم والمنزل
من شيعة المهدي بل من شيعة … التوحيد به الكتاب يفصل
شادوا على التقوى مباني عزهم … لله ما شادوا بذاك وأثلوا
بل شيعة الرحمن ألقى حبهم … في خلقه فسموا بذاك وفضلوا
قوم أبو حفص أب لهم وما … أدراك والفاروق جد أول
نسب كما اطردت أنابيب القنا … وأتى على تقويمهن معدل
سام على هام الزمان كأنه … للفخر تاج بالبدور مكلل
فضل الأنام حديثهم وقديمهم … ولأنت إن فضلوا أعزوا وأفضل
وبنوا على قلل النجوم ووطدوا … وبناؤك العالي أشد وأطول
ولقد أقول لخائض بحر الفلا … والليل مزبد الجوانب أليل
ماض على غول الدجى لا يتقي … تيهاً وذابله ذبال مشعل
متقلب فوق الرحال كأنه … طيف بأطراف المهاد موكل
يبغي منال الفوز من طرق الغنى … ويرود مخصبها الذي لا يمحل
أرح الركاب فقد ظفرت بواهب … يعطي عطاء المنعمين فيجزل
لله من خلق كريم في الندى … كالروض حياه ندي مخضل
هذا أمير المؤمنين إمامنا … في الدين والدنيا إليه الموئل
هذا أبو العباس خير خليفة … شهدت له الشيم التي لا تجهل
مستنصر بالله في قهر العدا … وعلى إعانة ربه متوكل
سبق الملوك إلى العلا متمهلا … لله منك السابق المتمهل
فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا … يتسابقون إلى العلاء وأكمل
قايس قديماً منهم بقديمهم … فالأمر فيه واضح لا يجهل
دانوا لقومكم بأقوم طاعة … هي عروة الدين التي لا تفصل
سائل تلمسانا بها وزناتة … ومرين قبلهم كما قد ينقل
واسأل بأندلس مدائن ملكها … تخبرك حين استيأسوا واستوهلوا
واسأل بذا مراكشاً وقصورها … ولقد تجيب رسومها من يسأل
يا أيها الملك الذي في نعته … ملء القلوب وفوق ما يتمثل
لله منك مؤيد عزماته … تمضي كما يمضي القضاء المرسل
جئت الزمان بحيث أعضل خطبة … فافتر عنه وهو أكلح أعصل
والشمل من أبنائه متصدع … وحمى خلافته مضاع مهمل
والخلق قد صرفوا إليك قلوبهم … ورجوا صلاح الحال منك وأملوا
فعجلته لما انتدبت لأمره … بالبأس والعزم الذي لا يمهل
ذللت منه جامحاً لا ينثني … سهلت وعراً كاد لا يتسهل
وألنت من شرس العتاة وذدتهم … عن ذلك الحرك الذي قد حللوا
كانت لصولة صولة ولقومه … يعدو ذؤيب بها وتسطو المعقل
ومهلهل تسدي وتلحم في التي … ما أحكموها فهي بعد مهلهل

والمراد بصولة هنا صولة بن خالد بن حمزة أولاد أبي الليل.

وذؤيب: هو ابن عمه أحمد بن حمزة.

والمعقل فريق من العرب من أحلافهم، ومهلهل: هم بنو مهلهل بن قاسم أنظارهم وأقتالهم.

ثم رجعت إلى وصف العرب وأحيائهم:

عجب الأنام لشأنهم بادون قد … قذفت بحيهم المطي الذلل
رفعوا القباب على العماد … الجرد السلاهب والرماح العسل
في كل ظامي الترب متقد الحصى … تهوي للجته الظماء فتنهل
جن شرابهم السراب ورزقهم … رمح يروح به الكمي ومنصل
حي حلول بالعراء ودونهم … قذف النوى إن يظعنوا أو يقبلوا
كانوا يروعون الملوك بما بدوا … وغدت ترفه بالنعيم وتخضل
فبدوت لا تلوي على دعة … ولا تأوي إلى ظل القصور وتهدلُ
طورا يصافحك الهجير وتارة … فيه بخفاق البنود تظلل
وإذا تعاطى الضمر في يوم الوغى … كأس النجيع فبالصهيل تعلل
مخشوشناً في العز معتملاً له … في مثل هذا يحسن المستعمل
تفري حشى البيداء لا يسري بها … ركب ولا يهوي إليه جحفل
وتجر أذيال الكتائب فوقها … تختال في السمر الطوال وترفل
ترميهم منها بكل مدجج … شاكي السلاح إذا استعار الأعزل
وبكل أسمر غصنه متأود … وبكل أبيض شطه متهدل
حتى تفرق ذلك الجمع الألى … عصفت بهم ريح الجلاد فزلزلوا
ثم استملتهم بأنعمك التي … خضعوا لعزك بعدها وتذللوا
ونزعت من أهل الجريد غواية … كانت بهم أبداً تجد وتهزل
خربت من بنيانها ما شيدوا … وقطعت من أسبابها ما أصّلوا
ونظمت من أمصاره وثغوره … للملك عقداً بالفتوح يفصل
فسددت مطلع النفاق وأنت لا … تنبو ظباك ولا العزيمة تنكل
بشكيمة مرهوبة وسياسة … تجري كما يجري فرات سلسل
عذب الزمان لها ولذ مذاقه … من بعد ما قد مر منه الحنظل
فضوى الأنام لعز أروع مالك … سهل الخليقة ماجد متفضل

وتطابقت فيه القلوب على الرضى … سيان منها الطفل والمتكهل

يا مالكاً وسع الزمان وأهله دعةً … وأمناً فوق ما قد أملوا

فالأرض لا يخشى بها غول ولا … يعدو بساحتها الهزبر المشبل

والسُّفر يجتابون كل تنوفة … سرب القطاما راعهن الأجدل

سبحان من بعلاك قد أحيا المنى … وأعاد حلي الجيد وهو معطل

سبحان من بهداك أوضح للورى … قصد السبيل فأبصر المتأمل

فكأنما الدنيا عروس تجتلي … فتميس في حلل الجمال وترفل

وكأن مطبقة البلاد بعدله عادت … فسيحاً ليس فيها مجهل

وكأن أنوار الكواكب ضوعفت … من نور غرته التي هي أجمل

وكأنما رفع الحجاب لناظر … فرأى الحقيقة في الذي يتخيل

ومنها في العذر عن مدحه:

مولاي غاضت فكرتي وتبلدت … مني الطباع فكل شيء مشكل

تسمو إلى درك الحقائق همت … فأصد عن إدراكهن وأعزل

وأجد ليلى في امتراء قريحت … وتعود غوراً بينما تسترسل

فأبيت يعتلج الكلام بخاطري … والنظم يشرد والقوافي تجفل

من بعد حول أنتقيه ولم يكن … في الشعر حولي يعاب ويهمل

فأصونه عن أهله متوارياً … أن لا يضمهم وشعري محفل

وهي البضاعة في القبول نفاقها … سيان فيه الفحل والمتطفل

وبنات فكري إن أتتك كليلة … زهراء تخطر في القصور وتخطل

فلها الفخار إذا منحت قبولها … وأنا على ذاك البليغ المقول

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف بخزانته:

وإليك من سير الزمان وأهله … عبراً يدين بفضلها من يعدل

صحفاً تترجم عن أحاديث الأولى … غبروا فتجمل عنهم وتفصل

تبدي التبابع والعمالق سرها … وثمود قبلهم وعاد الأول

والقائمون بملة الإسلام من … مضر وبربرهم إذا ما حصلوا

لخصت كتب الأولين لجمعها … وأتيت أولها بما قد أغفلوا

والنت حوشي الكلام كأنما … شرد للغات بها لنطقي ذلل

أهديت منه إلى علاك جواهراً … مكنونة وكواكباً لا تأفل

وجعلته لصوان ملكك مفخراً … يبأى الندي به ويزهو المحفل

والله ما أسرفت فيما قلته شيئا … ولا الإسراف مما يجمل

ولأنت أرسخ في المعارف رتبة … من أن يموه عنده متطفل

فملاك كل فضيلة وحقيقة … بيديك تعرف وضعها إن بدلوا

والحق عندك في الأمور مقدم … أبداً فماذا يدعيه المبطل

والله أعطاك التي لا فوقها … فاحكم بما ترضى فأنت الأعدل

أبقاك ربك للعباد تربهم … فالله يخلقهم ورعيك يكفل

وكنت لما انصرفت من معسكره على سوسة إلى تونس، بلغني وأنا مقيم بها أنه أصابه في طريقه مرض، وعقبه إبلال فخاطبته بهذه القصيدة:

ضحكت وجوه الدهر بعد عبوس … وتجللتنا رحمة من بوس

وتوضحت غرر البشائر بعدما … انبهمت فأطلعها حداة العيس

صدعوا بها ليل الهموم كأنما … صدعوا الظلام بجذوة المقبوس

فكأنهم بثوا حياة في الورى … نشرت لها الآمال من مرموس

قرت عيون الخلق منها بالتي … أضفت من النعماء خير لبوس

فكأن قومي نادمتهم ترقف … شربوا النعيم لها بغير كؤوس

يتمايلون من المسرة والرضا … ويقابلون أهلة بشموس

من راكب وافى يُحيي راكبا … وجليس أنس قاده لجليس

ومشفع لله يؤنس عنده … أثر الهدى في المعهد المأنوس

يعتد منها رحمة قدسية … فيبوء للرحمن بالتقديس

طب بإخلاص الدعاء وإنه … يشفي من الداء العيا يوسي

والمعني به إمام الجامع الأعظم، جامع الزيتونة بتونس.

يا ابن الخلافة والذين بنورهم … نهجت سبيل الحق بعد دروس

والناصر الدين القويم بعزمة … طردت إمامتها بغير عكوس

هجر المنى فيها ولذات المنى … في لذة التهجير والتغليس

حاط الرعية بالسياسة فانضوت … منه لأكرم مالك وسيوس

أسد يحامي عن حمى أشباله … حتى ضووا منه لأمنع خيس

قسماً بموشي البطاح وقد غدت … تختال زهواً في ثياب عروس

والمائلات من الحنايا جثما … يخبرن عن طسم وفل جديس

خوص مضمرة البطون كأنها … أنضاء ركب في الفلاة حبيس

وخز البلى منها الغوارب والذرى … فلفتن حذراً بالعيون الشوس

لبقاك حرز للأنام وعصمة … وحياة أرواح لنا ونفوس

ولأنت كافل ديننا بحماية … لولاك ضيع عهدها وتنوسي

الله أعطاك التي لا فوقها … وحباك حظاً ليس بالموكوس

تعنو القلوب إليك قبل وجوهنا … سيان من رأس ومن مرؤوس

فإذا أقمت فإن رعبك راحل … يحمي على الأعداء كل وطيس

وإذا رحلت فللسعادة آية … تقتادها في موكب وخميس

وإذا الأدلة في الكمال تطابقت … جاءت بمسموع لها ومقيس

فانعم بملكك دولة عادية … تشقي الأعادي بالعذاب البيس

وإليكها مني على خجل بها … عذراء قد حليت بكل نفيس

عذراً فقد طمس الشباب ونوره … وأضاء صبح الشيب عند طموس

لولا عنايتك التي أوليتني … ما كنت أعني بعدها بطروس

والله ما أبقت ممارسة … النوى مني سوى مرس أحم دريس

الحنى الزمان علي في الأدب الذي … دارسته بمجامع ودروس

فسطا على وفري وروع مأمني … واجتث من دوح النشاط غروسي

ورضاك رحمتي التي أعتدها … تحيي منى نفسي وتذهب بوسي

ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من أنواع السعايات، وابن عرفة يزيد في إغرائهم متى اجتمعوا إليه، إلى أن أغروا السلطان بسفري معه، ولقنوا النائب بتونس القائد فارح من موالي السلطان أن يتفادى من مقامي معه خشية على أمره مني بزعمه، وتواطأوا على أن يشهد ابن عرفة بذلك للسلطان شهد به في غيبة مني ونكر السلطان عليهم ذلك، ثم بعث إلي وأمرني بالسفر معه، فسارعت إلى الامتثال، وقد شق ذلك علي، إلا أنني لم أجد محيصاً عنه، فخرجت معه وانتهيت إلى تبسة، وسط تلول أفريقية، وكان منحدراً في عسكره وتوابعه من العرب إلى توزر لأن ابن يملول أجلب عليها سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة واستنقذها من يد ابنه، فسار السلطان إليه، وشرده عنها، وأعاد إليها ابنه وأولياءه. ولما نهض من تبسة رجعني إلى تونس فأقمت بضيعتي الرياحين من نواحيها لضم زروعي بها إلى أن قفل السلطان ظافراً منصوراً فصحبته إلى تونس.

ولما كان شهر شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة أجمع السلطان الحركة إلى الزاب بما كان صاحبه ابن مزني قد آوى ابن يملول إليه ومهد له في جواره، فخشيت أن يعود في شأني ما كان في السفرة قبلها، وكان بالمرسى سفينة لتجار الإسكندرية قد شحنها التجار بأمتعتهم وعروضهم، وهي مقلعة إلى الإسكندرية فتطارحت على السلطان، وتوسلت إليه في تخلية سبيلي لقضاء فرضي، فأذن لي في ذلك، وخرجت إلى المرسى والناس متسايلون على أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم. فودعتهم وركبت البحر منتصف شعبان من السنة، وقوضت عنهم بحيث كانت الخيرة من اللّه سبحانه، وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم، واللّه ولي الأمور سبحانه.

الرحلة إلى المشرق وولاية القضاء بمصر

ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة أقمنا في البحر نحواً من أربعين ليلة، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر، ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت، واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون، وكنا على ترقب ذلك، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك، وتمهيده له. وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ولم يقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الخوانك والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء، يسقيهم العلل والنهل سيحه، ويجني إليهم الثمرات والخيرات ثجه ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم. وما زلنا نتحدث عن هذا البلد وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم في الحديث عنه، سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد اللّه المقري مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعمائة فقلت له: كيف هذه القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام.

وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال: كأنما انطلق أهله من السحاب يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب.

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة فسألته عن القاهرة فقال:

أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار: إن الذي يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها. فأعجب السلطان والحاضرون لذلك.

ولما دخلتها أقمت أياماً وانثال علي طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذراً فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها.

ثم كان الاتصال بالسلطان فأبر اللقاء مقامي وآنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس، وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر اغتباطاً بعودي إليه فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه لتخلية سبيلهم، فخاطبه في ذلك بما نصه.

بسم اللّه الرحمن الرحيم.

عبد اللّه ووليه أخوه برقوق [....]

السلطان الأعظم، المالك الملك الظاهر، السيد الأجل، العالم العادل، المؤيد المجاهد، المرابط المثاغر، المظفر، الشاهنشاه، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، مولي الإحسان، مملك أصحاب

التخوت والأسرة والتيجان، واهب الأقاليم والأقطار، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، ملك البحرين، مسلك سبيل القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، ظل اللّه في أرضه، القائم بسنته وفرضه، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة، سيد الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين، أبو سعيد برقوق ابن الشهيد شرف الدنيا والدين أبي المعالي أنس. خلد اللّه سلطانه، ونصر جيوشه وأعوانه - يخص الحضرة السنية السرية، المظفرة الميمونة، المنصورة المصونة، حضرة السلطان العالم، العادل المؤيد، المجاهد الأوحد، أبي العباس، ذخر الإسلام والمسلمين، عدة الدنيا والدين، قدوة الموحدين، ناصر الغزاة والمجاهدين، سيف جماعة الشاكرين، صلاح الدول. لا زالت مملكته بقوته عامرة، ومهابته لنفوس الجبابرة قاهرة، ومعدلته تبوئه غرفات العز في الدنيا والآخرة. سلام صفا ورده وضفا برده، وثناء فاح نده، ولاح سعده، ووداد زاد وجده، وجاد جده.

أما بعد حمد اللّه الذي جعل القلوب أجناداً مجندة، وأسباب الوداد على البعاد مؤكدة، ووسائل المحبة بين الملوك في كل يوم مجددة؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، الذي نصره اللّه بالرعب مسيرة شهر وأيده وأعلى به منار الدين وشيده، وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا طريقه وسؤدده، صلاة دائمة مؤبده.

فإننا نوضح لعلمه الكريم، أن اللّه - وله الحمد - جعل جبلتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العلم الشريف وأهله، ورفعة شأنه، ونشر إعلامه، ومحبة أهله وخدامه، وتيسير مقاصدهم، وتحقيق أملهم، والإحسان إليهم، والتقرب إلى اللّه بذلك في السر والعلانية، فإن العلماء رضي اللّه عنهم ورثة الأنبياء وقرة عين الأولياء، وهداة خلق اللّه في أرضه؛ لا سيما من رزقه اللّه الدراية فيما علمه من ذلك، وهداه للدخول إليه من أحسن المسالك، مثل من سطرنا هذه المكاتبة بسببه: المجلس السامي، الشيخي، لأجلي، الكبيري، العالمي، الفاضلي، الأثيلي، الأثيري، الإمامي، العلامي القدوة، المقتدي، الفريدي، المحققي، الأصيلي، الأوحدي، الماجدي، الولوي، جمال الإسلام والمسلمين، جمال العلماء في العالمين، أوحد الفضلاء، قدوة البلغاء، علامة الأمة، إمام الأئمة، مفيد الطالبين، خالصة الملوك والسلاطين عبد الرحمن بن خلدون المالكي. أدام اللّه نعمته، فإنه أولى بالإكرام، وأحرى، وأحق بالرعاية وأجل قدراً، وقد هاجر إلى ممالكنا الشريفة، وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده، بل تحبّباً إلينا، وتقربا إلى خواطرنا، بالجواهر النفيسة، من ذاته الحسنة، وصفاته الجميلة، ووجدنا منه فوق ما في النفوس، مما يجل عن الوصف ويربي على التعداد. يا له من غريب وصف ودار، قد أتى عنكم بكل غريب؛ وما برح - من حين ورد علينا - يبالغ في شكر الحضرة العلية، ومدح صفاتها الجميلة، إلى أن استمال خواطرنا الشريفة إلى حبها، وآثرنا المكاتبة إليها.

والعين تعشق قبل الأذن أحيانا

وذكر لنا في أثناء ذلك، أهله وأولاده، في مملكة تونس تحت نظر الحضرة العلية، وقصد إحضارهم إليه ليقيموا عنده، ويجتمع شمله بهم مدة إقامته عندنا، فاقتضت آراؤنا الشريفة، الكتابة إلى الحضرة العلية لهذين السببين الجميلين، وقد آثرنا إعلام الحضرة العلية بذلك، ليكون على خاطره الكريم، والقصد من محبته، يقدم أمره العالي بطلب أهل الشيخ ولي الدين المشار إليه، وإزاحة أعذارهم، وإزالة عوائقهم، والوصية بهم، وتجهيزهم إليه مكرمين، محترمين، على أجمل الوجوه صحبة قاصده الشيخ الصالح، العارف السالك الأوحد، سعد الدين مسعود المكناسي، الواصل بهذه المكاتبة أعزه اللّه، ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة العلية، مع توصية من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار إليهم ورعايتهم، والتأكيد عليهم في هذا المعنى، وإذا وصل من بها من البحرية، كان لهم الأمن والإحسان فوق ما في أنفسهم، ويربي على أملهم، بحيث يهتم بذلك على ما عهد من محبته، وجميل اعتماده، مع ما يتحف به من مراسلاته، ومقاصده ومكاتباته. واللّه تعالى يحرسه بملائكته وآياته، بمنه ويمنه إن شاء اللّه.

كتب خامس عشر صفر المبارك من سنة ست وثمانين وسبعمائة حسب المرسوم الشريف. الحمد للّه وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية بمصر، من وقف صلاح الدين بن أيوب، فولاني تدريسها مكانه، وبينا أنا في ذلك، إذ سخط السلطان قاضي المالكية في دولته، لبعض النزعات فعزله، وهو رابع أربعة بعدد المذاهب، يدعى كل منهم قاضي القضاة، تمييزا عن الحكام بالنيابة عنهم، لاتساع خطة هذا المعمور، وكثرة عوالمه، وما يرتفع من الخصومات في جوانبه، وكبير جماعتهم قاضي الشافعية، لعموم ولايته في الأعمال شرقاً وغرباً، وبالصعيد والفيوم، واستقلاله بالنظر في أموال اليتامى والوصايا، ولقد يقال بأن مباشرة السلطان قديماً بالولاية إنما كانت تكون له.

فلما عزل هذا القاضي المالكي سنة ست وثمانين وسبعمائة اختصني السلطان بهذه الولاية تأهيلاً لمكاني وتنويهاً بذكري

وشافهته بالتفادي من ذلك، فأبى إلا إمضاءه وخلع علي بإيوانه وبعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين، فقمت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود ووفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام اللّه، لا تأخذني في اللّه لومة، ولا يزغني عنه جاه ولا سطوة مسوّياً في ذلك بين الخصمين، آخذاً بحق الضعيف من الحكمين، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين جانحاً إلى التثبت في سماع البينات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات، فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر، والطيب ملتبساً بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة فإن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمين للقرآن، وأئمة في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنون بهم الخير ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاء؛ والتوسل لهم، فأعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب، ومؤلم النكال وتأدى إليّ العلم الجرح في طائفة منهم، فمنعتهم من تحمل الشهادة، وكان منهم كتاب الدواوين للقضاة والتوقيع في مجالسهم، قد تدربوا على إملاء الدعاوي وتسجيل الحكومات، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود بإحكام كتابتها، وتوثيق شروطها، فصار لهم بذلك شفوف على أهل طبقتهم، وتمويه على القضاة بجاههم يدرعون به مما يتوقعونه من عتبهم، لتعرضهم لذلك بفعلاتهم، وقد يسلط بعضٌ منهم قلمه، على العقود المحكمة فيوجد السبيل إلى حلها بوجه فقهي أو كتابي، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاهٍ أو منحة، وخصوصا في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر لكثرة عوالمه، فأصبحت خافية الشهرة مجهولة الأعيان، عرضة للبطلان، باختلاف المذاهب المنصوبة للحكام بالبلد، فمن اختار فيها بيعاً أو تمليكاً، شارطوه وأجابوه مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا فيه سد الحظر والمنع حماية عن التلاعب، وفشا من ذلك الضرر في الأوقاف، وطرق الغرر في العقود والأملاك.

فعاملت اللّه في حسم ذلك بما آسفهم علي وأحقدهم، ثم التفت إلى أهل الفتيا بالمذهب، وكان الحكام منهم على جانب من الخبرة لكثرة معارضتهم، وتلقينهم الخصوم وفتياهم بعد نفوذ الحكم، وإذا فيهم أصاغر، فبينما هم يتشبثون بأذيال الطلب والعدالة، ولا يكادون إذا بهم ظفروا إلى مراتب الفتيا والتدريس، فاقتعدوها وتناولوها بالجزاف، وأجازوها من غير مثرب ولا منتقد للأهلية، ولا مرشح، إذ الكثرة فيهم بالغة، ومن كثرة الساكن مشتقة، وقلم الفتيا فى هذا المصر طلق، وعنانها مرسل، يتجاذب كل الخصوم منها رسناً، ويتناول من حافته شقاً، يروم به الفلج على خصمه، ويستظهر به لإرغامه، فيعطيه المفتي من ذلك ملء رضاه، وكفاء أمنيته متتبعاً إياه في شعاب الخلاف، فتتعارض الفتاوى وتتناقض، ويعظم الشغب إن وقعت بعد نفوذ الحكم، والخلاف في المذاهب كثير، والإنصاف متعذر وأهلية المفتي أو شهرة الفتيا ليس تميزها للعامي، فلا يكاد هذا المدى ينحسم ولا الشغب ينقطع.

فصدعت في ذلك بالحق وكبحت أعنة أهل الهوى والجهل، ورددتهم على أعقابهم. وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك، ولا ينتمون إلى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب في فن قد اتخذوا الناس هزؤاً وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض ومأبنة للحرم، فأرغمهم ذلك مني وملأهم حسداً، وحقداً علي، وخلوا إلى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المتحلين للعبادة، ليشرون بها الجاه، ليجيروا به على اللّه، وربما اضطر أهل الحقوق إلى تحكيمهم، فيحكمون بما يلقي الشيطان على ألسنتهم، يترخصون به الإصلاح، لا يزعهم الدين عن التعرض لأحكام اللّه بالجهل، فقطعت الحبل، في أيديهم، وأمضيت حكم اللّه فيمن أجاروه، فلم يغنوا عن اللّه شيئاً وأصبحت زواياهم مهجورة، وبئرهم التي يمتاحون منها معطلة، وانطلقوا يراطنون السفهاء في النيل من عرضي، وسوء الأحدوثة عني بمختلق الإفك وقول الزور، ويبثونه في الناس ويدسون إلى السلطان التظلم مني، فلا يصغي إليهم، وأنا في ذلك محتسب عند اللّه، ما منيت به في هذا الأمر، ومعرض فيه عن الجاهلين، وماض على سبيل سوي من الصرامة وقوة الشكيمة، وتحري العدالة، وخلاص الحقوق، والتنكب عن خطة الباطل متى دعيت إليها، وصلابة العود عن الجاه والأغراض متى غمزني لامسها ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة فنكروه علي ودعوني إلى تبعهم فيما يصطلحون عليه من مرضاة الأكابر ومراعاة الأعيان، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة، أو دفع الخصوم إذا تعذرت، بناء على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود غيره، وهم يعلمون أن قد تمالأوا عليه.

وليت شعري! ما عذرهم في الصور الظاهرة إذا علموا خلافها، والنبي ﷺ يقول في ذلك: «من قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقضي له من النار».

فأبيت من ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقها، والوفاء لها، ولمن قلدنيها، فأصبح الجميع علي ألباً ولمن ينادي بالتأفف مني

عوناً، وفي النكير علي أمة، وأسمعوا الشهود الممنوعين أن قد قضيت فيهم بغير الحق، لاعتمادي على علمي في الجرح، وهي قضية إجماع. وانطلقت الألسن، وارتفع الصخب وأرادني بعض على الحكم بغرضهم، فوقفت وأغروا بي الخصوم، فتنادوا بالتظلم عند السلطان، فجمع القضاة وأهل الفتيا في مجلس جعل للنظر في ذلك، فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز، وتبين أمرهم للسلطان، وأمضيت فيها حكم الله تعالى إرغاماً لهم، فغدوا على حرد قادرين، ودسوا الأولياء السلطان وعظماء الخاصة، يقبحون لهم إهمال جاههم ورد شفاعاتهم، مموهين بأن الحامل على ذلك جهل المصطلح، وينفقون هذا الباطل بعظائم ينسبونها إلي، تبعث الحليم وتغري الرشيد، يستثيرون حفائظهم علي ويشربونهم البغضاء إلي، والله مجازيهم ومسائلهم.

فكثر الشغب علي من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته خشية من نكير السلطان وسخطه، فوقفت بين الورد والصدر وعلى صراط الرجاء واليأس، وعن قريب تداركني اللطف الرباني وشملتني نعمة السلطان - أيده الله - في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت - كما زعموا - مصطلحها، فردها إلى صاحبها الأول، وأنشطني من عقالها، فانطلقت حميد الأثر مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء، تلحظني العيون بالرحمة وتتناجى الآمال فيّ بالعودة ورتعت فيما كنت راتعا فيه قبل من مراعي نعمته وظل رضاه وعنايته قانعاً بالعافية التي سألها رسول الله ﷺ من ربه عاكفاً على تدريس علم أو قراءة كتاب أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف مؤملاً من الله قطع صبابة العمر في العبادة، ومحو عوائق السعادة، بفضل الله ونعمته.

السفر لقضاء الحج

ثم مكثت بعد العزل ثلاث سنين واعتزمت على قضاء الفريضة فودعت السلطان والأمراء وزودوا وأعانوا فوق الكفاية، وخرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة إلى مرسى الطور، بالجانب الشرقي من بحر السويس، وركبت البحر من هنالك عاشر الفطر ووصلنا إلى الينبع لشهر فوافينا المحمل، ورافقتهم من هنالك إلى مكة ودخلتها ثاني ذي الحجه، فقضيت الفريضة في هذه السنة. ثم عدت إلى الينبع فأقمت به خمسين ليلة حتى تهيأ لنا ركوب البحر، ثم سافرنا إلى أن قاربنا مرسى الطور، فاعترضتنا الرياح فما وسعنا إلا قطع البحر إلى جانبه الغربي، ونزلنا بساحل القصير ثم بذرقنا مع أعراب تلك الناحية إلى مدينة قوص قاعدة الصعيد فأرحنا بها أياماً ثم ركبنا في بحر النيل إلى مصر، فوصلنا إليها لشهر من سفرنا، ودخلتها في جمادى سنة تسعين وسبعمائة وقضيت حق السلطان في لقائه، وإعلامه بما اجتهدت فيه من الدعاء له، فتقبل ذلك (مني) بقبول حسن، وأقمت فيما عهدت من رعايته وظل إحسانه.

وكنت لما نزلت بالينبع لقيت بها الفقيه الأديب المتفنن أبا القاسم بن محمد بن شيخ الجماعة، وفارس الأدباء، ومنفق سوق البلاغة، أبي إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف جده بالطويجن وقد قدم حاجّاً وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير العالم كاتب سر السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة، الحظي لديه أبي عبد الله بن زمرك، خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوق ويذكر بعهود الصحبة نصه:

سلوا البارق النجدي على عمل نجدي ... تبسم فاستبكى جفوني من الوجد
أجاد ربوعي باللوى، بورك اللوى ... وسح به صوب الغمائم من بعدي
ويا زاجري الأظعان وهي ضوامر ... دعوها ترد هيماً عطاشاً على نجد
ولا تنشقوا الأنفاس منها مع الصبا ... فإن زفير الشوق من مثلها يعدي
يراها الهوى بري القداح وخطها ... حروفاً على صفح من القفر ممتد
عجبت لها أني تجاذبني الهوى ... وما شوقها شوقي ولا وجدها وجدي
لئن شاقها بين العذيب وبارق ... مياه بفيء الظل للبان والرند
فما شاقني إلا بدور خدورها ... وقد لحن يوم النفر في قضب ملد
فكم في قباب الحي من شمس كلة ... وفي فلك الأزرار من قمر سعد
وكم صارم قد سل من لحظ أحور ... وكم ذابل قد هز من ناعم القد
خذوا الحذر من سكان رامة إنها ... ضعيفات كر اللحظ تفتك بالأسد
سهام جفون من قسي حواجب ... يصاب بها قلب البريء على عمد
وروض جمال ضاع عرف نسيمه ... وما ضاع غير الورد في صفحة الخد
ونرجس لحظ أرسل الدمع لؤلؤا ... فرش بماء الورد روضاً من الورد
وكم غصن قد عانق الغصن مثله ... وكل على كل من الشوق ويستعدي
قبيح وداع قد جلا لعيوننا ... محاسن من روض الجمال بلا عد
رعى الله ليلى لو علمت طريقها ... فرشت لأخفاف المطي بها خدي
وما شاقني والطيف يرهب أدمعي ... ويسبح في بحر من الليل مزبد
وقد سل خفاق الذؤابة بارق ... كما سل لماع الصقال من الغمد
وهزت محلاة يد الشوق في الدجى ... فحل الذي أبرمت للصبر من عقدي

وأفلق خفاق الجوانح نسمة ... تنم مع الإصباح خافقة البرد
وهب عليل لف طي بروده ... أحاديث أهداها إلى الغور من نجد
سوى صادح في الأيك لم يدر ما الهوى ... ولكن دعا مني الشجون على وعد
فهل عند ليلى نعّم اللّه ليلها ... بأن جفوني ما تمل من السهد
وليلة إذ وافى الحجيج إلى منى ... وفت لي المنى منها بما شئت من قصد
فقضيت - منها فوق ما أحسب - ... وبرد عفاف صانه اللّه من برد
وليس سوى لحظ خفي نجيله ... وشكوى كما ارفض الجمان من العقد
غفرت لدهري بعدها كل ما جنى ... سوى ما جنى وفد المشيب على فودي
عرفت بهذا الشيب فضل شبيبتي ... وما زال فضل الضد يعرف بالضد
ومن نام في ليل الشباب ضلالة ... سيوقظه صبح المشيب إلى الرشد
أما والهوى ما حدت عن سنن الهدى ... ولا جرت في طرق الصبابة عن قصد
تجاوزت حد العاشقين الألى قضوا ... وأصبحت في دين الهوى أمة وحدي
نسيت وما أنسى وفائي لخلتي ... وأقفر ربع القلب إلا من الوجد
إليك أبا زيد شكاة رفعتها ... وما أنت من عمرو ولديّ ولا زيد
بعيشك خبرني وما زلت مفضلاً ... أعندك من شوق كمثل الذي عندي
فكم ثار بي شوق إليك مبرح فظلت ... يد الأشواق تقدح من زندي
وصفق حتى الريح في لمم الربى ... وأشفق حتى الطفل في كبد المهد
يقابلني منك الصباح بوجنة ... حكى شفقا فيه الحياء الذي تبدي
وتوهمني الشمس المنيرة غرة ... بوجهك صان اللّه وجهك عن رد
محياك أجلى في العيون من الضحى ... وذكرك أحلى في الشفاه من الشهد
وما أنت إلا الشمس في علو أفقها ... تفيدك من قرب وتلحظ من بعد
وفي عمة من لا ترى الشمس عينه ... وما نفع نور الشمس في الأعين الرمد
من القوم صانوا المجد صون عيونهم ... كما قد أباحوا المال ينهب للرفد
إذا ازدحمت يوماً على المال أسرة ... فما ازدحموا إلا مورد المجد
ومهما أغاروا منجدين صريخهم ... يشبون نار الحرب في الغور والنجد
ولم يقتنوا بعد البناء ذخيرة ... سوى الصارم المصقول والصافن النهد
وما اقتسم الأنفال إلا ممدح ... بلاها بأعراف المطهمة الجرد
أتنسى ولا تنسى ليالينا التي ... خلسنا بهن العيش في جنة الخلد
ركبنا إلى اللذات في طلق الصبا ... مطايا الليالي وادعين إلى حد
فإن لم ندر فيها الكؤوس فإننا ... وردنا بها للأنس مستعذب الورد
أتيتك في غرب وأنت رئيسه ... وبابك للأعلام مجتمع الوفد
فآنست حتى ما شكوت بغربة ... وواليت حتى لم أجد مضض الفقد
وعدت لقطري شاكراً ما بلوته ... من الخلق المحمود والحسب العد
إلى أن أجزت البحر يا بحر نحونا ... وزرت مزار الغيث في عقب الجهد
ألذ من النعمى على حال فاقة ... وأشهى من الوصل الهني على صد
وإن ساءني أن قوضت رحلك النوى ... وعوضت عنها بالذميل وبالوخد
لقد سرني أن لحت في أفق العلا ... على الطائر الميمون والطالع السعد
طلعت بأفق الشرق نجم هداية ... فجئت مع الأنوار فيه على وعد
يميناً بمن تسري المطي سواهماً ... عليها، سهام قد رمت هدف القصد
إلى بيته كيما تزور معاهداً ... أبان بها جبريل عن كرم العهد
لأنت الذي مهما دجا ليل مشكل ... قدحت به للنور وارية الزند
وحيث استقلت في ركاب لطية ... فأنت تحيي النفس في القرب والبعد
وإني بباب الملك حيث عهدتني ... مديد ظلال الجاه مستحصف العقد
أجهز بالإنشاء كل كتيبة ... من الكتب والكتاب في عرضها جندي
نلوذ من المولى الإمام محمد ... بظل على نهر المجرة ممتد
إذا فاض من يمناه بحر سماحة ... وعم به الطوفان في النجد والوهد
ركبنا إلى الإحسان في سفن الرجا ... بحور عطاء ليس تجزر عن مد
فمن مبلغ الأمصار عني ألوكة ... مغلغلة في الصدق منجزة الوعد
بآية ما أعطى الخليفة ربه ... مفاتيح فتح ساقها سائق السعد
ودونك من روض المحامد نفحة ... تفوت إذا اصطف الندي عن الند
ثناء يقول المسك إن ضاع عرفه ... أيا لك من ند أما لك من ند
وما الماء في جوف السحاب مروقا ... بأطهر ذاتاً منك في كنف المهد
فكيف وقد حلتك أسرابها الحلى ... وباهت بك الأعلام بالعلم الفرد
وما الطل في ثغر من الدهر باسم ... بأصفى وأذكى من ثنائي ومن ودي
ولا البدر معصوباً بتاج تمامه ... بأبهر من ودي وأسير من حمدي
بقيت ابن خلدون إمام هداية ... ولا زلت من دنياك في جنة الخلد

ووصلها بقوله: سيدي علم الأعلام، كبير رؤساء الإسلام، مشرف حملة السيوف والأقلام، جمال الخواص والظهراء، أثير الدول، خالصة الملوك، مجتبى الخلفاء، نيِّر أفق العلاء أوحد الفضلاء، قدوة العلماء، حجة البلغاء.

أبقاكم اللّه بقاء جميلاً، يعقد لواء الفخر، ويعلي منار الفضل، ويرفع عماد المجد، ويوضح معالم السؤدد، ويرسل أشعة السعادة، ويفيض أنوار الهداية، ويطلق ألسنه المحامد، وينشر أفق المعارف، ويعذب مورد العناية، ويمتع بعمر النهاية ولا نهاية.

بآي التحيات أفاتحك وقدرك أعلى، ومطلع فضلك أوضح وأجلى، إن قلت تحية كسري فى السناء وتبع، فأثر لا يقتفر ولا يتبع، تلك تحية عجماء لا تبين ولا تبين، وزمزمة نافرها اللسان العربي المبين، وهذه جهالة جهلاء، لا ينطبق على حروفها الاستعلاء، قد محا رسومها الجفاء، وعلى آثار دمنتها العفاء، وإن كانت التحيتان طالما أوجف بهما الركاب وقعقع البريد، ولكن أين يقعان مما أريد.

تحية الإسلام آصل في الفخر نسباً. وأوصل بالشرع سبباً، فالأولى أن نحييك بما حيا اللّه في كتابه رسله وأنبياءه، وحييت به ملائكته في جواره أولياءه، فأقول:

السلام عليكم يرسل من رحمات اللّه غماماً ويفتق من

الطروس عن أزهار المحامد كماما، ويستصحب من البركات ما يكون على الذي أحسن من ذلك تماماً، وأجدد السؤال عن الحال الحالية بالعلم والدين المستمدة من أنوارها سرج المهتدين. زادها اللّه صلاحاً وعرفها نجاحاً يتبع فلاحاً، وأقرر ما عندي من تعظيم ارتقي كل آونة شرفه، واعتقاد جميل يرفع عن وجه البدر كلفه، وثناء، انشر بيد الترك صحفه، وعلى ذلك أيها السيد المالك، فقد تشعبت علي في مخاطبتك المسالك، إن أخذت في تقرير فخرك العميم، وحسبك الصميم، فو اللّه ما أدري بأي ثنية للفخر ترفع العلم، وفي أي بحر من ثنائك يسبح القلم، الأمر جلل، والشمس تكبر عن حلي وعن حلل، وإن أخذت في شكاة الفراق، والاستعداء على الأشواق اتسع المجال، وحصرت الروية والارتجال، فالأولى أن أترك عذبة اللسان تلعب بها رياح الأشواق وأسلة اليراع، تخضب مفارق الطروس بنجيع الحبر المراق، وغيرك من تركض في مخاطبته جياد اليراع، في مجال الرقاع، مستولية على أمد الإبداع والاختراع، فإنما هو بث يبكي، وفراق يشكي، فيعلم اللّه حرصي عن أن أشافه من أنبائك ثغور البروق البواسم، وأن أحملك الرسائل حتى مع سفراء النواسم، وأن أجتلي غرر ذلك الجبين في محيا الشارق، ولمح البارق.

ولقد وجهت إليك جملة من الكتب والقصائد، ولا كالقصيدة الفريدة في تأبين الجواهر اللائي استأثر بهن البحر، قدس اللّه أرواحهم، وأعظم أجرك فيهم، فإنها أنافت على مائة وخمسين بيتاً، ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع، وغدر وصوله بعد المسافة، والذي يطرق لي سوء الظن بذلك ما صدر في مقابلته منكم. فإني على علم من كرم قصدكم وحسن عهدكم.

ومن حين استقل نيركم بذلك الأفق الشرقي لم يصلني منكم كتاب، مع علمي بضياع اثنين منهما بهذا الأفق الغربي انتهى.

وفي الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر، ويطلب مني رفعها إلى السلطان، وعرضها عليه بحسب الإمكان، وهي على روي الهمزة ومطلعها:

أمدامع منهلة أم لؤلؤ لما استهل العارض المتلالىء

وبعثها في طي الكتاب، واعتذر بأنه استناب في نسخها، فكتبت همزة رويها ألفاً، قال: وحقها أن تكتب بالواو لأنها تبدل بالواو وتسهل بين الهمزة والواو، وحرف الإطلاق أيضا يسوقها، واواً، هذا مقتضى الصناعة، وإن قال بعض الشيوخ: كتب الفاً على كل حال على لغة من لا يسهل لكنه ليس بشيء.

وأذن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخط المشرقي لتسهل قراءتها عليهم ففعلت ذلك، ورفعت النسخة والأصل للسلطان، وقرأها كاتب سره عليه ولم يرجع إلي منهما شيء، ولم أستجز أن انسخها قبل رفعها إلى السلطان، فضاعت من يدي.

وكان في الكتاب فصل عرفني فيه بشأن الوزير مسعود بن رحو المستبد بأمر المغرب لذلك العهد، وما جاء به من الانتقاض عليهم، والكفران لصنيعهم، يقول فيه:

كان مسعود بن رحو الذي أقام بالأندلس عشرين عاماً يتبنك النعيم ويقود الدنيا ويتخيّر العيش والجاه، قد أجيز صحبة ولد أبي عنان كما تعرفتم من نسخة كتب أنشائه بجبل الفتح لأهل الحضرة، فاستولى على المملكة، وحصل على الدنيا، وانفرد برياسة دار المغرب لضعف السلطان رحمه اللّه. ولم يكن إلا أن كفرت الحقوق، وحنظلت نخلته السحوق، وشف على سواد جلدته سواد العقوق، وداخل من بسبتة، فانتقضت طاعة أهلها، وظنوا أن القصبة لا تثبت لهم، وكان قائدها الشيخ البهمة فل الحصار وحلي القتال، ومحش الحرب أبو زكريا بن شعيب، فثبت للصدمة ونور للأندلس، فبادره المدد من الجبل ومن مالقة، وتوالت الأمداد وخاف أهل البلد، ورجع شرفاؤه ودخلوا القصبة. واستغاث أهل البلد بمن جاورهم، وجاءهم المدد أيضاً، ثم دخل الصالحون في رغبة هذا المقام، ورفع القتال، وفي أثناء ذلك غدروا ثانية، فاستدعى الحال إجازة السلطان المخلوع أبي العباس لتبادر القصبة به ويتوجه منها إلى المغرب لرغبة (بني) مرين وغيرهم فيه، وهو ولد السلطان المرحوم أبي سالم الذي قلدكم رياسة داره، وأوجب لكم المزية على أوليائه وأنصاره.انتهى.

وبعده فصل آخر يطلب فيه كتباً من مصر يقول فيه:

والمرغوب من سيدي أن يبعث لي ما أمكن من كلام فضلاء الوقت وأشياخهم على الفاتحة، إذ لا يمكن بعث تفسير كامل لأني أثبت في تفسيرها ما أرجو النفع به عند اللّه، وقد أعلمتكم أن عندي التفسير الذي أوصله إلى المغرب عثمان التجاني من تأليف الطيبي والسفر الأول من تفسير أبي حيان، وملخص إعرابه وكتاب المغني لابن هشام، وسمعت عن بدأة تفسير للإمام بهاء الدين ابن عقيل ووصلت إلي بدأة من كلام أكمل الدين الأثيري رضي اللّه عن جميعهم، ولكني لم أصل إلا للبسملة، وذكر أبو حيان في صدر تفسيره أن شيخه سليمان النقيب أو أبا سليمان لا ادري الآن صنف كتاباً في البيان في سفرين جعله مقدمة لكتاب تفسيره الكبير. فإن أمكن سيدي توجيهه لا بأس انتهى.

وفي الكتاب فصول أخرى في أغراض متعددة لا حاجة إلى ذكرها هنا. ثم ختم الكتاب بالسلام، وكتب اسمه: محمد بن يوسف بن زمرك الصريحي، وتاريخه العشرون من محرم سنة تسع وثمانين وسبعمائة.

وكتب إلي قاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن علي بن الحسن البني:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله يا سيدي وواحدي ودّاً وحبّاً، ونجي الروح بعداً وقرباً أبقاكم الله وثوب سيادتكم سابغ، وقمر سعادتكم - كلما أفلت الأقمار - بازغ، أسلم بأتم السلام عليكم، وأقرر بعض ما لدي من الأشواق إليكم، من حضرة غرناطة - مهدها الله - عن ذلك لكم يتضوع طيبه وشكر لا يذوي - وإن طال الزمان - رطيبه قد كان بلغ ما جرى من تأخيركم عن الولاية التي تقلدتم أمرها، وتحملتم مرها، فتمثلت بما قاله شيخنا أبو الحسن بن الجياب عند انفصال صاحبه الشريف أبي القاسم، عن خطة القضاء.

لا مرحباً بالناشز الفارك	إذ جهلت رفعة مقدارك
لو أنها قد أوتيت رشدها	ما برحت تعشو إلى نارك

ثم تعرفت كيفية انفصالكم وأنه كان عن رغبة من السلطان المؤيد هنا لكم فرددت - وقد توهمت مشاهدتكم -هذه الأبيات:

لك الله يا بدر السماحة والبشر	لقد حزت في الأحكام منزلة الفخر
ولكنك استعفيت عنها تورعا	وتلك سبيل الصالحين كما تدري
جريت على نهج السلامة في الذي	تخيرته أبشر بأمنك في الحشر
وحقق بأن العلم ولاك خطة	من العز لا تنفك عنها مدى العمر
تزيد على مر الجديدين جدة	وتسري النجوم الزاهرات ولا تسري
ومن لاحظ الأحوال وازن بينها	ولم ير للدنيا الدنية من خطر
وأمسى لأنواع الولايات نابذاً	فغير نكير أن تواجه بالنكر
فهنيك يهنيك الذي أنت أهله	من الزهد فيها والتوقي من الوزر
ولا تكترث من حاسديك فإنهم	حصى والحصى لا يرتقي مرتقى البدر
ومن عامل الأقوام بالله مخلصاً	له منهم نال الجزيل من الأجر
بقيت لربع الفضل تحمي ذماره	وخار لك الرحمن في كل ما يجري

إيه سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، أطنبتم في كتابكم في الثناء على السلطان الذي أنعم بالإبقاء، والمساعدة على الانفصال عن خطة القضاء، واستوهبتم الدعاء له ممن هنا الأولياء و لله دركم في التنبيه على الإرشاد إلى ذلكم، فالدعاء له من الواجب فيه استقامة الأمور وصلاح الخاصة والجمهور، وعند ذلك ارتفعت أصوات العلم والصلحاء بهذا القطر له ولكم بجميل الدعاء. أجاب الله فيكم أحسنه وأجمله، وبلّغ كل واحد منكم ما قصده وأمله. وأنتم أيضا من أهل العلم والجلالة، والفضل والأصالة، وقد بلغتم بهذه البلاد الغاية من التنويه، والحظ الشريف النبيه، لكن أراد الله سبحانه أن يكون لمحاسنكم في تلك البلاد العظيمة ظهور، وتحدث بعد الأمور أمور، وبكل اعتبار، فالزمان بكم - حيث كنتم- مباه، والمحامد مجموعة لكم جمع تناه. ولما وقف على مكتوبكم إلي مولانا السلطان أبو عبد الله، أطال الله الثناء على مقاصدكم، وتحقق صحيح ودادكم، وجميل اعتقادكم، وعمر مجلسه يومئذ بالثناء عليكم، والشكر لما لديكم.

ثم ختم الكتاب بالسلام من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن مؤرخاً بصفر سنة تسعين وسبعمائة

وفي طيه مدرجة بخطه وقد قصر فيها عن الإجادة نصها:

سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، وأظفر يمناكم بذوائب مناكم

أعتذر لكم عن الكتاب المدرج هذا طيُّه بغير خطي فإني في ذلك الوقت بحال مرض في عيني، ولكم العافية الواقية، فيسعني سمحكم وربما كان لديكم شوقاً لما نزل في هذه المدة بالمغرب من الهرج أحاطه الله، وأمن جميع بلاد المسلمين.

والموجب أن الحصة الموجهة في خدمة أميرهم الواثق ظهر له ولوزيره ومن ساعده على رأيه إمساكها رهينة، وجعله في القيود إلى أن يقع الخروج لهم على مدينة سبتة، وكان القائد على هذه الحصة العلج المسمى مهند، وصاحبه الفتى المدعو نصر الله وكثر التردد في القضية إلى أن أبرز القدر توجيه السلطان أبي العباس - تولاه الله- صحبة فرج بن رضوان بحصة ثانية، وكان ما كان حسبما تلقيتم من الركبان، هذا ما وسع الوقت من الكلام ثم دعا وختم.

وإنما كتبت هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض هذا التعريف؛ الكتاب لأن فيها تحقيقا لهذه الواقعات، وهي مذكورة في أماكنها من الكتاب فربما يحتاج الناظر إلى تحقيقها من هذا الموضع.

وبعد قضاء الفريضة رجعت إلى القاهرة محفوفا بستر الله ولطفه، ولقيت السلطان، فتلقاني - أيده الله - بمعهود مبرته وعنايته وكانت فتنة الناصري بعدها سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ولحقت السلطان النكبة التي محّصها ا لله فيها وأقاله، وجعل إلى الخير فيها عاقبته ومآله، ثم أعاده إلى كرسيه للنظر في مصالح عباده، فطوّقه القلادة التي ألبسه كما كانت، فأعاد لي ما كان أجراه من نعكته، ولزمت كسر البيت ممتعاً بالعافية لابساً برد العزلة، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه لهذا العهد فاتح سبع

وتسعين والله يعرفنا عوارف لطفه، ويمد علينا ظل ستره، ويختم لنا بصالح الأعمال، وهذا آخر ما انتهيت إليه، وقد نجز الغرض مما أردت إيراده في هذا الكتاب، والله الموفق برحمته للصواب، والهادي إلى حسن المآب، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله والأصحاب والحمد لله رب العالمين.

ولاية الدروس والخوانق

أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون - على القدم منذ عهد مواليهم ملوك بني أيوب - بإنشاء المدارس لتدريس العلم، والخوانق لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب الصوفية السنية في مطارحة الأذكار، ونوافل الصلوات. أخذوا ذلك عمن قبلهم من الدول الخلافية، فيختطون مبانيها ويقفون الأراضي المغلة للإنفاق منها على طلبة العلم، ومتدربي الفقراء. وإن استفضل الريع شيئاً عن ذلك، جعلوه في أعقابهم خوفاً على الذرية الضعاف من العيلة. واقتدى بسنتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية، وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية، وآثارها الجميلة الخالدة.

وكنت لأول قدومي على القاهرة، وحصولي في كفالة السلطان، شغرت مدرسة بمصر من إنشاء صلاح الدين بن أيوب، وقفها على المالكية يتدارسون بها الفقه، ووقف عليها أراض من الفيوم تغل القمح، فسميت لذلك القمحية، كما وقف أخرى على الشافعية هنالك، وتوفي مدرسها حينئذ، فولاني السلطان تدريسها، وأعقبه بولاية قضاء المالكية سنة ست وثمانين وسبعمائة، كما ذكرت ذلك من قبل، وحضرني يوم جلوسي للتدريس فيها جماعة من أكابر الأمراء تنويهاً بذكري، وعناية من السلطان ومنهم بجانبي، وخطبت يوم جلوسي في ذلك الحفل بخطبة ألممت فيها بذكر القوم بما يناسبهم، ويوفي حقهم، ووصفت المقام، وكان نصها:

الحمد لله الذي بدأ بالنعم قبل سؤالها، ووفق من هداه للشكر على منالها، وجعل جزاء المحسنين في محبته، ففازوا بعظيم نوالها. وعلم الإنسان الأسماء والبيان، وما لم يعلم من أمثالها، وميزه بالعقل الذي فضله على أصناف الموجودات وأجيالها، وهداه لقبول أمانة التكليف، وحمل أثقالها. وخلق الجن والإنس للعبادة، ففاز منهم بالسعادة من جد في امتثالها، ويسر كلاً لما خلق له، من هداية نفسه أو إضلالها، وفرغ ربك من خلقها وخلقها وأرزاقها وآجالها. والصلاة على سيدنا ومولانا محمد نكتة الأكوان وجمالها، والحجة البالغة لله على كمالها، الذي رقاه في أطوار الاصطفاء، وآدم بين الطين والماء، فجاء خاتم أنبيائها وأرسالها، ونسخ الملل بشريعته البيضاء فتميز حرامها من حلالها، ورضي لنا الإسلام ديناً، فأتم علينا النعمة بإكمالها.

والرضى عن آله وأصحابه غيوث رحمته المنسجمة وطلالها، وليوث ملاحمه المشتهرة وأبطالها. وخير أمة أخرجت للناس، في توسطها واعتدالها، وظهور الهداية والاستقامة في أحوالها، صلى الله عليه وعليهم صلاة تتصل الخيرات باتصالها، وتنال البركات من خلالها.

أما بعد فإن الله سبحانه لما أقر هذه الملة الإسلامية في نصابها، وشفاها من أدوائها وأوصابها، وأورث الأرض عباده الصالحين من أيدي غصابها، بعد أن باهلت فارس بتاجها، وعصابها، وخلت الروم إلى تماثيلها وأنصابها وجعل لها من العلماء حفظة وقواماً، ونجوماً يهتدي بها التابع وأعلاماً، يقربونها للدراية تبياناً وإفهاماً، ويوسعونها بالتدوين ترتيباً وإحكاماً، وتهذيباً لأصولها وفروعها ونظاماً. ثم اختار لها الملوك يرفعون عمدها، ويقيمون صغاها بإقامة السياسة وأودها، ويدفعون بعزائمهم الماضية في صدر من أرادها بكياد أو قصدها، فكان لها بالعلماء الظهور والانتشار، والذكر السيار، والبركات المخلدة والآثار، ولها بالملوك العز والفخار، والصولة التي يلين لها الجبار، ويذل لعزة المؤمنين بها الكفار، وتجلل وجوه الشرك معها الصغار، ولم تزل الأجيال تتداول على ذلك والأعصار، والدول تحتفل والأمصار، والليل يختلف والنهار، حتى أظلت الإسلام دول هذه العصابة المنصورة من الترك، الماحين بأنوار أسنتهم ظلم الضلالة والشك، القاطعين بنصالهم المرهفة علائق المين والإفك، المصيبين بسهامهم النافذة ثغر الجهالة والشرك، المظهرين سر قوله: «لا تزال طائفة من أمتي» فيما يتناولونه من الأخذ والترك، ففسحوا خطة الإسلام، وقاموا بالدعوة الخلافية أحسن القيام، وبثوها في أقصى التخوم من الحجاز والشام، واعتمدوا في خدمة الحرمين الشريفين ما فضلوا به ملوك الأنام. واقتعدوا كرسي مصر الذي ألقت له الأقاليم يد الاستسلام، على قدم الأيام، فزخر بها منذ دولتهم بحر العمران، وتجاوبت فيها المدارس بترجيع المثاني والقرآن وعمّرت المساجد بالصلوات والأذان، تكاثر عدد الحصى والشهبان. وقامت المآذن على قدم الاستغفار والسبحان معلنة بشعار الإيمان، وازدان جوها بالقصر فالقصر والإيوان فالإيوان. ونظم دستها بالعزيز، والظاهر، والأمير، والسلطان. فما شئت من ملك يخفق العز في إعلامه، وتتوقد في ليل المواكب نيران الكواكب من أسنته وسهامه،

ومن أسرة للعلماء تتناول العلم بوعد الصادق ولـو تعلق بأعنان السماء، وتنير سراجه في جوانب الشبه المدلهمة الظلماء، ومن قضاة يباهون بالعلم والسؤدد عند الانتماء، ويشتملون الفضائل والمناقب اشتمال الصماء، ويفصلون الخصومات برأي يفرق بين اللبن والماء.

ولا كدولة السلطان الظاهر، والعزيز القاهر، يعسوب العصائب والجماهر، ومطلع أنواع العز الباهر، ومصرف الكتائب تزري بالبحر الزاخر، وتقوم بالحجة للقسي على الأهلة في المفاخر، سيف اللّه المنتضى على العدو الكافر، ورحمته المتكفلة للعباد باللطف الساتر، رب التيجان والأسرة والمنابر، والأواوين العالية والقصور الأزاهر، والملك المؤيد بالبيض البواتر، والرماح الشواجر، والأقلام المرتضعة أخلاف العز في مهود المحابر، والفيض الرباني الذي فاق قدرة القادر، وسبقت به العناية للأواخر. سيد الملوك والسلاطين، كافل أمير المؤمنين، أبو سعيد أمده اللّه بالنصر المصاحب، والسعد المؤازر، وعرفه آثار عنايته في الموارد والمصادر، وأراه حسن العاقبة في الأولى وسرور المنقلب في الآخر، فإنه لما تناول الأمر بعزائمه وعزمه، وآوى الملك إلى كنفه العزيز وحزمه، أصاب شاكلة الرأي عندما سدد من سهمه، وأوقع الرعايا في ظل من أمنه، وعدل من حكمه، وقسم البأس والجود بين حربه وسلمه، ثم أقام دولته بالأمراء الذين اختارهم باختيار اللّه لأركانها، وشد بهم أزره في رفع القواعد من بنيانها، من بين مصرف لعنانها، متقدم القدم على أعيانها، في بساط إيوانها، ورب مشورة تضيء جوانب الملك بلمعانها، ولا يذهب الصواب عن مكانها، ومنفذ أحكام يشرق الحق في بيانها، ويضوع العدل من أردانها ونجي خلوه في الهم الأعظم من شانها، وصاحب فلم يفضي بالأسرار إلى الأسل الجرار، فيشفي الغليل بإعلانها. حفظ اللّه جميعهم وشمل بالسعادة والخيرات المبدأة المعادة تابعهم ومتبوعهم.

ولما سبحت في اللج الأزرق، وخطوت من أفق المغرب إلى أفق المشرق، حيث نهر النهار ينصب من صفحه المشرق، وشجرة الملك التي اعتز بها الإسلام تهتز في دوحه المعرق، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق، وينابيع العلوم والفضائل تمد وشلنا من فراته المغدق، أولوني عناية وتشريفا، وغمروني إحساناً ومعروفاً، وأوسعوا بهمتي إيضاحاً، ونكرتي تعريفاً، ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف، من حسنات السلطان صلاح الدين أيوب ملك الجلاد والجهاد، وماحي آثار التثليث والرفض الخبيث من البلاد، ومطهر القدس الشريف من رجس الكفر بعد أن كانت النواقيس والصلبان فيه بمكان العقود من الأجياد. وصاحب الأعمال المتقبلة يسعى نورها بين يديه في يوم التناد، فأقامني السلطان -أيده اللّه- لتدريس العلم بهذا المكان، لا تقدماً على الأعيان، ولا رغبة عن الفضلاء من أهل الشان، وإني موقن بالقصور، بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضاء في هذا القضاء، وأنا أرغب من أهل اليد البيضاء، والمعارف المتسعة الفضاء، أن يلمحوا بعين الارتضاء، ويتغمدوا بالصفح والإغضاء، والبضاعة بينهم مزجاة، والاعتراف من اللوم -إن شاء اللّه- منجاه، والحسنى من الإخوان مرتجاة. واللّه تعالى يرفع لمولانا السلطان في مدارج القبول أعماله، ويبلغه في الدارين آماله، ويجعل للحسنى والمقر الأسنى، منقلبه ومآله، ويديم على السادة الأمراء نعمته، ويحفظ على المسلمين بانتظام الشمل دولتهم ودولته، ويمد قضاة المسلمين وحكامهم بالعون والتسديد، ويمتعنا بانفساح آجالهم إلى الأمد البعيد، ويشمل الحاضرين، برضوانه في هذا اليوم السعيد، بمنه وكرمه.

وانفض ذلك المجلس، وقد شيعتني العيون بالتجلة والوقار، وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب، وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ نزعة من النزعات الملوكية، فعزله واستدعاني للولاية في مجلسه، وبين أمرائه، فتفاديت من ذلك وأبى إلا إمضاءه. وخلع علي، وبعث معي من أجلسني بمقعد الحكم في المدرسة الصالحية في رجب ست وثمانين وسبعمائة، فقمت في ذلك المقام المحمود، ووفيت عهد اللّه في إقامة رسوم الحق وتحري المعدلة حتى سخطني من لم ترضه أحكام اللّه، ووقع من شغب أهل الباطل والمراء ما تقدم ذكره.

وكنت عند وصولي إلى مصر بعثت عن ولدي من تونس، فمنعهم سلطان تونس من اللحاق بي اغتباطاً بمكاني، فرغبت من السلطان أن يشفع عنده في شأنهم، فأجاب، وكتب رسالة بالشفاعة فركبوا البحر من تونس في السفين، فما هو إلا أن وصلوا مرسى الإسكندرية، فعصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه، وما فيه، وذهب الموجود المولود، فعظم الأسف، واختلط الفكر، وأعفاني السلطان من هذه الوظيفه وأراحني، وفرغت لشأني من الاشتغال بالعلم تدريسا وتأليفاً.

ثم فرغ السلطان من اختطاط مدرسته بين القصرين، وجعل فيها مدافن أهله، وعين لي فيها تدريس المالكية، فأنشأت خطبة أقوم بها في يوم مفتتح التدريس على عادتهم في ذلك ونصها:

" الحمد لله الذي منّ على عباده، بنعمته خلقه وإيجاده، وصرفهم في أطوار استعباده بين قدره ومراده، وعرفهم أسرار

توحيده، في مظاهر وجوده، وآثار لطفه في وقائع عباده، وعرضهم على أمانة التكاليف ليبلوهم بصادق وعده وإبعاده، ويسر كلاً لما خلق له، من هدايته أو إضلاله، وغيه أو رشاده، واستخلف الإنسان في الأرض بعد أن هداه النجدين لصلاحه أو فساده، وعلمه ما لم يكن يعلم، من مدارك سمعه وبصره والبيان عما في فؤاده، وجعل منهم أنبياء وملوكاً يجاهدون في اللّه حق جهاده، ويثابرون على مرضاته في اعتمال العدل واعتماده، ورفع البيوت المقدسة بسبحات الذكر وأوراده.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد البشر من نسل آدم وأولاده، لا. بل سيد الثقلين في العالم من إنسه وجنه وأرواحه وأجساده، لا. بل سيد الملائكة والنبيين، الذي ختم اللّه، كمالهم بكماله وآمادهم بآماده، الذي شرف به الأكوان فأضاءت أرجاء العالم لنور ولاده، وفصل له الذكر الحكيم تفصيلاً، كذلك ليثبت من فؤاده وألقى على قلبه الروح الأمين بتنزيل رب العالمين، ليكون من المنذرين لعباده، فدعا إلى اللّه على بصيرة بصادق جداله وجلاده وأنزل عليه النصر العزيز، وكانت ملائكة السماء من إمداده، حتى ظهر نور اللّه على رَغْم مَنْ رَغِمَ بإطفائه وإخماده، وكمل الدين الحنيف فلا تخشى والحمد لله غائلة انقطاعه ولا نفاذه، ثم أعد له من الكرامات ما أعد في معاده، وفضله بالمقام المحمود في عرصات القيامة بين أشهاده، وجعل له الشفاعة فيمن انتظم في أمته، واعتصم بمقاده.

والرضى عن آله وأصحابه، غيوث رحمته، وليوث إنجاده، من ذوي رحمه الطاهرة وأهل وداده المتزودين بالتقوى من خير أزواده، والمراغمين بسيوفهم من جاهر بمكابرة الحق وعناده، وأراد في الدين بظلمه وإلحاده، حتى استقام الميسم في دين اللّه وبلاده، وانتظمت دعوة الإسلام أقطار العالم، وشعوب الأنام، من عربه وعجمه وفارسه ورومه وتركه وأكراده. صلى اللّه عليه وعليهم صلاة تؤذن باتصال الخير واعتياده، وتؤهل لاقتناء الثواب وزياده، وسلم كثيراً، وعن الأئمة الأربعة، علماء السنة المتبعة، والفئة المجتباة المصطنعة، وعن إمامنا من بينهم الذي حمل الشريعة وبينها، وحرر مقاصدها الشريفة وعينها، وتعرض في الآفاق منها والمطالع، بين شهبها اللوامع، فزينها. نكتة الهداية إذا حقق مناطها، وشرط التحصيل والدراية إذا روعيت أشراطها، وقصد الركاب إذا ضربت في طلب العلم آباطها، عالم المدينة وإمام هذه الأمة الأمينة، ومقبس أنوارالنبوة من مشكاتها المبينة، الإمام مالك بن أنس. ألحقه اللّه برضوانه، وعرفنا بركة الاقتداء بهديه وعرفانه، وعن سلف المؤمنين والمهتدين، وتابعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإن الخلق عيال اللّه يكنفهم بلطفه ورحمته، ويكفلهم بفضله ونعمته، وييسرهم لأسباب السعادة بآداب دينه وشرعته، ويحملهم في العناية بأمورهم، والرعاية لجمهورهم، على مناهج سنته ولطائف حكمته. ولذلك اختار لهم الملوك الذين جبلهم على العدل وفطرته، وهداهم إلى التمسك بكلمته. ثم فضلهم بما خولهم من سعة الرزق وبسطته واشتقاق التمكين في الأرض من قدرته، فتسابقوا بالخيرات إلى جزائه ومثوبته، وذهبوا بالدرجات العلى في وفور الأجر ومزيته.

وإن مولانا السلطان الملك الظاهر، العزيز القاهر، العادل الطاهر، القائم بأمور الإسلام عندما أعيا حملها الأكتاد، وقطب دائرة الملك الذي أطلع اللّه من حاشيته الأبدال وأنبت الأوتاد، ومنفق أسواق العز بما بذل فيها من جميل نظره المذخور والعتاد، رحمة اللّه الكافلة للخلق، ويداه المبسوطتان بالأجل والرزق، وظله الواقي للعباد بما اكتنفهم من العدل والحق، قاصم الجبابرة، والمعفي على آثار الأعاظم من القياصرة، وذوي التيجان من التبابعة والأكاسرة، أولي الأقيال والأساورة، وحائز قصب السبق في الملوك عند المناضلة والمفاخرة، ومفوض الأمور بإخلاصه إلى ولي الدنيا والآخرة، مؤيد كلمة الموحدين، ورافع دعائم الدين، وظهير خلافة المؤمنين، سلطان المسلمين أبو سعيد. صدق اللّه فيما يقتفي من اللّه ظنونه، وجعل النصر ظهيره، كما جعل السعد قرينه، والعز خدينه، وكان وليه على القيام بأمور المسلمين ومعينه، وبلغ الأمة في اتصال أيامه، ودوام سلطانه، ما يرجونه من اللّه ويؤملونه. لما قلده اللّه هذا الأمر الذي استوى له على كرسي الملك، وانتظمت عقود الدول في لبات الأيام، وكانت دولته واسطة السلك، وجمع له الدين بولاية الحرمين، والدنيا بسلطان الترك. وأجرى له أنهار مصر من الماء والمال، فكان مجازه فيها بالعدل في الأخذ والترك. وجمع عليه قلوب العباد. فشهد سرها بمحبه اللّه له، شهادة خالصة من الريب، بريئة من الشك. حتى استولى من العز والملك على المقام الذي رضيه وحمده. ثم تاقت نفسه إلى ما عند اللّه، فصرف قصده إليه واعتمده، وسارع إلى فعل الخيرات بنفس مطمئنة، لا يسأل عليها أجراً ولا يكدرها بالمنة، وأحسن رعاية الدين والملك تشهد بها الإنس والجنة، لا، بل النسم والأجنة. ثم آوى الخلق إلى عدله تصديقاً بأن اللّه يؤوه يوم القيامة إلى ظلاله المستجنة، ونافس في اتخاذ المدارس والربط لتعليم الكتاب والسنة، وبناء المساجد المقدسة يبني له بها اللّه البيوت في الجنة، واللّه لا يضيع عمل عامل فيما أظهره أو أكنه.

وإن ما أنتجته قرائح همته وعنايته، وأطلعته آفاق عدله

وهدايته، ووضحت شـواهده على بعد مداه في الفخر وغايته، ونجح مقاصده في الدين وسعايته، هذا المصنع الشريف، والهيكل الهمم البشرية ترتيبه ورصفه، لا! بل الكلم السحرية تمثيله ووصفه وشمخ بمطاولة السحب ومناولة الشهب مارنه العزيز وأنفه، وازدهى بلبوس السعادة والقبول من اللّه عطفه، إن فاخر بلاط الوليد، كان له الفخار، أو باهى القصر والإيوان، شهد له المحراب والمنار، أو ناظر صنعاء وغمدان، قامت بحجته الآثار. إنما هو بهو ملؤه دين وإسلام، وقصر عليه تحية وسلام، وفضاء رباني ينشأ في جوه للرحمة والسكينة ظلة وغمام، وكوكب شرق يضاحك وجه الشمس منه ثغر بسام، دفع إلى تشييد أركانه، ورفع القواعد من بنيانه، سيف دولته الذي استله من قراب ملكه وانتضاه، وسهمه الذي عجم عيدان كنانته فارتضاه، وحسام أمره الذي صقل فرنده بالعز والعزم وأمضاه، فارتضاه وحسام أمره الذي طالب غريم الأيام، بالأمل العزيز المرام، فاستوفى دينه واقتضاه، الأمير الأعز الأعلى جهركس الخليلي أمير الماخورية باصطبله المنيع. حرسه اللّه من خطوب الأيام، وقسم له من عناية السلطان أوفر الحظوظ والسهام، فقام بالخطو الوساع، لأمره المطاع، وأغرى بها أيدي الإتقان والإبداع. واختصها من أصناف الفعلة بالماهر الصناع، يتناظرون في إجادة الأشكال منها والأوضاع، ويتناولون الأعمال بالهندام إذا توارت عن قدرتهم بالامتناع، فكأن العبقري، - يفري الفرى، أو العفاريت، قدمت من أماريت. وكأنما حشرت الجن والشياطين، أو نشرت القهارمة من الحكماء الأول والأساطين، جابوا لها الصخر بالأذواد، لا بالواد، واستنزلوا صم الأطواد على مطايا الأعواد، ورفعوا سمكها إلى أقصى الآماد، على بعيد المهوى من العماد. وغشوها من الوشي الأزهر، المضاعف الصدف والمرمر، ومائع اللجين الأبيض والذهب الأحمر، بكل مسهم الحواشي حالي الأبراد، وقدروه مساجد للصلوات والأذكار، ومقاعد للسبحات، بالعشي والإبكار، ومجالس للتلاوة والاستغفار، في الآصال والأسحار، وزوايا للتخلي عن ملاحظة الأسماع والأبصار، والتعرض للفتوح الربانية والأنوار، ومدارس لقدح زناد الأفكار، ونتاج المعارف الأبكار، وصوغ اللجين والنضار، في محك القرائح والأبصار. تتفجر ينابيع الحكمة في رياضه وبستانه، وتتفتح أبواب الجنة من غرفه وإيوانه، وتقتاد غر السوابق من العلوم والحقائق، في طلق ميدانه، ويصعد الكلم الطيب والعمل الصالح إلى اللّه من نواحي أركانه، وتوفر الأجور لغاشيته محتسبة عند اللّه في ديوانه، راجحة في ميزانه.

ثم اختار لها من أئمة المذاهب الأربعة أعياناً، ومن شيوخ الحقائق الصوفية فرساناً، تصفح لهم أهل مملكته إنساناً إنساناً، وأشاد بقدرهم عناية وإحساناً، ودفعهم إلى وظائفه توسعاً في مذاهب الخير وافتناناً. وعهد إليهم برياضة المريدين، وإفادة المستفيدين، احتساباً للّه وقرباناً، وتقبلاً لمذاهب الملوك من قومه واستناناً، ثم نظمني معهم تطولاً وامتناناً، ونعمة عظمت موقعاً وجلت شاناً، وأنا وإن كنت لقصور البضاعة، متأخراً عن الجماعة، ولقعود الهمة، عيالاً على هؤلاء الأئمة، فسمحهم يغطي ويلحف، وبمواهب العفو والتجاوز يمنح ويتحف. وإنما هي رحمة من مولانا السلطان -أيده اللّه- خصت كما عمت، ووسمت أغفال النكرة والإهمال وسمت، وكملت بها مواهب عطفه وجبره وتمت، وقد ينتظم الدر مع المرجان، وتلتبس العصائب بالتيجان، وتراض المسومة العراب على مسابقة الهجان، والكل في نظر مولانا السلطان وتصريفه، والأهلية بتأهيله والمعرفة بتعريفه، وقوام الحياة والآمال بلطائف إحسانه وصنوفه، واللّه يوزعنا شكر معروفه، ويوفقنا للوفاء بشرطه في هذا الوقف وتكليفه، ويحمي حماه من غير الدهر وصروفه، ويفيء على ممالك الإسلام ظلال أعلامه ورماحه وسيوفه، ويريه قرة العين في نفسه وبنيه، وحاشيته وذويه، وخاصته ولفيفه، عن اللّه وفضله.

ثم تعاون العداة عند أمير الماخورية، القائم للسلطان بأمور مدرسته، وأغروه بصدي عنها، وقطع أسبابي من ولايتها، ولم يمكن السلطان إلا إسعافه فأعرضت عن ذلك، وشغلت بما أنا عليه من التدريس والتأليف.

ثم خرجت عام تسعة وثمانين وسبعمائة للحج، واقتضيت إذن السلطان في ذلك فأسعف، وزود هو وأمراؤه بما أوسع الحال وأرغده، وركبت بحر السويس من الطور إلى الينبع، ثم صعدت مع المحمل إلى مكة، فقضيت الفرض عامئذ وعدت في البحر، فنزلت بساحل القصير، ثم سافرت منه إلى مدينة قوص في آخر الصعيد، وركبت منها بحر النيل إلى مصر، ولقيت السلطان، وأخبرته بدعائي له في أماكن الإجابة، وأعادني إلى ما عهدت من كرامته، وتفيؤ ظله.

ثم شغرت وظيفة الحديث بمدرسة صلغتمش فولاني إياها بدلاً من مدرسته وجلست للتدريس فيها في محرم أحد وتسعين وسبعمائة، وقمت ذلك اليوم - على العادة - بخطبة نصها:

الحمد للّه إجلالاً وإعظاماً، واعترافاً بحقوق النعم والتزاماً، واقتباسا للمزيد منها واغتناماً، وشكراً على الذي أحسن وتماماً، وسع كل شيء رحمة وإنعاما، وأقام على توحيده من أكوانه ووجوده آيات واضحة وأعلاماً، وصرف الكائنات في قبضة قدرته

ظهوراً وخفاء وإيجاداً وإعداماً، وأعطى كل شيء خلقه ثم هداه إلى مصالحه إلهاماً، وأودع مقدور قضائه في مسطور كتابه، فلا يجد محيصاً عنه ولا مراماً.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة الهامية غماماً والملحمة التي أراقت من الكفر نجيعاً وحطمت أصناماً، والعروة الوثقى، فاز من اتخذها عصاماً، أول النبيين رتبة وآخرهم ختاماً، وسيدهم ليلة قاب قوسين إذ بات للملائكة والرسل إماماً، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا ركناً لدعوته وسناماً وحرباً على عدوه وسماماً، وصلوا في مظاهرته جداً واعتزاماً، وقطعوا في ذات الله وابتغاء مرضاته أنساباً وأرحاماً، حتى ملأوا الأرض إيماناً وإسلاماً، وأوسعوا الجاحد والمعاند تبكيتاً وإرغاماً، فأصبح ثغر الدين بساماً ووجه الكفر والباطل عبوساً جهاماً. صلى الله عليه وعليهم ما عاقب ضياء ظلاماً، صلاة ترجح القبول ميزاناً، وتبوىء عند الله مقاماً.

والرضى عن الأئمة الأربعة، الهداة المتبعة، مصابيح الأمان ومفاتيح السنة الذين أحسنوا بالعلم قياماً وكانوا للمتقين إماماً.

أما بعد فإن الله سبحانه تكفل لهذا الدين بالعلاء والظهور، والعز الخالد على الظهور، وانفساح خطته في آفاق المعمور، فلم يزل دولة عظيمة الآثار، غزيرة الأنصار، بعيدة الصيت عالية المقدار، ـ جامعة بمحاسن آدابه وعزة جنابه ـ معاني الفخار، منفقة بضائع علومه في الأقطار، مفجرة ينابيعها كالبحار، مطلعة كواكبها المنيرة في الآفاق أضواء من النهار، ولا كالدولة التي استأثرت بقبلة الإسلام ومنابره، وفاخرت بحرمات الله وشعائره واعتمدت بركة الإيمان ويمن طائره في خدمة الحرمين الشريفين ـ بالميتين من أسباب الدين أواصره، واعتملت في إقامة رسوم العلم ليكون من مفاخره، وشاهداً بالكال لأوله وآخره.

وإن مولانا السلطان الملك الظاهر، العزيز القاهر، شرف الأوائل والأواخر، ورافع لواء المعالي والمفاخر، رب التيجان والأسرة والمنابر، والمجلي في ميدان السابقين من الملوك الأكابر، في الزمن الغابر، حامل الأمة بنظره الرشيد ورأيه الظافر، وكافل الرعايا في ظله المديد وعدله الوافر، ومطلع أنوار العز والسعادة من أفقه السافر، واسطة السلك من هذا النظام، والتاج المحلى في مفارق الدول والأيام، سيد الملوك والسلاطين، بركة الإسلام والمسلمين، كافل أمير المؤمنين، أبو سعيد. أعلى الله مقامه، وكافأ عن الأمة إحسانه الجزيل وأنعامه، وأطال في السعادة والخيرات المبداة المعادة لياليه وأيامه، لما أوسع الدين والملك نظراً جميلاً من عنايته، وأنام الخلق في حجر كفالته، ومهاد كفايته، وأيقظ لتفقد الأمور، وصلاح الخاصة والجمهور، عين كلاءته، كما قلده الله رعايتها وأقام حكام الشريعة والسياسة يوسعون نطاق الحق إلى غايته، ويطلعون وجه العدل سافراً عن آيته. ونصب في دست النيابة من وثق بعدله وسياسته، ورضي الدين بحسن إيالته، وأمنه على سلطانه ودولته، وهو الوفي ـ والحمد لله ـ بأمانته، ثم صرف نظره إلى بيوت الله يعنى بإنشائها وتأسيسها، ويعمل النظر الجميل في إشادتها وتقديسها، ويقرض الله القرض الحسن في وقفها وتحبيسها وينصب فيها لبث العلم من يؤهله لوظائفها ودروسها، فيضفي عليه بذلك من العناية أفخر لبوسها، حتى زهت الدولة بملكها ومصرها، وفاخرت الأنام بزمانها الزاهر وعصرها. وخضعت الأواوين لإيوانها العالي وقصرها، فابتهج العالم سروراً بمكانها، واهتزت الأكوان للمفاخرة بشأنها، وتكفل الرحمن لمن اعتز به الإيمان، وصلح على يده الزمان، بوفور المثوبة ورجحانها.

وكان مما قد من به الآن تدريس الحديث بهذه المدرسة وقف الأمير صرغتمش من سلف أمراء الترك، خفف الله حسابه وثقل في الميزان يوم يعرض على الرحمن كتابه، وأعظم جزاءه في هذه الصدقة الجارية وثوابه، عناية جدد لي لباسها، وإيشاراً بالنعمة التي صححت قياسها، وعرفت منه أنواعها وأجناسها، فامتثلت المرسوم، وانطلقت أقيم الرسوم، وأشكر من الله وسلطانه الحظ المقسوم. وأنا مع هذا معترف بالقصور، بين أهل العصور، مستعيذ بالله وبركة هؤلاء الحضور، السادة الصدور، أن يجمح بي مركب الغرور، أو يلج شيطان الدعوى والزور في شيء من الأمور. والله تعالى ينفع مولانا السلطان بصالح أعماله، ويعرفه الحسنى وزيادة الحظ الأسنى في عاقبته ومآله، ويريه في سلطانه وبنيه وحاشيته وذويه قُرة عينه ورضى آماله، ويديم على السادة الأمراء ما خولهم من رضاه وإقباله، ويحفظ المسلمين في هذا الأمر السعيد بدوامه واتصاله، ويسدد قضاتهم وحكامهم لاعتماد الحق واعتماله بمن الله وإفضاله.

وقد رأيت أن أقرر للقراءة في هذا الدرس، كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه، فإنه من أصول السنن، وأمهات الحديث، وهو مع ذلك أصل مذهبنا الذي عليه مدار مسائله، ومناط أحكامه، وإلى آثاره يرجع الكثير من فقهه.

فلنفتتح الكلام بالتعريف بمؤلفه ـ رضي الله عنه ـ ومكانه من الأمانة والديانة، ومنزلة كتابه "الموطأ" من كتب الحديث. ثم نذكر الروايات والطرق التي وقعت في هذا الكتاب، وكيف اقتصر الناس منها على رواية يحيى بن يحيى، ونذكر أسانيدي فيها، ثم

نرجع إلى الكلام على متن الكتاب.

أما الإمام مالك -رضي الله عنه- فهو إمام دار الهجرة، وشيخ أهل الحجاز في الحديث والفقه غير منازع، والمقلد المتبوع لأهل الأمصار وخصوصاً أهل المغرب.

قال البخاري: مالك بن أنس، بن أبي عامر الأصبحي. كنيته أبو عبد الله، حليف عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله القرشي التيمي ابن أخي طلحة بن عبيد الله. كان إماماً، روى عنه يحيى بن سعيد. انتهى كلام البخاري.

وجده أبو عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان ويقال: غيمان بغين معجمة مفتوحة، وياء تحتانية ساكنة، ابن جثيل بجيم مضمومة وثاء مثلثة مفتوحة، وياء تحتانية ساكنة، ويقال: حثيل أو خثيل بحاء مضمومة مهملة أو معجمة، عوض الجيم، ويقال: حسل بحاء مهملة مكسورة، وسين مهملة ساكنة، ابن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح. وذو أصبح بطن بن حمير، وهم أخوة يحصب ونسبهم، فهو حميري صلبية، وقرشي حلفاً. ولد سنة إحدى وتسعين فيما قال ابن بكير، أو أربع وتسعين فيما قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ونشأ بالمدينة، وتفقه بها. أخذ عن ربيعة الرأي، وابن شهاب وعن عمه أبي سهيل، وعن جماعة ممن عاصرهم من التابعين وتابعي التابعين، وجلس للفتيا والحديث في مسجد رسول الله ﷺ شاباً يناهز العشرين، وأقام مفتياً بالمدينة ستين سنة.

وأخذ عنه الجم الغفير من العلماء الأعلام، وارتحل إليه من الأمصار من لا يحصى كثرة، وأعظم من أخذ عنه الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وابن وهب، والأوزاعي، وسفيان الثوري، وابن المبارك في أمثال لهم وأنظار.

وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة باتفاق من الناقلين لوفاته.

وقال الواقدي: عاش مالك تسعين سنة.

وقال سحنون عن ابن نافع: توفى مالك ابن سبع وثمانين سنة.

ولم يختلف أهل زمانه في أمانته، وإتقانه، وحفظه وتثبته وورعه، حتى لقد قال سفيان بن عيينة: كنا نرى في الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «تضرب أكباد الإبل في طلب العلم فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة» أنه مالك بن أنس.

وقال الشافعي: إذا جاء الأثر فمالك النجم، وقال: إذا جاءك الحديث فمالك أمير المؤمنين.

وقد ألف الناس في فضائله كتباً، وشأنه مشهور.

وأما الذي بعثه على تصنيف الموطأ فيما نقل أبو عمر بن عبد البر فهو أن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، عمل كتابا على مثال الموطأ، ذكر فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة، ولم يذكر فيه شيئاً من الحديث، فأتي به مالك، ووقف عليه وأعجبه، وقال: ما أحسن ما عمل هذا! ولو كنت أنا الذي عملت لبدأت بالآثار، ثم شددت ذلك بالكلام.

وقال غيره: حج أبو جعفر المنصور، ولقيه مالك بالمدينة، فأكرمه وفاوضه. وكان فيما فاوضه: يا أبا عبد الله لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك، وقد شغلتني الخلافة، فضع أنت للناس كتاباً ينتفعون به، تجنت فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة.

قال مالك: فلقد علمني التأليف، فكانت هذه وأمثالها من البواعث لمالك على تصنيف هذا الكتاب، فصنفه وسماه "الموطأ" أي المسهل.

قال الجوهري: وطؤ يوطؤ وطاءة، أي صار وطيئا، ووطأته توطئة، ولا يقال: وطيته.

ولما شغل بتصنيفه أخذ الناس بالمدينة يومئذ في تصنيف موطآت، فقال لمالك أصحابه: نراك شغلت نفسك بأمر قد شركك فيه الناس، وأتي ببعضها فنظر فيه، ثم طرحه من يده وقال: ليعلمن أن هذا لا يرتفع منه إلا ما أريد به وجه الله، فكأنما ألقيت تلك الكتب في الآبار، وما سمع لشيء منها بعد ذلك ذكر، وأقبل مالك على تهذيب كتابه وتوطئته، فيقال: إنه أكمله في أربعين سنة.

وتلقت الأمة هذا الكتاب بالقبول في مشارق الأرض ومغاربها، ومن لدن صنف إلى هلم. وطال ثناء العلماء في كل عصر عليه، ولم يختلف في ذلك اثنان.

قال الشافعي، وعبد الرحمن بن مهدى: ما في الأرض كتاب بعد كتاب الله أنفع، وفي رواية أصح، وفي رواية أكثر صوابا، من موطأ مالك.

وقال يونس بن عبد الأعلى: ما رأيت كتاباً ألف في العلم أكثر صوابا من موطأ مالك.

وأما الطرق والروايات التي وقعت في هذا الكتاب، فإنه كتبه عن مالك جماعة نسب الموطأ إليهم بتلك الرواية، وقيل: موطأ فلان لراويه عنه.

فمنها موطأ الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ومنها موطأ

عبد اللّه بن وهب، ومنها موطأ عبداللّه بن مسلمة القعنبي ومنها موطأ مطرف بن عبداللّه اليساري نسبة إلى سليمان بن يسار ومنها موطأ عبد الرحمن بن القاسم رواه عنه سحنون بن سعيد ومنها موطأ يحيى بن يحيى الأندلسي.

رحل إلى مالك بن أنس من الأندلس وأخذ عنه الفقه والحديث ورجع بعلم كثير وحديث جم، وكان فيما أخذ عنه "الموطأ". وأدخله الأندلس والمغرب، فأكب الناس عليه، واقتصروا على روايته دون ما سواها، وعولوا على نسقها وترتيبها في شرحهم كتاب "الموطأ" وتفاسيرهم، ويشيرون إلى الروايات الأخرى إذا عرضت في أمكنتها، فهجرت الروايات الأخرى، وسائر تلك الطرق، ودرست تلك الموطآت إلا موطأ يحيى بن يحيى، فبروايته أخذ الناس في هذا الكتاب لهذا العهد شرقاً وغرباً.

وأما سندي في هذا الكتاب المتصل بيحيى بن يحيى فعلى ما أصفه:

حدثني به جماعة من شيوخنا رحمة اللّه عليهم. منهم إمام المالكية، قاضي الجماعة بتونس وشيخ الفتيا بها، أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري، سمعته عليه بمنزله بتونس، من أوله إلى آخره. ومنهم شيخ المسندين بتونس، الرحالة أبو عبد اللّه محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادي آشي، سمعت عليه بعضه، وأجازني بسائره. ومنهم شيخ المحدثين بالأندلس، وكبير القضاة بها، أبو البركات محمد بن محمد بن محمد ثلاثة من المحدثين ابن إبراهيم بن الحاج البلفيقي، لقيته بفاس سنة ست وخمسين وسبعمائة من هذه المائة الثامنة، مقدمه من السفارة بين ملك الأندلس وملك المغرب. وحضرت مجلسه بجامع القرويين من فاس، فسمعت عليه بعضا من هذا الكتاب، وأجازني بسائره. ثم لقيته لقاءة أخرى سنة اثنتين وستين وسبعمائة، استقدمه ملك المغرب، السلطان أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن للأخذ عنه، وكنت أنا القارىء فيما يأخذه عنه، فقرأت عليه صدرا من كتاب "الموطأ"، وأجازني بسائره إجازة أخرى.

ومنهم شيخ أهل المغرب لعصره في العلوم العقليه، ومفيد جماعتهم، أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم الآبلي، قرأت عليه بعضه، وأجازني بسائره، قالوا كلهم: حدثنا الشيخ المعمر، أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن هارون الطائي، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي، عن الشيخ أبي عبد اللّه محمد بن عبد الحق الخزرجي.

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو البركات، عن إمام المالكية ببجاية، ناصر الدين أبي علي، منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي، عن الإمام شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي، عن أبي الحسن علي بن موسى بن النقرات عن أبي الحسن علي بن أحمد الكناني. قال الخزرجي والكناني: حدثنا أبو عبد اللّه محمد بن فرج مولى ابن الطلاع، عن القاضي أبي الوليد يونس بن عبد اللّه بن مغيث بن الصفار قاضي الجماعة بقرطبة.

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو عبد اللّه جابر عن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن الغماز، عن شيخه أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، عن القاضي أبي القاسم عبد الرحمن بن حبيش، وأبي عبد اللّه محمد بن سعيد ين زرقون، شارح كتاب "الموطأ"، قال ابن زرقون: حدثنا به أبو عبد اللّه الخولاني، عن أبي عمرو عثمان بن أحمد القيجاطي.

وقال ابن حبيش: حدثنا به القاضي أبو عبد اللّه بن أصبغ ويونس بن محمد بن مغيث، قالا: قرأناه على أبي عبد اللّه محمد بن الطلاع.

وقال ابن حبيش أيضاً: حدثنا به أبو القاسم أحمد بن محمد ورد، عن القاضي أبي عبد اللّه محمد بن خلف بن المرابط عن المقرئ أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد اللّه المعافري الطلمنكي.

قال القاضي أبو الوليد بن مغيث، والقيجاطي، والطلمنكي: حدثنا أبو عيسى يحيى بن عبد اللّه بن يحيى عن عم أبيه أبي مروان عبيد اللّه بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى.

وقال الطلمنكي: حدثنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن حدير البزار، قال: حدثنا أبو محمد قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا أبو عبد اللّه محمد بن وضاح، قال: حدثنا يحيى بن يحيى عن مالك، إلا ثلاثة أبواب من آخر كتاب الاعتكاف، أولها خروج المعتكف إلى العيد فإن يحيى شك في سماعها عن مالك، فسمعها عن زياد بن عبد الرحمن الملقب شبطون عن مالك.

ولي في هذا الكتاب طرق أخرى لم يحضرني الآن اتصال سندي فيها.

فمنها عن شيخنا أبي محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي كاتب السلطان أبي الحسن، لقيته بتونس عند استيلاء السلطان عليها، وهو في جملته سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وحضرت مجلسه، وأخذت عنه كثيراً، وسمعت عليه بعض "الموطأ"، وأجازني بالإجازة العامة، وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وعن شيخه الأستاذ أبي إسحاق الغافقي، وعن أبي القاسم القبتوري، وجماعة من مشيخة أهل سبتة، ويتصل سنده فيه

بالقاضي عياض، وأبي العباس العزفي صاحب كتاب الدر المنظم في المولد المعظم.

ومنها عن شيخنا أبي عبد اللّه الكوسي خطيب الجامع الأعظم بغرناطة، سمعت عليه بعضه وأجازني بسائره وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير عن القاضي أبي عبد اللّه بن بكار، وجماعة من مشيخة أهل الأندلس، ويتصل سنده فيه بالقاضي أبي الوليد الباجي، والحافظ أبي عمر بن عبد البر بسندهما.

ومنها عن شيخنا المكتب أبي عبد اللّه محمد بن سعد بن برال الأنصاري شيخ القراءة بتونس، ومعلمي كتاب اللّه، قرأت عليه القرآن العظيم بالقراءات السبع، وعرضت عليه قصيدتي الشاطبي في القراءة، وفي الرسم، وعرضت عليه كتاب التقصي لابن عبد البر، وغير ذلك، وأجازني بالإجازة العامة، وفي هذه بالإجازة الخاصة، وهو يروي هذا الكتاب عن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن الغماز، وعن شيخه أبي العباس أحمد بن موسى البطرني بسندهما.

ومنها عن شيخنا الأستاذ أبي عبد اللّه محمد بن الصفار المراكشي، شيخ القراءات بالمغرب، سمعت عليه بعض هذا الكتاب بمجلس السلطان أبي عثمان ملك المغرب، وهو يسمعه إياه، وأجازني بسائره، وهو يرويه عن شيخه محدث المغرب أبي عبد اللّه محمد بن رشيد الفهري السبتي عن مشيخة أهل سبتة، وأهل الأندلس، حسبما ذلك مذكور في كتب رواياتهم وطرق أسانيدهم، إلا أنها لم تحضرني الآن، وفيما ذكرناه كفاية واللّه يوفقنا أجمعين لطاعته وهذا حين أبتدي، وباللّه أهتدي.

وانفض ذلك المجلس، وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون، واستشعرت أهليتي للمناصب القلوب، وأخلص النجي في ذلك الخاصة والجمهور، وأنا أنتاب مجلس السلطان في أكثر الأحيان، لتأدية الواجب من التحية والمشافهة بالدعاء، إلى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية، فأبعده، وأخره عن خطة القضاء في رجب ست وثمانين وسبعمائة، ودعاني للولاية في مجلسه، وبين أمرائه فتفاديت من ذلك، وأبى إلا إمضاءه، وخلع علي، وبعث الأمراء معي إلى مقعد الحكم بمدرسة القضاء، فقمت في ذلك المقام المحمود، ووفيت عهد اللّه وعهده في إقامة رسوم الحق، وتحري المعدلة، حتى سخطني من لم ترضه أحكام اللّه، ووقع في ذلك ما تقدم ذكره، وكثر شغب أهل الباطل والمراء، فأعفاني السلطان منها لحول من يوم الولاية، وكان تقدمها وصول الخبر بغرق السفين الواصل من تونس إلى الإسكندرية، وتلف الموجود والمولود، وعظم الأسف، وحسن العزاء، واللّه قادر على ما يشاء.

ثم خرجت عام تسعة وثمانين وسبعمائة لقضاء الفرض، وركبت بحر السويس من الطور إلى الينبع، ورافقت المحمل إلى مكة، فقضيت الحج عامئذ، وعدت إلى مصر في البحر كما سافرت أولاً. وشغرت وظيفة الحديث بمدرسة صلغتمش، فولاني السلطان إياها بدلاً من مدرسته في محرم أحد وتسعين وسبعمائة، ومضيت على حالي من الانقباض، والتدريس، والتأليف، حتى ولاني خانقاه بيبرس، ثم عزلني عنها بعد سنة أو أزيد، بسبب أنا أذكره الآن.

ولاية خانقاه بيبرس، والعزل منها

لما رجعت من قضاء الفرض سنة تسعين وسبعمائة، ومضيت على حالي من التدريس والتأليف، وتعاهد السلطان باللقاء والتحية والدعاء، وهو ينظر إليّ بعين الشفقة، ويحسن المواعيد. وكانت بالقاهرة خانقاه شيدها السلطان بيبرس، ثامن ملوك الترك الذي استبد على الناصر محمد بن قلاون هو ورفيقه سلار وأنف الناصر من استبدادهما، وخرج للصيد، فلما حاذى الكرك امتنع به، وتركهم وشأنهم، فجلس بيبرس على التخت مكانه، وكاتب الناصر أمراء الشام من مماليك أبيه، واستدعوه للقيام معه، وزحف بهم إلى مصر، وعاد إلى سلطانه، وقتل بيبرس وسلار سنة ثمان وسبعمائة. وشيد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر من أعظم المصانع وأحفلها، وأوفرها ريعاً، وأكثرها أوقافاً، وعين مشيختها، ونظر لمن يستعد له بشرطه في وقفه، فكان رزق النظر فيها والمشيخة واسعاً لمن يتولاه، وكان ناظرها يومئذ شرف الدين الأشقر إمام السلطان الظاهر. فتوفي عند منصرفي من قضاء الفرض، فولاني السلطان مكانه توسعة علي، وإحساناً إلي، وأقمت على ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصري.

فتنة الناصري وسياقة الخبر عنها بعد تقديم كلام في أحوال الدول يليق بهذا الموضع، ويطلعك على أسرار في تنقل أحوال الدول بالتدريج إلى الضخامة والاستيلاء، ثم إلى الضعف والاضمحلال، والله بالغ أمره

وذلك أن الدول الكلية، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحدا بعد واحد، في مدة طويلة، قائمين على ذلك بعصبية النسب أو الولاء، وهذا كان الأمل في استيلائهم وتغلبهم، فلا يزالون كذلك إلى انقراضهم، وغلب مستحقين آخرين ينزعونه من أيديهم بالعصبية التي يقتدرون بها على ذلك، ويحوزون الأعمال التي كانت بأيدي الدولة الأولى، يفضون جبايتها بينهم على تفاضل البأس والرجولة والكثرة في العصابة أو القلة، وهم على حالهم من الخشونة لمعاناة البأس، والإقلال من العيش لاستصحاب حال البداوة، وعدم الثروة من قبل. ثم تنمو الثروة فيهم بنمو الجباية التي ملكوها، ويزين حب الشهوات للاقتدار عليها، فيعظم الترف في الملابس والمطاعم والمساكن والمراكب والممالك، وسائر الأحوال، ويتزايد شيئاً فشيئاً بتزايد النعم وتتسع الأحوال أوسع ما تكون، ويقصر الدخل عن الخرج، وتضيق الجباية عن أرزاق الجند وأحوالهم، ويحصل ذلك لكل أحد ممن تحت أيديهم، لأن الناس تبع لملوكهم ودولتهم، ويراجع كل أحد نظره فيما هو فيه من ذلك، فيرجع وراءه، ويطلب كفاء خرجه بدخله.

ثم إن البأس يقل من أهل الدولة بما ذهب لهم من الخشونة، وما صاروا إليه من رقة الحاشية والتنعم، فيتطاول من بقي من رؤساء الدولة إلى الاستبداد بها غيرة عليها من الخلل الواقع بها. ويستعد لذلك بما بقي عنده من الخشونة، ويحملهم على الإقلاع عن الترف، ويستأنف لذلك العصابة بعشيره أو بمن يدعوه لذلك، فيستولي على الدولة، ويأخذ في دوائها من الخلل الواقع، وهو أحق الناس به، وأقربهم إليه، فيصير الملك له، وفي عشيره، وتصير كأنها دولة أخرى، تمر عليها الأوقات. ويقع فيها ما وقع في الأولى، فيستولي آخر منهم كذلك إلى أن تنقرض الدولة بأسرها، وتخرج عن القوم الأولين أجمع. وتأتي دولة أخرى مباينة لعصابة هؤلاء في النسب، أو الولاء. سنة الله في عباده.

وكان مبدأ هذه الدولة التركية، أن بني أيوب لما ملكوا مصر والشام، كما قصصناه عليك في أخبارهم واستقل بها كبيرهم صلاح الدين، وشغل بالجهاد وانتزاع القلاع والحصون من أيدي الفرنج الذين ملكوها بالسواحل، وكان قليل العصابة، إنما كان عشيره من الكرد يعرفون ببني هذان، وهم قليلون، وإنما كثر منهم جماعة المسلمين، بهمة الجهاد الذي كان صلاح الدين يدعو إليه، فعظمت عصابته بالمسلمين، وأسمع داعيه، ونصر الله الدين على يده. وانتزع السواحل كلها من أيدي نصارى الفرنج، حتى مسجد بيت المقدس، فإنهم كانوا ملكوه وأفحشوا فيه بالقتل والسبي، فأذهب الله هذه الوصمة على يد صلاح الدين، وانقسم ملك بني أيوب بعده بين ولده وولد أخيه. واستفحل أمرهم، واقتسموا مدن الشام، ومصر بينهم، إلى أن جاء آخرهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر أخي صلاح الدين، وأراد الاستكثار من العصابة لحماية الدولة، وإقامة رسوم الملك، وأن ذلك يحصل باتخاذ المماليك، والإكثار منهم، كما كان آخراً في الدولة العباسية ببغداد، وأخذ التجار في جلبهم إليه، فاشترى منهم أعداداً، وأقام لتربيتهم أساتيذ معلمين لحرفة الجندية، من الثقافة والرمي، بعد تعليم الآداب الدينية والخلقية إلى أن اجتمع له منهم عدد جم يناهز الألف، وكان مقيماً بأحواز دمياط في حماية البلاد من طوارق الفرنج المتغلبين على حصنها دمياط. وكان أبوه قد اتخذ لنزله هنالك قلعة سماها المنصورة، وبها توفي رحمه الله، فكان نجم الدين نازلاً بها في مدافعة ساكني دمياط من الفرنج، فأصابه هنالك حدث الموت، وكان ابنه المعظم تورنشاه نائباً في حصن كيفا من ديار بكر وراء الفرات، فاجتمع الجند على بيعته، وبعثوا عنه، وانتظروا.

وتفطن الفرنج لشأنهم، فهجموا عليهم، واقتتلوا فنصر الله المسلمين، وأسر ملك الفرنج ريد إفرنس، فبعثوا به إلى مصر. وحبس بدار لقمان، إلى أن فادوه بدمياط، كما هو مذكور في أخبار بني أيوب. ونصبوا للملك، ولهذا اللقاء زوجة الصالح أيوب واسمها شجرة الدر، فكانت تحكم بين الجند، وتكتب على المراسيم، وركبت يوم لقاء الفرنج، تحت الصناجق، والجند محدقون بها. حتى أعز الله دينه، وأتم نصره. ثم وصل تورنشاه المعظم، فأقاموه في خطة الملك مكان أبيه الصالح أيوب ووصل معه مماليك يدلون بمكانهم منه، ولهم به اختصاص، ومنه مكان، وكان رؤساء الترك يومئذ القائمون بالدولة من عهد أبيه وجده. أقطاي الجمدار وأيبك التركماني، وقلاون الصالحي، فأنفوا من تصرفات مماليك تورنشاه، واستعلائهم بالحظ من السلطان، وسخطوهم وسخطوه، وأجمعوا قتله. فلما رحل إلى القاهرة اغتالوه في طريقه بفارسكو، وقتلوه، ونصبوا للأمر أيبك التركماني منه، واستحدثوا

هذه الدولة التركية كما شرحناه في أخبارها، وهلك بعده أيبك ابنه علي المنصور، ثم مولاه قطز، ثم الظاهر بيبرس البندقداري. ثم ظهر أمر الططر، واستفحل ملكهم. وزحف هولاكو بن طولي بن جنكيزخان من خراسان إلى بغداد، فملكها، وقتل الخليفة المستعصم آخر بني العباس. ثم زحف إلى الشام، فملك مدنه وحواضره من أيدي بني أيوب، إلى أن استوعبها.

وجاء الخبر بأن بركة صاحب صراي شريكه في نسب جنكيزخان، زحف إلى خراسان، فامتعض لذلك وكر راجعاً، وشغل بالفتنة إلى أن هلك. وخرج قطز من مصر عندما شغل هولاكو بفتنة بركة، فملك الشام كله، أمصاره ومدنه، وأصاره للترك موالي بني أيوب. واستفحلت دولة هؤلاء المماليك، واتصلت أيامها واحداً بعد واحد، كما ذكرنا في أخبارهم. ثم جاء قلاوون عندما ملك بيرس الظاهر منهم، فتظاهر به، وأصهر إليه، والترف يومئذ لم يأخذ منهم، والشدة والشكيمة موجودة فيهم، والبأس والرجولة شعار لهم، وهلك الظاهر بيبرس، وابناه من بعده، كما في أخبارهم. وقام قلاوون بالأمر، فاتسع نطاق ملكه، وطال ذرع سلطانه، وقصرت أيدي الططر عن الشام بمهلك هولاكو، وولاية الأصاغر من ولده، فعظم ملك قلاوون، وحسنت آثار سياسته، وأصبح حجة على من بعده، ثم ملك بعده ابناه: خليل الأشرف، ثم محمد الناصر. وطالت أيامه، وكثرت عصابته من مماليكه، حتى كمل منهم عدد لم يقع لغيره. ورتب للدولة المراتب، وقدم منهم في كل رتبة الأمراء، وأوسع لهم الأقطاع والولايات، حتى توفرت أرزاقهم واتسعت بالترف أحوالهم. ورحل أرباب البضائع من العلماء والتجار إلى مصر، فأوسعهم حباء وبراً. وتنافست أمراء دولته في اتخاذ المدارس والربط والخوانق، وأصبحت دولتهم غرة في الزمان، وواسطة في الدول. ثم هلك الناصر بعد أربعين وسبعمائة، فطفق أمراء دولته ينصبون بنيه للملك، واحداً بعد آخر، مستبدين عليهم، متنافسين في الملك، حتى يغلب واحد منهم الآخر، فيقتله، ويقتل سلطانه من أولاد الناصر، وينصب آخر منهم مكانه، إلى أن انساق الأمر لولده حسن الناصر، فقتل مستبده شيخون، وملك أمره. وألقى زمام الدولة بيد مملوكه يلبغا، فقام بها، ونافسه أقرانه، وأغروا به سلطانه، فأجمع قتله. ونمي إليه الخبر وهو في علوفة البرسيم عند خيله المرتبطة لذلك، فاعتزم على الامتناع، واستعد للقاء. واستدعاه سلطانه، فتثاقل عن القدوم. واستشاط السلطان، وركب في خاصته إليه، فركب هو لمصادمته. وهاجم السلطان ففله، ورجع إلى القلعة، وهو في اتباعه، فلم يلفه بقصره، وأغرى به البحث فتقبض عليه، واستصفاه، وقتله، ونصب للملك محمد المنصور بن المظفر حاجي بن الناصر. وقام بالدولة أحسن قيام، وأغرى نفسه بالاستكثار من المماليك، وتهذيبهم بالتربية، وتوفير النعم عندهم بالإقطاع، والولايات، حتى كمل منهم عدد لم تعهده الدولة.

ثم خلع المنصور بن المظفر لسنتين، ونصب مكانه للملك شعبان الأشرف بن حسين بن الناصر، فأقام على التخت وهو في كفالته، وهو على أوله في إعزاز الدولة، وإظهار الترف والثروة، حتى ظهرت مخايل العز والنعم، في المساكن والجياد والمماليك والزينة، ثم بطروا النعمة، وكفروا الحقوق، فحنقوا عليه لما كان يتجاوز الحدود بهم في الآداب، فهموا بقتله وخلصوا نجيّاً لذلك في متصيدهم الشتوي، وقد برزوا له بخيامهم وسلطانهم على عادتهم. ولما أحس بذلك ركب ناجياً بنفسه إلى القاهرة، فدخلوا على السلطان الأشرف، وجاؤوا به على إثره، وأجازوا البحر، فقبضوا عليه عشي يومهم. ثم قتلوه في محبسه عشاء. وانطلقت أيديهم على أهل البلد بمعرات لم يعهدوها من أول دولتهم، من النهب والتخطف وطروق المنازل والحمامات للعبث بالحرم، وإطلاق أعنة الشهوات والبغي في كل ناحية، فمرج أمر الناس، ورفع الأمر إلى السلطان، وكثر الدعاء واللجأ إلى الله. واجتمع أكابر الأمر إلى السلطان، وفاوضوه في كف عاديتهم، فأمرهم بالركوب، ونادى في جنده ورعيته بانطلاق الأيدي عليهم، والاحتياط بهم في قبضة القهر، فلم يكن إلا كلمح البصر، وإذا بهم في قبضة الأسر. ثم عمرت بهم السجون، وصفدوا وطيف بهم على الجمال ينادى بهم، إبلاغاً في الشهرة، ثم وسط أكثرهم، وتتبع بالنفي والحبس بالثغور القصية، ثم أطلقوا بعد ذلك. وكان فيمن أطلق جماعة منهم بحبس الكرك: فيهم برقوق الذي ملك أمرهم بعد ذلك، وبركة الجوباني، وألطنبغا الجوباني وجهركس الخليلي.

وكان طشتمر، دوادار يلبغا، قد لطف محله عند السلطان الأشرف، وولي الدوادارية له، وكان يؤمل الاستبداد كما كان أستاذه يلبغا، فكان يحتال في ذلك بجمع هؤلاء المماليك اليلبغاوية من حيث سقطوا، يريد بذلك اجتماعهم عصبة له على هواه، ويغري السلطان بها شفاهاً ورسالة، إلى أن اجتمع أكثرهم بباب السلطان الأشرف، وجعلهم في خدمة ابنه علي ولي عهده.

فلما كثروا، وأخذتهم أريحية العز بعصبيتهم، صاروا يشتطون على السلطان في المطالب ويعتزون بعصبية اليلبغاوية. واعتزم السلطان الأشرف عام سبعة وسبعين وسبعمائة على قضاء الفرض، فخرج لذلك خروجاً فخماً، واستناب ابنه عليّاً على قلعته وملكه في كفالة قرطاي من أكابر اليلبغاوية، وأخرج معه

الخليفة والقضاة، فلما بلغ العقبة اشتط المماليك طلب جرايتهم من العلوفة والزاد، واشتط الذين بمصر كذلك في طلب أرزاقهم من المتولين للجباية. وصار الذين مع السلطان إلى المكاشفة في ذلك بالأقوال والأفعال، وطشتمر الدوادار يغضي عنهم يحسب وقت استبداده قد أزف، إلى أن راغمهم السلطان بالزجر، فركبوا عليه هنالك، وركب من خيامه مع لفيف بن خاصته، فنضحوه بالنبل، ورجع إلى خيالته، ثم ركب الهجن مساء، وسار فصبح القاهرة، وعرس هو ولفيفه بقبة النصر.

وكان قرطاي كافل ابنه علي المنصور، حدث بينه وبين ناظر الخاص المقسي مكالمة عند مغيب السلطان أحقدته. وجاشت بما كان في نفسه، فأغرى عليّاً المنصور بن السلطان بالتوثب على الملك، فارتاح لذلك وأجابه، وأصبح يوم ثورة المماليك بالعقبة، وقد أجلس عليّاً مكفوله بباب الإصطبل، وعقد له الراية بالنداء على جلوسه بالتخت، وبينما هم في ذلك، صبحهم الخبر بوصول السلطان الأشرف إلى قبة النصر ليلتئذ، فطاروا إليه زرافات ووحداناً، فوجدوا أصحابه نياماً هنالك، وقد تسلل من بينهم هو ويلبغا الناصري من أكابر اليلبغاوية، فقطعوا رؤوسهم جميعاً، ورجعوا بها تسيل دما. ووجموا لفقدان الأشرف، وتابعوا النداء عليه، وإذا بامرأة قد دلتهم عليه في مكان عرفته، فتسابقوا إليه، وجاؤوا به فقتلوه لوقته بخلع أكتافه، وانعقدت بيعة ابنه المنصور. وجاء طشتمر الدوادار من الغد بمن بقي بالعقبة من الحرم، وتخلف السلطان، واعتزم على قتالهم طمعاً في الاستبداد الذي في نفسه، فدافعوه وغلبوه وحصل في قبضتهم، فخلعوا عليه بنيابة الشام، وصرفوه لذلك وأقاموا في سلطانهم. وكان أينبك أميراً آخر من اليلبغاوية قد ساهم قرطاي في هذا الحادث وأصهر إليه في بعض حرمه، فاستنام له قرطاي، وطمع هو في الاستيلاء. وكان قرطاي مواصلاً صبوحه بغبوقه، ويستغرق في ذلك، فركب في بعض أيامه، وأركب معه السلطان عليّاً، واحتاز الأمر من يد قرطاي وصيره إلى صفد، واستقل بالدولة، ثم انتقض طشتمر بالشام مع سائر أمرائه، فخرج أينبك في العساكر، وسرح المقدمة مع جماعة من الأمراء، وكان منهم برقوق وبركة المستوليان عقب ذلك، وخرج هو والسلطان في الساقة، فلما انتهوا إلى بلبيس، ثار الأمراء الذين في المقدمة عليه، ورجع إليه أخوه منهزماً، فرجع إلى القلعة. ثم اختلف عليه الأمراء، وطالبوه بالحرب في قبة النصر، فسرح العساكر لذلك، فلما فصلوا فر هو هارباً، وقبض عليه وثقف بالإسكندرية. واجتمع أمراء اليلبغاوية يقدمهم قطلقتمر العلائي، ويلبغا الناصري ودمرداش اليوسفي وبركة وبرقوق، فتصدى دمرداش ويلبغا وبركة وبرقوق، إلى الاستقلال بالأمر وتغلبوا على سائر الأمراء، واعتقلوهم بالإسكندرية. وفوضوا الأمر إلى يلبغا الناصري، وهم يرونه غير خبير، فأشاروا باستدعاء طشتمر، وبعثوا إليه، وانتظروا. فلما جاءه الخبر بذلك ظنها منية نفسه، وسار إلى مصر، فدفعوا الأمر إليه، وجعلوا له التولية والعزل وأخذ برقوق وبركة يستكثران من المماليك، بالاستخدام والجاه، وتوفير الأقطاع، إكثافا لعصبيتهما، فانصرفت الوجوه عن سواهما، وارتاب طشتمر بنفسه، وأغراه أصحابه بالتوثب، ولما كان الأضحى في سنة تسع وسبعين وسبعمائة استعجل أصحابه على غير روية، وركبوا وبعثوا إليه فأحجم، وقاتلوا فانهزموا. وتقبض على طشتمر، وحبس بالإسكندرية، وبعث معه يلبغا الناصري، وخلت الدولة للأميرين برقوق وبركة من المنازعين، وعمروا المراتب بأصحابهما. ثم كثر شغب التركمان والعرب بنواحي الشام، فدفعوا يلبغا الناصري إلى النيابة بحلب ليستكفوا به في تلك الناحية. ثم تنافس برقوق وبركة في الاستقلال، وأضمر كل واحد منهما لصاحبه، وخشي منه، فقبض برقوق على بطانة بركة من عصابته ليخفض بذلك جناحه، فارتاع لذلك بركة، وخرج بعصابته إلى قبة النصر ليواضع برقوقا وأصحابه الحرب هنالك، ورجا أن تكون الدائرة له. وأقام برقوق بمكانه من الإصطبل، وسرب أصحابه في جموعهم إلى مجاولة أولئك. وأقاموا كذلك أياما يغادونهم ويراوحونهم ثلاثاً، إلى أن عضت بركة وأصحابه الحرب، فانفضوا عنه، وجيء ببركة، وبعث به إلى الإسكندرية، فحبس هنالك إلى أن قتله ابن عرام نائب الإسكندرية. وارتفع أصحابه إلى برقوق شاكين، فثأرهم منه بإطلاق أيديهم في النصفة، فانتصفوا منه بقتله في ساحة القلعة، بعد أن سمِّر، وحمل على جمل عقاباً له، ولم يقنعهم ذلك، فأطلق أيديهم فيما شاؤوا منه، ففعلوا ما فعلوا.

وانفرد برقوق بعد ذلك بحمل الدولة ينظر في أعطافها بالتهديد، والتسديد، والمقاربة، والحرص على مكافأة الدخل بالخرج. ونقص ما أفاض فيه بنو قلاوون من الإمعان في الترف، والسرف في العوائد والنفقات، حتى صار الكيل في الخرج بالمكيال الراجح، وعجزت الدولة عن تمشية أحوالها، وراقب ذلك كله برقوق، ونظر في سد خلل الدولة منه، وإصلاحها من مفاسده، يعتد ذلك ذريعة للجلوس على التخت، وحيازة اسم السلطان من أولاد قلاوون، بما أفسد الترف منم، وأحال الدولة بسببهم، إلى أن حصل من ذلك على البغية، ورضي به أصحابه وعصابته، فجلس على التخت في تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وتلقب بالظاهر. ورتب أهل عصابته في مراتب الدولة،

فقام وقاموا بها أحسن قيام، وانقلبت الدولة من آل قلاوون إلى برقوق الظاهر وبنيه. واستمر الحال على ذلك، ونافسه اليلبغاوية ـ رفقاؤه في ولاء يلبغا ـ فيما صار إليه من الأمر، وخصوصا يلبغا نائب حلب، فاعتزم على الانتقاض. وشعر به الظاهر فبعث باستدعائه، فجاء وحبسه مدة، ثم رجعه إلى نيابة حلب، وقد وغر صدره من هذه المعاملة. وارتاب به الظاهر، فبعث سنة تسعين وسبعمائة دواداره للقبض عليه، ويستعين في ذلك بالحاجب. وانتقض، واستدعى نائب ملطية، وهو منطاش من أمراء اليلبغاوية، وكان قد انتقض قبله، ودعا نواب الشام إلى المسير إلى مصر إلباً على الظاهر، فأجابوه، وساروا في جملته، وتحت لوائه، وبلغ الخبر إلى الظاهر برقوق، فأخرج عساكره مع أمراء اليلبغاوية من أصحابه: وهم الدوادار الأكبر يونس، وجهركس الخليلي أمير الاصطبل، والأتابكي أيتمش، وأيدكار حاجب الحجاب وأحمد بن يلبغا أستاذهم. وخرج الناصري من حلب في عسكره، واستنفر العرب والتركمان وأمراء الشام، ولما تراءى الجمعان بناحية دمشق، نزع كثير من عسكر السلطان إليهم، وصدقوا الحملة على من بقي فانفضوا. ونجا إيتمش إلى قلعة دمشق، فدخلها، وقتل جهركس، ويونس، ودخل الناصري دمشق، ثم أجمع المسير إلى مصر، وعميت أنباؤهم حتى أطلوا على مصر.

وفي خلال ذلك أطلق السلطان الخليفة من محبسه كان بعض الغواة أنمى عنه، أنه داخله شيطان من شياطين الجند، يعرف بقرط في قتل السلطان يوم ركوبه إلى الميدان قبل ملكه بسنين، فلما صح الخبر أمر بقتله، وحبس الخليفة سبعاً إلى تلك السنة، فأطلقه عند هذا الواقع، ولما وصل إلى قيطا اجتمعت العساكر، ووقف السلطان أمام القلعة يومه حتى غشيه الليل، ثم دخل إلى بيته وخرج متنكراً، وتسرب في غيابات المدينة، وباكر الناصري وأصحابه القلعة، وأمير حاج ابن الأشرف، فأعادوه إلى التخت ولقبوه المنصور. وبعثوا عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية، وكان فيهم ألطنبغا الجوباني الذي كان أمير مجلس، وقبض السلطان الظاهر عليه، وحبسه أياماً، ثم أطلقه وبعثه نائباً على دمشق، ثم ارتفعت عنه الأقوال بأنه يروم الانتقاض، وداخل الناصري نائب حلب في ذلك، وأكد ذلك عند السلطان ما كان بينه وبين الناصري من المصافاة والمخالصة، فبعث عنه. ولما جاء حبسه بالإسكندرية، فلما ملك الناصري مصر، وأجلس أمير حاج بن الأشرف على التخت، بعث عنه ليستعين به على أمره، وارتابوا لغيبة الظاهر، وبالغو في البحث عنه، فاستدعى الجوباني واستنام له، واستحلفه على الأمان، فحلف له وجاء به إلى القلعة بعد أن ساور صاحبه الناصري في المضي إليه وتأمينه. وحبسوه في بعض قصور الملك وتشاوروا في أمره، فأشار أمراء اليلبغاوية كلهم بقتله، وبالغ في ذلك منطاش، ووصل نعير أمير بني مهنا بالشام للصحابة بينه وبين الناصري، فحضهم على قتله، ومنع الجوباني من ذلك وفاء بيمينه، فغلت صدورهم منه. واعتزموا على بعثه إلى الكرك، ودافعوا منطاشاً بأنهم يبعثونه إلى الإسكندرية، فيعترضه عند البحر بما شاء من رأيه. ووثق بذلك، فقعد له عند المرساة وخالفوا به الطريق إلى الكرك، وولوا عليها نائباً وأوصوه به، فأخفق مسعى منطاش، ودبر في اغتيال الدولة، وتمارض في بيته. وجاءه الجوباني عائداً فقبض عليه، وحبسه بالإسكندرية، وركب منتقضاً، ووقف عند مدرسة الناصر حسن يحاصر الناصري بالقلعة. واستجاش هو بأمراء اليلبغاوية فداهنوا في إجابته، ووقفوا بالرميلة أمام القلعة. ولم يزل ذلك بينهم أياماً حتى انفض جمع الناصري وخرج هارباً، فاعترضه أصحاب الطريق بفارسكو، وردوه، فحبسه منطاش بالإسكندرية مع صاحبه، واستقل بأمر الملك. وبعث إلى الكرك بقتل الظاهر، فامتنع النائب، واعتذر بوقوفه على خط السلطان والخليفة والقضاة. وبث الظاهر عطاءه في عامة أهل الكرك، فانتدبت طائفة منهم لقتل البريدي الذي جاء في ذلك، فقتلوه، وأخرجوا الظاهر من محبسه فأصحروا. واستألف أفاريق من العرب، واتصل به بعض مماليكه، وساروا إلى الشام. واعترضة ابن باكيش نائب غزة، فأوقع به الظاهر، وسار إلى دمشق، وأخرج منطاش العساكر مع سلطانه أمير حاج، وسار على التعبئة ليمانع الظاهر عن دمشق. وسبقه الظاهر فمنعه جنتمر نائب دمشق، فواقعه، وأقام محاصراً له. ووصل إليه كمشبغا الحموي نائب حلب، وكان قد أظهر دعوته في عمله، وتجهز للقائه بعسكره، فلقيه وأزال علله، فأقام له أبهة الملك. وبينا هم في الحصار إذ جاء الخبر بوصول منطاش بسلطانه وعساكره لقتالهم، فلقيهم الظاهر بشقحب، فلما تراءى الجمعان، حمل الظاهر على السلطان أمير حاج وعساكره ففضهم، وانهزم كمشبغا إلى حلب. وسار منطاش في اتباعه، فهجم الظاهر على تعبئة أمير حاج، ففضها، واحتاز السلطان، والخليفة والقضاة، ووكل بهم. واختلط الفريقان، وصاروا في عمياء من أمرهم، وفر منطاش إلى دمشق. واضطرب الظاهر أخبيته، ونزل على دمشق محاصراً لها. وخرج إليه منطاش من الغد فهزمه، وجمع القضاة والخليفة، فشهدوا على أمير حاج بالخلع، وعلى الخليفة بإعادة الظاهر إلى ملكه. ورحل إلى مصر فلقيه بالطريق خبر القلعة بمصر، وتغلب مماليكه عليها، وذلك أن القلعة لما خلت من السلطان ومنطاش والحامية، وكان مماليك

السلطان محبوسين هنالك في مطبق أعد لهم، فتناجوا في التسور منه إلى ظاهره، والتوثب على القلعة والملك، فخرجوا، وهرب دوادار منطاش الذي كان هنالك بمن كان معه من الحاشية. وملك مماليك الظاهر القلعة، ورأسهم مملوكه بطا وساس أمرهم، وانتظر خبر سلطانه.

فلما وصل الخبر بذلك إلى الظاهر، أغذ السير إلى مصر. وتلقاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجبره. ودخل متصف صفر من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، وولى بطا دواداراً، وبعث عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية، وأعتبهم، وأعادهم إلى مراتبهم وبعث الجوباني إلى دمشق، والناصري إلى حلب كما كانا، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه. وولى سودون على نيابته، وكان ناظراً بالخانقاه التي كنت فيها، وكان ينقم علي أحوالاً من معاصاته فيما يريد من الأحكام في القضاء أزمان كنت عليه، ومن تصرفات دواداره بالخانقاه، وكان يستنيبه عليها، فوغر صدره من ذلك، وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء فتاوى استدعاها منا منطاش، وأكرهنا على كتابها، فكتبناها، وورينا فيها بما قدرنا عليه. ولم يقبل السلطان ذلك، وعتب عليه، وخصوصاً علي، فصادف سودون منه إجابة في إخراج الخانقاه عني، فولى فيها غيري وعزلني عنها. وكتبت إلى الجوباني بأبيات أعتذر عن ذلك ليطالعه بها، فتغافل عنها، وأعرض عني مدة، ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه وإحسانه، ونص الأبيات:

سيدي والظنون فيك جميلة ... وأياديك بالأماني كفيله
لا تحل عن جميل رأيك إني ... مالي اليوم غير رأيك حيله
واصطنعني كما اصطنعت بإسدا ... ء يسد من شفاعة أو وسيله
لا تضعني فلست منك مضيعاً ... ذمة الحب، والأيادي الجميله
وأجرني فالخطب عض بنابيه ... وأجرى إلى حماي خيوله
ولو أني دعا بنصري داع ... كنت لي خير معشر وفصيله
أنه أمري إلى الذي جعل اللّه ... أمور الدنيا له مكفوله
وأراه في ملكه الآية ... الكبرى فولاه ثم كان مديله
أشهدته عناية اللّه في التمحيص ... أن كان عونه ومنيله
العزيز السلطان والملك الظا ... هر فخر الدنيا وعز القبيله
ومجير الإسلام من كل خطب ... كاد زلزال بأسه أن يزيله
ومديل العدو بالطعنة النجلا ... وتفري ماذيّه ونصوله
وشكور لأنعم اللّه يفني ... في رضاه غدوه وأصيله
وتلطف في وصف حالي وشكوى ... خلتي يا صفيه وخليله
وقل له والمقال يكرم من مثلك ... في محفل العلا أن يقوله
يا خوند الملوك يا معقد الد ... هر إذا عدل الزمان فصوله
لا تقصر في جبر كسري فما ... زلت أرجيك للأياد الطويله
أنا جار لكم منعتم حماه ... ونهجتم إلى المعالي سبيله
وغريب أنستموه على الوحشة ... والحزن بالرضى والسهوله
وجمعتم من شمله فقضى اللّه ... فراقاً وما قضى مأموله
غاله الدهر في البنين وفي الأهـ ... ـل وما كان ظنه أن يغوله
ورمته النوى فقيداً قد ... احتاجت عليه فروعه وأصوله
فجذبتم بضبعه وأنلتم ... كل ما شاءت العلا أن تنيله
ورفعتم من قدره قبل أن ... يشكو إليكم عياءه وخموله
وفرضتم له حقيقة ود ... حاش لله أن ترى مستحيله
همة ما عرفتها لسواكم ... وأنا من خبرت دهري وجيله
والعدا نمقوا أحاديث إفك ... كلها في طرائق معلوله
روجوا في شأني غرائب زور ... نصبوها لأمرهم أحبوله
ورموا بالذي أرادوا من ... البهتان ظنا بأنها مقبوله
زعموا أنني أتيت من الأقوا ... ل ما لا يظن بي أن أقوله
كيف لي أغمط الحقوق وأني ... شكر نعماكم علي الجزيله؟
كيف لي أنكر الأيادي التي تعـ ... ـرفها الشمس والظلال الظليله؟
إن يكن ذا فقد برئت من ... اللّه تعالى وخنت جهراً رسوله
طوقونا أمر الكتاب فكانت ... لقداح الظنون فينا مجيله
لا ورب الكتاب أنزله اللّه ... على قلب من وعى تنزيله
ما رضينا بذاك فعلاً ولا جئناه ... طوعاً ولا اقتفينا دليله
إنما سامنا الكتاب ظلوم ... لا يرجى دفاعه بالحيله
سخط ناجز وحلم بطيء ... وسلاح للوخز فينا صقيله
ودعوني ولست من منصب الحكم ... ولا ساحبا لديهم ذيوله
غير أني وشى بذكري واش ... يتقصى أوتاره وذحوله
فكتبنا معولين على حلمك ... تمحو الأصار عنا الثقيله
ما أشرنا به لزيد ولا عمرو ... ولا عينوا لنا تفصيله
إنما يذكرون عمن وفيمن ... مبهمات أحكامها منقوله
ويظنون أن ذاك على ما ... أضمروا من شناعة أو رذيله
وهو ظن عن الصواب بعيد ... وظلام لم يحسنوا تأويله
وجناب السلطان نزهه اللّه ... عن العاب بالهدى والفضيله
وأجل الملوك قدراً صفوح ... يرتجي ذنب دهره ليقيله
فاقبلوا العذر إننا اليوم نرجو ... بحياة السلطان منكم قبوله
وأعينوا على الزمان غريبا ... يشتكي جدب عيشه ومحوله
جاركم ضيفكم نزيل حماكم ... لا يضيع الكريم يوماً نزيله
جددوا عنده رسوم رضاكم ... فرسوم الكرام غير محيله
داركوه برحمة فلقد أمـ ... ـست عقود اصطباره محلوله
وانحلوه جبراً فليس يرجي ... غير إحسانكم لهذي النحيله
يا حميد الآثار في الدهر يا ... الطنبغا يا روض العلا ومقيله

كيف بالخانقاه ينقل عني | لا لذنب أوجنحة منقوله
بل تقلدتها شغوراً برسو | م شريف وخلعة مسدولة
ولقد كنت آملاً لسواها | وسواها بوعده أن ينيله
وتوثقت للزمان عليها | بعقود ما خلتها محلوله
أبلغن قصتي فمثلك من يقـ | ـصد فعل الحسنى بمن يتمي له
واغنموا من مثوبتي ودعائي | قربة عند ربكم مقبوله

وفي التعريض بسفره إلى الشام:

واصحب العز ظافراً بالأماني | واترك العصبة العدا مفلوله
واعتمل في سعادة الملك الظا | هر أن تمحو الأذى وتزيله
وتعيد الدنيا لأحسن شمل | حين تضحي بسعده مشموله
واطلب النصر من سعادته يصحبك | دأبا في الظعن والحيلوله
وارتقب ما يحله بالأعادي | في جمادى أو زد عليه قليله
وخذوه فألاً بحسن قبول | صدق اللّه في الزمان مقوله
فلقد كان يحسن الفال عند | المصطفى دائماً ويرضى جميله

السعاية في المهاداة والإتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر

كثيراً ما يتعاهد الملوك المتجاورون بعضهم بعضاً بالإتحاف بطرف أوطانهم، للمواصلة والإعانة متى دعا إليها داع. وكان صلاح الدين بن أيوب هادى يعقوب المنصور ملك المغرب من بني عبد المؤمن، واستجاش به بأسطوله في قطع مدد الفرنج عن سواحل الشام حين كان معنياً بإرجاعهم عنها، وبعث في ذلك رسوله عبد الكريم بن منقذ من أمراء شيزر، فأكرم المنصور رسوله، وقعد عن إجابته في الأسطول لما كان في الكتاب إليه من العدول عن تخطيطه بأمير المؤمنين، فوجدها غصة في صدره منعته من إجابته إلى سؤاله، وكان المانع لصلاح الدين من ذلك كاتبه الفاضل عبد الرحيم البيساني بما كان يشاوره في أموره، وكان مقيماً لدعوة الخليفة العباسي بمصر، فرأى الفاضل أن الخلافة لا تنعقد لاثنين في الملة كما هو المشهور، وإن اعتمد أهل المغرب سوى ذلك، لما يرون أن الخلافة ليست لقباً فقط، وإنما هي لصاحب العصبية القائم عليها بالشدة والحماية، والخلاف في ذلك معروف بين أهل الحق.

فلما انقرضت دولة الموحدين، وجاءت دولة بني مرين من بعدهم، وصار كبراؤهم ورؤساؤهم يتعاهدون قضاء فرضهم لهذه البلاد الشرقية، فيتعاهدهم ملوكها بالإحسان إليهم، وتسهيل طريقهم، فحسن في مكارم الأخلاق انتحال البر والمواصلة، بالإتحاف والاستطراف والمكافأة في ذلك بالهمم الملوكية، فسنت لذلك طرائق وأخبار مشهورة، من حقها أن تذكر، وكان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين، أهدى لصاحب مصر عام سبعمائة، وهو يومئذ الناصر بن محمد بن قلاوون، هدية ضخمة، أصحبها كريمة من كرائم داره، احتفل فيها ما شاء من أنواع الطرف، وأصناف الذخائر، وخصوصاً الخيل والبغال.

أخبرني الفقيه أبو إسحاق الحسناوي، كاتب الموحدين بتونس، أنه عاين تلك الهدية عند مرورها بتونس، قال: وعددت من صنف البغال الفارهة فيها أربعمائة، وسكت عما سوى ذلك. وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب، أبو الحسن التنسي كبير أهل الفتيا بتلمسان. ثم كافأ الناصر عن هذه الهدية بأغلى منها وأحفل مع أميرين من أمراء دولته، أدركا يوسف بن يعقوب وهو يحاصر تلمسان، فبعثهما إلى مراكش للنزاهة في محاسنها، وأدركه الموت في مغيبهما، ورجعا من مراكش، فجهزهما حافده أبو ثابت المالك بعده، وشيعهما إلى مصر، فاعترضهما قبائل حصين ونهبوهما، ودخلا بجاية، ثم مضيا إلى تونس، ووصلا من هنالك إلى مصر.

ولما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان، اقترحت عليه جارية أبيه أبي سعيد، وكانت لها عليه تربية، فأرادت الحج في أيامه وبعنايته، فأذن لها في ذلك، وبعث في خدمتها وليه عريف بن يحيى من أمراء سويد، وجماعة من أمرائه وبطانته، واستصحبوا هدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء. وانتقى من الخيل العتاق، والمطايا الفره وقماش الحرير والكتان، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة، والأواني المتخذة من النحاس والفخار المخصوص كل مصر من المغرب بأصناف من صنائعها، متشابهة الأشكال والأنواع، حتى لقد زعموا أنه كان فيها مكيلة من اللآلىء والفصوص، وكان ذلك وقر خمس مائة بعير، وكانت عتاق الخيل فيها خمس مائة فرس، بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر، واللجم المذهبة، والسيوف المحلاة بالذهب واللآلىء، كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار، وتدرجت على الولاء إلى آخر الخمس مائة، فكانت قيمته مائة دينار. تحدث الناس بهذه الهدية دهراً، وعرضت بين يدي الملك الناصر، فأشار إلى خاسكيته بانتهابها فنهبت بين يديه، وبولغ في كرامة أولئك الضيوف، في إنزالهم وقراهم وإزوادهم إلى الحجاز وإلى بلادهم، وبقي شأن الهدية حديثاً يتجاراه الناس في مجالسهم وأسمارهم، وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة.

ولما فصل أرسال ملك المغرب، وقد قضوا فرضهم، بعث

الملك الناصر معهم هدية كفاء هديتهم، وكانت أصنافها حمل القماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسكندرية، تحمل كل عام إلى دار السلطان، قيمة ذلك الحمل خمسون ألف دينار، وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام على مثال القصور، تشتمل على بيوت للمراقد، وأواوين للجلوس والطبخ، وأبراج للإشراف على الطرقات، وأبراج أحدها لجلوس السلطان للعرض، وفيها تمثال مسجد بمحرابه، وعمده، ومأذنته، حوائطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبك الخياطة مفصلة على الأشكال التي يقترحها المتخذون لها. وكان فيها خيمة أخرى مستديرة الشكل، عالية السمك، مخروطة الرأس، رحبة الفناء، تظل خمس مائة فارس أو أكثر، وعشرة من عتاق الخيل بالمراكب الذهبية الصقيلة، لجمها كذلك، ومرت هذه الهدية بتونس، ومعها الخدام القائمون بنصب الأبنية، فعرضوها على السلطان بتونس. وعاينت يومئذ أصناف تلك الهدية، وتوجهوا بها إلى سلطانهم، وبقي التعجب منها دهراً على الألسنة. وكان ملوك تونس من الموحدين، يتعاهدون ملوك مصر بالهدية في الأوقات.

ولما وصلت إلى مصر، واتصلت بالملك الظاهر، وغمرني بنعمه وكرامته كاتبت السلطان بتونس يومئذ، وأخبرته بما عند الملك الظاهر من التشوف إلى جياد الخيل، وخصوصاً من المغرب، لما فيها من تحمل الشدة والصبر على المتاعب، وكان يقول لي مثل ذلك، وأن خيل مصر قصرت بها الراحة والتنعم عن الصبر على التعب، فحضضت السلطان بتونس على إتحاف الملك الظاهر بما ينتقيه من الجياد الرائعة، فبعث له خمسة انتقاها من مراكبه، وحملها في البحر في السفين الواصل بأهلي وولدي، فغرقت بمرسى الإسكندرية، ونفقت تلك الجياد، مع ما ضاع في ذلك السفين، وكل شيء بقدر.

ثم وصل إلينا عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة شيخ الأعراب: المعقل بالمغرب، يوسف بن علي بن غانم، كبير أولاد حسين ناجياً من سخط السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم، من ملوك بني مرين بفاس، يروم قضاء فرضه، ويتوسل بذلك لرضى سلطانه، فوجد السلطان غائبا بالشام في فتنة منطاش، فعرضته لصاحب المحمل. فلما عاد من قضاء فرضه، وكان السلطان قد عاد من الشام، فوصلته به، وحضر بين يديه، وشكا بثه، فكتب الظاهر فيه شفاعة لسلطان وطنه بالمغرب، وحمله مع ذلك هدية إليه من قماش وطيب وقسي، وأوصاه بانتقاء الخيل له من قطر المغرب، وانصرف، فقبل سلطانه فيه شفاعة الظاهر، وأعاده إلى منزلته. وانتقى الخيول الرائعة لمهاداة الملك الظاهر، وأحسن في انتقاء أصناف الهدية، فعاجلته المنية دون ذلك، وولي ابنه أبو فارس، وبقي أياماً ثم هلك، وولي أخوه أبو عامر، فاستكمل الهدية، وبعثها صحبة يوسف بن علي الوارد الأول.

وكان السلطان الملك الظاهر، لما أبطأ عليه وصول الخيل من المغرب، أراد أن يبعث من أمرائه من ينتقي له ما يشاء بالشراء، فعين لذلك مملوكاً من مماليكه منسوباً إلى تربية الخليلي، اسمه قطلوبغا، وبعث عني، فحضرت بين يديه، وشاورني في ذلك فوافقته، وسألني كيف يكون طريقه، فأشرت بالكتاب في ذلك إلى سلطان تونس من الموحدين، وسلطان تلمسان من بني عبد الواد، وسلطان فاس والمغرب من بني مرين، وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقسي، وانصرف عام تسعة وتسعين وسبعمائة إلى المغرب، وشيعه كل واحد من ملوكه إلى مأمنه، وبالغ في إكرامه بما يتعين. ووصل إلى فاس، فوجد الهدية قد استكملت، ويوسف بن علي على المسير بها عن سلطانه أبي عامر من ولد السلطان أبي العباس المخاطب أولاً. وأظلهم عيد الأضحى بفاس، وخرجوا متوجهين إلى مصر، وقد أفاض السلطان من إحسانه وعطائه، على الرسول قطلوبغا ومن في جملته بما أقر عيونهم، وأطلق بالشكر ألسنتهم، وملأ بالثناء ضمائرهم، ومروا بتلمسان، وبها يومئذ أبو زيان، ابن السلطان أبي حمو من آل يغمراسن بن زيان، فبعث معهم هدية أخرى من الجياد بمراكبها، وكان يحوك الشعر، فامتدح الملك الظاهر بقصيدة بعثها مع هديته، ونصها من أولها إلى آخرها:

لمن الركائب سيرهن دميل ... والصبر -إلا بعدهن- جميل
يا أيها الحادي رويدك إنها ... ظعن يميل القلب حيث تميل
رفقاً بمن حملته فوق ظهورها ... فالحسن فوق ظهورها محمول
لله آية أنجم: شفافة ... تنجاب عنها للظلام سدول
شهب بآفاق الصدور طلوعها ... ولها بأستار الجدول أفول
في الهودج المزرور منها غادة ... تزع الدجى بجبينها فيحول
فكأنها قمر على غصن على ... متني كثيب والكثيب مهيل
ثارت مطايا فثار بي الهوى ... واعتاد قلبي زفرة وغليل
أومت لتوديعي فغالب عبرتي ... نظر تخالسه العيون كليل
دمع اغيض منه خوف رقيبها ... طوراً ويغلبني الأسى فيسيل
ويح المحب وشت به عبراته ... فكأنها قال عليه وقيل
صان الهوى وجفونه يوم النوى ... لمصون جوهر دمعهن تذيل
وتهابه أسد الشرى في خيسها ... ويروعه ظبي الحمى المكحول
تأبى النفوس الضيم إلا في الهوى ... فالحر عبد والعزيز ذليل
يا بانة الوادي ويا أهل الحمى ... هل ساعة تصغين لي فأقول

مالي إذا هب النسيم من الحمى ... أرتاح شوقاً للحمى وأميل
خلوا الصبا يخلص إلي نسيمها ... إن الصبا لصبابتي تعليل
ما لي أحلاً عن ورود محله ... وأذاد عنه ووروده منهول
والباب ليس بمرتج عن مرتج ... والظن في المولى الجميل جميل
من لي بزورة روضة الهادي الذي ... ما مثله في المرسلين رسول
هو أحمد ومحمد والمصطفى ... والمجتبى وله انتهى التفضيل
يا خير من أهدى الهدى وأجل من ... أثنى عليه الوحي والتنزيل
وحي من الرحمن يلقيه على ... قلب النبي محمد جبريل
مدحتك آيات الكتاب وبشرت ... بقدومك التوراة والإنجيل
صلة الصلاة عليك تحلو في فمي ... مهما تكرر ذكرك المعسول
فوربعك المأهول إن بأضلعي ... قلباً بحبك ربعه مأهول
هل من سبيل للسرى حتى أرى ... خير الورى فهو المنى والسول
حتام تمطلني الليالي وعدها ... إن الزمان بوعده لبخيل
ما عاقني إلا عظيم جرائمي ... إن الجرائم حملهن ثقيل
أنا مغرم فتعطفوا أنا مذنب ... فتجاوزوا أنا عاثر فأقيلوا
وأنا البعيد فقربوا والمستجير ... فأمنوا والمرتجى فأنيلوا
يا سائقاً نحو الحجاز حمولة ... والقلب بين حموله محمول
لمحمد بلغ سلام سميه ... فذمامه بمحمد موصول
وسل الإله له اغتفار ذنوبه ... يسمع هناك دعاؤك المقبول
وعن المليك أبي سعيد فلتنب ... فلكم له نحو الرسول رسول
متحمل لله كسوة بيته ... يا حبذاك المحمل المحمول
سعد المليك أبي سعيد إنه ... سيف على أعدائه مسلول
ملك يحج المغرب الأقصى به ... فلهم به نحو الرسول وصول
ملك به نام الأنام وأمنت ... سبل المخاف فلا يخاف سبيل
فالملك ضخم والجناب مؤمل ... والفضل والعطاء جزيل
والصنع أجمل والفخار مؤثل ... والجد أكمل والوفاء أصيل
يا مالك البحرين بلغت المنى ... قد عاد مصر على العراق يصول
يا خادم الحرمين حق لك الهنا ... فعليك من روح الإله قبول
يا متحفي ومفاتحي برسالة ... سلسالة يزهى بها الترسيل
أهديتها حسناء بكراً ما لها ... غيري، وإن كثر الرجال، كفيل
ضاء المداد من الوداد بصحفها ... حتى اضمحل عبوسه المجبول
جمعت وحاملها بحضرتنا كما ... جمعت بثينة في الهوى وجميل
وتأكدت بهدية ودية ... هي للإخاء المرتضى تكميل
أطلعت فيها للقسي أهلة ... يرتد عنها الطرف وهو كليل
وحسام نصر زاهياً بنضاره ... راق العيون فرنده المعسول
ماضي الشبا لمصابه تعنو الظبا ... فبه تصول على العدا وتطول
وبدائع الحلل اليمانية التي ... روى معاطفها بمصر النيل
فأجلت فيها ناظري فرأيتها ... تحفاً يجول الحسن حيث تجول
جلت محاسنها فأهوى نحوها ... بفم القبول اللثم والتقبيل
يا مسعدي وأخي العزيز ومنجدي ... ومن القلوب إلى هواه تميل
إن كان رسم الود منك مذيّلاً ... بالبر وهو بذيله موصول
فنظيره عندي وليس يضيره ... بعارض وهم ولا تخييل
ود يزيد وثابت شهدا به ... والخالد بخلوده تذييل
وإليكها تنبيك صدق مودتي ... صح الدليل ووافق المدلول
فإذا بذاك المجلس السامي سمت ... فلديك إقبال لها وقبول
دام الوداد على البعاد موصلا ... بين القلوب وحبله موصول
وبقيت في نعم لديك مزيدها ... وعليك يضفو ظلها المسدول

ثم مروا بعدها بتونس، فبعث سلطان تونس أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي العباس من ملوك الموحدين، هدية ثالثة انتقى لها جياد الخيل، وعزز بها هدية السلطانين وراءه، مع رسوله من كبار الموحدين أبي عبد اللّه بن تافراكين، ووصلت الهدايا الثلاث إلى باب الملك الظاهر في آخر السنة، وعرضت بين يدي السلطان، وانتهب الخاسكية ما كان فيها من الأقمشة والسيوف والبسط ومراكب الخيل، وحمل كثيراً منهم على كثير من تلك الجياد وارتبط الباقيات.

وكانت هدية صاحب المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية، والسيوف المحلاة، وخمسة وثلاثين حملاً من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد، منتقاة من أحسن هذه الأصناف.

وهدية صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموهة، وأحمالاً من الأقمشة.

وهدية صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مغشاة ببراقع الثياب من غير مراكب، وكلها أنيق في صنعه مستطرف في نوعه، وجلس السلطان يوم عرضها جلوساً فخماً في إيوانه، وحضر الرسل، وأدوا ما يجب عن ملوكهم. وعاملهم السلطان بالبر والقبول، وانصرفوا إلى منازلهم للجرايات الواسعة، والأحوال الضخمة. ثم حضر وقت خروج الحاج، فاستأذنوا في الحج مع محمل السلطان، فأذن لهم، وأرغد أزودتهم. وقضوا حجهم، ورجعوا إلى حضرة السلطان ومعهود مبرته. ثم انصرفوا إلى مواطنهم، وشيعهم من بر السلطان وإحسانه، ما ملأ حقائبهم، وأسنى ذخيرتهم، وحصل لي أنا من بين ذلك في الفخر ذكر جميل بما تناولت بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الباقية على الأبد، فحمدت اللّه على ذلك.

ولاية القضاء الثانية بمصر

ما زلت، منذ العزل عن القضاء الأول سنة سبع وثمانين وسبعمائة، مكبّاً على الاشتغال بالعلم، تأليفاً وتدريساً، والسلطان يولي في الوظيفة من يراه أهلا متى دعاه إلى ذلك داع، من موت القائم بالوظيفة، أو عزله، وكان يراني الأولى بذلك، لولا وجود الذين شغبوا من قبل في شأني، من أمراء دولته، وكبار حاشيته، حتى انقرضوا. واتفقت وفاة قاضي المالكية إذ ذاك ناصر الدين بن التنسي، وكنت مقيماً بالفيوم لضم زرعي هنالك، فبعث عني، وقلدني وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانمائة، فجريت على السنن المعروف مني، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً وعادة، وكان رحمه اللّه يرضى بما يسمع عني في ذلك. ثم أدركته الوفاة في منتصف شوال بعدها، وأحضر الخليفة والقضاة والأمراء، وعهد إلى كبير أبنائه فرج، ولأخوته من بعده واحداً واحداً، وأشهدهم على وصيته بما أراد. وجعل القائم بأمر ابنه في سلطانه إلى أتابكه إيتمش، وقضى رحمة اللّه عليه، وترتبت الأمور من بعده كما عهد لهم، وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاسكية السلطان يعرف بتنم، وسمع بالواقعات بعد السلطان فنص أن لم يكن هو كافل ابن الظاهر بعده، ويكون زمام الدولة بيده. وطفق سماسرة الفتن يغرونه بذلك، وبينما هم في ذلك إذ وقعت فتنة الأتابك أتيمش، وذلك أنه كان للأتابك دوادار غر يتطاول إلى الرئاسة، ويترفع على أكابر الدولة بحظه من أستاذه، وما له من الكفالة على السلطان، فنقموا حالهم مع هذا الدوادار، وما يسومهم به من الترفع عليهم، والتعرض لإهمال نصائحهم، فأغروا السلطان بالخروج عن ربقة الحجر، وأطاعهم في ذلك، وأحضر القضاة بمجلسه للدعوى على الأتابك باستغنائه عن الكافل، بما علم من قيامه بأمره وحسن تصرفاته. وشهد بذلك في المجلس أمراء أبيه كافة، وأهل المراتب والوظائف منهم، شهادة قبلها القضاة. وأعذروا إلى الأتابك فيهم فلم يدفع في شيء من شهادتهم، ونفذ الحكم يومئذ برفع الحجر عن السلطان في تصرفاته وسياسة ملكه، وانفض الجمع، ونزل الأتابك من الإصطبل إلى بيت سكناه. ثم عاود الكثير من الأمراء نظرهم فيما أتوه من ذلك، فلم يروه صواباً، وحملوا الأتابك على نقضه، والقيام بما جعل له السلطان من كفالة ابنه في سلطانه. وركب، وركبوا معه في أخر شهر المولد النبوي، وقاتلهم أولياء السلطان فرج عشي يومهم وليلتها، فهزموهم، وساروا إلى الشام مستصرخين بالنائب تنم، وقد وقر في نفسه ما وقر من قبل، فبر وفادتهم، وأجاب صريخهم. واعتزموا على المضي إلى مصر. وكان السلطان لما انفضت جموع الأتابك، وسار إلى الشام، اعتمله في الحركة والسفر لخضد شوكتهم، وتفريق جماعتهم، وخرج في جمادى حتى انتهى إلى غزة، فجاءه الخبر بأن نائب الشام تنم، والأتابك، والأمراء الذين معه، خرجوا من الشام زاحفين للقاء السلطان، وقد احتشدوا وأوعبوا، وانتهوا قريباً من الرملة، فراسلهم السلطان مع قاضي القضاة الشافعي صدر الدين المناوي، وناصر الدين الرماح، أحد المعلمين لثقافة الرماحم، يعذر إليهم، ويحملهم على اجتماع الكلمة، وترك الفتنة، وإجابتهم إلى ما يطلبون من مصالحهم، فاشتطوا في المطالب، وصمموا على ما هم فيه. ووصل الرسولان بخبرهم، فركب السلطان من الغد، وعبى عساكره، وصمم لمعاجلتهم، فلقيهم أثناء طريقه، وهاجمهم فهاجموه، ثم ولوا الأدبار منهزمين. وصرع الكثير من أعيانهم وأمرائهم في صدر موكبه، فما غشيهم الليل إلا وهم مصفدون في الحديد، يقدمهم الأمير تنم نائب الشام وأكابرهم كلهم. ونجا الأتابك أيتمش إلى القلعة بدمشق، فآوى إليها، واعتقله نائب القلعة. وسار السلطان إلى دمشق، فدخلها على التعبئة في يوم أغر، وأقام بها أياماً، وقتل هؤلاء الأمراء المعتقلين، وكبيرهم الأتابك ذبحاً، وقتل تنم من بينهم خنقاً، ثم ارتحل راجعاً إلى مصر.

وكنت استأذنت في التقدم إلى مصر بين يدي السلطان لزيارة بيت المقدس، فأذن لي في ذلك. ووصلت إلى القدس ودخلت المسجد، وتبركت بزيارته والصلاة فيه، وتعففت عن الدخول إلى القمامة لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن، إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنكرته نفسي، ونكرت الدخول إليه. وقضيت من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب، وانصرفت إلى مدفن الخليل عليه السلام. ومررت في طريقي إليه ببيت لحم، وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح، شيدت القياصرة عليه بناء بسماطين من العمد الصخور، منجدة مصطفة، مرقوماً على رؤوسها صور ملوك القياصرة، وتواريخ دولهم، ميسرة لمن يبتغي تحقيق نقلها بالتراجمة العارفين لأوضاعها، ولقد يشهد هذا المصنع بعظم ملك القياصرة وضخامة دولتهم. ثم ارتحلت من مدفن الخليل إلى غزة، وارتحلت منها، فوافيت السلطان بظاهر مصر، ودخلت في ركابه أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وثمانمائة. وكان بمصر فقيه من المالكية يعرف بنور الدين بن الخلال، ينوب أكثر أوقاته عن قضاة القضاة المالكية، فحرضه بعض أصحابه على السعي في المنصب، وبذل ما تيسر من موجوده لبعض بطانة السلطان الساعين له في ذلك، فتمت سعايته

في ذلك، ولبس منتصف المحرم سنة ثلاث وثمانمائة، ورجعت أنا للاشتغال بما كنت مشتغلاً به من تدريس العلم وتأليفه، إلى أن كان السفر لمدافعة تمر عن الشام.

سفر السلطان إلى الشام لمدافعة الططر عن بلاده

هؤلاء الططر من شعوب الترك، وقد اتفق النسابة والمؤرخون على أن أكثر أمم العالم فرقتان، وهما: العرب والترك، وليس في العالم أمة أوفر منهما عدداً، هؤلاء في جنوب الأرض، وهؤلاء في شمالها، وما زالوا يتناوبون الملك في العالم، فتارة يملك العرب ويزحلون الأعاجم إلى آخر الشمال، وأخرى يزحلهم الأعاجم والترك إلى طرف الجنوب، سنة اللّه في عباده.

فلنذكر كيف انساق الملك لهؤلاء الططر، واستقرت الدول الإسلامية فيهم لهذا العهد فنقول:

إن اللّه سبحانه خلق هذا العالم واعتمره بأصناف البشر على وجه الأرض، في وسط البقعة التي انكشفت من الماء فيه، وهي عند أهل الجغرافيا مقدار الربع منه، وقسموا هذا المعمور بسبعة أجزاء يسمونها الأقاليم، مبتدأة من خط الاستواء بين المشرق والمغرب، وهو الخط الذي تسامت الشمس فيه رؤوس السكان، إلى تمام السبعة أقاليم. وهذا الخط في جنوب المعمور، وتنتهي السبعة الأقاليم في شماله. وليس في جنوب خط الاستواء عمارة إلى آخر الربع المنكشف، لإفراط الحر فيه، وهو يمنع من التكوين، وكذلك ليس بعد الأقاليم السبعة في جهة الشمال عمارة، لإفراط البرد فيها، وهو مانع من التكوين أيضاً. ودخل الماء المحيط بالأرض من جهة الشرق فوق خط الاستواء بثلاث عشرة درجه، في مدخل فسيح، وانساح مع خط الاستواء مغرباً، فمر بالصين، والهند والسند واليمن، في جنوبها كلها. وانتهى إلى وسط الأرض، عند باب المندب، وهو البحر الهندي والصيني، ثم انحرف من طرفه الغربي في خليج عند باب المندب، ومر في جهة الشمال مغرباً باليمن وتهامه والحجاز ومدين وأيلة وفاران، وانتهى إلى مدينة القلزم، ويسمى بحر السويس، وفي شرقيه بلاد الصعيد إلى عيذاب، وبلاد البجاة، وخرج من هذا البحر الهندي من وسطه خليج آخر يسمى الخليج الأخضر، ومر شمالاً إلى الأبلة، ويسمى بحر فارس، وعليه في شرقيه بلاد فارس، وكرمان، والسند، ودخل الماء أيضاً من جهة الغرب في خليج متضايق في الإقليم الرابع، ويسمى بحر الزقاق، تكون سعته هنالك ثمانية عشر ميلاً. ويمر مشرقاً بلاد البربر، من المغرب الأقصى والأوسط وأرض أفريقية والإسكندرية وأرض التيه وفلسطين والشام، وعليه في الغرب بلاد الإفرنج كلها، وخرج منه في الشمال خليجان: الشرقي منهما خليج القسطنطينية والغربي خليج البنادقة، ويسمى هذا البحر البحر الرومي، والشامي.

ثم إن هذه السبعة الأقاليم المعمورة، تنقسم من شرقيها وغربيها بنصفين: فنصفها الغربي في وسطه البحر الرومي، وفي النصف الشرقي من جانبه الجنوبي البحر الهندي، وكان هذا النصف الغربي أقل عمارة من النصف الشرقي، لأن البحر الرومي المتوسط فيه، انفسح في انسياحه، فغمر الكثير من أرضه. والجانب الجنوبي منه قليل العمارة لشدة الحر، فالعمران فيه من جانب الشمال فقط، والنصف الشرقي عمرانه أكثر بكثير، لأنه لا بحر في وسطه يزاحم. وجانبه الجنوبي فيه البحر الهندي، وهو متسع جداً، فلطف الهواء فيه بمجاورة الماء، وعدل مزاجه للتكوين، فصارت أقاليمه كلها قابلة للعمارة، فكثر عمرانه. وكان مبدأ هذا العمران في العالم، من لدن آدم صلوات اللّه عليه، وتناسل ولده أولاً في ذلك النصف الشرقي، وبادت تلك الأمم ما بينه وبين نوح، ولم نعلم شيئاً من أخبارها، لأن الكتب الإلهية لم يرد علينا فيها إلا أخبار نوح وبنيه، وأما ما قبل نوح فلم نعرف شيئاً من أخباره، وأقدم الكتب المنزلة المتداولة بين أيدينا التوراة، وليس فيها من أخبار تلك الأجيال شيء، ولا سبيل إلى اتصال الأخبار القديمة إلا بالوحي، وأما الأخبار فهي تدرس بدروس أهلها.

واتفق النسابون على أن النسل كله منحصر في بني نوح، وفي ثلاثة من ولده، وهم سام، وحام، ويافث، فمن سام: العرب، والعبرانيون، والسبائيون، ومن حام: القبط، والكنعانيون، والبربر، والسودان، ومن يافث: الترك، والروم، والخزر، والفرس، والديلم، والجيل.

ولا أدري كيف صح انحصار النسب في هؤلاء الثلاثة عند النسابين، أمن النقل؟ وهو بعيد كما قدمناه، أو هو رأي تفرع لهم من انقسام جماعة المعمور، فجعلوا شعوب كل جهة لأهل نسب واحد يشتركون فيه، فجعلوا الجنوب لبني سام، والمغرب لبني حام، والشمال لبني يافث. إلا أنه المتناقل بين النسابة في العالم، كما قلناه، فلنعتمده ونقول:

أول من ملك الأرض من نسل نوح عليه السلام، النمرود بن كنعان بن كوش بن حام ووقع ذكره في التوراة. وملك بعده عابر بن شالخ الذي ينسب إليه العبرانيون، والسريانيون، وهم النبط، وكانت لهم الدولة العظيمة، وهم ملوك بابل، من نبيط بن

أشور بن سام، وقيل نبيط بن ماش بن إرم، وهم ملوك الأرض بعد الطوفان على ما قاله المسعودي. وغلبهم الفرس على بابل، وما كان في أيديهم من الأرض، وكانت يومئذ في العالم دولتان عظيمتان، لملوك بابل هؤلاء، وللقبط بمصر: هذه في المغرب، والأخرى في المشرق، وكانوا ينتحلون الأعمال السحرية، ويعولون عليها في كثير من أعمالهم، وبرابي مصر، وفلاحة بن وحشية، يشهدان بذلك. فما غلب الفرس على بابل، استقل لهم ملك المشرق، وجاء موسى صلوات اللّه عليه بالشريعة الأولية، وحرم السحر وطرقه، وغلب اللّه له القبط بإغراق فرعون وقومه.

ثم ملك بنو إسرائيل الشام، واختطوا بيت المقدس، وظهر الروم في ناحية الشمال والمغرب، فغلبوا الفرس الأولى على ملكهم. وملك ذو القرنين الإسكندر ما كان بأيديهم، ثم صار ملك الفرس بالمشرق إلى ملوكهم الساسانية، وملك بني يونان بالشام والمغرب إلى القياصرة، كما ذكرنا ذلك كله من قبل. وأصبحت الدولتان عظيمتين، وانتظمتا العالم بما فيه. ونازع الترك ملوك فارس في خراسان، وما وراء النهر، وكانت بينهم حروب مشهورة، واستقر ملكهم في بني أفراسياب.

ثم ظهر خاتم الأنبياء محمد صلوات اللّه عليه، وجمع العرب على كلمة الإسلام، فاجتمعوا له، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ وقبضه اللّه إليه، وقد أمر بالجهاد، ووعد عن اللّه بأن الأرض لأمته، فزحفوا إلى كسرى، وقيصر بعد سنتين من وفاته، فانتزعوا الملك من أيديهما، وتجاوزوا الفرس إلى الترك، والروم إلى البربر والمغرب، وأصبح العالم كله منتظماً في دعوة الإسلام. ثم اختلف أهل الدين من بعده في رجوعهم إلى من ينظم أمرهم، وتشيع قوم من العرب فزعموا أنه أوصى بذلك لابن عمه علي، وامتنع الجماعة من قبول ذلك، وأبوا إلا الاجتهاد في تعيينه، فمضى على ذلك السلف في دولة بني أمية التي استفحل الملك والإسلام فيها، وتناقل التشيع بتشعب المذاهب، في استحقاق بني علي، وأيهم يتعين له ذلك، حتى انساق مذهب من مذاهبهم إلى محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس، فظهرت شيعته بخراسان، وملكوا تلك الأرض كلها، والعراق بأسره.

ثم غلبوا على بني أمية، وانتزعوا الملك من أيديهم، واستفحل ملكهم، والإسلام باستفحاله، وتعدد خلفاؤهم. ثم خامر الدولة ما يخامر الدول من الترف والراحة، ففشلوا. وكثر المنازعون لهم من بني علي وغيرهم، فظهرت دولة لبني جعفر الصادق بالمغرب، وهم العبيديون بنو عبيد اللّه المهدي بن محمد، قام بها كتامة وقبائل البربر، واستولوا على المغرب ومصر، ودولة بني العلوي بطبرستان، قام بها الديلم وأخوانهم الجيل، ودولة بني أمية الثانية بالأندلس، لأن بني العباس لما غلبوهم بالمشرق، وأكثروا القتل فيهم، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ونجا إلى المغرب. ثم ركب البحر إلى الأندلس، فاجتمع عليه من كان هنالك من العرب وموالي بني أمية، فاستحدث هنالك ملكاً آخر لهم.

وانقسمت الملة الإسلامية بين هذه الدول الأربع إلى المائة الرابعة. ثم انقرض ملك العلوية من طبرستان، وانتقل إلى الديلم، فاقتسموا خراسان وفارس والعراق، وغلبوا على بغداد، وحجر الخليفة بها بنو بويه منهم. وكان بنو سامان من أتباع بني طاهر قد تقلدوا عمالات ما وراء النهر، فلما فشل أمر الخلافة استبدوا بتلك النواحي، وأصاروا لهم فيها ملكاً ضخماً، وكان آخرهم محمود بن سبكتكين من مواليهم، فاستبد عليهم، وملك خراسان، وما وراء النهر إلى الشاش، ثم غزنة، وما وراءها جنوباً إلى الهند. وأجاز إلى بلاد الهند، فافتتح منها كثيراً، واستخرج من كنوزها ذخائر لم يعثر عليها أحد قبله.

وأقامت الملة على هذا النمط إلى انقضاء المائة الرابعة، وكان الترك منذ تعبدوا للعرب، وأسلموا على ما بأيديهم وراء النهر، من كاشغر، والصاغون إلى فرغانة، وولاهم الخلفاء عليها، فاستحدثوا بها ملكاً، وكانت بوادي الترك في تلك النواحي منتجعة أمطار السماء، وعشب الأرض، وكان الظهور فيهم لقبيلة الغز من شعوبهم، وهم الخوز، إلا أن استعمال العرب لها عرب خاءها المعجمة غيناً، وأدغمت واوها في الزاي الثانية، فصارت زاياً واحدة مشددة. وكانت رياسة الغز هؤلاء في بني سلجوق بن ميكائل، وكانوا يستخدمون لملوك الترك بتركستان تارة، ولملوك بني سامان في بخارى أخرى. وتحدث بينهما الفتنة، فيتألفون من شاؤوا منهما، ولما تغلب محمود بن سبكتكين على بني سامان، وأجاز من خراسان فنزل بخارى، واقتعد كرسيهم، وتقبض على كبار بني سلجوق هؤلاء، وحبسهم بخراسان. ثم مات وقام بالأمر أخوه مسعود، فملك مكانه، وانتقض عليه بنو سلجوق هؤلاء، وأجاز الغز إلى خراسان فملكوها، وملكوا طبرستان من يد الديلم، ثم أصبهان وفارس، من أيدي بني بويه، وملكهم يومئذ طغرلبك بن ميكائيل من بني سلجوق، وغلب على بغداد من يد بني معز الدولة بن بويه المستبدين على الخليفة يومئذ المطيع، وحجره عن التصرف في أمور الخلافة والملك، ثم تجاوز إلى عراق العرب، فغلب على ملوكه، وأبادهم، ثم بلاد البحرين وعمان، ثم على

الشام، وبلاد الروم، واستوعب ممالك الإسلام كلها، فأصارها في ملكه، وانقبضت العرب راجعة إلى الحجاز، مسلوبة من الملك، كأن لم يكن لهم فيه نصيب، وذلك أعوام الأربعين والأربعمائة، وخرج الإفرنج على بقايا بني أمية بالأندلس، فانتزعوا الملك من أيديهم، واستولوا على حواضر الأندلس وأمصارها، وضاق النطاق على العبيديين بالقاهرة بملوك الغز يزاحمونهم فيها من الشام، بمحمود بن زنكي وغيره من أبنائهم ومماليكهم، وبملوك المغرب قد اقتطعوا ما وراء الإسكندرية، بملوك صنهاجة في أفريقية، والملثمين المرابطين بعدهم بالمغرب الأقصى والأوسط، والمصامدة الموحدين بعدهم كذلك، وأمام الغز والسلجوقية في ملك المشرق، وبنوهم ومواليهم من بعدهم إلى انقضاء القرن السادس، وقد فشل ريح الغز، واختلت دولتهم، فظهر فيهم جنكيزخان أمير المغل من شعوب الططر، وكان كاهناً، وجده النجر كاهنا مثله. ويزعمون أنه ولد من غير أب، فغلب الغز في المفازة، واستولى على ملك الططر، وزحف إلى كرسي الملك بخوارزم. وهو علاء الدين خوارزم شاه، سلفه من موالي طغرلبك، فغالبه على ملكه، وفر أمامه، واتبعه إلى بحيرة طبرستان، فنجا إلى جزيرة فيها، ومرض هنالك ومات، ورجع جنكيزخان إلى مازندران، من أمصار طبرستان فنزلها، وأقام بها، وفي عساكره من المغل حتى استولوا على جميع ما كان للغز، وأنزل ابنه طولي بكرسي خراسان، وابنه دوشيخان بصراي وبلاد الترك، وابنه جقطاي بكرسي الترك فيما وراء النهر، وهي كاشغر وتركستان، وأقام بمازندران إلى أن مات جنكيزخان ودفن بها، ومات ابنه طولي وله ولدان، قبلاي وهولاكو، ثم هلك قبلاي، واستقل هولاكو بملك خراسان، وحدث بينه وبين بركة بن دوشيخان فتنة بالمنازعة في القانية، تحاربوا فيها طويلاً، ثم أقصروا، وصرف هولاكو وجهه إلى بلاد أصبهان، وفارس، ثم إلى الخلفاء المستبدين ببغداد، وعراق العرب، فاستولى على تلك النواحي، واقتحم بغداد على الخليفة المستعصم، آخر بني العباس وقتله، وأعظم فيها العيث والفساد، وهو يومئذ على دينه من المجوسية، ثم تخطاه إلى الشام، فملك أمصاره وحواضره إلى القدس، وملوك مصر يومئذ من موالي بني أيوب قد استحاشوا ببركة صاحب صراي، فزحف إلى خراسان ليأخذ بحجزة هولاكو عن الشام ومصر. وبلغ خبره إلى هولاكو فحرد لذلك، لما بينهما من المنافسة والعداوة، وكر راجعاً إلى العراق، ثم إلى خراسان، لمدافعة بركة. وطالت الفتنة بينهما إلى أن هلك هولاكو سنة ثلاث وستين من المائة السابعة، وزحف أمراء مصر من موالي بني أيوب، وكبيرهم يومئذ قطز، وهو سلطانهم فاستولى على أمصار الشام التي كان هولاكو انتزعها من أيدي بني أيوب، واحدة واحدة، واستضاف الشام إلى مصر في ملكه. ثم هدى الله أبغا بن هولاكو إلى الإسلام، فأسلم بعد أن كان أسلم بركة ابن عمه صاحب التخت بصراي من بني دوشي خان على يد مريد من أصحاب شمس الدين كبرى، فتواطأ هو وأبغا بن هولاكو على الإسلام. ثم أسلم بعد ذلك بنو جقطاي وراء النهر، فانتظمت ممالك الإسلام في أيدي ولد جنكيزخان من المغل، ثم من الططر، ولم يخرج عن ملكهم منها إلا المغرب والأندلس ومصر والحجاز، وأصبحوا، وكأنهم في تلك الممالك خلف من السلجوقية والغز.

واستمر الأمر على ذلك لهذا العهد، وانقرض ملك بني هولاكو بموت أبي سعيد آخرهم سنة أربعين من المائة الثامنة. وافترقت دولتهم بين عمال الدولة وقرابتها من المغل، فملك عراق العرب، وأذربيجان وتوريز، الشيخ حسن سبط هولاكو، واتصل ملكها في بنيه لهذا العهد، وملك خراسان وطبرستان شاه ولي من تابعة بني هولاكو، وملك أصبهان، وفارس، بنو مظفر البردي من عمالهم أيضاً، وأقاموا بنو دوشي خان في مملكة صراي وآخرهم بها طقطمش بن بردي بك، ثم سما لبني جقطاي وراء النهر، وملوكهم أمل في التغلب على أعمال بني هولاكو، وبني دوشي خان، بما استفحل ملكهم هنالك، لعدم الترف والتنعم، فبقوا على البداوة، وكان لهم ملك اسمه ساطلمش هلك لهذا العهد، وأجلسوا ابنه على التخت مكانه، وأمراء بني جقطاي جميعاً في خدمته، وكبيرهم تيمور المعروف بتمر بن طرغاي فقام بأمر هذا الصبي وكفله، وتزوج أمه، ومد يده إلى ممالك بني دوشي خان التي كانت على دعوتهم وراء النهر، مثل سمرقند، وبخارى، وخوارزم، وأجاز إلى طبرستان وخراسان فملكهما. ثم ملك أصبهان، وزحف إلى بغداد، فملكها من يد أحمد بن أويس.

وفر أحمد مستجيراً بملك مصر، وهو الملك الظاهر برقوق، وقد تقدم ذكره، فأجاره، ووعده النصر من عدوه. وبعث الأمير تمر رسلاً إلى صاحب مصر، يقرون معه الولاية والاتحاد، وحسن الجوار، فوصلوا إلى الرحبة، فلقيهم عاملها، ودار بينهم الكلام فأوحشوه في الخطاب، وأنزلهم، فبيت جميعهم، وقتلهم. وخرج الظاهر برقوق من مصر، وجمع العرب والتركمان، وأناخ على الفرات، وصرخ بطقطمش من كرسيه بصراي، فحشد ووصل إلى الأبواب. ثم زحف تمر إلى الشام سنة ست وتسعين وسبعمائة وبلغ الرها، والظاهر يومئذ على الفرات، فخام تمر عن لقائه. وسار إلى محاربة طقطمش، فاستولى على أعماله كلها، ورجعت

قبائل المغل إلى تمر، وساروا تحت رايته. وذهب طقطمش في ناحية الشمال، وراء بلغار، متذمماً بقبائل أروس من شعوب الترك في الجبال. وسارت عصائب الترك كلها تحت رايات تمر، ثم اضطرب ملوك الهند، واستصرخ خارج منهم بالأمير تمر، فسار إليهم في عساكر المغل، وملك دلي، وفر صاحبها إلى كنباية مرسى بحر الهند، وعاثوا في نواحي بلاد الهند. ثم بلغه هنالك مهلك الظاهر برقوق بمصر، فرجع إلى البلاد، ومر على العراق، ثم على أرمينته وأرزنكان، حتى وصل سيواس فخربها، وعاث في نواحيها، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التاسعة. ونازل قلعة الروم، فامتنعت، وتجاوزها إلى حلب، فقابله نائب الشام وعساكره في ساحتها، ففضهم، واقتحم المغل المدينة من كل ناحية. ووقع فيها من العيث والنهب والمصادرة واستباحة الحرم، ما لم يعهد الناس مثله، ووصل الخبر إلى مصر، فتجهز السلطان فرج ابن الملك الظاهر إلى المدافعة عن الشام، وخرج في عساكره من الترك مسابقاً المغل وملكهم تمر أن يصدهم عنها.

لقاء الأمير تمر سلطان المغل والططر

لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم، وخرب سيواس، ورجع إلى الشام، جمع السلطان عساكره، وفتح ديوان العطاء، ونادى في الجند بالرحيل إلى الشام، وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة، استدعاني دواداره يشبك وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان، فتجافيت عن ذلك. ثم أظهر العزم علي بلين القول، وجزيل الإنعام فأصخيت، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث وثمانمائة، فوصلنا إلى غزة، فأرحنا بها أياماً نترقب الأخبار، ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الططر إلى أن نزلنا شقحب، وأسرينا فصبحنا دمشق، والأمير تمر في عساكره قد رحل من بعلبك قاصداً دمشق، فضرب السلطان خيامه وأبنيته بساحة قبة يلبغا. ويئس الأمير تمر من مهاجمة البلد، فأقام بمرقب على قبة يلبغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر، تجاول العسكران في هذه الأيام مرات ثلاثاً أو أربعاً، فكانت حربهم سجالاً، ثم نمي الخبر إلى السلطان وأكابر أمرائه، أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها، فأجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشية من انتقاض الناس وراءهم، واختلال الدولة، بذلك ليلة الجمعة من شهر (....) وركبوا جبل الصالحية، ثم انحطوا في شعابه، وساروا على شافة البحر إلى غزة، وركب الناس ليلاً يعتقدون أن السلطان سار على الطريق الأعظم إلى مصر، فساروا عصباً وجماعات على شقحب إلى أن وصلوا إلى مصر، وأصبح أهل دمشق متحيرين قد عميت عليهم الأنباء.

وجاءني القضاة والفقهاء، واجتمعت بمدرسة العادلية، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تمر على بيوتهم وحرمهم، وشاوروا في ذلك نائب القلعة، فأبى عليهم ذلك ونكره، فلم يوافقوه. وخرج القاضي برهان الدين بن مفلح الحنبلي ومعه شيخ الفقراء بزاوية(....) فأجابهم إلى التأمين، وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة، فخرجوا إليه متدلين من السور بما صبحهم من التقدمة، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان، وردهم على أحسن الآمال، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد، وتصرف الناس في المعاملات، ودخول أمير ينزل بمحل الإمارة منها، ويملك أمرهم بعز ولايته.

وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني، وهل سافرت مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه، فحدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى القول. وبلغني الخبر من جوف الليل، فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج أو التدلي من السور، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر، فأبوا علي أولاً، ثم أصخوا لي، ودلوني من السور، فوجدت بطانته عند الباب، ونائبه الذي عينه للولاية على دمشق، واسمه شاه ملك، من بني جقطاي أهل عصابته، فحييتهم وحيوني، وفديت وفدوني، وقدم لي شاه ملك مركوباً، وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه. فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجلاسي في خيمة هنالك تجاور خيمة جلوسه، ثم زيد في التعريف باسمي أني القاضي المالكي المغربي، فاستدعاني، ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكئاً على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه، يشير بها إلى عصب المغل جلوساً أمام خيمته، حلقاً حلقاً. فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام، وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إلي فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت.

ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم ما بيننا، وسألني من أين جئت من المغرب؟ ولم جئت؟ فقلت: جئت من بلادي لقضاء الفرض ركبت إليها البحر، ووافيت مرسى الإسكندرية يوم الفطر سنة أربع وثمانين من هذه المائة الثامنة، والمفرحات بأسوارهم لجلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددها. فقال لي: وما فعل معك؟ قلت: كل خير، بر مقدمي، وأرغد قراي،

وزودني للحج، ولما رجعت وفر جرايتي، وأقمت في ظله ونعمتـه، رحمه الله وجزاه. فقال: وكيف كانت توليته إياك القضاء؟ فقلـت: مات قاضي المالكية قبل موته بشهر، وكان يظن بي المقام المحمود في القيام بالوظيفة، وتحري المعدلة والحق، والإعـراض عـن الجـاه، فولاني مكانه، ومات لشهر بعدها، فلم يرض أهل الدولة بمكاني، فأدالوني منها بغيري جزاهم اللّه. فقال لي: وأيـن ولـدك؟ فقلت: بالمغرب الجواني كاتب للملك الأعظم هنالك. فقـال: ومـا معنـى الجوانـي في وصـف المغـرب؟ فقلت هـو عـرف خطابهم معنـاه الداخلي، أي الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحـر الشـامي من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقـة، وأفريقيـة، والمغـرب الأوسـط: تلمسـان وبـلاد زناتـة، والأقصـى: فـاس ومراكـش، وهـو معنـى الجواني. فقال لي: وأين مكان طنجة من ذلك المغرب؟ فقلـت: في الزاوية التي بين البحر المحيط، والخليج المسمى بالزقاق، وهو خليج البحر الشامي، فقال: وسبتة؟ فقلت: على مسافة من طنجـة علـى ساحل الزقاق، ومنها التعدية إلى الأندلس، لقـرب مسـافته، لأنهـا هناك نحو العشرين ميلاً. فقال: وفاس؟ فقلت: ليست على البحر، وهي في وسط التلول، وكرسي ملوك المغرب من بني مرين. فقال: وسجلماسة، قلت: في الحد مـا بـين الأريـاف والرمـال مـن جهـة الجنوب. فقال: لا يقنعني هذا، وأحب أن تكتـب لي بـلاد المغـرب كلها، أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره، حتى كـأني أشاهده. فقلت: يحصل ذلك بسعادتك، وكتبت لـه بعـد انصـرافي من المجلس لما طلب من ذلـك، وأوعبـت الغـرض فيـه في مختصـر وجيز يكون قدر اثنتي عشرة من الكراريس المنظفة القطع. ثم أشار إلى خدمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشتة، ويحكمونـه علـى أبلغ مـا يمكـن، فـأحضرت الأوانـي منـه، وأشـار بعرضهـا علـي، فمثلت قائماً وتناولتها وشربت واستطبت، ووقع ذلك منه أحسـن المواقع، ثم جلست وسكتنا، وقد غلبني الوجل بما وقـع مـن نكبـة قـاضي القضـاة الشـافعية، صدر الديـن المنـاوي، أسـره التـابعون لعسكر مصر. بشقحب، وردوه، فحبس عندهـم في طلـب الفديـة منه، فأصابنا من ذلك وجل، فزورت في نفسي كلاماً أخاطبـه بـه، وأتلطفه بتعظيم أحواله، وملكـه. وكنـت قبـل ذلـك بـالمغرب قـد سمعت كثيراً من الحدثان في ظهوره، وكان المنجمون المتكلمون في قرانات العلويين يترقبون القران العاشـر في المثلثـة الهوائيـة، وكـان يترقب عام ستة وستين من المائة السابعة. فلقيت ذات يوم من عام أحد وستين وسبعمائة بجامع القرويين من فاس، الخطيب أبا علـي بن باديس خطيب قسنطينة، وكان ماهراً في ذلك الفن، فسألته عـن هذا القران المتوقع، وما هي آثاره؟ فقال لي: يدل على ثـائر عظيـم في الجانب الشمالي الشرقي، من أمة بادية أهل خيام، تتغلـب علـى الممالك، وتقلب الدول، وتستولي على أكثر المعمور. فقلت: ومتى زمنه؟ فقال: عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره، وكتب لي بمثل ذلـك الطبيب ابن زرزر اليهـودي، طبيـب ملـك الأفرنـج ابـن أذفونـش ومنجمه. وكان شيخي رحمه اللّه إمام المعقولات محمد بن إبراهيـم الآبلي متى فاوضته في ذلك، أو سابلته عنـه يقـول: أمـره قريـب، ولابد لك إن عشت أن تراه.

وأما المتصوفة فكنا نسمع عنهم بالمغرب ترقبهم لهذا الكائن، ويرون أن القائم به هو الفاطمي المشار إليـه في الأحـاديث النبويـة من الشيعة وغيرهم، فأخبرني يحيى بن عبد اللّه حافد الشـيخ أبـي يعقوب البادسي كبير الأولياء بـالمغرب، أن الشـيخ قـال لهـم ذات يوم، وقد انفتل من صلاة الغداة: إن هـذا اليـوم ولـد فيـه القـائم الفاطمي، وكان ذلك في عشر الأربعين من المائة الثامنـة، فكـان في نفسي من ذلك كله ترقب له.

فوقع في نفسي لأجل الوجل الذي كنت فيه أن أفاوضـه في شيء من ذلك يستريح إليه، ويأنس به مني، ففاتحته وقلـت: أيـدك اللّه! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك. فقال لي الترجمان عبد الجبار: وما سبب ذلك؟ فقلت: أمران، الأول: أنـك سـلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهـر في الخليقـة منـذ آدم لهـذا العهد ملك مثلك، ولست ممن يقول في الأمور بالجزاف، فإني مـن أهل العلم، وأبين ذلك فأقول:

إن الملك إنما يكـون بالعصبية، وعلـى كثرتهـا يكـون قـدر الملك، واتفق أهل العلم من قبل ومـن بعـد، أن أكـثر أمـم البشـر فرقتان: العرب والترك، وأنتم تعلمون ملك العرب كيف كـان لمـا اجتمعوا في دينهم على نبيهم، وأمـا الـترك ففـي مزاحمتهـم للملـوك الفرس، وانتزاع ملكهـم أفراسياب خراسـان مـن أيديهـم شـاهد بنصابهم من الملـك. ولا يسـاويهم في عصبيتهـم أحـد مـن ملـوك الأرض مـن كسـرى، أو قيصر، أو الإسـكندر، أو بختنصر، أمـا كسرى فكبير الفرس ومليكهـم، وأيـن الفـرس مـن الـترك؟ وأمـا قيصر والإسكندر فملوك الـروم، وأيـن الـروم مـن الـترك؟ وأمـا بختنصر فكبير أهل بابل، والنبط. وأين هـؤلاء مـن الـترك؟ وهـذا برهان ظاهر على ما ادعيته في هذا الملك.

وأما الأمر الثاني بما يحملني على تمني لقائـه، فهـو مـا كنـت أسمعه من أهل الحدثان بالمغرب، والأولياء، وذكرت مـا قصصتـه من ذلك قبل. فقـال لي: وأراك قـد ذكـرت بختنصـر مـع كسـرى، وقيصر، والإسكندر، ولم يكـن في عدادهـم، لأنهـم ملـوك أكـابر. وبختنصر قائد من قواد الفرس، كما أنا نائب مـن نـواب صـاحب

التخت، وهو هذا، وأشار إلى الصف القائمين وراءه، وكان واقفاً معهم، وهو ربيبه الذي تقدم لنا أنه تزوج أمه بعد أبيه ساطلمش، فلم يلفه هناك، وذكر له القائمون في ذلك الصف أنه خرج عنهم.

فرجع إلي فقال: ومن أي الطوائف هو بختنصر؟ فقلت: بين الناس فيه خلاف، فقيل: من النبط بقية ملوك بابل، وقيل: من الفرس الأولى، فقال: يعني من ولد منوشهر. قلت نعم هكذا ذكروا، فقال: ومنوشهر له علينا ولادة من قبل الأمهات. ثم أفضت مع الترجمان في تعظيم هذا القول منه، وقلت له: وهذا مما يحعلني على تمني لقائه.

فقال الملك: وأي القولين أرجح عندك فيه؟ فقلت: إنه من عقبة ملوك بابل، فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر. فقلت: يعكر علينا رأي الطبري، فإنه مؤرخ الأمة ومحدثهم، ولا يرجحه غيره، فقال: وما علينا من الطبري؟ نحضر كتب التاريخ للعرب والعجم، ونناظرك. فقلت: وأنا أيضاً أناظر على رأي الطبري، وانتهى بنا القول، فسكت، وجاءه الخبر بفتح باب المدينة، وخروج القضاة وفاء بما زعموا من الطاعة التي بذل لهم فيها الأمان، فرفع من بين أيدينا، لما في ركبته من الداء، وحمل على فرسه فقبض شكائمه، واستوى في مركبه. وضربت الآلات حفافيه حتى ارتج لها الجو. وسار نحو دمشق، ونزل في تربة منجك عند باب الجابية، فجلس هناك، ودخل إليه القضاة وأعيان البلد، ودخلت في جملتهم، فأشار إليهم بالانصراف، وإلى شاه ملك نائبه أن يخلع عليهم في وظائفهم، وأشار إلي بالجلوس، فجلست بين يديه. ثم استدعى أمراء دولته القائمين على أمر البناء، فأحضروا عرفاء البنيان المهندسين، وتناظروا في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة، لعلهم يعثرون بالصناعة على منفذه، فتناظروا في مجلسه طويلاً، ثم انصرفوا، وانصرفت إلى بيتي داخل المدينة بعد أن استأذنته في ذلك، فأذن فيه. وأقمت في كسر البيت، واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب، فكتبته في أيام قليلة، ورفعته إليه فأخذه من يدي، وأمر موقعه بترجمته إلى اللسان المغلي. ثم اشتد في حصار القلعة، ونصب عليها الآلات من المجانيق، والنفوط، والعرادات، والنقب، فنصبوا لأيام قليلة ستين منجنيقاً إلى ما يشاكلها من الآلات الأخرى، وضاق الحصار بأهل القلعة، وتهدم بناؤها من كل جهة، فطلبوا الأمان.

وكان بها جماعة من خدام السلطان ومخلفه، فأمنهم السلطان تمر، وحضروا عنده. وخرب القلعة وطمس معالمها، وصادر أهل البلد على قناطير من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلفه صاحب مصر هنالك، من الأموال والظفر والخيام. ثم أطلق أيدي النهابة على بيوت أهل المدينة، فاستوعبوا أناسيها، وأمتعتها، وأضرموا النار فيما بقي من سقط الأقمشة والخرثي، فاتصلت النار بحيطان الدور المدعمة بالخشب، فلم تزل تتوقد إلى أن اتصلت بالجامع الأعظم، وارتفعت إلى سقفه، فسال رصاصه، وتهدمت سقفه وحوائطه، وكان أمراً بلغ مبالغه في الشناعة والقبح. وتصاريف الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد، ويحكم في ملكه ما يشاء. وكان أيام مقامي عند السلطان تمر، خرج إليه من القلعة يوم أمن أهلها رجل من أعقاب الخلفاء بمصر، من ذرية الحاكم العباسي الذي نصبه الظاهر بيبرس، فوقف إلى السلطان تمر يسأله النصفة في أمره، ويطلب منه منصب الخلافة كما كان لسلفه، فقال له السلطان تمر: أنا أحضر لك الفقهاء والقضاة، فإن حكموا لك بشيء أنصفتك فيه. واستدعى الفقهاء والقضاة، واستدعاني فيهم، فحضرنا عنده وحضر هذا الرجل الذي يسأل منصب الخلافة، فقال له عبد الجبار: هذا مجلس النصفة فتكلم. فقال: إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا، إن الحديث صح بأن الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا، يعني أمر الخلافة. وإني أحق من صاحب المنصب الآن بمصر، لأن آبائي الذين ورثتهم كانوا قد استحقوه، وصار إلى هذا بغير مستند، فاستدعى عبد الجبار كلاً منا في أمره، فسكتنا برهة، ثم قال: ما تقولون في هذا الحديث، قال برهان الدين بن مفلح: الحديث ليس بصحيح. واستدعى ما عندي في ذلك فقلت: الأمر كما قلتم من أنه غير صحيح، فقال السلطان تمر: فما الذي أصار الخلافة لبني العباس إلى هذا العهد في الإسلام؟ وشافهني بالقول، فقلت: أيدك الله! اختلف المسلمون من لدن وفاة النبي ﷺ، هل يجب على المسلمين ولاية رجل منهم يقوم بأمورهم في دينهم ودنياهم، أم لا يجب ذلك؟ فذهبت طائفة إلى أنه لا يجب، ومنهم الخوارج، وذهب الجماعة إلى وجوبه، واختلفوا في مستند ذلك الوجوب، فذهب الشيعة كلهم إلى حديث الوصية، وأن النبي ﷺ أوصى بذلك لعلي، واختلفوا في تنقلها عنه إلى عقبه إلى مذاهب كثيرة تشذ عن الحصر. وأجمع أهل السنة على إنكار هذه الوصية، وأن مستند الوجوب في ذلك إنما هو الاجتهاد، يعنون أن المسلمين. يجتهدون في اختيار رجل من أهل الحق والفقه والعدل، يفوضون إليه النظر في أمورهم.

ولما تعددت فرق العلوية وانتقلت الوصية بزعمهم من بني الحنفية إلى بني العباس، أوصى بها أبو هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وبث دعاته بخراسان. وقام أبو مسلم بهذه الدعوة، فملك خراسان والعراق، ونزل شيعتهم الكوفة، واختاروا للأمر أبا العباس السفاح ابن صاحب

هذه الدعوة، ثم أرادوا أن تكون بيعته على إجماع من أهل السنة والشيعة، فكاتبوا كبار الأمة يومئذ، وأهل الحل والعقد، بالحجاز والعراق، يشاورونهم في أمره، فوقع اختيارهم كلهم على الرضى به، فبايع له شيعته بالكوفة بيعة إجماع وإصفاق. ثم عهد بها إلى أخيه المنصور، وعهد بها المنصور إلى بنيه، فلم تزل متناقلة فيهم، إما بعهد أو باختيار أهل العصر، إلى أن كان المستعصم آخرهم ببغداد. فلما استولى عليها هولاكو وقتله، افترق قرابته، ولحق بعضهم بمصر، وهو أحمد الحاكم من عقب الراشد، فنصبه الظاهر بيبرس بمصر، بممالأة أهل الحل والعقد من الجند والفقهاء. وانتقل الأمر في بيته إلى هذا الذي بمصر، لا يعلم خلاف ذلك. فقال لهذا الرافع: قد سمعت مقال القضاة، وأهل الفتيا، وظهر أنه ليس لك حق تطلبه عندي. فانصرف راشداً.

الرجوع عن هذا الأمير تمر إلى مصر

كنت لما لقيته، وتدليت إليه من السور كما مر أشار عليّ بعض الصحاب ممن يخبر أحوالهم بما تقدمت له من المعرفة بهم، فأشار بأن أطرفه ببعض هدية، وإن كانت نزرة فهي عندهم متأكدة في لقاء ملوكهم، فانتقيت من سوق الكتب مصحفاً رائعاً حسناً في جزء محذو، وسجادة أنيقة، ونسخة من قصيدة البردة المشهورة للبوصيري في مدح النبي ﷺ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة. وجئت بذلك فدخلت عليه، وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه، فلما رآني مقبلاً مثل قائماً وأشار إلي عن يمينه، فجلست وأكابر من الجقطية حفافيه، فجلست قليلاً، ثم استدرت بين يديه، وأشرت إلى الهدية التي ذكرتها، وهي بيد خدامي، فوضعتها، واستقبلني، ففتحت المصحف فلما رآه وعرفه، قام مبادراً فوضعه على رأسه. ثم ناولته البردة، فسألني عنها وعن ناظمها فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها. ثم ناولته السجادة، فتناولها وقبلها. ثم وضعت علب الحلوى بين يديه، وتناولت منها حرفاً على العادة في التأنيس بذلك. ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه، وتقبل ذلك كله، وأشعر بالرضى به. ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي، وشأن أصحاب لي هنالك. فقلت: أيدك الله! لي كلام أذكره بين يديك، فقال: قل. فقلت: أنا غريب بهذه البلاد غربتين، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشأي وأخرى من مصر وأهل جيلي بها، وقد حصلت في ظلك، وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي، فقال: قل الذي تريد أفعله لك، فقلت: حال الغربة أنستني ما أريد، وعساك -أيدك الله- أن تعرف لي ما أريد. فقال: انتقل من المدينة إلى الأردو عندي، وأنا إن شاء الله أوفي كنه قصدك. فقلت: يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك، فأشار إليه بإمضاء ذلك، فشكرت ودعوت وقلت: وبقيت لي أخرى. فقال: وما هي؟ فقلت: هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر. من القراء، والموقعين، والدواوين، والعمال، صاروا إلى إيالتك والملك لا يغفل مثل هؤلاء فسلطانكم كبير، وعمالاتكم متسعة، وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم، فقال: وما تريد لهم؟ قلت: مكتوب أمان يستنيمون إليه، ويعولون في أحوالهم عليه. فقال لكاتبه: اكتب لهم بذلك، فشكرت ودعوت. وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان، وانصرفت إلى منزلي. ولما قرب سفره واعتزم على الرحيل عن الشام، دخلت عليه ذات يوم، فلما قضينا المعتاد، التفت إلي وقال: عندك بغلة هنا؟ قلت: نعم، قال: حسنة؟ قلت: نعم، قال: وتبيعها؟ فأنا أشتريها منك، فقلت: أيدك الله! مثلي لا يبيع من مثلك، إنما أنا أخدمك بها، وبأمثالها لو كانت لي، فقال: أنا أردت أن أكافئك عنها بالإحسان، فقلت: وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به، اصطنعتني، وأحللتني من مجلسك محل خواصك، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله، وسكت وسكت وحملت البغلة - وأنا معه في المجلس إليه- ولم أرها بعد.

ثم دخلت عليه يوماً آخر فقال لي: أتسافر إلى مصر؟ فقلت: أيدك الله، رغبتي إنما هي أنت، وأنت قد آويت وكفلت، فإن كان السفر إلى مصر في خدمتك فنعم، وإلا فلا بغية لي فيه، فقال: لا، بل تسافر إلى عيالك وأهلك، فالتفت إلى ابنه، وكان مسافراً إلى شقحب لمرباع دوابه، واشتغل يحادثه، فقال لي الفقيه عبد الجبار الذي كان يترجم بيننا: إن السلطان يوصي ابنه بك، فدعوت له، ثم رأيت أن السفر مع ابنه غير مستبين الوجهة، والسفر إلى صفد أقرب السواحل إلينا أملك لأمري، فقلت له ذلك، فأجاب إليه، وأوصى بي قاصداً كان عنده من حاجب صفد ابن الداويداري، فودعته وانصرفت، واختلفت الطريق مع ذلك القاصد، فذهب عني، وذهبت عنه، وسافرت في جمع أصحابي، فاعترضتنا جماعة من العشير قطعوا علينا الطريق، ونهبوا ما معنا، ونجونا إلى قرية هنالك عرايا. واتصلنا بعد يومين أو ثلاث بالصبيبة فخلفنا بعض الملبوس، وأجزنا إلى صفد، فأقمنا بها أياماً. ثم مر بنا مركب من مراكب ابن عثمان سلطان بلاد الروم، وصل فيه رسول كان سفر إليه عن سلطان مصر، ورجع بجواز رسالته، فركبت معهم البحر إلى غزة، ونزلت بها، وسافرت منها إلى مصر، فوصلتها في شعبان من هذه السنة، وهي سنة ثلاث وثمانمائة،

وكان السلطان صاحب مصر، قد بعث من بابه سفيراً إلى الأمير تمر إجابة إلى الصلح الذي طلب منه، فأعقبني إليه. فلما قضى رسالته رجع، وكان وصوله بعد وصولي، فبعث إلي مع بعض أصحابه يقول لي: إن الأمير تمر قد بعث معي إليك ثمن البغلة التي ابتاع منك، وهي هذه فخذها، فإنه عزم علينا من خلاص ذمته من مالك هذا. فقلت: لا أقبله إلا بعد إذن من السلطان الذي بعثك إليه، وأما دون ذلك فلا. ومضيت إلى صاحب الدولة فأخبرته الخبر فقال: وما عليك، فقلت: إن ذلك لا يجمل بي أن أفعله دون إطلاعكم عليه، فأغضى عن ذلك، وبعثوا إلي بذلك المبلغ بعد مدة، واعتذر الحامل عن نقصه بأنه أعطيه كذلك، وحمدت الله على الخلاص.

وكتبت حينئذ كتاباً إلى صاحب المغرب، عرفته بما دار بيني وبين سلطان الططر تمر، وكيف كانت واقعته معنا بالشام، وضمنت ذلك في فصل من الكتاب نصه:

وإن تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك، فهي بخير والحمد لله، وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني إلى الشام عندما زحف الططر إليه من بلاد الروم والعراق، مع ملكهم تمر، واستولى على حلب وحماة وحمص وبعلبك، وخربها جميعاً، وعاثت عساكره فيها بما لم يسمع أشنع منه. ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دمشق، وأقام في مقابلته نحواً من شهر، ثم قفل راجعاً إلى مصر، وتخلف الكثير من أمرائه وقضاته، وكنت في المخلفين. وسمعت أن سلطانهم تمر سأل عني، فلم يسع إلا لقاؤه فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقمت عنده خمساً وثلاثين يوماً، أباكره وأراوحه. ثم صرفني، وودعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر. وكان طلب مني بغلة كنت أركبها فأعطيته إياها، وسألني البيع فتأففت منه، لما كان يعامل به من الجميل، فبعد انصرافي إلى مصر بعث إلي بثمنها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك، وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا.

وهؤلاء الططر هم الذين خرجوا من المفازة وراء النهر، بينه وبين الصين، أعوام عشرين وستمائة مع ملكهم الشهير جنكزخان وملك المشرق كله من أيدي السلجوقية ومواليهم إلى عراق العرب، وقسم الملك بين ثلاثة من بنيه وهم جقطاي، وطولي، ودوشي خان:

فجقطاي كبيرهم، وكان في قسمته تركستان وكاشغر، والصاغون، والشاش وفرغانة، وسائر ما وراء النهر من البلاد.

وطولي كان في قسمته أعمال خراسان، وعراق العجم، والري إلى عراق العرب وبلاد فارس وسجستان والسند. وكان أبناؤه: قبلاي، وهولاكو ودوشي خان كان في قسمته بلاد قبجق، ومنها صراي، وبلاد الترك إلى خوارزم وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي كبيرهم، ويسمونه الخان، ومعناه صاحب التخت، وهو بمثابة الخليفة في ملك الإسلام. وانقرض عقبه، وانتقلت الخانية إلى قبلاي، ثم إلى بني دوشي خان، أصحاب صراي.

واستمر ملك الططر في هذه الدول الثلاث، وملك هولاكو بغداد، وعراق العرب، إلى ديار بكر ونهر الفرات. ثم زحف إلى الشام وملكها، ورجع عنها، وزحف إليها بنوه مراراً، وملوك مصر من الترك يدافعونهم عنها، إلى أن انقرض ملك بني هولاكو أعوام أربعين وسبعمائة، وملك بعدهم الشيخ حسن النوين وبنوه. وافترق ملكهم في طوائف من أهل دولتهم، وارتفعت نقمتهم عن ملوك الشام ومصر. ثم في أعوام السبعين أو الثمانين وسبعمائة، ظهر في بني جقطاي وراء النهر أمير اسمه تيمور، وشهرته عند الناس تمر، وهو كافل لصبي متصل النسب معه إلى جقطاي في آباء كلهم ملوك، وهذا تمر بن طرغاي هو ابن عمهم، كفل صاحب التخت منهم اسمه محمود، وتزوج أم صرغتمش، ومد يده إلى ممالك التتر كلها، فاستولى عليها إلى ديار بكر، ثم جال في بلاد الروم والهند، وعاثت عساكره في نواحيها، وخرب حصونها ومدنها، في أخبار يطول شرحها. ثم زحف بعد ذلك إلى الشام، ففعل به ما فعل، والله غالب على أمره. ثم رجع آخراً إلى بلاده، والأخبار تتصل بأنه قصد سمرقند، وهي كرسيه.

والقوم في عدد لا يسعه الإحصاء، إن قدرت ألف ألف فغير كثير، ولا تقول: أنقص، وإن خيموا في الأرض ملؤوا الساح، وإن سار في كتائبهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء، وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران، وابتلائهم بأنواع العذاب، على ما يحصلونه من فتاتهم آية عجب، وعلى عادة بوادي الأعراب.

وهذا الملك تمر من زعماء الملوك وفراعنتهم، والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض، لما يرون من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك كله في شيء، إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم، عمره بين الستين والسبعين، وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني، فيجرها في قريب المشي، ويتناوله الرجال على الأيدي عند طول المسافة، وهو مصنوع له، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر

كنت - لما أقمت عند السلطان تمر تلك الأيام التي أقمت - طال مغيبي عن مصر، وشيعت الأخبار عني بالهلاك، فقدم للوظيفة من يقوم بها من فضلاء المالكية، وهو جمال الدين الأقفهسي، غزير الحفظ والذكاء، عفيف النفس عن التصدي لحاجات الناس، ورع في دينه، فقلدوه منتصف جمادى الآخرة من السنة.

فلما رجعت إلى مصر، عدلوا عن ذلك الرأي، وبدا لهم في أمري، فولوني في أواخر شعبان من السنة. واستمررت على الحال التي كنت عليها من القيام بالحق، والإعراض عن الأغراض، والإنصاف من المطالب، ووقع الإنكار علي ممن لا يدين للحق، ولا يعطي النصفة من نفسه، فسعوا عند السلطان في ولاية شخص من المالكية يعرف بجمال الدين البساطي، بذل في ذلك لسعاة داخلوه قطعة من ماله، ووجوهاً من الأغراض في قضائه. قاتل الله جميعهم، فخلعوا عليه أواخر رجب، سنة أربع وثمانمائة. ثم راجع السلطان بصيرته، وانتقد رأيه، ورجع إلي الوظيفة خاتم سنة أربع وثمانمائة، فأجريت الحال على ما كان. وبقي الأمر كذلك سنة وبعض الأخرى. وأعادوا البساطي إلى ما كان، وبما كان، وعلى ما كان، وخلعوا عليه سادس ربيع الأول سنة ست وثمانمائة، ثم أعادوني عاشر شعبان سنة سبع وثمانمائة، ثم أدالوا به مني أواخر ذي القعدة من السنة وبيد الله تصاريف الأمور.

فهرس الآيات القرآنية



فهرس الأحاديث والآثار





فهرس المحتويات

